الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الحادي والثلاثون

الاجزاء من ٥٩٥ الى ٦١٦

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
595	سورة العنكبوت	الآية 10 الى الآية 18	2
596	=	الآية 19 الى الآية 35	215
597	=	الآية 36 الى الآية 45	653
598	=	الآية 46 الى الآية 55	1023
599	=	الآية 56 الى الآية 69	1259
600	سورة الروم	فصول مهمة	1892
601	=	الآية 1 الى الآية 16	2146
602	=	الآية 17 الى الآية 27	2543
603	=	الآية 28 الى الآية 35	2873
604	=	الآية 36 الى الآية 53	3304
605	=	الآية 54 الى الآية 60	3751
606	سورة لقمان	فصول مهمة	4210
607	=	الآية 1 الى الآية 15	4406
608	=	الآية 16 الى الآية 21	5073
609	=	الآية 22 الى الآية 32	5531
610	=	الآية 33 الى الآية 34	5767
611	سورة السجدة	فصول مهمة	6127
612	=	الآية 1 الى الآية 14	6269
613	=	الآية 15 الى الآية 25	6712
614	=	الآية 26 الى الآية 30	6945
615	سورة الاحزاب	فصول مهمة	7252
616	=	فصل في الوقف والابتداء	7482

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والتسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 10 ﴾ من سورة العنكبوت

وحتى الآية ﴿ 18 ﴾ من نفس السورة

(4/595)

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت ترجمة ما مضى من قسم الراجي والمجاهد والعامل للصالح : فمن الناس - كما أشير إليه - من يؤمن بالله ، فإذا أوذي في الله صبر واحتسب انتظاراً للجزاء من العلي الأعلى ، ولكنه حذف من كل جملة ما دل عليه بما ذكر في الأخرى ، عطف عليه : ﴿ ومن

الناس ﴾ أي المذبذبين ﴿ من يقول ﴾ أي بلسانه دون طمأنينة من قلبه : ﴿ آمنا بالله ﴾ أي الذي اختص بصفات الكمال ، وأشار بعد الإيماء إلى كثرة هذا الصنف بالإسناد إلى ضمير الجمع - إلى أن الأذى في هذه الدار ضربة لازب لا بد منه ، بقوله بأداة التحقيق : ﴿ فإذا أوذي ﴾ أي فتنة له واختباراً من أيِّ مؤذ كان ﴿ في الله ﴾ أي بسبب كونه في سبيل الله الذي لا يدانيه في عظمته وجميع صفاته شيء ، ببلاء يسلط به عباده عليه ﴿ جعل ﴾ أي ذلك الذي ادعى الإيمان ﴿ فتنة الناس ﴾ أي له بما يصيبه من أذاهم في جسده الذي إذا مات انقطع أذاهم عنه ﴿ كعذاب الله ﴾ أي المحيط بكل شيء ، فلا يرجى الانفكاك منه ، فيصرف المعذب بعد الشماخة والكبر إلى الخضوع والذل ، لأن لا كفؤ له ولا مجير عليه ، فلا يطاق عذابه ، لأنه على كل من الروح والجسد ، لا يمكن مفارقته لهما ولا لواحد منهما بموت ولا بحياة إلا بإرادته حتى يكون عمل هذا المعذب عند عذاب الناس له الطاعة لهم في جميع ما يأمرون به ظاهراً وباطناً ، فيتبين حينئذ أنه كان كاذباً في دعوى الإيمان ، وقصر الرجاء على الملك الديان ، وأشار إلى أن الفتنة ربما استمرت إلى الممات وطال زمنها بالتعبير بأداة الشك ، وأكد لاستبعاد كل سامع أن يقع من أحد بهت في قوله : ﴿ ولئن جاء نصر ﴾ أي لحزب الله الثابتي الإيمان .

(5/595)

ولما كان الإحسان منه إنما هو محض امتنان ، فلا يجب عليه لأحد شيء ، عبر بما يدل على ذلك مشيراً إلى أنه يفعله لأجله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بنصر أهل دينك ، تصديقاً لوعدك لهم ، وإدخالاً للسرور عليك ، ولما كانت هذه الحالة رخاء ، عبر بضمير الجمع إشارة إلى نحو قول الشاعر :

وما أكثر الإخوان حين تعدهم . . .

ولكنهم في النائبات قليل

فقال : ﴿ ليقولن ﴾ أي هؤلاء الذين لم يصبروا ، خداعاً للمؤمنين خوفاً ورجاءً وعبر في حالة الشدة بالإفراد لئلا يتوهم أن الجمع قيد ، وجمع هنا دلالة على أنهم لا يستحيون من الكذب ولو على رؤوس الأشهاد ، وأكدوا لعلمهم أن قولهم ينكر لأنهم كاذبون فقالوا : ﴿ إنا كنا معكم ﴾ أي لم نزايلكم بقلوبنا وإن أطعنا أولئك بألسنتنا .

ولما كان التقدير : أليس أولياؤنا المتفرسون بأحوالهم عالمين ؟ عطف عليه منكراً قوله : ﴿ أو ليس الله ﴾ المحيط بعلم الباطن كما هو محيط بعلم الظاهر ﴿ بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ أي كلهم ، منهم فلا يخفى عليه شيء من ذلك إخلاصاً كان أو نفاقاً ، بل هو أعلم من أصحاب الصدور بذلك .

(6/595)

ولما أنكر عدم العلم ، صرح بالعلم فقال واعداً متوعداً ، عاطفاً على ما أفهمه السياق من نحو : فقد علم الله جميع ما أخفوا وما أعلنوا : ﴿ وليعلمن الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة في عالم الشهادة حتى ينكشف ذلك لديكم كما هو عالم به في عالم الغيب ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي وقع منهم إيمان ، وليعلمن المؤمنين إيماناً صادقاً بما يواليه عليهم من المحن ، وهم لا يزدادون إلا تسليماً ورضى ، وأكده لما قدم من أن الناس حسبوا أنهم لا يفتنون

﴿ وليعلمن ﴾ الذي نافقوا وليعلمن ﴿ المنافقين ﴾ بمثل ذلك من الزلازل والفتن التي يميلون معها كيفما ميّلتهم ، حتى يعلم كل من له لب أنه لا إيمان لهم كما أنه لا أيمان لهم ، ولا شك أنه يعامل كلاًّ من الفريقين بما يستحق على حسب ما يعلم من قلبه ، والآية من الاحتباك كما مضى عند ﴿ وليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ .

(7/595)

ولما كان السياق للفتنة والأذى في الله المحقق أمره بإذا دون " إن " وكان الكفار يفتنون من أسلم في أول الأمر ، ذكر سبحانه بعض ما كانوا يقولون لهم عند الفتنة جهلاً بالله وغروراً ، فقال معجباً منهم ، عاطفاً على ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ اغتراراً منهم بالله ، وجرأة على حماه المنيع ﴿ للذين ﴾ أي لطائفة من يقول بلسانه : آمنا بالله ، وهم الذين ﴿ آمنوا ﴾ أي حقيقة ، جهلاً منهم بما خالط قلوبهم من بشاشة الإيمان ، وأنوار العرفان : ﴿ اتبعوا ﴾ أي كلفوا أنفسكم بأن تتبعوا ﴿ سبيلنا ﴾ أي طريق ديننا ، وعطفوا وعدهم في مجازاتهم على ذلك بصيغة الأمر على أمرهم باتباعهم للدلالة على أنه محقق لا شك فيه فقالوا : ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ بوعد صادق وأمر محتوم جازم ، إن كان ما تقولون حقاً إنه لا بد لنا من معاد نؤاخذ فيه بالخطايا ، ولو دروا لعمري ما الخبر ، يوم يقولون : لا مفر ، ما عرضوا أنفسهم لهذا الخطر ، يوم يود كل امرىء لو افتدى بماله وبنيه ، وعرسه وأخيه ، وصديقه وأبيه ، ويكون كلامهم – وإن كان أمراً – بمعنى الخبر لأنه وعد كذبه سبحانه لأن معناه : إن كتب عليكم إثم حملناه عنكم بوعد لا خلف فيه ﴿ وما هم ﴾ أي الكفار ﴿ بحاملين ﴾ ظاهراً ولا باطناً ﴿ من خطاياكم ﴾ أي المؤمنين ﴿ من شيء ﴾ وهم يقدرون أن لا يحملوا ، أو حملاً يخفف عنهم العذاب ، أي إنهم إذا عاينوا تلك الأحوال ، وطاشت عقولهم في بحار هاتيك الأهوال ، التي لا يقوم لها الجبال ، تبرؤوا ممن قالوا له هذا المقال ، فقد أخبروا بما لا يطابق الواقع ، ويجوز أن يكونوا تعمدوا الكذب حال

الإخبار إن كانت نيتهم أنهم لا يفون على تقدير تحقق الجزاء .

ولما علم من هذا كذبهم بكل حال سواء تعمدوا أو لا ، صرح به تأكيداً لمضمون ما قبله ، مؤكداً لأجل ظن من غروه صدقهم في قوله : مستأنفاً : ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ .

(8/595)

ولما كان كل من أسلك أحداً طريقاً كان شريكه في عمله فيها ، فكان عليه مثل وزره إن كانت طريق ردى ، وله مثل أجره إن كانت سبيل هدى ، قال تعالى مؤكداً لإنكارهم الآخرة وكل ما فيها : ﴿ وليحملن ﴾ أي الكفرة ﴿ أثقالهم ﴾ التي حملوها أنفسهم الضعيفة بما اكتسبوا ﴿ وأثقالاً ﴾ أخرى لغيرهم ﴿ مع أثقالهم ﴾ بما تسببوا به من إضلال غيرهم ، ومن تأصيل السنن الجائرة الجارية بعدهم ، فمن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص أحدهم من حمل الآخرة شيئاً .

ولما كان للسؤال على طريق الازدراء والإذلال ، من الرعب في القلب ما ليس للأفعال قال : ﴿ وليسألن ﴾ أي من كل من أمره المولى بسؤالهم ﴿ يوم القيامة ﴾ أي الذي هم به مكذبون ، وله مستهينون والتأكيد إما لإنكارهم ذلك اليوم ، أو لظن أن العالم لا يسأل عما يعلمه ، ﴿ عما كانوا ﴾ أي بغاية الرغبة ﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون كذبه ، ويُعملون أفكارهم في

ارتكابه ويواظبون عليه ، والتعبير بصيغة الافتعال يدل على أنهم كانوا يعلمون صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتعمدون الكذب في وعدهم لمن غروه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 540 . 542 ﴾

(9/595)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾

نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافر مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده ، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 3] وبين أحوالهما بقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ [العنكبوت : 4] إلى قوله : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [العنكبوت : 7] بين القسم الثالث وقال : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ءامَنَّا بالله ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ءامَنَّا ﴾ ولم يقل آمنت مع أنه وحد الأفعال التي بعده كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله ﴾ وقوله : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس ﴾ وذلك لأن المنافق كان يشبه نفسه بالمؤمن ، ويقول إيماني كإيمانك فقال : ﴿ آمنا ﴾ يعني أنا والمؤمن حقاً آمنا ، إشعاراً بأن إيمانه كإيمانه ، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال في القتال ، وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم ، فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا ؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم ، لأنه لا يصح الإنكار عليه في دعوى نفس الخروج والقتال ، وكذا قول القائل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر ، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كإيمان المحقين كان الواحد يقول : ﴿ آمنا ﴾ أي أنا والمحق .

المسألة الثانية :

(10/595)

قوله : ﴿ فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله ﴾ هو في معنى قوله : ﴿ وَأُخْرِجُواْ مِن ديارهم وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى ﴾ [آل عمران : 195] غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين

والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك : ﴿ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى ﴾ [آل عمران : 195] وقال ههنا : ﴿ أُوذِىَ فِى الله ﴾ ولم يقل في سبيل الله واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذي المؤمن في سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه ، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الإيذاء إلى حد الإكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان فلا يترك الله ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ، والمؤمن أوذي ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتي الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة .

المسألة الثالثة :

(11/595)

قوله : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله ﴾ قال الزمخشري : جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر ، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله ، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا في الأمر ، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذي من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام ، واختاروا الاحتراز عن التأذي العاجل

ولا يكون التردد إلا عند التساوي ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الإنسان في الحال فلا يدوم التعذيب ، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لا يكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد ، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع ، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عذاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذاباً .

المسألة الرابعة :

قال : ﴿ فِتْنَةَ الناس ﴾ ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاءً وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الإنسان كالصبر على العبادات .

المسألة الخامسة :

لو قال قائل هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه ، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله ، فنقول ليس كذلك ، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، بل في باطنه الإيمان ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ يعني دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية ، وفيه فوائد نذكرها في مسائل :

المسألة الأولى :

قال : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ولم يقل من الله ، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله : ﴿ أُوذِيَ فِي اللَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة .

المسألة الثانية :

لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ وهذا يقتضي أن يكونوا قائلين : إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين ، فنقول هذا الكلام يقتضي أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر ، لكن النصر لا يجيء إلا للمؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : 47] ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم في الحال ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين ، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة ، فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين ، فالنصر لهم في الحقيقة .

المسألة الثالثة :

(14/595)

في ليقولن قراءتان إحداهما : الفتح حملاً على قوله : ﴿ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ﴾ يعني من يقول آمنا إذا أوذي يترك ذلك القول ، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم وثانيتهما : الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم فإن المنافقين كانوا جماعة ، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم لأن التلبيس إنما يكون عندما يخالف القول القلب ،

فالسامع يبني الأمر على قوله ولا يدري ما في قلبه فيلتبس الأمر عليه وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور ، وهو أعلم بما في صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر ، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما في القلب ، فالمنافق الذي يظهر الإيمان ويضمر الكفر كافر ، والمؤمن المكره الذي يظهر الكفر ويضمر الإيمان مؤمن ، والله أعلم بما في صدور العالمين ، ولما بين أنه أعلم بما في قلوب العالمين ، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن تكلم فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين ءامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ وقد سبق تفسيره ، لكن فيه مسألة واحدة وهي أن الله قال هناك : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ ﴾ وقال ههنا : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن والكافر ، والكافر في قوله كاذب ، فإنه يقول : الله أكثر من واحد ، والمؤمن في قوله صادق فإنه كان يقول الله واحد ، ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر ، فكان الحاصل هناك قسمين صادقاً وكاذباً وكان ههنا المنافق صادقاً في قوله فإنه كان يقول الله واحد ، فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ .

(15/595)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12)

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم ، وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة ، وبين أن عذاب الله فوقها ، وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر في الذل وعلى الإيذاء لأي شيء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا ؟ فكان جواب المؤمن أن يقول خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم ، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ولنحمل صيغة أمر ، والمأمور غير الآمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء ، أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ، قال صاحب "الكشاف" : هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود ، فيقول ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء ، فقوله ولنحمل ، أي ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طلب وإيجاب .

المسألة الثانية :

قال : ﴿ وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم ﴾ وقال بعد هذا : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] فهناك نفى الحمل ، وههنا أثبت الحمل ، فكيف الجمع

بينهما ، فنقول قول القائل : فلان حمل عن فلان يفيد أن حمل فلان خف ، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئاً ، فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزاراً بسبب إضلالهم ويحملون أوزاراً بسبب ضلالتهم ، كما قال النبي عليه السلام : " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء " .

المسألة الثالثة :

(16/595)

الصيغة أمر ، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب ، فكيف يفهم قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ نقول قد تبين أن معناه شرط وجزاء ، فكأنهم قالوا : إن تتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا في هذا فإنهم لا يحملون شيئاً .

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه أحدها : كان قولهم : ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ [العنكبوت : 12] صادراً لاعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر ، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء وثانيها : أن قولهم : ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ كان

عن اعتقاد أن لا حشر ، فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر وثالثها : أنهم لما قالوا إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم ، يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم لم افتريتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 34. 37 ﴾

(17/595)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس ﴾ الآية إلى قوله ﴿ المنافقين ﴾

نزلت في قوم من المسلمين كانوا بمكة مختفين بإسلامهم ، قال ابن عباس : فلما خرج كفار قريش إلى بدر أخرجوا مع أنفسهم طائفة من هؤلاء فأصيب بعضهم فقال المسلمون كانوا أصحابنا وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ [النساء : 97] ، قال فكتبت لمن بقي بمكة بهذه الآية أي لا عذر لهم ، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة وردوهم إلى مكة فنزلت فيهم هذه الآية ، ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ الآية ، فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا ويئسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من

بعدها لغفور رحيم ﴾ [النحل : 110] ، فكتب لهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم فنجا من نجا وقتل من قتل ، وقال ابن زيد : نزلت قوله تعالى : ﴿ جعل فتنة الناس ﴾ الآية في منافقين كفروا لما أوذوا ، وقوله تعالى : ﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ أي صعب عليه أذى الناس حين صده وكان حقه أن لا يلتفت إليه وأن يصبر له في جنب نجاته من عذاب الله ، ثم أزال تعالى موضع تعلقهم ومغالطتهم أن جاء نصر ، ثم قررهم على علم الله تعالى بما في صدورهم أي لو كان يقيناً تاماً وإسلاماً خالصاً لما توقفوا ساعة ولركبوا كل هول إلى هجرتهم ودار نبيهم وقوله تعالى : ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ ، تفسيره على حد ما تقدم في نظيره ، وهنا انتهى المدني في هذه السورة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ

(18/595)

روي أن قائل هذه المقالة الوليد بن المغيرة ، وقيل بل كانت شائعة من كفار قريش قالوا لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم ادخلوا في أمرنا وأقروا بآلهتنا واعبدوها معنا ونحن ليقيننا أنه لا

بعث بعد الموت ولا رجوع تتضمن لكم حمل خطاياكم فيما دعوناكم إليه إن كان في ذلك درك كما تزعمون ، وقولهم ﴿ ولنحمل ﴾ إخبار أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالثقل ولكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع من المجازاة وهذا نحو قال الشاعر [مدثار بن شيبان النمري] : [الوافر]

فقلت ادعي وأدع فإن أندى . . . لصوت أن ينادي داعيان

ولكونه خبراً حسن تكذيبهم فيه ، فأخبر الله عز وجل أن ذلك باطل وأنهم لو فعلوه لم ينحمل عن أحد من هؤلاء المغترين بهم شيء من خطاياه التي تختص به ، وقرأ الجمهور " ولنحملْ " بجزم اللام ، وقرأ عيسى ونوح القاري " ولنحمل " بكسر اللام وقرأ داود بن أبي هند " من خطَيهم " بفتح الطاء وكسر الياء وحكى عنه أبو عمرو أنه قرأ " من خِطيئاتهم " بكسر الطاء وهمزة وتاء بعد الألف ، وقال مجاهد : الحمل هو من الحمالة لا من الحمل على الظهر .

ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفرة أنهم يحملون أثقالهم من كفرهم الذي يجترحونه ويتلبسون به ، و ﴿ أثقالاً مع أثقالهم ﴾ يريد ما يلحقهم من إغوائهم لعامتهم وأتباعهم فإنه يلحق كل داع إلى ضلالة كفل منها حسب الحديث المشهور ، " أيما داع إلى هدى فاتبع عليه فله مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى ضلالة " الحديث .

قال القاضي أبو محمد : وهي وإن كانت من ﴿ أثقالهم ﴾ فلكونها بسبب غيرهم وعن غير كفر تلبسوه فرق بينها وبين ﴿ أثقالهم ﴾ ولم ينسبها إلى غيرهم بل جعلها في رتبة فقط فهم فيها إنما يزرون بوزر أنفسهم ، وقد يترتب حمل أثقال الغير بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه يقتص للمظلوم بأن يعطى من حسنات ظالمه فإن لم يبق للظلم حسنة أخذ من سيئات المظلوم فطرحت عليه " ، وقوله تعالى : ﴿ وليسألن ﴾ ، يريد على جهة التوبيخ والتقريع لا على جهة الاستفهام والاستعلام ، و ﴿ يفترون ﴾ ، معناه يختلقون من الكفر ودعوى الصاحبة والولد لله تعالى وغير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(20/595)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ومِنَ النَّاس مَنْ يقول آمَنَّا بالله ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنَّها نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدُّوا ، رواه عكرمة

عن ابن عباس .

والثاني : نزلت في قوم كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبة في أنفسهم وأموالهم افتتنوا ، قاله مجاهد .

والثالث : نزلت في ناس من المنافقين بمكة ، كانوا يؤمنون ، فإذا أُوذوا وأصابهم بلاءٌ من المشركين رجعوا إلى الشّرك ، قاله الضحاك .

والرابع : أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة ، كان أسلم ، فخاف على نفسه من أهله وقومه ، فخرج من مكة هارباً إلى المدينة ، وذلك قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فجزعت أمُّه فقالت لأخويه أبي جهل والحارث ابني هشام وهما أخواه لأمّه : والله لا آوي بيتاً ولا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تأتياني به ، فخرجا في طلبه فظفرا به ، فلم يزالا به حتى تابعهما وجاءا به إليها ، فقيَّدته ، وقالت : والله لا أحُلُّك من وَثاقك حتى تكفُر بمحمد ، ثم أقبلت تَجْلِده بالسّياط وتعذّبه حتى كفر بمحمد عليه السلام جَزَعاً من الضَّرْب ، فنزلت [فيه] هذه الآية ، ثم هاجر بَعْدُ وحَسُنَ إسلامه ، هذا قول ابن السائب ، ومقاتل .

وفي رواية عن مقاتل أنَّهما جَلَداه في الطريق مائتي جلدة ، فتبرّأ من دين محمد ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ فإذا أُوذِيَ في الله ﴾ أي : ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ

الناس ﴾ أي : ما يصيبه من عذابهم في الدنيا ﴿ كعذاب الله ﴾ في الآخرة ؛ وإنما ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله تعالى لِمَا يرجو من ثوابه ﴿ ولئن جاء نصرٌ من ربّك ﴾ يعني دولة للمؤمنين ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ يعني المنافقين للمؤمنين ﴿ إِنَّا كنَّا معكم ﴾ على دينكم .

(21/595)

فكذَّبهم الله عز وجل وقال : ﴿ أوَليس اللّهُ بأعلَم بما في صدور العالَمِين ﴾ من الإيمان والنفاق .

وقد فسرنا الآية التي تلي هذه في أول السورة .

قوله تعالى : ﴿ اتَّبِعوا سبيلنا ﴾ يعنون : ديننا .

قال مجاهد : هذا قول كفار قريش لمن آمن من أهل مكة ، قالوا لهم : لا نُبعَث نحن ولا أنتم فاتَّبِعونا ، فإن كان عليكم شيء فهو علينا .

قوله تعالى : ﴿ ولْنَحملْ خطاياكم ﴾ قال الزجاج : هو أمر في تأويل الشرط والجزاء ، يعني : إن اتَّبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم .

وقال الأخفش : كأنّهم أمروا أنفسهم بذلك .

وقرأ الحسن : ﴿ ولِنَحمل ﴾ بكسر اللام .

قال ابن قتيبة : الواو زائدة والمعنى : لنحمل خطاياكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهم لكاذبون ﴾ أي : فيما ضمنوا من حمل خطاياهم .

قوله تعالى : ﴿ ولَيَحمِلُنَّ أثقالهم ﴾ أي : أوزار أنفسهم ﴿ وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ أي : أوزاراً مع أوزارهم ، وهي أوزار الذين أضلُّوهم ، وهذا كقوله : ﴿ لِيَحْمِلوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضِلُّونهم بغير عِلْم ﴾ [النحل : 25] ﴿ ولَيُسْأَلُنَّ يوم القيامة ﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿ عمَّا كانوا يَفْتَرون ﴾ من الكذب على الله عز وجل ؛ وقال مقاتل : عن قولهم : نحن الكفلاء بكل تَبِعة تصيبكم من الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(22/595)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يقُول آمَنَّا بالله ﴾ الآية

نزلت في المنافقين كانوا يقولون آمنا بالله ﴿ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس ﴾ أي أذاهم ﴿ كَعَذَابِ الله ﴾ في الآخرة فارتد عن إيمانه .

وقيل : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية في الله .

﴿ وَلَئِنْ جَآءَ ﴾ المؤمنين ﴿ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ وهم كاذبون ؛ فقال الله لهم ﴿ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العالمين ﴾ يعني الله أعلم بما في صدورهم منهم بأنفسهم .

وقال مجاهد : نزلت في ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا .

وقال الضحاك : نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك .

وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النساء : 97] فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة ، فخرجوا فلحقهم المشركون ، فافتتن بعضهم ، فنزلت هذه الآية فيهم .

وقيل : نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة ؛ أسلم وهاجر ، ثم أوذي وضرب فارتد .

وإنما عذبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه .

قال ابن عباس : ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه .

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين آمَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ قال قتادة : نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا ﴾ أي ديننا .

﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ جزم على الأمر .

قال الفراء والزجاج : هو أمر في تأويل الشرط والجزاء ؛ أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، كما قال :

فقلتُ ادعِي وأَدعُ إنّ أَنْدَى . . .

لِصوتٍ أَن يُنَادِيَ داعِيانِ

(23/595)

أي إن دعوتِ دعوتُ .

قال المهدويّ : وجاء وقوع ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ بعده على الحمل على المعنى ؛ لأن المعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم .

فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر .

قال مجاهد : قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث ، فإن كان عليكم وزر فعلينا ؛ أي نحن نحمل عنكم ما يلزمكم .

والحمل ههنا بمعنى الحمالة لا الحمل على الظهر .

وروي أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يعني ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم .

روي معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد تقدّم في "آل عمران" .

قال أبو أمامة الباهلي " "يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل اقتصوا من عبدي فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ " وقال قتادة : من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] .

ونظير هذا قوله عليه السلام : " من سنّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " روي من حديث أبي هريرة وغيره .

وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من دعا إلى هدى فاتُّبِع عليه وعمل به فله مثل أجور من اتَّبعه ولا يَنْقص ذلك من أجورهم شيئاً وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتبِع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتَّبعه لا يَنقُص ذلك من أوزارهم شيئاً " ثم قرا الحسن : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ .

قلت : هذا مرسل وهو معنى حديث أبي هريرة خرجه مسلم .

ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أيما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبِع فإن له مثل أوزار من اتَّبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئاً وأيما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبِع فإن له مثل أجور من اتَّبَعه ولا ينقص من أجورهم شيئاً " خرجه ابن ماجة في السنن .

وفي الباب عن أبي جُحَيفة وجرير .

وقد قيل : إن المراد أعوان الظلمة .

وقيل : أصحاب البدع إذا اتُّبِعوا عليها .

وقيل : محدِثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم .

والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَمِنَ الناس ﴾

ولما ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين الخلص ، ذكر حال المنافقين ناساً آمنوا بألسنتهم ، فإذا آذاهم الكفار ، جعلوا ذلك الأذى ، وهو فتنة الناس ، صارفاً لهم عن الإيمان ؛ كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ؛ وكونها نزلت في منافقين ، قول ابن زيد .

وقال الزجاج : جزع كما يجزع من عذاب الله ، وهذا معنى قول مجاهد والضحاك .

وقال قتادة : فيمن هاجر ، فردهم المشركون إلى مكة .

وقيل : في مؤمنين أخرجهم إلى بدر المشركون فارتدوا ، وهم الذين قال فيهم : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ﴾ : أي للمؤمنين ، ﴿ ليقولنّ ﴾ : أي القائلون أُوذيناً في الله ، ﴿ إنا معكم ﴾ : أي متابعون لكم في دينكم ، أو مقاتلون معكم ناصرون لكم ، قاسمونا فيما حصل لكم من الغنائم .

وهذه الجملة المقسم عليها مظهرة مغالطتهم ، إذ لو كان إيمانهم صحيحاً ، لصبروا على أذى الكفار ، وإن كانت فيمن هاجر ، وكانوا يحتالون في أمرهم ، وركبوا كل هول في هجرتهم .

وقرىء : ليقولن ، بفتح اللام ، ذكره أبو معاذ النحوي والزمخشري .

وأعلم : أفعل تفضيل ، أي من أنفسهم ؛ وبما في صدورهم : أي بما تكن صدورهم من إيمان ونفاق ، وهذا إستفهام معناه التقرير ، أي قد علم ما انطوت عليه الضمائر من خير وشر .

﴿ وليعلمنّ المنافقين ﴾ : ظاهر في أن ما قبل هذه الجملة في المنافقين ، كما قال ابن زيد ، وعلمه بالمؤمن ، وعدله بالثواب ، وبالمنافق وعيد له بالعقاب .

ولما ذكر حال المؤمنين والمنافقين ، ذكر مقالة الكافرين قولاً واعتقاداً ، وهم رؤساء قريش .

قال مجاهد : كانوا يقولن لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن كان عليكم شيء فهو علينا .

وقيل : قائل ذلك أبو سفيان بن حرب وأمية بن خلف ، قال لعمران : كان في الإقامة على دين الآباء إثم ، فنحن نحمله عنك ، وقيل : قائل ذلك الوليد بن المغيرة .

(26/595)

قال ابن عطية : وقوله : ﴿ ولنحمل ﴾ ، أخبر أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل ، لكنهم أخرجوه في صيغة الأمر ، لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع من المجازاة ، ومن هذا النوع قول الشاعر :

فقلت ادعى وأدعو فإن أندى . . .

لصوت أن ينادى داعيان

ولكونه خبراً حسن تكذيبهم فيه .

وقال الزمخشري : أمروهم باتباع سبيلهم ، وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم ، فحمل الأمر على الأمر وأرادوا ، ليجتمع هذان الأمران في الحصول ، أن يتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم .

والمعنى : تعليق الحمل بالاتباع ، وهذا قول صناديد قريش ، كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن عسى ، كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم . انتهى .

وقوله : فإن عسى ، كان تركيب أعجمي لا عربي ، لأن إن الشرطية لا تدخل على عسى ، لأنه فعل جامد ، ولا تدخل أدوات الشرط على الفعل الجامد ؛ وأيضاً فإن عسى لا يليها كان ، واستعمل عسى بغير اسم ولا خبر ، ولم يستعملها تامة .

وقرأ الحسن ، وعيسى ، ونوح القارىء : ولنحمل ، بكسر لام الأمر ؛ ورويت عن علي ، وهي لغة الحسن ، في لام الأمر .

والحمل هنا مجاز ، شبه القيام بما يتحصل من عواقب الإثم بالحمل على الظهر ، والخطايا بالمحمول .

وقال مجاهد : نحمل هنا من الحمالة ، لا من الحمل .

وقرأ الجمهور : ﴿ من خطاياهم ﴾ .

وقرأ داود بن أبي هند ، فيما ذكر أبو الفضل الرازي : من خطيئتهم ، على التوحيد ، قال : ومعناه الجنس ، ودل على ذلك اتصافه بضمير الجماعة .

وذكر ابن خالويه ، وأبو عمر والداني أن داود هذا قرأ : من خطياآتهم ، بجمع خطيئة جمع السلامة ، بالألف والتاء .

وذكر ابن عطية عنه أنه قرأ : من خطئهم ، بفتح الطاء وكسر الياء ، وينبغي أن يحمل كسر الياء على أنها همزة سهلت بين بين ، فأشبهت الياء ، لأن قياس تسهيلها هو ذلك .

(27/595)

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف سماهم كاذبين ؟ وإنما ضمنوا شيئاً علم الله أنهم لا يقدرون على الوفاء به ، ومن ضمن شيئاً لا يقدر على الوفاء به ، لا يسمى كاذباً ، لا حين ضمن ، ولا حين عجز ، لأنه في الحالين لا يدخل تحت عد الكاذبين ، وهو المخبر عن الشيء ، لا على ما هو عليه ؟ قلت : شبه الله حالهم ، حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به ، فكان ضمانهم عنده ، لا على ما عليه بالكاذبين الذين خبرهم ، لا على ما عليه المخبر عنه .

ويجوز أن يريد إنهم كاذبون لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه ، كالكاذبين الذين يصدقون الشيء ، وفي قلوبهم فيه الخلف . انتهى .

وتقدم من قول ابن عطية أن قوله : ولنحمل خبر ، يعني أمراً ، ومعناه الخبر ، وهذان الأمران منزلة الشرط والجزاء ، إذ المعنى : أن تتبعوا سبيلنا ، ولحقكم في ذلك إثم على ما تزعمون ، فنحن نحمل خطاياكم .

وإذا كان المعنى على هذا ، كان إخباراً في الجزاء بما لا يطابق ، وكان كذباً .

﴿ وليحملنّ أثقالهم ﴾ : أثقال أنفسهم من كفرهم ومعاصيهم ، ﴿ واثقالاً ﴾ أي أخر ، وهي أثقال الذين أغروهم ، فكانوا سبباً في كفرهم .

ولم يبين من الذين يحملون أثقاله ، فأمكن اندراج أثقال المظلوم بحملها للظالم ، كما جاء في الحديث : " أنه يقتص من الظالم للمظلوم بأن يعطي من حسنات ظالمه ، فإن لم يبق للظالم حسنة أخذ من سيآت المظلوم فطرح عليه " وفي صحيح مسلم ما معناه : أيما داع دعا إلى ضلالة ، فأتبع عليها وعمل بها بعده ، فعليه أوزار من عمل بها ممن اتبعه ، لا ينقص ذلك من أوزاهم شيئاً .

﴿ وليسئلنّ يوم القيامة ﴾ : أي سؤال توبيخ وتقريع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنَ الناس مَن يقُولُ ءامَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله ﴾

(29/595)

أي في شأنِه تعالى بأنْ عذَّبهم الكفرةُ على الإيمان ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس ﴾ أي ما يصيبُه من أذيَّتهم ﴿ كَعَذَابِ الله ﴾ في الشدَّة والهولِ فيرتدَّ عن الدِّين مع أنَّه لا قدرَ لها عند نفحةٍ من عذابِ تعالى أصلاً . ﴿ وَلَئِنْ جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي فتحٌ وغنيمةٌ ﴿ لَّيَقُولَنَّ ﴾ بضمِّ اللامِ نظراً إلى معنى مَن كما أنَّ الإفراد فيما سبق بالنَّظرِ إلى لفظها . وقُرِىء بالفتحِ ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي مشايعينَ لكم في الدِّينِ فاشركونا في المغنمِ وهم ناسٌ من ضَعَفةِ المُسلمين كانُوا إذا مسَّهم أذى من الكفَّارِ وافقُوهم وكانُوا يكتمونَهُ من المسلمينَ فردَّ عليهم ذلك بقولِه تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ العالمين ﴾ أي بأعلم منهم بما في صدورهم من الإخلاصِ والنِّفاقِ حتَّى يفعلون من الارتدادِ والاخفاءِ عن المسلمين وإدّعاءِ كونِهم منهم لنيلِ الغنيمةِ . وهذا هو الأوفقُ لما سبقَ ولما لحقَ من قوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين ءامَنُواْ ﴾ أي بالإخلاصِ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ سواء كان كفرُهم بإذية الكفرة أوْ لا أي

ليجزينَّهم بما لهم من الإيمان والنِّفاقِ ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ بيانٌ لحملهم للمؤمنين على الكفرِ بالاستمالةِ بعد حملِهم لهم عليه بالأذيَّةِ والوعيدِ . ووصفُهم بالكفرِ هَهُنا دونَ ما سبق لما أنَّ مساقَ الكلامِ لبيان جنايتِهم وفيما سبق لبيانِ جنايةِ من أضلُّوه . واللامُ للتَّبليغِ أي قالُوا مخاطبينَ لهم ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا ﴾ أي اسلكُوا طريقَنَا التي نسلكُها في الدِّينِ ، عبَّر عن ذلكَ بالاتباعِ الذي هو المشيُ خلفَ ماشٍ آخرَ تنزيلاً للمسلك منزلةَ السَّالكِ فيه أو اتبعونا في طريقتنا في ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ أي إنْ ذلك خطيئةٌ يُؤاخذ عليها بالبعثِ كما تقُولونَ وإنَّما أَمروا أنفسَهم بالحمل عاطفين له على أمرِهم

(30/595)

بالأَتَّباعِ للمبالغة في تعليق الحملِ بالاتِّباع والوعدِ بتخفيفِ الأوزار عنهم إن كان ثَمَّةَ وزرٌ فردَّ عليهم بقولِه تعالى ﴿ وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مّن شَىْءٍ ﴾ وقُرِىء من خطيآتِهم أي وما هم بحاملين شيئاً مِن خطاياهم التي التزمُوا أنْ يحملُوا كلَّها على أن مِن الأُولي للتبيين والثانية مزيدةٌ للاستغراق . والجملةُ اعتراضٌ أو حالٌ . ﴿ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ حيث أخبروا في ضمنِ وعدِهم بالحمل بأنَّهم قادرون على إنجازِ ما وعدوا فإنَّ الكذبَ كما يتطرَّقُ إلى الكلامِ باعتبار منطوقِه يتطرَّقُ إليه باعتبارِ ما يلزمُ مدلوله كما مرَّ في قوله تعالى : ﴿ أَنبِئُونِى

بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(31/595)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ الناس ﴾

أي بعضهم ﴿ مَن يِقُولُ ءامَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله ﴾ أي لأجله عز وجل على أن في للسببية ، أو المراد في سبيل الله تعالى بأن عذبهم المشركون على الايمان به تعالى : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس ﴾ أي نزلوا ما يصيبهم من أذيتهم ﴿ كَعَذَابِ الله ﴾ أي منزلة عذابه تعالى في الآخرة فجزعوا من ذلك ولم يصبروا عليه وأطاعوا الناس وكفروا بالله تعالى كما يطيع الله تعالى من يخاف عذابه سبحانه فيؤمن به عز وجل .

﴿ وَلَئِنْ جَاء نَصْرٌ مّن رَّبّكَ ﴾ بأن حصل للمؤمنين فتح وغنيمة ﴿ لَّيَقُولَنَّ ﴾ بضم اللام الثانية وحذف ضمير الجمع للالتقاء الساكنين ، وهذا الضمير عائد إلى من والجمع بالنظر إلى معناها ، كما أن إيراد الضمائر العائدة إليها فيما سبق بالنظر إلى لفظها ، وحكى أبو معاذ النحوي أنه قرىء ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ بفتح اللام على إفراد الضمير كما فيما سبق ﴿ إِنَّا

كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي مشايعين لكم في الدين فأشركونا فيما حصل من الغنيمة ، وقيل : أي مقاتلين معكم ناصرين لكم فالمراد الصحبة في القتال .

ورد بأنها غير واقعة ، والآية في ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين وبذلك يكونون منافقين ، ولذا قال ابن زيد .

والسدي : إن الآية في المنافقين فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله سبحانه :

﴿ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ العالمين ﴾ وهو في الظاهر عطف على مقدر أي أيخفى حالهم وليس الخ أو أليس المتفرسون الذين ينظرون بنور الله تعالى بأحوالهم عالمين وليس الخ ، و ﴿ أَعْلَمُ ﴾ إما على أصله أي أليس هو عز وجل أعلم من العالمين بما في صدور العالمين من الأخلاق والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة أو هو بمعنى عالم .

(32/595)

وقال قتادة : نزلت فيمن هاجر فردهم المشركون إلى مكة ، وقيل : نزلت في ن سمؤمنين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدوا وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَأَنَّ الذين توفاهم الملائكة ظالمى أَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء : 97] الآية ، وما تقدم هو الأوفق لما سبق من الآية

وما لحق من قوله سبحانه :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ بالإخلاص ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ سواء كان كفرهم بأذية أو لا ، والمراد بالعلم المجازاة أي ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق ، وكأن تلوين الخطاب في الذين آمنوا والمنافقين لرعاية الفواصل ، والظاهر أن الآية بناء على أن النفاق ظهر في المدينة مدنية ، وهو يؤيد ما تقدم من عدها من المستثنيات ، ولعل من يقول إنها مكية لظاهر إطلاق جمع القول بمكية السورة ، وأن تعذيب الكفرة المسلمين إنما كان في الأغلب بمكة يمنع ذلك أو يذهب إلى أنها من الأخبار بالغيب فتدبر .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾

(33/595)

بيان لحملهم المؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم إياهم عليه بالأذية والوعيد ، ووصفهم بالكفر ههنا دون ما سبق لما أن مساق الكلام لبيان جنايتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه ، واللام للتبليغ أي قالوا مخاطبين لهم ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا ﴾ أي اسلكوا طريقتنا التي نسلكها في الدين ، عبر عن ذلك بالاتباع الذي هو المشي خلف ماش آخر تنزيلاً للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا في طريقتنا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ أي إذا

كان ذلك الاتباع خطيئة يؤاخذ عليها يوم القيامة كما تقولون أو ولنحمل ما عليكم من الخطايا إن كان بعث ومؤاخذة ، وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على الأمر بالاتباع للمبالغة في تعليق الحمل بالاتباع ، فكأن أصل الكلام اتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم بجزم نحمل على أنه جواب الأمر ، فيكون المعنى إن تتبعوا نحمل فعدل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة المذكورة ، ومنشؤها الإشارة إلى أن الحمل لتحققه كأنه أمر واجب أمروا به من آمر مطاع ، والعليق على الشرط الذي تضمنه الأمر كما في قولهم : أكرمني أنفعك لا يفيد ذلك ، والداعي لهم إلى المبالغة التشجيع على الاتباع ، والحمل هنا مجاز ، وفي "البحر" شبه القيام بما يتحصل من عواقب الإثم بالحمل على الظهر والخطايا بالمحمول ، وقال مجاهد : الحمل هنا من الحمالة لا من الحمل انتهى .

والآية على ما أخرج جماعة عن مجاهد نزلت في كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا فإن كان عليكم شيء فعلينا .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن ابن الحنفية قال كان أبو جعل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسلمون يقولون : إنه يحرم الخمر ويحرم الزنا ما كانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية ، وقيل : قائل ذلك أبو سفيان بن حرب .

وأمية بنت خلف قالا لعمر رضي الله تعالى عنه : إن كان في الإقامة على دين الآباء إثم فنحن نحمله عندك .

وقيل : قائله الوليد بن المغيرة ، ونسبة ما صدر عن الواحد للجمع شائعة ، وقد تقدم الكلام غير مرة في وجه ذلك ، وقرأ الحسن .

وعيسى .

ونوح القارىء ﴿ وَلْنَحْمِلْ ﴾ بكسر لام الأمر ، ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه : ﴿ وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مّن شَىْءٍ ﴾ نفي مؤكد عن سبيل الاستمرار لكونهم حاملين شيئاً ما من خطاياهم التي التزموا حملها ، فالباء زائدة لتأكيد النفي والاستمرار الذي تفيده الجملة الاسمية معتبر بعد النفي ، ومن الأولى للبيان وهو مقدم من تأخير ، ومن الثانية مزيدة لتأكيد الاستغراق ، وهذه الجملة اعتراض أو حال .

وقرأ داود بن أبي هند فيما ذكر أبو الفضل الرازي ﴿ مِنْ خطيئاتهم ﴾ على التوحيد قال : ومعناه الجنس ، ودل على ذلك اتصافه بضمير الجماعة ، وذكر ابن خالويه .

وأبو عمرو الداني أن داود هذا قرأ ﴿ مِنْ خطيئاتهم ﴾ جمع خطيئة جمع السلامة بالألف والتاء ، وذكر ابن عطية عنه أنه قرأ من ﴿ خطاياهم ﴾ بفتح الطاء وكسر الياء ، وينبغي

أن يحمل كسر الياء على أنها همزة سهلت بين بين فأشبهت الياء لأن قياس تسهيلها هو ذلك ، وقوله تعالى :

(35/595)

﴿ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ استئنا فمقرر للنفي السابق ، والكذب قيل راجع إلى تعليق الحمل بالاتباع فإنه اخبار لا إلى الأمر السابق لأنه إنشاء ولا يجري الكذب فيه ، وتعقب بأن التعليق لا يلزمه أن يكون أخبار بل هو ضمان معلق أي إنشاء الضمان عند وجود الصفة ، ولذا قال الزمخشري : إن ضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز لأنه في الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه ، وجعل هذا سؤالا عن وجه التعبير بكاذبون ، وأجاب عن ذلك بوجهين ، ثانيهما على ما في "الكشف" هو الوجه ، وحاصله أن الكذب ليس راجعاً إلى أنهم غير حاملين ليقال : إن الضامن لا يسمى كاذباً بل أخبر الله تعالى أنهم عجز عما ضمنوه ومع ذلك هم كاذبون في وعد إنشاء الضمان عند وجود الوصف ، والمحصل أن من وعد الضمان إن ضمن ولم يحقق لا يسمى كاذباً وإن لم يضمن سمي كاذباً ، وأولهما أنه شبه الله تعالى حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده

سبحانه لا على ما هو عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنه .

وقال بعض المحققين : الكذب راجع إلى الخبر الذي في ضمن وعدهم بالحمل وهم أنهم قادرون على إنجاز ما وعدوا ، والكذب كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق إليه باعتبار ما يلزم مدلوله ، وفي الانتصاف أن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ نكتبة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر فإن من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر ولم يتم له ذلك في هذه الآية لأنه سبحانه أردف قولهم ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ على صيغة الأمر بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الأخبار انتهى ، ويعلم منه وجه كونهم كاذبين في قولهم ذلك مع إخراجهم له مخرج الأمر إلا أن في كون الآية دليلاً على ما ذكره نظراً كما لا يخفى .

(36/595)

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلاً ، والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة ، واللام واقعة في جواب قسم محذوف أي وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة ﴿ وَأَثْقَالاً ﴾ أخر ﴿ مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وهي أثقال ما تسببوا بالإضلال والحمل على الكفر

والمعاصي من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شيء ما .

فقد أخرج عبد بن حمي .

د وابن المنذر عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أيما داع دعا إلى هدي فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً " قال عون : وكان الحسن يقرأ عليها وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، وللإشارة إلى استقلال أثقال أنفسهم وأنها نهضتهم واستفرغت جهدهم وأن الأثقال الأخر كالعلاوة عليها اختير ما في النظم الجليل على أن يقال وليحملن أثقالاً مع أثقالهم .

﴿ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ القيامة ﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلقونه في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التي من جملتها كذبهم هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(37/595)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في سورة البقرة والاستفهام في قوله : ﴿ أَحَسِبَ الناس ﴾ للتقريع ، والتوبيخ و ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ في موضع نصب بحسب ، وهي وما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه ، والجمهور ، و ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ في موضع نصب على تقدير : لأن يقولوا ، أو بأن يقولوا ، أو على أن يقولوا وقيل : هو بدل من أن يتركوا ، ومعنى الآية : أن الناس لا يتركون بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿ أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ أي وهم لا يبتلون في أموالهم ، وأنفسهم ، وليس الأمر كما حسبوا ، بل لابد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق ، والصادق من الكاذب ، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان ، واستبعاده ، وبيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها .

قال الزجاج : المعنى : أحسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا : إنا مؤمنون فقط ، ولا يمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم ؟ وهو قوله : ﴿ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ .

قال السدّي وقتادة ومجاهد : أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب ، وسيأتي في بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه ، وظاهرها شمول كلّ الناس من أهل الإيمان ، وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرّة .

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نازلة في سبب خاص ، فهي باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم موجود حكمها بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسر ، ونكاية العدوّ وغير ذلك .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي هذه سنة الله في عباده ، وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر من قبلهم من الأمم كما جاء به القرآن في غير موضع من قصص الأنبياء وما وقع مع قومهم من المحن وما اختبر الله به أتباعهم ، ومن آمن بهم من تلك الأمور التي نزلت بهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ في قولهم : آمنا ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ منهم في ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ فليعلمنّ ﴾ بفتح الياء ، واللام في الموضعين ، أي ليظهرنّ الله الصادق والكاذب في قولهم ويميز بينهم ، وقرأ عليّ بن أبي طالب في الموضعين بضم الياء وكسر اللام .

والمعنى : أي يعلم الطائفتين في الآخرة بمنازلهم ، أو يعلم الناس بصدق من صدق ، ويفضح الكاذبين بكذبهم ، أو يضع لكلّ طائفة علامة تشتهر بها وتتميز عن غيرها .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أي يفوتونا ، ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون ، وهو سادّ مسدّ مفعولي حسب ، وأم هي المنقطعة ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم ذلك : وقال الزجاج : ﴿ ما ﴾ في موضع نصب بمعنى : ساء شيئاً أو حكماً يحكمون .

قال : ويجوز : أن تكون ﴿ ما ﴾ في موضع رفع بمعنى : ساء الشيء ، أو الحكم حكمهم ، وجعلها ابن كيسان مصدرية ، أي ساء حكمهم ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله ﴾ أي من كان يطمع ، والرجاء بمعنى : الطمع .

قاله سعيد بن جبير .

وقيل : الرجاء هنا بمعنى : الخوف .

قال القرطبي : أجمع أهل التفسير على أن المعنى : من كان يخاف الموت ، ومنه قول الهذلي :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها . . . قال الزجاج : معنى من كان يرجو لقاء الله : من كان يرجو ثواب لقاء الله ، أي : ثواب المصير إليه ، فالرجاء على هذا معناه : الأمل ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ ﴾ أي : الأجل المضروب للبعث آت لا محالة .

(39/595)

قال مقاتل : يعني يوم القيامة ، والمعنى : فليعمل لذلك اليوم كما في قوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا ﴾ [الكهف : 110] " ومن " في الآية التي هنا يجوز أن تكون شرطية .

والجزاء ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ ، ويجوز : أن تكون موصولة ، ودخلت الفاء في جوابها

تشبيهاً لها بالشرطية.

وفي الآية من الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ما لا يخفى ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لأقوال عباده ﴿ العليم ﴾ بما يسرّونه وما يعلنونه.

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يجاهد لِنَفْسِهِ ﴾ أي من جاهد الكفار وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات فإنما يجاهد لنفسه، أي ثواب ذلك له لا لغيره، ولا يرجع إلى الله سبحانه من نفع ذلك شيء ﴿ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ فلا يحتاج إلى طاعاتهم كما لا تضرّه معاصيهم.

وقيل: المعنى: ومن جاهد عدوّه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله، فليس لله حاجة بجهاده، والأوّل أولى ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي: لنغطينها عنهم بالمغفرة بسبب ما عملوا من الصالحات ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بأحسن جزاء أعمالهم.

وقيل: بجزاء أحسن أعمالهم، والمراد بأحسن: مجرّد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتاً عنه.

وقيل: يعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما في قوله: ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: 160] ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ انتصاب ﴿ حسناً ﴾ على أنه نعت مصدر محذوف، أي إيصاء حسناً على المبالغة، أو على حذف المضاف، أي ذا حسن.

هذا مذهب البصريين ، وقال الكوفيون : تقديره : ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً ، فهو مفعول لفعل مقدّر ، ومنه قول الشاعر :

عجبت من دهماء إذ تشكونا . . . ومن أبي دهماء إذ يوصينا . . . خيراً بها كأنما خافونا

(40/595)

أي يوصينا أن نفعل بها خيراً ، ومثله قول الحطيئة :

وصيت من برّة قلباً حرًّا . . . بالكلب خيراً والحماة شرًّا

قال الزجاج : معناه : ووصينا الإنسان : أن يفعل بوالديه ما يحسن وقيل : هو صفة لموصوف محذوف ، أي ووصيناه أمراً ذا حسن ، وقيل : هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين ، أي ألزمناه حسناً .

وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أي ووصيناه بحسن .

وقيل : هو مصدر لفعل محذوف ، أي يحسن حسناً ، ومعنى الآية : التوصية للإنسان بوالديه بالبرّ بهما ، والعطف عليهما .

قرأ الجمهور : ﴿ حَسَنًا ﴾ بضم الحاء ، وإسكان السين ، وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك بفتحهما ، وقرأ الجحدري : " إحسانا " وكذا في مصحف أبيّ ﴿ وَإِن

جاهداكِ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ أي طلباً منك وألزماك أن تشرك بي إلها ليس لك به علم بكونه إلها ، فلا تطعهما ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وعبر بنفي العلم عن نفي الإله ؛ لأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه ، فكيف بما علم بطلانه ؟ وإذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له ، فعدم جوازها مع مجرّد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى ، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه ، فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله كما صحّ ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها ، فأجازي كلاً منكم بما يستحقه ، والموصول في قوله : ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ في محل رفع على الابتداء وخبره ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصالحين ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الاشتغال ، ويجوز أن يكون المعنى : لندخلنهم في مدخل الصالحين ، وهو الجنة كذا قيل ، والأوّل أولى .

(41/595)

﴿ وَمِنَ الناس مَن يقُولُ ءَامَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِيَ فِي الله ﴾ أي في شأن الله ولأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان ، وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات من إيقاع الأذى

عليهم لأجل الإيمان بالله والعمل بما أمر به ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس ﴾ التي هي ما يوقعونه عليه من الأذى ﴿ كَعَذَابِ الله ﴾ أي جزع من أذاهم .

فلم يصبر عليه ، وجعله في الشدّة والعظم كعذاب الله ، فأطاع الناس كما يطيع الله .

وقيل : هو المنافق إذا أُوذي في الله رجع عن الدين فكفر .

قال الزجاج : ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذية في الله ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي نصر من الله للمؤمنين وفتح وغلبة للأعداء وغنيمة يغنمونها منهم ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي داخلون معكم في دينكم ، ومعاونون لكم على عدوّكم ، فكذبهم الله وقال : ﴿ أَوَ لَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العالمين ﴾ أي هو سبحانه أعلم بما في صدورهم منهم من خير وشرّ ، فكيف يدّعون هذه الدعوى الكاذبة ؟ وهؤلاء هم قوم ممن كان في إيمانهم ضعف ، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم .

وإذا ظهرت قوّة الإسلام ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن : ﴿ إِنَّا كُنَّا مَّعَكُمْ ﴾

وقيل : المراد بهذا وما قبله المنافقون .

قال مجاهد : نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بألسنتهم .

فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة افتتنوا .

وقال الضحاك : نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون .

فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك ، والظاهر أن هذا النظم من قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ نازل في المنافقين لما يظهر من السياق ، ولقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ فإنها لتقرير ما قبلها وتأكيده ، أي ليميزنّ الله بين الطائفتين ويظهر إخلاص المخلصين ونفاق المنافقين ، فالمخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى ويصبر في الله حق الصبر ، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله .

والمنافق الذي يميل هكذا وهكذا ، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم وكفر بالله عزّ وجلّ ، وإن خفقت ريح الإسلام وطلع نصره ولاح فتحه رجع إلى الإسلام ، وزعم أنه من المسلمين .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا ﴾ اللام في ﴿ للذين آمنوا ﴾ هي لام التبليغ ، أي قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه في غير موضع ، أي قالوا لهم اسلكوا طريقتنا ، وادخلوا في ديننا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ أي إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث ، والنشور كما تقولون ، فلنحمل ذلك عنكم ؛ فنؤاخذ به دونكم .

واللام في ﴿ لنحمل ﴾ لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك .

وقال الفراء والزجاج : هو أمر في تأويل الشرط والجزاء ، أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، ثم ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مّن شَيْءٍ ﴾ من

الأولى بيانية .

والثانية مزيدة للاستغراق ، أي وما هم بحاملين شيئاً من خطيئاتهم التي التزموا بها ، وضمنوا لهم حملها ، ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم .

قال المهدوي : هذا التكذيب لهم من الله عزّ وجلّ حمل على المعنى ؛ لأن المعنى : إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم ، فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر .

(43/595)

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أي أوزارهم التي عملوها ، والتعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة ﴿ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ أي أوزاراً مع أوزارهم .

وهي : أوزار من أضلوهم ، وأخرجوهم عن الهدى إلى الضلالة ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] ومثله قوله صلى الله عليه وسلم : " من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها " كما في حديث أبي هريرة الثابت في صحيح مسلم وغيره ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القيامة ﴾ تقريعاً

وتوبيخاً ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلقونه من الأكاذيب التي كانوا يأتون بها في الدنيا .

وقال مقاتل : يعني قولهم : نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾ الآية قال : أنزلت في ناس كانوا بمكة قد أقرّوا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لما أنزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا ، قال : فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردّوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فكتبوا إليهم : أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا ، فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جاهدوا وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 110] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة نحوه بأخصر منه .

(44/595)

وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال : نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله : ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾

الآية .

وأخرج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن مسعود قال : أوّل من أظهر الله إسلامه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر .

وسمية أم عمار ، وعمار ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد .

فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس ، فما منهم من أحد إلاّ وقد أتاهم على ما أرادوا إلاّ بلال ، فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة ، وهو يقول : أحد أحد .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ قال : أن يعجزونا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : قالت أمي لا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جاهداكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ وأخرجه أيضاً الترمذي من حديثه

، وقال : نزلت فيّ أربع آيات ، وذكر نحو هذه القصة ، وقال : حسن صحيح .

وقد أخرج هذا الحديث أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضاً .

(45/595)

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن ماجه وأبو يعلى ، وابن حبان وأبو نعيم والبيهقي والضياء عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت في الله ، وما يخاف أحد ، ولقد أتت عليّ ثالثة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلاّ ما وارى إبط بلال " وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال : يرتدّ عن دين الله إذا أوذي في الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(46/595)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾

هذا فريق من الذين أسلموا بمكة كان حالهم في علاقاتهم مع المشركين حال من لا يصبر على الأذى فإذا لحقهم أذى رجعوا إلى الشرك بقلوبهم وكتموا ذلك عن المسلمين فكانوا منافقين فأنزل الله فيهم هذه الآية قبل الهجرة ، قاله الضحاك وجابر بن زيد .

وقد تقدم في آخر سورة النحل أن من هؤلاء الحارث بن ربيعة بن الأسود ، وأبا قيس بن الوليد ابن المغيرة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبه بن الحجاج .

فهؤلاء استنزلهم الشيطان فعادوا إلى الكفر بقلوبهم لضعف إيمانهم وكان ما لحقهم من الأذى سبباً لارتدادهم ولكنهم جعلوا يُظهرون للمسلمين أنهم معهم .

ولعل هذا التظاهر كان بتمالؤ بينهم وبين المشركين فرضوا منهم بأن يختلطوا بالمسلمين ليأتوا المشركين بأخبار المسلمين : فعدهم الله منافقين وتوعدهم بهذه الآية .

وقد أومأ قوله تعالى ﴿ من يقول ءامنا بالله ﴾ إلى أن إيمان هؤلاء لم يرسخ في قلوبهم وأومأ قوله ﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ إلى أن هذا الفريق معذبون بعذاب الله ، وأومأ قوله : ﴿ وليَعْلَمَنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين ﴾ [العنكبوت : 11] إلى أنهم منافقون يبطنون الكفر ، فلا جرم أنهم من الفريق الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ﴾ [النحل : 106] ، وأنهم غير الفريق الذين استثنى الله تعالى بقوله ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ [النحل : 106] .

فليس بين هذه الآية وآيات أواخر سورة النحل اختلاف كما قد يتوهم من سكوت المفسرين

عن بيان الأحكام المستنبطة من هذه الآية مع ذكرهم الأحكام المستنبطة من آيات سورة النحل .

وحرف الظرفية من قوله ﴿ أوذي في الله ﴾ مستعمل في معنى التعليل كاللام ، أي أوذي لأجل الله ، أي لأجل اتباع ما دعاه الله إليه .

(47/595)

وقوله ﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ يريد جعلها مساوية لعذاب الله كما هو مقتضى أصل التشبيه ، فهؤلاء إن كانوا قد اعتقدوا البعث والجزاء فمعنى هذا الجعل : أنهم سووا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة كما هو ظاهر التشبيه فتوقوا فتنة الناس وأهملوا جانب عذاب الله فلم يكترثوا به إعمالاً لما هو عاجل ونبذاً للآجل وكان الأحق بهم أن يجعلوا عذاب الله أعظم من أذى الناس ، وإن كانوا نبذوا اعتقاد البعث تبعاً لنبذهم الإيمان ، فمعنى الجعل : أنهم جعلوه كعذاب الله عند المؤمنين الذين يؤمنون بالجزاء .

فالخبر من قوله ﴿ ومن الناس ﴾ إلى قوله ﴿ كعذاب الله ﴾ مكنى به عن الذم والاستحماق على كلا الاحتمالين وإن كان الذم متفاوتاً .

وبيّن الله تعالى نيتهم في إظهارهم الإسلام بأنهم جعلوا إظهار الإسلام عُدَّة لما يتوقع من نصر

المسلمين بأخارة فيجدون أنفسهم متعرضين لفوائد ذلك النصر .

وهذا يدل على أن هذه الآية نزلت بقرب الهجرة من مكة حين دخل الناس في الإسلام وكان أمره في ازدياد .

وتأكيد جملة الشرط في قوله ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولنّ ﴾ باللام الموطئة للقسم لتحقيق حصول الجواب عند حصول الشرط ، وهو يقتضي تحقيق وقوع الأمرين .

ففيه وعد بأن الله تعالى ناصر المسلمين وأن المنافقين قائلون ذلك حينئذ ، ولعل ذلك حصل يوم فتح مكة فقال ذلك من كان حياً من هذا الفريق ، وهو قول يريدون به نيل رتبة السابقية في الإسلام .

وذكر أهل التاريخ أن الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وسهيل ابن عمرو ، وجماعة من وجوه العرب كانوا على باب عمر ينتظرون الإذن لهم ، وكان على الباب بلال وسلمان وعمار بن ياسر ، فخرج إذن عمر أن يدخل سلمان وبلال وعمار فتمعرت وجوه البقية فقال لهم سُهيل بن عمرو : "لِمَ تتمعر وجوهكم ، دعوا ودُعينا فأسرعوا وأبطأنا ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر" .

(48/595)

وقوله ﴿ أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ تذييل ، والواو اعتراضية ، والاستفهام إنكاري إنكاراً عليهم قولهم ﴿ ءامنا بالله ﴾ وقولهم ﴿ إنا كنا معكم ﴾ ، لأنهم قالوا قولهم ذلك ظناً منهم أن يروج كذبهم ونفاقهم على رسول الله ، فكان الإنكار عليهم متضمناً أنهم كاذبون في قوليهم المذكورين .

والخطاب موجه للنبيء صلى الله عليه وسلم لقصد إسماعهم هذا الخطاب فإنهم يحضرون مجالس النبي والمؤمنين ويستمعون ما ينزل من القرآن وما يتلى منه بعد نزوله ، فيشعرون أن الله مطلع على ضمائرهم .

ويجوز أن يكون الاستفهام تقريرياً وجه الله به الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم في صورة التقرير بما أنعم الله به عليه من إنبائه بأحوال الملتبسين بالنفاق .

وهذا الأسلوب شائع في الاستفهام التقريري وكثيراً ما يلتبس بالإنكاري ولا يُفرق بينهما إلا المقام ، أي فلا تصدق مقالهم .

والتفضيل في قوله ﴿ بأعلم ﴾ مراعى فيه علم بعض المسلمين ببعض ما في صدور هؤلاء المنافقين ممن أوتوا فراسة وصدق نظر .

ولك أن تجعل اسم التفضيل مسلوب المفاضلة ، أي أليس الله عالماً علماً تفصيلياً لا تخفى عليه خافية .

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11)

خص بالذكر فريقان هما ممن شمله عموم قوله ﴿ العالمين ﴾ [العنكبوت : 10] اهتماماً بهاذين الفريقين وحاليهما : فريق الذين آمنوا ، وفريق المنافقين لأن العلم بما في صدور الفريقين من إيمان ونفاق يترتب عليه الجزاء المناسب لحاليهما في العاجل والآجل ، فذلك ترغيب وترهيب .

ووجه تأكيد كلا الفعلين بلام القسم ونون التوكيد أن المقصود من هذا الخبر رد اعتقاد المنافقين أن الله لا يطلع رسوله على ما في نفوسهم ، فالمقصود من الخبرين هو ثانيهما أعني قوله ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ .

وأما قوله ﴿ وليعلمن الله الذين ءامنوا ﴾ فهو تمهيد لما بعده وتنصيص على عدم التباس الإيمان المكذوب بالإيمان الحق .

(49/595)

وفي هذا أيضاً إرادة المعنى الكنائي من العلم وهو مجازاة كل فريق على حسب ما علم الله من حاله .

وجيء في جانب هاذين بالفعل المضارع المستقبل إذ نون التوكيد لا يؤكد بها الخبر المثبت إلا وهو مستقبل ؛ إما لأن العلم مكنى به عن لازمه وهو مقابلة كل فريق بما يستحقه بحسب ما

علم من حاله والمجازاة أمر مستقبل ، وإما لأن المراد علم بمستقبل وهو اختلاف أحوالهم يوم يجيء النصر ، فلعل من كانوا منافقين وقت نزول الآية يكونون مؤمنين يوم النصر ويبقى قوم على نفاقهم .

والمخالفة بين المؤمنين والمنافقين في التعبير عن الأولين بطريق الموصول والصلة الماضوية وعن الآخرين بطريق اللام واسم الفاعل لما يؤذن به الموصول من اشتهارهم بالإيمان وما يؤذن به الفعل الماضي من تمكن الإيمان منهم وسابقيته ، وما يؤذن به التعريف باللام من كونهم عُهِدوا بالنفاق وطريانه عليهم بعد أن كانوا مؤمنين ، ففيه تعريف بسوء عاقبتهم مع ما في ذلك من التفنن ورعاية الفاصلة .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾

هذا غرض آخر من أغراض مخالطة المشركين مع المؤمنين وهو محاولة المشركين ارتداد المسلمين بمحاولات فتنة بالشك والمغالطة للذين لم يقدروا على فتنتهم بالأذى والعذاب : إما لعزتهم وخشية بأسهم مثل عُمر بن الخطاب فقد قيل : إن هذه المقالة قيلت له ، وإما لكثرتهم حين كثر المسلمون وأعيت المشركين حيلُ الصدّ عن الإسلام .

والمراد بالذين كفروا طائفة منهم وهم : أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب (قبل أن يُسلم) قالوا للمسلمين ومنهم عمر بن الخطاب : لا نُبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك فإنا نحمل عنكم آثامكم .

وإنما قالوا ذلك جهلاً وغروراً حاولوا بهما أن يحجّوا المسلمين في إيمانهم بالبعث توهّماً منهم بأنهم إن كان البعث واقعاً فسيكونون في الحياة الآخرة كما كانوا في الدنيا أهل ذمام وحمالة ونقض وإبرام شأن سادة العرب أنهم إذا شفعوا شُفِّعوا وإن تحمَّلوا حُمِّلوا .

وهذا كقول العاصي بن وائل لخباب بن الأرتّ : لئن بعثني الله ليكونَنّ لي مال فأقضيك دَيْنك ، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً ﴾ [مريم : 77] .

وكل هذا من الجدال بالباطل وهو طريقة جدلية إن بنيت على الحق كما ينسب إلى علي بن أبي طالب في ضد هذا :

زعم المنجم والطبيبُ كلاهما

لا تُحشر الأجساد قلتُ إليكما . . .

إن صحّ قولكما فلستُ بخاسر

أو صحّ قولي فالخسار عليكما . . .

وحكى الله عنهم قولهم ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ بصيغة الأمر بلام الأمر : إما لأنهم نطقوا

بمثل ذلك لبلاغتهم ، وإما لإفادة ما تضمنته مقالتهم من تأكيد تحملهم بذلك .

فصيغة أمرهم أنفسهم بالحمل آكد من الخبر عن أنفسهم بذلك ، ومن الشرط وما في معناه ، لأن الأمر يستدعي الامتثال فكانت صيغة الأمر دالة على تحقيق الوفاء بالحمالة .

وواو العطف لجملة ﴿ ولنحمل ﴾ على جملة ﴿ اتبعوا سبيلنا ﴾ مراد منها المعية بين مضمون الجملتين في الأمر وليس المراد منه الجمع في الحصول فالجملتان في قوة جملتي شرط وجزاء ، والتعويل على القرينة .

فكان هذا القول أدل على تأكيد الالتزام بالحالة إن اتبع المسلمون سبيل المشركين ، من أن يقال : إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، بصيغة الشرط ، أو أن يقال : اتبعوا سبيلنا فنحمل خطاياكم ، بفاء السببية .

والحمل : مجاز تمثيلي لحال الملتزم بمشقة غيره بحال من يحمل متاع غيره فيؤول إلى معنى الحمالة والضمان .

ودل قوله ﴿ خطاياكم ﴾ على العموم لأنه جمع مضاف وهو من صيغ العموم .

(51/595)

وقوله ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ﴾ إبطال لقولهم ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ ، نُقِض العمومُ في الإثبات بعموم في النفي ، لأن ﴿ شيء ﴾ في سياق النفي يُفيد العموم لأنه نكرة ، وزيادة حرف ﴿ من ﴾ تنصيص على العموم .

والحمل المنفي هو ما كان المقصود منه دفع التبعة عن الغير وتبرئته من جناياته ، فلا ينافيه إثبات حمل آخر عليهم هو حمل المؤاخذة على التضليل في قوله

﴿ ولَيَحْمِلُنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : 13] .

والكذب المخبر به عنهم هو الكذب فيما اقتضاه أمرهم أنفسهم بأن يحملوا عن المسلمين خطاياهم حسب زعمهم والوفاء بذلك كما كانوا في الدنيا فهو كذب لا شك فيه لأنه مخالف للواقع ولاعتقادهم .

ولذلك فجملة ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ﴾ لأن جملة ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ﴾ تضمنت عُرُوّ قولهم ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ عن مطابقته للواقع في شيء وذلك يشتمل على أن مضمونها كذب صريح ، فكان مضمون جملة ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ مما اشتمل عليه مضمون جملة ﴿ وما هم بحاملين ﴾ .

وليس مضمون الثانية عين مضمون الأولى بل الثانية أوفى بالدلالة على أن كذبهم محقق وأنه صفة لهم في خبرهم هذا وفي غيره ، ووزان هذه الجملة وزان بيت علم المعاني:

أقول له ارحلْ لا تُقِيمن عندنا . . .

إذ جعل الأيمة جملة (لا تقيمن عندنا) بدل اشتمال من جملة (ارحل) لأن جملة (لا تقيمن) أوفى بالدلالة على كراهيته وطلب ارتحاله ، ولهذا لم تعطف جملة ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ لكمال الاتصال بينها وبين ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ﴾ .

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

(52/595)

بعد أن كذبهم في قولهم ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ [العنكبوت : 12] وكشف كيدهم بالمسلمين عطف عليه ما أفاد أنهم غير ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين وهم الأقوام الذين أضلوهم وسوّلوا لهم الشرك والبهتان على وجه التأكيد بجملهم ذلك .

فذِكر الحمل تمثيل .

والأثقال مجاز عن الذنوب والتبعات .

وهو تمثيل للشقاء والعناء يوم القيامة بحال الذي يحمل متاعه وهو موقر به فيزاد حمل أمتعة أناس آخرين .

وقد علم من مقام المقابلة أن هذا حمل تثقيل وزيادة في العذاب وليس حملاً يدفع التبعة عن

المحمول عنه ، وأن الأثقال المحمولة مع أثقالهم هي ذنوب الذين أضلوهم وليس من بينها شيء من ذنوب المسلمين لأن المسلمين سالمون من تضليل المشركين بما كشف الله لهم من بهتانهم .

وجملة ﴿ وليسألُنّ يوم القيامة عما كانون يفترون ﴾ تذييل جامع لمؤاخذتهم بجميع ما اختلقوه من الإفك والتضليل سواء ما أضلوا به أتباعهم وما حاولوا به بتضليل المسلمين فلم يقعوا في أشراكهم ، وقد شمل ذلك كله لفظ الافتراء ، كما عبر عن محاولتهم تغرير المسلمين بأنهم فيه كاذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(53/595)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾

يعني أن من الناس من يقول : آمنّا بالله بلسانه ، فإذا أوذي في الله : أي آذاه الكفار إيذاءهم للمسلمين جعل فتنة الناس ، صارفه له عن الدين إلى الردة ، والعياذ بالله ، كعذاب الله فإنه صارف رادع عن الكفر والمعاصي . ومعنى فتنة الناس : الأذى الذي يصيبه من الكفار ؟ وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة ، وهذا قال به غير واحد .

وعليه فمعنى الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ [الحج : 11] قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المنافقين الذين يقولون : آمنّا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، إذا حصل للمسلمين من الكفار أذى ، وهم معهم جعلوا فتنة الناس : أي أذاهم ، كعذاب الله وأنه إن جاء نصر من الله لعباده المؤمنين ، فنصرهم على الكفار ، وهزموهم وغنموا منهم الغنائم . قال : أولئك المنافقون . ألم نكن معكم يعنون : أنهم مع المؤمنين ومن جملتهم ، يريدون أخذ نصيبهم من الغنائم .

(54/595)

وهذا المعنى جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ الذين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ الله قالوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قالوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النساء : 141] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَّعَهُمْ شَهِيداً وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يالَيتني كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [النساء :

7273] وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة النساء .

وقد بين تعالى أنهم كاذبون في قولهم : إنا كنا معكم ، وبين أنه عالم بما تخفي صدورهم من الكفر والنفاق بقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القيامة عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وزيادة إيضاحها من السنة الصحيحة في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : 25] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(55/595)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ آمَنَّا بالله . . . ﴾ [العنكبوت : 10]

دليل على القول باللسان ، وعدم الصبر على الابتلاء ، فالقول هنا لا يؤيده العمل ، ولمثل هؤلاء يقول تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2] .

ويقول تعالى في صفات المنافقين : ﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : 1] فالله تعالى لا يُكذِّبهم في أن محمداً رسول الله ، إنما في شهادتهم أنه رسول الله ؛ لأن الشهادة لا بُدَّ لها أنْ يواطئ القلب اللسان ، وهذه لا تتوفر لهم .

ومعنى : ﴿ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 10] أي : بسبب الإيمان بالله ، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله ، إلا أنه آمن ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ اللهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 10] فتنة الناس أي : تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله .

إذن : خاف عذاب الناس وسَّواه بعذاب الله الذي يحيق به إنْ كفر ، وهذا غباء في المساواة بين العذابين ؛ لأن عذاب الناس سينتهي ولو بموت المؤذي المعذِّب ، أما عذاب الله في الآخرة فباقٍ لا ينتهي ، والناس تُعذَّب بمقدار طاقتها ، والله سبحانه يُعذب بمقدار طاقته تعالى وقدرته ، إذن : فالقياس هنا قياس خاطئ .

وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت في عياش بن أبي ربيعة ، فالقاعدة الأصولية تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكان عياش بن أبي ربيعة أخا عمرو بن هشام (أبو جهل) والحارث بن هشام من الأم التي هي أسماء .

فلما أنْ أسلم عياش ثم هاجر إلى المدينة فحزنت أمه أسماء ، وقالت : لا يظلني سقف ، ولا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، ولا أغتسل حتى يعود عياش إلى دين آبائه ، وظلت على هذه الحال التي وصفتْ ثلاثة أيام حتى عضَّها الجوع ، فرجعت .

وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنعا عياشاً بالعودة لاسترضاء أمه ، وظلا يُغريانه ويُرقّقان قلبه عليها ، فوافق عياش على الذهاب إلى أمه ، لكن رفض الردة عن الإسلام ، فلما خرج الثلاثة من المدينة قاصدين مكة أوثقوه في الطريق ، وضربه أبو جهل مائة جلدة ، والحارث مائة جلدة .

لكن كان أبو جهل أرأف به من الحارث ؛ لذلك أقسم عياش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنه حتى إنْ كان خارجاً من الحرم ، وبعد أن استرضى عياش أمه عاد إلى المدينة ، فقابل أخاه الحارث عند قباء ، ولم يكن يعلم أنه قد أسلم فعاجله ، ونفّذ ما توعده به فقتله ، ووصل خبره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً . . . ﴾ [النساء : 92] .

ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 10] أي : أراد أنْ يفرّ من عذاب الناس فكفر ، ولم يُرد أن يفرّ من عذاب الله ويؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 10] أي : اجعلوا لنا سهماً في المغنم ﴿ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العالمين ﴾ [العنكبوت : 10] فالله سبحانه يعلم ما يدور في صدورهم وما يتمنونه لنا ؛ ولذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً . . . ﴾ [التوبة : 47] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين . . . ﴾ .

(57/595)

نعم ، الحق سبحانه يعلم حال عباده حتى قبل أنْ يخلقوا ، ويعلم ماذا سيحدث لهم ، إنما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث ، وعِلْم بعد أنْ يقع الحدث نفسه ؛ لأنه سبحانه لو قال : سأفعل بهم كذا وكذا ؛ لأني أعلم ما يحدث منهم لقالوا : لا والله ما كان سيحدث منا شيء ؛ لذلك يتركهم حتى يحدث منهم الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ . . . ﴾ .

وهذا لَوْن من ألوان الإيذاء أن يقول الذين كفروا للذين آمنوا ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 12] أي : ما نحن عليه من دين الآباء والأجداد ، وما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، فنحن نعبد آلهة لا تكاليفَ لها ولا مطلوبات ، وأنتم تعبدون إلهاً له

منهج ، وله مطلوبات بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فالمعنى : ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا . . ﴾ [العنكبوت : 12] خُذوا الحكم منا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . . ﴾ [العنكبوت : 12] يعني : اعملوا على مسئوليتنا ، وإنْ كانت عليكم خطايا سنحملها عنكم ، وانظر هنا إلى غباء الكافر فقد آمن هو نفسه أن هذه خطيئة ، ومع ذلك يتعرَّض لحملها ، لكن كيف يحملها ؟ وكيف يكون هو المسئول عنها أمام الله – عز وجل – حين يحاسبني ربي عليها ويعاتبني على اتباعي له ؟ وهل للكافر شفاعة أو قوة يدافع عنها عني في الآخرة ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [العنكبوت : 12] ويؤكد لنا سبحانه كذبهم أيضاً في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب . . . ﴾ [البقرة : 166] .

ويقول التابعون : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [فصلت : 29] .

فالمودة التي كانت بينهم في الدنيا تحولتْ إلى عداوة ؛ لأنهم اجتمعوا في الدنيا على الضلال ، فتفرقوا في الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] فالمتقي ساعة يرى المتقي في الآخرة يشكره ، ويعترف له بالجميل ؛ لأنه أخذ على يديه في الدنيا ، ومنعه من أسباب الهلاك ، فيحبه ويثني عليه ، وربما اعتبره عدوه في الدنيا ، أما أهل الضلال فيلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

إذن : فغباء الكفار بيّن في قولهم : ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . . ﴾ [العنكبوت : 12] ، كما هو بيّن في قولهم ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

وكما هو بيّن في قولهم : ﴿ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله . . . ﴾ [المنافقون : 7] فهم يعرفون أنه رسول الله ، ومع ذلك يمنعون الناس من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى في المواجهة .

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

وفي موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : 25] . فالأثقال هي الأوزار ، فسيحملون أثقالاً على أثقالهم ، وأوزاراً على أوزارهم ، فالأثقال الأولى بسبب ضلالهم ، والأثقال الأخرى

بسبب إضلالهم للغير ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القيامة عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت : 13]

والافتراء : تعمُّد الكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(59/595)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾

لا يعارضه قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ كما تقدم بيانه مستوفى في سورة النحل .

(فأثقالهم) : أوزار ضلالهم و(الأثقال التي معها) أوزار إضلالهم ولا ينقص ذلك شيئاً من أوزار أتباعهم الضالين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 231 ﴾

(60/595)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قالت أمي : لا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يسجرون فاها بالعصا ، فنزلت هذه الآية ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ قال : أنزلت في سعد بن مالك رضي الله عنه لما هاجر قالت امه : والله لا يظلني ظل حتى يرجع ، فأنزل الله في ذلك أن يحسن إليهما ، ولا يطيعهما في الشرك .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله ﴾ إلى قوله ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ قال : أناس يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من الناس ، أو مصيبة في أنفسهم ، أو أموالهم ، فتنوا فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله . . . ﴾ قال : كان أناس من المؤمنين آمنوا وهاجروا ، فلحقهم أبو سفيان فرد بعضهم إلى مكة فعذبهم ، فافتتنوا ، فأنزل الله فيهم هذا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في قوله ﴿ فإذا أوذي في الله . . . ﴾ قال : إذا أصابه بلاء في الله عدل بعذاب الله عذاب الناس يرتد عن دين الله إذا أوذي في الله .

(61/595)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فتنة الناس . . . ﴾ قال : يرتد عن دين الله إذا أوذي في الله .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجة وأبو يعلى وابن حبان وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإِيمان والضياء عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثالثة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما يواري ابط بلال " .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يقول آمنا

بالله . . . ﴾ قال : ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين ، رجعوا إلى الكفر والشرك مخافة من يؤذيهم ، وجعلوا اذى الناس في الدنيا كعذاب الله .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ إلى قوله ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ قال : هذه الآيات نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة ، وهذه الآيات العشر مدنية .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12)

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ قال : قول كفار قريش بمكة لمن آمن منهم قالوا : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فاتبعونا فإن كان عليكم شيء فعلينا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ هم القادة من الكفار ﴿ للذين آمنوا ﴾ لمن آمن من الاتباع ﴿ اتبعوا سبيلنا ﴾ ديننا ، واتركوا دين محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما هم بحاملين ﴾ قال : بفاعلين ﴿ وليحملن أثقالهم ﴾ قال : أوزارهم ﴿ وأثقالا مع أثقالهم ﴾ قال : أوزار من أضلوا .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية رضي الله عنه قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسلمون ، يقولون : إنه يحرم الخمر ، ويحرم الزنا ، ويحرم ما كانت تصنع العرب ، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم . فنزلت هذه الآية ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ قال : هي مثل التي في النحل ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم ﴾ [النحل : 25] .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ قال : حملهم ذنوب أنفسهم ، وذنوب من اطاعهم ، ولا يخفف ذلك عمن اطاعهم من العذاب شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك

من أجورهم شيئاً ، وأيما داع دعا إلى ضلالة فأتبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً " قال عون : وكان الحسن رضي الله عنه مما يقرأ عليها ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم . . ﴾ إلى آخر الآية .

(63/595)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي امامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " اياكم والظلم فإن الله يقول يوم القيامة : وعزتي لا يجيزني اليوم ظلم ، ثم ينادي مناد فيقول : أين فلان ابن فلان ؟ فيأتي فيتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم ، ثم يقوم بين يدي الرحمن ، ثم يأمر المنادي ينادي : من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان ابن فلان فهلم ، فيقومون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدي فيقولون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول : خذوا له من حسناته . فلا يزالون يأخذون منها حتى لا تبقى منها حسنة ، وقد بقي من أصحاب الظلامات فيقول : اقضوا عن عبدي فيقولون : لم يبق له حسنة فيقول : خذوا من سيئاته ، فاحملوها عليه ، ثم نزع النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ " .

وأخرج أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال : سأل رجل على عهد رسول الله صلى الله

عليه وسلم فأمسك القوم ، ثم إن رجلاً أعطاه ، فأعطى القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " من سن خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعهم غير منتقص من أجورهم شيئاً ، ومن أسن شراً فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً " .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن مردويه عن أبي هريرة وأبي الدرداء قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سيروا سبق المفردون . قيل : يا رسول الله ومن المفردون ؟ قال : الذين يهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(64/595)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾

قوله : ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ : العامَّةُ على ضَمِّ اللامِ لِيُسْنِدَ الفعلَ لضميرِ جماعةٍ حَمْلاً على معنى " مَنْ " بعد أَنْ حُمِل على لفظِها . ونقل أبو معاذ النحوي أنه قُرِئ " لَيَقُولَنَّ " بالفتح جَرْياً على

مراعاةِ لفظِها أيضاً . وقراءةُ العامَّةِ أحسنُ لقولِه "إنَّا كُنَّا" .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12)

قوله : ﴿ وَلْنَحْمِلْ ﴾ : أمرٌ في معنى الخبر . وقرأ الحسن وعيسى بكسرِ لامِ الأمرِ . وهو لغةُ الحجاز . وقال الزمخشري : "وهذا قولُ صناديدِ قريشٍ كانوا يقولون لمَنْ آمنَ منهم : لا نُبْعَثُ نحن ولا أنتم ، فإنْ عَسَى كان ذلك فإنَّا نَتَحَمَّلُ" . قال الشيخ : "هو تركيبٌ أعجميٌّ مِنْ جهةِ إدخالِ حرفِ الشرطِ على "عسى" ، وهي جامدةٌ ، واستعمالِها مِنْ غيرِ اسمٍ ولا خبرٍ وإيلائِها كان" .

وقرأ العامَّةُ "خطاياكُمْ" جمعَ تكسيرٍ . وداود بن أبي هند "مِنْ خَطِيْئاتهم" جمعَ سلامةٍ . وعنه أيضاً "خَطيئِتهم" بالتوحيد ، والمرادُ الجنسُ . وهذا شبيهٌ بقراءتَيْ ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته ﴾ [البقرة : 81] و "خطيئاته" وعنه أيضاً "خَطِئَهم" . قيل : بفتحِ الطاءِ وكسرِ الياءِ . يعني بكسرِ الهمزةِ القريبةِ من الياء لأجلِ تسهيلِها بينَ بينَ .

و "مِنْ شيء" هو مفعولٌ ب "حامِلين" ، و "مِنْ خطاياهم" حالٌ منه ، لمَّا تقدَّم عليه انتصبَ حالاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 9 صـ 12.13﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ .

المحنُ تُظْهِرُ جواهرَ الرجال ، وهي تَدُلُّ على قِيمَهم وأقدارهم ؛ فَقَدْرُ كلِّ أحد وقيمته يَظْهَرُ عند محنته ؛ فَمَنْ كانت محنتُه من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها ؛ أو كانت محنته بموت قريبٍ من الناس ، أو فَقْد حبيبٍ من الخَلْقِ فحقيرٌ قَدْرُه ، وكثيرٌ في الناس مثْلُه . ومَنْ كانت محنته في الله ولله فعزيزٌ قَدْرُه ، وقليلٌ مَنْ كان مثله ، فهم في العدد قليلٌ ولكن في القَدْرِ والخَطَرِ جليلٌ : وبقدر الوقوف في البلاءِ تظهر جواهرُ الرجال ، وتصفو عن الخَبَثِ نفوسُهم .

والمؤمن مَنْ يَكفُّ الأذى ، ويتحمل من الخَلْقِ الأذى ، ويتشرب ولا يترشح بغير شكوى ولا إظهار ؛ كالأرض يُلْقَى عليها كلُّ خبيث فتُنْبِتُ كلَّ خضرة وكل نزهة . (1)

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11)

الانتقال الى صفحة القرآن ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين آمَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود . . . تَبَيَّنَ مَنْ بكى ممن تباكى

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12)

ضمنوا بما لم يفوا به ، وأخلفوا فيما وَعَدُوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً ، بل زادوا على حَمْل نفوسهم ؛ فاحتقبوا وِزْرَ ما عَملوا ، وطولبوا بوزْر ما به أُمِرُوا ، فضاعَفَ عليهم العقوبة ، ولم يصل أحدٌ من جهتهم إلى راحة ، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب أخاه بيثرب .

---

(1) القشيري هنا مستفيد من قول الجنيد : (الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح) الرسالة ص 139 .

(66/595)

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

وسيلحق بهؤلاء أَصحاب الدعاوى والمتَشبّهون بأهل الحقائق :

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه . . . فَضَحَ الامتحانُ ما يَدَّعيه

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 111] . وهيهات هيهات ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 87. 90 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

ألف . لام . ميم ﴾ . .

الحروف المقطعة التي اخترنا في تفسيرها أنها للتنبيه إلى أنها مادة الكتاب الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مؤلفاً من مثل هذه الحروف ، المألوفة للقوم ، الميسرة لهم ليؤلفوا منها ما يشاؤون من القول ؛ ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها مثل هذا الكتاب . لأنه من صنع الله لا من صنع إنسان .

وقد قلنا من قبل : إن السور التي صدرت بهذه الحروف تتضمن حديثاً عن القرآن ، إما مباشرة بعد هذه الحروف ، وإما في ثنايا السورة ، كما هو الحال في هذه السورة . فقد ورد فيها : ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب ﴾ ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ﴾ ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ مما يتمشى مع القاعدة التي اخترناها لتفسير هذه الأحرف في افتتاح السور .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ الحديث عن الإيمان ، والفتنة التي يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان ؛ وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء :

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

إنه الإيقاع الأول في هذا المقطع القوي من السورة . يساق في صورة استفهام استنكاري لمفهوم الناس للإيمان ، وحسبانهم أنه كلمة تقال باللسان .

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؟ ﴾ . .

(68/595)

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ؛ وأمانة ذات أعباء ؛ وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا . وهم لا يتركون لهذه الدعوى ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم . كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب .

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، في ميزان الله سبحانه :

﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ . .

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحداً إلا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه !

ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين .

إن الإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص . وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة . فهي أمانة كريمة ؛ وهي أمانة ثقيلة ؛ وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ؛ ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

(69/595)

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ؛ ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ؛ ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان . وهذه هي الصورة البارزة للفتنة ، المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة . ولكنها ليست أعنف صور الفتنة . فهناك فتن كثيرة في صور شتى ، ربما كانت أمر وأدهى .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعاً . وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ؛ وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك . وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير .

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، تهتف لهم الدنيا ، وتصفق لهم الجماهير ، وتتحطم في طريقهم العوائق ، وتصاغ لهم الأمجاد ، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمل منكر لا يحس به أحد ، ولا يحامي عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً .

وهنالك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقاً في تيار الضلالة ؛ وهو وحده موحش عريب طريد .

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام . فتنة أن يجد المؤمن أمماً ودولاً غارقة في الرذيلة ، وهي مع ذلك راقية في مجتمعها ، متحضرة في حياتها ، يجد الفرد فيها من

الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان . ويجدها غنية قوية ، وهي مشاقة لله !

وهنالك الفتنة الكبرى . أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبية الأرض ، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان ، أو في الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس ، وفي ملابسات الحياة ، وفي منطق البيئة ، وفي تصورات أهل الزمان !

(70/595)

فإذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله ، كانت الفتنة أشد وأقسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف . ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى ، أمانة السماء في الأرض ، وأمانة الله في ضمير الإنسان . وما بالله حاشا لله أن يعذب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة . ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة . فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق ؛ وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات ، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام ، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه ، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء .

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث ، وتستجيش كامن قواها المذخورة

فتستيقظ وتتجمع . وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل . وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات ، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً ؛ وأقواها طبيعة ، وأشدها اتصالاً بالله ، وثقة فيما عنده من الحسنيين : النصر أو الأجر ، وهؤلاء هم الذين يسلَّمون الراية في النهاية . مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار .

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن ؛ وبما بذلوا لها من الصبر على المحن ؛ وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات . والذي يبذل من دمه وأعصابه ، ومن راحته واطمئنانه ، ومن رغائبه ولذاته . ثم يصبر على الأذى والحرمان ؛ يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل ؛ فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام .

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله .

(71/595)

وما يشك مؤمن في وعد الله . فإن أبطأ فلحكمة مقدرة ، فيها الخير للإيمان وأهله . وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله . وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة ، ويقع عليهم البلاء ، أن يكونوا هم المختارين من الله ، ليكونوا أمناء على حق الله . وأن يشهد الله لهم

بأن في دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء :

جاء في الصحيح : " أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء " .

وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويعملون السيئات ، فما هم بمفلتين من عذاب الله ولا ناجين . مهما انتفخ باطلهم وانتفش ، وبدا عليه الانتصار والفلاح . وعد الله كذلك وسنته في نهاية المطاف :

﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون ! ﴾ . .

فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق ، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تقديره ، واختل تصوره . فإن الله الذي جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين ؛ هو الذي جعل أخذ المسيئين سنة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تحيد . وهذا هو الإيقاع الثاني في مطلع السورة ، الذي يوازن الإيقاع الأول ويعادله . فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء .

أما الإيقاع الثالث فيتمثل في تطمين الذين يرجون لقاء الله ، ووصل قلوبهم به في ثقة وفي يقين :

﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم ﴾ . .

فلتقر القلوب الراجية في لقاء الله ولتطمئن ؛ ولتنتظر ما وعدها الله إياه ، انتظار الواثق المستيقن ؛ ولتتطلع إلى يوم اللقاء في شوق ولكن في يقين .

(72/595)

والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية . صورة الراجي المشتاق ، الموصول بما هناك . ويجيب على التطلع بالتوكيد المريح . ويعقب عليه بالطمأنينة الندية ، يدخلها في تلك القلوب . فإن الله يسمع لها ، ويعلم تطلعها : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ .

والإيقاع الرابع يواجه القلوب التي تحتمل تكاليف الإيمان ، ومشاق الجهاد ، بأنها إنما تجاهد لنفسها ولخيرها ولاستكمال فضائلها ، ولإصلاح أمرها وحياتها ؛ وإلا فما بالله من حاجة إلى أحد ، وإنه لغني عن كل أحد :

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغني عن العالمين ﴾ . .

فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق ، فإنما ذلك لإصلاحهم ، وتكميلهم ، وتحقيق الخير لهم في الدنيا والآخرة . والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه ؛ ويرفع من تصوراته وآفاقه ؛ ويستعلي به على الشح بالنفس والمال ، ويستجيش أفضل ما في كيانه من مزايا واستعدادات . وذلك كله قبل أن يتجاوز به

شخصه إلى الجماعة المؤمنة ، وما يعود عليها من صلاح حالها ، واستقرار الحق بينها ، وغلبة الخير فيها على الشر ، والصلاح فيها على الفساد .

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ . .

فلا يقفن أحد في وسط الطريق ، وقد مضى في الجهاد شوطاً ، يطلب من الله ثمن جهاده ؛ ويمن عليه وعلى دعوته ، ويستبطئ المكافأة على ما ناله ! فإن الله لا يناله من جهاده شيء . وليس في حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل : ﴿ إن الله لغني عن العالمين ﴾ . وإنما هو فضل من الله أن يعينه في جهاده ، وأن يستخلفه في الأرض به ، وأن يأجره في الآخرة بثوابه :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ .

(73/595)

فليطمئن المؤمنون العاملون على ما لهُم عند الله ، من تكفير للسيئات ، وجزاء على الحسنات . وليصبروا على تكاليف الجهاد ؛ وليثبتوا على الفتنة والابتلاء ؛ فالأمل المشرق والجزاء الطيب ، ينتظرانهم في نهاية المطاف . وإنه لحسب المؤمن حتى لو فاته في الحياة

الانتصاف .

ثم يجيء إلى لون من ألوان الفتنة أشرنا إليه في مطلع السورة : فتنة الأهل والأحباء . فيفصل في الموقف الدقيق بالقول الحازم الوسط ، لا إفراط فيه ولا تفريط :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً . وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ . .

إن الوالدين لأقرب الأقرباء . وإن لهما لفضلاً ، وإن لهما لرحما ؛ وإن لهما لواجباً مفروضاً : واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة . ولكن ليس لهما من طاعة في حق الله .

وهذا هو الصراط : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً . وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ . .

إن الصلة في الله هي الصلة الأولى ، والرابطة في الله هي العروة الوثقى . فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية ، لا الطاعة ولا الاتباع . وإن هي إلا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله .

﴿ إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . .

ويفصل ما بين المؤمنين والمشركين . فإذا المؤمنون أهل ورفاق ، ولو لم يعقد بينهم نسب ولا صهر :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ . .

وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم في الحقيقة ؛ وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر ، وتنتهي بانتهاء الحياة الدنيا ، فهي روابط عارضة لا أصيلة ، لانقطاعها عن العروة الوثقى التي لا انفصام لها .

(74/595)

روى الترمذي عند تفسير هذه الآية أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه حمنة بنت أبي سفيان ، وكان باراً بأمه . فقالت : له : ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت ، فتتعير بذلك أبد الدهر ، يقال : يا قاتل أمه . ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني ، فكلي إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلي .

فلما أيست منه أكلت وشربت . فأنزل الله هذه الآية آمراً بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ، وعدم طاعتهما في الشرك .

وهكذا انتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم ؛ واستبقى الإحسان والبر . وإن المؤمن

لعرضة لمثل هذه الفتنة في كل آن ؛ فليكن بيان الله وفعل سعد هما راية النجاة والأمان .

ثم يرسم صورة كاملة لنموذج من النفوس في استقبال فتنة الإيذاء بالاستخذاء ، ثم الادعاء العريض عند الرخاء . يرسمها في كلمات معدودات ، صورة واضحة الملامح بارزة السمات :

﴿ ومن الناس من يقول : آمنا بالله . فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كنا معكم . أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ وليعلمن الله الذين آمنوا ، وليعلمن المنافقين ﴾ . .

ذلك النموذج من الناس ، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل ، هينة المؤونة ، لا تكلف إلا نطقها باللسان ، ﴿ فإذا أوذي في الله ﴾ بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى ﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ فاستقبلها في جزع ، واختلت في نفسه القيم ، واهتزت في ضميره العقيدة ؛ وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه ، حتى عذاب الله ؛ وقال في نفسه : ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء ، فعلام أصبر على الإيمان ، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب ؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر ، وعذاب الله الذي لا يعرف أحد مداه .

هذا موقف ذلك النموذج من الناس في استقبال الفتنة في ساعة الشدة .

﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كنا معكم ﴾ !

إنا كنا معكم . . وذلك كان موقفهم في ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوي ، وسوء التصوير وخطأ التقدير . ولكن حين يجيء الرخاء تنبث الدعوى العريضة ، وينتفش المنزوون المتخاذلون ، ويستأسد الضعفاء المهزومون ، فيقولون : ﴿ إنا كنا معكم ﴾ !

﴿ أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ ﴾ . .

أو ليس يعلم ما تنطوي عليه تلك الصدور من صبر أو جزع ، ومن إيمان أو نفاق ؟ فمن الذي يخدعه هؤلاء وعلى من يموهون ؟

﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ . .

وليكشفنهم فيعرفون ؛ فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون .

ونقف لحظة أمام التعبير القرآني الدقيق وهو يكشف عن موضع الخطأ في هذا النموذج من الناس حين يقول :

﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ . .

فليست الغلطة أن صبرهم قد ضعف عن احتمال العذاب ، فمثل هذا يقع للمؤمنين الصادقين في بعض اللحظات وللطاقة البشرية حدود ولكنهم يظلون يفرقون تفرقة واضحة

في تصورهم وشعورهم بين كل ما يملكه البشر لهم من أذى وتنكيل ، وبين عذاب الله العظيم ؛ فلا يختلط في حسهم أبداً عالم الفناء الصغير وعالم الخلود الكبير ، حتى في اللحظة التي يتجاوز عذاب الناس لهم مدى الطاقة وجهد الاحتمال .

(76/595)

إن اللّه في حس المؤمن لا يقوم له شيء ، مهما تجاوز الأذى طاقته واحتماله . . وهذا هو مفرق الطريق بين الإيمان في القلوب والنفاق .

وأخيرا يعرض فتنة الإغواء والإغراء ويعرض معها فساد تصور الذين كفروا للتبعة والجزاء ويقرر فردية التبعة وشخصية الجزاء . وهو المبدأ الإسلامي الكبير ، الذي يحقق العدل في أجلى مظاهره ، وأفضل أوضاعه :

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ . إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» . .

وقد كان الذين كفروا يقولون هذا تمشيا مع تصورهم القبلي في احتمال العشيرة للديات المشتركة والتبعات المشتركة . يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك باللّه عن سواهم وإعفائهم منها . ذلك إلى التهكم على قصة الجزاء في الآخرة إطلاقا :

«اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» . .

ومن ثم يرد عليهم الرد الحاسم ، فيرد كل إنسان إلى ربه فردا ، يؤاخذه بعمله ، لا يحمل أحد عنه شيئا :

«وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ» . .

ويجبهم بما في قولتهم هذه من كذب وادعاء :

«إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» . .

ويحملهم وزر ضلالهم وشركهم وافترائهم ، ووزر إضلالهم للآخرين . دون أن يعفي هؤلاء من تبعة الضلال :

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ . وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» .

ويغلق هذا الباب من أبواب الفتنة فيعلم الناس أن اللّه لا يحاسبهم جماعات . إنما يحاسبهم أفرادا ، وأن كل امرئ بما كسب رهين . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 2719 . 2724﴾

(77/595)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق للبلاء والامتحان ، والصبر على الهوان ، وإثبات علم الله وقدرته على إنجاء الطائع وتعذيب العاصي ، ذكر من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام من طال صبره على البلاء ، ولم يفتر عزمه عن نصيحة العباد على ما يعاملونه به من الأذى ، تسلية لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولتابعيه رضي الله تعالى عنهم وتثبيتاً لهم وتهديداً لقريش ، فقال عاطفاً على ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ ما هو كالشرح له ، وله نظر عظيم إلى ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ [القصص : 51] وأكده دفعاً لوهم من يقول : إن القدرة على التصرف في القلوب مغنية عن الرسالة في دار التسبب : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة المغنية عن الرسالة إجراء للأمور على ما تقتضيه هذه الدار من حكمة التسبيب ﴿ نوحاً ﴾ أي أول رسل الله الخافقين من العباد ، وهو معنى ﴿ إلى قومه ﴾ فإن الكفر كان قد عم أهل الأرض ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أطول الأنبياء بلاء بهم ، ولذلك قال مسبباً عن ذلك ومعقباً : ﴿ فلبث فيهم ﴾ أي بعد الرسالة يدعوهم إلى الله ،

وعظم الأمر بقوله : ﴿ ألف ﴾ فذكر رأس العدد الذي لا رأس أكبر منه ، وعبر بلفظ ﴿ سنة ﴾ ذماً لأيام الكفر ، وقال : ﴿ إلا خمسين ﴾ فحقق أن ذلك الزمان تسعمائة وخمسون من غير زيادة ولا نقص مع الاختصار والعذوبة ، وقال : ﴿ عاماً ﴾ إشارة إلى أن زمان حياته عليه الصلاة والسلام بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض .

(78/595)

ولما كان تكرير الدعاء مع عدم الإجابة أدل على الامتثال وعدم الملال ، قال مسبباً عن لبثه فيهم ودعائه لهم ومعقباً له : ﴿ فأخذهم ﴾ أي كلهم بالإغراق أخذ قهر وغلبة ﴿ الطوفان ﴾ أي من الماء ، لأن الطوفان في الأصل لكل فاش طامّ محيط غالب ممتلىء كثرة وشدة وقوة من سيل أو ظلام أو موت أو غيرها ، والمراد هنا الماء ﴿ وهم ظالمون ﴾ أي عريقون في هذا الوصف ، وهو وضع الأشياء في غير مواضعها فعل من يمشي في أشد الظلام ، بتكذيبهم رسولهم ، وإصرارهم على كفرهم ، وهو ملازم لدعائهم ليلاً ونهاراً لم يرجع منهم عن الضلال إلا ناس لقلتهم لا يعدون ؛ ودل عليهم مسبباً عن ذلك بقوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ أي نوحاً عليه السلام بما لنا من العظمة التي لا يغلبها شيء ﴿ وأصحاب

السفينة ﴾ من أولاده وأتباعه ، من الغرق ، وماذا يبلغ مقدار أهل سفينة واحدة في العدة والكثرة ﴿ وجعلناها ﴾ أي الفعلة أو السفينة أي نفسها وجنسها ، بتلك العظمة ﴿ آية ﴾ أي علامة على قدرة الله وعلمه وإنجائه للطائع وإهلاكه للعاصي ﴿ للعالمين ﴾ فإن لم يقع في الدهر حادثة أعظم منها ولا أغرب ولا أشهر في تطبيق الماء جميع الأرض ، بطولها والعرض ، وإغراق جميع من عليها من حيوان : إنسان وغير إنسان ، وإنجاء ناس فيهم بما هيأ قبل الفعل من سبب ذلك المستمر نفعه على تكرار الأحقاب وتعاقب الأزمان ، وكونها آية أما للآدميين الذين كانوا في ذلك الزمان فالأمر فيهم واضح ، وأما غيرهم من الحيوان فقد عرفوا لمعرفتهم بالجزئيات المشاهدة أن ذلك الماء لا ينجى منه في دار الأسباب إلا هذه السفينة ، فالهداية إلى فعلها للنجاة قبل وقوع سبب الهلاك دالة على تمام العلم وشمول القدرة ، وأن من اهتدى إليه دون أهل ذلك العصر كلهم إنما اهتدى بإعلام الله دون غيره ، ونصف الآية الأولى الأول من هذه القصة تسلية وتعزية دليلاً على آيتي الفتنة أول السورة ، ونصفها الثاني تحذير وتوقية ، وفيه دليل على الآية الثالثة ، والآية الثالثة ، والآية الأخرى تبشير وترجية ، وفيه دليل على ما بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 542.543 ﴾

(79/595)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم ، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم ، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصاً بالنبي وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك ، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 3] ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم إبراهيم عليه السلام وغيرهما ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في ذكر مدة لبثه ؟ نقول كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل ، وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك ، وأيضاً كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار

من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فإن العذاب يلحقهم .

المسألة الثانية :

(80/595)

قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي ، فإذا قال القائل لفلان علي عشرة إلا ثلاثة ، فكأنه قال علي سبعة ، إذا علم هذا فقوله : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ كقوله تسعمائة وخمسين سنة ، فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها ؟ فنقول قال الزمخشري فيه فائدتان إحداهما : أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال : عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول : ألف سنة تقريباً لا تحقيقاً ، فإذا قال إلا شهراً أو إلا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق الثانية : هي أن ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان أنه صبر كثيراً فالنبي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع ، فإن مراتب الأعداء هي الآحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف ، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ، ومائة ألف ، وألف ألف .

المسألة الثالثة :

قال بعض الأطباء العمر الإنساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم ، والعقل يوافقها فإن البقاء على التركيب الذي في الإنسان ممكن لذاته ، وإلا لما بقي ، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر ، وينتهي إلى الواجب وهو دائم ، فتأثيره يجوز أن يكون دائماً فإذن البقاء ممكن في ذاته ، فإن لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم وإلا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لا نزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعياً بل هو عطاء إلهي ، وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة ، فضلاً عن مائة أو أكثر .

(81/595)

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان وَهُمْ ظالمون ﴾ .

فيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب ، فإن الظلم وجد منه ، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ، فقوله : ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ يعني أهلكهم وهم على ظلمهم ، ولو كانوا تركوه لما أهلكهم .

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15)

في الراجع إليه الهاء في قوله : ﴿ جعلناها ﴾ وجهان أحدهما : أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه أحدها : أنه اتخذت قبل ظهور الماء ولولا إعلام الله نوحاً وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة وثانيها : أن نوحاً أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة وثالثها : أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ، ولولا ذلك لما حصلت النجاة والثاني : أنها راجعة إلى الواقعة أو إلى النجاة أي جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 37.38 ﴾

(82/595)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾

روى قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أَوَّلُ نَبِيٍّ أُرْسِلَ نُوحٌ " قال قتادة : وبعث من الجزيرة .

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : أن هذا مبلغ عمره كله . قال قتادة : لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ودعاهم ثلاثمائة سنة ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة .

فإن قيل فلم قال ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً فعنه جوابان :

أحدهما : أن المقصود به تكثير العدد فكان ذكر الألف أفخم في اللفظ وأكثر في العدد .

الثاني : ما روي أنه أعطي من العمر ألف سنة فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده فلما حضرته الوفاة راجع في استكمال الألف فذكر الله ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته ، فهذا قول .

والقول الثاني : أنه بعث لأربعين سنة من عمره ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً فكان مبلغ عمره ألف سنة وخمسين سنة ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد ذلك سبعين سنة فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين سنة ، قاله كعب الأحبار .

والقول الرابع : أنه بعث وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ولبث في قومه داعياً ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين عاماً فكان مبلغ عمره ألف سنة

وستمائة وخمسين سنة . قاله عون بن أبي شداد .

﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أن الطوفان المطر ، قاله ابن عباس وابن جبير وقتادة والسدي .

الثاني : أن الطوفان الغرق ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه الموت ، روته عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنه قول الشاعر :

(83/595)

أفناهم طوفان موت جارفٍ . . . وقيل إن الطوفان كلُّ عامّ من الأذى . وحكى إسماعيل بن عبد الله أن الطوفان كان في نيسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(84/595)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً ﴾ الآية

قصة فيها تسلية لمحمد عليه السلام عما تضمنته الآية قبلها من تعنت قومه وفتنتهم للمؤمنين

وغير ذلك ، وفيها وعيد لهم بتمثيل أمرهم بأمر قوم نوح ، والواو في قوله ﴿ ولقد ﴾ عاطفة جملة كلام على جملة ، والقسم فيها بعيد ، وقوله تعالى : ﴿ أرسلنا ﴾ ، ﴿ فلبث ﴾ ، هذا العطف بالفاء يقتضي ظاهره أنه لبث هذه المدة رسولاً يدعو ، وقد يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة أقامته في قومه من لدن مولده إلى غرق قومه ، وأما على التأويل الأول فاختلف في سنيه التي بعث عندها ، فقيل أربعون ، وقيل ثمانون ، وقال عون بن أبي شداد : ثلاثمائة وخمسون ، وكذلك يحتمل أن تكون وفاته عليه السلام عند غرق قومه بعد ذلك بيسير .

وقد روي أنه عمر بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاماً وأنه عاش ألف سنة وستمائة وخمسين سنة ، وقوله تعالى : ﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ يقتضي أنه أخذ قومه فقط ، وقد اختلف في ذلك فقالت فرقة : إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح ، وقالت فرقة : هي الجمهور : إنما غرقت المعمورة كلها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو ظاهر الأمر لاتخاذه السفينة ولبعثه الطير يرتاد زوال الماء ولغير ذلك من الدلائل ، وبقي أن يعترض هذا بأن يقال كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض ، فالوجه في ذلك أن يقال : إن اختصاص نبي بأمة ليس هو بأن لا يهدي غيرها ولا يدعوها إلى توحيد الله تعالى ، وإنما هو بأن لا يؤخذ بقتال غيرها ولا ببث العبادات فيهم ، لكن إذا كانت نبوة قائمة هذه المدة الطويلة والناس حولها يعبدون الأوثان ولم يكن الناس

يومئذ كثيراً بحكم القرب من آدم فلا محالة أن دعاءه إلى توحيد الله كان قد بلغ الكل فنالهم الغرق لإعراضهم وتماديهم ، و﴿ الطوفان ﴾ العظيم الطامي ، ويقال ذلك لكل طام خرج عن العادة من ماء أو نار أو موت ومنه قول الشاعر :

(85/595)

فجاءهم طوفان موت جارف . . . و" طوفان " وزنه فعلان بناء مبالغة من طاف يطوف إذا عم من كل جهة ، ولكنه كثر استعماله في الماء خاصة وقوله تعالى : ﴿ وهم ظالمون ﴾ ، يريد بالشرك ، ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ قد تقدم في غير هذه السورة الأختلاف في عددهم ، وهم بنوة وقوم آمنوا معه ، والضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿ السفينة ﴾ ويحتمل أن يعود على العقوبة ، ويحتمل أن يعود على النجاة ، والآية هنا العبرة على قدرة الله تعالى في شدة بطشه ، قال قتادة : أبقاها آية على الجودي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(86/595)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسَلْنا نوحاً إلى قومه ﴾

في هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أُعلم أن الأنبياء قد ابتُلوا قبلَه ، وفيها وعيد شديد لمن أقام على الشّرك ، فانهم وإن أُمهلوا ، فقد أُمهل قوم نوح أكثر ثم أُخذوا .

قوله تعالى : ﴿ فلَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسينَ عاماً ﴾ اختلفوا في عُمُر نوح على خمسة أقوال .

أحدها : بُعث بعد أربعين سنة ، وعاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس .

والثاني : أنَّه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد ذلك سبعين عاماً ، فكان مبلغ عُمُره ألف سنة وعشرين سنة ، قاله كعب الأحبار .

والثالث : أنهُ بعث وهو ابن خمسين وثلاثمائة ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة ، قاله عون بن أبي شداد .

والرابع : أنَّه لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ، [ودعاهم ثلاثمائة سنة] ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، قاله قتادة .

وقال وهب ابن منبِّه : بُعث لخمسين سنة .

والخامس : أنَّ هذه الآية بيَّنت مقدار عُمُره كلّه ، حكاه الماوردي .

فإن قيل : ما فائدة قوله ﴿ إلاَّ خمسينَ عاماً ﴾ ، فهلاَّ قال : تسعمائة وخمسين !

فالجواب : أنَّ المراد به تكثير العدد ، وذِكْر الألف أفخم في اللفظ ، وأعظم للعدد .

قال الزجاج : تأويل الاستثناء في كلام العرب : التوكيد ، تقول : جاءني إخوتك إلا زيداً ، فتؤكّد أنَّ الجماعة جاؤوا ، وتنقص زيداً .

واستثناء نصف الشيء قبيح جداً لا تتكلَّم به العرب ، وإنما تتكلَّم بالاستثناء كما تتكلم بالنقصان ، تقول : عندي درهم ينقُص قيراطاً ، فلو قلت : ينقُص نصفه ، كان الأَولى أن تقول : عندي نصف درهم ، ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلاَّ قليل من كثير .

قوله تعالى : ﴿ فأخذَهم الطُّوفان ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

(87/595)

أحدها : الموت ، روت عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فأخذَهم الطُّوفان ﴾ قال : "الموت" .

والثاني : المطر ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

قال ابن قتيبة : هو المطر الشديد .

والثالث : الغرق ، قاله الضحاك .

قال الزجاج : الطُّوفان من كل شيء : ما كان كثيراً مطيفاً بالجماعة كلِّها ، فالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة : طوفان ، وكذلك القتل الذريع ، والموت الجارف : طوفان .

قوله تعالى : ﴿ وهم ظالمون ﴾ قال ابن عباس : كافرون .

قوله تعالى : ﴿ وجعلناها ﴾ يعني السفينة ، قال قتادة : أبقاها الله آية للناس بأعلى الجُودِيّ .

قال أبو سليمان الدمشقي : وجائز أن يكون أراد : الفعلة التي فعلها بهم من الغرق ﴿ آية ﴾ ، أي عِبرة ﴿ للعالَمين ﴾ [بعدهم] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(88/595)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾

ذكر قصة نوح تسلية لنبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ أي ابتلي النبيون قبلك بالكفار فصبروا . وخصّ نوحاً بالذكر ؛ لأنه أوّل رسول أرسل إلى الأرض وقد امتلأت كفراً على ما تقدّم بيانه في "هود" .

وأنه لم يلق نبيّ من قومه ما لقي نوح على ما تقدّم في "هود" عن الحسن .

وروي عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أوّل نبيّ أرسل نوح " قال قتادة : وبعث من الجزيرة .

واختلف في مبلغ عمره .

فقيل : مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه .

قال قتادة : لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ، ودعاهم ثلاثمائة سنة ، ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة .

وقال ابن عباس : بعث نوح لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا .

وعنه أيضاً : أنه بعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، وعاش بعد الطوفان مائتين سنة .

وقال وهب : عمّر نوحٌ ألفاً وأربعمائة سنة .

وقال كعب الأحبار : لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان سبعين عاماً فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاماً .

وقال عون بن أبي شداد : بعث نوح وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة ؛ فكان مبلغ عمره

ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة ونحوه عن الحسن .

قال الحسن : لما أتى ملك الموت نوحاً ليقبض روحه قال : يا نوح كم عشت في الدنيا ؟ قال ثلاثمائة قبل أن أبعث ، وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي ، وثلاثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان .

قال ملك الموت : فكيف وجدت الدنيا ؟ قال نوح : مثل دار لها بابان دخلت من هذا وخرجت من هذا .

(89/595)

وروي من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما بعث الله نوحاً إلى قومه بعثه وهو ابن خمسين ومائتي سنة فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة فلما أتاه ملك الموت قال : يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر ويا مجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال : مثل رجل بني له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر " وقد قيل : دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر .

وقال ابن الوردي : بَنَى نوح بيتاً من قصب ، فقيل له : لو بنيت غير هذا ، فقال : هذا كثير لمن يموت .

وقال أبو المهاجر : لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً في بيت من شعر ، فقيل له : يا نبيّ الله ابن بيتاً ، فقال : أموت اليوم (أو) أموت غداً .

وقال وهب بن منبّه : مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلا من الموت .

وقال مقاتل وجويبر : إن آدم عليه السلام حين كبر ورقّ عظمه قال يا رب إلى متى أكدّ وأسعى ؟ قال : يا آدم حتى يولد لك ولد مختون .

فولد له نوح بعد عشرة أبطن ، وهو يومئذٍ ابن ألف سنة إلا ستين عاماً .

وقال بعضهم : إلا أربعين عاماً .

والله أعلم .

فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم .

وكان اسم نوح السكن .

وإنما سمي السكن ؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه ، فهو أبوهم .

وولد له سام وحام ويافث ، فولد سام العرب وفارس والروم ، وفي كل هؤلاء خير .

وولد حام القبط والسودان والبربر .

وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج .

وليس في شيء من هؤلاء خير .

وقال ابن عباس : في ولد سام بياض وأدمة ، وفي ولد حام سواد وبياض قليل .

وفي ولد يافث وهم الترك والصقالبة الصفرة والحمرة .

وكان له ولد رابع وهو كنعان الذي غرق ، والعرب تسميه يام .

وسمي نوح نوحاً لأنه ناح على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله تعالى ، فإذا كفروا بكى وناح عليهم .

(90/595)

وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب التخبير له : يرى أن نوحاً عليه السلام كان اسمه يشكر ولكن لكثرة بكاه على خطيئته أوحى الله إليه يا نوح كم تنوح .

فسمي نوحاً ؛ فقيل : يا رسول الله فأيّ شيء كانت خطيئته ؟ فقال : " إنه مر بكلب فقال في نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه اخلق أنت أحسن من هذا " وقال يزيد الرقاشي : إنما سمي نوحاً لطول ما ناح على نفسه .

فإن قيل : فلم قال : "أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا" ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً .

ففيه جوابان : أحدهما : أن المقصود به تكثير العدد ، فكان ذكره الألف أكثر في اللفظ وأكثر في العدد .

الثاني : ما روي أنه أعطي من العمر ألف سنة ، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده ، فلما حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف ، فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته .

﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : المطر .

الضحاك : الغرق .

وقيل : الموت .

روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومنه قول الشاعر :

أفناهم طوفانُ موتٍ جارف . . .

قال النحاس : يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان .

﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ جملة في موضع الحال و ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ منصوب على الظرف ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ منصوب على الاستثناء من الموجب .

وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول ؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول .

فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض .

كأنك قلت استثنيت زيداً .

تنبيه : روى حسان بن غالب بن نجيح أبو القاسم المصري ، حدثنا مالك بن أنس عن

الزهريّ عن ابن المسيّب عن أُبيّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان جبريل يذاكرني فضل عمر فقلت يا جبريل ما بلغ فضل عمر قال لي يا محمد لو لبثتُ معك ما لبث نوح في قومه ما بلغت لك فضل عمر " ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي .

(91/595)

وقال : تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه .

قوله تعالى : ﴿ فأَنْجَيْناهُ وأَصْحَابَ السفينة ﴾ معطوف على الهاء .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الهاء والألف في ﴿ جَعَلْنَاهَا ﴾ للسفينة ، أو للعقوبة ، أو للنجاة ؛ ثلاثة أقوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(92/595)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾

بيانٌ لما يستتبعه قولُهم ذلك في الآخرةِ من المضرة لأنفسِهم بعد بيانِ عدم منفعتِه لمخاطبيهم

أصلاً ، والتَّعبيرُ عن الخطايا بالأثقالِ للإيذانِ بغابة ثقلِها وكونِها فادحةً . واللامُ جوابُ قَسَمٍ مضمرٍ ، أي وبالله ليحملنَّ أثقالَ أنفسِهم كاملةً ﴿ وَأَثْقَالاً ﴾ أُخرَ ﴿ مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ لمَّا تسببُوا بالاضلالِ ، والحملُ على الكفرِ والمَعاصي من غيرِ أنْ ينتقص من أثقالِ من أضلُّوه شيءٌ ما أصلاً ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً ﴾ سؤالَ تقريعٍ وتبكيتٍ ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلقونَه في الدُّنيا من الأكاذيبِ والأباطيلِ التي من جملتها كذبُهم هذا .

(93/595)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ شروعٌ في بيانِ افتتانِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام بأذيةِ أممهم إثرَ بيانِ افتتانِ المؤمنين بأذيةِ الكفَّارِ تأكيداً للإنكارِ على الذين يحسبُون أنْ يُتركوا بمجرَّدِ الإيمانِ بلا ابتلاءٍ وحثًّا لهم على الصَّبرِ فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاة والسَّلام حيث ابتُلوا بما أصابَهم من جهةِ أُممهم من فنونِ المكارهِ وصبرُوا عليها فَلأن يصبرَ هؤلاءِ أولى وأحرى . قالُوا كان عمرُ نوحٍ عليه السَّلام ألفاً وخمسين عاماً بعث على رأس أربعين سنةٍ ودعا قومَه تسعمائة وخمسين سنة وعاشَ بعد الطُّوفانِ ستين سنة ، وعن وهبٍ أنَّه عاشَ ألفاً وأربعمائة سنة ولعلَّ ما عليه النَّظمُ الكريمُ للدّلالةِ على كمالِ العددِ فإن تسعمائة وخمسين قد يُطلق على ما يقرُب منه . ولَما في ذكرِ

الألفِ من تخييلِ طولِ المدَّةِ فإنَّ المقصودَ من القصة تسليةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مُكابدةِ ما يناله من الكفرةِ . وإظهارُ ركاكةِ رأي الذين يحسبونَ أنَّهم يُتركون بلا ابتلاءٍ واختلافُ المميزِ لما في التَّكريرِ من نوع بشاعةٍ . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ أي عقيبَ تمامِ المَّدةِ المذكورةِ . والطُّوفان يطلقُ على كلِّ ما يطوفُ بالشيء على كثرةٍ وشدَّةٍ من السَّيلِ والرِّيحِ والظَّلامِ وقد غلب على طُوفانِ الماءِ ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ أي والحالُ أنَّهم مستمرُّون على الظُّلمِ لم يتأثَّروا بما سمعُوا من نوحٍ عليه السَّلام من الآياتِ ولم يَرعُووا أعماهُم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدَّةَ المتماديةِ .

(94/595)

﴿ فأنجيناه ﴾ أي نوحاً عليه السَّلام ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ أي ومَن ركب فيها معه من أولادِه وأتباعِه وكانُوا ثمانين وقيل : ثمانيةً وسبعين وقيل : عشرةً وقيل ثمانيةً نصفُهم ذكورٌ ونصفُهم إناثٌ ﴿ وجعلناها ﴾ أيِ السَّفينةَ أو الحادثةَ والقصَّةَ ﴿ آيَةً للعالمين ﴾ يتَّعظِون بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(95/595)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾

شروع في بيان إفتتان الأنبياء عليهم السلام بأذية أممهم إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيداً للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الايمان بلا ابتلاء وحثا لهم على الصبر فإن الأنبياء عليهم السلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلأن يصير هؤلاء لمؤمنون أولى وأحرى ، والظاهر أن الواو للعطف وهو من عطف القصة على القصة ، قال ابن عطية : والقسم فيها بعيد يعني أن يكون المقسم به قد حذف وبقي حرفه وجوابه فإن فيه حذف المجرور وإبقاء الجار ، وهم قالوا : لا بد من ذكر المجرور ، والفاء للتعقيب فالمتبادر أنه عليه السلام لبث في قومه عقيب الإرسال المدة المذكورة وقد جاء مصرحاً به في بعض الآثار .

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

(96/595)

والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : بعث الله تعالى نوحاً عليه السلام وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا ، وعلى هذه الرواية يكون عمره عليه السلام ألف سنة وخمسين سنة ، وقيل : إنه عليه السلام عمر أكثر من ذلك ، أخرج ابن جرير عن عون بن أبي شداد قال : إن الله تعالى أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة فيكون عمره ألف سنة وستمائة وخمسين سنة ، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان عمر نوح عليه السلام قبل أن يبعث إلى قومه وبعد ما بعث ألفاً وسبعمائة سنة ، وعن وهب أنه عليه السلام عاش ألفاً وأربعمائة سنة ، وفي "جامع الأصول" كانت مدة نبوته تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الغرق خمسين سنة ، وقيل : مائتي سنة وكانت مدة الطوفان ستة أشهر آخرها يوم عاشوراء .

(97/595)

وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون ما ذكر الله عز وجل مدة إقامته عليه السلام من لدن مولده إلى غرق قومه ، وقيل : يحتمل أن يكون ذلك جميع عمره عليه السلام ، ولا يخفى أن المتبادر من الفاء التعقيبية ما تقدم ، وجاء في بعض الآثار أنه عليه السلام أطول الأنبياء عليهم السلام عمراً ، أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليهما السلام فقال : يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان فقال وسط الباب هنيهة ثم خرج من الباب الآخر ، ولعل ما عليه النظم الكريم في بيان مدة لبثه عليه السلام للدلالة على كمال العدد وكونه متعيناً نصاً دون تجوز فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما في ذكر الألف من تخييل طول المدة لأنها أول ما تقرع السمع فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة وإظهار ركاكة رأي الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء ، واختلاف المميزين لما في التكرير في مثل هذا الكلام من البشاعة ، والنكتة في اختيار السنة أولاً أنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى عليه السلام فيه ما قاسي من قومه ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ أي عقيب تمام المدة المذكورة ، والطوفان قد يطلق على كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام قال العجاج :

حتى إذا ما يومها تصبصبا . . .

وغم طوفان الظلام إلا ثأبا

وقد غلب على طوفان الماء وهو المراد هنا ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ أي والحال هم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة المتمادية .

(98/595)

﴿ فأنجيناه ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه ، وكانوا ثمانين ، وقيل : ثمانين وسبعين نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم ، وعن محمد ابن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة ، وروى مرفوعاً كانوا ثمانين نوح وأهله وبنوه الثلاثة أي مع أهليهم ﴿ وجعلناها ﴾ أي السفينة ﴿ ءايَةً للعالمين ﴾ عبرة وعظة لهم لبقائها زماناً طويلاً على الجودي يشاهدها المارة ولاشتهارها فيما بين الناس ، ويجوز كون الضمير للحادثة والقصة المفهومة مما قبل وهي عبرة للعالمين لاشتهارها فيما بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(99/595)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

سيقت هذه القصة واللاتي بعدها شواهد على ما لقي الرسل والذين آمنوا معهم من تكذيب المشركين كما صرح به قوله عقب القصتين ﴿ وإن تُكذّبوا فقد كذّب أمم من قبلكم ﴾ [العنكبوت : 18] على أحد الوجهين الآتيين .

وابتدئت القصص بقصة أول رسول بعثه الله لأهل الأرض فإن لأوليات الحوادث وقعاً في نفوس المتأمّلين في التاريخ ، وقد تقدم تفصيل قصته في سورة هود .

وزادت هذه الآية أنه لبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة .

وظاهر الآية أن هذه مدة رسالته إلى قومه ولا غرض في معرفة عمره يوم بعثه الله إلى قومه ، وفي ذلك اختلاف بين المفسرين ، وفائدة ذكر هذه المدة للدلالة على شدة مصابرته على أذى قومه ودوامه على إبلاغ الدعوة تثبيتاً للنبيء صلى الله عليه وسلم وأوثر تمييز ﴿ ألف ﴾ بـ ﴿ سنة ﴾ لطلب الخفة بلفظ ﴿ سنة ﴾ ، وميز ﴿ خمسين ﴾ بلفظ ﴿ عاماً ﴾ لئلا يكرر لفظ ﴿ سنة ﴾ .

والفاء من قوله : ﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ عطف على ﴿ أرسلنا ﴾ كما عطف عليه ﴿ فلبث ﴾ وقد طوي ذكر ما ترتب عليه أخذهم بالطوفان وهو استمرار تكذيبهم .

وجملة ﴿ وهم ظالمون ﴾ حال ، أي أخذهم وهم متلبسون بالظلم ، أي الشرك وتكذيب الرسول ، تلبساً ثابتاً لهم متقرراً وهذا تعريض للمشركين بأنهم سيأخذهم عذاب .

وفاء ﴿ فأنجيناه ﴾ عطف على ﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ .

وهذا إيماء إلى أن الله منجي المؤمنين من العذاب .

وقوله ﴿ وجعلناها ءاية للعالمين ﴾ الضمير للسفينة .

ومعنى كونها آية أنها دليل على وقوع الطوفان عذاباً من الله للمكذبين الرسل ، فكانت السفينة آية ماثلة في عصور جميع الأمم الذين جاءتهم الرسل بعد نوح موعظة للمكذبين وحجة للمؤمنين .

وقد أبقى الله بقية السفينة إلى صدر الأمة الإسلامية ففي "صحيح البخاري" : "قال قتادة : بقيت بقايا السفينة على الجودي حتى نظرتها أوائل هذه الأمة" .

(100/595)

ويقال إنها دامت إلى أوائل الدولة العباسية ثم غمرتها الثلوج .

وكان الجودي قرب (باقِرْدَى) وهي قرية من جزيرة ابن عمر بالموصل شرقي دجلة (وباقردى بموحدة بعدها ألف ثم قاف مكسورة ويجوز فتحها ودال فألف مقصورة وقال

تعالى في سورة القمر ﴿ ولقد تركناها ءاية فهل من مدكر .

﴿ وإنما قال ﴿ للعالمين ﴾ الشامل لجميع سكان الأرض لأن من لم يشاهد بقايا سفينة نوح يشاهد السفن فيتذكر سفينة نوح وكيف كان صنعها بوحي من الله لإنجاء نوح ومن شاء الله نجاته ، ولأن الذين من أهل قريتها يُخبرون عنها وتنقل أخبارهم فتصير متواترة .

هذا وقد وقع في الإصحاح الثامن من سفر التكوين من التوراة "واستقر الفلك على جبال آراراط" ، وقد اختلف الباحثون في تعيين جبال أراراط ، فمنهم من قال : إنه اسم الجودي وعينوا أنه من جبال بلاد الأكراد في الحد الجنوبي لأرمينيا في سهول ما بين النهرين ووصفوه بأن نهر دجلة يجري بين مرتفعاته بحيث لا يمكن العبور بين الجبل ونهر دجلة إلا في الصيف ، وأيدوا قولهم بوجود بقية سفينة على قمة ذلك الجبل .

وبعضهم زعم أن (أراراط) في بلاد أرمينيا وهو قريب من القول الأول لتجاور مواطن الكردستان وأرمينيا وقد تختلف حدود المواطن باختلاف الدول والفتوح .

ويجوز أن يكون ضمير النصب في ﴿ وجعلناها ﴾ عائداً إلى الخبر المذكور بتأويل القصة أو الحادثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(101/595)

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن المقدمات في عمومها ، أراد أن يتكلَّم عنها في خصوص الرسالات ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً . . . ﴾ .

يقول العلماء : إن نوحاً – عليه السلام – هو أول رسل الله إلى البشر ، أما مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام ، فكانوا أنبياء أوحي الله إليهم بشرع يعملون به ، فيكونون نموذجاً إيمانياً ، وقدوة سلوك طيب ، يُقلِّدهم مَنْ رآهم ، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقتَدِ بهم ، أما إن اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر .

لذلك نُفرِّق بين النبي والرسول ، بأن النبي أُوحي إليه بشرع يعمل به ولم يُؤْمر بتبليغه ، أما الرسول فقد أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه فكلٌّ منهما مرسل ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ . . . ﴾ [الحج : 52] .

إذن : فالنبي أيضاً مُرسَل ، لكنه مُرسَل لذاته .

لكن لماذا كان هذا قبل نوح بالذات ؟ قالوا : لأن الرقعة الإنسانية كانت ضيقة قبل نوح ، وكان الناس حديثي عهد ، لم تنتشر بينهم الانحرافات ، فلما اتسعت الرقعة ، وتداخلت أمور الحياة احتاجت الخليقة لأنْ يرسل الله إليهم الرسل .

والحق سبحانه يأتي بهذه اللقطة الموجزة من قصة نوح – عليه السلام – مع أن له سورة

مفردة ، وله لقطات كثيرة منثورة في الكتاب العزيز ، لكن هذه اللقطة تأتي لنا بالبداية والنهاية فقط وكأنها برقية (تلغرافية) في مسألة نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 14] .

إذن : الرسول جاء من القوم ، وهذا يعني أنهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً ، ويُجرِّبون سلوكه وحركته في الحياة ، ويعرفون خُلقه ، ويعرفون كل تصرفاته ، فليس الرسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم .

(102/595)

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جهر بالدعوة آمن به الذين يعرفونه عن قُرْب دون أنْ يسألوه عن معجزة تؤيده ، بل بمجرد أنْ قال أنا رسول الله آمنوا به وصدّقوه واتبعوه .

فسيدنا أبو بكر ، هل سمع من رسول الله قبل أن يؤمن به ؟ لا ، إنما بمجرد أن قالوا له : إن صاحبك تنبأ قال : آمنت به ، لماذا ؟ لأنه يعرف له سوابق يبني عليها إيمانه بصاحبه ، فما كان محمد ليكون صاحب خُلق عظيم مع الناس ، ثم يكذب على الله .

إذن : ففي كَوْن الرسول من قومه إيناسٌ للخَلْق ؛ لذلك لما قالوا : لا نؤمن إلا إذا جاءنا الرسول ملكاً ردَّ عليهم : أأنتم ملائكة حتى ينزل عليكم مَلَك ؟

﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

ولو فُرض أننا أرسلناه مَلَكاً أهم يروْن الملائكة ؟ لا يروْنَها ، فكيف إذن يُبلِّغ الملَك الناس ؟ لا بُدَّ أنْ يأتيهم في صورة بشر ، ولو أتاهم في صورة بشر لقالوا نريد ملَكاً .

وقوله عز وجل : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً . . . ﴾ [العنكبوت : 14] هذا العدد من الممكن أن يؤدى لمعانٍ كثيرة ، فلم يقُلْ : فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً .

وفي الأعداد في القرآن أسرار كثيرة ، واقرأ مثلاً : ﴿ وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . ﴾ [الأعراف : 142] .

وفي آية سورة البقرة قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . ﴾ [البقرة : 51] .

ففي سورة البقرة إجمال ، وفي آية الأعراف تفصيل . والحكمة في هذا أن موسى عليه السلام ما إن ذهب لميقات ربه حتى عبد قومه العجل في مدة الثلاثين ليلة .

ولم يشأ الله أن يترك موسى ليعود لقومه بعد الثلاثين ليلة ، بل أتمها بعشر آخر ، حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، فكأن العشْرَ زادتْ على الثلاثين ليلة ، ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة .

فالمسألة في منتهى الدقة ، ولو لم يأْتِ بالاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً . . . ﴾ [العنكبوت : 14] فربما يظن السامع أن المسألة تقريبية ، لكن التقريب في عَدِّ البشر ، أما في حساب الحق سبحانه فهو منتهى الدقة ، كما لو سُئلت مثلاً عن الساعة ، فتقول : الساعة العاشرة إلا دقيقة ونصفاً ، يعني : منتهى ما في استطاعتك من حساب الوقت .

فإن قلت : فلماذا هذه اللقطة السريعة من قصة نوح عليه السلام ؟ نقول : هي لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قومه وقفوا منه موقف العداء والمكابرة والتكذيب ، وآذوْا أصحابه ، وضيَّقوا الخِنَاق على دعوته ، وقد طالتْ هذه المسألة حتى أخذت ثلاث عشرة سنة من عمر الدعوة ، فسلاَّه ربه : اصبر يا محمد ، فقد صبر زميل لك في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يعني مدة المشقة التي تحملتها ما زالت بسيطة هيِّنة ، وقد تحمَّل أولو العزم من الرسل أكثر من ذلك .

ونلحظ هنا ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ . . . ﴾ [العنكبوت : 14] ثم استثنى منها ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً . . . ﴾ [العنكبوت : 14] ولم يقُلْ خمسين سنة ، فاستثنى الأعوام من السنين ،

ليدلَّك على أن السنة تعني أيَّ عام ، ويُرفَع الخلاف ؛ لأن البعض يقول : إن السنة هي التي تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذي الحجة ، في حين أن السنة ليس من الضروري أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهي بذي الحجة ، إنما تبدأ في أي وقت وتنتهي في مثله بعد عام كامل .

فحين نقول : فلان عمره مثلاً عشرون سنة ، أي : من يوم مولده إلى مثله عشرين مرة ، وكذلك العام . إذن : السنة والعام والحجة ، كلها سواء أردتَ الحساب بالسنة الشمسية ، أو القمرية ، أو غيرها كما تحب .

(104/595)

ومعلوم أن التوقيتات عندنا توقيتات هلالية بالشهر العربي ؛ لأن الشمس لا يُعرف من حركتها إلا اليوم ، إنما لا نعرف منها الشهر ، الشهر نعرفه بحركة القمر حين يُولَد الهلال ، وبالشهر نحسب السنة التي هي أثنا عشر شهراً قمرياً وتزيد أحد عشر يوماً في السنة الشمسية .

وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعْلمنا أن السنة هي العام ، لا فَرْق بينهما ، ولا داعي للجاج في هذه المسألة .

ثم يذكر سبحانه نهاية هؤلاء القوم الذين كذّبوا : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [

العنكبوت : 14] فالعلة في أخذهم ، لا لأنهم أعداء ، بل لأنهم ظالمون لأنفسهم بالكفر ، وهكذا تنتهي القصة أو اللقطة في آية واحدة الغرض منها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، إنْ أبطأ نَصْره على الكفار .

وكلمة ﴿ فَأَخَذَهُمُ . . . ﴾ [العنكبوت : 14] الأخْذ فيه دليل على الشدة وقوة التناول ، لكن بعنف أو بغير عنف ؟ إنْ كان الأخذ لخصْم فهو أخْذ بعنف وشدة ، وإنْ كان لغير خَصْم كان بلطف .

والطوفان : أن يزيد الماء عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ، ومنه كل شيء حتى يصبح وسيلة موت وهلاك ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات في الخَلْق حتى لا نظنَّ أن الخَلْق يسير برتابة .

فسيدنا موسى – عليه السلام – ضرب البحر بالعصا ، فتجمَّد فيه الماء حتى صار كالجبل ، وضرب بها الحجر فانبجس منه الماء .

إنها طلاقة القدرة التي لا تعتمد على الأسباب ، فالمسبِّب هو الله سبحانه يفعل ما يشاء ، فليست الأشياء بأسبابها ، إنما بمراد المسبِّب فيها ؛ لذلك يقول أحمد شوقي في قصيدة النيل :

مِنْ أيِّ عَهْدٍ في القُرَى تتدفقُ . . . وبأيِّ كفٍّ في المدائن تُغْدِقُ

ومِنَ السماءِ نزلْتَ أم على . . . الجِنَان جداولاً تترقرقُ

إلى أنْ يقول :

الماء تَسْكُبه فَيْصبح عَسْجَداً . . . والأرضُ تُغرِقُها فيحيَا المغْرَقُ

(105/595)

والمأخوذ هنا هم المكذِّبون لنوح – عليه السلام – الذين ظلموا أنفسهم لما كذَّبوا رسولهم ، ولم يستمعوا للهدى ، ثم يُنجِّي الله نوحاً – عليه السلام – بالسفينة التي قال الله عنها في سورة هود : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا . . . ﴾ [هود : 41] . وقد أمره الله بصناعة السفينة : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : 37] فكان نوح – عليه السلام – على علم بعاقبة المكذِّبين الظالمين من قومه ، واحتفظ بها في نفسه ، وهو يصنع السفينة كما أمره ربه . لكن ، أكانت السفينة شيئاً معروفاً لهؤلاء القوم ، ولها مثال سابق لديهم ؟ لا ، لم يكونوا يعرفون السفن ، بدليل أنهم تعجَّبوا من فعْل نوح ، وسخروا منه وهو يصنعها ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ . . . ﴾ [هود : 38] فكان يردُّ عليهم في نفسه : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : 38] فهو يعلم عاقبتهم وما يُبيِّته الله لهم .

والحق سبحانه يعطينا هذه اللقطة من قصة نوح – عليه السلام – لكي نجول في كل اللقطات ، ونستحضر مواطن العبرة فيها ، وفي قصة نوح مسائل كثيرة نستفيدها ، فقد كان القوم يعبدون الأصنام : وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، ومنها نعلم أن ودادة الأنبياء ودادة قيم ومنهج ، وودادة أعمال واقتداء ، وأن أنسابهم أنساب تقوى وورع .

فنبوّة نوح لم تمنع ولده الضالّ من الغرق ، حتى بعد أنْ دعا الله : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق . . . ﴾

[هود : 45] فيعطيه الله الحكم في هذه المسألة ، ويُصحّح له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . ﴾ [هود : 46] .

(106/595)

وليس معنى ذلك أن أمه أتتْ به من الحرام والعياذ بالله ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على نبي من أنبيائه ، إنما هي كانت من الخائنين ، وخيانتها أنها كانت تفشي أسراره لخصومه ، وتخبرهم خبره ؛ لذلك يقول تعالى عنها في سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ . . . ﴾ [التحريم : 10] .

ويُبيِّن الحق سبحانه العلة في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . . . ﴾ [هود : 46] بقوله :

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . ﴾ [هود : 46] حتى لا تذهب بنا الظنون في زوجة نبي الله ، فالعلة أنه عمل غير صالح ، وبنوة الأنبياء بُنوَّة عمل ، لا بُنوَّة نَسَب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السفينة . . . . ﴾ .

أي : فأنجينا نوحاً عليه السلام ﴿ وَأَصْحَابَ السفينة . . . ﴾ [العنكبوت : 15] هم الذين يركبون معه فيها ، فهم أصحابها ، وقد صُنعت من أجلهم ، لم يصنعها نوح لذاته ، إنما صنعها لقومه الذين تعجَّبوا من صناعته لها وسَخروا منه واستهزأوا به ، فهم أصحابها في الحقيقة ، مَنْ آمن منهم ركب فيها ، ومَنْ كفر أبى وأعرض ، فكانت نهايته الغرق .

ونفهم من هذه القضية أن الحق سبحانه حينما يطلب من المؤمن شيئاً يعطيه لمَنْ لا يجد ذلك الشيء ، سواء كان عِلْماً أو مالاً أو قدرة . . إلخ افهم أنها حق له ، وليستْ تفضلاً عليه ، فلما صنع نوح السفينة جعلها الله من حق القوم فقال ﴿ وَأَصْحَابَ السفينة . . . ﴾ [العنكبوت : 15] فهي حقٌّ لهم ، فليس المراد منها أن يصنعها مثلاً ، ويُؤجرها لهم ، لا بل هو يصنعها من أجلهم .

(107/595)

وكذلك قوله تعالى : ﴿ والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ [المعارج : 24] وقد ورد هذا الحق في المال مرتين في القرآن الكريم ، مرة ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ [المعارج : 24] ، ومرة أخرى ﴿ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] دون أن يحدد مقداره ، ودون أنْ يُوصف بالمعلومية .

وقد سمَّاهما الله حقاً ، فالمعلوم هو الزكاة الواجبة في مقام الإيمان ، وغير المعلوم هي الصدقة ؛ لأنها لا تخضع لمقدار معين ، بل هي حَسْب أريحية المؤمن وحُبه للطاعات ، ودخوله في مقام الإحسان الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 15-19] وهذه الزيادة في العبادات دليل على عِشْق التكليف وحُبِّ الطاعة والثقة بأن الله تعالى ما كلَّفنا إلا بأقلّ مما يستحق سبحانه من العبادة ؛ لذلك يقول العلماء : إياك أنْ تنتقل إلى هذا المقام وتُلزِم به نفسك ، أو تجعله نَذْراً ؛ لأنك إنْ فعلتَ صار في حقك فرضاً لا تستطيع أنْ تُنقِص منه .

إنما جعله لنشاطك ومقدرتك ؛ لأنك إنْ تعوّدت على منهج وألزمت نفسك به ثم تراجعت ، فكأنك تقول كلمة لا ينبغي أنْ تُقال ، فكأنك – والعياذ بالله – جربت وُدّك لله فلم تجده – والعياذ بالله – أهل وُدٍّ فتركته .

إذن : فقوله سبحانه ﴿ وأَصْحَابَ السفينة . . . ﴾ [العنكبوت : 15] يدلنا على

أنها صُنِعَتْ بأمر الله من أجلهم ، وبفراغ نوح من صناعتها كانت حقاً لهم ، لا مِلْكاً له عليه السلام .

(108/595)

لكن كيف نفهم ﴿ وأَصْحَابَ السفينة . . . ﴾ [العنكبوت : 15] وقد حمل فيها نوح – عليه السلام – من كُلٍّ زوجين اثنين ؟ قالوا : الزوجان من غير البشر ليس لهما صُحْبة ؛ لأنهما مملوكان لأصحاب الصُّحْبة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : 15] أي : أمراً عجيباً لم يسبق له مثيل في حياة الناس ، فقد صنعها نوح – عليه السلام – بوحي من ربه على غير مثال سابق ، فوجه كَوْنها آية أن الله تعالى أعلمه وعلّمه صناعتها ؛ لأن لها مهمة إيمانية عنده ، فبها نجاة المؤمنين وغَرَق الكافرين ، وهذه الآية ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : 15] جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(109/595)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان عمر نوح عليه السلام قبل أن يبعث إلى قومه وبعد ما بعث الفاً وسبعمائة سنة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر رضي الله عنهما كم لبث نوح عليه السلام في قومه ؟ قلت : الف سنة إلا خمسين عاماً ، قال : فإن من كان قبلكم كانوا أطول أعماراً ، ثم لم يزل الناس ينقصون في الأخلاق والآجال والأحلام والأجسام إلى يومهم هذا .

وأخرج ابن جرير عن عون بن أبي شداد رضي الله عنه قال : إن الله أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليه السلام فقال : يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان فوقف وسط الباب هنيهة ثم خرج من الباب الآخر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ قال : الماء الذي أرسل عليهم .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه قال ﴿ الطوفان ﴾ الغرق .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ قال : نوح وبنوه ونساء بنيه .

(110/595)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ قال : أبقاها الله آية فهي على الجودي . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(111/595)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ :

منصوبٌ على الظرفِ . ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ منصوبٌ على الاستثناءِ ، وفي وقوع الاستثناءِ مِنْ أسماءِ العددِ خلافٌ . وللمانعين منه جوابٌ عن هذه الآيةِ . وقد رُوْعِيَتْ هنا نكتةٌ لطيفةٌ : وهو أَنْ غايرَ بين تمييزَيْ العددَيْن فقال في الأول : " سَنَة " وفي الثاني : " عاماً " لئلا يَثْقُلَ اللفظُ . ثم إنه خَصَّ لفظَ العامِ بالخمسين إيذاناً بأنَّ نبيَّ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا استراح منهم بقيَ في زمنٍ حسنٍ ، والعربُ تُعَبِّرُ عن الخِصْبِ بالعام ، وعن الجَدْبِ بالسَّنَة .

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15)

قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَآ ﴾ : أي : العقوبَة أو الطَّوْفَةَ ، ونحو ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 13 ﴾

(112/595)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

ما زادهم طولُ مقامه فيهم إلا شكا في أمره ، وجهلا بحاله ، ومُرْية في صدقه ، ولم يزدد نوح – عليه السلام – لهم إلاَّ نُصْحاً ، وفي الله إلا صبراً . ولقد عرَّفه اللَّهُ أنه لن يؤمِنَ منهم إلا الشَّرْذِمة اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا ، وأَمَرَهُ باتخاذ السفينة ، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً ، وَصَدَقَ وَعْدَه ، ونَصَرَ عَبْدَه . . فلا تبديلَ لسُنَّتِه في نصرة دينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 91 ﴾

(113/595)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

(114/595)

التفسير : إنه سبحانه لما قال في خواتيم السور المتقدمة ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ [القصص : 85] أي إلى مكة ظاهراً ظافراً ، وكان في ذلك الرد من احتمال مشاق الحوادث ما كان قال بعده ﴿ ألم أحسب الناس ﴾ إلى قوله ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ بالجهاد أو نقول : لما أمر بالدعاء إلى الدين القويم في قوله ﴿ وادع إلى ربك ﴾ [القصص : 87] وكان دونه من المتاعب وأعباء الرسالة مالا يخفى ، بدا السورة بما يهوّن على النفس بعض ذلك . وايضاً لما بين أن كل هالك له رجوع إليه ، ردّ على منكري الحشر بأن الأمر ليس على ما حسبوه ولكنهم يكلفون في دار الدنيا ثم يرجعون إلى مقام الجزء والحساب . قال أهل البرهان : وقوع الاستفهام بعد " ألم " يدل على استقلالها وانقطاعها عما بعدها في هذه السورة وفي غيرها من السور . وفي تصدير السورة بأمثال هذه الحروف تنبيه للمخاطب وإيقاظ له من سنة الغفلة كما يقدم لذلك كلام له معنى مفهوم كقول القائل : اسمع وكن لي . ولا يقدم إلا إذا كان في الحديث شأن وبالخطاب اهتمام ، ولهذا ورد بعد هذه الحروف ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن الذي لا يخفى غناؤه والاهتمام بشأنه كقوله ﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 1] ﴿ الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب ﴾ [آل عمران : 12] ﴿ المص كتاب أنزل إليك ﴾ [الأعراف : 13] ﴿ يس والقرآن ﴾ [يس : 12] ﴿ ص والقرآن ﴾ [ص : 1] ﴿ الم تنزيل الكتاب ﴾ [السجدة :

12] إلا ثلاث سور : ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] ﴿ الم أحسب الناس ﴾ ﴿ الم غلبت الروم ﴾ [الروم : 12] ولا يخفى أن ما بعد حروف التهجي فيها من الأمور العظام التي يحق أن ينبه عليها بيانه في هذه السورة أن القرآن ثقله وعبؤه بما فيه من التكاليف ، وبيانه في سورة مريم ظاهر ، لأن خلق الولد فيما بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر معجز . وكذا الإخبار عن غلبة الروم قبل وقوعها . ومعنى الآية راجع إلى أن الناس لا

(115/595)

يتركون بمجرد التلفظ بكلمة الإِيمان بل يؤمرون بأنواع التكاليف . واختلفوا في سبب نزولها فقيل : نزلت في عمار بن ياسر والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة . وقيل : نزلت في أقوام هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون .

(116/595)

وقيل : في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب وهو أول قتيل من المسلمين ، رماه عامر بن الحضرمي يوم بدر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع ، وهو

أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة . قال جار الله : مفعولا الحسبان الترك وعلته والتقديرك أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا . قال : والترك بمعنى التصيير . فقوله ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ حال سدّ مسدّ ثاني مفعوليه . وقال آخرون : تقديره أحسبوا أنفسهم متروكة غير مفتونين لأن ﴿ قالوا آمنا ﴾ وأقول : إن من خواص " أن " مع الفعل و " أن " مع جزأيه سدّها مسدّ مفعولي أفعال القلوب ، والحكم بأن الترك ههنا بمعنى التصيير غير لازم يؤيد ما ذكرناه من المعنيين قوله سبحانه في موضع آخر ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ﴾ [التوبة : 16] والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان وكل ما يحب ويستلذ ، ومن ملاقاة الأعداء والمصابرة على أذاهم وسائر ما تكرهه النفس . والتحقي أن المقصود من خلق البشر هو العبادة الخالصة لله . فإذا قال باللسان : آمنت فقد ادعى طاعة الله بالجنان فلا بدّ له من شهود وهو الإتيان بالأركان ، وإذا حصل الشهود فلا بد لا له من مزك وهو بذل النفس والمال في سبيل الرحمن . فمعنى الآية : أحسبوا أن يقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهود بلا مزك ؟ أو المراد أحسبوا أن يتركوا في أول المقامات لا بل ينقلون إلى أعلى الدرجات وهو مقام الإخلاص والقربات ؟ ثم مثل حال هؤلاء بحال السلف منهم قائلاً ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ أراد كذلك فعل الله بمن قبلهم لم يتركهم بمجرد قولهم " آمنا " ، بل أمرهم بالطاعات وزجرهم عن المنهيات . وقوله ﴿ فليعلمن الله ﴾ كقوله ﴿ وليعلم الله ﴾ [الآية : 140] وقد مر تحقيقه في " آل عمران " . والحاصل أن التجدد يرجع إلى

المعلوم لا إلى العالم ولا إلى العلم ، وذلك لأن الأول زماني دون الأخيرين . وأما عبارات المفسرين فقال مقاتل : فيرين الله وليظهرن الله .

(117/595)

وقيل : فليميزن ، وجوز جار الله أن يكون وعداً ووعيداً كأنه قال : وليبينن الذي صدقوا وليعاقبن الكاذبين . قال الإمام فخر الدين الرازي : في وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أول إيجاب التكليف وعن قوم مستديمي الكفر مستمرين عليه ، فقال في حق الأوّلين ﴿ الذين صدقوا ﴾ بصيغة الفعل المنبئ عن التجدد ، وقال في حق الآخرين ﴿ وليعلمن الكاذبين ﴾ بالصيغة المنبئة عن الثبات . وإنما قال ﴿ يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ [المائدة : 119] بلفظ اسم الفاعل لأن الصدق يومئذ قد يرسخ في قلوب المؤمنين بخلاف أوائل الإِسلام . ثم بين بقوله ﴿ أم حسب الذين ﴾ الخ . أن من كلف بشيء ولم يمتثل عذب في الحال وإلا يعذب في الاستقبال نظيره قوله ﴿ ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾

[الأنفال : 59] والحاصل أن الإمهال لا يوجب الإهمال ، والتعجيل في جزاء الأعمال إنما يوجد ممن يخاف الفوت لولا الاستعجال .

ومعنى الإضراب أن هذا الحسبان أشنع من الحسبان الأول ، لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ والمخصوص محذوف و " ما " موصولة أو مبهمة والتقدير : بئس الذي يحكمون حكمهم هذا ، وبئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا . وفي الآية إبطال قول من ذهب إلى أن التكاليف إرشادات وإلا يعاد عليها ترغيب وترهيب ولا يوجب من الله تعذيب . واعلم أن أصول الدين ثلاثة : معرفة المبدأ وأشار إليه بقوله ﴿ آمنا ﴾ ، ومعرفة الوسط وهو إرسال الرسل . وإيضاح السبل وإليه أشار بقوله ﴿ وهم لا يفتنون ولقد فتنا ﴾ ومعرفة المعاد إما للأشقياء وهو قوله ﴿ الم أحسب ﴾ الآية وإما للسعداء وهو قوله ﴿ من كان يرجو ﴾ أي يأمل ﴿ لقاء ﴾ جزاء ﴿ الله فإن أجل الله لآت ﴾ فإن أراد بالأجل الموت ففيه إشارة إلى بقاء النفس بعد فراق البدن ، فلولا البقاء لما حصل اللقاء كقولك : من كان يرجو الخير فإن السلطات واصل . فإنه لا يفهم منه إلا إيصال الخير بوصوله . ومثله : من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب . إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة . ويحتمل أن يراد بالأجل الوقت المضروب للحشر . وقيل : يرجو بمعنى يخاف من قول الهذلي :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها . . . ﴿ وهو السميع ﴾ لأقوال العباد صدقوا أم كذبوا ﴿ العليم ﴾ بنياتهم وطوياتهم وبسائر أعمالهم فيجازيهم بالمسموع ما لا أذن سمعت ، وبالمرئي ما لا عين رأت وبالنيات ما لا خطر على قلب بشر .

(119/595)

ثم بين بقوله ﴿ ومن جاهد ﴾ الآية . أن فائدة التكاليف والمجاهدات إنما ترجع إلى المكلف والله غني عن كل ذلك . قال المتكلمون من الأشاعرة : في الآية دلالة على ان رعاية الأصلح لا تجب على الله وإلا كان مستكملاً بذلك ، وأن أفعاله لا تعلل بغرض لأن ذلك خلاف الغني ، وأنه ليس في مكان وإلا لزم افتقاره ، وأنه ليس قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم لأن القدرة والعلم غيره فيلزم افتقاره . ويمكن أن يجاب عن الأول بأن وجوب صدور الأصلح عنه لمقتضى الحكمة لا يوجب الاستكمال . وعن الثاني بأن استتباع الفائدة لا يوجب افتقار المفيد . وعن الثالث أن استصحاب المكان غير الافتقار إليه . وعن الرابع أن العالم هو ما يغاير ذات الله مع صفاته . وفي الآية بشارة من وجه وإنذار من وجه آخر ، وذلك أن الاستغناء عن الكل يوجب غناه عن تعذيب كل فاجر كما أنه يمكن أن يهلك كل صالح ولا شيء عليه إلا أنه رجح جانب البشارة بقوله ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات

﴿ الآية وقد مر مراراً أن الإيمان في الشرع عبارة عن التصديق بجميع ما قال الله تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تفصيلاً فيما علم وإجمالاً فيما لم يعلم ، والعمل الصالح هو الذي ندب الله ورسوله إليه ، والفاسد ما نهى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنه .

(120/595)

وعند المعتزلة الأمر والنهي مترتب على الحسن والقبح . ثم العمل الصالح باق لأنه في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف . يقال : فسد الزرع إذا خرج عن حد الانتفاع . ولكن العمل عرض لا يبقى بنفسه ولا بالعامل لأن كل شيء هالك إلا وجهه ، فبقاؤه إنما يتصور إذا كان لوجه الله . ومنه يعلم أن النية شرط في الأعمال الصالحة وهي كونها لله تعالى . وخالف زفر في نية الصوم وأبو حنيفة في نية الوضوء ، وقد مر . ثم إنه تعالى ذكر في مقابلة الإيمان والعمل الصالح أمرين : تكفير السيئات والجزاء بالأحسن . فتكفير السيئات في مقابلة الإيمان ، والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح ، ومنه يعلم أن الإيمان يقتضي عدم الخلود في النار لأن الذي كفر سيئاته يدخل الجنة لا محالة ، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية عند من يقول بها . وههنا بحث وهو أن قوله ﴿ لنكفرن ﴾ يستدعي وجود السيئات

حتى تكفر ، فالمراد بالذين آمنوا وعملوا إما قوم مسلمون مذنبون ، وإما قوم مشركون آمنوا فحط الإيمان ما قبله . أو يقال إن وعد الجميع بأشياء لا يستدعي وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء ، نظيره قول الملك لقوم : إذا أطعتموني أكرم آباءكم وأحترم أبناءكم . وهذا لا يقتضي أن يكرم آباء من توفي ابوه ويحترم ابن من لم يولد له ابن ، ولكن مفهومه أنه يكرم آباء من له أب ويحترم ابن من له ابن . أو يقال : ما من مكلف إلا وله سيئة حتى الأنبياء ، فإن ترك الأولى بالنسبة إليهم سيئة بل حسنات الأبرار سيئات المقربين . وحين بين حسن التكاليف ووقوعها وذكر ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها اشار بقوله ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ الآية إلى أنه لا دافع لهذه السيرة ولا مانع لهذه الطريقة فإن الإنسان إذا انقاد لأحد ينبغي أن ينقاد لأبويه ، ومع هذا لو أمروه بالمعصية لا يجوز اتباعهم فكيف غيره ؟ ومنه يعلم أنه لا طاعة لمخلوق

(121/595)

في معصية الخالق . ومعنى ﴿ وصينا ﴾ أمرنا كما مر في قوله ﴿ ووصى بها إبراهيم ﴾ [البقرة : 132] وقوله ﴿ بوالديه ﴾ أي بتعهدهما ورعاية حقوقهما ، وعلى هذا ينتصب ﴿ حسناً ﴾ بمضمر يدل عليه ما قبله أي أولهما حسناً أو افعل بهما حسناً كأنه

قال : قلنا له ذلك وقلنا له ﴿ وإن جاهداك ﴾ إلى آخره فلو وقف على قوله ﴿ بوالديه ﴾ حسن ويجوز أن يراد وصيناه بإيتاء والديه حسناً وقلنا له ﴿ وإن جاهداك ﴾ وقوله ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ كقوله

(122/595)

﴿ ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ [الأنعام : 81] أي لا معلوم ليتعلق العلم به . وإذا كان التقليد في الإيمان قبيحاً فكيف يكون حال التقليد في الكفر . وعلى وجوب ترك طاعة الوالدين إذا ارادا ولدهما على الإشراك دليل عقلي ، وذلك أن طاعتهما وجبت بأمر الله فإذا نفيا طاعة الله في الإشراك به فقد أبطلا طاعة الله مطلقاً ، ويلزم منه عدم لزوم طاعة الوالدين بأمر الله ، وكل ما يفضي وجوده إلى عدمه فهو باطل . فطاعة الوالدين في اتخاذ الشرك بالله من الممتنعات . وفي قوله ﴿ إليّ مرجعكم ﴾ ترغيب في رعاية حقوق الوالدين وترهيب عن عقوقهما وإن كانا كافرين إلا في الدعاء إلى الشرك . وفيه أن المجازي للمؤمن والمشرك إذا كان هو الله وحده فلا ينبغي أن يعق الوالدين لأجل كفرهما . وفي قوله ﴿ فأنبئكم ﴾ دليل على أنه سبحانه عالم بالخفيات لا يعزب عنه شيء . يروى أن سعد بن أبي وقاص الزهري حين اسلم قالت أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان : يا سعد بلغني أنك

قد صبأت ، فوالله لا يظلني سقف بيت وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد . وكان أحب ولدها إليها فابى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فنزلت هذه الآية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعداً أن يداريها ويرضيها بالإحسان . ثم أكد جزاء من آمن وعمل صالحاً بتكرير قوله ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ اي في زمرتهم ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء : 69] قال الحكماء : أي في المجردين الذين لا كون لهم ولا فساد فيدخل فيه العلويات عندهم . ثم بين حال أهل النفاق بعد تقرير حال أهل الكفر والوفاق فقال ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ يعني أنا والمؤمنون حقاً آمنا ادّعى أن إيمانه كإيمانهم فأخبر أن إيمانه لا تحقيق له بدليل قوله ﴿ فإذا أوذي في الله ﴾ اي في سبيله ودينه ﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ قال جار الله : أي جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر

(123/595)

، وهذا على التوهم أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفاً وهذا في الواقع . وقيل : جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله . وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذب الله الأليم الدائم حتى تردّدوا في الأمر وقالوا : إن آمنا

نتعرض للتأذي من الناس ، وذلك أنهم كانوا يمسهم أذى من الكفار ، وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد فاختاروا الاحتراز عن التعرض العاجل ونافقوا . وإنما قال ﴿ فتنة الناس ﴾ ولم يقل " عذاب الناس " لأن فعل العبد ابتلاء من الله . وليس في الاية منع من إظهار كلمة الكفر إكراهاً ، وإنما المنع من إظهارها مع مواطأة القلب التي كانوا عليها .

ومما يؤكد تذبذبهم قوله ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ﴾ ويلزمه الغنيمة غالباً ﴿ ليقولن إنا كنا معكم ﴾ يعني داب المنافق أنه إذا رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر من الكفر ، وإن كان النصر للمؤمن أضمر ما أضمر وأظهر المعية وادّعى التبعية .

(124/595)

وفي تخصيص اسم الرب بالمقام إشارة إلى أن التوبة والرحمة هي التي أوجبت النصر . ثم أخبر أنه سبحانه أعلم بما في صدور العالمين منهم بما في صدورهم ، لأنه خبير بما بأنفسهم كما هي وهم لا يعرفون نفوسهم كما هي ، فالتلبيس لا يفيد المنافق بالنسبة إلى الله شيئاً لأنه لا يجوز عليه الالتباس دليله قوله ﴿ وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين ﴾ وفيه وعد للمؤمنين ووعيد للمنافقين . اعتبر أمر القلب ههنا وهو في المؤمن التصديق ، وفي المنافق النفاق ، واعتبر في أول السورة أمر اللسان وهو في الكافر الكذب لأنه يقول : الله غير

موجود ، أو الله أكثر من واحد . وفي المؤمن الصدق لأنه يقول : الله واحد . وحين بين أحوال الفرق الثلاثة وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة ، وبين أن عذاب الله فوقها وكان للكافر أن يقول للمؤمن لم تصبر في الذل على الإيذاء ولم لا تدفع الذل والعذاب عن نفسك بموافقتنا ، وكان جواب المؤمن أن يقول خوفاً من عذاب الله خطيئة مذهبكم فقالوا : لا خطيئة فيه ، وإن كان فيه خطيئة فعلينا ، اشار إلى جميع ذلك قوله ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ أرادوا وليجتمع هذا الأمران في الحصول أن تتبعوا طريقتنا وأن نحمل خطاياكم ، نظيره " ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء " وليس هو في الحقيقة أمر طلب وإيجاب ولكنه حكاية قول صناديد قريش . كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم فإِن عسى كان جزاء ومعاد فإنا نتحمل عنكم الإثم . وترى نظيره في الإسلام يشجع أحدهم أخاه على ارتكاب بعض المآثم فيقول : افعل هذا وإثمه عليّ ، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان . ثم أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لا يحملون شيئاً من خطاياهم ، ولا ريب أن هذا مخالف لما زعموا من أنهم يحملون أوزارهم فلهذا حكم الله عليهم بأنهم كاذبون . ويجوز أن يكونوا كاذبين لأنهم وعدوا وفي قلوبهم نية الخلف . ولا حاجة في توجيه

تسميتهم كاذبين إلى التشبيه الذي ذكره في الكشاف . أما الجمع بين قوله ﴿ وما هم بحاملين ﴾ وبين قوله ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ فهو أن النفي راجع إلى الحمل الذي يخفف عن صاحبه بسببه ، والإثبات يرجع إلى انهم يحملون وزر الإضلال ووزر الضلال مع أن أتباعهم حاملون وزر الضلال كما قال عليه الصلاة والسلام " من سن سنة سيئة فعليه ورزها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء "

قال ﴿ وليسئلن ﴾ سؤال تقريع ﴿ يوم القيمة عما كانوا يفترون ﴾ من أنه لا حشر ، وعلى تقدير وجوده يحملون خطايا التابعين . ثم أجمل قصة نوح ومن بعده تصديقاً لقوله في أول السورة ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ وفيه تثبيت للنبي عليه الصلاة والسلام كأنه قيل له : إن نوحاً لبث الف سنة تقريباً يدعو قومه ولم يؤمن منهم إلا قليل ، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك ، وفيه تحذير لكفار قريش فإن أولئك الكفار ما نجوا من العذاب مع تلك الأعمار الطوال ، فهؤلاء كيف يسلمون أم كيف يغترون ؟

(126/595)

سؤال : ما الفائدة في قوله ﴿ ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ دون أن يقول : تسعمائة وخمسين . الجواب : لأن العبارة الثانية تحتمل التجويز والتقريب . فإن من قال : عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أنه يدعي ذلك تقريباً لا تحقيقاً . فإذا قال : إلا شهراً أو إلا سنة ، زال ذلك الوهم . وأيضاً المقصود تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر الألف الذي هو عقد معتبر أوصل إلى هذا الغرض . وإنما جاء بالمميز في المستثنى مخالفاً لما في المستثنى منه تجنباً من التكرار الخالي عن الفائدة وتوسعة في الكلام . قال بعض الأطباء : العمر الطبيعي للإنسان مائة وعشرون سنة . فاعترضوا عليهم بعمر نوح عليه السلام وغيره ، وذلك أن المفسرين قالوا : عمر نوح الفاً وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين ، وعاش بعد الطوفان ستين . وعن وهب أنه عاش ألفاً واربعمائة سنة . ويمكن أن يقال : إنهم ارادوا بالطبيعي ما كان أكثرياً في أعصارهم . ولا ينافي هذا كون بعض الأعمار زائداً على هذا القدر بطريق خرق العادة على أن العادة قد تختلف باختلاف الأعصار والأدوار ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم " أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين " والطوفان ما عم كل المكان بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل . وفي قوله ﴿ وهم ظالمون ﴾ دليل على أن العذاب أخذهم وهم مصرون على الظلم ولو كانوا قد تركوه لما أهلكهم . والضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾ إما للحادثة أو للقصة أو للسفينة . وأعاجيب هذه القصة وأحوال السفينة وأهوالها قد تقدّمت مراراً ولا ريب أنها آيات

يجب أن يستدل بها على موجدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 368 . 374 ﴾

(127/595)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : أقسم بفردانيته وبآلائه ونعمائه أنه مهما يكون من العبد التقرب إليه بأصناف العبودية يكون منه التقرب إلى العبد بالطاف الربوبية يؤكده قوله ﴿ أحسب الناس ﴾ أي الناسون من أهل البطالة أن يتركوار بمجرد الدعوى ولا يطالبون بالبلوى ، فالمحبة والمحنة توأمان وبالامتحان يكرم الرجل أو يهان ، فمن زاد قدر معناه زاد قدر بلواه . فالبلاء للنفوس لإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها في حسن العمل ، والبلاء على القلوب لتصفيتها من شين الرين لقبول نقوش الغيب ، والبلاء على الأرواح لتجردها بالبوائق عن العلائق ، والبلاء على الأسرار في اعتكافها في مشاهدة الكشف بالصبر على آثار التجلي إلى أن تصير مستهلكة فيه بإفنائه ، وإن أشدّ الفتن حفظ وجود التوحيد لئلا يجري عليه نكر في أوقات غلبات شواهد الحق فيظن أنه هو الحق لا يدري أنه من الحق ولا يقال : إنه الحق وعزيز من

يهتدي إلى ذلك ﴿ أم حسب الذين ﴾ فيه أن موجبات عمل السيئات سواد مرآة القلوب بصدأ الحسبان ورين الكفران ليتوهموا ﴿ أن يسبقونا ﴾ بالعدوان عن طريق سنتنا في الانتقام من أهل الحال والإجرام.

(128/595)

﴿ ساء ما يحكمون ﴾ بالنجاة عن الدركات باتباع الشهوات هيهات هيهات. ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ فإن من رجى عمره في رجاء لقائنا فهو الذي نبيح له النظر إلى جمالنا ﴿ وهو السميع ﴾ لأنين المشتاقين العليم بطويات الصادقين. ومن جاهد بالسعي في طلبنا فإنما يجاهد لنفسه لأنها بالتخلية عن الأخلاق الذميمة وبالتحلية بالصفات الحميدة تخلص عن الأمارية وتستأهل للمطمئنية فتستحق لجذبة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر: 28] والذين آمنت قلوبهم بمحبتنا ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ ببذل الوجود في طلب جودنا ﴿ لنكفرن عنهم ﴾ سيئات وجودهم المجازي ﴿ ولنجزينهم ﴾ وجوداً حقيقياً أحسن منه ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ﴾ فيه إشارة إلى أن المريد إذا تمسك بذيل شيخ كامل وتوجه إلى الحضرة بعزيمة من عزائم الرجال فإن منعه الوالدان عن ذلك فعليه أن لا يطيعهما لأنه سبب ولادته في عالم الأرواح وهما سبب ولادته في عالم

الاشباح كما قال عيسى عليه السلام : لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين . فهو احق برعاية الحقوق منهما . ﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ فيه أن المؤمن من كف الأذى والولي من يتحمل من الخلق الأذى ولا تترشح عنه الشكوى من البلوى كالأرض يلقى عليها كل قبيح فينبت منها كل مليح . والمنافق إذا لم يكن في حماية خشية الله يفترسه خوف الخلق إذا أوذي في الله . ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ فيه أن كافر النفس وصفاته يقولون بلسان الطبيعة الإنسانية لموسى القلب والسر والروح وصفاتهم ﴿ اتبعوا سبيلنا ﴾ في طلب الشهوات الحيوانية ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أي ندفع عنكم ضرر ما يرجع إليكم في متابعة شهوات الدنيا وطيباتها ﴿ وما هم بحاملين ﴾ شيئاً ﴿ من خطاياهم ﴾ وهو العمى والصمم والبكم وسائر الصفات النفسانية ، ولكن يحملون أثقالهم هذه الأوقات مع الآفات التي تختص بها والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 374. 375 ﴾

(129/595)

قوله تعالى ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا

يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان بلاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام عظيماً في قذفه في النار وإخراجه من بلاده ، أتبعه به فقال : ﴿ وإبراهيم ﴾ أي ولقد أرسلنا إبراهيم ، ويجوز أن يكون التقدير : واذكر إبراهيم أباك الأعظم لتتأسى به وتتسلى ويتعظ قومك بقصته ، لكن قوله ﴿ وإلى مدين ﴾ يرجح الأول ، ودل على مبادرته للامتثال بقوله : ﴿ إذ ﴾ أي حين ، وهو بدل اشتمال على التقدير الثاني لاشتمال الأحيان على ما قبلها ﴿ قال لقومه ﴾ الذين هو منهم : ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعظم بما يأمركم به من طاعته ﴿ واتقوه ﴾ أي خافوه في أن تشركوا به شيئاً فإنه يعذبكم ﴿ ذلكم ﴾ أي الأمر العظيم الذي هو إخلاصكم في عبادتكم له وتقواكم ﴿ خير لكم ﴾ أي من كل شيء ﴿ إن كنتم ﴾ أي بما لكم من الغرائز الصالحة ﴿ تعلمون ﴾ أي إن كنتم في عداد من يتجدد له علم فأنتم تقولون : إنه خير ، أي تعتقدون ذلك فتعملون به ، وإن لم تعملوا ذلك فأنتم في عداد الحيوانات العجم ، بل أضل ، فإنها تهتدي لما ينفعها فتقبل عليه ، وتسعى بجهدها إليه .

ولما أمرهم بما تقدم ، ونفى العلم عمن جهل خيريته ، دل عليه بقوله : ﴿ إنما تعبدون ﴾

ولما كان الله أعلى من كل شيء قال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي لا شبيه له ولا نظير ، ولا ثاني ولا وزير ، وقال : ﴿ أوثاناً ﴾ إشارة إلى تفرق الهم بكثرة المعبود ، والكثرة يلزمها الفرقة ولا خير في الفرقة .

(130/595)

ومادة " وثن " بجميع تقاليبها واوية ويائية مهموزة تدور على الزيادة والكثرة ، ويلزمها الفرقة من اختلاف الكلمة ، فيلزمها حينئذ الرخاوة فيأتي العجز ، وتراكيبها تسعة : في الواوي الثلاثة : وثن ثنو ثون ، وفي اليائي ثلاثة : ثنى نثى ثين ، وفي المهموز ثلاثة : أنث أثن نأث ، فمن الزيادة : الوثن ، قال القزاز : قال أبو منصور : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة أو ذهب أو جوهر أو غيره ينحت فينصب فيعبد ، والصنم الصورة التي بلا جثة ، ومنهم من جعل الوثن صنماً – انتهى .

وقال عبد الحق : قال الهروي : قال ابن عرفة : ما كان له صورة من جص أو حجارة أو غير ذلك فهو وثن – انتهى .

فقد علم من ذلك أنه لا بد فيه من صورة أو جثة ، وعلى كل تقدير فهو ثان لما شابه صورته أو جثته وزائد عليه .

وقال أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي في كتاب الزينة : الصنم تمثال من حجارة على صورة الإنسان ، فإذا كان من خشب فهو وثن ، ويتخذ أيضاً من جص ، وربما صوروا في الحائط أيضاً صورة إنسان فتسمى تلك الصورة أيضاً وثناً ، والنصارى يفعلون ذلك ويصورون في بيعهم صورة المسيح وصورة مريم ويسجدون لها : واستوثن المال : سمن ، فزاد لحمه ، واستوثن من المال : استكثر ، والنحل : صارت فرقتين صغاراً وكباراً ، والإبل : نشأت أولادها معها ، وأوثن زيداً : أجزل عطيته ، والواثن : الشيء الثابت الدائم في مكانه ، فالزيادة فيه بالنسبة إلى زمانه ، ويمكن أن يكون من الرخاوة ، فإنه لا يثبت على هذه الصورة إلا ما لا قدرة له على حركة .

ومن الفرقة : نثا الحديث – بتقديم النون – ينثوه وينثيه .

(131/595)

يائي وواوي : أشاعه وحدث به ، والشيء : فرقه وأذاعه ، وأنثى : اغتاب وأنف من الشيء ، ولا يؤنف منه إلا على تقدير نشره ، والثوينا كالهوينا : الرقيق يفرش تحت الرغيف ليسوى ويعدل لأن يكون ظلمه ، والتثاون : الاحتيال والخديعة ، فإنها لا تكون إلا عن جمع فكر وتنبيه نظر ، وهي أيضاً لا تكون إلا من عاجز عن الأخذ جهاراً ، ومن ذلك تثاون

للصيد – إذا جاءه مرة عن يمينه وأخرى عن يساره ، والثني من كل شيء ما يثنى بعضه على بعض ، ومن الوادي : منعطفه ، واثنونى : انعطف ، والثناء ككتاب : عقال البعير ، وهو حبل مثنى يعقل به يد البعير فتثنى ، والفناء لأنه يكثر انتيابه والتردد إليه ، وأثناء الشيء : قواه وطاقاته ، والاثنان : ضعف الواحد ، والمؤنث ثنتان ، وأصله ثنى ، والاثنين والثنى كإلى : يوم في الأسبوع ، وثنيته عن وجهه : رددته ، فصار له رجوع بعد ذهاب ، وثنيت الرجلين : صرت ثانيهما وأنت أحدهما ، ولا يقال : ثنيت فلاناً ، ولكن يقال : صرت له ثانياً ، والمثاني : القرآن أو ثني منه مرة بعد مرة ، أو الحمد ، أو البقرة إلى براءة – هكذا عبر في القاموس ، وفي مختصر العين : ويقال : سور أولها البقرة وآخرها براءة ، وذكر في القاموس في ذلك أقوالاً أخرى ، ومن أوتار العود الذي بعد الأول واحدها مثنى ، ومثنى الأيادي : إعادة المعروف مرتين فأكثر ، والثنية : العقبة أو طريقها أو الجبل أو الطريقة فيه – لأنها بطلوعها ونزولها أو تعاريجها كأنها ثنيت مرتين ، والثنايا من الأسنان : الأربع التي في مقدم الفم : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل ، والناقة الطاعنة في السادسة ، والبعير ثنى ، والفرس الداخلة في الرابعة والشاة في الثالثة كالبقرة ، وكأن ذلك كله من عرض يعرض لثنيه الحيوان ، والثنية : النخلة المستثناة من المساومة ، والثنية والثناء ، وصف بمدح أو ذم ، أو خاص بالمدح ، وذلك لأنه يكرر ، والثين بالكسر : من يستخرج الدر من البحر ، لأنه يكرر الغوص

حتى يجد ويفارق مكانه لذلك ويفرق الدر من مكانه ، والثين أيضاً : مثقب اللؤلؤ ، لأن الثقب يفرق بين أجزائها ولأن المثقب نفسه يحرك فيكثر من حركته إذا فعل به ذلك .

ومن مهموزة ؛ نأث عنه : بعد ، والمنآث – بالضم ، المبعد ، والأثين : الأصيل ، لأنه ثان لأصله ، ومن الرخاوة الأنثى خلاف الذكر ، والأنيث من الحديد الرخو وهو ما لم يكن ذكراً ، والمؤنث : المخنث ، والأنثيان : الخصيتان والأذنان ، وأرض أنيثة ومئناث : سهلة ، وسيف مئناث : كهام أي قليل لا يقطع – فقد تحرر أن المادة كلها دائرة على ما لا ينبغي لرتبة الإلهية من الكثرة والفرقة والرخاوة ، ولذلك أتى بصيغة الحصر ، وهو قصر قلب لسلب ما اعتقدوه فيها من الإلهية .

ولما أشار لهم إلى عدم صلاحيتها لتلك الرتبة العلية ، والغاية الشماء السنية ، بكثرتها ، أشار لهم إلى قصورها أيضاً بتصويرها فقال بصيغة المضارع إشارة إلى ما يرى في كل وقت من تجدد حدوثها : ﴿ وتخلقون ﴾ أي تصورون بأيديكم ﴿ إفكاً ﴾ أي شيئاً مصروفاً عن وجهه ، فإنه مصنوع وأنتم تسمونه باسم الصانع ، ومربوب وأنتم تعدونه رباً ، وعبد وأنتم تقيمونه معبوداً ، أو تقولون في حقها إنها آلهة كذباً .

ولما كان الإنسان محتاجاً أبداً ، فكان لا يزال متوجهاً إلى من ينفعه ، وكان قد أشار سبحانه إلى نقص معبوداتهم بنفي الخير عنها ، صرح بعجزها ، وأثبت اختصاصه بالخير ، لينتج استحقاقه للعبادة دونها وأكده رداً لما كانوا يتوهمونه من نفعها وضرها فقال : ﴿ إن الذين تعبدون ﴾ ضلالاً وعدولاً عن الحق الواضح ﴿ من دون الله ﴾ المحيط بصفات الكمال ، المنزه عن شوائب الاختلال الذي لا يمكن أن يملأ جميع ما تحت رتبته شيء فكيف برتبته الشماء ، وحضرته العلياء ﴿ لا يملكون لكم ﴾ أي وأنتم تعبدونها فكيف بغيركم ﴿ رزقاً ﴾ أي شيئاً من الرزق الذي لا قوام لكم بدونه ، فتسبب عن ذلك قوله : ﴿ فابتغوا ﴾ وأشار بصيغة الافتعال إلى السعي فيه ، لأنه أجرى عادته سبحانه أنه في الغالب لا يؤتيه إلا بكد من المرزوق وجهد ، إما في العبادة والتوكل ، وإما في السعي الظاهر في تحصيله بأسبابه الدنيوية " والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني " .

ولما أشار إلى ذلك ، أشار إلى الإجمال في الطلب ، وأن لا يعتقد أنه لا محالة في السبب ، وإنما الأمر مع ذلك بيده ، إن شاء أنجح وإن شاء خيب ، بقوله : ﴿ عند الله ﴾ أي الذي له كل صفة كمال ﴿ الرزق ﴾ أي كله ، فإنه لا شيء منه إلا وهو بيده ، وقد دخل فيه كل موجود ، فإن الكل خلق لذلك ، فأحكمت صنعته وربط بعضه ببعض ، فلو نقص منه شيء لاختل النظام ، فتبطل الأحكام ﴿ واعبدوه ﴾ أي عبادة يقبلها ، وهي ما كان خالصاً عن الشرك ، فإن من يكون كذلك يستحق ذلك ويثيب العابد له ، ويعاقب الزاهد فيه ، فلا يشغلكم ابتغاء الرزق بالأسباب الظاهرة عن عبادته ، فإنها هي الأسباب الحقيقية ، فربما حرم العبد الرزق بالذنب يصيبه ﴿ واشكروا ﴾ أي أوقعوا الشكر ﴿ له ﴾ خاصة على ما أفاض عليكم من النعم ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إليه ﴾ أي وحده ﴿ ترجعون ﴾ أي معنى في الدنيا والآخرة بأنه لا حكم في الحقيقة لأحد سواه ، وحساً بالنشر والحشر بعد الموت بأيسر أمر فيثيب الطائع ويعذب العاصي في الدارين .

ولما كان التقدير : فإن تصدقوا فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن تكذبوا ﴾ والذي دلنا على هذا المحذوف هذه الواو العاطفة على غير معطوف معروف ﴿ فقد ﴾ أي فيكفيكم في الوعظ والتهديد معرفتكم بأنه ﴿ كذب أمم ﴾ في الأزمان الكائنة ﴿ من قبلكم ﴾ كثيرة ، كعاد وثمود وقوم نوح وغيرهم ، فجرى الأمر فيهم على سنن واحد لم يختلف قط في نجاة والمطيع للرسول وهلاك العاصي له ، ولم يضر ذلك

بالرسول شيئا وما ضروا به إلا أنفسهم ﴿ وما على الرسول ﴾ أن يقهركم على التصديق ، بل ما عليه ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ الموضح مع - ظهوره في نفسه - للأمر بحيث لا يبقى فيه شك ، بإظهار المعجزة وإقامة الأدلة على الوحدانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 544.547 ﴾

(135/595)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أولم تروا ﴾ بتاء الخطاب : حمزة وعلي وخلف وعاصم سوى حفص والمفضل ﴿ النشاءة ﴾ بفتح الشين بعدها ألف ممدودة حيث كان : ابن كثير وأبو عمرو ﴿ مودّة ﴾ بالرفع ﴿ بينكم ﴾ بالجر على الإضافة : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب وعلي وابو زيد عن المفضل ﴿ مودة ﴾ بالرفع ﴿ بينكم ﴾ بالفتح : الشموني والبرجمي . ﴿ مودة ﴾ بالنصب ﴿ بينكم ﴾ على الإضافة : حمزة وحفص . الباقون : ﴿ مودة ﴾ بالنصب ﴿ بينكم ﴾ بالفتح ﴿ ربي إنه ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ إنكم ﴾ بهمز واحد ﴿ أينكم ﴾ بهمزة بعدها ياء : ابن كثير ونافع غير

قالون وسهل ويعقوب . زيد : مثله . بزيادة مدّة في الثانية : يزيد وقالون كلاهما مثل هذه الثانية أبو عمرو . والأولى بهمزة واحدة الثانية بهمزتين : ابن عامر وحفص هشام يدخل بينهما مدَّة . الباقون بهمزتين فيهما ﴿ أئنكم ﴾ كنظائره . ﴿ وللنجينه ﴾ بسكون النون من الإنجاء : يعقوب وحمزة وعلي وخلف ﴿ سيء بهم ﴾ كما ذكر في " هود " و ﴿ منجوك ﴾ من الإنجاء : ابن كثير ويعقوب وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص والمفضل ﴿ منزلون ﴾ بالتشديد : ابن عامر و ﴿ ثمود ﴾ غير مصروف في الحالين : حمزة وحفص وسهل ويعقوب .

(136/595)

الوقوف : ﴿ واتقوه ﴾ ط ﴿ تعلمون ﴾ 5 ﴿ افكاً ﴾ ط ﴿ واشكروا له ﴾ ط ﴿ ترجعون ﴾ 5 ﴿ من قبلكم ﴾ ج للعطف مع الاختلاف بالإثبات والنفي ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ يعيده ﴾ ط ﴿ يسير ﴾ 5 ﴿ الآخرة ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ 5ج لأن ما بعده يصلح وصفاً واستئنافاً ﴿ من يشاء ﴾ ط لانقطاع النظم بتقديم المفعول مع اتفاق الجملتين ﴿ تقلبون ﴾ 5 ﴿ السماء ﴾ ز فصلاً بين الأمرين المعظمين مع اتفاق الجملتين ﴿ نصير ﴾ 5 ﴿ اليم ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ ط ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ أوثاناً ﴾ ج لمن قرأ ﴿ مودة ﴾

بالرفع ﴿ الدنيا ﴾ ج لاختلاف الجملتين والفصل بين تباين الدارين ﴿ بعضاً ﴾ ط لاختلاف الجملتين مع اتحاد المقصود ﴿ من ناصرين ﴾ 5 قيل : لا وقف لتعليق الفاء ﴿ لوط ﴾ م لأن قوله ﴿ وقال ﴾ فاعله ﴿ إبراهيم ﴾ ولو وصل لأوهم اتحاد الفاعل ﴿ ربي ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ الدنيا ﴾ ج للابتداء بأن مع واو العطف ﴿ الصالحين ﴾ 5 ﴿ الفاحشة ﴾ ز لأن ما بعده يصلح مستأنفاً أو حالاً أو وصفاً ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ المنكر ﴾ ط لانتهاء الخطاب لابتداء الجواب ﴿ الصادقين ﴾ 5 ﴿ المفسدين ﴾ 5 ﴿ بالبشرى ﴾ لا لأن ﴿ قالوا ﴾ جواب "لما" ﴿ القرية ﴾ ج للابتداء بأن مع احتمال التعليل . ﴿ ظالمين ﴾ 5 وقد يوصل دلالة على تدارك إبراهيم ﴿ لوطاً ﴾ ط ﴿ بمن فيها ﴾ ج لأن لام التوكيد تقتضي قسماً أي والله لننجينه مع تمام المقصود في التنجية ﴿ إلا امرأته ﴾ ج لأن ما بعده يصلح مستأنفاً في النظم ولكنه حال المرأة لأن المستثنى مشبه بالمفعول أي يستثنى امرأته كائنة من الغابرين ﴿ ولا تحزن ﴾ ط فصلاً بين البشارتين وتوفيراً للفرح ﴿ الغابرين ﴾ 5 ﴿ يفسقون ﴾ 5 ﴿ يعقلون ﴾ 5 ﴿ شعيباً ﴾ لا لتعلق الفاء ﴿ مفسدين ﴾ 5 ﴿ جاثمين ﴾ 5 لأن ﴿ عاداً ﴾ يحتمل أن يكون منصوباً ب ﴿ أخذتهم ﴾ أو بمحذوف أي واذكر وهذا أوجه لأن قوله ﴿ وقد تبين ﴾ حال ولا يحسن أن يكون عامله ﴿ فأخذتهم ﴾ والأوجه انتصابه بمحذوف وهو "أذكر" أو أهلكنا .

(137/595)

﴿ مساكنهم ﴾ ط لأن التقدير مقدرين وعامله فأخذتهم ﴿ مستبصرين ﴾ 5ج للعطف ﴿ وهامان ﴾ يحتمل عندي الوقف وقيل : لا بناء على أن قوله ﴿ ولقد جاءهم ﴾ حال عامله ﴿ فأخذتهم ﴾ . ﴿ سابقين ﴾ 5 لانقطاع النظم بتقديم المفعول مع اتفاق الجملتين ﴿ بذنبه ﴾ ط وكذلك ﴿ حاصباً ﴾ ط ﴿ وأخذته الصيحة ﴾ ط ﴿ وخسفنا به الأرض ﴾ ط ﴿ وأغرقنا ﴾ ط لعطف الجمل والوقف أوجه تفصيلاً لأنواع النقم وإمهالاً لفرصة الاعتبار ﴿ يظلمون ﴾ 5 ﴿ العنكبوت ﴾ ج لأن ما بعده يصلح وصفاً واستئنافاً ﴿ بيتاً ﴾ ط ﴿ العنكبوت ﴾ ج لأن وهن بيت العنكبوت معلق ﴿ يعلمون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 377.378 ﴾

(138/595)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) ﴾

لما فرغ من الإشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفي إبراهيم وجهان من القراءة أحدهما : النصب وهو المشهور ، والثاني : الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ، و الأول : فيه وجهان أحدهما : أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر إبراهيم ، والثاني : أنه منصوب بمذكور وهو قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ [العنكبوت : 14] فيكون كأنه قال وأرسلنا إبراهيم ، وعلى هذا ففي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(139/595)

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ظرف أرسلنا أي أرسلنا إبراهيم إذ قال لقومه لكن قوله : ﴿ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله ﴾ دعوة والإرسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله ، وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلاً قبله ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن الإرسال أمر يمتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلاً ، وهذا كما يقول القائل وقفنا للأمير إذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج ، لكن لما كان الوقوف ممتداً إلى ذلك الوقت صح ذلك الوجه الثاني : هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد

قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الإرسال ، ولما كان هو مشتغلاً بالدعاء إلى الإسلام أرسله الله تعالى وقوله : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ إشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره فقوله : ﴿ اعبدوا الله ﴾ إشارة إلى الإثبات ، وقوله : ﴿ واتقوه ﴾ إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ، ويمكن أن يقال : ﴿ اعبدوا الله ﴾ إشارة إلى الإتيان بالواجبات ، وقوله : ﴿ واتقوه ﴾ إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل في الأول الاعتراف بالله ، وفي الثاني الامتناع من الشرك ، ثم قوله : ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني عبادة الله وتقواه خير ، والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلاً واعتباراً ، أما عقلاً فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكناً قطعاً للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله ، وأما التشريك فبطلانه عقلاً وكون خلافه خيراً وهو أن شريك الواجب إن لم يكن واجباً فكيف يكون شريكاً وإن كان واجباً لزم وجود واجبين فيشتركان في الوجوب ويتباينان في الإلهية ، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل ، وأما اعتباراً فلأن الشرف لن يكون ملكاً أو

قريب ملك ، لكن الإنسان لا يكون ملكاً للسموات والأرضين فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ [العلق : 19] . وقال : " لن يتقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم " وقال : " لا يزال العبد يتقرب بالعبادة إلي " فالمعطل لا ملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلاً ، وأما التشريك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة ، فإذن من يقول إن ربي لا يماثله شيء أعلى مرتبة ممن يقول سيدي صنم منحوت عاجز مثله ، فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أي خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات .

ثم قال تعالى : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكاً ﴾ .

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه ، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور ، إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع ، وإما لكونه نافعاً في الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة ، وإما لكونه نافعاً في المستقبل كمن يخدم غيره متوقعاً منه أمراً في المستقبل ، وإما لكونه خائفاً منه .

فقال إبراهيم : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أوثانا ﴾ إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة

لذاتها لكونها أوثاناً لا شرف لها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

(141/595)

إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل ، وهذا لأن النفع ، إما في الوجود ، وإما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود ، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ، ولا نفع في البقاء لأن ذلك بالرزق ، وليس منهم ذلك ، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال :

﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ فقوله : ﴿ الله ﴾ إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله : ﴿ الرزق ﴾ إشارة إلى حصول النفع منه عاجلاً وآجلاً وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ نكرة ، وقال : ﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ معرفاً فما الفائدة ؟ فنقول قال الزمخشري قال : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ نكرة في معرض النفي أي لا رزق عندهم أصلاً ، وقال معرفة عند الإثبات عند الله أي كل الرزق عنده فاطلبوه منه ، وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى

اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] والرزق من الأوثان غير معلوم فقال : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ لعدم حصول العلم به وقال : ﴿ فابتغوا عِندَ اللهِ الرزق ﴾ الموعود به ، ثم قال : ﴿ فاعبدوه ﴾ أي اعبدوه لكونه مستحقاً للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي اعبدوه لكونه مرجعاً منه يتوقع الخير لا غير .

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)

(142/595)

لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ وفي المخاطب في هذه الآية وجهان : أحدهما : أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه : ﴿ إِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ وأنا أتيت بما علي من التبليغ فإن الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان والثاني : أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيراً ما يقول الحاكي لأي شيء حكيت هذه الحكاية فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفاً من التعذيب ، فقال في أثناء حكايتهم

يا قوم إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فإن كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم ، وعلى الوجه الأول في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أن قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ ﴾ كيف يفهم ، مع أن إبراهيم لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمة واحدة ؟ والجواب عنه من وجهين : أحدهما : أن قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم والثاني : أن نوحاً عاش ألفاً وأكثر وكان القرن يموت ويجيء أولاده والآباء يوصون الأبناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمماً .

المسألة الثانية :

ما ﴿ البلاغ ﴾ وما ﴿ المبين ﴾ ؟ فنقول البلاغ هو ذكر المسائل ، والإبانة هي إقامة البرهان عليه .

المسألة الثالثة :

الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلغ شيئاً ولم يبينه فإنه لم يأت بالبلاغ المبين ، فلا يكون آتياً بما عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 39 . 41 ﴾

(143/595)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) ﴾

يجوز أن يكون ﴿ إبراهيم ﴾ معطوفاً على " نوح " ، ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في ﴿ أنجيناه ﴾ [العنكبوت : 15] ، ويجوز أن ينصبه فعل تقديره " واذكر إبراهيم " . ، وهذه القصة أيضاً تمثيل لقريش ، وكان نمرود وأهل مدينته عبدة أصنام فدعاهم إبراهيم إلى توحيد الله تعالى وعبادته ، ثم قرر لهم ما هم عليه من الضلال ، وقرأ جمهور الناس ، " تخلقون إفكاً " ، وقرأ ابن الزبير وفضيل " إفكاً " على وزن فعل وهو مصدر كالكذب والضحك ، ونحوه ، واختلف في معنى ﴿ تخلقون ﴾ فقال ابن عباس هو نحت الأصنام وخلقها . سماها ﴿ إفكاً ﴾ توسعاً من حيث يفترون بها الإفك في أنها آلهة ، وقال مجاهد ، هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان وغير ذلك ، وقرأ عبد الرحمن السلمي وعون العقيلي وقتادة وابن أبي ليلى " وتخَلَّقون إفكاً " بفتح الخاء وشد اللام وفتحها ، و" الإفك " على هذه القراءة الكذب ثم وقفهم على جهة الاحتجاج عليهم بأمر تفهمه عامتهم وخاصتهم وهو أمر الرزق ، فقرر أن الأصنام لا ترزق ، وأمر بابتغاء الخير عند الله تعالى وخصص ﴿ الرزق ﴾ لمكانته من الخلق فهو جزء يدل على جنسه كله ، ويقال شكرت لك وشكرتك بمعنى واحد ، ثم أخبرهم بالمعاد والحشر إليه .

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)

في قوله تعالى ﴿ وإن تكذبوا ﴾ الآية وعيد ، أي قد كذب غيركم وعذب وإنما على الرسول البلاغ ، وكل أحد بعد ذلك مأخوذ بعمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(144/595)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإبراهيمَ ﴾

قال الزجّاج : هو معطوف على نوح ، والمعنى : أرسلنا إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾ يعني عبادة الله ﴿ خير لكم ﴾ من عبادة الأوثان ، ﴿ إن كنتم تَعْلَمون ﴾ ما هو خير لكم مما هو شر لكم ؛ والمعنى : ولكنكم لا تعلمون .

﴿ إنَّما تعبُدون مِنْ دون الله أوثاناً ﴾ قال الفراء : "انَّما" في هذا الموضع حرف واحد ، وليست على معنى "الذي" ، وقوله : ﴿ وتخلُقون إفكاً ﴾ مردود على "إنما" ، كقولك : إنما تفعلون كذا ، وإنما تفعلون كذا وقال مقاتل : الأوثان : الأصنام .

قال ابن قتيبة : واحدها وثن ، وهو ما كان من حجارة أو جصّ .

قوله تعالى : ﴿ وتخلُقون إِفكاً ﴾ وقرأ ابن السميفع ، وأبو المتوكل : ﴿ وتختلقون ﴾ بزيادة تاءٍ .

ثم فيه قولان .

أحدهما : تختلقون كذباً في زعمكم أنَّها آلهة .

والثاني : تصنعون الأصنام ؛ والمعنى : تعبدون أصناماً أنتم تصنعونها .

ثم بيَّن عجزهم بقوله : ﴿ لا يملكون لكم رزقاً ﴾ أي : لا يقدرون على أن يرزقوكم ﴿ فابتغوا عند الله الرِّزق ﴾ أي : فاطلبوا من الله ، فانَّه القادر على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وإِن تكذِّبوا ﴾ هذا تهديد لقريش ﴿ فقد كذَّب أُمَمٌ مِنْ قبلكم ﴾ والمعنى : فأُهلكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(145/595)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال الكسائي : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ منصوب ب ﴿ أَنْجَيْنَا ﴾ يعني أنه معطوف على الهاء .

وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح ، والمعنى وأرسلنا إبراهيم .

وقول ثالث : أن يكون منصوباً بمعنى واذكر إبراهيم .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله ﴾ أي أفردوه بالعبادة .

﴿ واتقوه ﴾ أي اتقوا عقابه وعذابه .

﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي من عبادة الأوثان ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَوْثَاناً ﴾ أي أصناماً .

قال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو من فضة أو نحاس ، والوثن ما يتخذ من جصّ أو حجارة .

الجوهري : الوثن الصنم والجمع وُثْنٌ وأوثَانٌ أُسد وآساد .

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ قال الحسن : معنى : ﴿ تَخْلُقُونَ ﴾ تنحتون ؛ فالمعنى إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها .

وقال مجاهد : الإفك الكذب ، والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب .

وقرأ أبو عبد الرحمن : ﴿ وَتَخَلَّقُونَ ﴾ .

وقرىء : ﴿ تُخَلِّقُونَ ﴾ بمعنى التكثير من خَلَّق و ﴿ تَخَلَّقُونَ ﴾ من تَخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرّص .

وقرىء : ﴿ أَفِكاً ﴾ وفيه وجهان : أن يكون مصدراً نحو كذِب ولعِب والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب .

وأن يكون صفة على فَعل أي خلقاً أَفِكا أي ذا إفك وباطل .

و﴿ أَوْثَاناً ﴾ نصب ب ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ و ﴿ ما ﴾ كافة .

ويجوز في غير القرآن رفع أوثانٍ على أن تجعل ﴿ ما ﴾ اسماً لأن ؛ و ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ صلته ، وحذفت الهاء لطول الاسم وجعل أوثان خبر إن .

فأما ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ فهو منصوب بالفعل لا غير .

وكذا ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله فإياه فاسألوه وحده دون غيره .

(146/595)

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل : هو من قوله إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(147/595)

وقال أبو السعود :

﴿ ﴿ وإبراهيم ﴾ نُصب بالعطفِ على نوحاً ، وقيل : بإضمارِ أذكُر . وقُرِىء بالرَّفع على تقديرِ ومن المرسلينَ إبراهيمُ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ على الأولِ ظرفٌ للإرسالِ أي أرسلناه حينَ تكامل عقلُه وقدر على النَّظرِ والاستدلال وترقى من رُتبة الكمال إلى درجة التَّكميلِ حيث تصدَّى لإرشادِ الخلقِ إلى طريق الحقّ . وعلى الثَّاني بدلُ اشتمالٍ من إبراهيمَ ﴿ اعبدوا الله ﴾ أي وحدَه ﴿ واتقوه ﴾ أن تُشركُوا به شيئاً ﴿ ذلكم ﴾ أي ما ذُكر من العبادةِ والتَّقوى ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي ممَّا أنتُم عليه . ومعنى التَّفضيل مع أنَّه لا خيريةَ فيه قطعاً باعتبارِ زعمِهم الباطلِ ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي الخيرَ والشرَّ وتُميزون أحدَهما من الآخرِ أو إنْ كنتُم تعلمون شيئاً من الأشياءِ بوجهٍ من الوجوهِ فإنَّ ذلك كافٍ في الحكمِ بخيريةِ ما ذُكر من العبادةِ والتَّقوى .

(148/595)

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا ﴾ بيانٌ لبطلانِ دينِهم وشرِّيته في نفسِه بعد بيانِ شرِّيته بالنِّسبةِ إلى الدِّينِ الحقِّ أي إنَّما تعبدونَ من دُونه تعالى أوثاناً هي في نفسِها تماثيلُ مصنوعةٌ لكم ليس فيها وصفٌ غير ذلك ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ أي وتكذبون كذباً حيثُ تسمُّونها

آلهةً وتدّعون أنَّها شفعاؤكم عندَ الله تعالى أو تعملونَها وتنحتونَها للإفكِ . وقُرىء تخلقُون بالتَّشديدِ للتكثيرِ في الخلقِ بمعنى الكذبِ والافتراءِ وتخلقُون بحذفِ إحدى التَّاءينِ من تخلَّق بمعنى تكذَّبَ وتخرَّص . وقُرىء أَفِكاً على أنَّه مصدرٌ كالكذِب واللَّعِب . أو نعتٌ بمعنى خلقاً ذا إفكٍ ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ بيانٌ لشرِّيةِ ما يعبدونَه من حيثُ إنَّه لا يكادُ يجُديهم نفعاً ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ أي لا يقدرونَ على أنْ يرزقوكَم شيئاً من الرِّزقِ ﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ كلَّه فإنَّه هو الرزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المتينِ ﴿ واعبدوه ﴾ وحدَهُ ﴿ واشكروا لَهُ ﴾ على نعمائِه متوسِّلين إلى مطالبكم بعبادتِه مقيدين بالشُّكرِ للعتيدِ ومستجلبينَ للمزيدِ . ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالموتِ ثمَّ بالبعثِ لا إلى غيرِه فافعلُوا ما أمرتُكم به . وقرىء تَرجعون من رَجَع رُجوعاً . ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ أي تكذِّبُوني فيما أخبرتُكم به من أنَّكم إليه تُرجعون بالبعثِ ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ تعليلٌ للجوابِ أي فلا تضرونني بتكذيبكم فإنَّ من قبلكم من الأممِ قد كذَّبوا من قبلي من الرُّسلِ وهم شيثُ وإدريُس ونوحٌ عليهم السَّلام فلم يضرَّهم تكذيبهم شيئاً وإنَّما ضرَّ أنفسَهم حيثُ تسبَّب لما حلَّ بهم من العذاب فكذا تكذيبُكم ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي التَّبليغُ الذي لا يبقى معه شكٌّ وما عليه أنْ يُصدِّقَه قومُه ألبتةَ وقد خرجتُ عن عُهدةِ التَّبليغِ بما لا

مزيدَ عليه فلا يضرُّني تكذيبكم بعد ذلك أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(149/595)

وقال الآلوسى :

﴿ وإبراهيم ﴾ نصب بإضمار اذكر معطوفاً على ما قبله عطف القصة على القصة فلا ضير في اختلافهما خبراً وإنشاءاً وإذ في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدل اشتمال منه لأن الأحيان تشتمل على ما فيها ، وقد جوز ذلك الزمخشري .

وابن عطية ، وتعقب ذلك أبو حيان بأن إذ لا تتصرف فلا تكون مفعولاً به والبدلية تقتضي ذلك .

ثم ذكر أن إذ إن كانت ظرفاً لما مضى لا يصح أن تكون معمولة لا ذكر لأن المستقبل لا يقع في الماضي فلا يجوز ثم أمس ، وإذا خلعت من الظرفية الماضوية وتصرف فيها جاز أن تكون مفعولاً بهع ومعمولاً لا ذكر ، وجوز غير واحد أن يكون نصباً بالعطف على ﴿ نوحاً ﴾ [العنكبوت : 14] فكأنه قيل : وأرسلنا إبراهيم فاذ حينئذ ظرف للإرسال ، والمعنى على ما قيل أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقي من رتبة

الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لإرشاد الخلق إلى طرق الحق ، وهذا على ما قاله بعض المحققين لما أن القول المذكور في حيز إذ إنما كان منه عليه السلام بعد ما راهق قبل الإرسال ، وأنت تعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [العنكبوت : 18] الخ إذا كان من قوله عليه السلام لقومه كالنص في أن القول المحكي عنه عليه السلام كان بعد الإرسال ؛ وفي "الحواشي السعدية" أن ذلك إشارة إلى دفع ما عسى أن يقال : الدعوة تكون بعد الإرسال والمفهوم من الآية تقدمها عليه ، وحاصله أنه ليس المراد من الدعوة ما هو نتيجة الإرسال بل ما هو نتيجة كمال العقل وتمام النظر ، مع أن دلالة الآية على تقدمها غير مسلمة ففي الوقت سعة ، ويجوز أن يكون القصد هو الدلالة على مبادرته عليه السلام للامتثال اه فتدبر .

(150/595)

وجوز أبو البقاء ، وابن عطية أن يكون نصباً بالعطف على مفعول ﴿ أنجيناه ﴾ [العنكبوت : 15] وهو كما ترى ، والأوفق بما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾ [العنكبوت : 36] أن يكون النصب بالعطف على نوحاً .

وقرأ أبو حنيفة ، والنخعي .

وأبو جعفر .

وإبراهيم بالرفع على أن التقدير ومن المرسلين إبراهيم ، وقيل : التقدير ومما ينبغي ذكره إبراهيم ، وقيل : التقدير وممن أنجينا إبراهيم ، وعلى الأول المعلول دلالة ما قبل وما بعد عليه ، ويتعلق بذلك المحذوف ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله ﴾ وحده ﴿ واتقوه ﴾ أن تشركوا به سبحانه شيئاً ﴿ ذلكم ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من كل شيء فيه خيرية مما أنتم عليه على تقدير الخيرية فيه على زعمكم ، ويجوز كون خير صفة لا اسم تفضيل ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر ، أو أن كنتم تعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من الوجوه فإن ذلك كاف في الحكم بخيرية ما ذكر من العبادة والتقوى .

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله أَوْثَانا ﴾

بيان لبطلان دينهم وشريته في نفسه بعد بيان شريته بالنسبة إلى الدين الحق ، أي ما تعبدون من دونه تعالى إلا أوثاناً هي في نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ أي وتكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله سبحانه ؛ أو تعملونها وتنحتونها للإفك والكذب ، واللام لام العاقبة وإلا فهم لم يعملوها لأجل الكذب ، وجوز أن يكون ذلك من باب التهكم .

وقال بعض الأفاضل : الأظهر كون إفكاً مفعولاً به والمراد به نفس الأوثان وجعلها كذباً

مبالغة ، أو الإفك بمعنى المأفوك وهو المصروف عما هو عليه ، وإطلاقه على الأوثان لأنها مصنوعة وهم يجعلونها صانعاً .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي .

وعون العقيلي .

وعبادة .

وابن أبي ليلى .

(151/595)

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ تخلقون ﴾ بفتح التاء والخاء واللام مشددة ، قال ابن مجاهد : ورويت عن ابن الزبير وأصله تتخلقون فحذفت إحدى التاءين وهو من تخلق بمعنى تكذب وصيغة التكلف للمبالغة .

وزعم بعضهم جواز أن يكون تفعل بمعنى فعل .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما أيضاً ﴿ تخلقون ﴾ من خلق بالتشديد للتكثير في الخلق بمعنى الكذب والافتراء .

وقرأ ابن الزبير وفضل بن زرقان ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ بفتح الهمزة وكسر الفاء على أنه مصدر كالكذب واللعب أو وصف كالحذر وقع صفة لمصدر مقدر أي خلقاً أفكاً أي ذا أفك ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ بيان لشرية ما يعبدونه من حيث أنه لا يكاد يجديهم نفعاً ، و﴿ رِزْقاً ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً مفعولاً به ليملكون ، والمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ، وأن يكون بمعنى المرزوق أي لا يستطيعون ، إيتاء شيء من الرزق وجوز على المصدرية أن يكون مفعولاً مطلقاً ليملكون من معناه أو لمحذوف والأصل لا يملكون أن يرزقوكم رزقاً وهو كما ترى ونكر كما قال بعض الأجلة : للتحقير والتقليل مبالغة في النفي ، وخص الرزق لمكانته من الخلق ﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ أي كله على أن تعريف الرزق للاستغراق .

(152/595)

قال الطيبي : هذا من المواضع التي ليست المعرفة المعادة عين الأول فيها ، وجوز أن تكون عين الأول بناءً على أن كلاً منهما مستغرق ﴿ واعبدوه ﴾ عز وجل وحده ﴿ واشكروا لَهُ ﴾ على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين بشكره تعالى للعتيد ومستجلبين به للمزيد ، فالجملتان ناظرتان لما قبلهما ، وجوز أن يكون ناظرتين لقوله تعالى :

﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ كأنه قيل : استعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر فإنه إليه ترجعون ، وجوز بعض المحققين أن تكون هذه الجملة تذييلاً لجملة ما سبق مما حكى عن إبراهيم عليه السلام أو لأوله ، والمعنى إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه ترجعون بالموت ثم بالبعث فافعلوا ما أمرتكم به وما بينهما اعتراض لتقرير الشرية كما سمعت .

وقرىء ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ بفتح التاء من رجع رجوعاً .

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ عطف على مقدر تقديره فإن تصدقوني فقد فزتم بسعادة الدارين وإن تكذبوا أي تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم إليه تعالى ترجعون بالبعث ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ وهذا تعليل للجواب في الحقيقة ، والأصل فلا تضرونني بتكذيبكم فإنه قد كذب أمم قبلكم رسلهم وهم شيث .

وإدريس .

ونوح .

وهود .

وصالح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم إياي ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي التبليغ الذي لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرني تكذيبكم بعد ذلك أصلاً .

وهذه الآية أعني ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ الخ على ما ذكرنا من جملة قصة إبراهيم عليه السلام وكذا ما بعد على ما قيل إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ [العنكبوت : 24] وجوز أن يكون ذلك اعتراضاً بذكر شأن النبي صلى الله عليه وسلم وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم توسط بين طرفي القصة من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنفيس عنه بأن أباه خليل الرحمن كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، قالوا : وفي ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ اعتراضية ، والخطاب منه تعالى أو من النبي صلى الله عليه وسلم على معنى وقل لقريش ﴿ إِن تُكَذِّبُواْ ﴾ الخ .

وذهب بعض المحققين إلى أن قوله تعالى : ﴿ إِن تُكَذِّبُواْ ﴾ الخ من كلام إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾

انتقل من خبر نوح إلى خبر إبراهيم لمناسبة إنجاء إبراهيم من النار كإنجاء نوح من الماء .

وفيه تنبيه إلى عظم القدرة إذ أنجت من الماء ومن النار .

و﴿ إبراهيم ﴾ عطف على ﴿ نوحاً ﴾ [العنكبوت : 14] .

والتقدير : وأرسلنا إبراهيم .

و﴿ إذ ﴾ ظرف متعلق بـ (أرسلنا) المقدَّر ، أي في وقت قوله لقومه ﴿ اعبدوا الله ﴾ الخ وهو أول زمن دعوته .

واقتضى قوله ﴿ اعبدوا الله ﴾ أنهم لم يكونوا عابدين لله أصلاً .

وجملة ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ تعليل للأمر بعبادة الله .

وقد أجمل الخبر في هذه الجملة وفُصل بقوله ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾ الآية .

ومعنى ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ إن كنتم تعلمون أدلة اختصاص الله بالإلهية فمفعول العلم محذوف لدلالة ما قبله عليه .

ويجوز جعل فعل ﴿ تعلمون ﴾ منزلاً منزلة اللازم ، أي إن كنتم أهل علم ونظر .

وجملة ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾ تعليل لجملة ﴿ اعبدوا الله ﴾ .

وقَصْرُهم على عبادة الأوثان يجوز أن يكون قصراً على عبادتهم الأوثان ، أي دون أن يعبدوا الله فهو قصر حقيقي إذ كان قوم إبراهيم لا يعبدون الله فالقصر منصب على قوله ﴿ من دون الله ﴾ أي إنما تعبدون غير الله وبذلك يكون ﴿ من دون الله ﴾ حالاً من ﴿ أوثاناً ﴾ ، أي حال كونها معبودة من دون الله ، وهذا مقابل قوله ﴿ اعبدوا الله ﴾ دون أن يقول لهم : لا تعبدوا إلا الله ؛ لكن قوم إبراهيم قد وصفوا بالشرك في قوله تعالى في سورة [الأنعام : 78] ﴿ قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ فهم مثل مشركي العرب ، فالقصر منصب على عبادتهم الموصوفة بالوثنية ، أي ما تعبدون إلا صُوراً لا إدراك لها ، فيكون قصر قلب لإبطال اعتقادهم إلهية تلك الصور كما قال تعالى ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ [الصافات : 95] .

(155/595)

وعلى كلا الوجهين يتخرج معنى قوله ﴿ من دون الله ﴾ فإن ﴿ دون ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (غير) فتكون ﴿ من ﴾ زائدة ، والمعنى : تعبدون أوثاناً غير الله .

ويجوز أن تكون كلمة ﴿ دون ﴾ اسماً للمكان المباعد فهي إذن مستعارة لمعنى المخالفة فتكون ﴿ من ﴾ ابتدائية ، والمعنى : تعبدون أوثاناً موصوفة بأنها مخالفة لصفات الله .

والأوثان : جمع وثن بفتحتين ، وهو صورة من حجر أو خشب مجسمة على صورة إنسان أو حيوان .

والوثن أخص من الصنم لأن الصنم يطلق على حجارة غير مصورة مثل أكثر أصنام العرب كصنم ذي الخلصة لخثعم ، وكانت أصنام قوم إبراهيم صوراً قال تعالى ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ [الصافات : 95] .

وتقدم وصف أصنامهم في سورة الأنبياء .

و ﴿ تخلُقون ﴾ مضارع خلق الخبر ، أي اختلقه ، أي كذبه ووضعه ، أي وتضعون لها أخباراً ومناقب وأعمالا مكذوبة موهومة .

والإفك : الكذب .

وتقدم في قوله ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ في سورة [النور : 11] .

وجملة ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾ إن كان قوم إبراهيم يعترفون لله تعالى بالإلهية والخلق والرزق ولكنهم يجعلون له شركاء في العبادة ليكونوا لهم شفعاء كحال مشركي العرب تكون الجملة تعليلاً لجملة ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي هو المستحق للعبادة التي هي شكر على نعمه ، وإن كان قومه لا يثبتون إلهية لغير أصنامهم كانت جملة ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله ﴾ مستأنفة ابتدائية إبطالاً لاعتقادهم أن آلهتهم ترزقهم ، ويرجح هذا الاحتمال التفريعُ في قوله ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ .

وقد تقدم في سورة الشعراء التردد في حال إشراك قوم إبراهيم وكذلك في سورة الأنبياء .

وتنكير ﴿ رِزقاً ﴾ في سياق النفي يدل على عموم نفي قدرة أصنامهم على كل رزق ولو قليلاً .

(156/595)

وتفريع الأمر بابتغاء الرزق من الله إبطال لظنهم الرزق من أصنامهم أو تذكير بأن الرازق هو الله ، فابتغاء الرزق منه يقتضي تخصيصه بالعبادة كما دل عليه عطف ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ .

وقد سلك إبراهيم مسلك الاستدلال بالنعم الحسية لأن إثباتها أقرب إلى أذهان العموم .

و﴿ عند ﴾ ظرف مكان وهو مجاز .

شبّه طلب الرزق من الله بالبحث عن شيء في مكان يختص به فاستعير له ﴿ عند ﴾ الدالة على المكان المختص بما يضاف إليه الظرف .

وعُدّي الشكر باللام جرياً على أكثر استعماله في كلام العرب لقصد إفادة ما في اللام من معنى الاختصاص أي الاستحقاق .

ولام التعريف في ﴿ الرزق ﴾ لام الجنس المفيدة للاستغراق بمعونة المقام ، أي فاطلبوا كل

رزق قلّ أو كثر من الله دون غيره .

والمعرّف بلام الجنس في قوة النكرة فكأنه قيل : فابتغوا عند الله رزقاً ، ولذلك لم تكن إعادة لفظ الرزق بالتعريف مقتضية كونه غير الأول ، فلا تنطبق هنا قاعدة النكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى .

وجملة ﴿ إليه ترجعون ﴾ تعليل للأمر بعبادته وشكره ، أي لأنه الذي يجازي على ذلك ثواباً وعلى ضده عقاباً إذ إلى الله لا إلى غيره مرجعكم بعد الموت .

وفي هذا إدماج تعليل بالعبادة بإثبات البعث .

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)

يجوز أن تكون هذه الجملة من بقية مقالة إبراهيم عليه السلام بأن يكون رأى منهم مخائل التكذيب ففرض وقوعه ، أو يكون سبق تكذيبهم إياه مقالته هذه ، فيكون الغرض من هذه الجملة لازم الخبر وهو أن تكذيبهم إياه ليس بعجيب فلا يضيره ولا يحسبوا أنهم يضيرونه به ويتشفون منه فإن ذلك قد انتاب الرسل قبله من أممهم ، ولذلك أجمع القراء على قراءة فعل ﴿ تكذّبوا ﴾ بتاء الخطاب ولم يختلفوا فيه اختلافهم في قراءة قوله ﴿ أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ﴾ [العنكبوت : 19] الخ .

ويجوز أن تكون الجملة معترضة والواو اعتراضية واعترض هذا الكلام بين كلام إبراهيم وجواب قومه ، فهو كلام موجه من جانب الله تعالى إلى المشركين التفت به من الغيبة إلى الخطاب تسجيلاً عليهم ، والمقصود منه بيان فائدة سوق قصة نوح وإبراهيم وأن للرسول صلى الله عليه وسلم إسوة برسل الأمم الذين قبله وخاصة إبراهيم جدّ العرب المقصودين بالخطاب على هذا الوجه .

وجملة ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ إعلام للمخاطبين بأن تكذيبهم لا يلحقه منه ما فيه تشف منه ؛ فإن كان من كلام إبراهيم فالمراد بالرسول إبراهيم سلك مسلك الإظهار في مقام الإضمار لإيذان عنوان الرسول بأن واجبه إبلاغ ما أرسل به بيّناً واضحاً ، وإن كان من خطاب الله مشركي قريش فالمراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقد غلب عليه هذا الوصف في القرآن مع الإيذان بأن عنوان الرسالة لا يقتضي إلا التبليغ الواضح .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(158/595)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾

الواو هنا لعطف الجمل ، فالآية – معطوفة على ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً . . . ﴾ [العنكبوت : 14] إذن : فنوح وإبراهيم واقعتان مفعولاً به للفعل أرسلنا ، وللسائل أنْ يسأل : لماذا لم تُنوَّن إبراهيم كما نُوِّنت نوح ؟ لم تُنوَّن كلمة إبراهيم ؛ لأنها اسم ممنوع من الصرف – أي من التنوين – لأنه اسم أعجمي .

ونلحظ في هذه المسألة أن جميع أسماء الأنبياء أسماء أعجمية تُمنع من الصرف ، ما عدا الأسماء التي تبدأ بهذه الحروف (صن شمله) وهي على الترتيب : صالح ، نوح ، شعيب ، محمد ، لوط ، هود . فهذه الأسماء مصروفة مُنوَّنة ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والمعنى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ . . . ﴾ [العنكبوت : 16] يعني : واذكر إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله واتقوه . . . ﴾ [العنكبوت : 16] وقلنا : العبادة أنْ يطيع العابدُ المعبودَ في أوامره ونواهيه ، إذن : لو جاء مَنْ يدَّعي الألوهية ، وليس له أمر نؤديه ، أو نهي نمتنع عنه فلا يصلح إلهاً .

لذلك كذب الذين قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى . . . ﴾ [الزمر : 3] لأنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأنها ليست لها أوامر ولا نواه ، فألوهيتهم (منظرية) بلا تكليف ، فأول الأدلة على بطلان عبادة هذه الآلهة المدَّعاة أنها آلهة بلا منهج .

ثم عطف الأمر ﴿ واتقوه . . . ﴾ [العنكبوت : 16] على ﴿ اعبدوا . . . ﴾ [العنكبوت : 16] والتقوى من معانيها أنْ تطيع الأوامر ، وتجتنب النواهي ، فهي مرادفة للعبادة ، لكن إنْ عطفت على العبادة فتعني : نفِّذوا الأمر لتتقوا غضب الله ، اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية .

(159/595)

وسبق أنْ قلنا : إن لله تعالى صفات جلال : كالقهار ، الجبار ، المنتقم ، المذلّ . . إلخ .

وصفات جمال : كالغفار ، الرحمن ، الرحيم ، التواب ، وبالتقوى تنال متعلقات صفات الجمال ، وتمنع نفسك وتحميها من متعلقات صفات الجلال .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 16] ذلكم ، أي ما تقدَّم من الأمر بالعبادة والتقوى خير لكم ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلا خيرَ في علمكم ، كما قال تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا . . . ﴾ [الروم : 6-7] .

فالعلم الحقيقي هو العلم بقضايا الآخرة ، العلم بالأحكام وبالمنهج الذي يعطيك الخير الحقيقي طويل الأمد على خلاف علم الدنيا فإنْ نلتَ منه خيراً ، فهو خير موقوت بعمرك

فيها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن العلم هو إدراك قضية كونية تستطيع أن تدلل عليها ، وهذا يشمل كل معلومة في الحياة . أي : العلم المادي التجريبي وآثار هذا العلم في الدنيا ، أما العلم السامي الأعلى فأنْ تعلم المراد من الله لك ، وهذا للآخرة .

واقرأ في ذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

[فاطر : 27-28] .

فذكر سبحانه علم النبات والجماد و ﴿ وَمِنَ الناس . . ﴾ [فاطر : 28] أي : علم الإنسانيات ﴿ والدوآب . . . ﴾ [فاطر : 28] علم الحيوان ، وهكذا جمع كل الأنواع والأجناس ، ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء . . . ﴾ [فاطر : 28] مع أنه سبحانه لم يذكر هنا أيَّ حكم شرعي .

(160/595)

إذن : المراد هنا العلماء الذين يستنبطون قضية يقينية في الوجود ، كهذه الاكتشافات التي تخدم حركة الحياة ، وتدلُّ الناس على قدرة الله ، وبديع صُنْعه تعالى ، وتُذكِّرهم به سبحانه .

وتأمل في نفسك مثلاً وَضْع القصبة الهوائية بجوار البلعوم ، وكيف أنك لو شرقت بنصف حبة أرز لا تستريح إلا بإخراجها ، وتأمل ، وَضْع اللهاة وكيف تعمل تلقائياً دون قَصْد منك أو تحكم فيها .

تأمل الأهداب في القصبة الهوائية ، وكيف أنها تتحرك لأعلى تُخرج ما يدخل من الطعام لو اختلَّ توازن اللهاة ، فلم تُحكِم سدَّ القصبة الهوائية أثناءَ البلع .

تأمل حين تكون جالساً مطمئناً لا يقلقك شيء ، ثم في لحظة تجد نفسك محتاجاً لدورة المياه ، ماذا حدث ؟ ذلك لأن في مجرى الأمعاء ما يشبه (السقاطة) التي تُخرج الفضلات بقدر ، فإذا زادتْ عما يمكن لك تحمله ، فلا بُدَّ من قضاء الحاجة والتخلص من هذه الفضلات الزائدة .

تأمل الأنف وما فيه من شعيرات في مدخل الهواء ومُخَاط بالداخل ، وأنها جُعلت هكذا لحكمة ، فالشعيرات تحجز ما يعلَق بالهواء من الغبار ، ثم يلتقط المخاط الغبارَ الدقيق الذي لا يعلق بالشعيرات ليدخل الهواء الرئتين نقياً صافياً ، تأمل الأذن من الخارج وما فيها من تعاريج مختلفة الاتجاهات ، لتصدَّ الهواء ، وتمنعه من مواجهة فتحة الأذن .

والآيات في جسم الإنسان كثيرة وفوق الحَصْر ، ولا سبيلَ إلى معرفتها إلا باستنباط العلماء لها ، وكشفهم عنها ، وهذا من نشاطات الذهن البشري ، أما العلم الذي يخرج عن نطاق الذّهْن البشري فهو نازل من أعلى ، وهو قانون الصيانة الذي جعله الخالق سبحانه لحماية الخَلْق ، فالذي يأخذ بالعلم الدنيوي التجريبي فقط يُحرَم من الخير الباقي ؛ لأن قصارى ما يعطيك علم المادة في البشر أنْ يُرفه حياتك المادية ، أمّا علم الآخرة فيُرفِّه حياتك الدنيا ويبقى لك في الآخرة .

(161/595)

إذن : فقوله تعالى : ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 16] أي : قانون الصيانة الرباني بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وإياك أنْ تنقل مدلول (افعل) في (لا تفعل) أو مدلول (لا تفعل) في (افعل) ، وقد شبَّهنا هذا القانون (بالكتالوج) الذي يجعله الصانع لحماية الصنعة المادية لتؤدي مهمتها على أكمل وجه ، كذلك منهج الله بالنسبة للخَلْق ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلن ينفعكم علم بعد ذلك .

يقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

إذن : فالخير الباقي هو الخير في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ . . . ﴾ [العنكبوت : 17] أي : على حَدِّ زعمهم ، وعلى حَدِّ قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى . . . ﴾ [الزمر : 3] ، وإلا فلا عبادة لهذه الآلهة ، حيث لا أمر عندهم ولا نهي ولا منهج ، فعبادتهم إذن باطلة .

وهم يعبدون الأوثان من دون الله فإنْ ضُيِّق عليهم الخِنَاق قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى . . . ﴾ [الزمر : 3] فهم بذلك مشركون ، ومن لم يَقُلْ بهذا القول فهو كافر .

والوثن : ما نُصِب للتقديس من حجر ، أياً كان نوعه : حجر جيري ، أو جرانيت ، أو مرمر . أو كان من معدن : ذهب أو فضة أو نحاس . . إلخ أو من خشب ، وقد كان البعض منهم يصنعه من (العجوة) ، فإنْ جاع أكله ، وقد حَكَى هذا على سبيل التعجُّب سيدنا عمر رضي الله عنه .

وبأيِّ عقل أو منطق أنْ تذهب إلى الجبل وتستحسن منه حجراً فتنحته على صورة معينة ، ثم تتخذه إلهاً تعبده من دون الله ، وهو صَنْعة يدك ، وإنْ أطاحتْ به الريح أقمتَه ، وإنْ كسرته رُحْت تُصلح ما تكسَّر منه وتُرمِّمه ، فأيُّ عقل يمكن أن يقبل هذا العمل ؟

لذلك يخاطبهم القرآن : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات : 95] وكلما تقدَّم العالم تلاشتْ منه هذه الظاهرة ؛ لأنها مسألة لم تَعُدْ تناسب العقل بأية حال .

ومعنى ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً . . . ﴾ [العنكبوت : 17] أي : توجدون ، والإيجاد يكون من عدم ، فهم يُوجدون من عدم ، لكن أيُوجدون صِدْقاً ؟ أم يُوجدون كذباً ؟ إنهم يُوجدون ﴿ إِفْكاً . . . ﴾ [العنكبوت : 17] والإفك تعمُّد الكذب الذي يقلب الحقائق ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] أي : القرى التي كفأها الله على نفسها .

وسبق أن أوضحنا أن الحقيقة هي القضية الصادقة التي توافق الواقع ، فلو قُلْت مثلاً : محمد كريم ، فلا بُدَّ أن هناك شخصاً اسمه محمد وله صفة الكرم ، فإنِ اختلف الواقع فلم يوجد محمد أو وُجِد ولم تتوفر له صفة الكرم ، فالقضية كاذبة لأنها مخالفة للواقع ، هذا هو الإفك .

فالحق سبحانه لا يعيب عليهم الخَلْق ؛ لأنه أثبت للعباد خَلْقاً ، فقال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

والفَرْق أنك تخلق من موجود ، أما الحق سبحانه فيخلق من العدم ، فأنت تُوجِد الثوب من القطن مثلاً ، وكوبَ الزجاج من الرمل ، والمحراث من الحديد . . إلخ فأوجدت معدوماً عن موجود سابق ، أما الخالق سبحانه فأوجد معدوماً عن لا موجود .

(163/595)

وسبق أنْ أوضحنا أن صَنْعة البشر تجمد على حالها ، فالسكين مثلاً يظل سكيناً فلا يكبر ، حتى يصير ساطوراً مثلاً ، والكوب لا يلد لنا أكواباً أخرى . لكن خِلْقة الله سبحانه لها صفة النمو والحياة والتكاثر . . إلخ ؛ لذلك أنصفك الله فوصفك بأنك خالق ، لكن هو سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : الحق سبحانه لا يعيب على هؤلاء أنهم يخلقون ، إنما يعيب عليهم أنْ يخلقوا إفْكاً وكذباً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق . . . ﴾ [العنكبوت : 17] في موضع آخر بيَّن لهم الحق سبحانه أنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، وهنا يذكر مسألة مهمة هي استبقاء الحياة للإنسان بالقُوت الذي نسميه الرزق ، فهذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقاً ، ولو امتنع عنكم

المطر وأجدبت الأرض لمتُم من الجوع .

إذن : كان عليكم أنْ تتأملوا : من أين تأتي مقومات حياتكم ، ومَنْ صاحب الفضل فيها ، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطاعة ، كما نقول في المثل (اللي ياكل لقمتي يسمع كلمتي) إنما أُطعمك وتسمع لغيري ؟ ! !

والرزق هو الشُّغل الشاغل عند الناس ، ففي أول الأمر كلنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش ، فلما تتحسَّن الأمور نرغب للمستقبل ، فالموظف مثلاً يدخر لشهر ، والزارع يدخل للعام كله .

ومن أعاجيب هذه المسألة أنك تجد الإنسان والفأر والنمل هم الوحيدون بين مخلوقات الله التي تدخر للمستقبل ، أما بقية الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطعام فقط ، وتترك الباقي دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة ، أو تُشغَل برزق غد أبداً ، لا يأكل أكثر من طاقته ، ولا يدخر شيئاً لغده .

لذلك يُذكِّر الله عباده بمسألة الرزق لأهميتها في حياتهم ، ومن عجيب أمر الرزق أنه أعرَفُ بمكانك وعنوانك ، منك بمكانة وعنوانه ، فإنْ قُسِم لك الرزق جاءك بطرق عليك الباب ، وإنْ حُرمت منه أعياك طلبه .

(164/595)

ومن أوضح الأمثلة على أن الرزق مقسوم مقدَّر من الله لكل منا أن المرأة حين تحمل يمتنع عنها الحيض الذي كان يأتيها بشكل دوريٍّ قبل الحمل ، فأين ذهب هذا الدم ؟ هذا الدم هو رزق الجنين في بطن أمه لا يأخذه ولا يستفيد به غيره حتى الأم .

فإنْ قُدِّر الجنين تحول هذا الدم إلى غذاء له خاصة ، فإنْ لم يُقدَّر للأم أنْ تحمل نزل منها هذا الدم على صورة كريهة ، لا بُدّ من التخلص منه ؛ لأنه ضار بالأم إنْ بقي لا بُدَّ من نزوله ، لأنه ليس رزقها هي ، بل رزق ولدها في أحشائها ، ولو لم يكُنْ هذا الدم رِزْقاً للجنين لكانت الأم تضعف كلما تكرَّرت لها عملية نزول الدم بهذه الصورة الدورية . إذن : لكل منا رِزْق لا يأخذه غيره .

لذلك يقول أحد الصالحين : عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه .

فربك قد ضمن لك رزقك فانظر إلى ما طُلِب منك ، واشغل نفسك بمراد الله فيك ؛ لذلك نتعجب من هؤلاء المتسولين الذين كنا نراهم مثلاً في مواسم الحج ، وشرُّهم مَنْ يعرضون عاهاتهم وعاهات أبنائهم على الناس يتسولون بها ، وكأنهم يشتكون الخالق للخَلْق ، ويتبرَّمون بقضاء الله ، والله تعالى لا يحب أن يشكوه عبده لخلقه .

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا بليتم فاستتروا "

ووالله لو ستر أصحاب البلاء بلاءهم ، وقعدوا في بيوتهم لَساقَ الله إليهم أرزاقهم إلى

أبوابهم .

إذن : الرزق مضمون من الله ؛ لذلك يمتنُّ به على عباده وينفيه عن هذه الآلهة الباطلة ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ اللهِ الرزق . . . ﴾ [العنكبوت : 17] ثم يقول سبحانه : ﴿ واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : 17] فإنْ لم تعبدوه لأنه يرزقكم ويطعمكم ، فاعبدوه لأن مرجعكم إليه ووقوفكم بين يديه .

(165/595)

وكان يكفي أن نعمه عليكم مُقدَّمة على تكليفه لكم ، لقد تركك تربع في نعمه دون أنْ يُكلِّفك شيئاً ، إلى أنْ بلغتَ سِنَّ الرشد ، وهي سِنُّ النُّضْج والبلوغ والقدرة على إنجاب مثلك ، ثم بعد ذلك تقابل تكليفه لك بالجحود ؟ إن عبادة الله وطاعته لو لم تكن إلا شُكْراً له سبحانه على ما قدَّمه لك لكانت واجبة عليك .

وقوله تعالى : ﴿ واشكروا . . . ﴾ [العنكبوت : 17] لأن ربكم عز وجل يريد أن يزيدكم ، فجعل الشكر على النعمة مفتاحاً لهذه الزيادة ، فقال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 7] فربُّك ينتظر منك كلمة الشكر ، مجرد أن تستقبل النعمة بقولك الحمد لله فقد وجبت لك الزيادة .

حتى أن بعض العارفين يرى أن الحمد لا يكون على نِعَم الله التي لا تُعَدّ ولا تُحصى فحسب ، إنما يكون الحمد لله على أنه لا إله إلا الله ، وإلا لو كان هناك إله آخر لَحِرْنا بينهما أيهما نتبع ، فالوحدانية من أعظم نعم الواحد سبحانه التي تستوجب الشكر .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لهذه المسألة بقوله سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ . . . ﴾ [الزمر : 29] يعني : مملوك لشركاء مختلفين ، وليتهم متفقون ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ . . . ﴾ [الزمر : 29] أي : مِلْك لسيد واحد ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً . . . ﴾ [الزمر : 29] فكذلك الموحّد لِلّه ، والمشرك به .

ولذلك يقول بعض الصالحين في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 172] فاللص الذي يأكل من الحرام يأكل رزقه ، فهو رزقه لكنه من الحرام ، ولو صبر على السرقة لأكله من الحلال ولسَاقه الله إليه .

فالمعنى أن الله خلقكم ورزقكم ، ولا يعني هذا أنْ تُفلِتوا منه ، فإنْ لم تُراعوا الجميل السابق فخافوا مما هو آتٍ .

(166/595)

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 18] أي : ما قلنا لكم وما جاءكم به رسولنا ؛ لأن تصديقه سيُدخلكم مدخل التكليف ، ويحملكم مشقة المنهج ، وسيُضيِّق عليكم منطقة الاختيار ، والحق سبحانه قد شرَّفك حين أعطاك حرية الاختيار ، في حين أن الكون كله لا اختيار له ؛ لأنه تنازل عن اختياره لاختيار ربه . كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] . فالكون كله مسخر يؤدي مهمته ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 44] .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . . ﴾ [الحج : 18] فالقاعدة عامة ، لا استثناء فيها ، إلا عند الإنسان ، فمنهم الطائع ومنهم العاصي .

فالمعنى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 18] فلستم بدعاً في التكذيب ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 18] لكن يجب عليكم أن تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، هذه هي المسألة التي ينبغي عليكم التنبُّه لها .

وهنا وقف بعض المتمحكين يقول : كيف يقول القرآن في خطاب قوم إبراهيم ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 18] مع أنه لم يسبقهم إلا أمة واحدة هي أمة نوح عليه السلام ؟ يظنون أنهم وجدوا مأخذاً على القرآن .

(167/595)

ونقول : نعم ، كانت أمة نوح هي أمة الرسالة المقصودة بالإيمان ، لكن جاء قبلها آدم وشيث وإدريس ، وكانوا جميعاً في أمم سابقة على إبراهيم ، أو نقول : لأن مدة بقاء نوح في قومه طالت حتى أخذت ألف سنة من عمر الزمان ، وهذه الفترة تشمل قُرَابة العشرة أجيال ، والجيل – كما قالوا – مائة سنة ، كل منها أمة بذاتها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [العنكبوت : 18] فمهمته مجرد البلاغ . يؤمن به مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، الرسول لن نعطيه مكافأة أو عمولة على كل مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم تُقلّلون من مكافأة النبي – خاصة وقد كانوا كارهين له – فالمعنى : عليَّ البلاغ فحسب ، وقد بلَّغت فسآخذ جزائي وأجري من ربي ، فأنتم لا تكيدونني بكفركم ، بل تكيدون أنفسكم .

لذلك كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يحزن أشد الحزن ، ويألم إنْ تفلَّت من يده واحد

من أمته فكفر ، حتى خاطبه ربه : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ . . . ﴾ [البقرة : 272] .

وخاطبه بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] .

وحين نزل عليه صلى الله عليه وسلم : ﴿ والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 1-5] انتهز النبي هذه الفرصة ودعا ربه : إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار ؛ ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم مُحبٌّ لأمته ، حريص عليهم ، رؤوف رحيم بهم : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] .

(168/595)

ووصف الحق سبحانه البلاغ بأنه مبين ، أي : واضح ظاهر ؛ لأن من البلاغ ما يكون مجرد عرض للمسألة دون تأكيد وإظهار للحجة التي تؤيد البلاغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(169/595)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ :

العامَّةُ على نصبه عَطفاً على " نوحاً " ، أو بإضمار اذْكُرْ ، أو عطفاً على هاء " أَنْجَيْناه " . والنخعي وأبو جعفر وأبو حنيفةَ " وإبراهيمُ رفعاً على الابتداءِ ، والخبرُ مقدَّرٌ أي : ومن المرسلينَ إبراهيمُ .

قوله : " إذ قالَ " بدلٌ مِنْ " إبراهيمَ " بدلُ اشتمالٍ .

قوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ ﴾ : العامَّةُ بفتحِ التاءِ وسكونِ الخاءِ وسكونِ اللامِ ، مضارعَ خَلَقَ ، " إفكاً " بكسرِ الهمزةِ وسكونِ الفاء أي : وَتَخْتَلِقُوْن كذباً أو تَنْحِتُون أصناماً . وعلي بن أبي طالب وزيدُ بن علي والسُّلمي وقتادةُ بفتح الخاءِ واللامِ مشددةً ، وهو مضارعُ " تَخَلَّقَ " والأصلُ : تَتَخَلَّقُوْن بتاءَيْن ، فَحُذِفَت إحداهما كـ تَنزَّلُ ونحوه . ورُوي عن زيد بن علي أيضاً " تُخَلِّقُوْن " بضم التاء وتشديد اللام مضارعَ خَلَّق مضعَّفاً .

وقرأ ابن الزُّبير وفضيل بن زرْقان " أَفِكاً " بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدرٌ كالكَذِب معنىً ووزناً . وجَوَّز الزمخشري في الإفْك بالكسرِ والسكون وجهين ، أحدهما : أَنْ يكونَ مخففاً من الأَفِك بالفتح والكسر كالكِذْب واللِّعْب ، وأصلُهما الكَذِب واللَّعِب ، وأن يكونَ

صفةً على فِعْل أي خَلْقاً إفكاً أي : ذا إفك . قلتُ : وتقديرُه مضافاً قبل إفْك مع جَعْلِه له صفةً غيرُ محتاجٍ إليه ، وإنما كان يُحْتاجُ إليه لو جَعَلَه مصدراً .

قوله : " رِزْقاً " يجوز أن يكونَ منصوباً على المصدرِ ، وناصبُه " لا يَمْلِكون " لأنَّه في معناه . وعلى أصولِ الكوفيين يجوز أَنْ يكونَ الأصلُ : لا يملِكُون أن يَرْزُقوكم رِزْقاً ، ف " أَنْ يَرْزُقوكم " هو مفعولُ " يَمْلكون " . ويجوز أَنْ يكونَ بمعنى المَرْزوق ، فينتصبَ مفعولاً به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 13.15 ﴾

(170/595)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) ﴾

كَرَّرَ ذِكْرَ إبراهيم في هذا الموضع ، وكيف أقام على قومه الحُجَّة ، وأرشدهم إلى سَوَاءِ المحجة ، ولكنهم أصروا على ما جحدوا ، وتعصبوا لِمَا من الأصنام عبدوا ، وكادوا لإبراهيم كيداً . . ولكن انقلب ذلك عليهم من الله مكراً بهم واستدراجاً . ولم يَنْجَعْ فيهم نُصْحُه ، ولا وَجَد منهم مساغاً وَعْظُه .

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا

لا يُدْرَى أيهما أقبح . . هل أعمالكم في عبادة هذه الجمادات أم أقوالكم – فيما تزعمون كذباً – عن هذه الجمادات ؟ وهي لا تملك لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضراً ، ولا تملك لكم خيراً ولا شراً ، ولا تقدر أن تصيبكم بهذا أو ذاك .

وبيَّنَ أنهم في هذا لم يكونوا خالين عن ملاحظة الحظوظ وطلب الأرزاق فقال : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ لتَصِلوا إلى خير الدارَيْن .

وابتغاءُ الرزق من الله إدامةُ الصلاة ؛ فإن الصلاةَ استفتاحُ بابِ الرزق ، قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ [طه : 132] .

ويقال ابتغاء الرزق بشهود موضع الفاقة فعند ذلك تتوجه الرغبة إلى الله تعالى في استجلاب الرزق .

وفي الآية تقديمُ الرزقُ على الأمر بالعبادة ؛ لأنه لا يُمْكِنه القيام بالعبادة إلا بعد كفاية الأمر ؛ فبالقوة يمكنه أداء العبادة ، وبالرزق يجد القوة ، قالوا :

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه . . . فمكروهَ ما يلقى يكون جزاؤه

﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ : حيث كفاكم أمر الرزق حتى تفرغتم لعبادته .

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)

وبالُ التكذيب عائدٌ على المُكَذِّب ، وليس على الرسول – بعد تبليغه الرسالة بحيث لا يكون فيه تقصير كي يكون مُبَيِّناً – شيء آخر . وإلا يكون قد خرج عن عهدة الإلزام . وفيما حلَّ بالمكذِّبين من العقوبة ما ينبغي أن يكون عِبْرَةً لِمَنْ بعدهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 92 ﴾

(172/595)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/596)

الجزء السادس والتسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 19 ﴾ من سورة العنكبوت

وحتى الآية ﴿ 35 ﴾ من نفس السورة

(4/596)

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا

بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : ألم تروا إلى مصارعهم ؟ واتساق الحال في أمرهم ؟ فيكفيكم ذلك زاجراً ، عطف عليه للدلالة على الرجوع إليه منكراً قوله : ﴿ أو لم يروا ﴾ بالخطاب في قراءة حمزة والكسائي وفي رواية عن أبي بكر عن عاصم جرياً على النسق السابق ، وبالغيب للباقين ، إعراضاً للإيذان بالغضب ﴿ كيف يبدئ الله ﴾ أي الذي له كل كمال ﴿ الخلق ﴾ أي يجدد إبداءه في كل لحظة ، وهو بالضم من أبدأ ، وقرىء بالفتح من بدأ ، وهما معاً بمعنى الإنشاء من العدم ؛ قال القزاز : أبدأت الشيء أبدئه إبداء - إذا أنشأته ، والله المبدىء أي الذي بدأ الخلق ، يقال : بدأهم وأبدأهم ، وفي القاموس : بدأ الله الخلق : خلقهم كأبدأ . ورؤيتهم للإبداء موجودة في الحيوان للإبداء والإعادة في النبات ، ولا فرق في الإعادة بين شيء وشيء فيكون قوله - ﴿ ثم يعيده ﴾ أي يجدد إعادته في كل لحة - معطوفاً على ﴿ يبدئ ﴾ ولو لم يكن كذلك لكان عطفه عليه من حيث إن مشاهدة حال الابتداء جعلت مشاهدة لحال الإعادة من حيث إنه لا فرق ، ولا حاجة حينئذ إلى تكلف عطفه على الجملة من أولها .

ثم حقر أمره بالنسبة إلى عظيم قدرته ، فقال ذاكراً نتيجة الأمر السابق : ﴿ إن ذلك ﴾ أي الإبداء والإعادة ، وأكد لأجل إنكارهم ﴿ على الله يسير ﴾ لأنه الجامع لكل كمال ، المنزه عن كل شائبة نقص .

ولما ساق العزيز الجليل هذا الدليل ، عما حاج به قومه الخليل ، انتهزت الفرصة في إرشاد نبيه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام والتحية والإكرام ، وذلك أنه لما استدل عليه السلام على الوحدانية المستلزمة للقدرة على المعاد بإبطال إلهية معبوداتهم المستلزم لإبطال كل ما شاكلها ، فحصل الاستعداد للتصريح بأمر المعاد ، فصرح به ، كان ذلك فخراً عظيماً ، ومفصلاً بيناً جسيماً ، لإقامة الحجة على قريش وسائر العرب ، فانتهزت فرصته واقتحمت لجته ، كما هي عادة البلغاء ، ودأب الفصحاء الحكماء ، لأن ذلك كله إنما سيق تسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعظاً لقومه فقيل : ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء الذين تقيدوا بما تقلدوا من مذاهب آبائهم من غير شبهة على صحته أصلاً : قد ثبت أن هذا كلام الله لما ثبت من عجزكم عن معارضته ، فثبت أن هذا الدليل كلام أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأنتم مصرحون بتقليد الآباء غير متحاشين من معرته ولا أب لكم أعظم من إبراهيم عليه الصلاة و السلام ، فإذا قلدتم من لا يفارقه في عبادة ما لا يضر ولا ينفع من غير شبهة أصلاً فقلدوا أباكم الأعظم في عبادة الله وحده لكونه أباكم ، ولما أقام على ذلك

من الأدلة التي لا مراء فيها قال : أو ﴿ سيروا ﴾ إن لم تقتدوا بأبيكم إبراهيم عليه السلام ، وتتأملوا ما أقام من الدليل القاطع والبرهان الساطع ﴿ في الأرض ﴾ إن لم يكفكم النظر في أحوال بلادكم .

(6/596)

ولما كان السياق لإثبات الإلهية التي تجب المبادرة إلى تفريغ الفكر وتوجيه كل الذهن إلى الاستدلال عليها ، عبر بالفاء المعقبة فقال : ﴿ فانظروا ﴾ أي نظر اعتبار ﴿ كيف بدأ ﴾ أي ربكم الذي خلقكم ورزقكم ﴿ الخلق ﴾ من الحيوانات والنبات من الزروع والأشجار ، وغيرها مما تضمنته الجبال والسهول والأوعار ، وهذا يدل على أن الأول فيما هو أعم من الحيوان ، فتقريرهم على الإعادة فيه حسن .

ولما كان المقصود بالذات بيان الإعادة التي هي من أجل مقاصد السورة ، لإظهار ما مضى أولها من العدل يوم الفصل ، وكانوا بها مكذبين ، بين الاهتمام بأمرها بإبراز الاسم الأعظم بعد تكريره في هذا السياق غير مرة ، وأضمره في سياق البداءة لإقرارهم له بها ، إشارة إلى أنه باطن في هذه الدار ، ظاهر بجميع الصفات في تلك ، فقال : ﴿ ثم الله ﴾ أي الحائز لجميع صفات الكمال فلا يفوته شيء ، المتردي بالجلال ، فاخشوا سطوته ، واتقوا عقوبته ونقمته

﴿ ينشئ النشأة الآخرة ﴾ بعد النشأة الأولى .

ثم علل ذلك بقوله مؤكداً تنزيلاً لهم منزلة المنكر لإنكارهم البعث : ﴿ إن الله ﴾ فكرر ذكره تنبيهاً بعد التيمن به على ما ذكره وعلى أنه في كل أفعاله لا سيما هذا مطلق غير مقيد بجهة من الجهات ، ولا مشروط بأمر من الأمور ﴿ على كل شيء قدير ﴾ لأن نسبة الأشياء كلها إليه واحدة .

ولما ثبت ذلك ، أنتج لا محالة قوله : مهدداً بعد البيان الذي ليس بعده إلا العناد : ﴿ يعذب ﴾ بعدله ﴿ من يشاء ﴾ أي منكم ومن غيركم في الدنيا والآخرة ، فلا يقدر أحد بشفاعة ولا غيرها على الحماية منه ﴿ ويرحم ﴾ بفضله ﴿ من يشاء ﴾ فلا يقدر أحد على أن يمسه بسوء ﴿ وإليه ﴾ أي وحده ﴿ تقلبون ﴾ أي بعد موتكم بأيسر سعي .

ولما لم يبق للقدرة على إعادتهم مانع يدعي إلا ممانعتهم منها ، أبطلها على تقدير ادعائهم لها فقال : ﴿ وما أنتم ﴾ أي أجمعون العرب وغيرهم ﴿ بمعجزين ﴾ أي بواقع إعجازهم في بعثكم وتعذيبكم ﴿ في الأرض ﴾ كيفما تقلبتم في ظاهرها وباطنها .

(7/596)

ولما كان الكلام هنا له أتم نظر إلى ما بعد البعث ، وكانت الأحوال هناك خارجة عما يستقل به العقل ، وكان أثر القدرة أتم وأكمل ، وأهم وأشمل ، وكان بعض الأرواح يكون في السماء بعد الموت قال : ﴿ ولا في السماء ﴾ أي لو فرض انكم وصلتم إليها بعد الموت بالحشر أو قبله ، لأن الكل بعض ملكه ، فكيف يعجزه من في ملكه ، ويمكن أن يكون له نظر إلى قصة نمرود في بنائه الصرح الذي أراد به التوصل إلى السماء لا سيما والآيات مكتنفة بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قبلها ومن بعدها .

ولما اخبرهم أنهم مقدور عليهم ، وكان ربما بقي احتمال أن غيرهم ينصرهم ، صرح بنفيه فقال : ﴿ وما لكم ﴾ أي أجمعين أنتم وغيركم أيها المحشورون ، وأشار إلى سفول رتبة كل من سواه بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي هو أعظم من كل عظيم ؛ وأكد النفي بإثبات الجار فقال : ﴿ من ولي ﴾ أي قريب يحميكم لأجل القرابة ﴿ ولا نصير ﴾ لشيء غير ذلك لأنه لا كفوء له .

ولما كان التقدير : فالذين آمنوا بآيات ربهم ولقائه أولئك يرجون رحمتي وأولئك لهم نعيم مقيم ، وكان قد أمرهم بالاستدلال ، وهددهم ليرجعوا عن الضلال ، بما أبقى للرجال بعض المحال ، أتبعه ما قطعه ، فقال عاطفاً على ذلك المقدر : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي ستروا ما أظهرته لهم أنوار العقول ﴿ بآيات الله ﴾ أي دلائل الملك الأعظم المرئية والمسموعة التي لا أوضح منها ﴿ ولقائه ﴾ بالبعث بعد الموت الذي أخبر به وأقام الدليل

على قدرته عليه بما لا أجلى منه ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء البعيد والفهم المحطوطون عن رتبة الإنسان ، بل رتبة مطلق الحيوان ﴿ يئسوا ﴾ أي تحقق يأسهم من الآن ، بل من الأزل ، لأنهم لم يرجوا لقاء الله يوماً ؛ ولا قال أحد منهم ﴿ رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ .

(8/596)

ولما كان أكثرهم متعنتاً ، بين أن المتكلم بهذا الكلام ، العالي عن متناول الأنام ، هو الله المنوه باسمه في هذا النظام ، بالالتفات إلى أسلوب التلكم ، تنبيهاً لمفات السامعين بما ملأ الصدور وقصم الظهور فقال : ﴿ من رحمتي ﴾ أي من أن أفعل بهم من الإكرام بدخول الجنة وغيرها فعل الراحم ؛ وكرر الإشارة تفخيماً للأمر فقال : ﴿ وأولئك ﴾ أي الذين ليس بعد بعدهم بعد ، وتهكم بهم في التعبير بلام الملك التي يغلب استعمالها في المحبوب فقال : ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ أي مؤلم بالغ إيلامه في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 547.550 ﴾

(9/596)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) ﴾

لما بين الأصل الأول وهو التوحيد وأشار إلى الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، وقد ذكرنا مراراً أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الإلهي ، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

الإنسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىء الله ﴾ ؟ فنقول المراد العلم الواضح الذي كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أول ، فهو من الله هذا إن قلنا إن المراد إثبات نفس الخلق ، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمي أولاً وبالإعادة خلقه ثانياً ، فنقول العاقل لا يخفى عليه أن خالق نفسه (1) ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد في الأرحام ، ويخلقه من نطفة في غاية الإتقان والإحكام ، فذلك الذي خلق أولاً معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ

الرؤية ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي ألم يعلموا علماً ظاهراً واضحاً ﴿ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخلق ﴾ يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة إليكم ، فإن من نحت حجارات ووضع شيئاً بجنب شيء ففرقه أمر ما فإنه يقول وضعه شيئاً بجنب شيء في هذه النوبة أسهل علي لأن الحجارات منحوتة ، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بجنب الأخرى ، وعلى هذا المخرج خرج كلام الله في قوله ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ ﴾ [الروم : 27] وإليه الإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ .

---

(1) المراد بنفسه هنا نفس الإنسان فهو من إضافة اسم الفاعل لمفعوله له لا لفاعله كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، تعالى الله عن الشبه والمثل والنظير .

(10/596)

المسألة الثانية :

قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخلق ﴾ علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال : أو لم يروا أن الله خلق ، أو بدأ الخلق ، والكيفية غير معلومة ؟ فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم ، وهو أنه خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً ، وأنه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة فإن الإعادة مثله .

المسألة الثالثة :

لم قال : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ فأبرز اسمه مرة أخرى ، ولم يقل إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير إبراز ؟ نقول مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده بإظهار اسمه فإنه يوجب المعرفة أيضاً بكون ذلك يسيراً ، فإن الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحي القادر ، بقدرة كاملة ، لا يعجزه شيء ، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم ، نافذ الإرادة لا رادَّ لما أراده ، يقطع بجواز الإعادة .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ، وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري ، وهذا لأن الإنسان له مراتب في الإدراك بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له ، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة وبعضهم لا يفهمه أصلاً فقال : إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا في الأرض ، أي سيروا فكركم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه ؟ نقول العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين ، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضي إلى الرؤية ، يقال نظرت فرأيت والمفضي إلى الشيء دون ذلك الشيء ، فقال في الأول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية .

المسألة الثانية :

ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفي الآية الأولى بصيغة الاستفهام لأن العلم الحدسي إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل ، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب لأن بالطلب يصير الحاصل فكرياً فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق ، وأما العلم الفكري فهو مقدور فورد الأمر به .

المسألة الثالثة :

أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال : ﴿ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ ﴾ وأضمره عند الإعادة وفي هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة حيث قال : ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنشِىءُ ﴾ لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال : ﴿ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ ﴾ ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكراً ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول ، وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقوله القائل أما علمت كيف خرج زيد ، اسمع مني كيف خرج ، ولا يظهر اسم زيد ، وأما إظهاره عند الإنشاء ثانياً حيث قال : ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنشِىءُ ﴾ مع أنه كان يكفي أن يقول : ثم ينشيء النشأة الآخرة ، فلحكمة بالغة وهي ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسماً من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الإعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ليقع في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته ، فإن قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة ؟ نقول لوجهين أحدهما : أن الله كان مظهراً مبرزاً بقرب منه وهو في قوله : ﴿ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخلق ﴾ ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن مذكوراً عند البدء فأظهره وثانيهما : أن الدليل ههنا تم على جواز الإعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفي الأنفس ، كما قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتنا فِى الأفاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] وفي الآية الأولى أشار إلى

الدليل النفسي الحاصل لهذا الإنسان من نفسه ، وفي الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض ﴾ وعندهما تم الدليلان ، فأكده بإظهار اسمه ، وأما الدليل الأول فأكده بالدليل الثاني ، فلم يقل ثم الله يعيده .

المسألة الرابعة :

(13/596)

في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِىءُ ﴾ وههنا قال بلفظ الماضي فقال : ﴿ فانظروا كَيْفَ بَدَأَ ﴾ ولم يقل كيف يبدأ ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسي الموجب للعلم الحدسي وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق ، فقال إن كان ليس لكم علم بأن الله في كل حال يبدأ خلقاً فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً ، ويحصل المطلوب من هذا القدر فإنه ينشيء كما بدأ ذلك .

المسألة الخامسة :

قال في هذه الآية ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال في الآية الأولى ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ وفيه فائدتان إحداهما : أن الدليل الأول هو الدليل النفسي ، وهو وإن كان موجبه العلم الحدسي التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام ، لأنه بالنظر في

نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه ، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه ، فتم علمه بأن كل شيء من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال عند الدليل الواحد ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ وهو إعادته ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾

الثانية : هي أنا بينا أن العلم الأول أتم وإن كان الثاني أعم وكون الأمر يسيراً على الفاعل أتم من كونه مقدوراً له بدليل أن القائل يقول في حق من يحمل مائة من أنه قادر عليه ولا يقول إنه سهل عليه ، فإذا سئل عن حمله عشرة أمنان يقول إن ذلك عليه يسير ، فنقول قال الله تعالى إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الأمور عند الله سهل يسير فسيروا في الأرض لتعلموا أنه مقدور ، ونفس كونه مقدوراً كاف في إمكان الإعادة .

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21)

لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة ، وإثابة أهل الإنابة فضلاً ورحمة ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكياً عنه " سبقت رحمتي غضبي " فنقول ذلك لوجهين أحدهما : أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد وعقبه بالرحمة ، وكما ذكر ، بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد التهديد بقوله : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ ﴾ [العنكبوت : 18] وأهلكوا بالتكذيب كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الآخر التهديد بذكر التعذيب ، وذكر الرحمة وقع تبعاً لئلا يكون العذاب مذكوراً وحده وهذا يحقق قوله : (سبقت رحمتي غضبي) وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه في الذكر بل ذكر الرحمة معه .

المسألة الثانية :

إذا كان ذكر هذا لتخويف العاصي وتفريح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل في تحصيل المقصود وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ لا يزجر الكافر لجواز أن يقول لعلي لا أكون ممن يشاء الله عذابه ، فنقول : هذا أبلغ في التخويف ، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ، ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإيعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد ، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصي ، فإنه لا يدل على كمال مشيئته ، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه ، فإذا لم يفد هذا فيقول الكافر إذا لم يحصل مراده في تلك الصورة يمكن أن يحصل في صورة أخرى ،

ولنضرب له مثلاً فنقول : إذا قيل إن الملك يقدر على ضرب كل من في بلاده وقال من خالفني أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه ، وإذا قيل إنه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين ، فإذا قال من خالفني أضربه يقع في وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع ، فلا يقدر علي أيضاً لكوني مثله ، وفي هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام ، لأن الأمن الكلي من الله يوجب الجراءة فيفضي إلى صيرورة المطيع عاصياً .

(15/596)

المسألة الثالثة :

قال : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ مع أن هذه المسألة قد سبق إثباتها وتقريرها فلم أعادها ؟ فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين ، فقال تعالى : فإن تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات ، فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ، ولهذا قال بعدها ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ يعني لا تفوتون الله بل الانقلاب إليه ولا يمكن الإنفلات منه ، وفي تفسير هذه الآية لطائف إحداها : هي إعجاز المعذب عن التعذيب إما بالهرب منه أو الثبات له والمقاومة معه للدفع ، وذكر الله القسمين فقال :

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِى السماء ﴾ يعني بالهرب لو صعدتم إلى محل السماك في السماء أو هبطتم إلى موضع السموك في الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع في الإعجاز بالهرب ، وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال ، فإنكم مالكم من دون الله ولي يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز لا بالهروب ولا بالثبات الثانية : قال : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ولم يقل لا تعجزون بصيغة الفعل ، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية ، فإن من قال إن فلاناً لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله إنه ليس بخياط الثالثة : قدم الأرض على السماء ، والولي على النصير ، لأن هربهم الممكن في الأرض ، فإن كان يقع منهم هرب يكون في الأرض ، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود في السماء ، وأما الدفع فإن العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقي إلى غيره ، والشفاعة أجمل .

ولأن ما من أحد في الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم في حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادي الملك لأجله .

(16/596)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)

لما بين الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال : ﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات الله وَلِقَائِهِ ﴾ إشارة إلى الكفار بالله ، فإن لله في كل شيء آية دالة على وحدانيته ، فإذا أشرك كفر بآيات الله وإشارة إلى المنكر للحشر فإن من أنكره كفر بلقاء الله فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾ لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم ، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلاً للرحمة ، فإذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين فييأسوا من رحمة الله ، ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقاً للأمر عليهم ، وهذا كما أن الملك إذا قال أعذب من يخالفني فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل إلي ، فإذا أحضر بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت أم لا ، فإذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك ، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر .

(17/596)

ثم إن في الآية فوائد إحداها : قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ يَئِسُواْ ﴾ حتى يكون منبئاً عن حصر الناس فيهم وقال أيضاً ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لذلك ، ولو قال : أولئك الذين كفروا بآيات الله

ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم ، ما كان يحصل هذه الفائدة فإن قال قائل لو اكتفي بقوله ﴿ أولئك ﴾ مرة واحدة كان يكفي في إفادة ما ذكر ، ثم قلنا لا وذلك لأنه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب ، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم ، فلا يوجد المجموع إلا فيهم ولكن واحداً منهما وحده يمكن أن يوجد في غيرهم ، فإذا قال أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم الثانية : عند ذكر الرحمة أضافها إلى نفسه فقال رحمتي وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته وإعلاماً لعباده بعمومها لهم ولزومها له الثالثة : أضاف اليأس إليهم بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ يَئِسُواْ ﴾ فحرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم ، فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الأمرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضي أن لا يكون العذاب الأليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر ، أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول : معنى الآية أنهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ، ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون إلا للكافر بالحشر ، وأما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمناً بالله لأن الإيمان به لا يصح إلا إذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 45.41 ﴾

(18/596)

وقال ابن عطية :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخلق ﴾

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم بخلاف عنه " أو لم تروا " بالتاء ، وقرأ الباقون " أو لم يروا " بالياء ، الأولى على المخاطبة والثانية على الحكاية عن الغائب .

وقرأ الجمهور " يبدىء " وقرأ عيسى وأبو عمرو بخلاف والزهري " يبدأ " وهذه الإحالة على ما يظهر مع الأحيان من إحياء الأرض والنبات وإعادته ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور والحشر ، ويحتمل أن يريد ﴿ أو لم يروا ﴾ بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعد الله الأجسام بعد الموت وهو تأويل قتادة ، وقال الربيع ابن أنس : كيف يبدأ الخلق الإنسان ثم يعيده إلى أحوال أخر حتى إلى التراب ، وقال مقاتل ﴿ الخلق ﴾ في هذه الآية الليل والنهار ، ثم أمر تعالى نبيه ، ويحتمل أن يكون إبراهيم ، ويحتمل أن يكون محمداً ، إن كان في قصة إبراهيم اعتراض بين كلامين بأن يأمرهم على جهة الاحتجاج بالسير في الأرض والنظر في كل قطر وفي كل أمة قديماً وحديثاً ، فإن ذلك يوجد أن لا خالق إلا الله تعالى ولا يبتدىء بالخلق سواه ، ثم ساق على جهة الخبر أن الله تعالى يعيد وينشيء نشأة القيام من القبور ، وقرأت فرقة " النشأة " ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " النشاءة " على وزن الفعالة وهي قراءة الأعرج ، وهذا كما تقول رأفة ورآفة ، وقرأ الباقون " النشأة " على وزن الفعلة ،

وقرأ الزهري " النشّة " بشين مشددة في جميع القرآن ، والبعث من القبور يقوم دليل العقل على جوازه وأخبرت الشرائع وقوعه ووجوده .

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21)

(19/596)

المعنى ييسر من يشاء لأعمال من حق عليه العذاب وييسر من يشاء لأعمال من سبقت له الرحمة فيتعلق الثواب والعقاب بالاكتساب المقترن الاختراع الذي لله تعالى في أعمال العبد ، ثم أخبر أن إليه المنقلب وأن البشر ليس بمعجز ولا مفلت ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ السماء ﴾ الهواء علواً أي ليس للإنسان حيلة صعد أو نزل حكى نحوه الزهراوي ويحتمل أن يريد ﴿ السماء ﴾ المعروفة أي لستم ﴿ بمعجزين في الأرض ولا ﴾ ولو كنتم ﴿ في السماء ﴾ ، وقال ابن زيد معناه ولا من في السماء معجز إن عصى ونظروه على هذا بقول حسان بن ثابت : [الوافر]

أمن يهجو رسول الله منا . . . ويمدحه وينصره سواء

والتأويل الأوسط أحسنها .

ونحوه قول الأعشى : [الطويل]

ولو كنت في جب ثمانين قامة . . . ولقيت أسباب السماء بسلم

ليعتورنك القول حتى تهزه . . . وتعلم أني لست عنك بمحرم

و" الولي " أخص من " النصير ، وقرأ يحيى بن الحارث وابن القعقاع " ييسوا " من غير همز ، قال قتادة ذم الله تعالى قوماً هانوا عليه فقال ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وما تقدم من قوله تعالى ﴿ أو لم يروا كيف ﴾ [العنكبوت : 19] إلى هذه الآية المستأنفة ، يحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم ، ويحتمل أن يكون خطاباً لإبراهيم ومحاورة لقومه ، وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(20/596)

وقال ابن الجوزى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوا ﴾

[قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ﴿ يَرَوا ﴾] بالياء وقرأ حمزة ، والكسائي : بالتاء .

[وعن عاصم كالقراءتين] .

وعنى بالكلام كفار مكة ﴿ كيف يُبْدِىء اللّهُ الخَلْق ﴾ أي : كيف يخلُقهم ابتداءً من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضغة إلى أن يتم الخلق ﴿ ثُمَّ يُعيده ﴾ أي : ثم هو يُعيده في الآخرة عند البعث .

وقال أبو عبيدة : مجازه : أولم يَرَوا كيف استأنف الله الخلق الأوّل ثم يعيده .

وفيه لغتان : أبدأ وأعاد ، وكان مُبدئاً ومُعيداً ، وبدأ وعاد ، وكان بادئاً وعائداً .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ ذلك على الله يسير ﴾ يعني الخَلْق الأول والخَلْق الثاني .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيروا في الأرض ﴾ أي : انظروا إلى المخلوقات التي في الأرض ، وابحثوا عنها هل تجدون لها خالقاً غير الله ، فإذا علموا أنه لا خالق لهم سواه ، لزمتهم الحجة في الإعادة ، وهو قوله : ﴿ ثُمَّ اللّهُ يُنشىء النشَأَة الآخرة ﴾ أي : ثم الله ينشئهم عند البعث نشأة أخرى .

وأكثر القراء قرؤوا : ﴿ النَّشْأَة ﴾ بتسكين الشين وترك المد .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ النَّشاءَة ﴾ بالمد .

قوله تعالى : ﴿ يعذِّب من يشاء ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنَّه في الآخرة بعد إنشائهم .

والثاني : أنَّه في الدنيا .

ثم فيه خمسة أقوال حكاها الماوردي .

أحدها : يعذِّب من يشاء بالحرص ، ويرحم من يشاء بالقناعة .

والثاني : يعذِّب بسوء الخُلُق ويرحم بحُسْن الخُلُق .

والثالث : يعذِّب بمتابعة البدعة ، ويرحم بملازمة السُّنَّة .

والرابع : يعذِّب بالانقطاع إلى الدنيا ، ويرحم بالإعراض عنها .

والخامس : يعذِّب من يشاء ببغض الناس له ، ويرحم من يشاء بحبِّ الناس له .

قوله تعالى : ﴿ وإليه تُقْلَبون ﴾ أي : تُرَدُّون ﴿ وما أنتم بمُعْجِزِين في الأرض ﴾ فيه قولان حكاهما الزجاج .

أحدهما : وما أنتم بمعجزين في الأرض ، ولا أهلُ السماء بمعجزين في السماء .

(21/596)

والثاني : وما أنتم بمعجزين في الأرض ، ولا لو كنتم في السماء وقال قطرب : هذا كقولك : ما يفوتني فلان لا هاهنا ولا بالبصرة ، أي : ولا بالبصرة لو صار إليها .

قال مقاتل : والخطاب لكفار مكة ؛ والمعنى : لا تَسبقون الله حتى يجزيَكم بأعمالكم السيِّئة ، ﴿ وما لكم مِنْ دون الله مِنْ وليٍّ ﴾ أي : قريب ينفعكم ﴿ ولا نصيرٍ ﴾ يمنعكم من الله .

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه ﴾ أي : بالقرآن والبعث ﴿ أولئك يَئِسوا مِنْ رحمتي ﴾ في الرحمة قولان .

أحدهما : الجنة ، قاله مقاتل .

والثاني : العفو والمغفرة ، قاله أبو سليمان .

قال ابن جرير : وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(22/596)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِيءُ الله الخلق ﴾

قراءة العامة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

قال أبو عبيد : لذكر الأمم كأنه قال أوَلَم ير الأمم كيف .

وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائي : ﴿ تَرَوْا ﴾ بالتاء خطاباً ؛ لقوله : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا ﴾ .

وقد قيل : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا ﴾ خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعني الخلق والبعث .

وقيل : المعنى أولَم يروا كيف يبدىء الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً .

وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً ، وخلق من الولد ولداً .

وكذلك سائر الحيوان .

أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ﴾ أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض ﴿ فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم ؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله .

﴿ ثُمَّ الله يُنشِىءُ النشأة الآخرة ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير : ﴿ النَّشَاءَةَ ﴾ بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفةِ والرآفةِ وشبهه .

الجوهري : أنشأه الله خلقه ، والاسم النشأة والنشاءة بالمدّ عن أبي عمرو بن العلاء .

﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي بعدله .

﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي بفضله .

﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ترجعون وتردون .

﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السمآء ﴾ قال الفرّاء : معناه ولا من في السماء بمعجزين الله وهو غامض في العربية ؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني .

وهو كقول حسان :

فمن يَهْجو رسول اللَّهِ منكم . . .

ويَمدحُهُ ويَنصرُه سَواءُ

(23/596)

أراد ومَن يمدحه وينصره سواء ؛ فأضمر مَن ؛ وقاله عبد الرحمن بن زيد .

ونظيره قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] أي مَن له .

والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء إن عصوه .

وقال قُطْرُب : ولا في السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتني فلان بالبصرة ولا ها هنا ، بمعنى لا يفوتني بالبصرة لو صار أليها .

وقيل : لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في السماء .

وقال المبرّد : والمعنى ولا مَن في السماء على مَن ليست موصولة ولكن تكون نكرة و ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ صفة لها ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف .

وردّ ذلك عليّ بن سليمان .

وقال : لا يجوز .

وقال : إن مَن إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة ، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة ؛ قال : والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون ؛ والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله ؛ كما قال : ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ويجوز ﴿ نَصِيرٌ ﴾ بالرفع على الموضع ، وتكون ﴿ مِن ﴾ زائدة .

﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَآئِهِ ﴾ أي بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام .

﴿ أولئك يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي ﴾ أي من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أويسوا .

وهذه الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(24/596)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ف ﴾

ذكر هذه القصة تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لما كان يلقى من أذى الكفار .

فذكر ما لقي أول الرسل ، وهو نوح ، من أذى قومه ، المدد المتطاولة ، تسلية لخاتم الرسل صلوات الله عليه .

والواو في ﴿ ولقد ﴾ واو عطف ، عطفت جملة على جملة .

قال ابن عطية : والقسم فيها بعيد ، يعني أن يكون المقسم به قد حذف وبقي حرفه وجوابه ، وفيه حذف المجرور وإبقاء حرف الجار ، وحرف الجر لا يعلق عن عمله ، بل لا بد له من ذكره .

والظاهر أنه أقام في قومه هذه المدة المذكورة يدعوهم إلى الله .

وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة إقامته في قومه ، من لدن مولده إلى غرق قومه . انتهى .

وليس عندي محتملاً ، لأن اللبث متعقب بالفاء الدالة على التعقيب ، واختلف في مقدار عمره ، حين كان بعث وحين مات ، اختلافاً مضطرباً متكاذباً ، تركنا حكايته في كتابنا ، وهو في كتب التفسير .

والاستثناء من الألف استدل به على جواز الاستثناء من العدد ، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلاف مذكور في النحو ، وقد عمل الفقهاء المسائل على جواز ذلك ، وغاير بين تمييز المستثنى منه وتمييز المستثنى ، لأن التكرار في الكلام الواحد مجتنب في البلاغة ، إلا

إذا كان لغرض من تفخيم ، أو تهويل ، أو تنويه .

ولأن التعبير عن المدة المذكورة بما عبر به ، لأن ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكبر منه أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره ، ولإزالة التوهم الذي يجيء مع قوله : تسعمائة وخمسون عاماً ، بأن ذلك على سبيل المبالغة لا التمام ، والاستثناء يرفع ذلك التوهم المجازي .

وتقدمت وقعة نوح بأكمل مما هنا ، والخلاف في عدد من آمن ودخل السفينة .

(25/596)

والضمير في ﴿ وجعلناها ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿ السفينة ﴾ ، وأن يعود على الحادثة والقصة ، وأفرد ﴿ آية ﴾ وجاء بالفاصلة ﴿ للعالمين ﴾ ، لأن إنجاء السفن أمر معهود . فالآية إنجاؤه تعالى أصحاب السفينة وقت الحاجة ، ولأنها بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس ورأوها ، فحصل العلم بها لهم ، فناسب ذلك قوله : ﴿ للعالمين ﴾ ، وانتصب ﴿ إبراهيم ﴾ عطفاً على ﴿ نوحاً ﴾ .

قال ابن عطية : أو على الضمير في ﴿ فأنجيناه ﴾ .

وقال هو والزمخشري : بتقدير اذكروا بدل منه ، إذ بدل اشتمال منه ، لأن الأحيان تشتمل

على ما فيها ، وقد تقدّم لنا أن إذ ظرف لا يتطرف ، فلا يكون مفعولاً به ، وقد كثر تمثيل المعربين ، إذ في القرآن بأن العامل فيها اذكر ، وإذا كانت ظرفاً لما مضى ، فهو لو كان منصرفاً ، لم يجز أن يكون معمولاً لأذكر ، لأن المستقبل لا يقع في الماضي ، لا يجوز ثم أمس ، فإن كان خلع من الظرفية الماضية وتصرف فيه ، جاز أن يكون مفعولاً به ومعمولاً لأذكر .

وقرأ النخعي ، وأبو جعفر ، وأبو حنيفة ، وإبراهيم : بالرفع ، أي : ومن المرسلين إبراهيم .

وهذه القصة تمثيل لقريش ، وتذكير لحال أبيهم إبراهيم من رفض الأصنام ، والدعوى إلى عبادة الله ، وكان نمروذ وأهل مدينة عباد أصنام .

وقرأ الجمهور : ﴿ وتخلقون ﴾ ، مضارع خلق ، ﴿ إفكاً ﴾ ، بكسر الهمزة وسكون الفاء .

وقرأ علي ، والسلمي ، وعون العقيلي ، وعبادة ، وابن أبي ليلى ، وزيد بن علي : بفتح التاء والخاء واللام مشددة .

قال ابن مجاهد : رويت عن ابن الزبير ، أصله : تتخلقون ، بتاءين ، فحذفت إحداهما على الخلاف الذي في المحذوفة .

وقرأ زيد بن علي أيضاً ، فيما ذكر الأهوازي : تخلقون ، من خلق المشدد .

وقرأ ابن الزبير ، وفضيل بن زرقان : أفكاً ، بفتح الهمزة وكسر الفاء ، وهو مصدر مثل الكذب .

قال ابن عباس : ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ ، هو نحت الأصنام وخلقها ، سماها إفكاً توسعاً من حيث يفترون بها الإفك في أنها آلهة .

(26/596)

وقال مجاهد : هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان وغير ذلك .

وقال الزمخشري : إفكاً فيه وجهان : أحدهما : أن تكون مصدراً نحو : كذب ولعب ، والإفك مخفف منه ، كالكذب واللعب من أصلهما ، وأن تكون صفة على فعل ، أي خلقا إفكاً ، ذا إفك وباطل ، واختلافهم الإفك تسمية الأوثان آلهة وشركاء لله وشفعاء إليه ، أو سمي الأصنام إفكاً ، وعملهم لها ونحتهم خلقاً للإفك . انتهى .

وهذا الترديد منه في نحو : ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ ، قولان لابن عباس ومجاهد ، وقد تقدم لنا نقلهما عنهما ونفيهم بقوله : ﴿ لا يملكون لكم رزقاً ﴾ على جهة الاحتجاج بأمر يفهمه عامّتهم وخاصتهم ، فقرر أن الأصنام لا ترزق ، والرزق يحتمل أن يريد به المصدر : لا يملكون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ، واحتمل أن يكون اسم المرزوق ، أي لا يملكون لكم إيتاء رزق ولا تحصيله ، وخص الرزق لمكانته من الخلق .

ثم أمرهم بابتغاء الرزق ممن هو يملكه ويؤتيه ، وذكر الرزق لأن المقصود أنهم لا يقدرون على

شيء منه ، وعرفه بعد لدلالته على العموم ، لأنه تعالى عنده الأرزاق كلها .

﴿ واشكروا له ﴾ على نعمة السابغة من الرزق وغيره .

﴿ وإليه ترجعون ﴾ : أي إلى جزائه ، أخبر بالمعاد والحشر .

ثم قال : ﴿ وإن تكذبوا ﴾ : أي ليس هذا مبتكراً منكم ، وقد سبق ذلك من أمم الرسل ، قيل : قوم شيث وإدريس وغيرهم .

وروي أن إدريس عليه السلام عاش في قومه ألف سنة ، فآمن به ألف إنسان على عدد سنيه ، وباقيهم على التكذيب .

﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ : تقدم الكلام على مثل هذه الجملة .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، بخلاف عنه : تروا ، بتاء الخطاب ؛ وباقي السبعة : بالياء .

والجمهور : يبدىء ، مضارع أبدأ ؛ والزبير .

وعيسى ، وأبو عمرو : بخلاف عنه : يبدأ ، مضارع بدأ .

وقرأ الزهري : ﴿ كيف بدأ الخلق ﴾ ، بتخفيف الهمزة بإبدالها ألفاً ، فذهبت في الوصل ، وهو تخفيف غير قياسي ، كما قال الشاعر :

فارعى فزارة لا هناك المرتع . . .

وقياس تخفيف هذا التسهيل بين بين ، وتقريرهم على رؤية بدء الخلق في قوله : ﴿ أو لم يروا ﴾ ، وفي : ﴿ فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ ، إنما هو لمشاهدتهم إحياء الأرض بالنبات ، وإخراج أشياء من العدم إلى الوجود ، وقوله : ﴿ ثم يعيده ﴾ ، وقوله : ﴿ ثم الله ينشىء ﴾ ، ليس داخلاً تحت الرؤية ولا تحت النظر ، فليس ﴿ ثم يعيده ﴾ معطوفاً على يبدىء ، ولا ﴿ ثم ينشىء ﴾ داخلاً تحت كيفية النظر في البدء ، بل هما جملتان مستأنفتان ، إخباراً من الله تعالى بالإعادة بعد الموت .

وقدم ما قبل هاتين الجملتين على سبيل الدلالة على إمكان ذلك ، فإذا أمكن ذلك وأخبر الصادق بوقوعه ، صار واجباً مقطوعاً بعلمة ، ولا شك فيه .

وقال قتادة : ﴿ أو لم يروا ﴾ ، بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الأجسام بعد الموت ؟ وقال الربيع بن أنس المعنى : كيف يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده إلى أحوال أخر ، حتى إلى التراب ؟ وقال مقاتل : الخلق هنا الليل والنهار .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : النشاءة هنا ، وفي النجم والواقعة على وزن فعالة ؛ وباقي السبعة : النشأة ، على وزن فعلة ، وهما كالرآفة والرأفة ، وهما لغتان ، والقصر أشهر ، وانتصابه على المصدر ، إما على غير المصدر قام مقام الإنشاء ، وإما على إضمار فعله ، أي فتنشئون النشأة .

وفي الآية الأولى صرح باسمه تعالى في قوله : ﴿ كيف يبدىء الله الخلق ﴾ ، ثم أضمر في قوله ﴿ ثم يعيده ﴾ ، وهنا عكس أضمر في بدا ، ثم أبرزه في قوله : ﴿ ثم الله ينشىء ﴾ ، حتى لا تخلو الجملتان من صريح اسمه .

ودل إبرازه هنا على تفخيم النشأة الآخرة وتعظيم أمرها وتقرير وجودها ، إذ كان نزاع الكفار فيها ، فكأنه قيل : ثم ذلك الذي بدأ الخلق هو الذي ﴿ ينشىء النشأة الآخرة ﴾ ، فكان التصريح باسمه أفخم في إسناد النشأة إليه .

والآخرة صفة للنشأة ، فهما نشأتان : نشأة اختراع من العدم ، ونشأة إعادة .

ثم ذكر الصفة التي النشأة هي بعض مقدوراتها .

(28/596)

ثم أخبر بأنه ﴿ يعذب من يشاء ﴾ ، أي تعذيبه ، ﴿ ويرحم من يشاء ﴾ رحمته ، وبدأ بالعذاب ، لأن الكلام هو مع الكفار مكذبي الرسل .

﴿ وإليه تقلبون ﴾ : أي تردون .

وقال الزمخشري : ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن ، وهو يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا ، ومن المعصوم والتائب .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ : أي فائتين ما أراد الله لكم .

﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ ، إن حمل السماء على العلو فجائز ، أي في البروج والقلاع الذاهبة في العلو ، ويكون تخصيصاً بعد تعميم ، أو على المظلة ، فيحتاج إلى تقرير ، أي لو صرتم فيها ، ونظيره قول الأعشى :

ولو كنت في جب ثمانين قامة . . .

ورقيت أسباب السماء بسلم

ليعتورنك القول حتى تهزه . . .

وتعلم أني فيك لست بمجرم

وقوله تعالى : ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ﴾ على تقدير الحكم لو كنتم فيها ،

﴿ والأرض فانفذوا ﴾ وقال ابن زيد ، والفراء : التقدير : ولا من في السماء ، أي يعجز إن عصى .

وقال الفراء : وهذا من غوامض العربية ، وأنشد قول حسان :

فمن يهجو رسول الله منكم . . .

ويمدحه وينصره سواء

أي : ومن ينصره ، وهذا عند البصريين لا يكون إلا في الشعر ، لأن فيه حذف الموصول وإبقاء صلته .

وأبعد من هذا القول قول من زعم أن التقدير : وما أنتم بمعجزين من في الأرض من الإنس والجنّ ، ولا من في السماء من الملائكة ، فكيف تعجزون الله ؟ وقرأ الجمهور : ﴿ يئسوا ﴾ ، بالهمز ؛ والذماري ، وأبو جعفر : بغير همز ، بل بياء بدل الهمزة ، وهو وعيد ، أي ييأسون يوم القيامة .

وقيل : ﴿ من رحمتي ﴾ .

وقيل : من ديني ، فلا أهديهم .

وقيل : هو وصف بحالهم ، لأن المؤمن يكون دائماً راجياً خائفاً ، والكافر لا يخطر بباله ذلك .

شبه حالهم في انتفاء رحمته عنهم بحال من يئس من الرحمة .

(29/596)

والظاهر أن قول : ﴿ وإن تكذبوا ﴾ ، من كلام الله ، حكاية عن إبراهيم ، إلى قوله : ﴿ عذاب أليم ﴾ .

وقيل : هذه الآيات اعتراض من كلام الله بين كلام إبراهيم والإخبار عن جواب قومه ، أي وإن تكذبوا محمداً ، فتقدير هذه الجملة اعتراضاً يردّ على أبي علي الفارسي ، حيث زعم أن الأعتراض لا يكون جملتين فأكثر ، وفائدة هذا الاعتراض أنه تسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، حيث كان قد ابتلي بمثل ما كان أبوه إبراهيم قد ابتلي ، من شرك قومه وعبادتهم الأوثان وتكذيبهم إياه ومحاولتهم قتله .

وجاءت الآيات بعد الجملة الشرطية مقررة لما جاء به الرسول من توحيد الله ودلائله وذكر آثار قدرته والمعاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(30/596)

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِىء الله الخلق ﴾

كلامٌ مُستأنفٌ مسوقٌ من جهتِه للإنكارِ على تكذيبهم بالبعث معَ وضوحِ دليلِه وسنوحِ سبيلِه . والهمزةُ لإنكارِ عدمِ رؤيتهم الموجبِ لتقريرها والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ أي ألم ينظروا ولم يعلموا علماً جارياً مجرى الرؤيةِ في الجلاءِ والظُّهور كيفيةَ خلقِ الله تعالى الخلقَ ابتداءً من مادَّةٍ ومن غيرِ مادَّةٍ أي قد علموا ذلك . وقُرِىء بصيغةِ الخطابِ لتشديدِ الإنكارِ

وتأكيدِه . وقُرِىء يبدأُ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ عطفٌ على أو لم يَروا لا على يُبدىء لعدمِ وقوعِ الرُّؤية عليه فهو إخبارٌ بأنَّه تعالى يعيد الخلقَ قياساً على الإبداءِ ، وقد جُوِّز العطفُ على يُبدىء بتأويلها الإعادةِ بإنشائِه تعالى كل سنة مثلَ ما أنشأه في السَّنةِ السَّابقةِ من النبات والثمار وغيرِهما فإنَّ ذلك ممَّا يُستدلُّ به على صِحَّةِ البعثِ ووقوعه من غير رَيبٍ ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي ما ذُكر من الإعادة ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ لا يفتقر فعلُه إلى شيءٍ أصلاً .

(31/596)

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض ﴾ أمرٌ لإبراهيمَ عليه السَّلام أنْ يقولَ لهم ذلك أي سِيروا فيها ﴿ فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ﴾ أي كيف خلقَهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفةٍ وطبائعَ متغايرةٍ وأخلاقٍ شتَّى فإنَّ ترتيبَ النَّظر على السَّيرِ في الأرضِ مؤذنٌ بتتبعِ أحوالِ أصنافِ الخلق القاطنينَ في أقطارِها ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنشِىء النشأة الآخرة ﴾ بعدَ النَّشأةِ الأُولى التي شاهدتُموها . والتَّعبيرُ عن الإعادةِ التي هي محلُّ النزاعِ بالنَّشأةِ الآخرةِ المشعرةِ بكون البدءِ نشأةً أولى للتَّنبيهِ على أنَّهما شأنٌ واحدٌ من شؤونِ الله تعالى حقيقةً وإسماً من حيثُ إنَّ كلاًّ منهما اختراعٌ وإخراجٌ من العدمِ إلى الوجودِ ولا فرقَ بينَهما إلا بالأوليةِ والآخريةِ . وقُرِىء

النَّشاءَة بالمدّ وهما لُغتانِ كالرَّأفةِ والرّآفةِ ومحلها النَّصبُ على أنَّها مصدرٌ مؤكّدٌ لِيُنشىء بحذف الزَّوائد والأصل الإنشاءةِ أو بحذف العاملِ أي ينشىء فيشأون النَّشأةَ الآخرةَ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ والجملةُ معطوفةٌ على جُملةِ سيروا في الأرض داخلةٌ معها في حيّزِ القول . وإظهارُ الاسمِ الجليلِ وإيقاعُه مبتدأً مع إضمارِه في بدأ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ ببيانِ تحقُّق الإعادةِ بالإشارة إلى عِلَّة الحُكم وتكريرِ الإسنادِ . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليلٌ لما قبله بطريقِ التَّحقيق فإنَّ من عِلم قدرتَهُ تعالى على جميعِ الأشياءِ التي من جُملتِها الإعادةُ لا يتصوَّر أنْ يترددَ في قدرتِه عليها ولا في وقوعِها بعد ما أخبر به ﴿ يُعَذّبُ ﴾ أي بعد النَّشأةِ الآخرةِ ﴿ مَن يَشَآء ﴾ أن يعذبه وهم المنكرون لها حَتماً ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء ﴾ أنْ يرحمَه وهم المصدّقون بها والجملةُ تكملة لما قبلها . وتقديمُ التَّعذيبِ لما أنَّ التَّرهيبَ أنسبُ بالمقام من التَّرغيبِ ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾

(32/596)

عند ذلك لا إلى غيرِه فيفعل بكم ما يشاءُ من التَّعديبِ والرَّحمةِ ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ له تعالى عن إجراءِ حُكمه وقَضائه عليكم ﴿ فِي الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ أي بالتَّواري في الأرضِ أو الهبوطِ في مَهَاويها ولا بالتَّحصُّنِ في السَّماءِ التي هي أفسحُ منها لو استطعتُم الرُّقيَّ

فيها كما في قولِه تعالى : ﴿ إنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ أو القلاعِ الذَّاهبةِ فيها وقيل في السَّماء صفةٌ لمحذوفٍ معطوفٍ على أنتُم أي ولا من في السَّماءِ ﴿ وَمَا لَكُم مّن دُونِ الله مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يحرسكم ممَّا يُصيبكم من بلاءٍ يظهرُ من الأرضِ أو ينزلُ من السَّماءِ ويدفعُه عنكم .

﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات الله ﴾ أي بدلائِله التَّكوينيةِ والتَّنزيليةِ الدَّالَّةِ على ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه فيدخلُ فيها النَّشأةُ الأُولى الدَّالَّة على تحقُّق البعثِ والآياتُ النَّاطقةُ به دُخولاً أولياً . وتخصيصُها بدلائلَ وحدانيتِه تعالى لا يناسبُ المقامَ ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ الذي تنطقُ به تلك الآياتُ ﴿ أولئك ﴾ الموصُوفون بما ذُكر مِن الكفر بآياتِه تعالى ولقائِه ﴿ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾ أي ييأسون منها يومَ القيامةِ . وصيغةُ الماضي للدّلالة على تحقُّقِه أو يئسوا منها في الدُّنيا لإنكارِهم البعثَ والجزاءَ ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وفي تكريرِ اسمِ الإشارة وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذابِ ووصفِه بالأليمِ من الدّلالةِ على كمالِ فظاعةِ حالِهم ما لا يخفى ، أي أولئك الموصُوفون بالكفر بآياتِ الله تعالى ولقائِه وباليأس من رحمتِه الممتازون بذلك عن سائر الكَفَرة لهم بسبب تلك الأوصافِ القبيحةِ عذابٌ لا يُقادر قَدرُه في الشّدَّةِ والإيلامِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(33/596)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخَلقَ ﴾ الخ

كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله ، والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها ، والواو للعطف على مقدر أي ألم ينظروا ولم يعلموا كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداءً من مادة ومن غير مادة أي قد علموا ذلك .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وأبو بكر بخلاف عنه ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ ﴾ بتاء الخطاب ، وهو على ما قال هذا البعض لتشديد الإنكار وتأكيده ولا يحتاج عليه إلى تقدير قول ، ومن لم يجعل ذلك كلاماً مستأنفاً مسوقاً من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث قال : إن الخطاب على تقدير القول أي قال لهم رسلهم : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ ﴾ .

ووجه ذلك بأنه جعل ضمير ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ على قراءة الغيبة لأمم في قوله تعالى : ﴿ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ [العنكبوت : 18] فيجعل في قراءة الخطاب له أيضاً ليتحد معنى القراءتين ، وحينئذٍ يحتاج لتقدير القول ليحكى خطاب رسلهم معهم إذ لا مجال للخطاب بدونه .

وقيل : إن ذاك لأنه لا يجوز أن يكون الخطاب لمنكري الإعادة من أمة إبراهيم أو نبينا عليهما

الصلاة والسلام وهم المخاطبون بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ [العنكبوت : 18] لأن الاستفهام للإنكار أي قد رأوا فلا يلائم قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ ﴾ [العنكبوت : 20] الخ لأن المخاطبين فيها هم المخاطبون أولاً ، يعني إن كانت الرؤية علمية فالأمر بالسير والنظر لا يناسب لمن حصل له العلم بكيفية الخلق ، والقول بأن الأول دليل أنفسي ، والثاني آفاقي مخالف للظاهر من وجوه اه فتدبر ، ولعل الأظهر والأبعد عن القيل والقال في نظم الآيات ما نقلناه عن بعض المحققين .

وقرأ الزبيري .

وعيسى .

(34/596)

وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿ كَيْفَ يَبْدَأُ ﴾ على أنه مضارع بدأ الثلاثي مع إبدال الهمزة ألفاً كما ذكره الهمداني ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ عطف على ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ لا على يبدىء لأن الرؤية إن كانت بصرية فهي واقعة على الإبداء دون الإعادة فلو عطف عليه لم يصح وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته فلو كان معلوماً لهم كان تحصيلاً للحاصل .

وجوز العطف عليه بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه سبحانه في السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه على ما قيل من غير ريب ، وعن مقاتل أن الخلق هنا الليل والنهار وليس بشيء ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الإعادة ، وجوز أن يكون المشار إليه ما ذكر من الأمرين ﴿ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ إذ لا يحتاج فعله تعالى إلى شيء خارج عن ذاته عز وجل .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض ﴾ أمر لإبراهيم عليه السلام أن يقول لقومه ذلك عند بعض المحققين ، وكذا جعله من جعل جميع ما تقدم من قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن جعل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ [العنكبوت : 18] إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ [العنكبوت : 24] اعتراضاً جعل هذا أمراً لنبينا صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك لقريش .

وجوز أن يجعل نظم الآيات السابقة على ما نقل عن بعض المحققين ويجعل هذا أمراً للنبي عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك لهم فإنهم مثل قوم إبراهيم عليه السلام والأمم الذين من قبلهم في التكذيب بالبعث والإنكار له ، وما في حيز هذا القول متضمن ما يدل على صحته ، وعدم اتحاده مع ما سبق لا يضر .

(35/596)

وأياً ما كان فإضافة الرحمة إلى ضمير المتكلم فيما يأتي إن شاء الله تعالى لما أن ذلك حكاية كلامه عز وجل على وجهه ومثله في القرآن الكريم كثير ، والسير كما قال الراغب : المضي في الأرض ، وعليه يكون في الآية تجريد ، والظاهر أن المراد به المضي بالجسم ، وجوز أن يراد به إجالة الفكر .

وحمل على ذلك فيما يروى في وصف الأنبياء عليهم السلام أبدانهم في الأرض سائرة وقلوبهم في الملكوت جائلة ، ومنهم من حمل ذلك على الجد في العبادة المتوصل بها إلى الثواب ، والمعنى على ما قلنا أولاً امضوا في الأرض وسيحوا فيها .

﴿ فانظروا كَيْفَ بَدَأَ ﴾ الله تعالى ﴿ الخلق ﴾ أي كيف خلقهم ابتداءً على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى ، فإن ترتيب النظر على السير في الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها ، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة والكيفية في هذه الآية لما أن الأولى كما علمت باعتبار المادة وعدمها وهذه باعتبار تغاير الأحوال .

ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع أعني ﴿ يَبْدَأُ ﴾ دون الماضي كما هنا لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخلق على أطوار مختلفة على معنى أن خلق الأشياء أغرب من جعل أطوارها مختلفة ، وأنت إذا لاحظت أطوارها

مختلفة إنما هو بعد سبق المادة ولو سبقاً ذاتياً وهو ما قام به الاختلاف أعني ذوات الأشياء لا تشك في أن الأول أغرب من الثاني ، ولذا ترى التمدح بأصل الخلق في القرآن العظيم أكثر من التمدح بالجعل المذكور .

وقد وافق الصيغة في الإشعار بالغرابة بناء الفعل من باب الأفعال فإنه غير مستعمل ولذا قالوا : أنه مخل بالفصاحة لولا وقوعه مع ﴿ يُعِيدُ ﴾ [العنكبوت : 19] ، ومما يقرب من هذا السر ما قيل في وجه حذف الياء من يسر في قوله تعالى : ﴿ والليلِ إذَا يَسْرِ ﴾

(36/596)

[الفجر : 4] من أن ذلك لأن الليل يسري فيه لا يسري أي ليدل مخالفة الظاهر في اللفظ على مخالفته في المعنى وهو معنى دقيق .

وقيل في وجه التعبير بما ذكر إفادة الاستمرار التجددي وهو بناءً على المعنى الثاني في الآية .

وقال بعضهم في تغاير الدليلين : إن هذا عيني وذلك علمي أو هذا آفاقي والأول أنفسي .

وقرأ الزهري ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الخلق ﴾ بتخفيف الهمزة بإبدالها ألفاً ثم حذفها في الوصل .

قال أبو حيان : وهو تخفيف غير قياسي كما قال :

فارعي فزارة لا هناك المرتع . . .

، وقياس تخفيف هذا التسهيل بين بين ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنشِىءُ النشأة الآخرة ﴾ أي بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها والنشأة الإيجاد والخلق ، والتعبير عن الإعادة التي هي محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى حقيقة واسماً من حيث أن كلاً منهما اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ولا فرق بينهما إلا بالأولية والأخروية كذا قيل .

والظاهر أنه مبني على أن الجسد يعدم الكلية ثم يعاد خلقاً جديداً لا أنه تتفرق أجزاؤه ثم تجمع بعد تفرقها وإلى كل ذهب بعض ، والأدلة متعارضة ، والمسألة كما قال ابن الهمام عند المحققين ظنية .

وفي كتاب الاقتصاد في الاعتقاد لحجة الإسلام الغزالي .

فإن قيل : فما تقولون أتعدم الجواهر والأعراض ثم تعادان جميعاً أو تعدم الأعراض دون الجواهر وإنما تعاد الأعراض ؟ قلنا : كل ذلك ممكن ولكن ليس في الشرع دليل قاطع على تعيين أحد هذه الممكنات انتهى ، وذهب ابن الهمام إلى أن الحق وقوع الكيفيتين إعادة ما انعدم بعينه وتأليف ما تفرق من الأجزاء ، وقد يقال : إن بدء الإنسان ونحوه ليس اختراعاً محضاً وإخراجاً من كتم العدم إلى الوجود في الحقيقة لما أنه مخلوق من التراب وسائر العناصر

، والظاهر أن فناءه ليس عبارة عن صيرورته عدماً محضاً بل هو عبارة عن انحلاله إلى ما تركب منه ورجوع كل عنصر إلى عنصره .

(37/596)

نعم لا شك في فناء بعض الأعراض وانعدامها بالكلية ، وقد يستثنى منه بعض الأجزاء فلا ينحل إلى ما منه التركيب بل يبقى على ما كان عليه وهو عجب الذنب لظاهر حديث الصحيحين " ليس شيء من الإنسان لا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة " وتأويله بما أوله به ملا صدراً في أسفاره مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وحينئذٍ فالإعادة تكون بتركيب ما انحل من العناصر وضمه إلى هذا الجزء فلا تكون اختراعاً محضاً وإخراجاً من كتم العدم إلى الوجود في الحقيقة ، لكن لكل من البدء والإعادة شبه تام بالاختراع والإخراج المذكور ، وبه يصح أن يقال لكل اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود فلا تغفل ، والجملة معطوفة على جملة ﴿ سِيرُواْ فِى الأرض ﴾ داخلة معها في حيز القول ، ولا يضر تخالفهما خبراً وإنشاءاً فإنه جائز بعد القول وماله محل من الإعراب ، ولا يصح عطفها على بدأ الخلق لأنها لا تصلح أن تكون موقعاً للنظ أما إن كان بمعنى الإبصار فظاهر وأما إن كان بمعنى التفكر فلأن التفكير في الدليل لا في النتيجة ، وإظهار

الاسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره في بدأ لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم فإنه الاسم الجامع لصفات الكمال ونعوت الجلال وتكرير الإسناد ورد ما تقدم على مقتضى الظاهر فلا يحتاج للتوجيه ، وكون المراد منه ليس إثبات الإعادة لمن أنكرها فلذا لم ينسج على هذا المنوال غير مسلم ، وقرأ أبو عمرو .

(38/596)

وابن كثير ﴿ النشاءة ﴾ بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة والقصر أشهر ، ومحلها النصب على أنها مصدر مؤكد لينشىء بحذف الزوائد والأصل الإنشاءة أو بحذف العامل أي ينشىء فينشأون النشأة الآخرة نحو ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق فإن من علم قدرته عز وجل على جميع الممكنات التي من جملتها الإعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته سبحانه عليها ولا في وقوعها بعد ما أخبر به ، ثم اعلم أن أكثر المنكرين للبعث لا يقولون باستحالته كجمع النقيضين بل غاية ما عندهم استبعاده ، والرد على هؤلاء بهذه الآيات ونحوها ظاهر لما فيها مما يزيل الاستبعاد من الإبداء الذي هو في الشاهد أشق من الإعادة ، ومنهم من يقول باستحالته عقلاً فلا يصلح متعلقاً للقدرة ، وهؤلاء هم القائلون باستحالة إعادة المعدوم ،

والرد عليهم بعد تسليم أن ما نحن فيه من إعادة المعدوم وليس من جمع المتفرق بإبطال ما استدلوا به على الاستحالة ، وقد تكفلت الكتب الكلامية بذلك ، وأما الرد عليهم بهذه الآيات ونحوها فلما فيها من الإشارة إلى تزييف أدلة الاستحالة فتدبر .

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما بعد النشأة الآخرة أي يعذب بعد النشأة الآخرة من يشاء تعذيبه وهم المنكرون لها ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء ﴾ رحمته وهم المقرون بها ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿ تُقْلَبُونَ ﴾ أي تردون ، والجملة تقرير للإعادة وتوطئة لما بعد ، وتقديم التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب .

(39/596)

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم ﴿ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السماء ﴾ أي بالهرب في الأرض الفسيحة أو الهبوط في مكان بعيد الغور والعمق بحيث لا يوصل إليه فيها ولا بالتحصن في السماء التي هي أفسح منها أو التي هي أمنع لمن حل فيها عن أن تناله أيدي الحوادث فيما ترون لو استطعتم الرقي إليها كما في قوله تعالى : ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] أو البروج والقلاع المرتفعة في جهتها على ما قيل ، وهو خلاف الظاهر ، وقال ابن زيد .

والفراء : إن ﴿ فِى السماء ﴾ صلة موصول محذوف هو مبتدأ محذوف الخبر ؛ والتقدير ولا من في السماء بمعجز ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ، وضعف بأن فيه حذف الموصول مع بقاء صلته وهو لا يجوز عند البصريين إلا في الشعر كقول حسان :

أمن يهجو رسول الله منكم . . .

ويمدحه وينصره سواء

على ما هو الظاهر فيه ، على أن ابن مالك اشترط في جوازه عطف الموصول المحذوف على موصول آخر مذكور كما في هذا البيت ، وبأن فيه حذف الخبر أيضاً مع عدم الحاجة إليه ، ولهذا جعل بعضهم الموصول معطوفاً على أنتم ولم يجعله مبتدأ محذوف الخبر ليكون العطف من عطف الجملة على الجملة ، وزعم بعضهم أن الموصول محذوف في موضعين وأنه مفعول به لمعجزين وقال : التقدير وما أنتم بمعجزين من في الأرض أي من الإنس والجن ولا من في السماء أي من الملائكة عليهم السلام فكيف تعجزون الله عز وجل ، ولا يخفى أن هذا في غاية البعد ولا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى .

وقيل ليس في الآية حذف أصلاً ، والسماء هي المظلة إلا أن ﴿ أَنتُمْ ﴾ خطاب لجميع العقلاء فيدخل فيهم الملائكة ويكون السماء بالنظر إليهم والأرض بالنظر إلى غيرهم من الإنس والجن وهو كما ترى .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ يحرسكم من بلاء أرضي أو سماوي ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يدفعه عنكم .

(40/596)

﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات الله ﴾ أي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله ، فيدخل فيها النشأة الأولى الدالة على صحة البعث والآيات الناطقة به دخولاً أولياً ، وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ الذي تنطق به تلك الآيات ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه عز وجل ﴿ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة على أنه وعيد ، وإلا فالكافر لا يوصف باليأس في الدنيا لأنه لا رجاء له ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ، وجوز أن يكون المراد إظهار مباينة حالهم وحال المؤمنين لأن حال المؤمن الرجاء والخشية وحال الكافر الاغترار واليأس فهو لا يخطر بباله رجاءً ولا خوفاً ؛ إن أخطر المخوف بباله كان حاله اليأس بدل الخوف وإن أخطر المرجو كان حاله الاغترار بدل الرجاء ، فكأنه تنصيص على كفرهم وتعريف لحالهم ، وأن يكون الكلام على الاستعارة .

شبهوا بالآيسين من الرحمة وهم الذين ماتوا على الكفر لأنه ما دامت الحياة لا يتحقق اليأس

من الرحمة لرجاء الإيمان ، أو من قدر آيساً من الرحمة على الفرض دلالة على توغلهم في الكفر وعدم ارعوائهم .

وقرأ الذماري : وأبو جعفر ، ﴿ ييسوا ﴾ بغير همز بل بياء بدل الهمزة ﴿ رَّحْمَتِى وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في تكرير اسم الإشارة وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على فظاعة حالهم ما لا يخفى .

لكن قال الإمام : إنه تعالى أضاف الرحمة إلى نفسه عز وجل دون العذاب ليؤذن بأن رحمته جل وعلا سبقت غضبه سبحانه ، وأنت تعلم أن في الآية على هذا دلالة على سوء حالهم أيضاً لإفادتها أنهم حرموا تلك الرحمة العظيمة بما ارتكبوه من العظائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(41/596)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

يجري هذا الكلام على الوجهين المذكورين في قوله ﴿ وإن تكذبوا ﴾ [العنكبوت : 18] .

ويترجح أن هذا مسوق من جانب الله تعالى إلى المشركين بأن الجمهور قرأوا ﴿ أو لم يروا ﴾ بياء الغيبة ولم يجر مثل قوله ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ [العنكبوت : 18] .

ومناسبة التعرض لهذا هو ما جرى من الإشارة إلى البعث في قوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ [العنكبوت : 17] تنظيراً لحال مشركي العرب بحال قوم إبراهيم .

وقرأ الجمهور ﴿ أو لم يروا ﴾ بياء الغائب والضمير عائد إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ [العنكبوت : 12] في قوله ﴿ وقال الذين كفروا للذين ءامنوا ﴾ [العنكبوت : 12] ، أو إلى معلوم من سياق الكلام .

وعلى وجه أن يكون قوله ﴿ وإن تكذبوا ﴾ [العنكبوت : 18] الخ خارجاً عن مقالة إبراهيم يكون ضمير الغائب في ﴿ أو لم يروا ﴾ التفاتاً .

والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لنكتة إبعادهم عن شرف الحضور بعد الإخبار عنهم بأنهم مُكذبون .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿ أو لم تروا ﴾ بالفوقية على طريقة ﴿ وإن تُكذبوا ﴾ [العنكبوت : 18] على الوجهين المذكورين .

والهمزة للاستفهام الإنكاري عن عدم الرؤية ، نزلوا منزلة من لم ير فأنكر عليهم .

والرؤية يجوز أن تكون بصرية ، والاستدلال بما هو مشاهد من تجدد المخلوقات في كل حين

بالولادة وبروز النبات دليل واضح لكل ذي بصر .

وإبداء الخلق : بَدْؤُه وإيجاده بعد أن لم يكن موجوداً .

يقال : أبدأ بهمزة في أوله وبدأ بدونها وقد وردا معاً في هذه الآية إذ قال ﴿ كيف يُبدىء الله الخلق ﴾ ثم قال ﴿ فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ [العنكبوت : 20] ولم يجىء في أسمائه تعالى إلا المُبْدِىء دون البادىء .

وأحسب أنه لا يقال (أبدأ) بهمز في أوله إلا إذا كان معطوفاً عليه (يُعيد) ولم أر من قيده بهذا .

(42/596)

و ﴿ الخلق ﴾ : مصدر بمعنى المفعول ، أي المخلوق كقوله تعالى ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ [لقمان : 11] .

وجيء ﴿ يبدىء ﴾ بصيغة المضارع لإفادة تجدد بدء الخلق كلما وجه الناظر بصره في المخلوقات ، والجملة انتهت بقوله ﴿ يبدىء الله الخلق ﴾ .

وأما جملة ﴿ ثم يعيده ﴾ فهي مستأنفة ابتدائية فليست معمولة لفعل ﴿ يروا ﴾ لأن إعادة الخلق بعد انعدامه ليست مرئية لهم ولا هم يظنونها فتعين أن تكون جملة ﴿ ثم يعيده

﴿ مستقلة معترضة بين جملة ﴿ أو لم يروا ﴾ وجملة ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾ .

و ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لأن أمر إعادة الخلق أهمّ وأرفع رتبة من بدئه لأنه غير مشاهد ولأنهم ينكرونه ولا ينكرون بدء الخلق قال في "الكشاف" : هو كقولك : ما زلت أوثر فلاناً وأستخلفه على من أخلِّفه" يعني فجملة : وأستخلفه ، ليست معطوفة على جملة : أوثر ، ولا داخلة في خبر : ما زلت ، لأنك تقوله قبل أن تستخلفه فضلاً عن تكرر الاستخلاف منك .

هذه طريقة "الكشاف" وهو يجعل موقع ﴿ ثم يعيده ﴾ كموقع التفريع على الاستفهام الإنكاري .

واعلم أن هذين الفعلين (يبدىء ويعيد) وما تصرف منهما مما جرى استعمالهما متزاوجين بمنزلة الاتباع كقوله تعالى ﴿ وما يبدىء الباطل وما يُعيد ﴾ في سورة [سبأ : 49] .

قال في "الكشاف" في سورة سبأ : فجعلوا قولهم : لا يبدىء ولا يعيد ، مثلاً في الهلاك ، ومنه قول عبيد :

فاليوم لا يبدي ولا يعيد

ويقال : أبدأ وأعاد بمعنى تصرف تصرفاً واسعاً ، قال بشار :

فهمومي مُظِلة

بادِئاتٍ وعودا . . .

ويجوز أن تكون الرؤية علمية متعدية إلى مفعولين : أنكر عليهم تركهم النظر والاستدلال الموصّل إلى علم كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده لأن أدلة بدء الخلق تفضي بالناظر إلى العلم بأن الله يعيد الخلق فتكون ﴿ ثم ﴾ عاطفة فعل ﴿ يعيده ﴾ على فعل ﴿ يبدىء ﴾ والجميع داخل في حيز الإنكار .

(43/596)

و ﴿ كيف ﴾ اسم استفهام وهي معلِّقة فعل ﴿ يروا ﴾ عن العمل في معموله أو معموليه .

والمعنى : ألم يتأملوا في هذا السؤال ، أي في الجواب عنه .

والاستفهام بـ ﴿ كيف ﴾ مستعمل في التنبيه ولفت النظر لا في طلب الإخبار .

وجملة ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ مبينة لما تضمنه الاستفهام من إنكار عدم الرؤية المؤدية إلى العلم بوقوع الإعادة ، إذ أحالوها مع أن إعادة الخلق إن لم تكن أيسر من الإعادة في العرف فلا أقل من كونها مساوية لها وهذا كقوله تعالى ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى المصدر المفاد من ﴿ يعيده ﴾ مثل عود الضمير على نظيره في

قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] .

ووجه توكيد الجملة بـ ﴿ إن ﴾ ردُّ دعواهم أنه مستحيل .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ

اعتراض انتقالي من الإنكار عليهم ترك الاستدلال بما هو بمرأى منهم ، إلى إرشادهم للاستدلال بما هو بعيد عنهم من أحوال إيجاد المخلوقات وتعاقب الأمم وخلف بعضها عن بعض ، فإن تعوُّد الناس بما بين أيديهم يصرف عقولهم عن التأمل فيما وراء ذلك من دلائل دقائقها على ما تدل عليه ، فلذلك أمر الله رسوله أن يدعوهم إلى السير في الأرض ليشاهدوا آثار خلق الله الأشياء من عدم فيوقنوا أن إعادتها بعد زوالها ليس بأعجب من ابتداء صنعها .

(44/596)

وإنما أمر بالسير في الأرض لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمّة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوِيَّاتها ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها فيرى كثيراً من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها ، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جَوَلاناً لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه ، لأنه لما

نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائباً عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال ، فالسيرُ في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة .

وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي لأن السائر ليس له من قرار في طريقه فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات ، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن وأنه قادر على إيجاد أمثالها فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها .

والاستدلال بالأفعال التي مضت أمكن لأن للشيء المتقرر تحققاً محسوساً .

وجيء في هذا الاستدلال بفعل النظر لأن إدراك ما خلقه الله حاصل بطريق البصر وهو بفعل النظر أولى وأشهر لينتقل منه إلى إدراك أنه ينشىء النشأة الآخرة .

ولذلك أعقب بجملة ﴿ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾ فهي جملة مستقلة .

(وثم) للترتيب الرتبي كما تقدم في قوله ﴿ ثم يعيده ﴾ [العنكبوت : 19] .

وإظهار اسم الجلالة بعد تقدم ضميره في قوله ﴿ كيف بدأ الخلق ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقول : ثم ينشىء .

قال في "الكشاف" : لأن الكلام كان واقعاً في الإعادة فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله

احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فالذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تُعجزه الإعادة .

(45/596)

فكأنه قال : ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ أ هـ .

يريد أن العدول عن الإضمار إلى الإسم الظاهر لتسجيل وقوع هذا الإنشاء الثاني ، فتكون الجملة مستقلة حتى تكون عنوان اعتقاد بمنزلة المثل لأن في اسم الجلالة إحضاراً لجميع الصفات الذاتية التي بها التكوين ، وليفيد وقوع المسند إليه مخبراً عنه بمسند فعلي معنى التقوي .

وجملة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تذييل ، أي قدير على البعث وعلى كل شيء إذا أراده .

وإظهار اسم الجلالة لتكون جملة التذييل مستقلة بنفسها فتجري مجرى الأمثال .

و ﴿ النشأة ﴾ بوزن فعلة : المرة من النّشء وهو الإيجاد ، وكذلك قرأها الجمهور ، عبر عنها بصيغة المرة لأنها نشأة دفعية تخالف النّشء الأول ويقال : النّشاءة بمد بعد الشين

بوزن الكآبة ومثلها الرأفة والرءافة .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ النشاءة ﴾ بالمدّ .

ووصفها بـ ﴿ الآخرة ﴾ إيماء بأنها مساوية للنشأة الأولى فلا شبهة لهم في إحالة وقوعها .

وأما قوله تعالى ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ [الواقعة : 62] فذلك على سبيل المشاكلة التقديرية لأن قوله قبله ﴿ ونُنشئكم فيما لا تعلمون ﴾ [الواقعة : 61] يتضمن النشأة الآخرة فعبر عن مقابلتها بالنشأة .

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21)

لما ذكر النشأة الآخرة أتبع ذكرها بذكر أهم ما تشتمل عليه وما أوجدت لأجله وهو الثواب والعقاب .

وابتدىء بذكر العقاب لأن الخطاب جار مع منكري البعث الذين حظهم فيه هو التعذيب .

ومفعولا فعلي المشيئة محذوفان جرياً على غالب الاستعمال فيهما .

والتقدير : من يشاء تعذيبه ومن يشاء رحمته .

(46/596)

والفريقان معلومان من آيات الوعد والوعيد ؛ فأصحاب الوعد شاء الله رحمتهم وأصحاب الوعيد شاء تعذيبهم ، فمن الذين شاء تعذيبهم المشركون ومن الذين شاء رحمتهم المؤمنون ، والمقصود هنا هم الفريقان معاً كما دل عليه الخطاب العام في قوله ﴿ وإليه تقلبون ﴾ .

والقلب : الرجوع ، أي وإليه ترجعون .

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام والتأكيد إذ ليس المقام للحصر إذ ليس ثمة اعتقاد مردود .

وفي هذا إعادة إثبات وقوع البعث وتعريض بالوعيد .

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22)

عطف على جملة ﴿ وإليه تقلبون ﴾ [العنكبوت : 21] باعتبار ما تضمنته من الوعيد .

والمعجز حقيقته : هو الذي يجعل غيره عاجزاً عن فعل ما ، وهو هنا مجاز في الغلبة والانفلات من المكنة ، وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ في سورة [الأنعام : 134] .

فالمعنى : وما أنتم بمُفْلَتين من العذاب .

ومفعول (معجزين) محذوف للعلم به ، أي بمعجزين الله .

ويتعلق قوله ﴿ في الأرض ﴾ ﴿ بمعجزين ﴾ ، أي ليس لكم انفلات في الأرض ، أي لا تجدون موئلاً ينجيكم من قدرتنا عليكم في مكان من الأرض سهلها وجبلها ، وبدْوِها وحضرها .

وعطف ﴿ ولا في السماء ﴾ على ﴿ في الأرض ﴾ احتراس وتأييس من الطمع في النجاة وإن كانوا لا مطمع لهم في الالتحاق بالسماء .

وهذا كقول الأعشى :

فلو كنتَ في جبّ ثمانين قامة

ورُقِّيت أسبابَ السماء بسلّم . . .

(47/596)

ومنه قوله تعالى ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ [سبأ : 22] ، ولم تقع مثل هذه الزيادة في آية سورة [الشورى : 30 ، 31] ﴿ ويعفو عن كثير وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ لأن تلك الآية جمعت خطاباً للمسلمين والمشركين بقوله ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : 30] إذ العفو عن المسلمين .

وما هنا من المبالغة المفروضة وهي من المبالغة المقبولة كما في قول أبي بن سُلْمي الضبي :

ولو طار ذو حافر قبلها

لطارت ولكنه لم يطر . . .

وهي أظهر في قوله تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] .

وفي هذه إشارة إلى إبطال اغترارهم بتأخير الوعيد الذي تُوعدوه في الدنيا .

ولما آيسهم من الانفلات بأنفسهم في جميع الأمكنة أعقبه بتأييسهم من الانفلات من الوعيد بسعي غيرهم لهم من أولياء يتوسطون في دفع العذاب عنهم بنحو السعاية أو الشفاعة ، أو من نصراء يدافعون عنهم بالمغالبة والقوة .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)

بيان لما في قوله ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ [العنكبوت : 21] وإنما عطف لما فيه من زيادة الإخبار بأنهم لا ينالهم الله برحمة وأنه يصيبهم بعذاب أليم .

والكُفر بآيات الله : هو كفرهم بالقرآن .

والكفر بلقائه : إنكارُ البعث .

واسم الإشارة يفيد أن ما سيذكره بعده نالهم من أجل ما ذكر قبل اسم الإشارة من أوصاف ، أي أنهم استحقوا اليأس من الرحمة وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجل كفرهم

بالقرآن وإنكارهم البعث على أسلوب ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

وأخبر عن يأسهم من رحمة الله بالفعل المضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه .

والمعنى : أولئك سييأسون من رحمة الله لا محالة .

(48/596)

والتعبير بالاسم الظاهر في قوله ﴿ بآيات الله ﴾ دون ضمير التكلم للتنويه بشأن الآيات حيث أضيفت إلى الاسم الجليل لما في الاسم الجليل من التذكير بأنه حقيق بأن لا يُكفر بآياته .

والعدول إلى التكلم في قوله ﴿ رحمتي ﴾ التفات عاد به أسلوب الكلام إلى مقتضى الظاهر ، وإعادة اسم الإشارة لتأكيد التنبيه على استحقاقهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(49/596)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

الخطاب هنا مُوجَّه إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم : هؤلاء الذين كذبوا من قبل ، وأنتم الذين تكذبون الآن ، فأين عقولكم ؟ لو استعملتم عقولكم في تأمل الكون الذي تعيشون فيه ، والذي طرأتُم عليه ، وقد أُعِدَّ لكم بكل مُقوّمات حياتكم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخلق . . . ﴾ [العنكبوت : 19] ويرى هنا بمعنى يعلم ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] أي : ألم تعلم ؛ لأن رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليلفت أنظارنا إلى أن إخبار الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أوثق له من رؤيته بعينه .

ومن ذلك قول الصِّدِّيق أبي بكر لما سمع بحادث الإسراء والمعراج قال : " إنْ كان قال فقد صدق " .

والهمزة في ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا . . . ﴾ [العنكبوت : 19] استفهام للتقرير ، كما تقول لولدك : ألم تَرَ إلى فلان الذي أهمل دروسه ، تريد أنْ تنكر عليه أنْ يُهمل هو أيضاً ، فتقرره بعاقبة الإهمال ، وتدعه ينطقه بلسانه ، فيقول لك : الذي أهمل دروسه رَسَب .

وكما تقول لمَنْ أنكر جميلك : ألم أُحسِن إليك بكذا وكذا ، فيُقِر بها هو بدل أنْ تعددها له أنت ، فهذا أبلغ في الاعتراف .

فساعة يأتي بعده الهمزة نَفْي يسمونه استفهاماً إنكارياً ، تنكر ما هم عليه ، وتريد أن تقررهم بما يقابله . والنفي بعد الإنكار نفي للنفي ، ونفي النفي إثبات .

(50/596)

فالمعنى : أيكذبون ولم يَرَوْا ما حدث للأمم المكذِّبة من قبل ؟ أيكذبون ولم يَروْا آيات الله ، وقدرته شائعة في الوجود كله ؟ لقد كان عليهم أن ينظروا نظرة اعتبار ليعلموا مَنْ خلق هذا الخَلْق ، وإنك لو سألتهم : مَنْ خلق هذا الكون لا يجدون جواباً ، ولا يملكون إلا أنْ يقولوا : الله ، كما حكى القرآن : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . . ﴾ [لقمان : 25] .

لكن ، كيف يُقِرُّون بهذه الحقيقة ويعترفون بها ، مع أنهم كافرون بالله ؟ قالوا : لأنها مسألة أظهر مَن أنْ ينكرها منكر ، فكل صاحب صنعة مهما كانت ضئيلة يفخر بها وينسبها إلى نفسه ، بل وينسب إلى نفسه ما لم يصنع ، فما بالك بكَوْنٍ أُعِدَّ بهذه الدقة وبهذه العظمة ، ولم يدعه أحد لنفسه ؟ والدعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه قبل أن يقول لا إله إلا أنا ، وقبل أن يطلبها منا شهد بها لنفسه تعالى : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [آل عمران : 18] ؛ لأن هذه الشهادة

هي التي ستجعله يقول للشيء : كُنْ فيكون ، ولو لم يكُنْ يؤمن بأنه إله ما قالها .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 19] كيف ونحن لم نَرَ الإعادة ، فضلاً عن رؤيتنا للبدء ؟

قالوا : نرى البدء والإعادة في مظاهر الوجود من حولنا ، فنراها في الزرع مثلاً ، وكيف أن الله تعالى يُحيي الأرض بالنبات ، ثم يأتي وقت الحصاد فيحصد ويتناثر منه الحَبّ أو البذور التي تعيد الدورة من جديد .

والوردة تجد فيها رطوبة ونضارة وألواناً بديعة ورائحة زكية ، فإذا قُطِفَتْ تبخَّر منها الماء ، فجفَّتْ وتفتتت ، وذهبت رائحتها في الجو ، ثم تخلفها وردة أخرى جديدة ، وهكذا .

(51/596)

انظر مثلاً إلى دورة الماء في الكون : هل زادتْ كمية الماء التي خلقها الله في الكون حين أعدَّه لحياة الإنسان منذ خلق آدم وحواء ؟ الماء هو هو حتى الآن ، مع ما حدث من زيادة في عدد السكان ؛ لأن عناصر الكون هي هي منذ خلقها الله ، لكن لها دورة تسير فيها بين بَدْء وإعادة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ

لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . ﴾ [فصلت : 9-10] .

فكأن قوت العالم من الزرع وغيره مُعَدٌّ من بَدْء الخليقة ، وإلى أنْ تقوم الساعة لا يزيد ، لكنه يدور في دورة طبيعية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [العنكبوت : 19] أيهما : الخَلْق أم الإعادة ؟ أما الخلق فقد أقرُّوا به ، ولا جدالَ فيه ، إذن : فالكلام عن الإعادة ، وهل الذي خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيهما أهون في عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 27] مع أن الحق سبحانه لا يُقال في حَقِّه : هذا هيِّن ، وهذا أهون ؛ لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

ثم يخاطب الحق سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا . . . ﴾ .

السير : الانتقال من مكان إلى مكان ، لكن نحن نسير في الأرض أم على الأرض ؟ الحقيقة أننا كما قال سبحانه ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض . . . ﴾ [العنكبوت : 20] أي : نسير

فيها ؛ لأن الغلاف الجوي المحيط بالأرض من الأرض ، فبدونه لا تستقيم الحياة عليها ، إذن : حين تسير تسير في الأرض فهي تحتك ، وغلافها الجوي فوقك ، فكأنك بداخلها .

(52/596)

والعلة في السير ﴿ فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق . . . ﴾ [العنكبوت : 20] وفي آية أخرى ﴿ ثُمَّ انظروا . . ﴾ [الأنعام : 11] ؛ لأن السير من أرض لأخرى له دافعان : إما للسياحة والتأمل والاعتبار ، وإما للتجارة والاستثمار ، إنْ ضاق رزقك في بلادك . فقوله : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا . . . ﴾ [العنكبوت : 20] أي : نظر اعتبار وتأمل .

أما في ﴿ ثُمَّ انظروا . . ﴾ [الأنعام : 11] فثم تفيد العطف والتراخي ، كأنه سبحانه يقول لنا : سيروا في الأرض للاستثمار ، ثم انظروا نظرة التأمل والاعتبار ، ولا مانع من الجمع بين الغرضين .

وتذكرون أن الحق سبحانه قال في السورة السابقة (القصص) : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . . ﴾ [القصص : 85] والمراد بذلك الهجرة ، وفي هذه السورة تأتي : ﴿ ياعبادي الذين آمنوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ [العنكبوت

: 56] .

والمعنى : إن ضاق رزقك في مكان فاطلبه في مكان آخر ، أو : إنْ لم تكُنْ الآيات الظاهرة لك كافية لتشبع عندك الرغبة في الاعتبار والتأمل فسِرْ في الأرض ، فسوف تجد فيها كثيراً من الآيات والعِبَر في اختلاف الأجناس والبيئات والثمار والأجواء . . إلخ .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . ﴾ [النساء : 97] .

فالأرض كلها لله لا حدودَ فيها ، ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثت كثير من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وها هي السودان بجوارنا بها مساحات شاسعة من الأراضي الخِصْبة التي إنْ زُرِعت سدَّتْ حاجة العالم العربي كله ، أنستطيع الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

(53/596)

لذلك لما أتيح لي التحدث في هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلَّ قضايا العالم الراهنة إلا إذا طبَّقنا مبدأ الخالق – عز وجل – وعُدْنا إلى منهجه الذي وضعه لتنظيم حياتنا ، وكيف نضع بيننا هذه الحدود الحديدية والأسلاك الشائكة ، وربنا يقول : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] .

فالأرض كلُّ الأرض للأنام كل الأنام ، ويوم نحقق هذا المبدأ فلن يضيق الرزق بأحد ، لأنه إنْ ضاقَ بك هنا طلبته هناك ؛ لذلك أكثر الشكوى في عالم اليوم إمَّا من أرض بلا رجال ، أو من رجال بلا أرض ، فلماذا لا نُحدث التكامل الذي أراده الله في كونه ؟

إذن : فالسير هنا مترتب عليه الاعتبار ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الخلق ثُمَّ اللهُ يُنشِىءُ النشأة الآخرة . . . ﴾ [العنكبوت : 20] وما دُمْنا قد آمنا بأن الله تعالى هو الخالق بداية ، فإعادة الخَلْق أهون ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول . . . ﴾ [ق : 15] فيشكُّوا في الخَلْق الآخر ؟ لذلك يؤكد الخالق سبحانه هذه القدرة بقوله :

﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : 20] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ . . . ﴾ .

لماذا بدأ الحق سبحانه هنا بذكر العذاب ؟ في حين قدَّم المغفرة في آية أخرى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ . . . ﴾ [المائدة : 18] .

قالوا : لأن الكلام هنا عن المكذِّبين المعرضين وعن الكافرين ، فناسب أنْ يبدأ معهم بذكر

العذاب ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ . . . ﴾ [العنكبوت : 21] فإنْ قُلْت : فلماذا يذكر الرحمة مع الكافرين بعد أنْ هدَّدهم بالعذاب ؟ نقول : لأنه رب يهدد عباده أولاً بالعذاب ليرتدعوا وليؤمنوا ، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليُرغِّبهم في طاعته ويلفتهم إلى الإيمان به .

(54/596)

وقد صَحَّ في الحديث القدسي : " رحمتي سبقت غضبي " ففي الوقت الذي يُهدِّد فيه بالعذاب يُلوِّح لعباده حتى الكافرين بأن رحمته تعالى سبقتْ غضبه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت : 21] أي : تُرجعون ، وجاء بصيغة تقلبون الدالة على الغَصْب والانقياد عُنْوة ليقول لهم : مهما بلغ بكم الطغيان والجبروت والتعالي بنعم الله ، فلا بُدَّ لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديْه ، فتذكَّروا هذه المسألة جيداً ، حيث لا مهربَ لكم منها ؛ لذلك كان مناسباً أنْ يقول بعدها : ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض . . . ﴾ .

(معجزين) : جمع معجز ، وهو الذي يُعجز غيره ، تقول : أعجزتُ فلاناً يعني : جعلته عاجزاً ، والمعنى أنكم لن تفلتوا من الله ، ولن تتأبَّوْا عليه ، حين يريدكم للوقوف بين يديه ، بل

تأتون صاغرين .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه قال : ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ . . . ﴾ [العنكبوت : 22] ولم يقل مثلاً : لن تعجزوني حين أطلبكم ؛ لأن نفيَ الفعل غير نفي الوصف ، فحين تقول مثلاً : أنت لا تخيط لي ثوباً ، فهذا يعني أنه يستطيع أنْ يخيط لك ثوباً لكنه لا يريد ، فالقدرة موجودة لكن ينقصها الرضا بمزاولة الفعل ، إنما حين تقول : أنت لستَ بخائط فقد نفيتَ عنه أصل المسألة .

لذلك لم ينْفِ عنهم الفعل حتى لا نتوهم إمكانية حدوثه منهم ، فالهرب والإفلات من لقاء الله في الآخرة أمر غير وارد على الذِّهْن أصلاً ، إنما نفي عنهم بالوصف من أساسه ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء . . . ﴾ [العنكبوت : 22] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت : 22] حتى لا يقول قائل : إنْ كانوا هم غير معجزين ، فقد يكون وراءهم مَنْ يعجز الله ، أو وراءهم مَنْ يشفع لهم ، أو يدافع عنهم ، فنفى هذه أيضاً لأنه سبحانه لا يُعجزه أحد ، ولا يُعجزه شيء .

(55/596)

لذلك يخاطبهم بقوله : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات : 25] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم ؟

فنفى عنهم الولي ، ونفى عنهم النصير ؛ لأن هناك فَرْقاً بينهما : الوليّ هو الذي يقرب منك بمودة وحُبٍّ ، وهذا يستطيع أنْ ينصرك لكن بالحُسْنى وبالسياسة ، ويشفع لك إن احتجتَ إلى شفاعته ، أمّا النصير فهو الذي ينصرك بالقوة و (الفتونة) .

وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز ، ونفى عنهم الولي والنصير ، لكن ذكر ﴿ مِّن دُونِ الله . . . ﴾ [العنكبوت : 22] يعني : من الممكن أن يكون لهم وليٌّ ونصير من الله تعالى ، فإنْ أرادوا الولي الحق والنصير الحق فليؤمنوا بي ، فأنا وليُّهم وأنا نصيرهم .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إنْ تُبْتم ورجعتم عما كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عما كان منكم ، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم .

وفي موضع آخر قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 25] ولم يقل من دون الله ؛ لأن الموقف في الآخرة ، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع ، فقوله ﴿ مِّن دُونِ الله . . . ﴾ [العنكبوت : 22] لا تكون إلا في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ . . . ﴾ .

فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، ولم تُجْدِ معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله ؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشيء وكفر بي ،

فليس له مَنْ يحميه مني ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام التي عبدها ، فليس له إلا اليأس .

واليأس : قَطْع الرجاء من الأمر ، وقد قطع رجاء الكافرين ؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، وكفروا بمَنْ بيده النفع ، وبيده الضُّر .

(56/596)

وقلنا : إن المراد بآيات الله إما الآيات الكونية التي تُثبت قدرة الله ، وتلفت إلى حكمة الخالق – عز وجل – كالليل والنهار والشمس والقمر ، أو آيات المعجزات التي تصاحب الرسل ؛ ليؤيدهم الله بها ويُظهِر صِدْقهم في البلاغ عن الله ؛ فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام .

وقد كفر هؤلاء بكل هذه الآيات ، فلم يُصدّقوا منها شيئاً ، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات ، وكفروا أيضاً بلقاء الله في الآخرة ؛ فرحمة الله بعيدة عنهم ، وهم يائسون منها .

لذلك كانت عاقبتهم ﴿ وأولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت : 23] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(57/596)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (العنكبوت : 22) ، وفي سورة الشروى : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (الشورى : 31) ، للسائل أن يسأل عن زيادة الواو في سورة العنكبوت من قوله : (وَلَا فِي السَّمَاءِ) ولم يرد ذلك في سورة الشورى ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أنه لما تقدم فيها قوله تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (العنكبوت : 4) ، وهذا من أشد الوعيد إذ حاصله أنه لا يفوته سبحانه أحد ولا مهرب منه تعالى إلا إليه ، ناسب هذا قوله تعالى : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) ، كما قال : (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) (القرة : 148) إلى ما ورد من هذا ، وذلك تناسب بين ، ولما لم يرد في سورة الشورى من أولها إلى الآية مثل هذا الوعيد الشديد ، ولا كان فيها ما يستدعي في هذا التعميم والاستيفاء الوعيدي ، وردت الآية مناسبة ، لذلك ، فقال تعالى : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) ، ولم يكن التعميم هنا ليناسب ، فورد كل على ما يجب ، والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 389.390 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ يَرَوْاْ كَيْفَ ﴾ :

قرأ الأخَوان وأبو بكر بالخطاب ، على خطابِ إبراهيمِ لقومِه بذلك . والباقون بالغَيْبة ردّاً على الأممِ المكذِّبةِ .

قوله : "كيف يُبْدِئُ" العامَّةُ على ضَمِّ الياءِ مِنْ أَبْدَأَ . والزبيري وعيسى وأبو عمرو بخلافٍ عنه "يَبْدَأُ" مضارعَ بدأ . وقد صرَّح بماضيه هنا حيث قال : ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الخلق ﴾ [العنكبوت : 20] وقرأ الزهري : "كيف بَدا " بألفٍ صريحةٍ ، وهو تخفيفٌ على غيرِ قياسٍ . وقياسُه بين بينَ ، وهو في الشذوذ كقولِه :

3636 . . . . . فَارْعَيْ فَزارةُ لا هَناكِ المَرْتَعُ

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

قوله : ﴿ النشأة ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو " النَّشاءَة " بالمد هنا والنجم والواقعة . والباقون بالقصرِ مع سكونِ الشين ، وهما لغتان كالرَّأْفة والرَّآفة . وانتصابُهما على المصدرِ المحذوفِ الزوائدِ . والأصلُ الإنشاءة . أو على حَذْف العاملِ أي : يُنْشِئ فَيَنْشَؤون النشأةَ . وهي مرسومةٌ بالألفِ وهو يُقَوِّي قراءةَ المدّ .

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22)

(59/596)

قوله : ﴿ وَلَا فِي السماء ﴾ : على تقديرِ أَنْ يكونوا فيها كقولِه : ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات ﴾ [الرحمن : 33] أي : على تقديرِ أَنْ يكونوا فيها . وقال ابن زيد والفراء : " معناه ولا مَنْ في السماءِ أي : يُعْجِزُ إنْ عَصَى " يعني : أنَّ مَنْ في السماواتِ عطفٌ على " أنتم " بتقدير : إنْ يَعْصِ . قال الفراء : " وهذا من غوامضِ العربيةِ " . قلت : وهذا على أصلِه حيث يُجَوِّز حَذْفَ الموصولِ الاسميِّ وتَبْقى صلتُه . وأنشد :

3637 أَمَن يهْجُو رسولَ الله منكُمْ . . . وَيَنْصُرُه ويَمْدَحُه سَواءُ

وأبعدُ مِنْ ذلك مَنْ قدَّر موصولين محذوفين أي : وما أنتم بمعجزين مَنْ في الأرض مِن الإنسِ

والجنّ ولا مَنْ في السماء من الملائكة ، فكيف تُعْجِزُون خالِقها ؟ وعلى قولِ الجمهورِ يكونُ المفعولُ محذوفاً أي : وما أنتم بمعجزين أي : فائِتينَ ما يريدُ اللَّهُ بكم .

وقوله : " ثم يُعيدُه " ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنشِىءُ ﴾ مُسْتأنفان ، من إخبارِ الله تعالى ، فليس الأولُ داخلاً في حَيِّزِ الرؤيةِ ، ولا في الثاني في حَيِّزِ النظَر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 15.17 ﴾

(60/596)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) ﴾

الذي دَاخَلَهم فيه الشكُّ كان بعث الخَلْق ، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من إعادة فصول السَّنةِ بعد تقضِّيها على الوجه الذي كان في العام الماضي . وبَيَّنَ أن جَمْعَ أجزاءِ المكلَّفين بعد انقضاص البِنية كإعادة فصول السنة ؛ فكما أن ذلك سائغٌ في قدرته غيرُ مُسْتَنْكَرٍ فكذلك بعثُ الخَلْق .

وكما في فصول السنة تتكرر أحوالُ العِبادة في الأحوال العامة المشتركة بين الكافة ، وفي

خواص أحوال المؤمنين من استيلاء شهوات النفوس ، ثم زوالها ، إلى موالاة الطاعات ، ثم حصول الفترة ، والعود إلى مثل الحالة الأولى ، ثم بعد ذلك الانتباه بالتوبة . . كذلك تتكرر عليهم الأحوال .

وأربابُ القلوبِ تتعاقب أحوالُهم في القبض والبسط ثم في الهيبة والأُنس . ثم في التجلي والسَّتْر ، ثم في البقاء والفناء ، ثم في السُكْر والصحو . . وأمثال هذا كثير . وفي هذا المعنى قوله :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ثُمَّ الله يُنشِىءُ النشأة الآخرة إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وفي معنى تكرير الأحوال ما أنشدوا :

كلُّ نَهرٍ فيه ماءٌ قد جَرَى . . . فإليه الماءُ يوماً سيعود

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21)

(61/596)

أجناسُ ما يعذِّبُ به عبادَه وأنواعُ ما يرحم به عباده . . لا نهاية لها ولا حَصْر ؛ فَمِنْ ذلك أنه يعذِّب من يشاء بالخذلان ، ويرحم من يشاء بالإيمان . يعذِّب من يشاء بالجحود والعنود ،

ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود . يعذب من يشاء بالحِرْصِ ويرحم من يشاء بالقناعة . يعذِّب من يشاء بتفرقة الهمِّ ويرحم من يشاء بجَمْعِ الهِمَّة . يعذب من يشاء بإلقائه في ظلمة التدبير ، ويرحم من يشاء بإشهاده جريان التقدير . يعذب من يشاء بالاختيار من نَفْسِه ، ويرحم من يشاء برضاه بحُكْم ربّه . يعذب من يشاء بإعراضة عنه ، ويرحم من يشاء بإقباله عليه . يعذب من يشاء بأن يَكِلَه ونَفْسَه ، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحُسْنِ توليه . يعذب من يشاء بحبِّ الدنيا ويمنعها عنه ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبَسْطِها عليه . يعذب من يشاء بأن يثبته في أوطان العادة ، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العبادة . . . وأمثال هذا كثير .

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22)

نُقَلِّب الجملةَ في القبضة ، ونُجْري عليهم أحكام التقدير : جحدوا أو وَحَّدوا ، أقبلوا أم أعرضوا .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)

تعجلت عقوبتهم بأنْ يئسوا من رحمته . . . ولا عقوبةَ أشدُّ من هذا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 94.93 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم سبحانه هذه الجملة الاعتراضية بما ابتدأها به وبما ختم به ما قبلها من كلام الخليل عليه الصلاة والسلام ، وزاد هذا ما ترى من التهديد الشديد ، شرع في إكمال قصته عليه الصلاة والسلام دالاً على أنه لا أحد يعجزه ، ولا يقدر على نصر أحد من عذابه الأليم ، مشيراً إلى أنهم سببوا عن قوله ضد ما يقتضيه إيذاناً بالعناد ، والإصرار على سوء الاعتقاد ، فقال : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ أي الذين يرجى قبولهم لنصحه علماً منهم بوفور شفقته وعظم أمانته ونصيحته ﴿ إلا أن قالوا ﴾ بأعظم فظاظة ﴿ اقتلوه ﴾ أي بالسيف ﴿ أو حرقوه ﴾ أي بالنار .

ولما استقر رأي الجميع على هذا الثاني ، ولم يكن له فيهم نصير ، أشار إليه سبحانه بقوله ناسقاً له على ما تقديره : فأبى المعظم القتل لأنه عذاب مألوف لمن يستحقه من المجرمين ، وهو قد عمل عملة مفردة في الدهر فالذي ينبغي أن يخص العذاب عليها بعذاب لم يعهد مثله وهو الإحراق على هيئة غريبة ، فرجعوا عن القتل واستقر رأيهم على الإحراق فجمعوا له حطباً إلى أن ملأ ما بين الجبال ، وأضرموا فيه النار حتى أحرقت ما دنا منها بعظيم الاشتعال ، وقذفوه فيها بالمنجنيق ﴿ فأنجاه الله ﴾ بما له من كمال العظمة إنجاء وحيّاً من غير احتياج إلى تدريج ﴿ من النار ﴾ أي من إحراقها وأذاها ، ونفعته بأن أحرقت وثاقه .

ولما اشتملت قصته بهذا السياق على دلائل واضحات ، وأمور معجزات ، عظم أمرها سبحانه بقوله مؤكداً لمزيد التنويه بذكرها ، وتنزيلاً في توقفهم عما دعت إليه الآيات الظاهرة من الإيمان منزلة المنكر لها : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي ما ذكر من أمره وما خللت به قصته من الحكم ﴿ لآيات ﴾ أي براهين قاطعة في الدلالة على جميع أمر الله من تصرفه في الأعيان والمعاني ، لكون النار لم تحرقه وأحرقت وثاقه وكل ما مر عليها من طائر ، ومع رؤيته ذلك لم يؤمنوا ولم يقدروا على ضرره بشيء غير ذلك .

ولما كان ما للشيء إنما هو في الحقيقة ما ينفعه ، وكان قد حجبها سبحانه بالشهوات والحظوظ الشاغلة عن استعمال نور العقل ، قال : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي يقبلون على استعمال نور العقل الذي وهبهموه الله فيصدقون بالغيب حتى صار الإيمان -بكثرة ما صقلوا مرائي قلوبهم بالنظر في أسبابه - لهم خلقاً بحيث إنهم في كل لحظة يجدد دون الترقي في مراتبه ، والتنقل في أخبيته ومضاربه .

(64/596)

ولما تقدم سلبه النفع عن هذه الأوثان ، أشار هنا إلى نفع يعقب من الضر ما لا نسبة له منه ، فليس حينئذ بنفع ، فقال تعالى : ﴿ وقال ﴾ أي إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير هائب لتهديدهم بقتل ولا غيره ، مؤكداً لأجل ما أشار إليه مما ينكرونه من ضعف شركائهم وعجزها : ﴿ إنما اتخذتم ﴾ أي أخذتم باصطناع وتكلف ، وأشار لى عظمة الخالق وعلو شأنه بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي كل شيء تحت قهره ، ولا كلفة - في اعتقاد كونه رباً - باحتياج إلى مقدمة جعل وصنعة ولا غير ذلك ، وقال : ﴿ أوثاناً ﴾ إشارة إلى تكثرها الذي هو مناف لرتبة الإلهية ؛ وأشار إلى ذلك النفع بقوله : ﴿ مودة ﴾ أي لأجل

مودة – عند من نصب سواء ترك التنوين وهم حمزة وخفص عن عاصم وروح عن يعقوب أو نوّن وهم الباقون ﴿ بينكم ﴾ من خفضه على الاتساع ورفع " مودة " وهم ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب كان المعنى : هي مودة البين الجامع لكم بمعنى مودتكم على وجه أبلغ ، لأن المودة إذا كانت لبين جامع الناس كانت لأولئك الناس بطريق الأولى ، ومن خفضه ونصبها وهم حمزة وحفص عن عاصم وروح عن يعقوب فالمعنى : لأجل المودة ، ومن نصبها ونوّن وهم نافع وابن عامر وأبو جعفر وشعبة فالبين عنده ظرف ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بالاجتماع عندها والتواصل في أمرها بالتناصر والتعاضد كما يتفق ناس على مذهب فيكون ذلك سبب تصادقهم ، وهذا دال على أن جمع الفسوق لأهل الدنيا هو العادة المستمرة ، وأن الحب في الله والاجتماع له عزيز جداً ، لما فيه من قطع علائق الدنيا وشهواتها التي زينت للناس ، بما فيها من الإلباس ، وعظيم البأس .

(65/596)

ولما أشار إلى هذا النفع الذي هو في الحقيقة ضر ، ذكر ما يعقبه من الضر البالغ ، فقال معبراً بأداة البعد إشارة إلى عظيم ذلك اليوم ، وإلى أنه جعل لهم في الحياة أمداً يمكنهم فيه السعي للتوقي من شر ذلك اليوم : ﴿ ثم يوم القيامة ﴾ ساقه مساق ما لا نزاع فيه لما قام عليه من

الأدلة ﴿ يكفر بعضكم ببعض ﴾ فينكر كل منهم محاسن أخيه ، ويتبرأ منه بلعن الأتباع القادة ، ولعن القادة الأتباع ، وتنكرون كلكم عبادة الأوثان تارة إذا تحققتم أنها لا ضر ولا نفع لها ، وتقرون بها أخرى طالبين نصرتها راجين منفعتها ، وتنكر الأوثان عبادتكم وتجحد منفعتكم ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ على ما ذكر ﴿ ومأواكم ﴾ جميعاً أنتم والأوثان ﴿ النار ﴾ لتزيد في عذابكم ويزداد بغضكم لها ﴿ وما لكم ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ من ناصرين ﴾ أصلاً يحمونكم منها ، ويدخل في هذا كل من وافق أصحابه من أهل المعاصي أو البطالة على الرذائل ليعدوه حسن العشرة مهذب الأخلاق لطيف الذات ، أو خوفاً من أن يصفوه بكثافة الطبع وسوء الصحبة ، ولقد عم هذا لعمري أهل الزمان ليوصفوا بموافاة الإخوان ومصافاة الخلان ، معرضين عن رضى الملك الديان .

(66/596)

ولما كان في سياق الابتلاء ، وذكر من الأنبياء من طال ابتلاؤه ، بين أنه لم يكن لهم من أممهم تابع يقدر على نصرهم ، وأن الله سبحانه تولى كفايتهم فلم يقدر واحد على إهلاكهم ، وأهلك أعدائهم ، فلم يكن لهم من ناصرين فقال : ﴿ فآمن له ﴾ أي لأجل دعائه له مع ما رأى من الآيات ﴿ لوط ﴾ أي ابن أخيه هاران وحده ، وهو أول من صدقه من الرجال

﴿ وقال ﴾ أي إبراهيم عليهما الصلاة والسلام مؤكداً لما هو جدير بالإنكار من الهجرة لصعوبتها : ﴿ إني مهاجر ﴾ أي خارج من أرضي وعشيرتي على وجه الهجر لهم فمنتقل ومنحاز ﴿ إلى ربي ﴾ أي إلى أرض ليس بها أنيس ولا عشير ، ولا من ترجى نصرته ، ولا من تنفع مودته ، فحينئذ يتبين الرضى بالله وحده ، والاعتماد عليه دون ما سواه ، فهاجر من كوثى من سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى الأرض المقدسة ، فكانت له هجرتان ، وهو أول من هاجر في الله ، قال مقاتل : وكان إذ ذاك ابن خمس وسبعين سنة .

ثم علل ذلك بما يسليه عن فراق أرضه وأهل وده من ذوي رحمه وأنسابه وأولي قربه ، فقال مؤكداً تسكيناً لمن عساه يتبعه وتهويناً عليه لفراق ما ألفت النفوس من أنه لا عز إلا به من العشائر والأموال والمعارف : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ العزيز ﴾ أي فهو جدير بإعزاز من انقطع إليه ﴿ الحكيم ﴾ فهو إذا أعز أحداً منعته حكمته من التعرض له بإذلال ، بفعل أو مقال ، كما صنع بي حين أراد إذلالي من كان جديراً بإعزازي من عشيرتي وأهل قربى ، وبالغ في أذاي ممن كان حقيقاً بنفعي من ذوي رحمي وحبي .

(67/596)

ولما كان التقدير : فأعززناه كما ظن بنا إعزازاً أحكمناه حتى استمر في عقبه إلى القيامة ، عطف عليه قوله : ﴿ ووهبنا له ﴾ أي بجليل قدرتنا شكراً على هجرته ﴿ إسحاق ﴾ من زوجته سارة عليها السلام التي جمعت إلى العقم في شبابها اليأس بكبرها ، وعطفه لهبته له بالواو دليل على ما سيأتي إن شاء الله تعالى في الصافات من أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام لتعقيبه للهبة هناك على الهجرة بالفاء ﴿ ويعقوب ﴾ من ولده إسحاق عليهما الصلاة والسلام .

ولما كان السياق في هذه السورة للامتحان ، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد ابتلي في إسماعيل عليه الصلاة والسلام بفراقه مع أمه ـ رضى الله عنهما ـ ووضعهما في قضيعة من الأرض لا أنيس بها ، لم يذكره تصريحاً في سياق الامتنان ، وأفرد إسحاق عليه الصلاة والسلام لأنه لم يبتل فيه بشيء من ذلك ، ولأن المنة به – لكون أمه عجوزاً وعقيماً – أكبر وأعظم لأنها أعجب ، وذكر إسماعيل عليه الصلاة والسلام تلويحاً في قوله : ﴿ وجعلنا ﴾ أي بعزتنا وحكمتنا ﴿ في ذريته ﴾ من ولد إسحاق وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿ النبوة ﴾ فلم يكن بعده نبي أجنبي عنه ، ومتى صحت هذه المناسبة لزم قطعاً أن يكون الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإنه أعرى ذكر هذه السورة منه ، ويكون كأنه قيل : إنا بشرناه بما يسرّ به من إسحاق بعد أن أمرناه بما يضر من إسماعيل عليهما السلام فصبر في محنة الضراء ، وشكر في محنة السراء ﴿ والكتاب ﴾ فلم ينزل كتاب إلا على أولاده ،

وأفرد ليدل – مع تناوله بالجنسية الكتب الأربعة – على أنه لا شيء يستحق أن يكتب إلا ما أنزل فيها ، أو كان راجعاً إليه ، ولو جمع لم يفد هذا المعنى ﴿ وآتيناه أجره ﴾ على هجرته ﴿ في الدنيا ﴾ بما خصصناه به مما لا يقدر عليه غيرنا من سعة الرزق ، ورغد العيش ، وكثرة الخدم ، والولد في الشيخوخة ، وكثرة النسل ، والثناء الحسن ، والمحبة من جميع الخلق ، وغير ذلك .

(68/596)

ولما كان الكافر يعتقد – لإنكاره البعث – أنه نكد حياته بالهجرة نكداً لا تدارك له ، اقتضى الحال التأكيد في قوله : ﴿ وإنه في الآخرة ﴾ أي التي هي الدار وموضع الاستقرار ﴿ لمن الصالحين ﴾ الذين خصصناهم بالسعادة وجعلنا لهم الحسنى وزيادة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 550.553 ﴾

(69/596)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾

لما أتى إبراهيم عليه السلام ببيان الأصول الثلاثة وأقام البرهان عليه ، بقي الأمر من جانبهم إما الإجابة أو الإتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا إلا بقولهم ﴿ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

كيف سمى قولهم ﴿ اقتلوه ﴾ جواباً مع أنه ليس بجواب ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف ، مع أن السيف ليس بجواب ، وإنما معناه لا أقابله بالجواب ، وإنما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه الثاني هو أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا في معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فتبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت ، لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، أما إذا أجاب بجواب فاسد ، علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه .

المسألة الثانية :

القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضاً هم ، فيكون الآمر نفس

المأمور ؟ فنقول الجواب عنه : من وجهين أحدهما : أن كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه ، فحصل الأمر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد ، لأن كل واحد أمر غيره وثانيهما : هو أن الجواب لا يكون إلا من الأكابر والرؤساء ، فإذا قال أعيان بلد كلاما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت إلى عدم قول العبيد والأرذال ، فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لأتباعهم وأعوانهم اقتلوه ، لأن الجواب لا يباشره إلا الأكابر والقتل لا يباشره إلا الأتباع .

المسألة الثالثة :

(70/596)

﴿ أَوْ ﴾ يذكر بين أمرين الثاني منهما ينفك عن الأول كما يقال زوج أو فرد ، ويقال هذا إنسان أو حيوان ، يعني إن لم يكن إنساناً فهو حيوان ، ولا يصح أن يقال هذا حيوان أو إنسان إذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فإن لم يكن حيواناً فهو إنسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو إنسان ، الجواب عنه : من وجهين أحدهما : أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون ﴿ أَوْ ﴾ مستعملا في موضع بل ، كما يقول القائل أعطيته ديناراً أو دينارين ، وكما يقول القائل أعطه ديناراً بل دينارين قال

الله تعالى : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ [المزمل : 2 4] فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه الجواب الثاني : هو أنا نسلم ما ذكرتم والأمر هنا كذلك ، لأن التحريق فعل مفض إلى القتل وقد يتخلف عنه القتل فإن من ألقى غيره في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حياً يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات ، فكذلك ههنا قالوا اقتلوه أو لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار ، وإن ترك مقالته فخلوا سبيله وإن أصر فخلوا في النار مقيله .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النار ﴾ اختلف العقلاء في كيفية الإنجاء ، بعضهم قال برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى : ﴿ يانار كُونِى بَرْداً ﴾ [الأنبياء : 69] وبعضهم قال خلق في إبراهيم كيفية استبرد معها النار وقال بعضهم ترك إبراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع أذى النار عنه ، والكل ممكن والله قادر عليه ، وأنكر بعض الأطباء الكل ، أما سلب الحرارة عن النار ، قالوا الحرارة في النار ذاتية كالزوجية في الأربعة لا يمكن أن تفارقها ، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الإنساني له طرفا تفريط وإفراط ، فلو خرج عنهما لا يبقى إنساناً أو لا يعيش .

(71/596)

مثلا المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنساناً فإن صار أحد عشر لا يكون إنساناً وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنساناً فإذا صارت أربعة لا يبقى إنساناً لكن البرودة التي يستبرد معها النار مزاج السمندل فلو حصل في الإنسان لمات أو لكان ذلك فإن النفس تابعة للمزاج ، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة في النار والنار كما هي ، والقطنة كما هي ولا تحترق ، فنقول الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل ، أما الأول فلوجهين أحدهما : أن الحرارة في النار تقبل الاشتداد والضعف ، فإن النار في الفحم إذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وإن لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة التي كانت في النار ، فإذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عليها إلى أن ينتهي إلى حد لا يؤذي الإنسان ، ولا كذلك الزوجية فإنها لا تشتد ولا تضعف والثاني : وهو أن في أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى ناراً وهو نور غير محرق ، وأما الثاني فأيضاً ممكن وقولهم مدفوع من وجهين أحدهما : منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الإنسانية في المزاج الذي مثل مزاج الجمد وثانيهما : أن نقول على أصلكم لا يلزم المحال لأن الكيفية التي ذكرناها تكون في ظاهر كالأجزاء الرشية عليه ولا يتأدى إلى القلب والأعضاء الرئيسة ، ألا ترى أن الإنسان إذا مس الجمد

زماناً ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار في إحراق يده مثل ما تؤثر في إحراق يد من أخرج يده من جيبه ، ولهذا تحترق يده قبل يد هذا .

(72/596)

فإذا جاز وجود كيفية في ظاهر جلد الإنسان تمنع تأثير النار فيه بالإحراق زماناً فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق ، وأما الثالث : فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لأنه معجز والمعجز ينبغي أن يكون خارقاً للعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لأيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني في إنجائه من النار لآيات ، وهنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال في إنجاء نوح وأصحاب السفينة ﴿ جعلناها ءايَةً ﴾ [العنكبوت : 15] وقال ههنا ﴿ لآيَاتٍ ﴾ بالجمع لأن الإنجاء بالسفينة شيء تتسع له العقول فلم يكن فيه من الآية إلا بسبب إعلام الله إياه بالاتخاذ وقت الحاجة ، فإنه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما في الغيب ، وبسبب أن الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة ، وأما الإنجاء من

النار فعجيب فقال فيه آيات .

المسألة الثانية :

قال هناك ﴿ آية للعالمين ﴾ [العنكبوت : 15] وقال ههنا ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص الآيات بالمؤمنين لأن السفينة بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد ، وأما تبريد النار (فإنه) لم يبق فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الإيمان به والتصديق ، وفيه لطيفة : وهي أن الله لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه في نفسه وهدايته لأبناء جنسه ، وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة في إبراهيم ، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة ، فقال إن في ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون .

المسألة الثالثة :

قال هناك ﴿ جعلناها ﴾ وقال ههنا ﴿ جعلناه ﴾ لأن السفينة ما صارت آية في نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقي فعل نوح سفها ، فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية ، وأما تبريد النار فهو في نفسه آية إذا وجدت لا تحتاج إلى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية .

(73/596)

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه ، وقال إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه ، فليس هذا إلا تقليداً ، فإن بين بعضكم وبعض مودة فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله : ﴿ إِنَّمَا اتخذتم .

. .

مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ يعني ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق ، وهو أن يقال قوله : ﴿ إِنَّمَا اتخذتم . . .

مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي مودة بين الأوثان وبين عبدتها ، وتلك المودة هي أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل ، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ، ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية ، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية ، كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر في مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق .

والعاقل يحمل الألم الجسماني ويحصل اللذة العقلية ، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والألم العقلي .

إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم ، ولا يمينهم ولا يسارهم ، ولا قدامهم ولا وراءهم ، ولا يكون جسماً من الأجسام ، ولا شيئاً يدخل في الأوهام ، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان ، ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ يعني يوم يزول عمى القلوب وتتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودي ، ويقول المعبود ما هؤلاء عبدتي ويلعن بعضكم بعضاً ، ويقول هذا لذاك أنت أوقعتني في العذاب حيث عبدتني ، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادتك ، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون ، بل هم مجتمعون في النار كما كانوا مجتمعين في هذه الدار كما قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ مّن ناصرين ﴾ يعني ليس تلك النار مثل ناركم التي أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأنتم في النار ولا ناصر لكم ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال قبل هذا ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت : 22] على لفظ الواحد ، وقال ههنا على لفظ الجمع ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن ناصرين ﴾ والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم عليه السلام قالوا نحن ننصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم ﴿ حَرِّقُوهُ وانصروا ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : 68] فقال أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم ولهم ، أي للأوثان وعبدتها من ناصرين ، وأما هناك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله : ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

(75/596)

قال هناك ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ وما ذكر الولي ههنا فنقول : قد بينا أن المراد بالولي الشفيع يعني ليس لكم شافع ولا نصير دافع ، وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أي ما لكم كلكم لم يقل شفيع لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا ﴾ [يونس : 18] والشفيع لا يكون له شفيع ، فما نفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة إلى نفيه لاعترافهم به ، وأما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لأنفسهم شفعاء فنفى .

المسألة الثالثة :

قال هناك ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ اللهِ ﴾ فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصراً ووليا هو الله وليس لهم غيره ولي وناصر وقال ههنا ﴿ مَا لَكُم مِّنْ نَاصِرِينَ ﴾ من غير استثناء فنقول كان ذلك وارداً على أنهم في الدنيا فقال لهم في الدنيا ، لا تظنوا أنكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم ، بل الله تعالى ينصركم إن تبتم ، فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ وعدم الناصر عام لأن التوبة في ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقاً .

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)

يعني لما رأى لوط معجزته آمن ﴿ وقال ﴾ إبراهيم ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إلى رَبِّى ﴾ أي إلى حيث أمرني بالتوجه إليه ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم ﴾ عزيز يمنع أعدائي عن إيذائي بعزته ، وحكيم لا يأمرني إلا بما يوافق لكمال حكمته ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ أي بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية ، وبقاؤه إلى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبا بكر لما قبل دين محمد صلى الله عليه وسلم وكان نير القلب قبله قبل الكل ، من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر ، فنقول إن لوطاً لما رأى معجزته آمن برسالته ، وإما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته ، وإليه أشار بقوله : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ وما قال فآمن لوط .

المسألة الثانية :

ما تعلق قوله وقال : ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ بما تقدم ؟ فنقول بما بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه ، وحصل اليأس الكلي حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة ، لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضي بأفعالنا ، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة .

المسألة الثالثة :

قال : ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ ولم يقل مهاجر إلى حيث أمرني ربي مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة ، فنقول قوله : مهاجر إلى حيث أمرني ربي ليس في الإخلاص كقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى الموضع الفلاني ، ثم إن واحداً منهم

سافر إليه لغرض (في) نفسه يصيبه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصاً لوجهه فقال: ﴿ مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ يعني توجهي إلى الجهة المأمور بالهجرة إليها ليس طلباً للجهة إنما هو طلب لله.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

(77/596)

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ [العنكبوت: 7] أن أثر رحمة الله في أمرين في الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل إلى المؤمن في الدار الآخرة قطعاً بحكم وعد الله نفي العذاب عنه لنفيه الشرك وإثبات الثواب لإثباته الواحد، ولكن هذا ليس بواجب الحصول في الدنيا، فإن كثيراً ما يكون الكافر في رغد والمؤمن جائع في يومه متفكر في أمر غده لكنهما مطلوبان في الدنيا، أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، قوله: "وقنا عذاب الفقر والنار" فعذاب الفقر إشارة إلى دفع العذاب العاجل، وأما الثواب العاجل ففي قوله: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: 201] إذا علم هذا فنقول إن إبراهيم

عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار ، ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم عى التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب ، أعطاه الجزاء الآخر ، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ وفي الآية لطيفة : وهي أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيداً فريداً فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ، ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر ، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب ، وكان أولا لا جاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه ، فكثر ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده ، حتى قيل إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب ، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة ، فصار معروفاً بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملاً ، حتى قال

(78/596)

قائلهم : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبراهيم ﴾ [الأنبياء : 60] وهذا الكلام لا يقال إلا في مجهول بين الناس ، ثم إن الله تعالى قال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ يعني ليس

له هذا في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجاً ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين ، فإن كون العبد صالحاً أعلى مراتبه ، لما بينا أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي ، يقال الطعام بعد صالح ، أي هو باق على ما ينبغي ، ومن بقي على ما ينبغي لا يكون في عذاب ، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفي الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

أن إسماعيل كان من أولاده الصالحين ، وكان قد أسلم لأمر الله بالذبح وانقاد لحكم الله ، فلم لم يذكر ؟ فيقال هو مذكور في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النبوة ﴾ ولكن لم يصرح باسمه لأنه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الأولاد والأحفاد ، فذكر من الأولاد واحداً وهو الأكبر ، ومن الأحفاد واحداً وهو الأظهر كما يقول القائل إن السلطان في خدمته الملوك والأمراء الملك الفلاني والأمير الفلاني ولا يعدد الكل لأن ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر ، فيظن أنه ليس معه غير المذكورين .

المسألة الثانية :

أن الله تعالى جعل في ذريته النبوة إجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوي بين ولديه ، فكيف صارت النبوة في أولاد إسحاق أكثر من النبوة في أولاد إسماعيل ؟ فنقول : الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى القيامة قسمين والناس أجمعين ، فالقسم الأول من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحداً بعد واحد ، ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة اسحاق عليه السلام ، ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو إسماعيل واحداً جمع فيه ما كان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين ، وقد دام الخلق على دين أولاد إسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية إسماعيل مثل ذلك المقدار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 46 . 51 ﴾

(80/596)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾

قال ابن إسحاق : آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخيه وآمنت به سارة وكانت بنت عمه .

﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ يعني مهاجر عن الظالمين

. وفيما هاجر إليه قولان :

أحدهما : أنه هاجر إلى حرّان ، قاله كعب الأحبار .

الثاني : أنه هاجر من كوثي وهو من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : الذكر الحسن ، قاله ابن عباس .

الثاني : رضا أهل الأديان ، قاله قتادة .

الثالث : النية الصالحة التي اكتسب بها الأجر في الآخرة ، قاله الحسن .

الرابع : لسان صدق ، قاله عكرمة .

الخامس : ما أوتي في الدنيا من الأجر ، رواه ابن برزة .

السادس : الولد الصالح ، حكاه ابن عيسى وقاله الكلبي حتى أن أكثر الأنبياء من ولده .

ويحتمل سابعاً : أنه بقاء الصلاة عند قبره وليس ذلك لغيره من الأنبياء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(81/596)

وقال ابن عطية :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾

قرأ الجمهور " جوابَ " بالنصب ، وقرأ الحسن " جوابُ " بالرفع ، وكذلك قرأ سالم الأفطس ، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لما بين إبراهيم الحجج وأوضح أمر الدين رجعوا معه إلى الغلبة والقهر والغشم وعدوا عن طريق الاحتجاج حين لم يكن لهم قبل به فتآمروا في قتله أو تحريقه بالنار ، وأنفذوا أمر تحريقه حسبما قد اقتص في غير هذا الموضع ، " وأنجاه الله " تعالى من نارهم بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، قال كعب الأحبار : ولم تحرق النار إلا الحبل الذي أوثقوه به ، وجعل ذلك آية وعبرة ودليلاً وحدانيته لمن شرح صدره ويسره للإيمان أي هذا الصنف ينتفع بالآية والكفار هي عليهم عمى وإن كانت في نفسها آية للكل ، ثم ذكر تعالى أن إبراهيم عليه السلام قررهم على أن اتخاذهم الأوثان والأنصاب إنما كان اتباعاً من بعضهم لبعض وحفظاً لموداتهم ومحباتهم الدنياوية ، وأنهم يوم القيامة يجحد بعضهم بعضاً ويتلاعنون لأن توادهم كان على غير تقوى ، والأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، وقرأ عاصم في رواية الأعمش عن أبي بكر عنه " مودةٌ " بالرفع " بينَكم " بالنصب وهي قراءة الحسن وأبي حيوة .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي في رواية المفضل " مودةُ " بترك التنوين والرفع " بينِكم " بالخفض ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو في رواية أبي زيد " مودةً بينَكم " بالتنوين والنصب ونصب " بين " ، وقرأ حمزة " مودةَ " بالنصب وترك التنوين والإضافة إلى " بين " ، فأما قراءتا الرفع في " مودة " فوجههما أن يكون " ما " بمعنى الذي وفي قوله ﴿ اتخذتم ﴾ ضمير عائد على الذي ، وهذا الضمير هو مفعول أول ل ﴿ اتخذتم ﴾ ، و ﴿ أوثاناً ﴾ مفعول ثان ، و " مودة " خبر " إن " في قراءة من نونها ، وفي قراءة من لم ينونها ويجوز أن تكون " ما " كافة ولا يكون في قوله ﴿ اتخذتم ﴾ ضمير ويكون قوله ﴿ أوثاناً ﴾ مفعولاً لقوله ﴿ اتخذتم ﴾ ثم يقتصر عليه ، ويقدر الثاني آلهة أو نحوه ، كما يقدر قوله تعالى ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ [الأعراف : 152] أي إلهاً ﴿ سينالهم غضب ﴾ [الأعراف : 152] ، ويكون قوله " مودةُ " خبر ابتداء تقديره هو مودة وفي هذه التأويلات مجاز واتساع في تسمية الأوثان " مودة " أو يكون ذلك على حذف مضاف ، وأما من نصب مودة فعلى أن " ما " كافة وعلى خلو ﴿ اتخذتم ﴾ من الضمير والاقتصار على المفعول الواحد كما تقدم ويكون نصب " المودة " على المفعول من أجله ، ومن أضاف " المودة " إلى " البين " في القراءتين بالنصب والرفع تجوز في ذلك وأجرى الظرف مجرى الأسماء ، ومن نصب " بينَكم " في قراءتي الرفع والنصب في " مودة " فكذلك يحتمل أن

ينتصب انتصاب الظروف ويكون معلقاً ب " مودة " وكذلك ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ ظرف أيضاً متعلق ب " مودة " وهو مصدر عمل في ظرفين من حيث افترقا بالمكان والزمان ولو كانا لواحد منهما لم يجز ذلك ، تقول رأيت زيداً أمس في السوق ولا تقول رأيت زيداً أمس البارحة اللهم إلا أن يكون أحد الظرفين جزءاً للآخر ، رأيت زيداً أمس عشية ، ويجوز أن ينتصب " بينكم " على أنه صفة ل " مودة " فهنا محذوف مقدر

(83/596)

تقديره " مودة " ثابتة " بينكم " ، وفي الظرف ضمير عائد على " مودة " لما حذفت ثابتة استقر الضمير في الظرف نفسه ، وقوله ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ ظرف في موضع الحال من الضمير الكائن في ﴿ بينكم ﴾ بعد حذف ثابتة فهذه الحال متعلقة ب " مودة " وجاز تعلقها بها ، وهي قد وصفت لأن معنى الفعل فيها ، وإن وصفت فلا يمتنع أن يعمل معنى الفعل إلا في المفعول ، فأما في الظرف والحال فيعمل ، قال مكي : ويجوز أن يكون ﴿ في الحياة ﴾ صفة ثابتة ل " مودة " ويكون فيها مقدر مستقر وفيها ضمير ثان عائد إلى " مودة " فالتقدير على هذا مودة ثابتة بينكم مستقرة في الحياة الدنيا . قال القاضي أبو محمد : ويصح أن يكون قوله " مودة " في قراءة من نصب مفعولاً ثانياً لقوله ﴿ اتخذتم ﴾ ويكون في

ذلك اتساع فتأمله ، وفي مصحف أبي بن كعب " مودة بينهم " بالهاء وفي مصحف ابن مسعود " إنما مودّة بينكم " .

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)

﴿ فآمن ﴾ معناه فصدق وهو فعل يتعدى بالباء وباللام والقائل ﴿ إني مهاجر ﴾ هو إبراهيم عليه السلام قاله قتادة والنخعي .

(84/596)

وقالت فرقة : هو لوط عليه السلام ، ومما صح من القصص أن إبراهيم ولوطاً هاجرا من قريتهما كوثا وهي في سواد الكوفة من أرض بابل إلى بلاد الشام فلسطين وغيرها ، وقال ابن جريج : إلى حران ، ثم أمرا بعد إلى الشام وفي هذه الهجرة كانت سارة في صحبة إبراهيم واعتراهما أمر الملك ، والمهاجر ، النازع عن الأمر وهو في عرف الشريعة من ترك وطنه رغبة في رضى الله تعالى ، وقد ذهب بهذا الأسم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفتح ، وقوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ مع الهجرة إليه ، صفتان بليغتان يقتضي استحقاق التوكل عليه ، وفي قوله ﴿ إلى ربي ﴾ ، حذف مضاف كأنه يقول إلى رضى ربي أو نحو هذا ، و ﴿ إسحاق ﴾ بن إبراهيم هو الذي بشر به في شيخه ، وبشر ب ﴿

يعقوب ﴾ من ورائه فهو ولد إسحاق ، ﴿ والكتاب ﴾ اسم الجنس أي جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم جميع الكتب المنزلة التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وعيسى عليه السلام من ذريته ، وقوله ﴿ أجره في الدنيا ﴾ ، يريد في حياته وبحيث أدرك ذلك وسر به ، والأجر الذي آتاه الله هو العافية من النار ومن الملك الجائر والعمل الصالح والثناء الحسن قاله مجاهد ، وأن كل أمة تتولاه ، قاله ابن جريج ، والولد الذي قرت به العين بحسب طاعة الله ، قاله الحسن ثم أخبر عنه أنه في الآخرة في عداد الصالحين الذين نالوا رضى الله وفازوا برحمته وكرامته العليا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(85/596)

وقال ابن الجوزى :

ثم عاد الكلام إلى قصة إبراهيم ، وهو قوله : ﴿ فما كان جوابَ قومه ﴾ أي : حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام ﴿ إلاَّ أن قالوا اقتُلوه أو حرِّقوه ﴾ وهذا بيان لسفه أحلامهم حين قابلوا احتجاجه عليهم بهذا .

قوله تعالى : ﴿ فأنجاه الله ﴾ المعنى : فحرَّقوه فأنجاه الله ﴿ مِنَ النَّار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ في ذلك ﴾ يشير إلى إنجائه إبراهيم .

قوله تعالى: ﴿ وقال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ إِنَّما اتَّخذتم مِنْ دون الله أوثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿ مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ ﴾ بالرفع والإضافة.

قال الزجاج: ﴿ مَوَدَّةُ ﴾ مرفوعة باضمار "هي"، كأنه قال: تلك مَوَدةُ بينكم، أي: أُلفتكم واجتماعكم على الأصنام مَوَدَّةُ بينكم؛ والمعنى: إنَّما اتخذتم هذه الأوثان لتتوادُّوا بها في الحياة الدنيا.

ويجوز أن تكون "ما" بمعنى الذي.

وقرأ ابن عباس، وسعيد بن المسيّب، وعكرمة، وابن أبي عبلة: ﴿ مَوَدَّةٌ ﴾ بالرفع ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ بالنصب.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ مَوَدَّةَ بَيْنَكم ﴾ قال أبو علي: المعنى: اتَّخذتم الأصنام للمودَّة، و ﴿ بينَكم ﴾ نصب على الظرف، والعامل فيه المودَّة.

وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: ﴿ مَوَدَّةَ بَيْنِكُم ﴾ بنصب ﴿ مَوَدَّةَ ﴾ مع الإضافة، وهذا على الاتساع في جعل الظرف اسماً لما أُضيف إليه.

قال المفسرون: معنى الكلام: إنَّما اتَّخذتموها لِتَتَّصِلَ المودَّة بينكم واللّقاء والاجتماع عندها، وأنتم تعلمون أنها لا تضر ولا تنفع، ﴿ ثُمَّ يومَ القيامة يكفُر بعضُكم ببعض ﴾ أي: يتبرَّأ القادة من الأتباع ﴿ ويَلعنُ بعضُكم بعضاً ﴾ يلعن الأتباعُ القادةَ لأنَّهم زيَّنوا لهم الكفر.

قوله تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾

أي : صدّق بابراهيم ﴿ وقال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ إنّي مُهَاجِرٌ إلى ربّي ﴾ فيه قولان .

أحدهما : إلى رضى ربّي .

(86/596)

والثاني : إلى حيث أمرني ربّي ، فهاجر من سواد العراق إلى الشام وهجر قومه المشركين .

﴿ ووهَبْنا له إسحاق ﴾ بعد إسماعيل ﴿ ويعقوبَ ﴾ من إسحاق ﴿ وجَعَلْنا في ذُرِّيَّته النُّبُوَّة والكتاب ﴾ وذلك أن الله تعالى لم يبعث نبيّاً بعد إبراهيم إلاَّ مِنْ صُلبه ﴿ وآتيناه أجره في الدُّنيا ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : الذِّكْر الحسن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : الثناء الحسن والولد الصالح ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : العافية والعمل الحسن والثناء ، فلست تَلْقى أحداً من اهل المَلَل إلاَّ يتولاَّه ، قاله قتادة .

والرابع : أنه أُري مكانَه من الجنة ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ وإنَّه في الآخرة لَمِنَ الصَّالحين ﴾ قد سبق بيانه [البقرة : 130] .

قال ابن جرير : له هناك جزاء الصَّالحين غير منقوص من الآخرة بما أُعطي في الدنيا من الأجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(87/596)

وقال القرطبى :

ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم .

فقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النار ﴾ أي من إذايتها ﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ أي في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقي فيها ﴿ لآيَاتٍ ﴾ .

وقراءة العامة ﴿ جَوَابَ ﴾ بنصب الباء على أنه خبر كان و ﴿ أَنْ قَالُوا ﴾ في محل الرفع اسم كان .

وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار : ﴿ جَوَابُ ﴾ بالرفع على أنه اسم ﴿ كان ﴾ و ﴿ أَنْ ﴾ في موضع الخبر نصباً .

﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾

وقرأ حفص وحمزة : ﴿ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ .

وابن كثير وأبو عمرو والكسائي : ﴿ مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ ﴾ .

والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثاب والأعمش : ﴿ مَوَدَّةُ بَيْنَكُمْ ﴾ .

الباقون .

﴿ مَوَدَّةُ بَيْنَكُمْ ﴾ .

فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه ؛ ذكر الزجاج منها وجهين : أحدهما : أن المودة ارتفعت على خبر إنّ وتكون ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي .

والتقدير إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودّةُ بينِكم .

والوجه الآخر : أن يكون على إضمار مبتدأ أي هي مودّةُ أو تلك مودّةُ بينِكم .

والمعنى آلهتكم أو جماعتكم مودّةُ بينِكم .

قال ابن الأنباري : ﴿ أَوْثَاناً ﴾ وقف حسن لمن رفع المودّة بإضمار ذلك مودّة بينكم ، ومن رفع المودّة على أنها خبر إنّ لم يقف .

والوجه الثالث الذي لم يذكره أن يكون ﴿ مَوَدَّةُ ﴾ رفعاً بالابتداء و ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ خبره ؛ فأما إضافة ﴿ مَوَدَّةُ ﴾ إلى ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ فإنه جعل ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ اسماً غير ظرف ، والنحويون يقولون جعله مفعولاً على السعة .

وحكى سيبويه : يا سارق الليلة أهل الدار .

ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف ؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذكرها .

ومن رفع ﴿ مَوَدَّةُ ﴾ ونوّنها فعلى معنى ما ذكر ، و ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ بالنصب ظرفاً .

ومن نصب ﴿ مَوَدَّةَ ﴾ ولم ينوّنها جعلها مفعولة بوقوع الاتخاذ عليها وجعل ﴿ إنما ﴾ حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي .

ويجوز نصب المودّة على أنه مفعول من أجله كما تقول : جئتك ابتغاء الخير ، وقصدت فلاناً مودّة له ﴿ بينِكم ﴾ بالخفض .

ومن نوّن ﴿ مَوَدَّةً ﴾ ونصبها فعلى ما ذكر ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ بالنصب من غير إضافة ، قال ابن الأنباري : ومن قرأ : ﴿ مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ ﴾ و ﴿ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ لم يقف على الأوثان ، ووقف على الحياة الدنيا .

ومعنى الآية جعلتم الأوثان تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ تتبرأ الأوثان من عبّادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأتباع .

وقيل : تدخل فيه الأوثان كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] .

قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ لُوطٌ أوّل من صدّق إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً .

قال ابن إسحاق آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته ، وآمنت به سارّة وكانت بنت عمه .

﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي ﴾ قال النّخعيّ وقتادة : الذي قال : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ هو إبراهيم عليه السلام .

قال قتادة : هاجر من كوثا وهي قرية من سواد الكوفة إلى حرّان ثم إلى الشام ، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران ابن تارخ ، وامرأته سارة .

قال الكلبي : هاجر من أرض حرّان إلى فلسطين .

وهو أوّل من هاجر من أرض الكفر .

قال مقاتل : هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة .

(89/596)

وقيل : الذي قال : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ لوط عليه السلام .

ذكر البيهقي عن قتادة قال : أوّل من هاجر إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضي الله عنه .

قال قتادة : سمعت النضر بن أنس يقول : سمعت أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول : " خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد رأيت خَتَنك ومعه امرأته .

قال : "على أي حال رأيتهما" قالت : رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدَّبَّابة وهو يسوقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صحبهما الله إن عثمان لأوّل من هاجر بأهله بعد لوط" " قال البيهقي : هذا في الهجرة الأولى ، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ إلى ربي ﴾ أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني .

﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم ﴾ تقدم .

وتقدم الكلام في الهجرة في "النساء" وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ أي منّ الله عليه بالأولاد فوهب له إسحاق ولداً ويعقوب ولد ولدٍ .

وإنما وهب له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق .

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ﴾ فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ، ووحد الكتاب ؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة ، والمراد التوراة والإنجيل (والفرقان) .

فهو عبارة عن الجمع .

فالتوراة أُنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ؛ والفرقان على محمد من ولده صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه ؛ قاله عكرمة .

(90/596)

وروى سفيان عن حميد بن قيس قال : أمر سعيد بن جبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ﴾ فقال عكرمة : أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا ؛ فقال سعيد بن جبير : صدق .

وقال قتادة : هو مثل قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ [النحل : 122] أي عاقبة وعملاً صالحاً وثناء حسناً .

وذلك أن أهل كل دين يتولونه .

وقيل : ﴿ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أن أكثر الأنبياء من ولده .

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ ليس ﴿ فِي الآخِرةِ ﴾ داخلاً في الصلة وإنما هو تبيين .

وقد مضى في "البقرة" بيانه .

وكل هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(91/596)

وقال أبو حيان :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾

لما أمرهم بعبادة الله ، وبين سفههم في عبادة الأوثان ، وظهرت حجته عليهم ، رجعوا إلى الغلبة ، فجعلوا القائم مقام جوابه فيما أمرهم به قولهم : ﴿ اقتلوه أو حرّقوه ﴾ .

والآمرون بذلك ، إما بعضهم لبعض ، أو كبراؤهم قالوا لأتباعهم : اقتلوه ، فتستريحوا منه عاجلاً ، أو حرّقوه بالنار ؛ فإما أن يرجع إلى دينكم ، إذا أمضته النار ؛ وإما أن يموت بها ، إن أصر على قوله ودينه .

وفي الكلام حذف ، أي حرّقوه في النار ، ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ .

وتقدمت قصته في تحريقه في سورة ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ وجمع هنا فقال : الآيات ، لأن الإنجاء من النار ، وجعلها برداً وسلاماً ، وأنها في الحبل الذي كانوا أوثقوه به دون الجسم ، وإن صح ما نقل من أن مكانها ، حالة الرمي ، صار بستاناً يانعاً ، هو مجموع آيات ، فناسب الجمع ، بخلاف الإنجاء من السفينة ، فإنه آية واحدة ، وتقدم الكلام على ذلك ، وفي ذلك إشارة من النار بعد إلقائه ؛ فيما قال كعب : لم يحترق بالنار إلا الحبل الذي أوثقوه به .

وجاء هنا الترديد بين قتله وإحراقه ، فقد يكون ذلك من قائلين : ناس أشاروا بالقتل ، وناس أشاروا بالإحراق .

وفي اقترب قالوا : ﴿ حرقوه ﴾ اقتصروا على أحد الشيئين ، وهو الذي فعلوه ، رموه في النار ولم يقتلوه .

وقرأ الجمهور : ﴿ جواب ﴾ ، بالنصب ؛ والحسن ، وسالم الأفطس : بالرفع ، اسماً لكان .

وقرأ الحسن ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة ، وأبو عمرو في رواية الأصمعي ، والأعمش عن أبي بكر : مودة بالرفع ، وبينكم بالنصب .

فالرفع على خبر إن ، وما موصولة بمعنى الذي ، أي إن الأوثان التي اتخذتموها مودوداً ، أو

سبب مودة ، أو مصدرية ، أي إن اتخاذكم أوثاناً مودة ، أو على خبر مبتدأ محذوف ، أي هي مودة بينكم ، وما إذ ذاك مهيئة .

(92/596)

وروي عن عاصم : مودة ، بالرفع من غير تنوين ؛ وبينكم بالفتح ، أي بفتح النون ، جعله مبنياً لإضافته إلى مبني ، وهو موضع خفض بالإضافة ، ولذلك سقط التنوين من مودة .

وقرأ أبو عمرو ، والكسائي ، وابن كثير : كذلك ، إلا أنه خفض نون بينكم .

وقرأ ابن عامر ، وعاصم : بنصب مودة منوناً ونصب بينكم ؛ وحمزة كذلك ، إلا أنه أضاف مودة إلى بينكم وخفض ، كما في قراءة من نصب مودّة مهيئة .

واتخذ ، يحتمل أن يكون مما تعدت إلى اثنين ، والثاني هو مودة ، أي اتخذتم الأوثان بسبب المودة بينكم ، على حذف المضاف ، أو اتخذتموها مودّة بينكم ، كقوله : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ أو مما تعدت إلى واحد ، وانتصب مودة على أنه مفعول له ، أي ليتوادوا ويتواصلوا ويجتمعوا على عبادتها ، كما يجتمع ناس على مذهب ، فيقع التحاب بينهم .

وذكروا عن ابن مسعود قراءة شاذة تخالف سواد المصحف ، مع أنه قد روي عنه ما في

سواد المصحف بالنقل الصحيح المستفيض ، فلذلك لم أذكر تلك القراءة .

﴿ ثم يوم القيامة ﴾ يقع بينكم التلاعن ، أي فيلاعن العبدة والمعبودات الأصنام ، كقوله : و﴿ يكونون عليهم ضداً ﴾ و﴿ بينكم ﴾ ، و﴿ في الحياة ﴾ : يجوز تعليقهما بلفظ مودة وعمل في ظرفين لاختلافهما ، إذ هما ظرفا مكان وزمان ، ويجوز أن يتعلقا بمحذوفين ، فيكونان في موضع الصفة ، أي كائنة بينكم في الحياة في موضع الحال من الضمير المستكن في بينكم .

وأجاز أبو البقاء أن يتعلق ﴿ في الحياة ﴾ .

باتخذتم على جعل ما كافة ونصب مودة ، لا على جعل ما موصولة بمعنى الذي ، أو مصدرية ورفع موده ، لئلا يؤدي إلى الفصل بين الموصول وما في الصلة بالخبر .

وأجاز قوم منهم ابن عطية أن يتعلق ﴿ في الحياة ﴾ بمودة ، وأن يكون ﴿ بينكم ﴾ صفة لمودة ، وهو لا يجوز ، لأن المصدر إذا وصف قبل أخذ متعلقاته لا يعمل ، وشبهتهم في هذا أنه يتسع في الظرف ، بخلاف المفعول به .

(93/596)

وأجاز أبو البقاء أن يتعلق بنفس بينكم ، قال : لأن معناه : اجتماعكم أو وصلكم .

وأجاز أيضاً أن يجعله حالاً من بينكم ، قال : لتعرفه بالإضافة .

انتهى ، وهما إعرابان لا يتعقلان .

﴿ فآمن له لوط ﴾ : لم يؤمن بإبراهيم أحد من قومه إلا لوط عليه السلام ، حين رأى النار لم تحرقه ، وكان ابن أخي سارة ، أو كانت بنت عمه .

والضمير في ﴿ وقال ﴾ عائد على إبراهيم ، وهو الظاهر ، ليتناسق مع قوله : ﴿ ووهبنا له إسحاق ﴾ ، وهو قول قتادة والنخعي .

وقالت فرقة : يعود على لوط ، وهاجر ، وإبراهيم ، عليهم السلام ، من قريتهما كوثى ، وهي في سواد العراق ، من أرض بابل ، إلى فلسطين من أرض الشأم .

وكان إبراهيم ابن خمس وسبعين سنة ، وهو أول من هاجر في الله .

وقال ابن جريج : هاجر إلى حران ، ثم إلى الشام ، وفي هجرته هذه كانت معه سارة .

والمهاجر : الفارغ عن الشيء ، وهو في عرف الشريعة : من ترك وطنه رغبة في رضا الله .

وعرف بهذا الاسم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، المهاجرون ، قبل فتح مكة .

﴿ إلى ربي ﴾ ، أي إلى الجهة التي أمرني ربي بالهجرة إليها .

وقيل : إلى حيث لا أمنع عبادة ربي .

وقيل : مهاجراً من خالفني من قومي ، متقرباً إلى ربي .

ونزل إبراهيم قرية من أرض فلسطين ، وترك لوطاً في سدوم ، وهي المؤتفكة ، على مسيرة يوم وليلة من قرية إبراهيم عليهما السلام .

﴿ إنه هو العزيز ﴾ الذي لا يذل من عبده ، ﴿ الحكيم ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها .

والضمير في ﴿ ذريته ﴾ عائد على إبراهيم .

﴿ النبوة ﴾ : إسحاق ، ويعقوب ، وأنبياء بني إسرائيل ، وإسماعيل ، ومحمد خاتمهم ، صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

﴿ والكتاب ﴾ : اسم جنس يدخل فيه التوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والفرقان .

(94/596)

﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ : أي في حياته قال مجاهد : نجاته من النار ، ومن الملك الجبار ، والعمل الصالح : والثناء الحسن ، بحيث يتولاه كل أمة وقال ابن جريج : والولد الذي قرت به عينه ، قاله الحسن .

وقال السدي : إنه رأى مكانه من الجنة .

وقال ابن أبي بردة : ما وفق له من عمل الآخرة .

وقال الماوردي : بقاء ضيافته عند قبره ، وليس ذلك لنبي غيره .

وقيل : النبوة والحكمة .

وقيل : الصلاة عليه إلى آخر الدهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(95/596)

وقال أبو السعود :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾

بالنَّصبِ على أنَّه خبرُ كان واسمُها قولُه تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وقُرِئ بالرَّفعِ على العكسِ . وقد مرَّ ما فيهِ في نظائِره ، وليس المرادُ أنَّه لم يصدر عنُهم بصددِ الجوابِ عن حُججِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إلا هذه المقالةُ الشَّنيعةُ كما هو المتبادَرُ من ظاهر النَّظْمِ الكريمِ بل إنَّ ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابُهم بعد اللَّتيا والِّتي في المرَّةِ الأخيرةِ وإلا فقد صدرَ عنُهم من الخُرافاتِ والأباطيلِ ما لا يُحصى ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النار ﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي فألقَوه في النَّار فأنجاهُ الله تعالى منها بأنْ جعلَها عليه الصَّلاة والسَّلام بَرداً وسلاماً حسبما بُيِّن في مواضعَ أُخَرَ ، وقد مرَّ في سورة الأنبياءِ بيانُ كيفيَّةِ إلقائِه عليه

الصَّلاة والسَّلام فيها وإنجائِه بدعائه تعالى إيَّاه تفصيلاً . قيل لم ينتفعْ يومئذٍ بالنَّارِ في موضعٍ أصلاً ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في إنجائِه منها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ بينةً عجيبةً هي حفظُه تعالى إيَّاه من حرِّها وإخمادِها في زمانٍ يسيرٍ وإنشاءُ رَوْضٍ في مكانِها ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وأما مَن عداهُم فهم عن اجتلائِها غافلون ومن الفوزِ بمغانمِ آثارِها محرومون .

(96/596)

﴿ وَقَالَ ﴾ أي إبراهيُم عليهِ السَّلامُ مُخاطباً لهم ﴿ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أوثانا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الحياة الدُّنْيَا ﴾ أي لتتوادُّوا بينكم وتتواصلُوا لاجتماعِكم على عبادتِها وائتلافِكم ، وثَاني مفعولَيْ اتخذتُم محذوفٌ أي أوثاناً آلهةً ويجوزُ أن يكونَ مودَّةَ هو المفعولَ بتقديرِ المُضافِ أو بتأويلِها بالمودودةِ أو بجعلها نفسَ المودَّةِ مُبالغةً أي اتخذتُم أوثاناً سببَ المودَّة بينكم أو مودودةً أو نفسَ المودَّة . وقُرِىء مودةً منونةً منصوبةً ناصبةَ الظَّرفِ وقُرئت بالرَّفعِ والإضافةِ على أنَّها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي هي مودودةٌ أو نفسُ المودةِ أو سببُ مودةِ بينكم . والجملةُ صفةٌ أوثاناً أو خبرُ إنَّ على أنَّ ما مصدريةٌ أو موصولةٌ قد حُذف عائدُها وهو المفعولُ الأولُ وقُرئت مرفوعةً منوَّنةً ومضافةً بفتحِ بينَكم كما قُرِىء (لقد تقطَّع بينكم) على أحدِ الوجهينِ وقُرِىء إنَّما مودةُ بينكم والمعنى أنَّ اتخاذكم إيَّاها مودةَ بينكم ليس إلاَّ

في الحياة وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتُم بي ما فعلتُم لأجلِ مودّتكم لها انتصاراً منّي كما يُنبىءُ عنه قولُه تعالى وانصُروا آلهتكم .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة ﴾ تنْقلبُ الأمورُ ويتبدّلُ التوادُّ تباغُضاً والتّلاطف تلاعُناً حيث ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ ﴾ وهو العَبَدةُ ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ وهم الأوثانُ ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ أي يلعنُ كلُّ فريقٍ منكم ومن الأوثانِ حيث يُنطقها الله تعالى الفريقَ الآخرَ ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي هي لكُم الذي تأوون إليه ولا ترجعونَ منه أبداً ﴿ وَمَا لَكُمْ مّن ناصرين ﴾ يُخلّصونكُم منها كما خلّصني ربّي من النّارِ التي ألقيتُموني فيها . وجمعَ النّاصرَ لوقوعِه في مُقابلة الجمعِ أي ما لأحدٍ منكُم من ناصرٍ أصلاً .

(97/596)

﴿ فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أي صدّقه في جميع مقالاتِه لا في نُبُوتِه وما دعا إليه من التّوحيدِ فقط فإنّه كان منزّهاً عن الكُفر . وما قيل إنّه آمنَ له حين رأى النّارَ لم تحرقْهُ ينبغي أنْ يُحملَ على ذكرنا أو على أنْ يُرادَ بالإيمانِ الرّتبةَ العاليةَ منه وهي التي لا يرتقِي إليها إلاّ همم الأفرادِ الكُمّل . ولوطُ هو ابنُ أخيهِ عليهما السّلامُ . ﴿ وَقَالَ إِنّى مُهَاجِرٌ ﴾ أي من قومِي ﴿ إلى رّبى ﴾ إلى حيثُ أمرني ربّي ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ الغالبُ على أمرِه فيمنعني من أعدائِي

﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعل فعلاً إلاَّ وفيه حكمةٌ ومصلحةٌ فلا يأمرني إلا بما فيه خلاصي . رُوي أنَّه هاجر من كُوثَى سوادِ الكُوفةِ مع لوطَ وسارَّة ابنة عمّه إلى حرَّانَ ثمَّ منها إلى الشأمِ فنزلَ فلسطينَ ونزل لوطُ سَدُومَ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ ولداً ونافلةً حين أيسَ من عجوزٍ عاقرٍ ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النبوة ﴾ فكثُر منهم الأنبياءُ ﴿ والكتاب ﴾ أي جنسَ الكتابِ المتناولِ للكتبِ الأربعةِ ﴿ وآتيناه أجره ﴾ بمقابلة هجرته إلينا ﴿ فِى الدنيا ﴾ بإعطاءِ الولد والذُّرية الطيبةِ واستمرار النُّبوة فهيم وانتماءِ أهل الملل إليه والثناء والصَّلاة عليه إلى آخرِ الدَّهر ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ أي الكاملينَ في الصَّلاح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(98/596)

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾

بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرّقُوهُ ﴾ .

وقرأ الحسن .

وسالم الأفطس بالرفع على العكس ، وقد مر ما فيه في نظائره ، والمراد بالقتل ما كان بسيف

ونحوه فتظهر مقابلة الإحراق له ، ولا حاجة إلى جعل أو بمعنى بل ، والآمرون بذلك إما بعضهم لبعض أو كبرائهم قالوا لأتباعهم : اقتلوه فتستريحوا منه عاجلاً أو حرقوه بالنار فإما أن يرجع إلى دينكم إذا مضته النار وإما أن يموت بها إن أصر على قوله ودينه ، وأياً ما كان ففيه إسناد للبعض إلى الكل ، وجاء هنا الترديد بين قتله عليه السلام وإحراقه فقد يكون ذلك من قائلين ناس أشاروا بالقتل وناس بالإحراق ، وفي اقترب قالوا حرقوه اقتصروا على أحد الشيئين وهو الذي فعلوه رموه عليه السلام في النار ولم يقتلوه ثم إنه ليس المراد أنهم لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حججه عليه السلام إلا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم ، بل ءن ذلك هو الذي استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتي في المرة الأخيرة ، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النار ﴾ الفاء فصيحة أي فألقوه في النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها سبحانه عليه برداً وسلاماً حسبما بين في مواضع أخر ، وقد مر بيان كيفية القائه عليه السلام فيها وإنجائه تعالى إياه منها ، وكان ذلك في كوثى من سواد الكوفة ، وكونه في المكان المشهور اليوم من أرض الرهى وعنده صورة المنجنيق وماء فيه سمك لا يصطاد ولا يؤكل حرمة له لا أصل له ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي في إنجائه عليه السلام منها ﴿ لآيات ﴾ بينة عجيبة وهي حفظه تعالى إياه من حرها وإخمادها في زمان يسير وإنشاء روض في مكانها .

وعن كعب أنه لم يحترق بالنار إلا الحبل الذي أوثقوه عليه السلام به ، ولولا وقوع اسم الإشارة في أثناء القصة لكان الأولى كونه إشارة إلى ما تضمنته ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون الفحص عنها ، والتأمل فيها .

﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم بعد أن أنجاه الله تعالى من النار .

﴿ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أوثانا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم ، فالمفعول له غاية مترتبة على الفعل ومعلول له في الخارج ، أو المعنى إن المودة بعضكم بعضاً هي التي دعتكم إلى اتخاذها بأن رأيتم بعض من تودّونه اتخذها فاتخذتموها موافقة له لمودتكم إياه ، وهذا كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئاً فيفعله مودّة له ، فالمفعول له على هذا علة باعثة على الفعل وليس معلولاً له في الخارج ، والمراد نفي أن يكون فيها نفع أو ضر وأن الداعي لاتخاذها رجاء النفع أو خوف الضر ، وكأنه لم يعتبر ما جعلوه علة لاتخاذها علة وهو ما أشاروا إليه في قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] للإشارة إلى أن ذلك لكونه أمراً موهوماً لا حقيقة له مما لا ينبغي أن يكون علة باعثة وسبباً حاملاً لمن له أدنى عقل .

وقال بعضهم : يجوز أن يكون المخاطبون في هذه الآية أناساً مخصوصين ، والقائلون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ أناساً غيرهم ، وقيل : إنّ الأوثان أول ما اتخذت بسبب المودة ، وذلك أنه كان أناس صالحون فماتوا وأسف عليهم أهل زمانهم فصوروا حجاراً بصورهم حباً لهم فكانوا يعظمونها في الجملة ولم يزل تعظيمها يزداد جيلاً فجيلاً حتى عبدت ، فالآية إشارة إلى ذلك ، والمعنى إنما اتخذ أسلافكم من دون الله أوثاناً الخ ، ومثله في القرآن الكريم كثير ، وثاني مفعولي اتخذتم محذوف تقديره آلهة .

وقال مكي : يجوز أن يكون اتخذ متعدياً إلى مفعول واحد كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين اتخذوا العجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ [الأعراف : 152] ورد بأنه مما حذف مفعوله الثاني أيضاً ، وجوز أن يكون مودة هو المفعول الثاني بتقدير مضاف أي ذات مودة وكونها ذات مودة باعتبار كونها سبب المودة ، وظاهر كلام الكشاف أن المضاف المحذوف هو لفظ سبب ، وقد يستغني عن التقدير بتأويل مودة بمودودة ، أو بجعلها نفس المودة مبالغة ، واعترض جعل مودة المفعول الثاني بأنه معرفة بالإضافة إلى المضاف إلى الضمير والمفعول الأول نكرة وذلك غير جائز لأنهما في الأصل مبتدأ وخبر .

وأجيب بأنه لا يلزم من غير جواز ذلك في أصلهما عدم جوازه فيهما ، وإذا سلم اللزوم فلا يسلم كون المفعول الثاني هنا معرفة بالإضافة لما أنها على الاتساع فهي من قبيل الإضافة اللفظية التي لا تفيد تعريفاً وإنما تفيد تخفيفاً في اللفظ ، كذا قيل : وهو كما ترى .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

وأبو بكر ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ بالنصب والتنوين بينكم بالنصب ، والوجه أن مودة منصوب على أحد الوجهين السابقين و ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ منصوب به أو بمحذوف وقع صفة له ، وابن كثير .

وأبو عمرو .

والكسائي .

(101/596)

ورويس ﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ برفع مودة مضافة إلى بين وخفض بين الإضافة ، وخرج الرفع على أن مودة خبر مبتدأ محذوف أي هي مودة على أحد التأويلات المعروفة ؛ والجملة صفة أو ثاناً ، وجوز كونها المفعول الثاني أو على أنها خبر إن على أن ما مصدرية ، أي إن اتخاذكم ، أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الأول ، أي إن الذي اتخذتموه من دون

الله أوثاناً مودة بينكم ، ويجري فيه التأويلات التي أشرنا إليها .

وقرأ الحسن .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وأبو عمرو في رواية الأصمعي .

والأعشى عن أبي بكر ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ بالنصب ، ووجه كل معلوم مما مر .

وروي عن عاصم ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ بالرفع من غير تنوين و ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ بفتح النون ، جعله مبنياً لإضافته إلى لازم البناء فمحله الجر بإضافة مودة إليه ، ولذا سقط التنوين منها .

وفي قوله تعالى : ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ على هذه القراءات والأوجه فيها أوجه من الإعراب ذكرها أبو البقاء .

الأول : أن يتعلق باتخذتم على جعل ما كافة ونصب مودة لا على جعلها موصولة أو مصدرية ، ورفع مودة لئلا يؤدي إلى الفصل بين الموصول وما في حيز الصلة بالخبر .

الثاني : أن يتعلق بنفس مودة إذا لم يجعل بين صفة لها بناءً على أن الصدر إذا وصف لا يعمل مطلقاً ، وأجاز ابن عطية هذا التعلق وإن جعل بين صفة لما أنه يتسع بالظرف ما لم يتسع في غيره ، فيجوز عمل المصدر به بعد الوصف .

الثالث : أن يتعلق بنفس بينكم لأن معناه اجتماعكم أو وصلكم .

الرابع : أن يجعل حالاً من بينكم لتعرفه بالإضافة .

وتعقب أبو حيان هذين الوجهين بعد نقلهما عن أبي البقاء كما ذكرنا بأنهما إعرابان لا يتعقلان .

الخامس : أن يجعل صفة ثانية لمودة إذا نونت وجعل بينكم صفة لها ، وأجاز ذلك مكي . وأبو حيان أيضاً .

السادس : أن يتعلق بمودة ويجعل بينكم ظرفاً متعلقاً بها أيضاً ، وعمل مودة في ظرفين لاختلافهما .

(102/596)

السابع : أن يجعل حالاً من الضمير في بينكم إذا جعل وصفاً لمودة والعامل الظرف لأن العامل في ذي الحال هو العامل في الحال ، ولا يجوز أن يكون العامل مودة لذلك .

وقال مكي : لأنك قد وصفتها ومعمول المصدر متصل به فيكون قد فرقت بين الصلة والموصول بالصفة .

وعن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ إِنَّمَا اتخذتم مّن دُونِ الله أوثانا إِنَّمَا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الحياة الدنيا

﴿ بزيادة ﴿ إِنَّمَا ﴾ بعد أوثاناً ورفع ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ بلا تنوين وجر بين بالإضافة وخرجت على أن مودة مبتدأ وفي الحياة الدنيا خبره ، والمعنى إنما توادكم عليها أو مودتكم إياها كائن أو كائنة في الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة ﴾ يتبدل الحال حيث ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ ﴾ وهم العبدة ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ وهم الأوثان ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ أي يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر ، وفيه تغليب الخطاب وضمير العقلاء ، وجوز أن يكون الخطاب للعبدة لا غير ، والمراد بكفر بعضهم ببعض التناكر أي ثم يوم القيامة يظهر التناكر والتلاعن بينكم أيتها العبدة للأوثان .

﴿ مِنَ النار ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ولا ترجعون منه أبداً .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن ناصرين ﴾ يخلصونكم منها كما خلصني ربي من النار التي ألقيتموني فيها ، وجمع الناصرين لوقوعه في مقابلة الجمع ، أي ما لأحد منكم من ناصر أصلاً .

(103/596)

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أي صدقه عليه السلام في جميع مقالاته أو بنبوته حين ادعاها لا أنه صدقه فيما دعا إليه من التوحيد ولم يكن كذلك قبل ، فإنه عليه السلام كان متنزهاً عن الكفر ، وما قيل : إنه آمن له عليه السلام حين رأى النار لم تحرقه ضعيف رواية وكذا دراية

، لأنه بظاهره يقتضي عدم إيمانه قبل وهو غير لائق به عليه السلام ، وحمله بعضهم على نحو ما ذكرنا أو على أن يرادب الإيمان الرتبة العالية منها وهي التي لا يرتقي إليها إلا الأفراد ، ولوط على ما في "جامع الأصول" ابن أخيه هاران بن تارح ، وذكر بعضهم أنه ابن أخته بالتاء الفوقية ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام : كما ذهب إليه قتادة .

والنخعي ، وقيل : الضمير للوط عليه السلام وليس بشيء لما يلزم عليه من التفكيك ، والجملة استئناف بياني كأنهق يل : فماذا كان منه عليه السلام ؟ فقيل : قال ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ ﴾ أي من قومي ﴿ إلى رَبِّى ﴾ أي إلى الجهة التي أمرني ربي بالهجرة إليها ، وقيل : إلى حيث لا أمنع عبادة ربي ، وقيل : المعنى مهاجر من خالفني من قومي متقرباً إلى ربي ﴿ أَنَّهُ ﴾ عز وجل ﴿ هُوَ العزيز ﴾ الغالب على أمره فيمنعني من أعدائي ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي .

روي أنه عليه السلام هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوطاً وسارة ابنة عمه إلى حران ، ثم منها إلى الشام فنزل قرية من أرض فلسطين ، ونزل لوط سذوم وهي المؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من قرية إبراهيم عليهما السلام ، وكان عمره إذ ذاك على ما في "الكشاف" و"البحر" خمساً وسبعين سنة ، وهو أول من هاجر في الله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ ولداً ونافلة حين أيس من عجوز عاقر ، والجملة معطوفة على ما قبل ولا حاجة إلى عطفها على مقدر كأصلحنا أمره ، ولم يذكر سبحانه إسماعيل عليه السلام ، قيل لأن المقام مقام الامتنان وذكر الإحسان وذلك بإسحاق ويعقوب لما أشرنا إليه بخلاف إسماعيل ، وقيل لأنه لا يناسب ذكره ههنا لأنه ابتلى بفراقه ووضعه بمكة مع أمه دون أنيس ، وقال الزمخشري : إنه عليه السلام ذكر ضمناً وتلويحاً بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ﴾ ولم يصرح به لشهرة أمره وعلو قدره ، هذا مع أن المخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم وهو من أولاده وأعلم به ، والمراد بالكتاب جنسه المتناول للكتب الأربعة ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ على ما عمل لنا ﴿ فِى الدنيا ﴾ قال مجاهد : بأنجائه من النار ومن الملك الجبار والثناء الحسن عليه بحيث يتولاه كل أمة ، وضم إلى ذلك ابن جريج الولد الذي قرت به عينه .

وقد يضم إلى ذلك أيضاً استمرار النبوة في ذريته ، وقال السادي : إن ذلك إراءته عليه السلام مكانه من الجنة ، وقال بعضهم : هو التوفيق لعمل الآخرة ، وقيل : هو الصلاة عليه إلى آخر الدهر ، وقال الماوردي : هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لنبي غيره ، ولا يخفى حال بعض هذه الأقوال ، وذكر بعضهم أن المراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته إلينا ، وعليه لا يصح عد الإنجاء من النار من الأجر بل يعد إعطاء الولد والذرية الطيبة

واستمرار النبوة فيهم ونحوه ذلك مما كان له عليه السلام بعد الهجرة من الأجر ، وعطف هذا وما بعده من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ أي لفي عداد الكاملين في الصلاح من التعميم بعد التخصيص ، كأنه لما عدد ما أنعم به عليه من النعم الدينية والدنيوية قال سبحانه : وجمعنا له ما ذكر خير الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(105/596)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) ﴾

أجمل سبحانه قصة نوح تصديقاً لقوله في أوّل السورة : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فيه تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم ، كأنه قيل له : إن نوحاً لبث ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعو قومه ، ولم يؤمن منهم إلاّ قليل ، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك . قيل : ووقع في النظم إلاّ خمسين عاماً ولم يقل : تسعمائة سنة وخمسين ؛ لأن في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني ، فقد يطلق على ما يقرب منه .

وقد اختلف في مقدار عمر نوح.

وسيأتي آخر البحث.

وليس في الآية إلاّ أنه لبث فيهم هذه المدة، وهي لا تدل على أنها جميع عمره.

فقد تلبث في غيرهم قبل اللبث فيهم، وقد تلبث في الأرض بعد هلاكهم بالطوفان، والفاء في ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ للتعقيب، أي أخذهم عقب تمام المدة المذكورة، والطوفان يقال لكل شيء كثير مطيف بجمع محيط بهم من مطر أو قتل: أو موت قاله النحاس.

وقال سعيد بن جبير وقتادة والسدي: هو المطر، وقال الضحاك: الغرق، وقيل: الموت، ومنه قول الشاعر:

أفناهم طوفان موت جارف... وجملة ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ في محل نصب على الحال، أي مستمرون على الظلم، ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح، وذكرهم هذه المدّة بطولها ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ أي أنجينا نوحاً، وأنجينا من معه في السفينة من أولاده وأتباعه.

واختلف في عددهم على أقوال: ﴿ وجعلناها ﴾ أي السفينة ﴿ آيَةً للعالمين إِنَّ ﴾ أي عبرة عظيمة لهم، وفي كونها آية وجوه: أحدها: أنها كانت باقية على الجوديّ مدة مديدة.

وثانيها: أن الله سلم السفينة من الرياح المزعجة.

وثالثها : أن الماء غيض قبل نفاذ الزاد .

وهذا غير مناسب لوصف السفينة بأن الله جعلها آية .

(106/596)

وقيل : إن الضمير راجع في ﴿ جعلناها ﴾ إلى الواقعة أو إلى النجاة ، أو إلى العقوبة بالغرق .

﴿ وإبراهيم إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ انتصاب ﴿ إبراهيم ﴾ بالعطف على ﴿ نوحاً ﴾ وقال النسائي : هو معطوف على الهاء في ﴿ جعلناها ﴾ وقيل : منصوب بمقدّر ، أي واذكر إبراهيم .

و ﴿ إذ قال ﴾ منصوب على الظرفية ، أي وأرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه اعبدوا الله ، أو جعلنا إبراهيم آية وقت قوله هذا ، أو واذكر إبراهيم وقت قوله ، على أن الظرف بدل اشتمال من إبراهيم ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي أفردوه بالعبادة وخصوه بها واتقوه أن تشركوا به شيئاً ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي عبادة الله وتقواه خير لكم من الشرك ، ولا خير في الشرك أبداً ، ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ شيئاً من العلم ، أو تعلمون علماً تميزون به بين ما هو خير ، وما هو شرّ .

قرأ الجمهور : ﴿ وإبراهيم ﴾ بالنصب .

ووجهه ما قدّمنا .

وقرأ النخعي وأبو جعفر وأبو حنيفة بالرفع على الابتداء والخبر مقدّر ، أي ومن المرسلين إبراهيم .

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أوثانا ﴾ بيّن لهم إبراهيم أنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضرّ ولا يسمع ولا يبصر ، والأوثان هي : الأصنام .

وقال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس ، والوثن ما يتخذ من جصّ أو حجارة .

وقال الجوهري : الوثن الصنم والجمع أوثان ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ أي وتكذبون كذباً على أن معنى ﴿ تخلقون ﴾ : تكذبون ، ويجوز أن يكون معناه : تعملون وتنحتون ، أي تعملونها ، وتنحتونها للإفك .

قال الحسن : معنى تخلقون : تنحتون أي إنما تعبدون أوثاناً ، وأنتم تصنعونها .

قرأ الجمهور : ﴿ تخلقون ﴾ بفتح الفوقية وسكون الخاء وضم اللام مضارع خلق وإفكاً بكسر الهمزة وسكون الفاء .

وقرأ عليّ بن أبي طالب وزيد بن عليّ والسلمي وقتادة بفتح الخاء واللام مشدّدة ، والأصل تتخلقون .

وروي عن زيد بن عليّ أنه قرأ بضم التاء وتشديد اللام مكسورة .

وقرأ ابن الزبير وفضيل بن ورقان : " أَفكا " بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدر كالكذب ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي خلقا أفكا ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ أي لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله فهو الذي عنده الرزق كله ، فاسألوه من فضله ووحدوه دون غيره ﴿ واشكروا لَهُ ﴾ أي على نعمائه ، فإن الشكر موجب لبقائها وسبب للمزيد عليها ، يقال : شكرته وشكرت له ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره .

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ قيل : هذا من قول إبراهيم ، أي وإن تكذبوني فقد وقع ذلك لغيري ممن قبلكم ، وقيل : هو من قول الله سبحانه ، أي وإن تكذبوا محمداً ، فذلك عادة الكفار مع من سلف ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ لقومه الذي أرسل إليهم ، وليس عليه هدايتهم ، وليس ذلك في وسعه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِيء الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ أولم يروا ﴾ بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة

أبو عبيد وأبو حاتم .

قال أبو عبيد : كأنه قال : أولم ير الأمم .

وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي بالفوقية على الخطاب من إبراهيم لقومه .

وقيل : هو خطاب من الله لقريش .

قرأ الجمهور : ﴿ كيف يبدىء ﴾ بضم التحتية من أبدأ يبدىء .

وقرأ الزبيري وعيسى بن عمر وأبو عمرو بفتحها من بدأ يبدأ .

(108/596)

وقرأ الزهري "كيف بدأ" والمعنى : ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يخرجه إلى الدنيا ، ثم يتوفاه بعد ذلك وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات ، فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ، والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم ، والواو للعطف على مقدّر ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له : كن فيكون .

ثم أمر سبحانه إبراهيم أن يأمر قومه بالمسير في الأرض ليتفكروا ويعتبروا ، فقال : ﴿ قُلْ

سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ﴾ على كثرتهم واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم وانظروا إلى مساكن القرون الماضية والأمم الخالية وآثارهم ؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله .

وقيل : إن المعنى : قل لهم يا محمد سيروا ، ومعنى قوله : ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنشِىء النشأة الآخرة ﴾ أن الله الذي بدأ النشأة الأولى ، وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث ، والجملة عطف على جملة : ﴿ سيروا في الأرض ﴾ داخلة معها في حيز القول ، وجملة : ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبلها .

قرأ الجمهور : ب ﴿ النشأة ﴾ بالقصر ، وسكون الشين .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالمدّ وفتح الشين ، وهما لغتان كالرأفة والرآفة .

وهي منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد ، والأصل الإنشاءة ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء ﴾ أي هو سبحانه بعد النشأة الآخرة يعذب من يشاء تعذيبه وهم الكفار والعصاة ويرحم من يشاء رحمته ، وهم المؤمنون به المصدّقون لرسله العاملون بأوامره ونواهيه ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي ترجعون وتردّون لا إلى غيره ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلاَ فِي السماء ﴾ قال الفراء : ولا من في السماء بمعجزين الله فيها .

قال : وهو كما في قول حسان :

فمن يهجو رسول الله منكم . . . ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه ، وينصره سواء .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] أي : إلاّ من له مقام معلوم .

والمعنى : أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض ولا أهل السماء في السماء إن عصوه .

وقال قطرب : إن معنى الآية : ولا في السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتني فلان ها هنا ، ولا بالبصرة ، يعني : ولا بالبصرة لو صار إليها .

وقال المبرد : المعنى : ولا من في السماء .

على أن " من " ليست موصولة بل نكرة ، وفي السماء صفة لها ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وردّ ذلك عليّ بن سليمان وقال : لا يجوز ، ورجح ما قاله قطرب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ " من " مزيدة للتأكيد ، أي ليس لكم وليّ يواليكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذاب الله ﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيات اللهِ وَلِقَائِهِ ﴾ المراد بالآيات الآيات التنزيلية أو التكوينية أو جميعهما .

وكفروا بلقاء الله ، أي أنكروا البعث وما بعده ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل الله سبحانه .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الكافرين بالآيات ، واللقاء ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي ﴾ أي إنهم في الدنيا آيسون من رحمة الله لم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله ، ولا ما أخبرتهم به رسله .

وقيل : المعنى : أنهم ييأسون يوم القيامة من رحمة الله ، وهي : الجنة .

والمعنى : أنهم أويسوا من الرحمة ﴿ وأولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كرّر سبحانه الإشارة للتأكيد ، ووصف العذاب بكونه أليماً للدلالة على أنه في غاية الشدّة .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرّقُوهُ ﴾ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض بما تقدّم من خطاب محمد صلى الله عليه وسلم على قول من قال : إن قوله : ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾ خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم .

(110/596)

وأما على قول من قال : إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام ، فالكلام في سياقه سابقاً ولاحقاً ، أي قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم : افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين ، ثم اتفقوا على تحريقه ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهِ مِنَ النار ﴾ وجعلها عليه برداً وسلاماً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في إنجاء الله لإبراهيم ﴿ لآيَاتٍ ﴾ بيّنة ، أي دلالات واضحة وعلامات ظاهرة

على عظيم قدرة الله وبديع صنعه ، حيث أضرموا تلك النار العظيمة وألقوه فيها ، ولم تحرقه ولا أثرت فيه أثراً ، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة والإحراق ، وإنما خصّ المؤمنون ؛ لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه ، وأما من عداهم ، فهم عن ذلك غافلون .

قرأ الجمهور : بنصب ﴿ جواب قومه ﴾ على أنه خبر كان وما بعده اسمها .

وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار والحسن برفعه على أنه اسم كان وما بعده في محل نصب على الخبر .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مّن دُونِ الله أوثانا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ أي قال إبراهيم لقومه ، أي للتوادد بينكم ، والتواصل لاجتماعكم على عبادتها ، وللخشية من ذهاب المودّة فيما بينكم إن تركتم عبادتها .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي : "مودّة بينكم" برفع مودّة غير منوّنة ، وإضافتها إلى بينكم .

وقرأ الأعمش وابن وثاب "مودّة" برفعها منوّنة .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بنصب " مَّوَدَّةَ " منوّنة ونصب بينكم على الظرفية .

وقرأ حمزة وحفص بنصب "مودّة" مضافة إلى بينكم .

فأما قراءة الرفع فذكر الزجاج لها وجهين : الأوّل : أنها ارتفعت على خبر إنّ في ﴿ إنما

اتخذتم ﴾ وجعل ما موصولة .

والتقدير : إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودّة بينكم .

والوجه الثاني : أن تكون على إضمار مبتدأ ، أي هي مودّة ، أو تلك مودّة .

والمعنى : أن المودّة هي التي جمعتكم على عبادة الأوثان ، واتخاذها .

(111/596)

قيل : ويجوز أن تكون مودّة مرتفعة بالابتداء ، وخبرها في الحياة الدنيا .

ومن قرأ برفع مودّة منوّنة فتوجيهه كالقراءة الأولى ، ونصب بينكم على الظرفية .

ومن قرأ بنصب مودّة ، ولم ينوّنها جعلها مفعول اتخذتم ، وجعل إنما حرفاً واحداً للحصر ، وهكذا من نصبها ونوّنها .

ويجوز أن يكون النصب في هاتين القراءتين على أن المودّة علة فهي مفعول لأجله ، وعلى قراءة الرفع يكون مفعول اتخذتم الثاني محذوفاً ، أي أوثاناً آلهة ، وعلى تقدير أن ما في قوله : ﴿ إنما اتخذتم ﴾ موصولة يكون المفعول الأوّل ضميرها ؛ أي اتخذتموه ، والمفعول الثاني أوثاناً ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي يكفر بعض هؤلاء المتخذين للأوثان العابدين لها بالبعض الآخر منهم ، فيتبرأ القادة من الأتباع والأتباع من القادة ، وقيل : المعنى

: يتبرأ العابدون للأوثان من الأوثان ، وتتبرأ الأوثان من العابدين لها ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ أي يلعن كلّ فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي الكفار .

وقيل : يدخل في ذلك الأوثان ، أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿ وَمَا لَكُمْ مّن ناصرين ﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أي : آمن لإبراهيم لوط فصدّقه في جميع ما جاء به .

وقيل : إنه لم يؤمن به إلاّ حين رأى النار لا تحرقه ، وكان لوط ابن أخي إبراهيم ﴿ وَقَالَ إِنّي مُهَاجِرٌ إلى رَبّي ﴾ قال النخعي ، وقتادة : الذي قال : ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ هو إبراهيم قال قتادة : هاجر من كوثى ، وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران ، ثم إلى الشام ، ومعه ابن أخيه لوط وامرأته سارّة .

(112/596)

والمعنى : إني مهاجر عن دار قومي إلى حيث أعبد ربي ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم ﴾ أي الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة : وقيل : إن القائل : ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ هو لوط ، والأوّل أولى لرجوع الضمير في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾

إلى إبراهيم ، وكذا في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ﴾ ، وكذا في قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف ، أي منّ الله عليه بالأولاد ، فوهب له إسحاق ولداً له ويعقوب ولداً لولده إسحاق ، وجعل في ذرّيته النبوّة والكتاب ، فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلاّ من صلبه ، ووحد الكتاب لأن الألف واللام فيه للجنس الشامل للكتب ، والمراد : التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، ومعنى ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ﴾ : أنه أعطي في الدنيا الأولاد ، وأخبره الله باستمرار النبوّة فيهم ، وذلك مما تقرّ به عينه ، ويزداد به سروره ، وقيل : أجره في الدنيا أن أهل الملل كلها تدّعيه ، وتقول هو منهم .

وقيل : أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً وعاقبة حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، أي الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة وكثرة العطاء من الربّ سبحانه .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث الله نوحاً ، وهو ابن أربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى قومه وبعد ما بعث ألفاً وسبعمائة سنة .

وأخرج ابن جرير عن عوف بن أبي شدّاد قال : إن الله أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ، فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذمّ الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح فقال : يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان ، فقال في وسط البيت هنيهة ، ثم خرج من الباب الآخر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وجعلناها ءَايَةً للعالمين ﴾ قال : أبقاها الله آية فهي على الجوديّ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ قال : تقولون كذباً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ النشأة الآخرة ﴾ قال : هي الحياة بعد الموت ، وهو النشور .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ قال :

صدّق لوط إبراهيم .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال : أوّل من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " صحبهما الله ، إن عثمان لأوّل من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط " وأخرج ابن منده وابن عساكر عن أسماء بنت أبي بكر قالت : هاجر عثمان إلى الحبشة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنه أوّل من هاجر بعد إبراهيم ولوط " وأخرج ابن عساكر والطبراني ، والحاكم في الكنى عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما كان بين عثمان وبين رقية وبين لوط مهاجر " وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : أوّل من هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم .

(114/596)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ قال : هما ولدا إبراهيم ، وفي قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ﴾ قال : إن الله وصى أهل الأديان بدينه فليس من أهل الأديان دين إلاّ وهم يقولون إبراهيم ويرضون به .

وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ﴾ قال : الذكر الحسن .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : الولد الصالح ، والثناء ، وقول ابن عباس : هما ولدا إبراهيم لعله يريد ولده وولد ولده ، لأن ولد الولد بمنزلة الولد ، ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس ، فهو حبر الأمة ، وهذه الرواية عنه هي من رواية العوفي ، وفي الصحيحين " إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(115/596)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾

لما تمّ الاعتراض الواقع في خلال قصة إبراهيم عاد الكلام إلى بقية القصة بذكر ما أجابه به قومه .

والفاء تفريع على جملة ﴿ إذ قال لقومه اعبدوا الله ﴾ [العنكبوت : 16] .

وجيء بصيغة حصر الجواب في قولهم ﴿ اقتلوه أو حرِّقوه ﴾ للدلالة على أنهم لم يترددوا في جوابه وكانت كلمتهم واحدة في تكذيبه وإتلافه وهذا من تصلبهم في كفرهم .

ثم ترددوا في طريق إهلاكه بين القتل بالسيف والإتلاف بالإحراق ثم استقر أمرهم على

إحراقه لما دل عليه قوله تعالى ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ و ﴿ جواب قومه ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ واسمها ﴿ أن قالوا ﴾ .

وغالب الاستعمال أن يؤخر اسمها إذا كان ﴿ أن ﴾ المصدرية وصلتها كما تقدم في قوله تعالى ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ في آخر سورة [النور : 51] ، ولذلك لم يقرأ الاسم الموالي لفعل الكون في أمثالها في غير القراءات الشاذة إلا منصوباً .

وقد أجمل إنجاؤه من النار هنا وهو مفصل في سورة الأنبياء .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى الإنجاء المأخوذ من ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ وجعل ذلك الإنجاء آيات ولم يجعل آية واحدة لأنه آية لكل من شهده من قومه ولأنه يدل على قدرة الله ، وكرامة رسوله ، وتصديق وعده ، وإهانة عدوه ، وأن المخلوقات كلها جليلها وحقيرها مسخرة لقدرة الله تعالى .

وجيء بلفظ ﴿ قوم يؤمنون ﴾ ليدل على أن إيمانهم متمكن منهم ومن مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة [البقرة : 164] .

فذلك آيات على عظيم عناية الله تعالى برسله فصدَّق أهل الإيمان في مختلف العصور .

ففي قوله ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ تعريض بأن تلك الآيات لم يصدق بها قوم إبراهيم لشدة مكابرتهم وكون الإيمان لا يخالط عقولهم .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

يجوز أن تكون مقالته هذه سابقة على إلقائه في النار وأن تكون بعد أن أنجاه الله من النار .

والأظهر من ترتيب الكلام أنها كانت بعد أن أنجاه الله من النار ، أراد به إعلان مكابرتهم الحق وإصرارهم على عبادة الأوثان بعد وضوح الحجة عليهم بمعجزة سلامته من حرق النار .

وتقدم ذكر الأوثان قريباً .

ومحط القصر بـ ﴿ إنما ﴾ هو المفعول لأجله ؛ أما قصر المعبودات من دون الله على كونها أوثاناً فقد سبق في قوله ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾ [العنكبوت : 17] أي ما اتخذتم أوثاناً إلا لأجل مودّة بعضكم بعضاً .

ووجه الحصر أنه لم تبق لهم شبهة في عبادة الأوثان بعد مشاهدة دلالة صدق الرسول الذي جاء بإبطالها فتمحض أن يكون سبب بقائهم على عبادة الأوثان هو مودة بعضهم بعضاً الداعية لإبابة المخالفة .

والمودة : المحبة والإلف .

ويتعين أن يكون ضمير ﴿ بينكم ﴾ شاملاً للأوثان .

والمودة : المحبة .

فهؤلاء القوم يحب بعضهم بعضاً فلا يخالفه وإن لاح له أنه على ضلال ، ويحبون الأوثان فلا يتركون عبادتها وإن ظهرت لبعضهم دلالة بطلان إلهيتها قال تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحب الله ﴾ [البقرة : 165] .

قال الفخر : أي مودة بين الأوثان وعبدتها فإن من غلبت عليه اللذات الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين مجمع من الأكابر لا يلتفت إلى اللذة العقلية من الحياء وحسن السيرة بل يحصِّل ما فيه لذة جسمه .

فهم كانوا قليلي العقول فغلبت عليهم اللذات الجسمية فلم يتسع عقلهم لمعبود غير جسماني ورأوا تلك الأصنام مُزينة بألوان وجواهر فأحبوها .

وفعل ﴿ اتخذتم ﴾ مراد به الاستمرار والبقاء على اتخاذها بعد وضوح حجة بطلان استحقاقها العبادة .

(117/596)

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف ﴿ مودة ﴾ منصوباً منوناً بدون إضافة ، و ﴿ بينكم ﴾ منصوباً على الظرفية .

وقرأ حمزة وحفص عن عاصم وروح عن يعقوب ﴿ مودة ﴾ منصوباً غير منون بل مضافاً إلى ﴿ بينكم ﴾ ، و ﴿ بينكم ﴾ مجرور أو هو من إضافة المظروف إلى الظرف .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب مرفوعاً مضافاً على أن تكون (ما) في ﴿ إنما ﴾ موصولة وحقها أن تكتب مفصولة ، و ﴿ مودة ﴾ خبر (إن) تكون كتابة ﴿ إنما ﴾ متصلة من قبيل الرسم غير القياسي فيكون الإخبار عنها بأنها مودة إخباراً مجازياً عقلياً باعتبار أن الاتخاذ سبب عن المودة .

ولما في المجاز من المبالغة كان فيه تأكيد للخبر بعد تأكيده بـ (إن) فيقوم التأكيدان مقام الحصر إذ ليس الحصر إلا تأكيداً على تأكيد كما قال السكاكي ، أي لأنه بمنزلة إعادة الخبر حيث يُثبت ثم يؤكد بنفي ما عداه .

والخبر مستعمل في غير إفادة الحكم بل في التنبيه على الخطأ بقرينة قوله عقبه ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ .

ونظيره جملة صلة الموصول في قول عبدة بن الطبيب:

إن الذين تَروْنهم إخوانَكم

يشفي غليل صدورهم أن تُصرعوا

ولما كان في قوله ﴿ مودة بينكم ﴾ شائبة ثبوت منفعة لهم في عبادة الأوثان إذ يكتسبون بذلك مودة بينهم تلذ لنفوسهم قرنه بقوله ﴿ في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ﴾ الخ تنبيهاً لسوء عاقبة هذه المودة وإزالة للغرور والغفلة ، ليعلموا أن اللذات العاجلة لا عِبرة بها إن كانت تَعقِب ندامة آجلة .

ومعنى ﴿ يكفر بعضكم ببعض ﴾ أن المخاطبين يكفرون بالأصنام التي كانوا يعبدونها إذ يجحدون يوم القيامة أنهم كانوا يعبدونها .

ومعنى ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ أن المخاطبين يلعن كل واحد منهم الآخرين ؛ إما لأن الملعونين غرّوا اللاعنين فسوّلوا لهم اتخاذ الأصنام ، وإما لأنهم وافقوهم على ذلك .

(118/596)

وهذه مخازٍ تلحق بعضهم من بعض ، ثم ذكر ما يعمهم من عذاب الخزي بقوله ﴿ ومأواكم النار ﴾ .

ثم ذكر ما يعمهم جميعاً من انعدام النصير فقال ﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ فنفى عنهم جنس الناصر .

وهو من يزيل عنهم ذلك الخزي .

وجيء في نفي الناصر بصيغة الجمع هنا خلافاً لقوله آنفاً ﴿ وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير ﴾ [العنكبوت : 22] لأنهم لما تألبوا على إبراهيم وتجمعوا لنصرة أصنامهم كان جزاؤهم حرمانهم من النصراء مطابقة بين الجزاء والحالة التي جوزوا عليها .

على أن المفرد والجمع في حيّز النفي سواء في إفادة نفي كل فرد من الجنس .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ جملة معترضة بين الإخبار عن إبراهيم اعتراض التفريع ، وأفادت الفاء مبادرة لوط بتصديق إبراهيم ، والاقتصار على ذكر لوط يدل على أنه لم يؤمن به إلا لوط لأنه الرجل الفرد الذي آمن به وأما امرأة إبراهيم وامرأة لوط فلا يشملهما اسم القوم في قوله تعالى ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه ﴾ [العنكبوت : 16] الآية لأن القوم خاص برجال القبيلة قال زهير:

أَقَوْمٌ آل حصن أم نساء . . .

وفي التوراة أنه كانت معه زوجُهُ (سارة) وزوج لوط واسمها (ملكة) .

ولوط هو ابن (هاران) أخي إبراهيم ، فلوط يومئذ من أمة إبراهيم عليهما السلام .

﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ [العنكبوت : 24] .

فضمير ﴿ قال ﴾ عائد إلى إبراهيم ، أي أعلن أنه مهاجر ديار قومه وذلك لأن الله أمره بمفارقة ديار أهل الكفر .

وهذه أول هجرة لأجل الدين ولذلك جعلها هجرة إلى ربه .

والمهاجرة مفاعلة من الهجر : وهو ترك شيء كان ملازماً له ، والمفاعلة للمبالغة أو لأن الذي يهجر قومه يكونون هم قد هجروه أيضاً .

(119/596)

وحرف ﴿ إلى ﴾ في قوله ﴿ إلى ربي ﴾ للانتهاء المجازي إذ جعل هجرته إلى الأرض التي أمره الله بأن يهاجر إليها كأنها هجرة إلى ذات الله تعالى فتكون ﴿ إلى ﴾ تخييلاً لاستعارة مكنية ؛ أو جعل هجرته من المكان الذي لا يعبد أهله الله لطلب مكان ليس فيه مشركون بالله كأنه هجرة إلى الله ، فتكون ﴿ إلى ﴾ على هذا الوجه مستعارة لمعنى لام التعليل استعارة تبعية .

ورُشحت هذه الاستعارة على كلا الوجهين بقوله ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ .

وهي جملة واقعة موقع التعليل لمضمون ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ ، لأن من كان عزيزاً يعتز به جاره ونزيله .

وإتباع وصف ﴿ العزيز ﴾ بـ ﴿ الحكيم ﴾ لإفادة أن عزته محكمة واقعة موقعها المحمود عند العقلاء مثل نصر المظلوم ، ونصر الداعي إلى الحق ، ويجوز أن يكون ﴿ الحكيم ﴾

بمعنى الحاكم فيكون زيادة تأكيد معنى ﴿ العزيز ﴾ .

وقد مضت قصة إبراهيم وقومه وبلادهم مفصلة في سورة الأنبياء .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾

هذا الكلام عُقبت به قصة إبراهيم تبياناً لفضلة إذ لا علاقة له بالقصة .

والظاهر أن يكون المراد بـ ﴿ وهبنا لعزيز الحكيم * وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ ﴾ ، و ﴿ جعلنا ﴾ الإعلام بذلك فيكون من تمام القصة كما في سورة هود .

وتقدم نظير هذه الآية في الأنعام في ذكر فضائل إبراهيم .

و ﴿ الكتاب ﴾ مراد به الجنس فالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن كتب نزلت في ذرية إبراهيم .

﴿ النبوة والكتاب وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدنيا وَإِنَّهُ فِى لاْخِرَةِ .

جمع الله له أجرين : أجراً في الدنيا بنصره على أعدائه وبحسن السمعة وبث التوحيد ووفرة النسل ، وأجراً في الآخرة وهو كونه في زمرة الصالحين ، والتعريف للكمال ، أي من كُمل الصالحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(120/596)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ﴾ .

الضمير في قوله : ذريته راجع إلى إبراهيم .

والمعنى : أن الأنبياء والمرسلين الذين أنزلت عليهم الكتب بعد إبراهيم كلهم من ذرية إبراهيم ، وما ذكره هنا عن إبراهيم ذكر في سورة الحديد : أن نوحاً مشترك معه فيه ، وذلك واضح لأن إبراهيم من ذرية نوح مع أن بعض الأنبياء من ذرية نوح دون إبراهيم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب ﴾ [الحديد : 26] .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أتى إبراهيم أجره أي جزاء عمله في الدنيا ، وإنه في الآخرة أيضاً من الصالحين .

(121/596)

وقال بعض أهل العلم : المراد بأجره في الدنيا : الثناء الحسن عليه في دار الدنيا من جميع أهل الملل على اختلافهم إلى كفار ومؤمنين . والثناء الحسن المذكور ، هو لسان الصدق في قوله : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم : 50] وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ لا يخفى أن الصلاح في الدنيا يظهر بالأعمال الحسنة ، وسائر الطاعات ، وأنه في الآخرة يظهر بالجزاء الحسن ، وقد أثنى الله في هذه الآية الكريمة على نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقد أثنى على إبراهيم أيضاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [البقرة : 124] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجتباه وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [النحل : 120122] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(122/596)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾

كنا ننتظر منهم جواباً منطقياً ، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وبيَّن لهم بطلان عبادة آلهتهم ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، كان عليهم أن يجادلوه ، وأن يدافعوا عن آلهتهم ، وأن يُظهِروا حجتهم في عبادتهم .

إنما يأتي جوابهم دالاً على إفلاسهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 24] أهذا جواب على ما قيل لكم ؟ إنه مجرد هروب من المواجهة ، وإفلاس في الحجة ، إنه جواب مَنْ لم يجد جواباً ، وليس لديه إلا التهديد والتلويح بالقوة وبالبطش ، فهذه لغة مَنْ لا حجة عنده .

لكن ، لماذا سمَّاه القرآن جواباً ؟ قالوا : لأنهم لو لم يتكلموا بهذا الكلام لقيل عنهم أنهم لم يلتفتوا إلى كلام نبيهم ولم يأبهوا به ، وأن كلامه لا وزنَ له ، ولا يُرَد عليه ، فإنْ كان كلامهم لا يُعَد جواباً فهو في صورة الجواب ، وإنْ كان جواباً فاسداً .

وقولهم : ﴿ اقتلوه . . . ﴾ [العنكبوت : 24] نعلم أن القتل هو هدم البنية هدماً يتبعه خروج الروح لأنها لا تجد بنية سليمة تسكنها ، أما الموت فتخرج الروح أولاً ، ثم تهدم البنية حين تتحلل في التراب ، إذن : فهما سواء في أنهما هلاك .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي تضيء ، فالكهرباء لا توجد في اللمبة ، إنما في شيء خارج عنها ، لكن يظهر أثر الكهرباء في اللمبة إنْ كانت سليمة صالحة

لإستقبال التيار ، فإنْ كسرتها فلا تجد فيها أثراً للكهرباء ولا تضيء ، وقد تمنع عنها الكهرباء وهي سليمة .

(123/596)

ثم قالوا ﴿ أَوْ حَرِّقُوهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 24] وهل التحريق بعد القتل يُعَد ارتقاءً في العقوبة ؟ لا شكَّ أن القتل أبلغ من التحريق ، فقد يُحرق شخص ، وتتم نجدته وإسعافه فلا يموت ، فالقتل تأكيد للموت ، أمّا التحريق فلا يعني بالضرورة الموت ، فلماذا لم يقولوا فقد اقتلوه وتنتهي المسألة ، أو يُصعدوا العقوبة فيقولوا : حرِّقوه أو اقتلوه ؟

إنهم بدأوا بأقصى ما عندهم من عقوبة لشدة حَنَقهم عليه فقالوا ﴿ اقتلوه . . . ﴾ [العنكبوت : 24] ثم تراءى لهم رأي آخر : ولماذا لا نحرقه بالنار ، فربما يعود ويرجع عن دعوته حينما يجد ألم التحريق ، وهذا يُعَد كسباً لهم ، وتُحسَب الجولة لصالحهم .

لكن مَن الذي قال ﴿ اقتلوه . . . ﴾ [العنكبوت : 24] ؟ من الآمر بالقتل ، ومَنِ المأمور ؟ لقد اتفقوا جميعاً على قتله ، فالآمر والمأمور سواء ، وهذا واضح من الآية : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 24] فالقوم جميعاً تواطئوا على هذه المسألة . أو أن الآمر هم رؤساء القوم وكبارهم الذين يأتمر الناس بأمرهم ، أما التنفيذ

فمهمة الأتباع .

ونحن نرى ثورة الجمهور وانفعاله حينما تقع جريمة مثلاً ، فالكل يغضب ويقول : اقتلوه ، اسجنون ، فكلهم قائل ، وكلهم مقول له .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النار .

. . ﴾ [العنكبوت : 24] وهنا يعترض الفلاسفة : كيف والنار من طبيعتها الإحراق ؟ كيف يتخلف هذا القانون ؟ لكن كيف معجزة إنْ لم تأْتِ على هذه الصورة ؟

إن الحق سبحانه خلق الخَلْق وجعل فيه نواميس تفعل فعلها وتؤدي مهمتها تلقائياً ، فالأرض مثلاً حينما تحرثها ، وتلقي فيها الحَبَّ ، ثم ترويها ، الناموس أن تنبت ، وحتى لا يظن ظانٌّ أن الكون إنما يسير على وَفْق هذه النواميس ، لا وَفْقَ قدرة الله نجد أنه سبحانه يخرق هذه النواميس ليثبت لنا قيوميته على خَلْقه وطلاقة قدرته فيه .

(124/596)

لذلك إن لم يكُنْ لك رزق في حرثك هذا ، فلا ينبت النبات ، أو ينبت ثم تصيبه آفة أو إعصار فيُهلكه قبل استوائه . إذن : فالمسألة قيومية لله تعالى وليست (ميكانيكا) .

وقد خرق الله نواميس الكون لموسى – عليه السلام – حينما ضرب البحر ، فصار كل

فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وتحولت سيولة الماء إلى جبل صلب . وخرق نواميس الكون لإبراهيم حينما قال للنار : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] .

وخرق النواميس ليثبت الإعجاز ، وليثبت أن يد الله تعالى لا تزال مسيطرة على مُلْكه سبحانه ، لا أنه خلق النواميس وتركها تعمل في الكون دون تدخُّل منه سبحانه كما يقول الفلاسفة ، فالحق سبحانه خلق النواميس لتفعل ، ولكن قيوميته تعالى وقدرته تُعطِّل النواميس .

﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النارِ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 24] ونذكر في قصة السفينة أن الله تعالى قال عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : 15] آية وهنا قال ﴿ لآيَاتٍ . . . ﴾ [العنكبوت : 24] وهناك قال ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : 15] وهنا قال : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 24] فالاختلاف إذن بين السياقين في أمرين :

قال في السفينة ﴿ آيَةً . . . ﴾ [العنكبوت : 15] لأن العجيب في أمر السفينة ليس في صناعتها ، فمَنْ رآها يمكن أنْ يصنع مثلها ، إنما الآية فيها أن الله تعالى أعلمه بها قبل الحاجة إليها ، ثم منع عنها الزوابع والأعاصير أن تلعب بها وتُغرق ركابها .

أمّا في مسألة الإحراق فعجائب كثيرة وآيات شتى ، فكان من الممكن ألاَّ يمكنهم الله منه ،

وكان من الممكن بعد أن أمسكوا به وألقوه في النار أنْ يُنزل الله مطراً يطفيء نارهم وينجو إبراهيم ، أو يسخر له من القوم أهل رأفة ورحمة ينقذونه من الإلقاء في النار .

(125/596)

لكن لم يحدث شيء من هذا ، حيث أمكنهم الله منه حتى ألقوه في النار وهي مشتعلة ، وهو مُوثق بالحبال ، ومع ذلك لم تُصِبه النار بسوء ، وظهرتْ الآيات بينات واضحات أمام أعين الجميع .

الأمر الآخر : قال هناك ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : 15] لأن السفينة حينما رسَتْ ونجا ركابها ظلَّتْ باقية في مكانها يراها الناس جميعاً ويتأملونها ، فقد كان لها أثر باقٍ قائم مُشَاهد .

أمّا في مسألة إبراهيم – عليه السلام – فقال ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 24] لأن نجاة إبراهيم – عليه السلام – كانت عبرة لمن شاهدها فقط ، ونحن نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، ونحن مؤمنون بالله ، فهي آيات للمؤمنين بالله لا للعالمين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً . . . ﴾ .

المعنى : إنْ كنتم لم تؤمنوا بالآيات الكونية الدالة على قدرة الله ، ولم تؤمنوا بالمعجزة التي

رأيتموها حين نجاني ربي من النار ، وكان عليكم أنْ تؤمنوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، فلماذا إصراركم على الكفر ؟

فلا بُدَّ أنكم كفرتم بالله وعبدتم الأصنام ، لا لأنكم مقتنعون بعبادتها ، ولا لأنها تستحق العبادة ، إنما عبدتموها ﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا . . . ﴾ [العنكبوت : 25] يعني : نفاقاً ينافق به بعضكم بعضاً ومجاملة ؛ لأنكم رأيتم رؤوس القوم فيكم يعبدونها فقلَّدتموهم دون اقتناع منكم بما تعبدون ، أو مودةً لآبائكم الأولين ، وسَيْراً على نهجهم ، كما حكى القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] .

وفي آية أخرى ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ . . . ﴾ [المائدة : 104] .

(126/596)

لكن هذه المودة وهذه المجاملة وهذا النفاق عمرها (الحياة الدنيا) فحسب ، وفي الآخرة ستتقطع بينكم هذه المودات : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . . ﴾ [الزخرف : 67] يعني : ستنقلب هذه المودة وهذه المجاملة إلى عداوة ، بل وإلى معركة حكاها القرآن : ﴿ رَبَّنَا آرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا . . .

﴾ [فصلت : 29] .

وقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ﴾ [البقرة : 166] .

ويقرر هنا أيضاً هذه الحقيقة : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 25] ذلك لأن المقدمات التي سبقتْ كانت تقتضي أنْ يؤمنوا ، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر .

وفي الوقت الذي تنقلب فيه مودة الكافرين عداوة تنقلب عداوة المؤمنين الذين تعاونوا على الطاعة إلى حُبٍّ ومودة ، فيقول المؤمن لأخيه الذي جَرَّه إلى الطاعة وحمله عليها – على كُرْه منه وضيق – جزاك الله خيراً لقد أنقذتني .

ولا ينتهي الأمر عند هذه العقوبة التي يُوقعونها بأنفسهم من التبرؤ واللعن ، بل ينصرفون إلى عقوبة أشدّ ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 25] ونلحظ هنا أن الحق سبحانه لم يقُلْ : وما لكم من دون الله ؛ لأن الكلام في الآخرة حيث لا توبةَ لهم ولا رجوعَ ، فقد انتفى أن يكون لهم ولي أو نصير من الله .

كذلك لا ناصرَ لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النُّصْرة من أحجار وأصنام ، لا تنطق ولا تجيب .

وهكذا تنتهي هذه اللقطة السريعة من قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وله تاريخ طويل ، وهو شيخ المرسلين وأبو الأنبياء ، وإنْ أردتَ أن تحكي قصته لأخذتْ منك وقتاً طويلاً ، ويكفي أن الله تعالى قال عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . . ﴾ [النحل : 120] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ . . . . ﴾ .

أي : أن قوم إبراهيم – عليه السلام – ظلوا على كفرهم ، والذي آمن به لوط – عليه السلام – وكان ابن أخيه ، وكانوا في العراق ، ثم سينتقلون بعد ذلك إلى الشام .

وكلمة ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . . . ﴾ [العنكبوت : 26] حين نتتبع كلمة آمن في القرآن الكريم نجد أنها تدور حول الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء ، لكنها تختلف في المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابي ، فهنا ﴿ فَآمَنَ لَهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 26] وهل يؤمن لوط لإبراهيم ؟ والإيمان كما نقول يؤمن بالله فما دام السياق ﴿ فَآمَنَ لَهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 26] فلابُد أن المعنى مختلف ، ولا يقصد هنا الإيمان بالله .

ومعنى (آمن) هنا كما في قوله تعالى عن قريش : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 4] فالفعل هنا مُتعدٍّ ، فالذي آمن الله ، آمن قريشاً من الخوف . وكذلك في قوله تعالى : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ . . . ﴾ [يوسف : 64] ومعنى ﴿ فَآمَنَ لَهُ . . . ﴾ [العنكبوت :

26] أي : صدقه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : 17] أي : بمصدِّق ، أما آمنت بالله : اعتقدت وجوده بصفات الكمال المطلق فيه سبحانه .

(128/596)

ولوط لا يصدق بإبراهيم ، إلا إذا كان مؤمناً بإله أرسله ، فكأنه آمن بالله ثم صدَّقه فيما جاء به وقصة لوط عليه السلام لها موضع آخر فُصِّلَت فيه ، إنما جاء ذكره هنا ؛ لأنه حصيلة الصفقة الجدلية والجهادية بين إبراهيم وقومه ، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ما آمن له إلا لوط ابن أخيه .

وأذكر أن الشيخ موسى – رحمه الله عليه – وكان يُدرس لنا التفسير ، وجاءت قصة لوط عليه السلام فقلت له : لماذا ننسب رذيلة قوم لوط إليه فنقول : لوطي . وما جاء لوط إلا ليحارب هذه الرذيلة ويقضي عليها ؟

فقال الشيخ : فماذا نقول عنها إذن ؟ قلت : إن اللغة العربية واسعة الاشتقاق ، فمثلاً عند النسب إلى عبد الأشهل قالوا : أشهلي ، ولعبد العزيز قالوا : عبدزي ، ولبختنصر قالوا : بختي ، والآن نقول في النسب إلى دار العلوم دَرْعمي . . . إلخ فلماذا لا نتبع هذه الطريقة ؟

فنأخذ القاف المفتوحة ، والواو الساكنة من قوم ، ونأخذ الطاء من لوط ، ثم ياء النسب فنقول (قوْطي) ونُجنِّب نبي الله لوطاً عليه السلام أن ننسب إليه ما لا يليق أن يُنسب إليه .

وقد حضرت احتفالاً لتكريم طه حسين ، فكان مما قلته في تكريمه : (لك في العلم مبدأ طَحَسْني) ؛ لأنه كثيراً ما نجد بين العلماء اسم طه ، واسم حسين .

إذن : فقوله تعالى ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . . . ﴾ [العنكبوت : 26] جاءت جملة اعتراضية في قصة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه المحصلة النهائية لدعوة إبراهيم في قومه ؛ لذلك يعود السياق مرة أخرى إلى إبراهيم ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي . . . ﴾ [العنكبوت : 26] أي : منصرف عن هذا المكان ؛ لأنه غير صالح لاستتباب الدعوة .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على ترْك شيء إلى شيء آخر ، لكن هَجَرَ تعني أن سبب الهَجْر منك وبرغبتك ، إنما هاجر فيها مفاعلة مثل شارك وقاتل ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة ، إنما هاجر منها إلى المدينة .

(129/596)

وهذا يعني أنه لم يهاجر برغبته ، إنما آذاه قومه واضطروه للخروج من بلده ، إذن : فلهم دَخْل في الهجرة ، وهم طرف ثانٍ فيها .

لذلك يقول المتنبي :

إذَا ترحّلْتَ عَنْ قومٍ وقَدْ قَدَرُوا . . . أَلاَّ تُفارِقَهُم فالرَّاحِلُونَ هُمُو

ومن دقة الأداء القرآني في هذه المسألة أنْ يسمي نقلة رسول الله من مكة إلى المدينة هجرة من الثلاثي ، ولا يقول مهاجرة ؛ لأنه ساعة يهاجر يكره المكان الذي تركه ، لكن هنا قال في الفعل : هاجر . وفي الاسم قال : هجرة ولم يقل مهاجرة .

وسبق أنْ ذكرنا أن هجرة المؤمنين الأولى إلى الحبشة كانت هجرة لدار أمن فحسب ، لا دار الإيمان ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما وجَّههم إلى الحبشة بالذات قال : " لأن فيها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد " .

وكأنه صلى الله عليه وسلم بُسِطت له خريطة الأرض كلها ، فاختار منها هذه البقعة ؛ لأنه قد تبيَّن له أنها دار أمن لمن آمن من صحابته ، أمّا الهجرة إلى المدينة فكانت هجرة إلى دار إيمان ، بدليل ما رأيناه من مواقف الأنصار مع المهاجرين .

وهنا يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي . . . ﴾ [العنكبوت : 26] فالمكان إذن غير مقصود له ، إنما وجهة ربي هي المقصودة ، وإلا فَلَك أن تقول : كيف تهاجر إلى ربك ، وربك في كل مكان هنا وهناك ؟

فالمعنى : مهاجر امتثالاً لأمر ربي ومتوجه وجهة هو آمر بها ؛ لأنه من الممكن أن تنتقل من مكان إلى مكان بأمر رئيسك مثلاً ، وقد كانت لك رغبة في الانتقال إلى هذا المكان فترحب بالموضوع ؛ لأنه حقق رغبة في نفسك ، فأنت – إذن – لا تذهب لأمر صدر لك ، إنما لرغبة عندك .

لذلك جاء في الحديث : " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " .

(130/596)

فالمعنى ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي . . . ﴾ [العنكبوت : 26] يعني : ليس الانتقال على رغبتي وحَسْب هواي ، إنما حسب الوجهة التي يُوجِّهني إليها ربي . وأذكر أنه كان لهذه المسألة واقع في تاريخنا ، وكنا جماعة من سبعين رجلاً ، وقد صدر منا أمر لا يناسب رئيسنا ، فأصدر قراراً بنقلنا جميعاً وشتَّتنا من أماكننا ، فذهبنا عند التنفيذ نستعطفه عَلَّه يرجع في قراره ، لكنه صمم عليه ، وقال : كيف أكون رئيساً ولا أستطيع إنفاذ أمري على المرؤوسين ؟

فقال له أحدنا وكان جريئاً : سنذهب إلى حيث شئتَ ، لكن اعلموا أنكم لن تذهبوا بنا

إلى مكان ليس فيه الله .

وكانت هذه كلمة الحق التي هزَّتْ الرجل ، وأعادت إليه صوابه ، فالحق له صَوْلة ، وفعلاً سارت الأمور كما نريد ، وتنازل الرئيس عن قراره .

فمعنى : ﴿ مُهَاجِرٌ إلى ربي . . . ﴾ [العنكبوت : 26] أن ربي هو الذي يُوجِّهني ، وهو سبحانه في كل مكان . يؤيد ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله . . ﴾ [البقرة : 115] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أنني ما وجَّهتكم في صلاتكم إلى الكعبة إلا لأؤكد هذا المعنى : لأنك تتجه إليها من أي مكان كنت ، ومن أية جهة فحيثما توجهتَ فهي قبلتُك .

ثم يقول : ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم ﴾ [العنكبوت : 26] اختار الخليل إبراهيم – عليه السلام – من صفات ربه ﴿ العزيز ﴾ [العنكبوت : 26] أي : الذي لا يُغلب وهو يَغْلب . وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه ، وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حضن مَنْ لا يُغْلب .

و ﴿ الحكيم ﴾ [العنكبوت : 26] أي : في تصرفاته ، فلا بُدَّ أنه سبحانه سينقلني إلى مكان يناسب دعوتي ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق ، وقلوب وأفئدة متشوقة إليه ، وتنتظر كلمة الحق التي أعرضتم أنتم عنها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . . . ﴾ .

وجاء وقت الجزاء لينال إبراهيم – عليه السلام – من ربه جزاء صبره على الابتلاء ، وثباته على الإيمان ، ألم يقُلْ لجبريل لما جاءه يعرض عليه المساعدة وهو في طريقه إلى النار : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . لذلك يجازيه ربه ، ويخرق له النواميس ، ويواليه بالنعم والآلاء ، حتى مدحه سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ . . . ﴾ [النحل : 120] .

وكان عليه السلام رجلاً خاملاً في القوم ، بدليل قولهم عنه لما حَطّم أصنامهم : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء : 60] فهو غير مشهور بينهم ، مُهْمَل الذكر ، لا يعرفه أحد ، فلما والى الله والاه قال : لأجعلنك خليل الله وشيخ المرسلين ولأُجرينَّ ذِكْرك ، بعد أنْ كنت مغموراً على كل لسان ، وها نحن نذكره عليه السلام في التشهد في كل صلاة .

واقرأ قول إبراهيم في دعائه لربه ؛ ليؤكد هذا المعنى : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] وكأنه يقول : يا رب إن قومي يستقلونني ، فاجعل لي ذِكْراً عندك .

ومعلوم أن للتناسل والتكاثر نواميسَ ، فلما أنْ أنجبت السيدة هاجر إسماعيل – عليه السلام – غضبت الحرة سارة : كيف تنجب هاجر وهي الأَمَة وتتميز عليها ، لكن كيف السبيل إلى الإنجاب وسِنُّها تسعون سنة ، وسِنّ إبراهيم حينئذٍ مائة ؟

قانون الطبيعة ونواميس الخَلْق تقول لا إنجاب في هذه السن ، لكن سأخرق لك القانون ، وأجعلك تُنجب هبة من عندي ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ . . . ﴾ [العنكبوت : 27] ثم ﴿ وَيَعْقُوبَ . . . ﴾ [العنكبوت : 27] .

وفي آية أخرى قال : ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً . . . ﴾ [الأنبياء : 72] .

(132/596)

أي : زيادة ، لأنه صبر على ذَبْح إسماعيل ، فقال له ربه : ارفع يدك فقد أديتَ ما عليك ، ونجحت في الامتحان ، فسوف أفديه لك ، بل وأهبك أخاً له ، وسأعطيك من ذريته يعقوب .

وسأجعلهم فَضْلاً عن ذلك رسلاً ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب . . . ﴾ [العنكبوت : 27] لذلك حين نستقريء موكب الأنبياء نجد جمهرتهم من ذرية إبراهيم عليه السلام كل من جاء بعده من ذريته .

والذرية المذكورة هنا يُرَاد بها إسحق ويعقوب ، وهما المُوهبَان من سارة ، أمّا إسماعيل فجاء بالقانون العام الطبيعي الذي يشترك فيه إبراهيم وغيره .

وكأن الحق – سبحانه وتعالى – في هذه المسألة يُدلِّل على طلاقة القدرة بأسباب تظهر فيها قدرة المسبِّب ، فيقول لإبراهيم : إن كان قومك قد كفروا بك ولم يؤمنوا ، فسأهبُكَ ذرية ليست مؤمنة مهدية فحسب ، إنما هادية للناس جميعاً .

وإذا كانت ذرية إسحق ويعقوب قد أخذتْ أربعة آلاف سنة من موكب النبوات ، فقد جاء من ذرية إسماعيل خاتم الأنبياء وإمام المتقين محمد صلى الله عليه وسلم ، وستظل رسالته باقية خالدة إلى يوم القيامة ، فالرسل من ذرية إسحق كانوا متفرقين في الأمم ، ولهم أزمنة محددة ، أما رسالة محمد فعامة للزمان وللمكان ، لا معقِّبَ له برسول بعده إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ والكتاب . . . ﴾ [العنكبوت : 27] أي : الكتب التي نزلتْ على الأنبياء من ذريته ، وهي : القرآن والإنجيل والتوراة والزبور .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا . . . ﴾ [العنكبوت : 27] قالوا : إنه كان خامل الذّكْر فنبغ شأنه وعلا ذكْره ، وكان فقيراً ، فأغناه الله حتى حدَّث المحدِّثون عنه في السِّيَر أنه كان يملك من الماشية ما يسأم الإنسان أنْ يَعدَّها ، وكان له من كلاب الحراسة اثنا عشر كلباً . . إلخ وهذا أجره في الدنيا فقط .

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [العنكبوت : 27] يعني : لن نقول له أذهبت طيباتك في حياتك الدنيا ، بل هو في الآخرة من الصالحين ، وهذا مُتمنَّى الأنبياء . إذن : فأجْره في الدنيا لم يُنقص من أجره في الآخرة .

لكن ، لماذا وصف الله نبيه إبراهيم في الآخرة بأنه من الصالحين ؟ قالوا : لأن إبراهيم أُثِر عنه ثلاث كلمات يسميها المتصيِّدون للأخطاء ، ثلاث كذبات أو ذنوب : الأولى قوله لملك مصر لما سأله عن سارة قال : أختي ، والثانية لما قال لقومه حينما دَعَوْه للخروج معهم لعيدهم : إني سقيم . والثالثة قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا . . . ﴾ [الأنبياء : 63] أي : عندما حطَّم الأصنام .

ويقول هؤلاء المتصيدون : إنها أقوال منافية لعصمة الأنبياء . لكن ما قولكم إنْ كان صاحب الأمر والحكم شهد له بالصلاح في الآخرة ؟

ثم إن المتأمل في هذه الأقوال يجدها من قبيل المعاريض التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم : " إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب " فقوله عن سارة : إنها أختي ، هي فعلاً أخته في الإيمان ، وربما لو قال زوجتي لقتله الملك ليتزوجها هو .

أما قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ . . . ﴾ [الصافات : 89] فهو اعتذار عن مشهد كافر لا ينبغي للمؤمن حضوره ، كما أن السِّقْم يكون للبدن ، ويكون للقلب فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب لما يراه من كفر القوم .

وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا . . . ﴾ [الأنبياء : 63] أراد به إظهار الحجة وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، فأراد أنْ يُنطقهم هم بما يريد أن يقوله ؛ ليقررهم بأنها أصنام لا تضر ولا تنفع ولا تتحرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(134/596)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (العنكبوت : 24) ، وورد بعد هذا : (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) (العنكبوت : 44) ، فأفرد هنا آية وجمع في الأولى فقال : (الآيات) ، مع أن هذه الثانية أعظم : قال تعالى : (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) (غافر : 57) ، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أن الإشارة في الآية الأولى بقوله : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) ليست لقصة إبراهيم ، عليه السلام ، وإنجائه من النار فقط بل الإشارة لمجموع معتبرات ، منها لبث نوح ، عليه السلام ، في قوله ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ويريهم الآيات فما آمن معه إلا قليل ، ومنها آية أخذهم بالطوفان وتعميم الغرق لجميع أهل الأرض ، ومنها إنجاء أهل السفينة وجعلها آية للعالمين ، ومنها ما أحيلوا عليه من الاعتبار بمن قبلهم في قوله : (وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ . .) (العنكبوت : 18) ، ومنها دعاء إبراهيم ، عليه السلام وعظيم بيانه وما استجر دعاؤه إياهم من الآيات والبراهين على نبوته ، ومنها ما أيلوا عليه آخر الآيات في قوله : (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) (العنكبوت : 19) ، فلما تقدم تفصيل الآيات ورد التنبيه بالإشارة إلى جميعها فقيل : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) .

(135/596)

أما قوله في الآية الأخرى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) فالإشارة إلى المصدر وهو الخلق المفهوم من قوله : (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) ، كما ورد في قوله تعالى : (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة : 8) ، فالضمير للمصدر وهو العدل المفهوم من وقله : (اعْدِلُوا)

، وهذا جار في الضمير واسم الإشارة ومتردد في كلام العرب ، فكل من الآيتين على ما يجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 390 ﴾

(136/596)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن النبوة والكتاب في خصوص ذرية إبراهيم ، وقد ذكر في سورة الحديد ما يدل على اشتراك نوح معه في ذلك في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ .

والجواب: أن وجه الاقتصار على إبراهيم أن جميع الرسل بعده من ذريته وذكر نوح معه لأمرين:

أحدهما : أن كل من كان من ذرية إبراهيم فهو من ذرية نوح.

والثاني: أن بعض الأنبياء من ذرية نوح ولم يكن من ذرية إبراهيم ؛ كهود وصالح ولوط ويونس على خلاف فيه ، ولا ينافي ذلك الاقتصار على إبراهيم ؛ لأن المراد من كان بعد إبراهيم لا

من كان قبله أو في عصره كلوط عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 231 ﴾

(137/596)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾ قال : أصناماً ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ قال : تصنعون أصناماً .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ قال : تنحتون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ قال : تصنعون كذباً .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ كيف يُبْدِئ الله الخلق ثم يعيده ﴾ قال : يبعثه . وفي قوله ﴿ فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ قال :

خلق السموات والأرض ﴿ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾ قال : البعث بعد الموت . وفي قوله ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ قال : قوم إبراهيم . وفي قوله ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ قال : قال كعب ما أحرقت النار منه إلا وثاقه . وفي قوله ﴿ قال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ قال : اتخذوها لثوابها في الحياة الدنيا ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ قال : صارت كل خلة في الدنيا عداوة على أهلها يوم القيامة إلا خلة المتقين . وفي قوله ﴿ فآمن له لوط ﴾ قال : فصدقة لوط ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ قال : هاجرا جميعاً من كوثي : وهي من سواد الكوفة إلى الشام . وفي قوله ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ قال : عافية وعملاً صالحاً وثناء حسناً ، فلست تلقى أحداً من أهل الملل إلا يرضى إبراهيم يتولاه .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم بن أبي النجود رضي الله عنه أنه قرأ " وتخلقون افكا " خفيفتين وقرأ " اوثاناً مودة " منصوبة منونة " بينكم " نصب .

(138/596)

وأخرج ابن أبي شيبة عن جبلة بن سحيم قال : سألت ابن عمر رضي الله عنهما عن صلاة المريض على العود قال : لا آمركم أن تتخذوا من دون الله أوثاناً . إن استطعت أن

تصلي قائماً ، وإلا فقاعداً ، وإلا فمضطجعاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ النشأة الآخرة ﴾ قال : هي الحياة بعد الموت : وهو النشور .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فآمن له لوط ﴾ قال : صدق لوط إبراهيم عليهما السلام .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ قال : هو إبراهيم عليه السلام القائل إني مهاجر إلى ربي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ قال : إلى حران .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ، مثله .

وأخرج ابن عساكر عن قتادة في قوله ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ قال : إلى الشام كان مهاجر .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " سيهاجر خيار أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام " .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " صحبهما الله إن عثمان

لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط " .

وأخرج ابن منده وابن عساكر عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : هاجر عثمان إلى الحبشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم " إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط " .

وأخرج ابن عساكر والطبراني والحاكم في الكنى عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما كان بين عثمان ورقية وبين لوط من مهاجر " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أول من هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم .

(139/596)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ قال : هما ولدا إبراهيم . وفي قوله ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ قال : إن الله رضي أهل الأديان بدينه ، فليس من أهل دين إلا وهم يتولون إبراهيم ويرضون به .

وأخرج ابن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿

وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ قال : الثناء .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ قال : الولد الصالح والثناء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(140/596)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ :

العامَّةُ على نصبِه . والحسن وسالمٌ الأفطسُ برفعِه . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا .

قوله : ﴿ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ :

في " ما " هذه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها موصولةٌ بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ ، وهو المفعولُ الأول . و " أَوْثاناً " مفعولٌ ثانٍ . والخبرُ " مَوَدَّةُ " في قراءةِ مَنْ رفع كما سيأتي . والتقدير : إنَّ الذي اتَّخذتموه أوثاناً مودةُ ، أي : ذو مودةٍ ، أو جُعِل نفسَ المودةِ ، ومحذوفٌ على قراءةِ مَنْ نَصَبَ " مَوَدَّةَ " أي : إنَّ الذي اتخذتموه أوثاناً لأجلِ المودةِ لا يَنْفَعُكم ، أو " يكونُ عليكم " ، لدلالةِ قولِه : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ .

الثاني : أن تُجْعَلَ " ما " كافةً ، و " أوثاناً " مفعولٌ به . والاتّخاذ هنا متعدٍ لواحدٍ ، أو لاثنين ، والثاني ، هو ﴿ مِّن دُونِ اللهِ ﴾ فَمَنْ رفع " مودةُ " كانَتْ خبرَ مبتدأ مضمرٍ . أي : هي مودة ، أي : ذاتُ مودة ، أو جُعِلت نفسَ المودةِ مبالغةً . والجملةُ حينئذٍ صفةٌ لـ " أَوْثاناً " أو مستأنفةٌ . ومَنْ نصبَ كانَتْ مفعولاً له ، أو بإضمار أَعْني .

الثالث : أَنْ تُجْعَلَ " ما " مصدريةً ، وحينئذٍ يجوز أن يُقَدَّرَ مضافاً من الأول أي : إنَّ سببَ اتَّخاذِكم أوثاناً مودةُ ، فيمَنْ رفَعَ " مودةُ " . ويجوز أَنْ لا يُقَدَّرَ ، بل يُجْعَلُ نفسُ الاتخاذِ هو المودةَ مبالغةً . وفي قراءةِ مَنْ نَصَبَ يكونُ الخبرُ محذوفاً ، على ما مَرَّ في الوجه الأول .

(141/596)

وقرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو والكسائيُّ برفع " مودةُ " غيرَ منونة وجَرِّ " بَيْنِكم " . ونافع وابن عامر وأبو بكر بنصب " مودةً " منونةً ونصبِ " بينَكم " . وحمزةُ وحفص بنصب " مودةَ " غيرَ منونةٍ وجرِّ " بَيْنِكم " . فالرفعُ قد تقدَّم . والنصبُ أيضاً تقدَّم فيه وجهان ، ويجوز وجهٌ ثالثٌ ، وهو أن تُجْعَلَ مفعولاً ثانياً على المبالغةِ ، والإضافةُ للاتّساعِ في الظرف كقولِهم :

3638 يا سارِقَ الليلةِ أهلَ الدارِ . . . ومَنْ نصبَه فعلى أصلِه . ونُقِل عن عاصمٍ أنه رَفَع

" مودةُ " غيرَ منونةٍ ونَصَبَ " بينَكم " . وخُرِّجَتْ على إضافة " مودةُ " للظرف ، وإنما بُني لإضافتِه إلى غيرِ متمكنٍ كقراءةِ ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] بالفتح إذا جعلنا " بينَكم " فاعلاً .

وأمَّا " في الحياة " ففيه [أوجهٌ] أحدها : أنه هو و " بينَكم " متعلقان ب " مودَّة " إذا نُوِّنَتْ . وجازَ تعلُّقُهما بعاملٍ واحدٍ لاختلافِهما . الثاني : أَنْ يتعلَّقا بمحذوفٍ على أنهما صفتان ل " مودَّة " . الثالث : أن يتعلَّق " بَيْنَكم " بمودَّة . و " في الحياة " صفةٌ ل " مودة " . ولا يجوز العكسُ لئلا يلْزَم إعمالُ المصدرِ الموصوفِ . والفرقُ بينَه وبين الأول أنَّ الأولَ عَمِلَ فيه المصدرُ قبل أَنْ يُوْصَفَ ، وهذا عَمِلَ فيه بعد أَنْ وُصِفَ .

على أنَّ ابنَ عطية جَوَّز ذلك هو وغيرُه وكأنهم اتَّسَعوا في الظرف . فهذا وجهٌ رابعٌ .

(142/596)

الخامس : أَنْ يتعلَّقَ " في الحياة " بنفس " بينَكم " لأنه بمعنى الفعل ، إذ التقديرُ : اجتماعُكم ووَصْلُكم . السادس : أَنْ يكونَ حالاً مِنْ نفسِ " بينَكم " . السابع : أن يكونَ " بينَكم " صفةً ل " مودة " . و " في الحياة " حالٌ من الضميرِ المستكنِّ فيه . الثامن : أَنْ يتعلَّقَ " في الحياة " ب " اتَّخذتُمْ " على أَنْ تكون " ما " كافةً و " مودة " منصوبةً . قال أبو البقاء : " لئلا

يؤدِّي إلى الفصلِ/ بين الموصولِ وما في الصلة بالخبر" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 9 صـ 17.19﴾

(143/596)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) ﴾

لَمَّا عجزوا عن جوابه ولم يساعدهم التوفيق بالإجابة أخذوا في معارضته بالتهديد والوعيد ، والسفاهة والتوبيخ ، والله تعالى صرف عنه كَيْدَهم ، وكفاه مَكْرَهم ، وأفلج عليهم حُجَّته ، وأظهر للكافة عجزَهم ، وأَخبر عما يلحقهم في مآلهم من استحقاق اللَّعْنِ والطردِ ، وفنون الهوان والخزْي .

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)

لا تَصِحُّ الهجرةُ إلى الله إلاّ بالتبرّي – بالكمالِ – بالقلبِ عن غير الله . والهجرةُ بالنَّفْسِ يسيرةٌ بالإضافة إلى الهجرة بالقلب – وهي هجرة الخواص ؛ وهي الخروج عن أوطان

التفرقة إلى ساحات الجَمْعِ . والجمعُ بين التعريجِ في أوطان التفرقة والكوْنِ في مشاهد الجَمْعِ مُتنافٍ .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

لَمَّا لم يُجِبْ قومُه ، وبذل لهم النصح ، ولم يدَّخر عنهم شيئاً من الشفقة – حقَّقَ اللَّهُ مرادَه في نَسْلِه ، فوهب له أولادَه ، وبارك فيهم ، وجعل في ذريته الكتابَ ، والنبوة ، واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أعمالُهم للقبول ، وأحوالهم للإقبال عليها ، ونفوسُهم للقيام بعبادته ، وأسرارُهم لمشاهدته ، وقلوبهم لمعرفته .

﴿ وَإِنَّهُ فِى الأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ للدنوّ والزلفة والتخصيص بالقربة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 94.95 ﴾

(144/596)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ الم أَحَسِبَ الناس ﴾

يعني : أيظن الناس ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ يعني : أن يمهلوا ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن ﴾ أي صدقنا ﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ يعني : لا يبتلون قال في رواية الكلبي لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : 65] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَا جِبْرِيلُ ما بَقَاءُ أُمَّتِي عَلَى هذا " فقال له جبريل عليه السلام : فادع الله لأمتك ، فقام فتوضأ ، ثم صلى ركعتين ، ثم سأل ربه عز وجل أن لا يبعث عليهم العذاب .

قال : فنزل جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد إن الله عز وجل قد أجار أمتك من خصلتين ، وألزمهم خصلتين ، قال : فعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم صلى ، فأحسن الصلاة ، ثم سأل ربه عز وجل لأمته أن لا يلبسهم شيعاً ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فنزل جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد قد سمع الله عز وجل مقالتك ، فإنه يقول ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، فصدقهم مصدقون ، وكذبهم مكذبون ، ثم لم يمنعنا أن نبتليهم بعد قبض أنبيائهم ببلاء يعرف فيه الصادق من الكاذب ، ثم نزل قوله عز وجل ﴿ الم أَحَسِبَ الناس ﴾ الآية .

قال مقاتل في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أول قتيل قتل من المسلمين يوم بدر ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة ، فجزع أبواه وامرأته ،

وقد كان الله بيّن للمسلمين أنه لا بد لهم من البلاء والمشقة في ذات الله عز وجل فنزل ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾ .

(145/596)

وقال بعضهم : لما أصيب المسلمون يوم أحد ، وكانت الكرة عليهم ، فعيرهم اليهود والنصارى والمشركون ، فشقّ ذلك على المسلمين ، فنزلت هذه الآية .

ويقال : نزلت في عباس بن أبي ربيعة ، وفي نفر معه أخذهم المشركون وعذبوهم على الإسلام ، فنزلت هذه الآية .

ويقال : نزلت في جمع المسلمين .

ومعناه : أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، ثم لا يفرض عليهم الفرائض .

وقال الزجاج : هذا اللفظ لفظ الاستخبار ، والمعنى تقرير وتوبيخ ، معنى أحسب الناس أن يقنع منهم ؛ بأن يقولوا : آمنا فقط ، ولا يختبروا ويقال : أن لا يعذبوا في الدنيا .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : اختبرنا الذين كانوا من قبل هذه الأمة وابتليناهم ببلايا ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ يعني : إنما يبتليهم ليبين الذين صدقوا من المؤمنين في إيمانهم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ منهم فشكوا عند البلاء .

ويقال : معناه ليبين صدق الصادق ، وكذب الكاذب بوقوع صدقه ، ووقوع كذبه .

وقال القتبي : يعني : ليميزن الله الذين صدقوا ، ويميز الكاذبين .

ثم قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ يعني : الشرك والمعاصي ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ يعني : أن يفوتونا .

ويقال : يعجزونا .

ويقال : يهربوا منا فلا نجازيهم ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ يعني : بئس ما يقضوا لأنفسهم .

قال الكلبي : نزلت في عتبة وشيبة والوليد بن عتبة بارزوا يوم بدر ، فبارزهم من المسلمين علي وحمزة وعبيدة بن الحارث ، فنزل في شأن مبارزي المسلمين ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ ﴾ يعني : الآخرة لكائن ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ السميع لمقالتهم العليم بهم ، وبأعمالهم .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يجاهد لِنَفْسِهِ ﴾ يعني : علي بن أبي طالب وصاحباه رضي الله عنهم ﴿ إِنَّ الله لَغَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ يعني : عن نصرة العالمين يوم بدر .

ويقال : نزلت في جميع المسلمين من كان يرجو لقاء الله ، أي : يخاف الآخرة ويقال : يخاف الموت ، فيستعد للآخرة والموت بالعمل الصالح ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ ﴾ ويعني : كائن ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لدعائهم ، ﴿ العليم ﴾ بأمر الخلق ، ومن جاهد يعني : عمل الخيرات ، فإنما يجاهد لنفسه يعني : ثوابه لنفسه إن الله لغني عن العالمين .

يعني : عن أعمالهم ، فإنما ثوابهم لأنفسهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : لنمحون عنهم ﴿ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ يعني : ذنوبهم ويقال : ﴿ لنجزينهم ﴾ .

يعني : ثواباً أفضل من أعمالهم ، لكل حسنة عشرة وأكثر .

ويقال : ﴿ لنجزينهم ﴾ .

يعني : لنثيبنهم أحسن الذي كانوا يعملون ، أي أفضل من أعمالهم ، يعني : يجازيهم بأحسن أعمالهم الذي كانوا يعملون في الدنيا ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ يعني : ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن ، يعني : براً بهما .

(147/596)

وقال الكلبي : نزلت الآية في سعد بن أبي وقاص لما أسلم قالت له أمه : يا سعد بلغني أنك صبوت إلى دين محمد ، فوالله لا يظلني سقف بيت ، وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد ، وترجع إلى دينك الذي كنت عليه فأبى عليها ذلك ، فثبتت على حالها لا تطعم ولا تشرب ، ولا تسكن بيتاً ، فلما خلص إليها الجوع لم تجد بداً من أن تأكل وتشرب ، فحثّ الله سعد بالبر إلى أمه ، ونهاه أن يطيعها على الشرك فقال : ﴿ وَإِن جاهداك لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : ما ليس لك به حجة يعني : الشرك ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في الشرك ، ثم حذّره ليثبت على الإسلام فقال : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يعني : مصيركم في الآخرة ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : أخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر ، وأثيبكم على ذلك .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصالحين ﴾ أي : مع الأنبياء والرسل عليهم السلام في الجنة .

ويقال : لندخلنهم في جملة الصالحين ، ونحشرهم مع الصالحين قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ءامَنَّا بالله ﴾ نزلت في عياش بن أبي ربيعة هاجر إلى المدينة قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، فجزعت أمه من ذلك جزعاً شديداً .

فقالت لأخويه : أبي جهل بن هشام والحارث بن هشام ، وهما أخواه لأمه ، وأبناء عمه ، فخرجوا في طلبه ، فظفروا به .

(148/596)

وقالوا له : إن برّ الوالدة واجب ، فعليك أن ترجع فتبرها ، فإنها حلفت أن لا تأكل ولا تشرب ، وأنت أحب الأولاد إليها ، فلم يزالوا به حتى تتابعهم ، فجاؤوا به إلى أمه ، فعمدت أمه فقيدته ، وقالت : والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بمحمد ، وضربوه حتى رجع إلى دينهم فنزل ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ءامَنَّا بالله ﴾ ﴿ فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله ﴾ يعني : عذب في دين الله عز وجل : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس ﴾ يعني : عذاب إخوته في الدنيا ﴿ كَعَذَابِ الله ﴾ في الآخرة ويقال نزلت في قوم من المسلمين أخذوهم إلى مكة ، وعذبوهم حتى ارتدوا فنزل ﴿ مِنَ الناس مَن يقُولُ ءامَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله ﴾ يعني : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله فينبغي للمسلم أن يصبر على إيذائه في الله ، وصارت الآية لجميع المسلمين ليصبروا على ما أصابهم في الله عز وجل .

ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ جَاء نَصْرٌ مّن رَّبّكَ ﴾ يعني : لو يجيء نصر من الله عز وجل بظهور الإسلام والغلبة على العدو بمكة وغيرها ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي : على دينكم ﴿

أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ ﴾ يعني : أوليس الله عليم ﴿ بِمَا فِى صُدُورِ العالمين ﴾ من التصديق والتكذيب أعلم بمعنى عليم يعني : هو عليم بما في قلوب الخلق ويقال : معناه هو أعلم بما في صدورهم منهم .

(149/596)

أي : بما في صدور أنفسهم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : ليميزن الله الذين ثبتوا على دين الإسلام ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ يعني : ليميزن المنافقين الذين لم يكن إيمانهم حقيقة قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي : جحدوا وأنكروا ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ وذلك : أن أبا سفيان بن حرب ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن شيبة ، قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : أو خباب بن الأرت ، وأناس آخرين من المسلمين : ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا ﴾ يعني : ديننا الذي نحن عليه ، واكفروا بمحمد ودينه ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ يعني : نحن الكفلاء لكم بكل تبعة من الله عز وجل تصيبكم ، وأهل مكة شهداء علينا يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مّن شَىْءٍ ﴾ يعني : لا يقدرون أن يحملوا خطاياهم .

يعني : وبال خطاياهم عنهم ، ولا يدفعون عنهم ، لأنهم لو استطاعوا أن يدفعوا لدفعوا عن

أنفسهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ في مقالتهم ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ يعني : يحملون من أوزار الذين يضلونهم من غير أن ينقص من أوزار العاملين شيء ، وهذا كقوله عز وجل : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : 25] وهذا كما روي في الخبر من سن سنة سيئة ، كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ ﴾ يعني : عما يقولون من الكذب .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ يدعوهم إلى الإسلام ، ويحذرهم وينذرهم ، فأبوا أن يجيبوه فكذبوه ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ يعني : الغرق ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ وقال القتبي : الطوفان المطر الشديد ، وكذلك الموت إذا كثر .

(150/596)

وقال مقاتل : الطوفان ما طغى فوق كل شيء .

وقال بعض أهل اللغة : هذا الاشتقاق غير صحيح ، لأنه لو كان هذا .

لقال : طغوان لأنه يقال : طغى يطغو .

وقال بعضهم : هذا على وجه القلب ، كما يقال : جذب وجبذ .

ويقال : أصله من الطوف ، أي : سار وطاف في الأرض .

وقال الزجاج : الطوفان من كل شيء ما كان كثيراً كالقتل الذريع الكثير ، يسمى طوفان .

ثم قال عز وجل : ﴿ فأنجيناه ﴾ يعني : نوحاً عليه السلام ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ من الغرق ﴿ وجعلناها ءايَةً للعالمين ﴾ يعني : جعلنا السفينة عبرة لمن بعدهم ، وقد بقيت السفينة على الجودي إلى وقت قريب من وقت خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك علامة وعبرة لمن رآها ، ومن لم يرها ، لأن الخبر قد بلغه .

ويقال : رسم السفينة التي بقيت بين الخلق وقت نوح ، وتجري في البحر علامة للعالمين .

قوله عز وجل : ﴿ وإبراهيم ﴾ يعني : أرسلنا إبراهيم عطفاً على قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ ويقال : معناه واذكر إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله واتقوه ﴾ يعني : وحدوا الله عز وجل ، ﴿ واتقوه ﴾ يعني : اخشوه ولا تعصوه ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني : التوحيد وعبادة الله عز وجل خير من عبادة الأوثان ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أوثانا ﴾ يعني : أصناماً ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ يعني : تعملونها بأيديكم ، ثم يقولون إنها آلهة ويقال تتخذونها آلهة كذباً ثم قال : ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ وهي الأصنام ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ يعني : لا يقدرون أن يعطوكم مالاً ، ولا يقدرون أن يرزقوكم ﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ يعني : الله عز وجل ، هو الذي يملك رزقكم ، فاطلبوا الرزق من الله عز وجل : ﴿ واعبدوه واشكروا

لَهُ ﴾ أي : وحدّوه واشكروا له في النعم ، فإن مصيركم إليه ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الممات .

(151/596)

قال الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم : قل لأهل مكة ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ بما أخبرتكم من قصة نوح وإبراهيم عليهما السلام ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ يعني : كذبوا رسلهم ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ يعني : إلا أن يبلغ الرسالة ، ويبين أمر العذاب .

ويقال : إلا أن يبلغ الرسالة ، ويبين مراد الرسالة .

ثم قال الله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ أَوَلَمْ تَرَوْاْ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

يعني : قل لهم يا محمد أو لم تروا .

وقرأ الباقون بالياء .

ومعناه : يا محمد أو لم يروا هؤلاء الكفار ﴿ كَيْفَ يُبْدِىء الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعني : يخلقهم في الابتداء ، ولم يكونوا نسياً ، ثم يعيدهم كما خلقهم ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾

يعني : إن الذي خلق الخلق ، يقدر أن يعيدهم ، وهو عليه هين قوله عز وجل : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض ﴾ يعني : سافروا في الأرض .

يعني : فتعتبروا في أمر البعث .

ويقال : سيروا في الأرض .

يعني : اقرؤوا القرآن ﴿ فانظروا ﴾ أي فاعتبروا ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الخلق ﴾ يعني : كيف خلق الخلق ﴿ ثُمَّ الله يُنشِىء النشأة الآخرة ﴾ يعني : يحييهم بعد الموت للمبعث ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من أمر البعث وغيره .

ثم قال عز وجل : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ يعني : يخذل من يشاء ولا يهدي من لم يكن أهلاً لذلك .

(152/596)

﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء ﴾ أي يهديه إن كان أهلاً كذلك ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ يعني : ترجعون إليه في الآخرة قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ يعني : لا تهربون منه ولا تفوتونه ﴿ وَلاَ فِى السماء ﴾ يعني : إن كنتم في الأرض ، ولا في السماء لا يقدرون أن يهربوا منه ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله ﴾ يعني : من عذاب الله ﴿ مِن وَلِىّ ﴾ يعني : من قريب

ينفعكم ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يعني : ولا مانع يمنعكم من عذاب الله عز وجل .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات والله ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ يعني : كفروا بالبعث بعد الموت ﴿ أُوْلَئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾ يعني : من جنتي ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة ، ثم رجع إلى قصة إبراهيم .

حيث قال لقومه : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ قوله عز وجل : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرّقُوهُ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار ﴾ وفي الآية مضمر ومعناه : فقذفوه في النار ، فأنجاه الله من النار فلم تحرقه ، وجعلها برداً وسلاماً ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما أنجاه الله من النار بعدما قذفوه فيها ﴿ لاَيَاتٍ ﴾ يعني : لعبرات ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون بتوحيد الله تعالى فقال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مّن دُونِ الله أوثانا ﴾ يعني : إنما عبدتم من دون الله أوثاناً يعني : أصناماً ﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ على عبادة أصنامكم .

قرأ نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر ، ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ بنصب الهاء مع التنوين ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ بنصب النون .

يعني : اتخذتم أوثاناً آلهة مودة بينكم على عبادتها صار نصباً لوقوع الفعل عليه .

وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص مودة بنصب الهاء بغير التنوين بينكم بكسر النون على معنى الإضافة ، وقرأ الباقون مودة بالضم بينكم بالكسر .

وروي عن الفرّاء أنه قال : إنما صار المودة رفعاً بالصفة بقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ وينقطع الكلام عند قوله : ﴿ إِنَّمَا اتخذتم مّن دُونِ الله أوثانا ﴾ ثم يبين ضرر مودتهم في الحياة الدنيا فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ يعني : ليس مودتكم تلك الأصنام بشيء ، لأن مودة ما بينكم في الحياة الدنيا تنقطع ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، يعني : الأصنام من العابد ، والشياطين ممن عبدها .

ويقال يعني : الأتباع والقادة تتبرأ القادة من الأتباع ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ يعني : الأتباع يلعنون القادة ، والعابد يلعن المعبود ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ يعني : مصيركم إلى النار ﴿ وَمَا لَكُمْ مّن ناصرين ﴾ يعني : مانعين من عذاب الله عز وجل .

قوله عز وجل : ﴿ فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ يعني : صدق لوط إبراهيم عليهما السلام على الهجرة .

ويقال : صدقه بالنبوة حين لم تحرقه النار ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنّى مُهَاجِرٌ إلى رَبّى ﴾ يعني : إلى رضاء ربي وطاعة ربي .

ويقال : إلى أرض مصر في أرض ربي ، فهجر قومه الكافرون وخرج إلى الأرض المقدسة ،

ومعه سارة ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في أمره .

ويقال : حكيم حكم أن من لم يقدر في بلدة على طاعة الله عز وجل فليخرج إلى بلدة أخرى .

(154/596)

قوله عز وجل : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ يعني : المهاجر إلى طاعة الله عز وجل أكرمه الله في الدنيا وأعطاه ذرية طيبة ، وهو ولده إسحاق ، وولد ولده يعقوب عليهم السلام ووهب له أربعة أولاد : إسحاق من سارة ، وإسماعيل من هاجر ، ومدين ومداين من غيرهما ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النبوة ﴾ يعني : من ذرية إبراهيم النبوة والكتاب يعني أكرم الله عز وجل ذريته بالنبوة ، وأعطاهم الصحف .

ويقال : أخرج من ذريته ألف نبي ﴿ والكتاب ﴾ يعني : الزبور والتوراة والإنجيل والفرقان ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ يعني : أعطيناه في الدنيا الثناء الحسن ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ يعني : مع النبيين في الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 624.631 ﴾

(155/596)

وقال الثعلبي :

﴿ الم * أَحَسِبَ ﴾

أظن وأصله من الحساب ﴿ الناس ﴾ يعني الذين جزعوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين ﴿ أَن يتركوا ﴾ بغير اختبار ولا ابتلاء بأن قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ كلا لنختبرنهم لنتبين الصادق من الكاذب ، (إن) الأولى منصوبة ب ﴿ أَحَسِبَت ﴾ والثانية خفض بنزع الخافض ، أي لأن يقولوا ، والعرب لا تقول : تركت فلاناً أن يذهب ، إنّما تقول : تركته يذهب ، معه جوابان : أحدهما يشتركوا لأن يقولوا ، والثاني : على التكرير تقديره : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا ﴾ أحسبوا ﴿ أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ لا يبتلون ليظهر المخلص من المنافق ، وقيل : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يصابون بشدائد الدنيا ، يعني : أنّ البلاء لا يدفع عنهم في الدنيا لقولهم : ﴿ آمَنَّا ﴾ .

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال ابن جريج وابن عمير : نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذّب في الله .

(156/596)

وقال الشعبي : نزلت هاتان الآيتان في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إنّه لا يقبل منكم إقرار بإسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا عائدين إلى المدينة ، فاتبعهم المشركون فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فكتبوا إليهم إنّه قد نزلت فيكم آية كذا وكذا ، فقالوا : نخرج ، فإن اتبعنا أحد قاتلناه . فخرجوا ، فاتبعهم المشركون ، فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله سبحانه فيهم هاتين الآيتين ، وقال مقاتل : نزلت في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يومئذ سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة " ، فجزع عليه أبواه وامرأته ، فأنزل الله سبحانه فيهم هذه الآية وأخبر أنّه لابد لهم من البلاء والمشقة في ذات الله تعالى ، وقيل : ﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ بالأوامر والنواهي .

ثم عزّاهم ، فقال عز من قائل : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ والله تعالى عالم بهم قبل الإختبار ، وعلمه قديم تام ، وإنّما معنى ذلك : فليظهرنّ الله تعالى ذلك حتّى يوجد معلومة .

قال مقاتل : فليرين الله ، الأخفش : فليميزنّ الله .

وقال القتيبي : علم الله سبحانه نوعان : أحدهما : علم شيء كان يعلم إنّه كان ، والثاني : علم شيء يكون ، فعلم إنّه يكون وقت كذا ولا يعلمه كائناً واقعاً إلاّ بعد كونه ووقوعه ، بيانه

قوله سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ [محمد : 31] أي نعلم المجاهدين منكم مجاهدين ونعلم الصابرين صابرين ، فكذلك هاهنا فليعلمنّ الله ذاك موجوداً كائناً وهذا سبيل علم الله في الإستقبال .

(157/596)

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ الشرك ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ يعجزونا ويقولوا ما بأنفسهم فلا يقدر على الإنتقام منهم ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء حكمهم الذي يحكمون ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ الله ﴾ قال ابن عباس ومقاتل : من كان يخشى البعث . سعيد بن جبير : من كان يطمع في ثواب الله ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ ﴾ يعني ما وعد الله من الثواب والعقاب الكائن ﴿ وَهُوَ السميع العليم * وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ له ثوابه . ﴿ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين * والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ اختلف النحاة في وجه نصب الحسن ، فقال أهل البصرة : على التكرير تقديره ووصيناه حسناً أي بالحسن ، كما يقول : وصيته خيراً ، أي بخير ، وقال أهل الكوفة : معناه ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً ، فحذفه لدلالة الكلام

عليه كقول الراجز :

عجبت من دهماء إذ تشكونا . . . ومن أبي دهماء إذ يوصينا

خيراً بها كأنّنا جافونا . . . أي يوصينا أن نفعل بها خيراً ، وهو مثل قوله : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً ﴾ [ص : 33] أي يمسح مسحاً .

وقيل معناه : وألزمناه حسناً ، وقرأ العامة ﴿ حُسْناً ﴾ بضم الحاء وجزم السين ، وقرأ أبو رجاء العطاردي بفتح الحاء والسين .

(158/596)

وفي مصحف أبي ﴿ إِحْسَانًا ﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص الزهري . واسم أبي وقاص : مالك بن وهبان ، وذلك إنّه لما أسلم قالت له أمه جمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف : يا سعد بلغني إنّك صبوت فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد وترجع إلى ما كنت عليه ، وكان أحب ولدها إليها ، فأبى سعد وصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل بظل ، فأتى سعد النبي (عليه السلام) وشكا ذلك إليه فأنزل الله سبحانه هذه الآية والتي في لقمان والأحقاف ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يترضاها ويحسن إليها ولا يطيعها في

الشرك وذلك قوله سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ إنّه لي شريك ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد قراءة قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدثنا عبد الله بن هاشم قال : حدثنا أبو أسامة قال : حدثنا نمير بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : " قلت : يا رسول الله من أبرّ ؟ قال : " أمّك " ، قلت : ثم من ؟ قال : " أمّك " ، قلت : ثم من ؟ قال : " ثم أمّك " ، قلت : ثم من ؟ قال : " ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب " .

وأخبرنا عبد الله إجازة قال : أخبرنا عثمان بن أحمد قال : حدثنا علي بن إبراهيم الواسطي قال : حدثنا منصور بن مهاجر قال : حدثنا أبو النصر الأبار ، عن أنس بن مالك قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

" الجنة تحت أقدام الأمهات " .

﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصالحين ﴾ أي في زمرتهم وجملتهم ، وقال محمد بن جرير : أي في مدخل الصالحين وهو الجنة ، وقيل : ﴿ فِي ﴾ بمعنى مع ، والصالحون هم الأولياء والأنبياء .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يقُول آمَنَّا بالله فَإِذَآ أُوذِيَ فِي الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس ﴾ أي أذاهم وعدائهم ﴿ كَعَذَابِ الله ﴾ في الآخرة فارتد عن إيمانه ﴿ وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ وهم كاذبون ﴿ أَوَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العالمين * وَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين آمَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ أي ليميّزنهم ويظهر أمرهم بالإبتلاء والاختبار والفتن والمحن .

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية :

فقال مجاهد : نزلت في ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله ومصيبة في أنفسهم افتتنوا . الضحاك : نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك . عكرمة عن ابن عباس : نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون معهم إلى بدر ، فارتدوا وهم الذين نزلت فيهم ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النساء : 97] . . . الآية ، وقد مضت القصة . قتادة : نزلت هذه الآية في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة .

وهذه الآيات العشر مدنية إلى ها هنا ، وسائرها مكي ، وقال مقاتل والكلبي : نزلت في العياش بن أبي ربيعة بن مغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي ، وذلك إنّه أسلم فخاف أهل بيته فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبي (عليه السلام) ، فحلفت أمه أسماء بنت مخرمة ابن أبي جندل بن نهشل التميمي أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل لها رأساً ولا تدخل لبيتاً حتى يرجع إليها ، فلما رأى ابناها أبو جهل والحارث ابنا هشام وهما أخوا عيّاش لأُمّه جزعها وحلفها رهبا في ظلمة حتى أتيا المدينة فلقياه ، فقال أبو جهل لأخيه عياش بن أبي ربيعة : قد علمت أنّك أحبّ إلى أمّك من جميع ولدها وكنت بها باراً ، وقد حلفت أمك إنّها لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل بيتاً حتى ترجع إليها ، وأنت تزعم أنّ في دينك بر الوالدين ، فارجع إليها فإنّ ربّك الذي تعبده بالمدينة هو ربك بمكة فاعبده بها ، فلم يزالا به حتى أخذ عليهما المواثيق لا يحركاه ولا يصرفاه عن دينه ، فأعطياه ما سأل من المواثيق فتبعهما ، وقد صبرت أمه ثلاثة أيام ثم أكلت وشربت ، قالا : فلما خرجوا من أهل المدينة أخذاه فأوثقاه وجلده كلّ واحد منهما مائة جلدة حتى تبرأ من دين محمّد (رحمهما الله) جزعاً من الضرب وقال ما لا ينبغي ، فأنزل الله سبحانه فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ ﴾ . . . الآية .

(161/596)

قالا : وكان الحارث أشدهما عليه وأسوأهما قولا ، فحلف عياش بالله لئن قدر عليه خارجاً من الحرم ليضربنّ عنقه ، فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حيناً ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون إلى المدينة ، فهاجر عياش وأسلم وحسن إسلامه . ثم إنّ الله تعالى قذف الإيمان في قلب الحارث بن هشام ، فهاجر إلى المدينة وبايع النبي (عليه السلام) على الإسلام ولم يحضر عياش ، فلقيه عياش يوماً بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه ، فضرب عنقه ، فقيل له : إنّ الرجل قد أسلم ، فاسترجع عياش وبكى ، ثم أتى النبي (عليه السلام) وأخبره بذلك ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً ﴾ [النساء : 92] . . . الآية .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ من أهل مكة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أوزاركم ، قال الفراء : لفظة أمر ومعناه : جزاء ، مجازه إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم كقوله سبحانه : ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ﴾ [طه : 39] وقوله سبحانه : ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ [النمل : 18] لفظة نهي وتأويله جزاء . وقال الشاعر :

فقلت ادعي وادع فإنّ أندى . . . لصوت أن ينادي داعيان

يريد إن دعوت دعوتُ .

فأكذبهم الله تعالى ، فقال : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أوزار أنفسهم وأثقال من أضلوا وصدوا عن سبيل الله ﴿ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ نظيرها و ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] الآية .

(162/596)

روي عوف ، عن الحسن أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى ضلالة ، فاتبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً " ثم قرأ الحسن ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدثنا عبد الله بن هاشم قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن مسلم ، عن عبد الرحمن بن هلال العنسي ، عن جرير قال : " خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثّنا على الصدقة ، فأبطأ الناس حتى رُئي في وجهه الغضب ، ثم إنّ رجلا من الأنصار قام فجاء بصرّة وأعطاها ، فتتابع الناس ، فأعطوا حتى رُئي في وجهه السرور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من

أجورهم شيء ، ومن سنّ سنة سيّئة كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " .

﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القيامة عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطوفان وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : بعث نوح (عليه السلام) لأربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السفينة وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله واتقوه ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ .

(163/596)

ويقولون كذباً ، وقال مجاهد : وتصنعون أصناماً بأيديكم فتسمونها آلهة ، نظيره قوله سبحانه : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات : 95] ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ على المبالغة والكثرة . ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ

كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ فاهلكوا ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين * أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ بالتاء كوفي غيرهم بالياء ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ بَدَأَ ﴾ الله ، ﴿ الخلق ﴾ يعني فانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ولم يتعذر عليه مبدئاً فكذلك لا يتعذر عليه إنشائها معيداً .

﴿ ثُمَّ الله يُنشِىءُ النشأة ﴾ أي يبدأ البدأة ﴿ الآخرة ﴾ بعد الموت .

وفيها لغتان : بالمد وهي قراءة ابن كثير والحسن وأبو عمر وحبيب كانت ، و (نشأة) بالقصر وتسكين السين وهي قراءة الناس ونظيرها الرأفة ، والرأفة ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون .

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء ﴾ اختلف أهل المعاني في وجهها ، فقال الفراء : معناه ولا من في السماء بمعجز ، وهو من غامض العربية الضمير الذي لم يظهر في الثاني . كقول حسان بن ثابت :

فمن يهجو رسول الله منكم . . . ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه وينصره فأضمر من وإلى هذا التأويل ذهب عبد الرحمن بن زيد قال : لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء في السماء إن عصوا .

وقال قطرب : ولا في السماء لو كنتم فيها ، كقولك : ما يفوتني فلان بالبصرة ولا ها هنا في بلدي ، وهو معك في البلد أي ولا بالبصرة لو صار إليها .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَآئِهِ أولئك يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وأولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فأعرض سبحانه بهذه الآيات تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة ، ثم عاد إلى قصة إبراهيم ، فقال عز من قائل : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ قرأ العامة بنصب الباء على خبر كان وإن قالوا : في محل الرفع على اسم كان ، وقرأ سالم الأفطس ﴿ جَوَابَ ﴾ رفعاً على اسم كان ، وإن موضعه نصب على خبره ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النار ﴾ وجعلها عليه برداً وسلاماً ، قال كعب : ما حرقت منه إلاّ وثاقه .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ ﴾ يعني إبراهيم (عليه السلام) لقومه : ﴿ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ اختلف القرّاء فيها ، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ رفعاً ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ خفضاً بالإضافة ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم على معنى : أنّ الذين اتخذتم من دون الله أوثاناً هي ﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ . ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ لم تنقطع ولا تنفع في الآخرة كقوله : ﴿ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف : 35] ثم قال : ﴿ بَلاَغٌ ﴾ [الأحقاف : 35] أي هذا بلاغ ، وقوله سبحانه

: ﴿ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس : 69] ثم قال : ﴿ مَتَاعٌ ﴾ [يونس : 70] أي هو متاع ، فكذلك أضمروا ها هنا هي ويجوز أن تكون خبر إن .

(165/596)

وقرأ عاصم في بعض الروايات ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ مرفوعة منونة ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ نصباً وهو راجع إلى معنى القراءة الأولى ، وقرأ حمزة ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ بالنصب ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ بالخفض على الإضافة بوقوع الإتحاد عليها وجعل إنّما حرفاً واحداً وهي رواية حفص عن عاصم ، وقرأ الآخرون : ﴿ مَّوَدَّةَ ﴾ نصباً منونة ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ بالنصب وهي راجعة إلى قراءة حمزة ومعنى الآية أنكم اتخذتم هذه الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا .

﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ تتوادون وتتحابون على عبادتها وتتواصلون عليها .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ وتتبرأ الأوثان من عابديها ﴿ وَمَأْوَاكُمُ ﴾ جميعاً العابدون والمعبودون ﴿ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ * فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ وهو أول من صدق إبراهيم (عليه السلام) حين رأى أنّ النار لم تضرّه .

﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي ﴾ فهاجر من كوتي من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط وامرأته سارة ، وهو أول من هاجر ، قال مقاتل : هاجر إبراهيم (عليه

السلام) وهو ابن خمس وسبعين سنة .

﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 269. 276 ﴾

(166/596)

وقال الزمخشرى :

سورة العنكبوت

مكية [إلا من آية 1 إلى غاية آية 11 فمدنية] وآياتها 69 [نزلت بعد الروم] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (3)

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات ، ولكن بمضامين الجمل . ألا ترى أنك لو قلت :

حسبت زيدا وظننت الفرس : لم يكن شيئا حتى تقول : حسبت زيدا عالما وظننت الفرس جوادا ، لأنّ قولك : زيد عالم ، أو الفرس جواد كلام دال على مضمون ، فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين ، فلم تجد بدّا في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه ، من ذكر شطري الجملة مدخلا عليهما فعل الحسبان ، حتى يتم لك غرضك . فإن قلت :

فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية ؟ قلت : هو في قوله أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وذلك أن تقديره : أحسبوا تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، فالترك أول مفعولي حسب ، ولقولهم : آمنا ، هو الخبر . وأما «غير مفتونين» فتتمة الترك ، لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير ، كقوله :

فتركته جزر السّباع ينشنه «1»

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان ، تقدر أن تقول : تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، على تقدير : حاصل ومستقر ، قبل اللام . فإن قلت : أَنْ يَقُولُوا هو علة تركهم غير مفتونين ، فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ ؟ قلت : كما تقول خروجه لمخافة الشر ، وضربه للتأديب ، وقد كان التأديب والمخافة في قولك : خرجت مخافة الشر ، وضربته تأديبا : تعليلين . وتقول أيضا :

حسبت خروجه لمخافة الشر ، وظننت ضربه للتأديب ، فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما

مبتدأ

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 75 فراجعه إن شئت اه مصححه .

وخبرا . والفتنة : الامتحان بشدائد التكليف : من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الأعداء ، وسائر الطاعات الشاقة ، وهجر الشهوات والملاذ ، وبالفقر والقحط ، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال . وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم . والمعنى : أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان : أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمحنهم اللّه بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم ، وثبات أقدامهم ، وصحة عقائدهم ، ونصوع نياتهم ، ليتميز المخلص من غير المخلص ، والراسخ في الدين من المضطرب ، والمتمكن من العابد على حرف ، كما قال لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وروى أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين . وقيل في عمار بن ياسر : وكان يعذب في اللّه . وقيل : في ناس أسلموا بمكة ، فكتب إليهم المهاجرون : لا يقبل منكم إسلامكم حتى

تهاجروا ، فخرجوا فتبعهم المشركون فردّوهم ، فلما نزلت كتبوا بها إليهم ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا . وقيل : في مهجع بن عبد اللّه مولى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ، وهو أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة «1» ، فجزع عليه أبواه وامرأته وَلَقَدْ فَتَنَّا موصول بأحسب أو بلا يفتنون ، كقولك : ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه ، يعنى : أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم ، قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم .

أو ما هو أشدّ منه فصبروا ، كما قال : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا . . . الآية وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه» «2» فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ بالامتحان الَّذِينَ صَدَقُوا في الإيمان وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ فيه . فإن قلت : كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل ؟ قلت : لم يزل يعلمه معدوما ، ولا يعلمه موجودا إلا إذا وجد «3» ، والمعنى :

---

(1) . ذكره الثعلبي عن مقاتل قال «نزلت هاتان الآيتان في مهجع بن عبد اللّه مولى عمر ، كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله . فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه

الأمة» وسنده إلى مقاتل في أول كتابه ، وفي الدلائل لابن أبى شيبة من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود قال «أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر» .

(2) . أخرجه البخاري من حديث خباب بن الأرت به ، وأتم منه .

(3) . قال محمود : «إن قلت هو لم يزل يعلم الصادقين والكاذبين قبل الامتحان ، فما وجه هذا الكلام ؟

قلت : لم يزل يعلمه معدوما ولا يعلمه موجودا إلا إذا وجد» قال أحمد : فيما ذكر إيهام بمذهب فاسد ، وهو اعتقاد أن العلم بالكائن غير العلم بأن سيكون ، والحق أن علم اللّه تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه ، وفائدة ذكر العلم هاهنا وإن كان سابقا على وجود المعلوم : التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء ، كأنه قال تعالى : لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم ، واللّه أعلم .

(168/596)

وليتميزن الصادق منهم من الكاذب . ويجوز أن يكون وعدا ووعيدا ، كأنه قال : وليثيبن الذين صدقوا وليعاقبنّ الكاذبين . وقرأ على رضى اللّه عنه والزهري : وليعلمنّ ، من الإعلام ، أى :

وليعرفنهم اللّه الناس من هم . أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها ، وكحل العيون وزرقتها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 4]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (4)

أَنْ يَسْبِقُونا أن يفوتونا ، يعنى أنّ الجزاء يلحقهم لا محالة ، وهم لم يطمعوا في الفوت ، ولم يحدّثوا به نفوسهم ، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي : في صورة من يقدر ذلك ويطمع فيه . ونظيره وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ . فإن قلت : أين مفعولا «حسب» ؟ قلت : اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ المفعولين ، كقوله تعالى أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة . ومعنى الإضراب فيها : أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأوّل ، لأن ذاك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه ، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه ساءَ ما يَحْكُمُونَ بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا . أو بئس حكما يحكمونه حكمهم هذا ، فحذف المخصوص بالذم .

[سورة العنكبوت (29) : آية 5]

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5)

لقاء اللّه : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء :

مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر ، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها ، فمعنى قوله مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ : من كان يأمل تلك الحال . وأن يلقى فيها الكرامة من اللّه والبشر فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ وهو الموت لَآتٍ لا محالة ، فليبادر العمل الصالح الذي يصدق رجاءه ، ويحقق أمله ، ويكتسب به القربة عند اللّه والزلفى وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه ، فهو حقيق بالتقوى والخشية . وقيل يَرْجُوا : يخاف من قول الهذلي في صفة عسال :

(169/596)

إذا لسعته الدّبر لم يرج لسعها «1»

فإن قلت : فإن أجل اللّه لآت ، كيف وقع جوابا للشرط ؟ قلت : إذا علم أن لقاء اللّه عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت : فكأنه قال :

من كان يرجو لقاء اللّه فإن لقاء اللّه لآت ، لأن الأجل واقع فيه اللقاء ، كما تقول : من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب ، إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة .

[سورة العنكبوت (29) : آية 6]

وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (6)

وَمَنْ جاهَدَ نفسه في منعها ما تأمر به وحملها على ما تأباه فَإِنَّما يُجاهِدُ لها ، لأن منفعة ذلك راجعة إليها ، وإنما أمر اللّه عز وجل ونهى ، رحمة لعباده وهو الغنى عنهم وعن طاعتهم .

[سورة العنكبوت (29) : آية 7]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (7)

إما أن يريد قوما مسلمين صالحين قد أساءوا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم ، أى يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون ، أى : أحسن جزاء أعمالهم : وإما قوما مشركين آمنوا وعملوا الصالحات ، فاللّه عز وجل يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام «2» .

[سورة العنكبوت (29) : آية 8]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

---

(1) إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل

لأبي ذؤيب ، يصف عسالا يجتني العسل : بأنه إذا لسعته الدبر - بالفتح والكسر - : ذكور النحل والزنابير .

وروى كذلك : لم يرج ، أي : لم يخف لسعها إذا أرادت لسعه . أو لسعته بالفعل لم يخف من مثله ، أو لم يرتقبه ويعتني به ، وحالفها : أي لازمها . ويروى بالمعجمة ، أي : خالف مرادها . أو جاء خلفها بعد أن خرجت ترعى .

والنوب : ضرب من النحل واحده نائب ، لأنه يذهب إلى بيته نوبة بعد نوبة ، عواسل : كثيرة العسل . وروى :

عوامل ، بالميم لأنها تعمل العسل .

(2) . قال محمود : «المراد بهؤلاء أحد فريقين : إما قوم مسلمون سيئاتهم صغائر مغمورة بالحسنات ، وإما قوم آمنوا وعملوا الصالحات بعد كفر فالإسلام يجب ما قبله» قال أحمد : حجر واسعا من رحمة اللّه تعالى ، بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر لا بالتوبة ، وأطلق تكفير الصغائر وإن لم تكن توبة إذا غمرتها الحسنات ، وكلا الأصلين قدري مجتنب ، واللّه الموفق .

(170/596)

«وصى» حكمه حكم «أمر» في معناه وتصرفه. يقال: وصيت زيدا بأن يفعل خيرا، كما تقول: أمرته بأن يفعل. ومنه بيت الإصلاح:

وذبيانيّة وصّت بنيها بأن كذب القراطف والقروف «1»

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها. ومنه قوله تعالى وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ أى وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك: وصيت زيدا بعمرو، معناه: وصيته بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك، وكذلك معنى قوله وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً: وصيناه بإيتاء والديه حسنا، أو بإيلاء والديه حسنا، أى: فعلا ذا حسن، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، كقوله تعالى وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وقرئ: حسنا. وإحسانا. ويجوز أن تجعل حُسْناً من باب قولك: زيدا، بإضمار «أضرب» إذا رأيته متهيئا للضرب، فتنصبه بإضمار أو لهما. أو افعل بهما، لأن التوصية بهما دالة عليه، وما بعده مطابق له، كأنه قال: قلنا أو لهما معروفا وفَلا تُطِعْهُما في الشرك إذا حملاك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على بِوالِدَيْهِ وابتدأ حُسْناً حسن الوقف، وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول، معناه: وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أى لا علم لك بإلهيته. والمراد بنفي العلم: نفى المعلوم، كأنه قال: لتشرك بى شيئا لا يصح أن يكون إلها ولا يستقيم: وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما، ثم نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراداه على ما ذكر، على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق اللّه، وأنه لا طاعة لمخلوق في

معصية الخالق ، ثم قال : إلىّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ، فأجازيكم حق جزائكم .

وفيه شيئان ، أحدهما : أن الجزاء إلىّ ، فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ، ولا تحرمهما برك ومعروفك في الدنيا ، كما أنى لا أمنعهما رزقي . والثاني : التحذير من متابعتهما على الشرك ، والحث على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد .

روى أن سعد بن أبى وقاص الزهري رضى اللّه عنه حين أسلم قالت أمّه – وهي حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس – : يا سعد ، بلغني أنك قد صبأت ، فو اللّه لا يظلني سقف بيت من الضح «2»

---

(1) . لمعقر بن حمار البارقي ، أنشده ابن السكيت في كتابه المسمى : إصلاح المنطق ، أى : امرأة منسوبة إلى قبيلة ذبيان وصت بنيها . وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وخبرها : كذب ، وهو قد يكون بمعنى وجب كما في الصحاح . وفي الحديث : ثلاثة أسفار كذبن عليكم ، أى : وجبن . وعن عمر رضى اللّه عنه : كذب عليكم الحج ، أى وجب . وفي الكلام معنى الحث والإغراء . والقراطف : جمع قرطف ، وهو القطيفة المخملة . والقروف :

أوعية من أدم يجعل فيها اللحم المشوى . والقرف – بالكسر – : المقشر . والقرفة : قشر يداوى به . والقرف – بالفتح – وعاء من جلد يدبغ بالقرفة . واقترف ، واقترب : متقاربان

لفظا ومعنى ، أى : وصتهم باغتنامها وحفظها معهم . [. . . . .]

(2) . قوله «من الضح» في الصحاح «الضح» : الشمس . وفي الحديث : «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل ، فانه مقعد الشيطان» اه . (ع)

(171/596)

والريح ، وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد - وكان أحبّ ولدها إليها - فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك ، فجاء سعد إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وشكا إليه ، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف ، فأمره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان «1» . وروى أنها نزلت في عياش بن أبى ربيعة المخزومي ، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة «2» ، فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام - أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة : امرأة من بنى تميم من بنى حنظلة - فنزلا بعياش وقالا له : إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين ، وقد تركت أمّك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك ، وهي أشدّ حبا لك منا فاخرج معنا ، وفتلا منه في الذروة والغارب «3» فاستشار عمر رضى اللّه عنه فقال : هما يخدعانك ، ولك عليّ أن أقسم مالى بيني وبينك ، فما زالا به حتى

أطاعهما وعصى عمر ، فقال له عمر : أما إذ عصيتني فخذ ناقتي ، فليس في الدنيا بعير يلحقها ، فإن رابك منهما ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي قد كلت فاحملني معك . قال : نعم ، فنزل ليوطئ لنفسه وله ، فأخذاه وشدّاه وثاقا ، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة ، وذهبا به إلى أمه فقالت : لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد ، فنزلت .

[سورة العنكبوت (29) : آية 9]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

فِي الصَّالِحِينَ في جملتهم . والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء اللّه . قال اللّه تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ وقال في إبراهيم عليه السلام : وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ أو في مدخل الصالحين وهي الجنة ، وهذا نحو قوله تعالى وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الآية .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 10 إلى 11]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (11)

---

(1) . ذكره الواحدي والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند والقصة في صحيح مسلم من

حديث سعد بن أبى وقاص بغير هذا السياق .

(2) . تقدم الكلام عليه في سورة النساء وهذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه في أول كتابه ، وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار قال : حدثني نافع عن ابن عمر عن عمر مطولا .

(3) . قوله «وفتلا منه في الذروة والغارب» في الصحاح : ما زال فلان يفتل من فلان في الذروة والغارب ، أى : يدور من وراء خديعته . (ع)

(172/596)

هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس ، كان ذلك صارفا لهم عن الإيمان ، كما أن عذاب اللّه صارف للمؤمنين عن الكفر . أو كما يجب أن يكون عذاب اللّه صارفا . وإذا نصر اللّه المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أى مشايعين لكم في دينكم ، ثابتين عليه ثباتكم ، ما قدر أحد أن يفتننا ، فأعطونا نصيبنا من المغنم . ثم أخبر سبحانه أنه أعلم بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ من العالمين بما في صدورهم ، ومن ذلك ما تكنّ صدور هؤلاء من النفاق ، وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه ، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين . وقرئ : ليقولنّ ، بفتح اللام .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 12 إلى 13]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (13)

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر ، وأرادوا : ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن تحمل خطاياكم . والمعنى : تعليق الحمل بالاتباع ، وهذا قول صناديد قريش : كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن عسى كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم . ونرى في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه - إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم - : افعل هذا وإثمه في عنقي . وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامّة وجهلتهم - ومنه ما يحكى أنّ أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه ، فلما قضاها قال : يا أمير المؤمنين ، بقيت الحاجة العظمى . قال : وما هي ؟ قال شفاعتك يوم القيامة ، فقال له عمرو بن عبيد رحمه اللّه : إياك وهؤلاء ، فإنهم قطاع الطريق في المأمن «1» . فإن قلت : كيف سماهم

---

(1) . قال محمود : «و بعض المتسمين بالإسلام إذا أراد أن يشجع صاحبه على ذنب قال له : افعل هذا وإثمه في عنقي . ومنه ما يحكى أن رجلا رفع إلى المنصور حوائجه فلما

قضاها ، قال يا أمير المؤمنين ، بقيت لي إليك حاجة هي العظمى . قال : وما هي ؟ قال : شفاعتك في المحشر . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، إياك وهؤلاء فهم قطاع الطريق في المأمن» قال أحمد : عمرو بن عبيد أول القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره ، وليست الآية مطابقة للحكاية ، ولكن الزمخشري يبنى على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا أتباعهم ، فلذلك ساقهما مساقا واحدا نعوذ باللّه من ذلك . وفي قوله تعالى : إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر ، فان من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر ، ولم يتم له ذلك في هذه الآية ، لأن اللّه تعالى أردف قولهم : ولنحمل خطاياكم ، على صيغة الأمر بقوله إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ والتكذيب إنما يتطرق إلى الاخبار .

(173/596)

كاذبين ، وإنما ضمنوا شيئا علم اللّه أنهم لا يقدرون على الوفاء به ، وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به ، لا يسمى كاذبا لا حين ضمن ولا حين عجز ، لأنه في الحالين لا يدخل تحت حدّ الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه ؟ قلت : شبه اللّه حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به ، فكان ضمانهم عنده لا على ما

عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه لمخبر، عنه. ويجوز أن يريد أنهم كاذبون، لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ أى أثقال أنفسهم وَأَثْقالًا يعنى أثقالا أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها، وهي أثقال الذين كانوا سببا في ضلالهم وَلَيُسْئَلُنَّ سؤال تقريع عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ أى يختلقون من الأكاذيب والأباطيل. وقرئ: من خطياتهم.

[سورة العنكبوت (29): الآيات 14 إلى 15]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (15)

كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين سنة، بعث على رأس أربعين، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين، وعاش بعد الطوفان ستين. وعن وهب: أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة. فإن قلت: هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة؟ قلت: ما أورده اللّه أحكم. لأنه لو قيل كما قلت، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة «1»، وفيه نكتة أخرى: وهي أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمّته وما كابده من طول المصابرة، تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتثبيتا له، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه، أوقع وأوصل إلى

الغرض من استطالة السامع مدّة صبره . فإن قلت : فلم جاء المميز أوّلا بالسنة وثانيا بالعام ؟ قلت : لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد

---

(1) . قال محمود : «عدل عن تسعمائة وخمسين لأنه يحتمل فيه إطلاق العدد على أكثره بخلاف مجيئه مع الاستثناء» قال أحمد : لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتنقيص ، تحريرا للعدد ، فلا يحتمل المبالغة لأنها لا يجوز معها العدد .

(174/596)

حقيق بالاجتناب في البلاغة ، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل «1» أو تنويه أو نحو ذلك . والطُّوفانُ ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة ، من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما . قال العجاج :

وغمّ طوفان الظّلام الأثأبا «2»

أَصْحابَ السَّفِينَةِ كانوا ثمانية وسبعين نفسا : نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، منهم أولاد نوح عليه السلام : سام ، وحام ، ويافث ، ونساؤهم . وعن محمد بن إسحاق : كانوا عشرة . خمسة رجال وخمس نسوة . وقد روى عن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم «كانوا ثمانية : نوح وأهله وبنوه الثلاثة» «3» والضمير في وَجَعَلْناها للسفينة أو للحادثة والقصة .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 16 إلى 18]

وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (18)

نصب إِبْراهِيمَ بإضمار اذكر ، وأبدل عنه إِذْ بدل الاشتمال ، لأنّ الأحيان تشتمل على ما فيها . أو هو معطوف على نُوحاً وإذ ظرف لأرسلنا ، يعنى : أرسلناه حين بلغ من السنّ والعلم مبلغا صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى

---

(1) . عاد كلامه . قال : «و فيه نكتة أخرى ، وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح وكابده من طول المصابرة ، تسلية له عليه السلام فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض . قال : وإنما خالف بين اللفظين فذكر في الأول السنة وفي الثاني العام ، تجنبا للتكرار الذي لا يحمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم» قال أحمد : ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع ، والله أعلم .

(2) حتى إذا ما يومها تصيبا وعم طوفان الظلام الأثأبا

للعجاج يصف بقرة وحشية . وما : زائدة . ويروى : عم ، بالمهملة وبالمعجمة ، والمعنيان

متقاربان . والطوفان :

كل ما طاف حول الشيء وأحاط به من ظلام أو ماء أو نحوهما . والأثأب : نوع من الشجر يشبه شجر التين ، الواحدة : أثأبة ونسبة التصبب اليوم : مجاز عقلى من باب الاسناد للزمان ، أو على تقدير التمييز ، أى : تصبب مطرا ، وستر ظلامه الشجر الذي كانت فيه . (3) . تقدم في هود .

(175/596)

وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما اللّه . وإبراهيم ، بالرفع على معنى : ومن المرسلين إبراهيم إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يعنى : إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم . أو إن نظرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء : علمتم أنه خير لكم : وقرئ : تخلقون من خلق بمعنى التكثير في خلق . وتخلقون ، من تخلق بمعنى تكذب وتخرص .

وقرئ : إفكا ، فيه وجهان :

أن يكون مصدرا ، نحو : كذب ولعب . والإفك : مخفف منه ، كالكذب واللعب من أصلهما ، وأن يكون صفة على فعل ، أى خلقا إفكا ، أى ذا إفك وباطل . واختلاقهم الإفك : تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء للّه أو شفعاء إليه . أو سمى الأصنام : إفكا ،

وعملهم لها ونحتهم : خلقا للإفك . فإن قلت : لم نكر الرزق ثم عرفه ؟ قلت : لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق ، فابتغوا عند اللّه الرزق كله . فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وقرئ : بفتح التاء ، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ، وإن تكذبوني فلا تضرونني بتكذيبكم ، فإنّ الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم ، وما ضرّوهم وإنما ضروا أنفسهم ، حيث حلّ بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل : وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشكّ ، وهو اقترانه بآيات اللّه ومعجزاته . أو : وإن كنت مكذبا فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا ، وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب ، وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات اللّه عليه لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وشأن قريش بين أوّل قصة إبراهيم وآخرها . فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم فما المراد بالأمم قبله ؟ قلت : قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمّة في معنى أمم جمة مكذبة ، ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء . وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنيه ، وأعقابهم على التكذيب .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 19 إلى 22]

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (22)

(176/596)

فإن قلت : فما تصنع بقوله قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ؟ قلت : هي حكاية كلام حكاه إبراهيم عليه السلام لقومه ، كما يحكى رسولنا صلى اللّه عليه وسلم كلام اللّه على هذا المنهاج في أكثر القرآن فإن قلت : فإذا كانت خطابا لقريش فما وجه توسطهما بين طرفى قصة إبراهيم والجملة ؟ أو الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ؟ ألا تراك لا تقول : مكة - وزيد أبوه قائم - خير بلاد اللّه ؟ قلت : إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأن تكون مسلاة له ومتفرجا بأنّ أباه إبراهيم خليل اللّه كان ممنوّا بنحو ما مني «1» به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله : وإن تكذبوا ، على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمدا فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها ، لأن قوله فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ لا بد من تناوله لأمّة إبراهيم ، وهو كما ترى اعتراض واقع «2» متصل ، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أذيالها

وتوابعها ، لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله ، وهدم الشرك وتوهين قواعده ، وصفة قدرة اللّه وسلطانه ، ووضوح حجته وبرهانه . قرئ يَرَوْا بالياء والتاء . ويبدئ ويبدأ . وقوله ثُمَّ يُعِيدُهُ ليس بمعطوف على يبدئ ، وليست الرؤية واقعة عليه ، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت ، كما وقع النظر في قوله تعالى : فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ على البدء دون الإنشاء ، ونحوه قولك : ما زلت أوثر فلانا وأستخلفه على من أخلفه «3» . فإن قلت : هو معطوف بحرف العطف ، فلا بد له من معطوف عليه ، فما هو ؟ قلت : هو جملة قوله أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ وكذلك : وأستخلفه ، معطوف على جملة قوله : ما زلت أوثر فلانا ذِلكَ يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ من معنى يعيد .

دل بقوله النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ على أنهما نشأتان ، وأن كل واحدة منهما إنشاء ، أى : ابتداء واختراع ، وإخراج من العدم إلى الوجود ، لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله ، والأولى ليست كذلك . وقرئ : النشأة والنشاءة ، كالرأفة والرآفة . فإن قلت : ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ بعد إضماره في قوله : كيف بدأ الخلق ؟

---

(1) . قوله «كان ممنوا بنحو ماضى ؟ ؟ ؟ به» أى : مبتلى . في الصحاح : منوته ومنيته ، إذا ابتليته . (ع)

(2) . قوله «و هو كما ترى اعتراض واقع» لعله : واقع موقعه . (ع)

(3) . قال محمود : «يعيده ليس معطوفا على يبدئ ، وإنما هو إخبار على حياله ، كما وقع كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ كقولك ما زلت أوثر فلانا وأستخلفه بعدي» قال أحمد ، وقد تقدم له عند قوله تعالى أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أنه معطوف ، وصحح العطف - وإن كانوا ينكرون الاعادة - لأن الاعتراف بها لازم لهم ، وقد أبى هاهنا جعله معطوفا ، فالفرق والله أعلم أنه هاهنا لو عطف الاعادة على البداءة لدخلت في الرؤية الماضية ، وهي لم تقع بعد ، ولا كذلك في آية النمل ، ولقائل أن يقول : هي وإن لم تقع ، إلا أنها باخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية ، فعوملت معاملة ما رئي وشوهد إلا أن جعله خبرا ثانيا أوضح ، والله أعلم .

(177/596)

وكان القياس أن يقال : كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة ؟ قلت : الكلام معهم كان واقعا في الإعادة ، وفيها كانت تصطك الركب ، فلما قرّرهم في الإبداء بأنه من الله ، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء ، فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة «1» ، فكأنه قال : ثم ذاك الذي

أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة ، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ تعذيبه وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ رحمته ، ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن «2» وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا ، ومن المعصوم والتائب تُقْلَبُونَ تردون وترجعون وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ربكم أى لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه فِي الْأَرْضِ الفسيحة وَلا فِي السَّماءِ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها ، كقوله تعالى :

إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، وقيل : ولا من في السماء «3» كما قال حسان رضى اللّه عنه :

أمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء «4»

ويحتمل أن يراد : لا تعجزونه كيفما هبطتم في مهاوي الأرض وأعماقها ، أو علوتم في البروج والقلاع الذاهبة في السماء ، كقوله تعالى وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجرى عليكم ، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء .

[سورة العنكبوت (29) : آية 23]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (23)

بِآياتِ اللَّهِ بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وعيد

، أي ييأسون يوم القيامة ، كقوله : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ . أو هو وصف

---

(1) . قال محمود : «إن قلت ما وجه الإفصاح باسمه تعالى مع النشأة الآخرة ، بعد إضماره في البداءة أو لا ؟

قلت : لأن النشأة الآخرة هي المقصودة وفيها كانت تصطك الركب ، فكانت خليقة بإبراز اسمه تعالى تحقيقا لنسبة الاعادة إلى من نسبت إليه الأولى» قال أحمد : والأصل الاظهار ثم الإضمار ، ويليه لقصد التفخيم : الاظهار بعد الاظهار ، ويليه وهو أفخم الثلاثة : الاظهار بعد الإضمار كما في الآية ، والله أعلم .

(2) . قوله «و متعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن» تفسيره بما يأتي مبنى على أنه تعالى يجب عليه تعذيب الكافر والفاسق إذا لم يتوبا وإثابة المعصوم والتائب ، وهو مذهب المعتزلة . ولا يجب عليه تعالى شيء عند أهل السنة ، فالمشيئة في الآية على إطلاقها . (ع) [. . . . .]

(3) . قوله «و قيل ولا من في السماء» عبارة الخازن : ولا من في السماء بمعجز . (ع)

(4) . تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثاني صفحة 563 فراجعه إن شئت اه مصححه .

لحالهم ، لأنّ المؤمن إنما يكون راجيا خاشيا ، فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف .

أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة : وعن قتادة رضى اللّه عنه .

إن اللّه ذمّ قوما هانوا عليه فقال أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وقال إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ فينبغي للمؤمن أن لا ييأس من روح اللّه ولا من رحمته ، وأن لا يأمن عذابه وعقابه صفة المؤمن «1» أن يكون راجيا للّه عز وجل خائفا .

[سورة العنكبوت (29) : آية 24]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24)

قرئ جَوابَ قَوْمِهِ بالنصب والرفع قالُوا قال بعضهم لبعض . أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين ، فكانوا جميعا في حكم القائلين . وروى أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار ، نعنى : يوم ألقى إبراهيم في النار ، وذلك لذهاب حرّها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 25]

وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (25)

قرئ على النصب بغير إضافة وبإضافة ، وعلى الرفع كذلك ، فالنصب على وجهين :

على التعليل ، أى لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا ، لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم ، كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم . وأن يكون مفعولا ثانيا ، كقوله اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أى اتخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم ، على تقدير حذف المضاف .

أو اتخذتموها مودّة بينكم ، بمعنى مودودة بينكم ، كقوله تعالى وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وفي الرفع وجهان : أن يكون خبرا لأنّ ، على أن ما موصولة . وأن يكون خبر مبتدإ محذوف . والمعنى : أنّ الأوثان مودّة بينكم ، أى : مودودة ، أو سبب مودّة . وعن عاصم : مودّة بينكم : بفتح بينكم مع الإضافة ، كما قرئ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ففتح وهو فاعل . وقرأ ابن مسعود رضى اللّه عنه : أوثانا إنما مودّة بينكم في الحياة الدنيا ، أى : إنما تتوادّون عليها ، أو تودّونها في الحياة الدنيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يقوم بينكم التلاعن

(1) . قوله : «صفة المؤمن» لعله : لأن صفه المؤمن . . . الخ . (ع)

والتباغض والتعادي : يتلاعن العبدة ، ويتلاعن العبدة والأصنام ، كقوله تعالى وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا .

[سورة العنكبوت (29) : آية 26]

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهما السلام ، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه وَقالَ يعنى إبراهيم إِنِّي مُهاجِرٌ من «كوثى» وهي من سواد الكوفة إلى «حرّان» ثم منها إلى فلسطين ، ومن ثمة قالوا : لكل نبى هجرة ولإبراهيم هجرتان ، وكان معه في هجرته : لوط ، وامرأته سارّة ، وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة إِلى رَبِّي إلى حيث أمرنى بالهجرة إليه إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الذي يمنعني من أعدائى الْحَكِيمُ الذي لا يأمرنى إلا بما هو مصلحتي .

[سورة العنكبوت (29) : آية 27]

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

أَجْرَهُ الثناء الحسن ، والصلاة عليه آخر الدهر والذرية الطيبة والنبوّة ، وأن أهل الملل كلهم يتولونه . فإن قلت : ما بال إسماعيل عليه السلام لم يذكر ، وذكر إسحاق وعقبه ؟

قلت : قد دلّ عليه في قوله وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وكفى الدليل لشهرة أمره وعلوّ قدره . فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : قصد به جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذرّيته من الكتب الأربعة : التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 438. 451﴾

وقال ابن جزى :

﴿ الم ﴾ ذكر في البقرة .

﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا ﴾ نزلت في قوم من المؤمنين ، كانوا بمكة مسضعفين منهم عمار بن ياسر و غيره ، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، فضاقت صدورهم بذلك . فآنسهم الله بهذه الآية . ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار ، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى ، والثبوت على الإيمان ، فأعلمهم الله تعالى أن تلك سيرته في عباده ، يسلط الكفار على المؤمنين ليمحصهم بذلك ، ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب ، ولفظها مع ذلك عام ، فحكمها على العموم في كل من أصابته فتنة ، من معصية أو مضرة في النفس والمال وغير ذلك ، ومعنى ﴿ حَسِبَ ﴾ ظنّ ، و ﴿ أَن يتركوا ﴾ مفعولها ، والهمزة للإنكار ﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ في موضع الحال في يتركوا تقديره غير مفتونين ، وأن يقولوا : تعليل في موضع المفعول من أجله .

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ أي يعلم صدقهم علماً ظاهراً في الوجود ، وقد كان علمه في الأزل والصدق والكذب في الآية يعني بهما صحة الإيمان والثبوت عليه ، أو ضدّ

ذلك .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أم معادلة لقوله : ﴿ أَحَسِبَ الناس ﴾ ، والمراد ب ﴿ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ الكفار ، الذي يعذبون المؤمنين ، ولفظها مع ذلك عام في كل كافر أو عاص ، ومعنى يسبقونا : يفوتون من عقابنا ويعجزوننا ، فمعنى الكلام نفيُ سبقهم . كما أن معنى الآية قبلها ، نفي ترك المؤمنين بغير فتنة .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ الله ﴾ الآية : تسلية المؤمنين ، ووعد لهم بالخير في الدار الآخرة ، والرجاء هنا على بابه ، وقيل : هو بمعنى الخوف ، ﴿ أَجَلَ الله ﴾ هو الموت ، ومعنى الآية : من كان يرجو ثواب الله فليصبر وفي الدنيا ، على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله ، فيجازيه فإن لقاء الله قريب الإتيان ، وكل ما هو آتٍ قريب .

(181/596)

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي منفعة جهاده فإنما هي لنفسه ، فإن الله لا تنفعه طاعة العباد ، والجهاد هنا يحتمل أن يراد به القتال ، أو جهاد النفس .

﴿ حُسْناً ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره : ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه حسناً ، أو مصدراً من معنى وصينا أي وصية حسنة ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ الآية نزلت في

سعد بن أبي وقاص ، وأنه لما أسلم حلفت أمهك أن لا تستظل بظل حتى يكفر وقيل : نزلت في غيره ممن جرى له مثل ذلك ، فأمرهم الله بالثبات على الإسلام ، وألا يطيعوا الوالدين إذا أمروهم بالكفر ، وعبَّر عن أمر الوالدين بالجهاد مبالغة .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يقُول آمَنَّا بالله ﴾ نزلت في قوم كانوا مؤمنين بألسنتهم ، فإذا عذبهم الكفار رجعوا عن الإيمان ، فإذا نصر الله المؤمنين قالوا : إنا كنا معكم ، فمعنى أوذي في الله أوذي بسبب إيمانه بالله ، وفتنة الناس ، تعذيبهم ، وقيل : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه .

﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا ﴾ أي قال الكافر للمؤمنين : اكفروا كما كفرنا ، ونحمل نحن عنكم الإثم والعقاب إن كان ، وروي أن قائل هذه المقالة الوليد بن المغيرة حكاه المهدوي ، وقولهم : ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ : حزاء قولهم : ﴿ اتبعوا سَبِيلَنَا ﴾ ، ولكنهم ذكروه على وجه الأمر للمبالغة ، ولما كان معنى الخبر صحة تكذيبهم فيه أخبره الله أنهم كاذبون : أي لا يحملون أوزار هؤلاء ، بل يحملون أوزار أنفسهم وأوزار أتباعهم من الكفار .

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ الظاهر أنه لبث هذه المدة بعد بعثه ، ويحتمل أن يكون ذلك من أول ولادته ، وروي أنه بعث وهو ابن أربعين سنة ، وأنه عمر بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فإن قيل : لم قال ألف سنة ، ثم قال إلا خمسين عاماً ؟ فاختلف اللفظ مع اتفاق المعنى ؟ فالجواب أن ذلك كراهة لتكرار لفظ السنة ، فإن التكرار مكروه إلا إذا قصد به تفخيم أو تهويل .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على السفينة ، أو على النجاة ، أو على القصة بكاملها .

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ هو من الخلقة يريد به نحت الأصنام فسماه خلقة على وجه التجوّز ، وقيل هو من اختلاق الكذب ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ الآية : احتجاج على الوحدانية ونفي الشركاء ، فإن قيل : لم نكَّر الرزق أولاً ، ثم عرَّفه في قوله : ﴿ فابتغوا عِندَ الله ﴾ ؟ فالجواب : أنه نكره في قوله : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ لقصد العموم في النفي ، فإن النكرة في سياق النفي تقتضي العموم . ثم عرَّفه بعد ذلك لقصد العموم في طلب الرزق كله من الله ، لأنه لا يقتضي العموم ، في سياق الإثبات إلا مع التعريف فكأنه قال : ابتغوا الرزق كله عند الله .

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ الآية يحتمل أن تكون من كلام إبراهيم أو من كلام الله تعالى ، ويحتمل مع

ذلك أن يراد به وعيد الكفار وتهديدهم ، أو يراد به تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له ، بالتأسي بغيره من الأنبياء ، الذين كذبهم قومهم .

(183/596)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخلق ﴾ يقال بدأ الله الخلق وأبداه بمعنى واحد ، وقد جاءت اللغتان في هذه السورة والمعنى : أو لم يَرَ الكفار أن الله خلق الخلق فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر ، فقوله : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ليس بمعطوف على يبدأ ، لأن المعنى فيهما مختلف ، لأن رؤية البداءة بالمشاهدة ، بخلاف الإعادة فإنها تعلم بالنظر والاستدلال ، وإنما هو معطوف على الجملة كلها ، وقد قيل : إنه يريد إعادة النبات ، وإبدائه ، وعلى هذا يكون ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ عطفاً على يبدىء لاتفاق المعنى ، والأول أحسن وأليق بمقاصد الكلام ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ يعني إعادة الخلق وهي حشرهم ، ثم أمرهم بالسير في الأرض ليروا مخلوقات الله فيستدلوا بها على قدرته على حشرهم ، ولذلك ختمها بقوله : ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي ترجعون .

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لا تفوتون من عذاب الله وليس لكم مهرب في الأرض ولا في

السماء .

﴿ أولئك يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي ﴾ يحتمل أن يكون يأسهم في الآخرة ، أو يكون وصف لحالهم في الدنيا ، لأن الكافر يائس من رحمة الله ، والمؤمن راج خائف ، وهذا الكلام من قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ ، إلى هنا : يحتمل أن يكون خطاباً لمحمد صلى الله عليه وسلم معترضاً بين قصة إبراهيم ، ويحتمل أن يكون خطاباً لإبراهيم وبعد ذلك ذكر جواب قومه له .

﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ نصب مودة على أنها مفعول من أجله أو مفعول ثاني لاتخذتم ، ورفعها على أنها خبر ابتداء مضمر أو خبر إن ، وتكون ما موصولة ونصب بينكم على الظرفية ، وخفضه بالإضافة .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ تضمن آمن معنى انقاد ، ولذلك تعدّى باللام ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي ﴾ القائل لذلك أبراهيم ، وقيل : لوط ، وهاجرا من بلادهما بأرض بابل إلى الشام .

(184/596)

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة ﴾ أكثر الأنبياء من ذرية إبراهيم ، وعلى ذريته أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 113.116 ﴾

(185/596)

وقال الخازن :

قوله ﴿ الم أحسب الناس ﴾

أي أظن الناس ﴿ أن يتركوا ﴾ أي بغير اختبار وابتلاء ﴿ أن ﴾ أي بأن ﴿ يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم كلا لنختبرنهم لنبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب .

قيل : نزلت هذه الآية في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه لا يقبل منكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فقاتلهم الكفار ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل الله هاتين الآيتين .

وقال ابن عباس : أراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم .

وقيل في عمار كان يعذب في الله تعالى وقيل في مهجع بن عبد الله مولى عمر وكان أول من قتل من المسلمين يوم بدر فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : " سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة " فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله هذه الآية ثم عزاهم فقال تعالى ﴿ ولقد فتنا الذين قبلهم ﴾ يعني الأنبياء فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم

من قتل وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ أي في قولهم ﴿ وليعلمن الكاذبين ﴾ والله تعالى عالم بهم قبل الاختبار ومعنى الآية فليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه .

وقيل إن آثار أفعال الحق صفة يظهر فيها كل ما يقع وما هو واقع .

قوله تعالى ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات ﴾ يعني الشرك ﴿ أن يسبقونا ﴾ أي يعجزونا فلا نقدر على الانتقام منهم ﴿ ساء ما يحكمون من كان يرجو لقاء الله ﴾ قال ابن عباس من كان يخشى العبث والحساب وقيل من كان يطمع في ثواب الله ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ يعني ما وعد الله من الثواب والعقاب .

(186/596)

وقيل يوم القيامة لكائن والمعنى أن من يخشى الله ويؤمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي يعلم ما يعمل العباد من الطاعة والمعصية فيثيبهم أو يعاقبهم أو يعفو .

قوله تعالى ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ أي له ثوابه وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق فإن الكريم إذا وعد وفى والجهاد هو الصبر على الأعداء والشدة وقد يكون

في الحرب وقد يكون على مخالفة النفس ﴿ إن الله لغني عن العالمين ﴾ أي عن أعمالهم وعبادتهم وفيه بشارة وتخويف أما البشارة فلأنه إذا كان غنياً عن الأشياء فلو أعطي جميع ما خلقه لعبد من عبيده لا شيء عليه لاستغنائه عنه .

وهذا يوجب الرجاء التام وأما التخويف فلأن الله إذا كان غنياً عن العالمين فلو أهلكهم بعذابه فلا شيء عليه لاستغنائه عنهم ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ أي لنطلبنها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل والتكفير إذهاب السيئة بالحسنة ﴿ ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة وقيل يعطيهم أكثر مما عملوا .

قوله ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ معناه براً بهما وعطفاً عليهم والمعنى ووصينا الإنسان بوالديه أن يفعل بهما ما يحسن نزلت هذه الآية والتي في سورة لقمان والأحقاف في سعد بن أبي وقاص .

وقال ابن إسحاق : سعد بن مالك الزهري وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان باراً بأبيه .

(187/596)

قالت له أمه : ما هذا الذي أحدثت والله ما آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر ويقال يا قاتل أمه ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ثم مكثت كذلك يوماً آخر وليلة فجاءها فقال : يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي إن شئت وإن شئت فلا تأكلي فلما أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك فذلك قوله تعالى ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ وفي الحديث " لا طاعة لمخلوق في معصية الله " ثم أوعد بالمصير إليه فقال ﴿ إلي مرجعكم فأنبئكم ﴾ أي فأخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي بصالح أعمالكم وسيئاتها أي فأجازيكم عليها .

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ أي في زمرة الصالحين وهم الأنبياء والأولياء وقيل في مدخل الصالحين وهو الجنة .

قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي ﴾ يعني أصابه بلاء من الناس افتتن ﴿ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ أي جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة والمعنى أنه جزع من أذى الناس ولم يصبر عليه فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه وهو المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ﴾ أي فتح ودولة للمؤمنين ﴿ ليقولن ﴾ أي هؤلاء المنافقون للمؤمنين ﴿ إنا كنا معكم ﴾ أي

على عدوكم وكنا مسلمين وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿ أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ أي من الإيمان والنفاق ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا فثبتوا على الإيمان والإسلام عند البلاء .

﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ أي بترك الإسلام عند البلاء قيل نزلت هذه الآية في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا .

(188/596)

وقال ابن عباس : نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم إلى بدر وهم الذين نزلت فيهم ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ وقيل هذه الآيات العشر من أول السورة إلى ها هنا مدنية وباقي السورة مكية ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني من أهل مكة قيل قاله أبو سفيان ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي من قريش ﴿ اتبعوا سبيلنا ﴾ يعني ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم فذلك قوله ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أي أوزاركم والمعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم فأكذبهم الله بقوله ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ في قولهم نحمل خطاياكم ﴿ وليحملن أثقالهم ﴾ أي أوزار أعمالهم التي عملوها بأنفسهم ﴿ وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ أي أوزار من أضلوا وصدوا

عن سبيل الله مع أوزار أنفسهم .

فإن قلت قد قال أولاً وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء وقال ها هنا وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم فكيف الجمع بينهما .

قلت : معناه إنهم لا يرفعون عنهم خطيئة بل كل واحد يحمل خطيئة نفسه ورؤساء الضلال يحملون أوزارهم ويحملون أوزاراً بسبب إضلال غيرهم فهو كقوله (صلى الله عليه وسلم) : " من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " رواه مسلم ﴿ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أي سؤال توبيخ وتقريع لأنه تعالى عالم بأعمالهم وافترائهم .

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث ﴾ أي فأقام ﴿ فيهم ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده ﴿ ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ فإن قلت فما فائدة هذا الاستثناء وهلا قال تسعمائة وخمسين سنة قلت فيه فائدتان إحداهما : أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه يظن به التقريب فهو كقول القائل عاش فلان مائة سنة فقد يتوهم السائل أنه يقول مائة سنة تقريباً لا تحقيقاً فإن قال مائة سنة إلا شهراً أو إلا سنة زال ذلك التوهم وفهم منه التحقيق .

الفائدة الثانية : هي لبيان أن نوحاً صبر على أذى قومه صبراً كثيراً وأعلى مراتب العدد ألف سنة .

وكان المراد التكثير فلذلك أتى بعقد الألف لأنه أعظم وأفخم هذه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) حيث أعلم أن الأنبياء قد ابتلوا قبله وأن نوحاً لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم فصبر في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة من آمن بك .

قال ابن عباس : بعث نوح لأربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس فكان عمره ألفاً وخمسين عاماً .

وقيل في عمره غير ذلك .

قوله تعالى ﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ أي فأغرقهم ﴿ وهم ظالمون ﴾ قال ابن عباس مشركون ﴿ فأنجيناهم وأصحاب السفينة ﴾ يعني من الغرق ﴿ وجعلناهم ﴾ يعني السفينة ﴿ آية ﴾ أي عبرة ﴿ للعالمين ﴾ قيل إنها بقيت على الجودي مدة مديدة وقيل جعلنا عقوبتهم بالغرق عبرة .

قوله تعالى ﴿ وإبراهيم ﴾ أي وأرسلنا إبراهيم ﴿ إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي أطيعوا الله وخافوه ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي ما هو خير لكم مما هو شر

لكم ولكنكم لا تعلمون ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ﴾ أي تقولون كذباً وقيل تصنعون أصناماً بأيديكم وتسمونها آلهة ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾ أي لا يقدرون أن يرزقوكم ﴿ فابتغوا ﴾ أي فاطلبوا ﴿ عند الله الرزق ﴾ فإنه القادر على ذلك ﴿ واعبدوه ﴾ أي وحدوه ﴿ واشكروا له ﴾ لأنه المنعم عليكم الرزق ﴿ إليه ترجعون ﴾ أي في الآخرة ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ أي مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فأهلكهم الله ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ .

(190/596)

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا ﴾ قيل هذه الآيات إلى قوله فما كان جواب قومه يحتمل أن تكون من تمام قول إبراهيم لقومه وقيل إنها وقعت معترضة في قصة إبراهيم وهي في تذكير أهل مكة وتحذيرهم ومعنى أو لم يروا أو لم يعلموا ﴿ كيف يبدىء الله الخلق ﴾ أي يخلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿ ثم يعيده ﴾ أي في الآخرة عند البعث ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي الخلق الأول والخلق الثاني ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ أي انظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ﴿ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾ أي ثم إن

الله الذي خلقهم ينشئهم نشأة ثانية بعد الموت والمعنى فكما لم يتعذر عليه إحداثهم مبدئاً كذلك لا يتعذر عليه إنشاؤهم معيداً بعد الموت ثانياً ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي من البداءة والإعادة ﴿ يعذب من يشاء ﴾ عدلاً منه ﴿ ويرحم من يشاء ﴾ تفضلاً ﴿ وإليه تقلبون ﴾ أي تردون ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ قيل معناه ولا من في السماء بمعجزين والمعنى أنه لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء في السماء وقيل معنى قوله ولا في السماء لو كنتم فيها ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ﴾ أي يمنعكم مني ﴿ ولا نصير ﴾ أي ينصركم من عذابي ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ يعني القرآن ﴿ ولقائه ﴾ أي البعث ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ يعني الجنة ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ فهذا آخر الآيات في تذكير أهل مكة ثم عاد إلى قصة إبراهيم عليه السلام فقال تعالى ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو احرقوه ﴾ قال ذلك بعضهم لبعض وقيل قال الرؤساء للأتباع ﴿ اقتلوه أو حرقوه ﴾ ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ أي بأن جعلها برداً وسلاماً قيل إن في ذلك اليوم لم ينتفع أحد بنار ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ يصدقون ﴿ وقال ﴾ يعني إبراهيم لقومه ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ أي ثم تنقطع ولا تنفع في الآخرة وقيل معناه إنكم

تتوادون على عبادتها وتتواصلون عليها في الدنيا ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ تتبرأ الأوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة ﴿ ومأواكم النار ﴾ يعني العابدين والمعبودين جميعاً ﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ أي مانعين من عذابه ﴿ فآمن له لوط ﴾ أي صدقه برسالته لما رأى معجزاته وهو أو من صدق إبراهيم وأما في أصل التوحيد فإنه كان مؤمناً لأن الأنبياء لا يتصور فيهم الكفر ﴿ وقال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ إلى حيث أمرني ربي فهاجر من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى حران ثم هاجر إلى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر إلى الله تعالى وترك بلده وسار إلى حيث أمره الله بالمهاجرة إليه .

قيل هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿ إنه هو العزيز ﴾ أي الذي لا يغلب والذي يمنعني من أعدائي ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما يصلحني .

قوله تعالى ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ يقال إن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد إبراهيم إلا من نسله ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ هو الثناء الحسن فكل أهل الأديان يتولونه ويحبونه ويحبون الصلاة عليه والذرية الطيبة والنبوة من نسله هذا له في الدنيا ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي في زمرة الصالحين قال ابن عباس مثل آدم ونوح. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 187 . 188 ﴾

وقال النسفى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾

الحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما ، والعلم فهو القطع على أحدهما ، ولا يصح تعليقهما بمعاني المفردات ولكن بمضامين الجمل . فلو قلت "حسبت زيداً وظننت الفرس" لم يكن شيئاً حتى تقول "حسبت زيداً عالماً وظننت الفرس جواداً" لأن قولك "زيد عالم والفرس جواد" كلام دال على مضمون ، فإذا أردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين أدخلت على شطري الجملة فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك والكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان هنا ﴿ أن يتركوا أن يقولوا امنا وهم لا يفتنون ﴾ وذلك أن تقديره : أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا ؟ فالترك أول مفعولي حسب ولقولهم ﴿ آمنا ﴾ هو الخبر ، وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير كقول عنترة : فتركنه جزر السباع ينشنه . . .

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول "تركهم غير مفتونين" لقولهم "آمنا" على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام وهو استفهام توبيخ .

والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم .

وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين ، أو في عمار بن ياسر وكان يعذب في الله .

(193/596)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ اختبرنا وهو موصول ب ﴿ أحسب ﴾ أو ب ﴿ لا يفتنون ﴾ ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ بأنواع الفتن فمنهم من يوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، ومنهم من يمشط بأمشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله ﴾ بالامتحان ﴿ الذين صَدَقُوا ﴾ في الإيمان ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ فيه .

ومعنى علمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجوداً عند وجوده كما علمه قبل وجوده أنه يوجد ، والمعنى وليتميزن الصادق منهم من الكاذب .

قال ابن عطاء : يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء ، فمن شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين ، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ أي الشرك والمعاصي ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أي يفوتونا يعني أن الجزاء يلحقهم لا محالة ، واشتمال صلة "أن" على مسند ومسند إليه سد مسد مفعولين كقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة ﴾ [البقرة : 214] ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر و "أم" منقطعة ، ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه .

وقالوا : الأول في المؤمنين وهذا في الكافرين ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ "ما" في موضع رفع على معنى ساء الحكم حكمهم ، أو نصب على معنى ساء حكماً يحكمون ، والمخصوص بالذم محذوف أي بئس حكماً يحكمونه حكمهم ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله ﴾ أي يأمل ثوابه أو يخاف حسابه فالرجاء يحتملها ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ الله ﴾ المضروب للثواب والعقاب ﴿ لأَتٍ ﴾ لا محالة فليبادر للعمل الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لما يقوله عباده ﴿ العليم ﴾ بما يفعلونه فلا يفوته شيء ما .

وقال الزجاج: و "من" للشرط ويرتفع بالابتداء وجواب الشرط ﴿ فإن أجل الله لات ﴾ كقولك "إن كان زيد في الدار فقد صدق الوعد"

﴿ وَمَن جَاهَدَ ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله أو الشيطان بدفع وساوسه أو الكفار ﴿ فَإِنَّمَا يجاهد لِنَفْسِهِ ﴾ لأن منفعة ذلك ترجع إليها ﴿ إِنَّ الله لَغَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم، وإنما أمر ونهى رحمة لعباده ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام.

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ وصى حكمه حكم أمر في معناه وتصرفه.

يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً كما تقول: أمرته بأن يفعل.

ومنه قوله ﴿ ووصى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ ﴾ [البقرة: 132] أي وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك: وصيت زيداً بعمرو معناه وصيته بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك.

(195/596)

وكذلك معنى قوله ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ ووصيناه بإيتاء والديه حسناً أو بإيلاء والديه حسناً أي فعلاً ذا حسن ، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه كقوله ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : 83] ويجوز أن يجعل ﴿ حسناً ﴾ من باب قولك "زيداً" بإضمار "اضرب" إذا رأيته متهيئاً للضرب فتنصبه بإضمار أولهما ، أو افعل بهما لأن التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال : قلنا أولهما معروفاً ولا تطعهما في الشرك إذا حملاك عليه ، وعلى هذا التفسير إن وقف على ﴿ بوالديه ﴾ وابتدىء ﴿ حسناً ﴾ حسن الوقف ، وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول معناه وقلنا ﴿ وَإِن جاهداك ﴾ أيها الإنسان ﴿ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي لا علم لك بإلهيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال : لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فأجازيكم حق جزائكم ، وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك وحث على الثبات والاستقامة في الدين .

روي أن سعد بن أبي وقاص لما أسلم نذرت أمه أن لا تأكل ولا تشرب حتى يرتد فشكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، والتي في "لقمان" والتي في "الأحقاف" ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ هو مبتدأ والخبر ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصالحين ﴾ في جملتهم .

والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمنى الأنبياء عليهم السلام قال سليمان عليه السلام ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ [النمل : 19] وقال يوسف عليه السلام ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ أ [يوسف : 101] وفي مدخل الصالحين وهو الجنة .

(196/596)

ونزلت في المنافقين ﴿ وَمِنَ الناس مَن يقُولُ ءامَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله ﴾ أي إذا مسه أذى من الكفار ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله ﴾ أي جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله تعالى ﴿ وَلَئِنْ جَاء نَصْرٌ مّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا : إنا كنا معكم أي متابعين لكم في دينكم ثابتين عليه بثباتكم فأعطونا نصيبنا من الغنم ﴿ أَوَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ العالمين ﴾ أي هو أعلم بما في صدور العالمين من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق وما في صدور المؤمنين من الإخلاص ، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين بقوله

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين ءامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ أي حالهما ظاهرة عند من يملك الجزاء عليهما ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ أمروهم

باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم .

(197/596)

والمعنى تعليق الحمل بالاتباع أي إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم ، وهذا قول صناديد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم ﴿ وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أي أثقال أنفسهم يعني أوزارهم بسبب كفرهم ﴿ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ أي أثقالاً أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم وهو كما قال ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] ﴿ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ القيامة عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يختلقون من الأكاذيب والأباطيل .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ كان عمره ألفاً وخمسين سنة ؛ بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد

الطوفان ستين .

وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة فقال له ملك الموت : يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كدار لها بابان دخلت وخرجت .

ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة لأنه لو قيل كذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل هنا فكأنه قيل : تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملأ بالفائدة ، ولأن القصة سيقت لما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا عليه السلام فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض .

(198/596)

وجيء بالمميز أولاً بالسنة ثم بالعام ، لأن تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ هو ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ أنفسهم بالكفر

﴿ فأنجيناه ﴾ أي نوحاً ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ وكانوا ثمانية وسبعين نفساً نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم ﴿ وجعلناها ﴾ أي

السفينة أو الحادثة أو القصة ﴿ ءايَةً ﴾ عبرة وعظة ﴿ للعالمين ﴾ يتعظون بها .

﴿ وإبراهيم ﴾ نصب بإضمار اذكر وأبدل عنه ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ بدل اشتمال لأن الأحيان تشتمل على ما فيها ، أو معطوف على ﴿ نوح ﴾ أي وأرسلنا إبراهيم ، أو ظرف ل ﴿ أرسلنا ﴾ يعني أرسلناه حين بلغ من السن ، أو العلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه ويأمرهم بالعبادة والتقوى .

وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رضي الله عنهما : ﴿ وإبراهيمُ ﴾ بالرفع على معنى "ومن المرسلين إبراهيم" ﴿ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله واتقوه ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الكفر ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أوثانا ﴾ أصناماً ﴿ وَتَخْلُقُونَ ﴾ وتكذبون أو تصنعون .

وقرأ أبو حنيفة والسلمي رضي الله عنهما ﴿ وتخلّقون ﴾ من خلق بمعنى التكثير في خلق ﴿ إِفْكاً ﴾ وقرىء ﴿ أفكا ﴾ وهو مصدر نحو كذب ولعب .

والإفك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما واختلاقهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿ فابتغوا عِندَ الله الرزق ﴾ كله فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره ﴿ واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ، وبفتح التاء وكسر الجيم : يعقوب .

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي وإن تكذبوني فلا تضروني بتكذيبكم فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم وما ضروهم وإنما ضروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب تكذيبهم ، وأما الرسول فقد تم أمره حيث بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته ، أو وإن كنت مكذباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة حيث كذبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب .

وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه ، والمراد بالأمم قبله قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم .

وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها .

فإن قلت : فالجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه فلا تقول "مكة وزيد قائم خير بلاد الله" .

قلت : نعم وبيانه أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون مسلاة له بأن أباه إبراهيم عليه السلام كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله ﴿ وإن تكذبوا ﴾ على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها لأن قوله ﴿ فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض متصل ، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ وبالتاء : كوفي غير حفص ﴿ كَيْفَ يُبْدِىء الله الخلق ﴾ أي قد رأوا ذلك وعلموه .

(200/596)

وقوله ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ليس بمعطوف على ﴿ يبدىء ﴾ وليست الرؤية واقعة عليه وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الخلق ثُمَّ الله يُنشِىء النشأة الآخرة ﴾ [العنكبوت : 20] على البدء دون الإنشاء بل هو معطوف على جملة قوله ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ﴾ ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي الإعادة ﴾

عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ سهل ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره وأوحينا إليه أن قل ﴿ سِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ﴾ على كثرتهم واختلاف أحوالهم لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة ، وبدأ وأبدأ بمعنى ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنشِىء النشأة الآخرة ﴾ أي البعث .

وبالمد حيث كان : مكي وأبو عمرو .

(201/596)

وهذا دليل على أنهما نشأتان وأن كل واحدة منهما إنشاء أي ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك ، والقياس أن يقال "كيف بدأ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة" لأن الكلام معهم وقع في الإعادة ، فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب أن لا يعجزه الإعادة فكأنه قال : ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى ينشيء النشأة الآخرة ، فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادر ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ بالخذلان ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء ﴾ بالهداية أو بالحرص والقناعة ، أو بسوء الخلق وحسنه ، أو بالإعراض عن الله وبالإقبال

عليه ، أو بمتابعة البدع وبملازمة السنة ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون وترجعون ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ربكم أي لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿ فِى الأرض ﴾ الفسيحة ﴿ وَلاَ فِى السماء ﴾ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيّ ﴾ يتولى أموركم ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ولا ناصر يمنعكم من عذابي .

(202/596)

﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات الله ﴾ بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ﴿ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾ جنتي ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرّقُوهُ ﴾ قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه ﴿ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار ﴾ حين قذفوه فيها ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ فيما فعلوا به وفعلنا ﴿ لآيات لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ روي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار يعني يوم ألقي إبراهيم في النار وذلك لذهاب حرها ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم لقومه ﴿ إِنَّمَا اتخذتم مّن دُونِ الله أوثانا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ حمزة وحفص ، ﴿ مودةً بينكم ﴾ مدني وشامي وحماد ويحيي وخلف ﴿ مودة بينكم ﴾ مكي وبصري وعلي ، ﴿ مودةُ بينكم ﴾ الشمني والبرجمي ،

النصب على وجهين على التعليل أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وأن يكون مفعولاً ثانياً كقوله ﴿ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] و "ما" كافة أي اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف ، أو اتخذتموها مودة بينكم أي مودة بينكم كقوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله ﴾ [البقرة : 165] وفي الرفع وجهان : أن يكون خبراً ل ﴿ إن ﴾ و "ما" موصولة ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هي مودة ﴿ بينكم ﴾ ، والمعنى أن الأوثان مودة بينكم أي مودودة أو سبب مودة .

(203/596)

ومن أضاف المودة جعل بينكم اسماً لا ظرفاً كقوله ﴿ شهادة بَيْنِكُمْ ﴾ [المائدة : 106] ومن نوّن ﴿ مودة ﴾ ونصب ﴿ بينكم ﴾ فعلى الظرف ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ تتبرأ الأصنام من عابديها ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ أي يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن فيلعن الأتباع القادة .

﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن ناصرين ﴾ ثمة .

﴿ فَآمَنَ لَهُ ﴾ لإبراهيم عليه السلام ﴿ لُوطٌ ﴾ هو ابن أخي إبراهيم وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ ﴾ من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى فلسطين وهي من برية الشام ، ومن ثم قالوا : لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان .

وكان معه في هجرته لوط وسارة وقد تزوجها إبراهيم ﴿ إلى ربّى ﴾ إلى حيث أمرني ربي بالهجرة إليه ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما هو خير ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق ﴾ ولداً ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولد ولد ولم يذكر إسماعيل لشهرته ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النبوة ﴾ أي في ذرية إبراهيم فإنه شجرة الأنبياء ﴿ والكتاب ﴾ والمراد به الجنس يعني التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ﴿ وَءاتَيْنَاهُ ﴾ أي إبراهيم ﴿ أَجْرَهُ ﴾ الثناء الحسن والصلاة عليه إلى آخر الدهر ومحبة أهل الملل له ، أو هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لغيره ﴿ فِى الدنيا ﴾ فيه دليل على أنه تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ أي من أهل الجنة : عن الحسن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 249 . 256 ﴾

(204/596)

وقال البيضاوى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الم ﴾ سبق القول فيه ، ووقوع الاستفهام بعده دليل استقلاله بنفسه أو بما يضمر معه .

﴿ أَحَسِبَ الناس ﴾ الحسبان مما يتعلق بمضامين الجمل للدلالة على جهة ثبوتها ولذلك اقتضى مفعولين متلازمين أو ما يسد مسدهما كقوله : ﴿ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ فإن معناه أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم ﴿ آمنا ﴾ ، فالترك أول مفعوليه وغير مفتونين من تمامه ولقولهم ﴿ آمنا ﴾ هو الثاني كقولك : حسبت ضربه للتأديب ، أو أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم ﴿ مِنَ ﴾ بل يمتحنهم الله بمشاق التكاليف ، كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والثابت في الدين من المضطرب فيه ، وليناالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات ، فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب . روي أنها نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين ، وقيل في عمار وقد عذب في الله تعالى ، وقيل في مهجع مولى عمر بن الخطاب رماه عامر بن الحضرمي بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبواه وامرأته .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ متصل ب ﴿ أَحَسِبَ ﴾ أو ب ﴿ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ ، والمعنى أن ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه . ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله

الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ فليتعلقن علمه بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإِيمان والذين كذبوا فيه ، وينوط به ثوابهم وعقابهم ولذلك قيل المعنى وليميزن أو ليجازين ، وقرىء "وليعلمن" من الإِعلام أي وليعرفنهم الله الناس أو لَيَسِمَنَّهُمْ بِسِمَةٍ يَعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها .

(205/596)

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ الكفر والمعاصي فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح. ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أن يفوتونا فلا نقدر أن نجازيهم على مساويهم وهو ساد مسد مفعولي ﴿ حَسِبَ ﴾ لاشتماله على مسند ومسند إليه ويجوز أن يضمن ﴿ حَسِبَ ﴾ معنى قدر أو أم منقطعة والإِضراب فيها لأن هذا الحسبان أبطل من الأول ولهذا عقبه بقوله : ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس الذي يحكمونه ، أو حكماً يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله ﴾ في الجنة ، وقيل المراد بلقاء الله الوصول إلى ثوابه ، أو إلى العاقبة من الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل حاله بحال عبد قدم على سيده بعد زمان مديد وقد اطلع السيد على أحواله ، فأما أن يلقاه ببشر لما رضي من أفعاله أو

بسخط لما سخط منها . ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ ﴾ فإن الوقت المضروب للقائه . ﴿ لأَتٍ ﴾ لجاء وإذا كان وقت اللقاء آتياً كان اللقاء كائناً لا محالة ، فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو ما يستوجب به القربة والرضا .

﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لأقوال العباد . ﴿ العليم ﴾ بعقائدهم وأفعالهم .

﴿ وَمَن جَاهَدَ ﴾ نفسه بالصبر على مضض الطاعة والكف عن الشهوات . ﴿ فَإِنَّمَا يجاهد لِنَفْسِهِ ﴾ لأن منفعته لها . ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ فلا حاجة به إلى طاعتهم ، وإنما كلف عباده رحمة عليهم ومراعاة لصلاحهم .

﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الكفر بالإيمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم .

(206/596)

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ بإيتائهما فعلاً ذا حسن ، أو كأنه في ذاته حسن لفرط حسنه ووصى يجري مجرى أمر معنى وتصرفاً . وقيل هو بمعنى قال أي وقلنا له أحسن بوالديك ﴿ حَسَنًا ﴾ ، وقيل ﴿ حَسَنًا ﴾ منتصب بفعل مضمر على تقدير

قول مفسر للتوصية أي قلنا أولهما أو افعل بهما ﴿ حَسَنًا ﴾ وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على ﴿ بوالديه ﴾ ، وقرىء ﴿ حَسَنًا ﴾ و"إحساناً" . ﴿ وَإِن جاهداكِ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ بإلهيته عبر عن نفيها بنفي العلم بها إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بطلانه . ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولا بد من إضمار القول إن لم يضمر قبل . ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عق . ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالجزاء عليه ، والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه حمنة ، فإنها لما سمعت بإسلامه حلفت أنها لا تنتقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ولبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا التي في "لقمان" و"الأحقاف" .

﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصالحين ﴾ في جملتهم والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين ومتمنى أنبياء الله المرسلين ، أو في مدخلهم وهو الجنة .

(207/596)

﴿ وَمِنَ الناس مَن يقُولُ ءَامَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله ﴾ بأن عذبهم الكفرة على الإيمان . ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس ﴾ ما يصيبه من أذيتهم في الصرف عن الإيمان . ﴿ كَعَذَابِ الله ﴾

في الصرف عن الكفر . ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فتح وغنيمة . ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ في الدين فأشركونا فيه ، والمراد المنافقون أو قوم ضعف إيمانهم فارتدوا من أذى المشركين ويؤيد الأول . ﴿ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العالمين ﴾ من الإخلاص والنفاق .

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين ءَامَنُواْ ﴾ بقلوبهم . ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ فيجازي الفريقين .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا ﴾ الَّذِي نسلكه في ديننا . ﴿ وَلْنَحْمِلْ خطاياكم ﴾ إن كان ذلك خطيئة أو إن كان بعث ومؤاخذة ، وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالاتباع مبالغة في تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كانت تشجيعاً لهم عليه ، وبهذا الاعتبار رد عليهم وكذبهم بقوله : ﴿ وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ من الأولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير : وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أثقال ما اقترفته أنفسهم . ﴿ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وأثقالاً أخر معها لما تسببوا له بالإضلال والحمل على المعاصي من غير أن ينقص من أثقال من تبعهم شيء . ﴿ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ القيامة ﴾ سؤال تقريع وتبكيت . ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من الأباطيل التي أضلوا بها .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ بعد المبعث ، إذ روي أنه بعث على رأس الأربعين ودعا قوماً تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين ، ولعل اختيار هذه العبارة للدلالة على كمال العدد فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما في ذكر الألف من تخييل طول المدة إلى السامع ، فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ما يكابده من الكفرة واختلاف المميزين لما في التكرير من البشاعة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ طوفان الماء وهو لما طاف بكثرة من سيل أو ظلام أو نحوهما . ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ بالكفر .

﴿ فأنجيناه ﴾ أي نوحاً عليه الصلاة والسلام . ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ ومن أركب معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين . وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة نصفهم ذكور ونصفهم إناث . ﴿ وجعلناها ﴾ أي السفينة أو الحادثة . ﴿ ءَايَةً للعالمين إِنَّ ﴾ يتعظون ويستدلون بها .

﴿ وإبراهيم ﴾ عطف على ﴿ نُوحاً ﴾ أو نصب بإضمار اذكر ، وقرىء بالرفع على تقدير ومن المرسلين إبراهيم . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله ﴾ ظرف لأرسلنا أي أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به ، أو بدل منه بدل اشتمال إن قدر باذكر . ﴿ واتقوه ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما أنتم عليه . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخير والشر

وتميزون ما هو خير مما هو شر ، أو كنتم تنظرون في الأمور بنظر العلم دون نظر الجهل .

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانا وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ وتكذبون كذباً في تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله تعالى ، أو تعملونها وتنحتونها للإفك وهو استدلال على شرارة ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل ، وقرىء "تخلقون" من خلق للتكثير "وَتَخْلُقُونَ" من تخلق للتكلف ، و﴿ إِفْكاً ﴾ على أنه مصدر كالكذب أو نعت بمعنى خلقاً ذا إفك .

(209/596)

﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ دليل ثان على شرارة ذلك من حيث إنه لا يجدي بطائل ، و﴿ رِزْقاً ﴾ يحتمل المصدر بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم وأن يراد المرزوق وتنكيره للتعميم . ﴿ فابتغوا عِندَ اللهِ الرزق ﴾ كله فإنه المالك له . ﴿ واعبدوه واشكروا لَهُ ﴾ متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين لما حفكم من النعم بشكره ، أو مستعدين للقائه بهما ، فإنه : ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وقرىء بفتح التاء .

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ وإن تكذبوني . ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ من قبلي من الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم . ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ الذي يزال معه الشك وما عليه أن

يصدق ولا يكذب ، فالآية وما بعدها من جملة قصة ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ ويحتمل أن تكون اعتراضاً بذكر شأن النبي صلى الله عليه وسلم وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم ، توسط بين طرفي قصته من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنفيس عنه ، بأن أباه خليل الله صلوات الله عليهما كان ممنواً بنحو ما مني به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخلق ﴾ من مادة ومن غيرها ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالتاء على تقدير القول وقرىء "يبدأ" . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إخبار بالإِعادة بعد الموت معطوف على ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ لا على ﴿ يُبْدِىء ﴾ ، فإن الرؤية غير واقعة عليه ويجوز أن تؤول الإِعادة بأن ينشىء في كل سنة مثل ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوهما وتعطف على ﴿ يُبْدِىء ﴾ . ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ الإِشارة إلى الإِعادة أو إلى ما ذكر من الأمرين . ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء .

(210/596)

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرض ﴾ حكاية كلام الله لإبراهيم أو محمد عليهما الصلاة والسلام.

﴿ فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال. ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنشِىء النشأة الآخرة ﴾ بعد النشأة الأولى التي هي الإِداء، فإنه والإِعادة نشأتان من حيث أن كلاًّ اختراع وإخراج من العدم، والإِفصاح باسم الله مع إيقاعه مبتدأ بعد إضماره في بدأ والقياس الاقتصار عليه للدلالة على أن المقصود بيان الإِعادة، وأن من عرف بالقدرة على الإِبداء ينبغي أن يحكم له بالقدرة على الإِعادة لأنها أهون والكلام في العطف ما مر، وقرىء "النشاءة" كالرآفة. ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى كل الممكنات على سواء فيقدر على النشأة الأخرى كما قدر على النشأة الأولى.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ تعذيبه. ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ رحمته. ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون.

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ربكم عن إدراككم. ﴿ فِي الأرض وَلاَ فِي السماء ﴾ إن فررتم من قضائه بالتواري في الأرض أو الهبوط في مهاويها، والتحصن ﴿ فِى السماء ﴾ أو القلاع الذاهبة فيها وقيل ولا من في السماء كقول حسان:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُم . . . وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاء

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يحرسكم عن بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم.

﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات الله ﴾ بدلائل وحدانيته أو بكتبه . ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ بالبعث . ﴿ أُوْلَئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى ﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة ، فعبر عنه بالماضي للتحقق والمبالغة ، أو أيسوا في الدنيا لإنكار البعث والجزاء . ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بكفرهم .

(211/596)

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ قوم إبراهيم له . وقرىء بالرفع على أنه الاسم والخبر . ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرّقُوهُ ﴾ وكان ذلك قول بعضهم لكن لما قيل فيهم ورضي به الباقون أسند إلى كلهم . ﴿ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار ﴾ أي فقذفوه في النار فأنجاه الله منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ في إنجائه منها . ﴿ لآيَاتٍ ﴾ هي حفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها في زمان يسر وإنشاء روض مكانها . ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون بالتفحص عنها والتأمل فيها .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مّن دُونِ الله أوثانا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها ، وثاني مفعولي ﴿ اتخذتم ﴾ محذوف ويجوز أن تكون مودة المفعول الثاني بتقدير مضاف أي اتخذتم أوثان سبب المودة بينكم أو بتأويلها

بالمودودة ، وقرأها نافع وابن عامر وأبو بكر منونة ناصبة بينكم والوجه ما سبق ، وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس مرفوعة مضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي مودودة أو سبب مودة بينكم ، والجملة صفة ﴿ أوثانا ﴾ أو خبر إن على ﴿ إِنَّمَا ﴾ مصدرية أو موصولة والعائد محذوف وهو المفعول الأول ، وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ كما قرىء ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ وقرىء "إنما مودة بينكم" . ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ أي يقوم التناكر والتلاعن بينكم ، أو بينكم وبين الأوثان على تغليب المخاطبين كقوله تعالى : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مّن ناصرين ﴾ يخلصونكم منها .

(212/596)

﴿ فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ هو ابن أخيه وأول من آمن به ، وقيل إنه آمن به حين رأى النار لم تحرقه . ﴿ وَقَالَ إِنّى مُهَاجِرٌ ﴾ من قومي . ﴿ إلى رَبّى ﴾ إلى حيث أمرني . ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ الذي يمنعني من أعدائي . ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي . روي أنه هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حران ، ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ ولداً ونافلة حين أيس من الولادة من عجوز عاقر ولذلك لم يذكر إسماعيل . ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النبوة ﴾ فكثر منهم الأنبياء . ﴿ والكتاب ﴾ يريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة . ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ ﴾ على هجرته إلينا . ﴿ فِى الدنيا ﴾ بإعطاء الولد في غير أوانه ، والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وإنماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر . ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ لفي عداد الكاملين في الصلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 314.307 ﴾

(213/596)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة العنكبوت

مكية إلا عشر آيات من أوّلها إلى قوله تعالى ﴿ وليعلمنّ المنافقين ﴾

قال الحسن : فإنها مدنية وهي سبع وستون آية ، وألف وتسعمائة وإحدى وثمانون كلمة ، وأربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي أحاط بجميع القوة فأعز جنده ﴿ الرحمن ﴾ الذي شمل جميع العباد

بنعمه ﴿ الرحيم ﴾ بجميع خلقه وقوله تعالى:

﴿ ألم ﴾ سبق القول فيه في أوّل البقرة ، ووقوع الاستفهام بعده دليل على استقلاله بنفسه فيكون اسماً للسورة ، أو للقرآن ، أو لله ، أو أنه سرّ استأثر بعلمه الله تعالى ، أو استقلالِه بما يضمر معه بتقديره مبتدأ أو خبراً وغيره مما مرّ أوّل سورة البقرة ، وقيل في ألم أشار بالألف الدال على القائم إلا على المحيط ، ولام الوصلة وميم التمام بطريق الرمز إلى أنه تعالى أرسل جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ، ولما قال تعالى في آخر السورة المتقدّمة ﴿ وادع إلى ربك ﴾ (القصص :)

وكان في الدعاء إليه الحراب والضراب والطعان لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد فشق على البعض ذلك فقال تعالى:

﴿ أحسب الناس ﴾ أي : كافةً ﴿ أن يتركوا ﴾ أي : أظنوا أنهم يتركون بغير اختبار وابتلاء في وقت ما بوجه من الوجوه تنبيه : أن يتركوا سدّ مسدّ مفعولي حسب عند الجمهور ﴿ أن ﴾ أي : بأن ﴿ يقولوا ﴾ أي : بقولهم ﴿ آمنا وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ لا يفتنون ﴾ أي : يختبرون بما تتميز به حقية إيمانهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ليتبين المخلص من المنافق ، والصادق من الكاذب ، ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات فإنّ مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب .

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية : فقال الشعبي : نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام ثم هاجروا فتبعهم الكفار فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين .

(214/596)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إنها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام كانوا يعذبون بمكة .

وقال ابن جريج : نزلت في عمار بن ياسر كان يعذب في الله عز وجل .

وقال مقاتل : نزلت في مهجع بن عبد الله مولى عمر كان أوّل قتيل قتل من المسلمين يوم بدر فقال صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أوّل من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة فجزع عليه أبواه وامرأته فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقيل وهم لا يفتنون بالأوامر والنواهي وذلك أنّ الله تعالى أمرهم في الابتداء بمجرد الإيمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعض فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم عزاهم فقال:

﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ أي : من الأنبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل ، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب فذلك سنة قديمة جارية

في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه ﴿ فليعلمنّ الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ﴿ الذين صدقوا ﴾ في إيمانهم علم مشاهدة للخلق وإلا فالله تعالى لا يخفى عليه خافية ﴿ وليعلمن الكاذبين ﴾ فيه أي : فيظهر الله الصادقين من الكاذبين في الإيمان .

(فائدة) لبعض المحبين:

*للهوى آية (أي علامة) بها يعرف الصا ** دق في عشقه من الكذاب *

*سهر الليل دائماً ونحول ال ** جسم والموت في رضا الأحباب **

(215/596)

﴿ أم حسب ﴾ أي : ظن ﴿ الذين يعلمون السيئات ﴾ أي : الشرك والمعاصي ، فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح ﴿ أن يسبقونا ﴾ أي : يفوتونا فلا ننتقم منهم ، وهذا ساد مسدّ مفعولي حسب . وأم منقطعة والإضراب فيها لأنّ هذا الحساب أبطل من الأوّل لأنّ صاحب ذلك يقدر أن لا يمتحن لإيمانه وصاحب هذا يظن أن لا يجازى بمساويه ، ولهذا عقبه بقوله تعالى : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي : بئس الذي يحكمونه ، أو حكماً يحكمونه ، حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم ، ولما بين بقوله : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا ﴾ أن العبد لا يترك في الدنيا سدى ، وبين في قوله تعالى:

﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات ﴾ أن من ترك ما كلف به يعذب عذاباً بين أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله بقوله تعالى:

﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ أي : الملك الأعلى ، قال ابن عباس ومقاتل : من كان يخشى البعث والحساب والرجاء بمعنى الخوف ، وقال سعيد بن جبير : من كان يطمع في ثواب الله ﴿ فإن أجل الله ﴾ أي : الوقت المضروب للقائه ﴿ لآت ﴾ أي : لجاءٍ لا محالة فإنه لا يجوز عليه إخلاف الوعد ، فإن قيل : كيف وقع فإن أجل الله لآت جواباً للشرط ؟

أجيب : بأنه إذا كان وقت اللقاء آتياً كان اللقاء آتياً لا محالة كما تقول من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب ، إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة ، وقال مقاتل يعني : يوم القيامة لكائن ومعنى الآية أن من يخشى الله تعالى ويأمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ﴾ (الكهف :)

(216/596)

﴿ وهو السميع ﴾ أي : لما قالوه ﴿ العليم ﴾ يعلم من صدق فيما قال ومن كذب فيثيب ويعاقب على حسب علمه ، قال الرازي : وههنا لطيفة وهي أنّ للعبد أموراً هي أصناف حسناته عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وإنما يعلم ، وعمل لسانه وهو يسمع

، وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فإذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله تعالى لمسموعه ما لا أذن سمعت ، ولمرئيه ما لا عين رأت ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب بشر كما وصف في الخبر في وصف الجنة اه .

(تنبيه) لم يذكر الله تعالى من الصفات غير هذين الصفتين كالعزيز والحكيم وذلك لأنه سبق القول في قوله ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ﴾ وسبق الفعل بقوله تعالى : ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات ﴾ ولا شك أن القول يدرك بالسمع ، والعمل منه ما يدرك بالبصر ومنه ما لا يدرك به كما علم مما مرّ والعلم يشملها ، ولما بين تعالى أنّ التكليف حسن واقع وإن عليه وعداً وإيعاد ليس لهما دافع بين أن طلب الله تعالى ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إليه بقوله تعالى:

﴿ ومن جاهد ﴾ أي : بذل جهده في جهاد حرب أو نفس حتى كأنه يسابق آخر في الأعمال الصالحة ﴿ فإنما يجاهد لنفسه ﴾ لأنّ منفعة جهاده له لا لله تعالى فإنه غني مطلق كما قال تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : المتصرّف في عباده بما شاء ﴿ لغنيّ عن العالمين ﴾ أي : الأنس والجنّ والملائكة وعن عبادتهم ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ (فصلت :)

وقوله تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ (الإسراء :)

فينبغي للعبد أن يكثر من العمل الصالح ويخلصه لأنّ من عمل فعلاً يطلب به ملكاً ويعلم أنّ الملك يراه يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن عمله لنفسه لا لأحد يكثر منه ، نسأل الله الكريم الفتاح أن يوفقنا للعمل الصالح وأن يفعل ذلك بأهلينا وذريتنا ومحبينا بمحمد وآله ، ولما بين تعالى حال المسيء مجملاً بقوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ إشارة إلى التعذيب مجملاً ، وذكر حال المحسن بقوله تعالى : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ وكان التقدير فالذين جاهدوا والذين عملوا السيئات لنجزينهم أجمعين ولكنه طواه لأن السياق لأهل الرجاء عطف عليه قوله تعالى:

﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ أي : في الشدة والرخاء على حسب طاقتهم وفي ذلك إشارة إلى أن رحمته تعالى أتم من غضبه وفضله أتم من عدله وأشار بقوله تعالى : ﴿ لنكفرنّ عنهم سيئاتهم ﴾ إلى أن الإنسان وإن اجتهد لا بد من أن يزل عن الطاعة لأنه مجبول على النقص : "فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما لم تؤت الكبائر ، والجمعة ، إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان" ونحو ذلك مما وردت به الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم المختار ، فالصغائر تكفر بعمل الصالحات ، وأما الكبائر فتكفر

بالتوبة ، ولما بشرهم بالعفو عن العقاب أتم البشرى بالامتنان بالثواب فقال عاطفاً على ما تقديره ولنثبتنّ لهم حسناتهم ﴿ ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ أي : أحسن جزاء ما عملوه وهو الصالحات ، وأحسن نصب بنزع الخافض وهو الباء ، ولما كان من جملة العمل الصالح الإحسان إلى الوالدين ذكر ذلك بقوله تعالى:

(218/596)

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ أي : وإن عليا ﴿ حسناً ﴾ أي : برّاً بهما وعطفاً عليهما أي : وصيناه بإيتاء والديه حسناً أو بإيلاء والديه حسناً لأنهما سبب وجود الولد وسبب بقائه بالتربية المعتادة والله تعالى سبب له في الحقيقة بالإرادة وسبب بقائه بالإعادة للسعادة فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ، فيطيعهما ما لم يأمراه بمعصية الله تعالى كما قال : تعالى : ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ﴾ وقوله تعالى ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ أي : لا علم لك بإلهيته موافق للواقع فلا مفهوم له أو أنه إذا كان لا يجوز أن يتبع فيما لا يعلم صحته فبالأولى أن لا يتبع فيما يعلم بطلانه ﴿ فلا تطعهما ﴾ في ذلك كما جاء في الحديث : "لا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى" ولا بد من إضمار القول إن لم يضمر قبل ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إليّ مرجعكم ﴾ أي : من آمن منكم ومن كفر ومن برّ والديه ومن عق ، ثم

تسبب عنه قوله تعالى : ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعلمون ﴾ أي : أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص الزهري وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس : "روي أنها لما سمعت بإسلامه قالت له : يا سعد بلغني أنك قد صبأت فوالله لا يظلني سقف بيت من الضِّح ـ وهو بكسر الضاد المعجمة وبجاء مهملة الشمس ـ والريح ، وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحب أولادها إليها فأبى سعد ولبثت ثلاثة أيام لا تنتقل من الضح ولا تأكل ولا تشرب فلم يطعها سعد بل قال : والله لو كانت مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم جاء سعد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وشكا إليه فنزلت هذه الآية وهي التي في لقمان والتي في الأحقاف فأمره صلى الله عليه وسلم "أنْ يداريها ويترضاها بالإحسان" .

(219/596)

وروي أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام أخواه لأمّه أسماء بنت مخرمة امرأة من بني تميم بن حنظلة فنزلا بعياش وقالا له : إنّ

من دين محمد صلة الأرحام وبرّ الوالدين وقد تركت أمك لا تأكل ولا تشرب ولا تأوي بيتاً حتى تراك وهي أشد حباً لك منا فاستشار عمر فقال : هما يخدعانك ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال عمر : أمّا إذا عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي قد كلت فاحملني معك قال : نعم فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه وشدّاه وأوثقاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت : لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد فنزلت رضي تعالى الله عنه وأرضاه ونفعنا به في الدنيا والآخرة ، ولما كان التقدير فالذين أشركوا وعملوا السيئات لندخلنهم في المفسدين ولكنه طواه لدلالة السياق عليه عطف عليه زيادة في الحث على الإحسان إلى الوالدين قوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ تحقيقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات لندخلهم في الصالحين ﴾ أي : الأنبياء والأولياء بأن نحشرهم معهم ، أو ندخلهم وهم الجنة ، والصلاح منتهى درجات المؤمنين ومنتهى أنبياء الله والمرسلين ، ولما بين سبحانه وتعالى المؤمن بقوله تعالى : ﴿ فليعلمنّ الله الذين صدقوا ﴾ وبين الكافر بقوله تعالى : ﴿ وليعلمنّ الكاذبين ﴾ بين أنه بقي قسم ثالث مذبذب بقوله تعالى:

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله ﴾ بأن عذبهم الكفرة على الإيمان ﴿ جعل فتنة الناس ﴾ أي : له بما يصيبه من أذيتهم في منعه عن الإيمان إلى الكفر ﴿ كعذاب الله ﴾ أي : في الصرف عن الكفر إلى الإيمان ﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ جاء نصر ﴾ أي : للمؤمنين ﴿ من ربك ﴾ أي : بفتح وغنيمة ﴿ ليقولنّ ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات ، والواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين ﴿ إنا كنا معكم ﴾ في الإيمان فأشركونا في الغنيمة وأما عند الشدّة فيجبنون كما قال الشاعر :

*وما أكثر الأصحاب حين تعدهم ** ولكنهم في النائبات قليل *

قال الله تعالى : ﴿ أو ليس الله بأعلم ﴾ أي : بعالم ﴿ بما في صدور ﴾ أي : قلوب ﴿ العالمين ﴾ من الإيمان والنفاق .

﴿ وليعلمنّ الله الذين آمنوا ﴾ أي : بقلوبهم ﴿ وليعلمنّ المنافقين ﴾ فيجازي الفريقين ، واللام في الفعلين لام قسم ، ولما بين الفرق الثلاثة وأحوالهم ذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بقوله تعالى:

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي : ظاهراً وباطناً ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : ظاهراً وباطناً لم تتحملون الأذى والذل ؟ ﴿ اتبعوا سبيلنا ﴾ أي : الذي نسلكه في ديننا تدفعوا عن أنفسكم ذلك ، فقالوا : نخاف من عذاب الله تعالى على خطيئة اتباعكم فقالوا لهم اتبعونا

﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ إن كان ذلك خطيئة أو إن كان بعث ومؤاخذة ، قال الجلال المحلي : والأمر بمعنى الخبر وهو أولى من قول البيضاوي : وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالاتباع مبالغة في تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كان تشجيعاً للمؤمنين على الاتباع وبهذا الاعتبار رد عليهم وكذبهم بقوله ﴿ وما هم ﴾ أي : الكفار ﴿ بحاملين من خطاياهم ﴾ أي : المؤمنين ﴿ من شيء أنهم لكاذبون ﴾ في ذلك ، قال الزمخشري : وترى في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم افعل هذا وإثمه في عنقي وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم ؟ .

(221/596)

ومنه ما يحكي أن أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال : يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال : وما هي قال شفاعتك يوم القيامة فقال : له عمرو بن عبيد رحمه الله إياك وهؤلاء فإنهم قطاع الطريق في المأمن ، فإن قيل كيف سماهم الله تعالى كاذبين وإنما ضمنوا شيئاً علم الله تعالى أنهم لا يقدرون على الوفاء به وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به ، لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز لأنه في الحالين لا

يدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه ؟

أجيب : بأنّ الله تعالى شبه حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنهم ، ويجوز أن يراد أنهم كاذبون لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف ، تنبيه : من الأولى : للتبيين ، والثانية : مزيدة ، والتقدير : وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم .

فإن قيل قال الله تعالى : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ﴾ ثم قال الله تعالى: ﴿ وليحملنّ ﴾ أي : الكفرة ﴿ أثقالهم ﴾ أي : أثقال ما اقترفته أنفسهم ﴿ وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ أي : أثقالاً بقولهم للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا وبإضلالهم مقلديهم فكيف الجمع بينهما ؟

(222/596)

أجيب : بأن قول القائل حمل فلان عن فلان يريد أن حمل فلان خف فإن لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئاً فقوله تعالى : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم ﴾ يعني : لا يرفعون عنهم خطيئة بل يحملون أوزار أنفسهم وأوزاراً بسبب إضلالهم كقوله صلى الله عليه

وسلم "من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء" وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ (النحل ،) من غير أن ينقص من أوزار من تبعهم شيء ﴿ وليسئلن يوم القيامة ﴾ أي : سؤال توبيخ وتقريع ﴿ عما كانوا يفترون ﴾ أي : يختلقون من الأكاذيب والأباطيل ، واللام في الفعلين لام قسم وحذف فاعلهما الواو ونون الرفع ، ولما كان السياق للبلاء والامتحان والصبر على الهوان ذكر من الرسل الكرام عليهم السلام من طال صبره على البلاء ولم يفتر عزمه عن نصيحة العباد بقوله تعالى:

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً ﴾ أي : أوّل رسل الله إلى المخالفين من العباد وهو معنى ﴿ إلى قومه ﴾ وعمره أربعون سنة فإنّ الكفر كان قد عمّ أهل الأرض وكان عليه السلام أطول الأنبياء ابتلاء بهم ، ولذلك قال الله تعالى مسبباً عن ذلك ومتعقباً : ﴿ فلبث فيهم ﴾ أي : بعد الرسالة ﴿ ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى فكذبوه ﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ أي : الماء الكثير فغرقوا ﴿ وهم ظالمون ﴾ قال ابن عباس مشركون ، وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولتابعيه رضي الله تعالى عنهم وتثبيت لهم وتهديد لقريش ، قال ابن عباس : كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة بعث على رأس أربعين سنة ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا .

وروي عن ابن عباس أنه بعث وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فإن كان هذا محفوظاً عن ابن عباس فيضاف إلى لبثه في قومه وهو تسعمائة وخمسون سنة فيكون قد عاش ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة ، وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقي حديثاً مرسلاً "أنّ قبره بالمسجد الحرام" ، وقيل ببلدة البقاع يعرف اليوم بكرك نوح ، وهناك جامع قد بني بسبب ذلك .

وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة ، والآية تدلّ على خلاف قول الأطباء العمر الإنساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة ويسمونه العمر الطبيعي ، قال الرازي : ونحن نقول ليس طبيعياً بل هو عطاء إلهي وأمّا العمر الطبيعي فلا يدوم عنده ولا نجده فضلاً عن مائة أو أكثر ، فإن قيل : هلا قال تسعمائة سنة وخمسين ولم جاء التمييز أولاً بالسنة وثانياً بالعام ؟

أجيب : عن الأوّل بأن ما أورده الله تعالى أحكم لأنه لو قيل كما ذكر لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك وكأنه قال تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملأ بالفائدة ، وفيه نكتة أخرى وهي

أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً له فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكبر منه أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره ، وعن الثاني : بأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض نتيجة المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك ، والطوفان لغة : ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام أو نحو ذلك قال العجاج:

*وعمّ طوفان الظلام الأثأبا

(224/596)

﴿ فأنجيناه ﴾ أي : نوحاً عليه السلام ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ أي : الذين كانوا فيها من الغرق ، وكانوا ثمانية وسبعين نفساً نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم ، وعن محمد بن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمسة نسوة ، وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم"

﴿ وجعلناها ﴾ أي : السفينة أو الحادثة والقصة ﴿ آية ﴾ أي : عبرة وعلامة على قدرة الله تعالى وعلمه وإنجائه للطائع وإهلاكه للعاصي ﴿ للعالمين ﴾ أي : لمن بعدهم من الناس

إن عصوا رسولهم فإنه لم يقع في الدهر حادثة أعظم منها ولا أغرب ولا أشهر في تطبيق الماء جميع الأرض بطولها والعرض وإغراق جميع ما عليها من حيوانٍ إنسانٍ وغيره ، ولما ذكر تعالى قصة نوح وكان بلاء إبراهيم عليه السلام عظيماً في قذفه في النار وإخراجه من بلاده اتبعه به بقوله تعالى:

﴿ وإبراهيم ﴾ وهو منصوب إما باذكر ويكون ﴿ إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي : خافوا عقابه بدل اشتمال لأنّ الأحيان تشمل ما فيها ، وإمّا معطوفاً على نوحاً ، وإذ ظرف لأرسلنا أي : أرسلناه حين بلغ من السنّ والعلم مبلغاً صلح فيه لأنْ يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى ﴿ ذلكم ﴾ أي : الأمر العظيم الذي هو إخلاصكم في عبادتكم له وتقواكم ﴿ خير لكم ﴾ أي : من كل شيء ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي : في عداد من يتجدّد له علم فينظر في الأمور بنظر العلم دون نظر الجهل ، ولما أمرهم بما تقدّم ونفى العلم عمن جهل خيريته دل عليه بقوله . b

(225/596)

﴿ إنما تعبدون من دون الله ﴾ أي : غيره ﴿ أوثاناً ﴾ أي : أصناماً لا تستحق العبادة لأنها حجارة منحوتة لا شرف لها ﴿ وتخلقون ﴾ أي : تصوّرون بأيديكم ﴿ إفكاً ﴾ أي :

شيئاً مصروفاً عن وجهه فإنه مصنوع وأنتم تسمونه باسم الصانع ، ومربوب وأنتم تسمونه رباً ، أو تقولون كذباً في تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله ، ثم إنّ الله تعالى نفى عنها النفع بقوله تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون ﴾ ضلالاً وعدولاً عن الحق الواضح ﴿ من دون ﴾ أي : غير ﴿ الله ﴾ الذي له الملك كله ﴿ لا يملكون لكم رزقاً ﴾ أي : شيئاً من الرزق الذي لا قوام لكم بدونه وأنتم تعبدونها فكيف بغيركم فتسبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فابتغوا ﴾ أي : اطلبوا ﴿ عند الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ الرزق ﴾ أي : كله فإنه لا شيء منه إلا وهو بيده ، فإن قيل : لم نكر الرزق في قوله تعالى : ﴿ لا يملكون لكم رزقاً ﴾ ؟ وعرفه في قوله تعالى : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ أجيب : بأنه نكره في معرض النفي أي : لا رزق عندهم أصلاً وعرفه عند الإثبات عند الله تعالى أي : كل رزق عنده فاطلبوه منه ، وأيضاً الرزق من الله معروف لقوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ (هود ،) والرزق من الأوثان غير معلوم فنكره لعدم حصول العلم به ﴿ واعبدوه ﴾ أي : عبادة يقبلها وهي ما كانت خالصة من الشرك ﴿ واشكروا ﴾ أي : أوقعوا الشكر ﴿ له ﴾ خاصة على ما أفاض عليكم من النعم ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ أي : معنى في الدنيا والآخرة فإنه لا حكم في الحقيقة لأحد سواه ، وحساً بالنشر والحشر بأيسر أمر فيثيب الطائع ويعذب العاصي ، ولما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال:

﴿ وإن تكذبوا ﴾ أي : وإن تكذبوني ﴿ فقد ﴾ أي : فيكفيكم في الوعظ والتهديد معرفتكم بأنه قد ﴿ كذب أمم ﴾ أي : في الأزمان الكائنة ﴿ من قبلكم ﴾ أي : من قبلي من الرسل فجرى الأمر فيهم على سنن واحد لم يختلف قط في نجاة المطيع للرّسول ، وهلاك العاصي له ، ولم يضرّ ذلك الرسول شيئاً وما أضروا به إلا أنفسهم ﴿ وما على الرسول ﴾ أن يقهركم على التصديق بل ما عليه ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ الموضح مع ظهوره في نفسه بلا مرية بحيث لا يبقى فيه شك بإظهار المعجزة وإقامة الأدلة على الوحدانية .

تنبيه : في المخاطب بهذه الآية والآيات بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ وجهان الأوّل : أنه قوم إبراهيم عليه السلام لأنّ القصة له فكأنّ إبراهيم عليه السلام قال لقومه : إن تكذبوني فقد كذب أمم من قبلكم ، وإنما أتيت بما عليّ من التبليغ فإنّ الرسول ليس عليه إلا التبليغ والبيان ، فإن قيل : إنّ إبراهيم عليه السلام لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمّة واحدة ؟

أجيب : بأن قبل قوم نوح أيضاً كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم ، وأيضاً فإنّ نوحاً عليه السلام عاش أكثر من ألف سنة وكان القرن يموت وتجيء أولاده والآباء يوصون الأبناء

بالامتناع من الاتباع فكفى بقوم نوح أمما ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنيه وأعقابهم على التكذيب .

الثاني : أنّ الآية مع قوم محمد صلى الله عليه وسلم لأنّ هذه القصص أكثرها المقصود منه تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفاً من التعذيب فقال في أثناء حكاياتهم يا قوم : إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام هلكوا فإن كذبتم فإني أخاف عليكم أن يقع بكم ما وقع بغيركم ، وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي والبقاعي .

وهذه الآية تدل كما قال ابن عادل : على أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة لأنّ الرسول إذا بلغ شيئاً ولم يبينه فلم يأت بالبلاغ المبين .

(227/596)

﴿ أو لم يروا ﴾ أي : ينظروا ﴿ كيف يبدئ الله ﴾ أي : الذي له كل كمال ﴿ الخلق ﴾ أي : يخلقهم الله تعالى ابتداء نطفة ثم مضغة ثم علقة ﴿ ثم ﴾ هو لا غيره ﴿ يعيده ﴾ أي : الخلق كما كان ﴿ إنّ ذلك ﴾ أي : المذكور من الخلق الأوّل والثاني ﴿ على الله ﴾ أي : الجامع لكل كمال ، المنزه عن كل شائبة نقص ﴿ يسير ﴾ فكيف ينكرون الثاني ؟ ، فإن قيل : متى رأى الإنسان بدء الخلق حتى يقال أو لم يروا كيف يبدأ الله الخلق ؟ .

أجيب : بأنّ المراد بالرؤية العلم الواضح الذي هو كالرؤية فالعاقل يعلم أنّ البدء من الله تعالى لأنّ الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أوّل فهو من الله تعالى ، فإن قيل علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق ولم يقل أو لم يروا أنّ الله خلق أو بدأ الخلق والكيفية غير معلومة ؟

أجيب : بأنّ هذا القدر من الكيفية معلوم وهو أنه خلقه ولم يكُ شيئاً مذكوراً وأنه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة ، فإن قيل : لَمَ أبرز اسمه تعالى في أن ذلك على الله يسير ولم يقل إن ذلك عليه كما قال : ثم يعيده من غير إبراز ؟ .

أجيب : بأنه مع إقامة البرهان على أنه يسير أكده بإظهار اسمه فإنه يوجب المعرفة أيضاً بكون ذلك يسيراً فإن الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحيّ القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شيء ، محيط بذرات كل نافذ الإرادة يقطع بجواز الإعادة ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف تروا بالتاء على الخطاب على تقدير القول ، والباقون بالياء على الغيْبة ، ولما ساق تعالى هذا الدليل الذي حاجَّ به الخليل قومه قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء الذين تعبدوا بما تقلدوا بمذاهب آبائهم ﴿ سيروا ﴾ إن لم تقتدوا بأبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وتتأمّلوا ما أقام من الدليل القاطع والبرهان الساطع ﴿ في الأرض ﴾ إن لم يكفكم النظر في أحوال بلادكم ﴿ فانظروا ﴾ أي : نظر اعتبار ﴿ كيف بدأ ﴾ ربكم الذي خلقكم ورزقكم ﴿ الخلق ﴾ من الحيوان والنبات والزروع والأشجار وغير ذلك مما تضمنته الجبال والسهول ﴿ ثم الله ﴾ أي : الحائز لجميع صفات الكمال ﴿ ينشئ النشأة الآخرة ﴾ بعد النشأة الأولى ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعد الشين ممدودة قبل الهمزة ، والباقون بسكون الشين والهمزة بعد الشين ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ لأن نسبة الأشياء كلها إليه واحدة ، فإن قيل : أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء فقال كيف يبدأ الله . وأضمره عند الإعادة وههنا أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة فقال ثم الله ينشئ ؟

أجيب : بأنه في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله تعالى بفعل حتى يسند إليه البدء فقال : كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده اكتفاء بالأولى ، وفي الثانية : كان ذكر البدء مسنداً إلى الله تعالى فاكتفى به ولم يبرزه ، وأمّا إظهاره عند الإنشاء ثانياً فقال ثم الله ينشئ مع أنه كان يكفي أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهي أنه مع إقامة البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسمه حتى يفهم به صفات كماله ونعوت جلاله فيقطع بجواز الإعادة فقال : ثم الله مظهراً ليقع في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته فيعترف بوقوع

بدئه وجواز إعادته .

فإن قيل : قال في الأولى ﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ﴾ بلفظ المستقبل وههنا قال : ﴿ فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ بلفظ الماضي فما الحكمة ؟

(229/596)

أجيب : بأن الدليل الأوّل هو الدليل النفسي الموجب للعلم وهو موجب للعلم ببدء الخلق ، وأمّا الدليل الثاني : فمعناه إن كان ليس لكم علم بأن الله يبدأ الخلق فانظروا إلى الأشياء المخلوقة فيحصل لكم العلم بأنّ الله بدأ خلقاً ، ويحصل من هذا القدر العلم بأنه ينشئ كما بدأ ذلك .

فإن قيل قال في هذه الآية : ﴿ إنّ الله على كل شيء قدير ﴾ وقال في الأولى : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ فما فائدته ؟

أجيب بأنّ فيه فائدتين الأولى أن الدليل الأوّل هو الدليل : النفسي وهو وإن كان موجباً للعلم التامّ ولكن عند انضمام الدليل الآفاقي إليه يحصل العلم التامّ لأنه بالنظر إلى نفسه علم حاجته إلى غيره ووجوده منه فيتم علمه بأنّ كل شيء من الله تعالى فقال عند تمام الدليل : ﴿ إنّ الله على كل شيء قدير ﴾ وقال عند الدليل الواحد إنّ ذلك وهو الإعادة على الله

يسير ، الثانية : أنّ العلم الأوّل أتم وإن كان الثاني أعمّ وكون الأعم يسيراً على الفاعل أتم من كونه مقدوراً له بدليل قولك لمن يحمل مائة رطل إنه قادر عليه ، فإذا سألت عن حمله عشرة أرطال تقول ذلك سهل يسير عليه فتقول : كان التقدير إن لم يحصل لكم العلم التامّ بأنّ هذه الأمور عند الله سهلة يسيرة فسيروا في الأرض لتعلموا أنه مقدور ونفس كونه مقدوراً كافٍ في إمكان الإعادة ولما تم الدليل على الإعادة أنتج لا محالة أنه:

﴿ يعذب ﴾ أي : بعدله ﴿ من يشاء ﴾ تعذيبه أي : منكم ومن غيركم في الدنيا والآخرة ﴿ ويرحم ﴾ أي : بفضله ورحمته ﴿ من يشاء ﴾ رحمته فلا يمسه سوء ، فإن قيل : لم قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أنّ رحمته سابقة كما قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى : "سبقت رحمتي غضبي" ؟

(230/596)

أجيب : بأنّ السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقه بحكم الإيعاد وعقبه بالرحمة ، فذكر الرحمة وقع تبعاً لئلا يكون العذاب مذكوراً وحده وهذا تحقيق قوله : "رحمتي سبقت غضبي" ﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ تقلبون ﴾ أي : تردون بعد موتكم بأيسر سعي .

﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ ربكم عن إدراككم ﴿ في الأرض ﴾ كيف انقلبتم في ظاهرها وباطنها واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ ولا في السماء ﴾ لأنّ الخطاب مع الآدميين وهم ليسوا في السماء فقال الفراء معناه : ولا مَنْ في السماء بمعجز إن عصى كقول حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه:

*فمن يهجو رسول الله منكم ** ويمدحه وينصره سواء *

أراد ومن يمدحه وينصره فأضمر (من) يريد أنه لا يعجز أهل الأرض من في الأرض ولا أهل السماء من في السماء فالمعنى أنّ من في السماء عطف بتقدير إن يعصى وقال الفراء : وهذا من غوامض العربية ، وقال قُطْرب : وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها كقول القائل : ما يفوتني فلان هنا ولا في البصرة أي : ولا في البصرة لو كان بها وكقوله تعالى : ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ﴾ (الرحمن :)

أي : على تقدير إن تكونوا فيها .

(231/596)

وقال ابن عادل : وأبعد من ذلك من قدر موصولين محذوفين ، أي : وما أنتم بمعجزين مَنْ في الأرض من الجنّ والأنس ولا مَنْ في السماء من الملائكة فكيف تعجزون خالقهما ، وعلى

قول الجمهور يكون المفعول محذوفاً أي : وما أنتم بمعجزين أي : فائتين ما يريد الله تعالى ، وقال البقاعي : ويمكن أن يكون له نظر إلى قصة نمروذ وبنائه الصرح الذي أراد به التوصل إلى السماء لا سيما والآيات مكتنفة بقصة إبراهيم عليه السلام من قبلها ومن بعدها ، ولما أخبرهم بأنهم مقدور عليهم وكان ربما يتوهم أن غيرهم ينصرهم صرح بنفيه في قوله تعالى ﴿ ومالكم ﴾ أي : أجمعين وأشار إلى سفول رتبة كل من سواه بقوله تعالى : ﴿ من دون الله ﴾ أي : غيره وأكد النفي بإثبات الجار بقوله ﴿ من ولي ﴾ أي : قريب يحميكم لأجل القرابة ﴿ ولا نصير ﴾ ينصركم من عذابه ، ولما بين الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان هدد كل من خالفه على سبيل التفصيل بقوله تعالى:

﴿ والذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما أظهرت لهم أنوار العقول ﴿ بآيات الله ﴾ أي : بسبب دلائل الملك الأعظم المرئية والمسموعة التي لا أوضح منها ﴿ ولقائه ﴾ بالبعث بعد الموت الذي أخبر به وأقام الدليل عليه ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ يئسوا ﴾ أي : متحققين يأسهم من الآن بل من الأزل لأنهم لم يرجوا لقاء الله يوماً ولا قال قائل منهم : ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴿ من رحمتي ﴾ أي : من أن أفعل بهم من الإكرام بدخول الجنة وغيرها فعل الراحم ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم بالغ ألمه ، فإن قيل هلا اكتفى بقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ مرة واحدة ؟

أجيب : بأن ذلك كرّر تفخيماً للأمر فاليأس وصف لهم لأنّ المؤمن دائماً يكون راجياً

خائفاً ، وأمّا الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف .

وعن قتادة : أن الله تعالى ذمّ قوماً هانوا عليه فقال : ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ وقال ﴿ ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (يوسف :)

(232/596)

فينبغي للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته وأن لا يأمن عذابه وعقابه ، فصفة المؤمن أن يكون راجياً لله خائفاً ثم إنّ الله تعالى أخبر عن فظاظة قوم إبراهيم وتكبرهم بقوله تعالى:

﴿ فما كان جواب قومه ﴾ لما أمرهم بالتوحيد وتقوى الله تعالى ﴿ إلا أن قالوا ﴾ أي : قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين ﴿ اقتلوه أو حرّقوه ﴾ بالنار ، فإن قيل كيف سمى قولهم اقتلوه أو حرّقوه جواباً مع أنه ليس بجواب ؟

أجيب عنه من وجهين : أحدهما : أنه خرج مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وإنما معناه لا أقابل بالجواب وإنما أقابل بالسيف ، وثانيهما : أن الله تعالى أراد بيان صلابتهم وأنهم ذكروا ما ليس بجواب في معرض الجواب فبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلاً ، وذلك أن من لا يجيب غيره وسكت لا يعلم أنه

يقدر على الجواب أم لا لجواز أن يكون سكوته عن الجواب لعدم الالتفات ، وأما إذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه ، ثم إنهم استقرّ رأيهم على الإحراق فجمعوا له حطباً إلى أن ملؤوا ما بين الجبال وأضرموا فيه النار حتى أحرقت ما دنا منها بعظيم الاشتعال وقذفوه فيها بالمنجنيق ﴿ فأنجاه الله ﴾ بما له من كمال العظمة ﴿ من النار ﴾ أي : من إحراقها وأذاها ونفعته بأن أحرقت وثاقه ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : ما ذكر من أمره وما اشتملت عليه قصته من الحكم ﴿ لآيات ﴾ أي : براهين قاطعة على جميع أمر الله من تصرفه في الأعيان والمعاني لكون النار لم تحرقه وأحرقت وثاقه وكل ما مرّ عليها من طائر وإخمادها مع عظمتها في زمان يسير وإنشاء روض مكانها ، وروي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم الذي ألقي فيه إبراهيم عليه السلام بالنار وذلك لذهاب حرقها ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي : يصدقون بتوحيد الله وقدرته لأنهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمّل فيها .

(233/596)

﴿ وقال ﴾ أي : إبراهيم عليه السلام غير هائب لتهديدهم بقتل أو غيره ﴿ إنما اتخذتم ﴾ أي : أخذتم باصطناع وتكلف وأشار إلى عظمة الله وعلوّ شأنه ﴿ من دون الله ﴾ الذي كل شيء تحت قهره ﴿ أوثاناً ﴾ أي : أصناماً تبعدونها وما مصدرية ﴿ مودّة بينكم ﴾

أي : توادتم على محبتها ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بالاجتماع عندها والتواصل في أمرها بالتناصر والتعاضد كما يتفق ناس على مذهب فيكون ذلك سبب تصادقهم ، وهذا دال على أن جمع الفسوق لأهل الدنيا هو العادة المستمرّة ، وأن الحب في الله والاجتماع له عزيز جدّاً لما فيه من قطع علائق الدنيا وشهواتها التي زينت للناس على ما فيها من الإلباس وعظيم البأس ، وقرأ نافع وابن عامر وشعبة مودّة بالنصب والتنوين وبينكم بنصب النون فنصب مودّة على أنه مفعول له أي : لأجل مودّة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي برفع مودّة من غير تنوين وكسر النون على أنّ مودّة خبر مبتدأ محذوف أي : هي مودّة ، والباقون بنصب مودّة من غير تنوين وكسر النون وهذا أيضاً كإعراب المنوّنة ، ولما أشار إلى هذا النفع الذي هو في الحقيقة ضراً تبع ذلك ما يعقبه من الضرّ البالغ معبراً بأداة البعد بقوله : ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ﴾ فينكر كل منكم محاسن أخيه ويتبرأ منه وتلعن الأتباع القادة وتلعن القادة الأتباع كما قال تعالى : ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ (العنكبوت ،) وتنكرون كلكم عبادة الأوثان تارة إذا تحققتم أنها ضرر لا نفع لها وتقرّون بها أخرى طالبين نصرتها راجين منفعتها وتنكر الأوثان عبادتكم وتجحد منفعتكم ﴿ ومأواكم ﴾ أي : جميعاً أنتم والأوثان ﴿ النار وما لكم من ناصرين ﴾ يحمونكم منها ، ثم بين تعالى أوّل من آمن بإبراهيم بقوله تعالى:

﴿ فآمن له ﴾ أي : لأجل دعائه له مع ما رأى من الآيات ﴿ لوط ﴾ وكان ابن أخيه هاران وهو أوّل من صدّقه من الرجال ﴿ وقال ﴾ أي : إبراهيم عليه السلام لما هو جدير بالإنكار من الهجرة لصعوبتها ﴿ إني مهاجر ﴾ أي : خارج من أرضي وعشيرتي على وجه يهمّ فمنتقل ومنحاز ﴿ إلى ربي ﴾ أي : إلى أرض ليس فيها أنيس ولا عشير ولا من ترجى نصرته ولا من تنفع مودّته فهاجر من كوثى من سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى الأرض المقدّسة فكانت هجرتان ، ومن ثم قالوا لكل نبيّ هجرة ولإبراهيم عليه السلام هجرتان ، وهو أوّل من هاجر في الله وكان معه في هجرته لوط وامرأته سارة ، قال مقاتل وكان إذ ذاك ابن خمس وسبعين سنة .

فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل : إني مهاجر إلى حيث أمرني ربي مع أنّ المهاجرة توهم الجهة ؟

أجيب : بأنّ هذا القول ليس في الإخلاص كقوله إلى ربي لأنّ الملك إذا صدر منه أمر برواح الأخيار ثم إن واحداً منهم سار إلى ذلك الموضع لغرض نفسه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن ليس مخلصاً لوجهه فلذا قال مهاجر إلى ربي يعني يوجهني إلى الجهة المأمور بالهجرة إليها ليس طلباً للجهة وإنما هو طلب لله ، ثم علل ذلك بما يسليه عن فراق أرضه وأهل ودّه من ذوي رحمه وأنسا به بقوله : ﴿ إنه هو ﴾ أي : وحده ﴿ العزيز ﴾ أي : فهو جدير بإعزاز من انقطع إليه ﴿ الحكيم ﴾ فهو إذا أعز أحداً منعته حكمته من التعرّض له

بالإذلال بفعل أو مقال ، ولما كان التقدير فأعززناه بما ظنّ بنا عطف عليه قوله:

﴿ ووهبنا له ﴾ أي : بعظيم قدرتنا شكراً على هجرته ﴿ إسحاق ﴾ من زوجته سارة رضي الله تعالى عنها التي جمعت إلى العقم في شبابها اليأس في كبرها ﴿ ويعقوب ﴾ من ولده إسحاق عليهما السلام فإن قيل لِمَ لَمْ يذكر إسماعيل عليه السلام وذكر إسحاق وعقبه ؟

(235/596)

أجيب : بأن هذه السورة لما كان السياق فيها للامتحان وكان إبراهيم عليه السلام قد ابتلي في إسماعيل بفراقه مع أمّه ووضعهما في مضيعة من الأرض لا أنيس فيها لم يذكره تصريحاً في سياق الامتنان وأفرد إسحاق لأنه لم يبتل فيه بشيء من ذلك ولأن الامتنان به لكون أمّه عجوزاً عقيماً أكبر وأعظم لأنها أعجب ، وذكر إسماعيل تلويحاً في قوله تعالى ﴿ وجعلنا ﴾ أي : بعزتنا وحكمتنا ﴿ في ذرّيته ﴾ من ولد إسحاق وإسماعيل عليهما السلام ﴿ النبوّة ﴾ فلم يكن بعده نبيّ أجنبي عنه بل جميع الأنبياء من ذرّية إسحاق إلا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه من ذرّية إسماعيل قاله بعض العلماء ، فإن قيل إن الله تعالى جعل في ذرّيته النبوة أجابة لدعائه والوالد يسوّي بين أولاده فكيف صارت النبوّة في

ولد إسحاق عليه السلام أكثر ؟ .

أجيب : بأنّ الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى يوم القيامة قسمين والناس أجمعين فالقسم الأوّل من الزمان : بعث الله تعالى فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤوا تترى واحداً بعد واحد مجتمعين في عصر واحد كلهم من ذرّية إسحاق عليه السلام ، ثم في القسم الثاني : من الزمان : أخرج من ذرّية ولده إسماعيل عليه السلام واحداً اجتمع فيه ما كان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين أولاد إسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة ولا يبعد أن تبقى الخلق على دين ذرية إسماعيل ذلك المقدار ﴿ والكتاب ﴾ فلم ينزل كتاب إلا على أولاده ، فإن قيل : لم أفرد الكتاب مع أنها أربعة التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ؟

(236/596)

أجيب : بأنه أفرده ليدلّ مع تناوله جنسية الكتب الأربعة أنه لا شيء يستحق أن يكتب إلا ما أنزل فيها أو كان راجعاً إليها ولو جمع لم يفد هذا المعنى ﴿ وآتيناه أجره ﴾ على هجرته ﴿ في الدنيا ﴾ بما خصصناه به مما لا يقدر عليه غيرنا من سعة الرزق ورغد العيش وكثرة الولد والحزم في الشيخوخة وكثرة النسل ، والثناء الحسن والمحبة من جميع الخلق وغير

ذلك .

قال الرازي : وفي الآية لطيفة وهي أنّ الله تعالى بدل جميع أحوال إبراهيم عليه السلام في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار كان وحيداً فريداً فبدل الله تعالى وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ، ولما كان أوّلاً بعث إلى قومه وأقاربه الأقربين ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله تعالى أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذرّيته الذين جعلت فيهم النبوّة والكتاب ، وكان أولاً لا جاه له ولا مال وهما غاية المذلة الدنيوية آتاه الله تعالى من المال والجاه حتى كان له من المواشي ما علم الله تعالى عدده حتى قيل إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق الذهب وأما الجاه فصار بحيث تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة فصار معروفاً بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملاً حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم وهذا الكلام لا يقال إلا للمجهول عند الناس .

﴿ وإنه في الآخرة ﴾ أي : التي هي الدار ومحلّ الاستقرار ﴿ لمن الصالحين ﴾ أي : الذين خصصناهم بالسعادة وجعلنا لهم الحسنى وزيادة ، قال ابن عباس : مثل آدم ونوح ، انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير جـ 5 صـ 180 . 197 ﴾

(237/596)

وقال القاسمي :

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾

أي : أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان ، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمحنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم . لتمييز المخلص من غير المخلص . كما قال : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عِمْرَان : 186] ، وكقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 142] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 214] ، وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة في تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم من أذى المشركين : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دوّن التاريخ اضطهادهم . أي : فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله

: ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي : في قولهم : ﴿ آمَنَّا ﴾ : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي : فيه : وذلك بالامتحان .

(238/596)

فإن قيل : يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث ، مع أنه قديم . إذ علمه بالشيء قبل وجوده وبعده ، لا يتغير . يجاب بأن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه .

وقال الناصر : فائدة . ذكر العلم هاهنا ، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب . وهو الجزاء كأنه قال تعالى : ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم .

وقال المهايميّ : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ ﴾ أي : يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان : ﴿ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ فيه ، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ﴾ أي : وليظهر علمه بكذب دعوى : ﴿ الْكَاذِبِينَ ﴾ لئلا يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين ، فينسب في تعذيبهم إلى الظلم . وليثق المؤمنون بمحبة الصادقين ، ويستظهروا بها ، ويحذروا عن مكر الكاذبين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [4 - 7] .

(239/596)

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أي : يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوئ أعمالهم : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : بئس الذي يحكمونه حكمهم : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أي : في الجنة من رؤيته ، والفوز بكرامته : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ وهو الموت : ﴿ لَآتٍ ﴾ أي : فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثواب والتواصي بالحق والصبر والرغبة فيما عنده تعالى . أو المعنى : من كان يرجو لقاء الله ، من كل من صدق في إيمانه ، وأخلص في يقينه ، فاعلم أن أجل الله لآت . وهو الوقت الذي جعله الله أجلاً وغاية لظهور النصر والفتح وعلوّ الحق وزهوق الباطل . أي : فلا يستبطئنّه . فإنه آت بوعد الله الحق وقول الصدق . ولم أر من ذكره ولعله أنسب بقرينه السياق والسباق . والله أعلم : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم :

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ ﴾ أي : في الصبر على البلاء والثبات على الحق مع ضروب الإيذاء : ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي : لأنه يمهد لنفسه ، ما يجني به ثمر غرسه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : أحسن جزاء أعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ [8 - 9] .

(240/596)

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ أي : أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلاً ذا حسن عظيم : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : في الشرك ، إذا حملاك عليه . ومعنى : ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : لا علم لك بإلهيته . قال القاضي : عبر عن نفيها بنفي العلم بها ، للإيذان بأن ما لم يعلم صحته ، لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم بطلانه . فكيف بما علم بطلانه ؟ : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أي : إليّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازيكم حق جزائكم . فيه التحذير من متابعتهما على الشرك والحث على الثبات والاستقامة في الدين ، بذكر المرجع والوعيد .

وقد روي أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم ، قالت أمه : يا سعد ! بلغني أنك قد صبأت . فوالله ! لا يظلني سقف بيت من الضحّ والريح . وإن الطعام والشراب عليّ حرام ، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها . فأبى سعد . وبقيت ثلاثة أيام كذلك . فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه . فنزلت هذه الآية ، والتي في لقمان ، والتي في الأحقاف . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان . وروى الترمذي عن سعد قال : قال : نزلت فيّ أربع آيات . فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت ، أو تكفر . فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها . فنزلت هذه الآية . قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضاً .

وقال الترمذي : حسن صحيح : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ أي : في زمرة الراسخين في الصلاح والكمال .

قال الزمخشري : والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله .

قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [19] ، وقال في إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أو المعنى : في مدخل الصالحين وهي الجنة . وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء : 69] ، الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ [10]

(242/596)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي : جعل ما يصيبه في الصرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء ، بسببه ، مثل عذاب الله في الشدة والهول ، فيرتد عن الدين . مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يناله في الله بالرضا ، يرى العذاب فيه عذوبة والمحنة منحة . فإن العاقبة للتقوى وسعادة الدارين لأهلها : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ

الْعَالَمِينَ ﴾ أي : من التلبيس والإخلاص . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ [11] ، إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [12] ، وكقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : 141] ، وقال تعالى : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : 52] .

القول في تأويل قوله تعالى :

(243/596)

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [11 - 13] .

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : بإخلاصهم : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ ثم بين تعالى حمل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة ، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية ، بقوله :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أي : إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث ، فتبعتها علينا وفي رقابنا .

(244/596)

قال ابن كثير : كما يقول القائل : افعل كذا وخطيئتك في رقبتي . قال الله تعالى تكذيباً لهم : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ وهي أوزار أنفسهم : ﴿ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ أي : وأوزاراً أخر مع أوزار أنفسهم . يعني أوزار الإضلال والحمل على الكفر والصدّ عن سبيل الله . كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] ، وفي الصحيح : < من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً > : ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : من الأكاذيب والأباطيل . ثم بين تعالى افتتان الأنبياء بأذية أممهم ، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار ، تأكيد [في المطبوع : تأكيداً] الإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد

الإيمان بلا ابتلاء ، وحثاً لهم على الصبر تأسياً بالأنبياء ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

(245/596)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [14 - 19]

.

(246/596)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً ﴾ أي : هذه الحادثة الهائلة موعظة : ﴿ لِلْعَالَمِينَ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ أي : كذباً ، في تسميتها آلهة وشركاء لله ، وشفعاء إليه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي : التبليغ الذي يزيل كل لبس وما عليه أن يصدقه قومه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إرشاد إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه مع وضوح دليله ، وذلك بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين . فالذي بدأ هذا ، قادر على إعادته . فإنه سهل عليه ، يسير لديه . فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ عطف على أو لم يروا لا على يبدئ لعدم وقوع الرؤية عليه . فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء . وقد جوز العطف على يبدئ بتأويل الإبداء بإبداء ما يشاهده ، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرهما . والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة ، مثل ما أنشأه في السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما . فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث وقوعه من

غير ريب . فيصحّ حينئذ العطف .

قال الشهاب : لكنه غير ملاق لما وقع في غير هذه الآية .

(247/596)

قال : وبهذا التقرير سقط ما قيل : إن أريد بالرؤية العلم فكلاهما معلوم . وإن أريد الإبصار فهما غير مرئيين . مع أنه يجوز أن يجعل ما أخبر به الله تعالى لتحققه ، كأنه مشاهد : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي : ما ذكره ، وهو الإعادة : ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [20 - 24] .

(248/596)

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ أي : كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتّى . فإن ترتيب النظر على السير في الأرض ، مؤذي يتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي : الخلق الآخر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : بعد النشأة الثانية ، وهم المنكرون لها : ﴿ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وهم المؤمنون بها : ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي : بالتواري في الأرض ، ولا بالتحصن في السماء التي هي أفسح منها ، لو استطعتم الرقيّ فيها . أو القلاع الذاهبة فيها . فيكون المراد بالسماء ما ارتفع . وقيل : المعنى : ولا من في السماء , فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر . والتقدير : ولا من في السماء بمعجزه , والجملة معطوفة على جملة أنتم بمعجزين وفيه تكلف وضعف صناعي : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي : يدافع عنكم ما يراد بكم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم أشار تعالى إلى ما أجاب به قوم إبراهيم ، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة ، بقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا ، لاجتماعكم على عبادتها : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم ، ويلعن الأتباعُ المتبوعين ، والمتبوعون الأتباعَ . كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : 38] ، وقال تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : 67] ، ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

تنبيه :

قال السمين : في ما من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف ، وهو المفعول الأول و : ﴿ أَوْثَاناً ﴾ مفعول ثان . والخبر مودة في قراءة من رفع . والتقدير : إن الذي اتخذتموه أوثاناً مودة ، أي : ذو مودة ، أو جعل نفس المودة مبالغة . ومحذوف على قراءة من نصب مودة أي : الذي اتخذتموه أوثاناً لأجل المودة لا ينفعكم ، أو يكون عليكم ، لدلالة قوله : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ .

والثاني : أن تجعل ما كافة ، وأوثاناً مفعول به . والاتخاذ هاهنا متعد لواحد . أو لاثنين ، والثاني هو " من دون الله " فمن رفع مودة كانت خبر مبتدأ مضمر ، أي : هي مودة أي : ذات مودة . أو جعلت نفس المودة مبالغة . والجملة حينئذ صفة لأوثاناً أو مستأنفة . ومن نصب كان مفعولاً له ، أو بإضمار أعني .

(250/596)

الثالث : أن تجعل ما مصدرية ، وحينئذ يجوز أن يقدر مضاف من الأول . أي : أن سبب اتخاذكم أوثاناً مودة , فيمن رفع مودة ويجوز أن لا يقدر ، بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة . ومن القراء من رفع مودة غير منونة وجرّ بينكم ومنهم من نصب مودة منوّنة ونصب بينكم ومنهم من نصب مودة منونة وجرّ بينكم . فالرفع تقدم . و النصب تقدم أيضاً فيه وجهان . وجوّز ثالث ، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة ، للاتساع في الظرف .

ونقل عن عاصم أنه رفع مودة غير منونة ونصب بينكم وخرجت على إضافة مودة للظرف . وإنما بني لإضافته إلى غير متمكن .

وأشار العلامة القاشاني إلى جواز أن يكون قوله تعالى : ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ خبراً لما

إن كانت اسمية . وهو وجه لم يتعرض له المعْرِبُون هنا ، ولا مانع منه . وعبارته :

إنما اتخذتم من دون الله ، شيئاً عبدتموه مودوداً فيما بينكم في الحياة الدنيا أو : إن كل ما اتخذتم من دون الله ، شيئاً مودوداً فيما بينكم في الحياة الدنيا ، أو : إن كل ما اتخذتم أوثاناً مودود في هذه الحياة الدنيا . أو لمودة بينكم في هذه ، على القراءتين .

ثم قال : والمعنى أن المودة قسمان : مودة دنيوية ، ومودة أخروية . والدنيوية منشؤها النفس ، والأخروية منشؤها الروح . فكل ما يحب ويودّ من دون الله ، لا لله ولا بمحبة الله ، فهو محبوب بالمودة النفسية . وهو هوى زائل ، كلما انقطعت الوصلة البدينة زالت ولم تصل إلى إحدى القيامات ، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج . فإذا انحلّ التركيب وانحرف المزاج ، تلاشت وبقي التضادّ والتعاند ، بمقتضى الطبائع ، لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ الآية . ولهذا شبهها ببيت العنكبوت في الوهن .

(251/596)

وأما الأخروية فمنشؤها المحبة الإلهية . وتلك المودة هي التي تكون بين الأصفياء والأولياء ، لتناسب الصفات ، وتجانس الذوات ، لا تتصفى غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب . فيصير يوم القيامة محبة صرفة الهيئة ، بخلاف تلك . انتهى .

﴿ فَآمَنَ لَهُ ﴾ أي : صدق إبراهيم فيما دعاه إليه : ﴿ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ ﴾ أي : من أرض قومي : ﴿ إِلَى رَبِّي ﴾ أي : لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ أي : لإبراهيم : ﴿ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي : ولداً ونافلة ، بمباركة الذرية : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي : بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 566.574 ﴾

(252/596)

قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان – كما مضى – السياق للابتلاء ، خص بالبسط في القص من لم يكن له ناصر من قومه ، أو كان غريباً منها ، ولذلك أتبع الخليل عليه الصلاة والسلام ابن أخيه الذي أرسله الله إلى أهل سدوم : ناس لا قرابة له فيهم ولا عشيرة ، فقال : ﴿ ولوطاً ﴾ أي أرسلناه ، وأشار إلى إسراعه في الامتثال بقوله : ﴿ إذ ﴾ أي وأرسلناه حين ﴿ قال لقومه ﴾ أهل سدوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع إليهم فصاروا قومه ، حين فارق عمه إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، منكراً ما رأى من حالهم ، وقبيح فعالهم ، مؤكداً له إشارة إلى أنه – مع كونه يرونه من أعرف المعارف – جدير بأن ينكر : ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ أي المجاوزة للحد في القبح ، فكأنها لذلك لا فاحشة غيرها .

(253/596)

ثم علل كونها فاحشة استئنافاً بقوله : ﴿ ما سبقكم ﴾ أو هي حال مبينة لعظيم جرأتهم على المنكر ، أي غير مسبوقين ﴿ بها ﴾ وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من أحد ﴾ وزاد بقوله : ﴿ من العالمين ﴾ أي كلهم فضلاً عن خصوص الناس ؛ ثم كرر الإنكار تأكيداً

لتجاوز قبحها الذي ينكرونه فقال : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ إتيان الشهوة ، وعطف عليها ما ضموه إليها من المناكر ، بياناً لاستحقاق الذم من وجوه ، فأوجب حالهم ظن أنهم وصلوا من الخبث إلى حد لا مطمع في الرجوع عنه مع ملازمته لدعائهم من غير ملل ولا ضجر ، فقال ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ أي بأذى الجلابين والمارة .

ولما خص هذين الفسادين ، عم دالاً على المجاهرة فقال : ﴿ وتأتون في ناديكم ﴾ أي المكان الذي تجلسون فيه للتحدث بحيث يسمع بعضكم نداء بعض من مجلس المؤانسة ، وهو ناد ما دام القوم فيه ، فإذا قاموا عنه لم يسم بذلك ﴿ المنكر ﴾ أي هذا الجنس ، وهو ما تنكره الشرائع والمروءات والعقول ، ولا تتحاشون عن شيء منه في المجتمع الذي يتحاشى فيه الإنسان من فعل خلاف الأولى ، من غير أن يستحي بعضكم من بعض ؛ ودل على عنادهم بقوله مسبباً عن هذه النصائح بالنهي عن تلك الفضائح : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ أي الذين فيهم قوة ونجدة بحيث يخشى شرهم ، ويتقي أذاهم وضرهم ، لما أنكر عليهم ما أنكر ﴿ إلا أن قالوا ﴾ عناداً وجهلاً واستهزاء : ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ وعبروا بالاسم الأعظم زيادة في الجرأة .

ولما كان الإنكار ملزوماً للوعيد بأمر ضار قالوا : ﴿ إن كنت ﴾ أي كوناً متمكناً ﴿ من الصادقين ﴾ أي في وعيدك وإرسالك ، إلهاباً وتهييجاً .

ولما كان كأنه قيل : بم أجابهم ؟ قيل : ﴿ قال ﴾ أي لوط عليه الصلاة والسلام معرضاً

عنهم ، مقبلاً بكليته على المحسن إليه : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ ﴿ انصرني على القوم ﴾ أي الذين فيهم من القوة ما لا طاقة لي بهم معه ﴿ المفسدين ﴾ بإتيان ما تعلم من القبائح .

(254/596)

ولما كان التقدير : فاستجبنا له فأرسلنا رسلنا بشرى لعمه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولإهلاك قوم لوط عليه الصلاة والسلام ، تحقيقاً لانتقامنا من المجرمين ، وإنعامنا على الصالحين ، ولابتلائنا لمن نريد من عبادنا حيث جعلنا النذارة مقارنة للبشارة ، عطف عليه قوله : ﴿ ولما جاءت ﴾ وأسقط " أن " لأنه لم يتصل المقول بأول المجيء بل كان قبله السلام والإضافة ؛ وعظم الرسل بقولهك ﴿ رسلنا ﴾ أي من الملائكة تعظيماً لهم في أنفسهم ولما جاؤوا به ﴿ إبراهيم بالبشرى ﴾ أي بإسحاق ولداً له ، ويعقوب ولداً لإسحاق عليهما الصلاة والسلام .

ولما كان المقام للابتلاء والامتحان ، أجمل البشرى ، وفصل النذري ، فقال : ﴿ قالوا ﴾ أي الرسل عليهم الصلاة والسلام لإبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن بشروه وتوجهوا نحو سدوم ، جواباً لسؤاله عن خطبهم ، تحقيقاً لأن أهل السيئات مأخوذون ، وأكدوا لعلمهم

أن الخليل عليه الصلاة والسلام يود أن يهديهم الله على يد ابن أخيه ولا يهلكهم ، فقالوا : ﴿ إنا مهلكو ﴾ وأضافوا تحقيقاً لأن الأمر قد حق وفرغ منه فقالوا : ﴿ أهل هذه القرية ﴾ ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إن أهلها ﴾ مظهرين غير مضمرين إفهاماً لأن المراد أهلها الأضلاء في ذلك ، إخراجاً للوط عليه السلام : ﴿ كانوا ظالمين ﴾ أي عريقين في هذا الوصف ، فلا حيلة في رجوعهم عنه .

(255/596)

ولما كان السامع بحيث يتشوف إلى معرفة ما كان بعد ذلك ، كان كأنه قيل : لم يقنع الخليل عليه السلام لخطر المقام بهذا التلويح ، بل ﴿ قال ﴾ مؤكداً تنبيهاً على جلالة ابن أخيه ، وإعلاماً بشدة اهتمامه به ، وأنه ليس ممن يستحق الهلاك ، ليعلم ما يقولون في حقه ، لأن الحال جد ، فهو جدير بالاختصار : ﴿ إن ﴾ وأفهم بقوله : ﴿ فيها لوطاً ﴾ دون ، منهم ، أنه نزيل تدرجاً إلى التصريح بالسؤال فيه ، وسؤالاً في الدفع عنهم بكونه فيهم ، لأنه بعيد عما عللوا به الإهلاك من الظلم ، ﴿ قالوا ﴾ أي الرسل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ نحن أعلم ﴾ أي منك ﴿ بمن فيها ﴾ أي من لوط وغيره .

ولما كان كلامهم محتملاً للأنجاء والإرداء ، صرحوا بقولهم على سبيل التأكيد ، لأن إنجاءه

من بينهم جدير بالاستبعاد : ﴿ لننجينه ﴾ أي إنجاءاً عظيماً ﴿ وأهله ﴾ ولما أفهم هذا امرأته استثنوها ليكون ذلك أنص على إنجاء غيرها من جميع أهله فقالوا : ﴿ إلا امرأته ﴾ فكأنه قيل : فما حالها ؟ فقيل : ﴿ كانت ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ من الغابرين ﴾ أي الباقين في الأرض المدمرة والجماعة الفجرة ، ليعم وجهها معهم الغبرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 554.556 ﴾

(256/596)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) ﴾

الإعراب في لوط ، والتفسير كما ذكرنا في قوله : ﴿ وإبراهيم إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ [العنكبوت : 16] وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال إبراهيم لقومه ﴿ اعبدوا الله ﴾ وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه ﴿ لَتَأْتُونَ

الفاحشة ﴾ فنقول لما ذكر الله لوطاً عند ذكر إبراهيم وكان لوط في زمان إبراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع أن الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها ههنا ذكرها الله على سبيل الاختصار ، فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله في موضع آخر حيث قال : ﴿ اعبدوا الله مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 59] لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن إبراهيم .

وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصاً بلوط ، فإن إبراهيم لم يظهر ذلك (في زمنه) ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره .

المسألة الثانية :

لم سمى ذلك الفعل فاحشة ؟ فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله في الإنسان ، فمصلحة الشهوة الفرجية هي بقاء النوع بتوليد الشخص ، وهذه المصلحة لا تحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب ، فإنه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأول ، لكن الزنا قضاء

شهوة ولا يفضي إلى بقاء النوع ، لأنا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكن الزنا وإن كان يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقائه ، لأن المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والإنفاق عليه فيضيع ويهلك ، فلا يحصل مصلحة البقاء ، فإذن الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التي لأجلها خلقت ، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة ، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقائه ، فاللواطة التي لا تفضي إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة .

المسألة الثالثة :

(258/596)

الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة ، لأنها مع الزنا اشتركت في كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : 32] واشتراكهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه ، فما شرع زاجراً هناك يشرع زاجراً ههنا ، وهذا وإن كان قياساً إلا أن جامعه مستفاد من الآية ، ووجه آخر ، وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلاً ، فوجب أن يعذب من أتى به بإمطار الحجارة به عاجلاً وهو الرجم ، وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ ﴾ يحتمل وجهين

أحدهما : أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر ، والثاني : أن قبلهم ربما أتى به واحد في الندرة لكنهم بالغوا فيه ، فقال لهم ما سبقكم بها من أحد ، كما يقال إن فلاناً سبق البخلاء في البخل ، وسبق اللئام في اللؤم إذا زاد عليهم ، ثم قال تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ بياناً لما ذكرنا ، يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التي هي بقاء النوع ، حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة ، وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى :

﴿ أَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مّن دُونِ النساء ﴾ [الأعراف : 81] يعنى إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله : ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ يعني ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الإظهار ، وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ في التفسير ، كقوله في قصة إبراهيم ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال قوم إبراهيم ﴿ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ [العنكبوت : 24] وقال قوم لوط ﴿ ائتنا بِعَذَابِ الله ﴾ وما هددوه ، مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط ، فإن لوطاً كان من قومه ، فنقول إن إبراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله : لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني والقدح في الدين صعب ، فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون إن هذا واجب من الدين ، فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم قول إبراهيم ، فقالوا إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب ، فإن كنت صادقاً فأتنا بالعذاب ، فإن قيل إن الله تعالى قال في موضع آخر ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل : 56] وقال ههنا ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا ﴾ فكيف الجمع ؟ فنقول لوط كان ثابتاً على الإرشاد مكرراً عليهم التغيير والنهي والوعيد ، فقالوا أولا ائتنا ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله ﴿ فَقَالَ رَبِّ انصرنى عَلَى القوم المفسدين ﴾ فإن الله لا يحب المفسدين ، حتى ينجز النصر .

واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما قال نوح : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 27] يعني المصلحة إما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم ، فإنهم يضلون في الحال وفي المآل

فإنهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع ، فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله ، بطلت المصلحة حالا ومآلا ، فعدمهم صار خيراً ، فطلب العذاب .

(260/596)

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31)

لما دعا لوط على قومه بقوله : ﴿ رَبّ انصرني ﴾ استجاب الله دعاءه ، وأمر ملائكته بإهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين ، فجاءوا إبراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية ﴾ يعني أهل سدوم ، وفي الآية لطيفتان : إحداهما : أن الله جعلهم مبشرين ومنذرين ، لكن البشارة أثر الرحمة والإنذار بالإهلاك أثر الغضب ، ورحمته سبقت غضبه ، فقدم البشارة على الإنذار .

وقال : ﴿ جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾ ثم قال : ﴿ إِنا مهلكو ﴾ الثانية : حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا إنا نبشرك لأنك رسول ، أو لأنك مؤمن أو لأنك عادل ، وحين ذكروا الإهلاك عللوا ، وقالوا : ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ لأن ذا الفضل لا يكون فضله

بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم ، وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

لو قال قائل أي تعلق لهذه البشرى بهذا الإنذار ، نقول لما أراد الله إهلاك قوم وكان فيه إخلاء الأرض عن العباد قدم على ذلك إعلام إبراهيم بأنه تعالى يملأ الأرض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه .

المسألة الثانية :

قال في قوم نوح ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ [العنكبوت : 14] وقد قلت إن ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ، ولو يقل فأخذهم وكانوا ظالمين ، وههنا قال : ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ ولم يقل وإنهم ظالمون ، فنقول لا فرق في الموضعين في كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم ، لكن هناك الإخبار من الله وعن الماضي حيث قال :

﴿ فَأَخَذَهُمْ ﴾ وكانوا ظالمين ، فقال أخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون ، وههنا الإخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا : ﴿ إنا مهلكوا ﴾ فالملائكة ذكروا ما يحتاجون إليه في إبانة حسن الأمر من الله بالإهلاك ، فقالوا : إنا مهلكوهم لأن الله أمرنا ،

وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين ، فحسن أمر الله عند كل أحد ، وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا إليه ، فإن الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب ، فنحن ما احتجنا إلا إلى هذا القدر ، وهو أنهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بياناً لحسن الأمر ، وأما أنهم ظالمون في وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا إليه ، ثم إن إبراهيم لما سمع قولهم قال لهم إن فيها لوطاً إشفاقاً عليه ليعلم حاله ، أو لأن الملائكة لما قالوا : ﴿ إنا مهلكوا ﴾ وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قوماً وفيهم رسوله ، فقال تعجباً إن فيهم لوطاً فكيف يهلكون ، فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها ، يعني نعلم أن فيهم لوطاً فلننجينه وأهله ونهلك الباقين ، وههنا لطيفة : وهو أن الجماعة كانوا أهل الخير ، أعني إبراهيم والملائكة ، وكل واحد كان يزيد على صاحبه في كونه خيراً .

(262/596)

أما إبراهيم فلما سمع قوله الملائكة ﴿ إنا مهلكوا ﴾ أظهر الإشفاق على لوط ونسي نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحاً ، وقال : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ [العنكبوت : 32] ثم إن الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه ، وقالوا إنك ذكرت لوطاً وحده ونحن ننجيه وننجي معه أهله ، ثم استثنوا من الأهل امرأته ، وقالوا : ﴿ إِلَّا امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ أي من

المهلكين ، وفي استعمال الغابر في المهلك وجهان ، وذلك لأن الغابر لفظ مشترك في الماضي ، وفي الباقي يقال فيما غبر من الزمان أي فيما مضى ويقال الفعل ماض وغابر أي باق ، وعلى الوجه الأول نقول إن ذكر الظالمين سبق في قولهم : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ ثم جرى ذكر لوط بتذكير إبراهيم وجواب الملائكة ، فقالت الملائكة إنها من الغابرين أي الماضي ذكرهم لا من الذين ننجي منهم ، أو نقول المهلك يفنى ويمضي زمانه والناجي هو الباقي فقالوا إنها من الغابرين أي من الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين ، وأما على الوجه الثاني فنقول لما قضى الله على القوم بالإهلاك كان الكل في الهلاك إلا من ننجي منه فقالوا إنا ننجي لوطاً وأهله ، وأما امرأته فهي من الباقين في الهلاك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 54.51 ﴾

(263/596)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيهَا ، وَيَحِقُّ أَنْ نُعِيدَهُ لِعِظَمِهِ ، وَقَدْ نَادَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ اقْتَحَمَ

هَذَا ، وَلَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى لَوْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي أُمَّهُ عَلَانِيَةً ، كَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ﴾ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ وَغَيْرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِيهِ ﴿ : اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ ﴾ .

وَلَقَدْ كَتَبَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي ذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ : عَلَيْهِ الرَّجْمُ .

وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : إِنَّ الْعَرَبَ تَأْنَفُ مِنْ الْعَارِ وَشُهْرَتِهِ أَنَفًا لَا تَأْنَفُهُ مِنْ الْحُدُودِ الَّتِي تَمْضِي فِي الْأَحْكَامِ ، فَأَرَى أَنْ تُحَرِّقَهُ بِالنَّارِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقَ أَبُو الْحَسَنِ .

فَكَتَبَ إِلَى خَالِدٍ أَنْ أَحْرِقْهُ بِالنَّارِ ، فَفَعَلَ .

فَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ : لَا أَرَى خَالِدًا أَحْرَقَهُ إِلَّا بَعْدَ قَتْلِهِ ؛ لِأَنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى .

قَالَ الْقَاضِي : لَيْسَ كَمَا زَعَمَ ابْنُ وَهْبٍ ، كَانَ عَلِيٌّ يَرَى الْحَرْقَ بِالنَّارِ عُقُوبَةً ، وَلِذَلِكَ كَانَ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو الْمَعَالِي ثَابِتُ بْنُ بُنْدَارٍ الْبَرْقَانِيُّ الْحَافِظُ ، أَخْبَرَنَا الْإِسْمَاعِيلِيُّ ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَاشِمٍ الْبَغَوِيّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ : رَأَيْت عَمْرَو بْنَ دِينَارٍ ، وَأَيُّوبَ ، وَعَمَّارًا الرَّهِبِنِيُّ ، اجْتَمَعُوا فَتَنَاكَرُوا الَّذِينَ حَرَقَهُمْ عَلِيٌّ ، فَحَدَّثَ أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ

لَمَّا بَلَغَهُ قَالَ : لَوْ كُنْت أَنَا مَا أَحْرَقْتُهُمْ ؟ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ ، وَلَقَتَلْتُهُمْ " ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ تَرَكَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ ﴾ .

فَقَالَ عَمَّارٌ : لَمْ يَكُنْ حَرَقَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ حَفَرَ لَهُمْ حَفَائِرَ ، وَخَرَقَ بَعْضَهَا إلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ دَخَنَ عَلَيْهِمْ حَتَّى مَاتُوا .

(265/596)

فَقَالَ عَمَّارٌ : قَالَ الشَّاعِرُ : لِتَرْمِ بِي الْمَنَايَا حَيْثُ شَاءَتْ إذَا لَمْ تَرْمِ بِي فِي الْحُفْرَتَيْنِ إذَا مَا أَجَّجُوا حَطَبًا وَنَارًا هُنَاكَ الْمَوْتُ نَقْدًا غَيْرَ دَيْنٍ وَمِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ مَا يُصَدِّقُ ذَلِكَ : عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ وَجَدَ فِي ضَوَاحِي الْعَرَبِ رَجُلًا يُنْكَحُ كَمَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ كَانَ اسْمُهُ الْفُجَاءَةُ ،

فَاسْتَشَارَ أَبُو بَكْرٍ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ فِيهِمْ قَوْلًا ، فَقَالَ عَلِيٌّ : إِنَّ هَذَا الذَّنْبَ لَمْ تَعْصِ بِهِ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ ، إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ، صَنَعَ اللَّهُ بِهَا مَا عَلِمْتُمْ ؛ أَرَى أَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ .

فَاجْتَمَعَ رَأْيُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ ، فَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنْ يَحْرِقَهُمْ بِالنَّارِ ، فَأَحْرَقَهُمْ بِالنَّارِ ، ثُمَّ أَحْرَقَهُمْ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِي زَمَانِهِ ، ثُمَّ أَحْرَقَهُمْ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، ثُمَّ أَحْرَقَهُمْ خَالِدُ الْقَسْرِيُّ بِالْعِرَاقِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ أُتِيَ بِسَبْعَةٍ أُخِذُوا فِي لِوَاطٍ ، فَسَأَلَ عَنْهُمْ ، فَوُجِدُوا أَرْبَعَةً قَدْ أُحْصِنُوا ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَخَرَجَ بِهِمْ مِنْ الْحَرَمِ ، ثُمَّ رُجِمُوا بِالْحِجَارَةِ ، حَتَّى مَاتُوا ، وَجَلَدَ الثَّلَاثَةَ حَتَّى مَاتُوا بِالْحَدِّ .

قَالَ : وَعِنْدَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَابْنُ عُمَرَ ، فَلَمْ يُنْكِرَا عَلَيْهِ .

وَقَدْ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ إِلَى هَذَا ، وَالَّذِي صَارَ إِلَيْهِ مَالِكٌ أَحَقُّ

، وَهُوَ أَصَحُّ سَنَدًا ، وَأَقْوَى مُعْتَمَدًا ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ قَبْلَ هَذَا .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ حَدِّ اللِّوَاطِ ، فَقَالَ : يُصْعَدُ بِهِ فِي الْجَبَلِ ، ثُمَّ يُرْدَى مِنْهُ ، ثُمَّ يُتْبَعُ بِالْحِجَارَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(267/596)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾

أي تنكحون الرجال

. ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أنه قطع الطريق على المسافر ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنهم بإتيان الفاحشة من الرجال قطعوا الناس عن الأسفار حذراً من فعلهم الخبيث ، حكاه ابن شجرة .

الثالث : أنه قطع النسل للعدول عن النساء إلى الرجال ، قال وهب : استغنوا عن النساء بالرجال .

﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ أي في مجالسكم المنكر فيه أربعة أوجه

: أحدها : هو أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ، قالته عائشة رضي الله عنها .

الثاني : أنهم كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه روته أم هانىء عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث : أنهم كانوا يجامعون الرجال في مجالسهم ، رواه منصور عن مجاهد .

الرابع : هو الصفير ولعب الحمام والجلاهق والسحاق وحل أزرار القيان في المجلس ، رواه الحاكم عن مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(268/596)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى ﴿ ولوطاً ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره واذكر لوطاً ، و ﴿ الفاحشة ﴾ إتيان الرجال في الأدبار وهي معصية ابتدعها قوم لوط .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ

تقدم القوم في القرآن في ﴿ أئنكم ﴾ ، واختلف الناس في قطع السبيل المشار إليه ها هنا ، فقالت فرقة : كان قطع الطريق بالسلب فاشياً فيهم ، وقال ابن زيد : كانوا يقطعون الطرق على الناس لطلب الفاحشة فكانوا يخيفون ، وقالت فرقة : بل أراد قطع سبيل النسل في

ترك النساء وإتيان الرجال ، وقالت فرقة : أراد أنهم لقبح الأحدوثة عنهم يقطعون سبل الناس عن قصدهم في التجارات وغيرها ، و" النادي " المجلس الذي يجتمع فيه الناس وهو اسم جنس لأن الأندية في المدن كثيرة فكأنه قال وتأتون في اجتماعكم حيث اجتمعتم .

(269/596)

واختلف الناس في ﴿ المنكر ﴾ ، فقالت فرقة كانوا يحذفون الناس بالحصباء ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم وروته أم هاني عن النبي صلى الله عليه وسلم وكانت حلقهم مهملة لا يربطهم دين ولا مروءة ، وقال مجاهد ومنصور : كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً ، وقال القاسم بن محمد : منكرهم أنهم كانوا يتفاعلون في مجالسهم ، ذكره الزهراوي ، وقال ابن عباس كانوا يتضارطون ويتصافعون في مجالسهم ، وقال مجاهد أيضاً : كان أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والحذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فالتناهي واجب ، فلما وقفهم لوط على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج فقالوا ﴿ ائتنا ﴾ بالعذاب ، أي أن ذلك لا يكون ولا تقدر عليه ، وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه ، وليس يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا ، ثم استنصر لوط عليه

السلام ربه عليهم ، فبعث ملائكة لعذابهم ورجمهم بالحاصب فجاؤوا إبراهيم أولاً مبشرين بإسحاق ومبشرين بنصرة لوط على قومه ، وكان لقاؤهم لإبراهيم على الصورة التي بنيت في غير هذه الآية ، فلفظة " البشرى " في هذه الآية تتضمن أمر إسحاق ونصرة لوط ، ولما أخبره بإهلاك القرية على ظلمهم أشفق إبراهيم على لوط فعارضهم بأمره حسبما يأتي .

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32)

(270/596)

روي عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام لما علم من قبل الملائكة أن قرية لوط تعذب أشفق على المؤمنين فجادل الملائكة وقال لهم : أرأيتم إن كان فيهم مائة بيت من المؤمنين أتتركونهم ، قالوا ليس فيهم ذلك ، فجعل ينحدر حتى انتهى إلى عشرة أبيات ، فقال له الملائكة ليس فيهم عشرة ولا خمسة ولا ثلاثة ولا اثنان ، فحينئذ قال إبراهيم ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ فراجعوه حينئذ بأنا ﴿ نحن أعلم بمن فيها ﴾ أي لا تخف أن يقع حيف على مؤمن ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر " لننَجّينّه " بفتح النون الوسطى وشد الجيم و" منَجّوك " بفتح النون وشد الجيم .

وقرأ حمزة والكسائي " لننْجينه " بسكون النون وتخفيف الجيم ، " ومنْجوك " ، بسكون النون وتخفيف الجيم ، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر " لننجّيه " بالتشديد و " ومنجوك " بالتخفيف ، وقرأت فرقة " لننجينْه " بسكون النون الأخيرة من الكلمة وهذا إنما يجيء على أنه خفف النون المشددة وهو يريدها ، وامرأة لوط هذه كانت كافرة تعين عليه وتنبه على أضيافه ، و" الغابر " الباقي ومعناه ﴿ من الغابرين ﴾ في العذاب ، وقالت فرقة ﴿ من الغابرين ﴾ أي ممن عمر وبقي من الناس وعسا في كفره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(271/596)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ جُمْلَتَيْنِ وَوَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمِرِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الِاعْتِذَارِ عَنْهُ إذَا كَانَ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَكِنْ نَسْأَلُ عَنْ سَبَبِ الْإِظْهَارِ هُنَا وَالْإِضْمَارِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ ﴿ إلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وَخَطَرَ لِي فِي الْجَوَابِ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمُرَادُ فِي مَدَائِنِ لُوطٍ إهْلَاكَ الْقُرَى

صَرَّحَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِذِكْرِ الْقَرْيَةِ الَّتِي يَحِلُّ بِهَا الْهَلَاكُ ، كَأَنَّهَا اكْتَسَبَتْ الظُّلْمَ وَاسْتَحَقَّتْ الْإِهْلَاكَ مَعَهُمْ ، وَلَمَّا كَانَ الْمُرَادُ فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ إهْلَاكَهُمْ بِصِفَاتِهِمْ وَلَمْ يُهْلِكْ بَلَدَهُمْ أَتَى بِالضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَى ذَوَاتِهِمْ مِنْ حَيْثُ هِيَ لَا تَخْتَصُّ بِمَكَانٍ وَلَا يَدْخُلُ مَعَهَا مَكَانٌ .

وَقَدْ قُلْت : لِأَسْرَارِ آيَاتِ الْكِتَابِ مَعَانِي تَدِقُّ فَلَا تَبْدُو لِكُلِّ مُعَانٍ وَفِيهَا لِمُرْتَاضٍ لَبِيبٍ عَجَائِبُ سَنَا بَرْقِهَا يَعْنُو لَهُ الْقَمَرَانِ إذَا بَارِقٌ مِنْهَا لِقَلْبِي قَدْ بَدَا هَمَمْت قَرِيرَ الْعَيْنِ بِالطَّيَرَانِ سُرُورًا وَإِبْهَاجًا وَنَيْلًا إلَى الْعُلَى كَأَنِّي عَلَى هَامِ السِّمَاكِ مَكَانِي وَهَاتِيك مِنْهَا قَدْ أَتَحْتُك مَا تَرَى فَشُكْرًا لِمَنْ أَوْلَى بَدِيعَ بَيَانِي وَإِنَّ جَنَانِي فِي تَمَوُّجِ أَبْحُرٍ مِنْ الْعِلْمِ فِي قَلْبِي يَمُدُّ لِسَانِي وَكَمْ مِنْ كِتَابٍ فِي جُمَادَى مُحَرَّرٍ إلَى أَنْ أَرَى أَهْلًا ذَكَّى جَنَانِي فَيَصْطَادُ مِنِّي مَا يُطِيقُ اقْتِنَاصَهُ وَلَيْسَ لَهُ بِالشَّارِدَاتِ يَدَانِ مُنَايَ سَلِيمُ الذِّهْنِ رِيضٌ

(272/596)

ارْتَوَى فَكُلُّ عُلُومِ الْخَلْقِ ذُو لَمَعَانٍ فَذَاكَ الَّذِي يُرْجَى لِإِيضَاحِ مُشْكَلٍ وَيَقْصِدُ لِلتَّجْرِيدِ مَدَّ عِيَانِي وَكَمْ لِي فِي الْآيَاتِ حُسْنُ تَدَبُّرٍ بِهِ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ حَبَانِي تُجَاهَ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ نِلْت كُلَّ مَا أَتَى وَسَيَأْتِي دَائِمًا بِأَمَانٍ فَصَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَسَلَّمَ مَا دَامَتْ لَهُ الْمَلَوَانِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 67. 68 ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ وتقطعون السبيل ﴾

وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا يعترضون مَنْ مَرَّ بهم لعملهم الخبيث ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم كانوا إِذا جلسوا في مجالسهم يرمون ابن السبيل بالحجارة ، فيقطعون سبيل المسافر ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه قطع النسل للعدول عن النساء إِلى الرجال ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وتأتون في ناديكم المُنْكَر ﴾ قال ابن قتيبة : النادي : المجلس ، والمُنْكَر يجمع الفواحش من القول والفعل .

وللمفسرين في المراد بهذا المُنْكَر أربعة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا يَحْذِفون أهل الطريق ويسخرون منهم ، فذلك المنكر ، روته أم هانىء بنت أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عكرمة ، والسدي : كانوا يَحْذِفون كلَّ مَنْ مَرَّ بهم .

والثاني : لَفُّ القميص على اليد ، وجرُّ الإزار ، وحَلُّ الأزرارِ ، والحذف والرمي بالبندق ، ولعب الحمام ، والصَّفير ، في خصال أُخَر رواها ميمون بن مهران عن ابن عباس .

والثالث : أنه الضُّراط ، رواه عروة عن عائشة ، وكذلك فسَّره القاسم ابن محمد .

والرابع : أنه إتيان الرجال في مجالسهم ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

وهذه الآية [تدل] على أنه لا ينبغي للمجتمعين أن يتعاشروا إلا على ما يقرِّب من الله عز وجل ، ولا ينبغي ان يجتمعوا على الهزء واللعب .

قوله تعالى : ﴿ ربِّ انْصُرْني ﴾ أي : بتصديق قولي في العذاب .

قوله تعالى : ﴿ إنَّا مُهْلِكو أهلِ هذه القرية ﴾ يعنون قرية لوط .

قوله تعالى : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّه ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّه ﴾ و ﴿ إنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ بتشديد الحرفين ، وخفَّفهما حمزة ، والكسائي .

وروى أبو بكر عن عاصم : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّه ﴾ مشددة ، و ﴿ إنَّا مُنْجُوكَ ﴾ مخففة ساكنة النون .

وقد سبق شرح ما أخللنا بذكره [هود : 77] إلى قوله : ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ على أهل هذه القرية رِجْزاً ﴾ وهو الخَصْب والخسف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(275/596)

وقال أبو حيان :

﴿ ولُوطاً ﴾

وانتصب لوطاً بإضمار اذكر ، أو بالعطف على إبراهيم ، أو بالعطف على ما عطف عليه إبراهيم .

والجمهور : على الاستفهام في أئنكم معاً .

وقرىء : أنكم على الخبر ، والثاني على الاستفهام .

وقال أبو عبيد : وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء ، ورأيت الثاني بحرفين ، الياء والنون .

ولم يأت في قصة لوط أنه دعا قومه إلى عبادة الله ، كما جاء في قصة إبراهيم وقصة شعيب ، لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم وفي زمانه ، وسبقه إبراهيم إلى الدعاء لعبادة الله وتوحيده ، واشتهر أمره بذلك عند الخلق ، فذكر لوط ما اختص به من المنع من الفحشاء وغيرها .

وأما أبراهيم وشعيب فجاءا بعد انقراض من كان يعبد الله ، فلذلك دعوا إلى عبادة الله .

قال الزمخشري : ﴿ ما سبقكم بها ﴾ جملة مستأنفة مقررة لفاحشة تلك الفعلة ، كأن قائلاً قال : لم كانت فاحشة ؟ فقيل : لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها ، حتى قدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم ، قالوا : لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط . انتهى .

ويظهر أن ﴿ ما سبقكم بها ﴾ جملة حالية ، كأنه قال : أتأتون الفاحشة مبتدعين لها غير مسبوقين بها ؟ واستفهم أولاً وثانياً استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، وبين ما تلك الفاحشة المبهمة في قوله : ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ ، وإن كانت معينة أنها إتيان الذكور في الأدبار بقوله : ﴿ ما سبقكم بها ﴾ ، فقال : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ : يعني في الأدبار ، ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ : الولد ، بتعطيل الفرج ووطء أدبار الرجال ، أو بإمساك الغرباء لذلك الفعل حتى انقطعت الطرق ، أو بالقتل وأخذ المال ، أو بقبح الأحدوثة حتى تنقطع سبل الناس في التجارات .

﴿ وتأتون في ناديكم ﴾ : أي في مجلسكم الذي تجتمعون فيه ، وهو اسم جنس ، إذ أنديتهم في مدائنهم كثيرة ، ولا يسمى نادياً إلاّ ما دام فيه أهله ، فإذا قاموا عنه ، لم يطلق عليه ناد إلاّ مجازاً .

و ﴿ المنكر ﴾ : ما تنكره العقول والشرائع والمروءات ، حذف الناس بالحصباء ، والاستخفاف بالغريب الخاطر ، وروت أم هانىء ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) . أو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً ، قاله منصور ومجاهد والقاسم بن محمد وقتادة بن زيد ؛ أو تضارطهم ؛ أو تصافعهم فيها ، قاله ابن عباس ؛ أو لعب الحمام ؛ أو تطريف الأصابع بالحناء ، والصفير ، والحذف ، ونبذ الحياء في جميع أمورهم ، قاله مجاهد أيضاً ، أو الحذف بالحصى ، والرمي بالبنادق ، والفرقعة ، ومضغ العلك ، والسواك بين الناس ، وحل الأزرار ، والسباب ، والفحش في المزاح ، قاله ابن عباس أيضاً مع شركهم بالله .

كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، تظالم فيما بينهم ، وبشاعة ، ومضاريط في مجالسهم ، وحذف ، ولعب بالنرد والشطرنج ، ولبس المصبغات ، ولباس النساء للرجال ، والمكوس على كل عابر ؛ وهم أول من لاط ومن ساحق .

ولما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح ، أصروا على اللجاج في التكذيب ، فكان جوابهم له : ﴿ أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ ، فيما تعدنا به من نزول العذاب ، قالوا ذلك وهم مصممون على اعتقاد كذبه فيما وعدهم به .

وفي آية أخرى : ﴿ إلاّ أن قالوا أخرجوا آل لوط ﴾ ، الجمع بينهما أنهم أولاً قالوا : ﴿ ائتنا

بعذاب الله ﴾ ، ثم أنه كثر منه الإنكار ، وتكرر ذلك منه نهياً ووعظاً ووعيداً ، ﴿ قالوا أخرجوا آل لوط ﴾ .

ولما كان إنما يأمرهم بترك الفواحش وما كانوا يصنعونه من قبيح المعاصي ، ويعد على ذلك بالعذاب ، وكانوا يقولون إن الله لم يحرم هذا ولا يعذب عليه وهو يقول إن الله حرمه ويعذب عليه ، ﴿ قالوا ائتنا بعذاب الله ﴾ ، فكانوا ألطف في الجواب من قوم إبراهيم بقولهم : ﴿ اقتلوه أو حرّقوه ﴾ ، لأنه كان لا يذم آلهتهم ، وعهد إلى أصنامهم فكسرها ، فكان فعله هذا معهم أعظم من قول لوط لقومه ، فكان جوابهم له : ﴿ أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ .

(277/596)

ثم استنصر لوط عليه السلام ، فبعث ملائكة لعذابهم ، ورجمهم بالحاصب ، وإفسادهم بحمل الناس على ما كانوا عليه من المعاصي طوعاً وكرهاً ، وخصوصاً تلك المعصية المبتدعة .

﴿ بالبشرى ﴾ : هي بشارته بولده إسحاق ، وبنافلته يعقوب ، وبنصر لوط على قومه وإهلاكهم ، و﴿ القرية ﴾ : سدوم ، وفيها قيل : أَجْوَر من قاضي سدوم .

﴿ كانوا ظالمين ﴾ : أي قد سبق منهم الظلم .

واستمر على الأيام السالفة وهم مصرون ، وظلمهم : كفرهم وأنواع معاصيهم .

ولما ذكروا لإبراهيم : ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ ، أشفق على لوط فقال : ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ .

ولما عللوا الإهلاك بالظلم ، قال لهم : فيها من هو بريء من الظلم ، ﴿ قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴾ : أي منك ، وأخبر بحاله .

ثم أخبروه بإنجائهم إياه ﴿ وأهله إلاّ امرأته ﴾ .

وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ لننجينه ﴾ ، مضارع أنجى ؛ وباقي السبعة : مضارع نجى ؛ والجمهور : بشد النون ؛ وفرقة : بتخفيفها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(278/596)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلُوطاً ﴾ منصوبٌ إمَّا بالعطفِ على نوحاً أو على إبراهيمَ والكلامُ في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ كالذي مرَّ في قصَّة إبراهيمَ عليه السَّلام ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ أي الفعلةَ المُتناهيةَ في القُبح . وقُرِىء أَئِنَّكم ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾

استئنافٌ مقررٌ لكمالِ قُبحها ، فإنَّ إجماعَ جميع أفرادِ العالمينَ على التَّحاشي عنها ليس إلا لكونِها مما تشمئزُّ منه الطِّباع وتنفرُ منه النُّفوسُ .

(279/596)

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ وتتعرَّضُون للسَّابلةِ أي بالفاحشةِ ، حيثُ رُوي أنَّهم كانُوا كثيراً ما يفعلونَها بالغُرباء وقيل تقطعون سبيلَ النّساءِ بالإعراض عن الحَرثِ وإتيانِ ما ليس بحرثٍ وقيل : تقطعونَ السَّبيلَ بالقتلِ وأخذِ المالِ ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ﴾ أي تفعلون في مجلسِكم الجامعِ لأصحابكم ﴿ المنكر ﴾ كالجماعِ والضُّراطِ وحلِّ الإزارِ وغيرِها مما لا خيرَ فيه من الأفاعيل المنكرةِ . وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما هو الحَذفُ بالحَصَى والرَّميُّ بالبناد والفرقعةُ ومضغُ العلكِ والسِّواكِ بينَ النَّاس وحلُّ الإزارِ والسِّبابُ والفُحشُ في المِزاحِ ، وقيل : السُّخريةُ بمن مرَّ بهم ، وقيل المجاهرةُ في ناديهم بذلكَ العملِ . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أي فما كان جواباً من جهتِهم شيءٌ من الأشياءِ إلا هذه الكلمةُ الشَّنيعةُ أي لم يصدر عنهم في هذه المرَّةِ من مرَّاتِ مواعظ لوطٍ عليه السَّلام وقد كان أوعدهم فيها بالعذابِ وأمَّا ما في سُورة الأعراف من قولِه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مّن قَرْيَتِكُمْ ﴾

الآيةَ وما في سورة النَّمل من قولِه تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ الآيةَ فهو الذي صَدر عنهم بعده هذه المرةُ وهي المرَّةُ الأخيرةُ من مرَّات المُقاولاتِ الجاريةِ بينهم وبينه عليه الصَّلاة والسَّلام وقد مرَّ تحقيقُه في سورةِ الأعرافِ .

(280/596)

﴿ قَالَ رَبِّ انصرنى ﴾ أي بإنزالِ العذابِ الموعودِ ﴿ عَلَى القوم المفسدين ﴾ بابتداعِ الفاحشةِ وسنِّها فيمن بعدَهُم والإصرارِ عليها واستعجالِ العذابِ بطريقِ الاستهزاءِ وإنما وصفَهم بذلك مبالغةً في استنزالِ العذابِ عليهم ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾ أي بالبشارةِ بالولدِ والنافلة ﴿ قَالُواْ ﴾ أي لإبراهيمَ عليه السَّلامُ في تضاعيفِ الكلامِ حسبما فُصِّل في سورة هود وسورة الحجرِ ﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية ﴾ أي قريةِ سَدُومَ . والإضافةُ لفظيةٌ لأنَّ المَعنى على الاستقبالِ ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ تعليلٌ للإهلاكِ بإصرارِهم على الظُّلم وتمادِيهم في فُنون الفسادِ وأنواعِ المَعاصي ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ فكيف تُهلكونها ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أرادُوا أنَّهم غيرُ غافلينَ عن مكانِ لوطٍ عليه السَّلام فيها بل عمَّن لم يتعرض له إبراهيمُ عليه السَّلامُ من أتباعِه المؤمنينَ وأنَّهم معتنُون بشأنهم أتمَّ اعتناءٍ حسبما يُنبيء عنه تصديرُ الوعد بالتَّنجيةِ بالقسمِ

أيْ والله لننجينَّه وأهلَه ﴿ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ أي الباقينَ في العذابِ أو القريةِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(281/596)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلُوطاً ﴾ عطف على ﴿ إبراهيم ﴾ [العنكبوت : 16] أو على ﴿ نوحاً ﴾ [العنكبوت : 14] والكلام في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ كالذي في القصة السابقة .

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ الفعلة البالغة في القبح ، وقرأ الجمهور ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ على الاستفهام الإنكاري :

﴿ سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ استئناف مقرر لكمال قبحها ، فإن إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس إلا لكونها مما تشمئز منه الطباع السليمة وتنفر منه النفوس الكريمة ، وجوز أبو حيان كون الجملة حالاً من ضمير تأتون ، كأنه قيل : إنكم لتأتون الفاحشة مبتدعين لها غير مسبوقين بها .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال ﴾ أي تنكحونهم ﴿ وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ أي وتقطعون الطريق بسبب تكليف الغرباء والمارة تلك الفعلة القبيحة وإتيانهم كرهاً أو وتقطعون سبيل النسل

بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث ، وقيل : تقطعون الطريق بالقتل وأخذ المال ، وقيل : تقطعونه بقبح الأحدوثة ﴿ وَتَأْتُونَ ﴾ أي تفعلون ﴿ فِى نَادِيكُمُ ﴾ أي في مجلسكم الذي تجتمعون فيه ، وهو اسم جنس إذ أنديتهم في مجالسهم كثيرة ، ولا يسمى نادياً إلا إذا كان فيه أهله فإذا قاموا عنه لم يطلق عليه ناد ﴿ المنكر ﴾ أخرج أحمد .

والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه .

والطبراني .

والبيهقي في الشعب .

وغيرهم عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت : "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ فقال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم ، وعن مجاهد .

ومنصور والقاسم بن محمد .

وقتادة .

وابن زيد .

هو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً ، وعن مجاهد أيضاً هو لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم ، وعن ابن عباس هو تضارطهم وتصافعهم فيها ، وفي رواية أخرى عنه هو الخذف بالحصى والرمي بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الإزار والسباب والفحش في المزاح ولم يأت في قصة لوط عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى كما جاء في قصة إبراهيم وكذا في قصة شعيب الآتية لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم وفي زمانه وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده واشتهر أمره عند الخلق فذكر لوط عليه السلام ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها ، وأما إبراهيم وشعيب عليهما السلام فجاءا بعد انقراض من كان يعبد الله عز وجل ويدعو إليه سبحانه فلذلك دعا كل منهما قومه إلى عبادته تعالى كذا في "البحر" .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أي فيما تعدنا من نزول العذاب على ما في "الكشف" وغيره ، وهذا ظاهر في أنه عليه السلام كان أوعدهم بالعذاب ، وقيل : أي دعوى استحقاقنا العذاب على ما نحن عليه المفهومة من التوبيخ المعلوم من الاستفهام الإنكاري ، وقيل : أي في دعوى استقباح ذلك الناطق بها كلامك .

وهذا الجواب صدر عنهم في المرة الأولى من مرات مواعظ لوط عليه السلام ، وما في سورة

الأعراف المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [الأعراف : 82] الآية وما في سورة النمل المذكور في قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل : 56] الآية فقد صدر عنهم بعد هذه المرة فلا منافاة بين الحصر هنا والحصر هناك ، قاله أبو حيان وتبعه أبو السعود .

وتعقب بأن هذا التعيين يحتاج إلى توقيف .

(283/596)

وأجيب بأن مضموني الجوابين يشعران بالتقدم والتأخر ، وذلك أن ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ من باب التكذيب والسخرية وهو أوفق بأوائل المواعظ والتوبيخات و ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [الأعراف : 82] ونحوه من باب التعذيب والانتقام ، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرر الوعظ والتوبيخ الموجب لضجرهم ومزيد تألمهم مع قدرتهم على التشفي ، وهذا القدر يكفي لدعوى التقدم والتأخر ، وقيل في دفع المنافاة بين الحصرين : إن ما هنا جواب قومه عليه السلام له إذ نصحهم ، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا في أمره ، وقيل : إن أحد الجوابين صدر عن كبار قومه وأمرائهم والآخر

صدر عن غيرهم ، وظاهر صنيع بعض الأجلة يقتضي اختيار أن يكون كل من الحصرين بالإضافة إلى الجواب الذي يرجوه عليه السلام في متابعته فتأمل .

﴿ قَالَ رَبِّ انصرنى ﴾ أي بإنزال العذاب الموعود ﴿ عَلَى القوم المفسدين ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها فيما بعدهم والإصرار عليها واستعجال العذاب بطريق السخرية ، وإنما وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب .

﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾

(284/596)

أي بالبشارة بالولد والنافلة ﴿ قَالُواْ ﴾ أي لإبراهيم عليه السلام في تضاعيف الكلام ﴿ أَنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية ﴾ أي قرية سدوم وهي أكبر قرى قوم لوط وفيها نشأت الفاحشة أولاً على ما قيل ، ولذا خصت بالذكر ، وفي الإشارة بهذه إشارة إلى أنها كانت قريبة من محل إبراهيم عليه السلام وإضافة ﴿ مهلكوا ﴾ إلى ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ﴾ لفظية لأن المعنى على الاستقبال ، وجوز كونها معنوية لتنزيل ذلك منزلة الماضي لقصد التحقيق والمبالغة ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي ، والتأكيد في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر وقال سبحانه :

﴿ إِنَّ أَهْلَهَا ﴾ دون إنهم مع أنه أظهر وأخصر تنصيصاً على اتفاقهم على الفساد كما اختاره الخفاجي .

وقال بعض المدققين : إن ذلك للدلالة على أن منشأ فساد جبلتهم خبث طينتهم ، ففيه إشارة خفية إلى أن المراد من أهل القرية من نشأ فيها فلا يتناول لوطاً عليه السلام ، واعترض بأنه يبعد كل البعد خفاؤها لو كانت على إبراهيم عليه السلام كما هو ظاهر قوله تعالى :

(285/596)

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ وقيل : يجوز أن يكون عليه السلام علم ما أشاروا إليه من عدم تناول أهل القرية إياه لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقته عليه ، وقيل : أراد أن يعلم هل يبقى في القرية عند إهلاكهم أو يخرج منها ثم يهركون ، وكأنه في قوله : ﴿ إِنَّ فِيهَا ﴾ دون إن منهم إشارة إلى ذلك ، وأفهم كلام بعض المحققين أن قوله : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ اعتراض على الرسل عليهم السلام بأن في القرية من لم يظلم بناء على أن المتبادر من إضافة الأهل إليها العموم ، وحمل الأهل على من سكن فيها وإن لم يكن تولده بها ، أو معارضة للموجب للهلاك وهو الظلم بالمانع وهو أن لوطاً بين ظهرانيهم وهو لم يتصف

بصفتهم ، وأن جواب الرسل المحكي بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ تسليم لقوله عليه السلام في لوط مع ادعاء مزيد العلم به باعتبار الكيفية وأنهم ما كانوا غافلين عنه ، وجواب عنه بتخصيص الأهل بمن عداه وأهله على الاعتراض ، أو بيان وقت إهلاكهم بوقت لا يكون لوط وأهله بين ظهرانيهم على المعارضة ، وفيه ما يدل على جواز تأخير البيان عن الخطاب في الجملة ، والذي يغلب على الظن أنهم أرادوا بأهل القرية من نشأ بها على ما هو المتعارف فلا يكون لوط عليه السلام داخلاً في الأهل ، ويؤيد ذلك تأييداً ما قول قومه ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ [النمل : 56] وفهم إبراهيم عليه السلام ما أرادواه وعلم أن لوطاً ليس من المهلكين إلا أنه خشي أن يكون هلاك قومه وهو بين ظهرانيهم في القرية فيوحشه ذلك ويفزعه .

(286/596)

ولعله عليه السلام غلب على ظنه ذلك حيث لم يتعضروا لإخراجه من قرية المهلكين مع علمهم بقرابته منه ومزيد شفقته عليه فقال : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ على سبيل التحزن والتفجع كما في قوله تعالى : ﴿ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ وجل قصده إن لا يكون فيها حين الإهلاك فأخبروه أولاً بمزيد علمهم به وأفادوه ثانياً بما يسره ويسكن جأشه نظير ما في قوله

تعالى : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذكر كالانثى ﴾ [آل عمران : 36] وأكدوا الوعد بالتنيجة إما للإشارة إلى مزيد اعتنائهم بشأنه وإما لتنزيلهم إبراهيم عليه السلام منزلة من ينكر تنجيته لما شاهدوا منه في حقه ، وتحمل النجية على إخراجه من بين القوم وفصله عنهم وحفظه مما يصيبهم فإنها بهذا المعنى الفرد الأكمل ، ويلائم هذا ما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ أي من الباقين في القرية وهو أحد تفسيرين ، ثانيهما ما روى عن قتادة وهو تفسيره الغابرين بالباقين في العذاب فتأمل ، فكلام الله تعالى ذو وجوه ، وفسر الأهل هنا بأتباع لوط عليه السلام المؤمنين ، وجملة ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ مستأنفة وقد مر الكلام في ذلك وكذا في الاستثناء فارجع إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(287/596)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾

الانتقال من رسالة إبراهيم إلى قومه إلى رسالة لوط لمناسبة أنه شابه إبراهيم في أن أنجاه الله

من عذاب الرجز .

والقول في صدر هذه الآية كالقول في آية ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه ﴾ [العنكبوت : 16] المتقدم آنفاً .

وتقدم نظيرها في سورة النمل وفي سورة الشعراء .

وما بين الآيات من تفاوت هو تفنن في حكاية القصة للغرض الذي ذكرته في المقدمة السابعة ، إلا قوله هنا ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ فإنه لم يقع له نظير فيما مضى .

وقوم لوط من الكنعانيين وتقدم ذكرهم في سورة الأعراف .

وتوكيد الجملة بـ (إن) واللام توكيد لتعلق النسبة بالمفعول لا تأكيد للنسبة ، فالمقصود تحقيق أن الذي يفعلونه فاحشة ، أي عمل قبيح بالغ الغاية في القبح ، لأن الفحش بلوغ الغاية في شيء قبيح لأنهم كانوا غير شاعرين بشناعة عملهم وقبحه .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ بهمزة واحدة على الإخبار المستعمل في التوبيخ .

وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف بهمزتين : همزة الاستفهام وهمزة (إنّ) .

وقرأ الجميع ﴿ أإنكم لتأتون الرجال ﴾ بهمزتين .

وفي "الكشاف" : قال أبو عبيد : وجدت الأول أي ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ في الإمام

بحرف واحد بغير ياء ، أي بغير الياء التي تكتب الهمزة المكسورة على صورتها ورأيت الثاني (أي ﴿ أينكم لتأتون الرجال ﴾) بحرفي الياء والنون أ هـ .

(يعني الياء بعد همزة الاستفهام والنون نون إن) .

ولعله يعني بالإمام مصحف البصرة أو الكوفة فتكون قراءة قرائهما رواية مخالفة لصورة الرسم .

(288/596)

وجملة ﴿ أينكم لتأتون الرجال ﴾ الخ بدل اشتمال من مضمون جملة ﴿ لتأتون الفاحشة ﴾ ، باعتبار ما عطف على جملة ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ من قوله ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ الخ لأن قطع السبيل وإتيان المنكر في ناديهم مما يشتمل عليه إتيان الفاحشة .

وأدخل استفهام الإنكار على جميع التفصيل وأعيد حرف التأكيد لتتطابق جملة البدل مع الجملة المبدل منها لأنها الجزء الأول من هذه الجملة المبدلة عند قطع النظر عما عطف عليها تكون من الجملة المبدل منها بمنزلة البدل المطابق .

وقطع السبيل : قطع الطريق ، أي التصدي للمارين فيه بأخذ أموالهم أو قتل أنفسهم أو إكراههم على الفاحشة .

وكان قوم لوط يقعدون بالطرق ليأخذوا من المارة من يختارونه .

فقطع السبيل فساد في ذاته وهو أفسد في هذا المقصد .

وأما إتيان المنكر في ناديهم فإنهم جعلوا ناديهم للحديث في ذكر هذه الفاحشة والاستعداد لها ومقدماتها كالتغازل برمي الحصى اقتراعاً بينهم على من يرومونه ، والتظاهر بتزيين الفاحشة زيادة في فسادها وقبحها لأنه معين على نبذ التستر منها ومعين على شيوعها في الناس .

وفي قوله ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ تشديد في الإنكار عليهم في أنهم الذين سنوا هذه الفاحشة السيئة للناس وكانت لا تخطر لأحد ببال ، وإن كثيراً من المفاسد تكون الناس في غفلة عن ارتكابها لعدم الاعتياد بها حتى إذا أقدم أحد على فعلها وشوهد ذلك منه تنبهت الأذهان إليها وتعلقت الشهوات بها .

والنادي : المكان الذي ينتدي فيه الناس ، أي يجتمعون نهاراً للمحادثة والمشاورة وهو مشتق من النَدْو بوزن العفو وهو الاجتماع نهاراً .

وأما مكان الاجتماع ليلاً فهو السامر ، ولا يقال للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله فإذا قاموا عنه لم يسم نادياً .

﴿ نَادِيكُمُ المنكر فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * قَالَ رَبِّ انصرنى عَلَى القوم المفسدين ﴾ .

الكلام فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفاً في قوله ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه ﴾ [العنكبوت : 24] الآية ، والأمر في ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ للتعجيز وهو يقتضي أنه أنذرهم العذاب في أثناء دعوته .

ولم يتقدم ذكر ذلك في قصة لوط فيما مضى لكن الإنذار من شؤون دعوة الرسل .

وأراد بالنصر عقاب المكذبين ليريهم صدق ما أبلغهم من رسالة الله .

ووصفهم بـ ﴿ المفسدين ﴾ لأنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتدريبهم بها ، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنصر لأن الله لا يحب المفسدين .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾

﴿ لما ﴾ أداة تدل على التوقيت ، والأصل أنها ظرفٌ ملازم الإضافة إلى جملة .

ومدلولها وجود لوجود ، أي وجود مضمون الجملة التي تضاف إليها عند وجود الجملة التي تتعلق بها فهي تستلزم جملتين : أولاهما فعلية ماضوية وتضاف إليها ﴿ لما ﴾ ، والثانية فعلية أو اسمية مشتملة على ما يصلح لأن يتعلق به الظرف من فعل أو اسم مشتق ، ويطلق

على الجملة الثانية الواقعة بعد ﴿ لما ﴾ اسم الجزاء تسامحاً .

ولما كانت ﴿ لما ﴾ ظرفاً مبهماً تعين أن يكون مضمون الجملة التي تضاف إليها ﴿ لما ﴾ معلوماً للسامع ، إذ التوقيت الإعلام بمقارنة زمن مجهول بزمن معلوم .

فوجود ﴿ لما ﴾ هنا يقتضي أن مجيء الملائكة بالبشرى أمر معلوم للسامع مع أنه لم يتقدم ذكر للبشرى ، فتعين أن يكون التعريف في البشرى تعريف العهد لاقتضاء ﴿ لما ﴾ أن تكون معلومة ، فالبشرى هي ما دل عليه قوله تعالى آنفاً ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوءة والكتاب ﴾ [العنكبوت : 27] كما تقدم بيانه .

والبشرى : اسم للبشارة وهي الإخبار بما فيه مسرة للمخبر بفتح الباء وتقدم ذكر البشارة عند قوله تعالى ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ في سورة البقرة (119) .

(290/596)

ومن لطف الله بإبراهيم أن قدّم له البشرى قبل إعلامه بإهلاك قوم لوط لعلمه تعالى بحلم إبراهيم .

والمعنى : قالوا لإبراهيم إنا مهلكوا أهل هذه القرية الخ .

والقرية هي (سدوم) قرية قوم لوط .

وقد تقدم ذكرها في سورة الأعراف .

وجملة ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ تعليل للإهلاك وقصد به استئناس إبراهيم لقبول هذا الخبر المحزن ، وأيضاً لأن العدل يقتضي أن لا يكون العقاب إلا على ذنب يقتضيه .

والظلم : ظلمهم أنفسهم بالكفر والفواحش ، وظلمهم الناس بالغصب على الفواحش والتدرب بها .

وقوله ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ خبر مستعمل في التذكير بسنة الله مع رسله من الإنجاء من العذاب الذي يحل بأقوامهم .

فهو من التعريض للملائكة بتخصيص لوط ممن شملتهم القرية في حكم الإهلاك ، ولوط وإن لم يكن من أهل القرية بالأصالة إلا أن كونه بينهم يقتضي الخشية عليه من أن يشمله الإهلاك .

ولهذا قال ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ بحرف الظرفية ولم يقل : إن منها .

وجواب الملائكة إبراهيم بأنهم أعلم بمن فيها يريدون أنهم أعلم منه بأحوال من في القرية ، فهو جواب عما اقتضاه تعريضه بالتذكير بإنجاء لوط ، أي نحن أعلم منك باستحقاق لوط النجاة عند الله ، واستحقاق غيره العذاب فإن الملائكة لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون وكان جوابهم مُطَمْئِناً إبراهيم .

فالمراد من علمهم بمن في القرية علمهم باختلاف أحوال أهلها المرتب عليها استحقاق العذاب ، أو الكرامة بالنجاة .

وإنما كان الملائكة أعلم من إبراهيم بذلك لأن علمهم سابق على علمه ولأنه علم يقين مُلقى من وحي الله فيما سخر له أولئك الملائكة إذ كان إبراهيم لم يوح الله إليه بشيء في ذلك ، ولأنه علم تفصيلي لا إجمالي ، وعمومي لا خصوصي .

فلأجل هذا الأخير أجابوا بـ ﴿ نحن أعلم بمن فيها ﴾ .

(291/596)

ولم يقولوا : نحن أعلم بلوط ، وكونهم أعلم من إبراهيم في هذا الشأن لا يقتضي أنهم أعلم من إبراهيم في غيره فإن لإبراهيم علم النبوءة والشريعة وسياسة الأمة ، والملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يشتغلون بغير ذلك إلا متى سخرهم الله لعمل .

وبالأولى لا يقتضي كونهم أعلم بهذا منه أن يكونوا أفضل من إبراهيم ، فإن قول أهل الحق إن الرسل أفضل من الملائكة ، والمزية لا تقتضي الأفضلية ، ولكل فريق علم أطلعه الله عليه وخصه به كما خص الخضر بما لم يعلمه موسى ، وخص موسى بما لا يعلمه الخضر ، ولذلك عتب الله على موسى لما سئل : هل يوجد أعلم منك ؟ فقال : لا ، لأنه كان حق الجواب أن يفكر في أنواع العلم .

وجملة ﴿ لَنُنْجِيَنَّهُ وأهله إلا امرأته ﴾ بيان لجملة ﴿ نحن أعلم بمن فيها ﴾ فلذلك لم

تعطف عليها وفُصِلت ، فقد علموا بإذن الله أن لا ينجو إلا لوط وأهله ، أي بنتاه لا غير ويهلك الباقون حتى امرأة لوط .

وفعل ﴿ كانت ﴾ مستعمل في معنى تكون ، فعبر بصيغة الماضي تشبيهاً للفعل المحقق وقوعه بالفعل الذي مضى مثل قوله ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] ، ويجوز أن يكون مراداً به الكون في علم الله وتقديره ، كما في آية النمل (57) ﴿ قدَّرناها من الغابرين ﴾ فتكون صيغة الماضي حقيقة .

وتقدم الكلام على نظير قوله ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ في سورة النمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(292/596)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) ﴾

هنا ينتقل السياق من قصة إبراهيم لقصة ابن أخيه لوط ، ونلحظ أن القرآن في الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكره أولاً ، وعادة القرآن حينما يتكلم عن الرسل يذكر

القوم أولاً ، كما قال تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً . . . ﴾ [الأعراف : 65] ، ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً . . . ﴾ [الأعراف : 73] ، ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً . . . ﴾ [الأعراف : 85] .

قالوا : لأن قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف ، فذكر أنبياءهم أولاً ، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين ، ولهم قرى معروفة ، فالأصل أن القوم هم المقصودون بالرسالة والهداية ؛ لذلك يُذكَرون أولاً فهم الأصل في الرسالة ، أما الرسول فليستْ الرسالة وظيفة يجعلها الله لواحد من الناس .

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين ﴾ [العنكبوت : 28] وسمى خسيسة قومه فاحشة ؛ لذلك قال العلماء في عقوبتها : يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء ؛ لأن الحق سبحانه سمى الزنا فاحشة فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً . . . ﴾ [النساء : 22] والزنا شُرِع له الرجم ، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فِعلْة قوم لوط الرجم .

وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين ﴾ [العنكبوت : 28] لا يعني هذا أن أحداً لم يفعلها قبلهم ، لكنها إنْ فُعِلت فهي فردية ، ليست وباءً منتشراً كما في هؤلاء .

قوله : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال . . . ﴾ [العنكبوت : 29] دلالة على انحراف الغريزة الجنسية عندهم ، والغريزة الجنسية جعلها الله في الإنسان لبقاء النوع ، فالحكمة منها التناسل ، والتناسل لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، حيث تستقبل الأُنثى الحيوان المنوي الذكَري الذي تحتضنه البويضة الأنثوية ، وتعلق في جدار الرحم وتكوّن الجنين ؛ لذلك سمَّي الله تعالى المرأة حَرْثاً ؛ لأنها مكان الاستنبات ، وشَرْط في إتيان المرأة أن يكون في مكان الاستنبات .

لذلك ، فالجماعة الذين كانوا ينادون بتشريع للمرأة يسمح للرجل بأن يأتيها كيفما يشاء ، احتجوا بقوله تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . . . ﴾ [البقرة : 223] .

ونقول لهؤلاء : لقد أخطأتم في فَهْم الآية ، فالحَرْث هو الزرع المستنبت من الأرض ، فمعنى ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ . . . ﴾ [البقرة : 223] أي : أنهم حرث ، إذن : فاحتجاجهم باطل ، وبطلانه يأتي من عدم فهمهم لمعنى الحرث ، وعليه يكون المعنى ائتوهن على أيِّ وجه من الوجوه شريطة أن يكون في مكان الحَرْث .

ولحكمة ربط الحق سبحانه بقاء النوع بالغريزة الجنسية ، وجعل لها لذة ومتَعة تفوق أيَّ لذة أخرى في الحياة ، فمثلاً أنت ترى المنظر الجميل فتُسَرُّ به عينك ، وتسمع الصوت العَذْب

فتسعد به أذنك . . . إلخ فكل منافذ الإدراك لديك لها أشياء تمتعها .

لكن بأيِّ هذه الحواس تُدْرَك اللذة الجنسية ؟ وأيّ ملكة فيك تُسَرُّ منها ؟ كلُّ الحواس وكُلُّ الملكات تستمتع بها ؛ لذلك لا يستطيع الإنسان مقاومتها ، حتى قالوا : إنها اللحظة الوحيدة التي يمكن للإنسان فيها أنْ يغفل عن ربه ؛ لذلك أمرنا بعدها بالاغتسال .

ولولا أن الخالق – عز وجل – ربط مسألة بقاء النوع بهذه اللذة لَزهد فيها كثير من الناس ، لما لها من تبعات ومسئوليات ومشاكل ، لا بُدَّ منها في تربية الأولاد .

(294/596)

وسبق أن ذكرنا الحكمة القائلة : " جَدَعَ الحلال أنفَ الغيرة " فالرجل يغَار على ابنته مثلاً ، ولا يقبل مجرد نظر الغرباء إليها ، ويثور إذا تعرَّض لها أحد ، فإذا جاءه الشاب يطرق بابه ليخطب ابنته رحَّب به ، واستقبله أهل البيت بالزغاريد وعلى الرَّحْب والسعة ، فسقوا (الشربات) وأقاموا الزينات ، فما الفرق بين الحالين ؟ في الأولى كان دمه يغلي ، والآن تنزل كلمات الله في عقد القرآن على قلبه بَرْداً وسلاماً .

أما خسيسة قوم لوط ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال . . . ﴾ [العنكبوت : 29] فهي انحراف عن الطبيعة السَّوية لا بقاءَ فيها للنوع ، ومثلها إتيان المرأة في غير مكان الحرث .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السبيل . . . ﴾ [العنكبوت : 29] أي : تقطعون الطريق على بقاء النوع ؛ لأن الزنا وإنْ جاء بالولد فإنه لا يُوفر له البقاء الكريم الشريف في المجتمع . فالحق سبحانه جعل لبقاء النوع طريقاً واحداً ، فلا تسلك غير هذا الطريق ، لا مع رجل ولا مع امرأة .

والسبيل كلمة مطلقة وتعني الطريق ، سواء كان الطريق المادي أي : الشارع الذي نمشي فيه أو : المعنوي وهو الطريقة التي نسير عليها ، ومنها قوله تعالى :

﴿ قُلْ هذه سبيلي . . . ﴾ [يوسف : 108] أي : طريقي ومنهجي ؛ لذلك السبيل القيمي سبيل واحد ، حتى لا نتصادم ولا نتخاصم في حركة الحياة المعنوية ، أمّا السبيل المادي فمتعدد حتى لا نتزاحم في حركة الحياة المادية .

والسبيل المادي (الطريق) الذي نسير فيه يُعَدُّ سمة الحضارة في أي أُمة ، ونذكر أن هتلر قبل أن يدخل الحرب سنة 1939 جعل كل همّة في إنشاء شبكة من الطرق ؛ لأن حركة الحرب غير العادية تحتاج إلى طرق إضافية أيام الحرب ، ومن ذلك مثلاً الطريق الذي يُسمُّونه طريق المعاهدة ، أي معاهدة سنة 1936 .

إذن : كلما وُجدت حركة زائدة احتاجت إلى طرق إضافية ، وهذه الطرق تتناسب والمكان الذي تنشأ فيه ، فالطرق في المدن نُسمّيها شوارع وفي الخلاء نسميها طرقاً تناسب المساحة داخل المباني ، ومنها تتفرع الحارات ، وهي أقل منها ، ومن الحارة تتفرع العَطْفة ، وهي أقل من الحارة ، وكلما ازدحمتْ البلاد لجأ الناس إلى توسيع نظام الحركة لتيسير مصالح الناس .

كما نرى في القاهرة مثلاً من أنفاق وكَبَارٍ ، حتى لا تُعاق الحركة ، وحتى نوفر للناس انسيابية فيها .

والأنفاق أنسب للجمال في المدن ، والكبارى أجمل في الفضاء ، حيث ترى مع ارتفاع الكباري آفاقاً أوسع ومناظر أجمل ، أما إنْ حدث عكس ذلك فأُنشئت الكبارى داخل الشوارع فإنها تُقلّل من جمال المكان وتُحوّل الشارع إلى أشبه ما يكون بعنابر الورش ، كما أنها تؤذي سكان العمارات المجاورة لها .

وعلى الدولة أن تراعي هذه الأمور عند التخطيط ، ألم نقرأ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ [عبس : 20] لا بُدَّ أن نُيسّر السبل للسالكين ؛ لأن معايش الناس وحركتهم تعتمد على الحركة في هذه الطرق .

فقوله تعالى : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السبيل . . . ﴾ [العنكبوت : 29] فكان من قوم لوط قُطَّاع طرق كالذين يخرجون على الناس في أسفارهم وحركتهم ، فيأخذون أموالهم

وينهبون ما معهم ، وإنْ تأبوا عليهم قتلوهم . وبعد أن قطعوا السبيل على الناس قطعوا السبيل على بقاء النوع .

يقول سبحانه في حقهم : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر . . . ﴾ [العنكبوت : 29] فكانوا لا يتورعون عن فِعْل القبيح وقوله فيجلسون في الطرقات يستهزئون بالمارة ويؤذونهم كالذين يجلسون الآن على المقاهي ويتسكعون في الطرق ويؤذون خَلْق الله ، ويتجاهرون بالقبيح من القول والفعل ، فلا يسْلَم من إيذائهم أحد .

(296/596)

لذلك يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم آداب الطريق ، " فيقول لمن سأله : " وما حَقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام " .

وقد انتشر بين قوم لوط سوء الأخلاق ، بحيث لا ينهى بعضهم بعضاً ، كما قال سبحانه عن اليهود أنهم : ﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ . . . ﴾ [المائدة : 79] .

والنادي : مكان تجمُّع القوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ [العلق : 17] أي : مكان تجمُّع رؤوس القوم وكبارهم ، كما نرى الآن : نادي كذا ، ونادي كذا .

والنادي وهو مكان عام يُعَدُّ المرحلة الأخيرة لانضباط السلوك الذي يجب أن يكون في

المجتمع ، فأنت مثلاً لك حجرة في بيتك خاصة بك ، ولك فيها انضباط خاص بنفسك ، وكذلك في صالة البيت لك انضباط أوسع ، وفي الشارع لك انضباط أوسع .

والانضباط يتناسب مع الواقع الذي تعيشه ، فحين تكون مثلاً بين أناس لا يعرفونك لا يكون انضباطك بنفس الدرجة التي تحرص عليها بين مَنْ تعرفهم كالموظف في مكتبه ، والطالب في مدرسته .

إذن : فهؤلاء القوم قطعوا السبيل في بقاء النوع ، حيث أتوا غير مَأْتيٍّ وانحرفوا عن الفطرة السَّوية ، وقطعوا السبيل المادي ، فأخافوا الناس وروَّعوهم ونهبوا أموالهم ، وأخذوهم من الطرق بغرض هذه الفِعْلة النكراء ، ثم كانوا يتبجحون بأفعالهم هذه ، ويجاهرون بها في أنديتهم وأماكن تجمعاتهم .

فبماذا أجابه القوم ؟

(297/596)

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [العنكبوت : 29] أي : من الصادقين في أنك مُبلِّغ عن الله ، فنحن من العاصين ، وأَرِنا العذاب الذي تتوعدنا به ، وقولهم ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللّهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 29] مع أن العذاب

شيء مؤلم ، ولا يطلب أحد إيلام نفسه ، فهذا دليل على عدم فهمهم لهذا الكلام ، وأنهم غير متأكدين من صدقه ، وإلا لو وَثِقوا بصدقه ما طلبوا العذاب .

وفي موضع آخر ، حكى القرآن عنهم : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56] .

إذن : حدث منهم موقفان وجوابان : الأول ﴿ ائتنا بِعَذَابِ الله . . . ﴾ [العنكبوت : 29] فلما لم يُجبهم إلى هذا الطلب الأحمق ، وظل يتابع دعوته لهم ، فلم ييأس منهم لجأوا إلى حيلة أخرى ، فقالوا ﴿ أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ . . . ﴾ [النمل : 56] والعلة ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56] لأن الطَهْر في نظر هؤلاء عيب ، والاستقامة جريمة ، وهذا دليل على فساد عقولهم ، وفساد قياسهم في الحكم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ انصرني . . . ﴾ .

وفَرْق بين الفاسد في ذاته والمفسد لغيره ، فيا ليتهم كانوا فاسدين في أنفسهم ، إنما كانوا فاسدين مفسدين ، يتعدَّى فسادهم إلى غيرهم .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31)

جاء هنا إبراهيم – عليه السلام – في سياق قصة لوط ، كما جاء لوط في سياق قصة

إبراهيم . ومعنى ﴿ رُسُلُنَآ . . . ﴾ [العنكبوت : 31] أي : من الملائكة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس . . . ﴾ [الحج : 75] .

(298/596)

وقد جاءت الملائكة لإبراهيم بالبشرى ، ولم يذكر مضمون البُشْرى هنا ، وهو البشارة بإسحق ويعقوب وذرية صالحة منهما ، وجاءته بإنذار بأن الله سيُهلك أهل هذه القرية ، وبالبشرى والإنذار يحدث التوازن ؛ لأننا نُبشّر إبراهيم بذرية صالحة مُصْلحة في الكون ، ونهلك أهل القرية الذين انحرفوا عن منهج الله .

وتلحظ في الآية أنها لم تذكر العلة في البُشْرى فلم تقل لأنه كان مؤمناً ومجاهداً وعادلاً ، إنما ذكرت العلة في إهلاك أهل القرية ﴿ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ [العنكبوت : 31] لماذا ؟ لأن المتفضّل لا يمنُّ بفضله على أنه عمل بمقابل ، لكن المعذب يبين سبب العذاب .

فماذا كان الانفعال الأوليّ عند إبراهيم – عليه السلام – ساعة سمع البُشْرى والإنذار ؟ لم يسأل عن البشرى ، مع أنه كان متلهفاً عليها ، إنما شغلته مسألة إهلاك القرية ، وفيها ابن أخيه لوط . لذلك قال : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ . . . ﴾ .

فلم يستشرف إبراهيم للبشرى ، واهتم بمسألة إهلاك قرية قوم لوط ؛ لأن فيها لوطاً مما يدلُّ

على أن الإنسان لا يشغله الخير لنفسه عن الشر لغيره ، وهنا ردَّ الملائكة ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا . . . ﴾ [العنكبوت : 32] فهذه مسألة لا تخفى علينا .

ثم يُطمئنونه على ابن أخيه ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 32] وأهله : تشمل كل الأهل ؛ لذلك استثنوا منهم ﴿ إِلَّا امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [العنكبوت : 32] .

والغابرون : جمع غابر ، ولها استعمالان في اللغة : نقول : الزمان الغابر أي الماضي ، وغابر بمعنى باقٍ أيضاً ، فهي إذن تحمل المعنى وضده ؛ ذلك لأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية ، وامرأة لوط باقية لتهلك معهم ، وتذهب مع مَنْ سيذهبون بالإهلاك ، فهي إذن باقية في العذاب . فجاءت الكلمة ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ [العنكبوت : 32] لتؤدي هذين المعنيين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(299/596)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قطع)

القطع : الإبانة ، قطعه قَطْعاً وتِقْطاعا ومَقْطَعاً وقطعت النَّهرَ قُطُوعاً : عبرت .

وقَطَع ماءُ الركيَّة قُطُوعاً وقَطَاعاً : انقطع وذهب .

والقطع يكون مدركاً بالبصر ، كقطع اللحم ونحوه ، ومنه ، قوله تعالى : ﴿ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ ، وقوله : ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ ؛ ويكون مدركا بالبصيرة ، نحو قطع الطريق ، وذلك على وجهين : أَحدهما يراد به السَّير والسلوك ، والثانى يراد به الغَضْب من المارّة والسالكين ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ ، وسمّى قطع الطَّريق لأَنَّه يؤدى إلى انقطاع النَّاس عن الطريق .

وقطع الرَّحم يكون بالهِجران ومنع البرّ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ ﴾ أَى ليقطع حبله حتى يقع .

وقيل : ليقطع عمره بالاختناق ، وهو معنى قول ابن عباس [ثم] ليختنق .

ومعنى الآية : مَن ظنَّ أَنَّ الله لا ينصر نبيَّه فليشدّ حبلا فى سقفه – وهو السَّماء – ثمَّ ليقطع الحبل ، قال اللَّيث : يقال : قَطَع الرَّجلُ الحبل أَى اختنق ، لأَن المختنِق يمدّ السببَ إلى السَّقف ثم يقطع نفسه من الأَرض حتى يختنق ، تقول منه : قَطَع الرَّجل .

وسأَل النبىَّ صلَّى الله عليه وسلَّم سائل فقال : "اقطعوا لسانه عنّى" : أَى أَرضُوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً ﴾ أَى جعلنا فى كلِّ قرية منهم طائفة تؤدّى الجزية .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَى إِلاَّ أَن يموتوا ، واستثنى الموت من شكّهم لأَنَّهم إِذا ماتوا أَيقنوا ، وذلك لا ينفعهم ، وقيل : معناه إِلاَّ أَنْ يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندما على تفريطهم .

وقيل : ورد القطع فى القُرْآن على اثنى عشر وجها :

(300/596)

الأَوّل : بمعنى الخدش والخمش من الحيرة والدّهش : ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ .

الثانى : إِبانة العضو من السّارقين : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ ، ﴿ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ ﴾ ، ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ .

الثالث : بمعنى قطع الطرقات : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ .

الرابع : بمعنى قطع الأَرحام : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ .

الخامس : بمعنى الاختلاف فى الملّة والتفرّق فى الدّين : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ .

/ السّادس : بمعنى التفريق والتشتيت : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً ﴾ .

السّابع : بمعنى الاستئصار : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

الثامن : بمعنى تبعيد القريب أَو تقريب البعيد : ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ ﴾ أَى بقرب بعض وبُعد آخرين .

التاسع : بمعنى التقدير والإِعداد : ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ .

العاشر : بمعنى زوال الرَّجاء والأَمل : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، أَى يئسوا ممَّا رجَوْا .

الحادى عشر : بمعنى القهر والقتل : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَى يقتل طائفة منهم .

الثانى عشر : بمعنى إِحكام الأَمر وإِتقان العزيمة والتَّدبير : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أَى مبرِمة محكِمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 282. 284 ﴾

(301/596)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) ﴾

لا مَهُم على خصلتهم الشنعاء ، وما كانوا يتعاطونه على الله من الاجتراء ، وما يُضَيِّعُونه من المعروف ويأتون من المنكر الذي جملته تخليته الفُسَّاق مع فِسقهم ، وترك قلة احترام الشيوخ والأكابر ، ومنها التسويف في التوبة ، ومنها التفاخر بالزَّلة .

فما كان جوابُهم إلا استعجالَ العقوبة ، فحلَّ بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك من شاركهم .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31)

التبس على إبراهيم أمرُهم فظنَّهم أضيافاً ؛ فتكلَّفَ لهم تقديم العجل الحنيذ جرياً على سُنَّتِه في إكرام الضيف . فلما أخبروه مقصودَهم من إهلاك قوم لوط تكلَّم من باب لوط . . . إلى أن قالوا : إنَّا مُنَجُّوه . وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوطٍ – وإنْ كان بريئاً – لم يكن ظلماً ؛ إذ لو كان قبيحاً لما كان إبراهيم عليه السلام – مع وفرة عِلْمِه – يشكل عليه حتى كان يجادل عنه . بل لله أن يعذِّب منْ يعذِّب ، ويُعَافِي مَنْ يُعَافِي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 96.95 ﴾

(302/596)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لم يبق بعد هذا إلا خبر الرسل مع لوط عليه الصلاة والسلام ، قال عاطفاً على ما تقديره : ثم فارقوه ومضوا إلى المدينة التي فيها لوط عليه السلام ، مفهماً بالعدول عن الفاء إلى الواو أن بين المكانين بعداً : ﴿ ولما ﴾ وأثبت ما صورته صورة الحرف المصدري لما اقتضاه مقصود السورة ، وأكثر سياقاتها بين التسليك في مقام الامتحان والاجتهاد في النهي عن المنكر ، ولذا ذكر هنا في قصة إبراهيم عليه السلام القتل والإحراق ، وأتبعت بشراء بإهلاك القرية الظالمة ، فقال : ﴿ أن جاءت رسلنا ﴾ أي المعظمون بنا ﴿ لوطاً ﴾ بيانا لأنه ﴿ سيء ﴾ أي حصلت له المساءة ﴿ بهم ﴾ أول أوقات مجيئهم إليه وحين قدومهم عليه ، فاجأته المساءة من غير ريب لما رأى من حسن أشكالهم ، وخاف من تعرض قومه لهم ، وهو يظن أنهم من الناس ، وذلك أن أن في مثل هذا صلة وإن كان أصلها المصدر لتؤكد وجود الفعلين مرتباً وجود أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما

فإنها وجدا في جزء واحد من الزمان ، قال ابن هشام في المغني ما معناه أن علة ذلك أن الزائد يؤكد معنى ما جيء به لتأكيده ، ولما تقيد وقوع الفعل الثاني عقيب الأول وترتبه عليه فالحرف الزائد يؤكد ذلك .

﴿ وضاق بهم ﴾ أي بأعمال الحيلة في الدفع عنهم ﴿ ذرعاً ﴾ أي ذرعة طاقتهم كما بين وأشبع القول فيه في سورة هود عليه السلام ، والأصل في ذلك أن من طالت ذراعه نال ما لا يناله قصيرها ، فضرب مثلاً في العجز والقدرة ، وذلك أنهم أتوه في صورة مردان ملاح جداً ، وقد علم أمر أهل القرية في مثل ذلك ولم يعلم أنهم رسل الله .

(303/596)

ولما كان التقدير : فقالوا له : يا لوط ! إنا رسل ربك ، فخفض عليك من هذا الضيق الذي نراه بك فإنا ما أرسلنا إلا لإهلاكهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وقالوا ﴾ أي لما رأوا ما لقي في أمرهم : ﴿ لا تخف ﴾ أي من أن يصلوا إلينا أو من أن تهلك أنت أو أحد من أهل طاعتك ولا تحزن أي على أحد ممن نهلكه فإنه ليس في أحد منهم خير يؤسف عليهم بسببه ؛ ثم عللوا ذلك بقولهم مبالغين في التأكيد للإغناء به عن جمل طوال ، إشارة إلى أن الوقت أرق فهو لا يحتمل التطويل : ﴿ إنا منجوك ﴾ أي مبالغون في إنجائك ﴿ وأهلك ﴾ أي ومهلكوا

أهل هذه القرية ، فلا يقع ضميرك أنهم يصلون إلينا ، وقالوا : ﴿ إلا امرأتك ﴾ تنصيصاً على كل فرد منهم سواها ؛ ثم دلوا على هلاكها بقولهم جواباً لمن كأنه قال : ما لها ؟ فقيل : ﴿ كانت من الغابرين ﴾ أي كأن هذا الحكم في أصل خلقتها .

ولما أفهمت العبارة كما مضى إهلاكهم ، صرحوا به فقالوا معينين لنوعه ، معللين لما أخبروه به ، مؤكدين إعلاماً بأن الأمر قد فرغ منه قطعاً لأن يشفع فيهم ، جرياً على عادة الأنبياء في الشفقة على أممهم : ﴿ إنا منزلون ﴾ أي لا محالة ﴿ على أهل هذه القرية رجزاً ﴾ أي عذاباً يكون فيه اضطراب شديد يضطرب منه من أصابه كائناً من كان ﴿ من السماء ﴾ فهو عظيم وقعه ، شديد صدعه ﴿ بما كانوا ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ يفسقون ﴾ أي يخرجون في كل وقت من دائرة العقل والحياء .

(304/596)

ولما كان التقدير : ففعلت رسلنا ما وعدوه به من إنجائه وإهلاك جميع قراهم ، فتركناها ، كأن لم يسكن بها أحد قط ، عطف عليه قوله مؤكداً إشارة إلى فضيلة المخاطبين بهذه القصة من العرب وغيرهم ، وأنه ليس بينهم وبين الهدى إلا تفكرهم في أمرهم مع الإنخلاع من الهوى : ﴿ ولقد تركنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ منها ﴾ أي من تلك القرية ﴿ آية ﴾

علامة على قدرتنا على كل ما نريد ﴿ بينة ﴾ وهو الماء الأسود المنتن الذي غمر قراهم كلها بعد الخسف بها وهو مباين لجميع مياه الأرض لكونه ماء السخط لمن باينوا بفعلهم الخلق مع اشتهار كونه على الخسف .

ولما كان سبحانه قد حجب عن الأبصار كثيراً من الناس قال : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ فعد من لم يستبصر به غير عاقل ولا شاعر بأنها آية ولا فيه أهلية القيام بما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 556 . 557 ﴾

(305/596)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

ثم إنهم جاؤا من عند إبراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشراً فخاف عليهم من قومه لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسيء بهم أي جاءه ما ساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعاً كناية عن العجز في تدبيرهم ، قال الزمخشري يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز ، وذلك لأن من طال

ذراعه يصل إلى ما لا يصل إليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجهاً معقولاً غير ذلك ، وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضاً والقلب هو المعتبر من الإنسان ، فكان الإنسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ، ويقال في الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ، ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه في أول الأمر وحزنه بسبب تدبيرهم في ثاني الأمر قالوا لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر في أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فإن مجرد قول القائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ وإنا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى قال من قبل : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم ﴾ [العنكبوت : 31] وقال ههنا : ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا ﴾ فما الحكمة فيه ؟ فنقول حكمة بالغة وهي أن الواقع في وقت المجيء هناك قول الملائكة ﴿ إنا مهلكوا ﴾ وهو لم يكن متصلاً بمجيئهم لأنهم بشروا أولاً

ولبثوا ، ثم قالوا : إنا مهلكوا وأيضاً فالتأني واللبث بعد المجيء ثم الإخبار بالإهلاك حسن فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجيء به ، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم ، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئاً من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير ، إذا علم هذا فقوله ههنا : ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا ﴾ يفيد الاتصال يعني خاف حين المجيء ، فإن قلت هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت في سورة هود (77) ، وقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً ﴾ من غير أن ، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك : ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾ [هود : 69] فقوله هنالك : ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ ﴾ لا يدل على أن قولهم : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ كان في وقت المجيء .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيء بِهِمْ ﴾ دل على أن حزنه كان وقت المجيء .

إذا علم هذا فنقول : هناك قد حصل ما ذكرنا من المقصود بقوله في حكاية إبراهيم :

﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾

[هود : 69] ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ، ثم قالوا : ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ ولا تحزن ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] فحصل تأخير الإنذار ، وبقوله في حكاية لوط ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا ﴾ حصل بيان تعجيل الحزن ، وأما هنا لما قال في قصة إبراهيم

﴿ وَلَمَّا جَاءتْ ﴾ قال في حكاية لوط ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ ﴾ لما ذكرنا من الفائدة .

المسألة الثانية :

(307/596)

: قال هنا ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ وقال لإبراهيم ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ [العنكبوت : 32] بصيغة الفعل فهل فيه فائدة ؟ قلنا ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً ، والذي يظهر لعقل الضعيف أن هناك لما قال لهم إبراهيم : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم ، وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ أي ذلك واقع منا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر : 30] لضرورة وقوعه .

المسألة الثالثة :

قولهم : ﴿ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ لا يناسبه ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ لأن خوفه ما كان على نفسه ، نقول بينهما مناسبة في غاية الحسن ، وهي أن لوطاً لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له لا تخف علينا ولا تحزن لأجلنا فإنا ملائكة ، ثم قالوا له : يا لوط خفت علينا وحزنت

لأجلنا ، ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك ، وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ .

المسألة الرابعة :

(308/596)

القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر ، كما أن الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم ، فبالدلالة صارت واحدة منهم ، ثم إنهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا أنهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً مِّنَ السماء ﴾ واختلفوا في ذلك ، فقال بعضهم حجارة وقيل نار وقيل خسف ، وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وإنما يكون الأمر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ، ثم اعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع إبراهيم قدموا البشارة على الإنذار حيث قالوا : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ ثم قالوا : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية ﴾ ولم يعللوا التنجية ، فما قالوا إنا منجوك لأنك نبي أو عابد ، وعللوا الإهلاك بقولهم : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ وقالوا بما كانوا

، كما قالوا هناك : ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ [العنكبوت : 31] ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي من القرية فإن القرية معلومة وفيها الماء الأسود وهي بين القدس والكرك وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

(309/596)

جعل الله الآية في نوح وإبراهيم بالنجاة حيث قال : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها ءايَةً ﴾ [العنكبوت : 15] وقال : ﴿ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار إِنَّ فِى ذلك لآيات ﴾ [العنبكوت : 24] وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء ؟ نقول نعم ، أما إبراهيم فلأن الآية كانت في النجاة لأن في ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما في نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهي ، وما به النجاة وهو السفينة كان باقياً ، والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقي آية ، وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الأمر الباقي وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة : وهي أن الله تعالى آية قدرته موجودة في الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة وأخر آيات الإهلاك لأنها

أثر الغضب ورحمته سابقة .

المسألة الثانية :

قال في السفينة : ﴿ وجعلناها ءايَةً ﴾ ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لأن الإنجاء بالسفينة أمر يتسع له كل عقل وقد يقع في وهم جاهل أن الإنجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد ، وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان ، فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك إلى أن يقال له فمن أين علم أنه يحتاج إليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ؟ ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم ؟ .

المسألة الثالثة :

(310/596)

قال هناك ﴿ للعالمين ﴾ وقال ههنا : ﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ قلنا لأن السفينة موجودة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله ، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاة ولا يثق أحد بمجرد السفينة ، بل يكون دائماً مرتجف القلب متضرعاً إلى الله تعالى

طلباً للنجاة ، وأما أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من يمر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله المريد ، بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان بعد زمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 54 . 56 ﴾

(311/596)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيء بِهِمْ ﴾

، والضمير في ﴿ بهم ﴾ في الموضعين عائد على الأضياف الرسل ، وذلك من تخوفه لقومه عليهم فلما أخبروه بما هم فيه فرج عنه ، وقرأ عامة القراء " سِيء " بكسر السين ، وقرأ عيسى وطلحة بضمها ، و" الرجز " ، العذاب ، وقوله : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ ، أي عذابهم بسبب فسقهم ، وكذلك كل أمة عذبها الله ، فإنما عذبها على الفسوق والمعصية لكن بأن يقترن ذلك بالكفر الذي يوجب عذاب الآخرة ، وقرأ أبو حيوة والأعمش " يفسِقون " بكسر السين ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد تركنا منها ﴾ أي من خبرها وما بقي من أثرها ، ف " من " لابتداء الغاية ويصح أن تكون للتبعيض على أن يريد ما ترك من بقايا بناء

القرية ومنظرها ، و" الآية " موضع العبرة وعلامة القدرة ومزدجر النفوس عن الوقوع في سخط الله تعالى ، وقرأ جمهور القراء " مِنزلون " بتخفيف الزاي ، وقرأ ابن عامر " منزِّلون " بشد الزاء وهي قراءة الحسن وعاصم بخلاف عنهما ، وقرء الأعمش " إنا مرسلون " بدل ﴿ منزلون ﴾ ، وقرأ ابن محيصن " رُجزاً " بضم الراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(312/596)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾

قال الكسائي : المعنى وأنجينا لوطاً أو أرسلنا لوطاً .

قال : وهذا الوجه أحب إليّ .

ويجوز أن يكون المعنى واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبخاً أو محذراً ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين ﴾ ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ تقدم القراءة في هذا وبيانها في سورة "الأعراف" .

وتقدم قصة لوط وقومه في "الأعراف" و"هود" أيضاً .

﴿ وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ قيل : كانوا قطاع الطريق ؛ قاله ابن زيد .

وقيل : كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة ؛ حكاه ابن شجرة .

وقيل : إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال قاله وهب بن منبّه .

أي استغنوا بالرجال عن النساء .

قلت : ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة ، ويستغنون عن النساء بذلك .

﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ النادي المجلس واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه ؛ فقالت فرقة : كانوا يخذفون النساء بالحصى ، ويستخفّون بالغريب والخاطر عليهم .

وروته أم هانىء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

" قالت أم هانىء : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ قال : "كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه" " أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده .

وذكره النحاس والثعلبي والمهدوي والماوردي .

وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخذف فإذا مرّ بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به " يعني يذهب به للفاحشة فذلك قوله : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ .

وقالت عائشة وابن عباس والقاسم ابن أبي بَزّة والقاسم بن محمد : إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم .

(313/596)

وقال (منصور عن) مجاهد كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً .

وعن مجاهد : كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم .

قال ابن عطية : وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالتناهي واجب .

قال مكحول : في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط : مضغ العلك ، وتطريف الأصابع بالحنّاء ، وحلّ الإزار ، وتنقيض الأصابع ، والعمامة التي تلف حول الرأس ، والتشابك ، ورمي الجُلاهِق ، والصفير والخذف ، واللوطية .

وعن ابن عباس قال : إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ، ويشتم بعضهم بعضاً ، ويتضارطون في مجالسهم ، ويخذفون ويلعبون بالنَّرْد والشِّطْرَنج ، ويلبسون المصبغات ، ويتناقرون بالديكة ، ويتناطحون بالكباش ، ويُطرِّفون

أصابعهم بالحنّاء ، وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ، ويضربون المكوس على كل عابر ، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله وهم أوّل من ظهر على أيديهم اللوطية والسِّحاق .

فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج فقالوا : ﴿ ائتنا بِعَذَابِ الله ﴾ أي إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه .

وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه .

وليس يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا .

ثم استنصر لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم ، فجاؤوا إبراهيم أوّلاً مبشرين بنصرة لوط على قومه ، حسبما تقدّم بيانه في "هود" وغيرها .

وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي : ﴿ لَنَجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ بالتخفيف .

وشدّد الباقون .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي : ﴿ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ بالتخفيف .

وشدّد الباقون .

وهما لغتان : أَنْجَى ونَجَّى بمعنى .

وقد تقدّم .

وقرأ ابن عامر : ﴿ إِنَّا مُنَزِّلُونَ ﴾ بالتشديد وهي قراءة ابن عباس .

الباقون بالتخفيف .

(314/596)

وقوله : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ قال قتادة : هي الحجارة التي أبقيت .

وقاله أبو العالية .

وقيل : إنه يرجم بها قوم من هذه الأمة .

وقال ابن عباس : هي آثار منازلهم الخربة .

وقال مجاهد : هو الماء الأسود على وجه الأرض .

وكل ذلك باق فلا تعارض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(315/596)

وقال أبو حيان :

﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾

تقدم الكلام على مثل هذه الجملة ، إلاّ أن هنا زيدت ، أن بعد لما ، وهو قياس مطرد .

وقال الزمخشري أن صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما ، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : لما أحس بمجيئهم ، فاجأت المساءة من غير وقت خيفة عليهم من قومه . انتهى .

وهذا الذي ذكره في الترتيب هو مذهب سيبويه ، إذ مذهبه .

أن لما : حرف لا ظرف ، خلافاً للفارسي ، وهذا مذكور في علم النحو .

وقرأ العربيان ، ونافع ، وحفص : ﴿ منجوك ﴾ ، مشدداً ؛ وباقي السبعة : مخففاً ، والكاف في مذهب سيبويه في موضع جر .

﴿ وأهلك ﴾ : منصوب على إضمار فعل ، أي وننجي أهلك .

ومن راعى هذا الموضع ، عطفه على موضع الكاف ، والكاف على مذهب الأخفش وهشام في موضع نصب ، وأهلك معطوف عليه ، لأن هذه النون كالتنوين ، وهما على مذهبهما يحذفان للطافة الضمير وشدة طلبه الاتصال بما قبله .

وقرأ الجمهور : سيء ، بكسر السين ؛ وضمها نافع وابن عامر والكسائي .

وقرأ عيسى ، وطلحة : سوء ، بضمها ، وهي لغة بني هذيل .

وبني وبير يقولون في قيل وبيع ونحوهما : قول وبوع .

وقرىء : منزلون ، مخففاً ومشدداً ؛ وابن محيصن : رجزاً ، بضم الراء ؛ وأبو حيوة

والأعمش : بكسر سين يفسقون .

والظاهر أن الضمير في منها عائد على القرية ، فقال ابن عباس : منازلهم الخربة .

وحكى أبو سليمان الدمشقي أن الآية في قريتهم ، إلا أن أساسها أعلاها ، وسقوفها أسفلها إلى الآن .

وقال الفراء : المعنى تركناها آية ، يقول : إن في السماء لآية ، يريد أنها آية .

(316/596)

انتهى ، وهذا لا يتجه إلا على زيادة من في الواجب ، نحو قوله : أمهرت منها جبة وتيساً ، يريد : أمهرتها ؛ وكذلك : ولقد تركناها آية ، وقيل : الهاء في منها عائدة على الفعلة التي فعلت بهم ، فقيل : الآية : الحجارة التي أدركتها أوائل هذه الأمة ، قاله قتادة ؛ وقيل : الماء الاسود على وجه الأرض ، قاله مجاهد ؛ وقيل : أنجز ما صنع بهم .

و﴿ لقوم ﴾ : متعلق بتركنا ، أو بينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(317/596)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا ﴾ المذكورينَ بعد مفارقتِهم لإبراهيمَ عليه السَّلامُ ﴿ لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ اعتراهُ المساءةُ بسببهم مخافةَ أنْ يتعرَّض لهم قومُه بسوءٍ . وكلمةُ أنْ صلةٌ لتأكيدِ ما بين الفعلينِ من الاتّصالِ ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي ضاقَ بشأنِهم وتدبيرِ أمرِهم ذرعُه أي طاقتُه كقولِهم ضاقتْ يدُه وبإزائه رَحُبَ ذَرْعُه بكذا إذا كان مُطبقاً به قادراً عليه وذلك أنَّ طويلَ الذِّراعِ ينالُ ما لا يناله قصيرُ الذِّراعِ .

(318/596)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ ريثما شاهدوا فيه مخايلَ التَّضجرِ من جهتهم وعاينُوا أنَّه قد عجزَ عن مُدافعةِ قومِه بعد اللَّتيا والتِّي حتى آلتْ به الحالُ إلى أنْ قالَ : (لو أنَّ لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ) ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ أي من قومِك علينا ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ أي على شيءٍ وقيل بإهلاكِنا إيَّاهم ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ ممَّا يُصيبهم من العذابِ ﴿ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ وقُرِئ لننجينَّك ومنجُّوك من الإنجاءِ ، وإيَّا ما كان فمحلُّ الكافِ الجرُّ على المختارِ ونصب أهلكَ بإضمار فعلٍ أو بالعطفِ على محلِّها باعتبارِ الأصلِ ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً مِّنَ السماء ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ ما أُشيرَ إليه بوعدِ

التَّنجيةِ من نزول العذابِ عليهم . والرِّجزُ العذابُ الذي يُقلقُ المعذَّبَ أي يُزعجُه من قولِهم ارتجزَ إذا ارتجسَ واضطربَ . وقُرِىء مُنزِّلون بالتَّشديدِ . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ بسببِ فسقِهم المستمرِّ ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ﴾ أي من القريةِ ﴿ آيَةً بَيِّنَةً ﴾ هي قصَّتُها العجيبةُ آثارُ ديارِها الخربةِ وقيل : الحجارةُ المطمُورة فإنَّها كانتْ باقيةً بعدها وقيل : الماءُ الأسودُ على وجهِ الأرضِ ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولَهم في الاستبصارِ والاعتبارِ وهو متعلقٌ إما بتركنا أو ببينةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(319/596)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا ﴾

المذكورون بعد مفارقتهم إبراهيم عليه السلام ﴿ لُوطاً سِىءَ بِهِمْ ﴾ أي اعتراه المساءة والغم بسبب الرسل مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء كما هو عادتهم مع الغرباء ، وقد جاءوا إليه عليه السلام بصور حسنة إنسانية .

وقيل : ضمير ﴿ بِهِمُ ﴾ للقوم أي سيء بقومه لما علم من عظيم البلاء النازل بهم ، وكذا ضمير ﴿ بِهِمُ ﴾ الآتي وليس بشيء ، و ﴿ إن ﴾ مزيدة لتأكيد الكلام التي زيدت فيه

فتؤكد الفعلين واتصالهما المستفاد من لما حتى كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان فكأنه قيل : لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث .

﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته كقولهم : ضاقت يده ، ويقابله رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً له قادراً عليه ، وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع .

﴿ وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ عطف على سيء ، وجوز أن يكون عطفاً على مقدر أي قالوا : إنا رسل ربك وقالوا الخ ، وأياً ما كان فالقول كان بعد أن شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه عليه السلام قد عجز عن مدافعة قومه حتى آلت به الحال إلى أن قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : 80] والخوف للمتوقع والحزن للواقع في الأكثر ، وعلهي فالمعنى لا تخف من تمكنهم منا ولا تحزن على قصدهم إيانا وعدم اكتراثهم بك ، ونهيهم عن الخوف من التمكن إن كان قبل إعلامهم إياه أنهم رسل الله تعالى فظاهر ، وإن كان بعد الإعلام فهو لتأنيسه وتأكيد ما أخبروه به .

وقال الطبرسي : المعنى لا تخف علينا وعليك وتحزن بما نفعله بقومك : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ فلا يصيبكم ما يصيبهم من العذاب ﴿ إِلاَّ امرأتك ﴾ إنها ﴿ كَانَتْ ﴾ في علم الله تعالى ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ وقرأ حمزة والكسائي .

ويعقوب ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ [العنكبوت : 32] بالتخفيف من الإنجاء ، ووافقهم ابن كثير في الثاني .

وقرأ الجمهور بشد نون التوكيد ، وفرقة بتخفيفها وأياً ما كان فمحل الكاف من منجوك الجر بالإضافة ، ولذا حذفت النون عند سيبويه و ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ منصوب على إضمار فعل أي وننجي أهلك ، وذهب الأخفش .

وهشام إلى أن الكاف في محل النصب وأهلك معطوف عليه وحذفت النون لشدة طلب الضمير الاتصال بما قبله للإضافة ، قال بعض الأجلة : لا مانع من أن يكون لمثل هذا الكاف محلان الجر والنصب ويجوز العطف عليها بالاعتبارين ، وقرأ نافع .

وابن كثير .

والكسائي ﴿ سِيء ﴾ باشمام السين الضم ، وقرأ عيسى .

وطلحة ﴿ سُوء ﴾ بضمها وهي لغة بني هذيل .

وبني دبير يقولون في نحو قيل وبيع قول وبوع وعليه قوله :

حوكت على نولين إذ تحاك . . .

تحبط الشوك ولا تشاك

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً مّنَ السماء ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أشير

إليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم ، والرجز العذاب الذي يقلق المعذب أي يزعجه من قولهم : ارتجز إذا ارتجس واضطرب وقرأ ابن عامر ﴿ مُنزِلُونَ ﴾ بالتشديد .

وابن محيصن ﴿ رِجْزًا ﴾ بضم الراء ﴿ بِمَا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المعهود المستمر ، وقرأ أبو حيوة .

والأعمش بكسر السين .

(321/596)

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ﴾ أي من القرية على ما عليه الأكثر ﴿ ءايَةً بَيِّنَةً ﴾ قال ابن عباس : هي آثار ديارها الخربة ، وقال مجاهد : هي الماء الأسود على وجه الأرض ، وقال قتادة : هي الحجارة التي أمطرت عليهم وقد أدركتها أوائل هذه الأمة ، وقال أبو سليمان الدمشقي : هي أن أساسها أعلاها وسقوفها أسفلها إلى الآن ؛ وأنكر ذوو الأبصار ذلك ، وقال الفراء : المعنى تركناها آية كما يقال : إن في السماء آية ويراد أنها آية .

وتعقبه أبو حيان بأنه لا يتجه إلا على زيادة ﴿ مِنْ ﴾ في الواجب نحو قوله :

أمهرت منها جبة وتيساً . . .

يريد أمهرتها .

وقال بعضهم : إن ذلك نظير قولك : رأيت منه أسداً ، وقيل : الآية حكايتها العجيبة الشائعة ، وقيل : ضمير ﴿ مِنْهَا ﴾ للفعلة التي فعلت بهم والآية الحجارة أو الماء الأسود والظاهر ما عليه الأكثر .

(322/596)

ولا يخفى معنى ﴿ مِنْ ﴾ على هذه الأقوال ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار ، فالفعل منزل منزلة اللازم و ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ متعلق بتركنا أو ببينة ، واستظهر الثاني هذا ، وفي الآيات من الدلالة على ذم اللواطة وقبحها ما لا يخفى ، فهي كبيرة بالاجماع ، ونصوا على أنها أشد حرمة من الزنا وفي "شرح المشارق" للأكمل أنها محرمة عقلاً وشرعاً وطبعاً ، وعدم وجوب الحد فيها عند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه لعم الدليل عنده على ذلك لا لخفتها ، وقال بعض العلماء : إن عدم وجوب الحد للتغليظ لأن الحد مطهر ، وفي جواز وقوعها في الجنة خلاف ، ففي الفتح قيل : إن كانت حرمتها عقلاً وسمعاً لا تكون في الجنة وإن كانت سمعاً فقط جاز أن تكون فيها ، والصحيح أنها لا تكون لأن الله تعالى استبعدها واستقبحها فقال سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين ﴾ [العنكبوت : 28] وسماها خبيثة فقال عز وجل

: ﴿ كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ﴾ [الأنبياء : 74] والجنة منزهة عنها .

وتعقب هذا الحموي بأنه لا يلزم من كون الشيء خبيثاً في الدنيا أن لا يكون له وجود في الجنة ألا ترى أن الخمر أم الخبائث في الدنيا ولها وجود في الجنة ، وفيه بحث ، لأن حبث الخمر في الدنيا لإزالتها العقل الذي هو عقال عن كل قبيح وهذا الوصف لا يبقى لها في الجنة ولا كذلك اللواطة .

(323/596)

وفي الفتوحات المكية في صفة أهل الجنة أنهم لا أدبار لهم لأن الدبر إنما خلق في الدنيا لخروج الغائط وليست الجنة محلاً للقاذورات ، وعليه فعدم وجودها في اجلنة ظاهر ، ولا أظن ذا غيرة صادقة تسمح نفسه أن يلاط به في الجنة سراً أو علناً ، وجواز وقوعها فيها قد ينجر إلى أن تسمح نفسه بذلك أو يجبر عليه وذلك إذا اشتهى أحد أن يلوط به إذ لا بد من حصول ما يشتهيه ، وهذا وإن لم يكن قطعياً في عدم وقوع اللواطة مطلقاً في اجلنة إلى أنه يقوي القول بعدم الوقوع فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(324/596)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾

قد أشعر قوله ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ [العنكبوت : 31] أن الملائكة يحلون بالقرية واقتضى ذلك أن يخبروا لوطاً بحلولهم بالقرية ، وأنهم مرسلون من عند الله استجابة لطلب لوط النصر على قومه ، فكان هذا المجيء مقدراً حصوله ، فمن ثم جعل شرطاً لحرف ﴿ لما ﴾ كما تقدم آنفاً في قوله ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ [العنكبوت : 31] .

و ﴿ أن ﴾ حرف مزيد للتوكيد وأكثر ما يزاد بعد ﴿ لما ﴾ وهو يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد ﴿ لما ﴾ ، فهي هنا لتحقيق الربط بين مجيء الرسل ومساءة لوط بهم .

ومعنى تحقيقه هنا سرعة الاقتران والتوقيت بين الشرط والجزاء تنبيهاً على أن الإساءة عقبت مجيئهم وفاجأته من غير ريث ، وذلك لما يعلم من عادة معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم فلم يكون لوط عالماً بأنهم ملائكة لأنهم جاءوا في صورة رجال فأريد هنا التنبيه على أن ما حدث به من المساءة وضيق الذرع كان قبل أن يعلم بأنهم ملائكة جاءوا لإهلاك أهل القرية وقبل أن يقولوا ﴿ لا تخف ولا تحزن ﴾ .

ولم تقع ﴿ أن ﴾ المؤكدة في آية سورة هود لأن في تلك السورة تفصيلاً لسبب إساءته وضيق ذرعه فكان ذلك مغنياً عن التنبيه عليه في هذه الآية فكان التأكيد هنا ضرباً من الإطناب .

وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة هود وتفسيرها هناك .

وبناء فعل ﴿ سيء ﴾ للمجهول لأن المقصود حصول المفعول دون فاعله .

وعطف عليه جملة ﴿ وقالوا لا تخف ﴾ لأنها من جملة ما وقع عقب مجيء الرسل لوطاً .

وقد طويت جمل دل عليها قوله ﴿ إنا مُنَجُّوك وأهلك ﴾ وهي الجمل التي ذكرت معانيها في قوله ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ إلى قوله ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يَصِلُوا إليك ﴾ في سورة [هود : 78 81] .

وقدّموا تأمينه قبل إعلامه بأنهم منزلون العذاب على أهل القرية تعجيلاً بتطمينه .

(325/596)

وعطفُ ﴿ ولا تحزن ﴾ على ﴿ لا تخف ﴾ جمع بين تأمينه من ضرّ العذاب وبين إعلامه بأن الذين سيهلكون ليسوا أهلاً لأن يحزن عليهم ، ومن أولئك امرأته لأنه لا يحزن على من ليس بمؤمن به .

وجملة ﴿ إنا منجوك ﴾ تعليل للنهي عن الأمرين .

واستثناء امرأته من عموم أهله استثناء من التعليل لا من النهي ، ففي ذلك معذرة له بما عسى أن يحصل له من الحزن على هلاك امرأته مع أنه كان يحسبها مخلصة له ، وقد بيّنا وجه ذلك في تفسير سورة هود .

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ مُنْجوك ﴾ بسكون النون .

وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الجيم .

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34)

جملة مستأنفة وقعت بياناً لما في جملة ﴿ لا تخَفْ ولا تحزن ﴾ [العنكبوت : 33] من الإيذان بأن ثمة حادثاً يخاف منه ويحزن له .

والرجز : العذاب المؤلم .

ومعنى كونه من السماء أنه أنزل عليهم من الأفق وقد مضى بيانه في سورة هود .

وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

عطف على جملة ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه ﴾ [العنكبوت : 28] الخ عطف آية على آية لأن قصة لوط آية بما تضمنته من الخبر ، وآثار قرية قومه آية أخرى بما يمكن مشاهدته لأهل البصر .

ويجوز أن تكون جملة معترضة في آخر القصة .

وعلى كلا الوجهين فهو من كلام الله .

ونون المتكلم المعظم ضمير الجلالة وليست ضمير الملائكة .

والآية : العلامة الدالة على أمر .

ومفعول ﴿ تركنا ﴾ يجوز أن يكون ﴿ آية ﴾ فيجعل (من) حرف جر وهو مجرور وصفاً ل ﴿ آية ﴾ قدّم على موصوفه للاهتمام فيجعل حالاً من ﴿ آية ﴾ .

(326/596)

ويجوز أن تكون (من) للابتداء ، أي تركنا آية صادرة من آثارها ومعرفة خبرها ، وهي آية واضحة دائمة على طول الزمان إلى الآن ولذلك وصفت بـ ﴿ بينة ﴾ ، ولم توصف آية السفينة بـ ﴿ بينة ﴾ في قوله ﴿ وجعلناها ءاية للعالمين ﴾ [العنكبوت : 15] ، لأن السفينة قد بليت ألواحها وحديدها أو بقي منها ما لا يظهر إلا بعد تفتيش إن كان .

ويجوز جعل (من) اسماً بمعنى بعض على رأي من رأى ذلك من المحققين ، فتكون (من) مفعولاً مضافاً إلى ضمير (قرية) .

وتقدم بيان ذلك عند قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول ءامنا بالله ﴾ الآية في سورة البقرة (8) .

والمعنى : ولقد تركنا من القرية آثاراً دالة لقوم يستعملون عقولهم في الاستدلال بالآثار على أحوال أهلها .

وهذه العلامة هي بقايا قريتهم مغمورة بماء بحيرة لوط تلوح من تحت المياه شواهد القرية ، وبقايا لون الكبريت والمعادن التي رجمت بها قريتهم وفي ذلك عدة أدلة باختلاف مدارك المستدلين .

ويتعلق قوله ﴿ لقوم يعقلون ﴾ بقوله ﴿ تركنا ﴾ ، أو يجعل ظرفاً مستقراً صفة ل ﴿ آية ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(327/596)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾

شهد إبراهيم هذا الموقف مع لوط ، وعلم سبب حضورهم إليه ، لكن لماذا سيء بهم ، مع أنهم رسل الله ملائكة جاءوه على أحسن صورة ؟ قالوا : لأن الملَك يأتي على أجمل صورة ، حتى إذا أردنا أن نمدح شخصاً بالجمال نقول : مثل الملاك ، ومن ذلك قول النسوة لامرأة العزيز عن يوسف عليه السلام : ﴿ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف :

31] .

فلما رآهم لوط على هذه الصورة خاف عليهم ، بدل أنْ يفرح بمرآهم الجميل ؛ لأن قومه قوم سوء وأهل رذيلة ، ولا بُدَّ أنْ ينالوا ضيوفه بسوء ؛ لذلك ﴿ سِيءَ بِهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 33] أي : أصابه السوء بسببهم ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً . . . ﴾ [العنكبوت : 33] الذرع هو طول الذراعين ، فنقول : فلان باعُه طويل . يعني : يتناول الأشياء بسهولة ؛ لأن يده طويلة ، فالمعنى : ضاق بهم ذَرْعاً . يعني : لم يتسع جهده لحمايتهم من القوم .

ونلحظ هنا اختلاف السياق بين الآيتين : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ . . . ﴾ [العنكبوت : 31] أما في لوط فقال : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً . . . ﴾ [العنكبوت : 33] لأنهم تأخروا بعض الشيء عند إبراهيم عليه السلام .

فلما أن أصابه السوء بمرآهم ، بدل أنْ يسعد بهم ، وخاف عليهم طمأنوه ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [العنكبوت : 33] لا تَخَفْ علينا من هؤلاء الأراذل ، فلسنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئْنا إلا لنريحك منهم ، ونقطع جذور هذه الفِعْلة الخبيثة ، وسوف ننجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .

ثم يستثنون من أهله ﴿ إِلاَّ امرأتك . . . ﴾ [العنكبوت : 33] فكثيراً ما ضايقته ، وأفشتْ أسراره ، ودلَّتْ القوم على ضيوفه ﴿ كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [العنكبوت : 33] الباقين في العذاب .

لكن ، ما الطريقة التي ستقضون بها على هؤلاء القوم ؟

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34)

الرجز : العذاب ينزل عليهم من السماء ، والحجارة التي يمطرهم الله بها ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت : 34] أي : بسبب فِسْقهم وخروجهم عن منهج الله .

وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

لأن هذا العذاب استأصلهم ، وقضى عليهم ، وجعلهم عبرة لكل عاقل متأمل وآية في الكون لكل عابر بها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : 137] إذن : فالعبرة باقية بأهل سَدُوم كلما مر الناس بقُراهم .

لذلك قال الله عنها ﴿ آيَةً بَيِّنَةً ﴾ [العنكبوت : 35] الآية : الشيء العجيب الذي يدعو للتأمل ﴿ بَيِّنَةً . . . ﴾ [العنكبوت : 35] واضحة كدليل باقٍ ، وظاهر لا يخفى على أحد ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 35] يعني : يبحثون ويتأملون بسبب ما حاق بهذه القرى ، وما نزل بها من عذاب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنهما في قوله ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ قال : الطريق إذا مر بهم المسافر ، وهو ابن السبيل قطعوا به وعملوا به ذلك العمل الخبيث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله ﴿ وتأتون في ناديكم ﴾ قال : مجلسكم .

وأخرج الفريابي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والشاشي في مسنده والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال " كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون ابن السبيل

ويسخرون منهم " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف ، وهو قول الله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال : الخذف ، فقال رجل : وما لي قلت هكذا ؟ فأخذ ابن عمر كفا من حصباء ، فضرب به وجهه وقال : في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخذ بالمعاريض .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال : الخذف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال : كانوا يخذفون الناس .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي في مساوىء الأخلاق عن مجاهد في قوله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال : كان يجامع بعضهم بعضاً في المجالس .

(330/596)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال كانوا يعملون الفاحشة في مجالسهم .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها في قوله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال : الضراط .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن قول الله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ ماذا كان المنكر الذي كانوا يأتون ؟ قال : كانوا يتضارطون في مجالسهم ، يضرط بعضهم على بعض . والنادي هو المجلس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال : الصفير ، ولعب الحمام ، والجلاهق ، وحل ازرار القباء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴾ قال : لا يلقى المؤمن إلا يرحم المؤمن ويحوطه حيثما كان وفي قوله ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ قال : من الباقين في عذاب الله .

وفي قوله ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ قال : ساء بقومه ظناً ، يتخوّفهم على اضيافه ، وضاق ذرعاً بضيفه مخافة عليهم . وفي قوله ﴿ إنا منزلون على

أهل هذه القرية رجزاً من السماء ﴾ قال : عذاباً من السماء . وفي قوله ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ قال : هي الحجارة التي أمطرت عليهم أبقاها الله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ قال : عبرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(331/596)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

لَمَّا أن رآهم لوطٌ ضاق بهم قلبُه لأنه لم يعلم أنهم ملائكةٌ ، فخاف عليهم من فساد قومه : فكان ضِيقُ قلبه لأَجْلِ الله – سبحانه ، فأخبروه بأنهم ملائكة ، وأنَّ قومه لن يَصِلُوا إليهم . فعند ذلك سَكَنَ قلبُه . وزال ضيقُ صَدْرِه .

ويقال أقربُ ما يكون العبد في البلاء من الفرج إذا اشتدَّ عليه البلاءُ ؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء ، لأنه يصير مُضْطَرّاً ، واللَّهُ سبحانه وَعَدَ المضطرين وشيك الإجابة . كذلك كان

لوط في تلك الليلة ، فقد ضاق بهم ذَرْعاً ثم لم يلبث أَنْ وَجَدَ الخلاصَ من ضيقة .

وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

فَمَنْ أراد الاعتبارَ فله في قصتها عِبْرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 97.96 ﴾

(332/596)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/597)

الجزء السابع والتسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 36 ﴾ من سورة العنكبوت

وحتى الآية ﴿ 45 ﴾ من نفس السورة

(4/597)

قوله تعالى ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ

حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق لإثبات يوم الدين وإهلاك المفسدين ، ولمن طال ابتلاؤه من الصالحين ولم يجد له ناصراً من قومه ، إما لغربته عنهم ، وإما لقلة عشيرته لتسميتهم وعدم أتباعه ، وكان شعيب عليه السلام ممن استضعفه قومه واستقلوا عشيرته لتسميتهم لهم رهطاً ، والرهط ما دون العشرة أو من سبعة إلى عشرة ، وما دون السبعة إلى الثلاثة نفر ، فكان عليه السلام كذلك في هذا العداد ، عقب قصة لوط بقصته عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ وإلى ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ﴿ مدين أخاهم ﴾ أي من النسب والبلد ﴿ شعيباً ﴾ .

ولما كان مقصود السورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير فترة ، عبر بالفاء فقال : ﴿ فقال ﴾ أي فتسبب عن إرساله وتعقبه أن قال : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعلى وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، فإن العبادة التي فيها شرك عدم ، لأن الله تعالى أغنى الشركاء فهو لا يقبل إلا ما كان له خالصاً .

(5/597)

ولما كان السياق لإقامة الأدلة على البعث الذي هو من مقاصد السورة قال : ﴿ وارجوا اليوم الآخر ﴾ أي حسن الجزاء فيه لتفعلوا ما يليق بذلك ﴿ ولا تعثوا في الأرض ﴾ حال كونكم ﴿ مفسدين ﴾ أي متعمدين الفساد .

ولما تسبب عن هذا النصح وتعقبه تكذيبهم فتسبب عنه وتعقبه إهلاكهم ، تحقيقاً لأن أهل السيئات لا يسبقون قال : ﴿ فكذبوه فأخذتهم ﴾ أي لذلك أخذ قهر وغلبة ﴿ الرجفة ﴾ أي الصيحة التي زلزلت بهم فأهلكتهم ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أي محالهم التي كانت دائرة بهم وكانوا يدورون فيها ﴿ جاثمين ﴾ أي واقعين على صدورهم ، لازمين مكاناً واحداً ، لا يقدرون على حركة أصلاً ، لأنه لا أرواح لهم .

ولما كان من المقاصد العظيمة الدلالة على اتباع بعض هذه الأمم بعضاً في الخير والشر على نسق ، والجري بهم في إهلاك المكذبين وإنجاء المصدقين طبقاً عن طبق ، وكان إهلاك عاد وثمود – لما اشتهروا به من قوة الأبدان ، ومتانة الأركان – في غاية الغرابة ، وكان معنى ختام قصة مدين : فأهلكناهم ، عطف عليه على ذلك المعنى قوله : ﴿ وعاداً ﴾ أي وأهلكنا أيضاً عاداً ﴿ وثمودا ﴾ مع ما كانوا فيه من العتو ، والتكبر والعلو ﴿ وقد تبين لكم ﴾ أي ظهر بنفسه غاية الظهور أيها العرب أمرهم ﴿ من مساكنهم ﴾ أي ما وصف من هلاكهم وما كانوا فيه من شدة الأجسام ، وسعة الأحلام ، وعلو الاهتمام ، وثقوب الأذهان ،

وعظيم الشأن ، عند مروركم بتلك المساكن ، ونظركم إليها في ضربكم في التجارة إلى الشام ، فصرفوا أفكارهم في الإقبال على الاستمتاع بالعرض الفاني من هذه الدنيا ، فأملوا بعيداً ، وبنوا شديداً ، ولم يغن عنهم شيء من ذلك شيئاً من أمر الله ﴿ وزين لهم ﴾ في غاية التزيين ﴿ الشيطان ﴾ أي بعيد من الرحمة ، المحترق باللعنة ، بقوة احتياله ، ومحبوب ضلاله ومحاله ﴿ أعمالهم ﴾ أي الفاسدة ، فأقبلوا بكليتهم عليها مع العدو المبين ، وأعرضوا عن الهداة الناصحين .

(6/597)

ولما تسبب عن هذا التزيين منعهم لعماهم عن الصراط المستقيم قال : ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ أي منعهم عن سلوك الطريق الذي لا طريق إلا هو ، لكونه يوصل إلى النجاة ، وغيره يوصل إلى الهلاك ، فهو عدم بل العدم خير منه .

ولما كان ذلك ربما ظن أنه لفرط غباوتهم قال : ﴿ وكانوا ﴾ أي فعل بهم الشيطان ما فعل من الإغواء والحال أنهم كانوا كوناً هم فيه في غاية التمكن ﴿ مستبصرين ﴾ أي معدودين بين الناس من البصراء العقلاء جداً لما فاقوهم به مما يعلمون من ظاهر الحياة الدنيا ، ولم يسبقونا ، بل أوقعناهم بعملهم السيئات فيما أردنا من أنواع الهلكات ، فاحذروا مثل

مصارعهم فإنكم لا تشابهونهم في القوة ، ولا تقاربونهم في العقول .

ولما كان لفرعون ومن ذكر معه من العتو بمكان لا يخفى ، لما أتوا من القوة بالأموال والرجال قال : ﴿ وقارون ﴾ أي أهلكناه وقومه لأن وقوعه في أسباب الهلاك أعجب ، لكونه من بني إسرائيل ، ولأنه ابتلى بالمال والعلم ، فكان ذلك سبب إعجابه ، فتكبر على موسى وهارون عليهما السلام فكان ذلك سبب هلاكه ﴿ وفرعون وهامان ﴾ وزيره الذي أوقد له على الطين ، فلا هو نجا ولا كان رأساً في الكفر ، بل باع سعادته بكونه ذنباً لغيره .

ولما كان هلاكهم مع رؤية الآيات أعجب ، فكان جديراً بالإنكار ، إشارة إلى أن رؤية الآيات جديرة بأن يلزم عنها الإيمان قال : ﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات ﴾ أي التي لم تدع لبساً فتسببوا عما يقتضيه من الاستبصار الاستكبار ﴿ فاستكبروا ﴾ أي طلبوا أن يكونوا أكبر من كل كبير بأن كانت أفعالهم أفعال من يطلب ذلك ﴿ في الأرض ﴾ بعد مجيء موسى عليه الصلاة والسلام إليهم أكثر مما كانوا قبله .

(7/597)

ولما كان من يتكبر – وهو عالم بأنه مأخوذ – أشد لوماً ممن يجهل ذلك قال : ﴿ وما كانوا ﴾ أي الذين ذكروا هذا كلهم ، كوناً ما ﴿ سابقين ﴾ أي فائتين ما نريدهم ، بأن يخرجوا من

قبضتنا ، بل هم في القبضة كما ذكرنا أول السورة وهم عالمون بذلك ﴿ فكلاً ﴾ أي فتسبب عن تكذيبهم وعصيانهم أن كلاً منهم ﴿ أخذنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ بذنبه ﴾ أخذ عقوبة ليعلم أنه لا أحد يعجزنا ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه ﴾ إرسال عذاب يا له من عذاب ! ﴿ حاصباً ﴾ أي ريحاً ترمى لقوة عصفها وشدة قصفها بالحجارة كعاد وقوم لوط ﴿ ومنهم من أخذته ﴾ أخذ هلاك وغضب وعذاب ، وعدل عن أسلوب العظمة لئلا يوهم الإسناد في هذه إليه صوتاً ليوقع في مصيبة التشبيه ﴿ الصيحة ﴾ التي تظهر شدتها الريح الحاملة لها الموافقة لقصدها فترجف لعظمتها الأرض كمدين وثمود ﴿ ومنهم من ﴾ وأعاد أسلوب العظمة الماضي لسلامة من الإيهام المذكور في الصيحة وللتنبيه على أنه لا يقدر عليه غير الله سبحانه ففيه من الدلالة على عظمته ما يقصر عنه الوصف فقال : ﴿ خسفنا به الأرض ﴾ بأن غيبناه فيها كقارون وجماعته ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ بالغمر في الماء كقوم نوح وفرعون وجنوده ، وعذاب قوم لوط صالحٌ للعد في الإغراق والعد في الخسف ، فتارة نهلك بريح تقذف بالحجارة من السماء كقوم لوط ، أو من الأرض كعاد ، وأخرى بريح تقرع بالصرخة الأسماع فتزلزل القلوب والبقاع ، ومرة نبيد بالغمس في الكثيف وكرة بالغمر في اللطيف – فللّه درّ الناظرين في هذه الأوامر النافذة ، والمتفكرين في هذه الأقضية الماضية ، ليعلموا حقيقة قوله ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ – الآية .

(8/597)

ولما كان ذلك ربما جر لأهل التعنت شيئاً مما اعتادوه في عنادهم قال : ﴿ وما كان الله ﴾ أي الذي لا شيء من الجلال والكمال إلا هو وله ﴿ ليظلمهم ﴾ أي مريداً ليعاملهم معاملة الظالم الذي يعاقب من لا جرم له ، أو من أجرم ولم يتقدم إليه بالنهي عن إجرامه ليكف فيسلم ، أو يتمادى فيهلك لأنه لا نفع يصل إليه سبحانه من إهلاكهم ، ولا ضرر يلحقه عز شأنه من إبقائهم ﴿ ولكن كانوا ﴾ أي هم لا غيرهم ﴿ أنفسهم ﴾ لا غيرها ﴿ يظلمون ﴾ بارتكابهم ما أخبرناهم غير مرة أنه يغضبنا وأنا نأخذ من يفعله ، فلم يقبلوا النصح مع عجزهم ، ولا خافوا العقوبة على ضعفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 560.557 ﴾

(9/597)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾

لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع في الثالثة وقال : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم ﴾ واختلف المفسرون في مدين ، فقال بعضهم إنه اسم رجل في الأصل وحصل له ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما ، وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم إليه ، واشتهر في القوم ، والأول كأنه أصح وذلك لأن الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 23] ولو كان اسماً للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والأصل في الإضافة التغاير حقيقة ، وقوله : ﴿ أخاهم ﴾ قيل لأن شعيباً كان منهم نسباً ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الله تعالى في نوح : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [العنبكوت : 14] قدم نوحاً في الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه وكذلك في إبراهيم ولوط ، وههنا ذكر القوم أولاً وأضاف إليهم أخاهم شعيباً ، فنقول الأصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن المرسل لا يبعث رسولاً إلى غير معين ، وإنما يحصل قوم أو شخص يحتاجون إلى إنباء من المرسل فيرسل إليهم من يختاره غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها ، فعرفوا بالنبي فقيل قوم نوح وقوم لوط ، وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف : 65] .

المسألة الثانية :

(10/597)

لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن شعيب ذلك ؟ قلنا قد ذكرنا أن لوطاً كان له قوم وهو كان من قوم إبراهيم وفي زمانه ، وإبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يذكره عن لوط وإنما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها ، وإن كان هو أيضاً يأمر بالتوحيد ، إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه في التوحيد ، وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلاً أيضاً في التوحيد فدأبه وقال : ﴿ اعبدوا الله ﴾ .

المسألة الثالثة :

الإيمان لا يتم إلا بالتوحيد ، والأمر بالعبادة لا يفيده لأن من يعبد الله ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله : ﴿ اعبدوا الله ﴾ ؟ فنقول : هذا الأمر يفيد التوحيد ، وذلك لأن من يرى غيره يخدم زيداً وعمرو هناك وهو أكبر أو هو سيد زيد ، فإذا قال له أخدم

عمراً يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة إليه ، وكذا إذا كان لواحد دينار واحد ، وهو يريد أن يعطيه زيداً ، فإذا قيل له أعطه عمراً يفهم منه لا تعطه زيداً ، فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب : ﴿ اعبدوا الله ﴾ ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها في عبادة غير الله فقال لهم شعيب ضعوها في موضعها وهو عبادة الله ففهم منه التوحيد ، ثم قال : ﴿ وارجوا اليوم الأخر ﴾ قال الزمخشري : معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة إذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلاً ، ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلاً ، وقوله : ﴿ وارجوا اليوم الأخر ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(11/597)

هذا يدل على صحة مذهبنا ، فإن عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلاً ولا يجب عليه ذلك لأن العابد قد وصل إليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ، ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيده ، وإن زاده يكون إحساناً منه إليه وإنعاماً عليه ، فنقول قوله : ﴿ وارجوا اليوم ﴾ بعد قوله : ﴿ اعبدوا

الله ﴾ يدل على التفضل لا على الوجوب فإن الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به .

المسألة الثانية :

قال : ﴿ وارجوا اليوم الأخر ﴾ ولم يقل وخافوه مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس ، لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه إلا قليل من عباده ، فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الإثبات وقال : ﴿ اعبدوا ﴾ ولم يذكره بطريق النفي وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين ، وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى في حكاية إبراهيم أنه قال إنكم اتخذتم الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا ، وأما في الآخرة فتكفرون بها ، وقال ههنا لا تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر ، فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا ، وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائماً أي قياماً ويكون قوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ كقول القائل إجلس قعوداً لأن العيث والفساد بمعنى ، وجمع الأوامر والنواهي في قوله : ﴿ اعبدوا الله ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ ﴾ ثم إن قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين ، فحكى الله عنهم ذلك بقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ما حكى عن شعيب أمر ونهي والأمر لا يصدق ولا يكذب ، فإن من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت ، فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرم فلا تقربوه ، وهذه الأشياء فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به .

المسألة الثانية :

قال ههنا وفي الأعراف (78) : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ وقال في هود : (94) :

﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴾

والحكاية واحدة ، نقول لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة ، إما لرجفة الأرض إذ قيل إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته ، وإما لرجفة الأفئدة فإن قلوبهم ارتجفت منها ، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب ، إذ يصح أن يقال روى فقوي ، وأن يقال شرب فقوي في صورة واحدة .

المسألة الثالثة :

حيث قال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ قال : ﴿ فِى دِيَارِهِمْ ﴾ وحيث قال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ قال : ﴿ فِي دَارِهِمْ ﴾ فنقول المراد من الدار هو الديار ، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع ، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن الالتباس ، وإنما اختلف اللفظ للطيفة ، وهي أن الرجفة هائلة في نفسها فلم يحتج إلى مهول ، وأما الصيحة فغير هائلة في

نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع ، حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لأمرها ، وقيل إن الصيحة كانت أعم حيث عمت الأرض والجو ، والزلزلة لم تكن إلا في الأرض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لأن الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة ، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا في ديارهم .

(13/597)

ثم قال تعالى : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ ﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود لأن قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ دل على الإهلاك ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مّن مساكنهم ﴾ الأمر وما تعتبرون منه ، ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ فقوله : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ يعني عبادتهم لغير الله ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ يعني عبادة الله ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ يعني بواسطة الرسل يعني فلم يكن لهم في ذلك عذر فإن الرسل أوضحوا السبل .

ثم قال تعالى : ﴿ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان ﴾ عطفاً عليهم أي : وأهلكنا قارون وفرعون وهامان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ موسى بالبينات ﴾ كما قال في عاد وثمود : ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أي بالرسل ، ثم قال تعالى : ﴿ فاستكبروا ﴾ أي عن عبادة الله وقوله : ﴿ فِى الأرض ﴾ إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم ، وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين ، ومن في السماء أقواهم ، ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته ، فكيف (يستكبر) من في الأرض .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ سابقين ﴾ أي ما كانوا يفوتون الله لأنا بينا في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض ﴾ [العنبكوت : 22] أن المراد أن أقطار الأرض في قبضة قدرة الله .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾

ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب ، وقيل إنه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر ، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج ، فإن الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذي على منفذ الأذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس ، والعذاب بالخسف وهو الغمر في التراب ، والعذاب بالإغراق وهو بالماء .

فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سبباً لعدمه ، وما به بقاؤه سبباً لفنائه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ يعني لم يظلمهم بالهلاك ، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فإن موضعهم الكرامة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ [الإسراء : 70] لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 57 . 60 ﴾

(15/597)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

نصب ﴿ شعيباً ﴾ بفعل مضمر يحسن مع إلى تقديره بعثنا أو أرسلنا ، فأمر شعيب بعبادة الله تعالى والإيمان بالبعث واليوم الآخر ومع الإيمان به يصح رجاؤه ، وذهب أبو عبيدة إلى أن المعنى وخافوا ، و ﴿ تعثوا ﴾ ، معناه تفسدون ، يقال عثا يعثوا وعث يعث

وعاث يعيث وعثى يعثي إذا فسد ، وأهل ﴿ مدين ﴾ قوم شعيب هذا على أنها اسم البلدة ، وقيل ﴿ مدين ﴾ اسم القبيلة وأصحاب الأيكة وغيرهم ، وقيل هم بعضهم ومنهم وذلك أن معصيتهم في أمر الموازين والمكاييل كانت واحدة .

و ﴿ الرجفة ﴾ ميد الأرض بهم وزلزلتها عليهم وتداعيها بهم وذلك نحو من الخسف ، ومنه الإرجاف بالاخبار ، و" الجثوم " في هذا الموضع تشبيه ، أي كان همودهم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان ، ومنه قول لبيد : [الكامل]

فغدوت في غلس الظلام وطيره . . . غلب على خضل العضاة جثوم

(16/597)

وقوله ﴿ وعاداً ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره واذكر عاداً ، وقيل هو معطوف على الضمير في قوله ﴿ فأخذتهم ﴾ ، وقال الكسائي هو معطوف على قوله ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ [العنكبوت : 3] ، وقرأ ، " وثموداً " عاصم وأبو عمرو وابن وثاب ، وقرأ " وثمود " بغير تنوين أبو جعفر وشيبة الحسن ، وقرأ ابن وثاب " وعادٍ وثمودٍ " بالخفض والتنوين ، ثم دل عز وجل على ما يعطي العبرة في بقايا ﴿ مساكنهم ﴾ ورسوم منازلهم ودثور آثارهم ، وقرأ الأعمش " تبين لكم مَساكنهم " دون " من " ، وقوله تعالى : ﴿ وزين

لهم ﴿ عطف جملة من الكلام على جملة ، و ﴿ السبيل ﴾ ، هي طريق الإيمان بالله ورسله ، ومنهج النجاة من النار ، وقوله ، ﴿ مستبصرين ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك معناه لهم بصيرة في كفرهم ، وإعجاب به وإصرار عليه فذمهم بذلك ، وقيل لهم بصيرة في أن الرسالة والآيات حق لكنهم كانوا مع ذلك يكفرون عناداً ويردهم الضلال إلى مجاهله ومتالفه ، فيجري هذا مجرى قوله تعالى في غيرهم ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل : 14] ، وتزيين الشيطان هو بالوسواس ومناجاة ضمائر الناس ، وتزيين الله تعالى الشيء هو بالاختراع وخلق محبته والتلبس به في نفس العبد .

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39)

(17/597)

نصب ﴿ قارون ﴾ إما بفعل مضمر تقديره اذكر وإما بالعطف على ما تقدم ، و ﴿ قارون ﴾ من بني إسرائيل وهو الذي تقدمت قصته في الكنوز وفي البغي على موسى بن عمران عليه السلام ، ﴿ وفرعون ﴾ مشهور ، و ﴿ هامان ﴾ وزيره ، وهو من القبط ، و " البينات " المعجزات والآيات الواضحة ، و ﴿ سابقين ﴾ ، معناه مفلتين من أخذنا

وعقابنا ، وقيل معناه ﴿ سابقين ﴾ أولياءنا ، وقيل معناه ﴿ ما كانوا سابقين ﴾ الأمم إلى الكفر ، أي قد كانت تلك عادة أمم مع رسل ، والذين أرسل عليهم الحاصب قال ابن عباس : هم قوم لوط .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويشبه أن يدخل قوم عاد في " الحاصب " لأن تلك الريح لا بد أنها كانت تحصبهم بأمور مؤذية ، و" الحاصب " هو العارض من ريح أو سحاب إذا رمى بشيء ، ومنه قول الأخطل : [الكامل]

ترمي العضاة بحاصب من ثلجها . . . حتى يبيت على العضاة جفالا

ومنه قول الفرزدق : [البسيط]

مستقبلين شمال الشام تضربهم . . . بحاصب كنديف القطن منثور

والذين أخذتهم ﴿ الصيحة ﴾ قوم ثمود ، قاله ابن عباس وقال قتادة : هم قوم شعيب ، و" الخسف " كان بقارون ، قاله ابن عباس .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويشبه أن يكون أصحاب الرجفة في هذا النوع من العذاب ، والغرق كان في قوم نوح ، وبه فسر ابن عباس وفي فرعون وحزبه ، وبه فسر قتادة ، وظلمهم أنفسهم كان بالكفر ووضع العبادة في غير موضعها وقدم المفعول على ﴿ يظلمون ﴾ للاهتمام وهذا نحو ﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة : 5] وغيره ، وحكى الطبري عن قتادة أن

رجفة قوم شعيب كان صيحة أرجفتهم على هذا مع ثمود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(18/597)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وارجُوا اليومَ الآخِر ﴾

قال المفسرون : اخشَوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال .

قوله تعالى : ﴿ وعاداً وثمود ﴾

قال الزجاج : المعنى : وأهلكنا عاداً وثموداً ، لأن قبل هذا ﴿ فأخذتْهم الرجفة ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وقد تَبَيَّن لكم مِنْ مساكنهم ﴾ أي : ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن آية في هلاكهم ، ﴿ وكانوا مستبصِرِين ﴾ قال الفراء : أي : ذوي بصائر .

وقال الزجاج : أتوا ما أتوه وقد تبين لهم أن عاقبته عذابهم .

وقال غيره : كانوا عند أنفسهم مستبصِرِين ، يظنون أنهم على حق .

قوله تعالى : ﴿ وما كانوا سابِقِين ﴾ أي : ما كانوا يفوتون الله أن يفعل بهم ما يريد .

قوله تعالى : ﴿ فكلاًّ أخذْنا بذنْبه ﴾ أي : عاقبْنا بتكذيبه ﴿ فمنهم من أرسَلْنا عليه

حاصباً ﴾ يعني قوم لوط ﴿ ومنهم من أخذتْه الصَّيحة ﴾ يعني ثموداً وقوم شعيب ﴿ ومنهم مَنْ خَسَفْنا به الأرض ﴾ يعني قارون وأصحابه ﴿ ومنهم من أغرقْنا ﴾ يعني قوم نوح وفرعون ﴿ وما كان اللهِ لِيَظْلِمهم ﴾ فيعذِّبهم على غير ذَنْب ﴿ ولكنْ كانوا أنفسَهم يَظْلِمون ﴾ بالإِقامة على المعاصي. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(19/597)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾

أي وأرسلنا إلى مدين .

وقد تقدّم ذكرهم وفسادهم في "الأعراف" و"هود" ﴿ وارجوا اليوم الآخِرَ ﴾ وقال يونس النحوي ؛ أي اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال .

﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرض مُفْسِدِينَ ﴾ أي لا تكفروا فإنه أصل كل فساد .

والعُثُوُّ والعِثيّ أشد الفساد .

عَثِيَ يَعثَى وعَثَا يَعثُو بمعنى واحد .

وقد تقدّم .

وقيل : ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ أي صدّقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه .

قوله تعالى : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ ﴾ قال الكسائي : قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة ؛ أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً وثمودا .

قال : وأحب إليّ أن يكون معطوفاً على ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ وأخذت عاداً وثموداً .

وزعم الزجاج : أن التقدير وأهلكنا عاداً وثموداً .

وقيل : المعنى واذكر عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذبوه فأهلكناهم ، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم .

﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ يا معشر الكفار ﴿ مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ بالحِجْر والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم فحذف فاعل التبيّن .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة .

﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ أي عن طريق الحق .

﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ فيه قولان : أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة قاله مجاهد .

والثاني : كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين .

وهذا القول أشبه ؛ لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة .

قال الفراء : كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم .

وقيل : أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ قال الكسائي : إن شئت كان محمولاً على عاد ، وكان فيه ما فيه ، وإن شئت كان على ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ وصدّ قارون وفِرعون وهامان .

وقيل : أي وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ فاستكبروا فِي الأرض ﴾ عن الحق وعن عبادة الله ﴿ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ﴾ أي فائتين .

وقيل : سابقين في الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم .

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ قال الكسائي : ﴿ فَكُلاًّ" ﴾ منصوب ب ﴿ أَخَذْنَا ﴾ أي أخذنا كلاً بذنبه .

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ يعني قوم لوط .

والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار .

وتستعمل في كل عذاب ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ يعني ثموداً وأهل مدين .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ يعني قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قوم نوح وقوم فرعون .

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(21/597)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾

﴿ وإلى مدين ﴾ : أي وإلى مدين أرسلنا ، أو بعثنا ، مما يتعدى بإلى .

أمرهم بعبادة الله ، والإيمان بالبعث واليوم الآخر .

والأمر بالرجاء ، أمر بفعل ما يترتب الرجاء عليه ، أقام المسبب مقام السبب .

والمعنى : وافعلوا ما ترجون به الثواب من الله ، أو يكون أمراً بالرجاء على تقدير تحصيل شرطه ، وهو الإيمان بالله .

وقال أبو عبيدة : ﴿ وارجوا ﴾ : خافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله منكم إن لم تعبدوه .

وتضمن الأمر بالعبادة والرجاء أنه إن لم يفعلوا ذلك ، وقع بهم العذاب ؛ كذلك جاء : ﴿ فكذبوه ﴾ ، وجاءت ثمرة التكذيب ، وهي : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم

جاثمين ﴾ ، وتقدم تفسير مثل هذه الجمل .

وانتصب ﴿ وعاداً وثموداً ﴾ بإضمار أهلكنا ، لدلالة فأخذتهم الرجفة عليه .

وقيل : بالعطف على الضمير في فأخذتهم ، وأبعد الكسائي في عطفه على الذين من قوله : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ .

وقرأ : ثمود ، بغير تنوين ؛ حمزة ، وشيبة ، والحسن ، وحفص ، وباقي السبعة : بالتنوين .

وقرأ ابن وثاب : وعاد وثمود ، بالخفض فيهما ، والتنوين عطفاً على مدين ، أي وأرسلنا إلى عاد وثمود .

﴿ وقد تبين لكم ﴾ : أي ذلك ، أي ما وصف لكم من إهلاكهم من جهة مساكنهم ، إذا نظرتم إليها عند مروركم لها ، وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم .

وقرأ الأعمش : مساكنهم ، بالرفع من غير من ، فيكون فاعلاً بتبين .

﴿ وزين لهم الشيطان ﴾ : أي بوسوسته وإغوائه ، ﴿ أعمالهم ﴾ القبيحة .

﴿ فصدهم عن سبيل الله ﴾ ؛ وهي طريق الإيمان بالله ورسله .

﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ : أي في كفرهم لهم به بصر وإعجاب قاله ، ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك .

وقيل : عقلاء ، يعلمون أن الرسالة والآيات حق ، ولكنهم كفروا عناداً ، وجحدوا بها ،

واستيقنتها أنفسهم .

﴿ وقارون ﴾ : معطوف على ما قبله ، أو منصوب بإضمار اذكر .

(22/597)

﴿ فاستكبروا ﴾ : أي عن الإقرار بالصانع وعبادته في الأرض ، إشارة إلى قلة عقولهم ، لأن من في الأرض يشعر بالضعف ، ومن في السماء يشعر بالقوة ، ومن في السماء لا يستكبرون عن عبادة الله ، فكيف من في الأرض ؟ ﴿ وما كانوا سابقين ﴾ الأمم إلى الكفر ، أي تلك عادة الأمم مع رسلهم .

والحاصب لقوم لوط ، وهي ريح عاصف فيها حصا ، وقيل : ملك كان يرميهم .

والصيحة لمدين وثمود ، والخسف لقارون ، والغرق لقوم نوح وفرعون وقومه .

وقال ابن عطية : ويشبه أن يدخل قوم عاد في الحاصب ، لأن تلك الريح لا بد كانت تحصبهم بأمور مؤذية ، والحاصب : هو العارض من ريح أو سحاب إذا رمي بشيء ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشأم تضربهم . . .

بحاصب كنديف القطن منثور

ومنه قول الأخطل :

ترمي العضاة بجاصب من بلحها . . .

حتى تبيت على العضاة حفالا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(23/597)

وقال أبو السعود :

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾

متعلق بمضمن معطوفٍ على أرسلنا في قصَّة نوحٍ عليه السَّلام أي وأرسلنا إلى مدينَ شُعيباً ﴿ فَقَالَ يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحدَه ﴿ وارجوا اليوم الآخر ﴾ أي توقَّعوه وما سيقعُ فيه من فُنون الأهوالِ وافعلُوا اليوم من الأعمالِ ما تأمنون غائلتَهُ وقيل : وارجُوا ثوابَه بطريقِ إقامةِ المسبَّبِ مقامَ السَّببِ وقيل : الرَّجاءُ بمعنى الخوفِ ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ *** ﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي الزَّلزلةُ الشَّديدةُ وفي سورة هود وأخذتِ الذين ظلمُوا الصَّيحةُ أي صحيةُ جبريلَ عليه السَّلام فإنَّها المُوجبة للرَّجفة بسبب تموجِها للهواءِ وما يُجاورها من الأرض ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ أي بلدِهم أو منازِلهم والإفرادُ لأمنِ اللَّبسِ ﴿ جاثمين ﴾ باركينَ على الرُّكبِ ميِّتينَ .

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ ﴾ منصوبان بإضمار فعلٍ يُنبىء عنه ما قبلَه أي أهلكنا . وقُرىء ثموداً بتأويلِ الحيّ ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مّن مساكنهم ﴾ أي وقد ظهرَ لكم إهلاكُنا إيّاهم من جهةِ مساكِنِهم بالنّظر إليها عند اجتيازِكم بها ذهاباً إلى الشّامِ وإياباً منه ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ من فُنون الكفرِ والمَعاصي ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ السَّويّ الموصِّلِ إلى الحقّ ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ ممكّنين من النّظرِ والاستدلالِ ولكنّهم لم يفعلُوا ذلك أو متبينين أنَّ العذابَ لاحقٌ بهم بإخبارِ الرُّسلِ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ لهم ولكنّهم لجُّوا حتّى لقُوا ما لقُوا ﴿ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان ﴾ معطوفٌ على عاداً . قيل : تقديمُ قارونَ لشرفِ نسبه ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ موسى بالبينات فاستكبروا فِى الأرض وَمَا كَانُواْ سابقين ﴾ مفلتينَ فائتينَ من قولِهم سبقَ طالبَه إذا فاتَه ولم يُدركه ولقد أدركَهم أمرُ الله عزَّ أيَّ إدراكٍ فتداركُوا نحوَ الدّمارِ والهلاكِ ﴿ فَكُلاًّ ﴾ تفسيرٌ لما يُنبىء عنه عدمُ سبقِهم بطريقِ الإبهامِ أي فكلُّ واحدٍ من المذكورينَ ﴿ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ أي عاقبناهُ بجنايتِه لا بعضِه دُون بعضٍ كما يُشعر به تقديمُ المفعولِ ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ تفصيلاً للأخذِ أي ريحاً عاصفاً فيها حصباءُ وقيل مَلَكاً رماهم بها وهم قومُ لوطٍ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة

﴿ كمدينَ وثمود ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ كقارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ كقومِ نوحٍ وفرعونَ وقومِه ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بما فعل بهم فإنَّ ذلك محالٌ من جهتِه تعالى ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالاستمرارِ على مُباشرةِ ما يُوجبُ ذلك من أنواعِ الكفرِ والمَعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(25/597)

وقال الآلوسى :

﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾

متعلق بأرسلنا مقدر معطوف على ﴿ أرسلنا ﴾ [العنكبوت : 14] في قصة نوح أي وأرسلنا إلى مدين ﴿ أخاهم شُعَيْباً فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده ﴿ وارجوا اليوم الآخر ﴾ أي توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون به غائلته ، أو الأمر بالرجاء أمر بفعل ما يترتب عليه الرجاء إقامة للمسبب مقام السبب ، وفي الكلام مضاف مقدر فالمعنى افعلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر ، وجوز أن لا يقدر مضاف ، وإرادة الثواب من إطلاق الزمان على ما فيه ، وقيل : الأمر برجاء الثواب أمر بسببه اقتضاء بلا تجوز فيه بعلاقة السببية .

وقال أبو عبيدة : الرجاء هنا بمعنى الخوف والمعنى وخافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله تعالى منكم إن لم تعبدون ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ حال مؤكدة لأن العثو الفساد ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما تضمنه كلامه من أنهم إن لم يمتثلوا أمره ونهيه وقع بهم العذاب وإليه ذهب أبو حيان ، وقيل : من أنه تعالى مستحق لأن يعبد وحده سبحانه وأن اليوم الآخر متحقق الوقوع أو نحو ذلك .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ﴾ بسبب تكذيبهم إياه ﴿ الرجفة ﴾ أي الزلزلة الشديدة وفي سورة هود ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ [هود : 94] أي صيحة جبريل عليه السلام فإنها الموجبة للرجفة بسبب تموجها للهواء وما يجاورها من الأرض ، وفسر مجاهد الرجفة هنا بالصيحة ، فقيل : لذلك ؛ وقيل : لأنها رجفت منها القلوب ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ أي بلدهم فإن الدار تطلق على البلد ، ولذا قيل : للمدينة دار الهجرة أو المراد مساكنهم وأقيم فيه الواحد مقام الجمع لأمن اللبس لأنهم لا يكونون في دار واحدة ، ولعل فيه إشارة إلى أن الرجفة خربت مساكنهم وهدمت ما بينها من الجدران فصارت كمسكن واحد .

﴿ جاثمين ﴾ أي باركين على الركب ، والمراد ميتين على ما روى عن قتادة .

(26/597)

وفي مفردات الراغب هو استعارة للمقيمين من قولهم : جثم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض ويرجع هذا إلى ميتين أيضاً .

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ ﴾ منصوبان بإضمار فعل ينبىء عنه ما قبله من قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [العنكبوت : 37] أي وأهلكنا عاداً وثمود ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مّن مساكنهم ﴾ عطف على ذلك المضمر أي وقد ظهر لكم أتم ظهور إهلاكنا إياهم من جهة مساكنهم أو بسببها .

وذلك بالنظر إليها عند اجتيازكم بها ذهباً إلى الشام وإياباً منه ، وجوز كون ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية ، وقيل : هما منصوبان بإضمار اذكروا أي واذكروا عاداً وثمود .

والمراد ذكر قصتهما أو باضمار اذكر خطاباً له صلى الله عليه وسلم ، وجملة ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ﴾ حيالية ، وقيل : هي بتقدير القول أي وقل : قد تبين ، وجوز أن تكون معطوفة على جملة واقعة في حيز القول أي اذكر عاداً وثمود قائلاً قر مررتم على مساكنهم وقد تبين لكمن الخ ، وفاعل تبين الإهلاك الدال عليه الكلام أو مساكنهم على أن ﴿ مِنْ ﴾ زائدة في الواجب ، ويؤيده قراءة الأعمش ﴿ مساكنهم ﴾ بالرفع من غير من ، وكون ﴿ مِنْ ﴾ هي الفاعل على أنها اسم بمعنى بعض مما لا يخفى حاله .

وقيل : هما منصوبان بالعطف على الضمير في ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [العنكبوت : 37] والمعنى يأباه ، وقال الكسائي : منصوبان بالعطف على الذين من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 3] وهو كما ترى ، والزمخشري لم يذكر في ناصبهما سوى ما ذكرناه أولاً وهو الذي ينبغي أن يعول عليه .

(27/597)

وقرأ أكثر السبعة ﴿ وَثَمُودَاْ ﴾ بالتنوين بتأويل الحي ، وهو على قراءة ترك التنوين بتأويل القبيلة ، وقرأ ابن وثاب ﴿ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ بالخفض فيهما والتنوين عطفاً على ﴿ مدين ﴾ [العنكبوت : 36] على ما في "البحر" أي وأرسلنا إلى عاد وثمود ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان ﴾ بوسوسته وإغوائه ﴿ أعمالهم ﴾ القبيحة من الكفر والمعاصي ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ أي الطريق المعهود وهو السوي الموصل إلى الحق ، وحمله على الاستغراق حصراً له في الموصل إلى النجاة تكلف ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي عاد وثمود لا أهل مكة كما توهم .

﴿ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أي عقلاء يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر ولكنهم أغفلوا ولم يتدبروا وقيل : عقلاء يعلمون الحق ولكنهم كفروا عناداً وجحوداً ، وقيل : متبينين أن العذاب لاحق بهم بأخبار الرسل عليهم السلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا ما لقوا .

وعن قتادة .

والكلبي .

كما في "مجمع البيان" أن المعنى كانوا مستبصرين عند أنفسهم فيما كانوا عليه من الضلالة يحسبون أنهم على هدى .

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن قتادة أنه قال : أي معجبين بضلالتهم وهو تفسير بحاصل ما ذكر ، وهو مروي كما في "البحر" عن ابن عباس .

ومجاهد .

والضحاك ، والجملة في موضع الحال بتقدير قد أو بدونها .

(28/597)

﴿ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان ﴾ معطوف على ﴿ عاداً ﴾ [العنكبوت : 38] ، وتقدم قارون لأن المقصود تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فيما لقي من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى عليه السلام وقد لقي منه ما لقي ، أو لأن حاله أوفق بحال عاد أو ثمود فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ولم يفده الاستبصار شيئاً كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئاً ، أو لأن هلاكه كان قبل هلاك فرعون وهامان فتقديمه على

وفق الواقع ، أو لأنه أشرف من فرعون وهامان لايمانه في الظاهر وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى عليه السلام ، ويكون في تقديمه لذلك في مقام الغضب إشارة إلى أن نحو هذا الشرف لا يفيد شيئاً ولا ينقذ من غضب الله تعالى على الكفر ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ موسى بالبينات فاستكبروا ﴾ عن الأيمان والطاعة ﴿ فِى الأرض ﴾ إشارة إلى قلة عقولهم لأن من في الأرض لا ينبغي له أن يستكبر .

﴿ وَمَا كَانُواْ سابقين ﴾ أي فائتين أمر الله تعالى ، من قولهم : سبق طالبه أي فاته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى أي إدراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك ، وقال أبو حيان : المعنى وما كانوا سابقين الأمم إلى الفكر أي تلك عادة الأمم مع رسلهم عليهم السلام ، وليس بذاك وأياً ما كان فالظاهر أن ضمير كانوا القارون وفرعون .

وهامان ، وقيل : الجملة عطف على أهلكنا المقدر سابقاً وضمير كانوا لجميع المهلكين ، وفيه تبر للنظم الجليل .

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ هذا وما بعده كالفذلكة للآيات المتضمنة تعذيب من كفر ولم يمتثل أمر من أرسل إليه ، وقال أبو السعود : هذا تفسير لما ينبىء عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام وما بعده تفصيل للأخذ ، وفي القلب منه شيء .

وكأنه اعتبر رجوع ضمير ﴿ كانوا ﴾ [العنكبوت : 39] إلى المهلكين ، وقد علمت حاله وتقديم المفعول للاهتمام بأمر الاستيعاب والاستغراق ، وقال الفاضل : المذكور للحصر أي كل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته لا بعضاً دون بعض ، وبحث فيه بأن كلاً متكفلة بهذا المعنى قدمت أو أخرت ، وأجيب بأنا لا نسلم أنه يفهم منها لا بعضاً إذا أخرت وإنما يفهم منها بواسطة التقديم فتأمل ، والكلام في مرجع ضمير بذنبه سؤالاً وجواباً لا يخفى على من أحاط علماً بما قيل في قولهم : كل رجل وضيعته .

وقولهم : الترتيب جعل كل شيء في مرتبته ، وهو شهير بين الطلبة ﴿ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ أي ريحاً عاصفاً فيها حصباء ، وقيل : ملكاً رماهم بالحصباء وهم قوم لوط .

وقال ابن عطية : يشبه أن يدخل عاد في ذلك لأن ما أهلكوا به من الريح كانت شديدة وهي لا تخلو عن الحصب بأمور مؤذية ، والحاصب هو العارض من ريح أو سحاب إذا رمى بشيء ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ هم مدين وثمود ولم يقل أخذناه بالصيحة ليوافق ما قبله وما بعده في إسناد الفعل إليه تعالى الأوفق بقوله تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ دفعاً لتوهم أن يكون سبحانه هو الصائح ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ وهو قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهو فرعون ومن معه ، وذكر بعضهم قوم نوح عليه السلام أيضاً .

واعترض بأنهم ليسوا من المذكورين ، وتعقب بأنهم أول المذكورين في هذه السورة من الأمم السالفة ، ولعل المعترض أراد بالمذكورين المذكورين متناسقين أي بلا فصل بأمة لم تفد قصتها إهلاكها ، وقوم نوح وإن ذكروا أولاً لكن فصل بينهم وبين نظائرهم من المهلكين بقصة صوم إبراهيم عليه السلام وهي لم تفد أنهم أهلكوا ، وذكر النيسابوري أنه سبحانه قرر بقوله تعالى : ﴿ فَكُلاًّ ﴾ الخ أمر المذنبين بإجمال آخر يفيد أنهم عذبوا بالعناصر الآربعة فجعل ما منه تركيبهم سبباً لعدمهم وما منه بقاؤهم سبباً لفنائهم ، فالحاصب وهو حجارة محماة تقع على كل واحد منهم فتنفذ من الجانب الآخر إشارة إلى التعذيب بعنصر النار ، والصيحة وهي تموج شديد في الهواء إشارة إلى التعذيب بعنصر الهواء ، والخسف إشارة إلى التعذيب بعنصر التراب ، والغرق إشارة إلى التعذيب بعنصر الماء اه ولا يخفى ما فيه ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي ما كان سبحانه مريداً لظلمهم وذلك بأن يعاقبهم من غير جرم لأنه خلاف ما تقتضيه الحكمة .

وفي أنوار التنزيل أي ما كان سبحانه ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من سنته عز وجل ، ويفيد أنه لو وقع منه تعالى تعذيبهم من غير جرم لا يكون ظلماً لأنه تعالى

مالك الملك يتصرف به كما يشاء فله أن يثيب العاصي ويعذب المطيع ، وهذا أمر مشهور بين الأشاعرة والكلام في تحقيقه يطلب من علم الكلام .

(31/597)

وقد أسلفنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] ما ينفعك في هذا المقام تذكره فتذكر ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من الكفر والمعاصي باختيارهم ، وقال مولانا الشيخ إبراهيم الكوراني ما حاصله : إن ظلم الكفرة أنفسهم إنما هو لسوء استعدادهم الذي هم عليه في نفس الأمر من غير مدخل للجعل فيه وبلسان ذلك الاستعداد طلبوا من الجواد المطلق جل وعلا ما صار سبباً لظهور شقائهم اه ، والبحث في ذلك طويل الذيل فليطلب من محله ، وتقديم المعمول لرعاية رؤوس الآي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(32/597)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) ﴾

قوله : ﴿ وَلُوطاً ﴾ منصوب بالعطف على ﴿ نوحاً ﴾ ، أو على إبراهيم ، أو بتقدير : اذكر .

قال الكسائي : المعنى : وأنجينا لوطاً ، أو وأرسلنا لوطاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ظرف للعامل في لوط ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر : "أئنكم" بالاستفهام .

وقرأ الباقون بلا استفهام .

والفاحشة : الخصلة المتناهية في القبح ، وجملة : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ مقرّرة لكمال قبح هذه الخصلة ، وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم .

ثم بيّن سبحانه هذه الفاحشة فقال : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال ﴾ أي تلوطون بهم ﴿ وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ قيل : إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين ، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم ، فقطعوا السبيل بهذا السبب .

قال الفراء : كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث .

وقيل : كانوا يقطعون الطريق على المارّة بقتلهم ونهبهم .

والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص ، وقيل : إن معنى قطع الطريق : قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ النادي والنديّ والمنتدى : مجلس القوم ومتحدّثهم .

واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه : فقيل : كانوا يحذفون الناس بالحصباء ، ويستخفون بالغريب .

وقيل : كانوا يتضارطون في مجالسهم ، وقيل : كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً ، وقيل : كانوا يلعبون بالحمام .

وقيل : كانوا يخضبون أصابعهم بالحناء .

وقيل : كانوا يناقرون بين الديكة ، ويناطحون بين الكباش .

(33/597)

وقيل : يلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات ، ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات .

قال الزجاج : وفي هذا إعلام أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المنكر وألا يجتمعوا على

الهزؤ ، والمناهي .

ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أي فما أجابوا بشيء إلاّ بهذا القول رجوعاً منهم إلى التكذيب واللجاج والعناد ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية ، وقد تقدّم في سورة النمل : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل : 56] وتقدّم في سورة الأعراف : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [الأعراف : 82] وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد ، ومكرّرًا للنهي لهم والوعيد عليهم ، فقالوا له أوّلاً : ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ كما في هذه الآية ، فلما كثر منه ذلك ، ولم يسكت عنهم قالوا : ﴿ أخرجوهم ﴾ كما في الأعراف والنمل .

وقيل : إنهم قالوا أوّلاً : ﴿ أخرجوهم من قريتكم ﴾ ثم قالوا ثانياً : ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ .

ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه فقال : ﴿ رَبّ انصرني عَلَى القوم المفسدين ﴾ بإنزال عذابك عليهم ، وإفسادهم هو بما سبق من إتيان الرجال وعمل المنكر في ناديهم ، فاستجاب الله سبحانه وبعث لعذابهم ملائكته وأمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾ أي بالبشارة بالولد

وهو إسحاق ، وبولد الولد وهو يعقوب ﴿ قَالُواْ إِنَّآ مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية ﴾ أي قالوا لإبراهيم هذه المقالة .

(34/597)

والقرية هي قرية سدوم التي كان فيها قوم لوط ، وجملة : ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ تعليل للإهلاك ، أي إهلاكنا لهم بهذا السبب ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ أي قال لهم إبراهيم : إن في هذه القرية التي أنتم مهلكوها لوطاً فكيف تهلكونها ؟ ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ من الأخيار والأشرار ، ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ من العذاب .

قرأ الأعمش وحمزة ويعقوب والكسائي "لننجينه" بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ﴿ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ أي الباقين في العذاب ، وهو لفظ مشترك بين الماضي والباقي ، وقد تقدّم تحقيقه ، وقيل : المعنى : من الباقين في القرية التي سينزل بها العذاب ، فتعذب من جملتهم ، ولا تنجو فيمن نجا .

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي لما جاءت الرسل لوطاً بعد مفارقتهم إبراهيم سيىء بهم أي جاءه ما ساءه ، وخاف منه ؛ لأنه ظنهم من البشر ، فخاف عليهم

من قومه لكونهم في أحسن صورة من الصور البشرية ، و"أن" في ﴿ أن جاءت ﴾ زائدة للتأكيد ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي عجز عن تدبيرهم وحزن وضاق صدره ، وضيق الذراع كناية عن العجز ، كما يقال : في الكناية عن الفقر : ضاقت يده ، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة هود .

ولما شاهدت الملائكة ما حلّ به من الحزن والتضجر ، قالوا : ﴿ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ أي لا تخف علينا من قومك ، ولا تحزن فإنهم لا يقدرون علينا ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم ﴿ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ أخبروا لوطاً بما جاؤوا به من إهلاك قومه وتنجيته وأهله إلاّ امرأته كما أخبروا بذلك إبراهيم ، قرأ حمزة والكسائي وشعبة ويعقوب والأعمش : "منجوك" بالتخفيف .

وقرأ الباقون بالتشديد .

(35/597)

قال المبرد : الكاف في ﴿ منجوك ﴾ مخفوض ولم يجز عطف الظاهر على المضمر المخفوض ، فحمل الثاني على المعنى وصار التقدير : وننجي أهلك : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً مّنَ السماء ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من

تخصيص التنجية به وبأهله .

والرجز : العذاب ، أي : عذاباً من السماء ، وهو : الرمي بالحجارة ، وقيل : إحراقهم بنار نازلة من السماء .

وقيل : هو الخسف والحصب كما في غير هذا الموضع ، ومعنى كون الخسف من السماء أن الأمر به نزل من السماء .

قرأ ابن عامر : "منزّلون" بالتشديد .

وبها قرأ ابن عباس .

وقرأ الباقون بالتخفيف ، والباء في ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ للسببية ، أي لسبب فسقهم ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءايَةً بَيِّنَةً ﴾ أي أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة وهي الآثار التي بها من الحجارة رجموا بها ، وخراب الديار .

وقال مجاهد : هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم ، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر ، وخص من يعقل ، لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها .

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً ﴾ أي وأرسلناه إليهم ، وقد تقدّم ذكره وذكر نسبه وذكر قومه في سورة الأعراف وسورة هود ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله ﴾ أي أفردوه بالعبادة ، وخصوه بها ﴿ وارجوا اليوم الآخر ﴾ أي توقعوه ، وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم .

قال يونس النحوي : معناه : اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرضِ مُفْسِدِينَ ﴾ العُثْو ، والعثْي أشدّ الفساد .

وقد تقدّم تفسيره ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي الزلزلة ، وتقدّم في سورة هود : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] أي صيحة جبريل ، وهي سبب الرجفة ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ أي أصبحوا في بلدهم أو منازلهم جاثمين على الركب ميتين .

(36/597)

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ ﴾ قال الكسائي : قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة ، أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادًا وثمود ، قال : وأحبّ إليّ أن يكون على ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ أي وأخذت عاداً وثمود .

وقال الزجاج : التقدير ، وأهلكنا عادًا وثمود .

وقيل : المعنى : واذكر عادًا وثمود إذ أرسلنا إليهم هوداً وصالحاً ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مّن مساكنهم ﴾ أي وقد ظهر لكم يا معاشر الكفار من مساكنهم بالحجر ، والأحقاف آيات بينات تتعظون بها ، وتتفكرون فيها ، ففاعل تبين محذوف ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم

﴿ التي يعملونها من الكفر ، ومعاصي الله ﴿ فَصَدَّهُمْ ﴾ بهذا التزيين ﴿ عَنِ السبيل ﴾ أي الطريق الواضح الموصل إلى الحق ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أي أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال .

قال الفراء : كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم .

وقيل : المعنى : كانوا مستبصرين في كفرهم وضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدى ، ويرون أن أمرهم حقّ ، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم .

﴿ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان ﴾ قال الكسائي : إن شئت كان محمولاً على ﴿ عادًا ﴾ وكان فيه ما فيه ، وإن شئت كان على ﴿ فصدّهم عن السبيل ﴾ أي وصدّ قارون وفرعون وهامان .

وقيل : التقدير : وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ فاستكبروا فِي الأرض ﴾ عن عبادة الله ﴿ وَمَا كَانُواْ سابقين ﴾ أي فائتين ، يقال : سبق طالبه : إذا فاته : وقيل : وما كانوا سابقين في الكفر ، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة .

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ أي عاقبنا بكفره وتكذيبه .

(37/597)

قال الكسائي : ﴿ فكلاًّ أخذنا ﴾ أي فأخذنا كلاًّ بذنبه ﴿ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ أي ريحاً تأتي بالحصباء ، وهي الحصى الصغار فترجمهم بها ، وهم قوم لوط ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ وهم ثمود وأهل مدين ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهم قوم نوح وقوم فرعون ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بما فعل بهم ، لأنه قد أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصي الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ قال : مجلسكم .

وأخرج الفريابي وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب وابن عساكر عن أمّ هانىء بنت أبي طالب قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله سبحانه : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ قال : "كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم" قال الترمذي : بعد إخراجه ، وتحسينه : ولا نعرفه إلاّ من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك .

وأخرج ابن مردويه عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الحذف ، وهو قول الله سبحانه : ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال : هو الحذف .

وأخرج عبد ابن حميد عن ابن عباس مثله .

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عائشة في الآية قالت : الضراط .

(38/597)

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ قال : الصيحة ، وفي قوله : ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ قال : في الضلالة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ قال : ثمود ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ قال : قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(39/597)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾

عطف على ﴿ ولوطاً ﴾ [العنكبوت : 28] المعطوف على ﴿ نوحاً ﴾ [العنكبوت : 14] المعمول ل ﴿ أرسلنا ﴾ [العنكبوت : 14] .

فالتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً .

والمناسبة في الانتقال من قصة لوط وقومه إلى قصة مدين ورسولهم أن مدين كان من أبناء إبراهيم وأن الله أنجاه من العذاب كما أنجى لوطاً .

وتقديم المجرور في قوله ﴿ إلى مدين ﴾ ليتأتى الإيجاز في وصف شعيب بأنه أخوهم لأن هذا الوصف غير موجود في نوح وإبراهيم ولوط .

وتقدم معنى كونه أخاً لهم في سورة هود .

وقوله ﴿ فقال ﴾ عطف على الفعل المقدر ، أي أرسلناه فعقب إرساله بأن قال .

والرجاء : الترقب واعتقاد الوقوع في المستقبل .

وأمره إياهم بترقب اليوم الآخر دل على أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث وتقدم الكلام على نظير قوله ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ عند قوله تعالى ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ في سورة البقرة (60) .

وتقدمت قصة شعيب في سورة هود .

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37)

الأخذ : الإعدام والإهلاك ؛ شبه الإعدام بالأخذ بجامع الإزالة .

و﴿ الرجفة ﴾ : الزلزال الشديد الذي ترتجف منه الأرض ، وفي سورة هود سُميت بالصيحة لأن لتلك الرجفة صوتاً شديداً كالصيحة .

وتقدم تفسير ذلك .

وقد أشير في قصة إبراهيم ولوط إلى ما له تعلق بالغرض المسوق فيه ، وهو المصابرة على إبلاغ الرسالة ، والصبر على أذى الكافرين ، ونصر الله إياهما ، وتعذيب الكافرين وإنجاء المؤمنين .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ

لما جرى ذكر أهل مدين وقوم لوط أكملت القصص بالإشارة إلى عاد وثمود إذ قد عرف في القرآن اقتران هذه الأمم في نسق القصص .

والواو عاطفة قصة على قصة .

وانتصاب ﴿ عاداً ﴾ يجوز أن يكون بفعل مقدّر يدل عليه السياق ، تقديره : وأهلكنا عاداً ، لأن قوله تعالى آنفاً ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ [العنكبوت : 37] يدل على معنى الإهلاك ، قاله الزجاج وتبعه الزمخشري .

ومعلوم أنه إهلاك خاص من بطش الله تعالى ، فظهر تقدير : وأهلكنا عاداً .

ويجوز أن يقدر فعل (واذكر) كما هو ظاهر ومقدر في كثير من قصص القرآن .

ويجوز أن يكون معطوفاً على ضمير ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ [العنكبوت : 37] والتقدير : وأخذت عاداً وثمودا .

وعن الكسائي أنه منصوب بالعطف على ﴿ الذين من قبلهم ﴾ من قوله تعالى ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ [العنكبوت : 3] .

وهذا بعيد لطول بعد المعطوف عليه .

والأظهر أن نجعله منصوباً بفعل تقديره (وأخذنا) يفسره قوله ﴿ فكلاًّ أخذنا بذنبه ﴾ [العنكبوت : 40] لأن (كلاً) اسم يعم المذكورين فلما جاء منتصباً بـ ﴿ أخذنا ﴾ تعين أن ما قبله منصوب بمثله وتنوين العوض الذي لحق (كلاً) هو الرابط وأصل نسج الكلام : وعاداً وثموداً وقارون وفرعون الخ . . .

كلهم أخذنا بذنبه .

وجملة ﴿ وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ في موضع الحال أو هي معترضة .

والمعنى : تبين لكم من مشاهدة مساكنهم أنهم كانوا فيها فأهلكوا عن بكرة أبيهم .

ومساكن عاد وثمود معروفة عند العرب ومنقولة بينهم أخبارها وأحوالها ويمرون عليها في أسفارهم إلى اليمن وإلى الشام .

والضمير المستتر في ﴿ تبيّن ﴾ عائد إلى المصدر المأخوذ من الفعل المقدر ، أي يتبين لكم إهلاكهم أو أخذنا إياهم .

وجملة ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وعاداً وثموداً ﴾ .

والتزيين : التحسين .

والمراد : زين لهم أعمالهم الشنيعة فأوهمهم بوسوسته أنها حسنة .

وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ في سورة الأنعام (108) .

والصد : المنع عن عمل .

(41/597)

و ﴿ السبيل ﴾ هنا : ما يوصل إلى المطلوب الحق وهو السعادة الدائمة ، فإن الشيطان بتسويله لهم كفرهم قد حرمهم من السعادة الأخروية فكأنه منعهم من سلوك طريق يبلغهم إلى المقر النافع .

والاستبصار : البصارة بالأمور ، والسين والتاء للتأكيد مثل : استجاب واستمسك واستبكر .

والمعنى : أنهم كانوا أهل بصائر ، أي عقول فلا عذر لهم في صدهم عن السبيل .

وفي هذه الجملة اقتضاء أن ضلال عاد كان ضلالاً ناشئاً عن فساد اعتقادهم وكفرهم المتأصل فيهم والموروث عن آبائهم وأنهم لم ينجوا من عذاب الله لأنهم كانوا يستطيعون النظر في دلائل الوحدانية وصدق رسلهم .

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39)

كما ضرب الله المثل لقريش بالأمم التي كذبت رسلها فانتقم الله منها ، كذلك ضرب المثل لصناديد قريش مثل أبي جهل ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، وأبي لهب ، بصناديد بعض الأمم السالفة كانوا سبب مصاب أنفسهم ومصاب قومهم الذين اتبعوهم ، إنذاراً لقريش بما عسى أن يصيبهم من جراء تغرير قادتهم بهم وإلقائهم في خطر سوء العاقبة .

وهؤلاء الثلاثة جاءهم موسى بالبينات .

وتقدمت قصصهم وقصة قارون في سورة القصص .

فأما ما جاء به موسى من البينات لفرعون وهامان فهي المعجزات التي تحداهم بها على صدقه فأعرض فرعون عنها واتبعه هامان وقومه .

وأما ما جاء به موسى لقارون فنهيه عن البطر .

وأوماً قوله تعالى ﴿ فاستكبروا في الأرض ﴾ إلى أنهم كفروا عن عناد وكبرياء لا عن جهل وغلواء كما قال تعالى ﴿ وأضله الله على علم ﴾ [الجاثية : 23] فكان حالهم كحال صناديد قريش الذين لا يُظن أن فطنتهم لم تبلغ بهم إلى تحقق أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم صدق وأن ما جاء به القرآن حقّ ولكن غلبت الأنفة .

(42/597)

وموقع جملة ﴿ ولقد جاءهم موسى ﴾ كموقع جملة ﴿ وقد تبيّن لكم من مساكنهم ﴾ [العنكبوت : 38] .

والاستكبار : شدة الكبر ، فالسين والتاء للتأكيد كقوله ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ [العنكبوت : 38] .

(وتعليق قوله ﴿ في الأرض ﴾ بـ ﴿ استكبروا ﴾ للإشعار بأن استكبار كل منهم كان في جميع البلاد التي هو منها ، فيومىء ذلك أن كل واحد من هؤلاء كان سيداً مطاعاً في الأرض .

فالتعريف في ﴿ الأرض ﴾ للعهد ، فيصح أن يكون المعهود هو أرض كل منهم ، أو أن يكون

المعهود الكرة الأرضية مبالغة في انتشار استكبار كل منهم في البلاد حتى كأنه يعم الدنيا كلها .

ومعنى السبق في قوله ﴿ وما كانوا سابقين ﴾ الانفلات من تصريف الحكم فيهم .

وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ ولا تحسبنّ الذين كفروا سبقوا ﴾ في سورة [الأنفال : 59] ، فالواو للحال ، أي استكبروا في حال أنهم لم يفدهم استكبارهم .

وإقحام فعل الكون بعد النفي لأن المنفي هو ما حسبوه نتيجة استكبارهم ، أي أنهم لا ينالهم أحد لعظمتهم .

ومثل هذا الحال مثل أبي جهل حين قتله ابنا عفراء يوم بدر فقال له عبد الله بن مسعود حين وجده محتضراً : أنت أبو جهل ؟ فقال : وهل أعْمَدُ من رجل قتلتموه لو غيرُ أكَّارٍ قتلني (أي زراع يعني رجلاً من الأنصار لأن الأنصار أهل حرث وزرع) .

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ

(43/597)

أفادت الفاء التفريع على الكلام السابق لما اشتمل عليه من أن الشيطان زين لهم أعمالهم ومن استكبار الآخرين ، أي فكان من عاقبة ذلك أن أخذهم الله بذنوبهم العظيمة الناشئة

عن تزيين الشيطان لهم أعمالهم وعن استكبارهم في الأرض ، وليس المفرّع هو أخذ الله إياهم بذنوبهم لأن ذلك قد أشعر به ما قبل التفريع ، ولكنه ذكر ليفضى بذكره إلى تفصيل أنواع أخذهم وهو قوله ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ إلى آخره ، فالفاء في قوله ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه ﴾ الخ لتفريع ذلك التفصيل على الإجمال الذي تقدمه فتحصل خصوصية الإجمال ثم التفصيل ، وللدلالة على عظيم تصرف الله .

فأما الذين أرسل عليهم حاصب فهم عاد .

والحاصب : الريح الشديدة ، سميت حاصباً لأنها تقلع الحصباء من الأرض .

قال أبو وجرة السعدي :

صببتُ عليكم حاصبي فتركتكم

كأصرام عادٍ حين جلّلها الرَّمْدُ . . .

فجعل الحاصب مما أصاب عاداً .

وليس المراد بهم قوم لوط كالذي في قوله تعالى ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا ءال لوط ﴾ [القمر : 34] لأن قوم لوط مر آنفاً الكلام على عذابهم مفصلاً فلا يدخلون في هذا الإجمال .

والذين أخذتهم الصيحة هم ثمود .

والذين خسفت بهم الأرض هو قارون وأهله .

وقد تقدم ذكر الخسف في سورة القصص (81 ، 82 .

) والذين أغرقهم : فرعون وهامان ومن معهما من قومهما .

وقد جاء هذا على طريقة النشر على ترتيب اللف .

والأخذ : الإتلاف والإهلاك ؛ شبه الإعدام بالأخذ بجامع إزالة الشيء من مكانه فاستعير له فعل ﴿ أخذنا ﴾ .

وقد نُفي عن الله تعالى ظلم هؤلاء لأن إيلامهم كان جزاء على أعمالهم وكل ما كان من نوع الجزاء يوصف بالعدل وقد نفى الله عن نفسه الوصف بالظلم فوجب الإيمان به سمعاً لا عقلاً في مقام الجزاء ، وأما في مقام التكوين فلا .

وظلمهم أنفسهم هو تسببهم في عذاب أنفسهم فجرُّوا إليها العقاب لأن النفس أولى الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها .

(44/597)

والاستدراك ناشىء عن نفي الظلم عن الله في عقابهم لأنه يتوهم منه انتفاء موجب العقاب فالاستدراك لرفع هذا التوهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(45/597)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ .

الظاهر أن قوله : وعاداً : مفعول به لأهلكنا مقدرة ، ويدل على ذلك قوله قبل : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [العنكبوت : 37] أي أهلكنا مدين بالرجفة ، وأهلكنا عاداً ويدل للإهلاك المذكور قوله بعده ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ أي هي خالية منهم لإهلاكهم . وقوله : بعده أيضاً : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ .

(46/597)

وقد أشار جل وعلا في هذه الآيات الكريمة إلى إهلاك عاد ، وثمود ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، ثم صرح بأنه أخذ كلا منهم بذنبه ، ثم فصل على سبيل ما يسمى في البديع باللف والنشر المرتب ، أسباب إهلاكهم فقال : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ ، وهي الريح يعني : عاداً ، بدليل قوله : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] وقوله : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ [الذاريات : 41] ونحو ذلك من

الآيات . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ يعني ثمود بدليل قوله تعالى فيهم : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾ [هود : 6768] وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ يعني قارون بدليل قوله تعالى فيه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ [القصص : 81] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ يعني فرعون وهامان بدليل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ [الشعراء : 66] [الصافات : 82] ونحو ذلك من الآيات .

(47/597)

والأظهر في قوله هذه الآية : وكانوا مستبصرين ، أن استبصارهم المذكور هنا بالنسبة إلى الحياة الدنيا خاصة ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : 7] . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير ﴾ [الملك : 10] ونحو ذلك من الآيات . وقوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت : 4] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

مدين : اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام ، وسُمِّيت باسمه القبيلة ؛ لأنهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها ، فانتقل الاسم من الشخص إلى القبيلة ، ثم إلى المكان ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ . . . ﴾ [القصص : 23] فصارت مدين عَلَماً على البقعة ، وقالوا : إنها من الطور إلى الفرات .

هذه برقية موجزة لقصة مدين وأخيهم شعيب ، وقد ذُكِرت أيضاً في قصة موسى عليه السلام . وقال ﴿ أَخَاهُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 36] ليدلّك أن الله تعالى حين يصطفي للرسالة يصطفي مَنْ له وُدٌّ بالقوم ، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته ، ولهم به تجربة سابقة ، فهو عندهم مُصلْح غير مُفْسِد ، حتى إذا ما بلَّغهم عن الله صدَّقوه ، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية .

وقوله : ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ . . . ﴾ [العنكبوت : 36] كلمة ﴿ يا قوم . . . ﴾ [العنكبوت : 36] : القوم لا تُقال إلا للرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون لمهمات الأمور ،

ويتحملون المشاق ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . ﴾ [الحجرات : 11] فأطلق القوم ، وهم الرجال في مقابل النساء .

والعبادة : قلنا : طاعة الأمر والنهي ﴿ اعبدوا الله . . . ﴾ [العنكبوت : 36] أطيعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى عنه ما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً ، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بافعل ولا تفعل .

وتعلم أنه سبحانه بصفات الكمال أوجدك وأوجد لك الأشياء ، فأنت بعبادتك له لا تضيف إليه صفة جديدة ، فهو إله قبل أن توجد أنت ، وخالق بكامل القدرة قبل أنْ توجد ، وخلق لك الكون قبل أنْ توجد .

(49/597)

ثم بعد ذلك تعصاه وتكفر به ، فلا يحرمك خيره ، ولا يمنع عنك نعمه . إذن : فهو سبحانه يستحق منك العبادة والطاعة ؛ لأن طاعته تعود عليك أنت بالخير .

لذلك سبق أنْ قُلْنَا إن كلمة (العبودية) كلمة مذمومة تشمئز منها النفس ، إنْ كانت عبودية للبشر ؛ لأن عبودية البشر للبشر يأخذ فيها السيد خير عبده ، لكن عبودية البشر لله تعالى

يأخذ العبد خير سيده ، فالعبودية لله عزٌّ وقوة ومنَعة وللبشر ذلٌّ وهوان ؛ لذلك نرى كل المصلحين يحاربون العبودية للبشر ، ويدعون العبيد إلى التحرر .

فأوّل شيء أمر به شعيب قومه ﴿ اعبدوا الله . . . ﴾ [العنكبوت : 36] كذلك قال إبراهيم لقومه ﴿ اعبدوا الله واتقوه . . . ﴾ [العنكبوت : 16] ، لكن لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ، إنما اهتم بمسألة الفاحشة التي استشرتْ فيهم ، مع أن كل الرسل جاءوا للأمر بعبادة الله .

ونقول في هذه المسألة : لم يأمر لوط قومه بعبادة الله ؛ لأنه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . . . ﴾ [العنكبوت : 26] فهو تابع له ؛ لذلك ينفذ التعاليم التي جاء بها إبراهيم ، فلم يأمر بالعبادة لأن إبراهيم أمر القوم بها ، لكنه تحمَّل مسألة أخرى ، وخصَّه الله بمهمة جديدة ، هي إخراج قومه من ممارسة الفاحشة التي انتشرت بينهم .

وقوله تعالى : ﴿ وارجوا اليوم الأخر . . . ﴾ [العنكبوت : 36] فلا بُدَّ أن اليوم الآخر لم يكُنْ في بالهم ، ولم يحسبوا له حساباً ، كأنهم سيفلتون من الله ، ولن يرجعوا إليه ؛ لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم ، ويحثُّهم على العمل من أجله .

وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر ؟ ونحن في الدنيا نعامل أنفسنا بنفس منطق اليوم الآخر ؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى في زراعة الأرض ، وتتحمل مشاق الحرْث والبَذْر والسقي . . إلخ طوال العام ، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد ، ويوم تملأ به مخازنك تنسى أيام التعب والمشقة ، وساعتها يندم الكسول الذي قعد عن العمل والسعي ، يوم الحصاد سترى أن أردب القمح الذي أخذتَه من المخزن وظننتَ أنه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أرادبّ ، فأخْذُك لم يقلل إنما زاد .

وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق ، فنتحمل مشاقّ العبادة والطاعات في الدنيا لننال النعيم الباقي في الآخرة ؛ لأن نعيم الدنيا مهما كان ، يُنغصه عليك أمران : إما أنْ تفوته أنت بالموت ، أو يفوتك هو بالفقر .

أما في الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته . إذن : فالأَوْلى بك أنْ تزرع للآخرة ، وأن تعمل لها ألف حساب ، فإنْ كان في العبادة مشقة ، وللإيمان تَبعات ، فانظروا إلى عِظَم الجزاء ، وإذا استحضرتَ الثواب على الطاعة هانتْ عليك مشقة الطاعة ، وإذا استفظعت العقاب على المعصية ، زهدتَ فيها ونأيتَ عنها .

إذن : الذي يجعل الإنسانَ يتمادى في المعصية أنه لا يستحضر العقاب عليها ، ويزهد في الطاعة ؛ لأنه لا يستحضر ثوابها .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " والمعنى : لو استحضر الإيمان ما فعل ، إنما غفل عن إيمانه فوقع في المعصية .

ومَن استحضر ثواب الطاعة وجد لها حلاوة في نفسه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة : " أرحنا بها يا بلال " .

(51/597)

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : 36] العثو : الفساد المستور والفساد يقال للظاهر ، فالمعنى : لا تعثَوا في الأرض عثواً ، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل ، فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : 36] كما نقول : اجلس قعوداً .

والفاء في قوله : ﴿ فَقَالَ يا قوم اعبدوا الله . . . ﴾ [العنكبوت : 36] تدل على أنها تعطف هذا الكلام على كلام سابق ، والتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم إني رسول الله إليكم ، ثم ذكر المطلوب منهم ﴿ يا قوم اعبدوا الله . . . ﴾ [العنكبوت : 36] والجمع بين عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعني : لا تفصلوا العبادة عن

غايتها والثواب عليها ، ولا تفصلوا المعصية عن عقابها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : 36] فلا أقول لكم : أصلحوا فلا أقلَّ من أن تتركوا الصالح على صلاحه لا تفسدوه ؛ لأن الخالق – عز وجل – أعدَّ لنا الكون على هيئة الصلاح ، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه .

فالنيل مثلاً هبة من هِبَات الخالق ، وشُريان للحياة يجري بالماء الزلال ، وتذكرون يوم كان الفيضان يأتي بالطمي فترى الماء مثل الطحينة تماماً ، وكذا نملأ منه (الزير) ، وبعد قليل يترسب الطمي آخذاً معه كل الشوائب ، ويبقى الماء صافياً زلالاً . أما الآن فقد أصابه التلوث وفسَد ماؤه بما يُلْقى فيه من مُخلَّفات ، وأصبحنا نحن أول مَنْ يعاني آثار هذا التلوث

.

لذلك أصبح ساكن المدن مهما توفرت له سُبُل الحضارة لا يرتاح إلا إذا خرج من المدينة إلى أحضان الطبيعة البكْر التي ظلتْ على طبيعتها كما خلقها الله ، لا ضوضاء ، ولا ملوثات ، ولا كهرباء ، ولا مدنية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة . . . ﴾ .

فلماذا يُكذّب الناس دعوة الخير ؟

قالوا : لا يُكذِّب دعوة الخير إلا المستفيدون من الشر ؛ لأن الخير سيقطع عليهم الطريق ، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم ، فكل الذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم ورؤساءهم ، وقد ألفوا السيادة والعظمة ، واعتادوا أن يكون الناس عبيداً لهم ، فكيف إذن يُفسِحون الطريق للرسل ليأخذوا منهم هذه المكانة ؟

وإلا ، فلماذا كان عبد الله بن أُبَيٍّ يكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه يوم وصل رسول الله إلى المدينة كانوا يُعِدُّون التاج لعبد الله بن أبي ، لينصبوه مَلِكاً على المدينة ، فلما جاءها رسول الله شغلوا بهذا الحدث الكبير ، وانصرفوا عن هذه المسألة .

لكن ، ماذا قال شعيب لقومه حتى يُكذِّبوه ؟ لقد قال لهم أمرين هما : ﴿ اعبدوا الله وارجوا اليوم الأخر ﴾ [العنكبوت : 36] ونهي واحد في ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : 36] ومعلوم أن الأمر والنهي قوْل لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأنه إنشاء وليس خبراً ، لأنه ما معنى الكذب ؟ الكذب أن تقول لشيء وقع أنه لم يقع ، أو لشيء لم يقع أنه وقع ، وهذا يسمونه خبراً .

فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صِدْق ، وإنْ خالف الواقع فهو كذب ، إذن : كيف نحكم على ما لم تقع له نسبة أنه صِدْق أو كذب ؟ حينما تقول مثلاً : قِفْ . هل نقول لك إنك كاذب ؟ لا ، لأن واقع الإنشاء لا يأتي إلا بعد أنْ تتكلم ، لذلك قسَّموا الكلام العربي إلى خبر وإنشاء

.

ولكي نبسط هذه المسألة على المتعلم نقول : المتكلم حين يتكلم يأتي بنسبة اسمها نسبة كلامية ، قبل أن يتكلم بها جالتْ في ذهنه ، فقبل أن أقول : زيد مجتهد دارتْ في ذهني هذه المسألة ، وكان في الواقع يوجد شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً .

إذن : عندنا نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية ، فإنْ وُجِدت النسبة الواقعية قبل الذهنية والكلامية ، فالكلام هنا خبر يُوصَف بالصدق أو يُوصَف بالكذب .

(53/597)

إذن : النسبة الواقعية لا تأتي نتيجة النسبة الكلامية ، إنما حين تقول : قف فتأتي النسبة الواقعية نتيجة النسبة الكلامية ، وما دامت النسبة الواقعية تأخرتْ عن الكلامية ، فلا يُوصَف القول إذن لا بصدْق ولا بكذب .

ونعود إلى قول نبي الله شعيب نجده عبارة عن أمرين : ﴿ اعبدوا الله وارجوا اليوم الأخر . . ﴾ [العنكبوت : 36] ونهي واحد : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : 36] والأمر والنهي من الإنشاء الذي لا يُوصَف بالصِّدْق ولا بالكذب ، فكيف إذن يُكذِّبونه ؟

فأول إشكال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 37] ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود الملَكَة العربية التي يفهمون بها كلام الله . فالحق سبحانه قال هنا ﴿ فَكَذَّبُوهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 37] لأنه أمرهم بعبادة الله وهو رسول من عند الله فيأمرهم بعبادته ؛ لأن عبادته تعالى واجبة عليهم ، وما أمرهم إلا ليُؤدُّوا الواجب عليهم ، واليوم الآخر كائن لا محالة فارجوه ، والإفساد في الأرض مُحرم .

إذن : فالمعنى يحمل معنى الخبر ، فالأمران هنا ، والنهي أمر واجب فكذَّبوه لعلّة الأمرين ، ولعلَّة النهي .

ومعنى ﴿ اعبدوا الله . . . ﴾ [العنكبوت : 36] خصُّوه سبحانه بالعبادة ، وهي الطاعة في الأمر والانتهاء عن المنهي عنه ، وهذه العبادة مطلوبة من الكل ، وهي شريعة كل الأنبياء والرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . . . ﴾ [الشورى : 13] .

إذن : فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامة التي لا تختلف فيها الرسالات ، أما الشرائع : افعل كذا ، ولا تفعل كذا فتختلف من نبي لآخر .

ومعنى : ﴿ وارجوا اليوم الأخر . . ﴾ [العنكبوت : 36] أي : اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر ، وأنت لماذا تحب اليوم الآخر ، ولماذا ترجوه ؟ لا يحبه ولا يرجوه إلا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه ، وإلا لو كانت الأخرى لقال : وخافوا اليوم الآخر .

إذن : الرجاء معناه : اعملوا ما يُؤهّلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر ، والإنسان لا يرجو إلا النافع له . وهنا لك أنْ تسأل : هل إذا آمن الإنسان ونفَّذ أحكام ربه أمراً ونهياً ، فجزاؤهم في الآخرة رجاء يرجوه أم حَقٌّ له ؟ المفروض أن يقول للطائعين : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، فهي واجبة له ومن حَقِّه ، فكيف يسميه القرآن رجاءً وهو واقع ؟

قالوا : لأن جزاءنا في الجنة فَضْلٌ من الله ، لأنه سبحانه خلقنا وخلق لنا ، وأمدَّنا بالطاقات والنعم قبل أنْ يُكلِّفنا شيئاً ، فحين تعبد الله حقَّ العبادة فإنك لا تقضي ثمن جميله عليك ، ولا توفيه سبحانه ما يستحق ، فإذا أثابك في الآخرة فبمحْض فَضْله وكرمه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58] .

كما لو أنكَ استخدمت أجيراً بمائة جنيه مثلاً في الشهر ، وقبل أن يعمل لك شيئاً أعطيته أجره فهل يطلب منك أجراً آخر ؟ فلو جئتَ في آخر الشهر وأعطيته عشرة جنيهات ، فهي

فَضْل منك وتكرُّم .

لذلك قال ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : 36] لأن الجزاء في الآخرة عند التحقيق والتعقُّل محض فَضلْ من الله ؛ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته " .

(55/597)

والنهي في : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : 36] أي : لا تفسدوا فساداً ظاهراً ، أو : لا تعملوا أعمالاً هي في ظنكم نافعة وهي ضارة ، تذكرون زمان كان القطن هو المحصول الرئيسي في مصر ومصدر الدَّخلْ ، وكانت تهدده دودة القطن فنقاومه مقاومة يدوية ، إلى أنْ خرج علينا الأمريكان بالمبيدات ، واستخدمنا مادة اسمها (دي دي تي) فقضتْ على الدودة في بادئ الأمر ، وظنَّ الفلاح أن هذه المشكلة قد حُلّت .

لكن بعد سنوات تعودتْ الدودة على هذه المادة ، وأصبح عندها حصانة ، وكأن (الدي دي تي) أصبح (كيفاً) عندها ، وبدأنا نحن نعاني الأمرَّين من آثار هذه المبيدات في الماء ، وفي التربة ، وفي الزراعة ، وفي صحة الإنسان والحيوان . إذن : ينبغي النظر في العواقب قبل

البدء في الشيء ، وأنْ يُقاسَ الضرر والنفع .

كذلك الحال عندما اخترعوا السيارات ، وقالوا : إنها ستريح الناس في أسفارهم وفي حمل أمتعتهم ، وبعد ما توصل العالم إليه من ثورة في وسائل النقل لو قارنا نفعها بضررها لوجدنا أن ضررها أكبر لما تُسبِّبه من تلوث ، ولو عُدْنا إلى الوسائل البدائية ، واستخدمنا الدواب لكان أفضل .

وأذكر عندما جئنا إلى مصر سنة 1936 - 1938 وجدنا في الميادين العامة مواقفَ للحمير ، مثل مواقف السيارات الآن ، وكانت هي الوسيلة الوحيدة للانتقال ، ويكفي أن رَوَثَ الحمار يُخصِّب الأرض ، أمّا عوادم السيارات فتسبب أخطر الأمراض وتؤدي للموت .

فماذا بعد أنْ كذَّب قومُ شعيب نبيهم ؟

كانت سنة الله في الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم أن يُبلِّغ الرسول رسالة ربه ، لكن لا يُؤمر بحمل السيف ضد الكفار ، إنما إنْ كذّبوا بالآيات عاقبهم رب العزة سبحانه ، وتُحسم المسألة بهلاك المكذِّبين .

(56/597)

وكوْن الحق – تبارك وتعالى – لا يأمر الناسَ بقتال الكفار هذا أمر منطقي ، والدليل رأيناه في بني إسرائيل لما طلبوا من الله أنْ يفرض عليهم القتال ، فقال : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ . . ﴾ [البقرة : 246] .

ولم يُؤْمر بالقتال لنشر الدعوة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم ومَنْ آمن معه مأمونون على هذا ، ولأنه صلى الله عليه وسلم آخر الرسل والأنبياء ، فلا بُدَّ أن يستوفي كل الشروط .

ونتيجة التكذيب ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [العنكبوت : 37] وهذا عقاب الله ؛ لأنه كان سبحانه يتولّى المكذِّب . وفي (الحجر) وفي (هود) قال (الصيحة) وحتى لا تتهم الآيات بالتضارب نقول : الصيحة : صوت شديد مزعج ، وهذا الصوت لا نسمعه إلا بتذبذب الهواء بشدة ، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سميت صيحة .

إذن : الصيحة تخلخل في الهواء بشدة ؛ لا بد أنْ ينتج عنه رجفة أي : هزة شديدة كالتي تهدم بالبيوت والعمارات نتيجة قنبلة مثلاً ، فالصيحة وُجدت أولاً ، تبعتها الرجفة ، لكن القرآن مرة يذكر الأصل فيقول (الصيحة) ومرة يذكر النتيجة فيقول (الرجفة) .

﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [العنكبوت : 37] قال (فَأَصْبَحُوا) ولم يقُلْ مثلاً :

فصاروا ليُحدّدِ وَقْت أخذهم بالصباح، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصباح قبل أن يستعد خَصْمك لملاقاتك، فما يزال في أعقاب النوم خاملاً، وإلى الآن يفضل رجال الحرب والقادة أن تبدأ الحرب في الصباح، حيث يُفَاجأ بها العدو .

(57/597)

وقد أصبح هذا الوقت قضية عامة، تُعَدُّ مخالفتها من قبيل المكْر والخدعة في الحرب، كما خالفها قادتنا في حرب أكتوبر 73، حيث فاجأوا عدوهم في وقت الظهيرة، وقد تمت لهم المفاجأة، وأخذوا عدوهم على غِرَّة؛ لأنهم غيَّروا الوقت المعتاد، وهو الصبح .

إذن: على الإنسان ألاَّ يتخذ في أموره قضية رتيبة، بل يُخضِع أموره لما يناسبها .

ومن الطرائف: حرص الرجل على أنْ يوقظ ولده مبكراً ليذهب إلى عمله، ويقضي مصالحه، فقال له الوالد: ابن فلان استيقظ مبكراً، فوجد محفظة بها مائة جنيه، فقال الولد – وكان كسولاً لا يريد أن يستقيظ مبكراً: هذه المحفظة وقعتْ من واحد استيقظ قبله .

ومعنى ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ [العنكبوت: 37] يعني: هامدين بلا حراك .

ثم تنتقل بنا الآيات إلى لقطات أخرى موجزة من مواكب الرسالات، وكأنها برقيات: ﴿

وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ . . . ﴾ .

نلحظ في هذه البرقيات السريعة أنها تذكر المقدمة ، ثم النهاية مباشرة ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ . . . ﴾ [العنكبوت : 38] هذه المقدمة ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 38] هذا موجز لما نزل بهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لن أحكي لكم ما حاق بهم ؛ لأنكم تشاهدون ديارهم ، وتمرون عليها ليل نهار ﴿ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137-138] .

والآن مع الثورة العلمية استطاعوا تصوير ما في باطن الأرض ، وظهرت كثير من الآثار لهذه القرى عاد وثمود والأحقاف ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ [الفجر : 6-7] .

(58/597)

وطبيعي الآن أن نجد آثار السابقين تحت التراب ، ولا بُدَّ أن نحفر لنصل إليها ؛ لأن عوامل التعرية طمرتها بمرور الزمن ، ولَمَا والواحد منّا لو غاب عن بيته شهراً يعود فيجد التراب يغطي أسطح الأشياء ، مع أنه أغلق الأبواب والنوافذ ، ولك أن تحسب نسبة التراب هذه على مدى آلاف السنين في أماكن مكشوفة .

وحكَوْا أن الزوابع والعواصف الرملية في رمال الأحقاف مثلاً كانت تغطي قافلة بأكملها ، إذن : كيف ننتظر أن تكون آثار هذه القرى باقية على سطح الأرض ؟ والآن نشاهد في الطرق الصحراوية مثلاً إذا هبَّتْ عاصفة واحدة فإنها تغطي الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزَاح عنها هذه الطبقة من الرمال .

إذن : علينا أن نقول : نعم يا رب رأينا مساكنهم ومررنا بها – ولو من خلال الصور الحديثة التي التقطت لهذه القرى ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 38] يعني : أغواهم بالكفر ، وأقنعهم أنه الأسلوب السليم والأمثل في حركة الحياة ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل . . . ﴾ [العنكبوت : 38] فما دام قد زيَّن لهم سبيل الشيطان فلا بُدَّ أنْ يصدَّهم عن سبيل الإيمان ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 38] يعني : لم نأخذهم على غِرَّة .

لأن المبدأ الذي اختاره الله تعالى لخلقه ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] رسولاً يُبيِّن لهم وينذرهم ، ويحذرهم عاقبة الكفر ؛ لذلك لم يأخذهم الله تعالى إلا بعد أنْ أرسل إليهم رسولاً فكذَّبوه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ . . . ﴾ .

مازالت الآيات تُحدّثنا عن مواكب الرسالات ، لكنها تتكلم عن المكذّبين عاداً وثمود ، وهنا ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ . . . ﴾ [العنكبوت : 39] والدليل على قوله سبحانه في الآية السابقة ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 38] قوله تعالى هنا ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ موسى بالبينات . . . ﴾ [العنكبوت : 39] أي : بالأمور الواضحة التي لا تدع مجالاً للشك في صدْق الحق سبحانه ، وفي صِدْق الرسول في البلاغ عن الله .

﴿ فاستكبروا فِي الأرض . . . ﴾ [العنكبوت : 39] استكبر : يعني افتعل الكِبْر ، فلم يقُلْ تكبَّر ، إنما استكبر كأنه في ذاته ما كان ينبغي له أنْ يستكبر ؛ لأن الذي يتكبّر يتكبَّر بشيء ذاتي فيه ، إنما بشيء موهوب ؟ لأنه قد يسلب منه ، فكيف يتكبَّر به ؟

لذلك نقول للمتكبِّر أنه غفلت عينه عن مَرأْى ربه في آثار خَلْقه ، فلو كان ربه في باله لاستحى أنْ يتكبّر .

فالإنسان لو أنه يلحظ كبرياء ربه لَصَغُر في نفسه ، ولاستحى أن يتكبَّر ، كما أن المتكبر بقوته وعافيته غبي ؛ لأنه لم ينظر في حال الضعيف الذي يتعالى عليه ، فلربما يفوقه في شيء آخر ، أو عنده عبقرية في أمر أهم من الفتوة والقوة ، ثم ألم ينظر هذا الفتوة أنها مسألة عرضية ، انتقلتْ إليه من غيره ، وسوف تنتقل منه إلى غيره .

إذن : فقارون وفرعون وهامان لما جاءهم موسى بآيات الله الواضحات استكبروا في

الأرض ، وأنفوا أن يتبعوا لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم ، إنما افتعالاً لغير حق ﴿ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ﴾ [العنكبوت : 39] فنفى عنهم أن يكونوا سابقين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة : 60] .

(60/597)

والسبق لا يُمدح ولا يُذم في ذاته ، لكن بنتيجته : إلى أيِّ شيء سبق ؟ كما نسمع الآن يقولون : فلان رجعي ، والرجعية لا تُذَم في ذاتها ، وربما كان الإنسان مُسْرفاً على نفسه ، ثم رجع إلى منهج ربه ، فنِعمْ هذه الرجعية ، فالسبق لا يُذَم لذاته ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ [آل عمران : 133] أي : سابقوا .

والمعنى هنا ﴿ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ﴾ [العنكبوت : 39] أن هناك مضمارَ سباق ، فمن سبق قالوا : أحرز قَصَب السبق ، فإنْ كان مضمار السباق هذا في الآخرة أيسبقنا أحد ليفلتَ من أخْذنا له ؟ إنهم لن يسبقونا ، ولن يُفلِتوا من قبضتنا ، ولن يُعجِزوا قدرتنا على إدراكهم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا . . . ﴾ .

الكلام هنا عن المكذِّبين والكافرين الذين سبق ذكرهم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وقوم

لوط ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، فكان من المناسب أنْ يذكر الحق سبحانه تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء لأنهم طائفة واحدة . فقال : ﴿ فَكُلاًّ . . . ﴾ [العنكبوت : 40] أي : كل مَنْ سبق ذكرهم من المكذّبين فالتنوين في ﴿ فَكُلاًّ . . . ﴾ [العنكبوت : 40] عوض عن كل من تقدَّم ذكرهم ، كالتنوين في : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 84] فهو عِوَض عن جملة ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] .

وقوله سبحانه : ﴿ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 40] والأخذ يناسب قوة الأخذ وقدرته ؛ لذلك يقول سبحانه عن أخْذه للمكذّبين ﴿ أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 42] فالعزيز : الذي يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر أي : القادر على الأَخْذ ، بحيث لا يمتنع منه أحد ؛ فهو عزيز .

(61/597)

والأخذ هنا بسبب الذنوب ﴿ بِذَنبِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 40] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً ، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ؛ ولذلك يأتي في تذييل الآية :

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] .

ثم يُفصِّل الحق سبحانه وتعالى وسائل أَخْذه لهؤلاء المكذبين : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ

حَاصِباً . . . ﴾ [العنكبوت : 40] الحاصب : هو الحصَى الصّغار ترمي لا لتجرح ، ولكن يُحْمي عليها لتكون وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ؛ لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رَمْيهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم ، كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار باردة ؛ ذلك ليطيل أمد إيلامه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة . . . ﴾ [العنكبوت : 40] وهو الصوت الشديد الذي تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض . . . ﴾ [العنكبوت : 40] أي : قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 40] وهم قوم نوح ، وفرعون .

هذه وسائل أربعة لإهلاك المكذِّبين ، النار في الحصباء ، والهواء في الصيحة ، والتراب في الخسف ، ثم الماء في الإغراق ، ورحم الله الفخر الرازي حين قال في هذه الآية أنها جمعت العناصر التي بها وجود الإنسان والعناصر الأساسية أربعة : الماء والنار والتراب والهواء . وكانوا يقولون عنها في الماضي العناصر الأربعة ، لكن العلم فرّق بعد ذلك بين العنصر والمادة .

فالمادة تتحلَّل إلى عناصر ، أمّا العناصر فلا يتحلل لأقل منه ، فهو عبارة عن ذرات متكررة لا يأتي منها شيء آخر ، فالهواء مادة يمكن أنْ نُحلِّله إلى أكسجين و . . . إلخ وكذلك الماء مادة تتكوَّن من عدة عناصر وذرات إلى أن جاء (منديليف) ووضع جدولاً للعناصر ، وجعل لكل منهما رقماً أسماها الأرقام الذرية ، فهذا العنصر مثلاً رقم واحد يعني : يتكون من ذرة واحدة ، وهذا رقم اثنين يعني يتكون من ذرتين . . إلخ إلى أنْ وصل إلى رقم 93 ، لكن وجد في وسط هذه الأرقام أرقاماً ناقصة اكتشفها العلماء فيما بعد .

فمثلاً ، جاءت مدام كوري ، واكتشفت عنصر الراديوم ، فوجدوا فعلاً أن رقمه من الأرقام الناقصة في جدول (منديليف) ، فوضعوه في موضعه ، وهذا يدل على أن الكون مخلوق بعناصر مرتبة وصلت مع التقدم العلمي الآن إلى 105 عناصر .

ولما حلَّل العلماء عناصر التربة المخصبة التي نأكل منها المزروعات وجدوها 16 عنصراً ، تبدأ بالأكجسين كأعلى نسبة ، وتنتهي بالمنجنيز كأقل نسبة ، لأنها لم تصل إلى الواحد من الألف . فلما حلَّلوا عناصر جسم الإنسان وجدوا نفس هذه العناصر الستة عشرة . .

وكأن الحق – سبحانه وتعالى – أقام حتى الكفار ليثبتوا الدليل على صِدْقه تعالى في خَلْق الإنسان من طين ، لنعلم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُظهِر سِرّاً من أسرار كونه يأتي ربه ولو على أيدي الكفار .

وأول مَنْ قال بالعناصر الأربعة التي يتكون منها الكون فيلسوف اليونان أرسطو الذي توفي سنة 384 قبل الميلاد ، وعلى أساس هذه العناصر الأربع كانوا يحسبون النجم ، فمثلاً عن الزواج يحسبون نجم الزوج والزوجة حسب هذه العناصر ، فوجدوا نجم الزوج هواءً ، ونجم الزوجة ناراً ، فقالوا (هيجعلوها حريقة) ، وفي مرة أخرى وجدوا الزوجة مائية والزوج ترابياً فقالوا (هيعملوها معجنة) .

(63/597)

ومعلوم أن الحق سبحانه لطلاقة قدرته وتعالى يجعل عناصر البقاء هي نفسها عناصر الفناء ، وهو سبحانه القادر على أنْ يُنجي ويُهلك بالشيء الواحد ، كما أهلك فرعون بالماء ، وأنجى موسى – عليه السلام – بالماء .

كذلك حين نتأمل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين الإنسان ، حيث خلقه الله من ماء وتراب فكان طيناً ، ثم جفَّ بالحرارة حتى صار صلصالاً كالفخار ، ثم هو بعد ذلك يتنفس الهواء ، فبنفس هذه العناصر التي كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك .

والحق – سبحانه وتعالى – يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون في كل مظاهره وآياته بيقظة ليستنبطوا ما فيه من مواطن العبر والأسرار ؛ لذلك نجد أن كل الاكتشافات جاءت ،

نتيجة دِقَّة الملاحظة لظواهر الكون .

ويلفتنا ربنا إلى أهمية العلم التجريبي ، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] فينبغي إذن أن نتأمل فيما نرى وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرشميدس ، وما توصل إلى الكهرباء والجاذبية والبنسلين إلا بالتأمل الدقيق لظواهر الأشياء ، لذلك فالملاحظة هي أساس كل علم تجريبي أولاً ، ثم التجريب ثانياً ، ثم إعادة التجريب لتخرج النتيجة العلمية .

والهواء سبب أساسي في حياة الإنسان ، وبه يحدث التوازن في الكون ، لكن إنْ أراد الحق سبحانه جعله زوبعة أو إعصاراً مدمراً . وسبق أن قلنا : إنك تصبر على الطعام شهراً ، وعلى الماء عشرة أيام ، لكن لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير ، فالهواء إذن أهم سبب من أسباب بقاء الحياة ؛ لذلك نسمعهم يقولون في شدة الكيد : (والله لأكتم أنفاسه) لأنها السبيل المباشر إلى الموت ؛ لذلك فالهواء عامل أساسي في وسائل الإهلاك المذكورة .

وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها ، فالجبال العالية والعمارات الشاهقة ما قامت بقوة المسلحات والخرسانات ، إنما بتوازن الهواء ، بدليل أنك لو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ في هذا الجانب فوراً .

وبهذه النظرية يحدث الدمار بالقنابل ؛ لأنها تعتمد على نظرية تفريغ الهواء وما يسمونه مفاعل القبض ومفاعل البسط ، فما قامتْ الأشياء من حولك إلا لأن الهواء يحيط بها من كل جهاتها .

وقلنا : إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الهواء يحدثنا عنه بدقة الخالق الخبير ، فكل ريح مفردة جاءت للتدمير والإهلاك ، وكل ريح بصيغة الجمع للنماء والخير والإعمار ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . ﴾ [الحجر : 22] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] لأنها ريح واحدة تهبُّ من جهة واحدة فتدمر .

ثم تُختم الآية بهذه الحقيقة : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] لأن الخالق – عز وجل – كرَّم الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ . . . ﴾ [الإسراء : 70] كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار ، فإذا نظرتَ في الكون واستقرأتَ أجناس الوجود لوجدتَ الإنسان سيد هذا الكون كله .

فالأجناس في الكون مرتبة : الإنسان ودونه مرتبة الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، فالجماد

إذا أخذ ظاهرة من ظواهر فَضْل الحق عليه من النمو يصير نباتاً ، وإذا أخذ النبات ظاهرة من ظواهر فيض الحق على الخَلْق فأعطاه مثلاً الإحساس يصير حيواناً ، فإذا تجلى عليه الحق سبحانه بفضله وأعطاه نعمة العقل يصير إنساناً .

(65/597)

لكن هل النبات حين يأخذ خاصية النمو فَفُضِّل عن الجماد يخرج عن الجمادية ؟ لا إنما تظل فيه الجمادية بدليل أنه إذا امتنع عنه النمو يعود جماداً كالحجر ، وكذلك الحيوان أخذ ظاهرة الحسِّ وتميَّز بها عن النبات ، لكن تظل فيه النباتية حيث ينمو ويكبر .

والإنسان وهو سيد الكون الذي كرَّمه ربه بالعقل تظل فيه الجمادية بدليل أثر الجاذبية عليه ، فإذا ألقى بنفسه من مكان عالٍ لا يستطيع أن يمسك نفسه في الهواء ، وكذلك تظل فيه النباتية والحيوانية ، ففيه إذن كل خصائص الأجناس الأخرى دونه ، ويزيد عليهم العقل .

لذلك لا يكلّفه الله إلا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ ، وبشرط أن يسلم من العطب في عقله كالجنون مثلاً ، وأن يكون مختاراً فالمكره لا تكليفَ عليه ؛ لأنه غير مختار .

والإنسان الذي كرَّمه ربه بالعقل والاختيار ، وفضَّله على كل أجناس الوجود لا يليق به أن يخضع أو يعبد إلا أعلى منه درجة ، أما أنْ يتدنى فيعبد ما هو أقل منه رتبة ، فهذا شيء

عجيب لا يليق به ، فالعابد لا بُدَّ أنْ يكون أدنى درجةً من المعبود ، وأنت بالحكم أعلى درجة مما تحتك من الحيوان والنبات والجماد ، فكيف تجعله يتصرف فيك ، مع أنه من تصرفاتك أنت حين تُوجِده نَحْتاً ، وتقيمه في المكان الذي تريده وإن انكسر تصلحه ؟ ! !

إذن : كرَّمك ربك ، وأهنْتَ نفسك ، ورضيت لها بالدونية ، جعلك سيداً وجعلت نفسك عبداً لأحقر المخلوقات ؛ لذلك يقول تعالى في الحديث القدسي

" يا ابن آدم ، خلقتُك من أجلي ، وخلقتُ الكون كله من أجلك ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له " .

(66/597)

إذن : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 40] أي : لا ينبغي لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفي الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لا ينبغي له أنْ يظلم ؛ لأن الظلم يعني أن تأخذ حقَّ الغير ، والله سبحانه مالك كل شيء ، فلماذا يظلم إذن .

ومثال ذلك نَفْي انبغاء قول الشعر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ . . . . ﴾ [يس : 69] فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يستطيع أن يقول شعراً ، فلديه كل أدواته ، لكن لا ينبغي للرسول أن يكون شاعراً ؛ لأنهم كذابون ، وفي كل واد يهيمون ، ففَرْق بين انبغاء الشيء ووجوده فعلاً .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] بصيغة المبالغة ظلام ، ولم يقل ظالم ، لماذا ؟ لأن الله تعالى إنْ أباح لنفسه سبحانه الظلم ، فسيأتي على قَدْر قوته تعالى ، فلا يقال له ظالم إنما ظلاَّم – وتعالى الله عن هذا عُلُواً كبيراً .

ولما تكلمنا عن المبالغة وصيغها قلنا : إن المبالغة قد تكون في الحدث ذاته ، كأن تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً ، ويأكل غيرك خمسة مثلاً ، أو تكون في تكرار الحدث ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، وغيرك يأكل ستاً ، فنقول : فلان آكل ، وفلان أَكُول أو أكال ، فالمبالغة نشأتْ إما من تضخيم الحدث ذاته ، أو من تكراره .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتضي تعدُّد الظلم – إن تُصور – فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلاَّم) .

(67/597)

وهناك قضية لغوية في مسألة المبالغة تقول : إن نَفْي المبالغة لا ينفي الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبالغة ، فحين نقول مثلاً : فلان أكول ، فهو آكل من باب أَوْلَى ، وحين نقول : فلان آكل ، فلا يعني هذا أنه أكول . فنَفْي المبالغة في ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] لا ينفي الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] وظلمهم لأنفسهم جاء من تدنّيهم وإهانتهم لأنفسهم بالكفر بعد أنْ كرّمهم الله ، وكان عليهم أنْ يُصعّدوا هذا التكريم ، لا أن يُهينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(68/597)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً . . . ﴾ الآيات .

ذَكَر قصةَ شعيبٍ وقصة عادٍ وثمود وقصة فرعون ، وقصة قارون . . وكلهم نَسَجَ بعضُهم على مِنْوال بعضٍ ، وسلك مسلكَهم ، ولم يَقْبَلوا النصحَ ، ولم يُبَالوا بمخالفة رُسِلِهم ، ثم إن الله

تعالى أهلكهم بأجمعهم ، إمضاءً لِسُنّته في نصرة الضعفاء وقهر الظالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 97 ﴾

(69/597)

قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وأما ما عبدوه ورجوا نصره لهم وأملوه فأضعف منهم ، ولكون شيء منه لم يغن عن أحد منم شيئاً فلم تختل سنة الله في أوليائه وأعدائه في قرن من القرون ولا عصر من العصور ، بل جرت على أقوم نظام ، واتقن إحكام ، وصل بذلك قوله تعالى على وجه الاستنساج :

﴿ مثل الذين ﴾ .

ولما كان دعاء غير الله مخالفاً لقويم العقل ، وصريح النقل ، وسليم الفطرة وصحيح الفكرة فكان ذلك يحتاج إلى تدرب إلى الجلافة ، وتطبع في الكثافة ، قال : ﴿ اتخذوا ﴾ أي تكلفوا أن أخذوا .

ولما كانت الرتب تحت رتبته سبحانه لا تحصى ، وكل الرتب دون رتبته ، قال منبهاً على ذلك بالجار : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي لا كفوء له ، فرضوا بالدون ، عوضاً عمن لا تكفيه الأوهام والظنون ﴿ أولياء ﴾ ينصرونهم بزعمهم من معبودات وغيرها ، في الضعف والوهي ﴿ كمثل العنكبوت ﴾ الدابة المعروفة ذات الأرجل الكثيرة الطوال ؛ ثم استأنف ذكر وجه الشبه وعبر عنها بالتأنيث وإن كانت تقال بالتذكير تعظيماً لضعفها ، لأن المقام لضعف ما تبنيه فقال : ﴿ اتخذت بيتاً ﴾ أي تكلفت أخذه في صنعتها له ليقيها الردى ، ويحميها البلا ، كما تكلف هؤلاء اصطناع أربابهم لينفعوهم ، ويحفظوهم بزعمهم ويرفعوهم ، فكان ذلك البيت مع تكلفها في أمره ، وتعبها الشديد في شأنه ، في غاية الوهن .

ولما كان حالها في صنعها حال من ينكر وهنه ، قال مؤكداً : ﴿ وإن ﴾ و واوه للحال من ضمير – ﴿ اتخذت ﴾ أي والحال أنه أوهن – هكذا كان الأصل ، ولكنه أظهر للتعميم فقال : ﴿ أوهن البيوت ﴾ أي أضعفها ﴿ لبيت العنكبوت ﴾ التي عانت في حوكه ما عانت وقاست في نسجه ما قاست ، لأنه لا يكنّ من حر ، ولا يصون من برد ، ولا يحصن

عن طالب ، كذلك ما اتخذ هؤلاء من هذه الأوثان ، وهذا الدين الذي لا أصل له فهو أوهن الأديان وأهونها ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كان لهم نوع ما من العلم لانتفعوا به فعلموا أن هذا مثلهم ، فأبعدوا عن اعتقاد ما هذا مثله .

ولما انتفى نفعهم بعلمهم ، صح نفيه ، فكانوا وإياها على حد سواء ، ليس لفريق منهما شيء مما نوى ، فيا لها من صفقة خاسرة ، وتجارة كاسدة بائرة .

(70/597)

ولما كان ضرب المثل للشيء لا يصح إلا من العالم بذلك الشيء ، وكان النصير على شيء لا يمكن أن يتوجه إلى معارضته إلا أن يعلمه ويعلم مقدار قدرته ، وعدة جنوده ، وصل بذلك أن هذا شأنه سبحانه وأن شركاءهم في غاية البعد عن ذلك ، فكيف يعلقون بنصرهم آمالهم ، وزاد ذلك ذاك حسناً تعقيبه لنفي العلم عنهم ، فقال إشارة إلى جهلهم في إنكارهم أن يقدر أحد على إهلاك آلهتهم التي هي أو هي الأشياء : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ يعلم ﴾ بما له من تلك الصفات ﴿ ما ﴾ أي الذي ﴿ يدعون ﴾ أي الذين ضرب لهم المثل ، أو أنتم - في قراءة الفوقانية التفاتاً إلى أسلوب الخطاب إيذاناً بالغضب ﴿ من دونه ﴾ إشارة إلى سفول رتبتهم ، وأكد العموم بقوله : ﴿ من شيء ﴾ أي

سواء كان نجماً أو صنماً أو ملكاً أو جنيناً أو غيره ، وهم لا يعلمونه ولا يعلمون شيئاً مما يتوصلون إليه ، فكيف يشفعون عنده أو ينصرون منه ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وهو العزيز ﴾ أي عن أن يعلمه شركاؤهم أو يحيط به أحداً علماً ، أو يمتنع عليه شيء يريده ؛ وجوزوا أن تكون ما نفية ، أي شيء يعتد به .

ولما كان ذلك ربما أفهم أنه لا يعلم أصلاً قال : ﴿ الحكيم ﴾ أي البالغ العلم ، الواضع كل شيء يريده في أكمل مواضعه ، فأبطن نفسه بكبريائه وجلاله حتى لا باطن سواه ، وأظهرها بأفعاله وما كشف من جماله حتى لا ظاهر في الحقيقة غيره ، وهو يغلب من شاء بعزته ، ويمهله إن شاء بحكمته ، فلا يغتر أحد بإمهاله فيظن أنه لإهماله .

(71/597)

ولما فرغ من مثلهم ومما تتوقف صحته عليه ، كان كأنه قيل على وجه التعظيم لهذا المثل : هذا مثلهم فعطف عليه قوله إشارة إلى أمثال القرآن كلها تعظيماً لها وتنبيهاً على جليل قدرها وعليّ شأنها : ﴿ وتلك الأمثال ﴾ أي العالية عن أن تنال بنوع احتيال ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ نضربها ﴾ بما لنا من العظمة ، بياناً ﴿ للناس ﴾ تصويراً للمعاني المعقولات بصور المحسوسات ، لعلها تقرب من عقولهم فينتفعوا بها ، وهكذا حال

التشبيهات كلها في طرق للأفهام إلى المعاني المحتجبة في الأستار ، تبرزها وتكشف عنها وتصورها .

ولما كانوا يتهكمون بما رأوه من الأمثال مذكوراً به الذباب والبعوض ونحوهما قال مجملاً لهم : ﴿ وما يعقلها ﴾ أي حق عقلها فينتفع بها ﴿ إلا العالمون ﴾ أي الذين هيئوا للعلم وجعل طبعاً بما بث في قلوبهم من أنواره ، وأشرق في صدورهم من أسراره ، فهم يضعون الأشياء مواضعها ؛ روى الحارث بن أبي أسامة عن جابر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

" العالم الذي عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه " قال البغوي : والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول .

(72/597)

ولما قدم أنه لا معجز له سبحانه ، ولا ناصر لمن أخذ ، وصحح ذلك بالمشاهدة في القرون البائدة ، وقربه إلى الأذهان بالمثل المستولي على غاية البيان ، وختم ذلك أنه حجب فهمه عن أكثر خلقه ، دل على ذلك كله بقوله مظهراً لقوته وسائر صفات كماله ، بعد ما حقق أن أولياءهم في أنزل مراتب الضعف ﴿ خلق الله ﴾ أي الذي لا يداني في عظمة ولا جلال ،

ولا جمال ولا كمال ﴿ السماوات والأرض بالحق ﴾ أي الأمر الذي يطابقه الواقع ، أو بسبب إظهار أن الواقع يطابق إخباره ، أو بسبب إثبات الحق وإبطال الباطل ، فلا تجد أحداً يفهم عنه حق الفهم مع تساويهم في الإنسانية إلا وهو من أهل السكينة ، والإخبات والطمأنينة ، ولا يعجزه أحد يريد أخذه ، ولا يفلح أحد عصى أنبياءه ، فبانت عزته ، وظهرت حكمته ، فطابق الواقع ما أخبر به ، وأيضاً فالأمثال إنما تكون بالمحسوسات ، وهي إما سماوية أو أرضية ، فإيجاد هذه الموجودات إنما هو لأجل العلم بالله تعالى .

ولما كان المراد بالعالم قد يخفي ، بينه بقوله مشيراً بالتأكيد إلى أن حالهم في عدم الانتفاع بالنظر فيها حال من ينكر أن يكون فيها دلالة : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من تأملهم لمطابقة الواقع لإخباره سبحانه ، فلا يخبر بشيء إلا كان الواقع منهما أو مما فيهما يطابقه سواء بسواء ﴿ لآية ﴾ أي دلالة مسعدة ﴿ للمؤمنين ﴾ أي الذين هم العالمون في الحقيقة ، حداهم علمهم بما في الكونين من المنافع المترتبة على النظام المعروف مع ما في خلقهما أنفسهما مع كبر الأجرام وبديع الإحكام ، على الإيمان بجميع ما أخبر به حتى لم يكن عندهم نوع شك ، وصار لهم صفة لا تنفك .

(73/597)

ولما أفاد هذا الخبر كله القرآن الذي لا حق أحقّ منه ، ودل على أن فهم أمثاله يحتاج إلى مزيد علم ، وأن مفتاح العلم به سبحانه رسوخ الإيمان ، خاطب رأس أهل الإيمان لأنه أعظم الفاهمين له ليقتدي به الأتباع فقال : ﴿ اتل ما ﴾ أي تابع قراءته ؛ ودل على شرفه لا ختصاصه به بقوله : ﴿ أوحي إليك ﴾ إذ الوحي الإلقاء سراً ﴿ من الكتاب ﴾ أي الجامع لكل خير ، فإنه المفيد للإيمان ، مع أنه أحق الحق الذي خلقت السماوات والأرض لأجله ، والإكثار في تلاوته يزيد بصيرة في أمره ، ويفتح كنوز الدقائق من علمه ، وهو أكرم من أن ينيل قارئه فائده وأجلّ من أن يعطي قياد فوائده ويرفع الحجاب عن جواهره وفرائده في أول مرة ، بل كلما ردده القارىء بالتدبر حباه بكنز من أسراره ، ومهما زاد زاده من لوامع أنواره ، إلى أن يقطع بأن عجائبه لا تعد ، وغرائبه لا تحد .

ولما أرشد إلى مفتاح العلم ، دل قانون العمل الذي لا يصح إلا بالقرآن ، وهو ما يجمع الهم ، فيحضر القلب ، فينشرح الصدر ، فينبعث الفكر في رياض علومه ، فقال : ﴿ وأقم الصلاة ﴾ أي التي هي أحق العبادات ، ثم علل ذلك بقوله دالاً بالتأكيد على فخامة أمرها ، وأنه مما يخفى على غالب الناس : ﴿ إن الصلاة تنهى ﴾ أي توجد النهي وتجدده للمواظب على إقامتها بجميع حدودها ﴿ عن الفحشاء ﴾ أي الخصال ألتي بلغ قبحها ﴿ والمنكر ﴾ أي الذي فيه نوع قبح وإن دق ، وأقل ما فيها من النهي النهي عن تركها الذي

هو كفر ، ومن انتهى عن ذلك انشرح صدره ، واتسع فكره ، فعلم من أسرار القرآن ما لا يعلمه غير ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ [البقرة : 282] .

(74/597)

ولما كان الناهي في الحقيقة إنما هو ذكر الله ، أتبع ذلك الحث على روح الصلاة والمقصد الأعظم منها ، وهو المراقبة لمن يصلي له حتى كأنه يراه ليكون بذلك في أعظم الذكر بقوله : ﴿ ولذكر الله ﴾ أي ولأن ذكر المستحق لكل صفة كمال ﴿ أكبر ﴾ أي من كل شيء ، فمن استحضر ذلك بقلبه هان عنده كل شيء سواه " إن عبدي كل عبدي للذي يذكرني عند لقاء قرنه " أو يكون المراد أن من واظب على الصلاة ذكر الله ، ومن ذكره أوشك أن يرق قلبه ، ومن رق قلبه استنار لبه ، فأوشك أن ينهاه هذا الذكر المثمر لهذه الثمرة عن المعصية ، فكان ذكر الذاكر له سبحانه أكبر نهياً له عن المنكر من نهي الصلاة له ، وكان ذكره له سبحانه كبيراً ، كما قال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ وإذا كان هذا شأن ذكر العبد لمولاه ، فما ظنك بذكر مولاه له كلما أقبل عليه بصلاة فإنه جدير بأن يرفعه إلى حد لا يوصف ، ويلبسه من أنواره ملابس لا تحصر .

ولما كان ذلك يحتاج إلى علاج لمعوج الطباع ومنحرف المزاج ، وتمرن على شاق الكلف ،

ورياضة لجماح النفوس ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد نزه عن ذلك كله بما جبل عليه من أصل الفطرة ، ثم بما غسل به قلبه من ماء الحكمة ، وغير ذلك من جليل النعمة ، عدل إلى خطاب الأتباع يحثهم على المجاهدة فقال : ﴿ والله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ يعلم ﴾ أي في كل وقت ﴿ ما تصنعون ﴾ من الخير والشر ، معبراً بلفظ الصنعة الدال على ملازمة العمل تنبيهاً على أن إقامة ما ذكر تحتاج إلى تمرن عليه وتدرب ، حتى يصير طبعاً صحيحاً ، ومقصوداً صريحاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 560 . 564 ﴾

(75/597)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ . لما بين الله تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلاً وعذب من كذب آجلاً ، ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده ، مثل اتخاذه ذلك معبوداً باتخاذ العنكبوت بيتاً لا يجير آوياً ولا يريح ثاوياً ، وفي الآية لطائف نذكرها في مسائل :

المسألة الأولى :

ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال ؟ فنقول فيه وجوه الأول : أن البيت ينبغي أن يكون له أمور : حائط حائل ، وسقف مظل ، وباب يغلق ، وأمور ينتفع بها ويرتفق ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين .

(76/597)

إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر ، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار ، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع ، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء ، فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء ، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء الثاني : هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضاً الهواء والماء والنار والتراب ، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار ، والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب إن كان لا يدفع شيئاً يظل

ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه ، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير ، فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد ، فإن لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه الثالث : أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق ، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت ، فإن العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها ، فإذا نسج على نفسه واتخذ بيتاً يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت ، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب ، فإن لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب ، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب .

المسألة الثانية :

(77/597)

مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين أحدهما : أن نسجه فيه فائدة له ، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه ، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع

الدنيا ، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت الوجه الثاني : هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتاً أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت إكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة ، لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتاً وكلاهما باطل .

المسألة الثالثة :

كما أن هذا المثل صحح في الأول فهو صحيح في الآخر ، فإن بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباءً منثوراً ، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

المسألة الرابعة :

قال : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ ولم يقل آلهة إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضاً ، فإن من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ ولياً غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتاً .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

إشارة إلى ما بينا أن كل بيت ففيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك ، وبيته يضعف عن

إفادة ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42)

(78/597)

قال الزمخشري : هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء ، بمعنى ما يدعون ليس بشيء وهو عزيز حكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلاً ، وهذا يفهم منه أنه جعل ما نافية ، وهو صحيح ، والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل : إني أعلم أن الله واحد حق ، يعني أعلم هذه الجملة ، وإن كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم ، لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ، ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا لو قال قائل ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق ؟ فنقول لما قال إن مثلهم كمثل العنكبوت ، فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان التي أتخذها وهي تحت تسخيري ، وإنما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي وإعظامي ، فقال الله تعالى : الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت

لأن الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه .

ثم قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ .

قال الكافرون كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت ؟ فيقال الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالأنعام يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيراً مثل تأثير الدليل ، فإذا قال الحكيم لمن يغتاب إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال له إنه يوجب العذاب ويورث العقاب .

(79/597)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ .

يعني حقيقتها وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه ، وفيه معنى حكمي وهو أن العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري

الدقيق يعقله العالم ، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهراً وكون المدرك عاقلاً ، ولا يحتاج إلى كونه عالماً بأشياء قبله ، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم ، ثم إنه قد يكون دقيقاً في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالماً .

إذا علم هذا فقوله : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ يعني هو ضرب للناس أمثالاً وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء .

ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالإيمان وأظهر الحق بالبرهان ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصاً فيها عبر ، وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غبر ، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل ، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل ، وحصل يأس الناس عنهم سلَّى المؤمنين .

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

(80/597)

يعني إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكاً في صحة دينكم ، ولا يؤثر شكهم في قوة يقينكم ، فإن خلق الله السموات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر ، وبرهان باهر ، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، وفي الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية ، وهي أن الله تعالى كيف

خص الآية في خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن في خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ إلى أن قال ﴿ لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] فنقول خلق السموات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب ، وبيانه من حيث النقل والعقل ، أما النقل فقوله تعالى : ﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : 39] أخرج أكثر الناس عن العلم يكون خلقهما بالحق مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ وأما العقل فهو أن العاقل أول ما ينظر إلى خلق السموات والأرض ويعلم أن لهما خالقاً وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك ، بل يقول إنه خلقهما متقناً محكماً وهو المراد بقوله ﴿ بالحق ﴾ ، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون باطلاً ، وإذا علم أنه خلقهما متقناً يقول إنه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الأرض ولا في السموات ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات ، فيجوز بعث من في القبور وبعثة الرسول ، ويعلم وحدانية الله لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتمامه ، من

خلق ما خلقه على أحسن نظامه ، ثم إن الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله .

(81/597)

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)

يعني إن كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحي إليك لتعلم أن نوحاً ولوطاً وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا في إقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال : ﴿ اتل ﴾ وما قال عليهم ، لأن التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم إلا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(82/597)

أن الرسول إذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة في قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبي المرسل ليس كذلك ، فإن الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام ، مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام ، وقسم يكون فيه قانون كلي تحتاج إليه الرعية في جميع الأوقات كما إذا كتب الملك كتاباً فيه إنا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا إليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال ، فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال ، وكثيراً ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ، ويكون نصب الأعين ، فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلي فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت في الصدور على مرور الدهور

الوجه الثاني : هو أن الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تكره قراءته إلا للغير كالقصص فإن من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى إلا لغيره ، ثم إذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها إلا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئموه ، وكتاب لا يكرر عليه إلا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فإنها تكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضاً لنفس المتكلم فإن كثيراً ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت في القلب وأنفذ حتى يكاد يبكي من رقته دماً ولو أورثه البكاء عمى ، إذا علم هذا فالقرآن

من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة .

المسألة الثانية :

(83/597)

لم خصص بالأمر هذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة ؟ فنقول لوجهين أحدهما : أن الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله إلى الخلق ، فإذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ، ألا ترى أن الرسول إذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله ، فإذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك إليَّ وأقم الصلاة لوجهي الوجه الثاني : هو أن العبادات المختصة بالعبد ثلاثة : وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح ، لكن الاعتقاد لا يتكرر فإن من اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمراً والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلاً له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان ، فلم يؤمر به لعدم إمكان تكراره ، لكن الذكر ممكن التكرار ، والعبادة البدنية كذلك فأمره بهما فقال : أتل الكتاب وأقم الصلاة .

المسألة الثالثة :

كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؟ نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لأن إرادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ ﴾ بعيد من الفهم ، وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما ما دام العبد في الصلاة ، لأنه لا يمكنه الاشتغال بشيء منهما ، فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا وإلا لا يكون مدحاً كاملاً للصلاة ، لأن غيرها من الأشغال كثيراً ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره فنقول : المراد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقاً وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى ، حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم " من لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد بها إلا بعداً " ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعاً تنهى عن الأمرين مطلقاً وهي التي أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعاً وتجب عليه الإعادة ، وهذا ظاهر فإن من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لا يصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره إذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه الأول : هو أن من كان يخدم ملكاً عظيم الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة ، ويرى عبداً من عباده قد طرده طرداً لا يتصور قبوله ، وفاته الخبر

بحيث لا يرجى حصوله ، يستحيل من ذلك المقرب عرفاً أن يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صار عبداً له ، وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه ، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر الثاني : هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر فإذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء

(85/597)

عرفاً ، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدي الله واضع يمينه على شماله ؛ على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيبة ، ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم ، فإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر .

(86/597)

ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع الثالث : من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا في ذلك الموضع ، فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك فكذلك العبد إذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين ، إذ صار من أصحاب اليمين ، فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعني من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر الرابع : وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقي والمنادي والمتعيش لا يبالي بما فعل من الأفعال يأكل في دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس ، فإذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله ، فإذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان ، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ [العلق : 19] فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي ، فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته ، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر

فضلاً عن الكبائر ، وفي الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو أن المراد من قوله : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك ، والتعطيل هو إنكار وجود الله ، والإشراك إثبات ألوهية لغير الله .

(87/597)

فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبح ، لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شيء إلا وفيه آية على الله ظاهرة وإنكار الظاهر ظاهر الإنكار ، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر ، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفساً إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال : ﴿ إِنْ أمهاتهم إِلاَّ اللائى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول ﴾ [المجادلة : 2] فالمشرك الذي يقول الملائكة بنات الله وينسب إلى من لم يلد ، ولا يجوز أن يكون له ولد ، ولداً كيف لا يكون قوله منكراً ؟ فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء ، وهذا المنكر وذلك لأن العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول الله أكبر ، فبقوله الله ينفي التعطيل وبقوله أكبر ينفي التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك ، فإذا قال ﴿ بسم الله ﴾ نفى التعطيل ، وإذا قال ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ نفى الإشراك ، لأن الرحمن من يعطي الوجود بالخلق بالرحمة ،

والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة ، فإذا قال ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، أثبت بقوله ﴿ الحمد لله ﴾ خلاف التعطيل وبقوله : ﴿ رَبّ العالمين ﴾ خلاف الإشراك ، فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بتقديم إياك نفى التعطيل والإشراك وكذا بقوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط ﴾ نفى التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد والمعطل لا مقصد له ، وبقوله : ﴿ المستقيم ﴾ نفى الإشراك لأن المستقيم هو الأقرب والمشرك يعبد الأصنام حتى يعبد صورة صورها إله العالمين ، ويظنون أنهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب ، وعلى هذا إلى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا إله إلا الله فينفي الإشراك والتعطيل ، وههنا لطيفة وهي أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله في قوله : أشهد أن لا إله إلا الله ليعلم المصلي أنه من أول الصلاة إلى آخرها مع الله ، فإن قال قائل فقد بقي من

(88/597)

الصلاة قوله وأشهد أن محمداً رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم ، فنقول هذه الأشياء في آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة ، وذلك لأن الصلاة ذكر الله لا غير ، لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله وحصل مع الله لا يقع في قلبه أنه استقل واستبد

واستغنى عن الرسول ، كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى النواب والحجاب ، فقال أنت في هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد صلى الله عليه وسلم وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد رسول الله ، ثم إذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر إحسانه بالصلاة عليه ، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامي كما هو ترتيب المسافرين ، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فإن أولها وقوف بين يدي الله كوقوف المملوك بين يدي السلطان ، ثم إن آخرها جثو بين يدي الله كما يجثو بين يدي السلطان من أكرمه بالإجلاس ، كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فجثا ، وفي هذا الجثو لطيفة وهي أن من جثا في الدنيا بين يدي ربه هذا الجثو لا يكون له جثو في الآخرة ، ولا يكون من الذين قال الله في حقهم

﴿ وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 72] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ والله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

(89/597)

لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم ، فقال : ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ﴾ وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات

الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم ، لكن ذكر الله أكبر ، فينبغي أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم ، وأما الصلاة فكذلك لأن الله يعلم ما تصنعون ، وهذا أحسن صنعكم فينبغي أن يكون على وجه التعظيم ، وفي قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهي أن الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة ، إذا لا يقال الجبل أكبر من خردلة ، وإنما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله له الكبر لا لغيره ، وهذا كما يقال في الصلاة الله أكبر أي له الكبر لا لغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 60.66 ﴾

(90/597)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : الصَّلَاةُ لَا تَنْفَعُ إلَّا مَنْ أَطَاعَهَا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَعْنِي الْقِيَامَ بِمُوجِبَاتِ الصَّلَاةِ مِنْ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا بِالْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ وَإِنَّمَا قِيلَ : تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ؛ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى أَفْعَالٍ وَأَذْكَارٍ لَا يَتَخَلَّلُهَا غَيْرُهَا مِنْ أُمُورِ

الدُّنْيَا وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ الْفُرُوضِ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ فَهِيَ تَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَتَدْعُو إلَى الْمَعْرُوفِ بِمَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ مُقْتَضَاهَا وَمُوجَبُهَا لِمَنْ قَامَ بِحَقِّهَا .

وَعَنْ الْحَسَنِ قَالَ : مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنْ اللَّهِ إلَّا بُعْدًا وَقِيلَ : إنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ لَهُ : إنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ وَيَسْرِقُ بِالنَّهَارِ ؛ فَقَالَ : لَعَلَّ صَلَاتَهُ تَنْهَاهُ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ حُبِّبَ إلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ الثَّلَاثُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ قَالَ : لَمْ تَكُنْ الصَّلَاةُ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَلَكِنَّهُ كَانَ إذَا دَخَلَ الصَّلَاةَ يَرَى فِيهَا مَا تَقَرُّ عَيْنُهُ

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

(91/597)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَسَلْمَانُ وَمُجَاهِدٌ : ذِكْرُ اللَّهِ إيَّاكُمْ بِرَحْمَتِهِ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إيَّاهُ بِطَاعَتِهِ وَرُوِيَ عَنْ سَلْمَانَ أَيْضًا وَأُمِّ الدَّرْدَاءِ وَقَتَادَةَ ذِكْرُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ

وَقَالَ السُّدِّيُّ : ذِكْرُ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ أَكْبَرُ مِنْ الصَّلَاةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(92/597)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إلَيْك مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : مَا دَامَ فِيهَا .

وَالثَّانِي : مَا دَامَ فِيهَا وَفِيمَا بَعْدَهَا .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنْ اللَّهِ إلَّا بُعْدًا ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : قَالَ شُيُوخُ الصُّوفِيَّةِ : الْمَعْنَى فِيهَا أَيْضًا أَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُصَلِّي أَنْ يَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، كَمَا مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ

فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَكَمَا لَا يَخْرُجُ الْمُؤْمِنُ بِتَرْكِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ عَنْ الْإِيمَانِ كَذَلِكَ لَا يُخْرِجُ الْمُصَلِّي عَنْ الصَّلَاةِ بِأَنَّ صَلَاتَهُ قَصَرَتْ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ .

وَقَالَ مَشْيَخَةُ الصُّوفِيَّةِ : الصَّلَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ مَا كَانَتْ نَاهِيَةً ، فَإِنْ لَمْ تَنْهَهُ فَهِيَ صُورَةُ صَلَاةٍ لَا مَعْنَاهَا ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ وُقُوفَهُ بَيْنَ يَدِي مَوْلَاهُ وَمُنَاجَاتَهُ لَهُ إِنْ لَمْ تَدُمْ عَلَيْهِ بَرَكَتُهَا ، وَتَظْهَرْ عَلَى جَوَارِحِهِ رَهْبَتُهَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهِ صَلَاةٌ أُخْرَى ، وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ، وَإِلَّا فَهُوَ عَنْ رَبِّهِ مُعْرِضٌ ، وَفِي حَالِ مُنَاجَاتِهِ غَافِلٌ عَنْهُ .

(93/597)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْفَحْشَاءُ : الدُّنْيَا ، فَتَنْهَاهُ الصَّلَاةُ عَنْهَا ، حَتَّى لَا يَكُونَ لِغَيْرِ الصَّلَاةِ حَظٌّ فِي قَلْبِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ﴾ .

وَقِيلَ : الْفَحْشَاءُ الْمَعَاصِي ، وَهُوَ أَقَلُّ الدَّرَجَاتِ ، فَمَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنْ الْمَعَاصِي وَلَمْ تَتَمَرَّنْ جَوَارِحُهُ

بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، حَتَّى يَأْنَسَ بِالصَّلَاةِ وَأَفْعَالِهَا أُنْسًا يَبْعُدُ بِهِ عَنْ اقْتِرَافِ الْخَطَايَا ، وَإِلَّا فَهِيَ قَاصِرَةٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الْمُنْكَرُ : وَهُوَ كُلُّ مَا أَنْكَرَهُ الشَّرْعُ وَغَيْرُهُ ، وَنَهَى عَنْهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : ذِكْرُ اللَّهِ لَكُمْ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِكُمْ لَهُ ، أَضَافَ الْمَصْدَرَ إلَى الْفَاعِلِ .

الثَّانِي : ذِكْرُ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

الثَّالِثُ : ذِكْرُ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي غَيْرِهَا ، يَعْنِي لِأَنَّهَا عِبَادَتَانِ .

الرَّابِعُ : ذِكْرُ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ أَكْبَرُ مِنْ الصَّلَاةِ .

وَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ إضَافَةِ الْمَصْدَرِ إلَى الْمَفْعُولِ .

وَهَذَا كُلُّهُ صَحِيحٌ ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ بَرَكَةٌ عَظِيمَةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(94/597)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾

يعني آلهة من الأصنام والأوثان عبدوها .

﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾ يعني أنهم عبدوا ما لا يغني عنهم شيئاً كبيت

العنكبوت الذي لا يدفع شيئاً وهو من أبلغ الأمثال فيهم .

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ لأنه يستر الإبصار ولا يدفع الأيدي ، وقد حكي عن يزيد بن ميسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله .

وقال عطاء : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود ، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم .

وجمع العنكبوت عناكب وتصغيره عنيكب .

قوله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

يعني القرآن وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو ما أنزل منه على أمته .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن عمر .

الثاني : أنه الصلاة المفروضة . قاله ابن عباس .

الثالث : أن الصلاة هنا هي الدعاء ومعناه قم بالدعاء إلى أمر الله ، قاله ابن بحر .

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ الفحشاء الزنى والمنكر الشرك ، قاله ابن عباس .

ثم فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها ، قاله الكلبي وابن زيد وحماد بن أبي

سليمان .

الثاني : تنهى عن الفحشاء والمنكر قبلها وبعدها روى طاووس عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن لَّمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالمنكَرِ لَمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنَ اللَّهِ إِلاَّ بُعْداً

" الثالث : إن ما تدعوهم إليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قاله ابن زيد .

﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فيه سبعة تأويلات

: أحدها : ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه ، قاله ابن عباس .

الثاني : ولذكر الله أفضل من كل شيء ، قاله سلمان .

(95/597)

الثالث : ولذكر الله في الصلاة التي أنت فيها أكبر مما نهتك عنه الصلاة من الفحشاء والمنكر ، قاله عبد الله بن عون .

الرابع : ولذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة ، قاله أبو مالك .

الخامس : ولذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم .

السادس : أكبر من قيامكم بطاعته .

السابع : أكبر من أن يبقي على صاحبه عقاب الفحشاء والمنكر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(96/597)

وقال ابن عطية :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾

شبه تعالى الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع أمورهم على ذلك ب ﴿ العنكبوت ﴾ التي تبني وتجتهد وأمرها كلها ضعيف متى مسته أدنى هابة أذهبته فكذلك أمر أولئك وسعيهم مضمحل لا قوة له ولا معتمد ، ومن حديث ذكره النقاش " العنكبوت شيطان مسخه الله تعالى فاقتلوه " ، وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال : " طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر " ، وقوله ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ، أي ﴿ يعلمون ﴾ أن هذا مثلهم وأن حالهم ونسبتهم من الحق هذه الحال ، وقوله ﴿ إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء ﴾ .

(97/597)

قرأ أبو عمرو وسلام " يعلم ما " بالإدغام ، وقرأ عامة القراء بالفلك ، وقرأ الجمهور " تدعون " بالتاء من فوق ، وقرأ أبو عمرو وعاصم بخلاف " يدعون " بالياء من تحت على الغيبة ، فأما موضع ﴿ ما ﴾ من الإعراب فقيل معناه أن الله يعلم الذين يدعون من دونه من جميع الأشياء أن حالهم هذه وأنهم لا قدرة لهم ، وقيل قوله ﴿ إن الله يعلم ﴾ إخبار تام ، وقوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ متصل به ، واعترض بين الكلامين ﴿ ما تدعون من دونه من شيء ﴾ ، وذلك على هذا النحو من النظر يحتمل معنيين أحدهما أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية أي لستم تدعون شيئاً له بال ولا قدر ولا خلاق فيصلح أن يسمى شيئاً وفي هذا تعليق ﴿ يعلم ﴾ وفيه نظر ، الثاني أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهاماً كأنه قرر على جهة التوبيخ على هذا المعبود من جميع الأشياء ما هو إذا لم يكن الله تعالى أي ليس لهم على هذا التقرير جواب مقنع البتة ، ف ﴿ من ﴾ على القول الأول والثالث للتبعيض المجرد ، وعلى القول الوسط هي زائدة في الجحد ومعناها التأكيد ، وقال أبو علي ﴿ ما ﴾ استفهام نصب ب ﴿ تدعون ﴾ ولا يجوز نصبها ب ﴿ يعلم ﴾ ، والتقدير أن الله يعلم أوثاناً تدعون من دونه أو غيره لا يخفى ذلك عليه ، وقوله ﴿ وتلك الأمثال ﴾ إشارة إلى هذا المثل ونحوه ، و ﴿ نضربها ﴾ مأخوذ من الضرب أي النوع كما تقول هذان من ضرب واحد وهذا ضريب هذا أي قرينه وشبهه ، فكأنه ضرب المثل هو أن يجعل للأمر الممثل

ضريب ، وباقي الآية بين . وقرأت فرقة " يدعون " بالياء من تحت ، وقرأت فرقة " تدعون " بالتاء على المخاطبة ، وقال جابر : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إلا العالون ﴾ : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وانتهى عن معصيته " .

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

(98/597)

نبه في ذكر خلق ﴿ السماوات والأرض ﴾ على أمر يوقع الذهن على صغر قدر الأوثان وكل معبود من دون الله ، وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ أي بالواجب النير لا للعبث واللعب ، بل ليدل على سلطانه ويثبت شرائعه ويضع الدلالات لأهلها ويعم بالمنافع إلى غير ذلك مما لا يحصى عداً ، ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالنفوذ لأمره وتلاوة القرآن الذي أوحي إليه ، وإقامة الصلاة أي إدامتها والقيام بحدودها ثم أخبر حكماً منه ﴿ إن الصلاة تنهى ﴾ صاحبها وممتثلها ﴿ عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

قال الفقيه الإمام القاضي : وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله تعلى وتوهم الوقوف بين يدي العظمة ، وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليه مرقوب صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى فاطرد ذلك في

أقواله وأعماله وانتهى عن الفحشاء والمنكر ، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله ، فهذا معنى هذا الإخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون ، وقد روي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه فكلم في ذلك فقال : إني أقف بين يدي الله تعالى وحق لي هذا مع ملوك النيا فكيف مع ملك الملوك .

(99/597)

قال الفقيه الإمام القاضي : فهذه صلاة تنهى ولا بد الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تركته الصلاة يتمادى على بعده وعلى هذا يخرج الحديث المروي عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً " وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند ، سمعت أبي رضي الله عنه يقوله فإذا قررناه ونظرنا معناه فغير جائز أن نقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية ، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالى بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاء والمنكر تبعده ، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان

بسبيله ، فكأنها بعدته حين لم تكف بعده عن الله تعالى ، وقيل لابن مسعود إن فلاناً كثير الصلاة ، فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها ، وقرأ الربيع بن أنس " إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر " ، وقال ابن عمر ﴿ الصلاة ﴾ ها هنا القرآن ، وقال حماد بن أبي سليمان وابن جريج والكلبي : إن الصلاة تنهى ما دمت فيها .

(100/597)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذه عجمة وأنى هذا مما روى أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه ، فقيل ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال " إن صلاته ستنهاه " فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألم أقل لكم " ؟ وقوله تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال ابن عباس وأبو الدرداء وسلمان وابن مسعود وأبو قرة : معناه ، ﴿ ولذكر الله ﴾ إياكم ﴿ أكبر ﴾ من ذكركم إياه ، وقيل معناه ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر ، قال ابن زيد وقتادة معناه ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ من كل شيء ، وقيل لسلمان أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ . ومنه حديث الموطأ عن أبي الدرداء " ألا أخبركم بخير أعمالكم ؟ "

الحديث ، وقيل معناه ﴿ ولذكر الله ﴾ كبير كأنه يحض عليه في هذين التأويلين الأخيرين .

قال الفقيه الإمام القاضي : وعندي أن المعنى ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ على الإطلاق أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر .

فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك وكذلك يفعل في غير الصلاة لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر مراقب ، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى كما في الحديث " ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه " ، والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهي ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله تعالى ، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى ، وذكر الله تعالى العبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه ، قال الله عز وجل ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ [البقرة : 152] وباقي الآية ضرب من التوعد والحث على المراقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(101/597)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين اتَّخذوا من دون الله أولياءَ ﴾

يعني الأصنام يتخذها المشركون أولياء يرجون نفعها ونصرها ، فمَثَلهم في ضعف احتيالهم

﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتَّخذتْ بيتاً ﴾ قال ثعلب : والعنكبوت أنثى ، وقد يذكِّرها بعض العرب ، قال الشاعر :

[على هَطَّالِهم منهم بُيوتٌ] . . .

كأنَّ العَنْكَبُوتَ هو ابْتَناها

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُون مِنْ دونه مِنْ شَيء ﴾ أي : هو عالِم بما عبدوه من دونه ، لا يخفى عليه ذلك ؛ والمعنى : أنه يجازيهم على كفرهم .

﴿ وتلك الأمثال ﴾ يعني أمثال القرآن التي شبّه بها أحوال الكفار ؛ وقيل : إن "تلك" بمعنى "هذه" ﴿ والعالِمون ﴾ : الذين يعقلون عن الله عز وجل .

﴿ خَلَقَ اللّهُ السموات والأرض بالحقّ ﴾

أي : للحق ، ولإظهار الحق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمُنْكَر ﴾ في المراد بالصلاة قولان .

أحدهما : أنها الصلاة المعروفة ، قاله الأكثرون .

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الحشاء والمُنْكَر ، لم يزد من الله إلا بُعداً " .

والثاني : أنّ المراد بالصلاة : القرآن ، قاله ابن عمر ؛ ويدل على هذا قوله : ﴿ ولا تَجْهَر بِصَلاتك ﴾ [الاسراء : 110] .

وقد شرحنا معنى الفحشاء والمنكر فيما سبق [البقرة : 168 ، النحل : 90] .

وفي معنى هذه الآية للعلماء ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الإِنسان إِذا أدَّى الصلاة كما ينبغي وتدبَّر ما يتلو فيها ، نهته عن الفحشاء والمنكر ، هذا مقتضاها وموجبها .

والثاني : أنها تنهاه ما دام فيها .

والثالث : أن المعنى : ينبغي أن تنهى الصلاةُ عن الفحشاء والمنكر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكبر ﴾ فيه أربعة أقوال .

(102/597)

أحدها : ولَذِكْرُ اللهِ إِيَّاكم أكبرُ من ذِكْركم إِيَّاه ، رواه ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبه قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد في آخرين .

والثاني : ولَذِكْرُ اللهِ أفضلُ من كل شيء سواه ، وهذا مذهب أبي الدرداء ، وسلمان ، وقتادة .

والثالث : ولَذِكْرُ اللهِ في الصلاة أكبرُ مِمَّا نهاك عنه من الفحشاء والمُنكَر ، قاله عبد الله بن عون .

والرابع : ولَذِكْرُ اللهِ العبدَ – ما كان في صلاته – أكبرُ من ذِكْرِ العبدِ لله ، قاله ابن قتيبة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(103/597)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت ﴾

قال الأخفش : ﴿ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ وقف تام ، ثم قصّ قصّتها فقال : ﴿ اتخذت بَيْتاً ﴾ قال ابن الأنباري : وهذا غلط ؛ لأن ﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾ صلة للعنكبوت ، كأنه قال : كمثل التي اتخذت بيتاً فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول ، وهو بمنزلة قوله : ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل .

قال الفراء : هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً .

ولا يحسن الوقف على العنكبوت ؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء ، فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به .

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت ﴾ أي أضعف البيوت ﴿ لَبَيْتُ العنكبوت ﴾ .

قال الضحاك : ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت .

﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ لَوْ ﴾ متعلقة ببيت العنكبوت .

أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً ، وأن هذا مثلهم لَمَا عبدوها ؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف .

وقال النحاة : إن تاء العنكبوت في آخرها مزيدة ؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع وهي مؤنثة .

وحكى الفراء تذكيرها وأنشد :

على هَطَّالِهِمْ منهمْ بُيوتٌ . . .

كأنّ العنكبوتَ قدِ ابتناهَا

ويروى :

على أهطالهم منهمْ بيوتٌ . . .

قال الجوهري والهطال : اسم جبل .

والعنكبوت الدويّبة المعروفة التي تنسج نسجاً رقيقاً مهلهلاً بين الهواء .

ويجمع عناكِيب وعَنَاكِب وعِكَاب وعُكُب وأَعْكُب .

وقد حكي أنه يقال عَنْكَب وعَكَنْبَاة قال الشاعر :

كأَنَّما يَسقطُ من لُغَامها . . .

بيتُ عَكَنْبَاةٍ على زِمَامهَا

وتصغَّر فيقال عُنَيْكِب .

(104/597)

وقد حكي عن يزيد بن مَيْسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى .

وقال عطاء الخراساني : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه ، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك نهي عن قتلها .

ويروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر ، ومنع الخمير يورث الفقر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي ، و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى ؛ والمعنى : إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه .

وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب : ﴿ يَدْعُونَ ﴾ بالياء وهو اختيار أبي عبيد ؛ لذكر الأمم قبلها .

الباقون بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا ﴾ أي هذا المثل وغيره مما ذكر في "البقرة" و"الحج" وغيرهما ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ نبينها ﴿ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ أي يفهمها ﴿ إِلاَّ العالمون ﴾ أي العالمون بالله ؛ كما روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه " .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل والقسط .

وقيل : بكلامه وقدرته وذلك هو الحق .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً ﴾ أي علامة ودلالة ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدّقين .

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ اتل ﴾ أمر من التلاوة والدُّءوب عليها .

وقد مضى في "طه" الوعيد فيمن أعرض عنها ، وفي مقدّمة الكتاب الأمر بالحض عليها .

والكتاب يراد به القرآن .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته وإقامة الصلاة أداؤها في أوقاتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها .

وقد تقدّم بيان ذلك في "البقرة" فلا معنى للإعادة .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ يريد إن الصلاة الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب ؛ كما قال عليه السلام : " "أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه شيء" قالوا : لا يبقى من دَرَنه شيء ؛ قال : "فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا" " خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ، وقال فيه حديث حسن صحيح .

وقال ابن عمر : الصلاة هنا القرآن .

والمعنى : الذي يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر ، وعن الزنى والمعاصي .

قلت : ومنه الحديث الصحيح : " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين " يريد قراءة الفاتحة .

وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُريج والكلبي : العبد ما دام في صلاته لا يأتي فحشاء ولا منكراً ؛ أي إن الصلاة تنهى ما دمت فيها .

قال ابن عطية : وهذه عجمة وأين هذا مما رواه أنس بن مالك قال : "كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه ، فذُكِر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : "إن الصلاة ستنهاه" فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألم أقل لكم" " وفي الآية تأويل ثالث ، وهو الذي ارتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون ؛ فقيل المراد ب ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ إدامتها والقيام بحدودها ، ثم أخبر حكماً منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر ؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة .

(106/597)

والصلاة تشغل كل بدن المصلّي ، فإذا دخل المصلّي في محرابه وخشع وأخبت لربه وادكر أنه واقف بين يديه ، وأنه مطلع عليه ويراه ، صلحت لذلك نفسه وتذللت ، وخامرها ارتقاب الله تعالى ، وظهرت على جوارحه هيبتها ، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة .

فهذا معنى هذه الأخبار ، لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون .

قلت : لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ في المقصود وأتم في

المراد ؛ فإن الموت ليس له سنّ محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه .

وروي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه ، فكُلِّم في ذلك فقال : إني واقف بين يدي الله تعالى ، وحقّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك .

فهذه صلاة تنهى ولا بدّ عن الفحشاء والمنكر ، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء ، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل ، كصلاتنا وليتها تجزي فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده .

وعلى هذا يخرّج الحديث المرويّ عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً " وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند .

قال ابن عطية : سمعت أبي رضي الله عنه يقول : فإذا قررنا ونُظِر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية ، وإنما يتخرّج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله ، بل تتركه على حاله ومعاصيه ، من الفحشاء والمنكر والبعد ، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان سببيله ؛ فكأنها بعّدته حين لم تكفّ بُعدَه عن الله .

وقيل لابن مسعود : إن فلاناً كثير الصلاة .

فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها .

(107/597)

قلت : وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث : " لم تزده من الله إلا بعداً ولم يزدد بها من الله إلا مقتاً " إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته ؛ لغلبة المعاصي على صاحبها .

وقيل : هو خبر بمعنى الأمر .

أي لينته المصلي عن الفحشاء والمنكر .

والصلاة بنفسها لا تنهى ، ولكنها سبب الانتهاء .

وهو كقوله تعالى : ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] وقوله : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 35] .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ أي ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم .

قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرّة وسلمان والحسن ؛ وهو اختيار

الطبري .

وروي مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قول الله عز وجل : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : " ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه " وقيل : ذكركم اللَّهَ في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء وقيل : المعنى ؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر .

وقال الضحاك : ولذكر الله عندما يحرم فيترك أجلّ الذكر .

وقيل : المعنى ولذكر الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر أي كبير ، وأكبر يكون بمعنى كبير .

وقال ابن زيد وقتادة : ولذكر الله أكبر من كل شيء أي أفضل من العبادات كلها بغير ذكر .

وقيل : ذكر الله يمنع من المعصية فإن مَن كان ذاكراً له لا يخالفه .

قال ابن عطية : وعندي أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق ، أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل في غير الصلاة ؛ لأنّ الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر الله مراقبٍ له .

(108/597)

وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى ؛ كما في الحديث : " من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم " والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهيٍ ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرّغه إلا من الله .

وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى .

وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربَّه .

قال الله عز وجل : ﴿ فاذكروني أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 152] .

وباقي الآية ضرب من الوعيد والحثّ على المراقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(109/597)

وقال أبو حيان :

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾

﴿ العنكبوت ﴾ : حيوان معروف ، ووزنه فعللوت ، ويؤنث ويذكر ، فمن تذكيره قول الشاعر :

على هطالهم منهم بيوت . . .

كأن العنكبوت هو ابتناها

ويجمع عناكب ، ويصغر عنيكيب .

يشبه تعالى الكفار في عبادتهم الأصنام ، وبنائهم أمورهم عليها بالعنكبوت التي تبني وتجتهد ، وأمرها كله ضعيف ، متى مسته أدنى هامة أو هامة أذهبته ، فكذلك أمر أولئك ، وسعيهم مضمحل ، لا قوة له ولا معتمد .

وقال الزمخشري : الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم ، وتولوه من دون الله ، مما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة ، وهو نسج العنكبوت .

ألا ترى إلى مقطع التشبيه ، وهو قوله : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ ؟

انتهى .

يعني بقوله : ألا ترى إلى مقطع التشبيه بما ذكر أولاً من أن الغرض تشبيه المتخذ بالبيت ، لا تشبيه المتخذ بالعنكبوت ؟ والذي يظهر ، هو تشبيه المتخذ من دون الله ولياً ، بالعنكبوت المتخذة بيتاً ، أي فلا اعتماد للمتخذ على وليه من دون الله ، كما أن العنكبوت لا اعتماد لها على بيتها في استظلال وسكنى ، بل لو دخلت فيه خرقته .

ثم بين حال بيتها ، وأنه في غاية الوهن ، بحيث لا ينتفع به .

كما أن تلك الأصنام لا تنفع ولا تجدي شيئاً ألبتة ، وقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ، ليس مرتبطاً بقوله : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ ، لأن كل أحد يعلم ذلك ، فلا

يقال فيه : لو كانوا يعلمون ؛ وإنما المعنى : لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم بالغ من الوهن هذه الغاية لأقلعوا عنه ، وما اتخذوا الأصنام آلهة .

(110/597)

وقال الزمخشري : إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت ، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان ، لو كانوا يعلمون ؛ أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز ، وكأنه قال : وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان ، لو كانوا يعلمون .

ولقائل أن يقول : مثل المشرك الذي يعبد الوثن ، بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله ، مثل عنكبوت يتخذ بيتاً ، بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر .

فكما أن أوهن البيوت ، إذا استقريتها بيتاً بيتاً ، بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان ، إذا استقريتها ديناً ديناً ، عبادة الأوثان ، لو كانوا يعلمون . انتهى .

وما ذكره من قوله : ولقائل أن يقول إلخ .

لا يدل عليه لفظ الآية ، وإنما هو تحميل للفظ ما لا يحتمله ، كعادته في كثير من تفسيره .

وقرأ أبو عمرو ، وسلام : يعلم ما ، بالإدغام ؛ والجمهور : بالفك ؛ والجمهور : تدعون ، بتاء

الخطاب ؛ وأبو عمرو ، وعاصم : بخلاف ، بياء الغيبة ؛ وجوزوا في ما أن يكون مفعولاً بيدعون ، أي يعلم الذين يدعون من دونه من جميع الأشياء ، أي يعلم حالهم ، وأنهم لا قدرة لهم .

وأن تكون نافية ، أي لستم تدعون من دونه شيئاً له بال ولا قدر ، فيصلح أن يسمى شيئاً ، وأن يكون استفهاماً ، كأنه قدر على جهة التوبيخ على هذا المعبود من جميع الأشياء ، وهي في هذين الوجهين مقتطعة من يعلم ، واعتراض بين يعلم وبين قوله : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وجوز أبو علي أن يكون ما استفهاماً منصوباً بيدعون ، ويعلم معلقة ؛ فالجملة في موضع نصب بها ، والمعنى : أن الله يعلم أوثاناً تدعون من دونه ، أم غيرها لا يخفى عليه ذلك .

والجملة تأكيد للمثل ، وإذا كانت ما نافية ، كان في الجملة زيادة على المثل ، حيث لم يجعل تعالى ما يدعونه شيئاً .

(111/597)

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ : فيه تجهيل لهم ، حيث عبدوا ما ليس بشيء ، لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً ، وتركوا عبادة القادر القاهر الحكيم الذي لا يفعل شيئاً

إلا لحكمة .

﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ : أي لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها .

وكان جهلة قريش يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، وما علموا أن الأمثال والتشبيهات طرق إلى المعاني المحتجبة ، فتبرزها وتصورها للفهم ، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد .

والإشارة بقوله : ﴿ وتلك الأمثال ﴾ إلى هذا المثل ، وما تقدم من الأمثال في السور .

وعن جابر ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، تلا هذه الآية فقال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه " ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ : فيه تنبيه على صغر قدر الأوثان التي عبدوها .

ومعنى ﴿ بالحق ﴾ : بالواجب الثابت ، لا بالعبث واللعب ، إذ جعلها مساكن عباده ، وعبرة ودلائل على عظيم قدرته وباهر حكمته .

والظاهر أن الصلاة هي المعهود ، والمعنى : من شأنها أنها إذا أدّيت على ما يجب من فروضها وسننها والخشوع فيها ، والتدبر لما يتلو فيها ، وتقدير المثول بين يدي الله تعالى ، أن ﴿ تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

وقال ابن عباس ، والكلبي ، وابن جريج ، وحماد بن أبي سليمان : تنهى ما دام المصلي فيها .

وقال ابن عمر : الصلاة هنا القرآن .

وقال ابن بحر : الصلاة : الدعاء ، أي أقم الدعاء إلى أمر الله ، وأما من تراه من المصلين يتعاطى المعاصي ، فإن صلاته تلك ليست بالوصف الذي تقدم .

وفي الحديث " أن فتى من الأنصار كان يصلي مع النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ارتكبه ، فقيل ذلك للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : "إن صلاتها تنهاه" .

(112/597)

فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "ألم أقل لكم ؟" " ولا يدل اللفظ على أن كل صلاة تنهى ، بل المعنى ، أنه يوجد ذلك فيها ، ولا يكون على العموم .

كما تقول : فلان يأمر بالمعروف ، أي من شأنه ذلك ، ولا يلزم منه أن كل معروف يأمر به .

والظاهر أن ﴿ أكبر ﴾ أفعل تفضيل .

فقال عبد الله ، وسلمان ، وأبو الدرداء ، وابن عباس ، وأبو قرة : معناه ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه .

وقال قتادة ، وابن زيد : أكبر من كل شيء ؛ وقيل : ولذكر الله في الصلاة أكبر منه خارج الصلاة ، أي أكبر ثواباً ؛ وقيل : أكبر من سائر أركان الصلاة ؛ وقيل : ولذكر الله نهيه أكبر من نهي الصلاة ؛ وقيل : أكبر من كل العبادة .

وقال ابن عطية : وعندي أن المعنى : ولذكر الله أكبر على الإطلاق ، أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، والجزء الذي منه في الصلاة ينهى ، كما ينهى في غير الصلاة ، لأن الانتهاء لا يكون إلاّ من ذاكر الله مراقبه ، وثواب ذلك الذاكر أن يذكره الله في ملأ خير من ملائه ، والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في النهي ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله .

وأما ما لا يجاوز اللسان ففي رتبة أخرى .

وقال الزمخشري : يريد والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها بذكر الله ، كما قال : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ وإنما قال : ﴿ ولذكر الله ﴾ ، لتستقل بالتعليل ، كأنه قال : والصلاة أكبر ، لأنها ذكر الله مما تصنعون من الخير والشر فيجازيكم ، وفيه وعيد وحث على المراقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(113/597)

وقال أبو السعود :

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾

أي فيما اتَّخذوه معتمداً ومتَّكلاً ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً ﴾ فيما نسجتْهُ في الوهنِ والخورِ بل ذلك أوهنُ من هذا لأنَّ له حقيقةً وانتفاعاً في الجُملة أو مَثَلُهم بالإضافةِ إلى المُوحَّدِ كمثله بالإضافة إلى رجلٍ بنى بيتاً من حجرٍ وجِصَ . والعنكبوتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ والمذكَّرِ والمؤنَّثِ ، والغالبُ في الاستعمالِ التَّانيثُ وتاؤُه كتاءِ طاغوت ويُجمع على عناكبَ وعنكبوتاتٍ وأمَّا العِكَابُ والعُكُبُ والأَعْكُبُ فأسماءُ الجموعِ ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت ﴾ حيثُ لا يُرى شيءٌ يدانيه في الوَهَنِ والوَهَى ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي شيئاً من الأشياءِ لجزمُوا أنَّ هذا مثلُهم وأنَّ دينَهم أَوْهى من ذلكَ ويجوز أنْ يجعل بيتُ العنكبوتِ عبارةً عن دينِهم تحقيقاً للتَّمثيلِ فالمعنى وإنَّ أوهنَ ما يُعتمد به في الدِّين دينُهم .

﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾

(114/597)

على إضمارِ القولِ أي قُل للكَفَرةِ إنَّ اللهَ الخ وما استفهاميّةٌ منصوبةٌ بيدعونَ معلقةٌ ليعلم ومِن للتَّبيينِ أو نافيةٌ ، ومِنْ مزيدةٌ وشيءٍ مفعولُ يدعون أو مصدريةٌ وشيءٍ عبارةٌ عن المصدرِ أو موصولةٌ مفعولٌ ليعلمُ ومفعولُ يدعون عائدُه المحذوفُ . وقُرِئ تَدعُون بالتَّاءِ والكلامُ على الأولين تجهيلٌ لهم وتأكيدٌ وعلى الآخرينَ وعيدٌ لهم ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ تعليلٌ على المعنيينِ فإنَّ إشراكَ ما لا يُعدُّ شيئاً بمن هَذا شأنُه من فرطِ الغباوةِ وإنَّ الجمادَ النسبةِ إلى القادرِ القاهرِ على كلِّ شيءٍ البالغِ في العلم وإتقانِ الفعلِ الغايةَ القاصيةَ كالمعدومِ البحت وأنَّ منَ هذه صفاتُه قادرٌ على مجازاتِهم . ﴿ وَتِلْكَ الامثال ﴾ أي هذا المثلُ وأمثاله ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ تقريباً لما بعُد من أفهامِهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ على ما هي عليه من الحُسنِ واستتباعِ الفوائدِ ﴿ إِلاَّ العالمون ﴾ الرَّاسخون في العلمِ المتدبّرون في الأشياءِ على ما ينبغِي وعنه عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ أنَّه تلاَ هذه فقال : " العالمُ من عقلَ عنِ اللهِ تعالى وعمِل بطاعتِه واجتنبَ سَخَطَه " ﴿ خَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق ﴾ أي مُحقَّاً مُراعياً للحكمِ والمَصَالحِ على أنَّه حالٌ من فاعلِ خلقَ أو ملتبسةً بالحقِّ الذي لا محيدَ عنه مستتبعةً للمنافعِ الدِّينيةِ والدُّنيويةِ على أنَّه حالٌ من مفعولِه فإنَّها مع اشتمالِها على جميعِ ما يتعلَّقُ به معاشُهم شواهدُ دالَّةٌ على شؤونِه تعالى المتعلقةِ بذاتِه وصفاتِه كما يُفصحُ عنه قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دالَّةٌ لهم ما ذُكر من شؤونِه سبحانه وتخصيصُ المؤمنينَ بالذكر مع عمومِ الهدايةِ والإرشادِ في خلقِهما للكلِّ لأنَّهم المُنتفعون بذلكَ .

﴿ اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ تقرُّباً إلى الله تعالى بقراءتِه وتذكُّراً لما في تضاعيفِه من المعاني وتذكيراً للنّاس وحملاً لهم على العملِ بما فيه من الأحكامِ ومحاسنِ الآدابِ ومكارمِ الأخلاقِ ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ﴾ أي داوِمْ على إقامتِها وحيثُ كانتِ الصَّلاةُ منتظمةً للصَّلواتِ المكتوبةِ المؤدّاةِ بالجماعةِ وكان أمرُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بإقامتِها متضمناً لأمرِ الأمّةِ بها علّل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ﴾ كأنّه قيل : وصلِ بهم إنّ الصَّلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، ومعنى نهيها عنهُما أنَّها سببٌ للانتهاءِ عنهُما لأنَّها مناجاةٌ تعالى فلا بدَّ أنْ تكونَ مع إقبالٍ تامَ على طاعتِه وإعراضٍ كليَ عن معاصيه قال ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما : "في الصَّلاةِ مُنتهى ومُزدجرٌ عن مَعَاصي الله تعالى فمَن لم تأمُرْه صلاتُه بالمعروفِ ولم تنهَه عن المنكرِ لم يزددْ بصلاتِه من الله تعالى إلا بُعداً" وقال الحسنُ : وقَتادةُ من لم تنهَه صلاتُه عن الفحشاءِ والمنكر فصلاتُه وبالٌ عليه . ورَوَى أنسٌ رضيَ الله عنه "إنَّ فتى من الأنصارِ كانَ يصلّي مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ثمَّ لا يدع شيئاً من الفواحِش إلا ركبَهُ فوُصفَ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حاله فقال : إنَّ صلاتَه ستنهاهُ" فلم يلبثْ أن تابَ وحسُنَ حالُه .

(116/597)

﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ أي وللصَّلاةُ أكبرُ من سائرِ الطَّاعاتِ وإنَّما عبرَّ عنها بهِ كما في قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ للإيذانِ بأنَّ ما فيها من ذكرِ الله تعالى هو العمدةُ في كونِها مفضَّلةً على الحسناتِ ناهيةً عن السيئاتِ وقيل ولذكرُ الله تعالى عندَ الفحشاءِ والمُنكر وذكرُ نهيهِ عنهُما ووعيدِه عليهما أكبرُ في الزَّجرِ عنهما وقيل : ولذكرُ الله إيَّاكم برحمتِه أكبرُ من ذِكركم إيَّاه بطاعتِه . ﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ منه ومن سائرِ الطَّاعات فيجازيكم بها أحسنَ المُجازاةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(117/597)

وقال الآلوسى :

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاء ﴾

استئناف متضمن تقبيح حال أولئك المهلكين الظالمين لأنفسهم وأضرابهم ممن تولى غير الله عز وجل ، وفيه إشارة إلى أعظم أنواع ظلمهم فالمراد بالموصول جميع المشركين الذين عبدوا

من دون الله عز وجل الأوثان .

وجوز أن يكون جميع من اتخذ غيره تعالى متكلاً ومعتمداً آلهة كان ذلك أو غيرها ، ولذا عدل إلى أولياء من آلهة أي صفتهم أو شبههم ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت ﴾ أي كصفتها أو شبهها .

﴿ اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت ﴾ بيانا لصفة العنكبوت التي يدور عليها أمر التشبيه ، والجملة على ما نقل عن الأخفش من لزوم الوقف على العنكبوت مستأنفة لذلك ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت ﴾ الخ في موضع الحال من فاعل اتخذت المستكن فيه ، وجوز كونه في موضع الحال من مفعوله بناء على جواز مجيء الحال من النكرة ، وعلى الوجهين وضع المظهر موضع الضمير الراجع إلى ذي الحال ، والجملة من تتمة الوصف .

(118/597)

واللام في البيوت للاستغراق ، والمعنى مثل المتخذين لهم من دون الله تعالى أولياء في اتخاذهم إياهم كمثل العنكبوت وذلك أنها اتخذت لها بيتاً والحال أن أوهن كل البيوت وأضعفها بيتها ، وهؤلاء اتخذوا لهم من دون الله تعالى أولياء والحال أن أوهن كل الأولياء وأضعفها أولياؤهم ، وإن شئت فقل : إنها اتخذت بيتاً في غاية الضعف وهؤلاء اتخذوا لها

أو متكلاً في غاية الضعف فهم وهي مشتركان في اتخاذ ما هو في غاية الضعف في بابه ، ويجوز أن تكون جملة اتخذت حالاً من العنكبوت بتقدير قد أو بدونها أو صفة لها لأن أل فيها للجنس ، وقد جوزوا الوجهين في الجمل الواقعة بعد المعرف بأل الجنسية نحو قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] وعن الفراء أن الجملة صلة لموصول محذوف وقع صفة ﴿ العنكبوت ﴾ أي التي اتخذت ، وخرج الآية التي ذكرناها على هذا واختار حذف الموصول في مثله ابن درستويه ، وعليه لا يوقف على العنكبوت ، وأنت تعلم أن كون الجملة صفة أظهر .

والمعنى حينئذ مثل المشرك الذي عبد الوثن بالقياس إلى الموحد الذي عبد الله تعالى كمثل عنكبوت اتخذت بيتاً بالإضافة إلى رجل بني بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبارة الأوثان ، وهو وجه حسن ذكره الزمخشري في الآية ، وقد اعتبر فيه تفريق التشبيه ، والغرض إبراز تفاوت المتخذين والمتخذ مع تصوير توهين أمر أحدهما وادماج توطيد الآخر ، وعليه يجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت ﴾ جملة حالية لأنه من تتمة التشبيه ، وإن يكون اعتراضية لأنه لو لم يؤت به لكان في ضمنه ما يرشد إلى هذا المعنى وإلى كونه جملة حالية ذهب الطيبي .

وقال "صاحب الكشف" : كلام الزمخشري إلى كونه اعتراضية أقرب لأن قوله : وكما أن أوهن البيوت الخ ليس فيه إيماء إلى تقييد الأول ، وقد تعقب أبو حيان هذا الوجه بأنه لا يدل عليه لفظ الآية ، وإنما هو تحميل اللفظ ما لا يحتمله كعادته في كثير من "تفسيره" ، وهذه مجازفة على "صاحب الكشاف" كما لا يخفى ، ويجوز أن يكون المعنى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء فيما اتخذوه معتمداً ومتكلاً في دينهم وتولوه من دون الله تعالى كمثل العنكبوت فيما نسجته واتخذته بيتاً ، والتشبيه على هذا من المركب فيعتبر في جانب المشبه اتخاذ ومتخذ واتكال عليه ، وكذلك في الجانب الآخر ما يناسبه ويعتبر تشبيه الهيئة المنتزعة من ذلك كله بالهيئة المنتزعة من هذا بالأسر ، والغرض تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التي لا غاية بعدها ، ومدار قطب التشبيه أن أولياءهم بمنزلة منسوج العنكبوت ضعف حال وعدم صلوح اعتماد ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْهَنَ البيوت ﴾ تذييلاً يقرر الغرض من التشبيه .

وجوز أن يكون المعنى والغرض من التشبيه ما سمعت إلا أنه يجعل التذييل استعارة تمثيلية ويكون ما تقدم كالتوطئة لها ، فكأنه قيل : وإن أوعن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان ، وهي تعقرر الغرض من التشبيه بتبعية تقرير المشبه ، وكأن التقرير في الوجه السابق بتبعية تقرير المشبه به ، وهذا قريب من تجريد الاستعارة وترشيحها ، ونظير ذلك قولك : زيد في

الكلام بحر والبحر لا يخيب من أتاه إذا كان البحر الثاني مستعاراً للكريم ، وذكر الطرفين إنما يمنع من كونه استعارة لو كان في جملته ، ورجح السابق لأن عادة البلغاء تقرير أمر المشبه به ليدل به على تقرير المشبه ، ولأن هذا إنما يتميز عن الإلغاز بعد سبق التشبيه .

(120/597)

وجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين ﴾ الخ كالمقدمة الأولى ، وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت ﴾ كالثانية وما هو كالنتيجة محذوف مدلول عليه بما بعد كما في الكشف ، والمجموع يدل على المراد من تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التي لا غاية بعدها على سبيل الكناية الإيمائية فتأمل ، والظاهر أن المراد بالعنكبوت النوع الذي ينسج بيته في الهواء ويصيد به الذباب لا النوع الآخر الذي يحفر بيته في الأرض ويخرج في الليل كسائر الهوام ، وهي على ما ذكره غير واحد من ذوات السموم فيسن قتلها لذلك ، لا لما أخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد من قوله صلى الله عليه وسلم : " العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى فمن وجدها فليقتلها " فإنه كما ذكر الدميري ضعيف .

وقيل : لا يسن قتلها فقد أخرج الخطيب عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب

فلا تقتلوهن " ذكر هذا الخبر الجلال السيوطي في الدر المنثور ، والله تعالى أعلم بصحته وكونه مما يصلح للاحتجاج به ، ونصوا على طهارة بيتها لعدم تحقق كون ما تنسج به من غذائها المستحيل في جوفها مع أن الأصل في الأشياء الطهارة ، وذكر الدميري أن ذلك لا تخرجه من جوفها بل من خارج جلدها ، وفي هذا بعد .

وأنا لم أتحقق أمر ذلك ولم أعين كونه من فمها أو دبرها أو خارج جلدها لعدم الاعتناء بشأن ذلك لا لعدم إمكان الوقوف على الحقيقة ، وذكر أنه يحسن إزالة بيتها من البيوت لما أسند الثعلبي .

وابن عطية وغيرهما عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : "طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإنه تركه في البيوت يورث الفقر" وهذا إن صح عن الإمام كرم الله تعالى وجهه فذاك ، وإلا فحسن الإزالة لما فيها من النظافة ولا شك بندبها .

(121/597)

والتاء في العنكبوت زائدة كتاء طالوت فوزنه فعللوت وهو يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ومن استعماله مذكراً قوله :

على هطالهم منهم بيوت . . .

كأن العنكبوت هو ابتناها

واستظهر الفاضل سعدي جلبي كون المراد به هنا الواحد ، وذهب إلى تأنيثه أيضاً فذكر أنه اختير هنا تأنيثه لأنه المناسب لبيان الخور والضعف فيما يتخذه ، وقال مولانا الخفاجي معرضاً به : الظاهر أن المراد الجمع لا الواحد لقوله تعالى : ﴿ الذين ﴾ وأما افراد البيت فلأن المراد الجنس ، ولذلك أنث ﴿ اتخذت ﴾ لا لأن المراد المؤنث ، وفي القاموس العنكبوت معروف وهي العنكباة والعكنباة والعنكبوة والعنكباء ، والذكر عنكب وهي عنكبة ، وجمعه عنكبوتات وعناكب ، والعكاب .

والعكب والأعكب أسماء الجموع ، وتعقب بأن عد ما عدا ما ذكره أولا اسم جمع لا وجه له لأن أعكب لا يصح فيه ذلك ، وذكروا في جمعه أيضاً عناكيب ، واختلف في نونه فقيل أصلية ، وقيل : زائدة كالتاء ، وجمعه على عكاب يدل على ذلك .

(122/597)

وذكر السجستاني في غريب سيبويه أنه ذكر عناكب في موضعين فقال في موضع : وزنه فناعل وفي آخر فعالل ، فعلى الأول النون زائدة وهو مشتق من العكب وهو الغلظ اه المراد منه ، ولعل الأقرب على ذلك كونه مشتقاً من الكعب بالفتح بمعنى الشدة في السير فكأنه

لشدة وثبه لصيد الذباب أو لشدة حركته عند فراره أطلق عليه اسم العنكبوت ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كانوا يعلمون شيئاً من الأشياء لعلموا أن هذا مثلهم أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ، وقيل : أي لو كانوا يعلمون وهن الأوثان لما اتخذوها أولياء من دون الله تعالى ، وفي الكشف أن قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ على جميع التقادير أي المذكورة في الكشاف وقد ذكرناها فيما مر من الايغال ، جعلهم سبحانه في الاتخاذ ثم زادهم جل وعلا تجهيلاً أنهم لا يعلمون هذا الجهل البين الذي لا يخفى على من له أدنى مسكة ، و ﴿ لَوْ ﴾ شرطية وجوابها محذوف على ما أشرنا إليه ، وجوز بعضهم كونها للتمني فلا جواب لها وهو غير ظاهر .

﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ ﴾

على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله الخ ، وقيل : لا حاجة إلى إضماره لجوز أن يكون ﴿ تَدْعُونَ ﴾ من باب الالتفات للإيذان بالغضب ، وفيه بحث .

وقرأ أبو عمرو .

وسلام ﴿ يَعْلَمُ مَا ﴾ بالادغام .

وأبو عمرو .

وعاصم بخلاف ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بياء الغيبة حملاً على ما قبله ، و ﴿ مَا ﴾ استفهامية منصوبة بتدعون و ﴿ يَعْلَمْ ﴾ معلقة عنها فالجملة في موضع نصب بها و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى متعلقة بتدعون على ما هو الظاهر و ﴿ مِنْ ﴾ الثانية للتبيين ، وجوز كونها للتبعيض ، ويجوز كون ما نافية ومن الثانية مزيدة وشيء مفعول تدعون ، أي لستم تدعون من دونه تعالى شيئاً ، كأن ما يدعونه من دونه عز وجل لمزيد حقارته لا يصلح أن يسمى شيئاً ، وجوز كونها مصدرية وهي وما بعدها في تأويل مصدر مفعول يعلم على أنها بمعنى يعرف ناصبة لمفعول واحد ومن تبعيضية ، أي يعرف دعاءكم وعبادتكم بعض شيء من دونه وقيل : ﴿ مِنْ ﴾ للتبيين و ﴿ شَيْءٍ ﴾ بمعنى ذلك المصدر وتنوينه للتحقير ، أي يعرف دعوتكم من دونه هي دعوة حقيرة ، وجوز كونها موصولة مفعول يعلم بمعنى يعرف ومفعول تدعون عائدها المحذوف ومن إما بيان للموصول أو تبعيضية .

وجوز زيادتها على هذا الوجه وما بعده ، ولا يخفى ما فيه ، والكلام على الوجهين الأولين في ﴿ مَا ﴾ تجهيل للكفرة المتخذين من دون الله تعالى أولياء لما فيهما من نفي الشيئية عما اتخذوه وليا ؛ والاستفهام عنه الذي هو في معنى النفي لأنه إنكار ، وفيه توكيد للمثل لأن كون معبودهم ليس بشيء يعبأ به مناسب ولذا لم يعطف ، وعلى الوجهين الأخيرين فيها وعيد لهم لأن العلم بدعوتهم وعبادتهم عبارة عن مجازاتهم عليها وكذا العلم بما يدعونه

عبارة عن مجازاتهم على دعائهم إياه ، وترك العطف فيه لأنه استئناف ، ويجوز أرادة التجهيل والوعيد في الوجوه كلها ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ في موضع الحال ويفهم منه التعليل على المعنيين ، فإن من فرط الغباوة اشراك ما لا يعد شيئاً بمن هذا شأنه ، وإن الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم واتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدم والبحت ، وإن من هذا صفته قادر على مجازاتهم .

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾

(124/597)

أي هذا المثل ونظائره من الأمثال المذكورة في الكتاب العزيز .

نَضْرِبُهَا للنَّاس ﴾ تقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿ ﴾ تقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿ إِلاَّ العالمون ﴾ الراسخون في العلم المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي .

وروي محيي السنة بسنده عن جابر " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ وَتِلْكَ الامثال ﴾ الآية فقال العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه " .

﴿ خَلَقَ الله السموات والأرض بالحق ﴾ أي محقا مراعيا للحكم والمصالح على أنه حال

من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذي لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على أنها حال من مفعوله .

فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤونه تعالى المتعلقة بذاته سبحانه وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دالة لهم على ما ذكر من شؤونه عز وجل ، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكل لأنهم المنتفعون بذلك .

(125/597)

﴿ اتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ أي دم على تلاوة ذلك تقرباً إلى الله تعالى بتلاوته وتذكرا لما في تضاعيفه من المعاني وتذكيراً للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿ وَأَقِمِ الصلاة ﴾ أي داوم على إقامتها ، وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره صلى الله عليه وسلم بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى : ﴿ اتل مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ كأنه قيل : وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، ومعنى يهيها إياهم عن ذلك أنها لتضمنها صنوف العبادة من التكبير والتسبيح والقراءة والوقوف بين يدي الله عز وجل

والركوع والسجود له سبحانه الدال على غاية الخضوع والتعظيم كأنها تقول لمن يأتي بها لا تفعل الفحساء والمنكر ولا تعص ربا هو أهل لما أتيت به ، وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه عز وجل وقد أتيت مما يدل على عظمته تعالى وكبريائه سبحانه من الأقوال والأفعال بما تكون به أن عصيت وفعلت الفحشاء أو المنكر كالمتناقض في أفعاله ، وبما ذكر ينحل الأشكال المشهور وهو أنا نرى كثيراً من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك ، فإن نهيها إياهم عن الفحساء وانكر بهذا المعنى لا يستلزم انتهاءهم .

ألا ترى أن الله تعالى ينهى عن ذلك أيضاً كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِى القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ [النحل : 90]

والناس لا ينتهون وليس نهى الصلاة بأعظم من نهيه سبحانه وتعالى ، فإذا لم يكن هناك استلزام فكيف يكون هنا .

وما أرى هذا الإشكال إلا مبنياً على توهم استلزام النهي للانتهاء ، وهو توهم باطل وتخيل عاطل لا يشهد له عقل ولا يأيده نقل .

ونقل أبو حيان عن ابن عباس .

والكلبي .

وابن جريج .

وحماد بن أبي سليمان أن الصلاة تنهى عن ذلك ما دام المصلي فيها ، وكأنهم أرادوا أنها كالناهية للمصلي القائلة له لا تفعل ذلك ما دام فيها لأنه إذا فرغ منها فقد انقطعت الأقوال والأفعال التي كان النهي بما تدل عليه من العظمة والكبرياء .

ونقل عن القطب أنه قال في جواب الاشكال : إن الصلاة تقام لذكر الله تعالى كما قال عز من قائل : ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِذِكْرِى ﴾ [طه : 14] ومن كان ذاكراً لله عز وجل منعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه منه تعالى مما قل أو كثر وكل من تراه يصلي ويأتي الفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يكن يصلي لكان أشد اتياناً فقد أثرت الصلاة في تقليل فحشائه ومنكره ، وهو كما ترى ، وقيل : إن المراد أن الصلاة سبب للانتهاء عن ذلك ، وليس هذا كلياً لما أن الصلاة في حكم النكرة وهي في الإثبات لا يجب أن تعم فينحل الإشكال ، وعلى ما قلنا لا يضر دعوى الكلية .

نعم النهي الذي ذكرناه يتفاوت بحسب تفاوت أداء الصلاة فهوي في صلاة أديت على أتم ما يكون من الخشوع والتدبر لما يتلى فيها مع الإتيان بفروضها وواجباتها وسننها وآدابها على أحسن أحوالها أتم ، وقد يضعف النهي فيما حتى كأنها لا تنهى كما في الصلاة التي تؤدي مع الغفلة التامة والاخلال بما يليق فيها وهي الصلاة المردودة التي تلف كما يلف الثوب الخلق ويرمي بها وجه صاحبها فتقول له : ضيعك الله تعالى كما ضيعتني ، وكأن مراد القائل : إن

المراد بالصلاة التي تنهى عما ذكر هي الصلاة المقبولة هو هذا .

وقد يجعل الانتهاء علامة القبول .

روي بعض الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أنه قال : من أحب أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعته قبلت منه ،

وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

(127/597)

والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسن قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له " وفي لفظ " لم يزدد بها من الله تعالى إلا بعدا "

وأخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال له : إن فلاناً يطيل الصلاة فقال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها ثم قرأ ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ وقد يتفق لمن يكثر الصلاة أن تقع بعض صلاته على الوجه اللائق فتقبل لطفاً من الله تعالى وكرماً ، ويظهر أثر ذلك بالانتهاء عن المعاصي ، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد .

وابن حبان .

والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال سينهاه ما تقول" وأصرح منه فيما ذكرنا ما روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن صلاته ستنهاه" فلم يلبث إلا أن تاب .

إلا أن ابن حجر ذكر فيه أنه لم يجده في كتب الحديث .

ثم إن حمل الصلاة في الآية على الصلاة المعروفة هو الظاهر المؤيد بالآثار والأخبار الصحيحية ، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن المراد بها هنا القرآن

، وقال ابن بحر : إن المراد بها الدعاء أي أقم الدعاء إلى أمر الله تعالى إن الدعاء إلى أمره سبحانه ينهى عن الفحشاء والمنكر ، وكل منهما عدول عن الظاهر من غير داع .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

عن الربيع بن أنس أنه كان يقرأ ﴿ اتل مَا ذِى القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر ﴾ ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ قال ابن عباس .

وابن مسعود .

وابن عمر .

وأبو قرة .

ومجاهد .

(128/597)

وعطية : المعنى لذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه سبحانه ، وفي لفظ لذكر الله تعالى العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى ، وعن ابن عباس أنه قال ذلك ثم قرأ ﴿ اذكرونى أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 152] .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن أبي مالك أنه قال ذكر الله تعالى العبد في الصلاة أكبر من الصلاة ، فذكر مصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف وكذا المفضل عليه وهو خاص على ما سمعت ، وجوز أن يكون عاماً أي أكبر من كل شيء ، وقيل : المعنى ولذكر العبد لله تعالى في الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة ، وقيل : أي ولذكر العبد لله تعالى في الصلاة أكبر من ذكره إياه سبحانه خارج الصلاة ، وقيل : أي ولذكر العبد لله تعالى أكبر من سائر أعماله ، وروي عن جماعة من السلف ما يقتضيه .

أخرج أحمد في الزهد .

وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : "ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله تعالى ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله تعالى قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع لأن الله تعالى يقول في كتابه ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن جرير عن أبي الدرداء قال : "ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم وأسماها في درجاتكم وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم وخير من إعطاء الدنانير والدراهم قالوا : وما هو يا أبا الدرداء ؟ قال ذكر الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن سلمان أنه سئل أي العمل أفضل ؟ قال : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ لا شيء أفضل من ذكر الله ، ونسب في البحر إلى أبي الدرداء .

وسلمان رضي الله تعالى عنهما القول الذي ذكرناه أولاً عمن سمعت ، ولعل ذلك إحدى روايتين عنهما ، وجاء عن ابن عباس أيضاً رواية تشعر بأن المراد بذكر الله تعالى ذكر العبد له سبحانه .

أخرج سعيد بن منصور .

وابن أبي شيبة .

وابن المنذر .

والحاكم في الكنى .

(129/597)

والبيهقي في شعب الإيمان عن عنترة قال : قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر وما قعد قوم في بيت من بيوت الله تعالى يدرسون كتاب الله ويتعاطونه بينهم إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها وكانوا أضياف الله تعالى ما داموا فيه حتى يفيضوا في حديث غيره وما سلك رجل طريقاً يلتمس فيه العلم الا سهل الله تعالى له

طريقاً إلى الجنة .

وقيل : المراد بذكر الله الصلاة كما في قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الجمعة : 9] أي وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات ، وقيل : المعنى ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر ، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر في الزجر من الصلاة ، ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ على هذه الأقوال مصدر مضاف للمفعول والمفضل عليه محذوف ، وجوز أن لا يكون أفعل للتفضيل سواء كانت إضافة المصدر للفاعل أم للمفعول كما في الله أكبر ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ من الخير والطاعة فيجازيكم بذلك أحسن المجازاة ، وقال أبو حيان : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ من الخير والشر فيجازيكم بحسبه ففيه وعد ووعيد وحث على المراقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(130/597)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾

لما بينت لهم الأشباه والأمثال من الأمم التي اتخذت الأصنام من دون الله فما أغنت عنهم

أصنامهم لما جاءهم عذاب الله أعقب ذلك بضرب المثل لحال جميع أولئك وحال من ماثلهم من مشركي قريش في اتخاذهم ما يحسبونه دافعاً عنهم وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه ، بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتاً تحسب أنها تعتصم به من المعتدي عليها فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأضعف تحريك فيسقط ويتمزق .

والمقصود بهذا الكلام مشركو قريش ، وتعلم مساواة غيرهم لهم في ذلك بدلالة لحن الخطاب ، والقرينة قوله بعده ﴿ إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء ﴾ [العنكبوت : 42] فضمير ﴿ اتخذوا ﴾ عائد إلى معلوم من سياق الكلام وهم مشركو قريش .

وجملة ﴿ اتخذت بيتاً ﴾ حال من ﴿ العنكبوت ﴾ وهي قيد في التشبيه .

وهذه الهيئة المشبه بها مع الهيئة المشبهة قابلة لتفريق التشبيه على أجزائها فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه ، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها وتزول بأقل تحريك ، وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف وهو السكنى فيها وتوهم أن تدفع عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم .

وهو تمثيل بديع من مبتكرات القرآن كما سيأتي قريباً عند قوله ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ في هذه السورة .

(43) و ﴿ العنكبوت ﴾ : صنف من الحشرات ذات بطون وأرجل وهي ثلاثة

أصناف ، منها صنف يسمى ليث العناكب وهو الذي يفترس الذباب ، وكلها تتخذ لأنفسها نسيجاً تنسجه من لُعابها يكون خيوطاً مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران ، وتتخذ في وسط تلك الخيوط جانباً أغلظ وأكثر اتصال خيوط تحتجب فيه وتفرّخ فيه . وسمي بيتاً لشبهه بالخيمة في أنه منسوج ومشدود من أطرافه فهو كبيت الشعر .

(131/597)

وجملة ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ معترضة مبينة وجه الشبه .

وهذه الجملة تجري مجرى المثل فيضرب لقلة جدوى شيء فاقتضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تتفاوت بيوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف .

وجملة ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ متصلة بجملة ﴿ كمثل العنكبوت ﴾ لا بجملة ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ .

فتقدير جواب ﴿ لو ﴾ هكذا : لو كانوا يعلمون أن ذلك مثَلُهم ، أي ولكنهم لا يعلمون انعدام غناء ما اتخذوه عنهم .

وأما أوهنية بيت العنكبوت فلا يجهلها أحد .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ

لما نفى عنهم العلم بما تضمنه التمثيل من حقارة أصنامهم التي يعبدونها وقلة جدواها بقوله ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ [العنكبوت : 41] المفيد أنهم لا يعلمون ، أعقبه بإعلامهم بعلمه بدقائق أحوال تلك الأصنام على اختلافها واختلاف معتقدات القبائل التي عبدتها ، وأن من آثار علمه بها ضرب ذلك المثل لحال من عبدوها وحالها أيضاً دفعاً بهم إلى أن يتهموا عقولهم وأن عليهم النظر من حقائق الأشياء تعريضاً بقصور علمهم كقوله تعالى ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [البقرة : 216] ، فهذا توقيف لهم على تفريطهم في علم حقائق الأمور التي عَلِمها الله وأبلغهم دلائلها النظرية ونظائرها التاريخية ، وقربها إليهم بالتمثيلات الحسية فعموا وصموا عن هذا وذاك .

و﴿ ما ﴾ من قوله ﴿ ما تدعون ﴾ يجوز أن تكون نافية معلِّقة فعل ﴿ يعلم ﴾ عن العمل ، وتكون ﴿ من ﴾ زائدة لتوكيد النفي ، ومجرورها مفعول في المعنى ل ﴿ تدعون ﴾ ظهرت عليه حركة حرف الجر الزائد .

ومعنى الكلام : أن الله يعلم أنكم لا تدعون موجوداً ولكنكم تدعون أموراً عدمية ، ففيه تحقير لأصنامهم بجعلها كالعدم لأنها خلو عن جميع الصفات اللائقة بالإلهية .

فهي في بابها كالعدم فلما شابهت المعدومات في انتفاء الفائدة المزعومة لها استعمل لها التركيب الدال على نفي الوجود على طريقة التمثيلية .

ولا يتوهم السامع أن المراد نفيُ أن يكونوا قد دعوا أولياء من دون الله ، لأن سياق الكلام سابقه ولاحقه يأباه وهذا كقوله تعالى ﴿ ليست النصارى على شيء ﴾ في سورة البقرة (113) ، و ﴿ لستم على شيء ﴾ في سورة المائدة (68) ، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم لما سُئل عن الكهان : إنهم ليسوا بشيء ، أي ليسوا بشيء فيما يدعونه من معرفة الغيب .

وحاصل المعنى : أن من علمه تعالى بأنها موجودات كالعدم ضرَبَ لها مثلاً ببيت العنكبوت ولعبدتها مثلاً بالعنكبوت الذي اتخذها ، وعلى هذا الوجه فالكلام صريح في إبطال إلهية الأصنام وفي أنها كالعدم .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهامية معلِّقة فعل ﴿ يعلم ﴾ عن العمل من باب قولهم : علمت هل زيد قائم ، أي علمت جوابه .

و ﴿ من ﴾ بيانية لما في ﴿ ما ﴾ الاستفهامية من الإبهام ، أي من شيء من المدعوات العديدة في الأمم .

ففيه تعريض بأن المشركين لا يعلمون جواب سؤال السائل "ما تدعون من دون الله" ، أي قد علم الله ذلك ، ومن علمه بذلك أنه ضرب لهم المثل بالعنكبوت اتخذت بيتاً ، وللمعبودات مثلاً ببيت العنكبوت ، وأنتم لو سئلتم : ما تدعون من دون الله ، لتلعثمتم ولم تحيروا جواباً ؛ فإن شأن العقائد الباطلة والأفهام السقيمة أن لا يستطيع صاحبها بيانها بالقول وشرحها ، لأنها لما كانت تتألف من تصديقات غير متلائمة لا يستطيع صاحبها تقريرها فلا يلبث قليلاً حتى يفتضح فاسد معتقده من تعذر إفصاحه عنه .

(133/597)

وجعل بعض المفسرين ﴿ يعلم ﴾ هنا متعدياً إلى مفعول واحد وأنه بمعنى (يعرف) وجعل ﴿ ما ﴾ موصولة مفعول ﴿ يدعون ﴾ والعائد محذوفاً ، ويعكر عليه أن إسناد العلم بمعنى المعرفة وهو المتعدي إلى مفعول واحد إلى الله يؤول إلى إسناد فعل المعرفة إلى الله بناء على إثبات الفرق بين فعل (علم) وفعل (عرف) عند من فسر المعرفة بإدراك الشيء بواسطة آثاره وخصائصه المحسوسة ، وأنها أضعف من العلم لأن العلم شاع في معرفة حقائق الأشياء ونسبها .

وعن الخليل بن أحمد "العلم معرفتان مجتمعان ، ففي قولك : عرفت زيداً قائماً ، يكون (

قائماً) حالاً من (زيداً) ، وفي قولك : علمت زيداً قائماً ، يكون (قائماً) مفعولاً ثانياً ل (علمت) أ هـ .

يريد أن فعل (عرف) يدل على إدراك واحد وهو إدراك الذات ، وفعل (علم) يدل على إدراكين هما إدراك الذات وإدراك ثبوت حكم لها ، على نحو ما قاله أهل المنطق في التصور والتصديق ، فلذلك لم يرد في الكتاب والسنة إسناد فعل المعرفة إلى الله فكيف يسند إليه ما يؤوَّل بمعناها .

وجملة ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تذييل لجملة ﴿ إن الله يعلم ﴾ لأن الجملة على كلا المعنيين في معاني ﴿ ما ﴾ تدل على أن الذي بيَّن حقارة حال الأصنام واختلال عقول عابديها فلم يعبأ بفضحها وكشفها بما يسوءها مع وفرة أتباعها ومع أوهام أنها لا يمسها أحد بسوء إلا كانت أَلْباً عليه ؛ فلو كان للأصنام حظ في الإلهية لما سلم من ضرّها من يُحقرها كقوله تعالى ﴿ قل لو كان معه ءالهة كما تقولون إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ [الإسراء : 42] كما تقدم ، وأنه لما فضح عقول عُبادها لم يخشهم على أوليائه بَلْهَ ذاته ، فهو عزيز لا يُغلب ، وحكيم لا تنطلي عليه الأوهام والسفاسط بخلاف حال هاتيك وأولئك .

وقرأ الجمهور ﴿ تدعون ﴾ بالفوقية على طريقة الالتفات .

وقرأه أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتحتية .

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)

بعد أن بين الله لهم فساد معتقدهم في الأصنام ، وأعقبه بتوقيفهم على جهلهم بذلك ، نعى عليهم هنا أنهم ليسوا بأهل لتفهم تلك الدلائل التي قُربت إليهم بطريقة التمثيل ، فاسم الإشارة يبيّنه الاسم المبدل منه وهو ﴿ الأمثال ﴾ .

والإشارة إلى حاضر في الأذهان فإن كل من سمع القرآن حصل في ذهنه بعض تلك الأمثال .

واسم الإشارة للتنويه بالأمثال المضروبة في القرآن التي منها هذا المثل بالعنكبوت .

وجملة ﴿ نضربها للناس ﴾ خبر عن اسم الإشارة .

وهذه الجملة الخبرية مستعملة في الامتنان والطول لأن في ضرب الأمثال تقريباً لفهم الأمور الدقيقة .

قال الزمخشري : "ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المُثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق والغائب كالمشاهد" .

وقد تقدم بيان مزية ضرب الأمثال عند قوله تعالى ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما

بعوضة فما فوقها ﴾ في سورة البقرة

(26) .

ولهذا اتبعت هذه الجملة بجملة ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

والعقل هنا بمعنى الفهم ، أي لا يفهم مغزاها إلا الذين كمُلت عقولهم فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام .

وفي هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بها جهلاء العقول ، فما بالك بالذين اعتاضوا عن التدبر في دلالتها باتخاذها هُزءاً وسخرية ، فقالت قريش لما سمعوا قوله تعالى ﴿ إن الذين تَدْعُون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ [الحج : 73] ، وقوله ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ [العنكبوت : 41] قالوا : ما يستحيي محمد أن يمثل بالذباب والعنكبوت والبعوض .

وهذا من بهتانهم ، وإلا فقد علم البلغاء أن لكل مقام مقالاً ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام .

(135/597)

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

بعد أن بيّن الله تعالى عدم انتفاع المشركين بالحجة ومقدماتها ونتائجها الموصلة إلى بطلان إلهية الأصنام مستوفاة مغنية لمن يريد التأمل والتدبر في صحة مقدماتها بإنصاف نُقل الكلام إلى مخاطبة المؤمنين لإفادة التنويه بشأن المؤمنين إذ انتفعوا بما هو أدق من ذلك وهو حالة النظر والفكر في دلالة الكائنات على أن خالقها هو الله ، وأن لا شيء غيره حقيقاً بمشاركته في إلهيته ، فأفاد أن المؤمنين قد اهتدوا إلى العلم ببطلان إلهية الأصنام خلافاً للمشركين الذين لم يهتدوا بذلك .

فأفهم ذلك أن من لم يعقلوها ليسوا بعالمين أخذاً من مفهوم الصفة في قوله ﴿ للمؤمنين ﴾ إذا اعتبر المعنى الوصفي من قوله ﴿ للمؤمنين ﴾ ، أو أخذاً من الاقتصار على ذكر المؤمنين في قوله ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ إذا اعتبر عنوان المؤمنين لقباً .

والاقتصار عند ذكر دليل الوحدانية على انتفاع المؤمنين بتلك الدلالة المفيد بأن المشركين لم ينتفعوا بذلك يشبه الاحتباك بين الآيتين .

والباء في ﴿ بالحق ﴾ للملابسة ، أي خلقهما على أحوالهما كلها بما ليس بباطل .

والباطل في كل شيء لا وفاء فيه بما جُعل هو له .

وضد الباطل الحق ، فالحق في كل عمل هو إتقانه وحصول المراد منه ، قال تعالى ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ [ص : 27] .

والمراد بالسماوات والأرض ما يشمل ذاتهما والموجودات المظروفة فيهما .

وهذا الخلق المتقن الذي لا تقصير فيه عما أريد منه هو آية على وحدانية الخالق وعلى صفات ذاته وأفعاله .

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ

(136/597)

بعد أن ضرب الله للناس المثل بالأمم السالفة جاء بالحجة المبيّنة فساد معتقد المشركين ، ونوه بصحة عقائد المؤمنين بمنتهى البيان الذي ليس وراءه مطلب أقبل على رسوله بالخطاب الذي يزيد تثبيته على نشر الدعوة وملازمة الشرائع وإعلان كلمة الله بذلك ، وما فيه زيادة صلاح المؤمنين الذين انتفعوا بدلائل الوحدانية .

وما الرسول عليه الصلاة والسلام إلا قدوة للمؤمنين وسيّدهم فأمره أمر لهم كما دل عليه التذييل بقوله ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ الآية ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ * اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب وَأَقِمِ الصلاة إِنَّ ﴾ بصيغة جمع المخاطبين كقوله ﴿ فاستقم كما أُمِرتَ ومن تاب معك ﴾ [هود : 112] قرآن إذ ما فرط فيه من شيء من الإرشاد .

وحذف متعلق فعل ﴿ اتْلُ ﴾ ليعم التلاوة على المسلمين وعلى المشركين .

وهذا كقوله تعالى ﴿ إنما أُمرتُ أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها ﴾ إلى قوله ﴿ وأن أتلو القرءان فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ [النمل : 91 ، 92] .

وأمره بإقامة الصلاة لأن الصلاة عمل عظيم ، وهذا الأمر يشمل الأمة فقد تكرر الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة .

وعلل الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني فقال ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ، فموقع ﴿ إن ﴾ هنا موقع فاء التعليل ولا شك أن هذا التعليل موجّه إلى الأمة لأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم من الفحشاء والمنكر فاقتصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة دون تعليل الأمر بتلاوة القرآن لما في هذا الصلاح الذي جعله الله في الصلاة من سِرّ إلهي لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشاد منه تعالى ؛ فأخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والمقصود أنها تنهى المصلي .

وإذ قد كانت حقيقة النهي غير قائمة بالصلاة تعيّن أن فعل ﴿ تنهى ﴾ مستعمل في معنى مجازي بعلاقة أو مشابهة .

والمقصود : أن الصلاة تيسر للمصلي ترك الفحشاء والمنكر .

وليس المعنى أن الصلاة صارفة المصلي عن أن يرتكب الفحشاء والمنكر فإن المشاهد يخالفه إذ كم من مصلّ يقيم صلاته ويقترف بعض الفحشاء والمنكر .

كما أنه ليس يصح أن يكون المراد أنها تصرف المصلي عن الفحشاء والمنكر ما دام متلبساً بأداء الصلاة لقلة جدوى هذا المعنى .

فإن أكثر الأعمال يصرف المشتغل به عن الاشتغال بغيره .

وإذ كانت الآية مسوقة للتنويه بالصلاة وبيان مزيتها في الدين تعين أن يكون المراد أن الصلاة تُحذر من الفحشاء والمنكر تحذيراً هو من خصائصها .

وللمفسرين طرائق في تعليل ذلك منها ما قاله بعضهم : إن المراد به ما للصلاة من ثواب عند الله ، فإن ذلك غرض آخر وليس منصباً إلى ترك الفحشاء والمنكر ولكنه من وسائل توفير الحسنات لعلها أن تغمر السيئات ، فيتعين لتفسير هذه الآية تفسيراً مقبولاً أن نعتبر حكمها عاماً في كل صلاة فلا يختص بصلوات الأبرار ، وبذلك تسقط عدة وجوه مما فسروا به الآية .

قال ابن عطية : "وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات صلحت بذلك نفسه وخامرها ارتقاب الله تعالى فاطرد ذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر" أهـ .

وفيه اعتبار قيود في الصلاة لا تناسب التعميم وإن كانت من شأن الصلاة التي يحق أن يلقنها المسلمون في ابتداء تلقينهم قواعد الإسلام .

والوجه عندي في معنى الآية : أن يُحمل فعل ﴿ تنهى ﴾ على المجاز الأقرب إلى الحقيقة وهو تشبيه ما تشتمل عليه الصلاة بالنهي ، وتشبيه الصلاة في اشتمالها عليه بالناهي ، ووجه الشبه أن الصلاة تشتمل على مذكِّرات بالله من أقوال وأفعال من شأنها أن تكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله تعالى إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله .

وهذا كما يقال : صديقك مرآة ترى فيها عيوبك .

(138/597)

ففي الصلاة من الأقوال تكبير لله وتحميده وتسبيحه والتوجيه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال ، وكلها تذكر بالتعرض إلى مرضاة الله والإقلاع عن عصيانه وما يفضي إلى غضبه فذلك صدّ عن الفحشاء والمنكر .

وفي الصلاة أفعال هي خضوع وتذلل لله تعالى من قيام وركوع وسجود وذلك يذكر بلزوم اجتلاب مرضاته والتباعد عن سخطه .

وكل ذلك مما يصد عن الفحشاء والمنكر .

وفي الصلاة أعمال قلبية من نية واستعداد للوقوف بين يدي الله وذلك يذكر بأن المعبود جدير بأن تمتثل أوامره وتُجتنب نواهيه .

فكانت الصلاة بمجموعها كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر ، فإن الله قال ﴿ تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ولم يقل تَصُدّ وتحول ونحو ذلك مما يقتضي صرف المصلي عن الفحشاء والمنكر .

ثم الناس في الانتهاء متفاوتون ، وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس وتتباعد النفس من العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها .

ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر .

روى أحمد وابن حِبّان والبيهقي عن أبي هريرة قال : "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق ، فقال : سينهاه ما تقول" أي صلاته بالليل .

واعلم أن التعريف في قوله ﴿ الفحشاء والمنكر ﴾ تعريف الجنس فكلما تذكر المصلي

عند صلاته عظمة ربه ووجوب طاعته وذكر ما قد يفعله من الفحشاء والمنكر كانت صلاته حينئذ قد نهته عن بعض أفراد الفحشاء والمنكر .

و﴿ الفحشاء ﴾ : اسم للفاحشة ، والفُحش : تجاوز الحد المقبول .

فالمراد من الفاحشة : الفعلة المتجاوزة ما يُقبل بين الناس .

(139/597)

وتقدم في قوله تعالى ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ في سورة [البقرة : 169] .

والمقصود هنا من الفاحشة : تجاوز الحد المأذون فيه شرعاً من القول والفعل ، وبالمنكر : ما ينكره الشرع ولا يرضى بوقوعه .

وكأنّ الجمع بين الفاحشة والمنكر منظور فيه إلى اختلاف جهة ذمه والنهي عنه .

وقوله ﴿ وَلَذِكْرُ الله أكبر ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ فيكون عطف علة على علة ، ويكون المراد بذكر الله هو الصلاة كما في قوله تعالى ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ [الجمعة : 9] أي صلاة الجمعة .

ويكون العدول عن لفظ الصلاة الذي هو كالاسم لها إلى التعبير عنها بطريق الإضافة للإيماء إلى تعليل أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، أي إنما كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر

لأنها ذكر الله وذكر الله أمرٌ كبير ، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة مقصود به قوة الوصف كما في قولنا : الله أكبر ، لا تريد أنه أكبر من كبير آخر .

ويجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ اتلُ ما أوحي إليك من الكتاب ﴾ .

والمعنى : واذكر الله فإن ذكر الله أمر عظيم ، فيصح أن يكون المراد من الذكر تذكُّر عظمة الله تعالى .

ويجوز أن يكون المراد ذكر الله باللسان ليعمّ ذكر الله في الصلاة وغيرها .

واسم التفضيل أيضاً مسلوب المفاضلة ويكون في معنى قول معاذ بن جبل "ما عَمِل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله" .

ويجوز أن يكون المراد بالذكر تذكر ما أمر الله به ونهى عنه ، أي مراقبة الله تعالى وحذر غضبه ، فالتفضيل على بابه ، أي ولذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة في ذلك النهي ، وذلك لإمكان تكرار هذا الذكر أكثر من تكرر الصلاة فيكون قريباً من قول عمر رضي الله عنه : أفضل من شكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه .

ولك أن تقول : ذكر الله هو الإيمان بوجوده وبأنه واحد .

(140/597)

فلما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وأراد أمر المؤمنين بعملين عظيمين من البر أردفه بأن الإيمان بالله هو أعظم من ذلك إذ هو الأصل كقوله تعالى ﴿ فكُّ رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين ءامنوا ﴾ [البلد : 13 17].

وذلك من ردّ العجز على الصدر عاد به إلى تعظيم أمر التوحيد وتفظيع الشرك من قوله ﴿ إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء ﴾ [العنكبوت : 42] إلى هنا .

وقوله ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ تذييل لما قبله ، وهو وعد ووعيد باعتبار ما اشتمل عليه قوله ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة ﴾ وقوله ﴿ تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

والصنع : العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(141/597)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾

كلمة (مَثَلُ) وردت بمشتقاتها في القرآن الكريم مرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام

جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا قيل (مِثْل) بسكون الثاء ، فمعناها التشبيه ، لكن تشبيه مفرد بمفرد .

كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11] وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . . ﴾ [الشورى : 40] .

أما (مَثَل) بالفتح ، فتعني تشبيه قصة أو متعدّد بمتعدّد ، كما في قوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء . . . ﴾ [الكهف : 45] .

فالحق – سبحانه وتعالى – لا يُشبِّه شيئاً بشيء إنما يُشبه صورة متكاملة بصورة أخرى : فالحياة الدنيا في وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها ، ثم انتهائها بعد ذلك إلى زوال مثل الماء حين ينزل من السماء فيختلط بتربة الأرض ، فينبت النبات المزهر الجميل ، والذي سرعان ما يتحول إلى حطام .

لذلك اعترض بعض المتمحكين على أسلوب القرآن في قول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ . . . ﴾ [آل عمران : 59] .

ووجه اعتراضه أن (مَثَل) جاءت تُشبه مفرداً بمفرد ، وهو عيسى بآدم عليهما السلام ، ونحن نقول : إنها تشبه صورة متكاملة بأخرى ونقول : هذا الاعتراض ناتج عن عدم فهم المعنى المراد من الآية ، فالحق سبحانه لا يُشبِّه عيسى بآدم كأشخاص ، إنما يُشبِّه قصة خَلْق آدم بقصة خلق عيسى ، فآدم خُلِق من غير أب ، وكذلك عيسى خُلِق من غير أب .

والمعنى : إنْ كنتم قد عجبتم من أن عيسى خُلِق بدون أب ، فكان ينبغي عليكم أنْ تعجبُوا أكثر من خَلْق آدم ؛ لأنه جاء بلا أب وبلا أم ، وإذا كنتم اتخذتم عيسى إلهاً ؛ لأنه جاء بلا أب ، فالقياس إذنْ يقتضي أن تكون الفتنة في آدم لا في عيسى .

والمسألة أن الله تعالى شاء أن يعلن خلْقه عن طلاقة قدرته في أنه لا يخلق بشكل مخصوص ، إنما يخلق كما يشاء سبحانه من أب وأم ، أو من دون أب ، ومن دون أم ، ويخلق من أب فقط ، أو من أم فقط .

إذن : هذه المسألة لا تخضع للأسباب ، إنما لإرادة المسبِّب سبحانه ، فإذا أراد قال للشيء : كُنْ فيكون . وقد يجتمع الزوجان ، ويكتب عليهما العقم ، فلا ينجبان ، وقد يصلح الله العقيم فتلد ، ويُصلح العجوز فتنجب – والأدلة على ذلك واضحة – إذن : فطلاقة القدرة في هذه المسألة تستوعب كل الصور ، بحيث لا يحدها حَدٌّ .

والحق سبحانه حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيِّن لنا الشيء الغامض بشيء واضح ، والمبهم بشيء بيِّن ، والمجمل بشيء مُفصَّل ، وقد جرى القرآن في ذلك على عادة العرب ، حيث استخدموا الأمثال في البيان والتوضيح .

ويُحكَي أن أحدهم ، وكان صاحب سمعة طيبة وسيرة حسنة بين الناس ، فحسده آخر ، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوِّه صورته ، وتذهب بمكانته بين الناس فاتهمه بالتردد على أرملة حسناء ، وقد رآه الناس فعلاً يذهب إلى بيتها ، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه .

ولما تحقق الناس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء ، وهذا الرجل يعطف عليهم ويفيض عليهم مما رزقه الله ، فلما عرفوا ذلك عن الرجل عظَّموه ، ورفعوا من شأنه ، وزاد في نظرهم مجداً وفضلاً .

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل :

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طُوِيَتْ . . . أَتاحَ لَها لِسَانَ حَسُود

لَوْلا اشْتِعالُ النارِ فيما جاورَتْ . . . مَا كان يعرف طِيب عَرْفِ العُودِ

(143/597)

والعود نوع من البخور ، طيب الرائحة ، لا تنتشر رائحته إلا حين يُحرَق .

ومن مشتقاتها أيضاً (مَثُلَة) كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات . . . ﴾ [الرعد : 6] وهي العقوبات التي حاقتْ بالأمم المكذِّبة ، حتى جعلتها عبرةً لغيرها .

فإذا اشتهر المثَل انتشر على الألسنة ، وضربه الناس مثلاً كما اشتهر حاتم الطائي بالكرم

والجود حتى صار مضرب المثل فيه ، وقد تشتهر بيننا عبارة موجزة ، فتصير مثلاً يضرب في مناسبها كما نقول للتلميذ الذي يهمل طوال العام ، ثم يجتهد ليلة الامتحان (قبل الرماء تملأ الكنائن) مع الاحتفاظ بنص المثل في كل مناسبة ، وإن لم يكُنْ هناك رمي ولا كنائن .

كما أن المثل يقال كما هو دون تغيير ، سواء أكان للمفرد ، أم المثنى ، أم الجمع المذكر ، أو للمؤنث . كذلك نقول (ماذا وراءك يا عصامِ) بالكسر ؛ لأنها قيلت في أصل المثَل لامرأة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً . . . ﴾ [العنكبوت : 41] .

فهذا مثل في قمة العقيدة ، ضربه الله لنا للتوضيح وللبيان ، ولتقريب المسائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقول للمثل الذي ضربه الله لك : ماذا أراد الله بهذا ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة : 26] .

فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً ؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر ، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سِرِّ العظمة فيها .

(144/597)

ففي هذا المخلوق الضئيل كل مُقوّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموي . . إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات ألا ترى الميكروبات التي لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوى بما يؤرقك وينغص عليك .

إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة : 26] ما فوقها أي : في الصِّغَر والاستدلال . أي : ما دونها صِغَراً ؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشيء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشيء الأقلّ حجماً الأكثر دِقَّة .

لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهي أضخم وأشهر ساعة في العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصِّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها في ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التي جعلوها في فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دِقَّة الصنعة في صِغَر الحجم .

كذلك الراديو أول ما ظهر كان في حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً في حجم الجيب .

ومن مخلوقات الله ما دق ؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن

، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التي بين جنبيك والتي بها حياتُك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

(145/597)

نعود إلى المثَل الذي ضربه الله لنا : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ . . . ﴾ [العنكبوت : 41] أي : شركاء وشفعاء ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت . . . ﴾ [العنكبوت : 41] هذا المخلوق الضعيف الذي ينسج خيوطه بهذه الدقة التي نراها ، والذي نسج خيوطه على الغار في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشترك مع الحمامة في التعمية على الكفار .

﴿ اتخذت بَيْتاً . . . ﴾ [العنكبوت : 41] أي : من هذه الخيوط الواهية ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت . . . ﴾ [العنكبوت : 41] فخطأ العنكبوت ليس في اتخاذ البيت ، إنما في اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط في البيت أن يكون حصيناً يحمي صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط . إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من

الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق في الخَلْق لكان أنسب وأَجدْى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ . . . ﴾ [إبراهيم : 18] .

ومعنى : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 41] أي : حقيقة الأشياء ، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً ، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات ، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قدرة الخالق – عز وجل – فلو فكَّروا فيها وفي أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

(146/597)

فهي – إذن – دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون ، فالجبل هذا الصخر الذي تنحتون منه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أَدْنى منكم من الحيوان والنبات ، وسبق أن قلنا : إن الجماد يخدم النبات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً في خدمة الإنسان .

إذن : فالجماد خادم الخدامين ، ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خِسَّة فكركم ، وسوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها – أي : في زعمكم .

فكيف وقد ميَّزك الله على كل الأجناس ؟ لقد كان ينبغي منك أن تبحث عن شيء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شِئْتَ عن الجماد قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا . . . ﴾ [فصلت : 9-10] أي : في الأرض ﴿ رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : 10] .

فكأن الجبال الصَّماء الراسية هي مخازن القوت للناس على مَرِّ الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوَّن الطمي الذي يحمله إلينا الماء في أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة في السهول والوديان ، فتكون مصدر خصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع .

وتذكرون أيام الفيضان وما كان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمي .

فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

وفي موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في قمة العقيدة أيضاً فيقول سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 29] .

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنهي ، وبين عبد مملوك لعدة شركاء ، وليتهم متفقون ، لكن ﴿ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ . . . ﴾ [الزمر : 29] مختلفون لكلٍّ أوامر ، ولكلٍّ منهم مطالب ، فكيف إذن يُرضيهم ؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه ؟

فالذي يعبد الله وحده لا شريك له كالعبد لسيد واحد ، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون . إذن : فالحق سبحانه يضرب الأمثال للناس في الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا . . . ﴾ .

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [العنكبوت : 42] لأنهم حين ضُيِّق عليهم الخناق قالوا : نحن لا نعبد الأصنام ، إنما نعبد الكواكب التي تُسيِّر

هذه الأصنام أو الملائكة ، فردَّ الله عليهم : ﴿ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [العنكبوت : 42] للتقليل ، كأنَّ ما يدعونه من دونه لا يُعَد شيئاً ، أو هو أتفه من أن يكون شيئاً ، أو يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أي شيء .

أو أن يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أي شيء .

أو أن (شيء) من قولنا : شاء يشاء شيئاً ، فالشيء ما يُراد من الغير أنْ يفعله ، والذي شاء هو الله تعالى ، وكأنهم يعبدون الشيء ويتركون خالقه ، وهو الأحقُّ بالعبادة سبحانه ، فماذا جرى لكم ؟ ! تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، وبعد أن كرمكم الله تهينون أنفسكم ، وترضون لها الدون ، حيث تعبدون ما هو أقلّ منكم مرتبةً في الخَلْق ، والأصنام جمادات ، وهي أدنى أجناس الوجود .

(148/597)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [العنكبوت : 42] العزيز الذي يَغْلب ، ولا يُغلب ، وهو الحكيم في كُلِّ ما قضى وأمر .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا . . . ﴾ .

فمَنْ يسمع المثل من الله تعالى ثم لا يعقله فليس بعالم ؛ لذلك ليسوا علماء الذين اعترضوا

على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة : 26] حيث استقلُّوا البعوضة ، ورأوها لا تستحق أنْ تُضرب مثلاً .

ونقول لهم : أنتم لستم عاقلين ولا عالمين بدقة المثل ، واقرأوا : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . . . ﴾ [الحج : 73] بل وأكثر من ذلك : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ . . . ﴾ [الحج : 73] .

دَعْك من مسألة الخَلْق ، وتعالَ إلى أبسط شيء في حركة حياتنا إذا وقع الذباب على طعامك ، فأخذ منه شيئاً أتستطيع أن تسترده منه مهما أُوتيتَ من القوة والجبروت ؟

إذن : فالذبابة ليست شيئاً تافهاً كما تظنون ، بل واقلّ منها الناموس (والميكروب) وغيره مما لا يُرَى بالعين المجردة مخلوقات لله ، فيها أسرار تدلُّ على قدرته تعالى .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة : 26] أي : ما فوقها في الصِّغَر ، ولك أن تتأمل البعوضة ، وهي أقلّ حجماً من الذباب ، وكيف أن لها خرطوماً دقيقاً ينفذ من الجلد ، ويمتصّ الدم الذي لا تستطيع أنت إخراجه إلا بصعوبة ، (والميكروب) الذي لا تراه بعينك المجردة ومع ذلك يتسلل إلى الجسم فيمرضه ، ويهدّ كيانه ، وربما انتهى به إلى الموت .

إذن : ففي هذه المخلوقات الحقيرة في نظرك عبر وآيات ، لكن لا يعقلها إلا العالمون ، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكتشفها غير مؤمنين بالله ، فكان منهم مَنْ عقلها فآمن ، ومَنْ لم يعقلها فظلَّ على كفره على أنه أَوْلَى الناس بالإيمان بالله ؛ لأن لديه من العلم ما يكتشف به أسرار الخالق في الخَلْق . لذلك جاء في الأثر : " العالم الحق هو الذي يعلم مَنْ خلقه ، ولِمَ خلقه " .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ خَلَقَ الله السماوات . . . ﴾ .

أراد الحق سبحانه أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته تعالى ، فقال : ﴿ خَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق . . . ﴾ [العنكبوت : 44] والخَلْق : إيجاد المعدوم ، لكن الغرض مخصوص ، ولمهمة يؤديها ، فإنْ خلقت شيئاً هكذا كما اتفق دون هدف منه فلا يُعَد خلقاً .

ومسألة الخَلْق هذه هي الوحيدة أقرَّ الكفار بها لله تعالى ، فلما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . . ﴾ [لقمان : 25] فلماذا أقرُّوا بهذه بالذات ؟ ولماذا ألجمتهم ؟

هذا ليس عجيباً منهم ؛ لأننا نشاهد كل مَنْ يأتي بجديد في الكون حريصاً على أنْ ينسبه لنفسه ، وعلى أنْ يُبيِّن للناس مجهوداته وخبراته ، وأنه اخترع كذا أو اكتشف كذا ، كالذي اكتشف الكهرباء أو اخترع (التليفون أو التليفزيون) .

ما زِلْنا حتى الآن نذكر أن قانون الطفو لأرشميدس ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، والناس تسجل الآن براءات الاختراع حتى لا يسرق أحد مجهودات أحد ، ولتحفظ لأصحاب التفوق العقلي والعبقري ثمرة عبقريتهم .

وكذلك كان العرب قديماً يذكرون لصاحب الفضل فَضْله ، حتى إنهم يقولون : فلان أول مَنْ قال مثلاً : أما بعد . وفلان أول من فعل كذا .

إذن : فنحن نعرف الأوائل في كل المجالات ، وننسب كل صنعة وكل اختراع واكتشاف إلى صاحبه ، بل ونُخلِّد ذكراه ، ونقيم له تمثالاً . . إلخ .

(150/597)

إذن : فما بالك بالخالق الأعظم سبحانه الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما ، أليس من حقه أن يعلن عن نفسه ؟ أليس من حقه على عباده أن يعترفوا له بالخَلْق ؟ خاصة وأن خَلْق السماوات والأرض لم يدَّعه أحد لنفسه ، ولم ينازع الحق فيه منازع ، ثم جاءنا رسول من عند الله تعالى يخبرنا بهذه الحقيقة ، فلم يوجد معارض لها ، والقضية تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وقد مثَّلنا لهذه المسألة – ولله المثل الأعلى – بجماعة جلسوا في مجلس ، فلما انفضَّ جمعهم

وجد صاحب البيت محفظة نقود لواحد منهم ، فسألهم : لمن هذه المحفظة ؟ فقالوا جميعاً : ليست لي إلا واحد منهم قال : هي محفظتي ، فهل يشكُّ صاحب البيت أنها لمن ادَّعاها ؟

ولك أنْ تسأل : ما دام الحق سألهم ﴿ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض . . . ﴾ [لقمان : 25] فقالوا (الله) فلماذا يذكر الله هذه القضية ؟ قالوا : الحق – تبارك وتعالى – لا يريد بهذه الآية أن يخبرنا أنه خالق السماوات والأرض ، إنما يريد أن يخبرنا أن خَلْق السماوات والأرض بالحق ، والحق : الشيء الثابت الذي لا يتغير مع الحكمة المترتبة على كل شيء في الوجود ، فإذا نظرنا إلى خَلْق السماوات والأرض لوجدناه ثابتاً لم يتغير شيء فيه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . ﴾ [غافر : 57] .

فالسماوات والأرض خَلْق هائل عظيم ، بحيث لو قارنته بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون . وانظر مثلاً في عمر السماوات والأرض وفي عمر الإنسان : أطول أعمار البشر التي نعلمها حتى الآن عمر نوح عليه السلام ، وبعد هذا العمر الذي نراه طويلاً انتهى إلى الموت ، فعمر الإنسان معلوم يكون سنة واحدة ، أو ألف سنة لكن لا بُدَّ أن يموت .

أما السماوات والأرض وما فيها من مخلوقات إنما خُلقت لخدمة الإنسان ، فالخادم عمره أطول من المخدوم ، فالشمس مثلاً خلقها الله تعالى من ملايين السنين ، ومازالت كما هي لم تتغير ، ولم تتخلف عن مهمتها ، وكذلك القمر : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] .

أي : بحساب دقيق ؛ لذلك يقولون : سيحدث كسوف مثلاً أو خسوف يوم كذا الساعة كذا ، وفي نفس الوقت يحدث فعلاً كسوف للشمس أو خسوف للقمر مما يدلّ على أنهما خُلِقا بحساب بديع دقيق ، ويكفي أننا نضبط على الشمس مثلاً ساعاتنا ، ومع ما عُرِف عن الشمس والقمر ، من كِبَر حجمهما ، فإنهما يسيران في مسارات وأفلاك دون صدام ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] .

هذا كله من معنى خَلْق السماوات والأرض بالحق . أي : بنظام ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا يتخلف في كُلِّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير ؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصي ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكن خَلْق السماوات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [العنكبوت : 44] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً ؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين ﴿ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض . . . ﴾ [لقمان : 25] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين ؟

(152/597)

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السماوات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه : ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب . . . ﴾ .

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مواكب الرسل في إبراهيم وفي موسى ونوح وصالح وهود ولوط وفي شعيب ، ثم تكلَّم سبحانه عن الذين كذبوا هؤلاء الرسل ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 40] أراد سبحانه أن يُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يزعجه ، ولا يرهقه ، أو يتعب نفسه موقف الكافرين به الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون من الدعوة موقف العداء .

فقال له مُسلِّياً : ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب . . . ﴾ [العنكبوت : 45] يعني :

لِمَ تحزن يا محمد ومعك الأُنس كله ، الأُنس الذي لا ينقضي ، وهو كتاب الله ومعجزته التي أنزلها إليك ، فاشتغل به ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

وإذا كان هؤلاء الذين عاصروك لم يؤمنوا به ، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه فداوم أنت على تلاوته عَلَّ الله يأتي من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء ، فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

﴿ اتل . . . ﴾ [العنكبوت : 45] اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ؛ لأن الذي يرسل رسولاً من البشر بشيء أو في أمر من الأمور ، ثم يكذب يرجع إلى مَنْ أرسله ، فما دام قومك قد كذَّبوك ، فارجع إليَّ بأن تستمع إلى كتابي الذي أنزلتُه معجزة لك تؤيدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ، فيصادف منهم قلوباً صافية ، فيؤمنون به .

(153/597)

وفَرْق بين الفاعل والقابل ، والقرآن يُوضِّح هذه المسألة ، فمن الناس مَنْ إذا سمعوا القرآن تخشع له قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . ﴾ [محمد : 16] تهويناً من شأن القرآن ، ومن شأن رسول الله .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَاءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ

وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . ﴾ [فصلت : 44] .

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فالعبرة في صفاء الاستقبال لأن الإرسال واحد ، وهل تتهم الإذاعة إنْ كان جهاز (الراديو) عندك معطلاً ، لا يستقبل إرسالها ؟

كذلك مَنْ أراد أن يستقبل إرسال السماء فعليه أنْ يُعِد الأذن الواعية والقلب الصافي غير المشوش بما يخالف إرسال السماء ، عليك أنْ تُخرِج ما في نفسك أولاً من أضداد للقرآن ، ثم تستقبل كلام الله وتنفعل به .

وسبق أنْ مثَّلْنا لاختلاف المنفعل للفعل بمَنْ ينفخ في يده وقت البرد بقصد التدفئة ، وبمَنْ ينفخ بنفَسه في الشاي مثلاً ليبرده ، فهذه للحرارة ، وهذه للبرودة ، الفعل واحد ، لكن المنفعل مختلف .

فقوله تعالى : ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب . . . ﴾ [العنكبوت : 45] هذه هي مَيْزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تكرِّرها في كل وقت ، وأن تتلوها كما تشاء ، وأن يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

أما معجزات الرسل السابقين فكانت خاصة بمَنْ شاهد المعجزة ، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحد بعدهم حتى لو كان معاصراً لها ولم يَرَهَا ، فالذين عاصروا مثلاً انقلاب

عصا موسى حية ولم يشاهدوا هذا الموقف ، ماذا عندهم من هذه المعجزة ؟ لا شيء إلا أننا نُصدّقِها ونؤمن بها ؛ لأن القرآن أخبرنا بها .

(154/597)

إذن : فمعجزات السابقين تأتي كلقطة واحدة أشبه ما تكون بعود الكبريت الذي يشتعل مرة واحدة ، رآها مَنْ رآها وتنتهي المسألة ، ولكن القرآن حدثنا بكل معجزات الرسل السابقين فانظر إذن ما أصاب الرسل جميعاً من خيرات سيدنا رسول الله ، وكيف خَلَّد القرآن ذكرهم ، وامتدت معجزاتهم بامتداد معجزته .

فكأن القرآن أسدى الجميل إلى كل الرسل ، وإلى كل المعجزات ؛ لذلك قال تعالى عن القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ . . . ﴾ [المائدة : 48] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة . . . ﴾ [العنكبوت : 45] وملعوم أن اتْلُ : التلاوة قَوْل من فعل اللسان و ﴿ وَأَقِمِ . . . ﴾ [العنكبوت : 45] من فعل الجوارح ، والإنسان له جوارح متعددة اشتهر منها خمس هي : العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للتذوق ، والأنامل للَّمس .

فقالوا على سبيل الاحتياط : الجوارح الخمسة الظاهرة وقد ظهر فعلاً مع تقدُّم العلوم اكتشفوا في الإنسان حواسَّ أخرى ووسائلَ إدراك لم تُعرف من قبل ، كحاسة العضل التي تزن بها ثقل الأشياء ، وإلا فبأيِّ حاسة من حواسِّك الخمسة تعرف الثقل قبل أن ترفع الشيء من على الأرض ؟

وكحاسة البَيْن ، والتي بها تستطيع أنْ تُميِّز بين سُمْك الأشياء بين أنا ملك ، فحين تذهب مثلاً إلى تاجر الأقمشة ، فتتناول القماش بين أنا ملك و (تفركه) برفق ، فتستطيع أن تعرف أن هذا أَسْمَك من هذا .

ومن عجيب الأمر في مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها ، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً ، والعمل ينقسم : إما قول ، وإما فعل . فكل تحريك لجارحة لتؤدي مهمة يسمى عملاً ، لكن عمل اللسان يسمى قولاً ، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً .

(155/597)

فأخذ اللسان هذه المكانة ؛ لأن به الإنذار من الحق ، وبه التبشير ، وبه البلاغ من الرسول ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2]

.

ولم يقل : ما لا تعملون . لأن القول يقابله الفعل ، وهُما معاً عمل ، والعمل بنية القلب .

لكن ، لماذا اختار الصلاة من بين أعمال الجوارح ؟ قالوا : لأنها قمة العمل كما سماها النبي صلى الله عليه وسلم : " الصلاة عماد الدين " وبها نُفرِّق بين المؤمن والكافر . ويبقى السؤال : لماذا أخذتْ الصلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام ؟

ونحب أنْ نشير هنا إلى أن خصوم الإسلام وبعض أهله الذين يخافون من بعثه أنْ يقضي على سلطتهم وطُغْيانهم وجبروتهم يريدون حَصْر الإسلام في أركانه الخمسة ، فإنْ قُلْت بهذه المقولة لا يتعرضون لك ، وأنت حر في إطار أركان الإسلام هذه ، لكن إياك أن تقول : إن الإسلام جاء ليُنظِّم حركة الحياة ؛ لأن حظهم في حَصْر الإسلام في أركانه فقط .

وما فَهم هؤلاء أن الأركان ليست هي كل الإسلام ، إنما هي أسُسه وقواعده التي يقوم عليها بناؤه ، لكنهم يريدون أنْ يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة . فنقول لهم : نعم ، هذه أركان الإسلام ، أمَّا الإسلام فيشمل كل شيء في حياتنا ، بداية من قمة العقيدة في قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ؛ لأن الإسلام دين يستوعب كل أقضية الحياة ، كيف لا وهو يُعلِّمنا أبسط الأشياء في حياتنا .

ألاَ تراه يهتم بأحكام قضاء الحاجة ودخول الخلاء ، وما يتعلق به من آداب وأحكام ؟ ألاَ ترى أن صاحب الحِسْبة المكلَّف بمراقبة الأسواق ، وتنفيذ أحكام منهج الله في الأرض إذا رأى جزاراً ينفخ ذبيحته بفمه يقوم بإعدام هذه الذبيحة ؛ لأن الهواء المستخدم في نفخها

هواء غير صحي ، فهو زفير مُحمَّل بثاني أكسيد الكربون ، وقد يحمل غازات أخرى ضارة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى لحم الذبيحة ؟

(156/597)

كما أن من مهمته أن يمر بالحلاقين ، ويتفقد مدى نظافتهم وسلامتهم من الأمراض ، وإذا اشتم من أحدهم رائحة ثوم أو بصل مثلاً أمره بإغلاق محله ، وعدم العمل في هذا اليوم حتى لا يتأذى الناس برائحته .

فأيُّ شرع هذا الذي يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدِّ ؟ إنه دين الله ومنهجه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة في حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً .

أمِثْل هذا الشرع يُعزل عن حركة الحياة ويُقيّد وينحصر في مسائل العبادات وحدها ؟

إنك حين تنظر إلى متاعب العالم المتخلف الآن – دَعْك من العالم المتقدم – ستجد أن متاعبه اقتصادية ، ولو تقصيْتَ الأسباب لوجدتها تعود إلى التخلي عن منهج الله وتعطيل أحكامه ، ووالله لو أنهم أخذوا في أزمتهم الاقتصادية بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع " .

لو عملوا بهذا وتأدَّبوا بأدب رسولهم لخرجوا من هذه الأزمة ، وتقلَّبوا في رَغَد من العيش ،

إنك لو تحليْتَ بهذا الأدب في مسألة الطعام والشراب لكفتْك اللقمة واللقمتان ، وأشهى الطعام ما كان بعد جوع مهما كان بسيطاً .

أما الآن ، فنرى الناس يلجئون إلى المشهِّيات قبل الطعام ، وإلى المهضِمات بعده ، لماذا ؟ لأنهم خالفوا هَدْي رسولهم صلى الله عليه وسلم ، فهم يأكلون على شِبَع ، ويأكلون بعد الشِّبَع .

والحق – تبارك وتعالى – يقول : ﴿ وكُلُواْ واشربوا ولاَ تسرفوا . . . ﴾ [الأعراف : 31] وأُثِر عن العرب الذين عاشوا في شظف من العيش : نِعمْ الإدام الجوع . نعم إنه (الغموس) الحقيقي ، والمشهِّي الأول .

نعود إلى مكانة الصلاة بين العبادات ، ولماذا كانت هي عماد الدين ، ومعنى : " الصلاة عماد الدين " و "بُنِي الإسلام على خمس "

(157/597)

أن الدين أشياء أخرى ، وهذه هي أُسُسه وقواعده ، وحين نتتبع هذه القواعد نجد أن الركن الأول ، وهو أشهد ألاّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله يمكن أن أقولها ولو مرة واحدة ، أما الزكاة فلا تجب مثلاً على الفقير فلا يزكي ، وكذلك المريض لا يصوم ، والمسافر

والحائض . . إلخ ، وكذلك الحج غير واجب إلا على المستطيع .

إذن : ما هو الركن الثابت الذي يلازم كل مسلم ، ولا يسقط عنه بحال ؟ إنها الصلاة ؛ لذلك أخذتْ مساحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم والليلة ، وبها يكون إعلان الولاء الدائم لله تعالى ، وبها تفرق بين المؤمن وغير المؤمن ، فإنْ رأيتَ شخصاً مثلاً لا يصوم أو لا يزكي أو لا يحج ، فلك أنْ تقول ربما يكون من أصحاب الأعذار ، ومن غير القادرين ، لكن حين ترى شخصاً لا يُصلِّي ، وقد تكرَّر منه ذلك فإنك لا بُدَّ شاكٌّ في إسلامه .

لذلك استحقت الصلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التشريع ، ألا ترى أن كل فرائض الدين شُرعت بالوحي إلا الصلاة ، فقد شُرعت بالخطاب المباشر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ، برئيس العمل الذي يُصدر أوامره بوسائل مختلفة حَسْب أهمية المأمور به ، فقد يكتفي بأن (يُؤشر) على ورقة ، وقد يُوصي بها ، أو يطلب الموظف المختص فيُحدِّثه (بالتليفون) ، فإنْ كان الأمر هاماً استدعاه شرطياً إلى مكتبه وكلَّفه بما يريد .

وكان هذا الاستدعاء تشريفاً لسيدنا رسول الله بقرب المرسل من المرسل ، فأراد الحق – سبحانه وتعالى – ألاَّ يحرم أمه محمد فضل أسبغه على محمد فكأنه قال : مَنْ أراد من عبادي أنْ يقرب من كما قرب محمد فكان قاب قوسين أو أدنى فليُصلِّ .

ومعنى ﴿ وَأَقِمِ الصلاة . . . ﴾ [العنكبوت : 45] إقامة الشيء : أداؤه على الوجه الأكمل الذي يؤدي غايته ، فالصلاة المطلوبة هي الصلاة المستوفاة الشروط والتي تقيمها كما يريدها مُشرِّعها ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر . . . ﴾ [العنكبوت : 45] .

والصلاة إذا استوفتْ شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإذا رأيتَ صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فاعلم أنها ناقصة عما أراده الله لإقامتها ، وعلى قَدْر النقص تكون ثمرة الصلاة في سلوك صاحبها ، وكأن وقوعك في بعض الفحشاء وفي بعض المنكر يُعَدُّ مؤشراً دقيقاً لمدى إتقانك لصلاتك وحرصك على تمامها وإقامتها .

ومعنى ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر . . . ﴾ [العنكبوت : 45] واضح في قول النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له : " يا رسول الله ، إن فلاناً يصلي ، لكن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فقال : " دعوه ، فإن صلاته تنهاه " " .

فالمعنى هنا أن الأمر ليس أمراً كونياً ثابتاً لا يتخلف ، بل هو أمر تشريعي عُرْضة لأنْ يُطاع ، وعُرْضة لأنْ يُعصى ، فلو كان الأمر كونياً ما جرؤ صاحب صلاة عل الفحشاء والمنكر ،

ومثال ذلك أن أقول مثلاً لأولادي قبل أن أموت : يا أولادي ، هذا بيت يكرم مَنْ يدخله . كلام على سبيل الخبر ولم أقل : أكرموا مَنْ يدخله ، فالذي يحترم وصيتي منهم يكرم مَنْ يدخل بيتي من بعدي ، والذي لا يحترم الوصية لا يُكرم مَنْ يدخله . أما لو قلت : أكرموا مَنْ يدخل هذا البيت فقد ألزمتَ الجميع بالإكرام .

(159/597)

وأوضح من هذا قوله تعالى في شأن المسجد الحرام : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . ﴾ [آل عمران : 97] فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء ، وأطلقوا النار في ساحاته ، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك في هذه الآية : كيف يحدث هذا والله يقول ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . ﴾ [آل عمران : 97] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله .

وهذا المسلك منهم يأتي عن عدم فهم لمعنى الأمر الكوني والأمر التشريعي ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . ﴾ [آل عمران : 97] أمر تشريعي قابلٌ لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصي ، كأن الحق – سبحانه وتعالى – قال : أمِّنُوا مَنْ دخل البيت ، فبعض الناس امتثل للأمر ، فأمَّن مَنْ في البيت الحرام ، وبعضهم عصى فروَّع الناس ، وقتلهم في ساحته ، ولو كان

أمراً كونياً ما تخلَّف أبداً كما لو تتخلف الشمس مثلاً يوماً من الأيام .

وكذلك الأمر في ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر . . . ﴾ [العنكبوت : 45]

فالصلاة تشريع من الله ، فإذا كان الله تعالى هو المشرِّع ، وقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر . . . ﴾ [النحل : 90]

يعني : لا يوجد معها فحشاء ولا منكر ، وهذا أيضاً صحيح ؛ لأنني حين أدخل في الصلاة بتكبيرة الإحرام فإن هذه التكبيرة تحرم عليّ كل ما كان حلالاً لي قبل الصلاة ، ففي الصلاة مثلاً لا آكل ولا أشرب ولا أتحرك ، مع أن هذه المسائل كانت حلالاً قبل الصلاة ، فما بالك بما كان حراماً عليك أصلاً قبل الصلاة ؟ إذن : فهو حرام من باب أَوْلَى .

(160/597)

فالصلاة بهذا المعنى تمنعك من الفحشاء والمنكر في وقتها ؛ لأن تكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعني أن الله أكبر من كل شيء في الوجود حتى من شهوات النفس ونزواتها ، وإلاَّ فكيف تقيم نفسك بين يدي ربك ، ثم تخالف منهجه ؟ فالصلاة بهذا المعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر .

ومعنى (الفَحْشَاء) كل ما يُسْتفحش من الأقوال والأفعال (والمنكَر) كل شيء يُنكره

الطبع السليم ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ . . . ﴾ [العنكبوت : 45] ذكر : مصدر ، والمصدر يُضاف للفاعل مثل : أعجبني ضَرْب الأمير لزيد ، ويُضاف للمفعول مثل : أعجبني ضرَبْ زيد من الأمير ، فحين تقول ذكر الله يصح أن يكون المعنى : ذِكْر صادر من الله ، أو ذِكْر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذِكْر صادر من الله ، أي للمصلِّي ، فحين يصلي الإنسان ، ويذكر الله بالكبرياء في قوله الله أكبر ويُنزِّهه بقول سبحان الله ، ويسجد له سبحانه ويخضع ، فقد فعلتَ إذن فِعْلاً ذكرتَ الله فيه ذِكْراً بالقول والفعل ، والله تعالى يجازيك بذكرك له بأن يذكرك ، فالذكر ذكر من الله لمن ذكره في صلاته .

ولا شكَّ أن ذكر الله لك أكبر ، وأعظم من ذِكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أن تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكرك له منازل عالية لا نهايةَ لها في يوم لا تموت فيه ولا تنقطع عنك نِعَمه وآلاؤه ، فالمعنى : ولذِكر الله لك بالثواب والرحمة أكبر من ذِكْركَ له بالطاعة . هذا على معنى أن الذكر صادر من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكْر صادراً من العبد لله ، يعني : ولذكْر الله خارج الصلاة أكبر من ذِكْر الله في الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك في الصلاة تُعِد نفسك لها بالوضوء ، وتتهيأ لها لتكون في حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة

الحياة فذِكْرك لله وأنت بعيد عن حضرته وأنت مشغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذِكْرك في الحضرة .

(161/597)

ومثال ذلك – ولله تعالى المثل الأعلى – مَنْ يمدح الأمير ويُثني عليه في حضرته ، ومَنْ يمدحه في غيبته ، فأيُّهما أحلى ، وأيُّهما أبلغ وأصدق في الذكْر ؟

واقرأ في ذلك قوله تعالى عن صلاة الجمعة : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله . . . ﴾ [الجمعة : 9] .

يعني : ذِكْر الله في الصلاة ، ولا تظنوا أن الذكْر قاصر على الصلاة فقد إنما : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : 10] فيجب ألاَّ يغيب ذِكْر الله عن بالك أبداً ؛ لأن ذِكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذِكْرك له سبحانه في الصلاة .

ورُوِي عن عطاء بن السائب أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة : ما تقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ . . . ﴾ [العنكبوت : 45] ؟ فقال : قراءة القرآن حَسَن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن التهليل له حسن .

لكن أحسن من ذلك أن يكون ذِكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه ، فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس – مع أن هذا القول مخالف لقوله في الآية – ؟ قال : عجيب والله ، فأعجب بقول ابن ربيعة ، وبارك فهمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ؛ لأن الإنسانَ طبيعي أن يذكر الله في حال الطاعة ، فهو متهيئ للذكْر ، أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع عنها ، فهذا أقْوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ . . . ﴾ [العنكبوت : 45] .

لذلك جاء في الحديث الشريف : " سبعة يظلهم الله في ظِلّه ، يوم لا ظِلَّ إلا ظله – ومنهم : ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله "

هذا هو ذِكْر الله الأكبر ؛ لأن الدواعي دواعي معصية ، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

(162/597)

أما قول ابن عباس في ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ . . ﴾ [العنكبوت : 45] أن ذِكْر ربكم لكم بالثواب والرحمة أكبر من ذِكْركم له بالطاعة . وحيثيات هذا القول أن ربك – عز وجل – لم

يُكلِّفك إلا بعد سِنِّ البلوغ ، وتركك تربَع في نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلفك ، ثم يُوالي عليكِ نِعَمه ، ولا يقطع عنك مدده حتى لو انصرفتَ عن منهجه ، بل حتى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه .

إذن : فذِكْر الله لك بالخَلْق من عدم ، والإمداد من عُدم ، وموالاةِ نعَمه عليك أكبر من ذِكْرك له بالطاعة ، وقد ذكرك سبحانه قبل أنْ يُكلِّفك أَن تذكره . كما أن ذكركم له سبحانه بالطاعة في الدنيا موقوت ، أما ذِكْره لكم بالثواب والجزاء والرحمة في الآخرة فممتد لا ينقطع أبداً .

ثم تختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : 45] هذه الكلمة نأخذها على أنها بشارة للمؤمن ، ونذارة للكافر ، كما تقول للتلاميذ يوم الامتحان : سينجح المجتهد منكم ، فهي بشارة للمجتهد ، وإنذار للمهمِل ، فالجملة واحدة ، والإنسان هو الذي يضع نفسه في أيهما يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(163/597)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ العالمون ﴾ [43]

قال : ضرب الله الأمثال للناس عامة ، إذ شواهد القدرة تدل على القادر ، ولا يعقلها إلا خاصته ، فالعلم أعز ، والفقه عن الله أخص ، فمن عرف علم نفسه الطبيعية وحده وهم ، ومن عرفه بعلم الله فالله عرف مراده منه لنفسه ، وليس مع الخلق من معرفة الحق وراء ذلك ، وإنما وقعت الإشارة إليه لبعد قلوبهم عن المعرفة في الحقيقة .

(164/597)

قوله : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ [45] قال : في هذه الآية تزيين الانصراف عن الفحشاء والمنكر بواحدة وهو الإخلاص في الصلاة ، وكل صلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يوجد فيها تزيين الانصراف عن ذلك فهي معلولة ، والواجب تصفيتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 120 ﴾

(165/597)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا وهو من أوهن البيوت وأضعفها وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده وفي القرآن أكثر من ذلك وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده

فإن قيل فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفي عنهم علم ذلك بقوله لو

كانوا يعلمون

فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا فلو علموا ذلك لما فعلوه ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزا وقدرة فكان الأمر بخلاف ما ظنوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 154 . 155 ﴾

(166/597)

فائدة أخرى فى قوله تعالى ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾

فقيل : المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو من ذكره ولذكره الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل ابن مرزوق عن عطية ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : وهو قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه

وقال ابن زيد وقتادة : معناه : ولذكر الله أكبر من كل شيء وقيل لسلمان : أي الأعمال أفضل ؟ أما تقرأ القرآن ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم [

ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق]

الحديث

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول : الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر : فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وهي مشتملة على ذكر الله تعالى ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سئل : أي العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر وفي السنن عن عائشة عن النبي صلى اله عليه وسلم قال : [إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى] رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الوابل الصيب صـ 102 . 103 ﴾

(167/597)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن

مجاهد ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ قال : الصيحة . وفي قوله ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ قال : في الضلالة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ قال : ميتين . وفي قوله ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ قال : معجبين بضلالتهم . وفي قوله ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ قال : هم قوم لوط ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ قال : قوم صالح ، وقوم شعيب ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ قال : قارون ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ قال : قوم نوح ، وفرعون وقومه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ أرسلنا عليه حاصباً ﴾ قال : حجارة .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت ﴾ قال : هذا مثل ضربه الله للمشرك . انه لن يغني عنه إلهه شيئاً من ضعفه وقلة اجزائه ، مثل ضعف بيت العنكبوت .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ قال : ذاك مثل ضربه الله لمن عبد غيره . إن مثله كمثل بيت العنكبوت .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم " العنكبوت شيطان مسخها الله ، فمن وجدها فليقتلها " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن ميسرة قال (العنكبوت) شيطان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : نسجت العنكبوت مرتين . مرة على داود عليه السلام . والثانية على النبي صلى الله عليه وسلم .

(168/597)

وأخرج الخطيب عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " دخلت أنا وأبو بكر الغار ، فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب ، فلا تقتلوهن " .

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)

أخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني ، لأني سمعت الله تعالى يقول ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ يقول : في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ قال : الصلاة فيها ثلاث خلال : الاخلاص ، والخشية ، وذكر الله ، فكل صلاة ليس فيها من هذه الخلال فليس بصلاة . فالاخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس رضي الله عنه أنه كان يقرأها ﴿ إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ فقال " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له " .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً " .

(169/597)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الايمان عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له . وفي لفظ لم يزدد بها من الله إلا بعداً " .

وأخرج الخطيب في رواة مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من صلى صلاة لم تأمره بالمعروف وتَنْهَهُ عن المنكر لم تزده صلاته من الله إلا بعداً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له : إن فلاناً يطيل الصلاة قال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها ، ثم قرأ ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : من لم تأمره الصلاة بالمعروف ، وتنهه عن المنكر ، لم يزدد من الله إلا بعداً .

وأخرج أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال

" جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال : إنه سينهاه ما تقول " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : يا ابن آدم نما الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فإن لم تنهك صلاتك عن الفحشاء والمنكر فإنك لست تصلي .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً " .

(170/597)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عون الأنصاري في قوله ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . . . ﴾ قال : إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حجزتك الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حماد بن أبي سليمان رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ قال : ما دمت فيها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ قال : القرآن الذي يقرأ في المساجد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : ولذكر الله لعباده إذا ذكروه أكبر من ذكرهم إياه .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن ربيعة قال : سألني ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ فقلت : ذكر الله بالتسبيح ، والتهليل ، والتكبير . قال : لا . ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه ، ثم قرأ ﴿ اذكروني أذكركم ﴾ [البقرة : 152] .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد وابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله .

وأخرج ابن السني وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال " ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه " " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عطية رضي الله عنه في قوله ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : هو قوله ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ فذكر الله إياكم أكبر من ذكركم اياه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : لذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد ربه ، في الصلاة وغيرها .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ يقول : لذكر الله إياكم إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم اياه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن جابر قال : سألت أبا قرة عن قوله ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : ذكر الله أكبر من ذكركم إياه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولذكر الله ﴾ عندما حرمه ، وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : ذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال : لا شيء أكبر من ذكر الله .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله . قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع ، لأن الله تعالى يقول في كتابه ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم في الكنى والبيهقي في شعب الإِيمان عن عنترة قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما : أي العمل أفضل ؟ قال : ذكر

الله أكبر ، وما قعد قوم في بيت من بيوت الله يدرسون كتاب الله ويتعاطونه بينهم ، إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها ، وكانوا أضياف الله ما داموا فيه حتى يفيضوا في حديث غيره ، وما سلك رجل طريقاً يلتمس فيه العلم إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم ، وأنماها في درجاتكم ، وخير من أن تلقوا عدوكم ، فيضربوا رقابكم ، وتضربوا رقابهم ، وخير من اعطاء الدنانير والدراهم . قالوا : وما هو يا أبا الدرداء ؟ قال : ذكر الله ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ .

(172/597)

وأخرج ابن جرير والبيهقي عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ وإن صليت فهو من ذكر الله ، وإن صمت فهو من ذكر الله ، وكل خير تعمله فهو من ذكر الله ، وأفضل من ذلك تسبيح الله .

وأخرج ابن جرير عن سلمان رضي الله عنه أنه سئل أي العمل أفضل ؟ قال : أما تقرأ القرآن ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ لا شيء أفضل من ذكر الله . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَلُوطاً ﴾ : كقوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ ﴾ [العنكبوت : 16] .

قوله : " ما سَبَقكم " يجوز أَنْ تكونَ استئنافيةً جواباً لَمَنْ سأل عن ذلك ، وأَنْ تكونَ حاليةً ، أي : مُبْتَدِعين لها .

قوله : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ ﴾ :

تقدَّم نظيرُها . إلاَّ أَنَّ هنا زِيْدَتْ " أَنْ " وهو مطردٌ تأكيداً .

قوله : " إنَّا مُنَجُّوك " في الكافِ وما أشبهها مذهبان : مذهبُ سيبويهِ : أنها في محلِّ جرٍ . فعلى هذا في نَصْبِ " وأهلَكَ " وجهان : إضمارُ فعلٍ ، أو العطفُ على المحلِّ . ومذهبُ الأخفشِ وهشام أنها في محلِّ نصبٍ ، وحُذِفَ التنوينُ والنونُ لشدةِ اتصالِ الضميرِ .

وقد تقدَّمَتْ قراءتا التخفيفِ والتثقيلِ في " لَنُنَجِّيَنَّه " و " مُنَجُّوك " في الحجر .

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34)

وقُرِئ " مُنْزِلون " مخففاً ومشدداً . وقرأ ابن محيصن " رُجْزاً " بضم الراء . والأعمش وأبو

حيوة "يَفْسِقون" بالكسر .

وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

قوله : ﴿ تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً ﴾ : فيه وجهان : أحدُهما : أنَّ بعضَها باقٍ وهو آيةٌ باقيةٌ إلى اليوم . الثاني : أنَّ "مِنْ" مزيدةٌ . وإليه نحا الفراء أي : تَرَكْناها آيةً ، كقوله :

3639- أَمْهَرْتِ مِنْها جُبَّةً وتَيْسا . . . أي : أَمْهَرْتُها . وهذا يجيءُ على رَأْيِ الأخفش .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36)

قوله : ﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾ : أي : وأَرْسَلْنَا ، أو بَعَثْنا إلى مَدْيَنَ أخاهم . و "شُعَيباً" بدلٌ أو بيانٌ أو بإضمار أعني .

(174/597)

قوله : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ ﴾ : نصبٌ بأَهْلَكْنا مقدَّراً ، أو عطفٌ على مفعولِ "فأَخَذْتهم" ، أو على مفعول ﴿ فَتَنَّا ﴾ [العنكبوت : 3] أول السورة وهو قولُ الكسائيِّ وفيه بُعْدٌ كبيرٌ . وتقدَّمَ تنوينُ ثمود وعدمه في هود .

وقرأ ابن وثاب " وعادٍ وثمودٍ " بالخفض عَطْفاً على " مَدْيَنَ " عُطِف لمجرَّد الدلالةِ ، وإنْ لا يَلْزمْ أن يكون " شعيباً " مرسَلاً إليهما . وليس كذلك .

قوله : ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ أي : ما حلَّ بهم . وقرأ الأعمش " مساكنُهم " بالرفع على الفاعلية بحذف " مِنْ " .

قوله : ﴿ وَقَارُونَ ﴾ : عطفٌ على " عاداً وثمودَ " أو على مفعول " فَصَدَّهم " أو بإضمار اذكر .

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

قوله : ﴿ فَكُلاًّ ﴾ : منصوبٌ ب " أَخَذْنا " . و " بذنْبه " أي : بسبب أو مصاحباً لذنبه .

قوله : " مَنْ أَغْرَقْناه " عائدهُ محذوفٌ لأجلِ شِبْهِ الفاصلةِ .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41)

قوله : ﴿ العنكبوت ﴾ : معروفٌ . ونونُه أصليةٌ ، والواوُ والتاءُ مزيدتان ، بدليل قولِهم في الجمعِ : عناكِب ، وفي التصغير عُنَيْكِب . ويُذَكَّر ويُؤنث فمن التأنيثِ : قولُه : " اتَّخَذَتْ "

. ومن التذكير قوله :

3640 على هَطَّالِهم منهمْ بيوتٌ . . . كأنَّ العنكبوتَ هو ابْتَناها

وهذا مُطَّرِدٌ في أسماءِ الأجناس ، تُذَكَّر وتؤنَّث .

(175/597)

قوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ جوابُه محذوفٌ أي : لَمَا اتَّخذوا مَنْ يُضْرَبُ له بهذه الأمثالِ لحقارتِه . ومتعلَّق "يَعْلمون" لا يجوز أَنْ يكونَ مِنْ جنسِ قولِه : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت ﴾ ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يعلمُ ذلك ، وإنما متعلَّقُه مقدرٌ مِنْ جنسِ ما يدلُّ عليه السياقُ . أي : لو كانوا يعلمونَ أنَّ هذا مثلُهم .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42)

قوله : ﴿ مَا يَدْعُونَ ﴾ : قرأ أبو عمرو وعاصم بياء الغيبة ، والباقون بالخطاب . و " ما " يجوز فيها أَنْ تكونَ موصولةً منصوبةً ب "يَعْلَم" أي : يَعْلَم الذين يَدْعُوْنَهم ، ويَعْلَم أحوالهم . و "منْ شيء" مصدرٌ . وأَنْ تكونَ استفهاميةً ، وحينئذٍ يجوز فيها وجهان : أَنْ تكونَ هي وما عَمل فيها معترضاً بين قوله : "يَعْلَمُ" وبين قولِه : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ كأنه قيل : أيَّ شيءٍ يَدْعون مِنْ دونه . والثاني : أن تكونَ معلِّقةً ل "يَعْلَم" ، فتكونَ في موضع نصبٍ

بها ، وإليه ذهب الفارسي ، وأن تكونَ نافيةً و " مِنْ " في " من شيء " مزيدةٌ في المفعول به . كأنه قيل : ما يَدْعُون مِنْ دونه ما يَسْتَحِقُّ أن يُطلق عليه شيء . والوجهُ فيها حينئذٍ : أَنْ تكونَ الجملةُ معترضةً كالأولِ مِنْ وجهَيْ الاستفهامية ، وأن تكونَ مصدريةً . قال أبو البقاء : " وشيء مصدرٌ " . وفي هذا نظرٌ ؛ إذ يصيرُ التقدير : ويعلمُ دعاءَكم مِنْ/ شيءٍ من الدعاء .

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)

قوله : ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ خبر " تلك " و " الأمثالُ " نعتٌ أو بدلٌ أو عطفُ بيانٍ ، وأَنْ [تكونَ] " الأمثالُ " خبراً و " نَضْرِبُها " حال ، وأَنْ تكونَ خبراً ثانياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 19 . 23 ﴾

(176/597)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾

العنكبوب يتخذ لنفسه بيتاً ، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بُعْداً في الخروج منه ؛ فهو

يبني ولكن على نفسه يبني . . . كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يجني .

وبيتُ العنكبوتِ أكثره في الزوايا من الجدران ، كذلك الكافر أمره على التّقيّةِ والكتمان ، وأمَّا المؤمن فظاهِرُ المعاملةِ ، لا ستر ولا يُدْخِمس .

وبيتُ العنكبوت أوهنُ البيوت لأنه بلا أساسٍ ولا جدران ولا سقف ولا يمسك على أَدْوَن دَفْع . . كذلك الكافر ؛ لا أصلَ لشأنه ، ولا أساسَ لبنيانه ، يرى شيئاً ولكن بالتخييل ، فأمَّاً في التحقيق . . فلاَ .

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)

الكلُّ يشتركون في سماع الأمثال ، ولكن لا يصغي إليها مَنْ كان نَفُورَ القلبِ ، كنودَ الحالِ ، متعوداً الكسلَ ، مُعَرَّجاً في أوطان الفَشَلِ .

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

﴿ بِالْحَقِّ ﴾ : أي بالقول الحق والأمر الحق .

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)

أي من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر ، أي على معنى ينبغي للمؤمن أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر ، كقوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : 23] أي ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قُدِّرَ أن واحداً منهم لا يتوكل فلا يخرج به

ذلك عن الإيمان – كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة .

(177/597)

ويقال بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر ؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءٌ فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل ، ولكنه يُصِرّ ولا يطيع تلك الخواطر .

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر . فإن كان – وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها .

ويقال الفحشاء هي الدنيا ، والمنكر هو النّفْس .

ويقال الفحشاء هي المعاصي ، والمنكر هو الحظوظ .

ويقال الفحشاء الأعمال ، والمنكر حسبانُ النجاة بها ، وقيل ملاحظتُه الأعواض عليها ، والسرور والفرح بمدح الناس لها .

ويقال الفحشاء رؤيتها ، والمنكر طلب العِوض عليها .

﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (1) : ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلْق

مُحْدَث .

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأَشياء الأخرى ، لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

ويقال ولذِكْرُ اللَّهِ لَك أكبرُ من ذكرْك له .

ويقال ذكْرهُ لك بالسعادة أكبرُ من ذكْرك له بالعبادة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقى للذاكر معه ذِكْر مخلوق .

ويقال ذكر الله أبر من أن يُبْقى للزّلةِ معلوماً أو مرسوماً .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحدٌ من المخلوقين بغيره .

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبْقَى معه للفحشاء والمنكر سلطاناً ؛ فلِحُرمه ذكره زَلاَّتُ الذاكر مغفورةٌ ، وعيوبه مستورةٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 97. 99 ﴾

---

(1) رأى القشيري فى «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» ، ليس فيه كما يلحظ القارئ تقليل من قيمة الصلاة العادية التي وردت في الآية نفسها ، كما قد يدعى بعض من يتهمون الصوفية بأنهم يرفعون «ذكرهم» ويخفضون قيمة «الصلاة» وبالتالى لأ يأبهون بها - . . وهذا - كما هو واضح - اتهام باطل .

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَلُوطاً ﴾

يعني : وأرسلنا لوطاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص ، ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ على معنى الخبر .

وقرأ أبو عمرو ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ بالمد على معنى الاستفهام ، ﴿ لَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ يعني : المعصية ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال ﴾ واتفقوا في هذا الحرف على لفظ الاستفهام ، واختلفوا في الأول ، فقرأ الذين سميناهم على وجه الإخبار عنهم إنكم تفعلون ، وتكون على وجه التعيير .

وقرأ الباقون الأول على وجه الاستفهام ، فيكون اللفظ لفظ الاستفهام ، والمعنى منه التوبيخ والتقريع ثم قال : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ يعني : تعترضون الطريق لمن مرّ بكم بعملكم الخبيث .

ويقال : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ .

يعني : تأخذون أموالكم ، كانوا يفعلون ذلك ، لكيلا يدخلوا في بلدهم ، ويتناولوا من ثمارهم ، ويقال : تقطعون السبيل النسل ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ يعني : تعملون في مجالسكم المنكر .

وقال بعضهم : يعني به اللواطة كانوا يفعلون ذلك في المجالس بالعلانية .

ويقال : أراد به المعاصي ، وهي الرمي بالبندق الصغير والحذف ، ومضغ العلك ، وحل إزار القباء ، واللعب بالحمام ، وشرب الخمر ، وضرب العود والمزامير ، وغير ذلك من المعاصي .

وروت أم هانىء عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ قال : "كَانُوا يَحْذِفُونَ أَهْلَ الطَّرِيقِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ" ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ بالعذاب ، وإن العذاب نازل بنا ﴿ قَالَ رَبّ انصرنى ﴾ أي أعني ﴿ عَلَى القوم المفسدين ﴾ يعني : المشركين .

(179/597)

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾ يعني : بالبشارة بالولد ﴿ قَالُواْ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية ﴾ يعني : قريات لوط ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ يعني :

كافرين ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ يعني : أتهلكهم وفيهم لوط ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني : قال جبريل عليه السلام : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ يعني : من الباقين في الهلاك ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ يعني : ساء مجيئهم ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ يعني : اغتم بقدومكم ، فلا يدري أيأمرهم بالخروج أم بالنزول .

ويقال : ضاق بهم القلب ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ علينا ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ من العذاب ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ ، و ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ كلاهما بالتخفيف .

وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم كلاهما بالتشديد .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم الأول بالتشديد ، والثاني بالتخفيف ، ومعناهما واحد .

ويقال : أنجيته ونجيته بمعنى واحد ﴿ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين ﴿ مُنزِلُونَ ﴾ بالتشديد .

وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناهما واحد ﴿ رِجْزًا مّنَ السماء ﴾ يعني : أنزلنا عذابنا من السماء ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ يعني : يعصون الله عز وجل .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ﴾ يعني : من قرية لوط ﴿ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ ﴾ يعني : علامة ظاهرة واضحة يعني : هلاكهم علامة ظاهرة ويقال : قرياتهم علامة ظاهرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني : لمن كان له ذهن الإنسانية ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءايَةً ﴾ .

(180/597)

يعني : الحجارة التي أنزلها الله تعالى من السماء على كل واحد منها اسم صاحبها ﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾ يعني : وأرسلنا إلى مدين ﴿ أخاهم شُعَيْباً ﴾ يعني : نبيهم شعيباً ﴿ فَقَالَ يا قوم قَوْمِ اعبدوا الله ﴾ يعني : وحدوا الله وأطيعوه ﴿ وارجوا اليوم الآخر ﴾ يعني : خافوا يوم القيامة ، لأنه آخر الأيام .

ويقال : يوم الموت ، وهو آخر أيامهم ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ يعني : لا تعملوا في الأرض بالمعاصي في نقصان الكيل والوزن ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني : أوعدهم بالعذاب على نقصان الكيل والوزن .

فكذبوه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ يعني : العذاب .

ويقال : الزلزلة ، وأصله الحركة ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ يعني : صاروا في دارهم يعني : في محلتهم ﴿ جاثمين ﴾ يعني : ميتين ، أو يقال : خامدين فصاروا كالرماد .

ويقال : جثم بعضهم على بعض بالموت .

وقال أبو سهل : جاثمين ، أي ساقطين على وجوههم وركبهم .

وقال مقاتل : شبه أرواحهم في أجسادهم ، وهم أحياء بالنار إذا اتقدت ، ثم طفئت ، فبينما هم أحياء إذ صاح بهم جبريل ، فصعقوا أمواتاً أجمعين .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ ﴾ وقال بعضهم : انصرف إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 3] وقال بعضهم : انصرف إلى قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ [الأعراف : 78] يعني : أخذهم العذاب وأخذ عاداً وثموداً .

ويقال : معناه اذكر عاداً وثموداً ، أو يقال : صار نصباً لنزع الخافض ومعناه : وأرسلنا الرسل إلى عاد وثمود .

﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مّن مساكنهم ﴾ يعني : ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم آية في إهلاكهم .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ يعني : ضلالتهم ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ يعني : صرفهم عن الدين ، ويقال : منعهم عن التوحيد .

ويقال : صدّ يصدّ صدّاً إذا منعه وصدّ يصدّ صدوداً إذا امتنع بنفسه وأعرض .

قوله ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ في دينهم وهم يرون أنهم على الحق ، وهم على الباطل .

ويقال : كانوا مستبصرين ، أي : ذوي بصيرة ، ومع ذلك جحدوا .

ثم قال عز وجل ﴿ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان ﴾ يعني : أهلكنا قارون وفرعون وهامان ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ موسى بالبينات ﴾ يعني : بالعلامات والآيات ﴿ فاستكبروا فِى الأرض ﴾ يعني : طغوا فيها ، وتعظموا عن الإيمان ﴿ وَمَا كَانُواْ سابقين ﴾ يعني : بفائتين من عذابنا .

قوله عز وجل : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ يعني : كلهم أهلكناهم بذنوبهم .

ويقال : معناه أهلكنا كلّ واحد منهم بذنبه لا بذنب غيره .

﴿ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ يعني : الحجارة ، وهم قوم لوط .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ يعني : قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهم فرعون وقومه .

وقال العتبي الأخذ أصله باليد ، ثم يستعار في مواضع ، فيكون بمعنى القبول ، كقوله عز وجل ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كتاب وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِى قالوا أَقْرَرْنَا

قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾ [آل عمران : 81] أي قبلتم عهدي ، والأخذ التعذيب ، كقوله ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبّكَ ﴾ وكقوله ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بذَنبِهِ ﴾ يعني : عذبنا ، وكقوله ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والاحزاب مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ برَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : 5] يعني : ليعذبوه ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ يعني : لم يعذبهم من غير جرم منهم .

(182/597)

﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بجرمهم يستوجبون العقوبة .

قوله عز وجل : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ يعني : مثل عبادتهم الأصنام في الضعف ، وقلة نفعهم إياهم .

﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت ﴾ يعني : أضعف البيوت ﴿ لَبَيْتُ العنكبوت ﴾ لأنه لا يغني من حر ولا من برد ولا من مطر وكذلك آلهتهم لا يدفعون عنهم ضرّاً ، ولا يقدرون لهم نفعاً .

ثم قال : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام كذلك ، لأنهم قد علموا أن بيت العنكبوت أوهن البيوت ، ولكن قوله ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ انصرف إلى قوله

: ﴿ اتخذوا ﴾ ، يعني : لا يعلمون أن هذا مثله .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ وهذه كلمة تهديد ، يعني : يعلم بعقوبتهم .

ويقال : إن الله يعلم أن الآلهة لا شفاعة لهم ولا قدرة .

﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ بالنعمة لمن عصاه ﴿ الحكيم ﴾ حكم بالعقوبة على من عبد غيره ، ويقال : حكم أن لا يعبد غيره .

﴿ وَتِلْكَ الامثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ يعني : أمثال آلهتهم نبينها للناس .

﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ يعني : لا يفهمها ويعلمها إلا الموحدون ، ويقال : يعني : العاقلين .

قرأ أبو عمرو وعاصم ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ ﴾ بالياء على لفظ المغايبة .

وقرأ الباقون بالتاء على لفظ المخاطبة ، يعني : قل لهم يا محمد إن الله يعلم ما تدعون من دونه .

ثم قال عز وجل : ﴿ خَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق ﴾ يعني : بالعدل ، ويقال : لبيان الحق ، ولم يخلقها باطلاً .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي : خلق السموات والأرض ﴿ لآيَةً ﴾ يعني : لعبرات ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : المصدقين وإنما أضاف إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

قوله عز وجل : ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ ﴾ يعني : اقرأ عليهم ما أنزل إليك ﴿ مّنَ الكتاب ﴾ يعني : من القرآن .

ويقال : هو أمر بتلاوة القرآن ، يعني : اقرؤوا القرآن ، واعملوا بما فيه .

﴿ اتل مَا ﴾ يعني : وأتمَّ الصلاة ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ يعني : ما دام العبد يصلي لله عز وجل انتهى عن الفحشاء والمنكر والمعاصي .

ويقال : ﴿ اتل مَا ﴾ يعني : وأدِّ الصلاة الفريضة في مواقيتها بركوعها وسجودها والتضرع بعدها ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ﴾ يعني : إذا صلى العبد لله صلاة خاشع يمنعه من المعاصي ، لأنه يرق قلبه ، فلا يميل إلى المعاصي .

وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ لَمْ تَزِدْهُ صَلاتُهُ عِنْدَ اللهِ إلاَّ مَقْتاً " وروي عن الحسن البصري رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتَهُ عَن فَحْشَاءَ وَلاَ مُنْكَرٍ لَمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً " وقال الحسن : إذا لم تنته بصلاتك عن الفحشاء فلست بمُصَلٍ .

ثم قال ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ يعني : أفضل من سائر العبادات .

وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : قراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من صلاة لا يكون فيها كثير القراءة ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب وَأَقِمِ الصلاة إِنَّ الصلاة تنهى ﴾ قال مقاتل : ولذكر الله إياك أفضل من ذكرك إياه بالصلاة ، وقال الكلبي : يقول : ذكره إياكم بالخير أكبر من ذكركم إياه ، والله يذكر من ذكره بالخير .

(184/597)

قال أبو الليث رحمه الله : حدثنا الخليل بن أحمد ، قال : حدثنا الماسرجسي قال : حدثنا إسحاق ، قال : حدثنا جرير ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة ، قال سألني ابن عباس عن قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ فقلت : هو التسبيح والتهليل والتقديس ، فقال : لقد قلت شيئاً عجيباً ، وإنما هو ذكر الله العباد أكثر من ذكر العباد إياه .

وقال قتادة : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : ليس شيء أفضل من ذكر الله .

وسئل سلمان الفارسي أي العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله .

ويقال : ذكر الله أفضل من الاشتغال بغيره .

ويقال : ذكر الله حين كتبكم في اللوح المحفوظ من المسلمين أفضل .

ويقال : ذكر الله عز وجل لك بالمغفرة أفضل من ذكرك إياه .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ ذَكَرَ اللهَ فِي نَفْسِهِ ذَكَرَهُ اللهُ فِي نَفْسِهِ وَمَنْ ذَكَرَهُ فِي مَلإٍ ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَلإٍ أَكْبَرَ مِنَ المَلإِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِيهِمْ وَأَطْيَبَ ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنَ اللهِ شِبْراً تَقَرَّبَ اللهُ مِنْهُ ذِرَاعاً يعني : بإجابته وتوفيقه ورحمته وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلى اللهِ تَعَالَى ذِرَاعاً تَقَرَّبَ اللهُ مِنْهُ باعاً ، وَمَنْ أَتَى اللهَ مَاشِياً أَتَاهُ هَرْوَلَةً "

يعني : بإجابته وتوفيقه .

ثم قال تعالى : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ من الخير والشر فيجازيكم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 636.631 ﴾

(185/597)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلُوطاً ﴾ فاذكر لوطاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ﴾ مجلسكم ﴿ المنكر ﴾ .

حدثنا أبو العباس سهل بن محمد بن سعيد المروزي ، قال : حدثنا جدي لأُمّي أبو الحسن

المحمودي ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة : أنّ بشر بن معاذ العمقدي حدثهم قال : حدثنا يزيد بن زريع قال : حدثنا حاتم بن أبي صغيرة ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن شنبه قال : حدثنا عمير بن مرداس الدونقي ، قال : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي ، قال : حدثنا يحيى بن أبي الحجاج أبو أيوب البصري قال : حدثنا أبو يونس حاتم بن أبي صغيرة ، عن سماك بن حرب ، عن أبي مولى أم هانيء ، عن أم هانيء بنت أبي طالب قالت : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله سبحانه : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ قلت : ما المنكر الذي كانوا يأتون ؟ قال : "كانوا يخذفون أهل الطرق ويسخرون بهم " .

وأخبرني الحسين بن محمد بن الحسين ، قال : حدثنا موسى بن محمد ، قال : حدثنا الحسن بن علوية ، قال : حدثنا إسماعيل بن عيسى ، قال : حدثنا المسيب ، قال : سمعت زياد بن أبي زياد يحدّث عن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كلّ رجل منهم قصعة فيها حصى ، فإذا مر بهم عابر سبيل قذفوه ، فأيهم أصابه كان أولى به " وذلك قول الله سبحانه : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إيّاكم والخذف فإنّه لا ينكأ العدو ولا يصيب الصيد ، ولكن يفقأ العين ويكسر السن " .

وأخبرنا الحسين قال : أخبرنا أبو علي بن حنيش المقري قال : حدثني أبو جعفر محمد بن جعفر المقري ، قال : حدثنا إبراهيم بن الحسين الكسائي ، قال : حدثنا هارون بن حاتم ، قال : أخبرنا أبو بكر بن أوس المدني ، عن أبيه ، عن يزيد بن بكر بن دأب ، عن القاسم بن محمد ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ قال : الضراط ، كانوا يتضارطون في مجالسهم ، وقال مجاهد : كان يجامع بعضهم بعضاً في مجالسهم .

أخبرنا أبو جعفر الخلفاني قال : حدثنا أبو العباس التباني قال : حدثنا أبو لبيد السرخسي ، قال : حدثنا الحسن بن عمر بن شفيق ، قال : حدثنا سليمان بن ظريف عن مكحول ، قال : عشرة في هذه الأمة من أخلاق قوم لوط : مضغ العلك ، وتطويق الأصابع بالحناء ، وحل الأزار ، وتنقيص الأصابع والعمامة التي يلف بها على الرأس ، والسلينية ، ورمي الجلاهق ، والصفير ، والخذف ، واللوطية .

(187/597)

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ إنّه نازل بنا وذلك إنّه أوعدهم العذاب ، ﴿ قَالَ ﴾ لوط ﴿ رَبِّ انصرني عَلَى القوم المفسدين ﴾

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى ﴾ من الله سبحانه اسحاق ويعقوب : ﴿ قالوا إِنَّا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية ﴾ يعني قوم لوط ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ * قَالَ ﴾ إبراهيم للرسل : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين * وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً ﴾ وحسب إنهم من الإنس ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين * إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً ﴾ عذاباً ﴿ مِّنَ السمآء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً ﴾ عبرة ظاهرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وهي الخبر عما صنع بهم ، وقال ابن عباس : هي آثار منازلهم الخرباء .

أبو العالية وقتادة : هي الحجارة التي ألقاها الله . مجاهد : الماء الأسود على وجه الأرض

.

(188/597)

﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الأخر ﴾ وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثني ابن شنبه قال : حدثنا أبو حامد المستملي قال : حدثنا محمد بن حاتم الرمني قال : حدثنا محمد بن سلامة الجمحي قال : قال يوسف النحوي : ﴿ وارجوا

اليوم الأخر ﴾ يعني اخشوا ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ في الضلالة ، قال مجاهد وقتادة : ﴿ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ في ضلالهم معجبين بها . الفراء : عقلاء ذوي بصائر . ضحاك ومقاتل والكلبي : حسبوا إنّهم على الهدى والحق وهم على الباطل .

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ موسى بالبينات فاستكبروا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ﴾ فائتين من عذابنا ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا ﴾ عاقبنا ﴿ بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ ريحاً تأتي في الحصباء ، وهي الحصى الصغار ، وهم قوم لوط ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ يعني ثموداً . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ قارون وأصحابه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ فرعون وقومه وقوم نوح .

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني : الأصنام يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً ﴾ لنفسها كيما يكنّها فلم يغن عنها بناؤها شيئاً عند حاجتها إياه ، فكما أنّ بيت العنكبوت لا يدفع عنها برداً ولا حراً كذلك هذه الأوثان لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً .

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ﴾ أضعف ﴿ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال النحاة : العنكبوت مؤنثة التاء التي فيها ، وقد يذكّرها بعض العرب ، أنشد الفراء :

على هطالهم منهم بيوت . . . كأنّ العنكبوت هو ابتناها

وزنته فعللون .

أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدثنا ابن شنبه ، قال : حدثنا أبو حامد المستملي ، قال : حدثنا محمد بن عمران الضبي ، قال : حدثني محمد بن سليمان المكي ، قال : حدثني عبد الله بن ميمون القداح ، قال : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت أبي يقول : قال علي بن أبي طالب : طهّروا بيوتكم من نسيج العنكبوت ، فإنّ تركه في البيوت يورث الفقر ، قال : سمعت علياً يقول : منع الخميرة يورث الفقر .

﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ ﴾ بالياء أهل البصرة واختاره أبو عبيد قال : لذكر الأمم قبلها . واختلف فيها عن عاصم ، غيرهم بالتاء .

﴿ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ العزيز الحكيم * وَتِلْكَ الأمثال ﴾ الأشياء والأوصاف ، والمثل : قول سائر يشبّه حال الثاني بالأول ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ يبيّنها ﴿ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ العالمون ﴾ . أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدثنا ابن مندة قال : حدثنا الحارث بن أبي أسامة قال : حدثنا داود بن المخبر قال : حدثنا عباد بن كثير ، عن أبي جريج ، عن عطاء

وأبي الزبير ، عن جابر أنّ " النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ العالمون ﴾ فقال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه " " .

(190/597)

﴿ خَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب وَأَقِمِ الصلاة إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ قال ابن عمر : تغني . الفراء : أن تنهي عن الفحشاء والمنكر ودليل هذا التأويل قوله : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ﴾ [الإسراء : 110] أي بقراءتك . وقال آخرون : هي الصلاة التي فيها الركوع والسجود . قال ابن مسعود وابن عباس : يقول : في الصلاة : منتهى ومزدجر عن معاصي الله سبحانه وتعالى ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهاه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلاّ بعداً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وإطاعة الصلاة أن تنهي عن الفحشاء والمنكر " .

وروى أبو سفيان عن جابر قال : " قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل ، فقال : " إنّ صلاته لتردعه " " .

وقال أنس بن مالك : "كان فتى من الأنصار يصلي الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلاّ ركبه ، فوصف لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاله ، فقال : " إنّ صلاته تنهاه يوماً ما " ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألم أقل لكم إنّ صلاته تنهاه يوماً ما " " .

وقال ابن عون : معناه أنّ الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها ، وقال أهل المعاني : ينبغي أن تنهاه صلاته كقوله : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران : 97] .

﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ اختلفوا في تأويله ، فقال قوم : معناه ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ ﴾ إياكم أفضل من ذكركم إياه ، وهو قول عبد الله وسلمان ومجاهد وعطية وعكرمة وسعيد بن جبير ، ورواية عبد الله بن ربيعة عن ابن عباس ، وقد روى ذلك مرفوعاً :

(191/597)

أخبرناه الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري ، قال : حدثنا أحمد بن محمد بن إسحاق السني ، قال : حدثني أحمد بن علي بن الحسين ، قال : حدثنا إبراهيم بن أبي داود البزكي ، قال : حدثنا الحسين اللهبني ، قال : حدثنا صالح بن عبد الله بن أبي فروة ، عن إسماعيل بن

إبراهيم بن عقبة ، عن عمّه موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قول الله سبحانه : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : " ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه " .

قالت الحكماء : لأنّ ذكر الله سبحانه للعبد على حدّ الاستغناء ، وذكر العبد إياه على حدّ الافتقار ، ولأنّ ذكره دائم ، وذكر العبد مؤقت ، ولأنّ ذكر العبد بحد رفع أو دفع ضر ، وذكر الله سبحانه إياه للفضل والكرم . وقال ذو النون : لأنّك ذكرته بعد أن ذكرك ، وقال ابن عطاء : لأنّ ذكره لك بلا علة ، وذكرك مشوب بالعلل . أبو بكر الوراق : لأنّ ذكره تعالى للعبد أطلق لسانه بذكره له ، ولأنّ ذكر العبد مخلوق وذكره غير مخلوق . وقال أبو الدرداء وابن زيد وقتادة : معناه ولذكر الله أكبر مما سواه وهو أفضل من كل شيء .

أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن محمد الثقفي الحافظ قال : حدثنا أبو حذيفة أحمد بن محمد بن علي قال : حدثنا زكريا بن يحيى بن يعقوب المقدسي ، قال : حدثنا عيسى بن يونس قال : حدثنا عبد الوارث بن سعيد ، عن جويبر عن الضحاك ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : " ذكر الله على كل حال أحسن وأفضل ، والذكر أن نذكره عند ما حرم ، فندع ما حرم ونذكره عند ما أحل فنأخذ ما أحل " .

وأخبرني الحسين بن محمد قال : حدثنا ابن شنبه قال : حدثنا جعفر بن محمد الفرياني قال : حدثنا إسحاق بن راهويه قال : أخبرنا إسحاق بن سليمان الرازي قال : سمعت موسى بن عبيدة الزيدي يحدث أبي عبد الله القراظ ، عن معاذ بن جبل قال : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نسير بالدف من حمدان إذ استنبه ، فقال : " يا معاذ إن السابقين الذين يستهترون بذكر الله ، من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله سبحانه " .

قال إسحاق بن سليمان : سمعت حريز بن عثمان يحدث ، عن أبي بحرية ، عن معاذ بن جبل ، قال : ما عمل آدمي عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله سبحانه ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : لا ولو ضرب بسيفه ، قال الله سبحانه : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ . وأخبرني الحسين بن محمد ، قال : حدثنا ابن شنبه ، قال : حدثنا جعفر بن محمد الفرياني ، قال : حدثنا يحيى بن عمار المصيصي ، قال : حدثنا أبو أسامة ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح بن أبي غريب ، عن كثير بن مرة الحضرمي ، قال : سمعت أبا الدرداء يقول : ألا أخبركم بخير أعمالكم لكم وأحبها إلى مليككم وأتمها في درجاتكم ، وخير من أن تغزوا عدوكم فتضرب رقابكم وتضربون رقابهم ، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم ، قالوا : وما هو يا أبا الدرداء ؟ قال : ذكر الله ، قال الله سبحانه : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ .

وقيل لسلمان : أي العمل أفضل ؟ قال : أما تقرأ القرآن ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ لا شيء أفضل من ذكر الله سبحانه .

وأنبأني عبد الله بن حامد ، قال : أخبرنا محمد بن يعقوب ، قال : حدثنا حميد بن داود ، قال : حدثني يزيد بن خالد قال : حدثنا عبد الرحمن بن ثابت ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن جبير ابن هبير ، عن مالك بن عامر ، عن معاذ بن جبل قال : " سألت رسول الله " : أي الأعمال أحب إلى الله تعالى ؟

قال صلى الله عليه وسلم : " أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله " " .

(193/597)

وأنبأني عبد الله بن حامد ، قال : أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم ، قال : حدثنا سلمة بن محمد ابن أحمد بن مجاشع الباهلي ، قال : حدثنا خالد بن يزيد العمري ، قال : حدثنا سفيان الثوري ، عن عطاء بن قرة ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلاّ ذكر الله عز وجل وما والاه أو عالم أو متعلم " .

قالت الحكماء : وإنّما كان الذكر أفضل الأشياء لأنّ ثواب الذكر الذكر ، قال الله تعالى :

﴿ فاذكروني أَذْكُرْكُمْ ﴾ ويؤيد هذا ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي بن عبدان ، قال : حدثنا عبد الله بن هشام ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " .

وأخبرنا عبد الله ، قال : أخبرنا علي ، قال : أخبرنا عبد الله بن هاشم ، قال : حدثنا عبد الرحمن ، قال : حدثنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن الأعز أبي مسلم ، قال : أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد إنّهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّه قال : " ما جلس قوم يذكرون الله سبحانه إلاّ حفّت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم فيمن عنده " .

(194/597)

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدثنا ابن شيبة ، قال : حدثنا الفرياني ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شنبه ، قال : حدثنا عبد الله ، عن إسرائيل ، عن السدي ، عن أبي مالك ﴿

وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : ذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة . ابن عون : معناه : الصلاة التي أنت فيها وذكرك الله فيها أكبر مما نهتك عنه الصلاة من الفحشاء والمنكر ، وقال ابن عطاء : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ من أن تبقى معه بالمعصية .

﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 277 . 284 ﴾

(195/597)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (28) ﴾

وَلُوطاً معطوف على إبراهيم ، أو على ما عطف عليه . والْفاحِشَةَ الفعلة البالغة في القبح . وما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة ، كأن قائلا قال : لم كانت فاحشة ؟ فقيل له : لأن أحدا قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازا منها في طباعهم لإفراط قبحها ، حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم وقذر طباعهم . قالوا لم ينز ذكر

على ذكر قبل قوم لوط قط . وقرئ : إنكم ، بغير استفهام في الأوّل دون الثاني : قال أبو عبيدة :

(196/597)

وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء ، ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون وقطع السبيل : عمل قطاع الطريق ، من قتل الأنفس وأخذ الأموال . وقيل : اعتراضهم السابلة بالفاحشة .

وعن الحسن : قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث . والْمُنْكَرَ عن ابن عباس رضى اللّه عنهما هو الخذف بالحصى ، والرمي بالبنادق ، والفرقعة ، ومضغ العلك ، والسواك بين الناس ، وحل الأزرار ، والسباب ، والفحش في المزاح . وعن عائشة رضى اللّه عنها : كانوا يتحابقون «1» .

وقيل السخرية بمن مرّ بهم . وقيل : المجاهرة في ناديهم بذلك العمل ، وكل معصية فإظهارها أقبح من سترها ، ولذلك جاء : من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له . ولا يقال للمجلس : ناد ، إلا ما دام فيه أهله ، فإذا قاموا عنه لم يبق ناديا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما تعدناه من نزول العذاب . كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش

طوعا وكرها ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم ، وقال اللّه تعالى الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب اللّه عليهم ، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 31 إلى 32]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (31) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (32)

بِالْبُشْرى هي البشارة بالولد . والنافلة : وهما إسحاق ويعقوب . وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف . والمعنى الاستقبال . والقرية : سدوم التي قيل فيها : أجور من قاضى سدوم كانُوا ظالِمِينَ معناه أنّ الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة ، وهم عليه مصرون ، وظلمهم : كفرهم وألوان معاصيهم إِنَّ فِيها لُوطاً ليس إخبارا لهم بكونه فيها ، وإنما هو جدال في شأنه ، لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم : اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم ، وأراد بالجدال : إظهار الشفقة عليهم ، وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه ، والتشمر في نصرته وحياطته ، والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر . قال قتادة : لا يرى المؤمن ألا يحوط المؤمن ، ألا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه بِمَنْ فِيها يعنون : نحن أعلم منك

(1) . قوله «كانوا يتحابقون» في الصحاح «الحبق» بالكسر : الردام . وفيه أيضا «الردام» بالضم : الحبق اه ، وهو دور فلينظر حله ، ثم رأيت فيه في مادة «ضرط» الضراط : الردام ، وقد ضرط يضرط ضرطا بكسر الزاء ، مثال : حبق يحبق حبقا اه فالتحابق : المضارطة ، كما عبر النسفي . (ع)

(197/597)

وأخبر بحال لوط وحال قومه ، وامتيازه منهم الامتياز البين ، وأنه لا يستأهل ما يستأهلون ، فخفض على نفسك وهوّن عليك الخطب . وقرئ لَنُنَجِّيَنَّهُ بالتشديد والتخفيف ، وكذلك منجوك .

[سورة العنكبوت (29) : آية 33]

وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (33)

أَنْ صلة أكدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما ، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث «1» ، خيفة عليهم من قومه وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وضاق بشأنهم

وبتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته ، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع : عبارة عن فقد الطاقة ، كما قالوا : رحب الذراع بكذا ، إذا كان مطيقا له ، والأصل فيه أنّ الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع ، فضرب ذلك مثلا في العجز والقدرة .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 34 إلى 35]

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

الرجز والرجس : العذاب ، من قولهم : ارتجز وارتجس إذا اضطرب ، لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب . وقرئ مُنْزِلُونَ مخففا ومشدّدا مِنْها من القرية آيَةً بَيِّنَةً هي آثار منازلهم الخربة . وقيل : بقية الحجارة . وقيل : الماء الأسود على وجه الأرض . وقيل : الخبر عما صنع بهم لِقَوْمٍ متعلق بتركنا أو ببينة .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 36 إلى 37]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37)

وَارْجُوا وافعلوا ما ترجون به العاقبة . فأقيم المسبب مقام السبب . أو أمروا بالرجاء : والمراد : اشتراط ما يسوّغه من الإيمان ، كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط .

وقيل :

هو من الرجاء بمعنى الخوف . والرجفة : الزلزلة الشديدة . وعن الضحاك : صيحة جبريل عليه السلام ، لأنّ القلوب رجفت لها فِي دارِهِمْ في بلدهم وأرضهم . أو في ديارهم ، فاكتفى بالواحد

---

(1) . قوله «من غير ريث» أي بطء . (ع)

لأنه لا يلبس جاثِمِينَ باركين على الركب ميتين .

[سورة العنكبوت (29) : آية 38]

وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)

وَعاداً منصوب بإضمار «أهلكنا» لأن قوله فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ يدل عليه ، لأنه في معنى الإهلاك وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ذلك : يعنى ما وصفه من إهلاكهم مِنْ جهة مَسْكِنِهِمْ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ، وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار ، ولكنهم لم يفعلوا . أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن اللّه تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام ، ولكنهم لجوا حتى هلكوا .

[سورة العنكبوت (29) : آية 39]

وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (39)

سابِقِينَ فائتين ، أدركهم أمر اللّه فلم يفوتوه .

[سورة العنكبوت (29) : آية 40]

فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

الحاصب : لقوم لوط ، وهي ريح عاصف فيها حصباء . وقيل : ملك كان يرميهم .

والصيحة :

لمدين وثمود . والخسف : لقارون . والغرق : لقوم نوح وفرعون .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 41 إلى 42]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42)

الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلا ومعتمدا في دينهم وتولوه من دون اللّه ، بما هو مثل عند

الناس في الوهن وضعف القوّة . وهو نسج العنكبوت . ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ؟ فإن قلت : ما معنى قوله لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ وكل

(199/597)

أحد يعلم وهن بيت العنكبوت ؟ قلت : معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . ووجه آخر : وهو أنه إذا صحّ تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت ، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون . أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز ، فكأنه قال : وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون . ولقائل أن يقول : مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد اللّه ، مثل عنكبوت يتخذ بيتا ، بالإضافة إلى رجل يبنى بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون . قرئ : تدعون ، بالتاء والياء . وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه ، حيث لم يجعل ما يدعونه شيئا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء ، لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلا ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء ، الحكيم الذي لا

يفعل شيئا إلا بحكمة وتدبير.

[سورة العنكبوت (29) : آية 43]

وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ (43)

كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون إنّ ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فلذلك قال وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ أى لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم، لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصوّرها للأفهام، كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن اللّه فعمل بطاعته واجتنب سخطه «1»»:

[سورة العنكبوت (29) : آية 44]

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

بِالْحَقِّ أى بالغرض الصحيح «2» الذي هو حق لا باطل، وهو أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته: ألا ترى إلى قوله إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ونحوه قوله تعالى وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا ثم قال ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(1). أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل والحارث بن أبى أسامة في مسنده عنه من حديث جابر، وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدي: والبغوي، وذكره ابن

الجوزي في الموضوعات .

(2) . قال محمود : «أى بالغرض الصحيح» قال أحمد : لفظة قدرية ومعتقد ردىء قد تقدم إنكاره على القدرية ، ولو كان ما قالوه حقا من حيث المعنى ، لوجب اجتناب هذه العبارة التي لا تليق بالأدب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(200/597)

[سورة العنكبوت (29) : آية 45]

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (45)

الصلاة تكون لطفا في ترك المعاصي ، فكأنها ناهية عنها . فإن قلت : كم من مصل يرتكب ولا تنهاه صلاته ؟ قلت الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب : أن يدخل فيها مقدّما للتوبة النصوح ، متقيا ، لقوله تعالى إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ويصليها خاشعا بالقلب والجوارح ، فقد روى عن حاتم : كأنّ رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوقي ، وأصلى بين الخوف والرجاء ، ثم يحوطها بعد أن يصليها فلا يحبطها ، فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضى

اللّه عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من اللّه إلا بعدا «1» . وعن الحسن رحمه اللّه : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ، وهي وبال عليه . وقيل : من كان مراعيا للصلاة جرّه ذلك إلى أن ينتهى عن السيئات يوما ما ، فقد روى أنه قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إنّ فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل ، فقال «إنّ صلاته لترده» «2» وروى أنّ فتى من الأنصار كان يصلى معه الصلوات ، ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه ، فوصف له فقال «إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب «3» . وعلى كل حال إنّ المراعى للصلاة لا بدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها . وأيضا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، واللفظ لا يقتضى أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها ، كما تقول : إنّ زيدا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير ، وإنما تريد أنّ هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ يريد : وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها

---

(1) . أخرجه الطبراني من رواية العلاء بن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس بهذا موقوفا . ورواه الطبراني وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق ليث عن عطاء عن ابن عباس مرفوعا . وفي الباب عن ابن عمر . أخرجه الدارقطني في غرائب مالك . وفي إسناده محمد بن الحسن البصري . قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به . يروى عن مالك

ما لا أصل له . وأخرجه أحمد في الزهد من قول ابن مسعود . وأخرجه عبد الرزاق والطبري والبيهقي في الشعب من مرسل الحسن

(2) . أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والبزار وأبو يعلى من طريق عيسى بن يونس ووكيع ومجاهد عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة . قال جاء رجل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق .

فقال إن صلاته ستنهاه ورواه البزار من طريق زياد البكائى وأبو يعلى من طريق أبى إسحاق الفزاري كلاهما عن الأعمش عن أبى صالح عن جابر . قال البزار : اختلف فيه عن الأعمش فقيل عنه أيضا عن أبى سفيان عن جابر

(3) . لم أجده

(201/597)

بذكر اللّه كما قال فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وإنما قال : ولذكر اللّه : ليستقلّ بالتعليل ، كأنه قال : وللصلاة أكبر ، لأنها ذكر اللّه . أو ولذكر اللّه عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر ، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما ولذكر اللّه إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ

من الخير والطاعة ، فيثيبكم أحسن الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 457.451 ﴾

(202/597)

وقال ابن جزى :

﴿ وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾

قيل أراد قطع الطرق للسلب والقتل ، وقيل : أراد قطع سبيل النسل بترك النساء وإتيان الرجال ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ﴾ النادي المجلس الذي يجتمع فيه الناس ، والمنكر فعلهم بالرجال ، وقيل : إذايتهم للناس .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى ﴾ الرسل هنا الملائكة والبشرى بشارة إبراهيم بالولد وهو وقوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 101] أو بشارته بنصر سيدنا لوط ، والأول أظهر ﴿ أَهْلِ هذه القرية ﴾ يعني قرية سيدنا لوط ، ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ ليس أخباراً بأنه فيها ، وإنما قصد نجاة سيدنا لوط من العذاب الذي يصيب أهل القرية ، وبراءته من الظلم الذي وصفوه به ، فكأنه قال : كيف تهلكون أهل القرية وفيها لوط ، وكيف تقولون إنهم ظالمون وفيهم لوط ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ قد ذكر وكذلك ﴿ سِيءَ بِهِمْ

﴿ ﴿ رِجْزاً مِّنَ السمآء ﴾ أي عذاباً .

﴿ وارجوا اليوم الأخر ﴾ قيل : الرجاء هنا الخوف ، وقيل : هو على بابه ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض ﴾ يعني نقصهم المكيال والميزان ﴿ الرجفة ﴾ هي الصيحة .

(203/597)

﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ أي آثار مساكنهم باقية تدل على ما أصابهم ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ قيل : معناه لهم بصيرة في كفرهم وإعجاب به ، وقيل : لهم بصيرة في الإيمان ، ولكنهم كفروا عناداً ، وقيل : معنى : مستبصرين عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال ، ولكنه لم يفعلوا ﴿ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ﴾ أي لم يفوتونا ﴿ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ الحاصب الحجارة ، والحاصب أيضاً الريح الشديدة ، ويحتمل عندي أنه أراد به المعنيين ، لأن قوم سيدنا لوط أهلكوا بالحجارة ، وعاد أهلكوا بالريح ، وإن حملناه على المعنى الواحد نقص ذكر الآخر ، وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد في معنيين كقوله : ﴿ إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي ﴾ [الأحزاب : 56] ويقوي ذلك هنا لأن المقصود هنا ذكر عموم أخذ أصناف الكفار ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ يعني ثمود ومدين ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ يعني قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾

يعني قوم نحو وفرعون وقومه .

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً ﴾ شبه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً ، فكان ما اعتمدت عليه العنكبوت في بيتها ليس بشيء فكذلك ما اعتمدت عليه الكفار من آلهتهم ليس بشيء لأنهم لا ينفعون ولا يضرون ﴿ أَوْهَنَ البيوت ﴾ أي أضعفها ﴿ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم .

﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ما موصولة بمعنى الذي مفعولة للفعل الذي قبلها وقيل : هي نافية ، والفعل معلق عنها والمعنى على هذا : لستم تدعون من دون الله شيئاً له بال ، فلا يصلح أن يسمى شيئاً .

﴿ بالحق ﴾ أي بالواجب لا على وجه العبث واللعب .

(204/597)

﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ إذا كان المصلي خاشعاً في صلاته ، متذكراً لعظمة من وقف بين يديه ، حمله ذلك على التوبة من الفحشاء والمنكر ؛ فكأن الصلاة ناهية عن ذلك ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ﴾ قيل : فيه ثلاثة معان ؛ الأول أن المعنى أن الصلاة أكبر من

غيرها من الطاعات ، وسماها بذكر الله ، لأن ذكر الله أعظم ما فيها ، كأنه أشار بذلك إلى تعليل نهيها عن الفحشاء والمنكر ، لأن ذكر الله فيها هو الذي ينهي عن الفحشاء والمنكر : الثاني أن ذكر الله على الدوام أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة ، لأنها في بعض الأوقات دون بعض : الثالث أن ذكر الله أكبر أجراً من الصلاة ومن سائر الطاعات ، كما ورد في الحديث " ألا أنبئكم بخير أعمالكم ؛ قالوا : بلى قال : ذكر الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 116.117 ﴾

(205/597)

وقال الخازن :

قوله ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ﴾

أي الفعلة القبيحة ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ أي لم يفعلها أحد من قبلكم ثم فسر الفاحشة فقال ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ يعني أنكم تقضون الشهوة من الرجال ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ وذلك أنهم كانوا يأتون الفاحشة بمن مر بهم من المسافرين فترك الناس المر بهم لأجل ذلك وقيل معناه تقطعون سبيل النسل بإيثار الرجال على النساء ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ أي مجالسكم والنادي مجلس القوم ومتحدثهم عن أم هانىء بنت أبي

طالب عن النبي صلى الله عليه سلم في قوله وتأتون في ناديكم المنكر قال "كانوا يحذفون أهل الأرض ويسخرون منهم" أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب الحذف هو رمي الحصى بين الأصابع قيل إنهم كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مر بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه قال : أنا أولى به وقيل : إنه كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم وقيل إنهم كانوا يجامعون بعضهم بعضاً في مجالسهم وقيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم وعن عبد الله بن سلام كان يبزق بعضهم على بعض .

وقيل كان أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار والصفير والحذف والرمي بالجلاهق واللوطية ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ أي لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح ﴿ إلا أن قالوا ﴾ أي استهزاء ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ أي إن العذاب نازل بنا .

﴿ قال رب انصرني على القوم المفسدين ﴾ أي بتحقيق قولي إن العذاب نازل بهم .

(206/597)

قوله ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ أي من الله بإسحاق ويعقوب ﴿ قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ أي قوم لوط والقرية سدوم ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين قال ﴾ يعني إبراهيم إشفاقاً على لوط وليعلم حاله ﴿ إن فيها لوطاً قالوا ﴾ أي قالت الملائكة ﴿ نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي من الباقين في العذاب ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم ﴾ أي ظنهم من الإنس فخاف عليهم ومعناه أنه جاءه ما ساءه ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي عجز عن تدبير أمرهم فحزن لذلك ﴿ وقالوا لا تخف ﴾ أي من قومك ﴿ ولا تحزن ﴾ علينا ﴿ إنا منجوك وأهلك ﴾ أي إنا مهلكوهم ومنجوك وأهلك ﴿ إلا امرأتك كانت من الغابرين إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً ﴾ أي عذاباً ﴿ من السماء ﴾ قيل هو الخسف والحصب بالحجارة ﴿ بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها ﴾ أي من قريات لوط ﴿ آية بينة ﴾ أي عبرة ظاهرة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يعني أفلا يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول قال ابن عباس الآية البينة آثار منازلهم الخربة وقيل هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقيل هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض.

(207/597)

قوله تعالى ﴿ وإلى مدين ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين ؛ ومدين اسم رجل وقيل اسم المدينة ؛ فعلى القول الأول يكون المعنى وأرسلنا إلى ذرية مدين وأولاده ؛ وعلى القول الثاني وأرسلنا إلى أهل مدين ﴿ أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخرة ﴾ أي افعلوا فعل من يرجو اليوم الآخر وقيل معناه اخشوا اليوم الآخر وخافوه ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبه فأخذتهم الرجفة ﴾ أي الزلزلة وذلك أن جبريل صاح فرجفت الأرض رجفة ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي باركين على الركب ميتين ﴿ وعاداً وثمود ﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود ﴿ وقد تبين لكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ من مساكنهم ﴾ أي منازلهم بالحجر واليمن ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ أي عبادتهم لغير الله ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ أي عن سبيل الحق ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ أي عقلاء ذوي بصائر .

وقيل كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على هدى وهم على باطل وضلالة والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين ﴿ وقارون وفرعون وهامان ﴾ أي أهلكنا هؤلاء ﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات ﴾ أي بالدلالات الواضحات ﴿ فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴾ أي فائتين من عذابنا ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ وهم قوم لوط رموا بالحصباء وهي الحصى الصغار ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ يعني ثمود ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ يعني قارون وأصحابه ﴿

ومنهم من أغرقنا ﴾ يعني قوم نوح وفرعون وقومه ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ أي بالهلاك ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي بالإشراك .

قوله تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ يعني الأصنام يرجون نصرها ونفعها ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ لنفسها تأوي إليه وإن بيتها في غاية الضعف والوهن لا يدفع عنها حراً ولا برداً فكذلك الأوثان لا تملك لعابدها نفعاً ولا ضراً .

(208/597)

وقيل معنى هذا المثل أن المشرك الذي يعبد الأصنام بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتاً من نسجها بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر فكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت فكذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لأنها لا تضر ولا تنفع ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ أشار إلى ضعفه فإن الريح إذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر فقد صح أن أوهن البيوت لبيت العنكبوت وقد تبين أن دينهم أوهن الأديان ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ﴾ هذا توكيد للمثل وزيادة عليه يعني إن الذي يدعون من دونه

ليس بشيء ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ معناه كيف يجوز للعاقل أن يترك عبادة الله العزيز الحكيم القادر على كل شيء ويشتغل بعبادة من ليس بشيء أصلاً ﴿ وتلك الأمثال ﴾ أي الأشباه يعني أمثال القرآن التي شبه بها أحوال الكفار من هذه الأمة بأحوال كفار الأمم السابقة ﴿ نضربها ﴾ أي نبينها ﴿ للناس ﴾ أي لكفار مكة ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ يعني ما يعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله أن النبي (صلى الله عليه وسلم) تلا هذه الآية .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ قال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه " ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أي للحق وإظهار الحق ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة ﴿ للمؤمنين ﴾ على قدرته وتوحيده .

(209/597)

وقوله تعالى ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ وأقم الصلاة ﴾ فإن قلت : لم أمر بهذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة فقط ؟ قلت لأن العبادة المختصة بالعبد ثلاثة : قلبية وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية وهي العمل

الصالح ، لكن الاعتقاد لا يتكرر فإن اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمراً فبقي الذكر العبادة البدنية وهما ممكنا التكرار فلذلك أمر بهما ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء ﴾ أي ما قبح من الأعمال ﴿ والمنكر ﴾ أي ما لا يعرف في الشرع .

قال ابن مسعود وابن عباس في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم تزده صلاته من الله إلا بعداً .

وقال الحسن وقتادة : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وقيل من داوم على الصلاة جره ذلك إلى ترك المعاصي والسيئات كما روي عن أنس قال : "كان فتى من الأنصار يصلي الصلوات مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم لم يدع من الفواحش شيئاً إلا ركبه فذكر ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال إن صلاته ستنهاه يوماً فلم يلبث أن تاب وحسن حاله " وقيل : معنى الآية أنه ما دام في صلاته فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ومنه قوله : " إن في الصلاة لشغلاً " وقيل أراد بالصلاة القرآن وفيه ضعف لتقدم ذكر القرآن على هذا يكون معناه أن القرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر كما روي عن جابر قال : قال رجل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن رجل يقرأ القرآن الليل كله فإذا أصبح سرق قال ستنهاه قراءته " وفي رواية " أنه قيل يا رسول الله إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال إن صلاته لتردعه " وعلى كل حال فإن المراعي

للصلاة لا بد وأن يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي أنه أفضل الطاعات .

(210/597)

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال بذكر الله " أخرجه الترمذي وله عن أبي سعيد الخدري قال : " إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال الذاكرون الله كثيراً قالوا يا رسول الله والغازي في سبيل الله ؟ فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب في سبيل الله دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة " (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات " يروي المفردون بتشديد الراء وتخفيفها والتشديد أتم يقال فرد الرجل بتشديد الراء إذا تفقه واعتزل الناس وحده مراعياً للأمر والنهي وقيل هم المتخلفون عن الناس بذكر الله لا يخلطون به غيره (خ) عن أبي هريرة

وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده " وروي " أن أعرابياً قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل قال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله " وقال ابن عباس : معنى ولذكر الله أكبر ذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه ويروى ذلك مرفوعاً عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه سلم وقال ابن عطاء ولذكر الله أكبر أي لن تبقى معه معصية ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ يعني لا يخفى عليه شيء من أمركم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 188 .

﴿ 196

(211/597)

وقال النسفى :

﴿ وَلُوطاً ﴾ أي واذكر لوطاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ الفعلة البالغة في القبح وهي اللواطة ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة كأن قائلاً قال : لم كانت فاحشة ؟ فقيل : لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها ، قالوا : لم ينزل ذكر على ذكر قبل قوم لوط

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ بالقتل وأخذ المال كما هو عمل قطاع الطريق ، وقيل : اعتراضهم السابلة بالفاحشة ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ﴾ مجلسكم ولا يقال للمجلس نادٍ إلا ما دام فيه أهله ﴿ المنكر ﴾ أي المضارطة والمجامعة والسباب والفحش في المزاح والحذف بالحصى ومضغ العلك والفرقعة والسواك بين الناس ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب .

﴿ إنكم ﴾ ﴿ أئنكم ﴾ شامي وحفص وهو الموجود في الإمام ، وكل واحدة بهمزتين كوفي غير حفص ﴿ آينكم ﴾ ﴿ آينكم ﴾ بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة : أبو عمرو ﴿ أينكم ﴾ ﴿ أينكم ﴾ بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة : مكي ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد ﴿ قَالَ رَبِّ انصرنى ﴾ بإنزال العذاب ﴿ عَلَى القوم المفسدين ﴾ كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش .

﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾ بالبشارة لإبراهيم بالولد والنافلة يعني إسحق ويعقوب ﴿ قَالُواْ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية ﴾ إضافة ﴿ مهلكوا ﴾ لم تفد تعريفاً لأنها بمعنى الاستقبال .

والقرية سدوم التي قبل فيها أجور من قاضي سدوم وهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السلام .

قالوا : إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم عليه السلام .

﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين ﴾ أي الظلم قد استمر منهم في الأيام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم كفرهم وأنواع معاصيهم

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ أي أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم وهو لوط ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الملائكة ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ ﴾ منك ﴿ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ ﴿ لننجينه ﴾ يعقوب وكوفي غير عاصم ﴿ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ الباقين في العذاب .

ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم بقوله ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ ساءه مجيئهم و "أن" صلة أكدت وجود الفعلين مرتباً أحدهما على الآخر كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل : كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومهم أن يتناولوهم بالفجور ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ مدني وشامي وعلي ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته ، وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا "رحب الذراع" إذا كان مطيقاً ، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع فضرب ذلك

مثلاً في العجز والقدرة وهو نصب على التمييز ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ وبالتخفيف : مكي وكوفي غير حفص ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ الكاف في محل الجر ونصب ﴿ أهلك ﴾ بفعل محذوف أي وننجي أهلك ﴿ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين إِنَّا مُنزِلُونَ ﴾ ﴿ منزّلون ﴾ شامي ﴿ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً ﴾ عذاباً ﴿ مّنَ السماء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ﴾ من القرية ﴿ آيَةً بَيّنَةً ﴾ هي آثار منازلهم الخربة .

وقيل : الماء الأسود على وجه الأرض ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ يتعلق ب ﴿ تركنا ﴾ أو ب ﴿ بينة ﴾ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ .

(213/597)

﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾ وأرسلنا إلى مدين ﴿ أخاهم شُعَيْباً فَقَالَ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾ وافعلوا ما ترجون به الثواب في العاقبة أو خافوه ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ قاصدين الفساد ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ الزلزلة الشديدة أو صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب رجفت بها ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ في بلدهم وأرضهم ﴿ جاثمين ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿ وَعَاداً ﴾ منصوب بإضمار

"أهلكنا" لأن قوله ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك ﴿ وَثَمُودَاْ ﴾ حمزة وحفص وسهل ويعقوب ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ ذلك يعني ما وصفه من إهلاكهم ﴿ مّن مساكنهم ﴾ من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ، وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ السبيل الذي أمروا بسلوكه هو الإيمان بالله ورسله ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ عقلاء متمكنين من النظر وتمييز الحق من الباطل ولكنهم لم يفعلوا ﴿ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان ﴾ أي وأهلكناهم ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ موسى بالبينات فاستكبروا فِى الأرض وَمَا كَانُواْ سابقين ﴾ فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب ﴿ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ هي ريح عاصف فيها حصباء وهي لقوم لوط ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ هي لمدين وثمود ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ يعني قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ يعني قوم نوح وفرعون ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ليعاقبهم بغير ذنب ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والطغيان .

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ أي آلهة يعني مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً ﴾ أي كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت فإن ذلك بيت لا يدفع عنها الحر والبرد ولا يقي ما تقي البيوت ، فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة ، جعل حاتم ﴿ اتخذت ﴾ حالاً ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت ﴾ لا بيت أوهن من بيتها .

عن عليّ رضي الله عنه : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن .

وقيل : معنى الآية مثل الشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبنى بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون .

وقال الزجاج : في جماعة تقدير الآية : مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ ﴾ بالياء : بصري وعاصم ، وبالتاء : غيرهما غير الأعشى والبرجمي .

و"ما" بمعنى "الذي" وهو مفعول ﴿ يعلم ﴾ ومفعول ﴿ يدعون ﴾ مضمر أي يدعونه يعني يعبدونه ﴿ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ ﴾ "من" في ﴿ من شيء ﴾ للتبيين ﴿ وَهُوَ العزيز

﴿ الغالب الذي لا شريك له ﴿ الحكيم ﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة ، وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير

(215/597)

﴿ وَتِلْكَ الأمثال ﴾ الأمثال نعت والخبر ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ نبينها ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ به وبأسمائه وصفاته أي لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا هم ، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية فقال " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه " ودلت الآية على فضل العلم على العقل .

﴿ خَلَقَ الله السموات والأرض بالحق ﴾ أي محقاً يعني لم يخلقهما باطلاً بل لحكمة وهي أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته ، ألا ترى إلى قوله ﴿ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وخصهم بالذكر لانتفاعهم بها ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه ولتقف على ما أمر به ونهى عنه ﴿ وأقم الصلاة ﴾ أي دم على إقامة الصلاة ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء ﴾ الفعلة القبيحة كالزنا مثلاً ﴿ والمنكر ﴾ هو ما ينكره الشرع والعقل .

قيل : من كان مراعياً للصلاة جره ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما فقد روي أنه قيل يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل .

فقال : " إن صلاته لترده " روي أن فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال " إن صلاته ستنهاه " فلم يلبث أن تاب .

وقال ابن عوف : إن الصلاة تنهى إذا كنت فيها فأنت في معروف وطاعة وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر .

(216/597)

وعن الحسن : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ أي والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وإنما قال (ولذكر الله) ليستقل بالتعليل كأنه قال : والصلاة أكبر لأنها ذكر الله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته .

وقال ابن عطاء : ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له الآن ، لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأماني ، ولأن ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى .

وقال سلمان : ذكر الله أكبر من كل شيء وأفضل فقد قال عليه السلام " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم " قالوا وما ذاك يا رسول الله قال " ذكر الله " وسئل أي الأعمال أفضل قال " أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله " أو ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم ، أو ذكر الله أكبر من تلقى معه معصية ، أو ذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ من الخير والطاعة فيثيبكم أحسن الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 256 . 259 ﴾

(217/597)

وقال البيضاوى :

﴿ وَلُوطاً ﴾ عطف على إبراهيم أو على ما عطف عليه . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

الفاحشة ﴾ الفعلة البالغة في القبح ، وقرأ الحرميان وابن عامر وحفص بهمزة مكسورة على الخبر والباقون على الاستفهام وأجمعوا على الاستفهام في الثاني . ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ استئناف مقرر لفاحشتها من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع وتحاشت عنه النفوس حتى أقدموا عليها لخبث طينتهم .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل ﴾ وتتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة حتى انقطعت الطرق ، أو تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث . ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ﴾ في مجالسكم الغاصة بأهلها ولا يقال للنادى إلا لما فيه أهله . ﴿ المنكر ﴾ كالجماع والضراط وحل الإزار وغيرها من القبائح عدم مبالاة بها . وقيل الحذف ورمي البنادق . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في استقباح ذلك أو في دعوى النبوة المفهومة من التوبيخ .

﴿ قَالَ رَبّ انصرنى ﴾ بإنزال العذاب . ﴿ عَلَى القوم المفسدين ﴾ باتباع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم ، وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إبراهيم بالبشرى ﴾ بالبشارة بالولد والنافلة . ﴿ قَالُواْ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذه القرية ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن المعنى على الاستقبال . ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا

كَانُواْ ظالمين ﴾ تعليل لإِهلاكهم لهم بإصرارهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر وأنواع المعاصي .

(218/597)

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ اعتراض عليهم بأن فيها من لم يظلم ، أو معارضة للموجب بالمانع وهو كون النبي بين أظهرهم . ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ تسليم لقوله مع ادعاء مزيد العلم به وأنهم ما كانوا غافلين عنه ، وجواب عنه بتخصيص الأهل بمن عداه وأهله أو تأقيت الإِهلاك بإخراجهم منها ، وفيه تأخير للبيان عن الخطاب . ﴿ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ الباقين في العذاب أو القرية .

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء ، و﴿ أَن ﴾ صلة لتأكيد الفعلين واتصالهما . ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته كقولهم ضاقت يده وبإزائه رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً له ، وذلك لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع . ﴿ وَقَالُواْ ﴾ لما رأوا فيه أثر الضجرة . ﴿ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ على تمكنهم منا . ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب "لننجينه"

"ومنجوك" بالتخفيف ووافقهم أبو بكر وابن كثير في الثاني ، وموضع الكاف الجر على المختار ونصب ﴿ أَهْلِكَ ﴾ بإضمار فعل أو بالعطف على محلها باعتبار الأصل .

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً مِّنَ السماء ﴾ عذاباً منها سمي بذلك لأنه يقلق المعذب من قولهم ارتجز إذا ارتجس أي اضطرب ، وقرأ ابن عامر "مُنزِّلُونَ" بالتشديد .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءايَةً بَيِّنَةً ﴾ هي حكايتها الشائعة أو آثار الديار الخربة ، وقيل الحجارة الممطرة فإنها كانت باقية بعد وقيل بقية أنهارها المسودة . ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار ، وهو متعلق ب ﴿ تَّرَكْنَا ﴾ أو ﴿ ءايَةً ﴾ .

(219/597)

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً فَقَالَ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾ وافعلوا ما ترجون به ثوابه فأقيم المسبب مقام السبب ، وقيل إنه من الرجاء بمعنى الخوف . ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ الزلزلة الشديدة وقيل صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب ترجف لها . ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ ﴾ في بلدهم أو دورهم ولم يجمع لأمن

اللبس . ﴿ جاثمين ﴾ باركين على الركب ميتين .

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ ﴾ منصوبان بإضمار اذكر أو فعل دل عليه ما قبله مثل أهلكنا ، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب ﴿ وَثَمُودَاْ ﴾ غير منصرف على تأويل القبيلة . ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مّن مساكنهم ﴾ أي تبين لهم بعض مساكنهم ، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ من الكفر والمعاصي . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ السوي الذي بينه الرسل لهم . ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ متمكنين من النظر والاستبصار ولكنهم لم يفعلوا ، أو متبينين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل لهم ولكنهم لجوا حتى هلكوا .

﴿ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان ﴾ معطوف على عاداً وتقديم ﴿ قارون ﴾ لشرف نسبه . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ موسى بالبينات فاستكبروا فِى الأرض وَمَا كَانُواْ سابقين ﴾ فائتين بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه إذا فاته .

(220/597)

﴿ فَكُلاًّ ﴾ من المذكورين . ﴿ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ عاقبناه بذنبه . ﴿ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباء ، أو ملكاً رماهم بها كقوم لوط . ﴿ وَمِنْهُمْ

مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ كمدين وثمود . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ﴾ كقارون . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه . ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من عادته عز وجل . ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالتعرض للعذاب .

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاءَ ﴾ فما اتخذوه معتمداً ومتكلاً . ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً ﴾ فيما نسجته في الوهن والخور بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقة وانتفاعاً ما ، أو مثلهم بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجص ، والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، والتاء فيه كتاء طاغوت ويجمع على عناكيب وعناكب وعكاب وعكبة وأعكب . ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت ﴾ لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه . ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهن من ذلك ، ويجوز أن يكون المراد ببيت العنكبوت دينهم سماه به تحقيقاً للتمثيل فيكون المعنى : وإن أوهن ما يعتمد به في الدين دينهم .

(221/597)

﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله يعلم ، وقرأ البصريان بالياء حملاً على ما قبله و ﴿ مَا ﴾ استفهامية منصوبة ب ﴿ تَدْعُونَ ﴾ و ﴿ يَعْلَمْ ﴾ معلقة عنها و ﴿ مِنْ ﴾ للتبيين أو نافية و ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة و ﴿ شَىْءٍ ﴾ مفعول ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أو مصدرية و ﴿ شَىْءٍ ﴾ مصدر أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول ﴿ تَدْعُونَ ﴾ عائدها المحذوف ، والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل وعلى الأخيرين وعيد لهم . ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ تعليل على المعنيين فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعد شيئاً بمن هذا شأنه ، وأن الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل الغاية كالمعدوم ، وأن من هذا وصفه قادر على مجازاتهم .

﴿ وَتِلْكَ الأمثال ﴾ يعني هذا المثل ونظائره . ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ تقريباً لما بعد من أفهامهم . ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ ولا يعقل حسنها وفائدتها . ﴿ إِلاَّ العالمون ﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية فقال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه "

﴿ خَلَقَ الله السموات والأرض بالحق ﴾ محقاً غير قاصد به باطلاً ، فإن المقصود بالذات من خلقها إفادة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار إليه بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنهم المنتفعون به .

﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتحفظاً لألفاظه واستكشافاً لمعانيه ، فإن القارىء المتأمل قد ينكشف به بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه . ﴿ وَأَقِمِ الصلاة إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ بأن تكون سبباً للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها من حيث إنها تذكر الله وتورث النفس خشية منه . روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ارتكبه ، فوصف له عليه السلام فقال : " إن صلاته ستنهاه " فلم يلبث أن تاب . ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ﴾ وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها به للتعليل بأن اشتمالها على ذكره هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات ، أو لذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته . ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم به أحسن المجازاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 318.314 ﴾

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) ﴾

(224/597)

التفسير : قوله ﴿ وإبراهيم ﴾ منصوب بمضمر وهو " اذكر " . وقوله ﴿ إذ قال ﴾ بدل منه بدل الاشتمال لأن الأحيان تشتمل على ما فيها أي اذكر وقت قوله لقومه ، وجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ نوحاً ﴾ فأورد عليه أن الإرسال قبل الدعوة فكيف يكون وقت الدعوة ظرفاً للإرسال ؟ وأجيب بأن الإرسال أمر ممتد إلى أوان الدعوة أو المراد أرسلناه حين كان صالحاً لأن يقول لقومه اعبدوا الله خصوه بالعبادة واتقوا مخالفته . ﴿ ذلكم ﴾ الإخلاص والتقوى ﴿ خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أما العبادة فلأنها غاية الخضوع فلا تصلح إلا لمن هو في غاية الكمال فضلاً عن الجماد ، وأما اتقاء خلافه فلأن من قدر على إهلاك الماضين فهو قادر على إهلاك الباقين وتعذيبهم إذا عصوه ، فالعاقل من يحذر خلاف القادر . ثم بين بقوله ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾ أن الذي يعبدونه في غاية الخسة لأنه صنم لا روح له ، ولا ظلم أشنع من وضع الأخس موضع الاشرف . وبين بقوله ﴿ وتخلقون افكاً ﴾ أن الذين يزعمون أنها شفعاؤهم عند الله كذب وزور ، ثم ذكرهم أنهم لا

يقدرون على نفع ولا على إيصال رزق أيّ رزق كان . ثم أشار بقوله ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ إلى أن هذه الهبة والرزق الموعود في قوله ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [هود : 6] يجب أن يطلب من الله فقط ، وإذا كان الرزق منه فالشكر يجب أن يكون له . ثم بين بقوله ﴿ إليه ترجعون ﴾ أن المعاقب والمثيب هو وحده فلا رهبة إلا منه ولا رغبة إلا فيه . ثم إن قوله ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ إلى قوله ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ إن كان اعتراضاً خطاباً لكفار قريش فظاهر ، وإن كان تتمة قول إبراهيم فالأمم المتقدمة عليه إما قوم نوح وقوم إدريس وقوم شيث وقوم آدم ، وإما قوم نوح وحده . وعبر عن أمته بالأمم لأنه عاش ألف سنة وأكثر فمضت عليه القرون ، وكان كل قرن يوصون من بعدهم من الأبناء أن يكذبوا نوحاً والبلاغ ذكر المسائل والإبانة وإقامة

(225/597)

البرهان عليه ، وفيه دليل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز وإلا لم يكن البلاغ مبيناً .

(226/597)

وحين بين التوحيد والرسالة شرع في بيان المعاد فإِن هذه الأصول الثلاثة لا تكاد تنفصل في الذكر الإِلهي فقال ﴿ أولم يروا ﴾ أي ألم يعلموا بالبرهان النير القائم مقام الرؤية ﴿ كيف يبدئ الله الخلق ﴾ ثم يعيده . أما إبداء الخلق المطلق فلأن المخلوق لا بد له من خالق أوّل تنتهي إليه سلسلة المخلوقات ، وأما خلق الإنسان بل كيفيته فإنه كالمشاهد المحسوس فإنا نرى النطفة وقعت في الرحم فدارت عليها الأطوار حتى حصلت خلقاً آخر . وأما الإعادة فلأنها أهون في القياس العقلي ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ وحين اشار إلى العلم الحدسي الحاصل من غير طلب أمر نبينا صلى الله عليه وسلم أو حكى إبراهيم قول ربه له ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾ أي إن لم يحصل لكم الحدس المذكور فسيروا في أقطار الأرض وتفكروا في كيفية تكوّن المواليد الثلاثة : المعادن والنبات والحيوان . حتى يفضى بكم النظر إلى العيان ؛ فالآية الأولى إشارة إلى ما هو كالمركوز في الأذهان ولهذا قال بطريق الاستفهام ﴿ أولم يروا ﴾ الآية الثانية أمر بالنظر المؤدي إلى العلم والإيقان على تقدير عدم حضور ذلك البيان والعيان . وإنما قال أوّلاً ﴿ كيف يبدئ ﴾ بلفظ المستقبل وثانياً ﴿ كيف بدأ ﴾ بلفظ الماضي ، لأن العلم الحدسي حاصل في كل حال ، وأما العلم الاستقرائي فلا يفيد اليقين إلا فيما شاهد وتتبع فكأنه قيل : إن لم يحصل لكم العلم بأن الله في كل حال موصوف بالإبداء والإعادة فانظروا في أصناف المخلوقات حتى تعرفوا أنه

كيف بدأها ثم تستدلوا من ذلك على أنه ينشئها النشأة الثانية ، فهذا عطف على المعنى كأنه قال : وانظروا كيف بدأ هذا . وتكلف جار الله فقال : هو معطوف على جملة قوله ﴿ أولم يروا ﴾ كما قال قوله ﴿ ثم يعيده ﴾ إخبار على حياله وليس بمعطوف على ﴿ يبدئ ﴾ ثم في إقامة اسم الله مقام الضمير في قوله ﴿ ثم الله ينشئ النشأة ﴾ إشارة إلى أنه لا يقدر على هذه النشأة إلا المعبود الكامل

(227/597)

الذات المتصف بالعلم والحياة وبسائر نعوت الجلال . وحين ذكر دلائل الأنفس والآفاق صرح بالنتيجة الكلية فقال ﴿ إن الله على كل شيء ﴾ من الإبداء والإعادة ﴿ قدير ﴾ وكذا على التكليف والجزاء تقريره قوله ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ﴾ يقال : قلب فلان في مكانه إذا اردى . وفي الآية لطائف منها : أنه قدم التعذيب على الرحمة مع قوله " سبقت رحمتي غضبي " لأن الآية مسوقة لتهديد المكذبين ومع ذلك لم يخل الكلام عن ذكر الرحمة وإنه يؤكد قوله " سبقت رحمتي غضبي "

ومنها أنه لم يقل يعذب الكافر ويرحم المؤمن إظهاراً للهيبة الإلهية . ومنها أنه قال أوّلا ﴿ وإليه ترجعون ﴾ ثم أعاده ههنا لأن التعذيب والرحمة قد يكونان عاجلين وكأنه قال : وإن

تأخر ثوابكم وعقابكم فإن إلينا إيابكم وعلينا حسابكم وعندنا يدّخر لكم ذلك فلا تظنوا فواته يؤكده قوله ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ وفيه أن الانقلاب إليه لا منه ، وذلك أن الإعجاز إما بالهرب وإما مع الثبات وقد نفى الأول بقوله ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ أي لو هبطتم إلى موضع السمك في الماء أو صعدتم إلى محل السماك في السماء لم تخرجوا من قبضة قدرة الله .

(228/597)

وقدّم الأرض على السماء لأن السماء أبعد وأفسح أي إن هربتم من حكمه وقضائه في الأرض الفسيحة أو في السماء التي هي أفسح منها وأبعد فإنكم لا تفوتون الله ، والمراد لا تعجزونه كيفما هبطتم في أعماق الأرض أو علوتم إلى البروج المشيدة الذاهبة في السماء كقوله ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ [النساء : 78] أو اراد لا تعجزون بلاءه الظاهر في الأرض أو النازل من السماء . وجوّز بعضهم أن يراد وما أنتم بمعجزين من في الأرض ولا في السماء بحذف الموصول ، واقتصر في الشورى على قوله ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ [العنكبوت : 22] لأنه خطاب للمؤمنين . ونفى الثاني بقوله ﴿ وما لكم من دون الله

من ولي ولا نصير ﴾ لأن الركن الشديد الذي يستند إليه إما وليّ يشفع أو ناصر يدفع ، والأول أسهل الطيرقين فلذلك قدم الوليّ على النصير .

(229/597)

ثم خص الوعيد بالكافرين بآياته أي بدلائل الوحدانية وبالكتب والمعجزات . وفي زيادة قوله ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى أن اليأس من الرحمة منحصر فيهم لقوله ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] ونسبة اليأس إليهم إمّا على سبيل الإخبار عن حالهم يوم القيامة ، أو على سبيل وصف الحال ، فإن وصف المؤمن أن يكون راجياً خاشياً ونعت الكافر أن لا يخطر بباله خوف ولا رجاء بل يكون خائفاً كما قيل : الخائن خائف . وجوز في الكشاف أن يكون على طريقة التشبيه كأنه يشبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من رحمة الله . ولعله ذهب إلى هذا التشبه لأن اليأس من رحمة الله متوقف على الاعتراف بالله وبرحمته والكافر غير معترف بواحد من الأمرين . ثم بين بتكرار أولئك في قوله ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أن كل واحد من الوعيدين لا يوجد إلا فيهم وإن كان الوعيدان متلازمين في الحقيقة . ثم حكى أن جواب قوم إبراهيم لم يكن إلا أن قالوا فيما بينهم أو قال واحد ورضي به الباقون ﴿ اقتلوه ﴾ بالسيف ونحوه ﴿ أو حرقوه

﴿ بالنار وهذا ليس جواباً في الحقيقة ولكنه كقولهم " عتابك السيف " .

وفيه بيان جهالتهم أنهم وضعوا الوعيد موضع الائتمار للنصيحة والإذعان للحق . ثم بين أنهم اتفقوا على تحريفه فأنجاه من النار .

(230/597)

والقصة مذكورة في سورة الأنبياء . ﴿ إن في ذلك ﴾ الإنجاء ﴿ لآيات ﴾ جمع الآية لعظم تلك الحالة كقوله ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ [النحل : 120] أو لأنها مشتملة على أحوال عجيبة كالرمي من المنجنيق من غير أن لحق به ضرر ، وكما يروى أن النار أن النار صارت عليه روحاً وريحاناً إلى غير ذلك . وإنما قال في قصة نوح عليه السلام ﴿ وجعلناها آية ﴾ [العنكبوت : 15] ولم يذكر الجعل ههنا لأن الخلاص من مثل تلك النار آية في نفسه ، وأما السفينة فقد جعلها الله آية بأن أحدث الطوفان وصانها عن الغرق ، ويمكن أن يقال : إن الصون عن النار أعجب من الصون عن الماء فلذلك وحد الآية هناك وجمعها ههنا . وإنما قال هناك ﴿ آية للعالمين ﴾ [العنكبوت : 15] وههنا ﴿ لآيات لقوم يؤمنون ﴾ لأن تلك السفينة بقيت أعواماً حتى مرّ عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد . أو نقول : جنس السفينة حصلت بعد ذلك فما بين الناس فكانت آية

للعالمين . وأما تبريد النار فلم يبق من ذلك أثر فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الإيمان به . وههنا لطيفة وهي أن الله تعالى جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم بسبب اهتدائه في نفسه وهدايته لغيره وقال ﴿ قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله سيجعل النار على المؤمن المهتدي برداً وسلاماً . ثم حكى أنه بعد أن خرج من النار عاد إلى النصيحة والدعاء لقومه إلى التوحيد والإخلاص وذلك قوله ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة ﴾ قال جار الله : من قرأ بالنصب بغير إضافة أو بإضافة فعلى وجهين : أحدهما التعليل اي لتتوددوا بينكم وتتواصلوا لاتفاقكم وائتلافكم على عبادتها كما يتفق الناس على مذهب فيكون بينهم نسبة من ذلك .

(231/597)

الوجه الثاني : أن يكون مفعولاً ثانياً على حذف المضاف ، أو على أن المصدر بمعنى المفعول أي اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم واتخذتموها مودودة بينكم . ومن قرأ بالرفع بإضافة أو بغير إضافة فعلى وجهين أيضاً : أن يكون خبراً لأن على أن ما موصولة والتقدير : إن التي اتخذتموها أوثاناً هي سبب مودة بينكم أو مودودة بينكم . وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هي مودودة أو سبب مودة وعلى هذا فالوقف على ﴿ أوثاناً ﴾ حسن كما

مر . ﴿ ثم يوم القيامة ﴾ يقوم بين العبدة وكذا بينهم وبين أوثانهم التباغض والتلاعن نظيره ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ [مريم : 82] والتحقيق فيه أنهم غلبت عليهم الجسمية ولذاتها فلهذا ألفوا الأصنام ولم تقبل عقولهم موجوداً منزهاً عن الأجسام وخواصها ، فلا جرم إذا رفعت الحجب وكشف الغطاء عن عالم الأرواح زالت نسبة الجسمية وظهرت آلالام الروحانية وعذبوا بنار الخسران والحرمان من غير شفعاء ولا أعوان ، فلذلك قال ﴿ ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ وإنما لم يقل ههنا

(232/597)

﴿ وما لكم من دون الله ﴾ [البقرة : 107] لأن الله لا ينصر الكفار من اهل النار . وإنما جمع ههنا لأنه أراد في الأول جنس النصير وههنا أراد نفي الناصرين الذين كان أهل الشرك يزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿ فآمن له لوط ﴾ وكان ابن أخي إبراهيم صدقه حين رأى النار لم تحرقه . قالت العلماء : إن لوطاً آمن برسالة إبراهيم حين رأى المعجزة . وأما بالوحدانية فآمن حين سمع مقالته إذ لو توقف في الإيمان إلى وقت إظهار المعجزة كان نقصاً في مرتبته وقدحاً في نور باطنه ، ألا ترى أن أبا بكر وعلياً أسلما كما عرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام عليهما . ﴿ وقال ﴾ إبراهيم ﴿ إني مهاجر ﴾ من كوثى وهي من

سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى فلسطين ولهذا قالوا : لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان . وكان معه في هجرته امرأته سارة وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة وهاجر معه لوط أيضاً . ومعنى ﴿ إلى ربي ﴾ أي إلى حيث أمر ربي بالهجرة إليه ومثله قوله ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ [الصافات : 99] وعبارة القرآن أدخل في الإخلاص لأن المهاجر إلى حيث أمره الملك قد يهاجر إليه مرة أخرى لغرض نفسه فيصدق أنه مهاجر إلى حيث أمره الملك ولا يصدق أنه مهاجر لأجل الملك ولرضاه . وفي قوله ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ نوع تهديد لقومه وتصويب لما بدا له من الهجرة بأمر الله . قال في الكشاف : إنه هو العزيز الذي يمنعني من أعدائي ، الحكيم الذي لا يأمرني إلا بما هو مصلحتي .

(233/597)

ثم ذكر ما أنعم به عليه من الأولد والأحفاد ، ومن جعل النبوة وجنس الكتاب الإلهي فيهم . وهو التوراة والإنجيل والزبور والفرقان –ولهذا اندرج ذكر إسماعيل في الآية . ولعل السر في عدم ذكر إسماعيل والتصريح بذكره أن الله تعالى جعل الزمان بعد إبراهيم قسمين :

أحدهما زمن إسحاق ويعقوب وذراريهما إلى زمان الفترة ، والآخر من محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم قيام الساعة وهو من ولد إسماعيل فطي ذكر إسماعيل إشارة إلى تأخر

زمان دولته والله أعلم . ثم كرر ذكر النعمة بقوله ﴿ وأتيناه أجره في الدنيا ﴾ قال أهل التحقيق : إن الله تعالى بدل جميع أحوال إبراهيم عليه السلام بأضدادها . لما أراد القوم تعذيبه بالنار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وهاجر فريداً وحيداً فوهب الله له ذرّية طيبة مباركة كما وصفنا ، وكان لا مال له فكثر ماله حتى حصل له من المواشي ما علم الله عدده فقط . يروى أنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس في أعناقها أطواق من ذهب . وكان خاملاً حتى قال قائلهم ﴿ سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 60] فجعل الله له لسان صدق في الآخرين .

(234/597)

اللهم صلى على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم . ثم بين بقوله ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أن تلك النعمة الدنيوية ولذاتها مقرونة بفلاح الآخرة وصلاحها جعلنا الله تعالى ببركته أهلاً لبعض ذلك وهو المستعان . قوله ﴿ ولوطا إذ قال ﴾ إعرابه كإعراب قوله ﴿ وإبراهيم إذ قال ﴾ وقد مر والظاهر أن لوطاً يكون قد أمر قومه بالتوحيد والعبادة أوّلاً ثم نهاهم عن الفاحشة ثانياً . إلا أن الله تعالى قد حكى عنه ما اختص به وبقومه وهو قوله ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ ويحتمل أن يكونوا موحدين إلا

أنهم بسبب الإصرار على الفعلة الشنعاء وتحليلها مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم الناهي عنها صاروا في حكم الكفرة . وإذا كان الزنا فاحشة كما قال ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾ [الإسراء : 32] مع أن الزنا لا يفضي إلى قطع النسل فاللواطة أولى بكونها فاحشة لتماديها في القبح ولإفضائها إلى انقطاع النسل ، ويعلم منه احتياجها إلى الزاجر كالزنا بل أولى ويعلم منه افتقارها إلى الرجم بدليل إمطار الحجارة على أهلها .

ومعنى ﴿ ما سبقكم بها ﴾ أنه لم يأت بمثل هذا الفعل أحد قبلهم أو لم يشتهر به ولم يبالغ فيه أحد وإن ارتكبه بعضهم في الندرة كما يقال : إن فلاناً سبق البخلاء في البخل ، واللئام في اللؤم إذا زاد عليهم . ومعنى ﴿ تقطعون السبيل ﴾ تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء . ويجوز أن يكونوا قطاع الطريق والظاهر يشعر به ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ أي تضمون إلى قبح فعلكم قبح الإظهار . والنادي هو المجلس ما دام فيه الناس . وعن عائشة : كانوا يتجامعون . وعن ابن عباس : هو الحذف ومضغ العلك وحل الإزار والفحش في المزاح والسخرية بمن مر بهم ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ﴾ ولم يهددوه بنحو القتل والتخويف كما في قصة إبراهيم ، لأن إبراهيم كان يقدح في آلهتهم ويشتمهم بتعديد نقائصهم ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع

ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ [مريم : 42] فجعلوا جزاءه شر الجزاء . وأما لوط فكان ينكر عليهم فعلهم فهددوه بالإحراج أوّلاً ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ [النمل : 56] واقترحوا من عذاب الله ثانياً . ويجوز أن يكون على سبيل الاستهزاء فلا جرم ﴿ قال رب انصرني على القوم المفسدين ﴾ كأنه أيس من توبتهم وإنابتهم ومن أن يلدوا تائباً مطيعاً كما قال نوح ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾ [نوح : 27] ولعلهم كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً أو بابتداء الفواحش واقتداء من بعدهم بهم .

والبشرى هي البشارة بالولد ، والنافلة إسحق ويعقوب ، وإضافة ﴿ مهلكو ﴾ إضافة تخفيف لا تعريف لأنه بمعنى الاستقبال أو الحال القريب منه لا الماضي ، ولأن المقصود يتضح بذلك لا بوصف الملائكة لمطلق الإهلاك .

(236/597)

والقرية سذوم . ثم علل الإهلاك بأن الظلم قد استمر فيهم بناء على أن كان للثبوت والاستمرار ، ويحتمل أن يكون للزمان الماضي فإن هذا القدر يكفي للتعليل والزائد عليه لا

تحتاج الملائكة إلى تقريره بخلاف ما في قصة نوح ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ [العنكبوت : 14] فإن ذلك إخبار من الله تعالى ولا يحسن من الكريم أن يعاقب على الجرم السابق إلا بعد تحقق الإصرار والاستمرار . قال بعضهم : إن تعلق ﴿ البشرى ﴾ بهذا الإنذار هو أنه كان في إهلاك قوم لوط إخلاء الأرض من العباد فقدمت البشارة المذكورة المتضمنة لوجود عباد صالحين حتى لا يتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه . ثم إن إبراهيم لما سمع إنذار الملائكة أظهر الإشفاق على لوط والحزن له قائلاً ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم ﴾ منك ﴿ بمن فيها ﴾ وأخبروا بحاله وحال قومه . ومعنى ﴿ من الغابرين ﴾ من الماضين ذكرهم أو ممن يمضي زمانه ويفنى أو من الباقين في المهلكين و ﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ قد مر في " هود " وقال بعضهم : يحتمل أن يكون ضيق الذرع عبارة عن انقباض الروح فعند ذلك تجتمع أعضاء الإنسان وتقل مساحتها . فقالت الملائكة ﴿ لا تخف ﴾ علينا ﴿ ولا تحزن ﴾ بسبب التفكر في أمرنا . وقال أهل البرهان : وإنما قبل ههنا ﴿ ولما أن جاءت ﴾ بزيادة " أن " لأن " لما " تقتضي جواباً وإذا اتصل به " أن " دل على أن الجواب وقع في الحال من غير تراخ في الظاهر كما في هذه السورة وهو قوله ﴿ سيء بهم ﴾ وفي هود اتصل به كلام بعد كلام فطال فلم يحسن دخول " أن " ظاهراً مع أن القصة واحدة . ثم إن الملائكة قالوا للوط ﴿ إنا منجوك ﴾ بلفظ اسم الفاعل وقالوا لإبراهيم عليه السلام ﴿ لننجينه ﴾ بلفظ الفعل لأن ذلك ابتداء الوعد وهذا أوان إنجازه

فأرادوا أن ذلك الوعد حتم واقع منا كقولك : أنا ميت لضرورة وقوعه ووجوده . والرجز العذاب الذي يوقع صاحبه في القلق والاضطراب من قولهم : ارتجز وارتجس إذا اضطرب ، والمراد

(237/597)

الحجارة . وقيل : النار . وقيل : الخسف . وعلى هذا يراد أن الأمر بالخسف والقضاء به من السماء ﴿ ولقد تركنا منها ﴾ أي من القرية ﴿ آية بينة ﴾ هي آثار منازلهم الخربة أو بقية الحجارة أو الماء الأسود أو قصتهم وخبرهم . وقوله ﴿ القوم ﴾ يتعلق ب ﴿ تركنا ﴾ أو ب ﴿ بينة ﴾ ولزيادة قوله ﴿ بينة ﴾ قال ﴿ لقوم يعقلون ﴾ بخلاف قوله في قصة نوح عليه السلام ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ [العنكبوت : 15] لأن الآية لا تتبين إلا لذوي العقول وليس كل من في العالم بذي عقل .

ثم أجمل سائر القصص والرجاء إما على أصله أو بمعنى الخوف . وعلى الأول قال جار الله : اراد افعلوا ما ترجون به العاقبة ، فأقيم المسبب مقام السبب .

أو أمروا الرجاء والمراد اشتراط ما يسوغه من الإيمان كما يؤمر الكافر بالصلاة مثلاً على إرادة الشرط وهو الإسلام . ﴿ فكذبوه ﴾ إنما صح إطلاق التكذيب مع أن ذكره شعيب

أمر ونهي ، والأمر لكونه طلباً لا يحتمل التصديق والتكذيب ، وكذا النهي لأن قول شعيب يتضمن قوله الله واحد والحشر كائن والفساد محرم وكل واحد من هذه خبر . ومعنى الرجفة والصيحة قد مر في " الأعراف " وفي " هود " . وكذا إنه لم قال مع الرجفة في دارهم على التوحيد ، ومع الصيحة في ديارهم على الجمع . ﴿ و ﴾ أهلكنا ﴿ عاداً وثمود وقد تبين لكم ﴾ ذلك الإهلاك ﴿ من ﴾ جهة ﴿ مساكنهم ﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ أي عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال ، وكانوا عارفين بأخبار الرسل أن العذاب نازل بهم ولكنهم لم ينظروا في الدليل ولجوا حتى هلكوا ﴿ وما كانوا سابقين ﴾ أي أدركهم أمر الله فلم يفوتوه .

(238/597)

ثم قرر أمر المذنبين بإجمال آخر يفيد أنهم عذبوا بالعناصر الربعة ، فجعل ما منه تركيبهم سبباً لعدمهم وما منه بقاؤهم سبباً لفنائهم . فالحاصب حجارة محماة تقع على كل واحد منهم فتنفذ من الجانب الآخر وهو إشارة إلى التعذيب بعنصر النار وأنه لقوم لوط . والصيحة وهي تموّج شديد في الهواء لمدين . وثمود . والخسف لقارون والغرق لقوم نوح وفرعون ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ بالإهلاك ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

بالإشراك وقال بعض أهل العرفان : وما كان الله ليضعهم في غير موضعهم فإن موضعهم الكرامة ولكنهم وضعوا أنفسهم مع شرفها في عبادة الوثن الذي هو في غاية الخسة فلذلك ضرب لهم المثل بالعنكبوت ونسجه الذي هو عند الناس في غاية الوهن والضعف . فإن كان تشبيهاً مركباً فظاهر ، وإن كان مفرقاً فالمشرك كالعنكبوت واتخاذه الصنم معبوداً وملجاً كاتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً فإنه يصير سبباً لهلاكه ولتنظيف البيت منه كعابد الوثن يقع في النار بسبب عبادته .

(239/597)

وفيه أن العنكبوت كما أنه يصطاد بسبب نسجه الذباب ولكنه لا بقاء له ويتلاشى بأدنى سبب كذلك الكافر يستفيد بشركه ما هو أقل من جناح بعوضة وهو بعض متاع الدنيا ولكنه كعمله يصير آخر الأمر هباء منثوراً . ثم عرض على العقول صحة المثل المضروب قائلاً ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ بأنه لا يصلح للبقاء ولا للاتسدفاء ولا للاستظلال ولا للاستكنان والنسج في نفسه إن فرض له فائدة كما أن الصنم في نفسه يمكن أن ينتفع به ولكن اتخاذ النسج بتاً لا شك انه غير مفيد بل مضر كما مر فكذلك عبادة الصنم . ثم قال ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ فحذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب أي لو

كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأمر دينهم لتابوا وندموا ، ولو كانوا يعلمون صحة هذا التشبيه وقد صح أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً العنكبوت . فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً . وصاحب الكشاف علق هذا الشرط بما قبله وليس بذاك وقد مر في الوقوف والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 378 . 385 ﴾

(240/597)

وقال الخطيب الشربينى :

وفي إعراب قوله تعالى : ﴿ ولوطاً ﴾ ما تقدّم في إعراب نصب إبراهيم ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قال لقومه ﴾ أهل سدوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع إليهم فصاروا قومه حين فارق عمه الخليل إبراهيم عليهما السلام منكراً ما رأى من حالهم وقبيح فعالهم مؤكداً له ﴿ أئنكم لتأتون الفاحشة ﴾ وهي أدبار الرجال المجاوزة للحدّ في القبح فكأنها لذلك لا فاحشة غيرها ثم علل كونها فاحشة استئنافاً بقوله : ﴿ ما سبقكم بها ﴾ وهي حالة مبينة لعظيم جراءتهم على المنكر أي : غير مسبوقين به وأغرق في النفي بقوله : ﴿ من

أحد ﴾ وزاد بقوله : ﴿ من العالمين ﴾ أي : كلهم من الأنس والجنّ أي : فضلاً عن خصوص الناس ثم كرّر الإنكار تأكيداً التجاوز قبحها الذي ينكرونه بقوله:

(241/597)

﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ إتيان الشهوة وعطف عليها ما ضموه إليها من المناكر بقوله ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ أي : طريق المارّة بالقتل وأخذ المال بفعلكم الفاحشة بمن يمرّ بكم فترك الناس الممرّ بكم أو تقطعون سبيل النساء بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ أي : تفعلون في متحدّثكم فعل الفاحشة بعضكم ببعض وهو مما تنكره الشرائع والمروءآت والعقول وأنتم لا تتحاشون عن شيء منه في المجتمع الذي يتحاشى فيه الإنسان من فعل خلاف الأولى من غير أن يستحي بعضكم من بعض ، قال ابن عباس : المنكر هو الحذف بالحصا والرمي بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحلّ الأزار والسباب والتضارط في مجالسهم والفحش والمزاح ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها كانوا يتحابقون ، وقيل : السخرية بمن يمرّ بهم ، وقيل المجاهرة في ناديهم بذلك العمل وكل معصية فإظهارها أقبح من سترها ، ولذلك جاء "من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له" ولا يقال للمجلس نادياً إلا ما دام فيه أهله فإذا قاموا عنه لم يسمّ نادياً ،

وعن مكحول في أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحلّ الإزار والصفير والحذف واللوطية ، ودلّ على عنادهم بقوله تعالى مسبباً عن هذه الفضائح بالنهي عن تلك القبائح ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ أي : الذين فيهم قوّة ونجدة بحيث يخشى شرّهم ويتقى أذاهم لما أنكر عليهم ما أنكر ﴿ إلا أن قالوا ﴾ عناداً وجهلاً واستهزاءً ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ وعبروا بالاسم الأعظم زيادة في الجراءة ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ أي : في استقباح ذلك وأنّ العذاب نازل بفاعليه ، فإن قيل : قال قوم إبراهيم عليه السلام اقتلوه أو حرّقوه وقال قوم لوط : ﴿ ائتنا بعذاب الله إنّ كنت من الصادقين ﴾ وما هدّدوه مع أنّ إبراهيم كان أعظم من لوط فإنّ لوطاً كان من قومه ؟

(242/597)

أجيب : بأنّ إبراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم ويعدّد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يغني والسب في الدين صعب

فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرّم وهم ما كانوا يقولون إن هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم كلام إبراهيم فقالوا له : إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه فإن كنت صادقاً

فائتنا بالعذاب ، فإن قيل : إنّ الله تعالى قال في موضع آخر .

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ (النمل ،) وقال هنا :

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ﴾ فكيف الجمع ؟

أجيب : بأنّ لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد مكرّراً على النهي والوعيد فقالوا أولاً : ائتنا ، ثم لما كثر ذلك منه ولم يسكت عنهم قالوا : أخرجوا ولما أيس منهم طلب النصرة من الله بأن .

﴿ قال ﴾ أي : لوط عليه السلام معرضاً عنهم مقبلاً بكليته على المحسن إليه ﴿ رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ انصرني على القوم ﴾ أي : الذين فيهم من القوّة ما لا طاقة لي بهم معه ﴿ المفسدين ﴾ أي : العاصين بإتيان الرجال ووصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب ولما دعا لوط على قومه بقوله رب إلى آخره استجاب الله تعالى دعاءه وأمر ملائكته بإهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين كما قال تعالى:

﴿ ولما جاءت ﴾ وأسقط أن لأنه لم يتصل القول بأوّل المجيء بل كان قبله السلام والضيافة وعظم الرسل بقوله تعالى : ﴿ رسلنا ﴾ أي : من الملائكة تعظيماً لهم في أنفسهم

﴿ إبراهيم بالبشرى ﴾ أي : بإسحاق ولداً له ويعقوب ولداً لإسحاق عليهما السلام .

﴿ قالوا ﴾ أي : الرسل عليهم السلام لإبراهيم عليه السلام بعد أن بشروه وتوجهوا نحو سدوم ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ أي : قرية سدوم ، والإضافة لفظية لأنّ المعنى على الاستقبال ، ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إنّ أهلها كانوا ظالمين ﴾ أي : غريقين في هذا الوصف فلا حيلة في رجوعهم عنه ، فإن قيل قال تعالى في قوم نوح : ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ (العنكبوت ،) ففي ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وهنا قال : ﴿ إنّ أهلها كانوا ظالمين ﴾ ولم يقل وهم ظالمون ؟ أجيب : بأنه لا فرق في الموضعين في كونهما مهلكين وهم مصرون على الظلم لكن هناك الإخبار من الله تعالى عن الماضي حيث قال فأخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون وههنا الإخبار من الملائكة عن المستقبل حيث قالوا : ﴿ إنا مهلكوا ﴾ فذكروا ما أمروا به فإنّ الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب ، وهم كانوا ظالمين في وقت الأمر وكونهم يبقون كذلك لا علم لهم به ، ولما قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام ذلك ﴿ قال ﴾ لهم مؤكداً تنبيهاً على حالة ابن أخيه ﴿ إنّ فيها لوطاً ﴾ ولم يقل عليه السلام إن منهم لوطاً لأنه نزيل عندهم فلذا جاء بالتصريح بالسؤال عنه ﴿ قالوا ﴾ أي : الرسل عليهم السلام له : ﴿ نحن أعلم ﴾ منك ﴿ بمن فيها ﴾ أي : من لوط وغيره ﴿ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي : الباقين في العذاب وهم الفجرة لتعم وجهها معهم الغبرة ، وقرأ

حمزة والكسائي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم بعدها ، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم بعدها .

(244/597)

﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً ﴾ أي : المعظمون بنا ﴿ سيء ﴾ أي : حصلت له المساءة والغم ﴿ بهم ﴾ أي : بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء لما رأى من حسن أشكالهم وهو يظنّ أنهم من الناس لأنهم جاؤوا من عند إبراهيم عليه السلام إليه على صورة البشر ، روي أنهم كانوا يجلسون مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصاً فإذا مرّ بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه كان أولى به ، قيل : إنه كان يأخذه معه وينكحه ويغرّمه ثلاثة دراهم ولهم قاض بذلك ، ولهذا يقال : أجور من قاضي سدوم .

﴿ وضاق ﴾ أي : بأعمال الحيلة في الدفع عنهم ﴿ بهم ذرعاً ﴾ أي : ذرعه أي : طاقته والأصل في ذلك أنّ من طالت ذراعه نال ما لا يناله قصيرها يضرب مثلاً في العجز والقدرة ، ولما رأوه على هذه الحالة خفضوا عليه ﴿ قالوا ﴾ له ﴿ لا تخف ﴾ إنا رسل ربك لإهلاكهم ﴿ ولا تحزن ﴾ أي : على تمكنهم منا أو على أحد ممن يهلك فإنه ليس في أحد منهم خير يؤسف عليه بسببه فإنهم وصلوا في الخبث إلى حدّ لا مطمع في الرجوع عنه مع

ملازمته لدعائهم من غير ملل ولا ضجر ، ثم عللوا ذلك بقولهم مبالغين في التأكيد : ﴿ إنا منجوك ﴾ أي : مبالغون في إنجائك وقولهم : ﴿ وأهلك ﴾ منصوب على محل الكاف ﴿ إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ فإن قيل : القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها ذلك فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ .

أجيب : بأنّ الدال على الشرّ كفاعله كما أنّ الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت كأحدهم ، فإن قيل ما مناسبة قولهم إنا منجوك لقولهم لا تخف ولا تحزن فإنّ خوفه ما كان على نفسه ؟

(245/597)

أجيب : بأنّ لوطاً لما ضاق عليهم وحزن لأجلهم قالوا له : لا تخف أي : علينا ولا تحزن لأجلنا فإنا ملائكة ، ثم قالوا له : يا لوط خفت علينا وحزنت لأجلنا ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك ، وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا إنا منجوك وأهلك ، وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم ثم إنهم بعد بشارة لوط بالتنجية قالوا له: ﴿ إنا منزلون ﴾ أي : لا محالة ﴿ على أهل هذه القرية رجزاً ﴾ أي : عذاباً ﴿ من

السماء ﴾ فهو عظيم وقعه ، شديد صدعه ، واختلف في ذلك الرجز فقيل : حجارة وقيل : نار ، وقيل : خسف ، وعلى هذا يكون المراد أنّ الأمر بالخسف والقضاء به من السماء ، وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاي ، والباقون بسكون النون وتخفيف الزاي ، تنبيه : كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع إبراهيم عليه السلام فقدموا البشارة على إنزال العذاب ثم قالوا إنا منجوك ثم قالوا إنا منزلون ولم يعللوا التنجية فلم يقولوا إنا منجوك لأنك نبيّ أو عابد وعللوا الإهلاك فقالوا : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي : يخرجون في كل وقت من دائرة العقل والحياء كقولهم هناك إنّ أهلها كانوا ظالمين ، ولما كان التقدير ففعلت رسلنا ما وعدوه به من إنجائه وإهلاك جميع قراهم فتركناها كأن لم يسكنها أحد عطف عليه قوله تعالى:

(246/597)

﴿ ولقد تركنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ منها ﴾ أي : من تلك القرى ﴿ آية ﴾ أي : علامة على قدرتنا على كل ما نريد ﴿ بينة ﴾ أي : ظاهرة ، قال ابن عباس : منازلهم الخربة ، وقال قتادة هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الأمة ، وقال مجاهد هو ظهور الماء الأسود على وجه الأرض ، فائدة : اتفق القراء على

إدغام الدال في التاء ، تنبيه : في هذه الآية إشارة إلى غفلة المخاطبين بهذه القصة من العرب وغيرهم وأنه ليس بينهم وبين الهدى إلا تفكرهم في أمرهم مع الانخلاع من الهوى وإنما يكون ذلك ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أي : يتدبرون فعد من لم يستبصر بذلك غير عاقل ، تنبيه : ههنا أسئلة : (الأوّل) كيف جعل الآية في نوح وإبراهيم عليهما السلام بالنجاة فقال : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية ﴾ (العنكبوت ،) وقال : ﴿ فأنجاه الله من النار إنّ في ذلك لآيات ﴾ (العنكبوت ،) وجعل ههنا الهلاك آية ، (الثاني) : ما الحكمة في قوله تعالى في السفينة ﴿ جعلناها آية ﴾ ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة ، (الثالث) : ما الحكمة في قوله تعالى هناك ﴿ للعالمين ﴾ وقال ههنا : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ؟

أجيب عن الأوّل : بأنّ الآية في إبراهيم كانت في النجاة لأنّ في ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما في نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهي وما به النجاة وهو السفينة كان باقياً والغرق لم يبق له بعده أثر محسوس في البلاد فجعل الباقي آية ، وأما ههنا فنجاة لوط لم تكن بأمر يبقى في أثره للحس ، والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الأمر الباقي ههنا البلاد وهناك السفينة .

وههنا لطيفة : وهي أنّ الله تعالى آية قدرته موجودة في الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة وآخر آيات الهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة ، وعن الثاني بأنّ الإنجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأمّا الآية ههنا الخسف وجعل ديارهم المعمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وبزمان دون زمان فهي بينة لا يمكن الجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة أمرها يكون كذلك فيقال له فلو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كانت تحصل لهم النجاة ولو سلط الله تعالى عليهم الريح العاصفة كيف تكون أحوالهم ، وعن الثالث بأنّ السفينة موجودة معلومة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال السفينة يتذكرون بها حالة نوح وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاة منه ولا يثق أحد بمجرّد السفينة بل يكون دائماً مرتجف القلب متضرّعاً إلى الله تعالى طالباً للنجاة ، وأمّا أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من مر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أنّ ذلك من الله تعالى وإراداته بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان دون زمان ، ولما كان شعيب عليه السلام أيضاً قد ابتلي بتكذيب قومه اتبع قصته بقصة لوط بقوله تعالى:

﴿ وإلى مدين ﴾ أي : ولقد أرسلنا أو بعثنا إلى مدين ﴿ أخاهم ﴾ أي : من النسب والبلد ﴿ شعيباً ﴾ ومدين قيل : اسم رجل في الأصل وجهل وله ذرية فاشتهر في القبيلة

كتميم وقيس وغيرهما ، وقيل : اسم ماء نسب القوم إليه فاشتهر في القوم ، قال الرازي : والأوّل كأنه أصح لأنّ الله تعالى أضاف الماء إلى مدين بقوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ (القصص :)

ولو كان اسماً للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية والأصل في الإضافة التغاير والحقيقة ، فإن قيل : قال تعالى في نوح : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ (القصص :)

(248/597)

فقدم نوحاً في الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه ، وكذلك في إبراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولاً وأضاف إليهم أخاهم شعيباً ، فما الحكمة في ذلك ؟ .

أجيب : بأنّ الأصل في الجميع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأنّ الرسل لا تبعث إلى غير معينين وإنما تبعث الرسل إلى قوم محتاجين إلى الرسل فيرسل الله تعالى إليهم من يختاره ، غير أنّ قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاصة ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بنبيهم عليه السلام فقيل قوم نوح وقوم لوط فأمّا قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله قال تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم

هوداً ﴾ ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ ﴿ فقال ﴾ أي : فتسبب عن إرساله وبعثه أن قال : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ أي : الملك الأعلى وحده ولا تشركوا به شيئاً فإنّ العبادة التي فيها شرك ظاهر أو خفي عدم لأنّ الله تعالى أغنى الشركاء فهو لا يقبل إلا ما كان له خالصاً .

فإن قيل : لم يذكر عن لوط عليه السلام أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن شعيب ذلك ؟

(249/597)

أجيب : بأنّ لوطاً كان من قوم إبراهيم وفي زمانه وكان إبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يحتج لوط إلى ذكره وإنما ذكر ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها وإن كان هو أبداً يأمر بالتوحيد إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه في التوحيد ، وأمّا شعيب فكان بعد انقراض ذلك الزمن وذلك القوم فكان هو أصلاً في التوحيد فبدأ به ، ولما كان السياق لإقامة الأدلة على البعث الذي هو من مقاصد السورة قال : ﴿ وأرجوا اليوم الآخر ﴾ أي : وافعلوا ما ترجون به العاقبة فأقيم المسبب مقام السبب ، أو أمروا بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوّغه من الإيمان كما يؤمر

الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط ، وقيل : هو من الرجاء بمعنى الخوف ﴿ ولا تعثوا في الأرض ﴾ حال كونكم ﴿ مفسدين ﴾ أي : متعمدين الفساد ، ولما تسبب عن هذا النصح وتعقبه تكذيبهم تسبب عنه وتعقبه إهلاكهم تحقيقاً لأنّ أهل السيئآت لا يسبقوننا قال تعالى : ﴿ فكذبوه ﴾ في ذلك ، فإن قيل ما حكاه الله تعالى عن شعيب أمر ونهي والأمر لا يكذب ولا يصدق فإنّ من قال لغيره : اعبد الله لا يقال له كذبت ؟

أجيب : بأنّ شعيباً كان يقول الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرّم فلا تقربوه ، وهذه فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبر به ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ أي : الزلزلة الشديدة ، وعن الضحاك صيحة جبريل لأنّ القلوب رجفت بها ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾ أي : في بلدهم أو دورهم فاكتفى بالواحد ولم يجمع لأمن اللبس ﴿ جاثمين ﴾ أي : باركين على الركب ميتين فإن قيل : قال تعالى في الأعراف وههنا : فأخذتهم الرجفة وقال في هود : فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة ؟

أجيب : بأنه لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة لأنّ جبريل لما صاح تزلزلت الأرض من صيحته فرجفت قلوبهم ، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب .

فإن قيل ما الحكمة في أنه تعالى إذا قال فأخذتهم الصيحة قال في ديارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال في دارهم ؟

أجيب : بأنّ المراد من الدار هو الديار والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن اللبس كما مرّ ، وإنما اختلف اللفظ للطيفة وهي أنّ الرجفة هائلة في نفسها فلم تحتج إلى تهويلها ، وأمّا الصيحة فغير هائلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أخذت الزلزلة في الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيئتها ، والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كلامه فلم تحتج إلى معظم لأمرها ، ولما كان معنى ختام قصة مدين فأهلكناهم عطف على ذلك المعنى قوله تعالى:

(251/597)

﴿ وعاداً ﴾ أي : وأهلكنا أيضاً عاداً ﴿ وثموداً ﴾ مع ما كانوا فيه من العتو والتكبر والعلوّ لأنّ من المقاصد العظيمة الدلالة على اتباع بعض هذه الأمم بعضاً في الخير والشرّ على نسق والجري بهم في إهلاك المكذبين وإنجاء المصدقين طبقاً عن طبق ، وقرأ حمزة وحفص في الوصل وثمود بغير تنوين على تأويل القبيلة وفي الوقف بسكون الدال ، والباقون بالتنوين وفي

الوقف بالألف ﴿ وقد تبين لكم ﴾ أي : ما حل بهم من مساكنهم أي : ما وصف من هلاكهم وما كانوا فيه من شدّة الأجسام وسفه الأحلام وعلوّ الاهتمام وتقرب الأذهان وعظم الشأن عند مروركم بتلك المساكن ونظركم إليها في ضربكم في التجارة إلى الشام فصرفوا في الإقبال على الاستمتاع بالعرض الفاني من هذه الدنيا فأملوا بعيداً وبنوا مشيداً ولم يغن عنهم شيء من ذلك شيئاً من أمر الله ﴿ وزين لهم الشيطان ﴾ البعيد من الرحمة ، المحترق باللعنة بقوّة احتياله ومحبوب ضلاله ومحاله ﴿ أعمالهم ﴾ أي : الفاسدة من الكفر والمعاصي فأقبلوا بكليتهم عليها ﴿ فصدّهم ﴾ أي : فتسبب عن ذلك صدّهم ﴿ عن السبيل ﴾ أي : منعهم عن سلوك الطريق الذي لا طريق إلا هو لكونه يوصل إلى النجاة ، وغيره يوصل إلى الهلاك ، ولما كان ذلك ربما ظنّ لفرط غباوتهم قال : ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ أي : معدودين بين الناس من البصراء العقلاء ، ولما كان فرعون ومن ذكر معه من العتوّ بمكان لا يخفى لما أوتوا من القوّة بالأموال والرجال قال:

(252/597)

﴿ وقارون ﴾ أي : وأهلكنا قارون وقومه لأنّ وقوعه في أسباب الهلاك أعجب لكونه من بني إسرائيل ولأنه ابتلي بالمال والعلم فكان ذلك سبب إعجابه فتكبر على موسى وهارون

عليهما السلام فكان ذلك سبب هلاكه ﴿ وفرعون وهامان ﴾ وزيره الذي أوقد له على الطين فباع سعادته ليكونه ذنباً لغيره ﴿ ولقد جاءهم ﴾ من قبل ﴿ موسى بالبينات ﴾ أي : بالحجج الظاهرات التي لم تدع لبساً ﴿ فاستكبروا ﴾ أي : طلبوا أن يكونوا أكبر من كل كبير بأن كانت أفعالهم أفعال من يطلب ذلك ﴿ في الأرض ﴾ بعد مجيء موسى عليه السلام إليهم أكثر مما كانوا قبله ﴿ وما كانوا سابقين ﴾ أي : فائتين بل أدركهم أمر الله ، مِنْ سبق طالبه إذا فاته .

﴿ فكلاً ﴾ أي : فتسبب عن تكذيبهم أنّ كلاً ﴿ أخذنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ بذنبه ﴾ أي : أخذ عقوبة ليعلم أنه لا أحد يعجزنا ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ أي : ريحاً عاصفاً فيها حصباء كقوم لوط وعاد ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ أي : التي تظهر شدتها الريح الحاملة لها الموافقة لقصدها فترجف لعظمتها الأرض كمدين وثمود ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ أي : غيبناه فيها كقارون وجماعته ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ بالغمر في الماء كقوم نوح وفرعون وقومه وعذاب قوم صالح المعدّ في الإغراق والمعدّ في الخسف فتارة يهلك بريح تقذف بالحجارة من السماء كقوم لوط أو من الأرض كعاد ﴿ وما كان الله ﴾ أي : الذي لا شيء من الجلال والكمال إلا له ﴿ ليظلمهم ﴾ أي : فيعذبهم بغير ذنب ﴿ ولكن كانوا أنفسهم ﴾ لا غيرها ﴿ يظلمون ﴾ بارتكاب المعاصي ولم يقبلوا النصح مع هجرهم ، ولا خافوا العقوبة على

ضعفهم ، ولما بين تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلاً وعذب من كذب آجلاً ولم ينفعه معبوده مثل تعالى اتخاذه ذلك معبوداً باتخاذ العنكبوت بيتاً فقال:

ا

(253/597)

﴿ مثل الذين اتخذوا ﴾ أي : تكلفوا أن اتخذوا ﴿ من دون الله ﴾ أي : الذي لا كفء له فرضوا بالدون الذي لا ينفع ولا يضرّ عوضاً عمن لا تكيفه الأوهام والظنون ﴿ أولياء ﴾ ينصرونهم بزعمهم من معبودات وغيرها في الضعف والوهن .

﴿ كمثل العنكبوت ﴾ أي : الدابة المعروفة ذات الأرجل الكثيرة الطوال ﴿ اتخذت بيتاً ﴾ أي : تكلفت أخذه في صنعتها له ليقيها الردى ويحميها البلاء كما تكلف هؤلاء اصطناع أربابهم ليقوهم ويحفظوهم بزعمهم فكان ذلك البيت مع تكلفها في أمره وتعبها الشديد في شأنه في غاية الوهن ﴿ وإن ﴾ أي : والحال إن ﴿ أوهن البيوت ﴾ أي : أضعفها ﴿ لبيت العنكبوت ﴾ لا يدفع عنها حرّاً ولا برداً كذلك الأصنام لا تنفع عابديها ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي : لو كانوا يعلمون أنّ هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ، وأيضاً أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت فقد تبين أنّ دينهم أوهن

الأديان لو كانوا يعلمون أي : لو كان لهم نوع مّا من العلم لانتفعوا به ولعلموا أنّ هذا مثلهم فأبعدوا عن اعتقاد ما هذا مثلهم ، ولقائل أن يقول مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر وكان أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت كذلك الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان ، فإن قيل : لم مثل تعالى باتخاذ العنكبوت ولم يمثل بنسجها ؟

أجيب : بأنّ نسجها فيه فائدة لولاه لما حصلت وهو اصطياد الذباب به من غير أن يفوتها ما هو أعظم منه واتخاذهم الأوثان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ولكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت ، تنبيه : نون العنكبوت أصلية والواو والتاء مزيدتان بدليل جمعة على عناكب وتصغيره عنيكب ويذكر ويؤنث فمن التأنيث قوله تعالى ﴿ اتخذت ﴾ ومن التذكير قول القائل:

*على هطالهم منهم بيوت ** كأن العنكبوت هو ابتناها *

وهذا مطرد في أسماء الأجناس تذكر وتؤنث ، وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص البيوت بضم الباء ، والباقون بكسرها ، ولما كان ضرب المثل بالشيء لا يصح إلا من العالم بذلك الشيء قال الله تعالى:

﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ يعلم ما ﴾ أي : الذي ﴿ يدعون ﴾ أي : يعبدون ﴿ من دونه ﴾ أي : غيره ﴿ من شيء ﴾ أي : سواء كان صنماً أم إنسياً أم جنياً ﴿ وهو العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في صنعه ، وقرأ أبو عمرو وعاصم يدعون بالياء التحتية ، والباقون بالفوقية ، ولما ذكر مثلهم وما تتوقف صحته عليه كان كأنه قيل : على وجه التعظيم : هذا المثل مثلهم فعطف عليه قوله تعالى إشارة إلى أمثال القرآن كلها تعظيماً لها وتنبيهاً على جليل قدرها وعلوّ شأنها .

﴿ وتلك الأمثال ﴾ أي : العالية عن أن تنال بنوع احتيال ، ثم استأنف قوله تعالى ﴿ نضربها ﴾ أي : بما لنا من العظمة بياناً ﴿ للناس ﴾ أي : تصويراً للمعاني المعقولات بصور المحسوسات لعلها تقرب من عقولهم فينتفعوا بها ، وهكذا حال التشبيهات كلها هي طرق إلى إفهام المعاني المحتجبة في الأستار تبرزها وتكشف عنها وتصوّرها ، روي أنّ الكفار قالوا كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام والحشرات كالذباب والبعوض والعنكبوت ؟ فقال الله تعالى مجهلاً لهم : ﴿ وما يعقلها ﴾ أي : حق تعقلها

فينتفع بها ﴿ إلا العالمون ﴾ أي : الذين هيؤا للعلم وجعل طبعاً لهم بما بث في قلوبهم من أنواره وأشرق في صدورهم من أسراره ، فهم يضعون الأشياء مواضعها ، روى الحارث بن أبي أسامة عن جابر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "العالم : الذي عقل عن الله وعمل بطاعته واجتنب سخطه" قال البغويّ : والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأوّل يريد أمثال القرآن التي يشبه بها أحوال كفار هذه الأمّة بأحوال كفار الأمم المتقدّمة ، ولما قدّم تعالى أنه لا معجز له سبحانه ولا ناصر لمن خذله استدل على ذلك بقوله تعالى:

(255/597)

﴿ خلق الله ﴾ أي : الذي لا يدانى في عظمته ﴿ السموات والأرض بالحق ﴾ أي : الأمر الذي يطابقه الواقع ، أو بسبب إثبات الحق وإبطال الباطل ، أو بسبب أنه محق غير قاصد به باطلاً فإنّ المقصود بالذات من خلقهما إفاضة الجود والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ إنّ في ذلك لآية ﴾ أي : دلالة ظاهرة على قدرته تعالى ﴿ للمؤمنين ﴾ وأُختص المؤمنون بذلك لأنهم المنتفعون به ، ثم خاطب تعالى رأس أهل الإيمان بقوله تعالى:

﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب ﴾ أي : القرآن الجامع لكل خير لتعلم أن نوحاً ولوطاً

وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا في إقامة الدلالة ، ولم ينقذوا قومهم من الضلالة ، وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولما أرشد تعالى إلى مفتاح العلم دلّ على قانون العمل بقوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة ﴾ أي : التي هي أحق العبادات ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنّ الصلاة تنهى ﴾ أي : توجد النهي وتجدّده للمواظب على إقامتها بجميع حدودها ﴿ عن الفحشاء ﴾ أي : عن الخصال التي بلغ قبحها ﴿ والمنكر ﴾ وهو ما لا يعرف في الشرع ، فإن قيل : كم من مصلّ يرتكب الفحشاء ؟

أجيب : بأنّ المراد الصلاة التي هي الصلاة عند الله تعالى المستحق بها الثواب بأن يدخل فيها مقدّماً للتوبة النصوح متقياً لقوله تعالى : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ (المائدة ،)

(256/597)

ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح ، فقد روي عن حاتم كأنّ رجليّ على الصراط والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت من فوقي وأصلي بين الخوف والرجاء ، ثم يحوطها بعد أن يصليها ولا يحبطها فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقال ابن مسعود وابن عباس : إن الصلاة تنهى وتزجر عن معاصي الله عز وجل فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى إلا بعداً ، وقال الحسن وقتادة :

من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه ، وقيل من كان مراعياً للصلاة جره ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما ، فقد روي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال : "إن صلاته لتردعه" .

وروي أن فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال : إنّ صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب ، وقال ابن عوف : معنى الآية إن الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها ، وعلى كل حال فإنّ المراعي للصلاة لا بدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها ، وأيضاً فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول : إن زيداً ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكر وإنما تريد أن هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم ، وقيل : المراد بالصلاة القرآن كما قال تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ (الإسراء :)

أي : بقراءتك وأراد به من يقرأ القرآن في الصلاة فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر ، روي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن رجلاً يقرأ القرآن الليل كله ويصبح سارقاً قال ستنهاه قراءته ، ولما كان الناهي في الحقيقة إنما هو ذكر الله أتبع ذلك بقوله تعالى:

﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي : لأنّ ذكر المستحق لكل صفات كمال أكبر من كل شيء فذكر الله تعالى أفضل الطاعات ، قال صلى الله عليه وسلم "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا : وما ذاك يا رسول الله قال : ذكر الله" وسئل صلى الله عليه وسلم أي : العبادة أفضل عند الله درجة يوم القيامة قال : "الذاكرون الله كثيراً ، قالوا يا رسول الله ومن الغازين في سبيل الله فقال : لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكر الله كثيراً أفضل منه درجة" .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على جبل في طريق مكة يقال له جمدان فقال : "سيروا هذا جمدان سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات" أو والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله كما قال تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ (الجمعة :)

وإنما قال ولذكر الله أكبر ليستقلّ بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر لأنها ذكر الله ، وعن ابن عباس : ولذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته ، وقال عطاء : ولذكر الله أكبر من أن يتقى معه معصية .

﴿ والله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة ﴿ يعلم ﴾ أي : في كل وقت ﴿ ما تصنعون ﴾ من

الخير والشرّ فيجازيكم على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 197 . 208 ﴾

(258/597)

وقال القاسمى :

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾

أي : الفعلة المتناهية في القبح : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : لتحاشي الطباع عنها . ثم فصّلها بعد الإجمال ، لزيادة تنفير النفوس منها : ﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ أي : سبيل النسل بإتيان ما ليس بحرث . أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ أي : ما لا يليق من الأقوال والأفعال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

.

(259/597)

﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : الذين يفسدون كل برهان عقلي ونقلي ، وكل حكمة إلهية : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ أي : بالبشارة بالولد والنافلة ، وهم الملائكة . بعثوا لنصر لوط وتبشيره بهلاك قومه : ﴿ قَالُوا ﴾ أي : لإبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ أي : قرية سدوم : ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أي : بتنزيلهم الرجال منزلة النساء ، وقطع السبل ، وفعل المنكر وترك المعروف : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي : الباقين في العذاب أو القرية : ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ أي : المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام : ﴿ لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي : اعترته المساءة بسببهم مخافة أن يقصدوهم : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ أي : ضاق بشأن ذرعه ، أي : طاقته : ﴿ وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ أي : مما يصيبهم من العذاب : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

(260/597)

﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : عذابا عظيما من جهتها : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني قصتها العجيبة ، أو

آثارها الخربة : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أي : توقعوه ، وما سيقع فيه من فنون الأهوال : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي : بالبغي على أهلها ، كنقص المكيال والميزان ، وقطع الطريق على الناس ، فإن عاقبة ذلك الدمار : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أي : الصيحة التي هي منشأ الزلزلة الشديدة : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴾ أي : بلدهم أو منازلهم : ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أي : هلكى ميتين : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أي : عقلاء متمكنين من النظر والافتكار بواسطة الرسل عليهم السلام ، فإنهم أوضحوا السبل ، فلم يكن لهم في ذلك عذر ، ولكنهم لم يفعلوا ، عناداً وكبراً .

(261/597)

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ أي : فائتين الله سبحانه . بل لحقهم عذابه فدمرهم تدميراً . ولذا قال : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ أي : ريحاً عاصفاً ، فيها حصاء ، وهم قوم لوط : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ كمدين وثمود : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا

بِهِ الْأَرْضَ ﴾ كقارون : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : يفعل ما يوجب ذلك ، من البغي والفساد .

(262/597)

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾ أي : تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها ، دافعاً عنها الحرّ والبرد : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ أي : أضعفها : ﴿ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ أي : لأنه لا يحتمل مسّ أدنى الحيوانات وأضعف الرياح . ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد . وهذا مثلهم : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : شيئاً ما . أو إن أولياءهم أوهى [في المطبوع : أوهي] من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم ، وإنه بلغ الغاية فيه ، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنتزعة ، فمدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت في ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد . وعلى هذا فقوله : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ تذييل يعرّف الغرض من التشبيه . وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ إيغال في تجهيلهم . لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة . وإما أن يكون من تشبيه المفرد ، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود . وفي الآية لطائف

بيانية ذكرت في المطولات . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بالياء والتاء في تدعون قراءتان . وما إما استفهامية منصوبة بيدعون ومن الثانية للتبيين . أو نافية ومن مزيدة . وشيء مفعول تدعون أو مصدرية بمعنى الدعوة وشيء مصدر بمعناه أيضاً . أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون عائده المحذوف . والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل . وعلى الآخرين وعيد لهم . أفاده القاضي : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾ يعني هذا المثل ونظائره في التنزيل : ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أي : ليقرب ما بعد من أفهامهم . فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعاني المحتجبة للأفهام : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ أي : يدرك حسنها وفوائدها : ﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

(263/597)

أي : الراسخون في العلم الكاملون فيه . وعن عَمْرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها ، إلا أحزنني . لأني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : محقّاً مراعياً للحكم والمصالح ، مقدساً عن أن يقصد به باطلاً . فالباء للملابسة ، والجار والمجرور حال . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [الدخان :

38] ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي : تقرباً إلى الله تعالى بقراءته ، وتحفظاً لألفاظه ، واستكثاراً لما في تضاعيفه من المعاني . فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه . وتذكيراً للناس ، وحملاً لهم على العمل بما فيه ، من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ أي : تكون سبباً للانتهاء عن ذلك . ففيه تجوز في الإسناد . فإن قلت : كم من مصلّ يرتكب ولا تنهاه صلاته ! قلت : الصلاة التي هي الصلاة عند الله ، المستحق بها الثواب ، أن يدخل فيها مقدماً للتوبة النصوح متقياً ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح . ثم يحوطها بعد أن يصليها ، فلا يحبطها ، فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً .

(264/597)

عن الحسن رحمه الله : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ، وهي وبال عليه . أفاده الزمخشري . وقوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

تَصْنَعُونَ ﴾ قال الزمخشري : أي : وَلَلصلاةُ أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها بذكر الله ، كما قال : ﴿ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : 9] ، وإنما قال : ولذكر الله ليستقل بالتعليل . كأنه قال : وللصَلَاةُ أكبر ، لأنها ذكر الله . أو : ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر ، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما ، أكبر . فكان أولى بأن يَنْهَى من اللطف الذي في الصلاة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولذكر الله إياكم برحمته ، أكبر من ذكركم إياه بطاعته . انتهى . فذكر على الأولين مصدر مضاف للمفعول . وعلى ما بعدهما مضاف للفاعل ، والمفعول محذوف . والمفضل عليه في الأولين غيره من الطاعات . وفي الأخير قوله : من ذكركم .

(265/597)

وقال الرازيّ : لما ذكر تعالى أمرين ، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة ، بيّن ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم ، فقال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وأنتم إذا ذكرتم آبائكم بما فيهم من الصفات الحسنة ، تنبشّون لذلك وتذكرونهم بملء أفواهكم وقلوبكم . لكن ذكر الله أكبر ، فينبغي أن يكون على أبلغ وجه التعظيم . أما الصلاة فكذلك . لأن الله يعلم ما تصنعون . وهذا أحسن صنعكم . فينبغي أن يكون على وجه التعظيم . وفي قوله

: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ مع حذف بيان ما هو أكبر منه ، لطيفة . وهي أن الله لم يقل : أكبر من ذكر فلان ، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة . إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال : هذا الجبل أكبر من هذا الجبل . فأسقط المنسوب كأنه قال : ولذكر الله له الكبر لا لغيره , وهذا كما يقال في الصلاة : الله أكبر أي : له الكبر لا لغيره . انتهى . انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 574. 579 ﴾

(266/597)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) ﴾

انتهى الشوط الأول بالحديث عن سنة الله في ابتلاء الذين يختارون كلمة الإيمان ، وفتنتهم حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين . وقد أشار إلى الفتنة بالأذى ، والفتنة بالقرابة ، والفتنة بالإغواء والإغراء .

وفي هذا الشوط يعرض نماذج من الفتن التي اعترضت دعوة الإيمان في تاريخ البشرية الطويل من لدن نوح عليه السلام . يعرضها ممثلة فيما لقيه الرسل حملة دعوة الله منذ فجر البشرية .

مفصلاً بعض الشيء في قصة إبراهيم ولوط ، مجملاً فيما عداها .

وفي هذا القصص تتمثل ألوان من الفتن ، ومن الصعاب والعقبات في طريق الدعوة .

ففي قصة نوح عليه السلام تتبدى ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة . فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم لم يؤمن له إلا القليل ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ . .

وفي قصة إبراهيم مع قومه يتبدى سوء الجزاء وطغيان الضلال . فقد حاول هداهم ما استطاع ، وجادلهم بالحجة والمنطق : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه ﴾ .

وفي قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة واستعلانها ، وسفورها بلا حياء ولا تحرج ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ ؛ مع الاستهتار بالنذير : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ . .

وفي قصة شعيب مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ .

وتذكر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة .

كما تذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان المال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق .

ويعقب على هذا القصص بمثل يضربه لهوان القوى المرصودة في طريق دعوة الله ، وهي مهما علت واستطالت ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً . وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

وينتهي هذا الشوط بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتلو الكتاب ، وأن يقيم الصلاة ، وأن يدع الأمر بعد ذلك لله ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ . .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ . .

والراجح أن فترة رسالته التي دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلا خمسين عاماً . وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة ، وأعقبتها فترة كذلك بعد النجاة من الطوفان غير محددة . وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الأفراد . ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر في هذا الوجود وهذا وحده برهان صدقه فإذا أردنا له تفسيراً فإننا نستطيع أن نقول : إن عدد البشرية يومذاك كان قليلاً ومحدوداً ، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد طول العمر ، لعمارة الأرض وامتداد الحياة . حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار . وهذه الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الأحياء . فكلما قل العدد وقل النسل طالت الأعمار ، كما في

النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة . حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الأعوام . بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين . والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله :

بغاث الطير أكثرها فراخاً . . . وأم الصقر مقلاة نزور

(268/597)

ومن ثم يطول عمر الصقر . وتقل أعمار بغاث الطير . ولله الحكمة البالغة . وكل شيء عنده بمقدار . ولم تثمر ألف سنة إلا خمسين عاماً غير العدد القليل الذين آمنوا لنوح . وجرف الطوفان الكثرة العظمى وهم ظالمون بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة المديدة ، ونجا العدد القليل من المؤمنين ، وهم أصحاب السفينة . ومضت قصة الطوفان والسفينة ﴿ آية للعالمين ﴾ تحدثهم عن عاقبة الكفر والظلم على مدار القرون .

وبعد قصة نوح يطوي السياق القرون حتى يصل إلى الرسالة الكبرى . رسالة إبراهيم :

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ، وتخلقون إفكاً . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ، واشكروا له ، إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد

كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ . .

لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ؛ وهي مرتبة في عرضها ترتيباً دقيقاً يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات . .

لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها :

﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ . .

ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إليهم ، وما تتضمنه من الخير لهم ، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير :

﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ . .

وفي هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفي الجهل عنهم ، واختيار الخير لأنفسهم . وهو في الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهييج خطابي !

(269/597)

وفي الخطوة الثالثة بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه : أولها أنهم يعبدون من دون الله أوثاناً والوثن : التمثال من الخشب وهي عبادة سخيفة ، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله . . وثانيها : أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل ،

وإنما يخلقون إفكاً وينشئون باطلاً ، يخلقونه خلقاً بلا سابقة أو مقدمة ، وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة . . وثالثها : أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعاً ، ولا ترزقهم شيئاً :

﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾ . .

وفي الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق . الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم :

﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ . .

والرزق مشغلة النفوس ، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان . ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس .

وفي النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم ، ليعبدوه ويشكروه :

﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ . .

وأخيراً يكشف لهم أنه لا مفر من الله ، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين :

﴿ إليه ترجعون ﴾ . .

فإن كذبوا بعد ذلك كله فما أهون ذلك ! فلن يضر الله شيئاً ، ولن يخسر رسوله شيئاً . فقد كذب الكثيرون من قبل ، وما على الرسول إلا واجب التبليغ :

﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ . .

وهكذا يأخذهم خطوة خطوة ، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها ، ويوقع على أوتارها في

دقة عميقة ، وهذه الخطوات تعد نموذجاً لطريقة الدعوة جديراً بأن يتملاه أصحاب كل دعوة ، لينسجوا على منواله في مخاطبة النفوس والقلوب .

وقبل أن يمضي السياق إلى نهاية القصة ، يقف وقفة يخاطب بها كل منكر لدعوة الإيمان بالله على الإطلاق ؛ المكذبين بالرجعة إلى الله والبعث والمآب :

(270/597)

﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي ، وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ . .

إنه خطاب لكل منكر لله ولقائه . خطاب دليله هذا الكون ؛ ومجاله السماء والأرض ؛ على طريقة القرآن في اتخاذ الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله ؛ وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب ، تبحث فيها عن آيات الله ، وترى دلائل وجوده ووحدانيته ، وصدق وعده ووعيده . ومشاهد الكون وظواهره حاضرة أبداً لا تغيب عن إنسان . ولكنها

تفقد جدتها في نفوس الناس بطول الألفة ؛ ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار . فيردهم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الغامرة ، وإلى تلك الآيات الباهرة بتوجيهه الموحي ، المحيي للمشاهد والظواهر في القلوب والضمائر ، ويثير تطلعهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها . ويجعل منها دلائله وبراهينه التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر ، ولا يتخذ طرائق الجدل الذهني البارد والقضايا المنطقية التي لا حياة فيها ولا حركة . . تلك التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه فظلت غريبة عليه ، وفي القرآن المثل والمنهج والطريق . .

﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ؟ ثم يعيده . إن ذلك على الله يسير ﴾ . .

(271/597)

وإنهم ليرون كيف يبدئ الله الخلق . يرونه في النبتة النامية ، وفي البيضة والجنين ، وفي كل ما لم يكن ثم يكون ؛ مما لا تملك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوه أو يدعوا أنهم خالقوه ! وإن سر الحياة وحده لمعجز ، كان وما يزال ؛ معجز في معرفة منشئه وكيف جاء ودع عنك أن يحاوله أحد أو يدعيه ولا تفسير له إلا أنه من صنع الله الذي يبدئ الخلق في كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم ، وهم يرون ولا يملكون الإنكار !

فإذا كانوا يرون إنشاء الخلق بأعينهم ؛ فالذي أنشأه يعيده :

﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ .

.

وليس في خلق الله شيء عسير عليه تعالى . ولكنه يقيس البشر بمقاييسهم . فالإعادة أيسر من البدء في تقديرهم . وإلا فالبدء كالإعادة ، والإعادة كالبدء بالقياس إلى قدرة الله سبحانه . وإنما هو توجه الإرادة وكلمة : كن . فيكون . .

ثم يدعوهم إلى السير في الأرض ، وتتبع صنع الله وآياته في الخلق والإنشاء ، في الجامد والحي سواء ، ليدركوا أن الذي أنشأ يعيد بلا عناء :

﴿ قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؛ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . إن الله على كل شيء قدير ﴾ . .

والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملها القلب . وهي لفتة عميقة إلى حقيقة دقيقة . وإن الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شيء من مشاهده أو عجائبه ؛ حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسه وقلبه إلى كل مشهد ، وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة ، مما كان يمر على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات ولا انتباه . وربما عاد إلى موطنه بحس جديد وروح جديد ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته . وعادت مشاهد موطنه وعجائبها

تنطق له بعد ما كان غافلاً عن حديثها ؛ أو كانت لا تفصح له بشيء ولا تناجيه !

فسبحان منزل هذا القرآن ، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النفوس .

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ . .

(272/597)

إن التعبير هنا بلفظ الماضي ﴿ كيف بدأ الخلق ﴾ بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق . يثير في النفس خاطراً معيناً . . ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى ، وكيفية بدء الخليقة فيها . كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة ؛ كيف نشأت ؟ وكيف انتشرت ؟ وكيف ارتقت ؟ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سر الحياة : ما هي ؟ ومن أين جاءت إلى الأرض ؟ وكيف وجد فيها أول كائن حيّ ؟ ويكون ذلك توجيهاً من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة . .

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر . ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثاً ؛ فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به لو كان ذلك هو المقصود فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم

أمراً آخر داخلاً في مقدورهم ، يحصلون منه على ما ييسر لهم تصور النشأة الآخرة .

ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان . ويكون السير في الأرض كما أسلفنا لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ودعوتها إلى التأمل والتدبر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

وهناك احتمال أهم يتمشى مع طبيعة هذا القرآن ؛ وهو أنه يوجه توجيهاته التي تناسب حياة الناس في أجيالهم جميعاً ، ومستوياتهم جميعاً ، وملابسات حياتهم جميعاً ، ووسائلهم جميعاً . ليأخذ كل منها بما تؤهله له ظروف حياته ومقدراته . ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحياة ونموها أبداً . ومن ثم لا يكون هناك تعارض بين الخاطرين . هذا أقرب وأولى .

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ . .

(273/597)

يبدأ الحياة ويعيدها بهذه القدرة المطلقة التي لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة ، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن ، بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة !

ومن قدرة الله على كل شيء : تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب ؛ لا يعجزه أحد ، ولا يمتنع عليه أحد :

﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء . وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ . .

والعذاب والرحمة يتبعان مشيئة الله ؛ من حيث أنه بين طريق الهدى وطريق الضلال ؛ وخلق للإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك ، ويسر له الطريقين سواء ، وهو بعد ذلك ، وما يختار غير أن اتجاهه إلى الله ورغبته في هداه ، ينتهيان به إلى عون الله له كما كتب على نفسه وإعراضه عن دلائل الهدى وصده عنها يؤديان به إلى الانقطاع والضلال . ومن ثم تكون الرحمة ويكون العذاب .

﴿ وإليه تقلبون ﴾ . .

تعبير عن المآب فيه عنف ، يناسب المعنى بعده :

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ . .

فليس لكم من قوة في هذا الوجود تمتنعون بها من الانقلاب إلى الله . لا من قوتكم في الأرض ، ولا من قوة ما تعبدونه أحياناً من الملائكة والجن وتحسبون له قوة في السماء .

﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ . .

وأين من دون الله الولي والنصير ؟ أين الولي والنصير من الناس ؟ أو من الملائكة والجن ؟

وكلهم عباد من خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فوق أن يملكوا لسواهم شيئاً ؟

﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ . .

ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، وينقطع ما بينه وبين ربه .

وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله ، وجفت نداوته ، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل . والعاقبة معروفة : ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ .

.

(274/597)

وبعد هذا الخطاب المعترض في ثنايا القصة ، الذي جاء خطاباً لكل منكر لدعوة الإيمان ولقوم إبراهيم ضمناً . . بعد هذا الخطاب يعود لبيان جواب قوم إبراهيم ، فيبدو هذا الجواب غريباً عجيباً ، ويكشف عن تبجح الكفر والطغيان ، بما يملك من قوة ومن سلطان :

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه . فأنجاه الله من النار . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . .

اقتلوه أو حرقوه . . رداً على تلك الدعوة الواضحة البسيطة المرتبة التي خاطب بها قلوبهم

وعقولهم على النحو الذي بينا قيمته في عرض الدعوات .

وإذ أن الطغيان أسفر عن وجهه الكالح ؛ ولم يكن إبراهيم عليه السلام يملك له دفعاً ، ولا يستطيع منه وقاية . وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول . فهنا تتدخل القدرة سافرة كذلك . تتدخل بالمعجزة الخارقة لمألوف البشر :

﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ . .

وكان في نجاته من النار على النحو الخارق الذي تمت به آية لمن تهيأ قلبه للإيمان . ولكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه الآية الخارقة ، فدل هذا على أن الخوارق لا تهدي القلوب ، إنما هو الاستعداد للهدى والإيمان :

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . .

الآية الأولى هي تلك النجاة من النار . والآية الثانية هي عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة . والآية الثالثة هي أن الخارقة لا تهدي القلوب الجاحدة . ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات ، وتصريف القلوب ، وعوامل الهدى والضلال .

ويمضي في القصة بعد نجاة إبراهيم من النار . فلقد يئس من إيمان القوم الذين لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة . فإذا هو يجبههم بحقيقة أمرهم ، قبل أن يعتزلهم جميعاً :

﴿ وقال : إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين ﴾ . .

إنه يقول لهم : إنكم اتخذتم الأوثان من دون الله ، لا اعتقاداً واقتناعاً بأحقية هذه العبادة ؛ إنما يجامل بعضكم بعضاً ، ويوافق بعضكم بعضاً ، على هذه العبادة ؛ ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه حين يظهر الحق له استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة ! وإن هذا ليقع في الجماعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد ، فيسترضي الصاحب صاحبه على حساب العقيدة ؛ ويرى أمرها أهون من أن يخالف عليه صديقه ! وهي الجد كل الجد . الجد الذي لا يقبل تهاوناً ولا استرخاء ولا استرضاء .

ثم يكشف لهم عن صفحتهم في الآخرة . فإذا المودة التي يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة ، والتي يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليها . . إذا هي يوم القيامة عداء ولعن وانفصام :

﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ . .

يوم يتنكر التابعون للمتبوعين ، ويكفر الأولياء بالأولياء ، ويتهم كل فريق صاحبه أنه أضله ، ويلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه !

ثم لا يجدي ذلك الكفر والتلاعن شيئاً ، ولا يدفع عن أحد عذاباً :

﴿ ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ .

.

النار التي أرادوا أن يحرقوه بها ، فنصره الله منها ونجاه . فأما هم فلا نصرة لهم ولا نجاة !

وانتهت دعوة إبراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها . انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط . ابن أخيه فيما تذكر بعض الروايات . وهاجر معه من أور الكلدانيين في العراق ، إلى ما وراء الأردن حيث استقر بهما المقام :

﴿ فآمن له لوط ، وقال : إني مهاجر إلى ربي ، إنه هو العزيز الحكيم ﴾ . .

(276/597)

ونقف أمام قولة لوط : ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ . . لنرى فيم هاجر . إنه لم يهاجر للنجاة . ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة . إنما هاجر إلى ربه . هاجر متقرباً له ملتجئاً إلى حماه . هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه . هاجر إليه ليخلص له عبادته ويخلص له قلبه ويخلص له كيانه كله في مهجره ، بعيداً عن موطن الكفر والضلال . بعد أن لم يبق رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال .

وعوض الله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله عوضه عن هذا كله ذرية تمضي فيها

رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت في ذريته . وهو عوض ضخم في الدنيا وفي الآخرة :

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب . وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

وهو فيض من العطاء جزيل ، يتجلى فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذي يتمثل فيه الخلوص لله بكليته ، والذي أجمع الطغيان على حرقه بالنار ، فكان كل شيء من حوله برداً وسلاماً ، وعطفاً وإنعاماً . جزاءً وفاقاً .

ثم تأتي قصة لوط عقب قصة إبراهيم ، بعد ما هاجر إلى ربه مع إبراهيم ، فنزلا بوادي الأردن ؛ ثم عاش لوط وحده في إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت فيما بعد . وكانت تسكن مدينة سدوم . وصار لوط منهم بالصهر والمعيشة .

ثم حدث أن فشا في القوم شذوذ عجيب ، يذكر القرآن أنه يقع لأول مرة في تاريخ البشرية . ذلك هو الميل الجنسي المنحرف إلى الذكور بدلاً من الإناث اللاتي خلقهن الله للرجال ، لتتكون من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق الفطرة المطردة في جميع الأحياء . إذ خلقها الله أزوجاً : ذكراناً وإناثاً . فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المماثل قبل قوم لوط هؤلاء :

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنّكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديكم المنكر .

فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال : رب انصرني على القوم المفسدين ﴾ . .

ومن خطاب لوط لقومه يظهر أن الفساد قد استشرى فيهم بكل ألوانه . فهم يأتون الفاحشة الشاذة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين :

يأتون الرجال . وهي فاحشة شاذة قذرة تدل على انحراف الفطرة وفسادها من أعماقها . فالفطرة قد تفسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة ، فتكون هذه جريمة فاحشة ، ولكنها داخلة في نطاق الفطرة ومنطقها . فأما ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعاً . وفساد في التركيب النفسي والتركيب العضوي سواء . فقد جعل الله لذة المباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر ، وامتداده بالنسل الذي ينشأ عن هذه المباشرة . وجهز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه المباشرة ، نفسياً وعضوياً ، وفقاً لذلك التناسق . فأما المباشرة الشاذة فلا هدف لها ، ولم يجهز الله الفطرة بالتذاذها تبعاً لانعدام الهدف منها . فإذا وجد فيها أحد لذة فمعنى هذا أنه انسلخ نهائياً من خط الفطرة ، وعاد مسخاً لا يرتبط بخط الحياة !

ويقطعون السبيل ، فينهبون المال ، ويروعون المارة ، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرهاً . وهي خطوة أبعد في الفاحشة الأولى ، إلى جانب السلب والنهب والإفساد في الأرض . .

ويأتون في ناديهم المنكر . يأتونه جهاراً وفي شكل جماعي متفق عليه ، لا يخجل بعضهم من بعض . وهي درجة أبعد في الفحش ، وفساد الفطرة ، والتبجح بالرذيلة إلى حد لا يرجى معه صلاح !

والقصة هنا مختصرة ، وظاهر أن لوطاً أمرهم في أول الأمر ونهاهم بالحسنى ؛ وأنهم أصروا على ما هم فيه ، فخوفهم عذاب الله ، وجبههم بشناعة جرائمهم الكبرى :

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ . .

فهو التبجح في وجه الإنذار ، والتحدي المصحوب بالتكذيب ، والشرود الذي لا تنتظر منه أوبة . وقد أعذر إليهم رسولهم فلم يبق إلا أن يتوجه إلى ربه طالباً نصره الأخير :

﴿ قال : رب انصرني على القوم المفسدين ﴾ . .

وهنا يسدل الستار على دعاء لوط ، ليرفع عن الاستجابة . وفي الطريق يلم الملائكة

المكلفون بالتنفيذ بإبراهيم ، يبشرونه بولد صالح من زوجه التي كانت من قبل عقيماً :

﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين . قال : إن فيها لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ . .

وهذا المشهد . مشهد الملائكة مع إبراهيم . مختصر في هذا الموضع لأنه ليس مقصوداً ؛ قد سبق في قصة إبراهيم أن الله وهب له إسحاق ويعقوب ؛ وولادة اسحاق هي موضوع البشرى ، ومن ثم لم يفصل قصتها هنا لأن الغرض هو إتمام قصة لوط . فذكر أن مرور الملائكة بإبراهيم كان للبشرى . ثم أخبروه بمهمتهم الأولى :

﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية .

إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ . .

وأدركت إبراهيم رقته ورأفته ، فراح يذكر الملائكة أن في هذه القرية لوطاً ؛ وهو صالح وليس بظالم !

وأجابه الرسل بما يطمئنه من ناحيته ، ويكشف له عن معرفتهم بمهمتهم وأنهم أولى بهذه المعرفة !

﴿ قالوا : نحن أعلم بمن فيها ؛ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ . .

وقد كان هواها مع القوم ، تقر جرائمهم وانحرافهم ، وهو أمر عجيب .

وينتقل إلى مشهد ثالث . مشهد لوط وقد جاء إليه الملائكة في هيئة فتية صباح ملاح ؛ وهو يعلم شنشنة قومه ، وما ينتظر ضيوفه هؤلاء منهم من سوء لا يملك له دفعاً . فضاق صدره وساءه حضورهم إليه ، في هذا الظرف العصيب :

﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ . . .

(279/597)

ويختصر هنا هجوم القوم على الضيوف ، ومحاورة لوط لهم ، وهم في سعار الشذوذ المريض . . ويمضي إلى النهاية الأخيرة . إذ يكشف له الرسل عن حقيقتهم ، ويخبرونه بمهمتهم ، وهو في هذا الكرب وذلك الضيق :

﴿ وقالوا : لا تخف ولا تحزن . إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ . .

وترسم هذه الآية مشهد التدمير الذي أصاب القرية وأهلها جميعاً إلا لوطاً وأهله المؤمنين وقد كان هذا التدمير بأمطار وأحجار ملوثة بالطين . ويغلب أنها ظاهرة بركانية قلبت المدينة وابتلعتها ؛ وأمطرت عليها هذا المطر الذي يصاحب البراكين .

وما تزال آثار هذا التدمير باقية تحدث عن آيات الله لمن يعقلها ويتدبرها من القرون :

﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ . .

وكان هذا هو المصير الطبيعي لهذه الشجرة الخبيثة التي فسدت وأنتنت ، فلم تعد صالحة للإثمار ولا للحياة . ولم تعد تصلح إلا للاجتثاث والتحطيم .

ثم إشارة إلى قصة شعيب ومدين :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ، فقال : يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ . .

وهي إشارة تبين وحدة الدعوة ، ولباب العقيدة : ﴿ اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾ . . وعبادة الله الواحد هي قاعدة العقيدة . ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عما كانوا يرجونه في هذه الحياة الدنيا من الكسب المادي الحرام بالتطفيف في الكيل والميزان ، وغصب المارين بطريقهم للتجارة ، وبخس الناس أشياءهم ، والإفساد في الأرض ، والاستطالة على الخلق .

وفي اختصار يذكر انتهاء أمرهم إلى تكذيب رسولهم ؛ وأخذهم بالهلاك والتدمير ، على سنة الله في أخذ المكذبين .

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ . .

وقد تقدم بيان الرجفة التي زلزلت عليهم بلادهم ورجتها بعد الصيحة المدوية التي أسقطت قلوبهم وتركتهم مصعوقين حيث كانوا في دارهم لا يتحركون . فأصبحوا فيها جاثمين . جزاء ما كانوا يروعون الناس وهم يخرجون عليهم مغيرين صائحين !

وإشارة كذلك إلى مصرع عاد وثمود :

﴿ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ؛ وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ .

.

وعاد كانت تسكن بالأحقاف في جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت ، وثمود كانت تسكن بالحجر في شمال الجزيرة بالقرب من وادي القرى . وقد هلكت عاد بريح صرصر عاتية ، وهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة . وبقيت مساكنها معروفة للعرب يمرون عليها في رحلتي الشتاء والصيف ، ويشهدون آثار التدمير ، بعد العز والتمكين .

وهذه الإشارة المجملة تكشف عن سر ضلالهم ، وهو سر ضلال الآخرين .

﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ . .

فقد كانت لهم عقول ، وكانت أمامهم دلائل الهدى ؛ ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم . وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة ، وهي غرورهم بأنفسهم ، وإعجابهم بما يأتونه

من الأعمال ، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع . ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ سبيل الهدى الواحد المؤدي إلى الإيمان . وضيع عليهم الفرصة ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾ يملكون التبصر ، وفيهم مدارك ولهم عقول .

وإشارة إلى قارون وفرعون وهامان . ﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا في الأرض ، وما كانوا سابقين ﴾ . .

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم بثروته وعلمه ، ولم يستمع نصح الناصحين بالإحسان والاعتدال والتواضع وعدم البغي والفساد . وفرعون كان طاغية غشوماً ، يرتكب أبشع الجرائم وأغلظها ، ويسخر الناس ويجعلهم شيعاً ، ويقتل ذكور بني إسرائيل ويستحيي نساءهم عتواً وظلماً . وهامان كان وزيره المدبر لمكائده ، المعين له على ظلمه وبطشه .

﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض ﴾ . .

(281/597)

فلم يعصمهم الثراء والقوة والدهاء . لم تعصمهم من أخذ الله ، ولم تجعلهم ناجين ولا مفلتين من عذاب الله ، بل أدركهم وأخذهم كما سيجيء .

﴿ وما كانوا سابقين ﴾ . .

هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة ، قد أخذهم الله جميعاً . بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلاً :

﴿ فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

فعاد أخذهم حاصب وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض فتضربهم وتقتلهم ، وثمود أخذتهم الصيحة . وقارون خسف به وبداره الأرض ، وفرعون وهامان غرقا في اليم وذهبوا جميعاً مأخوذين بظلمهم . ﴿ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . .

والآن . وعلى مصارع العتاة البغاة من الكفرة والظلمة والفسقة على مدار القرون . .

والآن . وبعد الحديث في مطالع السورة عن الفتنة والابتلاء والإغراء . . الآن يضرب المثل لحقيقة القوى المتصارعة في هذا المجال . . إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله . وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى ، فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهية . فهي وما تحتمي به سواء :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت

لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ﴾ . .

إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود . الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين . ولا يعرفون إلى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يدعون ؟

(282/597)

وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض ، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ، ويخشونها ويفزعون منها ، ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها ، أو يضمنوا لأنفسهم حماها !

وتخدعهم قوة المال ، يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة . ويتقدمون إليها في رغب وفي رهب ؛ ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون !

وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال ، وأصل سائر القوى التي يصول بها من

يملكها ويجول ، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب !

وتخدعهم هذه القوى الظاهرة . تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول ، فيدورون حولها ، ويتهافتون عليها ، كما يدور الفراش على المصباح ، وكما يتهافت الفراش على النار !

وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة ، وتملكها ، وتمنحها ، وتوجهها ، وتسخرها كما تريد ، حيثما تريد .

وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد ، أو الجماعات ، أو الدول . . كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت . . حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن .

وليس هنالك إلا حماية الله ، وإلا حماه ، وإلا ركنه القوي الركين .

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عني القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها ؛ وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض ودكت بها المعاقل والحصون .

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم ، وجرت معه في العروق ، ولم تعد كلمة تقال باللسان ، ولا قضية تحتاج إلى جدل . بل بديهة مستقرة في النفس ، لا يجول غيرها في حس ولا خيال .

قوة الله وحدها هي القوة . وولاية الله وحدها هي الولاية . وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ؛ مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل .

إنها العنكبوت : وما تملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى ، وللإغراء والإغواء . لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة . هذه تضر بهم وتحاول أن تسحقهم . وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم . . وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله ، وفي حساب العقيدة حين تصح العقيدة ، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التقويم والتقدير .

«إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» . .

إنهم يستعينون بأولياء يتخذونهم من دون اللّه واللّه يعلم حقيقة هؤلاء الأولياء . وهي الحقيقة التي صورت في المثل السابق . . عنكبوت تحتمي بخيوط العنكبوت ! «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» . .

هو وحده العزيز القادر الحكيم المدبر لهذا الوجود .

«وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ» . .

فلقد اتخذها جماعة من المشركين المغلقي القلوب والعقول مادة للسخرية والتهكم . وقالوا : إن رب محمد يتحدث عن الذباب والعنكبوت . ولم يهز مشاعرهم هذا التصوير العجيب لأنهم لا يعقلون ولا يعلمون : «وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ» . .

ثم يربط تلك الحقيقة الضخمة التي قدمها بالحق الكبير في تصميم هذا الكون كله على طريقة القرآن في ربط كل حقيقة بذلك الحق الكبير :

«خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ . إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ» . .

وهكذا تجيء هذه الآية عقب قصص الأنبياء ، وعقب المثل المصور لحقيقة القوى في الوجود ، متناسقة معها مرتبطة بها ، بتلك الصلة الملحوظة . صلة الحقائق المتناثرة كلها بالحق الكامن في خلق السماوات والأرض والذي قامت به السماوات والأرض ، في ذلك النظام الدقيق الذي لا يتخلف ولا يبطئ ولا يختلف ولا يصدم بعضه بعضا ، لأنه حق

متناسق لا عوج فيه ! «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ» . .

الذين تتفتح قلوبهم لآيات اللّه الكونية المبثوثة في تضاعيف هذا الكون وحناياه ، المشهودة في تنسيقه وتنظيمه ، المنثورة في جوانبه حيثما امتدت الأبصار . والمؤمنون هم الذين يدركونها ، لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر للتلقي والإدراك .

(285/597)

وفي نهاية الشوط يربط الكتاب الذي أنزل على محمد - صلّى اللّه عليه وسلّم - ويربط الصلاة وذكر اللّه ، بالحق الذي في السماوات والأرض ، وبسلسلة الدعوة إلى اللّه من لدن نوح عليه السّلام :

«اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ ، وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ» . .

اتل ما أوحي إليك من الكتاب فهو وسيلتك للدعوة ، والآية الربانية المصاحبة لها ، والحق المرتبط بالحق الكامن في خلق السماوات والأرض .

وأقم الصلاة إن الصلاة - حين تقام - تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهي اتصال باللّه يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى اللّه بها ، وهي تطهر

وتجرد لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما . «من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من اللّه إلا بعدا» «1» . وما أقام الصلاة كما هي إنما أداها أداء ولم يقمها . . وفرق كبير بينهما . . فهي حين تقام ذكر للّه . «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» . أكبر إطلاقا أكبر من كل اندفاع ومن كل نزوع . وأكبر من كل تعبد وخشوع .

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ» . .

فلا يخفى عليه شيء ، ولا يلتبس عليه أمر . وأنتم إليه راجعون . فمجازيكم بما تصنعون . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2725 . 2738 ﴾

---

(1) رواه ابن جرير قال : حدثنا على حدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : وذكر الحديث . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/598)

الجزء الثامن والتسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 46 ﴾ من سورة العنكبوت

وحتى الآية ﴿ 55 ﴾ من نفس السورة

(4/598)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انتهى الكلام إلى روح الدين وسر اليقين مما لا يعلمه حق علمه إلا العلماء بالكتب السماوية والأخبار الإلهية ، وكان العالم يقدر على إيراد الشكوك وترويج الشبه ، فربما أضل بالشبهة الواحدة النيام من الناس ، بما له عندهم من القبول ، وبما للنفوس من النزوع إلى الأباطيل ، وبما للشيطان في ذلك من التزيين ، وكان الجدال يورث الإحن ، ويفتح أبواب المحن ، فيحمل على الضلال ، قال تعالى عاطفاً على ﴿ اتل ﴾ مخاطباً لمن ختم الآية بخطابهم تنزيهاً لمقامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المواجهة بمثل ذلك تنبيهاً على أنه لا يصوب همته الشريفة إلى مثل ذلك ، لأنه ليس في طبعه المجادلة ، والمماراة والمغالبة : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب ﴾ أي اليهود والنصارى ظناً منكم أن الجدال ينفع الدين ، أو يزيد في اليقين ، أو يرد

أحداً عن ضلال مبين ﴿ إلا بالتي ﴾ أي بالمجادلة التي ﴿ هي أحسن ﴾ أي بتلاوة الوحي الذي أمرنا راس العابدين بإدامة تلاوته فقط ، وهذا كما تقدم عند قوله تعالى في سبحان ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ [الإسراء : 53] .

(5/598)

ولما كان كل من جادل منهم في القرآن ظالماً ، كان من الواضح أن المراد بمن استثنى في قوله تعالى : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أي تجاوزوا في الظلم بنفي صحة القرآن وإنكار إعجازه مثلاً وأن يكون على أساليب الكتب المتقدمة ، أو مصدقاً لشيء منها ، أو بقولهم ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] ونحو هذا من افترائهم ، فإن هؤلاء يباح جدالهم ولو أدى إلى جلادهم بالسيف ، فإن الدين يعلو ولا يعلى عليه .

ولما نهى عن موجب الخلاف ، أمر بالاستعطاف ، فقال : ﴿ وقولوا آمنا ﴾ أي أوقعنا الإيمان ﴿ بالذي أنزل إلينا ﴾ أي من هذا الكتاب المعجز ﴿ وأنزل إليكم ﴾ من كتبكم ، يعني في أن أصله حق وإن كان قد نسخ منه ما نسخ ، وما حدثوكم به من شيء ليس عندكم ما يصدقه ولا ما يكذبه فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإن هذا أدعى إلى الإنصاف ، وأنفى للخلاف .

ولما لم يكن هذا جامعاً للفريقين ، أتبعه بما يجمعهما فقال : ﴿ وإلهنا وإلهكم ﴾ ولما كان من المعلوم قطعاً أن المراد به الله ، لأن المسلمين لا يعبدون غيره ، وكان جميع الفرق مقرين بالإلهية ولو بنوع إقرار لم تدع حاجة إلى أن يقول ﴿ إله ﴾ كما في بقية الآيات فقال : ﴿ واحد ﴾ إلى لا إله لنا غيره وإن ادعى بعضكم عزيراً والمسيح ﴿ ونحن له ﴾ خاصة ﴿ مسلمون ﴾ أي خاضعون منقادون أتم انقياد فيما يأمرنا به بعد الأصول من الفروع سواء كانت موافقة لفروعكم كالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس ، أو ناسخة كالتوجه إلى الكعبة ، ولا نتخذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله لنأخذ ما يشرعونه لنا مخالفاً لكتابه وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فنكون حينئذ قد خضعنا لهم وتكبرنا عليه فأوقعنا الإسلام في غير موضعه ظلماً .

(6/598)

ولما كان التقدير تعليلاً للأمر بهذا القول : إنا أنزلنا كتبهم إلى رسلهم ، عطف عليه قوله مخاطباً للرأس تخصيصاً له لئلا يتطرق لمتعنت طعن عموم أو اتهام في المنزل عليه : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال الذي أنزلناه إلى أنبيائهم ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ أي هذا القرآن الذي هو الكتاب في الحقيقة ، لا كتاب غيره في علو كماله ، في نظمه ومقاله ،

مصدقاً لما بين يديه : ﴿ فالذين ﴾ أي فتسبب عن إنزالنا له على هذا المنهاج أن الذين ﴿ آتيناهم ﴾ أي إيتاءاً يليق بعظمتنا ، فصاروا يعرفون الحق من الباطل ﴿ الكتاب ﴾ أي من قبل ﴿ يؤمنون به ﴾ أي بهذا الكتاب حقيقة كعبد الله بن سلام ومخيريق ـ رضى الله عنهما ـ ، أو مجازاً بالمعرفة به مع الكفر كحيي بن أخطب وخلق كثير منهم ﴿ ومن هؤلاء ﴾ أي العرب ﴿ من يؤمن به ﴾ أس كذلك في الحقيقة والمجاز في المعرفة بالباطن بأنه حق لما أقامه من البرهان على ذلك بعجزهم عن معارضته مع الكفر به ، وأدل دليل على ما أردته من الحقيقة والمجاز قوله : ﴿ وما يجحد ﴾ أي ينكر من الفريقين بعد المعرفة ، قال البغوي : قال قتادة : الجحود إنما يكون بعد المعرفة .

﴿ بآياتنا ﴾ التي حازت أقصى غايات العظمة حتى استحقت الإضافة إلينا ﴿ إلا الكافرون ﴾ أي العريقون في ستر المعارف بعد ظهورها طمعاً في إطفاء نورها .

ولما أشار إلى أن المنكر لأصل الوحي متوغل في الكفر ، دل على ذلك بحال المنزل إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال مسلياً له : ﴿ وما ﴾ أي أنزلناه إليك والحال أنك ما ﴿ كنت تتلوا ﴾ أي تقرأ مواصلاً مواظباً في وقت ما .

ولما كان المراد نفي التلاوة عن كثير الزمن الماضي وقليله ، أدخل الجار فقال ﴿ من قبله ﴾ أي هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك ؛ وأكد استغراق الكتب فقال : ﴿ من كتاب ﴾ أصلاً ﴿ ولا تخطه ﴾ أي تجدد وتلازم خطه ؛ وصور الخط وأكده بقوله : ﴿ بيمينك ﴾ أي التي هي أقوى الجارحتين ، وعبر بذلك إشارة إلى أنه لا تحدث الريبة في أمره لعاقل إلا بالمواظبة لمثل ذلك مواظبة قوية ينشأ عنها ملكة ، فكيف إذا لم يحصل أصل الفعل ، ولذلك قال : ﴿ إذاً ﴾ أي إذ لو كان شيء من هذه المواظبة في التلاوة أو الخط التي يحصل بها الدربة المورثة للملكة ﴿ لارتاب ﴾ أي لساغ أن تكلف أنفسهم لدخول في الريب أي الشك ﴿ المبطلون ﴾ أي هؤلاء الذين ينكرون الوحي إليك من أهل الكتاب ومن العرب ، ويقولون : هو سجع وكهانة وشعر وأساطير الأولين ، العريقون في وصف الإبطال ، أي الدخول في الباطل ، فكانوا يجدون مطعناً ، فتقول العرب : لعله أخذه من كتب الأقدمين ، ويقول الكتابيون : المبشر به عندنا أمي .

ولكنه لم يكن شيء من قراءة ولا خط كما هو معروف من حالك فضلاً عن المواظبة لشيء منهما ، فلا ريبة في صدقك في نسبته إلى الله تعالى ، وإذا انتفت الريبة من أصلها صح نفي ما عندهم منها ، لأنه لما لم يكن لهم في الواقع شبهة ، عدت ريبتهم عدماً ، وسموا مبطلين على تقدير هذه الشبهة ، لقيام بقية المعجزات القاطعة بالرسالة ، القاضية بالصدق ، كما قضت بصدق أنبيائهم مع أنهم يكتبون ويقرؤون ، وكتبهم لم تنزل للإعجاز ، فصح أنهم

يلزمهم الاتصاف بالإبطال بالارتياب على كل تقدير من تقديري الكتابة والقرءة وعدمهما ، لأن العمدة على المعجزات .

(8/598)

ولما كان التقدير : ولكنهم لا ريبة لهم أصلاً ولا شبهة ، لقولهم : إنه باطل ، قال : ﴿ بل هو ﴾ أي القرآن الذي جئت به وارتابوا فيه فكانوا مبطلين لذلك على كل تقدير ﴿ آيات ﴾ أي دلالات ﴿ بينات ﴾ أي واضحات جداً في الدلالة على صدقك ﴿ في صدور الذين ﴾ ولما كان المقصود المبالغة في تعظيم العلم ، بني للمفعول ، أظهر ما كان أصله الإضمار فقال : ﴿ أوتوا العلم ﴾ دلالة على أنه العلم الكامل النافع ، فلا يقدر أحد على تحريف شيء منه لبيان الحق لديهم ، وفي ذلك إشارة إلى أن خفاءه عن غيرهم لا أثر له ، ولما كان المراد بالعلم النافع ، قال إشارة إلى أنه في صدور غيرهم عرياً عن النفع : ﴿ وما يجحد ﴾ وكان الأصل : به ، ولكنه أشار إلى عظمته فقال : ﴿ بآياتنا ﴾ أي ينكرها بعد المعرفة على ما لها من العظمة بإضافتها إلينا والبيان الذي لا يجحده أحد ﴿ إلا الظالمون ﴾ أي الراسخون في الظلم الذي لا ينتفعون بنورهم في وضع كل شيء في محله ، بل

هم في وضع الأشياء في غير محلها كالماشي في الظلام الذي تأثر عن وصفهم أولاً بالكفر الذي هو تغطية أنوار العقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 564. 567 ﴾

(9/598)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ما يدعون ﴾ بياء الغيبة : أبو عمرو وسهل ويعقوب وعاصم غير الأعشى والبرجمي . الباقون : بتاء الخطاب ﴿ آية ﴾ على التوحيد : ابن كثير وعاصم سوى حفص والمفضل وحمزة وعلي غير قتيبة وخلف لنفسه . ﴿ ويقول ﴾ بالياء : نافع وعاصم وحمزة وعلي وخلف . الباقون : بالنون ﴿ يا عبادي الذين ﴾ بسكون الياء : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف . الباقون : بفتح الياء والوقف للجميع بالياء لا غير ﴿ ارضي ﴾ بفتح الياء ابن عامر ﴿ يرجعون ﴾ بضم الياء التحتانية وفتح الجيم : يحيى وهشام ﴿ ترجعون ﴾ بفتح التاء الفوقانية وكسر الجيم . الباقون : بضم التاء الفوقانية وفتح الجيم ﴿ لنثوينهم ﴾ بسكون الثاء المثلثة : حمزة وعلي وخلف .

والآخرون : بفتح الياء التحتانية الموحدة . وتشديد الواو ﴿ وليتمتعوا ﴾ بسكون اللام : ابن كثير وقالون وحمزة وعلي وخلف ﴿ سبلنا ﴾ بسكون الباء : أبو عمرو .

(10/598)

الوقوف : ﴿ من شيء ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ للناس ﴾ ط لاختلاف الجملتين والعدول عن العموم إلى الخصوص ﴿ العالمون ﴾ 5 ﴿ بالحق ﴾ 5 ﴿ للمؤمنين ﴾ 5 ﴿ الصلاة ﴾ ط ﴿ والمنكر ﴾ ط ﴿ أكبر ﴾ ط ﴿ ما تصنعون ﴾ 5 ﴿ مسلمون ﴾ 5 ﴿ إليك الكتاب ﴾ ط ﴿ يؤمنون به ﴾ ج فصلاً بين حال الفريقين مع اتفاق الجملتين ﴿ يؤمن به ﴾ ط ﴿ الكافرون ﴾ 5 ﴿ المبطلون ﴾ 5 ﴿ العلم ﴾ ط ﴿ الظالمون ﴾ 5 ﴿ من ربه ﴾ ط ﴿ عند الله ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ عليهم ﴾ ط ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ شهيداً ﴾ ج لأن ما بعده يصلح وصفاً واستئنافاً ﴿ والأرض ﴾ ﴿ بالله ﴾ لا لأن ما بعده خبر ﴿ الخاسرون ﴾ 5 ﴿ بالعذاب ﴾ ط ﴿ العذاب ﴾ ط ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 ﴿ بالعذاب ﴾ ط ﴿ بالكافرين ﴾ 5 لا لأن ﴿ يوم ﴾ ظرف ﴿ المحيطة ﴾ ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ فاعبدون ﴾ ط ﴿ ترجعون ﴾ 5 ﴿ خالدين فيها ﴾ ط ﴿ العاملين ﴾ قف بناء على أن التقدير هم الذين أو أعني الذين ﴿ يتوكلون

﴿ 5 ﴿ رزقها ﴾ ق قد قيل : والوصل أولى لأنه وصف آخر لدابة ﴿ وإياكم ﴾ ج لاحتمال الاستئناف والوصل أولى ليكون حالاً متمماً للمعنى ﴿ العليم ﴾ 5 ﴿ ليقولن الله ﴾ لا للاستفهام مع الفاء ﴿ يؤفكون ﴾ 5 ﴿ ويقدر له ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ ليقولن الله ﴾ ط ﴿ الحمد لله ﴾ ط لتمام المقول ﴿ لا يعقلون ﴾ 5 ﴿ ولعب ﴾ ط ﴿ الحيوان ﴾ ط لأن الشرط غير معلق ﴿ يعلمون ﴾ 5 ﴿ الذين ﴾ 5 ﴿ يشركون ﴾ لا لتعلق لام كي ومن جعلها لام أمر تهديد وقف عليه ﴿ آتيناهم ﴾ ط لمن قرأ ﴿ وليتمتعوا ﴾ بالجزم على استئناف الأمر ، ومن جعل لام ﴿ ليكفروا ﴾ للأمر عطف هذه عليها فلم يقف ﴿ وليتمتعوا ﴾ لا لاستئناف التهديد ﴿ يعلمون ﴾ 5 ﴿ من حولهم ﴾ ط ﴿ يكفرون ﴾ 5 ﴿ جاءه ﴾ ط ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ سبلنا ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 387 . 388 ﴾

(11/598)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

لما بين الله طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة إرشاد أهل الكتاب فقال : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ قال بعض المفسرين المراد منه لا تجادلوهم بالسيف ، وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا ، أي إذا ظلموا زائداً على كفرهم ، وفيه معنى ألطف منه وهو أن المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالأخشن ويبالغ في تهجين مذهبه وتوهين شبهه ، ولهذا قال تعالى في حقهم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ [البقرة : 18] وقال : ﴿ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ [الأعراف : 179] إلى غير ذلك .

(12/598)

وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر ، فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولا بالأحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب الضلال آباؤهم ، بخلاف المشرك ، ثم على هذا فقوله : ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ ﴾ تبيين له حسن آخر ، وهو أن يكون المراد إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة فإنهم ضاهوهم في القول المنكر فهم الظالمون ، لأن الشرك ظلم عظيم ، فيجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ، ثم إنه تعالى بين ذلك

الأحسن فقدم محاسنهم بقوله : ﴿ وَقُولُواْ ءامَنَّا بالذى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ فيلزمنا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتي في كتبكم فهو دليل مضيء ، ثم بعد ذلك ذكر دليلاً قياسياً فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ يعني كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس ، ثم قال : ﴿ فالذين ءاتيناهم الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ لوجود النص ومن هؤلاء كذلك ، واختلف المفسرون فقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء ﴾ أي من أهل مكة وقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم زماناً من أهل الكتاب ، ومن هؤلاء الذين هم في زمان محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وهذا أقرب ، فإن قوله : ﴿ هَؤُلاء ﴾ صرفه إلى أهل الكتاب أولى ، لأن الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا ، إذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والإعراض عنهم لإصرارهم على الكفر ، وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل ، وأقرب إلى الأحسن من الجدال المأمور به ، وهو أن نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء وبقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء ﴾ أي من أهل الكتاب وهو أقرب ، لأن الذين آتاهم

الكتاب في الحقيقة هم الأنبياء ، فإن الله ما آتى الكتاب إلا للأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿ أولئك الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ [الأنعام : 89] وقال : ﴿ وَءاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ [النساء : 163] وقال : ﴿ وَءاتَانِي الكتاب ﴾ [مريم : 30] وإذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص ، لأن كل الأنبياء آمنوا بكل الأنبياء ، وإذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله بن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عدداً قليلاً ، ويكون المراد بقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء ﴾ غير المذكورين ، وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركين وتكلم فيهم وفرغ منهم والثاني أهل الكتاب وهو بعد في بيان أمرهم ، والوقت وقت جريان ذكرهم ، فإذا قال هؤلاء يكون منصرفاً إلى أهل الكتاب الذين هم في وصفهم ، وإذا قال أولئك يكون منصرفاً إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم ، وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه ، وذلك لأن الخلاف في الأنبياء والأئمة قريب من الخلاف في فضيلة الرؤساء والملوك ، فإذا اختلف حزبان في فضيلة ملكين أو رئيسين ، وأدى الاختلاف إلى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان ، فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبي صلى الله عليه وسلم نحن آمنا بالأنبياء وهم آمنوا بي فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ، ثم قال تعالى : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلاَّ الكافرون ﴾

تنفيراً لهم عما هم عليه ، يعني أنكم آمنتم بكل شيء ، وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة ، إلا هذه المسألة الواحدة ، وبإنكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم ، فإن الجاحد بآية يكون كافراً .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

(14/598)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كتاب وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب ، وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفاً فيها كقول القائل : الزكاة تجب في مال الصغير ، فإذا قيل له لم ؟ فيقول كما تجب النفقة في ماله ، ولا يذكر أولا الجامع بينهما ، فإن قنع الطالب بمجرد التشبيه وأدرك من نفسه الجامع فذاك ، وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدي الجامع ، فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ [العنكبوت : 47] ثم ذكر الجامع وهو المعجزة ، فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة ، وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة ، فيعرف كونه منزلاً ، وقوله تعالى : ﴿ إِذاً لارتاب المبطلون ﴾ فيه معنى لطيف ، وهو أن النبي إذا كان قارئاً كاتباً ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه ، فإن جميع كتبة

الأرض وقرائها لا يقدرون عليه ، لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب ، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل في الإبطال وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] أي من مثل محمد عليه السلام وكقوله : ﴿ آلم * ذلك الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 1 ، 2] .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءايات بينات فِى صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ قوله ﴿ في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ إشارة إلى أنه ليس من مخترعات الآدميين ، لأن من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبي وخاطري ، وإذا حفظه من غيره يقول إنه في قلبي وصدري ، فإذا قال : ﴿ فِى صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ لا يكون من صدر أحد منهم ، والجاهل يستحيل منه ذلك ظهور له من الصدور ويلتحقون عنده هذه الأمة بالمشركين ، فظهوره من الله .

(15/598)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إِلاَّ الظالمون ﴾ قال ههنا ﴿ الظالمون ﴾ ، ومن قبل قال ﴿ الكافرون ﴾ [العنكبوت : 47] مع أن الكافر ظالم ولا تنافي بين الكلامين وفيه فائدة ، وهي أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم إن لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد فتكونوا كافرين ، فلفظ الكافر هناك كان بليغاً يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ، ثم بعد بيان المعجزة

قال لهم إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون في أول الأمر بالمشركين حكماً ، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين ، أي مشركين ، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم ، فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 66.68 ﴾

(16/598)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

قَالَ قَتَادَةُ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ وَلَا مُجَادَلَةَ أَشَدُّ مِنْ السَّيْفِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ .

وقَوْله تَعَالَى ﴿ إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوكُمْ فِي جِدَالِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا يَقْتَضِي الْإِغْلَاظَ لَهُمْ وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِ ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ بِمَنْعِ الْجِزْيَةِ وَقِيلَ : إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ بِالْإِقَامَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ قَتَادَةُ : وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ ، فَإِنَّهُ رَفَعَ الْجِدَالَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَدْ بَيَّنَّا فِي الْقِسْمِ الثَّانِي أَنَّهَا لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ مَخْصُوصَةٌ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعِثَ بِاللِّسَانِ يُقَاتِلُ بِهِ فِي اللَّهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ بِالسَّيْفِ وَاللِّسَانِ ، حَتَّى قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَى الْخَلْقِ لِلَّهِ ، وَتَبَيَّنَ الْعِنَادُ ، وَبَلَغَتْ الْقُدْرَةُ غَايَتَهَا عَشْرَةَ أَعْوَامٍ مُتَّصِلَةٍ ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ قَتَلَ ، وَمَنْ امْتَنَعَ بَقِيَ الْجِدَالُ فِي حَقِّهِ ؛ وَلَكِنْ بِمَا يَحْسُنُ مِنْ الْأَدِلَّةِ ، وَيَجْمُلُ مِنْ الْكَلَامِ ، بِأَنْ يَكُونَ مِنْك لِلْخَصْمِ تَمْكِينٌ ، وَفِي خِطَابِك لَهُ لِينٌ ، وَأَنْ تَسْتَعْمِلَ مِنْ الْأَدِلَّةِ أَظْهَرَهَا ، وَأَنْوَرَهَا ، وَإِذَا لَمْ يَفْهَمْ الْمُجَادِلُ أَعَادَ عَلَيْهِ الْحُجَّةَ وَكَرَّرَهَا ، كَمَا فَعَلَ الْخَلِيلُ مَعَ الْكَافِرِ حِينَ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

فَقَالَ لَهُ الْكَافِرُ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، فَحَسُنَ الْجِدَالُ ، وَنَقَلَ إلَى أَبْيَنَ مِنْهُ بِالِاسْتِدْلَالِ .

وَقَالَ : إنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ .

وَهُوَ انْتِقَالٌ مِنْ حَقٍّ إلَى حَقٍّ أَظْهَرَ مِنْهُ ، وَمِنْ دَلِيلٍ إلَى دَلِيلٍ أَبْيَنَ مِنْهُ وَأَنْوَرَ .

(18/598)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَهْلُ الْحَرْبِ .

الثَّانِي : مَانِعُو الْجِزْيَةِ .

الثَّالِثُ : مَنْ بَقِيَ عَلَى الْمُعَانَدَةِ بَعْدَ ظُهُورِ الْحُجَّةِ .

الرَّابِعُ : الَّذِينَ ظَلَمُوا فِي جِدَالِهِمْ ، بِأَنْ خَلَطُوا فِي إبْطَالِهِمْ .

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا

صَحِيحَةٌ مُرَدَّدَةٌ ، وَقَدْ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُجَادَلَاتٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَمَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ .

وَآيَاتُ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ ، وَهِيَ أَثْبَتُ فِي الْمَعْنَى .

وَقَدْ قَالَ لِلْيَهُودِ : ﴿ إنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

فَمَا أَجَابُوا جَوَابًا .

وَقَالَ لَهُمْ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ .

أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ أَبْعَدْتُمْ وَلَدًا بِغَيْرِ أَبٍ فَخُذُوا وَلَدًا دُونَ أَبٍ وَلَا أُمٍّ .

وَقَالَ : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ .

(19/598)

وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي حُصَيْنٍ : ﴿ يَا حُصَيْنُ ؛ كَمْ إِلَهًا تَعْبُدُ الْيَوْمَ ، قَالَ : إِنِّي أَعْبُدُ سَبْعَةً ، وَاحِدًا فِي السَّمَاءِ ، وَسِتًّا فِي الْأَرْضِ : قَالَ : فَأَيُّهُمْ تُعِدُّ لِرَغْبَتِك وَرَهْبَتِك ، قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ .

قَالَ : يَا حُصَيْنُ ، أَمَا إِنَّك إِنْ أَسْلَمْت عَلَّمْتُك ﴾ .

وَذَكَرَ الْحَدِيثَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(20/598)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ قول لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس .

الثاني : الكف عنهم عند بذل الجزية منهم وقتالهم إن أبوا ، قاله مجاهد .

الثالث : أنهم إن قالوا شراً فقولوا لهم خيراً ، رواه ابن أبي نجيح .

ويحتمل تأويلاً رابعاً : وهو أن يحتج لشريعة الإسلام ولا يذم ما تقدمها من الشرائع .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : أنهم أهل الحرب ، قاله مجاهد .

الثاني : من منع الجزية منهم ، رواه خصيف .

الثالث : ظلموا بالإقامة على كفرهم بعد قيام الحجة عليهم ، قاله ابن زيد .

الرابع : ظلموا في جدالهم فأغلظوا لهم ، قاله ابن عيسى .

واختلف في نسخ ذلك على قولين :

أحدهما : أنها منسوخة ؛ قاله قتادة .

الثاني : أنها ثابتة .

﴿ وَقُولُواْ ءَآمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ الآية ، فروى سلمة عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأُون التوراة بالعبرانية فيفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاَ تُصَدِّقُواْ أَهْلَ الكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُم ﴿ وَقُولُواْ ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ " أي مخلصون وفيه قولان :

أحدهما : أنه يقوله لأهل الكتاب ، قاله مجاهد .

الثاني : يقوله لمن آمن ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾

فيه قولان

: أحدهما : معناه ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن ﴾ قبل القرآن كتاباً من كتب الله المنزلة ولا تخطه أي تكتبه بيمينك فتعلم ما أنزل الله فيه حتى يشكوا في إخبارك عنه إنه من وحي الله سبحانه إليك وهو معنى قول يحيى بن سلام .

(21/598)

الثاني : أنه كان أهل الكتاب يجدونه في كتبهم أن محمداً لا يخط بيمينه ولا يقرأ كتاباً فنزل ذلك فيهم ليدلهم على صحة نبوته ، وهو معنى قول مجاهد .

﴿ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ فيهم ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنهم مشركو قريش ، قاله مجاهد .

الثاني : مشركو العرب أن يقولوا لو كان يقرأ قد تعلمه من غيره ، قاله قتادة .

الثالث : أنهم المكذبون من اليهود ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه النبي صلى الله عليه وسلم في كونه أمياً لا يكتب ولا يقرأ ﴿ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من أهل الكتاب لأنه منعوت في كتبهم بهذه الصفة ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه القرآن ﴿ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به ، قاله الحسن .

قال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ وكان من قبلها لا يقرأون كتابهم إلا نظراً فإذا طبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيين .

وقال كعب في صفة هذه الأمة : إنهم حلماء علماء كأنهم في الفقه أنبياء .

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِئَايَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : المشركون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

قرأ الجمهور " إلا " على الاستثناء ، وقرأ ابن عباس " ألا " بفتح الهمزة وتخفيف اللام ، واختلف المفسرون في المراد بهذه الآية ، فقال ابن زيد : معناها " لا تجادلوا " من آمن بمحمد من ﴿ أهل الكتاب ﴾ فكأنه قال ﴿ أهل الكتاب ﴾ المؤمنين ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ أي الموافقة فيا حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك ، وقوله تعالى على هذا التأويل ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ يريد به من بقي على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم ، والآية على هذا محكمة غير منسوخة ، وقال مجاهد : المراد ب ﴿ أهل الكتاب ﴾ اليهود والنصارى الباقون على دينهم أمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ من الدعاء إلى الله تعالى والتنبيه على آياته ، وأن يزال معهم عن طريق الإغلاظ والمخاشنة ، وقوله على هذا التأويل ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ معناه ظلموكم وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق يراد بهم من لم يؤد جزية الحرب ، ومن قال وصرح بأن لله ولداً أو له شريك أو يده مغلولة ، فالآية على هذا منسوخة في مهادنة من لم يحارب ، قال قتادة هي منسوخة بقول الله تعالى ﴿ قاتلوا الذي لا يؤمنون بالله ﴾ [التوبة : 29] .

قال الفقيه الإمام القاضي : والذي يتوجه في معنى الآية إنما يتضح مع معرفة الحال في وقت نزول الآية ، وذلك أن السورة مكية من بعد الآيات العشر الأول ، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية ولا غير ذلك ، وكانت اليهود بمكة وفيما جاورها فربما وقع بينهم وبين بعض المؤمنين جدال واحتجاج في أمر الدين وتكذيب ، فأمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم بالمحاجة إلا بالحسنى دعاء إلى الله تعالى وملاينة ، ثم استثنى من ظلم منهم المؤمنين إما بفعل ، وإما بقول ، وإما بإذاية محمد صلى الله عليه وسلم ، وإما بإعلان كفر فاحش كقول بعضهم عزير ابن الله ونحو هذا ، فإن هذه الصنيفة استثني لأهل الإسلام مقارضتها بالتغيير عليها والخروج معها عن التي هي أحسن ، ثم نسخ هذا بعد بآية القتال والجزية وهذا قول قتادة وقوله تعالى : ﴿ وقولوا آمنا ﴾ الآية ، قال أبو هريرة كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية فيفسرونها بالعربية للمسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ " وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن

تكذبوا بحق وإما أن تصدقوا بباطل " .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

(24/598)

تقدم في الآية التي قبل هذه ما يتضمن نزول شرع وكتاب من عند الله على أنبياء قبل محمد عليه السلام فحسن لذلك عطف ﴿ كذلك أنزلنا ﴾ على ما في المضمر ، أي وكما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا إليك ، و﴿ الكتاب ﴾ القرآن ، وقوله ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾ يريد التوراة والإنجيل ، أي فالذين كانوا في عصر نزول الكتاب وأوتوه حينئذ ﴿ يؤمنون به ﴾ أي كانوا مصدقين بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك ، فالضمير في ﴿ به ﴾ عائد على القرآن ، ثم أخبر عن معاصري محمد صلى الله عليه وسلم أن منهم أيضاً ﴿ من يؤمن به ﴾ ولم يكونوا آمنوا بعد ، ففي هذا إخبار بغيب بينه الوجود بعد ذلك ، ثم أنحى على الجاحدين من أمة قد آمن سلفها في القديم وبعضها في الحديث ، وحصل الجاحدون في أخس رتبة من الضلال ، ويشبه أن يراد أيضاً في هذا الإنحاء كفار قريش مع كفار بني إسرائيل ، ثم بين تعالى الحجة على " المبطلين " المرتابين ما وضح أن مما يقوي نزول هذا القرآن من عند الله أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء به في غاية الإعجاز والطول

والتضمن للغيوب وغير ذلك وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يتلو كتاباً ولا يخط حرفاً ولا سبيل له إلى العلم ، فإنه لو كان ممن يقرأ ﴿ لارتاب المبطلون ﴾ وكان لهم في ارتيابهم متعلق ، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجة فظاهر فساده ، وقال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً لا يخط ولا يقرأ كتاباً فنزلت هذه الآية ، وذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى كتب وأسند أيضاً حديثاً إلى أبي كبشة السلولي مضمنه أنه عليه السلام قرأ صحيفة لعيينة بن حصن وأخبر بمعناها .

(25/598)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا كله ضعيف ، وقول الباجي رحمه الله منه ، وقوله تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ إضراب عن مقدر من الكلام يقتضيه ما تقدم كأنه قال : ليس الأمر كما حبسوا ﴿ بل هو ﴾ وهذا الضمير يحتمل أن يعود على القرآن ، ويؤيده أن في قراءة ابن مسعود " بل هي آيات " ، ويحتمل أن يعود على محمد صلى الله عليه وسلم ويؤيده أن قتادة قرأ " بل هو آية بينة " على الإفراد ، وقال : المراد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يعود على أمر محمد صلى الله عليه وسلم في أنه لم يتل ولا خط ، وبكل احتمال

قالت فرقة ، وكون هذا كله ﴿ آيات ﴾ أي علامات ﴿ في صدور ﴾ العلماء من المؤمنين بمحمد ، يراد به مع النظر والاعتبار . و ﴿ الظالمون ﴾ و ﴿ المبطلون ﴾ ، قيل يعم لفظهما كل مكذب بمحمد صلى الله عليه وسلم ولكن عظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم ، قاله مجاهد ، وقال قتادة : ﴿ المبطلون ﴾ اليهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(26/598)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تُجادِلوا أهل الكتاب إِلاَّ بالَّتي هي أحسن ﴾

في التي هي أحسن ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها لا إِله إلا الله ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنها الكفُّ عنهم إِذا بذلوا الجزية ، فإِن أَبَوْا قوتِلوا ، قاله مجاهد .

والثالث : أنها القرآن والدُّعاء إِلى الله بالآيات والحُجج .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَموا منهم ﴾ وهم الذين نصبوا الحرب وأَبَوْا أن يؤدُّوا الجزية ، فجادِلوا هؤلاء بالسيف حتى يُسْلِموا أو يُعطوا الجزية ﴿ وقولوا ﴾ لِمَن أدَّى الجزية منهم

إذا أخبركم بشيء ممَّا في كتبهم ﴿ آمَنَّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم . . .

﴾ [الآية] .

وقد روى أبو هريرة قال : "كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنَّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم . . .

﴾ " " [الآية] .

فصل

واختُلف في نسخ هذه الآية على قولين .

أحدهما : أنها نُسخت بقوله تعالى : ﴿ قاتِلوا الذين لا يؤمِنون بالله . . .

﴾ [التوبة : 29] إلى قوله : ﴿ وهم صاغرون ﴾ [التوبة : 29] قاله قتادة ، والكلبي .

والثاني : أنها ثابتة الحكم ، وهو مذهب ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ أي : وكما أنزلنا الكتاب عليهم ، ﴿ أنزَلْنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمِنون به ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿ ومِنْ هؤلاء ﴾ يعني أهل مكة ﴿ مَنْ يؤمِن به ﴾ وهم الذين أسلموا ﴿ وما يَجْحَد بآياتنا إلاَّ الكافرون ﴾ قال قتادة : إنَّما يكون الجَحْد بعد المعرفة .

قال مقاتل : وهم اليهود .

قوله تعالى : ﴿ وما كنتَ تتلو مِنْ قَبْله مِنْ كِتَاب ﴾ قال أبو عبيدة : مجازه : ما كنت تقرأ قبله كتاباً ، و "مِن" زائدة .

فأما الهاء في "قَبْله" فهي عائدة إلى القرآن .

(27/598)

والمعنى : ما كنتَ قارئاً قبل الوحي ولا كاتباً ، وهكذا كانت صفته في التوراة والإنجيل أنَّه أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا يدلّ على ان الذي جاء به ، من عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إذاً لارتاب المُبْطِلون ﴾ أي : لو كنتَ قارئاً كاتباً لشكَّ اليهودُ فيكَ ، ولقالوا : ليست هذه صفته في كتابنا .

والمُبْطِلون : الذين يأتون بالباطل ، وفيهم ها هنا قولان .

أحدهما : كفار قريش ، قاله مجاهد .

والثاني : كفار اليهود ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ بل هو آياتٌ بيِّناتٌ ﴾ في المكنيِّ عنه قولان .

أحدهما : أنه النبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أن المعنى : بل وجْدانُ أهل الكتاب في كتبهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقرأ ، وأنه أُمِّيٌّ ، آياتٌ بيِّنات في صدورهم ، وهذا مذهب ابن عباس ، والضحاك ، وابن جريج .

والثاني : أن المعنى : بل محمد ذو آيات بيِّنات في صدور الذين أوتوا العِلْم من أهل الكتاب ، لأَنَّهم يجدونه بنعته وصفته ، قاله قتادة .

والثاني : أنه القرآن ، والذين أوتوا العلم : المؤمنون الذين حملوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملوه بعده .

وإِنما أُعطي الحفظ هذه الأمة ، وكان مَنْ قبلهم لا يقرؤون كتابهم إِلاَّ نظراً ، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه سوى الأنبياء ، وهذا قول الحسن .

وفي المراد بالظالمين ها هنا قولان .

أحدهما : المشركون ، قاله ابن عباس .

والثاني : كفار اليهود ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(28/598)

وقال القرطبى :

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

فيه مسألتان :

الأولى : اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب ﴾ فقال مجاهد : هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .

وقوله على هذا ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ معناه ظلموكم ، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق .

وقيل : المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سَلام ومن آمن معه .

﴿ إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك .

وقوله على هذا التأويل : ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ ﴾ يريد به من بقي على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من قريظة والنّضِير وغيرهم .

والآية على هذا أيضاً محكمة .

وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال .

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ [التوبة : 29] .

قاله قتادة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي جعلوا لله ولداً ، وقالوا : ﴿ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : 64] و ﴿ إِنَّ الله فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران : 181] فهؤلاء المشركون (الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا) الجزية فانتصروا (منهم) .

قال النحاس وغيره : من قال هي منسوخة احتج بأن الآية مكية ، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزية ، ولا غير ذلك .

وقول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول .

واختار هذا القول ابن العربي .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : وقوله ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا ، أو يعطوا الجزية .

(29/598)

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ روى البخاريّ عن أبي هريرة : قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية ، لأهل الإسلام ؛

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم " ﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ .

وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما أن تكذّبوا بحق وإما أن تصدّقوا بباطل " وفي "البخاريّ" :

عن حُمَيد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة ، وذَكَرَ كعبَ الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لَنَبْلُو عليه الكذب .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ الضمير في ﴿ قَبْلِهِ ﴾ عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله ، ولا تختلف إلى أهل الكتاب ، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك ، فلو كنت ممن يقرأ كتاباً ، ويخط حروفاً ﴿ لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ أي من أهل الكتاب ، وكان لهم في ارتيابهم متعلَّق ، وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أميّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به .

قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قال النحاس : دليلاً على نبوته لقريش ؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك .

(30/598)

الثانية : ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى كتب .

وأسند أيضاً حديث أبي كَبْشة السَّلُولي ؛ مضمنه : أنه صلى الله عليه وسلم قرأ صحيفة لعُيَيْنة بن حِصن ، وأخبر بمعناها .

قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف ، وقول الباجي رحمه الله منه .

قلت : وقع في "صحيح مسلم" من حديث البراء في صلح الحديبية " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي : "اكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قضى عليه محمد رسول الله" فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله تابعناك وفي رواية بايعناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فأمر عليًا أن يمحوها ، فقال علي : والله لا أمحاه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرني مكانها" فأراه فمحاها وكتب ابن عبد الله "

قال علماؤنا رضي الله عنهم ؛ وظاهر هذا أنه عليه السلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وكتب مكانها ابن عبد الله .

وقد رواه البخاري بأظهر من هذا .

فقال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب .

وزاد في طريق أخرى : ولا يحسن أن يكتب .

فقال جماعة ، بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده ، منهم السمناني وأبو ذرّ والباجي ، ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أميّاً ، ولا معارَض بقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ ولا بقوله : "إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب" بل رأوه زيادة في معجزاته ، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته ، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة ، ولا تعاطٍ لأسبابها ، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ابن عبد الله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقاً للعادة ؛ كما أنه عليه السلام عِلم عِلم الأوّلين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب ، فكان ذلك أبلغ في معجزاته ، وأعظم في فضائله .

(31/598)

ولا يزول عنه اسم الأميّ بذلك ؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة : ولا يحسِن أن يكتب .

فبقي عليه اسم الأميّ مع كونه قال كتب .

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من متفقهة الأندلس وغيرهم ، وشدّدوا النكير فيه ، ونسبوا قائله إلى الكفر ، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية ، وعدم التوقف في تكفير المسلمين ، ولم يتفطنوا ؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه السلام في الصحيح ، لا سيما رميُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة ؛ على أن المسألة ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار أحادٍ صحيحة ، غير أن العقل لا يحيلها .

وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرين من قال هي آية خارقة ، فيقال له : كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب ؛ وبكونه أميّاً في أمّة أميّة قامت الحجة ، وأفحِم الجاحدون ، وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية . وإنما الآية ألاّ يكتب ، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً .

وإنما معنى كتب وأخذ القلم ؛ أي أمر من يكتب به من كُتّابه ، وكان من كتبة الوحي بين يديه

صلى الله عليه وسلم ستة وعشرون كاتباً .

الثالثة : ذكر القاضي عِياض " عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : "أَلقِ الدواة وحرّف القلَم وأقم الباء وفرّق السين ولا تُعور الميم وحسّن الله ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم" " قال القاضي : وهذا وإن لم تصح الرواية أنه صلى الله عليه وسلم كتب فلا يبعد أن يُرزَق علم هذا ، ويُمنَع القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجى .

(32/598)

فإن قيل : " فقد تهجى النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر الدجال فقال : "مكتوب بين عينيه ك ا ف ر" " وقلتم إن المعجزة قائمة في كونه أمياً ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ الآية وقال : "إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب" فكيف هذا ؟

فالجواب ما نصّ عليه صلى الله عليه وسلم في حديث حذيفة ، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضاً .

ففي حديث حذيفة : "يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب" فقد نصّ في ذلك على غير

الكتاب ممن يكون أميّاً .

وهذا من أوضح ما يكون جلياً .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ يعني القرآن .

قال الحسن : وزعم الفراء في قراءة عبد الله "بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ" المعنى بل آيات القرآن آيات بينات .

قال الحسن : ومثله ﴿ هذا بَصَآئِرُ ﴾ [الأعراف : 203] ولو كانت هذه لجاز ، نظيره : ﴿ هذا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ [الكهف : 98] قال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرؤون كتابهم إلا نظراً ، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون .

فقال كعب في صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء وهم في الفقه أنبياء .

﴿ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ أي ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر ، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه .

وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به ، يحفظونه ويقرؤونه .

ووصفهم بالعلم ؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين .

وقال قتادة وابن عباس : ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم "آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أميّا

لا يقرأ ؛ ولا يكتب ، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا .

وهذا اختيار الطبريّ .

(33/598)

ودليل هذا القول قراءة ابن مسعود وابن السَّمَيْقَع : ﴿ بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتَ ﴾ وكان عليه السلام آيات لا آية واحدة ؛ لأنه دلّ على أشياء كثيرة من أمر الدين ؛ فلهذا قال : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتَ ﴾ .

وقيل : بل هو ذو آيات بيّنات ، فحذف المضاف .

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظالمون ﴾ أي الكفار ؛ لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(34/598)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

و﴿ أهل الكتاب ﴾ : اليهود والنصارى .

﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ : من الملاطفة في الدعاء إلى الله والتنبيه على آياته .

﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ : ممن لم يؤد جزية ونصب الحرب ، وصرح بأن لله ولداً أو شريكاً ، أو يده مغلولة ؛ فالآية منسوخة في مهادنة من لم يحارب ، قاله مجاهد ومؤمنو أهل الكتاب .

﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ : أي بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم .

﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ : من بقي منهم على كفره ، وعد لقريظة والنضير ، قاله ابن زيد ، والآية على هذا محكمة .

وقيل : إلا الذين آذوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقال قتادة : الآية منسوخة بقوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون ﴾ الآية .

وقرأ الجمهور : إلا ، حرف استثناء ؛ وابن عباس : ألا ، حرف تنبيه واستفتاح ، وتقديره : ألا جادلوهم بالتي هي أحسن .

﴿ وقولوا آمنا ﴾ : هذا من المجادلة بالأحسن .

﴿ بالذي أنزل إلينا ﴾ ، وهو القرآن ، ﴿ وأنزل إليكم ﴾ ، وهو التوراة والزبور والإنجيل .

وفي صحيح البخاري ، عن أبي هريرة : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لا

تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم " ﴿ وكذلك ﴾ : أي مثل ذلك الإنزال الذي للكتب السابقة ، ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ : أي القرآن .

﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم : عبد الله بن سلام ومن آمن معه .

﴿ ومن هؤلاء ﴾ : أي من أهل مكة .

وقيل : ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾ : أي الذين تقدموا عهد الرسول ، يؤمنون به : أي بالقرآن ، إذ هو مذكور في كتبهم أنه ينزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ ومن هؤلاء ﴾ : أي ممن في عهده منهم .

(35/598)

﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ ، مع ظهورها وزوال الشبهة عنها ، ﴿ إلا الكافرون ﴾ : أي من بني إسرائيل وغيرهم .

قال مجاهد : كان أهل الكتاب يقرأون في كتبهم أن محمداً عليه السلام ، لا يخط ولا يقرأ كتاباً ، فنزلت : ﴿ وما كنت تتلوا من قبله ﴾ : أي من قبل نزوله عليك ، ﴿ من كتاب ﴾ : أي كتاباً ، ومن زائدة لأنها في متعلق النفي ، ﴿ ولا تخطه ﴾ : أي لا تقرأ ولا تكتب ، ﴿

بيمينك ﴾ : وهي الجارحة التي يكتب بها ، وذكرها زيادة تصوير لما نفي عنه من الكتابة ، لما ذكر إنزال الكتاب عليه ، متضمناً من البلاغة والفصاحة والإخبار عن الأمم السابقة والأمور المغيبة ما أعجز البشر أن يأتوا بسورة مثله .

أخذ يحقق ، كونه نازلاً من عند الله ، بأنه ظهر عن رجل أمي ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يخالط أهل العلم .

وظهور هذا القرآن المنزل عليه أعظم دليل على صدقه ، وأكثر المسلمين على أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يكتب قط ، ولم يقرأ بالنظر في كتاب .

وروي عن الشعبي أنه قال : ما مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حتى كتب وأسند النقاش .

حديث أبي كبشة السلولي : أنه (صلى الله عليه وسلم) ، قرأ صحيفة لعيينة ابن حصن وأخبر بمعناها .

وفي صحيح مسلم ما ظاهره : أنه كتب مباشرة ، وقد ذهب إلى ذلك جماعة ، منهم أبو ذر عبد الله بن أحمد الهروي ، والقاضي أبو الوليد الباجي وغيرهما .

واشتد نكير كثير من علماء بلادنا على أبي الوليد الباجي ، حتى كان بعضهم يسبه ويطعن فيه على المنبر .

وتأول أكثر العلماء ما ورد من أنه كتب على أن معناه : أمر بالكتابة ، كما تقول : كتب السلطان لفلان بكذا ، أي أمر بالكتب .

(36/598)

﴿ إذاً لارتاب المبطلون ﴾ : أي لو كان يقرأ كتباً قبل نزول القرآن عليه ، أو يكتب ، لحصلت الريبة للمبطلين ، إذ كانوا يقولون : حصل ذلك الذي يتلوه مما قرأه ، قيل : وخطه واستحفظه ؛ فكان يكون لهم في ارتيابهم تعلق ببعض شبهة ، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجة فظاهر فساده .

والمبطلون : أهل الكتاب ، قاله قتادة ؛ أو كفار قريش ، قاله مجاهد .

وسموا مبطلين ، لأنهم كفروا به ، وهو أمي بعيد من الريب .

ولما لم يكن قارئاً ولا كاتباً ، كان ارتيابهم لا وجه له .

﴿ بل هو ﴾ : أي القرآن : ﴿ آيات بينات ﴾ : واضحات الإعجاز ، ﴿ في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ : أي مستقرة ، مؤمن من بها ، محفوظة في صدورهم ، يتلوها أكثر الأمة ظاهراً ، بخلاف غيره من الكتب ، فليس بمعجز ، ولا يقرأ إلا من الصحف .

وجاء في صفة هذه الأمة صدورهم : أنا جيلهم ، وكونه القرآن ، يؤيده قراءة عبد الله ، بل

هي آيات .

وقيل : بل هو ، أي النبي وأموره ، آيات بينات ، قاله قتادة .

وقرأ : بل هو آية بينة على التوحيد ؛ وقيل : بل هو ، أي كونه لا يقرأ ولا يكتب .

ويقال : جحدته وجحدت به ، وكفرته وكفرت به ، قيل : والجحود الأول معلق بالواحدنية ، والثاني معلق بالنبوّة ، وختمت تلك بالكافر .

ولأنه قسيم المؤمنين في قوله : ﴿ يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن ﴾ ، وهذه بالظالمين ، لأنه جحد بعد إقامة الدليل على كون الرسول صدر منه القرآن منزل عليه ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، فهم الظالمون بعد ظهور المعجزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(37/598)

وقال أبو السعود :

﴿ ولاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب ﴾

(38/598)

من اليَهودِ والنَّصارَى ﴿ إلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسنُ كمقابلةِ الخشونةِ باللِّينِ والغضبِ بالكظمِ والمشاغبةِ بالنُّصحِ والسَّورةِ بالأَناة على وجهٍ لا يدلُّ على الضَّعفِ ولا يُؤدّي إلى إعطاءِ الدَّنيةِ وقيل : منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ ﴿ إلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ بالإفراطِ في الاعتداءِ والعنادِ أو بإثباتِ الولدِ وقولِهم : يدُ الله مغلولةٌ ونحو ذلك فإنَّه يجبُ حينئذٍ المُدافعةُ بما يليقُ بحالِهم ﴿ وَقُولُواْ ءامَنَّا بالذى أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ من القُرآنِ ﴿ وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ أي وبالذي أُنزل إليكُم من التَّوراةِ والإنجيلِ وقد مرَّ تحقيقُ كيفيَّةِ الإيمانِ بهما في خاتمةِ سورةِ البقرةِ . وعن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " لا تُصدّقوا أهلَ الكتابِ ولا تكذِّبُوهم وقولُوا آمنَّا بالله وبكتبه ورسلِه فإنْ قالُوا باطِلاً لم تصدّقوهم وإنْ قالُوا حقّاً لم تكذِّبُوهم " ﴿ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ ﴾ لا شريكَ له في الأُلوهيَّةِ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ مُطيعونَ خاصَّة وفيه تعريضٌ بحالِ الفريقينِ حيثُ اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دُونِ الله ﴿ وكذلك ﴾ تجريدٌ للخطابِ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وذلكَ إشارةٌ إلى مصدرِ الفعلِ الذي بعدَهُ ، وما فيهِ مِن مَعْنى البُعدِ للإيذانِ ببُعدِ منزلةِ المُشارِ إليه في الفضلِ أي مثلَ ذلكَ الإنزالِ البديعِ الموافقِ لإنزالِ سائرِ الكتبِ ﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ أي القُرآنَ الذي من جُملتِه هذهِ الآيةُ النَّاطقةُ بما ذُكر من المُجادلةِ بالحُسْنَى ﴿ فالذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ من الطَّائفتينِ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أُريد بهم عبدُ اللَّهِ بنُ سَلاَم وأضرابُه من أهلِ

الكتابين خاصَّة كأنَّ من عداهُم لم يُؤتَوا الكتابَ حيثُ لم يعملوا بما فيهِ أو مَنْ تقدم عهدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم منهم حيثُ

(39/598)

كانُوا مصدّقين بنزولِه حسبما شاهدُوا في كتابيهما ، وتخصيصُهم بإيتاءِ الكتابِ للإيذانِ بأنَّ مَن بعدهم من مُعاصري رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قد نُزع عنهم الكتابُ بالنَّسخِ فلم يُؤتَوه . والفاءُ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها فإنَّ إيمانَهم به مترتّبٌ على إنزالِه على الوجهِ المذكُورِ ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء ﴾ أي ومِن العربِ أو أهلِ مكَّةَ على الأولِ أو ممَّن في عصرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الثَّاني ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي بالقُرآنِ ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ عبَّر عن الكتابِ بالآياتِ للتنبيهِ على ظهورِ دلالتِها على معانيها وعلى كونِها من عندِ الله تعالى ، وأُضيفتْ إلى نونِ العظمةِ لمزيدِ تفخيمِها وغايةِ تشنيعِ مَنْ يجحدُ بها ﴿ إِلاَّ الكافرون ﴾ المتوغّلون في الكُفرِ المصمّمون عليهِ فإنَّ ذلكَ يصدُّهم عن التَّأملِ فيما يُؤدّيهم إلى معرفةِ حقّيتها وقيل : هم كعبُ بنُ الأشرفِ وأصحابِه .

(40/598)

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ ﴾ أي ما كنتَ قبل إنزالِنا إليك الكتابَ تقدرُ على أنْ تتلوَ شيئاً من كتابٍ ﴿ وَلاَ تَخُطُّهُ ﴾ أي ولا تقدرُ على أنْ تخطَّه ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ حسبَما هُو المعتادُ أو ما كانت عادَتُك أنْ تتلوَه ولا أنْ تخطَّه ﴿ إِذاً لارتاب المبطلون ﴾ أي لو كنتَ ممَّن يقدرُ على التِّلاوةِ والخطِّ أو ممَّن يعتادُهما لارتابُوا وقالُوا : لعلَّه التقطَه من كتبِ الأوائلِ ، وحيثُ لم تكن كذلكَ لم يبقَ في شأنِك منشأُ ريبٍ أصلاً ، وتسميتُهم مُبطلينَ في ارتيابِهم على التَّقديرِ المفروضِ لكونِهم مُبطلينَ في اتِّباعِهم للاحتمالِ المذكورِ مع ظهورِ نزاهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذلكَ ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي القرآنُ ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ واضحاتٌ ثابتةٌ راسِخةٌ ﴿ فِى صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ من غيرِ أنْ يُلتقطَ من كتابٍ يحفظونَهُ بحيثُ لا يقدرُ أحدٌ على تحريفِه ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتنا ﴾ مع كونِها كما ذُكر ﴿ إِلاَّ الظالمون ﴾ المُتجاوزونَ للحدودِ في الشرِّ والمكابرةِ والفسادِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(41/598)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب ﴾

من اليهود والنصارى ، وقيل : من نصارى نجارن ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والمشاغبة بالنصح ، والسورة بالإناة كما قال سبحانه : ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون : 96] ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ بالافراد في الاعتداء والعناد ، ولم يقبلوا النصح ، ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أن الذين ظلموا هم الذين أثبتوا الولد والشريك أو قالوا يد الله تعالى مغلولة ، أو الله سبحانه فقير ، أو آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الغلظة التي نفهم الآية الاذن بها لا تصل إلى القتال لأولئك الظالمين من أهل الكتاب على أي وجه من الوجوه المذكورة كان ظلمهم لأن ظاهر كون السورة مكية أن هذه الآية مكية ، والقتال في المشهور لم يشرع بمكة وليست الغلظة محصورة فيه كما لا يخفى ، وقيل : المعنى ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤدين للجزية إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فإن أولئك مجادلتهم بالسيف .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ما يقرب منه ، وتعقب بأن السورة مكية والحرب

والجزية مما شرع بالمدينة ، وكون الآية بياناً لحكم آت بعد بعيد وأيضاً لا قرينة على التخصيص .

وقيل : يجوز أن يكون القائل بذلك ذاهباً إلى أن الآية مدنية ومكية السورة باعتبار أغلب آياتها ؛ أو ممن يقول : بأن الحرب شرع بمكة في آخر الأمر ، والسورة آخر ما نزل بها إلا أنه لم يقع وعدم الوقوع لا يدل على عدم المشروعية .

وعن ابن زيد أن المراد بأهل الكتاب مؤمنو أهل الكتاب وبالتي هي أحسن موافقتهم فيما حدثوا به من أخبار أوائلهم وبالذين ظلموا من بقي منهم على كفره وهو كما ترى ، واختلف في نسخ الآية .

فأخرج أبو داود في ناسخه .

وابن جرير .

وابن المنذر .

(42/598)

وابن أبي حاتم .

وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة أنه قال : نهى في هذه الآية عن مجادلة أهل الكتاب ،

ثم نسخ ذلك فقال سبحانه : ﴿ قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله ولاَ باليوم الآخر ﴾ [التوبة : 9 2] الآية ولا مجادلة أشد من السيف ، وقال في مجمع البيان : الصحيح أنها غير منسوخة لأن المراد بالجدال المناظرة وذلك على الوجه الأحسن هو الواجب الذي لا يجوز غيره .

وقال بعض الأجلة : إن المجادلة بالحسنى في أوائل الدعوة لأنها تتقدم القتال فلا يلزم النسخ ولا عدم القتال بالكلية ، وأما كون النهي يدل على عموم الأزمان فيلزم النسخ فلا يتم ما ذكر فيدفعه أن من يقاتل كمانع الجزية داخل في المستثنى فلا نسخ وإنما هو تخصيص بمتصل ، وكون ذلك يقتضي مشروعية القتال بمكة ليس بصحيح لأنه مسكوت عنه فتأمل .

وقرأ ابن عباس ﴿ إِلاَّ بالتى ﴾ الخ ، على أن ﴿ إِلا ﴾ حرف تنبيه واستفتاح ، والتقدير ألا جادلوهم بالتي هي أحسن ﴿ وَقُولُواْ ءامَنَّا بالذى أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ من القرءان ﴿ وَ ﴾ الذي ﴿ الذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ﴾ أي وبالذي أنزل إليكم من التوراة والإنجيل ، وهذا القول نوع من المجادلة بالتي هي أحسن ، وعن سفيان بن حسين أنه قال : هذه مجادلتهم بالتي هي أحسن .

وأخرج البخاري .

والنسائي .

وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون الكتاب بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا

تكذبوهم وقولوا ءامنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم " الآية ، والتصديق والتكذيب ليسا نقيضين فيجوز ارتفاعهما .

﴿ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له في الألوهية ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مطيعون خاصة كما يؤذن بذلك تقديم ﴿ لَهُ ﴾ ، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى .

(43/598)

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ تجريد للخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل أي مثل ذلك الإنزال البديع الشأن الموافق لإنزال سائر الكتب أنزلنا إليك القرءان الذي من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالتي هي أحسن ، وقيل : الإشارة إلى ما تقدم لذكر الكتاب وأهله أي وكما أنزلنا الكتاب إلى من قبلك أنزلنا إليك الكتاب .

﴿ فالذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ﴾ من الطائفتين اليهود والنصارى على أن المراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والإنجيل والكلام على ظاهره ، وقيل : هو على حذف مضاف أي آتيناهم

على الكتاب ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالكتاب الذي أنزل إليك ، وقيل : الضمير له صلى الله عليه وسلم وهو كما ترى ، والمراد بهم في قول من تقدم عهد النبي صلى الله عليه وسلم من أولئك حيث كانوا مصدقين بنزول القرآن حسبما علموا مما عندهم من الكتاب ، والمضارع لاستحضار تلك الصورة في الحكاية وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأن ما بعدهم من معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ ، وفي قول آخر معاصروه عليه الصلاة والسلام العاملون بكتابهم من عبد الله بن سلام وأضرابه ، وتخصيصهم بإيتاء الكتاب لما أنهم هم المنتفعون به فكأن من عداهم لم يؤتوه ، قيل : هذا يؤيد القول : بأن الآيات المذكورة مدنية إذ كونها مكية وعبد الله ممن أسلم بعد الهجرة بناء على أنه اعلام من الله تعالى بإسلامهم في المستقبل ، والتفصيل باعتبار الإعلام بعيداً جداً ، وجوز الطبرسي أن يراد بالموصول المسلمون من هذه الأمة وضمير ﴿ بِهِ ﴾ للقرآن ، ولا يخفى ما فيه ، ولعل الأظهر كون المراد به علماء أهل الكتابين الحريون بأن ينسب إليهم إيتاء الكتاب كعبد الله بن سلام .

(44/598)

وأضرابه ، ولا بعد في كون الآيات مكية بناء على ما سمعت ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء ﴾ أي ومن العرب أو من أهل مكة على أن المراد بالموصول عبد الله .

وأضرابه ، ولا بعد في كون الآيات مكية بناء على ما سمعت ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء ﴾ أي ومن العرب أو من أهل مكة على أن المراد بالموصول عبد الله .

واضرابه ، أو ممن في عصره صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى على أن المراد به من تقدم ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي بالكتاب الذي أنزل إليك ، ﴿ وَمِنْ ﴾ على ما استظهره بعضهم تبعيضية واقعة موقع المبتدأ وله نظائر في الكتاب الكريم ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ أي ﴿ وَمَا يَجْحَدُ ﴾ به ، وأقيم هذا الظاهر مقام الضمير للتنبيه على ظهور دلالة الكتاب على ما فيه وكونه من عند الله عز وجل ، والإضافة إلى نون العظمة لمزيد التفخيم .

وفيما ذكر غاية التشنيع على من يجحد به .

والجحد كما قال الراغب : نفي ما في القلب ثباته وإثبات ما في القلب نفيه ، وفسر هنا بالإنكار عن علم فكأنه قيل : وما ينكر آياتنا مع العلم بها ﴿ إِلاَّ الكافرون ﴾ أي المتوغلون في الكفر المصممون عليه فإن ذلك يمنعهم عن الإقرار والتسليم ، وقيل : يجوز أن يفسر بمطلق الإنكار ، ويراد بالكافرين المتوغلون في الكفر أيضاً لدلالة فحوى الكلام ، والتعبير

بآياتنا على ذلك أي وما ينكر آياتنا مع ظهورها وارتفاع شأنها إلا المتوغلون في الكفر لأن ذلك يصدهم عن الاعتناء بها والالتفات إليها والتأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيتها ، والمراد بهم من اتصف بتلك الصفة من غير قصد إلى معين ، وقيل : هم كعب بن الأشرف . وأصحابه .

(45/598)

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْهُ قَبْلِهِ ﴾ أي وما كنت من قبل أنزالنا إليك الكتاب تقدر على أن تتلو ﴿ مِن كتاب ﴾ أي كتاباً على أن ﴿ مِنْ ﴾ صلة ﴿ وَلاَ تَخُطُّهُ ﴾ ولا تقدر على أن تخطه ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ أو ما كانت عادتك أن تتلوه ولا تخطه ، وذكر اليمين زيادة تصوير لما نفي عنه صلى الله عليه وسلم من الخط فهو مثل العين في قولك : نظرت بعيني في تحقيق الحقيقة وتأكيدها حتى لا يبقى للمجاز مجاز ﴿ إِذاً لارتاب المبطلون ﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتاب مشركو مكة وقالوا : لعله التقطه من كتب الأوائل ، وحيث لم تكن كذلك لم يكن لارتيابهم وجه ، وكأن احتمال التعليم مما لم يلتفت إليه لظهور أن مثله من الكتاب المفصل الطويل لا يتلقى ويتعلم إلا في زمان طويل بمدارسة لا يخفى مثلها ، ووصف مشركي مكة بالإبطال باعتبار ارتيابهم وكفرهم وهو عليه الصلاة

والسلام أمي فكأنه قيل : اذن لارتاب هؤلاء المبطلون الآن وكان إذ ذاك .

لارتيابهم وجه ، وقيل : وصفهم بذلك باعتبار ارتيابهم ، وهو صلى الله عليه وسلم أمي وباعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام ليس بأمي أما كونهم مبطلين بالاعتبار الأول فظاهر ، وأما كونهم كذلك بالاعتبار الثاني فلأن غاية ما يلزم من عدم أميته صلى الله عليه وسلم انتفاء أحد وجوه الاعجاز ، ويكفي الباقي في الغرض فيكون المرتاب مبطلاً كالمرتاب في نبوة الأنبياء الذين لم يكونوا أميين وصحة ما جاؤوا به .

(46/598)

والأول أظهر ، وكون المراد بالمبطلين مشركي مكة هو المروى عن مجاهد ، وقال قتادة : هم أهل الكتاب أي لو كنت تتلو من قبل أو تخط لارتاب أهل الكتاب لأن نعتك في كتابهم أمي ، ووصفهم بالإبطال قيل : باعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام أمي كما هو الواقع ، وإلا فهم ليسوا بمبطلين في ارتيابهم على فرض عدم كونه صلى الله عليه وسلم أمياً ، وفي الكشف هذا فرض وتمثيل دلالة على أن مدار الأمر على المعجز ، وان كونه عليه الصلاة والسلام أمياً لا يخط ليس مما لا يتم دعواه به ، وتلك الدلالة لا تختلف والمنكر مبطل اه فتأمل .

هذا واختلف في أنه صلى الله عليه وسلم هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا ؟ فقيل : إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة واختاره البغوي في التهذيب وقال : إنه الأصح ، وادعى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية .

فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ ، وروي ابن أبي شيبة .

وغيره "ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ" .

ونقل هذا للشعبي فصدقه وقال : سمعت أقواماً يقولونه وليس في الآية ما ينافيه ، وروي ابن ماجه عن أنس قال : " قال صلى الله عليه وسلم : رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر " والقدرة على القراءة فرع الكتابة ورد باحتمال أقدار الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام عليها بدونها معجزة أو فيه مقدر وهو فسألت عن المكتوب فقيل : الخ ، ويشهد للكتابة أحاديث في "صحيح البخاري" .

وغيره كما ورد في صلح الحديبية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث ، وممن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروي .

وأبو الفتح النيسابوري .

وأبو الوليد الباجي من المغاربة ، وحكاه عن السمناني ، وصنف فيه كتاباً ، وسبقه إليه ابن منية ، ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمي بالزندقة وسب على المنابر ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتابة بعد أميته صلى الله عليه وسلم لا تنافي المعجزة بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم ، ورد بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله : كتب فمعناه أمر بالكتابة كما يقال : كتب السلطان بكذا لفلان ، وتقديم قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ على قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَخُطُّهُ ﴾ كالصريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطرد ، وظن بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده فقال : يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلواً عن الفائدة ، وأنت تعلم أنه لو سلم ما ذكره من الرجوع لا يتم أمر الإفادة إلا إذ قيل بحجية المفهوم والظان ممن لا يقول بحجيته ، ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام : " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " ليس نصاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه

الصلاة والسلام ، ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو وكذا أكثر من بعث إليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب أميون لا يكتبون ولا يحسبون فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد ، وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة فخلاف الظاهر ، وفي شرح "صحيح مسلم" للنواوي عليه الرحمة نقلاً عن القاضي عياض أن قوله في الرواية التي ذكرناها : ولا يحسن يكتب فكتب كالنص في أنه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ثم قال : وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة وشنعت كل فرقة على الأخرى

(48/598)

في هذا فالله تعالى أعلم .

ورأيت في بعض الكتب ولا أدري الآن أي كتاب هو أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقرأ ما يكتب لكن إذا نظر إلى المكتوب عرف ما فيه بأخبار الحروف إياه عليه الصلاة والسلام عن أسمائها فكل حرف يخبره عن نفسه أنه حرف كذا وذلك نظير أخبار الذراع اياه صلى الله عليه وسلم بأنها مسمومة .

وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل بدون خبر صحيح ولم أظفر به .

﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي القرآن ، وهذا اضراب عن ارتيابهم ، أي ليس القرآن مما يرتاب فيه لوضوح أمره بل هو ﴿ ءايات بَيّنَاتٍ ﴾ واضحات ثابتة راسخة ﴿ فِى صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ من غير أن يلتقط من كاتب يحفظونه بحيث لا يقدر على تحريفه بخلاف غيره من الكتب ، وجاء في وصف هذه الأمة صدورهم أناجيلهم ، وكون ضمير هو للقرآن هو الظاهر ، ويؤيده قراءة عبد الله ﴿ بَلْ هِىَ ءايات بَيّنَاتٍ ﴾ ، وقال قتادة : الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم وقرأ ﴿ بَلْ هُوَ بَيّنَةٌ لّقَوْمٍ ﴾ على التوحيد ، وجعله بعضهم له عليه الصلاة والسلام على قراءة الجمع على معنى بل النبي وأموره آيات ، وقيل : الضمير لما يفهم من النفي السابق أي كونه لا يقرأ لا يخط آيات بينات في صدور العلماء من أهل الكتاب لأن ذلك نعت النبي عليه الصلاة والسلام في كتابهم ، والكل كما ترى ، وفي الأخير حمل ﴿ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ على علماء أهل الكتاب وهو مروى عن الضحاك .

والأكثرون على أنهم علماء الصحابة أو النبي صلى الله عليه وسلم وعلماء أصحابه ، وروي هذا عن الحسن .

وروي بعض الإمامية عن أبي جعفر .

وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنهم الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ مع كونها كما ذكر ﴿ إِلاَّ الظالمون ﴾ المتجاوزون للحد في الشر والمكابرة والفساد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾

يوالونهم ، ويتكلون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجماد أو الحيوان ، ومن الأحياء أو من الأموات ﴿ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً ﴾ فإن بيتها لا يغني عنها شيئاً لا في حرّ ولا قرّ ولا مطر ، كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله ، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ، ولا يغني عنهم شيئاً .

قال الفراء : هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضرّه ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّاً ، ولا برداً .

قال : ولا يحسن الوقف على العنكبوت ؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضرّ به ، وقد جوّز الوقف على العنكبوت الأخفش ، وغلطه ابن الأنباري قال : لأن اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال : كمثل العنكبوت التي ﴿ اتخذت ﴾ بيتاً ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول .

والعنكبوت تقع على الواحد ، والجمع والمذكر والمؤنث ، وتجمع على عناكب وعنكبوتات

، وهي : الدّويبة الصغيرة التي تنسج نسجاً رقيقاً .

وقد يقال لها : عكنبات ، ومنه قول الشاعر :

كأنما يسقط من لغامها . . . بيت عكنبات على زمامها

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت ﴾ لا بيت أضعف منه مما يتخذه الهوامّ بيتاً ، ولا يدانيه في الوهي والوهن شيء من ذلك ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً ، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم لعلموا بهذا ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ما استفهامية ، أو نافية ، أو موصولة ، ومن للتبعيض أو مزيدة للتوكيد .

وقيل : إن هذه الجملة على إضمار القول ، أي قل للكافرين : إن الله يعلم أيّ شيء يدعون من دونه .

(50/598)

وحرّم أبو علي الفارسي بأنها استفهامية ، وعلى تقدير النفي كأنه قيل : إن الله يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شيء ، يعني : ما تدعونه ليس بشيء ، وعلى تقدير الموصولة : إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه ، ويجوز أن تكون " ما " مصدرية ، و ﴿ من شيء ﴾ عبارة

عن المصدر .

قرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب : " يدعون " بالتحتية .

واختار هذه القراءة أبو عبيد لذكر الأمم قبل هذه الآية .

وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام والإتقان .

﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أي هذا المثل ، وغيره من الأمثال التي في القرآن نضربها للناس تنبيهاً لهم ، وتقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ أي يفهمها ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله ﴿ إِلاَّ العالمون ﴾ بالله الراسخون في العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم وما يشاهدونه .

﴿ خَلَقَ الله السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل ، والقسط مراعياً في خلقها مصالح عباده .

وقيل : المراد بالحق : كلامه وقدرته ، ومحل ﴿ بالحق ﴾ النصب على الحال ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته ، وتفرّده بالإلهية ، وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك .

﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ أي القرآن ، وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن ، والمحافظة على قراءته مع التدبر لآياته والتفكر في معانيه ﴿ وَأَقِمِ الصلاة إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ أي : دم على إقامتها ، واستمرّ على أدائها كما أمرت بذلك ، وجملة : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ تعليل لما قبلها ، والفحشاء ما قبح من العمل ، والمنكر : ما لا يعرف في الشريعة ، أي تمنعه عن معاصي الله ، وتبعده منها ، ومعنى نهيها عن ذلك أن فعلها يكون سبباً للانتهاء ، والمراد هنا الصلوات المفروضة ﴿ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ﴾ أي أكبر من كل شيء ، أي أفضل من العبادات كلها بغير ذكر .

قال ابن عطية : وعندي أن المعنى : ولذكر الله أكبر على الإطلاق ، أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة ؛ لأن الانتهاء لا يكون إلاّ من ذاكر لله مراقب له .

وقيل : ذكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء ، والمنكر مع المداومة عليه .

قال الفراء ، وابن قتيبة : المراد بالذكر في الآية : التسبيح ، والتهليل ، يقول : هو أكبر وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء ، والمنكر .

وقيل : المراد بالذكر هنا الصلاة ، أي وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وعبر عنها بالذكر كما في قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الجمعة : 9] للدلالة على أن ما فيها من الذكر

هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات ، وقيل : المعنى : ولذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم ، واختار هذا ابن جرير ، ويؤيده حديث : " من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم " ﴿ واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشرّ شرّاً .

(52/598)

﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي إلاّ بالخصلة التي هي أحسن ، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عزّ وجلّ والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ بأن أفرطوا في المجادلة ولم يتأدّبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين في مجادلتهم ، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى .

وقيل : معنى الآية : لا تجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسائر من آمن منهم ﴿ إلاّ بالتي هي أحسن ﴾ يعني : بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أهل الكتاب ، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم : الباقون على كفرهم .

وقيل : هي الآية منسوخة بآيات القتال ، وبذلك قال قتادة ، ومقاتل .

قال النحاس : من قال : هذه منسوخة ، احتج بأن الآية مكية ، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزية ولا غير ذلك .

قال سعيد بن جبير ومجاهد : إن المراد بالذين ظلموا منهم : الذين نصبوا القتال للمسلمين فجدالهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿ وَقُولُواْ ءَامَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ من القرآن ﴿ وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ من التوراة والإنجيل ، أي آمنا بأنهما منزلان من عند الله ، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية والبعثة المحمدية ، ولا يدخل في ذلك ما حرّفوه وبدّلوه ﴿ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي ونحن معاشر أمة محمد مطيعون له خاصة ، لم نقل : عزير ابن الله ، ولا المسيح ابن الله ، ولا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أرباباً من دون الله ، ويحتمل أن يراد : ونحن جميعاً منقادون له ، ولا يقدح في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتمّ من انقياد أهل الكتاب وطاعتهم أبلغ من طاعاتهم .

(53/598)

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ الآية قال : ذاك مثل ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " العنكبوت شيطان مسخها الله فمن وجدها فليقتلها " وأخرج ابن أبي حاتم عن مزيد بن ميسرة قال : العنكبوت شيطان .

وأخرج الخطيب عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهنّ " وروى القرطبي في تفسيره عن عليّ أيضاً أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيت يورث الفقر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني قال : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود ، والثانية على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ قال : في الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصي .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عمران بن حصين قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ فقال : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له " وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلاّ بعدًا " وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، والبيهقي في الشعب عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له " ، وفي لفظ : " لم يزدد بها من الله إلاّ بعدا " وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعاً نحوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه .

قال السيوطي : وسنده ضعيف .

(54/598)

وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد في الزهد ، وابن جرير وابن المنذر ، والطبراني [والبيهقي] في الشعب عنه نحوه موقوفاً .

قال ابن كثير في تفسيره : والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ يقول : ولذكر الله لعباده إذا ذكروه أكبر من ذكرهم إياه .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم

وصححه ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن ربيعة قال : سألني ابن عباس عن قول الله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ فقلت : ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتكبير قال : لذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه ، ثم قال : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ [البقرة : 152] .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير عن ابن مسعود : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله .

وأخرج ابن السني وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : لها وجهان ذكر الله أكبر مما سواه ، وفي لفظ ذكر الله عند ما حرّمه ، وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : ما عمل آدميّ عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع ، لأن الله يقول في كتابه العزيز : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر ، والحاكم في الكنى ، والبيهقي في الشعب عن عنترة قال : قلت لابن عباس : أيّ العمَل أفضل ؟ قال : ذكر الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ قال : بلا إله إلاّ الله .

وأخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون " وأخرج البيهقي في الشعب ، والديلمي ، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تصدّقوا بباطل ، أو تكذبوا بحق ، والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلّ له إلاّ أن يتبعني " وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب ، وذكر نحو حديث جابر ، ثم قال : فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(56/598)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب ﴾ [العنكبوت : 45] الآية ، باعتبار ما تستلزمه تلك من متاركة المشركين والكف عن مجادلتهم بعد قوله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعْقِلُها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] كما تقدم آنفاً .

وقد كانت هذه توطئة لما سيحدث من الدعوة في المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لأن مجادلة أهل الكتاب لا تَعرِض للنبيء صلى الله عليه وسلم ولا للمؤمنين في مكة ، ولكن لما كان النبي عليه الصلاة والسلام في إبان نزول أواخِر هذه السورة على وشْك الهجرة إلى المدينة وكانت الآيات السابقة مجادلةً للمشركين غليظة عليهم من تمثيل حالهم بحال العنكبوت ، وقوله ﴿ وما يعقِلُها إلى العالمون ﴾ هَيأ الله لرسوله عليه الصلاة والسلام طريقة مجادلة أهل الكتاب .

فهذه الآية معترضة بين محاجّة المشركين والعود إليها في قوله تعالى ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ﴾ [العنكبوت : 47] الآيات .

وجيء في النهي بصيغة الجمع ليعمّ النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين إذ قد تعرض للمسلمين مجادلات مع أهل الكتاب في غير حضرة النبي صلى الله عليه وسلم أو قبل قدومه المدينة .

والمجادلة : مفاعلة من الجَدل ، وهو إقامة الدليل على رأي اختلَف فيه صاحبه مع غيره ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يَخْتانون أنفسهم ﴾ في سورة النساء (107) .

وبهذا يعلم أن لا علاقة لهذه الآية بحكم قتال أهل الكتاب حتى ينتقل من ذلك إلى أنها هل نسخت أم بقي حكمها لأن ذلك خروج بها عن مهيعها .

والمجادلة تعرض في أوقات السلم وأوقات القتال .

وأهل الكتاب ﴾ : اليهود والنصارى في اصطلاح القرآن .

والمقصود هنا اليهود فهم الذين كانوا كثيرين في المدينة والقرى حولَها .

(57/598)

ويشمل النصارى إن عرضت مجادلتهم مثل ما عرض مع نصارى نجران .

و﴿ بالتي هي أحسن ﴾ مستثنى من محذوف دل عليه المستثنى ، تقديره : لا تجادلوهم بجدال إلا بجدال بالتي هي أحسن .

و﴿ أحسن ﴾ اسم تفضيل يجوز أن يكون على بابه فيقدر المفضّل عليه مما دلت عليه القرينة ، أي بأحسن من مجادلتكم المشركين ، أو بأحسن من مجادلتهم إياكم كما تدل عليه

صيغة المفاعلة .

ويجوز كون اسم التفضيل مسلوب المفاضلة لقصد المبالغة في الحسن ، أي إلا بالمجادلة الحُسنى كقوله تعالى ﴿ وجادِلْهم بالتي هي أحسن ﴾ في آخر سورة النحل (125) . فالله جعل الخيار للنبيء في مجادلة المشركين بين أن يُجادلهم بالحسنى كما اقتضته آية سورة النحل ، وبين أن يجادلهم بالشدة كقوله : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم ﴾ [التوبة : 73] ، فإن الإغلاظ شامل لجميع المعاملات ومنها المجادلات ولا يختص بخصوص الجهاد فإن الجهاد كله إغلاظ فلا يكون عطف الإغلاظ على الجهاد إلاّ إغلاظاً غير الجهاد .

ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أن أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به فهم متأهّلون لقبول الحجة غير مظنون بهم المكابرة ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ حذراً من تنفيرهم ، بخلاف المشركين فقد ظهر من تصلبهم وصَلفهم وجلافتهم ما أيأس من إقناعهم بالحجة النظرية وعيَّن أن يعاملوا بالغلظة وأن يبالغ في تهجين دينهم وتفظيع طريقتهم لأن ذلك أقرب نجوعاً لهم .

وهكذا ينبغي أن يكون الحال في ابتداء مجادلة أهل الكتاب ، وبقدر ما يسمح به رجاء

الاهتداء من طريق اللين ، فإن هم قابلوا الحسنى بضدها انتقل الحكم إلى الاستثناء الذي في قوله : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ .

(58/598)

و ﴿ الذين ظلموا منهم ﴾ هم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمسلمين وأبوا أن يتلقوا الدعوة فهؤلاء ظلموا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين حسداً وبغضاً على أن جاء الإسلام بنسخ شريعتهم ، وجعلوا يكيدون للنبيء صلى الله عليه وسلم ونشأ منهم المنافقون وكل هذا ظلم واعتداء .

وقد كان اليهود قبل هجرة المسلمين إلى المدينة مسالمين الإسلام وكانوا يقولون : إن محمداً رسول الأميين كما قال ابن صياد لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم " أتشهد أني رسول الله ؟ فقال : أشهد أنك رسول الأميين " فلما جاء المدينة دعاهم في أول يوم قدم فيه وهو اليوم الذي أسلم فيه عبد الله بن سَلام فأخذوا من يومئذ يتنكرون للإسلام .

وعطف ﴿ وقولوا ءامنا ﴾ إلى آخر الآية تعليم لمقدمة المجادلة ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ .

وهذا مما يسمى تحرير محل النزاع وتقريب شقة الخلاف وذلك تأصيل طرق الإلزام في المناظرة وهو أن يقال قد اتفقنا على كذا وكذا فلنحتجّ على ما عدا ذلك ، فإن ما أمروا

بقوله هنا مما اتفق عليه الفريقان فينبغي أن يكون هو السبيل إلى الوفاق وليس هو بداخل في حيّز المجادلة لأن المجادلة تقع في موضع الاختلاف ولأن ما أمروا بقوله هنا هو إخبار عمّا يعتقده المسلمون وإنما تكون المجادلة فيما يعتقده أهل الكتاب مما يخالف عقائد المسلمين مثل قوله : ﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بَعْده ﴾ إلى قوله : ﴿ وما كان مِنَ المُشْركين ﴾ آل عمران : (65 67) .

ولأجل أن مضمون هذه الآية لا يدخل في حيّز المجادلة عطفت على ما قبلها ولو كانت مما شملته المجادلة لكان ذلك مقتضياً فصلها لأنها مثل بدل الاشتمال .

ومعنى ﴿ بالذي أُنْزِلَ إلَيْنا ﴾ القرآن .

والتعبير عنه بهذه الصلة للتنبيه على خطأ أهل الكتاب إذ جحدوا أن ينزل الله كتاباً على غير أنبيائهم ، ولذلك عقب بقوله : ﴿ وأنزل إليكم ﴾ .

(59/598)

وقوله : ﴿ وأنزل إليكم ﴾ عطف صلة اسم موصول محذوف دل عليه ما قبله .

والتقدير : والذي أنزل إليكم ، أي الكتاب وهو "التوراة" بقرينة قوله ﴿ إليكم ﴾ .

والمعنى : إننا نؤمن بكتابكم فلا ينبغي أن تنحرفوا عنا وهذا كقوله تعالى:

﴿ قُلْ يأهل الكِتَاب هل تَنْقِمون مِنَّا إلاّ أنْ ءامنّا بالله وما أُنزِل إلَيْنَا ومَا أُنزِلَ مِن قَبْل ﴾ [المائدة : 59] ، وكذلك قوله : ﴿ وإلهَنا وإلهكُم واحِد ﴾ تذكير بأن المؤمنين واليهود يؤمنون بإله واحد .

فهذان أصلان يختلف فيهما كثير من أهل الأديان .

وقوله : ﴿ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون ﴾ مراد به كلاَ الفريقين ، فريق المتكلمين وفريق المخاطبين . فيشمل المسلمين وأهلَ الكتاب فيكون المراد بوصف ﴿ مسلمون ﴾ أحد إطلاقيه وهو إسلام الوجه إلى الله ، أي عدم الإشراك به ، أي وكلانا مسلمون لله تعالى لا نشرك معه غيره .

وتقديم المجرور على عامله في قوله : ﴿ لَهُ مُسْلِمُون ﴾ لإفادة الاختصاص تعريضاً بالمشركين الذين لم يفردوا الله بالإلهية .

﴿ وكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾

هذا عود إلى مجادلة المشركين في إثبات أن القرآن منزل من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم

فالمعنى : ومثلَ ذلك التنزيل البديع أنزلنا إليك الكتاب ، فهو بديع في فصاحته ، وشرف معانيه ، وعذوبة تراكيبه ، وارتفاعه على كل كلام من كلام البلغاء ، وفي تنجيمه ، وغير ذلك .

وقد تقدم بيان مثل هذه الإشارة عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسَطاً ﴾ في سورة [البقرة : 143] .

وقد تفرع على بداعة تنزيله الإخبارُ بأن الذين علمهم الله الكتاب يؤمنون به أي يصدقون أنه من عند الله لأنهم أدرى بأساليب الكتب المنزَّلة على الرسل والأنبياء وأعلم بسمات الرسل وشمائلهم .

(60/598)

وإنما قال : فالذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ دون أن يقول : فأهل الكتاب ، لأن في ﴿ آتيناهم الكتاب ﴾ تذكيراً لهم بأنهم أمناء عليه كما قال تعالى : ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ [المائدة : 44] .

وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أنه سيقع في المستقبل أو للدلالة على تجدد إيمان هذا الفريق به ، أي إيمان من آمن منهم مستمرّ يزداد عدد المؤمنين يوماً فيوماً .

والإشارة بـ ﴿ هؤلاء ﴾ إلى أهل مكة بتنزيلهم منزلة الحاضرين عند نزول الآية لأنهم حاضرون في الذهن بكثرة ممارسة أحوالهم وجدالهم .

وهكذا اصطلاح القرآن حيث يذكر ﴿ هؤلاء ﴾ بدون سبق ما يصلح للإشارة إليه ،

وهذا قد ألهمني الله إليه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء ﴾ في سورة [الأنعام : 89] .

والمعنى : ومن مشركي أهل مكة من يؤمن به ، أي بأن القرآن منزل من الله ، وهؤلاء هم الذين أسلموا والذين يسلمون من بعد ، ومنهم من يؤمن به في باطنه ولا يظهر ذلك عناداً وكِبراً مثل الوليد بن المغيرة .

وقد أشار قوله تعالى : وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون ﴾ إلى أن من هؤلاء الذين يؤمنون بالقرآن من أهل الكتاب وأهل مكة من يكتم إيمانه جحوداً منهم لأجل تصلبهم في الكفر .

فالتعريف في ﴿ الكافرون ﴾ للدلالة على معنى الكمال في الوصف المعرّف ، أي إلا المتوغلون في الكفر الراسخون فيه ، ليظهر وجه الاختلاف بين ﴿ ما يجحد ﴾ وبين ﴿ الكافرون ﴾ إذ لولا الدلالة على معنى الكمال لصار معنى الكلام : وما يجحد إلا الجاحدون .

وعبر عن ﴿ الكتاب ﴾ بـ (الآيات) لأنه آيات دالة على أنه من عند الله بسبب إعجازه وتحدّيه وعجز المعاندين عن الإتيان بسورة مثله .

وهذا يتوجه ابتداء إلى المشركين لأن جحودهم واقع ، وفيه تهيئة لتوجهه إلى من عسى أن يجحد به من أهل الكتاب من دون أن يواجههم بأنهم كافرون لأنه لم يعرف منهم ذلك الآن فإن فعلوه فقد أوجبوا ذلك على أنفسهم .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها الرسول صلى الله عليه وسلم ودلالتُها على أنه موحى إليه من الله أعظم دلالة وقد ورد الاستدلال بها في القرآن في مواضع كقوله : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [الشورى : 52] وقوله : ﴿ فقد لبثتُ فيكم عُمراً من قَبْله أفلا تَعْقِلون ﴾ [يونس : 16] .

ومعنى : ﴿ ما كنت تتلو من قبله من كتاب ﴾ أنك لم تكن تقرأ كتاباً حتى يقول أحد : هذا القرآن الذي جاء به هو مما كان يتلوه من قبل .

و ﴿ لا تَخُطُّهُ ﴾ أي لا تكتب كتاباً ولو كنت لا تتلوه ، فالمقصود نفي حالتي التعلم ، وهما التعلم بالقراءة والتعلّم بالكتابة استقصاء في تحقيق وصف الأمية فإن الذي يحفظ كتاباً ولا يعرف يكتب لا يُعدّ أمياً كالعلماء العمي ، والذي يستطيع أن يكتب ما يُلقى إليه ولا يحفظ علماً لا يُعدّ أمياً مثل النُسَّاخ فبانتفاء التلاوة والخط تحقق وصف الأمية .

و ﴿ إذن ﴾ جواب وجزاء لشرط مقدّر بـ (لو) لأنه مفروض دل عليه قوله : ﴿ وما كنت تتلو ﴾ ﴿ ولا تُخطه ﴾ .

والتقدير : لو كنت تتلو قبله كتاباً أو تخطه لارتاب المبطلون .

ومجيء جواب ﴿ إذن ﴾ مقترناً باللام التي يغلب اقتران جواب (لو) بها دليل على أن المقدر شرط بـ (لو) كما في قول قُريط العنبري:

لو كُنتُ من مازن لم تستبح إبلي . . .

بنو اللقيطة من ذهل ابن شيبانا

إذَنْ لقام بنصري معشر خشن . . .

عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

قال المرزوقي في "شرح الحماسة" : (إذن) هو أنه أخرج البيت الثاني مُخرج جواب قائل قال له : ولو استباحوا إبلك ماذا كان يفعل بنو مازن ؟ فقال:

إذن لقام بنصري معشر خشن . . .

ويجوز أن يكون أيضاً : إذن لقام ، جواب (لو) كأنه أجيب بجوابين .

وهذا كما تقول : لو كنتَ حراً لاستقبحت ما يفعله العبيد إذن لاستحسنت ما يفعله الأحرار أ هـ .

(62/598)

يعني يجوز أن تكون جملة : إذن لقام ، بدلاً من جملة : لم تستبح .

وقد تقدم الكلام على نظيره في قوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لَذَهَب كل إله بما خلق ﴾ في سورة [المؤمنين : 91] .

والارتياب : حصول الريب في النفس وهو الشك .

ووجه التلازم بين التلاوة والكتابة المتقدمين على نزول القرآن ، وبين حصول الشك في نفوس المشركين أنه لو كان ذلك واقعاً لاحتمل عندهم أن يكون القرآن من جنس ما كان يتلوه من قبلُ من كتب سالفة وأن يكون مما خطَّه من قبل من كلام تلّقاه فقام اليوم بنشره ويدعو به .

وإنما جعل ذلك موجب ريب دون أن يكون موجب جَزم بالتكذيب لأن نظم القرآن وبلاغته وما احتوى عليه من المعاني يبطل أن يكون من نوع ما سبق من الكتب والقصص والخطب والشعر ، ولكن ذلك لما كان مستدعياً تأملاً لم يمنع من خطور خاطر الارتياب على الإجمال قبل إتمام النظر والتأمل بحيث يكون دوام الارتياب بهتاناً ومكابرة .

وتقييد تخطه بقيد ﴿ بيمينك ﴾ للتأكيد لأن الخط لا يكون إلاّ باليمين فهو كقوله : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] .

ووصف المكذبين بالمبطلين منظور فيه لحالهم في الواقع لأنهم كذبوا مع انتفاء شبهة الكذب فكان تكذيبهم الآن باطلاً ، فهم مبطلون متوغلون في الباطل ، فالقول في وصفهم بالمبطلين

كالقول في وصفهم بالكافرين .

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

(63/598)

﴿ بل ﴾ إبطال لما اقتضاه الفرض من قوله : ﴿ إذن لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] ، أي بل القرآن لا ريب يتطرقه في أنه من عند الله ، فهو كله آيات دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه من عند الله لما اشتمل عليه من الإعجاز في لفظه ومعناه ولما أيّد ذلك الإعجازَ من كون الآتي به أميّاً لم يكن يتلو من قبله كتاباً ولا يخطّ ، أي بل القرآن آيات ليست مما كان يتلى قبل نزوله بل هو آيات في صدر النبي صلى الله عليه وسلم

فالمراد من : ﴿ صدور الذين أوتوا العلم ﴾ صدر للنبيء صلى الله عليه وسلم عبّر عنه بالجمع تعظيماً له .

و﴿ العلم ﴾ الذي أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم هو النبوءة كقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داوود وسليمان علماً ﴾ [النمل : 15] .

ومعنى الآية أن كونه في صدر النبي صلى الله عليه وسلم هو شأن كل ما ينزل من القرآن حين نزوله ، فإذا أنزل فإنه يجوز أن يخطّه الكاتبون ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ

كُتَّاباً للوحي فكانوا ربما كتبوا الآية في حين نزولها كما دل عليه حديث زيد بن ثابت في قوله تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ [النساء : 95] وكذلك يكون بعد نزوله متلوّاً ، فالمنفي هو أن يكون متلواً قبل نزوله .

هذا الذي يقتضيه سياق الإضراب عن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يتلو كتاباً قبل هذا القرآن بحيث يظن أن ما جاء به من القرآن مما كان يتلوه من قبل فلما انتفى ذلك ناسب أن يكشف عن حال تلقي القرآن ، فذلك هو موقع قوله : ﴿ في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ كما قال : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] وقال : ﴿ كذلك لنُثَبِّت به فؤادك ﴾ [الفرقان : 32] .

وأما الإخبار بأنه آيات بيّنات فذلك تمهيد للغرض وإكمال لمقتضاه ، ولهذا فالوجه أن يكون الجار والمجرور في قوله : ﴿ في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ خبراً ثانياً عن الضمير .

(64/598)

ويلتئم التقدير هكذا : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك بل هو ألقي في صدرك وهو آيات بيّنات .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ صدور الذين أوتوا العلم ﴾ صدور أصحاب النبي صلى الله

عليه وسلم وحفّاظ المسلمين ، وهذا يقتضي أن يكون قوله : ﴿ في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ تتميماً للثناء على القرآن وأن الغرض هو الإخبار عن القرآن بأنه آيات بيّنات فيكون المجرور صفة ل ﴿ ءايات ﴾ والإبطال مقتصر على قوله : ﴿ بل هو آيات بيّنات ﴾ .

وجملة ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ تذييل يؤذن بأن المشركين جحدوا آيات القرآن على ما هي عليه من وضوح الدلالة على أنها من عند الله لأنهم ظالمون لا إنصاف لهم وشأن الظالمين جحد الحق ، يحملهم على جحده هوى نفوسهم للظلم ، كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظُلماً وعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] فهم متوغلون في الظلم كما تقدم في وصفهم بالكافرين والمبطلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(65/598)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

الحق – تبارك وتعالى – يُعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب ، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل في

القرآن الكريم نقول : ما معنى الجدل ؟

الجدل : مأخوذ من الجَدْل ، وهو فَتْل الشيء ليشتد بعد أنْ كان ليناً كما نفتل حبالنا في الريف ، فالقطن أو الصوف مثلاً يكون منتفشاً يأخذ حيزاً واسعاً ، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطاً جمعنا بعض الشعيرات ليُقوّي بعضها بعضاً بلفِّها حول بعضها ، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى ، وعلى قَدْر الغاية التي يُراد لها الحبل تكون قوته .

ومن الجدل أُخِذ الجدال والجدَل والمجادلة ، وفي معناها : الحوار والحجاج والمناظرة ، ومعناه أن يوجد فريقان لكل منها مذهب يؤيده ويدافع عنه ليفتن الآخر أي : ليلفته عن مذهبه إلى مذهبه هو .

فإذا كان المقصود هو الحق في الجدال أو الحِجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفي ، لكن إنْ دخل الجدال إلى مِراءٍ أو لجاجة ، فليس القصد هو الحق ، إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقين على الآخر ، والجدل في هذه الحالة له أسماء متعددة ، منها قوله تعالى : ﴿ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ . ﴾ [المؤمنون : 75] .

لكن إذا فَتَلْنا الشيء المنفوش حتى صار مُضْمراً ، وأخذ من الضمر قوة ، أأنت تجعل في الجدل خَصْمك قوياً ؟ إنك تحاول أنْ تُقوّي نفسك في مواجهته . قالوا : حين أنهاه عن الباطل وأعطفه ناحية الحق ، فإنه يقوي يقينه في شيء ينفعه ، وكأنه كان منتفشاً آخذاً حيِّزاً أكبر من حجمه بالباطل الذي كان عليه ، فأنا قوّيته بالحق . وفي العامية نقول (فلان

منفوخ على الفاضي) أو نقول (فلان نافش ريشه) كأنه أخذ حيزاً أكبر من حجمه .

لذلك نلحظ أن التغلب في الجدل لا يكون لمجرد الجدل ، إنما تغلُّبك لحق ينفع الغير ويُقويه ويردّه إلى حجمه الطبيعي .

(66/598)

أو : أن الجدل مأخوذ من الجدال وهي الأرض ، كأن يطرح القوي الضعيف أرضاً في صراع مثلاً .

والجدال يكون بين شخصين ، لكل منهما رأيه الذي يألفه ويحبه ويقتنع به ، فحين تجادله تريد أنْ تُخرِجه عن رأيه الذي يألف إلى رأيك الذي لا يألفه ولم يعتده ، فأنت تجمع عليه أمرين : أنْ تُخرجه عما أَلِف واعتاد إلى ما لم يألف ، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه حتى لا تجمع عليه شدتين .

فعليك إذن باللين والاستمالة برفق ؛ لأن النصح ثقيل كما قال شوقي رحمه الله : فلا تجعله جبلاً ، ولا ترسله جَدَلاً ، وعادة ما يُظهِر الناصح أنه أفضل من المنصوح . ويقولون : الحقائق مرة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان ؛ لأنك تُخرِج خَصْمك عما أَلِف ، فلا تخرجه عما ألف بما يكره ، بل بما يحب .

والإنسان قبح يُعبّر عن الحقيقة الواحدة تعبيراً يُكره ، ويُعبّر عنها تعبيراً يُحب وترتاح إليه ، كالملك الذي رأى في منامه أن كل أسنانه قد سقطتْ ، فطلب مَنْ يُعبّر له ما رأى ، فجاءه المعبّر واستمع منه ، ثم قال : معنى هذه الرؤيا يا مولاي أن أهلك جميعاً سيموتون ، فتشاءم من هذا التعبير ولم يُعجبه ، فأرسلوا إلى آخر فقال : هذا يعني أنك ستكون أطولَ أهل بيتك عُمراً ، فَسُرَّ الملك بقوله .

فهنا المعنى واحد ، لكن أسلوب العرض مختلف .

ودخل رجل على آخر ، فوجده يبكي فقال : ما يُبكيك ؟ قال : أخذْتُ ظلماً ، فتعجب وقال : فكيف بك إذا أُخِذْتَ عدلاً ؟ أكنت تضحك . والمعنى أن مَنْ أُخذ ظلماً لا ينبغي له أن يحزن ؛ لأنه لم يفعل شيئاً يشينه ، والأَوْلَى بالبكاء من أُخذ عدلاً وبحقٍّ .

ورجل قُتِل له عزيز فجلس يصرح ويولول ، فدخل عليه صاحبه مُواسياً فقال له الرجل : إن ابني قُتِل ظلماً ، فقال صاحبه : الحمد لله الذي جعل منك المقتول ، ولم يجعل منك القاتل .

(67/598)

إذن : سلامة المنطق وخِفَّة البيان أمر مهم ، وعلى المجادل أن يراعي بيانه ، وأن يتحين الفرصة المناسبة ، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه . قالوا :

مَرَّ رجل فوجد صبياً يغرق في البحر ، فلم ينتظر حتى يخلع ثيابه ، وألقى بنفسه وأنقذ الصبي ، ثم أخذ يضربه ويلطمه ، والولد يقول : شكراً لك بارك الله فيك ، لماذا ؟ لأنه قسا عليه بعد أنْ أنقذه ، لكن ما الحال لو وقف على البَرِّ ، وكال له الشتائم وعنَّفه ، لماذا ينزل البحر وهو لا يعرف العوم ؟ لذلك يقول الحكماء : آسِ ثم أنصح .

لذلك يُعلِّمنا ربنا – عز وجل – أصول الجدل وآدابه ؛ لأنه يريد أن يُخرِج بهذا الجدل أناساً من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجحود إلى اليقين ، وهذا لا يتأتّى إلا باللطف واللين ، كما قال سبحانه : ﴿ ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [النحل : 125] .

ويُعلِّمنا سبحانه أن للجدل مراتبَ بحسب حالة الخَصم ، فالذي ينكر وجود الله له جدل مخصوص ، والذي يؤمن بوجود الله ويقول : إن معه شريكاً . له جدل آخر ، ومَنْ يؤمن بالله ويقول سأتبع نبيِّ ولن أتبعك له جدل آخر وبشكل خاص ، والمختلفون معك من أهل مِلَّتك لهم جدل يليق بحالهم .

إذن : للجدل مراتب نلحظها في أسلوب القرآن ، فبم جادل الذين لا يؤمنون بوجود إله ؟ قال : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون * أَمْ خَلَقُواْ السماوات والأرض بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : 35 – 36] .

فأتى لهم بمسألة الخَلْق الظاهرة التي لم يدَّعها أحد ، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى

المشركون والملاحدة ؛ لأن أتفه الأشياء في صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

(68/598)

أليس مَنْ خلق السماوات والأرض والشمس والقمر . . إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق ؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن ؟

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق – سبحانه وتعالى – قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفي قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون .

فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله ؟ نقول : الذي خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [آل عمران : 18] ولم يقُلْ أحد أنا الإله . إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا في جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو

التالي : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة ؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية . وقال : أنا واحد لا شريك لي ، فأين كان شركاؤكم ؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله ؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين تنفي عنهم صفة الألوهية ، فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه ؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم ، فكيف يعبدونها ، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم ؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم بقدر على شيء معين ؟

(69/598)

إنْ كانوا يزاولون بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْا إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] أي : لَذهبوا إليه إما ليُعنّفوه ويُصَفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفي موضع آخر : ﴿ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . ﴾ [المؤمنون : 91] .

وبعد أنْ بيَّنَّا جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الإله وجدال أهل الشرك نجادل أهل الكتاب ، وهم ألطفُ من سابقيهم ؛ لأنهم مؤمنون بإله وأنه الخالق ، ومؤمنون بالبلاغ عن الله ، ومؤمنون بالكتب التي نزلت ، والخلاف بيننا وبينهم أنهم لا يؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم في حين نؤمن نحن برسلهم وكتبهم ، وهذه أول مَيزة تميَّز بها الإسلام على الأديان الأخرى .

ونقول لهؤلاء : لقد آمنت برسولك ، وقد سبقه رسل ، فلماذا تنكر أن يأتي رسول بعده ؟ ثم هل جاء الرسول بعد رسولك ليناقضه في أصول الأشياء ؟ إنهم جميعاً متفقون على أصول العقيدة والأخلاق ، متفقون على أنهم عباد لله متحابون ، فلماذا تختلفون أنتم ؟ فربنا – تبارك وتعالى – يُعلِّمنا ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ [العنكبوت : 46] لأنهم ليسوا ملاحدة ولا مشركين ، فهُمْ مؤمنون بإلهكم وبالرسل وبالكتب ، غاية ما هنالك أنهم لا يؤمنون برسولكم .

لذلك يعترض بعض الناس : كيف يبيح الإسلام أنْ يتزوج المسلم من كتابية ، ولا يبيح للمسلمة أن تتزوج كتابياً ؟ نقول : لأن أصل القِوَامة في الزواج للرجل ، والزوج المؤمن حين يتزوج كتابية مؤمن برسولها ، أما الزوج الكتابي فغير مؤمن برسول المؤمنة ، فالفَرْق بينهما كبير .

ومعنى : ﴿ إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ [العنكبوت : 46] أن في الجدال حسناً وأحسن ، وقد سبق الجدال الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] ونوح عليه السلام يتلطف في جدال قومه ، فيقول : ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود : 35] .

فينسب الافتراء إلى نفسه ، ويتهم نفسه بالإجرام إنِ افترى ، فإنْ لم يكُنْ هو المفتر ، وهو المجرم فَهُمْ .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول في جدال قومه : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25] فيذكر صلى الله عليه وسلم الجريمة في حقه هو ولا يذكرها في حَقِّ المعاندين المكذِّبين ، فأيُّ أدب في الدعوة أرفع من هذا الأدب ؟

إذن : جادل غير المؤمنين بالحسن ، وجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، لما يمتازون به عن غيرهم من ميزة الإيمان بالله . فإنْ تعدَّوْا وظلموا أنفسهم في مسألة القمة الإيمانية ، فادعوا أن لله ولداً أو غيره ، فإنهم بذلك يدخلون في صفوف سابقيهم من المشركين ، فإنْ كنا مأمورين بأن نجادلهم بالتي هي أحسن وقالوا بهذا القول ، فعلينا أن نجادلهم بما يقابل الأحسن ، نجادلهم إما بالحسن ، وإما بغير الحسن أي : بالسيف .

لكن ، هل يفرض السيف عقائد ؟ السيف لا يأخذ من الناس إلا قوالبهم .

أمّا القلوب فلا يخضعها إلا الإيمان ، والله تعالى لا يريد قوالب ، إنما يريد قلوباً .

(71/598)

واقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 3-4] فإن أراد سبحانه قَهْر القوالب والقلوب على الخضوع ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتأبَّى على الإيمان ما وُجد كافر ، وما كفر الكافر إلا لما أعطاه الله من منطقة الاختيار ؛ فالحق سبحانه يريد منّا قلوباً تحبه سبحانه وتعبده ؛ لأنه سبحانه يستحق أنْ يُعبد .

إذن : الذين يخرجون عن نطاق الكتابية بتجاوزهم الحدَّ ، وقولهم أن عيسى ابن الله ، أو أن

الله ثالث ثلاثة ، إنما يدخلون في نطاق الشرك والكفر ، ولن نقول لهؤلاء : اتبعوا رسولنا ، وإنما اتبعوا رسولكم ، والكتاب الذي جاءكم به من عند الله ، وسوف تجدون فيه البشارة بمحمد ﴿ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل . . . ﴾ [الأعراف : 157] .

إذن : فحين تكفر فأنت لا تكفر بمحمد ولا بالقرآن ، إنما تكفر أولاً بكتابك أنت ؛ لذلك يعلمنا الحق سبحانه :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ الله هُوَ المسيح ابن مَرْيَمَ . . . ﴾ [المائدة : 17] وقال أيضاً : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ . . . ﴾ [المائدة : 73] .

أي : لا تعاملوهم على أنهم كتابيون ، ولما سُئْلنا في الخارج من أبنائنا الذين يرغبون في الزواج من أجنبيات ، فكنت أقول للواحد منهم : سَلْها أولاً : ماذا تقول في عيسى ، فإنْ قالت هو رسول الله فتزوجها وأنت مطمئن ؛ لأنها كتابية ، وإن قالت : ابْن الله ، فعاملها على أنها كافرة ومشركة .

(72/598)

هذا في معنى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 46] ونحن لا نحمل السيف في وجه هؤلاء ؛ لأن السيف ما جاء إلا ليحمي اختيار المختار ، فلي أنْ أعرض ديني ، وأنْ أُعلنه وأشرحه ، فإنْ منعوني من هذه فلهم السيف ، وإنْ تركوني أعلن عن ديني فهم أحرار ، يؤمنون أو لا يؤمنون .

إنْ آمنوا فأهلاً وسهلاً ، وإنْ لم يؤمنوا فهم أهل ذمة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويدفعون الجزية نظير ما يتمعون به في بلادنا ، وعليهم ما علينا ، وما نُقدّمه لهم من خدمات ، وإلا فكيف نفرض على المؤمنين الزكاة ونترك هؤلاء لا يقدمون شيئاً ؟

لذلك نرى الكثيرين من أعداء الإسلام يعترضون على مسألة دَفْع الجزية ، ويروْنَ أن الإسلام فُرِض بقوة السيف ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً ، فما فرضنا عليكم الجزية إلا لأننا تركناكم تعيشون معنا على دينكم ، ولو أرغمناكم على الإسلام ما كان عليكم الجزية .

والحق – تبارك وتعالى – يقول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي . . . ﴾ [البقرة : 256] لأنني لا أُكرهك على شيء إلا إذا كنتَ ضعيف الحجة ، وما دام أن الرشدْ بيِّن والغيّ بيِّن ، فلا داعي للإكراه إذن .

لكن البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً فحين تقول له : صَلِّ يقول لك ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين . . . ﴾ [البقرة : 256] وتقول له : لم تفهم المراد ، فلا إكراه في أصل الدين في أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فأنت في هذه حُرٌّ ، أما إذا آمنتَ وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ،

فليس لك أن تكسر حَدّاً من حدود الإسلام ، وفَرْق بين " لا إكراه في الدين " و " لا إكراه في التدين " .

(73/598)

ومن حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أنْ يؤمن ، نقول له قف قبل أن تدخل الإسلام ، اعلم أنك إنْ تراجعت عنه وارتددتَ قتلناك ، وهذا الحكْم يضع العقبة أمام الراغب في الإسلام حتى يفكر أولاً ، ولا يقدم عليه إلا على بصيرة وبينة .

وإذا قيل ﴿ أَهْلَ الكتاب . . . ﴾ [العنكبوت : 46] أي : الكتاب المنزَّل من الله ، وقد علَّم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يجادل المشركين بقوله : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] فعلم الرسول أن يرجع إلى أهل الكتاب ، وأنْ يأخذ بشهادتهم ، وفي موضع آخر علَّمه أن يقول لمن امتنع عن الإيمان .

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ [الرعد : 43] .

إذن : فرسولنا يستشهد بكم ، لما عندكم من البينات الواضحة والدلائل على صدقه .

حتى قال عبد الله بن سلام : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد ،

ولم لا يعرفونه وقد ذُكر في كتبهم باسمه ووصفه : ﴿ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل . . . ﴾ [الأعراف : 157] .

ثم ألم يحدث منكم أنكم كنتم تستفتحون به على المشركين في المدينة ، وتقولون : لقد أطلَّ زمان نبي يُبعث في مكة ، فنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ؟ فلما جاءكم النبي الذي تعرفوه أنكرتموه وكفرتم به : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . . ﴾ [البقرة : 89] .

كيف يستشهد الله على صدق رسوله بكم وبكتبكم ثم تكذبون ؟ قالوا : كذَّبوا لما لهم من سلطة زمنية يخافون عليها ، ورأوا أن الإسلام سيسلبهم إياها .

(74/598)

وكلمة ﴿ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ [العنكبوت : 46] وردت في القرآن ، لكن في غير الجدل في الدين ، وردت في كل شيء يُوجب جدلاً بين أُناس ؛ وذلك في قوله سبحانه : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34]

.

وقد جاءني رجل يذكر هذه الآية ، وما يترتب على الإحسان ، يقول : عملتُ بالآية فلم

أجد الولي الحميم ؟ قلت له : كوْنك تحمل هذا الأمر في رأسك دليل على أنك لم تدفع بالتي هي أحسن ؛ لأن الله تعالى لا يقرر قضية قرآنية ، ويُكذِّبها واقع الحياة ، فإنْ دفعتَ بالتي هي أحسن بحقٍّ لا بُدَّ وأنْ تجد خَصْمك كأنه وليٌّ حميم .

لذلك يقول أحد العارفين :

يَا مَنْ تُضَايِقه الفِعَالُ مِنَ الِتي وَمنَ الذِي . . . ادْفَعْ فديْتُكَ بالتي حتَّى تَرى فإذَا الذي

والمعنى : من التي تسيء إليك ، أو الذي يسيء إليك ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ [فصلت : 34] حتى ترى ﴿ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] .

وأذكر أنه جاءني شاب يقول : إن عمي مُوسِر ، وأنا فقير ، وهو يتركني ويتمتع بماله غيري ، فقلت له : بالله أتحب النعمة عند عمك ؟ فسكت ، قلت له : إذن أنت لا تحبها عنده ، لكن اعلم أن النعمة تحب صاحبها أكثر من حُبِّ صاحبها لها ؛ لذلك لا تذهب إلى كارهها عند صاحبها .

فما عليك إلا أنْ تثوب إلى الحق ، وأنْ تتخلص مما تجد في قلبك لعمك ، وثِقْ بأن الله هو الرزاق ، وإنْ أردتَ نعمة رأيتها عند أحد فأحببها عنده ، وسوف تأتيك إلى بابك ، لأنك حين تكره النعمة عند غيرك تعترض على قدر الله .

بعد هذا الحوار مع الرجل – والله يشهد – دَقَّ جرس الباب ، فإذا به يقول لي : أما دريتَ بما حدث ؟ قلت : ماذا ؟ قال : جاءني عمي قبل الفجر بساعة ، فلما أنْ فتحت له الباب انهال عليَّ ضَرْباً وشَتْماً يقول : لماذا تتركني للأجانب يأكلون مالي وأنت موجود ؟ ثم أعطاني المفاتيح وقال : من الصباح تباشر عملي بنفسك .

فقلت له : لقد أحببتها عند عمك ، فجاءت تطرق بابك .

وقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 46] أي : ظلموا أنفسهم بالشرك ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] تظلم نفسك لا تظلم الله ؛ لأن الظالم يكون أقوى من المظلوم . وجعل الشرك ظلماً عظيماً لأنه ذنبٌ لا يغفر : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك لِمَن يَشَآءُ . . . ﴾ [النساء : 116] .

فالشرك ظلم عظيم عليك نفسك ، أما الذنوب دون الشرك فلها مخرج ، وقد تنفكّ عنها إما التوبة برحمة الله ومغفرته .

ثم يُعلّمنا الحق – تبارك وتعالى – التي هي أحسن في الردّ على الذين ظلموا منهم : ﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 46] .

يعني : فعلامَ الاختلاف ، ما دام أن الإله واحد ، وما دام أن كتابكم يذكر الرسول الذي يأتي بعد رسولكم ، وقد سبق رسولكم رسل ، فكان يجب عليكم أن تؤمنوا به ، وأنْ تُصدِّقوه .

(76/598)

جاءت امرأة تشتكي أن زوجها لم يُوف بما وعدها به ، وقد اشترطتْ عليه قبل الزواج ألاَّ يذهب إلى زوجته الأولى ، فقُلْت لها : يعني أنت الثانية وقد رضيت به وهو متزوج ؟ قالت : نعم ، قلت : فلماذا رضيتِ به ؟ قالت : أعجبني وأعجبته ، قلت : فلا مانع إذن أنْ تعجبه أخرى فيتزوجها ، وتقول له : إياك أنْ تذهب إلى الثانية ، فهل هذا يعجبك ؟ إذن : فاحترمي حقَّ الأولى فيه ، لتحترم الثالثة حقك فيه ، فقامت وانصرفت .

وقال : ﴿ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ . . . ﴾ [العنكبوت : 46] لأن الكلام هنا للذين ظلموا وقالوا بالتعدد .

وهنا قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 46] ولم يقل مثلاً : ونحن به مؤمنون ، ولماذا ؟ لأن الإيمان عقيدة قلبية أنْ تؤمن بإله ، أمّا الإيمان فليس كلاماً ، الإيمان أن تثق به ، وأنْ تأمنه على أنْ يُشرِّع لك ، وأنْ يُسلم له الأمر " افعل كذا " " ولا تفعل كذا " ،

وهناك أناس ليسوا بمؤمنين بقلوبهم ، ومع ذلك يعملون عمل المسلمين ، إنهم المنافقون .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ . . . ﴾ [الحجرات : 14] .

إذن : فَرْق بين إيمان وإسلام ، فقد يتوفر أحدهما دون الآخر ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [العصر : 1-3] فقال هنا : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 46] يعني : مُنفِّذين لتعاليم ديننا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب . . . ﴾ .

(77/598)

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب . . . ﴾ [العنكبوت : 47] أي : كما أنزلنا كتباً على مَنْ سبقك أنزلنا إليك كتاباً يحمل منهجاً ، والكتب السماوية قسمان : قسم يحمل منهج الرسول في (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وذلك شركة في كل الكتب التي أُنزِلَتْ على الرسل ، وكتاب واحد هو القرآن ، هو الذي جاء بالمنهج والمعجزة معاً .

فكلُّ الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان للواحد منهم كتاب فيه منهج ومعجزة

منفصلة عن المنهج ، فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتابه القرآن ومعجزته القرآن ، فانظر كيف التقت المعجزة بالمنهج لتظل لصيقة به ؛ لأن زمن رسالة محمد ممتدٌّ إلى قيام الساعة ، فلابُدَّ أنْ تظل المعجزة موجودة ليقول الناس محمد رسول الله ، وهذه معجزته .

في حين لا نستطيع مثلاً أن نقول : هذا عيسى رسول الله وهذه معجزته ؛ لأنها ليست باقية ، ولم نعرفها إلا من خلال إخبار القرآن بها ، وهذا يُوضِّح لنا فَضْل القرآن على الرسل وعلى معجزاتهم حيث ثبتها عند كل مَنْ لم يَرهَا ، فكل مَنْ آمن بالقرآن آمن بها .

لكن ، أكُلُّ رسول يأتي بمعجزة ؟ المعجزة لا تأتي إلا لمن تحدَّاه ، واتهمه بالكذب ، فتأتي المعجزة لتثبت صِدْقه في البلاغ عن ربه ؛ لذلك نجد مثلاً أن سيدنا شيثاً وإدريس وشَعيباً ليست لهم معجزات .

وأبو بكر – رضي الله عنه – والسيدة خديجة أم المؤمنين هل كانا في حاجة إلى معجزة ليؤمنا برسول الله ؟ أبداً ، فبمجرد أنْ قال : أنا رسول الله آمنوا به ، فما الداعي للمعجزة إذن ؟

إذن : تميَّز صلى الله عليه وسلم على إخوانه الرسل بأن كتابه هو عَيْن معجزته وسبق أنْ قلنا : إن الحق – تبارك وتعالى – يجعل المعجزة من جنس ما نبغ فيه القوم ، فلو تحداهم بشيء لا عِلْم لهم به لقالوا : نحن لا نعلم هذا ، فكيف تتحدّانا به ؟ والعرب كانوا أهل فصاحة وبيان ، وكانوا يقيمون للقوْل أسواقاً ومناسبات ، فتحداهم بفصاحة القرآن وبلاغته أنْ يأتوا بمثله ، ثم بعشر سُور ، ثم بسورة واحدة ، فما استطاعوا ، والقرآن كلام من جنس كلامهم ، وبنفس حروفهم وكلماتهم ، إلا أن المتكلم بالقرآن هو الله تعالى ؛ لذلك لا يأتي أحد بمثله .

والقرآن أيضاً كتاب يهيمن على كل الكتب السابقة عليه ، يُبقي منها ما يشاء من الأحكام ، ويُنهِي ما يشاء . أما العقائد فهي ثابتة لا نسخَ فيها ، وأيضاً لا نسخَ في القصص والأخبار . والنسْخ لا يتأتى إلا في التشريع بالأحكام افعل ولا تفعل ، ذلك لأن التشريع يأتي مناسباً لأدواء البيئات المختلفة .

لذلك كان بعض الرسل يتعاصرون كإبراهيم ولوط ، وموسى وشعيب ، عليهم السلام ، ولكل منهم رسالته ؛ لأنه متوجه إلى مكان بعينه ليعالج فيه داءً من الداءات ، في زمن انقطعت فيه سُبُل الالتقاء بين البيئات المختلفة ، فالجماعة في مكان ربما لا يَدْرون بغيرهم في بيئة مجاورة .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء – كما يعلم ربه أَزَلاً – على موعد مع التقاء البيئات وتداخُل الحضارات ، فالحدث يتم في آخر الدنيا ، نعلم به ، بل ، ونشاهده في التوِ واللحظة ، وكأنه في بلادنا . إذن : فالداءات ستتحد أيضاً ، وما دامت داءات الأمم المختلفة قد اتحدتْ فيكفي لها رسول واحد يعالجها ، ويكون رسولاً لكل البشر .

(79/598)

ثم يقول سبحانه : ﴿ فالذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب . . . ﴾ [العنكبوت : 47] أي : من قبلك ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 47] لأنه لا سلطة زمنية تعزلهم عن الكتاب الجديد ، فينظرون في أوصاف النبي الجديد التي وردتْ في كتبهم ثم يطابقونها على أوصاف رسول الله ؛ لذلك لما بلغ سلمان الفارسي أن بمكة نبياً جديداً ، ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان ، فوجد فيه علامتين مما ذكرتْ الكتب السابقة ، وهما أنه صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ، ولا يقبل الصدقة ، فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله بما آتاه الله من فِطْنة النبوة التي أودعها الله فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة .

ومن لباقة سيدنا عبد الله بن سلام ، وقد ذهب إلى سيدنا رسول الله وهو – ابن سلام –

على يهوديته – فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْت – يعني يُكثرون الجدال دون جدوى – وأخشى إنْ أعلنتُ إسلامي أن يسبوني ، وأن يظلموني ، ويقولوا فِيَّ فُحْشاً ، فأريد يا رسول الله إنْ جاءوك أن تسألهم عني ، فإذا قالوا ما قالوا أعلنت إسلامي ، فلما جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله سألهم : ما تقولون في عبد الله بن سلام ؟ قالوا : شيخنا وحَبْرنا وسيدنا . . إلخ فقال عبد الله : أما وقد قالوا فيَّ ما قالوا : يا رسول الله ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقالوا لتوّهم : بل أنت شرنا وابن شرنا ، ونالوا منه ، فقال عبد الله : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟

(80/598)

وقوله سبحانه ﴿ وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 47] أي : من كفار مكة مَنْ سيأتي بعد هؤلاء ، فيؤمن بالقرآن ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الكافرون ﴾ [العنكبوت : 47] الجحد : إنكار متعمد ؛ لأن من الإنكار ما يكون عن جهل مثلاً ، والجحد يأتي من أن النِّسب إما نفي ، وإما إثبات ، فإنْ قال اللسان نسبة إيجاب ، وفي القلب سَلْب أو قال سلب وفي القلب إيجاب ، فهذا ما نُسمِّيه الجحود .

لذلك يُفرِّق القرآن بين صيغة اللفظ ووجدانيات اللفظ في النفس ، واقرأ مثلاً قول الله تعالى

:

﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله . . ﴾ [المنافقون : 1] وهذا منهم كلام طيب وجميل ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ . . . ﴾ [المنافقون : 1] أي : أنه كلام وافق علم الله ، لكن ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : 1] فكيف يحكم الحق عليهم بالكذب ، وقد قالوا ما وافق علم الله ؟

نقول : كلام الله يحتاج إلى تدبُّر لمعناه ، فالحق يحكم عليهم بأنهم كاذبون ، لا في قولهم : إنك لرسول الله ، فهذه حق ، بل في شهادتهم ؛ لأنها شهادة باللسان لا يوافقها اعتقاد القلب ، فالمشهود به حق ، لكن الشهادة كذب .

لكن ، لماذا خَصَّ الكافرين في مسألة الجحود ؟ قالوا : لأن غير الكافر عنده يقظة وجدان ، فلا يجرؤ على هذه الكلمة ؛ لأنه يعلم أن الله تعالى لا يأخذ الناس بذنوبهم الآن ، إنما يُؤجِّلها لهم ليوم الحساب ، فهذه المسألة تحجزهم عن الجحود .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

قوله : ﴿ تَتْلُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 48] أي : تقرأ ، واختار تتلو لأنك لا تقرأ إلا ما سمعت ، فكأن قراءتك لما سمعت تجعل قولك تالياً لما سمعتَ ، نقول : يتلوه يعني : يأتي بعده ﴿ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . . . ﴾ [العنكبوت : 48] يعني : الكتابة .

وفَرْق بين أنْ تقرأ ، وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السماع ، كإخواننا الذين ابتلاهم الله بكفِّ نظرهم ويقرأون ، إنما يقرأون ما سمعوه ؛ لأن السمع كما قلنا أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان ، فمن الممكن أن تحفظ ما سمعت ، أما أن تكتبه فهذا شيء آخر .

والكلام هنا لون من ألوان الجدل والإقناع لكفار قريش الذين يُكذِّبون رسول الله ، ولوْن من ألوان التسلية لرسول الله ، كأنه يقول سبحانه لرسوله : اطمئن . فتكذيب هؤلاء لك افتراء عليك ؛ لأنك ما تلوْتَ قبله كتاباً ولا كتبته بيمينك ، وهم يعرفون سيرتك فيهم .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16] .

أربعون سنة قضاها رسول الله بين قومه قبل البعثة ، ما جرَّبوا عليه قراءة ولا كتابة ولا خطبة ، ولا نمَّق قصيدة ، فكيف تُكذِّبونه الآن ؟

فإن قالوا : كانت عبقرية عند محمد أجَّلها حتى سِنَّ الأربعين . نقول : العبقرية عادة مَا تأتي في أواخر العقد الثاني من العمر في السابعة عشرة ، أو الثامنة عشرة ، ومَنْ ضمن

لمحمد البقاء حتى سِنّ الأربعين ، وهو يرى مصارع أهله ، جده وأبيه وأمه ؟

لو كان عندك شيء من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر ، ولكان في الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب في أمرك ، كما قالوا : ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 5] .

(82/598)

وقالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . ﴾ [النحل : 103] فردَّ القرآن عليهم ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

وقالوا : ساحر . وقالوا : شاعر . وقالوا : مجنون . وكلها افتراءات وأباطيل واهية يسهل الردُّ عليها : فإنْ كان ساحراً ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً وتنتهي المسألة ؟ وإنْ كان شاعراً فهل جرَّبتم عليه أنْ قال شعراً قبل بعثته ؟

وإنْ قُلْتم مجنون ، فالجنون فَقْد العقل ، بحيث لا يستطيع الإنسان أنْ يختار بين البدائل ، فهل جرَّبتم على محمد شيئاً من ذلك ؟ وكيف يكون المجنون على خُلُق عظيم بشهادتكم أنتم أنه الصادق الأمين ، فعنده انضباط في الملَكات وفي التصرفات ، فكيف تتهمونه بالجنون ؟

وكلمة ﴿ مِن قَبْلِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 48] لها عجائب في كتاب الله منها هذه الآية

: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . . . ﴾ [العنكبوت : 48]

فيقول بعض العارفين (من قبله) : أي من قبل نزول القرآن عليك ، وهذا القول ﴿ قَبْلِهِ . . ﴾ [العنكبوت : 48] يدل على أنه من الجائز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم كيف يقرأ وكيف يكتب بعد نزول القرآن عليه ، حتى لا يكون في أمته من هو أحسن حالاً منه في أي شيء ، أو في خصلة من خصال الخير .

ثم تأمل قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللهِ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [البقرة : 91] ألا يدخل في روع رسول الله أنهم ربما يجترئون عليه فيقتلوه ، فيتهيب منهم ، أو يدخل في نفوسهم هم ، فيجترئون عليه كما قتلوا الأنبياء من قبل ؛ لذلك جاءتْ الآية لتقرر أن هذا كان في الماضي ، أما الآن فلن يحدث شيء من هذا أبداً ، ولن يُمكّنكم الله من نبيه .

(83/598)

وكلمة ﴿ وَمَا كُنتَ . . . ﴾ [العنكبوت : 48] تكررت كثيراً في كتاب الله ، ويُسمُّونها في الزمن الماضي ، والحاضر ، والمستقبل .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إِلى مُوسَى الأمر . . . ﴾ [القصص : 44] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . . ﴾ [القصص : 45] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ . . . ﴾ [آل عمران : 44] .

وهنا : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . . . ﴾ [العنكبوت : 48] .

لذلك وصفه ربه – عز وجل – بأنه ﴿ الرسول النبي الأمي . . . ﴾ [الأعراف : 157] وإياك أن تظن أن الأمية عَيْب في رسول الله ، فإنْ كانت عيباً في غيره ، فهي فيه شرف ؛ لأن معنى أمي يعني على فطرته كما ولدتْه أمه ، لم يتعلم شيئاً من أحد ، وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلم من الخالق فعلَتْ مرتبةُ علمه عن الخَلْق .

ومن ذلك المكانة التي أخذها الإمام علي – رضي الله عنه – في العلم والإفتاء حتى قال عنه عمر رضي الله عنه – مع ما عُرف عن عمر من سداد الرأي حتى إن القرآن لينزلُ موافقاً لرأيه ، ومُؤيّداً لقوله – يقول عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن . لماذا ؟ لأنه كان صاحب حجة ومنطق وصاحب بلاغة ، ألم يراجع الفاروقَ في مسألة المرأة التي ولدتْ لستة أشهر من زواجها ، وعمر يريد أنْ يقيم عليها الحد ؛ لأن الشائع أن مدة الحمل تسعة أشهر فتسرَّع البعض وقالوا : إنها سُبق إليها ، لكن يكون للإمام على رأي آخر ،

فيقول لعمر : لكن الله يقول غير هذا ، فيقول عمر : وما ذاك ؟ قال : ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ . . . ﴾ [البقرة : 233] قال : بلى .

(84/598)

قال : ألم يقل : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . ﴾ [الأحقاف : 15] وبطرح العامين من ثلاثين شهراً يكون الباقي ستة أشهر ، فإذا ولدتْ المرأة لستة أشهر ، فهذا أمر طبيعي لا ارتيابَ فيه .

وفي يوم دخل حذيفة على عمر رضي الله عنهما – فسأله عمر : كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟ فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين ، أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأُصلِّي بغير وضوء ، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء .

فغضب عمر ، وهَمَّ أن يضربه بدرة في يده ، وعندها دخل عليٌّ فوجد عمر مُغْضباً فقال : مالي أراك مغضباً يا أمير المؤمنين ؟ فقصَّ عليه ما كان من أمر حذيفة ، فقال علي : نعم يا أمير المؤمنين يحب الفتنة ؛ لأن الله تعالى قال :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ . . . ﴾ [التغابن : 15] .

ويكره الحق أي : الموت فهو حقّ لكنا نكرهه ، ويُصلِّي على النبي بغير وضوء ، وله في الأرض ولد وزوجة ، وليس ذلك لله في السماء . فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

فلماذا تميَّز عليٌّ بهذه الميزة من العِلْم والفقه والحجة ؟ لأنه تربَّى في حِجرْ النبوة فاستقى من نَبْعها ، وترعرع في أحضان العلوم الإسلامية منذ نعومة أظافره ، ولم يعرف شيئاً من معلومات الجاهلية ، فلما تتفاعل عنده العلوم الإسلامية لا تَلِد إلا حقاً .

ثم يقول سبحانه ﴿ إذاً . . . ﴾ [العنكبوت : 48] يعني : لو حصل منك قراءة أو كتابة ﴿ لاَّرْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] أي : لَكَان لهم عُذْر ووجهة نظر في الارتياب ، والارتياب لا يعني مجرد الشك ، إنما شك باتهام أي : يتهمون رسول الله بأنه كان على عِلْم بالقراءة والكتابة ؛ لذلك وصفهم بأنهم مبطلون في اتهامهم له صلى الله عليه وسلم .

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

﴿ بَلْ . . . ﴾ [العنكبوت : 49] حرف يفيد الإضراب عما قبله ، وتأكيد ما بعده ﴿ هُوَ ﴾ أي : القرآن ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم . . . ﴾ [العنكبوت : 49] ولم يقل مثلاً : في ذاكرتهم ؛ لأن الأذن تستقبل الكلام وتعرضه على العقل ، فإنْ قبله يستقر في القلب وفي الصدر ، وفيه يتحول إلى عقيدة وإلى يقين لا يقبل الشكَّ ولا يتزحزح .

لذلك يقول تعالى عن القرآن : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ [الشعراء : 193-194] فقال : ﴿ على قَلْبِكَ . . . ﴾ [الشعراء : 194] أي : مباشرة استقر في قلبه ، ولم يقُلْ على أذنك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(86/598)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

– قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ

بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) (العنكبوت : 47 – 49) ، للسائل أن يسأل عن وسم الجاحدين أولاً بالكافرين ثم وسموا بعد بالظالمين ، والظلم يصح إطلاقه على ما دون الكفر ، فقد يسبق إلى الوهم أنه لو ورد وسمهم أولاً بالظلم ثم ثانياً بالكفر لكان أنسب ؟

والجواب : أن الظلم وإن كان يطلق على الكفر وعلى ما دونه قال تعالى : (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (البقرة : 254) ، فإنه إذا ذكر بعد الكفر ووصف به من قد وصف بالكفر أفهم زيادة مرتكب على الكفر ، قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ . . .) (النساء : 168 – 169) ، وعلى هذا ورد في القرآن وقد تقدم ذلك . فقد وضح ما وردت عليه آيتا العنكبوت ، وليس من المشكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 391 ﴾

(87/598)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

ينبغي أن يكون منك للخصم تبيين ، وفي خطابك تليين ، وفي قبول الحق إنصاف ، واعتقاد

النصرة – لما رآه صحيحاً – بالحجة ، وتَرْك الميل إلى الشيء بالهوى .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47)

يعني أنهم على أنواع : فمرحوم نظرْنا إليه بالعناية ، ومحرومٌ وسمناه بالشقاوة .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

أي تَجَرَّد قلبك عن المعلومات ، وتقدّس سرّك عن المرسومات ، فصادَفك من غير ممازجة طبْعٍ ومشاركةِ كَسْبٍ وتكلف بشرية ، فلما خلا قلبك وسرُّك عن كل معلومٍ ومرسوم ورَد عليك خطابُنا وتفهيمنا مقرون بهما ما ليس مِنَّا .

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

قلوب الخواص من العلماء بالله خزائنُ الغيب ، فيها أودع براهين حقه ، وبينات سِرّه ، ودلائل توحيده ، وشواهد ربوبيته ، فقانون الحقائق قلوبهم ، وكلُّ شيء يطلبُ من موطنه ومحله ؛ فالدرُّ يُطلبُ من الصدف لأنّ ذلك مسكنه ، والشمس تطلبُ من البروج لأنها مطلعها ، والشهد يُطْلبُ من النّحل لأنه عشُه . كذلك المعرفة تُطْلَبُ من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته ، ومنها (. . .) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 101.100 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فجحدوها بما لهم من الرسوخ في الظلم أصلاً ورأساً ، ولم يعدوها آيات فضلاً عن كونها بينات ، عطف عليه قوله : ﴿ وقالوا ﴾ موهمين مكراً وإظهار النصفة بالاكتفاء بأدنى ما يدل على الصدق : ﴿ لولا ﴾ أي هلا ﴿ أنزل عليه ﴾ أي على أي وجه كان من وجوه الإنزال ﴿ آية ﴾ أي واحدة تكون بحيث تدل قطعاً على صدق الآتي بها ﴿ من ربه ﴾ أي الذي يدعي إحسانه إليه كما أنزل على الأنبياء قبله من نحو ناقة صالح عصا موسى ونحوهما ، لنستدل به على صدق مقاله ، وصحة ما يدعيه من حاله هذا على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وأبي بكر بالإفراد ، وجمع غيرهم دلالة على أن فريقاً آخر قالوا : إن مثل هذا المهم العظيم لا يثبت إلا بآيات متعددة ، وأوهموا مكابرة وعناداً أن ذلك لم يقع ، وإن وقع ما يسمى آية .

(89/598)

ولما كان هذا إنكاراً للشمس بعد شروقها ، ومكابرة فيما تحدى به من المعجزات بعد حقوقها ، أشار إليه بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لهم إرخاء للعنان حتى كأنك ما أتيتهم بشيء : ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ أي الذي له الأمر كله فلا يقدر على إنزال شيء منها غيره ، فإنما الإله هو لا سواه ﴿ وإنما أنا نذير ﴾ أقوم لكم بما حملني وكلفني من النذارة ، دالاً عليه بما أعطيت من الآيات ، ونواقض المطردات وليس لي أن أقترح عليه الآيات ، على أن المقصود من الآية الدلالة على الصدق ، وهي كلها في حكم آية واحدة في ذلك ، ولم يذكر البشارة لأنه ليس أسلوبها ﴿ مبين ﴾ أي أوضح ما آتى به من ذلك بعد أن أوضح صحة كوني نذيراً ، فليس إليّ إنزال الآيات ولا طلبها اقتراحاً على الله ، فهو قصر قلب فيهما ، خوطب به من لزمه ادعاء أن إنزال الآيات إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن أمره الإتيان بما يريد أو يطلب منه .

(90/598)

ولما أفرحهم بما كأنه تسليم لمدعاهم ، وكان من البين أن لسان الحال يقول : ألم يكفهم ما جئتهم به من الآيات المرئيات والمسموعات ، وعجزوا عن الإتيان بشيء منها ، عطف على ذلك قوله منكراً على جهلهم وعنادهم : ﴿ أولم يكفهم ﴾ أي إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين آية بينة مغنية عن كل آية ﴿ أنا أنزلنا ﴾ بعظمتنا ﴿ عليك الكتاب ﴾ أي الجامع لسعادة الدارين بحيث صار خلقاً لك غالباً على حركاتك وسكناتك ﴿ يتلى عليهم ﴾ أي يتجدد متابعة قراءته عليهم شيئاً بعد شيء في كل مكان وكل زمان من كل تالٍ مصدقاً لما في الكتب القديمة من نعتك وغيره من الآيات الدالة على صدقك ، يتحدّون بكل شيء نزل منه مع تحديهم بما قبله من آياته صباح مساء ، يصفعون بذلك مدى الدهر في أقفائهم ويدفعون ، فكلما أرادوا التقدم ردوا عجزاً إلى ورائهم ، فأعظم به آية باقية ، إذ كل آية سواه منقضية ماضية ، وقال الشيخ أبو العباس المرسي : خشع بعض الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م من سماع اليهود بقراءة التوراة فعتبوا إذ تخشعوا من غير القرآن ، وهم إنما تخشعوا من التوراة وفي كلام الله فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهي والغناء .

ولما كان هذا أعظم من كل آية يقترحونها ولو توالى عليهم إتيانها كل يوم لدوام هذا على مر الأيام والشهور ، حتى تفنى الأزمان والدهور ، أشار تعالى إلى هذا العظمة ، مع ما فيها من النعمة ، بقوله مؤكداً على جهلهم فيما لزم من كلامهم الأول من إنكار أن يكون في القرآن آيه تدلهم على الصدق : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي إنزال الكتاب على هذا الوجه البعيد المنال

البديع المثال ﴿ لرحمة ﴾ لهم لصقله صدأ القلوب في كل لحظة ، وتطهيره خبث النفوس في كل لمحة ﴿ وذكرى ﴾ أي عظيمة مستمراً تذكرها .

(91/598)

ولما عم بالقول ، خص من حيث النفع فقال : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي يمكن أن يتجدد لهم إيمان ، ليس من همهم التعنت ، قال الحرالي في كتاب له في أصول الدين : ولما كان القرآن لسان إحاطة لم يف بالقيام به خلق من خلق الله ، لأنه ببناء على كليه أمر الله حتى أن السورة الواحدة منه لما كان موقع الخطاب بها من مدد بنائه على إحاطة أمر الله لا يستطيعها أحد من الخلق ، وإذا كان الأقل من كلام العالم لا يستطيعه من دون رتبته ، فعجز الخلق عن كلام الله أحق وأولى ، ثم كل ناظر فيه – من أيّ وجه نظره – أدرك بمقتضى علوه على رتبته وجهاً من العجز فيه ، إن كان فصيحاً بليغاً فمن جهة البلاغة ، ومعناها بلوغ الكلام في مطابقة أنبائه ويسمى الفصاحة ، وحسن نظم حروف كلماته ويسمى الجزالة ، وكمال انتظام كلماته وآياته ، ويسمى حسن النظم – إلى أنهى غاياته وأتم نهاياته ، وإن كان عالماً بأخبار الأولين فبصحة مقتضاها فيه ، وإن كان حكيماً فبالإعلام الأتم بوجه تقاضي المترتبات ، وبالجملة فما يكون لأحد أصل من عقل وحظ من علم – أي علم كان – إلا

ويجد له موقعاً في القرآن ، يفي له بحظ بيان علو مرتبة أنبائه على نهاية مدركة منه بمقدار لا يرتاب في وقوعه فوق طور الخلق ، فكان آية باقية دائمة لم يتفاوت في تلقيه أول سامع له من آخر سامع في وجه سماعه ، فكل نبي فقدت آيته بفقده أو بفقد وقت ظهورها على يديه ، وآية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ باقية ببقاء الله ، فجهات ظهور إعجازه تأتي على حظوظ أصناف الخلق من وجوه الإدراك ، لا يتعين لظهور الإعجاز فيه جهة ، ولا يفقد ناظر فيه حظاً يتطرق بمقدار إدراكه منه إلى يقين وجه إعجازه ، وذلك لما كان محيطاً بكل تفصيل وكل إجمال ، ولم يفرط فيه من شيء ، وكان تفصيلاً لكل شيء ولإحاطته بإثبات كل رتبة من رتب حكمة الله تعالى لم يقدر أحد من الخلق في التوقف عن الإيمان به من الجن والإنس والأحمر والأسود وجميع خلق الله ، من يعرفه

(92/598)

الناس منهم ومن لا يعرفونهم ممن أحاط بهم علم العالمين بإعلام الله ، ومن حكم إحاطة كتابة كان ممكناً من عالية كل آية جاء بها نبي قبله ممن شاهد ذلك منه حاضروه ، ونقله نقل التواتر والاستفاضة حملة العلم خلفاً عن سلف ؛ ثم رتب قياساً على إثبات النبوة فقال : إن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذو آية هذا القرآن المشهود ، وهذا القرآن المشهود معجز

كل ذي إدراك ، وبشرى من كل جهة من جهات معانيه وبلاغته ، فذو آية هذا القرآن نبي ، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي ، أما أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذو آيته فبالتجربة السمعية المتيقنة المسماة بالتواتر ، وأما أن هذا القرآن معجز فيما يجده كل ناظر في معناه المشتمل على تمام الحكمة فيما هو كائن ونبأ ما كان من قبل وخبر ما يكون بعد المتيقن بوقوع أوائله وقوع جملته وصحة خبره ، وبذلك يتضح أن ذا آيته نبي ، ثم بما تضمنه من شهادته لذي آيته وتصريحه بذلك لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فصح أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذو ايته ، وإنه نبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمستعمل في ذلك أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحدى بهذا القرآن العرب الفصحاء واللد البلغاء ، فلما لجؤوا للحرب وضح أنهم فروا لذلك المكان ما وجدوه في أنفسهم من العجز ، وإذا عجز أولئك فمن بعدهم أحق بالعجز ، فلما شمل العجز الكل من الخلق ، وجب العلم بأن هذا القرآن حق ، والمتحدي به نبي جاء بالصدق ، وحاصله : لو لم تعجز العرب لم تحارب ثقل الحرب وخفة المعارضة لو استاطاعوها ، ولم يعارضوا وحاربوا فقد عجزوا ، فثبت بذلك أنه نبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتهى .

(93/598)

ولما كان من المعلوم أنهم يقولون : نحن لا نصدق أن هذا الكتاب من عند الله فضلاً عن أن نكتفي به ، قال : ﴿ قل ﴾ أي جواباً لما قد يقولونه من نحو هذا : ﴿ كفى بالله ﴾ أي الحائز لجميع العظمة وسائر الكمالات ، الذي شهد لي بالرسالة في كتابة الذي أثبت أنه كلامه عجز الخلق عن معارضته .

ولما كانت العناية في هذه السورة بذكر الناس ، وتفصيل أحوالهم ، ابتدأ بقوله : ﴿ بيني وبينكم ﴾ قبل قوله : ﴿ شهيداً ﴾ بخلاف الرعد والأنعام ، ثم وصف الشهيد أو علل كفايته بقوله : ﴿ يعلم ما في السماوات ﴾ أي كلها .

ولما لم يكن للارض غير هذه التي يشاهدونها ذكر في إتيان الوحي والقرآن منها ، أفرد فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من ذلك فهو عليم بما ينسبونه إليّ من التقول عليه وبما أنسبه أنا إليه من هذا القرآن الذي شهد لي به عجزكم عنه فهو شاهد لي ، والله في الحقيقة هو الشاهد لي ، بما فيه من الثناء عليّ ، والشهادة لي بالصدق ، لأنه قد ثبت بالعجز عنه أنه كلامه وسيتحقق بالعقل إبطال المبطل منا .

ولما كان التقدير : وأنتم تعلمون أنه قد شهد لي بأني على الحق ، وأن كل ما خالف ما جئت به فهو باطل ، فالذين آمنوا بالحق وكفروا بالباطل فأولئك هم الفائزون ، عطف عليه قوله : ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ أي الذي لا يجوز الإيمان به من كل معبود سوى الله ﴿ وكفروا بالله ﴾ الذي يجب الإيمان به والشكر له ، لأنه له الكمال كله وكل ما سواه هالك ليس له من

ذاته إلا العدم ﴿ أولئك ﴾ البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الخاسرون ﴾ أي العريقون في الخسارة ، فإنهم خسروا أنفسهم أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 570.567 ﴾

(94/598)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) ﴾ لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهي بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس ، فقالوا إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، وليس كذلك لأن موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئاً منها ، ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله : ﴿ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ ووجهه أن النبي صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، لأن الرسول يرسل أولا ويدعو إلى الله ، ثم إن توقف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلاً ، فالله إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين ، فقال أنا الساعة رسول وأما الآية

فالله إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها وهذا لأن ما هو من ضرورات الشيء إذا خلق الله الشيء لا بد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق الله إنساناً إلا ويكون قد خلق مكاناً أو يخلقه معه ، لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة ، ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل علم رسالتهم ، نقول من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم لم ينزل عليه آية ؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست شرطاً حتى تسبقها ، بلى إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا يا أيها المدعي نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي ونعلم بها كونك نبياً ونؤمن بك ، فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله أن ينزل آية .

(95/598)

ثم قوله : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بي ما أنا إلا نذير وليس لي عليه حكم بشيء ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر ، وقال هب أن إنزال الآية شرط لكنه وجد وهو في نفس الكتاب .

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ

فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني إن كان إنزال الآية شرطاً فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية وقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ عبارة تنبىء عن كون القرآن آية فوق الكفاية ، وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبىء عن أن ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه : أحدهما : أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فإن قلب العصا ثعباناً وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر ، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله الثاني : هو أن قلب العصا ثعباناً كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض ، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة في قطر وسقط إيوان كسرى في قطر وانهدت الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلاماً بأنه يكون أمر عام الثالث : هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول إنه سحر عمل بدواء ، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لَرَحْمَةً ﴾ إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق ، وهذا لأنا بينا أن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله ، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب ، لأن النبي لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة ، لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقوله : ﴿ وذكرى ﴾ إشارة إلى أنه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان .

ثم قال تعالى : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضباً على الكافرين لأنها قطعت أعذارهم وعطلت إنكارهم .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينكم ، كل ذلك إنذار وتهديد يفيده تقريراً وتأكيداً ، ثم بين كونه كافياً بكونه عالماً بجميع الأشياء .

فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السموات والأرض ﴾ وههنا مسألة : وهي أن الله تعالى قال في آخر

الرعد

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ [الرعد : 43] فأخر شهادة أهل الكتاب ، وفي هذه السورة قدمها حيث قال : ﴿ فالذين ءاتيناهم الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [العنكبوت : 47] ومن هؤلاء من يؤمن به أي من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين ، فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم إن شهادة الله أقوى في إلزامهم من شهادة غير الله ، وههنا الكلام مع أهل الكتاب ، وشهادة المرء على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم .

(97/598)

ثم إنه تعالى لما بين الطريقين في إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكلام الشامل لهما والإنذار العام فقال تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ بالباطل وَكَفَرُواْ بالله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ أي الذين آمنوا بما سوى الله لأن ما سوى الله باطل لأنه هالك بقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] وكل ما هلك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل ، فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ يقتضي الحصر أي من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسراً فنقول يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتياً بالآخر ، أما الآتي بالإيمان بما سوى الله فلأنه أشرك بالله فجعل غير الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون إنكاراً لله وكفراً به ، وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلاً بأن العالم ليس له إله موجد فوجود العالم من نفسه ، فيكون قائلاً بأن العالم واجب والواجب إله ، فيكون قائلاً بأن غير الله إله فيكون إثباتاً لغير الله وإيماناً به .

المسألة الثانية :

إذا كان الإيمان بما سوى الله كفراً به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي هو في قول القائل قم ولا تقعد واقرب مني ولا تبعد ؟ نقول نعم فيه فائدة غيرها ، وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح .

المسألة الثالثة :

هل يتناول هذا أهل الكتاب أي هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله ؟ نقول نعم ، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا إنها من عند غير الله ، يكون كمن رأى شخصاً يرمي حجارة ، فقال إن رامي الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد ، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمداً مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون إيماناً بالباطل ، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس بإله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذي هو الله ليس بإله فيكون كفراً به ، وهذا لا يرد علينا فيمن يقول فلعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد ، فإنه أيضاً ينسب فعل الله إلى الغير ، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة ، كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها ، فيظن أن راميها زيد فيقول زيد هو رامي هذه الحجارة ، ثم إذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بأن يقول هو زيد ، وأما إذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامي الحجارة زيد ، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة ، ويقولون بأنها من عند غير الله .

ثم قوله : ﴿ هُمُ الخاسرون ﴾ كذلك بأتم وجوه الخسران ، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون ، فهم لما عبدوا غير

الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شيء ما أصلاً من المنافع ، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 69. 71 ﴾

(99/598)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾

وفيه قولان

: أحدهما : أنهم كانواْ يسألونه آيات يقترحونها عليه كما كان يفعله مشركو قريش أن يجعل الصفا ذهباً وأن يجري بمكة نهراً .

الثاني : أنهم سألوه مثل آيات الأنبياء قبله كما جاء صالح بالناقة وموسى بالعصا وعيسى بإحياء الموتى .

﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي أن الله هو الذي يعطي ما يشاء من الآيات لمن يشاء من الأنبياء بحسب ما يرى من المصلحة ولذلك لم تتفق آيات الأنبياء كلها وإنما جاء كل نبي بنوع منها .

﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم مندوب للإنذار والبيان لا لما يقترح عليه من الآيات وإنما يلزم أن يأتي بما يشهد بصدقه من المعجزات وقد فعل الله ذلك فأجابهم به فقال .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني القرآن يتلى عليهم وفيه وجهان :

أحدهما : أولم يكفهم من الآيات التي سألوها أنا أنزلنا عليك الكتاب آية لك ودليلاً على صدقك لما فيه من الإعجاز في نظمه وصدق خبره وصحة وعده ؟

الثاني : أنه محمول على ما رواه عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : أتي النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب في كتف فقال : كفى بقوم حمقاً أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم فأنزل الله ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني استنقاذهم من الضلال ، وبالذكرى إرشادهم إلى الحق .

﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يريدون الإيمان ولا يقصدون العناد

. قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ يعني شهيداً بالصدق والإبلاغ ، وعليكم بالتكذيب والعناد .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وهذا احتجاج عليهم في صحة شهادته عليهم لأنهم قد أقروا بعلمه فلزمهم أن يقروا بشهادته .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : بإبليس ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : بعبادة الأَوثان والأصنام ، قاله ابن شجرة .

﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : لتكذيبهم برسله وجحدهم لكتبه .

الثاني : بما أشركوه معه من الآلهة وأضافوه إليه من الأولاد والأنداد .

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : خسروا أنفسهم بإهلاكها ، قاله علي بن عيسى .

الثاني : خسروا في الآخرة نعيم الجنة بعذاب النار ، قاله يحيى بن سلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(101/598)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

الضمير في ﴿ قالوا ﴾ لقريش ولبعض اليهود ، لأنهم كانوا يعلمون قريشاً مثل هذه الحجة يقولون : لم لا يأتيكم بمثل ما جاء به موسى من العصا وغيرها ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وعلى بن نضر عن أبي عمرو " آية من ربه " ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص عن عاصم " آيات من ربه " ، فأمر تعالى نبيه أن يعلم أن هذا الأمر بيد الله عز وجل ولا يستنزله الاقتراح ولا التمني وأنه بعث نذيراً ولم يؤمر بغير ذلك ، وفي مصحف أبي بن كعب " قالوا لو ما يأتينا بآيات من ربه قل إنما الآيات " ، ثم احتج عليهم في طلبهم آية بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات ومعجز للجن والإنس فقال : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ ، ثم قرر ما فيه من " الرحمة والذكرى " للمؤمنين ، فقوله ﴿ أو لم يكفهم ﴾ ، جواب لمن قال ﴿ لولا أنزل ﴾ ، وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين كتبوا عن اليهود بطائق أخبروهم بشيء من التوراة فكتبوه ، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال " كفى بها ضلالة قوم أن رغبوا عما آتاهم به نبيهم إلى ما أتى به غيره " ، ونزلت الآية بسببه .

قال الفقيه الإمام القاضي : والتأويل الأول أجرى مع نسق الآيات ، ثم أمر تعالى نبيه بالإسناد إلى أمر الله تعالى وأن يجعله حسبه ﴿ شهيداً ﴾ وحاكماً بينه وبينهم بعلمه

وتحصيله جميع أمورهم ، وقوله ﴿ بالباطل ﴾ ، يريد بالأصنام والأوثان وما يتبع أمرها من المعتقدات ، والباطل ، هو أن يفعل فعل يراد به أمر ما ، وذلك الأمر لا يكون عن ذلك الفعل ، والأصنام أريد بأمرها الأكمل والأنجح في زعم عبادها وليس الأكمل والأنجح إلا رفضها فهي إذاً باطل ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(102/598)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾

يعني كفار مكة ﴿ لولا أُنزل عليه آياتٌ مِنْ ربّه ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ آياتٌ ﴾ على الجمع .

وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ آيةٌ ﴾ على التوحيد .

وإنما أرادوا : كآيات الأنبياء ﴿ قُلْ إنَّما الآياتُ عند الله ﴾ أي : هو القادر على إرسالها ، وليست بيدي .

وزعم بعض علماء التفسير أن قوله ﴿ وإنَّما أنا نذير مُبين ﴾ منسوخ بآية السيف .

ثم بيَّن اللّهُ عز وجل أن القرآن يكفي من الآيات التي سألوها بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهم أنَّا أنزلنا

عليكَ الكتاب ﴾ ؟ ! وذكر يحيى بن جعدة " أن ناساً من المسلمين أتَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتب قد كتبوها ، فيها بعض ما يقول اليهود ، فلمَّا نظر إليها ألقاها وقال : "كفى بها حماقة قوم ، أو ضلالة قوم ، أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى قوم غيرهم" " ، فنزلت : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِم ﴾ إلى آخر الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ ﴾ قال المفسرون : لمَّا كذَّبوا بالقرآن نزلت : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ يَشهَد لي أنِّي رسوله ، ويشهد عليكم بالتكذيب ، وشهادةُ الله له : إثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه ، ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ قال ابن عباس : بغير الله .

وقال مقاتل : بعبادة الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(103/598)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾

هذا قول المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء .

قيل : كما جاء صالح بالناقة ، وموسى بالعصا ، وعيسى بإحياء الموتى ؛ أي ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ فهو يأتي بها كما يريد ، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي : ﴿ آيَةٌ ﴾ بالتوحيد .

وجمع الباقون .

وهو اختيار أبي عبيد ؛ لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ هذا جواب لقولهم ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله ، أو بسورة منه فعجزوا ، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر ؛ والكلام مقدور لهم ، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة .

وقيل : إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتف فيه كتاب فقال : "كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم " فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ أخرجه أبو محمد الدارميّ في مسنده .

وذكره أهل التفسير في كتبهم .

وفي مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه : " لو كان موسى بن عمران

حيّاً لما وسعه إلا اتباعي " وفي مثله قال صلى الله عليه وسلم : " ليس منا من لم يَتغنَّ بالقرآن " أي يستغني به عن غيره .

وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية .

(104/598)

وإذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان .

﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ أي في القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ في الدنيا والآخرة .

وقيل : رحمة في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة .

﴿ وذكرى ﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كفى بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ أي قل للمكذبين لك كفى بالله شهيداً يشهد لي بالصدق فيما أدعِيه من أني رسوله ، وأن هذا القرآن كتابه .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ أي لا يخفى عليه شيء .

وهذا احتجاج عليهم في صحة شهادته عليهم ؛ لأنهم قد أقروا بعلمه فلزمهم أن يقرّوا بشهادته .

﴿ والذين آمَنُواْ بالباطل ﴾ قال يحيى بن سلام : بإبليس .

وقيل : بعبادة الأوثان والأصنام ؛ قاله ابن شجرة .

﴿ وَكَفَرُواْ بالله ﴾ أي لتكذيبهم برسله ، وجحدهم لكتابه .

وقيل : بما أشركوا به من الأوثان ، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد .

﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(105/598)

وقال أبو حيان :

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ﴾

أي قريش ، وبعض اليهود كانوا يعلمون قريشاً مثل هذا الاقتراح يقولون له : ألا يأتيكم بآية مثل آيات موسى من العصا وغيرها ؟ وقرأ العربيان ، ونافع ، وحفص : آيات ، على الجمع ؛ وباقي السبعة : على التوحيد .

﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ ، ينزل أيتها شاء ، ولو شاء أن ينزل ما يقترحونه لفعل .

﴿ وإنما أنا نذير ﴾ بما أعطيت من الآيات .

وذكر يحيى بن جعدة أن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود ، فلما نظر إليها ألقاها وقال : "كفر بها جماعة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم"

، فنزلت : ﴿ أو لم يكفهم ﴾ .

والذي يظهر أنه رد على الذين قالوا : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ : أي أو لم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات ، إن كانوا طالبين للحق ، غير متعنتين هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان ؟ فلا تزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل ، كما تزول كل آية بعد وجودها ، ويكون في مكان دون مكان .

إن في هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان لرحمة لنعمة عظيمة لا تنكر وتذكر .

وقيل : ﴿ أو لم يكفهم ﴾ : يعني اليهود ، ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك ، وروي أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا : يا محمد ! من يشهد بأنك رسول الله ؟ فنزلت : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ : أي قد بلغت وأنذرت ، وأنكم جحدتم وكذبتم ، وهو العالم ﴿ ما في السموات والأرض ﴾ ، فيعلم أمري وأمركم ، ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ .

قال ابن عباس : بغير الله .

وقال مقاتل : بعبادة الشيطان .

وقيل : بالضم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(106/598)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايات مّن رَّبِّهِ ﴾

مثلُ ناقةِ صالحٍ وعَصَا مُوسى ومائدةُ عيسَى عليهم السَّلامُ . وقُرِىءَ آيةٌ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ يُنزِّلها حسبَما يشاءُ من غيرِ دخلٍ لأحدٍ في ذلكَ قطعاً ﴿ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليسَ من شأنِي إلا الإنذارُ بما أُوتيتُ من الآياتِ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ من جهتِه تعالى ردّاً على اقتراحِهم وبياناً لبُطلانِه والهمزةُ للإنكارِ والنَّفيِ والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أقصُر ولم يكفِهم آيةٌ مغنيةٌ عن سائرِ الآياتِ ﴿ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ الناطقَ بالحقِّ المصدِّقَ لما بين يديهِ من الكتبِ السَّماويَّةِ وأنتَ بمعزلٍ عن مدارسَتِها وممارسَتِها ﴿ يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تزولُ ولا تضمحلُّ كما تزولُ كلُّ آيةٍ بعدَ كونِها وتكونُ في مكانٍ دُونَ مكانٍ أو يُتلى على اليَهودِ بتحقيقِ ما في أيديهم من نعتِك ونعتِ دينِك ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ الكتابِ العظيمِ الشَّأنِ

الباقِي على مرِّ الدُّهورِ ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي نعمةً عظيمةً ﴿ وذكرى ﴾ أي تذكرةً ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لقوم همُّهم الإيمانُ لا التعنُّتُ كأولئك المُقترحينَ ، وقيل : إنَّ ناساً من المؤمنينَ أَتَوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بكتبٍ فيها بعضُ ما يقولُه اليَهودُ فقال : "كَفَى بها ضلالةَ قومٍ أنْ يرغبُوا عمَّا جاءَ به نبيُّهم إلى ما جاءَ به غيرُ نبيِّهم " فنزلتْ

﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾

(107/598)

بمَا صدرَ عنّي وعنكُم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ أي من الأُمورِ التي من جُمْلتِها شأنِي وشأنُكم فهو تقريرٌ لما قبلَه من كفايتِه تعالى شَهيداً ﴿ والذين ءامَنُواْ بالباطل ﴾ وهو ما يُعبد من دُونِ الله تعالَى ﴿ وَكَفَرُواْ بالله ﴾ مع تعاضُد موجباتِ الإيمانِ به ﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ المغبُونون في صفقتِهم حيثُ اشترَوا الكفرَ بالإيمانِ بأنْ ضيَّعوا الفطرةَ الأصليَّةَ والأدلَّةَ السمعيَّةَ الموجبةَ للإيمانِ ، والآيةُ من قبيلِ المُجادلةِ بالتي هي أحسنُ حيثُ لم يُصرِّحْ بنسبةِ الإيمانِ بالباطلِ والكفرِ بالله والخسرانِ إليهم بل ذُكر على منهاجِ الإبهامِ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي كفار قريش بتعليم بعض أهل الكتاب .

وقيل : الضمير لأهل الكتاب ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايات مّن رَّبِّهِ ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ، وقرأ أكثر أهل الكوفة ﴿ ءايَةً ﴾ على التوحيد ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لأحد في ذلك قطعاً ﴿ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات لا الإتيان بما اقترحتموه فالقصر قصر قلب .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى رداً على اقتراحهم وبياناً لبطلانه والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أقصر ولم يكفهم ءاية مغنية عن سائر الآيات ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا ﴾ ﴿ عَلَيْكَ الكتاب ﴾ الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل من مدارستها ومما رستها ﴿ يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم ءاية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل ءاية بعد كونها ، وقيل : ﴿ يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ أي أهل الكتاب بتحقق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك ، وله وجه ان كان ضمير قالوا فيما تقدم لأهل الكتاب وأما إذا كان لكفار

قريش فلا يخفى ما فيه .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي الكتاب العظيم الشأن الباقي على ممر الدهور ، وقيل : الذي هو حجة بينة ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة عظيمة ﴿ وذكرى ﴾ أي تذكرة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي همهم الإيمان لا التعنت فالجار والمجرور متعلق بذكرى والفعل مراد به الاستقبال ، ويجوز أن يكون ﴿ رَحْمَةً وَذِكْرَىٰ ﴾ مما تنازعا في الجار والمجرور فيجوز أن يكون الفعل للحال ،

وأخرج الفريابي .

والدارمي .

وأبو داود في مراسيله .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

(109/598)

عن يحيى بن جعدة قال : "جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء

به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم فنزلت : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ الآية" وأخرج الإسماعيلي في معجمه .

وابن مردويه عن يحيى هذا ما هو قريب مما ذكر مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

و ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ على هذا على ظاهره لا غير ، وتعقب بأن السياق والسياق مع الكفرة وان الظاهر كون ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ الآية جواباً لقولهم : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ ﴾ الخ ، وفي جعل سبب النزول ما ذكر خروج عن ذلك فتأمل .

وعليه تكون الآية دليلاً لمن منع تتبع التوراة ونحوها .

وروي هذا المنع عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

أخرج ابن عساكر عن أبي مليكة قال : أهدى عبد الله بن عامر بن ركن إلى عائشة رضي الله تعالى عنها هدية فظنت أنه عبد الله بن عمرو فردتها وقالت : يتتبع الكتب وقد قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ فقيل لها : إنه عبد الله بن عامر فقبلتها " وجاء في عدة أخبار ما يقتضي المنع ، أخرج عبد الرزاق في المصنف .

والبيهقي في شعب الإيمان ، عن الزهري أن حفصة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرؤه عليه والنبي عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه فقال : والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني ضللتم أنا

حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم .

وأخرج عبد الرزاق .

(110/598)

والبيهقي أيضاً عن أبي قلابة "أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل : اكتب لي من هذا الكتاب قال : نعم فاشتري أديما فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه ثم أتي النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرؤه عليه وجعل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلون فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم وانت تقرأ عليه هذا الكتاب فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وخواتمه واختصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون" أي الواقعون في كل أمر بغير روية ، وقيل : المتحيرون إلى ذلك من الأخبار ، وحقق بعضهم أن المنع إنما هو عند خوف فساد في الدين وذلك مما لا شبهة فيه في صدر الإسلام ، وعليه تحمل الأخبار ، وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾

أي عالماً بما صدر عني من التبليغ والإنذار وبما صدر عنكم من مقابلتي بالتكذيب والإنكار فيجازي سبحانه كلا بما يليق به ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ أي من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيداً ، وجوز أن يكون المعنى كفى به عز وجل شاهداً بصدقي أي مصدقاً لي فيما ادعيته بالمعجزات تصديق الشاهد لدعوى المدعى ، وجملة ﴿ يَعْلَمْ ﴾ إما صفة ﴿ شَهِيداً ﴾ أو حال أو استئناف لتعليل كفايته ، وقيل عليه : إن هذا الوجه لا يلائمه قوله تعالى : ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ سواء تعلق بكفي أو بشهيداً ولا قوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات ﴾ الخ ، وفيه تأمل .

وقد يؤيد ذلك بما روي أن كعب بن الأشرف .

(111/598)

وأصحابه قالوا : يا محمد من يشهد بأنك رسول الله ؟ فنزلت ﴿ قُلْ كفى ﴾ الآية إلا أن في القلب من صحة هذه الرواية شيئاً لما أن السياق والسباق مع كفرة قريش فلا تغفل .

وأياً ما كان فلا منافاة بين هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وادعوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ الله ﴾ [البقرة : 32] بناء على أن المعنى لا تستشهدوا بالله تعالى ولا تقولوا الله تعالى يشهد أن ما

ندعيه حق كما يقوله العاجز عن إقامة البينة إما لأن الشهيد ههنا بمعنى العالم والكلام وعد ووعيد ، وأما بمعنى المصدق بالمعجزات وليست الشهادة باحد المعنيين هناك .

والباء في ﴿ بالله ﴾ زائدة والاسم الجليل فاعل ﴿ كفى ﴾ ، وقال الزجاج : أن الباء دخلت لتضمن كفى معنى اكتف فالباء كما قال اللقاني معدية لا زائدة ، قال ابن هشام في المغنى : وهو من الحسن بمكان ويصححه قولهم : اتقى الله تعالى امرؤ فعل خيراً يثب عليه أي ليتق بدليل جزم يثب ويوجبه قولهم : كفى بهند بترك التاء فإن احتج بالفاصل فهو مجوز لا موجب بدليل ﴿ وما تسقط من ورقة ﴾ [الأنعام : 59] فإن عورض بأحسن بهند فالتاء لا تلحق صيغ الأمر وإن كان معناها الخبر اه .

وتعقب ذلك الشيخ يس الحمصي في حواشيه على التصريح فقال : أقول تفسير ﴿ كفى ﴾ على هذا القول باكتف غير صحيح إذ فاعل ﴿ كفى ﴾ حينئذ ضمير المخاطب ، و ﴿ كفى ﴾ ماض وهو لا يرفع ضمير المخاطب المستتر اه وفيه بعد بحث لا يخفى على المتأمل .

وظن بعض الناس أن ﴿ كفى ﴾ على هذا القول اسم فعل أمر يخاطب به المفرد المذكر وغيره نحو حي في حي على الصلاة فالمعنى هنا اكتفوا بالله ، وأنت تعلم أن هذا بعيد الإرادة من كلام الزجاج ويأباه كلام ابن هشام ، وقال ابن السراج : الفاعل ضمير الاكتفاء ،

قال ابن هشام : وصحة قوله موقوفة على جواز تعلق الجار بضمير المصدر وهو قول الفارسي .

(112/598)

والرماني أجازوا مروري بزيد حسن وهو بعمرو قبيح ، وأجاز الكوفيون اعماله في الظرف وغيره ، ومنع جمهور البصريين أعماله مطلقاً اه .

وتعقب ذلك ابن الصائغ فقال : لا نسلم توقف الصحة على ذلك لجواز أن تكون الباء للحال ، وعليه يكون المعنى ﴿ كفى ﴾ هو أي الاكتفاء حال كونه ملتبساً بالله تعالى ، ولا يخفى أنه ما لم يبطل هذا القول لا يتم ما ادعاه ابن هشام من أن ترك التاء في كفى بهند يوجب كون كفى مضمناً معنى اكتفى فتدبر ﴿ والذين ءامَنُواْ بالباطل ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أي بغير الله عز وجل وهو شامل لنحو عيسى والملائكة عليهم السلام .

والباطل في الحقيقة عبادتهم وليس الباطل هنا مثله في قول حسان :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . .

، وقال مقاتل : أي بعبادة الشيطان ، وقيل : أي بالصنم ﴿ وَكَفَرُواْ بالله ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به عز وجل ﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ المغبونون في صفقتهم حيث

اشتروا الكفر بالإيمان فاستوجبوا العقاب يوم الحساب ، وفي الكلام على ما قيل : استعارة مكنية شبه استبدال الكفر بالإيمان المستلزم للعقاب اشتراء مستلزم للخسران ، وفي الخسران استعارة تخييلية هي قرينتها لأن الخسران متعارف في التجارات ، وهذا الكلام ورد مورد الانصاف حيث لم يصرح بأنهم المؤمنون بالباطل الكافرون بالله عز وجل بل أبرزه في معرض العموم ليهجم به التأمل على المطلوب فهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] وكقول حسان :

فشركما لخيركما الفداء . . .

وهذا من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(113/598)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

لما ذكر الجاحدين لآية القرآن ثلاث مرات ووصفهم بالكافرين والمبطلين والظالمين انتقل الكلام إلى مقالتهم الناشئة عن جحودهم ، وذلك طلبهم أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بآيات مرئية خارقة للعادة تدل على أن الله خلقها تصديقاً للرسول كما خلق ناقة صالح

وعصا موسى ، وهذا من جلافتهم أن لا يتأثروا إلا للأمور المشاهدة وهم يحسبون أن الرسول عليه الصلاة والسلام ينتصب للمعاندة معهم فهم يقترحون عليه ما يرغبونه ليجعلوا ما يسألونه من الخوارق حديث النوادي حتى يكون محضر الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم كمحضر المشعوذين وأصحاب الخنقطرات .

وقد قدمتُ بيان هذا الوهم عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آيات من ربّه ﴾ في سورة [الأنعام : 37] .

ومعنى عند الله ﴾ أنها من عمل القدرة الذي يجري على وفق إرادته تعالى فلكونها منوطة بإرادته شبهت بالشيء المحفوظ عند مالكه .

وأفادت ﴿ إنما ﴾ قصر النبي عليه الصلاة والسلام على صفة النذارة ، أي الرسالة لا يتجاوزها إلى خلق الآيات أو اقتراحها على ربّه ، فهو قصر إفراد ردّاً على زعمهم أن من حق الموصوف بالرسالة أن يأتي بالخوارق المشاهدة .

والمعنى : أنه لا يُسَلَّم أن التبليغ يحتاج إلى الإتيان بالخوارق على حسب رغبة الناس واقتراحهم حتى يكونوا معذورين في عدم تصديق الرسول إذا لم يأتهم بآية حسب اقتراحهم .

وخُصّ بالذكر من أحوال الرسالة وصف النذير تعريضاً بالمشركين بأن حالهم يقتضي الإنذار وهو توقع الشر .

والمبين : الموضح للإنذار بالدلائل العقلية الدالة على صدق ما يخبر به .

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب : ﴿ ءايات ﴾ .

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف : ﴿ ءاية ﴾ .

والجمع والإفراد في هذا سواء لأن القصد إلى الجنس ، فالآية الواحدة كافية في التصديق .

(114/598)

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)

عطف على جملة : ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ [العنكبوت : 50] وهو ارتقاء في المجادلة .

والاستفهام تعجيبي إنكاري .

والمعنى : وهل لا يكفيهم من الآيات آيات القرآن فإن كل مقدار من مقادير إعجازه آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فإن آيات القرآن زهاء ستة آلاف آية .

ومقدار كل ثلاث آيات مقدار مُعجز ، فيحصل من القرآن مقدار ألفي معجزة وذلك لم يحصل لأحد من رسل الله .

و﴿ الكتاب ﴾ : القرآن ، وعُدل عن لفظ القرآن الذي هو كالعلم عليه إلى لفظ الكتاب المعهود لإيمائه إلى معنى تعظيمه بأنه المشتهر من بين كتب الأنبياء .

وجملة : ﴿ يتلى عليهم ﴾ مستأنفة أو حال ، لأن الكتاب معلوم غير محتاج للوصف لما تشعر به مادة التلاوة من الانتشار والشيوع .

واختير المضارع دون الوصف بأن يقال : متلواً عليهم ، لما يؤذن به المضارع من الاستمرار ، فحصل من مادة ﴿ يُتْلَى ﴾ ومن صيغة المضارع دلالة على عموم الأمكنة والأزمنة .

وقد أشار قوله : ﴿ يُتْلى عليهم ﴾ وما بعده إلى خمس مزايا للقرآن على غيره من المعجزات .

المزية الأولى : ما أشار إليه قوله ﴿ يُتْلى عليهم ﴾ من انتشار إعجازه وعمومه في المجامع والآفاق والأزمان المختلفة بحيث لا يختص بإدْراك إعجازه فريق خاص في زمن خاص شأن المعجزات المشهودة مثل عصا موسى وناقة صالح وبرء الأكمة ، فهو يتلى ، ومن ضمن تلاوته الآيات التي تحدّت الناس بمعارضته وسجلت عليهم عجزهم عن المعارضة من قَبل محاولتهم إياها فكان كما قال فهو معجزة باقية والمعجزات الأخرى معجزات زائلة .

(115/598)

المزية الثانية : كونه مما يُتلى ، فإن ذلك أرفع من كون المعجزات الأخرى أحوالاً مرئية لأن إدراك المتلوّ إدراك عقلي فكري وهو أعلى من المدركات الحسية فكانت معجزةُ القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت إليها الإنسانية .

المزية الثالثة : ما أشار إليه قوله : ﴿ إن في ذلك لرحمة ﴾ فإنها واردة مورد التعليل للتعجيب من عدم اكتفائهم بالكتاب وفي التعليل تتميم لما اقتضاه التعبير بالكتاب وب ﴿ يتلى عليهم ﴾ ، فالإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى ﴿ الكتاب ﴾ ليستحضر بصفاته كلها وللتنويه به بما تقتضيه الإشارة من التعظيم .

وتنكير (رحمة) للتعظيم ، أي لا يقادَر قدرها .

فالكتاب المتلو مشتمل على ما هو رحمة لهم اشتمال الظرف على المظروف لأنه يشتمل على إقامة الشريعة وهي رحمة وصلاح للناس في دنياهم ، فالقرآن مع كونه معجزة دالّةً على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ومرشدة إلى تصديقه مثل غيره من المعجزات وهو أيضاً وسيلة علم وتشريع وآداب للمتلو عليهم وبذلك فضَل غيره من المعجزات التي لا تفيد إلا تصديق الرسول الآتي بها .

المزية الرابعة : ما أشار إليه قوله : ﴿ وذكرى ﴾ فإن القرآن مشتمل على مواعظ ونذر وتعريف بعواقب الأعمال ، وإعدادٍ إلى الحياة الثانية ، ونحو ذلك مما هو تذكير بما في تذكره

خيرُ الدارين ، وبذلك فضَل غيره من المعجزات الصامتة التي لا تفيد أزيد من كون الآتية على يديه صادقاً .

(116/598)

المزية الخامسة : أن كون القرآن كتاباً متلواً مستطاعاً إدراك خصائصه لكل عربي ، ولكل من حذق العربية من غير العرب مثل أئمة العربية ، يبعده عن مشابهة نفثات السحرة والطلاسم ، فلا يستطيع طاعن أن يزعم أنه تخيلات كما قال قوم فرعون لموسى : ﴿ يا أيها الساحر ﴾ [الزخرف : 49] وقال تعالى حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق القمر : ﴿ وإن يروا ءاية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ [القمر : 2] ، فأشار قوله : ﴿ يعرضوا ﴾ إلى أن ذلك القول صدر عنهم في معجزة مرئية .

وعُلق بالرحمة والذكرى قوله : ﴿ لِقَوم يؤمنون ﴾ للإشارة إلى أن تلك منافع من القرآن زائدة على ما في المعجزات الأخرى من المنفعة التي هي منفعة الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهذه مزايا عظيمة لمعجزة القرآن حاصلة في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيبته ومستقلة عن الحاجة إلى بيانه وتكميله بالدعوة وبتكريرها .

واستحضار المؤمنين بعنوان : (قوم يؤمنون) دون أن يقال : للمؤمنين ، لما في لفظ قوم من

الإيماء إلى أن الإيمان من مقومات قوميتهم ، أي لقوم شعارهم أن يؤمنوا ، يعني لقوم شعارهم النظر والإنصاف فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلماً وعلوّاً ، فالفعل مراد به الحال القريبة من الاستقبال .

وفيه تعريض بالذين لم يكتفوا بمعجزته واقترحوا آيات أخرى لا نسبة بينه وبينها .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض ﴾

بعد أن ألقمهم حَجر الحجّة الدامغة أمر بأن يجعل الله حكَماً بينه وبينهم لما استمر تكذيبهم بعد الدلائل القاطعة .

وهذا من الكلام المنصف المقصود منه استدراج المخاطب .

و﴿ كفى بالله ﴾ بمعنى هو كاف لي في إظهار الحق ، والباء مزيدة للتوكيد وقد تقدم نظيره في قوله : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ في سورة [النساء : 79] .

(والشهيد : الشاهد ، ولما ضُمن معنى الحاكم عدّي بظرف بيني وبينكم ﴾ .

(117/598)

قال الحارث بن حلزة في عمرو بن هند الملك :

وهو الرّب والشهيد على يو

م الحِيَارَيْن والبلاء بلاء . . .

وجملة : ﴿ يعلم ما في السماوات والأرض ﴾ مقررة لمعنى الاكتفاء به شهيداً فهي تتنزل منها منزلة التوكيد .

﴿ السماوات والأرض والذين ءامَنُواْ بالباطل وَكَفَرُواْ بالله أولئك ﴾

بعد أن أنصفهم بقوله : ﴿ كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ استمر في الانتصاف بما لا يستطيعون إنكاره وهو أن الذين اعتقدوا الباطل وكفروا بالله هم الخاسرون في الحكومة والقضية الموكولة إلى الله تعالى ؛ فهم إن تأملوا في إيمانهم بالله حقَّ التأمّل وجدوا أنفسهم غير مؤمنين بإلهيته لأنهم أشركوا معه ما ليس حقيقاً بالإلهية فعلموا أنهم كفروا بالله فتعين أنهم آمنوا بالباطل فالكلام موجه كقوله : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هُدىً أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] ، وقول حسان في أبي سفيان بن حرب أيام جاهليته :

أتهجوهُ ولست له بكفء

فشركما لخيركما الفداء . . .

وفي الجمع بين ﴿ ءامنوا ﴾ و ﴿ كَفروا ﴾ محسّن المضادة وهو الطِّبَاق .

والباطل : ضد الحق ، أي ما ليس بحقيق أن يؤمن به ، أي ما ليس بإله حق ولكنهم يدَّعون له الإلهية وذلك إيمانهم بإلهية الأصنام .

وأما كفرهم بالله فلأنهم أشركوا معه في الإلهية فكفروا بأعظم صفاته وهي الوحدانية .

واسم الإشارة يفيد التنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل الأوصاف التي ذكرت لهم قبل اسم الإشارة مثل : ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ [البقرة : 5] .

والقصر المستفاد من تعريف جزأي جملة ﴿ هم الخاسرون ﴾ قصر ادعائيّ للمبالغة في اتصافهم بالخسران العظيم بحيث إن كل خسران في جانب خسرانهم كالعدم ؛ فكأنهم انفردوا بالخسران فأطلق عليهم المركب المفيد قصر الخسران عليهم وذلك لأنهم حقت عليهم الشقاوة العظمى الأبدية .

(118/598)

واستعير الخسران لانعكاس المأمول من العمل المُكِدّ تشبيهاً بحال من كد في التجارة لينال مالاً فأفنى رأس ماله ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فما ربِحَتْ تِجارتهم ﴾ [البقرة : 16] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(119/598)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

أي : بعد أنْ جاءهم القرآن وبعد أنْ أعجزهم يطلبون آيات أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه كان إذا اقترح القومُ آيةً من رسولهم فأجابهم إلى ما طلبوا ، فإنْ كذبوا بعدها أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

واقرأ مثلاً قوله سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا . . . ﴾ [الإسراء : 59] فلما كذَّبوا بالآية التي طلبوها أهلكهم الله ؛ لأن المسألة إذن ليست مسألة آيات وإقناع ، إنما هي الإصرار على الكفر ، إذن : فطلب الإنزال لآية خاصة باقتراحهم ليس مانعاً لهم أنْ يكفروا أيضاً برسول الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات . . . ﴾ [الإسراء : 59] أي : التي اقترحوها ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . ﴾ [الإسراء : 59] وحين تنزل الآية ويُكذِّبون بها تنزل بهم عقوبة السماء ، لكن الحق – سبحانه وتعالى – قطع العهد لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ألاَّ يُعذِّب أمته وهو فيهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : 33] .

فهذا هو السبب المانع من أنْ تأتي الآية المقترحة ، ثم إن الآيات المقترحة آيات كونية تأتي وتذهب ، كما تشعل عود الثقاب مرة واحدة ، ثم ينطفئ ، رآه مَنْ رآه ، وأصبح خبراً لمن لم

يَرَه .

وكلمة ﴿ لَوْلاَ . . . ﴾ [العنكبوت : 50] تستخدم في لغة العرب استخدامين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية مثل : لولا زيد عندك لَزرتُك ، وهي هنا حرف امتناع لوجود ، فقد امتنعتْ الزيارة لوجود زيد . وإنْ دخلتْ على الجملة الفعلية مثل : لولا تذاكر دروسك ، فهي للحضِّ وللحثِّ على الفعل .

(120/598)

فقولهم ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 50] كان الآية التي جاءتهم من عند الله لا يعترفون بها ، ثم يناقضون أنفسهم حينما يقولون : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

إذن : أنتم معترفون بالقرآن ، مقتنعون به ، لكن ما يقف في حلوقكم أن ينزل على محمد من بين الناس جميعاً . ثم نراهم يناقضون أنفسهم في هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بأن محمداً رسول الله حينما قالوا : ﴿ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ . . . ﴾ [المنافقون : 7] فما دُمْتم تعرفون أنه رسول الله ، فلماذا تُعادونه ؟ إذن : فالبديهة الفطرية تكذِّبهم ، ينطق الحق على ألسنتهم على حين غفلة منهم .

ويرد الحق – تبارك وتعالى – عليهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله . . . ﴾ [العنكبوت : 50] فهي عند الله ، ليست عندي ، وليست بالطلب حسب أهوائكم ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت : 50] أي : هذه مهمتي ، واختار الإنذار مع أنه صلى الله عليه وسلم بشير ونذير ، لكن خَصَّهم هنا بالإنذار ، لأنهم أهل لِجَاج ، وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب . . . ﴾ .

والاستفهام هنا للتعجُّب وللإنكار ، يعني : كيف لا يكفيهم القرآن ولا يقنعهم وهو أعظم الآيات ، وقد أعجزهم أنْ يأتوا ولو بآية من آياته ، وجاءهم بالكثير من العِبر والعجائب ؟ إذن : هم يريدون أنْ يتمحّكوا ، وألا يؤمنوا ، وإلا لو أنهم طلاب حَقٍّ باحثون عن الهداية لكفاهم من القرآن آية واحدة ليؤمنوا به .

(121/598)

وقوله تعالى : ﴿ يتلى عَلَيْهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 51] لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه الوحي بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أن يسري عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزِل عليه ، فيكتبه الكتبة ، ويحفظه

مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

ثم يأتي وقت الصلاة فيصلي بهم رسول الله بما نزل عليه من الآيات ، يُعيدها كما أملاها ، وهذه هبة ربانية منحها لرسوله صلى الله عليه وسلم وخاطبه بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] .

وإلا ، فَلَك أن تتحدى أكثر الناس حِفْظاً أنْ يُعيد عليك خطبة أو كلمة ألقاها على مدى نصف ساعة مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها في المرة الأولى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى . . . ﴾ [العنكبوت : 51] لكن لمن ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 51] لأن القرآن لا يثمر إلا فيمن يُحسن استقباله ويؤمن به ، أما غير المؤمنين فهو في آذانهم وَقْر وهو عليهم عمى ، لا يفقهونه ولا يتدبرونه ؛ لأنهم يستقبلونه لا بصفاء نفس ، وإنما ببُغْض وكراهية استقبال ، فلا ينالون نوره ولا بركته ولا هدايته .

لذلك يقول تعالى في الذين يُحسِنون استقبال كلام الله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ . . . ﴾ [فصلت : 44] .

أما الذين يجحدونه ولا يُحسنون استقباله ، فيقول عنهم : ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . ﴾ [فصلت : 44] .

وسبق أنْ قلنا : إن الفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف ، ومثَّلْنا لذلك بمن ينفخ في يده

ليُدفئها في البرد ، ومَنْ ينفخ في الشاي ليُبرده ، وأنت أيضاً تنفخ في الشمعة لتطفئها ، وتنفخ في النار لتشعلها .

(122/598)

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ [الإسراء : 82] ، ففرْق بين الشفاء والرحمة ، الشفاء يعني : أنه كانت هناك علة ، فبرأت ، لكن الرحمة ألاَّ تعاودك العلة ، ولا يأتيك الداء مرة أخرى ، فالقرآن نزل ليعالج الداءات النفسية ، يعالجها بالقراءة ويُحصِّنك ضدها فلا تصيبك ، وإنْ وقعت في شيء من هذه الداءات فاقرأ ما جاء فيها من القرآن فإنها تبرأ بإذن الله ، إذن : الشفاء يعالج الداء إنْ وقع في غفلة من سلوك النفس .

ولو طبقنا قضايا القرآن في نفوسنا لنالتنا هذه الرحمة ، فالإنسان بدن وقيم ومعان وأخلاق ، هذه المعاني في الإنسان يسمونها النفسيات ، فقد يكون سليم البنية والجسم لكنه سقيم النفس ؛ لذلك نجد بين تخصصات الطب الطب النفسي ، وكل مريض لا يجدون لمرضه سبباً عضوياً يُشخِّصونه على أنه مرض نفسي ، وحين تسأل الطبيب النفسي تجد أن كل ما عنده عقاقير تهدىء المريض أو تهده فينام حتى لا يفكر في شيء ، وهل هذا هو العلاج ؟

ولو تأملنا كتاب ربنا لوجدنا فيه العلاجيْن : العضوي والنفسي ، فسلامة الجسم في أن الله تعالى أحلّ لك أشياء ، وحرَّم عليك أشياء ، وما عليك إلا أنْ تستقيم على منهج ربك فتسلم من داءات الجسد ، فإنْ كنت من هؤلاء الذين يحبون الأكل من الحلال لكنهم يبالغون فيه إلى حَدّ التّخمة ، فاقرأ في القرآن :

﴿ يا بني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ [الأعراف : 31] .

ثم تجد في السنة النبوية مُذكِّرة تفسيرية لهذه الآية : " بحسب ابن آدم لُقَيْمات يُقِمْنَ صُلْبه " ، فإنْ كان ولا بُدَّ : " فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه " .

(123/598)

فالأصل أن يأكل الإنسان ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل . وبعض السطحيين يقولون : ما معنى " ثلث لنفَسه " ، وهل النفَس في المعدة ؟ والآن ، ومع تطور العلوم عرفنا أن تُخمة البطن تضغط على الحجاب الحاجز وتضيق مجال الرئة فينتج عن ذلك ضيق في التنفس .

أما الناحية النفسية ، فالمرض النفسي ناتج إما عن انقباض الجوارح عن طبيعة تكوينها ، أو انبساطها عن طبيعة تكوينها ، كالبيضة مثلاً لها حجم معين فإنْ ضيَّقْتَ هذا الحجم أو

بسطته تنكسر .

وهذا أيضاً أساس الداء في النفس البشرية ؛ لأن ملكات النفس ينبغي أنْ تظل في حالة توازن واستواء ، وتجد هذا التوازن في منهج ربك – عز وجل – حيث يقول سبحانه : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ . . . ﴾ [الحديد : 23] .

فمعنى : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ . . . ﴾ [الحديد : 23] الانقباض ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ . . . ﴾ [الحديد : 23] الانبساط . وكلاهما مذموم منهيٌّ عنه ، لكن مَن ذا الذي لا يأسى على ما فات ، ولا يفرح بما هو آتٍ ؟

لذلك نجد البُلَداء الذين لا تَهزهم الأحداث بصحة قوية ؛ لأنهم لا يهتمون للخطوب ، حتى أن الشعراء لم يَفُتْهم هذا المعنى ، حيث يقول أحدهم :

وَفِي البَلادةِ مَا في العَزْمِ منْ جَلَد . . . إنَّ البليد قويُّ النفْسِ عَاتيها

فَاسْأل أُولِي العَزْمِ إنْ خارتْ عزائمهمْ . . . عَنِ البَلادةِ هَلْ مَادتْ رَوَاسِيهَا ؟

فالذي تظنه بلادة هو عزم قويٌّ في استقبال الأحداث والصمود لها .

إذن : الرحمة في منهج الله إن التزمنا به نأمن من الأدواء ، مادية كانت أم معنوية .

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(قُلْ) أي: للمنكرين لك ﴿ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً . . ﴾ [العنكبوت: 52] أي: حسبي أن يشهد الله لي بأنِّي بلّغْتُ، فشهادتكم عندي لا تنفع، كما أنه لا ينفعني إيمانكم، ولا يضرني كفركم، فأجري آخذه من ربي على مجرد البلاغ وقد بلَّغْتُ، وشهد الله لي بذلك.

وفي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . . ﴾ [الرعد: 43] أي: أنكم لم تكتفوا بالآيات، ولم تؤمنوا بها، لكني أكتفي برب هذه الآيات شهيداً بيني وبينكم، إذن: هناك خصومة في البلاغ بين محمد صلى الله عليه وسلم وقومه الذين يُكذِّبونه في البلاغ عن ربه.

فلا بُدَّ إذن من فَصْل في هذه الخصومة، وإذا ما نظرنا إلى قضايا الخَلْق في الخصومات وجدنا إمَّا أنْ يُقر المتهم، وإما أن يشهد شاهد حَقٍّ لا شاهد زور، ثم يعرض الأمر على القاضي ليحكم بالشهادة أو البينة.

ولا بُدَّ في القاضي ألاّ يكون صاحب هوى، ثم يأتي دور تنفيذ الحكم، وهي السلطة التنفيذية، وهذه أيضاً ينبغي ألاَّ يكون لها هوى، فتنفذ الحكم على حقيقته، فكأن الخصومات عند البشر تمرُّ بمراحل متعددة، وقد تتميع الحقائق إذا لم تتوفر الشروط اللازمة لهذه الأطراف، فلو شهد الشاهد زوراً أو مال القاضي أو المنفِّذ للحكم ودلَّس في التنفيذ

لانقلبت المسائل .

أما في حكومة الحق – سبحانه وتعالى – في الخصومة بين محمد وقومه ، فكفى به سبحانه حاكماً وقاضياً ومُنفِّذاً ، لماذا ؟ لأنه سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [العنكبوت : 52] .

فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، يعلم السر وأَخْفى ، فأيُّ شهادة إذن أعدل من شهادته ؟ وهو سبحانه قاضٍ عادل يحكم بالحق ؛ لأنه ليس له سبحانه هوىً يميل به إلى الباطل ، وهو سبحانه لا يُبدل في تنفيذ الأحكام ؛ لأنه يُنفّذ حكمه هو سبحانه .

(125/598)

إذن : مَنِ الفائز في حكومة قاضيها الحق – تبارك وتعالى – وأطراف الخصومة فيها محمد وقومه ؟ فاز رسول الله في أن يكون الله هو الشهيد ، وخسر الكافرين حين كفروا به ، ولم تكْفِهم البينة التي جاءتهم في القرآن الكريم .

وعِلْم الله للغيب ليس علاجاً ومذاكرة ليعلم ، إنما تأتي الأمور بتوقيت منه قديم أزلاً ، والعالم يظهر على وَفْق ما يراه أزلاً ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

أي : يقول للشيء ، فكأنه موجود فعلاً ينتظر الأمر من الله بالظهور للناس ، فقوله (كُنْ) للظهور فقط ، أما مسألة الخَلْق فمنتهية أزلاً ، و (الماكيت) موجود ، فالحق سبحانه يعلم غَيْب السماوات والأرض ، أما نحن فلا نعلم حتى غَيْب أنفسنا .

ويقول سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] فهل هناك أخفى من السر ؟ قالوا : السر ما تُسِرُّه في نفسك ، والأخفى منه أنْ يعلمه سبحانه قبل أن يكون في نفسك .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [النور : 29] وقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : 110] .

يقولون : ما وجه امتنان الله بعلم الجهر من القول ، وبِعِلْم ما نُبدي ، فهذا شيء غير مستور يعرفه الجميع ؟

ونقول : افهم عن الله مراده ، فالمعنى لم يقُلْ سبحانه : أعلم ما تبدي أنت ، ولا ما تجهر به أنت ، إنما ما تبدون كلكم ، وما تجهرون به كلكم ، ولتوضيح هذه المسألة تصوَّر مظاهرة من عدة مئات أو عدة آلاف تختلط بينهم الهتافات والأصوات وتتداخل الكلمات ، بحيث لا تستطيع أن تميز صوت هذا من صوت ذاك .

(126/598)

لكن الحق سبحانه يستطيع تمييز هذه الأصوات ، وإعادة كل منها إلى صاحبه ؛ لذلك نرى في المظاهرات أن كل إنسان يستطيع أن يقول ما يشاء ، ويهتف بما لا يجرؤ أن يهتف به منفرداً ؛ لأن صوته سيختلط مع الأصوات ، ويستتر فيها فلا يعرف مصدره ، وهكذا يكون علم الجَهْر أقوى من علم الغَيْب .

فإنْ قلت : إن بعض العلماء باكتشافاتهم وبحوثهم توصلوا إلى معرفة أسرار كانت مستترة في الكون ، كالكهرباء والذرة وغيرها ، فهُمْ بذلك يعلمون الغيب . نقول : نعم ، علموا شيئاً كان مستوراً في الكون ، لكن علموه بمقدمات خلقها الله ويسَّرها لهم ، فأخذوا هذه المقدمات وتوصَّلوا بها إلى اكتشافاتهم ، كما يحلّ ولدك مثلاً تمرين الهندسة ، فيستعين بالمعطيات .

إذن ؛ فهو في حقيقة الأمر ليس غيباً ، بل هو شيء موجود ، لكن له ميلاد ووقت يظهر فيه ، فإنْ جاء وقته يسَّر الله لخَلْقه الوصول إليه ، إما بالبحث واستخدام المقدمات ، فإذا صادف ميلاد السر بحث الخلق يُقال : إنهم أحاطوا عِلْماً ببعض غيب الله .

ويقول تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ . . . ﴾ [البقرة : 255]

أي : شاء أنْ يُولد ، فإنْ جاء ميلاد السر ، ولم يتوصَّلوا إليه ببحوثهم ، ولم يقفوا على مقدماته كشفه الله لهم ولو مصادفة ، وقد اكتشفوا كثيراً من أسرار الكون مصادفة .

فالغيب الحقيقي : هو الذي ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، ولا يعلمه أحد إلا الله ، والذي

قال الله عنه : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . ﴾ [الجن : 26-27] فالرسول - إذن - لا يعلم الغيب ، إنما عُلِّم الغيب .

(127/598)

ثم يقول تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ بالباطل . . . ﴾ [العنكبوت : 52] أي : بعبادة ما دون الله من الأصنام والأوثان ﴿ وَكَفَرُواْ بالله . . . ﴾ [العنكبوت : 52] الخالق واجب الوجود ﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [العنكبوت : 52] لأن كفر الخَلْق بالخالق لا يؤثر في ذاته سبحانه ، ولا في صفات الكمال فيه ، لأنه سبحانه بصفات الكمال خلقهم ، فله سبحانه صفات الكمال ، آمنوا أم كفروا .

لكن فَرْق بين مَنْ يؤمن ومَنْ يكفر ، فالإنسان بطبعه حريص على الحياة متمسك بها ، حتى إنه إنْ أصابه مرض طلب العلاج ليصون حياته وهو يخاف الموت ، ويرى مصارع الناس من حوله ، وكيف سبقه أجداده ولم يخلد منهم أحد ، ويرى أن الموت يأتي بلا أسباب ؛ حتى قيل : والموت من غير سبب هو السبب .

إذن : فالموت حقيقة ، لكن يشكُّ الناس فيها ولا يتصورونها لأنفسهم لأنهم يكرهونها ؛ لذلك يقال في الأثر : ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت .

وليقين الإنسان في الموت نراه يحب البقاء في ولده ، وفي ولد ولده ليبقى ذِكْره أطول فترة ممكنة ، وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا تؤمن بالله فيورثك الإيمانُ حياةً خالدة باقية لا نهايةَ لها ، لا تفارقها ولا تفارقك ، وهي حياة الآخرة . إذن : فمَن الخاسرون ؛ الخاسرون هم الكافرون الذي قصروا حياتهم على عمرهم في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(128/598)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

خفَيَتْ عليهم حالتُكَ – يا محمد – فطالبوكَ بإقامة الشواهد ، وقالوا : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ ﴾ أَوَيَكْفِهم ما أوضحنا عليكَ من السبيل ، وألَّحْنا لكَ من الدليل ؛ يُتْلَى عليهم ذلك ، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيءٍ من مثله ؟ هذا هو الجحود وغاية الكُنود !

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52)

أنا على حقِّ واللَّهُ – سبحانه – يعلمه ، وأنتم لستم على حق والله يعلمه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 101 ﴾

(129/598)

قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قولهم مرة واحدة " لولا أنزل عليه آية " عجباً ، أتى بعد إخباره بخسارتهم بأعجب منه ، وهو استمرار استعجالهم بما لا قدرة لهم على شيء منه من عذاب الله فقال : ﴿ ويستعجلونك ﴾ أي يطلبون تعجيلك في كل وقت ﴿ بالعذاب ﴾ ويجعلون تأخره عنهم شبهة لهم فيما يزعمون من التكذيب ﴿ ولولا أجل مسمى ﴾ قد ضرب لوقت عذابهم لا تقدم فيه ولا تأخر ﴿ لجاءهم العذاب ﴾ وقت استعجالهم ، لأن القدرة تامة والعلم محيط .

ولما أفهم هذا أنه لا بد من إتيانه ، صرح به في قوله مؤكداً رداً على استهزائهم المتضمن للإنكار : ﴿ وليأتينهم ﴾ ثم هوّله بقوله : ﴿ بغتة ﴾ وأكد معناها بقوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بل هم في غاية الغفلة عنه والاشتغال بما ينسيه ، ثم زاد في التعجب من جهلهم بقوله مبدلاً : ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ أي يطلبون منك إيقاعه بهم ناجزاً ولو كان في غير وقته الأليق به ، فلو علموا ما هم سائرون إليه لتمنوا أنهم لم يخلقوا فضلاً عن أن يستعجلوا ، ولأعملوا جميع جهدهم في الخلاص منه .

ولما كان دخولهم النار لا بد منه لإحاطة القدرة بهم ، قال مؤكداً لإنكارهم الآخرة بإثبات أخص منها : ﴿ وإن جهنم ﴾ التي هي من عذاب الآخرة ﴿ لمحيطة ﴾ أي بما هي مهيأة له ، لأنه لا يفوتها شيء منه ، لأن الذي أعدها عليم قدير ، وقال : ﴿ بالكافرين ﴾ موضع " بهم " تنبيهاً على ما استحقوا به عذابها ، وتعميماً لكل من اتصف به .

(130/598)

ولما كان هذا كله دليلاً على إنكارهم قال : ﴿ يوم ﴾ أي يعلمون ذلك اليوم ﴿ يغشاهم العذاب ﴾ أي يلحقهم ويلصق بهم ما لا يدع لهم شيئاً يستعذبونه ، ولا أمراً يستلذونه ونبه على عدم استغراق جهة الفوق مع استعلائه عليهم بإثبات الجار فقال : ﴿ من فوقهم ﴾

ولما أفهم ذلك الإحاطة بما هو أدنى من جهة الفوق ، صرح به فقال : ﴿ ومن تحت أرجلهم ﴾ فعلم بذلك إحاطته بجميع الجوانب ، وصرح بالرجل تحقيقاً للآدمي ﴿ ويقول ﴾ أي الله في قراءة نافع وعاصم وحمزة والكسائي بالتحتانية جرياً على الأسلوب الماضي ، أو نحن بعظمتنا في قراءة الباقين ترويعاً بالالتفات إلى مظهر العظمة : ﴿ ذوقوا ﴾ ما سببه لكم ﴿ ما كنتم ﴾ بغاية الرغبة ﴿ تعملون ﴾ أي في ذلك اليوم تعملون ذلك حق اليقين بعد علمكم له عين اليقين بسبب تكذيبكم بعلم اليقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 570 . 571 ﴾

(131/598)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾

لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الإنذار لأن من خسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من المنافع وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه ، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهماً لا ينبغي أن يكون حصل له في مقابلة الدرهم ما يساوي نصف درهم ،

وإلا لا يكون الخسران درهماً بل نصف درهم ، فإذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم ، فقوله : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ تهديد عظيم فقالوا إن كان علينا عذاب فأتنا به ، إظهاراً لقطعهم بعدم العذاب ، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم ، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيماً لا يكون متغيراً منقلباً ، ولكونه رحيماً لا يكون غضوباً منزعجاً ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة ، فيكون غضوباً منقلباً فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم بالعذاب حين تستعيذون به منه ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج : 22] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة ، لأن العذاب أقرب المذكورين ، ولأن مسئولهم كان العذاب ، فقال إنه ليأتينهم ، وقال بعضهم ليأتينهم بغتة أي الأجل ، لأن الآتي بغتة هو الأجل وأما العذاب بعد الأجل يكون معاينة ، وقد ذكرنا أن في كون العذاب أو الأجل آتياً بغتة حكمة ، وهي أنه لو كان وقته معلوماً ، لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمداً على التوبة قبل الموت .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر ، فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة والثاني : هو كلام يفيد فائدة مستقلة ، وهي أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الأمر ، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلاً .

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54)

ذكر هذا للتعجب ، وهذا لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة ، فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات ، وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد ، لا يخطر ببال العاقل أن يقول له هات ما تتوعدني به ، فقال ههنا ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم ، فقوله :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أولاً إخبار عنهم وثانياً تعجب منهم ، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم .

يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام ؟ فنقول لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فإن من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفىء بالدوس موضع القدم .

المسألة الثانية :

(133/598)

قال : ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ ولم يقل من فوق رءوسهم ، ولا قال من فوقهم ومن تحتهم ، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق ، فنقول لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرءوس وسواء كان من موضع آخر عجيب ، فلهذا لم يخصه بالرأس ، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب ، وإلا فمن جوانب القدم في الدنيا يكون شعل وهي تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس وما

فوق على الإطلاق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيِقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون ، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، فإن عملهم كان سبباً لجعل الله إياه سبباً لعذابهم ، وهذا كثير النظير في الاستعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 71 . 73 ﴾

(134/598)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : أن استعجالهم له شدة عنادهم لنبيه .

الثاني : أنه استهزاؤهم بقولهم : ﴿ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِن عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] الآية .

﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : أنه يوم القيامة ، قاله ابن جبير .

الثاني : أجل الحياة إلى حين الموت وأجل الموت إلى حين البعث إليه بين أجلين من الله ، قاله قتادة .

الثالث : أنه النفخة الأولى ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ يعني الذي استعجلوه

. ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أي فجأة

. ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ لا يعلمون بنزوله بهم

. روى نعيم بن عبد الله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ تَصِلُ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(135/598)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾

يراد به كفار قريش في قولهم ائتنا بما تعدنا ، وغير ذلك من استدعائهم على جهة التعجيز

والتكذيب عذاب الله الذي يتوعدهم محمد صلى الله عليه وسلم به ، ثم أخبر تعالى أنه يأتيهم ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة وهذا هو عذاب الدنيا وهو الذي ظهر يوم بدر في السنين السبع .

ثم ذكر تعالى أن تأخره إنما هو حسب الأجل المقدور السابق ، وقال المفسرون عن الضحاك : أن " الأجل المسمى " في هذه الآية الآجال . .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا ضعيف يرده النظر ، والآجال لا محالة ﴿ أجل مسمى ﴾ ولكن ليس هذا موضعها ، ثم توعدهم تبارك وتعالى بعد عذاب الآخرة في قوله ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ، كرر فعلهم وقبحه ، أخبر أن وراءهم إحاطة جهنم بهم وقال عكرمة فيما حكى الطبري إن ﴿ جهنم ﴾ ها هنا أراد بها البحر .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا ضعيف ، وقوله تعالى : ﴿ يوم يغشاهم ﴾ ظرف يعمل فيه قوله ﴿ محيطة ﴾ ، و ﴿ يغشاهم ﴾ معناه يغطيهم من كل جهة من جهاتهم ، وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي " ويقول " أي ويقول الله ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " ونقول " بالنون ، فإما أن تكون نون العظمة أو نون جماعة الملائكة ، وقرأ ابن مسعود " ويقال " بياء وألف وهي قراءة ابن أبي عبلة ، وقوله تعالى : ﴿ ذوقوا ﴾ توبيخ ، وتشبيه مس العذاب بالذوق ، ومنه قوله ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] ،

ومنه قول أبي سفيان : ذق عقق ونحو هذا كثير ، وقوله تعالى : ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ أي بما في أعمالكم من اكتسابكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(136/598)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾

قال مقاتل : نزلت في النَّضْر بن الحارث حين قال : ﴿ فأَمْطِرْ علينا حجارةً مِنَ السَّماء ﴾ [الأنفال : 32] .

وفي [الأجل] المسمى أربعة أقوال .

أحدها : أنه يوم القيامة ، قاله سعيد ابن جبير .

والثاني : أجل الحياة إِلى حين الموت ، وأجل الموت إِلى حين البعث ، قاله قتادة .

والثالث : مُدَّة أعمارهم ، قاله الضحاك .

والرابع : يوم بدر ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ ولَيَأْتِيَنَّهم ﴾ يعني العذاب .

وقرأ معاذ القارئ ، وأبو نهيك ، وابن أبي عبلة : ﴿ ولَتَأْتِيَنَّهم ﴾ بالتاء ﴿ بغتةً وهم لا

يَشْعُرون ﴾ باتيانه .

قوله تعالى : ﴿ وإنَّ جهنَّم لَمُحيطة بالكافرين ﴾ أي : جامعة لهم .

قوله تعالى : ﴿ ويقولُ ذُوقوا ﴾ قرأ ابن كثير : بالنون .

وقرأ نافع : بالياء .

فمن قرأ بالياء ، أراد الملَك الموكَّل بعذابهم ؛ ومن قرأ بالنون ، فلأنَّ ذلك لمَّا كان بأمر الله تعالى جاز أن يُنسَب إليه .

ومعنى ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ أي : جزاء ما عملتم من الكفر والتكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(137/598)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ويَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾

لما أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار عَجّل لنا هذا العذاب .

وقيل : إن قائل ذلك النّضر بن الحرث وأبو جهل حين قالا ؛ ﴿ اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السمآء ﴾ [الأنفال : 32] وقولهم : ﴿ رَبّنَا عَجّل لَّنَا

قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص : 16] وقوله : ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ في نزول العذاب .

قال ابن عباس : يعني هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة .

بيانه : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر : 46] .

وقال الضحاك : هو مدة أعمارهم في الدنيا .

وقيل : المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى ، قاله يحيى بن سلاّم .

وقيل : الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم ؛ قاله ابن شجرة .

وقيل : هو القتل يوم بدر .

وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر .

دليله قوله : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام : 67] .

﴿ لَّجَآءَهُمُ العذاب ﴾ يعني الذي استعجلوه .

﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة .

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يعلمون بنزوله عليهم .

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ أي يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة ، فما معنى الاستعجال .

وقيل : نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ

السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [الإسراء : 92] .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب مِن فَوْقِهِمْ ﴾ قيل : هو متصل بما هو قبله ؛ أي يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم . وإنما قال ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ للمقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم ؛ كما قال الشاعر :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً باردا . . .

وقال آخر :

لقد كان قوّادَ الجيادِ إلى العِدَا . . .

(138/598)

عليهنّ غابٌ من قَنًى ودروع

﴿ وَيَقُولُ ذُوقُواْ ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة : "نَقُولُ" بالنون .

الباقون بالياء .

واختاره أبو عبيد ؛ لقوله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ ﴾ ويحتمل أن يكون الملَك الموكَّل بهم يقول :

﴿ ذُوقُوا ﴾ والقراءتان ترجع إلى معنى .

أي يقول الملك بأمرنا ذوقوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(139/598)

وقال أبو حيان :

﴿ ويستعجلونك ﴾ : أي كفار قريش في قولهم : ﴿ ائتنا بما تعدنا ﴾ وقول النضر : ﴿ فأمطر علينا حجارة ﴾ وهو استعجال على جهة التعجيز والتكذيب والاستهزاء بالعذاب الذي كان يتوعدهم به الرسول .

والأجل المسمى : ما سماه الله وأثبته في اللوح لعذابهم ، وأوجبت الحكمة تأخيره .

وقال ابن جبير : يوم القيامة .

وقال ابن سلام : أجل ما بين النفختين ، وقيل : يوم بدر .

﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ : أي فجأة ، وهو ما ظهر يوم بدر ، وفي السنين السبع .

ثم كرر فعلهم وقبحه ، وأخبر أن وراءهم جهنم ، تحيط بهم .

وانتصب ﴿ يوم يغشاهم ﴾ بمحيطة .

وقرأ الكوفيون ، ونافع : ﴿ ويقول ﴾ : أي الله ؛ وباقي السبعة : بالنون ، نون العظمة ، أو

نون جماعة الملائكة ؛ وأبو البرهثيم : بالتاء ، أي جهنم ؛ كما نسب القول إليها في : ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : ويقال ، مبنياً للمفعول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(140/598)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾

على طريقةِ الاستهزاءِ بقولِهم : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ وقولِهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بعَذَابٍ ﴾ ونحوِ ذلكَ ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ قد ضربَهُ الله تعالى لعذابِهم وبيَّنه في اللَّوحِ ﴿ لَّجَاءهُمُ العذاب ﴾ المعيَّنُ لهم حسبَما استعجلُوا له . قيل : المرادُ بالأجلِ يومُ القيامةِ لما رُوي أنَّه تعالى وعدَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أنْ لا يُعذِّبَ قومَه بعذابِ الاستئصال وأنْ يؤخّرَ عذابَهم إلى يومِ القيامةِ ، وقيل : يومُ بدرٍ وقيل : وقتُ فنائِهم بآجالِهم وفيه بُعدٌ ظاهرٌ لمَا أنَّهم ما كانُوا يُوعدون بفنائِهم الطبيعيّ ولا كانُوا يستعجلونَ به ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مبنيَّنةٌ لما أُشيرَ إليهِ في الجُملةِ السَّابقةِ من مجيءِ العذابِ عند محلِّ الأجلِ أي وبالله ليأتينَّهم العذابُ الذي عُيِّن لهم عند حُلولِ الأجلِ

﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأةً ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي بإتيانِه ، ولعلَّ المرادَ بإتيانِه كذلك أنَّه لا يؤتيهم بطريقِ التَّعجيلِ عند استعجالِهم والإجابةِ إلى مسؤولِهم فإنَّ ذلك إتيانٌ برأيهم وشعورِهم لا أنَّه يأتيهم وهم غارُّون آمِنُون لا يخطرونَه بالبالِ كدأبِ بعضِ العُقوباتِ النازلةِ على بعضِ الأممِ بياتاً وهم نائمونَ أو ضُحى وهم يلعبُون لما أنَّ إتيانَ عذابِ الآخرةِ وعذابِ يومِ بدرٍ ليس من هذا القبيلِ .

(141/598)

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لغايةِ تجهيلِهم وركاكةِ رأيِهم ، وفيه دلالةٌ على أنَّ ما استعجلوه عذابُ الآخرةِ أي يستعجلونك بالعذابِ والحال أنَّ محلَّ العذابِ الذي لا عذابَ فوقَه محيطٌ بهم كأنَّه قيل : يستعجلونك بالعذابِ وإنَّ العذابَ لمحيطٌ بهم ، وإنَّما جيء بالجملةِ الاسميةِ دلالةً على تحقُّقِ الإحاطةِ واستمرارِها أو تنزيلاً لحالِ السَّببِ منزلةَ حالِ المسبَّبِ فإنَّ الكفرَ والمعاصيَ الموجبةَ لدخولِ جهنَّم محيطةٌ بهم ، وقيل : إنَّ الكفرَ والمعاصيَ هي النَّار في الحقيقةِ لكنَّها ظهرتْ في هذهِ النَّشأةِ بهذه الصُّورةِ وقد مرَّ تفصيلُه في سورةِ الأعرافِ الآية 8 عند قولِه تعالى : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ ولامُ الكافرينَ إمَّا للعهدِ ووضعُ الظَّاهرِ موضعَ المضمرِ للإشعارِ بعلةِ الحُكمِ ، أو للجنسِ

وهم داخلون فيه دُخولاً أولياً .

﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب ﴾ ظرفٌ لمضمرٍ قد طُوي ذكرُه إيذاناً بغايةِ كثرته وفظاعتِه كأنَّه قيلَ : يومَ يغشاهُم العذابُ الذي أشير إليه بإحاطةِ جهنَّم بهم يكونُ من الأحوالِ والأهوالِ ما لا يفي به المقالُ ، وقيل : ظرفٌ للإحاطةِ ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أي من جميعِ جهاتِهم ﴿ وَيَقُولُ ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ ويعضدُه القِراءةُ بنونِ العظمةِ ، أو بعضُ ملائكتِه بأمرِه ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاءَ ما كنتُم تعملونه في الدُّنيا على الاستمرارِ من السيئاتِ التي من جُملتها الاستعجالُ بالعذابِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(142/598)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أي ويستعجلك كفار قريش ﴿ بالعذاب ﴾ على طريقة الاستهزاء والتعجيز والتكذيب به بقوله : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] وقولهم : ﴿ أمطر علينا حجارة أو ائتنا بعذاب ﴾ [الأنفال : 32] ونحو ذلك ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وسماه وأثبته في اللوح ﴿ لَّجَاءهُمُ العذاب ﴾ المعين لهم حسبما

استعجلوا به ، وقال ابن جبير : المراد بالأجل يوم القيامة لما روي أنه تعالى وعد رسوله صلى الله عليه وسلم ان لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة ، وقال ابن سلام : والمراد به أجل ما بين النفختين ، وقيل : يوم بدر ، وقيل : وقت فنائهم بآجالهم ، وفيه بعد ظاهر لما أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعي ولا كانوا يستعجلون به ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ ﴾ جملة مستأنفة مبينة لما أشير إليه في الجملة السابقة من مجيء العذاب عند حلول الأجل ، أي وبالله تعالى ﴿ ليأتينهم ﴾ العذاب الذي عين لهم عند حلول الأجل ﴿ اللهِ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي بإتيانه ، ولعل المراد بإتيانه كذلك أنه لا يكون بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابة إلى مسؤولهم فإن ذلك إتيان برأيهم وشعورهم لا أنه يأتيهم وهم قارون آمنون لا يحظرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن إتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل قاله بعضهم ، وقال آخرون : إتيانه كذلك من حيث أنه غير متوقع لهم وإتيان عذاب الآخرة ونحوه كذلك لإنكارهم البعض ، وكذا عذاب القبر أو اعتقادهم شفاعة آلهتهم لهم في دفع العذاب عنهم ، وكذا إتيان عذاب يوم بدر لأنهم لغرورهم كانوا لا يتوقعون غلبة المسلمين ولا تخطر لهم ببال على ما بين في السير .

(143/598)

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وهو ظاهر في أن ما استعجلوه عذاب الآخرة ، وجملة ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ الخ في موضع الحال أي يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذي لا عذاب فوق محيط بهم كأنه قيل : يستعجلونك بالعذاب وأن العذاب لمحيط بهم أي سيحيط بهم على إرادة المستقبل من اسم الفاعل ، أو كالمحيط بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي الموجبة إياه بهم على أن في الكلام تشبيهاً بليغاً أو استعارة أو مجازاً مرسلاً أو تجوزاً في الإسناد ، وقيل : إن الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة لكنها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة ، والمراد بالكافرين المستعجلون ، ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً أولياً .

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب ﴾ ظرف لمضمر قد طوى ذكره إيذاناً بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل : يوم يأتيهم ويجللهم العذاب الذي أشير إليه بإحاطة جهنم بهم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي به المقال ، وقيل : ظرف لمحيطة على معنى وإن جهنم ستحيط بالكافرين يوم يغشاهم العذاب ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أي من جميع جهاتهم فما ذكر للتعميم كما في الغدو والآصال ، قيل : وذكر الأرجل للدلالة على أنهم لا يقرون ولا يجلسون وذلك أشد العذاب ﴿ وَيَقُولُ ﴾ أي الله عز وجل ، وقيل : الملك الموكل بهم .

وقرأ ابن كثير .

وابن عامر .

والبصريون ﴿ وَنَقُولُ ﴾ بنون العظمة وهو ظاهر في أن القائل هو الله تعالى .

وقرأ أبو البرهسم ﴿ وَتَقُولُ ﴾ بالتاء على أن القائل جهنم ، ونسب القول إليها هنا كما نسب في قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] وقرأ ابن مسعود .

(144/598)

وابن أبي عبلة ﴿ ويقال ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ وَيِقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من السيئات التي من جملتها الاستعجال بالعذاب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(145/598)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

والإشارة إلى مصدر الفعل كما بيناه في مواضع كثيرة ، أي ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب ، وهو : القرآن ، وقيل : المعنى : كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن ﴿ فالذين ءاتيناهم الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعني : مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وخصهم بإيتائهم الكتاب لكونهم العاملين به وكأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه ، وجحدهم لصفات رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكورة فيه ﴿ وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ الإشارة إلى أهل مكة ، والمراد : أن منهم ، وهو من قد أسلم من يؤمن به ، أي بالقرآن ، وقيل : الإشارة إلى جميع العرب ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِئَايَاتنا ﴾ أي آيات القرآن ﴿ إِلاَّ الكافرون ﴾ المصممون على كفرهم من المشركين ، وأهل الكتاب .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِن كتاب ﴾ الضمير في قبله راجع إلى القرآن لأنه المراد بقوله : ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ أي ما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتاباً ولا تقدر على ذلك لأنك أمّي لا تقرأ ولا تكتب ﴿ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ أي ولا تكتبه ؛ لأنك لا تقدر على الكتابة .

قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية .

قال النحاس : وذلك دليل على نبوّته ؛ لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل كتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ﴿ إِذاً لارتاب المبطلون ﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لقالوا : لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة أو من الكتب المدوّنة في أخبار الأمم ، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا محل للشك أبداً ، بل إنكار من أنكر وكفر من كفر مجرّد عناد وجحود بلا شبهة ، وسماهم مبطلين لأن ارتيابهم على تقدير أنه صلى الله عليه وسلم يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته ووضوح معجزاته .

﴿ بَلْ هُوَ ءايات بينات ﴾ يعني : القرآن ﴿ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ يعني : المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده صلى الله عليه وسلم ، وحفظوه بعده ، وقال قتادة ومقاتل : إن الضمير يرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أي بل محمد آيات بينات ، أي ذو آيات .

وقرأ ابن مسعود : " بل هي آيات بينات " قال الفراء : معنى هذه القراءة : بل آيات القرآن آيات بينات .

واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل ، وقد استدل لما قالاه بقراءة ابن السميفع : " بل هذا آيات بينات " ولا دليل في هذه القراءة على ذلك ؛ لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن كما جاز أن تكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل ، والتقدير : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظالمون ﴾ أي المجاوزون للحدّ في الظلم ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايات مّن رَّبِّهِ ﴾ أي قال المشركون هذا القول ، والمعنى : هلا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء ، وذلك كآيات موسى وناقة صالح وإحياء المسيح للموتى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ ينزلها على من يشاء من عباده ولا قدرة لأحد على ذلك ﴿ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أنذركم كما أمرت وأبين لكم كما ينبغي ، ليس في قدرتي غير ذلك .

قرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي : " لولا أنزل عليه آية " بالإفراد .

وقرأ الباقون بالجمع ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ قل إنما الآيات ﴾ .

(148/598)

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ هذه الجملة مستأنفة للردّ على اقتراحهم وبيان بطلانه ، أي أو لم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه ، فعجزوا ، ولو أتيتهم بآيات موسى وآيات غيره من الأنبياء لما آمنوا ، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان ، ومكان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما ذكر ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ عظيمة في الدنيا ، والآخرة ﴿ وذكرى ﴾ في الدنيا يتذكرون بها ، وترشدهم إلى الحق ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لقوم يصدّقون بما جئت به من عند الله ، فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ أي قل للمكذبين كفى الله شهيداً بما وقع بيني وبينكم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السموات والأرض ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، ومن جملته ما صدر بينكم وبين رسوله ﴿ والذين ءَامَنُواْ بالباطل وَكَفَرُواْ بالله أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ أي آمنوا بما يعبدونه من دون الله وكفروا بالحق وهو الله سبحانه ، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ استهزاء وتكذيباً منهم بذلك كقولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ قد جعله الله لعذابهم وعينه ، وهو القيامة ، وقال الضحاك : الأجل : مدّة أعمارهم ؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب ﴿ لَّجَاءهُمُ العذاب ﴾ أي

لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم .

وقيل : المراد بالأجل المسمى : النفخة الأولى .

وقيل : الوقت الذي قدّره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر .

(149/598)

والحاصل : أن لكل عذاب أجلاً لا يتقدّم عليه ولا يتأخر عنه كما في قوله سبحانه : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام : 67] .

وجملة : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها .

ومعنى بغتة : فجأة ، وجملة : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي حال كونهم لا يعلمون بإتيانه .

ثم ذكر سبحانه أن موعد عذابهم النار ، فقال : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ أي يطلبون منك تعجيل عذابهم والحال أن مكان العذاب محيط بهم ، أي سيحيط بهم عن قرب ، فإن ما هو آت قريب ، والمراد بالكافرين : جنسهم ، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولاً أوّلياً ، فقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ إخبار عنهم ، وقوله ثانياً : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ تعجب منهم .

وقيل : التكرير للتأكيد .

ثم ذكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم فقال : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ أي من جميع جهاتهم ، فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة ، فقد أحاطت بهم جهنم ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ القائل هو الله سبحانه ، أو بعض ملائكته بأمره ، أي ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والمعاصي .

قرأ أهل المدينة والكوفة : " نقول " بالنون .

وقرأ الباقون بالتحتية ، واختار القراءة الأخيرة أبو عبيد لقوله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ ﴾ وقرأ ابن مسعود وابن أبي عبلة : " ويقال ذوقوا " .

(150/598)

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والإسماعيلي في معجمه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ولا يكتب كان أمياً ، وفي قوله : ﴿ بَلْ هُوَ ءايات بينات فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ قال : كان الله أنزل شأن محمد في التوراة والإنجيل لأهل العلم وعلمه لهم وجعله لهم آية فقال لهم : إن آية نبوّته أن يخرج حين يخرج ولا يعلم كتاباً ولا يخطه

بيمينه ، وهي الآيات البينات التي قال الله تعالى .

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ الآية قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ولا يكتب .

وأخرج الفريابي والدارمي ، وأبو داود في مراسيله وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة قال : جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم" فنزلت : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ الآية .

وأخرجه الإسماعيلي في معجمه ، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة ، فذكره بمعناه .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، والبيهقي في الشعب عن الزهري ؛ أن حفصة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف في كتف ، فجعلت تقرؤه والنبي صلى الله عليه وسلم يتلوّن وجهه فقال :

(151/598)

" والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا نبيكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم " وأخرج عبد الرزاق ، وابن سعد وابن الضريس ، والحاكم في الكنى ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله ابن الحارث الأنصاري قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيراً شديداً لم أر مثله قط ، فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، فسرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : " لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظكم من الأمم " وأخرج نحوه عبد الرزاق والبيهقي من طريق أبي قلابة عن عمر .

وأخرج البيهقي وصححه عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تعلم التوراة فقال : " لا تتعلمها وآمن بها ، وتعلموا ما أنزل إليكم وآمنوا به "

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ قال : جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكون فيه الشمس والقمر ثم يستوقد فيكون هو جهنم ، وفي هذا نكارة شديدة ، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(152/598)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : « وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها هى أن الآية السابقة عليها ، جاءت داعية النبىّ الكريم أن يتلو ما يوحى إليه من ربه ، وأن يقيم الصلاة قياما يحدث فى القلب ذكرا لله ، وبهذا يكون للصلاة ثمرتها في نهى المصلى عن الفحشاء

(153/598)

والمنكر ، إذ كان ذكر اللّه حاضرا فى قلبه مستوليا على مشاعره ، يملأ كيانه خشية ، وخوفا ، من العدوان على حدود رب العالمين .

وهذا الأمر الذي حملته الآية : « اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ » . وإن كان دعوة للنبى الكريم

، فهو أمر للمؤمنين بالله ، الذين اتبعوا النبي ، ودانوا بالشريعة التي جاءهم بها من ربه .

ومن محامل هذه الدعوة تلاوة ما أوحى إلى النبي من آيات الله ، على أهل الكتاب ، وتبليغهم رسالة الإسلام ، إذ ليس المراد من التلاوة ، مجرد التلاوة ، وإنما المراد هنا ، إعلان الناس بها ، وإسماعهم آيات الله وكلماته . . .

وأهل الكتاب حين يسمعون كلمات الله التي يتلوها النبي والمؤمنون ، لا يلقونها على وجه واحد . . فكثير منهم يلقونها بالبهت والتكذيب ، وقليل منهم أولئك الذين يلقونها بالقبول والتسليم . .

وإذ كانت الدعوة الإسلامية قائمة على الحجة والإقناع ، وبين يديها الحجة القاطعة والبرهان المبين . فإن أي عقل سلم من آفات الهوى ، وخلص من أسر الضلال ، لا يجد سبيلا إلى المماحكة والمجادلة في آيات الله ، بل يستجيب لها ، ويسلم زمامه إليها . . . أما من كان فى عقله سقم ، وفى قلبه مرض فلن يذعن للحق ، ولن يأخذ طريقه أبدا . . . شأنه في هذا شأن أصحاب العلل والآفات ، التي تصيب العيون بالعمى ، والآذان بالصمم ، والأنوف بالزكام ، والأفواه بالبخر . . . !

ومن هنا كان الذين يجادلون في آيات الله من أهل الكتاب ، إنما

يجادلون في حق يعرفونه ، ويمارون في آيات يعلمون صدقها . . ومن كان هذا شأنه فخير موقف يتخذ معه ، هو الإعراض عنه ، وترك الجدل معه ، لأن الجدل في هذا المقام ، عقيم ، وإن ولد شيئا ، فإنما يلد دخانا ينعقد في سماء الحق ، ويشغل القائمين على رسالته عما هو أنفع وأجدى . . . ولهذا كان من دعوة السماء إلى النبي الكريم قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ » (199 : الأعراف) .

ـ فقوله تعالى : « وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ـ هو بيان للموقف الذي يأخذه المؤمنون من أهل الكتاب فيما يكون بينهم من مواقف ، تثار فيها بينهم قضايا ، تتصل بالدين ، عقيدة أو شريعة . . .

وهو أن يعرض المسلمون حقائق الإسلام كما حملتها آيات اللّه ، بمنطق الناصح المرشد ، لا المملى ولا المسيطر . . . « فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها » . . إنه خير يدعى إليه الناس ، ولا يحملون عليه حملا . . .

ومتى كان المحسن يأخذ المحتاج إلى إحسانه ، بالقهر والقسر ؟ وحسبه أن يمد إليه يده بما تحمل من إحسان ، فإن تجاوز ذلك إلى ما يثير عداوة وبغضاء ، انقلب الإحسان إساءة ، والخير شرا . . .

والجدل ، والمجادلة تكون باللسان ، ومقارعة الحجة بالحجة ، والأصل فيها القوة ، يقال

حبل مجدول ، إذا كان مفتولا من حبلين ، ولهذا سمى الصقر أجدل ، لقوته وشدته . . .

. وقوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » . هذا استثناء من الحكم العام ، فى الدعوة إلى سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وذلك الاستثناء في شأن الذين يلقون تلك الدعوة بالشغب عليها ، والتطاول على أهلها ، والكيد لها ولهم . . .

(155/598)

إن الأمر حينئذ يخرج عن هذا المجال ، إلى رد عدوان ، ودفع ظلم ، وردع بغى . . . واللّه سبحانه وتعالى يقول :

« ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ » (125 . 126 : النحل) .

والذين ظلموا من أهل الكتاب ، هم أولئك الذين امتلأت قلوبهم ضغينة على الإسلام ، وحقدا عليه ، فكانوا حربا على المسلمين والإسلام ، بالكيد والفتنة ، وإشعال نار الحرب الظاهرة والخفية على رسول اللّه وعلى المؤمنين . . . ولهذا كان وصفهم بالظلم ، كاشفا عن عدوانهم وبغيهم ، إنهم معتدون لا معتدى عليهم ، وظالمون غير مظلومين ، فإذا

أخذوا بعدوانهم ، وبظلمهم ، فذلك بما جنته أيديهم : « فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » (193 : البقرة) .

أما الأسلوب الذي تجرى عليه معاملة هؤلاء الظالمين ، فهو على حسب ما كان منهم من ظلم ، بلا بغى أو عدوان . .

وفي الآية الكريمة - وهى مكية - إشارة إلى مستقبل الإسلام ، وإلى ما سيكون بينه وبين أهل الكتاب من تلاحم ، بالقول ، وبالفعل . . .

بالجدل بالتي هى أحسن أولا ، فإن كان عدوان فبالعدوان : « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » (41 : الشورى) .

- قوله تعالى : « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » - هو بيان لمقولة المسلمين ، في مقام الجدل بالتي هى أحسن مع أهل الكتاب ، وفي مواجهة غير الظالمين المعتدين منهم .

(156/598)

فالمسلمون يؤمنون بالكتب السماوية إيمانا مجملا ، باعتبار أنها من عند اللّه ، وأنه إذا كان أهل الكتاب قد غيّروا وبدلوا فيما بين أيديهم من كتب اللّه ، من التوراة والإنجيل ، فإن هذه

الكتب في أصلها حق من عند اللّه ، فما كان منها متفقا مع كتاب اللّه آمن المسلمون بأنه من عند اللّه ، وما خالف كتاب اللّه ، فما على المسلمين شيء منه ، وإنما إثمه على الذين بدلوا وحرفوا . . .

على أنه مهما كان من اختلاف بين أهل الكتاب وبين المسلمين ، فإن هناك قضية لا يجوز الاختلاف فيها ، وهى الإيمان بإله واحد ، هو القائم على هذا الوجود ، وهو الذي أرسل الرسل ، وأنزل الكتب . . . فإذا كان من أهل الكتاب من يختلف في هذه القضية ، فقد ناقض دعواه بأنه من أهل الكتاب ، وقطع السبب الذي يصله باللّه ، وبرسول اللّه الذي حمل هذا الكتاب . . . « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ » (137 : البقرة) .

قوله تعالى : « وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ » .

الخطاب للنبى الكريم ، من اللّه سبحانه وتعالى ، وأنه سبحانه قد أنزل عليه الكتاب ، كما أنزله على المرسلين من قبله . . . فهو - صلوات اللّه وسلامه عليه - كما يدعى إلى الإيمان بما أنزل على رسل اللّه ، فقد دعى المرسلون قبله إلى الإيمان بالكتاب الذي أنزل عليه . . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » . . . فالذين آتاهم اللّه الكتاب ، هم الرسل من أصحاب الكتب المنزلة ، وفي هذا يقول اللّه تعالى :

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا . . قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » (81 : آل عمران) . .

والضمير في قوله تعالى : « يُؤْمِنُونَ بِهِ » يعود إلى القرآن ، وهو « الكتاب » فى قوله تعالى « وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ » .

والمشار إليه في قوله تعالى « وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ » هم أهل الكتاب المعاصرون للدعوة الإسلامية ، و « من » للتبعيض . . . أي ومن بعض هؤلاء من اليهود والنصارى ، من يؤمن بالكتاب ، وهو القرآن كما آمن به موسى ، وعيسى ، والنبيون من قبل . . .

أما القول ، بأن المراد من قوله تعالى : « فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » هم اليهود والنصارى المعاصرون للدعوة الإسلامية ، وأن قوله تعالى : « وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ » مراد به المشركون من قريش ، كما يذهب إلى ذلك المفسرون ، قديما ، وحديثا ، فهذا ما لا نراه ، ولا نأخذ به . . .

فالموقف هنا ، فى مواجهة أهل الكتاب ، ودعوتهم إلى الإيمان بالله ، وبالكتب المنزلة من

عند اللّه ، كما آمن النبي والمؤمنون ، باللّه ، ورسله ، وكتبه .

هذا ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن إيمان النبيين الكريمين موسى وعيسى بالقرآن ، هو حجة على أهل الكتاب ، وإلزام لهم بمتابعة الرسول الذي حمل إليهم الكتاب الذي يؤمنون به . . . من التوراة أو الإنجيل ، وإلا فهم حارجون على رسولهم ، وعلى الكتاب الذي بين أيديهم . .

(158/598)

ومن جهة ثالثة ، فإن الإشارة إلى مشركي العرب بأنهم آمنوا بالقرآن ـ لا محصل له في هذا المقام ، ولا حجة منه على أهل الكتاب ، وحسب القائل منهم أن يدفع هذا بقوله : بأن هؤلاء المشركين أمّيّون ، فكيف يكون إيمانهم حجة عليهم . ؟ فإن لم يقل قائلهم هذا القول ، كان له أن يقول :

إن محمدا هو ـ إن صح أنه رسول ـ فهو رسول إلى قومه هؤلاء ، وهو حجة عليهم لا علينا ! !

وهذا قول ـ وإن كان باطلا ـ فإن الجدل يتسع له ، وخاصة في أول الدعوة الإسلامية ، التي كانت دعوتها متجهة أول الأمر إلى العرب ، كما يقول سبحانه و تعالى : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ

لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (2 : الجمعة) .

ومن جهة رابعة ، فإن قوله تعالى : « فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » إذا فهم على ما قرره المفسرون من أنه مراد به أهل الكتاب المعاصرون للدعوة ، فإنه يصادم الواقع ، إذ أن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن ، لا في عصر النبوة ، ولا بعده ، وإن الذي آمن منهم به نفر قليل بالإضافة إلى الكثرة الكثيرة التي ظلّت على ما وجدها القرآن عليه . . .

وليس يشفع لهذا القول ، ويدفع عنه هذا التناقض ، ما سيق له من تخريجات ، كما قيل بأن المراد بقوله تعالى « يُؤْمِنُونَ بِهِ » هو أن من شأنهم أن يؤمنوا ، لو أنهم أخلوا أنفسهم من الحسد ، والغيرة ، لما يلقاهم به القرآن من آيات بينات ، تنكشف في أضوائها معالم الطريق إلى الحق ، لكل ناظر فيها ، ملتمس الهدى منها . . . وكما قيل أيضا ، من أن المراد بالذين يؤمنون به من أهل الكتاب ، هم الذين آمنوا فعلا ، وهؤلاء وإن كانوا

قلة ، فإنهم هم كل أهل الكتاب ، الذين انتفعوا بالكتاب الذي في أيديهم . .

أما غيرهم من أهل الكتاب ، فلا حساب لهم . . ؟ !

وهذه لا شك مما حكات ، متهافتة ، ودعاوى واهية ، تتداعى لأية لمسة من نظرة عقل ، أو

لمحة منطق .

ثم من جهة خامسة ، أن قوله تعالى : « وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ » لا يصدق على العرب إلا في مرحلة من مراحل الدعوة ، وفي بدئها ، أما بعد ذلك فقد دخل العرب جميعا في دين اللّه ، وآمنوا جميعا باللّه ، لا أفرادا معدودين منهم ، كما هو منطوق النظم القرآنى : « وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ » ! هذا - واللّه أعلم - هو الرأى الذي يستقيم على طريق الآية الكريمة ، ويسير في أضواء نظمها المشرق المعجز .

وسنرى ، فى الآيات التالية ما يزيد هذا الرأى وضوحا وتمكينا .

قوله تعالى : « وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ » .

هذا الخطاب للنبى الكريم من ربه سبحانه وتعالى ، يكشف لأهل الكتاب ، الذين كانوا في هذه البيئة الأمية جامعة العلم ، وأساتذة طالبيه - هذا الخطاب يكشف لهم عن حقيقة جهلوها وتجاهلوها ، وهى أن هذا الأمىّ فى الأمة الأمية ، لم يكن ممن ألّموا بشىء من القراءة والكتابة ، حتى على هذا المستوي المتواضع الذي كان لبعض نفر قليل من قومه ، ممن عرفوا القراءة والكتابة ، ومع هذا فهو يحمل في صدره ، وعلى لسانه ، وبين يديه ، كتابا عجبا ، يعلو بسلطانه على كل كتاب ، ويستولى بعلمه على كل علم ، ويقطع بحجته كل حجة ، ويقهر بمنطقه كل منطق ، ويفحم ببيانه كل بيان ! !

فمن أين لهذا الأمى بهذا كله ؟ .

وإذا كان للأميين المشركين أن يقولوا - جهلا - « إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » وإذا كان لهم أن يقولوا - استبعادا أو استعظاما - إنه أخذ هذا العلم عن بعض العلماء من أهل الكتاب - فماذا يقول أهل الكتاب في هذا الكتاب ؟ وإلى أي نسب ينسبونه ، وإلى أي عالم منهم يسندونه ؟ .

إنه لم يجرؤ أحد من أهل الكتاب أن يقول كلمة واحدة في نسب هذا الكتاب إلى علمهم ، أو إضافته إلى أحد من علمائهم . . وقد كان لهم - وهم أصحاب العلم - أن يقولوا شيئا من هذا الذي كان يقوله الأميون ، لو أنهم وجدوا لهذا القول مكانا - أىّ مكان - ولو من قبيل التلبيس والتشكيك . . .

فلقد كان المدى بعيدا بين هذه الشمس المتألقة في كبد السماء ، وبين الأيدى التي تحاول الإمساك بها ، وعقد سحب من الظلام في وجه أضوائها المتدفقة ! .

ومن هنا ، فإنه لا سبيل لأهل الكتاب أن يرتابوا في نسبة هذا الكتاب إلى اللّه ، وأن يقولوا بأن إنسانا أمّيّا ، فى أمة أمية ، يمكن أن يكون هذا الكتاب ، أو شىء منه ، من عمله . . .

وأنه إذا كان يمكن أن يرد عليهم شىء من الشك في أن إنسانا ، قارئا ، كاتبا ، دارسا ، يمكن أن يأتى بمثل هذا الكتاب ، فإن مثل هذا الشك يكون مستحيلا ، إذا جاء الكتاب على يد أمي ، ما عرف القراءة والكتابة ، ولا حضر مجالس الدرس والتحصيل .

وقد أثار المفسرون جدلا طويلا حول ما إذا كان الرسول قد عرف القراءة والكتابة بعد البعثة أم لا . . . وقال كثير منهم إنه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ قد عرف القراءة والكتابة بعد بعثته . . وهذا أمر ما كان

(161/598)

يصحّ أن يكون موضع بحث أو خلاف ، فقد جاء القرآن ناطقا صريحا بأمية النبىّ ، وجعل هذه الأمية صفة دالة عليه ، يجده عليها أهل الكتاب في كل حال يلقونه عليها . وفي كل زمن يوجهون وجوههم إليه . . فاللّه سبحانه وتعالى يقول : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ . . . يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ » (157 : الأعراف) . . والأمّية هنا لا شك هى أمية القراءة والكتابة ، أما أمية العلم ، فقد كان صلوات اللّه وسلامه عليه ـ بما علّمه ربّه ـ عالم العلماء ، وحكيم الحكماء ، كما يقول سبحانه وتعالى مخاطبا له : « وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً »

(113 : النساء) .

فكيف إذن يكون النبيّ قد خرج عن صفة الأمية بعد البعثة ، وعرف القراءة والكتابة ، ثم يكون بهذا حجة على أهل الكتاب الذي يجدون وصفه فى التوراة والإنجيل ، نبيّا أمّيّا فى الأميين ؟ ثم ما حاجة النبيّ إلى أن يعرف القراءة والكتابة بعد النبوة ؟ أكان ينقل الكتاب الذي بين يديه عن كتب أخرى حتّى يضطره ذلك إلى معرفة القراءة والكتابة ؟ أم ماذا ؟ لا نجد جوابا ! ! قوله تعالى : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » .

الضمير « هو » يعود إلى الكتاب . فى قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ » .

والذين أوتوا العلم ، هم العلماء من أهل الكتاب . . .

أي أن هذا الكتاب يقع في صدور العلماء من أهل الكتاب موقع

(162/598)

المعجزات البينات ، حيث تنطق آياته بالحقّ المبين ، يتلقاه منها كلّ من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . . وفي هذا يقول اللّه تعالى كاشفا للمشركين عن عنادهم وضلالهم : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » (197 : الشعراء) .

أي أنه إذا لم يكن عند المشركين علم يعلمون يعرفون به قدر هذا الكتاب ، ويفرّقون به بين ما

هو سماوى وما هو أرضى . . . أفلا كان لهم في علم العلماء من أهل الكتاب ، بهذا الكتاب ، وإيمانهم به ، عبرة يعتبرون بها ، ومعلّم من معالم الهدى ، يهتدون به إلى هذا الكتاب ؟ .

وقوله تعالى : « وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ » . . . إشارة إلى علماء أهل الكتاب ، الذين يعرفون الحق في كتاب ثم ينكرونه ، من بعد ما عرفوه .

وفي هذا يقول اللّه تعالى : « فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ » (89 : البقرة) ووصفهم بالظلم ، هو الوصف الحق لهم ، إذ كتموا شهادة الحق الذي عرفوه . . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ » (140 : البقرة) .

قوله تعالى : « وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

بعد هذه اللفتة العارضة إلى أهل الكتاب ، وأسلوب مجادلة المؤمنين لهم ، وما عند علمائهم من علم بهذا القرآن - بعد هذا عادت الآيات لتصل الحديث مع المشركين ، وتكشف عن مقولة من مقولاتهم الفاسدة الحمقاء في مواجهة الدعوة الإسلامية ، ومدعياتهم عليها ، وعلى المرسل إليهم بها . . . فهم

يرتابون في أن يكون « محمد » على صلة بالسماء ، وأن يكون هذا الكتاب الذي بين يديه من عند اللّه ، وقد أقاموا منطقهم هذا على أنه لو كان هذا شأن محمد ، لجاءهم بآية محسوسة ، كما جاء الرسل قبله إلى أقوامهم بآيات محسوسة ، وفي هذا يقول اللّه على لسانهم : « فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » (5 : الأنبياء) وقد ردّ اللّه سبحانه وتعالى عليهم بقوله : « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ » أي أننى بشر مثلكم ، لا أملك من أمر اللّه شيئا ، وإنما أنا نذير مبين أبلغكم ما أرسلت به إليكم . . .

وقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ . . . إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

هو ردّ آخر ، على ما يقترحه المشركون على النبىّ من آيات ، وفي هذا الردّ إنكار عليهم أن يطلبوا آيات مع هذه الآيات التي تتلى عليهم . .

إنها آيات لا تغرب شمسها ، ولا يخبو ضوءها أبد الدهر . . .

. وفي قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً » إشارة إلى أن هذه الآيات لا تحمل معها نذر الهلاك الذي تحمله الآيات التي يقترحونها ، فإنه لو جاءتهم آية من تلك الآيات لكفروا بها ، ثم كان مصيرهم مصير الكافرين المكذبين ، كعاد ، وثمود ، وفرعون ! فهذه الآيات القرآنية رحمة من رحمة اللّه بهم .

.وفي قوله تعالى : « وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » إشارة أخرى إلى أن آيات الكتاب في معرض البحث والنظر ، وفي مجال التعقل والتأمل ، يعيش معها الإنسان ما يشاء ، ناظرا فيها ، متأملا مواقع الإعجاز منها ، فيجد بهذا طريقه إلى الحق والهدى ، إذا كان صالحا لقبول الخير ، مستعدا للتجاوب مع الحق !

(164/598)

قوله تعالى : « قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ » .

هذا هو نهاية الموقف الذي يقفه النبي من المشركين . . . إنه يشهد اللّه عليهم ، أنه بلّغهم رسالة ربّه ، وأنهم في عناد وتكذيب . . . واللّه سبحانه وتعالى يعلم ما في السموات والأرض ، ويعلم ما يسرّ هؤلاء المشركون وما يعلنون . . . وعند اللّه سبحانه عذاب شديد للضالين المكذبين ، الذين يؤمنون بالباطل ، ويقيمون في رحابه آلهة يعبدونها من دون اللّه . . إنهم هم الخاسرون . . « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 11 صـ 441.453 ﴾

(165/598)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾

عطف على جملة : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ءايات من ربّه ﴾ [العنكبوت : 50]

استقصاء في الرد على شبهاتهم وإبطالاً لتَعِلاَّت إعراضهم الناشىء عن المكابرة ، وهم يخيلون أنهم إنما أعرضوا لعدم اقتناعهم بآية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

ومناسبة وقوعه هذا أنه لما ذكر كفرهم بالله وكان النبي عليه الصلاة والسلام ينذرهم على ذلك بالعذاب وكانوا يستعجلونه به ذكر توركهم عليه عقب ذكر الكفر .

واستعجال العذاب : طلب تعجيله وهو العذاب الذي تُوعدوا به .

وقصدهم من ذلك الاستخفاف بالوعيد .

وتقدم الكلام على تركيب : ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير في سورة ﴾ [يونس : 11] ، وقوله : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة في سورة ﴾ [الرعد : 6] .

والتعريف في (العذاب) تعريف الجنس .

وحُكي استعجالهم العذاب بصيغة المضارع لاستحضار حال استعجالهم لإفادة التعجيب منها كما في قوله تعالى : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] .

وقد أبطل ما قصدوه بقوله : ﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ وذلك أن حلول العذاب ليس بيد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا جارياً على طلبهم واستبطائهم فإن الله هو المقدر لوقت حلوله بهم في أجل قدره بعلمه .

والمسمَّى أريد به المعيّن المحدود أي في علم الله تعالى .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ﴾ في سورة [الحج : 5] .

والمعنى : لولا الأجل المعين لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلاً لأن كفرهم يستحق تعجيل عقابهم ولكن أراد الله تأخيره لِحِكَم عَلِمَها ، منها إمهالهم ليؤمن منهم من آمن بعد الوعيد ، وليعلموا أن الله لا يستفزه استعجالهم العذاب لأنه حكيم لا يخالف ما قدره بحكمته ، حليم يمهل عباده .

(166/598)

فالمعنى : لولا أجل مسمى لجاءهم العذاب في وقت طلبهم تعجيله ، ثم أنذرهم بأنه آتيهم بغتة وأن إتيانه محقق لما دل عليه لام القسم ونون التوكيد وذلك عند حلول الأجل المقدّر له .

وقد حل بهم عذاب يوم بدر بغتة كما قال تعالى : ﴿ ولو تَوَاعَدْتم لاختلفتم في الميعاد ﴾ [الأنفال : 42] فاستأصل صناديدهم يومئذ وسُقط في أيديهم .

وإذ قد كان الله أعد لهم عذاباً أعظم من عذاب يوم بدر وهو عذاب جهنم الذي يعم جميعهم أعقب إنذارهم بعذاب يوم بدر بإنذارهم بالعذاب الأعظم .

وأعيد لأجله ذكر استعجالهم بالعذاب معترضاً بين المتعاطفين إيماء إلى أن ذلك جواب استعجالهم فإنهم استعجلوا العذاب فأُنذروا بعذابين ، أحدهما أعجل من الآخر .

وفي إعادة : ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ تهديد وإنذار بأخذهم ، فجملة : ﴿ وإن جهنم ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ فهما عذابان كما هو مقتضى ظاهر العطف .

والإحاطة كناية عن عدم إفلاتهم منها .

والمراد ﴿ بالكافرين ﴾ المستعجلون ، واستُحضروا بوصف الكافرين للدلالة على أنه موجب إحاطة العذاب بهم .

واستعمل اسم الفاعل في الإحاطة المستقبلة مع أن شأن اسم الفاعل أن يفيد الاتصاف في زمن الحال ، تنزيلاً للمستقبل منزلة زمان الحال تنبيهاً على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في إخباره .

ويتعلق : ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ بـ (محيطة) ، أي تحيط بهم يوم يغشاهم العذاب .

وفي قوله : ﴿ يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ تصوير للإحاطة .

والغشيان : التغطية والحجب .

وقوله : ﴿ من فوقهم ﴾ بيان للغشيان لتصويره تفظيعاً لحاله كقوله : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] وتأكيداً لمعنى الغشيان لرفع احتمال المجاز ، فهو في موضع الحال من ﴿ العذاب ﴾ وهي حال مؤكدة .

(167/598)

وقوله : ﴿ ومِن تحت أرجلهم ﴾ احتراس عما قد يُوهمه الغشيان من الفوقية خاصة ، أي تصيبهم نار من تحتهم تتوهج إليهم وهم فوقها ، ولما كان معطوفاً على الحال بالواو وكان غير صالح لأن يكون قيداً ل ﴿ يغشاهم ﴾ لأن الغشيان هو التغطية فتقتضي العلو تعين تقدير فعل يتعلق به ﴿ من تحت أرجلهم ﴾ ، وهو أن يقدر عامل محذوف .

وقد عدّ هذا العمل من خصائص الواو في العطف أن تعطف عاملاً محذوفاً دل عليه معموله كقول عبد الله بن الزبعرى :

يَا ليتَ زَوجكِ قد غدا

متقلداً سيفاً ورمحا . . .

يريد : ومُمسكاً رمحاً لأن الرمح لا يتقلد يصلح أن يكون مفعولاً معه وأبو عبيدة والأصمعي والجرمي واليزيدي ، ومن وافقهم يجعلون هذا من قبيل تضمين الفعل معنى فعل صالح للتعلق بالمذكور فيقدر في هذه الآية تضمين فعل ﴿ يغشاهم ﴾ معنى (يصيبهم) و (يأخذهم) .

والمقصود من هذا الكناية عن أن العذاب محيط بهم ، فلذلك لم يذكر الجانبان الأيمن والأيسر لأن الغرض من الكناية قد حصل .

والمقام مقام إيجاز لأنه مقام غضب وتهديد بخلاف قوله تعالى : ﴿ ثم لآتِيَنَّهم من بين أيديهم ومن خلفِهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ [الأعراف : 17] لأنه حكاية لإلحاح الشيطان في الوسوسة .

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي : ﴿ ويقول ﴾ بالياء التحتية والضمير عائد إلى معلوم من المقام .

فالتقدير : ويقول الله .

وعدل عن ضمير التكلم على خلاف مقتضى الظاهر على طريقة الالتفات على رأي كثير من أئمة البلاغة ، أو يقدر : ويقول الملك الموكل بجهنم ، أو التقدير : ويقول العذاب ، بأن يجعل الله للنار أصواتاً كأنها قول القائل : ﴿ ذوقوا ﴾ .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالنون وهي نون العظمة .

ومعنى : ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ جزاؤه لأن الجزاء لما كان بقدر المجزي أطلق عليه اسمه مجازاً مرسلاً أو مجازاً بالحذف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(168/598)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾

عجيب أنْ يطلب الإنسان لنفسه العذاب ، وأن يستعجله إن أبطأ عليه ، إذن : ما طلبه هؤلاء إلا لاعتقادهم أنه غير واقع بهم ، وإلا لو ووَثِقُوا من وقوعه ما طلبوه .

﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب . . . ﴾ [العنكبوت : 53] لأن كل شيء عند الله بميقات ، وأجل ، والأجل يختلف باختلاف أصحابه وهو أجل الناس وأعمارهم ، وهي آجال متفرقة فيهم ، لكن هناك أجل يجمعهم جميعاً ، ويتفقون فيه ، وهو أجل الساعة

.

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] أي : بآجالهم المتفرقة . أما أجل القيامة فأجل واحد مُسمّى عنده تعالى ، ومن عجيب الفَرْق بن الأجلين أن الآجال المتفرقة في الدنيا تنهي حياة ، أمّا أجل الآخرة فتبدأ به

الحياة .

والمعنى ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب . . . ﴾ [العنكبوت : 53] أن المسألة ليست على هواهم ورغباتهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ . . . ﴾ [الأنبياء : 37] ويقول : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : 37] .

(169/598)

لذلك " لما عقد النبي صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية بينه وبين كفار مكة ، ورضي أنْ يعود بأصحابه دون أداء فريضة العمرة غضب الصحابة وعلي وعمر ، ولم يعجبهم هذا الصلح ، وكادوا يخالفون رسول الله غيرةً منهم على دينهم ، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أم سلمة رضي الله عنها وقال : " هلك المسلمون " قالت : ولم يا رسول الله ؟ قال : " أمرتهم فلم يمتثلوا " فقالت : يا رسول الله اعذرهم ، فهم مكروبون ، جاءوا على شَوْقٍ لبيت الله ، وكانوا على مقربة منه هكذا ، ثم يُمنعون ويُصدُّون ، اعذرهم يا رسول الله ، ولكن امْضِ فاصنع ما أمرك الله به ودَعْهم ، فإنْ هم رأَوْكَ فعلتَ فعلوا ، وعلموا أن ذلك عزيمة .

وفعلاً ذهب رسول الله ، وتحلّل من عمرته ، ففعل القوم مثله " ، ونجحت مشورة السيدة أم

سلمة ، وأنقذت الموقف .

" ثم بيَّن الله لهم الحكمة في العودة هذا العام دون قتال ، ففي مكة إخوان لكم آمنوا ، ويكتمون إيمانهم ، فإنْ دخلتم عليهم مكة فسوف تقتلونهم دون علم بإيمانهم .

وكان عمر – رضي الله عنه – كعادته شديداً في الحق ، فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال : صلى الله عليه وسلم : " بلى " قال : أليسوا على الباطل ؟ قال صلى الله عليه وسلم " بلى " قال : فَلِمَ نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال أبو بكر : الزم غَرْزك يا عمر " . يعني قِف عند حدّك وحجِّم نفسك ، ثم قال بعدها ليبرر هذه المعاهدة : ما كان فتح في الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية – لا فتح مكة .

(170/598)

لماذا ؟ لأن الحديبية انتزعت من الكفار الاعترافَ بمحمد ، وقد كانوا معارضين له غير معترفين بدعوته ، والآن يكاتبونه معاهدة ويتفقون معه على رأي ، ثم إنها أعطت رسول الله فرصة للتفرغ لأمر الدعوة ونشرها في ربوع الجزيرة العربية ، لكن في وقتها لم يتسع ظنُّ الناس لما بين محمد وربه ، والعباد عادةً ما يعجلون ، والله – عز وجل – لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [العنبكوت : 53] يعني : فجأة ، وليس حسب رغبتهم ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : 53] لا يشعرون ساعتها أم لا يشعرون الآن أنها حق ، وأنها واقعة لأجل مسمى ؟

المراد لا يشعرون الآن أنها آتية ، وأن لها أجلاً مُسمى ، وسوف تباغتهم بأهوالها ، فكان عليهم أن يعلموا هذه من الآن ، وأن يؤمنوا بها . إذن : فليس المراد أنهم لا يشعرون بالبغتة ؛ لأن شعورهم بالبغتة ساعتها لا ينفعهم بشيء .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب . . . . ﴾ .

أي : قُلْ لهم إنْ كنتم تستعجلون العذاب فهو آتٍ لا محالة ، وإنْ كنتم في شوق إليه فجهنم في انتظاركم ، بل ستمتلئ منكم وتقول : هل من مزيد ؟ والعذاب يتناسب وقدرة المعذِّب قوة وضعفاً ، وإحاطة وشمولاً ، فإذا كان المعذِّب هو الله – عز وجل – فعذابه لا يُعذِّبه أحد من العالمين .

ومعنى ﴿ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ [العنكبوت : 54] الإحاطة أن تشمل الشيء من جميع جهاته ، فالجهات أربع : شمال وجنوب وشرق وغرب ، وبين الجهات الأصلية جهات فرعية ، وبين الجهات الفرعية أيضاً جهت فرعية ، والإحاطة هي التي تشمل كل هذه الجهات .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . . ﴾ [الكهف : 29] يعني : من كل جهاتهم .

(171/598)

ومن عجيب أمر النار في الآخرة أن النار في الدنيا يمكن أنْ تُعذِّب شخصاً بنار تحوطه لا يستطيع أنْ يُفلت منها ، لكن النار بطبيعتها تعلو ؛ لأن اللهب يتجه إلى أعلى ، أما إنْ كانت تحت قدمك فيمكنك أنْ تدوسها بقدمك ، كما تطفئ مثلاً (عُقْب) السيجارة ، فحين تدوسه تمنع عنه الأكسوجين ، فتنطفئ النار فيه ، أما في نار الآخرة فتأتيهم من كل جهاتهم : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب . . . ﴾ .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] .

وهاتان الجهتان لا تأتي منهما النار في الدنيا ؛ لأن النار تطبيعتها تصعد إلى أعلى ، وإنْ كانت تحت القدم تنطفيء . إذن : هذا ترقٍّ في العذاب ، حيث لا يقتصر على الإحاطة من جميع جهاته ، إنما يأتيهم أيضاً من فوقهم ومن تحتهم .

لكن قد يتجلَّد المعذَّب للعذاب ، ويتماسك حتى لا تشمت فيه ، وهذا يأتيه عذاب من

نوع آخر ، عذاب يُهينه ويُذلُّه ، ويُقال له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] لذلك وصف العذاب ، بأنه : مهين ، وأليم ، وعظيم ، وشديد .

وقوله تعالى : ﴿ وَيِقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : 55] لم يقل : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم ، كأن العمل نفسه سيكون هو النار التي تحرقهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(172/598)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

أخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ قال : الذين قالوا : مع الله إله أو له ولد أو له شريك ، أو يد الله مغلولة ، أو الله فقير ونحن أغنياء ، أو آذى محمداً صلى الله عليه وسلم وهم أهل الكتاب . وفي قوله ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ قال : لمن يقول هذا منهم . يعني من لم يقل مع الله إله ، أو له ولد ، أو له شريك ، أو يد الله مغلولة ، أو الله فقيراً ،

وآذى محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ قال : إن قالوا شراً فقولوا خيراً ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ فانتصروا منهم .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ قال : لا تقاتلوا إلا من قاتل ولم يعط الجزية ، ومن أدى منهم الجزية فلا تقولوا لهم إلا حسناً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ قال : بلا إله إلا الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن حسين في الآية قال : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ قولوا ﴿ آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ فهذه مجادلتهم بالتي هي أحسن .

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ قال : نهى عن مجادلتهم في هذه الآية . ثم نسخ ذلك فقال ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . ﴾ ولا مجادلة أشد من السيف .

وأخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإِسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا ﴿ آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال : كانت اليهود يحدثون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيسبحون كأنهم يعجبون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا ﴿ آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن سعد وأحمد والبيهقي في سننه عن أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال لجنازة : أنا أشهد أنها تتكلم .

فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان حقاً لم تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم " .

وأخرج البيهقي في سننه وفي الشعب والديلمي وأبو نصر السجزي في الابانة عن جابر بن

عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تسألوا هل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق ، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني " .

وأخرج عبد الرزاق عن زيد بن أسلم قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا أنفسهم " .

(174/598)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، لتكذبوا بحق وتصدقوا بباطل . فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ؛ في قوله ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ قال : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يخط بيمينه ، ولا يقرأ كتاباً . فنزلت ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ قريش .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والاسمعيلي في معجمه عن ابن عباس في قوله ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ولا يكتب ، كان أمياً . وفي قوله ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ قال : كان الله أنزل شأن محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإِنجيل لأهل العلم ، وعلمه لهم وجعله لهم آية فقال لهم : إن آية نبوته أن يخرج حين يخرج لا يعلم كتاباً ولا يخطه بيمينه . وهي الآيات البينات التي قال الله تعالى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقرأ كتاباً قبله ، ولا يخطه بيمينه ، وكان أمياً لا يكتب . وفي قوله ﴿ آيات بينات ﴾ قال : النبي آية بينة ﴿ في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ﴾ قال : وقال الحسن : القرآن ﴿ آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ يعني المؤمنين .

(175/598)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب ، وكذلك جعل نعته في التوراة والإِنجيل أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب . وهي

الآية البينة . وهي قوله ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ قال : يعني صفته التي وصف لأهل الكتاب يعرفونه بالصفة .

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب . . . ﴾ قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ولا يكتب .

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)

أخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة رضي الله عنه قال : جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كفى بقوم حمقا ، أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم . فنزلت ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . . . ﴾ الآية " .

وأخرج الاسمعيلي في معجمه وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "كان ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتبون من التوراة ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " إن أحمق الحمق ، وأضل الضلالة قوم رغبوا عما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم إلى نبي غير نبيهم ، والى أمة غير أمتهم " . ثم أنزل الله ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . . ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي في شعب الإِيمان عن الزهري : " أن حفصة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف في كتف ، فجعلت تقرأه عليه والنبي صلى الله عليه وسلم يتلون وجهه فقال " والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم " " .

(176/598)

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن الضريس والحاكم في الكني والبيهقي في شعب الإِيمان عن عبد الله بن ثابت بن الحرث الأنصاري قال : " دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك . فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيراً شديداً لم أر مثله قط ، فقال عبد الله بن الحارث لعمر رضي الله عنهما : أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر رضي الله عنه : رضينا بالله رباً ، وبالإِسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال " ولو نزل موسى فأتبعتموه وتركتموني لضللتم ، انا حظكم من النبيين ، وأنتم حظي من الأمم " " .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي عن أبي قلابة " أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر برجل

يقرأ كتاباً ، فاستمعه ساعة ، فاستحسنه فقال للرجل : اكتب لي من هذا الكتاب قال : نعم . فاشترى أديما فهيأه ثم جاء به إليه ، فنسخ له في ظهره وبطنه ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقرأه عليه ، وجعل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلون ، فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أما ترى ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك " إنما بعثت فاتحاً وخاتماً ، وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه ، واختصر لي الحديث اختصاراً ، فلا يهلكنكم المتهوكون " " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن عمر بن الخطاب قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تعلم التوراة فقال " لا تتعلمها وآمن بها ، وتعلموا ما أنزل إليكم وآمنوا به " " .

(177/598)

وأخرج ابن الضريس عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " يا رسول الله إن أهل الكتاب يحدثونا بأحاديث قد أخذت بقلوبنا ، وقد هممنا أن نكتبها فقال " يا ابن الخطاب أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصاري ؟ ! أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولكني أعطيت جوامع الكلم ، واخْتُصِرَ لي الحديث اختصاراً " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن أبي ملكية قال : أهدى عبد الله بن عامر بن كرز إلى عائشة رضي الله عنها هدية ، فظنت أنه عبد الله بن عمرو ، فردتها وقالت : يتتبع الكتب وقد قال الله ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ ! فقيل لها : إنه عبد الله بن عامر . فقبلتها .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53)

أخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ قال : قال ناس من جهلة هذه الأمة ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ قال : جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه ، ويكون فيه الشمس والقمر ، ثم تستوقد ، ثم يكون هو جهنم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ وإن جهنم لمحيطة ﴾ قال : البحر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ قال : النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(178/598)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ ﴾ :

استثناءٌ متصلٌ . وفيه معنيان ، أحدهما : إلاَّ الظَّلَمَةَ فلا تُجادلوهم البتةَ . بل جادِلوهم بالسيف . والثاني : جادِلوهم بغير التي هي أحسنُ أي : أَغْلِظوا لهم كما أَغْلَظوا عليكم . وقرأ ابن عباس " ألا " حرفُ تنبيهٍ أي : فجادِلوهم .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

قوله : ﴿ مِن كِتَابٍ ﴾ : مفعولُ " تَتْلُو " و " مِنْ " زائدةٌ . و " مِنْ قبلِه " حالٌ مِنْ " كتاب " ، أو متعلِّقٌ بنفسِ " تَتْلو " .

قوله " إذاً لارتابَ " جوابٌ وجزاءٌ أي : لو تَلَوْتَ كتاباً قبلَ القرآنِ ، أو كنتَ مِمَّن يكتبُ لارتابَ المُبْطلون .

قوله : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ ﴾ : قرأ قتادةُ "آيةٌ" بالتوحيد .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)

قوله : ﴿ آيَاتٌ ﴾ : قرأ الأخَوان وابن كثير وأبو بكر "آيةٌ" بالإفراد ؛ لأنَّ غالِبَ ما جاء في القرآن كذلك . والباقون "آياتٌ" بالجمعِ ؛ لأنَّ بعدَه ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات ﴾ بالجمعِ إجماعاً ، والرسمُ محتملٌ له .

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)

قوله : ﴿ أَنَّا أَنْزَلْنَا ﴾ : فاعل "يَكْفِهم" .

يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

قوله : ﴿ وَيَقُولُ ﴾ : قرأ الكوفيون ونافع بياءِ الغَيْبة أي : الله تعالى أو المَلَك . وباقي السبعة بنونِ العظمة لله تعالى ، أو لجماعة الملائكةِ .

(179/598)

وأبو البرهسم بالتاءِ من فوق أي : جهنم كقوله : ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] .
وعبد الله وابن أبي عبلة " ويُقال " مبنياً للمفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 23.24 ﴾

(180/598)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾

لولا أني ضربْتُ لكلِّ شيءٍ أَجَلاً لعجَّلْتُ لهم ذلك ، ولَيَأْتِيَنَّهم العذابُ – حين يأتيهم – بغتةً وفجأةً .

يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

وإذا أحاطت بهم في جهنم سرادقاتُ العذاب فلا صريخ لهم ، كذلك – اليومَ – مَنْ أحاط به العذابُ ؛ مِنْ فوقه اللَّعنُ ومن تحته الخَسْفُ ، ومن حوله الخِزْيُ ، ويُلْبَسُ لباسَ الخذلان ، ويوسم بكيِّ الحرمان ، ويُسْقَى شرابَ القنوط ، ويُتَوَّجُ بتاج الخيبة ، ويُقَيَّدُ بقيد السُّخط ،

ويُغَلِّ بغُلِّ العداوة ، فهُمْ يُسْحَبون في جهنم الفراق حُكْماً ، إلى أن يُلْقَوْا في جحيم الاحتراق عيناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 101.102 ﴾

(181/598)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/599)

الجزء التاسع والتسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 56 ﴾ من سورة العنكبوت

وحتى الآية ﴿ 69 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/599)

قوله تعالى ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبلغ في الإنذار ، وحذر من الأمور الكبار ، ولم يهمل الإشارة إلى الصغار ، وكانت هذه الآيات في المتعنتين من الكفار ، وكان قد كرر أن هذه المواعظ إنما هي للمؤمنين ، قال مخاطباً لهم معرضاً عن سواهم إذا كانت أسماعهم لبليغ هذه المواعظ قد أصغت ، وقلوبهم لجليل هذه الإنذارات قد استيقظت ، التفاتاً على قراءة الجمهور إلى التلذيذ في المناجاة بالإفراد والإبعاد من مداخل التعنت : ﴿ يا عبادي ﴾ فشرفهم بالإضافة ، ولكنه لما أشار بأداة البعد إلى أن فيهم من لم يرسخ ، حقق ذلك بقوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي وإن كان الإيمان باللسان مع أدنى شعبة من القلب .

ولما كان نزول هذه السورة بمكة ، وكانوا بها مستخفين بالعبادة خوفاً من الكفار ، وكانت الهجرة الأهل والأوطان شديدة ، قال مؤكداً تنبيهاً على أن حال من ترك الهجرة حال من يظن أن الأرض ضيقة : ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ أي في الذات والرزق وكل ما تريدون من الرفق ، فإن لم تتمكنوا بسبب هؤلاء المعاندين الذين يفتنونكم في دينكم ويمنعونكم من الإخلاص إلي في أرضكم والاجتهاد في عبادتي حتى يصير الإيمان لكم وصفاً ، فهاجروا إلى أرض تتمكنون فيها من ذلك .

ولما كانت الإقامة بها قبل الفتح مؤدية إلى الفتنة ، وكان المفتون ربما طاوع بلسانه ، وكان ذلك وإن كان القلب مطمئناً بالإيمان في صورة الشرك قال : ﴿ فإياي ﴾ أي خاصة بالهجرة إلى أرض تأمنون فيها اعبدوا وتنبهوا ﴿ فاعبدون ﴾ بسبب ما دبرت لكم من

المصالح من توسيع الأرض وغيره ، عبادة لا شرك فيها ، لا باللسان ولا بغيره ولا استخفافاً بها ولا مراعاة لمخلوق في معصيته ، ولا شيء يجر إليها بالهرب ممن يمنعكم من ذلك إلى من يعينكم عليه .

(5/599)

ولما كانت الهجرة شديدة المرارة لأنها مرت في المعنى من حيث كونها مفارقة المألوف المحبوب من العشير والبلد والمال ، وكان في الموت ذلك كله بزيادة ، قال مؤكداً بذلك مذكراً به مرهباً من ترك الهجرة : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أي مفارقة كل ما ألفت حتى بدناً طالما لابسته ، وآنسها وآنسته ، فإن أطاعت ربها أنجت نفسها ولم تنقصها الطاعة في الأجل شيئاً ، وإلا أوبقت نفسها ولم تزدها المعصية في الأجل شيئاً ، فإذا قدر الإنسان أنه مات سهلت عليه الهجرة ، فإنه إن لم يفارق بعض مألوفه بها فارق كل مألوفه بالموت ، وما ذكر الموت في عسير إلا يسره ، ولا يسير إلا عسره وكدره .

ولما هوّن أمر الهجرة ، حذر من رضي في دينه بنوع نقص لشيء من الأشياء حثاً على الاستعداد بغاية الجهد في التزود للمعاد فقال : ﴿ ثم إلينا ﴾ على عظمتنا ، لا إلى غيرنا ﴿ ترجعون ﴾ على أيسر وجه ، فيجازي كلاً منكم بما عمل .

ولما كان التقدير : فالذين آمنوا فلبسوا إيمانهم بنوع نقص لننقصنهم في جزائهم ، والذين كفروا لنركسنهم في جهنم دركات تحت دركات فبئس مثوى الظالمين ، ولكنه لما تقدم ذكر العذاب قريباً ، وكان القصد هنا الترغيب في الإيمان كيفما كان ، طواه ودل عليه بأن عطف عليه قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ أي تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ أي كلها .

ولما كان الكفار ينكرون البعث ، فكيف ما بعده ، أكد قوله : ﴿ لنبوئنهم ﴾ أي لنسكننهم في مكان هو جدير بأن يرجع إليه من حسنه وطيبه من خرج منه لبعض أغراضه ، وهو معنى ﴿ من الجنة غرفاً ﴾ أي بيوتاً عالية تحتها قاعات واسعة بهية عالية ، وقريب من هذا المعنى قراءة حمزة والكسائي بالثاء المثلثة من ثوى بالمكان - إذا أقام به .

(6/599)

ولما كانت العلالي لا تروض إلا بالرياض قال : ﴿ تجري ﴾ ولما كان عموم الماء لجهة التحت بالعذاب أشبه ، بعضه فقال : ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ ومن المعلوم أنه لا يكون في موضع أنهار ، إلا كان به بساتين كبار ، وزروع ورياض وأزهار - فيشرفون عليها من تلك العلالي .

ولما كانت بحالة لا نكد فيها يوجب هجره في لحظة ما ، كنى عنه بقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي لا يبغون عنها حولاً ؛ ثم عظم أمرها ، شرف قدرها ، بقوله : ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ ثم وصفهم بما يرغب في الهجرة ، فقال معرفاً بجماع الخير كله الصبر وكونه على جهة التفويض لله ، منبهاً على أن الإنسان لا ينفك عن أمر شاق ينبغي الصبر عليه : ﴿ الذين صبروا ﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة حتى استقرت عندهم فكانت سجية لهم ، فأوقعوها على كل شاق من التكاليف من هجرة وغيرها .

ولما كان الإنسان إلى المحسن إليه أميل ، قال مرغباً في الاستراحة بالتفويض إليه : ﴿ وعلى ربهم ﴾ أي وحده لا على أهل ولا وطن ﴿ يتوكلون ﴾ أي يوجدون التوكل إيجاداً مستمر التجديد عند كل مهم يعرض لهم إرزاقهم بعد الهجرة وغيرها وجهاد أعدائهم وغير ذلك من أمورهم .

ولما أشار بالتوكل إلى أنه الكافي في أمر الرزق في الوطن والغربة ، لا مال ولا أهل ، قال عاطفاً على ما تقديره : فكأيّ من متوكل عليه كفاه ، ولم يحوجه إلى أحد سواه ، فليبادر من أنقذه من الكفر وهداه إلى الهجرة طالباً لرضاه : ﴿ وكأيّن من دابة ﴾ أي كثير من الدواب العاقلة وغيرها ﴿ لا تحمل ﴾ أي لا تطيق أن تحمل ﴿ رزقها ﴾ ولا تدخر شيئاً لساعة أخرى ، لأنها قد لا تدرك نفع ذلك ، وقد تدركه وتتوكل ، أو لا تجد .

ولما كان موضع أن يقال : فمن يرزقها ؟ قال جواباً له : ﴿ الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ، المتصف بكل كمال ﴿ يرزقها ﴾ وهي لا تدخر ﴿ وإياكم ﴾ وأنتم تدخرون ، لا فرق بين ترزيقه لها على ضعفها وترزيقه لكم على قوتكم وادخاركم ، فإن الفريقين تارة يجدون وتارة لا يجدون ، فصار الادخار وعدمه غير معتد به ولا منظور إليه .

ولما كان أهم ما للحيوان الرزق ، فهو لا يزال في تدبيره بما يهجس في ضميره وينطق به إن كان ناطقاً ويهمهم به إن كان صامتاً ، أما العاقل فبأمور كلية ، وأما غيره فبأشياء جزئية وحدانية ، وكان العاقل ربما قال : إني لا أقدر على قطع العلائق من ذلك ، قال تعالى : ﴿ وهو السميع ﴾ أي لما يمكن أن يسمع في أمره وغير أمره ﴿ العليم ﴾ أي بما يعلم من ذلك ، وبما يصير إليه أمركم وأمر عدوكم ، فهو لم يأمركم بما أمركم به إلا وقد أعد له أسبابه ، وهو قادر على أن يسبب لما اعتمد عليه الإنسان من الأسباب المنتجة عنده ولا بد ما يعطله ، وعلى أن يسبب للمتوكل القاطع للعلائق ما يغنيه ، ومن طالع كتب التصوف وتراجم القوم وسير السلف – نفعنا الله بهم – وجد كثيراً من ذلك بما يبصره ويسليه سبحانه ويصبره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 571.574 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما في الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطباً للمؤمنين ﴿ ياعبادى الذين ءامَنُواْ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فاعبدون ﴾ إن تعذرت العبادة عليكم في بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال ، وبهذا علم أن الجلوس في دار الحرب حرام والخروج منها واجب ، حتى لو حلف بالطلاق أنه لا يخرج لزمه الخروج ، حتى يقع الطلاق ثم في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ يا عِبَادِي ﴾ لم يرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل في قوله : ﴿ يا عِبَادِى ﴾ نقول ليس داخلاً في قوله : ﴿ يا عِبَادِي ﴾ نقول ليس داخلاً فيه لوجوه :

أحدها : أن من قال في حقه ﴿ عِبَادِى ﴾ ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الحجر : 42] والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلاً في قوله ﴿ يا عِبَادِى ﴾ الثاني : هو أن الخطاب بعبادي أشرف منازل المكلف ، وذلك لأن الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسماً عظيماً وهو اسم الخلافة كما قال تعالى : ﴿ إِنّي جَاعِلٌ فِى الأرض خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] والخليفة أعظم الناس مقداراً وأتم ذوي البأس اقتداراً ، ثم إن إبليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم ، بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشيطان ﴾ [البقرة : 36] ثم إن من أولاده الصالحين من سمى بعبادي فانخنس عنهم الشيطان وتضاءل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الحجر : 42] وقال هو بلسانه ﴿ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ ﴾ فعلم أن المكلف إذا كان عبداً لله يكون أعلى درجة مما إذا كان خليفة لوجه الأرض ولعل آدم كداود الذي قال الله تعالى في حقه ﴿ إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِي الأرض ﴾ [ص : 26] لم يتخلص من يد الشيطان إلا وقت ما قال الله تعالى في حقه عبدي وعندما ناداه بقوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف : 23] واجتباه بهذا النداء ، كما قال في حق داود ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد ﴾ [ص : 17] إذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة ؟ فلا يدخل في قوله ﴿ يا عِبَادِى ﴾ إلا المؤمن .

الثالث : هو أن هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله ، وذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] فالمؤمن دعا ربه بقوله : ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى للإيمان أَنْ ءامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَئَامَنَّا ﴾ [آل عمران : 193] فأجابه الله تعالى بقوله : ﴿ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ [الزمر : 53] فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد إلهي وقول الله عبدي تأكدت بدعاء العبد ، لكن الكافر لم يدع فلم يجب ، فلا يتناول يا عبادي غير المؤمنين .

المسألة الثانية :

إذا كان عبادي لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة في قوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف ، كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون ، ويا أيها الرجال العقلاء تمييزاً عن الكافرين والجهال ، فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان أن فيه الوصف كما يقال الأنبياء المكرمون والملائكة المطهرون ، مع أن كل نبي مكرم وكل ملك مطهر ، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة ، ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل ، فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون .

المسألة الثالثة :

إذ قال ﴿ يا عِبَادِى ﴾ فهم يكونون عابدين فما الفائدة في الأمر بالعبادة بقوله ﴿ فاعبدون ﴾ ؟ فنقول فيه فائدتان إحداهما : المداومة أي يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل الثانية : الإخلاص أي يا من تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري .

المسألة الرابعة :

(11/599)

الفاء في قوله : ﴿ فإياي ﴾ تدل على أنه جواب لشرط فما ذلك ؟ فنقول قوله : ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ ﴾ إشارة إلى عدم المانع من عبادته فكأنه قال إذا كان لا مانع من عبادتي فاعبدوني ، وأما الفاء في قوله تعالى : ﴿ فاعبدون ﴾ فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فأكرموه فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله : ﴿ فإياي ﴾ وهو لنفسه يستحق العبادة قال ﴿ فاعبدون ﴾ .

المسألة الخامسة :

قال العبد مثل هذا في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وقال عقيبه : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والله تعالى

وافقه في قوله : ﴿ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ ولم يذكر الإعانة نقول بل هي مذكورة في قوله ﴿ يا عِبَادِي ﴾ لأن المذكور بعبادي لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان في غاية الإعانة .

المسألة السادسة :

قدم الله الإعانة وأخر العبد الاستعانة ، قلنا لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض ، فإن الغرض سابق على الفعل في الإدراك ، وذلك لأن من يبني بيتاً للسكنى يدخل في ذهنه أولاً فائدة السكنى فيحمله على البناء ، لكن الغرض في الوجود لا يكون إلا بعد فعل الواسطة ، فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهي سابقة في إدراكه ، وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود ، فإن الإعانة قبل العبادة .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57)

(12/599)

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، فقال لهم إن ما تكرهون لا بد من وقوعه فإن كل نفس ذائقة الموت والموت مفرق الأحباب فالأولى أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه ، فإن إلى الله مرجعكم ، وفيه وجه أرق وأدق ،

وهو أن الله تعالى قال : كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي للموت ، ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت ﴾ [الدخان : 56] إذا ثبت هذا فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فإن النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ و ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] فإذاً التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى ﴿ فَإِيَّاىَ فاعبدون ﴾ أي تعلقوا بي ، ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي إذا تعلقتم بي فموتكم رجوع إلي وليس بموت كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله أمواتا بَلْ أَحْيَاء ﴾ [آل عمران : 169] وقال عليه السلام : " المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار " فعلى هذا الوجه أيضاً يتبين وجه التعلق .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(13/599)

بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع إليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ [العنكبوت : 54] فبين أن للمؤمنين الجنان في مقابلة ما أن للكافرين النيران ، وبين أن فيها غرفاً تجري من تحتها الأنهار في مقابلة ما بين أن تحت

الكافرين النار ، وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ في مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله : ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنبكوت : 55] ثم في الآيتين اختلافات فيها لطائف منها أنه تعالى ذكر في العذاب أن فوقهم عذاباً أي ناراً ، ولم يذكر ههنا فوقهم شيئاً ، وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف ، وذلك لأن المذكور في الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان ، لكن الكافر في الدرك الأسفل من النار ، فيكون فوقه طبقات من النار ، فأما المؤمنون فيكونون في أعلى عليين ، فلم يذكر فوقهم شيئاً إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم .

(14/599)

وأما قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ [الزمر : 20] لا ينافي لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهي فوقهم ، ومنها أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار ، وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء ، وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقاً ما لم تكن في مسامتة الأقدام ومتصلة بها ، أما إذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها ، أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل في وهدة لا تؤلم ، وأما الماء إذا كان تحت الغرفة في أي وجه كان وعلى أي بعد كان يكون ملتذاً به ، فقال في النار من تحت

أرجلهم ليحصل الألم بها ، وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان ، ومنها أن هناك قال ذوقوا لإيلام قلوبهم بلفظ الأمر وقال ههنا ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ لتفريح قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع التعلق بعده ، فإن من قال لأجيره خذ أجرتك يفهم منه أن بذلك ينقطع تعلقه عنه ، وأما إذا قال ما أتم أجرتك عندي أو نعم مالك من الأجر يفهم منه أن ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك : ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فإن قال قائل ذوقوا إذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع ، قلنا ليس كذلك لأن الله إذا قال ذوقوا دل على أنه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائماً ولا ينقص ولا يزداد ، وأما المؤمن إذا أعطاه شيئاً فلا يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم في النعم وإليه الإشارة بقوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] أي الذي يصل إلى الكافر يدوم من غير زيادة والذي يصل إلى المؤمن يزداد على الدوام ، وأما الخلود وإن لم يذكره في حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص .

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

(15/599)

ذكر أمرين الصبر والتوكل لأن الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضي لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشيء ، بقي الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكيل ، فيصبر على ما يصيبه من الأذى في الحال ، ويتوكل فيما يحتاج إليه في الاستقبال .

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله ، فمن علم ما سواه علم أنه زائل فيهون عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين ، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه بأرزاقه فإن فاته شيء فإنه يتوكل على حي باق ، وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب ، فإن قوله : ﴿ يا عِبَادِى ﴾ كان لبيان أنه لا مانع من العبادة ، ومن يؤذى في بقعة فليخرج منها .

فحصل الناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه ، يترك الأوطان ويفارق الأخوان ، وعاجز وهو صابر على تحمل الأذى ومواظب على عبادة الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السميع العليم ﴾ .

لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التي لا تدخر شيئاً لغد ، ويأتيها كل يوم برزق رغد .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في كأين لغات أربع (لا) غير هذه (و) كائن على وزن راع وكأين على وزن ريع وكي على

دع ولم يقرأ إلا كأين وكائن قراءة ابن كثير .

المسألة الثانية :

كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي التي تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب ، لأن كأي يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلاً لا كأي رجل يكون ، فقد حذف المضاف إليه ويقال رأيت رجلاً لا كأي رجل ، وحينئذ لا يكون كأي مركباً ، فإذا كان كأي ههنا مركباً كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكرب وبعلبك موصولاً للفرق .

وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزاً بينها وبين ثمت .

المسألة الثالثة :

(16/599)

كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من إلا نادراً وكم يستعمل كثيراً من غير من ، يقال كم رجلاً وكم من رجل ، وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأي التي ليست مركبة ، وذلك لأن كأي إذا لم تكن مركبة لا يجوز إدخال من بعدها إذ لا يقال رأيت رجلاً لا كأي من رجل ، والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق .

قوله تعالى : ﴿ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ قيل : لا تحمل لضعفها وقيل هي كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ بطريق القياس أي لا شك في أن رزقها ليس إلا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا ، فإن قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات في الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى ، فنقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظراً إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق ، أما بالنظر إلى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق ، وأما بالنظر إلى المرتزق فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبثه بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظماً ولحماً وشحماً ، وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاصمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وإرادته فهو الذي يرزقها ، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق ، فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء ، ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعاً من أنواع الغذاء حتى يوضع في فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك ، فإن كثيراً ما يكون البعير لا يعرف الخمير ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك ، فإن قال قائل كيف يصح قياس الإنسان على الحيوان فيما يوجب التوكل

والحيوان رزقه لا يتعرض إليه إذا أكل منه اليوم شيئاً وترك بقية يجدها غداً ، ما مد إليه أحد يداً ، والإنسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غداً شيء ؟ وأيضاً حاجات الإنسان كثيرة فإنه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضاً قوت الحيوان مهيأ وقوت الإنسان يحتاج إلى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة ، فنقول نحن لا نقول إن الجمع يقدح في التوكل ، بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلاً والراكع الساجد غير متوكل ، لأن من يزرع يكون اعتماده على الله

(18/599)

واعتقاده في الله أنه إن كان يريد يرزق من غير زرع ، وإن كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ، ومن يصلي وقلبه مع ما في يد زيد وعمرو هو غير متوكل .

وأما قوله : حاجات الإنسان كثيرة ، فنقول مكاسبه كثيرة أيضاً ، فإنه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعي وغيره ، وبعينه كالناطور وبلسانه كالحادي والمنادي ، وبفهمه كالمهندس والتاجر ، وبعلمه كالطبيب والفقيه ، وبقوة جسمه كالعتال والحمال ، والحيوان لا مكاسب له ، فالرغيف الذي يحتاج إليه الإنسان غداً أو بعد غد ، بعيد أن لا

يرزقه الله مع هذه المكاسب ، فهو أولى بالتوكل .

وأيضاً الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه ، فإن الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل في ملكه شاء أم أبى ، حتى أن نتاج الأنعام وثمار الأشجار تدخل في الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر ، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهراً شاؤا أم أبوا ، وليس كذلك حال الحيوان أصلاً ، فإن الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه ، فإذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان ، ثم قال : ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ سميع إذا طلبتم الرزق ، يسمع ويجيب ، عليم إن سكتم ، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 73 . 77 ﴾

(19/599)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَآمَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾

فيه خمسة تأويلات

: أحدها : أي جانبوا أهل المعاصي بالخروج من أرضهم ، قاله ابن جبير وعطاء .

الثاني : اطلبوا أولياء الله إذا ظهروا بالخروج إليهم ، قاله أبو العالية .

الثالث : جاهدوا أعداء الله بالقتال لهم ، قاله مجاهد .

الرابع : إن رحمتي واسعة لكم ، قاله مطرف بن عبد الله .

الخامس : إن رزقي واسع لكم ، وهو مروي عن مطرف أيضاً .

﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : فارهبون ، قاله بلال بن سعد .

الثاني : فاعبدون بالهجرة إلى المدينة ، قاله السدي .

الثالث : فاعبدون بألا تطيعوا أحداً في معصيتي ، قاله علي بن عيسى .

قوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : يعني أن كل حي ميت .

الثاني : أنها تجد كربه وشدته ، وفي إعلامهم بذلك وإن كانوا يعلمونه وجهان :

أحدهما : إرهاباً بالموت ليقلعوا عن المعاصي .

الثاني : ليعلمهم أن أنبياء الله وإن اختصوا بكرامته وتفردوا برسالته فحلول الموت بهم كحلوله بغيرهم حتى لا يضلوا بموت من مات منهم ، وروى جعفر الصادق عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب قال لما توّفي رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ، إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخَلَفاً من كل هالك ودركاً من كل

فائت ؛ فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِمَ الثواب .

﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ يريد البعث في القيامة بعد الموت في الدنيا . قوله تعالى : ﴿ . . . لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ لَنُثَوِّيَنَّهُم ﴾ بالثاء من الثواء وهو طول المقام وقرأ الباقون بالباء ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾ معناه لنسكننهم أعالي البيوت . وإنما خصهم بالغرف لأمرين :

(20/599)

أحدهما : أن الغرف لا تستقر إلا فوق البيوت فصار فيها جمع بين أمرين .

الثاني : لأنها أنزه من البيوت لإشرافها وألذ سكنى منها لرياحها وجفافها .

وقد روى أبو مالك الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِن بَاطِنِها ، وبَاطِنُها مِن ظَاهِرِهَا ، أَعدَّهَا اللَّهُ لِمَن أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَطَابَ الكَلاَمَ وَتَابَعَ الصَّلاَةَ وَالصِّيَامَ وَقَامَ بِاللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ " . قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : معناه تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً ، قاله مجاهد .

الثاني : تأكل لوقتها ولا تدخر لغدها ، قاله الحسن .

الثالث : يأتيها من غير طلب .

الرابع : أنه النبي صلى الله عليه وسلم يكل ولا يدخر ، حكاه النقاش .

قال ابن عباس : الدواب هو كل ما دب من الحيوان . وكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمل والفأر .

﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي يسوي بين الحريص المتوكل في رزقه وبين الراغب القانع وبين الجلود والعاجز حتى لا يغتر الجلْد أنه رزق بجلده ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية لما أُذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة وأمر المسلمين بها خافوا الضيعة والجوع فقال قوم نهاجر إلى بلد ليس فيها معاش فنزلت هذه الآية فهاجروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(21/599)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

(22/599)

هذه الآيات نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ، فأخبرهم تعالى بسعة أرضه وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب ، بل الصواب أن تلتمس عبادة الله في أرضه ، وقال ابن جبير وعطاء ومجاهد : إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق ، وقاله مالك ، وقال مطرف بن الشخير قوله ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ عدة بسعة الرزق في جميع الأرض ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر " يا عباديَ " بفتح الياء ، وقرأ ابن عامر وحده " إن أرضيَ " بفتح الياء أيضاً ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بسكونها ، وكذلك قرأ نافع وعاصم " أرضي " ساكنة ، وقوله تعالى : ﴿ فإياي ﴾ منصوب بفعل مقدر يدل عليه الظاهر تقديره ﴿ فإياي ﴾ اعبدوا ﴿ فاعبدون ﴾ على الاهتمام أيضاً في التقديم ، وقوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ تحقير لأمر الدنيا ومخاوفها كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه أنه يموت أو يجوع ونحو هذا ، فحقر الله تعالى شأن الدنيا ، أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا ، فالبدار إلى إلى طاعة الله عز وجل والهجرة إليه أولى ما يمتثل ، وقرأ الجمهور " ترجعون " بالتاء من فوق ، ورويت عن عاصم بالياء من تحت وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو ، وقرأ أبو حيوة " كل نفس ذائقةٌ " بالتنوين " الموتَ " بالنصب ، ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى ، وذكر الجزاء الذي

ينالونه ، وقرأ جمهور القراء " لنبوئنهم " من المباءة أي لننزلنهم ولنمكننهم ليدوموا فيها ، و ﴿ غرفاً ﴾ مفعول ثان لأنه فعل يتعدى إلى مفعولين ، وقرأ حمزة والكسائي " لنثوينهم " من أثوى يثوي وهو معدى ثوى بمعنى أقام وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود والربيع بن خيثم وابن وثاب وطلحة ، وقرأها بعضهم " لنثَوِّينهم " بفتح الثاء وتشديد الواو معدى بالتضعيف لا بالهمزة ،

(23/599)

فقوله ﴿ غرفاً ﴾ نصب بإسقاط حرف الجر التقدير في غرف ، وقرأ يعقوب " لنبوينهم " بالياء من تحت ، وروي عن ابن عامر " غُرُفاً " بضم الغين والراء ، ثم وصفهم تعالى بالصبر والتوكل وهاتان جماع الخير كله أي الصبر على الطاعات وعن الشهوات .

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

﴿ كأين ﴾ بمعنى كم ، وهذه الآية أيضاً تحريض على الهجرة لأن بعض المؤمنين فكر في الفقر والجوع الذي يلحقه في الهجرة وقالوا غربة في بلد لا دار لنا فيه ولا عقار ولا من يطعم فمثل لهم بأكثر الدواب التي تتقوت ولا تدخر ولا تروي في رزقها ، المعنى فهو يرزقكم أنتم ، ففضلوا طاعته على كل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ لا تحمل ﴾ يجوز أن يريد من الحمل أي لا

تستقل ولا تنظر في ادخار ، وقاله ابن مجلز ومجاهد وعلي بن الأقمر .

قال الفقيه الإمام القاضي : والادخار ليس من خلق الموقنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عمر : "كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس يخبئون رزق سنة بضعف اليقين" ، ويجوز أن يريد من الحمالة أي لا تتكفل لنفسها ولا تروي فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(24/599)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا عباديَ الذين آمنوا ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ يا عباديَ ﴾ بتحريك الياء .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : باسكانها .

قوله تعالى : ﴿ إِن أرضي واسعة ﴾ وقرأ ابن عامر وحده : ﴿ أرضيَ ﴾ بفتح الياء .

وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه خطاب لِمَن آمن [مِنْ] أهل مكة ، قيل لهم : ﴿ إِن أرضي ﴾ يعني المدينة ﴿ واسعة ﴾ ، فلا تجاوروا الظَّلَمة في أرض مكة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ؛ وكذلك

قال مقاتل : نزلت في ضُعفاء مُسْلِمي مكة ، [أي] : إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان ، فارض المدينة واسعة .

والثاني : أن المعنى : إذا عُمل بالمعاصي في أرض فاخرجوا منها ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عطاء .

والثالث : إنَّ رزقي لكم واسع ، قاله مطرف بن عبد الله .

قوله تعالى : ﴿ فايَّايَ فاعبُدونِ ﴾ أثبت فيها الياء يعقوب في الحالين ، وحذفها الباقون .

قال الزجّاج : أمرهم بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله إلى حيث تتهيّأ لهم العبادة ؛ ثم خوّفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة ، فقال : ﴿ كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت ﴾ المعنى : فلا تُقيموا في دار الشّرك خوفاً من الموت ﴿ ثُمَّ إلينا تُرْجَعون ﴾ بعد الموت فنجزيَكم بأعمالكم ، والأكثرون قرؤوا : ﴿ تُرْجَعون ﴾ بالتاء على الخطاب ؛ وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء .

قوله تعالى : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ [قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ بالباء] ، أي : لَنُنْزِلَنَّهم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، [وخلف] : ﴿ لَنُثْوِيَنَّهُمْ ﴾ بالثاء ، [وهو] من : ثويتُ بالمكان : إذا أقمت به قال الزجاج : [يقال] : ثوى الرجل : إذا أقام ، وأثويتُه : إذا أنزلتَه منزلاً يُقيم فيه .

(25/599)

قوله تعالى : ﴿ وكأَيِّن مِنْ دابَّة لا تحملُ رزقَها ﴾ قال ابن عباس : لَمَّا أمرهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالخروجِ إلى المدينة ، قالوا : يا رسول الله ، نخرُجِ إلى المدينة وليس لنا بها عقار ولا مال ؟ ! فمن يؤوينا ويطعمنا ؟ فنزلت هذه الآية .

قال ابن قتيبة : ومعنى الآية : كم مِنْ دابَّة لا ترفَعُ شيئاً لغدٍ ، قال ابن عُيَيْنَةَ : ليس شيءٌ يَخْبَأُ إلا الإنسانُ والفأرةُ والنملة .

قال المفسرون : وقوله : ﴿ اللّهُ يرزُقُها ﴾ أي : حيثما توجهتْ ﴿ وإيَّاكم ﴾ أي : ويرزُقكم إن هاجرتم إلى المدينة ﴿ وهو السَّميع ﴾ لقولكم : لا نجد ما نُنْفِق بالمدينة ﴿ العليمُ ﴾ بما في قلوبكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(26/599)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ياعبادي الذين آمنوا إنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾

هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة في قول مقاتل والكلبي فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب . بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده ؛ أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة ؛ لإظهار التوحيد بها .

وقال ابن جبير وعطاء : إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية ، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق .

وقاله مالك .

وقال مجاهد : ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا وجاهدوا .

وقال مُطرِّف بن الشِّخِّير : المعنى إن رحمتي واسعة .

وعنه أيضاً : إن رزقي لكم واسع فابتغوه في الأرض .

قال سفيان الثوري : إذا كنت بأرض غالية فانتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزاً بدرهم .

وقيل : المعنى : إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة .

﴿ فاعبدون ﴾ حتى أورثكموها .

﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ ﴿ إِيَّايَ ﴾ منصوب بفعل مضمر ، أي فاعبدوا إياي فاعبدون ، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني ، والفاء في قوله : ﴿ فَإِيَّايَ ﴾ بمعنى الشرط ؛ أي إن

ضاق بكم موضع فإياي فاعبدوني (في غيره) ؛ لأن أرضي واسعة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ تقدّم في "آل عمران" .

وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها .

كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبةٍ تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا ، فحقر الله شأن الدنيا .

أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا ، فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل .

(27/599)

ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى ؛ وذكر الجزاء الذي ينالونه ، ثم نعتهم بقوله : ﴿ الذين صَبَرُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وقرأ أبو عمر ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : ﴿ يَا عِبَادِي ﴾ بإسكان الياء .

وفتحها الباقون .

﴿ إِنَّ أَرْضِي ﴾ فتحها ابن عامر .

وسكنها الباقون .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبر استوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم " عليهما السلام .

﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون ﴾ .

وقرأ السلميّ وأبو بكر عن عاصم : ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ بالياء ؛ لقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وقرأ الباقون بالتاء ، لقوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وأنشد بعضهم :

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنْشُدُ الكَفَنَا . . .

ونحن في غفلةٍ عَمَّا يُرادُ بِنَا

لا تَركننَّ إلى الدّنيا وزَهْرتِها . . .

وإن تَوشَّحْتَ من أثوابها الحَسَنا

أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَلُوا . . .

أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنَا

سَقَاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ . . .

صيرهم تحت أطباقِ الثَّرَى رُهُنَا

قوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي ؛ ﴿ لَنُثْوِيَنَّهُمْ ﴾ بالثاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة ؛ أي لنعطينهم غرفاً يثوون فيها .

وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسلمي : "لَيُبَوِّئَنَّهُمْ" بالياء مكان النون .

الباقون ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أي "لننزلهم" ﴿ غُرَفاً ﴾ جمع غرفة وهي العُلِيَّة المشرِفة .

(28/599)

وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "إن أهل الجنة ليتراؤون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراؤنَ الكوكبَ الدريّ الغابرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم" قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : "بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين" " وخرج الترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها" فقام إليه أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : "هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام" " وقد زدنا هذا المعنى بياناً في كتاب "التذكرة" والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أسند الواحدي عن يزيد بن هارون ، قال : حدّثنا حجاج بن المِنْهال عن الزهري وهو عبد الرحمن بن عطاء عن عطاء " عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض

حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر (ويأكل) فقال : "يا بن عمر مالك لا تأكل" فقلت : لا أشتهيه يا رسول الله فقال : "لكني أشتهيه وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا بن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سَنَتهم ويضعف اليقين" قال : والله ما برحنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السميع العليم ﴾ " .

قلت : وهذا ضعيف يُضعِفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سَنَتهم ، اتفق البخاري عليه ومسلم .

وكان الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين .

(29/599)

وقد روى ابن عباس " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون : "اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة" " قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا .

فنزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي ليس معها رزقها

مدّخراً ، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة .

وهذا أشبه من القول الأوّل .

وتقدّم الكلام في ﴿ كَأَيِّنْ ﴾ وأن هذه ﴿ أَيّ ﴾ دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم .

والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد .

أي كشيء كثير من العدد من دابة .

قال مجاهد : يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً .

الحسن : تأكل لوقتها ولا تدّخر لغد .

وقيل : ﴿ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي لا تقدر على رزقها ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾ أينما توجهت ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

وقيل : الحمل بمعنى الحمالة .

وحكى النقاش : أن المراد النبيّ صلى الله عليه وسلم يأكل ولا يدّخر .

قلت : وليس بشيء ؛ لإطلاق لفظ الدابة ، وليس مستعملاً في العرف إطلاقها على الآدمي فكيف على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد مضى هذا في "النمل" عند قوله : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [النمل : 82] قال ابن عباس : الدوابّ هو كل ما دبّ من الحيوان ،

فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمل والفأر .

وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في مِحْضَنه .

ويقال للعقعق مخابىء إلا أنه ينساها .

﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ يسوّي بين الحريص والمتوكل في رزقه ، وبين الراغب والقانع ، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتر الجِلد أنه مرزوق بجلَده ، ولا يتصوّر العاجز أنه ممنوع بعجزه .

(30/599)

وفي "الصحيح" عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لو أنكم تَوَكَّلون على الله حق تَوكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا " ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿ العليم ﴾ بما في قلوبكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(31/599)

وقال أبو حيان :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

أكثر المفسرين ذهبوا إلى أن قوله : ﴿ يا عبادي ﴾ الآية ، نزلت فيمن كان مقيماً بمكة ؛ أمروا بالهجرة عنها إلى المدينة ، أي جانبوا أهل الشرك ، واطلبوا أهل الإيمان .

وقال أبو العالية : سافروا لطلب أوليائه .

وقال ابن جبير ، وعطاء ، ومجاهد ، ومالك بن أنس : الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية ، ويلزم الهجرة عنها إلى بلد حق .

وقال مطرف بن الشخير : ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ عدة بسعة الرزق في جميع الأرض .

وقيل : أرض الجنة واسعة أعطيكم .

وقال مجاهد : سافروا لجهاد أعدائه .

﴿ فإياي فاعبدون ﴾ ، من باب الاشتغال : أي فإياي اعبدوا فاعبدون .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى الفاء في فاعبدون ، وتقدم المفعول ؟ قلت : الفاء جواب شرط محذوف ، لأن المعنى : إن أرضي واسعة ، فإن لم تخلصوا العبادة في أرض ، فاخلصوها في غيرها .

ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول ، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص . انتهى .

ويحتاج هذا الجواب إلى تأمل .

ولما أخبر تعالى بسعة أرضه ، وكان ذلك إشارة إلى الهجرة ، وأمر بعبادته ، فكأن قد يتوهم متوهم أنه إذا خرج من أرضه التي نشأ فيها لأجل من حلها من أهل الكفر إلى دار الإسلام ، لا يستقيم له فيها ما كان يستقيم له في أرضه ، وربما أدى ذلك إلى هلاكه .

أخبر أن كل نفس لها أجل تبلغه ، وتموت في أي مكان حل ، وأن رجوع الجمع إلى أجزائه يوم القيامة .

وقرأ علي : ﴿ ترجعون ﴾ ، مبنياً للفاعل ؛ والجمهور : مبنياً للمفعول ، بتاء الخطاب .

وروي عن عاصم : بياء الغيبة .

وقرأ أبو حيوة : ﴿ ذائقة ﴾ ، بالتنوين ؛ ﴿ الموت ﴾ : بالنصب .

وقرأ : ﴿ لنبوئنهم ﴾ ، من المباءة .

وقرأ علي ، وعبد الله ، والربيع بن خيثم ، وابن وثاب ، وطلحة ، وزيد بن علي ، وحمزة ، والكسائي : من الثواء ؛ وبوّأ يتعدى لاثنين .

(32/599)

قال تعالى : ﴿ تبوؤا المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ ، وقد جاء متعدياً باللام .

قال تعالى : ﴿ وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ والمعنى : ليجعلنّ لهم مكان مباءة ، أي مرجعاً يأوون إليه .

﴿ غرفاً ﴾ : أي علالي ، وأما ثوى فمعناه : أقام ، وهو فعل لازم ، فدخلت عليه همزة التعدية فصار يتعدى إلى واحد ، وقد قرىء مشدداً عدى بالتضعيف ، فانتصب غرفاً ، إما على إسقاط حرف الجر ، أي في غرف ، ثم اتسع فحذف ، وإما على تضمين الفعل معنى التبوئة ، فتعدى إلى اثنين ، أو شبه الظرف المكاني المختص بالمبهم يوصل إليه الفعل .

وروي عن ابن عامر : غرفاً ، بضم الراء .

وقرأ ابن وثاب : فنعم ، بالفاء ؛ والجمهور : بغير فاء .

﴿ الذين صبروا ﴾ : أي على مفارقة أوطانهم والهجرة وجميع المشاق ، من امتثال الأوامر واجتناب المناهي .

﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ : هذان جماع الخير كله ، الصبر وتفويض الأمور إلى الله تعالى .

ولما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، من أسلم بمكة بالهجرة ، خافوا الفقر فقالوا : غربة في بلاد لا دار لنا ، ولا فيه عقار ، ولا من يطعم .

فمثل لهم بأكثر الدواب التي تتقوت ولا تدّخر ، ولا تروّى في رزقها ، ولا تحمل رزقها ، من الحمل : أي لا تنقل ، ولا تنظر في إدخار ، قاله مجاهد ، وأبو مجلز ، وعلي بن الأقمر .

والإدخار جاء في حديث : "كيف بك إذا بقيت في حثالة من حثالة الناس يخبئون رزق سنة لضعف اليقين ؟ " قيل : ويجوز أن يكون من الحمالة التي لا تتكفل لنفسها ولا تروى .

وقال الحسن : ﴿ لا تحمل رزقها ﴾ : لا تدخر ، إنما تصبح فيرزقها الله .

وقال ابن عباس : لا يدخر إلا الآدمي والنمل والفأرة والعقعق ، وقيل : البلبل يحتكر في حضنيه ، ويقال : للعقعق مخابىء ، إلا أنه ينساها .

وانتفاء حملها لرزقها ، إما لضعفها وعجزها عن ذلك ، وإما لكونها خلقت لا عقل لها ، فيفكر فيما يخبؤه للمستقبل : أي يرزقها على ضعفها .

(33/599)

﴿ وإياكم ﴾ : أي على قدرتكم على الاكتساب ، وعلى التحيل في تحصيل المعيشة ، ومع ذلك فرازقكم هو الله ، ﴿ وهو السميع ﴾ لقولكم : نخشى الفقر ، ﴿ العليم ﴾ بما انطوت عليه ضمائركم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(34/599)

وقال أبو السعود :

﴿ يَا عِبَادِى الذين آمَنُواْ ﴾

خطابُ تشريفٍ لبعضِ المؤمنينَ الذين لا يتمكَّنُون من إقامةِ أمورِ الدِّين كما ينبغِي لمانعةٍ من جهةِ الكَفَرةِ وإرشادٌ لهم إلى الطَّريقِ الأسلمِ ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فاعبدون ﴾ أي إذا لم يتسهَّل لكُم العبادةُ في بلدٍ ولم يتيسَّر لكُم إظهارُ دينِكم فهاجِرُوا إلى حيثُ يتسنَّى لكم ذلكَ ، وعنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " من فرَّ بدينِه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو كان شبراً استوجبَ الجنَّة وكان رفيقَ إبراهيمَ ومحمَّدٍ عليهما السَّلامُ " . والفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ إذِ المعنى إنَّ أرضي واسعةٌ إنْ لم تُخلصوا العبادةَ لي في أرضٍ فأخلِصُوها في غيرِها ثم حُذفَ الشَّرطُ وعُوِّض عنه تقديمُ المفعولِ مع إفادةِ تقديمِه معنى الاختصاصِ والإخلاصِ .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ جِيءَ بها حثاً على المُسارعة في الامتثالِ بالأمرِ أي كلُّ نفسٍ من النُّفوسِ واجدةٌ مرارةَ الموتِ وكربَه فراجعةٌ إلى حُكمِنا وجزائِنا بحسبِ أعمالِها ، فمَنْ كانت هذه عاقبتَهُ فليس له بدٌّ من التَّزودِ والاستعدادِ لها . وقُرِىء يَرجعون ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ لننزلنَّهم ﴿ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ أي عَلالِيَ وهو مفعولٌ ثانٍ للتَّبوئةِ . وقُرِىء لنُثوينَّهم من الثُّواء بمعنى الإقامةِ فانتصابُ غُرفاً حينئذٍ إمَّا بإجرائه مُجرى لنُنزلنَّهم أو بنزعِ الخافضِ أو بتشبيهِ الظَّرفِ

الموَّقتِ بالمُبهم كما في قولِه تعالى : ﴿ لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ صفةٌ لغرفاً ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ أي في الغُرَفِ أو في الجنَّة ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ أي الأعمالُ الصَّالحةُ والمخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ ثقةً بدلالةِ ما قبله عليهِ . وقُرِىء فنعَم .

(35/599)

﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ إمَّا صفةٌ للعاملينَ أو نُصبَ على المدحِ أي صبرُوا على أذيَّةِ المشركينَ وشدائدِ المهاجرةِ وغيرِ ذلكَ من المحنِ والمشاقِّ ﴿ وعلى ربِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي ولم يتوكَّلوا فيما يأتُون ويذرونَ إلا عَلى الله تعالى .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ رُوي أنَّ النبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا أمرَ المُؤمنينَ الذين كانُوا بمكَّةَ بالمهاجرةِ إلى المدينةِ قالُوا : كيفَ نقدُم بلدةً ليس لنا فيها معيشةٌ فنزلتْ أي وكم من دابةٍ لا تطيقُ حملَ رزقِها لضعفِها أو لا ندخرُه وإنَّما تُصبح ولا معيشةَ عندها ﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ ثمَّ إنَّها مع ضعفِها وتوكُّلِها وإيَّاكم مع قوَّتكم واجتهادِكم سواء في أنَّه لا يرزقُها وإيَّاكم إلا الله تعالى لأنَّ رزقَ الكلِّ بأسبابٍ هو المسبِّبُ لها وحدَهُ فلا تخافُوا الفقرَ

بالمُهاجرة ﴿ وَهُوَالسميع ﴾ المبالغُ في السَّمعِ فيسمعُ قولَكم هذا ﴿ العليم ﴾ المبالغُ في العلمِ فيعلمُ ضمائرَكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(36/599)

وقال الآلوسى :

﴿ يا عبادى الذين ءامَنُواْ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فاعبدون ﴾

نزلت على ما روي عن مقاتل .

والكلبي في المستضعفين من المؤمنين بمكة أمروا بالهجرة عنها وعلى هذا أكثر المفسرين ، وعمم بعضهم الحكم في كل من لا يتمكن من إقامة أمور الدين كما ينبغي في أرض لممانعة من جهة الكفرة أو غيرهم فقال : تلزمه الهجرة إلى أرض يتمكن فيها من ذلك ، وروي هذا عن

ابن جبير .

وعطاء .

ومجاهد .

(37/599)

ومالك بن أنس ، وقال مطرف بن الشخير : إن الآية عدة منه تعالى بسعة الرزق في جميع الأرض ، وعلى القولين فالمراد بالأرض الأرض المعروفة ، وعن الجبائي أن الآية عدة منه عز وجل بإدخال الجنة لمن أخلص له سبحانه العبادة وفسر الأرض بأرض الجنة ، والمعول عليه ما تقدم ، والفاء في ﴿ فإياي ﴾ فاء التسبب عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ ﴾ كما تقول : إن زيداً أخوك فأكرمه وكذلك لو قلت : إنه أخوك فإن أمكنك فأكرمه ، و ﴿ إياي ﴾ معمول لفعل محذوف يفسره المذكور ، ولا يجوز أن يكون معمولاً له لاشتغاله بضميره وذلك المحذوف جزاء لشرط حذف وعوض عنه هذا المعمول ، والفاء في ﴿ أَنَّا فاعبدون ﴾ هي الفاء الواقعة في الجزاء إلا أنه لما وجب حذفه جعل المفسر المؤكد له قائماً مقامه لفظاً وأدخل الفاء عليه إذ لا بد منها للدلالة على الجزاء ، ولا تدخل على معمول المحذوف أعني إياي وإن فرض خلوه عن فاء لتمحضه عوضاً عن فعل الشرط فتعين الدخول على المفسر ؛ وأيضاً ليطابق المذكور المحذوف من كل وجه ، ولزم أن يقدر الفعل المحذوف العامل في ﴿ إياي ﴾ مؤخراً لئلا يفوت التعويض عن فعل الشرط مع إفادة ذلك معنى الاختصاص والإخلاص ، فالمعنى إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا لي العبادة في أرض فأخلصوها لي في غيرها ، وجعل الشرط إن لم تخلصوا لدلالة الجواب المذكور عليه ، ولا منع من أن تكون الفاء الأولى واقعة في جواب شرط آخر ترشيحاً للسببية على معنى

أن أرضي واسعة وإذا كان كذلك فإن لم تخلصوا لي الخ ، وقيل : الفاء الأولى جواب شرط مقدر وأما الثانية فتكرير ليوافق المفسر المفسر ، فيقال حينئذٍ : المعنى إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا لي العبادة في أرض فأخلصوها لي في غيرها ، وتكون جملة الشرط المقدرة أعني إن لم تخلصوا الخ مستأنفة عرية عن الفاء ، وما تقدم أبعد مغزى .

(38/599)

وجعل بعض المحققين الفاء الثانية لعطف ما بعدها على المقدر العامل في ﴿ إياي ﴾ قصداً لنحو الاستيعاب كما في خذ الأحسن فالأحسن .

وتعقب بأنه حينئذٍ لا يصلح المذكور مفسراً لعدم جوام تخلل العاطف بين مفسر ومفسر البتة ، وأما ما ذكره الإمام السكاكي في قوله تعالى : ﴿ وَاحِدٌ فإياي فارهبون ﴾ من أن الفاء عاطفة والتقدير فإياي ارهبوا فارهبون فإنه أراد به أنها في الأصل كذلك لا في الحال على ما حققه صاحب الكشف ، هذا وقد أطالوا الكلام في هذا المقام وقد ذكرنا نبذة منه في أوائل تفسير سورة البقرة فراجعه مع ما هنا وتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثاً على إخلاص العبادة والهجرة لله تعالى حيث أفادت أن الدنيا ليست دار بقاء وأن وراءها دار

الجزاء أي كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت ومفارقة البدن البتة فلا بد أن تذوقوه ثم ترجعون إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالكم فمن كانت هذه عاقبته فلا بد له من التزود والاستعداد ، وفي قوله تعالى : ﴿ ذَائِقَةُ الموت ﴾ استعارة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم مرة ، والعدول عن تذوق الموت للدلالة على التحقق ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الزماني أو الرتبي .

وقرأ أبو حيوة ﴿ ذَائِقَةٌ ﴾ بالتنوين ﴿ الموت ﴾ بالنصب ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ مبنياً للفاعل ، وروى عاصم ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بياء الغيبة .

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي لننزلنهم على وجه الإقامة ، وجملة القسم وجوابه خبر المبتدأ أعني ﴿ يَتَذَكَّرُونَ الذين ﴾ ورد به وبأمثاله على ثعلب المانع من وقوع جملة القسم والمقسم عليه خبراً للمبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ مّنَ الجنة غُرَفَاً ﴾ أي علالي وقصوراً جليلة لا قصور فيها ، وهي على ما روي عن ابن عباس من الدر والزبرجد والياقوت ، مفعول ثان للتبوئة .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

(39/599)

وعبد الله .

والربيع بن خيثم .

وابن وثاب .

وطلحة .

وزيد بن علي .

وحمزة .

والكسائي ﴿ لنثوينهم ﴾ بالثاء المثلثة الساكنة بعد النون وإبدال الهمزة ياء من الثواء بمعنى الإقامة فانتصاب ﴿ الجنة غُرَفاً ﴾ حينئذٍ إما بإجرائه مجرى لننزلنهم فهو مفعول به له أو بنزع الخافض على أن أصله بغرف فلما حذف الجار انتصب أو على أنه ظرف والظرف المكاني إذا كان محدوداً كالدار والغرفة لا يجوز نصبه على الظرفية إلا أنه أجرى هنا مجرى المبهم توسعاً كما في قوله تعالى : ﴿ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] على ما فصل في النحو .

وروي عن ابن عامر أنه قرأ ﴿ غُرَفاً ﴾ بضم الراء ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ صفة لغرفاً ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ أي في الغرف ، وقيل : في الجنة ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ أي الأعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أي نعم أجري العاملين الغرف أو أجرهم ، ويجوز كون التمييز محذوفاً أي نعم أجراً أجر العاملين .

وقرأ ابن وثاب ﴿ فَنِعْمَ ﴾ بفاء الترتيب .

﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ صفة للعاملين أو خبر مبتدأ محذوف أو نصب على المدح أي صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون إلا على الله تعالى .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ ﴾

لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة قالوا : كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة ؟ فنزلت ، أي وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها .

(40/599)

عن ابن عيينة ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة ، وعن ابن عباس لا يدخر إلا الآدمي والنمل والفأرة والعقعق ويقال : للعقعق مخابي إلا أنه ينساها ، وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في حضنيه والظاهر عدم صحته ، وذكر لي بعضهم أن أغلب الكوامن من الطير يدخر والله تعالى أعلم بصحته .

﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وإياكم ﴾ ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في

أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى لأن رزق الكل بأسباب هو عز وجل المسبب لها وحده فلا تخافوا على معاشكم بالمهاجرة ولما كان المراد إزالة ما في أوهامهم من الهجرة على أبلغ وجه قيل : ﴿ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ دون يرزقكم وإياها ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ البالغ في السمع فيسمع قولكم هذا ﴿ العليم ﴾ البالغ في العلم فيعلم ما انطوت عليه ضمائركم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(41/599)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ » .

مناسبة هذه الآية والآيات التي بعدها للآيات السابقة ، أن الآيات السابقة كانت حديثا إلى المشركين من قريش ، وما يتحدون به رسول اللّه من إنزال آية مادية عليهم ، ومن استعجال العذاب الذي يتهددهم به . فجاءت

(42/599)

الآيات بعد هذا حديثا إلى المسلمين الذين كانوا قلة مستضعفة في مكة ، يلقاهم المشركون بالضر والأذى ، ويأخذون عليهم كل سبيل إلى الاجتماع بالرسول ، أو الصلاة في المسجد الحرام ، أو الجهر بتلاوة القرآن . . . إلى غير ذلك مما كانت تضيق به صدور المسلمين ، وتختنق به مشاعر الإيمان في كيانهم ، وتختفى به مظاهره على ألسنتهم وجوارحهم.

جاءت هذه الآيات لتفتح للمسلمين طريقا رحبا إلى النجاة من هذا الضيق ، والخلاص من هذا البلاء . .

إن أرض اللّه واسعة ، وإذا ضاقت أرض بإنسان فإن من الخير له أن يتحول عنها إلى غيرها ، حيث يجد في الأرض مراغما كثيرة وسعة . .

.وفي قوله تعالى : « يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا »

وفي إضافة الذين آمنوا إلى اللّه سبحانه وتعالى ، وندائهم إليه من ذاته جل وعلا. فى هذا احتفاء بهم ، واستضافة لهم في رحاب رحمة اللّه وفضله وإحسانه . . وذلك لأنهم مدعوون إلى الهجرة من ديارهم ، والانفصال عن أهلهم وإخوانهم ، وذلك أمر شاق على النفس ، ثقيل الوطأة على المشاعر ، التي ارتبطت بالموطن ارتباط العضو بالجسد . .

فكان من لطف اللّه سبحانه بعباده هؤلاء المؤمنين ، الذين دعاهم إلى الهجرة من ديارهم. أن استضافهم في رحابه ، وأنزلهم منازل رحمته وإحسانه ، بهذا الدعاء الرحيم ، الذي دعاهم به سبحانه ، إليه . . . « يا عبادى » . . فمن استجاب منهم لهذا النداء ، وأقبل

على اللّه مهاجرا إليه بدينه ، تلقّاه اللّه سبحانه بالفضل والإحسان ، وأنزله منزلا خيرا من منزله ، وبدّله أهلا خيرا من أهله ! .

وقد استجاب المسلمون لهذا النداء ، فخرجوا مهاجرين إلى اللّه ، أفرادا وجماعات ، وكانت الحبشة أول متجه اتجه إليه المسلمون المهاجرون ، فأنزلهم

(43/599)

اللّه أكرم منزل ، هناك . . ثم كانت الهجرة إلى المدينة ، التي أصبحت مهاجر المسلمين من كل مكان ، بعد أن هاجر الرسول الكريم إليها . .

وهناك وجد المهاجرون إخوانا ، شاطروهم دورهم وأموالهم ، وآثروهم على أنفسهم بالطيب من كل شيء .

وأكثر من هذا ، فإن مجتمع المهاجرين هؤلاء الذين ضمتهم مدينة الرسول ، كانوا الوجه الذي تجلى فيه دين اللّه ، وعزت به شريعته . . ومن هؤلاء المهاجرين ، كان صحابة رسول اللّه ، وخلفاء رسول اللّه . .

وأكثر من هذا أيضا ، فإن القرآن الكريم ، قد أجرى ذكرا خالدا لهؤلاء المهاجرين ، وأشار إلى منزلتهم العليا عند اللّه ، وما أعد لهم من أجر عظيم ، وثواب كريم ، لم يشاركهم في هذا

أحد من المسلمين ، إلا الأنصار ، الذين نزل المهاجرون ديارهم ، ووجدوا ما وجدوا من برهم وإحسانهم . . .

وهكذا ، استظل المهاجرون بظل هذا النداء الكريم . . . « يا عبادى » فكانوا منه في نعمة سابغة ، وفضل عظيم ، فى الدنيا والآخرة جميعا .

وفي قوله تعالى : « إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ »

. . توجيه لأنظار المسلمين إلى سعة ملك اللّه سبحانه وتعالى ، وإلى أن يمدوا أبصارهم إلى أبعد من هذا الأفق الضيق المحدود ، الذي يعيشون فيه ، والذي يحسب كثير منهم أن الأرض كلها محصورة في هذه الرقعة التي يتحركون عليها ، ويضطربون فيها . . وكلا فإن أرض اللّه واسعة ، أكثر مما يتصورون . . . فليخرجوا من محبسهم هذا ، ولينطلقوا في فجاج الأرض ، الطويلة العريضة ، وسيجدون في منطلقهم هذا ، سعة من ضيق ، وعافية من بلاء . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً » (100 : النساء) .

(44/599)

ـ وقوله تعالى : « فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ »

. . . أي فاجعلوا عبادتكم لى وحدي ، لا تشركون بعبادتي أحدا . . .

والفاء في قوله تعالى : « فَإِيَّايَ »

تفيد السببية . . حيث كشف قوله تعالى : « إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ »

عن إضافة هذه الأرض إلى اللّه سبحانه ، كما كشف عن سعة هذه الأرض ، وأن أي مكان ينزل منها الإنسان فيه ، هو في ملك اللّه . . . وإذ كان ذلك كذلك ، وجب أن يفرد وحده سبحانه بالعبادة ، كما أفرد جل شأنه بالملك . . .

هذا ، والآية الكريمة دعوة سماوية إلى تحرير الإنسان ، جسدا ، وعقلا ، وقلبا ، وروحا ، من كل قيد مادى ، أو معنوى ، يعطل حركته ، أو يعوق انطلاقه ، أو يكبت مشاعره ، أو يصدم مشيئته ، أو يقهر إرادته . . .

ففى أي موقع من مواقع الحياة ، وعلى أي حال من أحوالها ، لا يجد فيه الإنسان وجوده كاملا محررا من أي قيد ، ثم لا يعمل جاهدا على امتلاك جريته كاملة ـ يكون ظالما لنفسه ، معتديا على وجوده . . .

وإذا كانت دعوة الإسلام قد جاءت لتحرير الإنسانية من ضلالها ، وفرضت على المؤمنين أن يجاهدوا الضلال والضالين ، وأن يبذلوا في سبيل ذلك دماءهم وأموالهم ، فإن الجهاد الحق في أكرم منازله ، وأعلى درجاته ، هو الجهاد في تحرير المؤمن نفسه أولا ، وفي تخليصها

من كل قيد يمسك بها على مربط الذل والهوان ، ويحملها على أن تطعم من مطاعم الذلة والمهانة ، وفي هذا يقول الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ! ! قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً » (97 : النساء) . .

(45/599)

فلقد توعدهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم في الآخرة ، لأنهم باستخزائهم وضعفهم ، قد باعوا دينهم ، واسترخصوا مروءتهم ، فكانوا سلعة في يد الأقوياء ، لا يملكون معهم كلمة حق يقولونها ، ولا يجدون من أنفسهم القدرة على دعوة خير يدعون بها . . . وإنه هيهات أن يسلم لإنسان دين أو خلق ، إلا إذا تحرر من كل ضعف واستعلى على كل خوف . .

ومن هنا كانت دعوة الإسلام متجهة كلها إلى تحرير الإنسان ، عقلا وقلبا وروحا ، كما كانت دعوته إلى تحرير الإنسان وجودا وجسدا . .

وقد يكون الإنسان حرا طليقا في المجتمع الذي يعيش فيه ، لا يرد عليه من الجماعة وارد من ضيم أو ظلم ، ومع هذا فهو أسير شهواته ، وعبد نزواته ، وتبيع هواه . . . لا يملك من أمر

وجوده شيئًا . . . ومن هنا كان أول ما يجاهد الإنسان هو جهاد النفس ، والأهواء المتسلطة عليه منها ، وهذا ما قصد إليه الرسول الكريم من قوله ، وقد عاد من إحدى غزواته : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا يا رسول اللّه : وما الجهاد الأكبر ؟ قال :

جهاد النفس » .

قوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ » .

هو تهوين من شأن الدنيا في عين المؤمنين الذين يتهيّئون للهجرة . . فقد يحضر كثيرا منهم. وهو يأخذ عدته للهجرة. وارد من واردات الإشفاق على الأهل والولد ، وما يلقى من لهفة وحنين لفراقهم ، وما يجدون هم من أسى وحسرة لبعده عنهم . . إلى غير ذلك مما يقع للمرء من تصورات وخواطر فى مثل هذا الموقف. فجاء قوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ » مهوّنا من شأن هذه الحياة الدنيا ، فإن نهاية كل حىّ فيها هو الموت . . وإذ كان ذلك

هو شأنها ، فإنّ التعلق بها وبأهلها ، وبأشيائها ، هو متاع إلى حين ، ثم ينصرم الحبل بين الإنسان وبين كل ما يمسك به من هذه الدنيا ، طال الزمن أو قصر . فإذا كان ما يمسك الإنسان من هذه الدنيا شيء يحول بينه وبين الطريق إلى اللّه ، وإلى ما عند اللّه من ثواب عظيم وأجر كريم . فإن هذا الشيء مهما غلا ، هو عرض زائل ، وظل حائل ، لا حساب له إلى جانب الباقيات الصالحات ، وما وعد اللّه سبحانه عليها ، من رضوان وجنّات فيها نعيم مقيم .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » .

فهذه هى الحياة الباقية ، التي ينبغى للإنسان أن يعمل لها ، ويحرص الحرص كلّه على ألّا يعوّقه شيء . أيا كان . عن السعى في تحصيل كل ما هو مطلوب لها . . . فالذين آمنوا باللّه ، وعملوا الصالحات ، موعودون من اللّه سبحانه وتعالى أن ينزلهم من الجنة أكرم منازلها ، وأن يحلّهم منها في غرفات يجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، لا يتحولون عنها . . . وذلك هو جزاء العاملين ، وإنه لنعم الجزاء .

وإن أبرز صفات العالمين ، الذين يداومون على العمل ويحسنونه ، هو الصبر ، والتوكل على اللّه ، فبالصبر يقهر الإنسان كل دواعى الضعف والتخاذل ، وبالتوكل على اللّه والتسليم له ، وتفويض الأمور إليه ، يحلو المرّ ، ويستساغ الضرّ . . . وبهذا يظل العامل آخذا مكانه في

موقع العمل ، فيما يرضى اللّه ، لا يتحول عنه أبدا .

وفي قوله تعالى : « لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً » وعد مؤكد ، بالقسم ،

(47/599)

ونون التوكيد . . . وليس وعده سبحانه في حاجة إلى توكيد ، فهو محقق لا شك فيه . . . ولكن لتطمئن قلوب المؤمنين ، ولتثبت أقدامهم على الطريق الشاق الذين يأخذونه إلى الهجرة ، وما يعترضهم عليه من دواعى الإشفاق من فراق الأهل والولد .

قوله تعالى : « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

هو تطمين لقلوب المسلمين المدعوين إلى الهجرة ، والذين استجابوا لها ، وأعدّوا العدة لإمضائها ، أو للذين هم قد هاجروا فعلا ، وانقطعت موارد رزقهم التي كانت في أيديهم ، بين أهلهم وفي ديارهم . . . وإنه لن يأسى المسلمون على ما تركوا وراءهم من مال ومتاع ، ولن يهتمّوا كثيرا لأمر المعاش ، ولن يشغلوا به . . . فاللّه سبحانه الذي يرزق الدواب في القفار ، والطيور في السماء ، هو الذي يتكفل بأرزاق الناس ، وأن سعيهم في وجوه الأرض ، وما يبذلون من حول وحيلة ، إنما هو أسباب موصلة إلى ما قدّر اللّه لهم من رزق . . . ولن ينال أحد مهما جدّ وسعى غير ما هو مقدور له .

وقوله تعالى : « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » إشارة إلى أن كثيرا من الدواب لا تستطيع أن تحمل رزقها ، أي تحصّله بنفسها ، وتصل إليه بسعيها . . وأقرب مثل لهذا مواليد الحيوان ، حيث سخّر اللّه لها الأمهات والآباء لتعمل على إطعامها ، بل وتزقّه في فمها ، وتلقيه في جوفها . . وإذا بدا لنا أن بعض الدواب كالأسود والذئاب ونحوها قادرة على انتزاع غذائها من الحياة ، فإن ذلك لا يعدو في حقيقته أن يكون رضاعة من ثدي الطبيعة التي خلقها اللّه على هذا النظام البديع المعجز ، الذي يجد فيه كل كائن رزقه

(48/599)

الذي يحفظ عليه وجوده . . وكذلك الناس بين أقوياء وضعفاء ، وبين ذوى حيلة ومن لا حيلة لهم . . . كلهم جميعا يرزقون من فضل اللّه ، ويحصلون على ما قدّر لكل منهم من رزق . . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » . . أي فكما ترزق هذه الدوابّ التي لا حيلة لها في تحصيل قوتها ، كذلك ترزقون أنتم أيها المهاجرون ، وقد بدا لكم أنه قد انقطعت عنكم أسباب معيشتكم . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (6 : هود) .

وقوله تعالى : « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أي سميع لما تدعون به من حاجاتكم ، عليم ، بما تحتاجون إليه ، وإن لم تسألوا شيئا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 11 صـ 462.455 ﴾

(49/599)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

استئناف ابتدائي وقع اعتراضاً بين الجملتين المتعاطفتين : جملة : ﴿ والذين ءامنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ [العنكبوت : 52] ، وجملة : ﴿ والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهم من الجنة غُرفاً ﴾ [العنكبوت : 58] الآية .

وهذا أمر بالهجرة من دار الكفر .

ومناسبته لما قبله أن الله لما ذكر عناد المشركين في تصديق القرآن وذكر إيمان أهل الكتاب به آذن المؤمنين من أهل مكة أن يخرجوا من دار المكذبين إلى دار الذين يصدقون بالقرآن وهم أهل المدينة فإنهم يومئذ ما بين مسلمين وبين يهود فيكون المؤمنون في جوارهم آمنين من الفتن يعبدون ربهم غير مفتونين .

وقد كان فريق من أهل مكة مستضعفين قد آمنوا بقلوبهم ولم يستطيعوا إظهار إيمانهم خوفاً من المشركين مثل الحارث بن ربيعة بن الأسود كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول ءامنا بالله ﴾ في أول هذه السورة [العنكبوت : 10] ، وكان لهم العذر حين كانوا لا يجدون ملجأ سالماً من أهل الشرك ، وكان فريق من المسلمين استطاعوا الهجرة إلى الحبشة من قبل ، فلما أسلم أهل المدينة زال عذر المؤمنين المستضعفين إذ أصبح في استطاعتهم أن يهاجروا إلى المدينة فلذلك قال الله تعالى : ﴿ إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ .

فقوله : ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ كلام مستعمل مجازاً مركباً في التذكير بأن في الأرض بلاداً يستطيع المسلم أن يقطنها آمناً ، فهو كقول إياس بن قبيصة الطائي :

ألم ترَ أن الأرض رحب فسيحة

فهل تعجزني بقعة من بقاعها . . .

ألا تراه كيف فرعَ على كونها رحباً قولَه : فهل تعجزني بقعة .

(50/599)

وكذلك في الآية فرع على كونها واسعة الأمر بعبادة الله وحده للخروج مما كان يفتن به المستضعفون من المؤمنين إذ يُكرهون على عبادة الأصنام كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ من

كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبُه مطمئن بالإيمان ﴾ [النحل : 106] .

فالمعنى : أن أرضي التي تأمنون فيها من أهل الشرك واسعة ، وهي المدينة والقرى المجاورة لها مثل خيبر والنضير وقريظة وقينقاع ، وما صارت كلها مأمناً إلا بعد أن أسلم أهل المدينة لأن تلك القرى أحلاف لأهل المدينة من الأوس والخزرج .

وأشعر قوله : ﴿ فإياي فاعبدون ﴾ أن علة الأمر لهم بالهجرة هي تمكينهم من إظهار التوحيد وإقامة الدين .

وهذا هو المعيار في وجوب الهجرة من البلد الذي يفتن فيه المسلم في دينه وتجري عليه فيه أحكام غير إسلامية .

والنداء بعنوان التعريف بالإضافة لتشريف المضاف .

ومصطلح القرآن أن (عباد) إذا أضيف إلى ضمير الجلالة فالمراد بهم المؤمنون غالباً إلا إذا قامت قرينة كقوله : ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ [الفرقان : 17] ، وعليه فالوصف بـ ﴿ الذين ءامنوا ﴾ لما في الموصول من الدلالة على أنهم آمنوا بالله حقاً ولكنهم فتنوا إلى حد الإكراه على إظهار الكفر .

والفاء في قوله : ﴿ فإياي ﴾ فاء التفريع والفاء في قوله : ﴿ فاعبدون ﴾ إما مؤكدة للفاء الأولى للدلالة على تحقيق التفريع في الفعل وفي معموله ، أي فلا تعبدوا غيري فاعبدون ؛ وإما مؤذنة بمحذوف هو ناصب ضمير المتكلم تأكيداً للعبادة .

والتقدير : وإياي اعبدوا فاعبدون ، وهو أنسب بدلالة التقديم على الاختصاص لأنه لما أفاد الأمر بتخصيصه بالعبادة كان ذكر الفاء علامة تقدير على تقدير فعل محذوف قصد من تقديره التأكيد ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإياي فارهبون ﴾ في أوائل سورة [البقرة : 40] .

وحذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية تخفيفاً ، وللرعاية على الفاصلة .

ونظائره كثيرة .

(51/599)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57)

اعتراض ثان بين الجملتين المتعاطفتين قصد منها تأكيد الوعيد الذي تضمنته جملة : ﴿ والذين ءامنوا بالباطل ﴾ [العنكبوت : 52] إلى آخرها ، والوعد الذي تضمنته جملة : ﴿ والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لنُبَوِّئَنَّهُم من الجنة غُرفاً ﴾ [العنكبوت : 58] أي الموت مُدرك جميع الأنفس ثم يرجعون إلى الله .

وقصد منها أيضاً تهوين ما يلاقيه المؤمنون من الأذى في الله ولو بلغ إلى الموت بالنسبة لما يترقبهم من فضل الله وثوابه الخالد ، وفيه إيذان بأنهم يترقبهم جهاد في سبيل الله .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا

عطف على جملة : ﴿ والذين ءامنوا بالباطل ﴾ [العنكبوت : 52] .

وجيء بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر ، أي نُبَوِّئَنهم غرفاً لأجل إيمانهم وعملهم الصالح .

والتبوئة : الإنزال والإسكان ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ في سورة يونس [93] .

وقرأ الجمهور : [لَنُبَوِّئَنَّهُم] بموحدة بعد نون العظمة وهمزة بعد الواو .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف : ﴿ لَنُثَوِّيَنَّهم ﴾ بمثلثة بعد النون وتحتية بعد الواو من اثواه بهمزة التعدية إذا جعله ثاوياً ، اي مقيماً في مكان .

والغُرَف : جمع غُرفة ، وهو البيت المعتلَى على غيره .

وتقدم عنه قوله تعالى : ﴿ أولئك يُجْزون الغرفة ﴾ في آخر سورة الفرقان [75] .

وجملة : ﴿ نَعْمَ أجر العَامِلين ﴾ الخ .

.

إنشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذي أعطُوه ، فلذلك قطعت عن العطف .

وقوله : ﴿ الذِينَ صَبَرُوا ﴾ خبر مبتدأ محذوف اتباعاً للاستعمال والتقدير : هم الذين صبروا .

والمراد : صبرهم على إقامة الدين وتحمل أذى المشركين ، وقد علموا أ ، هم لاقوه فتوكلوا على ربّهم ولم يعبأوا بقطيعة قومهم ولا بحرمانهم من أموالهم ثم فارقوا أوطانهم فراراً بدينهم منالفتن .

ومن اللطائف مقابلة غشيان العذاب للكفار من فوقهم ومن تحت أرجلهم بغشيان النعيم للمؤمن من فوقهم بالغرف ومن تحتهم بالأنهار .

وتقديم المجرور على متعلّقة من قوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ للاهتمام .

وتقدم

معنى التوكل عند قوله : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ في سورة آل عمران [159] .

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

عطف على جملة ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ [العنكبوت : 57] فإن الله لما هوّن بها أمر الموت في مرضاة الله وكانوا ممن لا يعبأ بالموت علم أ ، هم يقولون في أنفسهم : إنّا لا نخاف الموت ولكنا نخاف الفقر والضيعة .

واستخفاف العرب بالموت سجية فيهم كما أن خشية المعرّة من سجاياهم كما بيناه عند قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [الإسراء : 31] فأعقب ذلك بأن ذكَّرهم بأن رزقهم على الله وأنه لا يضيعهم .

وضرب لهم

المثل برزق الدواب ، وللمناسبة في قوله تعالى : ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ [العنكبوت : 56] من توقع الذين يهاجرون من مكة أن لا يجدوا رزقاً في البلاد التي يهاجرون إليها ، وهو أيضاً مناسب لوقوعه عقب ذكر التوكل في قوله : ﴿ وعلى ربِّهم يَتوكلون ﴾ [العنكبوت : 59] ، وفي الحديث : " لو توكلتم على الله حق توكُّله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بِطَاناً " ولعل ما في هذه الآية وما في الحديث مقصود به المؤمنون الأولون ، ضمِن الله لهم رزقهم لتوكلهم عليه في تركهم أموالهم بمكة للهجرة إلى الله ورسوله .

وتوكلهم هو حق التوكل ، أي أكمله وأحزمه فلا يضع نفسه في هذه المرتبة من لم يعمل عملهم .

(53/599)

وتقدم الكلام على ﴿ كأين ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ وكأين من نبيء قُتِل معه ربيون كثير ﴾ في سورة آل عمران [146] .

وقوله : ﴿ وكأيِّن من دابة لا تَحْمل رِزْقها ﴾ خبر غير مقصود منه إفادة الحكم ، بل هو مستعمل مجازاً مركباً في لازم معناه وهو الاستدلال على ضمان رزق المتوكلين من المؤمنين .

وتمثيله للتقريب بضمان رزق الدوابّ الكثيرة التي تسير في الأرض لا تحمل رزقها ، وهي السوائم الوحشية ، والقرينة على هذا الاستعمال هو قوله : ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ الذي هو استئناف بياني لبيان وجه سوق قوله : ﴿ وكأين من دَابةٍ لا تَحْمِل رِزْقها ﴾ ولذلك عطف ﴿ وإياكم ﴾ على ضمير ﴿ دابة ﴾ والمقصود : التمثيل في التيسير والإلهام للاسباب الموصلة وإن كانت وسائل الرق مختلفة .

والجمل في قوله : ﴿ لا تحمل رزقها ﴾ يجوز أن يكون مستعملاً في حقيته ، أي تسير غير حاملة رزقها لا كما تسير دواب القوافل حاملة رزقها ، وهو علفها فوق ظهورها بل تسير تأكل من نبات الأرض .

ويجوز أن يستعمل مجازاً في التكلف له ، مثل قول جرير :

حُمِّلت أمراً عظيماً فاصطبرت له . . .

أي لا تتكلف لرزقها .

وهذا حال معظم الدواب عدا النملة والفأرة ، قيل وبعض الطير كالعقعق .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ الله يرزقها ﴾ دون أن يقول : يرزقها الله ، ليفيد بالتقديم معنى الاختصاص ، أي الله يرزقها لا يغره ، فلماذا تعبدون أصناماً ليس

بيدها رزق .

وجملة ﴿ وهو السميع العليم ﴾ عطف على جملة : ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ .

فالمعنى : الله يرزقكم وهو السميع لدعائكم العليم بما في نفوسكم من الإخلاص لله في أعمالكم وتوكلكم ورجائكم منه الرزق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(54/599)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

نادى الله جل وعلا عباده المؤمنين ، وأكد لهم أن أرضه واسعة ، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره ، كما دل عليه تقديم المعمول الذي هو إياي ، كما بيناه في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] .

والمعنى : أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرون فيها على إقامة دينهم ، أو يصيبهم فيها أذى الكفار ، فإن أرض ربهم واسعة فليها جروا إلى موضع منها يقدرون فيه على إقامة دينهم ، ويسلمون فيه من أذى الكفار ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرض قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء : 97] وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ .

جاء معناه موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [آل عمران : 185] وقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] .

(55/599)

قوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ قد قدمنا معنى وعملوا الصالحات موضحاً في أول سورة الكهف ، وقدمنا معنى لنبوئنهم في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ [الحج : 26] الآية .

وذكرنا الآيات التي ذكرت فيها الغرف في آخر الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾ [الفرقان : 75] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن كثيراً من الدواب التي لا تحمل رزقها لضعفها ، أنه هو جل وعلا يرزقها ، وأوضح هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : 6] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(56/599)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

بعد أنْ تحدَّث الحق سبحانه عن الكفار والمكذَّبين أراد أنْ يُحدِث توازناً في السياق ، فحدَّثنا هنا عن المؤمنين ليكون أنكَى للكافرين ، حين تردف الحديث عنهم ، وعما يقع لهم من العذاب بما سينال المؤمنين من النعيم ، فتكون لهم حسرة شديدة ، فلو لم يأخذ المؤمنون هذا النعيم لكانَ الأمر أهونَ عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ ياعبادي . . . ﴾ [العنكبوت : 56] سبق أن قُلْنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد الله ، وعبيد الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن وعبيد

الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وفضَّل مراده سبحانه على مراد نفسه ، فصار عبداً في كل شيء حتى في الاختيار ، فلما فعلوا ذلك استحقوا أن يكونوا عبيداً وعباداً لله .

أما الكافر فتأبَّى على مراد ربه ، واختار الكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة ، ونسي أنه عبد الله مقهور في أشياء لا يستطيع أن يختار فيها ، وكأن الله يقول له : أنت أيها الكافر تمردْتَ على ربك ، وتأبَّيْتَ على منهجه في (افعل) و (لا تفعل) ، واعتدْتَ التمرد على الله . فلماذا لا تتمرد عليه فيما يُجريه عليك من أقدار ، لماذا لا تتأبَّى على المرض أو على الموت ؟ إذن : فأنت في قبضة ربك لا تستطيع الانفلات منها .

وعليه ، فالمؤمن والكافر سواء في العبودية لله ، لكن الفرْق في العبادية حيث جاء المؤمن مختاراً راضياً بمراد الله ، وفَرْق بين عبد يُطيعك وأنت تجرُّه في سلسلة ، وعبد يخدمك وهو طليق حُرٌّ . وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله مختاراً مع إمكانية أنْ يكفر ، وهذه هي العبودية والعبادية معاً .

(57/599)

ومعنى ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ . . . ﴾ [العنكبوت : 56] يخاطبهم ربهم هذا الخطاب وهم في الأرض وفي سعتها ، ليلفت أنظارهم أنهم سيضطهدون ويُعذَّبون ، وسيقع عليهم إيذاء وإيلام ، فيقول لهم : إياكم أن تَصِرْفكم هذه القسوة ، إياكم أنْ تتراجعوا عن دعوتكم ، فإذا لم يناسبكم هذا المكان فاذهبوا إلى مكان آخر فأرضي واسعة فلا تُضيِّقوها على أنفسكم .

لذلك يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأرض لله ، والعباد كلهم لله ، فإنْ أبصرتَ خيراً فاقِمْ حيث يكون " .

فالذي نعاني منه الآن هو هذه الحدود وهذه القيود التي وضعناها في جغرافية أرض الله ، فضيَّقنا على أنفسنا ما وسَّعه الله لنا ، فأرْضُ الله الواسعة ليست فيها تأشيرات دخول ولا جوازات سفر ولا (بلاك لست) .

لذلك قلنا مرة في الأمم المتحدة : إنكم إنْ سعيتُم لتطبيق مبدأ واحد من مبادئ القرآن فلن يوجد شر في الأرض ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10]

.

والمعنى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، فإن ضاق رزقك في مكان فاطلبه في مكان آخر ، وإلا فالذي يُتعِب الناس الآن أن توجد أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، وها هي السودان مثلاً بجوارنا ، فيها أجود الأراضي لا تجد مَنْ يزرعها ، لماذا ؟ للقيود التي

وضعناها وضيَّقنا بها على أنفسنا .

وصدق الشاعر حين قال :

لَعْمرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأهِلْها . . . ولكنَّ أخْلاق الرجَالِ تَضِيقُ

ثم يقول سبحانه ﴿ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ [العنكبوت : 56] فإنْ أخذنا بمبدأ الهجرة فلا بُدَّ أن نعلم أن للهجرة شروطاً أولها : أنْ تهاجر إلى مكان يحفظ عليك إيمانك ولا ينقصه ، وانظر قبل أنْ تخرج من بلدك هل ستتمكن في المهجر من أداء أمور دينك كما أوجبها الله عليك ؟ فإنْ كان ذلك فلا مانع ، وإلا فلا هجرةَ لمكان يُخرِجني من دائرة الإيمان ، أو يحول بيني وبين أداء أوامر ديني .

(58/599)

وهل يُرضيك أنْ تعيش لتجمع الأموال في بلاد الكفر ، وأنْ تدخل عليك ابنتك مثلاً وفي يدها شاب لا تعرف عنه شيئاً قد فُرِض عليك فَرْضاً ، فقد عرفته على طريقة القوم ، ساعتها لن ينفعك كل ما جمعت ، ولن يصلح ما جُرِح من كرامتك .

وسبق أن أوضحنا أن الهجرة قد تكون إلى دار أَمْن فقط ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتأمن ألاَّ يفتنك عنه أحد ، ومن ذلك الهجرة التي أمر بها رسول الله إلى الحبشة ، وهي

ليست أرْضَ إيمان ، بل أرض أَمْن .

وقد عَلّل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالهجرة إليها بقوله : " إن فيها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحد " وقد تبيَّن بعد الهجرة إليها صِدْق رسول الله ، وكأنه على علم تام بالبيئة المحيطة به وبأحوال أهلها .

لذلك لم يأمرهم مثلاً بالهجرة أو أطراف الجزيرة العربية ؛ لأنها كانت خاضعة لقريش بما لها من سيادة على الكعبة ، فلا يستطيع أحد أنْ يحمي مَنْ تطلبه قريش ، حتى الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة لم يَسْلَموا من قريش ، فقد أرسلتْ إلى النجاشي مَنْ يكلمه في شأنهم ، وحملوا إليه الهدايا المغرية ليسلمهم المهاجرين من المؤمنين بمحمد ، لكن لم تفلح هذه الحيلة مع الملك العادل الذي راود الإيمانُ قلبه ، فأحب المؤمنين ودافع عنهم ورفض إعادتهم ويقال : إنه آمن بعد ذلك ، ولما مات صلَّى عليه رسول الله .

أما الهجرة إلى المدينة بعد الهجرة إلى الحبشة فكان لدار أَمْن وإيمان معاً ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتتمكن فيها من نشره والدعوة إليه ، وتجد بها إخواناً مؤمنين يُواسُونك بأموالهم ، وبكل ما يملكون ، وقد ضرب الأنصار في مدينة رسول الله أروع مثل في التاريخ في المواساة ، فالأنصاري كان يرى أخاه المهاجر ترك أهله في مكة ، وله إرْبة وحاجة للنساء ، فيُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، فانظر ماذا فعل الإيمان بالأنصار .

وفي قوله سبحانه ﴿ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ [العنكبوت : 56] أسلوب يُسمُّونه أسلوب قَصْر ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] .

وفَرْق بين أنْ نقول : نعبدك . و (إياك نعبد) : نعبدك لا تمنع أنْ نعبد غيرك ، أمّا (إِيَّاكَ نَعْبد) فتقصر العبادة على الله – عز وجل – ، ولا تتجاوزه إلى غيره .

فالمعنى – إذن : إنْ كنت ستهاجر فلتكُن هجرتك لله ، وقد فسَّرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف : " فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . ﴾ .

يعني : إنْ كنتم ستقولون – وقد قالوا بالفعل – ليس لنا في المدينة دار ولا عقار ، وليس لنا فيها مصادر رزق ، وكيف نترك أولادنا وبيئتنا التي نعيش فيها ، فاعلموا أنكم ولا بُدَّ مفارقون هذا كله ، فإنْ لم تُفارقوها وأنتم أحياء فسوف تفارقونها بالموت ؛ لأن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . ﴾ [العنكبوت : 57] .

ومَنْ يدريكم لعلكم تعودون إلى بلدكم مرة أخرى ، كما قال الله لرسوله : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . . ﴾ [القصص : 85] .

وعلى فَرْض أنكم لن تعودوا إليها فلن يُضيركم شيء ؛ لأنكم لا بُدَّ مفارقوها بالموت . وكأن الحق – تبارك وتعالى – يخفف عنهم ما يلاقونه من مفارقة الأهل والوطن والمال والأولاد .

(60/599)

كما أننا نلحظ في قوله سبحانه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . ﴾ [العنكبوت : 57] بعد ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ . . . ﴾ [العنكبوت : 56] أن الخواطر التي يمكن أن تطرأ على النفس البشرية حين يُشرِّع الله أمراً يهيج هذه الخواطر مثل ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ . . . ﴾ [العنكبوت : 56] وما تثيره في النفس من حب الجمع والتملّك يجعل لك مع الأمر ما يهبّط هذه الخواطر .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت . . . ﴾ [العنكبوت : 57] حتى لا نطمعَ في حطام الدنيا ، ويُلهينا إغراء المال والهجرة لجمعه ، فالنهاية بعد ذلك كله الموت ، وفقدان كل ما جمعت .

وهذه القضية واضحة في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا . . . ﴾ [التوبة : 28] .

فلما أراد الله تعالى أن يُنهي وجود المشركين في البيت الحرام علم سبحانه أن المسلمين سيحسبون النتيجة المادية لمنع المشركين من دخول الحرم ، وأنها ستؤثر على تجارتهم

وأرزاقهم في مواسم التجارة والحج .

لذلك قال بعدها مباشرة : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ . . . . ﴾ [التوبة : 28] فساعة يقرأونها في التشريع يعلمون أن الله اطَّلع على ما في نفوسهم ، وجاءهم بالردِّ عليه حتى لا يتكلموا به ، وهذا يعني أن التشريع يأتي ليعالج كل خواطر النفس ، فلا ينزعك من شيء تخافه إلا ومع التشريع ما يُذهِب هذه المخاوف .

﴿ والذين آمَنُواْ . . . ﴾ .

هذه في مقابل : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 54-55] وذكر المقابل لزيادة النكاية بالكافرين ، كما يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13-14] .

(61/599)

فجَمْع المتقابلين يزيد من فَرْحة المؤمن ، ويزيد من حَسْرة الكافر .

ومعنى ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً . . . ﴾ [العنكبوت : 58] أي : نُنزلهم ونُمكّنهم منها ، كما جاء في قوله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ

أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المؤمنين مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . . . ﴾ [آل عمران : 121] يعني : تُنزِلهم أماكنهم .

والجنة تُطلق على الأرض ذات الخضرة والأشجار والأزهار في الدنيا ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . . ﴾ [البقرة : 266] .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة . . . ﴾ [القلم : 17] .

وقوله سبحانه : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ . . . ﴾ [الكهف : 32] .

فإذا كانت جنة الدنيا على هذه الصورة من الخِصْب والنماء والجمال ، وفيها أسباب القُوت والترف ، إذا كان ذلك في دنيا الأسباب التي نراها ، فما بالك بما أعدَّه الله لخَلْقه في الآخرة ؟

ومن عجائب الجنة أنها ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . . ﴾ [العنكبوت : 58] ونحن نعرف أن أنهار الدنيا تجري خلالها عبر الشُّطان التي تحجز الماء ، أمّا في الجنة فتجري أنهارها بلا شُطآن .

لذلك لما كنا نسافر إلى بلاد المدنية والتقدّم ، ونرى زخارف الحياة وترفها كنتُ أقول لمن

معي : خذوا من هذا النعيم عِظَة ، فهو ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

(62/599)

فإذا رأيتَ نعيماً عند أحد فلا تحقد عليه ، بل ازْدَدْ به يقيناً في الله تعالى ، وأن ما عنده أعظم من هذا . أَلاَ ترى أن الحق – تبارك وتعالى – حينما يخبرنا عن الجنة يقول : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون . . . ﴾ [محمد : 15] فيجعلها مثلاً ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تؤدي المعاني التي في الجنة ولا تَصِفها .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر " فكل ما جاء فيها ليس وصفاً لها إنما مجرد مثَل لها ، ومع ذلك لما أعطانا المثل للجنة صَفّى المثل من شوائبه ، فقال : ﴿ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى . . . ﴾ [محمد : 15] ويكفي أن تعلم أن نعيم الجنة يأتي مناسباً لقدرة وإمكانيات المِنعم سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا . . . ﴾ [العنكبوت : 58] لأن النعيم مهما كان واسعاً ، ومهما تعددتْ ألوانه ، فيُنغِّصه ويُؤرِّق صاحبه أن يزول إما بالموت وإما بالفقر ، أما

نعيم الجنة فدائم لا يزول ولا ينقطع ، فلا يفوتك ولا تفوته ، كما قال سبحانه : ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 33] لا يُكدِّرها شيء .

إذن : فالرابح مَنْ آثر الآخرة على الدنيا ؛ لأن نعيم الدنيا مآله إلى زوال ، ولا تقُلْ : إن عمر الدنيا كم مليون سنة ، إنما عمرها مدة بقائك أنت فيها ، وإلا فماذا تستفيد من عمر غيرك ؟

ثم إنك تتمتع في الدنيا على قدر إمكاناتك ومجهوداتك ، فنعيم الدنيا بالأسباب ، لكن نعيم الآخرة بالمسبِّب سبحانه ، لذلك ترى نعيماً صافياً لا يُنغِّصه شيء ، فأنت ربما تأكل الأكْلة في الدنيا فتسبِّب لك المتاعب والمضايقات ، كالمغص والانتفاخ ، علاوة على ما تكرهه أثناء قضاء الحاجة للتخلُّص من فضلات هذه الأكلة .

(63/599)

أما في الآخرة فقد أعدَّ الله لك الطعام على قَدْر الحاجة ، بحيث لا تكون له فضلات ، لأنه طُهِي بكُنْ من الله تعالى .

لذلك سُئِل أحد علماء المسلمين : تقولون : إن الجنة تأكلون فيها ، ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ فقال : ولم التعجب ، أَلَا ترونَ الجنين في بطن أمه يتغذى وينمو ولا يتغوط ؛ لأن الله

تعالى يعطيه غذاءه على قدر حاجته للنمو ، فلا يبقى منه فضلات ، ولو تغوَّط في مشيمته لمات في بطن أمه .

وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [العنكبوت : 58] نعم ، نعْم هذا الأجر ؛ لأنك مكثْتَ إلى سِنِّ التكليف تربُع في نعم الله دون أنْ يُكلِّفك بشيء ، ثم يعطيك على مدة التكليف أجراً لا ينقطع ، ولا نهاية له ، فأيُّ أجر أَسْخى من هذا ؟ ويكفي أن الذي يقرِّر هذه الحقيقة هو الله ، فهو سبحانه القائل : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [العنكبوت : 58] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين صَبَرُواْ . . . ﴾ .

فهذه من صفات العاملين ﴿ الذين صَبَرُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 59] فلا تظن أن العمل ما كان في بحبوحة العيش وترَف الحياة ، فالعامل الحق هو الذي يصبر ، وكلمة ﴿ الذين صَبَرُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 59] تدل على أنه سيتعرَّض للابتلاء ، كما قال سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2]

.

فالذين اضطهدوا وعُذِّبوا حتى اضطروا للهجرة بدينهم صبروا ، لكن هناك ما هو أكبر من الصبر ؛ لأن خَصْمك من الجائز أنْ يصبر عليك ، فيحتاج الأمر إلى المصابرة ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ اصبروا وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران : 200] ومعنى : صابره . يعني : تنافس معه في الصبر .

والصبر يكون على آفات الحياة لتتحملها ، ويكون على مشقة التكاليف ، وعلى إغراء المعصية ، يقولون : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصدق الشاعر حين قال :

(64/599)

وكُنْ رجلاً كالضِّرس يرسُو مكَانَهُ . . . ليَمْضغُ لاَ يَعْنيه حُلْو ولاَ مُرّ

فالمعنى ﴿ الذين صَبَرُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 59] على الإيذاء ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت : 59] أي : في الرزق ، وكان المهاجرون عند هجرتهم يهتمون لأمر الرزق يقولون : ليس لنا هناك دار ولا عقار ولا . . إلخ . فأراد سبانه أنْ يُطمِئن قلوبهم على مسألة الرزق ، فقال ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت : 59] .

فالذي خلقك لا بُدَّ أنْ يخلق لك رزقك ، ومن عجيب أمر الرزق أن رزقك ليس هو ما تملك إنما ما تنتفع به حقيقة ، فقد تملك شيئاً ويُسرق منك ، وقد يُطهى لك الطعام ، ولا تأكله ، بل أدقّ من ذلك قد تأكله ولا يصل إلى معدتك ، وربما يصل إلى المعدة وتقيئه ، وأكثر من ذلك قد يتمثل الغذاء إلى دم ثم ينزف منك في جُرْح أو لدغة بعوضة أو غير ذلك ؛ لأن هذا ليس من رزقك أنت ، بل رزق لمخلوق آخر .

إنك تعجب حينما ترى التمساح مثلاً على ضخامته وخوف الناس منه ، ومع ذلك تراه بعد

أنْ يأكل يخرج إلى اليابسة ، حيث يفتح فمه لصغار الطيور ، فتتولى تنظيف ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، وترى بينهما انسجاماً تاماً وتعاوناً إيجابياً ، فحين يتعرض التمساح مثلاً لهجمة الصياد يُحدِث صوتاً معيناً يفهمه التمساح فيسرع بالهرب .

فانظر من أين ينال هذا الطير قوته ؟ وأين خبأ الله له رزقه ؟ لذلك يقولون (اللي شَقُّه خلق لقُّه) .

وسبق أن ضربنا مثلاً على خصوصية الرزق بالجنين في بطن أمه ، فحينما تحمل الأم بالجنين يتحول الدم إلى غذاء للطفل ، فإنْ لم تحمل نزل هذا الدم ليرمي به دون أنْ تستفيد منه الأم ، لماذا ؟ لأنه رِزْق الجنين ، وليس رزقها هي .

لذلك نجد الآية بعدها تقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ . . . ﴾ .

(65/599)

يريد سبحانه أنْ يُطمئن خَلْقه على أرزاقهم ، فيقول ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ . . . ﴾ [العنكبوت : 60] كأيٍّ لها مَعَانٍ متعددة ، مثل كم الخبرية حين تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك ؟ يعني : كثيراً جداً ، كذلك في ﴿ وَكَأَيِّن . . . ﴾ [العنكبوت : 60] أي : كثير كما في ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ . . . ﴾ [

آل عمران : 146] .

والدابة : هي التي تدبّ على الأرض ، والمراد كل حيٍّ ذي حركة ، وقد تقول : فالنمل – مثلاً – لا نسمع له دبَّة على الأرض أيَعَدُّ من الدابة ؟ نعم فله دبَّة على الأرض ، لكنك لا تسمعها ، فالذي خلقها يسمع دبيبها ؛ لأن الذي يقبل الصغر يقبل الكبر ، لكن ليس عندك أنت آلة السماع .

بدليل أن الذي يعاني من ضعف السمع مثلاً ينصحه الطبيب بتركيب سماعة للأذن فيسمع ، وكذلك في النظارة للبصر ، إذن : فكل شيء له أثر مرئي أو مسموع ، لكن المهم في الآلة التي تسمع أو ترى ؛ لذلك يقولون إنْ أرادوا المبالغة ؛ فلان يسمع دبّة النملة .

ومعنى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا . . . ﴾ [العنكبوت : 60] ليست كلّ الدواب تحمل رزقها ، فكثير منها لا تحمل رزقاً ، ومع ذلك تأكل وتعيش ، ويحتمل أن يكون المعنى : لأنها لا تقدر على حمله ، أو تقدر على حمله ولكنها لا تفعل ، فمثلاً القمل والبراغيث التي تكثر مع الإهمال في النظافة الشخصية أتحمل رزقاً ؟ والناموسة التي تتغذى مع ضَعْفها على دم الإنسان الفتوة المتجبر ، الميكروب الذي يفتك بالإنسان . . إلخ هذه أشياء لا تحمل رزقها .

أما الحمار مثلاً مع قدرته على الحمل لا يحمل رزقه ؛ لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ،

وربما يدوس الأكل الباقي ، أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

(66/599)

وقد جعل الله الادخار في هؤلاء لحكمة ولبيان طلاقة قدرته تعالى ، وأن الادخار عند هذه المخلوقات ليس قُصوراً من الخالق سبحانه في أن يجعل بعض الدوابّ لا تحمل رزقها ، بل يخلق لها وسائل تعجز أنت عنها .

ولك أن تتأمل قرى النمل وما فيها من عجائب ، فقد لاحظ الباحثون في هذا المجال أنك لو تركت بقايا طعام مثلاً تأتي نملة وتحوم حوله ثم تنصرف وترسل إليه عدداً من النمل يستطيع حمل هذه القطعة ، ولو ضاعفت وزن هذه القطعة لتضاعف عدد النمل .

إذن : فهي مملكة في غاية التنظيم والدقة والتخصص ، والأعجب من ذلك أنهم لاحظوا على النمل أنها تُخرِج فُتاتاً أبيض صغيراً أمام الأعشاش ، فلما فحصوه وجدوه الزريعة التي تُسبِّب الإنبات في الحبة حتى لا تنبت ، فتهدم عليهم العُشَّ ، فسبحان الذي خلق فسوَّى والذي قدَّر فهدى .

وأعجب من ذلك ، وجدوا النمل يفلق حبة الكسبرة إلى أربعة أقسام ، لأن نصف حبة

الكسبرة يمكنه أنْ يَنبت منفرداً ، فقسموا النصف .

إذن : فكثير من الدواب لا تحمل رزقها ﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 60] فذكر الدواب أولاً في مجال الرزق ثم عطف عليها ﴿ وَإِيَّاكُمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 60] فنحن معطوفون في الرزق على الدواب ، مع أن الإنسان هو الأصل ، وهو المكرّم ، والعالم كله خُلِق من أجله لخدمته ، ومع ذلك لم يقُلْ سبحانه : نحن نرزقكم وإياهم ، لماذا ؟ قالوا : لأنك تظن أنها لا تستطيع أن تحمل أو تُدبِّر رزقها ، ولا تتصرف فيه ، فلفت نظرك إلى أننا سنرزقها قبلك .

وقد وقف المستشرقون الذين يأخذون القرآن بغير الملَكة العربية يعترضون على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . . ﴾ [الإسراء : 31] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ . . . ﴾ [الأنعام : 151] .

يقولون : أيهما أبلغ من الأخرى ، وإن كانت إحداهما بليغة ، فالأخرى غير بليغة .

(67/599)

وهذا الاعتراض ناتج عن ظنهم أن الآيتين بمعنى واحد ، وهما مختلفتان ، فالأولى ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . . ﴾ [الإسراء : 31] فالفقر هنا غير موجود وهم

يخافونه ، أما في : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ . . . ﴾ [الأنعام : 151] فالفقر موجود فعلاً . فهما مختلفتان في الصَّدْر ، وكذلك مختلفتان في العَجُز .

ففي الأولى قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . . ﴾ [الإسراء : 31] لأن الفقر غير موجود ، وأنت غير مشغول برزقك ، فبدأ بالأولاد ، أمّا في الثانية فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 151] وقدم الآباء ؛ لأن الفقر موجود ، والإنسان مشغول أولاً برزق نفسه قبل رزق أولاده .

إذن : فلكل آية معنى وانسجام بين صَدْرها وعَجُزها ، المهم أن تتدبر لغة القرآن ، وتفهم عن الله مراده .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [العنكبوت : 60] واختار هنا السميع العليم ؛ لأن الحق سبحانه له قيُّومية على خَلْقه ، فلم يخلقهم ثم يتركهم للنواميس ، إنما خلق الخَلْق وهو سبحانه قائم عليه بقيوميته تعالى ؛ لذلك يقول في بيان عنايته بصنعته ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ . . . ﴾ [البقرة : 255] يعني : يا عبادي ناموا مِلْءَ جفونكم ؛ لأن ربكم لا ينام .

ومناسبة السميع هنا ؛ أن الجوع إذا هَزَّ إنساناً ربما يصيح صيحة ، أو يُحدث شيئاً يدل على أنه جائع ، فكأنه يقول : لم أجعلكم كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

الدنيا أوسعُ رقعةً من أَن يضيق بمريدٍ مكانٌ ، فإذا نَبَا به منزلٌ – لوجهٍ من الوجوه – إمَّا لمعلومٍ حصل ، أو لقبولٍ من الناس ، أو جاهٍ ، أو لعلاقةٍ أو لقريبٍ أو لِبَلاءِ ضِدٍّ ، أو لوجهٍ من الوجوه الضارة . . . فسبيلُه أن يرتحل عن ذلك الموضع وينتقل إلى غيره ، كما قالوا :

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيًّا . . . أنْ أُرى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أُمْسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقتَه مكانٌ انتقل إلى غيره من الأماكن .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57)

إذا كان الأمرُ كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور ؛ فسبيلُ المؤمن أن يوطِّن نفسَه على الخروج مستعداً له ، ثم إذا لم يحصل الأَجَلُ فلا يستعجل ، وإذا حضر فلا يستثقل ، ويكون بحُكْمِ الوقت ، كما قالوا :

لو قال لي مُتْ مِتُّ سمعاً وطاعةً . . . وقلتُ لداعي الموت : أهلاً ومرحبا

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

هم – اليومَ – في غُرَفِ معارفهم على أَسِرَّةِ وَصْلِهم ، مُتَوَّجُون بتيجان سيادتهم ، يُسْقَوْن كاساتِ الوَجْدِ ، ويَجْبُرُون في جنانِ القُرْب ، وعداً كما قال : –

﴿ الذين صَبَرُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة .

الصبرُ العكوفُ في أوطان الوفاء ، الصبر حَبْسُ النَّفْسِ على فِطامها .

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس .

الصبر صفة توجب معيَّةَ الحقِّ . . . وأَعْزِزْ بها !

(69/599)

وأولُ الصبرِ تصبُّرٌ بتكلفٍ ، ثم صبرٌ بسهولة ، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة ، ثم تحقُّقٌ بوصف الرضا ؛ فيصير العبدُ فيه محمولاً بعد أن كان مُتَحَمّلاً .

والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار ، والتوكلُ سكونُ السِّرِّ إلى الله ، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة التوكل ؛ فلا تتبرَّم في الخلوة بانقطاع الأغيار عنك . التوكل إعراضُ القلب عن غير الرَّب .

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

﴿ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي لا تدخره ، فمن لم يدخر رزقه في كيسه أو خزائنه فاللَّهُ يرزقه من غير مقاساة تعب منه .

ويقال : ﴿ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم ، وليس لها بيت تجمع فيه القوت ، وليس لها خازن ولا وكيل . . الله يرزقها وإياكم .

ويقال إرادةُ اللَّهِ في أن يستبقيكَ ولا يقبض رُوحَك أقوى وأتمُّ وأكبرُ من تَعَنِّيك لأَجْلِ بقائك . . فلا ينبغي أَنْ يكونَ اهتمامُكَ بسبب عَيْشِك أتمَّ وأكبرَ من تدبير صانعك لأجل بقائك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 102.104 ﴾

(70/599)

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما هوّن سبحانه أمر الرزق بخطابه مع المؤمنين بعد أن كان قد أبلغ في تنبيه الكافرين بإيضاح المقال ، وضرب الأمثال ، ولين المحاورة في الجدال ، ولما كان الملك لا يتمكن غاية التمكن من ترزيق من في غير مملكته ، قال عاطفاً على نحو : فلئن سألتهم عن ذلك ليصدقنك عائداً إلى استعطاف المعرضين ، واللطف بالغافلين ، ناهجاً في تفنين الوعظ أعني طرق الحكمة ، فإن السيد إذا كان له عبدان : مصلح ومفسد ، ينصح المفسد ، فإن لم يسمع التفت إلى المصلح ، إعراضاً عنه قائلاً : هذا لا يستحق الخطاب ، فاسمع أنت ولا تكن مثله ، فكان قوله متضمناً نصح المصلح وزجر المفسد ، ثم إذا سمع وعظ أخيه كان ذلك محركاً منه بعد التحريك بالإعراض والذم بسوء النظر لنفسه وقلة الفطنة ، فإذا خاطبه بعد هذا وجده متهيئاً للقبول ، نازعاً إلى الوفاق ، مستهجناً للخلاف : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي المؤمن وغيره ، وأغلب القصد له : ﴿ من خلق السماوات والأرض ﴾ وسواهما على هذا النظام العظيم ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ لإصلاح الأقوات ، ومعرفة الأوقات ، وغير ذلك من المنافع .

ولما كان حالهم في إنكار البعث حال من ينكر أن يكون سبحانه خلق هذا الوجود ، أكد تنبيهاً على أن الاعتراف بذلك يلزم منه الاعتراف بالبعث فقال : ﴿ ليقولن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال لما قد تقرر في فطرهم من ذلك وتلقفوه عن أبائهم موافقة للحق في

نفس الأمر .

ولما كان حال من صرف الهمة عنه عجباً يستحق أن يسأل عنه وجه التعجب منه إشارة إلى أنه لا وجه له ، قال ﴿ فأنى ﴾ أي فكيف ومن أي وجه ﴿ يؤفكون ﴾ أي يصرف من صارف ما من لم يتوكل عليه أو لم يخلص له العبادة في كل أحواله ، وجميع أقواله وأفعاله ، عن الإخلاص له مع إقرارهم بأنه لا شريك له في الخلق فيكون وجهه إلى قفاه فينظر الأشياء على خلاف ما هي عليه فيقع في خبط العشواء وحيرة العجباء .

(71/599)

ولما كان قد يشكل على ذلك التفاوت في الرزق عند كل من لم يتأمل حق التأمل فيقال : بكل الخلق والرزق له ، فما بالهم متفاوتين في الرزق ؟ قال : ﴿ الله ﴾ أي بما له من العظمة والإحاطة بصفات الكمال ﴿ يبسط الرزق ﴾ بقدرته التامة ﴿ لمن يشاء من عباده ﴾ على حسب ما يعلم من بواطنهم ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق .

ولما كان ذلك إنما هو لمصالح العباد وإن لم يظهر لهم وجه حكمته قال : ﴿ له ﴾ أي لتظهر من ذلك قدرته وحكمته ، وأنت ترى الملوك وغيرهم من الأقوياء يفاوتون في الرزق بين عمالهم بحسب ما يعلمون من علمهم الناقص بأحوالهم ، فما ظنك بملك الملوك العالم علماً لا

تدنو من ساحته ظنون ولا شكوك ، وهذه الآية نتيجة ما قبلها .

ولما كان سبحانه يرزق الناس ، ويمكن لهم بحسب ما يعلم من ضمائرهم أنه لا صلاح إلا فيه ، قال معللاً لذلك ومؤكداً رداً على من يعتقد أن ذلك إنما هو من تقصير بعض العباد وتشمير بعضهم ، معلماً بأنه محيط العلم فهو محيط القدرة فهو الذي سبب عجز بعضهم وطاقة الآخرين لملازمة القدرة العلم : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ بكل شيء ﴾ أي من المرزوقين ومن الأرزاق وكيف تمنع او تساق وغير ذلك ﴿ عليم ﴾ فهو على ذلك كله قدير ، يعلم ما يصلح العباد من ذلك وما يفسدهم ، ويعطيهم بحسب ذلك إن شاء وكم رام بعض الأقوياء إغناء فقير وإفقار غني ، فكشف الحال عن فساد ما راموا من الانتقال .

(72/599)

ولما ثبت بهذا شمول علمه ، لزم تمام قدرته كما برهن عليه في طه ، فقال مشيراً إلى ذلك ذاكراً السبب القريب في الترزيق بعد ما ذكر البعيد ، فإن الاعتراف بأن هذا السبب منه يستلزم الاعتراف بأن المسبب أيضاً منه : ﴿ ولئن سألتهم من نزل ﴾ بحسب التدريج على حسب ما فعل في الترزيق ، ولما كان ربما ادعى مدع أنه استنبط ماء فأنزله من جبل ونحوه ،

ذكر ما يختص به سبحانه سالماً عن دعوى المدعين فقال : ﴿ من السماء ماء ﴾ بعد أن كان مضبوطاً في جهة العلو ﴿ فأحيا ﴾ ولما كان أكثر الأرض يحيى بماء المطر من غير حاجة إلى سقي ، قدم الجار فقال ﴿ به الأرض ﴾ الغبراء ، وأشار بإثبات الجار إلى قرب الإنبات من زمان الممات ، وإلى أنهم لا يعلمون إلى الجزئيات الموجودة المحسوسة ، ولا تنفذ عقولهم إلى الكليات المعقولة نفوذ أهل الإيمان ليعلموا أن ما أوجده سبحانه بالفعل في وقت فهو موجود إما بإيجاده إذا أراد ، فالأرض حية بإحيائه سبحانه بسبب المطر في جميع الزمن الذي هو بعد الموت بالقوة كما أنها حية في بعضها بالفعل فقال : ﴿ من بعد موتها ﴾ فصارت خضراء تهتز بعد أن لم يكن بها شيء من ذلك ، وأكد لمثل ما تقدم من التنبيه على أن حالهم في إنكار البعث حال من أن ينكر أن يكون الله صانع ذلك ، لملازمة القدرة عليه القدرة على البعث بقوله : ﴿ ليقولن الله ﴾ وهو الذي الكمال كله ، فلزمهم توحيده .

(73/599)

فلما ثبت أنه الخالق بدءاً وإعادة كما يشاهد في كل زمان ، قال منبهاً على عظمة صفاته اللازم من إثباتها صدق رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ قل ﴾ معجباً منهم في جمودهم حيث يقرون بما يلزمهم التوحيد ثم لا يوحدون : ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف

الكمال كلها ﴿ لله ﴾ الذي لا سمي له وليس لأحد غيره إحاطة بشيء من الأشياء ، فلزمهم الحجة بما أقروا به من إحاطته ، وهم لا يثبتون ذلك بإعراضهم عنه ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ أي لا يتجدد لهم عقل ، بعضهم مطلقاً لأنه مات كافراً حيث هم مقرون بمعنى الحمد من أنه الخالق لكل شيء بدءاً وإعادة ثم يفعلون ما ينافي ذلك فيشركون به غيره مما هم معترفون بأنه خلقه ولا يتوكلون في جميع الأمور براً وبحراً عليه ويوجهون العبادة خالصة إليه ، فهم لا يعرفون معنى الحمد حيث لم يعملوا به ، ومنهم من آمن بعد ذلك فكان في الذروة من كمال العقل في التوحيد الذي يتبعه سائر الفروع ، ومنهم من كان دون ذلك ، فكان نفي العلم عنه مقيداً بالكمال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 574.576 ﴾

(74/599)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(75/599)

نقول لما بين الله الأمر للمشرك مخاطباً معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله : ﴿ يا عبادي الذين ءامَنُواْ ﴾ [العنبكوت : 56] وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشاداً للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن ، فإن السيد إذا كان له عبدان ، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ، ينصح أولاً المفسد ، فإن لم يسمع يقول معرضاً عنه ، ملتفتاً إلى الرشيد ، إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد ، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد ، فإن قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية في قلبه ، ثم إذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه ، إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده ، يكون هذا الكلام أيضاً داعياً له إلى سبيل الرشاد مانعاً له من ذلك الفساد ، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون ، وفي الآية لطائف إحداها : ذكر في السموات والأرض الخلق ، وفي الشمس والقمر التسخير ، وذلك لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة ، فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء ، فإذاً الحكمة في تحريكهما وتسخيرهما الثانية : في لفظ التسخير ، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة

كافياً ، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين ، فالحكمة في تسخيرهما تحركهما في قدر ما يتنفس الإنسان آلافاً من الفراسخ ، ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات ، إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة ، والأخرى حركتها من المغرب إلى المشرق ، والدليل عليها أن الهلال يرى في جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر

(76/599)

في مقابلة الشمس ، والشمس على أفق المغرب ، والقمر على أفق المشرق ، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير في القمر ، ولولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول ، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس في الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ، ونحن نقول لا بعد في ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة ، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما في الفلك والفلك ساكن يجوز ، وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر ، وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] الثالثة : ذكر أمرين أحدهما خلق

السموات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر ، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات ، فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات ، وتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إيجاد الصفات وهي الحركة وغيرها ، فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ، ثم قال تعالى : ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ يعني هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله ، مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته ، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض ، ولا حقارة فوق حقارة الجماد ، لأن الجماد دون الحيوان ، والحيوان دون الإنسان ، والإنسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)

(77/599)

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الإنسان بالرزق ، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة ، وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها ، وإما لكونه على الشأن والله الذي خلق السموات على الشأن جلي البرهان فله العبادة ، وإما لكونه ولي الإحسان والله يرزق الخلق فله الطول

والإحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضاً قوله : ﴿لِمَن يَشَاء ﴾ إشارة إلى كمال الإحسان ، وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن بإعطاء شخص شيئاً ، فإذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة ، لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك ، وأما إن كان مختاراً بأن قال له الملك إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه ، فإن أعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة ، فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكراً تاماً وقوله تعالى : ﴿ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي يضيق له إن أراد ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفي إثبات العلم ههنا لطائف إحداها : أن الرازق الذي هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ، ولا يؤخر الرازق الرزق إلا لنقصان في نفوذ مشيئته كالملك إذا أراد الإطعام والطعام لا يكون بعد قد استوى ، أو لعدم علمه بجوع العبيد الثانية : وهي أن الله بإثبات العلم استوعب ذكر الصفات التي هي صفات الإله ومن أنكرها كفر وهي أربعة الحياة والقدرة والإرادة والعلم وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعاً لا كافراً ، وقد استوفى الأربع ، لأن قوله : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله : ﴿ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء ﴾ إشارة إلى نفوذ مشيئته وإرادته ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ إشارة إلى شمول علمه ، والقادر المريد العالم لا يتصور

إلا حياً ، ثم إنه تعالى لما قال : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزق ﴾ ذكر اعترافهم بذلك فقال :

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)

يعني هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب ، فالرزق من الله ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ وهو يحتمل وجوهاً أحدها : أن يكون كلاماً معترضاً في أثناء كلام كأنه قال : فأحيا به الأرض من بعد موتها ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فذكر في أثناء هذا الكلام ﴿ الحمد ﴾ لذكر النعمة ، كما قال القائل :

إن الثمانين وبلغتها . . قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

الثاني : أن يكون المراد منه كلاماً متصلاً ، وهو أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون ، وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هي من الله الثالث : أن يكون المراد أنهم يقولون إنه من الله ويقولون بإلهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم وأكثرهم لا يعقلون هذا التناقض أو فساد هذا التناقض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 78 . 80 ﴾

(79/599)

وقال ابن عطية :

ثم خاطبه تعالى بأمر الكفار وإقامة الحجة عليهم بأنهم إن سئلوا عن الأمور العظام التي هي دلائل القدرة لم يكن لهم إلا التسليم بأنها لله تعالى ، و﴿ يؤفكون ﴾ معناه يصرفون ، ونبه تعالى على خلق السماوات وخلق الأرض وتسخير الكواكب وذكر عظمها فاقتضى ذلك ما دونه ، ثم نبه على " بسط الرزق " وقدره لقوم ، وإنزال المطر من السماء ، وهذه عبر كفيلة لمن تأمل بالنجاة والمعتقد الأقوم ، ثم أمر تعالى نبيه بحمده على جهة التوبيخ لعقولهم وحكم عليهم بأن ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ ولا يتسدد منهم نظر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(80/599)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ الآية .

لما عيّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء ، وكان هذا تمويهاً ، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة .

وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق .

أي فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء ، فكيف تَشكُّون في الرزق ، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد ؛ ولهذا وصله بقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ .

﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أي لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر ، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر ، فكل شيء بقضاء وقدر .

﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أحوالكم وأموركم .

وقيل : عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السمآءِ مَآءً ﴾ أي من السحاب مطراً .

﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ أي جدبها وقحط أهلها .

﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ أي فإذا أقررتم بذلك فلم تشركون به وتنكرون الإعادة .

وإذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين ؛ فكرر تأكيداً .

﴿ قُلِ الحمدُ لِلَّهِ ﴾ أي على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لا يتدبرون هذه الحجج .

وقيل : "الْحَمْدُ لِلَّهِ" على إقرارهم بذلك .

وقيل : على إنزال الماء وإحياء الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(81/599)

وقال أبو حيان :

ثم أعقب تعالى ذلك بإقرارهم بأن مبدع العالم ومسخر النيرين هو الله .

وأتبع ذلك ببسط الرزق وضيقه ، فقال : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أن يبسطه ، ﴿ ويقدر ﴾ لمن يشاء أن يقدره .

والضمير في له ظاهره العود على من يشاء ، فيكون ذلك الواحد يبسط له في وقت ، ويقدر في وقت .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً عليه في اللفظ ، والمراد لمن يشاء آخر ، فصار نظير : ﴿ وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره ﴾ أي من عمر معمر آخر .

وقولهم : عندي درهم ونصفه : أي ونصف درهم آخر ، فيكون المبسوط له الرزق غير

المضيق عليه الرزق .

وقرأ علقمة الحمصي : ويقدر : بضم الياء وفتح القاف وشد الدال ، ﴿ عليم ﴾ : يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم .

ولما أخبر بأنهم مقرون بأن موجد العالم ، ومسخر النيرين ، ومحيي الأرض بعد موتها هو الله ، كان ذلك الإقرار ملزماً لهم أن رازق العباد إنما الله هو المتكفل به .

وأمر رسوله بالحمد له تعالى ، لأن في إقرارهم توحيد الله بالإبداع ونفي الشركاء عنه في ذلك ، وكان ذلك حجة عليهم ، حيث أسندوا ذلك إلى الله وعبدوا الأصنام .

﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ ، حيث يقرون بالصانع الرازق المحيي ، ويعبدون غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(82/599)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي أهلَ مكَّةَ ﴿ مِنْ خلاق السموات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله ﴾ إذ لا سبيلَ لهم إلى إنكارِه ولا إلى التَّردُدِ فيه ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ إنكارٌ واستبعادٌ من جهتِه تعالى لتركِهم العملَ بموجبِه أي فكيفَ يُصرفون عن الإقرارِ بتفرُّدِه تعالى

في الإلهية مع إقرارِهم بتفرُّدِه تعالى فيما ذُكر من الخلقِ والتَّسخيرِ .

﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشَاء ﴾ أنْ يبسطَه له ﴿ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي يقدرُ لمن يشاءُ أنْ يقدرَ له منهم كائناً مَن كانَ على أنَّ الضَّميرَ مبهمٌ حسبَ إبهامِ مرجعِه ، أو يقدرُ لمن يبسطه له على التَّعاقبِ ﴿ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم مَن يليقُ ببسطِ الرِّزقِ فيبسطُه له ومن يليقُ بقدْرِه له فيقدرُه له أو فيعلم أنَّ كلاًّ من البسطِ والقدرِ في أيِّ وقتٍ يُوافق الحكمةَ والمصلحةَ فيفعل كُلاًّ منهما في وقتِه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ معترفينَ بأنَّه الموجدُ للممكناتِ بأسرِها أصولِها وفروعِها ثمَّ إنَّهم يُشركون به بعضَ مخلوقاتِه الذي لا يكادُ يُتوهَّمُ منه القدرةُ على شيءٍ أصلاً ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على أنْ جعلَ الحقَّ بحيثُ لا يجترئُ المبطلون على جُحودِه وأنَّه أظهرَ حجَّتَك عليهم وقيل : على أنْ عصَمَك من هذهِ الضَّلالاتِ ولا يخفى بعدُه ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي شيئاً من الأشياءِ فلذلك لا يعملونَ بمُقتضى قولِهم هذا فيُشركون به سبحانَه أخسَّ مخلوقاتِه وقيل : لا يعقلونَ ما تُريد بتحميدِك عند مقالِهم ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(83/599)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي أهل مكة ﴿ مِنْ خلاق السموات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا التردد فيه ، والاسم الجليل مرفوع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة السؤال عليه أو على الفاعلية لفعل محذوف لذلك أيضاً ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ إنكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه ، والفاء للترتيب أو واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا كان الأمر كذلك فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده عز وجل في الألوهية مع إقرارهم بتفرده سبحانه فيما ذكر من الخلق والتسخير .

وقدر بعضهم الشرط فإن صرفهم الهوى والشيطان لمكان بناء ﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ للمفعول ، ولعل ما ذكرناه أولى .

(84/599)

﴿ الله يَبْسُطُ يَهَبُ لِمَن يَشَاء ﴾ أن يبسطه له لا غيره ﴿ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي يضيق عليه ، والضمير عائد على ﴿ مَن يَشَآء ﴾ الذي يبسط له الرزق أي عائد عليه مع ملاحظة متعلقه فيكون المعنى أنه تعالى شأنه يوسع على شخص واحد رزقه تارة ويضيقه عليه أخرى ، والواو لمطلق الجمع فقد يتقدم التضييق على التوسيع أو عائد على ﴿ مَن

يَشَآء ﴾ بقطع النظر عن متعلقه فالمراد من يشاء آخر غير المذكور فهو نظير عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر ، وهذا قريب من الاستخدام ، فالمعنى أنه تعالى شأنه يوسع على بعض الناس ويضيق على بعض آخر ، وقرأ علقمة ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ بضم الياء وفتح القاف وشد الدال ﴿ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم أن كلاً من البسط والقدر في أي وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلاً منهما في وقته أو فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدر له ، وهذه الآية أعني قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ ﴾ الخ تكميل لمعنى قوله سبحانه : ﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت : 60] لأن الأول كلام في المرزوق وعمومه وهذا كلام في الرزق وبسطه وقتره ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ الخ معترض لتوكيد معنى الآيتين وتعريض بأن الذين اعتمدتم عليهم في الرزق مقرون قدرتنا وبقوتنا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ [الذاريات : 8 5] قاله العلامة الطيبي .

وقال صاحب الكشف قدس سره : اعترض ليفيد أن الخالق هو الرزاق وأن من أفاض ابتداء وأوجد أولى أن يقدر على الإبقاء وأكد به ما ضمن في قوله عز وجل : ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : 99] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ معترفين بأنه عز وجل الموجد للمكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم إنهم يشركون به سبحانه بعض مخلوقاته الذي لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلاً ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على إظهار الحجة واعترافهم بما يلزمهم ، وقيل : حمده عليه الصلاة والسلام على العصمة مما هم عليه من الضلال حيث أشركوا مع اعترافهم بأن أصول النعم وفروعها منه جل جلاله فيكون كالحمد عند رؤية المبتلي ، وقيل : يجوز أن يكون حمداً على هذا وذاك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد أو لا يعقلون شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته ، قيل : إضراب عن جهلهم الخاص في الإتيان بما هو حجة عليهم إلى أن ذلك لأنهم مسلوبو العقول فلا يبعد عنهم مثله ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ معترض وجعله الزمخشري في سورة لقمان إلزاماً وتقريراً لاستحقاقه تعالى العبادة ، وقيل : ﴿ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك ، ولم يرتضه بعض المحققين لخفائه وقلة جدواه وتكلف توجيه الإضراب فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

بعد هذه الوقفة مع هؤلاء المؤمنين الذين حملهم المشركون على الهجرة من أوطانهم ، بما أخذوهم به من بأساء وضراء . عادت الآيات لتلقى المشركين بقدائفها المدمّرة ، التي تدكّ بها حصون الشرك ، وتهدم قلاعه ، بحجتها الدامغة ، وبيانها المبين . . .

فالمشركون هنا ، في مواجهة سؤال ، هو : « مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » ؟

وإنه لا يجرؤ أحد منهم أن يجيب بأن آلتهم تلك الجاثمة على الأرض ، هى التي حلقت السموات والأرض ، وأنها هى التي سخرت الشمس والقمر . . .

فمن إذن الذي خلق ؟ ومن الذي سخّر ؟ جواب واحد ، هو اللّه الذي خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر . . . إنهم لا ينكرون هذا ، ولا سبيل لهم إلى إنكاره . .

وإذن فكيف يصرفون وجوههم عن اللّه ، ويقبلون على هده الدّمى يعبدونها من دونه ؟

أليس هذا سفها وضلالا ؟ وبلى إنه السّفه والضلال والضّياع أيضا .

وقوله تعالى : « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » هو تعقيب على هذا السؤال ، وعلى

الجواب الذي أجابوا به نطقا ، أو إلجاء ، وإلزاما ، إذ لا جواب لهم غيره ! « لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

وأنّى ، بمعنى كيف ، ويؤفكون ، من الإفك ، وهو الانصراف عن وجه الحق إلى الضلال

. . .

قوله تعالى : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

« هذه الآية تعقيب على ما تقرر في الآية السابقة من استسلام المشركين لما ألزمتهم به من حجة ، لم يجدوا معها سبيلا إلا الإذعان والإقرار ، بأن اللّه سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر . .

وإذا كان ذلك كذلك على ما أقروا به ، فليعلموا إذن أن اللّه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له ، فيوسع الرزق لمن يشاء ، ويقدره أي يضيقه على من يشاء ، حسب علمه ، وحكمته . . « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فلا يفعل ما يفعل إلا عن علم ، وما كان فعلا عن علم ، فهو أصلح الأفعال ، وأنسبها ، وأعدلها ، وأحكمها . .

قوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ » .

وهذا سؤال آخر يسأله المشركون : « مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها ؟ » فما جوابهم على هذا ؟ .

لقد أقروا - طوعا أو كرها - أن اللّه هو الذي خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر . . إذ كان ذلك أمرا لا يمكن المجادلة فيه ، ولا يجد معه أي عقل - مهما لج في الضلال والعناد - سبيلا إلى المماراة ، والتمحك . .

(88/599)

وعلى هذا ، فإنه وقد سلّم بأن اللّه هو الذي خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر ، لا بد أن يسلّم بأنه سبحانه هو الذي يملك كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وأنه هو سبحانه الذي يصرّف كل شىء فيهما . .

فما ينزل من السماء من ماء ، فهو من أمر اللّه ، ومن قدرته ، وتدبيره . . وما يحدث هذا الماء من آثار فى الأرض ، فهو من أمر اللّه ، ومن قدرته ، وتدبيره . .

وإذن ، فلا جواب لهؤلاء المشركين إلا الإقرار ، بأن اللّه هو الذي نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . . فهذا من ذاك ، أو من بعض ذاك . .

- وقوله تعالى : « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » هو تعقيب على هذا الإقرار ، الذي ألجأ المشركين إليه ، ما

طلع عليهم من آيات اللّه ، فأنوا إليه مذعنين . .

وهذا مما يجدد للمؤمن نظرا إلى نعم اللّه ، حيث قهر جلالها المشركين الضالين ، فاعترفوا برب هذه النعم ، وأضافوها إليه . . وإن الحمد والولاء للّه ، هو ما ينبغى أن يسبّح به المؤمن فى هذا المقام ، مقام تلك النعمة الجليلة ، وهى نزول الماء من السماء ، وما لهذا الماء من آثار فى بعث الحياة فى الحياة ! .

والأمر هنا فى قوله تعالى : « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » هو للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، ولكل مؤمن ، يتلقى هذا الجواب ، على هذا السؤال : من نزل من السماء ماء فأحيا به على الأرض من بعد موتها ؟ سواء أكان الجواب على هذا السؤال واردا عليه من ذات نفسه ، وهو يدير نظره فى هذا الوجود ، أو تلقاه من غيره ، جوابا على سؤال ! وفى قوله تعالى : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ » إشارة إلى ما ركب كثيرا من هؤلاء المشركين من جهل ، وما تغشّاهم من ضلال . . . وأنهم لا يرون

(89/599)

الحق الذي تلوح أماراته لأعينهم ، ثم إنهم إذا بصّروا به ، وأبصروه ، لم يتقبلوه ، واتهموا أنفسهم ، وارتابوا فى معطيات أبصارهم ، وقالوا كما ذكر القرآن : « إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا

بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » (15 : الحجر) .

فهذا الحمد الذي ينطق به الوجود كله ، تسبيحا ، وولاء للّه ، لا يدرك المشركون دلالته ، لأنهم لا يعقلون ما ينبغى للّه من تنزيه عن الشريك والولد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 463.466 ﴾

(90/599)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

هذا الكلام عائد إلى قوله ﴿ والذين ءامنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ [العنكبوت : 52] تعجيباً من نقائض كفرهم ، أي هم كفروا بالله وإن سألهم سائل عمن خلق السماوات والأرض يعترفوا بأن الله هو خالق ذلك ولا يثبتون لأصنامهم شيئاً من الخلق فكيف يلتقي هذا مع ادعائهم الإِلهية لأصنامهم .

ولذلك قال الله ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أي كيف يصرفون عن توحيد الله وعن إبطال إشراكهم به مالا يخلق شيئاً .

وهذا الإِلزام مبني على أنهم لا يستطيعون إذا سئلوا إلا الاعتراف لأنه كذلك في الواقع ولأن

القرآن يتلى عليهم كلهما نزل منه شيء يتعلق بهم ويتلوه المسلمون على مسامعهم فلو استطاعوا إنكار ما نُسب إليهم لصدعوا به .

وضمير جمع جمع الغائبين عائد إلى الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله واستعجلوا بالعذاب بقرينة قوله ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ .

والاستفهام في قوله ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ إنكار وتعجيب .

وتخصيص تسخير الشمس والقمر بالذكر من بين مظاهر خلق السماوات والأرض لما في حركتهما من دلالة على عظيم القدرة ، مع ما في ذلك من المنة على الناس إذ ناط بحركتهما أوقات الليل والنهار وضبط الشهور والفصول .

وتسخير الشيء : إلجاؤه لعمل شديد .

وأحسب أنه حقيقة سواء كان المسخّر –بالفتح– ذا إرادة كان جماداً .

وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ في سورة الأعراف [54] .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)

هذا إلزام آخر لهم بإبطال شركهم وافتضاح تناقضهم فإنهم كانوا معترفين بأن الرازق هو الله تعالى ﴿ قل مَن يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ﴾ إلى قوله ﴿ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ في سورة يونس [31] .

وإنما جاء أسلوب هذا الاستدلال مخالفاً لأسلوب الذي قبله والذي بعده فعدل عن تركيب ﴿ ولئن سألتهم ﴾ [العنكبوت : 61] تفنناً

في الأساليب لتجديد نشاط السامع .

وأدمج في الاستدلال على انفراده تعالى بالرزق التذكير بأنه تعالة يرزق عباده على حسب مشيئته دليلاً على أنه المختار في تصرفه وليس ذلك على مقادير حاجاتهم ولا على ما يبدو من الانتفاع بما يُرزقونه .

وبسط الرزق : إكثاره ، وقَدْره : تقليله وتقتيره .

والمقصود : أنه الرازق لأحوال الرزق ، وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ في سورة [الرعد : 26] .

فجاءت هذه الاية على وزان قوله في سورة ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [الروم : 27] فجمع بين ضمير المشركين في أولها وبين كون الآيات للمؤمنين في آخرها .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله ﴿ الله يبسط الرزق ﴾ لإفادة الاختصاص ،

أي الله لا غيره يبسط الرزق ويقدر .

والتعبير بالمضارع لإفادة تجدد البسط والقدر .

وزيادة ﴿ له ﴾ بعد ﴿ ويقدر ﴾ في هذه الآية دون آية سورة الرعد وآية القصص للتعريض بتبصير المؤمنين الذين ابتلوا في أموالهم من اعتداء المشركين عليها كما أشار غليه قوله آنفاً : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ [العنكبوت : 60] بأن ذلك القَدْر في الرزق هو لهم لا عليهم لما ينجر لهم منه من الثواب ورفع الدرجات ، فغُلِّب في هذا الغرض جانب المؤمنين ولهذا لم يُعدّ ﴿ يقدر ﴾ بحرف (على) كما مقتضى معنى القدر كما في قوله تعالى : ﴿ ومن قُدِر عليه رزقُه فلينفقْ مما ءتاه الله ﴾ [الطلاق : 7] .

وقال بعض المفسرين : إن المشركين عيروا المسلمين بالفقر ، وقيل : إن بعض المسلمين قالوا : إن هاجرنا لم نجد ما ننفق .

والضمير المجرور باللام عائد إلى (من يشاء من عباده) باعتبار أن (من يشاء) عام ليس بشخص معين لا سيما وقد بيّن عمومه بقوله ﴿ من عباده ﴾ .

(92/599)

والمعنى : أنه يبسط الرزق لفريق ويقدر لفريق .

والتذييل بقوله ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ لإفادة أن ذلك كله جار على حكمة لا يطلع عليها الناس ، وأن الله يعلم صبر الصابرين وجزع الجازعين كما تقدم في قوله في أول السورة : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 3] ، قال تعالى : ﴿ لَتُبلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً وإن تَصْبِروا وتتقوا فإِنَّ ذلك من عزم الأمور ﴾ [آل عمران : 186] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾

أعيد أسلوب السؤال والجواب ليتصل ربط الأدلة بعضها ببعض على قرب .

فقد كان المشركون لا يدَّعُون أن الأصنام تُنزل المطر كما صرحت به الآية فقامت الحجة عليهم ولم ينكروها وهي تقرع أسماعهم .

وأدمج في الاستدلال عليهم بانفراده تعالى بإِنزال المطر أن الله أحيا به الأرض بعد موتها وإن كان أكثر المشركين ينسبون المسببات غلى أسبابها العادية كما تبين في بحث الحقيقة والمجاز العقليين في قولهم : أنبت الربيع البق ، أنه حقيقة عقلية في كلام أهل الشرك لأنهم مع ذلك لا ينسبون الإنبات إلى اصنامهم ، وقد اعترفوا بأن سبب الإنبات وهو المطر منزل من عند الله فيلزمهم أن الإنبات من الله على كل تقدير .

وفي هذا الإدماج استدلال تقريبي لإِثبات البعث كما قال : ﴿ فانظر إلى أثر رحمة الله كيف

يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ [الروم : 50]
وقال : ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ [الروم : 19] .

(93/599)

ولما كان سياق الكلام هنا في مساق التقرير كان المقام مقتضياً للتأكيد بزيادة ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من بعد موتها ﴾ إلجاء لهم إلى الإقرار بأن فاعل ذلك هو الله دون أصنامهم فلذلك لم يكن مقتضى لزيادة (مِن) في آية البقرة ، وفي الجاثية [5] ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ وقد أشار قوله ﴿ من بعد موتها ﴾ إلى موت الأرض ، أي موت نباتها يكون بإمساك المطر عنها في فصول الجفاف أو في سنين الجدب لأنه قابله بكون إنزال المطر لإرادته إحياء الأرض بقوله ﴿ فأحيا به الأرض ﴾ ، فلا جرم أن يكون موتها بتقدير الله للعلم بأن موت الأرض كان بعد حياة سبقت من نوع هذه الحياة ، فصارت الآية دالة على أنه المتصرف بإحياء الأرض وإماتتها ، ويعلم منه أن محيي الحيوان ومميته بطريقة لحن الخطاب .

فانتظم من هذه الآيات المفتتحة بقوله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ﴾ [العنكبوت : 61] إلى هنا أصول صفات أفعال الله تعالى وهي : الخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، من أجل ذلك عقيب بأمر الله نبيئه صلى الله عليه وسلم بأن يحمده

بكلام يدل على تخصيصه بالحمد .

.

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ يَعْقِلُونَ ﴾ لما اتضحت الحجة على المشركين بأن الله منفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ولزم من ذلك أن ليس لأصنامهم شرك في هذه الأفعال التي هي اصول نظام ما على الأرض من الموجودات فكان ذلك موجباً لإبطال شركهم بما لا يستطيعون إنكاره ولا تأويله بعد أن قرعت أسماعهم دلائله وهم واجمون لا يبدون تكذيباً فلزم من ذلك صدقُ الرسول عليه الصلاة والسلام فيما دعاهم إليه .

وكَذِبهم فيما تطاولوا به عليه في أمر الله ورسوله بأن يحمده على أن نصرهُ بالحجة نصراً يؤذن بأنه سينصره بالقوة .

وتلك نعمة عظيمة تستحق أن يحمد الله عليها إذ هو الذي لقنها رسوله صلى الله عليه وسلم بكتابه وما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان .

(94/599)

فهذا الحمد المأمور به متعلّقه محذوف تقديره : الحمد لله على ذلك .

وهو الحجج المتقدمة ، وليس خاصاً بحجة إنزال الماء من السماء ، وكذلك شأن القيود

الواردة بعد جعل متعددة أن ترجع غلى جميعها ، وكذلك ترجع معها متعلِّقاتها -بكسر اللام- وقرينة المقام كنار على علَم ، ألا ترى أن كل حجة من تلك الحجج تستأهل أن يحمد الله على إقامتها فلا تختص بالحمد حجة إنزال المطر فقد قال تعالى في سورة لقمان [25] ﴿ ولَئِن سألتَهُم مَن خَلَقَ السَّماوات والأرضَ ليقولُنَّ الله قُلْ الحمدُ لله بَلْ أكثَرهُم لا يَعْلَمون ﴾ فلذلك لا يجعل قوله ﴿ قل الحمد لله ﴾ اعتراضاً .

و﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ إضراب انتقال من حمد الله على وضوح الحجج إلى ذم المشركين بأن أكثرهم لا يتفطنون لنهوض تلك الحجج الواضحة فكأنهم لا عقل لهم لأن وضوح الحجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كلُّ ذي مُسكة من عقل فنزلوا منزلة من لا عقول لهم .

وإنما أسند عدم العقل إلى أكثرهم دون جميعهم لأن من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحجج فمنهم من آمنوا ، ومنهم من أصرّوا على الكفر عناداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(95/599)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

يقول تعالى للذين لا تكفيهم آية القرآن التي نزلت على رسول الله ، ويطلبون منه آيات أخرى ، يقول لهم : لقد جعل الله لكم الآيات في الكون قبل أنْ يرسل الرسل ، آيات دالة على الإعجاز في السماوات وفي الأرض ، فهل منكم مَنْ يستطيع أنْ يخلق شيئاً منها مهما صَغُر ؟

إن خلق السماوات والأرض معجزة كونية لا تنتهي ، فلماذا تطلبون المزيد من الآيات ، وما جعلها الله إلا لبيان صِدْق الرسل في البلاغ عن الله ليؤمن الناس بهم .

لذلك يقول سبحانه في الرد عليهم : ﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ . . . ﴾ [لقمان : 11] فخلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجاز للدنيا كلها ، وخصوصاً الكفرة فيها .

ومسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحد إنكارها – كما سبق أنْ أوضحنا – لذلك يقولون هنا في إجابة السؤال ﴿ لَيَقُولُنَّ الله . . . ﴾ [العنكبوت : 61] وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه ، فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم ، الحمد لله الذي أنطقهم بكلمة الحق ، وأظهر الحجة التي تبطل كفرهم .

وقوله تعالى ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : 61] أي : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله ، وينصرفون عن الحق ؟

﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزق . . . ﴾ .

﴿ يَبْسُطُ الرزق . . . ﴾ [العنكبوت : 62] : يُوسِّعه ، ﴿ وَيَقْدِرُ . . . ﴾ [العنكبوت : 62] يعني يضيق ، وآفة الناس في هذه المسألة أنهم لا يفسرون الرزق إلا بالمال ، والرزق في الواقع كل ما ينتفع به الإنسان ، فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والجبروت رزق ، والاستكانة رزق ، وإتقان الصَّنْعة رزق . . إلخ .

(96/599)

والله سبحانه يُوسِّع الرزق لِمَنْ يشاء ، ويُضيِّقه على مَنْ يشاء ، فالذي ضُيِّق عيه يحتاج لمن بسط له ، وكذلك يبسط الرزق في شيء ويُضيِّقه في شيء آخر ، فهذا بسط له في العقل مثلاً ، وضيق عليه في المال .

فكأن الحق – سبحانه وتعالى – نثر مواهب الملكات بين خَلْقه ، لم يجمعها كلها في واحد ، وسبق أن أوضحنا أن مجموع الملكات عند الجميع متساوية في النهاية ، فَمنْ بُسِط له في شيء ضُيِّق عليه في آخر ؛ ليظل المجتمع مربوطاً برباط الاحتياج ، ولا يستغني الناس بعضهم عن بعض ، وحتى تتكامل المواهب بين الناس ، فتساند لا تتعاند .

إذن : فالحق – سبحانه وتعالى – حين يبسط الرزق لعبد ، ويَقْدره على آخر ، لا يعني هذا

أنه يحب الأول ويكره الآخر ، ولو نظرتَ إلى كل جوانب الرزق وزوايا العطاء لوجدتها متساوية .

وحين نتأمل قوله سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . ﴾ [الزخرف : 32] فأيُّ بعض مرفوع ؟ وأيُّ بعض مرفوع عليه ؟ الكل مرفوع في جهة اختصاصه ، ومرفوع عليه في غير جهة اختصاصه ، إذن : فالجميع سواء .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لهذه القضية . وقلنا : إن العظيم الذي يسكن القصر يحتاج إلى العامل البسيط الذي يصلح له دورة المياه ، وينقذه من الرائحة الكريهة التي يتأفف منها ، فيسعى هو إليه ويبحث عنه ، وربما ذهب إليه في محل عمله وأحضره بسيارته الفارهة ، بل ويرجوه إنْ كان مشغولاً .

ففي هذه الحالة ، ترى العامل مرفوعاً على الباشا العظيم ، فلا يظهر الرفع إلا في وقت الحاجة للمرفوع .

(97/599)

وأيضاً لو لم يكُنْ بين الناس غني وفقير ، مَنْ سيقضي لنا المصالح في الحقل ، وفي المصنع ، وفي السوق . . إلخ لا بُدَّ أنْ تُبنى هذه المسائل على الاحتياج ، لا على التفضُّل . إذن : إنْ أردت أن تقارن بين الخَلْق فلا تحقِرنَّ أحداً ؛ لأنه قد يفضل عليك في موهبة ما ، فتحتاج أنت إليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء . . . ﴾ .

وهنا أيضاً قالوا ﴿ الله ﴾ لأن إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها آية كونية واضحة لم يدَّعِها أحد ، فهي ثابتة لله تعالى ، لا يُنكرها أحد حتى الكافرون ، فلئن سألتهم هذا السؤال ﴿ لَيَقُولُنَّ الله . . . ﴾ [العنكبوت : 63] لذلك يأمرنا الحق سبحانه بأن نقول بعد هذا الإقرار ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 63] الذي أنطقهم بالحق ، وأقام عليهم الحجة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 63] لأنهم أقرُّوا بآيات الله في خَلْق الكون ، ومع ذلك كفروا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(98/599)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (العنكبوت : 61) ، وفي سورة لقمان : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (لقمان : 25) ، وفي سورة الزخرف : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف : 9) ، وتواردت هذه الآي الثلاث على معنى واحد وهو تقريرهم على ما كانوا يعترفون به من انفراده سبحانه بخلق السماوات والأرض واعترافهم بذلك إن سئلوا ، ثم اتبع ذلك في سورة العنكبوت بقوله : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (العنكبوت : 63) ، فأعلم تعالى أنهم لو سئلوا أيضاً عن هذا لاعترفوا ، ثم اختلف ما أعقبت به هذه الآي من وصفهم حيث وصفوا فيها بعد فرض سؤالهم واعترافهم ، فأعقب الأولى بقوله : (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) ، وآية لقمان بقوله : (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ، وآية العنكبوت الثانية بقوله : (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ، ولم يرد في آية الزخرف إتباع بوصف ، فللسائل أن يسأل عن اتاد مقصود هذه الآي أو تفصيله ؟ وعن وجه اختلاف الدليل فيما ورد في التعقيب به

في هذه الآي ؟

والجواب عن الأول : أن المقصود فيها ليس واحداً ، أما الثلاث آيت الأول فالمراد

(99/599)

منها استدلال بهذا الخلق العظيم ، وما هو عليه من جليل التناسب ، وإتقان الصنعة وإحكامها من غير تفاوت ولا فطور ، على واحدانية تعالى ، وانفراده بالخلق والأمر ، واتصافه بالعلم والقدرة إلى ما يجب له تعالى من صفات الكمال ، والتعالي عن شبه الخليقة ، ولوضوح هذا الدليل ما أخبر تعالى عنهم أنهم لو سئلوا لاعترفوا فقال تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (لقمان : 25) ، وأما قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (العنكبوت : 63) ، فمقصودها إقامة البرهان على الإحياء من بعد الموت ، وبيان ذلك بمثال (مشاهد) للعالم يحصل عن اعتباره جواز ما قصد تمثيله ، وبذلك أفصحت آية الأعراف في تعقيبها بقوله : (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الأعراف : 57) ، وذلك أبين شيء ، فقد اختلف المقصد كما تقدم .

(100/599)

ووجه تخصيص سورة العنكبوت بهذه الآية مناسبتها لما تردد فيها وتكرر من ذكر العودة الأخراوية أو الإشارة إليها في ما نيف على عشرى مواضع ، أولها : قوله : (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (العنكبوت : 5) ، وآخرها ما ورد قبل الآية المتكلم فيها من قوله : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (العنكبوت : 57) وما اتصل بها ، وأنصّها في المقصود قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (العنكبوت : 19) إلى قوله : (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) (العنكبوت : 20) ، فناسب ما تردد في هذه السورة من هذه الآي إيراد آية المثال المذكورة ، ولما لم يرد في السورتين الأخريين مثل الوارد المتكرر في سورة العنكبوت لم يكن ليناسبها ورود آية المثال مناسبتها حيث وردت .

والجواب عن السؤال الثاني ، وهو توجيه اختلاف الحال فيما وقع فيه التعقيب في هذه الآي ، أن ذلك مبنى على الترتيب الثابت في الكتاب العزيز (لما) ذكر تعالى حالهم لو سئلوا عن خلق السماوات والأرض وتسخير النيرين ، ولا إشكال فيه لمن وفق ، قال تعالى : (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (العنكبوت : 61) أي كيف يصرفون عن الدلالة مع وضوحها ، ثم قال عقب آية لقمان : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (لقمان : 25) ، وحصل مما أعقبت به الآيتان ما في قوة أن لو قيل : كيف يصرفون مع بيان الأمر ما ذلك إلا لمنعهم عن العلم : (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً

أَنْ يَفْقَهُوهُ) (الكهف : 57) .

وأما ختام آية الزخرف بقوله : (لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف : 9)

(101/599)

فاعتراف تام منهم بوصفه سبحانه بالقدرة والعلم ، وإذا اعترفوا بذلك لم يبق إلا العناد بما قدر عليهم ، ومناسبة هذا الختام على ما تمهد من رعي الترتيب ، وكأن هذه الآية الأخيرة في قوة أن لو قيل : وإذا حقق عليهم وتوبعوا في سؤالهم اعترفوا بالأمر على ما هو عليه ، فكفرهم بعد ذلك اتباع للهوى وضلال على علم ، والتناسب في هذا كله بين .

وأما آية العنكبوت الثانية وهي قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (العنكبوت : 63) ثم قال : (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (العنكبوت : 63) فوصف أكثرهم هنا بعدم العقل ، فوجه ذلك – والله أعلم – التعريف بإفراط قصورهم حتى استحقوا الوصف بصفات البهائم ومن لا يصح خطابه ، وذلك أن العقل فضل الإنسان ، وبه امتيازه عن البهيمة ، ولا يمكن العلم بشيء إلا بعد حصوله والاتصاف به ، وهو مناط التكليف . وهو عند المتكلمين عبارة عن علوم ضرورية ، وليس كل العلوم الضرورية ، وهو مع هذا خصيصة جليلة إن عدمت لم يكن

التكليف ولا وجود علم ، وأضداد العلم العامة والخاصة أضداد للعقل ، وهو من قولهم عقلت البعير إذا أمسكته بعقال ، وبه وضع خطاب المكلفين ، فإذا فقد لحق فاقده بالبهائم ، ثم نقول إن إنزال الماء من السماء وهو ماء واحد المادة ، فمن عقل هذا هقل وجود الإنسان من نطفة واحدة كواحدة الماء المازل من السماء ، ثم يكون عن تلك النطفة شكل الإنساء ، وما ينطوي عليه خلقه وتشتمل عليه جملته والمادة واحدة ، فالتلاقي والشبه بين الماءين وما يوجده سبحانه عنهما أوضح شيء لمن عقل ، فكيف يستبعد العودة من يشاهد ذلك أو يعتبر به .

(102/599)

وقد أرانا سبحانه في ماء السماء وما يكون عنه الإحياء بعد الموت ما أوضحه في قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . .) (الروم : 24) ما فيه أبين دليل لمن وفقه سبحانه للنظر والاعتبار ، لا توقف فيه ، وجعل ذلك متكرراً ، ونبه تعالى عليه بقوله : (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى) (الأعراف : 57) ، وقال تعالى : (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) (الروم : 8) ، وقوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ

الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (فاطر : 9) .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 391. 393 ﴾

(103/599)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

أخرج الفريابي وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة ﴾ قال : إذا عمل في الأرض بالمعاصي فأخرجوا منها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ قال : من أمر بمعصية فليهرب .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ قال : فهاجروا وجاهدوا .

وأخرج ابن أبي الدنيا في العزلة وابن جرير عن عطاء في الآية قال : إذا أمرتم بالمعاصي

فاذهبوا ، فإن أرضي واسعة .

وأخرج أحمد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم " .

وأخرج الطبراني والقضاعي والشيرازي في الألقاب والخطيب وابن النجار والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سافروا تصحوا وتغنموا " .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57)

أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما نزلت هذه الآية ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ قلت : يا رب أيموت الخلائق كلهم وتبقى الأنبياء ؟ نزلت ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ " .

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

(104/599)

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل

بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال " يا ابن عمر مالك لا تأكل ! قلت : لا أشتهيه يا رسول الله . قال : لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبؤون رزق سنتهم ، ويضعف اليقين ؟ قال : فوالله ما برحنا ، ولا رمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ألا وإني ، لا أكنز ديناراً ، ولا درهماً ، ولا أدخر رزقاً لغد " " .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ قال : الطير ، والبهائم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن الأقمر في قوله ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ قال : لا تدخر شيئاً لغد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي مجلز في الآية قال : من الدواب لا يستطيع أن يدخر لغد ، يوفق رزقه كل يوم حتى يموت .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ قال : يعدلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

إذا سُئِلوا عن الخالق أقروا بالله ، وإذا سُئِلوا عن الرازق لم يستقروا مع الله . . .

هذه مناقَضَةٌ ظاهرة !

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)

الرزق على قسمين : رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب ، ورزق السرائر ومنه الاستقلال بالمعاني بحيث لا يحصره تكلف الكلام ، والناسُ فيهم مرزوقٌ ومُرَفّهٌ عليه ، وفيهم مرزوق ولكنْ مُضَيَّقٌ عليه .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)

كما عَلِموا أَنَّ حياةِ الأرضِ بعد موتها بالمطر من قِبَل الله فليعلموا أَنَّ حياةَ النفوسِ بعد موتها – عند النّشْرِ والبعث – بقدرة الله . وكما علموا ذلك فليعلموا أَنَّ حياةَ الأوقات بعد نفرتها ، وحياة القلوب بعد فترتها . . . بماء الرحمة بالله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 104 . 105 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تبين بهذا الآيات أن الدنيا مبنية على الفناء والزوال ، والقلعة والارتحال ، وصح أن السرور بها في غير موضعه فلذلك قال تعالى مشيراً بعد سلب العقل عنهم إلى أنهم فيها كالبهائم يتهارجون : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا ﴾ فحقرها بالإشارة ولفظ الدناءة مع الإشارة إلى أن الاعتراف بهذا الاسم كافٍ في الإلزام بالاعتراف بالأخرى .

ولما كان مقصود السورة الحث على الجهاد والنهي عن المنكر ، وكان في معرض سلب العقل عنهم ، قدم اللهو لأن الإعراض عنه يحسم مادة الشر فإنه الباعث عليه فقال : ﴿ إلا لهو ﴾ أي شيء يلهي عما ينفع ﴿ ولعب ﴾ يشتغل به صبيان العقول ، وكل غافل وجهول ، فإن اللهو كل شيء من شأنه أن يعجب النفس كالغناء والزينة من المال والنساء وغيره ، فيحصل به فرح وزيادة سرور ، فيكون سبباً للغفلة والذهول والنسيان والشغل عن استعمال العقل في اتباع ما ينجي في الآخرة فينشأ عنه ضلال – على ما أشارت إليه آية لقمان ﴿ ليشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ [آية : 6] ومنه اللعب ، وهو فعل ما يزيد النفس في دنياها سروراً كالرقص بعد السماع وينقضي بسرعة لأنه ضد الجد ومثل الهزل ، وهو كل شيء سافل ، وكل باطل يقصد به زيادة البسط والترويح والتمادي في قطع الزمان فيما يشتهي من غير تعب ، واللعبة – بالضم : التمثال ، وما يلعب به كالشطرنج ، والأحمق يسخر به ، ولعب لعباً : مرح ، وفي الأمر والدين : استخف به .

ولما كانوا ينكرون الحياة بعد الموت ، أخبر على سبيل التأكيد أنه لا حياة غيرها فقال : ﴿ وإن الدار الآخرة لهي ﴾ أي خاصة ﴿ الحيوان ﴾ أي الحياة التامة الباقية العامة الوافية نفسها من حيث أنه لا موت فيها ولا فناء لشيء من الأشياء ، ولذلك اختير هذا البناء الدال على المبالغة ، وحركته مشعرة بما في الحياة من مطلق الحركة والاضطراب ، فلا

انقضاء لشيء من لعبها ولا لهواها الذي لا يوافق ما في الدنيا إلا في الصورة فقط لا في المعنى ، لأنه ليس فيها شيء سافل لا في الباعث ولا في المبعوث إليه ، بل كان ذلك بالتسبيح والتقديس وما يترتب عليه من المعارف والبسط والترويح ، والانشراح والأنس والتفريح .

(108/599)

ولما كانوا قد غلطوا في الدارين كلتيهما فأنزلوا كل واحدة منهما غير منزلتها ، فعدوا الدنيا وجوداً دائماً على هذا الحالة والآخرة عدماً ، لا وجود لها بوجه ، قال : ﴿ لو كانوا ﴾ أي كوناً هو كالجبلة ﴿ يعلمون ﴾ أي لهم علم ما لم يغلطوا في واحدة منهما فلم يركبوا مع إيثارهم للحياة وشدة نفرتهم من الموت ، لاعتقادهم أن لا قيام بعده إلى الدنيا ، مع أن أصلها عدم الحياة الذي هو الموتان .

ولما ختم هذه الآية بما أفهم أنهم لا يعلمون ، والتي قبلها بأن أكثرهم لا يعقلون ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فإذا ﴾ أي فتسبب عن عدم عقلهم المستلزم لعدم علمهم أنهم إذا ﴿ ركبوا ﴾ أي البحر ﴿ في الفلك ﴾ أي السفن ﴿ دعوا الله ﴾ أي الملك الأعلى المحيط بكل شيء إذا أصابتهم مصيبة خافوا منها الهلاك ﴿ مخلصين ﴾ بالتوحيد ﴿ له الدين ﴾ بالإعراض عن شركائهم بالقلب واللسان ، لما هم له محققون أنه لا منجى عند تلك الشدائد

غيره ﴿ فلما نجّاهم ﴾ أي الله سبحانه ، موصلاً لهم ﴿ إلى البر إذا هم ﴾ أي حين الوصول إلى البر ﴿ يشركون ﴾ فصح أنهم لا يعلمون ، لأنهم لا يعقلون ، حيث يقرون بعجز آلهتهم ويشركونها معه ، ففي ذلك أعظم التهكم بهم ؛ قال البغوي : قال عكرمة : كانوا إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب ! يا رب .

وقال الرازي في اللوامع : وهذا دليل على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان ، وأنهم إن غفلوا في السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء – انتهى .

فعلم أن الاشتغال بالدنيا هو الصادّ عن كل خير وأن الانقطاع عنها معين للفطرة الأولى المستقيمة ، ولهذا نجد الفقراء أقرب إلى كل خير .

(109/599)

ولما كانوا مع هذا الفعل – الذي لا يفعله إلا مسلوب العقل – يدعون أنهم أعقل الناس وأبصرهم بلوازم الأفعال وما يشين الرجال ، وكان فعلهم هذا كفراً للنعمة ، مع ادعائهم أنهم أشكر الناس للمعروف ، قال مبيناً أن عادتهم مخالفة لعادة المؤمنين في جعلهم نعمة النجاة سبباً لزيادة طاعاتهم ، فعلم أنه ما كان إخلاصهم في البحر إلا صورة لا حقيقة لها :

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ على عظمتنا من هذه النعمة التي يكفي في عظمتها أنه لا يمكن غيرنا أن يفعلها ما أشركوا إلا لأجل هذا الكفر ، وإلا لكانوا فاعلين لشيء من غير قصد ، فيكون ذلك فعل من لا عقل له أصلاً وهم يحاشون عن مثل ذلك ﴿ وليتمتعوا ﴾ بما يجتمعون عليه في الإشراك من التواصل والتعاون ، وعند من سكن اللام - وهم ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع - يكون معطوفاً تهديداً على مقدر هو " فليكفروا " أو على ﴿ ليكفروا ﴾ السابق ، على أن لامه للأمر ، وسيأتي في الروم إن شاء الله تعالى ما يؤيده ﴿ فسوف يعلمون ﴾ بوعد لا خلف فيه ما يحل بهم بهذا الفعل الذي هو دائر بين كفر وجنون .

(110/599)

ولما كان قد فعل بهم سبحانه من الأمن الشديد المديد في البر دون سائر العرب عكس ما ذكر من حال خوفهم الشديد في البحر ، وكان قادراً على إخافتهم في البر كما قدر على إخافتهم في البحر ليدوم إخلاصهم ، وكان كفرهم عند الأمن بعد الإخلاص عند الخوف - مع أنه أعظم النقائص - هزلاً لا يفعله إلا من أمن مثل تلك المصيبة في البر ، توجه الإنكار في نحو أن يقال : ألم يروا أنا قادرون على إخافتهم وإهلاكهم في البر كما نحن قادرون على ذلك

في البحر كما فعلنا بغيرهم ، فعطف عليه قوله : ﴿ أولم يروا ﴾ أي بعيون بصائرهم ﴿ أنا جعلنا ﴾ أي بعظمتنا لهم ﴿ حرماً ﴾ وقال تعالى : ﴿ آمناً ﴾ لأنه لا خوف على من دخله ، فلما أمن كل حالّ به كان كأنه هو نفس الأمن ، وهو حرم مكة المشرفة ، وأمنه موجب للتوحيد والإخلاص ، رغبة في دوامه ، وخوفاً من انصرامه ، كما كان الخوف في البحر موجباً للإخلاص خوفاً من دوامه ، ورغبة في انصرامه ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ يتخطف ﴾ وبناه للمفعول لأن المقصود الفعل لا فاعل معين .

ولما كان التخطف غير خاص بناس دون آخرين ، بل كان جميع العرب يغزو بعضهم بعضاً ، ويغير بعضهم على بعض بالقتل والأسر والنهب وغير ذلك من أنواع الأذى ، قال : ﴿ الناس من حولهم ﴾ أي من حول من فيه من كل جهة تخطفَ الطيور مع قلة من بمكة وكثر من حولهم ، فالذي خرق العادة في فعل ذلك حتى صار على هذا السنن قادر على أن يعكس الحال فيجعل من بالحرم متخطفاً ومن حوله آمناً ، أو يجعل الكل في الخوف على منهاج واحد .

ولما تبين أنه لا وجه لشركهم ولا لكفرهم هذه النعمة الظاهرة المكشوفة ، تسبب الإنكار في قوله : ﴿ أفبالباطل ﴾ أي خاصة من الأوثان وغيرها ﴿ يؤمنون ﴾ والحال أنه لا يشك عاقل في بطلانه ، وجاء الحصر من حيث إن من كفر بالله تبعه الكفر بكل حق والتصديق

بكل باطل ﴿ وبنعمة الله ﴾ التي أحدثها لهم من الإنجاء وغيره ﴿ يكفرون ﴾ حيث جعلوا موضع شكرهم له على النجاه شركهم بعبادة غيره .

(111/599)

ولما كان الظلم وضع الشيء في غير محله ، وكان وضع الشيء في موضع لا يمكن أن يقبله أظلم الظلم ، كان فعلهم هذا الذي هو إنزال ما لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شيء في منزلة من يعلم كل شيء ويقدر على كل مقدور أظلم الظلم ، فكان التقدير : فمن أظلم منهم في ذلك ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن أظلم ﴾ أي أشد وضعاً للأشياء في غير مواضعها ، لأنه لانور له بل هو في ظلام الجهل يخبط ﴿ ممن افترى ﴾ أي تعمد ﴿ على الله كذباً ﴾ أي أيّ كذب كان من الشرك وغيره كما كانوا يقولون إذا فعلوا فاحشة : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴿ أو كذب بالحق ﴾ من هذا القرآن المعجز المبين ، على لسان هذا الرسول الأمين الذي ما أخبر خبراً إلا طابقه الواقع ﴿ لما ﴾ أي حين ﴿ جاءه ﴾ من غير إمهال إلى أن ينظر ويتأمل فيما جاءه من الأمر الشديد الخطر .

ولما كان التقدير : لا أحد أظلم منه ، بل هو أظلم الظالمين ، فهو كافر ومأواه جهنم ، وكان من المعلوم أنهم يقولون عناداً : ليس الأمر كذلك ، قال إنكاراً عليهم ، ولأن فعلهم فعل المنكر

، وتقريراً لهم لأن همزة الإنكار إذا دخلت على النفي كانت للتقرير ، عدّاً به بمنزلة ما لا نزاع فيه أصلاً : ﴿ أليس في جنهم مثوى ﴾ أي منزل وموضع إقامة وحبس له وقد ارتكب هذا الكفر العظيم – هكذا كان الأصل ، ولكنه لقصد التعميم وتعليق الفعل بالوصف قال : ﴿ للكافرين ﴾ أي الذين يغطون أنوار الحق الواضح ، أو ليس هو من الكافرين ؟ أي إن كلاًّ من المقدمتين صحيح لا إنكار فيه ، ولا ينتظم إنكارهم إلا بإفساد إحديهما ، أما كفره للمنعم بعد إنجائه من الهلاك حيث عبد غيره فلا يسع عاقلاً إنكاره ، وأما كون جهنم تسعة بعد إخبار القادر به فلا يسع مقراً بالقدرة إنكاره ، فالمقدمتان مما لا مطعن فيه عندهم ، فأنتجتا أن مثواه جهنم ، وصار القياس هكذا : عابد غير من أنجاه كافر ، وكل كافر مثواه جهنم ، فعابد غير من أنجاه مثواه جهنم .

(112/599)

ولما كان هذا كله في الذين فتنوا فلم يجاهدوا أنفسهم ، كان المعنى : فالذين فتناهم فوجدوا كاذبين ضلوا فصاروا لا يعقلون ولا يعلمون ، لكونهم لم يكونوا من المجاهدين ، فعطف عليه قوله : ﴿ والذين جاهدوا ﴾ أي أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على ما دل عليه بالمفاعلة ﴿ فينا ﴾ أي بسبب حقنا ومراقبتنا خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار وغيرهم

من كل ما ينبغي الجهاد فيه بالقول والفعل في الشدة والرخاء ، ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن ، وشدائد المحن ، مستحضرين لعظمتنا .

ولما كان الكفار ينكرون فلاحهم وكان المفلح والظافر في كل شيء هو المهتدي ، قال معبراً بالسبب عن المسبب : ﴿ لنهدينهم ﴾ بما نجعل لهم من النور الذي لا يضل من صحبه ، هداية يليق بعظمتنا ﴿ سبلنا ﴾ أي لا سبل غيرها ، علماً وعملاً ، ونكون معهم بلطفنا ومعونتنا ، لأنهم أحسنوا المجاهدة فهنيئاً لمن قاتل في سبيل الله ولو فواق ناقة لهذه الآية وقوله تعالى

﴿ والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ﴾ [محمد : 4] ، ولهذا كان سفيان بن عيينة يقول : إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الغزو .

(113/599)

ولما كان المحسن كلما توفر حظه في مقام الإحسان نقص حظه من الدنيا ، فظن الأغبياء أنه ليس لله به عناية ، عظم التأكيد في قوله ، لافتاً الكلام عن أسلوب الجلال إلى أجلّ عنه بما زاد من الجمال ﴿ وإن الله ﴾ أي بعظمته وجلاله وكبريائه وجميع كماله لمعهم – هكذا كان الأصل ، ولكنه أراد الإعلام بإحسابهم وتعليق الحكم بالوصف والتعميم فأظهر قائلاً :

﴿ لمع المحسنين ﴾ أي كلهم بالنصر والمعونة في دنياهم ، والثواب والمغفرة في عقباهم ، بسبب جهادهم لأنه شكر يقتضي الزيادة ، ومن كان معه سبحانه فاز بكل مطلوب ، وإن رأى الجاهل خلاف ذلك ، فإنه يجعل عزهم من وراء ذل ويستر غناهم بساتر فقر ، حماية لهم مما يجر إليه دائم العز من الكبر ، ويحمل عليه عظيم الغنى من الطغيان ، وما أحسن ما نقل الأستاذ أبو القاسم القشيري في الرسالة عن الحارث المحاسبي أنه قال : من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة ، والآية من الاحتباك : أثبت أولاً الجهاد دليلاً على حذفه ثانياً ، وثانياً أنه مع المحسنين دليلاً على حذف المعية والإحسان أولاً ، فقد عانق أول السورة هذا الآخر ، وكان إليه أعظم ناظر ، فنسأل الله العافية من الفتن ، والمجاهدة إن كان لا بد من المحن ، وإليه المآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 576 . 581 ﴾

(114/599)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾

لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها إلا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون إليه ليس بشيء بقوله : ﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفرق بين اللهو واللعب ، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر ؟ فنقول الفرق من وجهين أحدهما : أن كل شغل يفرض ، فإن المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى ، فالذي يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الإعراض عن الحق فالإقبال على الباطل لعب والإعراض عن الحق لهو ، فالدنيا لعب أي إقبال على الباطل ، ولهو أي إعراض عن الحق الثاني : هو أن المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لا محالة حتى يشتغل به ، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتي به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والإعراض عن غيره بالكلية فالأول لعب والثاني لهو ، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهي في العرف ، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهي لأنها تلهي الإنسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية ، فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة ، وللبعض لهو يشتغل

به وينسى الآخرة بالكلية .

المسألة الثانية :

(115/599)

قال الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا الحياة الدنيا ﴾ [الأنعام : 32] ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا : ﴿ وَمَا هذه ﴾ فنقول لأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا ، حيث قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة : 164] فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال : ﴿ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال : ﴿ وَمَا الحياة الدنيا ﴾ .

المسألة الثالثة :

قال هناك : ﴿ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق

فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو .

المسألة الرابعة :

قال هناك : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ [الأنعام : 32] وقال ههنا : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ فنقول لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى رادع قوي فقال ﴿ الآخرة خير ﴾ ، ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوي فقال لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيئان فقال في أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحاً فحسب ، ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشيء يكون ترجيحاً مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلاً فيها .

المسألة الخامسة :

(116/599)

قال هناك : ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 32] ولم يقل ههنا إلا ﴿ لهي الحيوان ﴾ ، لأن الآخرة خير للمتقي فحسب أي المتقي عن الشرك ، وأما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة ، وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم .

المسألة السادسة :

كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك ؟ فنقول الحيوان مصدر حي كالحياة لكن فيها مبالغة ليست في الحياة والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية ، فكأنه قال الحياة الثانية هي الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] وكانت هي محل الإدراك التام الحق كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ [الطارق : 9] أطلق عليها الاسم المستعمل في النامي المدرك .

المسألة السابعة :

قال في سورة الأنعام : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : 32] وقال ههنا : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت ههنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع .

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)

إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا ، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا ، فإذا أنجاهم وأرجأهم

عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

(117/599)

وفيه وجهان أحدهما : أن اللام لام كي ، أي يشركون ليكون إشراكهم كفراً بنعمة الإنجاء ، وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم والثاني : : أن تكون اللام لام الأمر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد .

كما قال تعالى : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] وكما قال : ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 135] فساد ما تعملون .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)

التفسير ظاهر ، وإنما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها ، فنقول الإنسان في البحر يكون على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لا سيما إذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة إلى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الأمن العظيم وهي كونهم في مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها

سكناهم ومولدهم ، وهي حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها ، والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفها يعني أنكم في أخوف ما كنتم دعوتم الله وفي آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله ، وهذا متناقض لأن دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الإخلاص ما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير فهذه النعمة العظيمة التي حصلت وقد اعترفتم بأنها لا تكون إلا من الله كيف تكفرون بها ؟ والأصنام التي قطعتم في حال الخوف أن لا أمن منها كيف آمنتم بها في حال الأمن ؟ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68)

(118/599)

لما بين الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون ، لأن الظلم على ما بين وضع الشيء في غير موضعه ، فإذا وضع واحد شيئاً في موضع ليس هو موضعه يكون ظالماً فإذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول ، لأن كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن ، فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكاً فلو كان ذلك في حق ملك

مستقل في الملك لكان ظلماً يستحق من الملك العقاب الأليم فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك ، وأيضاً من كذب صادقاً يجوز عليه الكذب يكون ظلماً فمن يكذب صادقاً لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله ؟ فإذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله في تصديق نبيه والنبي في رسالة ربه والقرآن المنزل من الله إلى الرسول ، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالإلهية ، ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بالرسالة ، والآية تحتمل وجهاً آخر وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ أي إني جئت بالرسالة وقلت إنها من الله وهذا كلام الله ، وأنتم كذبتموني فالحال دائر بين أمرين ، أما أنا مفتر متنبىء إن كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق إن كان من عنده لكني معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لأن جهنم مثوى للكافرين والمتنبىء كافر ، وأنتم كذبتموني فجهنم مثواكم إذ هي مثوى للكافرين ، وهذا حينئذٍ يكون كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

(119/599)

لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾ إشارة إلى ما قال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] فقوله : ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ إشارة إلى الحسنى وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾ إشارة إلى المعية والقربة التي تكون للمحسن زيادة على حسناته ، وفيه وجه آخر حكمي وهو أن يكون المعنى ﴿ والذين جاهدوا فِينَا ﴾ أي الذين نظروا في دلائلنا ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي لنحصل فيهم العلم بنا .

ولنبين هذا فضل بيان ، فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا إن النظر كالشرط للعلم الاستدلالي والله يخلق في الناظر علماً عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك في المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة ، وإذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية ، وعلى هذا يكون الترتيب حسناً ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والإيمان قال : إنهم لم ينظروا فلم يهتدوا وإنما هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾ إشارة إلى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيداً لا يتقرب وهم الكفار ، ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه

ويكون قريباً منه يعلم الأشياء منه ولا يعلمه من الأشياء ، ومن يكون مع الشيء كيف يطلبه فقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ إشارة إلى الأول وقوله : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا ﴾ إشارة إلى الثاني وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾ إشارة إلى الثالث .

والله أعلم بأسرار كتابه ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 80 . 83 ﴾

(120/599)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾

قال الضحاك : الحياة الدائمة وقال أبو عبيدة : الحيوان والحياة واحد .

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَآمِناً ﴾

قال عبد الرحمن بن زيد : هي مكة وهم قريش أمنهم الله بها .

﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ قال الضحاك : يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً فأذكرهم الله بهذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة .

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أفبالشرك ، قاله قتادة .

الثاني : بإبليس ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : بعافية الله ، قاله ابن عباس .

الثاني : بعطاء الله وإحسانه ، قاله ابن شجرة .

الثالث : ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : بإطعامهم من جوع وأمنهم من خوف ، حكاه النقاش ، وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ بأن جعل لله شريكاً أو ولداً .

﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : بالتوحيد ، قاله السدي .

الثاني : بالقرآن ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن شجرة .

﴿ مَثْوًى . . . ﴾ أي مستقراً

. قوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : قاتلوا المشركين طائعين لنا .

الثاني : جاهدوا أنفسهم في هواها خوفاً منا .

الثالث : اجتهدوا في العمل بالطاعة والكف عن المعصية رغبة في ثوابنا وحذراً من عقابنا .

الرابع : جاهدوا أنفسهم في التوبة من ذنوبهم .

﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ فيه أربعة تأويلات

: أحدها : يعني الطريق إلى الجنة ، قاله السدي .

الثاني : نوفقهم لدين الحق ، حكاه النقاش .

(121/599)

الثالث : معناه الذين يعملون بما يعلمون يهديهم لما لا يعلمون ، قاله عباس أبو أحمد .

الرابع : معناه لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم ، قاله يوسف بن أسباط .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي في العون لهم ، الله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(122/599)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾

وصف الله تعالى ﴿ الدنيا ﴾ في هذه الآية بأنها ﴿ لهو ولعب ﴾ أي ما كان منها لغير وجه الله تعالى ، فأما ما كان لله فهو من الآخرة ، وأما أمور الدنيا التي هي زائدة على الضروري به قوام العيش والقوة على الطاعات فإنما هو ﴿ لهو ولعب ﴾ ، وتأمل ذلك في المطاعم والملابس والأقوال والمكتسبات وغير ذلك ، وانظر أن حالة الغني والفقير في الأمور الضرورية واحدة كالتنفس في الهواء وسد الجوع وستر العورة وتوقي الحر والبرد وهذه عظم أمر العيش ، و﴿ الحيوان ﴾ و﴿ الحياة ﴾ بمعنى واحد ، وهو عند الخليل وسيبويه مصدر كالهيمان ونحوه ، والمعنى لا موت فيها قاله مجاهد وهو حسن ، ويقال أصله حييان فبدلت إحداهما واواً لاجتماع المثلين ، ثم وقفهم تعالى على حالهم في البحر عند الخوف العظيم ، فإن كل بشر ينسى كل صنم وغيره ويتمسك بالدعاء والرغبة إلى الله تعالى ، وقوله ﴿ إذا هم يشركون ﴾ أي يرجعون إلى ذكر أصنامهم ، وتعظيمها ، وقوله ﴿ ليكفروا ﴾ نصب بلام كي ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم " وليتمتعوا " بكسر اللام ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي " وليْتمتعوا " بسكون اللام على صيغة الأمر التي هي للوعيد والتهديد ، والواو على هذا عاطفة جملة كلام ، لا عاطفة فعل على فعل وفي

مصحف أبي بن كعب " فتمتعوا فسوف تعلمون " ، وفي قراءة ابن مسعود " لسوف تعلمون " باللام ، ثم عدد تعالى على كفار قريش نعمته عليهم في الحرم في أنه جعله لهم آمناً لا خوف فيه من أحوال العرب وغارتهم وسوء أفعالهم من القتل وأخذ الأموال ونحوه ، وذلك هو " التخطف " الذي كان الناس بسبيله ، ثم قررهم على جهة التوبيخ على إيمانهم بالباطل وكفرهم بالله وبنعمته ، وقرأ جمهور القراء " يؤمنون " بالياء من تحت وكذلك " يكفرون " ، وقرأهما بالتاء من فوق الحسن وأبو عبد الرحمن .

(123/599)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ

قررهم عز وجل على حال من ﴿ افترى على الله كذباً أو كذب ﴾ بآياته ، وهذه كانت حالهم وأعلمهم أنه لا أحد ﴿ أظلم ﴾ منهم ، وهذا في ضمنه وعيد شديد ، ثم بين الوعيد أيضاً بالتقرير على أمر جهنم ، و" المثوى " موضع الإقامة ، وألفاظ هذه الآيات في غاية الاقتضاب والإيجاز وجمع المعاني ، ثم ذكر تعالى حال أوليائه والمجاهدين فيه ، وقرر ذلك بذكر الكفرة والظلمة ليبين تباين الحالتين ، وقوله ﴿ فينا ﴾ ، معناه في مرضاتنا وبغية ثوابنا . قال السدي وغيره : نزلت هذه الآية قبل فرض القتال .

قال الفقيه الإمام القاضي : فهي قبل الجهاد العرفي وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته ، قال الحسن بن أبي الحسن : الآية في العباد ، وقال عياش وإبراهيم بن أدهم : هي في الذين يعلمون ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من عمل بما علم علمه الله ما لم يعلم " ، ونزع بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ [البقرة : 282] ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا ، وقال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد في هذه الآية قتال العدو فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين ، وعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله عز وجل وهو الجهاد الأكبر ، قاله الحسن وغيره وفيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم " رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " ، وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك : إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله يقول ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وقال الضحاك : معنى الآية ﴿ والذين جاهدوا ﴾ في الهجرة ﴿ لنهدينهم ﴾ سبل الثبوت على الإيمان ، و" السبل " ها هنا يحتمل أن تكون طرق الجنة ومسالكها ، ويحتمل أن تكون سبل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد

النيرة ، قال يوسف بن أسباط : هي إصلاح النية في الأعمال وحب التزيد والتفهيم ، وهذا هو أن يجازى العبد على حسنة بازدياد حسنة وبعلم يقتدح من علم متقدم وهي حال من رضي الله عنه ، وباقي الآية وعد ، و" مع " تحتمل أن تكون هنا اسماً ولذلك دخلت عليها لام التأكيد ، ويحتمل أن تكون حرفاً ودخلت اللام لما فيها من معنى الاستقرار كما دخلت في " إن زيداً لفي الدار " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(125/599)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلا لَهْوٌ ولَعِبٌ ﴾

والمعنى : وما الحياةُ في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي عن قليل ﴿ وإنَّ الدَّار الآخرة ﴾ يعني الجنة ﴿ لَهِيَ الحَيَوانُ ﴾ قال أبو عبيدة : اللام في ﴿ لَهِيَ ﴾ زائدة للتوكيد ، والحيوان والحياة واحد ؛ والمعنى : لهي دارُ الحياة التي لا موتَ فيها ، ولا تنغيص يشوبها كما يشوب الحياةَ الدُّنيا ﴿ لو كانوا يَعْلَمون ﴾ أي : لو علموا لرغبوا عن الفاني في الباقي ، ولكنهم لا يَعْلَمون .

قوله تعالى : ﴿ فإذا رَكِبُوا في الفُلْك ﴾ يعني المشركين ﴿ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِين له الدِّين ﴾

أي : أفردوه بالدُّعاء .

قال مقاتل : والدِّين بمعنى التوحيد ؛ والمعنى أنهم لا يَدْعُون مَنْ يَدْعُونه شريكاً له ﴿ فلمَّا نَجَّاهم ﴾ أي : خلَّصهم من أهوال البحر ، وأَفْضَوا ﴿ إلى البَرِّ إذا هم يُشْرِكون ﴾ في البَرّ ، وهذا إخبار عن عنادهم .

﴿ لِيَكْفُروا بِمَا آتيناهم ﴾ هذه لام الأمر ، ومعناه التهديد والوعيد ، كقوله : ﴿ اعْمَلوا ما شِئْتُم ﴾ [فُصِّلت : 40] ؛ والمعنى : لِيَجْحَدوا نِعْمة الله في إنجائه إيَّاهم ﴿ ولِيَتَمَتَّعُوا ﴾ قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي باسكان اللام على معنى الأمر ؛ والمعنى : ليتمتعوا بباقي أعمارهم ﴿ فسوف يَعْلَمون ﴾ عاقبة كفرهم .

وقرأ الباقون بكسر اللام في ﴿ لِيَتَمَتَّعُوا ﴾ ، فجعلوا اللاَّمين بمعنى "كي" ، فتقديره : لكي يكفُروا ، ولكي يَتَمَتَّعوا ، فيكون معنى الكلام : إذا هم يُشْرِكون ليكفُروا وليتمتَّعوا ، أي : لا فائدة لهم في الإشراك إلاّ الكفر والتمتُّع بما يتمتَّعون به في العاجلة من غير نصيب لهم في الآخرة .

(126/599)

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا ﴾ يعني كفار مكة ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ﴾ يعني مكة؛ وقد شرحنا هذا المعنى في [القصص: 57] ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حولهم ﴾ أي: أن العرب يَسْبي بعضهم بعضاً وأهلُ مكة آمنون ﴿ أفبالباطل ﴾ وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: الشِّرك، قاله قتادة.

والثاني: الأصنام، قاله ابن السائب.

والثالث: الشيطان، قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنونَ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعاصم الجحدري: ﴿ تُؤْمِنونَ وبِنعمة الله تكفُرونَ ﴾ بالتاء فيهما.

قوله تعالى: ﴿ وبِنعمة الله ﴾ يعني: محمداً والإِسلام؛ وقيل: بانعام الله عليهم حين أطعمهم وآمنهم ﴿ يكفُرون ﴾، ﴿ ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افترى على الله كَذِباً ﴾ أي: زعم أن له شريكاً وأنه أمر بالفواحش ﴿ أو كذَّبَ بالحق لمَّا جاءه ﴾ يعني محمداً والقرآن ﴿ أليس في جهنم مثوىً للكافرين ﴾؟! وهذا استفهام بمعنى التقرير، كقول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا . . .

[وأندى العالَمينَ بُطونَ راحِ]

﴿ والذين جاهَدوا فينا ﴾ أي: قاتلوا أعداءنا لأجلنا ﴿ لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا ﴾ أي: لَنُوَفِّقَنَّهم لإِصابة الطريق المستقيمة؛ وقيل: لَنَزِيدنَّهم هِدايَة ﴿ وإِنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنِينَ ﴾

بالنُّصرة والعون .

قال ابن عباس : يريد بالمُحْسِنِين : الموحِّدين ؛ وقال غيره : يريد المجاهدين .

وقال ابن المبارك : من اعتاصت عليه مسألة ، فليسأل أهل الثُّغور عنها ، لقوله : ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(127/599)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾

أي شيء يُلهَى به ويُلعَب .

أي ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول ؛ كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات ، قال بعضهم : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها .

وأنشد :

تروحُ لنا الدنيا بغير الذي غَدَتْ . . .

وتَحدثُ من بعدِ الأمور أمورُ

وتجري الليالي باجتماعٍ وفُرقةٍ . . .

وتطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغورُ

فمن ظنّ أنّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ . . .

فذاكَ محالٌ لا يَدُومُ سرورُ

عَفَا اللَّهُ عَمَّن صَيَّرَ الهمَّ واحداً . . .

وأيقن أن الدائراتِ تَدورُ

قلت : وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش ، والقوّة على الطاعات .

وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة ، وهو الذي يبقى كما قال : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] أي ما ابتغى به ثوابه ورضاه .

﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها .

وزعم أبو عبيدة : أن الحيوان والحياة والحِيّ بكسر الحاء واحد .

كما قال :

وقد ترى إذ الحياةُ حِيُّ . . .

وغيره يقول : إن الحِيّ جمع على فِعول مثل عِصيّ .

والحيوان يقع على كل شيء حيّ .

وحيوان عينٌ في الجنة .

وقيل : أصل حَيَوان حَيَيَان فأبدلت إحداهما واواً ؛ لاجتماع المثلين .

﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي صادقين في نياتهم ، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها .

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي يدعون معه غيره ، وما لم ينزل به سلطاناً .

وقيل : إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاّح لغرقنا ، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه .

(128/599)

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ قيل : هما لام كي أي لكي يكفروا ولكي يتمتعوا .

وقيل : ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله ويتمتعوا بالدنيا .

وقيل : هما لام أمر معناه التهديد والوعيد .

أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا .

ودليل هذا قراءة أُبيّ "وَتَمَتَّعُوا" .

ابن الأنباري : ويقوي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة : ﴿ وَلْيَتَمَتَّعُوا ﴾ بجزم اللام .

النحاس : ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ لام كي ، ويجوز أن تكون لام أمر ؛ لأن أصل لام الأمر الكسر ، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد .

ومن قرأ : ﴿ وَلْيَتَمَتَّعُوا ﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي ؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها .

وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع ، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم .

الباقون بكسر اللام .

وقرأ أبو العالية : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : هي مكة وهم قريش أَمَّنهم الله تعالى فيها .

﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ قال الضحاك : يقتل بعضهم بعضاً ويَسبي بعضهم بعضاً .

والخطف الأخذ بسرعة .

وقد مضى في "القصص" وغيرها .

فأذكرهم الله عز وجل هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة .

أي جعلتُ لهم حرماً آمناً أمنوا فيه من السَّبي والغارة والقتل ، وخلّصتهم في البر كما خلصتهم في البحر ، فصاروا يشركون في البر ولا يشركون في البحر .

فهذا تعجب من تناقض أحوالهم .

﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : أفبالشرك .

وقال يحيى بن سلاّم : أفبإبليس .

﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : أفبعافية الله .

وقال ابن شجرة : أفبعطاء الله وإحسانه .

وقال ابن سلاّم : أفبما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى .

(129/599)

وحكى النقاش : أفبإطعامهم من جوع ، وأمنهم من خوف يكفرون .

وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ أي لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكاً وولداً ، وإذا فعل فاحشة قال : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : 28] .

﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق لَمَّا جَآءَهُ ﴾ قال يحيى بن سلاّم : بالقرآن .

وقال السّديّ : بالتوحيد .

وقال ابن شجرة : بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وكل قول يتناول القولين .

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي مستقر .

وهو استفهام تقرير .

قوله تعالى : ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا ﴾ أي جاهدوا الكفار فينا .

أي في طلب مرضاتنا .

وقال السّديّ وغيره : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال .

قال ابن عطية : فهي قبل الجهاد العرفي ، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته .

قال الحسن بن أبي الحسن : الآية في العبّاد .

وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم : هي في الذين يعملون بما يعلمون .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من عمِل بما عِلم علّمه الله ما لم يعلم " ونزع بعض العلماء إلى قوله ﴿ واتقوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله ﴾ [البقرة : 282] .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا ، قال الله تعالى : ﴿ واتقوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله ﴾ [البقرة : 282] .

وقال أبو سليمان الدارانيّ : ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين ، والرد

على المبطلين ؛ وقمع الظالمين ؛ وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر .

وقال سفيان بن عُيَيْنَة لابن المبارك : إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول : ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ .

(130/599)

وقال الضحاك : معنى الآية ؛ والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان .

ثم قال : مثل السُّنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى ، من دخل الجنة في العقبى سلم ، كذلك من لزم السُّنة في الدنيا سلم .

وقال عبد الله بن عباس : والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا .

وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال .

ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال : تقول الحكمة من طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين : أن يعمل بأحسن ما يعلمه ، ويجتنب أسوأ ما يعلمه .

وقال الحسن بن الفضل : فيه تقديم وتأخير أي الذين هدينا هم هم الذين جاهدوا فينا .

﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي طريق الجنة ؛ قاله السّدي .

النقاش : يوفقهم لدين الحق .

وقال يوسف بن أسباط : المعنى لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم .

﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾ لام تأكيد ودخلت في "مَعَ" على أحد وجهين : أن يكون اسماً ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء ، أو حرفاً فتدخل عليها ؛ لأن فيها معنى الاستقرار ؛ كما تقول إن زيداً لفي الدار .

و ﴿ مع ﴾ إذا سكنت فهي حرف لا غير .

وإذا فتحت جاز أن تكون اسماً ، وأن تكون حرفاً .

والأكثر أن تكون حرفاً جاء لمعنى .

وتقدّم معنى الإحسان والمحسنين في "البقرة" وغيرها .

وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة ، والحفظ والهداية ، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة .

فبين المعيّتين بونٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(131/599)

وقال أبو حيان :

﴿ وما هذه الحياة الدنيا ﴾

الإشارة بهذه ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها ، وكيف لا ؟ وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة ، أي ما هي في سرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها ، إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون .

والحيوان ، والحياة بمعنى واحد ، وهو عند الخليل وسيبويه مصدر حيي ، والمعنى : لهي دار الحياة ، أي المستمرة التي لا تنقطع .

قال مجاهد : لا موت فيها .

وقيل : الحيوان : الحي ، وكأنه أطلق على الحي اسم المصدر .

وجعلت الدار الآخرة حياً على المبالغة بالوصف بالحياة ، وظهور الواو في الحيوان وفي حيوة ، علم لرجل استدل به من ذهب إلى أن الواو في مثل هذا التركيب تبدل ياء لكسر ما قبلها ، نحو : شقي من الشقوة .

ومن ذهب إلى أن لام الكلمة لامها ياء ، زعم أن ظهور الواو في حيوان وحيوة بدل من ياء شذوذاً ، وجواب لو محذوف ، أي لو كانوا يعلمون ، لم يؤثروا دار الفناء عليها .

وجاء بنا مصدر حي على فعلان ، لأنه يدل على الحركة والاضطراب ، كالغليان ، والنزوان ، واللهيان ، والجولان ، والطوفان .

والحي : كثير الاضطراب والحركة ، فهذا البناء فيه لكثرة الحركة .

ولما ذكر تعالى أنهم مقرون بالله إذا سئلوا : من خلق العالم ؟ ﴿ ومن نزل من السماء ماء ﴾ ؟ ذكر أيضاً حالة أخرى يرجعون فيها إلى الله ، ويقرون بأنه هو الفاعل لما يريد ، وذلك حين ركوب البحر واضطراب أمواجه واختلاف رياحه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك ﴾ ؟ قلت : بمحذوف دل عليه ما وصفهم به ، وشرح من أمرهم معناه على ما وصفوا به من الشرك والعناد .

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ : كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين ، حيث لا يذكرون إلا الله ، ولا يدعون مع الله آخر .

وفي المخلصين ضرب من التهكم ، و ﴿ إذا هم يشركون ﴾ : جواب لما ، أي فاجأ السحية إشراكهم بالله ، أي لم يتأخر عنها ولا وقتاً .

(132/599)

والظاهر في ﴿ ليكفروا ﴾ أنها لام كي ، وعطف عليه ﴿ وليتمتعوا ﴾ في قراءة من كسر اللام وهم : العربيان ونافع وعاصم ، والمعنى : عادوا إلى شركهم .

﴿ ليكفروا ﴾ : أي الحامل لهم على الشرك هو كفرهم بما أعطاهم الله تعالى ، وتلذذهم بما متعوا به من عرض الدنيا ، بخلاف المؤمنين ، فإنهم إذا نجوا من مثل تلك الشدة ، كان ذلك جالب شكر الله تعالى ، وطاعة له مزدادة .

وقيل : اللام في : ﴿ ليكفروا ﴾ ، ﴿ وليتمتعوا ﴾ ، لام الأمر ، ويؤيده قراءة من سكن لام وليتمتعوا وهم : ابن كثير ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ؛ وهذا الأمر على سبيل التهديد ، كقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر ، وبأن يعمل العصاة ما شاؤا ، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ قلت : هو مجاز عن الخذلان والتحلية ، وإن ذلك الأمر مسخط إلى غاية . انتهى .

والتحلية والخذلان من ألفاظ المعتزلة .

وقرأ ابن مسعود : فتمتعوا فسوف تعلمون ، بالتاء فيهما : أي قيل لهم تمتعوا فسوف تعلمون ، وكذا في مصحف أبيّ .

وقرأ أبو العالية : فيتمتعوا ، بالياء ، مبنياً للمفعول .

ومن قرأ : وليتمتعوا ، بسكون اللام ، وكان عنده اللام في : ليكفروا ، لام كي ، فالواو عاطفة كلاماً على كلام ، لا عاطفة فعلا على فعل .

وحكى ابن عطية ، عن ابن مسعود : لسوف تعلمون ، باللام ، ثم ذكرهم تعالى بنعمه ، حيث أسكنهم بلدة أمنوا فيها ، لا يغزوهم أحد ولا يستلب منهم ، مع كونهم قليلي العدد ،

قارين في مكان لا زرع فيه ، وهذه من أعظم النعمة التي كفروها ، وهي نعمة لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

وقرأ الجمهور : ﴿ يؤمنون ﴾ ، و ﴿ يكفرون ﴾ ، بالياء فيهما .

وقرأ السلمي ، والحسن : بتاء الخطاب فيهما .

وافتراؤهم الكذب : زعمهم أن لله شريكاً ، وتكذيبهم بالحق : كفرهم بالرسول والقرآن .

(133/599)

وفي قوله : ﴿ لما جاءه ﴾ : إشعار بأنهم لم يتوقفوا في تكذيبه وقت مجيء الحق لهم ، بخلاف العاقل ، فإنه إذا بلغه خبر ، نظر فيه وفكر حتى يبين له أصدق هو أم كذب .

وأليس تقرير لمقامهم في جهنم كقوله :

ألستم خير من ركب المطايا . . .

و ﴿ للكافرين ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر : أي مثواهم .

﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ : أطلق المجاهدة ، ولم يقيدها بمتعلق ، ليتناول المجاهدة في النفس الأمّارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ، وما ورد من أقوال العلماء ، فالمقصود بها المثال .

قال ابن عباس : جاهدوا أهواءهم في طاعة الله وشكر آلائه والصبر على بلائه .

﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ : لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير ، كقوله : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ وقال السدي : جاهدوا فينا بالثبات على الإيمان ، لنهدينهم سبلنا إلى الجنة .

وقال أبو سليمان الداراني : جاهدوا فيما علموا ، لنهدينهم إلى ما لم يعلموا .

وقيل : جاهدوا في الغزو ، لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة .

وقال ابن عباس : المحسنين الموحدين .

وقال غيره : المجاهدون .

وقال عبد الله بن المبارك : من اعتاصت عليه مسألة ، فليسأل أهل الثغور عنها ، كقوله تعالى : ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ .

﴿ والذين ﴾ : مبتدأ خبره القسم المحذوف ، وجوابه : وهو لنهدينهم وبهذا ، ونظيره ردّ على أبي العباس ثعلب في منعه أن تقع جملة القسم والمقسم عليه خبراً للمبتدأ ، ونظيره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّأنهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(134/599)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا ﴾

(135/599)

إشارةُ تحقيرٍ وازدراءٍ للدُّنيا وكيفَ لا وقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " لو كانتِ الدُّنيا تزنُ عندَ الله جناحَ بَعُوضةٍ ما سَقَى الكافرَ منها شَرْبَةَ ماءٍ " ﴿ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ أي إلا كما يُلهى ويلعبُ به الصبيانُ يجتمعون عليهِ ويبتهجون به ساعةً ثم يتفرَّقُون عنه ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ أي لهيَ دارُ الحياةِ الحقيقية لامتناعِ طريانِ الموتِ والفناءِ عليها أو هي في ذاتِها حياةٌ للمبالغةِ . والحيوانُ مصدرُ حَيِيَ سُمِّيَ بهِ ذُو الحياة وأصلُه حَيَيانُ فقُلبتْ الياءُ الثَّانيةُ واواً لما في بناءِ فَعَلان من مَعْنى الحَركةِ والاضطرابِ اللازم للحَيَوان ولذلك اختِير على الحياةِ في هذا المقامِ المُقتضي للمبالغةِ ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لما آثرُوا عليها الحياةَ الدُّنيا التي أصلُها عدمُ الحياةِ ثمَّ ما يحدثُ فيها من الحَيَاةِ عارضةٌ سريعةُ الزَّوالِ وشيكةُ الاضمحلالِ ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك ﴾ متَّصلٌ بما دلَّ عليه شرحُ حالِهم ، والرُّكوب هو الاستعلاءُ على الشيءِ المتحرِّكِ وهو متعدَ بنفسِه كما في قولِه تعالى : ﴿

والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا ﴾ واستعمالُه هاهنا وفي أمثالِه بكلمة في للإيذانِ بأنَّ المركوبَ في نفسِه من قبيلِ الأمكنةِ ، وحركتُه قسريةٌ غيرُ إراديةٍ كما مرَّ في سورةِ هُودٍ والمعنى أنَّهم على ما وُصفوا من الإشراكِ فإذا ركبُوا في البحرِ ولقُوا شدَّةً ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي كائنينَ على صورةِ المُخلصين لدينِهم من المؤمنينَ حيثُ لا يدعُون غيرَ اللهِ تعالى لعلمِهم بأنَّه لا يكشفُ الشَّدائدَ عنهم إلا هُو ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤا المعاودةَ إلى الشّركِ ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا ءاتيناهم وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ أي يفاجئونَ الإشراكَ ليكونُوا كافرينَ بما آتيناهُم من نعمةِ

(136/599)

الإنجاءِ التي حقُّها أنْ يشكرُوها ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبةَ ذلكَ وغائلتَه حينَ يَرَون العذابَ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي ألم ينظرُوا ولم يشاهدُوا ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ أي بلدَهم ﴿ حَرَماً ءامِناً ﴾ مصُوناً من النَّهبِ والتَّعدّي سالماً أهلُه من كلِّ سوءٍ ﴿ وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ أي والحالُ أنَّهم يُختلسون من حولِهم قتلاً وسبياً إذ كانتِ العربُ حولَه في تغاورٍ وتناهُبٍ ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أبعد ظهورِ الحقِّ الذي لا ريبَ فيه بالباطلِ خاصَّةً يُؤمنون دُون الحقِّ ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ وهي المستوجبةُ للشُّكرِ حيثُ يُشركون به

غيرَهُ . وتقديمُ الصِّلةِ في الموضعينِ لإظهارِ كمالِ شناعةِ ما فعلُوا ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ بأنْ زعمَ أنَّ له شريكاً أي هو أظلمُ من كلِّ ظالمٍ وإنْ كانَ سبكُ النَّظمِ دالاًّ على نفيِ الأظلمِ من غيرِ تعرضٍ لنفيِ المُساوي وقد مرَّ مراراً ﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق لَمَّا جَاءهُ ﴾ أي بالرَّسولِ أو بالقُرآنِ وفي لَمَّا تسفيهٌ لهم بأنْ لم يتوقفُوا ولم يتأمَّلوا حينَ جاءَهم بل سارعُوا إلى التَّكذيبِ آثرَ ذي أثيرٍ ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ تقريرٌ لثُواِئهم فيها كقولِ من قالَ :

ألستُم خيرَ من ركبَ المَطَايا . . . أي ألَا يستوجبونَ الثَّواء فيها وقد فعلُوا ما فعلُوا من الافتراءِ على اللهِ تعالى والتَّكذيبِ بالحقِّ الصَّريحِ أو إنكارٌ واستبعادٌ لاجترائِهم على ما ذُكر من الافتراءِ والتَّكذيبِ مع علمِهم بحالِ الكَفَرةِ أي ألم يعلمُوا أن في جهنَّم مثوى للكافرين حتَّى اجترؤا هذه الجرأةَ .

(137/599)

﴿ والذين جاهدوا فِينَا ﴾ أي في شأنِنا ولوجهِها خالصاً . أطلقَ المُجاهدةَ ليعمَّ جهادَ الأعادِي الظاهرةِ والباطنةِ ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ سُبُلَ السَّيرِ إلينا والوصولِ إلى جنابِنا أو لنزيدنَّهم هدايةً إلى سُبُلِ الخيرِ وتوفيقاً لسلوكِها كقولِه تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ

هُدًى ﴾ وفي الحديثِ : " من عَمِل بما عَلِم ورّثه الله علمَ ما لم يعلَم " ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾ معيةَ النَّصرِ والمعُونة .

عنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " مَن قرأَ سورةَ العنكبوتِ كانَ له من الأجرِ عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ المؤمنينَ والمُنافقينَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(138/599)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا ﴾

إشارة تحقير وكيف لا والدنيا لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ، فقد أخرج الترمذي عن سهل بن سعد قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء" .

وقال بعض العارفين : الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليها كلب بيد مجذوم ، ويعلم مما ذكر حقارة ما فيها من الحياة بالطريق الأولى ﴿ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ أي إلا كما يلهو ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه ، وهذا من التشبيه البليغ ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ أي لهي دار الحياة الحقيقية إذ لا يعرض الموت والفناء لمن

فيها أو هي ذاتها حياة للمبالغة ، و ﴿ الحيوان ﴾ مصدر حي سمي به ذو الحياة في غير هذا المحل ، وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واواً على خلاف القياس فلامه ياء وإلى ذلك ذهب سيبويه .

وقيل : إن لامه واو نظراً إلى ظاهر الكلمة وإلى حياة علم رجل ، ولا حجة على كونه ياءً في حي لأن الواو في مثله تبدل ياء لكسر ما قبلها نحو شقي من الشقوة ، وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضي للمبالغة وقد علمتها في وصف الحياة الدنيا المقابلة للدار الآخرة ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ شرط جوابه محذوف أي لو كانوا يعلمون لما آثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة ، ثم ما يحدث فيها من الحياة فيها عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال وكون ﴿ لَوْ ﴾ للتمني بعيد .

(139/599)

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم ، والركوب الاستعلاء على الشيء المتحرك وهو متعد بنفسه كما في ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ واستعماله ههنا وفي أمثاله نفي للإيذان بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة وحركته قسرية غير إرادية ، والفاء للتعقب

وفي الكلام معنى الغاية فكأنه قيل : هم مصروفون عن توحيد الله تعالى مع إقرارهم بما يقتضيه لاهون بما هو سريع الزوال ذاهلون عن الحياة الأبدية حتى إذا ركبوا في الفلك ولقوا الشدائد ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي كائنين في صورة من أخلص دينه وملته أو طاعته من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله تعالى ولا يدعون سواه سبحانه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو عز وجل ، وفيه تهكم به سواء أريد بالدين الملة أو الطاعة أما على الأول فظاهر ، وأما على الثاني فلأنهم لا يستمرون على هذه الحال فهي قبيحة باعتبار المآل ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤوا المعاودة إلى الشرك ولم يتأخروا عنها .

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا ءاتيناهم وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ الظاهر أن اللام في الموضعين لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شركهم وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها فالشرك سبب لهذا الكفران ، وأدخلت لام كي على مسببه لجعله كالغرض لهم منه فهي لام العاقبة في الحقيقة ، وقيل : اللام فيهما لام الأمر والأمر بالكفران والتمتع مجاز في التخلية والخذلان والتهديد كما تقول عند الغضب على من يخالفك : افعل ما شئت ، ويؤيده قراءة ابن كثير .

والأعمش .

وحمزة .

والكسائي ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ بسكون اللام فإن لام كي لا تسكن ، وإذا كانت الثانية لذلك لام الأمر فالأولى مثلها ليتضح العطف ، وتخالفهما محوج إلى التكلف بأن يكون المراد كما قال أبو حيان عطف كلام على كلام لا عطف فعل على فعل ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة ذلك حين يعاقبون عليه يوم القيامة مؤيد للتهديد .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ أي بلدهم ﴿ حَرَماً ﴾ مكاناً حرم فيه كثير مما ليس بمحرم في غيره من المواضع ﴿ ءامَنًا ﴾ أهله عما يسوءهم من السبي والقتل على أن أمنه كناية عن أمن أهله أو على أن الإسناد مجازي أو على أن في الكلام مضافاً مقدراً ، وتخصيص أهل مكة وأن أمن كل من فيه حتى الطيور والوحوش لأن المقصود الامتنان عليهم ولأن ذلك مستمر في حقهم .

وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن أهل مكة قالوا : يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والعرب أكثر منا فمتى بلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكلنا أكلة رأس فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً ﴾ ﴿ وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يختلسون من حولهم قتلاً وسبياً إذ كانت العرب حوله

في تغاور وتناهب ، والظاهر أن الجملة حالية بتقدير مبتدأ أي وهم يتخطف الخ ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ أن أبعد ظهور الحق الذي لا ريب فيه أو أبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها بالصنم ، وقيل : بالشيطان يؤمنون ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ وهي المستوجبة للشكر حيث يشركون به تعالى غيره سبحانه ، وتقديم الصلة في الموضعين للاهتمام بها لأنها مصب الإنكار أو للاختصاص على طريق المبالغة لأن الإيمان إذا لم يكن خاصاً لا يعتد به ولأن كفران غير نعمته عز وجل بجنب كفرانها لا يعد كفراناً .

وقرأ السلمي .

والحسن ﴿ تُؤْمِنُونَ وَتَكْفُرُونَ ﴾ بتاء الخطاب فيهما .

(141/599)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ بأن زعم أن له سبحانه شريكاً وكونه كذباً على الله تعالى لأنه في حقه فهو كقولك : كذب على زيد إذا وصفه بما ليس فيه ﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق ﴾ يعني الرسول أو الكتاب ﴿ لَمَّا جَاءهُ ﴾ أي حين مجيئه إياه ، وفيه تسفيه لهم حيث لم يتأملوا ولم يتوقفوا حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه .

﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ أي ثواء وإقامة لهم أو مكان يثوون فيه ويقيمون ،

والكلام على كلا الوجهين تقرير لثوائهم في جهنم لأن الاستفهام فيه معنى النفي وقد دخل على نفي ونفي النفي إثبات كما في قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا . . .

واندى العالمين بطون راح

أي ألا يستوجبون الثواء أو المكان الذي يثوى فيه فيها وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله تعالى وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب أو إنكار واستبعاد لاجترائهم على ما ذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أي ألم يعلموا أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا هذه الجرأة ، وجعلهم عالمين بذلك لوضوحه وظهوره فنزلوا منزلة العالم به ، والتعريف في ﴿ الكافرين ﴾ على الأول : للعهد فالمراد بهم أولئك المحدث عنهم وهم أهل مكة ، وأقيم الظاهر مقام الضمير لتعليل استيجابهم المثوى ، ولا ينافي كون ظاهره أن العلة افتراؤهم وتكذيبهم لأنه لا يغايره والتعليل يقبل التعدد ، وعلى الثاني : للجنس فالمراد مطلق جنس الكفرة ويدخل أولئك فيه دخولاً أولياً برهانياً .

(142/599)

﴿ والذين جاهدوا فِينَا ﴾ في شأننا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ففيه مضاف مقدر ، وقيل : لا حاجة إلى التقدير بحمل الكلام على المبالغة بجعل ذات الله سبحانه مستقر للمجاهدة وأطلقت المجاهدة لتعم مجاهدة الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعهما ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا ، والمراد نزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً لسلوكها فإن الجهاد هداية أو مرتب عليها ، وقد قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] وفي الحديث " من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم "

ومن الناس من أول ﴿ جاهدوا ﴾ بأرادوا الجهاد وأبقى ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ على ظاهره ، وقال السدي : المعنى والذين جاهدوا بالثبات على الإيمان لنهدينهم سبلنا إلى الجنة ، وقيل : المعنى والذين جاهدوا في الغزو لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة ، وما ذكر أولاً أولى ، والموصول مبتدأ وجملة القسم وجوابه خبره نظير ما مر من قوله : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوّئَنَّهُمْ مّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ [العنكبوت : 58] .

(143/599)

﴿ وَإِنَّ الله ﴾ المتصف بجميع صفات الكمال الذي بلغت عظمته في القلوب ما بلغت ﴿ لَمَعَ المحسنين ﴾ معية النصرة والمعونة وتقدم الجهاد المحتاج لهما قرينة قوية على إرادة ذلك ، وقال العلامة الطيبي : إن قوله تعالى : ﴿ لَمَعَ المحسنين ﴾ قد طابق قوله سبحانه : ﴿ جاهدوا ﴾ لفظاً ومعنى ، أما اللفظ فمن حيث الإطلاق في المجاهدة والمعية ، وأما المعنى فالمجاهد للأعداء يفتقر إلى ناصر ومعين ، ثم إن جملة قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ تذييل للآية مؤكد بكلمتي التوكيد محلى باسم الذات ليؤذن بأن من جاهد بكليته وشراشره في ذاته جل وعلا تجلى له الرب عز اسمه الجامع في صفة النصرة والإعانة تجلياً تاماً ، ثم إن هذه خاتمة شريفة للسورة لأنها مجاوبة لمفتتحها ناظرة إلى فريدة قلادتها ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2] لامحة إلى واسطة عقدها ﴿ ياعبادى الذين ءامَنُواْ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فاعبدون ﴾ [العنكبوت : 56] وهي في نفسها جامعة فاذة اه .

و ﴿ ءالَ ﴾ في المحسنين يحتمل أن تكون للعهد فالمراد بالمحسنين الذين جاهدوا ، ووجه إقامة الظاهر مقام الضمير ظاهر وإلى ذلك ذهب الجمهور ، ويحتمل أن يكون للجنس فالمراد بهم مطلق جنس من أتى بالأفعال الحسنة ويدخل أولئك دخولاً أولياً برهانياً .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر ﴿ المحسنين ﴾ بالموحدين وفيه

تأييد ما للاحتمال الثاني والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(144/599)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) ﴾

لما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب ومن المشركين وجمعهم في الإنذار وجعلهم من أهل النار اشتدّ عنادهم ، وزاد فسادهم ، وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه فقال الله سبحانه : ﴿ ياعبادي الذين آمنوا ﴾ أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفاً وتكريماً ، والذين آمنوا صفة موضحة أو مميزة ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان ، وفي مكايدة للكفار فاخرجوا منها لتتيسر لكم عبادتي وحدي وتتسهل عليكم .

قال الزجاج : أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله ، وكذلك يجب على من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته .

وقال مطرف بن الشخير : المعنى : إن رحمتي واسعة ورزقي لكم واسع ، فابتغوه في الأرض .

وقيل : المعنى : إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة فاعبدون حتى أورثكموها .

وانتصاب ﴿ إياي ﴾ بفعل مضمر ، أي فاعبدوا إياي .

ثم خوّفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة فقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة ، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان ، ومفارقة الإخوان والخلان ، ثم إلى الله المرجع بالموت والبعث لا إلى غيره ، فكل حيّ في سفر إلى دار القرار وإن طال لبثه في هذه الدار .

﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ في هذا الترغيب إلى الهجرة ، وأن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة ، ومعنى ﴿ لنبوّئنهم ﴾ : لننزلنهم غرف الجنة ، وهي علاليها : فانتصاب ﴿ غرفاً ﴾ على أنه المفعول الثاني على تضمين نبوئتهم معنى : ننزلنهم ، أو على الظرفية مع عدم التضمين ؛ لأن نبوئتهم لا يتعدّى إلاّ إلى مفعول واحد .

(145/599)

وإما منصوب بنزع الخافض اتساعاً ، أي في غرف الجنة ، وهو مأخوذ من المباءة ، وهي الإنزال .

قرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : " يا عبادي " بإسكان الياء ، وفتحها الباقون .

وقرأ ابن عامر : " إن أرضي " بفتح الياء ، وسكنها الباقون .

وقرأ السلمي وأبو بكر عن عاصم : " يرجعون " بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية .

وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي : " لنثوينهم " بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة ، وقرأ الباقون بالباء الموحدة ، ومعنى لنثوينهم بالمثلثة : لنعطينهم غرفاً يثوون فيها من الثوى وهو الإقامة .

قال الزجاج ، يقال : ثوى الرجل : إذا أقام ، وأثويته : إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه .

قال الأخفش : لا تعجبني هذه القراءة ، لأنك لا تقول : أثويته الدار ، بل تقول : في الدار ، وليس في الآية حرف جرّ في المفعول الثاني .

قال أبو علي الفارسي : هو على إرادة حرف الجرّ ، ثم حذف كما تقول : أمرتك الخير ، أي بالخير .

ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي من تحت الغرف ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ أي في الغرف لا يموتون أبداً ، أو في الجنة ، والأوّل أولى ﴿ نِعْمَ أَجْرُ

العاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، أي نعم أجر العاملين أجرهم ، والمعنى : العاملين للأعمال الصالحة .

ثم وصف هؤلاء العاملين فقال : ﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ على مشاق التكليف ، وعلى أذية المشركين لهم ، ويجوز أن يكون منصوباً على المدح ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي يفوّضون أمورهم إليه في كل إقدام وإحجام .

(146/599)

ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر والتوكل ، وهو النظر في حال الدوابّ ، فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ قد تقدّم الكلام في كأين ، وأن أصلها : أي ، دخلت عليها كاف التشبيه ، وصار فيها معنى : كم كما صرح به الخليل وسيبويه ، وتقديرها عندهما كشيء كثير من العدد من دابة .

وقيل : المعنى : وكم من دابة .

ومعنى ﴿ لا تحمل رزقها ﴾ : لا تطيق حمل رزقها لضعفها ، ولا تدّخره ، وإنما يرزقها الله من فضله ويرزقكم ؛ فكيف لا يتوكلون على الله مع قوّتهم وقدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها ، وعجزها ؟ قال الحسن : تأكل لوقتها ، لا تدّخر شيئاً .

قال مجاهد : يعني : الطير والبهائم تأكل بأفواهها ، ولا تحمل شيئاً ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ الذي يسمع كل مسموع ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم .

ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم ، وعجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه ويتركون عبادة غيره فقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله ﴾ أي خلقها ، لا يقدرون على إنكار ذلك ، ولا يتمكنون من جحوده ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرّده بالإلهية ؟ وأنه وحده لا شريك له ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد .

ولما قال المشركون لبعض المؤمنين : لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله : ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي التوسيع في الرزق والتقتير له هو من الله الباسط القابض يبسطه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته ، وما يليق بحال عباده من القبض والبسط ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده وفسادهم .

(147/599)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ أي نزّله ، وأحيا به الأرض الله ، يعترفون بذلك لا يجدون إلى إنكاره سبيلاً .

ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف في هذه الآيات ، وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك وعدم إفراد الله سبحانه بالعبادة ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحمد الله على إقرارهم وعدم جحودهم مع تصلبهم في العناد ، وتشدّدهم في ردّ كل ما جاء به رسول الله من التوحيد فقال : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي احمد الله على أن جعل الحق معك ، وأظهر حجتك عليهم ، ثم ذمهم فقال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ الأشياء التي يتعقلها العقلاء .

فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هم عليه عند كل عاقل .

ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا وأنها من جنس اللعب واللهو ، وأن الدار على الحقيقة هي دار الآخرة ، فقال : ﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ من جنس ما يلهو به الصبيان ويلعبون به ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ .

قال ابن قتيبة وأبو عبيدة : إن الحيوان الحياة .

قال الواحدي : وهو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أن معنى الحيوان : ههنا : الحياة ، وأنه مصدر بمنزلة الحياة ، فيكون كالنزوان والغليان ويكون التقدير : وإن الدار الآخرة لهي دار

الحيوان ، أو ذات الحيوان : أي : دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا ينغصها موت ، ولا مرض ، ولا همّ ولا غمّ ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ شيئاً من العلم لما آثروا عليها الدار الفانية المنغصة .

(148/599)

ثم بين سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلاّ مجرّد تأثير الحياة فقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي إذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة ، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم ، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدّة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤوا المعاودة إلى الشرك ، ودعوا غير الله سبحانه .

والركوب هو : الاستعلاء ، وهو متعدّ بنفسه ، وإنما عدّي بكلمة في للإشعار بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة ، واللام في ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ وفي قوله : ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ للتعليل ، أي فاجؤوا الشرك بالله ليكفروا بنعمة الله وليتمتعوا بهما فهما في الفعلين لام كي ، وقيل : هما لاما الأمر تهديداً ووعيداً ، أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة وتمتعوا ، ويدلّ على هذه القراءة قراءة أبيّ : " وتمتعوا " وهذا الاحتمال للأمرين إنما هو على قراءة

أبي عمرو وابن عامر وعاصم وورش بكسر اللام ، وأما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر ، وفي قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تهديد عظيم لهم ، أي فسيعلمون عاقبة ذلك وما فيه من الوبال عليهم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً ﴾ أي ألم ينظروا ؟ يعني : كفار قريش أنا جعلنا حرمهم هذا حرماً آمناً يأمن فيه ساكنه من الغارة والقتل والسبي والنهب فصاروا في سلامة وعافية مما صار فيه غيره من العرب فإنهم في كل حين تطرقهم الغارات ، وتجتاح أموالهم الغزاة ، وتسفك دماءهم الجنود ، وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها ، وجملة : ﴿ وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي يختلسون من حولهم بالقتل والسبي والنهب .

(149/599)

والخطف : الأخذ بسرعة ، وقد مضى تحقيق معناه في سورة القصص ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو الشرك بعد ظهور حجة الله عليهم وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ ﴾ يجعلون كفرها مكان شكرها ، وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ أي لا أحد أظلم منه ، وهو من زعم أن لله شريكاً ﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق لَمَّا جَاءهُ ﴾ أي كذّب بالرسول الذي أرسل إليه والكتاب الذي أنزله على رسوله .

وقال السديّ : كذّب بالتوحيد ، والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق .

ثم هدّد المكذبين وتوعدهم فقال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ أي مكان يستقرّون فيه ، والاستفهام للتقرير ، والمعنى : أليس يستحقون الاستقرار فيها وقد فعلوا ما فعلوا ؟ ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم الله أردفه بحال عباده الصالحين ، فقال : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي جاهدوا في شأن الله لطلب مرضاته ورجاء ما عنده من الخير لنهدينهم سبلنا ، أي الطريق الموصل إلينا .

قال ابن عطية : هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفي ، وإنما هو جهاد عامّ في دين الله وطلب مرضاته ، وقيل : الآية هذه نزلت في العباد .

وقال إبراهيم بن أدهم : هي في الذين يعملون بما يعلمون ﴿ وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ بالنصر والعون ، ومن كان معه لم يخذل ، ودخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسماً ، أو على أنها حرف ودخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول : إن زيداً لفي الدار ، والبحث مقرّر في علم النحو .

قد أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] قلت : يا ربّ أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء ؟ فنزلت : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ "

وينظر كيف صحة هذا ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن يسمع قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ يعلم أنه ميت ، وقد علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا ، وأنه خاتم الأنبياء ، فكيف ينشأ عن هذه الآية ما سأل عنه عليّ رضي الله عنه من قوله : " أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء " ، فلعلّ هذه الرواية لا تصح مرفوعة ولا موقوفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر – قال السيوطي بسند ضعيف – عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط التمر ويأكل ، فقال لي :

" مالك لا تأكل ؟ " قلت : لا أشتهيه يا رسول الله ، قال : " لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سنتهم ويضعف اليقين " قال : فوالله ما برحنا ، ولا رمنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، ألا وإني لا أكنز

ديناراً ولا درهماً ، ولا أخبأ رزقاً لغد " وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتبرة .

وفي إسناده أبو العطوف الجوزي وهو ضعيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ قال : باقية .

(151/599)

وأخرج ابن أبي الدنيا ، والبيهقي في الشعب عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عجباً كل العجب للمصدّق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور " وهو مرسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(152/599)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾

إشارة تحقير للدنيا وكيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة .

قال الإمام الراغب : الحياة باعتبار الدنيا والآخرة ضربان الحياة الدنيا والحياة الآخرة فهي إشارة إلى أن الحياة الدنيا بمعنى الحياة الأولى بقرينة المقابلة بالآخرة فإنه قد يعبر بالأدنى عن الأول المقابل للآخر والمراد بالحياة الأولى ما قبل الموت لدنوه أي قربه وبالآخرة ما بعد الموت لتأخره ﴿ إِلا لَهْوٌ ﴾ وهو ما يلهي الإنسان ويشغله عما يعنيه ويهمه والملاهي آلات اللهو ﴿ وَلَعِبٌ ﴾ يقال : لعب فلان إذا لم يقصد بفعله مقصداً صحيحاً .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن هذه الحياة التي يعيش بها المرء في الدنيا بالنسبة إلى الحياة التي يعيش بها أهل الآخرة في الآخرة وجوار الحق تعالى لهو ولعب وإنما شبهها باللهو واللعب لمعنيين :

أحدهما : أن أمر اللهو واللعب سريع الانقضاء لا يداوم عليه فالمعنى : إن الدنيا وزينتها وشهواتها لظل زائل لا يكون له بقاء فلا تصلح لاطمئنان القلب بها والركون إليها .

والثاني : إن اللهو واللعب من شأن الصبيان والسفهاء دون العقلاء وذوي الأحلام ولهذا كان النبي عليه السلام يقول : "ما أنا من دد ولا الدد مني" والدد اللهو واللعب فالعاقل يصون نفسه منه انتهى .

(153/599)

قال في "كشف الأسرار" : فإن قيل : لم سماها لهواً ولعباً وقد خلقها لحكمة ومصلحة ؟

قلنا : إنه بنى الخطاب على الأعم الأغلب وذلك أن غرض أكثر الناس من الدنيا اللهو واللعب انتهى ورد في الخبر النبوي حين سئل عن الدنيا فقال : "دنياك ما يشغلك عن ربك" .

(154/599)

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾

أي : الجنة لهي دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها أو هي في ذاتها حياة للمبالغة .

والحيوان مصدر حيي سمي به ذو الحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واواً لئلا يحذف إحدى الألفات وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة في هذا المقام المقتضي للمبالغة .

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لما آثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة ثم ما يحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن دار الدنيا لهي الموتان لأنه تعالى سمى الكافر وإن كان حيا بالميت بقوله : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ وقال : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ فثبت أن الدنيا وما فيها من الموتان إلا من أحياه الله بنور الإيمان فهو

(155/599)

الحي والآخرة عبارة عن عالم الأرواح والملكوت فهي حياة كلها وإنما سماها الحيوان والحيوان ما يكون حياً وله حياة فيكون جميع أجزائه حياً فالآخرة حيوان لأن جميع أجزائها حي فقد ورد في الحديث : "إن الجنة بما فيها من الأشجار والثمار والغرف والحيطان والأنهار حتى ترابها وحصاها كلها حي" فالحياة الحقيقية التي لا تشينها الغصص والمحن والأمراض والعلل ولا يدركها الموت والفوت لهي حياة أهل الجنات والقربات لو كانوا يعلمون قدرها وغاية كماليتها وحقيقة عزتها لكانوا أشد حرصاً في تحصيلها ههنا فمن فاتته لا يدركها في الآخرة ألا ترى أن من صفة أهل النار أن لا يموت فيها ولا يحيا يعني : ولا يحيا بحياة حقيقة يستريح بها وأنهم يتمنون الموت ولا يجدونه انتهى .

فالعاقل لا يضيع العمر العزيز في الهوى واشتغال الدنيا الدنية الرذيلة بل يسارع في تحصيل الباقي .

قال الفضيل رحمه الله : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى .

كما روى أن سليمان عليه السلام قال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أوتي ابن داود فإنه يذهب والتسبيحة تبقى ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات صفاء القلب أي عن كدورات الدنيا وأنسه بذكر الله وحبه ولا يخفى أن صفاء القلب وطهارته عن أدناس الدنيا لا تكون إلا مع المعرفة والمعرفة لا تكون إلا بدوام الذكر والفكر وخير الأذكار التوحيد .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم .

والركوب هو الاستعلاء على الشيء المتحرك وهو متعد بنفسه كما في قوله تعالى :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ (النحل : 8) واستعماله ههنا وفي أمثاله بكلمة في للإيذان بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة وحركته قسرية غير إرادية .

والمعنى أن الكفار على ما وصفوا من الإشراك فإذا ركبوا في السفينة لتجاراته وتصرفاتهم وهاجت الرياح واضطربت الأمواج وخافوا الغرق .

﴿ دَعَوُا اللَّهَ ﴾ حال كونهم ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : على صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث لا يدعون غير الله لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو .

(157/599)

وقال في "الأسئلة المقحمة" : ما معنى الإخلاص في حق الكافر والإخلاص دون الإيمان لا يتصور وجوده ؟ والجواب أن المراد به التضرع في الدعاء عند مسيس الضرورة والإخلاص في العزم على الإسلام عند النجاة من الغرق ثم العود والرجوع إلى الغفلة والإصرار على الكفر بعد كشف الضر ولا يرد الإخلاص الذي هو من ثمرات الإيمان انتهى ويدل عليه ما قال عكرمة : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوا تلك الأصنام في البحر وصاحوا "يا خداي يا خداي" كما في "الوسيط" و"يا رب يا رب" كما في "كشف الأسرار" ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾ البر خلاف البحر وتصور منه التوسع فاشتق منه البر أي التوسع في فعل الخير كما في "المفردات" ؛

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ اللام فيه لام كي أي ليكونوا كافرين بشركهم بما آتيناهم من نعمة

النجاة التي حقها أن يشكروها ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ أي : ولينتفعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادّهم عليها ويجوز أن يكون لام الأمر

في كليهما ومعناه التهديد والوعيد كما في اعملوا ما شئتم .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة ذلك وغائلته حين يرون العذاب .

(158/599)

وفي "التأويلات" : وبقوله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ ﴾ يشير إلى أن الإخلاص تفريغ القلب من كل ما سوى الله والثقة بأن لا نفع ولا ضرر إلا منه وهذا لا يحصل إلا عند نزول البلاء والوقوع في معرض التلف وورطة الهلاك ولهذا وكل بالأنبياء والأولياء لتخليص الجوهر الإنساني القابل للفيض الإلهي من قيد التعلقات بالكونين والرجوع إلى حضرة المكوّن فإن الرجوع إليها مركوز في الجوهر الإنسان لو خلى وطبعه لقوله : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ (العلق : 8) فالفرق بين إخلاص المؤمن وإخلاص الكافر بأن يكون إخلاص المؤمن مؤيداً بالتأييد الإلهي وأنه قد عبد الله مخلصاً في الرخاء قبل نزول البلاء فنال درجة الإخلاص المؤيد من الله بالسر الذي قال تعالى : "الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل" فلا يتغير في الشدة والرخاء ولا في السخط والرضى وإخلاص

الكافر إخلاص طبيعي قد حصل له عند نزول البلاء وخوف الهلاك بالرجوع الطبيعي غير مؤيد بالتأييد الإلهي عند خمود التعلقات كراكبي الفلك .

﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ دعاء اضطرارياً فأجابهم من يجيب المضطر بالنجاة من ورطة الهلاك ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾ وزال الخوف والاضطرار عاد الميشوم إلى طبعه .

﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ .

أي ليكون حاصل أمرهم من شقاوتهم أن يكفروا بنعمة الله ليستوجبوا العذاب الشديد ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ أياماً قلائل ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن عاقبة أمرهم دوام العقوبة إلى الأبد انتهى .

(159/599)

قال الشيخ الشهير بزروق الفاسي في شرح حزب البحر : أما حكم ركوب البحر من حيث هو فلا خلاف اليوم في جوازه وإن اختلف فيه نظراً لمشقته فهو ممنوع في أحوال خمسة .

أولها : إذا أدى لترك الفرائض أو نقصها فقد قال مالك للذي يميد فلا يصلي الراكب حيث لا يصلي : ويل لمن ترك الصلاة .

والثاني : إذا كان مخوفاً بارتجاجه من الغرق فيه فإنه لا يجوز ركوبه لأنه من الإلقاء إلى

التهلكة قالوا : وذلك من دخول الشمس العقرب إلى آخر الشتاء .

والثالث : إذا خيف فيه الأسر واستهلاك العدو في النفس والمال لا يجوز ركوبه بخلاف ما إذا كان معه أمن والحكم للمسلمين لقوة يدهم وأخذ رهائنهم وما في معنى ذلك .

والرابع : إذا أدى ركوبه إلى الدخول تحت أحكامهم والتذلل لهم ومشاهدة منكرهم مع الأمن على النفس والمال بالاستئمان منهم وهذه حالة المسلمين اليوم في الركوب مع أهل الطرائد ونحوهم وقد أجراها بعض الشيوخ على مسألة التجارة لأرض الحرب ومشهور المذهب فيها الكراهة وهي من قبيل الجائز وعليه يفهم ركوب أئمة العلماء والصلحاء معهم في ذلك وكأنهم استخفوا الكراهة في مقابلة تحصيل الواجب الذي هو الحج وما في معناه .

والخامس : إذا خيف بركوبه عورة كركوب المرأة في مركب صغير لا يقع لها فيه سترها فقد منع مالك

ذلك حتى في حجها إلا أن يختص بموضع ومركب كبير على المشهور .

ومن أوراد البحر "الحي القيوم" ويقول عند ركوب السفينة : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (هود : 41) .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الأنعام : 91) ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر : 67) فإنه أمان من الغرق .

﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي ألم ينظر أهل مكة ولم يشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ أي بلدهم ﴿ حَرَمًا ﴾ محترماً ﴿ ءَامِنًا ﴾ مصوناً من النهب والتعدي سالماً أهله آمناً من كل سوء ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ وحول الشيء جانبه الذي يمكنه أن يتحول إليه أي والحال أن العرب يختلسون ويؤخذون من حولهم قتلاً وسبياً إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أبعد ظهور الحق الذي لا ريب فيه بالباطل وهو الصنم أو الشيطان يؤمنون دون الحق وتقديم الصلة لإظهار شناعة ما فعلوه وكذا في قوله : ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ المستوجبة للشكر ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ حيث يشركون به غيره .

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ ﴾ وهو ما سوى الله من مشارب النفس ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يصرفون صدقهم ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ وهي مشاهدة الحق .

﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ بأن لا يطلبوها انتهى إنما فسر الباطل بما سوى الله لأن ما خلا الله باطل مجازي أما بطلانه فلكونه عدماً في نفسه وأما مجازيته فلكونه مجلى ومرآة للوجود الإضافي .

واعلم أن الكفر بالله أشد من الكفر بنعمة الله لأن الأول لا يفارق الثاني بخلاف العكس والكفار جمعوا بينهما فكانوا أذم.

(161/599)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ ﴾ الأحد الصمد ﴿ كَذِبًا ﴾ بأن زعم أن له شريكاً، أي هو أظلم من كل ظالم، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ بالرسول أو بالقرآن ﴿ لَمَّا جَآءَهُ ﴾ من غير توقف عناداً ففي لما تسفيه لهم بأن لم يتوقفوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ تقريب لثوائهم فيها أي إقامتهم فإن همزة الاستفهام الإنكاري إذا دخلت على النفي صار إيجاباً أي لا يستوجبون الإقامة والخلود في جنهم وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء والتكذيب بالحق الصريح مثل هذا التكذيب الشنيع أو إنكار واستبعاد لاجترائهم على الافتراء والتكذيب أي ألم يعلموا أن في جنهم مثوى للكافرين حتى اجترؤوا هذه الجراءة.

(162/599)

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن يرى من نفسه بأن له مع الله حالاً أو وقتاً أو كشفاً أو مشاهدة ولم يكن له من ذلك شيء وقالوا إذا فعلوا فاحشة : وجدنا عليها آباءنا به يشير إلى أن الإباحية وأكثر مدعي زماننا هذا إذا صدر منهم شيء على خلاف السنة والشريعة يقولون : إنا وجدنا مشايخنا عليه والله أمرنا بهذا أي مسلم لنا من الله هذه الحركات لمكانة قربنا إلى الله وقوة ولايتنا فإنها لا تضر بل تنفعنا وتفيد .

﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالشريعة وطريقة المشايخ وسيرتهم لما جاء ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ النفس ﴿ مَثْوًى ﴾ محبس ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي : لكافري نعمة الدين والإسلام والشريعة والطريقة بما يفترون وبما يدعون بلا معنى القيام به كذابين في دعواهم انتهى .

فالمدعى أجنبي عن الدخول في حرم المعنى كما أن الأجنبي ممنوع عن الدخول في حرم السلطان

فالواجب الاجتناب عن الدعوى والكذب وغيرهما من صفات النفس واكتساب المعنى والصدق ونحوهما من أوصاف القلب .

(163/599)

حكي : عن إبراهيم الخواص رحمه الله أنه كان إذا أراد سفراً لم يعلم أحداً ولم يذكره وإنما يأخذ ركوته ويمشي قال حامد الأسوار : فبينما نحن معه في مسجده تناول ركوته ومشى فاتبعته فلما وافينا القادسية قال لي : يا حامد إلى أين ؟ قلت : يا سيدي خرجت لخروجك قال : أنا أريد مكة إن شاء الله تعالى قلت : وأنا أريد إن شاء الله مكة فلما كان بعد أيام إذا بشاب قد انضم إلينا فمشى معنا يوماً وليلة لا يسجد تعالى سجدة فعرفت إبراهيم فقلت : إن هذا الغلام لا يصلي فجلس وقال : يا غلام مالك لا تصلي والصلاة أوجب عليك من الحج فقال : يا شيخ ما عليّ صلاة قال : ألست مسلماً ؟ قال : لا قال : فأي شيء أنت ؟ قال : نصراني ولكن إشارتي في النصرانية إلى التوكل وادعت نفسي أنها قد أحكمت حال التوكل فلم أصدقها فيما ادعت حتى أخرجتها إلى هذه الفلاة التي ليس فيها موجود غير المعبود أثير ساكني وامتحن خاطري فقام إبراهيم ومشى وقال : دعه يكون معك فلم يزل يسايرنا حتى وافينا بطن مرو فقام إبراهيم ونزع خلقانه فطهرها بالماء ثم جلس وقال له : ما اسمك ؟ قال : عبد المسيح فقال : يا عبد المسيح هذا دهليز مكة يعني الحرم وقد حرم الله على أمثالك الدخول إليه قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (التوبة : 28) والذي أردت أن تستكشف من نفسك قد بان لك فاحذر أن تدخل مكة فإن رأيناك بمكة أنكرنا عليك

قال حامد : فتركناه ودخلنا مكة وخرجنا إلى الموقف فبينما نحن جلوس بعرفات إذا به

قد أقبل عليه ثوبان وهو محرم يتصفح الوجوه حتى وقف علينا فأكب على إبراهيم يقبل رأسه فقال له : ما الحال يا عبد المسيح ؟ فقال له : هيهات أنا اليوم عبد من المسيح عبده فقال له إبراهيم : حدثني حديثك قال : جلست مكاني حتى أقبلت قافلة الحاج فقمت وتنكرت في زي المسلمين كأني محرم فساعة وقعت عيني على الكعبة اضمحل عندي كل دين

(164/599)

سوى دين الإسلام فأسلمت واغتسلت وأحرمت فها أنا أطلبك يومي فالتفت إلى إبراهيم وقال : يا حامد انظر إلى بركة الصدق في النصرانية كيف هداه إلى الإسلام ثم صحبنا حتى مات بين الفقراء رحمه الله تعالى .

يقول الفقير : أصلحه الله القدير في هذه الحكاية إشارات .

منها كما أن حرم الكعبة لا يدخله مشرك متلوث بلوث الشرك كذلك حرم القلب لا يدخله مدع متلوث بلوث الدعوى .

ومنها أن النصراني المذكور صحب إبراهيم أياماً في طريق الصورة فلم يضيعه الله حيث هداه إلى الصحبة به في طريق المعنى .

ومنها أن صدقه في طريقه أدّاه إلى أن آمن بالله وكفر بالباطل .

ومنها أن من كان نظره صحيحاً فإذا شاهد شيئاً من شواهد الحق يستدل به على الحق ولا يكذب بآيات

ربه كما وقع للنصراني المذكور حين رأى الكعبة التي هي صورة سر الذات وكما وقع لعبد الله بن سلام فإنه حين رأى النبي عليه السلام آمن وقال : عرفت أنه ليس بوجه كذاب نسأل الله حقيقة الصدق والإخلاص والتمتع بثمرات أهل الاختصاص .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو أي جدوا وبذلوا وسعهم في شأننا وحقنا ولوجهنا خالصاً .

وأطلق المجاهدة ليعم جهاد الأعداء الظاهرة والباطنة أما الأول فكجهاد الكفار المحاربين وأما الثاني فكجهاد النفس والشيطان وفي الحديث : "جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم" ويكون الجهاد باليد واللسان كما قال عليه السلام : "جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم" أي بما يسوءهم من الكلام كالهجر ونحوه .

(165/599)

قال ابن عطاء : المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه وقال عبد الله بن المبارك المجاهدة علم أدب الخدمة فإن أدب الخدمة أعز من الخدمة .

وفي "الكواشي" : المجاهدة غض البصر وحفظ اللسان وخطرات القلب ويجمعها الخروج عن العادات البشرية انتهى فيدخل فيها الغرض والقصد ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ الهداية الدلالة إلى ما يوصل إلى المطلوب .

والسبل جمع سبيل وهو من الطرق ما هو معتاد السلوك ويلزمه السهولة ولهذا قال الإمام الراغب : السبيل الطريق الذي فيه سهولة انتهى .

وإنما جمع لأن الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق والمعنى سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد المهاجرين والأنصار أي والذين جاهدوا المشركين وقاتلوهم في نصرة ديننا لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة والرضوان .

وقال بعضهم : معنى الهداية ههنا التثبيت عليها والزيادة فيها فإنه تعالى يزيد المجاهدين هداية ما يزيد الكافرين ضلالة فالمعنى لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً لسلوكها كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ (محمد : 17) وفي الحديث : "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" وفي الحديث : "من أخلص أربعين صباحاً انفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" .

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبيل الجنة ثم قيل : مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى من دخل الجنة في العقبى سلم كذا من لزم السنة في الدنيا سلم .

ويقال : والذين جاهدوا بالتوبة لنهدينهم إلى الإخلاص .

والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم إلى طريق العمل به .

والذين جاهدوا في رضانا لنهدينهم إلى الوصول إلى محل الرضوان .

والذين جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والإنس بنا والمشاهدة لنا .

(166/599)

والذين أشغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى أسرارهم اللطائف والعجب ممن يعجز عن ظاهره ويطمع في باطنه ومن لم يكن أوائل حاله المجاهدة كانت أوقاته موصولة بالأماني ويكون حظه البعد من حيث يأمل القرب .

والحاصل أنه بقدر الجد تكتسب المعالي فمن جاهد بالشريعة وصل إلى الجنة ومن جاهد بالطريقة وصل إلى الهدى ومن جاهد بالمعرفة والانفصال عما سوى الله وصل إلى العين واللقاء .

ومن تقدمت مجاهدته على مشاهدته كما دلت الآية عليه صار مريداً مراداً وسالكاً مجذوباً وهو أعلى درجة ممن تقدمت مشاهدته على مجاهدته وصار مراداً مريداً ومجذوباً سالكاً لأن سلوكه على وفق العادة الإلهية ولأنه متمكن

هاضم بخلاف الثاني فإنه متلون مغلوب وربما تكون مفاجأة الكشف من غير أن يكون المحل متهيئاً له سبباً للإلحاد والجنون والعياذ بالله تعالى .

وفي التأويلات : ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي سبيل وجداننا كما قال : "ألا من طلبني وجدني ومن تقرب إليّ شراً تقربت إليه ذراعاً" .

(167/599)

قالت المشايخ : المجاهدات تورث المشاهدات ولو قال قائل للبراهمة والفلاسفة إنهم يجاهدون النفس حق جهادها ولا تورث لهم المشاهدة قلنا : لأنهم قاموا بالمجاهدات فجاهدوا وتركوا الشرط الأعظم منها وهو قوله : فينا أي خالصاً لنا وهم جاهدوا في الهوى والدنيا والخلق والرياء والسمعة والشهرة وطلب الرياسة والعلو في الأرض والتكبر على خلق الله فأما من جاهد في الله جاهد أولاً بترك المحرمات ثم بترك الشبهات ثم بترك الفضلات ثم يقطع التعلقات تزكية للنفس ثم بالتنقي عن شواغل القلب على جميع الأوقات

وتخليته عن الأوصاف المذمومات تصفية للقلب ثم بترك الالتفات إلى الكونين وقطع الطمع عن الدارين تحلية للروح فالذين جاهدوا في قطع النظر عن الأغيار بالانقطاع والانفصال لنهدينهم سبلنا بالوصول والوصال .

واعلم أن الهداية على نوعين هداية تتعلق بالمواهب وهداية تتعلق بالمكاسب فالتي تتعلق بالمواهب فمن هبة الله وهي سابقة والتي تتعلق بالمكاسب فمن كسب العبد وهي مسبوقة ففي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ إشارة إلى أن الهداية الموهبية سابقة على جهد العبد وجهده ثمرة ذلك البذر فلو لم يكن بذر الهداية الموهبية مزروعاً بنظر العناية في أرض طينة العبد لما نبتت فيها خضرة الجهد ولو لم يكن المزروع مربى جهد العبد لما أثمر بثمار الهداية المكتسبية .

(168/599)

قال بعض الكبار : النبوة والرسالة كالسلطنة اختصاص إلهي لا مدخل لكسب العبد فيها وأما الولاية كالوزارة فلكسب العبد مدخل فيها فكما تمكن الوزارة بالكسب كذلك تمكن الولاية بالكسب ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بمعية النصرة والإعانة والعصمة في الدنيا والثواب والمغفرة في العقبى .

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ لمع المحسنين ﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 6 صـ 624.634 ﴾

(169/599)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : «وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» .

إن الذي يغطّى على أبصار هؤلاء المشركين ، ويعمّى عليهم الطريق إلى الحق ، هو اشتغالهم بهذه الدنيا ، وتنافسهم على متاعها ، واستهلاك أنفسهم فى الجري اللاهث وراء لذاذاتها وشهواتها . ولو أنهم تخففوا قليلا من تعلقهم بالحياة ، ونظروا إليها على أنها طريق إلى حياة أخرى ، أخلد وأبقى . لو أنهم فعلوا هذا لكان شأنهم مع آيات اللّه وكلماته ، غير شأنهم هذا ، ولوجدوا لدعوة لرسول آذانا تسمع ، وعقولا تعقل ، وقلوبا تتقبل ما تعقله العقول . .

ولهذا جاء قوله تعالى : فى هذه الآية ، كاشفا عن حقيقة دنيا المشركين هذه ، التي فتنوا بها ، وسكروا من خمرها . فما هى فى حقيقتها إلا لهو ولعب ، لا يشغل نفسه بها إلا لاعب لاه ، شأنه فى هذا شأن الصغار ، الذين يعيشون لساعتهم ، فى مرح معربد ، ولهو

صاحب ، غير ملتفتين إلى أي شىء وراء هذا .

وقوله تعالى : « وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ » . هو عرض للجانب الآخر من حياة الإنسان ، وهو الجانب الحق ، الجدير بأن يلتفت الإنسان

(170/599)

إليه ، ويعمل له . . إنه المستقبل الذي ينتظره ، والذي يأخذ فيه مكانه بين الناس وينزل منه منزلته ، حسب ما قدم لهذا المستقبل من جهد ، وما بذل من عمل . .

تماما كما هو الشأن فى حياة الإنسان فى هذه الدنيا ، فإن مكانه فى الرجال ، ومنزلته فى الناس إنما تتحدد بما كان منه من سعى وعمل فى دور الصبا والشباب . . . فإذا لها المرء فى صباه ، وعبث فى شبابه ، أسلمه ذلك إلى حياة ضائعة وإلى مستقبل أسود كئيب !

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط فى زمن البذر

وفى قوله تعالى : « لَهِيَ الْحَيَوانُ » بدلا من « لهى الحياة » . إشارة إلى أن الحياة الآخرة هى الحياة ، بل هى أصل الحياة ، وما سواها من حيوات ، ظل لها ، أو فرع منها . .

وقوله تعالى : « لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ » . . اتهام لهؤلاء المشركين بالجهل والغباء ، وأنهم لو كانوا على شىء من العلم لما عموا عن هذه الحقيقة ، ولما آثروا الفانية على الباقية ، ولما اشتروا

الضلالة بالهدى . . . فإن العاقل العالم ، من شأنه أن يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الغث والثمين .

قوله تعالى : « فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ » أي أن هؤلاء المشركين اللاهين الغافلين ، الذين أعماهم الضلال عن الآخرة ، وعن العمل لها ، وعن ذكر اللّه ذكرا خالصا ـ هؤلاء يظلون سادرين فى لهوهم وشركهم ، حتى إذا ركبوا فى الفلك ، واستشعروا الخطر ، ذكروا اللّه ، وفزعوا إليه ، وأسلموا وجوههم له ، مخلصين له الدين ، لا يذكرون وجها من وجوه آلهتهم ، ولا يهتفون باسم معبود من معبوداتهم

(171/599)

فإذا خلصوا من البلاء ، ونجوا من الهلاك ، ولبستهم الطمأنينة ـ عادوا إلى ما كانوا فيه من شرك ، ونسوا ما كان منهم للّه من دعاء ومواثيق ! ! وهكذا المشركون فى الآخرة ، يوم يلقاهم العذاب ، وتفتح لهم أبواب جهنم . .

هناك لا يجرون لآلهتهم ذكرا على ألسنتهم ، بل يذكرون اللّه وحده ، طالبين الغوث من هذا البلاء العظيم ، قائلين : « رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ » . . وأنّى لهم الخروج

وقد دانهم الديّان بما كانوا يعملون ؟ : « قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ » (108 : المؤمنون) .

قوله تعالى : « لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

اللام فى « ليكفروا » وفى « ليتمتعوا » هى لام التعليل . . وهو تعليل لسؤال يرد على قوله تعالى : « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ ! » والسؤال الوارد هنا هو : لم لم يهلكهم اللّه فى هذه الدنيا ؟ ولم لم يعجّل لهم العذاب بشركهم هذا ؟ ولم نجاهم اللّه سبحانه من الغرق ، ولم يدع يد الغرق التي امتدت إلى سفينتهم تدفع بها وبهم إلى لجة الماء ، فيبتلعهم اليمّ ؟ .

والجواب : « لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا » أي ليأخذوا فرصتهم كاملة فى الكفر بهذه الآيات التي تطلع عليهم من آثار قدرتنا ، وليتمتعوا بما بقي فى آجالهم المقدورة لهم ، من أيام .

. وقوله تعالى : « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين الذين لم تزدهم آيات اللّه إلا ضلالا ، ولم تزدهم نعمه وآلاؤه إلا كفرا . . وأنهم إذا كانوا اليوم فى غفلة عن مصيرهم الذي هم صائرون إليه ، فسوف يعلمون علم اليقين ، هذا المصير ، وسيصلون عما قليل إلى ما أعد اللّه لهم من عذاب أليم .

هذا وقد قرىء قوله تعالى : « لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا » بسكون اللام فى « وليتمتّعوا » وهذا يعنى أن الأسلوب أمر ، يراد به التهديد والوعيد .

قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَما آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » .

هو استفهام إنكاريّ ، ينكر فيه على هؤلاء المشركين كفرهم بآيات اللّه ، وجحودهم النعم التي يعيشون فيها من فضله وإحسانه . . . فقد اختصهم اللّه سبحانه من بين العرب جميعا ، بهذا البلد الحرام ، الذي ألقى فى قلوب العرب جميعا توقيره ، وتوقير ساكنيه . . وبهذا عاش هؤلاء المشركون فى ظل هذا البلد الحرام ، آمنين لا ينالهم أحد بسوء ، على حين يعيش الناس من حولهم ، فى خوف وفزع ، وفى بغى وعدوان ، لا يأمن أحد على نفسه ، وأهله وماله ، من أن تطلع عليه فى أية لحظة ، عاصفة تأتى على كل شىء ! .

هكذا الحياة فى هذه الغابة التي لا يتعامل فيها ساكنوها إلا بالظفر والنّاب ، ما عدا هذه البقعة المباركة منها ، فقد حماها اللّه ، وحمى أهلها من كل عادية . . « الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » (4 : قريش) .

أفلا يرى هؤلاء المشركون تلك النعمة الجليلة ؟ ألا يذكرون فضل اللّه عليهم بها ؟ ألا يخلصون له العبادة ؟ ألا يتركون عبادة هذه الدّمى التي شوّهوا بها وجه هذا الحرم ،

وجعلوها أندادا لله ؟ « أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » ؟ ألا ما أسخف عقولهم ، وما أخفّ أحلامهم ! قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ » .

وإن هؤلاء المشركين لظالمون معتدون ، بل إنهم لأشد الناس ظلما وأكثرهم عدوانا . .

إنّهم افتروا على اللّه الكذب ، فخلقوا هذه الدّمى ،

(173/599)

وأعطوها ما شاءوا لها من أسماء ، وجعلوها آلهة يعبدونها من دون اللّه ، وقالوا : «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى » . . ثم إنهم حين جاءهم رسول اللّه ، يكشف لهم وجه هذا الباطل ، ويفضح هذا الزّور ، ويقيم لهم طريقا إلى اللّه ، قائما على الحق - كذّبوه ، ولم يقبلوا الهدى الذي معه . . إن ذلك جرم غليظ ، لا تتسع له أية عقوبة فى هذه الدنيا ، وإنه ليس إلا جهنّم ونكالها ، وبلاؤها ، جزاء يجزى به هؤلاء الكافرون . . « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ » ؟

وبلى . . إن فيها لمكانا لكل من كفر باللّه ، وكذّب بآيات اللّه .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

بهذه الآية الكريمة تختم السورة . . . فيلتقى ختامها مع بدئها ، ولقد بدئت السورة بإيذان المؤمنين بالابتلاء ، وملاقاة الفتن على طريق الإيمان ، وأن استمساك المؤمن بإيمانه يقتضيه جهادا وتضحية ، بالنفس والمال ، والأهل والولد ، والوطن ، وكما يقول سبحانه : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ » كما يقول سبحانه فى آية أخرى : « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً » (186 : آل عمران) .

وهذا الختام الذي ختمت به السورة ، هو وعد كريم من اللّه سبحانه وتعالى المؤمنين الذين يجاهدون فى سبيل اللّه ، ويحتملون ما يلقاهم على طريق الجهاد من ضرّ وأذى . أن يهديهم اللّه ، ويثبّت أقدامهم على سبيله . . . لأنهم سعوا إلى اللّه ، فتلقاهم اللّه بإمداد عونه ، وتأييده ، ونصره ، فكان لهم الغلب ، وكانت لهم العزّة فى الدنيا ، وجنات النعيم فى الآخرة .

وفى قوله تعالى : « جاهَدُوا فِينا » . . . إشارة إلى هذا الجهاد الذي يجاهده

المؤمن ، وأنه جهاد للّه ، وفى سبيل اللّه ، وإعزاز دينه ، ونصر كلمته . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » (40 : الحج) . .

ومعنى الجهاد فى اللّه ، الجهاد فى كل ما هو للّه ـ مما جعله حمى له ، جل شأنه .

وفى توكيد الفعل « لنهدينّهم » توكيد لوعد اللّه ، وأنه وعد أوجبه اللّه سبحانه على نفسه ، كما يقول سبحانه : « كَانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »

(47 : الروم) وفى قوله سبحانه : « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » تطمين لقلوب المؤمنين ، وإشعار لهم بأن اللّه معهم ، بعزته وقوته ، وسلطانه . . ومن كان اللّه معه ، فهو فى أمان من أن يذلّ أو يهون : « أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (22 : المجادلة) وفى وصف المجاهدين فى سبيل اللّه بأنهم محسنون ، إشارة إلى أن الجهاد فى جميع صوره ، هو إحسان ، وأن المجاهد محسن ، لأنه يأخذ طريق الإحسان ، ويسلك مسالكه ، على حين أن غير المجاهد مسىء ، لأنه يركب مراكب الضلال ، ويهيم فى أودية الباطل . . . فحيثما كان الإنسان مع اللّه سبحانه وتعالى ، فهو فى جهاد . . فإذا قهر المرء أهواء نفسه ، ووساوس شيطانه ، فهو مع اللّه ، وفى جهاد فى اللّه . . . وإذا انتصر الإنسان لمظلوم ، فهو مع اللّه وعلى جهاد فى سبيل اللّه . . . وإذا قال المرء كلمة الحقّ ، وردّ بها باطلا ، وسفّه بها ضلالا ، فهو مع اللّه ، وفى جهاد فى اللّه . . وإذا حمل المرء سلاحه ، ودخل الحرب تحت راية المجاهدين فهو مع اللّه ، وفى جهاد فى اللّه .

إن سبل الجهاد كثيرة ، وميادينه متعددة . . . بالقول ، وبالعمل ، باللسان وبالسيف ، ولعلّ هذا هو السرّ فى جمع السبيل فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا » . . فهناك أكثر من سبيل يصل به المؤمن إلى اللّه . . . لأنها جميعها قائمة على الحق ، والعدل ، والإحسان .

وصدق اللّه العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 466 . 471 ﴾

(175/599)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾

هذا الكلام مبلَّغ إلى الفريقين اللذين تضمنهما قوله تعالى : ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ [العنكبوت : 63] فإن عقلاءهم آثروا باطل الدنيا على الحق الذي وضح لهم ، ودهماءهم لم يشعروا بغير أمور الدنيا ، وجميعهم أنكروا البعث فأعقب الله ما أوضحه لهم من الدلائل

بأن نبههم على أن الحياة الدنيا كالخيال وأن الحياة الثانية هي الحياة الحق .

والمراد بالحياة ما تشتمل عليه من الأحوال وذلك يسري غلى الحياة نفسها .

واللهو : ما يلهو به الناس ، أي يشتغلون به عن الأمور المكدرة أو يعْمرون به أوقاتهم الخلية عن الأعمال .

واللعب : ما يقصد به الهزل والانبساط .

وتقدم تفسير اللعب واللهو ووجه حصر الحياة الدنيا فيهما عند قوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ في سورة الأنعام [32] .

والحصر : ادعائي كما تقدم .

وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة وعهي إشارة تحقير وقلة اكتراث ، كقول قيس بن الخطيم مشيراً إلى الموت:

متى يأت هذا الموتُ لا يُلف حَاجة . . .

لنفسيَ إلا قَد قضيتُ قضاءها

ولم توجه الإِشارة إلى الحياة في سورة الأنعام .

ووجه ذلك أن هذه الآية لم يتقدم فيها ما يقتضي تحقير الحياة فجيء باسم الإِشارة لإفادة تحقيرها ، وأما آية سورة الأنعام فتقدم قوله : ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما قرطنا فيها ﴾ [الأنعام : 31] فذُكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سُدى .

وأمر تقديم ذكر اللهو هنا وذكر اللعب في سورة الأنعام فلأن آية سورة الأنعام لم تشتمل على اسم إشارة يقصد منه تحقير الحياة الدنيا فكان الابتداء بأنها لعب مشيراً إلى تحقيرها لأن اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو .

(176/599)

ولما أشير في هذه الآية إلى الحياة الآخرة في قوله ﴿ فأحيا به الأرض من بعد موتها ﴾ [العنكبوت : 63] زاده تصريحاً بأن الحياة الآخرة هي الحياة الحق فصيغ لها وزن الفعلان الذي هو صيغة تنبئ عن معنى التحرك توضيحاً لمعنى كمال الحياة بقدر المتعارف ، فإن التحرك والاضطراب أمارة على قوة الحيوية في الشيء مثل الغليان واللهبان .

وهم قد جهلوا الحياة الآخرة من أصلها فلذلك قالوا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ .

وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف دليله ما تقدم ، أو هو الجواب مقدّماً .

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

أفادت الفاء تفريع ما بعدها على ما قبلها ، والمفرع عليه محذوف ليس هو واحد من الأخبار المتقدمة بخصوصه ولكنه مجموع ما تدل عليه قوة الحديث عنهم وما تقتضيه الفاء .

والتقدير : هم أي المشركون على ما وُصفوا به من الغفلة عن دلائل الوحدانية وإلغائهم ما في أحوالهم من دلائل الاعتراف لله بها لا يضرعون غلا إلى الله فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله ، فضمائر جمع الغائبين عَائدة إلى المشركين .

وهذا انتقال إلى إلزامهم بما يقتضيه دعاؤهم حين لا يشركون فيه إلهاً آخر مع الله بعد إلزامهم بموجبات اعترافاتهم فإنهم يدعون أصنامهم في شؤون من أحوالهم ويستنصرونهم ولكنهم إذا أصابهم هول توجهوا بتضرعهم إلى الله .

وإنما خصّ بالذكر حال خوفهم من هول البحر في هذه الآية وفي آيات كثيرة مثل ما في سورة يونس وما في سورة الإسراء لأن أسفارهم في البر كانوا لا يعتريهم فيها خوفٌ يعم جميع السفر لأنهم كانوا يسافرون قوافلَ ، معهم سلاحهم ، ويمرون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام ، فأما سفرهم في البحر فإنهم يَفْرَقون من هوْله ولا يدفعه عنهم وفرة عدد ولا قوة عُدد ، فهم يضرعون إلى الله بطلب النجاة ولعلهم لا يدعون أصنامهم حينئذ .

(177/599)

فأما تسخير المخلوقات فما كانوا يطمعون به غلا من الله تعالى ، وأيضاً كان يخامرهم الخوف عند ركوبهم في البحر لقلة إلفهم بركوبه إذ كان معظم أسفارهم في البراري .

وقد تقدم تعدية الركوب بحرف (في) عند قوله ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ في سورة [هود : 41] .

والإخلاص : التمحيص والإفراد .

و﴿ الدين ﴾ : المعاملة .

والمراد به هنا الدعاء ، أي ادعوا الله غير مشركين معه أصنامهم .

ويفسر ذلك قوله ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ .

فجيء بحرف المفاجأة للدلالة على أنهم ابتدروا إلى الإشراك في حين حصولهم في البر ، أي أسرعوا إلى ما اعتادوه من زيارة أصنامهم والذبح لها .

والمفاجأة عرفية بحسب ما يقتضيه الإرساء في البر والوصول إلى مواطنهم فكانوا يبادرون بإطعام الطعام عند الرجوع من السفر .

واللام في ﴿ لِيَكْفُرُوا ﴾ لام التعليل وهي لام كي وهي متعلقة بفعل ﴿ يشْرِكُون ﴾ .

والكفر هنا ليس هو الشرك ولكنه كفران النعمة بقرينة قوله ﴿ بما آتَيْنَاهُم ﴾ فإِن الإِيتاء بمعنى الإنعام وبقرينة تفريعه على ﴿ يشْرِكُون ﴾ فالعلة مغايرة للمعلول وكفران النعمة مسبب عن الإشراك لأنهم لما بادروا إلى شؤون الإشراك فقد أخذوا يكفرون النعمة ، فاللام استعارة تبعية ، شبه المسبَّب بالعلة الباعثة فاستعير له حرف التعليل عوضاً عن فاء التفريع .

وأما اللام في قوله ﴿ وِلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ بكسر اللام على أنها لام التعليل في قراءة ورش عن نافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وأبي جعفر ويعقوب .

وقرأه قالون عن نافع وابنُ كثير ، وحمزة والمكسائي وخلف بسكونها فهي لام امر ، وهي بعد حرف العطف تسكَّن وتكْسر ، وعليه فالأمر مستعمل في التهديد نظير قوله ﴿ اعْمَلُوا ما شِئْتُم ﴾ [فصلت : 40] وهو عطف جملة التهديد على جملة ﴿ فَلَمَّا نَجاهُمْ إِلى البَرِّ ﴾ الخ . . .

(178/599)

نظير قوله في سورة [الروم : 34] ﴿ لِيكفُروا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

والتمتع : الانتفاع القصير زمنُه .

وجملة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تفريع على التهديد بالوعيد .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

هذا تذكير خاص لأهل مكة وإنما خُصُّوا من بين المشركين من العرب لأن أهل مكة قدوة لجميع القبائل ؛ ألا ترى أن أكثر قبائل العرب كانوا ينتظرون ماذا يكون من أهل مكة فلما اسلم أهل مكة يومَ الفتح أقبلت وفود القبائل معلنة إسلامهم .

والجملة معطوفة على جملة ﴿ فإِذَا رَكبوا فِي الفُلك دَعُوا الله ﴾ [العنكبوت : 65] باعتبار ما اشتملت عليه تلك الجملة من تقريعهم على كفران نعم الله تعالى ، ولذلك عقبت هذه الجملة بقولة ﴿ وبنعمة الله يكفرون ﴾ والاستفهام إِ ، كاري ، وجعلت نعمة أمن بلدهم كالشيء المشاهد فأنكر عليهم عدم رؤيته ، فقوله ﴿ أنا جعلنا حرما آمناً ﴾ مفعول ﴿ يَرُوا ﴾ ومعنى هذه الآية يعلم مما تقدم عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الهُدَى معَكَ نُتخَطَّفْ من أرْضِنَا أوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حرَما آمِناً ﴾ في سورة [القصص : 57] ، وقد كان أهل مكة في بحبوحة من الأمن وكان غيرهم من القبائل حول مكة وما بعدُ منها يغزو بعضهم بعضاً ويتغاورون ويتناهون ، وأهل مكة آمنون لا يعدو عليهم أحد مع قتلهم ، فذكرهم الله هذه النعمة عليهم والباطل : هو الشرك كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ في هذه السورة العنكبوت [52] .

و(نِعْمَةَ الله) المراد بها الجنس الذي منه إنجاؤهم من الغرق وما عداه من النِعم المحسوسة المعروفة ، ومن النِعم الخفية التي لو تأملوا لأدركوا عظمها ، ومنها نعمة الرسالة المحمدية .

والمضارع في المواضع الثلاثة دال على تجدّد الفعل .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ

لما أوفاهم ما يستأهلونه من تشنيع أحوالهم وسوء انتظام شؤونهم جاء في عقبه بتذييل يجمعها في أنها افتراء على الله وتكذيب بالحق ، ثم جزاهم الجزاء الأوفى اللائق بحالهم وهو أن النار مثواهم .

وافتتح تشخيص حالهم بالاستفهام عن وجود فريق هم أظلم من هؤلاء الذين افتروا على الله وكذبوا بالحق توجيهاً لأذهان السامعين نحو البحث هل يجدون أظلم منهم حتى إذا أجادوا التأمل واستَقْروا مظانّ الظلمة واستعرضوا أصنافهم تيقنُوا أن ليس ثمة ظلم أشدُّ من ظلم هؤلاء .

وإنما كانوا أشد الظالمين ظُلماً لأن الظلم الاعتداء على أحد بمنعه من حقه وأشدّ من المنع أن يمنعه مستحقَّه ويعطيه من لا يستحقه ، وأن يلصق باحد ما هو بريء منه .

ث إن الاستحقاق وعدمه قد يثبتان بحكم العوائد وقد يثبتان بأحكام الشرائع وقد يثبتان بقضايا العقول السليمة وهو أعلى مراتب الثبوت ومَدار أمور أهل الشرك على الافتراء على الله بأن سَلبوا عنه ما هو متصف به من صفات الإلهية الثابتة بدلالة العقول ، وأثبتوا له ما هو منزه عنه من الصفات والأفعال بدلالة العقول ، وعلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونكران دلالة المعجزة التي يقتضيها العقل ، وعلى رمي الرسول عليه الصلاة والسلام بما هو بريء منه بشهادة العقل والعادة التي عرفوها منه بهتاناً وكذباً ؛ فكانوا بمجموع

الأمرين وضعوا اشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها فكانوا أظلم الناس لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول .

وتقييد الافتراء بالحال الموكِّدة في قوله ﴿ كَذِباً ﴾ لزيادة تفظيع الافتراء لأن اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس ، وإنما اختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمداً لا تخالطه شبهة .

(180/599)

وتقييد تكذيبهم بالحق بقوله ﴿ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ لإدماج ذم المكذبين بنكران نعمة إرسال الحق إليهم التي لم يقدروها قدرها ، وكان شأن العقلاء أن يتطلبوا الحق ويرحلوا في طلبه ، وهؤلاء جاءهم الحق بين أيديهم فكذبوا به .

وأيضاً فإن ﴿ لَمَّا ﴾ التوقيتية تؤذن بأن تكذيبهم حصل بداراً عند مجيء الحق ، أي دون أن يتركوا لأنفسهم مهلة النظر .

وجملة ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ بيان لجملة ﴿ ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى على الله ﴾ وتقرير لها لأن في جملة ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله ﴾ إلى آخرها إيذاناً إجمالياً بجزاء فظيع يترقبهم ، فكان بيانه بمضمون جملة ﴿ أليس في جهنم مثوى لكافرين ﴾ وهو

بالفاظه ونظمه يفيد تمكنهم من عذاب جهنم إذ جعلت مثواهم .

فالمثوى : مكان الثواء .

والثواء : الإقامة الطويلة والسكنى .

وعلق ذلك بعنوان الكافرين للتنبيه على استحقاقهم ذلك لأجل كفرهم .

والتعريف في (الكَافِرِين) تعريف العهد ، أي لهؤلاء الكافرين وهم الذين ذكروا من قبلُ بأنهم افتروا على الله كذباً وكذبوا بالحق ، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لإحضارهم بوصف الكفر .

والهمزة في ﴿ أليس في جهنم مثوى ﴾ للاستفهام التقريري ، واصلها : إما الإنكار بتنزيل المُقِرّ منزلة المنكر ليكون إقراره أشد لزوماً له ، وإما أن تكون للاستفهام فلما دخلت على النفي أفادت التقرير لأن إنكار النفي إثبات للمنفي وهو إثبات مستعمل في التقرير على وجه الكناية .

وهذا التقرير بالهمزة هو غالب استعمال الاستفهام مع النفي ، ومنه قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا . . .

وأندى العالمين بطون راحِ

فإنه لا يحتمل غير معنى التقرير بشهادة الذوق ولياقة مقام مدح الخليفة .

وهذا تقرير لمن يسمع هذا الكلام .

جُعل كون جهنم مثواهم أمراً مسلماً معروفاً بحيث يُقرّ به كل من يُسأل عنه كناية عن تحقيق المغبة على طريقة إيماء الكناية .

(181/599)

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

خُتم توبيخ المشركين وذمُّهم بالتنويه بالمؤمنين إظهاراً لمزيد العناية بهم فلا يخلو مقام ذم أعدائهم عن الثناء عليهم ، لأن ذلك يزيد الأعداء غيظاً وتحقيراً .

و﴿ الذين جاهدوا ﴾ في الله هم المؤمنون الأولون فالموصول بمنزلة المعرّف بلام العهد .

وهذا الجهاد هو الصبر على الفتن والأذى ومدافعة كيد العدو وهو المتقدم في قوله أول السورة [العنكبوت : 6] ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ إذ لم يكن يومئذ جهاد القتال كما علمت من قبل .

وجيء بالموصول للإيماء إلى أن الصلة سبب الخبر .

ومعنى ﴿ جاهدوا فينا ﴾ جاهدوا في مرضاتنا ، والدِّين الذي اخترناه لهم .

والظرفية مجازية ، يقال : هي ظرفية تعليل تفيد

مبالغة في التعليل .

والهداية : الإرشاد والتوفيق بالتيسير القلبي والإرشاد الشرعي ، أي لنزيدنهم هُدى .

وسُبُل الله : الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه ، شبهت بالطرق الموصلة إلى منزل الكريم المكرم للضيف .

والمراد بـ ﴿ المحسنين ﴾ جميع الذين كانوا محسنين ، أي كان عمل الحسنات شعارهم وهو عامّ .

وفيه تنويه بالمؤمنين بأنهم في عداد من مضى من الأنبياء والصالحين .

وهذا أوقع في إثبات الفوز لهم مما لو قيل : فأولئك المحسنون لأن في التمثيل بالأمور المقررة المشهورة تقريراً للمعاني ولذلك جاء في تعليم الصلاة على النبيء صلى الله عليه وسلم قوله : "كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم " .

والمعية : هنا مجاز في العناية والاهتمام بهم .

والجملة في معنى التذييل بما فيها من معنى العموم .

وإنما جيء بها معطوفة للدلالة على أن المهم من سَوقها هو ما تضمنته من أحوال المؤمنين ، فعطفت على حالتهم الأخرى وأفادت التذييل بعموم حكمها .

وفي قوله ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ إيماء إلى تيسير طريق الهجرة التي كانوا يتأهبون لها أيام نزول هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(183/599)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾

الحياة : نعرفها بأنها ما يكون في الإنسان الأعلى في الوجود من حِسٍّ وحركة ، فإذا انتهى حِسُّه وحركته لم تَعُدْ له حياة ، وهذه الحياة موصوفة هنا بأوصاف ثلاثة : دنيا ولهو ولعب ، كلمة دنيا تدل على أن مقابلها عُلْيا فساعة تسمع هذا الوصف " الحياة الدنيا " فاعلم أن هذا الوصف ما جاء إلا ليميزها عن حياة أخرى ، تشترك معها في أنها حياة لله إلا أنها حياة عليا ، هذه الحياة العُلْيا هي التي قال عنها ربنا – تبارك وتعالى – " الدار الآخرة " .

وإنْ كنا قد عرَّفنا الحياة الدنيا بأنها الحِسُّ والحركة في الإنسان ، فالواقع عند التقنين أن لكل شيء في الوجود حياةً تُناسب مهمته ، بدليل قوله تعالى حين يُنهي هذه الحياة : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88] .

فما يُقال له شيء لا بُدَّ أنْ يطرأ عليه الهلاك ، والهلاك تقابله الحياة ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . ﴾ [الأنفال : 42] .

فالحياة ضد الهلاك ، إلا أنك تعرف الحياة عندك بالحس والحركة ، وكذلك الحياة في كل شيء بحسبه ، حتى في الجماد حياة نلحظها في أن الجبل يتكون من أصناف كثيرة من الحجارة ، ترتقي مع الزمن من حجارة إلى أشياء أخرى أعلى من الحجارة وأثمن ، وما دامت يطرأ عليها هذا التغيير فلا بُدَّ أن فيها حياةً وتفاعلاً لا ندركه نحن .

(184/599)

إذن : فكل شيء له حياة ، لكن الآفة أننا نريد حياة كالتي فينا نحن ، وأذكر نحن في مراحل التعليم قالوا لنا : هناك شيء اسمه المغناطيس ، وعملية اسمها الممغنطة ، فحين تُمغنط قطعة من الحديد تُكسِبها قدرة على جَذْب قطعة أخرى وفي اتجاه معين ، إذن : في الحديد حياة وحركة وتفاعل ، لكن ليس عندك الآلة التي تدرك بها هذه الحركة ، وفيها ذرات داخلية لا تُدرَك بالعين المجردة تم تعديلها بالمغنطة إلى جهة معينة .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . ﴾ [فصلت : 21] فللجوارح نفسها حياة ، ولها كلام ومنطق ، لكن لا ندركه نحن ؛ لأن حياتها ليست كحياتنا . إنك لو تتبعتَ مثلاً طبقاً أو كوباً من البلاستيك

لوجدته تغيَّر لونه مع مرور الزمن ، وتغيُّر اللون فيه يدل على وجود حياة وحركة بين ذراته ، ولو لم تكُنْ فيه حياة لكان جامداً مثل الزجاج ، لا يطرأ عليه تغيُّر اللون .

والحق – تبارك وتعالى – يصف الدار الآخرة بأنها ﴿ الحيوان . . ﴾ [العنكبوت : 64] وفرْق بين الحياة والحيوان ، الحياة هي هذه التي نحياها في الدنيا يحياها الأفراد ، ويحياها النبات ، ثم تؤول إلى الموت والفناء ، أمّا الحيوان فيعني الحياة الأرقى في الآخرة ؛ لأنها حياة باقية حياة حقيقية .

والحق – سبحانه وتعالى – أعطانا صورة للحياة الدنيا ، الحياة المادية في قوله تعالى عن آدم ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . . ﴾ [الحجر : 29] فمن الطين خَلق آدم ، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه تعالى ، فدبَّتْ فيه الحياة المادية .

(185/599)

لكن هناك حياة أخرى أسمى من هذه يقول الله عنها : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 24] فكيف يخاطبهم بذلك وهم أحياء ؟ لا بُدَّ أن المراد حياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، المراد حياة الروح والقيم والمنهج الذي يأتي به رسول الله .

لذلك سمَّى المنهج روحاً ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا . . . ﴾ [الشورى : 52] وسمَّى الملَك الذي نزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] .

إذن : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان . . . ﴾ [العنكبوت : 64] أي : الحياة الحقيقية التي لا تفوتها ولا تفوتك ، ولا يفارقك نعيمها ، ولا يُنغِّصه عليك شيء ، كما أن التنعُّم في الدنيا على قَدْر إمكاناتك وأسبابك ، أمّا في الآخرة فالنعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى .

ثم يأتي وَصْف الدنيا بأنها لَهْو ، ولَعِب ، وهما حركتان من حركات جوارح الإنسان ، لكنها حركة لا مَقصدَ لها إلا الحركة في ذاتها دون هدف منها ؛ لذلك نقول لمن يعمل عملاً لا فائدة منه " عبث " .

إذن : اللهو واللعب عبث ، لكن يختلفان من ناحية أخرى ، فاللعب حركة لا فائدة منها ، لكنه لا يصرفك عن واجب يعطي فائدة ، كالولد حين يلعب ، فاللعب لا يصرفه عن شيء إذن : فاللعب لمن لم يبلغ ، أمّا البالغ المكلف فاللعب في حقِّه يسمى لَهْواً ، لأنه كُلِّف فترك ما كُلِّف به إلى ما لم يكلّف به ، ولَهَا عن الواجب ، ومنه : لَهْو الحديث .

فقوله تعالى ﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ . . . ﴾ [العنكبوت : 64] أي : إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم التي تأتي باتباع المنهاج .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعية يعني : امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعني : يا ليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ؛ لأنهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كُلَّ هذا العطاء الممتدّ ، ولَسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر ، فكأن المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك . . . ﴾ .

ينقلنا السياق هنا من الكلام عن حقيقة كل من الدنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك ، فما العلاقة بينهما ؟

المتكلم هنا هو الله تعالى ، وواضع كل شيء في موضعه ، ولا يغيب عنك أنه لا بُدَّ أنْ تتدبر كلام الله لتفهم مراده ، فالله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن فحسب ، إنما أنْ نتعمق في فهمه وتأمله ، وننظر في معطياته الحقيقية : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن . . . ﴾ [النساء : 82] .

والعلاقة هنا أن الآية السابقة جاءتْ لتقرر أن الدنيا دار لهو ولعب لا فائدة منها إذا ما بَعُدت عن منهج الله ، ولم تحسب حساباً لحياة أخرى هي الحياة الحقيقية وهي الحيوان ، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة ، وأنْ يعمل لها باتباع منهج الله في الدنيا .

إذن : فالدنيا ليست غاية ، بل هي وسيلة ، وأنت أيها الذي أعرضتَ عن منهج ربك

جلعتَ الدنيا غايتك ، والدنيا إنْ كانت هي الغاية فما أتفهها من غاية ، إنما اجعلها وسيلة للآخرة ومزرعة لدار الحيوان . وكذلك الحال في الفُلْك ، فهي وسيلة تُوصّلك إلى هدف ، وإلى غاية ، وليست هي غاية في حَدِّ ذاتها .

(187/599)

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . . ﴾ [العنبكوت : 65]

والفلك : السفينة ، وتُطلق على المفرد وعلى الجمع ، فيقول تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك . . . ﴾ [هود : 38] وقوله ﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . . ﴾ [يونس : 22]

واضح من السياق أنها ليستْ دعوة الحمد ، كأن يقولوا مثلاً ﴿ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 13] بل هي دعوة الاضطرار بعد أنْ تعرَّضوا لشدة وعطب لا تنجيهم منها أسبابهم ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] .

فهذه تعطينا أنهم ركبوا في السفينة ، فلما تعرَّضوا للعطب ، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله مخلصين له الدين .

وفي لقطة أخرى يقول القرآن : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ

بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [يونس : 22] .

فمعنى ﴿ أُحِيطَ بِهِمْ . . . ﴾ [يونس : 22] أي : لا يوجد لهم مفر ولا مهرب ولا مفزع يفزعون إليه إلا أنْ يتوجهوا إلى الله بدعاء خالص ويقين إيمان في أنهم لا ملجأ لهم إلا الله ، وقد كانوا في أول الرحلة فرحين بمركبهم مسرورين به ، وساعتها لم يكُن الله في بالهم ، إنما لما ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحق ، فالوقت لا يحتمل المراوغة .

لأن الإنسان عادةً لا يخدع نفسه ، فحتى الكافر حين تضيق به أسباب النجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحق ، وينسى آلهته ومعبوداته من دون الله ؛ لأنه لا يسلم نفسه أبداً ، ولا يتمادى حينئذ في كذبة الآلهة والأصنام .

لذلك : ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين .

(188/599)

. . ﴾ [العنكبوت : 65] دعوة خالصة بيقين ثابت في الإله الحق ، دعوة لا تشوبها شائبة شرك ، لا ظاهر ، ولا خفي ، فلا ينفع في هذا الوقت إلا الله المعبود بحقٍّ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثَل من حياتنا الواقعية ، قلنا : إن حلاق الصحة كان يقوم

بدور الطبيب في القرية ، وله بين الناس نفس مكانة الطبيب في وقت لم يكُنْ هناك أطباء ، فلما خرَّجَتْ كلية الطب أطباء وانتشروا في القرى كان الحلاق أول المهاجمين للطبيب ؛ لأنه يزاحمه في رزقه ، ويصرف الناس عنه ؛ لذلك كان يذم في الطبيب ويُشكِّك في خبرته وقدراته .

لكن لما مرض ابنه ، وارتفعت درجة حرارته ، وخاف عليه قال لزوجته : انتظري إلى ظلام الليل لأذهب به إلى الطبيب – يعني : في غفلة الناس .

فالإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولا يسلمها إذا جدَّ الجد ، وفيه فطرة إيمانية إذا ما صفيتها في الذات البشرية لا تجد في النهاية إلا قوة واحدة هي قوة الله .

حتى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون : يا رب ، يا الله . يقولونها من تلقاء أنفسهم ، دون مرور بالعقل الذي أنكروا به وجود الله . وهذا يعني أن الفطرة الإيمانية قد تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها ، فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور .

لذلك نلحظ في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا . . . ﴾ [الأعراف : 172] شهدوا لأنهم ما يزالون في عالم الذر ، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ

القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ . . . ﴾ [الأعراف: 172-173] .

(189/599)

والله خلق الإنسان خليفة له في الأرض ، وسخر له كل هذا الكون ، فإنْ ظلَّ متمسكاً بهذا المنهج ، ووقف عند حد الخلافة يفوز ، أما إنْ ظن أنه أصيل في الكون يخيب ويخسر ، لكن الله الذي خلقه يعلم الأغيار فيه وهو خَلْقه وصنعته ؛ لذلك وجهه : أنت خليفتي في أرضي ، وعليك أن تنظر إلى ما طُلِب منك فتؤديه ، وإلا فسدت حياتك وتصادمت مع الآخرين ؛ لأنك لست وحدك فيها ، ولكي تنسجم مع غيرك لا بُدَّ أن تسير وَفْق منهجي ، وفي دائرة قوانين من استخلفك .

ثم يُنبِّهه من ناحية أخرى : يقول أنت أيها الإنسان ، اعلم أن الأسباب ستستجيب لك ، فإياك أن تظن أن لك قدرةً عليها ، أو أن لك جاهاً وعظمة ، فتنسى أنك خليفة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 - 7] احذر حين تتم لك الأمور وتطاوعك الأسباب ﴿ إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرجعى ﴾ [العلق : 8] فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعَها ، ولن تجد مرجعاً إلا إليَّ .

وكيف يطغى الإنسان وقد أعطاه الله فيضاً من فيض كماله ، أعطاه قدرة من قدرته ، وعلماً من علمه .

. إلخ فإذا نظرتَ نظرة بسيطة في فيوضات الله عليك لوجدتها كثيرة ، بالله ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ، أو أن تُحرِّك يدك أو رِجْلك ؟ لا شيء ، بمجرد أن تريد تنفعل لك أعضاؤك ، وتطاوعك من حيث لا تدري .

وسبق أنْ قارنّا بين حركة الإنسان وحركة الحفار مثلاً ، وكيف أنه يحتاج إلى عمليات مُعقدة ، فكل حركة منه لها زرّ خاص يؤديها ، فماذا تفعل أنت إنْ أردتَ أنْ تؤدي مثل هذه الحركات ؟

إنك بمجرد الإرادة ينفعل لك العضو ، وكأن فيك فيضاً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] فإذا كنتَ أنت تفعل بمجرد أن تريد ، فلماذا لا تصدق هذا في حقِّ الله تبارك وتعالى ؟

(190/599)

لكن هذه الحركة وانفعال الأعضاء لك ليس ذاتياً فيك ، ويستطيع خالقك أنْ يسلبها منك ، فتريد أن ترفع يدك فلا تستطيع ، فأنت تحت قيوميته تعالى ، فلم يُعطِكَ من صفاته ، ثم

يتركك . . فربنا سبحانه يحذرنا : إذا استغنيتَ ستَطغى ؛ فتنبَّه أن إلى ربك الرُّجْعى .

ثم يلفت نظرنا من الآن إلى قضية أخرى قبل أنْ نتعرض للمخاطر : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ . . . . ﴾ [يونس : 107] فلا تتعب نفسك ، وتذهب هنا أو هناك ؛ لأنه ﴿ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [يونس : 107] .

هذه نصيحتي لك ؛ لأنك صنعتي ، وأنا أحب أن تكون صنعتي على أرقى ما تكون من الكمال ، فإذا مسَّك ضر لا تقدر على دَفْعه بأسبابك ، فعليك بباب ربك .

هذه ثلاث قضايا أو نصائح نقدمها لك قبل أنْ تحلَّ بك الأحداث والمصائب : إن استغنيت ستطغى ، وأن إلى ربك الرجعى ، وإذا مسَّك ضر ، ولا حيلةَ لك في دفعه بأسبابك ، فليس لك إلا الله تفزع إليه ، والإله الذي يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم .

إذن : فأنتم تحبون الحياة ، ولما نزلتْ بكم الأحداث والخطوب في السفينة خِفْتم الموت ، ودعوتُم الله بالنجاة ، فأنتم حريصون على الحياة الدنيا ، فلماذا لا تؤمنون بالله فتنالون حياة أخرى أبْقى وأدوم ؟ والطريق إليها بالإيمان واليقين ، وبمنهج الله في (افعل) و (لا تفعل) .

هذه قضية ذكرها القرآن ، أمَّا واقع الحياة فقد أكدها ، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال .

القضية : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسانَ الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ . . . ﴾ [يونس : 12] الإنسان يعني مُطْلق الإنسان : المؤمن والكافر ﴿ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً . . . ﴾ [يونس : 12] يعني : في كل الأحوال ، فلما جاءه الخطر وأصابه الضر دعا الله على أيِّ حال كان .

وهذه الأحوال تمثل مراحل راحات النفس ، فمثلاً حين تسير وأنت تحمل شيئاً ، فحين تتعب أولاً تضع عنك هذا الحِمْل ، ثم تتوقف عن السير لتستريح ، فإنْ كان التعب أشد تقعد ، وإلا تَضطجع على جنبك .

فأنت في وضع الوقوف تحمل ثقل الجسم كله على القدمين فتكون الراحة أقل ، أمّا في حالة القعود يُوزع ثقل الجسم على الوركين والمقعدة ، وفي الاضطجاع يُوزع نصف الجسم على نصفه فتكون الراحة أكبر ، وفي ضوء هذا نفهم أن الله يستجيب لك حين تدعوه قائماً ، أو قاعداً ، أو على جنبك .

وعجيب أمر الإنسان إذا نجَّاه الله مما يخاف وكشف عنه الضر عاد مرة أخرى ظالماً لنفسه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . ﴾ [يونس : 12] .

وفي لقطة أخرى يقول تعالى في هذه المسألة : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ . . . ﴾ [الزمر : 8] أيُّ ضر ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [الزمر : 8] ويا ليته نسي وسكت إنما ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً . . . ﴾ [الزمر : 8] فقال : الفضل لفلان ، وقد استغثت بفلان ، ولجأت إلى فلان .

نلحظ أن الكلام في هذه الآيات عن الإنسان المفرد ، والإنسان حين يتضرع إلى الله لا يطلع عليه أحد ، فالأمر بينه وبين ربه ، لكن الحق سبحانه يريد أن يفضح الناس ببعض ، فيقول في موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . ﴾ [الإسراء : 67] .

(192/599)

فذكر الجماعة ليفضحهم أمام بعض ؛ لأن الإنسان يستر على نفسه ، فالحكمة من الجمع هنا أن رؤية الناس قد تكون مانعة من الشر ، فمثلاً في موسم الحج ترى أكابر القوم وأوسطهم وأدناهم سواسية في الطواف ، ويقف الواحد منهم يبكي عند الملتزم ، وحين يراك صاحب المنصب أو المركز وهو مَنْ هو في بلده ساعة يعرف أنك رأيته وهو يبكي في هذا الموقف تراه يتواضع لك ، ولا يتعالى عليك بعدها .

فالحق سبحانه حين يُحذِّرنا من العودة إلى المعصية بعد أنْ يكشف عنا الضر إنما يعطينا المصل الواقي بصورة تحدث في الواقع ، وكأنه تعالى يقول لنا : خذوا بالكم ، واعلموا أنكم مفضوحون بكتاب الله فيما تُحدثون من أحداث في حياتكم ، فكل منكم ينبغي أنْ يعلم أنه مراقب من الأزل ومكتوبة عليه خواطره ؛ لأن معنى القرآن الحق أنه لا يتغير ، وإذا قال الله

فيه شيئاً فلا بُدَّ أنْ يحدث كما أخبر الله به .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

واللام في ﴿ لِيَكْفُرُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 66] ليست لام التعليل ؛ لأن الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم ، وحين عادوا بعد أن نجاهم الله إنما عادوا إلى أصلهم ، فاللام هنا لام الأمر كما لو قلت : قم يا زيد وليقم عمرو ، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة ، وهي هنا مكسورة لأنها في بداية الكلام ، حيث لا يُبدأ بساكن ، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها .

ومثالها في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ [الحج : 29] .

وقوله سبحانه : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله . . . ﴾ [الطلاق : 7] .

(193/599)

والدليل على أنها لام الأمر سكون اللام بعدها في قراءة من سكنها ، وفي ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 66] وقوله سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَعلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 66] فرْق في الاستقبال بين السين وسوف ، فلو قال : فسيعلمون لَدلَّتْ على التهديد في المستقبل

القريب ، وأنه سيحل بهم العذاب في الدنيا ، أمّا " سوف " فتدلّ على المستقبل البعيد ، فتشمل التهديد في الدنيا وفي الآخرة فهي تستغرق الزمن كله ؛ لأن المسلمين في باديء الأمر كانوا مستضعفين ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، وذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يستنصر الله لهم فلو قال حينئذ في تهديد الكفار " فسيعلمون " لم تكن مناسبة ، إنما أعطى الأمد الأوسع للتهديد ، فقال : ﴿ فَسَوْفَ يَعلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 66] .

لذلك تجد الدقة في أخْذ العهد من الأنصار للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن الرسول للأنصار ، فلما قابلوا رسول الله قالوا : خُذْ لنفسك . قال : تحمونني مما تحمون منه أنفسكم وأعراضكم وأموالكم .

فقالوا : فما لنا إنْ فعلنا ؟ كان من الممكن أن يقول لهم : ستملكون الأرض أو ستنشر دعوة الله بكم وتنتصرون على عدوكم ، لكن هذه الوعود قد يراها بعضهم ، ويموت بعضهم قبل أنْ تتحقق ، فلا يرى منها شيئاً ؛ لذلك ذكر لهم جزاءً يستوي فيه الجميع مَنْ يعيش منهم ، ومَنْ يموت ، فقال : " لكم الجنة " .

وأيضاً حين يصرفهم عن دنيا الناس إلى أمر يكون في الدنيا أيضاً ، فهي صفقة خاسرة ، إنما أراد أنْ يصرفهم عن دنيا الناس إلى شيء أعظم مما في دنيا الناس ، وليس هناك أعظم من دنيا الناس إلا الجنة .

والصحابي الذي أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأن الجنة جزاء الشهيد ، وكان يمضغ تمرة في فمه فقال : يا رسول الله ، أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أُقتل في سبيل الله ؟ قال : بلى ، فألقى التمرات وبادر إلى ساحة القتال يستعجل هذا الجزاء .

(194/599)

إذن : فسوف صالحة للزمن المستقبل كله ، أمّا السين فللقريب ؛ لذلك يستخدمها القرآن في مسائل الدنيا ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ [فصلت : 53] .

وهذه الرؤية ممتدة من زمن رسول الله ، وإلى أنْ تقوم الساعة ، فكل يوم يجدُّ في ظواهر الكون أمور تدل على قدرة الله تعالى ، فمستقبل أسرار الله في كونه لا تنتهي أبداً إلا بالسر الأعظم في الآخرة ، ففي زمن رسول الله قال

﴿ سَنُرِيهِمْ . . . ﴾ [فصلت : 53] وستظل كذلك ﴿ سَنُرِيهِمْ . . . ﴾ [فصلت : 53] إلى أنْ تقوم الساعة .

ونلحظ أن المصاحف ما زال في رسمها كلام حتى الآن ، فهنا ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 66] تجد تحت اللام كسرة ، مع أنها ساكنة ، وهذا يعني أن كتاب الله غالب

، وليس هناك محصٍ له .

وأذكر أن سيدنا الشيخ عبد الباقي رضي الله عنه وجزاه الله عَمَّا قدَّم للإسلام خير الجزاء - أعدَّ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وحاول أن يحصي ألفاظه لا سيما لفظ الجلالة (الله) الذي من أجله أعدَّ هذا الكتاب ، ومع ذلك نسي لفظ الجلالة في البسملة ، وبدأ من ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] ؛ لذلك نقص العدد عنده واحداً . وما ذلك إلا لأن كتاب الله أعظم وأكبر من أنْ يُحاط به .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً . . . ﴾ .

(رأى) قلنا : تأتي بصرية ، وتأتي بمعنى عَلِم ، ومنه قولنا في الجدال مثلاً أرى في الموضوع الفلاني كذا وكذا ، ويقولون : (وَلِرَأْيَ الرؤْيا انْمِ ما لِعَلِمَا) ، وتجد في أساليب القرآن كلاماً عن الرؤيا المخاطب بها غير راء للموضوع ، كما في قوله سبحانه مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] .

(195/599)

ومعلوم أن النبي لم يَرَ ما حدث من أمر الفيل ؛ لأنه وُلد في هذا العام فرأى هنا بمعنى علم ، لكن لماذا عدل عن (ألم تعلم) إلى (ألم تر) ؟ قالوا : لأن المتكلم هنا هو الله تعالى ، فكأنه

يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتُك بشيء ، فإن إخباري لك به أصدق من رؤيتك .

يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 67] فالحرم آمِن رغم ما حدث له من ترويع قبل الإسلام حين فزّعه أبرهة ، وفي العصر الحديث لما فزَّعه (جهيمان) ، وعلى مَرِّ العصور حدثتْ تجاوزات في الحرم تتناقض في ظاهرها مع هذا الأمن .

ونقول : كلمة ﴿ حَرَماً آمِناً . . . . ﴾ [العنكبوت : 67] في القرآن بالنسبة للكعبة فيها ثلاث إطلاقات : فالذين يعيشون فيه وقت نزول هذه الآيات يروْنَ أنه حرم آمن ، وهذا الأمن موهوب لهم منذ دعوة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – .

فحين دعا ربه : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . . . ﴾ [إبراهيم : 37] كان مكاناً خالياً ، لا حياة فيه وغير مسكون ، ومعنى ذلك أنه لم تكُنْ به مُقوّمات الحياة ، فالإنسان لا يبني ولا يستقر إلا حيث يجد مكاناً يأمن فيه على نفسه ، ويتوفر له فيه كل مُقوّمات حياته .

لذلك دعا إبراهيم ربه أنْ يجعل هذا المكان بلداً آمناً يعني يصلح لأنْ يكون بلداً ، فقال : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ﴾ [البقرة : 126] .

وبلد هنا نكرة تعني : أيْ بلد لمؤمنين أو لكافرين ، فلما استجاب الله له ، وجعلها بلداً كأيِّ بلد تتوفر له مُقوِّمات الحياة دعا مرة أخرى : ﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً . . . ﴾ [إبراهيم : 35] أي : هذه التي صارت بلداً أريد لها مَيْزة على كل البلاد ، وأمناً أزيد من أمن أيّ بلد آخر ، أمناً خاصاً بها ، لا الأمن العام الذي تشترك فيه كل البلاد ، لماذا ؟ لأن فيها بيتك .

لذلك يرى فيها الإنسان قاتلَ أبيه ، ولا يتعرَّض له حتى يخرج ، فالجاني مؤمَّن إنْ دخل الحرم ، لكن يُضيق عليه أسباب الحياة حتى يخرج ، حتى لا يجترئ الناس على بيت الله ويفسدون أمنه ، ومن هذا الأمن الخاص ألاَّ يصاد فيه ، ولا يُعْضَد شجرة ، ولا يُروَّع ساكنه .

وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يقول للمشركين : لماذا لا تؤمنون بهذا الدين الذي جعل لكم بلداً آمناً ، في حين يُتخطف الناس من حولكم ؟ لماذا لا تحترمون وجودكم في هذا الأمن الذي وهبه الله لكم .

وعجيب منهم أن يقولوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وقالوا إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . ﴾ [القصص : 57] كيف وقد حَمْيناكم أيام كنتم مشركين تعبدون الأصنام ، أنترككم بعد أنْ تؤمنوا مع رسول الله .

وقصة هذا الأمن أولها في حادثة الفيل ، لما جاء أبرهة ليهدم بيت الله ويُحوِّل الناس إلى

بيت بناه باليمن ، فردَّ الله كيدهم ، وجعلهم كعصف مأكول ، وحين نقرأ هذه السورة على الوَصْل بما بعدها تتبين لنا العِلَّة من هذا الأمن ، ومن هذه الحماية ، اقرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 1-5] لماذا ؟ ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف ﴾ [قريش : 1-2] .

(197/599)

فالعلة في أن جعلهم الله كعصف مأكول ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : 1] لأن اللام في (لإِيلاَف) للتعليل ، وهي في بداية كلام فالعلة في أن الله لم يُمكِّن الأعداء من هدم البيت لتظلّ لقريش مهابتها ومكانتها بين العرب ، ومهابتها مرتبطة بالبيت الذي يقصده الناس من كل مكان .

وهذه المكانة تُؤمِّن تجارة قريش في رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء ، وكيف يجترئ أحد عليهم أو يتعرّض لتجارتهم وهم حُماة البيت ؟

فمعنى ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : 1] أن الله أهلك أبرهة وجنوده ولم يُمكِّنهم من

البيت لتظل لقريش ، وليُديم الله عليها أنْ يُؤْلَفوا وأنْ يُحبُّوا من الناس جميعاً ، ويواصلوا رحلاتهم التجارية الآمنة .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 3-4] فكان من الواجب عليهم أن يعبدوا رب البيت الذي وهبهم هذه النعم ، فما هم فيه من أمن وأمان وطعام وشراب ليس بقوتهم ، إنما بجوارهم لبيت الله ، ولبيت الله قداسته عند العرب ، فلا يجرؤ أحد منهم على الاعتداء على تجارة قريش .

فقولهم لرسول الله : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . ﴾ [القصص : 57] حجة لله عليهم ، ففي الوقت الذي يُتخطّف الناس فيه من حولهم كانوا هم في أمان ، فهي حجة عليهم .

ثم إن الشرط هنا ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ . . . ﴾ [القصص : 57] غير مناسب للجواب ﴿ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . ﴾ [القصص : 57] فما دمتم قلتم عن الدين الذي جاءكم به محمد أنه هدى - يعني هدى لله - فكان يجب عليكم أنْ تؤمنوا به لو تأكد لديكم أنه هدى ، وإلا فأنتم كاذبون في هذا القول ، ولِمَ لا وأنتم تُكذِّبون القرآن وتقولون عنه افتراء وكذب وسحر ، والآن تقولون عنه هدى ، وهذا تناقض عجيب .

ألم يقولوا ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

ومعنى هذا أن القرآن لا غبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على هذا الرجل بالذات .

وقوله تعالى ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ .

. . ﴾ [العنكبوت : 67] أي : بالأصنام ﴿ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت : 67] قال ﴿ وَبِنِعْمَةِ الله ﴾ [العنكبوت : 67] ولم يقل مثلاً : وبعبادة الله ، أو بالإيمان بالله يكفرون ؛ لأن إيمانهم لو لم يكُنْ له سبب إلا نِعمَ الله عليهم أنْ يُطعِمهم من جوع ، ويُؤمنهم من خوف لكان واجباً عليهم أنْ يؤمنوا به .

والباطل مقابل الحق ، وهو زَهُوق لا دوامَ له ، فسرعان ما يفسد وينتهي ، فإنْ قلتَ ما دام أن الباطل زهوق وسينتهي ، فما الداعي للمعركة بين حَقٍّ وباطل ؟

نقول : لولا عضة الباطل للمجتمع لما استشرفَ الناس للحق ينقذهم ، فالباطل نفسه جُنْد من جنود الحق ، كما أن الكفر جُنْد من جنود الإيمان ، فلولا الكفر وما يفعله الكافرون بالناس لما اشتاق الناس للإيمان ، الذي يُوفِّر لهم الأمن والطمأنينة والراحة والمساواة .

كما أن معنى كَفَرَ يعني ستر الإله الواجب الوجود ، والسَّتْر يحتاج إلى مستور ، فما هو المستور بالكفر ؟ المستور بالكفر الإيمان ، فكلمة كفر نفسها دليلُ وجود الإيمان .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان قد يكره بعض الأشياء ، وهي لمصلحته ولحكمة خلقها الله ،

ومثَّلْنا لذلك بالألم الذي يتوجّع منه الإنسان ، وهو في الحقيقة تنبيه له واستنهاض ليعلم سبب هذ الألم ويتنبه ، فيدفع المرض عن نفسه ، ويطلب له الدواء .

فالألم بهذا المعنى جُنْد من جنود العافية ، وإلاَّ فأفتَكُ الأمراض بالبشر ما ليس له ألمٌ يُنبّه إليه ، فيظل كامناً في الجسم حتى يستفحل أمره ، وتعزّ مداواته ؛ لذلك يصفونه بالمرض الخبيث ؛ لأنه يتلصَّص في الجسم دون أنْ يظهر له أثر يدل عليه .

(199/599)

فالحق – سبحانه وتعالى – خلق الألم لحكمة ؛ ليُنبِّهك أن في موضع الالم عطباً ، وأن الجارحة التي تألم غير صالحة لأداء مهمتها ؛ لذلك يقولون في تعريف العافية : العافية ألاَّ تشعر باعضائك ، لك أسنان تأكل بها ، لكن لا تدري بها ، وربما لا تتذكر هذه النعمة إلا إذا أصابها عَطَب فآلمتك .

إذن : حين تعلم جارحتك وتتألم ، فاعلم أنها غير طبيعية ، وأنها لا تؤدي مهمتها كما ينبغي ، فعليك أنْ تبادر بعلاجها .

وأيضاً حين يزدهر الباطل ، وتكون هل صَوْلة ، فإنما ذلك ليُشعرك بحلاوة الحق ، فتستشرف له وتتمناه . لذلك انتشر الإسلام في البلاد التي فيها أغلبية إسلامية ، لا

بالسيف كما يحلو للبعض أن يقول ، إنما انتشر برؤية الناس لمبادئه وسماحته .

ففي بلاد فارس والروم ذاق الناسُ هناك كثيراً من المتاعب من دياناتهم ومن قوانينهم ، فلما سمعوا عن الإسلام ومبادئه وسماحة تعاليمه أقبلوا عليه .

فلولا أن الباطل عضَّهم لما لجأوا للإيمان ، فالإسلام انتشر انتشاراً عظيماً في نصف قرن من الزمان ، ولم يكن هذا نتيجة الاندفاع الإيماني ليدخل الناس في الإسلام ، إنما لجذْب الضلال للإيمان ، فكأن الإسلام مدفوع بأمرين : أهله الحريصون على انتشاره ، وباطل يجذب الناس إليه .

والحق – سبحانه وتعالى – يعطينا مثلاً للحق وللباطل في قوله تعالى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [الرعد : 17] .

(200/599)

فالزَبَد : هو القشّ والفُتات الذي يحمله الماء ، فيكون طبقة على سطح الماء ، ثم يزيحه الهواء إلى الجوانب ، ويظل الماء بعده صافياً ، فالزَبَد مثلٌ للباطل ؛ لأنه يعلو على سطح الماء ، لكن إياك أن تظن أنه ذو شأن ، أو أن عُلوه سيدوم ؛ لأنه غثاء لا قيمة له ، وسرعان ما يزول ويبقى الماء النافع ، وكما يتكون الزَبَد على سطح الماء كذلك يتكوّن عند صَهْر المعادن ، فحين يصهر الصائغ مثلاً الذهب أو الفضة يخرج المعدن الأصيل تاركاً على الوجه الخَبَث الذي خالطه .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الله تعالى لا يترك الحق ، ولا يُسْلِمه أبداً للباطل ، إنما يتركه لحين ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا على الحق غار هو سبحانه عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى عَلَى الله . . . ﴾ .

هذا استفهام يريد منه الحق – سبحانه وتعالى – قضيةً يُقرها المقابل ، فلم يوردها بصيغة الخبر : لا أظلم ؛ لأن الخبر في ذاته يحتمل الصدق أو الكذب ، فجاء بصيغة الاستفهام لتنطق أنت بالقضية ، كما تقول لمن ينكر معروفك : مَنْ أعطاك هذا الثوب ؟ فلا يملك إلا أنْ يعترف بفضلك ، لكن إنْ قلت له إخباراً : أنا أعطيتُك هذا الثوب ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وربما ينكر فيقول : لا لم تعطني شيئاً .

إذن : إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى في تقرير واقع من أسلوب الخبر ؛ لأن الخبر يأتي من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقي بالاستفهام إلا وأنت واثق أن الجواب

سيأتي على وَفْق ما تريد .

فمعنى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ . . . ﴾ [العنكبوت : 68] لا أحد أظلم ، والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ، وهو الظلم في القمة في العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] .

(201/599)

وقد يكون الظلم بسيطاً هيّناً ، فالذي افترى على الله الكذب ، لا أحدَ أظلم منه ؛ لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله ، فكان ظلمه عظيماً ، ومن الحمق أن تفتري على الله ؛ لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أنْ يُدلل ، وأنْ يبرهن على كذبك ، ويستطيع أن يدحرك ، وأن يُوقفك عند حدّك ، فمَنِ اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذب ، لكنه متعمد ؛ لأن الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم ، لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمي ، ولم أقصد مخالفة الواقع ، فإن خالف كلامي الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس

بكاذب .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق لَمَّا جَآءَهُ . . . ﴾ [العنكبوت : 68] فيا ليته افترى على الله كذباً ابتداءً ، إنما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صِدْق وحقٍّ فكذَّبه ، ثم يقرر جزاء هذا التكذيب بأسلوب الاستفهام أيضاً ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 68] يعني : أضاقتْ عنهم النار ، فليس بها أمكنة لهؤلاء ؟ بلى بها أمكنة لهم ، بدليل أنها ستقول وهي تتشوق إليهم حين تسأل : ﴿ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] .

وكأن الحق سبحانه يقول : لماذا يفتري هؤلاء على الله الكذب ؟ ولماذا يُكذّبون الحق ؟ اعلموا أن جهنم ليس بها أماكن لهم ؟ فالاستفهام في ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 68] استفهام إنكاري يُنكر أن يظن المكذبون الكافرون أنه لا مكان لهم في جهنم .

فالحق سبحانه في إرادته أزلاً أن يخلق الخَلْق من لَدُن آدم – عليه السلام – وإلى أنْ تقوم الساعة ، وأنْ يعطيهم الاختيار

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . ﴾ [الكهف : 29] وقدر أن يؤمنوا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم في الجنة ، وقدر أن يكفروا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم في النار .

فإذا كان يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، يورث الله المؤمنين في الجنة أماكن الكافرين فهيا فيتقاسمونها بينهم ، وكذلك يتقاسم أهل النار أماكن المؤمنين في النار بالرد ، فمَنْ كان له في النار مكان واحد يصير له مكانان .

كما أن الاستفهام ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 68] يجعل السامع يشاركك الكلام ، وفيه معنى التقريع والتوبيخ ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 29-36] .

يلتفت الله إلى المؤمنين الذين اسْتُهزئ بهم في الدنيا : هل قدرنا أنْ نجازي هؤلاء الكافرين ، ونردّ إليكم حقوقكم – وفي هذا إيناسٌ للمؤمنين وتقريعٌ للكافرين – فيقولون : نعم يا رب ، نعم يا رب ، نعم يا رب ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحرش المؤمنين بهم ، فلا يلينون لهم ، ولا يعطفون عليهم ، لأنهم طَغَوْا وتكبَّروا ، وعرضت عليهم الحجج والأدلة فكذَّبوها وأصرُّوا

على عنادهم ، فبالغوا في الظلم .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

(203/599)

نقول : جَهدَ فلان يجهد أي أتعب نفسه واجتهد : ألح في الاجتهاد وجاهد غيره ، فجاهد تدل على المفاعلة والمشاركة ، وهي لا تتم إلا بين طرفيْن ، وفي هذه الصيغة (المفاعلة) تغلب الفاعلية في أحدهما والمفعولية في الآخر ، مع أنهما شركاء في الفعل ، فكلٌّ منهما فاعل في مرة ، ومفعول في الأخرى ، كأنك تقول : شارك زيدٌ عمراً ، وشارك عمرو زيداً .

أو : أن الذي له ضِلع أقوى في اشركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه أن مثوى الكافرين المكذِّبين في جهنم وحرَّش المؤمنين بهم ، وما داموا قد ظَلموا هذا الظلم العظيم لا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم ، هذا التأديب لا لإرغامهم على الإيمان ، ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . ﴾ [الكهف : 29] إنما التأديب أن نجهر بدعوتنا ، وأن نعلي كلمة الحق ، فمن شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليظل على حاله ، إذن : فالآية تبين موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذبين : ﴿ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 69] .

معنى (جاهدوا فينا) أي : من أجلنا ولنصرة ديننا ، والخصومات التي نجاهدها في الله كثيرة : خصمة في مسألة القمة الإيمانية ووجود الإله الواحد كالملاحدة الذين يقولون بعدم وجود إله في الكون ، وهؤلاء لهم جهاد ، وأهل الشرك الذين يقرون بوجود الله لكن يدَّعُون أن له شريكاً ، وهؤلاء لهم جهاد آخر .

فجهاد الملاحدة بالمنطق وبالحجة ليقولوا هم بأنفسهم بوجود إله واحد ، ونقول لهم : هل وُجِد مَن ادعى أنه خلق ذاته أو خلق غيره ؟ بل تأملوا في أتفه الأشياء التي تستخدمونها في حياتكم : هذا الكوب الزجاجي وهو ترف ليس من ضروريات الحياة هل تقولون : إنه وُجد هكذا دون صانع ؟ إذن : كيف وُجِد ؟ هل لدينا شجرة مثلاً تطرح لنا هذه الأكواب ؟

(204/599)

إذن : هي صنعة لها صانع ، استخدم العقل الذي منحه الله إياه ، وأعمله في المواد التي جعلها الله في الكون ، واستنبط منها هذه المادة (الزجاج) .

مصباح الكهرباء الذي اخترعه (إديسون) كم أخذ منه من جهد وبحث ودراسة ، ثم يحتاج في صناعته إلى معامل ومهندسين وصيانة ، ومع ذلك حصاة صغيرة تكسره

فينطفيء ، وقد أخذ (أديسون) كثيراً من الشهرة وخلّدنا ذكراه ، وما زالت البشرية تذكر له فضله .

أفلا ينظرون في الشمس التي تنير الدنيا كلها منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة دون أنْ تحتاج إلى صيانة ، أو إلى قطعة غيار ؟ وهل يستطيع أحد أن يتناولها ليصلحها ؟ وهل تأبّتْ الشمس عن الطلوع في يوم من الأيام ، وما تزال تمدكم بالحرارة والأشعة والدفء والنور ؟

أتعرف مَنْ صنع المصباح ، ولا تعرف مَنْ صنع الشمس ؟ لقد فكرتم في أتفه الأشياء وعرفتم مَنْ صنعها ، وأرّخْتُم لهم ، وخلدتم ذكراهم ، ألم يكن أَوْلَى بكم التفكُّر في عظمة خلق الله والإيمان به ؟

ثم قُلْ لي أيها الملحد : إذا غشيك ظلام الليل ، كيف تضيئه ؟ قالوا : كل إنسان يضيء ظلام ليله على حَسْب قدرته ، ففي الليل ترى الإضاءات مختلفة ، هذا يجلس في ضوء شمعة ، وهذا في ضوء لمبة جاز ، وهذا في ضوء لمبة كهرباء ، وآخر في ضوء لمبة نيون ، فالأضواء في الليل متباينة تدل على إمكانات أصحابها ، فإذا ما طلعتْ الشمس ، وأضاء المصباح الرباني أطفئت كل هذه الأضواء ، ولم يَعُدْ لها أثر مع مصباح الخالق الأعظم سبحانه .

أليس في هذا إشارة إلى أنه إذا جاءنا حكم من عند الله ينبغي أنْ نطرح أحكامنا جميعاً لنستضيء بحكم الله ؟ أليس في صدق المحسوس دليل على صدق المعنويات ؟

وأنت يا مَنْ تدّعي أن لله شريكاً في مُلكه : مَنِ الذي قال إن لله شريكاً ؟ لقد قلتها أنت من

عند نفسك ؛ لأن الله تعالى حين قال : أنا إله واحد لا شريك لي لم يعارضه أحد ، ولم يدَّعِ أحد أنه شريك لله .

(205/599)

فهذا دليل على أن الشريك غير موجود ، أو أنه موجود ولم يَدْرِ ، أو درى ولم يقدر على المواجهة ، وفي كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

ثم على فرض أنه موجود ، ما منهجه ؟ بماذا أمرك وعَمَّ نهاك ؟ ماذا أعدَّ لك من النعيم إنْ عبدته ؟ وماذا أعد لك من العذاب إنْ كفرتَ به ؟ إذن : فهذا الإله المزعوم إله بلا منهج ، فعبادته باطلة .

أما هؤلاء الذين يؤمنون بدين سماوي ولا يؤمنون بالرسول صلى الله عليه وسلم فنقول لهم : يكفي من جوانب العظمة في شخصية محمد بن عبد الله أنه لا يتعصب لنفسه ؛ لأن قلبه مع كل مَنْ يؤمن بالله حتى وإنْ كفر به ، محمد يحب كل مَنْ آمن بربه ، وإنْ كفر بمحمد ، إنه يتعصب لربه حتى فيمن كذبه .

ثم أنتم يا أصحاب الديانات اليهودية أو المسيحية الذين عاصرتم ظهور الإسلام فأنكرتموه ، مع أن دينكم جاء بعد دين ، ورسولكم جاء بعد رسول سابق ، فلماذا لما جاءكم محمد

كذَّبتموه وكفرتم به ؟ لماذا أبحتم أنْ يأتي عيسى بعد موسى عليهما السلام ، وأنكرتُم أنْ يأتي بعد عيسى محمد ؟

إذن : لكل خصومة في دين الله جدل خاص ومنطق للمناقشة تقوم به في ضوء : ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 69] وعليك أن تنظر أولاً ما موقع الجهاد الذي تقوم به ، فجهاد الملاحدة بأسلوب ، وجهاد المشركين بأسلوب ، وجهاد أهل الكتاب بأسلوب ، وجهاد المسلم للمسلم كذلك له منطق إنْ دبَّ بينهما الخلاف ، مع أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . . ﴾ [الأنعام : 159] .

(206/599)

فساعةَ ترى كلاً منهما في طرف ، بحيث لا تستطيع أن تتبع أحدهما ، فاعلم أنهما على باطل ؛ لأن الإسلام شيء واحد سبق أنْ شبَّهناه بالماء الأبيض الصافي الذي لم يخالطه لون ولا رائحة ولا طعم ، فإنْ لوَّنته الأهواء وتحزَّب الناس فيه كما يُلوِّنون العصائر فقد جانبهم الصواب وأخطأوا الدين الصحيح .

لأن ما جاء فيه حكم صريح من عند الله اتفقنا عليه ، وما تركه الله لاجتهادنا فينبغي على

كُلٍّ منا أن يحترم اجتهاد الآخر ، وأن يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب ، وبهذا المنطق تتعايش الآراء .

والحق – سبحانه وتعالى – يعطينا المثل على ذلك ، فما أراده سبحانه في المنهج مُحكماً يأتي محكماً في قول واحد لا خلاف فيه ، وضربنا مثلاً لذلك بآية الوضوء : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق . . . ﴾ [المائدة : 6] .

فلم يحدد الوجه ؛ لأنه لا خلاف في تحديده بين الناس ، إنما حدد الأيدي لأنها محل خلاف . إذن : فالقضايا التي تُثار بين المسلمين ينبغي أن يكون لها جدل خاص في هذا الإطار دون تعصُّب ، فما جاءك مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأي التزم به الجميع ، وما تُرِك بلا تنصيص لا يحتمل الخلاف ، فليذهب كل واحد إلى ما يحتمله النص .

فالباء في لغتنا مثلاً تأتي للتبعيض ، أو للاستعانة ، أو للإلصاق ، فإنْ أخذتَ بمعنىً فلا تحجر على غيرك أنْ يأخذ بمعنى آخر .

فإنِ استعر القتال بين طائفتين من المسلمين ، فيجب أن تكون هناك طائفة معتدلة تتولى أمر الإصلاح ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل وأقسطوا إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ [الحجرات : 9] .

نلحظ أن الله تعالى سماهم مؤمنين ، ومعنى ذلك أن الإيمان لا يمنع أن نختلف ، وهذا الإيمان الذي لا يمنع أن نختلف هو الذي يُوجب علينا أن يكون منا طائفة معتدلة على الحياد لا تميل هنا أو هناك ، تقوم بدورْ الإصلاح وبدوْر الردع للباغي المعتدي حتى يفيىء إلى الجادة وإلى أمر الله .

فإنْ فاءت فلا نترك الأمور تُخيّم عليها ظلال النصر لفريق ، والهزيمة لفريق آخر ، إنما نصلح بينهما ، ونزيل ما في النفوس من غِلٍّ وشحناء ، فقد تنازل القوي عن كبريائه لما ضربنا على يده ، وَقوي الضعيف ، بوقوفنا إلى جانبه ، فحدث شيء من التوازن وتعادلتْ الكِفّتان ، فليعُدْ الجميع إلى حظيرة الأمن والسلام .

بقي لنا أن نتحدث عن جهاد آخر أهم ، هو جهاد النفس البشرية ؛ " لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عاد من إحدى الغزوات قال : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " فوصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، لماذا ؟ لأنك في ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً ، يتضح لك عدده وأساليبه ، أمّا إنْ كان عدوك من نفسك ومن داخلك ، فإنه يعزّ عليك جهاده ، فأنت تحب أنْ تحقق لنفسك شهواتها ، وأنْ تطاوعها في أهوائها ونزواتها ، وهي

في هذا كله تُلِح عليك وتتسرَّب من خلالك .

فعليك أنْ تقف في جهاد النفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تُورِثك إياه من حسرة آجلة باقية ، وما تضيعه عليك من ثواب ربك في جنة فيها من النعيم ، ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ضع ربك ونفسك في هذه المقابلة وتبصّر ، واعلم أن لربك سوابقَ معك ، سوابق خير أعدّها لك قبل أن توجد ، فالذي أعدَّ لك كل هذا الكون ، وجعله لخدمتك لا شكَّ مأمون عليك ، وأنت عبده وصنعته ، وهل رأيت صانعاً يعمد إلى صنعته فيحطمها ؟

(208/599)

أما إن رأيت النجار مثلاً يمسك (بالفارة) وينحت في قطعة الخشب ، فاعلم أنه يُصلحها لأداء مهمتها ، وأذكر قصة الطفل (أيمن) الذي جاء أمه يبكي ؛ لأن الخادمة تضرب السجادة ، فأخذتْه أمه وأرتْه التراب الذي يتساقط من السجادة في كل ضربة من ضربات الخادمة ، ففهم الطفل على قدر عقله .

وكذلك الحق سبحانه حين يبتلي خَلْقه ، فإنما يبتليهم لا كَيْداً فيهم ، بل إصلاحاً لهم . ألم نسمع كثيراً أماً تقول لوحيدها (إلهي أشرب نارك) ؟ بالله ما حالها لو استجاب الله لها ؟

وهي في الحقيقة لا تكره وحيدها وفلذة كبدها ، إنما تكره فيه الخصلة التي أغضبتها منه .

وكذلك الحق – سبحانه وتعالى – لا يكره عبده ، إنما يكره فيه الخصال السيئة فيريد أنْ يُطهِّره منها بالبلاء حتى يعود نقياً كيوم ولدته أمه ، فأحسن أيها الإنسان ظنك بربك .

إذن : نقول : إن من أعظم الجهاد جهادك لنفسك ، لأنها تُلِح عليك أن تُشبع رغباتها ، كما أنها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشيطان الذين يُزيِّن لها كل سوء ، ويُحبِّب إليها كل منكر .

وسبق أنْ بيَّنا : كيف نُفرِّق بين تزيين الشيطان وتزيين النفس ؛ لأن النفس مدخلاً في المعصية بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين " .

فلو كانت الذنوب كلها بسبب الشيطان لم نجد من يذنب في رمضان ، إنما هناك كثير من الذنوب تُرتكب في رمضان ، وهذا يعني أنها من تزيين النفس ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يكشف ابن آدم : ها أنا قد صفَّدْت الشياطين ومع ذلك تذنبون .

فإنْ أردتَ أنْ تعرف هل المعصية من النفس أم من الشيطان ، فإن النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد سواها ، ولا تنتقل بك إلى غيرها ، وتظل تُلح عليك إلى أنْ تُوقِعك فيها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً بأية صورة وعلى أية حال ، فإنْ تأبَّيْتَ عليه نقلك إلى معصية أخرى .

وعلى العاقل أن يتأمل ، فالمعصية تعطيك لذة عاجلة ومتعة فانية ، لا تليق أبداً بهذا الإنسان الذي كرَّمه الله ، وجعله خليفة له في الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، والكون كله بأرضه وسمائه خادم له ، فهل يُعقل أنْ يكون الخادم أطول عمرا من المخدوم ؟

إنك تموت بعد عام أو بعد مائة عام ، في حين أن الشمس التي تخدمك تعمر ملايين السنين :

إذن : لا بُدَّ أن لك حياة أخرى أبقى وأدوم من حياة خادمك ، فإنْ كنتَ الآن في حياة تُوصَف بأنها دنيا ، فهذا يعني أنها تقابلها حياة أخرى تُوصَف بأنها عليا ، وهي حياتك في الآخرة ، حيث لا موتَ فيها أبداً .

والقرآن الكريم حينما يُحدِّثنا عن الجهاد يقول مرة : ﴿ وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله . . . ﴾ [التوبة : 41] ويقول : ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا . . . ﴾ [العنكبوت : 69] .

الجهاد في سبيل الله أي في الطريق إلى الله لإثبات الإيمان بالإله الواحد ، وصدق البلاغ من الرسول المؤيَّد بالمعجزة وبالمنهج ، فإذا وضح لك السبيل فآمنت بالله الواحد الأحد قال لك : اجعل كل حركة حياتك في إطار ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا . . . ﴾ [العنكبوت :

69] يعني : من أجلنا مخلصين لله لا ينظرون إلى غيره .

والإنسان مهما تحرَّى الإخلاص في عمله ، وقصد به وجه الله لا يأمن أن يخالطه شيء من رياء أو سمعة ، حتى أن المعصوم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقول : " اللهم إني استغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك " .

وهذا معنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصاً ، وإلاَّ فما الفَرْق بين المؤمن والكافر ، وكلاهما يعمل ويسعى في الدنيا لكسب لقمة العيش له ولأولاده ، فهما في السعي سواء ، فما مزية المؤمن إذن ؟

(210/599)

الميزة أن الكافر يعمل على قَدْر حاجته فحسب ، أمّا المؤمن فيعمل على قدر طاقته ، فيأخذ ما يكفيه ويعود بالفضل على مَنْ لا طاقةَ عنده للعمل ، ففي نيته أن يعمل له وللمحتاج غير القادر .

ونمثل لذلك بالبقال الذي فتح الله عليه ، فباع كثيراً في أول النهار وأخذ كفايته ، ثم أغلق محله فلم ينظر إلى الذين يعاملونه على الشهر ، ويأخذون حاجتهم لأجَل ، ولم ينظر إلى ربة البيت التي تنتظر عودة زوجها لتشتري ما يلزمها ، فقد نظر إلى حظ نفسه ، ونسي حظ

الآخرين .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ * والذين هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : 1-4] ولم يقل مُؤدُّون إنما : فاعلون من أجل الزكاة أي : يعملون على قَدْر طاقتهم ، لا على قدْر حاجتهم . فالذين يعملون في إطار ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا . . . ﴾ [العنكبوت : 69] لا يغيب الله أبداً عن بالهم .

ولكي نفقه هذه المسألة انظر إلى عمل أو جميل قدَّمته لغير وجه الله ترى أن صاحبه أنكره ، بل ربما لا ينالك منه إلا الذمّ ، وساعتها لا تلومنّ إلا نفسك ، لأنك أخطأت التوجه ، وقد عملت للناس فخُذْ أجرك منهم ، إنما إنْ عملتَ لوجه الله فثِقْ أن جميلك محفوظ عند الله وعند الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما أعطى للإنسان الاختيار في أن يؤمن أو أنْ يكفر يلفت بهذا أنظارنا أنه إذا صنعتَ جميلاً في إنسان ، ثم أنكر جميلك وكفر به ، فلا تحزن ؛ لأن الناس فعلوا ذلك مع الله - عز وجل - فقد خلقهم ورزقهم ثم كفروا به .

(211/599)

ثم يأتي جزاء الجهاد في ذات الله : ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 69] أي : ندلّهم على الطرق الموصّلة إلينا ، كأن الطريق إلى الله ليس واحداً ، إنما سبل شتى ؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطاعة شيئاً مهما كان يسيراً ، فإن الله تعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش ، ولا تحقرن من المعصية شيئاً ، فإن الله أدخل امرأة النار لأنها حبست قطة ، ولا تحتقرن عبداً مهما كان ، فإن الله تعالى أخفى أسراره في خَلْقه ؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّه .

فإذا علمتَ من نفسك ميزة على الآخرين فانظر فيم يمتازون به عنك ، ودَعْك من نظرة تُورثك كبراً ، واستعلاء على الخَلْق ، فإنْ كنت أفضل في شيء فأنت مفضول في أشياء كثيرة ، وسبق أن قلنا : إن الله نثر المواهب بين الخَلْق ليظلوا ملتحمين بحاجة بعضهم إلى بعض .

فقوله تعالى ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 69] أي : السبل الموصّلة لنعيم الآخرة ، سبل الارتقاء في اليقين الإيماني الذي قال الله عنه : ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم . . . ﴾ [الحديد : 12] .

ويقول سيدنا عمر بن عبد العزيز : ما قصَّر بنا في علم ما جهلناه ، إلا تقصيرنا في العمل بما علمناه فالذي جعلنا لا نعرف أسرار الله أننا قصرنا في العمل بما أمرنا به ، إذن : فلماذا يعطينا ونحن لا نعمل بما أخذنا من قبل ، لكن حين تعمل بما علمتَ ، فأنت مأمون على منهج

الله ، فلا يحرمك المزيد ، كما قال سبحانه : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

(212/599)

وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً . . . ﴾ [الأنفال : 29] والفرقان من أسماء القرآن ، فحين تتقي الله على مقتضاه ، وبمدلول منهجه في القرآن ، يمنحك فرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشياء ، وتهتدي به إلى الحكم الصحيح ، هذا النور الذي وهبه الله للإمام علي – رضي الله عنه – حينما دخل على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فوجده يريد أنْ يقيم الحَدَّ على زوجة ولدتْ لستة أشهر ، والشائع أن فترة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : لكن الله قال غير ذلك يا أمير المؤمنين ، قال عمر : وماذا قال يا علي ؟

قال علي : قال الله تعالى : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة . . . ﴾ [البقرة : 233] يعني : أربعة وعشرون شهراً .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . ﴾ [الأحقاف : 15] وبطرح العددين يكون الباقي ستة أشهر ، وهي أقل مدة للحمل .

هذا هو الفرقان الذي يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا بما عملوا ؛ لذلك كان عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر ؟ عمر الذي كان ينزل الوحي على وَفْق رأيه ، كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ومعلوم أن علياً – رضي الله عنه – تربَّى في حجرْ رسول الله ، وشرب من معينه ، فكل معلوماته إسلامية ، وله في الحق حجة ومنطق . فمثلاً في موقعه صِفِّين التي دارتْ بين علي ومعاوية كان عمار بن ياسر في صفوف علي ، فقتله جنود معاوية ، فتذكر الصحابة قول رسول الله لعمار " ويْح عمار ، تقتله الفئة الباغية " فعلموا أنها فئة معاوية .

(213/599)

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية إلى صفوف علي ، فأسرع عمرو بن العاص وكان في جيش معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين فَشَتْ فاشيةٌ في الجيش ، إنْ هي استمرت فلن يبقى معنا أحد ، قال : وما هي ؟ قال : تَذَكَّر الناس قول رسول الله " ويح عمار تقتله الفئة الباغية " قال معاوية : فأَفْشِ فيهم ، إنما قتله مَنْ أخرجه للقتال – أي علي – فلما بلغ علياً هذه المقالة قال بما عنده من الفرقان والحجة : إذن قولوا له مَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومثَّلْنا لذلك قلنا : هب أن لك ولداً متعثراً غير

مُوفَّق في حياته العملية ، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة ، وتجربه ولو بمشروع صغير في حدود مائة جنيه ، فلما فعلتَ بدَّد هذا المبلغ ولم ينتفع به ، أتجرؤ على منحه مبلغاً آخر ؟ وإنما لو ثمَّر هذا المبلغ ونماه لأعطيته أضعافاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : 69] الإحسان من الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، والإحسان في الأداء أن تزيد عما فرض الله عليك ، لكن من جنس من فرض ، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله إليك بأنْ يزيدك إشراقاً ، ويزيدك نورانية ، ويُخفِّف عنك أعباء الطاعة ، ويُقبِّح في نفسك المعاصي .

لذلك بلغت محبة أحد العارفين للطاعة حتى قال : اللهم إني أخاف ألاّ تثيبني على طاعتي ؛ لأنني أصبحتُ أشتهيها . يعني : لو لم تكن هناك جنة ولا نار لفعلتُ الطاعة ؛ لأنها أصبحتْ بالنسبة لي شهوة نفس ، وقد أمرتنا يا ربّ أن نخالف شهوة النفس لذلك أخاف ألاَّ تثيبني عليها ، ولمثل هذا نقول .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : 69] .

(214/599)

كملة (مع) تفيد المعية ، والمعية في أعراف البشر أنْ يلتقي شيء بشيء ، لكن إذا كانت المعية مع الله فافهم أنها معية أخرى غير التي تعرفها مع زميلك أو صديقك ، خُذْها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] فلك وجود ولله وجود ، لكن أوجودك كوجود الله ؟ الله يعلم أننا نسجل الآن في مسجد أبي بكر الصديق ، لكن هل علْمنا كعِلْمه تعالى ؟ الله يعلم هذا قبل أن ينشأ المسجد ، وقبل أنْ نُولد نحن .

لذلك يضرب الله لنا مثلاً فيقول : ﴿ وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] هذا مَثَل للرد على الذين يطلبون رؤية الله عز وجل وهو غَيْب ، مثل للذين قالوا لنبيهم ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً . . . ﴾ [النساء : 153] .

لكن كيف يرونه والعظمة في الإله ألاَّ يُرى ، ولا تدركه الحواس ، والحق سبحانه يعطينا الدليل في أنفسنا ﴿ وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] فتأمل في أقرب شيء إليك في نفسك ، لا في الآفاق من حولك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، بدليل إذا خرجتْ منك هذه الروح تصير جثة هامدة ؟ أرأيت هذه الروح وهي بين جنبيك ؟ أأدركتها بأيِّ حاسة من حواسك ؟

إذن : هي معك ، لكن ليست تحت إدراكك ، وهي خَلْق بسيط من خَلْق الله ، فكيف تتطلع إلى أن ترى الخالق سبحانه وأنت لا تقدر على رؤية المخلوق ؟ لكن إن قُلْت : فرؤية

المؤمنين لله في الآخرة ؟ ففي الآخرة يخلقني الله خَلْقاً آخر أستطيع أن أراه سبحانه ، حيث سيكون للخَلْق معايير أخرى ، ألستَ تأكل وتشرب في الآخرة ، ومع ذلك لا تتغوَّط في الجنة ؟

لذلك لما سأل حاكم الروم أحد علماء المسلمين : كيف تأكلون وتشربون في الجنة ولا تتغوطون ؟ فقال له : وما العجيب في ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل في بطن أمه يتغذى وينمو وهو لا يتغوط ، ولو تغوَّط في مشيمته لاحترق .

(215/599)

ثم سأله : وتقولون إن نعيم الجنة تأخذون منه ولا ينتهي ولا ينقص ؟ فقال : هَبْ أن لك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها ، وقبستْ من مصباحك ناراً ، أينقص منه شيء ؟

فسأله : فأين تذهب الأرواح التي كانت فينا بعد أن نموت ؟ فقال : تذهب حيث كانت قبل أنْ تسكن فينا .

هذه مسائل ونماذج للتوفيق والهداية للحق في إطار : ﴿ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 69] وهي فَيْض مما قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً . . . ﴾ [الأنفال : 29] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ قال : باقية .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ لهي الحيوان ﴾ قال : الحياة الدائمة .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان ، وهو يسعى لدار الغرور ! " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فإذا ركبوا في الفلك . . . ﴾ قال : الخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم ، ثم يشركون بعد ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ قال : ما كان في

الدنيا فسوف ترونه ، وما كان في الآخرة فسيبدو لكم .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) 69)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا . . . ﴾ قال : قد كان لهم في ذلك آية ، إن الناس يغزون ويتخطفون وهم آمنون ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ أي بالمشرك ﴿ وبنعمة الله يكفرون ﴾ أي يجحدون .

وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قالوا : يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا ، والعرب أكثر منا ، فمتى بلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس . فأنزل الله ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمناً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(217/599)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فاعبدون ﴾ : جعله الزمخشري جوابَ شرطٍ مقدرٍ ، وجعل تقديمَ المفعولِ عوضاً مِنْ حَذْفِه مع إفادتِه للاختصاصِ . وقد تقدَّم منازعةُ الشيخِ له في نظيره .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57)

قوله : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ : قرأه بالغيبة أبو بكر ، وكذا في الروم في قوله : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم : 11] وافقه أبو عمرو في الروم فقط . والباقون بالخطاب فيهما . وقُرِئ "يَرْجِعُون" مبنياً للفاعل .

قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ : يجوز فيه الوجهان المشهوران : الابتداءُ والاشتغال .

والأخَوان قرآ بثاءٍ مثلثةٍ ساكنةٍ بعد النونِ ، وياءٍ مفتوحةٍ بعد الواوِ من الثَّواء وهو الإقامةُ . والباقونَ بباءٍ مُوَحَّدة مفتوحةٍ بعد النونِ وهمزةٍ مفتوحةٍ بعد الواوِ من المَباءة وهي الإنزالُ . و "غُرفاً" على القراءةِ الأولى : إمَّا مفعولٌ به على تضمين "أَثْوَى" أنزل ، فيتعدَّى لاثنين ، لأنَّ ثوى قاصرٌ ، وأكسبته الهمزةُ التعدِّيَ لواحدٍ ، وإمَّا على تشبيهِ الظرف المختصِّ بالمبهمِ كقولِه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ﴾ [الأعراف : 16] وإمَّا على إسقاطِ الخافضِ اتِّساعاً أي : في غُرَف .

وأمَّا في القراءةِ الثانيةِ فمفعولٌ ثانٍ ، لأنَّ "بَوَّأَ" يتعدَّى لاثنين ، قال تعالى : ﴿ تُبَوِّئُ المؤمنين مَقَاعِدَ ﴾ [آل عمران : 121] ويتعدَّى باللامِ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج : 26] . وقد قُرِئ "لَنُثَوِّيَنَّهم" بالتشديد مع الثاء المثلثة ، عُدِّي بالتضعيف كما

عُدِّي بالهمزة . و " تَجْرِي " صفةٌ لـ " غُرَفاً " .

قوله : ﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ : يجوز فيه الجرُّ والنصبُ والرفعُ كنظائرَ له تقدَّمتْ .

(218/599)

قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ ﴾ : جوَّز أبو البقاء في " كَأَيِّن " وجهين ، أحدهما : أنها مبتدأٌ ، و " لا تحملُ " صفتها ، و " اللَّهُ يَرْزُقُها " خبره ، و " مِنْ دابَّةٍ " تبيينٌ . والثاني : أَنْ تكونَ في موضعِ نصبٍ بإضمار فعل يُفَسِّره " يَرْزُقُها " ويُقدَّرُ بعد " كَأَيِّنْ " يعني لأنَّ لها صدرَ الكلامِ . وفي الثاني نظرٌ ؛ لأنَّ مِنْ شرط المفسِّرِ العملَ ، وهذا المفسِّر لا يعملُ ؛ لأنه لو عَمِلَ لحلَّ مَحَلَّ الأولِ ، لكنه لا يَحُلُّ مَحَلَّه ؛ لأنَّ الخبرَ متى كان فعلاً رافعاً لضميرٍ مفردٍ امتنع تقديمُه على المبتدأ ، وإذا أردْتَ معرفةَ هذه القاعدة فعليك بسورةِ هود عند قولِه : ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً ﴾ [هود : 8] .

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)

قوله : ﴿ الحيوان ﴾ : قدَّر أبو البقاء وغيرُه قبل المبتدأ ، مضافاً أي : وإنَّ حياةَ الدارِ الآخرة . وإنما قدَّروا ذلك ليتطابقَ المبتدأ والخبر ، والمبالغةُ أحسنُ .

وواوُ " الحيوان " عن ياءٍ عند سيبويه وأتباعِه . وإنما أُبْدِلَتْ واواً شذوذاً ، وكذا في "

حَيْوَة" عَلَماً . وقال أبو البقاء : " لئلا يلتبسَ بالتثنيةِ " يعني لو قيل : حَيَيان . قال : " ولم تُقْلب ألفاً لتحركِها وانفتاحِ ما قبلها لئلا تُحْذَفَ إحدى الألفين " . وغيرُ سيبويه حَمَلَ ذلكَ على ظاهرِه ، فالحياة عنده لامُها واوٌ . ولا دليلَ لسيبويهِ في " حَيِي " لأنَّ الواو متى انكسرَ ما قبلها قُلِبَتْ ياءً نحو : غُزِي ودُعِي ورَضِيَ .

قوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ / أي : لو كانوا يعلمون أنها الحَيَوانُ لَما آثروا عليها الدنيا .

(219/599)

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)

قوله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا ﴾ قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : بم اتصل قولُه : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفلك ﴾ ؟ قلت : بمحذوفٍ دلَّ عليه ما وَصفَهم به وشَرَحَ مِنْ أمرِهم . معناه : هم على ما وُصِفوا به من الشِرْكِ والعنادِ فإذا ركبوا " .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

قوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ لامَ كي ، وهو الظاهرُ ، وأن تكون لامَ أمرٍ .

قوله : " وِلِيَتَمَتَّعوا " قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم وورش بكسرها وهي محتملةٌ للأمرين

المتقدمين . والباقون بسكونها . وهي ظاهرةٌ في الأمر . فإنْ كان يُعتقد أن اللامَ الأولى للأمر فقد عطفَ أمراً على مثله ، وإن كان يُعتقد أنها للعلةِ ، فيكون قد عطف كلاماً على كلام .

وقرأ عبد الله ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعلَمُونَ ﴾ وأبو العالية " فيُمَتَّعوا " بالياء مِنْ تحتُ مبنياً للمفعول .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)

قوله : ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ : قرأ العامَّةُ "يُؤْمنون " و " يكفرون " بياء الغيبة . والحسن والسلمي بتاء الخطاب فيهما .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68)

قوله : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ : استفهامُ تقريرٍ كقوله :

3641- أَلَسْتُمْ خيرَ مَنْ رَكِبَ المطايا . . . وأندى العالمين بطونَ راحِ

(220/599)

قوله : ﴿ والذين جَاهَدُواْ ﴾ : يجوز فيه ما جاز في قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ [العنكبوت : 7] أول السورة . وفيه رَدٌّ على ثعْلب : حيث زعم أنَّ جملةَ القسم لا تقع خبراً للمبتدأ .

قوله : " لَمع المحسنين " من إقامة الظاهر مُقامَ المضمرِ إظهاراً لشرفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 24 . 28 ﴾

(221/599)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين العبث واللعب والهزل والمزاح والاستهزاء والسخرية وما يخالف ذلك

الفرق بين العبث واللعب واللهو

أن العبث ما خلا من الإرادات إلا إرادة حدوثه فقط واللهو واللعب يتناولها غير إرادة حدوثهما إرادة وقعا بها لهوا ولعبا ألا ترى أنه كان يجوز أن يقعا مع إرادة أخرى فيخرجا عن كونهما لهوا ولعبا وقيل اللعب عمل للذة لا يراعى فيه داعي الحكمة كعمل الصبي لأنه لا يعرف الحكيم ولا الحكمة وإنما يعلم للذة

الفرق بين اللهو واللعب

أنه لا لهو إلا لعب وقد يكون لعب ليس بلهو لأن اللعب يكون للتأديب كاللعب بالشطرنج وغيره ولا يقال لذلك لهو وإنما لعب لا يعقب نفعا وسمي لهوا لأنه يشغل عما يعني من قولهم ألهاني الشيء أي شغلني ومنه قوله تعالى (ألهاكم التكاثر

الفرق بين المزاح والاستهزاء

أن المزاح لا يقتضي تحقير من يمازحه ولا اعتقاد ذلك ألا ترى أن التابع يمازح المتبوع من الرؤساء والملوك ولا يتضي ذلك تحقيرهم ولا اعتقادهم تحقيرهم ولاكن يقتضي الاستئناس بهم على ما ذكرناه في أول الكتاب والاستهزاء يقتضي تحقير المستهزإ به واعتقاد تحقيره

الفرق بين الاستهزاء والسخرية

(222/599)

أن الإنسان يستهزا به من غير أن يسبق منه فعل يستهزا به من اجله والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه والعبارة من اللفظين تدل عن صحة ما قلناه وذلك أنك تقول استهزات به فتعدى الفعل منك بالباء والباء للإلصاق كأنك ألصقت به استهزاء من غير أن يدل على شيء وقع الاستهزاء من أجله وتقول سخرت منه فيقتضي ذلك من وقع السخر من أجله كما تقول تعجبت منه فيدل ذلك على فعل وقع التعجب من اجله ويجوز كما تقول

تعجبت منه فيدل ذلك على فعل وقع التعجب من اجله ويجوز أن يقال أصل سخرت منه التسخير وهو تذليل الشيء وجعلك أياه منقادا فكانك إذا سخرت منه جعلته كالمنقاد لك ودخلت من للتبعيض لأنك لم تسخره كما تسخر الدابة وغيرها وإنما خدعته عن بعض عقله وبني الفعل منه على فعلت لأنه بمعنى عبثت وهو أيضا كالمطاوعة والمصدر السخرية كأنها منسوبة إلى لامسخرة مثل العبودية واللصوصية وأما قوله تعالى (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) فإنما هو بعث الشيء المسخر ولو وضع موضع المصدر جاز والهزء يجري مجرى العبث ولهذا جاز هزئت مثل عبثت فلا يقتضي معنى التسخير فالفرق بينهما بين

الفرق بين المزاح والهزل

أن الهزل يقتضي تواضع الهازل لمن يهزل بين يديه والمزاح لا يقتضي ذلك ألا ترى أن الملك يمازح خدمه وإن لم يتواضع لهم تواضع الهازل لمن يهزل بين يديه والنبي يمازح ولا يجوز أن يقال يهزل ويقال لمن لمن يسخر يهزل ولا يقال يمزح

الفرق بين المزاح والمجون

أن المجون هو صلابة الوجه وقلة الحياء من قولك مجن الشيء يمجن مجونا إذا صلب وغلظ ومنه سميت الخشبة التي يدق عليها القصار الثوب ميجنة وأصل الميجنة البقعة الغليظة تكون في الوادي وأصلها موجنة فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها ومنه الوجهين وهو الغليظ من الأرض ومنه ناقة وجناء صلبة

شديدة وقيل هيا لغليظة والوجنات والوجنة ما صلب من الوجه والمجون كلمة مولدة لم تعرفها العرب وإنما تعرف أصلها وهو الذي ذكرناه وقيل المزاح الإيهام للشيء في الظاهر وهو على خلافه في الباطن من غير اغترار للإيقاع في مكروه والاستهزاء الإيهام لما يجب في الظاهر والأمر على خلافه في الباطن على جهة الاغترار

الفرق بين الجد والانكماش

أن الانكماس سرعة السير يقال انكمش في سيره إذا أسرع فيه ثم استعمل في كل شيء تصح فيه السرعة فتقول انكمش على النسخ والكتابة وما يجري مع ذلك والجد صدقة القيام في كل شيء تقول جد في السير وجد في إغاثة زيد وفي نصرته ولا يقال انكمس في إغاثة زيد ونصرته إذ ليس مما تصح فيه السرعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 270.268 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64) ﴾

الدنيا الأحلام – وعند الخروج منها انتباهٌ من النوم . والآخرة هنالك العيش بكماله ، والتخلص – من الوحشة – بتمامه ودوامه .

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)

الإخلاصُ تفريغُ القلب عن الكلّ ، والثقةُ بأن الإخلاص ليس إلا به – سبحانه ، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً في المحمودات ولا في المذمومات ، فعند ذلك يعبدونه مخلصين له الدّين . وإذا توالت عليهم الضرورات ، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين فإذا كشف الضُّرَّ عنهم عادوا إلى الغفلة ، ونَسُوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل :

إذا ارعوى عاد إلى جهله . . . كذي الضنى عاد إلى نُكْسِه

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)

مَنَّ عليهم بدَفْعِ المحن عنهم وكَوْنِ الحَرَمِ آمناً . وذَكَّرَهم عظيمَ إحسانه عليهم ، ثم إعراضهم

عن شكر ذلك .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68)

أي لا أحدَ أشدُّ ظلماً ممن افترى على الله الكذب ، وعَدَلَ عن الصدق ، وآثَرَ البهتانَ ولم يتصرف بالتحقق ، أولئك هم السُّقّاطُ في الدنيا والآخرة .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

(225/599)

الذين زَيَّنُوا ظواهرَهم بالمجاهدات حَسُنَتْ سرائرُهم بالمشاهدات . الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف . الذين قاسوا فينا التعبَ من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات .

ويقال الجهاد فيه : أولاً بترك المحرَّمات ، ثم بترك الشُّبُهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع العلاقات ، والتنقِّي من الشواغل في جميع الأوقات .

ويقال بحفظ الحواسُ لله ، وبِعَدِّ الأنفاس مع الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 105.106 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب ﴾

قال مقاتل : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب ﴾ البتة ، يعني : مؤمنيهم ، ثم استثنى كفارهم ، فقال : ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ فيها تقديم ثم نسخته آية قتال أهل الكتاب .

وقال الكلبي : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب ﴾ إن الله عز وجل أمر المسلمين إذ كانوا بمكة قبل أن يأمرهم بالقتال ، فقال : ﴿ وَلاَ تجادلوا ﴾ من أتاكم من أهل الكتاب ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ بالقرآن تعظونهم به ، وتدعونهم إلى الإسلام ، وهي التي أحسن ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ في الملاعنة ، وهم أهل نجران .

ويقال : ﴿ لا تجادلوا أَهْلَ الكتاب ﴾ يعني : لا تخاصموهم ﴿ إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ يعني : إلا بالكلمة التي هي أحسن ، وهي كلمة التوحيد ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ يعني : ولا الذين ظلموا منهم .

ويقال : إلا الذين ظلموا منهم ، فلا بأس بأن تجادلوهم بما هو أشد ، ثم بيّن الكلمة التي هي أحسن ، فقال : ﴿ وَقُولُواْ ءامَنَّا بالذى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني : القرآن والتوراة .

﴿ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ ﴾ يعني : ربنا وربكم واحد .

﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني : مخلصون بالتوحيد .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ يعني : القرآن ، كما أنزلنا إلى موسى وعيسى عليهما السلام ﴿ فالذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعني : يصدقون بالقرآن ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ يعني : قريشاً ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ يعني : بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ﴿ إِلاَّ الكافرون ﴾ من اليهود ومشركي العرب .

(227/599)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كتاب ﴾ يعني : من قبل القرآن ﴿ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ أي : لم تكن تكتب شيئاً بيدك .

﴿ إِذاً لارتاب المبطلون ﴾ يعني : فلو كنت قرأت الكتب أو كنت تكتب بيدك لشكّ أهل مكة في أمرك ، ويقولون إنه قرأ الكتب ، وأخذ منها ، ويقال : معناه لارتاب المبطلون يعني :

لشك أهل الكتاب في أمرك لأنهم وجدوا في كتبهم نعته وصفته أنه أمي لا يقرأ الكتب ، كيلا يشكوا في صفته .

﴿ بَلْ هُوَ ءايات بينات فِى صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ يعني : بل هو يقين أنه نبي عند أهل العلم ، ويقال : يعني : القرآن آيات بينات ، يعني : واضحات ، ويقال : بل إنه لا يقرأ ولا يكتب آيات بينات ، لأنه أخبر عن أقاصيص الأولين في صدور الذين أوتوا العلم ، يعني : مؤمني أهل الكتاب ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إِلاَّ الظالمون ﴾ يعني : الكافرون .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايات مّن رَّبِّهِ ﴾ أي علامة من ربه ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات ﴾ يعني : العلامات ﴿ عَندَ الله ﴾ يعني : من عند الله عز وجل وليس بيدي شيء .

﴿ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : مخوفاً مفقهاً لكم أنبئكم بلغة تعرفونها .

قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿ ءايات ﴾ بلفظ الجماعة ، يعني : آيات القرآن .

والباقون ﴿ ءايَةً ﴾ يعني : آية واحدة ، يعني : أنه كان لا يكتب ، وكان له في ذلك آية بينة لنبوته ، ويجوز أن يكونا معناه الآيات للجنس .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ يعني : القرآن فيه خبر ما

مضى ، وخبر ما يكون أو لم يكفهم هذا علامة ، ويقال : أو لم يكفهم أنهم فصحاء فجاءهم بالقرآن الذي أعجزهم عن ذلك .

(228/599)

وقال الزجاج : كان قوم من المسلمين كتبوا شيئاً عن اليهود فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كَفَى هَذا حَمَاقَةَ قَوْمٍ أَوْ ضَلاَلَةَ قَوْمٍ أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا أتاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ إلى ما أَتَى بِهِ غَيْرُ نَبِيِّهِمْ" فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ ﴿ يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذلك لَرَحْمَةً ﴾ يعني : في هذا القرآن لنعمة لمن آمن به ﴿ وذكرى ﴾ أي موعظة ويقال : تفكر ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون بالقرآن ، فقال له كعب بن الأشرف : فقد كان قدم مكة من يشهد لك أنك رسول الله إن لم يشهد لك ، فنزل ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ بأني رسول الله ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض والذين ءامَنُواْ بالباطل ﴾ يعني : بالصنم ويقال بالشيطان ، ويقال : بالطاغوت ، وهو كعب بن الأشرف .

﴿ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ ﴾ يعني : جحدوا وحدانية الله ﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ يعني : المغبونين في العقوبة .

ويقال : خسروا حيث استوجبوا لأنفسهم العقوبة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ وذلك أنهم قالوا : ائتنا بعذاب الله .

يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي لولا الوقت الذي وقّتَ لهم ﴿ لَّجَاءهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ يعني : فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بنزول العذاب .

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ يعني : جعلت لهم النار تحيط بهم .

قوله عز وجل ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب ﴾ يعني : يعلوهم ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيِقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ ﴾ بالنون ، يعني : نقول لهم نحن ذوقوا ، وهي حكاية عن الله سبحانه وتعالى بلفظ الجماعة ، وهو لفظ الملوك .

(229/599)

وقرأ الباقون بالياء يعني : يقول الله عز وجل .

ويقال : وتقول لهم الخزنة ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : جربوا عقوبة ما كنتم تعملون في الدنيا .

ثم قال عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو بسكون الياء ، وقرأ الباقون بنصب الياء ، وقرأ ابن عامر وحده ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ ﴾ بنصب الياء ، وقرأ الباقون بسكونها في مثل هذه المواضع ، لغتان يجوز كلاهما ، ومعناه : إن أرضي واسعة ، إذا أُمِرْتُم بالمعصية والبدعة فاهربوا ، ولا تطيعوا في المعصية ، نزلت في ضعفاء المسلمين ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ يعني : إذا كنتم في ضيق من إظهار الإسلام بمكة فَإِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ يعني : المدينة واسعة بإظهار الإسلام .

وروي عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال : " مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ أَرْضٍ إلى أرضٍ وإنْ كَانَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ اسْتَوْجَبَ الجَنَّةَ وَكَانَ رَفِيقَ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلام " وإنما خصَّ إبراهيم لأنه قال ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إلى ربى إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم ﴾ [العنكبوت : 26] ففرَّ بدينه إلى الأرض المقدسة ، وإنما خصّ محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه هاجر من مكة إلى المدينة .

ويقال : إن القوم كانوا في ضيق من العيش فقال : إن كنتم تخافون شدة العيش فإن أرضي واسعة .

﴿ فَإِيَّاىَ فاعبدون ﴾ أي موحدون بالمدينة علانية .

ثم خوفهم بالموت ليهاجروا فقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم بالخروج ، فقال لهم : لا تخافوا فإنَّ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ في

الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بالياء بلفظ المغايبة على معنى الخبر عنهم.

وقرأ الباقون بالتاء على معنى الخطاب لهم.

(230/599)

ثم قال عز وجل: ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني: صدقوا بالله ورسوله ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني: الطاعات وهاجروا فسمى الهجرة من الأعمال الصالحة لأنها كانت فريضة في ذلك الوقت ﴿ لَنُبَوّئَنَّهُمْ ﴾ يعني: لننزلنهم ولنسكننهم.

﴿ مّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ يعني: غرفاً من الجنة.

قرأ حمزة والكسائي: ﴿ لنثوينهم ﴾ بالثاء، وقرأ الباقون ﴿ ظُلِمُواْ لَنُبَوّئَنَّهُمْ ﴾ بالياء، فمن قرأ بالثاء فهو من ثويت بالمكان، يعني: أقمت به، كقوله ﴿ وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتنا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: 45] ومن قرأ بالباء يعني: لننزلنهم، وذكر عن الفراء أنه قال: كلاهما واحد، بوأته منزلاً أي أنزلته، وأثويته منزلاً يعني: أنزلته سواء، كقوله ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً ﴾.

ثم قال ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ أي ثواب الموحدين

﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ على الهجرة.

ويقال: صبروا على أمر الله تعالى.

﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: يثقون به ولا يهتمون للرزق لأنهم كانوا يقولون: كيف نهاجر وليس لنا مال ولا معيشة، فوعظهم الله ليعبتروا فقال:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ ﴾ يعني: وكم من دابة في الأرض أو من طائر في السماء ﴿ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ معها ولا يجمع الغذاء إلا النملة والفأرة.

ويقال: لا تخبىء رزقها ﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ يعني: يرزق الدواب حيث ما توجهت، وإياكم إذا هاجرتم إلى المدينة.

﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لمقالتكم ﴿ العليم ﴾ بكم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ يعني: كفار مكة ﴿ مِنْ خلاق السموات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ يعني: من أين يكذبون بتوحيد الله عز وجل.

(231/599)

ثم رجع إلى أهل الهجرة ورغبهم فيها فقال ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاء ﴾ يعني: يوسع على من يشاء ﴿ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ ويقتر لمن يشاء ﴿ أَنَّ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

من البسط والتقتير ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني : من بعد يبسها وقحطها ﴿ لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على إقرارهم بذلك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ توحيد ربهم ، وهم مقرون بالله عز وجل خالق هذه الأشياء .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ ﴾ يعني : باطل ﴿ وَلَعِبٌ ﴾ كلعب الصبيان ، ولهو كلهو الشبان .

ويقال : فرح لا يبقى للخلق ولا يبقى فيها إلا العمل الصالح .

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه أو عالماً أو متعلماً" وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مَرَّ بسخلة منتنة فقال : "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ للدُّنْيَا على الله أَهْوَنُ مِنْ هذه السَّخْلَةِ عَلَى أَهْلِهَا" ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ يعني : هي دار الحياة لا موت فيها ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لو كانوا يصدقون بثواب الله عز وجل .

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك ﴾ يعني : في السفن ﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ يعني : مجدين وتركوا دعاء أصنامهم ، ويعلمون أنه لا يجيبهم أحد إلا الله تعالى .

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر ﴾ يعني : إلى القرار ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ به .

قوله عز وجل : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ يعني : ما أعطيناهم من النعمة ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ

﴿ قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر ونافع في رواية ورش : ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ بكسر اللام ، وقرأ الباقون بالجزم .

(232/599)

فمن قرأ بالكسر ، فمعناه : لكي يتمتعوا ، لأن الكلام عطف على ما قبله يعني : يشركون لكي يكفروا ، ولكي يتمتعوا في الدنيا .

ومن قرأ بالجزم فهو على معنى التهديد والتوبيخ بلفظ الأمر ، وتشهد له قراءة أبيّ كان يقرأ تمتعوا .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ومعناه وليتمتعوا ، يعني : وليعيشوا فسوف يعلمون إذا نزل بهم العذاب ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني : أو لم يعلموا ويعتبروا ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس ﴾ يعني : يختلس الناس فيقتلون ويسبون وهم آمنون يأكلون رزقي ويعبدون غيري ، فكيف أسلط عليهم إذا أسلموا .

﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : أفبالشيطان يصدقون أن لي شريكاً .

ويقال : أفبالأصنام يؤمنون ﴿ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ ﴾ يعني : وبخالق هذه النعمة ورسوله يجحدون .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ بأن معه شريكاً ﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق ﴾ يعني : بالقرآن ﴿ لَمَّا جَاءهُ ﴾ أي حين جاءه ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ مثوى ، أي مقاماً للكافرين بالتوحيد كما قال ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ [الشورى : 7] ثم قال عز وجل : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا ﴾ يعني : رغبوا في طاعتنا ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ يعني : لنعرفنهم طريقنا ، ويقال : معناه لنرشدنهم طريق الجنة ﴿ وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ يعني : في العون لهم ويقال : والذين عملوا بما علموا لنوفقنهم لما لم يعلموا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 636. 641 ﴾

(233/599)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب ﴾

الجدال : فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج فيه ، وأصله شدة الفتل ومنه قيل للصقر : أجدل لشدة فتل بدنه وقوة خلقه ، وقيل : الجدال من الجدالة وهو أن يروم كل واحد من

الخصمين قهر صاحبه وصرعه على الجدالة وهي الأرض .

﴿ إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ألطف وأرفق ، وهو الجميل من القول والدعاء إلى الله والبينة على آيات الله وحججه .

﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ قال مجاهد : يعني إن قالوا شراً فقولوا خيراً ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب ، فأولئك انتصروا منهم وجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يقرّوا بالجزية . قال سعيد بن جبير : هم أهل الحرب من لا عهد لهم فجادلوهم بالسيف . ابن زيد : ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ بالإقامة على كفرهم بعد قيام الحجة عليهم .

ومجاز الآية : إلاّ الذين ظلموكم لأنّ جميعهم ظالم . وقال قتادة ومقاتل : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ [التوبة : 29] . . . الآية .

﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسن ، قال : حدثنا محمد بن يحيى ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، قال : أخبرني ابن أبي نملة الأنصاري : " إنّ أبا نملة أخبره واسمه (عمّار) إنّه بينما هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس جاءه رجل من اليهود ومر بجنازة .

فقال : يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أعلم

" ، فقال اليهودي : إنّها تتكلم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدقوهم وإن كان حقاً لم تكذبوهم" " .

(234/599)

وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، فيفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم " ﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ . . . الآية " .

وروى سفيان ومسعود ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عطاء بن يسار قال : بينما رجل من أهل الكتاب يحدث أصحابه وهم يسبّحون كلما ذكر شيئاً من أمرهم ، قال : فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال : " لا تصدقوهم ولا تكذبوهم ولكن ﴿ قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ " .

﴿ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ ﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب عليهم .

﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب فالذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿ وَمِنْ هؤلاء ﴾ الذين هم بين ظهرانيك اليوم من يؤمن به ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الكافرون ﴾ قال قتادة : إنّما يكون الجحود بعد المعرفة .

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ ﴾ يا محمد ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل هذا الكتاب الذي أنزلنا عليك ﴿ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ ﴾ تكتبه ﴿ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ يعني : لو كنت تكتب أو تقرأ الكتب قبل الوحي إذاً لشك المبطلون أي المشركون من أهل مكة وقالوا : هذا شيء تعلّمه محمد وكتبه ، قاله قتادة .

وقال مقاتل : ﴿ المبطلون ﴾ هم اليهود ، ومعنى الآية : إذا لشكّوا فيك واتهموك يا محمد ، وقالوا : إنّ الذي نجد نعته في التوراة هو أمي لا يقرأ ولا يكتب .

(235/599)

﴿ بَلْ هُوَ ﴾ يعني القرآن ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ عن الحسن ، وقال ابن عباس وقتادة : بل هو يعني محمد صلى الله عليه وسلم والعلم بأنّه أمي ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين ﴾ أهل العلم من أهل الكتاب يجدونها في كتبهم . ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود وابن

السميفع ﴿ بل هي آيات ﴾ .

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظالمون * وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ كما أنزل على الأنبياء قبلك ، قرأ ابن كثير والأعمش وحمزة والكسائي وخلف وأيوب وعاصم برواية أبي بكر ﴿ ءَايَةً ﴾ على الواحد ، الباقون ﴿ آيَاتٌ ﴾ بالجمع واختاره أبو عبيد لقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ حتى إذا شاء أرسلها ، وليست عندي ولا بيدي .

﴿ وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هذا جواب لقولهم ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ، وروى حجاج ، عن ابن جريج ، عن عمرو بن دينار ، عن يحيى بن جعدة " أنّ أناساً من المسلمين أتوا نبي الله (عليه السلام) بكتب قد كتبوها فيها بعض ما يقول اليهود فلما أن نظر فيها ألقاها ثم قال : " كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم إلى قوم غيرهم " ، فنزلت ﴿ أو لم يكفهم ﴾ . . . الآية " .

﴿ قُلْ كفى بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ أني رسوله ، وأن هذا القرآن كتابه . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض والذين آمَنُواْ بالباطل وَكَفَرُواْ بالله أولئك هُمُ الخاسرون * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ نزلت في النضر بن الحارث حين قال : فأمطر علينا حجارة من السماء وقال : عجل لنا قطنا .

﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ في نزول العذاب ، وقال ابن عباس : يعني ما وعدتك أن لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة ، بيانه قوله : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر : 46] . . . الآية ، وقال الضحاك : يعني مدة أعمارهم في الدنيا . وقيل : يوم بدر .

﴿ لَّجَآءَهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ ﴾ يعني العذاب وقيل : الأجل ﴿ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ لا يبقى منهم أحد إلاّ دخلها ، وقيل : هو متصل بقوله : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ﴾ يصيبهم ﴿ العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يعني : إذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنّم .

﴿ وَيِقُولُ ﴾ بالياء كوفي ونافع وأيوب ، غيرهم بالنون ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ يا عبادي الذين آمنوا ﴾ بإرسال الياء عراقي غير عاصم ، سائرهم بفتحها ﴿ إِنَّ أَرْضِي ﴾ مفتوحة الياء ابن عامر ، غيره ساكنة ﴿ وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ توحدون من غير طاعة مخلوق في معصيتي ، قال سعيد بن جبير : إذا عُمِل في أرض بالمعاصي ، فاهربوا فإنّ أرضي واسعة .

مجاهد : ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا وجاهدوا ، وقال مقاتل والكلبي : نزلت في المستضعفين المؤمنين الذين كانوا بمكة لا يقدرون على إظهار الإيمان وعبادة الرحمن ، يحثهم

على الهجرة ويقول لهم : إنّ أرض المدينة واسعة آمنة . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : ﴿ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ أي رزقي لكم واسع ، أُخرج من الأرض ما يكون بها .

(237/599)

أخبرنا عبد الله بن حامد ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان ، قال : حدثنا جيغويه ابن محمد الترمذي ، قال : حدثنا صالح بن محمد ، عن سليمان ، عن عباد بن منصور الناجي ، عن الحسين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم " .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فلا تقيموا بدار المشركين .

﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ علالي ، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء ، غيرهم بالياء أي لينزلنّهم ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ العاملين * الذين صَبَرُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّن ﴾ وكم ﴿ مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ وذلك إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون : " أخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة فيها " .

فقالوا : يا رسول الله كيف نخرج إلى المدينة ليس لنا بها دار ولا عقار ولا مال ، فمن يطعمنا بها ويسقينا ؟ فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ ﴾ ذات حاجة إلى غذاء لا تحمل رزقا فيرفعه لغذائها يعني الطير والبهائم .

﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ يوماً بيوم ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لأقوالكم : نخشى لفراق أوطننا العيلة . ﴿ العليم ﴾ بما في قلوبكم وما إليه صائرة أموركم .

(238/599)

أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الثقفي ، قال : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الرقاق ، وقال : حدثنا محمد بن عبد العزيز ، قال : حدثنا إسماعيل بن زرارة الرقي ، قال : حدثنا أبو العطوف الجراح بن المنهال الجوزي ، عن الزهري ، عن عطاء بن أبي رباح ، " عن ابن عمر قال : دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطاً من حيطان الأنصار ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقط الرطب بيده ويأكل فقال : "كل يا بن عمر " ، قلت : لا أشتهيها يا رسول الله ، قال : "لكنّي أشتهيه وهذه صبحة رابعة لم أزق طعاماً ولم أجده "

فقلت : إنّا لله ، الله المستعان ، قال : " يا بن عمر لو سألت ربّي لأعطاني مثل ملك كسرى

وقيصر أضعافاً مضاعفة ، ولكني أجوع يوماً وأشبع يوماً فكيف بك يا بن عمر إذا عمرت وبقيت في حثالة من الناس يخبّؤون رزق سنة ويضعف اليقين "

فنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ . . . الآية .

أخبرني ابن فنجويه ، حدثنا ابن حنيش ، حدثنا أبو يعلى الموصلي ، حدثنا يحيى من معين ، حدثنا يحيى بن اليمان ، عن سفيان ، عن علي بن الأرقم ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ قال : لا تدخر شيئاً لغد .

قال سفيان : ليس شيء مما خلق الله يخبّيء إلاّ الإنسان والفأرة والنملة .

(239/599)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ * الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ يعني الدائمة الباقية التي لا زوال لها ولا موت فيها . ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ولكنهم لا يعلمون

ذلك .

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك ﴾ وخافوا الغرق والهلاك ﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ ﴾ ليجحدوا نعمه في إنجائه إياهم وسائر الآية ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ جزم لامه الأعمش وحمزة والكسائي وخلف وأيوب ، واختلف فيه عن عاصم ونافع وابن كثير ، الباقون بكسر اللام واختاره أبو عبيد ليكفروا لكون الكلام نسقاً . ومن جزم احتج بقراءة أبي بن كعب (يمتعوا) . ﴿ فَسَوْفَ يَعلَمُونَ ﴾ .

أخبرني أبو محمد عبد الله بن حامد فيما أذن لي روايته عنه قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن أبي سعيد ، قال : حدثنا محمد بن الحسن بن أسكت ، قال : حدثنا عقال ، قال : حدثنا جعفر بن سلمان قال : حدثنا ملك بن دينار ، قال : سمعت أبو العالية قرأ (لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ فتمتعوا فَسَوْفَ يَعلَمُونَ) بالياء ، فالكسر على كي والجزم على التهديد .

(240/599)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ أفبالباطل ﴾ بالأصنام ﴿ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ الله ﴾ يعني الإيمان ﴿ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾

فزعموا أنّ لله شريكاً ، وقالوا إذا فعلوا فاحشة ، ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : 28] .

﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق ﴾ بمحمد والقرآن ﴿ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ منزل ﴿ لِّلْكَافِرِينَ * والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي والذين قاتلوا لأجلنا أعداءنا لنصرة ديننا لنثبتهم على ما قاتلوا عنه .

قال أبو سورة : ﴿ والذين جَاهَدُواْ ﴾ في الغزو ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ سبيل الشهادة أو المغفرة .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن شنبه ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن وهب ، قال : حدثنا إبراهيم بن سعيد ، قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغر فإنّ الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

وقال الفضيل بن عياض : والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينّهم سبل العمل به .

وأخبرني أبو الحسن محمد بن القاسم بن أحمد ، قال : حدثني أبو الطيب محمد بن أحمد ابن حمدون ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن الحسين ، قال : حدثنا محمد بن إدريس ، قال : حدثنا أحمد بن أبي الجواري ، قال : قال أبو أحمد يعني عباس الهمداني وأبو سليمان

الداراني في قوله سبحانه : ﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم ربّهم إلى ما لا يعلمون .

(241/599)

وعن عمر بن عبد العزيز إنّه تكلم بكلمات وعنده نفر من العلماء ، فقال له الوضين بن عطاء : بِمَ أوتيت هذا العلم يا أبا مروان ؟ قال : ويحك يا وضين إنّما قصر بنا من علم ما جهلنا بتقصيرنا في العمل بما علمنا ، ولو أنّا عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا .

وعن عبد الله بن الزبير قال : تقول الحكمة : من طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين : أن يعمل بأحسن ما يعلمه ، أو يدع أسوأ ما يعلمه .

وروي عن ابن عباس : والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا .

ضحاك : والذين جاهدوا بالهجرة لنهدينّهم سبل الثبات على الإيمان ، وقيل : والذين جاهدوا بالثبات على الإيمان لنهدينهم سبل دخول الجنان ، سهل بن عبد الله : والذين جاهدوا في إقامة السنّة لنهدينّهم سبل الجنة ثم قال : مثل السنّة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى ، من دخل الجنة في العقبى سلم ، فكذلك من لزم السنّة في الدنيا سلم ، وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير مجازه : والذين هدينا هم سبيلنا جاهدوا فينا ﴿ وَإِنَّ الله

لَمَعَ المحسنين ﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم ، وبالثواب والمغفرة في عقباهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 284.290 ﴾

(242/599)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بالخصلة التي هي أحسن : وهي مقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم .

والسورة بالأناة ، كما قال . ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق ، فاستعملوا معهم الغلظة ، وقيل : إلا الذين آذوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وقيل : إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد اللّه مغلولة .

وقيل : معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمّة المؤدّين للجزية إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمّة ومنعوا الجزية ، فإن أولئك مجادلتهم بالسيف . وعن قتادة : الآية منسوخة بقوله تعالى قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ولا مجادلة أشدّ من السيف

: وقوله قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا من جنس المجادلة بالتي هي أحسن . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم :

ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا باللّه وكتبه ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدّقوهم ، وإن كان حقا لم تكذبوهم « 1 » .

[سورة العنكبوت (29) : آية 47]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ (47)

ومثل ذلك الإنزال أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ أى : أنزلناه مصدّقا لسائر الكتب السماوية ، تحقيقا لقوله آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم . وقيل : كما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا

---

(1) . أخرجه أبو داود ، وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبراني ، من طريق الزهري أخبرنى ابن أبى نملة الأنصارى أن أباه أبا نملة الأنصارى أخبره . قال «بينا هو عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس فذكر قصة هذا فيها» هذا هو المعروف في إسناد هذا الحديث وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين من رواية بقية عن الزبير عن الزهري عن سالم عن أبيه عن عامر بن ربيعة به . وأصل الحديث في البخاري من حديث أبى هريرة باختصار

إليك الكتاب فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ هم عبد اللّه بن سلام ومن آمن معه وَمِنْ هؤُلاءِ من أهل مكة وقيل : أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أهل الكتاب ، ومن هؤلاء ممن في عهده منهم وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا مع ظهورها وزوال الشبهة عنها ، إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه . وقيل : هم كعب بن الأشرف وأصحابه .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 48 إلى 49]

وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

وأنت أميّ ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط إذاً لو كان شيء من ذلك ، أى ، من التلاوة والخط لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ من أهل الكتاب وقالوا : الذي نجده في كتبنا أمى لا يكتب ولا يقرأ وليس به . أو لارتاب مشركو مكة وقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده . فإن قلت : لم سماهم مبطلين ، ولو لم يكن أمّيا وقالوا : ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين ؟ ولكان أهل مكة أيضا على حق في قولهم لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب ؟ قلت :

سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أميّ بعيد من الريب ، فكأنه قال : هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمّيا لارتابوا أشدّ الريب ، فحين ليس «1» بقارئ كاتب فلا وجه لارتيابهم . وشيء آخر : وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أمّيين ، ووجب الإيمان بهم وبما جاءوا به ، لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات ، فهب أنه قارئ كاتب فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام ؟ على أن المنزلين «2» ليسا بمعجزين ، وهذا المنزل معجز ، فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمي ، ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمي .

فان قلت : ما فائدة قوله بيمينك ؟ قلت ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط : زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتبا . ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات ، رأيت الأمير بخط هذا الكتاب بيمينه ، كان أشد لإثباتك أنه تولى كتبته ، فكذلك النفي بَلْ القرآن آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ العلماء به وحفاظه ، وهما من خصائص القرآن : كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهرا : بخلاف سائر الكتب ، فإنها لم تكن معجزات ،

---

(1) . قوله «فحين ليس» لعله فحين كان ليس . (ع)

(2) . قوله «على أن المنزلين ليسا بمعجزين» لعله : المنزلين عليهما . (ع)

وما كانت تقرأ إلا من المصاحف. ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة «صدورهم أناجيلهم» «1» وَما يَجْحَدُ بآيات اللّه الواضحة، إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

[سورة العنكبوت (29): الآيات 51 إلى 52]

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (52)

قرئ: آية، وآيات. أرادوا: هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ينزل أيتها شاء، ولو شاء أن ينزل ما تقترحونه لفعل وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات، وليس لي أن أتخير على اللّه آياته فأقول، أنزل عليّ آية كذا دون آية كذا، مع علمي أنّ الغرض من الآية ثبوت الدلالة، والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك، ثم قال أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ آية مغنية عن سائر الآيات - إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين - هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحلّ، كما تزول كل آية بعد كونها، وتكون في مكان دون مكان.

إنّ في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر لَرَحْمَةً لنعمة عظيمة لا تشكر . وتذكرةِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وقيل : أو لم يكفهم ، يعنى اليهود : أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك . وقيل : إنّ ناسا من المسلمين أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بكتف قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود ، فلما أن نظر إليها ألقاها وقال : كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، فنزلت «2» . والوجه ما ذكرناه كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وأنكم قابلتمونى بالجحد والتكذيب يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

---

(1) . أخرجه الطبراني من رواية سنان بن الحارث عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعا في أثناء حديث وروى الواقدي في الردة عن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة عن أبيه أن يهوديا من أهل سبأ يقال له نعمان ، وكان أعلم أحبار يهود فذكر قصة فيها صفة النبي صلى اللّه عليه وسلم في سفر عندهم مختوم وفيه هذا . [. . . . .]

(2) . أخرجه الطبري وأبو داود في المراسيل من طريق يحيى بن جعدة «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أتاه قوم من المسلمين بكتاب في كتف» فذكر نحوه ولفظ الطبري كالأصل .

فهو مطلع على أمرى وأمركم ، وعالم بحقي وباطلكم وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ منكم وهو ما تعبدون من دون اللّه وَكَفَرُوا بِاللَّهِ وآياته أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان ، إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف ، كقوله وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ وكقول حسان :

فشر كما لخير كما الفداء «1»

وروى أنّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا : يا محمد ، من يشهد لك بأنك رسول اللّه ، فنزلت .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 53 إلى 55]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيبا ، والنضر بن الحرث هو الذي قال : اللهم أمطر علينا حجارة من السماء ، كما قال أصحاب الأيكة : فأسقط علينا كسفا من السماء وَلَوْلا أَجَلٌ قد سماه اللّه وبينه في اللوح لعذابهم ، وأوجبت الحكمة تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ عاجلا . والمراد بالأجل : الآخرة ، لما روى أنّ اللّه تعالى

وعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن لا يعذب قومه ولا يستأصلهم ، وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة «2» .

وقيل : يوم بدر . وقيل : وقت فنائهم بآجالهم لَمُحِيطَةٌ أى ستحيط بهم يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ أو هي محيطة بهم في الدنيا : لأنّ المعاصي التي توجبها محيطة بهم . أو لأنها مآلهم ومرجعهم لا محالة فكأنها الساعة محيطة بهم . وَيَوْمَ يَغْشاهُمُ على هذا منصوب بمضمر ، أى : يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت . مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ كقوله تعالى لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، وَيَقُولُ قرئ بالنون والياء ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى جزاءه .

[سورة العنكبوت (29) : آية 56]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56)

معنى الآية : أنّ المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يجب

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثاني صفحة 563 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . لم أجده .

فليهاجر عنه إلى بلد يقدّر أنه فيه أسلم قلبا وأصح دينا وأكثر عبادة وأحسن خشوعا .

ولعمري إن البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير ، ولقد جرّبنا وجرّب أوّلونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت وأضم للهم المنتشر وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة – من سكنى حرم اللّه وجوار بيت اللّه ، فللّه الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ، ورزق من الصبر وأوزع من الشكر . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض ، استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم «1» ومحمد» وقيل : هي في المستضعفين بمكة الذين نزل فيهم أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها وإنما كان ذلك لأنّ أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهراني الكفرة فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ

في المتكلم ، نحو : إياه ضربته ، في الغائب وإياك عضتك ، في المخاطب . والتقدير : فإياى فاعبدوا : فاعبدون . فإن قلت : ما معنى الفاء في فَاعْبُدُونِ

وتقديم المفعول ؟ قلت : الفاء جواب شرط محذوف ، لأنّ المعنى : إنّ أرضى واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها ، ثم حذف الشرط وعوّض من حذفه تقديم المفعول ، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص .

[سورة العنكبوت (29) : آية 57]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (57)

لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وإن شسعت «2» ، أتبعه قوله كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ أى واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق. ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء ، ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 58 إلى 59]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ لننزلنهم مِنَ الْجَنَّةِ علالي. وقرئ: لنثوّينهم ، من الثواء وهو النزول للإقامة. يقال: ثوى في المنزل ، وأثوى هو ، وأثوى غيره وثوى: غير متعد ، فإذا تعدى بزيادة همزة

---

(1) . أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن وقد تقدم في النساء.

(2) . قوله «أوفق البلاد وإن شعست» أى بعدت. (ع)

النقل لم يتجاوز مفعولا واحدا ، نحو : ذهب ، وأذهبته . والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف : إمّا إجراؤه مجرى لننزلنهم ونبوئنهم . أو حذف الجار وإيصال الفعل : أو تشبيه الظرف المؤقت «1» بالمبهم . وقرأ يحيى بن وثاب : فنعم ، بزيادة الفاء الَّذِينَ صَبَرُوا على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين . وعلى أذى المشركين ، وعلى المحن والمصائب ، وعلى الطاعات ، وعن المعاصي ، ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على اللّه .

[سورة العنكبوت (29) : آية 60]

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

لما أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أسلم بمكة بالهجرة ، خافوا الفقر والضيعة ، فكان يقول الرجل منهم : كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة ، فنزلت . والدابة : كل نفس دبت على وجه الأرض ، عقلت أو لم تعقل . تَحْمِلُ رِزْقَهَا لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ أى لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا اللّه ، ولا يرزقكم أيضا أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها ، لأنه لو لم يقدركم ولم يقدّر لكم أسباب الكسب ، لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل ، وعن الحسن لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا لا تدّخره ، إنما تصبح فيرزقها اللّه . وعن ابن عيينة : ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة .

وعن بعضهم : رأيت البلبل يحتكر في حضنيه . ويقال : للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها وَهُوَ

السَّمِيعُ لقولكم : نخشى الفقر والضيعة الْعَلِيمُ بما في ضمائركم .

[سورة العنكبوت (29) : آية 61]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61)

الضمير في سَأَلْتَهُمْ لأهل مكة فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ فكيف يصرفون عن توحيد اللّه وأن لا يشركوا به ، مع إقرارهم بأنه خالق السماوات والأرض .

[سورة العنكبوت (29) : آية 62]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)

قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه . فإن قلت : الذي رجع إليه الضمير في قوله وَيَقْدِرُ لَهُ هو من يشاء ، فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد . قلت : يحتمل الوجهين جميعا : أن يريد ويقدر لمن يشاء ، فوضع الضمير موضع من يشاء ، لأن لِمَنْ يَشاءُ مبهم غير معين ، فكان الضمير مبهما مثله ، وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

---

(1) . قوله «الظرف المؤقت» أي المحدد ، وهو الغرف . (ع)

يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 63]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (63)

استحمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد اللّه ونفى الأنداد والشركاء عنه، ولم يكن إقرارا عاطلا كاقرار المشركين، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى اللّه وقد جعلوا العبادة للصنم، ثم قال بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد. أو لا يعقلون ما تريد بقولك الحمد للّه، ولا يفطنون لم حمدت اللّه عند مقالتهم؟

[سورة العنكبوت (29) : آية 64]

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (64)

هذِهِ فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة. يريد: ما هي - لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها - إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ أى ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت «1» فيها، فكأنها في ذاتها حياة. والحيوان: مصدر حي، وقياسه حييان،

فقلبت الياء الثانية واوا ، كما قالوا : حيوة ، في اسم رجل ، وبه سمى ما فيه حياة : حيوانا . قالوا : اشتر من الموتان ، ولا تشتر من الحيوان «2» . وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة ، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب ، كالنزوان والنغصان واللهبان «3» ، وما أشبه ذلك . والحياة : حركة ، كما أن الموت سكون ، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة ، مبالغة في معنى الحياة ، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ فلم يؤثروا الحياة الدنيا عليها .

---

(1) . قال محمود : «إنما عدل عن الحياة إلى هذا البناء تنبيها على تعظيم حياة الآخرة ودوامها» قال أحمد :

والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة ، كالنزوان والجولان . والحيوان من ذلك ، والله أعلم .

(2) . قوله «اشتر من الموتان . . . الخ» الذي في الصحاح : اشتر الموتان ، ولا تشتر الحيوان . أي : اشتر الأرض والدور ، ولا تشتر الرقيق والدواب اه (ع)

(3) . قوله «كالنزوان والنغضان واللهبان» في الصحاح «اللهبان» بالتحريك : اتقاد النار . (ع)

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 65 إلى 66]

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

فإن قلت : بم اتصل قوله فَإِذا رَكِبُوا ؟ قلت : بمحذوف دلّ عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم ، معناه : هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كائنين في صورة من يخلص الدين للّه من المؤمنين ، حيث لا يذكرون إلا اللّه ولا يدعون معه إلها آخر . وفي تسميتهم مخلصين : ضرب من التهكم فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ وآمنوا عادوا إلى حال الشرك : واللام في لِيَكْفُرُوا محتملة أن تكون لام كى ، وكذلك في وَلِيَتَمَتَّعُوا فيمن قرأها بالكسر . والمعنى : أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا - بالعود إلى شركهم - كافرين بنعمة النجاة ، قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير ، على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة : إذا أنجاهم اللّه أن يشكروا نعمة اللّه في إنجائهم ، ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة ، لا إلى التمتع والتلذذ ، وأن تكون لام الأمر وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له . ونحوه قوله تعالى اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . فإن قلت : كيف جاز أن يأمر اللّه تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا ، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ قلت : هو مجاز عن الخذلان والتخلية ، وأن ذلك الأمر

متسخط إلى غاية. ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ، وأنه يؤدى إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم، حردت «1» عليه وقلت:

أنت وشأنك وافعل ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر. وكيف والآمر بالشيء مريد له، وأنت شديد الكراهة متحسر، ولكنك كأنك تقول له: فإذ قد أبيت قبول النصيحة، فأنت أهل ليقال لك: افعل ما شئت وتبعث عليه، ليتبين لك - إذا فعلت - صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

[سورة العنكبوت (29): آية 67]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)

كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا، ويتغاورون، ويتناهبون، وأهل مكة قارّون آمنون فيها، لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب، فذكرهم اللّه هذه النعمة الخاصة عليهم، ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة

---

(1). قوله «حردت عليه» أى غضبت. أفاده الصحاح. (ع)

وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا اللّه وحده مكفورة عندهم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 68]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (68)

افتراؤهم على اللّه كذبا : زعمهم أن للّه شريكا . وتكذيبهم بما جاءهم من الحق : كفرهم بالرسول والكتاب. وفي قوله لَمَّا جاءَهُ تسفيه لهم، يعنى : لم يتلعثموا في تكذيبه وقت سمعوه، ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور : يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر، ويستأنون إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه أَلَيْسَ تقرير لثوائهم في جهنم، كقوله :

ألستم خير من ركب المطايا «1»

قال بعضهم : ولو كان استفهاما ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل. وحقيقته : أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي، فرجع إلى معنى التقرير، فهما وجهان، أحدهما : ألا يثوون في جهنم، وألا يستوجبون الثواء فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على اللّه، وكذبوا

بالحق هذا التكذيب والثاني : ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين ، حتى اجترءوا مثل هذه الجرأة ؟ .

[سورة العنكبوت (29) : آية 69]

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ، ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمّارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين فِينا في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقا ، كقوله تعالى وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وعن أبى سليمان الداراني : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا . وعن بعضهم : من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم . وقيل : إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم ، إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ لناصرهم ومعينهم .

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين «2»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 465.457﴾

---

(1) ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

لجرير : في عبد الملك بن مروان . والاستفهام للإنكار ، يعنى : لا تنتفى زيادتكم في الفضل والكرم على جميع الناس ومن ركب المطايا : كناية عنهم ، لأن الركوب من خواصهم .

والراح : اسم جمع واحده راحة ، وهي ما عدا الأصابع من الكف ، وذلك كناية عن الكرم ، لأن بها بذل المعروف في العادة . قيل : لما بلغ جرير هذا البيت في القصيدة ، كان عبد الملك متكئا فاستوى جالسا فرحا وقال : هكذا مدحنا . وأعطاه مائة من الإبل .

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب .

(251/599)

وقال ابن جزى :

﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

أي لا تجادلوا كفار أهل الكتاب إذا اختلفتم معهم في الدين إلا بالتي هي أحسن ، لا بضرب ولا قتال ، وكان هذا قبل أن يفرض الجهاد ، ثم نسخ بالسيف ، ومعنى ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ ﴾ : أي ظلموكم ، وصرحوا بإذاية نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : معنى الآية ؛ لا تجادلوا من أسلم من أهل الكتاب فيما حدثوكم به من الأخبار إلا بالتي هي أحسن ، ومعنى إلا الذين ظلموا على هذا من بقي منهم على كفره ، والمعنى الأول أظهر ﴿ وقولوا آمَنَّا ﴾ هذا وما بعده يقتضي مواعدة ومسالمة ، وهي ومنسوخة بالسيف ، ويقتضي أيضاً الأعراض عن مكالمتهم ، وفي الحديث : " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ،

وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، فإن كان باطلاً لم تصدقوهم ، وإن كان حقاً لم تكذبوهم " .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ أي كما أنزلنا الكتاب على من قبلك أنزلناه عليك ﴿ فالذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ﴾ يعني عبد الله بن سلام وأمثاله ، ممن أسلم من اليهود والنصارى ﴿ وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أراد بالذين أوتوا الكتاب أهل التوراة والإنجيل ، وأراد بقوله : ﴿ وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ كفار قريش ، وقيل : أراد بالذين أوتوا الكتاب المتقدّمين من أهل التوراة والإنجيل ، وأراد بهؤلاء المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم منهم كعب الله بن سلام .

(252/599)

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ هذا احتجاج على أن القرآن من عند الله ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يقرأ ولا يكتب ، ثم جاء بالقرآن . فإن قيل : ما فائدة قوله بيمينك ؟ فالجواب أن ذلك تأكيد للكلام ، وتصوير للمعنى المراد ﴿ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب لتطرق الشك إلى الكفار ، فكانوا يقولون : لعله تعلم هذا الكتاب أو قرأه ، وقيل : وجه الاحتجاج أن أهل الكتاب كانوا يجدون في كتبهم أن النبي

صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب ، فلما جعله الله كذلك قامت عليهم الحجة ، ولو كان يقرأ أو يكتب لكان مخالفاً للصفة التي وصفه الله بها عندهم ، والمذهب الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقرأ قط ولا كتب . وقال الباجي وغيره : إنه كتب لظاهر حديث الحديبية ، وهذا القول ضعيف .

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ ﴾ الضمير للقرآن ، والإضراب ببل عن كلام محذوف تقديره : ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ المعنى كيف يطلبون آية والقرآن الكريم أعظم الآيات ، وأوضحها دلالة على صحة النبوة ، فهلا اكتفوا به عن طلب الآيات ﴿ قُلْ كفى بالله ﴾ ذكره معناه في [الرعد : 43] وفي الأنعام .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ الضمير للكفار يعني قولهم : ﴿ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ [الأعراف : 77] ، وقولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال : 32] وشبه ذلك ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي لولا أن الله قدّر لعذابهم أجلاً مسمى لجاءهم به حين طلبوه ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ ﴾ يحتمل أن يريد القتل الذي أصابهم يوم بدر ، أو الجوع الذي أصابهم بهم بتوالي القحط ، أو يريد عذاب الآخرة ، وهذا أظهر لقوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب ﴾ أي يحيط بهم ، والعامل في الظرف محذوف أو محطيه .

﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ تحريض على الهجرة من مكة ، إذا كان المؤمنون يلقون فيها أذى الكفار ، وترغيباً في غيرها من أرض الله ، فحينئذ هاجروا إلى أرض الحبشة ، ثم إلى المدينة .

﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أي ننزلنهم وقرأ حمزة والكسائي : نثوينهم بالثاء المثلثة من الثوى وهو الإقامة في المنزل .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي : كم من دابة ضعيفة لا تقدر على حمل رزقها ، ولكن الله يرزقها مع ضعفها ، والقصد بالآية : تقوية لقلوب المؤمنين ، إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة إلى بلاد الناس : أي كما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ في الموضعين : إقامة حجة عليهم ﴿ العليم ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق .

﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ حمداً لله على ظهور الحجة ، ويكون المعنى إلزامهم أن يحمدوا الله لما اعترفوا أنه خلق السموات والأرض ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ إضراب عن كلام محذوف تقديره : يجب عليهم أن يعبدوا الله لما اعترفوا به ولكنهم لا يعقلون .

﴿ لَهِيَ الحيوان ﴾ أي الحياة الدائمة التي لا موت فيها ، ولفظ الحيوان مصدر كالحياة .

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك ﴾ الآية : إقامة حجة عليهم بدعائهم حين الشدائد ، ثم يشركون به في حال الرخاء .

﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ أمر على وجه التهديد ، أو على وجه الخذلان والتخلية ، كما تقول لمن تنصحه فلا يقبل نصحك : اعمل على ما شئت .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ﴾ الضمير لكفار قريش ، والحرم الآمن : مكة ، لأنها كانت لا تغير عليها العرب كما تغير على سائر البلاد ، ولا ينتهك أحد حرمتها ﴿ وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ عبارة عما يصيب غير أهل مكة من القتال أو أخذ الأموال .

(254/599)

﴿ والذين جَاهَدُواْ فِينَا ﴾ يعني : جهاد النفس من الصبر على إذابة الكفار واحتمال الخروج عن الأوطان وغير ذلك ، قيل يعني : القتال : وذلك ضعيف لأن القتال لم يكن مأموراً به حين نزول الآية ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي لنوفقنهم لسبيل الخير ﴿ وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ المعنى أنه معهم بإعانته ونصره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 117 .

﴿ 119

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب ﴾

أي ولا تخاصموهم ﴿ إلا بالتي هي أحسن ﴾ أي القرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه وأراد بهم من قبل الجزية منهم ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعني أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب فافجؤوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ومعنى الآية إلا الذين ظلموكم لأن جميعهم ظالم بالكفر وقيل هم أهل الحرب ومن لا عهد له .

وقيل الآية منسوخة بآية السيف ﴿ وقولوا ﴾ أي للذين قبلوا الجزية إذا حدثوكم بشيء مما في كتبكم ﴿ آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (خ) عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربيه لأهل الإسلام فقال النبي صلى الله عليه سلم : " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا " الآية .

قوله ﴿ وكذلك ﴾ أي كما أنزلنا إليهم الكتاب ﴿ أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ ومن هؤلاء ﴾ يعني أهل مكة ﴿ من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ وذلك أن اليهود عرفوا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نبي والقرآن حق فجحدوا والجحود إنما يكون بعد المعرفة ﴿ وما كنت تتلو ﴾ يا محمد ﴿ من قبله من كتاب ﴾ معناه من كتب أي من قبل ما أنزلنا إليك الكتاب ﴿ ولا تخطه بيمينك ﴾ يعني ولا تكتبه والمعنى لم تكن تقرأ ولم تكتب قبل الوحي ﴿ إذاً لارتاب المبطلون ﴾ معناه لو كنت تكتب أو تقرأ قبل الوحي إليك لارتاب المشركون من أهل مكة ، وقالوا إنه يقرأه من كتب الأولين أو ينسخه منها وقيل المبطلون هم اليهود ومعناه أنهم إذاً لشكوا فيه واتهموك وقالوا إن الذي نجد نعته في التوراة لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ يعني القرآن ﴿ في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ يعني المؤمنين الذي حملوا القرآن وقال ابن عباس يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدون نعته وصفته في كتبهم ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ يعني اليهود ﴿ وقالوا ﴾ يعني كفار مكة ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أي كما أنزل على الأنبياء من قبل وقيل : أراد بالآيات معجزات الأنبياء مثل ناقة صالح ومائدة عيسى ونحو ذلك ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي هو القادر على إنزالها إن شاء أنزلها ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ إي إنما

كلفت الإنذار وليس إنزال الآيات بيدي ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا ﴾ هذا جواب لقولهم لولا أنزل عليه آية من ربه قال أول يكفهم أن أنزلنا ﴿ عليكم الكتاب يتلى عليهم ﴾ معناه أن القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الأنبياء لأن معجزة القرآن تدوم على ممر الدهور والزمان ثابتة لا تضمحل كما نزول كل آية بعد كونها ﴿ إن

(257/599)

في ذلك ﴾ يعني القرآن ﴿ لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ أي تذكيراً وعظة لمن آمن به وعمل صالحاً ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ قال ابن عباس معناه يشهد لي أني رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب ، وشهادة الله إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ أي هو المطلع على أمري وأمركم ويعلم حقي وباطلكم لا تخفى عليه خافية ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ قال ابن عباس : بغير الله وقيل بعبادة الشيطان وقيل بما سوى الله لأن ما سوى الله باطل ﴿ وكفروا بالله ﴾ .

فإن قلت من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد .

قلت نعم فائدته أن ذكر الثاني لبيان قبح الأول فهو كقول القائل أتقول الباطل وتترك الحق لبيان أن الباطل قبيح ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ أي المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا

الكفر بالإيمان .

قوله ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ نزلت في النضر بن الحارث حيث قال ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ ﴿ ولولا أجل مسمى ﴾ قال ابن عباس ما وعدتك أني لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة وقيل مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب وقيل يوم بدر ﴿ لجاءهم العذاب وليأتينهم ﴾ يعني العذاب ، وقيل الأجل ﴿ بغتة وهم لا يشعرون ﴾ بإتيانه .

﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ أعادة تأكيداً ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي جامعة لهم لا يبقى منهم أحد إلا دخلها ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ أي يصيبهم ﴿ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملون .

(258/599)

قوله تعالى ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ قيل نزل في ضعفاء مسلمي أهل مكة يقول الله تعالى إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة فإنها واسعة آمنة ، وقيل نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة وقالوا نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فأنزل الله تعالى هذه الأية ولم يعذرهم بترك الخروج

وقيل المعنى فهاجروا فيها أي فجاهدوا فيها .

وقال سعيد بن جبير : إذا علموا في الأرض بالمعاصي فاهربوا منها فإن أرضي واسعة

وقيل إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيه بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى بلد تتهيأ له فيها العبادة وقيل معنى إن أرضي واسعة يعني رزقي لكم واسع فاخرجوا ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ يعني كل أحد ميت خوفهم بالموت لتهون الهجرة عليهم فلا يقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾ فنجزيكم بأعمالكم .

قوله تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً ﴾ أي علالي جمع غرفة وهي العلية ﴿ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾ أي لله بطاعته ﴿ الذين صبروا ﴾ على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم وقيل صبروا على الهجرة ومفارقة الأوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي يعتمدون على الله في جميع أمورهم .

(259/599)

قوله ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون " هاجروا إلى المدينة " فقالوا كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا بها ويسقينا فأنزل الله : وكأين من دابة لا تحمل رزقها أي لا ترفع رزقها معها لضعفها ولا تدخر شيئاً لغد مثل البهائم والطير ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ حيث كنتم ﴿ وهو السميع ﴾ أي لأقوالكم ﴿ العليم ﴾ بما في قلوبكم عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ومعناه أنها تذهب أول النهار جياعاً ضامرة البطون وتروح آخر النهار إلى أوكارها شباعاً ممتلئة البطون ولا تدخر شيئاً قال سفيان بن عيينة ليس شيء من خلق الله يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة .

عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " أيها الناس ليس من شيء يقاربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به وليس شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه ألا وإن الروح الأمين نفث في روعي " الروح : بضم الراء وبالعين المهملة هو القلب والعقل وبفتح الراء هو الخوف قال تعالى ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ أي الخوف " أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله

وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته " .

(260/599)

قوله : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ يعني كفار مكة ﴿ من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ﴾ ذكر أمرين أحدهما : إشارة إلى اتحاد الذات والثاني إشارة إلى اتحاد الصفات وهي الحركة في الشمس والقمر ﴿ ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ قيل معناه أنهم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع إقرارهم أنه خلق السموات والأرض ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ﴾ لما ذكر الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الخلق بالزرق والله تعالى هو المتفضل بالرزق على الخلق فله الفضل والإحسان والطول والامتنان ﴿ ويقدر له ﴾ أي يضيق عليه إذا شاء ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ ذكر سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله تعالى ﴿ قل الحمد لله ﴾ أي على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله تعالى : وقيل قل الحمد لله على إقرارهم ولزوم الحجة عليهم بأنه خالق لهم ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ أي أنهم

ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه خالق هذه الأشياء .

قوله تعالى ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ﴾ اللهو هو الاستمتاع بلذة الدنيا وقيل هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه واللعب هو العبث وفي هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ومعنى الآية أن سرعة زوال الدنيا عن أهلها وتقلبهم فيها وموتهم عنها كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ أي الحياة الدائمة الخالدة التي لا موت فيها ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ فناء الدنيا وبقاء الآخرة لما آثروا الفاني على الباقي .

قوله ﴿ فإذا ركبوا في الفلك ﴾ معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فإذا ركبوا في الفلك وخافوا الغرق ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي تركوا الأصنام ولجأوا إلى الله تعالى بالدعاء ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ أي عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك والعناد .

(261/599)

وقيل : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا الأصنام فإذا اشتد الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ أي ليجحدوا نعمة الله في إجابته إياهم ومعناه التهديد والوعيد ﴿ وليتمتعوا ﴾ معناه لا فائدة لهم في الإشراك إلا التمتع بما

يستمتعون به في العاجلة ولا نصيب لهم في الآخرة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ يعني عاقبة أمرهم ففيه تهديد ووعيد : قوله ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾ يعني العرب يسبي بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون ﴿ أفبالباطل ﴾ يعني الشيطان والأصنام ﴿ يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ أي بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والإسلام يكفرون ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ أي فزعم أن له شريكاً فإنه منزه عن الشركاء ﴿ أو كذب بالحق ﴾ أي بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والقرآن ﴿ لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ معناه أما لهذه الكافر المكذب مأوى في جهنم .

قوله ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ معناه جاهدوا المشركين لنصر ديننا ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ لنثيبنهم ما قاتلوا عليه .

وقيل لنزيدنهم هدى وقيل لنوفينهم لإصابة الطرق المستقيمة وهي التي توصل إلى رضا الله تعالى .

قال سفيان بن عيينة : إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فإن الله تعالى يقول : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات ومخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا فينا بإقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة .

وقال ابن عباس : والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا ﴿ وإن الله لمع المحسنين

﴿ أي بالنصرة والمعونة في دنياهم والمغفرة في عقباهم في الآخرة وثوابهم الجنة والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 196 . 200 ﴾

(262/599)

وقال النسفى :

﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

بالخصلة التي هي أحسن للثواب وهي مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم كما قال : ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون : 96] ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة .

وقيل : إلا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا ﴿ يد الله مغلولة ﴾ أو معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤدين للجزية إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فمجادلتهم بالسيف .

والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين ، وعلى جواز تعلم علم الكلام الذي به تتحقق المجادلة ، وقوله ﴿ وَقُولُواْ ءامَنَّا بالذى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ من جنس المجادلة بالأحسن .

وقال عليه السلام " ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلاً لم تصدقوهم وإن كان حقاً لم تكذبوهم " "

(263/599)

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الإنزال ﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ أي أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية ، أو كما أنزلنا الكتب إلى من قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿ فالذين ءاتيناهم الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ هم عبد الله بن سلام ومن معه ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء ﴾ أي من أهل مكة ﴿ مَن يُؤْمِنُ ﴾ أو أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها ﴿ إِلاَّ الكافرون ﴾ إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه ككعب بن الأشرف وأضرابه ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ من قبل القرآن ﴿ مِن كتاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ خص اليمين لأن الكتابة غالباً تكون باليمين أي ما كنت قرأت كتاباً من الكتب ولا كنت كاتباً ﴿ إِذاً ﴾ أي لو كان شيء من ذلك أي من التلاوة ومن الخط ﴿ لارتاب المبطلون ﴾ من أهل الكتاب وقالوا : الذي نجد نعته في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به ، أو لارتاب مشركو مكة وقالوا : لعله

تعلمه أو كتبه بيده .

وسماهم مبطلين لإنكارهم نبوته .

وعن مجاهد والشعبي : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ بينات فِى صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم وَمَا ﴾ أي في صدور العلماء به وحفاظه وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ الواضحة ﴿ إِلاَّ الظالمون ﴾ أي المتوغلون في الظلم .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايات مِّن رَّبِهِ ﴾ ﴿ آية ﴾ بغير ألف : مكي وكوفي غير حفص .

(264/599)

أرادوا هلا أنزل عليه آيات مثل الناقة والعصا ومائدة عيسى عليهم السلام ونحو ذلك ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ ينزل أيتها شاء ولست أملك شيئاً منها ﴿ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كلفت الإنذار وإباته بما أعطيت من الآيات وليس لي أن أقول أنزل على آية كذا دون آية كذا مع علمي أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ أي أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات

إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان ، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها ، أو تكون في مكان دون مكان ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ لنعمة عظيمة ﴿ وذكرى ﴾ وتذكرة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ دون المتعنتين ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ أي شاهداً بصدق ما أدعيه من الرسالة وأنزل القرآن علي وبتكذيبكم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السماوات والأرض ﴾ فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم ﴿ والذين ءامَنُواْ بالباطل ﴾ باليهودية أو بالشرك إو بإبليس ﴿ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ ﴾ وآياته ﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] وروي أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا : يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ بقولهم ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 32] الآية .

﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ وهو يوم القيامة أو يوم بدر أو وقت فنائهم بآجالهم ، والمعنى ولولا أجل قد سماه الله وبينه في اللوح لعذبهم والحكمة تقتضي تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى ﴿ لَّجَاءهُمُ العذاب ﴾ عاجلاً ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ ﴾ العذاب عاجلاً أو ليأتينهم العذاب في الأجل المسمى ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بوقت مجيئه .

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ أي ستحيط بهم ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ لقوله تعالى : ﴿ مّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] ولا وقف على ﴿ بالكافرين ﴾ لأن ﴿ يوم ﴾ ظرف إحاطة النار بهم ﴿ وَيَقُولُ ﴾ بالياء : كوفي ونافع ، وقوله ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء أعمالكم ﴿ ياعبادى ﴾ وبسكون الياء : بصري وكوفي غير عاصم ﴿ الذين ءامَنُواْ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ ﴾ وبفتح الياء : شامي يعني أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصبح ديناً وأكثر عبادة ، والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتاً كثيراً .

وقالوا : لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للأمر الديني من مكة حرسها الله تعالى .

وعن سهل : إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من

الأرض استوجب الجنة " ﴿ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ وبالياء : يعقوب .

وتقديره فإياي اعبدوا فاعبدوني .

(266/599)

وجيء بالفاء في ﴿ فاعبدون ﴾ لأنه جواب شرط محذوف لأن المعنى إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها ، ثم حذف الشرط وعوض عن حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص ، ثم شجع المهاجر بقوله

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ أي واجدة مرارته وكربه كما يجد ، الذائق طعم المذوق لأنها إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارق وطنها ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الموت للثواب والعقاب ﴿ يرجعون ﴾ يحيى ﴿ ترجعون ﴾ يعقوب .

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ لننزلنهم من الجنة علالي .

﴿ لنثوينهم ﴾ كوفي غير عاصم من الثواء وهو النزول للإقامة ، وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة الهمزة لم يجاوز مفعولاً واحداً .

(267/599)

والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف ، أما إجراؤه مجرى لننزلنهم أو لنؤينهم ، أو حذف الجار وإيصال الفعل ، أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ ويوقف على ﴿ العاملين ﴾ على أن ﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين صبروا على مفارقة الأوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ، والوصل أجود ليكون ﴿ الذين ﴾ نعتا ل ﴿ العاملين ﴾ ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله ، ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فنزلت ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ ﴾ أي وكم من دابة ﴿ وكائن ﴾ بالمد والهمز : مكي والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أم لم تعقل ﴿ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي لا يرزق تلك الدّواب الضعاف إلا الله ، ولا يرزقكم أيضاً أيها الأقوياء إلا هو ، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل .

وعن الحسن : لا تحمل رزقها لا تدخره إنما تصبح فيرزقها الله .

وقيل : لا يدخر شيء من الحيوان قوتاً إلا ابن آدم والفأرة والنملة ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لقولكم نخشى الفقر والعيلة ﴿ العليم ﴾ بما في ضمائركم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق السماوات والأرض على كبرهما وسعتهما ، ومن الذي سخر الشمس والقمر ﴿ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كله ! ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي لمن يشاء فوضع الضمير موضع ﴿ من يشاء ﴾ لأن ﴿ من يشاء ﴾ مبهم غير معين فكان الضمير مبهماً مثله .

قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم .

في الحديث " إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك " ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ أي هم مقرون بذلك ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض أو على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفى الشركاء عنه ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ

يَعْقِلُونَ ﴾ لا يتدبرون بما فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات ونقيم عليهم من الدلالات ، أو لا يعقلون ما تريد بقولك الحمد لله

﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ أي وما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ، وفيه ازدراء بالدنيا وتصغير لأمرها وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة ! واللهو ما يتلذذ به الإنسان فيلهيه ساعة ثم ينقضي ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ أي الحياة أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة .

(269/599)

والحيوان مصدر حي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واواً ولم يقل "لهي الحياة" لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب ، والحياة حركة والموت سكون ، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ، ويوقف على ﴿ الحيوان ﴾ لأن التقدير ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي ، ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقاً بشرط علمهم ذلك وليس كذلك .

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك ﴾ هو متصل بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم

معناه : هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فإذا ركبوا في الفلك ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلاها آخر ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر ﴾ وأمنوا ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ عادوا إلى حال الشرك ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ من النعمة .

قيل : هي لام كي وكذا في ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ فيمن قرأها بالكسر أي لكي يكفروا وكي يتمتعوا ، والمعنى يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتيع بها والتلذذ لا غير على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم ، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التلذذ والتمتع ، وعلى هذا لا وقف على ﴿ يشركون ﴾ .

ومن جعله لام الأمر متثبتاً بقراءة ابن كثير وحمزة وعلي ﴿ وليتمتعوا ﴾ بسكون اللام على وجه التهديد كقوله : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] وتحقيقه في أصول الفقه يقف عليه ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء تدبيرهم عند تدميرهم .

(270/599)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي أهل مكة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ بلدهم ﴿ حَرَماً ﴾ ممنوعاً مصوناً ﴿ آمناً ﴾ يأمن داخله ﴿ وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يستلبون قتلاً وسبياً ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أبالشيطان والأصنام ﴿ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ ﴾ أي بمحمد عليه السلام والإسلام ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ بأن جعل له شريكاً ﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق ﴾ بنبوة محمد عليه السلام والكتاب ﴿ لَمَّا جَاءهُ ﴾ أي لم يتلعثموا في تكذيبه حين سمعوه ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ هذا تقرير لثوائهم في جهنم لأن همزة الإنكار إذا أدخلت على النفي صار إيجاباً يعني ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب؟ أو ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حين اجترؤوا مثل هذه الجراءة؟ وذكر المثوى في مقابلة ﴿ لنبوئنهم ﴾ يؤيد قراءة الثاني ﴿ والذين جاهدوا ﴾ أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين ﴿ فِينَا ﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ﴿ سبلنا ﴾ أبو عمرو أي لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً .

وعن الداراني : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا فقد قيل : من عمل بما علم وفق لما لا يعلم .

وقيل : إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو لتقصيرنا فيما نعلم .

وعن فضيل : والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به .

وعن سهل : والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة .

وعن ابن عطاء : جاهدوا في رضانا لنهدينهم الوصول إلى محل الرضوان .

وعن ابن عباس : جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا .

(271/599)

وعن الجنيد : جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا ، أو جاهدوا في طلبنا تحرياً لرضانا لنهدينهم سبل الوصول إلينا .

﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين ﴾ بالنصرة والمعونة في الدنيا وبالثواب والمغفرة في العقبى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 260 . 265 ﴾

(272/599)

وقال البيضاوى :

﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

إلا بالخصلة التي هي أحسن كعارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح ، وقيل هو منسوخ بآية السيف إذ لا مجادلة أشد منه وجوابه أنه آخر الدواء ، وقيل المراد به ذو العهد منهم . ﴿ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم ﴿ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ ﴾ أو بنبذ العهد ومنع الجزية . ﴿ وَقُولُواْ ءَامَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ هو من المجادلة بالتي هي أحسن . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم " ﴿ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الإنزال . ﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ وحياً مصدقاً لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله : ﴿ فالذين ءاتيناهم الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ هم عبد الله بن سلام وأضرابه ، أو من تقدم عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب . ﴿ وَمِنْ هَؤُلاء ﴾ ومن العرب أو أهل مكة أو ممن في عهد الرسول من أهل الكتابين . ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ بالقرآن . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها . ﴿ إِلاَّ

الكافرون ﴾ إلا المتوغلون في الكفر فإن جزمهم به يمنعهم عن التأمل فيما يقيد لهم صدقها لكونها معجزة بالإضافة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كما أشار إليه بقوله :

(273/599)

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْهُ قَبْلِهِ مِن كتاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة أمي لم يعرف بالقراءة والتعلم خارق للعادة ، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي ونفي للتجوز في الإسناد . ﴿ إِذاً لارتاب المبطلون ﴾ أي لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين ، وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وجه واحد من وجوه الإعجاز المكاثرة ، وقيل لارتاب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك على خلاف ما في كتبهم فيكون إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر . ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ بل القرآن .

﴿ ءَايَاتٌ بينات فِى صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إِلاَّ الظالمون ﴾ المتوغلون في الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها حتى لم يعتدوا بها .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى ، وقرأ

نافع وابن عامر والبصريان وحفص "ءايات" . ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ ينزلها كما يشاء لست أملكها فآتيكم بما تقترحونه . ﴿ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات .

(274/599)

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ آية مغنية عما اقترحوه . ﴿ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم آية ثابتة لا تضمحل بخلاف سائر الآيات ، أو يتلى عليهم يعني اليهود بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة . ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ لنعمة عظيمة . ﴿ وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وتذكرة لمن همه الإيمان دون التعنت . وقيل إن أناساً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتب كتب فيها بعض ما يقول اليهود ، " فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم " فنزلت .

﴿ قُلْ كفى بالله بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ بصدقي وقد صدقني بالمعجزات ، أو بتبليغي ما أرسلت به إليكم ونصحي ومقابلتكم إياي بالتكذيب والتعنت . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ فلا يخفى عليه حالي وحالكم . ﴿ والذين ءَامَنُواْ بالباطل ﴾ وهو ما يعبد

من دون الله . ﴿ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ ﴾ منكم . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ بقولهم ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء ﴾ . ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ لكل عذاب أو قوم . ﴿ لَّجَاءَهُمُ العذاب ﴾ عاجلاً . ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ فجأة في الدنيا كوقعة بدر أو الآخرة عند نزول الموت بهم . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه .

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب ، أو هي كالمحيطة بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم ، واللام للعهد على وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على موجب الإحاطة ، أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم .

(275/599)

﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب ﴾ ظرف ﴿ لَمُحِيطَةٌ ﴾ أو مقدرة مثل كان كيت وكيت . ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ من جميع جوانبهم . ﴿ وَيَقُولُ ﴾ الله أو بعض ملائكته بأمره لقراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالنون . ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي

جزاءه .

﴿ ياعبادى الذين ءَامَنُواْ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فاعبدون ﴾ أي إذا لم يتسهل لكم العبادة في بلدة ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتمشى لكم ذلك ، وعنه عليه الصلاة والسلام : " من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام " والفاء جواب شرط محذوف إذ المعنى إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ تناله لا محالة . ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء ومن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له وقرأ أبو بكر بالياء .

﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ لننزلنهم . ﴿ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ علالي ، وقرأ حمزة والكسائي "لنثوينهم" أي لنقيمنهم من الثواء فيكون انتصاب غرفاً لإجرائه مجرى لننزلنهم ، أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف المؤقت بالمبهم . ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ وقرىء "فنعم" والمخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله .

﴿ الذين صَبَرُواْ ﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والمشاق .

﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ولا يتوكلون إلا على الله .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخره ، وإنما تصبح ولا معيشة عندها . ﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله ، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة ، فإنهم لما أمروا بالهجرة قال بعضهم كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت . ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لقولكم هذا . ﴿ العليم ﴾ بضميركم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ المسؤول عنهم أهل مكة . ﴿ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود . ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك .

﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ يحتمل أن يكون الموسع له والمضيق عليه واحداً على أن البسط والقبض على التعاقب وألا يكون على وضع الضمير موضع من يشاء وإبهامه لأن من يشاء مبهم . ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم مصالحهم ومفاسدهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ، ثم إنهم يشركون به بعض

مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك . ﴿ قُلِ الحمدُ لِلَّهِ ﴾ على ما عصمك من مثل هذه الضلالة ، أو على تصديقك وإظهار حجتك . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فيتناقضون حيث يقرون بأنه المبدىء لكل ما عداه ثم إنهم يشركون به الصنم ، وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم .

(277/599)

﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا ﴾ إشارة تحقير وكيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة . ﴿ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ إلا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون متعبين . ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ لهي دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت عليها ، أو هي في ذاتها حياة للمبالغة ، و ﴿ الحيوان ﴾ مصدر حي سمي به ذو الحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واواً وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها ها هنا .

﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ لم يؤثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة سريعة الزوال .

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم أي هم على ما وصفوا به من

الشرك فإذا ركبوا البحر . ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ كائنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فاجؤوا المعاودة إلى الشرك .

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ اللام فيه لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة . ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها ، أو لام الأمر على التهديد ويؤيده قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع "وَلِيَتَمَتَّعُواْ" بالسكون . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ذلك حين يعاقبون .

(278/599)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني أهل مكة . ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ﴾ أي جعلنا بلدهم مصوناً عن النهب والتعدي آمناً أهله عن القتل والسبي . ﴿ وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يختلسون قتلاً وسبياً إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب . ﴿ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ ﴾ أبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله يؤمنون بالصنم أو الشيطان . ﴿ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ ﴾ حيث أشركوا به غيره وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ بأن زعم أن له شريكاً . ﴿ أَوْ كَذَّبَ بالحق لَمَّا جَاءَهُ ﴾ يعني الرسول أو الكتاب ، وفي ﴿ لَّمَّاً ﴾ تسفيه لهم بأن لم يتوافقوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه . ﴿ أَلَّيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ تقرير لثوائهم كقوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا . . . أي ألا يستوجبون الثواء فيها وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب ، أو لاجترائهم أي ألم يعلموا أن ﴿ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ حتى اجترؤوا مثل هذه الجراءة .

﴿ والذين جاهدوا فِينَا ﴾ في حقنا وإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه . ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا ، أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها كقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ وفي الحديث " من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم " ﴿ وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ بالنصر والإِعانة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 325.318 ﴾

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) ﴾

التفسير : هذا توكيد للمثل المذكور وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً هذا على تقدير كون " ما " نافية و " من " زائدة ، ويجوز أن تكون استفهاماً نصباً ب ﴿ يدعون ﴾ أو بمعنى الذي و " من " للتبيين المراد ما يدعون من دونه من شيء فإن الله يعلمه .

(280/599)

وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة . وفيه ايضاً تجهيل لهم حيث عبدوا ما هو أقل من لا شيء وتركوا عبادة القاهر القادر الحكيم . ثم إن الجهلة من قريش كانوا يسخرون من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت ونحوهما فنزلت ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وذلك لأن الأمثال والتشبيهات وسائل إلى المعاني المحتجبة في الأستار كما سبق في أول البقرة ، حيث ضرب المثل بالبعوضة . قال الحكيم : العلم الحدسي يعرفه العاقل ، وأما إذا كان فكرياً دقيقاً فإنه لا يعقله إلا العالم لافتقاره إلى مقدمات سابقة . والمثل مما يفتقر في

إدراك صحته وحسن موقعه إلى أمور سابقة ولاحقة يعرف بها تناسب مورده ومضربه وفائدة إيراده فلا يعقل صحتها إلا العلماء . وحين أمر الخلق بالإيمان وأظهر الحق بالبرهان وقص قصصاً فيها عبر ، وأنذر أهل الكفر بإهلاك من غبر ووصف سبيل أهل الاباطيل بالتمثيل ، قوى قلوب أهل الإيمان بأن كفرهم ينبغي أن لا يورث شكاً في صحة دينكم ، وشكهم يجب أن لا يؤثر في رد يقينكم ، ففي خلق السموات والأرض بالحق بيان ظاهر وبرهان باهر وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر . وإنما قال ههنا ﴿ لآية للمؤمنين ﴾ مع قوله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض . . . ليقولن الله ﴾ وقوله ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ [البقرة : 164] إلى قوله ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة : 164] لأن المؤمن لا يقصر نظره من الخلق على معرفة الخالق فحسب ولكنه يرتقي منه إلى نعوت الكمال والجلال فيعرف أنه خلقهما متقناً محكماً وهو المراد بقوله ﴿ بالحق ﴾ والخلق المتقن المحكم لا يصدر إلا عن العالم بالكليات والجزئيات ، وإلا عن الواجب الواحد الذات والصفات كقوله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] ثم يرتقي من مجموع هذه المقدمات إلى صحة الرسالة وحقيقة المعاد

فيحصل له الإيمان بتمامه من خلق ما خلقه على أحسن نظامة . وإنما وحد الآية ههنا لأنه إشارة إلى التوحيد وهو سبحانه واحد لا شريك له . وفي قصة إبراهيم إشارة إلى النبوة وفي النبيين صلى الله عليه وسلم كثرة . وحيث قوى قلب المؤمنين بالتخصيص المذكور سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب ﴾ لتعلم أن نوحاً ولوطاً وغيرهما بلغوا الرسالة وبالغوا في إقامة الدلالة ، ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ، ولهذا قال ﴿ اتل ﴾ ولم يقل " اتل عليهم " لأن التلاوة بعد اليأس منهم ما كانت إلا لتسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم . أو نقول : إن الكاتب الإلهي قانون كلي فيه شفاء للصدور فيجب تلاوته مرة بعد أخرى ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم إلى يوم النشور .

(282/599)

وأيضاً فيه من العبر والمواعظ ما يهش لها الأسماع وتطمئن إليها القلوب كالمسك يفوح لحظة فلحظة ، وكالروض يستلذه النظر ساعة فساعة . وفي الجمع بين الأمرين التلاوة وأقامة الصلاة معنيان : أحدهما زيادة تسلية النبي صلى الله عليه وسلم كأنه قيل له : إذا تلوت ولم يقبل منك فأقبل على الصلاة لأنك وساطة بين الطرفين ، فإن لم يتصل الطرف الأول وهو من

الخالق إلى المخلوق ، فليتصل الطرف الآخر وهو من المخلوق إلى الخالق . والثاني أن العبادات إما اعتقادية وهي لا تتكرر بل تبقى مستمراً عليها . وإما لسانية ، وإما بدنية خارجية وافضلها الصلاة ، فأمر بتكرار الذكر والصلاة حيازة للفضيلتين ثم علل الأمر بإقامة الصلاة فقال ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ فقال بعض المفسرين : اراد بالصلاة القرآن وفيه النهي عنهما وهو بعيد وقيل : أراد نفس الصلاة وإنما تنهى عنهما ما دام العبد في الصلاة ، وضعف بأنه ليس مدحاً كاملاً لأن غيرها من الأعمال الفاضلة والمباحة قد يكون كذلك كالنوم وغيره . والذي عليه المحققون أن للصلاة لطفاً في ترك المعاصي فكأنها ناهية عنها وذلك إذا كانت الشروط من الخشوع وغيره مرعية . فقد روي عن ابن عباس : " من لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً " . " وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له : إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل . فقال : إن صلاته لتردعه " " وروي أن فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلاة ثم يرتكب الفواحش ، فوصف ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن صلاته ستنهاه ، فلم يلبث أن تاب " وعلى كل حال فالمراعي لأوقات الصلاة لا بد أن يكون أبعد من القبائح . واللفظ لا يقتضي إلا هذا القدر وكيف لا تنهى ونحن نرى أن من لبس ثوباً فاخراً فإنه يتجنب مباشرة القاذورات ، فمن لبس لباس التقوى كيف لا يتجنب الفواحش .

وإيضاً الصلاة توجب القرب من الله تعالى كما قال ﴿ واسجد واقترب ﴾ [العلق : 19] ومقرِّب الملك المجازي يجل منصبه أن يتعاطى الشغال الخسيسة فكيف يكون مقرب الملك الحقيقي ؟ وأيضاً من دخل في خدمة الملك فأعطاه منصباً له مقام خاص مرتفع فإذا دخل وجلس في صف النعال لم يتركه الملك هنالك ، فإذا صار العبد برعاية شروط الصلاة وحقوقها من أصحاب اليمين فكيف يتركه الله الكريم في اصحاب الشمال ؟ وتفسير الفحشاء والمنكر مذكور مراراً ، وقال أهل التحقيق : الفحشاء التعطيل وهو إنكار وجود الصانع ، والمنكر الإشراك به وهو إثبات إله غير الله وذلك أن وجود الواجب الواحد أظهر من الشمس وإنكار الظاهر منكر ظاهر . واعلم أن الصلاة لها هيئة فأولها وقوف بين يدي الله كوقوف العبد بين يدي السلطان ، وآخرها جثو بين يدي الله كما يجثو أهل الإخلاص بين يدي السلطان .

وإذا جثا في الدنيا هكذا لم يجث في الآخرة كما قال ﴿ ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ [مريم : 72] فالمصلي إذا قال " الله " نفى التعطيل وإذا قال " أكبر " نفى الشرك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك ، وإذا قال ﴿ بسم الله ﴾ نفى التعطيل ، وإذا قال ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ نفى الإشراك لأن الرحمن هو المعطي للوجود بالخلق والرحيم هو المفيض للبقاء بالرزق ، وهكذا ﴿ الحمد لله ﴾ خلاف التعطيل ، وقوله ﴿ رب العالمين ﴾ خلاف التشريك وفي قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ نفي التعطيل والإشراك من حيث إفادة التقديم الاختصاص بالعبادة ، وكذا قوله ﴿ وإياك نستعين ﴾ وفي قوله ﴿ اهدنا الصراط ﴾ نفى التعطيل لأن المعطل لا مقصد له . وفي قوله ﴿ المستقيم ﴾ نفى الإشراك لأن المستقيم أقرب الطرق وهو أحد ، والمشرك يزيد في الطريق بتحصيل الوسائط . وعلى هذا إلى آخر الصلاة وهو قوله في التشهد " أشهد أن لا إله إلا الله " نفى التعطيل والإشراك ، فأول الصلاة " الله " وآخرها " الله " . ثم إن الله سبحانه كأنه قال للعبد : أنت إنما وصلت إلى هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد صلى الله عليه وسلم ، فقل بعد ذكري : أشهد أن محمدا رسول الله ، واذكر إحسانه بالصلاة عليه . ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغه سلامي كما هو دأب المسافرين ﴿ ولذكر الله ﴾ أي الصلاة ﴿ أكبر ﴾ من غيرها من الطاعات . وفي تسمية الصلاة بالذكر إشارة إلى أن شرف الصلاة بالذكر . وجوز في الكشاف أن يراد ولذكر الله عند الفحشاء

والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة . وعن ابن عباس : ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بالطاعة . ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ من الأعمال فيثيبكم أو يعاقبكم على حسب ذلك .

(285/599)

وحين بين طريقة إرشاد المسلمين ونفع من انتفع واليأس ممن امتنع ، أراد ان يبين طريقة إرشاد أهل الكتاب وهي مجادلتهم بالخصلة التي هي أحسن ، يعني مقابلة الخشونة باللين والغضب بالحلم والعجلة بالتأني . قال بعض المفسرين : أراد لا تجادلهم بالسيف وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا فنبذوا الذمة أو منعوا الجزية . وقيل : إلاّ الذين اشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة وقيل : إلا الذين آذوا رسول الله . والتحقيق أن أكثر أهل الكتاب جاؤا بكل حسن إلا الاعتراف بمحمد صلى الله عليه وسلم فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والمبدأ والمعاد ، فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولاً بالأحسن ، ولا تستهجن آراؤهم ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم بل يقال لهم ﴿ آمنا بالذي أنزل إلينا ﴾ إلى آخر الاية .

(286/599)

وعن النبي صلى الله عليه وسلم " ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان باطلاً لم تصدقوهم ، وإن كان حقاً لم تكذبوهم " ثم ذكر دليلاً قياسياً فقال ﴿ وكذلك ﴾ يعني كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك وقال جار الله : هو تحقيق لقوله ﴿ آمنا بالذي أنزل إلينا ﴾ اي ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية . ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم عبد الله بن سلام وأضرابه ﴿ ومن هؤلاء ﴾ اي من اهل مكة أو الأولون هم الأقدمون من أهل الكتاب ، والآخرون هم المعاصرون منهم للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل : الأولون هم الأنبياء لأن كلهم آمنوا بكلهم ومن هؤلاء هم أهل الكتاب ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ مع وضوحها إلا المصرون على الكفر المتوغلون فيه نحو كعب الأشرف وأصحابه . واعلم أن المجادل إذا ذكر مسألة خلافية كقوله : الزكاة تجب في مال الصغير . فإذا قيل له : لم ؟ قال : كما تجب النفقة في ماله ولا يذكر الجامع بينهما . فإن فهم الجامع من نفسه فذاك ، وإلا قيل له : لأن كليهما مال فضل عن الحاجة . فالله سبحانه ذكر أولاً التمسك بقوله ﴿ وكذلك أنزلنا ﴾ ثم ذكر الجامع بقوله ﴿ وما كنت تتلو ﴾ الآية . وفي قوله ﴿ بيمينك ﴾ زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتباً . ومعنى ﴿ إذا لارتاب ﴾ لو كان شيء من ذلك أي من التلاوة والخط لارتاب ﴿ المبطلون ﴾ من أهل الكتاب ، وارتاب الذين من شأنهم الركون إلى الأباطيل ، لأن النبي إذا

كان قارئاً كاتباً أمكن أن يسبق إلى الوهم أن الكلام كلامه لا كلام الله ، وإذا كان أمياً فلا مجال لهذا الوهم . أو المراد أن سائر الأنبياء لم يكونوا أميين ووجب الإيمان بهم لمكان معجزتهم فهبوا أنه قارئ كاتب اليس صاحب آيات ومعجزات فإذا هم مبطلون على كل حال . ثم أكد إزالة ريبهم بقوله ﴿ بل هو ﴾ يعني القرآن ﴿ آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ وهو الحفاظ والقراء وسائر الكتب السماوية ،

(287/599)

ما كانت تقرأ إلا من القراطيس ولهذا جاء في صفة هذه الأمة " صدورهم أناجيلهم " ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ الباهرة النيرة إلا المتوغلون في الظلم . سماهم أولاً كافرين لأجل مجرد الجحود ، ثم بعد بيان المعجزة سماهم ظالين لأن الكفر إذا انضم معه الظلم كان أشنع . ويجوز أن يراد بالظلم الشرك كأنهم بغولهم في الجحود ألحقوا بأهل الشرك حكماً أو حقيقة . ولما بين الدليل من جانب النبي صلى الله عليه وسلم ذكر شبهتهم وهي الفرق بين المقيس والمقيس عليه ، وذلك أن موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئاً منها فأرشد الله نبيه إلى الجواب وهو أن يقول ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ ووجهها أنه ليس من شرط الرسالة إظهار المعجزة وإنما المعجزة بعد التوقف في الرسالة ،

ولهذا علم وجود رسل كشيث وادريس وشعيب ، ولم يعلم لهم معجزة وكان في بني إسرائيل أنبياء لم تعرف نبوتهم إلا بقول موسى أو غيره ، فليس على النبي إلا النذارة .

(288/599)

وأما إنزال الآية فإلى رحمة الله إذا شاء تخليص القوم من تصديق المتنبئ وتكذيب النبي . ثم قال ﴿ أولم يكفهم ﴾ الآية . والمعنى هبوا أن إنزال الآية شرط أليس القرآن المتلو الذي أخرس شقاشق فصائحهم كافياً في بيان الإعجاز ؟ ﴿ إن في ذلك ﴾ المتلو على وجه الأرضين ﴿ لرحمة ﴾ من الله على الخلق وإلا اشتبه عليهم النبي بالمتنبئ ﴿ وذكرى ﴾ ليتعظ بها الناس ما بقي الزمان . وإنما كانت هذه الرحمة من الله على الخلق والتذكرة مختصة بالمؤمنين ، لأن المعجزة للكافرين سبب لمزيد الإنكار المستلزم لإلزام الحجة والخلود في النار ، ثم ختم الدلائل بأن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بكلام منصف وهو قوله ﴿ كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ وقال في آخر سورة الرعد ﴿ قل كفى بالله شيهداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الآية : 43] لأن الكلام هناك مع المشركين فاستشهد عليهم بأهل الكتاب أيضاً وأما هنا فالكلام مع أهل الكتاب فاقتصر على شهادة الله ، ثم بين كون شهادة الله كافية بقوله ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ ثم هددهم بقوله ﴿

والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله ﴾ وهما متلازمان لأن الإيمان بما سوى الله وهو الباطل الهالك الزائل الزاهق كفر بالله وجحود بحقه . ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ لا يستحق لهذا الاسم في الحقيقة غيرهم إذ لا غبن افحش من اشتراء الباطل بالحق والكفر بالإيمان وإضاعة العمر في ما عبادة مالا ينفعهم بل يضرهم قيل : إن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود ، فلما نظر إليها ألقاها وقال : كفى بها حماقة قوم ان يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم فنزلت ﴿ أولم يكفهم ﴾ الآية . ويروى أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا : يا محمد من يشهد لك بأنك رسو الله ؟ فنزلت ﴿ قل كفى ﴾ الآية . فعلى هذا فالآية نازلة في المشركين ، وعلى ا مر فهل يتناول أهل الكتاب ؟ قالوا : نعم ، لأنه صح عندهم

(289/599)

معجزة محمد صلى الله عليه وسلم وقطعوا بأنها ليست من عند الله بل من تلقاء محمد صلى الله عليه وسلم فيلزمهم أن يقولوا : إن محمداً هو الله فيكون إيماناً بالباطل وكفراً بالله . قلت : ولعل وجه التناول هو أنهم آمنوا بالمحرف من التوراة وعبدوا العجل والله أعلم . ثم إن النضر بن الحرث وغيره من كفار قريش كانوا يستعجلون بالعذاب كما مر

استهزاء منهم وتكذيباً فنزلت ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى ﴾ هو الموت أو يوم بدر أو ما كتب في اللوح أنه لا يعذب هذه الأمة عذاب الاستئصال إلى يوم القيامة . وقوله ﴿ وهم لايشعرون ﴾ تأكيد للبغتة ، أو هو كلام مستقل أي إنهم لا يشعرون هذا الأمر ويظنون أن العذاب لا يأتيهم اصلاً .

(290/599)

ثم كرر قوله ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ تعجباً منهم وتعجيباً ، فإن من توعد بأمر يسير كلطمة أو لكمة يحتمل أن يظهر من نفسه الجلادة ويقول : هات ما عندك . وأما الذي توعد بإحراق ونحوه فكيف يتجلد ويستعجل خصوصاً إذا كان الموعد لا يخلف الميعاد ويقدر على كل ما اراد . وقوله ﴿ لمحيطة ﴾ بمعنى الاستقبال أي ستحبط بهم يوم كذا ويجوز أن يكون بمعنى الحال حقيقة لأن المعاصي التي توجبها محيطة بهم في الدنيا ، أو مجازاً لأن جهنم مآلهم ومرجعهم فكأنها الساعة محيطة بهم . والظرف على هذين الوجهين منصوب بمضمر اي ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ كان كيت وكيت . وإنما خص الغشيان بالفوق والتحت دون باقي الجهات ، لأن نار جهنم بذلك تتميز عن نار الدنيا لأن نار الدنيا ، لا تنزل من فوق ولا تؤثر شعلتها من تحت بل تنطفئ الشعلة تحت القدم ، وإنما لم يقل " ومن تحتهم " كما قال

﴿ من فوقهم ﴾ لأن نزول النار من فوق عجيب سواء كان من سمت الراس أو من موضع آخر . وأما الاشتعال من تحت فليس بعجيب إلا حيث يحاذي الرجل . ويجوز أن يكون زيادة الأرجل تصويراً لوقوفهم في النار أو لجثوهم فيها . وقوله ﴿ ذوقوا ما كنتم ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملونه أمر إهانة ، وحين ذكر حال الكفرة من أهل الكتاب والمشركين وجمعهم في الإنذار وجعلهم من اهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المؤمنين ومنعهم من عبادة الله فقال ﴿ يا عبادي ﴾ فإن كانت الإضافة للتشريف كقوله ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ [الدهر : 6] فقوله ﴿ الذين آمنوا ﴾ صفة موضحة . وإن كانت للتخصيص فهي صفة مميزة .

(291/599)

ومعنى الآية أن المؤمن إذا لم يتسهل له عبادة الله في بلد على وجه الإخلاص فليهاجر عنه إلى بلد يكون فيه أفرغ بالاً أو ارفع حالاً وأقل عوارض نفسانية وأكمل دواعي روحانية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن مان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد " واعلم أني عند الوصول إلى تفسير هذه السورة عنَّ لي سفر من غير اختيار كلي فأقول متضرعاً إلى الله الكريم ومستمداً من

إعجاز الفرقان العظيم : اللهم إن كنت تعلم أن هذا السفر مشوب بشيء من رضاك فإن كل الرضا لا يمكنني أن أراعيه فاجعله سبباً لنجح المقاصد وحصول المآرب والاشتمال على الفوائد الدنيوية والدينية والخلاص من شماتة الأعداء الدنية حتى أفرغ لنشر العلوم الشرعية إنك على ما تشاء قدير وبالإسعاف والإجابة جدير .

(292/599)

والفاء في قوله ﴿ فإياي ﴾ للدلالة على أنه جواب الشرط كأنه قال : إذا كان لا مانع من عبادتي ﴿ فاعبدوني ﴾ ثم أريد معنى الاختصاص والإخلاص فقدم المفعول على شريطة التفسير ، وجيء بالفاء الثانية الدالة على ترتيب المقتضى على المقتضي كما يقال : هذا عالم فأكرموه كما مر في قوله ﴿ وإياي فارهبون ﴾ [البقرة : 40] فصار حاصل المعنى : إن لم تخلصوا العبادة لي في ارض فاخلصوها لي في غيرها . والفائدة في الأمر بالعبادة بعد قوله ﴿ يا عبادي ﴾ الدال على العبودية إما المداومة أي يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل ، أو الإخلاص في العبادة . ويجوز أن يقال : العبودية غير العبادة ، فكم من عبد لا يطيع سيده ، ثم لما أمر المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان والخلان فقال ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أي إن الذي تكرهون لا بد من

وقوعه فالأولى أن يكون ذلك في سبيل الله ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾ فنثيبكم على ذلك ، وفيه أن كل نفس ذائقة الموت اضطراراً فمن اراد أن لا يموت ابداً فليمت اختياراً فإن أولياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار . ثم بين أن للمؤمنين الجنان في مقابلة ما للكافرين من النيران ، وأن في الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار في مقابلة ما يحيط بالكافرين من النار . وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله ﴿ نعم أجر العالمين ﴾ بإزاء ما بين جزاء عمل الكفار بقوله ﴿ ذوقوا ما كنتم تعلمون ﴾ وقوله ﴿ لنبوئنهم ﴾ أَلننزلنهم ﴿ من الجنة ﴾ عوالي ومن قرأ بالثاء المثلثة فمن الثواء يقال : ثوى في المنزل لازماً وأثوى غيره متعدياً إلى واحد . فانتصاب ﴿ غرفاً ﴾ إمات بنزع الخافض ، وإما لتضمين الإِثواء معنى التبوئة والإِنزال ، وإما التشبيه الظرف المؤقت بالمبهم . ثم مدح ﴿ الذين صبروا ﴾ على المكاره في الحال . ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ فيما يحتاجون إليه في الاستقبال . وكل واحد من الصبر والتوكل يحتاج إليه المسافر والمقيم ، فكما أن

المهاجر يصبر على فراق الأوطان ويتوكل في سفره على الرحمن ، فالمتوطن يصبر على الأذيات والمحن ويتوكل في أموره على فضل ذي المنن . والصبر والتوكل صفتان لا تحصلان

إلا مع سعة العلم بالله وبما سوى الله ، فمن علم أنه باق لا يصبر عنه ولا يتوكل في الأمور إلا عليه ، ومن علم أن ما سواه فإن ها ن عليه الصبر وعلم أنه لا يصلح للاعتماد عليه . ثم ذكر ما يعين على الصبر والتوكل وهو النظر في حال الدواب . وقال المفسرون : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من اسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فكان الرجل منهم يقول : كيف اقدم بلدة ليست لي فيها معيشة فنزلت ﴿ وكاين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ عن الحسن اي لا تدخره وقال غيره : لا تطيق حمل الرزق ﴿ الله يرزقها ﴾ بإيجاد غذائها وهدايتها إليه .

(294/599)

ثم بتشبث ذلك الغذاء بالمغتذي بتوسط قوى أودعها فيها وهيأها لذلك . ﴿ وإياكم ﴾ بمثل ما قلنا وبزيادة الاهتداء إلى وجوه المكاسب والمعايش وترتيب الملبس والمسكن وتهيئة الأقوات وادخار الأموال وتملكها اختياراً وقهراً ، ومنه يعلم أن الاشتغال بترتيب بعض الوسائط وتدبيرها لا ينافي التوكل فقد يكون الزارع الحاصد متوكلاً والراكع الساجد غير متوكل . عن ابن عيينة : ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة وللعقعق مخابئ إلا أنه ينساها . وحكي أن البلبل يحتكر في حضنيه أي يجمع . وإذا كان أكثر الحيوان على

صورة المتوكلين فالإنسان العاقل العارف بالمبدأ والمعاد ، العالم بوجوه المكاسب الذي يأتيه الرزق من جهات الإرث والعمارة والهدية ونحوها ، كيف يظاهر على الحطام الزائل أشد حرص ؟ ! ﴿ وهو السميع ﴾ لدعاء طلبة الرزق ﴿ العليم ﴾ بطوياتهم ومقادير حاجاتهم . ثم عجب أهل العجب من حال المشركين من أهل مكة وغيرهم لم يعبدوا الله مخلصين مع علمهم بأنه خالقهم ورازقهم ، فكيف يصرفون عن توحيد الله ؟ فإن من علمت عظمته وجبت خدمته ، ولا عظمة فوق عظمة خالق الذرات وإليه اشار بخلق الأرض والسموات موجد الصفات وإليه الإشارة بتسخير الشمس والقمر ولا حقارة فوق حقارة الجماد لأنه دون النبات وهو دون الحيوان وهو دون الإنسان وهو دون سكان السموات ، فكيف يتركون عبادة أشرف الموجودات ويشتغلون بعبادة أخس المخلوقات ، وحين ذكر الخلق أتبعه ذكر الرزق وحكمة البسط والقبض في ذلك الباب . ومعنى ﴿ يقدر ﴾ يضيق فالضمير في ﴿ له ﴾ إما للشخص المعين المبسوط له والمراد أن تعاقب الأمرين عليه بمشيئة الله وإما لمبهم غير معين كأن الضمير وضع موضع من يشاء . وفي قوله ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ إشارة إلى أنه عالم بمقادير الحاجات فإذا علم احتياج العبد إلى الرزق أوصله إليه من غير تأخير إن شاء .

ثم احتج على المشركين بوجه آخر وهو اعترافهم بأن إِحياء الأرض الميتة بواسطة تنزيل ماء السماء هو من الله . ثم قال ﴿ قل الحمد لله ﴾ وهو كلام مستقل على سبيل الاعتراض أو هو متصل بما قبله كأنه استحمد رسوله على البراءة من التناقض والتهافت خلاف أهل الشرك المعترفين بأن النعمة من الله ثم يتركون عبادته إلى عبادة الصنم الذي لا يملك نفعاً ولا ضراً . وفيه أن العالم إذا لم يعمل بعلمه انخرط في سلك من لا عقل له ولهذا عقبه بقوله ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ وقال جار الله : اراد لا يعقلون ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد ، أو لا يعقلون ما تريد بقولك : " الحمد لله " ولا يفطنون لم حمدت الله عند مقالتهم . واعلم أن المشركين معترفون بأن الخلق والرزق من الله ، ولكن حب الدنيا وزينتها حملتهم على موافقة أهل الشرك والمداومة على الدين الباطل ، فصغر الله تعالى أمر الدنيا وعظم أمر الاخرة ليعلم أن رعاية جانب الآخرة أهم من رعاية صلاح الدنيا .

(296/599)

قال أهل العلم : الإقبال على الباطل لعب ، والإعراض عن الحق لهو ، والمشتغل بالدنيا كذلك . ويمكن أن يقال : المشتغل بها لا على وجه الاستغراق بل على وجه يفرغ لبعض أمور الآخرة لاعب ، والمشغول بها بحيث ينسى الآخرة بالكلية لاهٍ وحين كان الكلام في الأنعام بعد ذكر الآخرة وما يجري فيها من الحيرة والحسرة قدم اللعب هناك لأن الاستغراق الكلي بالنسبة إلى أهل الآخرة أبعد فأخر الأبعد . ولما كان المذكور ههنا من قبيل الدنيا ولهذا أشار إليها بقوله ﴿ وما هذه الحياة الدينا ﴾ وقال في الأنعام ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ [الآية : 32] وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها بالكلية ، فلا جرم قدم اللهو . ويحتمل أن يقال : إنه تعالى قدم اللعب على اللهو في موضعين من " الأنعام " وكذلك في القتال ويقال لها " سورة محمد " صلى الله عليه وسلم وفي " الحديد " . وقدم اللهو على اللعب في " الأعراف " و " العنكبوت " . فاللعب مقدم في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا ، واللهو زمانه الشباب ، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب .

(297/599)

" تنبيه " ما ذكر في الحديد ﴿ اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ﴾ [الحديد : 20] كلعب الصبيان ﴿ ولهو ﴾ [الحديد : 20] كلهو الشبان و ﴿ زينة ﴾ [الحديد : 20] كزينة

السنوان ﴿ وتفاخر ﴾ [الحديد : 20] كتفاخر الإخوان ﴿ وتكاثر ﴾ [الآية : 20] كتكاثر السلطان وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ بما بدأ به الإنسان وانتهى من الجانبين . وأما هذه السورة فأراد فيها ذكر سرعة زمان الآخرة ، فبدأ بذكر ما هو أكثر ليكون على المقصود اقرب . ثم إن الحال في سورة الأنعام لما كانت حال إظهار الحسرة لم يحتج المكلف إلى وازع قوي فاقتصر على قوله ﴿ وللدار الآخرة خير ﴾ [الأنعام : 32] ولما كان ههنا حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى وازع أقوى فقال ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ أي لا حياة إلا حياة الآخرة وليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة بلا موت فكأنها في ذاتها حياة . ولا يخفى ما في التركيب من أنواع المبالغة من جهة " إن " ومن جهة صيغة الفصل ، ولام التأكيد ، وبناء الفعلان بتحريك العين وهو مصدر " حيي " بياءين لفقد ما عينه ياء ولامه واو . ولو كانا واوين لقيل : حوى مثل قوى وقياسه " حييان " بياءين قلبت الثانية واواً على منوال حيوة في اسم رجل . ولأن المبالغة ههنا أزيد مما في الأنعام قال ههنا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ وهنالك ﴿ أفلا تعقلون ﴾ [الأنعام : 32] لأن المعلوم أكثر مقمدة من المعقول وقد مر في السورة ثم أشار بقوله ﴿ فإذا ركبوا في الفلك ﴾ إلى أن المانع من التوحيد والإخلاص هو الحياة الدنيا لأنهم إذا انقطع رجاؤهم رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد والإخلاص ، فإذا نجاهم إلى البر عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا لأجلها .

ثم بين أن نعمة الأمن يجب أن تقابل بالشكر لا بالكفر فقال ﴿ أولم يروا ﴾ الآية . وقد مر مثله في " القصص " . ثم ذكر أن الذين سمعوا البيانات المذكورة ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم لأن من وضع شيئاً في غير موضعه فهو ظالم . فمن وضع شيئاً في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم ، وإنهم جعلوا الله شريكاً مع عدم إمكان الشريك له ، فلا أظلم منهم . وأيضاً من كذب صادقاً يجوز عليه الكذب كان ظالماً ، فمن كذب صادقاً لا يجوز عليه الكذب يكون حاله وإنهم كذبوا النبي والقرآن ؟ وفي قوله ﴿ لما جاءه ﴾ إشارة إلى أنهم لم يتلعثموا في التكذيب وقت أن سمعوه ولم يستعملوا التدبر التفكر فيما يجب أن يستعمل فيه التأني والتثبت ، وهذا أيضاً نوع من الظلم بل ظلم مضموم إلى ظلم . وفي قوله ﴿ اليس ﴾ معنيان بعد كون الاستفهام للتقرير . فإن أريد نفي الحال فمعناه ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا على مثل هذه الجرأة ؟ وإن اريد نفي الاستقبال فالمراد ألا يثوون في جهنم وقد افتروا على الله وكذبوا بالحق ؟ وقيل : هو من الكلام المنصف لأنه قدم مقدمة هي أنه لا أظلم من المفتري وهو المتنبئ ومن الذي كذب النبي . ثم ذكر أن جهنم مقام الكافر سواء كان هو المتنبئ أو المكذب للنبي فهو كقوله ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في

ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] ثم ختم السورة بآية جامعة فيها تسلية قلوب المؤمنين والمراد أن من جاهد النفس أو الشيطان الجني والإنسي ﴿ فينا ﴾ أي في حقنا ومن أجل رضانا خالصاً ﴿ لنهدينهم ﴾ سبيل الجنة أو سبيل الخير بإعطاء ميزد اللطاف والتوفيق . وقيل : والذين جاهدوا فيما علموا ولم يقصروا في العمل به لنهدينهم إلى ما لم يعلموا وهو قريب من قول الحكيم : إن النظر في المقدمات يعد النفس لقبول الفيض وهو النتيجة من واهب الصور الجسمانية والعقلية . وقوله ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ أي بالنصر والإعانة إشارة إلى مرتبة أعلى من الاستدلال وهو الذي

يسمى العلم اللدني ، فكأنه تعالى أشار في خاتمة السورة إلى الفرق الثلاث . فأشار إلى الناقصين بقوله ﴿ ومن أظلم ﴾ وذلك أنهم صرفوا الاستعداد في غير ما خلق لأجله ، وإلى المتوسطين الذين يحصلون العلم بالكد بقوله ﴿ والذين جاهدوا ﴾ وإلى أصحاب الحدس وصفاء الضمير بقوله ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 388 . 397 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

ولما بين تعالى طريقة إرشاد المشركين بين طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب ﴾

أي : اليهود والنصارى ظناً منكم أنّ الجدال ينفع أو يزيد في اليقين أو يردّ واحداً عن ضلال مبين ﴿ إلا بالتي ﴾ أي : بالمجادلة التي ﴿ هي أحسن ﴾ كمعارضة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم والدعاء إلى الله تعالى بآياته والتنبيه على حججه كما قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ (المؤمنون ،) ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ بأن حاربوا وأبوا أن يقروا بالجزية فجادلوهم بالسيف إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية ، وقيل : إلا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة ، وعن قتادة : الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ (التوبة :)

(301/599)

ولا مجادلة أشدّ من السيف ، ولما بين تعالى عن موجب الخلاف أمر بالاستعطاف بقوله تعالى : ﴿ وقولوا ﴾ أي : لمن قبل الإقرار بالجزية إذا أخبروكم بشيء مما في كتبهم ﴿ آمنا بالذي أنزل إلينا ﴾ أي : من هذا الكتاب المعجز ﴿ وأنزل إليكم ﴾ من كتبكم أي : لأنه في أصله حق وإن كان قد نسخ ، منه ما نسخ وإن حدثوكم بشيء منه وليس عندكم ما يصدقه ولا ما يكذبه فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، لما روى أبو داوود أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم" أي : فإن هذا أدعى إلى الإنصاف وأنفى للخلاف ، ولما لم يكن هذا جامعاً للفريقين أتبعه بما يجمعه بقوله تعالى : ﴿ وإلهنا وإلهكم واحد ﴾ أي : لا إله لنا غيره ، وإن ادّعى بعضكم عزيراً والمسيح ﴿ ونحن له ﴾ خاصة ﴿ مسلمون ﴾ أي : خاضعون منقادون أتم انقياد فيما يأمرنا به بعد الأصول من الفروع سواء كانت موافقة لفروعكم كالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس ، أو ناسخة كالتوجه إلى الكعبة ولا نتخذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله لنأخذ ما يشرعونه لنا مخالفاً لكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

(302/599)

﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل ذلك الإنزال الذي أنزلناه إلى أنبيائهم من التوراة وغيرها ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ أي : القرآن مصدّقاً لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله تعالى ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي : التوراة كعبد الله بن سلام وغيره ﴿ يؤمنون به ﴾ أي : بالقرآن ﴿ ومن هؤلاء ﴾ أي : أهل مكة أو ممن في عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتابين ﴿ من يؤمن به ﴾ وهم مؤمنو أهل مكة وأهل الكتابين ﴿ وما يجحد ﴾ أي : ينكر ، قال قتادة : والجحود : إنما يكون بعد المعرفة ﴿ بآياتنا ﴾ أي : التي جاوزت أقصى غايات العظمة حتى إنها استحقت الإضافة إلينا ﴿ إلا الكافرون ﴾ أي : اليهود ظهر لهم أنّ القرآن حق والجائي به محق وجحدوا ذلك وهذا تنفير لهم عما هم عليه يعني أنكم آمنتم بكل شيء وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة إلا هذه المسألة الواحدة وبإنكارها تلحقون بهم وتعطلون مزاياكم فإنّ الجاحد بآية يصير كافراً .

﴿ وما ﴾ أي : وأنزلنا إليك الكتاب والحال أنك ما ﴿ كنت تتلو ﴾ أي : تقرأ أصلاً ﴿ من قبله ﴾ أي : هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك ، وأكد استغراق الكتب بقوله تعالى : ﴿ من كتاب ﴾ أصلاً ﴿ ولا تخطه ﴾ أي : تجدّد وتلازم خطه وصور الخط ، وأكده بقوله : ﴿ بيمينك ﴾ فإن قيل ما فائدة قوله بيمينك ؟

أجيب : بأنه ذكر اليمين التي هي أقوى الجارحتين وهي التي يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتباً ، ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات رأيت الأمير يخط هذا الكتاب

بيمينه كان أشّذ لإثباتك أنه تولى كتبه فكذلك النفي ، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا تحدث الريبة في أمره لعاقل إلا بالمواظبة القوية التي ينشأ عنها ملكه فكيف إذا لم يحصل أصل الفعل ولذلك قال تعالى : ﴿ إذاً ﴾ أي : لو كنت ممن يخط ويقرأ ﴿ لارتاب ﴾ أي : شك ﴿ المبطلون ﴾ أي : اليهود فيك وقالوا : الذي في التوراة أنه أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب ، أو لارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأوّلين وكتبه بيده .

(303/599)

فإن قيل : لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أمياً وقالوا ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين ولكان أهل مكة أيضاً على حق في قولهم لعله تعلمه أو كتبه بيده فإنه رجل كاتب قارئ ؟

أجيب : بأنه سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمي بعيد من الريب فكأنه قال : هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمياً لارتابوا أشدّ الريب فحينئذٍ ليس بقارئ ولا كاتب فلا وجه لارتيابهم ، وأيضاً سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا أميين ووجب الإيمان بهم وما جاؤوا به لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات ، فهب أنه قارئ كاتب فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى على أنّ المنزل إليهم معجز وهذا

المنزل معجز فإذاً هم مبطلون حيث لم يؤمنوا وهو أمي ومبطلون حيث لم يؤمنوا وهو غير أمي ، ولما كان التقدير ولكنه لا ريب لهم أصلاً ولا شبهة لقولهم أنه باطل قال تعالى: ﴿ بل هو ﴾ أي : القرآن الذي جئت به وارتابوا فيه فكانوا مبطلين لذلك على كل تقدير ﴿ آيات ﴾ أي : دلالات ﴿ بينات ﴾ أي : واضحات جدّاً في الدلالة على صدقك ﴿ في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أي : المؤمنين يحفظونه فلا يقدر أحد على تحريف شيء منه لبيان الحق لديهم ، وفي ذلك إشارة إلى أن خفاءه عن غيرهم ، وقال ابن عباس وقتادة : بل هو يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدونه بنعته ووصفه في كتبهم ﴿ وما يجحد ﴾ وكان الأصل به ولكنه أشار إلى عظمته بقوله تعالى : ﴿ بآياتنا ﴾ أي : ينكرها بعد المعرفة على ما لها من العظمة بإضافتها إلينا والبيان الذي لا يجهله أحد ﴿ إلا الظالمون ﴾ أي : المتوغلون في الظلم المكابرون .

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى ههنا ﴿ إلا الظالمون ﴾ ومن قبل قال ﴿ إلا الكافرون ﴾ ؟

(304/599)

أجيب : بأن ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ثم إنّ العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً ولكن الحكمة هنا أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم إن لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد صلى الله عليه وسلم فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هناك أبلغ فمنعهم عن ذلك استنكافهم عن الكفر ، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم : إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون في أوّل الأمر بالمشركين حكماً وتلتحقون عند جحد هذه الآيات بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين أي : مشركين كما قال تعالى : ﴿ إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾ (لقمان :)

فهذا اللفظ ههنا أبلغ ، ولما كان التقدير جحدوها بما لهم من الرسوخ في الظلم ولم يعدوها آيات فضلاً عن كونها بينات عطف عليه قوله تعالى:

﴿ وقالوا ﴾ موهمين مكراً إظهاراً للصفة بأدنى ما يدل على الصدق ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ﴿ أنزل عليه ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وسلم على أيّ وجه كان من وجوه الإنزال ﴿ آية ﴾ تكون بحيث تدل قطعاً على صدق الآتي بها ﴿ من ربه ﴾ أي : الذي يدعي إحسانه إليه كما أنزل على الأنبياء قبله كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام ليستدل بها على صدق مقاله وصحة ما يدعيه من حاله ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص آيات بالجمع لأنّ بعده ﴿ قل إنما الآيات ﴾ بالجمع إجماعاً ، والباقون آية

بالإفراد لأنّ غالب ما جاء في القرآن كذلك ، ولما كان هذا إنكاراً للشمس بعد شروقها ومكابرة فيما تحدى به من المعجزات بعد حقوقها أشار إليه بقوله تعالى:

(305/599)

﴿ قل ﴾ أي : لهم إرخاء للعنان حتى كأنك ما أتيتهم بشيء ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ينزل أيتها شاء فلا يقدر على إنزال شيء منها غيره فإنما الإله هو لا سواه ولو شاء أن ينزل ما يقترحونه لفعل ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي : فليس من شأني إلا الإنذار وإبانته بما أعطيته من الآيات وليس لي أن أقترح عليه الآيات فأقول أنزل علي آية كذا دون آية كذا على أنّ المقصود من الآيات الدلالة على الصدق وهي كلها في حكم آية واحدة في ذلك ، ولم يذكر البشارة لأنه ليس من أسلوبها وقوله تعالى:

﴿ أو لم يكفهم ﴾ جواب لقولهم لولا أنزل عليه آيات من ربه أي : إن كانوا طائعين للحق غير متيقنين آية مغنية عن كل آية ﴿ إنا أنزلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ عليك الكتاب ﴾ أي : القرآن الجامع لسعادة الدارين بحيث صار خلقاً لك ﴿ يتلى عليهم ﴾ أي : تتجدّد متابعة قراءته عليهم شيئاً بعد شيء في كل مكان وفي كل زمان من كل مقال مصدقاً لما في الكتب القديمة من نعتك وغيره من الآيات الدالة على صدقك فأعظم به آية باقية لا تزول ولا

تضمحل إذ كل آية سواه منقضية ماضية وتكون في مكان دون مكان ، فالقرآن أتم من كل معجزة لوجوه:

الأوّل : أنّ تلك المعجزات وجدت وما دامت فإن قلب العصا ثعبان وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر فلو أنكره واحد لم يمكن إثباتها معه بدون الكتاب ، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فيقال أئت بآية من مثله .

(306/599)

الثاني : أنّ قلب ، العصا ثعباناً كان في آن واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، وههنا لطيفة : وهي أنّ آيات نبينا صلى الله عليه وسلم كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأنّ من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض لأنّ الخسوف إذا وقع عمّ وذلك لأنّ نبوّته كانت عامّة لا تختص بقطر دون قطر ، وغاض بحر ساوة في قطر وسقط إيوان كسرى في قطر ، وانهدمت الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلاماً بأنه يكون أمراً عامّا ، الثالث : أنّ غير هذه المعجزة يقول الكافر المعاند هذا سحر وعمل يد والقرآن لا يمكن هذا القول فيه ، وقال أبو العباس المرسي : خشع بعض الصحابة من سماع بعض اليهود يقرأ التوراة فعوتبوا إذ تخشعوا من غير القرآن وهم إنما

تخشعوا من التوراة وهي كلام الله تعالى فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهي والغناء ، ولما كان هذا القرآن أعظم من كل آية يقترحونها قال تعالى : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : إنزال الكتاب على هذا الوجه البعيد المنال البديع المثال ﴿ لرحمة ﴾ أي : نعمة عظيمة في كل لحظة وتطهيراً لخبث النفوس في كل لمحة ﴿ وذكرى ﴾ أي : عظيمة مستمرّاً تذكرها ، ولما عمّ بالقول خص من حيث النفع فقال ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم المنتفعون بذلك ، ولما كان من المعلوم أنهم يقولون : نحن لا نصدق أنّ هذا الكتاب من عند الله فضلاً عن أن نكتفي به قال تعالى:

(307/599)

﴿ قل ﴾ أي : جواباً لما قد يقولونه من نحو هذا ﴿ كفى بالله ﴾ أي : الحائز لجميع العظمة وسائر الكمالات ﴿ بيني وبينكم شهيداً ﴾ أني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ونصحتكم وأنذرتكم وأنهم قابلوني بالجحد والتكذيب وقد صدقني بالمعجزات ، وروي أنّ كعب بن الأشرف وغيره قالوا يا محمد من يشهد لك أنك رسول الله فنزلت ، ثم وصف الشهيد وعلل كفايته بقوله : ﴿ يعلم ما في السموات ﴾ أي : كلها ﴿ والأرض ﴾ أي : كذلك لا يخفى عليه شيء من ذلك فهو عليم بما تنسبونه إليه من التقوّل عليه وبما أنسبه أنا

إليه من هذا القرآن الذي يشهد لي به عجزكم عنه فهو شاهدي ، والله في الحقيقة هو الشاهد لي فيه بالثناء عليّ والشهادة لي بالصدق لأنه قد ثبت بالعجز عنه أنه كلامه .

ولما بين تعالى الطريقين في إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكامل الشامل لهما والإنكار العامّ فقال : ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ أي : وهو ما يعبد من دون الله ﴿ وكفروا بالله ﴾ أي : الذي يجب الإيمان به والشكر له لأنّ له الكمال كله وكل ما سواه هالك ليس له من ذاته إلا العدم ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ هم الخاسرون ﴾ أي : العريقون في الخسارة فإنهم خسروا أنفسهم أبد الآبدين ، فإن قيل : قوله ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ يقتضي الحصر في من آمن بالباطل وكفر بالله فمن يأتي بأحدهما دون الآخر لا يكون كذلك ؟

أجيب : بأنه يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتياً بالآخر لأنّ المؤمن بما سوى الله تعالى مشرك لأنه جعل غير الله مثله وغير الله عاجز ممكن باطل فيكون الله تعالى كذلك ومن كفر بالله تعالى وأنكره فيكون قائلاً بأنّ العالم واجب الوجود إله فيكون قائلاً بأنّ غير الله إله فيكون إثباتاً لغير الله وإيماناً به .

فإن قيل : إذا كان الإيمان بما سواه كفراً به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي في قول القائل قم ولا تقعد وأقرب مني ولا تبعد ؟

أجيب : بأنّ فيه فائدة غيرها وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأوّل كقول القائل : أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أنّ القول بالباطل قبيح ، ولما أنذرهم صلى الله عليه وسلم وأوعد بالعذاب إن لم يؤمنوا أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى:

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ نزلت في النضر بن الحارث حين قال : فأمطر علينا حجارة من السماء إن كنت من الصادقين ويجعلون تأخيره عنهم شبهة لهم فيما يزعمون من التكذيب ﴿ ولولا أجل مسمى ﴾ قد ضرب لوقت عذابهم فلا تقدّم فيه ولا تأخر ﴿ لجاءهم العذاب ﴾ وقت استعجالهم لأنّ القدرة تامّة والعلم محيط ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ أي : فجأة في الدنيا كوقعة بدر أو الآخرة عند نزول الموت بهم ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بل هم في غاية الغفلة عنه والاشتغال بما ينسيه ، ثم زاد في التعجب من جهلهم بقوله تعالى مبدلاً:

﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ أي : يطلبون منك إيقاعه بهم ناجزاً ولو كان في غير وقته الأليق به ولو علموا ما هم صائرون إليه لتمنوا أنهم لم يخلقوا فضلاً عن أن يستعجلوا ، ولأعملوا جميع جهدهم في الخلاص منه ﴿ وإنّ جهنم ﴾ التي هي من عذاب الآخرة ﴿ لمحيطة بالكافرين ﴾ أي : ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب أو هي كالمحيطة بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم ، وأتى بالظاهر موضع المضمر تنبيهاً على ما استحقوا به

عذابها وتعميماً لكل من اتصف به ، ثم ذكر تعالى كيفية إحاطة جهنم بقوله عز وجل .

﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ أي : يلحقهم ويلصق بهم ﴿ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ فعلم بذلك إحاطته من جميع الجوانب ، فإن قيل : لم خص الجانبين ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدّام ؟

(309/599)

أجيب : بأنّ المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربعة فإنّ من يدخلها تكون الشعلة قدّامه وخلفه ويمينه ويساره ، وأمّا النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التي تحت القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم .

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى : ﴿ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ولم يقل من فوق رؤوسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل ذكر المضاف إليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق ؟

أجيب : بأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرأس أم من موضع آخر عجب لأنّ طبع النار الصعود إلى فوق فلهذا لم يخصه بالرؤوس ، وأمّا بقاء النار تحت القدم فهو عجب

وإلا فمن جوانب القدم في الدنيا تكون الشعلة فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطفئ بالدوس ، وأمّا فوق فعلى الإطلاق وقوله تعالى ﴿ ونقول ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالياء أي : الموكل بالعذاب من ملائكته بأمره ، والباقون بالنون أي : نأمر بالعذاب ، ولما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ جعل ذلك عين ما كانوا يعملون مبالغة بطريق اسم المسبب على السبب فإن عملهم كان سبباً لعذابهم وهذا كثير في الاستعمال ، ولما ذكر تعالى حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما في الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتدّ عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المؤمنين ومنعهم من العبادة قال تعالى: .

(310/599)

﴿ يا عبادي الذين آمنوا ﴾ فشرفهم بالإضافة إليه ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ أي : في الذات والرزق وكل ما تريدون من الرفق إن لم تتمكنوا بسبب هؤلاء المعاندين الذين يفتنونكم في دينكم ، قال مقاتل والكلبي : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة يقول الله تعالى : إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها فإنّ أرض المدينة واسعة آمنة وقال مجاهد : إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا وفيها ، وقال سعيد بن جبير : إذا عمل في أرض

بالمعاصي فاخرجوا منها فإن أرضي واسعة ، وكذا يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث تتهيأ له العبادة ولكن صارت البلدان في زماننا كلها متساوية فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

وقرأ بفتح الياء ابن عامر ، والباقون بتسكينها ، وقيل نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا : نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فأنزل الله تعالى هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج ، وقال مطرف بن عبد الله : أرضي واسعة يعني رزقي لكم واسع فاخرجوا ، روى الثعلبي عن الحسن البصري مرسلاً : "من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما" .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿يا عبادي﴾ لا يدخل فيه الكافر لوجوه : الأوّل : قوله تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ (الحجر :)

والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يدخل في قوله تعالى يا عبادي . الثاني : قوله تعالى : ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ (الزمر :)

(311/599)

الثالث : أنّ العباد مأخوذ من العبادة والكافر لا يعبد الله فلا يدخل في قوله تعالى ﴿ يا عبادي ﴾ وإنما يختص بالمؤمنين الذين يعبدونه ، الرابع : الإضافة بين الله تعالى والعبد يقول العبد إلهي ويقول الله عبدي ، فإن قيل : إذا كان عباده لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة في قوله ﴿ الذين آمنوا ﴾ مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف كما يقال : يا أيها المكلفون المؤمنون ، يا أيها الرجال العقلاء تمييزاً بين الكافر والجاهل ؟

أجيب : بأنّ الوصف يذكر لا لتمييز بل لمجرّد بيان أنّ فيه الوصف كما يقال : الأنبياء المكرمون ، والملائكة المطهرون ، مع أن كل نبيّ مكرم ، وكل ملك مطهر ، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة ، ومثله قولنا ، الله العظيم فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون ولما كانت الإقامة بمكة قبل الفتح مودِّية إلى الفتنة قال تعالى : ﴿ فإياي ﴾ أي : خاصة بالهجرة إلى أرض تأمنون فيها ﴿ فاعبدون ﴾ أي : وحدون وإن كان بالهجرة وكانت هجرة الأهل والأوطان شديدة ، فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يا عبادي ﴾ يفهم منه كونهم عابدين فما الفائدة في الأمر بالعبادة ؟

أجيب : بأنّ فيه فائدتين أحداهما : المداومة أي : يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل ، الثانية : الإخلاص أي : يا من تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري ، فإن قيل ما معنى الفاء في فاعبدون ؟

أجيب : بأن الفاء جواب شرط محذوف لأنّ المعنى إنّ أرضي واسعة فإن لم تخلصوا

العبادة لي في أرضي فأخلصوها في غيرها ، ولما أمر الله تعالى عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وإن بعدت وشق عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان خوّفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة بقوله تعالى:

(312/599)

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أي : كل نفس مفارقة ما ألفته حتى بدناً طالما لبسته وأنسها وأنسته فإن أطاعت ربها أنجت نفسها ولم تنقصها الطاعة من الأجل شيئاً وإلا أوبقت نفسها ولم تزدها المعصية في الأجل شيئاً فإذا قدّر الإنسان أنه ميت سهلت عليه الهجرة فإنه إن لم يفارق بعض مألوفه بها فارق كل مألوفه بالموت ، وقد ورد "أكثروا من ذكر هادم اللذات أي : الموت فإنه ما ذكر في قليل أي : من العمل إلا كثره ولا ذكر في كثير أي : من أمل الدنيا إلا قلله ، ولما هوّن أمر الهجرة حذر من رضي في دينه بنقص شيء من الأشياء حثاً على الاستعداد بغاية الجهد في التزّود للمعاد بقوله تعالى : ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾ على أيسر وجه فنجازي كلاً منكم بما عمل ، وقرأ أبو بكر بالياء التحتية ، والباقون بالتاء الفوقية .

﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات لنبوئنهم ﴾ أي : لننزلنهم ﴿ من الجنة غرفاً ﴾ أي : بيوتاً عالية ، قال البقاعي : تحتها قاعات واسعة ، وقرأ حمزة

والكسائي بعد النون بثاء مثلثة ساكنة وبعدها واو مكسورة وبعد الواو ياء مفتوحة أي : لنثوينهم أي : لنقيمنهم من الثواء وهو الإقامة يقال ثوى الرجل إذا أقام فيكون انتصاب غرفاً لإجرائه مجرى لننزلنهم ، أو بنزع الخافض اتساعاً أي : في غرف أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم كقوله : ﴿ لأقعدنّ لهم صراطك ﴾ (الأعراف :) ، والباقون بعد النون بباء موحدة وبعدها واو مشدّدة وبعد الواو همزة مفتوحة وعلى هذه القراءة فانتصابها على أنها مفعول ثان لأنّبوأ يتعدّى لاثنين ، قال الله تعالى : ﴿ تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ (آل عمران :)

(313/599)

ويتعدّى باللام قال تعالى : ﴿ وإذ بوّأنا لإبراهيم ﴾ (الحج :) ، ولما كانت العلالي لا تروق إلا بالرياض قال تعالى : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ ومن المعلوم أنه لا يكون في موضع أنهار إلا أن يكون فيه بساتين كبار وزروع ورياض وأزهار فيشرفون عليها من تلك العلالي ، ولما كانت بحالة لا نكر فيها يوجب هجرة في لحظة ما كنى عنه بقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي : لا يبغون عنها حولاً ، ثم عظم أمرها وشرف قدرها بقوله تعالى : ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ أي : هذا الأجر وهذا في مقابلة قوله تعالى للكافر : ﴿ ذوقوا ما كنتم

تعملون ﴾ (العنكبوت :) ، ثم وصفهم بما يرغب في الهجرة بقوله تعالى:

﴿ الذين صبروا ﴾ أي : أوجدوا هذه الحقيقة حتى استقرّت عندهم فكانت سجية لهم فأوقفوها على كل شاق من التكاليف من هجرة وغيرها فإنّ الإنسان قل أن ينفك عن أمر شاق ينبغي الصبر عليه ، ثم رغب في الاستراحة بالتفويض إليه بقوله تعالى : ﴿ وعلى ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم وحده لا على أهل ولا وطن ﴿ يتوكلون ﴾ أي : يوجدون التوكل إيجاداً مستمرّاً لتجديد كل مهم يعرض لهم ، ولما أشار بالتوكل إلى أنه الكافي في أمر الرزق في الوطن والغربة لا مال ولا أهل قال عاطفاً على ما تقديره فكأين من متوكل عليه كفاه ولم يحوجه إلى أحد سواه فليبادر من أنقذه من الكفر وهداه إلى الهجرة طلباً لرضاه .

(314/599)

﴿ وكأين من دابة ﴾ أي : كثير من الدواب العاقلة وغيرها ﴿ لا تحمل ﴾ أي : لا تطيق أن تحمل ﴿ رزقها ﴾ أي : لا تدخر شيئاً لساعة أخرى لأنها قد لا تدرك نفع ذلك وقد تدركه وتتوكل ، وعن الحسن : لا تدخر إنما تصبح فيرزقها الله تعالى ، وعن ابن عيينة : ليس شيئاً يخبأ إلا الإنسان والنملة والفارة ، وعن بعضهم قال رأيت البلبل يدخر في حنية ، ويقال للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها أو لا تجده أو لا تطيق حمله لضعفها ، ثم كأنه قيل فمن يرزقها

فقيل ﴿ الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة المتصف بكل كمال ﴿ يرزقها ﴾ على ضعفها وهي لا تدخر ﴿ وإياكم ﴾ مع قوتكم وادخاركم واجتهادكم لا فرق بين ترزيقه لها على ضعفها وعدم ادخارها ، وترزيقه لكم على قوتكم وادخاركم فإنه هو المسبب وحده فإنّ الفريقين تارة يجدون وتارة لا يجدون فصار الإدخار وعدمه غير معتدّ به ولا منظوراً إليه ، وقرأ ابن كثير بعد الكاف بألف وبعد الألف همزة مكسورة ، والباقون بعد الكاف همزة مفتوحة وبعدها ياء مشدّدة ، ووقف أبو عمرو على الياء ، ووقف الباقون على النون ، وحمزة في الوقف يسهل الهمزة على أصله .

تنبيه : كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي : التي تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ثم لم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب لأنّ كأي تستعمل غير مركبة كما يقول القائل : رأيت رجلاً كأيّ رجل يكون وحينئذٍ لا يكون كأي : مركباً فإذا كان كأيّ ههنا مركباً كتب بالنون للتمييز ﴿ وهو السميع ﴾ لأقوالكم نخشى الفقر والضيعة ﴿ العليم ﴾ بما في ضمائركم .

(315/599)

واختلف في سبب نزول هذه الآية فعن ابن عمر أنه قال دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطاً من حوائط الأنصار : "فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقط الرطب بيده ويأكل فقال كل يا ابن عمر قلت : لا أشتهيه يا رسول الله قال لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة لم أطعم طعاماً ولم أجده فقلت : يا رسول الله إن الله المستعان فقال : يا ابن عمر لو سألت ربي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافاً مضاعفة ولكني أجوع يوماً وأشبع يوماً فكيف بك يا ابن عمر إذا عمرت وبقيت في حثالة من الناس يخبئون رزق سنة ويضعف اليقين فنزلت ﴿ وكأين من دابة ﴾ (العنكبوت :)

وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : للمؤمنين الذين كانوا بمكة وآذاهم المشركون "هاجروا إلى المدينة فقالوا : كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا ويسقينا فنزلت" وعن أنس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم "كان لا يدخر شيئاً" وقال صلى الله عليه وسلم "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً" وقال صلى الله عليه وسلم "أيها الناس ليس شيء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به ، وليس شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنّ الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته" .

﴿ ولئن ﴾ اللام لام قسم ﴿ سألتهم ﴾ أي : كفار مكة وغيرهم ﴿ من خلق السموات والأرض ﴾ وسوّاهما على هذا النظام العظيم ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ لإصلاح الأقوات ومعرفة الأوقات وغير ذلك من المنافع ﴿ ليقولنّ الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال لما تقرّر في نظرهم من ذلك وتلقوه من آبائهم موافقة للحق في نفس الأمر ﴿ فأنى ﴾ أي : فكيف ومن أيّ وجه ﴿ يؤفكون ﴾ أي : يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك ، فإن قيل : ذكر في السموات والأرض الخلق ، وفي الشمس والقمر التسخير ؟

أجيب : بأنّ مجرد خلق السموات والأرض آية ظاهرة بخلاف خلق الشمس والقمر فإنهما لو كانا في موضع واحد لا يتحرّكان ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فإذاً الحكمة الظاهرة في تحريكهما وتسخيرهما ، ولما كان قد يشكل على ذلك التفاوت في الرزق عند من لم يتأمّل حق التأمّل فيقول : ما بال الخلق متفاوتين في الرزق قال تعالى: ﴿ الله ﴾ أي : بما له من الإحاطة بصفات الكمال ﴿ يبسط الرزق ﴾ بقدرته التامّة امتحاناً ﴿ لِمنْ يشاء من عباده ﴾ على حسب ما يعلم من بواطنهم ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيق ﴿ له ﴾ بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاء فظهر من ذلك قدرته وحكمته وأنت ترى

الملوك وغيرهم من الأقوياء يفاوتون في الرزق بين عمالهم بحسب ما يعلمون من علمهم الناقص بأحوالهم فما ظنك بملك الملوك العالم علماً لا تدنو من ساحته ظنون ولا شكوك كما قال تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ بكل شيء ﴾ أي : من المرزوقين ومن الأرزاق وكيف يمنع أو يساق وغير ذلك ﴿ عليم ﴾ يعلم مقادير الحاجات والأرزاق فهو على ذلك كله قدير يعلم ما يصلح العباد من ذلك وما يفسدهم ويعطيهم بحسب ذلك إن شاء وكم رام بعض الأقوياء إغناء فقير وإفقار غني فكشف الحال عن فساد ما راموا من الانتقال ، ولما قال الله تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق ﴾ ذكر اعترافهم بذلك بقوله تعالى:

(317/599)

﴿ ولئن ﴾ اللام لام قسم ﴿ سألتهم من نزل من السماء ماءً ﴾ بعد أن كان مضبوطاً في جهة العلو ﴿ فأحيا به الأرض ﴾ الغبراء وأشار بإثبات الجار إلى قرب الإنبات من زمان الممات فقال : ﴿ من بعد موتها ﴾ فصارت خضراء تهتز بعد أن لم يكن لها شيء من ذلك ﴿ ليقولنّ الله ﴾ معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك فلما ثبت أنه الخالق بدءً وإعادة كما يشاهد في كل زمان قال منبهاً على عظمة صفاته اللازم من إثباتها صدق

رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ﴾ يا أفضل الخلق متعجباً منهم في جمودهم كيف يقرون بما يلزمهم التوحيد ثم لا يوحدون ؟ ﴿ الحمد لله ﴾ الذي لا سميّ له وليس لغيره إحاطة من الأشياء فلزمتهم الحجة بما أقروا به من إحاطته وهم لا يثبتون ذلك بإعراضهم ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ فيناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم إنهم يشركون به غيره مما هم معترفون بأنه خلقه فهم لا يعرفون معنى الحمد حيث لم يعملوا به ، ومنهم من آمن بعد ذلك فكان في الذروة من كمال العقل في التوحيد الذي يلزمه سائر الفروع ، ومنهم من كان دون ذلك فكان نفي العقل عنه مقيداً بالكمال ، ولما تبين بهذه الآيات أنّ الدنيا مبنية على الفناء والزوال والتقلع والارتحال وصح أن السرور بها في غير موضعه فلذلك قال مشيراً بعد سلب العقل عنهم إلى أنهم فيها كالبهائم يتهارجون:

(318/599)

﴿ وما هذه الحياة الدنيا ﴾ فحقرها بالإشارة ولفظ الدناءة مع الإشارة إلى هذا الاعتراف فهذا الاسم كاف في الإلزام بالاعتراف بالأخرى ﴿ إلا لهو ﴾ وهو الاستمتاع بلذات الدنيا ﴿ ولعب ﴾ وهو العبث وسميت بهما لأنها فانية ، وقيل : اللهو الإعراض عن الحق ، واللعب : الإقبال على الباطل ، فإن قيل : قد قال تعالى في الأنعام : ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾

(آل عمران ،) ولم يقل ﴿ وما هذه الحياة ﴾ وقال ههنا : ﴿ وما هذه الحياة ﴾ فما فائدته

أجيب بأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا فأحيا به الأرض من بعد موتها فقال هذه

والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال ﴿ يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها وهم يحملون

أوزارهم على ظهورهم ﴾ (الأنعام :)

فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ ، فإن قيل

ما الحكمة في تقديمه هناك اللعب على اللهو وههنا أخر اللعب عن اللهو ؟

أجيب : بأنه لما كان المذكور من قبل هناك الآخرة وإظهارهم للحسرة ففي ذلك الوعد

يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخذ الأبعد ، وههنا لما كان المذكور من

قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهمّ إلا لمانع

يمنع من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها أو لعاصم يعصمه فلا يشتغل بها

أصلاً وكان الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو ، ولما كانوا ينكرون الحياة بعد الموت

أخبر على سبيل التأكيد أنه لا حياة غيرها بقوله تعالى:

﴿ وإن الدار الآخرة لهي ﴾ أي : خاصة ﴿ الحيوان ﴾ أي : الحياة التامّة الباقية ، فإن

قيل ما الحكمة في قوله تعالى هناك ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ وقال ههنا : ﴿ وإنّ الدار

الآخرة لهي الحيوان ﴾ ؟

أجيب : بأنه لما كان الحاصل هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى وازع قوي فقال : الآخرة خير ، ولما كان الحال هنا حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى وازع قوي فقال لا حياة إلا حياة الآخرة ، والحيوان مصدر حيي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واواً وبه سمي ما فيه حياة حيواناً وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها ههنا ، ولما كانوا قد غلطوا في الدارين كليهما فنزلوا كل واحدة منهما غير منزلتها فعدوا الدنيا وجوداً دائماً على هذه الحالة وعدوا الآخرة عدماً لا وجود لها بوجه قال تعالى : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي : لم يؤثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة سريعة الزوال ، فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى في الأنعام : ﴿ أفلا يعقلون ﴾ وقال ههنا : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ؟

أجيب : بأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً ولأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت هنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع .

﴿ فإذا ﴾ أي : فتسبب عن عدم عقلهم المستلزم لعدم علمهم إنهم إذا ﴿ ركبوا ﴾ البحر ﴿ في الفلك ﴾ أي : السفن ﴿ دعوا الله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ مخلصين ﴾ بالتوحيد ﴿ له الدين ﴾ معرضين عن الشركاء بالقلب واللسان حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو ﴿ فلما نجاهم ﴾ أي : الله سبحانه وتعالى

موصلاً لهم ﴿ إلى البرّ إذا هم ﴾ أي : حين الوصول إلى البرّ ﴿ يشركون ﴾ كما كانوا فهذا إخبار عنهم بأنهم عند الشدائد مقرون أن القادر على كشفها هو الله عز وجل وحده فإذا زالت عادوا إلى كفرهم .

(320/599)

قال عكرمة : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا في البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدّ عليهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب ، وقال الرازي في اللوامع : وهذا دليل على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان وأنهم إن غفلوا في السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء انتهى ، فعلم أن الاشتغال بالدنيا هو الصادّ عن كل خير وأن الانقطاع عنها معين للفطرة الأولى المستقيمة ولهذا تجد الفقراء أقرب إلى كل خير ، وفي اللام في قوله تعالى: ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ وجهان : أظهرهما أن اللام فيه لام كي أي : يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة فيكون ذلك فعل من لا عقل له أصلاً وهم يتحاشون عن مثل ذلك ، والثاني : كونها للأمر ﴿ وليتمتعوا ﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادّهم عليها ، وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر وعاصم بالكسر وهي محتملة للوجهين المتقدّمين ، والباقون بالسكون وهي ظاهرة في الأمر فإن كانت اللام الأولى للأمر فقد عطف أمراً على

مثله ، فإن قيل كونها للأمر مشكل إذ كيف يأمر الله تعالى بالكفر وهو متوعد عليه ؟

أجيب : بأن ذلك على سبيل التهديد كقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ (فصلت :)

وإن كانت للعلة فقد عطف كلاماً على كلام فيكون المعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يستمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ يومئذٍ ما يحلّ بهم من العقاب ، ولما كان الإنسان يكون في البحر على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لا سيما إذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة إلى الله ذكرهم حالهم عند الأمر العظيم بقوله تعالى:

(321/599)

﴿ أولم يروا ﴾ أي : أهل مكة بعيون بصائرهم ﴿ أنا جعلنا ﴾ بعظمتنا لهم ﴿ حرماً ﴾ وقال ﴿ آمناً ﴾ لأنه لا خوف على من دخله ، فلما أمن كل من دخله كان كأنه هو نفسه الآمن وهو حرم مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهي حصينة بحصن الله وآمنة موجبة للتوحيد والإخلاص لأنكم في أخوف ما أنتم دعوتم الله وفي آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله ، وهذا متناقض لأن دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الإخلاص

فما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير وهذه النعمة العظيمة التي حصلتم وقد اعترفتم بأنها لا تكون إلا من الله فكيف تكفرون بها ؟ والأصنام التي قلتم في حال الخوف أنها لا أمن لها كيف آمنتم بها في حال الأمن ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ يتخطف الناس من حولهم ﴾ أي : من حول من فيه من كل جهة قتلا وسبياً مع قلة من بمكة وكثرة من حولهم فالذي خرق العادة في فعل ذلك حتى صار على هذا السنن قادر على أن يعكس الحال فيجعل من بالحرم متخطفاً ومن حوله آمناً أو يجعل الكل في الخوف على منهاج واحد ﴿ أفبالباطل ﴾ من الشياطين والأديان وغيرهما ﴿ يؤمنون ﴾ والحال أنه لا يشك عاقل في بطلانه ﴿ وبنعمة الله ﴾ التي أحدثها لهم من الإنجاء وإرسال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يكفرون ﴾ حيث جعلوا موضع شكرهم له على النجاة وغيرها شركهم بعبادة غيره .

﴿ ومن أظلم ﴾ أي : أشدّ وضعاً للأشياء في غير مواضعها ﴿ ممن افترى ﴾ أي : تعمد ﴿ على الله كذباً ﴾ أي : أيّ كذب كان من الشرك وغيره كما كانوا يقولون ﴿ إذا فعلوا فاحشة وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ ﴿ أو كذب بالحق ﴾ أي : النبيّ صلى الله عليه وسلم أو القرآن المعجز المبين على لسان هذا الرسول الأمين الذي ما أخبر خبراً إلا طابقه الواقع ﴿ لما ﴾ أي : حين ﴿ جاءه ﴾ من غير إمهال إلى أن ينظر ويتأمل بل سارع إلى التكذيب أوّل ما سمعه وقوله تعالى : ﴿ أليس في جهنم مثوىً للكافرين ﴾ استفهام تقرير لمثواهم كقوله:

(322/599)

---

*ألستم خير من ركب المطايا **وأندى العالمين بطون راح*

قال بعضهم : ولو كان استفهاماً ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل ، وحقيقته أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي فرجع إلى معنى التقرير ، والمعنى أما لهذا الكافر المكذب مثوى في جهنم حتى اجترأ مثل هذه الجراءة ؟ .

(323/599)

﴿ والذين جاهدوا ﴾ أي : أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على ما دلّ عليه بالمفاعلة ﴿ فينا ﴾ أي : بسبب حقنا ومراقبتنا خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار وغيرهم من كل ما ينبغي الجهاد فيه بالقول والفعل في الشدّة والرخاء ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن وشدائد المحن مستحضرين لعظمتنا ﴿ لنهدينهم ﴾ مما نجعل لهم من النور الذي لا يضل من صحبه هداية تليق بعظمتنا ﴿ سبلنا ﴾ أي : طريق السير إلينا وهي الطريق المستقيمة والطريق المستقيمة هي التي توصل إلى رضا الله عز وجل ، قال سفيان بن عيينة : إذا

اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فإنّ الله تعالى قال ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وقال الحسن : الجهاد مخالفة الهوى ، وقال الفضيل بن عياض : والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به ، وقال سهل بن عبد الله : والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا ، وقال أبو سليمان الداراني : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا ، وعن بعضهم : من عمل بما يعلم وفق لما لم يعلم ، وقيل : إن الذي نرى من جهلنا بما لم نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ، وقيل : المجاهدة هي الصبر على الطاعة ، وقرأ أبو عمرو بسكون الباء الموحدة ، والباقون بضمها ﴿ وإن الله ﴾ أي : بعظمته وجلاله وكبريائه ﴿ لمع المحسنين ﴾ أي : المؤمنين بالنصرة والمعونة في دنياهم والمغفرة والثواب في عقباهم ، وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشريّ من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المؤمنين والمنافقين" فهو حديث موضوع ، ورواه ابن عادل عن أبي أمامة عن أبي بن كعب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير جـ 5 صـ 208 . 223 ﴾

(324/599)

وقال القاسمي :

ولما بيّن تعالى طريقة إرشاد المشركين ، ونفع من انتفع ، وحصول اليأس ممن امتنع ، بيّن طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي : بالخصلة التي هي أحسن . وهي اللين والأناة : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أي : بالاعتداء ، بأن أفحشوا في المقال وأقذعوا في الجدال ، فلا حرج في مقابلتهم بالعنف ، لتنكبهم عن جادة اللطف . وهذا كما قال تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ﴾ [النساء : 148] ، وهذه الآية أصل في آداب المناظرة والجدل : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي : مطيعون له خاصة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

قال ابن كثير : يعني إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه , فهذا لا يقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقاً . ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلاً . ولكن يؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط . وهو أن يكون منزلاً ، لا مبدلاً مؤوّلاً . وروى البخاري عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون > . وهذا الحديث تفرد به البخاري .

وروى الإمام أحمد عن أبي نملة الأنصاري مرفوعاً : < إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقّاً لم تكذبوهم , وإن كان باطلاً لم تصدقوهم > . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان . لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه . ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحاً .

روى البخاري عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث . تقرؤونه محضاً لم يُشَبْ . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيّروا ، وكتبوا بأيدهم الكتاب ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا ، والله ! ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم .

وقال البخاري : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري . أخبرني حميد ابن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب . وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه

الكذب . معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد . لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة . لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك . وقرب العهد , وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل . ومن منحه الله علماً علم بذلك كل بحسبه . ولله الحمد والمنة . انتهى .

(326/599)

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أي : مثل ذلك الإنزال ، أنزلنا إليك الكتاب . أي : أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ ﴾ أي : العرب : ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ أي : فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لما يكفل سعادة الدارين في شرائعه وقضاياه ، على أميّ لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خارق للعادة . وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي ، ونفي للتجوز في الإسناد : ﴿ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي : لو كنت ممن يخط ويقرأ ، لقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده ، من كتبٍ مأثورة عن الأنبياء .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب . وفيها ردّ على من زعم أنه كتب . انتهى .

(327/599)

وقال ابن كثير : وهذه صفته في الكتب المتقدمة . كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف : 157] ، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائماً لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده . بل كان له كتّابٌ يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم ، من متأخري الفقهاء ، كالقاضي ابن الوليد الباجي ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : ثم أخذ فكتب وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي ، وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم . وإنما أراد الرجل أعني الباجي فيما يظهر عنه . أنه كتب ذلك على وجه المعجزة . لا أنه كان يحسن الكتابة . وما أورده بعضهم من الحديث ؛ أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . انتهى .

وقال الشهاب : وممن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة ، أبو ذرّ الهروي وأبو الفتح النيسابوري وأبو الوليد الباجي من المغاربة . وصنف فيه كتاباً ، سبقه إليه ابن منبه . ولما قال أبو الوليد ذلك ، طعن فيه ورمي بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف . فأجابوا بما يوافقه . وأن معرفة الكتابة بعد أميّتِهِ لا تنافي المعجزة . بل هي معجزة أخرى . لكونها من غير تعليم . ورد الإمام محمد بن مفوز كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح : < إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب > وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله : كتب فمعناه أمر بالكتابة . انتهى .

(328/599)

﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي : القرآن : ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي : العلماء به وحفاظه . وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظاً في الصدور ، يتلوه أكثر الأمة ظاهراً . بخلاف سائر الكتب . فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة < صدورهم أناجيلهم > . كذا في الكشاف ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يعنون ما كانوا يقترحونه في تعنتهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : هو يملك إنزالها ،

ولو شاء لفعل : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : ليس من شأني إلا الإنذار وإبانته ، لا الإتيان بما تقترحونه . ثم أشار إلى أن في آية تنزيل الكتاب ، غنية عن كل آية مقترحة . لما أن الدور انقلب من الآيات الآفاقية ، إلى الآيات العلمية ، وفاقاً لسنة الترقي ، بقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ أي : آية مغنية عما اقترحوه : ﴿ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ أي : وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه ، وكابر حسه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة : ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي : لنعمة عظيمة في هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم : ﴿ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : تذكرة لقوم ، همهم الإيمان دون التعنت : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ أي : إني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وإنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب . يعني . كفى علمه بذلك . وجوز أن يكون المعنى شهيداً بصدقي بالتأييد والحفظ ، أي : هو شاهد على ما جئت به ، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى المدعي .

(329/599)

قال ابن كثير : أي : فلو كنت غير محقّ ، لانتقم مني ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾

[الحاقة : 44 - 47] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به . ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . انتهى ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : فلا يخفى عليه حالي وحالكم : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أي : استهزاء : ﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أي : لكل عذاب أو قوم ، وهو وقته المعين له فيهما : ﴿ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي : عاجلاً : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة في الدنيا . كوقعة بدر . فقد كانوا لغرورهم لا يتوقعون غلبة المسلمين . أو في الآخرة عند نزول الموت بهم : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي : ستحيط بهم . أي : يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة . أو هي كالمحيطة بهم . لأن كل آت قريب .

(330/599)

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : جزاءه : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ وهذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده في أرضه ، لإيذائه في الله واضطهاده في جانبه ، أن يهاجر عنها إلى بلد ما ، يقدّر أنه فيه أسلم قلباً ، وأصح ديناً ، وآمن نفساً . وأن يتجنب المقام في بلده

على تلك الحالة ، كيلا يفتنه الكافرون . أو يعرض نفسه للتهلكة ، وقد جعل له منها مخرج . وكون أرض الله واسعة ، مذكور للدلالة على المقدر . وهو كالتوطئة لما بعده . لأنها مع سعتها ، وإمكان التفسح فيها ، لا ينبغي بأرض لا يتيسر بها للمرء ما يريده . كما قيل :

~وكل مكان ينبت العز طيب

وقال آخر :

~إذا كان أصلي من ترابٍ فكلُّها بلادي ، وكلُّ العالمين أقاربِي

وقد روى الإمام أحمد عن الزبير : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < البلاد بلاد الله والعباد عَبَّاد الله . فحيثما أصبت خيراً فأقم > . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير نزل بها ، عند ملكها النجاشيّ رحمه الله . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الباقون إلى المدينة المنورة ، عملاً بالآية الكريمة . وقوله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى . أو تسلية للمهاجر إلى الله ، وتشجيع له ، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها . فلا المقام بأرضه يدفعه ، ولا هجرته عنه تمنعه . وفيه استعارة بديعة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم ، مُرّه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي : على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين . وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ثم أشار تعالى إلى كفالته لمن هاجر إليه ، من الفقر والضيعة ، بقوله سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ أي : وكم : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي : لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله : ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي : يقيّض لها رزقها على ضعفها ، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم . فهو الميسّر والمسهّل لكل مخلوق من رزقه ما يصلحه . فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى ، بل خيره عامّ وفضله شامل لخلقه ، حيث كانوا وأنّى وجدوا . وقد ظهر مصداق كفالته تعالى لأولئك المهاجرين ، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد في سائر الأمصار . وهذا معنى ما ورد مرفوعاً : < سافروا تصحوا وتغنموا > رواه البيهقيّ : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ يعني هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره : ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي : اعترافاً بأنه المنفرد بخلقها : ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي :

فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحدَه ، ويشركون به [في المطبوع : بها] ما لا يضر ولا ينفع . وكثيراً

(332/599)

ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعرفون بذلك . ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : فيفعل بعلمه ، ما تقتضيه حكمته ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على أن جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده . وأنه أظهر حجتك عليهم . والمعنى : احمد الله عن جوابهم المذكور على إلزامهم وظهور نِعَمٍ لا تحصى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : فلذلك يتناقضون حيث ينسبون النعمة إليهم ، ويعبدون غيره . وقوله : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ إشارة إلى ازدراء الدنيا وتحقير شأنها ، وكونها في سرعة زوالها ، وتقضّي أمرها ، كما يلهّى ويلعب به الصبيان ، ثم يتفرقون عنه . ولا ثمرة إلا التعب . ففي الحصر تشبيه بليغ : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أي : دار الحياة الخالدة . ففيه مضاف مقدر . والحيوان مصدر سميّ به ذو الحياة ، في غير هذا المحل . وإيثاره على الحياة لما فيه من المبالغة

. لأن فعلان بالفتح في المصادر الدالة على الحركة : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لم يؤثروا عليها الدنيا التي حياتها عارضة . وهذا جواب الشرط المقدر . لعلمه من السياق . وكونُها للتمني بعيد .

(333/599)

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : الدعاء . لعلمهم أنه لا ينجيهم من الغرق سواه : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أي : من نعمة النجاة وربح التجارة : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : عاقبة ذلك حين يعاقبون : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي أهل مكة : ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ﴾ أي : لا يُغزى أهله ، ولا يغار عليهم ، مع قلتهم وكثرة العرب : ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ أي : يختلسون قتلاً ونهباً وسبياً : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : أفبعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم ، التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، يكفرون خيره ، ويشركون معه غيره .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ بأن زعم أن له شريكاً : ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ يعني الرسول أو الكتاب : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي : موضع

إقامة ، جزاء افترائهم وكفرهم . بلى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ أي : جاهدوا النفس والشيطان والهوى وأعداء الدين ، من أجلنا ولوجهنا : ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي : سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا . وذلك بالطاعات والمجاهدات : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : أعمالهم بالنصر والمعونة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 586.579 ﴾

(334/599)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾

هذا هو الشوط الأخير في سورة العنكبوت . وقد مضى منها شوطان في الجزء العشرين . ومحور السورة كما أسلفنا هو الحديث عن الفتنة والابتلاء لمن يقول كلمة الإيمان ، لتمحيص القلوب وتمييز الصادقين والمنافقين بمقياس الصبر على الفتنة والابتلاء . . وذلك مع التهوين من شأن القوى الأرضية التي تقف في وجه الإيمان والمؤمنين ؛ وتفتنهم بالأذى وتصدهم عن السبيل ، وتوكيد أخذ الله للمسيئين ونصره للمؤمنين الذين يصبرون على الفتنة ، ويثبتون للابتلاء . سنة الله التي مضت في الدعوات من لدن نوح عليه السلام . وهي السنة التي لا

تتبدل ، والتي ترتبط بالحق الكبير المتلبس بطبيعة هذا الكون ، والذي يتمثل كذلك في دعوة الله الواحدة التي لا تتبدل طبيعتها .

وقد انتهى الشوط الثاني في نهاية الجزء السابق بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به إلى تلاوة ما أوحي إليه من الكتاب ، وإقامة الصلاة لذكر الله ، ومراقبة الله العليم بما يصنعون .

وفي الشوط الأخير يستطرد في الحديث عن هذا الكتاب ، والعلاقة بينه وبين الكتب قبله . ويأمر المسلمين ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، فبدلوا في كتابهم ، وانحرفوا إلى الشرك ، والشرك ظلم عظيم وأن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلها وبالكتب جميعها . فهي حق من عند الله مصدق لما معهم .

ثم يتحدث عن إيمان بعض أهل الكتاب بهذا الكتاب الأخير على حين يكفر به المشركون الذين أنزل الله الكتاب على نبيهم ، غير مقدرين لهذه المنة الضخمة ، ولا مكتفين بهذا الفضل المتمثل في تنزيل الكتاب على رسول منهم ، يخاطبهم به ، ويحدثهم بكلام الله . ولم يكن يتلو من قبله كتاباً ولا يخطه بيمينه ، فتكون هناك أدنى شبهة في أنه من عمله ومن تأليفه !

ويحذر المشركين استعجالهم بعذاب الله ، ويهددهم بمجيئه بغتة ، ويصور لهم قربه منهم ، وإحاطة جهنم بهم ، وحالهم يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

ثم يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقون الفتنة والإيذاء في مكة ؛ يحضهم على الهجرة بدينهم إلى الله ليعبدوه وحده . يلتفت إليهم في أسلوب عجيب ، يعالج كل هاجسة تخطر في ضمائرهم ، وكل معوق يقعد بهم ، ويقلب قلوبهم بين أصابع الرحمن في لمسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب ؛ فما يعرف مساربها ومداخلها الخفية ، ويلمسها هكذا إلا خالقها اللطيف الخبير .

وينتقل من هذا إلى التعجيب من حال أولئك المشركين ، وهم يتخبطون في تصوراتهم فيقرون لله سبحانه بخلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وتنزيل الماء من السماء ، وإحياء الأرض الموات ؛ وإذا ركبوا في الفلك دعوا الله وحده مخلصين له الدين . . ثم هم بعد ذلك يشركون بالله ، ويكفرون بكتابه ، ويؤذون رسوله ، ويفتنون المؤمنين به .

ويذكر المشركين بنعمة الله عليهم بهذا الحرم الآمن الذي يعيشون فيه ، والناس من حولهم في خوف وقلق . وهم يفترون على الله الكذب ويشركون به آلهة مفتراة . ويعدهم على هذا جهنم وفيها مثوى للكافرين .

وتختم السورة بوعد من الله أكيد بهداية المجاهدين في الله ، يريدون أن يخلصوا إليه ، مجتازين

العوائق والفتن والمشاق وطول الطريق ، وكثرة المعوقين .

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون ﴾ . .

(336/599)

إن دعوة الله التي حملها نوح عليه السلام والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم لهي دعوة واحدة من عند إله واحد ، ذات هدف واحد ، هو رد البشرية الضالة إلى ربها ، وهدايتها إلى طريقه ، وتربيتها بمنهاجه . وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات : كلها أمة واحدة ، تعبد إلهاً واحداً . وإن البشرية في جميع أجيالها لصنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله . وصنف المشاقين لله وهم حزب الشيطان ، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان . وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون .

هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام ؛ والتي تقررها هذه الآية من القرآن ؛ هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب ، أو جنس ، أو وطن . أو تبادل أو تجارة . ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله ، ممثلة في عقيدة

واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان ؛ وتختفي فيها القوميات والأوطان ؛ ويتلاشى فيها الزمان والمكان . ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديان .

ومن ثم يكشف المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ؛ لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة ، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة ، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله ، الموافقة لما قبلها من الدعوات ، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر . . ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ فانحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية ؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه في الحياة . فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة . وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة في المدينة .

(337/599)

وإن بعضهم ليفتري على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارد من المشركين . فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم ، مخالفاً كل ما قاله فيهم وهو في مكة ! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكي عليه . فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم ، ولم ينحرف عن دين الله .

وعن التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات .

﴿ وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون ﴾ . .

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع ، والجدل والنقاش . وكلهم يؤمنون بإله واحد ، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم ، وهو في صميمه واحد ، والمنهج الإلهي متصل الحلقات .

﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب . فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ . .

"كذلك" . على النهج الواحد المتصل . وعلى السنة الواحدة التي لا تتبدل . وعلى الطريقة التي يوحي بها الله لرسله ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ﴾ . . فوقف الناس بإزائه في صفين : صف يؤمن به من أهل الكتاب ومن قريش ، وصف يجحده ويكفر به مع إيمان أهل الكتاب وشهادتهم بصدقه ، وتصديقه لما بين أيديهم . . ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ . . فهذه الآيات من الوضوح والاستقامة بحيث لا ينكرها إلا الذي يغطي روحه عنها ويسترها ، فلا يراها ولا يتملاها ! والكفر هو التغطية والحجاب في أصل معناه اللغوي ، وهو ملحوظ في مثل هذا التعبير .

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذن لارتاب المبطلون ﴾ . .

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها . فرسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بينهم فترة طويلة من حياته ، لا يقرأ ولا يكتب ؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز القارئين الكاتبين . ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئاً كاتباً . فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم ؟

(338/599)

ونقول : إنه يتتبع مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها . فحتى على فرض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قارئاً كاتباً ، ما جاز لهم أن يرتابوا . فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر . فهو أكبر جداً من طاقة البشر ومعرفة البشر ، وآفاق البشر . والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون . وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب بأن وراءه قوة ، وبأن في عباراته سلطاناً ، لا يصدران عن بشر ! ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ . . فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ارتياب . دلائل يجدونها بينة في صدورهم ، تطمئن إليها قلوبهم ، فلا تطلب عليها دليلاً وهي الدليل . والعلم الذي يستحق هذا الاسم ، وهو الذي تجده الصدور في قرارتها

، مستقراً فيها ، منبعثاً منها ؛ يكشف لها الطريق ، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك ! ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ . . الذين لا يعدلون في تقدير الحقائق وتقويم الأمور ، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم .

﴿ وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل : إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ﴾ .

.

يعنون بذلك الخوارق المادية التي صاحبت الرسالات من قبل في طفولة البشرية . والتي لا تقوم حجة إلا على الجيل الذي يشاهدها . بينما هذه هي الرسالة الأخيرة التي تقوم حجتها على كل من بلغته دعوتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن ثم جاءت آياتها الخوارق آيات متلوة من القرآن الكريم المعجز الذي لا تنفد عجائبه ، والذي تتفتح كنوزه لجميع الأجيال ؛ والذي هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، يحسونها خوارق معجزة كلما تدبروها ، وأحسوا مصدرها الذي تستمد منه سلطانها العجيب !

(339/599)

﴿ قل : إنما الآيات عند الله ﴾ . . يظهرها عند الحاجة إليها ، وفق تقديره وتدبيره . وليس لي أن أقترح على الله شيئاً . ليس هذا من شأني ولا من أدبي ﴿ وإنما أنا نذير مبين

﴾ . أنذر وأحذر وأكشف وأبين ؛ فأؤدي ما كلفته . ولله الأمر بعد ذلك والتدبير .

إنه تجريد العقيدة من كل وهم وكل شبهة . وإيضاح حدود الرسول وهو بشر مختار . فلا تتلبس بصفات الله الواحد القهار . ولا تغيم حولها الشبهات التي غامت على الرسالات حين برزت فيها الخوارق المادية ، حتى اختلطت في حس الناس والتبست بالأوهام والخرافات . ونشأت عنها الانحرافات .

وهؤلاء الذين يطلبون الخوارق يغفلون عن تقدير فضل الله عليهم بتنزيل هذا القرآن :

﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؛ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ . .

وإنه للبطر بنعمة الله ورعايته التي تجل عن الشكر والتقدير . أو لم يكفهم أن يعيشوا مع السماء بهذا القرآن ؟ وهو يتنزل عليهم ، يحدثهم بما في نفوسهم ، ويكشف لهم عما حولهم ؛ ويشعرهم أن عين الله عليهم ؛ وأنه معنيٌّ بهم حتى ليحدثهم بأمرهم . ويقص عليهم القصص ويعلمهم . وهم هذا الخلق الصغير الضئيل التائه في ملكوت الله الكبير . وهم وأرضهم وشمسهم التي تدور عليها أرضهم . . ذرات تائهة في هذا الفضاء الهائل لا يمسكهن إلا الله . والله بعد ذلك يكرمهم حتى لينزل عليهم كلماته تتلى عليهم . ثم هم لا يكتفون !

﴿ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ . .

فالذين يؤمنون هم الذين يجدون مس هذه الرحمة في نفوسهم ، وهم الذين يتذكرون فضل الله وعظيم منته على البشرية بهذا التنزيل ؛ ويستشعرون كرمه وهو يدعوهم إلى حضرته وإلى مائدته وهو العلي الكبير . وهم الذين ينفعهم هذا القرآن ، لأنه يحيا في قلوبهم ، ويفتح لهم عن كنوزه ويمنحهم ذخائره ، ويشرق في أرواحهم بالمعرفة والنور .

(340/599)

فأما الذين لا يشعرون بهذا كله ، فيطلبون آية يصدقون بها هذا القرآن ! هؤلاء المطموسون الذين لا تتفتح قلوبهم للنور . هؤلاء لا جدوى من المحاولة معهم ؛ وليترك أمر الفصل بينه وبينهم إلى الله !

﴿ قل : كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ، يعلم ما في السموات والأرض . والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ .

.

وشهادة من يعلم ما في السماوات والأرض أعظم شهادة . وهو الذي يعلم أنهم على الباطل

:

﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ . .

الخاسرون على الإطلاق . الخاسرون لكل شيء . الخاسرون للدنيا والآخرة . الخاسرون لأنفسهم وللهدى والاستقامة والطمأنينة والحق والنور .

إن الإيمان بالله كسب . كسب في ذاته . والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله . إنه طمأنينة في القلب واستقامة على الطريق ، وثبات على الأحداث ؛ وثقة بالسند ، واطمئنان للحمى ، ويقين بالعاقبة . وإن هذا في ذاته لهو الكسب ؛ وهو هو الذي يخسره الكافرون . و ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ . .

ثم يمضي في الحديث عن أولئك المشركين . عن استعجالهم بالعذاب . وجهنم منهم قريب :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ . .

(341/599)

ولقد كان المشركون يسمعون النذير ، ولا يدركون حكمة الله في إمهالهم إلى حين ؛ فيستعجلون الرسول صلى الله عليه وسلم بالعذاب على سبيل التحدي . وكثيراً ما يكون

إمهال الله استدراجاً للظالمين ليزدادوا عتواً وفساداً . أو امتحاناً للمؤمنين ليزدادوا إيماناً وثباتاً ؛ وليتخلف عن صفوفهم من لا يطيق الصبر والثبات . أو استبقاء لمن يعلم سبحانه أن فيهم خيراً من أولئك المنحرفين حتى يتبين لهم الرشد من الغي فيثوبوا إلى الهدى . أو استخراجاً لذرية صالحة من ظهورهم تعبد الله وتنحاز إلى حزبه ولو كان آباؤهم من الضالين . . أو لغير هذا وذاك من تدبير الله المستور . .

ولكن المشركين لم يكونوا يدركون شيئاً من حكمة الله وتدبيره ، فكانوا يستعجلون بالعذاب على سبيل التحدي . . ﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ . . وهنا يوعدهم الله بمجيء العذاب الذي يستعجلونه . مجيئه في حينه . ولكن حيث لا ينتظرونه ولا يتوقعونه . وحيث يبهتون له ويفاجأون به : ﴿ وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ . .

ولقد جاءهم هذا العذاب من بعد في بدر . وصدق الله . ورأوا بأعينهم كيف يحق وعد الله . ولم يأخذهم الله بالهلاك الكامل كأخذ المكذبين قبلهم ؛ كما أنه لم يستجب لهم في إظهار خارقة مادية كي لا يحق عليهم وعده بهلاك من يكذبون بعد الخارقة المادية . لأنه قدر للكثيرين منهم أن يؤمنوا فيما بعد ، وأن يكونوا من خيرة جند الإسلام ؛ وأخرج من ظهورهم من حملوا الراية جيلاً بعد جيل ، إلى أمد طويل . وكان ذلك كله وفق تدبير الله الذي لا يعلمه إلا الله .

وبعد الوعيد بعذاب الدنيا الذي يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، جعل يكرر استنكاره

لاستعجالهم بالعذاب ، وجهنم لهم بالمرصاد :

﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ . .

(342/599)

وعلى طريقة القرآن في التصوير ، وفي استحضار المستقبل كأنه مشهود ، صور لهم جهنم محيطة بالكافرين . وذلك بالقياس إليهم مستقبل مستور ؛ ولكنه بالقياس إلى الواقع المكشوف لعلم الله حاضر مشهود .

وتصويره على حقيقته المستورة يوقع في الحس رهبة ، ويزيد استعجالهم بالعذاب نكارة . فأنى يستعجل من تحيط به جهنم ، وتهم أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع ؟ !

ويرسم لهم صورتهم في جهنم هذه المحيطة بهم ؛ وهم يستعجلون بالعذاب :

﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ . .

وهو مشهد مفزع في ذاته ، يصاحبه التقريع المخزي والتأنيب المرير : ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ . . فهذه نهاية الاستعجال بالعذاب ؛ والاستخفاف بالنذير .

ويدع الجاحدين المكذبين المستهترين في مشهد العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت

أرجلهم ، ليلتفت إلى المؤمنين ، الذين يفتنهم أولئك المكذبون عن دينهم ، ويمنعونهم من عبادة ربهم . . يلتفت إليهم يدعوهم إلى الفرار بدينهم ، والنجاة بعقيدتهم . في نداء حبيب وفي رعاية سابغة ، وفي أسلوب يمس كل أوتار القلوب :

﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة ، فإياي فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . وكأي من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم ﴾ . .

إن خالق هذه القلوب ، الخبير بمداخلها ، العليم بخفاياها ، العارف بما يهجس فيها ، وما يستكن في حناياها . . إن خالق هذه القلوب ليناديها هذا النداء الحبيب : يا عبادي الذين آمنوا : يناديها هكذا وهو يدعوها إلى الهجرة بدينها . لتحس منذ اللحظة الأولى بحقيقتها . بنسبتها إلى ربها وإضافتها إلى مولاها : ﴿ يا عبادي ﴾ . .

هذه هي اللمسة الأولى . واللمسة الثانية : ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ . .

أنتم عبادي . وهذه أرضي . وهي واسعة . فسيحة تسعكم . فما الذي يمسككم في مقامكم الضيق ، الذي تفتنون فيه عن دينكم ، ولا تملكون أن تعبدوا الله مولاكم ؟ غادروا هذا الضيق يا عبادي إلى أرضي الواسعة ، ناجين بدينكم ، أحراراً في عبادتكم ﴿ فإياي فاعبدون ﴾ .

إن هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأول الذي يتحرك في النفس التي تدعى للهجرة . ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين اللمستين : بالنداء الحبيب القريب : ﴿ يا عبادي ﴾ وبالسعة في الأرض : ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ وما دامت كلها أرض الله ، فأحب بقعة منها إذن هي التي يجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه .

ثم يمضي يتتبع هواجس القلوب وخواطرها . فإذا الخاطر الثاني هو الخوف من خطر الهجرة . خطر الموت الكامن في محاولة الخروج وقد كان المشركون يمسكون بالمؤمنين في مكة ، ولا يسمحون لهم بالهجرة عندما أحسوا بخطرهم بعد خروج المهاجرين الأولين ثم خطر الطريق لو قدر لهم أن يخرجوا من مكة . ومن هنا تجيء اللمسة الثانية :

﴿ كل نفس ذائقة الموت . ثم إلينا ترجعون ﴾ . .

فالموت حتم في كل مكان ، فلا داعي أن يحسبوا حسابه ، وهم لا يعلمون أسبابه . وإلى الله المرجع والمآب . فهم مهاجرون إليه ، في أرضه الواسعة ، وهم عائدون إليه في نهاية المطاف .

وهم عباده الذين يؤويهم إليه في الدنيا والآخرة . فمن ذا يساوره الخوف ، أو يهجس في ضميره القلق ، بعد هذه اللمسات ؟

ومع هذا فإنه لا يدعهم إلى هذا الإيواء وحده ؛ بل يكشف عما أعده لهم هناك . وإنهم ليفارقون وطناً فلهم في الأرض عنه سعة . ويفارقون بيوتاً فلهم في الجنة منها عوض . عوض من نوعها وأعظم منها :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ﴾ .

وهنا يهتف لهم بالعمل والصبر والتوكل على الله :

﴿ نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ . .

(344/599)

وهي لمسة التثبيت والتشجيع لهذه القلوب ، في موقف القلقلة والخوف والحاجة إلى التثبيت والتشجيع . ثم يهجس في النفس خاطر القلق على الرزق ، بعد مغادرة الوطن والمال ومجال العمل والنشاط المألوف ، وأسباب الرزق المعلومة . فلا يدع هذا الخاطر دون لمسة تقر لها القلوب :

﴿ وكأي من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ﴾ . .

لمسة توقظ قلوبهم إلى الواقع المشهود في حياتهم . فكم من دابة لا تحصل رزقها ولا تجمعه ولا تحمله ولا تهتم به ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، ولا كيف تحتفظ به معها . ومع هذا فإن الله يرزقها ولا يدعها تموت جوعاً . وكذلك يرزق الناس . ولو خيل إليهم أنهم يخلقون رزقهم وينشئونه . إنما يهبهم الله وسيلة الرزق وأسبابه . وهذه الهبة في ذاتها رزق من الله ، لا سبيل لهم إليه إلا بتوفيق الله . فلا مجال للقلق على الرزق عند الهجرة . فهم عباد الله يهاجرون إلى أرض الله يرزقهم الله حيث كانوا . كما يرزق الدابة لا تحمل رزقها ، ولكن الله يرزقها ولا يدعها .

ويختم هذه اللمسات الرفيقة العميقة بوصلهم بالله ، وإشعارهم برعايته وعنايته ، فهو يسمع لهم ويعلم حالهم ، ولا يدعهم وحدهم : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ . .

وتنتهي هذه الجولة القصيرة ؛ وقد لمست كل حنية في تلك القلوب ؛ ولبت كل خاطر هجس فيها في لحظة الخروج . وقد تركت مكان كل مخافة طمأنينة ، ومكان كل قلق ثقة ، ومكان كل تعب راحة . وقد هدهدت تلك القلوب وغمرتها بشعور القربى والرعاية والأمان في كنف الله الرحيم المنان .

ألا إنه لا يدرك هواجس القلوب هكذا إلا خالق القلوب . ولا يداوي القلوب هكذا إلا الذي يعلم ما في القلوب .

وبعد هذه الجولة مع المؤمنين يرتد السياق إلى التناقض في موقف المشركين وتصوراتهم . فهم يقرون بخلق الله للسماوات والأرض وتسخيره للشمس والقمر وإنزاله الماء من السماء وإحيائه الأرض بعد موتها . وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم أو تضييقه عليهم . وهم يتوجهون لله وحده بالدعاء عند الخوف . . ثم هم بعد ذلك كله يشركون بالله ، ويؤذون من يعبدونه وحده ، ويفتنونهم عن عقيدتهم التي لا تناقض فيها ولا اضطراب ، وينسون نعمة الله عليهم في تأمينهم في البيت الحرام ، وهم يروعون عباده في بيته الحرام :

﴿ ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ليقولن : الله . فأنى يؤفكون ؟ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شيء عليم . ولئن سألتهم : من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون . وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون . أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ؟ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟ ومن

أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه؟ أليس في جهنم مثوى للكافرين؟ ﴾ . .

وهذه الآيات ترسم صورة لعقيدة العرب إذ ذاك؛ وتوحي بأنه كان لها أصل من التوحيد؛ ثم وقع فيها الانحراف. ولا عجب في هذا فهم من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقد كانوا بالفعل يعتقدون أنهم على دين إبراهيم، وكانوا يعتزون بعقيدتهم على هذا الأساس؛ ولم يكونوا يحفلون كثيراً بالديانة الموسوية أو المسيحية وهما معهم في الجزيرة العربية، اعتزازاً منهم بأنهم على دين إبراهيم. غير منتبهين إلى ما صارت إليه عقيدتهم من التناقض والانحراف.

(346/599)

كانوا إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض، ومسخر الشمس والقمر، ومنزل الماء من السماء، ومحيي الأرض بعد موتها بهذا الماء. . يقرون أن صانع هذا كله هو الله. ولكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم، أو يعبدون الجن، أو يعبدون الملائكة؛ ويجعلونهم شركاء لله في العبادة، وإن لم يجعلوهم شركاء له في الخلق. . هو تناقض عجيب. تناقض يُعجِّب الله منه في هذه الآيات: ﴿ فأنى يؤفكون ﴾؟ أي كيف يصرفون عن الحق إلى هذا التخليط

العجيب ؟ ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ فليس يعقل من يقبل عقله هذا التخليط !

وبين السؤال عن خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر ؛ والسؤال عن منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها . يقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له فيربط سنة الرزق بخلق السماوات والأرض وسائر آثار القدرة والخلق ، ويكل هذا إلى علم الله بكل شيء : ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ . .

والرزق ظاهر الارتباط بدورة الأفلاك ، وعلاقتها بالحياة والماء والزرع والإنبات . وبسط الرزق وتضييقه بيد الله ؛ وفق الأوضاع والظواهر العامة المذكورة في الآيات . فموارد الرزق من ماء ينزل ، وأنهار تجري ، وزروع تنبت ، وحيوان يتكاثر . ومن معادن وفلزات في جوف الأرض ، وصيد في البر والبحر . . إلى نهاية موارد الرزق العامة ، تتبع كلها نواميس السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر تبعية مباشرة ظاهرة .

ولو تغيرت تلك النواميس عما هي عليه أدنى تغيير لظهر أثر هذا في الحياة كلها على سطح الأرض ؛ وفي المخبوء فيها من الثروات الطبيعية الأخرى سواء بسواء . فحتى هذا المخبوء في جوف الأرض ؛ إنما يتم تكوينه وتخزينه واختِلافه من مكان إلى مكان وفق أسباب من طبيعة الأرض ومن مجموعة تأثراتها بالشمس والقمر !

والقرآن يجعل الكون الكبير ومشاهده العظيمة هي برهانه وحجته ، وهي مجال النظر والتدبر للحق الذي جاء به . ويقف القلب أمام هذا الكون وقفة المتفكر المتدبر ، اليقظ لعجائبه ، الشاعر بيد الصانع وقدرته ، المدرك لنواميسه الهائلة ، بلفتة هادئة يسيرة ، لا تحتاج إلى علم شاق عسير ، إنما تحتاج إلى حس يقظ وقلب بصير . وكلما جلا آية من آيات الله في الكون وقف أمامها يسبح بحمد الله ويربط القلوب بالله : ﴿ قل الحمد لله . بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ ! .

وبمناسبة الحديث عن الحياة في الأرض وعن الرزق والبسط فيه والقبض ، يضع أمامه الميزان الدقيق للقيم كلها . فإذا الحياة الدنيا بأرزاقها ومتاعها لهو ولعب حين تقاس بالحياة في الدار الآخرة :

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، لو كانوا يعلمون ﴾ . .

فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهواً ولعباً حين لا ينظر فيها إلى الآخرة . حين تكون هي الغاية العليا للناس . حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة . فأما الحياة الآخرة فهي الحياة الفائضة بالحيوية . هي ﴿ الحيوان ﴾ لشدة ما فيها من الحيوية والامتلاء .

والقرآن لا يعني بهذا أن يحض على الزهد في متاع الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيداً . إن هذا

ليس روح الإسلام ولا اتجاهه . إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع ، والوقوف فيه عند حدود الله . كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له ، يكلفها ما يكلفها فلا تتأبى عليه ! والمسألة قيم يزنها بميزانها الصحيح . فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن ؛ ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها ، مالكاً لحريته معتدلاً في نظرته : الدنيا لهو ولعب ، والآخرة حياة مليئة بالحياة .

وبعد هذه الوقفة للوزن والتقويم يمضي في عرض ما هم فيه من متناقضات :

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ . .

(348/599)

وهذا كذلك من التناقض والاضطراب . فهم إذا ركبوا في الفلك ؛ وأصبحوا على وجه اليم كاللعبة تتقاذفها الأمواج ؛ لم يذكروا إلا الله . ولم يشعروا إلا بقوة واحدة يلجأون إليها هي قوة الله . ووحدوه في مشاعرهم وعلى ألسنتهم سواء ؛ وأطاعوا فطرتهم التي تحس وحدانية الله : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ ونسوا وحي الفطرة المستقيم ؛ ونسوا دعاءهم لله وحده مخلصين له الدين ؛ وانحرفوا إلى الشرك بعد الإقرار والتسليم !

وغاية هذا الانحراف أن ينتهي بهم إلى الكفر بما آتاهم الله من النعمة ، وما آتاهم من الفطرة ، وما آتاهم من البينة ؛ وأن يتمتعوا متاع الحياة الدنيا المحدود إلى الأجل المقدور .

ثم يكون بعد ذلك ما يكون ، وهو الشر والسوء .

«لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» . .

(349/599)

وهو التهديد من طرف خفي بسوء ما سوف يعلمون ! ثم يذكرهم بنعمة اللّه عليهم في إعطائهم هذا الحرم الآمن الذي يعيشون فيه فلا يذكرون نعمة اللّه ولا يشكرونها بتوحيده وعبادته . بل إنهم ليروعون المؤمنين فيه :

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَما آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ؟» . .

ولقد كان أهل الحرم المكي يعيشون في أمن ، يعظمهم الناس من أجل بيت اللّه ، ومن حولهم القبائل تتناحر ، ويفزع بعضهم بعضا ، فلا يجدون الأمان إلا في ظل البيت الذي آمنهم اللّه به وفيه . فكان عجيبا أن يجعلوا من بيت اللّه مسرحا للأصنام ، ولعبادة غير اللّه أيا كان ! «أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ ؟ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ؟» «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ

بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ؟» . .

وهم قد افتروا على اللّه الكذب بنسبة الشركاء إليه . وهم كذبوا بالحق لما جاءهم وجحدوا به . أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟ بلى وعن يقين ! ويختم السورة بصورة الفريق الآخر . الذين جاهدوا في اللّه ليصلوا إليه ويتصلوا به . الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا . الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس . الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب . . أولئك لن يتركهم اللّه وحدهم ولن يضيع إيمانهم ، ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم . وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم . وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم . وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء :

«وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا . وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 5 صـ 2744 . 2752 ﴾

(350/599)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ بالله لأن عقولهم مؤيدة بأنوار العلم اللدني ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ الذين ينظرون بنور الله فان النور لا يرى إلا بالنور ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة ﴾ فيه أن التلاوة والعمل به يجب أن يتقارنا حتى يتخلق بخلق القرآن ويحصل الانتهاء عن الفحشاء وهي طلب الدنيا .

(351/599)

والمنكر وهو الالتفات إلى غير الله فإن لم تكن الصلاة متصفة بذلك فهي كالصلاة . ﴿ ولذكر الله ﴾ في إزالة مرض القلب ﴿ أكبر ﴾ من تلاوة القرآن وإقامة الصلاة ، لأن القلب لا يطمئن إلا بذكر الله ، وعند الاطمئنان توجد سلامة القلب . فلاذكر له خاصية الإكسير في جعل الإبريز ذهباً خالصاً . ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ من استعمال مفتاح الشريعة وآداب الطريقة لفتح أبواب طلسم الوجود المجازي والوصول إلى الكنز الخفي ﴿ ولا تجادلوا ﴾ يا ارباب القلوب أهل العلم الظاهر إلا بطريق الإنصاف والرفق ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ بمزيد الإنكار والعناد فحينئذ لا تجادلوهم إذ لا يرجى منهم قبول الحق والإذعان له ، فخلوا بينهم وبين باطلهم ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا ﴾ من العلوم الباطنة ﴿ وأنزل إليكم ﴾ من العلوم الظاهرة ﴿ وكذلك ﴾ اي كما أنزلنا الدلائل والبراهين العقلية على أهل الظاهر

﴿ أنزلنا عليكم ﴾ الكشوف والمعارف ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم أرباب القلوب يصدقون به ، ﴿ ومن هؤلاء ﴾ العلماء الظاهريين من يؤمن به ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الذين ﴾ يشترون الحق بالباطل ﴿ وما كنت تتلو ﴾ وفيه أن القلب إذا كان خالياً عن النقوش الفاسدة كان أقبل للعلوم اللدنية كقلب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ يعني أن قلوب الخواص خزائن الغيب . سأل موسى عليه السلام : إلهي أين أطلبك ؟ فقال : أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي . ثم اشار بقوله ﴿ وما يجحد ﴾ إلى أن الحرمان من الرؤية من خصوصية الرين ولهذا قالوا ﴿ لولا أنزل عليه آية ﴾ وذلك لعمى عيون قلوبهم . ثم أشار إلى ظلومية الإنسان وجهوليته بأنه يستعجل بالعذاب مع عدم صبره عليه ﴿ وإن جهنم ﴾ الحرص وغيره من الأخلاق الذميمة ﴿ لمحيطة ﴾ بهم من فوقهم وهو الكبر والغضب ﴿ ومن تحت أرجلهم ﴾ وهو الحرص والشره والشهوة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ لأنهم نائمون فإذا ماتوا انتبهوا ﴿ يا عبادي ﴾

(352/599)

أن أرض حضرة جلالي ﴿ واسعة ﴾ فهاجروا بالخروج من حبس وجودكم إلى سرادقات هويتي ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ بالإضطرار فارجعوا إلينا بالاختيار ﴿ لنبوئنكم ﴾ من جنة الوصال غرفاً من المعارف ﴿ تجري من تحتها ﴾ أنهار الحكمة ﴿ الذين صبروا ﴾ في البابة على حبس النفس بالفطام عن المرام ، وفي الوسط على تجرع القلب كاسات التقدير من غير تعبير ، وفي النهاية صبروا على بذل الروح لنيل الفتوح ﴿ وكأين من دابة ﴾ شخص كالدابة ﴿ لا تحمل ﴾ النظر عن ﴿ رزقها ﴾ لضعف نفسها عن التوكل ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أيها الطالبون للمشاهدات والمكاشفات ﴿ ليقولن الله ﴾ لأن كلهم قالوا في الأزل : بلى عند خطاب ﴿ الست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] والفرق إثبات الشريك ونفيه وذلك لعدم إصابة النور المرشش وإصابة دليله قوله ﴿ الله يبسط الرزق ﴾ بإصابته النور ﴿ ويقدر ﴾ بأخطائه ﴿ إن الله عليم ﴾ باستحقاق كل فريق من نزل من سماء الروحانية ماء الإيمان فأحيا به أرض القلوب ﴿ لهي الحيوان ﴾ لأن جميع أجزائها حي فقد ورد في الحديث

" إن الجنة وما فيها من الأشجار والأثمار والغرف والحيطان والأنار حتى ترابها وحصباؤها كلها حي " قلت : ولعل ذلك لبقاء كل منها على كماله الآخر . ثم بين بقوله ﴿ فإذا ركبوا ﴾ أن إخلاص المؤمن بثابت وإخلاص الكافر مضطرب ثم بين أن حرم القلب آمن وما حوله من صفات النفس ومشاهدة ربها مظنة تصرف الشيطان ، فمن افترى على

الله بأن لا يكون له مع الله وقت وحال ويظهر ذلك من نفسه ، أو كذب طريقة أهل الحق جاهدوا فينا يخرج منه مجاهدة الرهبانيين والفلاسفة والبراهمة ونحوهم لأنهم مرتاضون رياء وكسلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 397 . 398 ﴾

(353/599)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾ [العنكبوت : 2] الآية قال ابن عطاء : ظن الخلق أنهم يتركون مع دعاوى المحبة ولا يطالبون بحقائقها وهي صب البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء الظاهر والباطن ، وهذا كما قال العارف ابن الفارض قدس سره :

وتعذيبكم عذب لدى وجوركم . . .

علي بما يقضي الهوى لكم عدل

(354/599)

وذكروا أن المحبة والمحنة توأمان وبالامتحان يكرم الرجل أو يهان ﴿ وَمِنَ الناس مَن يقُولُ ءامَنَّا بالله فَإِذَا أُوذِىَ فِى الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله ﴾ [العنكبوت : 10] إشارة إلى حال الكاذبين في دعوى المحبة وهم الذين يصرفون عنها بأذى الناس لهم ﴿ إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فابتغوا عِندَ الله الرزق واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : 17] قال ابن عطاء : أي اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة ، وقال سهل : اطلبوه في التوكل لا في المكسب فإن طلب الرزق فيه سبيل العوام ﴿ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إلى رَبِّى ﴾ [العنكبوت : 26] أي مهاجر من نفسي ومن الكون إليه عز وجل ، وقال ابن عطاء : أي راجع إلى ربي من جميع مالي وعلي ، والرجوع إليه عز وجل بالانفصال عما دونه سبحانه ، ولا يصح لأحد الرجوع إليه تعالى وهو متعلق بشيء من الكون بل لا بد أن ينفصل من الأكوان أجمع ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ [العنكبوت : 29] سئل الجنيد قدس سره عن هذه الآية فقال : كل شيء يجتمع الناس عليه إلا الذكر فهو منكر ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت ﴾ [العنكبوت : 41] أشار سبحانه وتعالى إلى من اعتمد على غير الله عز وجل في أسباب الدنيا والآخرة فهو منقطع عن مراده غير واصل إليه ، قال ابن عطاء : من اعتمد شيئاً سوى الله تعالى كان هلاكه في نفس ما اعتمد عليه ، ومن اتخذ سواه عز وجل ظهيراً قطع عن نفسه سبيل العصمة ورد إلى حوله وقوته .

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] فيه إشارة إلى أن دقائق المعارف لا يعرفها إلا أصحاب الأحوال العالمون به تعالى وبصفاته وسائر شؤونه سبحانه لأنهم علماء المنهج ، وذكر أن العالم على الحقيقة من يحجزه علمه عن كل ما يبيحه العلم الظاهر ، وهذا هو المؤيد عقله بأنوار العلم اللدني ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾ ذكر أن حقيقة الصلاة حضور القلب بنعت الذكر والمراقبة بنعت الفكر فالذكر في الصلاة يطرد الغفلة التي هي الفحشاء والفكر يطرد الخواطر المذمومة وهي المنكر ، هذا في الصلاة وبعدها تنهى هي إذا كانت صلاة حقيقية وهي التي انكشف فيها لصاحبها جمال الجبروت وجلال الملكوت وقرت عيناه بمشاهدة أنوار الحق جل وعلا عن رؤية الأعمال والأعواض ، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : الصلاة إذا كانت مقبولة تنهى عن مطالعات الأعمال والأعواض ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : 45] قال ابن عطاء : أي ذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم له سبحانه لأن ذكره تعالى بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأماني والسؤال ، وأيضاً ذكره تعالى صفته وذكركم صفتكم ولا نسبة بين صفة الخالق جل شأنه وبين صفة المخلوق وأين التراب من رب الأرباب

﴿ بَلْ هُوَ ءايات بينات فِى صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ [العنكبوت : 49] فيه إشارة إلى أن عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلا لأرواح المقربين من العارفين والعلماء الربانيين لأنها أماكن أسرار الصفات وأوعية لطائف كشوف الذات ، قال الصادق على آبائه وعليه السلام : لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون ﴿ ياعبادى الذين ءامَنُواْ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فاعبدون ﴾ [العنكبوت : 56] قال سهل : إذا عمل بالمعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين ، وكأن هذا لئلا تنعكس ظلمة معاصي العاصين على قلوب الطائعين فيكسلوا عن الطاعة ، وذكروا أن سفر المريد سبب للتخلية والتحلية ، وإليه الإشارة بما أخرجه الطبراني والقضاعي ، والشيرازي في الألقاب ، والخطيب ، وابن النجار ، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سافروا تصحوا وتغنموا كل نفس ذائقة الموت فلا يمنعنكم خوف الموت من السفر " ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت : 60] فلا يمنعنكم عنه فقد الزاد أو العجز عن حمله ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ قال ابن عطاء : أي الذين جاهدوا في رضانا لنهدينهم إلى محل الرضا ،

والمجاهدة كما قال : الافتقار إلى الله تعالى بالانقطاع عن كل ما سواه ، وقال بعضهم : أي الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف لنوصلن أسرارهم إلى اللطائف ، وقيل : أي الذين جاهدوا نفوسهم لأجلنا وطلبا لنا لنهدينهم سبل المعرفة بنا والوصول إلينا ، ومن عرف الله تعالى عرف كل شيء ومن وصل إليه هان عنده كل شيء ، كان عبد الله بن المبارك يقول : من اعتاصت عليه مسألة فليسأل أهل الثغور عنها لقوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت ؛ 96) وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر .

نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى والحفظ التام من كل شر بحرمة حبيبه سيد البشر صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(357/599)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (3)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (أن) حرف مصدريّ ونصب ، و(الواو) في (يتركوا) نائب الفاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يتركوا . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي حسب .

والمصدر المؤوّل (أن يقولوا . . .) في محلّ جرّ باللام محذوفة متعلّق بـ (يتركوا) " 1 " ،

(الواو) حاليّة (لا) نافيّة ، و(الواو) في (يفتنون) نائب الفاعل .

---

(1) أو في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بحال من نائب الفاعل أي متمسّكين بقولهم آمنا .

جملة : " حسب الناس . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " يتركوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " آمنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هم لا يفتنون . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يفتنون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(3) (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (من قبلهم) متعلّق

بمحذوف صلة الموصول (الفاء) عاطفة وكذلك (الواو) ، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر في الموضعين (يعلمنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع (الذين) اسم موصول مفعول به في محلّ نصب .

وجملة : " فتنّا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على الجملة الابتدائيّة .

وجملة : " يعلمنّ (الأولى) " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة : " القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة الأولى .

وجملة : " يعلمنّ . . . (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعلمنّ الأولى " 1 " .

البلاغة

الالتفات : في قوله تعالى فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ .

---

(1) أو هي جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم الأول .

الالتفات إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب ، لزيادة التأكيد والتقرير ، أي فو اللّه ليتعلقن علمه بالامتحان ، تعلقا حاليا ، يتميز به الذين صدقوا في

الايمان الذي أظهروه ، والذين هم كاذبون فيه ، مستمرون على الكذب ، ويترتب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب .

التعبير بالصيغة الفعلية والصيغة الاسمية : في قوله تعالى " فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ " مخالفة بين الصيغة الفعلية وهي " صدقوا " والصيغة الاسمية في قوله " الكاذبين " . والنكتة في هذه المخالفة ، أن اسم الفاعل يدل على ثبوت المصدر في الفاعل ، ورسوخه فيه . والفعل الماضي لا يدل عليه ، لأن وقت نزول الآية كانت حكاية عن قوم قريبي عهد بالإسلام ، وعن قوم مستمرين على الكفر ، فعبر في حق الأولين بلفظ الفعل ، وفي حق الآخرين بالصيغة الدالة على الثبات .

الفوائد

- أفعال القلوب .

تقسم أفعال القلوب إلى ثلاثة أقسام :

أ- ما لا يتعدّى بنفسه ، ولا بد له من جارّ يتعدى بواسطته ، نحو : فكر في الأمر .

ب - ما يتعدى لمفعول واحد وبنفسه ، نحو : عرف الحق ، وفهم المسألة .

ج - وما يتعدّى لمفعولين بنفسه ، وأصلهما مبتدأ وخبر ، يقول زفر بن الحارث الكلابي :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية لاقينا جذام وحميرا

أي كان يظنهم شجعانا فتبينوا بخلاف ذلك .

وبعد نرجو أن يكون قد اتضح معنى الآية ، أي أحسب الذين سارعوا إلى النطق بالشهادة استسهلوها وتعالوا بها على الآخرين ، إنهم سيتركون دون اختبار ، بل يمتحنهم اللّه بضروب من الابتلاء والمحن . فليس الايمان كلمات تردد على الألسنة دون أن تؤيد بالأقوال وتمازج العقول والقلوب .

[سورة العنكبوت (29) : آية 4]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (4)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة أي للإضراب الانتقاليّ والتوبيخ (أن) حرف مصدريّ ونصب .

والمصدر المؤوّل (أن يسبقونا) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي حسب .

(ساء) فعل ماض لإنشاء الذّم ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره هو (ما) تمييز الفاعل " 1 " ، والمخصوص بالذّمّ محذوف تقديره حكمهم .

وجملة : " حسب الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يسبقونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ساء ما يحكمون . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحكمون " في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 5 إلى 7]

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (7)

الاعراب

(كان) فعل ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) المزحلقة للتوكيد (آت) خبر إنّ

---

(1) يجوز أن يكون (ما) موصولا فاعلا ، وجملة يحكمون صلته ، والعائد محذوف أي يحكمون به .

مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة (الواو) استئنافيّة (العليم) خبر ثان مرفوع.

وجملة: "من كان . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كان يرجو . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: "إنّ أجل اللّه . . . "لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي: فليستعدّ له لأن أجل اللّه آت.

وجملة: "هو السميع . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

(6) (الواو) عاطفة (من جاهد) مثل من كان . . (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (لنفسه) متعلّق بـ (يجاهد) (اللام) المزحلقة للتوكيد (عن العالمين) متعلّق بغنيّ.

وجملة: "من جاهد . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة من كان.

وجملة: "جاهد "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: "إنّما يجاهد . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "إنّ اللّه لغنيّ . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

(7) (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نكفّرنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع والفاعل نحن للتعظيم (عنهم) متعلّق بـ (نكفّرنّ)، (لنجزينّهم) مثل

(لنكفرنّ) ، (الذي) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من جاهد .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " نكفّرنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 1 " .

وجملة : " نجزينّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر الثاني . .

وجملة القسم المقدّرة في محلّ رفع معطوفة على جملة القسم الأولى .

وجملة : " كانوا يعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يعملون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا . . .

[سورة العنكبوت (29) : آية 8]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بوالديه) متعلّق بـ (وصّينا) ، (حسنا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته على حذف مضاف أي إيصاء ذا حسن " 2 " ، (الواو) عاطفة (جاهداك)

فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط (اللام) لام التعليل (تشرك) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (بي) متعلّق بـ (تشرك) ، (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به " 3 " ، (لك) متعلّق بخبر ليس محذوفا ، (به) متعلّق بحال من (علم) " 4 " وهو اسم ليس مؤخر (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية جازمة .

---

(1) أو الخبر محذوف لدلالة جواب القسم عليه .

(2) أو مفعول مطلق لفعل محذوف نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في الاشتقاق أي : أحسن إليهما حسنا .

(3) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب ، والجملة بعدها نعت لها .

(4) أو متعلّق بالخبر المحذوف .

والمصدر المؤوّل (أن تشرك) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جاهداك) .

(إليّ) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ مرجعكم (الفاء) عاطفة (ما) حرف مصدريّ . . . " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أنبّئكم) .

جملة : " وصينا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن جاهداك " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تشرك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المقدّر .

وجملة : ليس لك به علم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا تطعهما . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إليّ مرجعكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أنبّئكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إليّ مرجعكم .

وجملة : " كنتم تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي كنتم تعملونه .

وجملة : " تعملون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

الفوائد

-

قيل : إن سعد بن أبي وقاص ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، قالت له أمه ، وهي حمنة

بنت أبي سفيان : يا سعد ، بلغني أنك قد صبأت ، فو اللّه لا يظلني سقف بيت من الضحّ والريح ، وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد . وكان أحب ولدها إليها . فأبى سعد ، وبقيت ثلاثة أيام كذلك .

فجاء سعد إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) وشكا إليه ، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان ، والتي في الأحقاف . فأمره رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) أن يداريها ويترضاها بالإحسان إلخ . وفي رواية ، أن سعدا قال لها : واللّه لو كان لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ، ما كفرت بمحمد ، فإن شئت فكليّ ، وإن شئت فلا تأكلي . فلما رأت ذلك أكلت .

وقيل : إنها نزلت بأناس آخرين . ولا فرق بين هذه الآراء ، فالغاية واحدة ، وهي برّ الوالدين وطاعتهما ، وهي واجبة في الإسلام ما لم يأمرا بمعصية ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

[سورة العنكبوت (29) : آية 9]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الذين آمنوا . . . لندخلنّهم) مثل الذين آمنوا . . . لنكفّرنّ " 1 "

مفردات وجملا (في الصالحين) متعلّق بـ (ندخلنّهم) .

---

(1) في الآية (7) من هذه السورة.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (11) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (13)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من الناس) خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (من) " 1 " ، (باللّه) متعلّق بـ (آمنّا) ، (الفاء) عاطفة ، ونائب الفاعل لفعل (أوذي) ضمير مستتر تقديره هو (في اللّه) متعلّق بـ (أوذي) بحذف مضاف أي في سبيل اللّه " 2 " ، (كعذاب) متعلّق بمفعول به ثان عامله جعل (الواو) عاطفة (اللام) موطّئة لقسم (إن) حرف شرط جازم (جاء) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط (من ربّك) متعلّق بنعت لنصر " 3 " ، (اللام) الثانية لام

القسم (يقولن) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين ، فاعل ، و(النون) نون التوكيد (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (معكم) ظرف منصوب متعلّق بخبر كنّا (الهمزة) للاستفهام (الواو) استئنافيّة (أعلم) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس (ما) اسم موصول في محلّ جرّ بالباء متعلّق بأعلم (في صدور) متعلّق بمحذوف صلة ما .

جملة : " من الناس من يقول . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) أو هو نعت لمبتدأ مقدّر ، والخبر (من يقول) أي : بعض من الناس من يقول . . .

(2) أو (في) سببيّة .

(3) أو متعلّق بـ (جاء) ومن لابتداء الغاية . [. . . . .]

(365/599)

وجملة : " آمنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أوذي . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إن جاء نصر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يقولنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " إنّا كنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنّا . . . معكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أو ليس اللّه بأعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة – أو اعتراضيّة .

(11) (الواو) عاطفة (ليعلمنّ اللّه المنافقين) مرّ إعراب نظيرها " 1 " مفردات وجملا .

(12) (الواو) عاطفة (للذين) متعلّق بـ (قال) ، (الواو) عاطفة (اللام) لام الأمر (الواو) الثانية اعتراضيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (حاملين) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما (من خطاياهم) متعلّق بحال من شيء (شيء) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به لاسم الفاعل حاملين (اللام) المزحلقة للتوكيد .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " اتّبعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لنحمل . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " ما هم بحاملين . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " إنّهم لكاذبون . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ (13) (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (يحملنّ) مثل

---

(1) في الآية (3) من هذه السورة .

يقولنّ " 1 " ، (مع) ظرف منصوب متعلّق بنعت لأثقال (يسألنّ) مثل يقولنّ " 2 " ، و(الواو) المحذوفة فيه نائب الفاعل (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يسألنّ) ، (عما) متعلّق بـ (يسألنّ) " 3 " . . .

وجملة : " يحملنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . .

وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الذين . . .

وجملة : " يسألنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " كانوا يفترون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ أو الاسميّ .

وجملة : " يفترون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(حاملين) جمع حامل اسم فاعل من الثلاثي حمل ، وزنه فاعل والجمع فاعلين .

الفوائد

- يقلّ دخول لام الأمر ولا الناهية على المتكلم المفرد المعلوم ، فإن كان المتكلم أكثر من واحد ، فيكون دخولهما عليه أيسر ، كقول الشاعر :

إذا ما خرجنا من دمشق فلا نعد لها أبدا ما دام فيها الجراضم

وكما ورد في الآية المذكورة " وَلْنَحْمِلْ خَطايا كُمْ " .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 14 إلى 15]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (15)

(1 ، 2) في الآية (10) من هذه السورة .

(3) (ما) حرف مصدريّ أو اسم موصول والعائد محذوف .

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (إلى قومه) متعلّق بـ

(أرسلنا) (الفاء) عاطفة في الموضعين (فيهم) متعلّق بـ (لبث) ، (ألف) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (لبث) ، (سنة) مضاف إليه مجرور (إلّا) أداة استثناء (خمسين) منصوب على الاستثناء وعلامة النصب الياء ، ملحق بجمع المذكّر (عاما) تمييز منصوب (الواو) واو الحال .

وجملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " لبث . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " أخذهم الطوفان . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي فكذّبوه فأخذهم . .

وجملة : " هم ظالمون . . . " في محلّ نصب حال .

(15) (الفاء) عاطفة وكذلك (الواو) في الموضعين – أو واو الحال في الثانية – (أصحاب) معطوف على الضمير المفعول في (أنجيناه) ، (آية) مفعول به ثان عامله جعلناها (للعالمين) متعلّق بنعت لآية .

وجملة : " أنجيناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذهم الطوفان .

وجملة : " جعلناها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنجيناه " 1 " .

البلاغة

نكتة العدد : في قوله تعالى فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً .

فإن لقائل أن يقول : هلا قيل : تسعمائة وخمسين سنة ؟ الجواب : ما أورده اللّه أحكم ، لأنه لو قيل : تسعمائة وخمسين سنة ، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد

---

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير قد .

الجدول ج 20 ، ص : 319

على أكثره ، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك ، وكأنه قيل : تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد ، إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة ، وفيه نكتة أخرى : وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمّته ، وما كابده من طول المصابرة ، تسلية لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) فكان ذكر رأس العدد أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 16 إلى 18]

(368/599)

وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ

كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إبراهيم) معطوف على (نوحا) " 1 " منصوب (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (أرسلنا) " 2 " ، (لقومه) متعلّق بـ (قال) ، (لكم) متعلّق بخير (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - في محلّ جزم فعل الشرط .

وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اعبدوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) في الآية (14) من هذه السورة ، أو معطوف على ضمير المفعول في (أنجيناه) - الآية 15 - أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره : اذكر ، والعطف يغدو من عطف الجمل .

(2) أو متعلّق بـ (أنجينا) . . . أو هو بدل اشتمال من إبراهيم إذا كان منصوبا بـ (اذكر) .

وجملة : " اتّقوه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اعبدوا . . .

وجملة : " ذلكم خير لكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كنتم تعلمون . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " تعلمون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

(17) (إنّما) كافّة ومكفوفة (من دون) متعلّق بحال من (أوثانا) ، والثاني متعلّق بحال من العائد المقدّر أي تعبدونه من دون اللّه (لا) نافية (لكم) متعلّق بحال من (رزقا) ، وهو مفعول به عامله يملكون " 1 " (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (ابتغوا) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (له) متعلّق بـ (اشكروا) ، (إليه) متعلّق بـ (ترجعون) ، والواو فيه نائب الفاعل .

وجملة : " تعبدون . . . " لا محلّ لها تعليل ثان " 2 " .

وجملة : " تخلقون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تعبدون .

وجملة : " إنّ الذين تعبدون . . . " لا محلّ لها تعليل للتعليل .

وجملة : " تعبدون (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يملكون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ابتغوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن احتجتم إلى شيء فابتغوا .

وجملة : " اعبدوه . . . " معطوفة على جملة ابتغوا . . .

وجملة : " اشكروا له . . . " معطوفة على جملة ابتغوا . .

---

(1) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه يلاقي الفعل في المعنى أي يرزقونكم رزقا .

(2) أو استئناف آخر في حيّز القول .

الجدول ج 20 ، ص : 321

وجملة : " ترجعون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(18) (الواو) عاطفة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (من قبلكم) متعلّق بنعت لأمم " 1 " (الواو) عاطفة (ما) نافية مهملة (على الرسول) متعلّق بخبر مقدّم (إلّا) للحصر (البلاغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع .

وجملة : " إن تكذّبوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 2 " .

وجملة : " قد كذّب أمم . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي : إن تكذّبوا فلا يضرّني تكذيبكم لأنه قد كذّب أمم . . .

وجملة : " ما على الرسول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قد كذّب . . .

البلاغة

التنكير : في قوله تعالى لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً :

---

(1) أو متعلّق بـ (كذّب) .

(2) قيل إن هذا الكلام إلى قوله : " عذاب أليم " - الآية 23 - هو من قول محمد عليه السلام معترض في قصة إبراهيم .

نكر الرزق ثم عرفه ، لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق ، فابتغوا عند اللّه الرزق ، فإنه هو الرزاق وحده ، لا يرزق غيره .

[سورة العنكبوت (29) : آية 19]

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (كيف)

اسم استفهام في محلّ نصب حال عاملها يبدئ (ثم) حرف استئناف " 1 " ، (على اللّه) متعلّق بيسير .

جملة : " لم يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أغفلوا ولم يروا . . .

وجملة : " يبدئ اللّه . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل الرؤية وقد علّق بالاستفهام كيف .

وجملة : " يعيده . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ ذلك . . . يسير . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

[سورة العنكبوت (29) : آية 20]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

الإعراب :

(في الأرض) متعلّق بـ (سيروا) ، (الفاء) عاطفة (كيف بدأ . . .) مثل كيف يبدئ " 2 " ، (ثمّ) حرف استئناف (النشأة) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في الاشتقاق ، منصوب (على كلّ) متعلّق بقدير .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سيروا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) قال الأستاذ عبّاس حسن في كتابه (النحو الوافي : " لا يجوز أن يكون (ثمّ) هنا حرف عطف ، لأن إعادة الخلق لم تقع ، فكيف يقرّون برؤيتها ؟ . ويؤكّد كونها للاستئناف قوله بعد ذلك : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثمّ اللّه ينشئ النشأة الآخرة . فمن المستحيل أن يسيروا فينظروا بدء الخلق ثمّ إنشاء النشأة الآخرة . . . " اه ملخّصا . . . " هذا وللمعربين تأويلات غير مقنعة لإثبات العطف ، ورأي الأستاذ عباس حسن

يوافق رأي ابن هشام في المغني .

(2) في الآية السابقة (19) .

(371/599)

وجملة : " انظروا . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

وجملة : " بدأ الخلق . . . " في محلّ نصب مفعول به ، وقد علّق فعل النظر بالاستفهام كيف .

وجملة : " اللّه ينشئ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينشئ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (للّه) .

وجملة : " إنّ اللّه . . . قدير " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(النشأة) ، اسم مصدر للرباعيّ أنشأ ، أو هو مصدر الثلاثيّ نشأ باب فتح أو نشؤ باب كرم . . وثمّة مصادر أخرى للثلاثيّ هي : نشأ – بفتح فسكون – ونشوء – بضمّ النون – ونشاء ونشاءة – بفتح النون – ووزن النشأة فعلة بفتح فسكون ، ويلاحظ أنّه على وزن

مصدر المرّة.

البلاغة

(372/599)

الإضمار والإظهار: في قوله تعالى فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ" فإن لقائل أن يقول: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله "ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ" بعد إضماره في قوله "كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ" وكان القياس أن يقال: كيف بدأ اللّه الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة. الجواب: أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة، وكان صدر الكلام واقعا معهم في الإبداء، وقرر لهم أن ذلك من اللّه، احتج عليهم بأن الاعادة إنشاء مثل الإبداء، وإذا كان اللّه الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء، فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة، فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ.

[سورة العنكبوت (29): آية 21]

يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (إليه) متعلّق بـ (تقلبون) ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

جملة : " يعذّب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " يرحم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعذّب .

وجملة : " يشاء (الثانية) لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " تقلبون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعذّب .

[سورة العنكبوت (29) : آية 22]

وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (22)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما أنتم بمعجزين) مثل ما هم بحاملين " 2 " ، (في الأرض) متعلّق بحال من الضمير في معجزين (لا) زائدة لتأكيد النفي (في السماء) متعلّق بما تعلّق به (في الأرض) فهو معطوف عليه (الواو) عاطفة (ما) نافية مهملة (لكم) متعلّق بخبر مقدّم (من دون) متعلّق بحال من (وليّ) ، وهو مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (نصير) معطوف على وليّ مرفوع محلا مجرور لفظا .

جملة : " ما أنتم بمعجزين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يمكن أن تكون خبرا ثانيا للمبتدأ لفظ الجلالة في الآية السابقة.

(2) في الآية (12) من هذه السورة. [. . . . . .]

وجملة: "ما لكم . . . من وليّ . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

[سورة العنكبوت (29): آية 23]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (بآيات) متعلّق بـ (كفروا)، (أولئك) اسم إشارة مبتدأ ثان في محلّ رفع (من رحمتي) متعلّق بـ (يئسوا)، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ عذاب . . .

وجملة: "الذين كفروا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أنتم بمعجزين" 1 ".

وجملة: "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "أولئك يئسوا . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين).

وجملة: "يئسوا . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك).

وجملة: "أولئك لهم عذاب" في محلّ رفع معطوفة على جملة أولئك يئسوا.

وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) الثاني .

[سورة العنكبوت (29) : آية 24]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24)

---

(1) في الآية السابقة (22) .

(374/599)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة " 1 " ، (ما) نافية) (جواب) خبر كان (إلّا) للحصر (أن) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (أن قالوا . . .) في محلّ رفع اسم كان المؤخّر .

(أو) حرف عطف وكذلك (الفاء) (من النار) متعلّق بـ (أنجاه) ، (في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (آيات) اسم إنّ منصوب ، وعلامة النصب الكسرة (لقوم) متعلّق بنعت لآيات .

جملة : "كان جواب قومه . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " اقتلوه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " حرّقوه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أنجاه اللّه " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي فقذفوه فأنجاه .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يؤمنون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم . .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 25 إلى 27]

وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

---

(1) رجوع إلى قصّة إبراهيم عليه السّلام . . أو الفاء عاطفة وما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراض .

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إنّما) كافّة ومكفوفة " 1 " ، (من دون) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (مودّة) مفعول لأجله منصوب (بينكم) مضاف إليه مجرور ، وقد توسّع في الظرف (في الحياة) متعلّق بـ (اتّخذتم) " 2 " ، (ثمّ) حرف عطف (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يكفر) ، وكذلك (يبعض) ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (ما لكم من ناصرين) مثل ما لكم . . من وليّ " 3 " .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّخذتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يكفر بعضكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اتّخذتم .

وجملة : " يلعن بعضكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اتّخذتم .

وجملة : " مأواكم النار " في محلّ نصب معطوفة على جملة اتّخذتم .

---

(1) جعل بعض المعربين (ما) حرفا مصدريا ، والمصدر المؤوّل (ما اتّخذتم) في محلّ نصب اسم إنّ ، والخبر محذوف أي : إنّ اتّخاذكم أوثانا مودة بينكم لا ينفعكم .

(2) أو متعلّق بمودّة .

(3) في الآية (22) من السورة .

وجملة : " ما لكم من ناصرين " في محلّ نصب معطوفة على جملة اتّخذتم .

(26) (الفاء) عاطفة (له) متعلّق بـ (آمن) ، (إلى ربّي) متعلّق بمهاجر ، وياء المتكلّم تعود إلى إبراهيم " 1 " ، (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ ، خبره (العزيز) ، (الحكيم) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " آمن له لوط . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال . .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمن .

وجملة : " إنّي مهاجر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّه هو العزيز . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هو العزيز . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(27) (الواو) عاطفة (له) متعلّق بـ (وهبنا) " 2 " ، (في ذرّيته) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلنا (في الدنيا) متعلّق بـ (آتيناه) ، (في الآخرة) متعلّق بالصالحين (من الصالحين) متعلّق بخبر إنّ ، و(اللام) المزحلقة .

وجملة : " وهبنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال .

وجملة : " وجعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وهبنا .

وجملة : " آتيناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وهبنا .

وجملة : " إنّه . . . من الصالحين " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيناه .

---

(1) هذا رأي الجمهور ، وبعض المفسّرين يقول إنّها تعود على لوط عليه السّلام .

(2) وهب المال فلانا ولفلان .

(376/599)

الفوائد

- قوله تعالى إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ قال أبو البقاء : تعرب " ما " على ثلاثة أوجه :

أ- إنها بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي اتخذتموه . " و أوثانا " مفعول ثان أو حال و " مودة " خبر على قراءة من رفع .

ب - هي كافة ، وأوثانا مفعول ، ومودة مفعول له في حالة النصب ، وبالرفع على إضمار مبتدأ .

ج - أن تكون " ما " مصدرية ، ومودة خبر في حالة الرفع والتقدير : إنّ سبب اتخاذكم مودة .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 28 إلى 29]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (28) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا

ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29)

الإعراب :

(377/599)

(الواو) عاطفة (لوطا) معطوف على إبراهيم - أو نوح - منصوب " 1 " ، (إذ) ظرف في محلّ نصب متعلّق بالفعل المقدّر أرسلنا " 2 " ، (لقومه) متعلّق بـ (قال) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (بها) متعلّق بحال من ضمير المفعول أي متلبّسين بها (أحد) مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل سبقكم (من العالمين) متعلّق بنعت لأحد .

جملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) أو مفعول به لفعل محذوف تقديره (اذكر) ، والعطف من عطف الجمل .

(2) أو هو بدل اشتمال من (لوطا) إذا كان معمولا لـ (اذكر) .

(378/599)

وجملة : " إنّكم لتأتون . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " تأتون الفاحشة . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ما سبقكم بها من أحد . . . " في محلّ نصب حال من الفاحشة أو من الفاعل .

(29) (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (إنّكم لتأتون الرجال) مثل إنّكم لتأتون الفاحشة (الواو) عاطفة في الموضعين (الفاء) استئنافيّة (في ناديكم) متعلّق بحال من المنكر " 2 " ، (ما كان . . . قالوا) مثل الأولى المتقدّمة " 3 " ، (بعذاب) متعلّق بـ (ائتنا) (كنت) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط (من الصادقين) متعلّق بخبر كنت .

وجملة : " إنّكم لتأتون . . . (الثانية) " في محلّ نصب بدل من جملة إنّكم لتأتون الفاحشة .

وجملة : " تأتون الرجال . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تقطعون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة تأتون الرجال .

وجملة : " تأتون . . . المنكر " في محلّ رفع معطوفة على جملة تأتون الرجال .

وجملة : " ما كان جواب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) أو استئنافيّة في حيّز القول لا محلّ لها .

(2) أو متعلّق بـ (تأتون) .

(3) في الآية (24) من هذه السورة .

والمصدر المؤوّل (أن قالوا . . .) في محلّ رفع اسم كان المؤخّر .

وجملة : " ائتنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنت من الصادقين " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

الفوائد

- الجملة التي في محل جر :

هي ثلاثة أنواع :

أ- الجملة الواقعة بعد ظرف : فهي في محلّ جر بالاضافة ، نحو الجملة التي نحن حيالها ، وهي : ولوطا إذ قال لقومه ، فقد أضيف الظرف " إذ " إلى جملة " قال " .

ب - الجملة الواقعة صفة لاسم مجرور ، نحو اقرأ في كتاب خطّه واضح ، فجملة " خطه واضح " من المبتدأ والخبر في محل جر صفة للكتاب .

ج - الجملة التابعة لجملة في محلّ جرّ ، سواء أكانت معطوفة أم بدلية ، أم توكيدية ، نحو " الأستاذ إذا نصح الطلاب وحذرهم فهو مخلص لهم " فجملة وحذرهم معطوفة على جملة

نصح التي هي في محلّ جرّ ، فهي مجرورة أيضا .

- ما ينوب عن الفاعل أربعة :

أ- المفعول به : وهو الأساس والرأس ، نحو قضي الأمر .

ب - المجرور بالحرف ، نحو " لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ " .

ج - الظرف المتصرف ، وهو ما يصح الاسناد إليه ، مثل : يوم وليلة وشهر وسنة وعام ودهر إلخ . . . نحو : صيم رمضان ، ومشي يوم ، وقعد ليلة .

د - المصدر المتصرف المختص ، نحو : فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ .

[سورة العنكبوت (29) : آية 30]

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30)

الإعراب :

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على آخره . . . و(الياء) المحذوفة للتخفيف مضاف إليه (على القوم) متعلّق بـ (انصرني) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " انصرني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

[سورة العنكبوت (29) : آية 31]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (31)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا (بالبشرى) متعلّق بحال من فاعل جاءت أو من مفعوله (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (القرية) بدل من هذه - أو عطف بيان - .

جملة: "جاءت رسلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "إنّا مهلكو . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "إنّ أهلها كانوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كانوا ظالمين" في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة العنكبوت (29): آية 32]

قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (32)

الإعراب :

(فيها) متعلّق بخبر إنّ (بمن) متعلّق بأعلم (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (ننجّينّه) مضارع مبني على الفتح في محلّ رفع (أهله) معطوف على ضمير المفعول (في ننجّينّه) ، منصوب (إلّا) أداة استثناء (امرأته) منصوب على الاستثناء (من الغابرين) متعلّق بخبر كانت .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ فيها لوطا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نحن أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ننجّينّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " كانت من الغابرين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

البلاغة

فن الاشارة : في قوله تعالى إِنَّ فِيها لُوطاً .

(381/599)

ليس المراد إخبارا لهم بكونه فيها ، وإنما هو جدال في شأنه ، لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم ، اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم ، وأراد بالجدل : إظهار الشفقة عليهم ، وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه ، والتشمر في نصرته وحياطته ، والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر ، هذا من بليغ الاشارة وخفيها .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 33 إلى 35]

وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمّا . . . لوطا) مثل لمّا . . .

إبراهيم " 1 " ، (أن) زائدة ، ونائب الفاعل لفعل (سيء) ضمير مستتر تقديره هو أي لوط " 2 " ، (بهم) متعلّق بـ (سيء) والباء سببيّة (بهم) الثاني متعلّق بـ (ضاق) (ذرعا) تمييز منصوب محوّل من فاعل أي ضاق ذرعه بهم (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لا) ناهية جازمة في الموضعين (إنّا منجّوك) مثل إنّا مهلكو . . . ، (أهلك) مفعول به لفعل محذوف تقديره ننجّي " 3 " ، (إلّا . . . الغابرين) مثل إلّا امرأته كانت من الغابرين " 4 " .

جملة : " جاءت رسلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سيء بهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ضاق بهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيء بهم .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيء بهم .

---

(1) في الآية (31) من هذه السورة .

(2) يجوز أن يعود الضمير إلى مصدر الفعل بمعنى جاءته المساءة . [. . . . .]

(3) هذا على رأي سيبويه ، ويجيز الأخفش عطف الاسم على محلّ الكاف في (منّجوك) لأنّ محلّها الجرّ والنصب .

(4) في الآية (32) من هذه السورة .

وجملة : " لا تخف . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تحزن . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " إنّا منجّوك . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كانت من الغابرين " لا محلّ لها استئناف بياني .

(34) (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (على أهل) متعلّق بـ (منزلون) ، (جزاء) مفعول به

لاسم الفاعل منزلون (من السماء) متعلّق بنعت لـ (رجزا) ، (ما) حرف مصدريّ . . .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق باسم الفاعل منزلون ، والباء سببيّة .

وجملة : " إنّا منزلون . . . " لا محلّ لها تعليليّة للإنجاء .

وجملة : "كانوا يفسقون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يفسقون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(35) (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (منها) متعلّق بـ (تركنا) ، (لقوم) متعلّق ببيّنة " 1 " .

وجملة : " تركنا " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " يعقلون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الصرف :

(سيء) ، في الظاهر قلبت الألف ياء لمناسبة البناء للمجهول ، أصله ساء . ولكنّ القلب وقع على الواو ، مضارعه يسوء ،

---

(1) يجوز تعليقه بـ (تركنا) ، أو بآية .

فأصل اللفظ في البناء للمجهول سوئ بضمّ السين وكسر الواو ، ثمّ سكّنت الواو لثقل الكسرة ونقلت الكسرة إلى السين ، ثمّ قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فأصبح سيء ، وهذا شأن الأجوف الواويّ .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 36 إلى 37]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37)

الإعراب :

(الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (إلى مدين) متعلّق بفعل محذوف تقديره أرسلنا (شعيبا) عطف بيان - أو بدل - منصوب (الفاء) عاطفة (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . . و(الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة في الموضعين (لا) ناهية جازمة (في الأرض) متعلّق بفعل تعثوا (مفسدين) حال مؤكّدة منصوبة ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " (أرسلنا) . . . شعيبا " لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة " 1 " .

وجملة : " قال " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا .

وجملة النداء وجوابه في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اعبدوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ارجوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

---

(1) في الآية السابقة (35) ، أو هي استئنافيّة .

الجدول ج 20 ، ص : 337

وجملة : " لا تعثوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

(37) (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة (في دارهم) متعلّق بـ (جاثمين) خبر أصبحوا .

وجملة : " كذّبوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال .

وجملة : " أخذتهم الرجفة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوه .

وجملة : " أصبحوا . . . جاثمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذتهم الرجفة .

[سورة العنكبوت (29) : آية 38]

وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عادا) مفعول به لفعل محذوف تقديره (أهلكنا) ، وفاعل (تبيّن) ضمير مستتر يعود على الإهلاك المفهوم من سياق الآية (لكم) متعلّق بـ (تبيّن) ، (من مساكنهم) متعلّق بـ (تبيّن) ، (الواو) حاليّة - أو استئنافيّة - (لهم) متعلّق بـ (زيّن) ، (الفاء) عاطفة (عن السبيل) متعلّق بـ (صدّهم) ، (الواو) حاليّة .

جملة : " (أهلكنا) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تبيّن . . . (إهلاكهم) " لا محلّ لها اعتراضيّة " 1 " .

وجملة : " زيّن لهم الشيطان . . . " في محلّ نصب حال تقديره (قد) " 2 " .

---

(1) أو في محلّ نصب حال .

(2) أو لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " صدّهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة زيّن لهم الشيطان .

وجملة : " كانوا مستبصرين " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

الصرف :

(مستبصرين) ، جمع مستبصر ، اسم فاعل من السداسيّ استبصر ، وزنه مستفعل بضمّ

الميم وكسر العين.

[سورة العنكبوت (29) : آية 39]

وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (39)

الإعراب:

(الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (قارون) معطوفة على (عادا) " 1 "، (الواو) استئنافيّة (لقد جاءهم موسى) مثل لقد تركنا " 2 "، (بالبيّنات) متعلّق بحال من موسى (الفاء) عاطفة (في الأرض) متعلّق بـ (استكبروا) (الواو) عاطفة (ما) نافية.

جملة: "جاءهم موسى . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . .

وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "استكبروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم.

وجملة: "ما كانوا سابقين" لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 40]

---

(1) في الآية السابقة (38).

(2) في الآية (35) من هذه السورة.

فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (كلّا) مفعول به مقدّم منصوب (بذنبه) متعلّق بـ (أخذنا) ، والباء سببيّة (الفاء) عاطفة تفريعية (منهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (من أرسلنا) " 1 " ، (عليه) متعلّق بـ (أرسلنا) ، وكذلك تعرب الجمل اللاحقة الشبيهة (به) متعلّق بـ (خسفنا) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية (اللام) لام الجحود أو الإنكار (يظلمهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الواو) عاطفة (أنفسهم) مفعول به مقدّم .

والمصدر المؤوّل (أن يظلمهم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كان .

جملة : " أخذنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " منهم من أرسلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " منهم من أخذته . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم من أرسلنا .

وجملة : " أخذته الصيحة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " منهم من خسفنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم من أرسلنا .

وجملة : " خسفنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثالث .

وجملة : " منهم من أغرقنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم

---

(1) يجوز أن يكون صفة لمبتدأ محذوف تقديره بعض منهم . . . فالخبر حينئذ هو الموصول .

من أرسلنا .

وجملة : " أغرقنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الرابع .

وجملة : " ما كان اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يظلمهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " كانوا . . . يظلمون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان اللّه ليظلمهم .

وجملة : " يظلمون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الفوائد

- كلا مفعول به مقدم للفعل " أخذنا . . . " وقد سبق لنا وتحدثنا عن كل وبعض فيما تقدم .

- وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ : فهذه اللام هي لام الجحود ، وحدّها أن تسبق بكون منفي وقد جرى الحديث عنها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 41]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41)

الإعراب :

(من دون) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله اتّخذوا (كمثل) متعلّق بخبر المبتدأ مثل

(الواو) حاليّة (اللام) المزحلقة للتوكيد (لو) حرف شرط غير جازم .

جملة : " مثل الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

الجدول ج 20 ، ص : 341

وجملة : " اتّخذت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " إنّ أوهن البيوت . . . " في محلّ نصب حال " 2 " .

وجملة : " لو كانوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف تقديره ما عبدوا الأصنام .

وجملة : " يعلمون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(العنكبوت) ، اسم جنس للحيوان المعروف وزنه فعللوت ، فالواو والتاء مزيدتان ، جمعه عناكب وعناكيب " 3 " يذكّر ويؤنّث ، وقد يقع عنكبوت على المفرد والجمع .

(أوهن) ، اسم تفضيل من (وهن) الثلاثيّ وزنه أفعل .

البلاغة

---

(1) أو حال من العنكبوت عند من يجيز مجيء الحال من المضاف إليه بتقدير (قد) .

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

(3) وأضاف بعضهم عكاب وعكبة وأعكب .

التشبيه المركب : في قوله تعالى مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ .

المعنى مثل الذين اتخذوا من دون اللّه أولياء ، فيما اتخذوه معتمدا ومتكلا في دينهم ، وتولوه من دون اللّه تعالى ، كمثل العنكبوت فيما نسجته واتخذته بيتا ، والغرض تقرير وهو أمر دينهم ، وأنه بلغ الغاية التي لا غاية بعدها ومدار قطب التشبيه أن أولياءهم بمنزلة منسوج العنكبوت ضعف حال وعدم صلوح اعتماد عليه ، وعلى هذا يكون قوله تعالى " إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ . . . " تذييلا يقرر الغرض من التشبيه .

ويجوز أن يكون المعنى والغرض من التشبيه ما سمعت ، إلا أنه يجعل التذييل استعارة تمثيلية ، ويكون ما تقدم كالتوطئة لها .

الفوائد

- عودا إلى المثل والتمثيل في القرآن الكريم : رغم أننا نوّهنا بهذا الفن الكريم مرارا . ومن علماء البلاغة من اعتبره من الاستعارة التمثيلية القائمة على التشبيه التمثيلي : قال عبد القاهر الجرجاني : وهل تشك في أن التمثيل يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين ، حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ، وهو يريك المعاني الممثلة في الأشخاص الماثلة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك التئام عين الاضداد ، ويجعل الشيء قريبا بعيدا معا .

وهكذا فقد أدرك نفر من القدامى ، ما للتمثيل في القرآن الكريم ، من مزية .

[سورة العنكبوت (29) : آية 42]

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42)

الإعراب :

(389/599)

(ما) نافية " 1 " ، (من دونه) متعلّق بحال من شيء (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به عامله يدعون (الواو) عاطفة (الحكيم) خبر ثان مرفوع . . .

وجملة : " إنّ اللّه يعلم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ما يدعون . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل العلم المعلّق بالنفي .

---

(1) أو اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عامله يدعون و(من شيء) تمييز ما .

(390/599)

وجملة : " هو العزيز . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ اللّه يعلم .

[سورة العنكبوت (29) : آية 43]

وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ (43)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الأمثال) بدل من اسم الإشارة – أو عطف بيان عليه – مرفوع (للناس) متعلّق بـ (نضربها) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية (إلّا) للحصر (العالمون) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة : " تلك الأمثال نضربها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مثل الذين " 1 " .

وجملة : " نضربها للناس . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (تلك) .

وجملة : " ما يعقلها إلّا العالمون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة نضربها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 44]

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

الإعراب :

(بالحقّ) متعلّق بحال من لفظ الجلالة ، والباء للملابسة (في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) لام الابتداء للتوكيد (آية) اسم إنّ منصوب (للمؤمنين) متعلّق بنعت لآية .

جملة : " خلق اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ في ذلك لآية . . . " لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ – .

---

(1) في الآية (41) من هذه السورة . [. . . . .]

[سورة العنكبوت (29) : آية 45]

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (45)

الإعراب :

(ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، ونائب الفاعل لفعل (أوحي) ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إليك) متعلّق بـ (أوحي) ، (من الكتاب) متعلّق بـ (أوحي) " 1 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (عن الفحشاء) متعلّق بـ (تنهى) ، (اللام) لام الابتداء للتوكيد (ما) حرف مصدريّ " 2 " . . .

جملة : " اتل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أوحي إليك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أقم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " إنّ الصلاة تنهى . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تنهى عن الفحشاء . . . " في محلّ لها رفع خبر إنّ .

وجملة : " ذكر اللّه أكبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : " اللّه يعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : " يعلم ما تصنعون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " تصنعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما تصنعون) في محلّ نصب مفعول به عامله يعلم .

---

(1) أو متعلّق بحال من الضمير المستتر في (أوحي) .

(2) أو اسم موصول في محلّ نصب ، والعائد محذوف أي تصنعونه .

الجدول ج 20 ، ص : 345

الصرف :

(أقم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون ، أصله أقيم - بفتح الهمزة - جاءت الياء ساكنة مع الميم فحذفت الياء لالتقاء الساكنين فأصبح أقم وزنه أفل ، وهذا شأن المعتلّ الأجوف في الأمر ، والياء عين الكلمة منقلبة عن واو .

(تنهى) ، فيه إعلال بالقلب أصله تنهي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وقد رسمت بالياء غير المنقوطة لأنها رابعة .

]

سورة العنكبوت (29) : آية 46]

وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (إلّا) للحصر (بالتي) متعلّق بـ (تجادلوا) ، أي بالمجادلة التي ، (إلّا) للاستثناء (الذين) موصول في محلّ نصب على الاستثناء (منهم) متعلّق بحال من فاعل ظلموا (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (بالذي) متعلّق بـ (آمنّا) ، ونائب الفاعل لفعل (أنزل) ضمير مستتر تقديره هو ، وهو العائد ، (إلينا) متعلّق بـ (أنزل) ، وكذلك (إليكم) متعلّق بالثاني (له) متعلّق بـ (مسلمون) .

جملة : " لا تجادلوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هي أحسن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " آمنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزل إلينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أنزل إليكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل إلينا .

وجملة : " إلهنا وإلهكم واحد . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

وجملة : " نحن له مسلمون . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 47 إلى 49]

(393/599)

وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ (47) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله أنزلنا (إليك) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (الفاء) عاطفة تفريعيّة .

(الكتاب) مفعول به ثان منصوب (به) متعلّق بـ (يؤمنون) ، (الواو) عاطفة (من هؤلاء)

متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 1 " للمبتدأ المؤخّر الموصول (من) (به) متعلّق بـ (يؤمن) ، (الواو) اعتراضيّة أو حاليّة (ما) نافية (بآياتنا) متعلّق بـ (يجحد) ، (إلّا) للحصر .

---

(1) أو هو نعت لمبتدأ محذوف خبره (من يؤمن به) ، والتقدير : بعض من هؤلاء من يؤمن به ، والإشارة إلى أهل مكّة .

جملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الذين آتيناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " آتيناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يؤمنون به . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " من هؤلاء من يؤمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين آتيناهم . . .

وجملة : " يؤمن به . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يجحد . . . الكافرون . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة - أو في محلّ نصب حال -

(48) (الواو) عاطفة (ما) نافية (من قبله) متعلّق بـ (تتلو) " 1 " ، (كتاب) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به (الواو) عاطفة (لا) نافية (بيمينك) متعلّق بـ (تخطّه) ، (إذا) -

بالتنوين – حرف جواب " 2 " ، (اللام) رابطة لجواب شرط مقدّر هو لو " 3 " .

وجملة : " ما كنت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلنا .

وجملة : " تتلو . . . " في محلّ نصب خبر كنت .

وجملة : " لا تخطّه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تتلو .

وجملة : " ارتاب المبطلون . . . " لا محلّ لها جواب الشرط المقدّر (لو) .

---

(1) أو متعلّق بحال من كتاب .

(2) المراد بكونها جوابا أنّها حرف تصحب الجواب وإن لم تكن رابطة له بالشرط .

(3) قال الفرّاء : حيث جاءت (إذا) – بالتنوين – قبل اللام فقبلها لو مقدّرة إن لم تكن ظاهرة .

الجدول ج 20 ، ص : 348

(49) (بل) للاضراب الانتقاليّ (في صدور) متعلّق بنعت لبيّنات ، و(الواو) في (أوتوا) نائب الفاعل (الواو) عاطفة (ما يجحد . . . الظالمون) مثل المتقدّمة .

وجملة : " هو آيات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما يجحد . . . إلّا الظالمون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو آيات . . .

البلاغة

الإطناب : في قوله تعالى وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .

إطناب لا بد منه ، فذكر اليمين ، وهي الجارحة التي يزاول بها الخط : زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتبا . ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات ، رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه ، كان أشد لإثباتك أنه تولى كتابته ، ومثله قولهم : رأيته بعيني ، وقبضته بيدي ، في تحقيق الحقيقة وتأكيدها ، حتى لا يبقى للمجاز مجال ، وهذا يقال في كل شيء يعظم مناله ، ويعز الوصول إليه . وهو كثير في القرآن الكريم .

الفوائد

تدوين القرآن :

قال الخطابي : إنما لم يجمع النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) القرآن في المصحف ، لما كان يترقبه لورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ، ألهم اللّه الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء بعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر .

وقال السيوطي : كان القرآن كتب كله في عهد الرسول ، لكنه غير مجموع في

موضع واحد ، ولا مرتّب السور . وعن زيد بن ثابت أنه قال : أرسل إلى أبو بكر ، عقب مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده . قال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرّ بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، فقال زيد لعمر : كيف تفعل ما لم يفعله رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ؟ قال عمر : هذا واللّه خير . . .

فلم يزل يراجعني ، حتى شرح اللّه صدري لذلك . قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، فتتبع القرآن فاجمعه قال زيد : فو اللّه لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن .

قلت : فلم يزل أبو بكر يراجعني ، حتى شرح اللّه صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللّخاف " 1 " وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع غيره وهي لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين ، إلى آخر براءة ولما كان عهد عثمان جدّ من المناسبات ما دعا إلى إعادة النظر في أمر هذه الصحف التي كتبها زيد بن ثابت .

---

(1) العسب : جمع عسيب ، وهي جريدة من النخل كشط خوصها وكانت تستعمل للكتابة عليها اللخاف : حجارة بيض رقاق وكانت تستعمل – أيضا – للكتابة عليها –

روى البخاري عن أنس ، أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا ، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر ابن الخطاب وزوج رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) أن أرسلي إلينا هذه الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في

شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما أنزل بلسانهم . ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة . وأرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

[سورة العنكبوت (29) : آية 50]

وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لولا) حرف تحضيض - أو تقريع - (عليه) متعلّق بـ (أنزل) ، (آيات) نائب الفاعل (من ربه) متعلّق بـ (أنزل) " 1 " ، (إنّما) كافّة ومكفوفة (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر للآيات (الواو) عاطفة (مبين) نعت لنذير مرفوع.

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لولا أنزل . . آيات . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " إنّما الآيات عند اللّه . في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) أو متعلّق بنعت لآيات.

وجملة: " إنّما أنا نذير . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

[سورة العنكبوت (29) : آية 51]

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الواو) عاطفة (أنا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (عليك) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (عليهم) متعلّق بـ (يتلى) ، (في ذلك) خبر مقدّم (اللام) للتأكيد (رحمة) اسم إنّ منصوب مؤخّر (لقوم) متعلّق بذكرى . .

والمصدر المؤوّل (أنّا أنزلنا . . .) في محلّ رفع فاعل يكفهم .

جملة : " لم يكفهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أقصّرت الآية المنزلة ولم يكفهم إنزالها متلوّة " 1 " .

وجملة : " أنزلنا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يتلى . . . " في محلّ نصب حال من الكتاب .

وجملة : " إنّ في ذلك لرحمة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يؤمنون . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الفوائد

- أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ :

نؤكّد أن علامات جزم الفعل المضارع ثلاث : السكون للفعل الصحيح وحذف النون للافعال الخمسة ، وحذف حرف العلة للفعل المعتل الآخر .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة .

ومن المفيد جدا أن نتقدم للقارئ بقاعدة بناء فعل الأمر ، والتي تقول : يبنى فعل الأمر على ما يجزم به مضارعه .

وبما أنّ علامات جزم المضارع ثلاث ، فيقابلها ثلاث حالات لبناء فعل الأمر :

أ- إذا كان صحيح الآخر : يبنى على السكون لأن مضارعه يجزم بالسكون . .

ب - إذا كان من الأفعال الخمسة ، أي إذا اتصلت به ألف التثنية أو واو الجماعة أو ياء المؤنثة المخاطبة : يبنى على حذف النون لأن مضارعه يجزم بحذف النون .

ج - إذا كان معتل الآخر : يبنى على حذف حرف العلة من آخره ، لأن مضارعه يجزم بحذف حرف العلة من آخره .

مثال الأول اكتب ومثال الثاني " اقرءا ، اكتبوا ، العبي " ومثال الثالث " اتل ، ارم ، اغز " .

فتبصّر هديت إلى الصواب .

[سورة العنكبوت (29) : آية 52]

قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (52)

الإعراب :

(اللّه) لفظ الجلالة مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل كفى (بيني) ظرف منصوب متعلّق بـ (شهيدا) ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) مضاف إليه (بينكم) مثل بيني فهو معطوف عليه (شهيدا) تمييز منصوب " 1 " ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة الموصول ما (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (بالباطل) متعلّق

---

(1) أو حال.

الجدول ج 21 ، ص : 8

ب (آمنوا) ، (باللّه) متعلّق بـ (كفروا) ، (أولئك) مبتدأ ثان في محلّ رفع " 1 " ، (هم) ضمير فصل " 2 " ، (الخاسرون) خبر المبتدأ أولئك.

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " كفى باللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ نصب حال " 3 " .

وجملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة : " أولئك . . . الخاسرون. " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

البلاغة

الاستعارة التخييلية : في قوله تعالى " أُولَئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ " :

---

(1) أو بدل من الموصول (الذين) .

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ ثالث خبره الخاسرون ، والجملة خبر المبتدأ (أولئك) .

(3) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(4) أو معطوفة على جملة مقول القول في محلّ نصب . [. . . . .]

في الخسران استعارة تخييلية هي قرينتها ، لأن الخسران متعارف في التجارات ، وهذا الكلام ورد مورد الإنصاف ، حيث لم يصرح بأنهم المؤمنون بالباطل ، الكافرون بالله عز وجل ، بل أبرزه في معرض العموم ، ليهجم به التأمل على المطلوب ، فهو كقوله تعالى " وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ "

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 53 إلى 55]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ

فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (بالعذاب) متعلّق بـ (يستعجلونك) ، (الواو) عاطفة (لولا) حرف شرط غير جازم (أجل) مبتدأ محذوف الخبر (اللام) واقعة في جواب لولا ، والثانية لام القسم لقسم مقدّر (يأتينّهم) مضارع مبنيّ على الفتح في محل رفع ، والفاعل هو ، و(هم) ضمير مفعول به (بغتة) مصدر في موضع الحال " 1 " ، (الواو) واو الحال (لا) نافية .

جملة : " يستعجلونك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لولا أجل (موجود . . .) " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " جاءهم العذاب . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه يلاقي الفعل في المعنى أي ليبغتهم بغتة .

وجملة : " يأتينّهم . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة – أو معطوفة على الاستئنافيّة – وجملة : " هم لا يشعرون . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : "لا يشعرون . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(54) (الواو) استئنافيّة (اللام) المزحلقة للتوكيد (بالكافرين) متعلّق بمحيطة .

وجملة : "يستعجلونك (الثانية) "لا محلّ لها استئنافيّة لتأكيد الجملة الأولى .

وجملة : "إنّ جهنّم لمحيطة . . . "لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بمحيطة (من فوقهم) متعلّق

ب (يغشاهم) وكذلك (من تحت) معطوف على من فوقهم ، وفاعل (يقول) محذوف يعود على الموكّل بالعذاب المفهوم من السياق (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به بحذف مضاف أي : جزاء ما كنتم . .

والعائد محذوف أي تعملونه .

وجملة : "يغشاهم . . . "في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة : "يقول . . . "في محلّ جر معطوفة على جملة يغشاهم .

وجملة : "ذوقوا . . . "في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنتم تعملون . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "تعملون . "في محلّ نصب خبر كنتم .

البلاغة

خص سبحانه وتعالى نار جهنم بالجانبين الأعلى والأسفل ، ولم يذكر اليمين ولا الشمال ،

ولا الخلف ولا الأمام لإظهار الفرق بينهما وبين نار الدنيا التي تحيط بجميع الجوانب فنار جهنم لا تطفأ بالدوس عليها ، ولكنها تنزل من فوق .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 56 إلى 57]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (57)

الإعراب :

(401/599)

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لعبادي (الفاء) الأولى رابطة لجواب شرط مقدّر ، (الفاء) الثانية زائدة للتزيين (إياي) ضمير منفصل في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده (النون) في (اعبدون) للوقاية قبل الياء المحذوفة لمناسبة الفاصلة .

جملة النداء : "يا عبادي" لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "إنّ أرضي واسعة . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " (اعبدوا) المقدّرة . . " في محل جزم جواب الشرط المقدّر أي إن ضاقت

عليكم أرضكم فاعبدوني في أيّ أرض تهاجرون إليها غير أرضكم .

وجملة : " اعبدون . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

(56) (ثمّ) حرف عطف (إلينا) متعلّق بـ (ترجعون) ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

وجملة : "كلّ نفس ذائقة . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

وجملة : " ترجعون . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

الفوائد

- يا عِبادِيَ

:

نقرر للمرة الثانية أن المنادي خمسة أقسام : اثنان منهما مبنيان على الضم في محلّ نصب ، وهما المفرد العلم ، نحو يا محمد ، ويا سميح ، والنكرة المقصودة ، نحو : يا رجل ، ويا تلميذ . وثلاثة منصوبة وهي : النكرة غير المقصودة ، نحو : يا رجلا ، ويا تلميذا والمضاف نحو : يا صاحب المنزل ، ويا أستاذ الدرس والشبيه بالمضاف ، نحو : يا طالعا جبلا ، ويا ساكنا في الدار .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 58 إلى 59]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ

فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

الإعراب :

(402/599)

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نبوّئنّهم) مثل يأتينّهم " 1 " ، (من الجنّة) متعلّق بحال من (غرفا) هو مفعول به ثان منصوب (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) " 2 " ، (خالدين) حال من ضمير المفعول في (نبوّئنّهم) ، منصوبة " 3 " ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره الجنّة أو هذا الأجر .

جملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " نبوّئنّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم وجوابه في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 4 " .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب نعت لـ (غرفا) .

وجملة : " نعم أجر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - (59) (الذين) اسم

موصول في محلّ جرّ نعت للعاملين " 5 " ، (على ربّهم) متعلّق بـ (يتوكّلون) .

وجملة : " صبروا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يتوكّلون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(غرفا) ، جمع غرفة . . . وانظر الآية (75) من سورة الفرقان .

---

(1) في الآية (53) من هذه السورة .

(2) أو بمحذوف حال من الأنهار .

(3) أو من الجنّة ، أو من (غرفا) .

(4) أو الخبر محذوف لدلالة جواب القسم عليه .

(5) أو خبر لمبتدأ محذوف وجوبا على المدح تقديره هم ، والجملة مستأنفة . . أو مفعول به لفعل محذوف تقديره أمدح .

[سورة العنكبوت (29) : آية 60]

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كأيّن) اسم كناية عن العدد مبنيّ على السكون في محلّ رفع مبتدأ (من دابّة) تمييز (لا) نافية (الواو) الأولى عاطفة ، والثانية استئنافيّة (إيّاكم) ضمير منفصل في محلّ نصب معطوف على الضمير المتّصل في (يرزقها) ، (العليم) خبر ثان مرفوع .

وجملة : "كأيّن من دابة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تحمل . . " في محلّ جرّ نعت لدابّة . .

وجملة : " اللّه يرزقها . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كأيّن) .

وجملة : " يرزقها . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " هو السميع . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

- "كأي " أو "كأين " حسب رسم المصحف : وهي اسم مركب من "كاف " التشبيه و " أي " المنونة ، وجاز الوقف عليها بالنون . وهي بمعنى "كم " وتوافقها في خمسة أمور : " الإبهام والافتقار إلى التمييز والبناء ، ولزوم التصدير . وإفادة التكثير " وهو الغالب نحو " وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ " .

وتخالفها في خمسة أمور :

الأول : أن "كأين " مركبة وكم بسيطة .

الثاني : أن مميزها مجرور بـ " من " غالبا ، كما مرّ آنفا .

الثالث : أنها لا تقع استفهامية عند الجمهور .

الرابع : أنها لا تقع مجرورة .

الخامس : أن خبرها لا يقع مفردا بل جملة ، كما مرّ في الآيات السابقة .

الجدول ج 21 ، ص : 14

[سورة العنكبوت (29) : آية 61]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61)

الإعراب :

(404/599)

(الواو) استئنافيّة (اللام) موطّئة للقسم (سألتهم) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (يقولن) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ

مرفوع ، والخبر محذوف أي : اللّه فعل ذلك (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بـ (يؤفكون) ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

جملة : " إن سألتهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من خلق . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل السؤال المعلّق بالاستفهام من بتقدير حرف الجرّ أي عمّن خلق . . . .

وجملة : " خلق . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " سخّر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خلق . . .

وجملة : " يقولنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " اللّه (فعل . .) . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يؤفكون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر مقترنة بالفاء أي : إن صرفهم الهوى فأنّى يؤفكون . . وجملة الشرط المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة العنكبوت (29) : آية 62]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)

الإعراب :

(لمن) متعلّق بـ (يبسط) ، (من عباده) متعلّق بحال من العائد المقدّر " 1 " ، (له) متعلّق

(يقدر) (بكلّ) متعلّق بعليم.

جملة: "اللّه يبسط . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يبسط . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

وجملة: "يشاء . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "يقدر له . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة يبسط.

وجملة: "إنّ اللّه . . . عليم "لا محلّ لها تعليليّة.

]

سورة العنكبوت (29): آية 63]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (63)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (لئن . . نزّل) مثل لئن . . خلق "2"، (من السماء) متعلّق بـ (نزل)، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (أحيا)، (من بعد) متعلّق بـ (أحيا)، (ليقولنّ اللّه) مثل السابقة "3" (للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (بل) للإضراب الانتقالي (لا) نافية.

جملة: "إن سألتهم . . . "لا محلّ لها استئنافيّة "4".

وجملة : " من نزّل . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل السؤال

---

(1) أي من يشاء رزقه من عباده . . ويجوز أن يكون تمييزا للموصول من .

(2) في الآية (61) من هذه السورة .

(3) في الآية (61) من هذه السورة .

(4) أو معطوفة على جملة إن سألتهم في الآية (61) ، وما بينهما اعتراض .

(405/599)

المعلّق بالاستفهام من .

وجملة : " نزّل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " أحيا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة نزّل .

وجملة : " يقولنّ . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " اللّه (فعل ذلك) " . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الحمد للّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: "أكثرهم لا يعقلون . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يعقلون . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم) .

[سورة العنكبوت (29) : آية 64]

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (64)

الإعراب:

(406/599)

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية مهملة (الحياة) بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان - (إلّا) للحصر (لهو) خبر المبتدأ هذه (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد (لو) حرف شرط غير جازم.

جملة: "ما هذه . . إلّا لهو "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّ الدار . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "هي الحيوان . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "كانوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف تقديره: ما آثروا الحياة الدنيا . .

وجملة : " يعلمون . . " في محلّ نصب خبر كانوا . .

الصرف :

(الحيوان) ، اسم لكلّ ما فيه حياة ناطقا كان أم غير ناطق ، وقد جاء في الآية بمعنى الحياة الدائمة التي لا موت فيها . .

و(الواو) فيه منقلبة عن ياء – عند سيبويه – شذوذا كيلا يلتبس مع التثنية ، ولم تقلب ألفا كيلا تحذف إحدى الألفين . . أمّا عند غير سيبويه فالواو أصلية ولا قلب .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 65 إلى 66]

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (في الفلك) متعلّق بـ (ركبوا) ، (دعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . و(الواو) فاعل (مخلصين) حال من فاعل دعوا (له) متعلّق بمخلصين " 1 " ، (الدين) مفعول به لاسم الفاعل (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (إلى البرّ) متعلّق بـ (نجّاهم) (إذا) فجائيّة . .

جملة : " ركبوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " دعوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " نجّاهم . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) أو متعلّق بحال من الدين .

وجملة : " هم يشركون . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يشركون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(66) (اللام) لام العاقبة (يكفروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، ومثله (ليتمتّعوا) ، (بما) متعلّق بـ (يكفروا) ، (الفاء) استئنافيّة (سوف) حرف استقبال والمصدر المؤوّل (أن يكفروا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يشركون) . والمصدر المؤوّل (أن يتمتّعوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يشركون) فهو معطوف على المصدر الأول .

وجملة : " يكفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " آتيناهم . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 1 " .

وجملة : " يتمتّعوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني .

وجملة : " سوف يعلمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ " .

فإن قلت : كيف جاز أن يأمر اللّه تعالى بالكفر ، وبأن يعمل العصاة ما شاءوا ، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ الجواب : هو مجاز عن الخذلان والتخلي ، وأن ذلك الأمر متسخط للغاية . ومثاله : أن ترى الرجل قد عزم على أمر ، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ ، وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم ، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه ، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم ، غضبت عليه وقلت : أنت وشأنك وافعل ما شئت ، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر .

الفوائد

1 - النماذج الانسانية في كتاب اللّه كثيرة ، نحو :

- إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً .

- وخلق الإنسان جزوعا .

---

(1) والعائد محذوف تقديره إيّاه ، وهو المفعول الثاني .

- وخلق الإنسان عجولا .

- وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً .

وفي هذه الآية ، التي نحن بصددها ، يصوّر لنا القرآن الكريم الإنسان كيف يلجأ إلى اللّه ، وقت الحاجة ، ووقت الضيق ، حتى إذا زال عنه ما هو فيه ، نسي اللّه ونأى بجانبه ، وتنكر لنعمائه وألطافه . .

2 - أحصى الخليل بن أحمد عدد اللامات ، فبلغت إحدى وأربعين لاما ؟ نعدها عدا وهي : لام القسم ، لام جواب القسم ، لام الأمر ، لام جواب الأمر ، لام الوعد ، لام الوعيد ، لام التوكيد ، لام العماد ، لام الجحد ، لام كي ، لام إن الخفيفة ، لام الغاية ، لام الترجي ، لام التمني ، لام التحذير ، لام المدح ، لام الذم ، لام كما ، لام المنقول ، لام الجزاء ، لام الشفاعة ، لام الاستغاثة ، لام الجرّ ، لام الصفة ، لام الأصل ، لام المعرفة ، لام التكثير ، لام الابتداء ، لام التفضيل ، لام ليس ، لام النفي ، لام غير ، لام التبرئة ، لام الصلة ، لام النهي ، لام الدعاء ، لام الاستحقاق ، لام الإلحاق ، لام الفصاحة . وهذه اللامات تقسم إلى ثلاثة أقسام :

عاملة للجر ، عاملة للجزم ، وغير عاملة .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 67 إلى 68]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي

جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (68)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (أنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (حرما) مفعول به ثان . . والمفعول الأول محذوف أي بلدهم أو مكّة (الواو) واو الحال (الناس) نائب الفاعل مرفوع

الجدول ج 21 ، ص : 20

(من حولهم) متعلّق بـ (يتخطّف) ، (الهمزة) مثل الأولى (الفاء) عاطفة (بالباطل) متعلّق بـ (يؤمنون) ، (بنعمة) متعلّق بـ (يكفرون) .

(409/599)

جملة : " لم يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أغفلوا ولم يروا . . .

وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّا جعلنا . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا .

وجملة : " يتخطّف الناس . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يؤمنون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يروا .

وجملة : " يكفرون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤمنون .

(68) (الواو) عاطفة (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره (أظلم) ، (ممّن) متعلّق بأظلم (على اللّه) متعلّق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول به منصوب " 1 " ، (بالحقّ) متعلّق بـ (كذّب) ، (لمّا جاءه) مثل لمّا نجّاهم " 2 " (الهمزة) للاستفهام التقريريّ لأنها دخلت على نفي وإن كان فيها معنى الإنكار في الأصل (في جهنّم) متعلّق بخبر ليس (مثوى) اسم ليس مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (للكافرين) متعلّق بنعت لمثوى . . .

وجملة : " من أظلم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف أغفلوا . .

وجملة : " افترى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " كذّب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " جاءه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه ، والمفعول محذوف .

(2) في الآية (65) من هذه السورة . [. . . . .]

محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " ليس في جهنّم مثوى . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة العنكبوت (29) : آية 69]

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (فينا) متعلّق بـ (جاهدوا) بحذف مضاف أي في سبيلنا (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نهدينهم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع ، والفاعل نحن للتعظيم ، و(هم) ضمير مفعول به (سبلنا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد (مع) ظرف منصوب متعلّق بخبر إنّ .

جملة : " الذين جاهدوا . . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاهدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " نهدينّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . .

وجملة القسم المقدّرة في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 1 " .

وجملة : " إنّ اللّه لمع المحسنين " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة

البلاغة

الإيجاز بالحذف : في قوله تعالى " وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا " فقد أطلق المجاهدة ولم يقيدها

بمفعول ، ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين .

---

(1) أو الخبر محذوف لدلالة جواب القسم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 20 صـ 307 : حـ 21 صـ 21 ﴾

(411/599)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(29) سورة العنكبوت

مكيّة وآياتها تسع وستون

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (4)

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ

سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)

اللغة :

(يُفْتَنُونَ) : يختبرون من فتن فلان يفتنه من باب ضرب :

خبره وأحرقه وأضلّه ، يقال فتن الصائغ الذهب : أذابه بالبوتقة

ليختبره وليميز الجيد من الرديء ويقال فتنه يفتنه من باب ضرب أيضا أعجبه واستماله

وأوقعه في الفتنة .

الاعراب :

(412/599)

(الم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) ألم تقدم اعرابها والقول فيها وفي فواتح السور ، وأحسب الهمزة للاستفهام التقريري أو التوبيخي وحسب فعل ماض ينصب مفعولين قال الزمخشري : " الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات ولكن بمضامين الجمل " ولذلك احتاج إلى مفعولين والناس فاعل وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي حسب وأن يقولوا مصدر مؤول منصوب بنزع الخافض وهو متعلق بمحذوف حال إذا قدر حرف الجر باء ، ولك أن تقدر حرف الجر لاما فيكون تعليلا للترك متعلقا به أي لأجل قولهم ،

وجملة آمنا مقول القول والواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يفتنون خبر هم والجملة حالية ومعنى الآية أحسب الذين نطقوا بكلمة الشهادة أنهم يتركون غير ممتحنين لا بل يمتحنون ليتبين الراسخ في الدين من غيره ، وهذا أحد أعاريب رأيناه أسهلها ، ونورد هنا عبارة الزمخشري لنفاستها قال :

" تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك أول مفعولي حسب ولقولهم آمنا هو الخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك الذي هو بمعنى التصيير كقوله " فتركنه جزر السباع ينشنه " ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام فإن قلت : أن يقولوا هو

علة تركهم غير مفتونين فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ ؟ قلت كما تقول خروجه لمخافة الشر وضربه للتأديب وقد كان التأديب والمخافة في قولك خرجت مخافة الشر وضربته تأديبا تعليلين ، وتقول أيضا حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأديب فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبرا " وسيأتي المزيد من أبحاث هذه الآية في باب الفوائد .

)

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وفتنا فعل وفاعل والذين مفعوله ومن قبلهم متعلقان بمحذوف هو صلة الذين والفاء عاطفة واللام موطئة للقسم وليعلمن فعل مضارع مبني على الفتح والله فاعل والذين مفعوله وجملة صدقوا صلة وليعلمن الكاذبين عطف على ما تقدم وسيأتي سر المخالفة بين صدقوا والكاذبين في باب البلاغة والمعنى أن الفتنة والامتحان أمران لا بد منهما لابتلاء الخلق وقد تعرضت لهما الخلائق في مختلف ظروف الزمان والمكان . (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) أم منقطعة ومعناها بل وهي للاضراب الانتقالي ولا بد من همزة في ضمنها للتقرير والتوبيخ ، وحسب فعل ماض والذين فاعل وجملة يعملون السيئات صلة وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي حسب ، قال الزمخشري : " فإن قلت أين مفعولا حسب ؟

قلت : اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين كقوله تعالى " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة " ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة ومعنى الاضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الاول لأن ذاك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن

انه لا يجازى بمساويه " وساء فعل ماض جامد لإنشاء الذم وفاعله مستتر تقديره هو وما نكرة منصوبة على التمييز وجملة يحكمون صفتها والمخصوص بالذم محذوف أي حكمهم ويجوز أن تعرب ما اسم موصول فاعل وجملة يحكمون صلتها ، ويجوز أن تكون مصدرية أي حكمهم وعلى هذا يكون التمييز محذوفا أي ساء حكما حكمهم . (مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) من اسم شرط جازم مبتدأ وكان فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط واسم كان مستتر يعود على من وجملة يرجو خبر كان ولقاء اللّه مفعول به والفاء رابطة لجواب الشرط ، وإن أجل اللّه ان واسمها واللام المزحلقة وآت خبر إن والواو حرف عطف وهو مبتدأ والسميع العليم خبران لمن ، وسيأتي مزيد بحث لهذه الآية في باب البلاغة ، وفعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر من .

(وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ) الواو عاطفة ومن شرطية مبتدأ وجاهد فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة للجواب وانما كافة ومكفوفة ويجاهد فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره هو ولنفسه جار ومجرور متعلقان بيجاهد وإن واسمها واللام المزحلقة وغني خبر إن وعن العالمين متعلقان بغني

والجملة تعليلية لما سبق من تقرير أن جهاد الشخص لا يصل منه إلى اللّه نفع . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا واللام موطئة للقسم ونكفرن فعل مضارع مبني على الفتح والفاعل مستتر تقديره نحن والجملة خبر الذين وعنهم متعلقان بنكفرن وسيئاتهم مفعول به . (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ)

(415/599)

و لنجزينهم عطف على لنكفرن وأحسن مفعول به ثان والذي مضاف اليه وجملة كانوا صلة وجملة يعملون خبر كانوا .

البلاغة :

1 - التعبير بالصيغة الفعلية والصيغة الاسمية :

في قوله تعالى " فليعلمن اللّه الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين " مخالفة بين الصيغة الفعلية وهي " صدقوا " والصيغة الاسمية في قوله " الكاذبين " والنكتة في هذه المخالفة أن اسم الفاعل يدل على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه لأن وقت نزول الآية كانت حكاية عن قوم قريبي عهد بالإسلام وعن قوم مستمرين على الكفر

فعبر في حق الأولين بلفظ الفعل وفي حق الآخرين بالصيغة الدالة على الثبات ، أما بالنسبة لعلم اللّه فلا يقال ان فيه تجددا في علم اللّه تعالى بهم قبل الاختبار وإيهاما بأن العلم بالكائن غير العلم بأنه سيكون ، والحق أن علم اللّه تعالى واحد يتعلق بما لموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه وفائدة ذكر العلم ها هنا وان كان سابقا على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء كأنه قال : لنعلمنهم فلنجازيهم بحسب علمه فيهم .

2- الحذف :

جرينا في اعراب قوله تعالى " من كان يرجو لقاء اللّه فإن أجل اللّه لآت " على أن الفاء رابطة لجواب الشرط وان جملة ان أجل اللّه لآت هو الجواب وساغ وقوعه جوابا للشرط مع أن أجل اللّه آت

لا محالة من غير تقييد بشرط وانه ينعدم بانعدام الشرط ساغ وقوعه جوابا لأننا نعني بلقاء اللّه تلك الحالة الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت كأنه قال من كان يرجو لقاء اللّه فإن لقاء اللّه لآت لأن الأجل واقع فيه اللقاء كما تقول من كان يرجو لقائي فإن يوم الجمعة قريب إذا علم وتعورف انك تقعد للاستقبال يوم الجمعة ، هذا ويجوز أن يكون من باب الحذف البلاغي والتقدير فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا .

الفوائد :

أطال المعربون في التماس وجوه الاعراب لهذه الآية وهي " أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يؤمنون " وقد اخترنا أمثل هذه الوجوه وأدناها إلى المنطق كما أوردنا نص قول الزمخشري فيها وكلا الوجهين سائغ مراد ونريد أن نفصل لك القول في الظن والحسبان وغيرهما من الأفعال التي تسمى " أفعال القلوب " وانما قيل لها ذلك لأن معانيها قائمة بالقلب ، وليس معنى هذا أن كل فعل قلبي ينصب مفعولين بل القلبي ثلاثة أقسام ما لا يتعدى بنفسه نحو فكر في الأمر وتفكر فيه ، وما يتعدى لواحد بنفسه نحو عرف الحق وفهم المسألة ، وما يتعدى لاثنين بنفسه وهو المقصود بالتسمية وأصل المفعولين المبتدأ والخبر ، ورد بعضهم وهو السهيلي هذا القول وقال كيف يكون نحو ظننت زيدا عمرا أصلهما مبتدأ وخبر وأجيب بأن المراد هو التشبيه بدليل أنه يقال : ظننت زيدا عمرا فتبين خلاف فالظن المذكور لتشبيهه به ، وأجاب بعضهم بجواب آخر وهو أنه متأول بمعنى ظننت الشيء المسمى بزيد مسمى بعمر كما أن قولك

زيد حاتم متأول بمعنى زيد مثل حاتم في المعنى ، استمع إلى قول زفر ابن الحارث الكلابي :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية لاقينا جذام وحميرا

فكل بيضاء مفعول حسبنا الأول وشحمة مفعوله الثاني وهو كناية عن أنه كان يظنهم

شجعانا فتبينوا بخلاف ذلك وبعد هذا البيت :

فلما لقينا عصبة تغلبية يقودون جردا في الأعنّة خمرا

سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسّرا

(417/599)

إذا عرفت هذا كله فهمت معنى الآية بوضوح أي : أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وتبجحوا بها ، واستطالوا على من سواهم انهم سيتركون غير ممتحنين ؟ لا بل سوف يمتحنهم اللّه بضروب الابتلاء وأنواع المحن حتى يسبر أغوارهم جميعا ، ويبلو صبرهم وثبات أقدامهم ورسوخها في الايمان ، فليس الايمان كلمات تتردد على الألسنة وحسب لكنه يحتاج إلى عمل أصيل ، وجهاد مستمر ، ليسفر عملهم عما فيه نفع أمتهم ، وجهادهم عن تأثيل أوطانهم .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 8 إلى 11]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ

مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (11)

الإعراب :

)

(418/599)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً) كلام مستأنف للشروع في تقرير حق الأبوين وتحديد طاعتهما بعدم معصية اللّه . ووصينا فعل وفاعل والإنسان مفعول به وبوالديه متعلقان بوصينا وحسنا نعت لمصدر وصينا على حذف مضاف أي إيصاء ذا حسن أو هو في نفسه حسن على المبالغة ، وقال الزجاج : " ومعناه : ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه وما يحسن " . (وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما) الواو عاطفة وان شرطية وجاهداك فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والألف فاعل والكاف مفعول به ولتشرك اللام لام التعليل وتشرك فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل

مستتر تقديره أنت والجار والمجرور متعلقان بجاهداك وبي

متعلقان بتشرك وما اسم موصول مفعول به لتشرك ولك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وبه متعلقان بعلم وعلم مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة ما ، فلا الفاء رابطة لجواب الشرط لأن الجواب جملة ولا ناهية وتطعهما فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت والميم والألف حرفان دالان على التثنية والجملة المقترنة بالفاء في محل جزم جواب إن . (إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) إلي خبر مقدم ومرجعكم مبتدأ مؤخر والفاء حرف عطف وأنبئكم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وبما متعلقان بأنبئكم وجملة كنتم صلة ما وجملة تعملون خبر كنتم .

)

(419/599)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) الذين مبتدأ خبره " لندخلنهم في الصالحين " أي في زمرة الراسخين في الصلاح ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الاشتغال . وجملة آمنوا صلة وجملة عملوا الصالحات معطوفة على جملة آمنوا واللام موطئة للقسم وندخلن فعل مضارع مبني على الفتح وفاعله مستتر تقديره نحن والهاء

مفعول به وفي الصالحين متعلقان بندخلهم .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان حال المنافقين بعد أن بين حال المؤمنين والكافرين فيما تقدم ومن الناس خبر مقدم ومن نكرة موصوفة مبتدأ مؤخر أي ناس وهو أولى من جعلها موصولة وجملة يقول صفة لمن على اللفظ وجملة آمنا مقول القول وبالله متعلقان بآمنا . (فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ) الفاء حرف عطف وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وفي الله متعلقان بأوذي وجملة أوذي في محل جر بإضافة الظرف إليها أي في سبيل الله وجملة جعل لا محل لأنها جواب إذا وفتنة الناس مفعول جعل الاول

(420/599)

وكعذاب الله في موضع المفعول الثاني ، أو الكاف اسم بمعنى مثل في موضع المفعول الثاني والمعنى جزع من أذى الناس ، فأطاعهم كما يطيع الله من يخافه . (وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وان حرف شرط جازم وجاءهم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والهاء مفعول به ونصر فاعل ومن ربك متعلقان بجاءهم أو بمحذوف صفة لنصر ، ليقولن : اللام واقعة في جواب القسم ويقولن فعل مضارع مرفوع

بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل وجملة إنا مقول القول وان واسمها وجملة كنا خبرها ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر كنا . (أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ) الهمزة للاستفهام التقريري التوبيخي والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق وليس فعل ماض ناقص والله اسمها والباء حرف جر زائد وأعلم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس وبما متعلقان بأعلم وفي صدور العالمين صلة ما . (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم ويعلمن فعل مضارع مبني على الفتح والله فاعل والذين مفعول به وجملة آمنوا صلة وليعلمن المنافقين عطف على وليعلمن الذين آمنوا .

الفوائد :

روى التاريخ أن سعد بن أبي وقاص وهو من السابقين إلى الإسلام حين أسلم قالت أمه وهي وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية ابن عبد شمس : يا سعد بلغني أنك قد صبأت ، فو الله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح وان الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد ، وكان أحبّ ولدها إليها ، فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف ، فأمره رسول الله أن يداريها ويترضّاها بالإحسان .

وفي رواية للقرطبي أن سعدا قال لها : واللّه لو كان لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما كفرت بمحمد فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت ، هذا ومعنى قوله فو اللّه لا يظلني سقف بيت من الضح والريح كما في الصحاح الضح الشمس وفي الحديث لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل فإنه مقعد الشيطان . وقيل نزلت في عياش بن ربيعة المخزومي وذلك انه هاجر مع عمر بن الخطاب مترافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة امرأة من بني تميم بن حنظلة فنزلا بعياش وقالا له إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتا حتى تراك وهي أشدّ حبا لك منا فاخرج معنا وفتلا منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي اللّه عنه فقال هما يخدعانك ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال له عمر : أما إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منها ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي قد كلت فاحملني معك قال نعم فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه وشدا وثاقه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت : لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد فنزلت .

وسواء أكانت المناسبة هذه أم تلك فالمسألة عامة ، وبر الوالدين مطلوب شرعا وطاعتهما

واجبة إلا في المعصية فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وقوله " وفتلا منه في الذروة والغارب " قال الجوهري في صحاحه : " ما زال فلان يفتل من فلان في الذروة والغارب أي يدور من وراء خدعته " .

]

سورة العنكبوت (29) : الآيات 12 إلى 15]

(422/599)

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (13) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (15)

الإعراب :

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان نموذج آخر من أضاليلهم .

وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة الموصول وللذين متعلقان يقال وجملة آمنوا صلة الموصول وجملة اتبعوا مقول القول واتبعوا فعل وفاعل وسبيلنا مفعول ولنحمل الواو عاطفة واللام لام الأمر

ونحمل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وخطاياكم مفعول به وسيأتي معنى الأمر في باب البلاغة . (وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ) الواو حالية وما نافية حجازية تعمل عمل ليس وهم اسمها والباء حرف جر زائد وحاملين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما ومن خطاياهم حال لأنه كان في الأصل صفة لشيء وتقدم عليه ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول حاملين وجملة إنهم لكاذبون تعليل للجزم بعدم حملهم شيئا من خطاياهم وإن واسمها واللام المزحلقة وكاذبون خبرها .

)

(423/599)

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم ويحملن فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل وأثقالهم مفعول به وأثقالا عطف على أثقالهم ومع أثقالهم ظرف متعلق بمحذوف صفة

لأثقالا .

(وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ) الواو عاطفة ويسألن عطف على يحملن ويوم القيامة ظرف متعلق بيسألن وعما متعلقان بيسألن أيضا وجملة كانوا صلة ما وجملة يفترون خبر كانوا . (وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً) كلام مستأنف مسوق لتأييد التكليف الذي ألزم محمد صلى اللّه عليه وسلم به أتباعه أي أنه ليس مختصا بالنبي وأتباعه واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل ونوحا مفعول به والى قومه متعلقان بأرسلنا ، فلبث الفاء عاطفة ولبث فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على نوح وفيهم متعلقان بلبث وألف سنة نصب على الظرف لأنه عدد أضيف إلى الظرف فأخذ منه ظرفيته وهو متعلق بلبث أيضا وإلا أداة استثناء وخمسين منصوب على الاستثناء وعاما تمييز وقد روعيت هنا نكتة نذكرها في باب البلاغة .

(فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ) الفاء عاطفة وأخذهم الطوفان فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر والواو حالية وهم مبتدأ وظالمون خبر . والطوفان ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما قال العجاج :

حتى إذا ما يومها تصببا وعم طوفان الظلام الأثأبا

والبيت للعجاج يصف بقرة وحشية وما زائدة بعد إذا عم بالمهملة ويروى بالمعجمة

والمعنيان متقاربان والأثأب نوع من الشجر يشبه شجر التين الواحدة أثأبة ونسبة التصبب لليوم مجاز عقلي من باب الإسناد للزمان أي تصبب المطر وستر ظلامه الشجر الذي كان فيه .

(424/599)

(فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ) الفاء عاطفة وأنجيناه فعل وفاعل ومفعول به وأصحاب عطف على الهاء أو مفعول معه وجعلناها الواو عاطفة وجعلناها فعل وفاعل ومفعول به آية مفعول به ثان وللعالمين صفة لآية .

البلاغة :

1- مجيء الأمر بمعنى الخبر :

في قوله " ولنحمل خطاياكم " الكلام أمر بمعنى الخبر يعني أن أصل ولنحمل خطاياكم : إن تتبعونا نحمل خطاياكم ، فعدل عنه إلى ما ذكر مما هو خلاف الظاهر من أمرهم بالحمل ، وفي قوله :

" انهم لكاذبون " نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر فإن من الناس من أنكره ولا حجة له لأن اللّه تعالى أردف قولهم

ولنحمل خطاياكم على صيغة الأمر بقوله : انهم لكاذبون ، والتنكيت إنما يتطرق إلى الاخبار .

2- نكتة العدد :

وذلك في قوله " فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما " فإن الإخبار بهذه الصيغة يمهد عذر نوح عليه السلام في دعائه على قومه بدعوة أهلكتهم عن آخرهم إذ لو قيل : فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاما لما كان لهذه العبارة من التهويل ما للعبارة الأولى لأن لفظة الألف في العبارة الأولى في أول ما يطرق السمع فيشتغل بها عن سماع بقية الكلام من الاستثناء وإذا راجع الاستماع لم يبق للاستثناء بعد ما تقدمه وقع يزيل ما حصل عنده من ذكر الألف فتعظم كبيرة قوم نوح عليه السلام في إصرارهم على المعصية مع طول مدة الدعاء .

(425/599)

وعبارة الزمخشري في صدد هذا العدد " فإن قلت هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة قلت : ما أورده اللّه أحكم لأنه لو قيل كما قلت لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك ، وكأنه قيل تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أن

ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة . وفيه نكتة أخرى وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتثبيتا له فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره " .

نكتة ثانية في العدد :

وهناك نكتة ثانية وهو انه غاير بين تمييز العددين فقال في الأول " سنة " وقال في الثاني " عاما " لئلا يثقل اللفظ ثم انه خص لفظ العام بالخمسين إيذانا بأن نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما استراح منهم بقي في زمن حسن والعرب تعبر عن الخصب بالعام وعن الجدب بالسنة .

نكتة ثالثة في العدد :

وهناك نكتة ثالثة اكتشفها الرازي قال : " فإن قلت ما الفائدة في مدة لبثه ؟ قلت : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام فقال له اللّه تعالى : إن نوحا لبث في قومه هذا العدد الكبير ولم يؤمن من قومه إلا القليل فصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك " .

الفوائد :

في قوله " ولنحمل خطاياكم " الأصل دخول لام الأمر ولا الناهية على فعل الغائب معلوما

ومجهولا وعلى المخاطب والمتكلم المجهولين ويقل دخولها على المتكلم المفرد المعلوم فإن كان المتكلم غيره فدخولهما عليه أهون وأيسر كالآية المتقدمة وقول الشاعر :

إذا ما خرجنا من دمشق فلا نعد لها أبدا ما دام فيها الجراضم

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 16 إلى 23]

(426/599)

وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (23)

الإعراب :

(وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ) كلام مستأنف لسوق قصة ثانية بعد قصة نوح والطوفان .

وابراهيم منصوب بفعل محذوف تقديره

(427/599)

أذكر ، وإذ الظرف بدل اشتمال من ابراهيم ولك أن تجعله كلاما معطوفا فتعطف ابراهيم على نوحا وتعلق الظرف بأرسلنا والمعنى عندئذ أرسلنا إبراهيم حين بلغ من السن مبلغا يخاطب فيه قومه بعبارات الوعظ والإرشاد ، وجملة قال لقومه في محل جر بإضافة الظرف إليها ولقومه متعلقان بقال . (اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذِلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الجملة مقول قول ابراهيم لقومه ، واعبدوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ولفظ الجلالة مفعوله واتقوه عطف على اذكروا اللّه وذلكم مبتدأ وخير خبر ولكم متعلقان بخير وإن شرطية وكنتم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وجملة تعلمون خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فاعبدوا اللّه واتقوه . (إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً) إنما كافة ومكفوفة وتعبدون فعل مضارع وفاعل ومن دون اللّه حال وأوثانا مفعول به وتخلقون إفكا عطف على ما قبله ويجوز في الإفك أن يكون مصدرا

وأن يكون صفة أي خلقا إفكا أي ذا إفك وباطل .

(إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً) إن واسمها وجملة تعبدون صلة ومن دون اللّه حال وجملة لا يملكون خبر إن ولكم متعلقان برزقا ورزقا مفعول به ليملكون لأنه بمعنى المرزوق أو مصدر مؤول من إن والفعل أن لا يقدرون أن يرزقوكم ويجوز نصبه على المصدر وناصبه لا يملكون لأنه في معناه .

(فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) الفاء الفصيحة وابتغوا فعل أمر وفاعل وعند اللّه متعلقان بابتغوا والرزق مفعول ابتغوا واعبدوه واشكروا له عطف على ابتغوا واليه متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

(428/599)

)

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) عطف على ما تقدم منتظم في سلك حديث ابراهيم عليه السلام لقومه ، وان شرطية وتكذبوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل ، فقد الفاء رابطة للجواب لاقترانه بقد

وكذب أمم فعل وفاعل ومن قبلكم صفة لأمم وقيل جواب الشرط محذوف أي فلا يضرني تكذيبكم فقد كذّب أمم من قبلكم أنبياءهم ورسلهم ، وما الواو حالية أو استئنافية وما نافية وعلى الرسول خبر مقدم وإلا أداة حصر والبلاغ مبتدأ مؤخر والمبين صفة لبلاغ . (أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق ولم حرف نفي وجزم وقلب وكيف اسم استفهام في محل نصب حال وجملة يبدىء اللّه الخلق في محل نصب مفعول يروا لأنها علقت عن العمل بالاستفهام والرؤية قلبية والمراد بها العلم الصحيح الواضح لأنه كالرؤية البصرية ، ثم يعيده كلام مستأنف أو هو كلام معطوف على أولم يروا وسبب امتناع عطفه على يبدىء لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته فلو كان معلوما لهم لكان تحصيلا للحاصل ولا يقال انه من قبيل عطف الخبر على الإنشاء لأن الاستفهام متضمن معنى الإنكار والتقرير فهو بمثابة الإخبار وإن واسمها وعلى اللّه متعلقان بيسير ويسير خبر إن .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) الكلام حكاية قول ابراهيم لقومه أو حكاية قول اللّه لابراهيم وسيروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وفي الأرض متعلقان بسيروا ، فانظروا عطف على سيروا وكيف حال وبدأ الخلق فعل وفاعل مستتر

و مفعول به والجملة في محل نصب مفعول انظروا المعلقة بسبب الاستفهام . (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ثم حرف عطف والله مبتدأ وجملة ينشىء خبر والنشأة الآخرة نصب على المصدرية المحذوفة الزوائد والأصل الإنشاءة وقرىء النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة وإن واسمها وعلى كل شيء متعلقان بقدير وقدير خبر ان . (يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) الجملة حالية أو خبر ثان لإن أو مستأنفة ويعذب فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو يعود على الله ومن مفعوله وجملة يشاء صلة من ويرحم من يشاء عطف على يعذب من يشاء وإليه متعلقان بتقلبون وتقلبون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل ومعنى تقلبون :

تردون وترجعون . (وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) الواو عاطفة وما نافية حجازية وأنتم اسمها والخطاب لأهل الأرض والباء حرف جر زائد ومعجزين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما وفي الأرض حال ومفعول معجزين محذوف للعلم به أي الله تعالى أي لا تفوتونه إن حاولتم الهرب من قضائه ، ولا في السماء عطف على في الأرض ان حمل السماء على العلو فجائز ، أي في البروج والقلاع الذاهبة في العلو ، ويكون تخصيصا بعد تعميم وما نافية ولكم خبر مقدم ومن دون الله حال ومن ولي من حرف جر زائد وولي مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر

ولا نصير عطف على من ولي .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي) والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة وبآيات اللّه متعلقان بكفروا ولقائه عطف على آيات وأولئك مبتدأ وجملة يئسوا من رحمتي خبر أولئك

(430/599)

وجملة أولئك يئسوا خبر الذين . (وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وأولئك الواو عاطفة وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم صفة لعذاب وجملة لهم عذاب أليم خبر أولئك .

البلاغة :

1- نكر الرزق في قوله (لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً) ثم عرفه بقوله " فابتغوا عند اللّه الرزق " لأن الأول مقصور عليهم فاستوجب أن يكون ضئيلا قليلا فنكره تدليلا على قلته وضآلته ، ولما كان الثاني مبتغى عند اللّه استوجب أن يكون كثيرا لأنه كله عند اللّه فعرفه تدليلا على كثرته وجسامته .

2- الإضمار والإظهار :

في قوله " أولم يروا كيف يبدىء اللّه الخلق ثم يعيده إن ذلك على اللّه يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم اللّه ينشىء النشأة الآخرة " فن قل من يتفطّن اليه لأنه دقيق للغاية ولا يجنح إليه الكاتب أو الشاعر إلا لفائدة تربو على البداهة وهي تعظيم شأن الأمر . ألا ترى أنه صرح باسمه تعالى في قوله " ثم اللّه ينشىء النشأة الآخرة " مع إيقاعه مبتدأ ، وقد كان القياس أن يقول :

كيف بدأ اللّه الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة فأفصح باسمه بعد إضماره والفائدة في ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة وكان صدر الكلام واقعا معهم في الإبداء وقرر لهم أن ذلك من اللّه احتج عليهم بأن الاعادة إنشاء مثل الإبداء وإذا كان اللّه الذي لا يعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء فوجب أن لا تعجزه الإعادة

فللدلالة وللتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الاعادة أبرز اسمه تعالى وأوقعه مبتدأ ، والأصل في الكلام الأظهار ثم الإضمار ويليه لقصد التفخيم الإظهار بعد الإظهار ويليه وهو أفخم الثلاثة الإظهار بعد الإضمار كما في الآية .

(431/599)

وعلى هذا يقاس ما ورد من كلامهم كقول بعضهم يصف لقاء مع بني تميم قال : " ولما تلاقينا وبنو تميم أقبلوا نحونا يركضون فرأينا منهم أسودا ثكلا تسابق الأسنة إلى الورود ، ولا ترتد على أعقابها إذا ارتدت أمثالها من الأسود وتناجد بنو تميم علينا بجملة فلذنا بالفرار واستبقنا إلى تولية الإدبار " فإنه إنما قيل " وتناجد بنو تميم " مصرحا باسمهم ولم يقل وتناجدوا كما قيل " أقبلوا " للدلالة على التعجب من إقدامهم عند الحملة وثباتهم عند الصدمة لا سيما وقد أردف ذلك بقوله " لذنا بالفرار ، واستبقنا إلى تولية الأدبار " كأنه قال : وتناجد أولئك الفرسان المشاهير ، والفرسان الكماة المناكير وحملوا علينا حملة واحدة فولينا مدبرين منهزمين .

ولقد أشار الامام الرازي إلى هذه النكتة ولكنه أوردها موردا آخر ولذلك ننقل عبارته بنصها : " أبرز اسم اللّه في الآية الأولى عند البدء حيث قال : كيف يبدىء اللّه الخلق وأضمره عند الإعادة ، وفي هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة حيث قال : ثم اللّه ينشىء النشأة لأنه في الآية الأولى لم يسبق ذكر اللّه بفعل حتى يسند اليه البدء فقال يبدىء اللّه ثم قال : ثم يعيده وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسندا إلى اللّه تعالى فاكتفى به وأما إظهاره عند الإنشاء ثانيا حيث قال : ثم اللّه ينشىء النشأة ، فليقع في ذهن السامع كمال قدرته

وعلمه وإرادته ولم يقل يعيده بل قال ينشىء للتنبيه على أن البدء يسمى نشأة كالإعادة

والتغاير بينهما بالوصف حيث قالوا : نشأة أولى ونشأة ثانية " .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 24 إلى 27]

(432/599)

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

الإعراب :

(فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ) الفاء عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص وجواب خبرها المقدم وإلا أداة حصر وأن قالوا مصدر مؤول هو اسم كان المؤخر أي قال بعضهم لبعض فكانوا جميعا في حكم القائلين ، واقتلوه فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة مقول القول وأو حرف عطف وحرّقوه عطف

على اقتلوه . (فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الفاء الفصيحة أي فقذفوه في النار فأنجاه اللّه ، وأنجاه اللّه فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ومن النار متعلقان بأنجاه وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يؤمنون صفة لقوم . (وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا) الواو عاطفة وقال عطف على أنجيناه وإنما كافة ومكفوفة واتخذتم فعل وفاعل ومن دون اللّم أو بمحذوف حال .

(433/599)

و هذه الآية شغلت المعربين كثيرا لاختلاف قراءاتها وتباين وجهات النظر فيها وقد ابتسرنا الكلام في الاعراب على قراءة حفص واخترنا أمثل الأوجه وأسهلها وسننقل في باب الفوائد غيضا من فيض مما قيل فيها شحذا للأذهان . (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) ثم حرف عطف للتراخي ويوم القيامة ظرف متعلق بيكفر وبعضكم فاعل وببعض متعلقان بيكفر أيضا ويلعن بعضكم بعضا فعل مضارع وفاعل ومفعول به . (وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ) مأواكم مبتدأ أو خبر مقدم والنار خبر أو مبتدأ مؤخر والواو عاطفة وما نافية ولكم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وناصرين مبتدأ

مؤخر وهو مجرور لفظا .

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الفاء عاطفة وآمن فعل ماض ولوط فاعله وله متعلقان بآمن وقال عطف على فآمن وفاعله مستتر يعود على ابراهيم ولذلك يجب الوقف على

(434/599)

لوط لأن قوله إني مهاجر مقول ابراهيم فلو وصل لتوهم أن الفعل الثاني للوط فيفسد المعنى وان واسمها ومهاجر خبرها وإلى ربي متعلقان بمهاجر أي إلى حيث يأمرني ربي ، ففي الكلام مجاز ، وان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والعزيز خبر إني أو خبر هو والجملة خبر إني والحكيم خبر ثان . (وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ) ووهبنا فعل وفاعل وله متعلقان بوهبنا واسحق مفعول به ويعقوب عطف عليه وجعلنا فعل وفاعل وفي ذريته في موضع المفعول الثاني والشجرة هي المفعول الأول والكتاب عطف على النبوة . (وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به والواو عاطفة وأجره مفعول به ثان وفي الدنيا حال وانه وان واسمها وفي الآخرة حال واللام المزحلقة ومن الصالحين خبر إنه .

الفوائد :

قدمنا لك أمثل الأوجه في إعراب قوله تعالى " وقال إنما اتخذتم من دون اللّه أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا " ووعدناك أن ننقل شيئا مما قالوه فيها وكله من الكلام الجيد والمنطق الحصيف ونبدأ بما قاله الزمخشري قال : " قرىء على النصب بغير إضافة وبإضافة وعلى الرفع كذلك ، فالنصب على التعليل أي لتتوادوا بينكم وتتوصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم ، وأن يكون مفعولا ثانيا كقوله :

" اتخذ إلهه هواه " أي اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف أو اتخذتموها مودة بينكم بمعنى مودودة بينكم

(435/599)

كقوله تعالى : " ومن الناس من يتخذ من دون اللّه أندادا يحبونهم كحب اللّه " وفي الرفع وجهان : أن يكون خبرا لأن على أن ما موصولة وأن يكون خبر مبتدأ محذوف والمعنى أن الأوثان مودة بينكم أي مودودة أو سبب مودة ، وعن عاصم : مودة بينكم بفتح بينكم مع الإضافة كما قرىء " لقد تقطع بينكم " ففتح وهو فاعل ، وقرأ ابن مسعود رضي اللّه عنه

" أوثانا انما مودة بينكم في الحياة الدنيا " أي إنما تتوادون عليها أو تودونها في الحياة الدنيا " .

وقال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين : " وقال انما اتخذتم :

في ما هذه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف وهو المفعول الأول وأوثانا مفعول ثان والخبر مودة في قراءة من رفع كما سيأتي والتقدير إن الذي اتخذتموه أوثانا مودة أي ذو مودة ، أو جعل نفس المودّة مبالغة ومحذوف على قراءة من نصب مودة أي الذي اتخذتموه أوثانا لأجل المودة لا ينفعكم أو يكون عليكم لدلالة قوله ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض .

والثاني : أن تجعل ما كافة وأوثانا مفعول به ، والاتخاذ هنا متعد لواحد أو لاثنين والثاني هو من دون اللّه فمن رفع مودة كانت خبر مبتدأ مضمر أي هي مودة أي ذات مودة أو جعلت نفس المودة مبالغة والجملة حينئذ صفة لأوثانا أو مستأنفة ، ومن نصب كان مفعولا له أو بإضمار أعني .

الثالث : ان تجعل ما مصدرية وحينئذ يجوز أن يقدر مضاف من الأول أي إن سبب اتخاذكم أوثانا مودة فيمن رفع مودة ويجوز

أن لا يقدر بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة ، وفي قراءة من نصب يكون الخبر محذوفا على ما مر في الوجه الأول ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي برفع مودة غير منونة وجر بينكم ، ونافع وابن عامر وأبو بكر بنصب مودة منونة ونصب بينكم ، وحمزة وحفص بنصب مودة غير منونة وجر بينكم ، فالرفع قد تقدم والنصب أيضا تقدم فيه وجهان ويجوز وجه ثالث وهو أن يجعل مفعولا ثانيا على المبالغة للاتساع في الظرف ، ومن نصبه فعلى أصله ، ونقل عن عاصم أنه رفع مودة غير منونة ونصب بينكم وخرجت على إضافة مودة للظرف وإنما بني لإضافته إلى غير متمكن كقراءة " لقد تقطع بينكم " بالفتح إذا جعلنا بينكم فاعلا " .

وفي كتاب أبي البقاء جاء قوله " قوله تعالى " انما اتخذتم " في ما ثلاثة أوجه أحدها هي بمعنى الذي والعائد محذوف أي اتخذتموه و" أوثانا " مفعول ثان أو حال و" مودة " الخبر على قراءة من رفع والتقدير ذو مودة ، والثاني هي كافة وأوثانا مفعول ومودة بالنصب مفعول له وبالرفع على إضمار مبتدأ وتكون الجملة نعتا لأوثان ويجوز أن يكون النصب على الصفة أيضا أي ذوي مودة ، والوجه الثالث أن تكون ما مصدرية ومودة بالرفع الخبر ولا حذف في هذا الوجه في الخبر بل في اسم ان والتقدير ان سبب اتخاذكم مودة ، ويقرأ مودة بالإضافة في الرفع والنصب و" بينكم " بالجر وبتنوين مودة في الوجهين جميعا ، ونصب بين وفيما يتعلق به " في الحياة الدنيا " سبعة أوجه : (الاول) أن يتعلق باتخذتم إذا جعلت ما كافة لا على

الوجهين الآخرين لئلا يؤدي إلى الفصل بين الموصول وما في الصلة بالخبر و(الثاني) أن يتعلق بنفس مودة إذا لم تجعل

(437/599)

بين صفة لها لأن المصدر إذا وصف لا يعمل و(الثالث) أن تعلقه بنفس بينكم لأن معناه اجتماعكم أو وصلكم و(الرابع) أن تجعله صفة ثانية لمودة إذا نونتها وجعلت بينكم صفة و(الخامس) أن تعلقها بمودة وتجعل بينكم ظرف مكان فيعمل مودة فيهما و(السادس) أن تجعله حالا من الضمير في بينكم إذا جعلته وصفا لمودة و(السابع) أن تجعله حالا من بينكم لتعرفه بالإضافة ، وأجاز قوم منهم أن تتعلق في بمودة : وإن كان بينكم صفة لأن الظروف يتسع فيها بخلاف المفعول به " .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 28 إلى 30]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (28) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30)

اللغة :

(نادِيكُمُ) النادي والندوة والمنتدى مجلس القوم نهارا أو المجلس ما داموا مجتمعين فيه وجمعه أندية ولا تقل نواد ، وغلط صاحب المنجد فجمعه على نواد ، وما يندوهم النادي أي ما يسعهم المجلس من كثرتهم . وقال الزمخشري : " ولا يقال للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله فإذا قاموا عنه لم يبق ناديا " .

الاعراب :

)

(438/599)

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ) عطف على إبراهيم أو منصوب بفعل محذوف تقديره اذكر ، والظرف بدل اشتمال من لوطا وجملة قال في محل جر باضافة الظرف إليها ولقومه متعلقان بقال وجملة إنكم لتأتون مقول القول وان واسمها واللام المزحلقة وجملة تأتون خبرها والواو فاعل والفاحشة مفعول به وجملة ما سبقكم مستأنفة مسوقة لتقرير فحشها وهجنة فاعلها ورجح أبو حيان أن تكون حالية كأنه قال : أتأتون الفاحشة مبتدعين لها غير مسبوقين بها ، وما نافية وسبقكم فعل ماض

ومفعول به وبها متعلقان بسبقكم ومن حرف جر زائد وأحد مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل سبقكم ومن العالمين صفة لأحد .

(أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ) الهمزة للاستفهام الانكاري وانكم إن واسمها واللام المزحلقة وجملة تأتون خبر إن والرجال مفعول به وتقطعون السبيل عطف على تأتون الرجال ، قيل انهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين ، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم فقطعوا السبيل بهذا السبب ، وتأتون عطف أيضا وفي ناديكم متعلقان بتأتون والمنكر مفعول به .

(فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) الفاء عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص وجواب خبر كان المقدم وإلا أداة حصر وأن وما في حيزها اسم كان المؤخر وجملة ائتنا مقول القول وائتنا فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وبعذاب اللّه متعلقان بائتنا وإن شرطية وكنت فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها ومن الصادقين خبرها وجواب إن محذوف

دل عليه ما قبله أي فائتنا بعذاب اللّه . (قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) رب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وحرف النداء محذوف وانصرني فعل دعاء والفاعل مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به وعلى القوم متعلقان بانصرني والمفسدين صفة للقوم .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 31 إلى 35]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (31) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

اللغة :

(ذَرْعاً) : الذرع : الطاقة والقوة وفي المصباح : " ضاق بالأمر ذرعا عجز عن احتماله وذرع الإنسان طاقته التي يبلغها " وعبارة الزمخشري : " وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا رحب الذراع بكذا إذا كان مطيقا له والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلا في العجز والقدرة " وفي الأساس واللسان العجيب من مجاز هذه الكلمة إذ يقال : ضاق بالأمر ذرعا وذراعا إذا لم يطقه وأبطرت ناقتك ذرعها كلفتها ما لم تطق واقصد بذرعك واربع على ظلعك :

ارفق بنفسك ، وما لك عليّ ذراع أي طاقة وطفت في مذارع الوادي وهي أضواحه ونواحيه وقد أذرع في كلامه هو يذرع فيه إذراعا وهو الإكثار وفلان ذريعتي إليك وقد تذرعت به إليه أي توسلت وسألته عن أمره فذرّع لي منه شيئا وذرعت لفلان عند الأمير :

شفعت له وأنا ذريع له عنده ووقع فيهم موت ذريع : سريع فاش وذلك إذا لم يتدافنوا واستوى كذراع العامل وهو صدر القناة وهو لك مني على حبل الذراع أي حاضر قريب وجعلت أمرك على ذراعك أي اصنع ما شئت .

هذا والذراع من الرجل من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى والساعد مؤنثة فيهما وقد تذكّر والذراع من المقاييس طوله بين الخمسين والسبعين سنتيمترا .

(رِجْزاً) : الرجز والرجس : العذاب من قولهم ارتجز وارتجس إذا اضطرب لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب .

الاعراب :

(وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ) الواو عاطفة على

محذوف يقتضيه السياق أي فاستجاب اللّه دعاء لوط وأرسل ملائكة لإهلاكهم وأمرهم أن يبشروا ابراهيم بالذرية

الطيبة فجاءوا أولا إلى ابراهيم . ولما ظرفية حينية أو رابطة وجاءت رسلنا ابراهيم فعل وفاعل ومفعول به وبالبشرى متعلقان بجاءت وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة إنا مقول القول وإن واسمها ومهلكو خبرها وأهل هذه مضافين والقرية بدل من هذه وهي سذوم أو سدوم وقد تقدم تفصيل ذكرها فجدد به عهدا . (إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ) الجملة لا محل لها لأنها تعليل للإهلاك وان واسمها وجملة كانوا خبرها وظالمين خبر كانوا .

)

(441/599)

قالَ : إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها) إن حرف مشبه بالفعل وفيها خبرها المقدم ولوطا اسمها المؤخر وسيأتي معنى هذا الإخبار في باب البلاغة وقالوا فعل وفاعل ونحن مبتدأ وأعلم خبر وبمن متعلقان بأعلم وفيها صلة من . (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ) اللام موطئة للقسم وننجينه فعل مضارع مبني على الفتح وفاعله مستتر تقديره

نحن وأهله عطف على الهاء أو مفعول معه وإلا أداة استثناء وامرأته مستثنى وقد تقدم هذا وجملة كانت حالية وكانت فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هي ومن الغابرين خبرها أي الباقين في العذاب .

(وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً) أن زائدة بعد لما تفيد المهلة مع الترتيب في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما وقد تقدم نظيرها في يوسف وجملة سيء بهم لا محل لها وسيء فعل ماض مبني للمجهول وبهم متعلقان بسيء ونائب الفاعل هو ضمير المصدر أي جاءته المساءة والغم بسببهم على حد قوله :

يغضي حياء ويغضى من مهابته فما يكلّم إلا حين يبتسم

(442/599)

و سيأتي تفصيل لهذا في باب الفوائد . وضاق بهم عطف على سيء وذرعا تمييز محول عن الفاعل أي ضاق ذرعه بهم ، ويحتمل أن نائب الفاعل ضمير يعود على لوط (وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ) الواو استئنافية وقالوا فعل وفاعل وإنا وإن واسمها ومنجوك خبرها والكاف في موضع جر بالإضافة وعلى هذا تنصب وأهلك بفعل محذوف أي وننجي أهلك ، وما بعده تقدم إعرابه . (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى

أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ) ان واسمها ومنزلون خبرها وعلى أهل هذه القرية متعلقان بمنزلون ورجزا مفعول به لمنزلون لأنه اسم فاعل ومن السماء صفة لرجز وبما الباء سببية وما مصدرية أي بسبب فسقهم ، وكان واسمها وجملة يفسقون خبرها .

(وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وتركنا فعل وفاعل ومنها متعلقان بتركنا أو هو المفعول الثاني لها وآية مفعولها الاول وبينة صفة لأن " ترك " اختلف فيها النحاة فمنهم من جعلها تتعدى إلى واحد ومنهم من جعلها بمعنى صير فإلى مفعولين وهو اختيار ابن مالك وأنشد :

وربيته حتى إذا ما تركته أخا القوم واستغنى عن المسح ساربه

ولقوم متعلقان ببينة وجملة يعقلون صفة لقوم .

البلاغة :

فن الاشارة :

في قوله " ان فيها لوطا " فن الاشارة وقد تقدم ذكره كثيرا في هذا الكتاب فليس المراد إخبارهم بكون لوط في القرية وانما هو جدال في شأنه لأنهم ذكروا أن أهلها سيهلكون

بسبب امعانهم في الظلم فاعترض عليهم بأن فيها من هو بريء الساحة من الذنب لم يجترح ذنبا ولم يقترف إثما ولم يشارك قومه فيما هم ممعنون فيه من غي وارتكاس وفي هذا كله أيضا إشارة إلى أن من واجب الإنسان المؤمن أن يتحزن لأخيه وأن يسارع إلى رد الحيف عنه ويتشمر للدفع عنه وهذا من بليغ الاشارة وخفيها .

الفوائد :

نائب الفاعل :

ينوب عن الفاعل بعد حذفه واحد من أربعة :

1- المفعول به نحو " وغيض الماء وقضي الأمر " .

2- المجرور بحرف الجر نحو " ولما سقط في أيديهم " شريطة أن لا يكون حرف الجر للتعليل فلا يقال وقف لك ولا من أجلك ويقال في إعرابه انه مجرور لفظا بحرف الجر مرفوع محلا على أنه نائب فاعل ، غير انه إذا كان مؤنثا لا يؤنث فعله بل يبقى مذكرا فلا يقال ذهبت بفاطمة بل ذهب بفاطمة .

3- الظرف المتصرف المختص نحو مشي يوم كامل وصيم رمضان ، والمراد بالظرف المتصرف ما يصح الإسناد اليه كيوم وليلة

ودهر وشهر وغير المتصرف ما لا يصح الاسناد اليه كحيث وعند ، والمراد بالمختص أن يكون مفيدا غير مبهم ويكون مختصا بالوصف نحو جلس مجلس مفيد أو بالإضافة نحو

سهرت ليلة القدر أو بالعلمية نحو صيم رمضان فلا تنوب عن الفاعل الظروف المبهمة نحو زمان ووقت ومكان غير مضافة .

4- المصدر المتصرف المختص نحو " فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة " فنفخة نائب الفاعل وهو مصدر متصرف يصح الإسناد إليه ومختص لكونه موصوفا ويمتنع سير سير لعدم الفائدة ، وقد ينوب عن الفاعل في المصدر المتصرف المختص ومنه قول الفرزدق :

يغضي حياء ويغضى من مهابته فما يكلّم إلا حين يبتسم

(444/599)

فيكون المعنى يغضي الإغضاء المعهود وهو إغضاء الإجلال من مهابته فنائب الفاعل ضمير الإغضاء المفهوم من يغضي ، ولا يجوز أن يكون من مهابته في موضع الرفع على أنه نائب الفاعل لأن حرف الجر هنا للتعليل فهو في محل نصب على أنه مفعول من أجله ، ومن أمثلته أيضا قول طرفة بن العبد البكري :

فيا لك من ذي حاجة حيل دونها وما كل ما يهوى امرؤ هو نائله

فيكون المعنى حيل الحول المعهود ، ولا يصح أن يكون الظرف لأنه غير متصرف .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 36 إلى 40]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37) وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (39) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

اللغة :

(وَلا تَعْثَوْا) : ولا تفسدوا وفي المصباح : " عثا يعثو وعثي يعثى من باب قال وتعب أفسد فهو عاث " وفي القاموس : " وعثا كرمى وسعى ورضي عثيّا وعثيّا وعثيانا ، وعثا يعثو عثوّا أفسد " .

(445/599)

)

الرَّجْفَةُ) : الزلزلة الشديدة وفي الأساس : " ورجفت الأرض " فأخذتهم الرجفة " " يوم

ترجف الأرض والجبال " ورجف الشجر وأرجفته الريح ورجف البعير تحت الرحل والمطي تحت رحالها رواجف ورجّف ، وجاءنا شيخ ترجف عظامه . ومن المجاز : خرجوا يسترجفون الأرض نجدة وارتجفت بهم دفتا الشرق والغرب وأرجفوا في المدينة بكذا إذا أخبروا به على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصيح عندهم وهذا من أراجيف الغواة والإرجاف مقدمة الكون وتقول : إذا وقعت المخاويف ، كثرت الأراجيف " .

(حاصِباً) : ريحا عاصفة فيها حصباء وفي المختار : " عصفت الريح اشتدت وبابه ضرب " .

الاعراب :

(وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) الواو عاطفة والى مدين متعلقان بمحذوف معطوف على أرسلنا في قصة نوح أي وأرسلنا إلى مدين شعيبا وأخاهم مفعول به وشعيبا بدل أو عطف بيان والفاء عاطفة وقال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ويا حرف نداء وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وقد مر حكم المنادى المضاف إلى ياء المتكلم واعبدوا اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به وارجوا عطف على اعبدوا واليوم مفعول به والآخر صفة لليوم . (وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتعثوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل وفي الأرض

متعلقان بتعثوا ومفسدين حال . (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ) الفاء عاطفة وكذبوه فعل ماض وفاعل ومفعول به ، فأخذتهم الفاء عاطفة وأخذتهم فعل ماض ومفعول به مقدم والرجفة فاعل مؤخر فأصبحوا

(446/599)

عطف على فأخذتهم والواو اسم أصبح وفي دارهم متعلقان بجاثمين وجاثمين خبر أصبحوا . (وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ) الواو عاطفة وعادا مفعول به لفعل محذوف معطوف على ما قبله أي وأهلكنا عادا ، وثمودا عطف على عادا بالصرف وتركه والواو عاطفة وقد حرف تحقيق وتبين فعل ماض وفاعل مستتر تقديره إهلاكهم وقدره بعضهم آيات بينات تتعظون بها وتتفكرون فيها ومن مساكنهم متعلقان بتبين أي من جهة مساكنهم إذا عرجتم بها . (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) الواو عاطفة وزين فعل ماض ولهم متعلقان بزين والشيطان فاعل وأعمالهم مفعول به فصدهم عطف على زين وعن السبيل متعلقان بصدهم والواو حالية وكانوا فعل ماض ناقص والواو اسمها ومستبصرين خبرها أي والحال أنهم كانوا متمكنين من النظر والاستبصار ولكنهم أصموا آذانهم وأغشوا عيونهم عن الحق ورؤية معالمه .

(وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ) وقارون معطوف على عاد ، وفرعون وهامان عطف عليه وقدم قارون لقرابته من موسى أي أهلكناهم جميعا والواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وجاءهم فعل ومفعول به مقدم وموسى فاعل وبالبينات متعلقان بجاءهم فاستكبروا عطف على جاءهم وفي الأرض متعلقان باستكبروا والواو حالية وما نافية وكانوا كان واسمها وسابقين خبرها أي أنهم لجوا في طغيانهم ولكنهم لم يكونوا فائتين فأدركهم عذابنا . (فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً) الفاء الفصيحة أي إن شئت أن تعرف مصيرهم فقد أخذنا كلا منهم بذنبه . وكلّا مفعول مقدم

لأخذنا وأخذنا فعل وفاعل ، فمنهم الفاء عاطفة ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وهي نكرة موصوفة وأرسلنا صفة وعليه متعلقان بأرسلنا وحاصبا مفعول أرسلنا . (وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا) الواو عاطفة ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة أخذته الصيحة صفة ، ومنهم من خسفنا به الأرض : عطف على سابقتها وكذلك ومنهم من أغرقنا . (وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ) الواو عاطفة وما نافية وكان اللّه كان واسمها واللام لام الجحود ويظلمهم منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد لام الجحود والواو حالية ولكن مخففة مهملة وكانوا كان واسمها وأنفسهم مفعول مقدم وجملة يظلمون خبر كانوا .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 41 إلى 44]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

اللغة :

(الْعَنْكَبُوتِ) : دويّبة معروفة تنسج من لعابها خيوطا وتصيد بذلك النسيج طعامها والجمع عناكب وعنكبوتات والعنكب ذكرها

(448/599)

والجمع عناكب وعناكيب والعنكبة والعنكباة والعكنباة أنثاها والجمع عناكب وعناكيب ، وقال علماء التصريف " والعنكبوت معروف ونونه أصليه والواو والتاء مزيدتان بدليل

قولهم في الجمع عناكب وفي التصغير عنيكيب ويذكر ويؤنث وهذا مطرد في أسماء الأجناس " وقال ابن يعيش في شرح المفصل " ومن ذلك فعللوت قالوا عنكبوت وتخربوت ولم يأت صفة فالعنكبوت معروفة وهي دويبة تنسج لها بيوتا من خيوط واهية والتخربوت الناقة الفارهة والواو والتاء في آخرهما زائدتان زيدا في آخر الرباعي كما زيدا في آخر الثلاثي من نحو ملكوت ورهبوت " وسيأتي البحث عن التشبيه المتعلق ببيت العنكبوت في باب البلاغة .

الاعراب :

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) حال من اتخذ الأصنام أولياء وعبدها واعتمدها راجيا نفعها وشفاعتها كحال العنكبوت كما سيأتي في باب البلاغة . ومثل مبتدأ والذين مضاف اليه وجملة اتخذوا صلة وهو فعل وفاعل ومن دون اللّه حال وأولياء مفعول به وكمثل خبر وقد تقدم نظيره ، العنكبوت مضاف اليه وجملة اتخذت بيتا حالية .

(لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) لو شرطية وكان واسمها وجملة يعلمون خبرها وجواب لو محذوف تقديره لما عبدوها . (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الجملة تعليل لما قبله وان واسمها وجملة يعلم خبرها وما اسم موصول مفعول يعلم وجملة يدعون صلة

والعائد محذوف أي يعلم الذين يدعونهم ويعلم أحوالهم والمراد بالتعليل التوكيد لما ضربه من مثل ومن دونه حال ومن شيء متعلقان

(449/599)

بيدعون ويجوز أن تكون ما نافية ومن شيء مفعول يدعون على أن من زائدة لسبقها بالنفي وجملة ما يدعون في محل نصب مفعول يعلم وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان .

وقال بعضهم :

" ما استفهامية أو نافية أو موصولة ومن للتبعيض أو مزيدة للتوكيد ، وقيل ان هذه الجملة على إضمار القول أي قل للكافرين إن اللّه يعلم أي شيء يدعون من دونه " . (وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ) الواو عاطفة وتلك مبتدأ والأمثال بدل وجملة نضربها للناس خبر ويجوز أن يكون الأمثال خبرا وجملة نضربها حال يكون أو خبرا ثانيا ، والواو حالية وما نافية ويعقلها فعل مضارع ومفعول به وإلا أداة حصر والعالمون فاعل يعقلها وسيأتي بحث الأمثال في باب البلاغة .

(خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) كلام مستأنف للشروع في تسلية المؤمنين بعد أن خامرهم اليأس من إيمان الكفار . وخلق اللّه السموات فعل وفاعل

ومفعول به وبالحق حال والباء للملابسة وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبر إن المقدم واللام المزحلقة وآية اسم إن المؤخر وللمؤمنين صفة لآية .

البلاغة :

في قوله " وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت " فن التمثيل وقد تقدمت نماذج مختارة منه وبعضهم يجعله ضربا من ضروب الاستعارة ويمثل له بقول امرئ القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتّل

(450/599)

فمثّل عينيها بسهمي الميسر يعني المعلّى وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ، ومثّل قلبه بأعشار الجزور فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل . وفي الآية مثّل ما اتخذوه متكلا ومعتمدا في دينهم وتولوه من دون اللّه بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة وهو نسج العنكبوت ، أي كما صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد صح أن دينهم أضعف الأديان وأوهنها .

ومن جيد التمثيل قول عمر بن أبي ربيعة وكانوا يسمون شعره " الفستق المقشر " :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمّرك اللّه كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استهلت وسهيل إذا استقل يماني

يعني الثريا بنت علي بن عبد اللّه بن الحارث بن أمية الأصغر .

وكانت نهاية في الحسن والكمال ، وسهيل بن عبد الرحمن بن عوف وكان غاية في القبح والدمامة ، فمثّل بينهما وبين سمييهما ولم يرد إلا بعد ما بينهما وتفاوته خاصة لأن سهيلا اليماني قبيح لا دميم .

وعليه ورد قول المتنبي أيضا من قصيدة يذكر فيها خروج شبيب الخارجي ومخالفته كافورا :

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني

فإن شبيبا الخارجي الذي خرج على كافور الاخشيدي وقصد دمشق وحاصرها وقتل على حصارها كان من قيس ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب ، وأخبار ذلك مشهورة والسيف الذي يقال له يماني في نسبته إلى اليمن ، ومراد المتنبي أن شبيبا لما قتل وفارق كفه السيف فكأن الناس قالوا لسيفه : أنت يماني وصاحبك قيسي ولهذا جانبه السيف وفارقه .

التمثيل في رأي عبد القاهر :

و سبب آخر يذكره عبد القاهر مبينا به روعة التمثيل ويراه محيطا بأطراف الباب وذلك ان لتصور الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله بابا آخر من الظرف واللطف ومذهبا من مذاهب الاحساس لا يخفى موضعه من العقل وإذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب والتمثيل أخص شيء بهذا الشأن .

قال عبد القاهر : " وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب وهو يريك المعاني الممثلة شبها في الاشخاص الماثلة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ويريك التئام عين الأضداد ، ويجعل الشيء قريبا بعيدا معا " ونكتفي الآن بهذا القدر على أن نعود إلى هذا البحث في موطن آخر من هذا الكتاب .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 45 إلى 49]

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (45) وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ

مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (47) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (49)

الاعراب :

(452/599)

(اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ) كلام مستأنف مسوق للحث على تلاوة الكتاب وتدبر منطوياته والعمل بأحكامه ، وإقامة الصلاة المكتوبة المؤداة بالجماعة لتوحيد الكلمة وتصفية النفس من أدران الشوائب ، وأتل فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر تقديره أنت أي يا محمد والخطاب له ليشمل كل فرد من أفراد أمته وما مفعول به وجملة أوحي صلة وإليك متعلقان بأوحي

ومن الكتاب حال وأقم فعل أمر معطوف على أتل والفاعل مستتر تقديره أنت أيضا والصلاة مفعول به . (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ) الجملة تعليل للأمر بإقامة الصلاة ، وان واسمها وجملة تنهى عن الفحشاء والمنكر خبرها والواو استئنافية واللام لام الابتداء وذكر اللّه مبتدأ وأكبر خبر واللّه الواو وعاطفة

واللّه مبتدأ وجملة يعلم خبر وفاعله مستتر تقديره هو وما مفعول به وجملة تصنعون صلة .

(وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان إرشاد أهل الكتاب وكيفية مجادلتهم ، ولا ناهية وتجادلوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل وأهل الكتاب مفعول به وإلا أداة حصر وبالتي متعلقان بتجادلوا وموصوف الموصول محذوف أي بالمجادلة التي ، وهي مبتدأ وأحسن خبر والجملة صلة التي وإلا أداة استثناء والذين استثناء من الجنس وفي المعنى وجهان أوردهما أبو البقاء قال : " أحدهما إلا الذين ظلموا منهم فلا تجادلوهم بالحسنى بل بالغلظة لأنهم يغلظون لكم فيكون مستثنى من التي هي أحسن لا من الجدل والثاني لا تجادلوهم البتة بل حكّموا فيهم السيف لفرط عنادهم " .

)

(453/599)

وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) الواو عاطفة وقولوا فعل أمر وفاعل وجملة آمنا مقول القول وبالذي متعلقان بآمنا وجملة أنزل صلة وإلينا متعلقان بأنزل وأنزل إليكم عطف على أنزل إلينا ففي الكلام حذف الموصول الاسمي

أي والذي أنزل إليكم وإلهنا الواو عاطفة وإلهنا مبتدأ وإلهكم عطف على إلهنا وواحد

خبر ونحن مبتدأ وله متعلقان بمسلمون

ومسلمون خبر نحن وفي هذا القول منتهى المناصحة والنصفة والاقناع .

)

(454/599)

وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ) الكاف نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الانزال أنزلنا ، وأنزلنا فعل وفاعل وإليك متعلقان بأنزلنا والكتاب مفعول به . (فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) الفاء تفريعية والذين مبتدأ وجملة آتيناهم صلة وهو فعل وفاعل ومفعول به والكتاب مفعول به ثان وجملة يؤمنون به خبر الذين . (وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ) الواو عاطفة ومن هؤلاء خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يؤمن به صلة وهذا من قبيل الاخبار بالمغيبات وهي إحدى ميزات القرآن الكريم والواو حالية وما نافية ويجحد فعل مضارع مرفوع وبآياتنا متعلقان به وإلا أداة حصر والكافرون فاعل يجحد . (وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ) كلام مستأنف للشروع في إيراد الدليل على إعجاز القرآن ، وما نافية وكنت كان واسمها وجملة

تتلو خبرها وفاعل تتلو مستتر تقديره أنت ومن قبله حال لأنه كان صفة لكتاب ويجوز تعليقه بتتلو ومن حرف جر زائد وكتاب مجرور بمن لفظا منصوب محلا على أنه مفعول تتلو والواو حرف عطف ولا نافية وتخطه فعل مضارع معطوف على تتلو وبيمينك متعلقان بتخطه وإذن حرف جواب وجزاء مهمل وقد تضمن معنى الجواب لشرط محذوف أي لو كان شيء من ذلك أي من التلاوة والخط ، ولارتاب اللام واقعة في جواب إذن وارتاب المبطلون فعل ماض وفاعل .

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) بل إضراب عن ارتيابهم أي ليس فيه ما يدعو إلى الارتياب فيه وهو محفوظ في الصدور وهو مبتدأ وآيات خبر وبينات صفة لآيات وفي صدور

متعلقان بمحذوف خبر ثان لهو أي هو مثبت محفوظ في صدورهم والذين مضاف اليه وجملة أوتوا العلم صلة والعلم مفعول به ثان لأوتوا . (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) تقدم اعراب نظيرها قريبا .

البلاغة :

الاطناب :

في قوله " ولا تخطه بيمينك " إطناب لا بد منه فذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط فيه زيادة في التصوير واستحضار لنفي كونه كاتبا ، وقد قدمنا أن الاطناب يرد حقيقة ومجازا ، وهذا من النوع الاول ومثله قولهم : رأيته بعيني وقبضته بيدي ، ووطئته بقدمي ، وذقته بفمي ، وكل هذا يظنه الظان المبتدئ والسطحي انه من قبيل الزيادة والفضول وانه لا حاجة اليه ويقول : إن الرؤية لا تكون إلا بالعين والقبض لا يكون إلا باليد والوطء لا يكون إلا بالقدم والذوق لا يكون إلا بالفم وليس الأمر كما توهم بل هذا يقال في كل شيء يعظم مناله ويعز الوصول اليه وهو كثير في القرآن الكريم وقد تقدم بعضه وسيأتي الكثير منه أيضا .

الفوائد :

1 – أثارت دائرة المعارف إشكالا في قوله تعالى : " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون " فتقول : " إنها تدل على أنه تعلم القراءة في الكبر أي بعد نزول القرآن وإن كان التعبير غامضا أيضا " وليس التعبير غامضا ولكن التخريج الذي خرجته دائرة المعارف الاسلامية فاسد من أساسه ، إذ أن لفظ

الآية صريح كل الصراحة في الدلالة على أن أهل مكة عرفوا عن النبي قبل نزول الوحي أنه لم يكن يتلو كتابا ولا يكتب بيمينه ولو أنه كان كذلك إذن لارتاب المبطلون بأن يذكروا للناس انه كان يخلو إلى نفسه فيكتب القرآن ويعده ثم يخرج للناس فيتلوه عليهم ، ولم تقف دائرة المعارف الاسلامية عند هذا الحد فأوردت آية الفرقان وهي " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا " وواضح أن مفهوم هذه الآية لا يدل على شيء مما تخرصت به دائرة المعارف الاسلامية إذ أنها تدل في بساطة تامة على أن كفار قريش كانوا يدعون أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يكتب ما يملى عليه من أساطير الأولين وليس كل ما يدعي الكفار صوابا بل هو هجوم يقصد منه تجريح القرآن وإضعاف شأنه ويدل على مغالطة دائرة المعارف الاسلامية انها تغافلت الآية السابقة إذ يقول تعالى : " وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين " . . . الآية وقد أوردنا حملة فقهاء الشرق والغرب على أبي الوليد الباجي لزعمه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية .

2- كيف تمّ تدوين القرآن :

ورد في كتاب الإتقان للسيوطي عن زيد بن ثابت قال " قبض النبي صلى اللّه عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء " وعن زيد ابن ثابت أيضا قال : كنا عند رسول اللّه نؤلف القرآن

من الرقاع " قال الخطابي : " إنما يجمع النبي صلى اللّه عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم اللّه الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بعهده

الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر "

.

(457/599)

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن " وعلق السيوطي على هذا الحديث بقوله : " لا ينا في ذلك لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور "

.

وقال الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن : " كتابة القرآن ليست بمحدثة فانه صلى اللّه عليه وسلم كان يأمر أصحابه بكتابته ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب فانما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت

رسول اللّه فيها القرآن منتشرا فجمعها جامع جامع وربطها بخيط لا يضيع منها شيء " .

قال السيوطي : " وقد تقدم في حديث زيد أنه جمع القرآن من العسب واللخاف وفي رواية والرقاع وفي أخرى وقطع الأديم وفي أخرى الأكتاف وفي أخرى والأضلاع وفي أخرى والاقتاب والعسب " .

جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض ، واللخاف جمع لخفة وهي الحجارة الرقاق ، وقال الخطابي : صفائح الحجارة ، والرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد ، والأكتاف جمع كتف وهو العظم الذي للبصير ليركب عليه .

وروى البخاري في تفسيره في ذلك رواية له : " قال علي عليه السلام أن رسول اللّه أوصاني إذا واريته في حفرته أن لا أخرج من بيتي حتى أؤلف كتاب اللّه فإنه في جرائد النخل وفي أكتاف الإبل " والذي نراه ونستخلصه من مجموع هذه الأقوال أن النبي كان يبيح للمسلمين كتابة القرآن لمن كان يستطيع الكتابة منهم وانه كان يأمر كتابه بتدوينه ولكن التدوين لم يكن وفق نظام مقرر بحيث يقطع إلى أن النبي خلف القرآن كله مدونا مرتب السور مجموعا .

ولما قبض الرسول بدأ التفكير في جمع المصحف ، وفي البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال :

أرسل إليّ أبو بكر عقب مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر :

- إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، فقال زيد لعمر :

- كيف تفعل ما لم يفعله رسول اللّه ؟ قال عمر :

- هذا واللّه خير .

فلم يزل يراجعني حتى شرح اللّه صدري لذلك ، قال أبو بكر :

- إنك رجل " شاب عاقل " لا نتّهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول اللّه فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد : فو اللّه لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن .

قلت : فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح اللّه صدري للذي شرح

له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص " إلى آخر براءة .

وواضح من هذا أن أبا بكر وعمر وغيرهما خشوا وقد اندفع المسلمون في حروب الردة ثم في حروب الفتح أن يهمل أمر القرآن وهو معجزة رسول اللّه الكبرى ودعامة الإسلام الأولى

فاتفقوا على جمعه من هذه الصحائف المتفرقة التي كان يكتبها عارفو الكتابة من الصحابة ومن صدور الناس فكتب القرآن أو على الأصح نقل ما كان منه مكتوبا وأكمل بما كان محفوظا في صدور الرجال .

(459/599)

و على الرغم من كثرة النصوص التي نقلنا بعضها ، لا يزال هناك بعض الغموض يحيط بالطريقة التي اتبعها زيد بن ثابت في جمع صحف القرآن ، فقد ذكر أنه كان يحفظ القرآن كله ، ومن المرجح أن عددا من الصحابة كانوا يحفظون القرآن منهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وربما أبو بكر وعمر فلما ذا لم يجتمع هؤلاء ويتموا عملهم مستعينين بالصحف التي أملاها النبي وبذاكرتهم ؟ ويظهر لنا أن هذه الطريقة الطبيعية التي اتبعت حتى تم لهم جمع المصحف بطريقة هادئة لا ارتجال فيها وهو ما عنته الآية الكريمة " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " ولما كان عهد عثمان بن عفان جد من المناسبات ما دعا إلى إعادة النظر في أمر هذه الصحف التي كتبها زيد بن ثابت .

روى البخاري عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق

فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب وزوج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن أرسلي إلينا هذه الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما أنزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . قال زيد :

" ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف وقد كنت أسمع رسول اللّه يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري وهي " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه " فألحقناها مع سورتها في المصحف .

(460/599)

ترتيب المصحف :

أما بصدد ترتيب المصحف فيقول السيوطي : " الإجماع والنصوص على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك ، وذلك أن رسول اللّه كان يدل على مكان كل آية في سورتها ويؤيد هذا الرأي قول عثمان بن أبي العاص : "كنت جالسا عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : " إن اللّه يأمر بالعدل

والإحسان وإيتاء ذي القربى " إلى آخرها وقد التزم عثمان في تدوين المصحف ما علم أنه رأي رسول اللّه في ترتيب الآيات .

وأما ترتيب السور فهو متروك لاجتهاد المسلمين ولكننا نثبت رواية عن ابن عباس : روى ابن عباس قال : قلت لعثمان ما حملكم على أن عدتم إلى الأنفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم اللّه الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول اللّه ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرئت بينهما ولم أكتب سطر بسم اللّه الرحمن الرحيم

ووضعتها في السبع الطوال.

وفي كتاب الإتقان طائفة هامة جدا من الترتيبات حسب أسباب النزول وفيما يلي الترتيب التاريخي كما رواه ابن عباس.

"السور المكية"

1-اقرأ، 2-ن، 3-المزمل، 4-المدثر، 5-تبت، 6-الشمس، 7-الأعلى، 8-الليل، 9-الفجر، 10-الضحى، 11-ألم نشرح، 12-العصر، 13-العاديات، 14-الكوثر، 15-التكاثر، 16-الماعون، 17-الكافرون، 18-الفيل،

19-الفلق، 20-الناس، 21-الإخلاص، 22-النجم، 23-عبس، 24-القدر، 25-الضحى، 26-البروج، 27-التين، 28-قريش، 29-القارعة، 30-القيامة، 31-الهمزة، 32-المرسلات، 33-ق، 34-البلد، 35-الطارق، 36-الساعة، 37-ص، 38-الأعراف، 39-الجن، 40-يس، 41-الفرقان، 42-الملائكة، 43-مريم، 44-طه، 45-الواقعة، 46-

الشعراء ، 47- النمل ، 48- القصص ، 49- بني إسرائيل ، 50- يونس ، 51- هود ، 52- يوسف ، 53- الحجر ، 54- الانعام ، 55- الصافات ، 56- لقمان ، 57- سبأ ، 58- الزمر ، 59- المؤمنون ، 60- السجدة ، 61- الشورى ، 62- الزخرف ، 63- الدخان ، 64- الجاثية ، 65- الأحقاف ، 66- الذاريات ، 67- الغاشية ، 68- الكهف ، 69- النحل ، 70- نوح ، 71- ابراهيم ، 72- الأنبياء ، 73- المؤمنون ، 74- السجدة ، 75- الطور ، 76- تبارك ، 77- الحاقة ، 78- المعارج ، 79- النبأ ، 80- النازعات ، 81- الانفطار ، 82- الانشقاق ، 83- الروم ، 84- العنكبوت ، 85- المطففين .

"السور المدينة"

86- البقرة ، 87- الأنفال ، 88- آل عمران ، 89- الأحزاب ، 90- الممتحنة ، 91- النساء ، 92- الزلزلة ، 93- الحديد ، 94- القتال ، 95- الرعد ، 96- الرحمن ، 97- الإنسان ، 98- الطلاق ، 99- البينة ، 100- الحشر ، 101- النصر ، 102- النور ، 103- الحج ، 104- المنافقون ، 105- المجادلة ، 106- الحجرات ، 107- التحريم ، 108- الجمعة ، 109- التغابن ، 110- الصف ، 111- الفتح ، 112- المائدة ، 113- براءة .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 50 إلى 55]

وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (52) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (54)

يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

الإعراب :

(وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ) كلام مستأنف لتقرير نوع آخر من أنواع لجاجهم ومكابرتهم ، وقالوا فعل ماض والواو فاعل يعود على كفار مكة ولو لا حرف تحضيض بمنزلة هلا وأنزل

فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بأنزل وآيات نائب فاعل ومن ربه صفة لآيات أو متعلقان بأنزل . (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) إنما كافة ومكفوفة والآيات مبتدأ وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف هو الخبر أي ينزلها كيف يشاء من غير دخل لأحد في ذلك قطعا ، وإنما الواو عاطفة أو حالية وإنما كافة ومكفوفة وأنا مبتدأ ونذير خبر ومبين صفة . (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري التقريري والواو عاطفة على محذوف مقدر يقتضيه المقام أي أقصّر محمد ولم يكفهم ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ويكفهم فعل مضارع مجزوم بلم والهاء مفعول به وأن وما بعدها فاعل يكفهم وان واسمها وجملة أنزلنا عليك الكتاب خبر أن وجملة يتلى عليهم حالية . (إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة ورحمة اسمها المؤخر وذكرى عطف على رحمة ولقوم صفة لذكرى وجملة يؤمنون صفة لقوم . (قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) كفى فعل ماض والباء حرف جر زائد ولفظ الجلالة مجرور بالباء لفظا فاعل كفى المرفوع محلا وبيني ظرف متعلق بشهيدا وبينكم عطف على شهيدا وشهيدا تمييز وجملة يعلم حال وما مفعول يعلم وفي السموات صلة والأرض عطف على السموات .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) الذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وبالباطل متعلقان بآمنوا وكفروا باللّه عطف على آمنوا بالباطل وأولئك مبتدأ وهم مبتدأ

أو ضمير فصل والخاسرون خبر هم أو خبر أولئك والجملة خبر الذين .

)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ) كلام

(464/599)

مستأنف مسوق للتعجب أو الاستهزاء بهم ويستعجلونك فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والكاف مفعول به وبالعذاب متعلقان بيستعجلونك ولو لا حرف امتناع لوجود وأجل مبتدأ ومسمى صفته والخبر محذوف واللام رابطة للجواب وجاءهم العذاب فعل ومفعول به وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم .

(وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم ويأتينهم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر تقديره هو والهاء مفعول به وبغتة حال والواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يشعرون خبر وجملة هم لا يشعرون حالية .

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ) يستعجلونك بالعذاب تقدم اعرابها وكرر الجملة للتعجب من حماقاتهم لأن من هدد بشيء التمس أسباب الوقاية منه أما هؤلاء فيستعجلونه . والواو حالية وان واسمها واللام المزحلقة ومحيطة خبر إن وبالكافرين

متعلقان بمحيطة ، وعبر بالحال وأراد الاستقبال أي ستحيط بهم وذلك للدلالة على التحقق والمبالغة ، ويجوز أن يراد بجهنم أسبابها المؤدية إليها فلا تأويل في قوله محيطة .

(يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) الظرف متعلق بمحيطة وجملة يغشاهم العذاب في محل جر بإضافة الظرف إليها ومن فوقهم حال ومن تحت أرجلهم عطف على من فوقهم .

)

وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة ويقول فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو يعود على الموكل بالعذاب وقرئ ونقول وعلى كل حال الجملة معطوفة على يغشاهم وجملة ذوقوا مقول القول وهو فعل أمر وفاعل وما مفعول به على تقدير مضاف أي جزاء ما وجملة كنتم صلة وجملة تعملون خبر كنتم .

البلاغة :

خص سبحانه وتعالى نار جهنم بالجانبين الأعلى والأسفل ولم يذكر اليمين ولا الشمال ولا الخلف ولا الأمام لإظهار الفرق بينها وبين نار الدنيا التي تحيط بجميع الجوانب ، فنار جهنم لا

تطفأ بالدوس عليها ولكنها تنزل من فوق .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 56 إلى 59]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

الإعراب :

(يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

يا حرف نداء وعبادي منادى مضاف لياء المتكلم والذين صفة لعبادي وجملة آمنوا صلة وإن واسمها وخبرها والفاء الفصيحة أي إن ضاق بكم موضع فإياي فاعبدوا ، وإياي مفعول لفعل محذوف تقديره اعبدوا إياي فاستغنى بأحد الفعلين عن الفعل الثاني ، فاعبدوني الفاء عاطفة على الفاء الأولى وجملة اعبدوني مفسرة وهي فعل أمر وفاعل ومفعول به وهي الياء المحذوفة . (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ) كل نفس مبتدأ وذائقة الموت خبرها والمراد مرارته ومشقته

ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وإلينا متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ) والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وجملة عملوا الصالحات عطف على جملة آمنوا واللام موطئة للقسم ونبوئنهم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقلية والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به وجملة القسم خبر الذين ، ولك أن تنصب الذين بفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور بعده وهو نبوئنهم ومن الجنة حال وغرفا مفعول به ثان لأن بوأ يتعدى لاثنين وقد مرّ نظيره في يونس والحج وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لغرفا وخالدين فيها حال ونعم فعل ماض جامد لانشاء المدح وأجر العاملين فاعل نعم والمخصوص بالمدح محذوف أي أجرهم .

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) الذين نعت للعاملين ولك أن تقطعه فترفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف أو تنصبه على أنه منصوب على المدح بفعل محذوف تقديره أمدح وجملة صبروا صلة وعلى ربهم متعلقان بيتوكلون ويتوكلون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والصبر هنا عام يشمل الهجرة ومفارقة الوطن وأذى المشركين وغير ذلك مما استهدف له المسلمون في مستهل أمرهم وتجري أحكامه على كل من امتحنته نوائب الأيام

وحدثان الزمان.

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 60 إلى 64]

(467/599)

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (63) وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (64)

اللغة:

(يَقْدِرُ): يضيق ويقتر، ولهذا الفعل خصائص عجيبة فهو يتوزع على طائفة من المعاني سنتنا ولها فيما يلي:

يقال: قدر الرزق: قسمه وباب نصر وضرب وقدر وقدّر على عياله ضيق وقتر، قال في الأساس: " وقدر عليه رزقه وقدّر:

قتر " وقدر يقدر من باب علم قدرا وقدرة ومقدرة ومقدرة ومقدرة ومقدارا وقدارة وقدورة وقدورا وقدرانا وقدارا وقدرا على الشيء قوي عليه ، وقدر يقدر من باب ضرب قدرا الأمر دبره وقدر الشيء بالشيء فاسه به وجعله على مقداره وقدر يقدر ويقدر من بابي نصر وجلس اللّه عظمه ، وقدر الرجل فكر في تسوية أمره وتدبيره وقدر يقدر من باب تعب قدرا بفتحتين قصرت عنقه ، وقدر على الشيء اقتدر .

(الْحَيَوانُ) : مصدر حي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوا كما قال سيبويه ، سمي ما فيه حياة حيوانا ، قالوا : اشتر الموتان

(468/599)

و لا تشتر الحيوان أي اشتر الأرض والدور ولا تشتر الرقيق الدواب ، وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان واللهبان وما أشبه ذلك والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا المقام المقتضى للمبالغة .

الاعراب :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) كلام مستأنف مسوق لتقرير التوكل على اللّه وعدم الجزع ، وكأين تقدم إعرابها مفصلا وهي هنا مبتدأ ومن دابة تمييزها المجرور بمن وجمل لا تحمل رزقها صفة لدابة وقوله : (اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) هو الخبر واللّه مبتدأ وجملة يرزقها خبر اللّه وإياكم عطف على الهاء والواو عاطفة وهو مبتدأ والسميع خبر أول والعليم خبر ثان . (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وإن شرطية وسألتهم فعل ماض والتاء فاعل والهاء مفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة خلق السموات والأرض خبر من والجملة في محل نصب مفعول ثان لسألتهم المعلقة للاستفهام وسخر الشمس والقمر عطف على خلق السموات والأرض واللام واقعة في جواب القسم ويقولن فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة واللّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أو مبتدأ والخبر محذوف تقديره اللّه خلق السموات

و الفاء الفصيحة وأنى اسم استفهام في محل نصب حال ويؤفكون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل . (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) اللّه مبتدأ وجملة يبسط الرزق خبر ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ومن عباده حال ويقدر فعل مضارع معطوف على يبسط وله متعلقان بيقدر والضمير راجع لمن وان واسمها وعليم خبرها وبكل شيء متعلقان بعليم .

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) عطف على الجملة السابقة وهي مماثلة لها في اعرابها .

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) الحمد مبتدأ وللّه خبر والجملة مقول القول وبل حرف إضراب وأكثرهم مبتدأ وجملة لا يعقلون خبر .

(وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) الواو استئنافية وما نافية وهذه مبتدأ والحياة بدل والدنيا نعت للحياة وإلا أداة حصر ولهو خبر هذه ولعب عطف على لهو . (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) الواو عاطفة وان واسمها والآخرة نعت للدار واللام المزحلقة وهي مبتدأ والحيوان خبر والجملة خبر إن ولو شرطية وكان واسمها وجملة يعلمون خبرها وجواب لو محذوف أي ما آثروا الحياة الدنيا .

[سورة العنكبوت (29) : الآيات 65 إلى 69]

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (68) وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

الاعراب :

)

(471/599)

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن محذوف دل عليه ما وصفهم وشرح من أمرهم هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ولا يبعد أن تكون استئنافية ليتطرق إلى نمط آخر من عنادهم . وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة ركبوا في محل جر بإضافة الظرف إليها وفي الفلك متعلقان بركبوا وجملة دعوا اللّه لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ومخلصين حال وله متعلقان

بمخلصين والدين مفعول به لمخلصين لأنه اسم فاعل . (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ) الفاء عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة ونجاهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به والى البر جار ومجرور متعلقان بنجاهم وإذا فجائية وهي مع مدخولها جملة لا محل لها من الاعراب لأنها جواب لما وهم مبتدأ وجملة يشركون خبر هم . (لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) اللام لام كي ويتمتعوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي وبما متعلقان بيكفروا وجملة آتيناهم صلة ما وليتمتعوا عطف على ليكفروا فهي مثلها ويجوز أن تكون اللام فيهما لام العاقبة والمآل ويحتمل أن تكون اللام فيهما لام الأمر وقرى وليتمتعوا

(472/599)

بسكون اللام أمر تهديد وسيأتي بحث واف عن معنى الأمر في باب البلاغة كما سيأتي بحث الخليل بن أحمد عن أقسام اللام في اللغة العربية في باب الفوائد والفاء الفصيحة وسوف حرف استقبال ويعلمون فعل مضارع وفاعل . (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري المفيد للتقرير لأن همزة الاستفهام الانكاري إذا دخلت على النفي أفادت التقرير لأن الكلام يصير إيجابا ، والواو عاطفة على

محذوف تقدير لقد جعلنا آمنين قارين في مكة ولم يعلموا ذلك ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل وان وما بعدها سدت مسد مفعولي يروا وان واسمها وجملة جعلنا خبرها ومفعول جعلنا الأول محذوف أي جعلنا بلدهم مكة وحرما مفعول به ثان وآمنا صفة والواو حالية ويتخطف فعل مضارع مبني للمجهول والناس نائب فاعل ومن حولهم حال .

(أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف وبالباطل متعلقان بيؤمنون وبنعمة اللّه يكفرون معطوف على ما قبله . (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ) الواو استئنافية ومن اسم استفهام متضمن معنى النفي في محل رفع مبتدأ وأظلم خبر وممن متعلقان بأظلم وجملة افترى على اللّه صلة وكذبا مفعول به وأو حرف عطف وكذب عطف على افترى وبالحق متعلقان بكذب ولما ظرفية حينية أو رابطة وجاءه فعل وفاعل مستتر ومفعول به . (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ) الهمزة للاستفهام التقريري وليس فعل ماض ناقص وفي جهنم خبر ليس المقدم ومثوى اسمها المؤخر وللكافرين صفة لمثوى

وسيأتي معنى التقرير في باب البلاغة . (وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) والذين مبتدأ وجملة جاهدوا صلة ومفعول جاهدوا محذوف وسيأتي سر حذفه في باب البلاغة وفينا متعلقان بجاهدوا في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا واللام موطئة للقسم وجملة نهدينهم خبر الذين سبلنا مفعول به ثان أو منصوب بنزع الخافض وان واسمها ومع المحسنين ظرف متعلق بمحذوف خبر إن .

البلاغة :

1 – معنى الأمر :

قال الزمخشري : " فإن قلت : كيف جاز أن يأمر اللّه بالكفر وبأن يفعل العصاة ما شاءوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ قلت :

هو مجاز عن الخذلان والتخلية وإن ذلك الأمر متسخط إلى غاية ، ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك أن ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر جسيم فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حردت عليه (أي غضبت) وقلت : أنت وشأنك وافعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر وكيف والآمر بالشيء مريد له وأنت شديد الكراهة متحسّر ولكنك كأنك تقول له :

فإذا قد أبيت قبول النصيحة فأنت أهل ليقال لك افعل ما شئت ليتبين لك إذا فعلت صحة رأي الناصح وفساد رأيك " .

2- الاستفهام التقريري :

قلنا إن همزة الإنكار إذا دخلت على النفي صار إيجابا فيرجع

الى معنى التقرير ومنه في الشعر قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

قال بعضهم لو كان استفهاما ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل وقيل لما بلغ جرير هذا البيت في القصيدة كان عبد الملك متكئا فاستوى جالسا فرحا وقال هكذا مدحنا وأعطاه مائة من الإبل .

3- الحذف :

تقدم القول في حذف المفعول به للإيجاز وهو هنا في قوله " والذين جاهدوا فينا " فقد أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول لتتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمارة بالسوء والشيطان وهذا أحسن من تقدير مفعول به خاص كما فعل الكثيرون من المفسرين ليتن

ذكر اللامات للخليل بن أحمد الفراهيدي :

ذكر الخليل بن أحمد شيخ سيبويه في مصنف صغير له أن عدد اللامات إحدى وأربعون

لاما ونوردها مع إلماع يسير إلى أحكامها كما أوردها الخليل ثم نعلق على ما بعض نراه جديرا بالتعليق منها :

1- لام القسم وهي مفتوحة وبعدها نون مشددة وذلك مثل قوله عز وجل " لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم " .

2- لام جواب القسم وهي تشبه لام القسم وتقوم مقامها .

3- لام الأمر وهي لا تأتي أبدا إلا بعد واو أو فاء مثل قوله تعالى " فليعبدوا ربّ هذا البيت " " ولتأت طائفة " وما أشبه ذلك فإن عدمت واو أو فاء كانت اللام مكسورة نحو قوله عز وجل : " لينفق ذو سعة من سعته " .

4- لام جواب الأمر وهي تشبه لام الأمر ، وأنا لا أعرف إلا حرفا واحدا وهو قوله عز وجل : " ولنحمل خطاياكم " لا غير .

5- لام الوعد وهي تشبه لام الأمر وتقوم مقامها ، وأنا لا أعرف في القرآن إلا حرفين وهما في قوله تعالى :

" فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي " .

6- لام الوعيد وهي تشبه لام الأمر وتقوم مقامها ، وأنا لا أعرف في القرآن إلا أربعة أحرف وهي في قوله عز وجل : " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفّر " ومثلها :

" فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا " لا غير .

7- لام التوكيد وهي مفتوحة وقبلها نون مشددة لا تأتي إلا بعد إن وإنا وأ إنك وإنكم وإنهم ، وانهما ، وإنه ، وذلك مثل قوله تعالى " وإن اللّه لعليم حليم " و" إن اللّه لغفور رحيم " و" إننا لفي شك " و" يقول أإنك لمن المصدقين " " وإنكم لتمرون عليهم مصبحين " " وإنه لحب الخير لشديد " " إن هؤلاء لشرذمة قليلون " .

8- لام العماد وهي مفتوحة ولا تأتي إلا بعد الكيد أعني " وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم " " وإن كادوا ليستفزونك " وما أشبه ذلك .

9- لام الجحد وهي مكسورة في ذاتها ناصبة للفعل ولا تأتي إلا بعد كان وما كنا وما كانوا أعني بذلك الكون وذلك مثل قوله : " وما كان اللّه ليطلعكم على الغيب " " وما كانوا ليؤمنوا " وما أشبه ذلك .

10- لام كي وهي مكسورة في ذاتها ناصبة للفعل ولا تأتي أبدا إلا بعد فعل قد مضى وذلك مثل قوله عز وجل :

" ولتجري الفلك " وما أشبه ذلك .

11- لام إن الخفيفة وهي مكسورة وتشبه لام كي وتقوم مقامها مثل قوله تعالى : " وأمرنا

لنسلم لرب العالمين " " يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواهم " " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " .

12- لام الغاية وهي تشبه لام كي وتقوم مقامها وذلك مثل قوله عز وجل " ليضلوا عن سبيلك " .

13- لام الترجي وهي مفتوحة وذلك مثل قوله تعالى " لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمرا " " لعلك باخع نفسك " " لعله يذكّر أو يخشى " .

14- لام التمني وهي مفتوحة وذلك مثل قوله تعالى " يا ليتني كنت ترابا " " يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا " .

15- لام التحذير ، فلم أعرف في القرآن إلا حرفا واحدا وهو قوله عز وجل : " لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون " لا غير ذلك .

16- لام المدح وهي مفتوحة ومن ذلك " لنعم دار المتقين " .

17- لام الذم وهي مفتوحة أيضا ومن ذلك " لبئس المولى ولبئس العشير " .

(476/599)

18- لام كما وهي مفتوحة وأنا لا أعرف في القرآن إلا حرفا واحدا وهو قوله : " وإذا أخذ اللّه ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة " والمعنى كما آتيتكم .

19- لام المنقول وهي مفتوحة وذلك مثل قوله عز وجل :

" يدعو لمن ضره أقرب من نفعه " " ولمن صبر وغفر " والمعنى من يضره ومن يصبر .

20- لام الجزاء وهي مفتوحة أبدا ولا تأتي إلا بعد لو ولولا وذلك مثل قوله تعالى " ولو شئنا لبعثنا " " ولو شئنا لرفعناه بها " وما أشبه ذلك .

21- لام الإيجاب وهي مفتوحة ولا تأتي أبدا إلا بعد إن الخفيفة وذلك مثل قوله تعالى : " وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا " " وإن كلّ لما جميع لدينا محضرون " وما أشبه ذلك .

22- لام الشفاعة وهي مكسورة في ذاتها ، وأنا لا أعرف في القرآن إلا حرفا واحدا وهو قوله عز وجل " ليقض علينا ربك " .

23- لام الاستغاثة فهي لام الخفض الزائدة نحو : يا لزيد .

24- لام الجر وهي مكسورة في ذاتها خافضة لغيرها وذلك مثل للمؤمنين للعالمين وما أشبه ذلك .

25- لام الصفة وهي مفتوحة في ذاتها خافضة لغيرها ومثل ذلك : ولنا ولكم ولك وله وما أشبه ذلك وإنما فتحت هذه اللام وكسرت لام الجر للفرق بين الضمير والظاهر .

26- لام الأصل وهي ساكنة نحو : الحسنة ، السيئة ، والوالدات وما أشبه ذلك .

27- لام المعرفة وهي ساكنة وزائدة وتكون للتعريف وذلك مثل الرجل والغلام والجارية والمؤمنين والمتقين وما أشبه ذلك .

28- لام التكثير وهي مفتوحة وهي لام أصلية وذلك مثل :

أولئك ، أولئكم وأولات حمل وما أشبه ذلك ، وإنما سميت لام التكثير لأنك تخاطب الواحد بلفظ الجمع .

29- لام الابتداء وهي مفتوحة نحو " ولذكر اللّه أكبر " " لقالوا إنما سكرت أبصارنا " " لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون " .

(477/599)

30- لام التفضيل وهي تشبه لام الابتداء وتقوم مقامها وذلك مثل قوله تعالى : " ولعبد مؤمن خير من مشرك " ومثله :

" لمسجد أسس على التقوى " وما أشبه ذلك .

31- لام ليس وهي مفتوحة وذلك مثل قوله تعالى " لا يعلمون " " لا يسمعون " " لا يألونكم خبالا " وما أشبه ذلك .

32- لام النفي وهي مفتوحة تشبه لام ليس وتقوم مقامها وذلك مثل قوله تعالى : " ولا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب " " ولا أقول للذين تزدري أعينكم " والمعنى : ولا أقول لكم .

33- لام غير وهي مفتوحة وتعطف ما بعدها على ما قبلها وذلك مثل قوله تعالى " لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك " " لا شرقية ولا غربية " " لا ظليل ولا يغني من اللهب " وما أشبه ذلك .

34- لام التبرئة وهي مفتوحة وتنصب النكرات نحو قوله تعالى " لا ريب فيه " " لا إكراه " " لا تثريب " " لا جرم " وما أشبه ذلك .

35- لام الصلة وهي مفتوحة ولا تأتي إلا بعد الجحد وذلك مثل قوله تعالى : " لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار " وما أشبه ذلك .

36- لام النهي وهي مفتوحة في ذاتها جازمة لغيرها وذلك مثل قوله : " فلا يسرف في القتل "

37- " ولا تطرد الذين يدعون ربهم " " ولا تتبع الهوى " وما أشبه ذلك .

38- لام الدعاء وهي تشبه لام النهي وتقوم مقامها وذلك مثل قوله تعالى : " ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به " " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا " .

39- لام الاستحقاق وهي مضمومة في آخر الكلام وذلك مثل ويل حيث وقعت . قال الخليل : " تمت اللام والحمد للّه رب العالمين " .

ملاحظات :

1- هذا ولم يذكر في الشرح لام الإلحاق ولام الفصاحة وقد عدّها أولا .

2- عدّ " لا " لاما وهذا خلاف ما درج عليه النحاة .

(478/599)

أما ابن هشام فقد قسم اللام المفردة إلى ثلاثة أقسام : عاملة للجر ، وعاملة للجزم ، وغير عاملة ، وليس في القسمة أن تكون عاملة للنصب خلافا للكوفيين ، فالعاملة للجر مكسورة مع كل ظاهر نحو لزيد ولعمرو إلا مع المستغاث المباشر لها فمفتوحة نحو يا للّه ومفتوحة مع كل مضمر نحو لنا ولكم ولهم إلا مع ياء المتكلم فمكسورة .

وللام الجارة اثنان وعشرون معنى ذكرها في كتاب المغني فليرجع إليه من شاء .

ثم تكلم عن اللام العاملة للجزم ، وأما اللام غير العاملة فسبع :

لام الابتداء ، واللام الزائدة ، ولام الجواب واللام الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط ومن ثم تسمى اللام الموطئة للقسم ، ولام أل ، واللام اللاحقة لأسماء الاشارة للدلالة على البعد ، ولام التعجب غير الجارة والتفاصيل في كتاب المغني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 7 صـ 397 .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الستمائة

(سورة الروم)

(4/600)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الروم)

(5/600)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(فضل السورة) .

فيه الأَحاديث الساقطة .

عن أُبىّ من قرأَ سورة الرُّوم كان له من الأَجر عشر حسنات بعدد كل مَلك سبّح الله فى السماءِ والأَرض ، وأَدرك ما ضيّع فى يومه وليلته) وحديث علىّ : يا علىّ مَن قرأَ غلبت

الرّوم كان كمَن أَعتق بعدد أَهل الرّوم ، وله بكلِّ آية قرأَها مثلُ ثواب الَّذين عَمروا بيت المقدس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 369 ﴾

(6/600)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها إثبات الأمر كله ، فتأتي الوحدانية والقدرة على كل شيء ، فيأتي البعث ونصر أوليائه ، وخذلان أعدائه ، وهذا هو المقصود بالذات ، واسم السورة واضح الدلالة عليه بما كان من السبب في نصر الروم من الوعد الصادق والسر المكتوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 582 ﴾

(7/600)

فصل

قال الآلوسى :

سورة الروم

03 - مكية كما روى عن ابن عباس وإبن الزبير رضي الله تعالى عنهم بل قال إبن عطية : وغيره : لا خلاف في مكيتها ولم يستثنوا منها شيئا وقال الحسن : هي مكية إلا قوله تعالى : فسبحان الله حين تمسون الآية وهو خلاف مذهب الجمهور والتفسير المرضى كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه وآيها ستون وعند بعض تسع وخمسون ووجه إتصالها بالسورة السابقة على ما قاله الجلال السيوطي إنها ختمت بقوله تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأفتتحت هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر وفرح المؤمنين بذلك وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة هذا مع تواخيها لما قبلها في الإفتتاحبالم ولا يخفى أن قتال أهل الكتاب ليس من المجاهدة في الله عزوجل وبذلك تضعف المناسبة ومن وقف على أخبار سبب النزول ظهر له أن ما افتتحت به هذه السورة متضمنا نصرة المؤمنين بدفع شماتة أعدائهم المشركين وهم لم يزالوا مجاهدين في الله تعالى ولأجله ولوجهه عزوجل ولا يضر عدم جهادهم بالسيف عند انزول وهذا في المناسبة أوجه فيما أرى من الوجه الذي ذكره الجلال فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ 16.17 ﴾

(8/600)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ألم غلبت الروم)

السورة مكِّيّة إجماعا .

عدد آياتها خمس وستون عند المكِّيين ، وستُّون عند الباقين وكلماتها ثمانمائة وسبع وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون ، والآيات المختلف فيها أَربع : أَلم ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ ﴿ فِي بِضْعِ سِنِيْنَ ﴾ ، ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فواصل آياتها نمر ، على الراءِ آيتان ﴿ قَدِيْر ﴾ فى موضعين .

وسميت سورة الروم لما فيها من ذكر غلبة الروم .

معظم مقصود السورة : غلبة الروم على فارس ، وعَيْب الكفار فى إِقبالهم على الدنيا ، وأَخبار القرون الماضية ، وذكر قيامة الساعة ، وآيات التوحيد ، والحجج المترادِفة الدالَّة على الذات والصفات ، وبيان بعث القيامة ، وتمثيل حال المؤمنين والكافرين ، وتقرير المؤمنين على الإِيمان ، والأَمر بالمعروف ، والإِحسان إِلى ذوى القربى ، ووعد الثواب على أَداءِ الزكاة ، والإِخبار عن ظهور الفساد فى البر والبحر ، وعن آثار القيامة ، وذكر عجائب الصنع فى السحاب والأَمطار ، وظهور آثار الرحة فى الربيع ، وإِصرار الكفار

على الكفر ، وتخليق الله الخلق مع الضعف والعجز ، وإحياءُ الخلق بعد الموت ، والحشر والنشر ، وتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسكينه عن جفاءِ المشركين وأَذاهم فى قوله : ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِيْنَ لاَ يُوْقِنُوْنَ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آية واحدة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ م آية السيف ن) . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 365.366 ﴾

(9/600)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الروم

338 - مسألة :

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) الآية . وفى فاطر : (وكانوا) بزيادة " واو " وفى أول المؤمن : (كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ) وفى الأخيرة : (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ) ؟ .

وكذا الآية ه من هرة الجاثية وتمامها مع ماقبلها : توفى خلقكم وما يبث من دابة

آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل أفه من الماء من رزق فأحيا به الأرض بعد

موتها وتمويف . الرياح آيات لقوم يعقلون .

جوابه :

أن آية الروم لم يتقدمها قصص من تقدم ولا ذكرهم ،

فناسب إجمالها ، ولذلك قال تعالى : (وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ) وأية

المؤمن الأولى : تقدمها ذكر نوح ـ عليه السلام ـ والأحزاب ، وهمّ كل أمة برسولهم فناسب

ذلك بسط حالهم وإعادة لفظ (كانوا) و(هم) توكيدا وإشارة إلى ثانية من تقدم

ذكرهم .

وأما ثانية سورة المؤمن فإنها جاءت على الاختصار

وأما آية فاطر : فوردت بعد قوله تعالى (مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ)

ثم قال تعالى : (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43) ، فناسب

ذكر الواو العاطفة بخبر إن لمزيد حولهم في الدنيا من الشدة

في القوة ولم تغن عنهم شيئًا ولذلك أعقب ذلك بقوله تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ) الآية

فكيف بهؤلاء ؟ .

339 – مسألة :

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ"

وفى الزمر : (يَعْلَمُوا) ؟ .

جوابه :

(10/600)

أن بسط الرزق وقبضه مما يرى ويشاهد ، فجاء هنا عليه . وأية الزمر جاءت بعد قوله

تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)

فناسب (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا) مع فصاحة التفنن .

340 – مسألة :

قوله تعالى : (وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ) وفى الجاثية (لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ) ؟ .

جوابه :

أن السياق هنا لذكر الرياح ، ولم يذكر البحر . وفى فاطر : لما

تقدم ذكر البحر رجع الضمير إليه .

341 – مسألة :

قوله تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) وفى آل عمران : (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ) الآية ؟ .

جوابه :

تقدم في سورة الحج ، وأن المراد به أن العاقبة لهم وإن تقدم وهن فلتمحيصهم وأجورهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 293.296 ﴾

(11/600)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ ، وفى فاطر وأَوّل المؤمن بالواو ، وفى غيرهنَّ بالفاءِ ، لأَنَّ ما قبلها فى هذه السّورة ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ وكذلك ما بعدها (وأَثاروا) بالواو ، فوافق ما قبلها ، وما بعدها ، وفى فاطر أَيضاً وافق ما قبله وما بعده ، فإِنَّ قبله ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ ، وبعدها ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ ﴾ ، وكذلك أَوّل المؤمن [قبله] ﴿ وَ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ وأَمّا آخر المؤمن فوافق ما قبله وما بعده ،

وكان بالفاءِ ، وهو قوله : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ ، وبعده ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم ﴾ .

قوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ متّصل بكَوْن آخَر مضمر قوله : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ : إخبارٌ عمّا كانوا عليه قبل الإهلاك ، وخصّت هذه السّورة بهذا النسق لمّا يتّصل به من الآيات بعده وكلّه إخبار عمّا كانوا عليه وهو ﴿ وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوْهَا ﴾ وفى فاطر : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ كَانُواْ ﴾ بزيادة الواو ، لأَنَّ التّقدير : فينظروا كيف أُهلِكوا وكانوا أَشدّ منهم قوّة .

وخصّت [هذه] السّورة به لقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعْجِزَهُ فِي الأَرْضِ ﴾ الآية .

وفى المؤْمن ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً ﴾ فأَظهر (كان) العامل فى (من قبلهم) وزاد (هم) لأَنَّ فى هذه السّورة وقعت فى أَوائل قصّة نوح ، وهى تَتِمُّ فى ثلاثين آية ، فكان اللائق به البسط ، وفى آخر المؤمن ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ فلم يبسط القول ؛ لأَن أَوّل السّورة يدلّ عليه .

(12/600)

قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ ، وختم الآية بقوله ﴿ يَتَفَكَّرُوْنَ ﴾ ؛ لأَنَّ الفكر يؤدى إلى الوقوف على المعانى الّتى خُلِقَت لها : من التوانس ، (والتجانس) ، وسكون كلّ واحد منهما إلى الآخر .

قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، وختم بقوله ﴿ لِلْعَالَمِيْنَ ﴾ لأَن الكل تظلّهم السّماء ، وتُقِلهم الأَرض ، فكل واحد منفردٌ بلطيفة فى صورته يمتاز بها عن غيره ؛ حتى لا ترى اثنين فى أَلف يتشابه صورتاهما ويلتبس كلاهما ؛ وكذلك ينفرد كلّ واحد بدقيقة فى صورته ، يتميّز بها من بين الأَنام ، فلا ترى اثنين يشتبهان .

وهذا يشترك فى معرفته النّاس جميعاً .

فلهذا قال ﴿ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِيْنَ ﴾ .

ومن حمل اختلاف الألسن على اللغات ، واختلاف الأَلوان على السّواد والبياض ، والشُّقْرة ، والسّمرة ، فالاشتراك فى معرفتها أَيضاً ظاهر .

ومن قرأَ (للعالِمين) بالكسر فقد أَحسن ، لأَنَّ بالعلم يمكن الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره .

قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وختم بقوله ﴿ يَسْمَعُوْنَ ﴾ فإن مَن سمع أَنَّ النوم مِن صنع الله الحكيم لا يقدر أَحد على اجتلابه إذا امتنع ، ولا على دفعه إذا ورد ، تيقَّن أَنَّ له صانعاً مدبّرًا .

قال الإِمام : معنى (يسمعون) ههنا : يستجيبون إلى ما يدعوهم إليه الكتابُ .

وختم الآية الرّابعة بقوله ﴿ يَعْقِلُوْنَ ﴾ لأَن العقل مِلاك الأَمر فى هذه الأَبواب ، وهو المؤدّى إلى العلم ، فختم بذكره .

قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ﴾ أَى أَنَّه يريكم .

وقيل : تقديره : ويريكم من آياته البرق .

وقيل : أَن يُرِيكم ، فلمَّا حُذِفَ (أَنْ) سكن الياءُ وقيل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ كلام كافٍ ؛ كما تقول : منها كذا ، ومنها كذا ومنها . . . . وتسكت ، تريد بذلك الكثرة .

(13/600)

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وفى الزمر ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ لأَن بسط الرزق مِمَّا يشاهَد ويرى ، فجاءَ فى هذه السّورة على ما يقتضيه اللَّفظ والمعنى .

وفى الزمر اتَّصل بقوله ﴿ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ وبعده : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (فحسن "أَو لم يعلموا" .

قوله : ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾ ، وفى الجاثية : ﴿ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ ، لأَنَّ فى هذه السّورة تقدّم ذكر الرّياح ، وهو قوله : ﴿ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ بالمطر ، وإِذاقة الرّحمة ، ولتجرى الفلك بالرياح بأَمر الله تعالى .

ولم يتقدّم ذكر البحر .

وفى الجاثية تقدّم ذكر البحر ، وهو قوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ

لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ فكنى عنه ، فقال : ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 366. 369 ﴾

(14/600)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الروم

386 - قوله تعالى أو لم يسيروا في الأرض 9 هنا وفي فاطر 44 وأول المؤمن 21 بالواو وفي غيرهن بالفاء لأن ما قبلها في هذه السورة أو لم يتفكروا 8 وكذلك بعدها وأثاروا الأرض 9 بالواو فوافق ما قبلها وما بعدها وفي فاطر أيضا وافق ما قبله وما بعده فإن قبله ولن تجد لسنة الله تحويلا 43 وبعدها وما كان الله ليعجزه من شيء 44 وكذلك أول المؤمن قبله والذين يدعون من دونه 20

وأما في آخر المؤمن فوافق ما قبله وما بعده وكانا بالفاء وهو قوله فأي آيات الله تنكرون 81 وبعده فما أغنى منهم 82

387 - قوله كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة 9 من قبلهم متصل بكون آخر مضمر وقوله كانوا أشد منهم قوة إخبار عما كانوا عليه قبل الإهلاك

وخصت هذه السورة بهذا النسق لما يتصل من الآيات بعده وكله إخبار

عما كانوا عليه وهو أثاروا الأرض وعمروها 9 وفي فاطر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم

وكانوا 44 بزيادة الواو لأن التقدير فينظروا كيف أهلكوا وكانوا أشد منهم قوة

وخصت هذه السورة به لقوله وما كان الله ليعجزه من شيء 44 الآية

وفي المؤمن كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة 21 فأظهر كان

العامل في من قبلهم وزاد هم لأن في هذه السورة وقعت في أوائل قصة نوح وهي تتم في ثلاثين

آية فكان اللائق البسط وفي آخر المؤمن كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم

وأشد قوة 82 فلم يبسط القول لأن أول السورة يدل عليه

388 - قوله ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا 21 وختم الآية بقوله يتفكرون

21 لأن الفكر يؤدي إلى الوقوف على المعاني التي خلقن لها من التآنس والتجانس وسكون

كل واحد منهما إلى الآخر

(15/600)

---

389 - قوله ومن آياته خلق السموات والأرض 22 وختم بقوله للعالمين 22 لأن الكل

تظلهم السماء وتقلهم الأرض وكل واحد منفرد بلطيفة في صوته يمتاز بها عن غيرها حتى

لا ترى اثنين في ألف يتشابه صوتاهما ويلتبس كلامهما وكذلك ينفرد كل واحد بدقيقة في صورته يتميز بها من بين الأنام فلا ترى اثنين يتشابهان وهذا

يشترك في معرفته الناس جميعا فلهذا قال لآيات للعالمين

ومن حمل اختلاف الألسن على اللغات واختلاف الألوان على السواد والبياض والشقرة والسمرة فالاشتراك في معرفتها أيضا ظاهر

ومن قرأ للعالمين بكسر اللام فقد أحسن لأن بالعلم يمكن الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره

390 – قوله ومن آياته منامكم بالليل 23 وختم بقوله يسمعون 23 فإن من سمع أن النوم من صنع الله الحكيم ولا يقدر أحد على إجتلابه إذا امتنع ولا على دفعه إذا ورد تيقن أن له صانعا مدبرا

قال الخطيب معنى يسمعون ههنا يستجيبون إلى ما يدعوهم إليه الكتاب

وختم الآية الرابعة بقوله يعقلون 24 لأن العقل ملاك أمر في هذه الأبواب وهو المؤدي إلى العلم فختم بذكره

391 – قوله ومن آياته يريكم 24 أي انه يريكم وقيل تقديره ويريكم من آياته البرق وقيل أن يريكم فلما حذف أن سكن الياء وقيل من آياته كلام كاف كما تقول منها كذا ومنها كذا ومنها وتسكت تريد الكثرة

392 – قوله أو لم يروا أن الله يبسط الرزق 37 وفي الزمر أو لم يعلموا 52 لأن بسط الرزق

مما يشاهد ويرى فجاء في هذه السورة على ما يقتضيه اللفظ والمعنى وفي الزمر اتصل بقوله أوتيته على علم 49 وبعده ولكن أكثرهم لا يعلمون 49 فحسن أو لم يعلموا

393 - قوله ولتجري الفلك بأمره 46 وفي الجاثية فيه بأمره 12 لأن في هذه السورة تقدم ذكر الرياح وهو قوله أن يرسل الرياح مبشرات 46 بالمطر وإذاقة الرحمة ولتجري الفلك بالرياح بأمر الله تعالى ولم يتقدم ذكر البحر

(16/600)

وفي الجاثية تقدم ذكر البحر وهو قوله الله الذي سخر لكم البحر 12 فكنى عنه فقال لتجري الفلك فيه بأمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 166 . 169﴾

(17/600)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم

هذه السورة تسمى سورة الروم في عهد النبيء صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما في حديث الترمذي عن ابن عباس ونيار بن مكرم الأسلمي ، وسيأتي قريبا في تفسير الآية الأولى من السورة .

ووجه ذلك أنه ورد فيها ذكر اسم الروم ولم يرد في غيرها من القرآن .

وهي مكية كلها بالاتفاق ، حكاه ابن عطية والقرطبي ، ولم يذكرها صاحب " الإتقان " في السور المختلف في مكيتها ولا في بعض آيها .

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري : أن هذه السورة نزلت يوم بدر فتكون عنده مدنية .

قال أبو سعيد : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا بذلك فنزلت ﴿ الم غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [الروم : 1- 5] وكان يقرؤها ﴿ غُلِبَتِ ﴾ بفتح اللام ، وهذا قول لم يتابعه أحد ، وأنه قرأ ﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : 3] بالبناء للنائب ، ونسب مثل هذه القراءة إلى علي وابن عباس وابن عمر .

وتأولها أبو السعود في " تفسيره " آخذاً من " الكشاف " بأنها إشارة إلى غلب المسلمين

على الروم .

قال أبو السعود : وغلبهم المسلمون في غزوة مؤتة سنة تسع .

وعن ابن عباس كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان .

وعن الحسن البصري أن قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ [الروم : 17] الآية مدنية بناء على أن تلك الآية تشير إلى الصلوات الخمس وهو يرى أن الصلوات الخمس فرضت بالمدينة وأن الذي كان فرضا قبل الهجرة هو ركعتان في أي وقت تيسر للمسلم . وهذا مبني على شذوذ .

(18/600)

وهي السورة الرابعة والثمانون في تعداد نزول السور ، نزلت بعد سورة الانشقاق وقبل سورة العنكبوت .

وقد روي عن قتادة وغيره أن غلب الروم على الفرس كان في عام بيعة الرضوان ، ولذلك استفاضت الروايات وكان بعد قتل أبي بن خلف يوم أحد .

واتفقت الروايات على أن غلب الروم للفرس وقع بعد مضي سبع سنين من غلب الفرس

على الروم الذي نزلت عنده هذه السورة .

ومن قال : إن ذلك كان بعد تسع سنين بتقديم التاء المثناة فقد حمل على التصحيف كما رواه القرطبي عن القشيري يقتضي أن نزول سورة الروم كان في إحدى عشرة قبل الهجرة لأن بيعة الرضوان كانت في سنة ست بعد الهجرة .

وعن أبي سعيد الخذري أن انتصار الروم على فارس يوافق يومه يوم بدر .

وعدد آيها في عد أهل المدينة وأهل مكة تسع وخمسون .

وفي عدد أهل الشام والبصرة والكوفة ستون .

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن ابن عباس والواحدي وغير واحد : أنه لما تحارب الفرس والروم الحرب التي سنذكرها عند قوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ [الروم : 2 ، 3] وتغلب الفرس على الروم كان المشركون من أهل مكة فرحين بغلب الفرس على الروم لأن الفرس كانوا مشركين ولم يكونوا أهل كتاب فكان حالهم أقرب إلى حال قريش ولأن عرب الحجاز والعراق كانوا من أنصار الفرس وكان عرب الشام من أنصار الروم فأظهرت قريش التطاول على المسلمين بذلك فأنزل الله هذه السورة مقتا لهم وإبطالا لتطاولهم بأن الله سينصر الروم على الفرس بعد سنين .

فلذلك لما نزلت الآيات الأولى من هذه السورة خرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة ﴿ الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم :

41], وراهن أبو بكر المشركين على ذلك كما سيأتي .

أغراض هذه السورة

(19/600)

أول أغراض هذه السورة سبب نزولها على ما سر المشركين من تغلب الفرس على الروم ، فقمع الله تعالى تطاول المشركين به وتحداهم بأن العاقبة للروم في الغلب على الفرس بعد سنين قليلة .

ثم تطرق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني ، ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة الثانية ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله ، وانتقل من ذلك إلى ذكر البعث .

واستدل لذلك ولوحدانيته تعالى بدلائل من آيات الله في

(20/600)

تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان .

ثم حض النبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين على التمسك بهذا الدين وأثنى عليه .

ونظر بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين حال المشركين ورذائلهم ، وضرب أمثالا لإحياء مختلف الأموات بعد زوال الحياة عنها ولإحياء الأمم بعد يأس الناس منها ، وأمثالا لحدوث القوة بعد الضعف وبعكس ذلك .

وختم ذلك بالعود إلى إثبات البعث ثم بتثبيت النبيء صلى الله عليه وسلم ووعده بالنصر .

ومن أعظم ما اشتملت عليه التصريح بأن الإسلام دين فطر الله الناس عليه وأن من ابتغى غيره دينا فقد حاول تبديل ما خلق الله وأنى له ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير جـ 21 صـ 7.5﴾

(21/600)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة الروم

نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معينة . ذلك حين غلبت فارس على الروم

فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب . وكان ذلك في إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة والمشركين . . ولما كان الروم في ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية , وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية , فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد , وفألا بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان .

ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرحلها المؤمنون , الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين .

ولكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد , ولا في حدود ذلك الحادث . إنما كانت هذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت . وليصلهم بالكون كله , وليربط بين سنة الله في نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما . وليصل بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها . ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا , وإلى العالم الآخر بعد عالم الأرض المحدود . ثم يطوف بهم في مشاهد الكون , وفي أغوار النفس , وفي أحوال البشر , وفي عجائب الفطر . . فإذا هم في ذلك المحيط الهائل الضخم الرحيب يطلعون على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها , وتوسع آمادها وأهدافها , وتخرجهم من تلك

العزلة الضيقة . عزلة المكان والزمان والحادث . إلى فسحة الكون كله: ماضيه وحاضره ومستقبله , وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه .

(22/600)

ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات في هذا الكون الكبير .

ويشعرون بضخامة النواميس التي تحكم هذا الكون , وتحكم فطرة البشر ; ودقة السنن التي تصرف حياة الناس وأحداث الحياة , وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة ; وعدالة الموازين التي تقدر بها أعمال الخلق , ويقوم بها نشاطهم في هذه الأرض , ويلقون على أساسها الجزاء في الدنيا والآخرة .

وفي ظل ذلك التصور المرتفع الواسع الشامل تتكشف عالمية هذه الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها - حتى وهي ناشئة في مكة محصورة بين شعابها وجبالها - ويتسع مجالها فلا تعود مرتبطة بهذه الأرض وحدها إنما هي مرتبطة كذلك بفطرة هذا الكون ونواميسه الكبرى , وفطرة النفس البشرية وأطوارها , وماضي هذه البشرية ومستقبلها . لا على هذه الأرض وحدها , ولكن كذلك في العالم الآخر الوثيق الصلة بها والارتباط .

وكذلك يرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد ; ويتكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم ; ويتطلع إلى السماء والآخرة ; ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار , وخلفه وقدامه على الحوادث والمصائر . ويدرك موقفه هو وموقف أمته في ذلك الخضم الهائل ; ويعرف قيمته هو وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله , فيؤدي حينئذ دوره على بصيرة , وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام .

ويمضي سياق السورة في عرض تلك الارتباطات , وتحقيق دلالاتها في نظام الكون , وتثبيت مدلولاتها في القلوب . . يمضي سياق السورة في شوطين مترابطين:

(23/600)

في الشوط الأول يربط بين نصر المؤمنين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما , ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة . ويوجه قلوبهم إلى سنة الله فيمن مضى قبلهم من القرون . ويقيس عليها قضية البعث والإعادة . ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد القيامة وما يجري فيه للمؤمنين والكافرين . ثم يعود من هذه الجولة إلى مشاهد الكون , وآيات الله المبثوثة في ثناياه ; ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب . ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلا يكشف عن سخافة فكرة الشرك , وقيامها على الأهواء

التي لا تستند إلى حق أو علم . . وينهي هذا الشوط بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح . طريق الفطرة التي فطر الناس عليها ; والتي لا تتبدل ولا تدور مع الهوى ; ولا يتفرق متبعوها فرقا وشيعا , كما تفرق الذين اتبعوا الهوى .

(24/600)

وفي الشوط الثاني يكشف عما في طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة . ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء , ويصور حالهم في الرحمة والضر , وعند بسط الرزق وقبضه . ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته . ويعود إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هذه الزاوية ; فإذا هم لا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون . ويربط بين ظهور الفساد في البر والبحر وعمل الناس وكسبهم ; ويوجههم إلى السير في الأرض , والنظر في عواقب المشركين من قبل . ومن ثم يوجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الاستقامة على دين الفطرة , من قبل أن يأتي اليوم الذي يجزى فيه كل بما كسبت يداه . ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله في مشاهد الكون كما عاد بهم في الشوط الأول . ويعقب عليها بأن الهدى هدى الله ; وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يملك إلا

البلاغ , فهو لا يهدي العمي ولا يسمع الصم . ثم يطوف بهم في جولة جديدة في ذات أنفسهم ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها , منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة , ويعرض عليهم مشهدا من مشاهدها . ثم ينهي هذا الشوط ويختم معه السورة بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الصبر على دعوته , وما يلقاه من الناس فيها ; والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لا بد آت ; فلا يقلقه ولا يستخفه الذين لا يوقنون .

(25/600)

وجو السورة وسياقها معا يتعاونان في تصوير موضوعها الرئيسي . و هو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس , وأحداث الحياة , وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها , وسنن الكون ونواميس الوجود . وفي ظلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل نأمة , وكل حادث وكل حالة , وكل نشأة وكل عاقبة , وكل نصر وكل هزيمة . . كلها مرتبطة برباط وثيق , محكومة بقانون دقيق . وأن مرد الأمر فيها كله لله: (لله الأمر من قبل ومن بعد) . وهذه هي الحقيقة الأولى التي يؤكدها القرآن كله , بوصفها الحقيقة الموجهة في هذه العقيدة . الحقيقة التي تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقديرات ;

والتي بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2756.2754 ﴾

(26/600)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الروم

مكية وآياتها ستون آية

بين يدي السورة

سورة الروم مكية ، وأهدافها نفس أهداف السورة المكية ، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية ، في إظارها العام وميدانها الفسيح " الإيمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء " .

* ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدث غيبي هام ، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه ، ألا وهو انتصار الروم على الفرس ، في الحرب التي ستقع قريبا بينهما ، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن ، وبذلك تحققت النبوءة ، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) فيما جاء به من الوحي ، ومن أعظم معجزات القرآن [الم غلبت

الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون] الآيات .

* ثم تحدثت السورة عن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، وأنها معركة قديمة قدم هذه الحياة ، فالحرب لا تهدأ ما دام هناك حق وباطل ، وخير وشر ، وما دام الشيطان يحشد أعوانه وأنصاره لإطفاء نور الله ، ومحاربة دعوة الرسل الكرام ، وقد ساقت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل ، في شتى العصور والدهور ، وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا [ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين] الآيات

* ثم تناولت السورة الحديث عن القيامة وأهوالها وعن المصير المشنوم لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب ، حيث يكون المؤمنون في روضات يحبرون ، ويكون المجرمون في العذاب محضرين ، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار ، والعاقبة الموكدة للمحسنين والمجرمين [ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون] الآيات .

(27/600)

* وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية ، والدلائل الغيبية ، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته ، لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان ، الذي تخضع له الرقاب ، وتعنو له الوجوه ، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن ، وبين من يعبد الأوثان [فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات وفى الأرض وعشيا وحين يظهرون] الآيات .

* وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش ، إذ لم تنفعهم الآيات والنذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، لا يعتبرون ولا يتعظون ، لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون ، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) لحينه عما يلقاه من أذى المشركين ، والصبر حتى يأتي النصر .

التسمية :

سميت بسورة الروم " لذكر تلك المعجزة الباهرة ، التي تدل على صدق أنباء القرآن العظيم [ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين] وتلك هي بعض معجزات القرآن .

قال الله تعالى : [الم غلبت الروم في أدنى الأرض . .] إلى قوله [وكذلك تخرجون] من آية (1) إلى نهاية آية (19) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 470 .

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الروم

الروم : أمة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم ، كذا قال النسابون من العرب ، أدنى الأرض : أي أقربها من الروم ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة الذين يساق إليهم الحديث ، والبضع : ما بين الثلاث إلى العشر ، وقال : المبرد ما بين العقدين فى جميع الأعداد ، ظاهر الحياة الدنيا : هو ما يشاهدونه من زخارفها ولذاتها الموافقة لشهواتهم التي تستدعى انهماكهم فيها وعكوفهم عليها .

يبلس المجرمون : أي يسكتون وتنقطع حجتهم ، الروضة : الأرض ذات النبات والماء ويقال أراض الوادي واستراض إذا كثر ماؤه ، وأرض القوم : أرواهم بعض الرّىّ ، يحبرون : يسرون ، يقال حبره يحبره (بالضم) حبرا وحبورا : إذا سره سرور لتهلل له وجهه ، وظهر فيه أثره ، وفى المثل : امتلأت بيوتهم حبرة ، فهم ينتظرون العبرة ، محضرون : أي مدخلون فيه لا يغيبون عنه .

من أنفسكم : أي منتزعا من أحوال أنفسكم ، التي هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم ، ملكت أيمانكم : أي مماليككم وعبيدكم ، فيما رزقناكم : أي من العقار والمنقول ، فأنتم فيه سواء : أي تتصرفون فيه كتصرفكم ، تخافونهم : أي تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيه ، كخيفتكم أنفسكم : أي كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض ، نفصل الآيات : أي نبينها بالتمثيل الكاشف للمعانى ، فمن يهدى من أضل اللّه ؟ :

أي لا أحد يهديهم ، وما لهم من ناصرين : أي ليس لهم من قدرة اللّه منقذ ولا مجير .

أقم : من أقام العود وقوّمه إذا عدّله والمراد الإقبال على دين الإسلام والثبات عليه ، حنيفا : من الحنف وهو الميل ، فهو مائل من الضلالة إلى الاستقامة ، والفطرة :

هى الحال التي خلق اللّه الناس عليها من القابلية للحق ، والتهيؤ لإدراكه ، وخلق اللّه :

(29/600)

هو فطرته المذكورة أوّلا ، القيم : أي المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف ، منيبين إليه : أي راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل ، من قولهم : ناب نوبة ونوبا إذا رجع مرة بعد أخرى ، واتقوه : أي خافوه ، فرقوا دينهم : أي اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم ، شيعا : أي فرقا تشايع كل فرقة إمامها الذي مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله .

حقه : هو صلة الرحم والبرّ به ، والمسكين : هو المعدم الذي لا مال له ، وابن السبيل : هو المسافر الذي احتاج إلى مال وعزّ عليه إحضاره من بلده ، ووسائل المواصلات الحديثة الآن تدفع مثل هذه الحاجة ، ربا : أي زيادة ، والمراد بها الهدية التي يتوقع بها مزيد مكافأة ، فلا يربو عند اللّه : أي فلا يبارك فيه ، والمراد بالزكاة الصدقة ، المضعفون : أي الذين يضاعف اللّه لهم الثواب والجزاء .

البر : الفيافي والقفار ، ومواضع القبائل ، والبحر : المدن ، والعرب تسمى الأمصار بحارا لسعتها كما قال سعد بن عبادة فى عبد اللّه بن أبى بن سلول : ولقد أجمع أهل هذه البحيرة (المدينة) ليتوّجوه .

وقال ابن عباس : البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر .

لا مرد له : أي لا يقدر أحد أن يردّه ، يصّدّعون : أي يتصدعون ويتفرقون ، كما قال متمّم بن نويرة من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن نتصدعا " 1 "

فأصبحنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

يمهدون : من مهد فراشه إذا وطّأه حتى لا يصيبه ما ينغّص عليه مرقده من بعض ما يؤذيه ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها ، وتمهيد العذر بسطه وقبوله ، لا يحب الكافرين : أي إنه

يبغضهم ، وسيعاقبهم على ما فعلوا .

---

(1) وجذيمة : هو جذيمة الأبرش ، وكان ملكا فى الحيرة ، ونديماه مالك وعقيل ، وبهما يضرب المثل فى طول المنادمة ، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا كان قالاه من قبل .

(30/600)

تثير : أي تحرك ، يبسط : أي ينشر ، فى السماء : أي فى سمتها وجهتها ، كسفا : أي قطعا ، والودق : المطر ، خلاله : واحدها خلل ، وهو الفرجة بين الشيئين ، لمبلسين : أي لآيسين .

الساعة الأولى : يوم القيامة سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات لدنيا ، ما لبثوا : أي ما أقاموا بعد الموت ، غير ساعة : أي غير قطعة قليلة من الزمان

يؤفكون : أي يصرفون عن الحق ، المعذرة : العذر ، يستعتبون : أي يطلب منهم إزالة عتب اللّه وغضبه عليهم بالتوبة والطاعة ، فقد حق عليهم العذاب ، يقال :

استعتبني فلان فأعتبته : أي استرضانى فأرضيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 21 صـ 27.66 ﴾ . باختصار .

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم

وهي مكية 1 - من ذلك قوله جل وعز آلم غلبت الروم في أدنى الأرض آية 2 قال مجاهد هي الجزيرة كانت أقرب أرض الروم إلى فارس حدثنا محمد بن سلمة الأسواني قال حدثنا محمد بن سنجر قال حدثنا معاوية بن عمرو قال حدثنا أبو إسحق الفزاري عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن

ابن عباس في قول الله جل وعز آلم غلبت الروم قال كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنهم سيغلبون قال فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجلا خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال الا جعلتها ما دون أراه قال دون

العشر قال سعيد والبضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله جل وعز آلم غلبت الروم في أدنى الأرض إلى قوله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله قال الشعبي وكان القمار ذلك الوقت حلالا قال وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر كم البضع قال ما بين الثلاث إلى التسع

وقرأ عبد الله بن عمر غلبت الروم بفتح الغين واللام وقال غلبت على أدنى ريف قال أبو جعفر المعنى على قراءة من قرأ غلبت الروم وهم من بعد غلبهم سيغلبون الروم من بعد غلبهم أي من بعد أن غلبوا سيغلبون ومن قرأ سيغلبون فالمعنى عنده وفارس من بعد غلبهم أي من بعد أن غلبوا سيغلبون 2 - وقوله جل وعز في بضع سنين آية 4 البضع عند قتادة أكثر من الثلاث ودون العشر وعند الأخفش والفراء ما دون العشر وعند أبي عبيدة ما بين ثلاث وخمس

(32/600)

وحكى أبو زيد بضع وهو مشتق من قولهم بضعة إذا قطعه ومنه بضعة من لحم ومنه هو يملك فلا بضع المرأة إنما هو كناية عن عضوها وفي رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس في أدنى

الأرض قال يقول في طرف الشام قال أبو جعفر التقدير في أدنى الأرض من فارس 3 – ثم قال جل وعز لله الأمر من قبل ومن بعد آية 4 قال محمد بن يزيد إذا قلت من قبل ومن بعد فمعناه من قبل ما تعلم ومن بعد ما تعلم ومن قبل كل شئ ومن بعد كل شئ قال أبو جعفر المعنى لله القضاء بالغلبة من قبل الغلبة ومن بعدها

4 – ثم قال جل وعز ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله آية 4 أي يفرحون بنصر الله الروم لأنهم أهل كتاب على فارس وهم مجوس ويفرحون بالآية العظيمة التي لا يعلمها إلا الله جل وعز لأنه خبرهم بما سيكون 5 – وقوله جل وعز يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون آية 7 قال عكرمة وإبراهيم أي يعلمون أمر معايشهم ومصلحة دنياهم 6 – وقوله جل وعز أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق آية 8 أي إلا لإقامة الحق

7 – وقوله جل وعز وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها آية 9 وأثاروا الأرض أي حرثوها وزرعوها وليس بمكة حرث ولا زرع وقال تعالى تثير الأرض 8 – وقوله جل وعز ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى وقرأ الأعمش ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء برفع السوء

قال أبو جعفر السوء أشد الشر والسوءى أي الفعلي منه وقيل السوءى ههنا النار كما أن الحسنى الجنة ومعنى اساءوا ههنا أشركوا يدل على ذلك قوله تعالى أن كذبوا بآيات الله

قال الكسائي أي لأن كذبوا بآيات الله 9 - وقوله جل وعز ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال يكتئبون منه وروى أبو يحيى عن مجاهد قال الإبلاس الفضيحة

قال أبو جعفر يقال أبلس الرجل إذا تحير وحزن وانقطعت حجته فلم يهتد لها ويئس من الخير كما قال

(33/600)

قال نعم أعرفه وأبلسا 10 - وقوله جل وعز فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون قال مجاهد يحبرون أي ينعمون قال أبو جعفر حقيقته أنهم تتبين عليهم أثر النعمة من ذلك الحبر وعلى أسنانه حبرة وروى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في روضة يحبرون قال السماع في الجنة

11 - وقوله جل وعز فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون آية 17 قال ابن عباس الصلوات الخمس في كتاب الله جل وعز وتلا الآية فسبحان الله حين تمسون قال المغرب والعشاء وحين تصبحون قال الفجر وعشيا العصر وحين تظهرون الظهر

12 - وقوله جل وعز يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحي الأرض بعد موتها

وكذلك تخرجون آية 19 في معناه أقوال قال عبد الله بن مسعود أي يخرج النطفة من الرجل والرجل من النطفة

قال الضحاك وكذلك البيضة وقال سلمان يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن

وكذلك قال الحسن وقيل يميت الحي ويحيي الميت ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون

أي كما يحيي الأرض بالنبات 13 – وقوله جل وعز ومن آياته أن خلقكم من تراب آية 20 المعنى أن خلق أصلكم وهو آدم عليه السلام كما قال تعالى واسأل القرية ويجوز أن يكون الماء مخلوقا من تراب 14 – وقوله جل وعز ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها فيه قولان أحدهما أن حواء خلقت من آدم والآخر أن المعنى خلق لكم من جنسكم أزواجا لأن الإنسان

بجنسه آنس وإليه أسكن ومثله قوله جل وعز هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها في معناه القولان جميعا أي جعل من جنسها روجها ودل هذا على الجنسين جميعا

ويكون الضمير في قوله تعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما يعود على الجنسين والضمير في قوله يشركون يعود على الجنسين لأنهما جماعة 15 – وقوله جل وعز وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون آية 21

قال مجاهد المودة الجماع والرحمة الولد وقيل المودة والرحمة عطف قلوب بعضهم على بعض والمعنى ومن آياته التي تدل على وحدانيته وأنه لا شريك له ولا نظير 16 - وقوله جل وعز إن في ذلك لآيات للعالمين آية 22 للعالمين أي للجن والإنس وحكى للعالمين وهو حسن 17 - وقوله جل وعز ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا آية 24 والمعنى ويريكم البرق من آياته وعطفت جملة على جملة ويجوز أن يكون المعنى ومن آياته آية يريكم بها البرق كما قال الشاعر

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح والخوف للمسافر والطمع للمقيم

18 - وقوله جل وعز ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره آية 25 أي أن تدوما قائمتين 19 - وقوله جل وعز وله من في السموات والأرض كل له قانتون آية 26 وهذا أيضا من آياته وحذف لأن في الكلام دليلا عليه والقانت القائم بالطاعة والقيام ههنا الانقياد لله جل وعز على ما حب العباد أو كرهوا

20 - وقوله جل وعز وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه آية 27 في معناه

ثلاثة أقوال في رواية صالح عن ابن عباس وهو أهون عليه وهو أهون على المخلوق لأنه ابتدأ خلقه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة والإعادة بأن يقول له كن فيكون فذلك أهون على المخلوق وقال مجاهد الإعادة أهون عليه من البدأة وكل عليه هين والمعنى على هذا وهو أهون عليه عندكم وفيما تعرفون على التمثيل وبعده وله المثل الأعلى

وقال قتادة وهو أهون عليه أي هين

وهذا قول حسن ومنه الله أكبر أي كبير ومنه قول الشاعر لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أول وقول الآخر إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

وروى معمر عن قتادة قال في قراءة عبد الله بن مسعود وهو هين عليه

(35/600)

---

21 - ثم قال جل وعز وله المثل الأعلى في السموات والأرض آية 27 روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال يقول ليس كمثله شئ وقيل يعني لا إله إلا الله وحقيقته في اللغة وله الوصف الأعلى 22 - وقوله جل وعز ضرب لكم مثلا من أنفسكم آية 28 قال قتادة هذا مثل ضربه الله عز وجل للمشركين فقال هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء أي هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في ماله ونفسه مثله فإذا لم

ترضوا بهذا فكيف جعلتم لله جل وعز شريكا

قال أبو جعفر هذا قول حسن أي هل يرضى أحدكم أن يجعل مملوكه مثل نفسه أي مثل شريكه الحر الذي لا يقطع أمرا دونه كما قال تعالى ولا تلمزوا أنفسكم أي لا يعب بعضكم بعضا وكذا قوله تعالى كخيفتكم أنفسكم وكما قال جل وعز لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وكما قال تعالى فاقتلوا أنفسكم وقيل كما يخاف من قبلكم إنفاقها أي فأنتم لا تجعلون مماليككم مثلكم وأنتم كلكم أرقاء لله جل وعز فكيف تجعلون لله جل وعز شريكا وليس كمثله شئ 23 – وقوله جل وعز فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها آية 30 الفطرة ابتداء الخلق ومنه فاطر السموات ومنه فطر ناب البعير ومنه فطرت البئر أي ابتدأت حفرها أي ابتدأ خلقهم على أنهم يعلمون أن لهم خالقا ومدبرا وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه

قال الأوزاعي وحماد بن سلمة هذا مثل قوله تعالى وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم والمعنى على هذا كل مولود يولد على العهد الذي أخذ

عليه وفي الحديث أخرجهم أمثال الذر فأخذ عليهم العهد فكل مولود يولد على ذلك العهد وإن نسب عبادته إلى غير الله جل وعز أو ووصفه بغير صفته حتى يكون أبواه يعلمانه اليهودية والنصرانية وقيل على الخلقة التي تعرفونها لا تميز شيئا

وقال عبد الله بن المبارك هذا لمن يكون مسلما يذهب إلى أنه مخصوص وقال محمد بن الحسن هذا من قبل أن تنزل الفرائض ويؤمر بالجهاد قال أبو جعفر وأولاها القول الأول وهو قول أهل السنة وهو موافق للغة ولا يجوز أن يكون منسوخا لأنه خبر ولا يكون خاصا وإنما أشكل معنى الحديث لأنهم تأولوا الفطرة على الإسلام وإنما هي ابتداء الخلق 24 - وقوله جل وعز منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين منيبين إليه أي راجعين إليه بالطاعة والمعنى فأقيموا وجوهكم منيبين إليه

ومعنى كل حزب بما لديهم فرحون

كل يقول إني على الهدى 25 - ثم قال جل وعز وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه آية 33 أي لم يلتجئوا : إلا إليه وتركوا ما كانوا يعبدون من دونه 26 - ثم قال جل وعز ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون فخرج من الإخبار إلى المخاطبة وهذا على التهديد والوعيد كما قال جل وعز وقل الحق من ربكم فمن شاء فيؤمن ومن شاء فليكفر 27 - ثم قال جل وعز أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون آية 35 روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كل سلطان في القرآن فهو عذر وحجة قال أبو جعفر

المعنى أم أنزلنا عليهم كتابا فيه عذر أو حجة أو برهان يدلهم على الشرك 28 - ثم قال جل وعز أذقنا الناس رحمة فرحوا بها أي نعمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة أي وإن تصبهم مصيبة 29 - وقوله جل وعز فلت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل آية 38 قال قتادة إذا لم تعط ذا قرابتك وتمشي إليه برجليك فقد قطعته 30 - وقوله جل وعز وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله قال مجاهد وابن عباس هو الرجل يهدي إلى الرجل الهدية فيطلب ما هو أفضل منها فليس له أجر ولا عليه إثم قال عكرمة الربا ربوان فربا حلال وربا حرام فأما الحلال فأن يعطي الرجل الآخر شيئا ليعطيه أكثر منه فلا يربوا عند الله والحرام في النسيئة

(37/600)

وقال ابراهيم كان هذا في الجاهلية يعطي الرجل ذا قرابته المال ليكثر عنده فلا يربو عند الله 31 - ثم قال جل وعز وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون آية 39 قال ابن عباس من زكاة أي من صدقة ثم قال فأولئك هم المضعفون أي الذين يجدون أضعاف ذلك أي ذوو الإضعاف كما تقول رجل مقو أي ذو قوة 32 - وقوله جل وعز ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس آية 41 قال مجاهد في البر قتل ابن آدم أخاه

والبحر أخذ السفينة غصبا

وقال عكرمة وقتادة البر البوادي والبحر القرى قال قتادة والفساد الشرك قال أبو جعفر والتقدير على هذا وفي مواضع البحر أي التي على البحر وأحسن ما قيل في هذه الآية والله أعلم قول ابن عباس حدثنا بكر بن سهل قال حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ظهر الفساد في البر والبحر يقول نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا والمعنى على هذا ظهر الجدب في البر والبحر بذنوب الناس

33 – وقوله جل وعز فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون آية 43 أي اجعل قصدك إلى الدين القيم من قبل أن يأتي يوم القيامة فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ومعنى يصدعون يتفرقون فريقا في الجنة وفريقا في السعير 34 – وقوله جل وعز ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون آية 44 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال فلأنفسهم

يمهدون في القبر

قال أبو جعفر معنى يمهدون في اللغة يوطئون لأنفسهم بعمل الخير من المهاد وهو الفراش 35 – وقوله جل وعز ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله آية 48 ويجعله كسفا جمع كسفة وهي القطعة فترى الودق قال مجاهد أي القطر يخرج يخرج من خلاله أي من بين السحاب 37 – وقوله جل وعز وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين آية 49

في تكرير قبل ههنا ثلاثة أقوال أ - قال الأخفش سعيد هذا على التوكيد وأكثر النحويين على هذا القول

(38/600)

ب - وقال قطرب أي وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطرج والقول الثالث عندي أحسنها وهو أن يكون المعنى من قبل السحاب أي من قبل رؤية السحاب ليائسين وقد تقدم ذكر السحاب 37 - وقوله جل وعز فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها آية 50

رحمة الله أي المطر الذي هو من رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها

وقرأ محمد اليماني كيف تحيى الأرض بعد موتها والمعنى على قراءته كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار ويحيي بالياء أي يحيي الله أو المطر أو الأثر فيمن قرأ هكذا 38 - وقوله جل وعز ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون قال النحويون فرأوه مصفرا أي فرأوا النبات مصفرا وحقيقته فرأوا الأثر مصفرا لظلوا من بعده يكفرون أي ليظلن هذا قول الخليل قال أبو جعفر وهذا يقع في حروف المجازاة

39 - ثم قال جل وعز فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين آية

52 أي إنهم بمنزلة الموتى والصم لأنهم لا يقبلون لمعاندتهم 40 - وقوله جل وعز إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون آية 53 أي ما تسمع إلا من كان قابلا غير معاند

41 - وقوله جل وعز الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة آية 54 خلقكم من ضعف أي من المني أي خلقكم في حال ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة أي الشباب

42 - وقوله جل وعز ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة أي يحلفون ما لبثوا في القبور إلا ساعة واحدة 43 - ثم قال تعالى كذلك كانوا يؤفكون آية 55 أي كذلك كانوا يكذبون في الدنيا يقال إفك الرجل إذا صرف عن الصدق والخير وأرض مأفوكة ممنوعة من المطر 44 - وقوله جل وعز وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث آية 56 قيل المعنى في خبر كتاب الله أنكم لبثتم في قبوركم إلى يوم القيامة وقيل في الكلام تقديم وتأخير

(39/600)

والمعنى وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث 45 - وقوله جل وعز فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين

لا يوقنون آية 60 ولا يستخفنك أي لا يستفزنك الذين لا يوقنون أي الشاكون .

انتهت سورة الروم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معاني القرآن / للنحاس حـ 5 صـ 241 .

273 ﴾

(40/600)

وقال الفراء :

سورة (الروم)

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾

قوله: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ . . . ﴾

القُراء مجتمعون على ﴿ غُلِبَت ﴾ إلاّ ابن عمر فإنه قرأها (غَلَبَتِ الرُّومُ) فقيل له: علامَ [] غَلَبُوا ؟ فقال: على أدنى رِيف الشأم . والتفسير يردّ قول ابن عُمَر . وذلك أن فارس ظفرت بالروم فحزِن لذلكَ المسْلمُونَ ، وفرح مشركو أهلِ مَكَّة ؛ لأن أهل فارسَ يعبدونَ الأوثان ولا كتاب لهم ، فأحبّهم المشركُونَ لذلك ، ومال المسْلمونَ إلى الروم ، لأنهم ذَوو كتابٍ ونبوّة . والدليل على ذلكَ قول الله ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ثم قال بعد ذلكَ: ويوم يغلِبونَ يفرح المؤمنون إذا غَلَبُوا . وقد كان ذلك كلّه .

وقوله: ﴿ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ كلامُ العرب غَلَبته غَلَبةً ، فإذا أضَافوا أسْقَطُوا الهاء كما أسْقطوهَا فى قوله ﴿ وإقام الصَّلاةِ ﴾ والكلامُ إقامة الصَّلاة .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ . . . ﴾

القراءة بالرفع بغير تنوينٍ ؛ لأنهما فى المعْنَى يراد بهما الإضافَة إلى شىء لامحالة . فلمَّا أدّتا عن مَعْنى ما أُضيفتا إليه وسَمُوهما بالرفع وهما مخفوضتان ؛ ليكون الرفع دليلاً عَلَى ما سَقط ممَّا أضفتهما إليه . وكذلكَ ما أشبههما ، كقول الشاعر:

* إن تأتِ من تحتُ أجئْها من عَلُ *

ومثله قول الشاعر:

إذا أنا لم أُومَن عَليكِ ولم يَكُن * لقاؤكِ إلاَّ من وراءُ وراءُ

(41/600)

ترفع إذا جَعَلته غايةً ولم تذكر بعده الذى أضفته إليه فإن نويت أن تظهره أو أظهرته قلت: لله الأمر منْ قبلِ ومن بَعْدِ : كأنكَ أظهرتَ المخفوض الذى أسْنَدْت إليه (قَبْل) و (بعد) . وسمع الكسَائىُّ بعض بنى أسَدٍ يقرؤها ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلِ وَمِن بَعْدُ ﴾ يخفض (قبل) ويرفع (بَعد)

عَلَى ما نوى وأنشدنى (هو يعنى) الكسَائىّ:

أكابِدهَا حَتى أُعَرّسَ بَعْد مَا * يكون سُحُيْراً أو بُعَيدَ فأهْجَعَا

أراد بُعَيدَ السحَّر فأضمره. ولو لم يُرِد ضمير الإضافة لرفع فقال: بُعَيْدُ. ومثله قول الشَّاعر:

لَعَمْرِكَ ما أدرى وإنى لأَوجَلُ * على أيِّنا تَعْدو المنيَّةُ أوّلُ

رفعت (أوّل) لأنه غاية؛ ألا ترى أنها مسنَدة إلى شىء هى أوّلهُ؛ كما تعرِف أنّ (قبل) لا يكون إلاَّ قبل شىء، وأنَّ (بعد) كذلكَ. ولو أطلقتهما بالعربيّة فنوَّنت وفيهما مَعْنى الإضَافة فخفضت فى الخفض ونوَّنت فى النصب والرفع لكان صَوَاباً، قد سُمع ذلكَ من العرب، وجَاء فى أشعارها، فقال بعضهم:

وساغَ لى الشرابُ وكنت قبلاً * أكاد أغَصُّ بالمَاء الحمِيم

فنوَّنَ وكذلكَ تقول: جئتك من قبل فرأيتكَ. وكذلك قوله:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبل مُدبرٍ معاً * كجُلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من عَلِ

فهذا مخفوض. وإن شئت نوَّنت وأن شئت لم تنون على نيّتك؟ وقال الآخر فرفع:

كَأنّ مِحَطّاً فى يدَى حارثيَّةٍ * صَنَاعٍ علت منّى به الجِلدَ من عَلُ

المِحَطّ: منقاش تشِم به يدها.

وأمّا قول الآخر:

هتكت به بيوتَ بنى طَرِيفٍ * على ما كان قبلٌ من عِتاب

فنوَّن ورَفَع فإن ذلك لضرورة الشعر ، كما يُضطَرّ إليه الشاعر فينوّن فى النداء المفرد

فيقول: يا زيدٌ أَقْبل ؛ قَالَ:

قدَّمُوا إذْ قيل قيسٌ قدِّمُوا * وارفعُوا المجدَ بأطرافِ الأَسَل

وأنشدنى بعض بنى عُقيل:

ونحن قتلنا الأَسْدَ أَسْدَ شَنُوءَة * فما شرِبُوا بعدٌ عَلَى لذَّة خمرَا

ولو ردّه إلى النصب إذ نوّن كان وجهاً ؛ كما قال:

(42/600)

وسَاغ لى الشراب وكنت قبلاً * أكاد أغَصّ بالمَاء الحَمِيم

وكذلك النداء لو رُدّ النصب إذا نُوِّن فيه كَانَ وَجْهاً ؛ كما قال:

فطِر خالداً إن كنتَ تَسْطيع طَيْرةً * ولا تَقَعْن إلاَّ وقلبُكَ حَاذِر

ولا تنكرنَّ أن تضيف قبل وبعدَ وأشباههما وإن لم يظهر فقد قال:

إلاَّ بُدَاهةَ أو عُلاَلَة * سَابحٍ نَهْدِ الجُزَاره

وقال الآخر:

يا من يرى عَرِضاً أكفكفُهُ * بين ذِرَاعيْ وجَبْهةِ الأَسَدِ

وسمعت أبا ثَرْوَان العُكْلِيّ يقول: قطع الله الغداة يد ورجل من قاله. وإنما يجوز هَذَا فى الشيئين يَصْطحبَان؛ مثل اليد والرجل، ومثل قوله: عندى نصفُ أو ربعُ درهَمٍ، وجئتك قبلَ أو بعدَ العصرِ. ولا يجوز فى الشيئين يتباعَدان؛ مثل الدار والغلام: فلا تُجيزنّ: اشتريت دارَ أو غلام زيد؛ ولكن عَبْدَ أَوْ أَمَةَ زَيدٍ، وعينَ أو أذُن، ويد أو رِجْلَ، وما أشبهه.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾

يعنى أهل مَكَّة. يقول: يَعلمونَ التجارات والمعاش، فجَعَلَ ذلك علمهم. وأمَّا بأمْرِ الآخرة فعَمُون.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾

يقول: ما خلقناهما ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ للثواب والعقاب والعمَل ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: القيامَة.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَاكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَثَارُواْ الأَرْضَ . . . ﴾ :

حَرَثوها ﴿ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ ﴾ مما كانوا يَعْمُرُونَ . يقول: كانوا يعمّرونَ أكثر من تعمير أهْل مَكَّة فأُهلِكُوا .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ السُّوءَى أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

وقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ السُّوءَى . . . ﴾ .

تنصب الْعَاقبة بكان ، وتجعل مرفوع (كان) فى ﴿ السُّوءَى ﴾ . ولو رفعت الْعَاقبة ونصبت ﴿ السُّوءَى ﴾ كان صَوَاباً . و ﴿ السُّوءَى ﴾ فى هَذا الموضع: العذابُ ، ويقال: النار .

وقوله ﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ لتكذيبهم ، ولأن كذَّبُوا . فإذا ألقيتَ اللام كان نصباً .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ . . . ﴾ :

ييأسون من كل خير ، ويقطع كلامُهم وحججهم . وقرأ أبُو عبد الرحمن السلمىّ (يُبْلَسُ

الْمُجْرِمُونَ) بفتح اللام. والأولى أجود. قال الشاعر:

يا صَاحِ هل تعرف رَسماً مكرَساً * قال نعم أعرفُه وأبلسَا

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ . . . ﴾

يقول: فصلّوا لله ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وهى المغرب والعِشَاء ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ صَلاة الفجر ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ صلاة العصر ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ صلاة الظهر.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَالِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . . . ﴾

(44/600)

يريد العالَم من الجنّ والإنس ومن قرأهَا ﴿ للعَالِمينَ ﴾ فهو وجه جيّد؛ لأنه قد قال

﴿ لآيَاتٍ لقومٍ يَعْقِلُونَ ﴾ و ﴿ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً . . . ﴾

وقبل ذلك وبعده (أنْ أنْ) وكلٌّ صَوَاب. فمن أظهر (أنْ) فهيَ فى موضع اسمٍ مرفوعٍ؛ كما قَالَ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ فإذا حَذفْت (أنْ) جَعَلْتَ (مِن) مؤدّية عن اسْمٍ متروكٍ يكون الفعل صلةً لهُ؛ كقول الشاعِر:

وما الدهر إلاَّ تارتان فمنهُمَا * أمُوتُ وأُخرى أبتغى العَيْش أكدح

ب/ كأنه أراد: فمنها سَاعَة أموتها، وسَاعة أعيشها. وكَذلك من آياته آية للبرق وآية لكذا. وأن شئتَ: يريكم من آياته البرق فلا تضمر (أن) ولا غيره.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ . . . ﴾

يقول: أَن تدومَا قائمتين بأمره بغير عَمَدٍ.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . ﴾

حدّثنا أبو العبّاس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفرّاء قال: حدّث الحسنُ بن عمارة عن الحَكَم عن مجاهد أَنه قال: الإنشاءة أهونُ عليه من الابتداء . قال أبو زكريّاء: ولا أشتهى ذلك والقولُ فيه أنه مَثَل ضَرَبه اللهُ فقال: أتكفرونَ بالبعث ، فابتداءُ خَلْقكم من لاَ شىء أشدّ . فالإنشاءة من شىء عندكم بأهل الكفر ينبغى أن تكون أهْونَ عَليه . ثم قَالَ ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ فهذا شاهِدٌ أنه مَثَل ضربه الله . حدّثنا أبو الْعَبَّاسِ ، قال حدّثنا محمّد قال حدّثنا الفرّاء قال حدّثنى حِبَّانُ عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عبَاسٍ قال ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ : على المخلوق ، لأنه يقول له يوم القيامَة: كن فيكون وأوّل خَلْقه نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغَةٍ .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ . . . ﴾

(46/600)

نصبتَ الأنفس ؛ لأن تأويل الكاف والميم فى ﴿ خِيفَتِكُمْ ﴾ مرفوع . ولو نويْت به – بالكافِ والميم – أن يكون فى تأويل نصبٍ رفعت مَا بعدها . تقول فى الكلام: عجبت مِن موافقتك كثرةُ شربِ الماء ، عجبت من اشترائِكَ عبداً لا تحتاج إليه . فإذا وقع مثلها فى الكلام فأجرِه بالمعنى لا باللفظ . والعرب تقول: عجبت من قيامكم أجْمعونَ وأجمعين ، وقيامكم كُلُّكم وكُلِّكم . فمنْ خفض أتبعه اللفظ ؛ لأنه خَفْض فى الظاهِرِ ومن رفع ذهب إلى التأويل . ومثله ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ ﴾ أوقعت الفعل من قريش عَلى ﴿ رِحْلَة ﴾ والعرب تقول: عجبت من تساقطهَا بعضُها فوق بعض ، وبعِضها ، على مثل ذلك: هذا إذا كَنَوا . فإذا قالوا سَمْعت قرع أنيابه بعضِها بَعضاً خفضوا (بعض) وهو الوجه فى الكلام ؛ لأن الذى قبله اسم ظاهر ، فاتبعوه إيَّاه . لو رفعت (بعضهَا) كان على التأويل .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ . . . ﴾

يريد : دِين الله منصوب عَلى الفعل ، كقوله ﴿ صِبْغَةَ اللهِ ﴾ . وقوله ﴿ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ يقول: المولود عَلى الفِطرة حتى يكُون أبواهُ اللذان ينصّرانه أو يُهوّدانِه . ويقال فطرة الله أن الله فطر العِبَاد على هَذا : على أنْ يعرفُوا أَنّ لهم ربّاً ومدبّراً .

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

وقوله: ﴿ مُنِيبِينَ . . . ﴾

منصوبة عَلى الفعل ، وإن شئت على القطع .

فأَقِمْ وجهك ومن مَعَك مُنيبينَ مقبلين إليه .

(47/600)

وقوله: ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَارَقُواْ دِينَهُمْ ﴾ فهذا وجهٌ . وإن شئت استأنفت فقلت: ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَارَقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ . كأنكَ قلت: الذينَ تفرقوا وتشايَعُوا كلُّ حِزْبٍ بما فى يده فرِح.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً . . . ﴾

كتاباً فهو يأمرهم بعبادة الأصنام وشِرْكهم .

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لِّيَرْبُوَ . . . ﴾

قرأهَا عاصم والأعمش ويحيَى بن وَثَّاب باليَاء ونصْب الواو . وقرأها أهل الحجاز ﴿لِتُرْبُوَ﴾ أنتم . وكلّ صواب ومن قرأ ﴿ليَرْبوَ﴾ كان الفِعل للربا . ومن قال ﴿لتُرْبُوا﴾ فالفعْل للقوم الذين خُوطبُوا . دَلّ عَلى نصبه سُقوطُ النُّون . ومعناه يقول: وما أعطيتم من شيء لتأخذوا أكثر منْهُ فَلَيسَ ذلكَ بزاكٍ عند الله ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ﴾ بهَا ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ فتلك تَرْبو للتضعيف .

وقوله: ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أهل للمضاعفة ؛ كما تقول العرب أصبحتم مُسْمِنينَ مُعْطِشين إذا عطِشت إليهم أو سَمنت . وسمع الكسائيُّ العرب تقول: أصْبحتَ مُقْوياً أى إبلك قويّة ، وأصبحتَ مُضعفاً أى إبلكَ ضعاف تريد ضعيفة من الضُّعف .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ . . . ﴾

(48/600)

يقول: أجدبَ البَرُّ ، وانقطعتْ مادّةَ البحر بذنوبهم ، وكان ذلك ليُذاقوا الشدّة بذنوبهم فى العاجل .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يَصَّدَّعُونَ . . . ﴾

يتفرقون . قال: وسَمعت العرب تقول: صدَعت غنمى صِدْعتين ؛ كقولك: فرَقتها فِرقتين .

﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ . . . ﴾

قرأها عاصم والأعمش (آثَارِ) وأهل الحجاز (أَثَر) وكلّ صواب .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا . . . ﴾

يخافونَ هلاكه بعد اخضراره ، يعنى الزرع .

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ . . . ﴾

و ﴿ من ضَلَالَتِهِمْ ﴾ كلّ صَوَاب . ومن قال ﴿ عَن ضَلَالَتِهِمْ ﴾ كأنه قالَ: ما أنت بصَارفٍ العمى عن الضلالة . ومَن قال (مِنْ) قَالَ: ما أنت بمانعهم من الضلالة .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾

وقوله: ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ . . . ﴾

يَحْلفون حين يخرجُون: ما لبثوا فى قبورهم إلاَّ ساعةً. قال الله: كَذَبُوا فى هذا كما كذبوا فى الدنيا وجحدُوا . ولو كانت: ما لبثنا غير سَاعةٍ كان وجهاً ؛ لأنه من قولهم ؛ كقولكَ فى الكلام: حلفوا ما قامُوا ، وحَلفوا ما قمنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 319.326 ﴾

(49/600)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الروم

(غلبت الروم) [2] غلبتهم الفرس في زمن أنوشروان ، فأخبر الله رسوله أن الروم [ستدال] على فارس ، فغلبوا الفرس في عام الحديبية . (في أدنى الأرض) [3]

في الجزيرة ، وهي أقرب أرض الروم إلى فارس . وقيل: في أذرعات وبصرى . (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) [5] أي: الروم على فارس ، لتصديق الوعد ، أو لأن ضعف فارس قوة العرب ، ولأن فارس لم يكونوا أهل كتاب ، وروم نصارى أهل الإنجيل . (إلا بالحق) [8] إلا بالعدل . وقيل: إلا للحق ، أي: لإقامة الحق . (ثم كان عاقبة الذين أسائوا السوأى)

[10] نصب العاقبة على خبر (كان) قدمه على الاسم ، واسمه (السوأى) ، واللام مقدر في (أن كذبوا) ، والسوأى: النار هاهنا ، كما أن الحسنى الجنة ، في قوله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى) . (يجبرون) [15] يكرمون . وقيل: يسرون .

(فسبحان الله) [17] فسبحوا الله في هذه الأوقات . وإن كان "سبحان" مصدراً عقيماً ، ولكنه في معنى تسبيح الله . (ومن ءاياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً) [24] [خوفاً] من الصواعق ، وطمعاً في الغيث . وقيل: خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم . ولم يجيء "أن" في "يريكم البرق" ، لأنه عطف على: (ومن ءاياته خلق السموات) ، وكان المعطوف بمعنى المصدر /ليكون عطف اسم على اسم .

وقيل: تقديره: ويريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته ، فيكون عطف جملة على جملة . (وهو أهون عليه) [27] أي: عندكم . وقيل: أهون على المعاد من الابتداء ، لأنه ينقل في الابتداء حالاً فحالاً ، ويخلق أطواراً ، وفي الإعادة يكون بكن . وقيل: إن المراد بالأهون الهين ، قال الفرزدق: 935- إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

936- بيتاً بناه لنا الإله وما بنى ملك السماء فإنه لا ينقل .

(وله المثل الأعلى) [27] الصفة العليا . (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم) [28]

أي: لستم تجعلون عبيدكم شركاءكم ، فكيف [(تخافونهم] كخيفتكم أنفسكم) أي كخيفتكم شركاءكم –الذين ليسوا عبيداً– في المتاجر ، كقوله تعالى: ([و]لا تلمزوا أنفسكم) . (وكانوا شيعاً) [32] صاروا فرقاً . (فئات ذا القربى حقه) [38] من البر وصلة الرحم . (ظهر الفساد في البر والبحر) [41] أجدب البر وانقطعت مادة البحر . وقيل: البر مدائن البلاد ، والبحر: جزائرها . (يصدعون) [43] يتفرقون . (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله) [49] الأول: من قبل الإنزال ، والثاني: من قبل الإرسال . ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً) [51] أي: السحاب ، فإذا كان مصفراً لم يمطر . وقيل: فرأوا الزرع مصفراً . فيكون كناية عن غير مذكور ، إلا أنه في (كيف يحي الأرض) دلالة عليه .

(لقد لبثتم في كتاب [الله]) [56] علم الله . وقيل: ما بين من كتابه .

[تمت سورة الروم] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1102.1110 ﴾

(51/600)

وقال الأخفش :

سورة (الروم)

﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾

قال ﴿ الم [1] غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ أيْ: من بعد ما غُلِبُوا .

وقال بعضهم ﴿ غَلَبَتْ ﴾ و ﴿ سيُغْلَبُون ﴾ لأنهم كانوا حين جاء الاسلام غَلَبوا ثم غُلِبُوا حين كثر الاسلام .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

وقال ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ رفع لأن "قَبْلُ" و "بَعْدُ" مضمومتان ما لم تضفهما لأنهما غير متمكنتين فاذا أضفتهما تمكنتا .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ السُّوءَى أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

وقال ﴿ أَسَاءُواْ السُّوأَى ﴾ فـ"السُّوأَى" مصدرها هنا مثل "التَقْوَى" .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[وقال]* ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ فلم يذكر فيها ﴿ أَنْ ﴾ لأن هذا يدل على المعنى . وقال الشاعر: [مِن الطويل وهو الشاهد السابع بعد المئة]:

ألا أيُّهذا الزاجِرِي أحْضِرِ الوغى * وأنْ أشْهَدَ اللَذَّاتِ هَلْ أنْتَ مُخْلِدِي

اراد: أنْ إحْضرَ الوَغى .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

وقال [159] ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ فنصبها على الفعل كأنه قال "فَطَرَ اللهُ تِلْكَ فِطْرَةً" .

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(52/600)

وقال ﴿ مُنِيبِينَ ﴾ على الحال لأنه حين قال ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ [30] قد أمره وأمر قومه حتى كأنه قال "فَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ مُنِيبِينَ" .

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

وقال ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ فمعناه – والله أعلم – فعلوا ذلك لِيَكْفُرُوا . وانما اقبل عليهم فقال "تَمَتَّعُوا" ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقال بعضهم ﴿ فَتَمَتَّعُوا فسوف يَعْلَمونَ ﴾ كأنه "فَقَدْ تَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾

وقال ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فقوله ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هو الجواب لأن "إذا" معلقة بالكلام الأول بمنزلة الفاء .

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾

وقال ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ فرد ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ على التوكيد نحو ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 474.476 ﴾

(53/600)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الروم

مكية كلها

1 - ، 2 - الم. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ «1» مفسر في كتاب «تأويل مشكل القرآن» .

9 - وَأَثارُوا الْأَرْضَ أي قلبوها للزراعة . ويقال للبقرة : المثيرة ، قال اللّه تعالى : إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ [سورة البقرة آية : 71] .

10 - ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى وهي : جهنم «2» و«الحسني» الجنّة ، في قوله

: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى [سورة يونس آية :

26 - أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ أي كانت عاقبتهم جهنم ، بأن كذّبوا بآيات اللّه .

15 - فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ أي يسرّون . و«الحبرة» : :

السّرور . ومنه يقال : «كل حبرة ، تتبعها عبرة» .

---

(1) أخرج الترمذي عن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فاعجب

ذلك المؤمنون فنزلت : الم . غُلِبَتِ الرُّومُ إلى قوله : بِنَصْرِ اللَّهِ يعني بفتح العين .

(2) قال ابن عباس وقتادة ، السوأى : العقوبة التي هو أسوأ العقوبات وهي نار جهنم .

(54/600)

---

18 - وَحِينَ تُظْهِرُونَ أي تدخلون في الظّهيرة ، وهو وقت الزّوال .

26 - كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ أي مقرّون بالعبوديّة .

27 - وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ قال ابو عبيدة : «وهو هين عليه ، كما يقال : اللّه أكبر ، أي كبير .

وأنت أوحد ، أي واحد الناس . وإني لأوجل ، أي وجل . وقال أوس بن حجر :

وقد أعتب أبن العمّ إن كنت ظالما وأغفر عنه الجهل إن كان أجهلا

«أي أن كان جاهلا» .

وفي تفسير أبي صالح : وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أي على المخلوق . لأنه يقال له يوم القيامة : كن ، فيكون . وأول خلقه نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة» .

28 - ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ مفسر في كتاب «تأويل المشكل» .

30 - فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها أي خلقة اللّه التي خلق الناس عليها ، وهي : أن فطرهم جميعا على أن يعلموا ان لهم خالقا ومدبّرا «1» . لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ أي لا تغيير لما فطرهم عليه من ذلك . ثم قال عز من قائل : ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ .

31 - مُنِيبِينَ إِلَيْهِ أي مقبلين إليه بالطاعة . ويقال : أناب ينيب ، إذا رجع عن باطل كان عليه .

35 - أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً ؟ أي عذرا . ويقال : كتابا .

---

(1) فسر الطبري الفطرة بمعنى الصنعة وقال غيره من المفسرين : أي خلقه اللّه التي خلق الناس عليها وهي فطرة التوحيد التي خلقهم اللّه عليها

كما في الحديث الصحيح : «كل مولو يولد على الفطرة» .

ويقال : برهانا . فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ : فهو يدلّهم على الشرك . وهو مجاز .

36 – وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً أي نعمة «1» .

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أي مصيبة .

39 – وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ أي ليزيدكم مم اموال الناس ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ . قال ابن عباس : «هو الرجل يهدي الشيء ، يريد أن يثاب أفضل منه . فذلك الذي لا يربو عند اللّه» .

وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ أي من صدقة ، تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ أي الذين يجدون التضعيف والزيادة «2» .

41 – ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أي أجدب البرّ ، وانقطعت مادّة البحر بذنوب الناس .

44 – فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ أي يعملون ويوطّئون . و«المهاد» :

الفراش .

48 – فَتَرَى الْوَدْقَ أي المطر ، يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ أي من بين السحاب «3» .

49 – لَمُبْلِسِينَ أي يائسين . يقال : أبلس ، إذا يئس .

50 – فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ يعني : آثار المطر «4» .

---

(1) فسر الطبري الرحمة : بالخصب والرخاء .

(2) نبه اللّه تعالى أن أن الصدقة يتضاعف أجرها وأن الربا يمحقه اللّه كما قال تعالى :

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ .

(3) قال أيضا الطبري .

(4) الخطاب هنا للّه إلى أن ينظر آثار الغيث الذي أنزله اللّه كيف يحي الأرض الميتة ويعشبها . قاله الطبري .

(56/600)

---

54 - خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ أي من مني .

55 - ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ يحلفون - إذا خرجوا من قبورهم - : أنهم ما لبثوا فيها غير ساعة . كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ في الدنيا . أي كذبوا في هذا الوقت ، كما كانوا يكذبون من قبل . ويقال : أفك الرجل ، إذا عدل به عن الصدق ، وعن الخير . وأرض مأفوكة ، أي محرومة المطر .

56 - وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ أي لبثتم في القبور - في خبر الكتاب - إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 293.290 ﴾

(57/600)

وقال الغزنوى :

ومن سورة الروم

2 غُلِبَتِ الرُّومُ : غلبتهم الفرس في زمن «أنو شروان» «1» ، فأخبر اللّه رسوله أنّ الروم ستدال «2» على فارس فغلبوهم عام الحديبية «3» .

3 فِي أَدْنَى الْأَرْضِ : في الجزيرة «4» ، وهي أقرب أرض الروم إلى فارس .

4 ، 5 وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ : الروم على فارس لتصديق الوعد .

أو لأنّ ضعف فارس قوة العرب»

.

7 يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا : أي : عمرانها «6» ، متى يزرعون

---

(1) ذكر السهيلي في التعريف والإعلام : 134 أن كسرى الفرس حين غلبوا الروم كان أبرويز بن هرمز بن أنو شروان .

وذكر الطبري في تاريخه : 2/ 154 أن مولد النبي صلى اللّه عليه وسلم كان في عهد أنو شروان ، وأنه مات وعمر النبي صلى اللّه عليه وسلم ست سنوات .

وانظر أخباره في تاريخ الطبري : (2/ 98 ، 154 ، 172) ، والمعارف لابن قتيبة :

.663

(2) في «ك» : «ستبدل» ، وفي «ج» : «يدال» .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 256 ، وانظر زاد المسير : 6/ 289 ، وتفسير القرطبي :

.4/14

(4) الجزيرة : موضع بين العراق والشام ، ويطلق على البلاد العليا التي ما بين النهرين الجزيرة .

معجم ما استعجم : 2/ 381 ، ومعجم البلدان ، 2/ 134 ، وبلدان الخلافة الشرقية : 40 .

(5) عن تفسير الماوردي : 3/ 257 ، وانظر تفسير الطبري : 21/ 17 ، وتفسير البغوي :

(3/ 475 ، 476) .

(6) أخرج عبد الرزاق نحو هذا القول في تفسيره : 2/ 102 عن قتادة .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 21/ 22 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 484 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

ويحصدون ، وكيف يبنون ، ومن أين يعيشون .

8 إِلَّا بِالْحَقِّ : إلّا بالعدل ، أو إلّا للحق ، أي : لإقامة الحق «1» .

10 السُّواى : أي : النّار «2» .

15 يُحْبَرُونَ : يسرّون «3» . والحبرة كل نعمة حسنة «4» .

17 فَسُبْحانَ اللَّهِ : سبحوا اللّه في هذه الأوقات ، وهو مصدر عقيم بمعنى تسبيح اللّه وتنزيهه .

21 مِنْ أَنْفُسِكُمْ : من شكل أنفسكم .

لِتَسْكُنُوا إِلَيْها : سكون أنس إذا كانت من جنسها .

24 وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ : تقديره : ومن آياته البرق يريكم ، أو آية يريكم البرق فيها «5» .

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 178 ، وانظر تفسير الطبري : 21/ 24 ، وتفسير الماوردي :

3/ 258 ، وتفسير البغوي : 3/ 478 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 25 عن قتادة ، وذكره الفراء في معانيه : 2/ 322 .

وانظر هذا القول في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 340 ، ومعاني الزجاج : 4/ 179 ، وتفسير القرطبي : 14/ 10 .

(3) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 120 ، وغريب القرآن لليزيدي : 297 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 340 ، وتفسير الطبري : 21/ 27 .

(4) هذا قول الزجاج في معانيه : 4/ 180 ، وانظر المحرر الوجيز : 11/ 436 ، وزاد المسير :

6/ 293 ، واللسان : 4/ 158 (حبر) .

(5) جاء في وضح البرهان : (2/ 166 ، 167) : «ولم يجيء «أن» في يُرِيكُمُ الْبَرْقَ لأنه عطف على وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ فكان المعطوف بمعنى المصدر ، ليكون عطف اسم على اسم . وقيل : تقديره : ويريكم البرق خوفا وطمعا من آياته ، فيكون عطف جملة على جملة» اه .

وانظر تفسير الطبري : 21/ 33 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 182 ، والبيان لابن الأنباري :

2/ 250 .

خَوْفاً : للمسافر ، وَطَمَعاً : للمقيم «1» .

أو خَوْفاً : من الصّواعق ، وَطَمَعاً : في الغيث «2» .

25 إِذا دَعاكُمْ : أخرجكم بما هو بمنزلة الدعاء «3» .

27 وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ : أي : عندكم «4» ، أو أهون على المعاد لأنّه في الابتداء ينقل حالا فحالا «5» .

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى : الصفة العليا ، أي : إذا كان من بنى بناء يهون «6» عليه إعادته مع نقصه فمن لا يلحقه النقص والعجز أحق بالإعادة لما خلق .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 32 عن قتادة ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 263 عن قتادة .

وكذا ابن عطية في المحرر الوجيز : 11/ 444 ، والقرطبي في تفسيره : 14/ 18 .

وعقب عليه ابن عطية بقوله : «ولا وجه لهذا التخصيص ونحوه ، بل الخوف والطمع لكل بشر» . [. . . . .]

(2) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 263 عن الضحاك ، وكذا ابن عطية في المحرر الوجيز : 11/ 445 ، والقرطبي : 14/ 18 .

(3) عن تفسير الماوردي : 3/ 263 ، واللفظ هناك : «أنه أخرجه بما هو بمنزلة الدعاء ، وبمنزلة قوله : كُنْ فَيَكُونُ . قاله ابن عيسى» .

(4) في تفسير البغوي : 3/ 481 : «قيل : هو أهون عليه عندكم» ، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز : 11/ 450 عن الحسن ، ثم قال : «وقال بعضهم : وهو أهون على المخلوق أن يعيد شيئًا بعد إنشائه ، فهذا عرف المخلوقين ، فكيف تنكرون أنتم الإعادة في جانب الخالق ؟» .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 264 ، وقال : «وهذا مروي عن ابن عباس» ، وأورده البغوي في تفسيره : 3/ 481 ، وقال : «وهذا معنى رواية ابن حيان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس» .

قال ابن عطية – رحمه اللّه – في المحرر الوجيز : (11/ 450 ، 451) : «والأظهر عندي عود الضمير على اللّه تعالى ، ويؤيده قوله : وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى ، لما جاء بلفظ فيه استعارة واستشهاد بالمخلوق على الخالق ، وتشبيه بما يعهده الناس من أنفسهم ، خلص جانب العظمة بأن جعل له المثل الذي لا يصل إليه تكييف .

(6) في «ج» : «فيهون» .

28 ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ : أي : لستم تجعلون عبيدكم شركاءكم فكيف «1» ؟ .

كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ : معناه أن للسيد سلطانا على عبده/ وليس للعبد ذلك عليه ، فلا يجوز «2» أن يستويا في الخوف إذا أجريت الأمور على حقها ، وأنتم قد جعلتم الخيفة من العبد كالخيفة من مالك العبد إذ عبدتموه كعبادته «3» .

32 وَكانُوا شِيَعاً : صاروا فرقا .

38 فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ : من البرّ وصلة الرحم .

41 ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ : أجدب البر وانقطعت مادة البحر «4» .

وقيل «5» : البرّ مدائن البلاد والبحر جزائرها .

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا : أي : جزاءه ، أقيم السبب مكان المسبّب «6» .

43 فَأَقِمْ وَجْهَكَ : قصدك ، أو اجعل وجهتك للدين القيّم «7» .

يَصَّدَّعُونَ : يتفرقون «8» ، فريق إلى الجنّة وفريق إلى النار .

---

(1) على حذف المستفهم عنه لدلالة ما قبله عليه .

(2) في «ك» : «فلا يجب» ، وأشار إليه ناسخ الأصل في الهامش .

(3) ينظر ما سبق في تفسير الطبري : 21/ 39 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 184 ، وزاد المسير : 6/ 299 .

(4) هذا قول الفراء في معانيه : 2/ 325 .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 269 عن الضحاك . ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز :

11/ 465 عن الحسن أنه قال : «البر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة» .

قال ابن عطية : «و هذا القول صحيح» ، وانظر تفسير القرطبي : 14/ 40 .

(6) البحر المحيط : 7/ 176 .

(7) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 188 ، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز : 11/ 466 ، ونقله القرطبي في تفسيره : 14/ 42 عن الزجاج .

(8) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 325 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 123 ، وتفسير الطبري :

21/ 51 ، والمفردات للراغب : 276 ، والبحر المحيط : 7/ 176 .

49 وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ : الأول من قبل الإنزال ، والثاني من قبل الإرسال «1» .

50 آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ : آثار المطر الذي هو رحمة .

51 وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا : أي : السّحاب ، وإذا كان مصفرا لم يمطر «2» ، ولام لَئِنْ للقسم ، ولام لَظَلُّوا جواب القسم «3» .

55 ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ : أي : من حين انقطاع عذاب القبر .

56 لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ : في علم اللّه «4» ، أو ما بيّن في كتابه «5» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 653. 657 ﴾

---

(1) نقله الزجاج في معانيه : 4/ 189 عن قطرب .

وانظر هذا القول في تفسير البغوي : 3/ 487 ، وزاد المسير : 6/ 309 ، وتفسير القرطبي :

14/ 44 . [. . . . .]

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 271 ، وقال : «حكاه علي بن عيسى» ، ونقله أبو حيان في البحر المحيط : 7/ 179 عن ابن عيسى ، وضعفه . ثم قال : «والضمير في

(فرأوه) عائد على ما يفهم من سياق الكلام ، وهو النبات ، وقيل إلى الأثر ، لأن الرحمة هي الغيث وأثرها هو النبات» اه .

وانظر تفسير القرطبي : 14/ 45 .

(3) البحر المحيط : (7/ 179 ، 180) .

(4) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 192 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 273 عن الفراء ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 312 .

(5) تفسير الماوردي : 3/ 273 عن ابن عيسى .

(62/600)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الروم

عدد 34 - 84 - 30

نزلت بمكة بعد الانشقاق عدا الآية 17 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي ستون آية وثمنمئة وتسع عشرة كلمة ، وثلاث آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفا .

ومثلها في عدد الآي سورة الذاريات المارة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الم" تقدم ما فيه أول الأعراف ج 1 وما بعدها مما بدئت به من السور فراجعها ففيها كفاية "غُلِبَتِ الرُّومُ" 2 قبيلة روم بن يونان بن علجان بن يافث بن نوح عليه السلام "فِي أَدْنَى الْأَرْضِ" أرض العرب ، لأن أل فيها للعهد والمعهود في الخطاب أرض العرب ، لأن أرض الروم التي وقع فيها الغلب قريبة منها ولأنهم هم المخاطبون في هذا القرآن .

وقد تواقفت الروم مع الفرس ، وكانت الفرس متوافقة مع المشركين على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فغلبت فارس الروم وقهرتها "وَهُمْ" الروم المغلوبون "مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ" هذا "سَيَغْلِبُونَ" 3 الفرس .

ولا وقف هنا بل يقرأ متصلا بما بعده إذ لا يحسن الوقف عليه .

وسيكون غلب الروم للفرس "فِي بِضْعِ سِنِينَ" 4

آتية ما بين الثلاث والتسع "لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ" هذا الغلب "وَمِنْ بَعْدُ" .

(63/600)

وقد حذف المضاف هنا ونوى معناه ، ولذلك بني الظرفان على الضمّ أي من قبل الغلب ومن بعده يكون الأمر للّه وحده كما هو في سائر الأوقات ، إذ لا يكون شيء إلا بقضائه

وقدره وإرادته "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ" يقرأ متصلا "بِنَصْرِ اللَّهِ" الروم على الفرس ، لأنهم أهل كتاب ، كما يفرح المشركون بنصر الفرس لأنهم مشركون مثلهم "يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" 5 وأعلم يا أكمل الرسل أن هذا الوعد بنصر الروم على الفرس "وَعْدَ اللَّهِ" حق واقع لا مرية فيه أبدا "لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ" البتة ، كيف وهو الآمر بالوفاء به ، وقوله الحق ، وبيده الأمر "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" 6 ذلك لفرط جهلهم بشئون اللّه عز وجل وعدم تذكرهم بما يجب عليهم وما يستحيل على اللّه .

وفي لفظ أكثرهم دليل على أن الأقل يعلمون ذلك .

واعلم أن الكفرة "يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا" أي أن علمهم مقصور على ما يتعلق بمعاشهم وصنايعهم ومنافعهم ومضارهم وشهواتهم ، ولا يعلمون لما ذا خلقوا ولا يتفكرون بحالهم ومصيرهم ومرجع ما خلق لهم ، ولما ذا خلق ، لأن هذا كله من أمور الآخرة .

ويأتي ظاهر بمعنى زائل قال الهذلي :

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

مطلب قد يكون العاقل أبله في بعض الأمور ، وغلب الروم الفرس :

وعليه يكون المعنى يعلمون ما هو زائل فان ، ولا يعلمون ما هو دائم باق والفاعل يعود على اكثر ، ومن هذا القسم أن مخترع القوة الجاذبية حيث كانت قطّة تشغله بذهابها وإيابها من فتح الباب لها وغلقه ، ففتح لها نفقا تحت الباب ، فصارت تخرج وتدخل منه دون كلفة ،

واستراح منها ، ثم أنها ولدت ولم ينتبه أن ذلك النفق كان لها ولأولادها فعمد وفتح لكل نفقا ، مما يدل على أن الذكي البارع في شيء قد يكون أبله في غيره .

(64/600)

وكذلك مخترع الخطوط الكهربائية أعطته خادمته بيضة كي يسلقها وقالت له أبقها على النار خمس دقائق ، فأخرج الساعة ووضعها بالدلة وأمسك البيضة بيده ، فقالت له للآن وأنت واضع البيضة على النار ؟ ! فقال لها

لم تمض الخمس دقائق بعد ، فنظرت وإذ البيضة بيده والساعة في الدلة ، فعكست الأمر .

فالذي يكون عن هذه الأمور التافهة غافلا فمن باب أولى أن يكون المشغول بالدنيا أغفل بكثير عن أمور الآخرة لا سيما وأن منها ما هو غير معقول ، كما يدل عليه قوله "وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ" 7 ساهون لا هون بالدنيا لا ينظرون إلى ما يتعلق بها ، ولا يصرفون حواسهم لما خلقت لها ، لأن اللّه تعالى طبع عليها وسلبهم منافعها فصدّت عقولهم عن النظر إليها ، أجارنا اللّه من ذلك .

وسبب نزول هذه الآية أن كسرى بعث جيشا على رأسه شهربان ليقاتل جيش الروم الذي على رأسه مخيلن ، فغلبه بأذرعات وبصرى وهما أقرب أرض للشام إلى أرض العرب ،

فشق ذلك على المسلمين لأنهم أهل كتاب ويودونهم ، وفرح المشركون لأنهم كفرة مثلهم ويحبونهم ، فقال المشركون للمسلمين إن قاتلتمونا فسوف نغلبكم أيضا لأن إخواننا غلبوا إخوانكم .

(65/600)

قالوا وبعد نزولها قال أبو بكر للمشركين لا تفرحوا فإن الروم ستغلب فارسا في الحرب القابلة إذ أخبرنا الصادق المصدوق سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم بذلك عن ربه عز وجل ، وإخباره واقع لا محالة ، فقال له أبي بن خلف اجعل بيننا أجلا نناصبك ، أي نراهنك عليه ، فجعل الأجل ثلاث سنين ، وتراهنا على عشر قلاص ، وأخبر أبو بكر حضرة الرسول ، وكان القمار لم يحرم بعد ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده بالخطمة ومادده في الأجل ، فلقي أبو بكر أبيا فقال له تعال أزايدك في الخطر وأماددك في الأجل ، فاتفقا على مئة قلوص إلى تسع سنين من شهر كذا من عام كذا ، وإنما فعل هذا أبو بكر لأنه جازم بأن اللّه تعالى لا بدّ وأن يصدق رسوله بما أخبر به لقوة إيمانه ، وإلا لو لم يرد اللّه ذلك لما ألقى في قلبه الموافقة على تمديد الأجل بعد أن اتفقا على غيره .

ولما شاع بين الناس أن أبا بكر يريد الهجرة من مكة بسبب الضيق الذي وقع على المسلمين عامة في أذى قريش ، أتاه أبيّ وقال له أعطني كفيلا بالحظر إذا أنت نزلت مكة فكفله ابنه عبد اللّه ، وبعد الهجرة أراد أبي أن يذهب مع المشركين للاشتراك في واقعة أحد الكائنة في السنة الثالثة من الهجرة ، فجاءه عبد اللّه بن أبي بكر وطلب منه كفيلا بالحظر إذا هو مات أو قتل ، فأعطاه كفيلا ، ثم انه تلاقى مع

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في حرب أحد وضربه الرسول فجرحه جرحا بليغا مات منه بعد رجوعه إلى مكة ، ثم ظهرت الروم على فارس بعد وقعة الحديبية على رأس سبع سنين من تاريخ المراهنة ، إذ وقعت في السنة الثالثة عشرة من البعثة التي وقعت فيها الهجرة ، وهو تاريخ نزول هذه السورة ، فقد هاجر صلّى اللّه عليه وسلم بعدها بقليل إذ لم ينزل عليه بعدها إلا العنكبوت والمطففين ، وختم الوحي المكي بهما ، وذلك بعد عقد المعاهدة بين شهرمان وقيصر ، وقد ضمنا المعاهدة شروطا لم يحبا أن يطلع عليها خاصتهم فضلا عن عامتهم ، لأنها تتعلق بمصالح الدولتين ، وإذ كانت بحضور ترجمانه ، وخافا أن يذيع شيئا منها وكل منهما حريص على كتمانها ، فقال شهريان لقيصر السريين

اثنين فإذا جاوزهما فشا ، فقتلا الترجمان لئلا يفشي شيء من خبر تلك المعاهدة باتفاق الطرفين ، ومنذ ذلك التاريخ صار مثلا : كل سر جاوز الاثنين شاع .

وجعلوا لهذه الشطرة صدرا : كل علم ليس في القرطاس ضاع .

فقمر أبو بكر أبيا وأخذ الحظر كله من ورثته ، وأمره الرسول بالتصدق به ففعل .

وهذه من الآيات البينات الدالات على صدقه صلّى اللّه عليه وسلم التي اعترف بها المشركون أنفسهم وهي من الإخبار بالغيب .

والحكم الشرعي في هذا هو جواز المقامرة والربا والعقود الفاسدة في دار الحرب بين المسلمين والكفار على مذهب أبي حنيفة وصاحبه محمد ، ولم يجوزه الآخرون .

أما هذه المقامرة فقد وقعت قبل تحريم القمار وكان جائزا متعارفا بينهم ، إلا أنه لما كانت التأدية بعد تحريمه وكانت العبرة بالابتداء لأن الأصل إبقاء ما كان على ما كان أخذه أبو بكر ، ولو كان أخذه حراما لما أمره بالتصدق به ، لأن التصدق بالحرام حرام حتى قيل إن من تصدق بالحرام طلبا للأجر يكفر .

وإنما أمره بالتصدق به نورعا ، ولئلا يقول المشركون أخذه أبو بكر مع قول صاحبه بحرمته أو لحاجة فيه .

قال تعالى "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ" التي هي أقرب شيء منهم وما أودعها اللّه من غرائب الأشياء وبدايع الحكم فيها ظاهرا وباطنا وانها لا بد لها من الانتهاء ليعلموا أن أمر سائر الخلائق جرى على الحكمة الخارقة لا بد لها من الانتهاء بالأجل الذي قدّره لها مبدعها وليتحققوا أن "ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى" تفنى عند بلوغه "وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ"

8 جاحدون البعث بعد الموت "أَوَلَمْ يَسِيرُوا" هؤلاء الجاحدون "فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" من الهلاك والدمار فيعتبروا في كيفية إهلاكهم وسببه مع أنهم "كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً" لأن الأمم الماضية أكبر أجساما وأقوى جوارح، وأصبر جنانا على الشدة من كفار قريش، لأن آثارهم تدل على ذلك "وَأَثارُوا الْأَرْضَ" حرثوها للزراعة وإخراج المعادن منها "وَعَمَرُوها" بالبناء الضخم والجنان والأنهار والسبل "أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها" أهل مكة وغيرهم وحتى الآن لم يبلغ أهل هذا القرن الذي جاء بالبدائع من الكهرباء واللاسلكي والسيارات والطائرات والمدمرات وغيرها مما لم يتصوره العقل قبلا، وما وجد من ضخامة الأبنية وقوتها وهندستها، مما يدل على رقيهم في هذا الفن وغيره من الأمور الدنيوية، كيف وقد وصفهم اللّه تعالى بأنهم يعلمون ظاهرها وهذا كله من الظاهر.

واعلم أن عمارة هؤلاء للأرض كانت بعد عمارة الجنّ ، لأنهم تقدموا عليهم في الخلقة وفي سكنى الأرض ، والدليل على مهارتهم في البناء والصنائع ما ذكره اللّه تعالى عن عملهم لسيدنا سليمان المحاريب والتماثيل والبنايات والأواني العظام وغيرها ، راجع الآية 84 من سورة الأنبياء والآية 25 من سورة سبأ المارقين ، والآية 44 من سورة النمل في ج 1 ، "وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ" ولم يؤمنوا فأعلكهم اللّه "فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ" بذلك الإهلاك "وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" 9 لعدم تصديقهم الرسل ولإصرارهم على الكفر "ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى " بالرفع اسم كان مؤخر على قراءة من نصب عاقبة وجعلها خبرها مقدما ، وبالنصب على أنها خبرها على قراءة من رفع عاقبة على أنها اسمها ، وتطلق السوءى على أسوإ العقوبات ، وقيل هي أحد أسماء النار ، أي أن جزاء المسيئين أسوأ الجزاء وهو النار التي هي أسوأ من كل سوء ، وما ندري لعل ما عند اللّه ما هو أسوا وأسوا وإنما كانت تلك للعاقبة المشئومة عاقبتهم "أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ" 10 فعاقبهم بأسوء العقوبات

"اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ" جليله وحقيره فينشئه شيئا فشيئا ، ثم يميته بعد انقضاء أجله "ثُمَّ

يُعِيدُهُ" حيا كما بدأه "ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"

11 بعد الحياة الثانية للحساب والجزاء على ما وقع منكم في حياتكم الدنيا "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ" ييأس ويتحير "الْمُجْرِمُونَ" 12 إذ تنقطع حجتهم فيسكتون .

(69/600)

والإبلاس الحزن المفرط لشدة اليأس ، ومنه اشتق إبليس ، يقال أبلس إذا يأس من كل خير يريده وإذا تحير في كل أمره وسكت وانقطعت حجته ، وأبلست الناقة إذا لم ترع من شدة الضيعة أي كثرة اشتياقها للفحل ، وإنما يبلسون في الآخرة لظهور خطأهم وخيبتهم مما كانوا يأملونه من شفاعة أوثانهم ، قال تعالى "وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ" الدين اختصوا بهم في الدنيا وأصنامهم التي عبدوها من دون اللّه "شُفَعَاءُ" يشفعون لهم كما كانوا يغرونهم ويزعمون صدقهم "وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ" 13 إذ تنبرأ منهم ويتبرءون منها وكان كفرهم بالدنيا بسببها .

وهذا مما أوجب حيرتهم ودهشتهم حتى أبلسوا "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ" 14 أهل الجنة وأهل النار بعد الفصل بينهم ، إذ يقول اللّه تعالى (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) الآية 59 من سورة يس في ج 1 ، أي انفصلوا عن المؤمنين فينفصلوا حالا بحيث لا يبقى

مجرم بين المؤمنين ، ولا مؤمن بين المجرمين بمجرد هذا الأمر "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ" 15 يسرون فيها سرورا عظيما .

يقال حبره إذا أسره سرورا تهلل منه له وجهه بالبشر وظهر فيه أثره "وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا" المنزلة على أنبيائنا "وَلِقاءِ الْآخِرَةِ" وأنكروا البعث بعد الموت "فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ" 16 لا يغيبون عنه أبدا أما المؤمنون العصاة فقد أشار اللّه إليهم في آيات أخر لأنهم لم يدخلوا في هذين الفريقين أما عدم دخولهم مع المؤمنين إذ قرن إيمانهم بالعمل الصالح وهم ليسوا من أهله ، وأما مع الكافرين فلأنهم لم يكذبوا آيات اللّه ورسله ولم ينكروا البعث ، وإنما هم جماعة قصروا عن أعمال الخير وفرطوا باتباع الأهواء فلهم جزاء غير هذا بنسبة كسبهم .

وهذه الآية المدنية في هذه السورة .

(70/600)

مطلب مآخذ الصلوات الخمس وفضل التسبيح ودلائل القدرة على البعث :

قال تعالى "فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ" أي سبحوا اللّه أيها الناس و نزهوه في هذا الوقت ، ويدخل فيه صلاة المغرب والعشاء المشتملان على التسبيح "وَحِينَ تُصْبِحُونَ" 17

عظموه أيضا ويدخل فيه صلاة الصبح "وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" في هذه الأوقات وغيرها إذ يسبحه فيها من خلقه من نعرف ومن لا نعرف وما لا نعرف ويحمده أيضا ، قال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) الآية 44 من الإسراء في ج 1 ، "وَعَشِيًّا" يدخل فيه صلاة العصر "وَحِينَ تُظْهِرُونَ" 18 فيدخل فيه صلاة الظهر ، انتهت الآية المدنية التي هي آيتان بمثابة ثلاث آيات من حيث العدد .

قال ابن الأزرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال نعم وقرأها أعني هذه الآية ، ونظيرها الآية 130 من سورة طه في ج 1 ، والآية 78 من سورة الإسراء أيضا .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان اللّه وبحمده سبحان اللّه العظيم .

وروى مسلم عن سعيد بن أبي وقاص قال : كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ؟ فسأله سائل من جلسائة قال كيف يكتب الف حسنة ؟ قال يسبح اللّه مئة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ، ويحط عنه ألف خطيئة ، وذلك أن كل حسنة تمحو خطيئة .

وروى مسلم عن جورية بنت الحارث زوج النبي صلّى اللّه عليه وسلم ورضي اللّه عنها أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم خرج ذات غداة من عندها وهي في مسجدها فرجع بعد ما تعال النهار ، فقال ما زلت في مجلسك هذا مذ خرجت بعد ؟ قالت نعم ، فقال لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بكلماتك (أي التي قلتهن في تلك المدة كلها) لوزنتهن : سبحان اللّه وبحمده عدد خلقة ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : من قال سبحان اللّه وبحمده في كل يوم مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر .

وأخرج عنه أيضا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان اللّه وبحمده مئة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاده .

وقال فيهما حديث حسن صحيح .

قال تعالى "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" راجع تفسيرها في الآية 96 من الأنعام المارة ، وله صلة في

الآية 28 من آل عمران في ج 3 إن شاء اللّه "وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها" بالمطر "وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ" 19 من قبوركم أحياء مثل خروج النبات من الأرض الميتة .

ثم شرع يبين بعض دلائل قدرته على البعث بعد الموت ليتعظ منكروه فقال "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ" أي أصلكم آدم عليه السلام "مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ" أيها الناس من ذلك الأصل الواحد "بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ" 20 في الأرض فتلأونها كثرة

(72/600)

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ" من جنسها "أَزْوَاجاً" مثلكم "لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا" وهنّ من أعظم النعم عليكم فلو جعلتهن من غير جنسكم لما حصلت الألفة ولما اطمأن الزوج لزوجته "وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً" من غير سابق معرفة ولا قرابة ، ولولا التجانس لما حصلت تلك المودة والرحمة ، ولا يوجد سبب لهذا التعاطف والمودة المفرطة إلا الزوجية المتجانسة ، وهذا يطلب في الزوجية التجانس في البيئة أيضا ليتوافقا بالأخلاق والعوائد والآداب لأنها مع هذه تكون أكثر ألفة ومحبة ممن يتخالفان في الطبائع إذ يحتاج إلى التطبع (عند الاختلاف) بغير ما اعتاد عليه الآخر ، وقل أن يمكن تغيير الطبع ، وقلّ من يقدر على الصبر عند خلافه ، وقد أمرت الشريعة بالتكافؤ ، ولهذه الغاية ترى حوادث الطلاق كثيرة ، فلو تقيد الناس بالتكافؤ لما رأيت رجلا يترك زوجته ، وجل مصائب الناس من عدم تمسكهم بشريعتهم "إِنَّ فِي ذَلِكَ" المذكور في الآيتين "لَآيَاتٍ" عظيمات دالات على القادر

المبدع المبدئ المعيد "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" 21 فيها فيؤمنون بمنشئها "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ" في الكلام واللغات العربية والفارسية والعبرية والحبشية وغيرها كالقبطية والكردبة والبربوية والسريانية والكورية والإفرنسية والإنكليزية والروسية والألمانية والجركسية وغيرها ، مما تفرع عنها وتداخل فيها "وَأَلْوَانِكُمْ" الأبيض والأسود والأحمر والأشقر والأسمر وما بينهما من الألوان "إِنَّ فِي ذَلِكَ" الاختلاف الذي أبدعه المبدع جل جلاله لحكمة التعارف باللون واللغة والشكل والصورة والحلية ، مع أنكم من أصل واحد "لَآيَاتٍ" كافيات للإيمان بالله والاعتراف ببالغ قدرته وعظيم سلطانه ، إذ لو اتفقت الأصوات والصور

(73/600)

لوقع اليأس بين الناس ، فسبحان من أحسن كل شيء خلقه وجعل ما خلق عبرة وعظة "لِلْعَالِمِينَ" 22 بكسر اللام لأنهم أهل التدبر والتفكر بآيات الله ، قال تعالى (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) الآية 44 من العنكبوت الآتية ، وقرىء بفتح اللام أي أن تلك الآيات واضحات لا تخفى على أحد ، والأولى أولى ، ولفظ العالمين بالفتح يدخل فيه من يعقل ومن لا يعقل ،

فالذي لا يعقل لا ترد عليه الآيات ولا يعقلها ، لأن من العالم من هو دون البهائم فلا يعقل ولا يفقه أيضا ، لذلك فإن القراءة بكسر اللام أحسن .

(74/600)

قال تعالى "وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ" في طلب الرزق وهذه الآية تشير إلى أن النوم كما يكون ليلا يكون نهارا وكذلك السعي يكون فيهما ، وإن تخصيص أحدهما للنوم والآخر لطلب المعاش لا يمنع من استعمالهما معا في ذلك ، وهو من أجل النعم على الخلق ، ولا نعمة من نعم اللّه إلا وهي جليلة ، ولكن منها ما هو أجل "إِنَّ فِي ذَلِكَ" التقسيم وجعل كل من الليل والنهار صالحين للاستراحة والعمل والعبادة ، إذ يخلف أحدهما الآخر عند الحاجة ، قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً) الآية 62 من الفرقان ج 1 ، "لَآيَاتٍ" بالغات في الدلالة على الواحد المعبود بحق "لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ" 23 سماع قبول فيعون ما يتلقونه من قبل المرشدين "وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً" بنزول الغيث وخشية مما يترقب من الصواعق والشهب "وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا" يبسها فيجعلها تهتز بالنبات وتربو بالماء "إِنَّ فِي ذَلِكَ" الإحياء بعد الإماتة للنبات "لَآيَاتٍ" دالات على إحياء البشر بعد موته "لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ" 24 قدرة اللّه ويستظهرون كمال صنعه وبالغ إبداعه في استنباط الأسباب وكيفية التكوين ، إذ لا فرق عند اللّه بين الإحياءين ، كما لا فرق عنده بين الإماتتين ، لأن القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ" تقف وتثبت وتمسك نفسها بلا عمد أو بعمد لا ترى كما مر في الآية 10 من سورة لقمان المارة وله صلة في الآية 5 من سورة الرعد في 3 "وَالْأَرْضُ" على الهواء والماء بلا مرتكز ولا

(75/600)

ما سك فهي والسماء قائمتان "بِأَمْرِهِ" لهما بقوله جل قوله كونا كذلك ، فكانتا حالا بين الكاف والنون ، دون مهلة أو تراخ ، راجع الآية 11 من سورة فصلت المارة ، "ثُمَّ" أنتم أيها الناس كذلك قائمون بأمره ، ذلك وإنه "إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ" المدفونين بها لأجل البعث بنفخة واحدة من بوق إسرافيل عليه السلام "إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ" 25 منها أحياء كحالتكم الدنيوية

كاملين غير ناقصين ، لأن اللّه تعالى يعيد للأعرج رجله ، وللأقطع يده ، وللأعور عينه ، حتى القلفة ، وهذا من قبيل إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى ، كأنه قال قيام السموات والأرض واستمساكها ، ودعاؤكم وخروجكم بأمره .

قال تعالى "وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" ملكا وعبيدا يتصرف بهم كيف يشاء "كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ" 26 منقادون مطيعون له لا لغيره ، فالذي لم يطعه فعلا يطعه بالقوة ، والذي لم يعظمه قالا يوقره حالا ، لأن المراد طاعة الإرادة لا طاعة الأمر بالعبادة "وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ" من شيء "ثُمَّ يُعِيدُهُ" كما خلقه بلا واسطة "وَهُوَ" أمر الإعادة "أَهْوَنُ عَلَيْهِ" وأيسر من الإبداء لأنه كان على غير مثال والإعادة على مثال سابق ، لهذا فإن اسم التفضيل هنا على غير بابه ، أي أن أهون بمعنى هين ، إذ لا شيء على اللّه بأهون من غيره ولا أصعب بأن يحتاج لامر آخر أكثر من الأول ، فالعظيم والأعظم والقليل والأقل عنده سواء ، لأن أمره لهما واحد لا يعز عليه شيء "وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" الذي ليس بعده مثل من الوصف العجيب الشان كالقدرة العامة والحكمة التامة والعظمة البالغة "وَهُوَ الْعَزِيزُ" الغالب على كل شيء "الْحَكِيمُ" 27 في كل شيء العليم بكل شيء .

مطلب جواز الشوكة إلا للّه ومعنى الفطرة للخلق وكل إنسان يولد عليها :

(76/600)

"ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ" في بطلان الشرك ثم بين هذا المثل بقوله "هَلْ لَكُمْ" أيها الأحرار المالكون للعبيد والإماء "مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ" من

المال والأنعام والأولاد وغيرها هذا استفهام على طريق النفي ، أي ليس لعبيدكم شركة معكم فيما رزقناكم ، وإذا كان كذلك فكيف تشركون عبيدي وخلقي معي ؟ ألا تساوون أيها الحمقاء أنفسكم

بربكم من هذه الحيثية ؟ فكما أنكم لا تشركون عبيدكم في ملكم ، فأنا لا أشرك أحدا في ملكي "فَأَنْتُمْ فِيهِ" أي الرزق الكائن لكم "سَوَاءٌ" مع عبيدكم ، كلا ، بل لكم خاصة .

وهذا استفهام إنكاري أي لستم في رزقكم وعبيدكم سواء ، إذ ليس لهم التصرف به دون أمركم ، ولا يحق لهم أن يعارضوكم في إنفاقه والتصرف فيه ، مع أنهم مثلكم في البشرية ومثلكم في الكسب وهم غير مخلوقين لكم ، فاذا علمتم هذا عرفتم خطأكم في إشراك خلقي بي فيما هو من خصائصي .

وهل "تَخافُونَهُمْ" أي العبيد بأن يشاركوكم في أموالكم ويقاسموكم فيها "كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ" أي تخافونهم أن يستبدوا بالتصرف بأموالكم بدون رأيكم مثل خيفتكم ممن هو من نوعكم ، أي كما تخافون من الأحرار الذين مثلكم إذا كانوا شركاءكم في المال أن ينفردوا به ، أو يخاف أحدكم شريكه في الميراث أن ينفرد به ، أي لا حق لهم في أموركم لا في التصرف ولا في القسمة ولا في الإرث إذا متم ، فإذا كنتم لا تخافون هذا من مماليككم ولا ترضونه لأنفسكم ، فكيف ترضون أن تكون أصنامكم التي هي من صنع أيديكم شريكة لي وتعبدونها من دوني وهي وأنتم من خلقي ، قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الآية

96 من سورة الصافات "كَذَلِكَ" مثل هذا التفصيل الواضح "نُفَصِّلُ الْآيَاتِ" ونبينها ونمثلها "لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" 28 هذه الأمثال فيتدبرونها ، ويتعظون بها ، ويعون مغزاها ، وينتبهون لمعناها .

(77/600)

ونظير هذه الآية الآية 74 من سورة النحل المارة فراجعها .

واعلم أن التمثيل لتصوير المعاني المعقولة تصويرة المحسوسة إبراز لأوابد المدركات على هيئة المأنوس ليكون غاية في الإيضاح والبيان ، وفي هذه الآية إشارة إلى صحة أصل الشركة بين الناس لافتقارهم بعضهم لبعض ، هذا ولما كان إعراضهم مستمر انتقل عن مجادلة إرشادهم إلى الحق لاستحالة قبولهم له فقال عز قوله "بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا" أنفسهم بشركهم ذلك "أَهْوَاءَهُمْ" في ضروب الإشراك "بِغَيْرِ عِلْمٍ" جاهلين ما يجب عليهم معرفته ولكن يا قوم "فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ" استفهام على طريق الإبعاد والتعجب أي لا أحد يقدر على هدايته "وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ" 29 أي أن الذين يخذلهم الله لا أحد يمنعهم منه أو يحول بينهم وبين عذابه إذا حل بهم

(78/600)

"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ" الذي أنت عليه يا سيد الرسل لا تمل عنه ولا تلتفت إلى غيره وتوجه إليه بكلك لا بوجهك فقط ، لأن هذا من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وهو ضرب من ضروب علم المعاني الذي يزيد الكلام رونقا وبهجة حال كونك "حَنِيفاً" مائلا عن كل دين يخالفه فهو دين الحق لكونه "فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها" أي خلقته في عالم الذر والرحم والدنيا ، ولهذا قال "لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" الذي خلق الناس عليه ، فلا ينبغي أن يغير أو يبدّل ، ولهذا أمر اللّه تعالى رسوله ليقتدي به أصحابه المؤمنون به بتعديل وتسوية الوجه والمراد منه الكل للإقبال على الدين والاهتمام بشأنه والمحافظة على أركانه وشروطه ، لأنه هو أصل الأديان التي جبل اللّه خلقه الطائعين على التمسك فيه ، روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، ثم قال ، قرأوا إن شئتم (فطرة اللّه) الآية ، زاد البخاري فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسنه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء (أي مستوية لم يذهب من بدنها شيء) هل تحسون بها من جدعاء ، ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا (فطرة اللّه) الآية ، والمراد بالفطرة العهد الذي أخذه اللّه على البشر حين خاطبهم بقوله (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى) الآية 172 من الأعراف في ج 1 ، فكل مولود بالعالم جار على ذلك الإقرار ، وإن عبد غير اللّه في بداية أمره فإنه يرجع إلى

عهد ربه الأزلي فيسبق عليه الكتاب فيتوب ويموت على الإيمان ، راجع الآية 104 من سورة الأنبياء المارة ، والآية 30 من الأعراف ج 1 .

(79/600)

واعلم أن لا عبرة في الإيمان الفطري في أحكام الدنيا ، بل العبرة في الإيمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل ، ألا ترى إلى قوله صلّى اللّه عليه وسلم فأبواه يهودانه إلخ ، فمع وجود الإيمان الفطري محكوم له بحكم أبويه الكافرين ، وهذا معنى قوله صلّى اللّه عليه وسلم في الحديث القدسي : يقول اللّه تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم .

أي حولتهم عنه ، على أنهم لو تركوا وشأنهم لا بد وأن يعتقوا هذا الدين الإسلامي المستحسن في العقول السليمة والأطباع المستقيمة المتهيئة لقبول الحسن ولم يعدلوا عنه ما سلموا من أفات التقليد التي ينزلون بها عن هذه الفطرة التي جبلت عليها خلقته والحجة المستقيمة إلى ما يتلقونه

ممّن يتعاهدهم ، وإلا فلا تغيير لما وضعه اللّه "ذِلكَ" الدين القويم والفطرة المستقيمة هو

"الدِّينُ الْقَيِّمُ" البالغ مستوى العدالة "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" 30 حقيقته فيزيغون عنه والأقل يعلم شيئا منه ويعرض عنه ،

(80/600)

فلا تنظر يا سيد الرسل إلى هؤلاء وقم به أنت وأصحابك حال كونكم "مُنِيبِينَ إِلَيْهِ" خاضعين له راجعين إليه "وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ" المفروضة عليكم في أوقاتها فهي أسّه وعماده وملاك شعاء "وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" 31 به غيره "مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ" بدل من المشركين بإعادة الجار وقرىء فارقوا ، وهذه الآية تقيّد آية الأنعام 159 المارة لأنها تفيد التبعيض وتلك تفيد العموم ، وقدمنا ما يتعلق بمثل هذا الخطاب في الآية 64 من سورة الزمر المارة ، وهؤلاء لم يتفقوا على التفريق في الدين بل تعدّوه "وَكَانُوا شِيَعاً" فرقا مختلفة فيه كل طائفة تشايع غيرها وإمامها الذي أضلها ، ومع أنهم كلهم على ضلال في ذلك فإنهم "بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ" 32 راضون به يحسبونه حقا لعدم تدبرهم وتفكرهم في حقيقته ، راجع الآية 13 من الشورى المارة تجد ما يتعلق ببحث التفرق .

(81/600)

قال تعالى "وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ" بالدعاء والتضرع حالة كونهم خاشعين مقبلين راجعين إليه "ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ" 33 معه غيره في العبادة والدعاء ويظن هؤلاء الكفرة العتاة أنما تنشر عليهم شيئا من رحمتنا "لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ" من النعم جزاء لفضلنا عليهم كلا بل قل لهم يا سيد الرسل إن اللّه لم يهملكم ولم يعطكم لتكفروا به "فَتَمَتَّعُوا" بكفركم "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" 34 عاقبة ذلك ، وفي هذه الجملة التفات من الغيبة إلى الخطاب وتهديد ووعيد بسوء العاقبة ، قال تعالى "أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً" وهذا التفات من الخطاب إلى الغيبة ففيه إيذان بالإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم ليطلعوا عليها "فَهُوَ يَتَكَلَّمُ" أي ذلك البرهان المعبر عنه بسلطان "بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ" 35 وما هنا مصدرية ، أي لم ننزل سلطانا بإشراكهم وإنما اختلقوه من أنفسهم "وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً" من غيث أو صحة أو ولد أو رزق ، أي مطلق نعمة ، كما أن الضر في الآية السابقة يطلق على أضداد هذه الرحمة ويشتمل على كل شر "فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ" من كل ما يسوء الإنسان "بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ" بسبب ما اقترفوه من السيئات "إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ" 36 ييأسون من الرحمة ، بخلاف المؤمنين فإنهم إذا أصابهم خير شكروا اللّه ، وإذا مسهم ضرّ صبروا رجاء رحمة اللّه بكشفه عنهم .

مطلب ما قاله البلخي للبخاري وحق القريب على قريبه والولي وما شابهه :

قال بعض العارفين من أهالي بلخ لصاحب له كيف حالكم يا أهل بخارى ؟ قال نحن قوم إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا ، فقال البلخي حال كلاب بلخ هكذا ، فقال وكيف حالكم يا أهل بلخ ؟ قال نحن قوم إذا وجدنا آثرنا وإذا فقدنا شكرنا .

(82/600)

وهؤلاء لعمري هم أهل اللّه العارفون الصادقون ، وهؤلاء هم الصوفية الذين هم حقيقة صوفية لا متصوفة زماننا ، فأين نحن منهم رجماك ربي رحماك ، نسألك العفو والعافية والشكر على العافية ، والتوفيق لما تحب من الأعمال ، والستر الجميل ، وإذا قدرت علينا قدرا لا تريد أن تكشفه عنا فنسألك الصبر الجميل عليه ، وأن تجعلنا من القليل ، ولا تكلنا إلى غيرك ، ولا تؤاخذنا بما نفعل ويفعل السفهاء منا ، إنك على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير .

قال تعالى "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ" من خلقه يوسعه عليهم بجهد وبغيره "وَيَقْدِرُ" يضيّق على من يشاء ولو جدّ ما جد "إِنَّ فِي ذلِكَ" البسط والقبض الجاريان بمقتضى المشيئة "لَآياتٍ دالات على حكمة المعطي "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" 37 به ويرضون بقسمته لاعتقادهم أن ذلك مراده لا غير ، وللّه در القائل :

نكد الأديب وطيب عيش الجاهل قد أرشداك إلى حكيم كامل

ثم نبههم اللّه تعالى إلى ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن لا يفعل ، وما يجب أن يترك ، فخاطب به سيد المخاطبين ليعمل به أمته فقال "فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ" من البر والصدقة والنظر والصلة ، لأن

هذه كلها من حق المسلم على المسلم ، فكيف بالقريب الذي له حقّان حق الإسلام وحق القرابة ، فالعطاء إليه يكون صدقة وصلة "وَالْمِسْكِينَ" الذي لا مال له ولا كسب يكفيه "وَابْنَ السَّبِيلِ" المسافر

الغريب الذي نفدت نفقته فبقي منقطعا عن أهله فينبغي لمن وسع اللّه عليه أن يعطيه ما يكفيه ويبلغه اهله .

وليعلم أن اللّه تعالى إذا بسط رزقه على عبده فإن ما ينفقه منه في سبيل البر والخير لا ينقصه بل يزيده ، كما انه إذا ضيق عليه فإن التشدد بالإمساك لا يوفر عليه ، وفيه قيل :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طرا قبل أن تنفلت

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا البخل ينميها إذا هي ولت

بل عليه الشكر إذا رزق ، قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) والصبر عند الضيق ، قال تعالى (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) الآية 7 من سورة إبراهيم المارة .

وما قيل إن هذه الآية مدنية والمراد بها الزكاة قيل لا قيمة له لأنها مكية كسورتها ، واستثناؤها يحتاج إلى دليل ، ولم يوجد ، ومما يدل على أن المراد بها غير الزكاة الإجماع على مكيتها ، والزكاة لم تفرض إلا في المدينة ، وقد استنبط من هذه الآية الإمام أبو حنيفة وجوب النفقة لكل ذي رحم محرم ذكرا كان أو أنثى إذا كان فقيرا عاجزا عن الكسب على قريبه الموسر ، ووجه استنباطه هو أن آت أمر ، والأمر للوجوب ما لم يصرفه صارف ، وهو هنا معدوم ، والظاهر من الحق بقرينة ما قبله أنه مالي ، وقد جاء بجانب المسكين وابن السبيل بعد القريب ، ولو كان المراد الزكاة لم يقدم ذو القربى عليهما لأنهم فيها سواء .

هذا وما جاء عن أبي سعيد الخدري أنه لما نزلت هذه الآية أعطى عليه السلام فاطمة رضي اللّه عنها فدكا لم يثبت ، وينفيه ما اشتهر أنها ادعت فدكا بعد وفاة أبيها صلّى اللّه عليه وسلم بطريق الإرث ، وقد ردت دعواها لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، – أو كما قال – .

وقد ثبت لك أن الآية المدنية لا بد من دليل يؤيد مدنيتها ، وهذه الآية مكة ، وحادثة فدك بالمدينة ولا يوجد ما يؤيدها .

قال تعالى "ذَلِكَ" إعطاء القرابة المساكين وأبناء السبيل فيه "خَيْرٌ" كثير لفاعله ، وإنفاق

المال لأمثال هؤلاء أحصن من الاستئثار للإنسان بما أتحفه اللّه به من النعم ، ومنعه من الفقراء وشبههم "لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ" بإنفاقه ويتقربون به إليه "وَأُولَئِكَ" المريدون وجه اللّه بصدقاتهم المعطون لها عن طيب

(84/600)

نفس "هُمُ الْمُفْلِحُونَ" 38 الفائزون بالنعيم المقيم عند اللّه القائل "وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ" بأن تأخذوا أكثر منه "فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ" بل يمحق بركته ويفنيه ، وقال بعض المفسرين ما أعطيتم من الهدايا بقصد أن تعود عليكم بأكثر منها فلا يبارك لكم فيها عند اللّه لأنكم لم تبتغوا بها وجهه ، فلا يثيبكم عليها ، وقال إن هذا كان متعارفا عندهم قبل الإسلام ، وبقي على حاله فيما بينهم ، وحرّم على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وحده ، واستدلوا على هذا بقوله تعالى (وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) الآية 6 من سورة المدثر المارة في ج 1 ، ولهذا يقولون تأتي الهدية على حمار فترجع على بعير .

وقد بينا ما يتعلق بهذا في الآية المذكورة من المدثر فراجعها .

(85/600)

وقال بعضهم المراد بالزيادة هنا الزيادة المعروفة بالمعاملة التي حرمها الشرع ، لأن الآية نزلت في ربا ثقيف وقريش ، وهذا القول أوفق بظاهر الآية لأنها تشير إلى مقدمات تحريم الربا على طريقة التدريج التي أشرنا إليها في المقدمة في بحث التدريج بالأحكام ، كما وقع في الخمر ، والمعنى الأول بعيد عن الظاهر ، على أنه يبعد أن يراد بها والله أعلم بيوع العينة التي كانت تتعاطاها الجاهلية وبقي أثرها في زمننا هذا ، المشار إليها في الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها في بيع العينة ، وذلك أن يبيع الرجل ما يساوي خمسة بعشرة مثلا لقاء الإمهال ، أو يبيعه شيئا صوريا لا حقيقة له مثل أن يقول له اشتريت مني هذه الساعة أو هذا البساط أو هذا القماش بعشرة ؟ فيقول اشتريت ، وقبلت ، لفظا من غير تقابض أو بتقابض ، ثم يقول له بعتنيه بثمانية ؟ فيقول بعتكه ، فيعطيه الثمن الأخير ويكتب عليه الأول ، فهذه بيوع لا يبارك الله بها لأن ظاهرها بيع وباطنها ربا ، والله مطلع على النيات لا تخفى عليه خافية والأمور بمقاصدها ، لهذا فإنه تعالى لا بد وأن يسلط على متعاطيها ما يمحق ماله ويسلب نعمته من ولد أو زوجة أو قريب أو إتلاف بحرق أو غرق أو خسارة ، لأن هذا العمل حيلة على الله العالم بجليات الأمور وخوافيها ، وقد مسخ الله طائفة من بني إسرائيل قردة وخنازير حينما احتالوا على صيد السمك يوم السبت راجع الآية 162 من الأعراف في ج 1 ، وقال بعض الأئمة إن الذين يأكلون الربا بالحيلة يحشرون

يوم القيامة على صور القردة والخنازير ، استنباطا من قوله تعالى (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا) الآية 276 من البقرة في ج 3 ، والآية المتقدمة من الأعراف ، وسنأتي على توضيح هذا هناك إن شاء اللّه مع قصة أهل البيت في موضعها بالآية 60 من المائدة في ج 3 إن شاء اللّه .

(86/600)

وقد شاهدنا كثيرا ممن تعاطوا الربا أصالة وبالحيلة قد أفقرهم اللّه وسلب نعمتهم وأحاجهم إلى السؤال ، ومنهم من تمتع بها مدة حياته ولم ينتقل ماله لأولاده ، ومنهم من انتقل ماله لأولاده فاستهلكوه فيما حرم اللّه واحتاجوا إلى السؤال .

وعلى كل فإنهم لا ينتفعون بما لهم انتفاعا نافعا في الدنيا ، فهم في الآخرة أشد حرمانا منه ومعاقبة عليه .

ولهذا البحث صلة أيضا في الآية 34 من سورة التوبة في ج 3 ، ألا فلينتبه الذين يريدون دوام نعم اللّه عليهم وانتقالها لأولادهم من ذلك ، وليتعظوا بغيرهم ويتوبوا إلى ربهم قبل أن يحيق بهم عذاب الدنيا ويحيط بهم عذاب الآخرة .

قال تعالى "وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ" طهارة ، لأن النفقة المقبولة طهارة لصاحبها من الذنوب ، لأن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الزكاة ، كما أن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الحج ، ومنها لا

يكفرها إلا الهم بالمعيشة ، ومنها ومنها طهرنا اللّه منها .

وقد يراد بهذه الطهارة ما يقابل (وما آتيتم من ربّا) إلخ ، أي طهارة لأنفسكم بعقود البيع الصحيحة الخالية من ذلك الفضل المصرح به فيها بأنه ربا ، فإنكم تثابون عليه ثواب الصدقة لما فيها من مراعاة حق المسلم ، ولذلك أعقبها بقوله "تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ" بها وتبغون رضاءه "فَأُولَئِكَ" المجتنبون الحالة الأولى الفاعلون الثانية "هُمُ الْمُضْعِفُونَ" 39 الذين تضاعف لهم البركة والرحمة والأجر على عملهم الواحد بعشرة إلى سبعمئة واللّه يضاعف لمن يشاء بأكثر وأكثر ، إذ أثبت لهم المضاعفة التي هي أبلغ من مطلق الزيادة التي يتوخونها من ذلك الربا الرجس ، وقد مدحهم اللّه تعالى على فعلهم الطيب الطاهر بالإشارة الدالة على التعظيم تقديرا لفعلهم الحسن .

(87/600)

هذا ، وإن ما ذكرته في تفسير هذه الآية لم يتطرق له أحد من المفسرين ، كما هو الحال في تفسير الآية 88 من سورة النمل المارة في ج 1 ، ولعلها ممّا ينتقد ، ولكن حسب اعتقادي أقول إنه أحسن قول في تفسيرها ولا أقول كما قال الغير فيما ينفرد به :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

إذ لعله : أن يقف على ضد ما فهمته .

ولا أصمه بالشطر الأخير من قوله :

وما علي إذا ما قلت معتقدي إلى جهول يظن الجهل عدوانا

وأظنه إذا أنصف حبّذ ما قلته لأنه منطبق على المعنى الواقع ، وبعد أن فوضت العلم فيه إلى اللّه لم يبق محل للانتقاد وغيره .

قال تعالى "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ" كلا لم يستطيعوا ولن يستطيعوا لأنهم وأوثانهم مخلوقون له "سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" 40 أنظر رعاك اللّه إلى ما تضمنته هذه الآية الكريمة من بلاغة عظمى في قوله من الأولى والثانية والثالثة إذ استقلت كل منها بتأكيد تعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم .

مطلب ظهور الفساد في البر والبحر ، والبشارة لحضرة الرسول بالظفر والنصر وعسى أن تكون لامته من بعده :

قال تعالى "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ" من المعاصي فإن الناس صاروا يقدمون على المنكرات والفواحش وهم سائرون في البحر ولم يخشوا أن يرسل اللّه عليهم ريحًا فتغرقهم ، كما أنهم يفعلون تلك الخبائث في البر ولم يخافوا أن يخسف اللّه بهم كما فعل بغيرهم ، وقد كثر الحرق والقتل والنهب والسلب والزنى واللواطة والشرب والقمار

فيهما معا ، وقل الحياء ، فلا حول ولا قوة إلا باللّه ، اللهم أجرنا من غضبك ومن القحط فقد قلت بركات البر حتى ان الزرع لا يأتي بضعفه وبركات البحر حتى ان اللآلئ لا تكاد تدرك .

(88/600)

وما قيل إن فساد البر في مدن الصحراء ، وفساد البحر في مدن السواحل ، أو قلة مياه العيون ، أو عدم إثبات الأرض ، وخلو الأصداف ، أو بقتل ابن آدم أخاه ، وفي البحر بغصب الجلندي السفينة المار ذكرها في الآية 71 من سورة الكهف ، وغير ذلك مما يضاهي هذا ، فهو بعيد عن المعنى المراد بمناسبة هذه الآية ، وإن تقييدها بمثل هذه المسائل مناف لظاهرها العام المطلق في كل فساد يقع في البحر .

وهؤلاء الذين يعيثون في الأرض فسادا في البر والبحر لا يهملهم اللّه ، وقد أمهلهم "لِيُذِيقَهُمْ" جزاء "بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا" مقدما معجلا "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" 43 عن هذه الأعمال القبيحة ، حتى إذا أصروا عليها عاقبهم عليها كلها في الآخرة غير عقاب الدنيا .

واعلم أنه لا يوجد في القرآن العظيم آية مبدوءة بالظاء غير هذه "قُلْ" يا سيد الرسل لقومك

وغيرهم "سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ" وتفكروا في أطلال منازلهم وتدبروا كيفية إهلاكهم واسألوا عن أسبابها وإبقاء مساكنهم خاوية تعلموا أنه "كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ" 42 بالله جاحدين حقوقه مثلكم ، واعلموا أنكم إذا لم ترجعوا عما أنتم عليه يكون مصيركم مثلهم .

(89/600)

وأنت يا سيد الرسل لا يهمنّك تماديهم "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ" المعهود في الآية 30 المارة ولا تكرار ، لأن في الأول لفظ حنيفا وإشارة إلى الدين الحنيف بأنه هو الدين القيم ، وفي هذه القيم فقط الذي لا عوج فيه ، والمعرفة إذا أعيدت يراد منها الأولى نفسها كما أوضحناه في سورة الانشراح ج 1 ، وقد أمر الله عباده على لسان رسوله بإقامة الدين والإسراع للتمسك فيه "قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ" إذ لا يقبل فيه الرجوع إليه ولا التوبة ولا الفداء ولا الشفاعة المطلقة "يَوْمَئِذٍ" يوم يحل ذلك اليوم العظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، حينئذ "يَصَّدَّعُونَ" 43 يتفرقون بعضهم عن بعض ، والتصدّع تفرق أجزاء الأواني ، واستعير لمطلق التفرق ، قال تعالى (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) الآية 4 من القارعة في ج 1 ، أي أن أشخاص الناس تتفرق لشدة هول

ذلك اليوم .

واعلموا أيها الناس أن "مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ" هو يحمل وباله وحده "وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ" 44 يوطئون لها ويبنون وهو عبارة عن معنى يستفاد من أفعال الخير التي سيراها صاحبها حسا ، أولا في القبر ، وثانيا في الجنة ، كما يمهد الإنسان فراشه في الدنيا ليستريح عليه في مضجعه من كل ما ينغص نؤمه .

قال تعالى "لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ" بأكثر مما عملوا لأنهم أحبا به ، أما الذين عملوا السيئات فإنه يعاقبهم في يا ره "إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ" 45 لأنهم كرهوا الخير لأنفسهم فأبغضهم اللّه ، لأن من لا يحبه يبغضه .

ثم عطف على الآيات من 20 إلى 25 المارة التي عدد فيها آثار نعمه على عبده تذكيرا لهم بأفضاله

(90/600)

و حثا لهم على الإخلاص لحضرته ، لأنه هو وحده المتفضل بها عليهم ، فقال جل قوله "وَمِنْ آياتِهِ" الدالة على عظيم قدرته وبالغ حكمته "أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ" عباده بالغيث "وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ" ثمر الخصب المتسبب عنه "وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ" بسبب

تلك الرياح ، فتصلوا إلى مقاصدكم من البلاد والقرى والبوادي وغيرها "وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ" الأرباح في زروعكم وأثماركم وتجاراتكم برا وبحرا "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" 46 نعمه المتوالية عليكم .

قال تعالى لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ"

كما أرسلناك إلى هؤلاء ، أي الموجودين على ظهر الأرض جاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ"

على صدقهم كما جئتهم به أنت وكذبوهم كما كذبوك انْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا"

منهم وأنجينا المؤمنينَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ"

47 بنا .

(91/600)

واعلم أن في الآية 103 من سورة يونس المارة والآيتين 171 و172 من سورة الصافات المارة أيضا والآية 21 من المجادلة الآتية في ج 3 ، وفي هذه الآية بشارة عظيمة لحضرة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم بالظفر والنصر على أعدائه ، وفيها كفالة وعهد من اللّه تعالى على نفسه المقدسة بنصر المؤمنين وهو الموفي بعهده ووعده ، القائم بكفالته ، الصادق بما يخبر ، وقد وفّى لرسوله ما تعهد به له ولأصحابه ، وهذا الوعد عام لكل مؤمن ومؤمنة

مستمر إلى يوم القيامة ، وفيه أيضا وفي الحساب والقضاء ، ولكن الناس لم يكونوا مؤمنين موقنين بالمعنى الذي يريده اللّه منهم كما كان عليه محمد وأصحابه ، ولو كانوا كذلك ما سلب منهم نعمة الملك ، ولم يسلط عليهم عدوهم ولجاءهم النصر من حيث لا يشعرون ، وسخر لهم كل شيء ، ولكن أين الإيمان وأين الإسلام كل منهما رسم بلا جسم ، ومسمى بلا اسم ، ودعوى بلا برهان ، وقول بلا بيان ، نعم انهم مسجلون رسميا مسلمين ، وأعمالهم أعمال الكافرين ، لا تراحم ولا توادد بينهم ، ولا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة ولا صدقة بالمعنى الذي يريده اللّه منهم ، ولكنهم زناة شربة خمر قذفة للمحصنات كذبة همّازون لمّازون محتالون شهداء زور وبهتة مغترون ، فأنى ينظر اللّه إليهم ، جاء في الحديث الشريف عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : لازلتم منصورين ، ما دمتم متبعين سنتي فمتى اختلفتم سلط عليكم عدوكم ،

فإذا كان هذا جزاء ترك السنن فما بالك بالفرائض ، وما بالك بارتكاب المحرمات ، وما بالك بالتجاهر بالشرب واللعب واللواطة بلا خوف من اللّه ولا حياء من الناس ، وإني أخشى أن يكونوا قد صاروا حثالة بالمعنى الوارد في قوله صلّى اللّه عليه وسلم يذهب الصالحون أسلافا الأول فالأول ، حتى لا يبقى من الناس إلا حثالة كحثالة الثمر والشجر لا يبالي اللّه بهم .

رحماك ربي عاملنا بما أنت أهله ، ولا تعاملنا بما نحن أهله يا أهل التقوى وأهل المغفرة .

ومما يدل على أن هذا الوارد في الآيتين المذكورتين نصر مستمر في الدنيا والآخرة ما رواه أبو الدرداء قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حتما على اللّه أن يرد عنه نار جهنم ، ثم تلا هذه الآية ، وأخرجه الترمذي بلفظ آخر بمعناه .

قال تعالى "اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ" مسيرة يوم وأيام وأقل وأكثر خفيفا أو كثيفا "وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً" قطعا متفرقة أو يضم بعضه لبعض "فَتَرَى الْوَدْقَ" المطر "يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ" من فرجه ووسطه "فَإِذا أَصابَ بِهِ" بذلك الغيب "مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" 48 به لما يدره عليهم وعلى أنعامهم ودوابهم من الخيرات "وَإِنْ كانُوا" أولئك العباد "مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ" ذلك الغيث "مِنْ قَبْلِهِ" كرره تأكيدا للدلالة على بعد عهدهم به والأحسن عود هذا الضمير إلى الرياح ، فيكون المعنى من قبل أن ينزل عليهم من قبل إرسال الرياح "لَمُبْلِسِينَ" 49 قانطين آيسين ، لأنه بعد إرسال الرياح يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس فيها ، فإذا هبت الرياح قبل المطر لا يكون مبلسا بل يكون راجيا برؤية هيئة السحاب وهبوب الرياح "فَانْظُرْ" يا من يتأتي منك النظر "إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ" وحسن تأثيرها في الأرض وفي قلوب الناس "كَيْفَ يُحْيِ" الإله القادر

الرؤوف بخلقه "الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها" بالنبات والأزهار والثمار "إِنَّ ذِلكَ" الإحياء للأرض بعد يبسها الذي هو بمثابة الموت لها وإحياء نباتها بعد جفافه بالمطر من قبل اللّه القادر على ذلك فإنه ولا ريب "لَمُحْيِ الْمَوْتى "كما أحيا الأرض الميتة "وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" 50 لا يعجزه شيء ،

(93/600)

قال تعالى "وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً" ليبس الأرض وما عليها "فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا" بعد أن كان ذلك النبات أخضر يهتزّ "لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ" 51 ما أسلفناهم من نعم الغيث ويجحدون نزوله كأنما لم نغثهم أبدا .

واعلم أنه لم يأت في القرآن لفظ المطر إلا للعذاب ، والغيث إلا المرحمة ، وقد بينا ما يتعلق بتفصيل هذا في الآية 22 من سورة الحجر فراجعها .

قال تعالى "فَإِنَّكَ" يا سيد الرسل "لا تُسْمِعُ الْمَوْتى " قلوبهم "وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ" المختوم على آذانهم "الدُّعاءَ" الذي ترشدهم به "إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ" 52 عنك بظهورهم لأنهم إذا كانوا مقبلين إليك قد يفهمون بالإشارة والرمز "وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ" في هوّة هواهم "إِنْ تُسْمِعُ" ما تسمع "إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا" لأنهم مقبلون إليك بقلوبهم وأبصارهم مصغون

بعقولهم وآذانهم ، ينظرون لما تقوله بكليتهم "فَهُمْ مُسْلِمُونَ" 53 لك منقادون مطيعون لأوامرنا التي تبلغهم إياها ، فاترك أمثال أولئك واعرض عنهم ولا تحزن عليهم لأنهم في حكم الموتى واحرص على هؤلاء فإنهم هم المنتفعون بوعظك ونصحك .

مطلب في سماع الموتى وتلقين الميت في قبره وإعادة روحه إليه والأحاديث الواردة بذلك :

هذا ، وقد استدل بعض الحكماء بهذه الآية على أن الأموات لا يسمعون ، وأيدها بقوله تعالى (وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ) الآية 22 من سورة فاطر ج 1 ، وهذا القائل توصل بقوله هذا إلى عدم تلقين الميت في القبر إذ لا فائدة له منه ، وقال لو حلف لا يكلم فلانا فكلمه ميتا لا يحنث لأنه ليس بأهل للكلام ولا للسماع .

(94/600)

وحكى السفارينى في البحور الزاخرة أن عائشة رضي اللّه عنها ذهبت إلى نفي السماع وذلك أنه جاء في صحيح البخاري عن هشام عن أبيه قال : ذكر عند عائشة أن ابن عمر رفع إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقالت ذهل ابن عمر إنما قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إنه ليعذب بخطيئته وذنبه ، وإن أهله يبكون عليه الآن ، قالت وذلك مثل قوله أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قام على

القليب وفيه قتلى بدر من المشركين فقال لهم ما قال إنهم يسمعون ما أقول ، إنما قال إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ، ثم قرأت الآيتين ، ورجح هذا القاضي أبو يعلى من أكابر الحنابلة في كتابه الجامع الكبير ، مستدلين بالآيتين المذكورتين وشبهها مما في القرآن العظيم .

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أنهم يسمعون وهو اختيار ابن جرير الطبري وابن قتيبة وغيره ، وقال ابن عبد البر : إن الأكثرين على هذا ، واستدلوا بما جاء في الصحيحين عن أنس عن أبي طلحة رضي اللّه عنهما قال :

لما كان يوم بدر وظهر عليهم (على المشركين) رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أمر ببضعة وعشرين رجلا ، وفي رواية أربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فألقوا في طوى (بئر من اطواء بدر) وأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ناداهم يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا ، فقال عمر رضي اللّه عنه يا رسول اللّه ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ ! فقال والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

زاد في رواية لمسلم عن أنس : ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا .

وبما أخرجه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والنسائي عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه أن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى انه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل (يعني محمدا صلّى اللّه عليه وسلم) ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد اللّه ورسوله ، فيقال أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك اللّه به مقعدا من الجنة ، فيراهما جميعا ويفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وتملأ عليه خضرا إلى يوم القيامة ، وأما الكافر إلخ .

وبما رواه الطبري في الكبير عن أبي أمامة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس القبر ثم ليقل يا فلان بن فلانة ، فإنه يقول أرشدنا يرحمك اللّه ، ولكنكم لا تسمعون إلخ .

وبما أخرجه أبو الشيخ من مرسل عبيد بن مرزوق قال : كانت امرأة بالمدينة تقم المسجد فماتت ، فلم يعلم بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فمر على قبرها فقال ما هذا القبر ؟

فقالوا أم محجن ، قال التي كانت تقم المسجد ؟ قالوا نعم ، فصف الناس ، فصلى عليها ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم أي العمل وجدت أفضل ؟ قالوا يا رسول اللّه أتسمع ؟ قال ما أنتم بأسمع منها ، فذكّر عليه الصلاة والسلام أنها أجابته قم المسجد أي كنسه ، وإجابتها

له

على سبيل المعجزة له صلّى اللّه عليه وسلم .

وبالحديث الذي رواه الشيخان المار ذكره في الآية 26 من سورة إبراهيم المارة في بحث سؤال القبر .

وبما رواه البيهقي والحاكم وصححه وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم وقف على مصعب بن عمير المشار إليه في الآية 41 من سورة النازعات المارة وعلى أصحابه حين رجع من أحد فقال أشهد أنكم أحياء عند اللّه تعالى ، ثم خاطب أصحابه فقال فزوروهم وسلموا عليهم فو الذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلا ردّوا عليه إلى يوم القيامة .

(96/600)

وبما أخرجه ابن عبد البر وقال عبد الحق الإشبيلي إسناده صحيح عن ابن عباس مرفوعا : ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا يسلم عليه إلا عرفه ورد عليه .

وبما أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : الروح بيد ملك يمشي به مع الجنازة يقول له أتسمع ما يقال لك فإذا بلغ حفرته دفنه معه .

وبما في الصحيحين من قوله صلّى اللّه عليه وسلم : إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه انه يسمع قرع نعالهم .

وأجابوا عن الآيتين بما قاله السهيلي إنها كقوله تعالى (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ) الآية 41 من الزخرف ، أي أن اللّه تعالى هو الذي يسمع لا أنت .

وقال غيره من الأجلة لا تسمعهم إلا أن بشاء اللّه أولا فتسمعهم سماعا ينفعهم ، لأن الشيء قد ينتفي لانتفاء فائدته وثمرته ، قال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها) الآية 179 من الأعراف في ج 1 ، وهذا التأويل يجوز أن يعتبر في الآيتين المذكورتين .

هذا وإن السيدة عائشة رضي اللّه عنها لم تحضر قول النبي صلّى اللّه عليه وسلم لأهل بدر ، فغيرها ممن حضر أحفظ للقضية منها ، على أنهم إذا كانوا عالمين كما تقول عائشة جاز أن يكونوا سامعين ، أما وقد اتفقت الكلمة على أن الشهداء يسمعون لأن اللّه تعالى أخبر عنهم أنهم أحياء عند ربهم يرزقون الآية 171 من آل عمران في ج 3 ، كما سنبينه في تفسيرها إن شاء اللّه ، وأجمعوا على أن روح الميت تعود إليه وقت السؤال على وجه لا يحس به أهل الدنيا إلا من شاء اللّه منهم ، فلا مانع إذا من القول بسماعهم في الجملة ، وهو للقول الحق ، على أن يكون هذا السماع على أحد وجهين :

الأول أن يخلق اللّه تعالى عز وجل وهو القادر على كل شيء في بعض أجزاء الميت

قوة يسمع بها من شاء اللّه إسماعه كالسلام ونحوه ، ولا يمنع من ذلك وجوده تحت الثرى وقد انتحلت منه هاتيك البنية وانقصمت العرى ، ولا يكاد يتوقف في قبول هذا القول من يجوز أن يرى أعمى الصين بقّة الأندلس .

الثاني أن يكون ذلك السماع للروح بلا واسطة قوة البدن ، ولا يمتنع أن تسمع بل أن تحس وتدرك مطلقا بعد مفارقتها البدن بدون وساطة قوى فيه ، وإذ كان للروح على القول الصحيح تعلق بالبدن كله أو بعضه بعد الموت لا يعلم حقيقته وكيفيته إلا اللّه ، وهذا التعلق غير التعلق بالبدن الذي كان لها قبله أجرى اللّه سبحانه عادة أمره بتمكينها من السمع وخلقه لها عند زيارة القبر ، وكذا عند حمل البدن وعند الغسل مثلا ، ولا يلزم من وجود ذلك التعلق والقول بوجود قوة السمع ونحوها فيها نفسها أن تسمع كل مسموع ، لما أن السماع مطلقا ، وكذا الإحساسات تابعة المشيئة ، فيقتصر على القول بما ورد فقط من السلام ونحوه ، ولا يلزم على هذا التزام القول بأن أرواح الموتى مطلقا في أفنية القبور ، لما أن مدار السماع عليه مشيئة اللّه تعالى ، وقدمنا ما يتعلق في بحث الروح بصورة مفصلة في الآية 85 من الإسراء في ج 1 فراجعها .

مطلب في أدوار الخلقة والجناس وحقيقة أفعال وفعائل وأنواع الكفر والجهل :

قال تعالى "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ" هو ماء مهين ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة إلخ وكلها ضعيفة "ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً" تبدأ من المراهقة إلى الشاب إلى الكهولة إلى الكمال إلخ "ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً" لأن ما بعد الكمال إلا النقص "وَشَيْبَةً" شيخوخة فهوما وهو تمام النقصان ، فسبحانه "يَخْلُقُ ما يَشاءُ" من القوة والضعف والشباب والشيب وغيرها "وَهُوَ الْعَلِيمُ" بتدبير خلقه "الْقَدِيرُ" 54 على ما يشاء ، وقدمنا ما يتعلق في مراتب الخلق في الآية 67 من سورة المؤمن المارة ، وله صلة في الآية 5 من سورة الحج في ج 3 .

قال تعالى "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ" المحكوم عليهم بالعذاب لما قدمنا أنه لا يسمى سجر ماء إلا بعد إثبات ما أسند إليه ، وهذا القسم يكون عند تذاكرهم من مدة مكثهم في الدنيا والبرزخ فيقولون "ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ" وإنما استقلوا مدة لبثهم مع كثرتها لطول يوم القيامة

على المعذبين وشدّة هوله "كَذلِكَ" مثل هذه الأيمان الكاذبة التي يأتون بها يوم القيامة وأنواع

الإفك التي يعتذرون بها ويحاججون ربهم وغيرهم بها "كَانُوا يُؤْفَكُونَ" 55 بالدنيا وينصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب ، إذ كذبوا أنفسهم ، لأنهم لبثوا في الدنيا وفي القبر مئات السنين ، وهذا لكذبهم في الدنيا بأنهم لم يبعثوا ولم يحاسبوا ولم يعاقبوا "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ" في حالة الدنيا لهؤلاء الكاذبين "لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ" من يوم خلقكم إلى يوم موتكم في الدنيا ، ومن يوم موتكم في البرزخ "إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ" الذي كنتم تنكرونه قرونا كثيرة "وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ" 56 أنكم تبعثون ولا تصدقون الرسل بما جاءتكم به ، وإن علمكم الآن وتصديقكم لا ينفعكم شيئا لتفريطكم به وقت نفعه ، وفي هذا يقال :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخش سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

هذا وبين الساعة والساعة في الآية الأولى جناس تام مماثل ، ولا يضر اختلاف حركات الإعراب ولا وجود ال في أحدهما لأنها مؤكدة ، ولا يضر اتحاد مدلولها في الأصل ، لأن المعرف فيه كالمنكر بمعنى القطعة من الزمن لمكان النقل في المعرف وصيرورته علما على القيامة كسائر الأعلام المنقولة ، وأخذ أحدها من الآخر لا يضر أيضا ، كما هو موضح في بحث جناس الاشتقاق .

قالوا ولا يوجد في القرآن العظيم جناس من هذا النوع إلا هذه في القسم المكي جميعه ، وسيأتي مثله في الآية 45 من سورة النور في القسم المدني ج 3 إن شاء اللّه ، لأن الابصار الأول فيها جمع بصر ، والثاني جمع بصيرة كما ستقف عليه هناك إن شاء اللّه .

وقال بعضهم إن هذا النوع من الجناس لا يكون بين حقيقة ومجاز ، وان الابصار الثاني في تلك الآية ليس من باب الحقيقة بل في المجاز والاستعارة ، لأن البصيرة تجمع على بصائر لا على الابصار ، ولأن علماء العربية قالوا إن صيغة أفعال من جمع القلة وهو لا يطرد إلا في اسم ثلاثي مفتوح الفاء كبصر وأبصار ، أو مكسورها كغيب وأغياب ، أو مضمومها كرطب وأرطاب ، وساكن العين كثوب وأثواب ، أو محركها كعضد وأعضاد وفخذ وأفخاذ ، وصفة فعائل من جموع الكثرة وهي لا تطرد إلا في اسم رباعي مؤنث بالتاء أو بالمعنى ثالثه مدّة كسحابة وسحائب ، وبصيرة وبصائر ، وحلوبة وحلائب ، وشمال وشمائل ، وعجوز وعجائز ، وسعيد علم على امرأة وسعائد ، وقد استعيرت الأبصار للبصائر مجامع ما بينهما من الإدراك والتمييز ، وقد ظن بعضهم أن الساعة في القيامة مجاز وانكسر التجنيس فيها ، وهو بغير محله لما ذكرنا أن الساعة عبارة عن قطعة من الزمن وكلاهما حقيقة فيه ، تأمل .

قال تعالى "فَيَوْمَئِذٍ" يوم قيام الساعة "لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ" ولا احتجاجهم لأن

قبول العذر والتوبة محلّهما الدنيا ، وقد انقضت "وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ" 57 يسترضون لربهم فلا تطلب منهم العتبى وهي الاسترضاء لفوات محلها ، وبعد أن حق عليهم العذاب فلا مناص لهم منه .

(100/600)

وقال بعضهم : إن العتبى من الإعتاب بمعنى إزالة البعث كالعطاء والاستعطاء أن لا يطلب منهم إزالة عتب اللّه أي غضبه لا بالتوبة ولا بالطاعة ولا غيرهما "وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ" ليعتبروا فيه فلم يعتبروا ، وهذا إشارة إلى عدم قبول الاعتذار في الآخرة "وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ" من الآيات المنزلة عليك يا سيد الرسل ، أو مما نزل على من قبلك "لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ" أيها الرسل "إِلَّا مُبْطِلُونَ" 58 فيما جئتم به ، فكان شأنهم معك كشأنهم مع الرسل قبلك ، لأنهم كلوا يأتونهم بالحق ويكذبونهم ويرمونهم بالباطل من القول ، ويصمونهم بالافتراء فلم ينتفعوا بما نضرب لهم من الأمثال ونقص عليهم من القصص ونذكرهم به من الأخبار السالفة "كَذلِكَ" مثل هذا الطبع البليغ المحكم "يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ" 59 الجهلة الذين علم اللّه اختيارهم الضلال على الهدى والكفر على الإيمان ، ولذلك وصموا مرشديهم بما لا يليق بهم لشدة توغلهم بالكفر .

واعلم أن الكفر أربعة أنواع : الأول أن يقر بالإيمان بلسانه ولا يعتقد صحته بقلبه وهذا كفر النفاق .

الثاني أن لا يتعرف على اللّه أصلا ككفر فرعون إذ يقول (ما علمت لكم من إله غيري) وهذا كفر إنكار .

الثالث أن يعرف اللّه بقلبه ولا يقره بلسانه كإبليس ، وهذا كفر جحود .

الرابع أن يعرف اللّه بقلبه

ويقر به بلسانه ولا يدين به كأمية بن الصلت وهذا كفر عناد .

(101/600)

ومنه كفر أبي طالب قبل إيمانه في آخر رمق من حياته على قول ابن عباس أو بعد مماته على ما جاء بأن اللّه أحيا له أبويه وعمه أبا طالب فآمنوا به إكراما لحضرته المقدسة ولما لأبي طالب عليه من الأيادي البيضاء ، والقول بما ذكره ابن عباس أولى لأن الإيمان بعد الموت لا عبرة به إلا أن يكون خاصة له وإكراما لحفيده ، وما عام إلا وقد خصص ، وما ذكرنا من أقواله في الآية 56 من سورة القصص المارة في ج 1 والآية 26 من سورة الأنعام المارة تدل على أنه عارف بربه معتقد صحة رسالة ابن أخيه وأن الذي منعه من التصريح بالإسلام

مخافة مذمة قريش .

والجهل اثنان بسيط وهو من لا يعرف صاحبه ما هو للعلم ، ومركب وهو مثل الأول إلا أن صاحبه لا يعرف نفسه أنه لا يعرف ، وهذا هو الذي يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب الحق ، ولهذا قالوا هو شر من البسيط ، وما الطف ما قيل في هذا :

قال حمار الحكيم يوما لو أنصفوني لكنت أركب

لأني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب

وقيل فيه أيضا :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ولو كنت أعلم ما تقول عذلتكا

ولكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وقال الآخر :

فبايعا هذا ببخس معجل غبنت ولا تدري إذا كنت تعلم

فإن قلت لا أدري فتلك مصيبة وإن قلت أدري فالمصيبة أعظم

وأمثال هذا كثير .

قال تعالى "فَاصْبِرْ" يا خاتم الرسل على أذاهم فقد أظلك ما وعدناك به "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" في نصرك وإعلاء كلمتك ثابت في أزلنا إنجازه فدم على ما أنت عليه "وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ" 60 أي لا يحملونك على العجلة بما تعدهم به فإنهم لا يصدقونك ولا

يؤمنون بوعدك الذي وعدك به ربك مع أنه واقع لا محالة ، ولكن له أجل لا يسبقه .

هذا ولا يوجد في القرآن سورة مختومة بهذه اللفظة غير هذه .

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير

(102/600)

وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه في سننه عن علي كرم اللّه وجهه أن رجلا من الخوارج ناداه وهو في صلاة الفجر فقال (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ) الآية 65 من الزمر المارة ، فأجابه عليه السلام وهو في الصلاة (فاصبر إن وعد اللّه حق ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون) وهذا ليس بكثير على باب مدينة العلم وسيف اللّه ومن هو بمنزلة هرون من موسى بالنسبة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقد سماه رسول اللّه حينما خرج إلى ابن ود العامري الإسلام كله .

وفي هذه الآية إشارة لأهل الوراثة المحمدية أهل الإرشاد بأن يصبروا على مكاره المنكرين المحجوبين الذين لا يصدقون بأحوالهم ولا يعتقدون صحتها ، ولذلك يستخفون بهم ويرمونهم بما ليس فيهم وما هم منه براء ، عفا اللّه عنهم وأعادهم إلى الرشد .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على

سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعهم أجمعين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 435.463 ﴾

(103/600)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الروم

مكية

الم تقدم الكلام عليه في أدنى الأرض في بعض سنين تام ومن بعد كاف وكذا بنصر الله من بشاء صالح الرحيم كاف وكذا وعد الله وعده صالح لا يعلمون تام من الحياة الدنيا صالح غافلون تام وكذا في أنفسهم وأجل مسمى لكافرون تام من قبلهم كاف وكذا الأرض عمرها صالح بالبينات أصلح من يظلمون كاف بآيات الله صالح يستهزئون تام ثم يعيده كاف لمن قرأ ترجعون بالتاء لانتقاله من الغيبة إلى الخطاب وليس بوقف لمن بالياء ترجعون كاف وقال أبو عمرو تام المجرمون صالح كافرين يتفرقون حسن يحبرون كاف محضرون تام تصبحون تام وكذا تظهرون من الحي جائز بعد موتها حسن تخرجون تام وكذا تنتشرون ومودة ورحمة

ويتفكرون ألوانكم حسن للعالمين تام من فضله حسن يسمعون تام بعد موتها حسن يعقلون تام وكذا تخرجون والأرض كاف وكذا وهو أهون عليه والحكيم من أنفسكم صالح كخيفتكم أنفسكم حسن يعقلون كاف من أضل الله وكذا من الناصرين حنيفا كاف الناس عليها حسن القيم صالح لا يعلمون كاف من المشركين جائز شيعا حسن فرحون تام يشركون صالح لانه راس آية ليكفروا بما آتيناهم تام واللام لام الأمر بمعنى التهديد تعلمون صالح يشركون حسن فرحوا بها جائز يقنطون كاف ويقدر كاف يؤمنون حسن السبيل كاف وجه الله جائز المفلحون تام عند كاف المضعفون تام وكذا من شيء ويشركون أيدي الناس وقال أبو حاتم ولام لنذيقهم لام القسم وكانت مفتوحة فلما حذفت النون تخفيفا كسرت اللام تشبيها بلام كي يرجعون تام من قبل صالح مشركين حسن من الله كاف يصدعون تام يمهدون كاف على مذهب أبي حاتم السابق آنفا من فضله كاف الكافرين تام وكذا تشركون من الذين أجرموا حسن نصر المؤمنين تام من خلاله صالح وكذا يستبشرون لمبليس كاف بعد موتها حسن الموتى جائز قدير حسن وكذا يفكرون ومدبرين وعن ضلالتهم مسلمون تام من بعد ضعف قوة صالح وشيبة تام ما يشاء كاف القدير حسن وكذا غير ساعة يؤفكون تام يوم البعث كاف وكذا لا تعلمون يستعتبون

تام من كل مثل كاف مبطلون حسن وكذا لا يعلمون حق جائز آخر السورة تام . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ 597.604 ﴾

(105/600)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الروم

مكية كلمها ثمانمائة وتسع عشرة كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون

حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع موضعان المسكين وابن السبيل وآيها

تسع وخمسون أو ستون آية

ألم تقدم الكلام عليها

في أدنى الأرض (حسن)

سيغلبون ليس بوقف لأنَّ قوله في بضع سنين ظرف لما قبله

في بضع سنين (تام) عند أبي حاتم

ومن بعد (كاف) عند الأخفش ونافع وأبي حاتم إن لم يجعل ما بعده منصوباً بما قبله 0

بنصر الله (حسن)

من يشاء (أحسن) مما قبله وهو رأس آية 0

الرحيم (كاف) وقيل تام إن نصب ما بعده بفعل مضمر وليس بوقف إن جعل العامل في المصدر ما قبله وحينئذ لا يوقف على من يشاء ولا على الرحيم بل على وعد الله ومن قرأ وعد الله في الشاذ برفع الدال بمعنى ذلك وعد الله كان الوقف على الرحيم تاماً لا يخلف الله وعده ليس وقفاً لحرف الاستدراك وهو استدراك الإثبات بعد النفي أو النفي بعد الإثبات فما بعده متعلق بما قبله 0

لا يعلمون (تام)

من الحياة الدنيا (حسن)

غافلون (تام)

في أنفسهم (جائز) لأنَّ الفكرة لا تكون إلا في النفس وقيل ليس بوقف بل هو متصل بقوله ما خلق الله السموات 0

وأجل مسمى (حسن)

وقيل (تام)

لكافرون (تام)

من قبلهم (حسن)

وأثاروا الأرض قال يحيى بن نصير النحوي هو أحسن مما قبله على استئناف ما بعده 0

مما عمروها (جائز)

بالبينات (جائز) وقال ابن نصير تام0

يظلمون (كاف) وثم لترتيب الأخبار 0

بآيات الله (حسن)

يستهزؤن (تام)

يعيده (كاف) لمن قرأ ترجعون بالفوقية لأَنَّتقاله من الغيبية إلى الخطاب وهي قراءة العامة

وليس بوقف لمن قرأه بالتحتية وهي قراءة أبي عمرو ابن العلاء 0

ترجعون (تام) على القراءتين 0

المجرمون (كاف)

شفعاؤ (حسن) ورسموا شفعاؤ بواو وألف بعد العين كما ترى0

كافرين (تام) ومثله يتفرقون

يحبرون (كاف) وقال ابن نصير لا يوقف على أحد المتعادلين حتى يؤتى بالثاني والأولى الفصل بين الفريقين ولا يخلط أحدهما مع الآخر ومعنى يحبرون قال ابن عباس يكرمون وقيل يستمعون الغناء وقيل يتلذذون بكل ما يشتهون قاله النكزاوي 0

محضرون (تام) ووقف بعضهم على فسبحان الله ووسمه بالكافي لمن قرأ في الشاذ حينا تمسون وحينا تصبحون واستبعده أبو حاتم السجستاني وأجازه غيره كأنه ينبه على الاعتبار بصنع الله في جميع هذه الأوقات 0

تصبحون (حسن) لمن جعل التسبيح دعاء كما فسر ذلك ابن عباس وفي الحديث من قال حين يصبح فسبحان الله إلى تخرجون أدرك ما فاته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته وليس بوقف لمن جعله الصلاة أي فصلوا لله حين تمسون صلاة المغرب وصلاة العشاء وحين تصبحون صلاة الفجر ثم قال في التقديم وعشيا يعني صلاة العصر وحين تظهرون يعني صلاة الظهر

حين تظهرون (أحسن) مما قبله 0

من الحي (جائز)

بعد موتها (حسن)

تخرجون (تام) وكذلك نعت مصدر محذوف أي فعلنا مثل ذلك الإخراج 0

تنتشرون (كاف)

لتسكنوا إليها (جائز)

مودة ورحمة (كاف)

يتفكرون (تام) إن جعل كل آية قائمة بنفسها مستقلة من بدء خلق الأَّنسان إلى حين بعثه من القبر 0

وألوانكم (كاف)

للعالمين (تام)

من فضله (كاف)

يسمعون (تام)

وطمعاً (حسن)

بعد موتها (كاف)

يعقلون (تام)

بأمره (حسن)

(107/600)

ثم إذا دعاكم دعوة (جائز) قال نافع وغيره هذا وقف يحق على العالم علمه ثم قال تعالى من الأرض إذا أنتم تخرجون وعند أهل العربية هذا الوقف قبيح لأنَّ ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها وجواب إذا الأولى عند الخليل وسيبويه إذا أنتم والوقف على ما دون جواب إذا قبيح لأنَّ إذا الأولى للشرط والثانية للجزاء وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط قال قتادة دعاكم من السماء فأجبتم من الأرض أي بنفخة إسرافيل في الصور للبعث إلا أيتها الأجساد البالية والعظام النخرة والعروق المتمزقة واللحوم المنتنة قوموا إلى محاسبة رب العزة 0

تخرجون (تام)

والأرض (كاف) على استئناف ما بعده 0

قانتون (تام)

ثم يعيده (حسن)

أهون عليه (تام)

وأهون ليست للتفضيل بل هي صفة بمعنى هين كقوله الله أكبر بمعنى كبير كما قال الفرزدق :

إنَّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة وقيل الضمير في عليه يعود على الخلق أي والعود أهون على الخلق وقيل

يعود على المخلوق أي والإعادة على المخلوق أهون أي إعادته ميتاً بعد ما أنشأه وإعادته

على البارئ أليق ليوافق الضمير في وله المثل الأعلا ورسموا الأعلا بلام ألف كما ترى 0

والأرض (كاف) على استئناف ما بعده

الحكيم (تام)

من أنفسكم (حسن)

كخيفتكم أنفسكم (أحسن) مما قبله

يعقلون (تام)

بغير علم (حسن)

من أضل الله (كاف)

من ناصرين (تام)

حنيفاً (كاف) لأنَّ فطرت منصوب على الإغراء أي ألزموا فطرة الله ورسموا فطرت الله

بالتاء المجرورة كما ترى

فطر الناس عليها (حسن) ومثله لخلق الله

الدين القيم ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده

لا يعلمون (كاف) إن نصب ما بعده بمقدر تقديره كونوا منيبين إليه والدليل على ذلك قوله بعد ولا تكونوا من المشركين وقيل منيبين قد وقع موقع قوله أنيبوا فانتصب بهذا الفعل الذي قام مقامه إلا أنَّه لا يجوز إظهاره فعلى هذا القول يوقف على يعلمون أيضاً وليس يعلمون وقفاً إن نصب منيبين حالاً بتقدير فأقم وجهك منيبين إليه وذلك أن أقم خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته فكأنه قال وأقيموا وجوهكم منيبين إليه في هذه الحالة فعلى هذا القول لا وقف من قوله فأقم إلى شيعاً ومثله إن جعل حالاً من الناس وأريد بهم المؤمنين واتقوه (جائز) ومثله الصلاة * وكذا من المشركين * وقيل لا يجوز لأنَّ ما بعده بيان لهم أو بدل من المشركين بإعادة العامل

شيعاً (حسن)

فرحون (تام) ولا وقف إلى يشركون

ويشركون (جائز) لأنَّه رأس آية

بما آتيناهم (كاف) ثم خاطب الذين فعلوا هذا بخطاب وعيد وتهديد فقال فتمتعوا

فسوف تعلمون (جائز)

يشركون (تام)

فرحوا بها (حسن) فصلاً بين النقيضين

يقنطون (تام)

ويقدر (كاف)

يؤمنون (تام)

وابن السبيل (حسن)

وجه الله (جائز)

المفلحون (تام)

عند الله (حسن) لأَنَّه رأس آية

المضعفون (تام) ولا وقف من قوله الله الذي خلقكم إلى يحييكم لأنَّ ثم لترتيب الفعل لا لترتيب الأخبار

يحييكم (حسن)

من شيء (كاف) وإذا قرئ يشركون بالتحتية كان تاماً

يشركون (أتم)

بما كسبت أيدي الناس (كاف) عند أبي حاتم قال لأنَّ اللام في ليذيقهم لام قسم وكانت مفتوحة فلما حذفت النون للتخفيف كسرت اللام فأشبهت لام كي وخولف أبو حاتم في هذا لأنَّ ليذيقهم متعلق بما قبله فلا يقطع منه وما قاله لا يجوز في العربية لأنَّ لام القسم لا تكون مكسورة قال بعضهم ولا نعلم أن أحداً من أهل العربية وافق أبا حاتم في هذا القول

كما تقدم

يرجعون (تام)

من قبل (حسن)

مشركين (تام)

(109/600)

من الله (كاف) عند أبي حاتم إن جعل موضع يومئذ نصباً وليس بوقف إن جعل موضعه رفعاً على البدل من قوله يوم لا مردَّ له من الله وإنَّما فتح وهو في موضع رفع لأَنَّه أضيف إلى غير متمكن فصار بمنزلة قول النابغة

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألما أصح والشيب وازع

وكقول الآخر

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات أوقال

فنصب غير وهو في موضع رفع لأَنَّ الظرف إذا أضيف لماض فالمختار بناؤه على الفتح كيوم ولدته أمه وإنْ أضيف إلى جملة مضارعية كهذا يوم ينفع الصادقين صدقهم أو اسمية كجئت يوم زيد منطلق فالإعراب أولى

يصدعون (تام)

فعليه كفره (جائز) لعطف جملتي الشرط

يمهدون (كاف) على مذهب أبي حاتم القائل إنَّ اللام في ليجزي بمنزلة لام القسم وتقدم ما فيه والأجود وصله

من فضله (كاف)

الكافرين (تام) ولا وقف من قوله ومن آياته إلى تشكرون فلا يوقف على من رحمته ولا على بأمره للام كي فيهما ولا على من فضله لحرف الترجي

تشكرون (تام)

بالبينات (جائز)

من الذين أجرموا (حسن)

وكان حقاً (جائز) أي وكان الانتقام منهم حقاً فاسم كان مضمر وحقاً خبرها ثم تبتدئ علينا نصر المؤمنين فنصر مبتدأ وعلينا خبره وليس بوقف إن جعل نصر اسم كان وحقاً خبرها وعلينا متعلق بحقاً والتقدير وكان نصر المؤمنين حقاً علينا قال أبو حاتم وهذا أوجه من الأول لوجهين أحدهما أنَّه لا يحتاج إلى تقدير محذوف والثاني من حيث المعنى وذلك أي الوقف على حقاً يوجب الانتقام ويوجب نصر المؤمنين قاله الكواشي

نصر المؤمنين (تام)

من خلاله (حسن)

يسبشرون (كاف) ومثله لمبلسين ولك أن تجعل أن بمعنى ما واللام بمعنى إلاَّ أي ما كانوا من قبل نزول المطر إلاَّ مبلسين أي آيسين من نزوله

بعد موتها (حسن)

الموتى (جائز)

قدير (تام)

فرأوه مصفراً ليس بوقف لأنَّ اللام في ولئن مؤذنة بقسم محذوف وجوابه لظلوا

يكفرون (تام)

(110/600)

لا تسمع الموتى (حسن) على قراءة ابن كثير ولا يسمع الثانية بالياء المفتوحة وفتح الميم والصمّ بالرفع الدعاء وليس بوقف على قراءة تسمع بالفوقية المضمومة وكسر الميم والصم بالنصب لتعلق ما بعده بما قبله من الخطاب

مدبرين (كاف)

عن ضلالتهم (حسن) ومثله بآياتنا

مسلمون (تام)

من ضعف (جائز) ومثله قوة وكذا وشيبة

ما يشاء (كاف)

القدير (تام)

المجرمون ليس بوقف لأنَّ الذي بعده جواب القسم وهو ما لبثوا

غير ساعة (حسن)

يؤفكون (كاف) ومثله إلى يوم البعث لاختلاف الجملتين والفاء في قوله فهذا يوم البعث

جواب شرط مقدر يدل عليه الكلام تقديره إن كنتم شاكين أو منكرين في يوم البعث فهذا يوم

البعث

ويوم البعث ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده

لا يعلمون (كاف)

معذرتهم (جائز)

يستعتبون (تام)

من كل مثل (كاف)

بآية ليس بوقف لأنَّ ما بعده قد قام مقام جواب القسم والجزاء

مبطلون (حسن)

لا يعلمون (كاف)

حق (جائز)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 597.604 ﴾

(111/600)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الروم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

روى الواقدي 1 عن سليمان عن أبي جعفر : "وَآثَارُوا الْأَرْضَ" 2 ، ممدودة . قال ابن مجاهد : ليس هذا بشيء .

قال أبو الفتح ظاهره لعمري منكر إلا أن له وجها ما ، وليس لحنا مقطوعا به ؛ وذلك أنه أراد وأثاروا الأرض ، أي : شققوها للغرس والزراعة ، وهو أفعلوا من قول الله سبحانه : ﴿ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ 3 ، إلا أنه أشبع فتحة الهمزة ؛ فأنشأ عنها ألفا ، فصارت "آثاروا" وقد ذكرنا ذلك وشواهده في نحو قول ابن هرمة :

فأْنتَ مِنَ الغَوائِلِ حِينَ تُرْمَى ومِنْ ذَمِّ الرجالِ بِمُنْتَزاحِ4

يريد : بمنتزح ، منفعل من النازح ؛ فأشبع فتحة الزاي ، فأنشأ عنها ألفا . وهذا لعمري مما تختص به ضرورة الشعر لا تخيُّر القرآن .

ومن ذلك قراءة عكرمة "حِينًا تُمْسُونَ"5 .

قال أبو الفتح : أراد : حينًا تمسون فيه ، فحذف "فيه" تخفيفا . هذا مذهب صاحب الكتاب في نحوه ، وهو قوله سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ 6 ،

---

1 هو محمد بن عمر بن واقد أبو عبد الله الواقدي المدني ، ثم البغدادي . روى القراءة عن نافع بن نعيم وغيره ، وروى القراءة عنه محمد بن سعيد كاتبه . مات سنة 209 ببغداد ، ودفن بمقابر الخيزران . طبقات ابن الجزري : 2 : 219 .

2 سورة مريم : 9 .

3 سورة البقرة : 71 .

4 في ك : وأنت . وانظر الصفحة : 166 من الجزء الأول .

5 سورة الروم : 17 .

6 سورة البقرة : 48 ، 123 .

أي لا تجزي فيه ثم حذف "فيه" معتبطا 1 لحرف الجر والضمير لدلالة الفعل 2 عليهما .

وقال أبو الحسن : حذف "في" فبقي "تجزيه" ؛ لأنه أوصل إليه الفعل ، ثم حذف الضمير من بعد ، ففيه حذفان متتاليان شيئًا على شيء ، وهذا أرفق ، والنفس به أبسأ 3 من أن يُعْتَبَطَ الحرفان معا في وقت واحد .

وقرأ أيضا : "وَحِينًا تُصْبِحُونَ" ، والطريق واحد .

ومن ذلك [124ظ] قراءة أبي العالية : "فَيُمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُون" 4 .

قال أبو الفتح : "يمتعوا" معطوف على قوله : "لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَيُمَتَّعُوا" ، أي : فتطول أعمارهم على كفرهم فسوف يعلمون ، تهدّدا على ذلك .

ومن ذلك قراءة علي عليه السلام : "مِن خَلِه" 5 ، وكذا ابن عباس والضحاك والحسن ، بخلاف .

قال أبو الفتح : يجوز أن يكون "خلل" واحد خِلال ، كجَبَل وجِبال ، ودار ودِيَار . ويجوز أن يكون خلال واحدًا عَاقَبَ خللا ، كالغَرَاء والغِرَاء 6 ، والصَلَى والصَّلاء 7 . وسُمِّيَ الرجلُ خليلا 8 ، كأنه يسدُّ خَلَلَ خَلِيلِهِ 9 ، فهذا إذا للسلب لا للإثبات ، كالسُّكاك للهواء بين الأرض والسماء ، كأنه استلب معنى سكك ، وهو الضيق ، وقد تقدم نحو هذا .

1 معتبطا : لغير مقتض ولا علة ، من قولهم : اعتبطه الموت ، أي : ذهب به شابا صحيحا .

2 في ك : العقل .

3 أبسأ : آنس .

4 سورة الروم : 34 .

5 سورة الروم : 48 .

6 الغرا والغراء : ما طلى به أو ما ألصق به .

7 الصلى والصلاء : النار .

8 خليلا ساقطة في ك .

9 في ك : صاحبه .

(113/600)

ومن ذلك قراءة الجحدري وابن السميفع وأبي حيوة : "أَثَر رَحْمَةِ اللَّهِ" 1 ، "كَيْفَ تُحْيِي" . قال أبو الفتح ذهب بالتأنيث إلى لفظ "الرحمة" ولا تقول على هذا : أما ترى إلى غلام هند كيف تضرب زيدا ؟ بالتاء وفرق بينهما أن الرحمة قد يقوم مقامها أثرها ، فإذا ذكرت أثرها

فكأن الغرض في ذلك إنما هو هي . تقول : رأيت عليك النعمة ، ورأيت عليك أثر النعمة ، ولا يعبر عن هند بغلامها .

ألا ترى أنك لا تقول رأيت غلام هند وأنت تعني أنك رأيتها ؟ وأثر النعمة كأنه هو النعمة ، وقوله : ﴿كَيْفَ تُحْيِي﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال ، حملا على المعنى لا على اللفظ ؛ وذلك أن اللفظ استفهام ، والحال ضرب من الخبر ، والاستفهام والخبر معنيان متدافعان . وتلخيص كونها حالا أنه كأنه قال : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها ، كما أن قوله :

ما زِلْتُ أسعَى معهمْ وأختبِط حتى إذا جاء الظلامُ المُخْتَلِط
جاءُوا بِضَيْحٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّيبَ قَطّ2 ؟

فقوله : هل رأيت الذيب قط جملة استفهامية ، إلا أنها في موضع وصف "الضيح" حملا على معناها دون لفظها ؛ لأن الصفة ضرب من الخبر ، فكأنه قال : جاءوا بضيح يشبه لونه لون الذئب . والضيح : هو اللبن المخلوط بالماء ، فهو يضرب إلى الخضرة والطلسة3 ، وعليه قول الآخر :

إِلَى اللهِ أَشْكُو بالمدينةِ حاجَةً وبالشَّامِ أُخْرَى كَيْفَ تَلْتَقِيانِ4 ؟

---

1 سورة الروم : 50 .

2 قبله :

بتنا بحسان ومعزاه تئط

وروي "بينهم" مكان "معهم" ، "ألتبط" مكان "أختبط" ، و"كاد" مكان "جاء" ، و"يختلط" مكان "المختلط" ، و"مذق" مكان "ضيح" . والمعزى : اسم جنس كالمعز ، والواحد ماعز ، وللأنثى ماعزة ، وهي العنز . وتئط : يصوت جوفها من الجوع . وضمير "معهم" لحسان باعتبار قبيلته . وأختبط : أسأل معروفهم من غير وسيلة . وألتبط : أعدو . والمذق . المذيق ، وهو اللبن الممزوج بالماء . وانظر الخزانة : 1 : 275 ، وشواهد الكشاف : 74 .

3 الطلسة : الغبرة إلى سواد .

4 نسبه في الدرر اللوامع "2 : 166" إلى الفرزدق ، ولم نعثر عليه في ديوانه .

فقوله : كيف تلتقيان جملة في موضع نصب بدلا من "حاجةً" وحاجةً ، فكأنه قال : إلى الله أشكو هاتين الحالتين تعذر التقائهما , هذا أحسن من أن تقتطع قوله : كيف تلتقيان مستأنفا ، لأن هذا ضرب من هجنة الإعراب ، لأنه إنما يشكو تعذر التقائهما ، ولا يريد استقبال الاستفهام عنهما .

ومن ذلك قراءة الحسن : "إِلَى يَوْمِ الْبَعَثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعَثِ" 1 ، بفتح العين فيهما .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على حديث فتحة الحرف الحلقي إذا كان ساكن الأصل تاليا للفتح ، وذكر الفرق بين قولنا وقول البغداديين فيه ، وأنني أرى فيه رأيهم لا أرى أصحابنا . وذكرت ما سمعته من الشجري وغيره من قولهم فيه : أنا محموم ، وقوله : يغذو ، وهو يريد : يغذو . فلا حاجة لإعادته هنا 2 ، فكذلك يجوز أن يكون أراد "البعث [125و] على قراءة الجماعة ، ثم حرك بالفتح لأجل حرف الحلق .

ومن ذلك قراءة ابن أبي إسحاق ويعقوب : "ولا يَسْتَحِقَّنَّكَ" 3 .

قال أبو الفتح : أي لا يغلبنك ، فيصيروا أحق بك منك بنفسك ، هذا محصول هذه القراءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 162 . 165﴾

---

1 سورة الروم : 56 .

2 انظر الصفحة 84 من الجزء الأول .

3 سورة الروم : 60 ، وفي نسختي الأصل "يستخفنك" سكون النون لكن كتب في هامشهما : في نسخته "يستحقنك" . وفي البحر "7 : 181" : وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب : "ولا يستحقنك" بحاء مهملة ، وقاف ، من الاستحقاق . والجمهور بخاء معجمة وفاء ، من الاستخفاف . وسكن النون ابن أبي عبلة ويعقوب فما أثبت في صلب نسختي الأصل قراءة ابن أبي عبلة ورواية أخرى عن يعقوب .

(115/600)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الروم

مكية وآيها تسع وخمسون مكي ومدني أخير وستون في الباقي خلافها خمس ألم كوفي غلبت الروم غير مكي ومدني أخير بضع سنين غيره وكوفي سيغلبون غير مكي بخلف يقسم المجرمون مدني أول القراآت قد مر سكت أبي جعفر على حرف ( ) الم ( ) كإمالة (الدنيا) لحمزة والكسائي وخلف والدوري عن أبي عمرو بخلفه وتقليها للأزرق وابي عمرو بخلفهما وقرأ (رسلهم) بسكون السين أبو عمرو

(116/600)

واختلف في ( ) عاقبة الذين ( ) الآية 10 الثاني فنافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بالرفع اسما لكان وخبرها السوآى وهو تأنيث الأسوأ أفعل من السوء وأن كذبوا مفعول من أجله متعلق بالخبر لا بأساؤا للفصل حينئذ بين الصلة ومتعلقها بالخبر وهو ممتنع

وافقهم اليزيدي والحسن والباقون بالنصب خبرا لكان والاسم السوآى أو السوآى مفعول أساؤا وإن كذبوا الاسم وخرج بالثاني الأول والثالث كيف كان عاقبة المتفق على رفعهما وأمال (السوأى) حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وأبو عمرو بخلفهما ويمد همزها الأزرق وصلا مدا مشبعا عملا بأقوى السببين وهو المد لأجل الهمز بعدها كما مر فإن وقف عليها جازت الثلاثة له بسبب تقدم الهمز وذهاب سببية الهمز بعد ويوقف عليها لحمزة بنقل حركة الهمزة إلى الواو على القياس وبالإبدال والإدغام إجراء للأصلي مجرى الزائد وحكي ثالث وهو التسهيل بين بين لكنه ضعيف كما في النشر وقرأ أبو جعفر ( ) يستهزؤون ( ) بحذف الهمزة وضم الزاي وصلا ووقفا ويوقف عليه لحمزة بالتسهيل كالواو على مذهب سيبويه والجمهور بإبدال الهمزة ياء على رأي الأخفش وبالحذف مع ضم الزاي كأبي جعفر للرسم على مختار الداني فهذه ثلاثة لا يصح غيرها وأما التسهيل كالياء وهو المعضل وإبدالها واوا فكلاهما لا يصح وكذا الوجه الخامل وهو الحذف مع كسر الزاي كما حقق في النشر وإذا وقف عليه للأزرق فمن روى عنه المد وصلا وقف كذلك مطلقا ومن روى عنه التوسط وقف به إن لم يعتد بالعارض وبالمد أن اعتد به ومن روى عنه القصر وقف كذلك إن لم يعتد بالعارض وبالتوسط والإشباع إن اعتد به ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على ﴿ يبدؤا) ﴾ بإبدال الهمزة ألفا على القياسي ويجوز

تسهيلها كالواو وعلى الرسم تبدل واوا مضمومة ثم تسكن للوقف ويجوز الإشارة إلى حركتها بالروم والإشمام فهذه خمسة كلها تقدمت في الملؤا بالنمل المرسوم بالواو

(117/600)

واختلف في ( ) ثم إليه ترجعون (الآية 11 فأبو عمرو وأبو بكر وروح بالغيب وافقهم اليزيدي والباقون بالخطاب وقرأ بالبناء للفاعل يعقوب ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على ﴿ شفعؤا) ﴾ المرسوم بالواو بإبدالها ألفا على القياس مع المد والتوسط والقصر وبين بين مع المد والقصر فهذه خمسة وعلى الرسم تبدل واوا مع المد والقصر والتوسط حال سكون الواو وتجوز الثلاثة مع الإشمام والقصر مع الروم تصير اثني عشر وجها خمسة على القياسي وسبعة على الرسمي وقرأ (الميت) بالتشديد نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر ويعقوب وقرأ ( ) وكذلك تخرجون (الأول من هذه السورة بالبناء للفاعل حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بخلف عنه تقدم تفصيله بالأعراف والباقون بالبناء للمفعول وخرج الثاني إذا أنتم تخرجون المتفق على بنائه للفاعل كموضع الحشر

واختلف في (للعالمين) الآية 22 فحفص بكسر اللام قبل الميم جمع عالم ضد الجاهل لأنه المنتفع بالآيات على حد وما يعقلها إلا العالمون والباقون بفتحها جمع عالم وهو كل موجود

سوى الله لأنها لا تكاد تخفى على أحد وهو اسم جمع وإنما جمع باعتبار الأزمان والأنواع ومر تغليظ لام (ظلموا) للأزرق بخلفه كالوقف على ﴿ فطرت ﴾ بالهاء لابن كثير وابي عمرو والكسائي ويعقوب وقرأ (فرقوا) بألف بعد الفاء وتخفيف الراء حمزة والكسائي وسبق بالأنعام وقرأ (يقنطون) بكسر النون أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره والباقون بفتحها وسبق بالحجر وقرأ ﴿ أتيتم من ربا ﴾ بقصر الهمزة ابن كثير وحده أي وما جئتم والباقون بالمد بمعنى الإعطاء ومر بالبقرة وخرج بالقيد آتيتم من زكاة المتفق على مده

وأمال ( ) من ربا (وقفا حمزة والكسائي وخلف وتقدم في الإمالة أن الجمهور على فتحه للأزرق وجها واحدا لكونه واويا

(118/600)

واختلف في (ليربو) الآية 39 فنافع وابو جعفر ويعقوب بالتاء من فوق وضمها وسكون الواو على إسناده لضمير المخاطبين وهو مضارع أربى معدى بالهمزة فمضارعه مضموم حذفت منه نون الرفع لنصبه بأن مقدرة بعد لام كي وافقهم الحسن والباقون بياء الغيب وفتحها وفتح الواو لإسناد الفعل إلى ضمير يربو وهو مضارع ربا زاد فواوه لام الكلمة

وفتحت علامة للنصب لأنها حرف الإعراب وخرج فلا يربو المتفق على غيبته وقرأ ( )
عما يشركون ( ) بالغيب نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب
ومر بيونس

واختلف في ﴿ لنذيقهم بعض ﴾ الآية 41 فروح بالنون للعظمة واختلف فيه عن قنبل
فابن مجاهد عنه بالنون كذلك وكذا أبو الفرج عن ابن شنبوذ فانفرد بذلك عنه وروى
الشطوي كباقي أصحابه عن ابن شنبوذ عنه بالياء من تحت وبه قرأ الباقون وخرج بالقيد
الثاني المتفق على غيبته

وقرأ ﴿ الريح فتثير ﴾ الآية 48 بالتوحيد ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وخرج ( )
الرياح مبشرات ( ) المتفق على جمعه لوصفه بمبشرات وقرأ (كسفا) بفتح السين نافع وابن
كثير وأبو عمرو وهشام من طريق الداجوني وبه قرأ الداني من طريق الحلواني على شيخه
فارس وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وافقهم الأربعة وهو جمع كسفة كقطعة
وقطع وقرأ ابن ذكوان وهشام من جميع طرق ابن مجاهد وأبو جعفر بالإسكان جمع كسفة
أيضا كسدرة وسدر وصحح في النشر الوجهين عن هشام من طريقيه

وأمال) فترى الودق ( ) الآية 48 وصلا السوسي بخلف عنه وقرأ ( ) ينزل عليهم (
بسكون النون وتخفيف الزاي ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب

واختلف في ﴿ أثر رحمت) ﴾ فابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف بالجمع لتعدد أثر المطر المعبر عنه بالرحمة وتنوعه وافقهم الحسن والأعمش وأما لها ابن ذكوان من طريق الصوري والدوري عن الكسائي والباقون بالتوحيد ووقف على رحمة بالهاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب وقرأ ﴿ ولا يسمع الصم ﴾ بفتح الياء من تحت وفتح الميم ورفع الصم على الفاعلية ابن كثير وافقه ابن محيصن والباقون بضم التاء الفوقية مع كسر الميم ونصب الصم على المفعولية وسهل الثانية من ( ) الدعاء إذا (كالياء نافع وابن كثير وابو عمر وأبو جعفر ورويس وقرأ (بهادي) بفتح التاء من فوق وإسكان الهاء بلا ألف (العمي) بالنصب حمزة والباقون بكسر الموحدة وفتح الهاء وألف بعدها مضافا للعمي فتكسر الياء ومر ذلك مع توجيهه بالنمل وإنه يوقف عليه بالياء لحمزة والكسائي بخلفهما ويعقوب

واختلف في (ضعف) الآية 54 في الثلاثة فأبو بكر وحفص بخلف عنه وحمزة بفتح الضاد وافقهم الأعمش والباقون بضمها في الثلاث وهو الذي اختاره حفص لحديث ابن عمر فيه وعن حفص أنه قال ما خالفت عاصما إلا في هذا الحرف وقد صح عنه الفتح والضم قال في النشر وبالوجهين قرأت له وبهما آخذ قيل هما بمعنى وقيل الضم في البدن والفتح في العقل وأدغم (لبئتم) أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وذكر الأصل خلافا عنه

عن ابن ذكوان وتقدم التنبيه

واختلف في ﴿ تنفع ﴾ الآية 57 هنا والطول الآية 52 فعاصم وحمزة

والكسائي وخلف بالتذكير فيهما لأن تأنيث المعذرة غير حقيقي أو بمعنى العذر وافقهم

الحسن والأعمش ووافقهم نافع في الطول والباقون بالتأنيث فيهما مراعاة للفظ وقرأ ( ) ولا

يستخفنك ( ) الآية 60 بتخفيف نون التوكيد ورويس ومر بآل عمران

(120/600)

المرسوم قال الغازي بلقاي وبهم ولقاي الآخرة بالياء بعد الألف واتفقوا على رسم ألف بعد

واو السوآى وعلى رسم واو بدل الألف مع ألف بعدها في شفعؤا وكانوا وعلى رسم يبدؤا

بواو وألف واتفقوا على حذف الياء في بهاد العمي واختلفوا في حذف ألفها واختلفوا في

قطع من عن ما في قوله تعالى من ما ملكت أيمانكم وأجمعوا على التاء في رحمت الله وفطرت

الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 443. 446 ﴾

(121/600)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الروم "

" الم " فيه السكت لأبي جعفر على حروف الهجاء الثلاثة .

" المؤمنون " وهو ، ظاهرا ، الآخرة ، كثيرا ، لكافرون ، تظهرون ، تنتشرون ، وهو ، فيه ظلموا ، جلي .

" لقاء ربهم " اختلف في رسم الهمزة فقيل إنها رسمت على ياء وعليه ففيه لحمزة وهشام عند الوقف تسعة أوجه الإبدال ألفا مع القصر والتوسط والمد والتسهيل بالروم مع المد والقصر والإبدال ياء خالصة بالسكون المحض مع الأوجه الثلاثة وبالروم مع القصر ، وقيل إنها لم ترسم على ياء وعليه فيكون فيه الأوجه الخمسة القياسية الأولى وهذا حكم لقاء الآخرة الآتي .

" رسلهم " أسكن السين أبو عمرو وضمها غيره .

" ثم كان عاقبة الذين " قرأ المدنيان والمكي والبصريان برفع التاء الفوقية والباقون بنصبها .

" السوآى أن " إن وقفت على السوآى فالمد مد بدل فيكون فيه لورش الثلاثة وبالنظر لذات الياء يكون له أربعة أوجه القصر مع الفتح والتوسط مع التقليل والمد معهما ويكون فيه لحمزة حينئذ وجهان أحدهما نقل حركة الهمزة إلى الواو قبلها مع حذف الهمزة فيصير النطق بسين مضمومة بعدها واو مفتوحة مخففة وبعد الواو ألف ممالة ، الثاني الإبدال والإدغام

فيصير النطق بسين مضمومة بعدها واو مفتوحة مشددة ثم ألف ممالة ، وأما إن وصلت السوآى بأن فالمد حينئذ يكون منفصلا لجميع القراء ورش وغيره عملا بأقوى السببين فكل على أصله فيه ، فان وصلت السوآى بأن ونظرت إلى البدل في بآيات الله ويستهزءون يكون لورش سبعة أوجه فتح السوآى مع قصر بآيات ومع الثلاثة في يستهزءون ثم تطويل آيات مع تطويل يستهزءون . ثم تقليل السوآى مع توسط بآيات ومع التوسط والمد في الأخير ثم مد بآيات مع الأخير فيكون له على الفتح أربعة أوجه وعلى التقليل ثلاثة ، ولا يخفى ما في يستهزءون لأبي جعفر وحمزة .

" يبدؤا " فيه لحمزة وهشام وقفا خمسة أوجه تقدمت في تفتؤا بيوسف .

(122/600)

" ترجعون " قرأ أبو عمرو وشعبة وروح بياء الغيبة وغيرهم بتاء الخطاب ، وجميع القراء بالبناء للمفعول إلا يعقوب فبالبناء للفاعل .

" شفعاؤا " رسمت الهمزة فيه على واو ففيه لحمزة وهشام وقفا اثنا عشر وجها تقدمت في المائدة والأنعام .

" الميت معا " قرأ المدنيان والأخوان وحفص ويعقوب وخلف بالتشديد وغيرهم

بالتخفيف .

" وكذلك تخرجون " قرأ الأخوان وخلف وابن ذكوان بخلف عنه بفتح التاء وضم الراء والباقون بضم التاء وفتح الراء وهو الوجه الثاني لابن ذكوان ، هذا ما يؤخذ من الشاطبية لابن ذكوان ولكن الذي حققه صاحب النشر أن طريق الأخفش وهي طريق الشاطبية بفتح التاء وضم الراء وقال لا ينبغي أن يؤخذ من التيسير بسواه .

" للعالمين " قرأ حفص بكسر اللام وغيره بفتحها .

" وينزل " خففه المكي والبصريان وشدده غيرهم .

" إذا أنتم تخرجون " اتفقوا على قراءته بفتح التاء وضم الراء .

" فطرت " رسمت بالتاء فوقف بالهاء ابن كثير والبصريان والكسائي والباقون بالتاء .

" لا يعلمون " آخر الربع .

الممال

أدنى ومسمى لدى الوقف عليهما والأعلى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه الناس معا لدوري البصري الدنيا والسوآى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . وجاءتهم لابن ذكوان وخلف وحمزة كافرين بالإمالة لرويس والبصري والدوري ، التقليل لورش ؛ النهار مثله ما عدا رويسا ، فطرت بالإمالة للكسائي بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " " خلقكم " لا تبديل لخلق الله .

" إليه واتقوه " الصلاة ، لديهم ، فهو ويقدر ، خير ، سيروا ، مبشرات ، فتثير ، من خلاله ، يستبشرون ، ينزل ، عليهم ، الدعاء إذا ، جلي .

" فرقوا " قرأ الأخوان بالألف بعد الفاء مع تخفيف الراء وغيرهما بحذف الألف وتشديد الراء .

" يقنطون " قرأ البصريان والكسائي وخلف عن نفسه بكسر النون والباقون بفتحها .

" آتيتم من ربا " قرأ المكي بقصر الهمزة وغيره بمدها أي بألف بعدها ولا خلاف بينهم في مد الثاني وهو وما آتيتم من زكاة .

(123/600)

" ليربوا " قرأ المدنيان ويعقوب بتاء مثناة فوقية مضمومة مع إسكان الواو والباقون بياء تحتية مفتوحة مع فتح الواو . ولا خلاف بينهم في فلا يربو أنه بالياء التحتية المفتوحة مع إسكان الواو .

" يشركون " قرأ الأخوان وخلف بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة .

" ليذيقهم " قرأ قنبل وروح بالنون وغيرهما بالياء التحتية ، ولا خلاف بينهم في " وليذيقكم من رحمته " أنه بالياء التحتية .

" الرياح فتثير " قرأ المكي والأخوان وخلف بالإفراد والباقون بالجمع وأجمعوا على القراءة بالجمع في " الرياح مبشرات " .

" كسفا " قرأ أبو جعفر وابن ذكوان وهشام بخلف عنه بإسكان السين والباقون بفتحها وهو الوجه الثاني لهشام .

" آثار رحمت " قرأ الشامي والأخوان وخلف وحفص بألف بعد الهمزة وألف بعد الثاء على الجمع والباقون بحذف الألفين على الإفراد .

" رحمت " رسمت بالتاء وحكمه حكم فطرت .

" ولا تسمع الصم الدعاء " قرأ ابن كثير بالياء التحتية المفتوحة وفتح الميم وضم ميم الصم . والباقون بالتاء الفوقية المضمومة وكسر الميم ونصب ميم الصم .

" بهادي العمي " قرأ حمزة تهدي بالتاء الفوقية المفتوحة وإسكان الهاء ونصب ياء العمي . وغيره بالباء الموحدة المكسورة وفتح الهاء وألف بعدها وخفض ياء العمي ، ويقف على بهادي بالياء حمزة والكسائي ويعقوب والباقون بحذفها .

" مسلمون " آخر الربع .

الممال

الناس الثلاثة لدوري البصري ، القربى والموتى معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . فترى الودق إذا وقف على فترى يميله البصري والأخوان وخلف ويقلله ورش وإذا وصل بالودق يميله السوسي بخلفه . ربا عند الوقف عليه بالإمالة للأصحاب ولا تقليل فيه لورش . وتعالى مثله غير أن ورشا له فيه التقليل بخلف عنه . الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس وبالتقليل لورش ، فجاءوهم لابن ذكوان وخلف وحمزة . آثار بالإمالة لدوري الكسائي وحده ولا تقليل فيه لورش ولا إمالة فيه للبصري لقراءتهما بالأفراد .

المدغم

" الكبير " تتكلم بما ، فآت ذا ، على أحد الوجهين ، خلقكم ، رزقكم ، القيم من ، يأتي يوم أصاب به ، أثر رحمت " .

" ضعف الثلاثة " قرأ حمزة وشعبة وحفص بخلف عنه . بفتح الضاد والباقون بضمها وهو الوجه الثاني لحفص والوجهان عنه جيدان .

" وهو " غير ، يؤفكون ، ظلموا ، معذرتهم ، القرآن ، جئتهم ، كله جلي .

" ينفع " قرأ الكوفيون بياء التذكير وغيرهم بتاء التأنيث .

" ولا يستخفنك " قرأ رويس بتخفيف النون وغيره بتشديدها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 252 . 255 ﴾

(125/600)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الروم

قوله تعالى ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا ﴾ يقرا بنصب عاقبة ورفع السوءى وبرفع عاقبة ونصب السوءى وبالتفخيم في السوءى والإمالة على ما قدمناه من الاحتجاج في أمثاله

ووزن السوءى فعلى من السوء وهي ها هنا العذاب وقوله أن كذبوا في موضع نصب لأنه مفعول له معناه لكذبهم

قوله تعالى ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ يقرأ بالياء والتاء والفتح والضم وقد تقدم ذكر معناه

قوله تعالى ﴿ لآيات للعالمين ﴾ يقرأ بفتح اللام وكسرها فالحجة لن فتح أنه جعله جمع عالم

والعالم يحتوي على كل المخلوقات من إنس وجان وجماد وحيوان والحجة لمن كسر أنه جعله جمع عالم لأن العالم أقرب إلى الاعتبار من الجاهل ودليله قوله ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ فإن قيل فما وجه دخول الحيوان والجماد في جملة من يعتبروهما لا يعقلان ذلك فقل إن اللفظ وإن كان عاما فالمراد به الخاص ممن يعقل ودليله قوله تعالى ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ جاء التفسير أنه اراد عالم أهل زمانكم من الرجال والنساء

قوله تعالى ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ يقرأ بفتح التاء وضم الراء وبضم التاء وفتح الراء فالحجة لمن فتح التاء أنه جعله الفعل لهم والحجة لمن ضم أنه جعله لما لم يسم فاعله

قوله تعالى ﴿ وما آتيتم من ربا ﴾ يقرأ بالمد من الإعطاء ودليله إجماعهم على مد قوله بعده ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ إلا ما روي عن ابن كثير من القصر يريد به معنى المجيء

قوله تعالى ﴿ ليربو في أموال الناس ﴾ أجمع القراء على قراءته بالياء وفتح الواو لأنه فعل مضارع دخلت عليه لام كي والربا فاعله إلا ما انفرد به نافع من التاء في موضع الياء مضمومة وإسكان الواو لأنه جعل التاء دليلا للخطاب وضمها لأنها من أربى وأسكن الواو لأنها للجمع وجعل علامة النصب سقوط النون وحمله على ذلك كتابتها في السواد بألف بعد الواو

قوله تعالى ﴿ كسفا ﴾ يقرا بإسكان السين وفتحها وقد ذكرت علته في سورة بني إسرائيل

قوله تعالى ﴿ إلى آثار رحمة الله ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه أكتفى بالواحد من الجمع لنيابته عنه ودليله قوله ﴿ هم أولاء على أثري ﴾ ولم يقل آثاري والحجة لمن جمع أنه أراد به أثار المطر في الأرض مرة بعد مرة والمراد بهذا من الله عز وجل تعريف من لا يقر بالبعث ولا يوقن بحياة بعد موت فأراهم الله تعالى إحياء بعد موت ليعرفوا ما غاب عنهم بما قد شاهدوه عيانا فتكون أبلغ في الوعظ لهم وأثبت للحجة عليهم

قوله تعالى ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ يقرأ بفتح التاء والرفع وبضمها والنصب وقد ذكرت علله آنفا

قوله تعالى ﴿ من ضعف ﴾ يقرأ بضم الضاد وفتحها وقد ذكر وجهه في الأنفال

قوله تعالى ﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ يقرأ بالياء والتاء على ما ذكر في أمثاله

قوله تعالى ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ أجمع القراء فيه على الياء إلا ما رواه قنبل عن ابن كثير بالنون يخبر بذلك الله عز وجل عن نفسه بنون الملكوت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 282 . 284 ﴾

وقال ابن زنجلة :

سورة الروم

ثم كان عقبة الذين أسؤا السوأى أن كذبوا بآيت الله وكانوا بها يستهزءون 10

قرأ أهل الشام والكوفة ثم كان عاقبة الذين بالنصب جعلوها خبر كان واسم كان السوأى أي النار و أن كذبوا في موضع نصب والتقدير ثم كان عاقبتهم النار لأن كذبوا بآيات الله وقرأ أهل الحجاز والبصرة عاقبة بالرفع جعلوها اسم كان والخبر السوأى والخبر والاسم ها هنا معرفتان وإذا اجتمع اسمان نظرت فإن كان أحدهما معرفة والآخر نكرة جعلت النكرة الخبر والمعرفة الاسم وإن كانا معرفتين كنت بالخيار أيهما شئت جعلته خبرا وأيهما شئت جعلته اسما

الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون 11

قرأ أبو عمرو وأبو بكر ثم إليه يرجعون بالياء وحجتهما أن المتقدم ذكره غيبة يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه يرجعون فقرب من ذكر الخلق فجعلا الكلام خبرا عنهم إذ كان متصلا بذكرهم والخلق هم المخلوقون في المعنى وجاء في قوله ثم يعيده على لفظ

الخلق وقوله يرجعون على المعنى وإن لم يرجع على لفظ الواحد كما كان يعيده

وقرأ الباقون ترجعون بالتاء وحجتهم ذلك أن الكلام في ابتدائه قد يكون خبرا ثم يصرف

عنه إلى خطاب كقوله تعالى الحمد لله رب العالمين ثم قال إياك نعبد صار الكلام من الغيبة إلى الخطاب

ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون 19

قرأ حمزة والكسائي وكذلك تخرجون بفتح التاء وضم الراء جعلا الفعل لهم لأن الله تعالى إذا أخرجهم خرجوا هم كما تقول مات زيد وإن كان الله أماته و دخل زيد الجنة وإن كان عمله أدخله لأن المفعول به فاعل وحجتهما قوله يخرجون من الأجداث وقوله إلى ربهم ينسلون

وقرأ الباقون تخرجون بالرفع وحجتهم قوله يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا وقوله تعالى نخرج الموتى

إن في ذلك لآيت للعلمين 22

قرأ حفص لآيات للعالمين بكسر اللام أي للعلماء وهو

جمع عالم لأن العالم بالشيء يكون أحسن اعتقادا من الجاهل كما قال تعالى 6وما يعقلها إلا العالمون وحجته ما تقدم وما تأخر فأما ما تقدم فقوله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون 21

وأما ما تأخر فقوله لآيات لقوم يعقلون 24 وإن كانت الآية لكافة الناس عالمهم وجاهلهم لأن العالم لما تدبر واستدل بما شاهد على ما لم يستدل عليه غيره صار ليس كغير العالم لذهابه عنها وتركه الاعتبار بها

وقرأ الباقون لآيات للعالمين بفتح اللام أي للناس أجمعين من الجن والإنس

وما ءاتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله 39

قرأ ابن كثير وما أتيتم من ربا من غير مد أي ما جئتم وقرأ الباقون وما آتيتم من ربا أي ما أعطيتم من قوله فآتاهم الله ثواب الدنيا أي اعطاهم

وأما قصر ابن كثير فإنه يؤول في المعنى إلى قول من مد إلا أن أتيتم على لفظ جئتم فكانه ما جئتم من ربا ومجيئهم لذلك

إنما هو على وجه الإعطاء له ومعنى الآية وما أعطيتم من هدية أهديتموها لتعوضوا ما هو أكثر منها فلا يربو عند الله لأنكم إنما قصدتم إلى زيادة العوض ولم تبتغوا بذلك وجه الله

قال عكرمة هما ربوان أحدهما حلال والآخر حرام فأما الحلال فالرجل يعطي أخاه هدية ليكافئه المهدى إليه بأضعافه لا أنه يهدي إليه ابتغاء وجه الله فهذا حلال علينا وحرام على النبي صلى الله عليه وأما الحرام فهو أن يعطي الرجل دينارا على أن يأخذ أزيد منه

قرأ نافع لتربوا في أموال الناس بضم التاء وسكون الواو فالتاء ها هنا للمخاطبين والواو واو الجمع والواو التي هي لام الفعل ساقطة لسكونها وسكون هذه فالأصل لتربوون فانقلبت

الواو ياء لانكسار ما قبلها فصار لتربيون ثم حذفنا حركة الياء فاجتمع ساكنان الياء والواو فحذفت الياء لسكونها وسكون الواو وسقطت النون علامة للنصب وفاعل الربا القوم الذين خوطبوا المعنى لتربوا أنتم أي تعطون العطية لتزدادوا بها أنتم وحجته أنها كتبت في المصاحف بألف بعد الواو

(129/600)

وقرأ الباقون ليربو بالياء وفتح الواو ويكون فاعل يربو الربا المعنى ليربو الربا وعلامة النصب فتح الواو وحجتهم الذي بعده وهو قوله فلا يربو عند الله ولم يقل فلا تربون

الله الذي خلقكم ثم رزقكم سبحنه وتعالى عما يشركون 40

قرأ حمزة والكسائي سبحانه وتعالى عما تشركون بالتاء وحجتهما في ذلك أن ذلك أتى عقيب الخطاب في قوله الله الذي

خلقكم ثم رزقكم فجرى ما بعد ذلك على لفظ ما تقدمه من الخطاب

وقرأ الباقون بالياء جعلوا الكلام خبرا عن أهل الشرك

ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا 41

قرأ ابن كثير في رواية القواس لنذيقهم بعض الذي بالنون الله يخبر عن نفسه

وقرأ الباقون بالياء إخبارا عنهم أي ليذيقهم الله

الله الذي يرسل الريح فتثير سحابا فيبسطه في المساء كيف يشاء ويجعله كسفا 48

قرأ ابن عامر ويجعله كسفا ساكنة السين وقرأ الباقون بفتح السين جمع كسفة مثل قطعة وقطع وكسرة وكسر وسدرة وسدر

ومن قرأ كسفا ساكنة السين فهي جمع كسفة مثل سدرة وسدر

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الله الذي يرسل الريح بغير ألف وقرأ الباقون بالألف وقد ذكرت الحجة في سورة البقرة

فانظر إلى ءاثر رحمت الله 50

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر فانظر إلى أثر رحمة الله بغير ألف على التوحيد وحجتهم أن الواحد ينوب على الجميع كما قال سبحانه هم أولاء على أثري ولم يقل آثاري ويجوز التوحيد في أثر لأنه مضاف إلى مفرد وجاز الجمع لأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة كما قال جل وعز وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

وقرأ الباقون آثار رحمة الله أي آثار المطر الذي هو رحمة من الله

فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء وما أنت بهد العمي عن ضللتهم 51 و52

قرأ ابن كثير ولا يسمع بالياء وفتحها الصم رفع أي لا ينقادون للحق لعنادهم كما لا يسمع الأصم ما يقال له

وقرأ الباقون لا تسمع بالتاء الصم نصب خطاب لرسول الله صلى الله عليه وحجتهم ما ذكره في أول الاية وهو قوله فإنك لا تسمع الموتى فأسند الفعل إلى المخاطب فكذلك تسند إليه ما بعده ليكون الكلام على نظام واحد

قرأ حمزة وما أنت تهدي بالتاء العمي نصب

وقرأ الباقون بهادي بالباء والألف و العمي جر وقد ذكرت في طس و بهادي أثبتها الكسائي في الوقف

قال سيبويه حذف الياء من هادي لالتقائها مع التنوين فلما وقف حذف التنوين في الوقف فلما حذف التنوين عادت الياء وكانت حذفت لالتقائها ساكنة مع التنوين فيقول هادي أو يكون أريد ب هادي الإضافة ولم ينون فلما لم ينون لم يلزم أن تحذف الياء كما تحذف إذا نون لسكونها وسكون الياء

الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة 54

قرأ عاصم وحمزة من ضعف بفتح الضاد وقرأ الباقون بالرفع وهما لغتان مثل القرح والقرح

فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم 57

قرأ عاصم وحمزة والكسائي فيومئذ لا ينفع الذين بالياء وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث المعذرة ومن قرأ بالياء قال إن المعذرة بمعنى العذر كما قال تعالى فمن جاءه موعظة من ربه بالتذكير لأن الموعظة بمعنى الوعظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 556.562 ﴾

(131/600)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الروم

مكية ونظيرتها في غير المدني الأخير والمكي والذاريات ولا نظير لها فيهما

وكلمها ثماني مئة وتسع عشرة كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وأربعة وثلاثون حرفا

وهي خمسون وتسع آيات في المدني الأخير والمكي وستون آية في عدد الباقين

اختلافها أربع آيات (﴿ الم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ غلبت الروم ﴾) لم يعدها المدني الأخير والمكي وعدها الباقون (﴿ في بضع سنين ﴾) لم يعدها المدني الأول والكوفي وعدها الباقون (﴿ يقسم المجرمون ﴾) عدها المدني الأول ولم يعدها

الباقون وكلهم عد (﴿ يبلس المجرمون ﴾)

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضعان (﴿ والمسكين ﴾ وابن السبيل)

ورؤوس الآي

سيغلبون

3 سنين

* المؤمنون

4 الرحيم

5 لا يعلمون

6 غافلون

7 لكافرون

8 يظلمون

9 يستهزئون

10 ترجعون

11 المجرمون

12 كافرين

13 يتفرقون

14 يجبرون

15 محضرون

16 تصبحون

17 تظهرون

18 تخرجون

19 تنتشرون

20 يتفكرون

21 للعالمين

22 يسمعون

23 يعقلون

24 تخرجون

25 قانتون

26 الحكيم

27 يعقلون

28 ناصرين

29 لا يعلمون

30 المشركين

31 فرحون

32 يشركون

33 تعلمون

34 يشركون

35 يقنطون

36 يؤمنون

37 المفلحون

38 المضعفون

39 يشركون

40 يرجعون

41 مشركين

42 يصدعون

43 يمهدون

44 الكافرين

45 تشكرون

46 المؤمنين

47 يستبشرون

48 لمبلسين

49 قدير

50 يكفرون

51 مدبرين

52 مسلمون

53 القدير

54 يؤفكون

55 لا تعلمون

56 يستعتبون

57 مبطلون

58 لا يعلمون

59 لا يوقنون

60 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 205﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (من بعد غلبهم) المصدر مضاف إلى المفعول ، و (في بضع) يتعلق بيغلبون ، و (من قبل ومن بعد) مبنيان على الضم في المشهور ولقطعهما عن الإضافة ، وقرئ شاذا بالكسر فيهما على إرادة المضاف إليه كما قال الفرزدق .

يا من رأى عارضا يسر به * بين ذراعي وجبهة الأسد إلا أنه في البيت أقرب ، لأن ذكر المضاف إليه في أحدهما يدل على الآخر ، ويقرأ بالجر والتنوين على إعرابهما كإعرابهما مضافين ، والتقدير : من قبل كل شئ ومن

بعد كل شئ (ويومئذ) منصوب ب (يفرح) و (بنصر الله) يتعلق به أيضا ويجوز أن يتعلق ب (ينصر) .

قوله تعالى (وعد الله) هو مصدر مؤكد : أو وعد الله وعدا ، ودل ما تقدم على الفعل المحذوف لأنه وعد .

قوله تعالى (ما خلق الله) " ما " نافية ، وفي التقدير وجهان : أحدهما هو مستأنف لا موضع

له ، والكلام تام قبله ، وأو لم يتفكروا مثل " أو لم ينظروا في ملكوت السموات " .

والثانى موضعه نصب بيتفكروا ، والنفى لايمنع ذلك كما لم يمنع في قوله تعالى " وظنوا مالهم من محيص " ، و (بلقاء ربهم) يتعلق ب (كافرون) واللام لا تمنع ذلك ، والله أعلم .

قوله تعالى (وأثاروا الأرض) قرئ شاذا بألف بعد الهمزة ، وهو للإشباع لاغير (أكثر) صفة مصدر محذوف ، و (ما) مصدرية .

قوله تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى) يقرأ بالرفع والنصب .

فمن رفع جعله اسم كان ، وفى الخبر وجهان: أحدهما السوأى (أن كذبوا) في موضع نصب مفعولا له: أي لأن كذبوا ، أو بأن كذبوا ، أو في في موضع جر بتقدير الجار على قول الخليل .

(133/600)

والثانى أن كذبوا: أي كان آخر أمرهم التكذيب ، والسوأى على هذا صفة مصدر ، ومن نصب جعلها خبر كان ، وفى الاسم وجهان: أحدهما السوأى ، والآخر أن كذبوا على ما تقدم ، ويجوز أن يجعل أن كذبوا بدلا من السوأى أو خبر مبتدأ محذوف ، والسوأى فعلى تأنيث الأسوأ ، وهى صفة لمصدر محذوف ، والتقدير: أساءوا الاساءة السوأى ، وإن جعلتها اسما أو خبرا كان التقدير: الفعلة السوأى ، أو العقوبة السوأى (يبلس المجرمون)

الجمهور على تسمية الفاعل ، وقد حكى شاذا ترك التسمية ، وهذا بعيد لأن أبلس لم يستعمل متعديا ، ومخرجه أن

يكون أقام المصدر مقام الفاعل وحذفه ، وأقام المضاف إليه مقامه: أي يبلس إبلاس المجرمين .

قوله تعالى (حين تمسون) الجمهور على الإضافة ، والعامل فيه سبحان ، وقرئ منونا على أن يجعل تمسون صفة له ، والعائد محذوف: أي تمسون فيه كقوله تعالى " واتقوا يوما لاتجزى " .

قوله تعالى (وعشيا) هو معطوف على حين ، وله الحمد معترض ، وفى السموات حال من الحمد .

قوله تعالى (ومن آياته يريكم البرق) فيه ثلاثة أوجه: أحدها أن من آياته حال من البرق: أي يريكم البرق كائنا من آياته ، ألا أن حق الواو أن تدخل هنا على الفعل ، ولكن لما قدم الحال وكانت من جملة المعطوف أولاها الواو ، وحسن ذلك أن الجار والمجرور في حكم الظرف فهو كقوله " آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة " والوجه الثاني أن " أن " محذوفة: أي ومن آياته أن يريكم ، وإن حذفت " أن " في مثل هذا جاز رفع الفعل .

والثالث أن يكون الموصوف محذوفا : أي ومن آياته آية يريكم فيها البرق ، فحذف الموصوف والعائد ، ويجوز أن يكون التقدير: ومن آياته شئ أو سحاب ، ويكون فاعل

يريكم ضمير شئ المحذوف .

قوله تعالى (من الأرض) فيه وجهان: أحدهما هو صفة لدعوة .

والثانى أن يكون متعلقا بمحذوف تقديره خرجتم من الأرض ، ودل على المحذوف (إذا أنتم تخرجون) ولايجوز أن يتعلق " من " بتخرجون هذه ، لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها .

(134/600)

قوله تعالى (وهو أهون عليه) أي البعث أهون عليه في ظنكم ، وقيل أهون بمعنى هين كما قالوا الله أكبر: أي كبير ، وقيل هو أهون على المخلوق ، لأنه في الابتداء نقل من نطفة إلى علقة إلى غير ذلك ، وفى البعث يكمل دفعة واحدة .

قوله تعالى (فأنتم فيه سواء) الجملة في موضع نصب جواب الاستفهام: أي هل لكم فتستووا ، وأما (تخافونهم) ففى الحال من الضمير الفاعل في سواء: أي فتساووا خائفا بعضكم بعضا مشاركته له في المال: أي إذا لم تشارككم عبيدكم في المال ، فكيف تشركون في عبادة الله من هو مصنوع لله (كخيفتكم) أي خيفة كخيفتكم .

قوله تعالى (فطرة الله) أي الزموا أو اتبعوا دين الله ، و (منيبين) حال من الضمير في الفعل المحذوف ، وقيل هو حال من ضمير الفاعل في أقم لأنه في المعنى للجميع ، وقيل فطرة الله

مصدر: أي فطركم فطرة.

قوله تعالى (من الذين فرقوا) هو بدل من المشركين بإعادة الجار.

قوله تعالى (ليكفروا) اللام بمعنى كي، وقيل هو أمر بمعنى التوعد كما قال بعده (فتمتعوا)

والسلطان يذكر لأنه بمعنى الدليل، ويؤنث لأنه بمعنى الحجة، وقيل هو جمع سليط كرغيف ورغفان.

قوله تعالى (إذا هم) إذا مكانية للمفاجأة نابت عن الفاء في جواب الشرط لأن المفاجأة تعقيب، ولايكون أول الكلام كما أن الفاء كذلك، وقد دخلت الفاء عليها في بعض المواضع زائدة.

قوله تعالى (وما آتيتم) "ما" في موضع نصب بآتيتم، والمد بمعنى أعطيتم، والقصر بمعنى جئتم وقصدتم.

قوله تعالى (ليربوا) أي الربا (فأولئك) هو رجوع من الخطاب إلى الغيبة.

قوله تعالى (ليذيقهم) متعلق بظهر: أي ليصير حالهم إلى ذلك، وقيل التقدير عاقبهم ليذيقهم.

قوله تعالى (وكان حقا) حقا خبر كان مقدم، و (نصر) اسمها، ويجوز أن يكون حقا مصدرا وعلينا الخبر، ويجوز أن يكون في كان ضمير الشأن وحقا مصدر وعلينا نصر مبتدأ وخبر في موضع خبر كان.

قوله تعالى (كسفا) بفتح السين على أنه جمع كسفة ، وسكونها على هذا المعنى تخفيف ، ويجوز أن يكون مصدرا : أي ذا كسف والهاء في (خلاله) للسحاب وقيل للكسف .

قوله تعالى (من قبله) قيل هي تكرير لقبل الأولى ، والأولى أن تكون الهاء فيها للسحاب أو للريح أو للكسف ، والمعنى : وإن كانوا من قبل نزول المطر من قبل السحاب أو الريح ، فتتعلق " من " بينزل .

قوله تعالى (إلى أثر) يقرأ بالإفراد والجمع ، و (يحيى) بالياء على أنه الفاعل الله أو الأثر أو معنى الرحمة ، وبالتاء على أن الفاعل آثار أو الرحمة ، والهاء في (رأوه) للزرع ، وقد دل عليه يحيى الأرض ، وقيل للريح ، وقيل للسحاب (لظلوا) أي ليظللن لأنه جواب الشرط ، وكذا أرسلنا بمعنى نرسل .

والضعف بالفتح والضم لغتان .

قوله تعالى (لا تنفع) بالتاء على اللفظ ، وبالياء على معنى العذر ، أو لأنه فصل بينهما ، أو لأنه غير حقيقي ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 187.184 ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الروم

[سورة الروم (30) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2)

"الم" حروف لا محل لها من الإعراب "غُلِبَتِ" ماض مبني للمجهول "الرُّومُ" نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 3]

فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3)

"فِي أَدْنَى" الجار والمجرور متعلقان بالفعل "الْأَرْضِ" مضاف إليه "وَ" الواو حالية "هُمْ" مبتدأ "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بما بعدهما "غَلَبِهِمْ" مضاف إليه "سَيَغْلِبُونَ" السين للاستقبال ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر هم والجملة الاسمية حال .

[سورة الروم (30) : آية 4]

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4)

"فِي بِضْعِ" الجار والمجرور متعلقان بالفعل يغلبون "سِنِينَ" مضاف إليه "لِلَّهِ" خبر مقدم "الْأَمْرُ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بمحذوف حال "وَمِنْ بَعْدُ" معطوفان على ما قبلهما "وَ" الواو حرف استئناف "يَوْمَئِذٍ" يوم ظرف مضاف إلى مثله "يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 5]

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)

"بِنَصْرِ" الجار والمجرور متعلقان بالفعل يفرح "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه . "يَنْصُرُ" مضارع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به والجملة مستأنفة "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة من "وَ" الواو حالية "هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" مبتدأ وخبران والجملة حال .

[سورة الروم (30) : آية 6]

وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (6)

"وَعْدَ اللَّهِ" مفعول مطلق لفعل محذوف ولفظ الجلالة مضاف إليه "لا" نافية "يُخْلِفُ" مضارع "اللَّهُ وَعْدَهُ" لفظ الجلالة فاعله ، ومفعوله والجملة حال . "وَلكِنَّ أَكْثَرَ" الواو حرف عطف وحرف مشبه بالفعل واسمه "النَّاسِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر لكن .

[سورة الروم (30) : آية 7]

يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (7)

"يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "ظاهِراً" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها "مِنَ الْحَياةِ" متعلقان بما قبلهما "الدُّنْيا" صفة الحياة "وَ" الواو حالية "هُمْ" مبتدأ "عَنِ الْآخِرَةِ" متعلقان بالخبر "غافِلُونَ" "هُمْ" توكيد للأولى والجملة حال .

[سورة الروم (30) : آية 8]

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (8)

"أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام والواو حرف استئناف "يَتَفَكَّرُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة مستأنفة "فِي أَنْفُسِهِمْ" متعلقان بالفعل "ما" نافية "خَلَقَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوفة على السموات "وَ" الواو حرف عطف "ما" اسم موصول معطوف على السموات "بَيْنَهُما" ظرف مكان "إِلَّا" حرف

حصر "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "وَأَجَلٍ" معطوف على الحق "مُسَمًّى" صفة والجملة مستأنفة لا محل لها "وَإِنَّ كَثِيراً" الواو حرف استئناف وإن واسمها "مِنَ النَّاسِ" متعلقان بكثيرا "بِلِقاءِ" متعلقان بكافرون "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "لَكافِرُونَ" خبر إن واللام المزحلقة والجملة مستأنفة لا محل لها .

(138/600)

[سورة الروم (30) : آية 9]

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)

"أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام والواو حرف استئناف "لَمْ يَسِيرُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "فَيَنْظُرُوا" الفاء حرف عطف ومضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم "عاقِبَةُ" اسمها المؤخر والجملة سدت مسد مفعول ينظروا "الَّذِينَ" مضاف إليه "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "كانُوا أَشَدَّ" كان واسمها وخبرها والجملة

تفسيرية "مِنْهُمْ" متعلقان بأشد "قُوَّةً" تمييز ، "وَأَثارُوا" ماض وفاعله "الْأَرْضِ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَعَمَرُوها" معطوف على أثاروا "أَكْثَرَ" صفة مفعول مطلق محذوف "مِمَّا" متعلقان بأكثر "عَمَرُوها" ماض وفاعله ومفعوله "وَجاءَتْهُمْ" ماض ومفعوله "رُسُلُهُمْ" فاعل مؤخر "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَما" الفاء حرف استئناف "ما" نافية "كانَ اللَّهُ" كان ولفظ الجلالة اسمها "لِيَظْلِمَهُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود والهاء مفعول به والفاعل مستتر والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر كان وجملة كان . . مستأنفة لا محل لها "وَ" الواو حرف عطف "لكِنْ كانُوا" حرف استدراك وكان واسمها "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به مقدم "يَظْلِمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة لكن كانوا . . . معطوفة على ما قبلها .

(139/600)

[سورة الروم (30) : آية 10]

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

"ثُمَّ كانَ" ثم حرف عطف وماض ناقص "عاقِبَةَ" خبر كان المقدم "الَّذِينَ" مضاف إليه

"أَساؤُا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "السُّواى" اسم كان المؤخر وجملة كان . . معطوفة على ما قبلها . "أَنْ" مصدرية "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول من أن والفعل بدل من السوأى . "بِآياتِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "كانُوا" كان واسمها "بِها" متعلقان بما بعدهما "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 11]

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11)

"اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَبْدَؤُا" مضارع فاعله مستتر "الْخَلْقَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "ثُمَّ" حرف عطف "يُعِيدُهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ" حرف عطف "إِلَيْهِ" متعلقان بما بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل ، والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 12]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)

"وَ" الواو حرف استئناف "يَوْمَ" ظرف زمان "تَقُومُ السَّاعَةُ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و "يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة .

[سورة الروم (30) : آية 13]

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13)

(140/600)

"وَلَمْ يَكُنْ" الواو حرف استئناف ومضارع ناقص مجزوم بلم "لَهُمْ" خبر يكن المقدم "مِنْ شُرَكَائِهِمْ" حال "شُفَعَاءُ" اسم يكن المؤخر والجملة مستأنفة والواو حرف عطف "كَانُوا" كان واسمها "بِشُرَكَائِهِمْ" متعلقان بخبر كانوا "كَافِرِينَ" والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 14]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

"وَ" الواو حرف عطف "يَوْمَ" ظرف زمان "تَقُومُ السَّاعَةُ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "يَوْمَئِذٍ" توكيد لفظي لسابقه "يَتَفَرَّقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 15]

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف "أما" أداة شرط وتفصيل "الَّذِينَ" مبتدأ "آمَنُوا" ماض

وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "فَهُمْ" الفاء رابطة "هم" مبتدأ "فِي رَوْضَةٍ" متعلقان بما بعدهما "يُحْبَرُونَ" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة خبر المبتدأ هم والجملة الاسمية خبر الذين وجملة أما الذين . . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 16]

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (16)

"وَأَمَّا" أداة شرط وتفصيل "الَّذِينَ كَفَرُوا" مبتدأ وماض وفاعله والجملة صلة "وَكَذَّبُوا" معطوف على كفروا "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "وَلِقاءِ" معطوف على آياتنا "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "فَأُولئِكَ" الفاء رابطة "أولئك" مبتدأ "فِي الْعَذابِ" متعلقان بالخبر "مُحْضَرُونَ" والجملة الاسمية خبر الذين وجملة أما الذين . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 17]

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17)

"فَسُبْحانَ" الفاء حرف استئناف "سبحان اللَّهِ" مفعول مطلق لفعل محذوف ولفظ الجلالة

مضاف إليه "حِينَ تُمْسُونَ" ظرف زمان ومضارع تام مرفوع والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَحِينَ تُصْبِحُونَ" معطوف على ما قبله .

[سورة الروم (30) : آية 18]

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18)

"وَلَهُ الْحَمْدُ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة معترضة لا محل لها "فِي السَّماواتِ" حال "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَعَشِيًّا" معطوف على حين "وَحِينَ تُظْهِرُونَ" معطوف على ما قبله .

[سورة الروم (30) : آية 19]

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (19)

"يُخْرِجُ" مضارع فاعله مستتر "الْحَيَّ" مفعول به والجملة حال "مِنَ الْمَيِّتِ" متعلقان بالفعل . و "يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" معطوفة على ما قبلها . "وَيُحْيِ" مضارع فاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "بَعْدَ" ظرف مكان "مَوْتِها" مضاف إليه . "وَ" الواو حرف استئناف "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف "تُخْرَجُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 20]

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)

(142/600)

الواو حرف استئناف "مِنْ آيَاتِهِ" خبر مقدم "أَنْ" حرف مصدري ونصب "خَلَقَكُمْ" ماض والكاف مفعول به والفاعل مستتر "مِنْ تُرَابٍ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن والفعل مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة "ثُمَّ" حرف عطف "إِذَا" فجائية "أَنْتُمْ بَشَرٌ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها . "تَنْتَشِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة بشر .

[سورة الروم (30) : آية 21]

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ" سبق إعرابها .

"لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ أَنْفُسِكُمْ" متعلقان بالفعل أيضا "أَزْوَاجاً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها . "لِتَسْكُنُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر

المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بخلق "إِلَيْها" متعلقان بالفعل "وَ" الواو حرف عطف "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان "مَوَدَّةً" مفعول به "وَرَحْمَةً" معطوفة على مودة والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنْ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذِلكَ" خبر إن المقدم "لَآياتٍ" اللام المزحلقة واسم إن المؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها . و"لِقَوْمٍ" صفة آيات "يَتَفَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم .

[سورة الروم (30) : آية 22]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (22)

(143/600)

"وَ" الواو حرف عطف "مِنْ آياتِهِ" خبر مقدم "خَلْقُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَاخْتِلافُ" معطوفة على خلق "أَلْسِنَتِكُمْ" مضاف إليه "وَأَلْوانِكُمْ" معطوف على ألسنتكم "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذِلكَ" خبر إن المقدم "لَآياتٍ" اللام لام المزحلقة "آيات" اسم إن المؤخر "لِلْعالِمِينَ" متعلقان بمحذوف صفة آيات والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 23]

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23)

"وَمِنْ آيَاتِهِ" خبر مقدم "مَنَامُكُمْ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِاللَّيْلِ" متعلقان بما قبلهما "وَالنَّهَارِ" معطوف على الليل "وَابْتِغَاؤُكُمْ" معطوف على منامكم "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بما قبلهما "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذَلِكَ" خبر إن المقدم واللام لام المزحلقة "لَآيَاتٍ" اسم إن المؤخر والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "لِقَوْمٍ" صفة آيات "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم.

[سورة الروم (30) : آية 24]

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)

"وَمِنْ آيَاتِهِ" خبر مقدم "يُرِيكُمُ" مضارع ومفعوله والمصدر المؤول من أن المقدرة والفعل مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها.

"الْبَرْقَ" مفعول به ثان "خَوْفاً" مفعول لأجله "وَطَمَعاً" معطوف على خوفا "وَيُنَزِّلُ" مضارع فاعله مستتر "مِنَ السَّمَاءِ" متعلقان بالفعل "مَاءً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "فَيُحْيِي" مضارع

فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به "بَعْدَ مَوْتِها" ظرف زمان مضاف إلى موتها والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" تقدم إعراب مثيلها

[سورة الروم (30) : آية 25]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25)

"وَمِنْ آياتِهِ" خبر مقدم "أَنْ تَقُومَ" مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها . "السَّماءُ" فاعل "وَالْأَرْضُ" معطوفة على السماء "بِأَمْرِهِ" متعلقان بتقوم "ثُمَّ" حرف عطف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "دَعاكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "دَعْوَةً" مفعول مطلق "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بدعاكم "إِذا" الفجائية "أَنْتُمْ" مبتدأ "تَخْرُجُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب الشرط لا محل لها

[سورة الروم (30) : آية 26]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (26)

"وَلَهُ" خبر مقدم "مَنْ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة من "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "كُلٌّ" مبتدأ "لَهُ" متعلقان بالخبر

قانتون "قانِتُونَ" خبر والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 27]

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

(145/600)

"وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "يَبْدَؤُا" مضارع فاعله مستتر "الْخَلْقَ" مفعول به والجملة صلة "ثُمَّ" حرف عطف "يُعِيدُهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُوَ أَهْوَنُ" مبتدأ وخبره والجملة حال "عَلَيْهِ" متعلقان بأهون. "وَلَهُ" خبر مقدم "الْمَثَلُ" مبتدأ مؤخر "الْأَعْلى" صفة للمثل والجملة مستأنفة "فِي السَّماواتِ" حال "وَالْأَرْضِ" معطوفة على السموات. "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبران والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 28]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)

"ضَرَبَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مَثَلًا" مفعول به "مِنْ أَنْفُسِكُمْ" صفة مثلا والجملة مستأنفة لا محل لها . "هَلْ" حرف استفهام "لَكُمْ" خبر مقدم "مِنْ ما" متعلقان بمحذوف حال "مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ" حرف جر زائد "شُرَكاءَ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مفسرة لمثلا "فِي ما" متعلقان بصفة شركاء "رَزَقْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "فَأَنْتُمْ" مبتدأ "فِيهِ" متعلقان بالخبر "سَواءٌ" والجملة معطوفة على ما قبلها "تَخافُونَهُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة خبر ثان للمبتدأ "كَخِيفَتِكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق

(146/600)

محذوف "أَنْفُسِكُمْ" مفعول به لخيفتكم "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "نُفَصِّلُ" مضارع فاعله مستتر "الْآياتِ" مفعول به "لِقَوْمٍ" متعلقان بالفعل "يَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم وجملة كذلك . مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 29]

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (29)

"بَلِ" حرف إضراب "اتَّبَعَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "ظَلَمُوا" ماض وفاعله "أَهْواءَهُمْ" مفعوله والجملة صلة "بِغَيْرِ" حال "عِلْمٍ" مضاف إليه "فَمَنْ" الفاء حرف استئناف "مَنْ" مبتدأ "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به والجملة خبر والجملة الاسمية مستأنفة "أَضَلَّ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة لا محل لها .

"وَما" الواو حرف عطف "ما" نافية "لَهُمْ" خبر مقدم "مَنْ" حرف جر زائد "ناصِرِينَ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 30]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30)

(147/600)

"فَأَقِمْ" الفاء حرف استئناف "فَأَقِمْ" أمر فاعله مستتر "وَجْهَكَ" مفعول به والجملة مستأنفة "لِلدِّينِ" متعلقان بالفعل "حَنِيفاً" حال "فِطْرَتَ" مفعول به لفعل محذوف أي اتبعوا "اللَّهِ" لفظ جلالة مضاف إليه "الَّتِي" صفة فطرة "فَطَرَ" ماض فاعله مستتر "النَّاسَ" مفعول به والجملة صلة "عَلَيْها" متعلقان بالفعل "لا" نافية للجنس "تَبْدِيلَ" اسمها المبني على الفتح

"لِخَلْقِ" متعلقان بمحذوف خبر لا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة حال "ذَلِكَ الدِّينُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "الْقَيِّمُ" صفة. "وَلَكِنَّ" الواو حرف استئناف ولكن حرف مشبه بالفعل "أَكْثَرَ" اسمه المضاف "النَّاسَ" مضاف إليه "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لكن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

[سورة الروم (30) : آية 31]

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31)

"مُنِيبِينَ" حال "إِلَيْهِ" متعلقان به "وَاتَّقُوهُ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلا تَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية والواو اسمه "مِنَ الْمُشْرِكِينَ" متعلقان بمحذوف خبر تكونوا والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الروم (30) : آية 32]

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

"مِنَ الَّذِينَ" الجار والمجرور بدل من قوله من المشركين "فَرَّقُوا" ماض وفاعله "دِينَهُمْ" مفعوله والجملة صلة "وَكانُوا" ماض ناقص واسمه "شِيَعاً" خبره والجملة معطوفة على ما قبلها "كُلُّ حِزْبٍ" مبتدأ مضاف إلى حزب "بِما" متعلقان بالخبر فرحون "لَدَيْهِمْ" ظرف مكان. والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. "فَرِحُونَ" خبر مرفوع بالواو.

[سورة الروم (30) : آية 33]

وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33)

الواو حرف استئناف "وَإِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "مَسَّ النَّاسَ" ماض ومفعوله "ضُرٌّ" فاعل مؤخر والجملة في محل جر بالإضافة. "دَعَوْا" ماض وفاعله "رَبَّهُمْ" مفعول به والجملة جواب الشرط لا محل لها "مُنِيبِينَ" حال "إِلَيْهِ" متعلقان بما قبلهما "ثُمَّ" حرف عطف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "أَذاقَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْهُ" متعلقان بالفعل "رَحْمَةً" مفعول به ثان "إِذا" الفجائية "فَرِيقٌ" مبتدأ "مِنْهُمْ" صفة فريق "بِرَبِّهِمْ" متعلقان بما بعدهما "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب شرط غير جازم لا محل لها.

[سورة الروم (30) : آية 34]

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

"لِيَكْفُرُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والمصدر المؤول من أن

والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيشركون "بِما" متعلقان بالفعل "آتَيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة ما "فَتَمَتَّعُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "فَسَوْفَ" الفاء حرف استئناف "سوف" حرف استقبال "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 35]

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

(149/600)

"أَمْ" حرف عطف "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بأنزل "سُلْطاناً" مفعول به والجملة مستأنفة لاعتبار أم بمعنى بل "فَهُوَ" الفاء حرف عطف "هو" مبتدأ "يَتَكَلَّمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر هو والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها "بِما" متعلقان بالفعل "كانُوا" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بما بعدهما "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . صلة ما .

[سورة الروم (30) : آية 36]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ

(36)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "أَذَقْنَا" ماض وفاعله "النَّاسَ" مفعول به أول "رَحْمَةً" مفعول به ثان والجملة في محل جر بالإضافة "فَرِحُوا" ماض وفاعله "بِها" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَ" الواو حرف عطف "وَإِنْ تُصِبْهُمْ" حرف شرط ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والهاء مفعول به "سَيِّئَةٌ" فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "بِما" متعلقان بالفعل "قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "إِذا" الفجائية "هُمْ" مبتدأ "يَقْنَطُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر هم والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط.

[سورة الروم (30) : آية 37]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

(150/600)

"أَوَلَمْ يَرَوْا" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف استئناف ومضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ" أن ولفظ الجلالة اسمها ومضارع فاعله مستتر "الرِّزْقَ" مفعول به والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها

سد مسد مفعولي يروا "لِمَنْ" متعلقان بالفعل "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة من "وَيَقْدِرُ" معطوف على يبسط "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" : انظر الآية رقم - 22 -

[سورة الروم (30) : آية 38]

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

"فَآتِ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر "ذَا الْقُرْبى" مفعول به أول مضاف إلى القربى "حَقَّهُ" مفعول به ثان والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ" معطوفان على ذا القربى "ذلِكَ خَيْرٌ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "لِلَّذِينَ" متعلقان بخير "يُرِيدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "وَجْهَ اللَّهِ" مفعول به مضاف إلى لفظ الجلالة والجملة صلة الذين لا محل لها "وَأُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْمُفْلِحُونَ" خبر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 39]

وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

"وَما" الواو حرف استئناف "ما" شرطية في محل نصب مفعول به مقدم "آتَيْتُمْ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها . "مِنْ رِباً" متعلقان بمحذوف حال "لِيَرْبُوَا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بآتيتم "فِي أَمْوالِ" متعلقان بالفعل "النَّاسِ" مضاف إليه "فَلا" الفاء رابطة "لا يَرْبُوا" لا نافية ومضارع فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف مكان مضاف إلى لفظ الجلالة "وَ" الواو حرف استئناف "وَما" شرطية في محل نصب مفعول به مقدم "آتَيْتُمْ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "مِنْ زَكاةٍ" حال . "تُرِيدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "وَجْهَ اللَّهِ" مفعوله المضاف إلى لفظ الجلالة والجملة صفة زكاة "فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" سبق إعراب مثيلها .

[سورة الروم (30) : آية 40]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

"اللَّهُ الَّذِي" لفظ الجلالة مبتدأ واسم الموصول خبره والجملة مستأنفة لا محل لها "خَلَقَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "ثُمَّ" حرف عطف "رَزَقَكُمْ" معطوف على خلقكم "ثُمَّ يُمِيتُكُمْ"

"ثُمَّ يُحْيِيكُمْ" معطوفان على ما قبلهما "هَلْ" حرف استفهام إنكاري "مِنْ شُرَكائِكُمْ" خبر مقدم "مِنْ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "يَفْعَلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة من "مِنْ ذِلِكُمْ" حال "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف "وَ" الواو حرف عطف "تَعالى" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "عَمَّا" متعلقان بالفعل قبلهما "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الروم (30) : آية 41]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

"ظَهَرَ الْفَسادُ" ماض وفاعله "فِي الْبَرِّ" متعلقان بالفعل "وَالْبَحْرِ" معطوف على البر والجملة مستأنفة لا محل لها. "بِما" متعلقان بالفعل ظهر "كَسَبَتْ أَيْدِي" ماض وفاعله "النَّاسِ" مضاف إليه والجملة صلة ما "لِيُذِيقَهُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والهاء مفعول به أول والفاعل مستتر "بَعْضَ الَّذِي" مفعول به ثان مضاف إلى الذي والمصدر المؤول

من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل ظهر "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة . "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَرْجِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 42]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

(153/600)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "سِيرُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "فَانْظُرُوا" معطوف على سيروا "كَيْفَ" اسم استفهام خبر كان المقدم "كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ" كان واسمها المضاف إلى الذين والجملة سدت مسد مفعولي انظروا "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 43]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

"فَأَقِمْ" الفاء حرف استئناف وأمر فاعله مستتر "وَجْهَكَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا

محل لها "لِلدِّينِ" متعلقان بالفعل "الْقَيِّمِ" صفة الدين "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بالفعل أقم "أَنْ يَأْتِيَ" مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول في محل جر بالإضافة "يَوْمٌ" فاعل يأتي "لا" نافية للجنس "مَرَدَّ" اسمها المبني على الفتح "لَهُ" جار ومجرور خبر لا والجملة صفة يوم "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بيأتي "يَوْمَئِذٍ" يوم ظرف زمان مضاف إلى مثله. "يَصَّدَّعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة ثانية ليوم.

[سورة الروم (30) : آية 44]

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44)

"مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "كَفَرَ" ماض فاعله مستتر "فَعَلَيْهِ" الفاء رابطة "عليه" خبر مقدم "كُفْرُهُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط

والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . . مستأنفة لا محل لها "وَ" الواو حرف عطف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "عَمِلَ" ماض فاعله مستتر "صالِحاً" مفعول به محذوف "فَلِأَنْفُسِهِمْ" الفاء رابطة "لأنفسهم" متعلقان بما بعدهما "يَمْهَدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . .

معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 45]

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (45)

"لِيَجْزِيَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر "الَّذِينَ" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل يمهدون "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بالفعل يجزي "إِنَّهُ" إن واسمها "لا" نافية "يُحِبُّ" مضارع فاعله مستتر "الْكافِرِينَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 46]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)

"وَمِنْ" الواو حرف استئناف "مِنْ آياتِهِ" خبر مقدم "أَنْ يُرْسِلَ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر "الرِّياحَ" مفعول به "مُبَشِّراتٍ" حال والمصدر المؤول من أن والفعل مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "وَلِيُذِيقَكُمْ" حرف عطف ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والكاف مفعول به والفاعل مستتر "مِنْ رَحْمَتِهِ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره أرسلها "وَلِتَجْرِيَ" حرف عطف ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل "الْفُلْكُ" فاعل "بِأَمْرِهِ" حال والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ" معطوف على ما قبله. "وَلَعَلَّكُمْ" حرف عطف ولعل واسمها "تَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 47]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

"لَقَدْ"

الواو حرف قسم وجر واللام لام القسم "قد" حرف تحقيق "رْسَلْنا"

ماض وفاعله "نْ قَبْلِكَ"

متعلقان بالفعل "سُلًا"

مفعول بِهِ لى قَوْمِهِمْ"

متعلقان بالفعل أيضا والجملة جواب القسم لا محل لها . جاءُوهُمْ"

الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها الْبَيِّناتِ"

متعلقان بالفعل انْتَقَمْنا"

الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها نَ الَّذِينَ"

متعلقان بالفعل جْرَمُوا"

ماض وفاعله والجملة صلة الذين . كانَ"

الواو حرف عطف وماض ناقص قًّا"

خبر مقدم لَيْنا"

متعلقان بحقا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ"

اسم كان المؤخر المضاف إلى المؤمنين والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 48]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)

"اللَّهُ الَّذِي" لفظ الجلالة مبتدأ واسم الموصول خبره والجملة مستأنفة لا محل لها "يُرْسِلُ" مضارع فاعله مستتر "الرِّياحَ" مفعول به والجملة صلة. "فَتُثِيرُ" مضارع فاعله مستتر "سَحاباً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها ، "فَيَبْسُطُهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "فِي السَّماءِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال.

"وَيَجْعَلُهُ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "كِسَفاً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها.

"فَتَرَى" مضارع فاعله مستتر "الْوَدْقَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "يَخْرُجُ" مضارع فاعله مستتر "مِنْ خِلالِهِ" متعلقان بالفعل والجملة حال. "فَإِذا" الفاء حرف استئناف "إِذا أَصابَ" ظرفية شرطية غير جازمة وماض فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "مِنْ عِبادِهِ" حال "إِذا" فجائية "هُمْ" مبتدأ "يَسْتَبْشِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب الشرط لا محل لها.

[سورة الروم (30) : آية 49]

وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)

(157/600)

"وَإِنْ" الواو حالية "إِنْ" مخففة من الثقيلة مهملة "كانُوا" كان واسمها "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بمبلسين "أَنْ يُنَزَّلَ" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن ونائب الفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بالإضافة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بالفعل ينزل "لَمُبْلِسِينَ" اللام الفارقة "مبلسين" خبر كانوا وجملة إن كانوا . . حال .

[سورة الروم (30) : آية 50]

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

"فَانْظُرْ" الفاء حرف استئناف وأمر فاعله مستتر "إِلى آثارِ" متعلقان بالفعل "رَحْمَتِ اللَّهِ" مضاف إليه ولفظ الجلالة مضاف إليه أيضا والجملة مستأنفة لا محل لها . "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال "يُحْيِ" مضارع فاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به "بَعْدَ مَوْتِها" ظرف زمان مضاف إلى موتها . "إِنَّ ذلِكَ" إن واسمها "لَمُحْيِ" اللام المزحلقة "محيي"

خبرها "الْمَوْتى " مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها "وَهُوَ" مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بالخبر قدير "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها . "قَدِيرٌ" خبر

[سورة الروم (30) : آية 51]

وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

"وَلَئِنْ" الواو حرف استئناف واللام موطئة لقسم محذوف . و"إن" حرف شرط جازم "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "رِيحاً" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "فَرَأَوْهُ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله

(158/600)

و مفعوله "مُصْفَرًّا" حال والجملة معطوفة على ما قبلها واللام واقعة في جواب القسم "لَظَلُّوا" ماض ناقص واسمه "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بما بعدهما "يَكْفُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر ظلوا وجملة لظلوا . . جواب القسم وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه

[سورة الروم (30) : آية 52]

فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52)

"فَإِنَّكَ" الفاء حرف تعليل وإن واسمها "لا تُسْمِعُ" نافية ومضارع فاعله مستتر "الْمَوْتى" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل "وَلا تُسْمِعُ" الجملة معطوفة على ما قبلها "الصُّمَّ" مفعول به أول "الدُّعاءَ" مفعول به ثان "إِذا" ظرف زمان "وَلَّوْا" ماض وفاعله "مُدْبِرِينَ" حال والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة الروم (30) : آية 53]

وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

"وَما" الواو حرف استئناف "ما" نافية تعمل عمل ليس "أَنْتَ" اسم ما "بِهادِ" الباء حرف جر زائد "هادي" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "الْعُمْيِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها "عَنْ ضَلالَتِهِمْ" متعلقان بالعمي. "إِنْ" نافية "تُسْمِعُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَّا" حرف حصر "مَنْ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها "يُؤْمِنُ" مضارع فاعله مستتر "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل والجملة صلة من "فَهُمْ مُسْلِمُونَ" الفاء حرف عطف ومبتدأ وخبره والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها.

[سورة الروم (30) : آية 54]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54)

"اللَّهُ الَّذِي" لفظ الجلالة مبتدأ واسم الموصول خبره والجملة مستأنفة لا محل لها "خَلَقَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "مِنْ ضَعْفٍ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الذي "ثُمَّ جَعَلَ" حرف عطف وماض فاعله مستتر "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل "ضَعْفٍ" مضاف إليه "قُوَّةً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها . "ثُمَّ" حرف عطف "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل "قُوَّةً" مضاف إليه "ضَعْفاً" مفعول به "وَشَيْبَةً" معطوف "يَخْلُقُ" مضارع فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة حال "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ" مبتدأ وخبران والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 55]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

"وَ" الواو حرف استئناف "يَوْمَ" ظرف زمان "تَقُومُ السَّاعَةُ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها . "ما لَبِثُوا" نافية وماض وفاعله والجملة جواب القسم "غَيْرَ ساعَةٍ" ظرف زمان مضاف إلى ساعة ، "كَذلِكَ" متعلقان بصفة مفعول مطلق محذوف "كانُوا" كان واسمها "يُؤْفَكُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر كانوا وجملة كذلك . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة الروم (30) : آية 56]

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (56)

"وَ" الواو حرف عطف "قالَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أُوتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "الْعِلْمَ" مفعول به "وَالْإِيمانَ" معطوف على العلم والجملة صلة الذين .

(160/600)

و اللام واقعة في جواب قسم محذوف "قد" حرف تحقيق "لَبِثْتُمْ" ماض وفاعله "فِي كِتابِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "إِلى يَوْمِ" متعلقان بالفعل "الْبَعْثِ" مضاف إليه والجملة جواب قسم مقدر . "فَهذا" الفاء واقعة في جواب شرط مقدر "هذا يَوْمِ" مبتدأ وخبره والجملة في محل جزم جواب الشرط "الْبَعْثِ" مضاف إليه والجملة الشرطية مقول القول . "وَلكِنَّكُمْ" الواو حرف عطف ولكن واسمها "كُنْتُمْ" ماض ناقص واسمه "لا تَعْلَمُونَ" نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كنتم . وجملة لكنكم . . معطوفة على ما قبلها

[سورة الروم (30) : آية 57]

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

"فَيَوْمَئِذٍ" الفاء حرف عطف "يومئذ" ظرف زمان مضاف إلى مثله "لا يَنْفَعُ" نافية ومضارع مرفوع "الَّذِينَ" مفعول به والجملة معطوفة على جملة لقد لبثتم . . "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "مَعْذِرَتُهُمْ" فاعل ينفع "وَ" الواو حرف عطف "لا" نافية "هُمْ" مبتدأ "يُسْتَعْتَبُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الروم (30) : آية 58]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (58)

(161/600)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم والمقسم به محذوف وقد حرف تحقيق "ضَرَبْنا" ماض وفاعله "لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب القسم لا محل لها "فِي هذَا" متعلقان بمحذوف حال "الْقُرْآنِ" بدل من اسم الإشارة "مِنْ كُلِّ" متعلقان بضربنا "مَثَلٍ" مضاف إليه ، "وَلَئِنْ" الواو حرف عطف واللام موطئة لقسم محذوف "إِنْ"

شرطية "جِئْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية لا محل لها "بِآيَةٍ" متعلقان بالفعل "لَيَقُولَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم المقدر "يقولن" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والجملة جواب القسم المقدر لا محل لها "الَّذِينَ" فاعل "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنْ" نافية "أَنْتُمْ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "مُبْطِلُونَ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية مقول القول.

[سورة الروم (30) : آية 59]

كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (59)

"كَذلِكَ" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "يَطْبَعُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ" متعلقان بالفعل واسم الموصول مضاف إليه "لا يَعْلَمُونَ" نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الروم (30) : آية 60]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (60)

"فَاصْبِرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ" إن واسمها المضاف إلى لفظ الجلالة "حَقٌّ" خبر إن والجملة تعليل لا محل لها "وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ" الواو حرف عطف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بلا الناهية والكاف مفعوله "الَّذِينَ" فاعل والجملة معطوفة على جملة اصبر . . لا محل لها "لا يُوقِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة الذين . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 10 . 24﴾

(163/600)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الرّوم

ذكر فِيهَا سِتَّة عشر حَدِيثا

961 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن الرّوم وَفَارِس تَحَارَبُوا بَين أَذْرُعَات وَبصرَى فَغلبَتْ فَارس الرّوم فَبلغ الْخَبَر مَكَّة فشق ذَلِك عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعَلَى الْمُسلمين لِأَن فَارس مجوس لَا

كتاب لَهُم وَالروم أهل كتاب وَفَرِح الْمُشْرِكُونَ وشتموا وَقَالُوا إِن النَّصَارَى أهل كتاب وَنحن وَفَارِس أُمِّيُّونَ وَقد ظهر إِخْوَانَنَا عل إِخْوَانكُمْ ولنظهرن نَحن عَلَيْكُم فَنزلت آلم غلبت الرّوم الْآيَة فَقَال لَهُم أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه لَا يُقرر الله أعينكُم فوَالله لَيظْهرَن الرّوم عَلَى فَارِس بعد بضع سِنِين فَقَال لَهُ أبي بن خلف كذبت يَا أَبَا فُضَيْل اجْعَل بَيْننَا أَجَلًا أناحبكم عَلَيْهِ وَالْمُنَاحَبَة الْمُرَاهنَة فناحبه عَلَى عشر قَلَائِص من كل وَاحِد مِنْهُمَا وَجعلا الْأَجَل ثَلَاث سِنِين فَأخْبر أَبُو بكر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَال الْبضْع مَا بَين الثَّلَاث إِلَى التسع فَزَايِدْهُ فِي الْخطر وَمَاده فِي الْأَجَل فَجَعَلَاهَا مائَة قلُوص إِلَى تسع وَمَات أبي من جرح رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْم الْحُدَيْبِيَة وَذَلِكَ عِنْد رَأس سبع سِنِين وَقيل كَانَ النَّصْر يَوْم بدر لِلْفَرِيقَيْنِ فَأخذ أَبُو بكر الْخطر من ذُرِّيَّة أبي وَجَاء بِهِ إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَال تصدق بِهِ

(164/600)

قلت غَرِيب وَأَقرب مَا وجدته وَإِن طرقه تَغْيِير يسير مَا رَوَاهُ سنيد بن دَاوُد فِي تَفْسِيره حَدثنِي حجاج عَن أبي بكر بن عبد الله عَن عِكْرِمَة قَال كَانَت امْرَأَة فِي فَارِس لَا تَلد إِلَّا الْأَبْطَال فَدَعَاهَا كسْرَى فَقَال إِنِّي أُرِيد أَن أبْعث إِلَى الرّوم جَيْشًا وَاسْتَعْمل عَلَيْهِم رجلا من

بنيك فَأَشِيرِي عَلَي أَيهمْ أَسْتَعْمل فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ بولد لَهَا يُدعَى شهربراز فَاسْتَعْملهُ قَال أَبُو بكر بن عبد الله فَحدثت هَذَا الحَدِيث عَطاء الْخُرَاسَانِي فَقَال عَطاء الْخُرَاسَانِي فَحَدثني يَحْيَى بن يعمر أَن قَيْصر بعث رجلا يُدعَى قطمة بِجَيْش من الرّوم وَبعث كسْرَى بشهربراز فَالْتَقَيَا بأذرعات وَبصرَى فَغَلَبَتْهُمْ فَارس فَفَرِحت بذلك كفار قُرَيْش وَكَرِهَهُ الْمُسلمُونَ قَال عِكْرِمَة وَلَقِي الْمُشْرِكُونَ أَصْحَاب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالُوا إِنَّكُم أهل كتاب وَالنَّصَارَى أهل كتاب وَنحن أُمِّيُّونَ وَقد ظهر إِخْوَاننَا من أهل فَارس عَلَى إِخْوَانكُمْ من أهل الْكتاب وَإِنَّكُمْ إِن قَاتَلْتُمُونَا لَنَظْهَرَنَّ عَلَيْكُم فوَالله لَتَظْهرنَّ الرّوم عَلَى فَارس أخبرنَا بذلك نَبينَا صلوَات الله عَلَيْهِ فَقَام أبي بن خلف فَقَال كذبت يَا أَبَا فُضَيْل فَقَال لَهُ أَبُو بكر أَنْت أكذب يَا عَدو الله فَقَال أَنَا حِبك عشر قَلَائِص مني وَعشر قَلَائِص مِنْك فَإِن ظَهرت الرّوم عَلَى فَارس غرمت إِلَيّ ثَلَاث سِنِين ثمَّ جَاءَ أَبُو بكر إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخْبرهُ فَقَال مَا هَكَذَا ذكرت إِنَّمَا الْبضْع مَا بَين الثَّلَاث إِلَى التسع فَزَايِدْهُ فِي الْخطر وَمَاده فِي الْأَجَل فَخرج أَبُو بكر فلقي أَبيا فَقَال لَعَلَّك ندِمت قَال لَا تعال أُزَايِدك فِي الْخطر وَأُمَادّك فِي الْأَجَل فاجعلها

(165/600)

مائَة قلُوص لِمائَة قلُوص إِلَى تسع سِنِين قَالَ قد فعلت وَظَهَرت الرّوم عَلَى فَارس قبل ذَلِك فَغَلَبَهُمْ الْمُسلمُونَ وَهَذَا مُرْسل

وَذكر التِّرْمِذِيّ مِنْهُ قِطْعَة وَقَالَ فِيهِ وَكَانَ ذَلِك قبل تَحْرِيم الرِّهَان

وَرَوَى الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه أَيْضا مِنْهُ قِطْعَة يسيرَة

وَكَذَلِكَ الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه وَابْن أبي حَاتِم وَهَذَا أقرب مَا وَجَدْنَاهُ

962 - الْحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه ذكر الْجنَّة وَمَا فِيهَا من النَّعيم وَفِي الْقَوْم أَعْرَابِي فَقَالَ يَا رَسُول الله هَل فِي الْجنَّة من سَماع قَالَ نعم يَا أَعْرَابِي إِن فِي الْجنَّة نَهرا حَافَّاته الْأَبْكَار من كل بَيْضَاء خوصانية يَتَغَنَّيْنَ بِأَصْوَات لم تسمع الْخَلَائق بِمِثْلِهَا قطّ فَذَلِك أفضل نعيم الْجنَّة

قَالَ الرَّاوِي فَسَأَلت أَبَا الدَّرْدَاء بِم يَتَغَنَّيْنَ قَالَ بالتسبيح

قلت رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث سُلَيْمَان بن عَطاء عَن مسلمة ابْن عبد الله الْجُهَنِيّ عَن عَمه أبي مشجعَة بن ربعي عَن أبي الدَّرْدَاء قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يذكر النَّاس فَذكر الْجنَّة وَمَا فِيهَا من الْأَرْوَاح وَالنَّعِيم وَفِي أخريات الْقَوْم أَعْرَابِي فَجَثَا لِرُكْبَتَيْهِ وَقَالَ يَا رَسُول الله هَل فِي الْجنَّة من سَماع فَذكره إِلَى آخِره ولين سُلَيْمَان بن عَطاء وَنقل عَن الْبُخَارِيّ أَنه قَالَ فِي حَدِيثه بعض مَنَاكِير قَالَ ابْن عدي وَهُوَ كَمَا قَالَ انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ

963 - الحَدِيث الثَّالِث

(166/600)

رُوِيَ إِن فِي الْجنَّة لَأَشْجَارًا عَلَيْهَا أَجْرَاس من فضَّة فَإِذا أَرَادَ أهل الْجنَّة السماع بعث الله ريحًا من تَحت الْعَرْش فَيَقَع فِي تلْكَ الْأَشْجَار فَتحَرك تلْكَ الْأَجْرَاس بِأَصْوَات لَو سَمعهَا أهل الدُّنْيَا لماتوا كلهم طَربا

قلت غَرِيب وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث عبد الله بن عَرَادَة الشَّيْبَانِيّ عَن الْقَاسِم بن مُطيب عَن مُغيرَة عَن إِبْرَاهِيم قَالَ إِن فِي الْجنَّة لَأَشْجَارًا إِلَى آخِره

وَرَوَى إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا عتاب بن بشير عَن عبد الله ابْن مُسلم بن هُرْمُز الهرمزي عَن مُجَاهِد قَالَ قيل لأبي هُرَيْرَة هَل فِي الْجنَّة من سَماع قَالَ نعم شَجَرَة أَصْلهَا من ذهب وَأَغْصَانهَا الْفضة وَثَمرهَا الْيَاقُوت والزبرجد يبْعَث لَهُ ريح فَيَحُك بَعْضهَا بَعْضًا فَمَا سمع شَيْء قطّ أحسن مِنْهُ انْتَهَى

964 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها فرضت الصَّلَاة رَكْعَتَيْن رَكْعَتَيْن فَلَمَّا قدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمَدِينَة أقرّت صَلَاة السّفر وَزيد فِي صَلَاة الْحَضر رَكْعَتَيْن

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحهمَا من طرق عَن عَائِشَة وَلَيْس فِي شَيْء مِنْهَا ذكر الْمَدِينَة وَهِي عِنْد أَحْمد فِي مُسْنده عَنْهَا قَالَت فرضت الصَّلَاة رَكْعَتَيْن رَكْعَتَيْن بِمَكَّة فَلَمَّا قدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمَدِينَة زَاد مَعَ كل رَكْعَتَيْن رَكْعَتَيْن إِلَّا صَلَاة الْمغرب فَإِنَّهَا وتر النَّهَار وَصَلَاة الْفجْر لطول قراءتها

(167/600)

وَرَوَى الْبُخَارِيّ مَعْنَاهُ عَن عَائِشَة أَيْضا قَالَت فرضت الصَّلَاة رَكْعَتَيْن رَكْعَتَيْن ثمَّ هَاجر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَفرضت أَرْبعا انْتَهَى ذكره بعد كتاب المناقب فِي بَاب من أَين أَرخُوا التَّارِيخ

965 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من سره أَن يُكَال لَهُ بالقفيز الأوفى فَلْيقل فسبحان الله حِين تمسون وَحِين تُصبحُونَ الْآيَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث الْحجَّاج بن يُوسُف بن قُتَيْبَة بن مُسلم ثَنَا بشر بن الْحُسَيْن ثَنَا الزبيرِي عَن عدي عَن أنس بن مَالك قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من

سره أَن يُكَال لَهُ إِلَى آخِره

966 - الحَدِيث السَّادِس

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَالَ حِين يصبح فسبحان الله حِين تمسون وَحين تُصبحُونَ إِلَى قَوْله وَكَذَلِكَ تخرجُونَ أدْرك مَا فَاتَهُ فِي يَوْمه ذَلِك وَمن قَالَهَا حِين يُمْسِي أدْرك مَا فَاتَهُ فِي ليلته

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْأَدَب من حَدِيث سعيد بن بشير عَن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن الْبَيْلَمَانِي عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من قَالَ حِين يصبح إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَابْن السّني فِي عمل الْيَوْم وَاللَّيْلَة

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ وَابْن عدي فِي كِتَابَيْهِمَا وَأَعلاهُ بسَعِيد بن بشير ونقلا عَن البُخَارِيّ أَنه قَالَ لَا يَصح حَدِيثه قَالَ الْعقيلِيّ وَهُوَ مَجْهُول وَقَالَ ابْن عدي وَلَا أعلم لسَعِيد بن بشير النجراني غير هَذَا الحَدِيث وَإِلَيْهِ أَشَارَ البُخَارِيّ بقوله لَا يَصح حَدِيثه

967 - الحَدِيث السَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِكَايَة عَن الله كل عبَادي خلقت حنفَاء فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِين وَأمرُوهُمْ أَن يشركوا بِي غَيْرِي

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي صفة النَّار من حَدِيث عِيَاض بن حمَار الْمُجَاشِعِي أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَات يَوْم فِي خطبَته عَن الله عَزَّ وَجَلَّ إِنِّي خلقت عبَادي حنفَاء كلهم وَأَنَّهُمْ أَتَتْهُم الشَّيَاطِين فَاجْتَالَتْهُمْ عَن دينهم وَأمرُوهُمْ أَن يشركوا بِي مَا لم أنزل بِهِ سُلْطَانا الحَدِيث بِطُولِهِ

968 - الحَدِيث الثَّامِن

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل مَوْلُود يُولد عَلَى الْفطْرَة حَتَّى يكون أَبَوَاهُ هما اللَّذَان يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا من مَوْلُود إِلَّا يُولد عَلَى الْفطْرَة فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَو ينصرانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تنْتج الْبَهِيمَة جَمْعَاء هَل تُحِسُّونَ فِيهَا من جَدْعَاء ثمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَة فطْرَة الله الَّتِي فطر النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيل لخلق الله ذَلِك الدِّين الْقيم

انْتَهَى

969 - الحَدِيث التَّاسِع

فِي الحَدِيث المستغزر يُثَاب من هِبته

قلت لم أَجِدهُ إِلَّا من قَول شُرَيْح رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْبيُوع ثَنَا ابْن أبي زَائِدَة عَن هِشَام عَن ابْن سِيرِين عَن شُرَيْح قَالَ المستغزر يُثَاب من هِبته أَو ترد عَلَيْهِ انْتَهَى

وَرَوَاهُ عبد الرازق فِي مُصَنفه فِي الْهِبَة أخبرنَا معمر عَن أَيُّوب عَن ابْن سِيرِين بِهِ

(169/600)

قَالَ ابْن الْأَثِير فِي النِّهَايَة ورد عَن بعض التَّابِعين أَنه قَالَ الْجَانِب المستغزر يُثَاب من هِبته قَالَ وَهُوَ الَّذِي يطْلب أَكثر مِمَّا يهدي انْتَهَى

970 - الْحَدِيث الْعَاشِر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا رياحا وَلَا تجعلها ريحًا

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عَبَّاس وَله طَرِيقَانِ

عِنْد أبي يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه عَن حُسَيْن بن قيس عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا هَاجَتْ رِيح اسْتَقْبلهَا بوَجْهِهِ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَمد يَدَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك من خير هَذِه الرِّيح وَخير مَا أرْسلت بِهِ وَأَعُوذ بك من شَرها وَشر مَا أرْسلت بِهِ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَة وَلَا تجعلها عذابا اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رياحا وَلَا تجعلها ريحًا انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بِحُسَيْن بن قيس وَنقل تَضْعِيفه عَن أَحْمد وَالنَّسَائِيّ

وَالطَّرِيق الآخر رَوَاهُ الشَّافِعِي فِي مُسْنده أَخْبرنِي من لَا أتهم أَنا الْعَلَاء ابْن رَاشد عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء

وَمن طَرِيق الشَّافِعِي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْمعرفَة فِي بَاب الاسْتِسْقَاء وَزَاد قَالَ ابْن عَبَّاس أَلا ترَى إِلَى قَوْله تَعَالَى فَأَرْسَلنَا عَلَيْهِم ريحًا صَرْصَرًا وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم الرِّيح الْعَقِيم وَقَالَ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاح لَوَاقِح وَيُرْسل الرِّيَاح مُبَشِّرَات انْتَهَى

وَرَوَاهُ فِي كتاب الدُّعَاء الْكَبِير لَهُ وَزَاد قَالَ الْأَصَم سَمِعت الرّبيع بن سُلَيْمَان

(170/600)

يَقُول كَانَ الشَّافِعِي إِذا قَالَ أَخْبرنِي من لَا أتهم يُرِيد بِهِ إِبْرَاهِيم بن أبي يَحْيَى الْأَسْلَمِيّ وَإِذا قَالَ أَخْبرنِي الثِّقَة يُرِيد بِهِ يَحْيَى بن حسان انْتَهَى

وَالْمُصَنّف قد اسْتدل بِهِ عَلَى أَن الرِّيَاح هِيَ الْجنُوب وَالشمَال وَالصبَا وَهِي رياح الرَّحْمَة وَالدبور هِيَ ريح الْعَذَاب

971 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام إِذا كثرت الْمُؤْتَفِكَات زكتْ الْأَرْض

قلت غَرِيب

972 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا من امْرِئ مُسلم يرد عَن عرض أَخِيه إِلَّا كَانَ حَقًا عَلَى الله أَن يرد عَنهُ نَار جَهَنَّم

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كتاب الْبر والصلة من طَرِيق ابْن الْمُبَارك أَنا أَبُو بكر النَّهْشَلِي عَن مَرْزُوق أبي بكر التَّيْمِيّ عَن أم الدَّرْدَاء عَن أبي الدَّرْدَاء قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رد عَن عرض أَخِيه رد الله عَن وَجهه النَّار يَوْم الْقِيَامَة انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن انْتَهَى

قَالَ ابْن الْقطَّان فِي كِتَابه وَمَانعه من الصِّحَّة مَرْزُوق هَذَا فَإِنَّهُ لم تثبت عدَالَته انْتَهَى

وَرَوَاهُ كَذَلِك أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالْخمسين

وَرُوِيَ أَيْضا من حَدِيث أَسمَاء بنت يزِيد رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي وَعبد بن حميد فِي مسانيدهم وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان وَأَبُو نعيم فِي الْحِيلَة فِي تَرْجَمَة شهر بن حَوْشَب كلهم من حَدِيث عبيد الله ابْن أبي زِيَاد القداح عَن شهر بن حَوْشَب عَن أَسمَاء بن يزِيد الْأَنْصَارِيَّة قَالَت قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحوه

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بِالْقداحِ وَلينه يَسِيرا

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ أَيْضا عَن لَيْث بن أبي سليم عَن شهر بن حَوْشَب بِهِ وَزَاد ثمَّ قَرَأَ وَكَانَ حَقًّا علينا نصر الْمُؤمنِينَ

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَرَوَاهُ أَيْضا عَن لَيْث بن أبي سليم عَن شهر بن حَوْشَب عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء

973 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن ابْن عمر قَالَ قرأتها عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من ضعف يَعْنِي بِفَتْح الضَّاد فأقرأني من ضعف يَعْنِي بضمها

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْحُرُوف وَالتِّرْمِذِيّ فِي الْقرَاءَات من حَدِيث فُضَيْل بن مَرْزُوق عَن عَطِيَّة الْعَوْفِيّ عَن عبد الله بن عمر أَنه قَرَأَ عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من ضعف فَقَالَ لَهُ انْتَهَى من ضعف قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث فُضَيْل بن مَرْزُوق انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده وَالْبَزَّار وَسكت عَنهُ

وَوهم ابْن عَسَاكِر فِي أَطْرَافه فعَزاهُ للتِّرْمِذِي فِي تَرْجَمَة عَطِيَّة عَن الْخُدْرِيّ وَأَهْمَلَهُ فِي تَرْجَمَة عَطِيَّة عَن ابْن عمر

قَالَ الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره وَالَّذِي شَاهَدْنَاهُ فِي غير مَا نُسْخَة من التِّرْمِذِيّ إِنَّمَا ذكره عَن عَطِيَّة عَن ابْن عمر انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره أَيْضا من حَدِيث سَلام بن سُلَيْمَان الْمَدَائِنِي عَن أبي عَمْرو بن الْعَلَاء عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَرَأت عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الَّذِي خَلقكُم من ضعف فَقَالَ لِي قل من ضعف وَلَا تقل ضعفا انْتَهَى

(172/600)

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث عبد الْجَبَّار بن نَافِع الضَّبِّيّ عَن أَيُّوب بن مُوسَى عَن نَافِع عَن ابْن عمر نَحوه

974 - الْحَدِيث الرَّابِع عشر

فِي الْحَدِيث مَا بَين فنَاء الدُّنْيَا إِلَى الْبَعْث أَرْبَعِينَ قَالُوا لَا نعلم أَهِي أَرْبَعُونَ سنة أم أَرْبَعُونَ أَلف سنة

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَن أبي هُرَيْرَة قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا بَين النفختين أَرْبَعُونَ قَالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَة أَرْبَعُونَ سنة قَال أَبيت قَالُوا أَرْبَعُونَ شهرا قَال أَبيت قَالُوا أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَال أَبيت انْتَهَى

975 - الحَدِيث السَّادِس عشر

قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة الرّوم كَانَ لَهُ من الْأجر عشر حَسَنَات بِعَدَد كل ملك سبح لله بَين السَّمَاء وَالْأَرْض وَأدْرك مَا ضيع يَوْمه وَلَيْلَته

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أَمَامه عَن أبي بن كَعْب قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 53.63﴾

(173/600)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الروم

قوله تعالى : (وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ) :

الآية/ 39 .

في معناه : أن تهب الشيء تريد أن تثاب عليه بما هو أفضل منه ، فذلك الذي لا يربو عند اللّه تعالى ، ولا يؤجر صاحبه عليه ولا إثم فيه «1» .

(وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) ، وهو الرجل يعطي ليثاب عليه .

وعن عكرمة ، قوله تعالى : (وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ) .

الربا ربوان : ربا حلال وربا حرام ، فأما الربا الحلال : فهو أن تهدي هدية تلتمس بها ما هو خير منها .

وروى زكريا عن الشعبي في قوله تعالى :

---

(1) والمعنى : وما آتيتم من مال ترابون فيه ليزيد في أموالكم إذ تأخذون فيه أكثر منه .

(وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ) ، قال : كان الرجل يسافر مع الرجل ، فيجعل له من ربح ماله ليتجر له بذلك «1» .

وعن الضحاك في هذه الآية : أن الربا الحلال كالرجل ، يهدي ليثاب بأفضل منه ، فذلك لا له ولا عليه ، ليس فيه أجر ولا عليه فيه إثم .

وروى منصور عن إبراهيم في قوله : (وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) «2» ، قال : لا تعطى لتزداد «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 339. 340﴾

---

(1) انظر تفسير الطبري ، وتفسير الدر المنثور للسيوطي لتفسير سورة الروم .

(2) سورة المدثر آية 6 .

(3) ذكره السيوطي في الدر المنثور ، والطوسي في تفسيره لسورة الروم

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الرّوم» (30)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«الم غُلِبَتِ الرُّومُ» (1 ، 2) ساكن لأنه جرى مجرى فواتح سائر السور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجي ومجاز موضعه فى المعنى كمجار ابتداء فواتح سائر السور . .

«فِي بِضْعِ سِنِينَ» (4) والبضع ما بين ثلاث سنين وخمس سنين . .

«وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ» (6) «وَعْدَ اللَّهِ» منصوب من موضعين أحدهما : على قولك : وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، وعدا من اللّه فصار فى موضع مصدر «سيغلبون» وقد ينصبون المصدر إذا كان غير مصدر الفعل الذي قبله لأنه فى موضع مصدر ذلك الفعل والثاني : لأنه قد يجوز أن يكون فى موضع «فعل» وفى موضع «يفعل» منه قال أبو عمرو بن العلاء والبيت لكعب :

تسعى الوشاة جنابيها وقيلهم إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول

(147) أي ويقولون فلذلك نصب «و قيلهم» . .

«وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها» (9) أي استخرجوها ، ومنه قولهم :

أثار ما عندى : أي استخرجه ، وأثار القوم : أي استخرجهم .

«وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ» (12) أي يتندمون ويكتئبون وييأسون.

قال العجّاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال نعم أعرفه وأبلسا

(217).

«فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» (15) مجازه: يفرحون ويسرّون وليس شيء أحسن عند العرب

من الرياض المعشبة ولا أطيب ريحا قال الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل «1» [692]

يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

وقال العجّاج:

والحمد للّه الذي أعطى الحبر موالى الحقّ إنّ المولى شكر

«2» [693] ويقال فى المثل «3»: مليت بيوتهم حبرة فهم ينتظرون العبرة..

«مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ» (23) وهى من مصادر النوم بمنزلة قام يقوم مقاما، وقال يقول

مقالا.

---

(1). - 692) الأول هو 14 والثاني هو 16 من القصيدة السادسة فى ديوانه وهما مع

بيت آخر فى الطبري 21/ 17 والقرطبي 14/ 11.

(2). - 693: ديوانه ص 15 والطبري 21/ 18 والاقتضاب ص 407.

(3) . - 11 «المثل» : لم أجده فيما رجعت إليه إلا فى الجمهرة (1/ 218) مثلا مضروبا فى كلمة «حبرة» هكذا : كل حبرة تعقبها عبرة .

(177/600)

«كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» (26) أي مطيعون و«كلّ» لفظه لفظ الواحد ويقع معناه على الجميع فهو هاهنا جميع وفى الكلام : كل له مطيع أيضا .

«وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» (27) مجازه أنه خلقه ولم يكن من البدء شيئا ثم يحييه بعد موته «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (27) فجاز مجازه : وذلك هيّن عليه لأن «أفعل» يوضع فى موضع الفاعل قال :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل على أيّنا تعدو المنيّة أوّل

«1» [694] أي وإنى لواجل أي لوجل ، وقال :

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

(531) أي بواحد وفى الأذان : اللّه أكبر أي اللّه كبير . وقال الشاعر :

أصبحت أمنحك الصّدود وانني قسما إليك مع الصدود لأميل

«2» [695] وقال الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول

«3» [696] أي عزيزة «4» طويلة. فان احتجّ محتجّ فقال إن اللّه لا يوصف بهذا وإنما يوصف به الخلق فزعم أنه وهو أهون على الخلق وإن الحجة عليه قول اللّه

---

(1) . - 694: لمعن بن أوس من كلمة فى ديوانه ص 36 وفى حماسة البحتري ص 101 وأمالى القالي 3/ 218 والمعاني للعسكارى 1/ 113 والعيني 3/ 439 والخزانة 3/ 506.

(2) . - 695: من كلمة للأحوص بن محمد الأنصاري فى الأغانى 18/ 96 والخزانة 1/ 248 والبيت فى الكتاب 1/ 160 والسمط ص 259 والقرطبي 14/ 21.

(3) . - 696: مطلع قصيدة له فى النقائض رقم 39 وهو فى ديوانه ص 714 والطبري 21/ 12 والقرطبي 14/ 21 والعيني 4/ 42 والخزانة 3/ 147، 480.

(4) . - 13 - 2 - من ص 122 «أي عزيزة . . . ينقله»: رواه الطبري (21/ 22) عن بعض أهل العربية لعله أبو عبيدة.

«وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» (33/ 19) وفى آية أخرى «وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما «1»» أي لا يثقله . .

«فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» (30) أي صبغة اللّه التي خلق عليها الناس ، وفى الحديث : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه الذين يهوّدانه وينصرانه «2» أي على الملة والصبغة وهى واحدة وهى العهد الذي كان أخذه اللّه منهم ونصبوها على موضع المصدر وإن شئت فعلى موضع الفعل قال :

إنّ نزارا أصبحت نزارا دعوة أبرار دعوا أبرارا

«3» [697] .

«مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» (31) أي راجعين تائبين . .

«كانُوا شِيَعاً» (32) أي أحزابا فرقا . .

«كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (32) أي كل شيعة وفرقة بما عندهم .

«فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» (34) مجازه مجاز التوعّد والتهدّد وليس بأمر طاعة ولا فريضة .

«إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ» (36) أي يئسون قال حميد الأرقط :

قد وجدوا الحجّاج غير قانط

«4» [698]

(1) . - 1 - 2 «ومن جعل . . . حفظهما» الذي ورد فى الفروق : رواه القرطبي (14/ 21) عن أبى عبيدة .

(2) . - 4 «كل . . . ينصرانية» : قد أخرج البخاري هذا الحديث فى كتاب الجنائز ، والتفسير والقدر ومسلم فى القدر وأبو داود فى السنة والترمذي فى القدر وابن ماجة فى الرهون وهو فى القرطبي 14/ 26 .

(3) . - 697 : وأنشد سيبويه هذا الرجز فى باب «ما يكون المصدر فيه توكيدا لنفسه نصبا» ونسبه إلى رؤبة (الكتاب 1/ 160) ولم أجده فى ديوان رؤبة وهو فى الشنتمرى 1/ 191 وابن يعيش 1/ 145 .

(4) . - 698 : فى الطبري 21/ 26 والجمهرة 3/ 115 . [. . . . .]

(179/600)

«فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ» أي لا يزيد ولا ينمى . .

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» (40) مجازه : من يفعل من ذلكم شيئا ، «من» من حروف الزوائد وقد أثبتنا تفسيره فى غير مكان وجاء «مِنْ ذَلِكُمْ» وهو واحد وقبله

جميع قال : «خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» والعرب قد تفعل مثل ذلك قال رؤبة بن العجّاج :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

«1» - 50 يريد كأن ذاك ولم يرد خطوطا فيؤنثه ولا سوادا أو بلقا فيثنّيه وهذا كله يحاجهم به القرآن وليس باستفهام ب «هل» ومعناه : ما من شركائكم من يفعل ذلك ومجاز «سُبْحانَهُ» مجاز موضع التنزيه والتعظيم والتبرؤ قال الأعشى :

أقول لّما جاءنى فخره سبحان من علقمة الفاخر

(44) يتبرؤ من ذلك له وتعالى أي علا عن ذلك . .

«يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ «2»» (43) أي يتفرقون ويتخاذلون .

---

(1) . - 50 : انظر ما جرى بين أبى عبيدة وبين رؤبة فى معنى هذا الرجز فى موضعه .

(2) . - 14 «يَصَّدَّعُونَ» وروى ابن حجر تفسير أبى عبيدة لهذه الكلمة فى فتح الباري 8/ 394 .

«مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» (44) من يقع على الواحد والاثنين والجميع من المذكر والمؤنث ومجازها هاهنا مجاز الجميع «ويمهد» أي يكتسب ويعمل ويستعد قال سليمان بن يزيد العدوى:

أمهد لنفسك حان السقم والتلف ولا تضيعنّ نفسا ما لها خلف

«1» [699].

«فَتُثِيرُ سَحاباً» (48) مجازه: تجمع وتستخرج..

«الْوَدْقَ» (48) والقطر واحد قال:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل أبقالها

(603).

«مِنْ خِلالِهِ» (48) أي من بينه..

«فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (50) المحيي الموتى هو اللّه ولم تقع هذه الصفة على رحمة اللّه ولكنها وقعت على أن اللّه هو محيى الموتى وهو على كل شىء قدير. والعرب قد تفعل ذلك فتصف الآخر وتترك الأول يقولون:

---

(1). - 699: فى الطبري 20/ 31.

رأيت غلام زيد أنه عنه لحليم أي أن زيدا عن غلامه وعن غيره لحليم .

«وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً» (51) الهاء هاهنا للأثر كقولك :

فرأوا الأثر مصفرّا ومعناه النبات . .

«خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ» (54) أي صغارا أطفالا . .

«ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً» (54) أي الكبر بعد القوة . .

«كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ» (59) يقال للسيف إذا جرب وصدىء : قد طبع السيف وهو أشد الصدأ «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 119. 125﴾

(1) . - 701 : ديوانه ص 86 .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الروم

فى تصوير العلاقة بين الإسلام والنصرانية ، نلحظ : أن القرآن الكريم لم يوارب ولم يداهن فى تقرير الوحدانية ورفض التعدد . فالله واحد لم يلد ولم يولد ، وهو أحد ليس مركبا من عنصرين كما يتركب الماء مثلا من الأوكسوجين والأيدروجين . فالقول بأن الله هو الأب والابن معا مرفوض "إنما الله إله واحد " . ومقتضى ذلك أن الثانى لايكون إلها ، وكذلك الثالث بداهة . إن الثانى والثالث مخلوقان لله سبحانه " قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين " . وهذه الآيات من القرآن النازل بمكة ! إن الإسلام من يومه الأول حدد موقفه من قضية التثليث . . ! ومع ذلك ، فقد لاحظنا من الناحية السياسية أن الإسلام كان حسن الصلة بالنصارى ، وأن النبى عندما أوذى أصحابه أشار إليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وهى يومئذ دولة نصرانية ، فذهبوا – إليها وهم يرون عيسى وأمه من عباد الله الصالحين ! ! ثم جاءت هزيمة الروم أمام المجوس ، فحزن لها المسلمون وشمت فيهم عبدة الأوثان ، وكانت هزيمة النصارى شديدة بعيدة المدى خسروا فيها مصر واليمن والشام ، ودفعوا غرامات مهينة من المال والحرمات . . ! ووثق

أهل الأرض أن شمس الروم غربت ومستقبلهم ضاع . والصوت الوحيد الذى كابر هذه النتائج ووقف ضدها هو صوت القرآن الكريم فى مكة . فقد أعلن فى يقين أن هذه الهزيمة عارضة وسوف تنتهى فى سنوات ! ! "غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون" .

(183/600)

إن هذه الآيات تحدت واقعا عالميا ذل فيه النصارى وعز فيه المجوس ، ما شذ فيه أحد . ومع ذلك فإن الوحى ينزل جازما بأن هذا الواقع الصارخ سيزول فى سنين تعد على الأصابع ! ! وصدقت الأيام النبوءة القرآنية . . والغريب أن الرومان بدل أن ينوهوا بالإسلام ، قالوا : إن محمدا قال ذلك لأنه كان يكره الفرس ! ! ورفضوا اعتبار هذه النبوءة معجزة تشهد له بالصدق ! ! ونحن أزهد الناس فى شهادتهم . . وإنما نحكى ما وقع لنشير إلى الموقف السياسى للمسلمين نحو النصارى على الإجمال . وعلة ذلك فيما نرى أن النصارى أقرب إلى اعتناق التوحيد الإسلامى من غيرهم – وهو ما كشفت عنه الفتوح

الإسلامية – فقد انتصرت الفطرة ودخل الناس أفواجا فى دين الله . لقد آثرت الجماهير ترك التناقض والانسياق مع بداهة العقل ، . فشرحت بالإسلام صدرا واعتنقته طوعا لا قهرا . . . إن مواثيق الفطرة سبق ذكرها فى سورة الأعراف ، لكنها شرحت باستفاضة فى سورة الروم ، فعلم الناس أن الإسلام هو الفطرة السليمة والطبيعة الإنسانية المستقيمة . إنه حركة العقل المتحرر من التقاليد ، الباحث عن الحق ، المتجرد عن الأهواء " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " . والحى الذى تتجه إليه الأحياء فى الأرض والسماوات منزه عن الشرك ، موصوف بالمجد والحمد تسجد له الإنس والجن والملائكة ، ولا يوجد فى زوايا العالم وخباياه من ينازعه السلطة " فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون" . وكلمة التوحيد تسمى كلمة الإخلاص لأنها خلصت العقيدة من شوائب الشرك ، وجعلت ما عدا الله عبدا له يشرف بالخضوع لذاته ويهلك لو فكر فى التمرد عليه ! ! " يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون " . وقد شاء تبارك اسمه أن يختبر الأحياء كلهم فى هذه الدنيا ، ثم بعد آجال كتبها لهم يستعيدهم

ليسائلهم

عما فعلوا . وحتى لا يضلوا عنه ، نصب لهم الآيات الشاهدة عليه ، وبثها فى آفاق الأرض والسماء ، ثم لفتنا إليها نما كتابه العزيز ، فذكر ستا متعاقبات وسابعة مفردة قال تعالى: 1 - " ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون " .

(185/600)

---

2. " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " . 3. " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين" . 4. " ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون " . 5. " ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون " . 6. " ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون " . 7. " ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " . وكل يقظان الشعور فى هذا الكون يحس أن

القرآن تحدث عن الله أطيب حديث وأصدقه . وجو العلم الذى يخلقه القرآن يبعث على الإيمان ويقتل جراثيم الإلحاد ، ولكن هناك قوما " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون " . وهؤلاء كثروا فى العصر الحاضر كثرة ظاهرة ، وعلة انتشارهم غياب الوحى الحق لعجز حملته عن وعيه وتبليغه ، وسيادة فلسفات وأديان أرضية لا تشبع نهمة العقل ولا ترضى أشواق الفطرة . النفس السوية تعرف ربها ويشدها إحسانه ، وتؤوب إليه إن باعدها الشيطان عنه ولكن الثمرة قد تعطب ، والجنين قد يشوهه مرض ، والناس قد تستبد بهم الأثرة والشقاق والذهول عن الحق . . فهل يتركهم القرآن يهلكون ؟ كلا إنه يناشدهم العودة إلى سبيل الفطرة " منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون " . والتفرق غريزة فى الناس أساسها

إثبات الذات ومغالبة الغير ، وهو موجود بين أهل الدين وأهل الدنيا . ويقترن غالبا بالرضا عن النفس والفرح بما أوتيت !

وهذا شاع بين الأولين والآخرين ولا يزال . . وهو لون من الخلاف يغاير كل المغايرة الاجتهاد الإسلامى المعروف والمذاهب الفقهية التى نشأت عنه . إن الخلاف الفقهى ليس انقسام أمة وإيقاد ضغائن . إنه وجهات نظر فى فهم قضايا فرعية أو هامشية ، وأصحابها مأجورون جميعا مخطئهم ومصيبهم ! ومن حاول تحويل الخلاف إلى تحزب وخصام فقد ضل . . وعقب آيات الفطرة ، جاء حديث طويل عن فتنة السراء والضراء . فالناس قد تدنيهم الأزمات من ربهم ، فإذا أرضاهم نسوا ما كانوا فيه وجحدوا النعمة الطارئة " وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون " . وهذه غفلة منكرة أو غدر خسيس . ومثل ذلك أن يفرح المرء بالنعمة عنده ويألف صحبتها وينسى حقها ، فإذا فقد الصحة أو الثروة أو نقص نصيبه منها خامره اليأس وغلبه القنوط . وذلك لأنه يحسب نفسه فقد لازمة من لوازمه ربما لا تعود ، وما درى أن العطاء والمنع من تصاريف الأقدار " وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون * أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون " . والواقع أن المرء مكلف بالشكر فى السراء ، والصبر . فى الضراء ، والرضا بالقضاء ، ومعاملة الآخرين على أساس ما أوتى . ولذلك قال سبحانه " فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون " . وفتنة الغنى والفقر طحنت العالم منذ

نشأ ، ولا تزال الرأسمالية والاشتراكية تدفعان الجماهير إلى مسالك يشوبها الغلو والكراهية . كلا الفريقين يحسب أن الحياة لا تصفو له إلا على أنقاض الآخر ، كأن حرب الطبقات ضريبة على البشر لابد من أدائها ! ! " ظهر الفساد في البر

(187/600)

والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون " . إن الأخوة المتعاونة المتراحمة التى يصنعها الإيمان هى التى تمنع ضراوة الغنى وضراعة الفقر . " فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون * من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون " . وخلال الكلام عن فتنة السراء والضراء واليأس والرجاء جاء كلام عن الصراع الأبدى بين الحق والباطل ، أو بين الإيمان والكفر . فقيل للرسول وهو يبلغ دعوة الله ويعانى من العوائق التى افتعلها المشركون " ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين " . قلت فى نفسى إن الأمة التى تنتمى إلى محمد تبلغ خمس سكان الأرض ، وتبدو فى ثراها جميع الهزائم العسكرية والثقافية والخلقية ! فما حطها فى هذا الدرك ؟ الواقع أن أغلب معالم الفطرة البشرية مستخف فيها فلا يقين ولا وحدة ولا حضارة !

وتستطيع أن توازن بين جانب مسلم من جوانب الأرض ، وجانب آخر لا يعرف الله الحق ، فتجد النشاط هناك والخمول هنا ! وعندما كان المسلمون يبادون فى البوسنة أو يختطفون من أرضهم فى فلسطين ، كانت هناك جماهير فى وادى النيل والمغرب تضحك ملء الفم وتبحث عن اللهو بغباء ! أهناك شعور بأخوة الدين ؟ كلا ، لأن الدين نفسه غير قائم بالنفوس إلا بقايا مخدرة شائهة . . وأمة بهذه المثابة لا يكتب لها نصر . وقد مزق الله شمل المتدينين من بنى إسرائيل قديما وسلط عليهم عباد الأوثان ، لأن التدين الفاسد ليس جديرا بالنصر ! على أن الأيام دول ، وعندما يصلح المسلمون شئونهم يقترب منهم النصر البعيد . . إن أمتنا تمثل فى العالم الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولا ينصر الله هذه الخلال . وقد جاءت فى هذه السورة آية أحسبها تؤكد أن الإسلام باق إلى آخر الدهر ، وأن بقاءه لا محالة بأمة تعتنقه وتفتديه " وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد

لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون " . إن هذه الآية تومئ إلى أن أمتنا لن تزول ، وأن كبوتها إلى حين ، ونحن نعلم أننا آخر الرسالات وآخر الأمم ، وليس بعدنا إلا قيام الساعة فهل نلم شملنا ونستأنف سيرنا ونستعيد أمجادنا ؟ لعل ذلك

يكون نهاية المطاف ، وهو ما يشير إليه آخر السورة " فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون " . والصبر هنا على العمل الذى يعقب الثمر ، وعلى الجهاد الذى يعقب النصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 315.311 ﴾

(189/600)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأول بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/601)

الجزء الأول بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الروم

وحتى الآية ﴿ 16 ﴾ من نفس السورة

(4/601)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/601)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الروم

أقول ظهر لي في اتصالها بما قبلها أنها ختمت بقوله(والذينَ جاهدوا فينا لنهدينَهُم سُبُلنا) فافتتحت هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر ، وفرح المؤمنين بذلك ، وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ، ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة هذا مع تآخيهما بما قبلها في المطلع ، فإن كلا منهما افتتح ب(الم) غير معقب بذكر القرآن ، وهو خلاف القاعدة الخاصة بالمفتتح بالحروف المقطعة ، فإنها كلها عقبت بذكر الكتاب أو وصفه ، إلا هاتين السورتين وسورة القلم ، لنكتة بينتها في أسرار التنزيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 124 ﴾

(6/601)

قوله تعالى ﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6)

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي يملك الأمر كله (الرحمن) الذي رحم الخلق كلهم بنصب الأدلة (الرحيم) الذي لطف بأوليائه فأنجاهم من كل ضار ، وحياهم كل نافع سار .

لما ختم سبحانه التي قبلها بأنه مع المحسنين قال : ﴿ الم ﴾ مشيراً بألف القيام والعلو ولام الوصلة وميم التمام إلى أن الملك الأعلى القيوم أرسل جبرائيل عليه الصلاة والسلام - الذي هو وصلة بينه وبين أنبيائه عليهم الصلاة والسلام - إلى أشرف خلقه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق ، يوحي إليه وحياً معلماً بالشاهد والغائب ، فيأتي الأمر على ما أخبر به دليلاً على صحة رسالته ، وكمال علم مرسله ، وشمول قدرته ، ووجوب وحدانيته .

(7/601)

ولما أشير في آخر تلك بأمر الحرم إلى أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وختم بمدح المجاهدين فيه ، وأنه سبحانه لا يزال مع المحسنين ، وكانت قد افتتحت بأمر المفتونين ،

فكان كأنه قيل : لنفتننكم ولنعمين المفتين ولنهدين المجاهدين ، وكان أهل فارس قد انتصروا على الروم ، ففرح المشركون وقالوا للمسلمين : قد انتصر إخواننا الأميون على إخوانكم أهل الكتاب ، فلننصرن عليكم ، فأخبر الله تعالى بأن الأمر يكون على خلاف ما زعموا ، فصدق مصدق وكذب مكذب ، فكان في كل من ذلك من نصر أهل فارس وإخبار الله تعالى بإدالة الروم فتنة يعرف بها الثابت من المزلزل ، وكان من له كتاب أحسن حالاً في الجملة ممن لا كتاب له ، افتتحت هذه بتفصيل ذلك تصريحاً بعد أن أشار إليه بالأحرف المقطعة تلويحاً غيباً وشهادة ، دلالة على وحدانيته وإبطال الشرك ، فأثبت سبحانه أن له جميع الأمر وأنه يسرُّ المؤمنين بنصرة من له دين صحيح الأصل ، وخذلان أهل العراقة في الباطل والجهل ، وجعل ذلك على وجه يفيد نصر المؤمنين على المشركين ، فقال مبتدئاً بما أفهمه كونه مع المحسنين مع أنه ليس مع المسيئين : ﴿ غلبت الروم ﴾ أي لتبديلهم دينهم غلبهم – الفرس في زمن أنوشروان أو بعده ﴿ في أدنى الأرض ﴾ أي أقرب أرضهم إلى أرضكم أيها العرب ، وهي في أطراف الشام ، وفي تعيين مكان الغلب – على هذا الوجه – بشارة للعرب بأنهم يغلبونهم إذا وافقوهم ، فإن موافقتهم لهم تكون في مثل ذلك المكان . وقد كان كذلك بما كشف عنه الزمان ، فكأنه تعالى يقول لمن فرح من العرب بنصر أهل فارس على الروم لنكاية المسلمين : اتركوا هذا السرور الذي لا يصوب نحوه من له همة الرجال ، وأجمعوا أمركم وأجمعوا شملكم ، لتواقعوهم في مثل هذا الوضع فتنصروا عليهم ،

ثم لا يقاومونكم بعدها أبداً ، فتغلبوا على بلادهم ومدنهم وحصونهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم .

(8/601)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أعتب سبحانه أهل مكة ، ونفى عليهم قبح صنيعهم في التغافل عن الاعتبار بحالهم ، وكونهم – مع قلة عددهم – قد منع الله بلدهم عن قاصد نهبه ، وكف أيدي العتاة والمتمردين عنهم مع (تعاور) أيدى المنتهين على من حولهم ، وتكرر ذلك واطراده صوناً منه تعالى لحرمه وبيته ، فقال تعالى :

(9/601)

﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ [العنكبوت : 67] أي ولم يكفهم هذا في الاعتبار ، وتبينوا أن ذلك ليس عن قوة منهم ولا حسن دفاع ، وإنما هو بصون الله إياهم بمجاورة بيته وملازمة أمنه مع أنهم أقل العرب ، أفلا يرون هذه النعمة ويقابلونها بالشكر والاستجابة قبل أن يحل بهم نقمة ، ويسلبهم نعمه ، فلما قدم تذكارهم

بهذا ، أعقب بذكر طائفة هم أكثر منهم وأشد قوة وأوسع بلاداً ، وقد أيد عليهم غيرهم ، ولم يغن عنهم انتشارهم وكثرتهم ، فقالت : ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾ الآيات ، فذكر تعالى غلبة غيرهم لهم ، وأنهم ستكون لهم كرة ، ثم يغلبون ، وما ذلك إلا بنصر الله من شاء من عبيده ﴿ ينصر من يشاء ﴾ فلو كشف عن إبصار من كان بمكة من الكفار لرأوا أن اعتصام بلادهم وسلامة ذرياتهم وأولادهم مما سلط على من حولهم من الانتهاب والقتل وسبي الذراري والحرم إنما هو بمنع الله وكرم صونه لمن جاور حرمه وبيته ، وإلا فالروم أكثر عدداً وأطول مدداً ، ومع ذلك تتكرر عليهم الفتكات والغارات ، وتتوالى عليهم الغلبات ، أفلا يشكر أهل مكة من أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ؟ وأيضاً فإنه سبحانه لما قال : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ [العنكبوت : 64] أتبع ذلك سبحانه بذكر تقلب حالها ، وتبين اضمحلالها ، وأنها لا تصفو ولا تتم ، وإنما حالها أبداً التقلب وعدم الثبات ، فأخبر بأمر هذه الطائفة التي هي من أكثر أهل الأرض وأمكنهم وهم الروم ، وأنهم لا يزالون مرة عليهم وأخرى لهم ، فأشبهت حالهم هذه حال اللهو واللعب ، فوجب اعتبار العاقل بذلك وطلبه الحصول على تنعم دار لا ينقلب حالها ، ولا يتوقع انقلابها وزوالها ، ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ ومما يقوي هذا المأخذ قوله تعالى " يعلمون " ظاهراً من الحياة الدنيا أي لو علموا باطنها لتحققوا أنها لهو ولعب ولعرفوا أمر الآخرة " من عرف نفسه عرف ربه "

ومما يشهد لكل من المقصدين ويعضد كلا الأمرين قوله سبحانه : ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ الآيات ، أي لو فعلوا هذا وتأملوا لشاهدوا من تقلب أحوال الأمم وتغير الأزمنة والقرون ما بين لهم عدم إبقائها على أحد فتحققوا لهوها ولعبها وعلموا أن حالهم سيؤول إلى حال من ارتكب مرتكبهم في العناد والتكذيب وسوء البياد والهلاك – انتهى .

ولما ابتدأ سبحانه بما أوجبه للروم من القهر بتبديلهم ، معبراً عنهم بأداة التأنيث مناسبة لسفولهم ، أتبعه ما صنعه معهم لتفريج المحسنين من عباده الذين ختم بهم الأمم ونسخ بملتهم الملل ، وأدالهم على جميع الدول ، فقال معبراً بما يقتضي الاستعلاء من ضمير الذكور العقلاء : ﴿ وهم ﴾ أي الروم ، ودل على التبعيض وقرب الزمان بإثبات الجار فقال ، معبراً بالجار إشارة إلى أن استعلاءهم إنما يكون في بعض زمان البعد ولا يدوم : ﴿ من بعد غلبهم ﴾ الذي تم عليهم من غلبة فارس إياهم ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ﴿ سيغلبون ﴾ فارساً ، فأكد وعده بالسين – وهو غني عن التأكيد – جرياً على مناهيج القوم لما وقع في ذلك من إنكارهم ﴿ في بعض سنين ﴾ وذلك من أدنى العدد لأنه في المرتبة الأولى ، وهي مرتبة الآحاد ، وعبر بالبضع ولم يعين إبقاء للعباد في ربقة نوع من الجهل ،

تعجيزاً لهم ، وتحدياً لمن عاند بنفي ما أخبر به أو يعلم ما ستر منه ، وتشريعاً للتعمية إذا قادت إليها مصلحة ، وشرح ذلك أنه كان بين فارس والروم حروب متواصلة ، وزحوف متكاثرة ، في دهور متطاولة ، إلى أن التقوا في السنة الثامنة من نبوة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في زمن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، فظفرت فارس على الروم ، أخرج سنيد بن داود في تفسيره والواحدي في أسباب النزول والترمذي في تفسير سورة الروم من جامعه وغيرهم ، وقد جمعت ما ذكروه ، وربما أدخلت حديث بعضهم في بعض .

(11/601)

قال سنيد عن عكرمة : كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الأبطال ، فدعاها كسرى فقال : إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً ، وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك ، فأشيري عليَّ أيهم أستعمل ، فأشارت عليه بولد يدعى شهربراز ، فاستعمله على جيش أهل فارس وقال الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد بن مسكوية في كتابه تجارب الأمم وعواقب الهمم ، فقالت تصف بنيها : هذا فرحان أنفذ من سنان ، هذا شهربراز أحكم من كذا ، هذا فلان أروغ من كذا ، فاستعمل أيهم شئت .

فاستعمل شهربراز – انتهى .

وبعث قيصر رجلاً يدعى قطمير بجيش من الروم ، فالتقى مع شهربراز بأذرعات وبصرى ، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب فغلبت فارس الروم وظهروا عليهم فقتلوهم وخربوا مدائنهم وقطعوا زيتونهم ، وبلغ ذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضى الله عنه ـ م وهم بمكة فشق ذلك عليهم ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم ، لأن فارس لم يكن لهم كتاب ، وكانوا يجحدون البعث ، ويعبدون النار والأصنام ، وفرح كفار مكة وشمتوا .

قال الترمذي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : وكان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب – انتهى .

فلقي المشركون أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، ونحن أميون وأهل فارس أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم ، فإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم .

فذكر ذلك أبو بكر للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت الآية ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أما إنهم سيغلبون في بضع سنين " .

(12/601)

قال الترمذي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : فذكره أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكروا ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : " ألا جعلته إلى دون " يعني دون العشرة ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ، ثم ظهرت الروم بعد ذلك ، وروى الترمذي أيضاً عن نيار بن مكرم الأسلمي رضي الله تعالى عنه وقال : حديث حسن صحيح غريب ، قال : لما نزلت : ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل الكتاب ، وفي ذلك قول الله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ وكانت قريش " تحب " ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل الكتاب ولا إيمان ببعث ، فلما نزلت هذه الآية خرج أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يصيح في نواحي مكة ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ ! قال ناس من قريش لأبي بكر ـ رضى الله عنه ـ : فذلك بيننا وبينكم ، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارساً في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر ـ رضى الله عنه ـ : كم تجعل البضع من ثلاث سنين إلى تسع سنين ،

فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه ، فسموا بينهم ست سنين ، فمضت الست سنون قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ تسمية ست سنين ، لأن الله تعالى قال : ﴿ في بضع سنين ﴾ .

قال ابن الجوزي في زاد المسير : وقالوا : هلاّ أقررتها على ما أقرها الله ، لو شاء أن يقول : ستاً ، لقال .

(13/601)

قال الترمذي في روايته : وأسلم عند ذلك ناس كثير .

وروى الترمذي أيضاً والواحدي في أسباب النزول عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن ظهور الروم عليهم كان يوم بدر .

وقال الزمخشري فيما ذكره من عند سنيد أنه كان يوم الحديبية فإنه قال بعد أن ساق نحو ما مضى : فقال لهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ – يعني للمشركين : لا يقرنّ الله أعينكم ! فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبي بن خلف : كذبت يا أبا فضيل ! اجعل بيننا وبينك أجلاً أناحبك عليه .

- والمناحبة : المراهنة - فناحبه على عشر قلائص - من كل واحدة منهما ، وجعل الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر - رضى الله عنه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده في الخطر ومادّه في الأجل ، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أبي من جرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعني الذي جرحه به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أحد ، فظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك عند رأس سبع سنين .

وقيل : كان النصر يوم بدر للفريقين ، فأخذ ابو بكر - رضى الله عنه - الخطر من ذرية أبي ، وجاء به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : " تصدق به " - انتهى .

وربما أيد القول بأنه سنة الحديبية سنة ست ما في الصحيحين عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن أبي سفيان - رضى الله عنه - م في كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل وسؤال هرقل لأبي سفيان - رضى الله عنه - ، وفيه أن ذلك لما كشف الله عن قيصر جنود فارس ومشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله ، ومن المعلوم أن كتاب النبي صلى الله عليه و سلم إليه وإلى غيره من الملوك كان بعد الرجوع من الحديبية ، وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة الصادقة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند الله نزل بالحق المبين ، لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى فطابقه الواقع .

وقال ابن الجوزي : وفي الذي تولى وضع الرهان من المشركين قولان : أحدهما أبي بن خلف – قاله قتادة ، والثاني أبو سفيان بن حرب – قاله السدي – انتهى .

وذكر القصة أبو حيان في تفسيره البحر وزاد عن مجاهد أن التقاءهم لما ظهرت فارس كان في الجزيرة ، وعن السدي أنه كان بأرض الأردن وفلسطين ، وأن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ لما أراد الهجرة طلب منه أبي بن خلف كفيلاً بالخطر الذي كان بينهما في ذلك ، فكفل به ابنه عبد الرحمن ـ رضى الله عنه ـ ، فلما أراد أبي الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل ، فأعطاه كفيلاً وهلك أبي من جرح جرحه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقال ابن الفرات في تأريخه : كان بين كسرى أنوشروان وبين ملك الروم هدنة ، فوقع بين رجلين من أصحابهما فبغى الرومي على الفارسي ، فأرسل كسرى إلى ملك الروم بسببه ، فلم يحفل برسالته ، فغزاه كسرى في بضع وسبعين ألف مقاتل فأخذ مدينة دارا والرها ومنبج وقنسرين وحلب وأنطاكية – وكانت أفضل مدينة بالشام – وفامية وحمص ومدناً كثيرة ، واحتوى على ما كان فيها .

وسبى أهل أنطاكية ونقلهم إلى أرض السواد ، وكان ملك الروم يؤدي إليه الخراج ، ولم يزل مظفراً منصوراً ، تهابه الأمم ، ويحضر بابه من وفودهم عدد كثير من الترك والصين والخزر ونظائرهم ، وقال أيضاً في ملك أبرويز بن هرمز بن أنوشروان : وكان شديد الفطنة ، قوي

الذكاء ، بعث الأصبهبذ - يعني شهربراز - مرة إلى الروم فأخذ خزائن الروم ، وبعث بها إلى كسرى ، فخاف كسرى أن يتغير عليه الأصبهبذ ، لما قد نال من الظفر فبعث بقتله ، فجاء الرجل إليه فرأى من عقله وتدبيره ما منعه من قتله وقال : مثل هذا لا يقتل ، وأخبره ما جاء لأجله ، فبعث إلى قيصر ملك الروم : إني أريد أن ألقاك ، فالتقيا فقال له : إن الخبيث قد هم بقتلي ، وإني أريد إهلاكه ، فاجعل لي من نفسك ما أطمئن إليه ، وأعطيك من بيوت أمواله مثل ما أصبت منك .

(15/601)

فأعطاه المواثيق ، وسار قيصر في أربعين ألف مقاتل ، فنزل بكسرى ، فعلم كسرى كيف جرى الحال ، فدعا قساً نصرانياً ، يعني وكتب معه كتاباً .

وقال ابن مسكويه : وكان أبرويز وجه رجلاً من جلة أصحابه في جيش جرار إلى بلاد الروم ، فأنكى فيهم وبلغ منهم ، وفتح الشامات وبلغ الدروب في آثارهم ، فعظم أمره وخافه أبرويز فكاتبه بكتابين يأمره في أحدهما أن يستخلف على جيشه من يثق به ويقبل إليه ، ويأمره في الآخر أن يقيم بموضعه ، فإنه لما تدبر أمره وأجال الرأي لم يجد من يسد مسده ، ولم يأمن الخلل إن غاب عن موضعه ، وأرسل بالكتابين رسولاً من ثقاته وقال له : أوصل

الكتاب الأول بالأمر بالقدوم فإن خف لذلك فهو ما أردت ، وإن كره وتثاقل عن الطاعة فاسكت عليه أياماً ثم أعلمه الكتاب الثاني ورد عليك وأوصله إليه ليقيم بموضعه .

(16/601)

فخرج رسول كسرى حتى ورد على صاحب الجيش ببلاد الشام ، فأوصل الكتاب الأول إليه ، فلما قرأه قال : إما أن يكون كسرى قد تغير لي وكره موضعي ، أو يكون قد اختلط عقله بصرف مثلي وأنا في نحر العدو ، فدعا أصحابه وقرأ عليهم الكتاب فأنكروه ، فلما كان بعد ثلاثة أيام أوصل إليه الكتاب الثاني بالمقام ، وأوهمه أن رسولاً ورد به ، فلما قرأه قال : هذا تخليط ولم يقع منه موقعاً ، ودس إلى ملك الروم من ناظره في إيقاع صلح بينهما على أن يخلي الطريق لملك الروم حتى يدخل بلاد العراق على غرة من كسرى ، وعلى أن لملك الروم ما يغلب عليه من دون العراق ، وللفارسي ما وراء ذلك إلى بلاد فارس ، فأجابه ملك الروم إلى ذلك وتنحى الفارسي عنه في ناحية من الجزيرة ، وأخذ أفواه الطرق ، فلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم عليه من ناحية قرقيسيا وكسرى غير معد وجنده متفرق في أعماله ، فوثب من سريره مع قراءة الخبر وقال : هذا وقت حيلة ، لا وقت شدة ، وجعل ينكت في الأرض ملياً ، ثم دعا برقّ وكتب فيه كتاباً صغيراً بخط دقيق إلى صاحبه

بالجزيرة يقول فيه : قد علمت ما كنت أمرتك به من مواصلة صاحب الروم وإطماعه في نفسك وتخلية الطريق له حتى إذا تولج في بلادنا أخذته من أمامه ، وأخذته أنت ومن ندبناه لذلك من خلفه ، فيكون ذلك بواره ، وقد تم في هذا الوقت ما دبرناه ، وميعادك في الإيقاع به يوم كذا وكذا ، ثم دعا راهباً كان في دير بجانب مدينته وقال : أيّ جار كنت لك ؟ قال : أفضل جار ، قال : فقد بدت لنا إليك حاجة ، فقال الراهب : الملك أجلّ من أن يكون له حاجة إلى مثلي ، ولكن عندي بذل نفسي في الذي يأمر به الملك ، قال كسرى : تحمل لي كتاباً إلى فلان صاحبي – وقال ابن الفرات : إلى الأصبهبذ – ولا تطلعن على ذلك أحداً .

(17/601)

وأعطاه ألف دينار ، قال : نعم ! قال كسرى : فإنك تجتاز بإخوانك النصارى فأخفه ، قال : نعم ، فلما ولى عنه الراهب قال له كسرى : أعلمت ما في الكتاب ؟ قال : لا ، قال : فلا تحمله حتى تعلم ما فيه ، فلما قرآه أدخله في جيبه ثم مضى ، فلما صار في عسكر الروم نظر إلى الصلبان والقسيسين وضجيجهم بالتقديس والصلوات فاحترق قلبه لهم وأشفق مما خاف أن يقع بهم وقال في نفسه : أنا شر الناس إن حملت بيدي حتف النصرانية وهلاك هؤلاء القوم ، فصاح : أنا لم يحملني كسرى رسالة ولا معي له كتاب ، فأخذوه فوجدوا

الكتاب معه ، وقد كان كسرى وجّه رسولاً قبل ذلك اختصر الطريق حتى مر بعسكر الروم كأنه رسول إلى كسرى من صاحبه الذي طابق ملك الروم ومعه كتاب فيه أن الملك قد كان أمرني بمقاربة ملك الروم وأن أختدعه وأخلي له الطريق فيأخذه الملك من أمامه وآخذه أنا من خلفه ، وقد فعلت ذلك ، فرأى الملك في إعلامي وقت خروجه إليه ، فأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب وقال : عجبت أن يكون هذا الفارسي أدهن على كسرى ، ووافاه أبرويز فيمن أمكنه من جنده ، فوجد ملك الروم قد ولى هارباً ، فأتبعه يقتل وياسر من أدرك ، وبلغ الأصبهبذ هزيمة الروم فأحب أن يخلي نفسه ويستر ذنبه لما فاته ما دبر ، فخرج خلف الروم الهاربين فلم يسلم منهم إلا قليل .

وقال ابن الفرات : وخرج القس بالكتاب وأوصله إلى قيصر فقال : ما أراد إلا هلاكنا ، وانهزم فاتبعه كسرى فنجا في شرذمة يسيرة ، وافتتح كسرى أبرويز عدة من بلاد أعدائه ، وبلغت خيله القسطنطينية وإفريقية .

(18/601)

وقد ذكر ابن مسكويه أيضاً ما يمكن أن يكون المراد بالآية ، وشرح أسباب ذلك فذكر أن هرمز بن أنوشروان لما بعث بهرام بن بهرام الملقب جوبين إلى ملك الترك وظفر به ثم بابنه ،

أساء السيرة فيه ولم يأذن له في الرجوع ، بل أمره بالتقدم فيما لم يره بهرام صواباً وخاف مخالفته ، وقد كان هرمز حسن السيرة جداً أديباً أريباً ، داهياً إلا عرقاً قد نزعه أخواله من الترك ، فكان لذلك مقصياً للأشراف وأهل البيوتات والعلماء ، ولم يكن له رأي إلا في تألف السفلة واستصلاحهم ففسدت عليه نيات الكبراء من جنده ، فلما خافه بهرام جمع وجوه عسكره ، وخرج عليهم في زي النساء وبيده مغزل وقطن ثم جلس في موضعه ووضع بين يدي كل واحد منهم مغزلاً وقطناً ، فامتعضوا لذلك ، فقال : إن كتاب الملك ورد عليّ بذلك ، فلا بد من امتثال أمره إن كنتم طائعين ، فأبوا وخلعوا هرمز ، وأظهروا أن ابنه أبرويز أصلح للملك منه ، فلما سمع أبرويز بذلك خاف أباه على نفسه ، فهرب إلى أذربيجان ، ولما بلغ الجند الذين بحضرة هرمز خلعه أعجبهم ، فضعف أمره ، ثم أجمعوا على خلعه فخلعوه وسلموه ، فكوتب أبرويز بذلك فبادر بهراماً فسبقه وجلس على سرير الملك ، فأطاعه الناس ودخل على أبيه ، وأعلمه أنه نائبه ، واعتذر إليه بأن ما حصل له لم يكن عن رأيه ولا برضاه ولا كان حاضره حتى يذب عنه ، فعذره ، وقصده بهرام فجرت بينهما أمور طويلة ، وحروب هائلة ، ضعف فيها أبرويز ، وأحس من أصحابه فتوراً ، وتبين فيهم فشلاً ، فسار إلى أبيه وشاوره فرأى له المصير إلى ملك الروم ، فنهض إلى ذلك في عدة يسيرة فيهم بندويه وبسطام خالاه ، وكردي أخو بهرام ، وكان ماقتاً لأخيه بهرام ومناصحاً لأبرويز ، فقطعوا الفرات وصاروا إلى دير في أطراف العمارة ، فلحقتهم خيل بهرام فقال بندويه

لأبرويز : أعطني بزتك وزينتك لأحتال لك وأبذل نفسي دونك ، ففعل فأمره بالنجاة بمن معه ، وأقام هو في الدير ، فلما أحيط به اطلع بندويه من

(19/601)

فوق الدير فأوهمهم أنه أبرويز بما عليه من البزة والزينة ، فظنوه وسألهم الإمهال إلى غد ليسلمهم نفسه فأمسكوا ، وحفظ الدير بالحرس ، فلما أصبحوا اطلع عليهم وقال : إن عليَّ وعلى أصحابي بقية شغل من استعداد لصلوات وعبادات فأمهلونا ، ولم يزل يدافع حتى مضى عامة النهار وعلم أن أبرويز قد فاتهم ، ففتح حينئذ وأعلم قائدهم بأمرهم ، فانصرف به إلى بهرام جوبين فحبسه .

ولما وصل أبرويز إلى أنطاكية كاتب ملك الروم وسأله نصرته ، فأجابه وتوادا إلى أن زوجة ابنته مريم وحملها إليه ، وبعث إليه ستين ألف مقاتل فيهم أخوه تياذوس وسأله ترك الأتاوة التي كان آباؤه يسألونها ملوك الروم إذ هو ملك ، فاغتبط به أبرويز وسار بهم ، فلما وصل إلى أداني أرضهم انضم إليه كثير من أهل فارس فاستظهر على بهرام ، فقصد بهرام بلاد الترك فأكرمه ملكها ، ولم يزل أبرويز يلاطف ملك الروم الذي نصره حتى وثبت الروم عليه في شيء أنكروه منه فقتلوه وملكوا غيره ، ولجأ ابنه إلى أبرويز فملكه على الروم وأرسل معه

جنوداً كثيفة عليهم شهربراز ، فدوخ عليهم البلاد ، وملك صاحب كسرى بيت المقدس وقصد قسطنطينية ، فأناجوا على ضفة الخليج القريب منها ، ولم يخضع لابن الملك الذي توجه كسرى أحد من الروم ، وكانوا قد قتلوا الذي ملكوه بعد أبيه لما ظهر من فجوره وسوء تدبيره ، وملكوا عليهم رجلاً يقال له هرقل .

(20/601)

وقال ابن الفرات : إن أبرويز بعث مع ابن الملك الذي كان نصره ثلاثة من قواده في جنود كثيرة كثيفة ، أما أحدهم فإنه كان يقال له زميرزان وجهه إلى بلاد الشلام فدوخها حتى انتهى إلى بلاد فلسطين ، وورد مدينة بيت المقدس ، وأخذ أسقفها ومن كان فيها من القسيسين وسائر النصارى بخشبة الصليب ، وكانت قد دفنت في بستان في تابوت من ذهب وزرع فوقها مبقلة فدلوه عليها فحفر واستخرجها وبعث بها إلى كسرى في سنة أربع وعشرين من ملكه ، وأما القائد الثاني – وكان يقال له : شاهير – فسار حتى احتوى على مصر والإسكندرية وبلاد النوبة وبعث إلى كسرى بمفاتيح مدينة الإسكندرية في سنة ثمان وعشرين من ملكه ، وأما القائد الثالث – وكان يقال له : فرهان – فإنه قصد قسطنطينية حتى أناخ قريباً من ماء وخيم هنالك فأمره كسرى فخرب بلاد الروم غضباً مما انتهكوا من

موريق - يعني الملك الذي كان نصره ، وفعل هذا لأجل ابنه ، وانتقاماً له منهم ، ولم ينقد لابن الملك الذي فعل هذا لأجله أحد من الروم ، لأنهم لما قتلوا الملك قوفا ملكوا عليهم رجلاً يقال له هرقل ، ثم اتفق ابن الفرات وابن فتحون فقالا : فلما رأى هرقل عظيم ما فيه بلاد الروم من تخريب جنود فارس إياها وقتلهم مقاتلتهم ، وسبيهم ذراريهم ، واستباحتهم أموالهم ، تضرع إلى الله تعالى ، وأكثر الدعاء والابتهال فيقال : إنه رأى في منامه رجلاً ضخم الجثة رفيع المجلس عليه ، فدخل عليهما داخل ، فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرقل : إني قد سلمته في يدك ، فلم يقصص رؤياه تلك في يقظته حتى توالت عليه أمثالها ، فرأى في بعض لياليه كأن رجلاً دخل عليهما وبيده سلسلة طويلة فألقاها في عنق صاحب المجلس الرفيع عليه ثم دفعه إليه وقال له : ها قد دفعت إليك كسرى برمته ، وقال ابن الفرات : فاغزه فإنك مدال عليه ، ونائل أمنيتك في غزاتك ، فلما تتابعت عليه هذه الأحلام قصها على عظماء الروم وذوي العلم منهم ، فأشاروا عليه أن يغزوه

(21/601)

، فاستعد هرقل واستخلف ابنه على مدينة قسطنطينية ، وأخذ غير الطريق الذي فيه شهربراز صاحب كسرى ، وسار حتى دخل في بلاد أرمينية ونزل بنصيبين بعد سنة ،

وقد كان صاحب ذلك الثغر من قبل كسرى استدعى لموجدة كانت من كسرى عليه ، وأما شهربراز فكانت كتب كسرى ترد عليه في الجثوم على الموضع الذي هو به ، وترك البراح ، ثم بلغ كسرى تساقط هرقل في جنوده إلى نصيبين فوجه لمحاربة هرقل رجلاً من قواده يقال له : راهزاد في اثني عشر ألفاً من الأنجاد ، وأمره أن يقيم بنينوى وهي التي تدعى الآن الموصل – على شاطىء دجلة ، ويمنع الروم أن يجوزوها ، وكان كسرى بلغه خبر هرقل وأنه مغذ وهو يومئذ مقيم بدسكرة الملك ، فتعذر راهزاد لأمر كسرى وعسكر حيث أمره فقطع هرقل دجلة من موضع آخر إلى الناحية التي كان فيها جند فارس ، فأذكى راهزاد العيون عليه فانصرفوا إليه فأخبروه أنه في سبعين ألف مقاتل ، فأيقن راهزاد أنه ومن معه من الجند عاجزون عن مناهضته ، فكتب إلى كسرى غير مرة دهم هرقل إياه بمن لا طاقة له ولمن معه بهم ، لكثرتهم وحسن عدته ، قال ابن الفرات : فكتب كسرى إنكم إن عجزتم عن الروم لم تعجزوا عن بذل دمائكم في طاعتي ، فلما تتابعت على راهزاد جوابات كسرى بذلك عبى جنده ، وناهض الروم بهم ، فقتل الروم راهزاد وستة آلاف رجل ، وانهزمت بقيتهم ، وهربوا على وجوههم ، وبلغ كسرى قتل الروم راهزاد وستة آلاف وما نال هرقل من الظفر فهدّه ذلك وانحاز من دسكرة الملك إلى المدائن ، وتحصن به لعجزه كان عن محاربة هرقل ، وسار هرقل حتى كان قريباً من المدائن .

قال ابن الفرات : فاستعد كسرى لقتاله ثم خالف كسرى ملك الروم فرجع إلى بلاده فحمل خزائنه في البحر .

(22/601)

فعصفتا الريح فألقتها بالإسكندرية ، فظفر بها أصحابه من الروم ، وذكر المسعودي هذا فخالف بعض المخالفة : فقال : وثب بطريق من بطارقة الروم يقال له قوقاس فيمن اتبعه على تموريقس ملك الروم حموا أبرويز ومنجده ، فقتلوه وملكوا قوقاس ، ونمى ذلك إلى أبرويز فغضب لحموه وسيّر إلى الروم جيوش وكانت له في ذلك أخبار يطول ذكرها ، وسيّر شهريار مرزبان المغرب إلى حرب الروم فنزل أنطاكية وكانت له مع ملك الروم وأبرويز أخبار ومكاتبات وحيل إلى أن خرج ملك الروم إلى حرب شهريار ، وقدم خزائنه في البحر في ألف مركب ، فألقتها الريح إلى ساحل أنطاكية فغنمها شهريار فحملها إلى أبرويز فسميت خزائن الريح ، ثم فسدت الحال بين أبرويز وشهريار ، ومايل شهريار ملك الروم فسيره شهريار نحو العراق إلى أن انتهى إلى النهروان فاحتال أبرويز في كتب كتبها مع بعض أساقفة النصرانية ممن كان في ذمته حتى رده إلى القسطنطينية ، وأفسد الحال بينه وبين شهريار .

وقال أبو حيان : وسبب ظهور الروم أن كسرى بعث إلى شهربراز وهو الذي ولاه على

محاربة الروم أن اقتل أخاك فرخان – انتهى .

وهذا هو تتمة ما تقدم في خبر المرأة التي كانت لا تلد إلا الأبطال ، وأن كسرى بعث ابنها شهربراز إلى حرب الروم فظهر عليهم .

(23/601)

قال ابن مسكوية : فلما ظهرت فارس على الروم جلس فرخان يشرب فقال لأصحابه : لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى ، فبلغت مقالته كسرى فكتب إلى شهربراز : إذا أتاك كتابي هذا فابعث إليَّ برأس فرخان ، فكتب إليه : أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان ، فإن له نكاية في العدو وصوتاً فلا تفعل ، فكتب إليه : إن في رجال فارس خلفاً منه فعجل إليّ برأسه ، فراجعه فغضب كسرى وبعث بريداً إلى أهل فارس : إني قد نزعت عنكم شهربراز واستعملت فرخان ، ثم دفع إلى البريد صحيفة صغيرة وقال : إذا ولى الفرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه ، فلما قرأ شهربراز الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ونزل عن سريره ، وجلس فرخان ودفع البريد الصحيفة إليه فقال : ائتوني بشهربراز ، فقدمه ليضرب عنقه فقال : لا تعجل حتى أكتب وصيتي ، قال : افعل .

(24/601)

فدعا بسفط وأعطاه ثلاث صحائف ، وقال : كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد ، فرد الملك على أخيه ، فكتب شهربراز إلى قيصر ملك الروم : إن لي إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصحف فالقني ، ولا تلقني إلا في خمسين روميا ً ، فإني أيضا ً ألقاك في خمسين فارسا ً ، فأقبل قيصر في خمسائة رومي ، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق ، وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً ، ثم بسط لهما والتقيا في قبة ديباج ضربت لهما ، واجتمعا ومع كل واحد منهما سكين ، ودعوا ترجمانا ً بينهما ، فقال شهربراز : إن الذين خربوا مدائنك ، وبلغوا منك ومن جندك ما بلغوا أنا وأخي بشجاعتنا وكيدنا ، وأن كسرى حسدنا فأراد أن أقتل اخي فأبيت ، ثم أمر أخي أن يقتلني فقد خلعناه جميعا ً فنحن نقاتله معك ، فقال : قد أصبتما ووفقتما ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر إنما يكون بين اثنين ، فإذا جاوز اثنين فشا ، قال صاحبه : أجل ، فقاما جميعا ً إلى الترجمان بسكينيهما فقتلاه ، واتفقا على قتال كسرى ، فتعاون شهربراز وهرقل على كسرى ، فغلبت الروم فارسَ .

(25/601)

وذكر أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في أوائل فتوح مصر نحو هذا الحديث من حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه سمع ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ يسأل الهرمزان عن سبب ظهور الروم على كسرى فأخبره به ، وكان مما تمكن الخلاف عليه أيضاً أنه كان طلب الذين هربوا بعد قتل قائدهم راهزاد ، وأمر بأن يعاقبوا على انهزامهم ، فأحوجهم بهذا إلى الخلاف عليه وطلب الحيل لنجاة أنفسهم منه ، فإن كانت الوقعة التي غلبت الروم فيها بأذرعات أو الأردن فهي أدنى أرض الروم – أي أقربها – إلى مكة المشرفة ، وإن كانت بالجزيرة فهي أدنى بالنظر إلى كسرى – هذا ما حقت فيه الآية في ظاهر العبارة وصريحها مع ما انضم إلى ذلك من إداله العرب على الفرس أيضاً في هذا الوقت في وقعة ذي قار – كما بينته في شرحي لنظمي للسيرة النبوية المسمى " نظم الجواهر من سيرة سيد الأوائل والأواخر " وسيأتي ملخصه قريباً – حتى يقال : إن نصرة الروم والعرب ونصرة المسلمين في بدر كانت في آن واحد .

(26/601)

ومن أعاجيب ما دخل تحت مفهوم الآية من لطائف المعجزات في باطن الإشارة وتلويحها أن زماننا هذا كان قد غلب فيه على ملك مصر جندها الغرباء من الترك وغيرهم ثم اختص

به الشراكسة منهم من نحو مائة سنة ، وهم ممن ليس له كتاب في الأصل وإن كان إسلامهم قد جب ما كانوا عليه من قبل وكانوا إذا مات أحدهم وله ابن ولوا ابنه لأجل مماليكه واتباع ابيه إلى أن يعملوا الحيلة في خلعه ، وكان أكثر أولادهم يكون صغيراً أو في حكمه حتى كانت سنة خمس وستين وثمانمائة ، فصادف أن المتولي بها من أولادهم المؤيد أحمد بن الأشرف إينال العلائي ، وكان قد ناهز الأربعين ، وكان عنده حزم ودهاء ، وزادت مدة ولايته بعد أبيه على أربعة أشهر فثقل عليهم جداً ، وكان الأمير الكبير خشقدم أحد مماليك المؤيد شيخ وهو رومي ، وكانت عادتهم أنهم إذا خلعوا أحداً من أبناء الملوك ولو الملك من كان في الإمرة الكبرى ، فاختار الشراكسة ولايته وإن كان من غيرهم على ولاية من ولد في الإسلام في بلاد العرب ، فأعملوا الحيلة في أمره إلى أن أجمع أمرهم ورأيهم كلهم على خلعه حتى مماليكه ومماليك أبيه ، فقاموا في ذلك قومة رجل واحد في أواخر شهر رمضان من السنة المذكورة ، فلما لم يجد له ناصراً أسلم نفسه في اليوم الثاني من وثوبهم عليه ، فعرضوا الولاية على شخص منهم فلم ير التقدم على أكبر منه في الرتبة فأشار إلى الأمير الكبير فولوه ، ثم اجتهد بعضهم في نزعه فلم يقدرهم الله على ذلك ولم يجمع كلمتهم على أحد ، وقام هو في الأمر بجد عظيم وحزم ، ولين في شدة وعزم ، حتى استحكم أمره ، وعظم قدره ، وحسب عدد " بضع " بالجمل فإذا هو اثنان وسبعون وثمانمائة ، وهو مقدار ما مضى من السنين من حين نزول الآية إلى حين ولايته ، وذلك أن نصر أهل فارس على الروم

كما مضى كان في السنة الثامنة من النبوة ، وحينئذ نزلت الآية ، فإذا قلنا : إن نزولها كان في شهر رمضان من تلك السنة ، كان قبل الهجرة بست سنين

(27/601)

إذا جعلنا كسر الثامنة سنة ، وقد كانت وقعة بدر في سابع عشر شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة في الشهر السابع ، فيكون نصر الروم إذا صححنا كما هو الذي ينبغي أن لا يعتقد غيره لدلالة القرآن العظيم عليه كما تأتي الإشارة إليه أنه في سنة غزوة بدر في آخر السنة السابعة من حين نزوال الآية ، ويكون ولاية السلطان خشقدم لكونها في أواخر شهر رمضان في ابتداء سنة ست وستين من الهجرة ، فإذا ضممت إليها الست التي كانت قبل الهجرة كانت الجملة ثمانمائة واثنين وسبعين على عدد " بضع " المنظوم في الآية سواء ، وإن صححنا كما أيده ما في الصحيح عن أبي سفيان أن نصر الروم كان وقت الحديبية وذلك في ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، وكما قلنا : كان نزول الآية قبل الهجرة بشهرين ونحوهما ، صح أن نصر الروم كان عند دخول السنة السابعة من نزول الآية كما في رواية الترمذي عن نيار ـ رضى الله عنه ـ ، وكان الموافق لعدد البضع سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة من الهجرة ، وفيها غلب شخص من الروم ، وذلك أن الظاهر خشقدم مات في ربيع الأول سنة اثنتين

وسبعين وثمانمائة من الهجرة ، فولى بعده الأمير الكبير يلبية وهو من الشراكسة ، فلم ينتظم له الأمر ، فخلع في جمادى الأولى منها ، وولى الأمير الكبير تمربغا ولقب الظاهر وهو رومي ، فكان ذلك من الآيات الباهرات إن وافق هذا الأمر العدد المذكور على كلتا الروايتين : رواية من قال : إن النصر كان يوم بدر ، ورواية من قال : كان يوم الحديبية ، ولولا ولاية يلبية ما صح إلا أحدهما ، إن في ذلك لعبرة ، هذا إن عددنا آحاد السنين ، وإن عددناها مئات فهو في بضع منها ، فإنه في المائة التاسعة كما أشار إليه الأستاذ أبو الحكم عبد السلام بن برجان في تفسيره فقال : حكمة الله جل ذكره في دوائر التقدير أن يرجع فيها أواخر الكلم عن أوائلها ، ومن الدوائر مقدرة ، ومنها موسعة على مقدار مشيئة الله فيها وبها ، ولما أخبر الله تعالى عن

(28/601)

الروم أنهم غلبوا في أدنى الأرض وهي بلد الشام ، كان إخباراً منه عما يكون - والله أعلم - وبشارة بشر بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين أن ذلك سيكون ، يعني أن معنى " غلبت " مبنياً للمفعول إن كان بالنسبة إلى فارس كان المعنى وقع غلبها ، وإن كان بالنسبة للمسلمين كان المعنى : قرب زمان غلبها على أيدي المسلمين ، ثم قال : فكان ذلك

في زمان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، غلبهم في بلاد الشام ، و استخرج بيت المقدس عن أيديهم .

والبضع من الثلاث إلى التسع ، وكان نزول هذه السورة بمكة فكان ذلك داخل بضع أسابيع سنين على رأس عشرين إلى ثمان وعشرين سنة ، ثم لم يزل الفتح بعد ذلك يتصل ويتسع إلى نهاية سبقت في التقدير ، ثم ذكر عود التقدير باستيلاء الروم على بعض أطراف الشام ثم باستنقاذ المسلمين ذلك منهم ، ونظر إلى ذلك تارة بحسب الأسابيع وتارة بحسب آحاد المئات ، وتارة بغير ذلك ، وصحح وقوعه في البضع بالغالبية والمغلوبية مرة بعد أخرى ، وهو من بدائع الأنظار ، ودقائق الأسرار الكبار .

(29/601)

ولما كان تغليب ملك على ملك من الأمور الهائلة ، وكان الإخبار به قبل كونه أهول ، ذكر علة ذلك فقال : ﴿ لله ﴾ أي وحده ﴿ الأمر ﴾ ولما أفهم السياق العناية بالروم ، فكان ربما توهم أن غلب فارس لهم في تلك الواقعة وتأخير نصرهم إلى البضع ربما كان لمانع لم يقدر على إزالته ، نفى ذلك بإثبات الجار المفيد لأن أمره تعالى مبتدىء من الزمن الذي كان قبل غلبهم حتى لم تغلبهم فارس إلا به ، وهو مبتدىء من الزمن الذي بعده ، فالتأخير به لا بغيره

، لحكمة دبرها سبحانه فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل دولة أهل فارس على الروم ثم دولة الروم على فارس ، لا إلى غاية تكون مبدأ لاختصاصه بالأمور فيه سبحانه غلبوهم ﴿ ومن بعد ﴾ أي بعد دولة الروم عليهم ودولتهم على الروم لا إلى غاية فيه أيضاً غلبهم الروم ، فحذف المضاف إليه هو الذي أفهم أن زمن غلبة فارس لهم وما بعده من البضع مذكور دخوله في أمره مرتين .

(30/601)

ولما أخبر بهذه المعجزة ، تلاها بمعجزة أخرى ، وهو أن أهل الإسلام لا يكون لهم ما يهمهم فيسرون بنصره فقال : ﴿ ويومئذ ﴾ أي إذ تغلب الروم على فارس ﴿ يفرح المؤمنون ﴾ أي العريقون في هذا الوصف من أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ بنصر الله ﴾ أي الذي لا رادّ لأمره ، لأهل الكتاب عامة ، نصرهم على المشركين في غزوة بدر وهو المقصود بالذات ، ونصر الروم على فارس لتصديق موعود الله ونصر من سيصير من أهل الكتاب الخاتم من مشركي العرب على الفرس في وقعة ذي قار ، فقد وقع الفرح بالنصر الذي ينبغي إضافته إلى الله تعالى وهو نصر أهل الدين الصحيح أصلاً وحالاً ومالاً ، وسوق الكلام على هذا الوجه الذي يحتمل الثلاثة من بدائع الإعجاز ، وسبب وقعة ذي قار أنه كان

أبرويز هذا – الذي غلب الروم ثم غلبته الروم – قد غضب على النعمان بن المنذر ملك العرب ، فأتى النعمان هذا هانىء بن مسعود بن عامر الشيباني ، فاستودعه ماله وأهله وولده – وألف شكة ، أو أربعة آلاف شكة – والشكة بكسر المعجمة وتشديد الكاف : السلاح كله – ووضع وضائع عند أحياء العرب ثم هرب فأتى طيئاً لصهره فيهم ، وكانت عنده فرعة بنت سعيد بن حارثة بن لأم وزينب بنت أوس بن حارثة بن لأم ، فأبوا أن يدخلوه حبلهم وأتته بنو رواحة بن ربيعة بن عبس فقالوا له : أبيت اللعن ! أقم عندنا فإنا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا ، فقال : ما أحب أن تهلكوا بسبب فجزيتم خيراً ، ثم خرج حتى وضع يده في يد كسرى فحبسه بساباط ، وقال ابن مسكويه : بخانقين ، فلم يزل في السجن حتى وقع الطاعون فمات فيه ، قال : والناس يظنون أنه مات بساباط ، والصحيح ما حكيناه .

(31/601)

فلما مات النعمان جعلت بكر بن وائل تغير في السواد ، فغضب من ذلك كسرى ، ثم بعث إلى هانىء بن مسعود يقول له : إن النعمان إنما كان عاملي ، وقد استودعك ماله وأهله وحلقته فابعث إليّ بها ولا تكلفني أن أبعث إليك وإلى قومك بالجنود فتقتل المقاتلة وتسبي

الذراري ، فبعث إليه هانىء أن الذي بلغك باطل ، وما عندي شيء ، وإن يكن الأمر كما قيل فإنما أنا أحد الرجلين : إما رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردها على من استودعها ولن يسلم الحر أمانته ، أو رجل مكذوب عليه وليس ينبغي للملك أن يأخذه بقول عدو أو حاسد .

(32/601)

وكانت الأعاجم لهم قوة وحلم ، وكانوا قد سمعوا ببعض حلم العرب ، وأن الملك كائن فيهم ، فلما ورد عليه كتاب هانىء بهذا حملته الشفقة أن يكون ذلك قد اقترب على أن خرج بنفسه ، فأقبل حتى قطع الفرات فنزل غمر بني مقاتل ، وقد أحنقه ما صنعت بكر بن وائل في السواد ومنع هانىء إياه ما منعه ، ودعا كسرى إياس بن قبيصة الطائي وكان عامله على عين التمر وما والاها ، فاستشاره في الغارة على بكر بن وائل فقال له إياس : إن الملك لا يصلح أن يعصيه أحد من رعيته ، وإن تطعني لم يعلم أحد لأي شيء عبرت وقطعت الفرات ، فيرون أن أمر العرب قد كربك ، ولكن ترجع وتضرب عنهم وتبعث عليهم العيون حتى ترى منهم غرة ثم ترسل حينئذ كتيبة من العجم فيها بعض القبائل التي تليهم فيوقعون بهم وقعة الدهر ، ويأتونك بطلبك ، فقال له كسرى : أنت رجل من العرب وبكر بن وائل

أخوالك ، فأنت تتعصب لهم لا تألوهم نصحاً ، فقال إياس : الملك أفضل رأياً ، فقام عمر بن عدي بن زيد العبادي وكان كاتبه وترجمانه بالعربية في أمور العرب فقال : قم أيها الملك وابعث إليهم بالجنود يكفوك ! وقام إليه النعمان بن زرعة من ولد السفاح الثعلبي فقال له : أيها الملك ! إن هذا الحي من بكر بن وائل إذا قاظوا تهافتوا على ماء لهم يقال له : ذو قار ، تهافت الفراش في النار ، فعقد لنعمان بن زرعة على تغلب والنمر ، وعقد لخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وأياد وعقد لإياس بن قبيصة على جميع العرب ، ومعه كتيبتاه الشهباء والدوسر ، فكانت العرب ثلاثة آلاف ، وعقد للهامرز على ألف من الأساورة ، وعقد لخيارزين على ألف ، وبعث معهم باللطيمة وهي عير كانت تخرج من العراق فيها البن والعطر والألطاف ، توصل ذلك إلى باذان عامل كسرى على اليمن ، وقال : إذا فرغتم من عدوكم فسيروا بها إلى اليمين ، وأمر عمرو بن عدي أن يسير بها ، وكانت العرب تحقرهم حتى تبلغ اللطيمة اليمن ، وعهد كسرى إليهم إذا شارفوا بلاد بكر بن وائل

(33/601)

أن يبعثوا إليهم النعمان بن زرعة ، فإن أتوكم بالحلقة ومائة غلام منهم يكونون رهناً بما أحدث سفهاؤهم فاقبلوا منهم وإلا فقاتلوهم .

فلما بلغ الخبر بكر بن وائل سار هانىء بن مسعود حتى نزل بذي قار ، وأقبل النعمان بن زرعة حتى نزل على ابن أخته مرة بن عبد الله العجلي ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنكم أخوالي وأحد طرفي ، وإن الرائد لا يكذب أهله ، وقد أتاكم ما لا قبل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب والكتيبتان الشهباء والدوسر ، وإن الشر خياراً ، ولأن يفدي بعضكم بعضاً خير من أن تصطلموا ، انظروا هذه الحلقة فادفعوها وادفعوا معها رهناً من أبنائكم إليه بما أحدث سفهاؤكم ، فقال له القوم : ننظر في أمورنا ، وبعثوا إلى من يليهم من بكر بن وائل وبرزوا ببطحاء ذي قار بين الجلهتين – وجلهة الوادي : مقدمه ، مثل جلهة الرأس إذا ذهب شعره – وجعلت بكر بن وائل حين بعثوا إلى من حولهم من قبائل بكر لا ترفع لهم جماعة إلا قالوا : سيدنا في هذه الجماعة ، إلى أن رفعت لهم جماعة فيها حنظلة بن ثعلبة بن سنان العجلي فقالوا : يا أبا معدان فقد طال انتظارنا وقد كرهنا أن نقطع أمراً دونك ، وهذا ابن أختك النعمان بن زرعة قد جاء والرائد لا يكذب أهله ، قال : فما الذي أجمع رأيكم عليه ؟ قالوا : قلنا اللحي أهون من الوهي ، وإن في الشر خياراً ، ولأن نفدي بعضنا بعضاً خير من أن نصطلم جميعاً ، فقال حنظلة : قبح الله هذا رأياً ، لا تجر أحرار

فارس غزلها ببطحاء ذي قار وأنا أسمع صوتاً ، ثم أمر بقبته فضربت بوادي ذي قار ونزل الناس فأطافوا به ثم قال لهانىء بن مسعود : يا أبا أمامة ! إن ذمتكم ذمتنا عامة ، وأنه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا ، فأخرج هذه الحلقة ففرقها بين قومك ، فإن تظفر فسترد عليك ، وإن تهلك فأهون مفقود ، فأمر بها فأخرجت ففرقها بينهم ، ثم قال حنظلة للنعمان : لولا أنك رسول لما أبت إلى أهلك سالماً ، فرجع النعمان إلى أصحابه ، فأخبرهم فباتوا ليلتهم يستعدون للقتال ، وبات بكر بن وائل يستعدون للحرب ، فلما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم وأمر حنظلة بالظعن جميعاً فوقفها

(35/601)

خلف الناس ثم قال : يا معشر بني بكر بن وائل ! قاتلوا عن ظعنكم أو دعوا ، وأقبلت الأعاجم يسيرون إلى تعبئة ، وكان ربيعة بن غزالة السكوني ثم التجيبي يومئذ هو وقومه نزولاً في بني شيبان فقال : يا بني شيبان ! أما إني لو كنت منكم لأشرت عليكم برأي مثل عروة العلم قالوا : وأنت والله من أوسطنا ، أشر علينا ، قال : لا تستهدفوا هذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكردسوا لهم كراديس فيشد عليهم كردوس ، فإذا أقبلوا عليه شد الآخر ، قالوا : فإنك قد رأيت رأياً ، ففعلوا ، فلما التقى الزحفان وتقارب القوم قام

حنظلة بن ثعلبة فقال : يا معشر بكر بن وائل ! إن النشاب الذي مع الأعاجم يعرفكم ، فإذا أرسلوه لم يُخْطِكُمْ ، فعاجلوهم اللقاء وابدأوهم ، ثم قام هانىء بن مسعود فقال : يا قوم ! مهلك معذور خير من منجى مفرور ، إن الحذر لا يدفع القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، يا قوم : جدوا ، فما من القوم بد فتح لو كان رجال أجد ، أسمع صوتاً ولا أرى فوتاً ، يا لبكر ! شدوا واستعدوا ، فإن لا تشدوا تردوا ، ثم قام شريك بن عمرو بن شراحيل فقال : ياقوم ! إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم ، وكذلك أنتم في عيونهم فعليكم بالصبر ، فإن الأسنة تردي الأعنة ، يا لبكر ! قدماً قدماً ، ثم قام عمرو بن جبلة اليشكري فقال :

يا قوم لا تغرركم هذي الخرق . . .

ولا وميض البيض في شمس برق

من لم يقاتل منكم هذي العنق . . .

فجنبوه اللحم واسقوه المرق

ثم قام حنظلة بن ثعلبة إلى (وضين) امرأته فقطعه ثم تتبع الظعن بقيع وضنهن ، لئلا يفر عنهن الرجال ، والوضين : بطان الناقة فسمي يومئذ : مقطع الوضن .

وقال ابن مسكوية : إنه لما قطع الوضن وقع النساء إلى الأرض وإن بنت القرين الشيبانية نادت :

ويها بني شيبان صفاً بعد صف . . .

إن تهزموا يصبّغوا فينا القلف . . .

(36/601)

فقطع سبعمائة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من قبل مناكبهم لتخف أيديهم بالضرب ،

وتقدمت عجل فأبلت يومئذ بلاء حسناً ، واضطمت عليهم جنود العجم فقال الناس :

هلكت عجل ، ثم حملت بكر فوجدت عجلاً ثابتة تقاتل وامرأة منهم تقول :

إن يظفروا يحرزوا فينا الغرل . . .

فدى لكم نفسي فدى بني عجل

وتقول أيضاً :

إن تقدموا نعانق . . .

ونفرش النمارق

أو تهربوا نفارق . . .

فراق غير وامق

فكانت بنو عجل في الميمنة بإزاء خيارزين وبنو شيبان في الميسرة بإزاء كتيبة الهامرز ،

وأفناء بكر بن وائل في القلب فخرج أسوار من الأعاجم مسور مشنف في أذنيه درتان ، من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للبراز ، فنادى في بني شيبان فلم يبارزه أحد حتى إذا دنا من بني يشكر برز له برد بن حارثة أخو بني ثعلبة فشد عليه بالرمح فطعنه فدق صلبه وأخذ حليته وسلاحه ، وقال ابن مسكويه : ونادى الهامرز لما رأى جد القوم وثباتهم للحرب وصبرهم للموت مرد ومرد ، فقال برد بن حارثة اليشكري : ما يقول ؟ قيل : يدعو إلى البراز ! يقول : رجل ورجل ! فقال : وأبيكم لقد أنصف ، وبرز له فلم يلبث برد أن تمكن من الهامرز فقتله .

(37/601)

وقال ابن مكرم في اختصاره للأغاني : ثم اقتتلوا صدر نهارهم أشد قتال رآه الناس إلى أن زالت الشمس ، فشد الحوقران واسمه الحارث ابن شريك على الهامرز فقتله وقتلت بنو عجل خيار رزين ، وضرب الله وجوالفرس فانهزموا ، وتبعتهم بكر بن وائل يقتلونهم بقية يومهم حتى أصبحوا من الغد وقد شارفوا السواد ودخلوه فلم يلفت منهم كبير أحد ، وأقبلت بكر بن وائل على الغنائم فقسموها بينهم ، وقسموا تلك اللطائم بين نسائهم ، وكان أول من انصرف إلى كسرى بالهزيمة إياس بن قبيصة ، وكان لا يأتيه أحد بهزيمة جيش إلا

نزع كتفيه ، فلما أتاه إياس سأله عن الخبر فقال : هزمنا بكر بن وائل ، وأتيناك بنسائهم ، فأعجب ذلك كسرى ، وأمر له بكسوه ، ثم إن إياساً استأذنه عند ذلك فقال : إن أخي مريض بعين التمر ، فأردت أن آتيه ، وإنما أراد أن ينتحي عنه ، فإذن له ، ثم أتى رجل من أهل الحيرة فسأل : هل دخل على الملك أحد ؟ فقالوا : نعم ! إياس ، فقال : ثكلت إياساً أمه ! وظن أنه قد حدثه بالخبر ، فدخل عليه فحدثه بهزيمة القوم وقتلهم ، فأمر به فنزعت كتفاه ؛ وكانت وقعة ذي قار بعد وقعة بدر بأشهر ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة ، فلما بلغه ذلك قال : " هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا " . روى ذلك الطبراني في المعجم الكبير ، وقيل : إن الوقعة مثلت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بالمدينة فرفع يده ، فدعا لبني شيبان أو لجماعة ربيعة بالنصر ، ولم يزل يدعو لهم حتى أرى هزيمة الفرس ، وروي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " أيها بني ربيعة اللهم انصرهم " فهم إلى الآن إذا حاربوا نادوا بشعار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته ، وقال قائلهم : يا رسول الله ! دعوتك ، فإذا دعوا بذلك نصروا .

(38/601)

وروى ذلك الطبراني الكبير – قال الهيثمي : ورجاله الصحيح غير خلاد بن عيسى وهو ثقة – عن خالد ابن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده ـ رضى الله عنه ـ قال : " قدمت بكر بن وائل مكة فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بكر ـ رضى الله عنه ـ : " ائتهم فاعرض عليهم ! " فأتاهم فقال : من القوم ؟ ثم عاد إليهم ثانية فقال : من القوم ؟ فقالوا : بنو ذهل بن شيبان ، فعرض عليهم الإسلام ، قالوا : حتى يجيء شيخنا فلان – قال خلاد : أحسبه قال : المثنى بن خارجة – فلما جاء شيخهم عرض عليهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ، قال : إن بيننا وبين الفرس حرباً ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا ، فقال له أبو بكر : أرأيت إن غلبتموهم أتتبعنا على أمرنا ؟ قال : لا نشترط لك هذا علينا ولكن إذا فرغنا فيما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما نقول ، فلما التقوا يوم ذي قار هم والفرس قال شيخهم : ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى الله ؟ قالوا : محمد ، قال : فهو شعاركم ! فنصروا على القوم ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " بي نصروا " انتهى .

ومن الأشعار في وقعة ذي قار قول أبي كلبة التميمي :

لولا فوارس لا ميل ولا عزل . . .

من اللهازم ما قظتم بذي قار

إن الفوارس من عجل هم أنفوا . . .

بأن يخلّوا لكسرى عرصة الدار

قد أحسنت ذهل شيبان وما عدلت . . .

في يوم ذي قار فرسان ابن سيار

هم الذين أتوهم عن شمائلهم . . .

كما تلبّس وراد بصدار

وقال الأعشى :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي . . .

وصاحبها يوم اللقاء وفلت

هم ضربوا بالحنو حنو قراقر . . .

مقدمة الهامرز حتى تولت

(39/601)

ولما أخبر بإدالة الروم بعد الإدالة عليهم مع ما دخل تحت مفهوم الآية ، وكان ربما قيل : ما له لم يدم نصر أهل الكتاب ؟ علل ذلك كله بقوله : ﴿ ينصر من يشاء ﴾ من ضعيف وقوي ، لأنه لا مانع له ولا يسأل عما يفعل ﴿ وهو العزيز ﴾ فلا يعز من عادى ، ولا يذل من والى ،

ولما كان هذا السياق لبشارة المؤمنين قال : ﴿ الرحيم ﴾ أي يخص حزبه بما ينيلهم قربه من الأخلاق الزكية ، والأعمال المرضية .

ولما نزل هذا على قوم أكثرهم له منكر ، أكده سبحانه بما يقوي قلوب أصفيائه بتبيين المراد ، ويرد ألسنة أعدائه عن كثير من الناد ، ويعرفهم أنه كما صدق في هذا الوعد لأجل تفريح أوليائه فهو يصدق في وعد الآخرة ليحكم بالعدل ، ويأخذ لهم حقهم ممن عاداهم ، ويفضل عليهم بعد ذلك بما يريد ، فقال : ﴿ وعد الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ، وهو متعال عن كل شائبة نقص ، فلذلك ﴿ لا يخلف ﴾ وأعاد ذكر الجلالة تنبيهاً على عظم الأمر فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي له الأمر كله .

ولما كان لا يخلف شيئاً من الوعد ، لا هذا الذي في أمر الروم ولا غيره ، أظهر فقال : ﴿ وعده ﴾ كما يعلم ذلك أولياؤه ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ وهو أهل الاضطراب والنوس ﴿ لا يعلمون ﴾ أي ليس لهم علم أصلاً ، ولذلك لا نظر لهم يؤدي إلى أنه وعد وأنه لا بد من وقوع ما وعد به في الحال التي ذكرها لأنه قادر وحكيم .

(40/601)

ولما كان من المشاهدة أن لهم عقولاً راجحة وأفكار صافية ، وأنظار صائبة ، فكانوا بصدد أن يقولوا : إن علمنا أكبر من علمكم ، كان كأنه قيل بياناً لأنه يصح سلب ما ينفع من العلم بتأديته إلى السعادة الباقية ، وتنبيهاً على أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا : نعم ﴿ يعلمون ﴾ ولكن ﴿ ظاهراً ﴾ أي واحداً ﴿ من ﴾ التقلب في ﴿ الحياة الدنيا ﴾ وهو ما أدتهم إليه حواسهم وتجاربهم إلى ما يكون سبباً للتمتع بزخارفها والتنعم بملاذها ، قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطىء وهو لا يحسن يصلي - انتهى .

وأمثال هذا لهم كثير ، وهو وإن كان عند أهل الدنيا عظيماً فهو عند الله حقير ، فلذلك حقره لأنهم ما زادوا فيه على أن ساووا البهائم في إدراكها ما ينفعها فتستجلبه بضروب من الحيل ، وما يضرها فتدفعه بأنواع من الخداع ، وأما علم باطنها وهو أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها بالطاعة ، فهو ممدوح منبه عليه بوصفها بما يفهم الأخرى .

(41/601)

ولما ذكر حالهم في الدنيا ، أتبعه ذكر اعتقادهم في الآخرة ، مؤكداً إشارة إلى أن الحال يقتضي إنكار أن يغفل أحد عنها ، لما لها من واضح الدلائل أقربه أن اسم ضدها يدل

عليها ، لأنه لا تكون إلا في مقابلة قصياً ، ولا أولى إلا بالنسبة إلى أخرى ، فقال :

﴿ وهم ﴾ أي هؤلاء الموصوفون خاصة ﴿ عن الآخرة ﴾ التي هي المقصود بالذات وما خلقت الدنيا إلا للتوصل بها إليها ليظهر الحكم بالقسط وجميع صفات العز والكبر والجلال والإكرام ﴿ هم غافلون ﴾ أي في غاية الاستغراق والإضراب عنها بحيث لا يخطر في خواطرهم ، فصاروا لاستيلاء الغفلة عليهم إذا ذكرت لهم كذبوا بها ، واستهزؤوا بالمخبر ، ولم يجوزوها نوع تجير مع أن دلائلها تفوت الحصر ، وتزيد على العد ، فصاروا كأنهم مخصوصون بالغفلة عنها من بين سائر الناس ومخصصون لها بالغفلة من بين سائر الممكنات ، فلذلك لا يصدقون الوعد بإدالة الروم لما رسخ في نفوسهم من أن الأمور تجري بين العباد على غير قانون الحكمة ، لأنهم كثيراً ما يرون الظالم يموت ولم يقتص منه ، وهم في غفلة عن أنه أخر جزاؤه إلى يوم الدين ، يوم يكشف الجبار حجاب الغفلة ويظهر عدله وفضله ، وتوضع الموازين القسط ، فتطيش بمثاقيل الذر ، ويقتص للمظلومين من الظالمين ، ومن أريد القصاص منه عاجلاً فعل ، وقضية الروم هذه من ذلك ، وهذا السياق يدل على أنه لا حجاب عن العلم أعظم من التكذيب بالآخرة ، ولا شيء أعون عليه من التصديق بها والاهتمام بشأنها ، لأن ذلك حامل على طلب الخلاص في ذلك اليوم ، وهو لا يكون على أتم الوجوه إلا لمن وصل إلى حالة المراقبة ، وذلك لا يكون إلا لمن علم إما بالكشف أو الكسب كل علم فلم يتحرك حركة إلا بدليل يبيحها له ويحمله عليها ، وبهذا التقرير يظهر أن

هاتين الجملتين بكمالهما علة لنفي العلم عنهم ، والمعنى أن العلم منفي عنهم لما شغل قلوبهم من هذا الظاهر في حال غفلتهم عن الآخرة ، فانسد عليهم باب العلم – والله الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 582.602 ﴾

(42/601)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ عاقبة ﴾ بالنصب : ابن عامر وعاصم وحمزة وعلي وخلف . الآخرون : بالرفع . ﴿ السوأى ﴾ بالإمالة : أبو عمرو وحمزة وعلي وخلف وحماد ﴿ يرجعون ﴾ على الغيبة : أبو عمرو غير عباس وأوقية وسهل ويحيى وحماد ﴿ تخرجون ﴾ بفتح التاء وضم الراء : حمزة وعلي وخلف . الباقون : مجهولاً ﴿ للعالمين ﴾ بكسر اللام : حفص يفصل على الغيبة : عباس . الآخرون : بالنون .

الوقوف : ﴿ ألم ﴾ كوفي ﴿ غلبت ﴾ ﴿ الروم ﴾ 5 ﴿ سيغلبون ﴾ 5 ﴿ سنين ﴾ 5 ﴿ ومن بعد ﴾ ط ﴿ المؤمنون ﴾ 5 ﴿ ينصر الله ﴾ ط وكلاهما مبني على أن قوله ﴿ بنصر الله ﴾ يتعلق ب ﴿ يفرح ﴾ ﴿ ينصر من يشاء ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ 5

﴿ وعد الله ﴾ 5 ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ الدنيا ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفتين والوصل أولى ﴿ غافلون ﴾ 5 ﴿ في أنفسهم ﴾ ط لحق الحذف أي فيعلموا ذلك أو فيقولوا هذا القول ﴿ مسمى ﴾ ط ﴿ لكافرون ﴾ 5 ﴿ من قبلهم ﴾ ط ﴿ بالبينات ﴾ ط ﴿ يظلمون ﴾ 5 لا لأن "ثم" لترتيب الأخبار ﴿ يستهزؤن ﴾ 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ المجرمون ﴾ 5 والوصل جائز ﴿ كافرين ﴾ 5 ﴿ يتفرقون ﴾ 5 ﴿ يجبرون ﴾ 5 ﴿ محضرون ﴾ 5 ﴿ تصبحون ﴾ 5 ﴿ تظهرون ﴾ 5 ﴿ بعد موتها ﴾ ط ﴿ تخرجون ﴾ 5 ﴿ تنتشرون ﴾ 5 ﴿ ورحمة ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ 5 ﴿ وألوانكم ﴾ ط ﴿ للعالمين ﴾ 5 ﴿ من فضله ﴾ ط ﴿ يسمعون ﴾ 5 ﴿ موتها ﴾ ط ﴿ يعقلون ﴾ 5 ﴿ بأمره ﴾ ط لأن "ثم" لترتيب الأخبار ﴿ دعوة ﴾ لا وقيل: على من الأرض وكلاهما تعسف.

(43/601)

والحق أن قوله ﴿ من الأرض ﴾ متعلق ب ﴿ دعاكم ﴾ كقولك دعوت زيداً من بيته لا كقولك دعوته من بيتي ﴿ تخرجون ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ قانتون ﴾ 5 ﴿ أهون عليه ﴾ ج ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ من أنفسكم ﴾ ط لانتهاء الإخبار

إلى الاستفهام ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ ط ﴿ يعقلون ﴾ 5 ﴿ بغير علم ﴾ ج لابتداء الاستفهام مع الفاء ﴿ أضل الله ﴾ ط لتمام الاستفهام وابتداء النفي ﴿ ناصرين ﴾ 5 ﴿ حنيفا ﴾ ط ﴿ عليها ﴾ ط ﴿ لخلق الله ﴾ ط ﴿ القيم ﴾ 5 لا للاستدراك ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 وقيل : لا وقف عليه بناء على أن ﴿ منيبين ﴾ حال من ضمير ﴿ أقم ﴾ على أن الأمر له ولأمته مثل ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم ﴾ [الطلاق : 1] والوقف أوضح لبعد العامل عن المعمول بل التقدير : كونوا منيبين بدليل قوله ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ لأن قوله ﴿ من الذين ﴾ كالبدل مما قبله ﴿ شيعاً ﴾ ط ﴿ فرحون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 400 . 401 ﴾

(44/601)

فصل

قال الفخر :

﴿ الم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين ﴾ .

وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول ، فنقول لما قال الله تعالى في

السورة المتقدمة ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل كما في قوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 171] وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الإله كما قال : ﴿ وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ ﴾ [العنكبوت : 46] وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال : ﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [العنكبوت : 47] أي أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور ، فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق ، بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب في المحب فيبتليه ويسلط عليه الأعادي ، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للمعادي ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(45/601)

ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي ؟ فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما في قوله تعالى :

﴿ الم * ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 1 ، 2] ، ﴿ المص * كِتَابٌ ﴾ [الأعراف : 1] ، ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان ﴾ [طه : 1 ، 2] ، ﴿ الم * تَنزِيلُ الكتاب ﴾ [السجدة : 1 ، 2] ﴿ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ [فصلت : 1 ، 2] ، ﴿ يس * والقرءان ﴾ [يس : 1 ، 2] ، ﴿ ص * والقرءان ﴾ [ص : 1 ، 2] إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما في العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما في موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت وهذه ذكر في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع .

المسألة الثانية :

(46/601)

قوله تعالى : ﴿ فِى أَدْنَى الأرض ﴾ أي أرض العرب ، لأن الألف واللام للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى : ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ أية فائدة في ذكره مع أن قوله : ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ بعد قوله : ﴿ غُلِبَتِ الروم ﴾ لا يكون إلا من بعد الغلبة ؟ فنقول الفائدة

فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفاً ، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فإذا غلبوا بعد ما غلبوا ، دل على أن ذلك بأمر الله ، فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا في ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم ، وإنما ذلك بأمر الله تعالى وقوله : ﴿ فِى أَدْنَى الأرض ﴾ لبيان شدة ضعفهم ، أي انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم في بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم بإذن الله .

المسألة الثالثة :

قال تعالى : ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ قيل هي ما بين الثلاثة والعشرة ، أبهم الوقت مع أن المعجزة في تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن له في إظهارها لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التي تقع في البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن إنكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضي الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبي بن خلف وغيره ، وناحبوا أبا بكر أي خاطروه على عشرة قلائص إلى ثلاث سنين فقال عليه السلام لأبي بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده في الإبل وماده في الأجل فجعلا القلائص مائة والأجل سبعاً ، وهذا يدل على علم

النبي عليه السلام بوقت الغلبة .

[قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأَمر مِن] قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾) .

(47/601)

ثم قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأَمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ أي من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها ، يعني إن أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وإن أراد غلبهم غلبهم بعدها ، وما قدر هذه المدة لعجز وإنما هي إرادة نافذة ، وبنيا على الضم لما قطعا عن الإضافة لأن غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر ، أما النصب ففي قولك جئت قبله أو بعده ، وأما الجر ففي قولك من قبله ومن بعده فنياً على الضم لعدم دخول مثلهما عليه في الإعراب وهو الرفع ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ، والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر ، ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لأن في ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذٍ بل الفرح يحصل بعده .

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)

قوله تعالى : ﴿ بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء ﴾ قدم المصدر على الفعل حيث قال : ﴿ بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ ﴾ وقدم الفعل على المصدر في قوله : ﴿ أيدك بِنَصْرِهِ ﴾ [الأنفال : 62] وذلك لأن المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد الله إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر ، وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك إظهار النعمة عليه بأنه نصره ، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ، ثم بين أن ذلك الفعل مصدره عند الله ، والمقصود ههنا كون المصدر عند الله إن أراد فعل فقدم المصدر .

(48/601)

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ ذكر من أسمائه هذين الإسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره ، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه ، أو نقول إن نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب ، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته في الآخرة واصلة إليه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ يعني سيغلبون وعدهم الله وعداً ووعد الله لا خلف فيه ، قوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون وعده وأنه لا خلف في وعده .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ يعني علمهم منحصر في الدنيا وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ، ولا يعلمون فناءها ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ والمعنى هم عن الآخرة غافلون ، وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمري ، فإذا قال هو شغلني فلان فيقول ما شغلك ولكن أنت اشتغلت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 84.86 ﴾

(49/601)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ ظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ .

قَالَ : فَفَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ بِظُهُورِ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ .

وَذُكِرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : غُلِبَتْ الرُّومُ وَغَلَبَتْ ، كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ ، فَذَكَرُوهُ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ﴿ أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ .

فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ ، فَقَالُوا : اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا ؛ فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا ، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا .

فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ ، فَلَمْ يَظْهَرُوا فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : ﴿ أَلَا أَخْفَضْت ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ أَلَا أَحْبَطْت ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ : " ﴿ أَلَا جَعَلْته إلَى دُونٍ ، أَرَاهُ الْعَشَرَةَ ﴾ .

(50/601)

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : وَالْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ ؛ ثُمَّ ظَهَرَتْ الرُّومُ ؛ فَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ الم غُلِبَتْ الرُّومُ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ قَالَ سُفْيَانُ : سَمِعْت أَنَّهُمْ ظَهَرُوا

عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ .

قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ نِيَارِ بْنِ مَكْرَمٍ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .

قَاهِرِينَ لِلرُّومِ ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ ، وَلَا إِيمَانٍ بِبَعْثٍ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ : ﴿ الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ .

قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ : فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، زَعَمَ صَاحِبُك أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ؛ أَفَلَا نُرَاهِنُك عَلَى ذَلِكَ ، قَالَ : بَلَى .

وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ .

فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ ، وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ : كَمْ تَجْعَلُ ؟ الْبِضْعُ ثَلَاثُ سِنِينَ إلَى تِسْعِ سِنِينَ .

(51/601)

فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ وَسَطًا قَالَ : فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ قَالَ : فَمَضَتْ السِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا ؛ فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ ، فَعَابَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : فِي بِضْعِ سِنِينَ .

قَالَ : وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ ؛ فَهَذِهِ أَحَادِيثُ صِحَاحٌ حِسَانٌ غِرَابٌ

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ الْمُرَاهَنَةِ : وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ الْغَرَرِ وَالْقِمَارِ ؛ وَذَلِكَ نَوْعٌ مِنْهُ ، وَلَمْ يَبْقَ لِلرِّهَانِ جَوَازٌ إلَّا فِي الْخَيْلِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّا فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ الْبِضْعُ فِيهِ لِأَهْلِ اللُّغَةِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ مَا بَيْنَ اثْنَيْنِ إلَى عَشْرَةٍ ، أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ إلَى عِشْرِينَ ، فَيُقَالُ : بِضْعَ عَشْرَةَ فِي جَمْعِ الْمُذَكَّرِ ، وَبِضْعَةَ عَشَرَ فِي جَمْعِ الْمُؤَنَّثِ .

الثَّانِي : الْبِضْعُ سَبْعَةٌ ؛ قَالَهُ الْخَلِيلُ .

الثَّالِثُ : الْبِضْعُ مِنْ الثَّلَاثِ إلَى التِّسْعِ .

الرَّابِعُ : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : هُوَ مَا بَيْنَ نِصْفِ الْعِقْدَيْنِ ، يُرِيدُ مَا بَيْنَ الْوَاحِدِ إلَى الْأَرْبَعَةِ .

الْخَامِسُ : هُوَ مَا بَيْنَ خَمْسٍ إلَى سَبْعٍ ؛ قَالَهُ يَعْقُوبُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ .

وَيُقَالُ بِكَسْرِ الْبَاءِ وَفَتْحِهَا قَالَ أَكْثَرُهُمْ : وَلَا يُقَالُ بِضْعٌ وَمِائَةٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ إلَى التِّسْعِينَ .

(52/601)

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إلَى الْعَشْرِ ، وَبِذَلِكَ يَقْضِي فِي الْإِقْرَارِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي فُرُوعِ الْأَحْكَامِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(53/601)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ الآية .

روى ابن جبير عن ابن عباس قال : كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان .

قال ابن شهاب : فغلبت فارس الروم فسر بذلك المشركون وقالوا للمسلمين إنكم تزعمون أنكم ستغلبوننا لأنكم أهل كتاب ، وقد غلبت فارس الروم والروم أهل كتاب .

وقيل : إنه كان آخر فتوح كسرى أبرويز فتح فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فساءه فأنزل الله هاتين الآيتين فلما قال : ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ سر بذلك المسلمون وبادر أبو بكر رضي الله عنه إلى مشركي قريش فأخبرهم بما أنزل عليهم وأن الروم ستغلب الفرس . قال قتادة : فاقتمر أبو بكر والمشركون على ذلك ، وذلك قبل تحريم القمار مدة اختلف الناس فيها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : مدة ثلاث سنين تظهر الروم فيها على فارس ، قاله السدي .

الثاني : خمس سنين ، قاله قتادة .

الثالث : سبع سنين ، قاله الفراء .

وكان الذي تولى ذلك من المسلمين أبو بكر رضي الله عنه ، واختلف في الذي تولاه من المشركين مع أبي بكر على قولين :

أحدهما : أنه أبو سفيان بن حرب ، قاله السدي .

الثاني : أنه أُبي بن خلف ، قاله قتادة . وحكى لمنقاش أن أبا بكر لما أراد الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم عَلِق به أبي بن خلف وقال : اعطني كفيلاً بالخطر إن غلبت فكفله ابنه عبد الرحمن .

واختلف في قدر العوض المبذول على قولين :

أحدهما : أربع قلائص ، قاله عامر .

الثاني : خمس قلائص ، قاله قتادة .

(54/601)

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر لهم هذه المدة أنكرها وقال : " مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ " قال : ثقة بالله وبرسوله ، قال : " فَكَم البِضْعُ " قال : ما بلغ بين الثلاث والعشر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " زِدْهُم فِي الخَطَرِ فِي وَزِدْ الأَجَلِ " فزادهم قلوصين وازداد منهم في الأجل سنتين فصارت القلائص ستاً على القول الأول ، وسبعاً على الثاني ، وصار الأجل خمساً على القول الأول ، وسبعاً على الثاني : وتسعاً على الثالث .

واختلف في الاستزاده والزيادة على قولين :

أحدهما : أنها كانت بعد انقضاء الأجل الأول قبل ظهور الغلبة ، قاله عامر .

الثاني : أنها كانت قبل انقضاء الأجل الأول ، قاله ابن شهاب ، فأظفر الله الروم بفارس قبل انقضاء الأجل الثاني تصديقاً لخبره في التقدير ولرسوله صلى الله عليه وسلم في التنزيل .

واختلف في السنة التي غلبت الروم أهل فارس على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها عام بدر ظهر الروم على فارس فيه وظهر المسلمون على قريش فيه ، قاله أبو سعيد ، قال : فكان يوم بدر .

الثاني : أن ظهور فارس على الروم كان قبل الهجرة بسنتين ، وظهور المسلمين على قريش كان في عام بدر بعد الهجرة بسنتين ، ولعله قول عكرمة .

الثالث : عام الحديبية ظهرت الروم على فارس وكان ظهور المسملين على المشركين في الفتح بعد مدة الحديبية ، قاله عبيد الله بن عبد الله .

فأما قوله تعالى : ﴿ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ ففيه قولان :

أحدهما : في أدنى أرض فارس ؛ حكاه النقاش .

الثاني : في أدنى أرض الروم ، وهو قول الجمهور وفي أدنى أرض الروم أربعة أقاويل :

أحدها : أطراف الشام ، قاله ابن عباس .

الثاني : الجزيرة وهي أقرب أرض الروم إلى فارس ، قاله مجاهد .

الثالث : الأردن وفلسطين ، قاله السدي .

الرابع : أذرعات الشام وكانت بها الوقعة ، قاله يحيى بن سلام .

(55/601)

وقرأ أبو عمرو وحده : ﴿ غَلَبَتِ ﴾ بالفتح أي ظهرت فقيل له علام غلبت ؟ فقال : في أدنى ريف الشام .

قوله تعالى : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وهو ما بين الثلاث إلى العشر وهذا نص عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال بعض أهل اللغة هو ما بين العقدين من الواحد إلى العشرة فيكون من الثاني إلى التاسع .

وأما النيف ففيه قولان :

أحدهما : ما بين الواحد والتسعة ، قاله ابن زيد .

الثاني : ما بين الواحد والثلاثة ، وهو قول الجمهور .

﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : من قبل أن تغلب الروم ومن بعد ما غلبت .

الثاني : من قبل غلبة دولة فارس على الروم ومن بعد غلبة دولة الروم على فارس .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنه الخبر الذي ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية بهلاك كسرى ففرح ومن معه فكان هذا يوم فرحهم بنصر الله لضعف الفرس وقوة العرب .

الثاني : يعني به نصر الروم على فارس .

وفي فرحهم بذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : تصديق خبر الله وخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثاني : لأنهم أهل كتاب مثلهم .

الثالث : لأنه مقدمة لنصرهم على المشركين .

﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ يعني من أوليائه لأن نصره مختص بغلبة أوليائه لأعدائه فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصر وإنما هو ابتلاء .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ في نقمته ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ لأهل طاعته

. قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعلمون أمر معايشهم متى يزرعون ومتى يحصدون وكيف يغرسون وكيف يبنون ، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . وقال الضحاك : هو بنيان قصورها وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها فهذا ظاهر الحياة الدنيا .

الثاني : يعلمون ما ألقته الشياطين لهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع من سماء الدنيا ، قاله ابن جبير .

(56/601)

ويحتمل ثالثاً : أن ظاهر الحياة الدنيا العمل لها ، وباطنها عمل الآخرة .

﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : عما أعده الله في الآخرة من ثواب عن طاعته وعقاب على معصيته .

الثاني : عما أمرهم الله به من طاعة وألزمهم إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(57/601)

وقال ابن عطية :

﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) ﴾

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور بما فيه كفاية ، وقرأ الجمهور " غُلبت " بضم الغين وقالوا معنى الآية أنه طرأ بمكة أن الملك كسرى هزم جيش ملك الروم قال مجاهد : في الجزيرة وهو موضع بين العراق والشام ، وقال عكرمة : وهي بين بلاد العرب والشام ، وقال مقاتل : بالأردن وفلسطين ، فلما طرأ ذلك سر الكفار فبشر الله عباده بأن الروم ﴿ سيغلبون في بضع سنين ﴾ وتكون الدولة لهم في الحرب ، وقرأ أبو سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قرة وعبد الله بن عمر " غَلَبت " الروم بفتح الغين واللام ، وتأويل ذلك

أن الذي طرأ يوم بدر إنما كان أن الروم غلبت فعز ذلك على كفار قريش وسر المسلمون فبشر الله تعالى عباده بأنهم ﴿ سيغلبون ﴾ أيضاً ﴿ في بضع سنين ﴾ ، ذكر هذا التأويل أبو حاتم ، والرواية الأولى والقراءة بضم الغين أصح ، وأجمع الناس على " سيَغلبون " أنه بفتح الياء يريد به الروم ، وروي عن ابن عمرو أنه قرأ أيضاً " سيُغلبون " بضم الياء ، وفي هذه القراءة قلب للمعنى الذي تظاهرت الروايات به ، و ﴿ أدنى الأرض ﴾ معناه أقرب الأرض ، فإن كانت الوقعة في أذرعات فهي من ﴿ أدنى الأرض ﴾ بالقياس إلى مكة وهي التي ذكر امرؤ القيس في قوله : [الطويل]

تنورتها من أذرعات وأهلها . . . بيثرب أدنى دارها نظر عال

(58/601)

وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهي ﴿ أدنى ﴾ بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأردن فهي ﴿ أدنى ﴾ إلى أرض الروم ، قال أبو حاتم : وقرىء " أداني الأرض " ، وقرأ جمهور الناس " غلَبهم " بفتح اللام كما يقال أحلب حلباً لك شطره ، وقرأ ابن عمر بسكونها وهما مصدران بمعنى واحد وأضيف إلى المفعول ، وروي في قصص هذه الآية عن ابن عباس وغيره أن الكفار لما فرحوا بمكة بغلب الروم بشر الله نبيه والمؤمنين بأن الروم ﴿ سيغلبون

في بضع سنين ﴾ أي من الثلاثة إلى التسعة على مشهور قول اللغويين . كأنه تبضيع العشرة أي تقطيعها وقال أبو عبيدة : من الثلاث إلى الخمس ، وقوله مردود ، فلما بشرهم بذلك خرج أبو بكر الصديق إلى المسجد فقال لهم : أسركم إن غلبت الروم فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم ﴿ سيغلبون في بضع سنين ﴾ فقال له أبي بن خلف وأمية أخوه وقيل أبو سفيان بن حرب تعال يا أبا فصيل يعرضون بكنيته بالبكر فلنتناحب ، أي نتراهن ، في ذلك فراهنهم أبو بكر قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار وجعل الرهن خمس قلائص ، والأجل ثلاث سنين ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال له " إن البضع إلى التسعة ولكن زدهم في الرهن واستزدهم في الأجل "

، ففعل أبو بكر فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام ، فغلبت الروم في أثناء الأجل ، فروي عن أبي سعيد الخدري أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر ، وروي أن ذلك كان يوم الحديبية وأن الخبر بذلك وصل يوم بيعة الرضوان ، روي نحوه عن قتادة ، وفي كلا اليومين كان نصر من الله تعالى للمؤمنين ، وذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمهم أن تغلب وكون المشركين من قريش على ضد ذلك إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، والفرس أهل الأوثان أو نحوه من عبادة النار ككفار قريش والعرب .

(59/601)

قال القاضي أبو محمد : ويشبه أن يعلل ذلك بما تقتضيه الفطر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أيسر مؤنة ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه ، فتأمل هذا المعنى مع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجاه من ظهور دينه وشرع الله الذي بعثه به وغلبته على الأمم وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله ويريحهم منه . و﴿ سنين ﴾ ، يجمع كجمع من يعقل عوضاً من النقص الذي في واحده لأن أصل سنة سنهة أو سنوة ، وكسرت السين منه دلالة على جمعه خارج عن قياسة ونمطه ثم أخبر تعالى بانفراده بالقدرة وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدره ، فقال ﴿ لله الأمر ﴾ أي إنفاذ الأحكام ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ أي من بعد هذه الغلبة التي بين هؤلاء القوم ، و﴿ قبل ﴾ و﴿ بعد ﴾ ظرفان بنيا على الضم لأنهما تعرفا بحذف ما أضيفا إليه وصارا متضمنين ما حذف فخالفا معرب الأسماء وأشبها الحروف في التضمين فبينا وخصا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نكر أو أُضيف زال بناؤه ، وكذلك هما فضما كما المنادى مبني على الضم ، وقيل في ذلك أيضاً أن الفتح تعذر فيهما لأنه حالهما في إظهار ما أضيفا إليه ، وتعذر الكسر لأنه حالهما عند إضافتهما إلى المتكلم ، وتعذر السكون لأن ما قبل أحدهما ساكن ، فلم يبق إلا الضم فبنيا عليه ، ومن العرب من يقول " من قبلٍ ومن بعدٍ " بالخفض والتنوين .

قال الفراء : ويجوز ترك التنوين فيبقى كما هو في الإضافة وإن حذف المضاف ، وقوله تعالى : ﴿ ويومئذ ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على القبل والبعد ، كأنه حصر الأزمنة الثلاثة الماضي والمستقبل والحال ، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر ، ويحتمل أن يكون الكلام تم في قوله ﴿ بعد ﴾ ، ثم استأنف عطف جملة أخبر فيها أن يوم غلبت الروم الفرس ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ ، وعلى هذا الاحتمال مشى المفسرون ، والنصر الذي ﴿ يفرح ﴾ به ﴿ المؤمنون ﴾ يحتمل أن يشار فيه إلى نصر الروم على فارس وهي نصرة الإسلام بحكم السببين اللذين قد ذكرتهما ، ويحتمل أن يشار فيه إلى نصر يخص المؤمنين على عدوهم وهذا أيضاً غيب أخبر به وأخرجه الوجود إما يوم بدر وإما يوم بيعة الرضوان ، ويحتمل أن يشار به إلى فرح المسلمين بنصر الله إياهم في أن صدق ما قال نبيهم من أن الروم ستغلب فارس فإن هذا ضرب من النصر عظيم ، وقوله تعالى : ﴿ وعدَ الله ﴾ نصب على المصدر المؤكد ، وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يريد الكفار من قريش والعرب ، أي لا يعلمون أن الأمور من عند الله وأن وعده لا يخلف وأن ما يورده نبيه حق .

قال القاضي أبو محمد : هذا الذي ذكرناه هو عمدة ما قيل : وقد حكى الطبري وغيره

روايات يردها النظر أو قول الجمهور ، من ذلك أن بعضهم قال إنما نزلت ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك ، وهذا يقتضي أن الآية مدنية والسورة مكية بإجماع ونحو هذا من الأقوال .

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

(61/601)

وصف تعالى الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله وصدق وعده بأنهم إنما ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ ، واختلف الناس في معنى ﴿ ظاهراً ﴾ فقالت فرقة معناه بيناً أي ما أدته إليهم حواسهم فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم ، وقال ابن عباس والحسن والجمهور : معناه ما فيه الظهور والعلو في الدنيا من إتقان الصناعات والمباني ومظان كسب الأموال والفلاحات ونحو هذا ، وقالت فرقة : معناه ذاهباً زائلاً أي يعلمون أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة ومثل هذه اللفظة قول الهذلي :

وعيرها الواشون أني أحبها . . . وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وقال سعيد بن جبير : إن قوله ﴿ ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ إشارة إلى ما يعلم من قبل الكهنة مما يسترقه الشياطين ، وقال الروماني : كل ما يعلم بأوائل العقول فهو الظاهر وما يعلم

بدليل العقل فهو باطن .

قال القاضي أبو محمد : وفيه تقع الغفلة وتقصير الجهال ، ثم وصفهم ب " الغفلة " والإعراض عن أمر الآخرة وكرر الضمير تأكيداً ، وغفلة الكافر هي على الكمال والمؤمن المنهمك في أمور الدنيا التي هي أكبر همه يأخذ من هذه الآية بحظ ، نوّر الله قلوبنا بهداه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(62/601)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾

ذكر أهل التفسير في سبب نزولها أنه كان بين فارس والروم حرب فغلبت فارس الرُّومَ ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ، فشقَّ ذلك عليهم ، وفرح المشركون بذلك ، لأنَّ فارس لم يكن لهم كتاب وكانوا يجحدون البعث ويعبُدون الأصنام ، والرُّوم أصحاب كتاب ، فقال المشركون لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، ونحن أُمِّيُّونَ ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الرُّوم ، فإن قاتلتمونا لَنَظْهَرَنَّ عليكم ، فنزلت هذه الآية ، فخرج بها أبو بكر

الصديق إلى المشركين ، فقالوا : هذا كلام صاحبك ، فقال : اللّهُ أَنزل هذا ، فقالوا لأبي بكر : نراهنك على أن الروم لا تغلب فارس ، فقال أبو بكر : البِضْع ما بين الثلاث إلى التسع ، فقالوا : الوسط من ذلك ست ، فوضعوا الرِّهان ، وذلك قبل أن يُحرَّم الرِّهان ، فرجع أبو بكر إلى أصحابه فأخبرهم ، فلاموه وقالوا : هلاَّ أقررتَها كما أقرَّها الله ؟ ! لو شاء أن يقول : ستاً ، لقال ! فلمَّا كانت سنة ست ، لم تظهر الروم على فارس ، فأخذوا الرهان ، فلمَّا كانت سنة سبع ظهرت الرُّومُ على فارس .

وروى ابن عباس ، قال : " لمَّا نزلت : ﴿ آلم غُلِبَت الرُّومُ ﴾ ناحب أبو بكر قريشاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا احتطتَ ، فانَّ البِضْع ما بين السبع والتسع" ، وذكر بعضهم أنهم ضربوا الأجَل خمس سنين ، وقال بعضهم : ثلاث سنين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما البِضْع ما بين الثلاث إلى التسع" ، فخرج أبو بكر فقال لهم : أُزايدُكم في الخطر وأَمُدُّ في الأجَل إلى تسع سنين ، ففعلوا ، فقهرهم أبو بكر ، وأخذ رهانهم " وفي الذي تولَّى وضع الرهان من المشركين قولان .

أحدهما : أُبيُّ بن خلف ، قاله قتادة .

والثاني : أبو سفيان بن حرب ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ في أدنى الأرض ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والضحاك ، وأبو رجاء ، وابن السميفع : ﴿ في أَداني الأرض ﴾ بألف مفتوحة الدال ، أي : أقرب الأرض أرض الروم إِلى فارس .

قال ابن عباس : وهي طرف الشام .

وفي اسم هذا المكان ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الجزيرة ، وهي أقرب أرض الروم إِلى فارس ، قاله مجاهد .

والثاني ؛ أَذْرِعات وكَسْكَر ، قاله عكرمة .

والثالث : الأُردنُّ وفلسطين ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ وهم ﴾ يعني الروم ﴿ مِنْ بَعْدِ غَلَبهم ﴾ وقرأ أبو الدرداء ، وأبو رجاء ، وعكرمة ، والأعمش : ﴿ غَلْبهم ﴾ بتسكين اللام ؛ أي : من بعد غلبة فارس إِيَّاهم . والغَلَب والغَلَبة لغتان ، ﴿ سيَغْلِبون ﴾ فارس في ﴿ بِضْع سنينَ ﴾ في البِضْع تسعة أقوال قد ذكرناها في [يوسف : 42] قال المفسرون : وهي ها هنا سبع سنين ، وهذا من علم الغيب الذي يدل على أن القرآن حق ، ﴿ لله الأمر مِنْ قَبْلُ ومن بعدُ ﴾ أي : من قبل ان تُغلَب الروم ومِنْ بَعْد ما غَلبت ؛ والمعنى : أن غَلَبة الغالب وخِذْلان المغلوب ، بأمر الله وقضائه ﴿ ويومَئذ ﴾ يعني يوم غلبت الرومُ فارس ﴿ يَفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ للروم .

وكان التقاء الفريقين في السنة السابعة من غَلَبة فارس إِيَّاهم ، فغلبتْهم الرُّوم ، وجاء جبريلُ يخبر بنصر الروم على فارس ، فوافق ذلك يوم بدر ، وقيل : يوم الحديبية .

قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ الله ﴾ أي : وَعَدَ اللّهُ وَعْداً ﴿ لا يُخْلِفُ اللّهُ وَعْدَهُ ﴾ أنَّ الرُّوم يَظهرون على فارس ﴿ ولكنَّ أكثر النَّاس ﴾ يعني كفار مكة ﴿ لا يَعلمون ﴾ ان الله لا يُخْلِف وعده في ذلك .

ثم وصف كفار مكة ، فقال : ﴿ يَعْلَمون ظاهراً مِنَ الحياة الدُّنيا ﴾ قال عكرمة : هي المعايش .

وقال الضحاك : يعلمون بنيان قصورها وتشقيق أنهارها .

(64/601)

وقال الحسن : يعلمون متى زرعهم و [متى] حصادهم ، ولقد بلغ واللّهِ مِنْ عِلْم أحدهم بالدنيا أنه ينقُر الدرهم بظُفره فيُخبرك بوزنه ولا يُحسن يصلِّي .

قوله تعالى : ﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ لأنهم لا يؤمنون بها .

قال الزجاج : وذِكْرهم ثانية يجري مجرى التوكيد ، كما تقول : زيد هو عالم ، وهو أوكد من قولك : زيد عالم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض ﴾

روى الترمذِيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال :

لما كان يوم بدرٍ ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك الْمُؤْمِنِينَ فنزلت : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض ﴾ إلى قوله ﴿ يَفْرَحُ المؤمنون بِنَصْرِ الله ﴾ .

قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس .

قال : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

هكذ قرأ نصر بن عليّ الجَهْضَمِيّ "غَلَبَتِ الرُّومُ" .

ورواه أيضاً من حديث ابن عباس بأتمّ منه : قال ابن عباس في قول الله عز وجل : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض ﴾ قال : غَلَبَتِ وغُلِبَتِ ، قال : "كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ؛ فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أما إنهم سيغلِبون" فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن

ظهرنا كان لنا كذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ؛ فذكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "ألا جعلته إلى دون" " أراه قال العشر قال : قال أبو سعيد : والبِضع ما دون العشرة .

قال : ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم ﴾ إلى قوله ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون بِنَصْرِ الله ﴾ .

قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(66/601)

ورواه أيضاً عن نِيَار بن مُكْرَم الأَسْلَمِيّ قال : لما نزلت : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمانٍ ببعثٍ ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصِيح في نواحي مكة : ﴿

الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ .

قال ناس من قريش لأبي بكر : فذلك بيننا وبينكم ، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ! أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى .

وذلك قبل تحريم الرِّهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرّهان .

وقالوا لأبي بكر : كم تجعل البِضع ؟ ثلاث سنين إلى تسع سنين ؟ فَسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه ؛ قال فسَمَّوا بينهم ستّ سنين ؛ قال : فمضت الست سنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ قال : وأسلم عند ذلك ناس كثير .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وروى القُشَيْرِيّ وابن عطية وغيرهما : أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها إلى المشركين فقال : أسرّكم أن غَلبت الروم ؟ فإن نبيّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلِبون في بضع سنين .

فقال له أبيّ بن خلف وأُميّة أخوه وقيل أبو سفيان بن حرب : يا أبا فَصِيل ! يعرّضون بكنيته "يا أبا بكر" فَلْنَتَنَاحَبْ أي نتراهن في ذلك فراهنهم أبو بكر .

قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار ، وجعلوا الرّهان خمس قلائص والأجل ثلاث سنين .

وقيل : جعلوا الرهان ثلاث قلائص .

ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : " فهلا احتطت ، فإن البِضع ما بين الثلاث والتسع والعشر ! ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل " ففعل أبو بكر ، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام ؛ فغلبت الروم في أثناء الأجل .

وقال الشعبيّ : فظهروا في تسع سنين .

القشيرِيّ : المشهور في الروايات أن ظهور الروم كان في السابعة من غلبة فارس للروم ، ولعل رواية الشعبيّ تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النقلة .

وفي بعض الروايات : أنه جعل القلائص سبعاً إلى تسع سنين .

ويقال : إنه آخر فتوح كسرى أبرويز فتح فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار ؛ فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين .

وحكى النقاش وغيره : " أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه لما أراد الهجرة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم تعلق به أُبيّ بن خلف وقال له : أعطني كَفِيلاً بالخطر إن غلبت ؛ فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أبيّ الخروج إلى أُحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلاً

، ثم مات أبيّ بمكة من جرح جرحه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية على رأس تسع سنين من مناحبتهم .

(68/601)

وقال الشعبيّ : لم تمض تلك المدّة حتى غلبت الروم فارس ؛ وربطوا خيلهم بالمدائن ، وبنوا رومِيَة ؛ فقَمَر أبو بكر أُبَيًّا وأخذ مال الخَطَر من ورثته ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "تصدّق به" فتصدّق به " وقال المفسرون : إن سبب غلبة الروم فارس امرأةٌ كانت في فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال ، فقال لها كسرى : أريد أن أستعمل أحد بنِيك على جيش أجهزه إلى الروم ؛ فقالت : هذا هُرْمُز أرْوَغ من ثعلب وأحذر من صقر ، وهذا فَرُّخان أحدّ من سِنان وأنفذ من نَبْل ، وهذا شهر بزان أحلم من كذا ، فاخْتَر ؛ قال فاختار الحليم وولاّه ، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على الروم .

قال عكرمة وغيره : إن شهر بزان لما غلب الروم خرّب ديارها حتى بلغ الخليج ، فقال أخوه فَرُّخان : لقد رأيتني جالساً على سرير كِسرى ؛ فكتب كسرى إلى شهر بزان أرسل إليّ برأس فرخان فلم يفعل ؛ فكتب كسرى إلى فارس : إني قد استعملت عليكم فرُّخان وعزلت شهر بزان ، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولي أن يقتل شهر بزان ؛ فأراد فَرُّخان قتل شهر

بزان فأخرج له شهر بزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فرُّخان ، فقال شهر بزان لفرخان : إن كسرى كتب إليّ أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعته أبداً في أمرك ، أفتقتلني أنت بكتاب واحد ؟ فرد المُلْك إلى أخيه ، وكتب شهر بزان إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى ، فغلبت الروم فارس ومات كسرى .

وجاء الخبر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الحديبِية ففرح من معه من المسلمين ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض ﴾ يعني أرض الشام .

عكرمة : بأذرعات ، وهي ما بين بلاد العرب والشام .

وقيل : إن قيصر كان بعث رجلاً يدعى يحنّس وبعث كسرى شهر بزان فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم .

مجاهد : بالجزيرة ، وهو موضع بين العراق والشام .

مقاتل : بالأردنّ وفلسطين .

و"أدنى" معناه أقرب .

(69/601)

قال ابن عطية : فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

تنوّرتها من أذرعات وأهلُها . . .

بيثرِبَ أدنى دارِها نظر عالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كِسرى ، وإن كانت بالأردنّ فهي أدنى إلى أرض الروم .

فلما طرأ ذلك وغُلبت الروم سُرّ الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم في الحرب .

وقد مضى الكلام في فواتح السور .

وقرأ أبو سعيد الخدريّ وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قُرّة "غَلَبَتِ الرُّومُ" بفتح الغين واللام .

وتأويل ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعز ذلك على كفار قريش وسرّ بذلك المسلمون ، فبشر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضاً في بضع سنين ؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم .

قال أبو جعفر النحاس : قراءة أكثر الناس "غُلِبت الروم" بضم الغين وكسر اللام .

وروي عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا "غَلَبْت الروم" وقرأا "سيُغْلبون" .

وحكى أبو حاتم أن عِصمة روى عن هارون : أن هذه قراءة أهل الشام ؛ وأحمد بن حنبل يقول : إن عصمة هذا ضعيف ، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه ، والحديث يدل على أن القراءة "غُلِبْت" بضم الغين ، وكان في هذا الإخبار دليل على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الروم غلبتها فارس ، فأخبر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، وأن المؤمنين يفرحون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب ، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عز وجل به مما لم يكن علموه ، وأمر أبا بكر أن يراهنهم على ذلك وأن يبالغ في الرهان ، ثم حُرّم الرهان بعدُ ونُسخ بتحريم القِمار .

قال ابن عطية : والقراءة بضم الغين أصح ، وأجمع الناس على "سيغلِبون" أنه بفتح الياء ، يراد به الروم .

ويروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضاً بضم الياء في "سيغلِبون" ، وفي هذه القراءة قلب للمعنى الذي تظاهرت الروايات به .

(70/601)

قال أبو جعفر النحاس : ومن قرأ "سيُغلبون" فالمعنى عنده : وفارس من بعد غلبهم ، أي من بعد أن غَلَبوا ، سيُغلبون .

وروي أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر ؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري حديثِ الترمذِيّ ، وروي أن ذلك كان يوم الحديبية ، وأن الخبر وصل يوم بيعة الرّضوان ؛ قاله عكرمة وقتادة .

قال ابن عطية : وفي كلا اليومين كان نصر من الله للمؤمنين .

وقد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمّهم أن تغلب إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، وفارس من أهل الأوثان ؛ كما تقدّم بيانه في الحديث .

قال النحاس : وقول آخر وهو أولى أن فرحهم إنما كان لإنجاز وعد الله تعالى ؛ إذ كان فيه دليل على النبوّة لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين فكان فيه .

قال ابن عطية : ويشبه أن يعلّل ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدوّ الأصغر لأنه أيسر مؤونة ، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه ؛ فتأمل هذا المعنى ، مع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذي بعثه به وغلبته على الأمم ، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بمِلك يستأصله ويريحهم منه .

وقيل : سرورهم إنما كان بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبيَّ عليه السلام يوم بدر ، حكاه القُشَيْرِيّ .

قلت ؛ ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسروا بظهورهم على عدوّهم وبظهور الروم أيضاً وبإنجاز وعد الله .

وقرأ أبو حَيْوَة الشاميّ ومحمد بن السَّمَيْقَع "من بعد غَلْبهم" بسكون اللام، وهما لغتان؛ مثل الظَّعْن والظَّعَن.

وزعم الفرّاء أن الأصل "من بعد غلبتهم" فحذفت التاء كما حذفت في قوله عز وجل: "وَإِقَامِ الصَّلَاةِ" وأصله وإقامة الصلاة.

(71/601)

قال النحاس: "وهذا غلط لا يُخِيل على كثير من أهل النحو؛ لأن "إقام الصلاة" مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله، فجعلت التاء عوضاً من المحذوف، و"غلب" ليس بمعتل ولا حذف منه شيء.

وقد حكى الأصمعِيّ: طَرَدَ طَرَداً، وجَلَبَ جَلَباً، وحَلَبَ حَلَباً، وغَلَبَ غَلَباً، فأيّ حذف في هذا، وهل يجوز أن يقال في أَكَلَ أَكْلا وما أشبهه: حذف منه"؟.

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ حذفت الهاء من "بِضع" فرقاً بين المذكر والمؤنث، وقد مضى الكلام فيه في "يوسف".

وفتحت النون من "سِنِينَ" لأنه جمع مسلم.

ومن العرب من يقول "في بضع سنين" كما يقول في "غِسلِين".

وجاز أن يُجمع سنة جمع من يعقل بالواو والنون والياء والنون ؛ لأنه قد حذف منها شيء فجعل هذا الجمع عوضاً من النقص الذي في واحده ؛ لأن أصل "سنة" سنهة أو سنوة ، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه ؛ هذا قول البصريين .

ويلزم الفرّاء أن يضمها لأنه يقول : الضمة دليل على الواو وقد حذف من سنة واو في أحد القولين ، ولا يضمها أحد عِلمناه .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته فقال "لله الأمر" أي إنفاذ الأحكام .

"مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ" أي من قبل هذه الغلبة ومن بعدها .

وقيل : من قبلِ كل شيء ومن بعد كل شيء .

و"مِن قبلُ ومِن بعدُ" ظرفان بنيا على الضم ؛ لأنهما تعرّفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف فخالفا تعريف الأسماء وأشبها الحروف في التضمين فبنِيا ، وخُصّا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نُكِّر وأضيف زال بناؤه ، وكذلك هما فَضُمّا .

ويقال : "من قبلٍ ومِن بعدٍ" .

وحكى الكسائي عن بعض بني أسد "لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدُ" الأوّل مخفوض منوّن ، والثاني مضموم بلا تنوين .

وحكى الفرّاء "مِن قبلِ ومن بعدِ" مخفوضين بغير تنوين .

وأنكره النحاس وردّه .

وقال الفرّاء في كتابه : في القرآن أشياء كثيرة ، الغلط فيها بيّن ، منها أنه زعم أنه يجوز "من قبلِ ومن بعدِ" وإنما يجوز "من قبلٍ ومن بعدٍ" على أنهما نكرتان .

قال الزجاج : المعنى من متقدّم ومن متأخر .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ تقدم ذكره .

﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ يعني من أوليائه ؛ لأن نصره مختصّ بغلبة أوليائه لأعدائه فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصره ، وإنما هو ابتلاء وقد يسمّى ظَفَرا .

﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في نِقمته ﴿ الرحيم ﴾ لأهل طاعته .

قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ﴾ لأن كلامه صدق .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الكفار وهم أكثر .

وقيل : المراد مشركو مكة .

وانتصب "وَعْدَ اللَّهِ" على المصدر ؛ أي وعد ذلك وعداً .

ثم بيّن تعالى مقدار ما يعلمون فقال : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ يعني أمر معايشهم ودنياهم : متى يزرعون ومتى يحصدون ، وكيف يغرِسون وكيف يبنون ؛ قاله ابن

عباس وعِكرمة وقتادة .

وقال الضحاك : هو بنيان قصورها ، وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها ؛ والمعنى واحد .

وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع من سماء الدنيا ؛ قاله سعيد بن جبير .

وقيل : الظاهر والباطن ؛ كما قال في موضع آخر ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ القول ﴾ [الرعد : 33] .

قلت : وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا ، حتى لقد قال الحسن : بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي .

وقال أبو العباس المبرِّد : قسم كسرى أيامه فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج .

قال ابن خالَوَيْه : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .

(73/601)

﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة ﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ قال بعضهم :

ومن البليّة أن ترى لك صاحباً . . .

في صورة الرجل السميع المبصر

فطنٍ بكل مصيبة في ماله . . .

وإذا يصاب بدينه لم يشعر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(74/601)

وقال أبو السعود :

(سورة الروم)

مكية إلا قوله ﴿ فسبحان الله ﴾ الآية . وهى ستون آية .

(75/601)

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴾ ﴿ الم ﴾ الكلامُ فيه كالذي مرَّ في أمثالِه من الفواتحِ الكريمةِ ﴿ غُلِبَتِ الروم * فِى أَدْنَى الأرض ﴾ أي أدنى أرضِ العربِ منهم إذ هيَ الأرضُ

المعهودةُ عندهم وهي أطراف الشّامِ أو في أدنى أرضِهم من العربِ على أنَّ اللامَ عوضٌ عن المضافِ إليهِ. قال مجاهدٌ: هي أرضُ الجزيرةِ وهي أدْنى أرضِ الرُّومِ إلى فارسَ. وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: الأردنُّ وفلسطينُ. وقُرِئ أدانِي الأرضِ ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الرُّوم ﴿ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ أي بعد مغلوبيَّتهم. وقُرِئ بسكونِ اللامِ وهي لغةٌ كالجَلَب والجَلْب ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ أي سيَغلِبون فارسَ ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ رُوي أنَّ فارسَ غزَوا الرُّومَ فوافَوهم بأَذْرِعَاتٍ وبُصرَى وقيل: بالجزيرةِ كما مرَّ فغلبوا عليهم، وبلغ الخبرُ مكَّة ففرح المشركون وشمِتُوا بالمسلمينَ وقالُوا: أنتُم والنَّصارى أهل كتابٍ ونحن وفارسُ أميُّون وقد ظهر إخوانُنا على إخوانِكم فلنظهرنَّ عليكم، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: لا يقرِّر الله أعينَكم فوالله ليظهرنَّ الرومُ على فارسَ بعد بضعِ سنين، فقال له أُبيُّ بنُ خَلَف اللَّعينُ: كذبتَ اجعل بيننا أجلاً أناحِبُك عليه فناحبَه على عشرِ قلائصَ من كلٍّ منهُما وجعلا الأجلَ ثلاثَ سنينَ فأخبر به أبو بكرٍ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ: "البضعُ ما بين الثَّلاثِ إلى التِّسعِ فزيدُوه في الخطرِ ومادّه في الأجلِ" فجعلاها مائةَ قلوصٍ إلى تسعِ سنينَ ومات أُبيٌّ من جرحِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وظهرتِ الرُّوم على فارسَ عند رأسِ سبعِ سنينَ وذلك يومَ الحديبيةِ، وقيل: كانَ النَّصرُ للفريقينِ يومَ بدرٍ فأخذَ أبو بكر الخَطَرَ من ذريَّةِ أُبيَ فجاء به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ: "تصدَّق به". وكانَ ذلك قبلَ تحريمِ القِمارِ. وهذه الآياتُ من البيِّناتِ الباهرةِ

الشَّاهدةِ بصحَّةِ النُّبوةِ وكونِ القُرآنِ من عندِ الله عزَّ وجلَّ حيثُ أخبرتْ عن الغيبِ الذي لا يعلمُه إلا العليمُ الخبيرُ . وقُرِىء غَلَبت على البناءِ للفاعلِ وسيُغلبون على البناءِ للمفعولِ والمعنى أنَّ الرُّوم غلبتْ على ريفِ الشامِ وسيغلبُهم المسلمونَ وقد غزَاهُم المسلمون في السَّنةِ التَّاسعةِ من نزولِها ففتحُوا بعضَ بلادِهم ، فإضافةُ الغَلَب حينئذٍ إلى الفاعلِ .

﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ أي في أولِ الوقتينِ وفي آخرِهما حين غُلبوا وحين يغلِبون ، كأنَّه قيل : من قبلِ كونِهم غالبينَ وهو وقتُ كونِهم مغلوبينَ ومن بعدِ كونِهم مغلوبينَ وهو وقتُ كونِهم غالبينَ والمعنى أنَّ كلاًّ من كونِهم مغلوبينَ أولاً وغالبين آخراً ليس إلا بأمرِ الله تعالى وقضائِه ﴿ وَتِلْكَ الايام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ وقُرِىء من قبلِ ومن بعدِ بالجرِّ من غيرِ تقديرِ مُضافٍ إليهِ واقتطاعِه كأنَّه قيل : قبلاً وبَعْداً ، بمعنى أولاً وآخِراً ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يومَ إذْ يغلبُ الرُّومُ على فارسَ ويحلُّ ما وعدَه الله تعالى من غلبتِهم ﴿ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ .

﴿ بِنَصْرِ اللهِ ﴾ وتغليبه من له كتابٌ على من لا كتابَ له وغيظِ من شمِت بهم من كفَّار مكَّةَ وكونِ ذلك من دلائلِ غلبةِ المؤمنينَ على الكفَّار ، وقيل : نصرُ الله إظهارُ صدقِ المؤمنينَ فيما أخبرُوا به المشركينَ من غَلَبة الرُّومِ على فارسَ ، وقيل : نصرُه تعالى أنَّه ولَّى بعضَ الظَّالمين بعضاً وفرَّق بين كلمتِهم حتَّى تناقصُوا وتفانوا وفلَّ كلٌّ منهما شوكةَ الآخرِ وفي ذلك قوَّةٌ . وعن أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه أنه وافقَ ذلك يومَ بدرٍ . وفيهِ من نصرِ الله العزيزِ للمؤمنينَ وفرحِهم بذلك ما لا يَخْفى ، والأولُ هو الأنسبُ لقولِه تعالى : ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاء ﴾ أنْ ينصرَهُ من عبادِه على عدوِّه ويُغلِّبه عليهِ فإنَّه استئنافٌ مقررٌ لمضمونِ قولِه تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ المبالغُ في العزَّةِ والغَلَبةِ فلا يُعجزه مَن يشاءُ أنْ ينصرَ عليهِ كائناً مَن كان ﴿ الرحيم ﴾ المبالغ في الرَّحمةِ فينصرُ من يشاءُ أنْ ينصرَه أيَّ فريقٍ كان ، والمرادُ بالرَّحمةِ هي الدُّنيوية ، أمَّا على القراءةِ المشهُورة فظاهرٌ لما أنَّ كلا الفريقينِ لا يستحقُّ الرَّحمةَ الأُخرويَّةَ . وأمَّا على القراءةِ الأخيرةِ فلأنَّ المُسلمينَ وإنْ كانُوا مستحقِّين لها لكنْ المرادُ هاهنا نصرُهم الذي هُو من آثارِ الرَّحمةِ الدُّنيويةِ ، وتقديمُ وصفِ العزَّةِ لتقدمِه في الاعتبارِ ﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسِه لأنَّ ما قبله في مَعنى الوعدِ كأنَّه قيلَ : وَعَدَ الله وَعْداً ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ﴾ أيَّ وعدٍ كان ممَّا يتعلَّقُ بالدُّنيا والآخرةِ لاستحالةِ الكذبِ عليهِ سبحانَه . وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقعِ

الإضمارِ لتعليلِ الحُكمِ وتفخيمِه . والجملةُ استئنافٌ مقررٌ لمعنى المصدرِ وقد جُوِّز أنْ تكونَ حالاً منه فيكونَ كالمصدرِ الموصوفِ ، كأنَّه قيل : وَعَدَ اللهُ وَعْداً

(78/601)

غيرَ مُخلفٍ ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أيْ ما سبقَ من شؤونِه تعالى .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ وهو ما يُشاهدونَهُ من زخارِفها وملاذِّها وسائرِ أحوالِها الموافقةِ لشهواتِهم الملائمةِ لأهوائِهم المستدعيةِ لانهماكِهم فيها وعكوفِهم عليها لا تمتعهم بزخارِفها وتنعمهم بملاذِّها كما قيلَ فإنَّهما ليسا ممَّا علمُوه منها بل من أفعالِهم المترتبةِ على علومِهم ، وتنكيرُ ظاهراً للتَّحقيرِ والتَّخسيسِ دونَ الوحدةِ كما تُوهِّم أي يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدُّنيا ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة ﴾ التي هي الغايةُ القُصوى والمطلبُ الأسنَى ﴿ هُمْ غافلون ﴾ لا يُخطرونَها بالبالِ ولا يُدركون من الدُّنيا ما يؤدي إلى معرفتِها من أحوالِها ولا يتفكَّرون فيها كما سيأتي . والجملةُ معطُوفةٌ على يعلمونَ وإيرادُها إسمية للدلالةِ على استمرارِ غفلتِهم ودوامِها وهُم الثَّانية تكريرٌ للأولى أو مبتدأٌ وغافلون خبرُه والجملةُ خبرٌ للأولى وهو عَلَى الوجهينِ منادٍ على تمكُّنِ غفلتِهم عن الآخرةِ المحققةِ لمقتضَى الجملةِ المتقدمةِ تقريراً لجهالتِهم وتشبيهاً لهم بالبهائمِ المقصورِ إدراكاتُها من الدُّنيا على

ظواهِرها الخسيسةِ دونَ أحوالِها التي هي مَبَادي العلمِ بأمورِ الآخرةِ وإشعاراً بأنَّ العلمَ المذكورَ وعدمَ العلمِ رأساً سِيَّانِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(79/601)

وقال الآلوسى :

بسْم الله الرحمن الرَّحيم

﴿ الم ﴾ الكلام فيه كالذي مر في أمثاله من الفواتح الكريمة .

﴿ غُلِبَتِ الروم ﴾ هي قبيلة عظيمة من ولد رومي بن يونان بن علجان بن يافث نوح عليه السلام وقيل : من ولد يافان بن يافث ، وقيل : من ولد روعويل بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وقال الجوهري : من ولد روم بن عيص المذكور صارت لها وقعة مع فارس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فغلبتها وقهرتها فارس .

﴿ فِى أَدْنَى الأرض ﴾ أي أقربها .

والمراد بالأرض أرض الروم على أن ﴿ ءالَ ﴾ نائبة مناب الضمير المضاف إليه والأقربية بالنظر إلى أهل مكة لأن الكلام معهم أو المراد بها أرض مكة ونواحيها لأنها الأرض المعهودة عندهم والأقربية بالنظر إلى الروم أو المراد بالأرض أرض الروم لذكرهم والأقربية بالنظر إلى

عدوهم أعني فارس لحديث المغلوبية ، وقد جاء من طريق عديدة أن الحرب وقع بين اذرعات وبصري ، وقال ابن عباس .

والسدي : بالأردن وفلسطين ، وقال مجاهد : بالجزيرة يعني الجزيرة العمرية لا جزيرة العرب ، وجعل كل قول موافقاً لوجه من الأوجه الثلاثة على الترتيب ، وصحح ابن حجر القول الأول .

وقرأ الكلبي ﴿ فِى وَفِى الأرض ﴾ ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الروم ﴿ مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ أي غلب فارس إياهم على أنه مصدر مضاف إلى مفعوله أو إلى نائب فاعله إن كان مصدراً لمجهول ورجحه بعضهم بموافقته للنظم الجليل .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

ومعاوية بن قرة ﴿ غَلَبِهِمْ ﴾ بسكون اللام ، وعن أبي عمرو أنه قرأ ﴿ غلابهم ﴾ على وزن كتاب والكل مصادر غلب ، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى : ﴿ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ وفي ذلك تأكيد لما يفهم من السين ولكون مغلوبهم من كان غالبهم ، وفي بناء الجملة على الضمير تقوية للحكم أي سيغلبون فارس البتة ، وقوله تعالى :

﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ متعلق بسيغلبون أيضاً .

والبضع ما بين الثلاث إلى العشرة عن الأصمعي ، وفي المجمل ما بين الواحد : إلى التسعة ، وقيل هو ما فوق الخمس ودون العشر" وقال المبرد : ما بين العقدين في جميع الأعداد .

روى أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى فغلبوا عليهم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح الكفار بمكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب وقد ظهر إخواننا من أهخل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم الله فأنزل الله تعالى : ﴿ الم غُلِبَتِ الروم ﴾ [الروم : 1 ، 2] الآيات فخرج أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا ولا يقرن الله تعالى عينكم فوالله تعالى ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبي بن خلف فقال : كذبت فقال له : أبو بكر رضي الله تعالى عنه : أنت أكذب يا عدو الله تعالى تعالى أناجيك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فإن ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين فناحبه ثم جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام : ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل فخرج أبو بكر فلقي أبياً

فقال : لعلك ندمت ؟ قال : لا تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين قال : قد فعلت فلما أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبي كفيلاً بالخطر إن غلب فكفل به ابنه عبد الرحمن فلما أراد أبي الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلاً ومات أبي من جرح جرحه النبي صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة .

(81/601)

وجاء في بعض الروايات أنهم ظهروا عليهم يوم الحديبية ، وأخرج الترمذي وحسنه أنه لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأخذ أبو بكر رضي الله تعالى عنه الخطر من ورثة أبي وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام : تصدق به ، وفي رواية أبي يعلى .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

وابن عساكر عن البراء بن عازب أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا السحت تصدق به .

واستشكل بأنه إن كان ذلك قبل تحريم القمار كما أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم والبيهقي

عن قتادة .

والترمذي وصححه عن نيار بن مكرم السلمي وهو الظاهر لأن السورة مكية وتحريم الخمر والميسر من آخر القرآن نزولاً فما وجه كونه سحتاً ؟ وإن كان بعد التحريم فكيف يؤمر بالتصدق بالحرام الغير المختلط بغيره وصاحبه معلوم ، وفي مثل ذلك يجب رد المال عليه ، فإن قيل : إنه مال حربي والحادثة وقعت بمكة وهي قبل الفتح دار حرب والعقود الفاسدة تجوز فيها عند أبي حنيفة ومحمد عليهما الرحمة لم يظه ركونه سحتاً ، وكأني بك تمنع صحة هذه الرواية وإذا لم تثبت صحتها يبقى الأمر بالتصدق ، وحينئذ يجوز أن يكون لمصلحة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تصدق بحلال ؛ أما إذا كان ذلك قبل تحريم القمار كما هو المعول عليه فظاهر ، وأما إن كان بعد التحريم فلأن أبا حنيفة .

(82/601)

ومحمداً قالا بجواز العقود الفاسدة في دار الحرب بين المسلمين والكفار واحتجا على صحة ذلك بما وقع من أبي بكر في هذه القصة ، وقد تظافرت الروايات أنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليه المناحبة وإنما أنكر عليه التأجيل بثلاث سنين وأرشده إلى أن يزايدهم ، وربما يقال على تقدير الصحة : إن السحت ليس بمعنى الحرام بل بمعنى ما يكون سبباً للعار

والنقص في المروءة حتى كأنه يسحتها أي يستأصلها كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " كسب الحجام سحت " فقد قال الراغب : إن هذا لكونه ساحتاً للمروءة لا للدين فكأنه صلى الله عليه وسلم رأى أن تمول ذلك وإن كان حلالاً مخل بمروءة أبي بكر رضي الله تعالى عنه فأطلق عليه السحت ، ولا يأبى ذلك إذنه عليه الصلاة والسلام في المناحبة لما أنها لا تضرب بالمروءة أصلاً وفيها من إظهار اليقين بصدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ما فيها وكان عليه الصلاة والسلام على ثقة من صلاح الصديق رضي الله تعالى عنه وأنه إذا أمره بالتصدق بما يأخذه ونهاه عن تموله لم يخالفه ، وقيل : السحت هنا بمعنى ما لا شيء على من استهلكه وهو أحد إطلاقاته كما في النهاية ، والمراد هذا الذي لا شيء عليك إذا استهلكته وتصرفت فيه حسبما تشاء تصدق به كأنه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخبر الصديق رضي الله تعالى عنه بأنه لا مانع له من التصرف فيه حسبما يريد أرشده إلى ما هو الأولى والأحرى فقال : تصدق به ، وهو كما ترى ، وقيل : إن السحت كما في النهاية يرد في الكلام بمعنى الحرام مرة وبمعنى المكروه أخرى ويستدل على ذلك بالقرائن فيجوز أن يكون في الخبر إذا صح فيه بمعنى المكروه إذ الأمر بالتصديق يمنع أن يكون بمعنى الحرام فيتعين كونه بمعنى المكروه ، وفيه نظر ، وأما تفسير السحت بالحرام والتزام القول بجواز التصدق بالحرام لهذا الخبر فمما لا يلتفت إليه أصلاً فتأمل .

وكانت كلتا الغلبتين في سلطنة خسرو برويز ، قال في روضة الصفا ما ترجمته : إنه لما مضى من سلطنة خسرو أربعة عشر سنة غدر الروميون بملكهم وقتلوه مع ابنه بناطوس وهرب ابنه الآخر إلى خسرو فجهز معه ثلاثة رؤساء أولى قدر رفيع مع عسكر عظيم فدخلوا بلاد الشام وفلسطين وبيت المقدس وأسروا من فيها من الأساقفة وغيرهم وأرسلوا إلى خسرو الصليب الذي كان مدفوناً عندهم في تابوت من ذهب وكذلك استولوا على الإسكندرية وبلاد النوبة إلى أن وصلوا إلى نواحي القسطنطينية وأكثروا الخراب وجهدوا على إطاعة الروميين لابن قيصر فلم تحصل ، قيل : إن الروميين جعلوا عليهم حاكماً شخصاً اسمه هرقل وكان سلطاناً عادلاً يخاف الله تعالى فلما رأى تخريب فارس قد شاع في بلاد الروم من النهب والقتل تضرع وبكى وسأل الله تعالى تخليص الروميين فصادف دعاؤه هدف الإجابة فرأى في ليالي متعددة في منامه أنه قد جيء إليه بخسرو في عنقه سلسلة ، وقيل له : عجل بمحاربة برويز لأنه يكون لك الظفر والنصرة فجمع هرقل عسكره بسبب تلك الرؤية وتوجه من قسطنطينية إلى نصيبين فسمع خسرو فجهز اثني عشر ألفاً مع أمير من أمرائه فقابلهم هرقل فكسرهم وقتل منهم تسعة آلاف مع رؤسائهم .

(84/601)

وفي بعض الروايات أنهم ربطوا خيولهم بالمدائن ، ورأيت في بعض الكتب أن سبب ظهور الروم على فارس أن كسرى بعث إلى أميره شهريار وهو الذي ولاه على محاربة الروم إن اقتل أخاك فرخان لمقالة قالها وهو قوله : لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى فلم يقتله فبعث إلى فارس إني قد عزلت شهريار ووليت أخاه فرخان فاطلع فرخان على حقيقة الحال فرد الملك إلى أخيه وكتب شهريار إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى فغلبت الروم فارس وجاء الخبر ففرح المسلمون وكان ذلك من الآيات البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل لما في ذلك من الأخبار عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى العليم الخبير ، وقد صح أنه أسلم عند ذلك ناس كثير .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وابن عمر .

وأبو سعيد الخدري .

والحسن .

ومعاوية بن قرة ﴿ غُلِبَتِ الروم ﴾ على البناء للفاعل و ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ على البناء للمفعول ، والمعنى على ما قيل : إن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد

غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزول الآية ففتحوا بعض بلادهم ، وإضافة ﴿ غلب ﴾ عليه من إضافة المصدر إلى الفاعل ، ووفق بين القراءتين بأن الآية نزلت مرتين مرة بمكة على قراءة الجمهور ومرة يوم بدر كما رواه الترمذي وحسنه عن أبي سعيد على هذه القراءة .

وقال بعض الأجلة : الصواب أن يبقى نزولها على ظاهره ويراد بغلب المسلمين إياهم ما كان في غزوة موتة وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان وذلك قريب من التاريخ الذي ذكروه لنزول الآية أولاً ولا حاجة إلى تعدد النزول فإنه يجوز تخالف معنى القراءتين إذا لم يتناقضا ، وكون فريق غالباً ومغلوباً في زمانين غير متدافع فتأمل انتهى .

ولا يخفى على من سبر السير أن هذا مما لا يكاد يتسنى لأن الروم لم يغلبهم المسلمون في تلك الغزوة بل انصرفوا عنهم بعد أن أصيبوا بجعفر بن أبي طالب .

وزيد بن حارثة .

وعبد الله بن رواحة .

(85/601)

وعباد بن قيس في آخرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين كالمغلوبين ، بل ذكر ابن هشام أنهم لما أتوا المدينة جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار فررتم في سبيل الله تعالى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وروى أن أم سلمة قالت لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة : ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين ؟ فقالت : والله ما يستطيع أن يخرج كلما خرج صاح به الناس يا فرار فررتم في سبيل الله حتى قعد في بيته ولم يخرج ، وذكر أبياتاً لقيس اليعمري يعتذر فيها مما صنع يومئذ وصنع الناس وقد تضمنت كما قال بيان أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت وأن خالد بن الوليد انحاز بمن معه ، على أن فيما ذكر أنه الصواب بحثا بعد ، فلعل الأولى في التوفيق إذا صحت هذه القراءة ما ذكر أولاً فتأمل .

وفي "البحر" كان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يحكي عن أبي الحكم بن برجان أنه استخرج من قوله تعالى : ﴿ الم غُلِبَتِ الروم إلى سِنِينَ ﴾ [الروم : 1-4] افتتاح المسلمين بيت المقدس معيناً زمانه ويومه وكان إذ ذاك بيت المقدس قد غلبت عليه النصارى وإن ابن برجان مات قبل الوقت الذي عينه للفتح وأنه بعد موته بزمان افتتحه المسلمون في الوقت الذي عينه أبو الحكم وكان أبوجعفر يعتقد في أبي الحكم هذا أنه كان يتطلع على أشياء من المغيبات يستخرجها من كتاب الله تعالى انتهى ، واستخراج بعض العارفين

كمحيي الدين قدس سره .

والعراقي .

(86/601)

وغيرهم المغيبات من القرآن العظيم أمر شهير وهو مبني على قواعد حسابية وأعمال حرفية لم يرد شيء منها عن سلف الأمة ولا حجر على فضل الله عز وجل وكتاب الله تعالى فوق ما يخطر للبشر ، وقد سئل علي كرم الله تعالى وجهه هل أسر إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتمه عن غيركم فقال : لا إلا أن يؤتى الله تعالى عبداً فهما في كتابه ، هذا ونسأل الله سبحانه أن يوفقنا لفهم أسرار كتابه بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ أي من قبل هذه الحالة ومن بعدها وهو حاصل ما قيل أي من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين ، وتقديم الخبر للتخصيص ، والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله تعالى شأنه وقضائه عز وجل ﴿ وَتِلْكَ الايام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ [آل عمران : 140] وقرأ أبو السمال .

والجحدري عن العقيلي ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ بالكسر والتنوين فيهما فليس هناك مضاف إليه مقدر أصلاً على المشهور كأنه قيل : لله الأمر قبلاً وبعداً أي في زمان متقدم وفي زمان متأخر ، وحذف بعضهم الموصوف ، وذكر السكاكي أن المضاف إليه مقدر في مثل ذلك أيضاً والتنوين عوضه عنه ، وجوز الراء الكسر من غير تنوين ، وقال الزجاج : إنه خطأ لأنه إما أن لا يقدر فيه الإضافة فينون أو يقدر فيبني على الضم ، وأما تقدير لفظه قياساً على قوله : بين ذراعي وجبهة الأسد فقياس مع الفارق لذكره فيه بعد وما نحن فيه ليس كذلك ، وقال النحاس : للفراء في كتابه في القرآن أشياء كثيرة الغلط ، منها أنه زعم يجوز ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ بالكسر بلا تنوين وإنما يجوز ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ على أنهما نكرتان أي من متقدم ومن متأخر ، وذهب إلى قول الفراء ابن هشام في بعض كتبه ، وحكى الكسائي عن بعض بني أسد ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ على أن الأول مخفوض منون والثاني مضموم بلا تنوين .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي ويوم إذ يغلب الروم فارساً ﴿ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ .

﴿ بِنَصْرِ اللهِ ﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمتهم من كفار مكة وكون ذلك مما يتفاءل به لغلبة المؤمنين على الكفار ، وقيل : نصر الله تعالى صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ، وقيل : نصره عز وجل أنه ولي بعض الظالمين بعضاً وفرق بين كلمتهم حتى تناقضوا وتحاربوا وقلل كل منهما شوكة الآخر ، وعن أبي سعيد الخدري أنه وافق ذلك يوم بدر ، وفيه من نصر الله تعالى العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى ، والأول أنسب لقوله تعالى : ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فإنه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [الروم : 4] والظاهر أن ﴿ يَوْمٍ ﴾ متعلق بيفرح وكذا ﴿ بِنَصْرِ ﴾ وجوز تعلق ﴿ يَوْمٍ ﴾ به ، وكذا جوز تعلق ﴿ بِنَصْرِ ﴾ بالمؤمنين ، وقيل : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ عطف على قبل أو بعد كأنه حصر الأزمنة الثلاثة الماضي والمستقبل والحال ثم ابتدأ الأخبار بفرح المؤمنين ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ المبالغ في العزة والغلبة فلا يعجزه من شاء أن ينصر عليه كائناً من كان ﴿ الرحيم ﴾ المبالغ في الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أي فريق كان ، والمراد بالرحمة هنا هي الدنيوية ، أما على القراءة المشهورة فظاهر لأن كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الأخروية ، وأما على القراءة الأخيرة فلأن المسلمين وإن كانوا مستحقين لها

لكن المراد ههنا نصرهم الذي هو من آثار الرحمة الدنيوية ، وتقديم وصف ﴿ العزيز ﴾ لتقدمه في الاعتبار .

(89/601)

﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة من قوله تعالى : ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ ويقال له المؤكد لنفسه لأن ذلك في معنى الوعد وعامله محذوف وجوباً كأنه قيل : وعد الله تعالى ذلك وعداً ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ﴾ أي وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لما في خلفه من النقص المستحيل عليه عز وجل ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للتعليل الحكمي وتفخيمه ، والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر ، وجوز أن يكون حالاً منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه سبحانه يقول : وعد الله تعالى وعداً غير مخلف ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه تعالى لا يخلف وعده لجهلهم بشؤونه عز وجل وعدم تفكرهم فيما يجب له جل شأنه وما يستحيل عليه سبحانه أو لا يعلمون ما سبق من شؤونه جل وعلا ، وقيل : لا يعلمون شيئاً أو ليسوا من أولي العلم حتى يعلموا ذلك .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ الحياة الدنيا ﴾ وهو ما يحسون به من زخارفها وملاذها وسائر

أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلمون منافعها ومضارها ومتى يزرعون ومتى يحصدون وكيف يجمعون وكيف يبنون أي ونحو ذلك مما لا يكون لهم منه أثر في الآخرة ،

وروى نحوه عن قتادة .

وعكرمة .

وأخرج ابن المنذر .

(90/601)

وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في الآية : بلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن يصلي ، وقال الكرماني : كل ما يعلم بأوائل الروية فهو الظاهر وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن وقيل : هو هنا التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها ، وتعقب بأنهما ليسا مما علموه منها بل من أفعالهم المرتبة على علمهم ، وعن ابن جبير أن الظاهر هو ما علموه من قبل الكهنة مما تسترقه الشياطين ، وليس بشيء كما لا يخفى ، وأياً ما كان فالظاهر أن المراد بالظاهر مقابل الباطن ، وتنوينه للتحقير والتخسيس أي يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً ، وقيل : هو بمعنى الزائل الذاهب كما في قول الهذلي :

وعيرها الواشون أني أحبها . . .

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

(91/601)

أي يعلمون أمراً زائلاً لا بقاء له ولا عاقبة من الحياة الدنيا ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة ﴾ التي هي الغاية القصوى والمطلب الأسني ﴿ هُمْ غافلون ﴾ لا تخطر ببالهم فكيف يتفكرون فيها وفيما يؤدي إلى معرفتها من الدنيا وأحوالها ، والجملة معطوفة على ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ وإيرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها ، و ﴿ هُمْ ﴾ الثانية تكرير للأولى وتأكيد لفظي لها دافع للتجوز وعدم الشمول ، والفصل بمعمول الخبر وإن كان خلاف الظاهر لكن حسنه وقوع الفصل في اللفظ والاعتناء بالآخرة أو هو مبتدأ و ﴿ غافلون ﴾ خبره والجملة خبر ﴿ هُمْ ﴾ الأولى ، وجملة ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ الخ بدل من جملة ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ على ما ذهب إليه "صاحب الكشف" فإن الجاهل الذي لا يعلم أن الله تعالى لا يخلف وعده أو لا يعلم شؤونه تعالى السابقة ولا يتفكر في ذلك هو الذي قصر نظره على ظاهر الحياة الدنيا ، والمصحح للبدلية اتحاد ما صدقا عليه ، والنكتة المرجحة له جعل علمهم والجهل سواء بحسب الظاهر ، وجملة ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة ﴾ الخ مناد على تمكن غفلتهم

عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة السابقة تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالبهائم المقصور إدراكها على ظواهر الدنيا الخسيسة دون أحوالها التي هي من مبادىء العلم بأمور الآخرة.

واختار العلامة الطيبي أن جملة ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ الخ استئنافية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله تعالى حق وإن لله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد وأنه جل شأنه ينصر المؤمنين على الكافرين ولعله الأظهر. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(92/601)

وقال الشيخ المراغى:

سورة الروم

هى مكية إلا قوله تعالى: «وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ» فمدنية وآيها ستون، نزلت بعد سورة الانشقاق.

ومناسبتها ما قبلها من وجوه:

(1) إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا فى الأرض ليناموا على مهاد الراحة، بل خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم، وأنهم يلاقون

شتى المصاعب من الأهل والأمم التي يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون فى اللّه ولوجهه فكأن هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(2) إنّ ما فى هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس مفصل لما جاء منه مجملا فى السورة السالفة ، إذ قال فى السالفة : « فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » إلخ ، وهنا بيّن ذلك ، فقال : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » إلخ ، وقال : « اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » .

(93/601)

[سورة الروم (30) : الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) ﴾

تفسير المفردات

الروم : أمة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم ، كذا قال النسابون من العرب ، أدنى الأرض : أي أقربها من الروم ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة الذين يساق إليهم

الحديث ، والبضع : ما بين الثلاث إلى العشر ، وقال : المبرد ما بين العقدين فى جميع الأعداد ، ظاهر الحياة الدنيا : هو ما يشاهدونه من زخارفها ولذاتها الموافقة لشهواتهم التي تستدعى انهماكهم فيها وعكوفهم عليها .

المعنى الجملي

(94/601)

روى أن فارس غزوا الروم ، فوافوهم بأذرعات وبصرى من أرض الشام فغلبوا عليهم ، وبلغ ذلك النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه وهو بمكة ، فشق ذلك عليهم ، من قبل أن الفرس مجوس ، والروم أهل كتاب ، وفرح المشركون بمكة وشمتوا ، ولقوا أصحاب النبي وهم فرحون ، وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم ، فأنزل اللّه هؤلاء الآيات ، فخرج أبو بكر رضى اللّه عنه إلى المشركين فقال :

أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يقرّن اللّه أعينكم (لا يسرّنكم) فو اللّه لتظهرنّ الروم على فارس كما أخبرنا بذلك نبينا صلى اللّه عليه وسلم فقام إليه أبىّ ابن خلف فقال : كذبت ، فقال : أنت أكذب يا عدو اللّه ، اجعل بيننا أجلا أنا حبك عليه

(أراهنك) على عشر قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، فناحبه ، ثم جاء إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فأخبره ، فقال عليه السلام : زايده فى الخطر وماده فى الأجل ، فخرج أبو بكر ، فلقى أبيا ، فقال : لعلك ندمت ، فقال : لا ، تعال أزايدك فى الخطر ، وأمادك فى الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلت ، فلما أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبى كفيلا بالخطر إن غلب ، فكفل به ابنه

عبد الرحمن ، فلما أراد أبىّ الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ومات أبىّ من جرح جرحه إياه النبي صلى اللّه عليه وسلم فى الموقعة وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبىّ وجاء به إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : تصدق به

(وقد كان هذا قبل تحريم القمار كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقي ، لأن السورة مكية وتحريم الخمر والميسر بالمدينة) .

(95/601)

الإيضاح

(الم) تقدم فى السورة قبلها ما فيه الكفاية من الكلام فى أمثال هذه الحروف فى أوائل السور ، وقد بينا هناك أنه ينطق بأسمائها فيقال (ألف . لام . ميم) .

(غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ) أي غلبت فارس الروم فى أقرب أرض الروم بالنسبة إلى بلاد العرب ، إذ الوقعة كانت بين الأردن وفلسطين ، والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون فارس فى بضع سنين ، وقد تحقق ذلك فغلبوهم بعد سبع من الوقعة الأولى .

ولا شك أن وقوعه على نحو ما قال الكتاب الكريم بعد من أكبر الدلائل على إعجازه ، وأنه كلام اللّه العليم بكل شىء لا كلام البشر .

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) أي للّه الأمر من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها ، فمن غلب فهو بأمر اللّه وقضائه وقدره كما قال : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ » فهو يقضى فى خلقه بما يشاء ويحكم بما يريد ، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه .

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ) أي ويوم تغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بنصر اللّه وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيظ من شمتوا من كفار مكة ، وأنه سيكون فألا حسنا لغلبة المؤمنين على الكافرين .

ثم أكد قوله « لِلَّهِ الْأَمْرُ » بقوله :

(يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

أي ينصر من يشاء أن ينصره على عدوه ويغلّبه عليه على مقتضى السنن التي وضعها فى الخليقة ، وهو المنتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم ، الرحيم بعباده ، فلا يعاجلهم بالانتقام على ذنوبهم كما قال :

« وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى » .

(96/601)

(وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

أي وعد اللّه وعدا بظهور الروم على فارس ، واللّه لا يخلف ما وعد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لجهلهم بشئونه تعالى وعدم تفكرهم فى النواميس والسنن التي وضعها فى الكون ، فإنه قد جعل من تلك السنن أن وعده لا يخلف إذ هو مبنى على مقدمات ووسائل هو يعلمها ، وقد رتب عليها تلك العدة التي وعدها ، وجعل قانون الغلب فى الأمم والأفراد مبنيا على الاستعداد النفسي والاستعداد الحربي ، فلا تغلب أمة أخرى إلا بما أعدت لها

من وسائل الظفر بها ، وما كان لها من صفات تكفل لها هذا الظفر من أناة وصبر وتضحية بما تملك من عزيز لديها من مال ونفس .

وهكذا حكم الفرد فهو لا ينجح فى الحياة إلا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامل الأيام حتى يغلبها بجدّه وكدّه ، فهذه الأمور وأمثالها تحتاج إلى دقة نظر لا يدركها إلا ذوو البصائر .

(يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا) كتدبير معايشهم ، وإحسان مساكنهم ، وتنمية متاجرهم ، وتصرفهم فى مزارعهم ، على النحو الذي يجعلها تزدهر وتفى بحاجة المجتمع (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) أي وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت وأنها ستلبس ثوبا آخر فى حياة أخرى ، وستنال إذ ذاك جزاء ما قدمت من خير أو شر ، ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق ولا تجد النفوس لاحتمالها سبيلا ، وهى ما قبلت تلك الآلام واحتملتها إلا لأنها توقن بسعادة أخرى وراء ما تقاسى من المناعب فى هذه الحياة ، ولله در القائل :

ومن البلية أن ترى لك صاحبا فى صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة فى ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 21 صـ 26.30 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

30 ـ سورة الرّوم

نزولها : مكية عدد آياتها : ستون آية . .

عدد كلماتها : ثمانمائة وسبع . .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون . . .

مناسبتها لما قبلها

حملت سورة « العنكبوت » ـ التي سبقت هذه السورة ـ دعوة للمسلمين إلى أن يوطّنوا أنفسهم على ما يلقاهم من بلاء وفتن على طريق الإيمان ، وآذنتهم بأنهم مبتلون بكثير من الشدائد والمحن ، وأن فيما يبتلؤن به ، الهجرة ، وفراق الأهل والديار . . . ثم كان ختامها هذا الوعد الذي تلقّوه من اللّه سبحانه وتعالى ، بأن اللّه سيهديهم السبيل المستقيم ، سبيل اللّه ، وأنه معهم ، يمدّهم بأمداد نصره وتأييده .

ثم تجىء بعد هذا سورة « الروم » هذه ، فتعرض مشهدا من الواقع ، ونخبر عن حدث مشهود ، يراه المسلمون والمشركون ، يومئذ ، وهو تلك الحرب التي وقعت بين الروم والفرس ، والتي انتصر فيها الفرس ، وهم عبدة أوثان ، على الروم وهم أهل كتاب ، كان ذلك ، والحرب على أشدّها بين المشركين والمسلمين فى مكة ، وقد كانت الدولة للمشركين ،

حيث كانوا هم الكثرة ، وأصحاب القوة والجاه ، على حين كان المسلمون قلّة قليلة ، أغلبها من المستضعفين ، من الإماء والعبيد ، وكان أقوى المسلمين قوة ، وأعزّهم نفرا ، من يستطيع أن يفلت من يد القوم ، ويخرج فارّا بدينه ، تاركا كل شيء وراءه ! !

(98/601)

فى هذا الوقت جاءت الأنباء إلى أهل مكة تحدّث بتلك الحرب الدائرة بين الفرس والروم ، وبأن الغلبة كانت للفرس ، وكان لذلك فرحة فى نفوس المشركين ، لم يستطيعوا أن يمسكوا بها فى كيانهم ، بل انطلقوا يردّدونها فيما بينهم ، ويديرون أحاديثها على أسماع المسلمين ، استهزاء وسخرية وشماتة ، إذ كان المسلمون يمثلون الروم ، الذين يؤمنون بكتاب سماوى ، على حين كان المشركون يمثلون الفرس ، عبدة النار . . وأما وقد غلب عبدة النار أهل الكتاب ، فإن عبدة الأصنام المشركين ستكون لهم الغلبة دائما على الذين اتبعوا محمدا ، وآمنوا بالكتاب الذي معه ، وأن ما يعدهم به الكتاب الذي فى أيديهم من نصر وعزّة ، ليس إلا خداعا ووهما كاذبا ، وأن فيما وقع بين الفرس والروم ، وما كان من انتصار الفرس على الروم لهو شاهد بيّن ، لا تدفع شهادته . . . وإذن فإن ما يدّعى بأنه كتب سماوية من عند اللّه ـ قديما وحديثا ـ هو مجرد كذب وافتراء . . إذ لو كانت هذه الكتب من عند اللّه لما

خذل أتباعها أبدا . . . وإلا فأين اللّه وقد خذل أتباع كتبه ؟ هكذا كان تفكير المشركين وتقديرهم .

وقد وجد المسلمون فى أنفسهم شيئا من الأسى لتلك الهزيمة التي حلّت بالروم ، ثم ضاعف ذلك الأسى ، وزاد فى مرارته ما كان يلقاهم به المشركون من كلمات ساخرة ، ونظرات شامتة . . ذلك والمسلمون قد كانت تنزف جراحاتهم دما ، من طعنات المشركين لهم ، فى أجسامهم ، ومشاعرهم . . .

على السواء .

وفى كل موقف يشتد فيه البلاء على المؤمنين ، وتضيق فيه عليهم الأرض بما رحبت ، تطلع عليهم آية من آيات اللّه ، فتمسك بسفينتهم المضطربة ، وتنتزعها من يد العاصفة المجنونة المشتملة عليها ، وإذا الأمن والسلامة يحفّان

(99/601)

بهم ، وإذا هم وقد ظفروا ، وغنموا ، وانقلبوا بنعمة من اللّه وفضل ، لم يمسسهم سوء ! !

ومن هذه الآيات الأولى التي تنزلت بها سورة « الرّوم » وجد المسلمون ربح رحمة اللّه ، فى هذا الوعد الكريم ، وفى تلك البشرى المسعدة التي ساقتها إليهم بين يديها .

وحقّا قد غلبت الرّوم فى هذه المعركة ، وليس بالمستبعد أن يغلب المؤمنون فى معركة أو أكثر من معاركهم مع المشركين ، ولكن العاقبة أبدا للمؤمنين . . ولقد غلبت الروم فى هذه المعركة ، ولكن الصراع لم ينته بعد .

فهناك معركة غير منظورة ، يعلمها اللّه ، وستقع بعد بضع سنين ، وفيها يكون النصر للروم ، وبهذا النصر يحسم الأمر بينهم وبين الفرس ، فلن تقوم للفرس قائمة بعد هذا اليوم ، بل ولن تكون لهم دولة ، حيث يستولى المسلمون على هذه الدولة ، وتصبح بعضا من دولة الإسلام .

(100/601)

[من أنباء الغيب] التفسير :

قوله تعالى : « الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ » .

قلنا إنه فى هذا الجو الخانق الكئيب ، الذي كان يتنفس فيه المسلمون سموم الشماتة من

أفواه المشركين ، لهذه الهزيمة التي لحقت بالروم على يد الفرس . فى هذا الجو تلقى المسلمون فى مكة هذه الآيات من مطلع سورة الروم ، فوجدوا فى أنفاسها المطهرة ، أرواحا طيبة ، سرت فى كيانهم ، فتفتحت لها قلوبهم ، وانتعشت بها مشاعرهم ، وزغردت لها أرواحهم . !

إنهم تلقوا من اللّه سبحانه وعدا كريما بنصر الروم ، وإنهم ليجدون هذا الوعد واقعا محققا ، قبل أن يقع . . إنهم مؤمنون بربهم ، مستيقنون بما يعدهم به . .

(101/601)

وحين يرى المشركون هذه الحال ، التي لبست المسلمين من الرضا والطمأنينة ، يتساءلون فيما بينهم . ماذا جرى ؟ وأي شىء بدّل حال المسلمين ، فأصبحوا على غير ما أمسوا عليه ؟ وتجيئهم الأنباء ، بأن « محمدا » تحدث إليهم بما اعتاد أن يلقاهم به من حديث يقول إنه تلقاه من ربه ، وأن ما حدثهم به اليوم ، هو أن الروم وإن غلبوا فى تلك المعركة التي دارت بينهم وبين الفرس منذ قليل ، فإنهم سيغلبون ، وأن ذلك سيكون بعد بضع سنين ! ! .

أهكذا الأمر إذن ؟ وأ لهذا كانت تلك الفرحة التي تعلو وجوه المسلمين ؟

ألا ما أخف أحلامهم ، وما أضل عقولهم ؟ ! أ لمثل هذا الكلام ينخدعون ؟

وعلى مثل هذا الكلام يبنون قصورا من الأمانى والآمال ؟ ألا يزالون على ضلالهم القديم ، ينخدعون بما يحدثهم محمد به ، من أحاديث لا تعدو أن تكون وعودا معلقة بالمستقبل البعيد أو القريب ، لا يمسك المرء منها بشىء ، فى يومه أو غده ؟ فأين البعث ؟ وأين الحساب ؟ وأين الجنة والنار ؟ لقد أكثر محمد من تلك الأحاديث إلينا ، وصدّع بها رءوسنا ، وما نرى لذلك ظلا ، وما نشهد له أثرا ! ثم ها هى ذى تبلغ الجرأة بمحمد ، فينتقل من الرجم بالغيب فى أحشاء الزمن البعيد ، المضاف إلى ما بعد موت الناس جميعا ، إلى أن يرجم بالغيب فى واقع حياتنا ، مما لا يجاوز مداه بضع سنين ؟ إنها عثرة قائلة ، ولن نقيل « محمدا » منها . . فهيا أمسكوا به ، متلبسا بهذا الكذب المفضوح ، واضربوه الضربة القاضية ، وقد سنحت لكم الفرصة فيه ! ! هكذا أدار المشركون الحديث حول هذه الآيات ، ووجدوا - حسب زعمهم - أن فيها فرصتهم ، للنيل من محمد ، وبضربته ضربة فى الصميم من دعوته . . .

إنها لسنوات معدودة ، « بضع سنين » تنحصر فيما بين ثلاث وعشر ،

وبعدها ينكشف الأمر ، فماذا لو ظلت الحال على ما هى عليه ، فلم تقع حرب بين الروم والفرس خلال هذه السنوات المعدودات ؟ وماذا لو وقعت حرب بينهما ثم دارت الدائرة فيها على الروم مرة أخرى ؟ أيكون لمحمد وجه يلقى به الناس بعد هذا ؟ أو يجد محمد بعد هذا أذنا تسمع له ، أو إنسانا يصدق له قولا ؟

والحق أن هذا صحيح . . فلو أنه لم تقع حرب بين الفرس والروم خلال هذه المدة المحدودة ، المحصورة في بضع سنين ، ثم لو وقعت هذه الحرب ولم يكن النصر والغلب للروم على الفرس فيها ـ لو أنه لم يحدث هذا ، لما كان لمحمد ولا لدعوة محمد مكان في هذه الدنيا ، ولذهب كل شىء ، ولاختفى كل أثر لمحمد ، ولدعوة محمد إلى الأبد ! .

إنها دعوة قائمة على أنها من عند اللّه ، وأن محمدا ، يتلقى آياتها وكلماتها من ربه . . .

وهذا يعنى أنها الصدق الذي لا تعلق به شائبة من كذب ، وأنها الحق الذي لا يلم به الباطل أبدا . . فإذا طاف بهذا الكلام طائف من الكذب ، أو علق به ولو ذرّة من شك وارتياب ـ كان ذلك واقعا بين أمرين ، لا ثالث لهما :

إما أن يكون هذا الكلام من عمل محمد ، ومن مقولاته التي يتصيدها من هنا وهناك . .

وإذن فهو كاذب فيما يدعيه من أنه رسول اللّه ، وأنه يتلقى هذا القرآن ، وحيا من ربه . .

وإذن فقد بطلت دعواه بأنه رسول من عند اللّه . . .

وإما أن يكون هذا الكلام ، وحيا كما يقول محمد ، ولكنه ليس وحيا من عند اللّه ، وإنما هو مما تلقيه الشياطين ، على بعض الناس ، كالعرافين ،

(103/601)

والشعراء . . وإذن فقد بطلت دعواه أيضا بأن ما يحدثهم به هو وحي من عند اللّه . . . لأن اللّه لا يكذب ، ولا يفترى ! .

والحق أيضا أن هذه الآيات ، وما حملت من هذا الغيب ، الذي أذاعته في الناس جميعا ، والذي ترددت أنباؤه على أسماع الناس في الجزيرة العربية ، وما فيها من مشركين وأهل كتاب ، بل وربما جاوزت الجزيرة العربية إلى فارس والروم . الحق أن هذا كان تحديا للناس جميعا ، بهذه المعجزة المادية المحسوسة . . . وقد كان ذلك فيما يبدو - فى ظاهر الأمر - مغامرة انتحارية من محمد ، كما كان فرصة للذين يرصدون دعوة محمد ، ويريدون أن يعرفوا على وجه اليقين ، مبلغ صدقها أو كذبها .

وكعادة المشركين الضالين ، الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية من أول يومها بإعلان الحرب عليها ، من قبل أن ينظروا في وجهها ، وأن يتبينوا دلائل الحق التي بين يديها - كعادتهم في مواجهة الدعوة الإسلامية بالكفر والعناد ، استقبلوا هذه الآيات بالهزء والسخرية ،

وأقبلوا إلى المسلمين يسلقونهم بألسنة حداد ، بما عرف فيهم من لجاج ولدد في الخصومة . . فما هذا الخبر الذي حملته الآيات ، إلا وعدا كتلك الوعود الكثيرة التي أوسع لها محمد في الأجل ، فجعلها في عالم آخر ، نصب فيه موازين الحساب والجزاء ، وأقام في ساحاته الجنة والنار . . . وإذا كان في هذا الوعد الجديد شيء ، فهو في قرب الأجل المضروب له . . . وهذا القرب هو في ذاته دليل على كذبه ، وأنه ليس من عند اللّه . . .

إذ لو كان عن إرادة نصر من عنده لأهل الكتاب على المجوس ـ لكان ذلك أمرا منجزا ، ولما كان للّه أن يؤخره بضع سنين . . . إذ لا داعية لهذا التأخير ، ما دامت قدرة اللّه حاضرة قادرة أبدا . . بل وأكثر من هذا ، فإن هذا النصر لو كان إرادة للّه لما وقعت الهزيمة أصلا بالروم ، ولكان

نصرهم قبل هزيمتهم أوقع وأقرب من نصرهم بعد الهزيمة ! .

هكذا ، لقى المشركون المسلمين بهذه المقولات وأمثالها ، حتى لقد أدّى الأمر إلى أن تقوم مخاطرات بين المسلمين والمشركين ، على وقوع هذا الخبر أو عدم وقوعه ، وحتى لقد قيل إن أبا بكر ـ رضى عنه ـ خاطر أبىّ بن خلف ، على عدد من الإبل ، يؤديها إلى أبى بكر ،

إذا غلبت الروم الفرس خلال سبع سنوات ، ويؤديها أبو بكر إلى أبيّ ، إذا غلبت الفرس الروم ، أو لم تقع بينهما حرب أصلا ، خلال هذه السنوات السبع ! .

وتمضى الأيام ، وتتحرك الأحداث ، ويهاجر النبي والمسلمون إلى المدينة ، ويلتقى المسلمون والمشركون في موقعة بدر في السابع عشر من رمضان ، للسنة الثانية من الهجرة ، وينتصر المسلمون نصرا كاملا مؤزرا ، ويهزم المشركون هزيمة نكراء ، فيقتل منهم سبعون رأسا من رءوسهم ، ويؤسر سبعون . . . !

وفي هذا الوقت الذي كانت تدور فيه معركة بدر بين المسلمين والمشركين ، وتدور فيها الدائرة على الشرك وأهله ، كانت هناك معارك دائرة بين الروم والفرس ، وفيها ينهزم الفرس هزيمة إلى الأبد ، فلا تقوم لهم بعدها دولة . . .

فما هى إلا سنوات بعد هذه الهزيمة التي حلّت بهم ، حتى تدخل جيوش المسلمين بلاد فارس ، وتستولى عليها ، وتضمها إلى الدولة الإسلامية .

وليس هذا رجما بالغيب ، ولا استملاء من أساطير الأولين ، كما يتخرص المتخرصون عن القصص القرآنى .

وهذه صحف التاريخ التي سجّلت هذه الأحداث في وقتها ، لا تزال بين يدى أهلها ، الذين ليس لهم مصلحة في أن يقيموا تاريخهم على ما يطابق أخبار القرآن ، ويجىء مصدّقا له .

والثابت في هذا التاريخ ، أنه في سنة 614 من الميلاد كانت تدور معركة

بين الفرس والروم ، وقد بدأت طلائع الهزيمة تنزل بالروم ، فاستولى الفرس على أنطاكية ، وهى من كبريات المدن الشرقية للدولة الرومانية ، ثم استولوا بعد ذلك على دمشق ، ثم على بيت المقدس ذاتها ، وأشعلوا فيها النيران ، وأحرقوا كنيسة القيامة . .

وعام 614 من الميلاد واقع بعد بعثة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وسابق لهجرته صلوات اللّه وسلامه عليه .

وطبيعى أن أنباء هذه المعركة ، لم تصل إلى مكة في يومها ، وربّما يكون ذلك بعد عام أو أقل من عام ، وإن لنا أن نفترض أنه في عام 615 من الميلاد كان نزول هذه الآيات التي نزلت بها أول سورة الروم ، لتلتقى مع هذا الحدث ، ووقعه على المسلمين والمشركين في مكة . . .

وقد حدّدت الآيات أنه بعد بضع سنين سيكون الغلب للروم . . وإذا كان البضع بين ثلاث إلى عشر . . فاسمع ما جرى ، وما تحدث به صحف التاريخ الرومانىّ .

تقول تلك الصحيفة : إنه في سنة 622 من الميلاد ـ أي بعد سبع أو ثمانى سنين من حرب الروم والفرس ، بدأت المعارك بين الروم والفرس مرة أخرى ، وكان هذا إرهاصا ـ عند من يرقب الأحداث ـ بأن ما تحدّث به القرآن عن هاتين الدولتين يمكن أن يقع على ما أخبر

به ! .

ومع هذا ، فإن المشركين حين بلغتهم أنباء هذه المعارك ، كانوا يتوقعون النصر للفرس ، ولهذا ، فإن أبيّ بن خلف حين علم بهجرة أبى بكر طلب إلى عبد اللّه بن أبى بكر أن يكون كفيلا لأبيه في أداء ما خاطره به ، إذا غلبت الفرس ، وقد قبل عبد اللّه بن أبى بكر هذا .

وفي عام 624 من الميلاد ، كانت معركة بدر ، وحين خرج أمية بن خلف

فيمن خرج من المشركين لحرب النبي والمسلمين ، أمسك به عبد اللّه بن أبى بكر عن الخروج ، إلا أن يقيم كفيلا يؤدى عنه ما خاطر عليه أبا بكر إذا انهزمت الفرس ، وغلبت الروم ، فأقام كفيلا له .

وهذا يعنى أن الحرب التي بدأت بين الدولتين في سنة 622 ، كانت ما تزال قائمة لم تنته بعد إلى نتيجة حاسمة ، أو أنها قد تكون قد انتهت ، ولكن أخبارها لم تكن قد وصلت إلى أهل مكة .

وعلى أىّ فإنه لم يكد المسلمون يفرغون من المشركين في معركة بدر ، ويأخذون طريقهم إلى المدينة ، وفي قلوبهم فرحة النصر ، وفي أيديهم ما وقع لهم من مغانم - حتى يلقاهم على طريق

المدينة من يخبرهم بما انتهى إليه أمر القتال الذي كان دائرا بين الفرس والروم ، وأن الروم قد هزموا الفرس ، وأخرجوهم من بيت المقدس ، وما استولوا عليه من بلاد الروم ، كما استولوا على كثير من مدن فارس وأقاليمها . . وبهذا جاءت فرحة المسلمين بهذا النصر الذي مكن لهم من رقاب المشركين يوم بدر . جاءت هذه الفرحة موقوتة بالوقت الذي نطقت به الآيات في قوله تعالى : « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ » أي أن يوم غلبة الروم للفرس ، سيكون في هذا اليوم الذي ينتصر فيه المسلمون على المشركين ، وتمتلىء قلوبهم فرحة بهذا النصر العظيم . . فالنصر الذي يفرح به المؤمنون حقّا ، هو نصرهم على المشركين من أهل مكة ، الذين سخروا منهم ، وصبّوا عليهم ألوان البلاء ، وأخرجوهم من ديارهم . . وهذا هو نصر اللّه الذي وعدهم به ، ووقّت له غلبة الروم للفرس ! وهذا هو السرّ . واللّه أعلم . فى هذا الذي جاء عليه النظم القرآنى ، من التعبير عن الصراع بين الفرس والروم بالغلب والتغالب ، على حين جاء التعبير عن غلبة المسلمين للمشركين ، بكلمة « النصر » . . فهو نصر لدين اللّه ،

(107/601)

ونصر للحق في أعلى منازله . . إنه صراع بين إيمان خالص وشرك صريح .

فإذا غلب لإيمان الشرك ، فهو نصر للحياة ، وللإنسانية كلها ، وحقّ له أن يضاف إلى اللّه :

« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ » . .

أما الصراع الذي كان دائرا بين الروم والفرس ، فلم يكن قتالا في سبيل اللّه ، ولا انتصارا لدين اللّه ، وإنما كان قتالا على سلطان ، وتقاتلا على سلطة ، تتنازعها لدولتان منذ قرون طويلة . .

أما التفات الدعوة الإسلامية إلى هذا الصراع ، فلم يكن إلا ردّا على ما تنادى به المشركون في مكة ، وما استقبلوا به أخبار انتصار الفرس وهزيمة الروم ، فاتخذوا من الفرس جبهة لهم ، على حين عدّوا جبهة الروم المهزومة جبهة للمسلمين . . ولهذا جاء قوله تعالى : « غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » . جاء خبرا حياديّا ، يحدث عن الواقع الذي سيقع بعد بضع سنين ، ليقطع على المشركين فرحتهم التي اصطنعوها من هذا الخبر الذي جاهم بنصر الفرس ، وليقول لهم : لا تفرحوا لأمر تستقبلون أوله ، ولا تدرون ما يقع في آخره . . فهذا الغلب الذي تفرحون به ، هو غلب موقوت ستعقبه هزيمة خلال بضع سنين ! ولهذا جاه قوله تعالى بعد ذلك : « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فهذا للقول وإن كان تعقيبا واقعا على قوله تعالى : « وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ » فإنه يشير من طرف خفيّ إلى

قصر أنظار المشركين ، وأنهم لا تمدون أبصارهم إلى أبعد من مواقع أقدامهم ، ولو أنهم أحسنوا النظر إلى هذا النبأ الذي جاءهم بغلبة الفرس ، لما استبدّ بهم الفرح ، ولعلموا أن الغلب

(108/601)

قد تعقبه هزيمة ، وأن الهزيمة قد يتلوها غلب . . . هكذا تجرى أمور الناس فى هذه الحياة : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ » . . ولكن القوم - لجهلهم ، وعمى بصائرهم - لا يقفون من الأمور إلا عند ظواهرها ، ولا يأخذون منها إلا ما يلقاهم على يومهم . . وهذا شأنهم في دينهم الذي يدينون به . . إنهم أحلوا أنفسهم من كلّ شىء يشغلهم عن حياتهم الدنيا ، فهى يومهم الذي لا يوم لهم بعده . . أما الآخرة ، فلا شأن لهم بها . . إنهم في غفلة عن كلّ أمر يصلهم بها ، وفي صمم عن كل حديث يلقى إليهم عنها . .

قوله تعالى : « غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ » .

المراد بأدنى الأرض ، أقربها ، وهى أقرب البلاد من مملكة الروم الشاسعة ، إلى جزيرة العرب ، وهى تلك البلاد الواقعة في المناطق الشرقية من مملكة الروم . . كدمشق وبيت المقدس وغيرها . .

«فِي بِضْعِ سِنِينَ» . .

هو تحديد للوقت الذي يقع فيه هذا الخبر . . والبضع من السنين ما بين الثلاث إلى العشر

. .

«لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ» أي أن الأمر كله لله ، من قبل الغلب ومن بعده . . فما غلب الغالبون إلا بأمر الله ، وعن إرادته ومشيئته . . وما سيغلب المنهزمون إلا بأمر الله ، وعن إرادته ومشيئته «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (78 : النساء) .

«وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ» .

أي في هذا الوقت الذي يقع فيه هذا الخبر ، وهو غلبة الروم للفرس ، سيقع أمر أهمّ وأعظم ، وهو انتصار المسلمين على المشركين ، حيث يمدهم الله بنصره ،

(109/601)

ويمنحهم عونه وتأييده ، فتمتلىء بالفرحة صدورهم ، وتخفق بالرضا والسرور قلوبهم . . «يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ . . وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» . . فالنصر بيد الله وحده ، ليس لأحد شركة مع الله فيه ، فهو العزيز ذو القوة والبأس ، الرحيم الذي يوسع من رحمته لعباده المؤمنين ، فيعزهم بعزته .

« وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ . . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » .

« وَعْدَ اللَّهِ » مفعول به لفعل محذوف ، تقديره : صدّقوا وعد اللّه ، أو استيقنوا وعد اللّه . ونحو هذا .

وقوله تعالى : « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » أي لا يعلمون هذه الحقيقة ، وهى أن اللّه لا يخلف وعده . . والمراد بأكثر الناس هنا هم المشركون والضالون ، الذين لا يؤمنون باللّه . . فهؤلاء هم أكثرية الناس . . وهم لا يصدقون ما تتحدث به إليهم آيات اللّه ، عن اللّه ، لأنهم لا يقدرون اللّه حق قدرة ، ولا يعلمون ما ينبغى أن يكون له سبحانه من صفات الكمال والجلال . .

« يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

هذا هو علم المشركين ، والضالين المكذبين باللّه . . إن علمهم محصور فيما يتعلق بأمور الدنيا ، وما هم فيه من لهو ومتاع بها . .

وفي قوله تعالى : « ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . إشارة إلى أن العلم في ذاته مطلوب ، لكل أمر يعالجه الإنسان . . وأن العلم - حيث كان - نور يهدى صاحبه ، ويكشف له معالم الطريق إلى الخير والحق . . هذا إذا كان العلم قائما على نظر سليم ، وإدراك صحيح ، وإلا فهو سراب يخدع صاحبه ، ويضله عن سواء السبيل . .

وعلم هؤلاء المشركين ، الضالين ، المكذبين بالله ـ مع أنه مقصور على هذه الحياة الدنيا ـ هو علم يقف عند ظاهر الأمور فيها ، ولا ينفذ إلى الصميم منها . . ومن هنا ينخدع هؤلاء الضالون بهذا العلم الذي لا يمسك من الأشياء إلا ببريقها ، ولمعانها ، فيندفعون به إلى مواقع الهلاك ، كما يندفع الفراش إلى النار ، مأخوذا بضوئها ، مبهورا بألسنة لهيبها . .

أما العلم الحقيقي بالحياة الدنيا ، وبما فيها من آيات الله المبثوثة في كل ذرة من ذراتها ، وما أودع الله سبحانه في الكائنات من أسرار ، فذلك علم من شأنه أن يفتح مغالق العقول ، ويضىء جوانب البصيرة ، ويهدى صاحبه إلى كل ما هو حق وخير . .

وبهذا العلم ، يرى العالم قدرة الله ، ويتعرف إلى بعض ماله ـ سبحانه ـ من علم وحكمة ، فيؤمن بالله ، ويؤمن بما أرسل الله من رسل ، وما أنزل من كتب . . وبهذا العلم يصل العالم بين الدنيا والآخرة ، فيعمل لهما معا . . إذ لا تعارض بين الدنيا والآخرة ، عند من يعلم حقيقة الدنيا ، ومكانها من الآخرة . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 472 . 485 ﴾

(111/601)

وقال ابن عاشور :

﴿ الم(1) ﴾

تقدم القول على نظيره في سور كثيرة وخاصة في سورة العنكبوت ، وأن هذه السورة إحدى ثلاث سور مما افتتح بحروف التهجي المقطعة غير معقبة بما يشير إلى القرآن ، وتقدم في أول سورة مريم .

قوله ﴿ غلبت الروم ﴾ خبر مستعمل في لازم فائدته على طريق الكناية ، أي نحن نعلم بأن الروم غُلبت ، فلا يَهْنِكُم ذلك ولا تطاولوا به على رسولنا وأوليائنا فإنّا نعلم أنهم سيَغلبون مَنْ غلبوهم بعد بضع سنين بحيث لا يعد الغلب في مثله غلَباً .

فالمقصود من الكلام هو جملة ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ وكان ما قبله تمهيداً له .

وإسناد الفعل إلى المجهول لأن الغرض هو الحديث على المغلوب لا على الغالب ولأنه قد عرف أن الذين غَلَبوا الروم هم الفرس .

و﴿ الروم : اسم غلب في كلام العرب على أمة مختلطة من اليونان والصقالبة ومن الرومانيين الذين أصلهم من اللاطينيين سكان بلاد إيطاليا نزحوا إلى أطراف شرق أوروبا .

تقومت هذه الأمة المسماة الروم على هذا المزيج فجاءت منها مملكة تحتل قطعة من أوروبا وقطعة من آسيا الصغرى وهي بلاد الأناضول .

وقد أطلق العرب على مجموع هذه الأمة اسم الروم تفرقة بينهم وبين الرومان اللاطينيين ، وسمَّوا الروم أيضاً ببني الأصفر كما جاء في حديث أبي سفيان عن كتاب النبي المبعوث إلى هرقل سلطان الروم وهو في حمص من بلاد الشام إذ قال أبو سفيان لأصحابه لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة إنه يخافه مَلِك بني الأصفر .

(112/601)

وسبب اتصال الأمة الرومانية بالأمة اليونانية وتكوُّن أمة الروم من الخليطين ، هو أن اليونان كان لهم استيلاء على صقلية وبعض بلاد إيطاليا وكانوا بذلك في اتصالات وحروب سجال مع الرومان ربما عظمت واتسعت مملكة الرومان تدريجاً بسبب الفتوحات وتسربت سلطتهم إلى إفريقيا وأداني آسيا الصغرى بفتوحات يوليوس قيصر لمصر وشمال أفريقيا وبلاد اليونان وبتوالي الفتوحات للقياصرة من بعده فصارت تبلغ من رومة إلى أرمينيا والعراق ، ودخلت فيها بلاد اليونان ومدائن رودس وساقس وكاريا والصقالبة الذين على نهر الطونة ولحق بها البيزنطيون المنسبون إلى مدينة بيزنطة الواقعة في موقع استانبول على البسفور .

وهم أصناف من اليونان والإسبرطيين .

وكانوا أهل تجارة عظيمة في أوائل القرن الرابع قبل المسيح ثم ألّفوا اتحاداً بينهم وبين أهل رودس وساقس وكانت بيزنطة من جملة مملكة إسكندر المقدوني .

وبعد موته واقتسام قواده المملكة من بعده صارت بيزنطة دولة مستقلة وانضوت تحت سلطة رومة فحكمها قياصرة الرومان إلى أن صار قسطنطين قيصراً لرومة وانفرد بالسلطة في حدود سنة 322 مسيحية ، وجمع شتات المملكة فجعل للمملكة عاصمتين عاصمة غربية هي رومة وعاصمة شرقية اختطها مدينة عظيمة على بقايا مدينة بيزنطة وسماها قسطنطينية ، وانصرفت همته إلى سكناها فنالت شهرة تفوق رومة .

وبعد موته سنة 337 قُسمت المملكة بين أولاده ، وكان القسم الشرقي الذي هو بلاد الروم وعاصمته القسطنطينية لابنه قسطنطينيوس ، فمنذ ذلك الحين صارت مملكة القسطنطينية هي مملكة الروم وبقيت مملكة رومة مملكة الرومان .

وزاد انفصال المملكتين في سنة 395 حين قسم طيودسيوس بلدان السلطنة الرومانية بين ولديه فجعلها قسمين مملكة شرقية ومملكة غربية ، فاشتهرت المملكة الشرقية باسم بلاد الروم وعاصمتها القسطنطينية .

(113/601)

ويعرف الروم عند الإفرنج بالبيزنطيين نسبة إلى بيزنطة اسم مدينة يونانية قديمة واقعة على شاطىء البوسفور الذي هو قسم من موقع المدينة التي حدثت بعدها كما تقدم آنفاً .

وقد صارت ذات تجارة عظيمة في القرن الخامس قبل المسيح وسُمِّي ميناءها بالقرن الذهبي .

وفي أواخر القرن الرابع قبل المسيح خلعت طاعة أثينا .

وفي أواسط القرن الرابع بعد المسيح جُعل قسطنطين سلطان مدينة القسطنطينية .

وهذا الغلَب الذي ذكر في هذه الآية هو انهزام الروم في الحرب التي جرت بينهم وبين الفرس سنة 615 مسيحية .

وذلك أن خسرو بن هرمز ملكَ الفرس غزا الروم في بلاد الشام وفلسطين وهي من البلاد الواقعة تحت حكم هرقل قيْصر الروم ، فنازل أنطاكية ثم دمشق وكانت الهزيمة العظيمة على الروم في أطراف بلاد الشام المحاداة بلاد العرب بين بُصرى وأذرعات .

وذلك هو المراد في هذه الآية في أدْنَى الأرْض ﴾ أي أدنى بلاد الروم إلى بلاد العرب .

فالتعريف في ﴿ الأرْض ﴾ للعهد ، أي أرض الروم المتحدث عنهم ، أو اللام عوض عن المضاف إليه ، أي في أدنى أرضهم ، أو أدنى أرض الله .

وحذف متعلق ﴿ أدنى ﴾ لظهور أن تقديره : من أرضكم ، أي أقرب بلاد الروم من أرض العرب ، فإن بلاد الشام تابعة يومئذ للروم وهي أقرب مملكة للروم من بلاد العرب .

وكانت هذه الهزيمة هزيمة كبرى للروم .

وقوله ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ إخبار بوعد معطوف على الإخبار الذي قبله ، وضمائر الجمع عائدة إلى الروم .

و ﴿ غَلَبِهم ﴾ مصدر مضاف إلى مفعوله .

وحذف مفعول ﴿ سيغلبون ﴾ للعلم بأن تقديره : سيغلبون الذين غلبوهم ، أي الفرس إذ لا يتوهم أن المراد سيغلبون قوماً آخرين لأن غلبهم على قوم آخرين وإن كان يرفع من شأنهم ويدفع عنهم معرة غلب الفرس إياهم ، لكن القصة تبين المراد ولأن تمام المنة على المسلمين بأن يغلب الروم الفرسَ الذين ابتهج المشركون بغلبهم وشمتوا لأجله بالمسلمين كما تقدم .

(114/601)

وفائدة ذكر ﴿ من بعد غلبهم ﴾ التنبيه على عظم تلك الهزيمة عليهم ، وأنها بحيث لا يُظن نصر لهم بعدَها ، فابتهج بذلك المشركون ؛ فالوعد بأنهم سيغلبون بعد ذلك الانهزام في أمد غير طويل تحدَ تحدَّى به القرآن المشركين ، ودليل على أن الله قدر لهم الغلب على الفرس تقديراً خارقاً للعادة معجزة لنبيئه صلى الله عليه وسلم وكرامة للمسلمين .

ولفظ ﴿ بضع ﴾ بكسر الموحدة كناية عن عدد قليل لا يتجاوز العشرة ، وقد تقدم في

قوله تعالى ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ في سورة يوسف (42) .

وهذا أجل لرد الكَرَّة لهم على الفرس .

وحكمة إبهام عدد السنين أنه مقتضى حال كلام العظيم الحكيم أن يقتصر على المقصود إجمالاً وأن لا يتنازل إلى التفصيل لأن ذلك التفصيل يتنزل منزلة الحشو عند أهل العقول الراجحة وليكون للمسلمين رجاء في مدة أقرب مما ظهر ففي ذلك تفريج عليهم .

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الجهة الرابعة في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير .

روى الترمذي بأسانيد حسنة وصحيحة أن المشركين كانوا يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب مثلهم فكانت فارس يوم نزلت ألم غلَبت الروم قاهرين للروم فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله فقال رسول الله " أما أنهم سيَغلبون " ونزلت هذه الآية فخرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ [الروم : 13] فقال ناس من قريش لأبي بكر : فذلك بيننا وبينكم ، زعم صاحبكم أن الروم ستغلِب فارسَ في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك قال : بلى وذلك قبل تحريم الرهان وقالوا لأبي بكر : كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسمِّ بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه .

فسمّى أبو بكر لهم سِت سنين فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان فمضت ست السنين قبل أن يظهر الروم فأخذ المشركون رهن أبي بكر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : " ألا أخفضت يا أبا بكر ، ألا جعلته إلى دون العشر فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع " .

وعَاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين وأسلم عند ذلك ناس كثير .

وذكر المفسرون أن الذي راهن أبا بكر هو أُبَيّ بنُ خلف ، وأنهم جعلوا الرهان خمسَ قلائص ، وفي رواية أنهم بعد أن جعلوا الأجَل ستة أعوام غيروه فجعلوه تسعة أعوام وازدادوا في عدد القلائص ، وأن أبا بكر لما أراد الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلق به أُبي بن خلف وقال له : أعطني كفيلاً بالخَطَر إن غُلِبْتَ ، فكفل به ابنه عبد الرحمان ، وكان عبد الرحمان أيامئذ مشركاً باقياً بمكة .

وأنه لما أراد أُبي بن خلف الخروج إلى أُحُد طلبه عبد الرحمان بكفيل فأعطاه كفيلاً .

ثم مات أُبي بمكة من جرح جَرحَه النبي صلى الله عليه وسلم فلما غلَب الروم بعد سبع سنين أخذ أبو بكر الخطَر من ورثة أبي بن خلف .

وقد كان تغلب الروم على الفرس في سنة ست وورد الخبر إلى المسلمين .

وفي حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : "لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين" .

والمعروف أن ذلك كان يوم الحديبية .

وقد تقدم في أول السورة أن المدة بين انهزام الروم وانهزام الفرس سبع سنين بتقديم السّين وأن ما وقع في بعض الروايات أنها تسع هو تصحيف .

وقد كان غلب الروم على الفرس في سلطنة هرقل قيصر الروم ، وبإثره جاء هرقل إلى بلاد الشام ونزل حِمص ولقي أبا سفيان بن حرب في رهط من أهل مكة جاءوا تجاراً إلى الشام .

واعلمْ أن هذه الرواية في مخاطرة أبي بكر وأُبي بن خلف وتقرير النبي صلى الله عليه وسلم إياها احتج بها أبو حنيفة على جواز العقود الربوية مع أهل الحرب .

(116/601)

وأما الجمهور فهذا يرونه منسوخاً بما ورد من النهي عن القمار نهياً مطلقاً لم يقيد بغير أهل الحرب .

وتحقيق المسألة أن المراهنة التي جرت بين أبي بكر وأُبَيّ بن خلف جرت على الإباحة الأصلية إذ لم يكن شرع بمكة أيامئذ فلا دليل فيها على إباحة المراهنة وأن تحريم المراهنة بعد ذلك تشريع أنفٌ وليس من النسخ في شيء .

﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾

جملة معترضة بين المتعاطفات .

والمراد بالأمر أمر التقدير والتكوين ، أي أن الله قدر الغلب الأول والثاني قبل أن يقعا ، أي مِن قبللِ غَلَب الروم على الفرس وهو المدة التي من يوم غلب الفرس عليهم ومن بعد غلب الروم على الفرس .

فهنالك مضافان إليهما محذوفان .

فبنيت ﴿ قبلُ وبعدُ ﴾ على الضمِ لحذف المضاف إليه لافتقار معناهما إلى تقدير مضافين إليهما فأشبهتا الحَرْف في افتقار معناه إلى الاتصال بغيره .

وهذا البناء هو الأفصح في الاستعمال إذا حذف ما تضاف إليه قبلُ وبعدُ وقُدِّر لوجود دليل عليه في الكلام ، وأما إذا لم تقصد إضافتهما بل أُريد بهما الزمن السابق والزمن اللاحق فإنهما يعربان كسائر الأسماء النكرات ، كما قال عبد الله بن يَعرب بن معاوية أو يزيد بن الصعق:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً . . .

أكاد أغَصُّ بالماء الحميم

أي وكنت في زمن سبق لا يقصد تعيينه ، وجوز الفراء فيهما مع حذف المضاف إليه أن تبقى فيهما حركة الإعراب بدون تنوين ، ودرج عليه ابن هشام وأنكره الزجاج وجعل من الخطأ رواية قول الشاعر الذي لا يعرف اسمه:

ومن قبلِ نادَى كلّ مولى قرابة . . .

فما عطفت مولًى عليه العواطف

بكسر لام ﴿ قبلِ ﴾ رادّاً قول الفراء أنه روي بكسرٍ دون تنوين يريد الزجاج ، أي الواجب أن يروى بالضم .

(117/601)

وتقديم المجرور في قوله ﴿ للهِ الأَمْرُ ﴾ لإبطال تطاول المشركين الذين بهجهم غلب الفرس على الروم لأنهم عبدة أصنام مثلهم لاستلزامه الاعتقاد بأن ذلك الغلب من نصر الأصنام عُبادَها ، فبين لهم بطلان ذلك وأن التصرف لله وحده في الحالين للحكمة التي بيناها آنفاً كما دل عليه التذييل بقوله ﴿ ينصر من يشاء ﴾ .

فيه أدب عظيم للمسلمين لكي لا يعلّلوا الحوادث بغير أسبابها وينتحلوا لها عِللاً توافق

الأهواء كما كانت تفعله الدجاجلة من الكهان وأضرابهم .

وهذا المعنى كان النبي يعلنه في خطبه فقد كسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن النبي فقال الناس : كسفت لموت إبراهيم فخطب النبي فقال في خطبته : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته .

وكان من صناعة الدجل أن يتلقن أصحاب الدجل الحوادثَ المقارنة لبعض الأحوال فيزعموا أنها كانت لذلك مع أنها تنفع أقواماً وتضر بآخرين ، ولهذا كان التأييد بنصر الروم في هذه الآية موعوداً به من قبل ليعلم الناس كلهم أنه متحدّىً به قبل وقوعه لا مدّعى به بعد وقوعه ، ولهذا قال تعالى بعد الوعود : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾

عطف على جملة ﴿ وهُمْ مِن بعد غلبهم الخ أي : ويوم إذ يغلبون يفرح المؤمنون بنصر الله أي بنصر الله إياهم على الذين كانوا غلبوهم من قبل ، وكان غلبهم السابق أيضاً بنصر الله إياهم على الروم لحكمة اقتضت هذا التعاقب وهي تهيئة أسباب انتصار المسلمين على الفريقين إذا حاربوهم بعد ذلك لنشر دين الله في بلاديْهم ، وقد أوماً إلى هذا قوله لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ﴾ .

والجملة المضافة إلى ﴿ إذ ﴾ في قوله ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ محذوفة عوض عنها التنوين .

والتقدير : ويوم إذ يغلبون يفرحُ المؤمنون ، ف ﴿ يومَ ﴾ منصوب على الظرفية وعامله ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُون .

وأضيف النصر إلى اسم الجلالة للتنويه بذلك النصر وأنه عناية لأجل المسلمين .

وجملة ينصر من يشاء ﴾ تذييل لأن النصر المذكور فيها عامّ بعموم مفعوله وهو ﴿ من يشاء ﴾ فكل منصور داخل في هذا العموم ، أي من يشاء نصره لِحِكَم يعلمها ، فالمشيئة هي الإرادة ، أي : ينصر من يريد نصره ، وإرادته تعالى لا يُسأل عنها ، ولذلك عُقب بقوله ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فإن العزيز المطلق هو الذي يغلب كل مغالب له ، وعقبه بـ ﴿ الرَّحِيم ﴾ للإشارة إلى أن عزّته تعالى لا تخلو من رحمة بعباده ولولا رحمته لما أدال للمغلوب دولة على غالبه مع أنه تعالى هو الذي أراد غلبة الغالب الأول ، فكان الأمر الأول بعزته والأمر الثاني برحمته للمغلوب المنكوب وترتيب الصفتين العليتين منظور فيه لمقابلة كل صفة منهما بالذي يناسب ذكره من الغلبين ، فالمراد رحمته في الدنيا .

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

انتصب ﴿ وعد الله ﴾ على المفعولية المطلقة .

وهذا من المفعول المطلق المؤكد لمعنى جملةٍ قبله هي بمعناه ويُسميه النحويون مصدراً

مؤكداً لنفسه تسمية غريبة يريدون بنفسه معناه دون لفظه .

ومثله في "الكشاف" ومثلوه بنحو "لك عليَّ ألفٌ عرفاً" لأن عرفاً بمعنى اعترافاً ، أكد مضمون جملة : لك علي ألف ، وكذلك ﴿ وَعْدَ الله ﴾ أكد مضمون جملة ﴿ وهُمْ مِنْ بَعْدِ غلبهم سيغلبون في بِضع سنين ﴾ [الروم : 3 ، 4] .

وإضافة الوعد إلى الله تلويح بأنه وعد محقق الإيفاء لأن وعد الصادق القادر الغني لا موجب لإخلافه .

(119/601)

وجملة ﴿ لا يخلف الله وعده ﴾ بيان للمقصود من جملة ﴿ وَعْدَ الله ﴾ فإنها دلت على أنه وعد محقَّق بطريق التلويح ، فبيّن ذلك بالصريح بجملة ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ .

﴾ ولكونها في موقع البيان فصلت ولم تعطف ، وفائدة الإجمال ثم التفصيل تقرير الحكم لتأكيده ، ولما في جملة ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ﴾ من إدخال الرَّوع على المشركين بهذا التأكيد .

وسماه وعداً نظراً لحال المؤمنين الذي هو أهم هنا .

وهو أيضاً وعيد للمشركين بخذلان أشياعهم ومن يفتخرون بمماثلة دِينهم .

وموقع الاستدراك في قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ هو ما اقتضاه الإجمال .

وتفصيله من كون ذلك أمراً لا ارتياب فيه وأنه وعد الله الصادق الوعد القادر على نصر المغلوب فيجعله غالباً ، فاستدرك بأن مراهنة المشركين على عدم وقوعه نشأت عن قصور عقولهم فأحالوا أن تكون للروم بعد ضعفهم دَولة على الفرس الذين قهروهم في زمن قصير هو بضع سنين ولم يعلموا أن ما قدره الله أعظم .

فالمراد بـ ﴿ أكثر الناس ﴾ ابتداءً المشركون لأنهم سمعوا الوعد وراهنوا على عدم وقوعه .

ويشمل المرادُ أيضاً كلَّ من كان يَعُد انتصار الروم على الفرس في مثل هذه المدة مستحيلاً ، من رجال الدولة ورجال الحرب من الفرس الذين كانوا مزدهين بانتصارهم ، ومن أهل الأمم الأخرى ، ومن الروم أنفسهم ، فلذلك عبر عن هذه الجمهرة بـ ﴿ أَكْثَرَ النَّاس ﴾ بصيغة التفضيل .

والتعريف في ﴿ النَّاس ﴾ للاستغراق .

ومفعول ﴿ يَعْلَمُون ﴾ محذوف دل عليه قوله ﴿ سيغلبون في بضع سنين ﴾ [الروم : 3 ، 4] .

فالتقدير : لا يعلمون هذا الغلب القريب العجيب .

ويجوز أن يكون المرادُ تنزيل الفعل منزلة اللازم بأن نزلوا منزلة من لا علم عندهم أصلاً لأنهم لما لم يصلوا إلى إدراك الأمور الدقيقة وفهم الدلائل القياسية كان ما عندهم من بعض العلم شبيهاً بالعَدَم إذ لم يبلغوا به الكمال الذي بلغه الراسخون أهل النظر ، فيكون في ذلك مبالغة في تجهيلهم وهو مما يقتضيه المقام .

ولما كان في أسباب تكذيبهم الوعد بانتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين أنهم يعدون ذلك محالاً ، وكان عدهم إياهم كذلك من التباس الاستبعاد العادي بالمُحال ، مع الغفلة عن المقادير النادرة التي يقدرها الله تعالى ويقدر لها أسباباً ليست في الحسبان فتأتي على حسب ما جرى به قدره لا على حسب ما يقدره الناس ، وكان من حق العاقل أن يفرض الاحتمالات كلَّها وينظر فيها بالسَبْر والتقييم ، أنحى الله ذلك عليهم بأن أعقب إخباره عن انتفاء علمهم صدق وعد القرآن ، بأن وصف حالة علمهم كلَّها بأن قُصارى تفكيرهم منحصر في ظواهر الحياة الدنيا غير المحتاجة إلى النظر العقلي وهي المحسوسات والمجريات والأمارات ، ولا يعلمون بواطن الدلالات المحتاجة إلى إعمال الفكر والنظر .

والوجه أن تكون ﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ من الحياة الدنيا ﴾ تبعيضية ، أي يعلمون ظواهر ما في الدنيا ، أي ولا يعلمون دقائقها وهي العلوم الحقيقية وكلها حاصلة في الدنيا .

وبهذا الاعتبار كانت الدنيا مزرعة الآخرة .

والكلام يشعر بذم حالهم ، ومحطُّ الذم هو جملة ﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

فأما معرفة الحياة الدنيا فليست بمذمة لأن المؤمنين كانوا أيضاً يعلمون ظاهر الحياة الدنيا ، وإنما المذموم أن المشركين يعلمون ما هو ظاهر من أمور الدنيا ولا يعلمون أن وراء عالم المادة عالماً آخر هو عالم الغيب .

(121/601)

وقد اقتُصر في تجهيلهم بعالم الغيب على تجهيلهم بوجود الحياة الآخرة اقتصاراً بديعاً حصل به التخلص من غرض الوعد بنصر الروم إلى غرض أهم وهو إثبات البعث مع أنه يستلزم إثبات عالم الغيب ويكون مثالاً لجهلهم بعالم الغيب وذَمّاً لجهلهم به بأنه أوقعهم في ورطة إهمال رجاء الآخرة وإهمالِ الاستعداد لما يقتضيه ذلك الرجاء ، فذلك موقع قوله ﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ؛ فجملة ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ بدل من جملة ﴿ لا يعلمون ﴾ بدل اشتمال باعتبار ما بعد الجملة من قوله ﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ لأن علمهم يشتمل على معنى نفي علم بمغيبات الآخرة وإن كانوا يعلمون ظواهر الحياة الدنيا .

وجملة ﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ يجوز أن تجعلها عطفاً على جملة ﴿ يعلمون

ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ فحصل الإخبار عنهم بعلم أشياء وعدم العلم بأشياء ، ولك أن تجعل جملة ﴿ وهم عن الآخرة ﴾ الخ في موقع الحال ، والواو واو الحال .

وعُبر عن جهلهم الآخرة بالغَفلة كناية عن نهوض دلائل وجود الحياة الآخرة لو نظروا في الدلائل المقتضية وجود حياة آخرة فكان جهلهم بذلك شبيهاً بالغفلة لأنه بحيث ينكشف لو اهتموا بالنظر فاستعير له ﴿ غَافِلون استعارة تبعية .

وهُم ﴾ الأولى في موضع مبتدأ و ﴿ هم الثانية ضمير فصل .

والجملة الاسمية دالة على تمكنهم من الغفلة عن الآخرة وثباتهم في تلك الغفلة ، وضمير الفصل لإفادة الاختصاص بهم ، أي هم الغافلون عن الآخرة دون المؤمنين .

ومن البديع الجمع بين لا يَعْلَمون ﴾ و ﴿ يَعْلَمُون .

﴾ وفيه الطباق من حيث ما دلّ عليه اللفظان لا من جهة متعلقهما .

وقريب منه قوله تعالى ﴿ ولقَد عَلمُوا لمن اشتَرَاه ما لَهُ في الآخِرَة من خلاق ولبِئْسَ ما شَرَوْا به أنفُسَهُم لَو كَانُوا يَعْلَمون ﴾ [البقرة : 102] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(122/601)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) ﴾

قوله تعالى : وعد الله ، مصدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله قبله : ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : 3] إلى قوله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [الروم : 45] هو نفس الوعد كما لا يخفى ، أي وعد الله ذلك وعداً .

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أربعة أمور :

الأول : أنه لا يخلف وعده .

والثاني : أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون .

والثالث : أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .

والرابع : أنهم غافلون عن الآخرة . وهذه الأمور الأربعة جاءت موضحة في غير هذا الموضع .

أما الأول منها : وهو كونه لا يخلف وعده ، فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [الرعد : 31] وقد بين تعالى أن وعيده للكفار لا يخلف أيضاً في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ [ق : 2829] الآية .

والتحقيق : أن القول الذي لا يبدل لديه في هذه الآية الكريمة ، هو وعيده للكفار .

وكقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : 14] وقوله : ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : 14] ، فقوله : حق هاتين الآيتين . أي وجب وثبت ، فلا يمكن تخلفه بحال .

(123/601)

وأما الثاني منها : وهو أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعملون ، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة ، فقد بين تعالى أن أكثر الناس هم الكافرون كقوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود : 17] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ﴾ [الصافات : 71] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 8671031391581740ت190] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأرض يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : 116] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] إلى غير ذلك من الآيات .

(124/601)

وقد بين جل وعلا أيضاً في آيات من كتابه أن الكفار لا يعلمون كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 170] . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة : 104] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 171] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 44] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون ﴾ [الأعراف : 179] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير ﴾ [الملك : 10] إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الثالث منها : وهو كونهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، فقد جاء أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 38] : أي في الدنيا . وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن

سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾

[النجم : 2930] الآية .

(125/601)

وأما الرابع منها : وهو كونهم غافلين عن الآخرة فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ [المؤمنون : 3637] الآية . وقوله تعالى عنهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان : 35] ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : 29] و [المؤمنون : 37] ، ﴿ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] والآيات في ذلك كثيرة معلومة .

تنبيه

اعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا القرآن : أن يتدبر آية الروم تدبراً كثيراً ، ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس .

وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى ضعاف العقول من المسلمين شدة إتقان الإفرنج ، لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها ، واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك ، فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق ، وأن من عجز عنها

متخلف وليس على الحق ، وهذا جهل فاحش ، وغلط فادح . وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة وتخفيف لشأنها أنزله الله في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرلة ، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه ، وما أعظمه ، وما أحسن تعليمه .

فقد أوضح جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون ، ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولاً أولياً ، فقد نفى عنهم جل وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل ، لأنهم لا يعلمون شيئاً عمن خلقهم ، فأبرزهم من العدم إلى الوجود ، وزرقهم ، وسوف يميتهم ، ثم يحييهم ، ثم يجازيهم على أعمالهم ، ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم : ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم كما دلت عليه الآيات القرآنية المذكورة ، ثم لما نفى عنهم جل وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل أثبت لهم نوعاً من العلم في غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره .

(126/601)

وعاب ذلك النوع من العلم بعيبين عظيمين :

أحدهما : قلته وضيق مجاله ، لأنه لا يجاوز ظاهراً من الحياة الدنيا ، والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة ، وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات

والأرض جل وعلا ، والعلم بأوامره ونواهيه ، وبما يقرب عبده منه ، وما يبعده منه ، وما يخلد في النعيم الأبدي من أعمال الخير والشر .

والثاني منهما : هو دناءة هدف ذلك العلم ، وعدم نيل غايته ، لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا ، وهي سريعة الانقطاع والزوال ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً ﴾ أنه بدل من قوله قبله لا يعلمون ، فهذا العلم كلا علم لحقارته .

قال الزمخشري في الكشاف ، وقوله : يعلمون بدل من قوله : لا يعلمون ، وفي هذا الإبدال من النكته أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ، ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا .

وقوله : ﴿ ظَاهِرا مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ يفيد أن الدنيا ظاهراً وباطناً فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها ، والتنعيم بملاذها وباطنها ، وحقيتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة ، وفي تنكير الظاهر أنه ملا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها . وهم الثانية يجوز أن يكون مبتدأ ، وغافلون خبره ، والجملة خبر ، هم الأولى ، وأن يكون تكريراً للأولى ، وغافلون : خبر الأولى ، وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ، ومقرها ، ومحلها وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع . انتهى كلام صاحب الكشاف .

وقال غيره : وفي تنكير قوله : ظاهراً تقليل لمعلومهم ، وتقليله يقربه من النفي ، حتى يطابق المبدل منه . اه . ووجهه ظاهر .

(127/601)

واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية ، كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 78] وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقارتها بالنسبة إلى ما غفل عنه أصحابها الكفار ، إذا تعلمها المسلمون ، وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به ، على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم : كانت من أشرف العلوم وأنفعها ، لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته جل وعلا ، وإصلاح الدنيا والآخرة ، فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : 60] فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى وسعياً في مرضاته ، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة ، كما ترى الآيات بمثل ذلك كثيرة . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(128/601)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الم ﴾ [الروم : 1] سبق أن تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات السور ، ولا أريد إعادة ما قُلْته ، لكن أريد من العلماء أنْ يلتفتوا إلى هذه المسألة لفتة إشراقية تُرينا جميعاً ، وتكشف لنا الحكمة والأسرار في هذه الحروف .

وقلنا : إن هذه الحروف (الم) بنيت على الوقف ، كل حرف منها على حِدَة ، مع أن القرآن في مجملة مبني على الوصل في آياته وفي سوره ، فآخر حرف في السورة موصول بأول حرف في التي تليها – فهنا نقول : (وَإِنَّ اللهَ لَمعَ المحْسِنينَ بسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحيمِ . . .)

بل أعجب من هذا ، نجد أن آخر سورة الناس مبنيٌّ على الوصل بأول الفاتحة ، فنقول : (. . مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرَّحيم الْحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمين) .

فالقرآن إذن موصول ، لا انقطاعَ فيه . فلماذا بُنيت الحروف المقطعة في أوائل السور على الوقْف ، لماذا لا نقول : ألفٌ لامٌ ميمٌ ؟ قالوا : لأن الله تعالى لم يشأ أنْ يجعلها كلمة واحدة ، فجاءت على القطع ، ويؤنسنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف " فنريد وننتظر من يدركه الله ليكون من المحسنين ، ويدلُّنا على ما في هذه الحروف من سِرٍّ يُوقف عنده ، ولا يُوصل بغيره .

قال الحق سبحانه : ﴿ غُلِبَتِ . . . ﴾ .

كلمة ﴿ غُلِبَتِ . . . ﴾ [الروم :] تدل على وجود معركة غلب فريقٌ ، وغُلب فريق ، فالذي غُلب هنا الروم ، وكانوا أهل كتاب ومقرهم الشام وعراق العرب ، فالعراق منها قسم ناحية العرب ، وقسم ناحية فارس ، والروم نسبة إلى روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم .

فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3)

(129/601)

قوله ﴿ أَدْنَى . . . ﴾ [الروم : 3] يعني : أقرب لأرض العرب ، كما في ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدنيا وَهُم بالعدوة القصوى ﴾ [الأنفال : 42] فالعُدْوة الدنيا أي : القريبة من المدينة ، والقُصْوى البعيدة عنها . فالمعنى ﴿ فِي أَدْنَى الأرض . . . ﴾ [الروم : 3] أقرب أرض للجزيرة العربية .

وفي قوله سبحانه : ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : 3] بشرى للمسلمين ، فالفرس قوم كانوا يعبدون النار ، أما الروم فأهل كتاب ، إذن : فالخلاف بيننا وبين الفرس في القمة الإلهية ، أمَّا الخلاف بيننا وبين الروم ففي القمة الرسالية ، فَهُم أقرب إلينا ؛ لأنهم يؤمنون بإلهنا ، وإنْ كانوا لا يؤمنون برسولنا .

وهذا من عظمة الإسلام ، فالذي يؤمن بالإله أقرب إلى نفوسنا من الذي لا يؤمن بالإله ؛ لأنه على الأقل موصول بالسماء ؛ لذلك لما غُلِبت الروم فرح كفار قريش وحزن المؤمنون ، وفرح كفار قريش لأن في هزيمة الروم دليلاً على أن محمداً وأصحابه سينهزمون كأصحابهم .

وكلمة ﴿ غَلَبِهِمْ . . . ﴾ [الروم : 3] مصدر يُضاف للفاعل مرة ، ويُضاف للمفعول مرة أخرى ، تقول أعجبني ضَرْبُ الأمير مذنباً ، فأضفت المصدر للفاعل . وتقول : أعجبني ضَرْب المذنب فأضفتَ المصدر للمفعول ، وكذلك هنا ﴿ غَلَبِهِمْ . . . ﴾ [الروم : 3] مصدر أضيف إلى المفعول .

لكن لماذا قال سبحانه : ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : 3] وجاء بالسين الدالة على الاستقبال ، ثم قال بعدها ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : 4] وهي أيضاً دالة على الاستقبال ؟ قالوا : لأن الغلبة لا تأتي فجأة ، إنما لا بُدَّ لها من إعداد طويل وأَخْذ بأسباب النصر ، وتجهيز القوة اللازمة له ، فكأنهم في مدة البضع سنين يُعدون للنصر ، فكلما أعدوا عُدَّة أخذوا جزءاً من النصر ، فالنصر إذن لا يأتي في بضع سنين ، إنما من عمل دائم على مدى بضع سنين .

(130/601)

فهتلر مثلاً لما انهزم في الحرب العالمية ، وتألَّبتْ عليه كل الدول ، جاء في عام 1939 وهدد العالم كله بالحرب ، فهل سقطت عليه القوة التي يهدد بها فجأة ؟ لا ، بل ظل عدة سنوات يُعد العدة ويُجهِّز الجيش والأسلحة والطرق إلى أنْ توفرتْ له القوة التي يهدد بها .

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)

أثارت فرحة الكفار حفيظة المؤمنين ، إلى أنْ نزلت ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ . . . ﴾ [الروم : 3-4] ففرح المؤمنون حتى قال أبو بكر : والله لا يسرُّ الله هؤلاء ، وسينصر الروم على فارس بعد ثلاث سنين .

لأن كلمة بضع تعني من الثلاثة إلى العشرة ، فأخذها الصِّدِّيق على أدنى مدلولاتها ، لماذا ؟ لأنه الصِّديق ، والحق – سبحانه وتعالى – لا يُحمِّل المؤمنين مشقة الصبر مدة التسع سنين ، وهذه من الصديقية التي تميز بها أبو بكر رضي الله عنه .

" لذلك قال أبو بكر لأُبيِّ بن خلف : والله لا يقرّ الله عيونكم – يعني : بما فرحتم به من انتصار الكفار – وقد أخبرنا الله بذلك في مدة بضع سنين ، فقال أُبيٌّ : أتراهنني ؟ قال : أراهنك على كذا من القلائص – والقلوص هي الناقة التي تركب – في ثلاث سنين عشر قلائص إن انتصرت الروم ، وأعطيك مثلها إن انتصرت فارس .

فلما ذهب أبو بكر إلى رسول الله ، وأخبره بما كان قال : " يا أبا بكر زِدْه في الخطر ومادّه " ،

يعني زِدْ في عدد النوق من عشرة إلى مائة وزده في مدة من ثلاث سنين إلى تسع ، وفعلاً ذهب الصِّديق لأبيٍّ وعرض عليه الأمر ، فوافق في الرهان على مائة ناقة .

(131/601)

فلما اشتدّ الأذى من المشركين ، وخرج الصَّدّيق مهاجراً رآه أُبيُّ بن خلف فقال : إلى أين أبا فصيل ؟ وكانوا يغمزون الصِّدّيق بهذه الكلمة ، فبدل أن يقولوا : يا أبا بكر . والبَكْر هو الجمل القوي يقولون : يا أبا فصيل والفصيل هو الجمل الصغير – فقال الصِّديق : مهاجر ، فقال : وأين الرهان الذي بيننا ؟ فقال : إن كان لك يكفلني فيه ولدي عبد الرحمن ، فلما جاءت موقعة بدر رأى عبد الرحمن أُبياً فقال له : إلى أين ؟ فقال : إلى بدر ، فقال : وأين الرهان إنْ قتلْتَ ؟ فقال : يعطيك ولدي .

وفي بدر أصيب أُبيٌّ بجرح من رسول الله مات فيه ، وقدَّم ولده الجُعْل لعبد الرحمن ، فذهبوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " تصدقوا به " " .

وهنا وقفة إعجازية إيمانية عقدية : سبق أنْ تكلمنا عن الغيب وعن المشهد . وقلنا : إن الغيب أنواع : غيب له مقدمات تُوصِّل إليه ، كما تعطي التلميذ تمريناً هندسياً ، وكالأسرار الكونية التي يتوصَّل إليها العلماء ويكتشفونها من معطيات الكون ، كالذي

اكتشف الآلة البخارية ، وأرشميدس لما اكتشف قانون الأجسام الطافية . . إلخ ولا يقال لهؤلاء : إنهم علموا غيباً ، إنما أخذوا مقدمات موجودة واستنبطوا منها معدوماً .

أمّا الغيب المطلق فهو الذي ليس له مقدمات تُوصّل إليه ، فهو غيب عن كل الناس ، وفيه يقول تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . ﴾

[الجن : 26-27] .

ومن الغيب ما يغيب عنك ، لكن لا يغيب عن غيرك ، كالشيء الذي يُسرق منك ، فهو غيب عنك لأنك لا تعرف مكانه ، وليس غيباً عَمَّنْ سرقه منك .

وآفة الإنسان أنه لا يستغل المقدمات للبحث في أسرار الكون ليرتقي في الكونيات ، إنما يستغلها لمعرفة غيب الآخرين ، ونقول له : إن كنت تريد أن تعلم غيب الآخرين ، فاسمح لهم أنْ يعلموا غيبك وأعتقد أن أحداً لا يرضى ذلك .

(132/601)

إذن : سَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ؛ لأنه سبحانه رب الناس جميعاً ، ويريد سبحانه أن ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ في إنسان سيئة واحدة تزهدك في كل

حسناته ، وتجعلك تكرهه ، وتكره كل حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غَيْب الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنا ، إما بحجاب الزمن الماضي ، أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضي قبل أنْ تُولد إلى أنْ يأتي مَنْ تثق به ، فيخبرك بما حدث في الماضي ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث في المستقبل ، أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد في مكان آخر غير مكانك ، وقد يكون الشيء في مكانك ، لكن له مكين فلا تطلع عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ . . . ﴾ [المجادلة : 8] .

فمَنِ الذي أخبر رسول الله بما في نفوسهم ؟ لقد خرق الله له حجاب المكان ، وأخبره بما يدور في نفوس القوم ، وأخبرهم رسول الله به ، أَمَا كان هذا كافياً لأن يؤمنوا بالله الذي أخرج مكنون صدورهم ؟ إذن : المسألة عندهم عناد ولجاجة وإنكار .

وكذلك ما كان من رسول الله في غزوة مؤتة التي دارتْ على أرض الأردن ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة – ونعلم أن أهل السيرة لا يطلقون اسم الغزوة إلا على التي حضرها رسول الله ، وكل حدث حربي لم يحضره رسول الله نسميه سرية إلا مؤتة هي التي انفردتْ بهذه التسمية ، فلماذا مع أن رسول الله لم يشهدها ؟

قالوا : بل شهدها رسول الله وهو بالمدينة ، بما كشف الله له من حجاب المكان وأطلعه على ما يدور هناك حتى كان يخبر صحابته بما يدور في الحرب كأنه يراها ، فيقول : أخذ الراية فلأن فقُتِل ، فأخذها فلان فقُتِل ، فلما جاءهم الخبر وجدوا الأمر كما أخبر به سيدنا رسول الله .

(133/601)

كما خَرق له حجاب الماضي ، فأخبره بحوادث في الأمم السابقة كما في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَا إِلى مُوسَى الأمر . . . ﴾ [القصص : 44] ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . . ﴾ [القصص : 45] .

كما خرق له صلى الله عليه وسلم حجاب المستقبل ، كما في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها : ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ . . . ﴾ [الروم : 3-4] فأروني أيّ قوة (كمبيوتر) في الدنيا تُنبئنا بنتيجة معركة ستحدث بعد ثلاث إلى تسع سنين .

فمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبي الأمي المقيم في جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوة الروم أو قوة الفرس - يخبرنا بهذه النتيجة ؛ لأن الذي يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون

هو الذي أخبره ، وكون محمد صلى الله عليه وسلم يعلنها ويتحدَّى بها في قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة دليل على تصديقه بمنطق الله له ، وأنه واثق من حدوث ما أخبر به .

ولهذه الثقة سُمِّي الصِّديق صدِّيقاً ، فحين أخبروه بمقالة رسول الله عن الإسراء ما كان منه إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بهذه النتيجة ، ويراهن المشركين عليها ، ويتمسك بها ، وما ذاك إلا لثقته في صدق هذا البلاغ ، وأنه لا يمكن أبداً أنْ يتخلف .

وقوله تعالى ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ . . . ﴾ [الروم : 4] يعني : إياكم أنْ تفهموا أن انتصار الفرس على الروم أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله ، فلله الأمر من قبل الغلب ، ولله الأمر من بعد الغلب .

فحين غَلبت الروم لله الأمر ، وحين انتصرت الفرس لله الأمر ؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يُغلِّب أصحاب الشر ، ويُحرِّك حميتهم ويُوقظ بأعدائهم مشاعرهم ، ويُنبِّههم إلى أن الأعداء لا ينبغي أن يكونوا أحسن منهم .

(134/601)

إذن : فنصر المكروه لله على المحبوب لله جاء بتوقيت من الله ؛ لذلك إياك أن تحزن حين تجد لك عدواً ، فالأحمق هو الذي يحزن لذلك ، والعاقل هو الذي يرى لعدوه فَضْلاً عليه ، فالعدو يُذكِّرني دائماً بأن أكون قوياً مستعداً ، يُذكِّرني بأن أكون مستقيماً حتى لا يجد مني فرصة أو نقيصة . العدو يجعلك تُجنِّد كل ملكاتك للخير لتكون أفضل منه ؛ لذلك يقول الشاعر :

عداي لَهُمْ فَضْلٌ عليَّ ومِنَّةٌ . . . فَعِنْدي لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا

فَهُمْ كدَواءٍ والشِّفاء بمُرِّه . . . فَلا أَبْعَد الرحمنُ عنِّي الأعَادِيَا

وهُم بحثُوا عَنْ زلَّتي فَاجْتنبتُها . . . وهُمْ نافسُوني فاكتسبْتُ المعَاليَا

إذن : لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الحكمة في أنْ ينتصر الباطل ، أَلَا ترى غزوة أحد ، وكيف هُزِم المسلمون لما خالفوا أمر رسول الله وتركوا مواقعهم طمعاً في مغنم ، انهزموا في أول الأمر ، مع أن رسول الله معهم ؛ لأن سنة الله في كونه تقضي بالهزيمة حين نخالف أمر رسول الله ، وكيف يكون الحال لو انتصر المسلمون مع مخالفتهم لأمر رسولهم ؟ لو انتصروا الفقد أمر الرسول مصداقيته ، ولما أطاعوا له أمراً بعد ذلك .

وفي يوم حنين : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 25] حتى إن أبا بكر نفسه ليقول : لن نُغلب اليوم عن قِلّة ، فلما نظروا إلى قوتهم ونسُوا تأييد الله هُزِموا في بداية الأمر ، ثم يحنّ الله عليهم ، وتتداركهم رحمته تعالى ، فينصرهم في النهاية .

إذن : فلله الأمر من قبل ومن بعد ، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصْباً عن إرادة الله ، أو خارجاً عن مراده ، إنما أراده الله وقصده لحكمة .

(135/601)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . . ﴾ [الروم : 4-5] أيّ نصر الذي يفرح به المؤمنون ؟ أيفرحون لانتصار الروم على الفرس ؟ قالوا : بل الفرح هنا دوائر متشابكة ومتعالية ، فهم أولاً يفرحون لانتصار أهل دين وأهل كتاب على كفار وملاحدة ، ويفرحون أن بشرى رسول الله تحققتْ ، ويفرحون لأنهم آمنوا برسول الله ، وصدّقوه قبل أن ينطق بهذه البشرى .

إنهم يفرحون لأنهم أصابوا الحق ، فكلما جاءت آية فرح كل منهم بنفسه ؛ لأنه كان محقاً حينما آمن بالإله الواحد الذي يعلم الأمور على وفق ما ستكون واتبع رسوله صلى الله عليه وسلم . إذن : لا تقصر هذه الفرحة على شيء واحد ، إنما عَدّها إلى أمور كثيرة متداخلة .

كما أن اليوم الذي انتصر فيه الروم صادف اليوم الذي انتصر فيه المسلمون في بدر .

وقوله تعالى ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ . . . ﴾ [الروم : 5] الفرس أو الروم ، ما دام أن له الأمر

من قبل ومن بعد ﴿ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ [الروم : 5] الحق سبحانه وصف نفسه بهاتين الصفتين : العزيز الرحيم ، مع أن العزيز هو الذي يغلب ولا يُغْلب ، فقاهريته سبحانه عالية في هذه الصفة – ومع ذلك أتبعها بصفة الرحمة ليُحِدث في نفس المؤمن هذا التوازن بين صفتي القهر والغلبة وبين صفة الرحمة .

كما أننا نفهم من صفة العزة هنا أنه لا يحدث شيء إلا بمراده تعالى ، فحين ينتصر طرف وينهزم طرف آخر حتى لو انتصر الباطل لا يتم ذلك إلا لمراده تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يُبقي الباطل ولا يُعلي الكفر إلا ليظهر الحق ، فحين يُعَضُّ الناس بالباطل ، ويشقَوْن بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسكون به .

(136/601)

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا . . . ﴾ [التوبة : 40] ولم يقل : وجعل كلمة الله هي العليا ؛ لأنها ليستْ جَعْلاً لأن الجَعْل تحويل شيء إلى شيء ، أما كلمة الله فهي العليا بداية ودائماً ، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله . . . ﴾ .

الوعد : هو الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يكون ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ . . . ﴾ [الروم : 6]

وفرْقٌ بين وعد الله ووعد الناس ؛ لأنك قد تعد إنساناً بخير ، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به ، كأن يتغير رأيك أو تضعف إمكاناتك ، أو يتغير السبب الذي كنت ستفعل من أجله .

إذن : أنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه ، أمّا وعد الحق سبحانه وتعالى فوعد محقق ، حيث لا توجد قوة تُخرجه عما وعد ، وهو سبحانه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فما دام الوعد وعدَ الله فثِقْ أنه محقق .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . ﴾ [الكهف : 23-24] والمعنى : اجعل لنفسك مَخرجاً من الكذب إنْ حالت الأسباب بينك وبين ما وعدتَ به ، بأن تجعل أمرك تحت مشيئة ربك ، لا مشيئتك ، لأنك لا تملك من عناصر إتمام الفعل شيئاً .

إذن : أدرِكْ نفسك ، وقُلْ إنْ شاء الله ، حتى إذا حالتْ الأسباب بينك وبين ما أردتَ قلت : شِئْت ، ولكن الله تعالى لم يشأ .

والله تعالى لا يُخلِف وعده ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون ، ولا توجد قوة تُحوِّله عن مراده ، وليس له شريك يراجعه ، أو يُخرِجه عن مراده .

وإنْ شئت فاقرأ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *

سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الحطب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : 1-5] .

(137/601)

ألم يكُنْ من الممكن وقتها أنْ يُسلِم أبو لهب كما أسلم حمزة وعمر وخالد وعكرمة وغيرهم ؟ أليست له حرية الاختيار كهؤلاء ؟ بل ألم يسمع هذه السورة ؟ ومع هذا كله كفر وأصرَّ على كفره ، ولم ينطق بكلمة الإيمان ، ولو حتى للكيد لرسول الله فيقول في نادي قريش ولو نفاقاً : قال محمد كذا وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أليس هذا دليلاً على غبائه ؟

إذن : ما دام أن القرآن أخبر فلا بُدَّ أن يتم الأمر على وَفْق ما أخبر به .

ونلحظ هنا أن كلمة الوعد تعني البشارة بالخير القادم في المستقبل والكلام هنا عن فريقين : فريق منتصر يفرح بالنصر ، وفريق منهزم يحزن للهزيمة ، فكيف يستقيم الوعد في حَقِّه ؟ فالفرح للمؤمن غَمٌّ لغير المؤمن .

ولتوضيح هذه المسألة نذكر أن المستشرقين وقفوا عند قوله تعالى من سورة الرحمن : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار * وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 14-16]

وقالوا : هذا الكلام معقول بالخلق من نعم الله ، لكن ماذا عن قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 35-36] فأيُّ نعمة في النار وفي الشواظ ؟

وفات هؤلاء أنه من النعمة أن ننبهك إلى الخطر قبل أنْ تقع فيه ، ونحذرك من عاقبة الكفر لتنتهي عنه كالوالد الذي يقول لولده : إنْ أهملتَ دروسك ستفشل ، وساعتها سأفعل بك كذا وكذا .

إذن : فذِكْر النار والعذاب نعمة لكل من خالف منهج الحق ، فلعله حين يسمع الإنذار يعود ويرعوي .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 6] نفى عنهم العلم أي : ببواطن الأمور وحقيقتها .

ثم أخبر عنهم : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة . . . ﴾ .

(138/601)

إذا رأيت فعلاً نُفِي مرة ، وأُثبت مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة منفكة ، فهم لا يعلمون بواطن الأمور ، إنما يعلمون ظواهرها ، وليتهم يعلمون ظواهر كل شيء ، إنما ظواهر الدنيا فحسب ، ولا يعلمون بواطنها ، فما بالك بالآخرة ؟

حين تتأمل أمور الدنيا والقوانين الوضعية التي وضعها البشر ، ثم رجعوا عنها بعد حين ، تجد أننا لا نعلم من الدنيا إلا الظاهر ، فمثلاً قانون الإصلاح الزراعي الذي نعمل به منذ عام 1952 ، وكنا مُتحمّسين له نُمجّده ولا نسمح بالمساس به يناقشونه اليوم ، ويطلبون إعادة النظر فيه ، بل إلغاءه ؛ لأنه لم يَعُدْ صالحاً للتطبيق في هذا العصر ، روسيا التي تبنتْ النظام الشيوعي ودافعتْ عنه بكل قوة هي التي نقضتْ هذا النظام وأسقطته .

ما أسقطته أمريكا مثلاً ، ولو أسقطته أمريكا لانتقلت إليها قوة الشيوعية وغطرستها ؛ لذلك يقولون : ما اندحرت الشيوعية إنما انتحرت على أيدي أصحابها . ومن الممكن أن ينتحر هؤلاء كما انتحرتْ نُظمهم فأَوْلَى بهم أنْ يستقيموا لله ، وأن يُخلِصوا للناس .

إذن : لا نعرف من الدنيا إلا ظواهر الأشياء ، ولا نعرف حقيقتها ، كما نشقى الآن بسبب المبيدات الحشرية التي ظننا أنها ستُريحنا وتُوفر علينا الجهد والوقت في المقاومة اليدوية ؟ كم يشقى العالم اليوم من استخدام السيارات مثلاً من تلوث في البيئة وقتْل للأرواح كل يوم ، ولك أن تقارن بين وسائل المواصلات في الماضي ووسائل المواصلات اليوم ، فإن كان للوسائل الحديثة نفع عاجل ، فلها ضرر آجل ، ويكفي أن عادم المخلوق لله يصلح الأرض ،

وعادم المخلوق للبشر يفسدها ، لماذا ؟ لأننا نعلم ظواهر الأشياء . ولو علم الذي اكتشف السولار مثلاً حقيقته لما استخدمه فيما نستخدمه نحن فيه الآن .

(139/601)

هذا عن عِلْمنا بأمور الدنيا ، أمّا الآخرة فنحن في غفلة عنها ؛ لذلك يقول سيدنا الحسن : أعجب للرجل يمسك الدينار بأنامله فيعرف وزنه ، و (يرنه) فيعرف زيوفه من جيده ، ولا يحسن الصلاة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى . . . ﴾ [الأنفال : 17] فنفى الرمي ، وأثبته في آية واحدة ؛ لأن الجهة منفكة ، فالإثبات لشيء ، والنفي لشيء آخر . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي تجبره على المذاكرة فيفتح الكتاب ويُقلِّب صفحاته ويهزّ رأسه ، كأنه يقرأ ، فإذا ما أخبرته فيما قرأ تجده لم يفهم شيئاً ، فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ؛ لأنه فعل فِعْل المذاكرة ، ومع ذلك هو في الحقيقة لم يذاكر ؛ لأنه لم يُحصِّل شَيئاً مما ذاكره .

كذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى حين أخذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جيش الكفار ، لكن ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ . . . ﴾ [الأنفال : 17] هذه الحفنة ؛

لأن قدرتك البشرية لا توصل هذه الرمية إلى كل الجيش ، فهذه إذن قدرة الله .

ونلحظ في قوله تعالى :

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 6] أنه استثنى من عدم العلم فئة قليلة ، فلماذا استثنى هذه الفئة مع أننا نُغيِّر الدنيوية والقوانين على الجميع ؟ قالوا : لأنه حين وُضِعت هذه القوانين وشُرِّعت هذه النظم كانت هناك فئة ترفضها ولا تقرها ، لذلك لم يتهم الكل بعدم العلم .

والظاهر الذي يعلمونه من الحياة الدنيا فيه مُتَع وملاذ وشهوات ، البعض يعطي لنفسه فيها الحرية المطلقة ، وينسي عاقبة ذلك في الآخرة ، لذلك فإن أهل الريف يقولون فيمن لا يحسب حساباً للعواقب : (الديب بلع منجل ، فيقول الآخر : ساعة خراه تسمع عواه) .

(140/601)

واقرأ قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب ﴾ [آل عمران : 14] .

فذكر الناس متاع الحياة الدنيا ونسُوا الباقيات الصالحات في الآخرة ، والعاقل هو الذي

يستطيع أنْ يُوازن بينهما ، وسبق أنْ قُلْنا عن الدنيا بالنسبة لك : هي مدة بلقائك فيها ، هي عمرك أنت لا عمر الدنيا كلها ، كما أن عمرك فيها محدود مظنون لا بُدَّ أن ينتهي بالموت .

أما الآخرة فدار باقية دائمة ، دار نعيم لا ينتهي ، ولا يفوتك بحال ، فلماذا تشغلك الفانية عن الباقية ؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة ؟

لذلك لما سُئِل الإمام علي : أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال : لم يدع الله الجواب لي ، إنما الجواب عندك أنت ، فإنْ دخل عليك اثنان : واحد جاء بهدية ، والآخر جاء يسألك عطية ، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطية فأنت من أهل الآخرة .

لماذا ؟ لأن الإنسان يحب مَنْ يُعمِّر ما يحب ، فإنْ كنتَ تحب الآخرة فإنك تحب الدنيا فإنك تحب مَنْ يعمرها لك ؛ لذلك كان أحد الصالحين إنْ جاءه سائل يطرق بابه يهشُّ في وجهه ، ويَبَشُّ ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة .

لكن ، لماذا أعاد الضمير في ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : 7] لماذا لم يقل : وهم عن الآخرة غافلون ؟

لو قال الحق سبحانه وهم عن الآخرة غافلون لَفُهم أن الغفلة مسيطرة عليهم ، وليست هناك أدلة تُوقِظهم ، إنما ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : 7] يعني : الغفلة واقعة

منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(141/601)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ فِي أَدْنَى الأرض ﴾ : زعم بعضُهم أنَّ أل عِوَضٌ من الضميرِ ، وأنَّ الأصلَ " في أَدْنى أَرْضِهم " وهو قولٌ كوفيٌّ . وهذا على قولِ : إن الهَرَب كان مِنْ جهة بلادِهم . وأمَّا مَنْ يقول : إنه من جهةِ بلادِ العَرَبِ فلا يَتأَتَّى ذلك . وقرأ العامَّةُ " غُلِبَتْ " مبنياً للمفعول . وعلي بن أبي طالب وأبو سعيد الخُدْري وابن عمر وأهل الشام ببنائِه للفاعلِ .

قوله : " غَلَبِهم " على القراءةِ الشهيرةِ يكون المصدرُ مضافاً لمفعولِه . ثم هذا المفعولُ : إمَّا أَنْ يكونَ مرفوعَ المحلِّ على أن المصدرَ المضافَ إليه مأخوذٌ مِنْ مبنيّ للمفعولِ على خلافٍ في ذلك ، وإمَّا منصوبَ المحلِّ على أنَّ المصدرَ مِنْ مبني للفاعل ، والفاعلُ محذوفٌ تقديره : مِن بعد أَنْ غَلَبَهم عدوُّهم ، وهم فارس . وأمَّا على القراءةِ الثانيةِ فهو مضافٌ لفاعِله .

قوله : " سَيَغْلِبون " خبرُ المبتدأ . و ﴿ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ متعلقٌ به . والعامَّةُ – بل نقل بعضُهم الإجماعَ – على " سَيُغْلَبون " مبنياً للفاعل . فعلى الشهيرةِ واضحٌ أي : مِنْ بعدِ أن غَلَبَتْهُمْ فارسُ سيَغْلِبون فارسَ . وأمَّا على القراءةِ الثانيةِ فأخبرَ أنهم سيَغْلبون ثانياً بعد أن غَلَبوا أولاً . ورُوِي عن ابنِ عمرَ أنه قرأ ببنائه للمفعول . وهذا مخالِفٌ لِما وَرَدَ في سبب الآية وما وَرَدَ في الأحاديث . وقد يُلائم هذا بعضَ ملاءَمَةٍ مَنْ قرأ " غَلَبَتْ " مبنياً للفاعلِ . وقد تقدَّم أن ابن عمرَ مِمَّن يقرأُ بذلك . وقد خَرَّج النحاسُ قراءةَ عبدِ الله بن عمرَ على تخريجٍ حَسَنٍ ، وهو أن المعنى : وفارسُ مِنْ بعدِ غَلَبِهم للرومِ سيُغْلَبون . إلاَّ أنَّ فيه إضمارَ ما لم يُذْكَرْ ، ولا جَرى سببُ ذِكْرِه .

(142/601)

قوله : ﴿ فِي بِضْعِ ﴾ : متعلِّقٌ بما قبلَه . وتقدَّم تفسيرُ البِضْع واشتقاقُه في يوسف . وقال الفراء : " الأصلُ في " غَلَبِهم " : غَلَبَتِهم بتاءِ التأنيثِ فَحُذِفت للإضافة كـ " وإقامَ الصلاةِ " . وغَلَّطه النحاسُ : بأنَّ إقامَ الصلاةِ قد يُقال فيه ذلك لاعتلالِها ، وأمَّا هنا فلا ضرورةَ تَدْعو إليه .

وقرأ ابنُ السَّمَيْفَع وأبو حيوة " غَلْبِهم " بسكونِ اللام ، فَتَحْتمل أَنْ تكونَ تخفيفاً شاذاً ، وأن

تكونَ لغةً في المفتوحِ كالظَّعْن والظَّعَن .

قوله : ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ العامَّةُ على بنائِهما ضمًّا لقَطْعِهما عن الإضافة . وأراد بها أي : مِنْ قبل الغَلَبِ ومِنْ بعدِه . أو من قَبْلِ كل أمرٍ ومِنْ بعده . وحكى الفراء كَسْرهما مِنْ غير تنوين . وغَلَّطه النحاسُ ، وقال : " إنما يجوز مِنْ قبلٍ ومِنْ بعدٍ / يعني مكسوراً منوناً " .

قلت : وقد قُرِئ بذلك . ووجهُه أنه لم يَنْوِ إضافتَهما فأَعْرَبهما كقوله :

3642 فساغَ لي الشَّرابُ وكنتُ قَبْلاً . . . أَكاد أَغَصُّ بالماءِ القَراحِ

[وقوله :]

3643 ونحنُ قَتَلْنا الأُسْدَ أُسْدَ خَفِيَّةٍ . . . فما شَرِبُوا بَعْداً على لَذَّةٍ خَمْرا

وحُكي " مِنْ قبلِ " بالتنوينِ والجرِّ ، " ومِنْ بعدُ " بالبناءِ على الضم .

وقد خَرَّج بعضُهم ما حكاه الفراء على أنه قَدَّر أنَّ المضافَ إليه موجودٌ فتُرِكَ الأولُ بحالِه .

وأنشد :

3644 . . . . . بين ذراعَيْ وَجبْهةِ الأَسَدِ

والفرقُ لائحٌ ؛ فإنَّ في اللفظ مِثْلَ المحذوفِ ، على خلافٍ في تقديرِ البيت أيضاً .

قوله : " ويومَئذٍ " أي : إذ يغلِبُ الرومُ فارسَ . والناصب ل " يومَ " " يفرحُ " .

وقوله : ﴿ بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ ﴾ : مِن التجنيس . وتَقَدَّم آخرَ الكهف .

قوله : " بِنَصْرِ الله " الظاهرُ تعلُّقُه ب "يَفْرَح" . وجَوَّز فيه أَنْ يتعلَّقَ ب "يَنْصُرُ" أبو البقاء . وهذا تفكيكٌ للنَّظْمِ .

قوله : ﴿ وَعْدَ الله ﴾ : مصدرٌ مؤكدٌ ناصبُه مضمرٌ أي : وَعَدَهم اللَّهُ ذلك وَعْداً . وقوله ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ﴾ مقرِّرٌ لمعنى هذا المصدرِ . ويجوز أَنْ يكونَ حالاً من المصدر ، فيكونَ كالمصدرِ الموصوف فهو مبيِّنٌ للنوعِ كأنه قيل : وَعَد اللَّهُ وَعْداً غيرَ مُخْلِفٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 29 ـ 33 ﴾

(144/601)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم الله اسم عزيز شفيع المذنبين جوده ، بلاء المتهمين قصوده ، ضياء الموحدين عهوده ، وسلوة المحزونين ذكره ، وجزفة الممتحنين شكره .

اسم عزيز رداؤه كبرياؤه ، وجبار سناؤه ، بهاؤه علاؤه .

العابدون حسبهم عطاؤه ، والواجدون حسبهم بقاؤه .

﴿ الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾

الإشارة فى " الألف " إلى أنه أَلِفَ صُحْبتَنَا مَنْ عَرف عظمتنا . وأنّه أَلف بلاءنا مَنْ عَرَفَ كبرياءنا .

والإشارة فى " اللام " إلى أنه لزمَ بابنا مَنْ ذاق محابّنا ، ولزمَ بساطنَا مَنْ شهد جمالنَا .

والإشارة فى " الميم " إلى أَنه مُكِّنَ منْ قُرْبنَا مَنْ قام على خدمتنا ، ومات على وفائنا مَنْ تحقق بولائنا .

قوله ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ : سُرَّ المسلمون بظفر الروم على العجم ـ وإن كان الكفر يجمعهم ـ إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء ، فشكر الله لهم ، وأنزل فيهم الأية . . فكيف بمن يكون سروره لدين الله ، وحُزنُه واهتمامه لدين الله ؟ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ قَبْلُ ﴾ إذا أُطْلق انتظم الأزل ، " وبَعْدُ " إذا أطلق دلّ على الأبد ؛ فالمعنى الأمر الأزلىُّ لله ، والأمر الأبدىُّ للّهِ لأنَّ الرَّبَّ الأزلىّ والسَّيِّدَ الأبدىّ اللَّهُ .

لله الأمرُ يومَ العرفان ، ولله الأمرُ يومَ الغفران .

لله الأمرُ حين القسمة ولا حين ، ولله الأمرُ عند النعمة وليس أى معين .

ويقال : لى الأمرُ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وقد علمتُ ما تفعلون ، فلا يمنعنى أحدٌ من تحقيق عرفانكم ، ولي الأمر ﴿ مِّن بَعْدِ ﴾ وقد رأيتُ ما فعلتم ، فلا يمنعنى أحدٌ من غفرانكم .

وقيل : ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ ﴾ بتحقيق ودِّكم ، والله الامر من بعد بحفظ عهدكم :

إني ـ على جفواتها ـ وبرِّها . . . وبكلِّ مُتصل بها مُتوسلِ

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ :

اليومَ إرجافُ السرور وإنما . . . يومَ اللِّقاء حقيقةُ الإرجاف

(145/601)

اليومَ ترحٌ وغداً فرح ، اليوم عَبرة وغداً حَبرة ، اليوم أسف وغداً لطف ، اليوم بكاء وغداً لقاء .

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6)

الكريمُ لا يُخلفُ وعده لا سيما والصدقُ نعته .

يقول المؤمنون : مِنا يومَ الميثاق وعدٌ بالطاعة ، ومنه ذلك اليومَ وعدٌ بالجنة ، فإن وَقع فى وعدنا تقصيرٌ لا يقع فى وعده قُصورٌ .

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

استغراقُهم فى الاشتغال بالدنيا ، وانهماكهم فى تعليق القلب بها . . مَنَعَهم عن العلم بالآخرة . وقيمةُ كلِّ امرىءٍ عِلمه بالله ؛ ففى الأثر عن عليّ ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : أهل الدنيا عَلَى غفلةٍ من الآخرة ، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها فى غفلة عن الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 107 . 109 ﴾

(146/601)

من الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

فى قوله تعالى ﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض ﴾

بقلم : د . زغلول النجار

هذه الآيات القرآنية الكريمة جاءت في مطلع سورة الروم , وهي سورة مكية يدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة , شأنها في ذلك شأن كل القرآن المكي .

ومن قضايا العقيدة الأساسية الإيمان بوحدانية الخالق * سبحانه وتعالي *, وبوحدة الرسالة , ووحدة الخلق , والإيمان بالآخرة وأهوالها , ومنها هول البعث , وهول الحساب , وهول الميزان , وهول الصراط , وحتمية الجزاء , وحتمية الخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبدا أو في النار أبدا . . . ! !

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ بحدث غيبي قبل وقوعه بعدة سنوات ألا وهو انتصار الروم علي الفرس بعد هزيمتهم أمامهم قبل نزول هذه السورة المباركة بعدة سنوات . وتزخر السورة بالأمر بتسبيح الله , وتنزيهه وحمده , وبالاستشهاد بعدد كبير من الآيات الكونية الدالة علي طلاقة قدرته وشمول علمه , وعدل قضائه . . . ! ! وتنصح السورة النبي والرسول الخاتم * صلي الله عليه وسلم * بأن يقيم وجهه لدين الإسلام الحنيف , الذي لا يرتضي ربنا * تبارك وتعالي * من عباده دينا سواه , لأنه دين الفطرة التي فطر الله * تعالي * الناس عليها , والتي لا تبديل لها , وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك , وتأمر المسلمين بالإنابة إلي الله وتقواه , كما تأمرهم بإقام الصلاة , وبالحذر من الوقوع في دنس الشرك بالله , لأن الذين أشركوا قد فرقوا دينهم , وكانوا شيعا عديدة حسب أهوائهم , وكل حزب منهم فرح بما لديه . . . ! ! !

(147/601)

وتحدثت السورة الكريمة عن شيء من التقلب في طبائع النفس البشرية , والذي لا تستقيم معه الحياة السوية , مثل اللجوء إلي الله تعالي في الشدة , والإعراض عنه في الرخاء , والإيمان به * تعالي * في لحظات الضيق , والشرك أو الكفر به * تعالي * وبما أنزل في لحظات

السعة والرحمة , وتضرب السورة مثلا للناس من حياتهم علي سخافة فكرة الشرك بالله إذا ناقشها العقل بشيء من الموضوعية والحيدة . ومن مكارم الأخلاق التي تدعو إليها السورة الكريمة : الأمر بإخراج الزكاة وإيتاء ذي القربى , والمساكين وأبناء السبيل , والنهي عن أكل الربا , علي أن ينطلق ذلك كله من الإيمان بأن الله * تعالي * هو الخالق , الرزاق , المحيي , المميت , وتربط السورة بين ظهور الفساد في البر والبحر وبين أعمال الناس وما كسبت أيديهم , وتأمر بالسير في الأرض لاستخلاص العبر من سير الأولين , ومصائر الظالمين .

وتؤكد السورة مرة ثانية لخاتم الأنبياء والمرسلين * صلي الله عليه وسلم * ضرورة الاستقامة علي الدين القيم من قبل أن تأتي الآخرة فيصدع بها كل الخلائق ثم يجزي كل بعمله . ومن الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة الروم علي طلاقة القدرة الإلهية : خلق السماوات والأرض , وخلق الأحياء , وخلق الإنسان , كل ذلك في زوجية تشهد للخالق وحده * سبحانه * بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه , ومنها اختلاف ألسنة الناس وألوانهم , وإعطاء الإنسان الاستطاعة علي النوم بالليل أو في النهار , وعلي ابتغاء فضل الله , ومن آياته الرعد والبرق , وإنزال المطر , وإحياء الأرض بعد موتها , وقيام السماوات والأرض بأمره , وخضوع كل من فيها أو عليها بأمره , وبعث الموتى بأمره , وأنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده , وله المثل الأعلى في السماوات والأرض .

ومن آياته إرسال الرياح برحمة منه وفضل , وجري الفلك بأمره , وإثارة السحاب , وما يستتبعه من أحداث بأمره , ومرور كل حي بمراحل من الضعف , ثم القوة , ثم الضعف والوفاة , ومن آياته أنه يحيي الموتى وأنه علي كل شيء قدير . . . ! ! وتذكر السورة خاتم الأنبياء والمرسلين * صلي الله عليه وسلم * بشيء من قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين , وما أصاب أقوامهم من انتقام من الظالمين , ونصر للمؤمنين , كما تذكره * صلوات الله وسلامه عليه * بأن ما عليه إلا البلاغ .

وتختتم السورة الكريمة مرة أخري بالحديث عن البعث وأهواله , وعن مصير أهل الكفر والشرك والضلال في هذا اليوم العصيب , ومصير أهل الإيمان والتقوى , وتكرر الإشارة إلي شيء من طبائع النفس البشرية , وقد ضربت لها آيات القرآن الكريم من كل مثل , ولكن الذين كفروا لا يؤمنون , فالله * تعالي * قد طبع علي قلوب الذين لا يعلمون . وتنتهي السورة بتثبيت خاتم الأنبياء والمرسلين * صلي الله عليه وسلم * بوصية من الله * تعالي * له بالصبر علي استخفاف الكفار والمشركين بدعوته , والاطمئنان بأن وعد الله حق , وهو واقع لا محالة . . . ! !

والآيات الكونية الواردة في سورة الروم تحتاج إلي مجلدات لتفصيل دلالاتها , ولإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها , ولكني سأقتصر في هذا المقال علي الإشارة القرآنية إلي الموقع الذي هزمت فيه جيوش الروم علي أيدي جيوش الفرس بالتعبير : أدني الأرض , وقبل الدخول في ذلك لابد من عرض الدلالة اللغوية لهذا التعبير ولأقوال المفسرين فيه .

أدني الأرض في اللغة العربية:

(149/601)

يقال في اللغة :* دنا ** يدنو ** دنوا * بمعني قرب بالذات أو بالحكم , ويستعمل في المكان , والزمان , والمنزلة , كما يعدي فيقال * أدني ** يدني ** أدناءة *, ويقال :* دانيت * أو * أدنيت * بين الأمرين أي قاربت بينهما , حتي صارت بينهما * دناوة * أي : قرب أو قرابة . . و * الدني * القريب , و * الدنئ * بمعني الدون , الخسيس , وقد * دنأ ** يدنأ *, وفيهما * دناءة *, ويقال :* دنؤ * بمعني انحط , و * الدنيئة * هي النقيصة . قال * تعالي *: . . . . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . . . [الأنعام :99] .

وقال * سبحانه *: ثم دنا فتدلي . فكان قاب قوسين أو أدني . [النجم :9,8] . وفي

الحديث الشريف : إذا أكلتم فادنوا أي كلوا مما يليكم . ويعبر بـ * الأدني * تارة عن الأقرب فيقابل بالأبعد * أو الأقصي * من مثل قوله * تعالي *: إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوي . . . . [الأنفال :42] .

وتارة ثانية يعبر بها عن الأخفض * أو الأحقر * فيقابل بالأعلي * أو الأعز * وذلك من مثل قوله * تعالي *: . . . . . يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدني أن يعرفن فلا يؤذين . . . . * الأحزاب :59* .

وتارة ثالثة تأتي بمعني الأقل في مقابل الأكثر , من مثل قوله * تعالي *: . . . . ولا أدني من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم . . . [المجادلة :7] وتارة رابعة يعبر بها عن الأرذل فيقابل بالذي هو خير , وذلك من مثل قوله * تعالي *: . . . . قال أتستبدلون الذي هو أدني بالذي هو خير . . . * البقرة :61*

وتارة خامسة يعبر بها عن الأولي * الدنيا * في مقابلة الآخرة وذلك من مثل قوله * تعالي *: . . . . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . . . . *آل عمران :152*

(150/601)

وسميت * الدنيا * بهذا الاسم لدنوها , والجمع * الدنا *, وأصله الدنو فحذفت الواو لاجتماع الساكنين , والنسبة إليها * دنياي *, وقيل * دنيوي * ودني , ويقال :* تدني * فلان أي * دنا * قليلا قليلا , و * تدني * المستوي بمعني هبط , و * تدانوا * أي * دنا * بعضهم من بعض .

شروح المفسرين:

اضغط على الصورة لتكبيرها

في تفسير قوله تعالي : ألم . غلبت الروم . في أدني الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * الروم : 1 ـ 5 * . ذكر بن كثير * يرحمه الله * قول بن عباس * رضي الله عنهما * حيث قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس علي الروم لأنهم أصحاب أوثان , وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم علي فارس , لأنهم كانوا من أهل الكتاب , فذكر ذلك لأبي بكر * رضي الله عنه *, فذكره أبو بكر لرسول الله * صلي الله عليه وسلم *, فقال رسول الله * صلي الله عليه وسلم *:[أما إنهم سيغلبون], فذكره أبو بكر للمشركين , فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا , فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا , وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا , فجعل أجل خمس سنين , فلم يظهروا , فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله * صلي الله عليه وسلم * فقال :[ألا جعلتها إلي دون العشر ؟], ثم ظهرت

الروم بعد , قال فذلك قوله تعالي :[ألم . غلبت الروم . في أدني الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون] .

(151/601)

وأضاف بن كثير عدة روايات أخري للحديث عن كل من مسروق , وابن مسعود , وعكرمة * رضي الله عنهم أجمعين * في المعني نفسه , وزاد قوله : . . . وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم , ويقال لهم بنو الأصفر , وكانوا علي دين اليونان ; واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك , وكانوا يعبدون الكواكب السيارة , وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها , فكان الروم علي دينهم إلي بعد مبعث المسيح * عليه السلام * بنحو من ثلاثمائة سنة , وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له * قيصر *; فكان أول من دخل في دين النصاري من الروم * قسطنطين *; وأمه مريم الهيلانية من أرض حران وكانت قد تنصرت قبله فدعته إلي دينها . . . واستمروا علي النصرانية , كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتي كان آخرهم * هرقل * . . . فناوأه كسري ملك الفرس , وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر , وكانوا مجوسا يعبدون النار , فتقدم عن عكرمة * رضي الله عنه * أنه قال : بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ,

والمشهور أن كسري غزاه بنفسه في بلاده فقهره , وكسره وقصره حتي لم يبق معه سوي مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتي ضاقت عليه , ولم يقدر كسري علي فتح البلدة , ولا أمكنه ذلك لحصانتها , لأن نصفها من ناحية البر , ونصفها الآخر من ناحية البحر , فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هناك , ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهي تسع , فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلي التسع .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين * يرحمهما الله * كلاما موجزا في المعني نفسه , وأضافا تعليقا علي التعبير القرآني * في أدني الأرض * أن المقصود به :[أقرب أرض الروم إلي فارس بالجزيرة , التقي فيها الجيشان , والبادي بالغزو * هم * الفرس . . .] . وجاء في الظلال * رحم الله كاتبها رحمة واسعة * ما نصه :

(152/601)

ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم في بضع سنين . . . . وأضاف رواية عبد الله بن مسعود * رضي الله عنه * مؤكدا أن هذا الحادث قد وردت فيه روايات كثيرة , تتفق كلها في المعني والدلالة , وتختلف في الألفاظ وطرائق التعبير . وجمع الكاتب * رحمه الله * من هذه الآيات القرآنية الكريمة عددا من الإيحاءات منها : الترابط بين

الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان ; ومنها الثقة المطلقة في وعد الله كما تبدو في قولة أبي بكر * رضي الله عنه * في غير تلعثم ولا تردد , والمشركون يعجبون من قول صاحبه , فما يزيد علي أن يقول : صدق , ويراهنونه فيراهن وهو واثق , ثم يتحقق وعد الله , في الأجل الذي حدده : في بضع سنين . . .

والإيحاء الثالث وهو المسارعة برد الأمر كله لله , في هذا الحادث وفي سواه , وتقرير هذه الحقيقة الكلية , لتكون ميزان الموقف , وميزان كل موقف , فالنصر والهزيمة , وظهور الدول ودثورها , وقوتها وضعفها , شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال , مرده كله إلي الله . . . وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ما نصه : احتربت الفرس والروم فيما بين أذرعات وبصري من أرض الروم يومئذ , وهما أقرب أراضيها بالنسبة إلي مكة , وكان ذلك قبل الهجرة بخمس سنين , وقيل بست . فظهر الفرس علي الروم , فلما بلغ الخبر مكة شق علي المؤمنين , لأن الفرس مجوس لا يدينون بكتاب , والروم أهل كتاب ; وفرح المشركون وقالوا : أنتم والنصاري أهل كتاب , ونحن والفرس أميون , وقد ظهر إخواننا علي إخوانكم , ولنظهرن نحن عليكم , فنزلت الآية وفيها : أن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين . والبضع : ما بين الثلاث إلي التسع و * غلبهم * كونهم مغلوبين .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه : غلبت فارس الروم في أقرب الأرض من العرب , وهي أطراف الشام , وهم بعد انهزامهم سيغلبون الفرس , قبل أن تمضي تسع سنوات . . وكان المشركون قد فرحوا بانتصار فارس , وقالوا للمسلمين : سنغلبكم كما غلبت فارس الروم التي هي من أهل الكتاب . . وقد حقق الله وعده فانتصر الروم علي فارس في الأجل الذي سماه , فكان ذلك آية بينة علي صدق محمد * صلي الله عليه وسلم * في دعواه وصحة ما جاء به . . . . وجاء في الهامش التعليق التالي : في هذه الآيات الشريفة إشارة إلي حدثين : كان أولهما قد وقع بالفعل , وأما الثاني فلم يكن قد وقع بعد , وهو إخبار عن الغيب , * وحدد لوقوعه بضع سنين فيما بين الثلاث والتسع * . وتفصيل الحدث الأول أن الفرس والبيزنطيين قد اشتبكوا في معركة في بلاد الشام علي أيام خسرو أبرويز أو خسرو الثاني عاهل الفرس المعروف عند العرب بكسري .

وهيراكليوس الصغير الإمبراطور الروماني المعروف عند العرب بهرقل ; ففي عام 614م استولي الفرس علي أنطاكية أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية , ثم علي دمشق , وحاصروا مدينة بيت المقدس إلي أن سقطت في أيديهم وأحرقوها ونهبوا السكان وأخذوا يذبحونهم . . . . وتفصيل الحدث الثاني أن هرقل قيصر الروم الذي مني جيشه بالهزيمة لم يفقد الأمل في النصر , ولهذا أخذ يعد نفسه لمعركة تمحو عار الهزيمة ,

حتي إذا كان عام 622 الميلادي * أي العام الهجري الأول * أرغم الفرس علي خوض معركة علي أرض أرمينيا وكان النصر حليف الروم , وهذا النصر كان فاتحة انتصارات الروم علي الفرس . . . فتحققت بشري القرآن . . . .

(154/601)

وثمة حدث ثالث يفهم من سياق هذه الآيات الشريفة كان مبعث فرح المسلمين وهو انتصارهم علي مشركي قريش في غزوة بدر التي وقعت في يوم الجمعة 17 رمضان من العام الثاني الهجري * أي سنة 624 م * . وجاء في صفوة التفاسير ما نصه : . . . * غلبت الروم في أدني الأرض * أي هزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلي فارس * وهم من بعد غلبهم سيغلبون * أي وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس , وينتصرون عليهم * في بضع سنين * أي في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام ; والبضع ما بين الثلاث والتسع . . . .

وأشار صاحب صفوة التفاسير * جزاه الله خيرا * إلي أقوال المفسرين السابقين وعلق علي قوله * تعالي *: [وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين] ما نصه : وقد التقي الجيشان في السنة السابعة من الحرب , وغلبت الروم فارس وهزمتهم , وفرح المسلمون

بذلك ; قال أبو السعود : وهذه الآيات من البينات الباهرة , الشاهدة بصحة النبوة , وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله العليم الخبير , ووقع كما أخبر , وقال البيضاوي : والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب . . . . وأضاف صاحب صفوة التفاسير في شرح قول الحق * تبارك وتعالي *:[ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله] ما نصه : وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر ; قال ابن عباس : كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان , وعبدة النيران . . . .

(155/601)

ويوم بدر وقع في السنة الثانية من الهجرة * الموافق سنة 624 م *, وعلي ذلك فإن هزيمة الروم علي أيدي الفرس لابد وأنها كانت قد وقعت في حدود سنة 614 م إلي 615 م . وجاء في أطلس تاريخ الإسلام * علي واضعه رحمة الله * ما نصه : . . . وعندما تولي هرقل عرش الروم سنة 610 م * وهي سنة البعثة المحمدية * كان الفرس قد اجتاحوا بلاد الشام ومصر وهزموا البيزنطيين سنة 613 م عند أنطاكية , واستولوا علي فلسطين والقدس سنة 614 م , وغزوا مصر ودخلوا الإسكندرية سنة 618 م أو 619 م , وبعد أن أقام هرقل دولته بدأ قتال الفرس سنة 622 م , وفي سنة 627 م أنزل

بهم هزيمة قاصمة قرب نينوي , واسترد منهم أراضي الدولة البيزنطية في أرمينيا والشام وفلسطين ومصر , وفي سنة 630م استعاد بيت المقدس .

(156/601)

ومن استقراء كل هذه التواريخ السابقة يتضح أن هزيمة الروم الحقيقية علي أيدي جيوش الفرس كانت في حدود سنة 614م إلي 615م , وأن استعادتهم النصر علي الفرس كانت في حدود سنة 624م , واستمر تقدم الروم علي أرض الفرس حتي تم لهم استعادة بيت المقدس . وواضح من شروح المفسرين أن المقصود بالتعبير القرآني في أدني الأرض الذي يصف أرض المعركة التي تمت فيها هزيمة الروم أمام جحافل جيش الفرس هو أقرب الأرض إلي مكة المكرمة أو إلي الجزيرة العربية أو إلي أرض الفرس . . ولكن الدراسات الحديثة تؤكد أن منطقة حوض البحر الميت , بالاضافة إلي كونها أقرب الأراضي التي كان الروم يحتلونها إلي الجزيرة العربية هي أيضا أكثر أجزاء اليابسة انخفاضا , حيث يصل منسوب سطح الأرض فيها إلي حوالي الأربعمائة متر تحت متوسط مستوي سطح البحر , وان هذه المنطقة كانت من مناطق الصراع بين امبراطوريتي الفرس والروم , وأن المعركة الحاسمة التي أظهرت جيوش الفرس علي جيوش امبراطورية روما الشرقية * الامبراطورية

البيزنطية * لابد أنها وقعت في حوض البحر الميت , وان الوصف بـأدني الأرض هنا كما يعني أقربها للجزيرة العربية , يعني ايضا أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضا , وهذه الاشارة القرآنية العابرة تعتبر من السبق العلمي في كتاب الله , لأن أحدا لم يكن يعلم هذه الحقيقة في زمن الوحي بالقرآن الكريم , ولا لقرون متطاولة من بعده .

أدني الأرض في العلوم الحديثة:

(157/601)

ثبت علميا بقياسات عديدة ان أكثر أجزاء اليابسة انخفاضا هو غور البحر الميت , ويقع البحر الميت في أكثر أجزاء الغور انخفاضا , حيث يصل مستوي منسوب سطحه إلي حوالي أربعمائة متر تحت مستوي سطح البحر , ويصل منسوب قاعه في أعمق أجزائه إلي قرابة الثمانمائة متر تحت مستوي سطح البحر , وهو بحيرة داخلية بمعني ان قاعها يعتبر في الحقيقة جزءا من اليابسة . وغور البحر الميت هو جزء من خسف أرضي عظيم يمتد من منطقة البحيرات في شرقي إفريقيا إلي بحيرة طبريا , فالحدود الجنوبية لتركيا , مرورا بالبحر الأحمر , وخليج العقبة , ويرتبط بالخسف العميق في قاع كل من المحيط الهندي , وبحر العرب وخليج عدن , ويبلغ طول أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن حوالي

الستمائة كيلومتر , ممتدة من خليج العقبة في الجنوب إلي بحيرة طبريا في الشمال , ويتراوح عرضها بين العشرة والعشرين كيلومترا .

ويعتبر منسوب سطح الأرض فيها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضا حيث يصل منسوب سطح الماء في البحر الميت إلي 402 مترا تحت المستوي المتوسط لمنسوب المياه في البحرين المجاورين : الأحمر والأبيض المتوسط , وهو أخفض منسوب أرضي علي سطح اليابسة كما يتضح من الأرقام التالية : منسوب سطح الأرض في وادي عربة =355 . 400 م تحت مستوي سطح البحر .

منسوب أعمق نقاط قاع البحر الميت =794 م تحت مستوي سطح البحر .

منسوب سطح الماء في البحر الميت =402 تحت مستوي سطح البحر .

مستوي سطح الأرض في غور الأردن =212 . 400 م تحت مستوي سطح البحر .

منسوب سطح الماء في بحيرة طبريا =209 م تحت مستوي سطح البحر .

منسوب قاع بحيرة طبريا =252 م تحت مستوي سطح البحر .

منسوب سطح الأرض في قاع منخفض القطارة في شمال صحراء مصر الغربية =133 م تحت مستوي سطح البحر .

منسوب سطح الأرض في قاع وادي الموت / كاليفورنيا =86 م تحت مستوي سطح البحر

.

منسوب سطح الأرض في قاع منخفض الفيوم / مصر =45 م تحت مستوي سطح البحر .

(158/601)

ويتراوح عمق الماء في الحوض الجنوبي من البحر الميت بين الستة والعشرة أمتار , وهو بذلك في طريقه إلي الجفاف , ويعتقد انه كان جافا الي عهد غير بعيد من تاريخه , وكان عامرا بالسكان , وأن منطقة الأغوار كلها من وادي عربة في الجنوب إلي بحيرة طبريا في الشمال كانت كذلك عامرة بالسكان منذ القدم حيث عرف البحر الميت في الكتابات التاريخية القديمة , ووصف بأسماء عديدة من مثل بحر سدوم بحيرة لوط بحيرة زغر , البحر النتن , بحر عربة , بحر الأسفلت والبحر الميت , وذلك لأن المنطقة اشتهرت بخصوبة تربتها , ووفرة مياهها فعمرتها القبائل العربية منذ القدم , واندفعت اليها من كل من العراق والجزيرة العربية وبلاد الشام ومنهم قوم لوط * عليه السلام * الذين عمروا خمس مدن في أرض الحوض الجنوبي من البحر الميت هي : سدوم , وعمورة , وأدمة , وصوبييم , وزغر , وقد ازدهرت فيها الحياة إلي أواخر القرن العشرين قبل الميلاد ودمرت بالكامل في عقاب إلهي

أنزل بها وجاء خبر عقابها في القرآن الكريم بقول الحق * تبارك وتعالي *: فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * هود :82*

(159/601)

والأرض في حوض البحر الميت - بصفة عامة - وفي الجزء الجنوبي منه بصفة خاصة والتي تعرف باسم الأرض المقلوبة تتميز بالحرارة الشديدة , وبتفجر كل من العيون المائية , والأبخرة الكبريتية الحارة فيها , وبتناثر كتل الأسفلت التي كثيرا ما كانت تطفو علي سطح مياه البحر الميت إلي عهد غير بعيد . وقري قوم لوط التي كانت تشغل أرض الحوض الجنوبي من البحر الميت , والتي دمرت بالكامل بأمر من ربنا * تبارك وتعالي * لا علاقة لها بالحركات الأرضية التي شكلت تلك الأغوار من قبل حوالي 25 مليون سنة مضت , ولكن بعد تدميرها بالعقاب الالهي دخلت المنطقة برحمة من الله * تعالي * في دورة مطيرة غسلت مياهها ذنوب الآثمين من قوم لوط , وغمرت منطقة قراهم لتحولها إلي الحوض الجنوبي من البحر الميت , والذي يتجه اليوم إلي الجفاف مرة أخري ليصير أرضا يابسة .

(160/601)

وخلاصة القول إن منطقة أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن تحوي اخفض أجزاء اليابسة علي الاطلاق , والمنطقة كانت محتلة من قبل الروم البيزنطيين في عصر البعثة النبوية الخاتمة , وكانت هذه الامبراطورية الرومانية يقابلها ويحدها من الشرق الامبراطورية الفارسية الساسانية , وكان الصراع بين هاتين الامبراطوريتين الكبيرتين في هذا الزمن علي أشده , ولابد ان كثيرا من معاركهما الحاسمة قد وقعت في أرض الأغوار , وهي أخفض أجزاء اليابسة علي الاطلاق , ووصف القرآن الكريم لأرض تلك المعركة الفاصلة التي تغلب فيها الفرس علي الروم ـ في أول الأمر ـ بأدني الأرض ـ وصف معجز للغاية لأن أحدا من الناس لم يكن يدرك تلك الحقيقة في زمن الوحي , ولا لقرون متطاولة من بعده , وورودها بهذا الوضوح في مطلع سورة الروم يضيف بعدا آخر الي الاعجاز التنبؤي في الآيات الأربع التي استهلت بها تلك السورة المباركة ألا وهو الاعجاز العلمي فبالاضافة إلي ما جاء بتلك الايات من اعجاز تنبؤي شمل الأخبار بالغيب , وحدد لوقوعه بضع سنين , فوقع كما وصفته وكما حددت له زمنه تلك الآيات فكانت من دلائل النبوة , فان وصف ارض المعركة بالتعبير القرآني أدني الأرض يضيف إعجازا علميا جديدا , يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض .

وكما كانت هذه الايات الكريمة من دلائل النبوة في زمن الوحي لإخبارها بالغيب فيتحقق , فهي لا تزال من دلائل النبوة في زماننا بالتأكيد علي ان المعركة الفاصلة قد تمت في اخفض اجزاء اليابسة علي الاطلاق , وهي أغوار البحر الميت وما حولها من أغوار ويأتي العلم التجريبي ليؤكد تلك الحقيقة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وعلي كتاب التاريخ الذين تأرجحوا في وضع المعركة الفاصلة في هزيمة الروم علي أرض القسطنطينية , أو علي الأرض بين مدينتي أذرعات وبصري من أرض الشام , أو علي أرض أنطاكية , أو علي أرض دمشق , أو أرض بيت المقدس , أو أرض مصر * الاسكندرية * ان يعيدوا النظر في استنتاجاتهم , لأن القرآن الكريم يقرر ان هزيمة الروم علي أيدي الفرس كانت علي الأرض الواقعة بين شرقي الأردن وفلسطين وهي أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن التي أثبت العلم انها أكثر اجزاء اليابسة انخفاضا , والتي ينطبق عليها الوصف القرآني بأدني الارض انطباقا تاما ودقيقا .

وعلي الذين قالوا ان معني أدني الأرض هو أقرب الأرض من بلاد فارس , أو من بلاد العرب , أو هي أطراف بلاد الشام , أو بلاد الشام , أو انطاكية , أو دمشق , أوبيت المقدس أو غيرها أن يعيدوا النظر في ذلك , لأن حدود الامبراطوريتين كانت متلاحمة مع بعضهما بعضا من جهة ومع بلاد العرب من جهة أخري , وعليه فلايعقل ان يكون المقصود بتعبير أدني الأرض في هذه الآيات الكريمة هو القرب من بلاد فارس أو بلاد العرب , فقط , وان كانت ارض الاغوار هي اقرب الأرض الي بلاد العرب , بل هي في الحقيقة جزء من ارض شبه الجزيرة العربية . فسبحان الذي انزل هذا التعبير المعجز أدني الأرض ليحدد أرض المعركة ثم ليثبت العلم التجريبي بعد أكثر من اثني عشر قرنا ان الأغوار الفاصلة بين أرض فلسطين المباركة والأردن هي أكثر أجزاء اليابسة انخفاضا ومن هنا كانت جديرة بالوصف القرآني أدني الأرض , وجديرة بأن تكون أرض المعركة التي هزم فيها الروم , وذلك لقول الحق * عز من قائل *: ألم . غلبت الروم . في أدني الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . * الروم : 1 . 5 ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ من الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية للدكتور زغلول النجار ﴾

(163/601)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى غلب)

الغَلَبة : القهر .

غلبه غَلْباً – بسكون اللام – وغَلَبا بتحريكها ، وغَلَبة بإلحاق الهاءِ ، وغَلاَبِيَة – مثال عَلانية – وغُلُبَّة – مثال حُزُقَّة – وغُلُبَّى – بضمتين مشدّدة بالباء مقصورة – ومَغْلَبة ، قال تعالى : ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ .

والغَلَب من المصادر المفتوحة العين مثل الطَلَب .

قال الفرّاء : وهذا يحتمل أَن يكون غَلَبة فحُذفت الهاء عند الإِضافة ، كما قال فَضْل بن عبّاس .

*إِنّ الخليط أَجدُّوا البين فانجردُوا * وأَخلفوك عِدَ الأَمر الذى وَعدوا *

أَراد عدة الأَمر فحَذفت الهاء عند الإِضافة .

والحجّة فى المَغْلَبة قول بنت عُتْبة ترثى أَباها :

*يا عينِ بَكّى عتبهْ * شيخاً شديد الرقَبَهْ*

*يُطعم يوم المَسْغَبهْ * يدفع يوم المَغْلَبهْ*

*إنّى عليه حَرِبَهْ * ملهوفة مستلَبه*

*لنهبطَنْ يَثْرِبهْ * بغارة منشعِبَه*

والحجّة فى الغُلُبَّة قول المَرَّار بن سعيد الفَقْعَسِىّ :

*منَعتُ بنجد ما أَردت غُلُبَّة * وبالغَوْر لى عِزّ أَشَمُّ طويل*

وهضبة غَلباء ، وعزّة غلْباء ، وحديثة غلباء ، وحدائق غُلْب أَى غِلاظ ممتلئة ، قال تعالى : ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْباً ﴾ .

ورجل غُلُبَّة ، وغَلَبَّة ، وغُلَبة – مثال تُؤَدَة – وغَلاَّب ، وغُلُبَّى ، وغِلِبَّى ، أَى كثير الغَلَبة سريعها .

وقد ورد فى القرآن على أَربعة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى الظهور والاستيلاء : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَى أَمْرِهِمْ ﴾ .

الثانى : بمعنى الهزيمة : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ : سيَهزمون .

الثالث : بمعنى القتل : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ ﴾ أَى ستقتلون .

(164/601)

الرّابع : بمعنى القهر : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ ، أَى قاهر ، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، أَى القاهرون .

﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾ : قُهِروا وهُزِموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 143.142 ﴾

(165/601)

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قبل)

قبل : نقيض بعد ، يقال : أَتيتك من قبلُ ، وأَتيتك قَبْلُ ، وقَبْلٌ بالتنوين ، وقَبْلَ بالفتح ، وقَبْلاَ منوّنة .

والقُبُل – بضمَّتَينِ – : نقيض الدبر .

ويكنى بهما عن السوءَتين ، ومن الجبل : سَفْحه ، ومن الزمان : أَوله .

وإِذاً أُقْبِل قُبُلك – بالضمّ – أَى أَقْصِد قصدَك .

وقَبْل يستعمل على أَوجه :

الأَول : فى المكان بحسب الإِضافة ؛ كقول الخارج من اليمن إلى بيت المقدس : مكَّة قبل المدينة ، ويقول الخارج من القدس إلى اليمن : المدينة قبل مكَّة .

الثانى : فى الزمان : زمان معاوية قبل زمان عمر بن عبد العزيز .

الثالث : فى المنزلة ، نحو : فلان عند السلطان قبل فلان .

الرابع : فى الترتيب الصناعىّ ، نحو : تعلَّم الهجاء قبل تعلُّم الخطِّ .

والقَبْل والإِقبال والاستقبال : التَّوجّه .

والقابل : الذى يستقبل الدلو من البئر فيأْخذها .

والقابلة : الَّتى تأْخذ الولد عند الولادة .

وقبل توبته يقبلها قَبُولا وتقبّلها ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ وقال : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ .

والتقبّل : قبول الشىء على وجه يقتضِى ثوابا كالهديَّة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ تنبيه أَنه ليس كل عبادة متقبَّلة .

بل إِذا كانت على وجه مخصوص .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ، قيل : معناه : قَبلها ، وقيل : تكفَّل بها .

وإِنما قال : ﴿ تَقَبَّلَهَا بِقَبُولٍ ﴾ ولم يقل ﴿ بِتَقَبُّلٍ ﴾ للجمع بين الأَمرين : التقبُّل الذى هو الترقىّ فى القبول ، والقبول الذى يقتضى الرضا والإِثابة .

وقيل : القَبُول هو من قولهم : فلان عليه قَبُول ، أَى من رآه أَحبَّه .

وقوله : ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ﴾ قيل : هو جمع قابل ، ومعناه : مقابل لحواسّهم .

(166/601)

قال مجاهد : جماعةَ جماعَةً فيكون جمع قبيل ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾ .

ومن قرأَ ﴿ قِبَلا ﴾ بكسر القاف

فمعناه عِيَانًا ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلاً ﴾ أَى عِيَانًا ، ﴿ وقُبُلاً ﴾ أَى جماعة جماعة .

والقبيل : جمع قِبيلة ، وهى الجماعة المجتمعة التى تُقبل بعضها على بضع ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ ﴾ ، مأْخوذ من قبائل الرأْس وهى القِطَع المشعوب بعضُها إِلى بعض .

قيل ترتيب صنوف الأَحياءِ على ترتيب الأَعضاءِ .

فأَوّلها القبيلة من قبائل الرأْس ، ثم الشَّعْب ، ثم العِمارة هى الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخِذ ،

ثم الفصِيلة ، وهى الساق .

وأَعظمها الحىّ لأَنه يجمع الجميع .

وقوله : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ أَى جماعة جماعة .

وقيل : معناه كفيلا من قولهم : قَبَلت فلانًا وتقبّلت به أَى تكفَّلت .

وقيل : مقابَلة ، أَى معاينة .

والمقابَلة والتقابل أَن يُقبل بعضهم على بعض إمّا بالذات وإمّا بالعناية والمودّة ، قال تعالى : ﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ .

ولى قِبَل فلان حقّ كقولك عنده ، قال تعالى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ .

ويستعار ذلك للقوّة والقُدْرة ، فيقال : لا قِبَل لى بكذا ، أَى لا يمكننى أَن أقابله ، قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أَى لا طاقة لهم على استقبالها ودفاعها .

والقِبْلة فى الأَصل : الحالة التى عليها المقابِل ، نحو الجِلسة والقِعدة ، وفى التعارف صارا اسما للمكان المقابَل المتوجَّه إليه للصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أَى متقابلة .

وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ ﴾ ، أَى نحوه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 234 . 236 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : أفلم يتدبروا القرآن وما كشف لهم عنه من الحكم والأمور التي وعد الله بها على لسان نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه أو في السنة ، فكانت على حسب ما وعد ، أو لم يتأملوا مصنوعات الله عموماً فتدلهم عقولهم منها على أنه لا يصلح للإلهية إلا من كان حكيماً ، ولا يكون حكيماً إلا من صدق في وعده ، وأنه لا تتم الحكمة إلا بإيجاد الآخرة ، عطف عليه قوله منكراً عليهم موبخاً لهم : ﴿ أولم يتفكروا ﴾ أي يجتهدوا في

إعمال الفكر ، ثم ذكر آلة الفكر زيادة في تصوير حال المتفكرين والتذكير بهيئة المعتبرين فقال : ﴿ في أنفسهم ﴾ ويجوز أن تكون هي المتفكر فيه فيكون المعنى : يتفكروا في أحوالها خصوصاً فيعلموا أن من كان منهم قادراً كاملاً لا يخلف وعده وهو إنسان ناقص ، فكيف بالإله الحق ، ويعلموا أن الذي ساوى بينهم في الإيجاد من العدم وطورهم في أطوار الصور ، وفاوت بينهم في القوى والقدر ، وبين آجالهم في الطول والقصر ، وسلط بعضهم على بعض بأنواع الضرر ، وأمات أكثرهم مظلوماً قبل القصاص والظفر ، لا بد في حكمته البالغة من جمعهم للعدل بينهم في جزاء من وفى أو غدر ، أو شكر أو كفر ، ثم ذكر نتيجة ذلك وعلله بقوله في أسلوب التأكيد لأجل إنكارهم ، وعلى التقدير الأول يكون هذا هو المتفكر فيه ﴿ ما خلق الله ﴾ أي بعز جلاله ، وعلوه في كماله ﴿ السماوات والأرض ﴾ على ما هما عليه من النظام المحكم ، والقانون المتقن ، وأفرد الأرض لعدم دليل حسي أو عقلي يدلهم على تعددها بخلاف السماء ﴿ وما بينهما ﴾ من المعاني التي بها كمال منافعهما ﴿ إلا ﴾ خلقاً متلبساً ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع ، فإذا ذكر البعث الذي هو مبدأه الآخرة التي هذا أسلوبها وجد الواقع في تصوير النطف ونفخ الروح وتمييز الصالح منها للتصوير من الفاسد يطابق ذلك ، وإذا تدبر النبات بعد أن كان هشيماً قد نزل عليه الماء فزها واهتز وربا وجده مطابقاً للأمر البعث ،

وإذا ذكر القدرة فرأى اختلاف الليل والنهار ، وسير الكواكب الصغار والكبار ، وإمطار الأمطار ، وإجراء الأنهار ، ونحو ذلك من الأسرار ، رآه مطابقاً لكل ما يخطر في باله من الأقدار ، وإذا خطر له العلم ، فتبصر في جري هذه الأمور وغيرها على منهاج مستقيم ، ونظام واضح قويم ، وسير متقن حكيم ، علم أن ذلك في غاية المطابقة للخبر بالعلم الشامل والقدرة التامة على البعث وغيره ، أو إلا بالأمر الثابت والقضاء النافذ الذي لا يتخلف عنه المراد ، ولا يستعصي عليه حيوان ولا جماد ، وخلقكم من هذا الخلق الكبير الذي قام بأمره من بعض ترابه .

ثم جعلكم من سلالة من ماء مهين ، فالقدرة التي خلق بها ذلك كله وابتدأكم ثم يبيدكم ، بها بعينها يحييكم ويعيدكم ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ، أو إلا بسبب إحقاق الحق وإبطال الباطل ، فلا بد من تصديق وعده بإدالة الروم لأخذ حقهم من الفرس ، ولا بد من أن يقيمكم بعد أن ينيمكم ويثبت كل حق رأيتموه قد أبطل ، ويبطل كل باطل رأيتموه قد أعمل ، لأنه أحكم الحاكمين ، فلو أقر على إماتة حق أو إحياء باطل لما كان كذلك .

ولما كان عندهم أن هذا الوجود حياة وموت لا إلى نفاد ، قال : ﴿ وأجل ﴾ لا بد أن ينتهي إليه ﴿ مسمى ﴾ أي في العلم من الأزل ، وذلك الأجل هو وقت قيام الساعة ، وذلك أنه

كما جعل لهم آجالاً لأصلهم وفرعهم لم يشذ عنها أحد منهم فكذلك لا بد من أجل مسمى لما خلقوا منه ، فإذا جاء ذلك الأجل انحل هذا النظام ، واختل هذا الإحكام ، وزالت هذه الأحكام ، فتساقطت هذه الأجرام ، وصارت إلى ما كانت عليه من الإعدام ، وإلا كان الخلق عبثاً يتعالى عنه الملك العلام .

(169/601)

ولما كانوا ينكرون أنهم على كفر ، أكد قوله : ﴿ وإن كثيراً من الناس ﴾ مع ذلك على وضوحه ﴿ بلقاء ربهم ﴾ الذي ملأهم إحساناً برجوعهم في الآخرة إلى العرض عليه للثواب والعقاب ﴿ لكافرون ﴾ أي لساترون ما في عقولهم من دلائل وحدانيته وحجج قدرته وحكمته ستراً عظيماً ، كأنه غريزة لهم ، فهم لذلك يكذبون بما وعدكم سبحانه من إدالة الروم على الفرس ، فلا يهولنكم ذلك لأنهم قد كذبوا بما هو أكبر منه ، وهو الآخرة على ما لها من الدلائل التي تفوت الحصر ، وإذا راجعت ما تقدم في آية الأنعام ﴿ وهو الذي خلقكم من طين ﴾ [آية : 2] ازددت في هذا بصيرة .

ولما أقام عليهم الدليل ، أتبعه التهديد والتهويل ، فقال عاطفاً على " أولم يتفكروا " ﴿ أولم يسيروا ﴾ ولما أحاطت آثار المكذبين بمكة المشرفة شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ، بديار

ثمود وقوم فرعون وعاد وسبأ وقوم ولوط ، عرف وأطلق فقال : ﴿ في الأرض ﴾ أي سير اعتبار وتأمل وادكار من أي جهة أرادوا ، وفيه إشارة إلى أنهم واقفون عند النظر في ظاهر الملك بأبصارهم ، قاصرون عن الاعتبار في باطن الملكوت بأفكارهم ، وفيه هزٌّ لهم إلى امتطاء هذه الدرجة العلية ، بهذه العبارة الجلية ﴿ فينظروا ﴾ .

ولما كان ما حل بالماضين أمراً عظيماً ، نبه على عظمه بأنه أهل لأن يسأل عنه فقال : ﴿ كيف كان ﴾ أي كوناً لا قدرة على الانفكاك عنه ، وتذكير العمل يشير إلى عظم الأمر ﴿ عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الذين ﴾ ولا كان حال من قرب من زمان الإنسان أوعظ له ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ في إهلاك العاصي وإنجاء الطائع ، ولما كان علم العاقبة مشروطاً بمعرفة البادئة قال مستأنفاً : ﴿ كانوا ﴾ أي كوناً هو في غاية المكنة .

(170/601)

ولما كان السياق للظهور والغلبة التي إنما مدارها على الشدة المقتضية للثبات ، لا الكثرة العارية عنها ، أعرض عنها وقال مسقطاً ضمير الفصل لأن هذا السياق لا يظهر فيه ادعاء العرب لعلوهم على فارس ولا الروم : ﴿ أشدَّ منهم ﴾ أي من العرب ﴿ قوة ﴾ أي في أبدانهم وعقولهم ، ولما كان التقدير : فنقبوا الجبال ، وعلوا من متقن الصنائع التي ترونها من

الأعمال ما لم يدانيه أحد من الأجيال ، عطف عليه قوله : ﴿ وأثاروا ﴾ بالحرث وغيره ﴿ الأرض ﴾ فأخرجوا ما فيها من المنافع من المياه والمعادن والزروع وغير ذلك من المعادن ﴿ وعمروها ﴾ أي أولئك السالفون ﴿ أكثر مما عمروها ﴾ أي هؤلاء الذين أرسلت إليهم ، بل ليس لهم من إثارة الأرض وعمارتها كبير أمر ، فإن بلاد العرب إنما هي جبال سود وفيافي غبر ، فما هو إلا تهكم بهم ، وبيان لضعف حالهم في دنياهم التي لا فخر لهم بغيرها .

(171/601)

ولما كانوا قد وقفوا مثل هؤلاء مع السبب الأدنى ، ولم يرتقوا بعقولهم إلى المطلوب الأعلى ، أخبر أنه أرسل إليهم الدعاة ينبهونهم من رقدتهم ، وينقذونهم من غفلتهم ، فكان التقدير : فضلوا عن المنهج الواضح ، وعموا عن السبيل الرحب ، وزاغوا عن طريق الرب ، فأرسلنا إليهم الرسل ، فعطف عليه قوله مشيراً بتأنيث الفعل إلى ضعف عقولهم بتكذيبهم الرسل كما تقدم إيضاحه عند ﴿ تلك الرسل ﴾ [البقرة : 253] : ﴿ وجاءتهم رسلهم ﴾ أي عنا ﴿ بالبينات ﴾ من المعجزات مثل ما أتاكم به رسولنا من وعودنا السابقة ، وأمورنا الخارقة ، كأمر الإسراء وما أظهر فيه من الغرائب كالإخبار بأن العير تقدم في يوم كذا يقدمها

جمل صفته كذا وغرائره كذا ، فظهر كذلك ، وما آمنتم كما لم يؤمن من كان أشد منكم قوة ﴿ فما ﴾ أي بسبب أنه ما ﴿ كان الله ﴾ على ما له من أوصاف الكمال مريداً ﴿ ليظلمهم ﴾ بأن يفعل معهم فعل من تعدونه أنتم ظالماً بأن يهلكهم في الدنيا ثم يقتص منهم في القيامة قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل بالبينات ﴿ ولكن كانوا ﴾ بغاية جهدهم ﴿ أنفسهم ﴾ أي خاصة ﴿ يظلمون ﴾ أي يجددون الظلم لها بإيقاع الضر موقع جلب النفع ، لأنهم لا يعتبرون بعقولهم التي ركبناها فيهم ليستضيؤا بها فيعلموا الحق من الباطل ، ولا يقبلون من الهداة إذا كشفوا لهم ما عليها من الغطاء ، ولا يرجعون عن الغي إذا اضطروهم بالآيات الباهرات ، بل ينتقلون من الغفلة إلى العناد .

(172/601)

ولما كان انتكاسهم بعد هذا الأسباب المسعدة بعيداً ، أشار إليه بأداة التراخي ، أو هي إشارة إلى تطاول دعار الرسل لهم واحتمالهم إياهم فقال : ﴿ ثم كان ﴾ أي كوناً تعذر الانفكاك عنه ، وهو في غاية الهول كما اشار إليه تذكير الفعل ﴿ عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الذين أساءوا ﴾ أظهر موضع الإضمار تعميماً ودلالة على السبب ﴿ السوأى ﴾ أي الحالة التي هي أسوأ ما يكون ، وهي خسارة الأنفس بالدمار في الدنيا والخلود في العذاب في

الأخرى ، جزاء لهم بجنس عملهم ، فنهم كما أساؤوا الرسل ساءهم الملك ؛ ثم ذكر العلة بقوله : ﴿ أن كذبوا ﴾ أي لأجل تكذيبهم الرسل ، مستهينين ﴿ بآيات الله ﴾ أي الدلالات المنسوبة إلى الملك الأعلى الذي له الكمال كله الدالة عليه على عظمها بعظمه ﴿ وكانوا ﴾ أي كوناً كأنه جبلة لهم ﴿ بها ﴾ مع كونها أبعد شيء عن الهزء ﴿ يستهزءون ﴾ أي يستمرون على ذلك بتجديده في كل حين مع تعظيمه حتى كان استهزاؤهم بغيرها كأن عدم ، كما أنكم أنتم تكذبون بما وقع من الوعد في أمر الروم وتستهزئون به فاحذروا أن يحل بكم ما حل بالأولين ، ثم تردون إليه سبحانه فيعذبكم العذاب الأكبر ، ويجوز أن يكون هذا بدلاً من " السُّوأَى " أو بياناً لها بمعنى أنهم لما أساؤوا زادتهم إساءتهم عماوة حتى ارتكسوا في العمى فوصلوا إلى التكذيب والاستهزاء الذي هو أقبح الحالات ، عكس ما يجازي به المؤمن من أنه يزداد بإيمانه هدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 602 .

﴿ 606

(173/601)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾

(174/601)

لما صدر من الكفار الإنكار بالله عند إنكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 187] والإنكار بالحشر كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ [الروم : 7] بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهو (أن) أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر ، أما الوحدانية فلأن الله خلقهم على أحسن تقويم ، ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف ألف جزء وهو أن الله تعالى خلق للإنسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه ، والآخر لخروج الطعام منه ، فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح ، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجاً صالحاً ، ثم يخرج من المنفذ الآخر ، وخلق تحت المعدة عروقاً دقاقاً صلاباً كالمصفاة التي يصفى بها الشيء فينزل منها الصافي إلى

الكبد وينصب الثفل إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجهاً إلى الخروج ، وما يدخل في الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية ، والعبرية عربية مفسودة في الأكثر ، يقال لموسى ميشا وللاله إيل إلى غير ذلك ، فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجاً آخر ، ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق وينذرق في العروق الدقاق المذكورة ، وفي الكبد يستغني عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذي به الكلية وغيرها ، ويخرج الدم الخالص من الكبد في عرق كبير ، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول ، والجداول إلى سواق ، والسواقي إلى رواضع ويصل فيها إلى جميع البدن ، فهذه حكمة واحدة في خلق الإنسان ، وهذه كفاية في معرفة كون الله فاعلاً مختاراً قادراً كاملاً عالماً شاملاً علمه ، ومن يكون كذلك يكون واحداً وإلا لكان

(175/601)

عاجزاً عند إرادة شريكه ضد ما أراده .

وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر في نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال ، وأجزاءه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضروري ، فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على

هذا الوجه للفناء عبثاً ، وإليه أشار بقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : 115] وهذا ظاهر ، لأن من يفعل شيئاً للعبث فلو بالغ في إحكامه وإتقانه يضحك منه ، فإذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لا بد منها ، ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الآفاق فقال : ﴿ مَّا خَلَقَ الله السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فقوله : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية ، وقد بينا ذلك في قوله :

﴿ خَلَقَ الله السموات والأرض بالحق إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [العنكبوت : 44] ونعيده فإن التكرير في الذهن يفيد التقرير لذي الذهن ، فنقول إذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان فلا يكون فيها فساد لأن كل فاسد باطل وإذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة وإلا لكان فيها فساد كما قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وقوله : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يذكر بالأصل الآخر الذي أنكروه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَاء رَبِّهِمْ لكافرون ﴾ يعني لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء إما في إسعاد أو شقاء ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قدم ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق ، وفي قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايا تنا فِى الآفاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] قدم دلائل الآفاق ، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة ، وأما المستفيد فإنه يفهم أولاً الأبين ، ثم يرتقي إلى فهم ذلك الأخفى الذي لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخراً ، فالمذكور من المفيد آخراً مفهوم عند السامع أولاً ، إذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوباً إلى السامع حيث قال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني فيما فهموه أولاً ولم يرتقوا إلى ما فهموه ثانياً ، وأما في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر أولاً : الآفاق فإن لم يفهموه فالأنفس لأن دلائل الأنفس لا ذهول للإنسان عنها ، وهذا الترتيب مراعى في قوله تعالى : ﴿ الذين يَذْكُرُونَ الله قياما وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 191] أي يعلمون الله بدلائل الأنفس في سائر الأحوال ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض ﴾ بدلائل الآفاق .

المسألة الثانية :

وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر ، وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو ؟ فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل إلا إمكانه ، وأما وقوعه فلا يعلم إلا بالسمع ، لأن الله قادر على إبقاء الحادث أبداً كما أنه يبقى الجنة والنار بعد إحداثهما أبداً ، والخلق دليل إمكان العدم ، لأن المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم ، فإذا أخبر الصادق عن أمر له إمكان وجب على العاقل التصديق والإذعان ، ولأن العالم لما كان خلقه بالحق فينبغي أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعباً ولهواً كما بين بقوله تعالى : ﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [العنبكوت : 64] وخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث ، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه .

المسألة الثالثة :

قال ههنا : ﴿ كَثِيراً مِّنَ الناس ﴾ وقال من قبل :

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ [الروم : 6] وذلك لأنه من قيل لم يذكر دليلاً على الأصلين ، وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولا شك في أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل ، فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع فلا يبقى الأكثر كما هو ، فقال بعد إقامة الدليل ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا ﴾ وقبله ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ ﴾ ثم بعد الدليل الذي

لا يمكن الذهول عنه ، والدليل الذي لا يقع الذهول عنه وإن إمكن هو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التي فوقه والأرض التي تحته ، ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

(178/601)

وقال في الدليلين المتقدمين : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ [العنكبوت : 19 ، 67] ولم يقل : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ إذ لا حاجة هناك إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض وقال ههنا : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ . . .

فَيَنظُرُواْ ﴾ ذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم ، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم تنفعهم قواهم وكانوا أكثر مالاً وعمارة ، ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم ، واعلم أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو في أعوانه إذ بها المباشرة وقوة مالية إذ بها التأهب للمباشرة ، وقوة ظهرية يستند إليها عند الضعف والفتور وهي بالحصون والعمائر ، فقال تعالى : كانوا أشد منهم قوة في الجسم وأكثر منهم مالاً لأنهم أثاروا الأرض أي حرثوها ، ومنه بقرة تثير الأرض ، وقيل منه سمي ثوراً ،

وأنتم لا حراثة لكم فأموالهم كانت أكثر ، وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة ، وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم ، فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم ، وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ يعني لم يظلمهم بالتكليف ، فإن التكليف شريف لا يؤثر له إلا محل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها في موضع خسيس ، وهو عبادة الأصنام واتباع إبليس ، فكأن الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح ، لأنه تعالى قال خلقتكم لتربحوا علي لا لأربح عليكم ، والوضع في (أي) موضع كان الخلق له ليس بظلم ، وأما هم فوضعوا أنفسهم في مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا إلا للربح فهم كانوا ظالمين ، وهذا الكلام منا وإن كان في الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة ، وهو أن هذا الوضع كان بمشيئة الله وإرادته ، لكنه كان منهم ومضافاً إليهم .

(179/601)

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

كما قال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ [يونس : 26] وقوله تعالى : ﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ قيل معناه بأن كذبوا أي كان عاقبتهم ذلك بسبب أنهم كذبوا ، وقيل معناه أساءوا وكذبوا

فكذبوا يكون تفسيراً لأساؤا وفي هذه الآية لطائف إحداها : قال في حق الذين أحسنوا : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ وقال في حق من أساء : ﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة الذين أساؤا السوآى ﴾ إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر فإن الحسنى اسم الجنة والسوآى اسم النار ، فإذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شيء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ، لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين ، وأما الذين أساؤا ، فالسوآى وهي جهنم في العاقبة مصيرهم إليها الثانية : ذكر الزيادة في حق المحسن ولم يذكر الزيادة في حق المسيء لأن جزاء سيئة سيئة مثلها الثالثة : لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر في المسيىء أن له السوأى بأنه كذب ، لأن الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ ، وأما السوآى للمسيىء عدل والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلاً فذكر السبب في التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب في الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 86.89 ﴾

(180/601)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾

يحتمل أربعة أوجه :

أحدها : بالعدل .

الثاني : بالحكمة .

الثالث : إلا ما استحق عليهم الطاعة والشكر .

والرابع : قاله الفراء ، معناه إلا للحق يعني الثواب والعقاب .

﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : قيام الساعة ، قاله ابن عباس .

الثاني : وهو محتمل أنه أجل كل مخلوق على ما قدر له .

فدل ذل على أمرين :

أحدهما : دل به على الفناء وعلى أن لكل مخلوق أجلاً .

الثاني : نبه على ثواب المحسن وعقاب المسيء .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَآءُواْ ﴾ قال ابن عباس : كفروا .

﴿ السُّوأَى ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : جهنم ، قاله السدي .

الثاني : العذاب في الدنيا والآخرة ، قاله الحسن .

وفي الفرق بين الإساءة والسوء وجهان :

أحدهما : أن الإساءة إنفاق العمر في الباطل ، والسوء إنفاق رزقه في المعاصي .

الثاني : أن الإِساءَة فعل المسيء والسوء الفعل مما يسوء .

﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ لأن كذبوا

. ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، قاله الكلبي .

الثاني : بالعذاب أن ينزل بهم ، قاله مقاتل .

الثالث : بمعجزات الرسل ، قاله الضحاك .

﴿ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي بالآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ

﴾

(181/601)

وقال ابن عطية :

ثم وقفهم على جهة التوبيخ على أنهم قد فكروا فلم تنفعهم الفكرة والنظر إذ لم يكن على سداد ، وقوله تعالى : ﴿ في أنفسهم ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقتهم ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع ، ثم أخبر عقب هذا المعنى بأن الحق هو السبب في خلق السماوات والأرض . فيفهم على طريقة الإيجاز والاختصار أن من فكر في نفسه علم حقيقة هذا الخبر ووقف عليه ببصيرة نفسه ، والمعنى الثاني أن تكون النفس ظرفاً للفكرة في خلق السماوات والأرض فيكون قوله ﴿ في أنفسهم ﴾ تأكيداً لقوله ﴿ يتفكروا ﴾ كما تقول انظر بعينك واسمع بأذنك ، فقولك بأذنك تأكيد ، وقوله ﴿ إلا بالحق ﴾ أي بسبب المنافع التي هي حق واجب يريد من الدلالة عليه والعبادة له دون فتور ، والانتصاب للعبرة ومنافع الأرزاق وغير ذلك ، ﴿ وأجل ﴾ عطف على " الحق " أي وبأجلٍ مسمى وهو يوم القيامة ، ففي الآية إشارة إلى البعث والنشور وفساد بنية من في هذا العالم ، ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفرة بذلك المعنى فعبر عنه ﴿ بلقاء ﴾ الله لأن لقاء الله هو عظم الأمر وفيه النجاة أو الهلكة .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هذا أيضاً توقيف وتوبيخ على أنهم ساروا ونظروا ، أي إن ذلك لم ينفعهم حين لم يعملوا بحسب العبرة وخوف العاقبة .

قال القاضي أبو محمد : ولا يتوجه للكفرة أن يعارض منهم من لم يسر فيقول لم أسر لأن كافة من سار من الناس قد نقلت إلى من لم يسر فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكل ، وقامت الحجة ، وهذا بين ، وقوله تعالى : ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ يري بالمباني والحرث الحروب ، وسائر الحوادث التي أحدثوها هي كلها إثارة للأرض بعضها حقيقة بعضها تجوز لأن إثارة أهل الأرض والحيوان المتاع ، إثارة للأرض ، وقرأ أبو جعفر " وآثاروا " بمد الهمزة قال ابن مجاهد : ليس هذا بشيء ، قال أبو الفتح : وجهها أنه أشبع فتحة الهمزة فنشأت ألف ونحوه قول ابن هرمة : [الوافر]

فأنت من الغوائل حين ترمى . . . ومن ذم الرجال بمنتزاح

قال وهذا من ضرورة الشعر لا يجيء في القرآن وقرأ أبو حيوة " وآثروا الأرض " بالمد بغير ألف بعد الثاء من الأثرة ، والضمير في ﴿ عمروها ﴾ الأول للماضين والثاني للحاضرين والمعاصرين ، وباقي الآية بين يتضمن الوعد والتخويف من عدل الله تعالى .

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو " عاقبةُ " بالرفع على اسم ﴿ كان ﴾ والخبر يجوز أن يكون ﴿ السوأى ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ أن كذبوا ﴾ وتكون ﴿ السوأى ﴾ على هذا مفعولاً ب ﴿ أساءوا ﴾ وإذا كان ﴿ السوأى ﴾ خبراً ف ﴿ أن كذبوا ﴾ مفعول من أجله ولا يصح تعلقه ب ﴿ أساءوا ﴾ لأن في ذلك فصلاً بين الصلة والموصول بخبر ﴿ كان ﴾ ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " عاقبةَ " بالنصب على أنها خبر مقدم واسم ﴿ كان ﴾ أحد ما تقدم ، و ﴿ السوأى ﴾ مصدر كالرجعى والفتيا والشورى ، ويجوز أن تكون صفة لمذوف تقديره الخلة السوأى أو الخلال السوأى قال أبو حاتم هذه قراءة العامة بالمد على الواو وفتح الهمزة وياء التأنيث فبعض القراء فخم وبعضهم أمال ، وقرأ الحسن " السوّى " بشد الواو دون همز ، وقرأ الأعمش وابن مسعود " السوء " بالتذكير ، وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال " السوء والسوأى " اقرأ بما شئت ، قال ابن عباس ﴿ أساءوا ﴾ هنا بمعى كفروا و ﴿ السوأى ﴾ هي النار والتكذيب ﴿ بآيات الله ﴾ ، تعالى غير الاستهزاء بها فلذلك عدد عليهم الفعلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾

قال الزجاج : معناه : أولم يتفكروا فيعلموا ، فحذف ﴿ فيعلموا ﴾ لأن في الكلام دليلاً [عليه] .

ومعنى ﴿ إِلاَّ بِالحَقِّ ﴾ إلاَّ للحق ، أي لإقامة الحق ﴿ وأَجلٍ مسمّىً ﴾ وهو وقت الجزاء ﴿ وإِنَّ كثيراً من الناس بلقاء ربِّهم لَكافرون ﴾ المعنى : لكافرون بلقاء ربِّهم ، فقدِّمت الباء ، لأنها متصلة ب ﴿ بكافرون ﴾ ؛ وما اتصل بخبر "إِنَّ" جاز أن يقدَّم قبل اللام ، ولا يجوز أن تدخل اللام بعد مضي الخبر من غير خلاف بين النحويين ، لا يجوز أن تقول : إِن زيداً كافرٌ لَبِالله ، لأن اللام حَقُّها أن تدخل على الابتداء أو الخبر ، أو بين الابتداء والخبر ، لأنها تؤكِّد الجملة .

وقال مقاتل في قوله : ﴿ وأَجَلٍ مسمّىً ﴾ : للسموات والأرض أَجَل ينتهيان إِليه ، وهو يوم القيامة ، ﴿ وإِنَّ كثيراً مِنَ الناس ﴾ يعني كفار مكة ﴿ بِلقاء ربِّهم ﴾ أي : بالبعث ﴿ لَكافرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسيروا في الأرض ﴾ أي : أَوَلَمْ يسافروا فينظروا مصارع الأُمم قبلهم كيف أُهلكوا بتكذيبهم فيعتَبروا .

قوله تعالى : ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ أي : قلبوها للزراعة ، ومنه قيل للبقرة : مثيرة .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، ومعاذ القارىء ، وأبو حيوة : ﴿ وآثَرُوا الأرض ﴾ بمد الهمزة وفتح الثاء مرفوعة الراء ، ﴿ وعَمَرُوها أكثرَ مِمَّا عَمَرُوها ﴾ أي : أكثر من عِمارة أهل مكة ، لطول أعمار أولئك وشدة قوّتهم ﴿ وجاءتهم رسُلُهم بالبيّنات ﴾ أي : بالدّلالات ﴿ فما كان اللهُ لِيَظْلِمهم ﴾ بتعذيبهم على غير ذنب ﴿ ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمون ﴾ بالكفر والتكذيب ؛ ودلَّ هذا على أنهم لم يؤمنوا فأُهلكوا .

ثم أخبر عن عاقبتهم فقال : ﴿ ثُمّ كان عاقبةَ الذين أساؤوا السُّوأى ﴾ يعني : الخَلَّة السيِّئة ؛ وفيها قولان .

أحدهما : أنها العذاب ، قاله الحسن .

والثاني : جهنم ، قاله السدي .

(185/601)

قوله تعالى : ﴿ أن كذَّبوا ﴾ قال الفراء : معناه : لأن كذَّبوا ، فلمَّا أُلقيت اللامُ كان نصباً .

وقال الزجاج : لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم .

وقيل : السُّوأى مصدر بمنزلة الإِساءَة ؛ فالمعنى : ثم كان التكذيب آخرَ أمرهم ، أي : ماتوا

على ذلك ، كأنَّ الله تعالى جازاهم على إِساءَتهم أن طبع على قلوبهم حتى ماتوا على التكذيب عقوبةً لهم .

وقال مكي بن أبي طالب النحوي : ﴿ عاقبةُ ﴾ اسم كان ، و ﴿ السُّوأى ﴾ خبرها ، و ﴿ أن كذَّبوا ﴾ مفعول من أجله ؛ ويجوز أن يكون ﴿ السُّوأى ﴾ مفعولة ب ﴿ أساؤوا ﴾ ، و ﴿ أن كذَّبوا ﴾ خبر كان ؛ ومن نصب "عاقبةَ" جعلها خبر "كان" ، و "السُّوأى" اسمها ، ويجوز أن يكون ﴿ أن كذَّبوا ﴾ اسمها .

وقرأ الأعمش : "أساؤوا السُّوءُ" برفع "السُّوءُ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(186/601)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ ظرف للتفكر وليس بمفعول ، تعدّى إليه "يَتَفَكَّرُوا" بحرف جرّ ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم ، إنما أمروا أن يستعملوا التفكر في خلق السموات والأرض وأنفسهم ، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرَها إلا بالحق .

قال الزجاج : في الكلام حذف ، أي فيعلموا ؛ لأن في الكلام دليلاً عليه .

﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ قال الفرّاء : معناه إلا للحق ؛ يعني الثواب والعقاب .

وقيل : إلا لإقامة الحق .

وقيل : "بِالْحَقِّ" بالعدل .

وقيل : بالحكمة ؛ والمعنى متقارب .

وقيل : "بِالْحَقِّ" أي أنه هو الحق وللحق خلقها ، وهو الدلالة على توحيده وقدرته .

﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي للسموات والأرض أجل ينتهيان إليه وهو يوم القيامة .

وفي هذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء .

وقيل : "وَأَجَلٍ مُسَمًّى" أي خلق ما خلق في وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه .

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ اللام للتوكيد ، والتقدير : لكافرون بلقاء ربهم ، على التقديم والتأخير ؛ أي لكافرون بالبعث بعد الموت .

وتقول : إن زيداً في الدار لجالس .

ولو قلت : إن زيداً لفي الدار لجالس جاز .

فإن قلت : إن زيداً جالس لفي الدار لم يجز ؛ لأن اللام إنما يؤتى بها توكيداً لاسم إن وخبرها ، وإذا جئت بهما لم يجز أن تأتي بها .

وكذا إن قلت : إن زيداً لجالس لفي الدار لم يجز .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ ببصائرهم وقلوبهم .

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ أي قلبوها للزراعة ؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حرث ؛ قال الله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الأرض ﴾ [البقرة : 71] .

(187/601)

﴿ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي وعمروها أولئك أكثر مما عمروها هؤلاءِ فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مدّتهم .

﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات .

وقيل : بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا .

﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة .

﴿ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالشرك والعصيان .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ السواءى ﴾ السّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن .

وقيل : يعني بها هاهنا النار ؛ قاله ابن عباس .

ومعنى "أساءوا" أشركوا ؛ دل عليه "أن كذبوا بِآيَاتِ اللَّهِ" .

"السوءى" : اسم جهنم ؛ كما أن الحسنى اسم الجنة .

﴿ أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ أي لأن كذبوا ؛ قاله الكسائي .

وقيل : بأن كذبوا .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو "ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ" بالرفع اسم كان ، وذكّرت لأن تأنيثها غير حقيقي .

و"السُّوءَى" خبر كان .

والباقون بالنصب على خبر كان .

"السوءى" بالرفع اسم كان .

ويجوز أن يكون اسمها التكذيب ؛ فيكون التقدير : ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا ؛ ويكون السوءى مصدراً لأساءوا ، أو صفة لمحذوف ؛ أي الخَلّة السوءى .

وروي عن الأعمش أنه قرأ "ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءُ" برفع السوء قال النحاس : السوء أشدّ الشر ؛ والسوءى الفعلى منه ﴿ أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ قيل بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ؛ قاله الكلبيّ .

مقاتل : بالعذاب أن ينزل بهم .

الضحاك : بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(188/601)

وقال أبو السعود :

(189/601)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لقصرِ نظرِهم على ما ذُكر من ظاهرِ الحياةِ الدُّنيا مع الغفلةِ عن الآخرةِ . والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ . وقولُه تعالى : ﴿ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ ظرفٌ للتفكُّرِ وذكرُه مع ظهورِ استحالةِ كونِه في غيرِها لتحقيق أمرِه وتصويرِ حالِ المتفكِّرين . وقولُه تعالى : ﴿ مَّا خَلَقَ اللهُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ الخ متعلقٌ إمَّا بالعلمِ الذي يؤدّي إليه التَّفكُّر ويدلُّ عليهِ أو بالقولِ الذي يترتَّبُ عليه كما في قولِه تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ أي أعلمُوا ظاهرَ الحياةِ الدُّنيا فقط أو أقصَروا النَّظرَ عليه ولم يُحدِثُوا التفكُّرَ في قلوبِهم فيعلمُوا أنَّه تعالى ما

خلقَهما وما بينهما من المخلُوقاتِ التي هُم من جُملتها ملتبسةً بشيءٍ من الأشياءِ ﴿ إلا ﴾ ملتبسةً ﴿ بالحق ﴾ أي يقولُوا هذا القولَ مُعترفين بمضمونِه إثرَ ما علمُوه . والمرادُ بالحقِّ هوالثابتُ الذي يحقُّ أنْ يثبتَ لا محالةَ لا بتنائِه على الحكمةِ البالغةِ والغرضِ الصَّحيحِ الذي هو استشهادُ المكلَّفين بذواتِها وصفاتِها وأحوالِها المتغيرةِ على وجودِ صانعِها عزَّ وجلَّ ووحدتِه وعلمِه وقدرتِه وحكمتِه واختصاصِه بالمعبُوديَّةِ وصحَّةِ أخبارِه التي مِن جُملتِها إحياؤهم بعد الفناءِ بالحياةِ الأبديَّةِ ومجازاتِهم بحسبِ أعمالِهم غبَّ ما تبيَّن المحسنُ من المسيء وامتازتْ درجاتُ أفرادِ كلَ من الفريقينِ حسبَ امتيازِ طبقاتِ علومِهم واعتقاداتِهم المترتبةِ على أنظارِهم فيما نُصبَ في المصنُوعاتِ من الآياتِ والدَّلائلِ والأماراتِ والمخائلِ كما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فإنَّ العملَ غيرُ مختصَ بعملِ

(190/601)

الجوارحِ ولذلك فسَّره عليه الصَّلاة والسَّلام بقولِه : " أيكم أحسنُ عقلاً وأورعُ عن محارمِ الله وأسرعُ في طاعةِ الله " وقد مرَّ تحقيقُه في أوائلِ سورةِ هُودٍ عليه السَّلام . وقولُه تعالى : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطفٌ على الحقِّ أي وبأجلٍ معينٍ قدرَه الله تعالى لبقائِها لا بدَّ لها مِن أنْ

تنتهيَ إليه لا محالةَ وهو وقتُ قيامِ السَّاعةِ . هذا وقد جُوِّز أنْ يكونَ قولُه تعالى : في أنفسِهم صلةً للتفكُّرِ على معنى أَوَلَم يتفكرُوا في أنفسِهم التي هي أقربُ المخلوقاتِ إليهم وهُم أعلمُ بشؤونِها وأخبرُ بأحوالِها منهم بأحوالِ ما عداها فيتدبَّروا ما أودَعها الله تعالى ظاهراً وباطناً من غرائبِ الحكمِ الدَّالَّةِ على التَّدبيرِ دونَ الإهمالِ وأنَّه لا بدَّ لها من انتهاءٍ إلى وقتٍ يُجازيها فيه الحكيم الذي دبَّر أمرَها على الإحسانِ إحساناً وعلى الإساءةِ مثلَها حتَّى يعلموا عند ذلك أنَّ سائرَ الخلائقِ كذلك أمرُها جارٍ على الحكمةِ والتَّدبيرِ وأنَّه لا بدَّ لها من الانتهاءِ إلى ذلك الوقتِ . وأنتَ خبيرٌ بأنَّ أمرَ معادِ الإنسانِ ومُجازاتِه بما عملَ من الإساءةِ والإحسانِ هو المقصودُ بالذَّاتِ والمحتاجُ إلى الإثباتِ فجعلُه ذريعةً إلى إثباتِ معادِ ما عَداهُ مع كونِه بمعزلٍ من الجزاءِ تعكيسٌ للأمةِ فتدبَّر . وقولُه تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ تذييلٌ مقررٌ لما قبله ببيانِ أن أكثرَهم غيرُ مقتصرين على ما ذُكر من الغفلةِ عن أحوالِ الآخرةِ والإعراضِ عن التَّفكُّرِ فيما يُرشدهم إلى معرفتِها من خلقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما من المصنُوعاتِ بل هم مُنكرون جاحدون بلقاءِ حسابِه تعالى وجزائِه بالبعثِ .

(191/601)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ توبيخٌ لهم بعدَ اتّعاظِهم بمشاهدةِ أحوالِ أمثالِهم الدّالّةِ على عاقبتِهم ومآلِهم . والهمزةُ لتقريرِ المنفيّ ، والواوُ للعطفِ على مقدّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أقعدُوا في أماكنِهم ولم يسيرُوا ﴿ فِى الأرض ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ عطفٌ على يسيروا داخلٌ في حكمِ التّقريرِ والتّوبيخِ ، والمعنى أنّهم قد سارُوا في أقطارِ الأرضِ وشاهدُوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأممِ المهلكةِ كعادٍ وثمودَ ، وقوله تعالى : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ الخ بيانٌ لمبدأِ أحوالِهم ومآلِها يعني أنّهم كانُوا أقدرَ منهم على التّمتع بالحياةِ الدُّنيا حيثُ كانُوا أشدَّ منهم قوّةً ﴿ وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ أي قلبُوها للزراعةِ والحرثِ وقيل لاستنباطِ المياه واستخراجِ المعادنِ وغيرِ ذلك ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ أي عمّرَها أولئك بفنونِ العماراتِ من الزّراعةِ والغرسِ والبناءِ وغيرها ممّا يُعدُّ عمارةً لها . ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي عمارةً أكثرَ كمّا وكيفاً وزماناً من عمارةِ هؤلاءِ إيّاها ، كيف لا وهُم أهلُ وادٍ غيرِ ذي زرعٍ لا تبسُّط لهم في غيرِه وفيه تهكُّم بهم حيثُ كانوا مغترّين بالدُّنيا مفتخرينَ بمتاعِها مع ضعفِ حالِهم وضيقِ عطنِهم إذْ مدارُ أمرِها على التبسطِ في البلادِ والتسلطِ على العبادِ والتقلبِ في أكنافِ الأرضِ بأصنافِ التّصرفاتِ وهُم ضَعَفةٌ ملجأون إلى وادٍ لا نفعَ فيه يخافُون أنْ يتخطّفَهم النّاسُ ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزاتِ أو الآياتِ الواضحاتِ ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي فكذّبوهم فأهلكهم فما كانَ اللهُ ليهلكهم من

غير جُرمٍ يستدعيه من قبلهم ، والتَّعبيرُ عن ذلك بالظَّلمِ مع أنَّ إهلاكَه إيَّاهم بلا جُرمٍ ليس من الظُّلمِ في شيءٍ على تقرَّرَ من قاعدةِ أهلِ السنةِ لإظهارِ كمالِ نزاهتِه تعالى عن

(192/601)

ذلك بإبرازِه في معرضِ ما يستحيلُ صدورُه عنه تعالى وقد مرَّ في سورةِ الأنفالِ وسورةِ آلِ عمرانَ ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بأن اجترأوا على اقترافِ ما يُوجبه من المعاصِي العظيمةِ .

﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة الذين أَسَآءُوا ﴾ أي عملُوا السيئاتِ ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم للتَّسجيلِ عليهم بالإساءةِ والإشعارِ بعلَّةِ الحكمِ ﴿ السَّوأى ﴾ أي العقوبةِ التي هي أسوأُ العقوباتِ وأفظعُها التي هي العقوبةُ بالنارِ فإنَّها تأنيثُ الأسوأِ كالحُسنى تأنيثُ الأحسنِ أو مصدرٌ كالبُشرى وُصفَ به العقوبةُ مبالغةً كأنَّها نفسُ السوآ ، وهي مرفوعةٌ على أنَّها اسمُ كانَ وخبرُها عاقبةَ . وقُرِىء عَلى العكسِ وهو أدخلُ في الجَزَالةِ . وقولُه تعالى : ﴿ أَنْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ علَّةٌ لما أُشيرَ إليه من تعذيبِهم الدُّنيويِّ والأُخرويِّ أي لأنْ كذَّبُوا أو بأنْ كذَّبُوا بآياتِ الله المنزَّلةِ على رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ومعجزاتِه الظَّاهرةِ على أيديهم . وقولُه تعالى : ﴿ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُون ﴾ عطفٌ على كذَّبوا داخلٌ معه في حُكمِ العِلِّيةِ ،

وإيرادُ الاستهزاءِ بصيغةِ المضارعِ للدّلالةِ على استمرارِه وتجدُّدِه هذا هو اللائقُ بجزَالةِ النَّظمِ الجليلِ وقَدْ قيلَ وقيلَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(193/601)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾

إنكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، وقوله سبحانه : ﴿ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ ظرف للتفكر ، وذكره مع أن التفكر لا يكون إلا في النفس لتحقيق أمره وزيادة تصوير حال المتفكرين كما في اعتقده في قلبك وأبصره بعينك ، وقوله عز وجل : ﴿ مَّا خَلَقَ اللهُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ متعلق إما بالعلم الذي يؤدي إليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذي يترتب عليه كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [آل عمران : 191] أي اعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر على ذلك ولم يحدثوا التفكر في قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات التي هم من جملتها ملتبسة بشيء من الأشياء

إلا ملتبسة بالحق أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه إثر ما علموه ، والمراد بالحق هو الثابت الذي يحق أن يثبت لا محالة لابتنائه على الحكم البالغة التي من جملتها استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها على وجود صانعها ووحدته وعلمه وقدرته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التي من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية ومجازاتهم بحسب أعمالهم عما يتبين المحسن من المسيء ويمتاز درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب في المصنوعات من الآيات والدلائل والإمارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله : أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله تعالى وأسرع في طاعة الله عز وجل .

(194/601)

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على الحق أي وبأجل عين قدره الله تعالى لبقائها لا بد لها من أن تنتهي إليه لا محالة وهو وقت قيام الساعة وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، هذا وجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ متعلقاً بيتفكروا ومفعولاً

له بالواسطة على معنى أو لم يتفكروا في ذواتهم وأنفسهم التي هي أقرب المخلوقات إليهم وهم أعلم بشؤونها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الاهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها الحكيم الذي دبر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير .

وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت .

وتعقب بأن أمر معاد الإنسان ومجازاته بما عمل من الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات فجعله ذريعة إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه بمعزل من الأجزاء تعكيس للأمر فتدبر .

وجوز أبو حيان أن يكون ﴿ مَا خَلَقَ ﴾ الخ مفعول ﴿ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ معلقاً عنه بالنفي ، وأنت تعلم أن التعليق في مثله ممنوع أو قليل ، وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَاء رَبِّهِمْ لكافرون ﴾ تذييل مقرر لما قبله ببيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ما ذكر من الغفلة من أحوال الآخرة والإعراض عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق السموات والأرض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون لقاء حسابه تعالى وجزائه عز وجل بالبعث ، وهم القائلون بأبدية الدنيا كالفلاسفة على المشهور .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم ؛ والهمزة للإنكار التوبيخي أو الإبطالي وحيث دخلت على النفي وإنكار النفي إثبات قيل : إنها لتقرير المنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي اقعدوا في أماكنهم ولم يسيروا في الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ عطف على يسيروا داخل في حكمه والمعنى أنهم قد ساروا في أقطار الأرض وشاهدوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المهلكة كعاد .

وثمود ، وقوله تعالى : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ الخ بيان لمبدإ أحوالهم ومآلهم يعني أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة ﴿ وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ أي قلبوها للحرث والزراعة كما قال الفراء ، وقيل : لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك .

وقرأ أبو جعفر ﴿ وَأَثَارُواْ ﴾ بمدة بعد الهمزة ، وقال ابن مجاهد : ليس بشيء وخرج ذلك أبو الفتح على الأشباع كقوله

ومن ذم الزمان بمنتزاح . . .

وذكر أن هذا من ضرورة الشعر ولا يجيء في القرآن ، وقرأ أبو حيوة وأثروا من الأثرة وهو الاستبداد بالشيء وآثروا الأرض أي أبقوا فيها آثاراً ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ أي وعمرها أولئك الذين كانوا قبلهم بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها ، وقيل : أي أقاموا بها ، يقال عمرت بمكان كذا وعمرته أي أقمت به ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي عمارة أكثر من عمارة هؤلاء إياها والظاهر أن الأكثرية باعتباراً لكم وعممه بعضهم فقال : أكثر كماً وكيفاً وزماناً ، وإذا أريد العمارة بمعنى الإقامة فالمعنى أقاموا بها إقامة أكثر زماناً من إقامة هؤلاء بها ، وفي ذكر أفعل تهكم بهم إذ لا مناسبة بين كفار مكة وأولئك الأمم المهلكة فإنهم كانوا معروفين بالنهاية في القوة وكثرة العمارة وأهل مكة ضعفاء ملجؤون إلى واد غير ذي زرع يخافون أن يتخطفهم الناس ، ونحو هذا يقال إذا فسرت العمارة بالإقامة فإن أولئك كانوا مشهورين بطول الأعمار جداً وأعمار أهل مكة قليلة بحيث لا مناسبة يعتد بها بينها وبين أعمال أولئك المهلكين .

﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات ﴿ فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي فكذبوهم فأهلكهم فما كان الله تعالى شأنه ليهلكهم من غير جرم يستدعيه

من قبلهم ، وفي التعبير عن ذلك بالظلم إظهار لكمال نزاهته تعالى عنه وإلا فقد قال أهل السنة : إن إهلاكه تعالى من غير جرم ليس من الظلم في شيء لأنه عز وجل مالك والمالك يفعل بملكه ما يشاء والنزاع في المسألة شهير ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث ارتكبوا باختيارهم من المعاصي ما أوجب بمقتضي الحكمة ذلك ، وتقدم ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ على ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ للفاصلة ؛ وجوز أن يكو للحصر بالنسبة إلى الرسل الذين يدعونهم .

(197/601)

﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة الذين ﴾ أي عملوا السيئات ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة والإشعار بعلة الحكم ، و﴿ تَتَّقُونَ ثُمَّ ﴾ للتراخي الحقيقي أو للاستبعاد والتفاوت في الرتبة ﴿ السُّوأَى ﴾ أي العقوبة السوأى وهي العقوبة بالنار فإنها تأنيث الأسوأ كالحسنى تأنيث الأحسن أو مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوء ، وهي مرفوعة على أنها اسم كان وخبرها ﴿ وَلِلَّهِ عاقبة ﴾ .

وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو ﴿ عاقبة ﴾ بالرفع على أنه اسم كان و﴿ السوأى ﴾ بالنصب على الخبرية ، وقرأ الأعمش .

والحسن ﴿ الصراط السوي ﴾ بإبدال الهمزة واواً وإدغام الواو فيها ، وقرأ ابم مسعود ﴿ السوء ﴾ بالتذكير ﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة الذين ﴾ علة للحكم المذكور أي لأن أو بأن كذبوا وهو في الحقيقة مبين لما أشعر به وضع الموصول موضع الضمير لأنه مجمل .

(198/601)

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ بِهَا ﴾ عطف على ﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ ﴾ داخل معه في حكم العلية وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده ، وجوز أن يكون ﴿ السوأى ﴾ مفعولاً مطلقاً لأساؤا من غير لفظه أو مفعولاً به له لأن أساؤا بمعنى اقترفوا واكتسبوا ، والسوأى بمعنى الخطيئة لأنه صفة أو مصدر مؤول بها وكونه صفة مصدر أساؤا من لفظه أي الإساءة السوأى بعيد لفظاً مستدرك معنى ، و ﴿ السوءى أَن كَذَّبُواْ ﴾ اسم كان ، وكون التكذيب عاقبتهم مع أنهم لم يخلوا عنه إما باعتبار استمراره أو باعبار أنه عبارة عن الطبع ، وجوز أيضاً أن يكون أن كذبوا بدلاً من ﴿ السوأى ﴾ الواقع اسماً لكان أو عطف بيان لها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي إن كذبوا ، وأن تكون ﴿ إن ﴾ تفسيرية بمعنى أي والمفسر إما أساؤا أو ﴿ السوأى ﴾ فإن الإساءة تكون قولية كما تكون فعلية فإذن ما قبلها مضمن معنى القول دون حروفه ويظهر ذلك التضمن بالتفسير ، وإذا

جاز ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا ﴾ [ص : 6] فهذا أجوز فليس هذا الوجه متكلفاً خلافاً لأبي حيان .

وجوز في قراءة الحرميين .

وأبي عمرو أن تكون ﴿ السوأي ﴾ صلة الفعل ﴿ وَأَنْ كَذَّبُواْ ﴾ تابعاً له أو خبر مبتدأ محذوف أو على تقدير حرف التعليل وخبر كان محذوفاً تقديره وخيمة ونحوه .

وتعقب ذلك في "البحر" فقال : هو فهم أعجمي لأن الكلام مستقل في غاية الحسن بلا حذف وقد تكلف له محذوف لا يدل عليه دليل ، وأصحابنا لا يجيزون حذف خبر كان .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(199/601)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) ﴾

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة في فاتحة سورة البقرة ، وتقدّم الكلام على محلها من الإعراب ، ومحلّ أمثالها في غير موضع من فواتح السور .

قرأ الجمهور : ﴿ غلبت الروم ﴾ بضم الغين المعجمة وكسر اللام مبنياً للمفعول ، وقرأ عليّ

بن أبي طالب وأبو سعيد الخدري ومعاوية بن قرّة وابن عمر وأهل الشام بفتح الغين ، واللام مبنياً للفاعل .

قال النحاس : قراءة أكثر الناس : ﴿ غُلِبَتِ ﴾ بضم الغين وكسر اللام .

قال أهل التفسير : غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة وقالوا : الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب ، وافتخروا على المسلمين وقالوا : نحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارس الروم ، وكان المسلمين يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب .

ومعنى ﴿ فِي أَدْنَى الأرض ﴾ : في أقرب أرضهم من أرض العرب ، أو في أقرب أرض العرب منهم .

قيل : هي أرض الجزيرة .

وقيل : أذرعات .

وقيل : كسكر : وقيل : الأدرن .

وقيل : فلسطين ، وهذه المواضع هي أقرب إلى بلاد العرب من غيرها ، وإنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهود في ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب .

وقيل : إن الألف واللام عوض عن المضاف إليه .

والتقدير : في أدنى أرضهم فيعود الضمير إلى الروم ، ويكون المعنى : في أقرب أرض الروم من العرب .

قال ابن عطية : إن كانت الوقعة بأذرعات ، فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وإن كانت الوقعة بالجزيرة ، فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأردن ، فهي أدنى إلى أرض الروم ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ أي والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون أهل فارس ، والغلب والغلبة لغتان ، والمصدر مضاف إلى المفعول على قراءة الجمهور ، وإلى الفاعل على قراءة غيرهم .

(200/601)

قرأ الجمهور : ﴿ سيغلبون ﴾ مبنياً للفاعل ، وقرأ علي وأبو سعيد ومعاوية بن قرّة وابن عمر ، وأهل الشام على البناء للمفعول ، وسيأتي في آخر البحث ما يقوّي قراءة الجمهور في الموضعين .

وقرأ أبو حيوة الشامي وابن السميفع : " من بعد غلبهم " بسكون اللام .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ متعلق بما قبله ، وقد تقدّم تفسير البضع واشتقاقه في سورة يوسف ، والمراد به هنا ما بين الثلاثة إلى العشرة ﴿ لِلَّهِ الأَمرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ أي هو المنفرد بالقدرة وإنفاذ الأحكام وقت مغلوبيتهم ووقت غالبيتهم ، فكلّ ذلك بأمر الله سبحانه وقضائه ، قرأ الجمهور : ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ بضمهما لكونهما مقطوعين عن الإضافة ،

والتقدير : من قبل الغلب ومن بعده ، أو من قبل كل أمر ومن بعده .

وحكى الكسائي " من قبل ومن بعدُ " بكسر الأوّل منوّناً وضم الثاني بلا تنوين .

وحكى الفراء " من قبلِ ومن بعدِ " بكسرهما من غير تنوين ، وغلطه النحاس .

قال شهاب الدين : قد قرىء بكسرهما منوّنين .

قال الزجاج : ومعنى الآية : من متقدّم ومن متأخر ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ أي يوم أن تغلب الروم على فارس في بضع سنين يفرح المؤمنون بنصر الله للروم لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب ، بخلاف فارس فإنه لا كتاب لهم ، ولهذا سرّ المشركون بنصرهم على الروم .

وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ، والأوّل أولى .

قال الزجاج : وهذه الآية من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله لأنه إنباء بما سيكون ، وهذا لا يعلمه إلاّ الله سبحانه ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاء ﴾ أن ينصره ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الغالب القاهر ﴿ الرحيم ﴾ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين .

وقيل : المراد بالرحمة هنا : الدنيوية ، وهي شاملة للمسلم والكافر .

﴿ وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ أي : وعد الله وعداً لا يخلفه ، وهو ظهور الروم على فارس ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله لا يخلف وعده ، وهم الكفار ، وقيل : كفار مكة على الخصوص .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ أي يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا وملاذها وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية .

وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع .

وقيل : الظاهر : الباطل ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة ﴾ التي هي النعمة الدائمة ، واللذة الخالصة ﴿ هُمْ غافلون ﴾ لا يلتفتون إليها ولا يعدون لها ما يحتاج إليه ، أو غافلون عن الإيمان بها والتصديق بمجيئها .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ الله السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ الهمزة للإنكار عليهم ، والواو للعطف على مقدّر كما في نظائره ، و ﴿ في أنفسهم ﴾ ظرف للتفكر وليس مفعولاً للتفكر والمعنى : أن أسباب التفكر حاصلة لهم ، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانية الله وصدق أنبيائه .

وقيل : إنها مفعول للتفكر .

والمعنى : أو لم يتفكروا في خلق الله إياهم ولم يكونوا شيئاً ؟ و"ما" في : ﴿ ما خلق الله ﴾

نافية ، أي لم يخلقها إلاّ بالحق الثابت الذي يحق ثبوته ، أو هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض ، أي بما خلق الله ، والعامل فيها العلم الذي يؤدي إليه التفكر .

وقال الزجاج : في الكلام حذف ، أي فيعلموا ، فجعل " ما " معمولة للفعل المقدّر لا للعلم المدلول : عليه ، والباء في : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ إما للسببية ، أو هي ومجرورها في محل نصب على الحال ، أي ملتبسة بالحق .

قال الفراء : معناه : إلاّ للحق ، أي للثواب ، والعقاب .

وقيل : بالحق : بالعدل .

وقيل : بالحكمة .

(202/601)

وقيل : بالحق ، أي أنه هو الحق وللحق خلقها ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ معطوف على الحق ، أي وبأجل مسمى للسماوات والأرض وما بينهما تنتهي إليه ، وهو يوم القيامة ، وفي هذا تنبيه على الفناء ، وأن لكل مخلوق أجلاً لا يجاوزه .

وقيل : معنى ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ : أنه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشيء ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَاء رَبِّهِمْ لكافرون ﴾ أي لكافرون بالبعث بعد الموت ، واللام هي

المؤكدة ، والمراد بهؤلاء : الكفار على الإطلاق ، أو كفار مكة .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار ، والفاء في : ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ للعطف على ﴿ يسيروا ﴾ داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع والتوبيخ ، والمعنى : أنهم قد ساروا وشاهدوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من طوائف الكفار الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم بالله ، وجحودهم للحق وتكذيبهم للرسل ، وجملة : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ مبينة للكيفية التي كانوا عليها ، وأنهم أقدر من كفار مكة ومن تابعهم على الأمور الدنيوية ، ومعنى ﴿ وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ : حرثوها وقلبوها للزراعة وزاولوا أسباب ذلك ، ولم يكن أهل مكة أهل حرث ﴿ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي عمروها عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء ؛ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً ، وأقوى أجساماً ، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش ، فعمروا الأرض بالأبنية والزراعة والغرس ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ بالبينات ، أي المعجزات .

وقيل : بالأحكام الشرعية ﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بتعذيبهم على غير ذنب ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والتكذيب .

﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة الذين أَسَاءُواْ ﴾ أي عملوا السيئات من الشرك والمعاصي ﴿ السُوأَى ﴾ هي فعلى من السوء ثأنيث الأسوأ ، وهو : الأقبح ، أي كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات .

وقيل : هي اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة ، ويجوز أن تكون مصدراً كالبشرى والذكرى ، وصفت به العقوبة مبالغة .

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : " عاقبة " بالرفع على أنها اسم كان ، وتذكير الفعل لكون تأنيثها مجازياً ، والخبر السوأى ، أي الفعلة أو الخصلة أو العقوبة السوأى أو الخبر ﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ أي : كان آخر أمرهم التكذيب ، وقرأ الباقون : ﴿ عاقبة ﴾ بالنصب على خبر كان ، والاسم السوأى ، أو أن كذبوا ، ويكون التقدير : ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساؤوا ، والسوأى مصدر أساؤوا ، أو صفة لمحذوف .

وقال الكسائي : إن قوله : ﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ في محل نصب على العلة ، أي لأن كذبوا بآيات الله التي أنزلها على رسله ، أو بأن كذبوا ، ومن القائلين بأن السوأى : جهنم ، الفراء والزجاج وابن قتيبة وأكثر المفسرين ، وسميت : سوأى لكونها تسوء صاحبها .

قال الزجاج : المعنى : ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات الله واستهزائهم ، وجملة : ﴿ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ عطف على كذبوا ، داخلة معه في حكم العلية على

أحد القولين ، أو في حكم الاسمية لكان ، أو الخبرية لها على القول الآخر .

وقد أخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والطبراني في الكبير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم ﴾ قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم كانوا أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(204/601)

" أما إنهم سيغلبون " فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " ألا جعلته " - أراه قال - : دون العشر ، فظهرت الروم بعد ذلك ، فذلك قوله : ﴿ الم غُلِبَتِ الروم ﴾ فغلبت ، ثم غلبت بعد بقول الله : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر .

وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب نحوه ، وزاد : أنه لما مضى الأجل ولم تغلب الروم فارس ، ساء النبيّ ما جعله أبو بكر من المدّة وكرهه وقال : " ما دعاك إلى هذا ؟ " قال : تصديقاً لله ولرسوله فقال : " تعرّض لهم وأعظم الخطة واجعله إلى بضع سنين " ، فأتاهم أبو بكر فقال : هل لكم في العود ، فإن العود أحمد ؟ قالوا : نعم ، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس ، وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا رومية ، فقمر أبو بكر ، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " هذا السحت تصدّق به " .

(205/601)

وأخرج الترمذي وصححه ، والدارقطني في الأفراد ، والطبراني وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، والبيهقي في الشعب عن نيار ابن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم ﴾ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ، لأنهم وإياهم أهل الكتاب ، وفي ذلك يقول الله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ وكانت قريش تحبّ ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم

فِي أَدْنَى الأرض وَهُم مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر : ذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبي بكر : لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه ، قال : فسموا بينهم ستّ سنين ، فمضت الستّ قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم ، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ستّ سنين ؛ لأن الله قال : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير .

وأخرج الترمذي وحسنه ، وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : " لا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع " وأخرج البخاري عنه في تاريخه نحوه .

وأخرج الفريابي ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت : " الم * غُلِبَتِ الروم " قرأها بالنصب يعني للغين على البناء للفاعل إلى قوله : ﴿ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ .

قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس ، وهذه الرواية مفسرة لقراءة أبي سعيد ومن معه .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي الدرداء قال : سيجيء أقوام يقرؤون : " الم * غَلِبَتِ الروم " يعني : بفتح الغين ، وإنما هي ﴿ غلبت ﴾ : يعني : بضمها ، وفي الباب روايات وما ذكرناه يغني عما سواه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ يعني : معايشهم ، متى يغرسون ؟ ومتى يزرعون ؟ ومتى يحصدون ؟ وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قال : كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(207/601)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ وهُمْ عن الآخرة هم غَافِلون ﴾ [الروم : 7] لأنهم نفوا الحياة الآخرة

فسيق إليهم هذا الدليل على أنها من مقتضى الحكمة .

فضمير ﴿ يتفكروا ﴾ عائد إلى الغافلين عن الآخرة وفي مقدمتهم مشركو مكة .

والاستفهام تعجيبي من غفلتهم وعدم تفكرهم .

والتقدير : هم غافلون وعجيب عدم تفكرهم .

ومناسبة هذا الانتقال أن لإحالتهم رجوع الدَّالة إلى الروم بعد انكسارهم سببين:

أحدهما : اعتيادهم قصر أفكارهم على الجولان في المألوفات دون دائرة الممكنات ، وذلك من أسباب إنكارهم البعث وهو أعظم ما أنكروه لهذا السبب .

وثانيهما : تمردهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن شاهدوا معجزته فانتقل الكلام إلى نقض آرائهم في هذين السببين .

والتفكر : إعمال الفكر ، أي الخاطر العقلي للاستفادة منه ، وهو التأمل في الدلالة العقلية . وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِير أَفَلا تَتَفَكَرون ﴾ في سورة الأنعام (50) .

والأنفس : جمع نفْس .

والنفس يطلق على الذات كلها ، ويطلق على باطن الإنسان ، ومنه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ تعْلَم مَا فِي نَفْسِي ﴾ [المائدة : 116] كقول عمر يوم السقيفة : "وكُنت زوّقت في نفسي مقالة" أي في عقلي وباطني .

وحرف ﴿ في ﴾ من قوله ﴿ فِي أَنْفُسهم ﴾ يجوز أن يكون للظرفية الحقيقية الاعتبارية فيكون ظرفاً لمصدر ﴿ يَتَفَكَّرُوا ، أي تفكراً مستقراً في أنفسهم .

وموقع هذا الظرف مما قبله موقع معنى الصفة للتفكر .

(208/601)

وإذ قد كان التفكر إنما يكون في النفس فذكر في أنفسهم لتقوية تصوير التفكر وهو كالصفة الكاشفة لتقرر معنى التفكر عند السامع ، كقوله ﴿ ولاَ تخطّهُ بيَمِينك ﴾ [العنكبوت : 48] وقوله ﴿ ولاَ طَائِر يَطِير بجَنَاحَيه ﴾ [الأنعام : 38] ، وتكون جملة ﴿ مَا خَلَقَ الله السَّمَاوات والأرْض ﴾ الخ على هذا مُبينة لجملة ﴿ يَتَفَكَّرُوا ﴾ إذ مدلولها هو ما يتفكرون فيه كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَتَفَكَّروا ما بِصَاحبهم من جنة ﴾ [الأعراف : 184] .

ويجوز أن يكون ﴿ في ﴾ للظرفية المجازية متعلقة بفعل ﴿ يَتَفكروا ﴾ تعلق المفعول بالفعل ، أي يتدبروا ويتأملوا في أنفسهم .

والمراد بالأنفس الذوات فهو في معنى قوله تعالى ﴿ وفي أَنْفُسكم أَفَلا تُبْصِرون ﴾ [الذاريات : 21] ؛ فإن حق النظر المؤدّي إلى معرفة الوحدانية وتحقق البعث أن يبدأ

بالنظر في أحوال خلقة الإنسان قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون ﴾ [المؤمنون : 115] وهذا كقوله تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ﴾ [الأعراف : 185] أي في دلالة ملكوت السماوات والأرض ، وتكون جملة ﴿ مَا خَلَق الله السماوَات والأرْض ﴾ الخ على هذا التفسير بدل اشتمال من قوله ﴿ أنْفُسهم ﴾ إذ الكلام على حذف مضاف ، تقديره : في دلالة أنفسهم ، فإن دلالة ﴿ أنفُسهم ﴾ تشتمل على دلالة خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق لأن ﴿ أنفُسهم ﴾ مشمولة لما في الأرض من الخلق ودالة على ما في الأرض ، وكذلك يطلق ما في الأرض دال على خلق أنفسهم .

وعلى الاحتمالين وقع تعليق فعل ﴿ يَتَفَكَّروا ﴾ عن العمل في مفعولين لوجود النفي بعده .

ومعنى ﴿ خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق : أن خلقهم ملابسٌ للحق .

(209/601)

والحق هنا هو ما يحق أن يكون حِكمةِ لخلق السماوات والأرض وعلة له ، وحق كل ماهية ونوع هو ما يحق أن يتصرف به من الكمال في خصائصه وأنه به حقيق كما يقول الأب لابنه القائم ببره : أنت ابني حقاً ، ألا ترى أنهم جعلوا تعريف النكرة بلام الجنس دالاً على معنى

الكمال في نحو : أنت الحبيب ، لأن اسم الجنس في المقام الخطابي يؤذن بكماله في صفاته ، وإنما يعرف حق كل نوع بالصفات التي بها قابليته ، ومن ينظر في القابليات التي أودعها الله تعالى في أنواع المخلوقات يجد كل الأنواع مخلوقة على حدود خاصة بها إذا هي بلغتها لا تقبل أكثر منها ؛ فالفرس والبقرة والكلب الكائنات في العصور الخالية وإلى زمن آدم لا تتجاوز المتأخرة من أمثالها حدودها التي كانت عليها فهي في ذلك سواءٌ .

دلت على ذلك تجارب الناس الحاضرين لأجيالها الحاضرة ، وأخبارُ الناس الماضين عن الأجيال المعاصرة لها ، وقياسُ ما كان قبل أزمان التاريخ على الأجيال التي انقرضت قبلها حاشا نوع الإنسان فإن الله فَطَره بقابلية للزيادة في كمالات غير محدودة على حسب أحوالِ تجدُّدِ الأجيال في الكمال والارتقاء وجعله السلطان على هذا العالم والمتصرف في أنواع مخلوقات عالَمِه كما قال ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ [البقرة : 29] وذلك بما أودع فيه من العقل .

ودلت المشاهدة على تفاوت أفراد نوع الإنسان في كمال ما يصلح له تفاوتاً مترامي الأطراف ، كما قال البحتري:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً . . .

لدى الفضل حتى عُدّ ألف بواحد

فدلت التجربة في المشاهدة كما دلت الأخبار عن الماضي وقياس ما قبل التاريخ على ما بعده ، كل ذلك دل على هذا المعنى ، ولأجل هذا التفاوت كلف الإنسان خالقُه بقوانين ليبلغ مرتقى الكمال القابل له في زمانه ، مع مراعاة ما يحيط به من أحوال زمانه ، وليتجنب إفساد نفسه وإفساد بني نوعه ، وقد كان ما أعطيه نوع الإنسان من شُعب العقل مخوّلاً إياه أن يفعل على حسب إرادته وشهوته ، وأن يتوخّى الصواب أو أن لا يتوخّاه ، فلما كلفه خالقهُ باتباع قوانين شرائعه ارتكب واجتنب فالتحق تارة بمراقي كماله ، وقصَّر تارة عنها قصوراً متفاوتاً ، فكان من الحكمة أن لا يُهمَل مسترسلاً في خطوات القصور والفساد ، وذلك إما بتسليط قوة مُلْجِئَة عليه تستأصل المفسد وتستبقي المصلح ، وإما بإراضته على فعل الصلاح حتى يصير منساقاً إلى الصلاح باختياره المحمود ، إلا أن حكمة أخرى ربانية اقتضت بقاء عمران العالم وعدمَ استئصاله ، وبذلك تعطل استعمال القوة المستأصلة ، فتعين استعمال إراضته على الصلاح ، فجمع الله بين الحكمتين بأن جعل ثواباً للصالحين على قدر صلاحهم وعقاباً للمفسدين بمقدار عملهم ، واقعاً ذلك كلُّه في عالم غير هذا العالم ، وأبلغ ذلك إليهم على ألسنة رسله وأنبيائه إزالة للوصمة ، وتنبيهاً على الحكمة ، فخاف فريق ورجا فارتكب واجتنب ، وأعرض فريق ونأى فاجترح واكتسب ، وكانَ من حق آثار هاته الحِكم أن لا يُحرم الصالح من ثوابه ، وأن لا يفوتَ المفسد بمَا به ليظهر حق

أهل الكمال ومَن دونهم من المراتب ، فجعل الله بقاء أفراد النوع في هذا العالم محدوداً بآجال معينة وجعل لبقاء هذا العالم كله أجلاً معيناً ، حتى إذا انتهت جميع الآجال جاء يوم الجزاء على الأعمال ، وتميز أهل النقص من أهل الكمال .

(211/601)

فكان جَعْل الآجال لبقاء المخلوقات من جملة الحق الذي خُلقت ملابِسةً له ، ولذلك نُبّه عليه بخصوصه اهتماماً بشأنه ، وتنبيهاً على مكانه ، وإظهاراً أنه المقصدُ بكيانه ، فعطفه على الحق للاهتمام به ، كما عطف ضده على الباطل ، في قوله ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] فقال ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى .

وقد مضى في سورة الأنعام (73) قوله ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ﴾ الآية .

وفائدة ذكر السماوات هنا أنّ في أحوال السماوات من شمسها وكواكبها وملائكتها ما هو من جملة الحق الذي خلقت ملابسة له ، أما ما وراء ذلك من أحوالها التي لا نَعرف نسبة تعلقها بهذا العالم ، فنَكِلُ أمره إلى الله ونقيسُ غائبه على الشاهد ، فنُوقنُ بأنه ما خُلق إلا

بالحق كذلك .

فشواهد حقيَّة البعث والجزاء بادية في دقائق خلق المخلوقات ، ولذلك أعقبه بقوله وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ ، وهذا كقوله تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون ﴾ [المؤمنون : 115] .

والمسمَّى : المقدَّر .

أطلقت التسمية على التقدير ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ونُقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ﴾ في سورة الحج (5) .

وعند قوله تعالى ﴿ ولولا أجل مسمّى لجاءهم العذاب ﴾ في سورة العنكبوت (53) .

وجملة وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ تذييل .

وتأكيده بـ ﴿ إن ﴾ لتنزيل السامع منزلة من يشك في وجود من يجحد لقاء الله بعد هذا الدليل الذي مضى بَلْهَ أن يكون الكافرون به كثيراً .

والمراد بالكثير هنا : مشركو أهل مكة وبقية مشركي العرب المنكرين للبعث ومن ماثلهم من الدهريين .

ولم يعبر هنا بـ ﴿ أكثر الناس ﴾ [العنكبوت : 60] لأن المثبتين للبعث كثيرون مثل أهل الكتاب والصابئة والمجوس والقبط .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

عطف على جملة ﴿ أَوْلَمْ يَتَفكروا في أَنْفُسهم ﴾ [الروم : 8] وهو مثل الذي عطف هو عليه متصل بما يتضمنه قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم : 6] أن من أسباب عدم علمهم تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام الذي أنبأهم بالبعث ، فلما سيق إليهم دليل حكمة البعث والجزاء بالحق أعقب بإنذارهم موعظة لهم بعواقب الأمم الذين كذبوا رسلهم لأن المقصود هو عاقبة تكذيبهم رسل الله وهو قوله ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ﴾ الآية .

والأمر بالسير في الأرض تقدم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ سيروا في الأَرْض ثم انظروا كيفَ كَانَ عَاقِبَة المكذبِين ﴾ في سورة الأنعام (11) ، وقوله : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ في سورة العنكبوت (20) .

والاستفهام في ﴿ أَوَلَم يسيروا ﴾ تقريري .

وجاء التقرير على النفي للوجه الذي ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ [الأعراف : 148] وقوله ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ في الأنعام (130) ، وقوله ﴿ أليس في جهنم مثوىً للكافرين ﴾ في آخر العنكبوت (68) .

والأرض : اسم للكرة التي عليها الناس .

والنظر : هنا نظر العين لأن قريشاً كانوا يمرّون في أسفارهم إلى الشام على ديار ثمود وقوم لوط وفي أسفارهم إلى اليمن على ديار عاد .

وكيفية العاقبة هي حالة آخر أمرهم من خراب بلادهم وانقطاع أعقابهم فعاضد دلالة التفكر التي في قوله ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ [الروم : 8] الآية بدلالة الحس بقوله : ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

وكيف ﴾ استفهام معلِّق فعل ﴿ ينظروا ﴾ عن مفعوله ، فكأنه قيل : فينظروا ثم استؤنف فقيل : كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

(213/601)

والعاقبة : آخر الأمر من الخير والشرّ ، بخلاف العُقبى فهي للخير خاصة إلا في مقام المشاكلة ، وتقدم ذكر العاقبة في قوله ﴿ والعَاقِبَةُ لِلمُتَّقين ﴾ في الأعراف (128) .

وقد جمع قوله ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ وعيداً على تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وتجهيلاً لإحالتهم الممكنَ ، حيث أيقنوا بأن الفرس لا يُغلَبون بعد انتصارهم .

فهذه آثار أمم عظيمة كانت سائدة على الأرض فزال ملكهم وخلت بلادهم من سبب

تغلب أمم أخرى عليهم .

والمراد بالذين من قبلهم : عاد وثمود وقوم لوط وأمثالهم الذين شاهد العرب آثارهم .

والمعنى : أنهم كانوا من قبلهم في مثل حالتهم من الشرك وتكذيب الرسل المرسلين إليهم ، كما دل عليه قوله عقبه ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ الآية .

﴿ مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا ﴾

كل أولئك كانوا أشد قوة من قريش وأكثر تعميراً في الأرض ، وكلهم جاءتهم رسل ، وكلهم كانت عاقبتهم الاستئصال ، كل هذه ما تُقرّ به قريش .

وجملة ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ بيان لجملة ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ .

والشدة : صلابة جسم ، وتستعار بكثرة لقوة صفة من الأوصاف في شيء تشبيهاً لكمال الوصف وتمامه بالصلابة في عسر التحول .

وتقدم في قوله : ﴿ وأولوا بأس شديد ﴾ في سورة النمل (33) .

والقوة : حالة بها يقاوم صاحبها ما يوجب انخرامه ، فمن ذلك قوة البدن ، وقوة الخشب ، وتستعار القوة لما به تُدفع العادية وتستقيم الحالة ؛ فهي مجموع صفات يكون بها بقاء الشيء على أكمل أحواله كما في قوله : ﴿ نحن أولوا قوة ﴾ [النمل : 33] فقوة الأمة مجموع ما به تدفع العوادي عن كِيانها وتستبقي صلاح أحوالها من عُدد حربيّة وأموال وأبناء وأزواج .

وحالة مشركي قريش لا تداني أحوال تلك الأمم في القوة ، وناهيك بعاد فقد كانوا مضرب الأمثال في القوة في سائر أمورهم ، والعرب تصف الشيء العظيم في جنسه بأنه عاديٌّ نسبةً إلى عاد .

وعطف ﴿ أثاروا ﴾ على ﴿ كانوا ﴾ فهو فعل مشتق من الإثارة بكسر الهمزة ، وهي تحريك أجزاء الشيء ، فالإثارة : رفع الشيء المستقر وقَلْبُه بعد استقراره ، قال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتُثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] أي : تسوقه وتدفعه من مكان إلى مكان .

وأطلقت الإثارة هنا على قلب تراب الأرض بجعل ما كان باطناً ظاهراً وهو الحرث ، قال تعالى : ﴿ لا ذلول تثير الأرض ﴾ [البقرة : 71] ، وقال النابغة يصف بقر الوحش إذا حفرت التراب:

يُثرنَ الحصى حتى يباشرن بَرده . . .

إذا الشمس مجّت ريقها بالكلاكل

ويجوز أن يكون ﴿ أثاروا ﴾ هنا تمثيلاً لحال شدة تصرفهم في الأرض وتغلبهم على من

سواهم بحال من يثير ساكناً ويهيجه ، ومنه أطلقت الثورة على الخروج عن الجماعة .

وهذا الاحتمال أنسب بالمقصود الذي هو وصف الأمم بالقوة والمقدرة من احتمال أن تكون الإثارة بمعنى حرث الأرض لأنه يدخل في العمارة .

وضمير ﴿ أثاروا ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ كانوا أشد ﴾ .

ومعنى عمارة الأرض : جعلها عامرة غير خلاء وذلك بالبناء والغرس والزرع .

يقال : ضيعة عامرة ، أي : معمورة بما تعمر به الضياع ، ويقال في ضده : ضيعة غامرة .

ولكون قريش لم تكن لهم إثارة في الأرض بكلا المعنيين إذ كانوا بِواد غير ذي زرع لم يقل في هذا الجانب : أكثر مما أثاروها .

وضميرا جمع المذكر في قوله : ﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ راجع أولهما إلى ما رجع إليه ضمير ﴿ أثاروا ﴾ وثانيهما إلى ما رجع إليه ضمير يسيروا في الأرض .

ويعرف توزيع الضميرين بالقرينة مثل توزيع الإشارة في قوله تعالى : ﴿ هذا من شِيعتِه وهذا من عدوِّه ﴾ في سورة [القصص : 15] كالضميرين في قول عباس بن مرداس يذكر قتال هوازن يوم حُنين:

عُدنا ولولا نحن أحدقَ جمعُهم . . .

بالمسلمين وأحرزوا ما جمَّعوا

وتقدم تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ في سورة يونس (58) ، أي عمر الذين من قبلهم الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء ، فإن لقريش عمارة في الأرض من غرس قليل وبناء وتفجير ولكنه يتضاءل أمام عمارة الأمم السالفة من عاد وثمود .

وتفريع فما كان الله ليظلمهم ﴾ على قوله ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ إيجاز حذف بديع ، لأن مجيء الرسل بالبينات يقتضي تصديقاً وتكذيباً فلما فرع عليه أنهم ظلموا أنفسهم عُلم أنهم كذَّبوا الرسل وأن الله جازاهم على تكذيبهم رسله بأن عاقبهم عقاباً لو كان لغير جرم لشابه الظلم ، فجعل من مجموع نفي ظلم الله إياهم ومن إثبات ظلمهم أنفسَهم معرفة أنهم كذَّبوا الرسل وعاندوهم وحلّ بهم ما هو معلوم من مشاهدة ديارهم وتناقل أخبارهم .

والاستدراك ناشىء على ما يقتضيه نفي ظلم الله إياهم من أنهم عوملوا معاملة سيئة لو لم يستحقوها لكانت معاملة ظلم .

وعبر عن ظلمهم أنفسهم بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ظلمهم وتكرره وأن الله أمهلهم فلم يقلعوا حتى أخذهم بما دلت عليه تلك العاقبة ، والقرينة قوله ﴿ كانوا ﴾ .

وتقديم ﴿ أنفسهم ﴾ وهو مفعول ﴿ يظلمون ﴾ على فعله للاهتمام بأنفسهم في تسليط ظلمهم عليها لأنه ظلم يتعجب منه ، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة .

وليس تقديم المفعول هنا للحصر لأن الحصر حاصل من جملتي النفي والإثبات .

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لأن هذه العاقبة أعظم رتبة في السوء من عذاب الدنيا ، فيجوز أن يكون هذا الكلام تذييلاً لحكاية ما حلّ بالأمم السالفة من قوله ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ [الروم : 9] .

(216/601)

والمعنى : ثم عاقبةُ كل من أساءوا السوأى مثلَهم ، فيكون تعريضاً بالتهديد لمشركي العرب كقوله تعالى ﴿ دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ [محمد : 10] ، فالمراد بـ ﴿ الذين أساءوا ﴾ كل مسيىء من جنس تلك الإساءة وهي الشرك .

ويجوز أن يكون إنذاراً لمشركي العرب المتحدث عنهم من قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم : 6] فيكونوا المراد بـ ﴿ الذين أساءوا ﴾ ، ويكون إظهاراً في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر لقصد الإيماء بالصِلة ، أي أن سبب عاقبتهم

السوأى هو إساءتهم ، وأصل الكلام : ثم كان عاقبتهم السوأى .

وهذا إنذار بعد الموعظة ونص بعد القياس ، فإن الله وعظ المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم بعواقب الأمم التي كذبت رسلها ليكونوا على حذر من مثل تلك العاقبة بحكم قياس التمثيل ، ثم أعقب تلك الموعظة بالنذارة بأنهم ستكون لهم مثل تلك العاقبة ، وأوقع فعل ﴿ كان ﴾ الماضي في موقع المضارع للتنبيه على تحقيق وقوعه مثل ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] إتماماً للنذارة .

والعاقبة : الحالة الأخيرة التي تعقب حالة قبلها .

وتقدمت في قوله : ﴿ ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ في سورة الأنعام (11) ، وقوله : ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ في سورة طه (132) .

﴿ والذين أساءوا ﴾ هم كفار قريش ، والمراد ﴿ بآيات الله ﴾ القرآن ومعجزات الرسول .

والسوأى : تأنيث الأسَوإ ، أي الحالة الزائدة في الاتصاف بالسوء وهو أشد الشر ، كما أن الحسنى مؤنث الأحسن في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ [يونس : 26] .

وتعريف ﴿ السوأى ﴾ تعريف الجنس إذ ليس ثمة عاقبة معهودة .

ويحتمل أن يراد بـ ﴿ الذين أساءوا ﴾ الأمم الذين أثاروا الأرض وعمروها فتكون من وضع الظاهر موضع المضمر توسلاً إلى الحكم عليهم بأنهم أساءوا واستحقوا السوأى

وهي جهنم .

وفعل ﴿ كان ﴾ على ما هو عليه من التنبيه على تحقق الوقوع .

(217/601)

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ عاقبةُ ﴾ بالرفع على أصل الترتيب بين اسم ﴿ كان وخبرها .

وقرأه البقية بالنصب على أنه خبر كان مُقدم على اسمها وهو استعمال كثير .

والفصل بين كان ومرفوعها بالخبر سوغ حذف تاء التأنيث من فعل كان .

وأن كذبوا ﴾ تعليل لكون عاقبتهم السوأى بحذف اللام مع ﴿ أنْ وآيات الله : القرآن والمعجزات .

والباء في بها يستهزئون ﴾ للتعدية ، وتقديم المجرور للاهتمام بشأن الآيات ، وللرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(218/601)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

لما بين جل وعلا أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ، ثم ذكر أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم غافلون ، أنكر عليهم غفلتهم عن الآخرة ، مع شدة وضوح أدلتها بقوله : الآية ؛ والتفكر التأمل ، والنظر العقلي ، وأصله إعمال الفكر ، والمتأخرون يقولون الفكر في الاصطلاح حركة النفس في المعقولات . وأما حركتها في المحسوسات فهو في الاصطلاح تخييل .

وقال الزمخشري في الكشاف : في أنفسهم يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل : أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم : أي في قلوبهم الفارغة من الفكر ، والفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه : زيادة لحال المتفكرين كقولك : اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك ، وأن يكون صلة للتفكر كقولك : تفكر في الأمر أجال فيه فكره ، وما خلق متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول . وقيل معناه : فيعلموا ، لأن في الكلام دليلاً عليه إلا بالحق ، وأجل مسمى أي ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح ، وحكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة ، وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه ، وهو قيام الساعة ، ووقت الحساب ، والثواب ، والعقاب .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً ، والباء في قوله : إلا بالحق مثلها في قولك : دخلت عليه بثياب السفر ، واشترى الفرس بسرجه ولجامه ، تريد : اشتراه وهو متلبس بالسرج واللجام غير منفك عنهما ، وكذلك المعنى : ما خلقها إلا وهي متلبسة بالحق مقترنة به .

فإن قلت : إذا جعلت في أنفسهم صلة للتفكر فما معناه ؟

(219/601)

قلت : معناه أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم ، وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً ، وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال ، وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ، والمراد بلقاء ربهم الأجل المسمى . انتهى كلام صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة : من أن خلقه تعالى للسماوات والأرض ، وما بينهما لا يصح أن يكون باطلاً ، ولا عبثاً بل ما خلقهما إلا بالحق ، لأنه لو كان خلقهما عبثاً لكان ذلك العبث باطلاً ولعباً ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، بل ما خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما بينهما إلا بالحق ، وذلك أنه يخلق فيهما الخلائق ، ويكلفهم فيأمرهم وينهاهم ويعدهم ويوعدهم ، حتى إذا انتهى الأجل المسمى لذلك بعث الخلائق ، وجازاهم فيظهر في المؤمنين صفات رحمته ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته ومغفرته ، وتظهر في الكافرين صفات عظمته ، وشدة بطشه ، وعظم نكاله ، وشدة عدله ، وإنصافه ، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بالحق ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الفصل مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان : 3840] فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ﴾ الآية بعد قوله ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ يبين ما ذكرنا . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ [الحجر : 85] الآية .

(220/601)

فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ يوضح ذلك ، وقد أوضحه تعالى فيه قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : 31] .

وقد بين جل وعلا أن الذين يظنون أنه خلقهما باطلاً لا لحكمة الكفار وهددهم على ذلك الظن الكاذب بالويل من النار ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : 27] ، وبين جل وعلا أنه لو لم يبعث الخلائق ويجازهم ، لكان خلقه لهم أولاً عبثاً ، ونزه نفسه عن ذلك العبث سبحانه وتعالى عن كل ما يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : 115116] .

فهذه الآيات القرآنية تدل على أنه تعالى ما خلق الخلق إلا بالحق ، وأنه لا بد باعثهم ، ومجازيهم على أعمالهم ، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون هذا ، فكانوا غافلين عن الآخرة كافرين بلقاء ربهم .

وقوله تعالى في الآيات المذكورة وما بينهما : أي ما بين السماوات والأرض ، يدخل فيه السحاب المسخر بين السماء والأرض ، والطير صافات ، ويقبض بين السماء والأرض

والهواء الذي لا غنى للحيوان عن استنشاقه .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

(221/601)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام ، على قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : 76] وفي المائدة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا على بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [المائدة : 32] الآية . وفي هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 83] وفي الإسراء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : 17] الآية وفي غير ذلك .

وقوله تعالى في آية الروم هذه : ﴿ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَآ ﴾ جاء موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض فَمَآ أغنى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر : 82] ونحو ذلك من الآيات .

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرون كان عاقبة : بضم التاء اسم كان ، وخبرها

السوأى وقرأه ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : ثم كان عاقبة الذين بفتح التاء ، خبر كان قدم على اسمها على حد قوله في الخلاصة :

وفي جميعها توسط الخبر . . . أجز . . . . . .

وعلى هذه القراءة فالسوأى اسم كان ، وإنما جرد الفعل من التاء مع أن السوأى مؤنثة لأمرين :

الأول : أن تأنيثها غير حقيقي .

والثاني : الفصل بينها وبين الفعل كما هو معلوم . وأما على قراءة ضم التاء فوجه تجريد الفعل من التاء هو كون تأنيث العاقبة غير حقيقي فقط .

(222/601)

وأظهر الأقوال في معنى الآية عندي ، أن المعنى على قراءة ضم التاء ، كانت عاقبة المسيئين السوأى وهي تأنيث الأسوإ ، بمعنى الذي هو أكثر سوءاً : أي كانت عاقبتهم العقوبة ، التي هي أسوأ العقوبات ، أي أكثرها سوءاً وهي النار أعاذنا الله ، وإخواننا ، المسلمين منها .

وأما على قراءة فتح التاء ، فالمعنى : كانت السوأى عاقبة الذين أساءوا ، ومعناه واضح

مما تقدم ، وأن معنى قوله . أن كذبوا : أي كانت عاقبتهم أسوأ العقوبات لأجل أن كذبوا .

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة توضح أن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه ، وسوء عاقبته ، والعياذ بالله . كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] . وقوله : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [البقرة : 10] .

وقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 155] .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الإسراء : 46] ، وفي الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأعراف : 101] وفي غير ذلك .

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال : إن السوأى منصوب بأساءوا : أي اقترفوا الجريمة السوأى خلاف الصواب . وكذلك قول من قال : إن أن في قوله : أن كذبوا تفسيرية ، فهو خلاف الصواب أيضاً ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(223/601)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا في أنفسهم ، فيأتي لهم بالدليل مرة في أنفسهم ، ومرة في السماوات والأرض .

الدليل في الأنفس يقول لك : فكِّر في نفسك . أي : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال في الإنسان أسرار لم تُكشف بعد .

تأمل في مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون في جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما في جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْي إليه ، أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .

أما الهواء الذي لا تصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ، فمن حكمة الله تعالى ألاَّ يُملَّك لأحد أبداً ، وإلا لو احتكر الناسُ الهواء لما استقامت الحياة ، فلو منعك صاحب الهواء هواءه لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

تأمل في نفسك حين تأكل الطعام ، وفيك مدخلان متجاوران : القصبة الهوائية ، وهي مجرى الهواء للرئتين ، والبلعوم وهو مجرى الطعام للمعدة ، تأمل ما يحدث لك إنْ دخلتْ حبة أرز واحدة في القصبة الهوائية ، فبلا شعور تشرَق بها ، وتظل تقاومها حتى تخرج ، وتأمل حركة لسان المزمار حين يسد القصبة الهوائية أثناء البلع ، هذه الحركة التلقائية التي لا دخلَ لك فيها ، ولا قدرة لك عليها بذاتك .

(224/601)

تأمل وضع المعدة ، وكيف أن الله جعل لها فتحةً يُسمونها فتحة الفؤاد ، هي التي تُغلق المعدة بإحكام بعد الطعام ، حتى لا تؤذيك رائحته بأنْ تتسرب عصارة المعدة إلى الفم فتؤلمك ، فمن أصابه خلل في إغلاق هذه الفتحة تجد رائحة فمه كريهة يسمونه (أبخر) . كذلك تأمل في عملية إخراج الطعام وكيف تكون طبيعياً مستريحاً ؟ وفجأت تحتاج إلى الحمام وإلى قضاء الحاجة ، ماذا حدث ؟ والأمر كذلك في شربة الماء ، ذلك لأن لجسمك طاقة تحمُّل في الأمعاء وفي المثانة ، ففي لحظة يريد الحمل عن الطاقة ، فتشعر بالحاجة إلى الإخراج .

وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدمتْ العلوم ، ومهما بحثنا في أنفسنا ، ويكفي أن نقرأ : ﴿

وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] فدعانا ربنا إلى البحث في أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السماء والأرض ؛ لأن أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما في السماوات والأرض من آيات ، أما نفسي فهي أقرب دليل منك وأقوى دليل عليك .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ [الروم : 8] أي : فكِّروا في أنفسكم بعيداً عن ضجيج الناس وجدالهم ومِرائهم ، فحين تجادل الناس تجد لجاجة وحرصاً على الظهور ، ولو بالباطل ، إنما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمل فيها ، فلا مُهيج ولا مُعاند ، لا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك ، ولا تطمع في مكانة أو منزلة ؛ لذلك تصل بالنظر في نفسك إلى الحقيقة .

(225/601)

لذلك يخاطب القرآن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ . . . ﴾ [سبأ : 46] يعني : يا مَنْ تفكِّرون في صدق هذا الرسول ، وتتهمونه بالكذب والافتراء والسحر . . الخ أريد منكم شيئاً واحداً ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى . . . ﴾ [سبأ : 46] أي : مثنى مثنى ، أو منفردين ، كلٌّ على حدة ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : 46] .

إذن : الطريق إلى الحقيقة لا يكون بالمجادلة الجماهيرية ، إنما بتأمل الإنسان مع نفسه ، أو مع مثله ، فمع الجماعة تتحرك في النفس الرغبة في العُلو والانتصار ؛ لذلك حين تناقش العاقل يقول لك (حسيبك تراجع نفسك) يعني : تفكَّر وحدك بحيث لا تُحرج من أحد ، فتكون أقرب للموضوعية وللوصول إلى الحق .

وبعد أنْ أمرنا ربنا بالتفكّر في أنفسنا يلفتنا إلى التأمل فيما حولنا من السماوات والأرض ﴿ مَّا خَلَقَ اللهُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [الروم : 8] .

وهناك آية أخرى تقدم التفكُّر في السماء والأرض على التفكّر في النفس ، هي قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . ﴾ [غافر : 57] .

لماذا ؟ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يُولد ، ويموت بعد عدة سنوات ، أو حتى بعد مئات السنين ، أما السماوات والأرض بما فيهما من أرض وسماء وشمس وقمر . . إلخ فهي كما هي منذ خلقها الله لم تتغير ، وهي تؤدي مهمتها دون تخلُّف ، ودون صيانة ، ودون أعطال ، فهي بحقٍّ أعظم من خَلْق الناس وأكبر .

(226/601)

إذن : الآية والأدلة في أنفسكم وفي السماوات والأرض ، لكن أيهما الآية الأقوى ؟ قالوا : ما دامت السماوات والأرض أكبر من خَلْق الناس فهي الأقوى ، فإن لم تقنع بها فانظر في نفسك ؛ لذلك يقول العلماء بالمفيد والمستفيد ، المفيد هو الله – عز وجل – فحينما يضرب لي مثلاً يضرب لي بالأقوى ، فإنْ لم أُطِقْه يأتي لي بالأقل ، والمستفيد هو الذي ينتقل من الأقل للأكبر .

ومعنى ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ . . . ﴾ [الروم : 8] أي : من الكواكب والأفلاك والنجوم التي نشاهدها في جَوِّ السماء ، وكانوا في الماضي لما أرادوا أنْ يُقرِّبوا أمور الدين لعقول الناس يقولون : الكواكب السبعة هي السماوات السبع ، ووقع فيها علماء كبار ، لكن الحقيقة أن هذه الكواكب السبعة كلها دون السماء الدنيا ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ . . . ﴾ [فصلت : 12] .

فأين السماء من الكواكب التي نشاهدها ؟ ! أتعلم كم ثانية ضوئية بينك وبين الشمس ، أو بينك وبين القمر ؟ بيننا وبين الشمس ثماني دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أن تضرب مليون سنة في 365 يوماً ، وتضرب الناتج في 24 ساعة ، وتضرب الناتج في ستين دقيقة ، ثم في ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك في 300 ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذي وصلتَ إليه .

وما أسكتَ القائلين بأن الكواكب السبعة هي السماوات السبع إلا أن العلماء اكتشفوا بعدها كوكباً جديداً حول الشمس ، وبعد سنوات اكتشفوا آخر . كذلك حين صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر أسرع هؤلاء (الفاحشة) يقولون : لقد سبق القرآن ، وأخبر بهذا في قوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس إنِ استطعتم أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : 33] .

(227/601)

وقالوا : إن السلطان هو سلطان العلم الذي مكّننا من اعتلاء سطح القمر ، وعجيب أن يقول هذا الكلام علماء كبار ، فأين القمر من السماء ؟ القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحي الأرض كمصر الجديدة بالنسبة للقاهرة ، ثم إنْ كان السلطان هنا هو سلطان العلم ، فماذا تقولون في قوله تعالى بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن : 35]

لقد حدث هذا التخبط نتيجة الخلط بين علوم الدين والشريعة ، وبين علوم الكونيات ، وهذه آفة علماء الدين أنْ يتدخلوا فيما لا علمَ لهم به ، فالكونيات يُؤخَذ منها الدليل على عظمة الصانع وقدرته سبحانه ، إنما لا يُؤخذ منها حكم شرعي .

ورأينا من هؤلاء مَنْ ينكر كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، ومنهم مَنْ ظن أن علماء الكونيات – مع أنهم كفرة – يعلمون الغيب لأنهم توصَّلوا بحسابات دقيقة لحركة الأرض إلى موعد الخسوف والكسوف ، وجاء الواقع وَفْق ما أخبروا به بالضبط .

وهذه المسألة – كما سبق أنْ قُلْنا – ليست من الغيب المطلق ، بل من الغيب الذي أعطانا الله المقدمات التي توصل إليه ، وقد توصّل العلماء إليه بالبحث ودراسة معطيات الكون ، ونفهم هذا في ضوء قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفِي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . ﴾ [فصلت : 53] .

وهذه أيضاً من الآيات التي تُقدّم فيها أدلة السماوات والأرض على أدلة النفس . إذن : فالكونيات تُبنَى على علوم ودراسات ، لا دخلَ للدين بها ، الدين جاء ليقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ثم ترك الكونيات إلى أنْ تتسع العقول لفهمها .

(228/601)

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ بالحق . . ﴾ [الروم : 8] لأن السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلف ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، وتأمل حركة الكواكب والأفلاك تجد أنها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً .

فالشمس لم تتخلف يوماً فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس ؛ لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهي مخلوقة بحق ثابت لا يتغير ، وما دامتْ هذه الكونيات خلقت بحق وبشيء ثابت فلك أن ترتب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] أي : مخلوقة بحساب ؛ ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلة للحساب ، فقال : ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم * لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 39-40] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [يونس : 5] وهل تعلمون بالقمر عدد السنين والحساب ، إلا إذا كان هو مخلوقاً بحساب ؟

ومع ذلك ، ومع أن الكون خلقه الله بالحق الثابت إياك أن تظن أن ثباته دائم باقٍ ؛ لأن الله تعالى خلقه على هيئة الثبات لأجل ﴿ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [الروم : 8] فبعد أن ينقضي هذا الأجل الذي أجَّلَه الله تُكوّر الشمس وتنكدر النجوم ، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، فالأمر ليس مجرد أنْ يتغير الشيء الثابت ، إنما يزول وينتهي .

(229/601)

ثم يقول سبحانه ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم : 8] كنا نجادل الشيوعيين نقول لهم : لقد بالغتم في تعذيب مخالفيكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وتعديتم في عقابكم ، قالوا : لأنهم ظلموا وأفسدوا في المجتمع ، فقلنا لهم : فما بال الذين ظلموا قبل هؤلاء وماتوا ولم ينالوا ما يستحقون من العقاب ؟ أليس من العدل أن تقولوا بدار أخرى يُعاقبون فيها على ما اقترفوه ؟

ألا يلفتكم هذا إلى ضرورة القيامة ، ووجوب الإيمان بها ؟ فمن أفلت من أيديكم في الدنيا عاقبه الله تعالى في الآخرة ، ثم أنتم ترونَ مبدأ الثواب والعقاب في كل شيء ، فالذي أطلق لنفسه العَنان في الدنيا ، وسار فيها على هواه ، وعَاثَ في الأرض فساداً ، ولم تنلْه يد العدالة فهو الفائز إنْ لم تكُنْ له دار أخرى يُحاسَب فيها .

إذن : فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ضرورة يقتضيها المنطق السليم ، ومع ذلك يكفر بها كثير من الناس ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم : 8] .

فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللقاء ؛ لأن قوانين الأرض إنما تَحْمي من ظاهر المنكر ، وأما باطن المنكر فلا يعلمه إلا الله ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقب فيها أصحاب باطن المنكر .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

المعنى : أيكفرون بلقاء ربهم ولم يسيروا في الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من

قبلهم – خُذْ فقط أمور الدنيا ، فهي كافية لمن اعتبر بها – فهؤلاء لم يسيروا في الدنيا ، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة ، ولم يتعظوا بما وقع في الدنيا فضلاً عما سيقع في الآخرة .

(230/601)

فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين في الدنيا وشاهدناه بأعيننا ، فينبغي أن نُصدِّق ما أخبر به الله عن الآخرة ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة مما تعلم . إذن : سيروا في الأرض ، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الذين كذَّبوا ، وماذا فعل الله بهم ؟

والسَّيْر : قَطْع المسافات من مكان إلى مكان ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض . . . ﴾ [الروم : 9] لكن أنسير في الأرض أم على الأرض ؟ هذا من دقة الأداء القرآني ، ومظهر من مظاهر إعجازه ، فالظاهر أننا نسير على الأرض ، لكن التحقيق أننا نسير في الأرض ؛ لأن الذي خلقنا وخلق الأرض قال : ﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاما آمِنِينَ ﴾ [سبأ : 18] .

ذلك لأن الأرض ليست هي مجرد اليابسة التي تحمل الماء ، والتي نعيش عليها ، إنما الأرض تشمل كل ما يحيط بها من الغلاف الجوي ؛ لأنها بدونه لا تصلح للعيش عليها ، إذن : فغلاف الأرض من الأرض ، فحين نسير لا نسير على الأرض إنما في الأرض .

والسير في الأرض نظر له الدين من ناحيتين : سير يُعَدُّ سياحة للاعتبار ، وسيْر يُعَدُّ سياحة للاستثمار ، فالسير للاعتبار أن تتأمل الآيات في الأرض التي تمر بها ، فالجزيرة العربية مثلاً صحراء وجبال يندر فيها الزرع ، فإنْ ذهبتَ إلى أسبانيا مثلاً تجدها بلاداً خضراء لا تكاد ترى سطح الأرض من كثرة النباتات بها .

وفي كل منها خيرات ؛ لأن الخالق سبحانه وزَّع أسباب الفضل على الكون كله ، وترى أن هذه الأرض الجرداء القاحلة والتي كانت يشقُّ على الناس العيش بها لما صبر عليها أهلها أعطاهم الله خيرها من باطن الأرض ، فأصبحت تمد أعظم الدول وأرقاها بالوقود الذي لا يُسْتغنى عنه يوماً واحداً في هذه البلاد ، وحينما قطعناه عنهم في عام 1973 ضجُّوا وكاد البرد يقتلهم .

(231/601)

حين تسير في الأرض وتنظر بعين الاعتبار تجد أنها مثل (البطيخة) ، لو أخذتَ منها قطاعاً طولياً فإنه يتساوى مع باقي القطاعات ، كذلك الأرض وزَّع الله بها الخيرات على اختلاف ألوانها ، فمجموع الخير في كل قطاع من الأرض يساوي مجموع الخيرات في القطاعات الأخرى .

الجبال التي هجرناها في الماضي وقُلْنا إنها جَدْب وقفر لا حياةَ فيها ، هي الآن مخازن للثروات وللخيرات قد اتجهت إليها الأنظار لإعمارها والاستفادة منها ، وانظر مثلاً إلى ما يحدث من نهضة عمرانية في سيناء .

إذن : فالخالق سبحانه وزَّع الخيرات على الأرض ، كما وزَّع المواهب على الخَلْق ليظل الجميع مرتبطاً بعضه ببعض برباط الحاجة لا يستغني الناس بعضهم عن بعض ، ولا البلاد بعضها عن بعض ، وهنا لفتة إيمانية : أن الخلق كلهم عباد الله وصنعته ، والبلاد كلها أرض الله وملكه ، وليس لله ولد ، وليس بينه وبين أحد من عباده قرابة ، فالجميع عنده سواء ، لذلك سبق أن قلنا : لا ينبغي لك أنْ تحقد على صاحب الخير أو تحسده ؛ لأن خيره سيعود عليك حتماً .

ومعنى ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [الروم : 9] أي : الأمم التي كذَّبَتْ الرسل ، وفي آية أخرى يوضح سبحانه عاقبة هؤلاء المكذبين : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] .

ويخاطب سبحانه كفار قريش : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137-138] .

أي : في أسفاركم ورحلات تجارتكم تروْنَ مدائن صالح وغيرها من القرى التي أصابها العذاب مازالت شاخصة لكل ذي عينين .

(232/601)

ويقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ [الفجر : 6-8] وكانوا في رمال الأحقاف ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : 9-13] .

لقد كان لكل هؤلاء حضارات ما زالت حتى الآن تبهر أرقى حضارات اليوم ، فيأتون إليها ليتأملوا ما فيها من أسرار وعجائب ، ومع ذلك لم تستطع هذه الحضارات أنْ تحمي نفسها من الدمار والزوال ، وما استطاعت أنْ تمنع نفسها من عذاب الله حين حَلَّ بها ، إذن : لكم في هؤلاء عِبْرة .

وكأن الحق سبحانه في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [الروم : 9] يقول لكفار قريش : أنتم يا مشركي قريش أقلّ الأمم ، لا قوةَ لكم ، ولا مال ولا حضارة ولا عمارة ، فمن اليسير علينا أن نأخذكم كما أخذنا مَنْ هم

أقوى منكم ، إنما سبق أنْ أخذتم العهد في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : 33] .

لذلك يقول بعدها : ﴿ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا . . . ﴾ [الروم : 9] فالأمم المكذِّبة التي أخذها الله وجعلها لكم عبرة كانت أقوى منكم ، وأخصب أرضاً ، لذلك أثاروا الأرض . أي : حرثوها للزراعة وللإعمار ، وأنتم بواد ذي ذرع ، والحرث يُطلَق على الزرع كما في قوله سبحانه : ﴿ وَيُهْلِكَ الحرث والنسل . . . ﴾ [البقرة : 205] .

(233/601)

ذلك لأن الأرض لا تنبت النبات الجيد إلا إذا أثارها الفلاح ، وقلَّبها ليتخلل الهواء تربتها ، فتجود عليه وتؤدي مهمتها كما ينبغي ، أما إنْ تركتها هامدة متماسكة التربة والذرات ، فإنها تمسك النبات ولا تعطي فرصة للجذور البسيطة لأنْ تمتد في التربة ، خاصة في بداية الإنبات .

وفي موضع آخر يقول – سبحانه وتعالى – عن النبات : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [الواقعة : 63-64] .

وفي قصة البقرة مع بني إسرائيل لما تلكئوا في ذبحها وطلبوا أوصافها ، قال لهم الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الحرث . . . ﴾ [البقرة : 71] .

يعني : بقرة مُرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم ، لا في حَرْث الأرض وإثارتها ، ولا في سَقْيها بعد أنْ تُحرَث ؛ لذلك تجد أن الفلاح الواعي لا بُدَّ أن يثير الأرض ويُقلِّب تربتها قبل الزراعة ، ويتركها فترة ليتخللها الهواء والشمس ، ففي هذا إحياء للتربة وتجديد لنشاطها ، كما يقولون أيضاً : قبل أن تزرع ما تحتاج إليه انزع ما لا تحتاج إليه .

إذن : فهؤلاء القوم كانت لهم زروع وثمار تمتعوا بها وجمعوا خيراتها .

ومعنى ﴿ عَمَرُوهَا . . . ﴾ [الروم : 9] أي : بما يسَّر الله لهم من الطاقات والإمكانات ، وأعملوا فيها الموهبة التي جعلها الله فيهم ، فاستخرجوا من الأرض خيراتها ، كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ واستعمركم فِيهَا . . . ﴾ [هود : 61] .

(234/601)

وإعمار الأرض يكون بكل مظهر من مظاهر الرقي والحياة ، إما بالزرع أو الغَرْس ، وإما بالبناء ، وإما بشقِّ الأنهار والمصارف وإقامة الطرق وغير ذلك مما ينفع الناس ، ونُفرِّق هنا

بين الزرع والغَرْس : فالزرع ما تزرعه ثم تحصده مرة واحدة كالقمح مثلاً ، أما الغرس فما تغرسُه ، ويظل فترة طويلة يُدر عليك ، فمحصوله مُتجدّد كحدائق الفاكهة ، والزرع يكون ببذْر الحبِّ ، أما الغرس فنبتة سبق إعدادها تُغرس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات . . . ﴾ [الروم : 9] فبعد أنْ أعطاهم مقوِّمات الحياة وإمكانات المادة وطاقاتها ، وبعد أنْ جَنَوْا ثمارها لم يتركهم للمادة إنما أعطاهم إمكانات القيم والدين ، فأرسل لهم الرسل ﴿ بالبينات . . . ﴾ [الروم : 9] أي : الآيات الواضحات الدالة على صِدْق الرسول في البلاغ عن ربه وهذه التي نسميها المعجزات .

وسبق أنْ ذكرنا أن كلمة الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة : آيات كونية دالة على قدرة الصانع سبحانه كالشمس والقمر ، وآيات تُؤيِّد الرسل وتُثبت صِدْقهم في البلاغ عن الله وهي المعجزات ، وآيات القرآن التي تحمل الأحكام والمنهج ، وكلها أمور واضحة بينة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم : 9] نعم ، ما ظلمهم الله ؛ لأنه سبحانه أمدهم بمقوِّمات الحياة وإمكانات المادة ، ثم أمدهم بمقومات الروح والقيم ، فإنْ حادوا بعد ذلك عن منهجه سبحانه فما ظلموا إلا أنفسهم .

ثم نقول : كيف يتأَّتى الظلم من الله تعالى ؟ الظلم يقع نعم من الإنسان لأخيه الإنسان ؛ لأنه يحقد عليه ، ويريد أنْ يتمتع بما في يده ، فالظالم يأخذ حقَّ المظلوم الذي لا قدرةَ له على

حماية حقه . فكيف إذن نتصور الظلم من الله – عز وجل – وهو سبحانه مالك كل شيء ، وغني عن كل شيء ؟ إذن : ما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم حينما حادوا عن طريق الله ومنهجه .

(235/601)

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

الإساءة ضدها الإحسان ، وسبق أن قلنا : إن الإحسان : أن تترك الصالح على صلاحه ، أو أن تزيده صلاحاً ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء الذي يشرب منه الناس ، فواحد يأتي إليه فيردمه أو يُلوث ماءه ، وآخر يبني حوله سياجاً يحميه أو يجعل له آلة تُخرج الماء وتُريح الناس ، فهذا أحسن وذاك أساء ، فإذا لم تكُنْ محسناً فلا أقلَّ من أنْ تكفَّ إساءتك ، وتدع الحال على ما هو عليه .

والحق – سبحانه وتعالى – خلق الكون على هيئة الصلاح ، ولو تركناه كما خلقه ربه لَظلَّ على صلاحه ، إذاً لا يأتي الفساد إلا من تدخُّل الإنسان ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ المفسدون ولكن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : 11-12] .

وينبغي على الإنسان أنْ يأخذ من ظواهر الكون ما يفيده ، أذكر أننا حينما سافرنا إلى مكة سنة 1950 كنا ننتظر السَّقاء الذي يأتي لنا بقربة الماء ، ويأخذ أجرة حملها ، وكنا نضعها في (البزان) وهو مثل (الزير) عندنا ، فإذا أراد أحدنا أن يتوضأ يأخذ من الماء كوزاً واحداً ويقول : نويت نية الاغتراف ، ولا يزيد في وضوئه عن هذا الكوز ؛ لأننا نشتري الماء ، أما الآن فالواحد منا لا تكفيه (صفيحة) لكي يتوضأ من حنفية الماء . وفي ترشيد استعمال الماء ترشيد أيضاً للصرف الصحي وللمياه الجوفية التي تضر بالمباني وبالتربة الزراعية .

لذلك يحذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من الإسراف في استعمال الماء حتى لو كنَّا على نهر جارٍ .

(236/601)

فمعنى الذين أساءوا : أي الذي جاء إلى الصالح فأفسده أو أنشأ إفساداً جديداً ، وطبيعي أن تكون عاقبته من جنس فِعْله ﴿ عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ السواءى ﴾ [الروم : 10] والسُّوأى : مؤنث سيء مثل : حسن للمذكر ، وحُسْنى للمؤنث . وأصغر وصُغْرى ، فهي أفعل تفضيل من السُّوء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الروم : 10] فالأمر لم يقف عند حَدِّ التكذيب بالآيات ، إنما تعدّى التكذيب إلى الاستهزاء ، فما فلسفة أهل الاستهزاء حينما يستهزئون بالآخرين ؟ كثيراً ما نلاحظ أن التلميذ الفاشل يستهزيء بالمجتهد ، والمنحرف يستهزيء بالمستقيم ، لماذا ؟

لأن حظ الفاشل أنْ يزهد المجتهد في اجتهاده ، وحظ المنحرف أن يصير المستقيم منحرفاً مثله ، ومن هنا نسمع عبارات السخرية من الآخرين كما حكاها القرآن : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ ﴾ [المطففين : 29-32] .

لكن لا تتعجل ، وانتظر عاقبة ذلك حينما يأخذ هؤلاء المؤمنون أماكنهم في الجنة ، ويجلسون على سُرُرها وأرائكها : ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 34-36] .

والخطاب هنا للمؤمنين الذين تحملوا السخرية والاستهزاء في الدنيا : أقدرنا أنْ نجازيهم على ما فعلوه بكم ؟

إذن : فلسفة الاستهزاء أن الإنسان لم يقدر على نفسه ليحملها على الفضائل ، فيغيظه كل صاحب فضيلة ، ويؤلمه أنْ يرى مستقيماً ينعم بعزِّ الطاعة ، وهو في حمئة المعصية ؛ لذلك

يسخر منه لعله ينصرف عما هو فيه من الطاعة والاستقامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(237/601)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

(238/601)

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) (الروم : 9) ، وفي سورة فاطر : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) (فاطر : 44) ، وفي سورة غافر : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) (غافر :

21) ، وفي آخرها : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (غافر : 82) ، للسائل أن يسأل عن اختلاف هذه الآيات مع اتفاقها في المعنى المقصود بها ؟ وعن (وجه) اختصاص كل موضع من مواضعها بما خص به منها ؟ والجواب عن السؤالين معاً : أن هذه الآيات لم يختلف المقصود بها وهو التنبيه على الاعتبار بحال من تقدم من القرون ما يلائم ما جرى في تلك السورة قبل ذلك الموضع أو بعده من إشارة أو تعريف إخباراً من غير تنبيه أو تحريك إلى الاعتبار بهم ، فحين جيء بالتنبيه بقوله : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ) روعي ما ورد قبل أو بعد من إخبار أو إشارة ، لذلك فبني ما عرض عليهم وحركوا به من التنبيه ثم أفصح به في آية التنبيه (تأكيداً لموجب يستدعيه ، فلرعي هذا اختلف التنبيه) الوارد في هذه المواضع ،

(239/601)

لا لاختلاف في المعنى . بيان ذلك أن آية الروم ، وهي أولى تلك الآيات ، فقد ورد فيما بعدها من تلك السورة قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم : 47) ، فهذا

تعريف منه سبحانه بما فعل بأولئك الذيم كانوا من قبل هؤلاء وجاءتهم ا لبينات ، فذكر في أول السورة من حالهم هذا ، ولم يذكر ما فعل بمن كذب منهم ولا بمن آمن ، فعرفت الآية الأخيرة بذلك ، وأنه سبحانه انتقم منهم لاجترامهم بالتكذيب ، وعرف بنصر مؤمنيهم ونجاتهم ، فحصل من الآيتين التعريف التام بما جرى منهم ابتداء وانتهاء ، وصار مجموع الآيتين من الالتحام كأن قد قيل : ألوم يسيروا في الأرض فينظرا كيف كام عاقبة الذين من قبلهم مع زيادة قوتهم وانتشارهم وطول أعمارهم أكثر من هؤلاء ، فجاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا فانتقمنا ممن أجرم وكذب ، ونصرنا من آمن ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ، وما ظلمنا من انتقمنا منه : (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ . . .) (الروم : 9) ، فتأمل وضوح هذا كله وتناسبه والتئامه .

(240/601)

فإن قيل : فلم لم يرد ذكر أخذهم بالانتقام منهم لما أجرموا متصلاً بما تقدم من التذكير بالاعتبار بهم وكان يحصل ذلك كله في كلام متصل بعضه ببعض ؟ ولم وقع ذكر أخذهم بالانتقام منهم لما كذبوا متأخراً عن الوارد من حالهم أولاً (التي) أمر هؤلاء ونهوا عن الاعتبار بها ؟ قلت : جرى ذلك على المعتاد منه سبحانه في دعاء الخلق إلى الإيمان من

التطلف والرفق في الدعاء ، وبذلك أمر رسله ، عليهم السلام ، فقال لنبينا صلى الله عليه وسلم : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل : 125) ، وقال لموسى ، عليه السلام : (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) (إبراهيم : 5) أي بنعمة وآلائه قبلهم ، وقال لبني إسرائيل : (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) (البقرة : 47) ، وقال : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ) (طه : 80) ، وهذا في القرآن كثير ، فلما أمر هؤلاء وذكروا بالاعتبار بمن تقدم من القرون ، ولم يتقدم قبل الآية إلا التلطف والتأنيس ، لم يكن ليناسب ذلك من أخذ المكذبين إلا ما يكون إيماء وإشارة لا إفصاحاً ، فلذلك اكتفى أولاً من الإشارة إلى أخذهم بقوله سبحانه : (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) (الروم : 9) ، وترك الإفصاح بالانتقام إلى أن ورد إخباراً منه سبحانه لنبيه ، عليه السلام ، في غير معرض الدعاء إلى الإيمان فقال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا) (الروم : 47) ، وحصل التعريف بغاية حال المذكورين قبل في تكذيبهم ، فهذا موجب تفريق هذا الإخبار ، والله أعلم .

(241/601)

فإن قلت : فقد ورد في آية غافر من هذه الآي مجموع التنبيه والأخذ متصلاً على غير ما قصدت الآية ، قلت : ذلك لسبب اقتضاه يذكر بعد ، فآيات الدعاء إلى الله تعالى إنما ترد في الأغلب على ما ذكرنا من التطلف والإبقاء على العباد وذكر الإحسان والرفق ، وقد ترد على غير هذا لداع وحامل ، والأكثر ما ذكرته . وأا آية فاطر فقد تقدمها قوله تعالى إخباراً لنبيه وتأنيساً : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (فاطر : 25 - 26) ، فقيل بعد هذه فيما هو منها ومرتبط بمعناها : ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) (فاطر : 44) فأخذتهم يا محمد بتكذيبهم وكفرهم ، ولم يفت منهم أحد لأني عليم بأحوالهم القدير الذي لا يعجز في شيء ولا يفوتني هارب ، وتأمل التحام هذا كله وتناسبه وكيف تم الاختبار وكمل انتهاء وابتداء ، وتأمل كيف وقع الاكتفاء في آية الاعتبار بالإيمان إلى أخذهم بقوله : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) (فاطر : 44) إحالة على ما تقدم في إخبار نبيه ، عليه السلام ، بأخذهم في قوله : (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (فاطر : 26) ، والتحم هذا كله وتناسب .

(242/601)

وأما الآية الأولى من سورة غافر فوردت على الجمع بين التنبيه للاعتبار بمن تقدم وبين أخذهم ، ولم يرد فيها التفصيل الوارد فيما تقدم ، فقال تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) (غافر : 21) ، ثم اتبع الآية بما يؤكد أخذهم ، وذكرت العلة في ذلك من كفرهم ، واجتمع في هذه الآية ما افترق في غيرها فقال تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (غافر : 22) ، فتحصل منها التعريف بأخذهم وذكر العلة الموجبة لذلك من تكذيبهم وكفرهم متصلاً ذلك كله بعضه ببعض ، ولم تجر هذه الآية في التلطف في الدعاء والتنبيه على ما جرت نظائرها مما تقدم ونبه عليه ، وسبب ذلك أنه تقدم في أول هذه السروة من الإخبار بسوء مراجعتهم وقبيح معاملتهم مع أنبيائهم ما يوجب سريع الأخذ وينافر التلطف ، وذلك قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (غافر : 5) ، فلما تقدم هذا من جوابهم بالباطل وما هموا به من أخذ رسلهم وامتحانهم زائداً إلى التكذيب ناسب هذا تعجيل أخذهم ، فوردت آية التنبيه على ذلك ، ولهذا اختصت من التأكد ما لم يرد مثله فيما تقدمها : (كَانُوا هُمْ أَشَدَّ) ، فوكد بالضمير تخصيصاً وتعييناً للمذكورين قبل من قوم

نوح والأحزاب ، ثم اتبع ذلك بقوله في قراءة ابن عامر بتخصيص من وعظ بذلك وخوطب فقيل : (منكم) ، فتقابل التأكيد في الطرفين تأكيداً يناسب ما بنيت عليه الآية ويشهد له ،

(243/601)

ولرعي ما تقدم من السبب الأول وردت الآية الأخيرة من قوله في آخر السورة : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ . . .) (غافر : 82) إلى قوله : (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (غافر : 82) ، ثم أعقب هذا بقوله : (لَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) (غافر : 83) إشارة إلى ما كانوا يظنونه علماً ويجادلون به من قولهم :

(244/601)

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) ، وقولهم : (مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى) (القصص : 36) ، وقولهم : (لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا) (الأنفال : 31) ، إلى ما ورد من متعلقاتهم ومجاوباتهم المشار إليه في قوله : (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) (الكهف : 56) ، فسماه سبحانه علماً في قوله : (فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) (غافر : 83) بحسب اعتقادهم

وظنهم ، كما قال تعالى : (أَيْنَ شُرَكَائِيَ) (القصص : 62) أي في زعمهم ، وهو سبحانه المنزه عن الشريك والنظير ، أو يكون (عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) (غافر : 83) المراد به ما كان لدى من تعاطى النظر منهم فلم يوفق ، من استبعاد العودة الأخراوية ، وإنكار حشر الأجساد بعد تفرق الأشلاء والأجزاء وصيرورة بعضها غذاء لحيوان آخر ولتفرقها وفنائها ، قالوا : (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس : 78) ، وقالوا : (أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) (الإسراء : 49) ، وهو نظر مبني على قاعدتين واهيتين ، وهما : إنكار القدرة ، وإنكار علمه تعالى بالجزيئات وعليهما بنى منكرو حشر الأجساد من الفلاسفة ، وهو قول زعيمهم أرسطوا ومن تبعه من المشائين ومن قال بقولهم ، وليس مما اتفقوا عليه ، فقد نقلوا عن أفلاطون وغيره من زعمائهم مخالفة هذا القول وموافقة المتشرعين في حشر الأجساد ، وقد نقلوا عن جالينوس التوقف ، وقد رام بعض متفلسفة الإسلام الجمع بين المرتكبين فقال : تحشر الأجساد على تأويل لا يعمله المتشرعون وذلك لما أرغمه من براهين الشريعة . ولما بنى المنكرون مذهبهم على إنكار القدرة والعلم بالجزيئات اطراد في الكتاب العزيز ، مهما ذكرت العودة الأخراوي ، أن يناط بها وصفه سبحانه بالعلم والقدرة إفصاحاً أو إشارة بينه إطراداً لا ينكسر إرغاماً للمنكر الجاحد وحجة قاطعة بالمعاند ، وقال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) إلى قوله : (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم : 27) ، فوصفه سبحانه بالعزيز إشارة إلى القدرة وأشار قوله : (الحكيم) إلى العلم ، وقال تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس : 78) ثم قال : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس : 79) فقوله : (يحْيِيهَا) و (أَنْشَأَهَا) إشارة إلى القدرة ، وقد وقع الإفصاح بها بعد في قوله : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) (يس : 81) وبسط هذا ورد أقوال هؤلاء الكفرة مستوفي في مضانه ، وقد شفي في أئمتنا ، رضي الله عنهم ، وكتاب الله سبحانه (وتعالى) واف لمن وافق لتدبره وأعتباره بالبراهين القاطعة وبخصومنا ، فما كان بأيدي من قدم ذكره من الشبهات فيها ذكرنا هو الذي فرحوا به وأعتقدوه علما ، فورد التعبير على معتقدهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فقد وضع وجه مناسبة هذا لقوله تعالى : (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) وتبين ما أوجب خصوص كل آية من هذه الأربع ومواضعها ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 394. 397 ﴾

(246/601)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾

إنَّ مَنْ نَظَرَ حقَّ النظر ، ووَضَعَ النظر موضعَه أثمر له العلم واجباً ، فإذا استبصر بنور اليقين أحكامَ الغائبات ، وعَلِمَ موعوده الصادق فى المستأنف – نجا عن كَدِّ التردد والتجويز فسبيلُ مَنْ صحا عقلُه ألا يجنحَ إلى التقصير فيما به كمال سكونه .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

سَيْرُ النفوسِ فى أقطار الأرض ومناكبها لأداء العبادات ، وسَيْرُ القلوب بجَولانِ الفِكْرِ فى جميع المخلوقات ، وغايته الظَّفَرُ بحقائق العلوم التى توجِبُ ثلج الصدر – ثم تلك العلوم على درجات . وسير الأرواح فى ميادين الغيب بنعت حرق سرادقات الملكوت ، وقصاراه الوصولُ إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة . وسير الأشرار بالترقى عن الحِدْثان بأَسْرِها ، والتحقق أولاً بالصفات ، ثم بالخمود بالكلية عمَّا سِوى الحقِّ .

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

مَنْ زَرَعَ الشوكَ لم يحصُدْ الوَرْدَ ، ومَنْ استنبت الحشيشَ لم يقطف الثمار ، ومَنْ سَلَكَ طريق الغىّ لم يَحْلُلْ بساحة الرشد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 109 .

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان حاصل ما مضى أنه سبحانه وتعالى قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، وكان للتصريح مع النفس حالة ليست لغيره ، قال ذاكراً نتيجة ما مضى ومحصله تصريحاً بالمقصود وتلخيصاً للدليل : ﴿ الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ يبدأ الخلق ﴾ أي بدا منه ما رأيتم وهو يجدد في كل حين ما يريد من ذلك كما تشاهدون ﴿ ثم يعيده ﴾ بعد ما يبيده ، وترك توكيده إشارة إلى أنه غني عنه لأنه من القضايا المسلمة أن من اخترع شيئاً كان لا محالة قادراً على إعادته .

ولما كان الجزاء أمراً مهولاً ، أشار إليه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم إليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ معنى في أموركم كلها في الدنيا وإن كنتم لقصور النظر تنسبونها إلى الأسباب ، وحسا بعد قيام الساعة ، وقراءة الجماعة بالالتفات إلى الخطاب أبلغ لأنها أنص على المقصود ، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بالياء التحتانية على النسق الماضي .

(248/601)

ولما ذكر الرجوع ، أتبعه بعض أحواله فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ سميت بذلك إشارة إلى عظيم القدرة عليها مع كثرة الخلائق على ما فيهم من العظماء والكبراء والرؤساء ﴿ يبلس ﴾ أي يسكت ويسكن يأساً وتحيراً على غاية الذل - بما أشار إليه تذكير الفعل مع التجدد والاستمرار بما أوما إليه المضارع ﴿ المجرمون ﴾ الذين وصلوا من الدنيا ما من حقه أن يقطع لفنائه ، وقطعوا من أسباب الآخرة ما من حقه أن يوصل لبقائه ، وكانوا في غاية اللبس في الجدل ومعرفة كل ما يغيظ الخصم من القول والفعل والتمايل والتضاحك عند سكوت الخصم تعجباً من جريانهم في هذيانهم سروراً منهم بإسكاته ليظن بعض من رآه أنه انقطع وأن الحجة لهم .

ولما كان الساكت ربما أغناه عن الكلام غيره ، نفى ذلك بقوله محققاً له بجعله ماضياً : ﴿ ولم يكن ﴾ ولما كان المقام لتحقيرهم بتحقير شركائهم رتب نفي النفع الموجع لهم هذا الترتيب ، ويجوز أن يراد بترتيبه مع ذلك التخصيص فيقال : ﴿ لهم ﴾ أي خاصة في ذلك الوقت ولا بعده ، ولا كان في عداد ذلك من قبل لو كانوا يعقلون ، وأما غيرهم ممن يصح وصفه بالإجرام لكونه من أهل الشرك الخفي فقد يشفع فيه من رباه من الشهداء والعلماء وعامة المؤمنين ﴿ من شركائهم ﴾ الذي زعموهم خاصة ليتبين لهم خلطهم وجهلهم المفرط في قولهم : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] وأما غيرهم فيقع منهم ما يسمى شفاعة تارة تصريحاً وأخرى تلويحاً كالشفاعة العامة من نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الخلق عامة لفصل القضاء ، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ناس بأعيانهم : " أصحابي إليّ إليّ ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فيقول : فسحقاً سحقاً " وقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ [إبراهيم : 36] ﴿ شفعاء ﴾ ينقذونهم مما هم فيه وما يستقبلونه وإتيانه بصيغة جمع الكثرة يمكن أن يكون لا مفهوم له ، لأن مورده رد اعتقادهم في قولهم السالف ، ويمكن أن يفهم أنه قد يقع من بعض من عبدوه

شفاعة ، أو تلويح بها كقول عيسى عليه السلام ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] .

ولما ذكر حال الشفعاء معهم ، ذكر حالهم مع الشفعاء فقال : ﴿ وكانوا ﴾ أي كوناً هو في غاية الرسوخ ﴿ بشركائهم ﴾ أي خاصة ﴿ كافرين ﴾ أي متبرئين منهم ساترين لأن يكونوا اعتقدوهم آلهة وعبدوهم جرياً على عادتهم فيما لا يغنيهم من العناد والبهت .

(250/601)

ولما كانت النفس ربما تشوفت إلى أنه هل يكون بعد إبلاسهم شيء آخر ، قال مفيداً له مهولاً بإعادة ما مضى : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي ويا له من يوم ، ثم زاد في تهويله بقوله : ﴿ يومئذ يتفرقون ﴾ أي المؤمنون الذين يفرحون بنصر الله والكافرون فرقة لا اجتماع بعدها ، هؤلاء في عليين ، وهؤلاء في أسفل سافلين .

حكى لي بعض القضاة من أصحابي - عفا الله عنه - وهو يبكي أنه رأى مناماً مهولاً ، وذلك أنه رأى القيامة قد قامت ، والناس يحشرون - على ما وصف في الأحاديث - في صعيد واحد عرايا خائفين حائرين ، يموج بعضهم في بعض ، فإذا شخص مما له أمر قد أشار بسوط معه وخط به في الأرض فقسمهم قسمين فقال : هؤلاء مطيعون ، وهؤلاء

عصاة ، قال : فكنت في العصاة ، وفي الحال غاب عنا الطائعون ، فلم تر منهم أحداً ثم خط بذلك السوط مرة أخرى فقسمنا قسمين فقال : هؤلاء عصاة الأقوال ، وهؤلاء عصاة الأفعال ، قال : فكنت في عصاة الأفعال ، ثم غاب في الحال عنا عصاة الأقوال ، فلم نر منهم أحداً وبقينا نحن منا الجالس ومنا المضطجع ، ونحن قليل بالنسبة إلى عصاة الأقوال ، فبينا نحن كذلك إذ جاء آتٍ إلى شخص إلى جانبي فأخذه من كعبه ثم نشطه فأخرج جلده بمرة واحدة كأنه جراب نزع عن شيء فيه يابس ، فحصل لي من ذلك ذعر شديد فبينا أنا كذلك إذ آتٍ جاءني من ورائي ، فألقى عليّ جوخة فجعلها على أكتافي وأدارها على أفخاذي فسترني بها ولكن على غير هيئة لبس المخيط ، قال : واستيقظت وأنا على ذلك فقصصته على بعض الصالحين فقال : أحمد الله على كونك من عصاة الأفعال ، وأخذ من ستري بالجوخة على تلك الهيئة أني أحج ، فبشرني بذلك فحججت في ذلك العام – والله تعالى المسؤول في التوبة ، فإنه الفعّال لما يريد ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان بألسنتهم ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإقرارهم ﴿ الصالحات ﴾ أي كلها .

(251/601)

ولما تقدم هنا ذكر عمارة الأرض وإصلاحها للنبات ووعظ من جعلها أكبر همه بأنها لم تدم له ولا أغنت عنه شيئاً ، ذكر أنه جزى من أعرض عنها بقلبه لاتباع أمره سبحانه أعظم ما يرى من زهرتها ونضرتها وبهجتها على سبيل الدوام فقال : ﴿ فهم ﴾ أي خاصة ﴿ في روضة ﴾ أي لا أقل منها وهي أرض عظيمة جداً منبسطة واسعة ذات ماء غدق ونبات معجب بهج – هذا أصلها في اللغة وقال الطبري : ولا تجد أحسن منظراً ولا أطيب نشراً من الرياض .

﴿ يحبرون ﴾ أي يسرون على سبيل التجدد كل وقت سروراً تشرق له الوجوه ، وتبسم الأفواه ، وتزهو العيون ، فيظهر حسنها وبهجتها ، فتظهر النعمة بظهور آثارها على أسهل الوجوه وأيسرها .

قال الرازي في اللوامع : وأصله – أي الحبرة – في اللغة أثر في حسن ، وقال غيره : حبره – إذا سره سروراً تهلل له وجهه ، وظهر فيه أثره .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ أي غطوا ما كشفته أنوار العقول ، ﴿ وكذبوا ﴾ عناداً ﴿ بآياتنا ﴾ التي لا تصدق منها ولا أضوأ من أنوارها ، بما لها من عظمتنا ﴿ ولقآءِ الآخرة ﴾ الذي لم يدع لبساً في بيانه ﴿ فأولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ في العذاب ﴾ أي الكامل لا غيره ﴿ محضرون ﴾ من أي محضر كان ، بالسوق الحثيث ، والزجر العنيف ، فإذا وصلوا إلى مقره وكل بهم من يديم كونهم كذلك – لإفادة الجملة الاسمية الدوام ، فلا

يغيبون عنه ولا يخفف عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 606 .

609 ﴾

(252/601)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان في ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدأ الخلق ، يعني من خلق بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون ، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)

(253/601)

في ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم ، والإبلاس يأس مع حيرة ، يعني يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو إحدى الراحتين ، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فإذا كان المرجو أمراً غير ضروري يستريح الطامع من الانتظار وإن كان ضرورياً بالإبقاء له بوونه ينفطر فؤاده أشد انفطار ، ومثل هذا اليأس هو الإبلاس ولنبين حال المجرم وإبلاسه بمثال ، وهو أن نقول مثله مثل من يكون في بستان وحواليه الملاعب والملاهي ، ولديه ما يفتخر به ويباهي ، فيخبره صادق بمجيء عدو لا يرده راد ، ولا يصده صاد ، إذا جاءه لا يبلعه ريقاً ، ولا يترك له إلى الخلاص طريقاً ، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو مجنون إن هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعادي عمن يكون تحتها ، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمداً على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به ، فأول ما يريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيراً آيساً ، مفتقراً ، فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بأن الله يجزيه ، ويأتيه عذاب يخزيه ، فقال له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء إن هذه الأخشاب التي هي الأوثان دافعة عنك كل بأس ، وشافعة لك عند خمود الحواس ، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته إلقاء الأصنام في النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق ، ويحق عليه عذاب الحريق ، فييأس حينئذٍ أي إياس ويبلس أشد إبلاس .

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كافرين ﴾ يعني يكفرون بهم ذلك اليوم .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

(254/601)

ثم بين أمرا آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ [يس : 59] فكأن هذه الحالة مترتبة على الإبلاس ، فكأنه أولاً يبلس ثم يميز ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير ، وأعاد قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيداً للتخويف ، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15)

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ أي في جنة يسرون بكل مسرة .

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16)

يعني لا غيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ

غَمّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج : 22] وقال : ﴿ لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب ﴾ [آل عمران : 88] وفي الآيتين مسائل فيها لطائف :

المسألة الأولى :

بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين ، وذلك لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب فيكون أنكى ، ولو أدخل الكافر النار أولاً لكان يظن أن الكل في العذاب مشتركون ، فقدم ذلك زيادة في إيلامهم .

المسألة الثانية :

ذكر في المؤمن العمل الصالح ولم يذكر في الكافر العمل السيىء ، لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان ، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح ، وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره فلو قال : والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون ، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع ، فإن قيل فمن

يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور في القسمين ، فنقول له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة ، بل هو في الأول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور ، وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد .

المسألة الثالثة :

قال في الأول ﴿ فِى رَوْضَةٍ ﴾ على التنكير ، وقال في الآخر في العذاب على التعريف ، لتعظيم الروضة بالتنكير ، كما يقال لفلان مال وجاه ، أي كثير وعظيم .

المسألة الرابعة :

قال في الأول : ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ بصيغة الفعل ولم يقل محبورون ، وقال في الآخر : ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ بصيغة الاسم ولم يقل يحضرون ، لأن الفعل ينبىء عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله : ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يعني يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به .

وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 89. 91 ﴾

(256/601)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

فيه ستة أوجه

: أحدها : أنه الفضيحة ، قاله مجاهد .

الثاني : الاكتئاب ، قاله ابن أبي نجيح .

الثالث : الإياس ، قاله ابن عباس .

الرابع : الهلاك ، قاله السدي .

الخامس : الندامة ، قاله ابن قتيبة .

السادس : الحيرة ، قال العجاج :

يا صاح هل تعرف رسْماً مكرساً . . . قال نعم أعرفه وأبلسَا

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : في الجزاء بالثواب والعقاب .

الثاني : في المكان بالجنة والنار .

قوله تعالى : ﴿ . . . فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يَحْبَرُونَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يمكرون ، قاله ابن عباس .

الثاني : ينعمون ، قاله مجاهد وقتادة .

الثالث : يتلذذون بالسماع والغناء ، قاله يحيى بن أبي كثير .

الرابع : يفرحون ، قاله السدي . والحبرة عند العرب السرور والفرح قال العجاج :

فالحمد لله الذي أعطى الحبر . . . موالي الحي إن المولى يَسَر

فأما الروضة فهي البستان المتناهي منظراً وطيباً ولم يكن عند العرب أحسن منظراً ولا أطيب منها ريحاً قال الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبةٌ . . . خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضحك الشمس منها كوكب شَرِقٌ . . . مؤزر بعميم النبت مكتهل

يوماً بأطيب منها نشر رائحةٍ . . . ولا بأحسن منها إذا دنا الأُصُل

قوله تعالى : ﴿ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ فيه خمسة تأويلات

: أحدها : مدخلون ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : نازلون ومنه قوله : ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ ﴾ [البقرة : 180] و [المائدة : 106] أي نزل به .

الثالث : مقيمون ، قاله ابن شجرة .

الرابع : معذبون .

الخامس : مجموعون ، ومعاني هذه التأويلات متقاربة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ثم أخبر تعالى إخباراً مطلقاً لجميع العالم بالحشر والبعث من القبور ، وقرأ طلحة وابن مسعود "يُبدِيء " بضم الياء وكسر الدال ، وقرأ جمهور القراء " ترجعون " بالتاء من فوق ، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالياء ، وقوله ﴿ ويوم ﴾ منصوب ب ﴿ يبلس ﴾ ، والإبلاس الكون في شر مع اليأس من الخير في ذلك الشر بعينه ، فإبلاسهم هو في عذاب الله تعالى ، وقرأ عامة القراء بكسر اللام ، وقرأ أبو عبد الرحمن وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، بفتحها ، وأبلس الربع إذا بلي وكأنه يئس من العمارة ومنه قول العجاج :

يا صاح هل تعرف رسماً مكرسا . . . قال نعم أعرفه وأبلسا

وقرأ عامة القراء " ولم يكن لهم " بالياء من تحت ، وروي عن نافع " تكن " بالتاء من فوق ، و" الشركاء " المشار إليهم هو الأصنام أي الذين كانوا يجعلونهم شركاء لله بزعمهم .

وقوله ﴿ وكانوا ﴾ معناه يكونون عند معاينتهم أمر الله وفساد حال الأصنام فعبر عنه بالماضي لتيقن الأمر وصحة وقوعه .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

﴿ يتفرقون ﴾ معناه في المنازل والأحكام والجزاء ، قال قتادة : فرقة والله لا اجتماع بعدها و ﴿ يحبرون ﴾ معناه ينعمون ، قاله مجاهد ، والحبرة والحبور السرور والتنعم ، وقال يحيى بن أبي كثير : ﴿ يحبرون ﴾ معناه يسمعون الأغاني ، وهذا نوع من الحبرة ، وقال ابن عباس ﴿ يحبرون ﴾ يكرمون وفي المثل امتلأت بيوتهم حبرة فهم ينظرون العبرة ومنه بيت أبي ذؤيب : [الطويل]

فراق كقيص السن فالصبر انه . . . لكل أناس عبرة وحبور

هذا على هذه الرواية ، ويروى عثرة وحبور ، وهي أكثر وذكر تعالى " الروضة " لأنها من أحسن ما يعلم من بقاع الأرض ، وهي حيث اكتمل النبت الأخضر وجن وما كان منها في المرتفع من الأرض كان أحسن ، ومنه قول الأعشى : [البسيط]

وما روضة من رياض الحزن معشبة . . . خضراء جاد عليها مسل هطل

ومنه قول كثير : [الطويل]

فما روضة طيبة الثرى . . . تمج النداء جثجاثها وعرارها

قال الأصمعي : ولا يقال " روضة " حتى يكون فيها ماء يشرب منه ، و﴿ محضرون ﴾ معناه مجموعون له لا يغيب أحد عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(259/601)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يبدأ الخَلْق ثم يُعيدُه ﴾

أي : يخلُقهم أوّلاً ، ثم يعيدهم بعد الموت أحياءً كما كانوا ، ﴿ ثُمَّ إليه تُرْجَعون ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿ تُرْجَعون ﴾ بالتاء ؛ فعلى هذا يكون الكلام عائداً من الخبر إلى الخطاب وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : بالياء ، لأن المتقدّم ذِكْره غَيبة ، والمراد بذِكر الرجوع : الجزاءُ على الأعمال ، والخَلْق بمعنى المخلوقين ، وإنما قال : ﴿ يُعِيده ﴾ على لفظ الخَلْق .

قوله تعالى : ﴿ يُبْلِسُ المجرمون ﴾ قد شرحنا الإبلاس في [الأنعام : 44] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يكُن لهم من شركائهم ﴾ أي : [من] أوثانهم التي عبدوها ﴿ شفعاء ﴾ في القيامة ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ يتبرَّؤون منها وتتبرّأ منهم .

قوله تعالى : ﴿ يومَئذ يتفرّقون ﴾ وذلك بعد الحساب ينصرف قوم إلى الجنة ، وقوم إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ فهُم في روضة ﴾ الرَّوضة : المكان المخضرُّ من الأرض ؛ وإنَّما خصَّ الروضة ، لأنها كانت أعجب الأشياء إلى العرب ؛ قال أبو عبيدة : ليس شيءٌ عند العرب أحسنَ من الرياض المُعْشِبة ولا أطيبَ ريحاً ، قال الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ . . .

خَضْرَاءُ جادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ

يَوْماً بأَطْيَبَ مِنْها نَشْرَ رائحَةٍ . . .

وَلا بأَحْسَنَ مِنْها إذ دَنا الأُصُلُ

قال المفسرون : والمراد بالروضة : رياض الجنة .

وفي معنى ﴿ يُحْبَرون ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : يُكْرَمون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : يَنْعَمون ، قاله مجاهد ، وقتادة .

قال الزجاج : والحَبْرَة في اللغة : كل نَغْمَة حسنَة .

والثالث : يفرحون ، قاله السدي .

وقال ابن قتيبة : ﴿ يُحْبَرون ﴾ : يُسَرُّون ، والحَبْرَة : السُّرور .

والرابع : أن الحَبْر : السَّماع في الجنة ، فإذا أخذ أهل الجنة في السماع ، لم تبق شجرة إلاَّ ورَّدت ، قاله يحيى بن أبي كثير .

وسئل يحيى بن معاذ : أيّ الأصوات أحسن ؟ فقال : مزامير أُنس ، في مقاصير قُدس ، بألحان تحميد ، في رياض تمجيد ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] .

قوله تعالى : ﴿ فأولئك في العذاب مُحْضَرون ﴾ أي : هم حاضرون العذاب أبداً لا يخفَّف عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر "يرجعون" بالياء .

الباقون بالتاء .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ "يُبْلَسُ" بفتح اللام ؛ والمعروف في اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته ، ولم يؤمّل أن يكون له حجة .

وقريب منه : تحيّر ؛ كما قال العجاج :

يا صاحِ هل تَعرِفُ رَسْماً مُكْرَساً . . .

قال نعم أعرفه وأَبْلسَا

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا ، وأنه أبلس لأنه انقطعت حجته .

النحاس : ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف ، وهو في القرآن غير منصرف .

الزجاج : المبلِس الساكت المنقطع في حجته ، اليائس من أن يهتدِي إليها .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾

أي ما عبدوه من دون الله ﴿ شُفَعَاءُ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ قالوا ليسوا بآلهة فتبرؤوا منها وتبرأت منهم ؛ حسبما تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ يعني المؤمنين من الكافرين ؛ ثم بين كيف تفريقهم فقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول : معنى "أمّا" دع ما كنا فيه وخذ في غيره .

وكذا قال سيبويه : إن معناها مهما كنا في شيء فخذ في غير ما كنا فيه .

﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك : الروضة الجنة ، والرياض الجنان .

وقال أبو عبيد : الروضة ما كان في تسفُّل ، فإذا كانت مرتفعة فهي تُرْعة .

وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في موضع مرتفع غليظ ؛ كما قال الأعشى :

ما رَوْضَةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبَةٌ . . .

خَضْرَاءُ جَادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ . . .

مُوَزَّرٌ بعميم النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

يوماً بأَطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ . . .

ولا بأحسنَ منها إذ دَنَا الأُصُلُ

(262/601)

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت ، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهي ترعة .

وقد قيل في الترعة غير هذا .

وقال القُشَيْرِيّ : والروضة عند العرب ما ينبت حول الغدير من البقول ؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه .

الجوهريّ : والجمع روْض ورِياض ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها .

والرّوض : نحوٌ من نصف القِرْبَة ماء .

وفي الحوض رَوْضة من ماء إذا غطّى أسفله .

وأنشد أبو عمرو :

ورَوْضَةٍ سَقَيْتُ منها نِضْوَتي . . .

﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك وابن عباس : يُكرمون .

وقيل : ينعّمون ؛ وقاله مجاهد وقتادة .

وقيل يسرّون .

السُّدّي : يفرحون .

والحَبْرَة عند العرب : السرور والفرح ؛ ذكره الماورديّ .

وقال الجوهري : الحَبْر : الحُبُور وهو السرور ؛ ويقال : حبره يحبره (بالضم) حَبْرا وحَبَرَة ؛ قال تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ أي ينعمون ويكرمون ويسرون .

ورجل يَحْبُور يفعول من الحبور .

النحاس : وحكى الكسائيّ حبرته أي أكرمته ونعّمته .

وسمعت عليّ بن سليمان يقول : هو مشتق من قولهم : على أسنانه حَبْرة أي أثر ؛

ف"يحبرون" يَتَبيّن عليهم أثر النعيم .

والحبر مشتق من هذا .

قال الشاعر :

لا تملأ الدّلْوَ وعَرِّق فيها . . .

أما تَرَى حَبارَ من يَسْقيهَا

وقيل : أصله من التحبير وهو التحسين ؛ ف"يُحْبَرُونَ" يحسَّنون .

يقال : فلان حَسَن الحبر والسِّبْر إذا كان جميلاً حسن الهيئة .

ويقال أيضاً : فلان حسن الحَبْر والسَّبْر (بالفتح) ؛ وهذا كأنه مصدر قولك : حبَرْتُه حَبْراً إذا حسّنته .

والأوّل اسم ؛ ومنه الحديث : " يخرج رجل من النار ذهب حِبْره وسِبْره " وقال يحيى بن أبي كثير "في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ" قال : السّمَاع في الجنة ؛ وقاله الأوزاعِيّ ، قال : إذا أخذ أهل الجنة في السماع لم تبق شجرة في الجنة إلا رَدّدَت الغناء بالتسبيح والتقديس .

(263/601)

وقال الأوزاعِيّ : ليس أحد من خلق الله أحسنَ صوتاً من إسرافيل ، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم .

زاد غير الأوزاعِيّ : ولم تبق شجرة في الجنة إلا ردّدت ، ولم يبق سِتر ولا باب إلا ارتج وانفتح ، ولم تبق حلقة إلا طنت بألوان طنينها ، ولم تبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت في مقاصبها فزَمَرت تلك المقاصب بفنون الزمر ، ولم تبق جارية من جوار الحور العِينِ إلا غنَّت بأغانيها ، والطير بألحانها ، ويوحِي الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوِبوهم وأسمِعوا عبادي الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصواتٍ روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة ، ثم يقول الله جل ذكره : يا داود قم عند ساق عرشي فمجّدني ؛ فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويجليها وتتضاعف اللذة ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ .

ذكره الترمذيّ الحكيم رحمه الله .

وذكر الثعلبيّ من حديث أبي الدّرداء : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكّر الناس ؛ فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم ؛ وفي أخريات القوم أعرابيّ فقال : يا رسول الله ، هل في الجنة من سماع ؟ فقال : "نعم يا أعرابي إن في الجنة لنهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء خمصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة" فسأل رجل أبا الدّرداء : بماذا يتغنين ؟ فقال بالتسبيح " والخمصانِية : المرهفة الأعلى ،

الخمصانة البطن ، الضخمة الأسفل .

قلت : وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام ؛ فلا تعارض بين تلك الأقوال .

وأين هذا من قوله الحق : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] على ما يأتي .

(264/601)

وقوله عليه السلام : " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمِعت ولا خطر على قلب بشر " " وقد روي : " إن في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة ، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً " ذكره الزمخشريّ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ تقدّم الكلام فيه .

﴿ وَلِقَآءِ الآخرة ﴾ أي بالبعث .

﴿ فأولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ أي مقيمون .

وقيل : مجموعون .

وقيل : معذبون .

وقيل : نازلون ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ [البقرة : 180] أي نزل به ؛ قاله ابن شجرة ، والمعنى متقارب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(265/601)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) ﴾

هذه السورة مكية ، قال ابن عطية وغيره ، بلا خلاف .

وقال الزمخشري : إلا قوله : ﴿ فسبحان الله ﴾ .

وسبب نزولها أن كسرى بعث جيشاً إلى الروم ، وأمر عليهم رجلاً ، واختلف النقلة في اسمه ؛ فسار إليهم بأهل فارس ، وظفر وقتل وخرب وقطع زيتونهم ، وكان التقاؤهم بأذرعات وبصرى ، وكان قد بعث قيصر رجلاً أميراً على الروم .

وقال مجاهد : التقت بالجزيرة .

وقال السدي : بأرض الأردن وفلسطين ، فشق ذلك على المسلمين لكونهم مع الروم أهل الكتاب ، وفرح بذلك المشركون لكونهم مع المجوس ليسوا بأهل كتاب .

وأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أن الروم ﴿ سيغلبون في بضع سنين ﴾ .

ونزلت أوائل الروم ، فصاح أبو بكر بها في نواحي مكة : ﴿ الم ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ .

فقال ناس من مشركي قريش : زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارساً في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ فقال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان .

فاتفقوا أن جعلوا بضع سنين وثلاث قلائص ، وأخبر أبو بكر رسول الله بذلك فقال : " هلا اختطبت ؟ فارجع فزدهم في الأجل والرهان " فجعلوا القلائص مائة ، والأجل تسعة أعوام .

فظهرت الروم على فارس في السنة السابعة ، وكان ممن راهن أبيّ بن خلف .

فلما أراد أبو بكر الهجرة ، طلب منه أبيّ كفيلاً بالخطر إن غلبت ، فكفل به ابنه عبد الرحمن .

فلما أراد أبيّ الخروج إلى أحد ، طلبه عبد الرحمن بالكفيل ، فأعطاه كفيلاً ومات أبيّ من جرح جرحه النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وظهر الروم على فارس يوم الحديبية .

وقيل : كان النصر يوم بدر للفريقين ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي ، وجاء به إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال له : " تصدق به " .

وسبب ظهور الروم ، أن كسرى بعث إلى شهريزان ، وهو الذي ولاه على محاربة الروم ، أن اقتل أخاك فرّخان لمقالة قالها ، وهي قوله : لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى ، فلم يقتله .

فبعث إلى فارس أني عزلت شهريزان ووليت أخاه فرّخان ، وكتب إليه : إذا ولي ، أن يقتل أخاه شهريزان ، فأراد قتله ، فأخرج له شهريزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل أخيه فرّخان .

قال : وراجعته في أمرك مراراً ، ثم تقتلني بكتاب واحد ؟ فرد الملك إلى أخيه .

وكتب شهريزان إلى قيصر ملك الروم ، فتعاونا على كسرى ، فغلبت الروم فارس ، وجاء الخبر ، ففرح المسلمون .

وكان ذلك من الآيات البينات الشاهدة بصحة النبوة ، وأن القرآن من عند الله ، لأنها إيتاء من علم الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله .

وقرأ علي ، وأبو سعيد الخدري ، وابن عباس ، وابن عمر ، ومعاوية بن قرة ، والحسن : ﴿ غلبت الروم ﴾ : مبنياً للفاعل ، ﴿ سيغلبون ﴾ : مبنياً للمفعول ؛ والجمهور : مبنياً

للمفعول ، سيغلبون : مبنياً للفاعل .

وتأويل ذلك على ما فسره ابن عمران : الروم غلبت على أدنى ريف الشأم ، يعنى : بالريف السواد .

وجاء كذلك عن عثمان ، وتأوله أبو حاتم على أن الروم غلبت يوم بدر ، فعز ذلك على كفار قريش ، وسر المؤمنون ، وبشر الله عباده بأنهم سيغلبون في بضع سنين . انتهى .

فيكون قد أخبر عن الروم بأنهم قد غلبوا ، وبأنهم سيغلبون ، فيكون غلبهم مرتين .

قال ابن عطية : والقراءة بضم الغين أصح .

وأجمع الناس على سيغلبون بفتح الياء ، يراد به الروم .

وروي عن ابن عمر أنه قرأ سيغلبون بضم الياء ، وفي هذه القراءة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات . انتهى .

وقوله : وأجمعوا ، ليس كذلك .

(267/601)

ألا ترى أن الذين قرأوا غلبت بفتح الغين هم الذين قرأوا سيغلبون بضم الياء وفتح اللام ، وليست هذه مخصوصة بابن عمر ؟ وقرأ الجمهور : غلبهم ، بفتح الغين واللام : وعلي ،

وابن عمر ، ومعاوية بن قرة : بإسكانها ؛ والقياس عن ابن عمر : وغلابهم ، على وزن كتاب .

والروم : طائفة من النصارى ، وأدنى الأرض : أقربهما : فإن كانت الواقعة في أذرعات ، فهي أدنى الأرض بالنظر إلى مكة ، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

تنوّرتها من أذرعات وأهلها . . .

بيثرب أدنى دارها نظر عال

وإن كانت بالجزيرة ، فهي أدنى بالنظر إلى أرض كسرى .

فإن كانت بالاردن ، فهي أدنى بالنظر إلى أرض الروم .

وقرأ الكلبي : ﴿ في أدنى الأرض ﴾ ، وتقدم الكلام في مدلول البضع باعتبار القراءتين .

ففي غلبت ، بضم الغين ، يكون مضافاً للمفعول ؛ وبالفتح ، يكون مضافاً للفاعل ، ويكون المعنى : سيغلبهم المسلمون في بضع سنين ، عند انقضاء هذه المدة التي هي أقصى مدلول البضع .

أخذ المسلمون في جهاد الروم ، وكان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يحكي عن أبي الحكم بن برجان أنه استخرج من قوله تعالى : ﴿ الم ، غلبت الروم ﴾ إلى قوله : ﴿ في بضع سنين ﴾ ، افتتاح المسلمين بيت المقدس ، معيناً زمانه ويومه ، وكان إذ ذاك بيت المقدس قد غلبت عليه النصارى ، وأن ابن برجان مات قبل الوقت الذي كان عينه للفتح ، وأنه

بعد موته بزمان افتتحه المسلمون في الوقت الذي عينه أبو الحكم .

وكان أبو جعفر يعتقد في أبي الحكم هذا ، أنه كان يطلع على أشياء من المغيبات يستخرجها من كتاب الله .

﴿ لله الأمر ﴾ : أي إنفاذ الأحكام وتصريفها على ما يريد .

وقرأ الجمهور : ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ ، بضمهما : أي من قبل غلبة الروم ومن بعدها .

ولما كانا مضافين إلى معرفة ، وحذفت بنيا على الضم ، والكلام على ذلك مذكور في علم النحو .

وقرأ أبو السمال ، والجحدري ، وعون العقيلي : من قبل ومن بعد ، بالكسر والتنوين فيهما .

(268/601)

قال الزمخشري : على الجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه ، كأنه قيل : قبلاً وبعداً ، بمعنى أولاً وآخراً . انتهى .

وقال ابن عطية : ومن العرب من يقول : من قبل ومن بعد ، بالخفض والتنوين .

قال الفراء : ويجوز ترك التنوين ، فيبقى كما هو في الإضافة ، وإن حذف المضاف . انتهى .

وأنكر النحاس ما قاله الفراء ورده ، وقال الفراء في كتابه : (في القرآن) أشياء كثيرة من الغلط ، منها : أنه زعم أنه يجوز من قبل ومن بعد ، وإنما يجوز من قبل ومن بعد على أنهما نكرتان ، والمعنى : من متقدم ومن متأخر .

وحكى الكسائي عن بعض بني أسد : لله الأمر من قبل ومن بعد الأول مخفوض منوّن ، والثاني مضموم بلا تنوين .

والظاهر أن يومئذ ظرف ﴿ يفرح المؤمنون ﴾ ، وعلى هذا المعنى فسره المفسرون .

وقيل : ﴿ ويومئذ ﴾ عطف على : ﴿ من قبل ومن بعد ﴾ ، كأنه حصر الأزمنة الثلاثة : الماضي والمستقبل والحال ، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر .

و ﴿ بنصر الله ﴾ : أي الروم على فارس ، أو المسلمين على عدوهم ، أو في أن صدق ما قال الرسول من أن الروم ستغلب فارس ، أو في أن يسلط بعض الظالمين على بعض ، حتى تفانوا وتناكصوا ، احتمالات .

وفي الحديث : " فارس نطحة أو نطحتان ، ثم لا فارس بعدها أبداً ، والروم ذات القرون ، كلما ذهب قرن خلف قرن إلى آخر الأبد " .

وقال ابن عباس : يوم بدر كانت هزيمة عبدة الأوثان وعبدة النيران ، وقال معناه أبو سعيد الخدري ، وقيل : ورد الخبر يوم الحديبية بوفاة كسرى ، فسر المسلمون بحرب المشركين ، ولموت عدو لهم في الأرض متمكن .

وهو ﴿ العزيز ﴾ بانتقامه من أعدائه ، ﴿ الرحيم ﴾ لأوليائه .

وانتصب ﴿ وعد الله ﴾ على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي تقدمت ، وهو قوله : ﴿ سيغلبون ﴾ ، وقوله : ﴿ يفرح المؤمنون ﴾ .

﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ الكفار من قريش وغيرهم ، ﴿ لا يعلمون ﴾ : نفي عنهم العلم النافع للآخرة ، وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا .

(269/601)

قيل : والمعنى لا يعلمون أن الأمور من عند الله ، وأن وعده لا يخلفه ، وأن ما يورده بعينه ، (صلى الله عليه وسلم) ، حق .

﴿ يعلمون ظاهراً ﴾ : أي بيناً ، أي ما أدّته إليهم حواسهم ، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم .

وقال ابن عباس ، والحسن ، والجمهور : معناه ما فيه الظهور والعلوّ في الدنيا من اتقان الصناعات والمباني ومظان كسب المال والفلاحات ، ونحو هذا .

وقالت فرقة : معناه ذاهباً زائلاً ، أي يعلمون أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة .

وقال الهذلي :

وعيرها الواشون أني أحبها . . .

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

أي : زائل .

وقال ابن جبير : ﴿ ظاهراً ﴾ ، أي يعلمون من قبل الكهنة مما يسترقه الشياطين .

وقال الرماني : كل ما يعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهر ، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن .

وقال الزمخشري : ﴿ يعلمون ﴾ بدل من قول : ﴿ لا يعلمون ﴾ ، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ، لنعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا .

وقوله : ﴿ ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ : يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها ، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز للآخرة ، يتزود إليها منها بالطاعة والأعمال الصالحة ؛ وهم الثانية توكيد لهم الأولى ، أو مبتدأ .

وفي إظهارهم على أي الوجهين ، كانت تنبيه على غفلتهم التي صاروا ملتبسين بها ، لا ينفكون عنها .

و ﴿ في أنفسهم ﴾ : معمول ليتفكروا ، إما على تقدير مضاف ، أي في خلق أنفسهم ليخرجوا من الغفلة ، فيعلموا أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فقط ، ويستدلوا بذلك على الخالق المخترع .

ثم أخبر عقب هذا بأن الحق هو السبب في خلق السموات والأرض ؛ وأما على أن يكون ﴿ في أنفسهم ﴾ ظرفاً للفكرة في خلق السموات والأرض ، فيكون ﴿ في أنفسهم ﴾ توكيداً لقوله : ﴿ يتفكرون ﴾ ، كما تقول : أبصر بعينك واسمع بأذنك .

وقال الزمخشري : في هذا الوجه كأنه قال : أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم ؟ أي في قلوبهم الفارغة من الفكر .

والفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين ، كقولك : اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك .

وقال أيضاً : يكون صلة المتفكر ، كقولك : تفكر في الأمر وأجال فكره .

و ﴿ ما خلق الله ﴾ متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أو لم يتفكروا ، فيقولوا هذا القول ؟ وقيل معناه : فيعلموا ، لأن في الكلام دليلاً عليه . انتهى .

والدليل هو قوله : ﴿ أو لم يتفكروا ﴾ .

وقيل : ﴿ أو لم يتفكروا ﴾ متصل بما بعده ، ومثله : ثم ﴿ يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ ومثله : ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ فيكون في بمعنى الباء ، ثم ﴿ يتفكروا ما

بصاحبهم من ﴾ ، كأنه قال : أو لم يتفكروا بقلوبهم فيعلموا . انتهى .

ويجوز أن يكون تفكروا هنا معلقة ، ومتعلقها الجملة من قوله : ﴿ ما خلق ﴾ إلى آخرها .

و ﴿ في أنفسهم ﴾ : ظرف على سبيل التأكيد ، لأن الفكر لا يكون إلا في النفس ، كما أن الكتابة لا تكون إلا باليد .

و ﴿ بالحق ﴾ : في موضع الحال ، أي وهي ملتبسة بالحق مقترنة به ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه وهو : قيام الساعة ، ووقت الحساب والثواب والعقاب .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً ؟ والمراد بلقاء ربهم : الأجل المسمى .

وقال ابن عطية : ﴿ إلا بالحق ﴾ ، أي بسبب المنافع التي هي حق واجب ، يريد من الدلالة عليه والعبادة له دون فتور ، والانتصار للعبرة ومنافع الإرفاق وغير ذلك .

﴿ وأجل ﴾ عطف على الحق ، أي وبأجل مسمى ، وهو يوم القيامة .

(271/601)

ففي الآية إشارة إلى البعث والنشور وفساد بنية هذا العالم .

ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفروا بذلك المعنى ، فعبر عنها بلقاء الله ، لأن لقاء الله هو

عظيم الأمر ، فيه النجاة والهلكة . انتهى .

وقال أبو عبد الله الرازي : قدم هنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق ، وفي :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ دلائل الآفاق على دلائل الأنفس ، وحكمة ذلك أن المفيد يذكر الفائدة على وجه يختارها ، فإن فهمت ، وإلا انتقل إلى الأبين .

والمستفيد يفهم أولاً الأبين ، ثم يرتقي إلى الأخفى .

وفي ﴿ أو لم يتفكروا ﴾ بفعل مسند إلى السامع ، فبدأ بما يفهم أولاً ، ثم ارتقى إليه ثانياً .

وفي ﴿ سنريهم ﴾ أسند إلى المفيد ، فذكر أولاً ، الآفاق ، فإن لم يفهموا ، فالأنفس ، إذ لا ذهول للإنسان عن دلائلها ، بخلاف دلائل الآفاق ، لأنه قد يذهل عنها ، وهذا مراعي في ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ﴾ الآية .

بدأ بأحوال الأنفس ، ثم بدلائل الآفاق .

وقال أيضاً هنا : ﴿ وإن كثيراً ﴾ ، ﴿ وقبل ﴾ ، ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ ، وذلك أن هنا ذكر كثيراً بعد ذكر الدلائل الواضحة ، وهما : ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ﴾ ، و ﴿ ما خلق الله ﴾ .

والإيمان بعد الدلائل أكثر من الإيمان قبلها ، فبعد ذكر الدليل ، لا بد أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع ، فلا يبقى الأكثر .

انتهى ، وفيه تلخيص .

ولا يتم كلامه الأول إلا إذا جعل ﴿ في أنفسهم ﴾ محلاً للتفكر ، وجعل ﴿ ما خلق ﴾ أيضاً محلاً ثانياً .

﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ : هذا تقرير توبيخ ، أي قد ساروا ونظروا إلى ما حمل ممن كان قبلهم من مكذبي الرسل ، ووصف حالهم من الشدة وإثارة الأرض وعمارتها ، وأنهم أقوى منهم في ذلك .

قال مجاهد : ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ : حرثوها .

وقال الفراء : قلبوها للزراعة .

وقال غيرهما : قلبوا وجه الأرض لاستنباط المياه ، واستخراج المعادن ، وإلقاء البذر فيها للزراعة ؛ والإثارة : تحريك الشيء حتى يرتفع ترابه .

(272/601)

وقرأ أبو جعفر : وآثاروا الأرض ، بمدة بعد الهمزة .

وقال ابن مجاهد : ليس بشيء ، وخرجه أبو الفتح على الإشباع كقوله :

ومن ذم الزمان بمنتزاح . . .

وقال : من ضرورة الشعر ، ولا يجيء في القرآن .

وقرأ أبو حيوة : وآثروا من الإثرة ، وهو الاستبداد بالشيء .

وقرىء : وأثروا الأرض : أي أبقوا عنها آثاراً .

﴿ وعمروها ﴾ : من العمارة ، أي بقاؤهم فيها أكثر من بقاء هؤلاء ، أو من العمران : أي سكنوا فيها ، أو من العمارة .

قال الزمخشري : ﴿ أكثر مما عمروها ﴾ : من عمارة أهل مكة ، وأهل مكة أهل واد غير ذي زرع ، ما لهم إثارة الأرض أصلاً ، ولا عمارة لهم رأساً ، فما هو إلاّ تهكم بهم وتضعيف حالهم في دنياهم ، لأن معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة ، وهم أيضاً ضعاف القوى .

﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ : قبله محذوف ، أي فكذبوهم فأهلكوا .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو : ﴿ ثم كان عاقبة ﴾ بالرفع اسماً لكان ، وخبرها ﴿ السوأى ﴾ ، أو هو تأنيث الأسوإ ، أفعل من السوء .

﴿ أن كذبوا ﴾ : مفعول من أجله متعلق بالخبر ، لا بأساء ، وإلا كان فيه الفصل بين الصلة ومتعلقها بالخبر ، وهو لا يجوز ؛ والمعنى : ثم كان عاقبتهم ، فوضع المظهر موضع المضمر .

﴿ السوأى ﴾ : أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة ، وهي جهنم .

ويجوز أن تكون ﴿ السوأى ﴾ مصدراً على وزن فعلى ، كالرجعى ، وتكون خبراً أيضاً .

ويجوز أن تكون مفعولاً بأساء بمعنى اقترفوا ، وصفة مصدر محذوف ، أي الإساءة السوأى

، ويكون خبر كان ﴿ أن كذبوا ﴾ .

وقرأ الأعمش والحسن : السوى ، بإبدال الهمزة واواً وإدغام الواو فيها ، كقراءة من قرأ : ﴿ السوء ﴾ بالإدغام في يوسف .

وقرأ ابن مسعود : السوء ، بالتذكير .

وقرأ الكوفيون وابن عامر : ﴿ عاقبة ﴾ ، بالنصب ، خبر كان ، والاسم السوأى ، أو السوء مفعول ، وكذبوا الاسم .

(273/601)

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون أن بمعنى : أي تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء ، كانت في بمعنى القول ، نحو : نادى وكتب .

ووجه آخر ، وهو أن يكون ﴿ أساؤا السوأى ﴾ بمعنى : اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايات ، ﴿ وأن كذبوا ﴾ عطف بيان لها ، وخبر كان محذوف ، كما يحذف جواب لما ولو إرادة الإبهام . انتهى .

وكون أن هنا حرف تفسير متكلف جداً .

وأما قول الخطايات فكذا هو في النسخة التي طالعناها ، جمع جمع تكسير بالألف والتاء ،

وذلك لا ينقاس ، إنما يقتصر فيه على مورد السماع ، ولا يبعد أن يكون زيادة التاء في الخطايات من الناسخ .

وأما قوله : ﴿ وأن كذبوا ﴾ عطف بيان لها ، أي للسوأى ، وخبر كان محذوف الخ .

فهذا فهم أعجمي ، لأن الكلام مستقل في غاية الحسن بلا حذف ، فيتكلف له محذوفاً يدل عليه دليل .

وأصحابنا لا يجيزون حذف خبر كان وأخواتها ، لا اقتصاراً ولا اختصاراً ، إلا إن ورد منه شيء ، فلا ينقاس عليه .

وقرأ عبد الله وطلحة : يبدىء ، بضم الياء وكسر الدال ؛ والجمهور : بفتحها ؛ والأبوان : يرجعون ، بياء الغيبة ؛ والجمهور : بتاء الخطاب ، أي إلى ثوابه وعقابه ؛ والجمهور : يبلس ، بكسر اللام ؛ وعلي والسلمي : بفتحها ، من أبلسه إذا أسكته ؛ والجمهور : ولم يكن ، بالياء ؛ وخارجة والأريس ، كلاهما عن نافع ، وابن سنان عن أبي جعفر ، والأنطاكي عن شيبة : بتاء التأنيث .

﴿ من شركائهم ﴾ : من الذين عبدوهم من دون الله ، وهي الأوثان ، وأضيفوا إليهم لأنهم أشركوهم في أموالهم ، وقيل : لأنهم اتخذوها بزعمهم شركاء لله .

وقال مقاتل : المراد بهم الملائكة شفعاء لله ، كما زعموا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله

زلفى ﴾ ﴿ وكانوا ﴾ معناه : ويكون عند معاينتهم أمر الله وفساد حال الأصنام عبر بالماضي ، لتيقن الأمر وصحة وقوعه .

(274/601)

وكتب السوأى بالألف قبل الياء ، كما كتبوا علماء بني إسرائيل بواو قبل الألف والتنوين في ﴿ يومئذ ﴾ ، تنوين عوض من الجملة المحذوفة ، أي ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ ، يوم إذ ﴿ يبلس المجرمون ﴾ .

والضمير في ﴿ يتفرقون ﴾ للمسلمين والكافرين ، لدلالة ما بعده عليه .

قال الزمخشري : ويظهر أنه عائد على ما قبله ، إذ قبله : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ .

قال قتادة : هي فرقة ، لا اجتماع بعدها .

﴿ في روضة ﴾ ، الروضة ، الأرض ذات النبات والماء ، وفي المثل : أحسن من بيضة ، يريدون : بيض النعامة ، والروضة مما تعجب العرب ، وقد أكثروا من مدحها في أشعارهم .

﴿ يحبرون ﴾ : يسرون .

حبره : سره سروراً ، وتهلل له وجهه وظهر له أثره .

يحبر بالضم ، حبراً وحبرة وحبوراً ، وفي المثل : امتلأت بيوتهم حبرة فهم ينتظرون العبرة .

وحكى الكسائي : حبرته : أكرمته ونعمته .

وقال علي بن سليمان : هو من قولهم : على أسنانه حبرة ، أي أثر ، أي يسير عليهم أثر النعمة .

وقيل : من التحبير ، وهو التحسين ، أي يحسنون .

ويقال : فلان حسن الحبر والسبر ، بالفتح ، إذا كان جميلاً حسن الهيئة .

وقال ابن عباس ، والضحاك ، ومجاهد : يكرمون .

وقال يحيى بن أبي كثير ، والأوزاعي ، ووكيع : يسمعون الأغاني .

وقال أبو بكر ، وابن عباس : يتوجون على رؤوسهم .

وقال ابن كيسان : يحلون .

ومعنى ﴿ محضرون ﴾ : مجموعون له ، لا يغيب أحد منهم عنه بقوله : ﴿ وما هم بخارجين منها ﴾ وجاء في روضة منكراً وفي العذاب معرفاً .

قال الزمخشري : والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه ، وجاء يحبرون بالفعل المضارع لاستعماله للتجدد ، لأنهم كل ساعة يأتيهم ما يسرون به من متجددات الملاذ وأنواعها المختلفة .

وجاء ﴿ محضرون ﴾ باسم الفاعل لاستعماله للثبوت ، فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين ، فهو وصف لا ذم لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(275/601)

وقال أبو السعود :

(276/601)

﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ﴾ أي يُنشئهم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموتِ بالبعثِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى موقفِ الحسابِ والجزاءِ . والالتفاتُ للمُبالغةِ في التَّرهيبِ وقُرِىء بالياءِ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ التي هي وقتُ إعادة الخلق ورجعهم إليه ، ﴿ يُبْلِسُ المجرمون ﴾ أي يسكُتون مُتحيِّرينَ لا ينبِسُون ، يقال ناظرتُه فأبلسَ إذا سكتَ وأيسَ من أنْ يحتجَّ . وقُرِىء بفتحِ اللامِ ، من أبلسَه إذا أفحمَه وأسكتَه ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء ﴾ يجيرونَهم من عذابِ اللهِ تعالى كما كانُوا يزعمونَه . وصيغةُ الجمعِ لوقوعِها في مقابلةِ الجمعِ أي لم يكُن لواحدٍ منهم شفيعٌ أصلاً ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كافرين ﴾ أي بإلهايتهم وشركتِهم مِ سبحانه حيثُ وقفُوا على كُنهِ أمرِهم . وصيغةُ الماضِي للدّلالةِ على تحقُّقِه وقيلَ كانُوا في الدُّنيا كافرين بسببِهم وليسَ بذاكَ إذْ ليسَ في الإخبارِ به فائدةٌ يعتدُّ بها . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ

الساعة ﴿ أُعيدَ لتهويله وتفظيعِ ما يقعُ فيه . وقولُه تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ تهويلٌ له إثرَ تهويلٍ ، وفيه رمزٌ إلى أنَّ التَّفرقَ يقعُ في بعضٍ منه . وضميرُ يتفرَّقُون لجميعِ الخلقِ المدلولِ عليهم بما تقدَّمَ من بدئِهم وإعادتِهم ورجعِهم لا المجرمون خاصَّة . وليسَ المرادُ بتفرُّقِهم افتراقَ كلِّ فردٍ منهم عن الآخرِ بل تفرُّقَهم إلى فريقَيْ المؤمنينَ والكافرينَ كما في قولِه تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ وذلك بعد تمامِ الحسابِ . وقولُه تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ تفصيلٌ وبيانٌ لأحوالِ ذينكَ الفريقينِ . والرَّوضةُ كلُّ أرضٍ ذاتِ نباتٍ وماءٍ ورَوْنقٍ ونَضارةٍ . وتنكيرُها للتَّفخيم . والمرادُ بها الجَّنةُ ، والحُبورُ السُّرورُ يقال حبرَهُ إذا سرَّهُ سُروراً تهلَّل

(277/601)

له وجهُه ، وقيل : الحَبرةُ كلُّ نغمةٍ حسنةٍ والتَّحبيرُ التَّحسينُ . واختلفتْ فيه الأقاويلُ لاحتمالِه وجوهَ جميعِ المسارِّ . فعنِ ابنِ عبَّاسٍ ومُجاهدٍ : يُكرمون . وعن قَتادةَ يُنعَّمون . وعن ابن كيسانَ يُحلَّون وعن بكر بن عيَّاشٍ : التِّيجانُ على رؤوسِهم . وعن وكيعٍ : السَّماعُ في الجَّنةِ . وعن النبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم ، أنَّه ذكَرَ الجَنَّةَ وما فيها من النعيمِ وفي آخرِ القومِ أعرابيٌّ فقالَ : يا رسولَ الله هَلْ في الجَّنةِ من سماعٍ قال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " يا

أعرابيٌّ إنَّ في الجنَّةِ لنهراً حافَّتاه الأبكارُ من كلِّ بيضاءَ خُوصانيةٍ يتغنَّين بأصواتٍ لم يسمعِ الخلائقُ بمثلِها قطّ فذلكَ أفضلُ نعيمِ الجنَّةِ " قال الرَّاوي فسألتُ أبا الدرداءِ رضي الله عنه بم يتغنَّين قال بالتَّسبيحِ . ورُوي إنَّ في الجنَّةِ لأشجاراً عليها أجراسٌ من فضَّةٍ فإذا أرادَ أهلُ الجَّنةِ السَّماعَ بعثَ الله تعالى ريحاً من تحتِ العرشِ فتقعُ في تلكَ الأشجارِ فتحركُ تلك الأجراسَ بأصواتٍ لو سمعها أهلُ الدُّنيا لماتُوا طرباً .

﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ التي من جُملتها هذه الآياتُ النَّاطقةُ بما فُصّل ﴿ وَلِقَاء الآخرة ﴾ صرَّح بذلك مع اندراجه في تكذيبِ الآياتِ للاعتناءِ بأمره . وقولُه تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبارِ اتّصافِه بما في حيّزِ الصّلةِ من الكُفرِ والتَّكذيبِ بآياتِه تعالى وبلقاءِ الآخرةِ للإيذانِ بكمالِ تميُّزِهم بذلكَ عن غيرِهم وانتظامِهم في سلكِ المُشاهداتِ ، وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ للإشعارِ ببُعد منزلتِهم في الشرِّ أي أولئكَ الموصوفونَ بما فُصِّل من القبائحِ . ﴿ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ على الدّوامِ لا يغيبونَ عنه أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(278/601)

وقال الآلوسى :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾

أي ينشئهم .

وقرأ عبد الله وطلحة ﴿ يُبْدِىء ﴾ بضم الياء وكسر الدار ، وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر فما بالعهد من قدم .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بالبعث ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء ، وتقديم المعمول للتخصيص ، وكان الظاهر يرجعون بياء الغيبة إلا أنه عدل عنه إلى خطاب المشركين لمكافحتهم بالوعيد ومواجهتهم بالتهديد وإيهام إن ذلك مخصوص بهم فهو التفات للمبالغة في الوعيد والترهيب .

وقرأ أبو عمرو .

وروح ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بياء الغيبة كما هو الظاهر .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ التي هي وقت إعادة الخلق ومرجعهم إليه عز وجل : ﴿ يُبْلِسُ المجرمون ﴾ أي يسكتون وتنقطع حجتهم ، قال الراعب : الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس ومنه اشتق إبليس فيما قيل ، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعينه قيل أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته وأبلست الناقة فهي مبلاس إذا لم ترغ من شدة الضبعة وقال ابن ثابت : يقال أبلس الرجل إذا يئس من كل خير ، وفي الحديث " وأنا مبشرهم إذا أبلسوا " والمراد بالمجرمين على ما أفاده الطيبي أولئك الذين أساءوا السوأى

لكنه وضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بهذا الوصف الشنيع والإشعار بعلة الحكم .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي ﴿ يُبْلِسُ ﴾ بفتح اللام وخرج على أن الفعل من أبلسه إذا أسكته ، وظاهره أنه يكون متعدياً وقد أنكره أبو البقاء .

والسمين .

وغيرهما حتى تكلفوا وقالوا : أصله يبلس إبلاس المجرمين على إقامة المصدر مقام الفاعل ثم حذفه وإقامة المضاف إليه مقامه .

وتعقبه الخفاجي عليه الرحمة فقال : لا يخفى عدم صحته لأن إبلاس المجرمين مصدر مضاف لفاعله وفاعله هو فاعل الفعل بعينه فكيف يكون نائب الفاعل فتأمل .

وأنت تعلم أنه متى صحت القراءة لا تسمع دعوى عدم سماع استعمال أبلس متعدياً .

(279/601)

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ ﴾ ممن أشركوهم بالله سبحانه في العبادة ولذا أضيفوا إليهم ، وقيل : إن الإضافة لإشراكهم إياهم بالله تعالى في أموالهم والمراد بهم الأوثان ، وقال مقاتل :

الملائكة عليهم السلام ، وقيل : الشياطين ، وقيل : رؤساؤهم ﴿ شُفَعَاء ﴾ يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمون ، وجيء بالمضارع منفياً بلم التي تقلبه ماضياً للتحقق ، وصيغة الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع أي لم يكن لواحد منهم شفيع أصلاً .

وقرأ خارجة عن نافع ، وابن سنان عن أبي جعفر ، والأنطاكي عن شيبة ﴿ وَلَمْ تَكُنْ ﴾ بالتاء الفوقية .

﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ أي بإلهيتهم وشركتهم كما يشير إليه العدول عن وكانوا بهم ﴿ كافرين ﴾ حيث يئسوا منهم ووقفوا على كنه أمرهم ، ﴿ وَكَانُواْ ﴾ للدلالة على الاستمرار لا للمحافظة على رؤوس الفواصل كما توهم .

وقيل : إنها للمضي كما هو الظاهر ، والباء في ﴿ بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ سببية أي وكانوا في الدنيا كافرين بالله تعالى بسببهم ولم يرتضه بعض الأجلة إذ ليس في الإخبار بذلك فائدة يعتد بها ، ولأن المتبادر أن ﴿ يَوْمٍ تَقُومُ الساعة ﴾ [الروم : 12] ظرف للإبلاس وما عطف عليه ولذا قيل : إن المناسب عليه جعل الواو حالية ليكون المعنى أنهم لم يشفعوا لهم مع أنهم سبب كفرهم في الدنيا وهو أحسن من جعله معطوفاً على مجموع الجملة مع الظرف ، مع أنه عليه ينبغي القطع للاحتياط إلا أن يقال : إنه ترك تعويلاً على القرينة العقلية ، وهو خلاف الظاهر ، وكتب ﴿ شفعواء ﴾ في المصحف بواو بعدها ألف وهو خلاف القياس والقياس ترك الواو أو تأخيرها عن الألف لكن الأول أحسن كما ذكر في الرسم ، وكذا

خولف القياس في كتابه ﴿ السوأى ﴾ حيث كتبت بالألف قبل الياء والقياس كما في "الكشف" الحذف لأن الهمز يكتب على نحو ما يسهل .

(280/601)

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ أعيد لتهويله وتفظيع ما يقع فيه وهو ظرف للفعل بعده ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ على ما ذكره الطبرسي بدل منه .

وفي "البحر" التنوين في ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ تنوين عوض من الجملة المحذوفة أي ويوم تقوم الساعة يوم إذ يبلس المجرمون ﴿ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ وظاهره أن ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرف لتقوم ، ولا يخفى ما في جعل الجملة المعوض عنها التنوين حينئذٍ ما ذكره من النظر .

وفي إرشاد العقل السليم أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ تهويل ليوم قيام الساعة إثر تهويل وفيه رمز إلى أن التفرق يقع في بعض منه ، وفي وجه الرمز إلى ذلك بما ذكر خفاء ، وضمير ﴿ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ للمسلمين والكافرين الدال عليهما ما قبل من عموم الخلق وما بعد من التفصيل ، وذهب إلى ذلك الزمخشري .

وجماعة .

وقال في الإرشاد : هو لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من مبدئهم ومرجعهم وإعادتهم لا

المجرمون خاصة ، وقال أبو حيان : يظهر أنه عائد على الخلق قبله وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [الروم : 11] والمراد بتفرقهم اختلافهم في المحال والأحوال كما يؤذن به التفصيل ، وليس ذلك باعتبار كل فرد بل باعتبار كل فريق ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في ذلك هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل سافلين ، والتفصيل يؤذن بذلك أيضاً ، وهذا التفرق بعد تمام الحساب .

﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾

الروضة الأرض ذات النبات والماء ، وفي المثل أحسن من بيضة في روضة يريدون بيضة النعامة ، وباعتبار الماء قيل : أراض الوادي واستراض أي كثر ماؤه وأراضهم أرواهم بعض الري من أراض الحوض إذا صب فيه من الماء ما يوارى أرضه ، ويقال : شربوا حتى أراضوا أي شربوا عللاً بعد نهل .

(281/601)

وقيل : معنى أراضوا صبوا اللبن على اللبن ، وظاهر تفسير الكثير للروضة اعتبار النبات والماء فيها ، وأظن أن ابن قتيبة صرح بأنه لا يقال لأرض ذات نبات بلا ماء روضة .

وقيل : هي البستان الحسن ، وقيل : موضع الخضرة ، وقال الخفاجي : الروضة البستان

وتخصيصها بذات الأنهار بناءً على العرف ، وأياً ما كان فتنوينها هنا للتفخيم والمراد بها الجنة ، والحبر السرور يقال : حبره يحبره بالضم حبراً وحبرة وحبوراً إذا سره سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره ، وفي المثل امتلأت بيوتهم حبرة فهم ينتظرون العبرة ، وحكى الكسائي حبرته أكرمته ونعمته ، وقيل : الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين ، ويقال : فلان حسن الحبر والسبر بالفتح إذا كان جميلاً حسن الهيئة ، واختلفت الأقوال في تفسيره هنا فأخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن ابن عباس ، وابن أبي حاتم عن الضحاك أنهما قالا : يحبرون يكرمون .

وأخرج جماعة عن مجاهد يحبرون ينعمون ، وقال أبو بكر ابن عياش : يتوجون على رؤوسهم .

وقال ابن كيسان : يحلون ، وقال الأوزاعي .

ووكيع .

ويحيى بن أبي كثير : يسمعون الأغاني ، وأخرج عبد بن حميد عن الأخير أنه قال : قيل : يا رسول الله ما الحبر ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : اللذة والسماع .

وذكر بعضهم أن الظاهر يسرون ولم يذكر ما يسرون به إيذاناً بكثرة المسار وما جاء في الخبر فمن باب الاقتصار على البعض ، ولعل السائل كان يحب السماع فذكره صلى الله عليه وسلم له لذلك ، والتعبير بالمضارع للإيذان بتجدد السرور لهم ففي كل ساعة يأتيهم ما

يسرون به من متجددات الملاذ وأنواعها المختلفة .

﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾

(282/601)

التي من جملتها الآيات الناطقة بما فصل ﴿ وَلِقَاء الآخرة ﴾ أي وكذبوا بالبعث ، وصرح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء به ، وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للإيذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم في سلك المشاهدات ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلتهم في الشر أي فأولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبداً ، والظاهر أن الفسقة من أهل الإيمان غير داخلين في أحد الفريقين أما عدم دخولهم في الذين كفروا وكذبوا بالآيات والبعث فظاهر وأما عدم دخولهم في ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [الروم : 15] فأما لأن ذلك لا يقال في العرف إلا على المؤمنين المجتنبين للمفسقات على ما قيل ، وأما لأن المؤمن الفاسق يصدق على المؤمن الذي لم يعمل شيئاً من

الصالحات أصلاً فهم غير داخلين في ذلك باعتبار جميع الأفراد وحكمهم معلوم من آيات أخر فلا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(283/601)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

استئناف ابتدائي ، وهو شروع فيما أُقيمت عليه هذه السورة من بسط دلائل انفراد الله تعالى بالتصرف في الناس بإيجادهم وإعدامهم وبإمدادهم وأطوار حياتهم ، لإبطال أن يكون لشركائهم شيء من التصرف في ذلك .

فهي دلائل ساطعة على ثبوت الوحدانية التي عمُوا عنها .

وإذا كان نزول أول السورة على سبب ابتهاج المشركين لتغلب الفرس على الروم فقطع الله تطاولهم على المسلمين بأن أخبر أن عاقبة النصر للروم على الفرس نصراً باقياً ، وكان مثار التنازع بين المشركين والمؤمنين ميل كل فريق إلى مقاربه في الدين جُعل ذلك الحدثُ مناسبة لإفاضة الاستدلال في هذه السورة على إبطال دين الشرك .

وقد فُصِّلت هذه الدلائل على أربعة استئنافات متماثلة الأسلوب ، ابتُدىء كل واحد منها

باسم الجلالة مُجْرى عليه أخبار عن حقائق لا قِبَل لهم بدحضها لأنهم لا يسعهم إلا الإقرار ببعضها أو العجز عن نقض دليلها .

فالاستئناف الأول المبدوء بقوله ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ، والثاني المبدوء بقوله ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ [الروم : 40] ، والثالث المبدوء بقوله ﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ [الروم : 48] ، والرابع المبدوء بقوله : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ [الروم : 54] .

فأما قوله : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ فاستدلال بما لا يسعهم إلا الاعتراف به وهو بدء الخلق إذ لا ينازعون في أن الله وحدَه هو خالق الخلق ولذلك قال الله تعالى ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ [الرعد : 16] الآية .

وأما قوله ﴿ ثم يعيده ﴾ فهو إدماج لأنه إذا سُلم له بدء الخلق كان تسليم إعادته أولى وأجدر .

(284/601)

وحسن موقع الاستئناف وروده بعد ذكر أمم غابرة وأمم حاضرة خلف بعضها بعضاً ، وإذ كان ذلك مِثالاً لإعادة الأشخاص بعد فنائها وذُكر عاقبة مصير المكذبين للرسل في

العاجلة ، ناسب في مقام الاعتبار أن يقام لهم الاستدلال على إمكان البعث ليقع ذكر ما يعقبه من الجزاء موقع الإقناع لهم .

وتقديم اسم الجلالة على المسند الفعلي لمجرد التقوّي .

و﴿ ثم ﴾ هنا للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل ، وذلك أن شأن الإرجاع إلى الله أعظم من إعادة الخلق إذ هو المقصد من الإعادة ومن بدءْ الخلق .

فالخطاب في ﴿ ترجعون ﴾ للمشركين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

وقرأ الجمهور ﴿ ترجعون ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بياء الغيبة على طريقة ما قبله .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)

عطف على جملة ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ [الروم : 11] تبييناً لحال المشركين في وقت ذلك الإرجاع كأنه قيل : ثم إليه ترجعون ويومئذ يُبلس المجرمون .

وله مزيد اتصال بجملة ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوأى ﴾ [الروم : 10] ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال ويومئذ يُبلس المجرمون أو يومئذ تُبلسون ، أي ويوم ترجعون إليه يبلس المجرمون ، فعدل عن تقدير الجملة المضاف إليها ﴿ يوم التي يدل عليها إليه ترجعون ﴾ [الروم : 11] بذكر جملة أخرى هي في معناها لتزيد الإرجاع بياناً أنه إرجاع الناس إليه يوم تقوم الساعة ، فهو إطناب لأجل البيان وزيادة التهويل لما يقتضيه إسناد القيام إلى

الساعة من المباغتة والرعب .

ويدل لهذا القصد تكرير هذا الظرف في الآية بعدها بهذا الإطناب .

وشاع إطلاق ﴿ الساعة على وقت الحشر والحساب .

وأصل الساعة : المقدار من الزمن ، ويتعين تحديده بالإضافة أو التعريف .

والإبلاس : سكون بحَيْرة .

يقال : أبلس ، إذا لم يجد مخرجاً من شدة هو فيها .

(285/601)

وتقدم عند قوله تعالى ﴿ إذا هم فيه مبلسون ﴾ في سورة المؤمنين (77) .

والمجرمون : المشركون ، وهم الذين أجريت عليهم ضمائر الغيبة وضمائر الخطاب بقرينة قوله ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ .

والإظهار في مقام الإضمار لإجراء وصف الإجرام عليهم وكان مقتضى الظاهر أنه يقال : تبلسون ، بالخطاب أو بياء الغيبة .

ووصفوا بالإجرام لتحقير دين الشرك وأنه مشتمل على إجرام كبير .

وقد ذكر أحد أسباب الإبلاس وأعظمها حينئذ وهو أنهم لم يجدوا شفعاء من آلهتهم التي

أشركوا بها وكانوا يحسبونها شفعاء عند الله ، فلما نظروا وقلبوا النظر فلم يجدوا شفعاء خابوا وخسئوا وأبلسوا ، ولهم أسباب خيبة أخرى لم يتعلق الغرض بذكرها .

وأما ما ينالهم من العذاب فذلك حالة يأس لا حالة إبلاس .

و ﴿ مِن تبعيضية ، وليس الكلام من قبيل التجريد .

ونفيُ فعل يكن ﴾ بـ ﴿ لم ﴾ التي تخلص المضارع للمضي للإشارة إلى تحقيق حصول هذا النفي مثل قوله ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] .

ومقابلة ضمير الجمع بصيغة جمع الشركاء من باب التوزيع ، أي لم يكن لأحد من المجرمين أحد شفيع فضلاً عن عدة شفعاء .

وكذلك قوله ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ لأن المراد أنهم يكفرون بهم يوم تقوم الساعة كقوله تعالى ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ [العنكبوت : 25] .

وكتب في المصحف ﴿ شُفَعَؤُاْ ﴾ بواو بعد العين وألف بعد الواو ، أرادوا بالجمع بين الواو والألف أن ينبهوا على أن الهمزة مضمومة ليعلم أن ﴿ شفعاء اسمُ (كان) وأن ليس اسمها قوله من شركائهم ﴾ بتوهم أن ﴿ مِن اسم بمعنى بعض ، أو أنها مزيدة في النفي ، فأثبتوا الواو تحقيقاً لضم الهمزة وأثبتوا الألف لأن الألف صورة للهمزة .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

أعيد ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ لزيادة التهويل الذي تقدم بيانه آنفاً .

وكرر ﴿ يومئذ لتأكيد حقيقة الظرفية .

(286/601)

ولما ذُكر إبلاس المشركين المشعر بتوقعهم السوء والعذاب أعقب بتفصيل أحوال الناس يومئذ مع بيان مغبة إبلاس الفريق الكافرين .

والضمير في ﴿ يتفرقون ﴾ عائد إلى معلوم من المقام دل عليه ذكر المجرمين فعلم أن فريقاً آخر ضدهم لأن ذكر إبلاس المجرمين يومئذ يفهم أن غيرهم ليسوا كذلك على وجه الإجمال .

والتفرق : انقسام الجمع وتشتت أجزاء الكل .

وقد كني به هنا عن التباعد لأن التفرق يلازمه التباعد عرفاً .

وقد فُصل التفرق هنا بقوله ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إلى آخره .

والروضة : كل أرض ذات أشجار وماء وأزهار في البادية أو في الجنان .

ومن أمثال العرب "أحسن من بيضة في روضة" يريدون بيضة النعامة .

وقد جمع محاسن الروضة قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحَزن معشبة . . .

خضراءُ جاد عليها مُسبلٍ هَطِل

يُضاحك الشمسَ منها كوكب شَرِق . . .

مُؤَزَّر بعميم النبت مكْتَهِلُ

و﴿ يحبرون ﴾ : يُسَرُّون من الحُبور ، وهو السرور الشديد .

يقال : حبره ، إذا سره سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره .

﴿ ومحضرون ﴾ يجوز أن يكون من الإحضار ، أي : جعل الشيء حاضراً ، أي : لا يغيبون عنه ، أي : لا يخرجون منه ، وهو يفيد التأبيد بطريق الكناية لأنه لما ذكر بعد قوله ﴿ في العَذاب ﴾ ناسب أن لا يكون المقصود من وصفهم المحضرين أنهم كائنون في العذاب لئلا يكون مجرد تأكيد بمدلول في الظرفية فإن التأسيس أوقع من التأكيد ، ويجوز أن يكون محضَرون بمعنى مأتيٌّ بهم إلى العذاب فقد كثر في القرآن استعمال محضر ونحوه بمعنى معاقب ، قال تعالى ﴿ ولقد علمت الجِنّة إنهم لمُحضرون ﴾ [الصافات : 158] ، واسم الإشارة تنبيه على أنهم أحرياء بتلك العقوبة لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة كقوله ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

وكتب في رسم المصحف ﴿ ولقائي ﴾ بهمزة على ياء تحتية للتنبيه على أن الهمزة مكسورة وذلك من الرسم التوقيفي ، ومقتضى القياس أن تكتب الهمزة في السطر بعد الألف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(288/601)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

هل بدأ الله الخلق بالفعل ، أم ما زال يبدأ الخلق ؟ الأسلوب هنا أسلوب ربٍّ يتكلم ، فهو سبحانه بدأ الخَلْق أصوله أولاً ، وما يزال خالقاً سبحانه ، وما دام هو الذي خلق بَدْءاً ، فهو الذي يعيد ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . . ﴾ [الروم : 11] .

وفي أعراف البشر أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه ؛ لأن الابتداء يكون من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 27] أي : بمقاييسكم وعلى قَدْر فَهْمكم ، لكن في الحقيقة ليس هناك هَيِّن وأهون في حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل بمزاولة الأشياء وعلاجها ، إنما

بكُنْ فيكون ، لكن يخاطبنا سبحانه على قَدْر عقولنا .

فالحق سبحانه بدأ الخلق وما يزال سبحانه يخلق ، وانظر مثلاً إلى الزرع تحصده وتأخذ منه التقاوي للعام القادم ، وهكذا في دورة مستمرة بين بَدْء وإعادة ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . ﴾ [الروم : 11] .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالوردة الغضَّة الطرية بما فيه من جمال في المنظر والرائحة ، فإذا ما قُطِفتْ جفَّتْ ، لأن المائية التي بها تبخرتْ ، وكذلك رائحتها ولونها انتشر في الأثير ، ثم يتفتت الباقي ويصير تراباً ، فإذا ما زرعت وردة جديدة أخذت من المائية التي تبخرت ومن اللون ومن الرائحة التي في الجو .

وهكذا تبدأ دورة وتنتهي أخرى ؛ لأن مُقوِّمات الحياة التي خلقها الله هي هي في الكون ، لا تزيد ولا تنقص ، فالماء في الكون كما هو منذ خلقه الله : هَبْ أنك شربت طوال حياتك عشرين طناً من الماء ، هل تحمل معك هذا الماء الآن ؟ لا إنما تَمَّ إخراجه على هيئة عرق وبول ومخاط وصماخ أذن . . إلخ ، وهذا كله تبخَّر ليبدأ دورة جديدة .

(289/601)

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم : 11] نلحظ أن الكلام هنا عن الخَلْق ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ . . . ﴾ [الروم : 11] لكن انتقل السياق من المفرد إلى الجمع ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم : 11] ولم يقل يرجع أي : الخَلْق ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الناس جميعاً لا يختلفون في بَدْء الخلق ولا في إعادته ، لكن يختلفون في الرجوع إلى الله ، فهذا مؤمن ، وهذا كافر ، هذا طائع ، وهذا عاصٍ ، وهذا بين بين ، ففي حال الرجوع إلى الله ستفترق هذه الوحدة إلى طريقين : طريق للسعداء ، وطريق للأشقياء ، لذلك لزم صيغة الإفراد في البَدْء وفي الإعادة ، وانتقل إلى الجمع في الرجوع إلى الله لاختلافهم في الرجوع

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . ﴾ .

معنى ﴿ يُبْلِسُ المجرمون ﴾ [الروم : 12] أي : يسكتون سُكوتَ اليائس الذي لا يجد حجة ، فينقطع لا يدري ما يقول ولا يجد مَنْ يدافع عنه ، حتى قادتهم وكبراؤهم قد سبقوهم إلى العذاب ، فلم يعُدْ لهم أمل في النجاة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة . . . ﴾ [هود : 98] ، ومن ذلك سُمّي (إبليس) ؛ لأنه يئس من رحمة الله .

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44] .

أي : لما نسوا منهج الله أراد سبحانه أن يعاقبهم في الدنيا ، وحين يعاقبهم الله في الدنيا لا

يأخذهم على حالهم إنما يُرخي لهم العَنان ، ويُزيد لهم في الخيرات ، ويُوسّع عليهم مُتَع الدنيا وزخارفها ، حتى إذا أخذهم على هذه الحال كان أَخْذه أليماً ، وكانت سقطتهم من أعلى .

(290/601)

كما أنك مثلاً لا تُوقع عدوك من على الحصيرة ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون الانتقام أبلغَ ، أمّا إنْ أخذهم على حال الضِّيق والفقر ، فالمسألة إذن هيّنة ، وما أقرب الفقر من العذاب !

ولنا ملحظ في قوله تعالى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ . . . . ﴾ [الأنعام : 44] فمادة فتح إنْ أراد الحق سبحانه الفتح لصالح المفتوح عليه يقول ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] وإن أراد الفتح لغير صالحه يقول ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ . . . ﴾ [الأنعام : 44] والفرق بيّن بين المعنيين ، لأن اللام هنا للملك ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] إنما على ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ . . . ﴾ [الأنعام : 44] فتعني ضدهم وفي غير صالحهم ، كما نقول في المحاسبة : له وعليه ، له في المكسب وعليه في الخسارة .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13)

نعم ، لم يجدوا من شركائهم مَنْ يشفع لهم ؛ لأن الشركاء قد تبرأوا منهم ، كما قال سبحانه :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ﴾ [البقرة : 166] .

وكذلك يقول التابعون : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [فصلت : 29] .

وما أشبه هذين : التابع والمتبوع بتلميذين فاشلين تعوَّدا على اللعب وتضييع الوقت ، وشغَل كل منهما صاحبه عن دروسه ، وأغواه بالتسكّع في الطرقات ، إلى أنْ داهمهما الامتحان وفاجأتهما الحقيقة المرّة ، فراح كل منهما يلعن الآخر ويسبُّه ، ويلقي عليه بالمسئولية .

(291/601)

إذن : ساعة الجد تنهار كل هذه الصلات الواهية ، وتتقطع كل الحبال التي تربط أهل الباطل في الدنيا ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الروم : 13] ولِمَ لا وقد تكشفتْ الحقائق ، وظهر زيفهم وبان ضلالهم ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . ﴾ .

أي : الذين اجتمعوا في الدنيا على الشر وعلى الضلال يتفرقون يوم القيامة ، ويصيرون

أعداءً وخصوماً بعد أنْ كانوا أخلاء ، فيمتاز المؤمنون في ناحية والكافرون في ناحية ، حتى العصاة من المؤمنين الذين لهم رائحة من الطاعة لا يتركهم المؤمنون ، إنما يشفعون لهم ويأخذونهم في صفوفهم .

والتنوين في ﴿ يَوْمَئِذٍ . . ﴾ [الروم : 14] بدل من جملة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . ﴾ [الروم : 14] أي : يوم تقوم الساعة يتفرقون .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15)

ما دام الخلق سيمتازون يوم القيامة ويتفرقون ، فلا بُدَّ أن نرى هذه القسمة : الذين آمنوا والذين كفروا ، وها هي الآيات تُرينا هذا التفصيل : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [الروم : 15] فما جزاؤهم ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم : 15]

الروضة : هي المكان المليء بالخضرة والأنهار والأشجار والنضارة ، وكانت هذه عادة نادرة عند العرب ؛ لأنهم أهل صحراء تقلُّ في بلادهم الحدائق والرياض .

لذلك ، فالرياض والبساتين عندهم شيء عظيم ونعمة كبيرة ، ومعنى ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم : 15] من الحبور ، وهو الفرحة حينما يظهر عليك أثر النعمة ، هذا عن المؤمنين ، فماذا عن الكافرين ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ . . . ﴾ .

المحضر بالفتح : الذي يحضره غيره ، ولا تُقَال إلا في الشر ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة ، وإلا لحضر هو بنفسه ، ونحن نفزع لسماع هذه الكلمة ؛ لأن المحضر لا يأتيك إلا لشر ، كذلك حال الكفار والمكذِّبين يوم القيامة تجرُّهم الملائكة ، وتجبرهم ، وتسوقهم للحضور رَغْماً عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(293/601)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) ﴾

أخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الم غلبت الروم ﴾ قال : غلبت . وغلبت قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبي بكر رضي الله عنه ، فذكره أبو بكر لرسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما أنهم سيغلبون فذكره أبو بكر رضي الله عنه لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل بينهم أجلاً خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : الا جعلته أراه قال : دون العشر فظهرت الروم بعد ذلك " فذلك قوله ﴿ الم غلبت الروم ﴾ فغلبت ، ثم غلبت بعد . يقول الله ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ قال سفيان : سمعت أنهم قد ظهروا عليهم يوم بدر .

(294/601)

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان فارس ظاهرين على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم . فلما نزلت ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ قالوا : يا أبا بكر إن صاحبك يقول إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق قالوا : هل لك إلى أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربعة قلائص إلى سبع سنين ، فمضى السبع سنين ولم يكن شيء . ففرح

المشركون بذلك وشق على المسلمين . وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال " ما بضع سنين عندكم ؟ قالوا : دون العشر . قال : اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ، وأنزل الله ﴿ الم غلبت الروم ﴾ إلى قوله ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ " .

وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : لما أنزلت ﴿ الم غلبت الروم . . . ﴾ قال المشركون لأبي بكر رضي الله عنه : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك . يزعم أن الروم تغلب فارس ؟ قال : صدق صاحبي . قالوا : هل لك أن نخاطرك ؟ فجعل بينه وبينهم أجلاً ، فحل الأجل قبل أن يبلغ الروم فارس ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فساءه وكرهه وقال لأبي بكر

" ما دعاك إلى هذا ؟ قال : تصديقاً لله ورسوله ، فقال : تعرض لهم ، وأعظم الخطر ، واجعله إلى بضع سنين . فأتاهم أبو بكر رضي الله عنه فقال : هل لكم في العود فإن العود أحمد ؟ قالوا : نعم . ثم لم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس ، وربطوا خيولهم بالمدائن وبنو الرومية ، فقمر أبو بكر فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا السحت تصدق به " .

وأخرج الترمذي وصححه والدارقطني في الافراد والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والبيهقي في شعب الإِيمان عن يسار بن مكرم السلمي قال : لما نزلت ﴿ الم غلبت الروم . . . ﴾ . كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك يقول الله ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر : ذاك بيننا وبينكم يزعم صاحبك إن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذاك ؟ قال : بلى – وذلك قبل تحريم الرهان – فارتهن أبو بكر رضي الله عنه المشركون ، وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر : لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه قال : فسموا بينهم ست سنين ، فمضت الست قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر رضي الله عنه فلما دخلت السنة السابعه ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبي بكر رضي الله عنه بتسميته ست سنين قال : لأن الله قال ﴿ في بضع سنين ﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ " أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه : لما نزلت ﴿ الم غلبت الروم ﴾ ألا يغالب البضع دون العشر " .

(296/601)

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة يقولون : الروم أهل كتاب وقد غلبتهم الفرس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذي أنزل على نبيكم ، وسنغلبكم كما غلبت فارس الروم ، فأنزل الله ﴿ الم غلبت الروم ﴾ قال ابن شهاب : فاخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : إنه لما نزلت هاتان الآيتان قامر أبو بكر بعض المشركين – قبل أن يحرم القمار – على شيء إن لم تغلب الروم فارس في بضع سنين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" لم فعلت ؟ فكل ما دون العشر بضع " فكان ظهور فارس على الروم في سبع سنين ، ثم أظهر الله الروم على فارس زمن الحديبية ، ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت ﴿ الم غلبت

الروم ﴾ قرأها بالنصب إلى قوله ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس قال الترمذي : هكذا قرأ ﴿ غلبت ﴾ .

(297/601)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر من طريق عطية العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ الم غلبت الروم ﴾ قال : قد مضى . كان ذلك في أهل فارس والروم ، وكانت فارس قد غلبتهم ، ثم غلبت الروم بعد ذلك ، والتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مشركي العرب ، والتقى الروم مع فارس ، فنصر الله النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين على مشركي العرب ، ونصر أهل الكتاب على العجم . قال عطية : وسألت أبا سعيد الخدري عن ذلك فقال : التقينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشركي العرب ، والتقت الروم وفارس ، فنصرنا على مشركي العرب ، ونصر أهل الكتاب على المجوس ، ففرحنا بنصر الله إيانا على المشركين ، وفرحنا بنصر أهل الكتاب على المجوس ، فذلك قوله ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن قتادة ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾ قال : غلبتهم أهل فارس على أدنى أرض : الشام . ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾

قال : لما أنزل الله هؤلاء الآيات صدق المسلمون ربهم ، وعرفوا أن الروم ستظهر على أهل فارس ، فاقتمروا هم والمشركون خمس قلائص ، وأجلوا بينهم خمس سنين ، فولي قمار المسلمين أبو بكر ، وولي قمار المشركين أبي بن خلف – وذلك قبل أن ينهى عن القمار – فجاء الأجل ولم تظهر الروم على فارس ، فسأل المشركون قمارهم ، فذكر ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال " ألم تكونوا أَحِقَّاءَ أن تؤجلوا أجلا دون العشر ؟ فإن البضع ما بين الثلاث إلى العشر ، فزايدوهم وما دوهم في الأجل ، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس السبع من قمارهم الأول ، فكان ذلك مرجعهم من الحديبيه ، وكان مما شد الله به الإِسلام ، فهو قوله ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ " .

(298/601)

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن الزبير الكلابي قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، وظهورهم على الشام والعراق ، كل ذلك في خمس عشرة سنة .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سيجيء أقوام يقرأون ﴿

غلبت الروم ﴾ وإنما هي ﴿ غُلبت ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن غنم قال : سألت معاذ بن جبل رضي الله عنه عن قول الله ﴿ الم غلبت الروم ﴾ أو ﴿ غلبت ﴾ فقال : اقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ الم غلبت الروم ﴾ .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الم غلبت الروم ﴾ قال : غلبتهم فارس ، ثم غلبت الروم فارس . وفي قوله ﴿ في أدنى الأرض ﴾ قال : في طرف الأرض : الشام .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " البضع : ما بين السبع إلى العشرة "

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن نيار بن مكرم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " البضع : ما بين الثلاث إلى التسع " .

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق ابراهيم بن سعد عن أبي الحويرث رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ال ﴿ بضع سنين ﴾ ما بين خمس إلى سبع " .

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ال ﴿ بضع ﴾ سبع سنين .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ الم غلبت الروم ﴾ إلى قوله ﴿ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ قال : ذكر غلبة فارس اياهم ، وادالة الروم على فارس ، وفرح المؤمنون بنصر الله أهل الكتاب على فارس من أهل الأوثان .

(299/601)

وأخرج ابن جرير عن عكرمة " أن الروم وفارس اقتتلوا في أدنى الأرض قال : وأدنى الأرض يومئذ أذرعات . بها التقوا فهزمت الروم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة ، فشق ذلك عليهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح الكفار بمكة وشتموا ، فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم . فأنزل الله ﴿ الم غلبت الروم . . . ﴾ . فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى الكفار فقال : فرحتم بظهور إخوانكم على اخواننا فلا تفرحوا ولا يقرن الله عينكم ، فوالله لتظهرن الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبي بن خلف فقال : كذبت . فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أنت أكذب يا عدو الله . قال : إنا أحبك عشر قلائص مني

وعشر قلائص منك فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، فجاء أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره فقال " ما هكذا ذكرت ، إنما البضع من الثلاث إلى التسع ، فزايده في الخطر ، وماده في الأجل ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه فلقي أبياً فقال : لعلك ندمت قال : لا . قال : تعال أزايدك في الخطر ، وأمادك في الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين قال : قد فعلت " .

وأخرج ابن جرير عن سليط قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ ﴿ الم غلبت الروم ﴾ قيل له : يا أبا عبد الرحمن على أي شيء غلبوا ؟ قال : على ريف الشام .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿ لله الأمر من قبل ﴾ دولة فارس على الروم ﴿ ومن بعد ﴾ دولة الروم على فارس .

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

(300/601)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ يعني معايشهم . متى يغرسون ، ومتى يزرعون ، ومتى يحصدون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يعلمون

ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الآخرة جهال .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ قال : يعلمون تجارتها ، وحرفتها ، وبيعها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ قال : معايشهم ، وما يصلحهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال : ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنة ، وما يحسن يصلي .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو في قوله ﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ قال : كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ قال : حرثوا الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ يقول : جنانها ، وأنهارها ، وزروعها ﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ يقول : عاشوا فيها أكثر من عيشكم فيها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثم

كان عاقبة الذين أساؤا السوأى ﴾ قال : الذين كفروا جزاؤهم العذاب .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال ﴿ السوأى ﴾ الاساءة جزاء المسيئين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يبلس ﴾ قال : ييأس .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ يبلس ﴾ قال : يكتئب .

(301/601)

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال ﴿ يبلس ﴾ قال : يكتئب .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال : الابلاس الفضيحة .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ قال : فرقة لا اجتماع بعدها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ يومئذ يتفرقون ﴾ قال : هؤلاء في عليين ، وهؤلاء في أسفل سافلين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ في روضة ﴾ يعني بساتين الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ في روضة يحبرون ﴾ قال : في جنة يكرمون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يحبرون ﴾ قال : يكرمون .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ يحبرون ﴾ قال : ينعمون .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والخطيب في تاريخه عن يحيى بن أبي كثير ﴿ في روضة يحبرون ﴾ قال : لذة السماع في الجنة .

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى بن أبي كثير في قوله ﴿ يحبرون ﴾ قيل : " يا رسول الله ما الحبر ؟ قال " اللذة والسماع " " .

وأخرج ابن عساكر عن الأوزاعي في قوله ﴿ في روضة يحبرون ﴾ قال : هو السماع ، إذا أراد أهل الجنة أن يطربوا أوحى الله إلى رياح يقال لها : الهفافة . فدخلت في آجام قصب

اللؤلؤ الرطب فحركته ، فضرب بعضه بعضاً فتطرب الجنة ، فإذا طربت لم يبق في الجنة شجرة إلا وردت .

(302/601)

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن جرير والبيهقي عن مجاهد رضي الله عنه ، أنه سئل هل في الجنة سماع ؟ فقال : إن فيها لشجرة يقال لها القيض لها سماع لم يسمع السامعون إلى مثله .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والاصبهاني في الترغيب عن محمد بن المنكدر قال : إذا كان يوم القيامة ينادي مناد أين الذين كانوا ينزعون أنفسهم عن اللهو ومزامير الشيطان ؟ أسكنوهم رياض المسك ، ثم يقول للملائكة : أسمعوهم حمدي وثنائي ، وأعلموهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وأخرج الدينوري في المجالسة عن مجاهد رضي الله عنه قال : ينادي مناد يوم القيامة أين الذين كانوا ينزهون أصواتهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان ؟ فيحملهم الله في رياض الجنة من مسك فيقول للملائكة " اسمعوا عبادي تحميدي وتمجيدي ، وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " .

وأخرج الديلمي عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة قال الله : أين الذين كانوا ينزهون اسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ميزوهم ؟ فيميزون في كتب المسك والعنبر ثم يقول للملائكة : أسمعوهم من تسبيحي ، وتحميدي ، وتهليلي ، قال : فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : في الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم ، فيتحدثون في ظلها ، فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سابط قال : إن في الجنة لشجرة لم يخلق الله من صوت حسن إلا وهو في جرمها يلذذهم وينعمهم .

(303/601)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله إني رجل حبب إليّ الصوت الحسن فهل في الجنة صوت حسن ؟ فقال " أي

والذي نفسي بيده إن الله يوحي إلى شجرة في الجنة : أن أسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن عزف البرابط والمزامير ، فترفع بصوت لم يسمع الخلائق بمثله من تسبيح الرب وتقديسه " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين في الجنة . قيل : ومن الروحانيون يا رسول الله ؟ قال : قراء أهل الجنة " .

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن سعيد بن أبي سعيد الحارثي رضي الله عنه قال : إن في الجنة آجاما من قصب من ذهب حملها اللؤلؤ ، إذا اشتهى أهل الجنة صوتاً بعث الله ريحاً على تلك الآجام ، فأتتهم بكل صوت حسن يشتهونه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(304/601)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ :

ظرفٌ للتفكُّر . وليس مفعولاً للتفكُّر ، إذ متعلّقُه [ما] خَلَق السماواتِ والأرضَ .

قوله : " ما خَلَقَ " " ما " نافيةٌ . وفي هذه الجملةِ وجهان ، أحدهما : أنها مستأنفةٌ لا تَعَلُّقَ لها بما قبلَها . والثاني : أنها معلّقةٌ للتفكُّرِ ، فتكونُ في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافضِ . ويَضْعُفُ أَنْ تكونَ استفهاميةً بمعنى النفيِ . وفيها الوجهان المذكوران .

و" بالحقِّ إمَّا سببيَّةٌ ، وإمَّا حاليةٌ .

قوله : " بلقاءِ " متعلقٌ ب " لَكافرون " . واللامُ لا تَمْنَعُ مِنْ ذلك لكونِها في حَيِّزِ " إنَّ " .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا

قوله : ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا ﴾ : نعتُ مصدرٍ محذوف أي : عِمارةً أكثرَ مِنْ عِمارتِهم . وقُرِئ " وآثاروا " بألفٍ بعد الهمزة وهي إشباعٌ لفتحة الهمزة .

(305/601)

قوله : ﴿ عَاقِبَةَ الذين ﴾ : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالرفع . والباقون بالنصب . فالرفعُ على أنها اسمُ كان ، وذُكِّر الفعل لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ . وفي الخبرِ حينئذٍ وجهان ، أحدهما : " السُّوْءَى " أي : الفَعْلَةَ السُّوْءَى أو الخَصْلَةَ السُّوْءى . والثاني : " أَنْ كَذَّبوا " أي

: كان آخرُ أَمْرِهم التكذيبَ . فعلى الأولِ يكونُ في " أَنْ كَذَّبوا " وجهان : أحدُهما : أنه على إسقاطِ الخافض : إمَّا لامِ العلةِ أي : لأَنْ كَذَّبوا ، وإمَّا باءِ السببيةِ أي : بأَنْ كَذَّبوا . فلمَّا حُذِفَ الحرفُ جَرَى القولان المشهوران بين الخليلِ وسيبويه في محلِّ " أَنْ " . والثاني : أنه بدلٌ من " السُّوْءَى " أي : ثم كان عاقبتُهم التكذيبَ ، وعلى الثاني يكونُ " السُّوْءَى " مصدراً ل أساءُوا ، أو يكونُ نعتاً لمفعولٍ محذوفٍ أي : أساءُوا الفَعْلَةَ السُّوْءَى ، والسُّوْءَى تأنيثُ الأَسْوَأ .

وجوَّز بعضُهم أَنْ يكونَ خبرُ كان محذوفاً للإبهامِ ، والسُّوْءَى : إمَّا مصدرٌ ، وإمَّا مفعولٌ كما تقدَّم أي : اقْتَرَفوا الخطيئةَ السُّوْءَى أي : كان عاقبتُهم الدَّمارَ .

وأمَّا النصبُ فعلى خبر كان . وفي الاسم وجهان ، أحدهما : السُّوْءى أي : كانت الفَعْلَةُ السُّوْءَى عاقبةَ المُسيئين ، و " أَنْ كَذَّبُوا " على ما تقدَّم . والثاني : أن الاسمَ " أَنْ كَذَّبُوا " والسُّوْءَى على ما تقدَّم أيضاً .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)

قوله : ﴿ يُبْلِسُ ﴾ : قرأ العامَّةُ ببنائه للفاعلِ ، وهو المعروفُ يُقال : أَبْلَسَ الرجلُ أي : انقطعَتْ حُجَّتُه فسكتَ ، فهو قاصرٌ لا يتعدَّى . قال العجاج :

3645 يا صاحِ هل تَعْرِفُ رَسْماً مُكَرَّسَاً . . . قال نعم أعرِفُه وأَبْلَسا

وقرأ السُّلمي "يُبْلَسُ" مبنياً للمفعول وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ أَبْلَسَ لا يتعدَّى. وقد خُرِّجَتْ هذه القراءةُ على أنَّ القائمَ مقامَ الفاعلِ مصدرُ الفعلِ، ثم حُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مُقامه؛ إذ الأصلُ: يُبْلِس إبلاسَ المجرمين. ويُبْلِس هو الناصبُ لـ "يومَ تقومُ".

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

و﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾: مضافٌ لجملةٍ، تقديرُها: يومئذٍ تقومُ. وهذا كأنه تأكيدٌ لفظيٌّ؛ إذ يصيرُ التقدير: يُبْلِس المجرمون يومَ تقومُ الساعةُ، يومَ تقومُ الساعة.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15)

قوله: ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾: أي: يُسَرُّون. والحَبْرُ والحُبُور: السُّرور. وقيل: هو مِن التحبير وهو التحسين. يُقال: هو حَسَنُ الحِبْر والسِّبر بكسر الحاء والسين وفتحهما. وفي الحديث: "يَخْرج من النارِ رجلٌ ذَهَبَ حِبْرُه وسِبْرُه" فالمفتوح مصدرٌ والمكسورُ اسمٌ. والرَّوضةُ: الجنَّةُ. قيل: ولا تكونُ روضةً إلاَّ وفيها نبتٌ. وقيل: إلاَّ وفيها ماءٌ. وقيل: ما كانَتْ منخفضةً، والمرتفعةُ يُقال لها تُرْعَة. وقيل: لا يُقال لها: رَوْضة/ إلاَّ وهي في مكانٍ غليظ مرتفعٍ. قال الأعشى:

3646 ما رَوْضَةٌ مِنْ رياض الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ . . . خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

وأصل رِياض : رِواض ، فقُلِبت الواوُ ياءً على حَدِّ : حَوْض وحِياض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 33.36 ﴾

(307/601)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

يبدأ الخلق على ما يشاء ، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)

شهودِهم ما جحدوه فى الدنيا عياناً ، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعاً هو الذى يفتت أكبادهم ، وبه تتمُّ محنتُهم .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13)

تغلب العداوةُ مِنْ بعضٍ على بعضٍ .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

فريقٌ منهم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل الفرقة . فريق للجنة والمِنَّة . وفريقٌ للعذاب

والمحنة . فريقٌ فى السعير . وفريقٌ فى السرور . فريقٌ فى الثواب . وفريقٌ فى العذاب .

فريقٌ فى الفراقِ . وفريقٌ فى التلاقي .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15)

فهم فى رياضٍ وغياض .

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16)

فهم فى بوارٍ وهلاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 110 . 111 ﴾

(308/601)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/602)

الجزء الثانى بعد الستمائة

من الآية ﴿ 17 ﴾ من سورة الروم

وحتى الآية ﴿ 27 ﴾ من نفس السورة

(4/602)

قوله تعالى ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا

أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين سبحانه المبدأ بخلق السماوات والأرض ، والمعاد بالجنة والنار ، وأنهم كذبوا به ، وكان تكذيبهم به مستلزماً لاعتقاد نقائص كثيرة منها العجز وإخلاف الوعد وترك الحكمة ، كان ذلك سبباً لأن ينزه سبحانه نفسه المقدسة ويأمر بتنزيهها ، لأن ذلك يدفع عن المنزه مضار الوعيد ، ويرفعه إلى مسار الوعد ، فقال ذاكراً من أفعاله العالية التي لا مطمع لغيره في القدرة على شيء منها ما يدل على خلاف ذلك الذي يلزم اعتقادهم ، لافتاً الكلام عن صيغة العظمة إلى أعظم منها بذكر الاسم الأعظم .

﴿ فسبحان الله ﴾ أي سبحوا الذي له جميع العظمة بمجامع التسبيح بأن تقولوا هذا القول الذي هو عَلَمه ، فهو منزه عن كل نقص ؛ ثم ذكر أوقات التسبيح إشارة إلى ما فيها من التغير الذي هو منزه عنه وإلى ما يتجدد فيها من النعم ووجود الأحوال الدالة على القدرة على الإبداع الدال على البعث ، فقال دالاً على الاستغراق بنزع الخافض مقدماً المحو لأنه أدل على البعث الذي النزاع فيه وهو الأصل ، لافتاً الكلام إلى الخطاب لأنه أشد تنبيهاً :

﴿ حين تمسون ﴾ أي أول دخول الليل بإذهاب النهار وتفريق النور ، فيعتريكم الملل ، ويداخلكم الفتور والكسل ، على سبيل التجدد والاستمرار ، وأكد الندب إلى التسبيح

بإعادة المضاف فقال : ﴿ وحين تصبحون ﴾ بتحويل الأمر فتقومون أحياء بعد أن كنتم أمواتاً فتجدون نهاراً قد أضاء بعد ليل كان دجى ، فتفعلون ما هو سبحانه منزه عنه من الحركة والسعي في جلب النفع ودفع الضرر ، وأرشد السياق إلى أن التقدير : وله الحمد في هذين الجنسين .

ولما ذكر ما يدل على خصوص التنزيه ، اتبعه ما يعرف بعموم الكمال ، فقال ذاكراً لوقت كمال النهار وكمال الظلام ، وتذكيراً بما يحدث عندهما للآدمي من النقص بالفتور والنوم اعتراضاً بين الأوقات للاهتمام بضم التحميد إلى التسبيح : ﴿ وله ﴾ أي وحده مع النزاهة عن شوائب النقص ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال .

(5/602)

ولما قدم سبحانه أن تنزهه ملأ الأزمان ، وكان ذلك مستلزماً لملء الأكوان ، وكان إثبات الكمال أبين شرفاً من التنزيه عن النقص ، صرح فيه بالقبيلين فقال : ﴿ في السماوات ﴾ أي الأجرام العالية كلها التي تحريكها - مع أنها من الكبر في حد لا يحيط به إلا هو سبحانه - سبب للإمساء والإصباح وغيرهما من المنافع ﴿ والأرض ﴾ التي فيها من المنافع ما يجل

عن إحاطتكم به مع أنها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في فلاة ، ولولا ذلك لظهر لكم ذلك برؤية ما وراءها هو شأن كل مظل مع كل مقل كما تشاهدون السحاب ونحوه .

(6/602)

ولما خص الإمساء والإصباح ، عمّ فقال معبراً بما يدل على الدوام ، لأن وقت النوم الدال على النقص أولى بإثبات الكمال فيه : ﴿ وعشياً ﴾ أي من الزوال إلى الصباح ﴿ وحين تظهرون ﴾ أي تدخلون في شدة الحر ، وسبحانه الله في ذلك كله ، فالآية من الاحتباك : ذكر التسبيح أولاً دليلاً على إرادته ثانياً ، والحمد ثانياً دليلاً على إرادته أولاً ، ولعل المراد بالإظهار هنا ما هو أعم من وقت الظهر ليكون المراد به من حين يزول اسم الصباح من وقت ارتفاع الشمس إلى أن يحدث اسم المساء ، وهو من الظهر إلى الغروب – قاله ابن طريف في كتابه الأفعال ونقله عن الإمام عبد الحق في كتابه الواعي ، وذلك حين استبداد النهار فيكون كماله فيما دون ذلك من باب الأولى ، وهذا مع هذه الدقائق إشارة إلى الصلوات الخمس ، أي سبحوه بالخضوع له بالصلاة في وقت المساء بصلاة العصر والمغرب ، وفي وقت الصباح بالصبح ، وفي العشى بالعشاء ، وفي الإظهار بالظهر ، وفي هذا التخريج من الحسن بيان الاهتمام بالصلاة الوسطى ، فابتدأ سبحانه بالعصر التي قولها أصح الأقوال ،

ودخول المغرب في حيزها بطريق التبعية والقصد الثاني ، وثنى بالصبح وهي تليها في الأصحيّة وهما القريبتان ، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " من صلى البردين دخل الجنة " – رواه الشيخان عن أبي موسى ـ رضى الله عنه ـ ، " من صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وجبت له الجنة " – أسنده صاحب الفردوس عن عمارة بن روبية ـ رضى الله عنه ـ ورواه مسلم وغيره عنه بلفظ : " لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها " – يعني الفجر والعصر " كنا عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم " ، ثم قرأ ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ رواه البخاري عن جرير

بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ ، وحديث أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ في الصحيح " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر " يدخل هنا .

ولما ذكر دلالة على البعث المستلزم للوحدانية مطلق التحويل الذي هو إحياء في المعنى بعد

إماتة ، أتبعه الإحياء والإماتة حقيقة ، صاعداً من ذكر البعث تصريحاً بما كان ألقاه تلويحاً فقال : ﴿ يخرج الحي ﴾ كالإنسان والطائر ﴿ من الميت ﴾ كالنطفة والبيضة ﴿ ويخرج الميت ﴾ كالبيضة والنطفة ﴿ من الحي ﴾ عكس ذلك ﴿ ويحيي الأرض ﴾ باخضرار النبات .

ولما كان من الأراضي ما لا ينبت إلا بعد مدة إنزال المطر ، ومنها ما ينبت من حين إنزال المطر عقب تحطم ما كان بها من النبات سواء ، أسقط الجار هنا تنبيهاً على الأمر الثاني لأنه أدل على القدرة ، فهو أنسب لهذا السياق ولمقصود السورة ، ولأنه جعل فيه قوة إحيائها على الدوام فقال : ﴿ بعد موتها ﴾ بيبسه وتهشمه .

ولما كان التقدير : كذلك يفعل على سبيل التكرر وأنتم تنظرون ، عطف عليه قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل فعله هذا الفعل البديع من إخراجه لهذا الحي حساً ومعنى من الميت ﴿ تخرجون ﴾ بأيسر أمر من الأرض بعد تفرق أجسامكم فيها من التراب الذي كان حياً بحياتكم – هذا على قراءة الجماعة البناء للمفعول .

(8/602)

وبناه حمزة والكسائي وابن ذكوان بخلاف عنه للفاعل إشارة إلى أنهم لقوة تهيئهم لقبول البعث صاروا كأنهم يخرجون بأنفسهم – روى عبد الله ابن الإمام أحمد في زيادات المسند عن لقيط بن عامر ـ رضى الله عنه ـ أنه خرج وافداً إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق ـ رضى الله عنه ـ ، قال : فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لانسلاخ رجب ، فأتينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين انصرف من صلاة الغداة فقام في الغداة خطيباً إلى أن قال : " ألا اسمعوا تعيشوا ألا اجلسوا ألا اجلسوا ، قال : فجلس الناس فقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت : يا رسول الله ! ما عندك من علم الغيب ، فضحك لعمر الله وهز رأسه فقال : ضن ربك بمفاتيح الخمس من الغيب فذكره حتى ذكر البعث قال : فقلت : يا رسول الله ، كيف يجمعنا بعد ما تفرقنا الرياح والبلى والسباع ؟ قال : أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله ، الأرض أشرفت عليها وهي مدرة بالية فقلت : لا تحيا أبداً ، ثم أرسل ربك عز وجل عليها السماء فلم تلبث عليك إلا أياماً حتى أشرقت عليها وهي شرفة واحدة ، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء كما أنه يجمع نبات الأرض فتخرجون " .

ولما كان التقدير : هذا من آيات الله التي تشاهدونها كل حين دلالة على بعثكم ، عطف عليه التذكير بما هو أصعب منه في مجاري العادات فقال : ﴿ ومن آياته ﴾ أي على قدرته

على بعثكم .

ولما كان المراد إثبات قدرته سبحانه على بعثهم بعد أن صاروا تراباً بإيجاده لأصلهم من تراب يزيد على البعث في الإعجاب بأنه لم يكن له أصل في الحياة ، وكان فعله لذلك إنما مكان مرة واحدة ، قال معبراً بالماضي : ﴿ أن خلقكم ﴾ بخلق أبيكم آدم ﴿ من تراب ﴾ لم يكن له أصل اتصاف ما بحياة .

(9/602)

ولما كان ابتداء الإنسان من التراب في غاية العجب ، أشار إلى ذلك بأداة البعد فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد إخراجكم منه ﴿ إذا أنتم بشر ﴾ أي فاجأتم كونكم لكم بشرة هي في غاية التماسك والاتصال مع اللين عكس ما كان لكم من الوصف إذا كنتم تراباً ، وأسند الانتشار إلى المبتدأ المخاطب لا إلى الخبر لأن الخطاب أدل على المراد فقال :

﴿ تنتشرون ﴾ أي تبلغون بالنشر كل مبلغ بالانتقال من مكان إلى مكان مع العقل والنطق ، ولم يختم هذه الآية بما ختم به ما بعدها دلالة على أنها جامعة لجميع الآيات ، ودلالة على جميع الكمالات ، وختم ما بعدها بذلك تنبيهاً على أن الناس أهملوا النظر فيها على وضوحها ، وكان من حقهم أن يجعلوها نصب أعينهم ، دلالة على كل ما نزلت به الكتب ،

وأخبرت به الرسل ، وكذلك أكد في الإخبار إعلاماً بأنهم صاروا لإهمالها في حيز الإنكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 612.609 ﴾

(10/602)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) ﴾

لما بين الله تعالى عظمته في الابتداء بقوله : ﴿ مَّا خَلَقَ الله السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ [الروم : 8] وعظمته في الانتهاء ، وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ، ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، أمر بتنزيهه عن كل سوء ويحمده على كل حال فقال : ﴿ فَسُبْحَانَ الله ﴾ أي سبحوا الله تسبيحاً ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في معنى سبحان الله ولفظه ، أما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذي هو التسبيح ، سمي التسبيح بسبحان وجعل علماً له .

وأما المعنى فقال بعض المفسرين : المراد منه الصلاة ، أي صلوا ، وذكروا أنه أشار إلى الصلوات الخمس ، وقال بعضهم أراد به التنزيه ، أي نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال ، وهذا أقوى والمصير إليه أولى ، لأنه يتضمن الأول وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب ، وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك ، وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح ، والأول هو الأصل ، والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني ، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه ، وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله ، واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان ، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان ، وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان ، وهو تنزيه في التحقيق ، فإذا قال نزهوني ، وهذا نوع من أنواع التنزيه ، والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أيضاً هذا أمراً بالصلاة ، ثم إن قولنا يناسب ما تقدم ، وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم : 15] قال : إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه

بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان والكل تنزيهات وتحميدات ، فسبحان الله أي فأتوا بذلك الذي هو الموصل إلى الحبور في الرياض ، والحضور على الحياض .

المسألة الثانية :

(12/602)

خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها ، لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : 20] والإنسان ما دام في الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح ، لكونه محتاجاً إلى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهي الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح في أول الليل ووسطه ، ولم يأمر بالتسبيح في آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله منَّ على عباده بالاستراحة بالنوم ، كما قال :

(13/602)

﴿ وَمِنْ ءاياته مَنَامُكُم باليل ﴾ [الروم : 23] فإذا صلى في أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح ، ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات ، وإذا صلى أربعاً في أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات ، فإذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقي من الليل والنهار سبع ساعات وهي ما بين نصف الليل وثلثيه لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع ، وهذا القدر لو نام الإنسان فيه لكان كثيراً وإليه أشار تعالى بقوله : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً * نّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ [المزمل : 42] وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم ، فيقول الله عبدي صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التي ادعيتم بقولكم : ﴿ نَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] على سبيل الانحصار بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم في أعلى عليين ، واعلم أن في وضع الصلاة في أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة ، أما في عدد الركعات فما تقدم من كون الإنسان يقظان في سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة ، وأما على مذهب أبي حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو

أقرب للتقوى ، فنقول هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغي أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذاً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ ويفهم من هذا أن قيام ثلثي الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل : 20] ذكر بلفظ التوبة ، وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان في عشرين ساعة فأمر

(14/602)

بعشرين ركعة ، وأما النبي عليه السلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أصلاً كما قال : " تنام عيناي ولا ينام قلبي " جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به ، وإلى هذا أشار تعالى في قوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ [الإنسان : 26] أي كل الليل لك للتسبيح فصار هو في أربع وعشرين ساعة مسبحاً ، فصار من الذين لا يفترون طرفة عين ، وأما في أوقاته فما تقدم أيضاً أن الأول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح في أول النهار وآخره ، وأما الليل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه ، وذلك لأن الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لأنا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذي يكون الإنسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته في نصف

هذا القدر وهو الثلاثة من الليل ، وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة إلى الرابعة والخامسة ، ليكون في وسط الليل المعتبر ، كما أن الظهر في وسط النهار ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما كان ليله نهاراً ونومه انتباهاً قال :

" لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك وتأخير العشاء إلى نصف الليل " ليكون الأربع في نصف الليل كما أن الأربع في نصف النهار ، وأما التفصيل فالذي يتبين لي أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما في أول الليل ويؤدي ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ، ولما كان المؤدى من تسبيح النهار في أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل في أوله ركعة لأن سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل ، لأن المؤدى في النهار عشرة والمؤدى في الليل من تسبيح الليل خمس .

المسألة الثانية :

(15/602)

في فضيلة السبحلة والحمدلة في المساء والصباح ، ولنذكرها من حيث النقل والعقل ، أما النقل فأخبرني الشيخ الورع الحافظ الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسنداً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لبعض أصحابه : " أتعجز عن أن تأتي وقت النوم بألف حسنة ؟ فتوقف فقال النبي عليه السلام : قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة " وسمعته يقول رحمه الله مسنداً " من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر مرات الله أكبر أدخل الجنة " وأما العقل فهو أن الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله ، أما الأولى فهي صفات كمال وجلال خلافها نقص ، فإذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز أن يخفي عليه شيء لكونه عالماً بكل شيء فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده ، وإذا عرفه بأنه لا يعجز عن شيء لكونه قادراً على كل شيء فقد نزهه عن العجز ، وإذا علم أنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء لكونه مريداً لكل كائن فقد وصفه ونزهه ، وإذا ظهر له أنه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه ، وإذا بان له أنه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه ، وإذا لاح له أنه لا يجوز أن يكون عرضاً أو جسماً أو في مكان لكونه واجباً بريئاً عن جهات الإمكان فقد نزهه .

لكن صفاته السلبية والإضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأفنى فيها عمره ولا يدرك كنهها .

(16/602)

فإذا قال قائل مستحضراً بقلبه سبحان الله متنبهاً لما يقوله من كونه منزهاً له عن كل نقص فإتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل ، لكن لا ريب في أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفي به الأعمار ، فيقول هذا العبد أتى بتسبيحي طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره عن كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها ، وكما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره ووسطه ، فإن الله تعالى يطهره في أوله وهو دنياه وفي آخره وهو عقباه وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره الذي يحويه إلى أوان حشره وهو مغناه .

(17/602)

وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، فإذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، وكذلك القمر وكل كوكب والأرض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله ، لكن

الإنسان لو حمد الله على كل شيء على حدة لا يفي عمره به ، فإذا استحضر في ذهنه النعم التي لا تعد كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ، ويقول عبدي استغرق عمره في حمدي وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله علي حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم إن الإنسان إذا استغرق في صفات الله قد يدعوه عقله إلى التفكر في الله تعالى بعد التفكر في آلاء الله ، فكل ما يقع في عقله من حقيقته فينبغي أن يقول الله أكبر مما أدركه ، لأن المدركات وجهات الإدراكات لا نهاية لها ، فإن أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذي أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركته من وجه آخر يفني عمره ولا يفي بإدراك جميع الوجوه التي يظن الظان أنه مدرك لله بذلك الوجه ، فإذا قال مع نفسه الله أكبر أي من كل ما أتصوره بقوة عقلي وطاقة إدراكي يكون متوغلاً في العرفان وإليه الإشارة بقوله :

العجز عن درك الإدراك إدراك . . فقول القائل المستيقظ : " سبحان الله والحمد لله والله أكبر " مفيد لهذه الفوائد ، لكن شرطه أن يكون كلاماً معتبراً وهو الذي يكون من صميم القلب لا الذي يكون من طرف اللسان .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ عطف على ﴿ حِينٍ ﴾ أي سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشياً ، وقوله : ﴿ وَلَهُ الحمد فِى السموات والأرض ﴾ كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه وهذا كما في قوله تعالى :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَىَّ إسلامكم بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ للإيمان ﴾ [الحجرات : 17] .

المسألة الخامسة :

قدم الإمساء على الإصباح ههنا وأخره في قوله : ﴿ وَسَبّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب : 42] وذلك لأن ههنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله : ﴿ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : 11 - 16] وآخر هذه الآية أيضاً ذكر الحشر والإعادة بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ والإمساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة .

المسألة السادسة :

في تعلق إخراج الحي من الميت والميت من الحي بما تقدم عليه هو أن عند الإصباح يخرج

الإنسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة ، وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة إلى النوم ، واختلف المفسرون في قوله : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ فقال أكثرهم : يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، ويمكن أن يقال المراد : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ أي اليقظان من النائم والنائم من اليقظان ، وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أي إحياء الميت عنده وإماتة الحي كتنبيه النائم وتنويم المنتبه .

(19/602)

ثم قال تعالى : ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ وفي هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله أمواتا ﴾ [آل عمران : 169] لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميتة لا يكون فيها نماء ، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

(20/602)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)

(21/602)

لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : 16 20] ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء ، وذلك من حيث كيفيته فإنه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ، ومن حيث لونه فإنه كدر والروح نير ، ومن حيث فعله فإنه ثقيل والأرواح التي بها الحياة خفيفة ، ومن حيث السكون فإنه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل ، وفي الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لأن

الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فإنه ممتزج ، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهي مرتبة النبات الذي ينبت في الأرض ولا يبرز ولا يرتفع ، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهي مرتبة الأشجار التي تقبل التعظيم ، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الإنسان فإن الأنعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعي ، ثم الإنسان ، وأعلى مراتب الإنسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذي خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حياً هو في أعلى المراتب لا يكون إلا منزهاً عن العجز والجهل ، ويكون له الحمد على إنعام الحياة ، ويكون له كمال القدرة ونفوذ

(22/602)

الإرادة فيجوز منه الإبداء والإعادة ، وفي الآية لطيفتان إحداهما : قوله : ﴿ إِذَا ﴾ وهي للمفاجأة يقال خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن

فكان لا أنه صار معدناً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبهه أنه يحيي حيواناً ونامياً وغير ذلك لا أنه خلق أولاً حيواناً ، ثم يجعله إنساناً فخلق الأنواع هو المراد الأول ، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى ، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها اللطيفة الثانية : قوله : ﴿ بُشَرَ ﴾ إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته ، فإن غيره من الحيوانات أيضاً كذلك وقوله : ﴿ تَنتَشِرُونَ ﴾ إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب ، أما الإدراك فلكثافته وجموده ، وأما الحركة فلثقله وخموده وقوله : ﴿ تَنتَشِرُونَ ﴾ إشارة إلى أن العجيبة غير مختص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلاً عن خلق البشر ،

(23/602)

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

وهي أن الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ نقول

الجواب عنه من وجهين أحدهما : ما قيل إن المراد من قوله : ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ أنه خلق أصلكم والثاني : أن نقول : إن كل بشر مخلوق من التراب ، أما آدم فظاهر ، وأما نحن فلأنا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذي هو بالقوة بعض من الأعضاء ، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها ، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب ، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة إلا بالتراب وينضم إليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو .

المسألة الثانية :

(24/602)

قال تعالى في موضع آخر : ﴿ خَلَقَ مِنَ الماء بَشَراً ﴾ [الفرقان : 2] وقال : ﴿ مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] وههنا قال من : ﴿ تُرَابٍ ﴾ فكيف الجمع ؟ قلنا أما على الجواب الأول : فالسؤال زائل ، فإن المراد منه آدم ، وأما على الثاني : فنقول ههنا قال ما هو أصل أول ، وفي ذلك الموضع قال ما هو أصل ثان لأن ذلك التراب الذي صار غذاء يصير مائعاً وهو المني ، ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه إنساناً أو نقول الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فإن التراب لا ينبت إلا بالماء ففي النبات الذي هو أصل غذاء الإنسان تراب

وماء فإن جعل التراب أصلاً والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالأمر كذلك ، فإن قال قائل الله تعالى يعلم كل شيء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما ، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك ، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال : ﴿ مِنَ الماء بَشَراً ﴾ وإن كان الماء فكيف قال : ﴿ خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ وإن كانا هما أصلين فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة ، وهي أن كون التراب أصلاً والماء أصلاً والماء ليس لذاتيهما ، وإنما هو يجعل الله تعالى فإن الله نظراً إلى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الإنسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء ، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولاً ، وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل للذي هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان ، فإن كان كونهما أصلين ليس أمراً ذاتياً لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره ، فإن شاء جعل هذا أصلاً وإن شاء جعل ذلك أصلاً ، وإن شاء جعلهما أصلين .

(25/602)

المسألة الثالثة :

قال الحكماء : إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار ، وقالوا التراب فيه لثباته ، والماء لاستمساكه ، فإن التراب يتفتت بسرعة ، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب ، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء ، فهذا هذا صحيح أم لا ؟ فإن كان صحيحاً فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل في موضع آخر إنه خلقكم من نار ولا من ريح ؟ فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك ، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلا ننازعهم فيه ، وأما الآيات فنقول ما ذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب ، فالأصل الموجود أولاهما لا غير فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما في الإنسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 91.96 ﴾

(26/602)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾

وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان :

أحدهما : لما تضمنتها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود .

الثاني : مأخوذ من السبحة ، والسبحة الصلاة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " تَكُونُ لَكُم سَبْحَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ " أي صلاة .

وقوله : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ أي صلاة المغرب والعشاء ، قاله ابن عباس وابن جبير والضحاك . ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ صلاة الصبح في قولهم أيضاً .

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : الحمد لله على نعمه وآلائه .

الثاني : الصلاة لاختصاصها بقراءة الحمد في الفاتحة .

﴿ وَعَشِيّاً ﴾ يعني صلاة العصر

. ﴿ وَحِينَ تَظْهِرُونَ ﴾ يعني صلاة الظهر وإنما خص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن الإنسان في النهار متقلب في أحوال توجب حمد الله عليها ، وفي الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار ، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل .

والفرق بين المساء والعشي أن المساء بدو الظلام بعد المغيب ، والعشي آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس ، فجاءت هذه الآية جامعة لأوقات الصلوات الخمس ، وقد روى سفيان عن عاصم أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس : هل تجد في كتاب الله الصلوات الخمس ؟ فقرأ هذه الآية .

قال يحيى ابن سلام : كل صلاة ذكرت في كتاب الله قبل الليلة التي أسري فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم فليست من الصلوات الخمس لأنها فرضت في الليلة التي أسري به فيها وذلك قبل الهجرة بسنة ، قال : وهذه الآية نزلت بعد ليلة الإسراء وقبل الهجرة .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ فيه أربعة تأويلات

(27/602)

: أحدها : يخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي ، قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة وابن جبير .

الثاني : يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه والزهري ، ورواه الأسود بن عبد يغوث عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث : يخرج الدجاجة من البيضة ويخرج البيضة من الدجاج ، قاله عكرمة .

الرابع : يخرج النخلة من النواة ويخرج النواة من النخلة ؛ والسنبلة من الحبة والحبة من السنبلة ، قاله ابن مالك والسدي .

ويحتمل خامساً : يخرج الفطن اللبيب من العاجز البليد ويخرج العاجز البليد من الفطن اللبيب .

﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني بالنبات لأنه حياة أهلها فصار حياة لها . ويحتمل ثانياً : أنه كثرة أهلها لأنهم يحيون مواتها ويعمرون خرابها .

﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي كما أحيا الأرض بإخراج النبات وأحيا الموتى كذلك يحييكم بالبعث . وفي هذا دليل على صحة القياس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(28/602)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ فسبحان الله ﴾ خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات ، كأنه يقول إذ هذه الفرق هكذا من النعمة والعذاب فجدوا أيها المؤمنون في

طريق الفوز برحمة الله ، وقال ابن عباس وقتادة وبعض الفقهاء : في هذه الآية على أربع صلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ، قالوا والعشاء هي الآخرة في آية أخرى في ﴿ زلفاً من الليل ﴾ [هود : 114] وفي ذكر أوقات العورة ، وقال ابن عباس أيضاً وفرقة من الفقهاء : في هذه الآية تنبيه على الصلوات الخمس لأن قوله تعالى ﴿ حين تمسون ﴾ يتضمن الصلاتين ، وقوله ﴿ وله الحمد في السماوات والأرض ﴾ اعتراض بين الكلامين من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ، وقرأ عكرمة " حيناً تمسون وحيناً تصبحون " والمعنى حين تمسون فيه .

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

﴿ الحي ﴾ و ﴿ الميت ﴾ في هذه الآية يستعمل حقيقة ويستعمل مجازاً ، فالحقيقة المني يخرج منه الإنسان والبيضة يخرج منها الطائر وهذه بعينها ميتة تخرج من حي وما جرى هذا المجرى ، وبهذا المعنى فسر ابن عباس وابن مسعود وقال الحسن : المعنى المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

(29/602)

قال الفقيه الإمام القاضي : وروي هذ المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية عند ما كلمته بالإسلام أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، والمجاز إخراج النبات الأخضر من الأرض وإخراج الطعم من النبات وما جرى هذا المجرى ، ومثل بعد إحياء الأرض بالمطر بعد موتها بالدثور والعطش ، ثم بعد هذا الأمثلة القاضية بتجويز بعث الأجساد عقلاً ساق الخبر بأن كذلك خروجنا من القبور . وقرأت فرقة فرقة " يخرجون " بالياء من تحت ، وقرأ عامة القرأ " تُخرجون " بالتاء المضمومة ، وقرأ الحسن وابن وثاب والأعمش وطلحة بفتح التاء وضم الراء ، و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ ومن آياته أن خلقكم ﴾ للتبعيض ، وقال ﴿ خلقكم ﴾ من حيث خلق أباهم آدم قاله قتادة ، و﴿ تنتشرون ﴾ معناه تتصرفون وتتفرقون في الأغراض والأسفار ونحوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(30/602)

وقال ابن الجوزى :

ثم ذكر ما تُدْرَك به الجنة ويُتباعَد به من النار فقال : ﴿ فسُبحَانَ الله حين تُمْسُونَ ﴾ قال المفسرون : المعنى : فصلُّوا لله حين تُمسون ، أي : حين تدخُلون في المساء ﴿ وحين

تُصْبِحونَ ﴾ أي : تدخُلون في الصباح ، و ﴿ تُظْهِرونَ ﴾ تدخُلون في الظهيرة ، وهي وقت الزَّوال ، ﴿ وعشيّاً ﴾ أي : وسبِّحوه عشيّاً .

وهذه الآية قد جمعت الصلوات الخمس ، فقوله : ﴿ حين تُمسون ﴾ يعني [به] صلاة المغرب والعشاء ، ﴿ وحين تصبحون ﴾ يعني به صلاة الفجر ، ﴿ وعشيّاً ﴾ العصر ، "وحين تُظْهِرونَ" الظُّهر .

قوله تعالى : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ قال ابن عباس : يَحْمَده أهل السموات وأهل الأرض ويصلُّون له .

قوله تعالى : ﴿ يُخرِجُ الحيَّ من الميِّت ﴾ فيه أقوال قد ذكرناها في سورة [آل عمران : 27] .

قوله تعالى : ﴿ ويُحيي الأرض بعد موتها ﴾ أي : يجعلها مُنْبِتة بعد أن كانت لا تُنْبِت ، وتلك حياتها ﴿ وكذلك تُخْرَجون ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "تُخْرَجون" بضم التاء ، وفتحها حمزة والكسائي ؛ والمراد : تخرجون يوم القيامة من الأرض ، أي : كما أحيا الأرض بالنبات يُحييكم بالبعث .

قوله تعالى : ﴿ ومِنْ آياته ﴾ أي : من دلائل قدرته ﴿ أنْ خلقكم من تراب ﴾ يعني آدم ، لأنه أصل البشر ﴿ ثُمَّ إذا أنتم بَشرٌ ﴾ من لحم ودم ، يعني ذريته ﴿ تَنْتَشِرون ﴾ أي : تنبسطون في الأرض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الله ﴾ الآية .

فيه ثلاثة أقوال : الأوّل : أنه خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات .

قال ابن عباس : الصلوات الخمس في القرآن ؛ قيل له : أين ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ ﴾ صلاة المغرب والعشاء "وَحِينَ تُصْبِحُونَ" صلاة الفجر "وَعَشِيًّا" العصر "وَحِينَ تُظْهِرُونَ" الظهر ؛ وقاله الضحاك وسعيد ابن جبير .

وعن ابن عباس أيضاً وقتادة : أن الآية تنبيه على أربع صلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ؛ قالوا : والعشاء الآخرة هي في آية أخرى في ﴿ وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ [هود : 114] وفي ذكر أوقات العورة .

وقال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ ﴾ في الصلوات .

وسمعت علي بن سليمان يقول : حقيقته عندي : فسبحوا الله في الصلوات .

لأن التسبيح يكون في الصلاة ؛ وهو القول الثاني .

والقول الثالث : فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون ؛ ذكره الماوردِيّ .

وذكر القول الأوّل ، ولفظه فيه : فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون .

وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان : أحدهما : لما تضمنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود .

الثاني : مأخوذ من السبحة والسبحة الصلاة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تكون لهم سبحة يوم القيامة " أي صلاة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض ﴾ اعتراض بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمه وآلائه .

وقيل : معنى "وَلَهُ الْحَمْدُ" أي الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد .

والأوّل أظهر ؛ فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ودوام نعمته ؛ فيكون نوعاً آخر خلاف الصلاة ، والله أعلم .

وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدّم النهار .

وفي سورة "سبحان" بدأ بصلاة الظهر إذ هي أوّل صلاة صلاها جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم .

الماورديّ : وخص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للإنسان في النهار متقلباً في أحوالٍ توجب حمد الله تعالى عليها ، وفي الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها ؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار ، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل .

الثالثة : قرأ عكرمة "حِيناً تُمْسُونَ وَحِيناً تُصْبِحُونَ" والمعنى : حينا تمسون فيه وحينا تصبحون فيه ؛ فحذف "فيه" تخفيفاً ؛ والقول فيه كالقول في ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ [البقرة : 123] .

﴿ وَعَشِيّاً ﴾ قال الجوهريّ : العشِيّ والعشِية من صلاة المغرب إلى العتمة ؛ تقول : أتيته عشِية أمسِ وعشِيّ أمسِ .

وتصغير العشِيّ : عشيان ، على غير قياس مُكَبَّرِه ؛ كأنهم صغّروا عَشْيَاناً ، والجمع عُشَيَّانات .

وقيل أيضاً في تصغيره : عُشَيْشَيان ، والجمع عُشَيْشِيَات .

وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيّة ، والجمع عُشَيْشِيات .

والعِشاء بالكسر والمد مثل العشِيّ .

والعِشاءان المغرب والعتمة .

وزعم قوم أن العِشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، وأنشدوا :

غدونا غدوة سحراً بليلٍ . . .

عِشاء بعد ما انتصف النهار

الماوردِيّ : والفرق بين المساء والعِشاء : أن المساء بُدُوّ الظلام بعد المغيب ، والعِشاء آخر النهار عند ميل الشمس للمغِيب ، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس .

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

بيَّن كمال قدرته ؛ أي كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها ، كذلك يحييكم بالبعث .

وفي هذا دليل على صحة القياس ؛ وقد مضى في "آل عمران" بيان ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ .

(33/602)

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ أي من علامات رُبُوبِيَّته ووَحْدانيّته أن خلقكم من تراب ؛ أي خلق أباكم منه والفرع كالأصل ، وقد مضى بيان هذا في "الأنعام" . و"أنْ" في موضع رفع بالابتداء وكذا ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [الروم : 21] .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قِوام معايشكم ، فلم يكن ليخلقكم عَبَثاً ؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(34/602)

وقال أبو السعود :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحمد فِى السموات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

(35/602)

إثرَ ما بُيّن حالُ فريقَي المؤمنينَ العاملينَ للصالحاتِ والكافرينَ المكذّبينَ بالآياتِ وما لهُما من الثَّوابِ والعذابِ أُمروا بما يُنجّي من الثَّاني ويُفضِي إلى الأول من تنزيهِ الله عزَّ وجلَّ عن كلِّ مَا لا يليقُ بشأنِه سبحانَهُ ومن حمدِه تعالى على نعمِه العظامِ ، وتقديمُ الأولِ على الثَّاني لما أنَّ التَّخليةَ متقدّمةٌ على التَّحليةِ . والفاء لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها أي إذا علمتُم ذلك فسبّحوا الله تعالى أي نزّهُوه عمَّا ذكر سبحانَهُ أي تسبيحَه اللائقَ به في هذه الأوقاتِ واحمدُوه فإنَّ الإخبارَ بثبوتِ الحمدِ له تعالى ووجوبِه على المميّزينَ من أهلِ السَّمواتِ والأرضِ في معنى الأمرِ به على أبلغِ وجهٍ وآكدِه ، وتوسيطُه بينَ أوقاتِ التَّسبيحِ للاعتناءِ بشأنِه والإشعارِ بأنَّ حقَّهما أنْ يُجمعَ بينَهما كما ينبيءُ عنه قولُه تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وقولُه صلى الله عليه وسلم : " من قالَ حينَ يُصبحُ وحينَ يُمسي سبحانَ الله وبحمدِه مائةَ مرَّةٍ حُطَّت خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زَبَدِ البحرِ " . وقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " مَنْ قالَ حينَ يُصبحُ وحينَ يُمسي سبُحانَ الله وبحمدِه مائةَ مرَّةٍ لم يأتِ أحدٌ يومَ القِيامةِ بأفضلَ ممَّا جاءَ بهِ إلا أحدٌ قالَ مثلَ ما قالَ أو زادَ عليهِ " . وقولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : "كلمتانِ خفيفتانِ على اللِّسانِ ثقيلتانِ في الميزانِ سبحانَ الله وبحمدِه سبحانَ الله العظيمِ " وغيرُ ذلكَ ممَّا لا يُحصى من الآياتِ والأحاديثِ ، وتخصيصُهما بتلكَ الأوقاتِ للدّلالةِ على أنَّ ما يحدثُ فيها من آياتِ قدرتِه وأحكامِ

رحمتِه ونعمتِه شواهدُ ناطقةٌ بتنزهِه تعالى واستحقاقِه الحمدَ وموجبةٌ لتسبيحِه وتحميدِه حتماً . وقولُه تعالى : ﴿ وعشيّاً ﴾ عطفٌ على ﴿ حينَ تُمسون ﴾ وتقديمُه على

(36/602)

حينَ تُظهرون لمُراعاةِ الفواصلِ وتغييرُ الأسلوبِ لِمَا أنَّه لا يجيءُ منه الفعلُ بمعنى الدُّخولِ في العشيِّ كالماء والصباحِ والظَّهيرة ، ولعلَّ السرَّ في ذلك أنَّه ليس من الأوقاتِ التي تختلفُ فيها أحوالُ النَّاس وتتغيرُ تغيراً ظاهراً مصحّحاً لوصفِهم بالخروجِ عمَّا قبلها والدُّخولِ فيها كالأوقاتِ المذكورةِ فإنَّ كلاًّ منها وقتٌ تتغير فيه الأحوالُ تغيراً ظاهراً أمَّا في المساء والصَّباح فظاهرٌ وأمَّا في الظَّهيرة فلأنَّها وقتٌ يعتاد فيه التَّجرُّدُ عن الثيابِ للقيلولةِ كما مرَّ في سورة النُّور .

وقيل المرادُ بالتَّسبيح والحمد الصَّلاة لاشتمالِها عليهما . وقد رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما (أن الآية جامعةٌ للصلوات الخمس تُمسون صلاتا المغربِ والعشاءِ وتُصبحون صلاةُ الفجرِ وعشياً صلاةُ العصرِ وتُظهرون صلاةُ الظُّهرِ) . ولذلك ذهبَ الحسنُ إلى أنَّها مدنيةٌ إذ كان يقول إن الواجبَ بمكَّةَ ركعتانِ ، في أي وقتٍ اتفقتا وإنما فرضت الخمسُ بالمدينة والجمهورُ على أنها فُرضت بمكَّةَ وهو الحقُّ لحديث المعراج وفي آخره هنَّ خمسُ

صلواتٍ كل يوم وليلة . عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم " مَنْ سرَّه أنْ يُكال له بالقفيزِ الأَوفى فليقُل : "فسبحانَ الله حينَ تُمسون وحينَ تُصبحون" الآيةَ " وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ " من قال حين يُصبح "فسبحانَ الله حينَ تُمسون وحينَ تُصبحون" . إلى قولِه تعالى : "وكذلك تُخرجونَ" أدرك ما فاتَه في يومِه ومن قالَها حينَ يُمسي أدركَ ما فاتَه في ليلتِه " وقُرىء حينا تُمسون وحينا تُصبحون أي تُمسون فيه وتُصبحون فيه .

(37/602)

﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ كالإنسان من النطفة والطير من البيضة . ﴿ ويُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ النُّطفةَ والبيضةَ من الحيوانِ ﴿ ويُحْيِى الأرض ﴾ بالنباتَ ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يُبسها ﴿ وكذلك ﴾ ومثلَ ذلك الإخراجُ ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبورِكم . وقُرىء تَخرُجون بفتح التَّاءِ وضمِّ الرَّاءِ . وهذا نوعُ تفصيلٍ لقوله تعالى ﴿ الله يبدأُ الخلقَ ثم يُعيده ﴾ ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ الباهرةِ الدَّالَّةِ على أنَّكم تُبعثون دلالةً أوضحَ ممَّا سبق فإنَّ دلالةَ بدءِ خلقِهم على إعادتِهم أظهرُ من دلالةِ إخراجِ الحيِّ من الميتِ وإخراجِ الميتِ من الحيِّ ومن دلالةِ إحياءِ الأرضِ بعد موتِها عليها ﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ أي في ضمن خلقِ آدمَ عليه السَّلامُ لما مرَّ مراراً من أنَّ خلقَه عليه الصَّلاة والسَّلام منطوٍ على خلق ذرياتِه انطواءً إجمالياً ﴿ مّن

تُرَابٍ ﴾ لم يشَمَّ رائحةَ الحياة قطّ ولا مناسبة بينه وبين ما أنتُم عليه في ذاتِكم وصفاتِكم ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ أي فاجأتُم بعد ذلك وقت كونِكم بشراً تنتشرون في الأرضِ ، وهذا مجمل ما فُصّل في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خلقناكم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(38/602)

وقال الآلوسى :

﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحمد فِى السموات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

إثر ما بين حال فريقي المؤمنين العاملين بالصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعقاب أرشد سبحانه إلى ما ينجي من الثاني ويفضي إلى الأول من تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق بشأنه جل شأنه ومن حمده تعالى والثناء عليه ووصفه بما هو أهله من الصفات الجميلة والشؤون الجليلة ، وتقديم الأول على الثاني لما أن التخلية متقدمة على التحلية مع أنه أول ما يدعي إليه الذين كفروا المذكورون قبل بلا فصل ، والفاء لترتيب ما

بعدها على ما قبلها ، وظاهر كلامهم أن ﴿ سُبْحَانَ ﴾ هنا منصوب بفعل أمر محذوف فكأنه قيل : إذا علمتم ذلك أو إذا صح واتضح حال الفريقين ومآلهما فسبحوا سبحان الله الخ أي نزهوه تعالى تنزيهه اللائق به عز وجل في هذه الأوقات ، قال في "الكشف" : وفيه إشكال لأن سبحان الله لزم طريقة واحدة لا ينصبه فعل الأمر لأنه إنشاء من نوع آخر ، والجواب أن ذلك توضيح للمعنى وأن وقوعه جواب الشرط على منوال إن فعلت كذا فنعم ما فعلت فإنه إنشاء أيضاً لكنه ناب مناب الخبر وأبلغ ، كذلك هو لإنشاء تنزيهه تعالى في الأوقات هرباً من وبيل عقابه وطلباً لجزيل ثوابه ، والشرط والجواب مقول على ألسنة العباد انتهى ، وفي حواشي شيخ زاده أن الأمر بل الجملة الإنشائية مطلقاً لا يصح تعليقها بالشرط لأن الإنشاء إيقاع المعنى بلفظ يقارنه ولو جاز تعليقه للزم تأخره عن زمان التلفظ وأنه غير جائز وإنما المعلق بالشرط هو الإخبار عن إنشاء التمني والترجي وإنشاء المدح والذم والاستفهام ونحوها فإذا قلت : إن فعلت كذا غفر الله تعالى لك أو فنعم ما فعلت كان المعنى فقد فعلت ما تستحق بسببه أن يغفر الله تعالى لك أو أن تمدح بسببه إلا أن الجملة الإنشائية أقيمت مقامه للمبالغة للدلالة على الاستحقاق فمعنى الآية إذا كان الأمر كما تقرر فأنتم تسبحون الله تعالى في الأوقات المذكورة وهو في معنى الأمر بالتسبيح فيها انتهى .

ولعله أظهر مما في "الكشف" بل لا يظهر ما ذكر فيه من دعوى أن الشرط والجواب مقول على ألسنة العباد .

ويوهم كلام بعضهم أن الكلام بتقدير القول حيث قال : كأنه قيل إذا صح واتضح عاقبة المطيعين والعاصين فقولوا : نسبح سبحان الخ ، والمعنى فسبحوه تسبيحاً في الأوقات ، ولا يخفى ما فيه ، وكأني بك تمنع لزوم سبحان طريقة واحدة وهي التي ذكرت أولاً ، ويجوز نصب فعل الأمر لها إذا اقتضاه المقام وأشعر به الكلام ، ولكن كأنك تميل إلى اعتبار كون الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى بأن يراد بها الأمر لتوافق جملة ﴿ لَهُ الحمد ﴾ فإنها وإن كانت خبرية إلا أن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض كما يشعر به اتباع ذلك ذكر الوعد والوعيد وتفريعه عليه بالفاء في معنى الأمر به على أبلغ وجه على ما صرح به بعض الأجلة فكأنه حينئذٍ قد قيل : فسبحوا الله تعالى تسبيحه اللائق به سبحانه في هذه الأوقات واحمدوه ، وظاهر كلام الأكثرين أن جملة ﴿ لَهُ الحمد ﴾ الخ معطوفة على الجملة التي قبلها وأن ﴿ عشياً ﴾ معطوف على ﴿ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ بل هم صرحوا بهذا ، وعلى ما ذكر يكون جملة ﴿ لَهُ الحمد ﴾ فاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وما أشبه الآية حينئذٍ بآية الوضوء على ما ذهب إليه أهل السنة .

وفي "الكشاف" أن ﴿ عشياً ﴾ متصل بقوله تعالى : ﴿ اللهَ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الحمد ﴾ الخ اعتراض بينهما ، ومعناه أن على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه .

وإلى كون الجملة معترضة ذهب أبو البقاء أيضاً ، وجعل قوله تعالى : ﴿ فِي السموات ﴾ حالاً من الحمد ، وفي جواز مجيء الحال منه على احتمال كونه مبتدأ وهو الظاهر خلاف ، ولعل من لا يجوز ذلك يجعل الجار متعلقاً بالثبوت الذي تقتضيه النسبة ، والمراد بالتسبيح والحمد ظاهرهما على ما ذهب إليه جمع من الأجلة ، وقيل : المراد بالتسبيح الصلاة .

(40/602)

وأخرج عبد الرزاق .

والفريابي .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

والحاكم وصححه عن أبي رزين قال : جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ فقال : نعم فقرأ ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ صلاة المغرب ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 71] صلاة الصبح ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ صلاة العصر ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ صلاة الظهر ، وقرأ ﴿ وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾ [النور : 58] وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وابن المنذر عنه قال : جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ المغرب والعشاء ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ الفجر ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ العصر ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الظهر ، وذهب الحسن إلى ذلك حتى أنه ذهب إلى أن الآية مدنية لما أنه يرى فرضية الخمس بالمدينة وأنه كان الواجب بمكة ركعتين في أي وقت اتفقت الصلاة فيه ، والصحيح أنها فرضت بمكة ويدل عليه حديث المعراج دلالة بينة .

(41/602)

واختار الإمام الرازي حمل التسبيح على التنزيه فقال : إنه أقوى والمصير إليه أولى لأنه يتضمن الصلاة وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد الجازم

وباللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح ، والأول هو الأصل والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني ، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحوال أفعاله واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان فهو تنزيه في التحقيق ، فإذا قال سبحانه نزهوني وهذا نوع من أنواع التنزيه والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون هذا أمراً بالصلاة ، ثم إن قولنا يناسبه ما تقدم وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال عز وجل :

(42/602)

﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم : 15] قال سبحانه : إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان فالكل تنزيهات وتحميدات فسبحان الله أي فأتوا بذلك الذي هو الموصل إلى الحبور في الرياض والحضور على الحياض اه ، وأنا بالإمام أقتدي في دعوى أولوية الحمل على الظاهر ، واختار أيضاً أن قوله تعالى : ﴿ لَهُ الحمد ﴾

اعتراض مؤكد بين المعطوف والمعطوف عليه مطلقاً ومعناه على ما سمعت عن الكشاف أن على المميزين كلهم أن يحمدوه فإن حمل التسبيح على الصلاة فهو كلام يؤكد الوجوب لأن الحمد يتجوز به عن الصلاة كالتسبيح ، ووجه التأكيد دلالته على أنه أمر عم المكلفين من أهل السموات والأرض ، وإن حمل على الظاهر فوجهه أن ذلك جار مجرى الاستدراك للأمر بالتسبيح ، ولما كان من واد واحد كان كل منهما مؤكداً للآخر فدل على دوام وجوب الحمد في الأوقات ووجوب التسبيح على أهل السموات والأرض ، وأما الدلالة على الوجوب فمن اتباع ﴿ سبحان الله ﴾ الخ ذكر الوعد والوعيد بالفاء فإنه يفهم تعين ذلك طريقاً للخلاص عن الدركات الوصول إلى الدرجات وما يتعين طريقاً لذلك كان واجباً كذا في "الكشف" .

وذكر الإمام أن في هذا الاعتراض لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه قال جل وعلا : بين لهم أن تسبيحهم الله تعالى لنفعهم لا لنفع يعود إلى الله عز وجل فعليهم أن يحمدوا الله تعالى إذا سبحوه جل شأنه ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إسلامكم بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ للايمان ﴾ [الحجرات : 7] .

وجوز بعضهم كون ﴿ عشياً ﴾ معطوفاً على قوله تعالى : ﴿ مَا فِي السموات ﴾ ورد بأنه لا يعطف ظرف الزمان على المكان ولا عكسه ، وقيل : يحتمل أن يكون معطوفاً على مقدر أي وله الحمد في السموات والأرض دائماً وعشياً على أنه تخصيص بعد تعميم والجملة اعتراضية أو حالية وهو كما ترى ، وتخصيص الأوقات المذكورة بالذكر لظهور آثار القدرة والعظمة والرحمة فيها ، وقدم الإمساء على الإصباح لتقدم الليل والظلمة ، وقدم العشي على الإظهار لأنه بالنسبة إلى الإظهار كالإمساء بالنسبة إلى الإصباح.

وفي "البحر" قوبل بالعشي الإمساء وبالإظهار الإصباح لأن كلاً منهما يعقب بما قابله فالعشي يعقبه الإمساء والإصباح يعقبه الإظهار ، وقال العلامة أبو السعود : إن تقديم ﴿ عشياً ﴾ على ﴿ حِينٍ تُظْهِرُونَ ﴾ لمراعاة الفواصل وليس بذاك وذكر الإمام أنه قدم الإمساء على الإصباح ههنا وأخر في قوله تعالى : ﴿ سبحوه بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب : 42] لأن أول الكلام ههنا ذكر الحشر والإعادة وكذا آخره والإمساء آخر فذكر الآخر أولاً لتذكر الآخرة ، وتغيير الأسلوب في ﴿ عشياً ﴾ لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشي كالمساء والصباح والظهيرة ، ولعل السر في ذلك على ما قيل : إنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالأوقات المذكورة فإن كلاً منها وقت يتغير فيه الأحوال

تغيراً ظاهراً ، أما في المساء والصباح فظاهر .

وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مرت إليه الإشارة في سورة النور ، هذا وفضل التسبيح والتحميد أظهر من أن يستدل عليه ، وذكروا في فضل ما تضمنته الآية عدة أخبار ، فأخرج الإمام أحمد .

وابن جرير .

وابن المنذر : وابن أبي حاتم .

وابن السني في عمل اليوم والليلة .

والطبراني .

وابن مردويه .

(44/602)

والبيهقي في الدعوات عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفى لأنه يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون " وأخرج أبو داود ، والطبراني ، وابن السني ، وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله تعالى : وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته من ليلته " إلى غير ذلك من الأخبار ، ولعل فيه تأييداً لكون ﴿ فَيَكُونُ فسبحان ﴾ الخ مقولاً على ألسنة العباد فتأمل .

وقرأ عكرمة ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ بتنوين حين فالجملة صفة حذف منها العائد والتقدير تمسون فيه وتصبحون فيه ، وعلى قراءة الجمهور الجملة مضاف إليها ولا تقدير للضمير أصلاً .

﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ الإنسان من النطفة ﴿ وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ النطفة من الإنسان وهو التفسير المأثور عن ابن عباس ، وابن مسعود ، ولعل مرادهما التمثيل ، وعن مجاهد يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن ، وقيل : أي يعقب الحياة بالموت وبالعكس ﴿ يُخْرِجُ الحى ﴾ بالنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها فالإحياء والموت مجازان ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الإخراج البديع الشأن ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم .

وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ بفتح التاء وضم الراء ، وهذا على ما قيل نوع تفصيل لقوله تعالى : ﴿ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 4] .

﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح من دلالة ما سبق فإن دلالة بدأ خلقهم على إعادتهم أظهر من دلالة إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ومن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها ﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ أي في ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مراراً من أن خلقه عليه السلام منطو على خلق ذرياته انطواء إجمالياً ﴿ مّن تُرَابٍ ﴾ لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم ، وقيل : خلقهم من تراب لأنه تعالى خلق مادتهم منه فهو مجاز أو على تقدير مضاف ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ أي في الأرض تتصرفون في أغراضكم وأسفاركم ، ﴿ وَإِذَا ﴾ فجائية و ﴿ ثُمَّ ﴾ على ما ذهب إليه أبو حيان للتراخي الحقيقي لما بين الخلق والانتشار من المدة ، وقال العلامة الطيبي : إنها للتراخي الرتبي لأن المفاجأة تأبى الحقيقي .

ورد بأنه لا مانع من أن يفاجىء أحداً أمر بعد مضي مدة من أمر آخر أو أحدهما حقيقي والآخر عرفي .

(46/602)

وتعقب بأنه على تسليم صحته يأباه الذوق فإنه كالجمع بين الضب والنون فما ذكره الطيبي أنسب بالنظم القرآني ، والظاهر أن الجملة معطوفة على المبتدأ قبلها وهي بتأويل مفرد كأنه قيل : ومن آياته خلقكم من تراب ثم مفاجأتكم وقت كونكم بشراً منتشرين كذا قيل ، وفي وقوع الجملة مبتدأ بمثل هذا التأويل نظر إلا أن يقال : إنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع ويتخيل من كلام بعضهم أن العطف على ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ بحسب المعنى حيث قال : أي ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين ، ويفهم من كلام صاحب الكشف في نظر الآية أعني قوله تعالى الآتي : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء والأرض بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : 52] أنه إقيمت الجملة مقام المفرد من حيث المعنى لأنها تفيد فائدته ، والكلام على أسلوب ﴿ مَّقَامُ إبراهيم وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءامِناً ﴾ [آل عمران : 79] لأنه في معنى وأمن داخله ، وأما من حيث الصورة فهي جملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ وفائدة هذا الأسلوب الإشعار بأن ذلك آية خارجة من جنس الآيات مستقلة بشأنها مقصودة بذاتها فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(47/602)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) ﴾

الفاء تقتضي اتصال ما بعدها بما قبلها وهي فاء فصيحة ، أو عطف تفريع على ما قبلها وقد كان أول الكلام قوله ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [الروم : 8] ، والضمير عائد إلى أكثر الناس في قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم : 6] والمراد بهم الكفار فالتفريع أو الإفصاح ناشىء عن ذلك فيكون المقصود من ﴿ سبحان الله ﴾ إنشاء تنزيه الله تعالى عما نسبوه إليه من العجز عن إحياء الناس بعد موتهم وإنشاء ثناء عليه .

والخطاب في ﴿ تُمْسُونَ ﴾ و ﴿ تُصْبِحُونَ ﴾ تابع للخطاب الذي قبله في قوله ﴿ ثُمَّ إليهِ تُرْجعون ﴾ [الروم : 11] ، وهو موجه إلى المشركين على طريقة الالتفات من ضمائر الغيبة المبتدئة من قوله ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ﴾ [الروم : 8] إلى آخرها كما علمت آنفاً .

وهذا هو الأنسب باستعمال مصدر (سبحان) في مواقع استعماله في الكلام وفي القرآن مثل قوله تعالى ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [الزمر : 67] وهو الغالب في استعمال مصدر ﴿ سبحان في الكلام إن لم يكن هو المتعين كما تقتضيه أقوال أئمة اللغة .

وهذا غير استعمال نحو قوله تعالى ﴿ فسبِّح بحَمْد ربِّك حِينَ تقُوم ﴾ [الطور : 48]

وقول الأعشى في داليته:

وسبّح على حين العشيات والضحى . . .

وقوله ﴿ حين تمْسُون ، ﴾ و ﴿ حين تَصبحون ﴾ ، و ﴿ عشياً ، وحين تظْهرون ﴾ ظروف متعلقة بما في إنشاء التنزيه من معنى الفعل ، أي يُنْشأ تنزيه الله في هذه الأوقات وهي الأجزاء التي يتجزأ الزمان إليها ، والمقصود التأبيد كما تقول : سبحان الله دَوْماً .

وسلك به مسلك الإطناب لأنه مناسب لمقام الثناء .

وجوّز بعض المفسرين أن يكون ﴿ سبحان ﴾ هنا مصدراً واقعاً بدلاً عن فعل أمر بالتسبيح كأنه قيل : فسبحوا الله سبحاناً .

(48/602)

وعليه يخرج ما روي أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال : نعم .

وتلا قوله تعالى ﴿ فسُبْحان الله حِينَ تمْسُون وحين تُصْبِحون ﴾ إلى قوله ﴿ وحِينَ تظهرون ﴾ فإذا صح ما روي عنه فتأويله : أن ﴿ سبحان ﴾ أمر بأن يقولوا : سبحان الله ، وهو كناية عن الصلاة لأن الصلاة تشتمل على قول : سبحان ربي الأعلى وبحمده .

وقوله ﴿ حين تمسون ﴾ إلى آخره إشارة إلى أوقات الصلوات وهو يقتضي أن يكون الخطاب موجهاً إلى المؤمنين .

والمناسبة مع سابقه أنه لما وعدهم بحسن مصيرهم لقّنهم شكر نعمة الله بإقامة الصلاة في أجزاء اليوم والليلة .

وهذا التفريع يؤذن بأن التسبيح والتحميد الواقعين إنشاءً ثناء على الله كناية عن الشكر عن النعمة لأن التصدي لإنشاء الثناء عقب حصول الإنعام أو الوعد به يدل على أن المادح ما بعثه على المدح في ذلك المقام إلا قصد الجزاء على النعمة بما في طوقه ، كما ورد (فإن لم تقدروا على مكافأته فادعوا له) .

وليست الصلوات الخمس وأوقاتها هي المراد من الآية ولكن نسجت على نسج صالح لشموله الصلوات الخمس وأوقاتها وذلك من إعجاز القرآن ، لأن الصلاة وإن كان فيها تسبيح ويطلق عليها السُبحة فلا يطلق عليها : سبحان الله .

وأضيف الحين إلى جملتي ﴿ تمسون وتصبحون ﴾ .

وقدم فعل الإمساء على فعل الإصباح : إما لأن الاستعمال العربي يعتبرون فيه الليالي مبدأ عدد الأيام كثيراً قال تعالى ﴿ سيروا فيها ليَالِيَ وأياما آمنين ﴾ [سبأ : 18] ، وإما لأن الكلام لما وقع عقب ذكر الحشر من قوله ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه تُرجعون ﴾ [الروم : 11] وذكر قيام الساعة ناسب أن يكون الإمساء وهو آخر اليوم خاطراً في الذهن

فقُدم لهم ذكره .

و﴿ عَشيّاً ﴾ عطف على ﴿ حينَ تُمْسُون .

(49/602)

﴿ وقوله ﴿ وله الحمد في السماوات والأرض ﴾ جملة معترضة بين الظروف تفيد أن تسبيح المؤمنين لله ليس لمنفعة الله تعالى بل لمنفعة المسبحين لأن الله محمود في السماوات والأرض فهو غني عن حمدنا .

وتقديم المجرور في ﴿ ولَهُ الحَمْد ﴾ لإفادة القصر الادعائي لجنس الحمد على الله تعالى لأن حمده هو الحمد الكامل على نحو قولهم : فلان الشجاع ، كما تقدم في طالعة سورة الفاتحة .

ولك أن تجعل التقديم للاهتمام بضمير الجلالة .

والإمساء : حلول المساء .

والإصباح : حلول الصباح .

وتقدم في قوله ﴿ فالق الإصباح ﴾ في سورة الأنعام (96) .

والإمساء : اقتراب غروب الشمس إلى العشاء ، والصباح : أول النهار .

والإظهار : حلول وقت الظهر وهو نصف النهار .

وقد استعمل الإفعال الذي همزته للدخول في المكان مثل : أنجد ، وأتهم ، وأيمَنَ ، وأشأم في حلول الأوقات من المساء والصباح والظهر تشبيهاً لذلك الحلول بالكون في المكان ، فيكثر أن يقال : أصبح وأضحى وأمسى وأعْتَمَ وأشرَق ، قال تعالى ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ [الشعراء : 60] .

والعشي : ما بعد العصر ، وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ ولا تَطْرُدِ الذين يَدْعُون ربهم بالغداة والعشي في سورة الأنعام (52) .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾

هذه الجملة بدل من جملة ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ [الروم : 11] .

ويجوز أيضاً أن تكون موقع العلة لجملة ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾ [الروم : 17] وما عطف عليها ، أي هو مستحق للتسبيح والحمد لتصرفه في المخلوقات بالإيجاد العجيب وبالإحياء بعد الموت .

واختير من تصرفاته العظيمة تصرف الإحياء والإماتة في الحيوان والنبات لأنه تخلص للغرض المقصود من إثبات البعث رداً للكلام على ما تقدم من قوله ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ [الروم : 11] .

فتحصل من ذلك أن الأمر بتسبيحه وحمده معلول بأمرين : إيفاء حق شكره المفاد بفاء التفريع في قوله ﴿ فسبحان الله ﴾ [الروم : 17] ، وإيفاء حق التعظيم والإجلال ، والمقصود هو إخراج الحي من الميت .

وأما عطف ﴿ ويخرج الميت من الحي ﴾ فللاحتراس من اقتصار قدرته على بعض التصرفات ولإظهار عجيب قدرته أنها تفعل الضدين .

وفي الآية الطباق .

وهذا الخطاب للمؤمنين تعريض بالرد على المشركين .

والإخراج : فصل شيء محوي عن حاويه .

يقال : أخرجه من الدار ، وأخرج يده من جيبه ، فهو هنا مستعمل لإنشاء شيء من شيء .

والإتيان بصيغة المضارع في ﴿ يخرج ويحيي ﴾ لاستحضار الحالة العجيبة مثل قوله ﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ [الروم : 48] .

فهذا الإخراج والإحياء آية عظيمة على استحقاقه التعظيم والإفراد بالعبادة إذْ أودع هذا النظام العجيب في الموجودات فجعل في الشيء الذي لا حياة له قوة وخصائص تجعله ينتج

الأشياء الحية الثابتة المتصرفة ويجعل في تراب الأرض قُوى تُخرج الزرع والنبات حياً نامياً .

وإخراج الحي من الميت يظهر في أحوال كثيرة منها : إنشاء الأجنة من النطف ، وإنشاء الفراخ من البيض ؛ وإخراج الميت من الحي يظهر في العكس وقد تقدم في سورة آل عمران .

وفي الآية إيماء إلى أن الله يخرج من غلاة المشركين أفاضل من المؤمنين مثل إخراج خالد بن الوليد من أبيه الوليد بن المغيرة ، وإخراج هند بنت عتبة بن ربيعة من أبيها أحد أئمة الكفر وقد قالت للنبي صلى الله عليه وسلم "ما كان أهل خباء أحبّ إليّ أن يذلوا من أهل خبائك واليوم ما أهل خباء أحب إليّ أن يَعَزُّوا من أهل خبائك ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم " وأيضاً " (أي ستزيدين حباً لنا بسبب نور الإسلام) .

وإخراج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط من أبيها .

(51/602)

ولما كلمت أم كلثوم بنت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن إسلامها وهجرتها إلى المدينة حين جاء أخواها يرومان ردها إلى مكة حسب شروط الهدنة فقالت : يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي ، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يخرج الحيّ من الميت ﴾ ، ونزلت آية الامتحان فلم

يردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما وكانت أول النساء المهاجرات إلى المدينة بعد صلح الحديبية .

والتشبيه في قوله ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ راجع إلى ما يصلح له من المذكور قبله وهو ما فيه إنشاء حياة شيء بعد موته بناء على ما قدمناه من أن قوله ﴿ ويخرج الميت من الحي ﴾ ليس مقصوداً من الاستدلال ولكنه احتراس وتكملة .

ويجوز أن يكون التشبيه راجعاً إلى أقرب مذكور وهو إحياء الأرض بعد موتها ، أي وكإخراج النبات من الأرض بعد موته فيها يكون إخراجكم من الأرض بعد أن كنتم أمواتاً فيها ، كما قال تعالى ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يُعيدكم فيها ويُخرجكم إخراجاً ﴾ [نوح : 17 ، 18] .

ولا وجه لاقتصار التشبيه على الثاني دون الأول .

والمعنى : أن الإبداء والإعادة متساويان فليس البعث بعد الموت بأعجب من ابتداء الخلق ولكن المشركين حكَّموا الإلف في موضع تحكيم العقل .

وقرأ نافع وحفص وحمزة ﴿ الميّت ﴾ بتشديد الياء .

وقرأه الباقون بالتخفيف .

وقرأ الجمهور ﴿ تُخرجون ﴾ بضم التاء الفوقية .

وقرأه حمزة والكسائي بفتحها .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)

لما كان الاستدلال على البعث متضمنا آيات على تفرده تعالى بالتصرف ودلالته على الوحدانية انتقل من ذلك الاستدلال إلى آيات على ذلك التصرف العظيم غير ما فيه إثبات البعث تثبيتاً للمؤمنين وإعذاراً لمن أشركوا في الإلهية .

(52/602)

وقد سبقت ست آيات على الوحدانية ، وابتدئت بكلمة ﴿ ومن آياته ﴾ تنبيهاً على اتحاد غرضها ، فهذه هي الآية الأولى ولها شبه بالاستدلال على البعث لأن خلق الناس من تراب وبث الحياة والانتشار فيهم هو ضرب من ضروب إخراج الحي من الميت ، فلذلك كانت هي الأولى في الذكر لمناسبتها لما قبلها فجعلت تخلصاً من دلائل البعث إلى دلائل عظيم القدرة .

وهذه الآية كائنة في خلق جوهر الإنسان وتقويم بشريته .

وتقدم كيف كان الخلق من تراب عند قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ في سورة المؤمنين (12 ، 13) .

فضمير النصب في خَلَقَكم ﴾ عائد إلى جميع الناس وهذا في معنى قوله تعالى في سورة

الحج (5) ﴿ فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ﴾ الآية .

وهذا استدلال للناس بأنفسهم لأنهم أشعرُ بها مما سواها ، والناس يعلمون أن النطف أصل الخلقة ، وهم إذا تأملوا علموا أن النطفة تتكون من الغذاء ، وأن الغذاء يتكون من نبات الأرض ، وأن نبات الأرض مشتمل على الأجزاء الترابية التي أنبتته فعلموا أنهم مخلوقون من تراب ، فبذلك استقام جعل التكوين من التراب آية للناس أي علامة على عظيم القدرة مع كونه أمراً خفياً .

على أنه يمكن أن يكون الاستدلال مبنياً على ما هو شائع بين البشر أن أصل الإنسان تراب حسبما أنبأت به الأديان كلها .

وبهذا التأويل يصح أيضاً أن يكون معنى ﴿ خلقكم من تراب ﴾ خلق أصلكم وهو آدم ، وأول الوجوه أظهرها .

فالتراب موات لا حياة فيه وطبعه منافٍ لطبع الحياة لأن التراب بارد يابس وذلك طبع الموت ، والحياةُ تقتضي حرارة ورطوبة فمن ذلك البارد اليابس ينشأ المخلوق الحي المدرك .

(53/602)

وقد أشير إلى الحياة والإدراك بقوله ﴿ إذا أنتم بشر ﴾ ، وإلى التصرف والحركة بقوله ﴿ تنتشرون ﴾ ، ولما كان تمام البشرية ينشأ عن تطور التراب إلى نبات ثم إلى نطفة ثم إلى أطوار التخلق في أزمنة متتالية عطفت الجملة بحرف المهلة الدال على تراخي الزمن مع تراخي الرتبة الذي هو الأصل في عطف الجمل بحرف ﴿ ثم ﴾ .

وصدرت الجملة بحرف المفاجأة لأن الكون بشراً يظهر للناس فجأة بوضع الأجنة أو خروج الفراخ من البيض ، وما بين ذلك من الأطوار التي اقتضاها حرف المهلة هي أطوار خفية غير مشاهدة ؛ فكان الجمع بين حرف المهلة وحرف المفاجأة تنبيهاً على ذلك التطور العجيب .

وحصل من المقارنة بين حرف المهلة وحرف المفاجأة شبه الطباق وإن كان مرجع كل من الحرفين غير مرجع الآخر .

والانتشار : الظهور على الأرض والتباعد بين الناس في الأعمال قال تعالى ﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ [الجمعة : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(54/602)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) ﴾

هنا تتجلى عظمة الإيمان ، وتتجلى محبة الله تعالى لخَلْقه ، حيث يدعوهم إليه في كل أوقات اليوم والليلة ، في الصباح وفي المساء ، في العشية والظهيرة .

والحق سبحانه حين يطلب من عباده أن يؤمنوا به ، إنما لحبه لهم ، وحرصه عليهم ليعطيهم ، ويفيض عليهم من آلائه ، وإلا فهو سبحانه بصفات الكمال والجلال غنيٌّ عنهم ، فإيمان المؤمنين لا يزيد في مُلكه سبحانه شيئاً ، كذلك كُفْر الكافرين لا ينقص من مُلكه سبحانه شيئاً .

إذن : المسألة أنه سبحانه يريد أنْ يبرَّ صنعته ، ويُكرم خَلْقه وعباده ؛ لذلك يستدعيهم إلى حضرته ، وقرَّبنا هذه المسألة بمثل – ولله تعالى المثل الأعلى – ، قلنا : إذا أردتَ أنْ تقابل أحد العظماء ، أو أصحاب المراكز العليا ، فدون هذا اللقاء مشاقّ لا بُدَّ أن تتجشمها .

لا بُدَّ أن يُؤْذَن لك أولاً في اللقاء ، ثم يُحدَّد لك الزمان والمكان ، بل ومدة اللقاء وموضوعه ، وربما الكلمات التي ستقولها ، ثم هو الذي يُنهي اللقاء ، لا أنت .

هذا إنْ أردتَ لقاء الخَلْق ، فما بالك بلقاء الخالق عز وجل ؟ يكفي أنه سبحانه يستدعيك بنفسه إلى حضرته ، ويجعل ذلك فرضاً وحتماً عليك ، ويطلبك قبل أنْ تطلبه ، ويذكرك قبل أن تذكره ، لا مرة واحدة ، إنما خمس مرات في اليوم والليلة ، فإذا لبَّيْتَ طلبه أفاض

عليك من رحمته ، ومن نعمه ، ومن تجلياته ، وما بالك بصنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيصيبها عطب ؟

ثم يترك لك ربك كل تفاصيل هذه المقابلة ، فتختار أنت الزمان والمكان والموضوع ، فإنْ أردتَ أنْ تطيل أمد المقابلة ، فإن ربك لا يملّ حتى تمل ؛ لذلك فإن أهل المعرفة الذين عرفوا لله تعالى قَدْره ، وعرفوا عطاءه ، وعرفوا عاقبة اللجوء إليه سبحانه يقولون :

حَسْبُ نفسِي عِزّاً بأنّي عَبْدٌ . . . يَحْتَفِي بي بلاَ مَواعيدَ رَبّ

(55/602)

هُوَ في قُدْسِهِ الأعَزّ ولكن . . . أنا ألقي كيفما وأين أحب

والعبودية كلمة مكروهة عند البشر ؛ لأن العبودية للبشر ذُلٌّ ومهانة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فهي قمة العزّ كله ، وفيها يأخذ العبد غير سيده ؛ لذلك امتنّ الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه العبودية في قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 1] .

وكلمة ﴿ فَسُبْحَانَ الله . . . ﴾ [الروم : 17] هي في ذاتها عبادة وتسبيح لله تعني : أُنزِه الله عن أنْ يكون مثله شيء ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : كل ما يخطر ببالك فالله غير ذلك

؛ لأنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11] .

فالله سبحانه مُنزَّه في ذاته ، مُنزَّه في صفاته ، مُنزَّه في أفعاله ، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه نفهمها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

.

وقلنا : إنك لو استقرأت مادة سبح ومشتقاتها في كتاب الله تجد في أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . ﴾

[الإسراء : 1] وفي أول سورة الحديد : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [الحديد : 1] ثم ﴿ يُسَبِّحُ للَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض . . . ﴾ [الجمعة : 1] .

فكأن الله تعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، فالتسبيح ثابت لله أولاً ، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السماوات والأرض ، ولم ينقطع تسبيحها ، إنما ما زالت مُسبِّحة لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، وحين خلق السماوات والأرض سبَّحتْ له السماوات والأرض وما زالت ، فعليك أنت أيها الإنسان ألاَّ تشذَّ عن هذه القاعدة ، وألاَّ تتخلف عن هذه المنظومة الكونية ، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً ؛ لذلك جاء في القرآن : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] .

فاستح أنت أيها الإنسان ، فكل شيء في الوجود مُسبّح ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ﴾ [الإسراء : 44] .

لكن أراد بعض العلماء أنْ يُقرِّب تسبيح الجمادات التي لا يسمع لها صوتاً ولا حِسّاً ، فقال : إن تسبيحها تسبيح دلالة على الله . ونقول : إنْ كان تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته ، والله يقول ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ﴾ [الإسراء : 44] .

إذن : ففهْمُك له غير حقيقي ، وما دام أن الله أخبر أنها تُسبِّح فهي تسبِّح على الحقيقة بلغة لا نعرفها نحن ، ولِمَ لا والله قد أعطانا أمثلة لأشياء غير ناطقة سبَّحتْ ؟ ألم يقُلْ عن الجبال أنها تُسبِّح مع داود عليه السلام : ﴿ يا جبال أَوِّبي مَعَهُ والطير . . . ﴾ [سبأ : 10] ألم يُثبت للنملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً ؟ وقال في عموم الكائنات : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . ﴾ [النور : 41] .

إذن : فالتسبيح لله تعالى من كل الكائنات ، والحق سبحانه يعطينا المثل في ذواتنا : فأنت إذا لم تكُنْ تعرف الإنجليزية مثلاً ، أتفهم مَنْ يتكلم بها ؟ وهي لغة لها أصوات وحروف تُنطق ، وتسمعها بنفس الطريقة التي تتكلم أنت بها .

لذلك تأتي كلمة (سبحان الله) في الأشياء التي يجب أنْ تُنزه الله فيها ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى في الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 1] كأنه

سبحانه يقول لنا : نزِّهوا الله عن مشابهة البشر ، وعن قوانين البشر في هذه المسألة ، إياك أنْ تقول : كيف ذهب محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود في ليلة واحدة .

(57/602)

فبقانون البشر يصعُب عليك فَهْم هذه المسألة ، وهذا ما فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وتدَّعي أنك أتيتها في ليلة ؟ فقاسوا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذَّبوه .

ولو تأملوا الآية ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 1] وهم أهل اللغة لَعرفوا أن الإسراء لم يكُنْ بقوة محمد ، فلم يقُلْ أسريتُ ، ولكن قال : " أُسرِي بي " ، فلا دخل له في هذه المسألة وقانونه فيها مُلْغى ، إنما أسرى بقانون مَنْ أسرى به .

إذن : عليك أن تُنزه الله عن قوانينك في الزمان وفي المسافة ، وإنْ أردتَ أن تُقرب هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة التي ستقطع بها المسافة ، فالذي يسير غير الذي يركب دابةً ، غير الذي يركب سيارة أو طائرة أو صاروخاً وهكذا .

فإذا كان في قوانين البشر : إذا زادت القوة قَلَّ الزمن ، فكيف لو نسَبْتَ القوة إلى الله عز وجل ؟ عندها نقول : لا زمن فإنْ قُلْتَ : إن ألغينا الزمن مع قوة الله وقدرته تعالى ، فلماذا ذكر الزمن هنا وقُدِّر بليلة ؟

قالوا : لأن الرحلة لم تقتصر على الذهاب والعودة ، إنما تعرَّض فيها النبي صلى الله عليه وسلم لَمَراء كثيرة ، وقابل هناك بعض الأنبياء ، وتحدَّث معهم ، فهذه الأحداث لرسول الله هي التي استغرقتْ الزمن ، أمّا الرحلة فلم تستغرق وقتاً .

كذلك جاءت كلمة (سبحان) في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] لماذا ؟ لأن مسألة الخَلْق من المسائل التي يقف عندها العقل ، وينبغي أنْ تُنزِّه الله عن أنْ يشاركه فيها أحد .

(58/602)

ولما نزلت هذه الآية كان الناس يعرفون الزوجية في النبات لأنهم كانوا يُلقِّحون النخل ، ويعرفونها في الإنسان ؛ لأنهم يتزوجون وينجبون ، وكذلك يعرفونها في الحيوان ، هذه حدود العقل في مسألة الزوجية .

لكن الآية لم تقتصر على ذلك ، إنما قال سبحانه ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] لأن

المستقبل سيكتشف لهم عن أشياء أخرى تقوم على نظرية الزوجية ، وقد عرفنا نحن هذه النظرية في الكهرباء مثلاً حيث (السالب) و (الموجب) ، وفي الذرات حيث (الإلكترونات) ، و (البروتونات) . . إلخ .

إذن : ساعةَ تسمع كلمة التسبيح فاعلم أنك ستستقبل حدثاً فريداً ، ليس كأحداث البشر ، ولا يخضع لقوانينهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ الحمد فِي السماوات . . . ﴾ .

نحلظ أن قوله تعالى ﴿ وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [الروم : 18] فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة ، فجعلت ﴿ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] في ناحية ، و ﴿ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : 18] في ناحية ، مع أنها جميعاً أوقات وأزمنة في اليوم والليلة ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه يريد أنْ يُشعرنا أن له الحمد ، ويجب أنْ تحمده على أنه مُنزَّه عن التمثيل ؛ لأنها في مصلحتك أنت ، وأنت الجاني لثمارها التنزيه ، فإنْ أرادك بخير فلا مثيلَ له سبحانه يمنعه عنك ، وله وحده الكبرياء الذي يحميك أن يتكبر أحد عليك ، وله وحده تخضع وتسجد ، لا تسجد لغيره ، فسجودك لوجه ربك يكفيك كل الأوجه ، كما قال الشاعر :

فَالسُّجُودُ الذي تَجْتويهِ فيه . . . مِنْ أُلُوف السُّجُودِ نَجَاةُ

إذن : من مصلحتك أن يكون الله تعالى هو الواحد الذي لا مثيلَ له ، والقوى الذي لا يوجد أقوى منه ، والمتكبِّر بحقٍّ ؛ لأن كبرياءه يحمي الضعيف أنْ يتكبّر عليه القوي ، يجب أنْ تحمد الله الذي تعبَّدنا بالسجود له وحده ، وبالخضوع له وحده ؛ لأنه أنجاك بالسجود له أنْ تسجد لكل قوي عنك ، وهذا من عظمته تعالى ورحمته بخَلْقه ؛ لذلك تستوجب الحمد .

لذلك نقول في العامية (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) لماذا ؟ لأنه لا يعيش عزيزاً مُكرّماً إلا إذا كان له كبير يحميه ، ويدافع عنه ، كذلك أنت لا تكون عزيزاً إلا في عبوديتك لله .

والخَلْق جميعاً بالنسبة لله تعالى سواء ، فليس له سبحانه من عباده ولد ولا قريب ، فلا مؤثرات تؤثر عليه ، فيحابي أحداً على أحد ، فنحن جميعاً شركة في الله ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ [الجن : 3] أي : لا شيء يؤثر عليه سبحانه .

وقال بعد التسبيح ﴿ وَلَهُ الحمد . . . ﴾ [الروم : 18] لأن التسبيح ينبغي أنْ يُتبَع بالحمد فتقول : سبحان الله والحمد لله ، أي : الحمد لله على أنني سبَّحت مسبِّحاً .

وحين نتأمل هذه الأوقات التي أمرنا الله فيها بالتسبيح ، وهي المساء والصباح والعشي ، وهي من العصر إلى المغرب ، ثم الظهيرة نجد أنها أوقات عامة سارية في كَوْن الله لا تنقطع

أبداً ، فأيّ صباح وأيّ مساء ؟ صباحي أنا ؟ أم صباح الآخرين ؟ مسائي أم مساء غيري في أقصى أطراف المعمورة ؟

إن المتأمل في دورة الوقت يجد أن كل لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء ، وعشية وظهيرة ، وهذا يعني أن الله تعالى مُسبِّح معبود في كل لحظة من لحظات الزمن .

(60/602)

وفي ضوء هذا نفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل " فالكون لا يخلو في لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذا يعني أن يد الله سبحانه مبسوطة دائماً لا تُقبَض : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ . . . ﴾ [المائدة : 64] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت . . . ﴾ .

أولاً : ما مناسبة الحديث عن البعث ، وإخراج الحيِّ من الميت ، وإخراج الميت من الحيِّ بعد الحديث عن تسبيح الله وتحميده ؟ قالوا : لأنه تكلَّم عن المساء والصباح ، وفيهما شبه بالحياة والموت ، ففي المساء يحلُّ الظلام ، ويسكُن الخَلْق وينامون ، فهو وقت للهدوء والاستقرار ، والنوم الذي هو صورة من صور الموت ؛ لذلك نسميه الموت الأصغر ، وفي

الصباح وقت الحركة والعمل والسعي على المعاش ، ففيه إذن حياة ، كما يقول سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا الليلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 10-11] .

ويُمثَّل الموت والبعث بالنوم والاستيقاظ منه ، كما جاء في بعض المواعظ : " لتموتُن كما تنامون ، ولتُبعثُنّ كما تستيقظون " .

وما دُمْنا قد شاهدنا الحالَيْنِ ، وعايَنا النوم واليقظة ، فلنأخذ منهما دليلاً على البعث بعد الموت ، وإنْ أخبرنا القرآن بذلك ، فعلينا أنْ نُصدّق ، وأنْ نأخذ من المشاهد دليلاً على الغَيْب ، وهذا ما جاءتْ به الآية :

﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ويُخْرِجُ الميت مِنَ الحي . . . ﴾ [الروم : 19] .

وقوله تعالى هنا (الحي والميت) أي : في نظرنا نحن وعلى حَدّ عِلْمنا وفَهمنا للأمور ، وإلا فكُلُّ شيء في الوجود له حياة تناسبه ، ولا يوجد موت حقيقي إلا في الآخرة التي قال الله فيها : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88] .

(61/602)

فضدُّ الحياة الهلاك بدليل قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . ﴾ [الأنفال : 42]

وما دام كلُّ شيء هالكاً إلا وجهه تعالى ، فكل شيء بالتالي حَيٌّ ، لكنه حي بحياة تناسبه . وأذكر أنهم كانوا يُعلّموننا كيفية عمل المغناطيس وانتقال المغناطيسية من قطعة مُمغنطة إلى قطعة أخرى بالدَّلْك في اتجاه واحد ، وفعلاً شاهدنا أن قطعة الحديد تكتسب المغناطيسية .

وتستطيع أنْ تجذب إليها قطعة أخرى ، أليس هذا مظهراً من مظاهر الحياة ؟ أليست هذه حركة في الجماد الذي نراه نحن جماداً لا حياةَ فيه ، وهو يؤثر ويتأثر بغيره ، وفيه ذرات تتحرك بنظام ثابت ولها قانون .

إذن : نقول لكل شيء موجود حياته الخاصة به ، وإنْ كُنَّا لا ندركها ؛ لأننا نفهم أن الحياة في الأحياء فحسب ، إنما هي في كل شيء وكَوْنك لا تفقه حياة هذه الأشياء ، فهذه مسألة أخرى .

لذلك سيدنا سليمان – عليه السلام – لما سمع كلام النملة ، وكيف أنها تفهم وتقف ديدباناً لقبيلتها ، وتفهم حركة الجيش وعاقبة الوقوف في طريقه ، فتحذر جماعتها ادخلوا مساكنكم ، وكيف كانت واعية ، وعادلة في قولها . ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 18] فهي تعلم أن الجيش لو حطَّم النمل ، فهذا عن غير مقصد منهم ، وعندها أحسَّ سليمان بنعمة الله عليه بأنْ يعلم ما لا يعلمه غيره من الناس ، فقال : ﴿ رَبِّ أَوزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ . . . ﴾ [النمل

: 19] .

فمعنى ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت .

(62/602)

. . . ﴾ [الروم : 19] أي : في عُرْفنا نحن ، وعلى قَدْر فَهْمنا للحياة وللموت ، والبعض يقول : يعني يُخرج البيضة من الدجاجة ، ويُخرج الدجاجة من البيضة ، وهذا الكلام لا يستقيم مع منطق العقل ، وهل كل بيضة بالضرورة تُخرج دجاجة ؟ لا بل لا بُدَّ أنْ تكون بيضة مُخصَّبة . إذن : لا تقُلْ البيضة والدجاجة ، ولكن قُلْ يُخرج الحي من الميت من كل شيء موجود .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ويُخْرِجُ الميت مِنَ الحي . . . ﴾ [الروم : 19] وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي . . . ﴾ [الأنعام : 95] فأتى باسم الفاعل (مُخْرِج) بدلاً من الفعل المضارع .

لذلك وقف عندها المشككون في أسلوب القرآن ، يقولون : إنْ كانت إحداهما بليغة ، فالأخرى غير بليغة ، وهذا منهم نتيجة طبيعية لعدم فَهْمهم للغة القرآن ، وليستْ لديهم المَلَكة العربية التي تستقبل كلام الله .

وهنا نقول : إن الذي يتكلم ربٌّ يعطي لكل لفظة وزنها ، ويضع كل كلمة في موضعها الذي لا تُؤدّيه كلمة أخرى .

فقوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت . . . ﴾ [الروم : 19] هذه في مصلحة مَنْ ؟ في مصلحتنا نحن ؛ لأن الإنسان بطَبْعه يحب الحياة ، وربما استعلى بها ، واغترَّ بهذا الاستعلاء ، كما قال ربنا : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7] .

لذلك يُذكِّره ربه تعالى بالمقابل : فأنا كما أُخرج الحيَّ من الميت أُخرِج الميت من الحيِّ فانتبه ، وإياك أنْ تَتعالى أو تتكبَّر ، وافهم أن الحياة موهوبة لك من ربك يمكن أنْ يسلبها منك في أيِّ لحظة .

وعبَّر عن هذا المعنى مرة بالفعل المضارع (يُخرِج) الدالّ على الاستمرار والتجدُّد ، ومرة باسم الفاعل (مُخرِج) الدال على ثبوت الصفة وملازمتها للموصوف ، لا مجرد حدث عارض .

(63/602)

لذلك تأمل قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . ﴾ [الملك : 1-2] وفي نظرنا أن الحياة تسبق الموت ، لكن الحق سبحانه يريد أن يقتل في الإنسان صفة الاغترار بالحياة ، فجعله يستقبل الحياة بما يناقضها ، فقال ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة . . . ﴾ [الملك : 2] .

فقدَّم الموت على الحياة ، فقبل أنْ تفكر في الحياة تذكّر الموت حتى لا تغترّ بها ولا تَطْغى .

ويتجلى هذا المعنى أيضاً في سورة الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة : 58-60] .

يعني : خذوا بالكم ، وافهموا أنني واهب الحياة ، وأستطيع أنْ أسلبها فلا تغترَّ بها ولا (تتفرعن) ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يَدُكَّ في الإنسان صفة الكبرياء والتعالي ، فيُحدث هذه المقابلة دائماً بين ذِكْر الحياة في آيات القرآن الكريم .

ثم أَلاَ ترى أن الخالق سبحانه لم يجعل للموت سبباً من أسباب العمر والسنين ، فواحد يموت قبل أنْ يُولَد ، وواحد يموت بعد يوم أو بعد شهر ، وآخر يموت بعد عدة أعوام ، وآخر بعد مائة عام .

إذن : مسألة لا ضابط لها إلا أقدار الله وأجله الذي أجلَّه سبحانه ، وفي هذا إشارة للإنسان : احذر فقد تُسلْبَ منك الحياة التي تنشأ منها غرورك في أيِّ لحظة ، ودون أنْ

تدري ودن سابق إنذار أو مقدمات ، فاستقِمْ إذن على منهج ربك ، ولا تجترئ على المعصية ؛ لأنك قد تموت قبل أنْ تتدارك نفسَك بالتوبة .

لذلك يقولون : إن الحق سبحانه حين أبهم وقت الموت بيَّنه بالإبهام غايةَ البيان ، كيف ؟ قالوا : لأنه سبحانه لو حدَّد لك موعد الموت لكنتَ تستعد له قبل أوانه ، إنما حين أبهمه جعلك تستعدّ له كل لحظة من لحظات حياتك .

(64/602)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . . ﴾ [الروم : 19] وفي موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَآءَ اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] .

فالأرض كانت ميتة هامدة جامدة جرداء ، لا أثرَ فيها لحياة ، فلما نزل عليها الماء وسقاها المطر تحركت وأنبتتْ من كل زوج بهيج ، فهي نموذج حيٌّ مُشَاهد للخَلْق وللحياة .

وفي آية أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً . . . ﴾ [الحج : 63] فهل أخضرتْ الأرضُ ساعةَ نزل عليها المطر ؟ لا ، إنما بعد فترة ، كأنه سبحانه يقول لك : لاحظ الحدث ساعة يوجد ، واستحضر صورته ، فبعد نزول الماء

ترى الأرض تخضرّ تدريجياً ، وإنْ لم تبذر فيها شيئاً ، ففيها بذور شتَّى حملتْها الرياح ، ثم استقرتْ في التربة ولو لسنوات طوال تظل صالحة للإنبات تنتظر الماء لتؤدي مهمتها .

والذي عاش في الصحراء يشاهد هذه الظاهرة ، وقد رأيناها في عرفة بعد أنْ نزل عليها المطر ، وعُدْنا بعد عدة أيام ، فإذا الأرض تكتسي باللون الأخضر . لذلك إياك أن تظن أن كل زرع زرعه الإنسان ، وإلاَّ فمنْ أين جاءت أول بذرة زرعها الإنسان . إذن : هناك زراعات لا دخلَ للإنسان بها .

ولنقرأ قصة مريم عليها السلام : ﴿ يامريم إِنَّ الله اصطفاك وَطَهَّرَكِ واصطفاك على نِسَآءِ العالمين ﴾ [آل عمران : 42] فالاصطفاء الأول لم يقُلْ على مَنْ . فالمعنى : اصطفاكِ على الخَلْق جميعاً ، بأن طَهَّركِ وجعلك صالحة تقية قوّامة . . . إلخ .

أما الاصطفاء الآخر فليس على الخَلْق جميعاً ، إنما على النساء ؛ لأنها تفردتْ عن نساء العالمين بأنْ تِلدَ بغير ذكورة .

(65/602)

والشاهد الذي نريده هنا أن يوسف النجار لما لاحظ على مريم علامات الحمل وهو يعلم مَنْ هي مريم ، وأنها لم تفارق المحراب طوال عمرها ، فلم يرِدْ على ذِهْنه المعنى الثاني ،

ويريد أن يستفهم عَمَّا يراه ، فسألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بدون بذرة ؟ فقالت وقد لقَّنها الحق سبحانه : نعم ، الشجرة التي أنبتت أول بذرة .

إذن : الحق سبحانه يمتنُّ علينا بالشيء ، ثم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على سَلْبه ، وعلى نقيضه حتى لا نغترَّ به ، ليس في مسألة الموت والحياة فحسب ، إنما في الزرع وفي الماء وفي النار ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ [الواقعة : 58- 72] .

ونلحظ في الأداء القرآني في هذه الآيات الدقة في استخدام لام التوكيد في ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً . . . ﴾ [الواقعة : 65] في الحديث عن الزرع ؛ لأن للإنسان دوراً فيه ، حيث يحرث ويغرس ويسقي ، وربما ظَنَّ لنفسه قدرة عليه .

لكن لما تحدَّث عن الماء ذكر في نقضه ﴿ لَوْنَشَآءُ جَعَلْنَاهُأُجَاجاً . . . ﴾ [الواقعة : 70] بدون توكيد ، لماذا ؟ لأن الماء لا دخلَ لأحد فيه ، ولا يدعيه أحد ، فلا أنت بخرتَ الماء ، ولا أنت أنزلتَ المطر ، لذلك قال : ﴿ جَعَلْنَاهُ . . . ﴾ [الواقعة : 70] بدون توكيد .

أما عند ذكْر النار كنعمة من نِعَم الله لم يذكر ما ينقضها ، فقال : ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ [الواقعة : 72] ولم يقُلْ مثلاً : لو نشاء لأطفأناها ، تُرى لماذا ؟ قالوا : لتظل النارُ ماثلة أمامنا على حال اشتعالها لا تخمد أبداً ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يُلوِّح بها لكل عَاصٍ علَّه يعود إلى الجادّة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : 19] كذلك : إشارة إلى ما سبق ذِكْره من إحياء الأرض بعد موتها ، كمثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون ، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)

الكلام هنا عن بَدْء الخلق ، قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ . . . ﴾ [الروم : 20] بصيغة الجمع ، والمراد آدم ثم حواء ، ثم بثَّ الله منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فالعالم اليوم الذي يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضي لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء ، فلما

التقيا نشأ منهما النسل ، لكن هل نشأ النسل من أبعاض ميتة خرجتْ من آدم ، أم من أبعاض حيّة هي الحيوانات المنوية ؟

(67/602)

لو أن الحيوان المنويّ كان ميتاً لما حدث الإنجاب . إذن : جاء أولاد آدم من ميكروب أبيهم آدم ، وانتشروا في الأرض وأنجبوا ، وكل منهم يحمل ذرة من أبيه الأول آدم عليه السلام .

وبالتالي فكُلٌّ مِنّا فيه ذرة حية من عهد آدم ، وحتى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً ، وهذا هو عَالَم الذرِّ الذي شهد خَلْق الله لآدم ، إنها أبعاضنا التي شهدتْ هذا العهد الأول بين الخَلْق والخالق سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : 172] .

إذن : في كل مِنّا الآن وحتى قيام الساعة ذرةٌ حيَّة من أبيه آدم ، هذه الذرة الحية هي التي شهدتْ هذا العهد ، وهي التي تمثل الفطرة الإيمانية في كل نفس بشرية ، لكن هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصي . . . إلخ .

والحق – سبحانه وتعالى – أخبرنا أنه يخلق الأشياء ويُوجِدها بكُنْ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ

شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] إلا الإنسان ، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوَّاه ربه بيده ، وجعله خليفة له في الأرض ، وتجلَّى عليه بصفات من صِفاته ، فأعطاه من قدرته قدرةً ، ومن عِلْمه عِلْماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن غِنَاه غِنىً .

وربنا سبحانه حينما يخلقنا هذا الخَلْق يريد مِنَّا أنْ نستعمل هذه الصفات التي وهبها لنا ، كما يستعملها هو سبحانه ، فالله تعالى بقدرته خلق لنا ما ينفعنا ، فعليك أنت بما وهبك الله من القدرة أنْ تعمل ما ينفع ، والله بحكمته رتَّبَ الأشياء ، فعليك بما لديْك من حكمة أنْ تُرتِّب الأِشياء . . وهكذا .

(68/602)

ونشير إلى أن القدرة تختلف ، فقدرة تفعل لك ، وقدرة عُلْيا تجعلك تفعل بنفسك ، هَبْ أنك قابلتَ رجلاً ضعيفاً لا يَقْوَى على حَمْل متاعه مثلاً ، فتحمله أنت له ، فأنت إذن عدَّيْتَ إليه أثرَ قوتك ، إنما ظلَّ هو ضعيفاً .

أما الحق – تبارك وتعالى – فلا يُعدِّي أثر قوته إلى عبده فحسب ، إنما يُعدِّي له القدرة ذاتها ، فيُقوِّي الضعيف ؛ فيحمل متاعه بنفسه .

إذن : أعظم تكريم للإنسان أنْ يقول الخالق سبحانه : إنني خلقتُه بيدي في قوله سبحانه

لإبليس : ﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . . ﴾ [ص : 75] .

ثم لك أيها الإنسان بعد هذا التكريم أنْ تكون كريماً على نفسك كما كرَّمك الله ، ولك أنْ تنزل بها إلى الحضيض ، فنفسك حيث تجعلها أنت .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [التين : 4-5] فانظر لنفسك منزلة من المنزلتين .

وكلمة ﴿ مِّن تُرَابٍ . . . ﴾ [الروم : 20] أي : الأصل الذي خُلِق منه آدم ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، فإنْ تعطَّن وتغيَّرَتْ رائحته فهو حمأ مسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، إذن : هذه هي العناصر التي وردت ومراحل خَلْقِ الإنسان ، وكلها مُسمَّيات للتراب ، وحالات طرأتْ عليه .

فإنْ جاء مَنْ يقول في مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدّقه ؛ لأن الذي خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه ، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً ، وهم في نظر الدين مُضللون ، يجب الحذر من أفكارهم ؛ لأن الله تعالى يقول في شأنهم :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

والله لو لم يَخُضْ العلماء في مسألة الخلق خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والأرض . . . الخ . لو لم نسمع بنظرية داروين أكانت تصدُق هذه الآية ؟ وإلا لقالوا : أين المضللون الذين تكلَّم القرآن عنهم ؟ فهم إذن قالوا وطلعوا علينا بنظرياتهم ، يريدون أنْ يُكذِّبوا دين الله ، وأنْ يُشكِّكوا فيه ، وإذا بهم يقومون جميعاً دليلاً على صِدْقه من حيث لا يشعرون .

وعلى شاكلة هؤلاء الذين نسمعهم الآن ينكرون أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويُشككون في صحتها ، هذه في الحقيقة ظاهرة طبيعية جاءت لتثبت صدق رسول الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها ، وأعطانا المناعة اللازمة – الثلاثي الذي نسمع عنه من رجال الصحة .

يقول صلى الله عليه وسلم : " يوشك رجل من أمتي يتكيء على أريكته يُحدَّث بالحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، أَلَا وإنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله " .

لماذا ؟ لأن الله تعالى أعطاه تفويضاً في أنْ يُشرِّع لأمته ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . . ﴾ [الحشر : 7] فللرسول إيتاء ، وللرسول أمر ونهي يجب أنْ يُطاع بطاعتنا لله .

وتعالَ لمن ينكر السنة ويقول : علينا بالقرآن – عندما يصلي المغرب مثلاً واسأله : كم ركعة

صليتَ المغرب ؟ سيقول : ثلاث ركعات ، فمن أين علم أن المغرب ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذي يتعصَّب له ، أم من السنة التي يُنكرها . إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟

(70/602)

إذن : فالحق – سبحانه وتعالى – بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب ، صار طيناً ، ثم صار حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الله من روحه ، ونحن لم نشاهد هذه المسألة ، إنما أخبرنا بها ، ومن رحمته تعالى بخَلْقه ، ولكي لا تحار عقولهم حينما تبحث هذه العملية يعطينا في الكون المشَاهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الذي لم نشاهده .

ففي أعرافنا أن هَدْم الشيء أو نَقْض البناء يأتي على عكس البناء ، فما بُني أولاً يُهْدَم آخراً ، وما بُني آخراً يُهدَم أولاً ، وأنت لم تشاهد عملية الخَلْق ، لكن شاهدتَ عملية الموت ، والموت نَقْض للحياة .

ولك أنْ تتأملَ الإنسان حينما يموت ، فأول نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الروح ، وكانت آخر شيء في بنائه ، ثم يتصلّب الجسد ويتجمد ، كما كان في مرحلة الصلصالية ، ثم يتعفَّن وتتغير رائحته ، كما كان في مرحلة الحمأ المسنون ، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير

إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب ، إذن : صدق الله تعالى في المشهد حين بيَّن لنا الموت ، فصدَّقنا ما قاله في الحياة .

وكما أن التراب والطين هما أصل الإنسان فهما أيضاً مصدر الخِصْب والنماء ، ومخازن للقوت وهما مُقوِّم من مُقوِّمات حياتنا : لذلك لما تكلم القرآن عن التراب قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا . . . ﴾ [فصلت : 9-10] يعني : في الجبال لأنها أقرب مذكور أو في الأرض عموماً ؛ لأن الرواسي في الأرض ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . ﴾ [فصلت : 10] .

فالقوت يأتينا من طينة الأرض ، ومن التراب الذي يتفتت من الجبال مُكوِّناً الطمي أو الغرِيْن الذي يحمله إلينا ماء المطر ، فالأرض هي أمنا الحقيقية ، منها خُلِقْنا ، ومنها مُقوِّمات حياتنا .

(71/602)

وعجيب أن نرى من العلماء غير المؤمنين مَنْ يثبت صدْق القرآن في مسألة خَلْق الإنسان من طين حين حلَّلوا عناصر الأرض فوجدوها ستة عشر عنصراً هي نفسها التي وجدوها

في جسم الإنسان ، وكأن الحق سبحانه يُجنّد مَنْ يثبت صِدْق آياته ولو من الكفار .

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفِي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . . ﴾ [فصلت : 53] . وفي القرآن آيات تدلّ على معادلات لو بحثها (الكمبيوتر) الآن لا بُدَّ أن نؤمن بأن هذا الكلام من عند الله وأنه صِدْق .

تأمل ظاهرة اللغة ، وكيف تتكلم وتتفاهم ، فأنت إذا لم تتعلم الإنجليزية مثلاً لا تفهمها ؛ وكذلك هو لا يفهم العربية . لماذا ؟ لأن اللغة وليدة المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، وهي ظاهرة اجتماعية ، فلو عاش الإنسان وحده لما احتاج للغة ؛ لأنه سيفعل ما يطرأ على باله وفقط .

أمّا حين يعيش في جماعة فلا بُدَّ له أن يتفاهم معهم ، يأخذ منهم ويأخذون منه ، يسمع منهم ويسمعون منه ، حتى الأخرس لا بُدَّ له من لغة يتفاهم بها مع مَنْ حوله ، ويستخدم فعلاً لغة الإشارة ، وقد أقدره الله على فهمها .

والله سبحانه يُبقي للإنسان المتكلم دلالات الإشارة في النفس الناطقة ، فمثلاً لو اضطررت للكلام وفي فمك طعام ، فإنك تشير لولدك أو لخادمك مثلاً ويفهم عنك ويفعل ما تريد .

إذن : فينا نحن الأسوياء بقايا خَرس نستعمله ، حينما لا يسعفنا النطق إذن : التفاهم أمر

ضروري ، واللغة وليدة المحاكاة ؛ لذلك نقول للولد الصغير : لا تخرج إلى الشارع ، لماذا ؟ حتى لا تسمع أذنه كلاماً قبيحاً فيحكيه هو .

(72/602)

إذن : كيف تعلمتُ اللغة ؟ تعلمتها من أبي ومن المحيط بي ، وتعلمها أبي من أبيه ، ومن المحيطين به ، وهكذا . ولك أن تسلسل هذه المسألة كما سلسلنا التكاثر في الإنسان ، وسوف نعود بالتالي إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعندها نقول : ومَنْ علَّم آدم اللغة ؟ يردُّ علينا القرآن : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسمَآءَ كُلَّهَا . . . ﴾ [البقرة : 31] هذا كلام منطقي استقرائي يدلُّ دلالة قاطعة على صِدْق آيات القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] ثم : أي بعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة ؛ لأن السياق استعمل هنا (إذا) الفجائية الدالة على الفجأة ، والتي يُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعني : فاجأني ، فالمعنى أنكم تتزايدون وتنتشرون في الأرض بسرعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(73/602)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) ﴾

مَنْ كان صباحُه لله بُورِكَ له فى يومه ، ومن كان مساؤه بالله بورك له فى ليله :

وإنَّ صَبَاحً نلتقي في مسائه . . . صَبَاحٌ على قلبِ الغريبِ حبيبُ

شتّان بين عبدٍ صباحُه مُفْتَتَحٌ بعبادته ومساؤه مُخْتَتَمٌ بطاعته ، وبين عبدٍ صباحه مفتتح بمشاهدته ورواحة مفتتح بعزيز قربته !

ويقال الآية تتضمن الأَمر بتسبيحه فى هذه الأوقات ، والآية تتضمن الصلوات الخمس ، وإرادةَ الحقِّ من أوليائه بأَنْ يجددوا العهدَ فى اليوم والليلة خمْسَ مراتٍ ؛ فتقف على بساط المناجاة ، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات .

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19)

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ : الطيرَ من البيض ، والحيوان من النُّطفةِ .

﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ : البيض من الطير ، والنطفة من الحيوان .

والمؤمنَ من الكافِرَ والكافِرَ من المؤمن .

ويُظْهِرُ أوقاتاً من بين أوقات ؛ كالقبض من بين أوقات البسط ، والبسط من بين أوقات القبض .

﴿ وَيُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ : يحييها بالمطر ، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء ؛ كذلك يوم النشور يحيي الخَلْقَ بعد الموت .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)

خَلَقَ آدمَ من التراب ، ثم من آدم الذُّرِّيَّة . فذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

(74/602)

ويقال الأصل تُرْبة ولكن العِبْرَة بالتربية لا بالتربة ، القيمةُ لما مِنْه لا لأعيان المخلوقات .

اصطفى واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة ؛ الجنة جواهر ويواقيت ، والبيت حجر !

ولكن البيت مختارُه وهذا المختار حجر ! واختار الإنسانَ ، وهذا المختار مَدَرٌ ! والغنيُّ غنيٌّ لذاتِه ، غنيٌّ عن كلِّ غيرٍ من رَسْم وأثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 112.111 ﴾

(75/602)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان أعجب من ذلك أن هذا الذي خلقه التراب ذكراً خلق منه أنثى ، وجعلهما شبهي السماء والأرض ماء ونبتاً وطهارة وفضلاً ، قال : ﴿ ومن آياته ﴾ أي على ذلك ؛ ولما كان إيجاد الأنثى من الذكر خاص لم يكن إلا مرة واحدة كالخلق من التراب ، عبر بالماضي فقال : ﴿ أن خلق لكم ﴾ أي لأجلكم ليبقى نوعكم بالتوالد ، وفي تقديم الجار دلالة على حرمة التزوج من غير النوع ، والتعبير بالنفس أظهر في كونها من بدن الرجل في قوله : ﴿ من أنفسكم ﴾ أي جنسكم بعد إيجادها من ذات أبيكم آدم عليه السلام ﴿ أزواجاً ﴾ إناثاً هن شفع لكم ﴿ لتسكنوا ﴾ مائلين ﴿ إليها ﴾ بالشهوة والألفة ، من قولهم : سكن إليه – إذا مال وانقطع واطمأن إليه ، ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها .

ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم إلا بدوام الألفة قال : ﴿ وجعل ﴾ أي صير بسبب الخلق على هذه الصفة ﴿ بينكم مودة ﴾ أي معنى من المعاني يوجب أن لا يحب واحد من

الزوجين أن يصل إلى صاحبه شيء يكرهه مع ما طبع عليه الإنسان من محبة الأذى ، وإنما كان هذا معناه لأن مادة " ودد " مستوياً ومقلوباً تدور على الاتساع والخلو من الدو والدوية بتشديد الواو وهي الفلاة ، والود والوداد قال في القاموس : الحب ، وقال أبو عبد الله القزاز ونقله عنه الإمام عبد الحق في واعيه : الأمنية ، تقول وددت أن ذاك كان ، وذاك لاتساع مذاهب الأماني ، وتشعب أودية الحب ، وفي القاموس : ودان : قرية قرب الأبواء وجبل طويل قرب فيد ، والمودة : الكتاب – لاتساع الكلام فيه .

(76/602)

وقال الإمام أبو الحسن الحرالي في شرح الأسماء الحسنى : الود خلو عن إرادة المكروه ، فإذا حصل إرادة الخير وإيثاره كان حياً ، من لم يرد سواه فقد ود ومن أراد خيراً فقد أحب ، والود أول التخلص من داء أثر الدنيا بما يتولد لطلابها من الازدحام عليها من الغل والشحناء ، وذلك ظهور لما يتهيأ له من طيب الحب ، فمن ود لا يقاطع ، ومن أحب واصل وآثر ، والودود هو المبرأ من جميع جهات مداخل السور ظاهره وباطنه .

ولما كان هذا المعنى الحسن لا يتم إلا بإرادة الخير قال : ﴿ ورحمة ﴾ أي معنى يحمل كلاً على أن يجتهد للآخر في جلب الخير ، ودفع الضير ، لكن لما كانت إرادة الخير قد تكون بالمن

ببعض ما يكره جمع بين الوصفين ، وهما من الله ، والفرك – وهو البغض – من الشيطان .

ولما كان ذلك من العظمة بمكان يجل عن الوصف ، أشار إليه بقوله مؤكداً لمعاملتهم له بالإعراض عما يهدي إليه معاملة من يدعي أنه جعل سدى من غير حكمة ، مقدماً الجار إشارة إلى أن دلالته في العظم بحيث تتلاشى عندها كل آية ، وكذا غيره مما ان هكذا على نحو

﴿ وما نريهم من آية إلا وهي أكبر من أختها ﴾ [الزخرف : 48] : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الذي تقدم من خلق الأزواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات واضحات على قدرة فاعله وحكمته .

ولما كان هذا المعنى مع كونه دقيقاً يدرك بالتأمل قال : ﴿ لقوم ﴾ أي رجال أو في حكمهم ، لهم قوة وجد ونشاط في القيام بما يجعل إليهم ﴿ يتفكرون ﴾ أي يستعملون أفكارهم على القوانين المحررة ويجتهدون في ذلك .

(77/602)

ولما ذكر سبحانه الذكر والأنثى ، المخلوقين من الأرض ، وكانت السماء كالذكر للأرض التي خلق منها الإنسان ، وكان خلقهما مع كونهما مخلوقين من غير شيء أعجب من خلقه

فهو أدل على القدرة ، وكان خلق الأرض التي هي كالأنثى متقدماً على عكس ما كان في الإنسان ، أتبعه ذكرهما بادئاً بما هو كالذكر فقال مشيراً – بعد ما ذكر من آيات الأنفس – إلى آيات الآفاق : ﴿ من آياته ﴾ أي الدالة على ذلك ، ولما كان من العجب إيجاد الخافقين من العدم إيجاداً مستمراً على حالة واحدة ، عبر بالمصدر فقال : ﴿ خلق السماوات ﴾ على علوها وإحكامها ﴿ والأرض ﴾ على اتساعها وإتقانها .

ولما كان من الناس من ينسب الخلق إلى الطبيعة ، قال تعالى ذاكراً من صفات الأنفس ما يبطل تأثير الآفاق بأنفسها من غير خلقه وتقديره ، وتكوينه وتدبيره : ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ أي لغاتكم ونغماتكم وهيئاتها ، فلا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس ولا جهارة ، لا حد ولا رخاوة ، ولا لكنة ولا فصاحة ، ولا إسهاب ولا وجازة ، وغير ذلك من صفات النطق وأحواله ، ونعوته وأشكاله ، وأنتم من نفس واحدة ، فلو كان الحكم للطبيعة لم يختلف لأنه لا اختيار لها مع أن نسبة الكل إليها واحدة .

ولما كان لون السماء واحداً ، وألوان الأراضي يمكن حصرها ، قال : ﴿ وألوانكم ﴾ أي اختلافاً مع تفاوته وتقاربه لا ضبط له مع وحدة النسبة ، ولولا هذا الاختلاف ما وقع التعارف ، ولضاعت المصالح ، وفاتت المنافع ، وطوي سبحانه ذكر الصور لاختلاف صور النجوم باختلاف أشكالها ، والأراضي بمقادير الجبال والروابي وأحوالها ، فلو كان الاختلاف لأجل الطبيعة فإما أن يكون بالنظر إلى السماء أو إلى الأرض ، فإن كان للسماء

فلونها واحد ، وإن كان للأرض فلون أهل كل قطر غير مناسب للون أرضهم .

وأما الألسنة فأمرها أظهر .

(78/602)

ولما كان هذا مع كونه في غاية الوضوح لا يختص بجنس من الخلق دون غيره قال : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم العالي الرتبة في بيانه وظهور برهانه ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات عدة واضحة جداً على وحدانيته تعالى وفعله بالاختيار وبطلان ما يقوله أصحاب الطبائع من تلك الاحتمالات التي هي مع خفائها واهية ، ومع بعدها مضمحلة متلاشية ﴿ للعالمين ﴾ كلهم لا يختص به صنف منهم دون آخر من جن ولا إنس ولا غيرهم ، وفي رواية حفص عن عاصم بكسر اللام حث للمخاطبين على النظر ليكونوا من أهل العلم ، وفي قراءة الباقين بالفتح إيماء إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لو نطق الجماد لأخبر بمعرفته ، ففيه إشارة إلى أنهم عدم ، فلا تبكيت أوجع منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 612. 614 ﴾

(79/602)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾

لما بين الله خلق الإنسان بين أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد ، فإذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة في العمارة لا تنسد ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(80/602)

قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ ﴾ دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع ، كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض ﴾ [البقرة : 29] وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى ، أما النقل فهذا وغيره ، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة

كما كلف الرجل بها ، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي لكن الصبي ، لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف ، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ، ولولا ذلك لظهر الفساد .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ بعضهم قال : المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] ويدل عليه قوله : ﴿ لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ يعني أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه .

المسألة الثالثة :

يقال سكن إليه للسكون القلبي ويقال سكن عنده للسكون الجسماني ، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهي للقلوب .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فيه أقوال قال بعضهم : مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكاً بقوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ [مريم : 2] وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه ، وهذا لأن الإنسان يحب مثلاً ولده ، فإذا رأى عدوه في شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك ، وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين أحدهما : كون الزوج من جنسه والثاني : ما تفضي إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما : يفضي إلى الآخر فالمودة تكون أولاً ثم إنها تفضي إلى الرحمة ، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ يحتمل أن يقال المراد إن في خلق الأزواج لآيات ، ويحتمل أن يقال في جعل المودة بينهم آيات أما الأول : فلا بد له من فكر لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو في خروج الولد من بطن الأم ، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضاً لأن الولد لو سل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات وأما الثاني : فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فإنها قد تنتفي وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة في نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التي بها

يدفع الإنسان المكاره عن حريم حرمه هي من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22)

(82/602)

لما بين دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والأرض ، فإن بعض الكفار يقول في خلق البشر وغيره من المركبات إنه بسبب ما في العناصر من الكيفيات وما في السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فإذا قيل له فالسماء والأرض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بداً من أن يقول ذلك بقدرة الله وإرادته ثم لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بالاختلاف الذي بين ألوان الإنسان فإن واحداً منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات في الصورة والثاني : اختلاف كلامهم فإن عربيين هما أخوان إذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوباً عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمة بالغة وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره

والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات ، وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ، ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والأول أصح ، ثم قال تعالى : ﴿ لآيات للعالمين ﴾ لما كان خلق السموات والأرض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التي يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الأصوات كذلك قال : ﴿ للعالمين ﴾ لعموم العلم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 97.98 ﴾

(83/602)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾

فيه قولان

: أحدهما : حواء خلقها من ضلع آدم ، قاله قتادة .

الثاني : أن خلق سائر الأزواج من أمثالهم من الرجال والنساء ، قاله علي بن عيسى .

﴿ لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ لتأنسوا إليها لأنه جعل بين الزوجين [من] الأنسية ما لم يجعله بين غيرهما .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فيه أربعة

: أحدها : أن المودة المحبة والرحمة والشفقة ، قاله السدي .

الثاني : أن المودة الجماع والرحمة الولد ، قاله الحسن .

الثالث : أن المودة حب الكبير والرحمة الحنو على الصغير ، قاله الكلبي .

الرابع : أنهما التراحم بين الزوجين ، قاله مقاتل .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : يتفكرون في أن لهم خالقاً معبوداً .

الثاني : يتفكرون في البعث بعد الموت .

قوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : لما فيهما من الآيات والعبر .

الثاني : لإعجاز الخلق عن إحداث مثلهما .

﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : اختلاف ألسنتكم بالكلام ، فللعرب كلام وللفرس كلام وللروم كلام . وألوانكم

أبيض وأسود وأحمر ، قاله السدي ، وحكى وهب بن منبه في المبتدأ أن جميع الألسنة اثنان وسبعون لساناً منها في ولد سام بن نوح تسعة عشر لساناً ، وفي ولد حام سبعة عشر لساناً ، وفي ولد يافث ستة وثلاثون لساناً .

والوجه الثاني : اختلاف ألسنتكم : النغمة والصوت حتى لا يشتبه صوتان من أخوين لأم وأب ، وألوانكم : الصورة حتى لا يشتبه الناس في المعارف والمناكح والحقوق .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ قال ابن عيسى : الجن والإنس . وروى حفص عن عاصم ﴿ للعالمين ﴾ بكسر اللام يعني جميع العلماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(84/602)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ من أنفسكم ﴾ يحتمل أن يريد خلقه حواء من ضلع آدم فحمل ذلك على جميع النساء من حيث أمهم مخلوقة من نفس آدم ، أي من ذات شخصه ، ويحتمل أن يريد من نوعكم ومن جنسكم ، و" المودة والرحمة " على بابها المشهور من التواد والتراحم ، هذا هو البليغ ، وقال مجاهد والحسن وعكرمة : عنى ب " المودة " الجماع وب " الرحمة " الولد ،

ثم نبه تعالى على خلق السماوات والأرض واختلاف اللغات والألوان وهذه عظم مواقع العبرة من هذه الآيات ، وقوله ﴿ وألوانكم ﴾ يحتمل أن يريد البياض والسواد وغيرهما ، ويحتمل أن يريد ضروب بني آدم وأنواعهم نعم وأشخاص الأخوة ونحوهم تختلف بالألوان ونعم الألسنة وبذلك تصح الشهادات والمداينات وتقع الفروق والتعيين فهكذا تبين النعمة ، وقرأ جمهور القراء " للعالمين " بفتح اللام ، وقرأ حفص عن عصام " لِلعالمين " بكسر اللام فالأولى على أن هذه الآية هي نفسها منصوبة لجميع العالم والثانية على معنى أن أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(85/602)

وقال أبو السعود :

(86/602)

﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ الدَّالَّةِ على ما ذُكر من البعث وما بعده من الجزاءِ ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾ أي لأجلِكم ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا ﴾ فإنَّ خلق أصلِ أزواجكم حواءَ من ضِلَع آدمَ عليه

السَّلام متضمن لخلقهنَّ من أنفسكم على ما عرفته من التَّحقيقِ أو من جنسكم لا من جنسٍ آخرَ وهو الأوفقُ لقولِه تعالى : ﴿ لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ أي لتألفُوها وتميلُوا إليها وتطمئنُّوا بها فإنَّ المُجانسةَ من دَوَاعي التَّضامّ والتَعارفِ كما أنَّ المخالفةَ من أسبابِ التفرُّقِ والتَّنافرِ ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ أي بين الأزواجِ إنَّا على تغليب الرِّجالِ على النِّساءِ في الخطاب أو على حذفِ ظرفٍ معطوفٍ على الظَّرفِ المذكُورِ أي جعل بينكم وبينهنَّ كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ وقيل : أو بين أفرادِ الجنسِ أي بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ ويأباهُ قولُه تعالى : ﴿ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فإنَّ المرادَ بهما ما كان منهما بعصمةِ الزَّواج قطعاً أي جعلَ بينكم بالزَّواج الذي شرعَه لكم توادّاً وتراحُماً من غير أنْ يكونَ بينكم سابقةُ معرفةٍ ولا رابطةٌ مصحّحةٌ للتَّعاطفِ من قرابةٍ أو رحمٍ قيل المودَّةُ والرَّحمةُ من قبلِ الله تعالى ، والفَرْكُ من الشَّيطانِ . وَعَنِ الحَسَنِ رَحِمَهُ الله : المَودَّةُ كِنايةٌ عنِ الجِمَاعِ ، وَالرَّحمةُ عَنِ الولدِ كما قال تعالى ورحمةً منا ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أيْ فيما ذُكر من خلقِهم من ترابٍ وخلقِ أزواجِهم من أنفسِهم وإلقاءِ المودَّةِ والرَّحمةِ بينهم . وما فيهِ من مَعنى البُعد مع قربِ العهدِ بالمشارِ إليه للإشعار ببُعد منزلتِه ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمةً لا يُكْتَنَهُ كُنْهُها كثيرةً لا يُقَادر قَدْرُها ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في تضاعيفِ تلك الأفاعيلِ المبنيةِ على الحكمِ البالغةِ .

والجُملة تذييلٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبله مع التنبيهِ على أنَّ ما

ذُكر ليس بآيةٍ فذَّةٍ كما يُنبىء عنه قولُه تعالى : ومن آياتِه بل هي مشتملةٌ على آياتٍ شتَّى .
﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ الدَّالَّةِ على ما ذُكر من أمر البعثِ وما يتلُوه من الجزاءِ ﴿ خُلِقَ السموات والأرض ﴾ إما من حيثُ إنَّ القادرَ على خلقِهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادَّة مستعدةٍ لها أظهرُ قدرة على إعادةِ ما كان حيَّاً قبل ذلك وإمَّا منْ حيثُ إنَّ خلقهما وما فيهما ليس إلا لمعاشِ البشرِ ومعادِه كما يُفصح عنه قولُه تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾

(88/602)

وقولُه تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي لغاتِكم بأنْ علَّم كلَّ صنفٍ لغتَهُ وألهمه وضعَها وأقدرَه عليها ، أو أجناسِ نُطفكم وأشكالِه فإنَّك لا تكادُ تسمعُ منطقين متساويين في الكيفيَّةِ من كلِّ وجهٍ ﴿ وألوانكم ﴾ ببياضِ الجلدِ وسوادِه وتوسطِه فيما بينهما أو تخطيطاتِ الأعضاءِ وهيئاتِها وألوانِها وحُلاها بحيثُ وقعَ بها التمايزُ بين الأشخاسِ حتَّى إنَّ التَّوأمينِ مع توافقِ موادِّهما وأسبابِهما والأمورِ المتلاقيةِ لهما في التَّخليقِ

يختلفانِ في شيءٍ من ذلك لا محالَة وإنْ كانا في غايةِ التَّشابه وإنَّما نُظِمَ هذا في سلكِ الآياتِ الآفاقيةِ من خلقِ السَّمواتِ والأرضِ مع كونِه من الآياتِ الأنفسيةِ الحقيقية بالانتظامِ في سلكِ ما سبق من خلقِ أنفسِهم وأزواجِهم للإيذانِ باستقلالِه والاحترازِ عن توهُّمِ كونِه من تتمَّاتِ خلقِهم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذُكر من خلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ الألسنةِ والألوانِ ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمةً في أنفسِها كثيرةً في عددِها ﴿ للعالمين ﴾ أي المتَّصفين بالعلمِ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ وقُرِىء بفتحِ اللامِ وفيه دلالةٌ على كمالِ وضوحِ الآياتِ وعدمِ خفائِها على أحدٍ من الخلقِ كافَّة .

﴿ وَمِنْ ءاياته مَنَامُكُم باليل والنهار ﴾ لاستراحةِ القوى النَّفسانيةِ وتقوّي القُوى الطَّبيعيةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(89/602)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ الدالة على البعث أيضاً ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾ أي لأجلكم ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا ﴾ فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ما عرفت من التحقيق فمن تبعيضية والأنفس بمعناها الحقيقي ،

ويجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية والأنفس مجاز عن الجنس أي خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر ، قيل : وهو الأوفق بقوله تعالى : ﴿ لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ أي لتميلوا إليها يقال : سكن إليه إذا مال فإن المجانسة من دواعي النظام والتعارف كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ أي بين الأزواج إما على تغليب الرجال على النساء في الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أي جعل بينكم وبينهن كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] وقيل : بين أفراد الجنس أو بين الرجال والنساء ، وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى : ﴿ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فإن المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعاً أي جعل بينكم بالزواج الذي شرعه لكم تواداً وترحماً من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا مرابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم قيل : المودة والرحمة من الله تعالى والفرك وهو بغض أحد الزوجين الآخر من الشيطان .

وقال الحسن .

ومجاهد .

(90/602)

وعكرمة المودة كناية عن النكاح والرحمة كناية عن الولد ، وكون المودة بمعنى المحبة كناية عن النكاح أي الجماع للزومها له ظاهر ، وأما كون الرحمة كناية عن الولد للزومها له فلا يخلو عن بعد ، وقيل : مودة للشابة ورحمة للعجوز ، وقيل : مودة للكبير ورحمة للصغير ، وقيل : هما اشتباك الرحم والكل كما ترى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم وإلقاء المودة والرحمة فهو إشارة إلى جميع ما تقدم ، وقيل : إلى ما قبله وليس بذاك ، وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار إليه للإشعار ببعد منزلته ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل المبنية على الحكم ، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أن ما ذكر ليس بآية فذة بل هي مشتملة على آيات شتى وأنها تحتاج إلى تفكر كما تؤذن بذلك الفاصلة .

وذكر الطيبي أنه لما كان القصد من خلق الأزواج والسكون إليها وإلقاء المحبة بين الزوجين ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤديهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التي ما خلقت السموات والأرض إلا لها ناسب كون المتفكرين فاصلة هنا .

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾

أي لغاتكم بأن علم سبحانه كل صنف لغته أو ألهمه جل وعلا وضعها وأقدره عليها فصار

بعض يتكلم بالعربية وبعض بالفارسية وبعض بالرومية إلى غير ذلك مما الله تعالى أعلم بكميته .

وعن وهب أن الألسنة اثنان وسبعون لساناً في ولد حام سبعة عشر وفي ولد سام تسعة عشر ، وفي ولد يافث ستة وثلاثون ، وجوز أن يراد بالألسنة أجناس النطق وأشكاله فقد اختلف ذلك اختلافاً كثيراً فلا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجه ، ولعل هذا أولى مما تقدم .

(91/602)

والإمام حكى الوجه الأول وقدم عليه ما هو ظاهر في أن المراد بالألسنة الأصوات والنغم ونص على أنه أصح من المحكي ﴿ وألوانكم ﴾ بياض الجلد وسواده وتوسط فيما بينهما أو تصوير الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحلاها بحيث وقع التمايز بين الأشخاص حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة وإن كانا في غاية التشابه ، فالألوان بمعنى الضروب والأنواع كما يقال : ألوان الحديث وألوان الطعام ، وهذا التفسير أعم من الأول ، وإنما نظم اختلاف الألسنة والألوان في سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة

بالانتظام في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من متممات خلقهم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة كثيرة ﴿ للعالمين ﴾ أي المتصفين بالعلم كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] وقرأ الكثير ﴿ العالمين ﴾ بفتح اللام ، وفيه دلالة على وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(92/602)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾

هذه آية ثانية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة وأساس التناسل ، وهو نظام عجيب جعله الله مرتكزاً في الجبلة لا يشذ عنه إلا الشذاذ . وهي آية تنطوي على عدة آيات منها : أن جُعل للإنسان ناموس التناسل ، وأن جُعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه ، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعلها من صنف آخر لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف ، وأن جعل في ذلك التزاوج أنساً بين

الزوجين ولم يجعله تزاوجاً عنيفاً أو مهلكاً كتزاوج الضفادع ، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين ، وأن جعل بينهما رحمة فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة ، ولأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل ويتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آياتٍ عدة في قوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون .

﴾ وهذه الآية كائنة في خلق جوهر الصنفين من الإنسان : صنف الذكر ، وصنف الأنثى ، وإيداع نظام الإقبال بينهما في جبلتهما .

وذلك من الذاتيات النسبية بين الصنفين .

وقد أدمج في الاعتبار بهذه الآية امتنان بنعمة في هذه الآية أشار إليها قوله ﴿ لكم ﴾ أي لأجل نفعكم .

و ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ متعلق بـ ﴿ آيات ﴾ لما فيه من معنى الدلالة .

وجعلت الآيات لقوم يتفكرون لأن التفكر والنظر في تلك الدلائل هو الذي يجلي كنهها ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنها .

والذين يتفكرون : المؤمنون وأهل الرأي من المشركين الذين يؤمنون بعد نزول هذه الآية .

والخطاب في قوله ﴿ أن خَلَق لكم ﴾ لجميع نوع الإنسان الذكور والإناث .

والزوج : هو الذي به يصير للواحد ثانٍ فيطلق على امرأة الرجل ورجل المرأة فجعل الله لكل فرد زوجه .

(93/602)

ومعنى ﴿ من أنفسكم ﴾ من نوعكم ، فجميع الأزواج من نوع الناس ، وأما قول تأبط شراً :

وتزوجت في الشبيبة غُولاً . . .

بغزال وصدقتي زِقّ خمر

فمن تكاذيبهم ، وكذلك ما يزعمه المشعوذون من التزوج بالجِنّيات وما يزعمه أهل الخرافات والروايات من وجود بنات في البحر وأنها قد يتزوج بعض الإنس ببعضها .

والسكون : هنا مستعار للتأنس وفرح النفس لأن في ذلك زوال اضطراب الوحشة والكمد بالسكون الذي هو زوال اضطراب الجسم كما قالوا : اطمأن إلى كذا وانقطع إلى كذا .

وضمن ﴿ لِتَسْكِنوا ﴾ معنى لتميلوا فعدي بحرف (إلى) وإن كان حقه أن يعلق بـ (عند) ونحوها من الظروف .

والمودة : المحبة ، والرحمة : صفة تبعث على حسن المعاملة .

وإنما جعل في ذلك آيات كثيرة باعتبار اشتمال ذلك الخلق على دقائق كثيرة متولد بعضها عن بعض يظهرها التأمل والتدبر بحيث يتجمع منها آيات كثيرة .

واللام في قوله ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ معناه شبه التمليك وهو معنى أثبته صاحب "مغني اللبيب" ويظهر أنه واسطة بين معنى التمليك ومعنى التعليل .

ومثَّله في "المغني" بقوله تعالى ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ [النحل : 72] وذكر في المعنى العشرين من معاني اللام أن ابن مالك في "كافيته" سماه لام التعدية ولعله يريد تعدية خاصة ، ومثله بقوله تعالى ﴿ فهبْ لي من لدنك وليّاً ﴾ [مريم : 5] .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ

هذه الآية الثالثة وهي آية النظام الأرضي في خلق الأرض بمجموعها وسكانها ؛ فخلقُ السماوات والأرض آية عظيمة مشهودة بما فيها من تصاريف الأجرام السماوية والأرضية ، وما هو محل العبرة من أحوالهما المتقاربة المتلازمة كالليل والنهار والفصول ، والمتضادة كالعُلّو والانخفاض .

(94/602)

وإذ قد كان أشرف ما على الأرض نوع الإنسان قرن ما في بعض أحواله من الآيات بما في خلق الأرض من الآيات ، وخُص من أحواله المتخالفة لأنها أشد عبرة إذ كان فيها اختلاف بين أشياء متحدة في الماهية ، ولأن هاته الأحوال المختلفة لهذا النوع الواحد نَجد أسباب اختلافها من آثار خلق السماوات والأرض ، فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة ، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض ، واختلاف مسامته أشعة الشمس لها ؛ فهي من آثار خلق السماوات والأرض .

ولذلك فالظاهر أن المقصود هو آية اختلاف اللغات والألوان وأن ما تقدمه من خلق السماوات والأرض تمهيد له وإيماء إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض .

وقد كانت هذه الآية متعلقة بأحوالٍ عرضية في الإنسان ملازمة له فبتلك الملازمة أشبهت الأحوال الذاتية المطلقة ثم النسبية ، فلذلك ذكرت هذه الآية عقب الآيتين السابقتين حسب الترتيب السابق .

وقد ظهر وجه المقارنة بين خلق السماوات والأرض وبين اختلاف ألسن البشر وألوانهم ، وتقدم في سورة آل عمران (190) قوله ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ والألسنة : جمع لسان ، وهو يطلق على اللغة كما في قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ [إبراهيم : 4] وقوله ﴿ لسان

الذي يُلْحِدون إليه أعجمي ﴾ [النحل : 103] .

واختلاف لغات البشر آية عظيمة فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كوّنه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرف في وضع اللغات ، وتبدل كيفياتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة .

(95/602)

فلا شك أن اللغة كانت واحدة للبشر حين كانوا في مكان واحد ، وما اختلفت اللغات إلا بانتشار قبائل البشر في المواطن المتباعدة ، وتطرّق التغير إلى لغاتهم تطرقاً تدريجياً ؛ على أن توسُّع اللغات بتوسع الحاجة إلى التعبير عن أشياء لم يكن للتعبير عنها حاجة قد أوجب اختلافاً في وضع الأسماء لها فاختلفت اللغات بذلك في جوهرها كما اختلفت فيما كان متفقاً عليه بينها باختلاف لهجات النطق ، واختلاف التصرف ، فكان لاختلاف الألسنة موجبان .

فمحل العبرة هو اختلاف اللغات مع اتحاد أصل النوع كقوله تعالى : ﴿ يُسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ [الرعد : 4] ولما في ذلك الاختلاف من الأسرار

المقتضية إياه .

ووقع في الإصحاح الحادي عشر من "سفر التكوين" ما يوهم ظاهره أن اختلاف الألسن حصل دفعة واحدة بعد الطوفان في أرض بابل وأن البشر تفرقوا بعد ذلك .

والظاهر أنه وقع في العبارة تقديم وتأخير وأن التفرق وقع قبل تبلبل الألسن .

وقد علل في ذلك "الإصحاح" بما ينزه الله عن مدلوله .

وقيل : أراد باختلاف الألسنة اختلاف الأصوات بحيث تتمايز أصوات الناس المتكلمين بلغة واحدة فنعرف صاحب الصوت وإن كان غير مرئي .

وأما اختلاف ألوان البشر فهو آية أيضاً لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم ، وله لون واحد لا محالة ، ولعله البياض المشوب بحمرة ، فلما تعدد نسله جاءت الألوان المختلفة في بشراتهم وذلك الاختلاف معلول لعدة علل أهمها المواطن المختلفة بالحرارة والبرودة ، ومنها التوالد من أبوين مختلفي اللون مثل المتولد من أم سوداء وأب أبيض ، ومنها العلل والأمراض التي تؤثر تلويناً في الجلد ، ومنها اختلاف الأغذية ولذلك لم يكن اختلاف ألوان البشر دليلاً على اختلاف النوع بل هو نواع واحد ، فللبشر ألوان كثيرة أصلاها البياض والسواد ، وقد أشار إلى هذا أبو علي ابن سينا في "أرجوزته" في الطب بقوله:

بالنزج حرّ غيَّر الأجساد . . .

حتى كسا بياضها سَوادا

والصقلبُ اكتسبت البياضا . . .

حتى غدتْ جلودها بِضاضا

وكان أصل اللون البياض لأنه غير محتاج إلى علة ولأن التشريح أثبت أن ألوان لحوم البشر التي تحت الطبقة الجلدية متحدة اللون .

ومن البياض والسواد انشقت ألوان قبائل البشر فجاء منها اللون الأصفر واللون الأسمر واللون الأحمر .

ومن العلماء وهو كُوقْيَيْ جعل أصول ألوان البشر ثلاثة : الأبيض والأسود والأصفر ، وهو لون أهل الصين .

ومنهم من زاد الأحمر وهو لون سكان قارة أمريكا الأصليين المدعوين هنود أمريكا .

واعلم أن من مجموع اختلاف اللغات واختلاف الألوان تمايزت الأجذام البشرية واتحدت مختلطات أنسابها .

وقد قسموا أجذام البشر الآن إلى ثلاثة أجذام أصلية وهي الجذم القوقاسي الأبيض ، والجذم المغولي الأصفر ، والجذم الحبشي الأسود ، وفرعوها إلى ثمانية وهي الأبيض

والأسود والحبشي والأحمر والأصفر والسَّامي والهندي والمَلاَيي نسبة إلى بلاد المَلاُيو .

وجعل ذلك آيات في قوله ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ لما علمت من تفاصيل دلائله وعلله ، أي آيات لجميع الناس ، وهو نظير قوله آنفاً ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الروم : 21] .

واللام في قوله ﴿ للعالمين ﴾ نظير ما تقدم في الآية قبلها .

وجعل ذلك آيات للعالمين لأنه مقرر معلوم لديهم يمكنهم الشعور بآياته بمجرد التفات الذهن دون إمعان نظر .

وقرأ الجمهور ﴿ للعالمين ﴾ بفتح اللام .

وقرأه حفص بكسر اللام أي لأولي العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(97/602)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾

قلنا : إن الآية هي الشيء العجيب الذي يقف عنده العقل مندهشاً دهشةً تُورِث إعجاباً

، وإعجاباً يُورث يقيناً بحكمة الخالق . من هذه الآيات العجيبة الباهرة ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . . ﴾ [الروم : 21] يعني : من جنسكم ونوعكم .

فلم يشأ سبحانه أنْ يحدث التكاثر مثلاً بين الإنسان وبقرة ، لا إنما إنسان مع إنسان ، يختلف معه فقط في النوع ، هذا ذكر وهذه أنثى ، والاختلاف في النوع اختلاف تكامل ، لا اختلاف تعاند وتصادم ، فالمرأة للرقة والليونة والحنان ، والرجل للقوة والخشونة ، فهي تفرح بقوته ورجولته ، وهو يفرح بنعومتها وأنوثتها ، فيحدث التكامل الذي أراده الله وقصده للتكاثر في بني الإنسان .

وعجيب أنْ يرى البعض أن الذكورة نقيض الأنوثة ، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الذي لا معنى له ، فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل نُجري مقارنة بين الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل نُجري مقارنة بين الليل والنهار . . أيهما أفضل ؟ لذلك تأمل دقة الأداء القرآني حينما جمع بين الليل والنهار ، وبين الذكر والأنثى ، وتدبّر هذا المعنى الدقيق : ﴿ والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 1-4] أي : مختلف ، فلكُلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعي والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعي إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتي لا معنى لها بعد قوله تعالى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل : 4] أي : مختلف ، فلكُلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعي والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعي إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتي لا معنى لها بعد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل : 4] .

وعجيب أن نسمع من يقول – من الرجال – ينبغي للمرأة أن تحتل مكان الرجل ، وأنْ تؤدي ما يؤديه ، ونقول : لا نستطيع أن تُحمِّل المرأة مهمة الرجل إلا إذا حمَّلْتَ الرجل مهمة المرأة ، فيحمل كما تحمل ، ويلد كما تلد ، ويُرضِع كما تُرضِع ، فدعونا من شعارات (البلطجية) الذين يهرفون بما لا يعرفون .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 128] أي : من جنسكم وبشريتكم ، فهو نفس لها كل طاقات البشر ، ليكون لكم أسوة ، ولو جاء الرسول مَلَكاً لما تحققتْ فيه الأسوة ، ولَقُلْتم هذا ملَك ، ونحن لا نقدر على ما يقدر هو

عليه . أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 128] يعني : من العرب ومن قريش .

والبعض يرى أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 128] يعني : خَلْق حواء من ضلع آدم ، فهي من أنفسنا يعني : قطعة منا ، لكن الكلام هنا

(99/602)

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 128] مخاطب به الذكر والأنثى معاً ، كما أن الأزواج تُطلق عليهما أيضاً ، على الرجل وعلى المرأة ، والبعض يفهم أن الزوج يعني اثنين ، لكن الزوج مفرد معه مثله ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين . . . ﴾ [الرعد : 3] .

وفي الماضي كنا نعتقد أن نوع الجنين إنما يتحدد من ماء الرجل وماء المرأة ، لكن القرآن يقول غير ذلك : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ [القيامة : 37] فماء المرأة لا دخل له في نوع الجنين ، ذكراً كان أم أنثى ، الذكورة والأنوثة يحددها ماء الرجل .

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، وعلى هذا نقول ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . . ﴾ [الروم : 21] يعني : من ذكور الأزواج ، خلق منك ميكروباً هو (الإكس أو الإكس واي) كما اصطلح عليه العلم الحديث ، وهو يعني الذكورة والأنوثة .

وسبق أنْ ذكرنا في هذه المسألة قصة أبي حمزة الرجل العربي الذي تزوج على امرأته ؛ لأنها لا تنجب البنين ، وهجرها لهذا السبب فقالت بما لديها من سليقة عربية ، وقَوْلُها دليل على علم العرب قديماً بهذه الحقيقة التي أثبتها العلم مؤخراً ، قالت :

مَا لأبي حَمْزَةَ لا يأْتينَا . . . غَضْبان أَلاَّ نَلدَ البَنينَا

تَاللهِ مَا ذَلكَ في أَيْدينَا . . . ونحن كالأَرْضِ لِزَارِعينا

نُعطي لَهُمْ مثْل الذي أُعْطينَا . . . والحق سبحانه بهذا يريد أن يقول : إنني أريد خليفة متكاثراً ليعمر هذه الأرض الواسعة ، فإذا رأيتَ مكاناً قد ضاق بأهله فاعلم أن هناك مكاناً آخر خالياً ، فالمسألة سوء توزيع لخَلْق الله على أرض الله .

(100/602)

لذلك يقولون : إن سبب الأزمات أن يوجد رجال بلا أرض ، وأرض بلا رجال ، وضربنا مثلاً لذلك بأرض السودان الخصبة التي لا تجد مَنْ يزرعها ، ولو زُرِعَتْ لكفَت العالم العربي كله ، في حين نعيش نحن في الوادي والدلتا حتى ضاقتْ بنا ، فإنْ فكرت في الهجرة إلى هذه الأماكن الخالية واجهتْك مشاكل الحدود التي قيدوا الناس بها ، وما أنزل الله بها من سلطان .

ذلك لما أُتيح لنا الحديث في الأمم المتحدة قلت لهم : آية واحدة في كتاب الله لو عملتم بها لَحَلَّتْ لكم المشاكل الاقتصادية في العالم كله ، يقول تعالى : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] فالأرض كل الأرض للأنام ، كل الأنام على الإطلاق .

واقرأ قوله تعالى في هذه المسألة : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . ﴾ [النساء : 97] إذن : لا تعارض منهج الله وقدره في أحكامه ، ثم تشكو الفساد والضيق والأزمات ، إنك لو استقرأتَ ظواهر الكون لما وجدتَ فساداً أبداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان على غير القانون والمنهج الذي وضعه خالق هذا الكون سبحانه ، أما ما لا تتناوله يد الإنسان فتراه منضبطاً لا يختل ولا يتخلف .

إذن : المشاكل والأزمات إنما تنشأ حينما نسير في كون الله على غير هدى الله وبغير منهجه ؛ لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضَنْك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغِنَى والترف ورَغَد العيش ، وترى الناس مع ذلك في ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهي من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذي يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى في مستوى دخل الفرد .

فالمسألة – إذن – ليست حالة اقتصادية ، إنما مسألة منهج لله تعالى غير مُطَّلق وغير معمول به ، وصدق الله : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 124] .

لذلك لو عِشْنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

وقوله تعالى : ﴿ لتسكنوا إِلَيْهَا . . . ﴾ [الروم : 21] هذه هي العلة الأصيلة في الزواج ، أي : يسكن الزوجان أحدهما للآخر ، والسكن لا يكون إلا عن حركة ، كذلك فالرجل طوال يومه في حركة العمل والسعي على المعاش يكدح ويتعب ، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه ، فلا يجد غير زوجته عندها السّكَن والحنان والعطف والرقة ، وفي هذا السكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل في غد .

لكن تصور إنْ عاد الرجل مُتْعباً فلم يجد هذا السكن ، بل وجد زوجته ومحلّ سكنه وراحته تزيده تعباً ، وتكدّر عليه صَفْوه . إذن : ينبغي للمرأة أنْ تعلم معنى السّكَن هنا ، وأن تؤدي مهمتها لتستقيم أمور الحياة .

ثم إن الأمر لا يقتصر على السّكَن إنما ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . . ﴾ [الروم : 21] المودة هي الحب المتبادل في (مشوار) الحياة وشراكتها ، فهو يكدح ويُوفر لوازم العيش ، وهي تكدح لتدبر أمور البيت وتربية الأولاد ؛ لأن الله يقول ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى

﴿ [الليل : 4] هذا في إطار من الحب والحنان المتبادل .

أما الرحمة فتأتي في مؤخرة هذه الصفات : سكن ومودة ورحمة ، ذلك لأن البشر عامة أبناء أغيار ، وكثيراً ما تتغير أحوالهم ، فالقوي قد يصير إلى الضعف ، والغني قد يصير إلى فقر ، والمرأة الجميلة تُغيِّرها الأيام أو يهدّها المرض . . . إلخ .

(102/602)

لذلك يلفت القرآن أنظارنا إلى أن هذه المرحلة التي ربما فقدتم فيها السكن ، وفقدتُم المودة ، فإن الرحمة تسعكما ، فليرحم الزوج زوجته إنْ قَصُرت إمكاناتها للقيام بواجبها ، ولترحم الزوجة زوجها إنْ أقعده المرض أو أصابه الفقر . . إلخ .

وكثير من كبار السن من الذين يتقون الله ويراعون هذه التعاليم يعيشون حياتهم الزوجية على هذا المبدأ مبدأ الرحمة ، لذلك حينما يُلمِّحون للمرأة التي أقعد المرض زوجها تقول : (أنا آكله لحم وأرميه عظم ؟)

هذه هي المرأة ذات الدين التي تعيدنا إلى حديث رسول الله في اختيار الزوجة : " تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها – وهذه كلها أغيار – ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك " فأنت وهي أبناء أغيار ، لا يثبت أحد منكما على حاله ، فيجب أنْ

تردا إلى شيء ثابت ومنهج محايد لا هوى له ، يميل به إلى أحدكما ، منهج أنتما فيه سواء ، ولن تجدوا ذلك إلا في دين الله .

لذلك يحذرنا النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخُلقه فزوِّجوه ، ألا تفعلوا تكُنْ فتنة في الأرض وفساد كبير " .

وإياك حين تكبر زوجتك أن تقول إنها لم تعد تملأ نظري ، أو كذا وكذا ، لأن الزوجة ما جعلها الله إلا سكناً لك وأنثى ووعاءً ، فإذا هاجتْ غرائزك بطبيعتها تجد مصرفاً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته – أي : تعجبه وتحرّك في نفسه نوازع – فليأْتِ أهله ، فإنْ البُضْع واحد " .

وكلما طبَّق الزوجان المقاييس الدينية ، وتحلَّيا بآداب الدين وجد كل منهما في الآخر ما يعجبه ، فإنْ ذهب الجمال الظاهري مع الزمن فسيبقى جمال الروح ووقارها ، سيبقى في المرأة جمال الطبع والسلوك ، وكلما تذكرتَ إخلاصها لك وتفانيها في خدمتك وحِرْصها على معاشك ورعايتها لحرمة بيتك كلّما تمسكْت بها ، وازددتَ حباً لها .

(103/602)

وكذلك الحال بالنسبة للزوجة ، فلكل مرحلة من العمر جاذبيتها وجمالها الذي يُعوِّضنا ما فات .

ولما كان من طبيعة المرأة أنْ يظهر عليها علامات الكِبَر أكثر من الرجل ؛ لذلك كان على الرجل أنْ يراعي هذه المسألة ، فلما سأل أحدهم الحسن : لقد تقدم رجل يخطب ابنتي وصِفَته كيت وكيت ، قال : لا تنكِحها إلا رجلاً مؤمناً ، إنْ أحبها أكرمها ، وإنْ كرهها لم يظلمها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : 21] يتفكرون في هذه المسائل وفي هذه المراحل التي تمرُّ بالحياة الزوجية ، وكيف أن الله تعالى جعل لنا الأزواج من أنفسنا ، وليستْ من جنس آخر ، وكيف بنى هذه العلاقة على السَّكَن والحب والمودة ، ثم في مرحلة الكِبَر على الرحمة التي يجب أنْ يتعايش بها الزوجان طيلة حياتهما معاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات . . . ﴾ .

في خلق السماوات والأرض آيات أظهرها لنا كما قال في موضع آخر إنها تقوم على غير عمد : ﴿ خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . ﴾ [لقمان : 10] .

فالسماء التي تروْنها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة ، ولكم أنْ تسيروا في الأرض ، وأنْ تبحثوا عن هذه العُمد فلن تروْا شيئاً . أو ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . ﴾ [لقمان : 10] يعني : هي موجودة لكن لا ترونها .

والمنطق يقتضي أن الشيء العالي لا بُدَّ له إما من عُمُد تحمله من أسفل ، أو قوة تمسكه من أعلى ؛ لذلك ينبغي أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصورة ، فالحق سبحانه يقول في موضع آخر : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ . . . ﴾ [فاطر : 41] .

(104/602)

إذن : ليست للسماء أعمدة ، إنما يمسكها خالقها – عز وجل – من أعلى ، فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولا تتعجب من هذه المسألة ، فقد أعطانا الله تعالى مثالاً مُشاهداً في قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله . . . ﴾ [النحل : 79] .

فإنْ قُلْت : يمسكها في جو السماء حركة الجناحين ورفرفتها التي تحدث مقاومة للهواء ، فترتفع به ، وتمسك نفسها في الجو ، نقول : وتُمسك أيضاً في جو السماء بدون حركة الجناحين ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ . . . ﴾ [الملك : 19] .

فترى الطير في السماء مادّاً جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه في جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

إذن : خُذْ مما تشاهد دليلاً على صدْق ما لا تشاهد ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . ﴾ [غافر : 57] مع أنها خُلِقت لخدمة الإنسان .

فمع أنك أيها الإنسان مظهر من مظاهر قدرة الله ، وفيك انطوى العالم الأكبر ، إلا أن عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قِيسَ بعمر الأرض والسماء والشمس والقمر . . الخ .

ثم يعود السياق هنا إلى آية من آيات الله في الإنسان : ﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . . . ﴾ [الروم : 22] اللسان يُطلَق على اللغة كما قال تعالى ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 195] وقال : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

(105/602)

ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة ، وإنما أُطلِق اللسان على اللغة ؛ لأن أغلبها يعتمد على اللسان وعلى النطق ، مع أن اللسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً في عملية النطق ، حيث يشترك معه في النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصوتية . . إلخ ، لكن اللسان هو العمدة في هذه العملية . إذن : فاختلاف الألسنة يعني اختلاف اللغات .

وسبق أنْ قُلْنا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به ، وحين نسلسلها لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، وقلنا : إن الله تعالى هو الذي علَّمه اللغة حين علَّمه الأسماء كلها ، ثم يتخذ آدم وذريته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها ، وليضيفوا إليها أسماء جديدة .

لذلك نرى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقِّيهم نُعلِّمهم أولاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلموا الأفعال ؛ لأن الاسم أظهر ، أَلَا ترى أن الفِعْل والحدث يدل عليه باسم ، فكلمة (فِعْل) هي ذاتها اسم .

لكن ، كيف ينشأ اختلاف اللغات ؟ لو تأملنا مثلاً اللغة العربية نجدها لغة واحدةً ، لكن بيئاتها متعددة : هذا مصري ، وهذا سوداني ، وهذا سوري ، مغربي ، عراقي . . الخ نشترك جميعاً في لغة واحدة ، لكن لكل بيئة لهجة خاصة قد لا تُفهَم في البيئة الأخرى ، أما إذا تحدَّثنا جميعاً باللغة العربية لغة القرآن تفاهم الجميع بها .

أما اختلاف اللغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض ، هذا الانعزال يؤدي إلى وجود لغة جديدة ، فمثلاً الإنجليزية والفرنسية والألمانية و . . إلخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللغة اللاتينية ، فلما انعزلتْ البيئات أرادتْ كل منها أن يكون لها استقلالية ذاتية بلغة خاصة بها مستقلة بألفاظها وقواعدها .

أو ﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ . . . ﴾ [الروم : 22] يعني : اختلاف ما ينشأ عن اللسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة ، كما نرى الآن في آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع ، بل بصمة الصوت أوضح دلالة من بصمة اليد .

ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها ، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له .

ومن العجيب والمدهش في مجال الصوت أن المصوّتات كثيرة منها : الجماد كحفيف الشجر وخرير الماء ، ومنها : الحيوان ، نقول : نقيق الضفادع وصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، وثُغَاء الشاة ، ورُغَاء الإبل . . الخ لكن بالله أسألك : لو سمعت صوت حمار ينهق ، أتستطيع أن تقول هذا حمار فلان ؟ لا ، لأن كل الأصوات من كُلِّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميزه شيء .

أما في الإنسان ، فلكُلٍّ منّا صوته المميز في نبرته وحدّته واستعلائه أو استفاله ، أو في رقته أو في تضخيمه . . الخ . فلماذا إذن تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقي الأصوات ؟ قالوا : لأن الجماد والحيوان ليس لهما مسئوليات ينبغي أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان ، وإلا كيف نُميز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شيئاً من

أوصافه ؟ وحتى لو عرفنا أوصافه فإنها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسئولية ويترتب عليها الجزاء .

وقال سبحانه بعدها ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ . . . ﴾ [الروم : 22] فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التميُّز بين الناس ، ولأن الإنسان هو المسئول خلق الله فيه اختلافَ الألسنة والألوان ؛ لنستدل عليه بشكله : بطوله أو قِصَره أو ملابسة . . . إلخ .

وفي ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنه لن يفلت بِفِعْلته ، ولا بُدَّ أنْ يدل عليه شيء من هذه المميزات .

(107/602)

لذلك نرى رجال البحث الجنائي ينظمون خطة للبحث عن المجرم قد تطول ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أنْ يُضيِّقوا دائرة البحث فيُخرجون منها مَنْ لا تنطبق عليه مواصفاتهم ، وما يزالون يُضيِّقون الدائرة حتى يصلوا للجاني .

والحق – تبارك وتعالى – يقول : ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا . . . . ﴾ [الحجرات : 13] .

فالتميُّز والتعارف أمر ضروري لاستقامة حركة الحياة ، ألاَ ترى الرجل يضع لكل ولد من

أولاده اسماً يُميّزه ، فإن عشق اسم محمد مثلاً ، وأحب أن يسمى كل أولاده محمداً لا بد أن يميزه ، فهذا محمد الكبير ، وهذا محمد الصغير ، وهذا الأوسط . . إلخ .

إذن : لا بُدَّ أن يتميز الخَلْق لنستطيع تحديد المسئوليات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِّلْعَالَمِينَ . . . ﴾ [الروم : 22] أي : الذين يبحثون في الأشياء ، ولا يقفون عند ظواهرها ، إنما يتغلغلون في بطونها ، ويَسْبرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها .

لذلك يلوم علينا ربنا عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات ، إنما يتأملونها ليستنبطوا منها ما ينفعهم في مستقبل حياتهم ، كما نرى في المخترعات والاكتشافات الحديثة التي خدمتْ البشرية ، كالذي اخترع عصر البخار ، والذي اخترع العجلة ، والذي اكتشف الكهرباء والجاذبية والبنسلين . . الخ ، إذن : نمر على آيات الله في الكون بيقظة ، وكل العلوم التجريبية نتيجة لهذه اليقظة .

(108/602)

والعَالمون : جمع عالم ، وكانت تطلق في الماضي على مَنْ يعرف الحلال والحرام ، لكن هي أوسع من ذلك ، فالعالم : كل مَنْ يعلم قضية كونية أو شرعية ، ويُسمَّى هذا " عالم بالكونيات " وهذا عالم بالشرع ، وإنْ شئتَ فاقرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ . . . ﴾ [فاطر : 27-28] .

فذكر سبحانه النبات ، ثم الجماد ، ثم الناس ، ثم الحيوان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء . . . ﴾ [فاطر : 28] على إطلاقها فلم يُحدِّد أي علماء : علماء النبات ، أو الحيوان ، أو الجمادات ، أو علماء الشرع ، إذن : العَالِم كل مَنْ يعلم حقيقة في الكون وجودية أو شرعية من عند الله .

لكن ، لماذا أطلقوا العالم على العالم بالشرع خاصة ؟ قالوا : لأنه أول العلوم المفيدة التي عرفوها ؛ لذلك رأينا من آداب العلم في الإسلام ألاَّ يُدخِل علماء الشرع أنفسهم في الكونيات ، وألاَّ يُدخل علماء الكونيات أنفسهم في علوم الشرع .

والذي أحدث الاضطراب بين هذه التخصصات أن يقول مثلاً علماء الكونيات بأن الأرض تدور حول الشمس ، فيقوم من علماء الدين مَنْ يقول : هذا مخالف للدين – هكذا عن غير دراسة ، سبحان الله ، لماذا تُقحِم نفسك فيما لا تعلم ؟ وماذا يضيرك كعالم بالشرع أن

تكون الأرض كرة تدور أو لا تدور ؟ ما الحرام الذي زاد بدوران الأرض وما الحلال الذي انتقص ؟ كذلك الحال لما صعد الإنسان إلى القمر ، اعترض على ذلك بعض رجال الدين .

(109/602)

كذلك نسمع مَنْ لا عِلْم له بالشرع يعترض على بعض مسائل الشرع يقول : هذه لا يقبلها العقل . إذن : آفة العلم أن يقحم العالم نفسه فيما لا يعلم ، ولو التزم كلٌّ بما يعلم لارتاح الجميع ، وتركت كل ساحة لأهلها .

وعجيب أن يستشهد رجال الدين على عدم كروية الأرض بقوله تعالى : ﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا . . . ﴾ [الحجر : 19] ولو تأملوا معنى ﴿ مَدَدْنَاهَا . . . ﴾ [الحجر : 19] لما اعترضوا ؛ لأن معنى مددناها يعني : كلما سِرْتُ في الأرض وجدتها ممتدة لا تنتهي حتى تعود إلى النقطة التي بدأت منها ، وهذا يعني أنها كرة لا نهاية لها ، ولو كانت مُسطحة أو مُثلثة مثلاً لكان لها نهاية .

إذن : نقول للعلماء عموماً : لا تُدخلوا أنوفكم فيما لا علْم لكم به ، ودَعُوا المجال لأصحابه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ . . . ﴾ [البقرة : 60] . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(110/602)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الروم : 21 - 24) ، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص كل آية من هذه الأربع بما ختمت به من وصف المعتبرين ؟

(111/602)

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن الآية الأولى لما انطوت من حكمته سبحانه في سبب التناسل والتكاثر على ما أبداه تعالى في خلق الأزواج منا ليحصل السكن وعدم التنافر ، ثم غرس سبحانه المودة والرحمة في قلب كل واحد من الزوجين ليتم الالتئام ويحصل التعاون على ما به قوام العيش ، إلى ما يتعلق بهذا ويرجع إليه مما يحصل على عجائبه ولا يحاط ببعض الحكمة فيه إلا بمداومة الفكر وطول الاعتبار ، ناسب هذا إعقاب هذه الآية بوصف التفكر فقال تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) . ولما كان خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان مع عظيم الأمر في ذلك باد منه الشهادة بأن وراء ذلك موجداً متنزهاً عن شبه هذه الأجرام ، ومتعالياً عن تعبير مختلف الألسنة والألوان ، ولم تكن شهادة هذه بحيث تخفى حتى يحتاج فيها إلى طول التفكير في البادي لمتصف بالعقل وإن اتسع النظر في عجائب ما انطوت عليه الأجرام السماوية وانتشرت وجوه الاعتبارات اتساعاً تنحسر العقول دونه وتكل الأذهان عن درك أدناه ، ولهذا تحصل ذكر الاعتبارات اتساعاً تنحسر العقول دونه وتكل الأذهان عن درك أدناه ، ولهذا تحصل ذكر الاعتبار بالسماوات والأرض فقيل : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (البقرة : 164) ، وقيل : (فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (البقرة : 116) ، وقيل : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ) (الذاريات : 20) ، فأشير أولاً إلى خلق أجرامها وصورها ، وأشير ثانياً إلى خلق ما فيها ، فهذا بحر لا تدركه الدلاء ، وباب لا يسعه تدوين ولا إملاء ، ومع ذلك فإن ربنا سبحانه ذكر عباده من

ذلك بما تبدو شهادته فقال : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (ق : 6 - 7) إلى ما

(112/602)

يتلو هذا مما يشهد بأول اعتبار مما لا تكل عنه البصائر والأبصار ، وتأمل لطف دعائه سبحانه الخلق إلى عبادته في قوله : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) (البقرة : 21) إلى قوله : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) (البقرة : 22) إلى أشباه هذه ، فلما كان هذا الضرب من الاعتبار يحصل بأوله المقصود لكل أحد قال تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) (الروم : 22) ، فوضح تناسب هذا الختام ، ولاح التلاحم والالتئام .

ولما كان أمر الليل والنهار منصوصاً على رحمة الخلائق بهما في عدة آيات بقوله تعالى : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) (الإسراء : 12) ، وقوله : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) (غافر : 61) ، وقوله : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا

النَّهَارَ مَعَاشًا) (النبأ : 10 – 11) ، إلى غير هذه من الآيات ، فتحصل من مجموعها وفاء الاعتبار بهما وما فيهما ، ومستند ذلك المحرك للاعتبار به السماع والأخبار الواردة به أعقب بقوله : (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (الروم : 23) .

وأما إراءته سبحانه البرق خوفاً وطمعاً ، وإنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، فلا تحصل ثمرة الاعتبار به إلا لمن أطال الاعتبار وأمعن النظر وبالغ في ذلك ، ولما كان حصول الثمرة المطلوبة هنا يتوقف على ما ذكر أعقب بقوله : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 398 . 399 ﴾

(113/602)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾

رَدَّ المِثْلَ إلى المِثْل ، وربَطَ الشكلَ بالشكلِ ، وجعل سكونَ البعضِ إلى البعض ، ولكنَّ ذلك للأشباح والصُوَر ، أمَّا الأرواح فصُحْبَتُها للأشباح كرهٌ لا طوعٌ . وأمَّا الأسرار فمُعْتَقَةٌ لا تساكن الأطلال ولا تتدنس بالأعلال .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22)

خَلَقَ السماواتِ فى علوِّها والأرضَ فى دنوِّها ؛ هذه بنجومها وكواكبها ، وهذه بأقطارها ومناكبها . وهذه بشمسها وقمرها ، وهذه بمائها ومَدَرِها .

ومن آياته اختلافُ لغات أهل الأرض ، واختلافُ تسبيحات الملائكة الذين هم سكان السماء . وإنَّ اختصاصَ كلِّ شىءٍ منها بُحكم -شاهدُ عَدلٍ ، ودليلُ صِدْقٍ على أنها تناجى أفكار المتيقظين ، وتنادي على على أنفسها . . أنها جميعها من تقدير العزيز العليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 113 ﴾

(114/602)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر المقلة والمظلة ومن فيهما ، وبعض صفاتهم اللازمة ، ذكر ما ينشأ عن كل من ذلك من الصفات المفارقة فقال : ﴿ ومن آياته ﴾ أي على ذلك وغيره من أنواع القدرة والعلم ﴿ منامكم ﴾ أي نومكم ومكانه وزمانه الذي يغلبكم بحيث لا تستطيعون له دفعاً .

ولما كان الليل محل السكن والراحة والنوم ، ذكر ما جعل من نوم النهار أيضاً لأن ذلك أدل على الفعل بالاختبار فقال : ﴿ بالّيل والنهار ﴾ أي الناشئين عن السماوات والأرض باختلاف الحركات التي تنشأ إلا عن فاعل مختار وانقطاعكم بالنوم عن معاشكم وكل ما يهمكم وقيامكم بعد منامكم أمراً قهرياً لا تقدرون على الانفكاك عن واحد منهما أصلاً ﴿ وابتغاؤكم ﴾ أي طلبكم بالجد والاجتهاد ﴿ من فضله ﴾ بالمعاش فيهما ، فالآية من الاحتباك : دل ذكر النوم على القيام منه ، ودل الابتغاء على الانقطاع عنه ، حذف نهاية الأول وبداية الثاني ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم العالي الرتبة من إيجاد النوم بعد النشاط ، والنشاط بعد النوم الذي هو الموت الأصغر ، وإيجاد كل من الملوين بعد إعدامهما ، والجد في الابتغاء مع المفاوتة في التحصيل ﴿ لآيات ﴾ أي عديدة على القدرة والحكمة لا سيما البعث .

(115/602)

ولما كانت هذه الآيات في دلالتها على ما تشير إليه من البعث والفعل بالاختيار دقيقة لا يستقل العقل بها دون توقيف من الدعاة لأنه قد يسند النوم والابتغاء إلى العباد والا يتجاوز عن ذلك إلى الخالق إلا الأفراد من خلص العباد ، وكان النائم يقوم صافي الذهن فارغ السر نشيط البدن .

قال : ﴿ لقوم يسمعون ﴾ أي من الدعاة النصحاء سماع من انتبه من نومه فجسمه مستريح نشيط وقلبه فارغ عن مكدر للنصح مانع من قبوله ، أو المعنى : لقوم هم أهل للسمع بأن يكونوا قد تنبهوا من رقادهم ، فرجعوا عن عنادهم ، إشارة إلى أن من لم يتأمل في هذه الآيات فهو نائم لا مستيقظ .

فهو غير متأهل لأن يسمع .

ولما ختم بالسمع آية جمعت آيات الأنفس والآفاق لكونها نشأت من أحوال البشر والخافقين ، افتتح بالرؤية آية أخرى جامعة لهما لكونها ناشئة عنهما مع كونها أدل على المقصود جامعة بين الترغيب والترهيب فقال : ﴿ ومن آياته ﴾ ولما كان لمعان البرق جديراً بالتماع البصر عند أول رؤية ، وكان يتجدد في حين دون حين ، عبر بالمضارع حاذفاً الدال على إرادة المصدر للدلالة على التجدد المعجب منه فقال : ﴿ يريكم البرق ﴾ أي على هيئات وكيفيات طالما شاهدتموها تارة تأتي بما يضر وتارة بما يسر ، ولذلك قال معبراً بغاية

الإخافة والإطماع لأن الغايات هي المقصودة بالذات : ﴿ خوفاً ﴾ أي للإخافة من الصواعق المحرقة ﴿ وطمعاً ﴾ أي وللاطماع في المياه الغدقة ، وعبر بالطمع لعدم الأسباب الموصلة إليه .

ولما كان البرق غالباً من المبشرات بالمطر ، وكان ما ينشأ عن الماء أدل شيء على البعث ، أتبعه شرح ما أشار إليه به من الطمع فقال : ﴿ وينزّل ﴾ ولما كان إمساك الماء في جهة العلو في غاية الغرابة ، قال محققاً للمراد بالإنزال من الموضع الذي لا يمكن لأحد غيره دعواه ﴿ من السماء ماء ﴾ .

(116/602)

ولما جعل سبحانه ذلك سبباً لتعقب الحياة قال : ﴿ فيحيي به ﴾ أي الماء النازل من السماء خاصة لأن أكثر الأرض لا تسقى بغيره ﴿ الأرض ﴾ أي بالنبات الذي هو لها كالروح لجسد الإنسان ، ولما كانت الأرض ليس لها من ذاتها في الإنبات إلا العدم ، وكان إحياؤها به متكرراً ، فكان كأنه دائم ، وكان ذلك أنسب لمقصود السورة حذف الجار قائلاً : ﴿ بعد موتها ﴾ أي يبسه وتهشمه ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم العالي القدر ﴿ لآيات ﴾ لا سيما على القدرة على البعث .

ولما كان ذلك ظاهراً كونه من الله الفاعل بالاختيار لوقوعه في سحاب دون سحاب وفي وقت دون آخر وفي بلد دون آخر ، وعلى هيئات من القوة والضعف والبرد والحر وغير ذلك من الأمر ، وكان من الوضوح في الدلالة على البعث بمكان لا يخفى على عاقل قال : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ .

ولما كان جميع ما مضى من الآيات المرئيات ناشئاً عن هذين الخلقين العظيمين المحيطين بمن أنزلت عليهم هذه الآيات المسموعات بياناً لمن أشكل عليه أمر الآيات المرئيات ، ذكر أمراً جامعاً للكل وهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من العقل المختوم به ما قبل فقال : ﴿ ومن آياته ﴾ أي على تمام القدرة وكمال الحكمة .

ولما كانت هذه الآية في الثبات لا في التجدد ، أتى بالحرف الدال على المصرف ليسلخ الفعل عن الاستقبال ، وعبر بالمضارع لأنه لا بد من إخراجهما عن هذا الوضع فقال : ﴿ أن تقوم ﴾ أي تبقى على ما تشاهدون من الأمر العظيم بلا عمد ﴿ السماء ﴾ أفرد لأن السماء الأولى لا تقبل النزاع لأنها مشاهدة مع صلاحية اللفظ للكل لأنه جنس ﴿ والأرض ﴾ على ما لهما من الجسامة والثقل المقتضي للهبوط ﴿ بأمره ﴾ لا بشيء سواه .

ولما لم يبق في كمال علمه وتمام قدرته شبهة ، قال معبراً بأداة التراخي لتدل – مع دلالتها على ما هي له – على العظمة ، فقال دالاً على أن قدرته على الأشياء كلها مع تباعدها على حد سواء ، وأنه لا فرق عنده في شمول أمره بين قيام الأحياء وقيام الأرض والسماء ﴿ ثم إذا دعاكم ﴾ وأشار إلى هوان ذلك الأمر عنده بقوله : ﴿ دعوة من الأرض ﴾ على بعد ما بينها وبين السماء فضلاً عن العرش ، وأكد ذلك بكونه مثل لمح البصر أو هو أقرب فقال معبراً بأداة الفجاءة : ﴿ إذا أنتم تخرجون ﴾ أي يتجدد لكم هذا الوصف بعد اضمحلالكم بالموت والبلى ، ويتكرر باعتبار آحادكم من غير تلبث ولا مهلة أصلاً ، إلا أن يترتب على الأفضل فالأفضل لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أنا أول من تنشق عنه الأرض " كما دعاكم منها أولاً إذا خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، وأعرى هذه مما ختم به الآيات السالفة تنبيهاً على أنها مثل الأولى قد انتهت في الظهور ، ولا سيما بانضمامها إلى الأولى التي هي أعظم دال عليها إلى حد هو أضوأ من النور ، كما تأتي الإشارة إليه في آية " وهو أهون عليه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 614 . 617 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو اختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلباً للرزق بالنهار ، فذكر من اللوازم أمرين ، ومن المفارقة أمرين ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ مَنَامُكُم باليل والنهار ﴾ قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهي القيلولة : ثم قال : ﴿ وابتغاؤكم ﴾ أي فيهما فإن كثيراً ما يكتسب الإنسان بالليل ، وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ، ويدل عليه آيات أخر .

منها قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً ﴾ [الإسراء : 12] وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 10 ، 11] ويكون التقدير هكذا : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله ، فأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه ، بل يرى كل ذلك من فضل ربه ، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا

قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِى الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] وقوله : ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النحل : 14] .

المسألة الثانية :

قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر ، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة ، فلا يتعب إلا محتاج في الحال أو خائف من المآل .

المسألة الثالثة :

(119/602)

قال : ﴿ آيات لقوم يَسْمَعُونَ ﴾ وقال من قبل : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال : ﴿ للعالمين ﴾ فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان ، فإنهما يدومان بدوام الإنسان / فجعلهما آيات عامة ، وأما قوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فاعلم أن من الأشياء ما يعلم من غير تفكر ، ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة ، ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى

موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه ، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد ، ومنها ما يحتاج إلى بعض الناس في تفهمه إلى أمثلة حسية كالأشكال الهندسية لكن خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر ، فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية ، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد ، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة ، فقال : ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

لما ذكر العرضيات التي للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق ، وقال : ﴿ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

لما قدم دلائل الأنفس ههنا قدم العرضيات التي للأنفس وأخر العرضيات التي للآفاق كما أخر دلائل الآفاق ، بقوله : ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض ﴾ [الروم : 22] .

المسألة الثانية :

قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولاً اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء ، وقدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال : ﴿يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ﴾ وذلك لأن الإنسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة ، وأما اللوازم فيه فقريبة .

وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم ، فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل في كونه آية ونزيده بياناً فنقول : الإنسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز عن غيره ، وهو يتغير في الأحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة ، والسماء والأرض ثابتان لا يتغيران ، ثم يرى في بعض الأحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة ، والسماء كما كانت والأرض كذلك ، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمراً مع تغير المحل ويزيل أمراً مع ثبات المحل .

المسألة الثالثة :

كما قدم السماء على الأرض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والإحياء .

المسألة الرابعة :

كما أن في إنزال المطر وإنبات الشجر منافع ، كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة ، وذلك لأن البرق إذا لاح ، فالذي لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له ، والذي له

صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوي مجاري الماء ، وأيضاً العرب من أهل البوادي فلا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب ، واعلم أن فوائد البرق وإن لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهي ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة ، وآية ، وأما كونه آية فظاهر فإن في السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منها بحيث تحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله ، قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء والماء .

(121/602)

فالهواء ألطف منه والماء أكثف فإذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسماً بعنف ، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فإن قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان ، فيقولون لكن حركة يد الإنسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار ، فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب ، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ، ثم إنا نقول هب أن الأمر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة لا بد من سبب وينتهي إلى واجب الوجود ، فهو آية للعاقل على

قدرة الله كيفما فرضتم ذلك .

المسألة الخامسة :

قال ههنا : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أن ذلك بالطبيعة ، لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف ، لكن البرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير متخلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار ، فقال هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكراً تاماً .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25)

(122/602)

لما ذكر من العوارض التي للسماء والأرض بعضها ، ذكر من لوازمها البعض وهي قيامها ، فإن الأرض لثقلها يتعجب الإنسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد ، وهذا من اللوازم ، فإن الأرض لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه فإن قيل إنها تتحرك في مكانها

كالرحى ولكن اتفق العقلاء على أنها في مكانها لا تخرج عنه ، وهذه آية ظاهرة لأن كونهما في الموضع الذي هما فيه وعلى الموضع الذي هما عليه من الأمور الممكنة ، وكونهما في غير ذلك الموضع جائز ، فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحاً للجائز على غيره ، وذلك لا يكون إلا بفاعل مختار ، والفلاسفة قالوا كون الأرض في المكان الذي هي فيه طبيعي لها لأنها أثقل الأشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها في مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما ، فنقول قد تقدم مراراً أن القول بالطبيعة باطل ، والذي نزيده ههنا أنكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر ، لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه في الطبع فيجوز حصول مقعره في موضع محدبة ، وذلك بالخروج والزوال فإذن الزوال عن المكان ممكن لا سيما على السماء الدنيا فإنها محددة الجهات على مذهبكم أيضاً والأرض كانت تجوز عليها الحركة الدورية ، كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفاعل مختار وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر الله من كل باب أمرين ، أما من الأنفس فقوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ ﴾ استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض في قوله : ﴿ خُلِقَ السموات والأرض ﴾ ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والأمطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الأرض ، لأن الواحد يكفي للإقرار بالحق والثاني : يفيد الاستقرار بالحق ، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فإن قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ بلى ولكن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : 260] .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ أي بقوله : قوما أو بإرادته قيامهما ، وذلك لأن الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة ، وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في الأمر الذي للتكليف لا في الأمر الذي للتكوين ، فإنا لا ننازعهم في أن قوله : ﴿ كُنَّ ﴾ و ﴿ كُونُواْ ﴾ ﴿ قُلْنَا يانار كُونِى ﴾ موافق للإرادة .

المسألة الثالثة :

قال ههنا : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ ﴾ وقال قبله : ﴿ وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ ﴾ ولم يقل أن يريكم ، وإن قال بعض المفسرين إن أن مضمرة هناك معناه من آياته أن يريكم ليصير كالمصدر بأن ، وذلك لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدراً ، لأن المستقبل ينبىء عن التجدد ، وفي البرق لما كان ذلك من الأمور التي تتجدد في زمان دون

زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئاً من الحروف المصدرية .

المسألة الرابعة :

(124/602)

ذكر ستة دلائل ، وذكر في أربعة منها إن في ذلك لآيات ، ولم يذكر في الأول وهو قوله : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ [الروم : 20] ولا في الآخر وهو قوله : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء والأرض ﴾ أما في الأول فلأن قوله بعده : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾ [الروم : 21] أيضاً دليل الأنفس ، فخلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد ، على ما بينا ، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير ، فإذا قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لأَيَاتٍ ﴾ كان عائداً إليهما ، وأما في قيام السماء والأرض فنقول في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان في أول الأمر ظاهراً ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر ، فلم يميز أحداً عن أحد في ذلك ، وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الإعادة ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مّنَ الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

ما وجه العطف يتم ، وبم تعلق ثم ؟ فنقول معناه ، والله أعلم إنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الأجداث يخرجون أحياء .

المسألة الثانية :

قول القائل دعا فلان فلاناً من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يا فلان اصعد إلى الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الأرض إذا كان الداعي هو الله ، فالمدعو يدعى من الأرض يعني أنتم تكونون في الأرض فيدعوكم منها فتخرجون .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿إِذَا أَنتُمْ﴾ قد بينا أنه للمفاجأة يعني يكون ذلك بكن فيكون .

المسألة الرابعة :

قال ههنا ﴿ إذا أنتم تخرجون ﴾ ، وقال في خلق الإنسان أولاً : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] فنقول هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه ، فإذا هو بشر ، وأما في الإعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج ، فلم يقل ههنا ثم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 102.99 ﴾

(126/602)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أن الليل والنهار معاً وقت للنوم ووقت لابتغاء الفضل ، لأن من الناس من يتصرف في كسبه ليلاً وينام نهاراً .

الثاني : أن الليل وقت النوم والنهار وقت لابتغاء الفضل ، ويكون تقدير الكلام : ومن آياته منامكم بالليل ، وابتغاؤكم من فضله بالنهار .

وفي ابتغاء الفضل وجهان :

أحدهما : التجارة ، قاله مجاهد .

الثاني : التصرف والعمل . فجعل النوم في الليل دليلاً على الموت ، والتصرف في النهار دليلاً على البعث .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ فيه ثلاث أوجه

: أحدها : يسمعون الحق فيتبعونه .

الثاني : يسمعون الوعظ فيخافونه .

الثالث : يسمعون القرآن فيصدقونه .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾

فيه أربعة تأويلات

: أحدها : خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم ، قاله قتادة .

الثاني : خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث ، قاله الضحاك .

الثالث : خوفاً من البرد أن يهلك الزرع وطمعاً في المطر أن يحيي الزرع ، حكاه يحيى بن سلام .

الرابع : خوفاً أن يكون البرق برقاً خُلّباً لا يمطر وطمعاً أن يكون ممطراً ، ذكره ابن بحر ، وأنشد قول الشاعر :

لا يكن برقك برقاً خُلّباً . . . إن خير البرق ما الغيث معه

والعرب يقولون : إذا توالت أربعون برقة مطرت وقد أشار المتنبي إلى ذلك بقوله :

فقد أرد المياه بغير زادٍ . . . سوى عَدّي لها بَرْق الغمام

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن تكون .

الثاني : أن تثبت .

﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : بتدبيره وحكمته .

الثاني : بإذنه لها أن تقوم بغير عمد .

﴿ ثُمَّ إِذا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ ﴾ أي وأنتم موتى في قبوركم

(127/602)

. ﴿ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أي من قبوركم مبعوثين إلى القيامة . قال قتادة : دعاهم من السماء فخرجوا من الأرض .

ثم فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أخرجهم بما هو بمنزلة الدعاء وبمنزلة قوله كن فيكون ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أنهم أخرجهم بدعاء دعاهم به ، قاله قتادة .

الثالث : أنه أخرجهم بالنفخة الثانية وجعلها دعاء لهم . ويشبه أن يكون قول يحيى بن سلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(128/602)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

ذكر تعالى النوم ﴿ بالليل والنهار ﴾ وعرف النوم إنما هو بالليل وحده ، ثم ذكر الابتغاء ﴿ من فضله ﴾ كأنه فيهما وإنما معنى ذلك أنه عم بالليل والنهار فسمى الزمان وقصد من ذلك تعديد آية النوم وتعديد آية ابتغاء الفضل فإنهما آيتان تكونان في ليل ونهار ، والعرف يجيز كل واحدة من النعمتين أي محلها من الأغلب وقال بعض المفسرين في الكلام تقديم وتأخير .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا ضعيف وإنما أراد أن يرتب النوم لليل والابتغاء للنهار ولفظ الآية لا يعطي ما أراد ، وقوله تعالى : ﴿ يريكم ﴾ فعل مرتفع لما حذفت " أن " التي لو كانت لنصبته فلما حل الفعل محل الاسم أعرب برفع .

ومنه قول طرفة : [الطويل]

ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى . . . وأن أشهد للذات هي أنت مخلدي

قال الرماني : وتحتمل الآية أن يكون التقدير ﴿ ومن آياته ﴾ آية ﴿ يريكم البرق ﴾

وحذفت الآية لدلالة من عليها ومنه قول الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما . . . أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

التقدير فمنها تارة أموت .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا على أن ﴿ من ﴾ للتبعيض كسائر هذه الآيات ، ويحتمل في هذه وحدها أن تكون ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية فلا يحتاج إلى تقدير " أن " ولا إلى تقدير " آية " ، وإنما يكون الفعل مخلصاً للاستقبال وقوله ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ ، قال قتادة ﴿ خوفاً ﴾ للمسافر ﴿ وطمعاً ﴾ للمقيم .

(129/602)

قال الفقيه الإمام القاضي : ولا وجه لهذا التخصيص ونحوه بل فيه الخوف والطمع لكل بشر ، قال الضحاك : الخوف من صواعقه والطمع في مطره ، وقوله تعالى : ﴿ أن تقوم السماء والأرض ﴾ معناه تثبت ، كقوله تعالى ﴿ وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ [البقرة : 20]

وهذا كثير ، وقيل هو فعل مستقبل أحله محل الماضي ليعطي فيه معنى الدوام الذي هو في المستقبل ، والدعوة من الأرض هي البعث و ﴿ من الأرض ﴾ حال للمخاطبين كأنه قال : خارجين من الأرض ، ويجوز أن يكون ﴿ من الأرض ﴾ صفة للدعوة .

قال الفقيه الإمام القاضي : و ﴿ من ﴾ ، عندي ها هنا لانتهاء الغاية كما تقول دعوتك من الجبل إذا كان المدعو في الجبل ، والوقف في هذه الآية عند نافع ويعقوب الحضرمي على ﴿ دعوة ﴾ ، والمعنى بعد إذا أنتم تخرجون من الأرض ، وهذا على أن ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية ، والوقف عند أبي حاتم على قوله ﴿ من الأرض ﴾ ، وهذا على أن ﴿ من ﴾ لانتهاء الغاية ، قال مكي : والأحسن عند أهل النظر أو الوقف في آخر الآية لأن مذهب الخليل وسيبويه في ﴿ إذا ﴾ الثانية أنها جواب الأولى كأنه قال : ثم إذا دعاكم خرجتم وهذا أسدّ الأقوال .

وقرأ حمزة والكسائي " تَخرجون " بفتح التاء ، وقرأ الباقون " تُخرجون " بضم التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(130/602)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) ﴾

لما بين تعالى عظيم قدرته في خلق السموات والأرض بالحق ، وهو حالة ابتداء العالم ، وفي مصيرهم إلى الجنة والنار ، وهي حالة الانتهاء ، أمر تعالى بتنزيهه من كل سوء .

والظاهر أنه أمر عباده بتنزيهه في هذه الأوقات ، لما يتجدد فيها من النعم .

ويحتمل أن يكون كناية عن استغراق زمان العبد ، وهو أن يكون ذاكراً ربه ، واصفه بما يجب له على كل حال .

وقال الزمخشري : لما ذكر الوعد والوعيد ، أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد .

وقيل : المراد هنا بالتسبيح : الصلاة .

فعن ابن عباس وقتادة : المغرب والصبح والعصر والظهر ، وأما العشاء ففي قوله : ﴿ وزُلفاً من الليل ﴾ وعن ابن عباس : الخمس ، وجعل ﴿ حين تمسون ﴾ شاملاً للمغرب والعشاء .

﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ : اعتراض بين الوقتين ، ومعناه : أن الحمد واجب على أهل السموات وأهل الأرض ، وكان الحسن يذهب إلى أن هذه الآية مدنية ، لأنه كان يقول : فرضت الخمس بالمدينة .

وقال الأكثرون : بل فرضت بمكة ؛ وفي التحرير ، اتفق المفسرون على أن الخمس داخلة في هذه الآية .

وعن ابن عباس : ما ذكرت الخمس إلا فيها ، وقدم الإمساء على الإصباح ، كما قدم في قول ﴿ يولج الليل في النهار ﴾ والظلمات على النور ، وقابل بالعشي الإمساء ، وبالإظهار الإصباح ، لأن كلاًّ منهما يعقب بما يقابله ؛ فالعشي يعقبه الإمساء ، والإصباح يعقبه الإظهار .

ولما لم يتصرف من العشي فعل ، لا يقال أعشى ، كما يقال أمسى وأصبح وأظهر ، جاء التركيب ﴿ وعشياً ﴾ .

وقرأ عكرمة : حيناً تمسون وحيناً تصبحون ، بتنوين حين ، والجملة صفة حذف منها العائد تقديره : تمسون فيه وتصبحون فيه .

ولما ذكر الإبداء والإعادة ، ناسب ذكره : ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ ، وتقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران .

(131/602)

﴿ وكذلك ﴾ : أي مثل ذلك الإخراج ، والمعنى : تساوي الإبداء والإعادة في حقه تعالى .

وقرأ الجمهور : ﴿ تخرجون ﴾ ، بالتاء المضمومة ، مبنياً للمفعول ؛ وابن وثاب وطلحة والأعمش : بفتح تاء الخطاب وضم الراء .

ثم ذكر تعالى آياته من بدء خلق الإنسان ، آية آية ، إلى حين بعثه من القبر فقال : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ﴾ : جعل خلقهم من تراب ، حيث كان خلق أباهم آدم من تراب .

و ﴿ تنتشرون ﴾ : تتصرفون في أغراضكم بثم المقتضية المهلة والتراخي .

ونبه تعالى على عظيم قدرته بخلق الإنسان من تراب ، وهو أبعد الأشياء عن درجة الإحياء ، لأنه بارد يابس ، والحياة بالحرارة والرطوبة ، وكذا الروح نير وثقيل ، والروح خفيف وساكن ، والحيوان متحرك إلى الجهات الست ، فالتراب أبعد من قبول الحياة من سائر الأجسام .

﴿ من أنفسكم ﴾ : فيها قولاً ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ إما كون حواء خلقت من ضلع آدم ، وأما من جنسكم ونوعكم .

وعلل خلق الأزواج بالسكون إليها ، وهو الإلف .

فمتى كان من الجنس ، كان بينهما تألف ، بخلاف الجنسين ، فإنه يكون بينهما التنافر ،

وهذه الحكمة في بعث الرسل من جنس بني آدم .

ويقال : سكن إليه : مال ، ومنه السكن : فعل بمعنى مفعول .

﴿ مودّة ورحمة ﴾ : أي بالأزواج ، بعد أن لم يكن سابقة تعارف يوجب التواد .

وقال مجاهد والحسن وعكرمة : المودة : النكاح ، والرحمة : الولد ، كنى بذلك عنهما .

وقيل : مودّة للشابة ، ورحمة للعجوز .

وقيل : مودة للكبير ، ورحمة للصغير .

وقيل : هما اشتباك الرحم .

وقيل : المودة من الله ، والبغض من الشيطان .

﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ : أي لغاتكم ، فمن اطلع على لغات رأى من اختلاف تراكيبها أو قوانينها ، مع اتحاد المدلول ، عجائب وغرائب في المفردات والمركبات .

وعن وهب : أن الألسنة اثنان وسبعون لساناً ، في ولد حام سبعة عشر ، وفي ولد سام تسعة عشر ، وفي ولد يافث ستة وثلاثون .

وقيل : المراد باللغات : الأصوات والنغم .

(132/602)

وقال الزمخشري : الألسنة : اللذات وأجناس النطف وأشكاله .

خالف عز وجل بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة ، ولا لكنة ، ولا نظم ، ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله . انتهى .

﴿ وألوانكم ﴾ : السواد والبياض وغيرهما ، والأنواع والضروب بتخطيط الصور ، ولولا ذلك الاختلاف ، لوقع الالتباس وتعطلت مصالح كثيرة من المعاملات وغيرها .

وفيه آية بينة ، حيث فرعوا من أصل واحد ، وتباينوا في الأشكال على كثرتهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ للعالمين ﴾ ، بفتح اللام ، لأنها في نفسها آية منصوبة للعالم .

وقرأ حفص وحماد بن شعيب عن أبي بكر ، وعلقمة عن عاصم ، ويونس عن أبي عمرو : بكسر اللام ، إذ المنتفع بها إنما هم أهل العلم ، كقوله : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾

والظاهر أن ﴿ بالليل والنهار ﴾ متعلق ﴿ بمنامكم ﴾ ، فامتن تعالى بذلك ، لأن النهار قد يقام فيه ، وخصوص من كل مشتغلاً في حوائجه بالليل .

﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ : أي فيهما ، أي في الليل والنهار معاً ، لأن بعض الناس قد يبتغي الفعل بالليل ، كالمسافرين والحراس بالليل وغيرهم .

وقال الزمخشري : هذا من باب اللف ، وترتيبه : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم ﴾ ، ولأنه فصل بين الفريقين الأولين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان ، والزمان

والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على ذلك ، ويجوز أن يراد ﴿ منامكم ﴾ في الزمانين ، ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ فيهما .

والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن ، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن .

وقال ابن عطية : وقال بعض المفسرين : في الكلام تقديم وتأخير ، وهذا ضعيف ، وإنما أراد أن ترتب النوم في الليل والابتغاء للنهار ، ولفظ الآية لا يعطي ذلك .

(133/602)

﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً ﴾ : إما أن يتعلق من آياته يريكم ، فيكون في موضع نصب ، ومن لابتداء الغاية ، أو يكون يريكم على إضمار أن ، كما قال :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى . . .

برفع أحضر ، والتقدير أن أحضر ، فلما حذف أن ، ارتفع الفعل ، وليس هذا من المواضع التي يحذف منها أن قياساً ، أو على إنزال الفعل منزلة المصدر من غير ما يسبكه له ، كما قال الخليل في قول :

أريد لأنسى حبها . . .

أي أرادني لأنسى حبها ، فيكون التقدير في هذين الوجهين : ومن آياته إراءته إياكم البرق ،

فمن آياته في موضع رفع على أنه خبر المبتدأ .

وقال الرماني : يحتمل أن يكون التقدير : ومن آياته يريكم البرق بها ، وحذف لدلالة من عليها ، كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما . . .

أموات وأخرى أبتغي العيش أكدح

أي : فمنهما تارة أموات ، ومن على هذه الأوجه الثلاثة للتبعيض .

وانتصب ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ على أنهما مصدران في موضع الحال ، أي خائفين وطامعين .

وقيل : مفعول من أجله .

وقال الزجاج : وأجازه الزمخشري على تقدير إرادة خوف وطمع ، فيتحد الفاعل في العامل والمحذوف ، ولا يصح أن يكون العامل يريكم ، لاختلاف الفاعل في العامل والمصدر .

وقال الزمخشري : المفعولون فاعلون في المعنى ، لأنهم راؤون مكانه ، فكأنه قيل : لجعلكم رائين البرق خوفاً وطمعاً . انتهى .

وكونه فاعلاً ، قيل : همزة التعدية لا تثبت له حكمه بعدها ، على أن المسألة فيها خلاف .

مذهب الجمهور : اشتراط اتحاد الفاعل ، ومن النحويين من لا يشترطه .

ولو قيل : على مذهب من يشترطه .

أن التقدير : يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً ، فحذف العامل للدلالة ، لكان إعراباً سائغاً واتحد فيها الفاعل .

وقال الضحاك : خوفاً من صواعقه ، وطمعاً في مطره .

وقال قتادة : خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم .

وقيل : خوفاً أن يكون خلباً ، وطمعاً أن يكون ماطراً .

وقال الشاعر :

لا يكن برقك برقاً خلباً . . .

(134/602)

إن خير البرق ما العيث معه

وقال ابن سلام : خوفاً من البرد أن يهلك الزرع ، وطمعاً في المطر أن يحييه .

﴿ ومن آياته أن تقوم ﴾ : أن تثبت وتمسك ، مثل : وإذا أظلم عليهم قاموا : أي ثبتوا بأمره ، أي بإرادته .

وإذا الأولى للشرط ، والثانية للمفاجأة جواب الشرط ، والمعنى : أنه لا يتأخر طرفة عين خروجكم عن دعائه ، كما يجيب الداعي المطيع مدعوه ، كما قال الشاعر :

دعوت كليباً دعوة فكأنما . . .

دعوت قرين الطود أو هو أسرع

قرين الطود : الصدا ، أو الحجران أيد هذا .

والطود : الجبل .

و﴿ الدعوة ﴾ : البعث من القبور ، و﴿ من الأرض ﴾ يتعلق بدعاكم ، و﴿ دعوة ﴾ : أي مرة ، فلا يحتاج إلى تكرير دعاءكم لسرعة الإجابة .

وقيل : ﴿ من الأرض ﴾ صفة لدعوة .

وقال ابن عطية : ومن عندي هنا لأنتهاء الغاية ، كما يقول : دعوتك من الجبل إذا كان المدعو في الجبل . انتهى .

وكون من لأنتهاء الغاية قول مردود عند أصحابنا .

وعن نافع ويعقوب : أنهما وقفا على دعوة ، وابتدآ من الأرض .

﴿ إذا أنتم تخرجون ﴾ علقاً من الأرض بتخرجون ، وهذا لا يجوز ، لأن فيه الفصل بين الشرط وجوابه ، بالوقف على دعوة فيه إعمال ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها ، وهو لا يجوز .

وقال الزمخشري : وقوله : ﴿ إذا دعاكم ﴾ بمنزلة قوله : ﴿ يريكم ﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى ، كأنه قال : ومن آياته قيام السموات والأرض ، ثم خروج الموتى من

القبور إذا دعاهم دعوة واحدة : يا أهل القبور أخرجوا ، وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم ، بياناً لعظيم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر .

انتهى .

وقرأ حمزة والكسائي : تخرجون ، بفتح التاء وضم الراء ؛ وباقي السبعة : بضمها وفتح الراء .

(135/602)

وبدأ أولاً من الآيات بالنشأة الأولى ، وهي خلق الإنسان من التراب ، ثم كونه بشراً منتشراً ، وهو خلق حي من جماد ، ثم أتبعه بأن خلق له من نفسه زوجاً ، وجعل بينهما تواد ، وذلك خلق حي من عضو حي .

وقال : ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالفكر في تأليف بين شيئين لم يكن بينهما تعارف ، ثم أتبعه بما هو مشاهد للعالم كلهم ، وهو خلق السموات والأرض ، واختلاف اللغات والألوان ، والاختلاف من لوازم الإنسان لا يفارقه .

وقال : ﴿ للعالمين ﴾ ، لأنها آية مكشوفة للعالم ، ثم أتبعه بالمنام والابتغاء ، وهما من الأمور

المفارقة في بعض الأوقات ، بخلاف اختلاف الألسنة والألوان .

وقال : ﴿ لقوم يسمعون ﴾ ، لأنه لما كان من أفعال العبادة قد يتوهم أنه لا يحتاج إلى مرشد ، فنبه على السماع ، وجعل البال من كلام المرشد .

ولما ذكر عرضيات الأنفس اللازمة والمفارقة ، ذكر عرضيات الآفاق المفارقة من إراءة البرق وإنزال المطر ، وقدمها على ما هو من الأرض ، وهو الإتيان والإحياء ، كما قدم السموات على الأرض ، وقدم البرق على الإنزال ، لأنه كالمبشر يجيء بين يدي القادم .

والأعراب لا يعلمون البلاد المعشبة ، إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب إلى جانب .

وقال : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ، لأن البرق والإنزال ليس أمراً عادياً فيتوهم أنه طبيعة ، إذ يقع ذلك ببلدة دون أخرى ، ووقتاً دون وقت ، وقوياً وضعيفاً ، فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار ، فقال : هو آية لمن عقل بأن لم يتفكر تفكراً تاماً .

ثم ختم هذه الآيات بقيام السموات الأرض ، وذلك من العوارض اللازمة ، فإن كلاًّ من السماء والأرض لا يخرج عن مكانه ، فيتعجب من وقوف الأرض وعدم نزولها ، ومن علو السماء وثباتها من غير عمد .

ثم أتبع ذلك بالنشأة الأخرى ، وهي الخروج من الأرض ، وذكر تعالى من كل باب أمرين : من الأنفس خلقكم وخلق لكم ، ومن الآفاق السماء والأرض ، ومن لوازم الإنسان اختلاف الألسنة واختلاف الألوان ، ومن خواصه المنام والابتغاء ، ومن عوارض الآفاق البرق والمطر ، ومن لوازمه قيام السماء وقيام الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(137/602)

وقال أبو السعود :

﴿ وابتغاؤكم مّن فَضْلِهِ ﴾ فيهما فإنّ كُلاًّ من المنامِ وابتغاءِ الفضلِ يقعُ في المَلَوينِ وإنْ كان الأغلبُ وقوعَ الأولِ في الأولِ والثَّاني في الثَّانِي أو منامُكم بالليلِ وابتغاؤُكم بالنَّهارِ كما هو المعتادُ والموافقُ لسائرِ الآياتِ الورادةِ في ذلك خَلاَ أنَّه فصَل بين القرينينِ الأولينِ بالقرينينِ الآخيرينِ لأنَّهما زمان ، والزَّمانُ مع ما وقعَ فيه كشيءٍ واحدٍ مع إعانةِ اللفِّ على الاتحادِ ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي شأنُهم أنْ يسمعُوا الكلامَ سماعَ تفهمٍ واستبصارٍ حيثُ يتأمَّلون في تضاعيفِ هذا البيانِ ويستدلُّون بذلك على شؤونه تعالى : ﴿ وَمِنْ

ءاياته يُرِيكُمُ البرق ﴾ الفعل إمَّا مقدَّرٌ بأنْ كما في قول مَن قال :

أَلاَ أيُّهذا الزَّاجِري أحضُرَ الوَغَى . . . أي أنْ أحضُرَ أو منزَّلٌ منزلَة المصدر وبه فُسِّر المثلُ المشهُورُ " تسمعُ بالمُعَيديِّ خيرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ " أو هو على حالِه صفةٌ لمحذوفٍ أي آيةٌ يريكم بها البرق كقول مَن قال :

وَمَا الدَّهرُ إلاَّ نَارَتَانِ فمنهُمَا . . . أموتُ وأُخرى أَبتغِي العيشَ أَكْدَحُ

(138/602)

أي فمنهما تارةً أموتُ فيها وأُخرى أبتغِي فيها أو ومن آياتِه شيءٌ أو سحابٌ يُريكم البرقَ ﴿ خَوْفًا ﴾ من الصَّاعقةِ أو للمسافرِ ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في الغيثِ أو للمقيمِ ونصبُهما على العِلَّةِ لفعلٍ يستلزمُه المذكورُ فإنَّ إراءتهم البرقَ مستلزمةٌ لرؤيتِهم إيَّاه أو للمذكورِ نفسِه على تقديرِ مضافٍ نحو إراءةِ خوفٍ وطمعٍ أو على تأويلِ الخوفِ والطمعِ بالإخافةِ والإطماعِ كقولِك فعلتُه رغماً للشَّيطانِ أو على الحالِ نحو كلَّمتُه شِفاهاً . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مَاءً ﴾ . وقُرِىء بالتَّخفيفِ ﴿ فَيُحْيِى بِهِ الأَرض ﴾ بالنباتِ ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يُبسها ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فإنَّها من الظُّهورِ بحيث يكفي في إدراكِها مجرَّدُ العقل عند استعمالِه في استنباطِ أسبابِها وكيفيَّةِ تكوُّنِها . ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء والأرض

بِأَمْرِهِ ﴾ أي بإرادتِه تعالى لقيامِهما ، والتَّعبيرُ عنها بالأمر للدّلالةِ على كمال القدرة والغنى عن المبادىء والأسبابِ وليس المرادُ بإقامتهما إنشاءهما لأنَّه قد بُيّن حاله بقولِه تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ * السموات والأرض ﴾ ولا إقامتهما بغير مقيم محسوسٍ كما قيل فإن ذلك من تتماتِ إنشائِهما وإنْ لم يصرح به تعويلاً على ما ذُكر في غير موضعٍ من قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ * السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية بل قيامَهما واستمرارَهما على ما هُما عليه إلى أجلهما الذي نطقَ به قولُه تعالى فيما قيل : ﴿ مَّا خَلَقَ الله * السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وحيث كانتْ هذه الآيةُ متأخرةً عن سائرِ الآياتِ المعدودةِ متَّصلةً بالبعثِ في الوجودِ أُخرت عنهنَّ وجُعلت متَّصلةً به في الذِّكرِ أيضاً فقيلَ ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مّنَ الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ فإنه كلامٌ مسوق للاخبار بوقوعِ البعثِ ووجودِه

(139/602)

بعد انقضاء أجل قيامِهما مترتّب على تعداد آياتِه الدَّالَّةِ عليه غير منتظمٍ في سلكِها كما قيل : كأنَّه قيل : ومن آياتِه قيامُ السَّمواتِ والأرضِ على هيئاتِهما بأمرِه تعالى إلى أجل مسمَّى قدَّره الله تعالى لقيامِهما ثمَّ إذا دعاكم أي بعد انقضاءِ الأجلِ من الأرض وأنتُم في

قبورِكم دعوة واحدة بأنْ قال أيُّها الموتى اخرجُوا فاجأتم الخروجَ منها وذلك قولُه تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ ومن الأرضِ متعلق بدعاكُم إذ يكفي في ذلك كون المدعوّ فيها يقال دعوته من أسفلِ الوادِي فطلع إليَّ لا بتخرجون لأنَّ ما بعد إذا لا يعملُ فيما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(140/602)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْ ءاياته مَنَامُكُم ﴾ أي نومكم ﴿ بالليل والنهار ﴾ لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية ﴿ وابتغاؤكم ﴾ أي طلبكم ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي بالليل والنهار ، وحذف ذلك لدلالة ما قيل عليه ، ونظيره قوله :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم . . .

ومقتلهم عند الوغى كان أغدرا

فإنه أراد يقتلون نفوسهم عند السلم وحذف لدلالة الوغى في الشطر الثاني عليه ، والنوم بالليل والابتغاء من الفضل أي الكسب بالنهار أمران معتادان ، وأما النوم بالنهار فكنوم القيلولة ، وأما الكسب بالليل فكما يقع من بعض المكتسبين ، وأهل الحرف من السعي

والعمل ليلاً لا سيما في أطول الليالي وعدم وفاء نهارهم بأغراضهم ، ومن ذلك حراسه الحوانيت بالأجرة وكذا قطع البراري في الأسفار ليلاً للتجارة ونحوها ، وقال الزمخشري : وهذا من باب اللف وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأولين أعني منامكم وابتغاؤكم بالقرينين الآخرين أعني الليل والنهار لأنهما ظرفان والظرف والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد وهو الوجه الظاهر لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دل عليه القرآن انتهى ؛ والظاهر أنه أراد باللف الاصطلاحي ولا يأبى ذلك توسيط الليل والنهار لأنهما في نية التأخير وإنما وسطاً للاهتمام بشأنهما لأنهما من الآيات في الحقيقة لا المنام والابتغاء على ما حققه في "الكشف" مع تضمن توسيطهما مجاورة كل لما وقع فيه فالجار والمجرور قيل حال مقدمة من تأخير أي كائنين بالليل والنهار ، وقيل : خبر مبتدأ محذوف أي وذلك بالليل والنهار ، والجملة في "النظم الكريم" معترضة ، وعلى كلا القولين لا يرد على الزمخشري لزوم كون النهار معمولاً للابتغاء مع تقدمه عليه وعطفه على معمول ﴿ مَنَامُكُم ﴾ وفي اقتران الفضل بالابتغاء إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من نفسه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه جل وعلا .

(141/602)

﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار ، وفيه إشارة إلى ظهور الأمر بحيث يكفي فيه مجرد السماع لمن له فهم وبصيرة ولا يحتاج إلى مشاهدة وإن كان مشاهداً .

وقال الطيبي : جيء بالفاصلة هكذا لأن أكثر الناس منسدحون بالليل كالأموات ومترددون بالنهار كالبهائم لا يدرون فيم هم ولم ذلك لكن من ألقى السمع وهو شهيد يتنبه لوعظ الله تعالى ويصغي إليه لأن مر الليالي وكر النهار يناديان بلسان الحال الرحيل الرحيل من دار الغرور إلى دار القرار كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] وذكر الإمام أن من الأشياء ما يحتاج في معرفته إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه فيفهم إذا سمع من ذلك المرشد ، ولما كان المنام والابتغاء قد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد فيحتاج معرفة أنهما من آياته تعالى إلى مرشد يعين الفكر قيل : ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ فكأنه قيل : لقوم يسمعون ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد انتهى ؛ ولعل الاحتياج إلى مرشد يعين الفكر في أن الليل والنهار من الآيات بناءً على ما سمعت في بيان نكتة التوسيط أظهر فتأمل .

﴿ وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ البرق ﴾

ذهب أبو علي إلى أنه بتقدير أن المصدرية والأصل أن يريكم فحذف أن وارتفع الفعل وهو

الشائع بعد الحذف في مثل ذلك ، وشذ بقاؤه منصوباً بعده وقد روي بالوجهين قول طرفة :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى . . .

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

(142/602)

وجوز كونه مما نزل فيه الفعل منزلة المصدر فلا تقدر أن بل الفعل مستعمل في جزء معناه وهو الحدث مقطوع فيه النظر عن الزمان فيكون اسماً في صورة الفعل فيريكم بمعنى الرؤية ، وحمل على ذلك في المشهور قولهم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، وجوز فيه أن يكون مما حذف فيه أن وأيد بأنه روى فيه تسمع بالنصب أيضاً ولم يرتضه بعض الأجلة لأن المعنى ليس على الاستقبال ، وأما أن تراه فالاستقبال فيه بالنسبة إلى السماء فلا ينافيه ، ومثله قوله :

فقالوا ما تشاء فقلت الهو . . .

إلى الاصباح آثر ذي أثير

ورجح الحمل على التنزيل منزلة اللازم دلالة على أنه كالحال اهتماماً بشأن المراد لقوله : آثر ذي أثير ، والتعليل ﴿ بأن ما تشاء سؤال عما يشاؤه في الحال وأن للاستقبال ليس بالوجه

لأن المشيئة تتعلق بالمستقبل أبداً ، وقال "الجامع الأصفهاني" : تقدير الآية ومن آياته آية يريكم البرق على أن ﴿ ﴾ بأن ما تشاء سؤال عما يشاؤه في الحال وأن للاستقبال ليس بالوجه لأن المشيئة تتعلق بالمستقبل أبداً ، وقال "الجامع الأصفهاني" : تقدير الآية ومن آياته آية يريكم البرق على أن ﴿ يُرِيكُمْ ﴾ صفة وحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كما في قوله :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح . . .

أي فمنهما تارة أموت قيل فلا بد من راجع فقد فيها أو بها ، ونص على الثاني الرماني كما في "البحر" وكلاهما لا يسد كما في "الكشف" عليه المعنى ، وقيل : التقدير ومن آياته البرق ثم استؤنف يريكم البرق ، وقيل : ﴿ مّنْ ءاياته ﴾ حال من البرق أي يريكم البرق حال كونه من آياته ، وجوز أبو حيان تعلقه بيريكم و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية وفيه مخالفة لنظرائه .

(143/602)

وفي "الكشف" لعل الأوجه أن يكون من آياته خبر مبتدأ محذوف أي من آياته ما يذكر أو ما يتلى عليكم ثم قيل : ﴿ يُرِيكُمُ البرق ﴾ بياناً لذلك ثم قال : وهذا أقل تكلفاً من الكل ، وأنت تعلم أن الأوجه ما توافق الآية به نظائرها .

﴿ خَوْفًا ﴾ أي من الصواعق ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في المطر قاله الضحاك ، وقال قتادة : خوفاً للمسافر لأنه علامة المطر وهو يضره لعدم ما يكنه ولا نفع له فيه وطمعاً للمقيم ، وقيل : خوفاً أن يكون خلباً وطمعاً أن يكون ما طرأ وقال ابن سلام : خوفاً من البرد أن يهلك الزرع وطمعاً في المطر ونصهما على العلة عند الزجاج ، وهو على مذهب من لا يشترط في نصب المفعول له اتحاد المصدر والفعل المعلل في الفاعل ظاهر ، وأما على مذهب الأكثرين المشترطين لذلك فقيل في توجيهه : إن ذلك على تقدير مضاف أي إرادة خوف وطمع أي على تأويل الخوف والطمع بالإخافة والاطماع أما بأن يجعل أصلهما ذلك على حذف الزوائد أو بأن يجعلا مجازين عن سببيهما .

وقيل : إن ذلك لأن إراءتهم تستلزم رؤيتهم فالمفعولون فاعلون في المعنى فكأنه قيل : لجعلكم رائين خوفاً وطمعاً .

(144/602)

واعترض بأن الخوف والطمع ليسا غرضين للرؤية ولا داعيين لها بل يتبعانها فكيف يكونان علة على فرض الاكتفاء بمثل ذلك عند المشترطين ، ووجه بأنه ليس المراد بالرؤية مجرد وقوع البصر بل الرؤية القصدية بالتوجه والالتفات فهو مثل قعدت عن الحرب جبناً ولم يرتض

ذلك أبو حيان أيضاً ثم قال : لو قيل على مذهب المشترطين أن التقدير يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً فحذف العامل للدلالة عليه لكان إعراباً سائغاً ، وقيل : لعل الأظهر نصبهما على العلة للإراءة لوجود المقارنة والاتحاد في الفاعل فإن الله تعالى هو خالق الخوف والطمع ، وكون معنى قول النحاة لا بد أن يكون المفعول له فعل الفاعل أنه لا بد من كونه متصفاً به كالإكرام في قولك : جئتك إكراماً لك إن سلم فلا حجر من الانتصاب على التشبيه في المقارنة والاتحاد المذكور .

وتعقب بأن كون المعنى ما ذكر مما لا شبهة فيه وقد ذكره صاحب الانتصاف وغيره فإن الفاعل اللغوي غير الفاعل الحقيقي فالتوقف فيه وادعاء أنه لا حجر من الانتصاب على التشبيه مما لا وجه له ، وأنا أميل إلى عدم اشتراط الاتحاد في الفاعل لكثرة النصب مع عدم الاتحاد كما يشهد بذلك التتبع والرجوع إلى شرح الكافية للرضى ، والتأويل مع الكثرة مما لا موجب له ، وجوز أن يكون النصب هنا على المصدر أي تخافون خوفاً وتطمعون طمعاً على أن تكون الجملة حالاً ، وأولى منه أن يكونا نصباً على الحال أي خائفين وطامعين .

(145/602)

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مَاء ﴾ وقرأ غير واحد بالتخفيف ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ أي بسبب الماء ﴿ الأرض ﴾ بأن يخرج سبحانه به النبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع جل شأنه وحكمته سبحانه ، وقال الطيبي : لما كان ما ذكر تمثيلاً لإحياء الناس وإخراج الموتى وكان التمثيل لإدناء المتوهم المعقول وإراءة المتخيل في صورة المحقق ناسب أن تكون الفاصلة لقوم يعقلون .

﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء والأرض بِأَمْرِهِ ﴾ أي بقوله تعالى قوما أو بإرادته عز وجل ، والتعبير عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادي والأسباب ، وليس المراد بإقامتهما إنشاءهما لأنه قد بين حاله بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض ﴾ [الروم : 22] ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فإن ذلك من تتمات إنشائهما وإن لم يصرح به تعويلاً على ما ذكر في موضع آخر من قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان : 10] الآية بل قيامهما وبقاؤهما على ما هما عليه إلى أجلهما الذي أشير إليه بقوله تعالى فيما قبل : ﴿ مَّا خَلَقَ الله السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم : 8] .

ولما كان البقاء مستقبلاً باعتبار أواخره وما بعده نزول هذه الآية أظهرت هنا كلمة ﴿ إن ﴾ التي هي علم في الاستقبال .

والإمام ذهب إلى أن القيام بمعنى الوقوف وعدم النزول ثم قال على ما لخصه بعضهم :

ذكرت ﴿ إن ﴾ ههنا دون قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ البرق ﴾ [الروم : 24]

لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن العلم في الاستقبال وجعل مصدراً ليدل على

الثبوت ، وإراءة البرق لما كانت من الأمور المتجددة جيء بلفظ المستقبل ولم يذكر معه ما

يدل على المصدر اه ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ﴿ إِذْ ﴾

الأولى شرطية والثانية فجائية نائبة مناب الفاء في الجزاء لاشتراكهما في التعقيب .

والجملة الشرطية قيل : معطوفة على ﴿ أَن تَقُومَ ﴾ على تأويل مفرد كأنه قيل : ومن آياته

قيام السماء والأرض بأمره ثم خروجكم من قبوركم بسرعة إذا دعاكم ، "وصاحب

الكشف" يقول : إنها أقيمت مقام المفرد من حيث المعنى وأما من حيث الصورة فهي جملة

معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ ﴾ وذلك على أسلوب ﴿ مَّقَامُ إبراهيم

وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءامِناً ﴾ [آل عمران : 97] وفائدته ما سمعته قريباً ، وظاهر كلام بعض

الأفاضل أن العطف عليه ظاهر في عدم قصد عد ما ذكر آية .

واختار أبو السعود عليه الرحمة كون العطف من عطف الجمل وإن المذكور ليس من الآيات قال : حيث كانت آية قيام السماء والأرض بأمره تعالى متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث في الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به في الذكر أيضاً فقيل : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ الآية ، والكلام مسوق للأخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعدد آياته تعالى الدالة عليه غير منتظم في سلكها كما قيل كأنه قيل : ومن آياته قيام السماء والأرض على هيئتها بأمره عز وجل إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم إذا دعاكم أي بعد انقضاء الأجل في الأرض وأنتم في قبوركم دعوة واحدة بأن قال سبحانه : أيها الموتى اخرجوا فجأتم الخروج منها ، ولعل ما أشار إليه "صاحب الكشف" أدق وأبعد مغزى فتأمل ، ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ ﴾ متعلق بدعا و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية يكفي في ذلك إذا كان الداعي هو الله تعالى نفسه لا الملك بأمره سبحانه كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادي فطلع إلى لا بدعوة فإنه إذا جاء نهر الله جل وعلا بطل نهر معقل .

(148/602)

نعم جوز كون ذلك صفة لها وأن يكون حالاً من الضمير المنصوب ولا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها ، وقال ابن عطية : إن ﴿ مِنْ ﴾ عندي لانتهاء الغاية وأثبت ذلك سيبويه ، وقال أبو حيان : إنه قول مردود عند أصحابنا ، وظواهر الأخبار أن الموتى يدعون حقيقة للخروج من القبور ، وقيل : المراد تشبيه ترتب حصول الخروج على تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلى تجشم عمل بسرعة ترتب إجابه الداعي المطلع على دعائه ، ففي الكلام استعارة تمثيلية أو تخييلية ومكنية بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم متهيئين لذلك وإثبات الدعوة لهم قرينتها أو هي تصريحية تبعية في قوله تعالى : ﴿ دَعَاكُمْ ﴾ إلى آخرها ، ﴿ وثم ﴾ إما للتراخي الزماني أو للتراخي الرتبي ، والمراد عظم ما في المعطوف من إحياء الموتى في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه فلا ينافي قوله تعالى الآتي : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] وكونه أعظم من قيام السماء والأرض لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات وهو المقصود من خلق الأرض والسموات ، فاندفع ما قاله ابن المنير من أن مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا مع إن كون المعطوف في مثله أرفع درجة أكثري لا كلي كما صرح به الطيبي فلا مانع من اعتبار التراخي الرتبي لو لم يكن المعطوف أرفع درجة ، ويجوز حمل التراخي على مطلق البعد الشامل للزماني والرتبي .

وقرأ السبعة ما عدا حمزة .

(149/602)

والكسائي ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ بضم التاء وفتح الراء ، وهذه الآية ذكر أنها مما تقرأ على المصاب ، أخرج ابن أبي حاتم عن الأزهر بن عبد الله الجرازي قال : يقرأ على المصاب إذا أخذ ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء والأرض بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ وذكر الإمام ، وأبو حيان في وجه ترتيب الآيات وتذييل كل منهما بما ذيل كلاماً طويلاً إن احتجته فارجع إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(150/602)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾

هذه آية رابعة وهي كائنة في أعراض من أعراض الناس لا يخلو عنها أحد من أفرادهم ، إلا أنها أعراض مفارقة غير ملازمة فكانت دون الأعراض التي أقيمت عليها الآية الثالثة ولذلك ذكرت هذه الآية بعدها .

وحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانوناً يستردّ به قوة مجموعه العصَبي بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده فيعتريه شبه موت يخدر إدراكه ولا يعطل حركات أعضائه الرئيسية ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقداراً كافياً لاسترجاع قوته فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ في سورة البقرة (255) .

والمَنام مصدر ميمي للنوم أو هو اسم مصدر .

وقوله بالليل والنهار ﴾ متعلق بـ ﴿ منامكم .

﴾ والباء للظرفية بمعنى (في) فالناس ينامون بالليل ومنهم من ينام بالنهار في القائلة وبخاصة أهل الأعمال المضنية إذا استراحوا منها في منتصف النهار خصوصاً في البلاد الحارة أو في فصل الحر .

والابتغاء من فضل الله : طلب الرزق بالعمل لأن فضل الله الرزق ، وجعل هذا كناية عن الهبوب إلى العمل لأن الابتغاء يستلزم الهبوب من النوم ، وذلك آية أخرى لأنه نشاط القوة بعد أن خارت وفشلت .

ولكون ابتغاء الرزق من خصائص النهار أطلق هنا فلم يقيد بالليل والنهار .

ولك أن تجعل عدم تقييده بمثل ما قيد به ﴿ منامكم ﴾ للاستغناء بدلالة القيد الذي قبله بتقدير : وابتغاؤكم من فضله فيهما ، وقد تكلف صاحب "الكشاف" فجعل الكلام من

قبيل اللف والنشر ؛ على أن اللف وقع فيه تفريق ، ووجَّهه محشيِّه القزويني بأن التقديم للاهتمام بآية الليل والنهار .

(151/602)

وقد جعلت دلالات المنام والابتغاء من فضل الله ﴿ لقوم يسمعون لوجهين : أحدهما : أن هذين حالتان متعاورتان على الناس قد اعتادوهما فقلَّ من يتدبر في دلالتهما على دقيق صنع الله تعالى ؛ فمعظم الناس في حاجة إلى من يوقفهم على هذه الدلالة ويرشدهم إليها .

وثانيهما : أن في ما يسمعه الناس من أحوال النوم ما هو أشد دلالة على عظيم صنع الله تعالى مما يشعر به صاحبُ النوم من أحوال نومه ، لأن النائم لا يعرف من نومه إلا الاستعداد له وإلا أنه حين يهُبّ من نومه يعلم أنه كان نائماً ؛ فأما حالة النائم في حين نومه ومقدار تنبهه لمن يوقظه ، وشعوره بالأصوات التي تقع بقربه ، والأضواء التي تنتشر على بصره فتنبهه أو لا تنبهه ، كل ذلك لا يتلقاه النائم إلا بطريق الخبر من الذين يكونون أيقاظاً في وقت نومه .

فطريق العلم بتفاصيل أحوال النائمين واختلافها السمع ، وقد يشاهد المرء حال نوم غيره إلا أن عبرته بنومه الخاص به أشد ، فطريق السمع هو أعم الطرق لمعرفة تفاصيل أحوال النوم ، فلذلك قيل لقوم يسمعون .

﴿ وأيضاً لأن النوم يحول دون الشعور بالمسموعات بادىء ذي بدء قبل أن يحول دون الشعور بالمبصرات .

وأجريت صفة ﴿ يسمعون ﴾ على ﴿ قوم ﴾ للإيماء إلى أن السمع متمكّن منهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

ووجه جعل ذلك آيات لما ينطوي عليه من تعدد الدلالات بتعدد المستدلين وتولد دقائق تلك الآية بعضها عن بعض كما تقدم آنفاً .

ومعنى اللام في قوله ﴿ لقوم يسمعون ﴾ كما تقدم في معناه عند قوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الروم : 21] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

(152/602)

تلك آية خامسة وهي متعلقة بالإنسان وليست متصلة به ، فإن البرق آية من آيات صنع الله وهو من خلْق القوى الكهربائية النورانية في الأسحبة وجعلها آثاراً مشاهدة ، وكم من قوى أمثالها منبثة في العوالم العلوية لا تُشاهد آثارُها .

ومن الحكم الإلهية في كون البرق مرئياً أن ذلك يثير في النفوس خوفاً من أن يكون الله سلطه عقاباً وطمعاً في أن يكون أراد به خيراً للناس فيطمعون في نزول المطر ، ولذلك أعقبه بقوله ﴿ وينزِّل من السماء ماء ﴾ فإن نزول المطر مما يخطر بالبال عند ذكر البرق .

وقوله ﴿ من آياته ﴾ جار ومجرور يحتاج إلى تقدير كونٍ إن كان ظرفاً مستقراً ، أو إلى متعلَّق إن كان ظرفاً لغواً .

وموقع هذا الجار والمجرور في هذه الآية وارد على مثل مواقع أمثاله في الآيات السابقة واللاحقة الشبيهة بها ، وذلك مما يدعو إلى اعتبار ما يذكر بعد الجار والمجرور في معنى مبتدأ مخبَر عنه بالجار والمجرور المقدم عليه حملاً على نظائره ، فيكون المعنى : ومن ءاياته إراءته إياكم البَرق الخ .

فلذلك قال أئمة النحو : يجوز هنا جعل الفعل المضارع بمعنى المصدر من غير وجود (أن) ولا تقديرها ، أي من غير نصب المضارع بتقدير (أن) محذوفة ، وجعلوا منه قول عُروة بن الوَرْد :

وقالوا ما تشاء فقلت ألهو . . .

إلى الإصباح آثر ذي آثار

وقول طرفة:

ألا أيهذا الزاجري احضُر الوغى . . .

وجعلوا منه قوله تعالى ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] برفع ﴿ أعبد ﴾ في مشهور القراءات ، وقولهم في المثل : تسمع بالمعيديّ خيرٌ من أن تراه ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم "كلَّ يوم تطلُع فيه الشمس تعدِل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو تحمل عليها متاعه صدقة" وقوله فيه : "وتميط الأذى عن الطريق صدقة" رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(153/602)

ومن بديع الاستعمال تفنن هذه الآيات في التعبير عن معاني المصدر بأنواع صيغه الواردة في الاستعمال ، من تعبير بصيغة صريح المصدر تارة كقوله ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض ﴾ [الروم : 22] وقوله ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ [الروم : 23] ، وبالمصدر الذي ينسبك من اقتران ﴿ أن ﴾ المصدرية بالفعل الماضي ﴿ أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ [الروم : 21] واقترانها بالفعل المضارع ﴿ ومن ءاياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ [الروم : 25] ، وباسم المصدر تارة ﴿ ومن ءاياته منامكم بالليل والنهار ﴾ [الروم : 23] ومرة بالفعل المجرد المؤوّل بالمصدر ﴿ ومن آياته يريكم البرق .

﴿ ولك أن تجعل المجرور متعلقاً بـ ﴿ يريكم ﴾ وتكون ﴿ من ﴾ ابتدائية في موضع الحال من البرق ، وتكون جملة ﴿ يريكم البرق ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار ﴾ [الروم : 23] الخ .

فيكون تغيير الأسلوب لأن مناط هذه الآية هو تقرير الناس بها إذ هي غير متصلة بذواتهم فليس حظهم منها سوى مشاهدتها والإقرار بأنها آية بينة .

فهذا التقرير كالذي في قوله تعالى ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ [الرعد : 2] ، وليتأتى عطف ﴿ وينزل من السماء ماء ﴾ عليه لأنه تكملة لهذه الآية .

وقوله ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ مفعول لأجله معطوف عليه .

والمراد : خوفاً تخافونه وطمعاً تطمعونه .

فالمصدران مؤولان بمعنى الإرادة ، أي إرادة أن تخافوا خوفاً وتطمعوا .

وقد تقدم الكلام على البرق في قوله ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ في سورة الرعد (12) .

وتقدم هنالك أن ﴿ خوفاً ﴾ مفعول له و ﴿ طمعاً ﴾ كذلك وتوجيه ذلك .

وجعلت هذه الآية آيات لانطوائها على دقائق عظيمة في خلق القوى التي هي أسباب البرق ونزول المطر وخروج النبات من الأرض بعد جفافها وموتها .

ونيط الانتفاع بهذه الآيات بأصحاب صفة العقل لأن العقل المستقيم غير المشوب بعاهة العناد والمكابرة كافٍ في فهم ما في تلك المذكورات من الدلائل والحكم على نحو ما قرر في نظائره آنفاً .

وإجراء ﴿ يعقلون ﴾ على لفظ ﴿ قوم ﴾ للإيماء إلى ما تقدم ذكره آنفاً في مثله .

ومعنى اللام في قوله ﴿ لقوم يعقلون ﴾ مثل معنى أختها في قوله ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ [الروم : 21] .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ

ختمت الآيات بهذه الآية السادسة وهي التي دلت على عظيم القدرة على حفظ نظام المخلوقات العظيمة بعد خلقها ؛ فخلقُ السماوات والأرض آيةٌ مستقلة تقدمت ، وبقاء نظامهما على ممر القرون آية أخرى .

وموقع العبرة من هاته الآية هو أولها وهو أن تقوم السماء والأرض هذا القيام المتقن بأمر الله دون غيره .

فمعنى القيام هنا : البقاء الكامل الذي يشبه بقاء القائم غير المضطجع وغير القاعد من قولهم : قامت السوق ، إذا عظم فيها البيع والشراء .

وهذا هو المعبر عنه في قوله تعالى ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ [

فاطر : 41] وقوله ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ [الحج : 65] .

والأمر المضاف إلى الله هو أمره التكويني وهو مجموع ما وضعه الله من نظام العالم العلوي والسفلي ، ذلك النظامَ الحارس لهما من تطرق الاختلال بإيجاد ذلك النظام .

و ﴿ بأمره ﴾ متعلق بفعل ﴿ تقوم ، ﴾ والباء للسببية .

و ﴿ ثم ﴾ عاطفة الجملة على الجملة .

والمقصود من الجملة المعطوفة الاحتراس عما قد يتوهم من قوله ﴿ أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ من أبدية وجود السماوات والأرض ، فأفادت الجملة أن هذا النظام الأرضي يعتوره الاختلال إذا أراد الله انقضاء العالم الأرضي وإحضار الخلق إلى الحشر تسجيلاً على المشركين بإثبات البعث .

(155/602)

فمضمون جملة ﴿ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ ليس من تمام هذه الآية السادسة ولكنه تكملة وإدماج موجه إلى منكري البعث .

وفي متعلق المجرور في قوله ﴿ مِنَ الأَرْض ﴾ اضطراب ؛ فالذي ذهب إليه صاحب "الكشاف" أنه متعلق بـ ﴿ دعاكم ﴾ لأن ﴿ دعاكم ﴾ لما اشتمل على فاعل ومفعول

فالمتعلق بالفعل يجوز أن يكون من شؤون الفاعل ويجوز أن يكون من شؤون المفعول على حسب القرينة ، كما تقول : دعوت فلاناً من أعلى الجبل فنزل إليّ ، أي دعوته وهو في أعلى الجبل .

وهذا الاستعمال خلاف الغالب ولكن دلت عليه القرينة مع التفصي من أن يكون المجرور متعلقاً بـ ﴿ تخرجون ﴾ لأن ما بعد حرف المفاجأة لا يعمل فيما قبلها ، على أن في هذا المنع نظراً .

ولا يجوز تعليقه بـ ﴿ دعوة ﴾ لعدم اشتمال المصدر على فاعل ومفعول ، وهو وجيه وكفاك بذوق قائله .

وأقول : قريب منه قوله تعالى ﴿ أولئك يُنادَوْن من مكان بعيد ﴾ [فصلت : 44] .

و ﴿ مِن ﴾ لابتداء المكان ، والمجرور ظرف لغو .

ويجوز أن يكون المجرور حالاً من ضمير النصب في ﴿ دَعَاكم ﴾ فهو ظرف مستقر .

ويجوز أن يكون ﴿ من الأرض ﴾ متعلقاً بـ ﴿ تخرجون ﴾ قدم عليه .

وهذا ذكر في "مغني اللبيب" أنه حكاه عنهم أبو حاتم في كتاب "الوقف" ، وهذا أحسن وأبعد عن التكلف ، وعليه فتقديم المجرور للاهتمام تعريضاً بخطئهم إذ أحالوا أن يكون لهم خروج من الأرض عن بعد صيرورتهم فيها في قولهم المحكي عنهم بقوله تعالى ﴿ وقالوا أإذا ضَلَلْنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] وقولهم

﴿ أإذا كنّا تُراباً وءاباؤنا أئنّا لمخرجون ﴾ [النمل : 67] .

وأما قضية تقديم المعمول على ﴿ إذا ﴾ الفجائية فإذا سلم عدم جوازه فإن التوسع في المجرور والمظروف من حديث البحر ، فمن العجب كيف سدّ باب التوسع فيه صاحب "مغني اللبيب" في الجهة الثانية من الباب الخامس .

(156/602)

وجيء بحرف المفاجأة في قوله ﴿ إذا أنتم تخرجون ﴾ لإفادة سرعة خروجهم إلى الحشر كقوله ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : 13 ، 14] و ﴿ إذا ﴾ الفجائية تقتضي أن يكون ما بعدها مبتدأ .

وجيء بخبر المبتدأ جملة فعلية لإفادة التقوّي الحاصل من تحمل الفعل ضمير المبتدأ فكأنه أعيد ذكره كما أشار إليه صاحب "المفتاح" .

وجيء بالمضارع لاستحضار الصورة العجيبة في ذلك الخروج كقوله ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ [يس : 51] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(157/602)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

كذلك من الآيات العجيبة الدالة على قدرة الله ﴿ مَنَامُكُم . . ﴾ [الروم : 23] فحتى الآن لم يكشف علماء وظائف الأعضاء والتشريح عن سِرِّ النوم ، ولم يعرفوا – رغم ما قاموا به من تجارب – ما هو النوم . لكن هو ظاهرة موجودة وغالبة لا يقاومها أحد مهما أُوتِي من القوة ، ومهما حاول السهر دون أنْ ينام ، لا بُدَّ أن يغلبه النوم فينام ، ولو على الحصى والقتاد ، ينام وهو واقف وهو يحمل شيئاً لا بُدَّ أنْ ينام على أية حالة .

وفلسفة النوم ، لا أن نعرف كيف ننام ، إنما أن نعرف لماذا ننام ؟ قالوا : لأن الإنسان مُكوَّن من طاقات وأجهزة لكل منها مهمة ، فالعين للرؤية ، والأذن للسمع . . الخ ، فساعة تُجهد أجهزة الجسم تصل بك إلى مرحلة ليستْ قادرة عندها على العمل ، فتحتاج أنت – بدون شعورك وبأمر غريزي – إلى أن يرتاح كأنها تقول لك كفى لم تَعُد صالحاً للعمل ولا للحركة فنم .

ومن عجيب أمر النوم أنه لا يأتي بالاستدعاء ؛ لأنك قد تستدعي النوم بشتى الطرق فلا يطاوعك ولا تنام ، فإنْ جاءك هو غلبك على أيِّ حال كنتَ ، ورغم الضوضاء والأصوات المزعجة تنام . لذلك يقول الرجل العربي : النوم طيف إنْ طلبتَه أعْنَتك ، وإنْ

طلبك أراحك .

ولأهل المعرفة نظرة ومعنى كوني جميل في النوم ، يقولون في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 44] فكل ما في الوجود يُسبِّح حتى أبعاض الكافر وأعضاؤه مُسبحة ، إنما إرادته هي الكافرة ، وتظل هذه الأبعاض خاضعة لإرادة صاحبها إلى أنْ تنفكّ عن هذه الإرادة يوم القيامة ، فتشهد عليه بما كان منه ، وبما أجبرها عليه من معصية الله .

(158/602)

وسبق أنْ مثَّلْنَا لذلك بقائد الكتيبة حين يطيعه جنوده ولو في الخطأ ؛ لأن طاعته واجبة إلى أنْ يعودوا إلى القائد الأعلى فيتظلمون عنده ، ويخبرونه بما كان من قائدهم .

وذكرنا أن أحد قواد الحرب العالمية أراد أنْ يستخدم خدعة يتفوق بها على عدوه ، رغم أنها تخالف قانون الحرب عندهم ، فلما أفلحتْ خُطّته وانتصر على عدوه كرَّموه على اجتهاده ، لكن لم يَفُتهم أنْ يعاقبوه على مخالفته للقوانين العسكرية ، وإنْ كان عقاباً صُورياً لتظل للقانون مهابته .

كذلك أبعاض الكافر تخضع له في الدنيا ، وتشهد عليه يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] .

مع أن هذه الجوارح هي التي نطقتْ بكلمة الكفر ، وهي التي سرقتْ . . الخ ؛ لأن الله أخضعها لإرادة صاحبها ، أما يوم القيامة فلا إرادةَ له على جوارحه : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . ﴾ [فصلت : 21] لذلك يُطمئننا الحق سبحانه بقوله : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

فإذا ما نام الكافر ارتاحتْ منه أبعاضه وجوارحه ، ارتاحتْ من مرادات الشر عنده ؛ لذلك يُحدِّثنا إخواننا الذين يحجُّون بيت الله يقولون : هناك النوم فيه بركة ، ويكفيني أقلّ وقت لارتاح ، لماذا ؟ لأن فكرك في الحج مشغول بطاعة الله ، ووقتك كله للعبادة ، فجوارحك في راحة واطمئنان لم ترهقها المعصية ؛ لذلك يكفيها أقل وقت من النوم لترتاح .

وفي ضوء هذا الفهم نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : " تنام عيني ولا ينام قلبي " لأنه صلى الله عليه وسلم حياته كلها للطاعة ، فجوارحه مستريحة ، فيكفيه من النوم مجرد الإغفاءة .

وفي العامية يقول أهل الريف : نوم الظالم عبادة ، لماذا ؟ لأنه مدة نومه لا يأمر جوارحه بشرٍّ ، ولا يُرغمها على معصية فتستريح منه أبعاضه ، ويستريح الناس والدنيا من شره ، وأيّ عبادة أعظم من هذه ؟

ونلحظ في هذه الآية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مِّن فَضْلِهِ . . . ﴾ [الروم : 23] فجعل الليل والنهار محلاً للنوم ، ولابتغاء الرزق ، وفي آية أخرى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [القصص : 73] فجمعهما معاً ، ثم ذكر تفصيل ذلك على الترتيب ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [القصص : 73] أي : في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] أي : في النهار .

وهذا أسلوب يُعرف في اللغة باللفِّ والنشر ، وهو أنْ تذكر عدة أشياء محكوماً عليها ، ثم تذكر بعدها الحكمَ عليها جملة ، وتتركه لذكاء السامع ليُرجِع كل حكم إلى المحكوم عليه المناسب .

ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبي وجَفْنِي واللسَان وخَالِقي . . . رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِر وغَفُور

فجمع المحكوم عليه في ناحية ، ثم الحكم في ناحية ، فجَمْع المحكوم عليه يسمى لَفّاً ، وجَمْع الحكم يُسمى نَشْراً .

وهاتان الآيتان من الآيات التي وقف أمامها العلماء ، ولا نستطيع أنْ نخرج منهما بحكم إلا

بالجمع بين الآيات ، لا أن نفهم كل آية على حدة ، فنلحظ هنا في الآية التي معنا ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مِّن فَضْلِهِ . . . . ﴾ [الروم : 23] أن الله تعالى جعل كلاً من الليل والنهار محلاً للنوم ، ومحلاً للسعي .

(160/602)

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [القصص : 73] ثم قال ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] ولم يقل (فيه) ويجب هنا أنْ نتنبه ، فهذه آية كونية أن يكون الليل للنوم والسكون والراحة ، والنهار للعمل وللحركة ، فلا مانع أن نعمل بالليل أيضاً ، فبعض الأعمال لا تكون إلا بليل ، كالحراس ورجال الأمن والعسس والخبازين في المخابز وغيرهم ، وسكن هؤلاء يكون بالنهار ، وبهذا الفهم تتكامل الآيات في الموضوع الواحد .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وابتغاؤكم مِّن فَضْلِهِ . . . ﴾ [الروم : 23] يعني : طلب الرزق والسَّعْي إليه يكون في النهار ويكون في الليل ، لكن جمهرة الناس يبتغونه بالنهار ويسكنون بالليل ، والقلة على عكس ذلك .

فإنْ قلتَ : هذا عندنا حيث يتساوى الليل والنهار ، فما بالك بالبلاد التي يستمر ليلها مثلاً

ثلاثة أشهر ، ونهارها كذلك ، نريد أن نفسر الآية على هذا الأساس ، هل يعملون ثلاثة أشهر وينامون ثلاثة أشهر ؟ أم يجعلون من أشهر الليل ونهاراً ، ومن أشهر النهار أيضاً ليلاً ونهاراً ؟ لا مانع من ذلك ؛ لأن الإنسان لا يخلو من ليل للراحة ، ونهار للعمل أو العكس ، فكل من الليل والنهار ظرف للعمل أو للراحة .

لذلك ، فالحق – تبارك وتعالى – يمتنُّ علينا بتعاقُب الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : 71] وذيَّل الآية بأفلا تسمعون ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 72] .

(161/602)

قالوا : لأن النهار محلُّ الرؤية والبصر ، أما الليل فلا بصرَ فيه ، فيناسبه السمع ، والأذن هي الوسيلة التي تؤدي مهمتها في الليل عندما لا تتوفر الرؤية .

وفي موضع آخر : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] فالليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، هذا في الزمن العادي

الذي نعيشه ، أما في بدْء الخَلْق فأيهما كان أولاً ، ثم خلفه الآخر ؟

فإنْ قلت : إن الليل جاء أولاً ، فالنهار بعده خِلْفة له ، لكن الليل في هذه الحالة لا يكون خِلفة لشيء ، والنص السابق يوضح أن كلاً منهما خِلْفة للآخر ، إذن : فما حَلُّ هذا اللغز ؟

مفتاح هذه المسألة يكمن في كروية الأرض ، ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر في بداية البعثة بهذه الحقيقة لما صدّقوه ، كيف ونحن نرى مَنْ ينكر هذه الحقيقة حتى الآن .

والحق – سبحانه وتعالى – لا يترك قضية كونية كهذه دون أنْ يمسَّها ولو بلُطْف وخِفة ، حتى إذا ارتقت العقول تنبهتْ إليها ، فلو أن الأرض مسطوحة وخلقَ الله تعالى الشمس في مواجهة الأرض لاستطعنا أنْ نقول : إن النهار جاء أولاً ، ثم عندما تغيب الشمس يأتي الليل ، أما إنْ كانت البداية خلْق الأرض غير مواجهة للشمس ، فالليل في هذه الحالة أولاً ، ثم يعقبه النهار ، هذا على اعتبار أن الأرض مسطوحة .

وما دام أن الخالق – عز وجل – أخبر أن الليل والنهار كل منهما خِلْفة للآخر ، فلا بُدَّ أنه سبحانه خلق الأرض على هيئة بحيث يوجد الليل ويوجد النهار معاً ، فإذا ما دارت دورة الكون خلف كل منهما الآخر ، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، فما واجه الشمس منها صار نهاراً ، وما لم يواجه الشمس صار ليلاً .

لذلك يقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .

فالحق سبحانه ينفي هنا أنْ يسبقَ الليلُ النهارَ ، فلماذا ؟

قالوا : يعتقدون أن الليلَ سابقُ النهار ، أَلَا تراهم يلتمسون أول رمضان بليله لا بنهاره ؟ وما داموا يعتقدون أن الليل سابق النهار ، فالمقابل عندهم أن النهار لا يسبق الليل ، هذه قضية أقرَّها الحق سبحانه ؛ لذلك لم يعدل فيها شيئاً إنما نفى الأولى ﴿ وَلاَ الليل سَابِقُ النهار . . . ﴾ [يس : 40] .

إذن : نفى ما كانوا يعتقدونه ﴿ وَلاَ الليل سَابِقُ النهار . . . ﴾ [يس : 40] وصدَّق على ما كانوا يعتقدونه من أن النهار لا يسبق الليل . فنشأ عن هذه المسألة : لا الليل سابق النهار ، ولا النهار سابق الليل ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا وُجدوا في وقت واحد ، فما واجه الشمسَ كان نهاراً ، وما لم يواجه الشمس كان ليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً . . . ﴾ .

نلحظ في تذييل الآيات مرة يقول سبحانه : ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : 21] ومرة ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم : 22] ومرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم : 23] أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : 24] فتختلف الأدوات الباحثة في الآيات .

والبعض يظن أن العقل آلةٌ يُعملها في كل شيء ، فالعقل هو الذي يُصدِّق أو لا يُصدِّق ، والحقيقة أنك تستعمل العقل في مسألة الدين مرة واحدة تُغنيك عن استعماله بعد ذلك ، فأنت تستعمل العقل في أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فإنْ هداك العقل إلى أن الكون له إله قادر حكيم خالق لا إله إلا هو ووثقتَ بهذه القضية ، فإنها لا تطرأ على تفكيرك مرة أخرى ، ولا يبحثها العقل بعد ذلك ، ثم إنك في القضايا الفرعية تسير فيها على وَفْق قضية الإيمان الأولى فلا تحتاج فيها للعقل .

(163/602)

لذلك العقلاء يقولون : العقل كالمطية توصلك إلى حضرة السلطان ، لكن لا تدخل معك عليه ، وهكذا العقل أوصلك إلى الإيمان ثم انتهى دوره ، فإذا ما سمعتَ قال الله فأنت اثق من صِدْق القول دون أنْ تُعمل فيه العقل .

وحين يقول سبحانه : يعقلون يتفكرون يعلمون ، حين يدعوك للتدبُّر والعِظَة إنما ينبه فيك أدوات المعارضة لتتأكد ، والعقل هنا مهمته النظر في البدائل وفي المقدمات والنتائج .

كما لو ذهبتَ مثلاً لتاجر القماش فيعرض عليك بضاعته : فهذا صوف أصلي ، وهذا قطن خالص ، ولا يكتفي بذلك إنما يُريك جودة بضاعته ، فيأخذ (فتلة) من الصوف ، و (

فتلة) من القطن ، ويشعل النار في كل منهما لترى بنفسك ، فالصوف لا ترعى فيه النار على خلاف القطن .

إذن : هو الذي يُنبِّه فيك وسائل النقد ، ولا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته ، أما الآخر الذي لا يثق في جودة بضاعته فإنه يلجأ إلا ألاعيب وحيل يغري بها المشتري ليغُرّه .

كذلك الخالق – عز وجل – يُنبِّهنا إلى البحث والتأمل في آياته فيقول : تفكَّروا تدبَّروا ، تعقَّلوا ، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم ، وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه ، وهو الإيمان .

والبرق : ظاهرة من ظواهر فصل الشتاء ، حيث نسمع صوتاً مُدوِّياً نسميه الرعد ، بعد أن نرى ضوءاً شديداً يلمع في الجو نسميه (برق) ، وهو عامل من عوامل كهربة الجو التي توصَّل إليها العلم الحديث ، لكن قبل ذلك كان الناس عندما يروْن البرق لا يفهمون منه إلا أحد أمرين : إما أنْ يأتي بصاعقة تحرقهم ، أو ينزل عليهم المطر ، فيخافون من الصاعقة ويرجون المطر .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً . . . ﴾ [الروم : 24]

ليظل العبد دائماً مع ربه بين الخوف والرجاء .

لكن أكُلّ الناس يرجون المطر ؟ هَبْ أنك مسافر أو مقيم في بادية ليس لك كِنٌّ تكِنُّ فيه ، ولا مأوى يأويك من المطر ، فهذا لا يرجو المطر ولا ينتظره ، لذلك من رحمته تعالى أن يغلب انفعال الطمع في الماء الذي به تحيا الأرض بالنبات .

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا . . . ﴾ [الروم : 24] وكلمة السماء لها مدلولان : مدلولٌ غالب ، وهي السماوات السبع ، ومدلول لُغوي ، وهي كل ما علاَكَ فأظلَّك ، وهذا هو المعنى المراد هنا ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً . . . ﴾ [الروم : 24] لأن المطر إنما ينزل من السحاب ، فالسماء هنا تعني : كل ما علاك فأظلَّك .

ولو تأملتَ الماء الذي ينزل من السماء لوجدتَّه من سحاب متراكم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ . . . ﴾ [النور : 43] .

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كيفية تكوُّن السُّحُب ، وأنها نتيجة لبخر الماء ، لذلك من حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الأرض ماءً والربع يابسة ، ذلك لتتسع رقعة بَخْر الماء ، فكأن الثلاثة الأرباع جعلت لخدمة الرُّبع ، وليكفي ماء المطر سكان اليابسة .

وبيَّنا أهمية اتساع مسطح الماء في عملية البخر ، بأنك حين تترك مثلاً كوباً من الماء على المنضدة لمدة طويلة يظل كما هو ، ولو نَقُص منه الماء لكان قليلاً ، أمّا لو سكبتَ ماء الكوب

على أرض الغرفة مثلاً فإنه يجفّ في عدة دقائق لماذا ؟ لأن مسطح الماء اتسع فكَثُر الماء المتبخِّر .

(165/602)

ومثَّلْنا لتكوُّن السُّحُب بعملية التقطير التي نُجريها في الصيدليات لنحصل منها على الماء النقي المعقم ، وهذه تقوم على نظرية استقبال بخار الماء من الماء المغلي ، ثم تمريره على سطح بارد فيتكثف البخار مُكوِّناً الماء الصافي ، إذن : فأنت حينما تستقبل ماء المطر إنما تستقبل ماءً مقطراً في غاية الصفاء والنقاء ، دون أن تشعر أنت بهذه العملية ، ودون أن نُكلِّفك فيها شيئاً .

وتأمل هذه الهندسة الكونية العجيبة التي ينشأ عنها المطر ، فحرارة الشمس على سطح الأرض تُبخِّر الماء بالحرارة ، وفي طبقات الجو العليا تنخفض الحرارة فيحدث تكثُّف للماء ويتكوَّن السحاب ، ومن العجيب أننا كلما ارتفعنا 30 متراً عن الأرض تقل الحرارة درجة ، مع أننا نقترب من الشمس ؛ ذلك لأن الشمس لا تُسخِّن الجو ، إنما تُسخِّن سطح الأرض ، وهو بدوره يعطي الحرارة للجو ؛ لذلك كلما بَعُدنا عن الأرض قلَّتْ درجة الحرارة .

ومن حكمة الله أنْ جعل ماء الأرض الذي يتبخر منه الماء العَذْب جعله مالحاً ؛ لأن

ملوحته تحفظه أنْ يأسن ، أو يعطن ، أو تتغير رائحته ، تحفظه أن تنمو به الطفيليات الضارة ، وليظلّ على صلاحه ؛ لأنه مخزن للماء العذب الذي يروي بعذوبته الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض . . . ﴾ .

السماء هنا بمعنى السماوات السبع التي تقوم بلا عَمَد ، وقلنا : إن الشيء الذي يعلوك إما أنْ يُحمل على أعمدة ، وإما أنْ يُشدَّ إلى أعلى ، مثل الكبارى المعلقة مثلاً ، وكذلك السماء سقف مرفوع لا نرى له أعمدة . إذن : لا تبقى إلا الوسيلة الأخرى ، وهي أن الله تعالى ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . . ﴾ [الحج : 65] فهي قائمة بأمره .

(166/602)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ . . . ﴾ [الروم : 25] لا يهتز لها نظام أبداً ، ولا تجد فيها فروجاً ، لأنها مُحْكَمة البناء ، وانظر إليها حين صفاء السماء وخُلوّها من السحب تجدها ملساء ذات لون واحد على اتساعها ، أيستطيع أحد من رجال الدهانات أن يطلي لنا مثل هذه المساحة بلون واحد لا يختلف ؟

وإذا أخذنا السماء على أنها كُلُّ ما علاك فأظلَّك ، فانظر إلى الشمس والقمر والنجوم

والكواكب ، وكيف أنها تقوم بأمر الله خالقها على نظام دقيق لا اختلالَ فيه ، فلم نَر مثلاً كوكباً اصطدم بآخر ، ولا شيئاً منها خرج عن مساره .

وصدق الله تعالى ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] فلكل منها سرعة ، ولكل منها مداره الخاص ونظام بحسبان ؛ ذلك لأنها تقوم بأمر الله وقدرته تعالى فهي منضبطة تؤدي مهمتها دون خلل ، ودون تخلّف .

فمعنى ﴿ تَقُومَ . . . ﴾ [الروم : 25] يعني : تظل قائمة على حالها دون فساد ، وهو فعل مضارع دالٌّ على استمرار . وحين تتأمل : قبل أن يخترع الإنسان المجاهر والميكروسكوبات لم نكن نرى من المجموعة الشمسية غير الشمس ، فلما اخترعوا المجهر رأينا الكواكب الأخرى التي تدور حولها .

والعجيب أنها لا تدور في دوائر متساوية ، إنما في شكل إهليلي ، يتسع من ناحية ، ويضيق من ناحية ، وهذه الكواكب لها دورة حول الشمس ، ودورة أخرى حول نفسها . فالأرض مثلاً لها مدار حول الشمس ينشأ عنه الفصول الأربعة ، ولها دورة حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار ، وكل هذه الحركة المركبة تتم بنظام دقيق محكم منضبط غاية الانضباط .

وهذه الكواكب تتفاوت في قُرْبها أو بُعْدها عن الشمس ، فأقربها من الشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المشتري ، ثم المريخ ، ثم زحل ، ثم أورانوس ، ثم نبتون ، ثم أبعدها

عن الشمس بلوتو . ولكل منها مداره الخاص حول الشمس وتسمى (عام) ، ودورة حول نفسه تسمى (يوم) .

(167/602)

وعجيب أن يوم الزهرة ، وهو ثاني كوكب من الشمس يُقدَّر ب 44 يوماً من أيام الأرض ، في حين أن العام بالنسبة لها يُقدَّر ب 25 يوماً من أيام الأرض ، فالعام أقل من اليوم ، كيف ؟ قالوا : لأن هذه دورة مستقلة ، وهذه دورة مستقلة ، فهي سريعة في دورانها حول الشمس ، وبطيئة في دورانها حول نفسها .

ولو علمتَ أن في الفضاء وفي كون الله الواسع مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية في (سكة التبَّانة) ، وهذا كله في المجرة التي نعرفها – لو علمت ذلك لتبيَّن لك عظَم هذا الكون الذي لا نعرف عنه إلا القليل ؛ لذلك حين تقرأ :

﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] فاعلم أنها مسألة لا نهاية لها ولا حدودَ في علمنا وفي عقولنا ، لكن لها نهاية عند الله .

ولا أدلَّ على انضباط حركة هذه الكونيات من انضباط موعد الكسوف أو الخسوف الذي يحسبه العلماء فيأتي منضبطاً تماماً ، وهم يبنون حساباتهم على حركة الكواكب

ودورانها ؛ لذلك نقول لمن يكابر حتى الآن ويقول بعدم دوران الأرض : عليك أن تعترف إذن أن هؤلاء الذين يتنبأون بالكسوف والخسوف يعلمون الغيب . فالأقرب – إذن – أن نقول : إنها لله الذي خلقها على هذه الهيئة من الانضباط والدقة ، فاجعلها لله بدل أنْ تجعلها للعلماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ . . . ﴾ [الروم : 25] معنى ﴿ دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ . . . ﴾ [الروم : 25] المراد النفخة الثانية ، فالأولى التي يقول الله عنها : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس : 29] والثانية يقول فيها : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : 53] .

(168/602)

فالأولى للموت الكلي ، والثانية للبعث الكلي ، ولو نظرت إلى هاتين النفختين وما جعل الله فيهما من أسرار تلتقي بما في الحياة الدنيا من أسرار لوجدتَ عجباً .

فكل لحظة من لحظات الزمن يحدث فيها ميلاد ، ويحدث فيها موت ، فنحن مختلفون في مواليدنا وفي آجالنا ، أما في الآخرة فالأمر على الاتفاق ، فالذين اختلفوا في المواليد

سيتفقون في البعث ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : 53] .

والذين اختلفوا في الموت سيتفقون في الخمود : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس : 29] فالميلاد يقابله البعث ، والموت يقابله الخمود . إذن : اختلاف هذه يعالج اتفاق هذه ، واتفاق هذه يعالج اختلاف هذه ؛ لذلك يقول : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع . . . ﴾ [التغابن : 9] .

والنفخة الثانية يؤديها إسرافيل بأمر الله ؛ لأن الحق – سبحانه وتعالى – يزاول أشياء بذاته ، ولا نعلم منها إلا أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان وسَّواه بيده ، كما قال سبحانه : ﴿ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . . ﴾ [ص : 75] أما غير ذلك فهو سبحانه يزاول الأشياء بواسطة خَلْقه في كل مسائل الكونيات .

تأمل مثلاً : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا . . . ﴾ [الزمر : 42] فالمتوفِّي هنا الله عز وجل ، وفي موضع آخر : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ . . . ﴾ [السجدة : 11] فنقلها إلى ملَك الموت ، وفي موضع آخر : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا . . . ﴾ [الأنعام : 61] فنقلها إلى رسل الموت من الملائكة ، وهم جنود لملَك الموت .

وبيان ذلك أنه سبحانه نسب الموت لنفسه أولاً ؛ لأنه صاحب الأمر الأعلى فيه ، فيأمر به ملَك الموت ، وملَك الموت بدوره يأمر جنوده ، إذن : فمردُّها إلى الله .

(169/602)

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : 25] أي : حين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء ، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجأة ، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة ، ميلاد الدنيا لم يكُنْ فجأة ، بل على مهل ، فالمرأة قبل أنْ تلد نشاهد حملها عدة أشهر ، وتعاني هي آلام الحمل عدة أشهر ، فلا فجأة إذن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(170/602)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

غَلَبُه النومِ بغيرِ اختيارِ صاحبه ثم انتباهُه مِنْ غير اكتسابٍ له بوُسْعِه يدلُّ على موته وبَعْثِهِ بعد ذلك وقتَ نشوره . ثم فى حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه ، وعلى أوصافٍ كثيرة

أمره . . كذلك الميت فى قبره . اللَّهُ أعلمُ كيف حاله فى أمره ، وما يلقاه من خيره وشرّه ، ونفعه وضرّه ؟

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)

يُلْقِي في القلوب من الرجاءِ والتوقع فى الأمور ، ثم يختلف بهم الحال ؛ فمِنْ عبدٍ يحصلُ مقصودُه . ومِنْ آخر لا يتفق مرادُه .

والأحوال اللطيفة كالبروق ، وقالوا : إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار ، فاللوائح فى أوائل العلوم ، واللوامع من حيث الفهوم ، والطوالع من حيث المعارف ، والشوارق من حيث التوحيد .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25)

يُفْنِي هذه الأدوار ، ويُغَيِّر هذه الأطوار ، ويبدّل أحوالاً غير هذه الأَحوال ؛ إماتةٌ ثم إحياءٌ ، وإعادةٌ وقبلها إبداءٌ وقبرٌ ثم نَشْر ، ومعاتبةٌ فى القبر ثم محاسبةٌ بعد النَّشْرِ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 113.114 ﴾

(171/602)

قوله تعالى ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر تصرفه في الظرف وبعض المظروف من الإنس والجن ، ذكر قهره للكل فقال : ﴿ وله ﴾ أي وحده بالملك الأتم ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ أي كلهم ، وأشار إلى الملك بقوله : ﴿ كلٌّ له ﴾ أي وحده .

ولما كان انقياد الجمع مستلزماً لانقياد الفرد دون عكسه جمع في قوله : ﴿ قانتون ﴾ أي مخلصون في الانقياد ليس لأنفسهم ولا لمن سواه في الحقيقة والواقع تصرف بوجه ما إلا بإذنه ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : مطيعون طاعة الإرادة وإن عصوا أمره في العبادة – نقله عنه البغوي وغيره ورجحه الطبري وهو معنى ما قلت .

ولما كان هذا معنى يشاهده كل أحد في نفسه مع ما جلى سبحانه من عرائس الآيات الماضيات ، فوصل الأمر في الوضوح إلى حد عظيم قال : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي

يبدأ الخلق ﴾ أي على سبيل التجديد كما تشاهدون ، وأشار إلى تعظيم الإعادة بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم يعيده ﴾ أي بعد أن يبيده .

(172/602)

ولما كان من المركوز في فطر جميع البشر أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه قال : ﴿ وهو ﴾ أي وذلك الذي ينكرونه من الإعادة ﴿ أهون عليه ﴾ خطاباً لهم بما الفوه وعقلوه ولذلك أخر الصلة لأنه لا معنى هنا للاختصاص الذي يفيده تقديمها .

ولما كان هذا إثماً هو على طريق التمثيل لما يخفى عليهم بما هو جلي عندهم ، وكل من الأمرين بالنسبة إلى قدرته على حد سواء لا شيء في علمه أجلى من آخر ، ولا في قدرته أولى من الآخر ، قال مشيراً إلى تنزيه نفسه المقدسة عما قد يتوهمه بعض الأغبياء من ذلك : ﴿ وله ﴾ أي وحده ﴿ المثل الأعلى ﴾ أي الذي تنزه عن كل شائبة نقص ، واستولى على كل رتبة كمال ، وهو أمره الذي أحاط بكل مقدور ، فعلم به إحاطته هو سبحانه بكل معلوم ، كما تقدم في البقرة في شرح المثل

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] .

(173/602)

ولما كان الخلق لقصورهم مقيدين بما لهم به نوع مشاهدة قال : ﴿ في السماوات والأرض ﴾ اللتين خلقهما ولم تستعصيا عليه ، فكيف يستعصي عليه شيء فيهما ، وقد قالوا : إن المراد بالمثل هنا الصفة ، وعندي أنه يمكن أن يكون على حقيقته تقريباً لعقولنا ، فإذا أردنا تعرفه سبحانه في الملك مثلنا بأعلى ما نعلم من ملوكنا فنقول : الاستواء على العرش مثل للتدبير والتفرد بالملك كما يقال في ملوكنا : فلان جلس على سرير الملك ، بمعنى : استقل بالأمر وتفرد بالتدبير وإن لم يكن هنا سرير ولا جلوس ، وإذا ذكر بطشه سبحانه وأخذه لأعدائه في نحو قوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ [الفتح : 10] ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ [البروج : 12] مثلناه بما لو قهر سلطان أعدائه بحزمه وصحة تدبيره وكثرة جنوده فقلنا " محق سيفه أعداءه " فأطلقنا سيفه على ما ذكر من قوته ، وإذا قيل : تجري بأعيننا ، ونحو ذلك علمنا أنه مثل ما نقول إذا رأينا ملكاً حسن التدبير لا يغفل عن شيء من أحوال رعيته فقلنا " هو في غاية اليقظة " فأطلقنا اليقظة التي هي ضد النوم على حسن النظر وعظيم التدبير وشمول العلم ، وهذه تفاصيل مما قدمت أنه مثله ، وهو أمره المحيط الذي انجلى لنا به غيب ذاته سبحانه ، وهكذا ما جاء من أمثاله نأخذ من العبارة روحها فنعلم أنه المراد ، وأن ذلك الظاهر ما ذكر إلا تقريباً للأفهام النقيسة على ما نعرف من أعلى الأمثال ، والأمر بعد ذلك أعلى مما نعلم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وهو ﴾ أي وحده

﴿ العزيز ﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً كان له في غاية الانقياد كائناً ما كان ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً أتقنه فلم يقدر غيره على التوصل إلى نقص شيء منه ، ولا تتم حكمة هذا الكون على هذه الصورة إلا بالبعث ، بل هو محط الحكمة الأعظم ليصل كل ذي حق إلى حقه بأقصى التحرير على ما تتعارفه وإلا لكان الباطل أحق من الحق وأكثر ، فكان عدم هذا الموجود خيراً من وجوده وأحكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 618.617 ﴾

(174/602)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) ﴾

لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر ، والوحدانية التي هي الأصل الأول ، أشار إليها بقوله : ﴿ وَلَهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ يعني لا شريك له أصلاً لأن كل من في السموات وكل من في الأرض ، ونفس السموات والأرض له وملكه ، فكل له منقادون قانتون ، والشريك يكون منازعاً مماثلاً ، فلا شريك له أصلاً ثم ذكر المدلول

الآخر ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ أي في نظركم الإعادة أهون من الإبداء لأن من يفعل فعلاً أولاً يصعب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون ، وقيل المراد هو هين عليه كما قيل في قول القائل الله أكبر أي كبير ، وقيل المراد هو أهون عليه أي الإعادة أهون على الخالق من الإبداء لأن في البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحماً ثم عظماً ثم يخلق بشراً ثم يخرج طفلاً يترعرع إلى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله ، وأما في الإعادة فيخرج بشراً سوياً بكن فيكون أهون عليه ، والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لأن في البدء خلق الأجزاء وتأليفها والإعادة تأليف ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ، ولنبين هذا فنقول الهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل ، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى ، فإذا قال قائل إن الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضع إلى موضع وسلم السامع له ذلك ، فإذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون ذلك كلاماً معقولاً مبقي على حقيقته .

(175/602)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى فِى السموات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ أي قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران أحدهما : هو ما يكون في الآخر تعب كما يقال إن نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل والآخر : هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب في الآخر فقوله : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ إشارة إلى أن كونه أهون بالمعنى الثاني لا يفهم منه الأول وههنا فائدة ذكرها صاحب "الكشاف" وهي أن الله تعالى قال في موضع آخر : ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 21] وقال ههنا : ﴿ وهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا ، وذلك لأن المعنى الذي قال هناك إنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال : ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ يعني لا على غيري ، وأما ههنا المعنى الذي ذكر أنه أهون هو الإعادة والإعادة على كل مبدىء أهون فقال : وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر ، فالتقديم هناك كان للحصر ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى فِى السموات والأرض ﴾ على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة إليكم له معنى وعلى الوجه الذي ذكرناه له معنى أما على الوجه الأول فلما قال : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ وكان ذلك مثلاً مضروباً لمن في الأرض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى فِى السموات والأرض ﴾ يعني هذا مثل مضروب لكم ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ من هذا المثل ومن كل مثل يضرب في السموات ، وأما على الوجه الثاني فمعناه أن له المثل الأعلى أي

فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به ، لكن ذاته ليس كمثله شيء فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

(176/602)

وقيل المثل الأعلى أي الصفة العليا وهي لا إله إلا الله ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ أي كامل القدرة على الممكنات ، شامل العلم بجميع الموجودات ، فيعلم الأجزاء في الأمكنة ويقدر على جمعها وتأليفها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 103.102 ﴾

(177/602)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ . . . كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾

فيه ستة تأويلات

: أحدها : مطيعون ، قاله مجاهد . روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم

قال : كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة .

الثاني : مصلون ، قاله ابن عباس .

الثالث : مقرون بالعبودية ، قاله عكرمة وأبو مالك والسدي .

الرابع : كل له قائم يوم القيامة ، قاله الربيع بن أنس .

الخامس : كل له قائم بالشهادة أنه عبد له ، قاله الحسن .

السادس : أنه المخلص ، قاله ابن جبير .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أما بدء خلقه فبعلوقه في الرحم قبل ولادته ، وأما إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلاً على ما خفي من إعادته استدلالاً بالشاهد على الغائب .

ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إن إعادة الخلق أهون من ابتداء إنشائهم لأنهم ينقلون في الابتداء نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم يعود رضيعاً ثم فطيماً ، وهو في الإعادة يصاح به .

فيقوم سوياً وهذا مروي عن ابن عباس .

الثالث : معناه وهو هين عليه فجعل ﴿ أَهْوَنُ ﴾ مكان ﴿ هَيِّنٌ ﴾ كقول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا . . . بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي دعائمه عزيزة طويلة

: وفي تأويل ﴿ أَهْوَنُ ﴾ وجهان :

أحدهما : أيسر ، قاله ابن عباس .

الثاني : أسهل ، وأنشد ابن شجرة قول الشاعر :

وهان على أسماءَ أن شطت النوى . . . يحن إليها والهٌ ويتوق

أي هي أسهل عليه ، وقال الربيع بن هيثم في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال : ما شيء على الله بعزيز .

﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ أي الصفة العليا . وفيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنه ليس كمثله شيء ، قاله ابن عباس .

الثاني : هو شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله قتادة .

الثالث : أنه يحيي ويميت ، قاله الضحاك .

(178/602)

ويحتمل رابعاً : -هو أعلم- أنه جميع ما يختص به من الصفات التي لا يشاركه المخلوق فيها .

﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي لا إله فيها غيره

. ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : المنيع في قدرته .

الثاني : في انتقامه .

﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : في تدبيره لأمره وهو معنى قول أبي العالية .

الثاني : في إعذاره وحجته إلى عباده ، قاله جعفر بن الزبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(179/602)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) ﴾

اللام في ﴿ له ﴾ الأولى لام الملك ، وفي الثانية لام تعدية ل " قنت " إذ " قنت " بمعنى خضع في طاعته وانقياده ، وهذه الآية ظاهر لفظها العموم في القنت والعموم في كل من يعقل ، وتعميم ذلك في المعنى لا يصح لأنه خبر ، ونحن نجد كثيراً من الجن والإنس لا يقنت في كثير من المعتقد والأعمال ، فلا بد أن عموم ظاهر هذه الآية معناه الخصوص ، واختلف المتأولون

في هذا الخصوص أي هو ، فقال ابن عباس وقتادة : هو في القنت والطاعة وذلك أن جميع من يعقل هو قانت لله في معظم الأمور من الحياة والموت والرزق والقدرة ونحو ذلك ، وبعضهم يبخل بالعبادة وبالمعتقدات فلا يقنت فيها فكأنه قال كل له قانتون في معظم الأمور وفي غالب الشأن ، وقال ابن زيد ما معناه : إن الخصوص هو في الأعيان المذكورين كأنه قال ﴿ وله من في السماوات والأرض ﴾ من ملك ومؤمن ، وقوله ﴿ يبدأ الخلق ﴾ معناه ينشئه ويخرجه من العدم ، وجاء الفعل بصيغة الحال لما كان في هذا المعنى ما قد مضى كآدم وسائر القرون وفيه ما يأتي في المستقبل ، فكانت صيغة الحال تعطي هذا كله ، و ﴿ يعيده ﴾ معناه يبعثه من القبور وينشئه تارة أخرى ، واختلف المتأولون في قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ ، فقال ابن عباس والربيع بن خيثم : المعنى وهو هين ونظيره قول الشاعر : (لعمرك ما أدري وأني لأوجل) بمعنى لوجل ، وقول الآخر (بيت دعائمه أعز وأطول) ، وقولهم في الأذان الله أكبر وقال الآخر وهو الشافعي :

(180/602)

فتلك سبيل لست فيها بأوحد . . . واستشهد بهذا البيت أبو عبيدة وهذا شاهده كثير ، وفي مصحف ابن مسعود " وهو هين عليه " ، وفي بعض المصاحف و" كل هين عليه " ،

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة : المعنى وهو أيسر عليه ، وإن كان الكل من اليسر عليه في حيز واحد وحال متماثلة ، ولكن هذا التفضيل بحسب معتقد البشر وما يعطيهم النظر في الشاهد من أن الإعادة في كثير من الأشياء أهون علينا من البداءة للتمرن والاستغناء عن الروية التي كانت في البدأة ، وهذان القولان الضمير فيهما عائد على الله تعالى ، وقالت فرقة أخرى : الضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على الخلق .

قال الفقيه الإمام القاضي : فهذا بمعنى المخلوق فقط ، وعلى التأويلين يصح أن يكون المخلوق أو يكون مصدراً من خلق ، فقال الحسن بن أبي الحسن إن الإعادة أهون على المخلوق من إنشائه لأنه في إنشائه يصير من حالة إلى حالة ، من نطفة إلى علقة إلى مضغة ونحو هذا ، وفي الإعادة إنما يقوم في حين واحد ، فكأنه قال وهو أيسر عليه ، أي أقصر مدة وأقل انتقالاً ، وقال بعضها : المعنى " وهو أهون " على المخلوق أن يعيد شيئاً بعد إنشائه ، أي فهذا عرف المخلوقين فكيف تنكرون أنتم الإعادة في جانب الخالق .

قال الفقيه الإمام القاضي : والأظهر عندي عود الضمير على الله تعالى ويؤيده قوله تعالى ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ لما جاء بلفظ فيه استعارة واستشهاد بالمخلوق على الخالق وتشبيه بما يعهده الناس من أنفسهم خلص جانب العظمة بأن جعل له المثل الأعلى الذي لا يتصل به تكييف ولا تماثل مع شيء و" العزة والحكمة " ، صفتان موافقتان لمعنى الآية ،

فبهما يعيد وينفذ أمره في عباده كيف شاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(181/602)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أنْ خَلَق لكم من أنفُسكم أزواجاً ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أنه يعني بذلك آدم ، خلق حوّاء من ضِلعه ، وهو معنى قول قتادة .

والثاني : أن المعنى : جعل لكم آدميَّات مثلكم ، ولم يجعلهنَّ من غير جنسكم ، قاله الكلبي .

قوله تعالى : ﴿ لتسكنُوا إليها ﴾ أي : لتأووا إلى الأزواج ﴿ وجعل بينكم مودَّةً ورحمة ﴾ وذلك أن الزوجين يتوادَّان ويتراحمان من غير رَحِم بينهما ﴿ إنَّ في ذلك ﴾ الذي ذكره من صنعه ﴿ لآياتٍ لقوم يتفكَّرون ﴾ في قدرة الله وعظَمته .

قوله تعالى : ﴿ واختلافُ ألسنتكم ﴾ يعني اللغات من العربية والعجمية وغير ذلك ﴿ وألوانِكم ﴾ لأنَّ الخلق بين أسود وأبيض وأحمر ، وهم ولد رجل واحد وامرأة واحدة .

وقيل : المراد باختلاف الألسنة اختلاف النَّغَمات والأصوات ، حتى إنه لا يشتبه صوت أخوين من أب وأم والمراد باختلاف الألوان : اختلاف الصُّوَر ، فلا تشتبه صورتان مع التشاكل ﴿ إِنَّ في ذلك لآيات للعالِمين ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، [والكسائي] ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ للعالَمِين ﴾ بفتح اللام .

وقرأ حفص عن عاصم : ﴿ للعالِمِين ﴾ بكسر اللام .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته منامُكم بالليل والنهار ﴾ أي : نومكم .

قال أبو عبيدة : المنام من مصادر النَّوم ، بمنزلة قام يقوم قِياماً ومَقاماً ، وقال يقول مَقالاً ، قال المفسرون : وتقدير الآية : منامكم بالليل ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ وهو طلب الرزق بالنهار ﴿ إِنَّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ سماع اعتبار [وتذكُّر] وتدبُّر .

﴿ ومن آياته يُريكم البرق ﴾ قال اللغويون : إِنَّما حذف "أنْ" لدلالة الكلام عليه ، وأنشدوا :

[وما الدَّهْرُ إِلاَّ تارتان فتارةً . . .

أموتُ وأُخرى أبتغي العَيْش أكدحُ

ومعناه : فتارة أموت فيها] ، وقال طرفة :

ألا أيُّهذا الزَّاجِري أَحْضُرَ الوَغَى . . .

[وأن أَشهد اللَّذَّاتِ هل أنتَ مُخْلِدي]

أراد : أن أحضر .

وقد شرحنا معنى الخوف والطمع في رؤية البَرْق في سورة [الرعد : 12] .

قوله تعالى : ﴿ أن تقوم السماء والأرض ﴾ أي : تدوما قائمتين ﴿ بأمره ﴾ ﴿ ثم إذا دعاكم دعوةً ﴾ وهي نفخة إسرافيل الأخيرة في الصُّور بأمر الله عز وجل ﴿ من الأرض ﴾ أي : من قبوركم ﴿ إذا أنتم تخرُجون ﴾ منها .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [البقرة : 116 ، العنكبوت : 19] إلى قوله : ﴿ وهو أهونُ عليه ﴾ وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الإعادة أهون عليه من البداية ، وكُلٌّ هيِّنٌ عليه ، قاله مجاهد ، وأبو العالية .

والثاني : أن "أهون" بمعنى "هيِّن" ، فالمعنى : وهو هيِّن عليه ، وقد يوضع "أفعل" في موضع "فاعل" ، ومثله قولهم في الأذان : الله أكبر ، أي : الله كبير ، قال الفرزدق :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّماءَ بَنى لَنا . . .
بَيْتاً دعَائِمُهُ أَعَزُّ وأَطْوَلُ

وقال معن بن أوس المزني :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وإِنّي لأَوْجَلُ . . .

على أيِنا تَغْدُوا المَنِيَّةُ أَوّلُ

أي : وإِنّي لَوَجِل ، وقال غيره :

أصبحتُ أمنحُك الصُّدودَ وإِنَّني . . .

قسماً إِليك مع الصُّدود لأَمْيَلُ

وأنشدوا أيضاً :

تَمَنَّى رِجالٌ أنْ أموتَ وإِنْ أمُتْ . . .

فَتِلكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيها بأَوْحَدِ

أي : بواحد ، هذا قول أبي عبيدة ، وهو مروي عن الحسن ، وقتادة .

و[قد] قرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو عمران الجوني ، وجعفر بن محمد : ﴿ وهو هَيِّن عليه ﴾ .

والثالث : أنه خاطب العباد بما يعقلون ، فأعلمهم أنه يجب أن يكون عندهم البعث أسهل من الابتداء في تقديرهم وحُكمهم ، فمن قَدَرَ على الإِنشاء كان البعثُ أهونَ عليه ، هذا اختيار الفراء ، والمبرد ، والزجاج ، وهو قول مقاتل .

وعلى هذه الأقوال الثلاثة تكون الهاء في "عليه" عائدة إِلى الله تعالى .

والرابع : أن الهاء تعود على المخلوق ، لأنه خلَقه نطفة ثم علقة ثم مضغة ، ويوم القيامة يقول له كن فيكون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وهو اختيار قطرب .

قوله تعالى : ﴿ وله المَثَلُ الأعلى ﴾ قال المفسرون : أي : له الصِّفة العُليا ﴿ في السماوات والأرض ﴾ وهي أنَّه لا إله غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(184/602)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

ومعنى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي نساء تسكنون إليها .

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من نطف الرجال ومن جنسكم .

وقيل : المراد حوّاء ، خلقها من ضِلع آدم ؛ قاله قتادة .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : المودّة الجماع ، والرحمة الولد ؛ وقاله الحسن .

وقيل : المودّة والرحمة عطفُ قلوبهم بعضهم على بعض .

وقال السدي : المودةُ : المحبةُ ، والرحمةُ : الشفقةُ ؛ ورُوي معناه عن ابن عباس قال : المودّة

حبُّ الرجل امرأته ، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء .

ويقال : إن الرجل أصله من الأرض ، وفيه قوّة الأرض ، وفيه الفرج الذي منه بُدىء خلقه فيحتاج إلى سَكَن ، وخُلقت المرأة سكناً للرجل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم : 20] الآية .

(185/602)

وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ فأوّل ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوّة ، وذلك أن الفرج إذا تحمل فيه هيَّج ماء الصلب إليه ، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهِياج ، وللرجال خُلق البُضع منهنّ ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [الشعراء : 166] فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال ، فعليها بذله في كل وقت يدعوها الزوج ، فإن منعته فهي ظالمة وفي حرج عظيم ؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها " وفي لفظ آخر : " إذا باتت المرأة هاجرة فِراش زوجِها لعنتها الملائكة حتى

تُصبِح " ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض ﴾ تقدّم في "البقرة" وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق .

﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ اللّسان في الفم ؛ وفيه اختلاف اللغات : من العربيّة والعجمية والتركية والرومية .

واختلاف الألوان في الصور : من البياض والسواد والحمرة ؛ فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرّق بينه وبين الآخر .

وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين ؛ فلا بد من فاعل ، فعُلِم أن الفاعل هو الله تعالى ؛ فهذا من أدلّ دليل على المدبر البارىء .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ أي للبَرّ والفاجر .

وقرأ حفص : "للعَالِمِينَ" بكسر اللام جمع عالم .

(186/602)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار ﴾ قيل : في هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ؛ فحذِف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر

خاصة ؛ فجعل النوم بالليل دليلاً على الموت ، والتصرفُ بالنهار دليلاً على البعث .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يريد سماع تفهّم وتدبّر .

وقيل : يسمعون الحق فيتبعونه .

وقيل : يسمعون الوعظ فيخافونه .

وقيل : يسمعون القرآن فيصدّقونه ؛ والمعنى متقارب .

وقيل : كان منهم من إذا تُلِي القرآن وهو حاضر سدّ أذنيه حتى لا يسمع ؛ فبيّن الله عز وجل هذه الدلائل عليه .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ قيل : المعنى أن يريكم ، فحذف "أن" لدلالة الكلام عليه ؛ قال طرفة :

ألاَ أيهذا اللائِمي أحْضُرُ الوَغَى . . .

وأنْ أشْهَدَ اللَّذاتِ هل أنت مُخْلِدِي

وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ أي ويريكم البرق من آياته .

وقيل : أي ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق ؛ كما قال الشاعر :

وما الدّهر إلا تارتان فمنهما . . .

أموتُ وأخْرَى أبتغي العيش أكْدَحُ

وقيل : أي من آياته أنه يريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته ؛ قاله الزجاج ، فيكون عطف

جملة على جملة .

﴿ خَوْفاً ﴾ أي للمسافر .

﴿ وَطَمَعاً ﴾ للمقيم ؛ قاله قتادة .

الضحاك : "خَوْفاً" من الصواعق ، "وَطَمَعاً" في الغيث .

يحيى بن سلام : "خَوْفاً" من البرد أن يهلك الزرع ، "وَطَمَعاً" في المطر أن يحيي الزرع .

ابن بحر : "خَوْفاً" أن يكون البرق بَرْقاً خُلَّباً لا يمطر ، "وَطَمَعاً" أن يكون ممطراً ؛ وأنشد قول الشاعر :

لا يكن بَرْقُك برقاً خُلّبا . . .

إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخر :

فقد أرِد المياه بغير زاد . . .

سوى عدّى لها برق الغمام

(187/602)

والبرق الخُلّب : الذي لا غيث فيه كأنه خادع ؛ ومنه قيل لمن يَعِد ولا يُنْجز : إنما أنت كبرقٍ خُلّب .

والخُلّب أيضاً : السحاب الذي لا مطر فيه .

ويقال : بَرْقُ خُلّب ، بالإضافة .

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقدم .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ ﴾ "أَنْ" في محل رفع كما تقدم ؛ أي قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد .

وقيل : بتدبيره وحكمته ؛ أي يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق .

وقيل : "بأمرِه" بإذنه ؛ والمعنى واحد .

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم ؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلّبث ؛ كما يجيب الداعي المطاعَ مَدْعوُّه ؛ كما قال القائل :

دَعَوْتُ كُلَيباً باسمه فكأنما . . .

دعوت برأس الطَّود أو هو أسرع

يريد برأس الطود : الصَّدى أو الحجر إذا تَدَهْده .

وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض ب"ثم" لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا ؛ فلا تبقى نسمة من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر ؛ كما قال تعالى :

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] .

و"إذا" الأولى في قوله تعالى : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ للشرط ، والثانية في قوله تعالى : ﴿ إِذَآ أَنتُمْ ﴾ للمفاجأة ، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط .

وأجمع القراء على فتح التاء هنا في "تَخْرُجُونَ" .

واختلفوا في التي في "الأعراف" فقرأ أهل المدينة : ﴿ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : 25] بضم التاء ، وقرأ أهل العراق : بالفتح ، وإليه يميل أبو عبيد .

(188/602)

والمعنيان متقاربان ، إلا أن أهل المدينة فرّقوا بينهما لنسق الكلام ، فنسقُ الكلام في التي في "الأعراف" بالضم أشبه ؛ إذ كان الموت ليس من فعلهم ، وكذا الإخراج .

والفتح في سورة الروم أشبه بنسق الكلام ؛ أي إذا دعاكم خرجتم أي أطعتم ؛ فالفعل (بهم) أشبه .

وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل الآخرة؛ على ما تقدّم ويأتي.

وقرىء: "تخرجون" بضم التاء وفتحها، ذكره الزَّمَخْشَرِيّ ولم يزد على هذا شيئاً، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق، والله أعلم.

﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ خلقاً وملكاً وعبداً.

﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ رُوي عن أبي سعيد الخدرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "كلّ قنوت في القرآن فهو طاعة" قال النحاس: مطيعون طاعة انقياد.

وقيل: "قَانِتُونَ" مقِرّون بالعبودية، إما قالة وإما دلالة؛ قاله عِكرمة وأبو مالك والسدّي.

وقال ابن عباس؛ "قَانِتُونَ" مصلون.

الربيع بن أنس: "كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ" أي قائم يوم القيامة؛ كما قال: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين: 6] أي للحساب.

الحسن: كل له قائم بالشهادة أنه عبد له.

سعيد بن جبير: "قَانِتُونَ" مخلصون.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أمّا بدْء خلقه فبعلوقه في الرّحم قبل ولادته، وأمّا إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث؛ فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلاً على ما يخفى من إعادته؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقوله ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عمر: "يُبْدِىءُ الْخَلْقَ" من أبدأ يبدىء؛

دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : 13] .

ودليل قراءة العامة قوله سبحانه : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29] .

و"أَهْوَنُ" بمعنى هيّن ؛ أي الإعادة هيّن عليه ؛ قاله الرَّبيع بن خُثيم والحسن .

(189/602)

فأهون بمعنى هيّن ؛ لأنه ليس شيء أهونَ على الله من شيء .

قال أبو عبيدة : ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ [النساء : 30] وبقوله : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة : 255] .

والعرب تحمل أفعل على فاعل ، ومنه قول الفرزدق :

إن الذي سَمَكَ السماء بنى لنا . . .

بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

أي دعائمه عزيزة طويلة .

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما أدرِي وإني لأَوْجَل . . .

على أينا تَعْدُو المنيّة أوّل

أراد : إني لوجِل .

وأنشد أبو عبيدة أيضاً :

إني لأمْنحُكُ الصّدود وإنني . . .

قَسَماً إليك مع الصُّدود لأمْيَلُ

أراد لمائل : وأنشد أحمد بن يحيى :

تَمنّى رجال أن أموت وإن أمُتْ . . .

فتلك سبيلٌ لست فيها بأوْحَدِ

أراد بواحد .

وقال آخر :

لعمرك إن الزِّبرقان لباذل . . .

لمعروفه عند السنينَ وأفضل

أي وفاضل .

ومنه قولهم : الله أكبر ؛ إنما معناه الله الكبير .

وروى معمر عن قتادة قال : في قراءة عبد الله بن مسعود "وهو عليه هين" .

وقال مجاهد وعكرمة والضحاك : إن المعنى أن الإعادة أهون عليه أي على الله من البداية

؛ أي أيسر ، وإن كان جميعه على الله تعالى هيناً ؛ وقاله ابن عباس .

ووجهه أن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لعباده ؛ يقول : إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه ؛ فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهونَ عليه من الإنشاء .

وقيل : الضمير في "عَلَيْهِ" للمخلوقين ؛ أي وهو أهون عليه ، أي على الخلق ، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم : كونوا فيكونون ؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نُطَفاً ثم عَلَقا ثم مُضَغا ثم أجِنّة ثم أطفالا ثم غلماناً ثم شبانا ثم رجالاً أو نساء .

وقاله ابن عباس وقُطْرُب .

وقيل : أهون أسهل ؛ قال :

وهان على أسماء أن شطَّت النَّوَى . . .

يحنّ إليها والِهٌ ويتوق

(190/602)

أي سهل عليها ، وقال الربيع بن خُثَيم في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال : ما شيء على الله بعزيز .

عِكرمة : تعجّب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية .

﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ أي ما أراده جلّ وعزّ كان .

وقال الخليل : المثل الصفة ؛ أي وله الوصف الأعلى ﴿ فِي السماوات والأرض ﴾ كما قال :

﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾ [الرعد : 35] أي صفتها .

وقد مضى الكلام في ذلك .

وعن مجاهد : "الْمَثَلُ الأَعْلَى" قول لا إله إلا الله ؛ ومعناه : أي الذي له الوصف الأعلى ، أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية .

وكذا قال قتادة : إن المثل الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله ؛ ويَعْضُده قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الروم : 28] على ما نبيّنه آنفاً إن شاء الله تعالى .

وقال الزجاج : "وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ" أي قوله : "وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ" قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل ؛ يريد التفسير الأوّل .

وقال ابن عباس : أي ليس كمثله شيء ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ تقدم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

(192/602)

﴿ وَلَهُ ﴾ خاصة ﴿ مَن فِى السموات والأرض ﴾ من الملائكةِ والثَّقلين خَلقاً ومُلكاً وتصرُّفاً ليس لغيرِه شركةٌ في ذلك بوجهٍ من الوجوه ﴿ كُلٌّ لَّهُ قانتون ﴾ أي منقادُون لفعله لا يمتنعون عليه في شأنٍ من شؤونه تعالى ﴿ وَهُوَ الذى يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد موتهم ، وتكريرُه لزيادةِ التَّقريرِ والتَّمهيدِ لما بعده من قولِه تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ أي بالإضافةِ إلى قُدَرِكم والقياس على أصولِكم وإلا فهُما عليه سواءٌ وقيل أهونُ بمعنى هَيِّنٌ ، وتذكير الضمير مع رجوعِه إلى الإعادة لما أنَّها مؤَوَّلةٌ بأنْ يُعيد وقيل : هو راجعٌ إلى الخلقِ وليس بذاك ، وأما ما قيل من أنَّ الإنشاء بطريقِ التَّفضل الذي يتخيَّر فيه الفاعلُ بين الفعل والتَّرك ، والإعادةُ من قبيلِ الواجبِ الذي لا بدَّ من فعله حتماً فكان أقربَ إلى الحصولِ من الإنشاءِ المترددِ بين الحصولِ وعدمِه فبمعزلٍ من التَّحصيل إذ ليس المرادُ بأهونيةِ الفعل أقربيَّتَه إلى الوجود باعتبار كثرةِ الأمورِ الدَّاعية للفاعل إلى إيجادِه وقوَّة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتِّيه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونِه واجباً بالغيرِ ولا

تفاوتَ في ذلك بين أنْ يكون ذلك التعلق بطريق الإيجابِ أو بطريقِ الاختيارِ . ﴿ وَلَهُ المثل الاعلى ﴾ أي الوصفُ الأعلى العجيبُ الشأنِ من القدرة العامَّةِ والحكمة التَّامةِ وسائر صفاتِ الكمال التي ليس لغيرِه ما يُدانيها فضلاً عمَّا يُساويها ، ومن فسَّره بقوله لا إله إلا الله أرادَ به الوصفَ بالوحدانيةِ ﴿ فِي السموات والأرض ﴾ متعلق بمضمونِ الجملة المتقدّمةِ على معنى أنَّه تعالى قد وُصف به وعُرف فيهما على ألسنةِ الخلائقِ وألسنةِ الدّلائلِ ، وقيل : متعلق بالأعلى وقيل بمحذوفٍ هو حالٌ منه أو من المثل أو من ضميره في الأعلى ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ القادر الذي لا يعجزُ عن بدءِ ممكنٍ وإعادتِه ﴿ الحكيم ﴾ الذي يجري الأفعالَ على سَنَنِ الحكمة والمصلحةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(193/602)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَهُ ﴾ عز وجل خاصة كل ﴿ مِنْ السموات والأرض ﴾ من الملائكة والثقلين خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لغيره سبحانه شركة في ذلك بوجه من الوجوه ﴿ كُلٌّ لَهُ ﴾ لا لغيره جل وعلا ﴿ قانتون ﴾ منقادون لفعله لا يمتنعون عليه جل شأنه من شأن من الشؤون وإن لم ينقد بعضهم لأمره سبحانه فالمراد طاعة الإرادة لا طاعة الأمر بالعبادة ، وهذا حاصل

ما روى عن ابن عباس ، وقال الحسن : ﴿ قانتون ﴾ قارن بالشهادة على وحدانيته تعالى كما قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

وقال ابن جبير : ﴿ قانتون ﴾ مخلصون ، وقيل : مقرون بالعبودية ، وعليهما ليس العموم على ظاهره .

﴿ وَهُوَ الذى الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

بعد الموت ؛ والتكرير لزيادة التقرير لشدة إنكارهم البعث والتمهيد لما بعده من قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ الضمير المرفوع للإعادة وتذكيره لرعاية الخبر أو لأنها مؤولة بأن والفعل وهو في حكم المصدر المذكر أو لتأويلها بالبعث ونحوه ، وكونه راجعاً إلى مصدر مفهوم من ﴿ يُعِيدُ ﴾ وهو لم يذكر بلفظ الإعادة لا يفيد على ما قيل لأنه اشتهر به فكأنه إذا فهم منه يلاحظ فيه خصوص لفظه والضمير المجرور لله تعالى شأنه ، و ﴿ أَهْوَنُ ﴾ للتفضيل أي والإعادة أسهل على الله تعالى من المبدأ ، والأسهلية على طريقة التمثيل بالنسبة لما يفعله البشر مما يقدرون عليه ، فإن إعادة شيء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداء ، والمراد التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث وإلا فكل الممكنات بالنسبة

إلى قدرته تعالى عز وجل سواء فكأنه قيل : وهو أهون عليه بالإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم .

(194/602)

وذكر الزمخشري وجهاً آخر للتفضيل وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد من فعله لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب والأفعال إما محال والمحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور ، وإما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنع الإحالة ، وأما تفضل والتفضل حاله بين بين للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله ، وأما واجب لا بد من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع وإذا كانت أبعدها منه كانت أدخلها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها وإذا كانت كذلك كانت أهون من الإنشاء اه .

قال في "التقريب" : وفيه نظر لأنه مبني على الوجوب العقلي ولأن الوجوب إذا كان بالذات نافي القدرة كالامتناع وإلا كان ممكناً فتساوي الفعلان لاشتراكهما في مصحح المقدورية وهو

الإمكان .

وتعقبه في "الكشف" بقوله أقول : إنه غير واجب بالذات ولا يلزم منه المساواة مع التفضل في سهولة التأتي وأما المساواة في مصحح المقدورية فلا مدخل لها فيما نحن فيه ، والحاصل منه أنه لو سلم منه أن الداعي إلى فعله أقوى فلا شك أنه أقرب إلى الوجود مما لا يكون الداعي كذلك .

نعم إذا خلص الداعي إلى القسمين صارا سواء ، وليس البحث على ذلك التقدير اه .

والحق ما قاله أبو السعود من أنه ليس المراد بأهونية الفعل أقربيته إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتيه وصدوره عنه عند تعلق قدرته بوجوده وكونه واجباً بالغير ، ولا تفاوت في ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار .

وروى الزجاج عن أبي عبيدة وكثير من أهل اللغة أن ﴿ أَهْوَنُ ﴾ ههنا بمعنى هين ، وروى ذلك عن ابن عباس .

(195/602)

والربيع ، وكذا هو في مصحف عبد الله ، وهذا كما يقال : الله تعالى أكبر أي كبير وأنت أوحد الناس أي واحدهم وإني لأوجل أي وجل .

وفي "الكشف" التحقيق أنه من باب الزيادة المطلقة ، وإنما قيل بمعنى إلهين لأنه يؤدي مؤداه ، وقيل : أفعل على ظاهره وضمير عليه عائد على الخلق على معنى أن الإعادة أيسر على المخلوق لأن البداءة فيها تدريج من طور إلى طور إلى أن يصير إنساناً والإعادة لا تحتاج إلى التدريجات في الأطوار إنما يدعوه الله تعالى فيخرج .

وأما على معنى أن الإعادة أسهل على المخلوق أي أن يعيدوا شيئاً ويفعلوه ثانياً بعد ما زاولوا فعله وعرفوه أولاً أسهل من أن يفعلوه أولاً قبل المزاولة وإذا كان هذا حال المخلوق فما بالك بالخالق ، ولا يخفى أن الظاهر رجوع الضمير إليه تعالى ، ثم إن الجار والمجرور صلة ﴿ أَهْوَنُ ﴾ وقدمت الصلة في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ على هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 9و21] وأخرت هنا لأنه قصد هنالك الاختصاص وهو محزة فقيل ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وإن كان صعباً عندكم أن يولد بين هم وعاقر وأما ههنا فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى ، ولما أخبر سبحانه بأن الإعادة أهون عليه على طريق التمثيل عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ﴾ تعالى شأنه خاصة ﴿ المثل ﴾ أي الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال ﴿ الاعلى ﴾ الذي ليس لغيره ما يدانيه فضلاً عما يساويه

فكأنه قيل هذا لتفهيم العقول القاصرة إذ صفاته تعالى عجيبة وقدرته كل شأنه عامة وحكمته سبحانه تامة فكل شيء بدأ وإعادة وإيجاداً وإعداماً على حد سواء ولا مثل له تعالى ولا ند .

وعن قتادة .

(196/602)

ومجاهد أن ﴿ المثل الأعلى ﴾ لا إله إلا الله ، ولعلهما أرادا بذلك الوحدانية في ذاته تعالى وصفاته سبحانه ، والكلام عليه مرتبط بما قبله أيضاً كأنه قيل : ما ذكر لتفهيم العقول القاصرة لأنه تعالى لا يشاركه أحد في ذاته تعالى وصفاته عز وجل ، وقيل : مرتبط بما بعده من قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الروم : 28] وقال الزجاج : المثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قد ضربه الله تعالى مثلاً فيما يسهل ويصعب عندكم وينقاس على أصولكم فاللام في المثل للعهد وهو محمول على ظاهره غير مستعار للوصف العجيب الشأن ﴿ فِي السموات والأرض ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه سبحانه قد وصف بذلك وعرف به فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وقيل : بالأعلى ، وقيل : بمحذوف هو حال منه أو من ﴿ المثل ﴾ أو من ضميره في ﴿ الاعلى

﴿ وقيل : متعلق بما تعلق به ﴿ لَهُ ﴾ أي له في السماوات والأرض المثل الأعلى ، والمراد أن دلالة خلقهما على عظيم القدرة أتم من دلالة الإنشاء فهو أدل على جواز الإعادة ولهذا جعل أعلى من الإنشاء فتأمل ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ القادر الذي لا يعجز عن بدء ممكن وإعادته ﴿ الحكيم ﴾ الذي يجري الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(197/602)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

قوله : ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي يخلقهم أوّلاً ، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى موقف الحساب ، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيىء بإساءته ، وأفرد الضمير في : ﴿ يعيده ﴾ باعتبار لفظ الخلق ، وجمعه في : ﴿ ترجعون ﴾ باعتبار معناه .

قرأ أبو بكر وأبو عمرو : " يرجعون " بالتحتية .

وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يبلس ﴾ على البناء للفاعل .

وقرأ السلمي على البناء للمفعول ، يقال : أبلس الرجل : إذا سكت وانقطعت حجته .

قال الفراء والزجاج : المبلس : الساكت المنقطع في حجته الذي أيس أن يهتدي إليها ، ومنه قول العجاج :

يا صاح هل تعرف رسماً مكرسا . . . قال : نعم أعرفه وأبلسا

وقال الكلبي : أي : يئس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب ، وقد قدّمنا تفسير الإبلاس عند قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44] .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء ﴾ أي لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبدوهم من دون الله شفعاء يجيرونهم من عذاب الله ﴿ وَكَانُواْ ﴾ في ذلك الوقت ﴿ بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ أي بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿ كافرين ﴾ أي : جاحدين لكونهم آلهة ؛ لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون ولا يضرون وقيل : إن معنى الآية : كانوا في الدنيا كافرين بسبب عبادتهم ، والأوّل أولى .

(198/602)

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي يتفرّق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله : ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ﴾ والمراد بالتفرّق : أن كل طائفة تنفرد ، فالمؤمنون يصيرون إلى الجنة ، والكافرون إلى النار ، وليس المراد تفرّق كلّ فرد منهم عن الآخر ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] وذلك بعد تمام الحساب ، فلا يجتمعون أبداً .

ثم بيّن سبحانه كيفية تفرّقهم ، فقال : ﴿ فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول : معنى "أما" : دع ما كنا فيه ، وخذ في غيره ، وكذا قال سيبويه : إن معناها : مهما يكن من شيء فخذ في غير ما كنا فيه .

والروضة كل أرض ذات نبات .

قال المفسرون : والمراد بها هنا : الجنة ، ومعنى ﴿ يحبرون ﴾ : يسرون ، والحبور والحبرة : السرور ، أي فهم في رياض الجنة ينعمون .

قال أبو عبيد : الروضة ما كان في سفل ، فإذا كان مرتفعاً فهو : ترعة .

وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في مكان مرتفع ، ومنه قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة . . . خضراء جاد عليها مسبل هطل

وقيل : معنى ﴿ يحبرون ﴾ : يكرمون .

قال النحاس : حكى الكسائي حبرته ، أي أكرمته ، ونعمته ، والأولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربيّ ، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام والنعيم ، وفي السرور زيادة على ذلك .

وقيل : التحبير التحسين ، فمعنى ﴿ يحبرون ﴾ يحسن إليهم ، وقيل : هو السماع الذي يسمعونه في الجنة .

وقيل : غير ذلك ، والوجه ما ذكرناه .

﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ ﴾ بالله ﴿ وَكَذَّبُواْ بئاياتنا ﴾ وكذبوا ب ﴿ لِقَاء الآخرة ﴾ أي البعث والجنة والنار ، والإشارة بقوله : ﴿ فأولئك ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ فِي العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ أي مقيمون فيه .

وقيل : مجموعون .

وقيل : نازلون .

(199/602)

وقيل : معذبون ، والمعاني متقاربة ، والمراد دوام عذابهم .

ثم لما بيّن عاقبة طائفة المؤمنين وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر ،

والخير العام فقال : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : فإذا علمتم ذلك فسبحوا الله ، أي نزهوه عما لا يليق به في وقت الصباح والمساء وفي العشي ، وفي وقت الظهيرة .

وقيل : المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس .

فقوله : ﴿ حين تمسون ﴾ : صلاة المغرب والعشاء ، وقوله : ﴿ وحين تصبحون ﴾ : صلاة الفجر ، وقوله : ﴿ وعشيا ﴾ صلاة العصر ، وقوله : ﴿ وحين تظهرون ﴾ : صلاة الظهر ، وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغيرهما .

قال الواحدي : قال المفسرون : إن معنى ﴿ فسبحان الله ﴾ : فصلوا لله .

قال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية في الصلوات قال : وسمعت محمد بن يزيد يقول : حقيقته عندي : فسبحوا الله في الصلوات ؛ لأن التسبيح يكون في الصلاة .

وجملة : ﴿ وَلَهُ الحمد فِي السموات والأرض ﴾ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد ، والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح كما في قوله سبحانه : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [الحجر : 98] وقوله : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [البقرة : 30] وقيل : معنى ﴿ وله الحمد ﴾ أي الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد ، والأول أولى .

وقرأ عكرمة : "حينا تمسون وحينا تصبحون" ، والمعنى : حينا تمسون فيه ، وحينا تصبحون فيه .

والعشيّ : من صلاة المغرب إلى العتمة .

قاله الجوهري ، وقال قوم : هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، ومنه قول الشاعر :

غدونا غدوة سحرا بليل . . . عشيا بعد ما انتصف النهار

(200/602)

وقوله : ﴿ عشيا ﴾ معطوف على حين ﴿ وفي السماوات ﴾ متعلق بنفس الحمد ، أي الحمد له يكون في السماوات والأرض ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ كالإنسان من النطفة والطير من البيضة ﴿ ويُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان .

وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران .

وقيل : ووجه تعلق هذه الآية بالتي قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة ، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم ﴿ ويُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ، وهو شبيه بإخراج الحيّ من الميت ﴿ وكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم .

قرأ الجمهور : ﴿ تخرجون ﴾ على البناء للمفعول .

وقرأ حمزة والكسائي على البناء للفاعل ، فأسند الخروج إليهم كقوله : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ

الأجداث ﴾ [المعارج: 43] ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ أي من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم، أي خلق أباكم آدم من تراب، وخلقكم في ضمن خلقه؛ لأن الفرع مستمد من الأصل ومأخوذ منه، وقد مضى تفسير هذا في الأنعام، و " أن " في موضع رفع بالابتداء، و ﴿ من آياته ﴾ خبره ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ " إذا " هي الفجائية، أي ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض.

وإذا الفجائية، وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان كما حكاه الله في مواضع: من كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً مكسوّاً لحماً فاجأ البشرية، والانتشار، ومعنى ﴿ تنتشرون ﴾: تنصرفون فيما هو قوام معايشكم.

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا ﴾ أي ومن علاماته ودلالاته الدالة على البعث أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً، أي من جنسكم في البشرية والإنسانية.

(201/602)

وقيل: المراد: حوّاء، فإنه خلقها من ضلع آدم ﴿ لّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ أي تألفوها وتميلوا إليها، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر ولا يميل قلبه إليه ﴿ وَجَعَلَ

بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ أي وداداً وتراحماً بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة ، فضلاً عن مودّة ورحمة .

وقال مجاهد : المودّة : الجماع ، والرحمة الولد ، وبه قال الحسن .

وقال السديّ : المودّة : المحبة ، والرحمة : الشفقة .

وقيل : المودّة حبّ الرجل امرأته ، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء .

وقوله : ﴿ أن خلق لكم ﴾ في موضع رفع على الابتداء ، و ﴿ من آياته ﴾ خبره ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور سابقاً .

﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث والنشور ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادّة له يتحصل عنه ، وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلاّ كالأنعام .

(202/602)

﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض ﴾ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة ، التي هي أجرام السماوات والأرض ، وجعلها باقية ما دامت هذه الدار ، وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ، ما هو عبرة للمعتبرين ، قادر على أن يخلقكم بعد موتكم

وينشركم من قبوركم ﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي لغاتكم من عرب وعجم ، وترك ، وروم ، وغير ذلك من اللغات ﴿ وألوانكم ﴾ من البياض ، والسواد ، والحمرة ، والصفرة ، والزرقة ، والخضرة مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة ، ويجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية ، وفصل واحد وهو الناطقية ، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا ، بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد ، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلاّ العالمون ، ولا يفهمه إلاّ المتفكرون ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات للعالمين ﴾ الذين هم من جنس هذا العالم من غير فرق بين برّ وفاجر ، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين ، وقرأ حفص وحده بكسرها .

قال الفراء : وله وجه جيد لأنه قد قال : ﴿ لآيات لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ لآيات لأُوْلِي الألباب ﴾ [آل عمران : 190] ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] .

﴿ وَمِنْ ءاياته مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مّن فَضْلِهِ ﴾ قيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار .

وقيل : المعنى صحيح من دون تقديم وتأخير ، أي ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل ، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة ، وابتغاؤكم من فضله فيهما ، فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك ، وإن كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر .

والأوّل هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى ، والآخر هو المناسب للنظم القرآني ها هنا .

(203/602)

ووجه ذكر النوم والابتغاء ها هنا ، وجعلهما من جملة الأدلة على البعث : أن النوم شبيه بالموت ، والتصرّف في الحاجات والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون الآيات والمواعظ سماع متفكّر متدبر ، فيستدلون بذلك على البعث ﴿ وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ المعنى : أن يريكم ، فحذف " أن " لدلالة الكلام عليه كما قال طرفة :

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى . . . وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي ؟

والتقدير : أن أحضر ، فلما حذف الحرف في الآية والبيت بطل عمله ، ومنه المثل المشهور : "تسمع بالمعيدي خير من أن تراه" وقيل : هو على التقديم ، والتأخير ، أي ويريكم البرق من آياته ، فيكون من عطف جملة فعلية على جملة اسمية ، ويجوز أن يكون ﴿ يريكم ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أي ومن آياته آية يريكم بها ، وفيها البرق ، وقيل : التقدير ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته .

قال الزجاج : فيكون من عطف جملة على جملة .

قال قتادة : خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم .

وقال الضحاك : خوفاً من الصواعق ، وطمعاً في الغيث .

وقال يحيى بن سلام : خوفاً من البرد أن يهلك الزرع ، وطمعاً في المطر أن يحيي الزرع .

وقال ابن بحر : خوفاً أن يكون البرق برقاً خلباً لا يمطر ، وطمعاً أن يكون ممطراً ، وأنشد :

لا يكن برقك برقاً خلبا . . . إن خير البرق ما الغيث معه

وانتصاب ﴿ خوفاً ﴾ و ﴿ طمعاً ﴾ على العلة ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدلّ بها على القدرة الباهرة .

﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء والأرض بِأَمْرِهِ ﴾ أي قيامهما واستمساكهما بإرادته سبحانه وقدرته بلا عمد يعمدها ، ولا مستقرّ يستقران عليه .

(204/602)

قال الفراء : يقول : أن تدوما قائمتين بأمره ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أي ثم بعد موتكم ومصيركم في القبور ، إذا دعاكم دعوة واحدة فاجأتم

الخروج منها بسرعة ، من غير تلبث ولا توقف ، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع .

و﴿ من الأرض ﴾ متعلق ب " دعا " ، أي دعاكم من الأرض التي أنتم فيها ، كما يقال : دعوته من أسفل الوادي فطلع إليّ ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة ، أو متعلق بمحذوف يدلّ عليه تخرجون ، أي خرجتم من الأرض ، ولا يجوز أن يتعلق ب ﴿ تخرجون ﴾ ؛ لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها ، وهذه الدعوة هي نفخة إسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدّم بيانه ، وقد أجمع القراء على فتح التاء في ﴿ تخرجون ﴾ هنا ، وغلط من قال إنه قرىء هنا بضمها على البناء للمفعول ، وإنما قرىء بضمها في الأعراف .

﴿ وَلَهُ مَن فِي السموات والأرض ﴾ من جميع المخلوقات ملكاً وتصرّفاً وخلقاً ، ليس لغيره في ذلك شيء ﴿ كُلٌّ لَّهُ قانتون ﴾ أي مطيعون طاعة انقياد .

وقيل : مقرّون بالعبودية .

وقيل : مصلون .

وقيل : قائمون يوم القيامة كقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين : 6] أي للحساب .

وقيل : بالشهادة أنهم عباده .

وقيل : مخلصون ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة ﴿

وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ أي هين عليه لا يستصعبه ، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم ، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض ، وإلاّ فلا شيء في قدرته بعضه أهون من بعض ، بل كل الأشياء مستوية يوجدها بقوله : كن فتكون .

قال أبو عبيد : من جعل أهون عبارة عن تفضيل شيء على شيء ، فقوله مردود بقوله : ﴿ وَكَانَ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ [النساء : 30] ، وبقوله : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة : 255] والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيراً ، كما في قول الفرزدق :

(205/602)

إن الذي سمك السماء بنى لنا . . . بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

أي عزيزة طويلة ، وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت . . . فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي لست بواحد ، ومثله قول الآخر :

لعمرك إن الزبرقان لباذل . . . لمعروفه عند السنين وأفضل

أي وفاضل ، وقرأ عبد الله بن مسعود : " وهو عليه هين " .

وقال مجاهد وعكرمة والضحاك : إن الإعادة أهون عليه ، أي على الله من البداية ، أي

أيسر ، وإن كان جميعه هيناً .

وقيل : المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية ، وقيل : الضمير في : ﴿ عليه ﴾ للخلق ، أي وهو أهون على الخلق ؛ لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ، ويقال لهم : كونوا فيكونون ، فلذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر النشأة ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ قال الخليل : المثل الصفة ، أي وله الوصف الأعلى ﴿ فِي السموات والأرض ﴾ كما قال :

﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾ [الرعد : 35] أي صفتها .

وقال مجاهد : المثل الأعلى قول : لا إله إلاّ الله ، وبه قال قتادة .

وقال الزجاج : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى فِي السموات والأرض ﴾ أي قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل .

وقيل : المثل الأعلى هو أنه ليس كمثله شيء ، وقيل : هو أن ما أراده كان بقول : كن ، و ﴿ في السماوات والأرض ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدّمة ، والمعنى : أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى ، ووصف به في السماوات والأرض ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الأعلى ، أو المثل ، أو من الضمير في الأعلى ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في ملكه ، القادر الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يُبْلِسُ ﴾ قال : يبتئس .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم : ﴿ يُبْلِسُ ﴾ قال : يكتئب ، وعنه : الإبلاس : الفضيحة .

(206/602)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ قال : يكرمون .

وأخرج الديلمي عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة قال الله : أين الذين كانوا ينزّهون أسماعهم ، وأبصارهم عن مزامير الشيطان ؟ ميزوهم ، فيميزون في كثب المسك والعنبر ؛ ثم يقول للملائكة : أسمعوهم من تسبيحي وتحميدي وتهليلي ، قال : فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط " وأخرج الدينوري في المجالسة عن مجاهد قال : ينادي مناد يوم القيامة .

. .

فذكر نحوه ، ولم يسمّ من رواه له عن رسول الله .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذمّ الملاهي ، والأصبهاني في الترغيب عن محمد بن المنكدر نحوه .

وأخرج ابن أبي الدنيا والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة ، قال السيوطي : بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : " في الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجدّ في

ظلها مائة عام ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف ، وغيرهم فيتحدّثون في ظلها ، فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرّك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا " وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وأخرج الفريابي وابن مردويه عن ابن عباس قال : "كل تسبيح في القرآن فهو صلاة" وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه عن أبي رزين قال : جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس ، فقال : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال : نعم ، فقرأ : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ : صلاة المغرب ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ : صلاة الصبح ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ : صلاة العصر ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ : صلاة الظهر ، وقرأ : ﴿ مِن بَعْدِ صلاة العشاء ﴾ [النور : 58] .

(207/602)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه قال : جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ قال : المغرب والعشاء ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ : الفجر ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ : العصر ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ : الظهر .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن السني في عمل يوم وليلة ،

والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدعوات عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفّى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .

وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون " وفي إسناده ابن لهيعة .

وأخرج أبو داود والطبراني وابن السني وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يصبح : ﴿ سبحان الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحمد فِي السموات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته " وإسناده ضعيف .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ يقول : مطيعون : يعني : الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال : أيسر .

وأخرج ابن الأنباري عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال : الإعادة أهون على المخلوق ، لأنه يقول له يوم القيامة : كن فيكون ، وابتدأ الخلقة من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ يقول : ليس كمثله شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(208/602)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ﴾

بمعنى المخلوق أي : ينشئهم في الدنيا ابتداء فإنه أنشأ آدم وحواء وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ثم يميتهم عند انتهاء آجالهم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ تذكير الضمير باعتبار لفظ الخلق أي : ثم يعيدهم في الآخرة بنفخ صور إسرافيل فيكونون أحياء كما كانوا ﴿ وَهُوَ ﴾ أي : الإعادة وتذكير الضمير لأنها في تأويل أن يعيدوا لقوله : ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ أي : أسهل وأيسر عليه تعالى من البدء بالإضافة أي : قدركم أيها الإنسان والقياس إلى أصولكم وإلا فهما عليه تعالى سواء إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون سواء هناك مادة أم لا يعني أن ابتداء الشيء أشد عند الخلق من إعادته وإعادته أهون من ابتدائه فتكون الآية واردة على ما يزعمون فيما بينهم ويعتقدون عندهم وإلا فما شق على الله ابتداء الخلق ليكون إعادتهم أهون عليه .

قال بعضهم : أفعل ههنا بمعنى فعيل أي : أهون بمعنى هين مثل الله أكبر بمعنى كبير قال الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا

بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة .

(209/602)

وفي "التأويلات النجمية" : يعني الإعادة أهون عليه من البداءة لأن في البداءة كان بنفسه مباشراً للخليقة وفي الإعادة كان المباشر إسرافيل بنفخته والمباشرة بنفس الغير في العمل أهون من المباشرة بنفسه عند نظر الخلق وعنده سواء لأن أفعال الأغيار أيضاً مخلوقة .

وفيه إشارة أخرى في غاية الدقة واللطافة وهي أن الخلق أهون على الله عند الإعادة منهم عند البداءة لأن في البداءة لم يكونوا متلوثين بلوث الحدوث ولا متدنسين بدنس الشركة في الوجود بأن يكونوا شركاء في الوجود مع الله فلعزتهم في البداءة باشر بنفسه وخلقهم وفي الإعادة لهوانهم باشر بنفسي غيره انتهى .

قال في "القاموس" : هان هوناً بالضم وهواناً ومهانة ذل وهوناً سهل فهو هين بالتشديد

والتخفيف وأهون ﴿ وَلَهُ ﴾ أي : تعالى ﴿ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ المثل بمعنى الصفة كما في قوله : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى ﴾ (الرعد : 35) ﴿ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ﴾ (الفتح : 29) أي : الوصف الأعلى العجيب الشان من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التي ليس لغيره ما يدانيها فضلاً عما يساويها ،

ومن فسره بقوله لا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية يعني له الصفة العليا وهو أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ﴿ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة الخلائق أي : نطقاً وألسنة الدلائل أي دلالة ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : القادر الذي لا يعجز عن بدء ممكن وإعادته ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يجري الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة .

يقول الفقير : دلت الآية على أن السموات والأرض مشحونة بشواهد وحدته ودلائل قدرته تعالى .

(210/602)

وذلك لأهل البصيرة فإنهم هم المطالعون جمال أنواره والمكاشفون عن حقيقة أسراره والعجب منك أنك إذا دخلت بيت غني فتراه مزيناً بأنواع الزين فلا ينقطع تعجبك عنه ولا

تزال تذكره وتصف حسنه طول عمره وأنت تنظر أبداً إلى الآفاق والأنفس وهي بيوت الله المزينة بأسمائه وصفاته وآثاره المتجلية بقدرته وعجيب آياته ثم أنت فيما شاهدته أعمى عن حقيقته لعمى باطنك وعدم دخولك في بيت القلب الذي بالتفكر المودع فيه يستخرج الحقائق وبالتذكر الموضوع فيه يرجع الإنسان إلى ما هو بالرجوع لائق وبالشهود الذي فيه يرى الآيات ويدرك البينات ولولا هداية الملك المتعال لبقي الخلق في ظلمات الضلال وسرادقات الجلال .

قال بعض الكبار في سبب توبته : كنت مستلقياً على ظهري فسمعت طيوراً يسبحن فأعرضت عن الدنيا وأقبلت إلى المولى وخرجت في طلب المرشد فلقيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقال لي : اذهب إلى الشيخ عبد القادر قدس سره فإني كنت في مجلسه فقال : إن الله تعالى جذب عبداً إلى جنابه فأرسله إلي إذا لقيته قال : فلما جئت إليه قال : مرحباً بمن جذبه الرب إليه بألسنة الطير وجمع له كثيراً من الخير فجميع ما في العالم حجج واضحة وأدلة ساطعة ترشد إلى المقصود فعليك بتوحيد الله تعالى في الليل والنهار فإنه خير أوراد وأذكار قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (العنكبوت : 45) وذكر الله سبب الحضور وموصل إلى مشاهدة المذكور ولكن الكل بعناية الله الملك الغفور ومن لم يجعل له نوراً فماله من نور :

ياذا الذي أنس الفؤاد بذكره

أنت الذي ما أن سواك أريد

تفنى الليالي والزمان بأسره

وهواك غض في الفؤاد جديد

قال ذو النون المصري قدس سره : رأيت في جبل لكام فتى حسن الوجه حسن الصوت وقد احترق بالعشق والوله فسلمت عليه فرد عليّ السلام وبقي شاخصاً يقول :

أعميت عيني عن الدنيا وزينتها

فأنت والروح شيء غير مفترق

إذا ذكرتك وافى مقلتي أرق

من أول الليل حتى مطلع الفلق

(211/602)

وما تطابقت الأحداق عن سنة

إلا رأيتك بين الجفن والحدق

قلت : أخبرني ما الذي حبب إليك الانفراد وقطعتك عن المؤانسين وهيمك في الأودية والجبال فقال حبي له هيمني وشوقي إليه هيجني ووجدي به أفردني ثم قال : ياذا النون

أعجبك كلام المجانين قلت : أي : والله واشجاني ثم غاب عني فلم أدر أين ذهب رضي الله عنه وجعل من حاله نصيباً لأهل الاعتقاد ومن طريقه سلوكاً لأهل الرشاد إنه العزيز الحكيم الجواد والرؤوف بالعباد الرحيم يوم التناد الموصل في الدارين إلى المراد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 7 صـ 33. 35 ﴾

(212/602)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » .

هذه الآية معطوفة على الآية قبلها : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » .

فهذا من آيات اللّه . . . أي ومن آياته كذلك أن خلق الناس من تراب ، ثم إذا هم بشر ينتشرون . .

(213/602)

وقضية خلق الإنسان ، كما جاء بها القرآن ، تلتقى مع العقل ، فى كل طور من أطواره ، صعودا ، أو نزولا . .

ففى القرآن الكريم عشرات من الصور التي خرج بها الإنسان إلى هذا العالم . . وهذه الصور وإن اختلفت مظهرا ، فإنها تلتقى جميعا في مضمونها ومحتواها .

فالعقل في أدنى مستوياته يلتقى مثلا مع قوله تعالى : « يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا » (13 : الحجرات) وتلك حقيقة لا يستعلى عليها العقل في أعلى منازله ، ولا يستغنى عن الأخذ بها . .

فإذا ترقى العقل شيئا كان له لقاء آخر مع قوله تعالى : « الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً » (1 : النساء) .

ثم ما يزال العقل يلتقى مع آيات الله ، آية آية . . فيجد في كل آية منها لونا جديدا ، تزداد به الصورة وضوحا ، وعمقا . .

ومن هذه الآيات :

- « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ » (20 ـ 21 المرسلات) .
- « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً » (17 : نوح) .
- « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ » (12 : المؤمنون) .
- « خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ » (14 : الرحمن) .

ـ « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » (26 : الحجر) .

ـ « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ » (45 : النور) .

فهذه الآيات ، وكثير غيرها مما جاء في خلق الإنسان ، تضع العقل أمام قضايا ، ومقررات ، كلها تحدث عن خلق الإنسان ، وبعضها واضح جلى ،

(214/602)

يعرف بأدنى نظر ، وبعضها دقيق خفى ، لا ينال إلا بنظر دقيق ، وإدراك سليم ، مع قدر كبير من العلم والمعرفة . .

ومع هذا ، فإن التقاء هذه الآيات في أي عقل مؤمن لا يحدث صداما بينها ، ولا يدعو إلى انفصال في وحدتها ، وذلك بحمل الخفي عليه منها ، على الجلىّ ، والمتشابه ـ عنده ـ على المحكم . . ثم يبقى مع هذا للعقل ـ على امتداد الزمن ـ مكانه من الآيات الخفية ، ينظر في وجهها ، ويدور باحثا عن أسرارها . . وفي كل يوم يجد العقل من هذه الآيات جديدا من العلم ، ومزيدا من المعرفة ، وكثيرا من الأسرار . . وإذا التراب ، والطين والصلصال ، والحمأ المسنون ، والماء ، والنبات . . وكل هذه المواد التي تحدث عنها القرآن في خلق آدم ـ هى العناصر التي شكلت هذا المخلوق العجيب ، والتي أقام منها الخالق العظيم ، هذا

البناء ، فى أحسن تقويم . . ! وحتى ليجىء العلم الحديث متخاضعا بين يدى القرآن الكريم ، مستسلما ومسلما لما ضمت عليه آيات اللّه من أسرار ، لم ير هذا العلم بكل وسائله إلا لمحات منها ، فيما قررته علوم الحياة من تلك الصلة الوثيقة التي تصل الإنسان بالأحياء ، وتجعله حلقة من حلقات سلسلتها الممتدة ، الضاربة في أعماق الطبيعة « 1 »

.

قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

الخطاب هنا للناس عموما ، رجالا ، ونساء . . وليس للرجال ، كما فهم ذلك كثير من المفسدين . . فكما خلق اللّه سبحانه للرجال من أنفسهم

---

(1) انظر في هذا ، المبحث الخاص الذي عرضنا فيه قصة خلق آدم ، فى الكتاب الأول من هذا التفسير .

أزواجا ، خلق سبحانه للنساء من أنفسهن أزواجا . . فكان الوفاق وكان الائتلاف بين المتزاوجين . .

والمراد بقوله سبحانه : « مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أي من جنسكم ، وطبيعتكم . .

وهذا من شأنه أن يؤلف بين الزوجين ، وأن يجمع بينهما على الأنس ، والمودة . . إذ أن الكائن الحي ، ينجذب بطبيعته إلى ما يشاكله من الأحياء . .

فكل جنس يجتمع إلى جنسه ، ويجد الطمأنينة ، والأمن ، والسكينة في جواره .

سواء في هذا ، الإنسان ، والطير ، والوحش ، والذر . . حتى النبات . . فإنه يزكو ، وينضر ، ويزهو في المغارس التي تجمع الجنس منه إلى الجنس .

وفي قوله تعالى : « لِتَسْكُنُوا إِلَيْها » بيان لهذه النعمة ، وكشف عن وجه الحكمة فيها ، وهى أنه باجتماع الإنسان إلى الإنسان ، والذكر إلى الأنثى ، تستريح النفس ، وتسكن المشاعر ، وتطمئن القلوب . . وإنه لا نعمة أجل ولا أعظم من نعمة تفيض على الإنسان الأمن والسكينة .

وفي قوله تعالى : « وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » . إشارة إلى أن المودة والرحمة أمران يتولدان من الألفة والسكن ، وأنه لولا السكن والائتلاف ، ما قامت مودة ورحمة . . لهذا جاء النظم القرآنى مفرقا بين الأمرين ، فجعل المشاكلة في الطبيعة البشرية بين الناس ، ذكورا وإناثا . خلقا ، أي في أصل الخلقة ، على حين جعل المودة والرحمة ، عرضا من أعراض هذه الطبيعة ، وثمرة من ثمراتها ، فعبر عنها بلفظ « الجعل » . « وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » . .

وهذا إعجاز من إعجاز القرآن ، الذي يتجلى في روعة أسلوبه ، وجلال صدقه . .

إذ ليس كل لقاء بين طبيعتين متماثلتين يحدث الرحمة والمودة ، وإن كان من شأنه أن يجمع ، ويقرب . . فإن المودة والرحمة ثمرة احتكاك ، وتجاوب ، بين النفوس ، وجهد مبذول ، ومعاناة معطاة من كل نفس ، وعلى قدر هذا الجهد

(216/602)

وتلك المعاناة تكون الثمرة . . وما أكثر الأشجار التي لا تعطى ثمرا ! ! وفي قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » دعوة إلى الزوجين أن يدبرا تفكيرهما إلى هذه الآية من آيات اللّه ، وأن يحققا الثمر المرجو منها . فإن لم يتحقق لهما هذا ، كان عليهما أن يرجعا إلى نفسهما ، وأن يصححا الوضع الذي هما عليه ، حتى يجىء الثمر المطلوب من الزواج ، وهو السكن ، والمودة ، والرحمة .

قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ » .

فى الجمع بين خلق السموات والأرض ، واختلاف الألسنة والألوان ، إشارة إلى هذه الظاهرة التي لا يكاد يلتفت إليها الناس ، من اختلاف ألسنتهم وألوانهم . إنها - وهى التي لا

يكاد يلتفت إليها أحد ـ لا تقل عن خلق السموات والأرض ، وما فيهما من أجرام وعوالم ، فى الدلالة على قدرة الخالق ، وجلاله ، وعظمته ، وعلمه ، وحكمته .

إن كل إنسان من الناس هو عالم قائم بذاته ، فى ظاهره ، وباطنه ، جميعا .

ففى كل إنسان آية متفردة من آيات الخلق ، وقدرة الخالق . فعلى حين يبدو الناس وكأنهم ثمار شجرة واحدة ، إذ هم ثمار مختلفة الطعوم ، ولألوان ، والأشكال . . كل ثمرة لها طعمها ، ولونها ، وريحها .

إن العين لتأخذ الناس جميعا ، وكأنهم كائن واحد . فإذا عاد النظر إليهم ، فردا فردا ، كان كل واحد كائنا قائما بذاته ، بماله من سمات ،

(217/602)

وخصائص . . فلكل إنسان نبرات صوته ، ومخارج كلماته ، وطبقات أنغامه ، التي تميزه عن غيره ، فلا تختلط نبرة بنبرة ، ولا يشتبه مخرج بمخرج ، ولا تتماثل طبقة مع طبقة ، وإن بدا في ظاهر الأمر أن هناك تماثلا وتشابها ، بين صوت وصوت ، ونغم ونغم ، فإن الحقيقة غير هذا ، حيث توجد فروق دقيقة ، وخطوط هندسية غاية في الدقة ، تفصل بين صوت وصوت ، وتحجز بين نغم ، ونغم . وكذلك الشأن في الألوان والأشكال ، والصور . . إن يد

القدرة القادرة المحكمة ، قد أقامت كلا منها في موضعه ، وجعلت بينها حاجزا ، فلا يبغى بعضها على بعض . . تماما كما حجزت بين البحرين : « هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ » هذا ، فى ظاهر الإنسان . . أما ما في باطنه ، فالأمر أعجب وأغرب . .

فمنازع التفكير ، ومناحى العواطف ، ومسارب المشاعر ، وخلجات الضمائر ، ووسوسات الأهواء . إنها أمواج متدافعة على صدر محيط لا حدود له . .

ومع هذا فلا تختلط موجة بموجة ، ولا يضيع تيار في عباب تيار . . !

. وفي قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ » . إشارة إلى أن عين العلم هنا ، هى التي تكشف هذه الأسرار ، وتطّلع على هذه الآيات . .

[الليل . . وما وسق]

قوله تعالى : « وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ . . . إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » .

ومن دلائل قدرة اللّه ، أن أليس الإنسان لباس النوم ، ليجد فيه الجسم سكنه وراحته ، مما يعالج في يقظته من أعمال ، وما يحمل من أعباء . . فكان النوم واليقظة خلفة ، يدوران في فلك الإنسان ، كما يدور الليل والنهار في فلك

الوجود . . وبهذا التوارد للإنسان على موارد النوم واليقظة ، يعرف نعمة اللّه عليه ، وإحسانه إليه ، ويجد للنوم طعمه الهنيء في كيانه ، كما يجد لليقظة مساغها العذب في كل جارحة من جوارحه .

ـ وفي قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » وفي تقديم النوم ، على اليقظة التي يدل عليها قوله تعالى : « وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » ـ فى هذا إلفات إلى نعمة النّوم ، التي قلّ أن يلتفت إليها كثير من الناس ، إذ كان في النوم عزل للإنسان عن الحياة ، وقطع للصلة بينه وبين ذاته ، حتى لكأنه قد فقد وجوده . . ومن هنا كانت نظرة كثير من الناس إلى النوم على أنه عارض دخيل على الإنسان ، أشبه بالآفات التي تعرض للجسد . .

وهذا فهم خاطئ هذه النعمة العظيمة التي تضيفها يد الرحمة الإلهية على الإنسان ! . .

وندع النظر إلى النوم ـ كظاهرة جسدية ـ وإلى وظيفته العضوية في كيان الجسد الإنسانى وننظر إلى ما يقع للإنسان في رحلة النوم ، وما يصادفه على طريقه من رؤى وأحلام ، حيث تنطلق قوى الإنسان الخفية ، وتسبح في عوالمها ، وتحقق قليلا أو كثيرا من مطالبها التي أمسكتها عنها يقظة الجسد ، وقيدتها دونها جوارحه .

ففى رحلة النوم ، وفيما بين اليقظة والنوم ، يسبح الإنسان بعقله وروحه ، فيما وراء هذا العالم المادي . . حيث لا قيود ولا سدود . . وحيث يحقق الإنسان فى هذا العالم ما

عجز عن تحقيقه في عالمه المادىّ ، فيجد في هذا ما يجد الجوعان بعد الشبع ، والظمآن بعد الرىّ ! فكم من محروم ، طعم في نومه من كل طيّب كانت تشتهيه نفسه ، وتقصر عنه يده ؟ وكم من مظلوم ، اكتوى بنار الظلم من يد ظالمه ، ثم جاء إليه

(219/602)

فى عالم الأحلام ، صاغرا ذليلا ، فكال له الصاع صاعين ، وشفى ما بنفسه من قسوة الظلم ومرارته ؟ .

وكم من محبّ باعد الزمن بينه وبين حبيبه ، وانقطع بينهما حبل اللقاء ، بغربة نائية في عالم الأحياء ، أو عالم الموتى . . وإذا هما في الكرى على لقاء ، يتساقيان كئوس الحبّ مترعة ، ويرتشفان راح المودة صافية ؟ .

وكم من عالم وقف به علمه أمام معضلة لم يجد لها حلّا ، حتى دبّ اليأس فى صدره ، وغربت شمس الرجاء من أفقه ، وإذا هواتف الرؤى تناديه ، وتبوح إليه في نومه بما ضنت به عليه في يقظته . . وإذا الحقيقة بين يديه سافرة ، والمعضلة بديهة ! ! وكم ؟ وكم ؟ وكم ؟ إننا في عالم النوم لنجنى من الثمرات العقلية ، والروحية ، والنفسية ، ما لا نحصل عليه في يقظتنا ، بمدركاتنا ، وحواسنا .

ذلك أن النوم إذا قطع صلتنا بعالم الحسّ ، وصلنا بعالم الروح . . وكما تأخذ أجسادنا حظّها من طعام وشراب ، من عالمها المادي ، فإن أرواحنا ، ونفوسنا ، وعقولنا تتزود في رحلة النوم ، من عالم الروح بكل ما تستطيع الوصول إليه منه .

فالنوم ليس إلا حبسا للجسد ، وإطلاقا للروح . وهو بهذا إنما يعطى الجانب الروحىّ من الإنسان حظه ، من التحرر والانطلاق من كثافة المادة ، وضغوطها ، وظلامها . . وإلّا ، فإنه لو ظنّت الروح حبيسة في كيان الجسد ، تقوم على حراستها في داخل هذا السجن المظلم ـ الحواسّ والمدركات ـ لاختنقت ، وانطفأ نورها ، ومات شعاعها .

وماذا يبقى للإنسان أو من الإنسان إذا عطبت روحه ، وانطفأ هذا المصباح الإلهى المشتعل في كيانه ؟ إنه لا إنسان بغير روح ، وإنه لا وجود لإنسانية

(220/602)

فقدت روحها ، وإن لم تفقد حياتها . . ومن هنا نستطيع أن نفهم قول الرسول الكريم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . . فهذا يعنى أن الروح قد تخلصت بالموت تخلصا تاما من الجسد ، وخرجت بوجودها كلية من سجنه المطبق عليها ، وعندئذ يجد الإنسان وجوده كاملا . . فالإنسان في حقيقته روح ، وما الجسد إلا منزلا نزلته الروح في مرحلة من مراحل

السفر في هذا الوجود ! ومن هنا نستطيع أيضا أن نلمح أن البعث بالروح لا بالجسد . . .

ولهذا مبحث خاص سنعرض له - إن شاء اللّه ! فالذين يستخفون بالنوم ، ويمدونه ضرورة من الضرورات الثقيلة المفروضة على الطبيعة البشرية ، ويحسبونه داء من تلك الأدواء التي تلحق الإنسان ، وتطغى على وجوده ، كالطفولة ، والشيخوخة - هؤلاء مخطئون أشد الخطأ ، إما لجهلهم ، الذي يقصر بهم عن إدراك ما لا تلمسه أيديهم ، وتذوقه أفواههم ، وإما لأنهم ماديون ، لا يرون إلا المادة ، ولا يتعاملون إلا بها ، ولا يجدون في الإنسان إلا أنه حيوان ، مخلف بهذا الخلاف المادي من العظم واللحم ! وإذا كان « النوم » - على ما رأيت - نعمة جليلة ، فإن اللّه سبحانه وتعالى ، قد جعل الليل الذي هو الظرف الطبيعي للنوم - نعمة جليلة أيضا ، كما يقول سبحانه : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ . . مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ » (72 : القصص) . .

فالليل ، ستار يغشى الكائنات الحية ، ومنها الإنسان ، فيسلمها ذلك إلى السكن ، ثم النوم ! .

إن لليل سلطانا قاهرا كسلطان النهار على الأحياء . . هذا النوم ، وذاك

لليقظة . . . ذلك للموت ، وهذا للبعث . . « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى . . ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » (60 : الأنعام) .

وقد كان الليل ، لسلطانه هذا ، إلها ، يناظر النهار ، ويقاسمه حكم هذا العالم . . فدان كثير من الناس بهذه الديانة المثنوية ، فجعلوا الآلهة اثنين ، إلها للنور ، وآخر للظلمة . . واعتقدوا في إله النور الخير ، على حين كان معتقدهم فى إله الظلام أنه شر ، وأن الحرب دائرة بينهما ، وأن على المؤمنين أن ينتصروا لإله الخير ، وأن يرقبوا خلاص العالم ، من الظلام ، والشر ، على يديه . . . وإلى هذا المعنى أشار المتنبي بقوله :

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدّث أن المانوية تكذب

فهو يجد في الليل طيف محبوبه يلمّ به ، ويسعده ، فى زورة من زورات الأحلام ، وهذا يحدث عن الليل بما يكذب المانوية ، التي تعتقد أن الليل شر لا يجىء منه خير ! بل إن المتنبي ليجد هذه اليد الكريمة لليل عنده في عالم اليقظة حيث يتخذ من الليل ستارا يخفيه عن أعين الرقباء ، فيقول :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بي

وكم تغنى الشعراء بالليل ؟ وكم حدا الحداة وهم سائرون في عبابه ، مأخوذون بهيبته وجلاله ؟ .

وكم ناجى العبّاد ربهم بالليل ، وقطعوا آناءه حمدا وتسبيحا ، وركوعا وسجودا ؟

إن الليل ، وإن لم يستول على الإنسان سلطان النوم فيه ، فإن في ظلامه غرصة تحجز الحواس عن الانطلاق ، وتمسكها عن العمل ، وعندئذ تصحو

(222/602)

شاعر الإنسان ، وتستيقظ روحه ، ومن هنا يكون مهيئا للانصال بالعالم العلوي ، والوقوف على موارده ، والري من مشاربه . . !

ولأن الليل هو الظرف الطبيعي للنوم ـ كما قلنا ـ فقد أقسم اللّه سبحانه وتعالى به ، وسمى سورة من القرآن الكريم به ، تنويها بقدره ، وإشارة ترفع تلك الغشاوة التي تنظر إليه نظرة باردة ، أو شاردة ، أو متهمة . . فقال تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى » (1 ـ 2 الليل) وقال سبحانه : « وَالشَّمْسِ وَضُحاها وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها ، وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها » (1 ـ 4 : الشمس) وقال سبحانه : « وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ » (17 : الانشقاق) .

ـ وفي عطف النهار على الليل في قوله تعالى : « وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ » ـ تقرير لتلك الحقيقة الواقعة ، وهى أن الليل ، وإن كان هو الظرف الطبيعي للنوم ، فإن ذلك لا يمنع أن يكون النهار ظرفا للنوم أيضا ، حيث ينام الناس بالليل ، وينامون كذلك بالنهار ، وإن كان

النوم بالليل أصلا ، والنوم بالنهار فرعا . . . ولهذا قدم الليل على النهار في هذا المقام . .

ومن جهة أخرى ، نجد في قوله تعالى : « وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » وإن جاء مجاورا للنهار ، فإنه معطوف على قوله تعالى : « مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ » . . وهذا يعنى أن النهار ، وإن كان الظرف الطبيعي للسعى والعمل ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون الليل ظرفا للسعى والعمل ! كما هو واقع في الحياة . فالناس يعملون بالنهار ، ويعملون بالليل ، كما ينامون بالليل ، وينامون بالنهار . .

وعلى هذا يكون مفهوم النظم القرآنى هكذا : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله ، بالليل والنهار .

ولكن أين هذا من ذاك ؟ هذا كلام ، وذاك قرآن . . !

(223/602)

وفي قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » وفي استدعاء السمع هنا ، دون حواس الإنسان وملكاته الأخرى . فى هذا إشارة إلى أن السمع الذي يحقق إدراكا ، ويعطى فهما ، ثم يعطى لهذا الفهم ، وذلك الإدراك ، ثمرة . هو السمع الذي يخلى له الإنسان حواسه كلها ، ويعطيه وجوده كله ، على ما يكون عليه الإنسان في الليل ، وقد اشتمل عليه

، وأمسك كل حواسه ، فلم يبق الإنسان إلا سمعه المرهف ، الموجه إلى العالم الخارجي ، وما يجيء منه . . . وذلك ما يكون عليه الإنسان ، حين يقع تحت حكم الآية :

« وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » ، فيحتويه الليل ، ويبسط عليه سلطانه .

قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

مناسبة هذه الآية للآية التي قبلها ، أنهما جميعا في معرض الدلالة على قدرة اللّه سبحانه ، والكشف عن أنعمه وآلائه . . ثم إن البرق إنما يظهر سلطانه على أئمّه ، حين يلمع بالليل الذي جاء ذكره في الآية السابقة .

ورؤية البرق ، إشارة دالة على الرحمة المرسلة من عند اللّه ، على يد هذا السحاب الذي ينطلق البرق من خلاله . . فإذا لمع البرق توقع الناس الغيث ، واختلفت توقعاتهم له بين يأس ورجاء ، وخوف وطمع . . وذلك أن البرق وإن كان رسولا من رسل الغيث ، إلا أنه قد يجيء بالغيث ، وقد لا يجيء . . فهناك برق يسمى برق الخلّب ، وهو الذي يبرق ولا يصحبه مطر . . ومن هنا كان قوله تعالى : « خَوْفاً وَطَمَعاً » . إشارة إلى أن لمعان البرق ، وإن طلع على

الناس بما يبشر بالغيث ، فإنّه يضع المشاعر المترقبة للمطر ، المتلهفة عليه ، فى موضع متأزم ، بين الخوف والرجاء . . بل إن الخوف ليغلب على الرجاء ، وخاصة إذا كانت الحاجة إلى المطر شديدة ، والطلب له ملحا وهذا هو بعض السرّ في تقديم الخوف على الطمع . . إذ كانت الآية الكريمة منجهة أوّلا إلى من يقيمون حياتهم على ماء المطر ، مثل سكان الصحارى ، ونحوها . فهؤلاء إذا تأخر نزول المطر أياما ، وأمسكت السماء رحمتها قليلا عنهم ، فزعوا ، واضطربوا ، وتعلقت أنظارهم بالسماء ، يرقبون السحب ، ويرصدون مسيرتها .

فإذا لمع البرق ، بدا لهم منه الوجه الضاحك المبشر بالخير ، فقرحوا ، واستبشروا . . ولكن سرعان ما يطلع عليهم شعور أسود كالح ، يقطع عليهم هذه الفرحة ، كأنه يقول لهم : وما يدريكم أن وراء هذا البرق مطرا ؟ ألا يجوز أن يكون برقا خلبا ؟ وهنا يأخذ الخوف مكان الصدارة على مشاعرهم ، شأن الحريص على الشيء ، المتلهف إليه . . . يغلب عليه الخوف على فقده أكثر من الطمأنينة إلى بقائه ! .

قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » قيام السماء والأرض بأمر اللّه ، هو حفظ نظامهما ، والإمساك بهما على هذا النظام الذي أوجدهما اللّه سبحانه وتعالى عليه . . وأمر اللّه ، هو سلطانه وقدرته . ،

وهذا يعنى أنه إذا ساغ لتفكير إنسان أن يضيف هذا الوجود ، فى أرضه وسمائه إلى غير اللّه سبحانه ، كما يقول بذلك الملحدون من الطبيعيين الذين ينسبون الموجودات إلى الطبيعة ، ويقولون إن الأشياء وجدت هكذا بطبيعتها ـ نقول إنه إذا ساغ لتفكير إنسان أن يقول مثل هذا القول ،

(225/602)

فكيف يسوغ له أن يقول إن هذا التجاوب بين الموجودات ، وهذا النظام الذي يمسك بها ، ويولّف منها نغما موسيقيا منسجما ـ هو من عمل الطبيعة ذاتها ؟ إن هذا يعنى أن الطبيعة عاقلة ، حكيمة ، مدبرة ، عالمة ، قادرة . . وهذه هى بعض صفات الألوهية . . فلم تسمّى إذن الطبيعة طبيعة ، ولا تسمى إلها ؟

إن المسافة قريبة جدا هنا بين الطبيعة وبين الإله . . وإنه لأقرب إلى العقل والمنطق أن يقوم على الموجود مدبّر واحد ، يولف بين وحداته ، ويجمع بين أشتاته ، بدلا من قيام مدبرات تقوم في وحدات الطبيعة ، وتجعل منها نظاما واحدا ! ـ وفي قوله تعالى : « ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

إشارة إلى أن أمر اللّه وسلطانه ، الذي تقوم به السموات والأرض ، أن تدعوا من القبور بعد

موتكم ، دعوة واحدة ، فإذا أنتم قيام تنظرون . .

وهذا يعنى أن البعث بعد الموت ، نظام قائم في هذا الوجود ، أشبه بنظام دوران الكواكب في أفلاكها ، والليل والنهار في فلكهما .

وفي العطف « بثم » إشارة إلى أن هذه الدعوة التي يدعى بها الموتى لم يجى وقتها بعد ، وأنها أمر مستقبل ، لا يعلم أحد متى يكون . . وإن كان من المعلوم أنها لا تقع إلا بعد أن يموت الناس جميعا . . وفي تصدير الجملة الخبرية « إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » بأداة المفاجأة « إذا » . إشارة إلى أن البعث من القبور سيعقب الدّعوة مباشرة ، بلا مهل . . . كما يقول سبحانه : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » (51 : يس) .

والفجاءة إنما تقع على أولئك الذين لا يرجون بعثا ، ولا يؤمنون بالحياة الآخرة . .

ولهذا فهم إذا بعثوا أخذهم الدهش والعجب ، وقالوا ما حكاه القرآن الكريم عنهم : « يا وَيْلَنا . . مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ؟ » (52 : يس) . .

(226/602)

قوله تعالى : «وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» .

القانت : الخاضع المستجيب لغيره ، طوعا .

والآية تعقيب ، على الآية السابقة ، وأن هذا الوجود في سمائه وأرضه ، هو خاضع لأمر الله ، مستجيب له . . وأن الموتى إذا دعوا من قبورهم لا يملكون إلا أن يستجيبوا لما دعاهم إليه سبحانه وتعالى : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً » (93 : مريم) وفي التعبير عما في السموات والأرض من مخلوقات ، بلفظ « من » التي للعقلاء - إشارة إلى أن هذه الموجودات ، محكومة بنظام ، مسيّرة بحكمة وعلم ، حتى لكأن في كل كائن منها عقلا مدبّرا ، وموجّها . . فهى بهذا الاعتبار ، عاقلة ، مدركة ! . .

قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وهذه الآية تعقيب كذلك على الآية السابقة ، وهى تقرر أن من له من في السموات والأرض ، هو الذي بدأ الخلق ، وهو الذي يعيده كما بدأه . .

والمراد بالخلق هنا ، المخلوقات كلها . . وهذا يعنى أن الوجود في حركة دائمة ، وفي هدم وبناء مستمرّين . . وأن الوجود في أية لحظة ، هو على غير صورته في اللحظة السابقة أو اللاحقة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » . . فمعنى الهلاك هنا هو التحول ، والتبدل ، وتغاير الصور والأشكال ، وليس معنى الهلاك الفناء المطلق . . . إذ أن المادة لا تفنى ، وإنما تتبدّل وتتحول ، وتأخذ قوالب مختلفة ! وكذلك ما جاء في

قوله تعالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ » هو من هذا المعنى ، وأن الفناء هو زوال صور الأشياء ، وقوالبها وأخذها صورا وقوالب أخرى . . فعملية الخلق مستمرة دأبا ، وتقابلها من جهة أخرى عملية الموت ، أو البلى ، أو الفناء ، أو الهلاك . .

وكلها هنا بمعنى واحد ، وهو التحول والتبدل ، لا الفناء المطلق الأبدى ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ، « كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ » (104 : الأنبياء) .

وقوله تعالى : « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

« أهون » صيغة تفضيل ، وأصله من هان الأمر ، أي خف بعد ثقل ، وأمر هين : خفيف الحمل ، قليل المؤنة ، ومنه قوله تعالى : « قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ » .

وليس بالإضافة إلى اللّه سبحانه وتعالى ، ما هو هين ، وأهون منه . . فكل شىء في قدرة اللّه ، لا يعجزه سبحانه ، شىء في الأرض ولا في السماء . . لا يتكلف ـ سبحانه وتعالى ـ لأمر جهدا . . « إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . . يستوى في هذا كبير الأمور وصغيرها . . السموات والأرض ومن فيهن ، هى في قدرة اللّه كالذرة أو البعوضة

. . « ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ » .

فهذا التفضيل « أهون » ـ منظور فيه إلى قدرة الإنسان ، وإلى ما يقوم على صنعه من أشياء . . فاختراع الشيء ، لا يتوصل إليه الإنسان إلا بعد جهد ، ومعاناة ، وتبديل وتغيير ، وتسوية ، وحذف وإضافة ، حتى يستقر الشيء على الصورة التي يرتضيها . ، فإذا انتهى الإنسان إلى تلك الصورة ، كان حلها وتركيبها ، أمرا هينا عنده ، لا يتكلف له جهدا . . إن مثال الصورة قائم بين يديه ، وحاضر في تفكيره ، وما عليه إلا أن يضع الأجزاء

التي تناثرت أشلاؤها ، فى هذا القالب ، فإذا الصورة قائمة على ما كانت عليه . . .

ـ وفي قوله تعالى : « وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ـ إشارة إلى أن قوله تعالى : « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » هو من قبيل التمثيل ، بضرب هذا المثل اللّه ، منتزعة صورته من أفعال الخلق ، وتعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا . . فهو سبحانه : « العزيز » الذي تعنو لعزته وسلطانه كل عزة ، وكل سلطان ، ويستجيب لقدرته كل موجود في هذا الوجود . .

« الحكيم » الذي تقوم عزته ، ويعمل سلطانه ، ويمضى حكمه . بالحكمة والعدل ، والإحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 494 . 510 ﴾

(229/602)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) ﴾

أتبع ذكر إقامة الله تعالى السماوات والأرض بالتذكير بأن كل العقلاء في السماوات والأرض عبيد لله تعالى فيكون من مكملات ما تضمنته جملة ﴿ ومن ءاياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ [الروم : 25] فعطفت عليها هذه الجملة زيادة لبيان معنى إقامته السماءَ والأرض .

فاللام في قوله ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ لام الملك ، واللام في قوله ﴿ كل له قانتون ﴾ لام التقوية ، أي تقوية تعدية العامل إلى معموله لضعف العامل بكونه فرعاً في العَمل ، وبتأخيره عن معموله .

وعليه تكون ﴿ مَنْ ﴾ صادقة على العقلاء كما هو الغالب في استعمالها .

وظاهر معنى القنوت امتثال الأمر ، فيجوز أن يكون المعنى : أنهم منقادون لأمره .

وإذ قد كان في العقلاء عصاة كثيرون تعيَّن تأويل القنوت باستعماله في الامتثال لأمر التكوين ، أو في الشهادة لله بالوحدانية بدلالة الحال ، وهذا هو المقصود هنا لأن هذا الكلام أورد بعد ذكر الآيات الستّ إيرادَ الفذلكة بإثبات الوحدانية فلا يحمل قنوتهم على امتثالهم لما يأمرهم الله به من أمر التكليف مباشرة أو بواسطة لأن المخلوقات متفاوتون في الامتثال للتكليف ؛ فالشيطان أمره الله مباشرة بالسجود لآدم فلم يمتثل ، وآدم أمره الله مباشرة أن لا يأكل من الشجرة فأكل منها ؛ إلا أن ذلك قبل ابتداء التكليف .

والمخلوقات السماوية ممتثلون لأمره ساعون في مرضاته قال تعالى ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ [الأنبياء : 27] .

(230/602)

وأما المخلوقات الأرضية العقلاء فهم مخلوقون للطاعة قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] ، فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها ، وهم في انحرافهم متفاوتون ؛ فالضالّون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أنداداً ، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده ، ولكنهم ربما خالفوا بعض أوامره قليلاً أو كثيراً ، هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق متفاوتون فيه .

فجملة ﴿ وله من في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ [الروم : 25] .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ ولَه مَنْ فِي السَّمَاوات والأرض كُل لهُ قانِتُون ﴾ تكملة لجملة ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [الروم : 25] على معنى : وله يومئذ من في السموات والأرض كل له قانتون ، فالقنوت بمعنى الامتثال الواقع في ذلك اليوم وهو امتثال الخضوع لأن امتثال التكليف قد انقضى بانقضاء الدنيا ، أي لا يسعهم إلا الخضوع فيها يأمر الله به من شأنهم ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : 24] ، فتكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [الروم : 25] .

والقنوت تقدم في قوله ﴿ قانتاً لله حنيفاً ﴾ في سورة النحل (120) .

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

تقدم نظير صدر هذه الآية في هذه السورة وأعيد هنا ليبنَى عليه قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ تكملة للدليل إذ لم تذكر هذه التكملة هناك .

فهذا ابتداء بتوجيه الكلام إلى المشركين لرجوعه إلى نظيره المسوق إليهم .

وهذا أشبه بالتسليم الجدلي في المناظرة ، ذلك لأنهم لما اعترفوا بأن الله هو بادئُ خلق الإنسان ، وأنكروا إعادته بعد الموت ، واستُدل عليهم هنالك بقياس المساواة ، ولما كان إنكارهم الإعادة بعد الموت متضمناً تحديد مفعول القدرة الإلهية جاء التنازل في الاستدلال إلى أن تحديد مفعول القدرة لو سلم لهم لكان يقتضي إمكان البعث بقياس الأحرى فإن إعادة المصنوع مرة ثانية أهون على الصانع من صنعته الأولى وأدخل تحت تأثير قدرته فيما تعارفه الناس في مقدوراتهم .

فقوله ﴿ أهون ﴾ اسم تفضيل ، وموقعه موقع الكلام الموجَّه ، فظاهره أن ﴿ أهون ﴾ مستعمل في معنى المفاضلة على طريقة إرخاء العنان والتسليم الجدلي ، أي الخلق الثاني أسهل من الخلق الأول ، وهذا في معنى قوله تعالى ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] .

ومراده : أن إعادة الخلق مرة ثانية مُساوية لبدْء الخلق في تعلق القدرة الإلهية ، فتحمل صيغة التفضيل على معنى قوة الفعل المصوغة له كقوله ﴿ قال ربّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يَدْعُونَني إليه ﴾ [يوسف : 33] .

وللإشارة إلى أن قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ مجرد تقريب لأفهامهم عقب بقوله ﴿ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، ﴾ أي ثبت له واستحق الشأن الأتم الذي لا يقاس

بشؤون الناس المتعارفة وإنما لقصد التقريب لأفهامكم .

و ﴿ الأعلى : معناه الأعظم البالغ نهاية حقيقة العظمة والقوة .

(232/602)

قال حجة الإسلام في الإحياء ﴾ : "لا طاقة للبشر أن ينفُذوا غَوْر الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضَوءَ الشمس ولكنهم ينالون منها ما تحيا به أبصارهم وقد تأنق بعضهم في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام المجيد إلى فهم الإنسان لعلو درجة الكلام المجيد وقصور رتبة الأفهام البشرية فإن الناس إذا أرادوا أن يفهموا الدواب ما يريدون من تقديمها وتأخيرها ونحوه ورأوها تقصر عن فهم الكلام الصادر عن العقول مع حسنه وترتيبه نَزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إليها بأصواتٍ يضعونها لائقة بها من الصفير ونحوه من الأصوات القريبة من أصواتها " أ هـ .

وقوله ﴿ في السموات والأرض ﴾ صفة للمثل أو حال منه ، أي كان استحقاقه المثل الأعلى مستقراً في السماوات والأرض ، أي في كائنات السماوات والأرض ، فالمراد : أهلها ، على حدّ ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] ، أي هو موصوف بأشرف الصفات وأعظم الشؤون على ألسنة العقلاء وهي الملائكة والبشر المعتد بعقولهم ولا اعتداد

بالمعطِّلين منهم لسخافة عقولهم وفي دلائل الأدلة الكائنة في السماوات وفي الأرض ، فكل تلك الأدلة شاهدة بأن لله المثل الأعلى .

ومن جملة المثَل الأعلى عزته وحكمته تعالى ؛ فخُصّا بالذكر هنا لأنهما الصفتان اللتان تظهر آثارهما في الغرض المتحدث عنه وهو بدء الخلق وإعادته ؛ فالعزة تقتضي الغِنى المطلق فهي تقتضي تمام القدرة .

والحكمة تقتضي عموم العلم .

ومن آثار القدرة والحكمة أنه يعيد الخلق بقدرته وأن الغاية من ذلك الجزاء وهو من حكمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(233/602)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) ﴾

نعرف أن (مَنْ) للعاقل ، ولنا أن نسأل : لماذا خصَّ العاقل مع أن لك ما في الكون خاضع لله طائع مُسبِّح يدخل في دائرة القنوت لله ؟ قالوا : لأن التمرد لا يأتي إلا من ناحية العقل ؛ لذلك بدأ الله به ، أما الجماد الذي لا عقل له ، فأمره يسير حيث لا يتأبَّى منه شيء على الله ، لا

الجماد ولا الحيوان ولا النبات .

تأمل مثلاً الحمار تُحمّله القاذورات فيحمل ، فإذا رقَّيْته وجعلته مطية للركوب لا يعترض ، لا عصى في الأولى ، ولا عصى في الأخرى ؛ لأنه مُذلَّل لك بتذليل الله ، ما ذلَّلته لك بعقلك ولا بقوتك ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 71-72] .

وضربنا لذلك مثلاً بالجمل لما ذلَّله الله لك استطاع الغلام الصغير أنْ يقوده ويُنيخه ويركبه ويحمله ، أما الثعبان الصغير فيُخيفك رغم صِغَره ؛ لأن الله لم يُذلِّله لك .

ونقف هنا عند قوله تعالى ﴿ مَن فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [الروم : 26] فمن في السماوات نعم هم قانتون لله أي : خاضعون له سبحانه ، مطيعون لإرادته لأنهم ملائكة مُكرَّمون ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] .

﴿ يُسَبِّحُونَ اليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : 20] .

فما بال أهل الأرض ، وفيهم ملاحدة وكفار ليسوا قانتين ، فكيف إذن نفهم ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم : 26] .

قالوا : لأنهم لما تمرَّدوا على الله وكفروا به ، أو تمرَّدوا على حكمه فعصَوْه لم يتمردوا بذواتهم ، إنما بما خلق الله فيهم من اختيار ، ولو أرادهم سبحانه مقهورين ما شذَّ واحد منهم عن مراد ربه ، والله عز وجل لا يريد أنْ يحكم الإنسان بقهر القدرة ، إنما يريد لعبده أنْ يأتيه طواعية مختاراً ، فإمكانه أن يكفر ومع ذلك آمن ، وبإمكانه أن يعصي ومع ذلك أطاع .

فلو أرادهم الله مؤمنين ما وجدوا إلى الكفر سبيلاً ، ولعصمهم كما عصم الأنبياء ، ربك يريدك مؤمناً عن محبة وإخلاص لا عن قهر وغلبة ؛ لذلك قال إبليس في جداله : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82-83] .

فلا قدرة له على عباد الله المخلصين ، الذين اختارهم الله لنفسه ، ولا سلطانَ له عليهم ، فإبليس إذن ليس في معركة مع ربه ، إنما في معركة مع الإنسان . وفي موضع آخر قال تعالى :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . ﴾ [الحجر : 42] .

ولما عشق هؤلاء المتمرِّدون على الله التمرد ، وأحبوه زادهم الله منه وأعانهم عليه ؛ لأنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، فختم على قلوبهم فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، وهو سبحانه الغني عن خَلْقه ؛ لذلك لما خلق الجنة خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ آمنوا ، ولما خلق النار خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ، وترك لنا سبحانه الاختيار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنتم أحرار ، فأنا مستعد للجزاء على أيِّ حال تسعكم جنتي ، إنْ آمنتم جميعاً ، ولا تضيق بكم النار إنْ كفرتم جميعاً .

(235/602)

ونقول لمن تمرَّد على الله : ينبغي أن تكون منطقياً مع نفسك ، وأن تظل متمرداً على الله في كل شيء ما دمت قد ألفتَ التمرد ، فإنْ جاءك المرض تتأبى عليه ، وإنْ جاءك الموت ترفضه ، فإذا لم تستطع فأنت مقهور لله خاضع له ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم : 26] خاضعون ، إما عن اختيار ، وإما عن قهر في كل أمر لا اختيار لك فيه ، إذن : فأنت قانت رغماً عنك ، وقنوتك مع تمرُّدك أبلغ في الشهادة لله .

إذن : فالمؤمن خاضع لله في منطقة الاختيار ، وهي الإيمان والتكاليف ، وخاضع لله فيما لا اختيار له فيه كالقضاء والأمور الاضطرارية ، فهو يستقبلها عن رضا ، أما الكافر فهو خاضع لله لا يستطيع الفكاك عن قضائه ولا عن قدره رغماً عنه في الأمور التي لا اختيارَ له فيها ، لكنه يستقبلها بالسُّخْط وعدم الرضا ، فهو كافر بالله كاره لقضائه .

فنقول لمن تمرد على الله فكفر به ، أو تمرَّد على أحكامه فعصاها : ما لكم لا تتمردون على الله فيما يقضيه عليكم من أمور اضطرارية ؟ هذا دليل على أنكم اتخذتم الاختيار في غير

محلّه ؛ لأن الذي يختار ينبغي أنْ يأخذ الاختيار في كل شيء ، لكن أنْ تختار في شيء ولا تختار في شيء آخر ، فهذا لا يجوز .

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

كثيراً ما يُحدّثنا القرآن الكريم عن هذه المسألة ويُذكّرنا بالبدء والإعادة ، لماذا ؟ يهتم القرآن بهذه المسألة ويؤكد عليها لأنها كانت الأساس في دعوته ؛ لأنهم إنْ كانوا يؤمنون بأنهم يرجعون إلى الله لخافوا من عقابه ؛ لذلك يؤكد لهم في مواضع كثيرة حتمية الإعادة وأنها حَقٌّ .

(236/602)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . ﴾ [الروم : 27] استُهلَّت الآية بقوله تعالى (وَهُوَ) وفي آية أخرى ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . ﴾ [الروم : 11] فكأن (هُوَ) مدلولها (الله) وهو كما نعلم ضمير غيبة ، والحق سبحانه غَيْب عن الأنظار ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب ، فلو كان مُدْركاً مُحسّاً ما استحق أنْ يكون إلهاً ، وكيف نطمع في إدراكه سبحانه ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته ؟

فالمعاني التي خلقها الله لتسوس حركة الحياة : كلمة الحق ، العدل ، الحق الذي يقف القضاء كله ليؤيده ويُعلنه ، والعدل الذي يحكم موازين الحياة ؛ ليوازن بين الشهوات وبين الحقائق ، هذه المعاني لا تُدرَك بالحواس ، فهل رأيتم العدل ؟ هل سمعتم العدل ؟ هل شممتم العدل ؟ . . . الخ .

إذن : فالمعاني العالية لا يمكن أنْ تُدرك لأنها أرفع من الإدراك ؛ لأن بها يكون الإدراك ، أيكون المخلوق للحق أسمى من أنْ يُدرك ، ويكون الحق سبحانه موضعاً للإدراك .

فإذا سمعت (هُوَ) فاعلم أنها لا تنصرف إلا إلى الإله الواحد الذي من عظمته أنه لا يُدرَك ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار . . . ﴾ [الأنعام : 103] .

لذلك نقرأ في سورة الإخلاص ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فترى أن (الله) لفظ الجلالة ، وهو عَلَم على واجب الوجود يأتي بعد (هُوَ) فكأن (هُوَ) أدلُّ على وجود الحق سبحانه من لفظ الجلالة (الله) ، فكأنه لا يصح حين يُطلَق ضمير الغيبة (هُوَ) على شيء إلا الله ؛ لأنه لا شيء في الكون إلا الله .

وقوله تعالى هنا ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُا الخلق . . . ﴾ [الروم : 27] بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرارية ، مع أنه سبحانه بدأ الخَلْق بالفعل ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29] فإنْ ذكرت الأولى فقد بدأ الخَلْق ، وإن ذكرت الاستمرارية في الإيجاد فهو يبدأ دائماً ، وفي كل وقت ترى في خَلْق الله شيئاً جديداً ، فالخَلْق لم يأتِ مرة واحدة ، ثم توقف ، بل بدأ ثم استمر .

ونلحظ أن القرآن يذكر هذه المسألة مرة بالماضي (بَدَأَ) ومرة بالمضارع (يَبْدأ) ؛ لأن الخالق سبحانه بدأ الخلق فعلاً بخَلْق آدم عليه السلام الإنسان الأول : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : 7] ولا يزال سبحانه بقيوميته خالقاً ، يبدأ كل يوم وكل لحظة خَلْقاً جديداً نشاهده في الإنسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات . . الخ .

وبالخَلْق المتجدّدِ للإنسان ، حيث يُولَد كل لحظة مولود جديد نردُّ على الذين يقولون بتناسخ الأرواح – يعني : أن الروح تخرج من جسد فتحلُّ في جسد آخر – وهذا يعني أن تكون المواليد على قدر الوَفَيَات ، ويعني أن يظل العالم على تعداد واحد دون زيادة ، ونحن نرى الآن مدى الكثافة السكانية التي يشكو العالم منها الآن ، وهذه تكفي لهدم هذه النظرية .

والحق سبحانه يُحذِّرنا أن نأخذ قصة بَدْء الخلق من غير الخالق سبحانه ، فمن الناس مضلون سيضلونكم في هذه المسألة ، فلا تُصغُوْن إليهم ؛ لأن الله يقول : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ

خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

(238/602)

وقد رأينا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول بأن الإنسان أصله قرد متطور إلى إنسان ، والردُّ على هذه الضلالات يسير ، فإذا كان القرد تطور إلى إنسان ، فلماذا لم تتطور باقي القرود ؟ ولماذا لم يتطور الإنسان منذ أنْ خُلِق آدم وحتى الآن إلى شيء آخر ؟ وكيف نصدق هذه الضلالات ، وربنا سبحانه يقول : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : 49] .

ويقول سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] فإياك أنْ تقول : إن شيئاً تطور عن شيء ، فكل جنس قائم بذاته منذ خلقه الله .

إذن : احذروا مثل هذه الأقوال ، ولا تأخذوا قصة بَدْء الخَلْق إلا من الله وحده .

كلمة ﴿ يُعِيدُهُ . . . ﴾ [الروم : 27] أي : إلى الخَلْق فهي بمعنى يخلقه ، فالمعنى : يبدأ الخلق ثم يميته ثم يُعيده ، البعض يظن أن يعيده يعني يبعثه في الآخرة ، لكن الله تعالى يقول :

﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم : 11] فيعيده غير تُرجعون ، ترجعون أي : في القيامة .

وقوله ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 27] أي : على حَسْب فهمكم أنتم للأشياء ، وإلا فالله تعالى لا يقال في حقه هذا سهل وهذا أسهل ، ولا هيِّن وأهون ؛ لأنه سبحانه لا يزاول الأشياء كما نزاولها نحن ، ولا يعالج الأفعال ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

ومن ذلك قوله تعالى لزكريا عليه السلام لما تعجب أن يكون له ولد ، وقد بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . . ﴾ [مريم : 9] ذلك لأن طلاقَة القدرة لا تقف عند أسبابكم . وكذلك قال لمريم : ﴿ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . . ﴾ [مريم : 21] .

(239/602)

فالأمر عجيب في نظر مريم ، أن تأتي بولد بدون زوج ؛ لكنه ليس عجيباً في قدرة الله ، فإنْ كانت العادة أنْ يأتي الولد بالأسباب فالله سبحانه هو خالق الأسباب ، يفعل ما يشاء بدونها .

وسبق أن تحدثنا عن طلاقة قدرة الله في قصة إبراهيم عليه السلام حينما أراد القوم أنْ يحرقوه ، فلو كانت المسألة مسألة نجاة إبراهيم من النار ما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو : حتى إنْ أمسكوه وألقَوْه في النار كان بالإمكان أنْ يُنزِل الله على النار مطراً فتنطفيء .

لكن الحق سبحانه يريد أن يسدَّ على الكافرين منافذ الحِجَاج ، ويبطل كفرهم ، فها هم قد ظفروا به وألقَوْه في قَعْر النار ، وهي على حال الاشتعال والإحراق ، لكنهم غفلوا عن شيء هام ، هو أن الله تعالى ربُّ هذه النار وخالقها وخالق قوة الإحراق فيها ، وهو وحده القادر على أنْ يسلبها هذه الخاصية ، فيلقى فيها نبيه إبراهيم دون أن يحترق .

وهنا تكمن العظمة وتظهر الحجة ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] .

ونلحظ فصاحة الأداء في ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق . . . ﴾ [الروم : 27] فهو أسلوب قَصْر ، حيث قدّم المتعلق الذي حقُّه أن يكون مؤخراً ، كما في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . . ﴾ [الفاتحة : 5] فقدّم المفعول ، ومن حق المفعول أن يُؤخّر عن الفعل والفاعل ، وقدَّمه هنا ، لنقصر العبادة على الله وحده دون سواه ، وحتى لا نعطف على الله تعالى شيئاً ، فلو قلت نعبدك لجاز أن تقول : ونعبد غيرك ، كذلك هنا ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق . . . ﴾ [الروم : 27] أفادت تخصيص الخلق لله وحده دون أن نعطف عليه أحداً .

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 27] الحقيقة ليس في الأمور بالنسبة لله تعالى هَيِّن وأهون ، إنما في عُرْفنا نحن ، وليُقرِّب لنا الحق سبحانه فَهْم المسائل ، وإلا فالحق سبحانه لا يعالج الأمور ولا يزاولها كما نعالجها نحن ، وإنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

لذلك لما نتأمل قَوْل مريم عليها السلام لما بشَّرتها الملائكة بالمسيح قالت : ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ . . . ﴾ [آل عمران : 47] فكيف فهمتْ مريم هذه المسألة ، ومَنْ أخبرها بأن الولد سيكون دون أن يمسَّها بشر ؟

لقد فهمت مريم هذا من قول الملائكة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ . . . ﴾ [آل عمران : 45] . فلو كان له أبٌ لذكرته الملائكة ، وما داموا قد نسبوه إلى أمه فلا أب له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى فِي السماوات والأرض . . . ﴾ [الروم : 27] له المثل الأعلى يعني : أن الله تعالى لا مثيل له ، فإنْ شابهه سبحانه شيء من خَلْقه في صفة من الصفات فخُذْها في إطار التقريب للمعنى ، وفي إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11] فلك وجود لله تعالى وجود ، لكن وجودك ليس كوجود الله ، أنت حَيٌّ والله حَيٌّ ، لكن حياتك ليست كحياته عز وجل . . وهكذا .

وقوله ﴿ المثل الأعلى . . . ﴾ [الروم : 27] نقول : عالٍ وأعلى ، فهي أفعل تفضيل بمعنى : الذي لا يُشابه ولا يُضاهي ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 1] فينفي أن يوجد شبيه لمثل الله لا شبيه لله ؛ لأن الكاف هنا بمعنى : مثل . فكأنك قلت : ليس مِثْل مِثْله شيء .

وطريقة العرب في الأداء في مسألة المشابهة يقولون : زيد مثل الأسد في الشجاعة ، فأنت تريد أن تعطيني صورة لشجاعة زيد ، فذكرت أوضح شيء لهذه الصفة وهو الأسد ، فهو مُشبَّه به .

(241/602)

إذن : فالأسد أقوى من زيد في هذه الصفة ، وإلا لما جعلتَ المشبّه به توضيحاً لما لا تعلم .

فحين تقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . . ﴾ [الشورى : 1] تعني : إنْ وُجد مِثْل لله لا يوجد مثل لهذا المثْل ، فنفيتَ المثل من باب أَوْلَى ؛ لأن الأضعف وهو المثل المشبه أضعف من المشبه به ، فإذا كان المثل أضعف من الممثَّل ولا يوجد مثل للأضعف ، فكيف يوجد مثل للأقوى ؟

وانظر إلى جمال الحق سبحانه حين يُجلِّي للخَلْق مثَلاً في دنياهم ، ويجعل من ذاته –

سبحانه وتعالى – المماثلة ، يقول تعالى ليُقرّب لأفهامنا كيفية نوره : ﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ . . . ﴾ [النور : 35] .

فالله – سبحانه وتعالى – يضرب المثَل لنوره بالمشكاة ، السطحيون يظنون أن المشكاة هي المصباح ، لكن الله يقول ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . . ﴾ [النور : 35] والمشكاة تجويف في الحائط ، مثل الطاقة غير نافذة ، فإنْ كانت نافذة نسميها شباكاً ، وكانوا في الماضي يضعون المصباح في هذه الفجوة ليضيء الحجرة ، والفجوة هذه أو المشكاة تجمع الضوء وتُقوّيه ؛ لذلك يكون الضوء فيها أقوى من ضوء الحجرة ، أو : أن المصباح يستوعب المشكاة أكثر من استيعابه للحجرة كلها .

(242/602)

وبتأمل هذا المعنى نرى أن الحق سبحانه لا يضرب لنا مثَلاً لنوره إنما لتنويره ، فتنوير الله تعالى مِثْل المشكاة التي فيها المصباح ، والمصباح يدلُّ على الرقي في وسائل الإضاءة ، فدونه مثلاً الشعلة ، وهو فتيل يُوقَد في الهواء ويكون له دخان أسود ، أما المصباح فله

زجاجة تحجز عنه الهواء إلا بقدر ما يكفي لاحتراق الفتيل ، فيأتي الضوء منه صافياً .

ثم هو فضلاً عن ذلك في زجاجة ليست عادية ، إنما ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ . . . ﴾ [النور : 35] أي : مثل الدرة التي تضيء بذاتها ، هذا المصباح يُوقَد من شجرة زيتونة معتدلة المزاج ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ . . . ﴾ [النور : 35] فتصوُّر هذا المصباح في مكان ضيق لا في الحجرة كلها ، إنما في المشكاة كيف يكون ضوؤه ؟

كذلك تنوير الله – سبحانه وتعالى – للسماوات والأرض على سعتهما ، فنوره تعالى يستوعبهما ، لا يترك منهما مكاناً مظلماً كالطاقة بالنسبة لهذا المصباح الذي وصفنا .

ولهذا المثل قصة شهيرة في الأدب العربي ، فقد فطن إليها أبو تمام في مدحه أحد الخلفاء ، وحين أراد أنْ يجمع له مَلَكات العرب ومواهبهم من الجود والشجاعة والحِلْم والذكاء ، قال مادحاً :

إقْدَامُ عَمْرٍو في سَمَاحَةِ حَاتِمٍ . . . وفي حِلْم أَحْنفَ في ذَكَاءِ إيَاسِ

وقد اشتهر عمرو بن معدي كرب بالشجاعة والإقدام ، واشتهر حاتم الطائي بالكرم ، وأحنف بن قيس بالحلم حتى قيل " أحلم العرب " فلا يُغضِبه شيء أبداً ، ولا يُخرجه عن حِلْمه ، حتى أن جماعة قصدوا أنْ يخرجوه عن حِلْمه ، فتكون سابقة لهم فتبعوه في الطريق ، وأخذوا يهزءُون به وهو يضحك ، حتى قارب من الحي ، فنظر إلى هؤلاء الفتية وقال :

أيها الفتية ، لقد قربنا من الحيِّ ، فإنْ كان في جوفكم استهزاء بي فافرغوا منه ؛ لأنهم لو ظفروا بكم لقتلوكم .

(243/602)

أما إياس بن معاوية فكان مَضْرب المثَل في الذكاء ، وهكذا جمع أبو تمام لممدوحه خلاصة ما تعرفه العرب من مواهب . وهنا قام له واحد من خصومه وقال : أتُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ، فمَنْ يكون هؤلاء إذا ما قُورِنوا بأمير المؤمنين ؟

وهذا الاعتراض مأخوذ من قول الشاعر :

وشَبَّهه المدَّاحُ في البَأْسِ والنَّدَى . . . بمَنْ لوْ رآهُ كانَ أصْغر خَادمِ

فَفِي جيشه خَمسُونَ ألفاً كَعنترٍ . . . وأَمْضَى وفي خُدَّامِهِ ألفُ حاتمِ

فلما قيل لأبي تمام : كيف تشبه الخليفة بأجلاف العرب أحجم هنيهة ثم رفع رأسه ، وقال :

لا تُنكِروا ضَرْبي لَهُ مَنْ دُونَهُ . . . مثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاس

فالله قد ضَربَ الأقلَّ لنُورِه . . . مَثَلاً من المشْكَاةِ والنِّبراسِ

ومع دقَّة الاستشهاد وطرافته إلا أن خصومه اتهموه بأن ذلك ليس ارتجالاً لوقته ، إنما هو مُعدٌّ لهذا الموقف سلفاً ، وبعض الدارسين للأدب يقول بذلك وقاله لنا مدرس الأدب ، لكن

يُروَى أنهم لما أخذوا الورقة التي مع أبي تمام لم يجدوا فيها هذه الأبيات ، ثم على فرض أن الرجل أعدَّها قبل هذا الموقف فإنها تُحسَب له لا عليه ، وتضيف إليه ذكاءً آخر ؛ لأنه استدرك على ما يمكن أنْ يُقال فاستعد له .

وكما أن الحق سبحانه وتعالى له المثَل الأعلى في الأرض ، فلا مثيلَ له ، كذلك له المثل الأعلى في السماء فلا مثيلَ له ، مع أن ما في السماء غيب ، وهم الملائكة من صفاتهم كذا وكذا ، فلله المثَل الأعلى في السماوات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الروم : 27] أي : أنه سبحانه وتعالى بذاته عزيز لا يُغلب ، ومع عزته سبحانه حكيم لا يظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(244/602)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) ﴾

أخرج الفريابي وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أدنى ما يكون من الحين

بكرة وعشيا ، ثم قرأ ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أبي رزين رضي الله عنه قال : جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال : نعم . فقرأ ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾ صلاة المغرب ، ﴿ وحين تصبحون ﴾ صلاة الصبح ﴿ وعشيا ﴾ صلاة العصر ﴿ وحين تظهرون ﴾ صلاة الظهر وقرأ " ومن بعد صلاة العشاء " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾ قال : المغرب والعشاء ﴿ وحين تصبحون ﴾ الفجر ﴿ وعشيا ﴾ العصر ﴿ وحين تظهرون ﴾ الظهر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ، مثله .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن السني في عمل يوم وليلة والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدعوات عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أخبركم لم سمّى الله إبراهيم خليله الذي وفى لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى ﴿ سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ " .

وأخرج أبو داود والطبراني وابن السني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من قال حين يصبح ﴿ سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته من ليلته " .

(245/602)

وأخرج ابن مردويه والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قال حين أصبح سبحان الله وبحمده ألف مرة فقد اشترى نفسه من الله ، وكان آخر يومه عتيقاً من النار " .

وأخرج ابن ماجة في تفسيره وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال عمر رضي الله عنه : أما الحمد فقد عرفناه ، فقد يحمد الخلائق بعضهم بعضاً ، وأما لا إله إلا الله فقد عرفناها ، فقد عبدت الآلهة من دون الله ، وأما الله أكبر فقد يكبر المصلي ، وأما سبحان الله فما هو ؟ فقال رجل من القوم : الله أعلم ! فقال عمر رضي الله عنه : قد شقي عمر إن لم يكن يعلم أن الله يعلم ، فقال علي رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين اسم ممنوع أن ينتحله أحد من الخلائق ، وإليه يفزع الخلق ، واحب أن يقال له ، فقال : هو

كذاك .

وأخرج أحمد والحاكم والضياء عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله اصطفى من الكلام أربعاً : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . فمن قال سبحان الله ؛ كتبت له عشرون حسنة ، وحطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال الله أكبر ؛ مثل ذلك ، ومن قال لا إله إلا الله ؛ مثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين . من قبل نفسه له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة " .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن البصري رضي الله عنه قال : من قرأ الآيات ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ إلى آخرها ؛ لم يفته شيء في يومه وليلته ، وأدرك ما فاته من يومه وليلته .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن آياته ﴾ قال : كل شيء في القرآن آيات . بذلك تعرفون الله . إنكم لن تروه فتعرفونه على رؤية ، ولكن تعرفونه بآياته وخلقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ﴾ قال : خلق آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ يعني ذريته ﴿ ومن آياته إن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ قال : حواء . خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وجعل بينكم مودة ﴾ قال : الجماع ﴿ ورحمة ﴾ قال : الولد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ قال : قامتا بأمره ﴿ بغير عمد ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ قال : دعاهم من السماء فخرجوا من الأرض .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ إذا أنتم تخرجون ﴾ قال : من قبوركم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأزهر بن عبد الله الجزاري قال : يقرأ على المصاب إذا أخذ ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ كل له قانتون ﴾ يقول : مطيعون يعني الحياة

والنشور والموت . وهم عاصون له فيما سوى ذلك من العبادة . والله تعالى أعلم .

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن عكرمة قال : تعجب الكفار من احياء الله الموتى ، فنزلت ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ قال : اعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه .

(247/602)

وأخرج آدم بن أبي أياس والفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قال : الاعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قال : أيسر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في الآية قال : في عقولكم ، اعادة شيء إلى شيء كان ، أهون من ابتدائه إلى شيء لم يكن .

وأخرج ابن الأنباري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قال : الاعادة أهون على المخلوق لأنه يقول له يوم القيامة ﴿ كن فيكون ﴾ وابتداء الخلق من نطقة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه قال : كل عليه هين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ يقول ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ قال : مثله أنه لا إله إلا هو ، ولا معبود غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(248/602)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ :

تُمْسُون وتُصْبحون تامَّان أي : تَدْخلون في المساء والصباح ، كقولهم : " إذا سَمِعْتَ بسُرى القَيْنِ فاعلَمْ بأنَّه مُصْبِحٌ " أي : مُقيم في الصباح . والعامَّةُ على إضافة الظرف إلى الفعلِ بعده . وقرأ عكرمةُ " حيناً " بالتنوين . والجملةُ بعده صفةٌ له . والعائدُ حينئذٍ محذوفٌ أي : تُمْسُون فيه كقولِه : ﴿ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ [لقمان : 33] .

والناصب لهذا الظرفِ " سُبْحانَ " لأنه نابَ عن عامِله .

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18)

قوله : ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ : عطفٌ على " حينَ " ، وما بينهما اعتراضٌ . و " في السماوات " يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بنفس الحمد أي : إنَّ الحمدَ يكون في هذين الظرفين .

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19)

وقد تقدم خلافُ القُراء في تخفيفِ " الميت " وتثقيلِه وكذا قوله : " تُخْرَجون " في سورة الأعراف . و " كذلك " نعتُ مصدرٍ محذوفٍ أي : ومثلَ ذلك الإخراجِ العجيبِ تُخْرَجون .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)

قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ : مبتدأٌ وخبر أي : ومن جملةِ علامات توحيدِه وأنه يَبْعَثُكم خَلْقُكم واختراعُكم . و " مِنْ " لابتداءِ الغاية .

قوله : ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ ﴾ . الترتيبُ والمُهْملة هنا ظاهران ؛ فإنهم إنما يصيرون بَشَراً بعد أطوارٍ كثيرةٍ . " وتَنْتشرون " حالٌ . و " إذا " هي الفجائيةُ . إلاَّ أنَّ الفجائيةَ أكثرُ ما تقع بعد الفاء لأنها تَقْتضي التعقيبَ . ووجهُ وقوعِها مع " ثُمَّ " بالنسبة إلى ما يليقُ بالحالةِ الخاصةِ أي : بعد تلك الأطوارِ التي قَصَّها علينا في موضعٍ آخرَ مِنْ كونِنا نُطْفَةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عَظْماً مجرداً ثم عَظْماً مَكْسُوّاً لحماً فاجأ البشريَّةَ والانتشارَ .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22)

قوله : ﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ : أي : لغاتِكم من عَرَبٍ وعَجَمٍ ، مع تنوُّعِ كلٍ من الجيلين إلى أنواعٍ شتى لا سيما العجمُ ، فإن لغاتِهم مختلفةٌ ، وليس المرادُ بالألسنةِ الجوارحَ .

قوله : " للعالمين " قرأ حفصٌ بكسر اللام جعله جمعَ عالِم ضدَّ الجاهل . ونحوُه ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] والباقون بفتحها ؛ لأنها آياتٌ لجميع الناس ، وإن كان بعضُهم يَغْفُلُ عنها . وقد تقدَّم أولَ الفاتحةِ الكلامُ في " العالمين " : هل هو جمعٌ أو اسمُ

جمع ؟ فعليك باعتباره ثَمَّةَ .

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23)

(250/602)

قوله : ﴿ مَنَامُكُم بالليل والنهار ﴾ : قيل : في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ ليكونَ كلُّ واحدٍ مع ما يلائمه . والتقدير : ومِنْ آياتِه منامُكم بالليل وابتغاؤكم مِنْ فضلِه بالنهارِ ، فحُذِف حرفُ الجرّ لاتصالِه بالليل وعَطْفِه عليه ؛ لأنَّ حرفَ العطفِ قد يقومُ مَقامَ الجارّ . والأحسنُ أَنْ يُجْعَلَ على حالِه ، والنومُ بالنهار ممَّا كانَتِ العربُ تَعُدُّه نعمةً من الله ، ولا سيما في أوقاتِ القَيْلولة في البلاد الحارَّة .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)

قوله : ﴿ يُرِيكُمُ البرق ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : - وهو الظاهرُ الموافقُ لإخوانِه - أَنْ يكونَ جملةً من مبتدأ أو خبرٍ ، إلاَّ أنه حُذِفَ الحرفُ المصدريُّ ، ولمَّا حُذِفَ بَطَلَ عملُه . والأصل : ومِنْ آياتِه أَنْ يُرِيَكم كقوله :

3647 ألا أيُّهذا الزاجرِيْ أَحْضُرُ الوغَى . . . . . .

. .

الثاني : أنَّ " مِنْ آياتِه " متعلِّقٌ ب " يُرِيكم " أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ من البرق . والتقديرُ : ويُرِيْكم البرقَ مِنْ آياته ، فيكون قد عَطَفَ جملةً فعليةً على جملةٍ اسمية . الثالث : أنَّ " يُرِيْكُم " صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ أي : ومِنْ آياتِه آيةٌ يُريكم بها ، أو فيها البرقُ فحُذِفَ الموصوف والعائدُ عليه . ومثلُه :

3648 وما الدَّهْرُ إلاَّ تارَتان فمِنْهما . . . موتٌ . . . . . .

. .

أي : فمنهما تارةٌ أموتُ فيها . الرابع : أنَّ التقديرَ : ومن آياتِه سحابٌ أو شيءٌ يُريكم . ف " يُريكم " صفةٌ لذلك المقدرِ ، وفاعلُ " يُريكم " ضميرٌ يعود عليه بخلافِ الوجهِ قبله ؛ فإنَّ الفاعلَ ضميرُ الباري تعالى .

(251/602)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25)

قوله : ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه متعلِّقٌ ب " دَعاكم " وهذا أظهرُ .

الثاني : أنَّه متعلقٌ بمحذوفٍ صفةً لـ دَعْوة . الثالث : أنه متعلّق بمحذوفٍ يَدُلُّ عليه " تَخْرُجون " أي : خَرَجْتُمْ من الأرض . ولا جائزٌ أَنْ يتعلَّق ب " تَخْرُجون " لأنَّ ما بعد " إذا " لا يعملُ فيما قبلها . وللزمخشري هنا عبارةٌ/ جيدة .

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ : في " أَهْوَن " قولان ، أحدهما : أنها للتفضيل على بابِها . وعلى هذا يُقال : كيف يُتَصَوَّرُ التفضيلُ ، والإعادةُ والبُداءة بالنسبةِ إلى اللَّهِ تعالى على حدٍّ سواء ؟ في ذلك أجوبة ، أحدها : أنَّ ذلك بالنسبةِ إلى اعتقاد البشرِ باعتبارِ المشاهَدَة : مِنْ أنَّ إعادَةَ الشيءِ أهونُ من اختراعِه لاحتياجِ الابتداءِ إلى إعمالِ فكر غالباً ، وإن كان هذا منتفياً عن الباري سبحانَه وتعالى فخوطبوا بحسَبِ ما أَلِفوه .

الثاني : أنَّ الضميرَ في " عليه " ليس عائداً على الله تعالى ، إنما يعودُ على الخَلْقِ أي : والعَوْدُ أهونُ على الخَلْقِ أي أسرعُ ؛ لأن البُداءةَ فيها تدريجٌ مِنْ طَوْرٍ إلى طَوْر ، إلى أنْ صار إنساناً ، والإعادةُ لا تحتاجُ إلى هذه التدريجاتِ فكأنه قيل : وهو أقصرُ عليه وأَيسَرُ وأقلُّ انتقالاً .

الثالث : أنَّ الضميرَ في " عليه " يعودُ على المخلوق ، بمعنى : والإعادةُ أهونُ على المخلوقِ أي إعادتُه شيئاً بعدما أَنْشأه ، هذا في عُرْفِ المخلوقين ، فكيف يُنْكِرون ذلك في جانب اللَّهِ تعالى ؟

والثاني : أنَّ " أهونُ " ليسَتْ للتفضيل ، بل هي صفةٌ بمعنى هَيِّن ، كقولهم : اللَّهُ أكبرُ [أي] : الكبير . والظاهرُ عَوْدُ الضميرِ في " عليه " على الباري تعالى ليُوافِقَ الضميرَ في قوله : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : لِمَ أُخِّرَتِ الصلةُ في قوله ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقُدِّمَتْ في قوله ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ ؟ قلت : هنالك قُصِدَ الاختصاصُ ، وهو مَحَزُّه فقيلِ : هو عليَّ هيِّنٌ وإن كان مُسْتَصعباً عندك أن يُوْلَدَ بين هِمٍّ وعاقِر ، وأمَّا هنا فلا معنى للاختصاص . كيف والأمرُ مبنيٌّ على ما يعقلون من أنَّ الإعادةَ أسهلُ من الابتداء ؟ فلو قُدِّمَت الصلة لتَغَيَّر المعنى " . قال الشيخ : " ومبنى كلامِه على أنَّ التقديمَ يُفيد الاختصاصَ وقد تكلَّمْنا معه ولم نُسَلِّمه " . قلت : الصحيحُ أنه يُفيده ، وقد تقدَّم جميعُ ذلك .

قوله : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ يجوز أَنْ يكونَ مرتبطاً بما قبلَه ، وهو قولُه : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ أي : قد ضَرَبه لكم مَثَلاً فيما يَسْهُل وفيما يَصْعُبُ . وإليه نحا الزجَّاج أو بما بعدَه مِنْ قولِه : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الروم : 28] وقيل : المَثَلُ : الوصفُ . " وفي السماوات " يجوز أَنْ يتعلَّق بالأَعْلى أي : إنه علا في هاتين الجهتين ، ويجوز أَنْ يتعلَّقَ

بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ مِن الأعلى ، أو مِن المَثَل ، أو مِن الضمير في " الأَعْلى " فإنه يعودُ على المَثَل .

قوله : " مِنْ أَنْفُسكم " " مِنْ " لابتداء الغاية في موضع الصفةِ لـ مَثَلاً أي : أَخَذَ مثلاً ، وانتزعه مِنْ أقربِ شيءٍ منكم هو أنفسكُم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 41.36 ﴾

(253/602)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) ﴾

له ذلك مِلْكاً ، ومنه تلك الأشياء بَدْءاً ، وبه إيجاداً ، وإليه رجوعاً .

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

أي في ظنّكم وتقديركم .

وفي الحقيقة السهولةُ والوعورةُ على الحقِّ لا تجوز .

﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ : له الصفةُ العليا فى الوجود بحقِّ القِدَم ، وفي الجود بنعت الكَرَم ، وفي القدرة بوصف الشمول ، وفي النصرة بوصف الكمال ، وفي العلم بعموم التعلُّق ، وفي الحكم بوجوب التحقق ، وفي المشيئة بوصف البلوغ ، وفي القضية بحكم النفوذ ، وفى الجبروت بعين العزِّ والجلال ، وفي الملكوت بنعت المجد والجمال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 114.115 ﴾

(254/602)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/603)

الجزء الثالث بعد الستمائة

من الآية ﴿ 28 ﴾ من سورة الروم

وحتى الآية ﴿ 35 ﴾ من نفس السورة

(4/603)

قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

(28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

(29) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ

الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بان من هذا أنه المتفرد في الملك بشمول العلم وتمام القدرة وكمال الحكمة ، اتصل بحسن أمثاله وإحكام مقاله وفعاله قوله : ﴿ ضرب لكم ﴾ أي بحكمته في أمر الأصنام وبيان إبطال من يشرك بها وفساد قوله بأجلى ما يكون من التقرير : ﴿ مثلاً ﴾ مبتدئاً ﴿ من أنفسكم ﴾ التي هي أقرب الأشياء إليكم ، فأنتم لما تذكرون به أجدر بأن تفهموه .

ولما كان حاصل المثل أنه لا يكون مملوك كمالك ، وكان التقرير أقرب إلى التذكير وأبعد عن التنفير ، قال منكراً موبخاً مقرراً : ﴿ هل لكم ﴾ أي يا من عبدوا مع الله بعض عبيده ﴿ من ما ﴾ أي من بعض ما ﴿ ملكت أيمانكم ﴾ أي من العبيد أو الإماء الذين هم بشر مثلكم ، وعم في النفي الذي هو المراد بالاستفهام بزيادة الجار بقوله : ﴿ من شركاء ﴾ أي في حالة من الحالات يسوغ لكم بذلك أن تجعلوا لله شركاء ، ونبه على ما في إيجاد الرزق ثم قسمته بين الخلق وغير ذلك من شؤونه بقوله : التفاتاً بعد طول التعبير بالغيبة التي قد يتوهم معها بعد – إلى التلكم بالنون الدال مع القرب على العظمة ولذة الإقبال بالمخاطبة : ﴿ فيما رزقناكم ﴾ أي لما لنا من العظمة من مال أو جاه مع ضعف ملككم فيه .

ولما كانت الشركة سبباً لتساوي الشريكين في الأمر المشترك قال : ﴿ فأنتم ﴾ أي معاشر

الأحرار والعبيد .

ولما كان ربما توهم أن " من شركاء " صفة لأولاد من سراريهم ، قدم الصلة دفعاً لذلك فقال : ﴿ فيه ﴾ أي الشيء الذي وقعت فيه الشركة من ذلك الرزق خاصة لا غيره من نسب أو حسب ونحوهما أو خفة في بدن أو قلب أو طول في عمر ونحوها ، وأما أولادهم من السراري فربما ساووهم في ذلك وغيره من النسب ونحوه ، والعبيد ربما ساووهم في قوة البدن وطول العمر أو زادوا ﴿ سواء ﴾ ثم بين المساواة التي هي أن يكون حكم أحد القبيلين في المشترك على السواء كحكم الآخر لا يستبد أحدهما عن الآخر بشيء بقوله : ﴿ تخافونهم ﴾ أي معاشر السادة في التصرف في ذلك الشيء المشترك .

(5/603)

ولما كانت أداة التشبيه أدل ، أثبتها فقال : ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي كما تخافون بعض من تشاركونه ممن يساويكم في الحرية والعظمة أن تتصرفوا في الأمر المشترك بشيء لا يرضيه وبدون إذنه ، فظهر أن حالكم في عبيدكم مثل له فيمن أشركتموهم به موضح لبطلانه ، فإذا لم ترضوا هذا لأنفسكم وهو أن يستوي عبيدكم معكم في الملك فكيف ترضونه بخالقكم في هذه الشركاء التي زعمتموها فتسوونها به وهي من أضعف خلقه أفلا

تستحيون ؟ .

ولما كان هذا المثال ، في الذروة من الكمال ، كان السامع جديراً بأن يقول : جل الله ! ما أعلى شأن هذا البيان ! هل يبين كل شيء هكذا ؟ فقال : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا البيان العالي ﴿ نفصل ﴾ أي نبين ، لأن الفصل هو الميز وهو البيان ، وذلك على وجه عظيم - بما أشار إليه التضعيف مع التجديد والاستمرار : ﴿ الآيات ﴾ أي الدلالات الواضحات .

ولما كان البيان لا ينفع المسلوب قال : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ إشارة إلى أنهم إن لم يعملوا بمقتضى ذلك كانوا مجانين ، لأن التمثيل يكشف المعاني بالتصوير والتشكيل كشفاً لا يدع لبساً ، فمن خفي عليه لم يكن له تمييز .

ولما كان جوابهم قطعاً : ليس لنا شركاء بهذا الوصف ، كان التقدير ، فلم تتبعوا في الإشراك بالله دليلاً ، فنسق عليه : ﴿ بل ﴾ وكان الأصل : اتبعتم ، ولكنه أعرض عنهم ، إيذاناً بتناهي الغضب للعناد بعد البيان ، وأظهر الوصف الحامل لهم على ذلك تعميماً وتعليقاً للحكم به فقال : ﴿ اتبع ﴾ أي بتكليف أنفسهم خلاف الفطرة الأولى ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي وضعوا الشيء في غير موضعه فعل الماشي في الظلام ﴿ أهواءهم ﴾ وهو ما يميل إليه نفوسهم .

ولما كان اتباع الهوى قد يصادف الدليل ، وإذا لم يصادف وكان من عالم رده عنه علمه قال :

﴿ بغير علم ﴾ إشارة إلى بعدهم في الضلال لأن الجاهل يهيم على وجهه بلا مرجح غير الميل كالبهيمة لا يرده شيء ، وأما العالم فربما رده علمه .

(6/603)

ولما كان هذا ربما أوقع في بعض الأوهام أن هذا يغير إرادته سبحانه ، دل بفاء السبب على أن التقدير : وهذا ضلال منهم بإرادة الله ، فلما أساؤوا بإعراقهم فيه كانت عاقبتهم السوء والخذلان ، لأنهم أبعدوا أنفسهم عن أسباب الهدى : ﴿ فمن يهدي ﴾ أي بغير إرادة الله ، ولفت الكلام من مظهر العظمة إلى أعظم منه بذكر الاسم الأعظم لاقتضاء الحال له فقال : ﴿ من أضل الله ﴾ الذي له الأمر كله ، ودل بواو العطف على أن التقدير : ليس أحد يهديهم لأنهم أبعدوا أنفسهم عن أسباب الهدى فبعدوا عن أسباب النصر لأنهم صاروا على جرف هار في كل أمورهم ، فلذا حسن موضع تعقيبه بقوله : ﴿ وما لهم ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ من ناصرين ﴾ أي من الأصنام ولا غيرها يخلصونهم مما هم فيه من الخذلان وأسر الشيطان ، ومما يسببه من النيران ، ونفى الجميع دون الواحد لأن العقل ناصر لهم بما هو مهيأ له من الفهم واتباع دليل السمع لو استعملوه ، أو لأنه ورد جواباً لنحو ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً لعلهم ينصرون ﴾ [مريم : 81] أو للإشارة إلى أن تتبع الهوى

لا ينفع في تلافي أمره إلا أعوان كثيرون ودل على نفي الواحد ﴿ لا تجزي نفس عن نفس ﴾ [البقرة : 123] ، و ﴿ أن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : 11] و ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ [الطارق : 10] في أمثالها .

ولما تحررت الأدلة ، وانتصبت الأعلام ، واتضحت الخفايا ، وصرحت الإشارات ، وأفصحت ألسن العبارات ، أقبل على خلاصة الخلق ، إيذاناً بأنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره ، فقال مسبباً عن ذلك ممثلاً لإقباله واستقامته وثباته : ﴿ فأقم وجهك ﴾ أي قصدك كله ﴿ للدين ﴾ أي نصباً بحيث تغيب عما سواه ، فلا تلتفت عنه أصلاً فلا تنفك عن المراقبة ، فإن من اهتم بشيء سدد إليه نظره ، وقوم له وجهه .

(7/603)

ثم عرض بجلافة أهل الضلال وغشاوتهم ، وكثافتهم وغباوتهم ، وجمودهم وقساوتهم ، بقوله : ﴿ حنيفاً ﴾ أي حال كونك ميالاً مع الدليل هيناً ليناً نافذ الصبر نير البصيرة ساري الفكر سريع الانتقال طائر الخاطر ، ثم بين أن هذا الأمر في طبع كل أحد وإن كانوا فيه متفاوتين كما تراهم إذا كانوا صغاراً أسهل شيء انقياداً ، ولكنه لما يكشف لهم الحال في كثير من الأشياء عن أن انقيادهم كان خطأ يصيرون يدربون أنفسهم على المخالفة دائماً

حتى تصير لبعضهم طبعاً تجريبياً فيصير أقسى شيء وأجمده بعد أن كان أسهل شيء وأطوعه ، وأكثر ما يكون هذا من قرناء السوء الذين يقولون ما لا يفعلون ، ولهذا نهى أن يوعد الطفل بما لا حقيقة له : روى أحمد وابن أبي الدنيا من طريق الزهري عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال المنذري : ولم يسمع منه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " من قال لصبي : تعال هاك ! ثم لم يعطه فهي كذبة " ، ولأبي داود والبيهقي وابن أبي الدنيا عن مولى عبد الله بن عامر - قال ابن أبي الدنيا : زياد عن عبد الله بن عامر - أن أمه - رضى الله عنه - ا قالت له : تعالَ أعطيك ، فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمراً ، فقال : أما إنك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة " ، فقال مبيناً لهم صحة دينه بأمر هو في أنفسهم ، كما بين بطلان دينهم بأمر هو في أنفسهم :

﴿ فطرت الله ﴾ أي الزم فطرة الملك الذي لا رادّ لأمره ، وهي الخلقة الأولى التي خلق عليها البشر والطبع الأول ، وقال الغزالي في آخر كتاب العلم من الإحياء في بيان العقل في هذه الآية : أي كل آدمي فطر على الإيمان بالله تعالى بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه ، أعني أنها كالمتضمنة فيه لقرب استعداده للإدراك - انتهى ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ التي فطر الناس ﴾ أي كل من له أهلية التحرك ﴿ عليها ﴾ كلهم الأشقياء والسعداء ، وهي سهولة الانقياد وكرم الخلق الذي هو

في الصورة فطرة الإسلام ، وتحقيق ذلك أن المشاهد من جميع الأطفال سلامة الطباع وسلاسة الانقياد لظاهر الدليل ، ليس منهم في ذلك عسر كما في الكبار إن تفاوتوا في ذلك ، فالمراد بالفطرة قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه ، كما تجد الأخرس يدرك أمر المعاد إدراكاً بيناً ، وله فيه ملكة راسخة ، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه حديث أبي هريرة - رضى الله عنه - في الصحيحين وحديث ابن عباس - رضى الله عنهما - عند أحمد بن منيع أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :

(9/603)

"كل مولود يولد على الفطرة" - وفي رواية للبخاري : "ما من مولود إلا يولد على الفطرة - فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها " فلذلك الجدع والوسم وشق الأذن ونحو ذلك مثالٌ للأخلاق التي يتعلمها الطفل ممن يعامله بها من الغش والكذب وغير ذلك ، وكذا حديث عياض بن حمار المجاشعي - رضى الله عنه - في مسلم في صفة النار والنسائي في فضائل القرآن وأبي داؤد الطالسي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : "كل مال نحلته عبداً

حلال ، وإني خلقت عبادي " حنفاء كلهم " وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وآمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانه " ولكن الشيطان لا يتمكن إلا بإقدار الله له في الحال بما يخلق في باطن المخذول من الباعث وفي الماضي من الطبائع التي هيأه بها لمثل ذلك كما أشار إليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المتفق عليه في الصحيح عن علي رضي الله تعالى عنه : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " وآية سبحان ﴿ كل يعمل على شاكلته ﴾ [الإسراء : 84] وذلك أنه لما أخبرهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله تعالى قد كتب أهل الجنة وأهل النار ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص ، قالوا : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فالكتاب حجة عليهم ، لأن مبناه على أن فلاناً من أهل النار لكونه لم يعمل كذا وكذا ، فأرادوا أن يجعلوه حجة لهم فاعلموا أن في ذلك أمرين لا يبطل أحدهما الآخر : باطن هو العلة الموجبة في حكم الربوبية وهو العلم ، وظاهر هو السمة اللازمة في حق العبودية وهو العمل ، وهو أمارة مخيلة غير مفيدة حقيقة العلم ، عولوا بذلك ليتعلق خوفهم بالباطن المغيب عنهم ، ورجاؤهم بالظاهر البادي لهم ، والخوف والرجاء مدرجتا العبودية ليستكملوا بذلك صفة الإيمان ، ونظير ذلك أمران : الرزق المقسوم مع الأمر بالمكسب ، والأجل المحتوم مع

المعالجة بالطب ، فالمغيب فيهما علة موجبة والظاهر سبب مخيل ، وقد اصطلح خواصهم وعوامهم على أن الظاهر منهما لا يترك بالباطن – ذكر معناه الرازي في اللوامع عن الخطابي .

ولما كانت سلامة الفطرة الأولى أمراً مستمراً ، قال : ﴿ لا تبديل ﴾ ولعظم المقام كرر الاسم الأعظم فقال : ﴿ لخلق الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا كفوء له ، لا يقدر أحد أن يجعل طفلاً في أول أمره خبيث الفطرة لا ينقاد لما يقاد إليه ولا يستسلم لمن يربيه ، وكلما كبر وطعن في السن رجع لما طبع عليه من كفر أو إيمان ، أو طاعة أو عصيان ، أو نكر أو عرفان ، قليلاً قليلاً ، حتى ينساق إلى ذلك عند البلوغ أو بعده ، فإن مات قبل ذلك الجوزي بما كان الله يعلمه منه أنه يعمله طبعياً ويموت عليه كالغلام الذي قتله الخضر عليه السلام صح الخبر بأنه طبع على الكفر ، ولا يعذب بما يكون عارضاً منه ويعلم أنه سيكون لو كان كأبوي الغلام لما وقع التصريح به من أنه لو عاش لأرهقهما طغياناً وكفراً ، فقد علم منهما الكفر حينئذ فلم يؤاخذا به لأنه عارض لا طبعي ، فالعبرة بالموت ، ومن طبع على شيء لم يمت على غيره ، فحقق هذا تعلم أنه لا تنافي بين شيء من النصوص لا من الكتاب ولا من السنة – والله الهادي .

ولما كان الميل مع الدليل كيفما مال أمراً لا يكتنه قدره ولا ينال إلا بتوفيق من الله ، أشار إلى

عظمته بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم وهو الاهتزاز للدليل واتباع ما يشير إليه ويحث عليه ﴿ الدين القيّم ﴾ الذي لا عوج فيه ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ قد تدربوا في اتباع الأهوية لما تقدم من الشبه فصاروا بحيث ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا علم لهم أصلاً حتى يميزوا الحق من الباطل لما غلب عليهم من الجفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 623.619 ﴾

(11/603)

فصل

قال الفخر :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

لما بين الإعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الوحدانية أيضاً بالمثل بعد الدليل ، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكاً له في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ينبغي أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ، ثم إن كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكداً لمعنى المثل وقد يكون موهناً له وههنا وجه المشابهة معلوم ، وأما المخالفة فموجودة أيضاً وهي مؤكدة وذلك من وجوه أحدها : قوله : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني ضرب لكم مثلاً من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها ، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها وثانيها : قوله : ﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ يعني عبدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طار (ىء) قابل للنقل والزوال ، أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه ، فإذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكاً لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه ، بل هو في الحال مثلكم في الآدمية حتى أنكم ليس لكم تصرف في روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة ، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكاً له وثالثها : قوله : ﴿ مِّن شُرَكَاء فِيمَا رزقناكم ﴾ يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذي من الله فهو في الحقيقة له فإذا لم يجز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم ، فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله : ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء ﴾ أي

هل أنتم ومما ليككم في شيء مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك في شيء مما يملكه ، لكن كل شيء فهو لله فما تدعون إلهيته لا يملك شيئاً أصلاً ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل إليكم منه ، وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك ، لأن المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار وإذا لم يكن للملوك مع مساواته إياكم في الحقيقة والصفة عندكم حرمة ، فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

المسألة الثانية :

(13/603)

بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك ، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم ، فكيف تخافونهم خوفاً أكثر من خوفكم بعضاً من بعض حتى تعبدوهم للخوف .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي نبينها بالدلائل والبراهين القطعية

والأمثلة والمحاكيات الإقناعية لقوم يعقلون ، يعني لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لا يكون له عقل .

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29)

أي لا يجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل ، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله : ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ أي هؤلاء أضلهم الله فلا هادي لهم ، فينبغي أن لا يحزنك قولهم ، وههنا لطيفة وهي أن قوله : ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ مقول لما تقدم وذلك لأنه لما قال لأن الله لا شريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم ، يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفاً على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذي لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه ، فقال : إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة الله وما لهم من ناصرين ، لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لا يغني عنهم شيئاً فلا ناصر لهم .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

(14/603)

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ أي إذا تبين الأمر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك للدين ، وقوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ ﴾ أي أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] أي ذاته بصفاته ، وقوله : ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن كل ما عداه أي أقبل على الدين ومل عن كل شيء أي لا يكون في قلبك شيء آخر فتعود إليه ، وهذا قريب من معنى قوله : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ [الروم : 31] ثم قال الله تعالى : ﴿ فطرت الله ﴾ أي الزم فطرة الله وهي التوحيد فإن الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 172] فقالوا : بلى ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ فيه وجوه ، قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقياً لا يسعد ، وقيل : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ أي الوحدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ، لكن الإيمان الفطري غير كاف .

ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً لإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل

الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، وقول المشركين : إن الناقص لا يصلح لعبادة الله ، وإنما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله ، وقول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلهاً فقال : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك .

(15/603)

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ الذي لا عوج فيه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك هو الدين المستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 103 .

105 ﴾

(16/603)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

اختلف في سبب ضرب الله لهم المثل على ثلاثة أقاويل :

أحدها : لأن المشركين أشركوا به في العبادة غيره ، قاله قتادة .

الثاني : لأنه كانت تلبية قريش في الجاهلية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً وهو لك ، تملكه وما ملك ، فأنزل الله هذه الآية ، قاله ابن جبير .

الثالث : لأنهم كانوا لا يورثون مواليهم فضرب الله هذا المثل ، قاله السدي .

وتأويله : أنه لم يشارككم عبيدكم في أموالكم لأنكم مالكون لهم ، فالله أوْلى ألا يشاركه أحد من خلقه في العبادة لأنه مالكهم وخالقهم .

﴿ تَخَافُونَهُم كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : تخافون أن يشاركوكم في أموالكم كما تخافون ذلك من شركائكم ، قاله أبو مجلز .

الثاني : تخافون أن يرثوكم كما تخافون ورثتكم ، قاله السدي .

الثالث : تخافون لائمتهم كما تخافون بعضكم بعضاً ، قاله يحيى بن سلام .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : قصدك .

الثاني : دينك ، قاله الضحاك .

الثالث : عملك ، قاله الكلبي .

﴿ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ فيه ستة تأويلات

: أحدها : مسلماً ، وهذا قول الضحاك .

والثاني : مخلصاً ، وهذا قول خصيف .

الثالث : متبعاً ، قاله مجاهد .

الرابع : مستقيماً ، قاله محمد بن كعب .

الخامس : حاجّاً ، قاله ابن عباس .

السادس : مؤمناً بالرسل كلهم ، قاله أبو قلابة .

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ فيها تأويلان

: أحدهما : صنعة الله التي خلق الناس عليها ، قاله الطبري .

الثاني : دين الله الذي فطر خلقه عليه ، قاله ابن عباس والضحاك والكلبي يريد به الإسلام وقد روى عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مِن فِطْرَةِ إِبْرَاهِيمَ السِّوَاكُ " ومن قول كعب بن مالك :

إن تقتولنا فدين الله فطرتنا . . . والقتل في الحق عند الله تفضيل

(17/603)

﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : لا تبديل لدين الله ، قاله مجاهد وقتادة .

الثاني : لا تغيير لخلق الله من البهائم أن يخصي فحولها ، قاله عمر بن الخطاب وابن عباس وعكرمة .

الثالث : لا تبديل خالق غير الله فيخلق كخلق الله ، لأنه خالق يخلق ، وغيره مخلوق لا يخلق ، وهو معنى قول ابن بحر .

ويحتمل رابعاً ، لا يشقى من خلقه سعيداً ولا يسعد من خلقه شقيّاً .

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ فيه تأويلان

: أحدهما : ذلك الحساب البين ، قاله مقاتل بن حيان .

الثاني : ذلك القضاء المستقيم ، قاله ابن عباس .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً وإلهاً قديماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(18/603)

وقال ابن عطية :

ثم بين تعالى أمر الأصنام وفساد معتقد من يشركها بالله بضربه هذا المثل ، ومعناه أنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيد تملكونهم فإنكم لا تشركونهم في أموالكم ومهمّ أموركم ، ولا في

شيء على جهة استواء المنزلة ، وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم كما يفعل بعضكم ببعض فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون إن من عبيده وملكه شركاء في سلطانه وألوهيته ، وتثبتون في جانبه ما لا يليق بكم عندكم بجوانبكم ، هذا تفسير ابن عباس والجماعة .

وجاء هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير ، وقرأ الناس "كخيفتكم أنفسَكم " بنصب السين ، وقرأ ابن أبي عبلة " أنفسُكم " بضمها ، وقرأ الجمهور " نفصل " بالنون حملاً على ﴿ رزقناكم ﴾ ، وقرأ عباس عن أبي عمرو " يفصل " بالياء حملاً على ﴿ ضرب لكم مثلاً ﴾ .

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29)

(19/603)

الإضراب ب ﴿ بل ﴾ هو عما تضمنه معنى الآية المتقدمة ، كأنه يقول : ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من تشريكهم مع الله تعالى ، بل اتبعوا أهواءهم جهالة وشهوة وقصداً لأمر دنياهم ، ثم قرر على جهة التوبيخ لهم على من يهدي إذا أضل الله ، أي لا هادي لأهل هذه الحال ، ثم أخبر أنه لا ناصر لهم ، ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بإقامة وجهه للدين

المستقيم وهو دين الإسلام ، وإقامة الوجه هي تقويم المقصد والقوة على الجد في أعمال الدين ، وذكر الوجه لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه ، و ﴿ حنيفاً ﴾ ، معناه معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة ، وقوله ﴿ فطرةَ الله ﴾ نصب على المصدر ، كقوله ﴿ صبغة الله ﴾ [البقرة : 138] وقيل هو نصب بفعل مضمر تقديره اتبع والتزم ﴿ فطرة الله ﴾ ، واختلف الناس في " الفطرة " ها هنا ، فذكر مكي وغيره في ذلك جميع ما يمكن ان تصرف هذه اللفظة عليه وفي بعض ذلك قلق ، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة في نفس الطفل التي هي معدة مهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به ، فكأنه قال ﴿ فأقم وجهك للدين ﴾ الذي هو الحنيف وهو ﴿ فطرة الله ﴾ الذي على الإعداد له فطر البشر لكن تعرضهم العوارض ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه " الحديث ، فذكر الأبوين : إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة وقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ يحتمل تأويلين : أحدهما أن يريد بها هذه الفطرة المذكورة أي اعلم أن هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخلق ، ولا يجيء الأمر على خلاف هذا بوجه ، والآخران أن يكون قوله ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ إنحاء على الكفرة اعترض به أثناء الكلام كأنه يقول أقم وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا فإن هؤلاء الكفار قد خلق الله لهم الكفر ولا تبديل لخلق الله أي إنهم لا يفلحون ، وقال

مجاهد : المعنى لا تبديل لدين الله ، وهو قول ابن جبير والضحاك وابن زيد والنخعي .

قال القاضي أبو محمد : وهذا معناه لا تبديل للمعتقدات التي هي في الدين الحنيف فإن كل شريعة هي عقائدها ، وذهب بعض المفسرين في هذه الآية إلى تأويلات منها عكرمة ، وقد روي عن ابن عباس ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ معناه النهي عن خصاء الفحول من الحيوان ، ومنها قول بعضهم في الفطرة الملة على أنه قد قيل في الفطرة الدين وتأول قوله ﴿ فطر الناس ﴾ على الخصوص أي المؤمنين ، وقيل " الفطرة " هو العهد الذي أخذه الله تعالى على ذرية آدم حين أخرجهم نسماً من ظهره ، ونحوه حديث معاذ بن جبل حين مر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال يا معاذ ما قوام هذه الأمة ؟ قال : الإخلاص وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والصلاة وهي الدين والطاعة وهي العصمة فقال عمر : صدقت ، و ﴿ القيم ﴾ بناء مبالغة من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لكم مَثَلاً ﴾

سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا يلبُّون فيقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكُه وما ملك ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل .

ومعنى الآية : بيَّن لكم أيها المشركون شَبَهاً ، وذلك الشَّبه ﴿ من أنفُسكم ﴾ ، ثم بيَّنه فقال : ﴿ هل لكم ممَّا ملكت أيمانُكم ﴾ أي : من عبيدكم ﴿ من شركاءَ فيما رزقناكم ﴾ من المال والأهل والعبيد ، أي : هل يشارككم عبيدكم في أموالكم ﴿ فأنتم فيه سواءٌ ﴾ أي : أنتم وشركاؤكم من عبيدكم سواءٌ ﴿ تخافونهم كخِيفتكم أنفُسكم ﴾ أي : كما تخافون أمثالكم من الأحرار ، وأقرباءكم كالآباء والأبناء ؟ قال ابن عباس : تخافونهم أن يَرِثوكم كما يَرِث بعضكم بعضاً ؟ وقال غيره : تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم كما يفعل الشركاء ؟ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويَه في التصرُّف في ذلك ، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيرَه من الشركاء الأحرار ؟ ! فإذا لم ترضَوا ذلك لأنفسكم ، فلم عَدَلتم بي من خَلْقي مَنْ هو مملوك لي ؟ ! ﴿ كذلك ﴾ أي : كما بيَّنَّا هذا المَثَل ﴿ نفصِّل الآيات لقوم يَعْقِلون ﴾ عن الله .

ثم بيَّن أنَّهم إنَّما اتَّبعوا الهوى في إشراكهم ، فقال : ﴿ بل اتَّبع الذين ظلموا ﴾ أي : أشركوا بالله ﴿ أهواءهم بغير عِلْم فمن يَهدي مَن أضلَّ اللّهُ ﴾ وهذا يدل على أنهم إنما أشركوا

باضلال الله إيَّاهم ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي : مانعين من عذاب الله .

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك ﴾ قال مقاتل : أخلص دينك الإِسلام ﴿ للدّين ﴾ أي : للتوحيد .

وقال أبو سليمان الدمشقي : استقم بدينك نحو الجهة التي وجَّهك الله إليها .

وقال غيره : سدِّد عملك ، والوجه : ما يُتَوجَّه إليه ، وعمل الإِنسان ودينه : ما يتوجَّه إليه لتسديده وإقامته .

(22/603)

قوله تعالى : ﴿ حنيفاً ﴾ قال الزجاج : ﴿ الحنيف ﴾ : الذي يميل إلى الشيء ولا يرجع عنه ، كالحَنَف في الرِّجل ، وهو ميلها إلى خارجها خِلْقة ، لا يقدر الأحنف أن يردَّ حَنَفه

وقوله : ﴿ فطرةَ الله ﴾ منصوب ، بمعنى : اتَّبع فطرةَ الله ، لأن معنى ﴿ فأقم وجهك ﴾ : اتَّبع الدِّين القيِّم ، واتَّبع فطرة الله ، أي : دين الله .

والفطرة : الخِلْقة التي خَلَق اللّهُ عليها البشر .

وكذلك قوله عليه السلام : "كل مولود يولد على الفطرة" ، أي : على الإِيمان بالله .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ فطرة الله التي فطر الناسَ عليها ﴾ قال : الإِسلام ، وكذلك قال

قتادة .

والذي أشار إليه الزجاج أصح ، وإليه ذهب ابن قتيبة ، فقال : فرقُ ما بيننا وبين أهل القَدَر في هذا الحديث ، أن الفطرة عندهم : الإسلام ، والفطرة عندنا : الإقرار بالله والمعرفة به ، لا الإسلام ، ومعنى الفطرة : ابتداء الخِلقة ، والكل أقرُّوا حين قوله : ﴿ ألستُ بربّكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف : 172] ولستَ واجداً أحداً إلا وهو مُقِرّ بأنّ له صانعاً ومدبّراً وإن عبد شيئاً دونه وسمّاه بغير اسمه ؛ فمعنى الحديث : إن كل مولود في العالَم على ذلك العهد وذلك الإقرار الأول ، وهو الفطرة ، ثم يهوّد اليهودُ أبناءهم ، أي يعلّمونهم ذلك ، وليس الإقرار الأول ممّا يقع به حُكم ولا ثواب ؛ وقد ذكر نحو هذا أبو بكر الأثرم ، واستدل عليه بأن الناس أجمعوا على أنه لا يرث المسلُم الكافرَ ، ولا الكافرُ المسلمَ ، ثم أجمعوا على أن اليهوديَّ إذا مات له ولد صغير ورثه ، وكذلك النصراني والمجوسي ، ولو كان معنى الفطرة الإسلام ، ما ورثه إلا المسلمون ، ولا دفن إلا معهم ؛ وإنما أراد بقوله عليه السلام : "كل مولود يولد على الفطرة" أي : على تلك البداية التي أقرُّوا له فيها بالوحدانية حين أخذهم مِن صُلْب آدم ، فمنهم من جحد ذلك بعد إقراره .

(23/603)

ومثل هذا الحديث حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عز وجل : إِني خَلقتُ عبادي حنفاء " ، وذلك أنه لم يدعُهم يوم الميثاق إِلاَّ إِلى حرف واحد ، فأجابوه .

قوله تعالى : ﴿ لا تبديل لَخِلْق الله ﴾ لفظه لفظ النفي ، ومعناه النهي ؛ والتقدير : لا تبدّلوا خَلْق الله .

وفيه قولان .

أحدهما : أنه خِصاء البهائم ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

والثاني : دين الله ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والنخعي في آخرين .

وعن ابن عباس وعكرمة كالقولين .

قوله تعالى : ﴿ ذلك الدِّينُ القيِّم ﴾ يعني التوحيد المستقيم ﴿ ولكنَّ أكثر الناس ﴾ يعني كفار مكة ﴿ لا يَعْلَمون ﴾ توحيد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(24/603)

وقال القرطبى :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ مِّن شُرَكَآءَ ﴾ ؛ ثم قال : ﴿ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ف"من" الأولى للابتداء ؛ كأنه قال : أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم .

والثانية للتبعيض ، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام .

والآية نزلت في كفار قريش ، كانوا يقولون في التلبية : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ؛ قاله سعيد بن جبير .

وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله للمشركين ؛ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في ماله ونفسه مثله ، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء .

الثانية : قال بعض العلماء : هذه الآية أصل في الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه ، وذلك أنه لما قال جل وعز : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ الآية ، فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ! فيقال لهم : فكيف يتصوّر أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي ؛ فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعَمَى قلب ! فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله ؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له

شريك ، إذ الشركة تقتضي المعاونة ، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل ؛ والقديمُ الأزلِيّ منزّه عن ذلك جلّ وعز .

وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه ؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب ، فافهم ذلك .

(25/603)

قوله تعالى : ﴿ بَلِ اتبع الذين ظلموا أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك .

﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ أي لا هادي لمن أضله الله تعالى .

وفي هذا ردّ على القدرية .

﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ الله ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قال الزجاج : "فِطْرَةَ" منصوب بمعنى اتبع فطرة الله .

قال : لأن معنى "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ" اتبع الدّين الحنيف واتبع فطرة الله .

وقال الطبري : "فِطْرَةَ اللَّهِ" مصدر من معنى : "فَأَقِمْ وَجْهَكَ" لأن معنى ذلك : فطر الله

الناس على ذلك فِطرة .

وقيل : معنى ذلك اتبعوا دين الله الذي خلق الناسَ له ؛ وعلى هذا القول يكون الوقف على "حَنِيفاً" تاماً .

وعلى القولين الأوّلين يكون متصلاً ، فلا يوقف على "حَنِيفاً" .

وسميت الفِطْرة دِيناً لأن الناس يُخلقون له ، قال جلّ وعز : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

ويقال : "عَلَيْهَا" بمعنى لها ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] .

والخطاب ب"أَقِمْ وَجَهَكَ" للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمره بإقامة وجهه للدّين المستقيم ؛ كما قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم ﴾ [الروم : 43] وهو دين الإسلام .

وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوّة على الجِدّ في أعمال الدين ؛ وخصّ الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفُه .

ودخل في هذا الخطاب أمّتُه باتفاق من أهل التأويل .

و"حَنِيفاً" معناه معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة .

(26/603)

الثانية : في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "ما من مولود إلا يولد على الفِطرة في رواية على هذه الملة أبواه يُهَوّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسَانه كما تُنْتَج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تُحِسّون فيها من جدعاء" ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم ؛ ﴿ فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ ، في رواية : "حتى تكونوا أنتم تجدعونها" قالوا : يا رسول الله ؛ أفرأيتَ من يموت صغيراً ؟ قال : "الله أعلم بما كانوا عاملين" " لفظ مسلم .

الثالثة : واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدّدة ؛ منها الإسلام ؛ قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما ؛ قالوا : وهو المعروف عند عامّة السلف من أهل التأويل ؛ واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة ، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس يوماً : " ألاَ أحدّثكم بما حدّثني الله في كتابه ، أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين ، وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالاً وحراماً . . .

" الحديث .

وبقوله صلى الله عليه وسلم : " خمس من الفطرة . . .

" فذكر منها قصّ الشارب ، وهو من سنن الإسلام ؛ وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين

أخرجهم من صلبه ، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا في الجنة ؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولاد كفار .

وقال آخرون : الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ؛ أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء ، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ .

قالوا : والفطرة في كلام العرب البداءة .

(27/603)

والفاطر : المبتدىء ؛ واحتجوا بما روي عن ابن عباس أنه قال : لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ أي ابتدأتها .

قال الْمَرْوَزِيّ : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه .

قال أبو عمر في كتاب التمهيد له : ما رسمه مالك في موطّئه وذكر في باب القدر فيه من الآثار يَدلّ على أن مذهبه في ذلك نحو هذا ، والله أعلم .

ومما احتجوا به ما روي عن كعب القُرَظي في قول الله تعالى : " فَرِيقاً هدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة " [الأعراف : 30] قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيَّره إلى الضلالة

وإن عمل بأعمال الهدى ، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة ، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، قال : وكان من الكافرين .

قلت : قد مضى قول كعب هذا في "الأعراف" وجاء معناه مرفوعاً من حديث " عائشة رضي الله عنها قالت : دُعِي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت : يا رسول الله ، طُوبَى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ! قال : "أو غير ذلك يا عائشة ! إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم" " خرجه ابن ماجه في السنن .

(28/603)

وخرج أبو عيسى الترمذيّ " عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : "أتدرون ما هذان الكتابان ؟" فقلنا : لا يا رسول الله ، إلا أن تخبرنا ؛ فقال للذي في يده اليمنى : "هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ثم قال للذي في شماله هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل

على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً . . .

" " وذكر الحديث ، وقال فيه : حديث حسن .

وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى : ﴿ فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ ولا قوله عليه السلام : " كل مولود يولد على الفطرة " العمومَ ، وإنما المراد بالناس المؤمنون ؛ إذ لو فُطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد ، وقد ثبت أنه خلق أقواماً للنار ؛ كما قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ [الأعراف : 179] وأخرج الذرّية من صلب آدم سوداء وبيضاء .

وقال في الغلام الذي قتله الخَضِر ؛ طبع يوم طبع كافراً .

وروى أبو سعيد الخُدْري قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بنهار ؛ وفيه : وكان فيما حفِظْنا أن قال : " ألا إن بني آدم خُلقوا طبقات شتّى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ومنهم حَسَن القضاء حَسَن الطلب " ذكره حماد بن سلمة في مسند الطيالسي قال : حدّثنا عليّ بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد .

قالوا : والعموم بمعنى الخصوص كثير في لسان العرب ؛ ألا ترى إلى قوله عز وجل : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف : 25] ولم تدمر السموات والأرض .

وقوله : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 44] ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة .

وقال إسحاق بن رَاهْوَيه الحنظلي : تم الكلام عند قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ ثم قال : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ ﴾ أي فطر الله الخلق فِطرة إمّا بجنة أو نار ، وإليه أشار النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : "كل مولود يولد على الفطرة" ولهذا قال : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ قال شيخُنا أبو العباس : من قال هي سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفِطرة المذكورة في القرآن ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ وأما في الحديث فلا ؛ لأنه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تبدل وتغيّر .

وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر : الفطرة هي الخِلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه ؛ فكأنه قال : كل مولود يولد على خِلْقة يعرِف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة ؛ يريد خِلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته .

واحتجوا على أن الفطرة الخِلقة ، والفاطر الخالق ؛ لقول لله عز وجل : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾ [فاطر : 1] يعني خالقهن ، وبقوله : ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي

فَطَرَنِي ﴾ [ياس : 24] يعني خلقني ، وبقوله : ﴿ الذي فطَرَهُنَّ ﴾ [الأنبياء : 56] يعني خلقهن .

قالوا : فالفطرة الخِلقة ، والفاطر الخالق ؛ وأنكروا أن يكون المولود يُفْطَر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار .

قالوا : وإنما المولود على السلامة في الأغلب خِلْقةً وطبعاً وبِنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميّزوا .

واحتجوا بقوله في الحديث : "كما تُنْتَج البَهِيمةُ بهيمةً جَمعاءً يعني سالمة هل تُحِسّون فيها من جَدْعاء " يعني مقطوعة الأذن .

(30/603)

فمثّل قلوبَ بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخَلْق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعدُ وأنوفها ؛ فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب .

يقول : فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة ، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلّهم .

قالوا : ولو كان الأطفال قد فطِروا على شيء من الكفر والإيمان في أولّية أمورهم ما انتقلوا

عنه أبداً ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون .

قالوا : ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفراً أو إيماناً ، لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئاً ، قال الله تعالى : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [النحل : 78] فمن لا يعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان ، أو معرفة أو إنكار .

قال أبو عمر بن عبد البر : هذا أصح ما قيل في معنى الفِطرة التي يولد الناس عليها .

ومن الحجة أيضاً في هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : 16] و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : 38] ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء .

وقال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] ولما أجمعوا على دفع القَوَد والقصاص والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك .

والله أعلم .

ويستحيل أن تكون الفِطرة المذكورةُ الإسلامَ ، كما قال ابن شهاب ؛ لأن الإسلام والإيمان : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وهذا معدوم من الطفل ، لا يجهل ذلك ذو عقل .

وأما قول الأوزاعي : سألت الزهريّ عن رجل عليه رَقَبة أيجزي عنه الصبيّ أن يعتقه وهو

رضيع ؟ قال : نعم ؛ لأنه وُلد على الفِطرة يعني الإسلام ؛ فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه ؛ لأن حكمه حكمُ أبويه .

(31/603)

وخالفهم آخرون فقالوا : لا يجزِي في الرقاب الواجبة إلا من صام وصلّى ، وليس في قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29] ولا في "أن يختم الله للعبد بما قضاه له وقدّره عليه" دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمناً أو كافراً ؛ لما شهدت له العقول أنه في ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيماناً ولا كفراً ، والحديث الذي جاء فيه : " أن الناس خلقوا على طبقات " ليس من الأحاديث التي لا مطعن فيها ؛ لأنه انفرد به عليّ بن زيد بن جُدْعان ، وقد كان شعبة يتكلّم فيه .

على أنه يحتمل قوله : "يولد مؤمناً" أي يولد ليكون مؤمناً ، ويولد ليكون كافراً على سابق علم الله فيه ، وليس في قوله في الحديث : " خلقت هؤلاء للجنة وخلقت هؤلاء للنار " أكثر من مراعاة ما يختم به لهم ؛ لا أنهم في حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو ناراً ، أو يعقل كفراً أو إيماناً .

قلت : وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له ، ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في

تفسيره في معنى الفطرة ، وشيخنا أبو العباس .

قال ابن عطية : والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدّة ومهيّأة لأن يميّز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربّه ويعرف شرائعه ويؤمن به ؛ فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدّين الذي هو الحنيف ، وهو فِطْرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر ، لكن تَعرِضهم العوارض ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم :

" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يُنَصّرانه " فذِكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة .

وقال شيخنا في عبارته : إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودينَ الإسلام وهو الدّين الحق .

(32/603)

وقد دلّ على صحة هذا المعنى قوله : " كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء هل تُحسّون فيها من جَدْعاء " يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليماً من الآفات ، فلو تُرك على أصل

تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب ، لكن يُتصرّف فيه فيُجدع أذنه ويُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل ؛ وكذلك الإنسان ، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح .

قلت : وهذا القول مع القول الأوّل موافق له في المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة : من خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلاف الليل والنهار ؛ فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً ، وأنهم إن ماتوا صغاراً فهم في الجنة ، أعني جميع الأطفال ، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذَّرّ أقرّوا له بالربوبية وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف : 172] .

ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقروا له بالرُّبوبية ، وأنه الله لا إله غيره ، ثم يُكتب العبد في بطن أمّه شقِيّاً أو سعيداً على الكتاب الأوّل ؛ فمن كان في الكتاب الأوّل شقيًّا عُمّر حتى يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك ، ومن كان في الكتاب الأوّل سعيداً عُمّر حتى يجري عليه القلم فيصير سعيداً ، ومن مات صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين

فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأوّل الذي أخذ عليهم في صلب آدم ولم ينقض الميثاق .

(33/603)

ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى " قوله عليه السلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال : "الله أعلم بما كانوا عاملين" " يعني لو بلغوا .

ودلّ على هذا التأويل أيضاً حديث البخاريّ عن سَمُرة بن جُنْدُب

" عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الحديثُ الطويل حديثُ الرؤيا ، وفيه قوله عليه السلام : "وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام ، وأما الوِلدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة" .

قال فقيل : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وأولاد المشركين" " وهذا نصّ يرفع الخلاف ، وهو أصح شيء رُوي في هذا الباب ، وغيره من الأحاديث فيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر .

وقد روي من حديث أنس قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : "لم تكن لهم حسنات فيجزَوْا بها فيكونوا من ملوك الجنة ، ولم تكن لهم

سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار ، فهم خدم لأهل الجنة" " ذكره يحيى بن سلام في التفسير له .

وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب التذكرة ، وذكرنا في كتاب المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ما ذكره أبو عمر من ذلك ، والحمد لله .

وذكر إسحاق ابن راهْوَيه قال : حدّثنا يحيى بن آدم قال : أخبرنا جرير بن حازم عن أبي رجاء العُطَارِديّ قال : سمعت ابن عباس يقول : لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً أو متقارباً أو كلمة تشبه هاتين حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقَدَر .

قال يحيى بن آدم : فذكرته لابن المبارك فقال : أيسكت الإنسان على الجهل ؟ قلت : فتأمر بالكلام ؟ قال فسكت .

وقال أبو بكر الوراق : "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا" هي الفقر والفاقة ؛ وهذا حسن ؛ فإنه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج ، نعم ! وفي الآخرة .

(34/603)

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ أي هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق .

ولا يجيء الأمر على خلاف هذا بوجه ؛ أي لا يشقى من خَلَقه سعيداً .

ولا يسعد من خلقه شقيًّا .

وقال مجاهد : المعنى لا تبديل لدين الله ؛ وقاله قتادة وابن جُبير والضحاك وابن زيد والنَّخَعِيّ ، قالوا : هذا معناه في المعتقدات .

وقال عكرمة : وروي عن ابن عباس وعمر بن الخطاب أن المعنى : لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولها ؛ فيكون معناه النهي عن خِصاء الفحول من الحيوان .

وقد مضى هذا في "النساء" .

﴿ ذَلِكَ الدين القيم ﴾ أي ذلك القضاء المستقيم ؛ قاله ابن عباس .

وقال مقاتل : ذلك الحساب البَيّن .

وقيل : "ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ" أي دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً ، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونَفَذ حكمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(35/603)

وقال أبو السعود :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً ﴾ يتبيَّن به بطلانُ الشِّركِ ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي مُنتزعاً من أحوالِها

التي هي أقربُ الأمورِ إليكم وأعرفُها عندكم وأظهرُها دلالةً على ما ذُكر من بطلان الشّرك لكونها بطريقِ الأولوية . وقولُه تعالى ﴿ هَلْ لَّكُمْ ﴾ الخ تصوير للمثلِ أي هل لكم ﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ من العبيدِ والإماءِ ﴿ مّن شُرَكَاء فِيمَا رزقناكم ﴾ من الأموال وما يجري مجراها مَّما تتصرَّفون فيها . فمِن الأُولى ابتدائيةٌ ، والثَّانية تبعيضيةٌ ، والثَّالثةُ مزيدةٌ لتأكيدِ النَّفيِ المُستفادِ من الاستفهامِ . فقوله تعالى : ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء ﴾ تحقيقٌ لمعنى الشركة وبيانٌ لكونِهم وشركائِهم متساوين في التَّصرف فيما ذُكر من غير مزيَّةٍ لهم عليها على أنَّ هناك محذوفاً معطوفاً على أنتُم لا أنَّه عامٌّ للفريقين بطريق التَّغليب أي هل ترضَون لأنفسكم والحالُ أنَّ عبيدَكم أمثالُكم في البشريةِ وأحكامِها أنْ يشاركوكم فيما رزقناكم وهو مستعارٌ لكم فأنتم وهم فيه سواءٌ يتصرَّفون فيه كتصرُّفكم من غير فرقٍ بينكم وبينهم .

﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ خبرٌ آخرُ لأنتم أو حالٌ من ضميرِ الفاعل في سواءٌ أي تهابون أنْ تستبدُّوا بالتَّصرُّف فيه بدون رأيهم ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي خيفةً كائنةً مثلَ خيفتِكم من الأحرارِ المساهيمنَ لكم فيما ذُكر والمعنى نفيُ مضمونٍ ما فصَّل من الجملةِ الاستفهاميَّةِ أي لا ترضَون بأنْ يشاركَكم فيما هو معارٌ لكم مماليكُكم وهم أمثالُكم في البشريةِ غيرُ مخلوقين لكُم بل لله تعالى فكيف تُشركون به سبحانه في المعبوديةِ التي هي من خصائصِه الذاتيةِ مخلوقَه بل مصنوعَ مخلوقِه حيثُ تصنعونَه بأيديكم ثم تعبدونَه .

﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك التَّفصيلِ الواضح ﴿ نُفَصّلُ الآيات ﴾ أي نبيّنها ونوضّحها لا تفصيلاً أدنى منه فإنَّ التَّمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة بصورةِ المحسوس وإبراز لأوابدِ المُدركاتِ على هيئة المأنوسِ فيكون في غايةِ الإيضاحِ والبيان ﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يستعملون عقولَهم في تدبُّرِ الأمور ، وتخصيصُهم بالذِّكرِ مع عموم تفصيلِ الآياتِ للكلِّ لأنَّهم المتنفعون بها ﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ إعراضٌ عن مخاطبتهم ومحاولةُ إرشادِهم إلى الحقِّ بضربِ المثلِ وتفصيلِ الآياتِ واستعمالِ المقدّماتِ الحقَّةِ المعقولةِ وبيانٌ لاستحالةِ تبعيتهم للحقِّ كأنَّه قيل لم يعقلوا شيئاً من الآياتِ المُفصَّلةِ با اتَّبعوا ﴿ أَهْوَاءهُمْ ﴾ الزائغةَ . ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم للتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم في ذلك الاتباعِ ظالمون واضعون للشيءِ في غيرِ موضعهِ أو ظالمون لأنفسِهم بتعريضِها للعذابِ الخالدِ ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي جاهلين ببطلانِ ما أَتَوَا مكبّين عليه لا يلويهم عنه صارفٌ حسبما يصرّف العالم إذا اتبع الباطل علمه ببطلانه ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ أي خلقَ فيه الضَّلالَ بصرفِ اختيارِه إلى كسبِه أي لا يقدرُ على هدايتِه أحدٌ ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي لمن أضلَّه الله تعالى والجمعُ باعتبارِ المعنى ﴿

مّن ناصرين ﴾ يُخلّصونهم من الضَّلالِ ويحفظونهم من تبعاته وآفاتِه على معنى ليس لواحدٍ منهم ناصرٌ واحدٌ على ما هو قاعدةُ مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ .

(37/603)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ ﴾ تمثيلٌ لإقباله على الدّين واستقامتِه وثباتِه عليه واهتمامِه بترتيبِ أسبابِه فإنَّ من اهتمَّ بشيءٍ محسوسٍ بالبصر عقدَ عليه طرفَه وسدَّد إليه نظرَهُ وقوَّم له وجهَه مُقبلاً به عليه أي فقوّم وجهَك له وعُدْ له غيرَ ملتفتٍ يميناً وشمالاً . وقولُه تعالى ﴿ حَنِيفاً ﴾ حالٌ من المأمورِ أو من الدّين ﴿ فِطْرَةَ الله ﴾ الفطرةُ الخِلقةُ . وانتصابُها على الإغراءِ أي الزمُوا أو عليكم فطرةَ الله فإنَّ الخطابَ لكلِّ كما يُفصح عنه قولُه تعالى منيبين ، والإفراد في أقِم لما أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام إمامُ الأمَّةِ فأمره عليه السَّلامُ مستتبع لأمرِهم ، والمرادُ بلزومِها الجريانُ على موجبِها وعدمُ الإخلالِ به باتباعِ الهَوَى وتسويلِ الشَّياطينِ ، وقيل على المصدرِ أي فطرَ الله فطرةً . وقولُه تعالى : ﴿ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ صفةٌ لفطرةَ الله مؤكدةٌ لوجوبِ الامتثالِ بالأمرِ فإنَّ خلقَ الله النَّاسَ على فطرته التي هي عبارةٌ عن قبولِهم للحقِّ وتمكُّنِهم من إدراكِه أو عن ملَّة الإسلامِ من موجباتِ لزومِها والتمسُّك بها قطعاً فإنَّهم لو خُلُّوا وما خُلقوا عليه أدَّى بهم إليها وما اختاروا عليها ديناً

آخر ومن غَوى منهم فبإغواءِ شياطين الإنسِ والجنّ ومنه قولُه عليها الصَّلاة والسَّلام حكايةٌ عن ربِّ العِزَّة : "كلُّ عبادِي خلقتُ حنفاءَ فاجتالتْهُم الشياطينُ عن دينِهم وأمرُوهم أنْ يُشركوا بي غيري" وقولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : "كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرةِ حتَّى يكونَ أَبواه هُما اللذانِ يهوّدانه ويُنصّرانه" وقولُه تعالى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بلزومِ فطرتِه تعالى أو لوجوبِ الامتثالِ به أي لا صحَّةَ ولا استقامةَ لتبديلةِ بالإخلالِ بموجبِه وعدمِ ترتيبِ مقتضاهُ عليه باتّباعِ الهَوَى وقبولِ وسوسةِ الشَّيطانِ وقيل لا

(38/603)

يقدرُ أحدٌ على أنْ يُغيره فلا بدَّ حينئذٍ من حملِ التَّبديلِ على تبديلِ نفسِ الفطرةِ بإزالتِها رأساً ووضعِ فطرةٍ أُخرى مكانَها غيرِ مصححةٍ لقبولِ الحقّ والتمكنِ من إدراكِه ضرورةَ أنَّ التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعاً فالتعليل حينئذ من جهة أنَّ سلامة الفطرة متحققةٌ في كلِّ أحدٍ فلا بدَّ من لزومِها بترتيبِ مُقتضاها عليها وعدمُ الإخلالِ به بما ذُكر من اتّباعِ الهوى وخطواتِ الشَّيطانِ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى الدّين المأمورِ بإقامةِ الوجهِ له أو إلى لزومِ فطرةِ الله المستفادِ من الاغراءِ أو إلى الفطرةِ إنْ فسّرت بالملَّة . والتَّذكيرُ بتأويلِ المذكورِ أو باعتبارِ الخبرِ ﴿ الدين القيم ﴾ المُستوِي الذي لا عِوَجَ فيه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ

يَعْلَمُونَ ﴾ ذلكَ فيصدُّون عنه صُدوداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(39/603)

وقال الآلوسى :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً ﴾

يتبين به بطلان الشرك ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي منتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولوية ، و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية وقوله تعالى : ﴿ هَلْ لَّكُمْ ﴾ إلى رخره تصوير للمثل ، والاستفهام إنكاري بمعنى النفي و﴿ لَكُمْ ﴾ خبر مقدم وقوله تعالى : ﴿ مّن مَّا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ في موضع الحال من ﴿ شُرَكَاء ﴾ بعد لأنه نعت نكرة تقدم عليها ؛ والعامل فيها كما في "البحر" هو العامل في الجار والمجرور الواقع خبراً و﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض و﴿ مَا ﴾ واقعة على النوع ، وقوله تعالى : ﴿ مّن شُرَكَاء ﴾ مبتدأ و﴿ مِنْ ﴾ مزيدة لتأكيد النفي المستفادة من الاستفهام ، وقوله تعالى : ﴿ فِى مَا رزقناكم ﴾ متعلق بشركاء أي هل

شركاء فيما رزقناكم من الأموال وما يجري مجراها مما تتصرفون فيه كائنون من النوع الذي ملكته أيمانكم من نوع العبيد والأماء كائنون لكم .

(40/603)

وجوز أن يكون ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلقاً بشركاء ويكون ﴿ فِيمَا رزقناكم ﴾ في موضع الخبر كما تقول لزيد في المدينة مبغض فلزيد متعلق بمبغض الذي هو مبتدأ وفي المدينة الخبر أي هل شركاء لكم كائنون مما ملكته أيمانكم كائنون فيما رزقناكم ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء ﴾ جملة في موضع الجواب للاستفهام الإنكاري ﴿ وَفِيهِ ﴾ متعلق بسواء ، وفي الكلام محذوف معطوف على ﴿ أَنتُمْ ﴾ أي فانتم وهم أي المماليك مستوون فيه لا فرق بينكم وبينهم في التصرف فيه ، وقيل : لا حذف ﴿ وَأَنتُمْ ﴾ شامل للمماليك بطريق التغليب ، وقوله تعالى : ﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ خبر آخر لأنتم ، وقال أبو البقاء : حال من ضمير ﴿ أَنتُمْ ﴾ الفاعل في ﴿ سَوَآء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ في موضع الصفة لمصدر محذوف أي تخافونهم أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم يعني الأحرار المساهمين لكم ، والمقصود نفي مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية أي لا ترضون بأن يشارككم فيما رزقناكم من الأموال ونحوها

مما ليككم وهم أمثالكم في البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية التي هي من خصائصه تعالى الذاتية مخلوقه سبحانه بل مصنوع مخلوقه جل وعلا حيث تصنعونه بأيدكم ثم تعبدونه .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالرفع على أن المصدر مضاف للمفعول ﴿ وأَنفُسَكُمْ ﴾ فاعله ، قال أبو حيان : وهو وجه حسن ولا قبح في إضافة المصدر إلى المفعول مع وجود الفاعل ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التفصيل الواضح ﴿ نُفَصّلُ الآيات ﴾ أي نبينها ونوضحها لا تفصيلاً أدنى منه فإن التمثيل تصوير للمعاني المعقولة بصورة المحصوص وإبراز لأوابد المدركات على هيئة المأنوس فيكون في غاية الإيضاح والبيان .

(41/603)

﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يستعملون عقولهم في تدبير الأمثال ، وقيل : في تدبير الأمور مطلقاً ويدخل في ذلك الأمثال دخولاً أولياً ، وخصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها ، وذكر العلامة الطيبي أنه لما كان ضرب الأمثال لأدناء المتوهم إلى المعقول وإراءة المتخيل في صورة المحقق ناسب أن تكون الفاصلة ﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وهذه النكتة هنا أظهر منها فيما تقدم فتذكر .

وقرأ عباس عن أبي عمرو ﴿ يُفَصّلُ ﴾ بياء الغيبة رعياً لضرب إذ هو مسند لما يعود للغائب .

وقراءة الجمهور بالنون للحمل على ﴿ رزقناكم ﴾ وذكر بعض العلماء أن في هذه الآية دليلاً على صحة أصل الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض كأنه قيل : الممتنع المستقبح شركة العبيد لساداتهم أما شركة السادات بعضهم لبعض فلا تمتنع ولا تستقبح .

(42/603)

﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ إعراض عن مخاطبتهم ومحاولة إرشادهم إلى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل : لم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصلة بل اتبعوا ﴿ أَهْوَاءهُمْ ﴾ الزائغة ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم في ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي جاهلين ببطلان ما أتوا منكبين عليه لا يصرفهم عنه صارف حسبما يصرف العالم إذا اتبع الباطل علمه ببطلانه ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ أي خلق فيه الضلال وجعله كاسباً له باختياره ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي لمن أضله الله تعالى ، والجمع باعتبار المعنى ﴿ مّن ناصرين ﴾ يخلصونهم

من الضلال ويحفظونهم من تبعاته وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور في مقابلة الجمع بالجمع ، ﴿ وَمِنْ ﴾ مزيدة لتأكيد النفي ، والكلام مسوق لتسلية رسوله صلى الله عليه وسلم وتوطئة لأمره عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ قال العلامة الطيبي : إنه تعالى عقيب ما عدد الآيات البينات والشواهد الدالة على الوحدانية ونفي الشرك وإثبات القول بالمعاد وضرب سبحانه المثل وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : 28] أراد جل شأنه أن يسلي حبيبه صلوات الله تعالى وسلامه عليه ويوطنه على اليأس من إيمانهم فأضرب تعالى عن ذلك وقال سبحانه : ﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ وجعل السبب في ذلك أنه عز وجل ما أراد هدايتهم وأنه مختوم على قلوبهم ولذلك رتب عليه قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ على التقريع والإنكار ثم ذيل سبحانه الكل بقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾ [الروم : 29] يعني إذا أراد الله تعالى منهم ذلك فلا مخلص لهم

(43/603)

منه ولا أحد ينقذهم لا أنت ولا غيرك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فاهتم بخاصة نفسك ومن تبعك وأقم وجهك الخ اه ، ومنه يعلم حال الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ﴾

وكذا في قوله سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ ﴾ وقدر النيسابوري للثانية إذا تبين الحق وظهرت الوحدانية فأقم الخ ، ولعل ما أشار إليه الطيبي أولى ، ثم إنه يلوح من كلامه احتمال أن يكون الموصول قائماً مقام ضمير ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ فتدبر .

﴿ وَأَقِمِ ﴾ من أقام العدو ويقال قوم العود أيضاً إذا عدله ، والمراد الأمر بالإقبال على دين الإسلام والاستقامة والثبات عليه والاهتمام بترتيب أسبابه على أن الكلام تمثيل لذلك فإن من اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد إليه طرفه وسدد إليه نظره وأقبل عليه بوجه غير ملتفت عنه فكأنه قيل : فعدل وجهك للدين وأقبل عليه إقبالاً كاملاً غير ملتفت يميناً وشمالاً ، وقال بعض الأجلة : إن إقامة الوجه للشيء كناية عن كمال الاهتمام به ولعله أراد بالكناية المجاز المتفرع على الكناية فإنه لا يشترط فيه إمكان إرادة المعنى الحقيقي ، ونصب ﴿ حَنِيفاً ﴾ على الحال من الضمير في ﴿ أَقِمِ ﴾ أو من الدين ، وجوز أبو حيان كونه حالاً من الوجه ، وأصل الحنف الميل من الضلال إلى الاستقامة وضده الجنف بالجيم ﴿ عَبْدُ الله ﴾ نصب على الإغراء أي الزموا فطرة الله تعالى ، ومن أجاز إضمار أسماء الأفعال جوز أن يقدر هنا عليكم اسم فعل ، وقال مكي : هو نصب باضمار فعل أي اتبع فطرة الله ودل عليه قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ ﴾ لأن معناه اتبع الدين ، واختاره الطيبي وقال : إنه أقرب في تأليف النظم لأنه موافق لقوله تعالى : ﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ ولترتب قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ عليك بالفاء .

وجوز أن يكون نصباً بإضمار أعني وأن يكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف دل عليه ما بعد أي فطركم فطرة الله ، ولا يصح عمل فطر المذكر بعد فيه لأنه من صفته ، وأن يكون منصوباً بما دل عليه الجملة السابقة على أن مصدر مؤكد لنفسه .

وأن يكون بدلاً من ﴿ حَنِيفاً ﴾ والمتبادر إلى الذهن النصب على الإغراء ، وإضمار الفعل على خطاب الجماعة مع أن المتقدم ﴿ فَأَقِمْ ﴾ هو ما اختاره الزمخشري ليطابق قوله تعالى : ﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ وجعله حالاً من ضمير الجماعة المسند إليه الفعل ، وجعل قوله تعالى : ﴿ واتقوه وَأَقِيمُواْ . . . .

وَلاَ تَكُونُواْ ﴾ [الروم : 31] معطوفاً على ذلك الفعل .

وقال الطيبي : بعد ما اختار تقدير اتبع ورجحه بما سمعت : وأما قوله تعالى : ﴿ مُّنِيبِينَ ﴾ فهو حال من الضمير في ﴿ أَقِمِ ﴾ وإنما جمع لأنه مردد على المعنى لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو خطاب لأمته فكأنه قيل : أقيموا وجوهكم منيبين .

وقال الفراء : أي أقم وجهك ومن تبعك كقوله تعالى : ﴿ فاستقم كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود : 112] فلذلك قال سبحانه : ﴿ مُّنِيبِينَ ﴾ وفي المرشد أن ﴿ مُّنِيبِينَ ﴾

متعلق بمضمر أي كونوا منيبين لقوله تعالى بعد : ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ المشركين ﴾ [الروم : 1 3]اه .

(45/603)

ولا يخفى على المنصف حسن كلام الزمخشري ، وما ذكر من أن خطابه صلى الله عليه وسلم خطاب الأمة يؤكد الدلالة وعلى ذلك المضمر لا أنه يجوز أن يكون ﴿ مُّنِيبِينَ ﴾ حالاً من الضمير في ﴿ أَقِمِ ﴾ وظاهر كلام الفراء يقتضي كون الحال من مذكور ومحذوف وهو قليل في الكلام ، وإضمار كونوا مع إضمار فعل ناصب لفطرة الله موجب لكثرة الإضمار ، وإضماره دون إضمار فيما قبل موجب لارتكاب خلاف المتبادر هناك ، والفطر على ما قال ابن الأثير للحالة كالجلسة والركبة من الفطرة بمعنى الابتداء والاختراع ، وفسرها الكثير هنا بقابلية الحق والتهيء لادراكه ، وقالوا : معنى لزومها الجريان على موجبها وعدم الإخلال به باتباع الهوى وتسويل شياطين الإنس والجن ، ووصفها بقوله تعالى : ﴿ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ لتأكيد وجوب امتثال الأمر ، وعن عكرمة تفسيرها بدين الإسلام .

وفي الخبر ما يدل عليه ، أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمر الصفار قال : سألت قتادة عن

قوله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ فقال : حدثني أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فطرة الله التي فطر الناس عليها دين الله تعالى " والمراد بفطرهم على دين الإسلام خلقهم قابلين له غير نابين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ، ففي "الصحيحين" عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " والمراد بالناس على التفسرين جميعهم .

وزعم بعضهم أن المراد بهم على التفسير الثاني المؤمنون وليس بشيء .

واستشكل الاستغراق بأنه ورد في الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع على الكفر .

(46/603)

وأجيب بأن معنى ذلك أنه قدر أنه لو عاش يصير كافراً بإضلال غيره له أو بآفة من الآفات البشرية ، وهذا على ما قيل هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : " الشقي شقي في بطن أمه " وذلك لا ينافي الفطر على دين الإسلام بمعنى خلقه متهيأ له مستعداً لقبوله فتأمل

فالمقام محتاج بعد إلى تحقيق ، وقيل : فطرة الله العهد المأخوذ على بني آدم ، ومعنى فطرهم على ذلك على ما قيل خلقهم مركوزاً فيهم معرفته تعالى كما أشير إليه بقوله سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] وقوله سبحانه : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به فالمراد بخلق الله فطرته المذكورة أولاً ففيه إقامة المظهر مقام المضمر من غير لفظه السابق ، والمعنى لا صحة ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى بالإخلال بموجبها وعدم ترتيب مقتضاها عليها باتباع الهوى وقبول وسوسة الشياطين ، وقيل : المعنى لا يقدر أحد على أن يغير خلق الله سبحانه وفطرته عز وجل فلا بد من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من إدراكه ضرورة ، فإن التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعاً فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة في كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الإخلال به بما ذكر من اتباع الهوى ووسوسة الشياطين ، وقال الإمام : يحتمل أن يقال : إن الله تعالى خلق خلقه للعبادة وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً للإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول : العبادة لتحصيل الكمال وإذا كمل للعبد بها لا يبقى عليه تكليف .

وقول المشركين : إن الناقض لا يصلح لعبادة الله تعالى وإنما يعبد نحو الكواكب وهي عبيد الله تعالى ، وقول النصارى : إن عيسى عليه السلام كمل بحلول الله تعالى فيه وصار إلها اه وفيه ما فيه ، ومما يستغرب ما روي عن ابن عباس من أن معنى ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ النهي عن خصاء الفحول من الحيوان ، وقيل : إن الكلام متعلق بالكفرة كأنه قيل : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرة الله التي فطر الناس عليها فإن هؤلاء الكفرة خلق الله تعالى لهم الكفر ولا تبديل لخلق الله أي أنهم لا يفلحون .

وأنت تعلم أنه لا ينبغي حمل كلام الله تعالى على نحو هذا ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له أو إلى لزوم فطرة الله تعالى المستفاد من الإغراء أو إلى الفطرة والتذكير باعتبار الخبر أو بتأويل المشار إليه بمذكر ﴿ الدين القيم ﴾ المستوى الذي لا عوج فيه ولا انحراف عن الحق بوجه من الوجوه كما ينبىء عنه صيغة المبالغة ، وأصله قيوم على وزن فيعل اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فيها ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيصدون عنه صدوداً .

وقيل : أي لا علم لهم أصلاً ولو علموا لعلموا ذلك على أن الفعل منزل منزلة اللازم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 21 صـ ﴾

(48/603)

وقال ابن عاشور :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

أُتبع ضرب المثل لإمكان إعادة الخلق عَقِبَ دليل بدئه بضربِ مثل لإبطال الشرك عقب دليليه المتقدمين في قوله تعالى ﴿ يُخرج الحي من الميت ﴾ [الروم : 19] وقوله ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها ﴾ [الروم : 19] لينتظم الدليل على هذين الأصلين المهمين : أصل الوحدانية ، وأصل البعث ، وينكشف بالتمثيل والتقريب بعد نهوضه بدليل العقل . والخطاب للمشركين .

وضرب المثل : إيقاعه ووضعه ، وعليه فانتصاب ﴿ مثلاً ﴾ على المفعول به ، أو يراد بضربه جعله ضرباً ، أي مِثْلاً ونظيراً ، وعليه فانتصاب ﴿ مثلاً ﴾ على المفعولية المطلقة لأن ﴿ مَثَلاً ﴾ حينئذ يرادف ضرباً مصدر ضربَ بهذا المعنى .

وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ﴾ في سورة البقرة (26

) .

واللام في لكم ﴾ لام التعليل ، أي ضرب مثلاً لأجلكم ، أي لأجل إفهامكم .

و ﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ مِن أنفسكم ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿ ضرَب ﴾ أي جعل لكم مثلاً منتزعاً من أنفسكم .

والأنفس هنا جنس الناس كقوله ﴿ فسلِّموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] أي مثَلاً من أحوال جماعتكم إذ لا تخلو الجماعة عن ناس لهم عبيد وهم يعرفون أحوال العبيد مع سادتهم سواء منهم من يملك عبيداً ومن لا عبيد له .

فالخطاب لجميع الأمة باعتبار وجود فريق فيهم ينطبق عليهم هذا المثَل .

والاستفهام مستعمل في الإنكار ومناط الإنكار قوله ﴿ فيما رزقناكم ﴾ إلى آخره ، أي من شركاء لهم هذا الشأن .

و ﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ من ما ملكت أيمانكم ﴾ تبعيضية ، و ﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ مِن شركاء ﴾ زائدة مؤكدة لمعنى النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري .

فالجمع بين هذه الحروف في كلام واحد من قبيل الجناس التام .

والشركاء : جمع شريك ، وهو المشارك في المال لقوله ﴿ فيما رزقناكم ، ﴾ والفاء للتفريع على الشركة ، أي فتكونوا متساوين فيما أنتم فيه شركاء .

وجملة ﴿ تخافونهم ﴾ في موضع الحال من ضمير الفاعل في ﴿ سواء .

﴿ والخوف : انفعال نفساني ينشأ من توقع إصابة مكروه يبقى ، وهو هنا التوقي من التفريط في حظوظهم من الأرزاق وليس هو الرعب بقرينة قوله ﴿ كخيفتكم أنفسكم ، ﴾ أي كما تتوقون أنفسكم من إضاعة حقوقكم عندهم .

والأنفس الثاني بمعنى : أنفس الذين لهم شركاء مما ملكت أيمانهم من المخاطبين لأنهم بعض المخاطبين .

وهذا المثل تشبيه هيئة مركبة بهيئة مركبة ؛ شبهت الهيئة المنتزعة من زعم المشركين أن الأصنام شركاء لله في التصرف ودافعون عن أوليائهم ما يريده الله من تسلط عقاب أو نحوه إذ زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله وهم مع ذلك يعترفون بأنها مخلوقة لله فإنهم يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك .

هذه الهيئة شبهت بهيئة ناس لهم عبيد صاروا شركاء في أرزاق سادتهم شركة على السواء فصار سادتهم يحذرون إذا أرادوا أن يتصرفوا في تلك الأرزاق أن يكون تصرفهم غير مرضي لعبيدهم ، وهذا التشبيه وإن كان منصرفاً لمجموع المركب من الهيئتين قد بلغ غاية كمال نظائره إذ هو قابل للتفريق في أجزاء ذلك المركب بتشبيه مالك الخلق كلهم بالذين يملكون عبيداً ، وتشبيه الأصنام التي هي مخلوقة لله تعالى بمماليك الناس ، وتشبيه تشريك

الأصنام في التصرف مع الخالق في ملكه بتشريك العبيد في التصرف في أرزاق سادتهم ، وتشبيه زعمهم عدول الله عن بعض ما يريده في الخلق لأجل تلك الأصنام ، وشفاعتها بحذر أصحاب الأرزاق من التصرف في حظوظ عبيدهم الشركاء تصرفاً يأبَوْنه .

فهذه الهيئة المشبه بها هيئة قبيحة مشوهة في العادة لا وجود لأمثالها في عرفهم فكانت الهيئة المشبهةُ منفيةً منكَرة ، ولذلك أدخل عليها استفهام الإنكار والجحود ليُنتج أن الصورة المزعومة للأصنام صورة باطلة بطريق التصوير والتشكيل إبرازاً لذلك المعنى الاعتقادي الباطل في الصورة المحسوسة المشوهة الباطلة .

(50/603)

ولذلك عقب بجملة ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ، ﴾ أي نفصل الدلائل على الاعتقاد الصحيح تفصيلاً كهذا التفصيل وضوحاً بيناً ، وجملة ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم : 24] استئناف ابتدائي .

والقوم الذين يعقلون هم المتنزهون عن المكابرة والإعراض ، والطالبون للحق والحقائق لوفرة عقولهم ، فيزدادَ المؤمنون يقيناً ويؤمنَ الغافلون والذين تروج عليهم ضلالات المشركين ثم تنكشف عنهم بمثل هذه الدلائل البينة .

وفي ذكر لفظ ﴿ قوم ﴾ وإجراء الصفة عليه إيماء إلى أن هذه الآيات لا ينتفع بها إلا من كان العقل من مقومات قوميته كما تقدم في قوله تعالى ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) ، وتقدمت له نظائر كثيرة .

والقول في إيثار وصف العقل هنا دون غيره من أوصاف النظر والفكر كالقول فيما تقدم عند قوله ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ إلى قوله ﴿ يعقلون ﴾ [الروم : 24] .

وفي هذا تعريض بالمتصلبين في شركهم بأنهم ليسوا من أهل العقول ، وليسوا ممن ينتفعون كقوله تعالى ﴿ وما يَعْقِلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] وقوله ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِق بما لا يَسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة : 171] .

وقوله ﴿ كذلك ﴾ تقدم نظيره في قوله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] .

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29)

إضراب إبطالي لما تضمنه التعريض الذي في قوله ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم : 28] إذ اقتضى أن الشأن أن ينتفع الناس بمثل هذا المثل فيُقلع المشركون منهم عن إشراكهم ويَلجُوا حظيرة الإيمان ، ولكنهم اتبعوا أهواءهم وما تسوله لهم نفوسهم ولم يطلبوا

الحق ويتفهموا دلائله فهم عن العلم بمنأى .

فالتقدير : فما نفعتهم الآيات المفصلة بل اتبعوا أهواءهم .

(51/603)

و ﴿ الذين ظلموا : المشركون إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] وتقييد اتباع الهوى بأنه بغير علم تشنيع لهذا الاتباع فإنه اتباع شهوة مع جهالة ، فإن العالم إذا اتبع الهوى كان متحرزاً من التوغل في هواه لعلمه بفساده ، وليس ما هنا مماثلاً لقوله تعالى ﴿ ومن أضل مِمنّ اتبع هواه بغير هدىً من الله ﴾ [القصص : 50] في أنه قيد كاشف من حيث إن الهوى لا يكون إلا ملتبساً بمغايرة هدى الله .

والفاء في ﴿ فَمَن يهدي ﴾ للتفريع ، أي يترتب على اتباعهم أهواءهم بغير علم انتفاء الهدى عنهم أبداً .

و ﴿ مَن ﴾ اسم استفهام إنكاري بمعنى النفي فيفيد عموم نفي الهادي لهم ، إذ التقدير : لا أحد يهدي من أضل الله لا غيرُهم ولا أنفسُهم ، فإنهم من عموم ما صدق ﴿ مَن يَهدي .

ومعنى من أضل الله : ﴿ مَن قَدَّر له الضلال وطبع على قلبه ، فإسناد الإضلال إلى الله إسناد لتكوينه على ذلك لا للأمر به وذلك بيّن .

ومعنى انتفاء هاديهم : أن من يحاوله لا يجد له في نفوسهم مسلكاً .

ثم عطف على جملة نفي هداهم خبرٌ آخر عن حالهم وهو ﴿ ما لهم من ناصرين ﴾ ردّاً على المشركين الزاعمين أنهم إذا أصابوا خطيئة عند الله أن الأصنام تشفع لهم عند الله .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

الفاء فصيحة .

والتقدير : إذا علمت أحوال المعرضين عن دلائل الحق فأقم وجهك للدين .

والأمر مستعمل في طلب الدوام .

والمقصود : أن لا تهتم بإعراضهم ، كقوله تعالى ﴿ فإن حاجّوك فقل أسلمتُ وجهي لله ومن اتبعن ﴾ [آل عمران : 20] وقوله ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ [هود : 112] (أي من آمن) وقوله ﴿ أدْعوا إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتّبعن ﴾ [يوسف : 108] .

فالمعنى : فأقم وجهك للدين والمؤمنون معك ، كما يؤذن به قوله بعده ﴿ منيبين إليه واتقوه ﴾ [الروم : 31] بصيغة الجمع .

وإقامة الوجه : تقويمه وتعديله باتجاهه قبالة نظره غير ملتفت يميناً ولا شمالاً .

وهو تمثيل لحالة الإقبال على الشيء والتمحض للشغل به بحال قصر النظر إلى صوب قبالته غير ملتفت يَمْنَةً ولا يَسْرَةً ، وهذا كقوله تعالى ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادْعُوه مخلصين ﴾ [الأعراف : 29] وقوله حكاية عن إبراهيم ﴿ إني وجّهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 79] وقوله تعالى ﴿ فقل أسلمتُ وجهي لله ﴾ [آل عمران : 20] ، أي أعطيته لله ، وذلك معنى التمحيض لعبادة الله وأن لا يلتفت إلى معبود غيره .

والتعريف في ﴿ الدين ﴾ للعهد وهو دينهم الذي هم عليه وهو دين الإسلام .

و﴿ حنيفاً ﴾ يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر في فعل ﴿ أقم ﴾ فيكون حالاً للنبي صلى الله عليه وسلم كما كان وصفاً لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ﴾ [النحل : 120] ، وهذا هو الأظهر في تفسيره .

ويجوز كونه حالاً من الدين على ما فسر به الزجاج فيكون استعارة بتشبيه الدين برجل حنيف في خلوّه من شوائب الشرك ، فيكون الحنيف تمثيلية وفي إثباته للدين استعارة تصريحية .

وحنيف : صيغة مبالغة في الاتصاف بالحَنَف وهو الميْل ، وغلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل ، أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق ، أي عادلاً ومنقطعاً عن الشرك

كقوله تعالى ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ وقد مضى في سورة البقرة (135) .

وفطرة الله ﴿ بدل من ﴿ حنيفاً ﴾ بدل اشتمال فهو في معنى الحال من ﴿ الدين ﴾ أيضاً وهو حال ثانية فإن الحال كالخبر تتعدد بدون عطف على التحقيق عند النحاة .

وهذا أحسن لأنه أصرح في إفادة أن هذا الدين مختص بوصفين هما : التبرؤ من الإشراك ، وموافقتُه الفطرة ، فيفيد أنه دين سمح سهل لا عنت فيه .

(53/603)

ونظيره قوله تعالى ﴿ ولم يجعل له عِوجاً قيّماً ﴾ [الكهف : 1 ، 2] أي الدين الذي هو فطرة الله لأن التوحيد هو الفطرة ، والإشراك تبديلٌ للفطرة .

والفطرة أصله اسم هيئة من الفَطْر وهو الخَلْق مثل الخِلقة كما بيّنه قوله ﴿ التي فَطَرَ الناس عليها ﴾ أي جَبَلَ الناسَ وخلقهم عليها ، أي متمكنين منها .

فحرف الاستعلاء مستعار لتمكن ملابسة الصفة بالموصوف تمكناً يشبه تمكن المعتلي على شيء ، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة البقرة (5) ، وحقيقة المعنى : التي فطر الناس بها .

ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها ، غير نائين عنه ولا منكرين له مثل إثبات الوحدانية لله لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح حتى لو ترك الإنسان وتفكيره ولم يلقَّن اعتقاداً ضالاً لاهتدى إلى التوحيد بفطرته .

قال ابن عطية : والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أي الفطرة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان التي هي مُعِدَّة ومُهَيِّئَة لأن يميز بها مصنوعات الله ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه .

اه .

وإن لم أر من أتقن الإفصاح عن معنى كون الإسلام هو الفطرة فأبينه : بأن الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق ، والفطرة التي تخص نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسداً وعقلاً ، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية ، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية ، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية ، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية وهو المسمى في علم الاستدلال بفساد الوضع ، وجزمنا بأن ما نبصره من الأشياء هو حقائق ثابتة في الوجود ونفس الأمر فطرة عقلية ، وإنكار السوفسطائية ثبوت المحسوسات في نفس الأمر خلاف الفطرة العقلية .

وقد بين أبو علي ابن سينا حقيقة الفطرة في كتابه ﴿ النجاة ﴾ فقال : "ومعنى الفطرة أن يتوهم الإنسان نفسه حصل في الدنيا دفعة وهو عاقل لكنه لم يسمع رأياً ولم يعتقد مذهباً ولم يعاشر أمة ولم يعرف سياسة ، ولكنه شاهَدَ المحسوسات وأخذ منها الحالات ، ثم يَعرضَ على ذهنه شيئاً ويتشكك فيه فإن أمكنه الشك فالفطرة لا تشهد به وإن لم يمكنه الشك فهو ما توجبه الفطرة ، وليس كل ما توجبه فطرة الإنسان بصادق إنما الصادق فطرة القوة التي تسمى عقلاً ، وأما فطرة الذهن بالجملة فربما كانت كاذبة ، وإنما يكون هذا الكذب في الأمور التي ليست محسوسة بالذات بل هي مبادىء للمحسوسات .

فالفطرة الصادقة هي مقدمات وآراء مشهورة محمودة أوجب التصديقَ بها : إما شهادة الكل مثل : أنَّ العدل جميل ، وإما شهادة الأكثر ؛ وإما شهادة العلماء أو الأفاضل منهم .

وليست الذائعات من جهة ما هي ذائعات مما يقع التصديق بها في الفطرة فما كان من الذائعات ليس بأوَّلي عقلي ولا وهَمِيّ فإنها غير فطرية ، ولكنها متقررة عند الأنفس لأن العادة مستمرة عليها منذ الصبا وربما دعا إليها محبة التسالم والاصطناع المضطر إليهما الإنسان ، أو شيء من الأخلاق الإنسانية مثل الحياء والاستئناس أو الاستقراءُ الكثير ، أو

كون القول في نفسه ذا شرط دقيق لأن يكون حقاً صِرفاً فلا يُفْطَن لذلك الشرط ويؤخذ على الإطلاق ، أ هـ .

فوصف الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جار على مقتضى الفطرة العقلية ، وأما تشريعاته وتفاريعه فهي : إما أمور فطرية أيضاً ، أي جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به ، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته .

وقوانين المعاملات فيه هي راجعة إلى ما تشهد به الفطرة لأن طلب المصالح من الفطرة .

وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه وقد بينته في كتابي المسمى "مقاصد الشريعة الإسلامية" .

(55/603)

واعلم أن شواهد الفطرة قد تكون واضحة بينة وقد تكون خفية ، كما يقتضيه كلام الشيخ ابن سينا ، فإذا خفيت المعاني الفطرية أو التبست بغيرها فالمضطلعون بتمييزها وكشفها هم العلماء الحكماء الذين تمرسوا بحقائق الأشياء والتفريق بين متشابهاتها ، وسبروا أحوال البشر ، وتعرضت أفهامهم زماناً لتصاريف الشريعة ، وتوسموا مراميها ، وغاياتها وعصموا أنفسهم بوازع الحق عن أن يميلوا مع الأهواء .

إن المجتَمع الإنساني قد مُني عصوراً طويلة بأوهام وعوائد ومألوفات أدخلها عليه أهل التضليل ، فاختلطت عنده بالعلوم الحق فتقاول الناس عليها وارتاضوا على قبولها ، فالتصقت بعقولهم التصاق العنكبوت ببيته ، فتلك يخاف منها أن تُتلقى بالتسليم على مرور العصور فيعسر إقلاعهم عنها وإدراكهم ما فيها من تحريف عن الحَق ، فليس لتمييزها إلا أهل الرسوخ أصحاب العلوم الصحيحة الذين ضربوا في الوصول إلى الحقائق كلَّ سبيل ، واستوضحوا خطيرها وسليمها فكانوا للسابلة خيرَ دليل .

وكونُ الإسلام هو الفطرة ، وملازمة أحكامه لمقتضيَات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه ، أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية ، وهذا ما أفاده قوله ﴿ ذلك الدين القيّم .

﴾ فالإسلام عام خالد مناسب لجميع العصور وصالح بجميع الأمم ، ولا يستتب ذلك إلا إذا بنيت أحكامه على أصول الفطرة الإنسانية ليكون صالحاً للناس كافة وللعصور عامة وقد اقتضى وصف الفطرة أن يكون الإسلام سمحاً يُسْراً لأن السماحة واليسر مبتغى الفطرة .

(56/603)

وفي قوله ﴿ التي فطر الناس عليها ﴾ بيان لمعنى الإضافة في قوله ﴿ فطرة الله ﴾ وتصريح بأن الله خلق الناس سالمةً عقولهم مما ينافي الفطرة من الأديان الباطلة والعادات الذميمة ، وأن ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلا من جرَّاء التلقي والتعود ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " يولد الولد على الفطرة ثم يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصِّرانه أو يُمجسانه كما تُنتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جَدعاء " أي كما تولد البهيمة من إبل أو بقر أو غنم كاملة جمعاء أي بذيلها ، أي تُولد كاملة ويعمد بعض الناس إلى قطع ذيلها وجدعه وهي الجدعاء ، و (تُحسون) تدركون بالحس ، أي حاسّة البصر . فجعل اليهودية والنصرانية مخالفة الفطرة ، أي في تفاريعهما .

وفي "صحيح مسلم" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه : " وإني خلقت عبادي حُنفاء كلهم أي غير مشركين وأنهم أتتهم الشياطين فأجالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً "

الحديث

وجملة ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ مبيِّنة لمعنى ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ فهي جارية مجرى حال ثالثة من ﴿ الدّين ﴾ على تقدير رابط محذوف .

والتقدير : لا تبديل لخلق الله فيه ، أي في هذا الدين ، فهو كقوله في حديث أم زرع في قول الرابعة : زوجي كلَيْل تهامة لا حرَّ ولا قرَّ ولا مخافة ولا سآمة أي في ذلك الليل .

فمعنى ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أنه الدين الحنيف الذي ليس فيه تبديل لخلق الله خلاف دين أهل الشرك ، قال تعالى عن الشيطان : ﴿ ولآمرنهم فَلَيُغيّرُنَّ خلقَ الله ﴾ [النساء : 119] .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ معترضة لإفادة النهي عن تغيير خلق الله فيما أودعه الفطرة .

فتكون ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ خبراً مستعملاً في معنى النهي على وجه المبالغة كقوله ﴿ لا تَقْتُلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] .

(57/603)

فنفي الجنس مراد به جنس من التبديل خاص بالوصف لا نفي وقوع جنس التبديل فهو من العام المراد به الخصوص بالقرينة .

واسم الإشارة لزيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه .

و ﴿ القيِّم : وصف بوزن فَيْعِل مثل هيِّن وليِّن يفيد قوة الاتصاف بمصدره ، أي البالغ قوة القيام مثل استقام الذي هو مبالغة في قام كاستجاب .

والقيام : حقيقته الانتصابُ ضد القعود والاضطجاع ، ويطلق مجازاً على انتفاء الاعوجاج

يقال : عود مستقيم وقيم ، فإطلاق القيم على الدين تشبيه انتفاء الخطأ عنه باستقامة العود وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له عِوجاً قيماً ﴾ [الكهف : 1 ، 2] وقال تعالى : في سورة براءة (36) .

ويطلق أيضاً على الرعاية والمراقبة والكفالة بالشيء لأنها تستلزم القيام والتعهد قال تعالى ﴿ أَفَمَنْ هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ [الرعد : 33] ، ومنه قلنا لراعي التلامذة ومراقب أحوالهم : قَيِّم .

ويطلق القيم على المهيمن والحافظ .

والمعاني كلها صالحة للحمل عليها هنا ، فإن هذا الكتاب معصوم عن الخطأ ومتكفل بمصالح الناس ، وشاهد على الكتب السالفة تصحيحاً ونسخاً قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ وتقدم في طالع سورة المائدة (48) .

فهذا الدين به قوام أمر الأمة .

قال عمر بن الخطاب لمعاذ بن جبل : يا معاذ ما قِوام هذه الأمة ؟ قال : الإخلاص وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والصلاة وهي الدين ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت .

يريد معاذٌ بالإخلاص التوحيد كقوله تعالى ﴿ مخلصين له الدين حنفاء ﴾ [البينة : 5] .

والاستدراك في قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لدفع توهم واهِم يقول إذا كان هو دين الفطرة وهو القيِّم فكيف أعرض كثير من الناس عنه بعد تبليغه ، فاستدرك ذلك بأنهم جهال لا علم عندهم فإن كان قد بلغهم فإنهم جهلوا معانيه لإعراضهم عن التأمل ولا يعلمون منه إلا ما لا يفيدهم مُهمهم لأنهم لم يسعوا في أن يَبلغهم على الوجه الصحيح ؛ ففعل ﴿ لا يعلمون ﴾ غير متطلب مفعولاً بل هو منزل منزلة اللازم لأن المعنى لا علم عندهم على نحو ما قرر في نظيره في أول هذه السورة .

والمراد بـ ﴿ أكثر الناس ﴾ المشركون إذ أعرضوا عن دعوة الإسلام ، وأهلُ الكتاب إذ أبوا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومفارقة أديانهم بعد إبطالها لانتهاء صلاحية تفاريعها بانقضاء الأحوال التي شرعت لها انقضاء لا مطمع بعده لأن تعود .

ومقابل ﴿ أكثر الناس ﴾ هم المؤمنون ، وشرذمة من علماء أهل الكتاب علموا أحقية الإسلام وبقُوا على أديانهم عناداً : فهم يعلمون ويكابرون ، أو تحيُّراً : فهم في شك بين علم وجهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان والتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام ، ففي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . ﴾ [البقرة : 26] .

وقال سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ . . . ﴾ [الحج : 73] فهذا كثير من كتاب الله ، والمثَل يُضرب ليُجلِّي حقيقة . والضَّرْب هنا لا يعني إحداث أثر ضار بالمضروب ، إنما إحداث أثر نافع إيجابي كما في قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض . . . ﴾ [المزمل : 20] .

وقولنا في مسألة سكِّ العملة : ضُرِبَ في كذا ، فكأن الضرب يُحدث في المضروب أثراً باقياً ، ففي الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفي العملة بتَرْكِ أثر بارز لا تمحوه الأيدي في حركة التداول ، وكأن ضَرْب المثَل يوضح الشيء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسَكّ العملة ، ويجعل الفكرة في الذهن قائمة واضحة المعالم . وللضرب عناصر ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ويُروى في مجال الأمثال أن رجلاً خرج للصيد معه آلاته : الكنانة وهي جُعْبة السهام ،

والسهام ، والقوس ، فلما رأى ظبياً أخذ يُعدّ كنانته وقَوْسه للرمي لكن لم يمهله الظبي وفرَّ هارباً ، فقال له آخر وقد رأى ما كان منه : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن ، فصارت مثلاً وإن قيل في مناسبة بعينها إلا أنه يُضرَب في كل مناسبة مشابهة ، ويقال في أيِّ موضع كما هو وبنفس ألفاظه دون أن نُغيِّر فيه شيئاً .

فمثلاً ، حين ترى التلميذ المهمل يذاكر قبيل الامتحان ، وحين ترى مَنْ يُقدِم على أمر دون أنْ يُعدّ له عُدَّته لك أنْ تقول : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن . إذن : هذه العبارة صار لها مدلولها الواضح ، وترسَّخَتْ في الذِّهْن حتى صارتْ مثلاً يُضرب .

(60/603)

وتقول لمن تسلَّط عليك وادَّعى أنه أقْوى منك : إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للتوضيح ولتقريب المعاني للأفهام ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة : 26] يقف هنا بعض المتمحكين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، يقولون : ما دام الله تعالى لا يستحي أنْ يضرب مثلاً بالبعوضة فما فوقها من باب أَوْلى ، فلماذا يقول ﴿ فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة : 26] .

وهذا يدل على عدم فهمهم للمعنى المراد لله عز وجل ، فالمعنى : فما فوقها أي : في الغرابة وفي القلة والصِّغر ، لا ما فوقها في الكِبَر .

ومن الأمثلة التي ضربها الله لنا ليوضح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 29]

فالذي يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذي يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما متشاكسان مختلفا ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ، فهل يستوي هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك في عبادة الله وحده لا شريك له .

فبالمثال اتضحت القضية ، ورسختْ في الأذهان ؛ لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحي أنْ أضرب الأمثال ؛ لأنني أريد أن أوضح لعبادي الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعاني .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [الروم : 28] .

(61/603)

في هذه الآية وبهذا المثَل يؤكد الحق – سبحانه وتعالى – في قمة تربية العقيدة الإيمانية ، يؤكد على واحدية الله وعلى أحديته ، فالواحدية شيء والأحدية شيء آخر : الواحدية أنه

سبحانه واحد لا فرد آخر معه ، لكن هذا الفرد الواحد قد يكون في ذاته مُركّباً من أجزاء ، فوصف نفسه سبحانه بأنه أحدٌ أي : ليس مُركَّباً من أجزاء . أكَّد الله هذه الحقيقة في قرآنه بالحجج وبالبراهين ، وضرب لها المثل . وهنا يضرب لنا مثلاً من أنفسنا ليؤكد على هذه الوحدانية .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [الروم : 28] يعني : ليس بعيداً عنكم ، وأقرب شيء للإنسان نفسه ، إذن : فأوضح مثَل لما غاب عنك أنْ يكون من نفسك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 128] أي : من جنسكم تعرفون نشأته ، وتعرفون خُلُقه وسيرته .

لكن ، ما المثَل المراد ؟

المثل : ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ . . . ﴾ [الروم : 28] .

يقول سبحانه : أريد أنْ أضرب لكم مثلاً على أن الإله الواحد يجب عقلاً ألاَّ تشركوا به أشياء أخرى ، والمثل أنِّي أرزقكم ، ومن رزقي لكم مَوَال وعبيد ، فهل جئتم للرزق الذي رزقكم الله وللعبيد وقلتم لهم : أنتم شركاء لنا في أموالنا تتصرفون فيها كما نتصرف نحن ، ثم جعلتم لهم مطلق الحرية والتصرف ، ليكونوا أحراراً أمثالكم تخافونهم في أنْ تتصرفوا

دونهم في شيء كخيفتكم أنفسكم ؟ هل فعلتم ذلك ؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم ؟ إذن : لماذا تقبلونه في حق الله تعالى وترضَوْن أنْ يشاركه عبيده في مكله ؟

(62/603)

إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم وهم بشر أمثالكم ملكتموهم بشرع الله فائتمروا بأمركم .

هذا معنى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [الروم : 28] أي : من البشر ، فهم مثلكم في الآدمية ، وملكيتكم لهم ليست مُطْلقة ، فأنتم تملكون رقابهم ، وتملكون حركة حياتهم ، لكن لا تملكون مثلاً قتلهم ، ولا تملكون منعهم من فضاء الحاجة ، لا تملكون قلوبهم وإرادتهم ، ثم هو مُلْك قد يفوتك ، كأن تبيعه أو تعتقه أو حتى بالموت . ومع ذلك ما اتخذتموهم شركاء ، فعَيْب أنْ تجعلوا لله ما تستنكفون منه لأنفسكم .

ونلحظ هنا أن الله تعالى لم يناقشهم في مسألة الشركاء بأسلوب الخبر منه سبحانه ، إنما اختار أسلوب الاستفهام وهو أبلغ في تقرير الحقيقة : ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . ﴾ [الروم : 28] .

وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلا وأنت تعلم وتثق بأن الإجابة ستكون في صالحك ، فمثلاً حين ينكر شخصٌ جميلَك فتقول مُخبراً : فعلتُ معك كذا وكذا ، والخبر

يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وقد ينكر فيقول : لا لم تفعل معي شيئاً .

أما حين تقول مستفهماً : ألم أفعل فعل كذا وكذا ؟ فإنك تُلجئه إلى واقع لا يملك إنكاره ، ولا يستطيع أنْ يفرّ منه ، ولا يملك إلا أنْ يعترف لك بجميلك ولا أقلَّ من أنْ يسكت ، والسكوت يعني أن الواقع كما قلت .

لذلك يستفهم الحق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ . . . ﴾ [الروم : 28] لا بدّ أنْ يقولوا : لا ليس لنا شركاء في أموالنا ، إذن : لماذا جعلتم لله شركاء ؟

(63/603)

وقوله تعالى : ﴿ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . ﴾ [الروم : 28] سبق أنْ تحدثنا في مسألة الرزق وقلنا : إن الله تعالى هو الرازق ، ومع ذلك احترم ملكية خَلْقه ، واحترم سعيهم : لأنه سبحانه واهب هذا الملك ، ولا يعود سبحانه في هبته لخَلْقه ؛ لذلك لما أراد أنْ يُحنن قلوب خَلْقه على خَلْقه قال : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . . ﴾ [البقرة : 245] فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضاً يردّه إليك مُضَاعفاً .

والرزق لا يقتصر على المال – كما يظن البعض – إنما رزقك كلّ ما انتفعتَ به فهو رزق

ينبغي عليك أن تفيض منه على مَنْ يحتاجه ، وأن تُعدّيه إلى مَنْ يفتقده ، فالقويُّ رزقه القوة يُعدّيها للضعيف ، والعالم رزقه العلم يُعدّيه للجاهل ، والحليم رزقه حلْم يُعدّيه للغضوب وهكذا ، وإلا فالمال أهون ألوان الرزق ؛ لأن الفقير الذي لا يملك مالاً ولم يتصدق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع ويُباح له في هذه الحالة أنْ يسأل الناس ، وما رأينا أحداً مات جوعاً .

لكن ينبغي على الفقير إنْ ألجأتْه الحاجة للسؤال أنْ يسأل بتلطُّف ولين ، فإنْ كان جائعاً لا يسأل الناس مالاً إنما لقمة عيش وقطعة جبن أو ما تيسَّر من الطعام ليسُدّ جَوْعته ، وسائل الطعام لا يكذب به أحد لأنه لا سأل إلا عن جوع ، حتى لو سألك وهو شبعان فأعطيتَه ما استطاع أنْ يأكل ، أما سائل المال فقد نظن فيه الطمع وقصد الادخار . إذن : أفضح سؤال سؤال القوت .

لذلك في قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿ فانطلقا حتى إذآ أتيآ أهْل قَرْيَةٍ استطعمآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا . . ﴾ [الكهف : 77] فلما منعوهم حتى لقمة العيش استحقُّوا أنْ يوصفوا بألأَم الناسِ ، وقد أباح الشرع للجائع أن يسأل الطعام من اللئيم فإن منعه فللجائع أن يأخذه ولو بالقوة ، وإذا رفع أمره إلى القاضي أيّده القاضي ، لذلك يقولون فيه : طالب قُوتٍ ما تعدَّى .

والحق سبحانه تكفَّل لك برزقك ، إنما جعل للرزق أسباباً وكل ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب ثم لا تشغل بالك هماً في موضوعه ، وإيالك أن تظن أن السَّعْي هو مصدر الرزق ، فالسعي سبب ، والرزق من الله ، وما عليك إلا أنْ تتحرى الأسباب ، فإنْ أبطأ رزقك فأرِحْ نفسك ؛ لأنك لا تعرف عنوانه ، أمّا هو فيعرف عنوانك وسوف يَأتيك يطرق عليك الباب .

والذي يُتعب الناس أنْ يظل الواحد منهم مهموماً لأمر الرزق مُفكّراً فيه ، ولو علم أن الذي خلقه واستدعاه للوجود قد تكفَّل برزقه لاستراح ، فإنْ أخطأت أسباب الرزق في ناحية اطمئن فسوف يأتيك من ناحية أخرى .

ونذكر هنا قصة عروة بن أذينة وكان صديقاً لهشام بن عبد الملك بالمدينة قبل أنْ يتولى هشامٌ الخلافة ، فلما أصبح هشام أميراً للمؤمنين انتقل إلى دمشق بالشام ، أما عروة فقد أصابته فاقة ، فلما ضاق به الحال تذكّر صداقته القديمة لهشام ، وما كان بينهما من وُدٍّ ، فقصده في دمشق علَّه يُفرِّج ضائقته .

جاء عروة إلى دمشق واستأذن على الخليفة فأذن له ، فدخل وعرض على صاحبه حاجته وكله أمل في أنْ ينصفه ويجبر خاطره ، لكن هشاماً لم يكن مُوفّقاً في الردِّ على صديقه حيث قال : أتيتَ من المدينة تسألني حاجتك وأنت القائل :

لَقد عَلمْتِ ومَا الإِسْرافُ مِنْ خُلُقي . . . أنَّ الذي هُو رِزْقي سوفَ يَأْتِيني

فقال عروة بعد أن كسر صديقه بخاطره : جزاك الله عني خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد نبّهتَ مني غافلاً ، وذكَّرتَ مني ناسياً ، ثم استدار وخرج .

وعندها أدار هشام الأمر في نفسه وتذكّر ما كان لعروة من وُدٍّ وصداقة ، وشعر بأنه أساء إليه فأنَّبه ضميره ، فاستدعى صاحب الخزانة ، وأمر لعروة بعطية كبيرة ، وأرسل بها مَنْ يلحق به .

(65/603)

لكن كلما وصل الرسول إلى (محطة) وجد عروة قد فارقها حتى وصل إلى المدينة ، ودقَّ على عروة بابه ، وكان الرسول لَبِقاً ، فلما فتح عروة الباب قال : ما بكم ؟ قال : رسل هشام ، وتلك صِلَة هشام لك لم يَرْضَ أنْ تحملها أنت خوفاً عليك من قُطاع الطريق ، أو تحمل مؤونة حَمْلها ، فأرسلنا بها إليك .

فقال عروة : جزى الله أمير المؤمنين خيراً ، قولوا له لقد ذكرت البيت الأول ، ولو ذكرت الثاني لأرحتَ واسترحتَ ، لقد قلت :

لَقد عَلمْتِ ومَا الإِسْرافُ مِنْ خُلُقي . . . أنَّ الذي هُو رِزْقي سوفَ يَأْتِيني

أَسْعى إِلَيْهِ فَيُعْيِيني تطلّبه . . . ولَوْ قَعَدْتُ أَتَاني لا يُعنّيني

ثم يقول سبحانه بعد هذا المثل : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : 28] أي : نُبيّنها إلا إليها ، ومعنى ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : 28] من العقل ، وسُمّي عقلاً ؛ لأنه يعقل صاحبه ويقيده عما لا يليق .

والبعض يظن أن العقل إنما جُعل لترتع به في خواطرك ، إنما هو جاء ليقيد هذه الخواطر ، ويضبط السلوك ، يقول لك : اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصح وتقول ما ينبغي . إذن : ما قصَّرنا في البيان ولا في التوضيح .

ويتجلَّى دور العقل المجرد وموافقته حتى للوحي في سيرة الفاروق عمر رضي الله عنه ، وفي وجود رسول الله ، وهو ينزل عليه الوحي يأتي عمر ويشير على رسول الله بأمور ، فينزل الوحي موافقاً لرأي عمر ، وكأن الحق – تبارك وتعالى – يلفت أنظارنا إلى أن العقل الفطري إذا فكَّر في أمر بعيداً عن الهوى لا بُدَّ أنْ يصل إلى الصواب وأنْ يوافق حقائق الدين ، أمّا إنْ تدخَّل الهوى فسد الفكر .

(66/603)

وقوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : 28] العقل وسيلة من وسائل الإدراك في الإنسان ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] .

لكن ، كيف تُرَبَّى الأمور العقلية في الناس ؟ تُرَبَّى عن طريق الحواس والإدراك ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ، واليد تلمس ، والأنف يشمُّ ، إلى آخر الحواس التي توصلنا إليها كحاسة البين ، وحاسة العضل وغيرها .

لذلك احتاط العلماء في تسمية الحواس فقالوا " الحواس الخمس الظاهرة " ليدعوا المجال مفتوحاً لحواس أخرى ، فهذه الوسائل تدرك المعلومات وتنقلها إلى العقل ليراجعها وينتهي فيها إلى قضايا يجعلها دستوراً لحياته ، فأنت تأكل مثلاً العسل فتدرك حلاوته ، وتأكل الجبن فتدرك ملوحته ، فتتكون لديك قضية عقلية أن هذا حلو ، وهذا مالح . . إلخ .

وحين تستقر هذه القضايا في القلب تصير عقيدة لا تخرج للتفكير مرة أخرى ، ولا تمر على العقل بعد ذلك ، فقد انعقد عليها الفؤاد ، وترسختْ في الذهن .

ودَوْر العقل أن يعقل هذه القضايا ، وأنْ يختار بين البدائل ، والأمر الذي لا بديلَ له لا عملَ للعقل فيه ، فلو أنك مثلاً ستذهب إلى مكان ليس له إلا طريق واحد فلا مجال للتكفير فيه ، لكن إنْ كان لهذا المكان أكثر من طريق فللعقل أنْ يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه .

وما دام العقل هو الذي يختار فهو الميزان الذي تَزِن به الأشياء ، وتحكم به القضايا ؛ لذلك لا بُدَّ له أنْ يكون سليماً لتأتي نتائجه كذلك سليمة وموضوعية ، ومعلوم أن الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهميته .

(67/603)

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لدقة الميزان في الشمس والقمر ، فيقول ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] أي : بحساب دقيق ، ولولا الدقة فيهما ما أخذناهما ميزاناً للوقت ، فبالشمس نعرف الليل والنهار ، وبالقمر نعرف الشهور .

فحين يقول سبحانه ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : 28] يعني : أننا عملنا ما علينا من التفصيل والبيان ، وتوضيح الحجج والبراهين ، ولكن أنتم الذين لا تعقلون .

ولما كان العقل هو آلة الاختيار بين البدائل وآلة التمييز أعفى الحق سبحانه مَنْ لا عقل له من التكاليف ، أعفى الطفل الصغير الذي لم يبلغ ؛ لأن عقله لم ينضج بعد ، ولأن حواسّه لم تكتمل .

وتتجلى حكمة الشارع في قول النبي صلى الله عليه وسلم " مروا أولادكم بالصلاة لسبع ،

واضربوهم عليها لعشر " فجعل من ضمن تكليف الآباء أنْ يُكلِّفوا هم الأبناء في هذه السنِّ ، لتكون لهم دُرْبة على طاعة الأمر والنهي في وقت ليس عليهم تكليف مباشر من الله تعالى .

فإذا كبر الصغير يستقبل تكليفي كما استقبل تكليفك أولاً ، وربُّك ما افتات عليك في هذه المسألة ، فأعطاك حق التكليف بالصلاة ، وأعطاك حق أنْ تعاقبه إنْ قصَّر ، فأنت الذي تُكلِّف ، وأنت الذي تعاقب .

وأعفى المجنون لأن آلة الاختيار عنده غير سليمة وغير صالحة ، وقلنا : إن علامة النضج في الإنسان أن يصير قادراً على إنجاب مثله ، ومثَّلْنا لذلك بالثمرة التي لا تحلو إلا بعد نضجها ، بحيث إذا أكلت زرعتَ بذرتها ، فأنبتت ثمرة جديدة ، وهكذا يحدث بقاء النوع وتستمر الدورة .

فربك لا يريد أن تأكل أكلة واحدة ، ثم تُحرم أو يُحرم مَنْ يأتي بعدك ، إنما يريد أنْ تأكل ويأكل كل مَنْ يأتي بعدك ، فلا تأخذ الثمرةُ حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، وصلاحيتها للإنبات .

(68/603)

وقوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : 28] يدل على أن الذين يتخذون مع الله شركاء غير عاقلين ، وإلا فما معنى عبادة الأصنام أو الأشجار أو الشمس أو القمر ؟ وقد قالوا بألسنتهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى . . . ﴾ [الزمر : 3] .

فما هي العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ونَهْيه ، إذن : بماذا أمرَتْكُم هذه الآلهة ؟ وعَمَّ نهتْكُم ؟ ما المنهج الذي وضعتْه لكم ؟ ماذا أعدتْ لمن أطاعها من النعيم ؟ وماذا أعدتْ لمن عصاها من العذاب ؟ لا شيء إلا أنها آلهة بدون تكاليف ، وما أيسرَ أنْ يعبد الإنسانُ إلهاً لا تكاليف له ، لا يُقيدك فيما تحب من شهوات ، ولا يُحمِّلك مشقة العبادة ، وهنا يتضح عدم العقل .

وأيضاً عدم العقل في ماذا ؟ الله خلقك في كون فيه أجناس ، والأجناس تحكمها سلسلة الارتقاء ، فجنس أعلى من جنس ، والجنس الأعلى في خدمة الجنس الأقل .

ولو استقرأتَ أجناس الوجود تجد أن معك أيها الإنسان جنساً آخر يشاركك الحسَّ والحركة ، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل ؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها ، وهذا هو الحيوان الذي لا ينفكُّ عن الغريزة أبداً .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان ، وأن الله تعالى إنما جعلها لتكاثر وحِفْظ النوع ، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدي هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدِّها ، فإذا لقَّح الذكر الأنثى يستحيل أنْ تمكِّنه من نفسها بعد ذلك ، وهو أيضاً

يشمُّ رائحة الأنثى ، فإنْ كانت حاملاً ينصرف عنها .

أما الإنسان فغير ذلك ؛ لأن له شهوة تتحكم فيه ، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة ، ثم تربية المولود إلى أنْ يكبر ، ولولا أن الله تعالى ربط حِفْظ النوع في الإنسان بشهوة هي أعنف شهوات النفس ما أقدمتْ المرأة على الحمل مرة أخرى .

(69/603)

وما قُلْناه في غريزة الجنس نقوله في الطعام والشراب ، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التي لا دَخْلَ للهوى فيها ، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولتَ معه ، بل ونرى الحمار الذي نقول عنه إنه حمار لا يأكل عوداً واحداً بعد شِبَعه ، ويمر على النعناع الأخضر مثلاً أو على الملوخية فلا يأكلها ، ويذهب إلى الحشائش اليابسة ، فهو يعرف طعامه بالغريزة التي جعلها الله فيه .

أما الإنسان فيأكل حتى التُّخْمة ، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم . . الخ ذلك ؛ لأنه أسير لشهوة بطنه ، حتى إن من الناس مَنْ يغضب ؛ لأنه شبع فهو يريد ألاَّ يفارق المائدة .

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال 1992 أنهم شاهدوا هياجاً في الحيوانات المحبوسة في الأقفاص قبل حدوث الزلزال ، كان أولها الوطواط ، ثم الزرافة ، ثم التمساح ،

ثم القرود ، ثم الحمير ، وكأنهم يريدون تحطيم الأقفاص والخروج منها ، بعدها حدث الزلزال .

وكذلك ما شاهده أهل أغادير بالدار البيضاء قبل الزلزال الذي وقع بها ، حيث شاهدوا الحمير تفك قيودها ، وتفرّ هاربة إلى الخلاء ، وبعدها وقع الزلزال . إذن : لدى هذه الحيوانات استشعار بالزلزال قبل أن يقع .

وقد أعطانا الحق – سبحانه وتعالى – مثالاً لهذه الغريزة في قصة الغراب الذي علَّم الإنسان كيف يُواري الميت ، فقال تعالى في قصة وَلَدَيْ آدم : ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ . . . ﴾ [المائدة : 31] .

نعود إلى حديثنا عن أجناس الكون لبيان عدم عَقْل هؤلاء الذين جعلوا لله شركاء ، فأجناس الوجود : الإنسان ، ثم الحيوان ، ثم النبات ، ففيه حياة ونمو ، ثم الجماد أقل الموجودات درجة ، وهو خادم للنبات وللحيوان وللإنسان ، فكل جنس من هذه يخدم الجنس الأعلى منه .

(70/603)

فماذا فعل الكفار حينما عبدوا الأصنام ؟ جعلوا الجماد الذي هو أدنى المخلوقات أرقاها وأعظمها ، جعلوه إلهاً يُعْبد ، وهل هناك أقلّ عقلاً من هؤلاء ؟

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ بَلِ اتبع الذين . . . ﴾ .

اتبعوا اهواءهم : لأنهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له ولا تكليف ، عبدا إلهاً لا أمر له ولا نهي ، لا يرتب على التقصير عقوبة ، ولا على العمل ثواباً ، وهذا كله من وحي الهوى الذي اتبعوه .

إياك أن تُقدّمِ الهوى على العقل ؛ لأنك حين تُقدِّمِ الهوى يصير العقل عقلاً تبريرياً ، يحاول أنْ يعطيك ما تريد بصرف النظر عن عاقبته ، لكن بالعقل أولاً حدّدِ الهوى ، ثم اجعل حركة حياتك تبعاً له .

والبعض يظن أن الهوى شيء مذموم على إطلاقه ، لكن الهوى الواحد غير مذموم ، أما المذموم فهي الأهواء المتعددة المتضاربة ؛ لأن الهوى الواحد في القلب يُجنِّد القالب كله لخدمة هذا الهوى ، فحين يكون هواى أنْ أذهب إلى مكان كذا ، فإن القالب يسعى ويخطط لهذه الغاية ، فيحدد الطريق ، ويُعد الزاد ، ويأخذ بأسباب الوصول .

وهذا الهوى هو المعنىّ في الحديث الشريف : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبه ؛ لأن ذلك الهوى يُعينه على الجهاد والكفاح في حركة الحياة .

أما حين تتعدد الأهواء فَلَك محبوب ، ولي محبوب آخر ، فإنها لا شكَّ تتعارض وتتعاند ، والله تعالى يريد من المجتمع الإيماني أن تتساند كل أهوائه ، وأن تتعاضد لا تتعارض ، وأن تتضافر لا تتضارب ؛ لأن تضارب الأهواء يُبدِّد حركة الحياة ويضيع ثمرتها .

أمّا إنْ كان هواي هو هواك ، وهو هوى ليس بشرياً ، إنما هوى رسمه لنا الخالق – عز وجل – فسوف نتفق فيه ، وتثمر حركة حياتنا من خلاله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] .

(71/603)

وسبق أنْ قُلْنا : إن صاحب الصَّنْعة في الدنيا يجعل معها كتالوجاً يُبيِّن طريقة صيانتها ، والحق – سبحانه وتعالى – هو الذي خلقك ، وهو الذي يُحدِّد لك هواك ، وأول فشل في الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح ؛ لأن الذي يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغي أن تتوفر فيه شروط :

أولها : أن يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان عِلْمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

بل وتبين أنت بنفسك فساد رأيك فترجع عنه إلى غيره ، كما يجب على مَنْ يشرِّع للناس

الهوى الوحد أن يكونوا جميعاً بالنسبة له سواء ، وألا ينتفع هو بما يشرِّع ، وإلا لو كانت له منفعة فإنه سوف يميل إلى ما ينفعه ، فلا يكون موضوعياً كما رأينا في الشيوعية وفي الرأسمالية وغيرها من المذاهب البشرية .

والحق – سبحانه وتعالى – هو وحده الذي لا يُستْدرك عليه ؛ لأن علمه محيط بكل شيء لا تخْفى عليه خافية ، والخَلْق جميعاً الذين يشرع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده ، لا يحابي منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خَلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يطمئننا سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ [الجن : 3] .

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا ، فربّكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف ، وسبب الميْل في مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا ، لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغني عنَّا لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصي ، إذن : فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع ، والمستحق لها سبحانه ، وبيان الهوى الواحد الذي يجتمع عليه كل الخَلْق .

وسبق أن ذكرنا في مسألة التشريع أنه لا ينبغي أن تنظر إلى ما أُخِذ منك ، بل قارن بين ما أخذتَ وما أعطيتَ ، فالذي منعك أنْ تعتدي على الآخرين وأنت فرد واحد منع الخَلْق جميعاً أنْ يعتدوا عليك ، فالتشريع إذن في صالحك أنت .

إذن : لو عقلنا لأخذنا هوانا الواحد من إله واحد هو الله – عز وجل – لكن الخيبة أنهم ما استمعوا هذا الكلام وما عقلوه .

﴿ بَلِ اتبع الذين ظلموا أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴾ [الروم : 29] ظلموا لأنهم عزلوا الهوى الواحد ، ونَحَّوه جانباً ، وأخذوا أهواءً شتى تعارضتْ وتضاربت ، فلم يصلوا منها إلى نتيجة .

وما ظلموا بالشرك إلا أنفسهم ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذة فانية ، وغفلوا عن عاقبة ذلك ، فهم إما كارهون لأنفسهم ، أو يحبونها حباً أحمق ، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴾ [الروم : 29] أولاً : ما هو العلم ؟ في الكون قضايا نجزم بها ، فإنْ كان ما نجزم به مطابقاً للواقع ونستطيع أن ندلل عليه – كما نُعلِّم مثلاً الولد الصغير : الله أحد ، فإن استطاع أن يدلل عليها فهي عِلْم ، وإنْ لم يستطع فهي تقليد .

وكمن يقول مثلاً : الأرض كروية وهي فعلاً كذلك ، أما مَنْ يكابر حتى الآن ويقول ليست كروية ، والواقع أنها كروية ، فهذا جهل .

إذن : نقول ليس الجهل ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أنْ تعلم قضية على خلاف الواقع ؛ لذلك نُفرِّق بين الجاهل والأمي : الأمي خالي الذِّهْن ليست لديه قضية من أساسه ، فإنْ أخبرته بقضية أخذها منك دون عناد ، ودون مكابرة أمّا الجاهل فعنده قضية خاطئة معاندة ، فيحتاج منك أولاً لأنْ تُخرِج القضية الفاسدة لتُلقي إليه بالقضية الصحيحة .

(73/603)

فإنْ كانت القضية لا تصل إلى مرتبة أنْ نجزم بها ، فتنظر : إنْ تساوي الإثبات فيها مع النفي فهي الشك ، إذن : فالشكُّ قضية غير مجزوم بها يستوي فيها الإثبات والنفي ، فإنْ غلَّبْتَ جانب الإثبات ورجَّحته فهو ظن ، أما إنْ غلَّبت جانب النفي فهو وهم .

فعندنا – إذن – من أنواع القضايا : علم ، وجهل وتقليد ، وظن ، ووَهْم .

فالحق سبحانه يريد الهوى الذي تخدمه حركة حياتنا هوى عن علم وعن قضية مجزوم بها ، مطابقة للواقع ، وعليها دليل ، لكن ما دام هؤلاء قد اتبعوا أهواءهم المتفرقة ، وأخذوها بدون أصولها من العلم ، فسوف أكمل لهم ما أرادوا وأعينهم على ما أحبُّوا ﴿ فَمَن يَهْدِي

مَنْ أَضَلَّ الله . . . ﴾ [الروم : 29] فقد ألغوا عقولهم وعطَّلوها وعشقوا الكفر بعد ما سُقْنا لهم الأدلة والبراهين .

إذن : لم يَبْقَ إلا أنْ أعينكم على ما تعتقدون ، وأنْ أساعدكم عليه ، فأختم على قلوبكم ، فلا يدخلها إيمان ولا يفارقها كفر ، لأنني رب أعين عبدي على ما يريد . وهكذا يُضل الله هؤلاء ، بمعنى : يعينهم على ما هم عليه من الضلال بعد أنْ عَشِقَوه ، كما قال سبحانه : ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ [البقرة : 7] .

لذلك نحذر الذين يصابون بمصيبة ، ثم لا يَسْلُون ، ولا ينسون ، ويلازمون الحزن ، نحذرهم ونقول لهم : لا تدعوا باب الحزن مفتوحاً ، وأغلقوه بمسامير الرضا ، وإلا تتابعتْ عليكم الأحزان ؛ لأن الله تعالى رب يُعين عبده على ما يحب ، حتى الساخط على قدره تعالى .

(74/603)

فالمعنى ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله . . . ﴾ [الروم : 29] يعني : مَنْ ينقذه ؟ ومَنْ يضع له قانون صيانته إنْ تخلَّى عنه ربه وتركه يفعل ما بدا له ؟ لا أحد . وأنت إذا نصحتَ صاحبك وكررتَ له النصْح فلم يُطعْك تتخلى عنه ، بل إن أحد الحكماء يقول : انصح

صاحبك من الصبح إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، فإنْ لم يطاوعك ضلّله – أو أكمل له بقية النهار غِشّاً .

وسبق أن تحدثنا عن الطريقة الصحيحة في بحث القضايا لتصل إلى الحكم الصائب فيها ، فلا تدخل إلى العلم بهوى سابق ، بل أخرج كل ما في قلبك يؤيد هذه القضية أو يعارضها ، ثم ابحث القضية بموضوعية ، فما تقتنع به الموازين العقلية وتُرجّحه أدخله إلى قلبك .

والذي يُتعب الناس الآن أن نناقش قضية الإسلام مثلاً وفي القلب مَيْل للشيوعية مثلاً ، فننتهي إلى نتيجة غير سليمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الروم : 29] يعني : يا ليت لهم مَنْ ينقذهم إنْ أضلَّهم الله فختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، فليس لهم من الله نصير ينصرهم ، ولا مجير يجيرهم من الله ، وهو سبحانه يجير ولا يُجَار عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ . . . ﴾ .

الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ما دام الأمر كذلك ، وما داموا قد اتبعوا أهواءهم وضلوا ، وأصروا على ضلالهم ، فدَعْك منهم ولا تتأثر بإعراضهم .

كما قال له ربه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] وقال له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] .

فما عليك يا محمد إلا البلاغ ، واتركهم لي ، وإياك أن يؤثر فيك عنادهم ، أو يحزنك أن يأتمروا بك ، أو يكيدوا لك ، فقد سبق القول مني أنهم لن ينتصروا عليك ، بل ستنتصر عليهم .

(75/603)

وهذه قضية قرآنية أقولها ، وتُسجَّل عليّ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ . . . ﴾ [الحج : 40] .

﴿ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ . . . ﴾ [محمد : 7] .

هذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغ منها ، وهي على ألسنتنا وفي قلوبنا ، فإنْ جاء واقعنا مخالفاً لهذه القضية ، فقد سبق أنْ أكدها واقع الأمم السابقة ، وسيحدث معك مثل ذلك ؛ لذلك يُطمئن الحق نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] .

فهنا ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً . . . ﴾ [الروم : 30] أي : دعْكَ من هؤلاء الضالين ، وتفرَّغ لمهمتك في الدعوة إلى الله ، وإياك أنْ يشغلوك عن دعوتك .

ومعنى إقامة الوجه للدين يعني : اجعل وجهْتك لربك وحده ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا

شمالاً ، وذكر الوجه خاصة وهو يعني الذات كلها ؛ لأن الوجه سِمة الإقبال .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88] يعني : ذاته تعالى .

ومعنى ﴿ حَنِيفاً . . . ﴾ [الروم : 30] هذه الكلمة من الكلمات التي أثارت تذبذباً عند الذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله ؛ لأن معنى الحنيف : مائل الساقين فترى في رِجلْه انحناء للداخل ، يقال : في قدمه حنف أي ميل ، فالمعنى : فأقم وجهك للدين مائلاً ، نعم هكذا المعنى ، لكن مائلاً عن أيِّ شيء ؟

(76/603)

لا بُدَّ أن تفهم المعنى هنا ، حتى لا تتهم أسلوب القرآن ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً منحرفاً يدين بالشرك والوثنية ، فالمعنى : مائلاً عن هذا الفساد ، ومائلاً عن هذا الشرك ، وهذه الوثنية التي جئت لهدمها والقضاء عليها ، ومعنى : مال عن الباطل . يعني : ذهب إلى الحق .

و(أَقِمْ) هنا بمعنى : أقيموا ، لأن خطاب الرسول خطاب لأمته ، بدليل أنه سبحانه سيقول في الآية بعدها : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 31] ولو كان الأمر له وحده لَقالَ

منيباً إليه ، ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ . . . ﴾ [الطلاق : 1] .

فالخطاب للأمة كلها في شخص رسول الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم هو المبلِّغ ، والمبلِّغ هو الذي يتلقى الأمر ، ويقتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلِّغه ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . . . ﴾

[الأحزاب : 21] .

وقال ﴿ حَنِيفاً . . . ﴾ [الروم : 30] لأن الرسل لا تأتي إلا على فساد شمل الناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه كما خلق في الجسم مناعة مادية خلق فيه مناعة قيمية ،

فالإنسان تُحدِّثه نفسه بشهوة وتغلبه عليها ، فيقع فيها ، لكن ساعة ينتهي منها يندم عليها ويُؤنِّبه ضميره ، فيبكي على ما كان منه ، وربما يكره من أعانه على المعصية .

وهذه هي النفس اللوامة ، وهي علامة وجود الخير في الإنسان ، وهذه هي المناعة الذاتية التي تصدر من الذات .

وفَرْق بين مَنْ تنزل عليه المعصية وتعترض طريقه ، ومَنْ يُرتِّب لها ويسعى إليها ، وهذا بيِّن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التوبة عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . . . ﴾ [النساء : 17] .

فَرْق بين مَنْ يذهب إلى باريس لطلب العلم ، فتعترض طريقه إحدى الفتيات ، ومَنْ يذهب إلى باريس لأنه سمع عما فيها من إغراء ، فهذا وقع في المعصية رغماً عنه ، ودون ترتيب لها ، وهذا قصدها وسعى إليها ، الأول غالباً ما يُؤنِّب نفسه وتتحرك بداخله النفس اللوامة والمناعة الذاتية ، أما الآخر فقد أَلِفَتْ نفسه المعصية واستشرتْ فيها ، فلا بُدَّ أن تكون له مناعة ، ليست من ذاته ، بل من المجتمع المحيط به ، على المجتمع أن يمنعه ، وأن يضرب على يديه .

والمناعة في المجتمع لا تعني أن يكون مجتمعاً مثالياً لا يعرف المعصية ، بل تحدث منه المعاصي ، لكنها مُفرّقة على أهواء الناس ، فهذا يميل إلى السرقة ، وهذا يميل إلى النظر إلى المحرمات ، وهذا يحب كذا . . إلخ .

إذن : ففي الناس مواطن القوة ، ومواطن ضعف ، وعلى القوي في شيء أن يمنع الضعيف فيه ، وأنْ يزجره ويُقوِّمه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 1-3] .

فإذا عَمَّ الفساد وطَمَّ كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ . . . ﴾ [المائدة : 79] وفقد المجتمع أيضاً مناعته . فلا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، لينقذ هؤلاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللهِ التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا . . . ﴾ [الروم : 30] فنحن نرى البشر يتخذون الطعوم والأمصال للتحصين من الأمراض ، كذلك الحق سبحانه – وله المثل الأعلى – جعل هذا المصل التطعيمي في كل نفس بشرية ، حتى في التكوين المادي .

(78/603)

ألا ترى قوله تعالى في تكوين الإنسان : ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ . . . ﴾ [الحج : 5] .

فالمخلَّقة هي التي تكوّن الأعضاء ، وغير المُخلَّقة هي الرصيد المختزن في الجسم ، وبه يعوَّض أيّ خلل في الأعضاء المخلَّقة ، فهي التي تمده بما يصلحه ، كذلك في القيم جاء دين الله فطرت الله التي فطر الناس عليها ، فإذا تدخلتْ الأهواء وحدثتْ الغفلة جاءتْ المناعة ، إما من ذات النفس ، وإما من المجتمع ، وإما برسول ومنهج جديد .

وقد كرَّم الله أمة محمد بأن يكون رسولُها خاتَم الرسل ، فهذه بُشْرى لنا بأن الخير باقٍ فينا ، ولا يزال في يوم القيامة ، ولن يفسد مجتمع المسلمين أبداً بحيث يفقد كله هذه المناعة ، فإذا فسدتْ فيه طائفة وجدت أخرى تُقوِّمها ، وهذا واضح في قول النبي صلى الله عليه وسلم

.

" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة " .

وإلا لو عَمَّ الفساد هذه الأمة لاقتضى الأمر شيئاً آخر .

وحين نقرأ الآية نجد أن كلمة ﴿ فِطْرَتَ . . . ﴾ [الروم : 30] منصوبة ، ولم يتقدم عليها ما ينصبها ، فلماذا نُصِبَتْ ؟ الأسلوب هنا يريد أن يلفتك لسبب النصب ، وللفعل المحذوف هنا ، لتبحث عنه بنفسك ، فكأنه قال : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرت الله التي فطر الناس عليها .

لذلك يسمي علماء النحو هذا الأسلوب أسلوب الإغراء ، وهو أن أغريك بأمر محبوب وأحثَّك على فِعْله ، كذلك الحق سبحانه يغري رسوله صلى الله عليه وسلم بأنْ يُقيم وجهه نحو الدين الخالص ، وأنْ يلزم فطرت الله ، وألا يلتفت إلى هؤلاء المفسدين ، أو المعوِّقين له .

(79/603)

والفطرة : يعني الخلقة كما قال سبحانه : ﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض . . . ﴾ [يوسف : 101] يعني : خالقهما ، والفطرة المرادة هنا قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

فالزم هذه الفطرة ، واعلم أنك مخلوق للعبادة .

أو : أن فطرت الله تعني : الطبيعة التي أودعها الله في تكوينك منذ خلق الله آدم ، وخلق منه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى . . . ﴾ [الأعراف : 172] .

وسبق أنْ بيَّنا كيف أن في كل منا ذرة حية من أبينا آدم باقية في كل واحد منا ، فالإنسان لا ينشأ إلا من الميكروب الذكري الحي الذي يُخصِّب البويضة ، وحين تسلسل هذه العملية لا بُدَّ أن تصل بها إلى آدم عليه السلام .

وهذه الذرة الباقية في كل منا هي التي شهدتْ العهد الأول الذي أخذه الله علينا ، وإلا فالكفار في الجاهلية الذين جاء رسول الله لهدايتهم ، كيف اعترفوا لله تعالى بالخلق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . . ﴾ [الزمر : 38] .

من أين عرفوا هذه الحقيقة ؟ نُقِلت إليهم من هذا العهد الأول ، فمنذ هذا العهد لم يجرؤ أحد من خَلْق الله أنْ يدَّعي هذا الخَلْق لنفسه ، فظلت هذه القضية سليمة في الأذهان مع ما حدث من فساد في معتقدات البشر .

وتظل هذه القضية قائمة بالبقية الباقية من هذا العهد الأول ، حتى عند الكفار والملاحدة ، فحين تكتنفهم الأحداث وتضيق بهم أسبابهم ، تراهم يقولون وبلا شعور : يا رب ، لا يدْعون صنماً ولا شجراً ، ولا يذهبون إلى آلهتهم التي اصطنعوها ، فهم يعلمون أنها كذب في كذب ، ونصب في نصب .

والآن لا يخدعون أنفسهم ولا يكذبون عليها ، الآن وفي وقت الشدة وحلول الكرب ليس إلا الله يلجئون إليه ، ليس إلا الحق والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

(80/603)

وما دام الله قد فطرنا على هذه الفطرة ، فلا تبديل لما أراده سبحانه : ﴿ ذَلِكَ الدين القيم . . . ﴾ [الروم : 30] أي : الدين الحق ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 30] أي : لا يعلمون العلم على حقيقته والتي بيَّناها أنها الجزم بقضية مطابقة للواقع ، ويمكن إقامة الدليل عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(81/603)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ وهذا دليل قياس احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لا يحتاجون فيها إلى غيرهم ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها معلوم لها فقال هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها ويستأثرون ببعضها عليكم كما يخاف الشريك شريكه وقال ابن عباس تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا والمعنى هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي فإن كان هذا الحكم باطلا في فطركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة وإنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم وهم عبيد لي فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من

جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 159.160 ﴾

(82/603)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

(سورة الروم)

قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفا ﴾ . . .الآية .

هذا خطاب خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم وقد قال تعالى: بعده ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ﴾ فقوله: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ حال من ضمير الفاعل المستتر في قوله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ الواقع على النبي -صلى الله عليه وسلم- فتقرير المعنى: فاقم وجهك يا نبي الله -صلى الله عليه وسلم- في حال كونكم منيبين إليه .

وقد تقرر عند علماء العربية أن الحال إن لم تكن سببية لا بد أن تكون مطابقة لصاحبها إفراداً وثنية وجمعاً وتذكيراً وتأنيثاً فما وجه الجمع بين هذه الحال وصاحبها ؟ فالحال جمع وصاحبها مفرد .

والجواب أن الخطاب الخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم يعمُّ حكمُه جميعَ الأمة ؛ فالأمة تدخل تحت خطابه -صلى الله عليه وسلم- فتكون الحال من الجميع الداخل تحت خطابه -صلى الله عليه وسلم- .

ونظير هذه الآية في دخول الأمة تحت الخطاب الخاص به -صلى الله عليه وسلم- قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ الآية .

فقوله ﴿ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ بعد يا أيها النبي دليل على دخول الأمة تحت لفظ النبي .

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ ثم قال: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ .

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ ثم قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ الآية .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ ثم قال: ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ ﴾ الآية .

وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ .

(83/603)

ودخول الأمة في الخطاب الخاص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- هو مذهب الجمهور وعليه مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله تعالى خلافاً للشافعي رحمه الله . (1) انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 232 . 233 ﴾

التعليق :

(1) ولو قيل: إن الذي دخل النار في ذبابة دخلها لمجرد رضاه بالذبح المفهوم من قوله: ما عندي ما أقدم ، لأنه أجاب مبدئيا بعدم وجود ما يقدمه بخلاف صاحبه أجاب بعدم تقديمه فعلم منه أن الأول راض عن التقديم لكنه لم يجد ما يقدمه فدخل النار على رضاه وقبوله أما الآخر الذي امتنع فقتل وكان من حقه أن يقدم تقية ولو فعل فلا مانع لأن قلبه مطمئن بالإيمان لكنه لم يفعل فلا حق له .

فالظاهر أنه ترك ذلك اختيارا كالذي أخذ أسيرا وأرادوا صلبه بمكة ثم عرضوا عليه أن يتمنى لو أن محمدا صلى الله وسلم مكانه ويتركونه فأبى حتى ولا أن يشاك بشوكة .

وكان يمكنه أن يوافقهم تقية لكنه لم يوافقهم .

(84/603)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان يلبي أهل الشرك لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فأنزل الله ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم . . ﴾ الآية . قال : هي في الآلهة ، وفيه يقول : تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ضرب لكم . . . ﴾ الآية . قال هذا مثل ضربه الله لمن عدل به شيئاً من خلقه يقول : أكان أحد منكم مشاركاً مملوكه في ماله ونفسه وفراشه وزوجته ؟ فكذلك لا يرضى الله تعالى أن يعدل به أحد من خلقه .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال : الدين الإِسلام ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال : لدين الله .

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال : الإِسلام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال : دين

الله الذي فطر خلقه عليه .

وأخرج الحكيم في نوادر الأصول عن مكحول رضي الله عنه . أن الفطرة معرفة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال : دين الله ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ قال : القضاء القيم .

وأخرج ابن مردويه عن حماد بن عمر الصفار قال : سألت قتادة رضي الله عنه عن قوله ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ فقال : حدثني أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال : دين الله " .

(85/603)

وأخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ؛ إن عمر رضي الله عنه قال له : ما قوام هذه الأمة ؟ قال : ثلاث وهي المنجيات . الاخلاص : وهي الفطرة التي فطر الناس عليها . والصلاة : وهي الملة . والطاعة : وهي العصمة . فقال عمر رضي الله عنه : صدقت .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال : لدين الله .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة وقتادة والضحاك وإبراهيم وابن زيد ، مثله .

وأخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : اقرأوا ان شئتم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ " .

وأخرج مالك وأبو داود وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " "كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، كما تنتج الابل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء ؟ " قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن الأسود بن سريع رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خيبر فقاتلوا المشركين ، فانتهى بهم القتل إلى الذرية ، فلما جاؤوا قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما حملكم على قتل الذرية ؟ قالوا : يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين ! قال : وهل خياركم إلا أولاد المشركين ؟ والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ ﴾ :

" مِنْ شركاء " مبتدأٌ ، و " مِنْ " مزيدةٌ فيه لوجودِ شرطَيْ الزيادة . وفي خبره وجهان ، أحدهما : الجارُّ الأولُ وهو " لكم " و ﴿ مِّن مَّا مَلَكَتْ ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " شركاءَ " لأنه في الأصل نعتُ نكرةٍ ، قُدِّم عليها . والعاملُ فيه العاملُ في هذا الجارِّ الواقع خبراً . والخبرُ مقدرٌ بعد المبتدأ ، و ﴿ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ متعلِّقٌ بشركاء . [وما في "مِمَّا " بمعنى النوع] تقديرُ ذلك كلِّه : هل شركاءُ فيما رَزَقْناكم كائنون مِن النوع الذي مَلَكَتْه أَيمانُكم مستقِرُّون لكم . فكائنون هو الوصفُ المتعلِّقُ به "مِمَّا مَلَكَتْ " ولَمَّا تقدَّم صار حالاً ، و " مستقرُّون " هو الخبرُ الذي تعلَّق به " لكم " .

والثاني : أنَّ الخبرَ " مِمَّا مَلَكَتْ " و " لكم " متعلِّقٌ بما تَعَلَق به الخبرُ ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " شركاء " أو بنفس " شركاء " كقولك : " لك في الدنيا مُحِبٌّ " ف " لك " متعلقٌ بـ مُحِبّ . و " في الدنيا " هو الخبرُ .

قوله : ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ هذه الجملةُ جوابُ الاستفهامِ الذي بمعنى النفي ، و " فيه " متعلّقٌ ب " سَواء " .

قوله : " تَخافونهم " فيه وجهان ، أحدهما : أنها خبرٌ ثانٍ ل أنتم . تقديرُه : فأنتم مُسْتَوُوْن معهم فيما رَزَقْناكم ، خائفوهم كخَوْفِ بعضِكم بعضاً أيها السادة . والمرادُ نَفْيُ الأشياء الثلاثة أعني الشِّرْكَةَ والاستواءَ مع العبيد وخوفَهم إياهم . وليس المرادُ ثبوتَ الشركة ونَفْيَ الاستواءِ والخوفِ ، كما هو أحدُ الوجهين في قولك : " ما تأتينا فتحدِّثَنا " بمعنى : ما تأتينا مُحدِّثاً بل تأتينا ولا تحدثنا ، بل المرادُ نفيُ الجميع كما تقدَّم .

(87/603)

وقال أبو البقاء : ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ الجملةُ في موضع نصبٍ على جوابِ الاستفهامِ أي : " هل لكم فَتَسْتَوُوا " انتهى . وفيه نظرٌ ؛ كيف جَعَل جملةً اسمية حالَّةً محلَّ جملةٍ فعلية ، ويَحْكُمُ على موضع الاسمية بالنصب بإضمارِ ناصبٍ ؟ هذا ما لا يجوزُ ولو أنه فَسَّر المعنى وقال : إنَّ الفعلَ لو حَلَّ بعدَ الفاءِ لكان منصوباً بإضمار " أن " لكان صحيحاً . ولا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَ أيضاً أنَّ النصبَ على المعنى الذي قَدَّمْتُه مِنْ نَفْيِ الأشياءِ الثلاثة .

والوجه الثاني : أنَّ " تخافونهم " في محلِّ نصبٍ على الحال من ضمير الفاعل / في " سَواء "

أي : فتساوَوْا خائِفاً بعضُكم بعضاً مشاركتَه له في المال . أي : إذا لم تَرْضَوا أن يشارِكَكم عبيدُكم في المال فكيف تُشرِكون بالله مَنْ هو مصنوعٌ له ؟ قاله أبو البقاء .

وقال الرازي معنى حسناً ، وهو : " أنَّ بين المَثَلِ والمُمَثَّلِ به مشابهةً ومخالفةً .

(88/603)

فالمشابهةُ معلومةٌ ، والمخالفةُ مِنْ وجوه : قوله : " مِنْ أنفسكم " أي : مِنْ نَسْلِكم مع حقارةِ الأنفس ونَقْصِها وعَجْزِها ، وقاسَ نفسَه عليكم مع جلالتِها وعظمتِها وقُدْرَتِها . قوله : ﴿ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي : عبيدِكم والمِلْكُ طارئ قابلٌ للنقلِ بالبيع وللزوالِ بالعِتْقِ ، ومملوكُه تعالى لا خروجَ له عن المِلْكِ ، فإذا لم يَجُزْ أَنْ يُشْرِكَكم مملوكُكم ، وهو مِثْلُكم إذا تحرَّرَ مِنْ جميعِ الوجوهِ ، ومثلُكم في الآدميَّةِ حالةَ الرِّق فكيف يُشْرَكُ باللَّهِ تعالى مملوكُه مِنْ جميع الوجوهِ ، المباينُ له بالكلية ؟ وقوله : " فيما رَزَقْنَاكم " يعني أنه ليس لكم في الحقيقة ، إنما هو لله تعالى ومَنْ رَزَقَه حقيقةً . فإذا لم يَجُزْ أَنْ يَشْرَكَكم فيما هو لكم ، من حيث الاسمُ ، فكيف يكون له تعالى شريكٌ فيما له من جهة الحقيقة ؟ " انتهى وإنما ذكرْتُ هذا المعنى مَبْسوطاً لأنَّه مبيِّنٌ لما ذكرته مِنْ وجوهِ الإعراب .

وقوله : " كَخِيْفَتِكم " أي : خِيْفَةً مثلَ خِيْفتكم . والعامَّةُ على نصب " أنفسَكم " لأنَّ

المصدرَ مضافٌ لفاعِله . وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على إضافةِ المصدرِ لمفعولِه .

واستقبح بعضُهم هذا إذا وُجِد الفاعلُ . وقال بعضُهم : ليس بقبيحٍ بل يجوزُ إضافتُه إلى كلٍ منهما إذا وُجدا . وأنشد :

3649 أَفْنَى تِلادي وما جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبٍ . . . قَرْعُ القواريزِ أفواهَ الأباريقِ

بنصب " الأفواه " ورَفْعِها .

قوله : " كذلك نُفَصِّل " أي : مثلَ ذلك التفصيلِ البيِّنِ نُفَصِّل . وقرأ أبو عمرو في رواية " يُفَصِّلُ " بياء الغيبة رَدًّا على قوله : " ضَرَبَ لكم " . والباقون بالتكلم رَدًّا على قوله : " رَزَقْناكم " .

(89/603)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)

قوله : ﴿ حَنِيفاً ﴾ : حالٌ مِنْ فاعل " أَقِمْ " أو مِنْ مفعولِه أو مِن " الدِّين " .

قوله : " فِطْرَةَ الله " فيه وجهان ، أحدهما : أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملة كقوله : ﴿ صِبْغَةَ الله ﴾ [البقرة : 138] و ﴿ صُنْعَ الله ﴾ [النمل : 88] . والثاني : أنه

منصوبٌ بإضمارِ فِعْل . قال الزمخشري : " أي : الزموا فطرةَ الله ، وإنما أَضْمَرْتُه عَلَى خطابِ الجماعة لقولِه : " مُنِيبِيْن إليه " . وهو حالٌ من الضمير في " الزَموا " . وقولُه : " واتَّقوه ، وأقيموا ، ولا تكونوا " معطوفٌ على هذا المضمر " . ثم قال : " أو عليكم فطرةَ " . ورَدَّه الشيخُ : " بأنّ كلمةَ الإغراءِ لا تُضْمَرُ ؛ إذ هي عِوَضٌ عن الفعلِ ، فلو حَذَفْتَها لَزِمَ حَذْفُ العِوَضِ والمُعَوَّضِ منه . وهو إجحافٌ " . قلت : هذا رأيُ البصريين . وأمَّا الكسائيُّ وأتباعُه فيُجيزون ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 41. 44 ﴾

(90/603)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

أي إذا كان لكم مماليك لا تَرْضَوْن بالمساواة بينكم وبينهم ، وأنتم متشاكلون بكلِّ وجه –إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم– فَمَا تقولون في الذي لم يَزَلْ ، ولا يزال كما لم يزل ؟

هل يجوز أن يُقَدَّرَ في وصفه أن يُسَاوِيَه عبيدُه ؟ وهل يجوز أن يكون مملوكُه شريكَه ؟ تعالى

اللَّهُ عن ذلك علواً كبيراً !

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29)

أشدُّ الظلمِ متابعةُ الهوى ، لأنه قريبٌ من الشِّرْكِ ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : 23] . فَمَنْ اتَّبَعَ هواه خالف رضا مولاه ؛ فهو بوضعه الشيءَ غيرَ موضعه صار ظالماً ، كما أَنَّ العاصيَ بوضعه المعصيةَ موضعَ الطاعةِ ظالمٌ . . كذلك هذا بمتابعة هواه بَدَلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متمادياً .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)

أَخْلِصْ قَصْدَكَ إلى الله ، واحفَظْ عهدك مع الله ، وأَفرِدْ عملَكَ في سكناتِك وحركاتِك وجميع تصرفاتِك لله .

﴿ حَنِيفاً ﴾ : أي مستقيماً في دينه ، مائلاً إليه ، مُعْرِضاً عن غيره ، والزَمْ ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ أي أَثْبَتَهُم عليها قبل أن يُوجَدَ منهم فِعْلٌ ولا كَسْب ، ولا شِرْكٌ ولا كُفْر ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولا عصيان . فاعرف بهذه الجملة ، ثم افعل ما أُمِرْتَ به ، واحذر ما نُهِيتَ عنه .

(91/603)

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ أي اعْرَفْ واعْلَمْ أن فطرة الله التي فطر الناس عليها : تَجَرُّدُهم عن أفعالهم ، ثم اتصافهم بما يكسبون - وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله .

وعلى هذا تكون ﴿ فِطْرَتَ ﴾ الله منصوبة بإضمار اعْلَمْ - كما قلنا .

سبحانه فَطَرَ كلَّ أحدٍ على ما عَلِمَ أنه يكون فى السعادة أو الشقاوة ، ولا تبديلَ لحُكْمه ، ولا تحويلَ لما عليه فَطَرَه . فمَنْ عَلِمَ أنه يكون سعيداً أراد سعادته وأخبر عن سعادته ، وخَلَقَه في حُكْمه سعيداً . ومَنْ عَلِمَ شقاوته أراد أن يكون شقياً وأخبر عن شقاوته وخَلَقَه في حكمه شقياً . . ولا تبديل لحُكمه ، هذا هو الدين المستقيم والحقُّ الصحيح .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 115 . 117 ﴾

(92/603)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ الم غُلِبَتِ الروم ﴾

يعني قهرت الروم ﴿ فِى أَدْنَى الأَرض ﴾ مما يلي فارس يعني أرض الأردن وفلسطين ﴿ وَهُمْ ﴾ يعني أهل الروم ﴿ مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ أهل فارس ، وذلك أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كتب إلى قيصر ، ملك الروم ، يدعوه إلى الإسلام ، فقرأ كتابه ، وقبّله ووضعه على عينيه ، وختمه بخاتمه ، ثم أوثقه على صدره ، ثم كتب جواب كتابه : إنا نشهد أنك نبي ولكنا لا نستطيع أن نترك الدين القديم الذي اصطفى الله لعيسى ، فعجب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " قَدْ ثَبَّتَ الله مُلْكَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَى أَدْنَى الأَرْضِ مِنْهَا بِفَتْحِ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى المُسْلِمِينَ "

وكتب إلى كسرى ملك فارس فمزّق كتابه ، ورجع الرسول بعد ما أراد قتله ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : " قَد مَزَّقَ الله مُلْكَهم فلا مُلكَ لَهُمْ أَبداً .

إذا ماتَ كِسْرَى فلا كِسْرَى بَعْدَهُ " فلمّا ظهرت فارس على الروم اغتمَّ المسلمون لذلك ، فنزل قوله تعالى : ﴿ الم الم غُلِبَتِ الروم فِى أَدْنَى الأَرض وَهُم مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ .

وقال في رواية الكلبي : إن مشركي قريش شتموا حين غلب المشركون أهل الكتاب ، فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه لمَ تشتمون ؟ فوالله ليظهرنَّ الروم عليهم .

فقال أبيُّ بن خلف : والله لا يكون ذلك أبداً فتبايعا أبو بكر وأبيّ بن خلف لتظهرن الروم على أهل فارس إلى ثلاث سنين على تسع ذود .

فرجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بالأمر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " انْطَلِقْ فَزِدْهُ فِي الخَطَرِ ، وَمُدَّهُ فِي الأَجَلِ " فرجعَ أبو بكر إلى أبيّ بن خلف ، فقال : أنا أبايعك إلى سبع سنين على عشرة ذَود ، فبايعه فلما خشي أبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة إلى المدينة مهاجراً أتاه فلزمه ، فكفل له عبد الرحمن بن أبي بكر .

فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أحدُ أتاه محمد بن أبي بكر ، فلزمه ، فأعطاه كفيلاً ، ثم خرج إلى أحدُ فظهرت الرُّوم على فارس عام الحديبية ، وذلك عند رأس سبع سنين ، فذلك قوله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون بِنَصْرِ الله ﴾ .

وروى أسباط ، عن السدي ، عن أصحابه ، قال : اقتتلت فارس والروم ، فغلبتهم فارس ، ففخر أبو سفيان بن حرب على المسلمين ، وقال : الذين ليس لهم كتاب غلبوا على الذين لهم كتاب ، فشقّ ذلك على المسلمين ، فلقي أبو بكر رضي الله عنه أبا سفيان ، فقامره على ثلاثة أبكار على أنّ الروم ستغلب فارس إلى ثلاث سنين ، ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال له :

" انْطَلِقْ فَزِدْ فِي الجَعْلِ ، وَزِدْ فِي السِّنِينَ " فزايده إلى سبع سنين على سبعة أبكار .

فالتقى الروم وفارس ، فغلبتهم الروم ، وظهر عليهم هرقل ، فجاءه جبريل عليه السلام بهزيمة فارس ، وظهور الرّوم عليهم ، ووافق ذلك يوم بدر وظهور النبيّ صلى الله عليه وسلم على المشركين ، ففرح المؤمنون بظهورهم على المشركين ، وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك .

(94/603)

ويقال إن أهل الروم كانوا أهل كتاب ، وكان المسلمون يرجون إسلامهم ، وأهل فارس كانوا مجوساً ، فكان المسلمون لا يرجون إسلامهم ، وكانوا يحزنون لغلبة فارس عليهم فنزل ﴿ الم غُلِبَتِ الروم فِى أَدْنَى الأرض ﴾ أي أقرب الأرض إلى أرض فارس ﴿ وَهُم مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ روي عن الفراء أنه قال : يعني من بعد غلبتهم ، ولكن عند الإضافة سقطت الهاء ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكواة وَكَانُواْ لَنَا عابدين ﴾ [الأنبياء : 73] ولم يقل : وإقامة الصلاة .

وقال الزجاج : هذا غلط ، وإنا يجوز ذلك في المعتلّ خاصة .

والغلب والغلبة كلاهما مصدر .

و ﴿ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ يعني إلى خمس سنين ، ويقال : إلى سبع سنين .

روي عن أبي عبيدة أنه قال : البضع من واحد إلى أربعة .

وقال القتبي : البضع ما فوق الثلاثة إلى دون العشرة .

وقال مجاهد : البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، ويقال ﴿ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ وهذا اللفظ يكون للغالبين وللمغلوبين كقولهم من بعد قتلهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ يعني لله الأمر حين غلبت الروم فارس ﴿ وَمِن بَعْدِ ﴾ يعني حين غلبت الروم فارس .

ولفظ القبل والبعد إذا كان في آخر الكلام يكون رفعاً على معنى الإضافة للغاية ، ولو كان إضافة إلى شيء يكون خفضاً ، كقولك : من بعدهم ومن قبلهم .

ثم قال : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ لما يرجون من إسلامهم ، ويقال : يفرح أبو بكر رضي الله عنه خاصة ، ويقال : يفرح المؤمنون بتصديق وعد الله تعالى .

(95/603)

وروي عن الشعبي أنه قال : كان ذلك عام الحديبية ، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فبايعوه مبايعة الرضوان ، ووعد لهم غنائم خيبر ، وظهرت الروم على فارس ، وكان تصديقاً لهذه الآية ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ وإنَّما جازت مخاطرة أبي بكر رضي الله

عنه لأن المخاطرة كانت مباحة في ذلك الوقت ، ثم حرمت بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والانصاب والازلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 90] الآية ، ثم قال ﴿ بِنَصْرِ الله ﴾ يعني بفتح الله ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاء ﴾ يعني نصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ بالمؤمنين حين نصرهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَعَدَ الله ﴾ نصب الوعد لأنه مصدر ، ومعناه وعد الله وعداً يعني انتصروا وعد الله .

ثم قال : ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ﴾ حيث وعد لهم غلبة الروم ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني الكفار لا يعلمون أن الله عزَّ وجلَّ لا يخلف وعده ، ويقال : لا يعلمون الآخرة .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ يعني يعلمون حرفتهم ، وأمر معايشهم ، ومتى يدرك زرعهم .

ويقال في أمر التجارة كانوا أكيس الناس .

وقال الحسن : كان الرجل منهم يأخذ درهماً ويقول وزنه كذا ولا يخطىء .

﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ أي لا يؤمنون بها .

ويقال : عن أمر الآخرة ، وما وعدوا فيها من الهول والعذاب هم غافلون .

ثم وعظهم فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ فيعتبروا في خلق السموات والأرض .

وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

(96/603)

ثم قال : ﴿ مَّا خَلَقَ الله السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ يعني للحق ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يعني السموات والأرض لهن أجل ووقت معلوم ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَاء رَبِّهِمْ لكافرون ﴾ يعني جاحدون للبعث .

ثم خوفهم ، فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني الأمم الخالية كانت عاقبتهم الهلاك ، ثم أخبر عنهم فقال : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ قال مقاتل : يعني ملكوا الأرض .

وقال الكلبي : يعني حرثوها .

ويقال : أثاروا الأرض إذا قلبوها للزراعة .

﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ يعني عمروا الأرض ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ يعني أهل مكة .

ويقال : عاشوا فيها أكثر مما عاش أهل مكة ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ يعني بالحجج

الواضحات فكذبوهم ، فأهلكهم الله عزَّ وجلَّ ﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي ليعذبهم بغير ذنب ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالمعاصي .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة الذين أَسَاءواْ ﴾ يعني آخر أمر الذين أشركوا ﴿ السوأى ﴾ يعني العذاب ، فيجوز أن تكون ثم على معنى التأخير ، ويجوز أن يكون معناه : ثم مع هذا كان عاقبة الذين .

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ وَلِلَّهِ عاقبة ﴾ بالضّمّ ، وقرأ الباقون بالنصب ، فمن قرأ بالضم جعله اسم كان ، وجعل ﴿ السوء ﴾ خبر كان ، ومن قرأ بالنصب جعل العاقبة خبر كان والسوء اسم كان ، ومعنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد ، يعني ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله عزَّ وجلَّ .

والسوء هاهنا جهنم ، كما أن الحسنى الجنة .

(97/603)

ثم قال : ﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة الذين ﴾ يعني : عاقبة جهنم ، لأنهم كذبوا بآيات الله ما جاءت بها الرسل ﴿ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ يعني : بآيات الله ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعني يحييهم بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة .

قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بالياء على معنى الإخبار عنهم ، وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ يعني : واذكر يوم تقوم الساعة ﴿ يُبْلِسُ المجرمون ﴾ يعني : ييأس المشركون من كل خير .

ويقال : أيسوا من إقامة الحجة .

ويقال : ﴿ يُبْلِسُ المجرمون ﴾ يعني : يندمون .

قال الزجاج : المبلس الساكت .

المنقطع الحجة ، الآيس من أن يهتدي إليها ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء ﴾ يعني : من الملائكة ، ومن الأصنام ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كافرين ﴾ يعني : تبرأت الملائكة عليهم السلام منهم ، وتبرأت الأصنام عنهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ يعني : بعد الحساب يتفرقون . فريق في الجنة ، وفريق في النار .

ثم أخبر عن مرجع كل فريق فقال : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : الذين صدقوا بالله ورسوله ، وأدّوا الفرائض والسنن ﴿ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مقاتل : يعني : بستان يكرمون وينعمون .

وقال السدي : ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ أي : يفرحون ويكرمون .

وقال مجاهد : ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يعني : ينعمون .

وقال القتبي : ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يعني : يسرون وينعمون .

والحبرة : السرور .

ومنه يقال مع كل حبرة عبرة .

وقال الزجاج : ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يعني : يحسنون إليهم .

يقال للعالم : حبر ، وللمداد حبر ، لأنه يحسن به الكتابة .

ويقال : ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ أي : يسمعون أصوات المغنيات .

(98/603)

قوله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا الذين كفروا بئاياتنا ﴾ يعني : بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ وَلِقَاء الآخرة ﴾ يعني : البعث بعد الموت ﴿ فَأُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ يعني : مقرنين .

ويقال : يجتمعون هم وآلهتهم .

قوله عز وجل : ﴿ فَسُبْحَانَ الله ﴾ يعني : صلوا لله ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ يعني : صلاة المغرب والعشاء ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ يعني : صلاة الفجر وعشياً .

يعني : صلاة العصر وحين تظهرون .

على معنى التقديم والتأخير أي : صلاة الظهر ﴿ وَلَهُ الحمد فِى السموات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ يعني : يحمده أهل السموات ، وأهل الأرض .

ويقال : له الألوهية في السموات والأرض ، كقوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الذى فِى السمآء إله وَفِى الأرض إله وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ [الزخرف : 84] يقال : ﴿ وَلَهُ الحمد ﴾ يعني : الحمد على أهل السموات وأهل الأرض ، لأنهم في نعمته ، فالحمد واجب علينا .

﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ يعني : الدجاجة من البيضة ، والإنسان من النطفة ، والمؤمن من الكافر .

﴿ وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ يعني : البيضة من الدجاجة ، والكافر من المؤمن .

﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ يعني : ينبت النبات من الأرض بعد يبسها ، وقحطها بالمطر .

﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ يعني : يحييكم بالمطر الذي يمطر من البحر المسجور كالمني فتحيون به .

وقال مقاتل : يرسل الله عز وجل يوم القيامة ماء الحيوان من السماء السابعة من البحر المسجور على الأرض ، بين النفختين ، فينتشر عظام الموتى فذلك قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ : قرأ حمزة والكسائي : ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ بفتح التاء .

والباقون برفع التاء .

يعني : تخرجون من قبوركم يوم القيامة .

(99/603)

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ قال مقاتل : يعني ومن علامات الرب ، أنه واحد وإن لم يروه ، وعرفوا توحيده بصنعه ، ﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ يعني : خلق آدم من تراب وأنتم ولده ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ ﴾ ذريته من بعده ﴿ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ يعني : تبسطون .

كقوله : ﴿ وَهُوَ الذى يُنَزّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الولى الحميد ﴾ [الشورى : 28] يعني : ويبسط .

ويقال : ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ يعني : من العلامات التي تدل على أن الله عز وجل واحد لا مثل له ، ظهور القدرة التي يعجز عنها المخلوقون ﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ يعني : آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ ﴾ منتشرون على وجه الأرض .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ يعني : من علامات وحدانيته ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : من جنسكم ﴿ أزواجا ﴾ لأنه لو كان من غير جنسه ، لكان لا يستأنس بها .

ويقال : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : خلقها من آدم .

ويقال : من بعضكم بعضاً ﴿ لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ يعني : لتستقر قلوبكم عندها .

لأن الرجل إذا طاف البلدان ، لا يستقر قلبه ، فإذا رجع إلى أهله ، اطمأن واستقر .

ويقال : ﴿ لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ يعني : لتوافقوها ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ يعني : الحب بين الزوج والمرأة ، ولم يكن بينهما قرابة .

ويحب كل واحد منهما صاحبه ، ويقال : وجعل منكم مودة للصغير على الكبير ، ورحمة للكبير على الصغير .

ويقال : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ يعني : الولدان ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ يعني : فيما ذكر لعلامات لوحدانيته ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أني خالق .

(100/603)

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض ﴾ وأنتم تعلمون ذلك ، لأنهم مقرون أن الله عز وجل خالقهم ، وهو خالق الأشياء ﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي : عربي ، وعجمي ، ونبطي ، ﴿ وألوانكم ﴾ أي : أحمر ، وأبيض ، وأسود ، وأسمر .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ يعني : لعلامات في خلق السموات والأرض ، واختلاف الألسن ،

والألوان لعلامات .

﴿ للعالمين ﴾ فيعتبرون .

قرأ عاصم في رواية حفص : ﴿ للعالمين ﴾ بكسر اللام .

يعني : جميع العلماء ، يعني : إن في ذلك علامة للعقلاء .

وقرأ الباقون : بنصب اللام يعني : علامة لجميع خلق الإنس والجن .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته مَنَامُكُم بالليل والنهار ﴾ منامكم نومكم ، فهو مصدر .

يقال : نام نوماً ، ومناماً بالليل والنهار ، على معنى التقديم يعني : منامكم بالليل ﴿ وابتغاؤكم مّن فَضْلِهِ ﴾ بالنهار يعني : طلبكم الرزق بالنهار والمعيشة ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ يعني : لعلامات على وحدانيتي ﴿ لّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ المواعظ ويعتبرون .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً ﴾ من الصواعق إذا كنتم بأرض قفر ، ﴿ وَطَمَعًا ﴾ للمطر .

﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ منصوبان على المفعول له المعنى يريكم للخوف والطمع ، خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم .

﴿ وَيُنَزّلُ مِنَ السماء مَاء ﴾ يعني : المطر ﴿ وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ ﴾ أي : بالنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيات ﴾ أي : لعلامات ﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ عن الله عز وجل فيوحدونه .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء ﴾ يعني : فوق رؤوسكم بغير عمد لا يناله شيء ، وتقوم الأرض على الماء تحت أقدامكم ﴿ والأرض بِأَمْرِهِ ﴾ أي : بقدرته ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مّنَ الأرض ﴾ يعني : إسرافيل عليه السلام يدعوكم على صخرة بيت المقدس في الصور دعوة من الأرض ﴿ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ وقال بعضهم : في الآية تقديم . ومعناه : ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض يعني : من قبوركم فإذا أنتم تخرجون : قرأ حمزة والكسائي : ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ بنصب التاء وضم الراء .

وقرأ الباقون : بضم التاء ونصب الراء .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ من الخلق ﴿ كُلٌّ لَّهُ قانتون ﴾ يعني : مقرّين بالعبودية .

يعلمون أن الله عز وجل ربهم .

ويقال : ﴿ قانتون ﴾ أي : خاضعون له ، لا يقدرون أن يغيروا أنفسهم عما خلقهم .

ويقال : معناه في كل شيء دليل ربوبيّته .

وهذا أيضاً من آياته .

ولكنه لم يذكر لأنه قد سبق ذكره مرات ، فكأنه يقول ومن آياته أن له من في السموات والأرض كل له قانتون .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ الذى يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي : خلق آدم ، فبدأ خلقهم ولم يكونوا شيئاً ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعني : يبعثهم في الآخرة أحياء ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ يعني : في المثل عندكم ، لأن إبداء الشيء أشدّ من إعادته .

ويقال : إن ابتداءه كان نطفة ، ثم جعله علقة ، ثم جعله مضغة ، ثم لحماً ، ثم عظاماً .

وفي الآخرة حال واحد وذلك هو أهون عليه من هذا .

وقال القتبي عن أبي عبيدة : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ يعني : هيّن عليه كما يقال الله أكبر أي : الكبير .

ويقال : الإعادة أهون عليه من البداية ، والبداية عليه هين .

ثم قال : ﴿ وَلَهُ المثل الاعلى فِى السموات والأرض ﴾ يعني : الصفات العلى بأنه واحد لا شريك له ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في أمره .

(102/603)

ثم قال عز وجل : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً ﴾ نزلت في كفار قريش ، كانوا يعبدون الآلهة ، ويقولون في إحرامهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

قال الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً ﴾ أي : وصف لكم شبهاً ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ يعني : من العبد ﴿ مّن شُرَكَاء فِيمَا رزقناكم ﴾ من الأموال ﴿ فَأَنتُمْ ﴾ وعبيدكم ﴿ فِيهِ سَوَآء ﴾ في الرزق فيما أعطيناكم من الأموال والملك .

ثم قال : ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال مقاتل : يعني : أتخافون عبيدكم أن يرثوكم بعد الموت ، كما تخافون أن يرثكم الأحرار .

فقالوا : لا .

فقال : أترضون لله الشركة في ملكه وتكرهون لأنفسكم .

قال الكلبي : ﴿ هَل لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أيمانكم مّن شُرَكَاء فِيمَا رزقناكم ﴾ من أموالكم ، من عبيدكم وإمائكم ، ﴿ فَأَنتُمْ ﴾ وهم ﴿ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يقول : كما يخاف الرجل ابنه وعمه وأقاربه .

قالوا : لا .

قال : فأنتم لا ترضون هذا لأنفسكم أن يكونوا فيما تملكون يشاركونكم في أموالكم .

فكيف ترضون لله ما لا ترضون به لأنفسكم .

وقال السدي : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً ﴾ هذا مثل ضربه الله عز وجل في الميراث للآلهة .

يقول : هل لكم مماليك شركاء في الميراث الذي ترثونه من آبائكم ، وأنتم تخافون أن يدخل معكم مملوككم في ذلك الميراث ، كما تدخلون أنتم فيه .

فكما لا يكون للملوك أن يدخل في مواريثكم ، فكذلك لا يكون لهذا الوثن الذي تعبدونه من دون الله عز وجل ، أن يدخل في ملكي .

وإنما خلقي وعبيدي .

قال أبو الليث رحمه الله عز وجل : وفي الآية دليل أن العبد لا ملك له ، لأنه أخبر أن لا مشاركة للعبيد فيما رزقنا الله عز وجل من الأموال .

ثم قال عز وجل : ﴿ كذلك نُفَصّلُ الآيات ﴾ يعني : نبيّن العلامات ﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الأمثال فيوحدونه .

(103/603)

ثم قال عز وجل : ﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ يعني : اتبع الذين كفروا أهواءهم بعبادة الأوثان ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني : بغير حجة ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ يعني : فمن يهدي إلى توحيد الله ، من أضله الله وخذله وطرده .

ويقال : فمن يرشد إلى الحق من خذله الله عز وجل ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾ يعني :

مانعين من عذاب الله .

قوله عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ أي : أخلص دينك الإسلام للدين حنيفاً .

يعني : للتوحيد مخلصاً .

ويقال : يذكر الوجه ويراد به هو ، فكأنه يقول : فأقم الدين مخلصاً .

ويقال : معناه فأقبل بوجهك إلى الدين ، وأقم عليه حنيفاً ، أي : مخلصاً ، مائلاً إليه .

ويقال : أخلص دينك وعملك لله تعالى ، وكن مخلصاً .

ثم قال : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ ﴾ يعني : اتبع دين الله .

ويقال : اتبع ملة الله .

ويقال : الفطرة الخلقة يعني : خلقة الله ﴿ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ أي : خلق البشر عليها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، وَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ " وروي عن أبي هريرة أنه قال : اقرؤوا إن شئتم ﴿ فِطْرَةَ الله الذى فَطَرَكُمْ الناس عَلَيْهَا ﴾ يعني : خلق الناس عليها .

وفي الخبر أنه قال : "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ " لأنه شهد يوم الميثاق .

ثم قال : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ يعني : لا تغيير لدين الله .

ويقال : لا تبديل لخلق الله عندما خلق الله الخلق ، لم يكن لأحد أن يغير خلقته .

ثم قال : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ يعني : التوحيد هو الدين المستقيم ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : كفار مكة لا يعلمون بتوحيد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 11.3 ﴾

(104/603)

وقال الثعلبى :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم ﴾ الآية .

قال المفسّرون : كانت في فارس امرأة لا تلد إلاّ الملوك والأبطال بسم الله الرحمن الرحيم ، فدعاها كسرى فقال : إنّي أُريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيكِ فأشيري عليَّ أيّهم أستعمل ؟ فقالت : هذا فلان ، أروغ من ثعلب ، وأحذر من صقر ، وهذا فرخان أنفذ من سنان ، وهذا شهريراز هو أحلم من كذا ، فاستعمل أيّهم شئت . قال : فإنّي استعملتُ الحليم ، فاستعمل شهريراز ، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع زيتونهم ، وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يحنس وبعث كسرى شهريراز فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم

فَغَلَبت فارسُ الرومَ ، فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله عليه وسلم وأصحابه بمكّة فشقّ عليهم ، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يكره أنْ يظهر الأمّيّون من المجوس على أهل الكتاب من الروم .

وفرح كفّار مكّة وشمتوا ولقوا أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنّكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أُمّيون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم . فإنّكم إنْ قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم .

فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم . . . ﴾ إلى آخر الآيات .

فخرج الصّدّيق رضي الله عنه إلى الكفّار فقال : فرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا ولا يقرّنَ الله أعينكم ، فوالله ليظهرنّ الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبيُّنا ، فقام إليه أُبيّ بن خلف الجمحي فقال : كذبت يا أبا فضيل ، فقال له أبو بكر : أنتَ أكذب يا عدوّ الله ، فقال : اجعل بيننا أجلاً أُناحبُكَ عليه ، والمناحبة : المراهنة على عشر قلائص منّي وعشر قلائص منك ، فإنْ ظهرت الروم على فارس غرمتُ ، وإنْ ظهرت فارس غرمتَ ، ففعل ذلك وجعلوا الأجل ثلاث سنين .

(105/603)

فجاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره وذلك قبل تحريم القمار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هكذا ذكرتُ ، إنّما البضع ما بين ثلاث إلى التسع فزايدهُ في الخطر ومادّه في الأجل ، فخرج أبو بكر فلقي أُبيّاً فقال : لعلَّك ندمت قال : لا ، قال : فتعال أزايدك في الخطر وأُمادّك في الأجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلت فلمّا خشي أُبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه فقال : إنّي أُخاف أن تخرج من مكّة فأقم لي كفيلاً ، فكفل له ابنه عبد الله بن أبي بكر .

فلمّا أراد أُبي بن خلف أن يخرج إلى أحُد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه قال : والله لا أدعك حتّى تعطيني كفيلاً فأعطاه كفيلاً ثمّ خرج إلى أحُد ، ثمّ رجع أُبيّ بن خلف فمات بمكّة من جُراحتِهِ التي جرحه رسول الله صلّى الله عليه وسلم حين بارزه .

وظهرت الروم على فارس يوم الحُديبيّة وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم . هذا قول أكثر المفسّرين .

وقال أبو سعيد الخدري ومقاتل : لمّا كان يوم بدر غلب المسلمون كفّار مكّة وأتاهم الخبر أنّ الروم قد غلبوا فارس ففرح المؤمنون بذلك . قال الشعبي : لم تمضِ تلك المدّة التي عقدوا المناحبة بينهم ، أهل مكّة وصاحب قمارهم أبيّ بن خلف ، والمسلمون وصاحب قمارهم أبو بكر ، وذلك قبل تحريم القمار حتّى غلَبت الرومُ فارسَ وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية فَقَمَر أبو بكر أُبيّاً ، وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به يحمله إلى النبيّ صلى

الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تصدّق به " .

وكان سبب غلبة الروم فارسَ على ما قال عكرمة وغيره أنّ شهريراز بعد ما غلب الروم لم يزل يطأهم ويخرّب مدائنهم حتّى بلغ الخليج ، فبينا أخوه فرخان جالس ذات يوم يشرب فقال لأصحابه : لقد رأيت كأنّي جالس على سرير كسرى ، فبلغت كلمته كسرى فكتب إلى شهريراز : إذا أتاك كتابي فابعث إليّ برأس فرخان .

(106/603)

فكتب إليه : أيها الملك إنّك لم تجد مثل فرخان ، إنّ له نكاية وصوتاً في العدوّ فلا تفعل ، فكتب إليه : إنَّ في رجال فارس خَلَفاً منه فعجّل إليّ برأسهِ ، فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه ، وبعث بريداً إلى أهل فارس إنّي قد نزعت عنكم شهريراز واستعملت عليكم فرخان . ثمّ دفع إلى البريد صحيفة صغيرة وأمره فيها بقتل شهريراز وقال : إذا وليَ فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطهِ ، فلمّا قرأ شهريراز الكتاب قال : سمعاً وطاعة ونزل عن سريره وجلس فرخان فدفع إليه الصحيفة قال : ائتوني بشهريراز فقدَّمه ليضرب عنقه . قال : لا تعجل حتّى أكتب وصيّتي ، قال : نعم ، قال : فدعا بالسفط فأعطاه ثلاث صحائف ، وقال : كلّ هذا راجعت فيه كسرى وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد ، فَردَّ

المُلْكَ إلى أخيه . فكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم : إنّ لي إليك حاجة لا يحملها البريد ولا تبلغها الصحف فألقني ولا تلقني إلاّ في خمسين روميّاً فأنّي ألقاك في خمسين فارسيّاً .

فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق وخاف أن يكون قد مُكرَ بِهِ حتّى أتاه عيونه أنّه ليس معه إلاّ خمسون رجلاً ثمّ بسط لهما والتقيا في قبّة ديباج ضربت لهما ومع كلّ واحد منهما سكين ، فدعيا بترجمان بينهما فقال شهريراز : إنّ الذين خرّبوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا ومكرنا وشجاعتنا ، وإنّ كسرى حسدنا وأراد أنْ أقتل أخي فأَبيت .

ثمّ أمر أخي أن يقتلني . فقد خلعناه جميعاً فنحن نقاتله معك ، قال : قد أصبتما ثمّ أشار أحدهما إلى صاحبه أنّ السرّ بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا ، فقتلا الترجمان جميعاً بسكّينيهما (فأُديلت) الروم على فارس عند ذلك فأتبعوهم يقتلونهم ومات كسرى .

وجاء الخبر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح ومن معه ، فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض ﴾ يعني أدنى الأرض من أرض الشام إلى أرض فارس وهي أذرعات .

(107/603)

قال ابن عبّاس : طرف الشام . مجاهد : أرض الجزيرة . مقاتل : الأردن وفلسطين ، عكرمة : أذرعات وكسكر . مقاتل بن حبان : هي ريف الشام .

﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ أي غلبتهم فحذفت التاء منه كما حذفت من قوله : ﴿ وَأَقَامَ الصلاة ﴾ [البقرة : 177] وانّما هو إقامته .

وقرأ أبو حيوة الشامي (غَلْبِهِمْ) بسكون اللام وهما لغتان مثل الطّعْن والطَعَن .

﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ فارس ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وقرأ عبد الله بن عمرو وأبو سعيد الخدري والحسن وعيسى بن عمر ﴿ غَلَبِهِمْ ﴾ بفتح الغين واللام ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ بضم الواو وفتح اللام .

قالوا : نزلت هذه الآية حين أخبر الله عزّ وجلّ نبيّه صلى الله عليه وسلم عن غلبة الروم فارسَ ، ومعنى الآية : الم غلبت الروم فارس في أدنى الأرض إليكم . وقرأ سعيد بن جبير وطلحة بن مصرف في أداني الأرض بالجمع ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ سيغلبهم المسلمون . ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وعند انقضاء هذه المدّة أخذ المسلمون في جهاد الروم .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدويه ، عن الحسين بن الحسن بن أيوب ، عن علي بن عبد العزيز قال : أخبرني أبو عبيد عن حمّاد بن خالد الخيّاط عن معاوية بن صالح عن مرثد بن سمي قال : سمعت أبا الدرداء يقول : سيجيء قوم يقرأون : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم ﴾ وإنّما هي ﴿ غُلِبَتِ الروم ﴾ . قال أبو عبيد بضم الغين يعني الأخيرة .

قوله : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ يعني من قبل دولة الروم على فارس ومن بعد وهما مرفوعان على الغاية . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ الرومَ لأنّهم أهل كتاب ، وبنصر الله المؤمنين على الكافرين ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ .

(108/603)

أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه عن عبد الله بن محمد بن شنبه ، عن علي بن محمد ابن هامان ، عن علي بن محمد الطّنافسي عن النعمان بن محمد عن أبي إسحاق الفزاري ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " فارس نطحة أو نطحتان " ثمّ قال : " لا فارس بعدها أبداً ، والروم ذات القرون أصحاب بحر وصخر ، كلّما ذهب قرن خلف قرن ، هيهات إلى آخر الأبد " " .

﴿ وَعْدَ الله ﴾ نصب على المصدر ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ يعني أمر معايشهم كيف يكتسبون ويتّجرون ومتى يغرسون ويحصدون وكيف يبنون ويعيشون .

﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ ﴾ وبها جاهلون ولها مضيّعون ، لا يتفكّرون فيها ولا يعملون لها . فعمّروا دنياهم وخرّبوا آخرتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللهُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني ولوقت معلوم إذا انتهت إليه فُنيت ، وهو يوم القيامة .

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ حرثوها وقلّبوها للزراعة والعمارة . ﴿ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ فلم يؤمنوا وأهلكهم الله عزّ وجلّ .

﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ ﴾ العمل ﴿ السواأى ﴾ يعني الخلّة التي تسوؤهم وهي النار . وقيل : (السّوأى) اسم لجهنّم كما أنّ (الحسنى) اسم للجنة .

(109/603)

﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ يعني لأن كذّبوا . وقيل : تفسير (السّوأى) ما بعدها وهو قوله : ﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ يعني : ثمّ كان عاقبة المسيئين التكذيب حملهم تلك السيئات على أنْ كذّبوا ﴿ بِآيَاتِ الله وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ استهزءوا بها .

﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُبْلِسُ المجرمون ﴾ .

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : (يبلس) يكتئب . أبو يحيى عنه : يفتضح . قتادة ومقاتل والكلبيّ : بياءين ، ابن زيد : المبلس الذي قد نزل به البلاء والشّرّ . الفرّاء : ينقطع كلامهم وحججهم . أبو عبيدة : يندمون ، وأنشد :

يا صاح هل تعرف رسماً مكرسا . . . قال نعم أعرفه وأبلسا

وقرأ السلمي ﴿ يُبْلِسُ ﴾ بفتح اللاّم ، والأوّل أجود . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾ أوثانهم التي عبدوها من دون الله ليشفعوا لهم ﴿ شُفَعَاءُ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ جاحدين وعنهم متبرّين .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَاعةَ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ بستان ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : يكرمون . مجاهد وقتادة : ينعمون . أبو عبيدة : يسرّون ، ومنه قيل : كلّ حبرة تتبعها عبرة . وقال العجاج :

فالحمدُ لله الذي أعطى الحبر . . . موالي الحقّ إن المولى شكر

أي السرور . وقال بعضهم : الحبرة في اللغة كلّ نعمة حسنة . والتّحبير : التحسين . ومنه قيل للمداد : حبر لأنّه يُحسّن به الأوراق . والعالم : حِبْر لأنّه متخلّق بأخلاق حسنة ، وقال الشاعر : يحبرها الكاتب الحميري . وقيل : يحبرون يلذّذون بالسّماع .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، عن حامد بن محمد بن عبد الله عن محمد بن يونس ، عن روح

عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال : السماع في الجنّة .

(110/603)

أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله عن ابن شنبه ، عن عمير بن مرداس عن سلمة بن شبيب عن عبد القدّوس بن الحجّاج قال : سمعت الأوزاعي يقول : ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال : السّماع . وقال : إذا أخذ في السّماع لم يبق في الجنّة شجرة إلاّ وَرّدَت .

وبه عن سلمة بن شبيب عن داود بن الجرّاح ، العسقلاني قال : سمعت الأوزاعي يقول : ليس أحد ممّن خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل ؛ فإذا أخذ في السّماع قطع على أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم .

وأخبرنا الحسين بن محمد الدينوري ، عن أحمد بن الحسن بن ماجه القزويني ، عن الحسن ابن أيّوب ، عن عبد الله بن عراد الشيباني قالا : أخبرنا القاسم بن مطيب العجلي ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الجنّة مائة درجة ، ما بين كلّ درجتين منها كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها سموّاً وأوسطها محلّه ، ومنها تنفجر أنهار الجنّة ، وعليها يوضع العرش يوم القيامة

".

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله إنّي رجل حُبّب إليّ الصّوت ، فهل في الجنّه صوت حسن ؟ قال : إي والذي نفسي بيده ، إنَّ الله سبحانه ليوحي إلى شجرة في الجنّة أن أسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن عَزف البرابط والمزامير ، فترفع صوتاً لم يسمع الخلائق مثله قط من تسبيح الرّبّ وتقديسه .

(111/603)

وأخبرني الحسين بن محمد عن هارون ، عن محمّد بن هارون العطّار ، عن حازم بن يحيى الحلواني ، عن الوليد بن عبد الملك ، عن مسروح الحرّاني ، عن سليمان بن عطاء ، عن سلمة بن عبد الله الجهني ، عن عمّه ، عن أبي الدرداء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكّر الناس فذكر الجنّة وما فيها من الأزواج والنعيم وفي (آخر) القوم أعرابي فجثا لركبتيه وقال : يا رسول الله هل في الجنّة من سماع ؟ قال : " نعم يا إعرابي إنّ في الجنّة لنهراً حافتاه الأبكار من كلّ بيضاء خوصانية ، يتغنّين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها ، فذلك أفضل نعيم أهل الجنّة " .

قال : فسألت أبا الدرداء بِمَ يتغنّين ؟ قال : بالتسبيح إن شاء الله . قال : والخوصانية :

المرهفة الأعلى الضخمة الأسفل . وأخبرني الحسين بن محمد عن أحمد بن محمد بن علي الهمداني عن علي بن سعيد العسكري قال : أخبرني أبو بدر عبّاد بن الوليد الغُبري ، عن محمّد ابن موسى الخراساني عن عبد الله بن عرادة الشيباني ، عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم قال : " إنّ في الجنّة لأشجاراً عليها أجراس من فضّة فإذا أراد أهل الجنّة السماع بعث الله عزّ وجلّ ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرّك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الأرض لماتوا طرباً " .

وأخبرني الحسين ، عن أبي شنبه وعبد الله بن يوسف قالا : قال محمد بن عمران ، عن محمد بن منصور ، قال : أخبرني يحيى بن أبي الحجّاج ، عن عبد الله بن مسلم عن مولى لبني أُميّة يقال له : سليمان ، قال : سمعت أبا هريرة يسأل : هل لأهل الجنّة من سماع ؟ قال : نعم ، شجرة أصلها من ذهب وأغصانها فضّة وثمرها اللؤلؤ والزّبرجد والياقوت بعث الله سبحانه وتعالى ريحاً فيحكّ بعضها بعضاً ، فما سمع أحد شيئاً أحسن منه .

(112/603)

قوله : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة فأولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ * فَسُبْحَانَ الله ﴾ فصلّوا لله ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وهو صلاة العصر والمغرب ﴿ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ ﴾ صلاة الصبح ﴿ وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض وَعَشِيّاً ﴾ وهو صلاة العشاء الآخرة . أيّ وسبّحوه عشياً ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ صلاة الظهر .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان عن أحمد بن محمد بن الحسين الحافظ ، عن محمد بن يحيى ، عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رزين قال نافع بن الأزرق لابن عبّاس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال : نعم ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ .

حدّثنا أبو بكر بن عبدوس قال : حدّثني أبو بكر الشرقي قال : حدّثني أبو حاتم الرازي قال : حدّثني أبو صالح كاتب الليث ، حدّثني الليث ، عن سعيد بن بشير ، عن محمد بن عبد الرحمن السلماني ، عن أبيه ، عن ابن عبّاس ، عن النبيّ صلّى الله عليه قال : " من قال حين يصبح ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أدرك ما فاته في يومهِ ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته " .

وأخبرني محمد بن القاسم بن أحمد قال : كتب إليّ عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي أنّ زيد بن محمد بن خلف القرشي حدّثهم عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب عن عمي ، عن الماضي بن محمد عن جويبر ، عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ هذه الآيات الثلاث من سورة الروم وآخر سورة الصافات دبر كلّ صلاة يصلّيها كُتِبَ له من الحسنات

عدد نجوم السماء وقطر المطر وعدد ورق الشجر وعدد تراب الأرض ، فإذا مات أُجري له بكلّ حسنة عشر حسنات في قبره " .

(113/603)

وأخبرني عبد الله بن فنجويه ، عن ابن شنبه وأحمد بن جعفر بن حمدان والفضل بن الفضل قالوا : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام الزنجاني ، عن الحجّاج بن يوسف بن قتيبة بن مسلم ، عن بشر بن الحسين ، عن الزبير بن عدي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سرّه أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 180] . . . إلى قوله : ﴿ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الصافات : 182] " .

وأخبرني ابن فنجويه عن عمر بن أحمد بن القاسم عن محمد بن عبد الغفّار عن حبارة بن المغلس عن كثير عن الضحاك قال : من قال : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ إلى آخر الآية كان له من الأجر كعدل مائتي رقبة من ولد إسماعيل (عليه السلام) .

وأخبرني ابن فنجويه عن ابن شنبه عن علي بن محمد الطيالسي ، عن يحيى بن آدم عن

إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن زيد العمي ، عن محمد بن واسع ، عن كعب قال : من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ إلى آخر الآية ، لم يفتهُ خير كان في يومه ولم يدركه شرّ كان فيه ، ومن قالها حين يمسي لم يدركه شرّ كان في ليلِهِ ولم يفتهُ خير كان في ليلِهِ ، وكان إبراهيم خليل الله صلّى الله عليه يقولها في كلّ يوم وليلة ست مرّات

.

﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ويُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ويُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ يعني آدم (عليه السلام) .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ يعني ذُريته .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ من جنسكم ولم يجعلهنّ من الجِنّ ، وقيل : من ضلع آدم وقيل : من نطف الرجال .

(114/603)

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً ﴾ أُلفة ومحبّة ﴿ وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أخبرني الحسين بن محمد ، عن موسى بن محمد بن علي قال : أخبرني أبو شعيب الحراني ، عن يحيى بن عبد الله البابلي ، عن صفوان بن عمرو ، عن المشيخة أنَّ رجلاً أتى النبيّ

صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبيّ الله لقد عجبتُ من أمر وإنَّه لعجب ، إنّ الرجل ليتزوّج المرأة وما رآها وما رأتهُ قط حتى إذا ابتنى بها اصطحبا وما شيء أحبّ إليهما من الآخر .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ فعربي وأعجمي " .

﴿ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ أبيض وأسود وأحمر وأنتم وُلْد رجل واحد وامرأة واحدة .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ بكسر اللاّم حفص ، والياقوت بفتحها .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وحذف أنْ من قوله (يريكم) لدلالة الكلام عليه ، كقول طرفه :

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى . . . وإن اشهد اللذات هل أنت مخلدي

أراد أنْ أَحضرَ . وقيل : هو على التقدّيم والتأخير تقديره : ويريكم البرق خوفاً ، من آياته .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السماء والأرض بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض ﴾ أي من قبوركم ، عن ابن عبّاس ﴿ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ منها ، وأكثر العلماء على أنَّ معنى الآية ثمّ إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون من الأرض .

﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ فقرأ ابن مسعود : يبدي ، ودليله قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : 13] . ودليل العامّة ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : 29] ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] قال الربيع بن خيثم والحسن : وهو هيّن عليه وما شيء عليه بعزيز ، وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس ، وهذا كقول الفرزدق :

إنّ الذي سمك السماء بنا لها . . . بيتاً دعائمُهُ أعزّ وأطولُ

أي عزيزة طويلة .

وقال آخر :

لعمرك إنَّ الزبرقان لباذل معروفه . . . عند السنين وأفضلُ

أي فاضل .

وقال مجاهد وعكرمة : الإعادة أهون عليه من البدأة أي أيسر . وهي رواية الوالبي عن ابن عبّاس : ووجه هذا التأويل أنّ هذا مَثَل ضربه الله تعالى ، يقول : إعادة الشيء على الخلق أهون من ابتدائه فينبغي أن يكون البعث أهون عليه عندكم من الإنشاء . وقال قوم : وهو

أهون عليه ، أي على الخلق ، يُصاح بهم صيحة فيقومون ، ويقال لهم : كونوا فيكونون أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً ثمّ علقاً ثمّ مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساء . وهذا معنى رواية حسان ، عن الكلبي ، عن أبي صالح عن ابن عبّاس واختيار قطرب .

﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ أي الصفة العليا ﴿ فِي السماوات والأرض ﴾ قال ابن عبّاس : ليس كمثله شيء . وقال قتادة : مثله أنّه لا إله إلاّ هو ولا ربّ غيره . ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾

(116/603)

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ مِنْ عبيدكم وإمائكم ﴿ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ من المال ﴿ فَأَنتُمْ ﴾ وهم ﴿ فِيهِ ﴾ شرع ﴿ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً ، وقيل : تخافون هؤلاء الشركاء أن يقاسموكم أموالكم كما يقاسم بعضكم بعضاً ، وهذا معنى قول أبي مجلز ، فإذ لم تخافوا هذا من مماليككم ولم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها لي شركاء ؟ وأنتم وهم عبيدي وأنا مالككم جميعاً ، فكما لا يجوز استواء المملوك مع سيّده فكذلك لا يجوز استواء

المخلوق مع خالقه .

ثمّ قال : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتبع الذين ظلموا أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ الله ﴾ .

دين الله وهو نصب على المصدر أي فطر فطرة . ومعنى الآية : إنّ الدّين الحنيفية ، فطرة الله ﴿ التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ وقيل : نصب على الإغراء . ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ لدين الله ، أي لا يصلح ذلك ولا ينبغي أن يفعل ، ظاهره نفي ومعناه نهي ، هذا قول أكثر العلماء والمفسّرين . وقال عكرمة ومجاهد : لا تغيير لخلق الله من البهائم بالخصاء ونحوه .

(117/603)

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون ، عن أحمد بن محمد بن الحسن ، عن محمد بن يحيى ، عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " قال : ثمّ يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ الآية .

وأخبرني عبد الله بن حامد قال : أخبرني أبو بكر محمد بن جعفر المطيري ، عن أحمد بن

عبد الله بن يزيد المؤدّب عن عبد الرزاق ، وأخبرنا أبو سعيد التاجر قال : أخبرني أبو حامد الشرقي ، وحدّثنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشر والسلمي ، قالوا : قال عبد الرزّاق عن معمر عن همام ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلّى الله عليه قال : " ما من مولود إلاّ يولد على هذه الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه كما تنتجون البهيمة فهل تجدون فيها من جدعاء حتّى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين " .

وقال الأسود بن سريع : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات وأنّ قوماً تناولوا الذرّية بالقتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ما بال أقوام قتلوا المقاتلة ثمّ تناولوا الذرّية ؟ " ، فقال رجل : يا رسول الله إنّما هم أولاد المشركين ، فقال صلى الله عليه وسلم : " إنّ خياركم أولاد المشركين ، والذي نفسي بيده ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة فما يزال عليها حتّى يبيّن عنه لسانه فأبواه يهوّدانه وينصّرانه " .

(118/603)

وروى قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي قال : قال رسول الله صلّى الله عليه : " إنّ الله أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني في يومي هذا وأنّه قال : إن كلّ مال نحلته عبادي فهو لهم حلال وإنّي خلقت عبادي كلّهم حنفاء فأتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وحَرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأَمَرتْهُم أنْ يشركوا بي ما لم أُنزّلْ به سلطاناً " وذكر الحديث .

قال أبو بكر الورّاق : فطرة الله التي فطر النّاس عليها هي الفقر والفاقة . ﴿ ذَلِكَ الدين القيم ﴾ المستقيم ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 291. 303 ﴾

(119/603)

وقال الزمخشرى :

سورة الروم

مكية ، إلا آية 17 فمدنية وآياتها 60 [نزلت بعد الانشقاق] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الروم (30) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)

القراءة المشهورة الكثيرة غُلِبَتِ بضم الغين. وسيغلبون بفتح الياء. والأرض: أرض العرب، لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام. أو أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أى: في أدنى أرضهم إلى عدوّهم. قال مجاهد: هي أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: الأردن وفلسطين. وقرئ: في أدانى الأرض. والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعى. وقيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى، فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي صلى اللّه عليه وسلم والمسلمين «1»، لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم، فنزلت. فقال لهم

---

(1). أخرجه سنيد بن أبى داود في تفسيره: حدثني حجاج هو ابن محمد الأعور عن أبى بكر بن عبد اللّه عن عكرمة قال «كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الأبطال فدعاها كسرى فقال إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشا وأستعمل عليهم رجلا من بنيك فأشيرى علىّ:

أيهم أستعمل ؟ فأشارت عليه بولد لها يدعي شهرابرز . فاستعمله . قال أبو بكر بن عبد اللّه فحدثت هذا الحديث عطاء الخراساني فقال حدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم فالتقيا بأذرعات وبصرى فغلبتهم فارس فذكر القصة قلت ولها طرق جمعتها في أول شرحي الكبير على البخاري ، وقصة أبى بكر في المراهنة رواها الترمذي وغيره من حديث نيار بن مكرم الأسلمى وسياقها مخالف لسياق هذه القصة .

(120/603)

أبو بكر رضى اللّه عنه : لا يقرّر اللّه أعينكم ، فو اللّه لتظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى بن خلف . كذبت يا أبا فصيل ، اجعل بيننا أجلا أنا حبك عليه . والمناحبة : المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رضى اللّه عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده في الخطر ومادّه في الأجل . فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين . ومات أبىّ من جرح رسول اللّه ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك عند رأس سبع سنين . وقيل : كان النصر يوم بدر للفريقين ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى ، وجاء

به إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : تصدّق به . وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوّة ، وأن القرآن من عند اللّه لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا اللّه . وقرئ : غلبهم ، بسكون اللام . والغلب والغلب . مصدران كالجلب والجلب ، والحلب والحلب . وقرئ : غلبت الروم ، بالفتح . وسيغلبون ، بالضم . ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين . وعند انقضاء هذه المدّة أخذ المسلمون في جهاد الروم ، وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين ، فهي في إحداهما إضافة المصدر إلى المفعول . وفي الثانية إضافته إلى الفاعل . ومثالهما مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ . فإن قلت : كيف صحت المناحبة وإنما هي قمار ؟ قلت : عن قتادة رحمه اللّه أنه كان ذلك قبل تحريم القمار . ومن مذهب أبى حنيفة ومحمد : أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار . وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبىّ بن خلف مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ أى في أوّل الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون ، كأنه قيل : من قبل كونهم غالبين ، وهو وقت كونهم مغلوبين . ومن بعد كونهم مغلوبين ، وهو وقت كونهم غالبين ، يعنى أن كونهم مغلوبين أوّلا وغالبين آخرا ليس إلا بأمر اللّه وقضائه وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وقرئ : من قبل ومن بعد ، على الجرّ من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه . كأنه قيل : قبلا وبعدا ، بمعنى أوّلا وآخرا وَيَوْمَئِذٍ ويوم تغلب الروم على فارس

ويحل ما وعده اللّه عزّ وجل من غلبتهم يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له. وغيظ من شمت بهم من كفار مكة. وقيل:

نصر اللّه: هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم وقيل نصر اللّه. أنه ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلمهم، حتى تفانوا وتناقصوا، وفل «1» هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوّة للإسلام. وعن أبى سعيد الخدري: وافق ذلك يوم بدر، وفي هذا اليوم نصر المؤمنون وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ينصر عليكم تارة وينصركم أخرى.

---

(1). قوله «وقل هؤلاء شوكة هؤلاء» أى كسرها. أفاده الصحاح. (ع) [.....]

(121/603)

[سورة الروم (30): الآيات 6 إلى 7]

وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (7)

وَعْدَ اللَّهِ مصدر مؤكد، كقولك: لك علىّ ألف درهم عرفا، لأنّ معناه: أعترف لك بها اعترافا، ووعد اللّه ذلك وعدا، لأنّ ما سبقه في معنى وعد. ذمّهم اللّه عزّ وجل بأنهم عقلاء في أمور الدنيا، بله في أمر الدين، وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب.

وعن الحسن .

بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بإصبعه ، فيعلم أرديء هو أم جيد . وقوله يَعْلَمُونَ بدل من قوله لا يَعْلَمُونَ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا . وقوله ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا يفيد أن للدنيا ظاهرا وباطنا ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم «1» بملاذها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة : يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة . وفي تنكير الظاهر : أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة الظواهر . و«هم» الثانية يجوز أن يكون مبتدأ . وغافِلُونَ خبره ، والجملة خبر «هم» الأولى ، وأن يكون تكريرا للأولى ، وغافلون خبر الأولى . وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها ومعلمها ، وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع .

[سورة الروم (30) : آية 8]

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (8)

فِي أَنْفُسِهِمْ يحتمل أن يكون ظرفا ، كأنه قيل : أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم ، أى : في قلوبهم الفارغة من الفكر ، والتفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال

المتفكرين ، كقولك : اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك ، وأن يكون صلة للتفكر ، كقولك :

تفكر في الأمر وأجال فيه فكره . وما خَلَقَ متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول . وقيل : معناه : فيعلموا ، لأنّ في الكلام دليلا عليه إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى

---

(1) . قال محمود : «يعلمون بدل من الأول ، وفي البدل نكتة وهي الاشعار بأنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين العلم بظاهر الدنيا ، حتى كأنهما شيء واحد ، فأبدل أحدهما من الآخر . وفائدة تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها» قال أحمد : وفي التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله يقربه من النفي حتى يطابق المبدل منه . وروى عن الحسن أنه قال في تلاوته هذه الآية : بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بإصبعه فيعلم أجيد هو أم ردى .

(122/603)

أي ما خلقها باطلا وعبثا بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة : وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه ،

وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ألا ترى إلى قوله تعالى أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثا . والباء في قوله إِلَّا بِالْحَقِّ مثلها في قولك : دخلت عليه بثياب السفر ، واشترى الفرس بسرجه ولجامه ، تريد : اشتراه وهو ملتبس بالسرج واللجام ، غير منفك عنهما . وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به ، فإن قلت : إذا جعلت فِي أَنْفُسِهِمْ صلة للتفكر ، فما معناه ؟ قلت : معناه : أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات ، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها ، فتدبروا ما أودعها اللّه ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ، والمراد بلقاء ربهم : الأجل المسمى .

[سورة الروم (30) : آية 9]

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)

أَوَلَمْ يَسِيرُوا تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمّرين من عاد وثمود وغيرهم من

الأمم العاتية ، ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وحرثوها قال اللّه تعالى لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وقيل لبقر الحرث : المثيرة . وقالوا : سمى ثورا لإثارته الأرض وبقرة ، لأنها تبقرها أى تشقها وَعَمَرُوها يعنى أولئك المدمّرون أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها من عمارة أهل مكة . وأهل مكة : أهل واد غير ذى زرع ، ما لهم إثارة الأرض أصلا ، ولا عمارة لها رأسا فما هو إلا تهكم بهم ، وبضعف حالهم في دنياهم ، لأنّ معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة «1» ، وهم أيضا ضعاف القوى ، فقوله كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً أى عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل ، كقوله أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وإن كان هذا أبلغ ، لأنه خالق القوى والقدر . فما كان تدميره إياهم ظلما لهم ، لأنّ حاله منافية للظلم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم .

---

(1) . قوله «أمر الدهقنة» أي الزراعة (ع)

[سورة الروم (30) : آية 10]

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

قرئ عاقبة بالنصب والرفع. والسُّواى تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أنّ الحسنى تأنيث الأحسن. والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم سوأى إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر، أى: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة، وهي جهنم التي أعدّت للكافرين. وأَنْ كَذَّبُوا بمعنى لأن كذبوا. ويجوز أن يكون أن بمعنى: أى، لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء كانت في معنى القول، نحو: نادى. وكتب، وما أشبه ذلك. ووجه آخر: وهو أن يكون أَساؤُا السُّواى بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا، وأَنْ كَذَّبُوا عطف بيان لها، وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو، إرادة الإبهام.

[سورة الروم (30): آية 11]

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11)

ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أى إلى ثوابه وعقابه. وقرئ بالتاء والياء.

[سورة الروم (30): الآيات 12 إلى 13]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13)

الإبلاس: أى يبقى بائسا ساكنا متحيرا. يقال: ناظرته فأبلس، إذا لم ينبس «1» ويئس من أن يحتجّ. ومنه الناقة المبلاس: التي لا ترغو. وقرئ: يبلس، بفتح اللام، من أبلسه إذا

أسكته مِنْ شُرَكائِهِمْ من الذين عبدوهم من دون اللّه وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ أى يكفرون بإلهيتهم ويجحدونها . أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم . وكتب «شفعواء» في المصحف بواو قبل الألف ، كما كتب «علمؤا بنى إسرائيل» وكذلك كتبت «السوأى» بألف قبل الياء إثباتا للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها .

[سورة الروم (30) : الآيات 14 إلى 16]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (16)

---

(1) . قوله «إذا لم ينبس» أى لم يتكلم . أفاده الصحاح . (ع)

(124/603)

الضمير في يَتَفَرَّقُونَ للمسلمين والكافرين ، لدلالة ما بعده عليه . وعن الحسن رضى اللّه عنه :

هو تفرّق المسلمين والكافرين : هؤلاء في عليين ، وهؤلاء في أسفل السافلين - وعن قتادة رضى اللّه عنه : فرقة لا اجتماع بعدها فِي رَوْضَةٍ في بستان ، وهي الجنة . والتنكير لإبهام

أمرها وتفخيمه. والروضة عند العرب: كل أرض ذات نبات وماء. وفي أمثالهم: أحسن من بيضة في روضة، يريدون: بيضة النعامة يُحْبَرُونَ يسرون. يقال: حبره إذا سرّه سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره. ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسارّ، فعن مجاهد رضى اللّه عنه:

يكرمون. وعن قتادة: ينعمون. وعن ابن كيسان: يحلون. وعن أبى بكر بن عياش: التيجان على رءوسهم. وعن وكيع: السماع في الجنة. وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم: أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم «1»، وفي آخر القوم أعرابىّ فقال: يا رسول اللّه، هل في الجنة من سماع؟

قال: «نعم يا أعرابى، إنّ في الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية، يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط، فذلك أفضل نعيم الجنة» قال الراوي: فسألت أبا الدرداء، بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح. وروى «إنّ في الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة» فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث اللّه ريحا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتحرّك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا «2»» مُحْضَرُونَ لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم، كقوله:

وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ.

[سورة الروم (30): الآيات 17 إلى 19]

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (19)

لما ذكر الوعد والوعيد ، أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجى من الوعيد . والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه اللّه من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدّد فيها من نعمة اللّه الظاهرة . وقيل : الصلاة . وقيل لابن عباس رضى اللّه عنهما : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال : نعم ، وتلا هذه الآية تُمْسُونَ صلاتا المغرب والعشاء تُصْبِحُونَ صلاة

---

(1) . في طريق سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد اللّه الجنبي عن عمه أبى مشجعة عن أبى الدرداء قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يذكر الناس فذكر الجنة وما فيها . . . الحديث» وسليمان منكر الحديث .

(2) . أخرجه الثعلبي من رواية عبد اللّه بن عرادة الشيباني أحد الضعفاء عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم بهذا . وروى إسحاق في مسنده من رواية مجاهد قيل لأبى هريرة «هل في الجنة من سماع ؟ قال نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من الفضة وثمرها الياقوت والزبرجد يبعث لها ريح فيحرك بعضها بعضا . فما سمع شيء قط أحسن منه» .

الفجر وَعَشِيًّا صلاة العصر . وتُظْهِرُونَ صلاة الظهر . وقوله وَعَشِيًّا متصل بقوله حِينَ تُمْسُونَ وقوله وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ اعتراض بينهما . ومعناه : إنّ على المميزين كلهم من أهل السماوات والأرض أن يحمدوه . فإن قلت : لم ذهب الحسن رحمه اللّه إلى أنّ هذه الآية مدنية ؟ قلت : لأنه كان يقول : فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم . والقول الأكثر أنّ الخمس إنما فرضت بمكة . وعن عائشة رضى اللّه عنها : فرضت الصلاة ركعتين «1» فلما قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة أقرّت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل : فسبحان اللّه حين تمسون وحين تصبحون . . . الآية «2»» وعنه عليه السلام «من قال حين يصبح فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ - إلى قوله - وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ أدرك ما فاته في يومه . ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته في ليلته «3»» وفي قراءة عكرمة :

حينا تمسون وحينا تصبحون . والمعنى : تمسون فيه وتصبحون فيه ، كقوله يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً بمعنى فيه الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ الطائر من البيضة ، والْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

البيضة من الطائر . وإحياء الأرض : إخراج النبات منها وَكَذِلِكَ تُخْرَجُونَ ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون . والمعنى : أنّ الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحىّ وإخراج الحي من الميت وإحياء الميت وإماتة الحي . وقرئ : الميت ، بالتشديد «4» . وتخرجون ، بفتح التاء .

[سورة الروم (30) : الآيات 20 إلى 21]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ لأنه خلق أصلهم منه . وإذا للمفاجأة . وتقديره : ثم فاجأتم وقت كونكم بشرا منتشرين في الأرض ، كقوله وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً . مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لأن حوّاء خلقت من ضلع آدم عليه السلام ، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال . أو من شكل أنفسكم وجنسها ، لا من جنس آخر ، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألف والسكون ،

---

(1) . متفق عليه من حديث عائشة واللفظ لأحمد وسياقه أتم

(2) . أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط .

(3) . أخرجه أبو داود والعقيلي وابن عدى من حديث ابن عباس . وإسناده ضعيف .

وقال البخاري: لا يصح.

(4). قوله «و قرئ الميت بالتشديد» يفيد أن القراءة المشهورة بالتخفيف. (ع)

(126/603)

وما بين الجنسين المختلفين من التنافر وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ التوادّ والتراحم بعصمة الزواج، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة، ولا لقاء، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم وعن الحسن رضى اللّه عنه: المودة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد، كما قال وَرَحْمَةً مِنَّا وقال: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ. ويقال: سكن إليه، إذا مال إليه، كقولهم: انقطع إليه، واطمأن إليه- ومنه السكن. وهو الإلف المسكون إليه. فعل بمعنى مفعول. وقيل: إن المودة والرحمة من قبل اللّه وإن الفرك من قبل الشيطان «1».

[سورة الروم (30): آية 22]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (22)

الألسنة: اللغات. أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدّة، ولا رخاوة، ولا

فصاحة ، ولا لكنة ، ولا نظم ، ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنويعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية ، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما ، وتعرف حكمة اللّه في المخالفة بين الحلىّ وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد ، وفرّعوا من أصل فذ ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا اللّه مختلفون متفاوتون . وقرئ : للعالمين بفتح اللام وكسرها ، ويشهد للكسر قوله تعالى وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ .

[سورة الروم (30) : آية 23]

وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23)

هذا من باب اللفّ وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار ، إلا أنه فصل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين . لأنهما زمانان . والزمان والواقع فيه كشيء واحد ، مع إعانة اللفّ على الاتحاد . ويجوز أن يراد : منامكم في الزمانين ، وابتغاءكم فيهما ، والظاهر هو الأول لتكرّره في القرآن ، وأسدّ المعاني ما دل عليه القرآن يسمعونه بالآذان الواعية .

---

(1) . قوله «وإن الفرك من قبل الشيطان» في الصحاح «الفرك» بالكسر : البغض . (ع)

[سورة الروم (30) : آية 24]

وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)

فِي يُرِيكُمُ وجهان : إضماران ، وإنزال الفعل منزلة المصدر ، وبهما فسر المثل : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . وقول القائل :

وقالوا ما تشاء فقلت ألهو إلى الإصباح آثر ذى أثير «1»

خَوْفاً من الصاعقة أو من الإخلاف وَطَمَعاً في الغيث . وقيل : خوفا للمسافر ، وطمعا للحاضر ، وهما منصوبان على المفعول له . فإن قلت : من حق المفعول له أن يكون فعلا لفاعل الفعل المعلل ، والخوف والطمع ليسا كذلك . قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن المفعولين فاعلون في المعنى ، لأنهم راءون ، فكأنه قيل : يجعلكم رائين البرق خوفا وطمعا . والثاني : أن يكون على تقدير حذف المضاف ، أى : إرادة خوف وإرادة طمع «2» ، فحذف المضاف وأقيم المضاف

(1) أرقت وصحبتي بمضيق عمق لبرق من تهامة مستطير

سقونى الخمر ثم تكنفوني عداة اللّه من كذب وزور

وقالوا ما تشاء فقلت ألهو إلى الإصباح آثر ذى أثير

لعروة بن الورد العبسي ، وأرقت : سهرت . والواو للمعية . والمضيق المكان الضيق .

وعمق - بكسر فسكون - :

شجر ببلاد الحجاز ، وبضم ففتح : موضع منخفض عند مكة ، ولعله سكن هنا للوزن ، ولبرق : متعلق بأرقت ، أى سهرت في هذا الموضع لأجل برق من تهامة جهة محبوبتى ، ويحتمل أن الواو حالية ، وصحبتي مبتدأ خبره بمضيق عمق ، وإذا كان أصحابه فيه فهو فيه ، فرجع إلى الأول ، ومستطير : منتشر . وروى : سقونى النسيء . ونسأت اللبن : خلطته بماء ، فالنسىء : هو اللبن المخلوط بماء ، وتكنفوني : أحاطوا بى ، وعداة : جمع عاد بمعنى عدو .

وقيل : جمع عدو ، أى : هم أعداء اللّه من أجل كذبهم وزورهم ، وهي جملة اعتراضية ، ويحتمل أن «عداة» بدل من ضمير الفاعل . أو فاعل على لغة من قال : أكلونى البراغيث ، أى : أحاطوا بى وقالوا : ما الذي تريده ، فقلت : ألهو ، أى : هو أن ألهو ، فأن : مقدرة معنى ، وإن لم ينصب الفعل لفظا . وقال الجوهري : يقال افعل هذا آثر ذى أثير ، أى : أول كل شيء ، فأشار إلى أن آثر : نصب على الظرفية المجازية أو الحالية ، أى افعله حال كونه أول كل شيء يؤثر ، فهو أفعل تفضيل بمعنى المفعول ، ونص ابن الحاجب على جواز ذلك

وورودہ قلیلا ، وأثرہ بقصر الھمزۃ ومدھا : إذا قدمہ علی غیرہ ، وأثیر : اسم مفعول بمعنی مأثور . أو حقیق بالتقدم ، فالمعنی : أول کل شيء صاحب شيء مأثور ، فیکون ھو الأثیر المقدم . أو التقدیر : لھوی طول اللیل ھو المقدم عندي .

(2) . قال محمود : فان قلت : أینصب خوفا وطمعا مفعولا لھما ولیسا فعلی فاعل الفعل المعلل ، فما وجہ ذلك ؟ قلت :

المفعولون ھنا فاعلون لأنھم راءون ، فتقدیرہ : یجعلکم رائین البرق خوفا وطمعا . أو علی حذف مضاف ، تقدیرہ : إرادۃ خوفکم وطمعکم» قال أحمد : الخوف والطمع من جملۃ مخلوقات اللّٰہ تعالی وآثار قدرتہ ، وحینئذ یلزم اجتماع شرائط النصب فیھما وھي کونھما مصدرین ومقارنین في الوجود ، والفاعل الخالق واحد ، فلا بد من التنبیہ علی تخریج النصب علی غیر ھذا الوجہ ، فنقول : معنی قول النحاۃ في المفعول لہ لا بد وأن یکون فعل الفاعل ، أی : ولا بد أن یکون الفاعل متصفا بہ ، مثالہ إذا قلت : جئتك إکراما لك ، فقد وصفت نفسك بالإکرام فقلت في المعنی : جئتك مکرما لك ، واللّٰہ تعالی – وإن خلق الخوف والطمع لعبادہ – إلا أنہ مقدس عن الاتصاف بھما ، فمن ثم احتیج إلی تأویل النصب علی المذھبین جمیعا . واللّٰہ أعلم .

(128/603)

إليه مقامه . ويجوز أن يكونا حالين ، أى : خائفين وطامعين . وقرئ : ينزل بالتشديد «1» .

[سورة الروم (30) : الآيات 25 إلى 26]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (26)

وَمِنْ آياتِهِ قيام السماوات والأرض واستمساكهما بغير عمد بِأَمْرِهِ أى بقوله : كونا قائمتين . والمراد بإقامته لهما : إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال . وقوله إِذا دَعاكُمْ بمنزلة قوله : يريكم ، في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى ، كأنه قال : ومن آياته قيام السماوات والأرض ، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة : يا أهل القبور اخرجوا .

والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث ، كما يجيب الداعي المطاع مدعوّه ، كما قال القائل :

دعوت كليبا دعوة فكأنّما دعوت به ابن الطّود أو هو أسرع «2»

يريد بابن الطود : الصدى ، أو الحجر إذا تدهدى ، وإنما عطف هذا على قيام السماوات والأرض بثم ، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل

القبور ، قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر» كما قال تعالى ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ . قولك : دعوته من مكان كذا ، كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك ، تقول : دعوت زيدا من أعلى الجبل فنزل عليّ ، ودعوته من أسفل

---

(1) . قوله «و قرئ ينزل بالتشديد» يفيد أن المشهور بالتخفيف . (ع)

(2) . يقول : دعوت كليبا . ويروى : خليدا ، دعوة واحدة فأجابني بسرعة كأنى دعوت به ابن الطود : وهو الجبل العظيم ، وابنه الصدى : الذي يحاكى صوت الصائح عقب صياحه . أو : الحجر إذا هوى منه متدحرجا متدحرجا إلى أسفل . وسمى ابنه على سبيل الاستعارة التصريحية ، لأنه ناشئ منه وملازم له ، ثم إن فيه تجريدا حيث انتزع من كليب أمرا آخر يشبه ابن الطود في السرعة ، والباء للملابسة ، أى كأنى دعوت ابن الطود ملابسا له . ويحتمل أنها للبدل ، أى : دعوت بدله ابن الطود . أو بمعنى من ، أى : دعوت منه ابن الطود . وقوله : أو هو ، أى : كليب أسرع من ابن الطود في الاجابة . [. . . . .]

الوادي فطلع إلىّ. فإن قلت: بم تعلق مِنَ الْأَرْضِ أبالفعل أم بالمصدر؟ قلت: هيهات، إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل. فإن قلت: ما الفرق بين إذا وإذا؟ قلت: الأولى للشرط، والثانية للمفاجأة، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط. وقرئ: تخرجون، بضم التاء وفتحها قانِتُونَ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه.

[سورة الروم (30): آية 27]

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم، لأنّ من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها، وتعتذرون للصانع إذا خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم: أوّل الغزو أخرق، وتسمون الماهر في صناعته معاودا، تعنون أنه عاودها كرّة بعد أخرى، حتى مرن عليها وهانت عليه. فإن قلت: لم ذكر الضمير في قوله وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ والمراد به الإعادة؟ قلت: معناه: وأن يعيده أهون عليه. فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وقدّمت في قوله هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ «1»؟ قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه، فقيل: هو عليّ هين، وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هم «2» وعاقر، وأما هاهنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. فإن قلت: ما بال

الإعادة استعظمت في قوله ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ حتى كأنها فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره «3» ، ثم هوّنت بعد ذلك ؟ قلت :

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : لم أخرت الصلة ها هنا وقد قدمت في قوله تعالى هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ؟ قلت : لأن المقصود مما نحن فيه خلاف المقصد هناك ، فانه اختصاص اللّه تعالى بالقدرة على إيلاد الهم والعاقر ، وأما المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه ، كيف والأمر مبنى على ما يعتقدونه في الشاهد من أن الاعادة أسهل من الابتداء ، فالاختصاص بغير المعنى» قال أحمد : كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر ، وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر ، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك .

(2) . قوله «أن يولد بين همّ وعاقر» في الصحاح «الهم» بالكسر . الشيخ الفاني . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت : ما بال الاعادة استعظمت في قوله ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ حتى كأنها فضلت على قيام السماوات والأرض ؟ قلت : الاعادة في نفسها عظيمة ، ولكنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء» قال أحمد : إنما يلقى في السؤال تعظيم الاعادة من عطفها بثم ، إيذانا بتغاير مرتبتها وعلو شأنها . وقوله في الجواب : إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء لا يخلص ، فان الاعادة ذكرت ها هنا عقيب قيام السماوات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الاعادة ، فيلزم تعظيم الاعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن الإنشاء ويعود الاشكال ، والمخلص - واللّه أعلم - جعل ثم على بابها لتراخى الزمان لا لتراخي المراتب

، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا . وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب ، فان المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم .

(130/603)

الإعادة في نفسها عظيمة ، ولكنها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء . وقيل الضمير في عليه للخلق .

ومعناه : أنّ البعث أهون على الخلق من الإنشاء ، لأن تكوينه في حدّ الاستحكام ، والتمام أهون عليه وأقل تعبا وكبدا ، من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحدّ .

وقيل :

الأهون بمعنى الهين . ووجه آخر : وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله ، والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بدّ له من فعله ، لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب «1» ، والأفعال : إما محال والمحال ممتنع أصلا «2» خارج عن المقدور ، وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح ، وهو رديف المحال ، لأنّ الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة . وإما تفضل والتفضل حالة بين بين ، للفاعل

أن يفعله وأن لا يفعله . وإما واجب لا بدّ من فعله ، ولا سبيل إلى الإخلال به ، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول . فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب ، كانت أبعد الأفعال من الامتناع .

وإذا كانت أبعدها من الامتناع ، كانت أدخلها في التأتي والتسهل ، فكانت أهون منها «3» . وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به . ووصف في السماوات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ، ويدل عليه قوله تعالى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي القاهر لكل مقدور ، الحكيم الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه . وعن مجاهد : المثل الأعلى : قول لا إله إلا اللّه ، ومعناه : وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية . ويعضده قوله تعالى ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ وقال الزجاج : وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، أي : قوله تعالى وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل . يريد : التفسير الأوّل .

---

(1) . قوله «وجزاؤها واجب . . . الخ» هذا عند المعتزلة ، ولا يجب على اللّه شيء عند أهل السنة كما تقدم في محله . (ع)

(2) . عاد كلامه : قال في تقرير معنى قوله وهو أهون عليه : الأفعال إما ممتنع عقلا لذاته ، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله . وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وأن

لا . وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالانشاء الأول من قبيل التفضل ، وأما الاعادة فواجبة على اللّه تعالى لأجل الجزاء ، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع ، فلذلك وصفت بالتسهيل وكانت أهون من الإنشاء» قال أحمد : لقد ضل وصد عن السبيل ، فلا نوافقه ولا ترافقه ، والحق : أن لا واجب على اللّه تعالى ، وكل ما ذكره في هذا الفصل نزغات قدرية ، على أنها أيضا غير مستقيمة على أصولهم المجتثة ، فان مقتضاها وجوب الإنشاء في الحكمة ، إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع ، وتلك المصلحة توجب متعلقها ، فقد وضح أن المصنف لا إلى معالى السنة رقى ، ولا في حضيض الاعتزال بقي ، فللّه العصمة .

(3) . قوله فكانت أهون منها» أى من بقية الأفعال . (ع)

(131/603)

[سورة الروم (30) : آية 28]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)

فإن قلت : أى فرق بين الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، مِمَّا مَلَكَتْ

أَيمانُكُمْ ، مِنْ شُرَكاءَ ؟ قلت : الأولى للابتداء ، كأنه قال : أخذ مثلا وانتزعه من أقرب . شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد ، والثانية للتبعيض ، والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي . ومعناه : هل ترضون لأنفسكم - وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد - أن يشارككم بعضهم فِي ما رَزَقْناكُمْ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء ، من غير تفصلة بين حرّ وعبد : تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم ، وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضا من الأحرار ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم ، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء ؟ كَذلِكَ أى مثل هذا التفصيل نُفَصِّلُ الْآياتِ أى نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها ، لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها .

ألا ترى كيف صوّر الشرك بالصورة المشوّهة ؟

[سورة الروم (30) : آية 29]

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (29)

الَّذِينَ ظَلَمُوا أى أشركوا ، كقوله تعالى : إنّ الشرك لظلم عظيم بِغَيْرِ عِلْمٍ أى اتبعوا أهواءهم جاهلين ، لأنّ العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه . وأما الجاهل فيهيم على وجهه كالبهيمة لا يكفه شيء مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ من خذله « 1 » ولم يلطف به ، لعلمه أنه ممن لا لطف له ، فمن يقدر على هداية مثله . وقوله وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ دليل على أن المراد بالإضلال

الخذلان .

[سورة الروم (30) : الآيات 30 إلى 32]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30)

---

(1) . قوله «من أضل اللّه : من خذله» تأويل الإضلال بذلك مبنى على أنه تعالى لا يخلق الشر ، وهو مذهب المعتزلة ، وذهب أهل السنة إلى أنه يخلق الشر كالخير ، فالآية على ظاهرها . (ع)

(132/603)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ فقوّم وجهك له وعدّله ، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين ، واستقامته عليه ، وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإنّ من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه ، وسدّد إليه نظره ، وقوّم له وجهه ، مقبلا به عليه . وحَنِيفاً حال من المأمور . أو من الدين فِطْرَتَ اللَّهِ أى الزموا فطرة اللّه . أو عليكم فطرة اللّه . وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ومنيبين : حال من الضمير في : الزموا . وقوله وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا . . . وَلا تَكُونُوا معطوف على هذا المضمر . والفطرة : الخلقة . ألا ترى إلى قوله لا

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ والمعنى : أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام ، غير نائين عنه ولا منكرين له ، لكونه مجاوبا للعقل ، مساوقا للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن . ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين «1» عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى «2»» وقوله عليه السلام : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصرانه» «3» لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ أى ما ينبغي أن تبدّل تلك الفطرة أو تغير . فإن قلت : لم وحد الخطاب أولا ، ثم جمع ؟ قلت : خوطب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أولا ، وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام ، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص مِنَ الَّذِينَ بدل من المشركين فَرَّقُوا دِينَهُمْ تركوا دين الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 3 صـ 466. 479 ﴾

---

(1) . قوله «فاجتالتهم الشياطين» أدارتهم . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه مسلم من حديث عياض بن حمار به وأتم منه .

(3) . متفق عليه من حديث أبى هريرة .

وقال ابن جزى :

﴿ الم * غُلِبَتِ الروم ﴾

أي هزم كسرى ملك الفرس جيش ملك الروم ، وسميت الروم باسم جدهم وهو روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم .

﴿ فِي أَدْنَى الأرض ﴾ قيل : هي الجزيرة ، وهي بين الشام والعراق وهي أدنى أرض الروم إلى فارس ، وقيل في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ إخبار بأن الروم سيغلبون الفرس .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ رُوي أن غَلَب الروم فارس وقع يوم بدر ، وقيل : يوم الحديبية ففرح المؤمنون بنصر الله لهم على كفار قريش وقيل : فرح المؤمنون بنصر الروم على الفرس ، لأن الروم أهل كتاب فهم أقرب إلى الإسلام ، كذلك فرح الكفار من قريش بنصر الفرس على الروم ، لأن الفرس ليسوا بأهل كتاب ، فهم أقرب إلى كفار قريش ، وروي أنه لما فرح الكفار بذلك خرج إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فقال : إن نبينا صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون ، وراهنهم على عشرة قلاص [القلاص مفردها : قلوص وهي الناقة الشابة] إلى ثلاث سنين ، وذلك قبل أن يحرم القمار ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : زدهم في الرهن واستزدهم في الأجل ، فجعل القلاص مائة ، والأجل تسعة أعوام ، وجعل

معه أبيّ بن خلف مثل ذلك ، فلما وقع الأمر على ما أخبر به أخذ أبو بكر القلاص من ذرية أبيّ بن خلف ، إذ كان قد مات وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : تصدق بها .

﴿ وَعْدَ الله ﴾ مصدر مؤكد كقوله : له علي ألف درهم عُرفاً ، لأن معناه اعترفت له بها اعترافاً .

(134/603)

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً ﴾ قيل : معناه يعلمون ما يدرك بالحواس دون ما يدرك بالعقول ؛ فهم في ذلك مثل البهائم : وقيل : الظاهر ما يعلم بالنظر بأوائل العقول ، والباطن ما يعلم بالنظر والدليل ، وقيل : هو من الظهور بمعنى العلو في الدنيا ، وقيل : ظاهر بمعنى زائل ذاهب ، والأظهر أنه أراد بالظاهر المعرفة بأمور الدنيا ومصالحها ، لأنه وصفهم بعد ذلك بالغفلة عن الآخرة ، وذلك يقتضي عدم معرفتهم بها ، وانظر كيف نفى العلم عنهم أولاً ، ثم أثبت لهم العلم بالدنيا خاصة ، وقال بعض أهل البيان : إن هذا من المطابقة لاجتماع النفي والإثبات ، وجعل بعضهم العلم المثبت كالعدم لقلة منفعته ، فهو على هذا بيان النفي .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن تكون النفس ظرفاً للفكرة في

خلق السموات والأرض كأنه قال : أو لم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله خلق السموات والأرض إلا بالحق ، والثاني أي يكون المعنى أولم يتفكروا في ذواتهم وخلقتهم ليستدلوا على الخالق ، ويكون قوله : ما خلق الآية : استئناف كلام ، والمعنى الأول أظهر .

﴿ وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ أي حرثوها .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ السواءى ﴾ معنى السوآى : هلاك الكفار ، ولفظ السوآى تأنيث الأسوأ : كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ، وقرئ عاقبة بالرفع على أنه اسم كان ، والسوآى خبرها ، وقرئ بنصب عاقبة على أنها خبر كان ، والسوآى اسمها ، وإن كذبوا مفعول من أجله ، ويحتمل أن تكون السوآى مصدر أساؤوا .

﴿ يُبْلِسُ المجرمون ﴾ الإبلاس الكون في شر من اليأس من الخير .

﴿ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ معناه في المنازل والجزاء .

﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ تنعمون من الحبور وهو السرور والنعيم ، وقيل : تكرمون .

(135/603)

﴿ فَسُبْحَانَ الله ﴾ هذا تعليم للعباد أي : قولوا سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴿ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ أي حين تدخلون في وقت الظهيرة وهي وسط النهار ،

وقوله : ﴿ وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض ﴾ : اعتراض بين المعطوفات وقيل : أراد بذلك الصلوات الخمس ، ف ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ المغرب والعشاء ، ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ : الصبح ، ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ : العصر ، ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ : الظهر .

﴿ يُخْرِجُ الحي ﴾ ذكر في آل عمران ﴿ وَيُحْيِ الأرض ﴾ أي ينبت فيها النبات ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي كما يخرج الله النبات من الأرض ، كذلك يخرجكم من الأرض للبعث يوم القيامة ﴿ تَنتَشِرُونَ ﴾ أي تنصرفون في الدنيا .

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي صنفكم وجنسكم ، قيل أراد خلقة حواء من ضلع آدم ، وخاطب الناس بذلك لأنهم ذرية آدم ﴿ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ قيل : بسبب المصاهرة ، والعموم أحسن وأبلغ ﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي لغاتكم ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ يعني البياض والسواد ، وقيل : يعني أصنافكم ، والأول أظهر .

﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ ذكر في [الرعد : 12] .

﴿ أَن تَقُومَ السمآء والأرض ﴾ معناه تثبت أو يقوم تدبيرها ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ إذا الأولى شرطية ، والثانية فجائية وهي جواب الأولى ، والدعوة في هذه الآية قوله للموتى : قوموا بالنفخة الثانية في الصور ، ومن الأرض يتعلق بقوله مخرجون أو بقوله دعاكم ، على أن تكون الغاية بالنظر إلى المدعوّ كقولك : دعوتك من الجبل

إذا كان المدعو في الجبل .

﴿ قَانِتُونَ ﴾ ذكر في [البقرة : 116] .

(136/603)

﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ أي الإعادة يوم القيامة أهون عليه من الخلقة الأولى ، وهذا تقريب لفهم السامع وتحقيق للبعث ، فإن من صنع صنعة أول مرة كانت أسهل عليه ثاني مرة ، ولكن الأمور كلها متساوية عند الله ، فإن كل شيء على الله يسير ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ أي الوصف الأعلى الذي يصفه به أهل السموات والأرض .

﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَآءَ ﴾ هذا هو المثل المضروب معناه : أنكم أيها الناس لا يشارككم عبيدكم في أموالكم ، ولا يستوون معكم في أحوالكم ، فكذلك الله تعالى لا يشارك عبيده في ملكه ، ولا يماثله أحد في ربوبيته ، فذكر حرف الاستفهام ومعناه : التقرير على النفي ، ودخل في النفي قوله : ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ : أي لستم في أموالكم سواء مع عبيدكم ، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم ، لأن العبيد عندكم أقل وأذل من ذلك .

﴿ بَلِ اتبع الذين ظلموا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ الإضراب ببل عما تضمنه معنى الآية المتقدمة كأنه

يقول : ليس لهم حجة في إشراكهم بالله ؛ بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ هو دين الإسلام ، وإقامة الوجه في الموضعين من السورة عبارة عن الإقبال عليه والإخلاص فيه في قوله : ﴿ فَأَقِمْ ﴾ ، و ﴿ القيم ﴾ ضرب من ضروب التجنيس ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ منصوب على المصدر : كقوله : صبغة الله أو مفعولاً بفعل مضمر تقديره : الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله ، ومعناه خلقة الله ، والمراد به دين الإسلام ، لأن الله خلق الخلق عليه ، إذ هو الذي تقتضيه عقولهم السليمة ، وإنما كفر من كفر لعارض أخرجه عن إصل فطرته ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه" .

(137/603)

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ يعني بخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان ، ومعنى أن الله لا يبدلها ، أي لا يخلق الناس على غيرها ، ولكن يبدلها شياطين الإنس والجن بعد الخلقة الأولى ، أو يكون المعنى أن تلك الفطرة لا ينبغي للناس أن يبدلوها ، فالنفي على هذا حكم لا خبر وقيل : إنه على الخصوص في المؤمنين ؛ أي لا تبديل لفطرة الله في حق من قضى

الله أنه يثبت على إيمانه ، وقيل : إنه نهى عن تبديل الخلقة كخصاء الفحول من الحيوان ، وقطع آذانها وشبه ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 120 . 123 ﴾

(138/603)

وقال الخازن :

قوله ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾

سبب نزول هذه الآية على ما ذكره المفسرون أنه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم لأن فارساً كانوا مجوساً أميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يقال له شهرمان وبعث قيصر رجالاً وجيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعى بخين فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي آدنى الشام إلى أرض العرب والعجم فغلبت فارس الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق عليهم وفرح به كفار مكة ، وقالوا للمسلمين : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وفارس أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم فإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله هذه الآيات فخرج أبو بكر الصديق إلى كفار مكة فقال : فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا فوالله ليظهرن الروم على الفرس .

أخبرنا بذلك نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) فقال إليه أبي بن خلف الجمحي فقال كذبت : فقال أنت أكذب يا عدو الله فقال : اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه والمناحبة بالحاء المهملة القمار والمراهنة أراهنك على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فإذا ظهرت فارس على الروم غرمت وإذا ظهرت الروم على فارس غرمت ففعلوا وجعلوا الأجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبره بذلك قبل تحريم القمار .

(139/603)

فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : " ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر ومادده في الأجل فخرج أبو بكر فلقي أبيّاً فقال لعلك ندمت فقال لا فتعال أزايدك في الخطر وأماددك في الأجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين فقال قد فعلت فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه ولزمه وقال : إني أخالف أن تخرج من مكة فأقم لي ضماناً كفيلاً فكفله ابنه عبد الله بن أبي بكر فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه وقال والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً فأعطاه كفيلاً ثم خرج إلى أحد قال : ثم رجع أبي بن خلف إلى مكة ومات بها من

جراحته التي جرحه النبيّ (صلى الله عليه وسلم) حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك على رأس سبع سنين ومن مناحبتهم وقيل كان يوم بدر وربطت الروم خيولهم بالمدائن وبنوا بالعراق مدينة وسموها رومية فقمر أبو بكر أبيّاً وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به للنبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك قبل أن يحرم القمار فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) تصدق به "

كان سبب غلبة الروم فارساً على ما قال عكرمة وغيره : أن شهرمان لما غلب الروم لم يزل يطؤهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم قال لأصحابه : لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى فبلغت كلمته كسرى فكتب إلى شهرمان إذا أتاك كتابي فابعث إلي برأس أخيك فرحان فكتب إليه أيها الملك إنك لم تجد مثل فرحان إن له لنكاية وصولة في العدو ، فلا تفعل فكتب إليه إن في رجال فارس خلفاً عنه فعجل إليَّ برأسه فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه وبعث بريداً إلى أهل فارس إني قد عزلت عنكم شهرمان واستعملت عليكم فرحان ثم بعث مع البريد صحيفة صغيرة وأمره فيها بقتل شهرمان .

(140/603)

وقال إذا ولي فرحان الملك وانقاد له أخوه فأعطه الصحيفة ، فلما وصل البريد إلى شهرمان عرض عليه كتاب كسرى فلما قرأه قال : سمعاً وطاعة ونزل عن سرير الملك وأجلس عليه أخاه فرحان فدفع البريد الصحيفة إلى فرحان فلما قرأها : استدعى بأخيه شهرمان وقدمه ليضرب عنقه فقال له لا تعجل حتى أكتب وصيتي قال نعم فدعا بسفط ففتحه وأعطاه ثلاث صحائف منه وقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت تريد قتلي بكتاب واحد فرد فرحان الملك إلى أخيه شهرمان فكتب إلى قيصر ملك الروم ؛ أما بعد إن لي إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصحف فالقني في خمسين روميا حتى ألقاك في خمسين فارسياً فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق مخافة أن يريد أن يمكر به حتى أتاه عيونه فأخبروا أنه ليس معه إلا خمسون فارسياً ، فلما التقيا ضرب لهما فيها ديباج فدخلاها ومع كل واحد سكين ودعوا بترجمان يترجم بينهما فقال شهرمان : إن الذي خرب بلادك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن يقتل أخي فأبيت عليه ثم أمر أخي بقتلي فأبى عليه ، وقد خلعناه جميعاً ونحن نقاتله معك فقال : قد أصبتما وأشار أحدهما إلى صاحبه أن السرين اثنين فإذا جاوزهما فشا .

فقتلا الترجمان معاً بسكينيهما فأديلت الروم على فارس عند ذلك وغلبوهم وقتلوهم ومات كسرى جاء الخبر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الحديبية ففرح ومن كان

معه من المسلمين بذلك فذلك قوله ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾ يعني أقرب أرض الشام إلى فارس وقيل هي أذرعات وقيل الأردن وقيل الجزيرة ﴿ وهم من بعد غلبهم ﴾ أي فارس لهم ﴿ سيغلبون ﴾ أي الروم لفارس .

(141/603)

﴿ في بضع سنين ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى السبع وقيل إلى التسع وقيل ما دون العشر ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أي من قبل دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه وقدره ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ أي الروم على فارس وقيل فرح النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وفرحوا بظهور أهل الكتاب على أهل الشرك ﴿ بنصر من يشاء ﴾ أي بيده النصر ينصر من يشاء ﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب ﴿ الرحيم ﴾ أي بالمؤمنين قوله تعالى ﴿ وعد الله ﴾ أي وعد الله وعداً بظهور الروم على فارس ﴿ لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي أن الله لا يخلف وعده ؛ ثم قال تعالى ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ يعني معاشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وقال الحسن إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لا يخطىء وهو لا يحسن يصلي .

وقيل : لا يعلمون الدنيا بحقيقتها إنما يعلمون ظاهرها وهو ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهو مضارها ومتاعبها .

وقيل يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها ﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ أي ساهون عنها لا يتفكرون فيها ولا يعلمون بها .

(142/603)

قوله : ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ يعني لإقامة الحق ﴿ وأجل مسمى ﴾ أي لوقت معلوم إذا انتهت إليه فنيت وهو يوم القيامة ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون أولم يسيروا في الأرض ﴾ أي يسافروا فيها ﴿ فينظرو كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ أي ينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا ﴿ كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض ﴾ أي حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿ وعمروها ﴾ يعني الأمم الخالية ﴿ أكثر مما عمروها ﴾ يعني أهل مكة ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي فلم يؤمنوا فأهلكهم الله ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ أي بنقص حقوقهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي ببخس حقوقهم ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا ﴾ أي أساءوا العمل فاستحقوا ﴿ السوأى ﴾ يعني الخلة التي تسوءهم وهي النار وقيل السوء اسم لجهنم

، ومعنى الآية أن عاقبة الذين عملوا السوء النار ﴿ أن كذبوا ﴾ أي لأنهم كذبوا وقيل معنى الآية ثم كان عاقبة المسيئين أن حملتهم تلك السيئات على أن كذبوا ﴿ بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ قوله تعالى ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي خلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد الموت أحياء ﴿ ثم إليه يرجعون ﴾ أي فيجزيهم بأعمالهم ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ قيل : معناه أنهم ييأسون من كل خير وقيل : ينقطع كلامهم وحججهم وقيل يفتضحون ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم ﴾ يعني أصنامهم التي عبدوها ﴿ شفعاء ﴾ أي يشفعون لهم ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ أي جاحدين متبرئين يتبرؤون منها وتتبرأ منهم ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ أي يتميز أهل الجنة من أهل النار .

(143/603)

وقيل يتفرقون بعد الحساب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار فلا يجتمعون أبداً فهو قوله تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة ﴾ أي في جنة وقيل الروضة البستان الذي هو في غاية النضارة ﴿ يحبرون ﴾ قال ابن عباس يكرمون وقيل يتنعمون ويسرون والحبرة السرور .

وقيل في معنى يحبرون : هو السماع في الجنة .

قال الأوزاعي : ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم وقال : إذا أخذ السماع فلا يبقى في الجنة شجرة إلا وردته ، وسأل أبا هريرة رجل : هل لأهل الجنة من سماع ؟ فقال : نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من فضة وثمارها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت يبعث الله ريحاً فيجاوب بعضها بعضاً فما يسمع أحد أحسن منه ﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ أي البعث يوم القيامة ﴿ فأولئك في العذاب محضرون ﴾ قوله تعالى ﴿ فسبحان الله ﴾ أي فسبحوا الله ومعناه صلوا لله ﴿ حين تمسون ﴾ أي تدخلون في المساء وهي صلاة المغرب والعشاء ﴿ وحين تصبحون ﴾ أي تدخلون في الصباح وهي صلاة الصبح ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ قال ابن عباس يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له ﴿ وعشيّاً ﴾ أي وصلوا لله عشيّاً يعني صلاة العصر ﴿ وحين تظهرون ﴾ أي تدخلون في الظهيرة وهي صلاة الظهر .

قال نافع ابن الأزرق لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال : نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال : جمعتا الصلوات الخمس ومواقيتها .

(144/603)

واعلم أنه خص هذه الأوقات بالتسبيح لأن أفضل الأعمال أدومها والإنسان لا يقدر أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لأنه محتاج إلى ما يعيشه من مأكول ومشروب وغير ذلك فخفف الله عنه العبادة في غالب الأوقات وأمره بها في أول النهار وفي أول الليل وآخره فإذا صلى العبد ركعتي الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين وكذلك باقي الركعات وهي سبع عشرة ركعة مع ركعتي الفجر فإذا صلى الإنسان الصلوات الخمس في أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقي عليه سبع ساعات في جميع الليل والنهار وهي مقدار النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع أوقاته في التسبيح والعبادة .

فصل في فضل التسبيح

(145/603)

عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " من قال سبحان الله وبحمده في كل يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر " وعنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زيد عليه " أخرجهما الترمذي

وقال فيهما حسن صحيح (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " وهذا الحديث أخرجه في صحيح البخاري (م) عن جويرية بنت الحارث زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) ا : " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) خرج ذات غداة من عندها وهي في مسجدها فرجع بعدما تعالى النهار فقال ما زلت في مجلسك هذا مذ خرجت بعد ؟ قالت نعم فقال : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرار لو وزنت بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته " (م) عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه سلم فقال " أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه قال كيف يكتسب ألف حسنة ؟ قال : يسبح الله مائة تسبيحة فيكتف له ألف حسنة ويحط عنه ألف خطيئة " وفي رواية غير مسلم " يحط عنه أربعين ألفاً " .

قوله تعالى : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ أي يخرج النطفة من الحيوان ويخرج الحيوان من النطفة .

وقيل : يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة .

وقيل يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها ﴾ أي بالمطر وإخراج النبات منها ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض تخرجون من القبور للبعث والحساب ﴿ ومن آياته خلقكم من تراب ﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ أي تنبسطون في الأرض ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي جنسكم من بني آدم وقيل خلق حواء من ضلع آدم ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أي لتميلوا للأزواج وتألفوهن ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ أي جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب التعاطف وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير تراحم بينهما إلا الزوجان ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي في عظمة الله وقدرته ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم ﴾ أي اختلاف اللغات العربية والعجمية وغيرهما وقيل أراد أجناس النطق وأشكاله خالف بينهما حتى لا تكاد تسمع منطقين حتى لو تكلم جماعة من وراء حائط يعرف كل منهم بنطقه ونغمته لا يشبه صوت أحد صوت الآخر ﴿ وألوانكم ﴾ أي أسود وأبيض وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الألوان وأنتم بنو رجل واحد ومن أصل واحد وهو آدم عليه السلام.

الحكمة في اختلاف الأشكال والأصوات للتعارف أي ليعرف كل واحد بشكله وحليته

وصوته وصورته فلو اتفقت الأصوات والصور وتشاكلت وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وليعرف صاحب الخلق من غيره والعدو من الصديق والقريب من البعيد فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد .

(147/603)

وفي ذلك دليل على سعة القدرة وكمال العظمة ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ أي لعموم العلم فيهما ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾ أي منامكم الليل للراحة وابتغاءكم من فضله وهو طلب أسباب المعيشة بالنهار ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أي سماع تدبر واعتبار ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً ﴾ أي للمسافر ليستعد للمطر ﴿ وطمعاً ﴾ أي للمقيم ليستعد المحتاج إليه من أجل الزرع وتسوية طرق المصانع ﴿ وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لأيات لقوم يعقلون ﴾ أي قدرة الله وأنه القادر عليه ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود قائمتا على غير عمد وقيل يدوم قيامهما بأمره ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض ﴾ قال ابن عباس من القبور ﴿ إذا أنتم تخرجون ﴾ أي منها وقيل معنى الآية ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون من الأرض ﴿ وله من في السموات والأرض

كل له قانتون ﴾ مطيعون قال ابن عباس كل له مطعيون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت للبعث ﴿ وهو أهون عليه ﴾ أي هو هين عليه وما من شيء عليه بعزيز وقيل معناه وهو أيسر عليه فإن الذي يقع في عقول الناس أن الإعادة تكون أهون من الإنشاء وقيل : هو أهون على الخلق وذلك لأنهم يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساء .

وهو رواية عن ابن عباس ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ أي الصفة العليا قال ابن عباس : ليس كمثله شيء وقيل هو الذي لا إله إلا هو ﴿ في السموات والأرض وهو العزيز ﴾ أي في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في خلقه .

(148/603)

قوله : ﴿ ضرب لكم مثلاً ﴾ أي بين لكم شبهاً بحالكم ذلك المثل ﴿ من أنفسكم ﴾ ثم بين المثل فقال تعالى ﴿ هل لكم من ما ملكت أيمانكم ﴾ أي عبيدكم وإمائكم ﴿ من شركاء فيما رزقناكم ﴾ أي من المال ﴿ فأنتم فيه سواء ﴾ يعني هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي تخافون أن يشاركوكم في

أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحر من شريكه الحر في المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمره دون شريكه ويخاف الرجل شريكه في الميراث وهو يجب أن ينفرد به .

قال ابن عباس : تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً فإذا لم تخافوا هذا من مماليككم ولا ترضوه لأنفسكم فكيف ترضون أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركائي وهم عبيدي ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي الدلالات والبراهين والأمثال ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أي ينظرون في هذه الدلائل والأمثال بعقولهم ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ يعني أشركوا بالله ﴿ أهواءهم ﴾ أي في الشرك ﴿ بغير علم ﴾ جهلاً بما يجب عليهم ﴿ فمن يهدي من أضل الله ﴾ أي عن طريق الهدى ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي مانعين يمنعونهم عن عذاب الله .

(149/603)

قوله تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين ﴾ يعني أخلص دينك لله وقيل سدد عملك والوجه ما يتوجه إلى الله تعالى به الإنسان ودينه وعمله مما يتوجه إليه ليسدده قوله تعالى ﴿ حنيفاً ﴾ أي مائلاً إليه مستقيماً عليه ﴿ فطرة الله ﴾ أي دين الله والمعنى الزموا فطرة ﴿ الله التي فطر الناس عليها ﴾ قال ابن عباس خلق الناس عليها والمراد بالفطرة الدين وهو الإسلام (

ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ثم قال اقرؤوا ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ " زاد البخاري " فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسن فيها من جدعاء " ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا فطرة الله الآية ولهما في رواية " قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً قال الله أعلم بما كانوا عاملين " قوله : " ما من مولود يولد إلا على الفطرة " يعني على العهد الذي أخذ الله عليهم بقوله ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ فكل مولود في العالم على ذلك الإقرار وهي الحنيفية التي وضعت الخلقة عليها وإن عبد غير الله قال الله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ولكن لا اعتبار بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل ألا ترى ألى قوله : " فأبواه يهودانه أو ينصرانه " فهو مع وجود الإيمان الفطري فإنه محكوم له بحكم أبويه الكافرين وهذا معنى قول النبيّ (صلى الله عليه وسلم) في حديث آخر

(150/603)

" يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم " وحكي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : معنى الحديث أن كل مولود يولد على فطرته أي خلقته التي خلقه الله عليها في علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليه وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه على اعتقاد دينهما .

وقيل معناه أن كل مولود في مبدأ الخلقة على الفطرة أي على الجبلة السليمة والطبع المتهيىء لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمرت على لزومها لأن هذا الدين موجود حسنه في العقول السليمة وإنما يعدل عنه من عدل إلى غيره لأنه من آفات التقليد ونحوه فمن سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره .

ثم تمثل لأولاد اليهود والنصارى واتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والحجة المستقيمة بقوله "كما تنتج بهيمة جمعاء " .

أي كما تلد البهيمة بهيمة مستوية لم يذهب من بدنها شيء وقوله " هل تحسون فيها من جدعاء يعني هل تشعرون أو تعلمون فيها من جدعاء وهي المقطوعة الأذن والأنف .

قوله ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي لا تبدلوا دين الله وقيل معنى الآية الزموا فطرة الله ولا تبدلوا التوحيد بالشرك .

وقيل معنى لا تبديل لخلق الله هو جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة فلا يصير

السعيد شقياً ولا الشقي سعيداً .

وقيل الآية في تحريم إخصاء البهائم ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي المستقيم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 201 . 209 ﴾

(151/603)

وقال النسفى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الم غُلِبَتِ الروم ﴾

أي غلبت فارس الروم ﴿ فِى أَدْنَى الأرض ﴾ أي في أقرب أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم ، والمعنى غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام ، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي في أدنى أرضهم إلى عدوهم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الروم ﴿ مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ أي غلبة فارس إياهم .

وقرىء بسكون اللام فالغلب والغلب مصدران وقد أضيف المصدر إلى المفعول ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ فارس ، ولا وقف عليه لتعلق ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ به ، وهو ما بين الثلاث إلى العشرة .

قيل : احتربت فارس والروم بين أذرعات وبصرى فغلبت فارس الروم والملك بفارس يومئذ كسرى ابرويز فبلغ الخبر مكة فشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل كتاب ، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت .

فقال لهم أبو بكر : والله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبيّ بن خلف : كذبت فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعل الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام " زد في الخطر وأبعد في الأجل " فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين .

ومات أبيّ من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبيّ فقال عليه السلام : " تصدق به " وهذه آية بينة على صحة نبوته وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب وكان ذلك قبل تحريم القمار .

عن قتادة ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة .

﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ أي من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء أو حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل : من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين يعني أن كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله وقضائه ﴿ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ [آل عمران : 140] ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعد الله من غلبتهم ﴿ يَفْرَحُ المؤمنون بنصر الله ﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة .

وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم ، والباء يتصل ب ﴿ يفرح ﴾ فيوقف على ﴿ الله ﴾ على "المؤمنين" ﴿ ينصُر مَنْ يشاء وهو العزيز ﴾ الغالب على أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ العاطف على أوليائه ﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ وعد من الله للمؤمنين ، فقوله ﴿ وعد الله ﴾ بمنزلة وعد الله المؤمنين وعداً ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ﴾ بنصر الروم على فارس ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك

﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بدل من ﴿ لا يعلمون ﴾ وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا .

وقوله ﴿ ظَاهِراً مّنَ الحياة الدنيا ﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه

الجهال من التمتع بزخارفها ، وباطنها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة وبالأعمال الصالحة .

وتنكير الظاهر يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ ﴿ هم ﴾ الثانية مبتدأ و ﴿ غافلون ﴾ خبره والجملة خبر ﴿ هم ﴾ الأولى ، وفيه بيان أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها .

(153/603)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل : أولم يثبتوا التفكير في أنفسهم أي في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقوله "اعتقده في قلبك" ، وأن يكون صلة للتفكر نحو تفكر في الأمر وأجال فيه فكره ، ومعناه على هذا : أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها ، فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة في التدبير ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك

الوقت ؟ ﴿ مَّا خَلَقَ اللهُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ متعلق بالقول المحذوف معناه : أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول ؟ وقيل : معناه فيعلموا لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير حكمة بالغة ولا لتبقى خالدة ، إنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجلٍ مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَاء رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ لكافرون ﴾ لجاحدون .

وقال الزجاج : أي لكافرون بلقاء ربهم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هو تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية .

(154/603)

ثم وصف حالهم فقال ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ وحرثوها ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ أي المدمرون ﴿ أَكْثَرَ ﴾ صفة مصدر محذوف .

و"ما" مصدرية في ﴿ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي من عمارة أهل مكة ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم

بالبينات ﴾ وتقف عليها لحق الحذف أي فلم يؤمنوا فأهلكوا ﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم ﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة ﴾ بالنصب : شامي وكوفي ﴿ الذين أَسَآوُاْ السوأى ﴾ تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ، ومحلها رفع على أنها اسم "كان" عند من نصب ﴿ عاقبة ﴾ على الخبر ونصب عند من رفعها ، والمعنى أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار ثم كانت عاقبتهم السوأى ، إلا أنه وضع المظهر وهو ﴿ الذين أساؤوا ﴾ موضع المضمر أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي النار التي أعدت للكافرين ﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ لأن كذبوا أو بأن وهو يدل على أن معنى أساؤوا كفروا ﴿ بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ يعني ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها

﴿ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ﴾ ينشئهم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يحييهم بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وبالياء : أبو عمرو وسهل .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُبْلِسُ ﴾ ييأس ويتحير .

يقال : ناظرته فأبلس إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج ﴿ المجرمون ﴾ المشركون ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ ﴾ من الذين عبدوهم من دون الله .

وكتب ﴿ شُفَعَاؤا ﴾ في المصحف بواو قبل الألف كما كتب ﴿ علمؤا بني إسرائيل ﴾ [

الشعراء : 197] وكذلك كتبت السوأى بالألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كافرين ﴾ أي يكفرون بآلهتهم ويجحدونها أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم .

(155/603)

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ الضمير في ﴿ يتفرقون ﴾ للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه حيث قال ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾ أي بستان وهي الجنة ، والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يسرون .

يقال : حبره إذا سره سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره ، ثم اختلف فيه لاحتمال وجوه المسار فقيل يكرمون ، وقيل يحلون ، وقيل هو السماء في الجنة ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا وَلِقَاء الآخرة ﴾ أي البعث ﴿ فَأُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ ﴾ مقيمون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم كقوله : ﴿ وَمَا هُم بخارجين مِنْهَا ﴾ [البقرة : 167] لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد فقال ﴿ فَسُبْحَانَ الله ﴾ والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة أو الصلاة ، فقيل لابن عباس : هل تجد الصلوات

الخمس في القرآن ؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية .

وهو نصب على المصدر والمعنى نزهوه عما لا يليق به أوصلوا لله ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ صلاة الفجر

(156/603)

﴿ وَلَهُ الحمد فِى السماوات والأرض ﴾ اعتراض ومعناه أن على المميزين كلهم من أهل السماوات والأرض أن يحمدوه ، و ﴿ في السماوات ﴾ حال من ﴿ الحمد ﴾ ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ صلاة العصر وهو معطوف على ﴿ حين تمسون ﴾ ، وقوله : ﴿ عشياً ﴾ متصل بقوله : ﴿ حين تمسون ﴾ ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ صلاة الظهر أظهر أي : دخل في وقت الظهيرة والقول الأكثر أن الصلوات الخمس فرضت بمكة ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ الطائر من البيضة أو الإنسان من النطفة أو المؤمن من الكافر ﴿ وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ أي : البيضة من الطائر أو النطفة من الإنسان أو الكافر من المؤمن ، و ﴿ الميت ﴾ بالتخفيف فيهما مكي وشامي وأبو عمرو وأبو بكر وحماد ، وبالتشديد غيرهم ﴿ وَيحي الأرض ﴾ بالنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿ تخرجون ﴾ حمزة وعلي وخلف ، أي : ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم .

والكاف في محل النصب ب ﴿ تخرجون ﴾ ، والمعنى أن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرة من هو قادر على إخراج الميت من الحي وعكسه ، روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ فسبحان الله حين تمسون إلى الثلاث وأخر سورة والصافات دبر كل صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء وقطر الأمطار وورق الأشجار وتراب الأرض ، فإذا مات أجري له بكل حرف عشر حسنات في قبره " قال عليه السلام : " من قرأ حين يصبح ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ إلى قوله ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته " ومن آياته ومن علامات ربوبيته وقدرته ﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ أي : أباكم ﴿ مّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ ﴾ أي : آدم وذريته ﴿ تَنتَشِرُونَ ﴾ تنصرفون فيما فيه معاشكم و ﴿ إذا ﴾ للمفاجأة وتقديره : ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض .

(157/603)

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا لّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ أي حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال ، أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون وما

بين الجنسين المختلفين من التنافر .

يقال : سكن إليه إذا مال إليه ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ أي جعل بينكم التواد والتراحم بسبب الزواج.

وعن الحسن : المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد .

وقيل : المودة للشابة والرحمة للعجوز .

وقيل : المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان أي بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعلمون أن قوام الدنيا بوجود التناسل ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي اللغات أو أجناس النطق وأشكاله ﴿ وألوانكم ﴾ كالسواد والبياض وغيرهما ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف وإلا فلو تشاكلت واتفقت لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت المصالح ، وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله متفاوتون .

﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات للعالمين ﴾ ﴿ للعالمين ﴾ جمع "عالَم" ، وبكسر اللام : حفص عالِم ويشهد للكسر قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ العنكبوت : 43) ﴿ وَمِنْ ءاياته مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مّن فَضْلِهِ ﴾ هذا من باب اللف ، وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين ، أو المراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما ، والجمهور على الأول لتكرره في القرآن

وأسد المعاني ما دل عليه القرآن ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون سماع تدبر بآذان واعية .

(158/603)

﴿ وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ البرق ﴾ في ﴿ يريكم ﴾ وجهان : إضمار أن كما في حرف ابن مسعود رضي الله عنه وإنزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل "تسمع بالمعيدي خير من أن تراه" أي أن تسمع أو سماعك ﴿ خَوْفًا ﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في الغيث أو خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر ، وهما منصوبان على المفعول له على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي إرادة خوف وإرادة طمع ، أو على الحال أي خائفين وطامعين ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء ﴾ وبالتخفيف : مكي وبصري ﴿ ماءً ﴾ مطراً ﴿ فيحي به الأَرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ يتفكرون بعقولهم ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ ﴾ تثبت بلا عمد ﴿ السماء والأرض بِأَمْرِهِ ﴾ أي بإقامته وتدبيره وحكمته ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ للبعث ﴿ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ من قبوركم هذا كقوله ﴿ يريكم ﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال : ومن آياته قيام السماوات والأرض واستمساكها بغير عمد ، ثم خروج الموتى من

القبور إذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور أخرجوا ، والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف .

وإنما عطف هذا على قيام السماوات والأرض ب "ثم" بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] و"إذا" الأولى للشرط والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط ﴿ ومن الأرض ﴾ متعلق بالفعل لا بالمصدر .

وقولك "دعوته من مكان كذا" يجوز أن يكون مكانك ويجوز أن يكون مكان صاحبك ﴿ وَلَهُ مَن فِى السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قانتون ﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه أو مقرون بالعبودية .

(159/603)

﴿ وَهُوَ الذى يَبْدَأُ الخلق ﴾ أي ينشئهم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ للبعث ﴿ وَهُوَ ﴾ أي البعث ﴿ أَهْوَنُ ﴾ أيسر ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عندكم لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء فلم أنكرتم الإعادة ، وأخرت الصلة في قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ وقدمت في قوله : ﴿ وَهُوَ عَلَيَّ

هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 9] لقصد الاختصاص هناك ، وأما هنا فلا معنى للاختصاص .

وقال أبو عبيدة والزجاج وغيرهما الأهون بمعنى الهين فيوصف به الله عز وجل وكان ذلك على الله يسيراً كما قالوا : الله أكبر أي كبير ، والإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء ، أو هو أهون على الخلق من الإنشاء لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفاً ثم علقاً ثم مضغ إلى تكميل خلقهم ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى فِى السماوات والأرض ﴾ أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره وقد عرف به ووصف في السماوات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ويدل عليه قوله ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ أي القاهر لكل مقدور ﴿ الحكيم ﴾ الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : المثل الأعلى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] .

وعن مجاهد : هو قول لا إله إلا الله .

ومعناه وله الوصف الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية ويعضده قوله ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ فهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن جعل له شريكاً من خلقه .

(160/603)

و "من" للابتداء كأنه قال : أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ﴿ هَلْ لَّكُمْ ﴾ معاشر الأحرار ﴿ مّن مَّا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ عبيدكم و "من" للتبعيض ﴿ مّن شُرَكَاء ﴾ "من" مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه : هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم ﴿ فِى مَا رزقناكم ﴾ من الأموال وغيرها ﴿ فَأَنتُمْ ﴾ معاشر الأحرار والعبيد ﴿ فِيهِ ﴾ في ذلك الرزق ﴿ سَوَآء ﴾ من غير تفصلة بين حر وعبد يحكم مماليككم في أموالكم كحكمكم ﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ حال من ضمير الفاعل في سواء أي متساوون خائفاً بعضكم بعضاً مشاركته في المال ، والمعنى : تخافون معاشرة السادة عبيدكم فيها فلا تمضون فيها حكماً دون إذنهم خوفاً من لائمة تلحقكم من جهتهم ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني كما يخاف بعض الأحرار بعضاً فيما هو مشترك بينهم ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء ؟ ﴿ كذلك ﴾ موضع الكاف نصب أي مثل هذا التفصيل ﴿ نُفَصّلُ الآيات ﴾ نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها ﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتدبرون في ضرب الأمثال فلما لم ينزجروا أضرب عنهم فقال

﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ أنفسهم بما أشركوا كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] ﴿ أَهْوَاءهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي اتبعوا أهواءهم جاهلين ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ أي أضله الله تعالى ﴿ وَمَا لَهُم مِّن ناصرين ﴾ من العذاب .

(161/603)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ ﴾ فقوم وجهك له وعد له غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً ، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه ﴿ حَنِيفاً ﴾ حال عن المأمور أو من الدين ﴿ فِطْرَةَ الله ﴾ أي الزموا فطرة الله والفطرة الخلقة ، ألا ترى إلى قوله ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ [الروم : 30] فالمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الجن والإنس ومنه قوله عليه السلام " كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري " وقوله عليه السلام " كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه " وقال الزجاج : معناه أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به على ما جاء في الحديث " إن الله عز وجل آخرج من صلب آدم كالذر وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم " فقال ﴿ وإذ أخذ ربك

﴿ إلى قوله ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] وكل مولود هو من تلك الذرية التي شهدت بأن الله تعالى خالقها .

فمعنى فطرة الله دين الله ﴿ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ أي خلق ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير .

وقال الزجاج : معناه لا تبديل لدين الله ويدل عليه ما بعده وهو قوله ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي المستقيم ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 265.272 ﴾

(162/603)

وقال البيضاوى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الم ﴾ .

﴿ غُلِبَتِ الروم فِى أَدْنَى الأرض ﴾

أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة عندهم ، أو في أدنى أرضهم من العرب واللام بدل

من الإِضافة . ﴿ وَهُم مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول ، وقرىء ﴿ غَلَبِهِمْ ﴾ وهو لغة كالجلب والجلب . ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ .

(163/603)

﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ روي أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى ، وقيل بالجزيرة وهي أدنى أرض الروم من الفرس فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن عليكم فنزلت ، فقال لهم أبو بكر : لا يقرن الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبي بن خلف : كذبت اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه ، فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل ، فجعلاه مائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قفوله من أحد وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي ، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به . واستدلت به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب ، وأجيب

بأنه كان قبل تحريم القمار ، والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب . وقرىء "غَلَبَت" بالفتح و"سَيُغْلِبُونَ" بالضم ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام والمسلمون سيغلبونهم ، وفي السنة التاسعة من نزوله غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم وعلى هذا تكون إضافة الغلب إلى الفاعل . ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي له الأمر حين غلبوا وحين يغلبون ليس شيء منهما إلا بقضائه ، وقرىء ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ من غير تقدير مضاف إليه كأنه قيل قبلاً وبعداً أي أولاً وآخراً . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ ويوم تغلب الروم . ﴿ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ .

(164/603)

﴿ بِنَصْرِ الله ﴾ من له كتاب على من لا كتاب له لما فيه من انقلاب التفاؤل وظهور صدقهم فيما أخبرا به المشركين وغلبتهم في رهانهم وازدياد يقينهم وثباتهم في دينهم ، وقيل بنصر الله المؤمنين بإظهار صدقهم أو بأن ولي بعض أعدائهم بعضاً حتى تفانوا . ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى . ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الرحيم ﴾ ينتقم من عباده بالنصر عليهم تارة ويتفضل عليهم بنصرهم أخرى .

﴿ وَعَدَ اللهِ ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن ما قبله في معنى الوعد . ﴿ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ لامتناع الكذب عليه تعالى . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعده ولا صحة وعده لجهلهم وعدم تفكرهم .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ ما يشاهدونه منها والتمتع بزخارفها . ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخرة ﴾ التي هي غايتها والمقصود منها . ﴿ هُمْ غافلون ﴾ لا تخطر ببالهم ، و ﴿ هُمْ ﴾ الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ و ﴿ غافلون ﴾ خبره والجملة خبر الأولى ، وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة المبدلة من قوله : ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها ، فإن من العلم بظاهرها معرفة حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها ولذلك نكر ظاهراً ، وأما باطنها فإنها مجاز إلى الآخرة ووصلة إلى نيلها وأنموذج لأحوالها وإشعاراً بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختص بظاهر الدنيا .

(165/603)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أو لم يحدثوا التفكر فيها ، أو أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها ومرآة يجتلى فيها للمستبصر ما يجتلى له في الممكنات بأسرها ليتحقق لهم قدرة مبدعها على إعادتها مثل قدرته على إبدائها . ﴿ مَّا خَلَقَ اللهُ السموات والارض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ متعلق بقول أو علم محذوف يدل عليه الكلام . ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تنتهي عنده ولا تبقى بعده . ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بلقاء جزائه عند انقضاء الأجل المسمى أو قيام الساعة . ﴿ لكافرون ﴾ جاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية وأن الآخرة لا تكون .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ تقرير لسيرهم في أقطار الأرض ونظرهم في آثار المدمرين قبلهم . ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ كعاد وثمود . ﴿ وَأَثَارُواْ الأرض ﴾ وقلبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وزرع البذور وغيرها . ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ وعمروا الأرض . ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ من عمارة أهل مكة إياها فإنهم أهل واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في غيرها ، وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا مفتخرون بها وهم أضعف حالاً فيها ، إذ مدار أمرها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة وهم ضعفاء ملجئون إلى دار لا نفع لها . ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات أو الآيات

الواضحات . ﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ليفعل بهم ما تفعل الظلمة فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير . ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث عملوا ما أدى إلى تدميرهم .

(166/603)

﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة الذين أَسَاءواْ السوءى ﴾ أي ثم كان عاقبتهم العاقبة ﴿ السوأى ﴾ أو الخصلة ﴿ السوأى ﴾ ، فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم وأنهم جاءوا بمثل أفعالهم ، و ﴿ السوأى ﴾ تأنيث الأسوأ كالحسنى أو مصدر كالبشرى نعت به . ﴿ ثُمَّ أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ علة أو بدل أو عطف بيان ل ﴿ السوأى ﴾ ، أو خبر كان و ﴿ السوأى ﴾ مصدر أساؤوا أو مفعوله بمعنى ، ﴿ ثُمَّ كَانَ عاقبة ﴾ الذين اقترفوا الخطيئة أن طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها ، ويجوز أن تكون ﴿ السوأى ﴾ صلة الفعل و ﴿ السوءى أَن كَذَّبُواْ ﴾ تابعها والخبر محذوف للإبهام والتهويل ، وأن تكون ﴿ أن ﴾ مفسرة لأن الإِساءة إذا كانت مفسرة بالتكذيب والاستهزاء كانت متضمنة معنى القول ، وقرأ ابن عامر والكوفيون ﴿ عاقبة ﴾ بالنصب على أن الاسم ﴿ السوأى ﴾ و ﴿ أَن كَذَّبُواْ ﴾ على الوجوه المذكورة .

﴿ اللهُ يَبْدَؤُاْ الخلق ﴾ ينشئهم . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يبعثهم . ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود ، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروح بالياء على الأصل .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُبْلِسُ المجرمون ﴾ يسكتون متحرين آيسين يقال ناظرته فأبلس إذا سكت وآيس من أن يحتج ومنه الناقة المبلاس التي لا ترغو ، وقرىء بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّن شُرَكَائِهِمْ ﴾ ممن أشركوهم بالله . ﴿ شُفَعَاءُ ﴾ يجيرونهم من عذاب الله ، ومجيئه بلفظ الماضي لتحققه . ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَائِهِمْ كافرين ﴾ يكفرون بآلهتهم حين يئسوا منهم ، وقيل كانوا في الدنيا كافرين بسببهم ، وكتب في المصحف "شفعواء" و ﴿ عَلِمُواْ بَنِى إسراءيل ﴾ بالواو وكذا ﴿ السوأى ﴾ بالألف إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها .

(167/603)

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي المؤمنون والكافرون لقوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾ أرض ذات أزهار وأنهار . ﴿

يُحْبَرُونَ ﴾ يسرون سروراً تهلك له وجوههم .

﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا وَلِقَاء الآخرة فَأُوْلَئِكَ فِي العذاب مُحْضَرُونَ ﴾

مدخلون لا يغيبون عنه .

(168/603)

﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحمد فِي السموات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ إخبار في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتتجدد فيها نعمته ، أو دلالة على أن ما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتنزهه واستحقاقه الحمد ممن له تمييز من أهل السموات والأرض ، وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أظهر ، وتخصيص الحمد بالعشي الذي هو آخر النهار من عشى العين إذا نقص نورها والظهيرة التي هي وسطه لأن تجدد النعم فيهما أكثر ، ويجوز أن يكون ﴿ عشياً ﴾ معطوفاً على ﴿ الله حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وقوله ﴿ وَلَهُ الحمد فِي السموات والأرض ﴾ اعتراضاً . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن الآية جامعة للصلوات الخمس ﴿ تُمْسُونَ ﴾ صلاتا المغرب والعشاء ، و﴿ تُصْبِحُونَ ﴾ صلاة الفجر ، و﴿ عشيا ﴾ صلاة العصر ، و﴿ تُظْهِرُونَ ﴾ صلاة الظهر . ولذلك زعم

الحسن أنها مدنية لأنه كان يقول كان الواجب بمكة ركعتين في أي وقت اتفقتا وإنما فرضه الخمس بالمدينة ، والأكثر على أنها فرضت بمكة . وعنه عليه الصلاة والسلام " من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون الآية " وعنه عليه الصلاة والسلام " من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون إلى قوله وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في ليلته ، ومن قاله حين يمسي أدرك ما فاته في يومه " وقرىء "حيناً تمسون" و"حيناً تصبحون" أي تمسون فيه وتصبحون فيه .

﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة . ﴿ ويُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ كالنطفة والبيضة ، أو يعقب الحياة الموت وبالعكس . ﴿ ويُحيِي الأَرْضَ ﴾ بالنبات . ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها . ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الإخراج . ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم فإنه أيضاً تعقيب الحياة الموت ، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء .

(169/603)

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ أي في أصل الإنشاء لأنه خلق أصلهم منه . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض .

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا ﴾ لأن حواء خلقت من ضلع آدم وسائر

النساء خلقن من نطف الرجال ، أو لأنهن من جنسهم لا من جنس آخر . ﴿ لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ لتميلوا إليها وتألفوا بها فإن الجنسية علة للضم والاختلاف سبب للتنافر . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ أي بين الرجال والنساء ، أو بين أفراد الجنس .

﴿ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ بواسطة الزواج حال الشبق وغيرها بخلاف سائر الحيوانات نظماً لأمر المعاش ، أو بأن تعيش الإنسان متوقف على التعارف والتعاون المحوج إلى التواد والتراحم ، وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحكم .

(170/603)

﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ لغاتكم بأن علم كل صنف لغته أو ألهمه وضعها وأقدره عليها ، أو أجناس نطفكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية . ﴿ وألوانكم ﴾ بياض الجلد وسواده ، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها ، وحلاها بحيث وقع التمايز والتعارف حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات للعالمين ﴾ لا تكاد تخفى على عاقل من ملك أو إنس أو جن

، وقرأ حفص بكسر اللام ويؤيد قوله : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ ﴿ وَمِنْ ءاياته مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مّن فَضْلِهِ ﴾ منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وتقوي القوى الطبيعية وطلب معاشكم فيهما ، أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلاً من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ، ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة .

﴿ وَمِنْ ءاياته يُرِيكُمُ البرق ﴾ مقدر بأن المصدرية كقوله :

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضَرَ الوَغَى . . . وَأَن أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

أو الفعل فيه منزلة المصدر كقولهم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق كقوله :

فَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا . . . أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ

(171/603)

﴿ خَوْفًا ﴾ من الصاعقة للمسافر . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في الغيث للمقيم ، ونصبهما على العلة لفعل يلزم المذكور فإن إراءتهم تستلزم رؤيتهم أوله على تقدير مضاف نحو إرادة خوف

وطمع ، أو تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع كقولك فعلته رغماً للشيطان ، أو على الحال مثل كَلَّمْتُهُ شِفَاهاً . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مَاءً ﴾ وقرىء بالتشديد . ﴿ فَيُحيِي بِهِ الأَرْضَ ﴾ بالنبات . ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته .

﴿ وَمِنْ ءاياته أَن تَقُومَ السماء والأرض بِأَمْرِهِ ﴾ قيامهما بإقامته لهما وإرادته لقيامهما في حيزيها المعينين من غير مقيم محسوس ، والتعبير بالأمر للمبالغة في كمال القدرة والغنى عن الآلة . ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ عطف على ﴿ أَن تَقُومَ ﴾ على تأويل مفرد كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً ﴾ واحدة فيقول أيها الموتى اخرجوا ، والمراد تشبيه سرعة ترتب حصول ذلك على تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلى تجشم عمل بسرعة ترتب إجابة الداعي المطاع على دعائه ، وثم إما لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه ومن الأرض متعلق بدعا كقولك : دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي لا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها ، و ﴿ إِذَا ﴾ الثانية للمفاجأة ولذلك نابت مناب الفاء في جواب الأولى .

﴿ وَلَهُمْ مَن فِى السموات والأرض كُلٌّ لَّهُ قانتون ﴾ منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عنه .

﴿ وَهُوَ الذى يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد هلاكهم . ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والإِعادة أسهل عليه من الأصل بالإِضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم وإلا فهما عليه سواء ولذلك قيل الهاء ل ﴿ الخلق ﴾ ، وقيل ﴿ أَهْوَنُ ﴾ بمعنى هين وتذكير هو لأهون أو لأن الإِعادة بمعنى أن يعيد . ﴿ وَلَهُ المثل ﴾ الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة ومن فسره بقول لا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية . ﴿ الأعلى ﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه . ﴿ فِي السموات والأرض ﴾ يصفه به ما فيها دلالة ونطقاً . ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ القادر الذي لا يعجز عن إبداء ممكن وإعادته . ﴿ الحكيم ﴾ الذي يجري الأفعال على مقتضى حكمته .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ منتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم . ﴿ هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ من مماليككم . ﴿ مِّن شُرَكَاء فِيمَا رزقناكم ﴾ من الأموال وغيرها . ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ فتكونون أنتم وهم فيه شرعاً يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم وأنها معارة لكم ، و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى للابتداء والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي . ﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ أن يستبدوا بتصرف فيه . ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك التفصيل . ﴿ نُفَصِّلُ الآيات ﴾ نبينها فإن التفصيل مما يكشف

المعاني ويوضحها . ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال .

﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ ﴾ بالإشراك . ﴿ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ جاهلين لا يكفهم شيء فإن العالم إذا اتبع هواه ربما ردعه علمه . ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ فمن يقدر على هدايته . ﴿ وَمَا لَهُم مِّن ناصرين ﴾ يخلصونهم من الضلالة ويحفظونهم عن آفاتها .

(173/603)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ فقومه له غير ملتفت أو ملتفت عنه ، وهو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به . ﴿ فِطْرَتَ الله ﴾ خلقته نصب على الإغراء أو المصدر لما دل عليه ما بعدها . ﴿ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ خلقهم عليها وهي قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه ، أو ملة الإسلام فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها ، وقيل العهد المأخوذ من آدم وذريته . ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ لا يقدر أحد يغيره أو ما ينبغي أن يغير . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له أو الفطرة إن فسرت بالملة . ﴿ الدين القيم ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ استقامته لعدم تدبرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 326 . 335 ﴾

(174/603)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الروم

مكية وهي ستون آية ، وثمانمائة وتسع عشرة كلمة ، وثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي يملك الأمر كله ﴿ الرحمن ﴾ الذي رحم الخلق كلهم بنصب الدلائل ﴿ الرحيم ﴾ الذي لطف بأوليائه وقوله تعالى:

﴿ الم ﴾ تقدّم الكلام على ذلك في أوّل سورة البقرة ،

وقال البقاعي : لما ختم سبحانه وتعالى التي قبلها بأنه مع المحسنين قال : ﴿ ألم ﴾ مشيراً بألف القيام والعلو ولام الوصلة وميم التمام إلى أن الله الملك الأعلى القيوم أرسل جبريل عليه الصلاة والسلام الذي هو وصلة بينه وبين أنبيائه عليهم السلام إلى أشرف خلقه محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق يوحي إليه وحياً معلماً بالشاهد والغائب فيأتي الأمر على ما أخبر به دليلاً على صحة رسالته وكمال علم مرسله وشمول قدرته ووجوب وحدانيته .

﴿ غلبت الروم ﴾ وهم أهل كتاب ، غلبتهم فارس وليسوا أهل كتاب بل يعبدون الأوثان .

﴿ في أدنى الأرض ﴾ أي : أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة ، التقى فيها الجيشان

والبادي بالغزو الفرس ﴿ وهم ﴾ أي : الروم ﴿ من بعد غلبهم ﴾ أضيف المصدر إلى المفعول أي : غلبة فارس إياهم ﴿ سيغلبون ﴾ فارس .

(175/603)

﴿ في بضع سنين ﴾ وهو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر ، فالتقى الجيشان في السنة السابعة من الالتقاء الأوّل وغلبت الروم فارس ، وسبب نزول هذه الآية على ما ذكره المفسرون أنه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودّون أن تغلب فارس لأن أهل فارس كانوا مجوساً أميين ، والمسلمون يودّون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليه رجلاً يقال له شهريار ، وبعث قيصر جيشاً واستعمل عليه رجلاً يدعى بخنس ، فالتقى مع شهريار بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب فغلبت فارس الروم ، وبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يكره أن تظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وقالوا للمسلمين : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم ولنظهرن عليكم فنزلت هذه الآية . فخرج أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إلى

الكفار فقال : فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا فوالله لتظهرنّ الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقال له أبيّ بن خلف الجمحي : كذبت يا أبا فضيل فقال أبو بكر : أنت أكذب يا عدوّ الله فقال : اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه. والمناحبة المراهنة .فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما فإن ظهرت الروم على فارس غرمتَ وإن ظهرت فارس غرمتُ وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فجاء أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر ومادّه في الأجل ، فخرج أبو بكر فلقي أبياً فقال : لعلك ندمت قال : لا فتعال أزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين . وقيل : إلى سبع سنين قال : قد فعلت ، فلما خشي أبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال : إني أخاف أن تخرج من

(176/603)

مكة فأقم

لي كفيلاً فكفله له ابنه عبد الله بن أبي بكر ، فلما أراد أبيّ بن خلف أن يخرج إلى أُحد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه وقال : والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً فأعطاه كفيلاً ثم خرج

إلى أحد ثم رجع أبيّ بن خلف فمات بمكة من جراحته التي جرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بارزه ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم ، وقيل كان يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبيّ وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدّق به ، وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوّة وأنّ القرآن من عند الله لأنه أنبأ عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى .

فإن قيل : كيف صحت المناحبة وإنما هي قمار ؟

أجيب : بأن قتادة رحمه الله تعالى قال : كان ذلك قبل تحريم القمار ، وقال الزمخشري : ومذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر رضي الله عنه بينه وبين أبي بن خلف . ولما كان تغلب ملك على ملك من الأمور الهائلة وكان الإخبار به قبل كونه أهول ذكر علة ذلك بقوله تعالى : ﴿ لله ﴾ أي : وحده ﴿ الأمر من قبل ﴾ أي : قبل جولة فارس على الروم ثم دولة الروم على فارس ﴿ ومن بعد ﴾ أي : بعد دولة الروم عليهم ودولتهم على الروم ، ولما أخبر تعالى بهذه المعجزة أخبر بمعجزة أخرى بقوله تعالى : ﴿ ويومئذ ﴾ أي : تغلب الروم على فارس ﴿ يفرح المؤمنون ﴾ أي : العريقون في هذا الوصف من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ بنصر الله ﴾ أي : الذي لا رادّ لأمره للروم على فارس ، وقد فرحوا بذلك وعلموا به يوم وقوعه يوم بدر بنزول جبريل عليه السلام بذلك فيه مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه ، قال السدي : فرح النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك ، وعن أبي سعيد الخدري : وافق ذلك يوم بدر وفي هذا اليوم نصر المؤمنون . ﴿ ينصرُ من يشاء ﴾ من ضعيف وقوي لأنه لا مانع له ولا يسأل عما يفعل ، فالغلبة لا تدل على الحق بل الله قد يزيد ثواب المؤمن فيبتليه ويسلط عليه الأعادي ، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم المعاد ﴿ وهو العزيز ﴾ فلا يعز من عادى ولا يذل من والى ، وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بالضم ، ولما كان السياق لبشارة المؤمنين قال ﴿ الرحيم ﴾ فيخصهم بالأعمال الزكية والأخلاق المرضية .

﴿ وعد الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ، مصدر مؤكد ناصبه مضمر أي : وعدهم الله ذلك وعداً بظهور الروم على فارس ﴿ لا يخلف الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ وعده ﴾ به ، وهذا مقرّر لمعنى هذا المصدر ، ويجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ لا يخلف الله وعده ﴾ حالاً من المصدر فيكون كالمصدر الموصوف فهو مبين للنوع كأنه قيل : وعد

الله وعداً غير مخلف ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ لجهلهم وعدم تفكرهم ﴿ لا يعلمون ﴾ ذلك . وقوله تعالى:

(178/603)

﴿ يعلمون ﴾ بدل من قوله تعالى ﴿ لا يعلمون ﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ليعلمه أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يجاوز الدنيا ﴿ ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً : فظاهرها : ما يعرفه الجهال من أمر معايشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وكيف يبنون ويعرشون ، قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه وهو لا يخطئ ، وهو لا يحسن يصلي . وأمثال هذا الهم كثير وهو وإن كان عند أهل الدنيا عظيماً فهو عند الله حقير فلذلك حقره لأنهم ما زادوا فيه على أن ساووا البهائم في إدراكها ما ينفعها فتستجلبه بضروب من الحيل ، وما يضرها فتدفعه بأنواع من الخداع ، وأما علم باطنها : وهو أنها مجاز إلى الآخرة يتزوّد منها بالطاعة فهو ممدوح ، وفي تنكير الظاهر إشارة إلى أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها ﴿ وهم ﴾ أي : هؤلاء الموصوفون خاصة ﴿ عن الآخرة ﴾ أي : التي هي

المقصودة بالذات ، وما خلقت الدنيا إلا للتوصل بها إليها ليظهر الحكم بالقسط وجميع صفات العز والكبر والجلال والإكرام ﴿ هم غافلون ﴾ أي : في غاية الاستغراق والإضراب عنها بحيث لا تخطر في خواطرهم .

تنبيه : هم الثانية يجوز أن تكون مبتدأً ، وغافلون خبره ، والجملة خبر هم الأولى ، وأن تكون تكريراً للأولى ، ﴿ وغافلون ﴾ خبراً للأولى ، وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها ومعلمها ، وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع .

(179/603)

﴿ أولم يتفكروا ﴾ أي : يجتهدوا في إعمال الفكر ، وقوله تعالى ﴿ في أنفسهم ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل : أَوَلَمْ يحدثوا الفكر في أنفسهم أي : في قلوبهم الفارغة من التفكر ، والتفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك : اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك . وأن يكون صلة أي : أو لم يتفكروا في أحوالها خصوصاً فيعلموا أن من كان منهم قادراً كاملاً لا يخلف وعده وهو إنسان ناقص فكيف بالإله الحق . ويعلموا أن الذي ساوى بينهم في الإيجاد من العدم وطورهم في أطوار الصور ، وفاوت بينهم في القوى والقدر ، وبين أحوالهم في الطول والقصر ، وسلط بعضهم على بعض بأنواع الضرر ، ومات

أكثرهم مظلوماً قبل القصاص والظفر ، لا بدّ في حكمته البالغة من جمعه العدل بينهم في جزاء من وفى أو غدر ، أو شكر أو كفر . ففي ذلك دلالة على وحدانية الله تعالى وعلى الحشر ، ثم ذكر تعالى نتيجة ذلك وعلله بقوله في أسلوب التأكيد لأجل إنكارهم . وعلى التقدير الأوّل يكون المتفكر فيه ﴿ ما خلق الله ﴾ أي : بعز جلاله وعلوه في كماله ﴿ السموات والأرض ﴾ على ما هما عليه من النظام المحكم والقانون المتقن ، قال البقاعي : وإفراد الأرض لعدم دليل حسي أو عقلي يدلهم على تعدّدها بخلاف السماء ا .ه وقد يردّ هذا بقوله تعالى : ﴿ خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ ﴾ (الطلاق :)

(180/603)

﴿ وما بينهما ﴾ من المعاني التي بها كمال منافعهما ﴿ إلا ﴾ خلقاً متلبساً ﴿ بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع ، فإذا ذكر البعث الذي هو مبدأ الآخرة التي هذا أسلوبها وجد الواقع في تصوير النطف ونفخ الروح وتمييز الصالح منهما للتصوير من الفاسد يطابق ذلك ، وإذا تدبر النبات بعد أن كان هشيماً قد نزل عليه الماء فزها واهتز وربا وجده مطابقاً لأمر البعث ، وإذا ذكر القدرة فرأى اختلاف الليل والنهار وسير الكواكب

الصغار والكبار ، وإمطار الأمطار وإجراء الأنهار ، ونحو ذلك من الأسرار رآه مطابقاً لكل ما يخطر بالبال ، ولما كان عندهم أن هذا الوجود حياة وموت لا إلى نفاد قال تعالى ﴿ وأجل ﴾ لا بد أن ينتهي إليه ﴿ مسمى ﴾ أي : في العلم من الأزل ، لذلك يفنى عند انتهائه وبعده البعث ، ولما كانوا ينكرون أنهم على كفر أكد قوله تعالى ﴿ وإن كثيراً من الناس ﴾ مع ذلك على وضوحه ﴿ بلقاء ربهم ﴾ أي : الذي ملأهم إحساناً برجوعهم في الآخرة إلى العرض عليه للثواب والعقاب ﴿ لكافرون ﴾ أي : لا يؤمنون بالبعث بعد الموت .

فإن قيل : ما الفائدة في قوله تعالى ههنا ﴿ وإن كثيراً من الناس ﴾ وقال من قبل ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ ؟

أجيب : بأن فائدته أنه من قبل لم يذكر دليلاً على الأصلين وههنا قد ذكر الدلائل الراسخة والبراهين اللائحة ، ولا شك في أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل . فبعد الدليل لا بد أن يؤمن من ذلك جمع فلا يبقى الأكثر كما هو ، فقال بعد إقامة الدليل : و ﴿ إن كثيراً ﴾ وقال قبله : ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ لأنه بعد الدليل لا يمكن الذهول عنه وهو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التي فوقه والأرض التي تحته ، فلهذا ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمثالهم وحكاية أشكالهم فقال:

﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ أي : سير اعتبار ، وقوله تعالى ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من الأمم وهي إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم تقريراً لسيرهم في أقطار الأرض ، ونظرهم إلى آثار المدمرين كعاد وثمود ﴿ كانوا أشدّ منهم ﴾ أي : العرب ﴿ قوّة ﴾ أي : في أبدانهم وعقولهم ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ أي : حرثوها وقلبوها للزرع والغرس والمعادن والمياه وغير ذلك ﴿ وعمروها ﴾ أي : أولئك السالفون ﴿ أكثر مما عمروها ﴾ أي : هؤلاء الذين أرسلت إليهم بل ليس لهم من إثارة الأرض وعمارتها كبير أمر ، فإن بلاد العرب إنما هي في جبال سود ، وفياف غبر ، فما هو إلا تهكم بهم وبيان لضعف حالهم في دنياهم التي لا فخر لهم بغيرها ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي : بالحجج الظاهرات مثل ما أتاكم به رسولنا من وعودنا الصادقة وأمورنا الخارقة كأمر الإسراء وما أظهر فيه من الغرائب كالإخبار : "بأن العير تقدِم في يوم كذا يقدُمها جمل صفته كذا وغرائره كذا فظهر كذلك" وما آمنتم به كما لم يؤمن من كان أشدّ منكم قوّة ﴿ فما ﴾ أي : تسبب أنه ما ﴿ كان الله ﴾ أي : على ما لهم من أوصاف الكمال مريداً ﴿ ليظلمهم ﴾ بأن يفعل معهم فعل من تعدونه أنتم ظالماً بأن يهلكهم في الدنيا ثم يقتص منهم في القيامة قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل بالبينات ﴿ ولكن كانوا ﴾ بغاية جهدهم

﴿ أنفسهم ﴾ أي : خاصة ﴿ يظلمون ﴾ أي : يجدّدون الظلم لها بإيقاع الضر موقع مجلب النفع .

(182/603)

﴿ ثم كان عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ الذين أساؤا ﴾ وقوله تعالى ﴿ السوأى ﴾ تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ، والمعنى : أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار ثم إن عاقبتهم السوأى ، إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر ، أي : العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي جهنم التي أعدت للكافرين . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عاقبة بالرفع على أنها اسم كان والسوأى خبرها ، والباقون بالنصب على أنها خبر كان . وقيل : السوأى اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة ، وإساءتهم ﴿ أن ﴾ أي : بأن ﴿ كذبوا بآيات الله ﴾ أي : القرآن . وقيل : تفسير السوأى ما بعده وهو قوله تعالى ﴿ أن كذبوا ﴾ أي : ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب ، حملتهم تلك السيئات على أن كذبوا بآيات الله ﴿ وكانوا بها ﴾ مع كونها أبعد شيء عن الهزء ﴿ يستهزئون ﴾ أي : يستمرون على ذلك بتجديده في كل حين . ولما كان حاصل ما مضى أنه تعالى قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء صرح بذلك في قوله تعالى:

﴿ الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة ﴿ يبدأ الخلق ﴾ أي : بدأ منه ما رأيتم وهو يجدد في كل وقت ما يريد من ذلك كما تشاهدون ﴿ ثم يعيده ﴾ أي : خلقهم بعد موتهم أحياء ، ولم يقل يعيدهم لرده إلى الخلق ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ للجزاء فيجزيهم بأعمالهم ، وقرأ أبو عمرو وشعبة بالياء على الغيبة على النسق الماضي والباقون بالتاء على الخطاب أي : إليه ترجعون معنى في أموركم كلها في الدنيا وإن كنتم لقصور النظر تنسبونها للأسباب ، وحساً بعد قيام الساعة ، وهي أبلغ من القراءة الأولى ؛ لأنها أنص على المقصود ، ولما ذكر الرجوع أتبعه ببعض أحواله بقوله تعالى:

(183/603)

﴿ يوم تقوم الساعة ﴾ سميت بذلك إشارة إلى عظيم القدرة عليها مع كثرة الخلائق على ما هم فيه من العظماء والكبراء والرؤساء ﴿ يبلس المجرمون ﴾ أي : يسكت المشركون لانقطاع حجتهم ، فالإبلاس أن يبقى يائساً ساكتاً متحيراً . يقال : ناظرته فأبلس . ومنه الناقة المبلاس أي : التي لا ترغو ، وقال مجاهد : مفتضحون ، وقال قتادة : المعنى : ييأس المشركون من كل خير ، ولما كان الساكت ربما أغناه عن الكلام غيره نفي ذلك بقوله تعالى محققاً له بجعله ماضياً .

﴿ ولم يكن ﴾ ومعناه لا يكون ﴿ لهم من شركائهم ﴾ أي : ممن أشركوهم بالله وهم الأصنام ﴿ شفعواء ﴾ ينقذونهم مما هم فيه ليتبين لهم غلطهم وجهلهم المفرط في قولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ولما ذكر تعالى حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله تعالى : ﴿ وكانوا بشركائهم ﴾ أي : خاصة ﴿ كافرين ﴾ أي : متبرئين منهم بأنهم ليسوا بآلهة ، وقيل : كانوا في الدنيا كافرين بسببهم ، وكتب شفعاء في المصحف بواو قبل الألف كما كتب علماء بني إسرائيل ، وكذلك كتب السوأى بألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها .

﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي : ويا له من يوم ، وزاد في تهويله بقوله تعالى : ﴿ يومئذٍ يتفرّقون ﴾ أي : المؤمنون الذين يفرحون بنصر الله والكافرون فرقة لا اجتماع بعدها ، هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل سافلين كما قال عز من قائل .

(184/603)

﴿ فأمّا الذين آمنوا ﴾ أي : أقروا بالإيمان بأنفسهم ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإقرارهم ﴿ الصالحات فهم ﴾ أي : خاصة ﴿ في روضة ﴾ وهي أرض عظيمة جداً منبسطة واسعة ذات ماء غدق ونبات معجب بهيج . هذا أصلها في اللغة ، قال الطبري : ولا نجد

أحسن منظراً ولا أطيب نشراً من الرياض اه والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه . والروضة عند العرب : كل أرض ذات نبات وماء . ومن أمثالهم : أحسن من بيضة في روضة ، يريدون بيضة النعامة ﴿ يحبرون ﴾ قال أبو بكر بن عياش : التيجان على رؤوسهم ، وقال أبو عبيدة : يسرون أي : على سبيل التجدد كل وقت سروراً تشرق له الوجوه وتبسم الأفواه وتزهر العيون فيظهر حسنها وبهجتها ، فتظهر النعمة بظهور آثارها على أسهل الوجوه وأيسرها ، وقال ابن عباس : يكرمون ، وقال قتادة : ينعمون ، وقال الأوزاعي عن يحيى بن كثير : يحبرون هو السماع في الجنة ، وقال الأوزاعي : إذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة إلا وردت ، وقال : ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل ، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم .

وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم وفي آخر القوم أعرابيّ قال يا رسول الله هل في الجنة من سماع ؟ قال : "نعم يا أعرابي إنّ في الجنة نهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة" قال الدارمي : فسألت أبا الدرداء بم يتغنين قال : بالتسبيح وروي أن في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً" .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ أي : غطوا ما كشفته أنوار العقول ﴿ وكذبوا ﴾ عناداً ﴿ بآياتنا ﴾ التي لا أصدق منها ولا أضوأ من أنوارها بما لها من عظمتنا وهو القرآن ﴿ ولقاء الآخرة ﴾ أي : بالبعث وغيره ﴿ فأولئك ﴾ أي : البغضاء البعداء ﴿ في العذاب ﴾ الكامل لا غيره ﴿ محضرون ﴾ أي : مدخلون لا يغيبون عنه .

﴿ فسبحان الله ﴾ أي : سبحوا الله تعالى بمعنى صلوا ﴿ حين تمسون ﴾ أي : حين تدخلون في المساء وفيه صلاتان : المغرب والعشاء ﴿ وحين تصبحون ﴾ أي : تدخلون في الصباح وفيه صلاة الصبح . وقوله تعالى .

﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ اعتراض ومعناه : يحمده أهلهما . وقوله تعالى ﴿ وعشياً ﴾ عطف على حين وفيه صلاة العصر ﴿ وحين تظهرون ﴾ أي : تدخلون في الظهيرة وفيه صلاة الظهر ، قال نافع بن الأزرق لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في مواقيتها في القرآن ؟ فقرأ هاتين الآيتين وقال : جمعت الآيتان الصلوات الخمس ومواقيتها ، وإنما خص هذه الأوقات مع أن أفضل الأعمال أدومها ؛ لأنّ الإنسان لا يقدر أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لأنه محتاج إلى ما يعيشه من مأكول ومشروب وغير ذلك ، فخفف الله عنه العبادة في غالب الأوقات وأمره بها في أوّل النهار ووسطه وآخره وفي أوّل الليل ووسطه فإذا صلى العبد ركعتي الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين ، وكذلك باقي الركعات

وهن سبع عشرة مع ركعتي الفجر ، فإذا صلى الإنسان الصلوات الخمس في أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار ، بقي عليه سبع ساعات من جميع الليل والنهار وهي مقدار النوم ، والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع أوقاته بالتسبيح في العبادة ، أو بمعنى : نزهوه من السوء بالثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعم الله تعالى الظاهرة .

(186/603)

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر ، " وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال وزاد عليه" وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" وعن جويرية بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها أنه خرج ذات غداة من عندها وكان اسمها برّة فحوّله رسول الله صلى الله عليه وسلم فسماها جويرية فكره أن يقال خرج من عند برّة ، فخرج وهي في

مسجدها أي : مصلاها ، فرجع بعد ما تعالى النهار فقال : "مازلت في مجلسك هذا منذ خرجت بعد قالت نعم فقال لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزن بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته" .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أيعجز أحدكم أن يكتسب في كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكتسب كل يوم ألف حسنة قال : يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف خطيئة" وفي غير رواية مسلم ويحط بغير ألف ، ولما كان الإنسان عند الإصباح يخرج من سنة النوم إلى سنة الوجود وهي اليقظة ، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم أتبعه الأحياء والإماتة حقيقة بقوله تعالى:

(187/603)

﴿ يخرج الحيّ ﴾ كالإنسان والطائر ﴿ من الميت ﴾ كالنطفة والبيضة ﴿ ويخرج الميت ﴾ كالبيضة والنطفة ﴿ من الحيّ ﴾ على عكس ذلك ، أو يعقب الحياة الموت وبالعكس ، وقيل : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ﴿ ويحيي الأرض ﴾ أي : بالمطر وإخراج النبات ﴿ بعد موتها ﴾ أي : يبسها ﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل هذا

الإخراج ﴿ تخرجون ﴾ بأيسر أمر من الأرض بعد تفرّق أجسامكم فيها أحياء للبعث والحساب ، وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي الميت بكسر الياء المشددة ، والباقون بالسكون ، وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان بخلاف عنه بفتح التاء قبل الخاء وضم الراء على البناء للفاعل ، والباقون بضمّ التاء وفتح الراء على البناء للمفعول .

﴿ ومن آياته ﴾ أي : ومن جملة علامات توحيده وكمال قدرته ﴿ أن خلقكم ﴾ أي : أصلكم وهو آدم عليه السلام ﴿ من تراب ﴾ لم يكن له أصلاً اتصاف ما بحياة ، أو أنه خلقكم من نطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء إنما يتولد من الماء والتراب ﴿ ثم ﴾ أي : بعد إخراجكم منه ﴿ إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ في الأرض كقوله تعالى ﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ (النساء :)

تنبيه : الترتيب والمهلة ههنا ظاهران ، فإنهم يصيرون بشراً بعد أطوار كثيرة ، وتنتشرون حال . وإذا هي الفجائية إلا أنّ الفجائية أكثر ما تقع بعد الفاء ؛ لأنها تقتضي التعقيب . ووجه وقوعها مع ثم بالنسبة إلى ما يليق بالحالة الخاصة أي : بعد تلك الأطوار التي قصها علينا في موضع آخر من كونها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً مجرداً ثم عظماً مكسواً لحماً فاجأ البشرية والانتشار .

﴿ ومن آياته ﴾ أي : على ذلك ﴿ أن خلق لكم ﴾ أي : لأجلكم ليبقى نوعكم بالتوالد وفي تقديم الجار وهو قوله تعالى ﴿ من أنفسكم ﴾ أي : جنسكم بعد إيجادها من ذات أبيكم آدم عليه السلام ﴿ أزواجا ﴾ إناثاً هن شفع لكم دلالة ظاهرة على حرمة التزّوج من غير الجنس كالجن ،

قال البقاعي : والتعبير بالنفس أظهر في كونها من بدن الرجل أي : فخلق حواء من ضلع آدم ﴿ لتسكنوا ﴾ مائلين ﴿ إليها ﴾ بالشهوة والألفة من قولهم : سكن إليه إذا مال وانقطع واطمأن إليه ، ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها ، قال ابن عادل : والصحيح أنّ المراد من جنسكم كما قال تعالى ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ (التوبة :)

ويدل عليه قوله تعالى ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ يعني أنّ الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي : لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه . ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم إلا بدوام الإلفة قال تعالى ﴿ وجعل ﴾ أي : صير بسبب الخلق على هذه الصفة ﴿ بينكم مودة ﴾ أي : معنى من المعاني يوجب أن لا يحب أحد من الزوجين أن يصل إلى صاحبه شيء يكرهه ﴿ ورحمة ﴾ أي : معنى يحمل كُلاّ على أن يجتهد للآخر في جلب الخير ودفع الضر ، وقيل : المودّة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد تمسكاً بقوله تعالى : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ (مريم ،) وقوله تعالى : ﴿ ورحمة منا ﴾ (مريم ، ،) ﴿ إن في ذلك ﴾

أي : الذي تقدم من خلق الأزواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات واضحات على قدرة فاعله وحكمته ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ أي : يستعملون أفكارهم على القوانين المحرّرة ويجتهدون في ذلك فيعلمون ما في ذلك من الحكم ، ولما بين تعالى دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق بقوله تعالى:

(189/603)

﴿ ومن آياته ﴾ أي : الدالة على ذلك ﴿ خلق السموات ﴾ على علوها وإحكامها ﴿ والأرض ﴾ على اتساعها وإتقانها ، وقدّم السماء على الأرض لأنّ السماء كالذكر لها ، ولما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بقوله تعالى : ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ أي : لغاتكم من العربية والعجمية وغيرهما ، ونغماتكم وهيآتها ، فلا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس ولا جهارة ولا شدّة ولا رخاوة ولا لكنة ولا فصاحة ولا غير ذلك من صفات النطق وأشكاله وأنتم من نفس واحدة ﴿ و ﴾ اختلاف ﴿ ألوانكم ﴾ من أبيض وأسود وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الألوان وأنتم بنو رجل واحد وهو آدم عليه السلام ، والحكمة في ذلك : أنّ الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو

إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور ، وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات ، وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع التمييز بين كل واحد بشكله وحليته وصورته ، ولو اتفقت الصور والأصوات وتشاكلت وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية فيروك الخطأ في التمييز بينهما ، فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد ، وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وتفرعوا من أصل فذ وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله تعالى مختلفون متفاوتون ، ولما كان هذا مع كونه في غاية الوضوح لا يختص بجنس من الخلق دون غيره قال ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم العالي الرتبة في بيانه وظهور برهانه ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات واضحات جداً على وحدانيته تعالى ﴿ للعالمين ﴾ أي : ذوي العقول والعلم لا يختص به صنف منهم دون صنف من جنّ ولا أنس ولا غيرهم ، فهذا هو حكمة قوله تعالى هنا للعالمين وفيما تقدّم بقوله تعالى : ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ ، (يونس :)

(190/603)

وقرأ حفص وحده بكسر اللام ، ولما ذكر تعالى بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة في النهار طلباً للرزق كما قال تعالى: ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على القدرة والعلم ﴿ منامكم ﴾ أي : نومكم ومكانه وزمانه الذي يغلبكم بحيث لا تستطيعون له دفعاً ﴿ بالليل والنهار ﴾ قيلولة ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ أي : منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية ، وطلب معاشكم فيهما فإن كثيراً ما يكسب الإنسان بالليل ، أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار خلف ، وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين وهما الواوان إشعاراً بأنّ كلاًّ من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ، ويؤيده آيات أخر كقوله تعالى ﴿ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾ (النبأ : ـ)

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ (الإسراء :)

ويكون التقدير هكذا : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله . وأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفضل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل من فضل ربه . ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع منها قوله تعالى ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (الجمعة :)

وقوله تعالى ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ تنبيه : قدم الله تعالى المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر لأنّ الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة ، فلا يبتغي إلا محتاج في

الحال أو خائف من المآل ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم العلي الرتبة من إيجاد النوم بعد النشاط والنشاط بعد النوم الذي هو الموت الأصغر وإيجاد كل من الملوين بعد إعدامهما ، والجد في الابتغاء بعد المفارقة في التحصيل ﴿ لآيات ﴾ عديدة على القدرة والعلم لا سيما البعث ﴿ لقوم يسمعون ﴾ أي : من الدعاة والنصاح سماع تفهم واستبصار فإنّ الحكمة فيه ظاهرة .

(191/603)

تنبيه : قال هنا ﴿ آيات لقوم يسمعون ﴾ وقال تعالى من قبل ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ للعالمين ﴾ لأنّ المنام بالليل والابتغاء يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله تعالى ، فلم يقل آيات للعالمين ، ولأن الأمرين الأولين وهما اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم ، والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة ، فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان فإنهما يدومان بدوام الإنسان فجعلهما آيات عليه ، وأما قوله تعالى ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فإن من الأشياء ما يعلم من غير تفكر . ومنها ما يكفي فيه مجرّد الفكرة ، ومنها ما يحتاج إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد ، ومنها ما يحتاج بعض

الناس في تفهمه إلى أمثال حسية كالأشكال الهندسية لأنّ خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكرة ، فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية ، وأمّا المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج إلى مرشد معين لفكره فقال ﴿ لقوم يسمعون ﴾ ويجعلون بالهم من كلام المرشد ، ولما ذكر تعالى العرضيات اللازمة للأنفس والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق بقوله تعالى:

(192/603)

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظيم قدرته ﴿ يريكم البرق ﴾ أي : إراءتكم له على هيئآت وكيفيات طال ما شاهدتموها تارة تأتي بما يضر وتارة بما يسر كما قال تعالى ﴿ خوفاً ﴾ أي : للإخافة من الصواعق المحرقة ﴿ وطمعاً ﴾ أي : وللإطماع في المياه العذبة ﴿ وينزل من السماء ماء ﴾ أي : الذي لا يمكن لأحد غيره دعواه ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي ، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ﴿ فيحيي به ﴾ أي : بذلك الماء خاصة لأنّ أكثر الأرض لا يسقى بغيره ﴿ الأرض ﴾ أي : بالنبات الذي هو لها كالروح لجسد الإنسان ﴿ بعد موتها ﴾ أي : يبسها ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم العالي القدر ﴿ لآيات ﴾ لا سيما على القدرة على البعث ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أي : يتدبرون

فيستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكوّنها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع .

تنبيه : كما قدّم السماء على الأرض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والإحياء ، وكما أن في إنزال المطر وإنبات الشجر منافع كذلك في تقديم الرعد والبرق على المطر منفعة ، وهي أنّ البرق إذا لاح فالذي لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له ، والذي له صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء ، أو زرع يسوي مجاري الماء وأيضاً أهل البوادي لا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب .

واعلم أن دلائل البرق وفوائده وإن لم تظهر للمقيمين في البلاد فهي ظاهرة للبادين ، فلهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية ، فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى هنا ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ وفيما تقدم ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ ؟

(193/603)

أجيب : بأنه لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أنّ ذلك بالطبيعة لأنّ المطرد أقوى إلى الطبيعة من المختلف ، والبرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير مختلف بل يختلف إذ يقع ببلدة دون بلدة ، وفي وقت دون وقت

، وتارة يكون قوياً وتارة يكون ضعيفاً ، فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن كان له عقل وإن لم يتفكر تفكراً تاماً ، ثم ذكر تعالى من لوازم السماء والأرض قيامهما بقوله تعالى:

﴿ ومن آياته ﴾ أي : على تمام القدرة وكمال الحكمة ﴿ أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ قال ابن مسعود ، قامتا على غير عمد بأمره أي : بإرادته ، فإنّ الأرض لثقلها يتعجب الإنسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء في علوها يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد وهذا من اللوازم ، فإنّ الأرض لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه ، وإنما أفرد السماء والأرض لأنّ السماء الأولى والأرض الأولى لا تقبل النزاع ؛ لأنها مشاهدة مع صلاحية اللفظ بالكل لأنه جنس .

تنبيه : ذكر تعالى من كل باب أمرين أما من الأنفس فقوله تعالى ﴿ خلقكم ﴾ ﴿ وخلق لكم ﴾ واستدل بخلق الزوجين ، ومن الآفاق السماء والأرض فقال تعالى ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ (الروم :)

ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارض الآفاق البرق والأمطار ، ومن لوازمهما قيام السماء والأرض ؛ لأنّ الواحد يكفي للإقرار بالحق والثاني يفيد الاستقرار ، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين ، فإنّ قول أحدهما يفيد الظنّ وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال إبراهيم عليه السلام ﴿ بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ (البقرة :)

فإن قيل : ما الفائدة في قوله تعالى هنا ﴿ ومن آياته أن تقوم ﴾ (الروم :)

وقال تعالى قبله ﴿ ومن آياته يريكم البرق ﴾ (الروم :)

ولم يقل أن يريكم ليصير كالمصدر بأن ؟

(194/603)

أجيب : بأنّ القيام لما كان غير معتبر أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل ولم يذكر معه الحروف المصدرية ، فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى ذكر ست دلائل وذكر في أربع منها ﴿ إنّ في ذلك لآيات ﴾ (يونس :)

ولم يذكر في الأوّل وهو قوله تعالى ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ﴾ ولا في الآخر وهو قوله ﴿ من آياته أن تقوم السماء والأرض ﴾ (الروم :)

؟

أجيب : عن ذلك : أما عن الأوّل فلأنّ قوله بعده ﴿ ومن آياته أن خلق لكم ﴾ (الروم :) أيضاً دليل الأنفس فخلق الأنفس ، وخلق الأزواج من باب واحد على ما تقدّم من أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير والتوكيد ، فلما قال في الثانية إنّ في ذلك لآيات كان عائداً إليهما ، وأمّا في قيام السماء والأرض فلأنه ذكر في الآيات السماوية أنها آيات للعالمين ولقوم

يعقلون وذلك لظهورها ، فلما كان في أوّل الأمر ظاهراً ففي آخر الأمر بعد سرد الأدلة يكون أظهر فلم يميز أحداً في ذلك عن الآخر ، ثم إنه تعالى لما ذكر الدليل على القدرة والتوحيد ذكر مدلوله وهو قدرته على الإعادة بقوله تعالى : ﴿ ثم إذا دعاكم ﴾ وأشار إلى هوان ذلك القول عنده بقوله عز وجل ﴿ دعوة ﴾ أي : واحدة ﴿ من الأرض ﴾ بأن ينفخ إسرافيل في الصور للبعث من القبور فيها فيقول : أيها الموتى اخرجوا ﴿ إذا أنتم تخرجون ﴾ أي : منها أحياء بعد اضمحلالكم بالموت والبلا فلا تبقى نسمة من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال تعالى ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (الزمر :)

فإن قيل : بم يتعلق من الأرض بالفعل أم بالمصدر ؟

أجيب : بهيهات إذا جاء نهر الله وهو الفعل بطل نهر معقل وهو المصدر ، وثم إما لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه . فإن قيل : ما الفرق بين إذا وإذا ؟

أجيب : بأنّ الأولى للشرط والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط ، ولذلك نابت مناب الفاء في جواب الأولى .

(195/603)

تنبيه : قال ههنا : إذا أنتم تخرجون وقال تعالى في خلق الإنسان أوّلاً ثم إذا أنتم بشر ، تنتشرون لأنّ هناك يكون خلق وتقدير وتدريج حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر ، وأمّا في الإعادة فلا يكون تدريج وتراخ بل يكون بدء خروج فلم يقل ههنا ثم ، ولما ذكر تعالى الآيات التي تدلّ على القدرة على الحشر الذي هو الأصل الآخر والوحدانية التي هي الأصل الأوّل أشار إليهما بقوله تعالى:

u

﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿ كل له قانتون ﴾ قال ابن عباس : كل له مطيعون في الحياة والفناء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة ، وقال الكلبي : هذا خاص بمن كان منهم مطيعاً ، ونفس السموات والأرضين له وملكه فكل له منقادون ، فلا شريك له أصلاً ثم ذكر المدلول الآخر بقوله تعالى:

(196/603)

﴿ وهو الذي يبدؤ الخلق ﴾ أي : على سبيل التجديد كما تشاهدون ، وأشار إلى تعظيم الإعادة بأداة التراخي فقال ﴿ ثم يعيده ﴾ أي : بعد الموت للبعث . وفي قوله تعالى ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قولان أحدهما : أنها للتفضيل على بابها ، وعلى هذا يقال : كيف يتصوّر

التفضيل والإعادة والبداءة بالنسبة إلى الله تعالى على حدّ سواء ؟ وفي ذلك أجوبة أحدها : إنّ ذلك بالنسبة إلى اعتقاد البشر باعتبار المشاهدة من أنّ إعادة الشيء أهون من اختراعه لاحتياج الابتداء إلى إعمال فكر غالباً وإن كان هذا منتفياً عن الباري سبحانه وتعالى ، فخوطبوا بحسب ما ألفوه . ثانيها : أنّ الضمير في عليه ليس عائداً على الله تعالى إنما يعود على الخلق أي : والعود أهون على الخلق أي : أسرع ؛ لأنّ البداءة فيها تدريج من طور إلى طور إلى أن صارت إنساناً ، والإعادة لا تحتاج إلى هذه التدريجات فكأنه قيل : وهو أقصر عليه وأيسر وأقل انتقالاً ، والمعنى : يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم يعني : أن يقوموا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساء ، وهي رواية الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عباس . ثالثها : أنّ الضمير في عليه يعود على المخلوق بمعنى : والإعادة أهون على المخلوق أي : إعادته شيئاً بعد ما أنشأه ، هذا في عرف المخلوقين فكيف ينكرون ذلك في جانب الله تعالى والثاني : أنّ أهون ليس للتفضيل بل هي صيغة بمعنى هين كقولهم : الله أكبر أي : كبير ، وهي رواية العوفيّ عن ابن عباس ، وقد يجيء أفعل بمعنى الفاعل كقول الفرزدق:

*إنّ الذي سمك السماء بنى لنا ** بيتاً دعائمه أعز وأطول*

(197/603)

أي : عزيزة طويلة وعود الضمير على الباري تعالى أولى ليوافق الضمير في قوله تعالى ﴿ وله المثل ﴾ أي : الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامّة والحكمة الشاملة . قال ابن عباس : هو أنه ليس كمثله شيء ، وقال قتادة : هو أنه لا إله إلا هو ، قال البيضاوي : ومن فسره بلا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية ﴿ الأعلى ﴾ أي : الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه ، ولما كان الخلق لقصورهم مقيدين بما لهم به نوع مشاهدة قال ﴿ في السموات والأرض ﴾ أي : اللتين خلقهما ولم يستعصيا عليه فكيف يستعصي عليه شيء فيهما ﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي إذا أراد شيئاً كان له في غاية الانقياد كائناً ما كان ﴿ الحكيم ﴾ أي : الذي إذا أراد شيئاً أتقنه فلم يقدر غيره إلى التوصل إلى بعض شيء منه ، ولا تتمّ حكمة هذا الكون على هذه الصورة إلا بالبعث بل هي الحكمة العظمى ليصل كل ذي حق إلى حقه بأقصى التحرير . ولما أبان من هذا أنه تعالى المنفرد بالملك بشمول العلم وتمام القدرة وكمال الحكمة اتصل بحسن أمثاله وإحكام مقاله وفعاله قوله تعالى:

(198/603)

﴿ ضرب ﴾ أي : جعل ﴿ لكم ﴾ بحكمته أيها المشركون في أمر الأصنام وبيان الإبطال من يشرك بها وفساد قوله بأجلى ما يكون من التقرير ﴿ مثلاً ﴾ مبتدأ ﴿ من أنفسكم ﴾ التي هي أقرب الأشياء إليكم ، ثم بين المثل بقوله تعالى : ﴿ هل لكم ﴾ أي : يا من عبدوا مع الله غيره ﴿ مما ﴾ أي : من بعض ما ﴿ ملكت أيمانكم ﴾ أي : من العبيد والإماء الذين هم بشر مثلكم وعمم في النفي الذي هو المراد بالاستفهام بزيادة الجار بقوله تعالى : ﴿ من شركاء ﴾ أي : في حالة من الحالات يسوغ لكم بذلك أن تجعلوا لله شركاء ﴿ في ما رزقناكم ﴾ من الأموال وغيرها مع ضعف ملككم فيه فائدة ﴿ في ﴾ مقطوعة عن ﴿ ما ﴾ ﴿ فأنتم ﴾ أي : يا معاشر الأحرار والعبيد ﴿ فيه ﴾ أي : الشيء الذي وقعت فيه الشركة ﴿ سواء ﴾ فيكون أنتم وهم شركاء يتصرّفون فيه كتصرّفكم مع أنهم بشر مثلكم . فإن قيل : أيُّ : فرق بين مِنْ الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى من أنفسكم ؟ أجيب : بأن الأولى : للابتداء كأنه قال : أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي من أنفسكم ولم يبعد ، والثانية : للتبعيض ، والثالثة : مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ، ثم بين المساواة بقوله تعالى : ﴿ تخافونهم ﴾ أي : معاشر السادة في التصرّف في ذلك الشيء المشترك ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي : كما تخافون بعض من تشاركونه ممن يساويكم في الحرية والعظمة أن تتصرّفوا في الأمر المشترك بشيء لا يرضيه وبدون إذنه ، وظهر أنّ حالكم في عبيدكم مثل له فيما أشركتموهم به موضح لبطلانه ، فإذا لم ترضوا هذا

لأنفسكم وهو أن تستوي عبيدكم معكم في الملك فكيف ترضونه لخالقكم في هذه الشركاء التي زعمتموها فتسوّونها به وهي من أضعف خلقه أفلا تستحيون ﴿كذلك﴾ أي : مثل هذا التفصيل العالي ﴿نفصل الآيات﴾ أي : نبينها ، فإنّ التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها ﴿لقوم يعقلون﴾ أي : يتدبرون هذه الدلائل بعقولهم ، والأمر لا يخفى بعد ذلك إلا على من لا عقل له .

(199/603)

﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ أي : أشركوا فإنهم وضعوا الشيء في غير موضعه .

فعل الماشي في الظلام ﴿أهواءهم﴾ وهي ما تميل إليه نفوسهم ﴿بغير علم﴾ أي : جاهلين لا يكفهم ، شيء فإن العالم إذا اتبع هواه ربما ردعه علمه ، ثم بين تعالى أنّ ذلك بإرادته بقوله تعالى : ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي : الذي له الأمر كله أي : لا يقدر أحد على هدايته ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي : مانعين يمنعونهم من عذاب الله لا من الأصنام ولا من غيرها ، ولما تحرّرت الأدلة وانتصبت الأعلام أقبل تعالى على خلاصة خلقه إيذاناً بأنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره بقوله سبحانه .

﴿فأقم وجهك﴾ أي : قصدك كله ﴿للدين﴾ أي : أخلص دينك لله قاله سعيد بن

جبير ، وقال غيره : سدّد عملك ، والوجه ما يتوجه إليه ، وقيل : أقبل بكلك على الدين ، عبر بالوجه عن الذات كقوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (القصص :)

أي : ذاته بصفاته . وقوله تعالى ﴿ حنيفاً ﴾ حال من فاعل أقم أو مفعوله أو من الدين ، ومعنى حنيفاً أي : مائلاً إليه مستقيماً عليه ومل عن كل شيء لا يكون في قلبك شيء آخر ، وهذا قريب من معنى قوله تعالى ﴿ ولا تكونّ من المشركين ﴾ وقوله تعالى ﴿ فطرت الله ﴾ أي : خلقته منصوب على الإغراء أو المصدر بما دلّ عليه ما بعدها وهي بتاء مجرورة ، وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء ، والباقون بالتاء ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ التي فطر الناس ﴾ قال ابن عباس : خلق الناس ﴿ عليها ﴾ وهو دينه وهو التوحيد . قال صلى الله عليه وسلم "ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" فقوله على الفطرة على العهد الذي أخذه عليهم بقوله تعالى : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ (الأعراف :)

وكل مولود في العالم على ذلك الإقرار وهي الحنيفية التي وقعت الخلقة عليها ، وإن عبد غيره قال الله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله ﴾ (لقمان :)

وقال ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (الزمر :)

ولكن لا عبرة بالإيمان الفطريّ في أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعيّ المأمور به ، وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين ، وقيل : الآية مخصوصة بالمؤمنين وهم الذين فطرهم الله تعالى على الإسلام ، روي عن عبد الله بن المبارك قال : معنى الحديث : أن كل مولود يولد على فطرته أي : على خلقته التي جبل عليها في علم الله من السعادة والشقاء ، وكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليه وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها ، فمن علامات الشقاوة أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه لشقائه على اعتقاده دينهما ، وقيل : معنى الحديث : أنّ كل مولود يولد في مبدأ الفطرة على الخلقة أي : الجبلة السليمة والطبع المتهيء لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمرّ على لزومها ؛ لأنّ هذا الدين موجود حُسنه في العقول وإنما يعدل عنه من يعدل إلى غيره لآفة من النشوء والتقليد ، فمن يسلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره . ذكر هذه المعاني أبو سليمان الخطابي في كتابه ، ولما كانت سلامة الفطرة أمراً مستمرّاً قال تعالى:

(201/603)

﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي لا كفء له فلا يقدر أحد أن يغيره ، فمن حمل الفطرة على الدين قال معناه : لا تبديل لدين الله ، فهو خبر بمعنى النهي أي : لا تبدّلوا دين الله . قاله مجاهد وإبراهيم . والمعنى : إلزموا فطرة الله أي : دين الله واتبعوه ولا تبدّلوا التوحيد بالشرك ، ومن حملها على الخلقة قال : معناه لا تبديل لخلق الله أي : ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة ، فلا يصير السعيد شقياً ولا الشقي سعيداً ، وقال عكرمة : معناه تحريم إخصاء البهائم أي : في غير المأكول وفي المأكول الكبير ، أمّا المأكول الصغير فإنه يجوز ، ويلحق بالخصي المحرّم كل تغيير محرّم كالوشم ﴿ ذلك ﴾ أي : الشأن العظيم ﴿ الدين القيم ﴾ أي : المستقيم الذي لا عوج فيه توحيد الله تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن ذلك هو الدين المستقيم لعدم تدبرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 242.224 ﴾

(202/603)

وقال القاسمى :

سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾

اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام ، وفتح دمشق ، وبيت المقدس ، الأولى سنة 613 ، والثانية سنة 614 ؛ أي : قبل الهجرة النبوية بسبع سنين – فحدث أن بلغ الخبر مكة ، ففرح المشركون ، وشمتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ، ونحن وفارس وثنيون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرنّ عليكم ، فنزلت الآية ، فتليت على المشركين ، فأحال وقوع ذلك بعضهم ، وتراهن مع الصديق رضي الله عنه على مائة قلوص ، إن وقع مصداقها ، فلم يمضِ من البضع – وهو ما بين الثلاث إلى التسع – سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزا بهم بلاد فارس سنة 621 ؛ أي : قبل الهجرة بسنة ، فدوّخها ، واضطر ملكها للهرب ، وعاد هرقل بالغنائم الوافرة .

ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن ؛ أعني إخباره عن غيب وقع مصداقه ، واستبان للجاحدين من نوره إشراقه ، وفي ضمنه أن سائر غيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله ، وزهوق الباطل ، وعلوّ الحق ، وجعل المستضعفين أئمة ، وإيراثهم أرض عدوّهم ، إلى غير ذلك .

(203/603)

وما ألطف ما قال الزبير الكلائيّ : رأيت غلبة فارس الرومَ ، ثم رأيت غلبة الروم فارسَ ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارسَ والرومَ ، كل ذلك في خمس عشرة سنة – من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين – والأرض ، كما قال الزمخشري : أرض العرب ؛ لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا في أدنى أرض العرب أي : أقربها منهم ، وهي أطراف الشام : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل غلبة فارس على الروم : ﴿ وَمِن بَعْدُ ﴾ أي : من بعد غلبة الروم على فارس . ويقال : لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق ، ومن بعد إفناء الخلق ، والمعنى : أن كلاً من كونهم مغلوبين أولاً ، وغالبين آخراً ، ليس إلا بأمره وقضائه ، وعلمه ومشيئته ، كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عِمْرَان : 140] .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم إذ يغلب الروم على فارس ، ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ أي : تغليبه من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيظ من شمت بهم من كفار مكة . ويقال : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين : ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي : من عباده على عدوه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : القاهر الغالب على أمره ، لا يعجزه من شاء نصره : ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : من نصره وتغليبه من يشاء : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : بحكمته تعالى ، في كونه

وأفعاله المحكمة ، الجارية على وفق العدل ، لجهلهم وعدم تفكرهم .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم : ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ ﴾ أي : التي هي المطلب الأعلى : ﴿ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أي : لا يُخطرونها ببالهم ، فهم جاهلون بها تاركون لعملها .

لطائف :

(204/603)

قال الزمخشري : قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُوْنَ ﴾ بدل من قوله : ﴿ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة ، أنه أبدل منه وجعله بحيث يقوم مقامه ، ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا . وقوله : ﴿ ظَاهِراً ﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها ، وباطنها وحقيقتها أنها مجازٌ إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة ، والأعمال الصالحة . انتهى .

وناقش الكرخي في إبدال : ﴿ يَعْلَمُوْنَ ﴾ قال : إن الصناعة لا تساعد عليه ؛ لأن بدل فعل مثبت من فعل منفيٍّ لا يصح . واستظهر قول الحرفيّ ؛ أن : ﴿ يَعْلَمُوْنَ ﴾ استئناف

في المعنى . وأشار الناصر إلى جوابه بأن في تنكير : ﴿ ظَاهِراً ﴾ تقليلا لمعلومهم .

وتقليلُه يقربه من النفي ، فيطابق المبدل منه .

أقول : التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشري : وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً ، من جملة الظواهر .

أما قول أبي السعود : وتنكير : ﴿ ظَاهِراً ﴾ للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم . فغفلة عن مشاركتها للتعليل الذي به يطابق البدل المبدل منه . فافهم .

(205/603)

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا ، مع الغفلة عن الآخرة بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : يحدثوا التفكر في أنفسهم ، الفارغة من الفكر والتفكر . فالمجرور ظرف للتفكر ، ذكره لزيادة التصوير ؛ إذ الفكر لا يكون إلا في النفس ، والتفكر لا متعلق له ؛ لتنزيله منزلة اللازم . وجوز كون المجرور مفعول : ﴿ يَتَفَكَّرُوْا ﴾ لأنه يتعدى بـ " في " أي : أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم . فالمعنى حثهم على النظر في ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع ، وقوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بقولٍ أو علمٍ ، يدل عليه السياق ؛ أي : ألم يتفكروا فيقولوا أو

فيعلموا .

وقال السمين : ﴿ مَا ﴾ نافية ، وفي هذه الجملة وجهان : أحدهما - أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها . والثاني - أنها معلقة للتفكر . فيكون في محل نصب على إسقاط الخافض . انتهى . والباء في قوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ للملابسة ؛ أي : ما خلقها باطلاً ولا عبثاً بغير حكمةٍ بالغةٍ ، ولا لتبقى خالدة ، وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحق : ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : وبتقدير أجلٍ مسمى ، لا بدّ لها من أن تنتهي إليه ، وهو قيام الساعة ، ووقت الحساب ، والثواب ، والعقاب . ولذا عطف عليه قوله : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

(206/603)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ أي قلبوها للزراعة ، واستخراج المعادن ، وغيرهما ، مما كانوا أرقى فيه من أهل مكة : ﴿ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي : بالأبنية المشيدة ، والصناعات الفريدة ، ووفرة العَدد والعُدد ، وتنظيم الجيوش , والتزيّن بزخارف أُعجبوا بها ، واستطالوا بأبهتها ، ففسدت ملكاتهم ، وطغت شهواتهم ، حتى اقتضت حكمته تعالى

إنذارهم بأنبيائهم ، كما قال : ﴿ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : الآيات الواضحات على حقيقة ما يدعونهم إليه : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي : فكذبوهم فأهلكهم ، فما كان الله ليهلكهم من غير جرم منهم : ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا ﴾ أي : عملوا السيئات : ﴿ السُّوأَى ﴾ أي : العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة ، وهي جهنم ، و : ﴿ السُّوأَى ﴾ تأنيث الأسوأ ، وهو الأقبح ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى : ﴿ أَنْ ﴾ أي : لأن : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُونَ * اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ أي : ينشئهم : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي : بعد الموت بالبعث : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : إلى موقف الحساب والجزاء : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : يسكتون متحيرين يائسين . يقال أبلس ، إذا سكت وانقطعت حجته .

(207/603)

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء ﴾ أي : يجيرونهم من عذاب الله ، كما كانوا يزعمون : ﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ أي : بإلهيتهم وشركتهم لله تعالى ، حيث وقفوا على كنه أمرهم : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي : يتميز المؤمنون والكافرون في الحال

والأحوال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ أي : يسرّون : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أي : لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ لما ذكر الوعد والوعيد ، تأثره بما هو وسيلة للفوز والنجاة ، من تنزيهه تعالى عما لا يليق به ، والثناء عليه بصفاته الجميلة ، وأداء حق العبودية ، والفاء للتفريع فكأنه قيل : إذا صح واتضح عاقبة المطيعين والعاصين ، فقولوا : نسبح سبحان الخ . والمعنى فسبحوه تسبيحاً دائماً . وسبحان : خبر في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى وحمده ؛ أي : الثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته .

(208/603)

وقوله تعالى : ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ معطوف على : ﴿ حِينَ ﴾ وتقديمه على : ﴿ حِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ لمراعاة الفواصل ، وقوله : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ معترض بينهما . والمراد بثبوت حمده فيهما ، استحقاقه الحمد ممن له تمييز من أهلها . قال أبو السعود : والإخبار بثبوت الحمد له ، ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض ، في معنى الأمر به على أبلغ

وجه وآكده ، وتوسيطه بين أوقات التسبيح ، للاعتناء بشأنه ، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [البقرة : 30] ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [الحجر : 98] ، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس :

﴿ تُمْسُوْنَ ﴾ : صلاة المغرب والعشاء . و : ﴿ تُصْبِحُوْنَ ﴾ : صلاة الفجر . و : ﴿ عَشِيّاً ﴾ صلاة العصر . و : ﴿ تُظْهِرُوْنَ ﴾ : صلاة الظهر . فإن قيل : لم غيّر الأسلوب في : ﴿ عَشِيّاً ﴾ ؟ أجيب ، كما قال أبو السعود : بأن تغير الأسلوب لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشي ، كالمساء والصباح والظهيرة ، ولعل السرّ في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس ، وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً ؛ لوصفهم بالخروج عما قبلها ، والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة . فإن كلاً منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيراً ظاهراً , أما في المساء والصباح فظاهر ، وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة ، كما مر في سورة النور . انتهى .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ أي : كالإنسان من النطفة ، والطائر من البيضة : ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان : ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ ﴾ أي : بالنبات : ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي : يبسها : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : ومثل ذلك الإخراج : ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ أي : من قبوركم .

وقال المهايمي : أي : بالصلاة عن موت القلب إلى حياته ، ومن حياة النفس إلى موتها .

ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة ، بعد موتها بالهيئات الرديئة . وبالعكس بتركها .

وآثر هذا المعنى ، على بعده ، مراعاة لسياق الآية ، ومن طريق الإشارة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ أي : الباهرة الدالة على قدرته على البعث : ﴿ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي : يعني أصلكم آدم عليه السلام , أو النطفة والمادة , أو على تقدير مضاف ؛ أي : ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه في ذاتكم , وصفاتكم : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ أي : في الأرض انتشاراً ملأ البسيطة وشمل الكرة ، فأخذتم في بناء المدائن والحصون ، والسفر في أقطار الأقاليم ، وركوب متن البحار ، والدوران حول كرة الأرض ، وكسب الأموال وجمعها ، مع فكرة ودهاء ، ومكر وعلم ، واتساع في أمور الدنيا والآخرة ، كلٌّ بحسبه .

فسبحان من خلقهم وسيرهم ، وصرفهم في فنون المعايش وفاوت بينهم في العلوم والمعارف ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : جنسكم : ﴿ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ أي : تأنسوا بها . فإن المجانسة من دواعي التضام والتعارف : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

وَرَحْمَةً ﴾ أي : تواداً وتراحماً بعصمة الزواج ، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : في بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة .

(210/603)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ أي : أُولي العلم كما قال : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 43] , : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي : لاستراحة القوى , ورد ما فقدته : ﴿ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي : بالسعي في الأسباب ، والأخذ في فضل الاكتساب : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : سماع تفهم واستبصار : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً ﴾ أي : من الصاعقة : ﴿ وَطَمَعاً ﴾ أي : في الغيث والرحمة ، أو لتخافوا من قهر سلطانه وتطمعوا في عظيم إحسانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ ﴾ أي : بالنبات : ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي : يبسها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ أي : إرادته لقيامهما . قال أبو السعود : والتعبير عنها بالأمر ، للدلالة على كمال القدرة ، والغنى عن المبادئ والأسباب ، وليس المراد بإقامتهما

إنشائهما ؛ لأنه قد بين حاله بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الروم : 22] ، ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس ، كما قيل ؛ فإن ذلك من تتمات إنشائهما ، وإن لم يصرح به ، تعويلاً على ما ذكر في غير موضع من قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان : 10] الآية , بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه ، إلى أجلهما الذي نطق به قوله تعالى فيما قبل : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الروم : 8] ، وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة ، متصلة بالبعث في

(211/603)

الوجود ، أخرت عنهن وجعلت متصلة به في الذكر أيضاً ، فقيل : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده ، بعد انقضاء أجل قيامهما ، مترتب على تعداد آياته الدالة عليه ، غير منتظم في سلكها كما قيل . كأنه قيل : ومن آياته قيام السماوات والأرض على هيآتهما بأمره تعالى ، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ، ثم إذا دعاكم ؛ أي : بعد انقضاء الأجل من الأرض ، وأنتم في قبوركم ، دعوة واحدة ، بأن قال : أيها الموتى ! اخرجوا ، فاجأتم الخروج منها [؟ ؟] ،

وذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ [طه : 108] ، انتهى .

لطائف :

الأولى – الدعاء : إما على حقيقته ، أو الكلام تمثيل ، شبه سرعة ترقب حصول ذلك ، على تعلق إرادته بلا توقف ، واحتياج إلى تجشم عمل ، بسرعة ترقب إجابة الداعي المطاع على دعائه ، أو هو مكنية وتخييلية ، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يتهيؤون لذلك ، وإثبات الدعوة لهم قرينتها .

الثانية – قوله تعالى : ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ متعلق بـ : ﴿ دَعَا ﴾ كقوله : دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي ، لا بـ : ﴿ تَخْرُجُوْنَ ﴾ ؛ لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبله .

الثالثة – قال الكرخي : قال هنا : ﴿ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ وقال في خلق الإِنْسَانْ : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] ، لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدريج ، حتى يصير التراب قابلاً للحياة ، فنفخ فيه الروح ، فإذا هو بشر ، وأما في الإعادة فلا يكون تدريج بل يكون بدء وخروج ، فلم يقل هنا : ثم . انتهى .

(212/603)

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : خلقاً وملكاً وتصرفاً : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ أي : منقادون لتصرفه ، لا يتأبون عليه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي : بعد موتهم . قال أبو السعود : وتكريره لزيادة التقرير ، والتمهيد لما بعده من قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ أي : من البدء ؛ أي : بالقياس إلى من يقتضيه معقول المخاطبين ؛ لأن من أعاد منهم صنعة شيء ، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها ، وإلا فهما عليه سبحانه سواء في السهولة .

لطائف :

الأولى – تذكير الضمير ، مع رجوعه إلى الإعادة ، لما أنها مؤولة بـ " أن يعيد " .

الثانية – قال الزمخشري : فإن قلت : لم أخرت الصلة في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقدمت في قوله : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 9 و 21] ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص ، وهو محزّه . فقيل : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : 9 و 21] ، وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هم وعاقر ، وأما ههنا ، فلا معنى للاختصاص كيف ؟ والأمر مبني على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء . فلو قدمت الصلة ، لتغيّر المعنى .

قال الناصر : كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر ، لا بالحبر ، وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر .

الثالثة – قال الزمخشري : فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت في قوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الروم : 25] ، حتى كأنها فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة ، لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . انتهى .

(213/603)

قال الناصر : إنما يلقي في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ " ثم " إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلوّ شأنها . وقوله – في الجواب – : إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء ، لا يخلص فن الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السماوات والأرض بأمره ، وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة ، فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء ، ويعود الإشكال ، والمخلص ، والله أعلم ، جعْل : ﴿ ثُمَّ ﴾ على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب ، وإن سلم أنها لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا ، وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب ، فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع ، أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم . انتهى .

وفي حواشي القاضي : إن : ثم ، إما لتراخي زمان المعطوف فتكون على حقيقتها ، أو لعظم ما في المعطوف من إحياء الموتى ، فتكون للتفاوت في الرتبة لا للتراخي الزماني ،

والمراد عظمه في نفسه ، وبالنسبة إلى المعطوف عليه ، فلا ينافي قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وكونه أعظم من قيام السماء والأرض ؛ لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء ، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات ، وهو المقصود من خلق الأرض والسماوات . فاندفع اعتراض الناصر بأنه ، على تسليمه ، مرتبةُ المعطوف عليه هنا هي العليا ، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة ، أكثريٌّ لا كلي ، كما صرح به الطيبي هنا . فلا امتناع فيما منعه ، وهي فائدة نفيسة ، ويجوز حمله على مطلق البعد الشامل للزماني والرتبي كما في " شرح الكشاف " .

(214/603)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيهما ، كالقدرة العامة والحكمة التامة ، وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل ، عقبه بهذا ، فكأنه قيل هذا ، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته عجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة ، فكل شيء بدءاً وإعادةً وإيجاداً وإعداماً ، عنده على حد سواء ، ولا مثل له ولا ند .

وقال الزجاج : المراد بالمثل قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ فاللام فيه للعهد ، فحمل المثل

على ظاهره ، وعلى ما ذكر أولاً ، وهو مجاز عن الوصف العجيب ، فيشمل القول وغيره مما هو جار على ألسنة الدلائل ولسان كل قائل ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الغالب على أمره ، الذي لا يعجزه بدء ممكن وإعادته : ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يجري أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة .

(215/603)

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً ﴾ أي : يتبين به بطلان الشرك : ﴿ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : منتزعاً من أحوالها ، وهي أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفا : ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾ أي : من العبيد والإماء : ﴿ مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي : من الأموال وغيرها : ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء ﴾ أي : متساوون في التصرف فيما ذكر من غير مزية : ﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ أي : تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم ، وهو خبر آخر لـ : ﴿ أَنتُمْ ﴾ : ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي : كما يخاف بعضكم بعضاً من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر , والمعنى نفي مضمون ما فصّل من الجملة الاستفهامية ؛ أي : لا ترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم ، مماليككم ، وهم أمثالكم في البشرية ، غير مخلوقين لكم ، بل لله تعالى ، فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية ، التي هي من خصائصه الذاتية ، مخلوقه بل

مصنوع مخلوقه ، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه ؟ أفاده أبو السعود : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي : مثل ذلك التفصيل الواضح ، توضح الآيات : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : يقين وبرهان : ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ أي : سبب صرف اختياره إلى كسبه ؛ أي : لا يقدر على هدايته أحد : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أي : ينصرونهم من الله ، إذا أراد بهم عذاباً .

(216/603)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ أي : فقوّمه له ، واجعله مستقيماً متوجهاً له . وفي النظم الكريم استعارة تمثيلية ، بتشبيه المأمور بالتمسك بالدين ، ورعاية حقوقه ، وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأموره ، بمن أمر بالنظر إلى أمر ، وعقد طرفه به ، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له ، لمراعاته والاهتمام بحفظه : ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي : مائلاً عن كل ما سواه إليه . قال المهايمي : ولا يعسر الرجوع إليه لكونه : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ أي : لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث يفتقر إلى محدث ، ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً . فالقول بتعدده تغيير للفطرة , لكن : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أي : لا تغيير لأمر العقل الذي خلقه الله للاستدلال : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : الدين المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفطرة : ﴿

الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي : المستقيم الذي لا عوج فيه . قال المهايمي : وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد ، فهذا هو مقتضى الفطرة : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : أنه مقتضى الفطرة ، وهي أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب ؛ لأنها من الأمور التي لا تدخل تحت الكسب والاختيار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 588.598 ﴾

(217/603)

قوله تعالى ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من الناس من منّ الله عليه بأن كان في هذا الميدان ، وسمت همته إلى مسابقة

الفرسان ، فلما رأى أنه لم يلتفت إليه ، ولم يعول أصلاً عليه ، كادت نفسه تطير ، وكانت عادة القوم أن يخاطبوا القوم لمخاطبة رئيسهم تعظيماً له وحثاً لهم على التحلي بما خص به ، جُبرت قلوبهم وشرحت صدورهم فبينت لهم حال من ضمير " أقم " أو من العامل في " فطرت " إعلاماً بأنهم مرادون بالخطاب ، مشار إليهم بالصواب ، فقال : ﴿ منيبين ﴾ أي راجعين مرة بعد مرة بمجاذبة النفس والفطرة الأولى ﴿ إليه ﴾ تعالى بالنزوع عما اكتسبتموه من رديء الأخلاق إلى تلك الفطرة السليمة المنقادة للدليل ، الميالة إلى سواء السبيل . ولما لم يكن بعد الرجوع إلى المحبة إلا الأمر بلزومها خوفاً من الزيغ عنها دأب المرة الأولى .

(218/603)

قال عاطفاً على ﴿ فأقم ﴾ : ﴿ واتقوه ﴾ أي خافوا أن تزيغوا عن سبيله يسلمكم في أيدي أولئك المضلين ، فإذا خفتموه فلزمتموها كنتم ممن تخلى عن الرذائل ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ تصيروا ممن تحلى بالفضائل – هكذا دأب الدين أبداً تخلية ثم تحلية : أول الدخول إلى الإسلام التنزيه ، وأول الدخول في القرآن الاستعاذة ، وهو أمر ظاهر معقول ، مثاله من أراد أن يكتب في شيء إن مسح ما فيه من الكتابة انتفع بما كتب ، وإلا أفسد الأول ولم يقرأ الثاني – والله الموفق .

ولما كان الشرك من الشر بمكان ليس هو لغيره ، أكد النهي عنه بقوله : ﴿ ولا تكونوا ﴾ أي كوناً ما ﴿ من المشركين ﴾ أي لا تكونوا ممن يدخل في عدادهم بموادة أو معاشرة أو عمل تشابهونهم فيه فإنه " من تشبه بقوم فهو منهم " وهو عام في كل شرك سواء كان بعبادة صنم أو نار أو غيرهما ، أو بالتدين بما يخالف النصوص من أقوال الأحبار والرهبان وغير ذلك .

ولما كانوا يظنون أنهم على صواب ، نصب لهم دليلاً على بطلانه بما لا أوضح منه ، ولا يمكن أحداً التوقف فيه ، وذلك أنه لا يمكن أن يكون الشيء متصفاً بنفي شيء وإثباته في حالة واحدة فقال مبدلاً : ﴿ من الذين فرقوا ﴾ لما فارقوا ﴿ دينهم ﴾ الذي هو الفطرة الأولى ، فعبد كل قوم منهم شيئاً ودانوا ديناً غير دين من سواهم ، وهو معنى ﴿ وكانوا ﴾ أي بجهدهم وجدهم في تلك المفارقة المفرقة ﴿ شيعاً ﴾ أي فرقاً متحالفين ، كل واحدة منهم تشايع من دان بدينها على من خالفهم حتى كفر بعضهم بعضاً واستباحوا الدماء والأموال ، فعلم قطعاً أنهم كلهم ليسوا على الحق .

ولما كان هذا أمراً يتعجب من وقوعه ، زاده عجباً بقوله استئنافاً : ﴿ كل حزب ﴾ أي منهم ﴿ بما لديهم ﴾ أي خاصة من خاص ما عندهم من الضلال الذي انتحلوه ﴿ فرحون ﴾ طناً منهم أنهم صادفوا الحق وفازوا به دون غيرهم .

ولما حصل من هذا القطع من كل عاقل أن أكثر الخلق ضال ، فكان الحال جديراً بالسؤال ، عن وجه الخلاص من هذا الضلال ، أشير إليه أنه لزوم الاجتماع ، وبين ذلك في جملة حالية من فاعل " فرحون " فقال تعالى : ﴿ وإذا ﴾ وكان الأصل : مسهم ، ولكنه قيل لأنه أنسب بمقصود السورة من قصر ذلك على الإنسان كما هي العادة في أكثر السور أو غير ذلك من أنواع العالم : ﴿ مس الناس ﴾ تقوية لإرادة العموم إشارة إلى كل من فيه أهلية النوس وهو التحرك ، من الحيوانات العجم والجمادات لو نطقت ثم اضطربت لتوجهت إليه سبحانه ولم تعدل عنه كما أنها الآن كذلك بألسنة أحوالها ، فهذا هو الإجماع الذي لا يتصور معه نزاع ﴿ ضر دعوا ربهم ﴾ أي الذي لم يشاركه في الإحسان إليهم أحد في جميع مدة مسهم بذلك الضر – بما أشار إليه الظرف حال كونهم ﴿ منيبين ﴾ أي راجعين من جميع ضلالاتهم التي فرقتهم عنه ﴿ إليه ﴾ علماً منهم بأنه لا فرج لهم عند شيء غيره ، هذا ديدن الكل لا يخرم عنه أحد منهم في وقت من الأوقات ، ولا في أزمة من الأزمات ، قال الرازي في اللوامع في أواخر العنكبوت : وهذا دليل على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان ، وأنهم إن غفلوا في السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء .

ولما كان كل واقع في شدة مستبعداً كل استبعاد الخلاص منها قال : ﴿ ثم ﴾ بأداة العبد ﴿ إذا أذاقهم ﴾ مسنداً الرحمة إليه تعظيماً للأدب وإن كان الكل منه .

ولما كان السياق كله للتوحيد ، فكانت العناية باستحضار المعبود باسمه وضميره أتم قال : ﴿ منه ﴾ مقدماً ضميره دالاً بتقديم الجار على الاختصاص وأن ذلك لا يقدر عليه غيره ، وقال : ﴿ رحمة ﴾ أي خلاصاً من ذلك الضر ، إشارة إلى أنه لو أخذهم بذنوبهم أهلكهم ، فلا سبب لإنعامه سوى كرمه ، ودل على شدة إسراعهم في كفران الإحسان بقوله معبراً بأداة المفاجأة : ﴿ إذا فريق منهم ﴾ أي طائفة هي أهل لمفارقة الحق ﴿ بربهم ﴾ أي المحسن إليهم دائماً ، المجدد لهم هذا الإحسان من هذا الضر ﴿ يشركون ﴾ بدل ما لزمهم من أنهم يشكرون فعلم أن الحق الذي لا معدل عنه الإنابة في كل حال إليه كما أجمعوا في وقت الشدائد عليه ، وأن غيره مما فرقهم ضلال ، لا يعدله قبالاً ولا ما يعدله قبال .

ولما كان هذا الفعل مما لا يفعله إلا شديد الغباوة أو العناد ، وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس ، ربا بهم عن منزلة البله إلى ما الجنون خير منه تهكماً بهم فقال : ﴿ ليكفروا بما ﴾ ولفت الكلام إلى مظهر العظمة فقال : ﴿ آتيناهم ﴾ أي من الرحمة التي من عظمتها أنه لا يقدر عليها غيرنا أمناً من أن يقعوا في شدة اخرى فنهلكهم بما أغضبونا ، أو توسلاً بذلك إلى أن نخلصهم متى وقعوا في أمثالها ، فلما أضل عقولهم وأسفه آراءهم ! .

ولما كان فعلهم هذا سبباً لغاية الغضب ، دل عليه بتهديده ملتفتاً إلى المخاطبة بقوله : ﴿ فتمتعوا ﴾ أي بما أردتم فيه بالشرك من اجتماعكم عند الأصنام وتواصلكم بها وتعاطفكم ، وسبب عن هذا التمتع قوله : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي يكون لكم بوعد لا خلف فيه علم فتعرفون إذا حل بكم البلاء وأحاط بكم جميعاً المكروه هل ينفعكم شيء من الأصنام أو من اتخذتم عنده يداً بعبادتها ووافقتموه في التقرب إليها .

(221/603)

ولما بكتهم بقوله : ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم ﴾ ووصل به ما تقدم أنه في غاية التواصل ، عاد له ملتفتاً إيذاناً بالتهاون بهم إلى مقام الغيبة إبعاداً لهم عن جنابه حيث جلى لهم هذه الأدلة واستمروا في خطر إغضابه بقوله : ﴿ أم أنزلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ عليهم سلطاناً ﴾ أي دليلاً واضحاً قاهراً ﴿ فهو ﴾ أي ذلك السلطان لظهور بيانه ﴿ يتكلم ﴾ كلاماً مجازياً بدلالته وإفهامه ، ويشهد ﴿ بما ﴾ أي بصحة الذي ﴿ كانوا ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ به ﴾ أي خاصة ﴿ يشركون ﴾ بحيث لم يجدوا بدّاً من متابعته لتزول عنهم الملامة ، وهذه العبارة تدل على أنهم لازموا الشرك ملازمة صيرته لهم خلقاً لا ينفك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 624 . 626 ﴾

(222/603)

فصل

قال الفخر :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) ﴾

(223/603)

لما قال حنيفاً أي مائلاً عن غيره قال : ﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي مقبلين عليه ، والخطاب في قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ مع النبي والمراد جميع المؤمنين ، وقوله : ﴿ واتقوه ﴾ يعني إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة أي كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قبل ذلك ، ثم إنه تعالى قال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ قال المفسرون يعني ولا تشركوا بعد الإيمان أي ولا تقصدوا بذلك غير الله ، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله : ﴿ مُّنِيبِينَ ﴾ أثبت التوحيد الذي هو مخرج عن الإشراك الظاهر وبقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ أراد إخراج العبد عن الشرك

الخفي أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فإن الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله : ﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ يعني لم يجتمعوا على الإسلام ، وذهب كل أحد إلى مذهب ، ويحتمل أن يقال وكانوا شيعاً يعني بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار ، وكل واحد بما في نظره فرح ، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه ، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل ما لدينا نافد لقوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا ءاتاهم الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران : 169- 170] جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذي لا نفاد له ، ولذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58] لا بما عندهم فإن كل ما عند العبد فهو نافد ، أما في الدنيا فظاهر ، وأما في

الآخرة فلأن ما وصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول ، ولكن الله يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذي لا نفاد له فالذي لا نفاد له هو فضله .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33)

لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل ، بين أن لهم حالة يعرفون بها ، وإن كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدة ، فإن عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله ، ويجد نفسه محتاجة إلى شيء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ يعني إذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان ، وبسبب الصنم الفلاني ، لا ، بل ينبغي أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهراً فإنه شرك خفي ، مثاله رجل في بحر أدركه الغرق فيهيىء له لوحاً يسوقه إليه ريح فيتعلق به وينجو ، فيقول تخلصت بلوح ، أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلاً فيعينه فيقول خلصني زيد ، فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفي ، وإن كان بمعنى أن الله خلصني على يد زيد فهو أخفى ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ أَذَاقَهُمْ ﴾ فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال في القليل فإن العرف (أن) من أكل مأكولاً كثيراً لا يقول ذقت ، ويقال في النفي ما ذقت في بيته طعاماً نفياً للقليل ليلزم نفي الكثير بالأولى ، ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة في الآخرة إذ لهم في الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال في العذاب : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر : 48] ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : 55] ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين في غاية القلة .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من الضر في هذا التخصيص ما ذكرناه من الفائدة وهي أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هي عن ذلك الضر وحده ، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة .

المسألة الثالثة :

قال ههنا ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ وقال في العنكبوت : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] ولم يقل فريق وذلك لأن المذكور هناك ضر معين ، وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل ، والذي لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم في غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقاً لقلة من خرج من المشركين ، وأما

المذكور ههنا الضر مطلقاً فيتناول ضر البر والبحر والأمراض والأهون والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما وتخلصوا منه ، والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركاً من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم ، وهو جميع المسلمين فإنهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين ، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم ، فلما كان الناجي من الضر من المؤمنين جمعاً كثيراً ، جعل الباقي فريقاً .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

(226/603)

قوله تعالى : ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قد تقدم تفسيره في العنكبوت بقي بيان فائدة الخطاب ههنا في قوله : ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ وعدمه هناك في قوله : ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعلَمُونَ﴾ فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضراً واحداً جاز أن لا يكون في ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد ، فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر ، فالحاضر يصح خطابه بأنه منهم فخاطب .

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ لما سبق قوله

تعالى : ﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ [الروم : 29] أي المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فإنهم وقت الضر يرجعون إلى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الإنكار ، أي ما أنزلنا بما يقولون سلطاناً ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أم للاستفهام ولا يقع إلا متوسطاً ، كما قال قائلهم :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل . . وبين النقا آأنت أم أم سالم

فما الاستفهام الذي قبله ؟ فنقول تقديره إذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول ، أهم يتبعون الأهواء من غير علم ؟ أم لهم دليل على ما يقولون ؟ وليس الثاني فيتعين الأول .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ مجاز كما يقال إن كتابه لينطق بكذا ، وفيه معنى لطيف وهو أن المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له ، لأن الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكأن المتكلم لم يتكلم به ، وما لا دليل عليه لا يقبل ، فإذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز إثبات التكلم للدليل وحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 105 . 108 ﴾

(227/603)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : مقبلين إليه ، قاله يحيى بن سلام والفراء .

الثاني : داعين إليه ، قاله عبيد بن يعلى .

الثالث : مطيعين له ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الرابع : تائبين إليه من الذنوب ، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

فإن تابوا فإن بني سليم . . . وقومهم هوازن قد أنابوا

وفي أصل الإنابة قولان

: أحدهما : أن أصله القطع ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله عز وجل بالطاعة .

الثاني : أن أصله الرجوع مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد مرة ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ أي أوقعوا فيه الاختلاف حتى صاروا فرقاً وقرىء ﴿ فَارَقُواْ دِينَهُم ﴾ أي تركوه وقد قرأ بذلك علي رضي الله عنه وهي قراءة حمزة

والكسائي وفيهم أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم اليهود ، قاله قتادة .

الثاني : أنهم اليهود والنصارى ، قاله معمر .

الثالث : أنهم الخوارج من هذه الأمة ، وهذا قول أبي هريرة ورواه أبو أمامة مرفوعاً .

الرابع : أنهم أصحاب الأهواء والبدع ، روته عائشة مرفوعاً .

﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : فرقاً ، قاله الكلبي .

الثاني : أدياناً ، قاله مقاتل .

ويحتمل ثالثاً : أنهم أنصار الأنبياء وأتباعهم .

﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ أي فرقة

. ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي بما عندهم من الضلالة

. ﴿ فَرِحُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : مسرورون ، قاله الجمهور .

الثاني : معجبون ، قاله ابن زيد .

الثالث : متمسكون ، قاله مجاهد .

قوله : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً ﴾

فيه أربعة تأويلات

: أحدها : يعني كتاباً ، قاله الضحاك .

الثاني : عذراً ، قاله قتادة .

الثالث : برهاناً ، وهو معنى قول السدي وعطاء .

الرابع : رسولاً ، حكاه ابن عيسى محتملاً .

﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : معناه يخبر به .

الثاني : يحتج له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(228/603)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ منيبين ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من قوله ﴿ فطر الناس عليها ﴾ لا سيما على رأي من رأى أن ذلك خصوص في المؤمنين ، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله ﴿ أقم وجهك ﴾ وجمعه لأن الخطاب بإقامة الوجه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته ، نظيرها قوله

﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ [الطلاق : 1] ، والمنيب الراجع المخلص المائل إلى جهة ما بوده ونفسه ، و" المشركون " المشار إليهم في هذه الآية هم اليهود والنصارى ، قاله قتادة وقال ابن زيد : هم اليهود ، وقالت عائشة وأبو هريرة : هي في أهل القبلة .

قال الفقيه الإمام القاضي : فلفظة الإشراك على هذا فيها تجوز فإنهم صاروا في دينهم فرقاً ، و" الشيع " الفرق واحدها " شيعة " ، وقوله ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ معناه أنهم مفتونون بآرائهم معجبون بضلالهم ، وذلك أضل لهم ، وقرأت فرقة " فارقوا دينهم " بالألف .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ

هذا ابتداء إنحاء على عبدة الأصنام المشركين بالله عز وجل غيره بين الله تعالى لهم أنهم كسائر البشر في أنهم إذا مسهم ﴿ ضر دعوا الله ﴾ وتركوا الأصنام مطرحة ولهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع ، ف ﴿ إذا أذاقهم ﴾ رحمته أي باشرهم أمره بها ، والذوق مستعار ، إذا طائفة تشرك به أصناماً ونحو هذا ، و ﴿ إذا ﴾ للمفاجأة فلذلك صلحت في جواب ﴿ إذا ﴾ الأولى بمنزلة الفاء وهذه الطائفة هي عبدة الأصنام .

(229/603)

قال الفقيه الإمام القاضي : ويحلق من هذه الألفاظ شيء للمؤمنين إذا جاءهم فرج بعد شدة فعلقوا ذلك بمخلوقين أو بحذق آرائهم وغير ذلك لأن فيه قلة شكر لله تعالى ، ويسمى تشريكاً مجازاً ، وقوله تعالى ﴿ ليكفروا ﴾ اللام لام كي ، وقالت فرقة هي لام الأمر على جهة الوعيد والتهديد ، وأما قوله تعالى : ﴿ فتمتعوا ﴾ فأمر على جهة الوعيد ، والتقدير قل لهم يا محمد ﴿ فتمتعوا ﴾ وقرأ أبو العالية " فيتمتعوا " بياء قبل التاء وذلك عطف على ﴿ ليكفروا ﴾ أي لتطول أعمارهم على الكفر ، وفي حرف ابن مسعود " فليتمتعوا " ، وروي عن أبي العالية " فيُمتعوا " بضم الياء دون تاء أولى ، وفي مصحف ابن مسعود " تمتعوا " هكذا قال هارون ، وقرأ عامة الناس " تعلمون " بالتاء على المخاطبة ، وقرأ أبو العالية " يعلمون " بالياء على ذكر الغائب .

وقوله ﴿ أم ﴾ بمعنى بل وألف الاستفهام كأن أضرب عن صدر الكلام ورجع إلى هذه الحجة ، و" السلطان " هنا البرهان من رسول أو كتاب ونحوه ، والسلطان في كلام العرب جمع سليط كرغيف ورغفان وغدير وغدران فهو مأخوذ من التسلط والتغلب ، ولزم هذا الاسم في العرف الرئيس لأنه سليط بوجه الحق ولزمه اسم جمع من حيث أنواع الغلبة والملك عنده ، وقال قوم : هو اسم مفرد وزنه فعلان ، وقوله تعالى : ﴿ فهو يتكلم ﴾ معناه أن يظهر حجتهم وينطق بشركهم قاله قتادة ، فيقوم ذلك مقام الكلام ، كما قال تعالى ﴿ هذا

كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(230/603)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

اختلف في معناه ، فقيل : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص .

وقال يحيى بن سلام والفرّاء : مقبلين إليه .

وقال عبد الرحمن بن زيد : مطيعين له .

وقيل : تائبين إليه من الذنوب ؛ ومنه قول (أبي) قيس بن الأسْلَت :

فإن تابوا فإن بني سليم . . .

وقومهم هوازن قد أنابوا

والمعنى واحد ؛ فإن "ناب وتاب وثاب وآب" معناه الرجوع .

قال الماوردِيّ : وفي أصل الإنابة قولان : أحدهما : أن أصله القطع ؛ ومنه أخِذ اسم الناب لأنه قاطع ؛ فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ بالطاعة .

الثاني : أصله الرجوع ؛ مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ؛ ومنه النَّوْبة لأنها الرجوع إلى عادة .

الجوهري : وأناب إلى الله أقبل وتاب .

والنَّوْبة واحدة النُّوَب ، تقول : جاءت نَوْبتك ونيابتك ، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم في الماء وغيره .

وانتصب على الحال .

قال محمد بن يزيد : لأن معنى : "أَقِمْ وَجْهَكَ" فأقيموا وجوهكم منيبين .

وقال الفرّاء : المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين .

وقيل : انتصب على القطع ؛ أي فأقم وجهك أنت وأمتك المنيبين إليه ؛ لأن الأمر له ، أمرٌ لأمته ؛ فحسن أن يقول منيبين إليه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ [الطلاق : 1] .

﴿ واتقوه ﴾ أي خافوه وامتثلوا ما أمركم به ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ بيّن أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص ؛ فلذلك قال : "وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" وقد مضى هذا مبيناً "في النساء والكهف" وغيرهما .

﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ تأوّله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة : أنه لأهل القبلة من أهل الأهواء والبِدع .

وقد مضى "في الأنعام" بيانه .

وقال الربيع بن أنس : الذين فرّقوا دينهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وقاله قتادة ومَعْمَر .

(231/603)

وقرأ حمزة والكسائي : "فَارِقُوا دِينَهم" ، وقد قرأ بذلك عليّ بن أبي طالب ؛ أي فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه ، وهو التوحيد .

﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ أي فِرقاً ؛ قاله الكَلْبيّ .

وقيل أدياناً ؛ قاله مقاتل .

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي مسرورون معجبون ، لأنهم لم يتبيّنوا الحق وعليهم أن يتبيّنوه .

وقيل : كان هذا قبل أن تنزل الفرائض .

وقول ثالث : أن العاصي لله عز وجل قد يكون فرحاً بمعصيته ، فكذلك الشيطان وقُطّاع الطريق وغيرهم ، والله أعلم .

وزعم الفرّاء أنه يجوز أن يكون التمام "وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" ويكون المعنى : من الذين

فارقوا دينهم "وَكَانُوا شِيَعاً" على الاستئناف ، وأنه يجوز أن يكون متصلاً بما قبله .

النحاس : وإذا كان متصلاً بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف ؛ كما قال جل وعز : ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف : 75] ولو كان بلا حرف لجاز .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ ﴾ أي قَحْط وشِدّة ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ ﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس : مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون .

ومعنى هذا الكلام التعجب ، عجب نبيّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم ؛ أي إذا مسّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرض وشدّة دعوْا ربّهم ؛ أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم ؛ مقبلين عليه وحده دون الأصنام ، لعلمهم بأنه لا فرج عندها .

﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي عافية ونعمة .

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي يشركون به في العبادة .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ ﴾ قيل : هي لام كي .

وقيل : هي لام أمر فيه معنى التهديد ؛ كما قال جل وعز : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

وفي مصحف عبد الله "وَلِيَتَمَتّعوا" ؛ أي مكّناهم من ذلك لكي يتمتعوا ، فهو إخبار عن غائب ؛ مثل : "لِيَكْفُرُوا" .

وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب ؛ أي تمتعوا أيها الفاعلون لهذا .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً ﴾ استفهام فيه معنى التوقيف .

قال الضحاك : "سُلْطَاناً" أي كتاباً ؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس .

وأضاف الكلام إلى الكتاب توسُّعاً .

وزعم الفرّاء أن العرب تؤنّث السلطان ؛ تقول : قضَتْ به عليك السلطان .

فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح ، وبه جاء القرآن ، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة ؛ أي حجة تنطق بشرككم ؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضاً .

وقال عليّ بن سليمان عن أبي العباس محمد بن يزيد قال : سُلطان جمع سليط ؛ مثل رغيف ورغفان ، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيثه على معنى الجماعة .

وقد مضى في "آل عمران" الكلام في السلطان أيضاً مستوفى .

والسلطان : ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبة ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَوْ

لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 21] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(233/603)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) ﴾

﴿ من في السموات والأرض ﴾ : عام في كونهم تحت ملكه وقهره .

وقال الحسن : ﴿ قانتون ﴾ : قائمون بالشهادة على وحدانيته ، كما قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

وقال ابن عباس : مطيعون ، أي في تصريفه ، لا يمتنع عنه شيء يريد فعله بهم ، من حياة وموت وصحة ومرض ، فهي طاعة الإرادة لا طاعة العبادة .

وقيل : قائمون يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وإذا حمل القنوت على الإخلاص ، كما قال ابن جبير ، أو على الإقرار بالعبودية ، أو قانتون من ملك ومؤمن ، لأن كل عام مخصوص .

﴿ وهو أهون عليه ﴾ : أي والعود أهون عليه ، وليست أهون أفعل تفضيل ، لأنه تفاوت عند الله في النشأتين : الإبداء والإعادة ، فلذلك تأوله ابن عباس والربيع بن خيثم على أنه بمعنى هين ، وكذا هو في مصحف عبد الله .

والضمير في عليه عائد على الله .

وقيل : أهون للتفضيل ، وذلك بحسب معتقد البشر وما يعطيهم النظر في المشاهد من أن الإعادة في كثير من الأشياء أهون من البداءة ، للاستغناء عن الروية التي كانت في البداءة ؛ وهذا ، وإن كان الاثنان عنده تعالى من اليسر في حيز واحد .

وقيل : الضمير في عليه عائد على الخلق ، أي والعود أهون على الخلق : بمعنى أسرع ، لأن البداءة فيها تدريج من طور إلى طور إلى أن يصير إنساناً ، والإعادة لا تحتاج إلى هذه التدريجات في الأطوار ، إنما يدعوه الله فيخرج ، فكأنه قال : وهو أيسر عليه ، أي أقصر مدة وأقل انتقالاً .

(234/603)

وقيل : المعنى وهو أهون على المخلوق ، أي يعيد شيئاً بعد إنشائه ، فهذا عرف المخلوقين ، فكيف تنكرون أنتم الإعادة في جانب الخالق ؟ قال ابن عطية : والأظهر عندي عود

الضمير على الله تعالى ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ ، كما جاء بلفظ فيه استعاذة واستشهاد بالمخلوق على الخالق ، وتشبيه بما يعهده الناس من أنفسهم ، خلص جانب العظمة ، بأن جعل له المثل الأعلى الذي لا يتصل به ، فكيف ولا تمثال مع شيء ؟ انتهى .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم أخرت الصلة في قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ ، وقدمت في قوله : ﴿ هو علي هين ﴾ قلت : هنالك قصد الاختصاص ، وهو تجبره ، فقيل : وهو على هين ، وإن كان مستصعباً عندك ، وإن تولد بين هرم وعاقر .

وأما هنا لا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء ؟ فلو قدمت الصلة لتغير المعنى . انتهى .

ومبنى كلامه على أن تقديم المعمول يؤذن بالاختصاص ، وقد تكلمنا معه في ذلك ، ولم نسلمه في قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ ، قيل : هو متعلق بما قبله ، قاله الزجاج ، وهو قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ ؛ قد ضربه لكم مثلاً فيما يسهل أو يصعب .

وقيل : بما بعده من قوله : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ .

وقيل : المثل : الوصف الأرفع الأعلى الذي ليس لغيره مثله ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما .

﴿ وهو العزيز ﴾ : أي القاهر لكل شيء ، الحكيم الذي أفعاله على مقتضى حكمته .

وعن مجاهد : المثل الأعلى قوله : ﴿ لا إله إلاّ الله ﴾ وله الوصف بالوحدانية ، ويؤيده قول : ﴿ ضرب لكم ﴾ .

(235/603)

وقال ابن عباس وغيره : بين تعالى أمر الأصنام وفساد معتقد من يشركها بالله ، بضربه هذا المثل ، ومعناه : أنكم أيها الناس ، إذا كان لكم عبيد تملكونهم ، فإنكم لا تشركونهم في أموالكم ومهم أموركم ، ولا في شيء على جهة استواء المنزلة ، وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم ، أو يقاسمونكم إياها في حياتكم ، كما يفعل بعضكم ببعض ؛ فإذا كان هذا فيكم ، فكيف تقولون : إن من عبيده وملكه شركاء في سلطانه وألوهيته وتثبتون في جانبه ما لا يليق عندكم بجوانبكم ؟ وجاء هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير .

وقال السدي : كانوا يورثون آلهتهم ، فنزلت .

وقيل : لما نزلت ، قال أهل مكة : لا يكون ذلك أبداً ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " فلم يجوز لربكم " ؟ ومن في : ﴿ من أنفسكم ﴾ لابتداء الغاية ، كأنه قال : أخذ مثلاً ، وافترى من أقرب شيء منكم ، وهو أنفسكم ، ولا يبعد .

ومن في : ﴿ مما ملكت ﴾ للتبعيض ، ومن في : ﴿ من شركاء ﴾ زائدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي .

يقول : ليس يرضى أحد منكم أن يشركه عبده في ماله وزوجته وما يختص به حتى يكون مثله ، فكيف ترضون شريكاً لله ، وهو رب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد ؟

وقال أبو عبد الله الرازي : وبين المثل والممثل به مشابهة ومخالفه .

فالمشابهة معلومة ، والمخالفة من وجوه : قوله : ﴿ من أنفسكم ﴾ : أي من نسلكم ، مع حقارة الأنفس ونقصها وعجزها ، وقاس نفسه عليكم مع عظمتها وجلالتها وقدرتها .

وقوله : ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ : أي عبيدكم ، والملك ما قبل النقل بالبيع ، والزوال بالعتق ، ومملوكه تعالى لا خروج له عن الملك .

(236/603)

فإذا لم يجز أن يشرككم مملوككم ، وهو مثلكم من جميع الوجوه ومثلكم في الآدمية ، حالة الرق ، فكيف يشرك الله مملوكه من جميع الوجوه المباين له بالكلية ؟ وقوله : ﴿ فيما رزقناكم ﴾ : يعني أن الميسر لكم في الحقيقة إنما هو الله ومن رزقه حقيقة ، فإذا لم يجز أن يشرككم فيما هو لكم من حيث الاسم ، فكيف يكون له تعالى شريك فيما له من جهة

الحقيقة ؟ انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

و﴿ شركاء ﴾ في موضع رفع بالابتداء ، و﴿ فيما رزقناكم ﴾ متعلق به ، و﴿ لكم ﴾ الخبر ، و﴿ مما ملكت ﴾ في موضع الحال ، لأنه نعت نكرة تقدم عليها وانتصب على الحال ، والعامل فيها العامل في الجار والمجرور ، والواقع خبراً ، وهو مقدر بعد المبتدأ .

وما في فيما ﴿ رزقناكم ﴾ واقعة على النوع ، والتقدير : هل شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكته أيمانكم كائنون لكم ؟ ويجوز أن يتعلق لكم بشركاء ، ويكون مما رزقناكم في موضع الخبر ، كما تقول : لزيد في المدينة مبغض ، فلزيد متعلق بمبغض الذي هو مبتدأ ، وفي المدينة الخبر ، و﴿ فأنتم فيه سواء ﴾ جملة في موضع الجواب للاستفهام المضمن معنى النفي ، وفيه متعلق بسواء ، و﴿ تخافونهم ﴾ خبر ثان لأنتم ، والتقدير : فأنتم مستوون معهم فيما رزقناكم ، تخافونهم كما يخاف بعضكم بعضاً أيها السادة .

والمقصود نفي الشركة والإستواء والخوف ، وليس النفي منسحباً على الجواب وما بعده فقط ، كأحد وجهي ما تأتينا فتحدثنا ، أي ما تأتينا فتحدثنا ، إنما تأتي ولا تحدث ، بل هو على الوجه الآخر ، أي ما تأتينا فكيف تحدثنا ؟ أي ليس منك إتيان فلا يكون حديث .

وكذلك هذا ليس لهم شريك ، فلا استواء ولا خوف .

وقرأ الجمهور : ، بالنصب ، أضيف المصدر إلى الفاعل ؛ وابن أبي عبيدة : بالرفع ،

أضيف المصدر للمفعول ، وهما وجهان حسنان ، ولا قبح في إضافة المصدر إلى المفعول مع وجود الفاعل .

(237/603)

﴿ كذلك ﴾ : أي مثل ذلك التفصيل ، ﴿ نفصل الآيات ﴾ : أي نبينها ، لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها ، لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها .

ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة ؟ وقرأ الجمهور : نفصل ، بالنون ، حملاً على رزقناكم ؛ وعباس عن ابن عمر : بياء الغيبة ، رعياً لضرب ، إذ هو مسند للغائب .

وذكر بعض العلماء في هذه الآية دليلاً على صحة أصل الشركة بين المخلوقين ، لافتقار بعضهم إلى بعض ، كأنه يقول : الممتنع والمستقبح شركة العبيد لساداتهم ؛ أما شركة السادات بعضهم لبعض فلا يمتنع ولا يستقبح .

والإضراب ببل في قوله : ﴿ بل اتبع ﴾ جاء على ما تضمنته الآية ، إذ المعنى : ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من إشراكهم بالله ، بل ذلك بمجرد هوى بغير علم ، لأنه قد يكون هوى للإنسان ، وهو يعلم .

و ﴿ الذين ظلموا ﴾ : هم المشركون ، اتبعوا أهواءهم جاهلين هائمين على أوجههم ، لا

يرغمهم عن هواهم علم ، إذ هم خالون من العلم الذي قد يردع متبع الهوى .

﴿ فمن يهدي من أضل الله ﴾ : أي لا أحد يهدي من أضله الله ، أي هؤلاء ممن أضلهم الله ، فلا هادي لهم .

وقال الزمخشري : من أضل الله : من خذله الله ولم يلطف به ، لعلمه أنه ممن لا لطف له ممن يقدر على هداية مثله .

﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ : دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

﴿ فأقم وجهك للدين ﴾ : فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت ، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته واهتمامه بأسبابه .

فإن من اهتم بالشيء ، عقد عليه طرفه وقوم له وجهه مقبلاً به عليه ، والدين دين الإسلام .

وذكر الوجه ، لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه .

و﴿ حنيفاً ﴾ : حال من الضمير في أقم ، أو من الوجه ، أو من الدين ، ومعناه : مائلاً عن الأديان المحرفة المنسوخة .

﴿ فطرة الله ﴾ : منصوب على المصدر ، كقوله : ﴿ صبغة الله ﴾ وقيل : منصوب بإضمار فعل تقديره : التزم فطرة الله .

وقال الزمخشري : الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله .

وإنما أضمرت على خطاب الجماعة لقوله : ﴿ منيبين إليه ﴾ ، ومنيبين حال من الضمير في الزموا .

وقوله : ﴿ وأقيموا ﴾ ، ﴿ ولا تكونوا ﴾ ، معطوف على هذا المضمر . انتهى .

وقيل : ﴿ فأقم وجهك ﴾ ، المراد به : فأقيموا وجوهكم ، وليس مخصوصاً بالرسول وحده ، وكأنه خطاب لمفرد أريد به الجمع ، أي : فأقم أيها المخاطب ، ثم جمع على المعنى ، لأنه لا يراد به مخاطب واحد .

فإذا كان هذا ، فقوله : ﴿ منيبين ﴾ ، ﴿ وأقيموا ﴾ ، ﴿ ولا تكونوا ﴾ ملحوظ فيه معنى الجمع .

وقول الزمخشري : أو عليكم فطرة الله لا يجوز ، لأن فيه حذف كلمة الإغراء ، ولا يجوز حذفها ، لأنه قد حذف الفعل وعوض عليك منه .

فلو جاء حذفه لكان إجحافاً ، إذ فيه حذف العوض والمعوض منه .

والفطرة ، قيل : دين الإسلام ، والناس مخصوصون بالمؤمنين .

وقيل : العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم نسماً من ظهره ورجح الحذاق .

إنها القابلية التي في الطفل للنظر في مصنوعات الله ، والاستدلال بها على موجده ، فيؤمن به ويتبع شرائعه ، لكن قد تعرض له عوارض تصرفه عن ذلك ، كتهويد أبويه له ، وتنصيرهما ، إغواء شياطين الإنس والجن .

﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ : أي لا تبديل لهذه القابلية من جهة الخالق .

وقال مجاهد ، وابن جبير ، والضحاك ، والنخعي ، وابن زيد : لا تبديل لدين الله ، والمعنى : لمعتقدات الأديان ، إذ هي متفقة في ذلك .

وقال الزمخشري : أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير .

وقال ابن عباس : لا تبديل لقضاء الله بسعادتهم وشقاوتهم ، وقيل : هو نفي معناه : النهي ، أي لا تبدلوا ذلك الدين .

وقيل : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ بمعنى : الواحدانية مترشحة فيه ، لا تغير لها ، حتى لو سألته : من خلق السموات والأرض ؟ تقول : الله .

ويستغرب ما روي عن ابن عباس أن معنى ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ : النهي عن خصاء الفحول من الحيوان .

وقول من ذهب إلى أن المعنى في هذه الجملة ألجأ على الكفرة ، اعترض به أثناء الكلام ، كأنه يقول : أقم وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا ، فإن هؤلاء الكفرة ومن خلق الله لهم الكفر ، و﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ : أي أنهم لا يفلحون ذلك الذي أمرت بإقامة وجهك له ، هو الدين المبالغ في الاستقامة .

والقيم : بياء مبالغة ، من القيام ، بمعنى الاستقامة ، ووزنه فعيل ، أصله قيوم كيد ، اجتمعت الياء والواو ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء فيها ، وهو بناء مختص بالمعتل العين ، لم يجيء منه في الصحيح إلا بيئس وصيقل علم لامرأة .

﴿ منيبين ﴾ : حال من ﴿ الناس ﴾ ، ولا سيما إذا أريد بالناس : المؤمنون ، أو من الضمير في : الزموا فطرة الله ، وهو تقدير الزمخشري ، أو من الضمير في : ﴿ فأقم ﴾ ، إذ المقصود : الرسول وأمته ، وكأنه حذف معطوف ، أي فأقم وجهك وأمتك .

وكذا زعم الزجاج في : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم ﴾ أي يا أيها النبي والناس ، ودل على ذلك مجيء الحال في ﴿ منيبين ﴾ جمعاً ، وفي ﴿ إذا طلقتم ﴾ جاء الخطاب فيه وفي ما بعده .

جمعاً ، أو على خبر كان مضمرة ، أي كونوا منيبين ، ويدل عليه قوله بعد ﴿ ولا تكونوا ﴾

، وهذه احتمالات منقولة كلها .

﴿ من المشركين ﴾ : من اليهود والنصارى ، قاله قتادة .

وقال ابن زيد : هم اليهود ؛ وعن أبي هريرة وعائشة : أنهم أهل القبلة ، ولفظة الإشراك على هذا تجوز بأنهم صاروا في دينهم فرقاً .

والظاهر أن المشركين : كل من أشرك ، فيدخل فيهم أهل الكتاب وغيرهم .

و ﴿ من الذين ﴾ : بدل من المشركين ، ﴿ فرقوا دينهم ﴾ : أي دين الإسلام وجعلوه أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم .

﴿ وكانوا شيعاً ﴾ : كل فرقة تشايع إمامها الذي كان سبب ضلالها .

﴿ كل حزب ﴾ : أي منهم فرح بمذهبه مفتون به .

والظاهر أن ﴿ كل حزب ﴾ مبتدأ و ﴿ فرحون ﴾ الخبر .

(240/603)

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ﴿ من الذين ﴾ منقطعاً مما قبله ومعناه : من المفارقين دينهم .

كل حزب فرحين بما لديهم ، ولكنه رفع فرحون على الوصف لكل ، كقوله :

وكل خليل غيرها ضم نفسه . . .

انتهى .

قدر أولاً فرحين مجرورة صفة لحزب ، ثم قال : ولكنه رفع على الوصف لكل ، لأنك إذا قلت : من قومك كل رجل صالح ، جاز في صالح الخفض نعتاً لرجل ، وهو الأكثر ، كقوله :

جادت عليه كل عين ترة . . .

فتركن كل حديقة كالدرهم

وجاز الرفع نعتاً لكل ، كقوله :

وعليه هبت كل معصفة . . .

هوجاء ليس للبها دبر

يرفع هوجاء صفة لكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(241/603)

وقال الآلوسى :

﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

أي راجعين إليه تعالى بالتوبة وإخلاص العمل من ناب نوبة ونوباً إذا رجع مرة بعد أخرى ،

ومنه النوب أي النحل سميت بذلك لرجوعها إلى مقرها ، وقيل : أي منقطعين إليه تعالى من الناب السن خلف الرباعية لما يكون بها من الانقطاع ما لا يكون بغيرها .

وتعقب بأنه بعيد لأن الناب يائي وهذا واوى ، وقد تقدم غير بعيد عدة أقوال في وجه نصبه ، وزاد عليها في البحر القول بكونه نصباً على الحال من ﴿ الناس ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فَطَرَ الناس ﴾ [الروم : 30] وقدمه على سائر الأقوال وهو كما ترى ، وتقدم أيضاً ما قيل في عطف قوله تعالى : ﴿ واتقوه ﴾ أي من مخالفة أمره تعالى ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ المبدلين لفطرة الله سبحانه تبديلا ، والظاهر أن المراد بهم كل من أشرك بالله عز وجل ، والنهي متصل بالأوامر قبله ، وقيل : باقيموا الصلاة ، والمعنى ولا تكونوا من المشركين بتركها وإليه ذهب محمد بن أسلم الطوسي وهو كما ترى ، وقوله تعالى :

﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ بدل من ﴿ المشركين ﴾ [الروم : 31] بإعادة الجار ، وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم ، وقيل : اختلافهم في اعتقاداتهم مع اتحاد معبودهم ، وفائدة الإبدال التحذير عن الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ فارقوا ﴾ أي تركوا دينهم الذي أمروا به أو الذي اقتضته فطرتهم ﴿ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ أي فرقا تشايع كل فرقة أمامها الذي مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الدين المعوج المؤسس على الرأس الزائغ والزعم الباطل ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون ظناً منهم أنه حق ، والجملة قيل اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من تفريق دينهم كونهم شيعاً ، وقيل : في موضع نصب على أنها صفة ﴿ شِيَعاً ﴾ بتقدير العائد أي كل حزب منهم ، وزعم بعضهم كونها حالاً .

وجوز أن يكون ﴿ فَرِحُونَ ﴾ صفة لكل كقول الشماخ :

وكل خليل غيرها ضم نفسه . . .

لوصل خليل صارم أو معارز

والخبر هو الظرف المتقدم أعني قوله تعالى : ﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ فيكون منقطعاً عما قبله ، وضعف بأنه يوصف المضاف إليه في نحوه صرح به الشيخ ابن الحاجب في قوله :

وكل أخ مفارقه أخوه . . .

لعمر أبيك إلا الفرقدان

وفي البحر أن وصف المضاف إليه في نحوه هو الأكثر وأنشد قوله :

جادت عليه كل عين ترة . . .

فتركن كل حديقة كالدرهم

وما قيل : إنه إذا وصف به ﴿ كُلٌّ ﴾ دل على أن الفرح شامل للكل وهو أبلغ ليس بشيء بل العكس أبلغ لو تؤمل أدنى تأمل .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ ﴾ أي شدة ﴿ دَعَوْاْ رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين إليه تعالى من دعاء غيره عز وجل من الأصنام وغيرها ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً من تلك الشدة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ بِرَبِّهِمْ ﴾ الذي كانوا دعوه منيبين إليه ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجأ فريق منهم الإشراك وذلك بنسبة خلاصهم إلى غيره تعالى من صنم أو كوكب أو نحو ذلك من المخلوقات ؛ وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك ، وتنكير ﴿ ضُرٌّ وَرَحْمَةً ﴾ للتعليل إشارة إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبة ويطغون لأدنى نعمة ، و"ثم" للتراخي الرتبى أو الزماني .

(243/603)

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ اللام فيه للعاقبة وكونها تقتضي المهلة ولذا سميت لام المآل والشرك والكفر متقاربان لا مهلة بينهما كما قيل لا وجه له ، وقيل : للأمر وهو للتهديد كما يقال عند الغضب اعصني ما استطعت وهو مناسب لقوله سبحانه : ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ فإنه

أمر تهديدي ، واحتمال كونه ماضياً معطوفاً على "يشركون" لا يخفي حاله ، والفاء للسببية ، والتمتع التلذذ ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال تمتعكم .

وقرأ أبو العالية "فيمتعوا" بالياء التحتية مبنياً للمفعول وهو معطوف على ﴿ يَكْفُرُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ بالياء التحتية أيضاً ، وعن أبي العالية أيضاً ﴿ فيتمتعوا ﴾ بياء تحتية قبل التاء وهو معطوف على ﴿ أَن يَكْفُرُواْ ﴾ أيضاً ، وعن ابن مسعود ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ باللام والياء التحتية وهو عطف على ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ .

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة إيذاناً بالاعراض عنهم وتعديداً لجناياتهم لغيرهم بطريق المباثة ، و ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة ، والسلطان الحجة فالإنزال مجاز عن التعليم أو الإعلام ، وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ بمعنى فهو يدل على أن التكلم مجاز عن الدلالة ، ولك أن تعتبر هنا جميع ما اعتبروه في قولهم : نطقت الحال من الاحتمالات ، ويجوز أن يراد بسلطاناً ذا سلطان أي ملكاً معه برهان فلا مجاز أولاً وآخراً .

وجملة ﴿ هُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ جواب للاستفهام الذي تضمنته ﴿ أَمْ ﴾ إذ المعنى بل أأنزلنا عليهما سلطاناً فهو يتكلم ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ أي بإشراكهم بالله عز وجل ، وصحته على أن ﴿ مَا ﴾ مصدرية وضمير ﴿ بِهِ ﴾ له تعالى أو بالأمر الذي يشركون

بسببه وألوهيته على أن "ما" موصولة وضمير "به" لها والباء سببية ، والمراد نفى أن يكون لهم مستمسك يعول عليه في شركهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(244/603)

وقال ابن عاشور :

﴿ مُنِيبِينَ ﴾ حال من ضمير ﴿ فَأَقِمْ ﴾ [الروم : 30] للإشارة إلى أن الخطاب الموجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مراد منه نفسه والمؤمنون معه كما تقدم .

والمنيب : الملازم للطاعة .

ويظهر أن معنى أناب صار ذا نوبة ، أي ذا رجوع متكرر وأن الهمزة فيه للصيرورة ، والنوبة : حصة من عمل يتوزعه عدد من الناس وأصلها : فَعْلَة بصيغة المرة لأنها مرة من النَّوْب وهو قيام أحد مقام غيره ، ومنه النيابة ، ويقال : تناوبوا عمل كذا .

وفي حديث عمر : "كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً" الحديث ، فإطلاق المنيب على المطيع استعارة لتعهد الطاعة تعهداً متكرراً ، وجعلت تلك الاستعارة كناية عن مواصلة الطاعة وملازمتها قال تعالى : ﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه مُنيب ﴾ في سورة هود (75) .

وفسّرت الإنابة أيضاً بالتوبة .

وقد قيل : إن ناب مرادف تاب ، وهو المناسب لقوله في الآية الموالية ﴿ دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ [الروم : 33] .

والأمر الذي في قوله ﴿ واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾ مستعمل في طلب الدوام .

و ﴿ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ هم المشركون لأنهم اتخذوا عدة آلهة .

وإنما كررت ﴿ مِن ﴾ التبعيضية لاعتبار الذين فرقوا دينهم بدلاً من المشركين بدلاً مطابقاً أو بياناً ، فإظهار حرف الجر ثانية مع الاستغناء عنه بالبدلية تأكيد بإظهار العامل كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وءاخرنا ﴾ [المائدة : 114] وشأن البدل والبيان أن يجوز معهما إظهار العامل المقدر فيخرجان عن إعراب التوابع إلى الإعراب المستقل ويكونان في المعنى بدلاً أو بياناً ولهذا قال النحاة : إن البدل على نية تكرار العامل .

وقال المحققون : إن البدل معرب بالعامل المقدر ، ومثله البيان وهما سيان .

وتقدم الكلام على معنى ﴿ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ في آخر سورة الأنعام (159) .

وقرأ الجمهور ﴿ فرّقوا ﴾ بتشديد الرّاء .

وقرأه حمزة والكسائي ﴿ فارقوا دينهم ﴾ بألف بعد الفاء فالمراد بالدين دين الإسلام .

ومعنى مفارقتهم إياه ابتعادُهم منه ، فاستعيرت المفارقة للنبذ إذ كان الإسلام هو الدين الذي فطر الله عليه الناس فلما لم يتبعوه جعل إعراضهم عنه كالمفارقة لشيء كان مجتمعاً معه ، وليس المراد الارتداد عن الإسلام .

والشيع : جمع شيعة وهي الجماعة التي تشايع ، أي توافق رأياً ، وتقدم قوله تعالى ﴿ ثم لَنَنْزِعَنَّ من كل شِيعة ﴾ في سورة مريم (69) .

والحزب : الجماعة الذين رأيهم ونزعتهم واحدة .

وما لديهم ﴾ هو ما اتفقوا عليه .

والفرح : الرضا والابتهاج .

وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك يراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها ، فإذا اختلفوا في أمور الدين الاختلاف الذي يقتضيه اختلاف الاجتهاد أو اختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد فليحذروا أن يجرهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعاً متعادين متفرقين يلعن بعضهم بعضاً ويذيق بعضهم بأس بعض .

وتقدم ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ في سورة المؤمنين (53) .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ

عطف على جملة ﴿ فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ [الروم : 32] أي فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وإذا مسهم ضر فدعوا الله وحده فرحمهم عادوا إلى شركهم وكفرهم نعمة الذي رحمهم .

فالمقصود من الجملة هو قوله : ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ، ﴾ فمحل انتظامه في مذام المشركين أنهم يرجعون إلى الكفر ، بخلاف حال المؤمنين فإنهم إذا أذاقهم الله رحمة بعد ضر شكروا نعمة ربهم وذلك من إنابتهم إلى الله .

ونُسِجَ الكلام على هذا الأسلوب ليكون بمنزلة التذييل بما في لفظ ﴿ الناس ﴾ من العموم وإدماجاً لفضيلة المؤمنين الذين لا يكفرون نعمة الرحيم .

فالتعريف في ﴿ الناس ﴾ للاستغراق .

(246/603)

والضُرّ ، بضم الضاد : سوء الحال في البدن أو العيش أو المال ، وهذا نحو ما أصاب قريشاً من الشدة والقحط حتى كانوا يرون في الجو مثل الدخان من شدة الجفاف ، وحتى أكلوا العظام والميتة ، وقد أصاب ذلك مشركيهم ومؤمنيهم وكانت شدته على المشركين لأنهم كانوا في رفاهية ، فالشدة أقوى عليهم ، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستشفعون

به أن يدعو الله بكشف الضر عنهم فدعا فأمطروا فعادوا إلى ترفهم ، قال تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ [الدخان : 10] الآيات ، فدعاؤهم ربهم يشمل طلبهم أن يدعو لهم الرسول صلى الله عليه وسلم و ﴿ منيبين ﴾ حال من الناس كلهم أي استووا في الإنابة إليه أي راجعين إليه بعد ، واشتغل المشركون عنه بدعاء الأصنام ، قال تعالى : ﴿ إنَّا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ [الدخان : 15] .

وتقدم ﴿ مُنيبين ﴾ آنفاً .

والمس : مستعار للإصابة .

وحقيقة المس : أنه وضع اليد على شيء ليعرف وجوده أو يختبر حاله ، وتقدم في قوله ﴿ ليمسَنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ في العقود (73) .

واختير هنا لما يستلزمه من خفة الإصابة ، أي يدعون الله إذا أصابهم خفيف ضُر بَلْهَ الضرّ الشديد .

والإذاقة : مستعارة للإصابة أيضاً .

وحقيقتها : إصابة المطعوم بطَرَف اللسان وهي أضعف إصابات الأعضاء للأجسام فهي أقلّ من المضغ والبلع ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ لِيَذُوق وبال أمْره ﴾ في سورة العقود (95) ، ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء ﴾ في سورة يونس (21) .

واختير فعل الإذاقة لما يدل عليه من إسراعهم إلى الإشراك عند ابتداء إصابة الرحمة لهم .

والرحمة : تخليصهم من الشدّة .

(247/603)

وثمّ ﴿ للتراخي الرتبي لأن إشراكهم بالله بعد الدعاء والإنابة وحصول رحمته أعجب من إشراكهم السابق ، ففي التراخي الرتبي معنى التعجيب من تجدد إشراكهم ، وحَرْف المفاجأة ﴿ إذا ﴾ يفيد أيضاً أن هذا الفريق أسرعوا العودة إلى الشرك بحدثان ذوق الرحمة لتأصل الكفر منهم وكمونه في نفوسهم .

وضمير منه ﴾ عائد إلى الله تعالى .

و﴿ مِن ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿ أصابهم .

﴾ و ﴿ رحمة ﴾ فاعل ﴿ أصابهم ﴾ ولم يؤنث لها الفعل لأن تأنيث مسمى الرحمة غير حقيقي ولأجل الفصل بالمجرور .

وتقديم المجرور على الفاعل للاهتمام به ليظهر أن الذي أصابهم هو من فضل الله وتقديره لا غير ذلك .

واللام في قوله ﴿ لِيَكْفروا ﴾ لام التعليل وهي مستعارة لمعنى التسبب الذي حقه أن يفاد

بالفاء لأنهم لما أشركوا لم يريدوا بشركهم أن يجعلوه علة للكفر بالنعمة ولكنهم أشركوا محبة للشرك فكان الشرك مفضياً إلى كفرهم نعمة الله خشية الإفضاء والتسبب بالعلة الغائية على نحو قوله تعالى : ﴿ فالتقطه ءال فرعون ليكون لهم عدوّاً وحَزَناً ﴾ [القصص : 8] .

وضمير ﴿ ليكفروا ﴾ عائد إلى الفريق باعتبار معناه .

والإيتاء : إعطاء النافع ، أي بما أنعمنا عليهم من النعم التي هي نعمة الإيجاد والرزق وكشف الضر عنهم .

ثم التفت عن الغيبة إلى الخطاب بقوله ﴿ فتمتعوا ﴾ توبيخاً لهم وإنذاراً ، وجيء بفاء التفريع في قوله ﴿ فتمتعوا ﴾ لأن الإنذار والتوبيخ مفرعان عن الكلام السابق .

والأمر في (تمتعوا) مستعمل في التهديد والتوبيخ .

والتمتع : الانتفاع بالملائم وبالنعمة مدة تنقضي .

والفاء في ﴿ فسوف تعلمون ﴾ تفريع للإنذار على التوبيخ ، وهو رشيق .

و(سوف تعلمون) إنذار بأنهم يعلمون في المستقبل شيئاً عظيماً ، والعلم كناية عن حصول الأمر الذي يُعلم ، أي عن حلول مصائب بهم لا يعلمون كنهها الآن ، وهو إيماء إلى عظمتها وأنها غير مترقبة لهم .

وهذا إشارة إلى ما سيصابون به يوم بدر من الاستئصال والخزي وهم كانوا يستعجلون بعذاب من جنس ما عذب به الأمم الماضية مثل عاد وثمود ، وكانت الغاية واحدة ، فإن إصابتهم بعذاب سيوف المسلمين أبلغ في كون استئصالهم بأيدي المؤمنين مباشرة ، وأظهر في إنجاء المؤمنين من عذاب لا يصيب الذين ظلموا خاصة وذلك هو المراد في قوله تعالى ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 15 ، 16] .

والبطشة الكبرى : بطشة يوم بدر .

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

﴿ أَمْ ﴾ منقطعة ، فهي مثل (بَل) للإضراب هو إضراب انتقالي .

وإذ كان حرف ﴿ أم ﴾ حرفَ عطف فيجوز أن يكون ما بعدها إضراباً عن الكلام السابق فهو عطف قصة على قصة بمنزلة ابتداءٍ ، والكلام توبيخ ولوم متصل بالتوبيخ الذي أفاده قوله ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ [الروم : 34] .

وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن مخاطبتكم إلى مخاطبة المسلمين تعجيباً من حال أهل الشرك .

ويجوز أن يكون ما بعدها متصلاً بقوله ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ [

الروم : 29] فهو عطف ذَم على ذم وما بينهما اعتراض .

وحيثما وقعت ﴿ أمْ ﴾ فالاستفهام مقدَّر بعدها لأنها ملازمة لمعنى الاستفهام .

فالتقدير : بل أأنزلنا عليهم سلطاناً وهو استفهام إنكاري ، أي ما أنزلنا عليهم سلطاناً ، ومعنى الاستفهام الإنكاري أنه تقرير على الإنكار كأن السائل يسأل المسؤول ليقر بنفي المسؤول عنه .

والسلطان : الحجة .

ولما جعل السلطان مفعولاً للإنزال من عند الله تعين أن المراد به كتاب كما قالوا ﴿ حتى تنزل علينا كتاباً نَقرؤه ﴾ [الإسراء : 93] .

(249/603)

ويتعين أن المراد بالتكلم الدلالة بالكتابة كقوله تعالى ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] ، أي تدل كتابته ، أي كتب فيه بقلم القدرة أن الشرك حق كقوله تعالى ﴿ أم ءاتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾ [الزخرف : 21] .

وقدم ﴿ به ﴾ على ﴿ يشركون ﴾ للاهتمام بالتنبيه على سبب إشراكهم الداخل في حيز الإنكار للرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) ﴾

أناب : يعني رجع وقطع صلته بغير الحق ﴿ إِلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 31] إلى الله ، فلا علاقة له بالخَلْق في مسألة العقائد ، فجعل كل علاقته بالله .

ومنه يسمون الناب ؛ لأنه يقطع الأشياء ، ويقولون : ناب إلى الرشد ، وثاب إلى رشده ، كلها بمعنى : رجع ، وما دام هناك رجوع فهناك أصل يُرجع إليه ، وهو أصل الفطرة .

وقوله تعالى ﴿ واتقوه . . . ﴾ [الروم : 31] لأنه لا يجوز أنْ تنيب إلى الله ، وأن ترجع إليه ، وأن تجعله في بالك ثم تنصرف عن منهجه الذي شرَّعه لينظم حركة حياتك ، فالإنابة وحدها والإيمان بالله لا يكفيان ؛ بل لا بُدَّ من تطبيق المنهج بتقوى الله ، لذلك كثيراً ما يجمع القرآن بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿ إِلَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [الشعراء : 227] .

لأن فائدة الإيمان وثمرته بعد أن تؤمن بالإله الحق ، وأن منهجه هو الصدق ، وفيه نفعك وسلامتك في حركة حياتك ، وأنه الذي يُوصلِّك إلى سعادة الدارين ، ولا معنى لهذا كله إلا

بالعمل والتطبيق .

﴿ واتقوه . . . ﴾ [الروم : 31] أي : اتقوا غضبه ، واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية ، وهذه الوقاية تتحقق باتباع المنهج في افعل ولا تفعل . وسبق أن تكلمنا في معنى التقوى وكلنا : إنها تحمل معنيين يظن البعض أنهما متضاربان حين نقول : اتقوا الله . واتقوا النار . لكن المعنى واحد في النهاية ؛ لأن معنى اتق الله : اجعل بينك وبين عذاب الله وغضبه وقاية ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعني : ابتعد عن اسبابها حتى لا تمسَّك .

(251/603)

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة . . . ﴾ [الروم : 31] أقيموا الصلاة أدُّوها على الوجه الأكمل ، وأدُّوها على ما أُحبُّ منكم في أدائها ، فساعة أناديك : الله أكبر يجب أن تقبل عليَّ ، وأنت حين تُلبِّي النداء لا تأتي لتعينني على شيء ، ولا أنتفع بك في شيء ، إنما تنتفع أنت بهذا اللقاء ، وتستمد مني العون والقوة ، وتأخذ شحنة إيمان ويقين من ربك . وقلنا : ما تصورك لآلة تُعرَض على صانعها كل يوم خمس مرات أيبقى بها عَطَب ؟ لذلك يُعلِّمنا نبينا صلى الله عليه وسلم أنه إذا حزبنا أمر أن نهرع إلى الصلاة ، وكذلك كان يفعل صلى الله عليه وسلم إذا عزَّ عليه شيء ، أو ضاقت به الأسباب ، وإلا فما معنى الإيمان

بالله إنْ لم تلجأ إليه .

وما دام ربك غيباً ، فهو سبحانه يُصلحك بالغيب أيضاً ، ومن حيث لا تدري ؛ لذلك أمرنا ربنا بإقامة الصلاة ، وجعلها عماد الدين والركْن الذي لا يسقط عنك بحال ، فالزكاة والحج مثلاً يسقطان عن الفقير وعن غير القادر ، والصوم يسقط عن المريض أو المسافر ، في حين مرضه أو سفره ، ثم يقضيه بعد انقضاء سبب الإفطار .

أما الصلاة فهي الركْن الدائم ، ليس مرة واحدة في العمر ، ولا مرة واحدة في العام ، إنما خمس مرات في اليوم والليلة ، فبها يكون إعلان الولاء لله تعالى إعلاناً دائماً ، وهذا إنْ دلَّ فإنما يدل على عظمة الإنسان ومكانته عند ربه وخالقه .

وسبق أن قلنا : إنك إنْ أردتَ مقابلة أحد المسئولين أو أصحاب المنزلة كم تعاني ليُؤذَن لك ، ولا بُدَّ أن يُحدِّد لك الموعد والمكان ، بل وموضوع المقابلة وما ستقوله فيها ، ثم لصاحب المقابلة أنْ يُنهيها متى يشاء .

إذن : لا تملك من عناصر هذا اللقاء شيئاً ؟ أما في لقائك بربك – عز وجل – فالأمر على خلاف ذلك ، فربُّك هو الذي يطلبك ويناديك لتُقبل عليه ، لا مرة واحدة بل خمس مرات كل يوم ، ويسمح لك أنْ تناجيه بما تحب ، وتطلب منه ما تريد .

ولك أن تنهي أنت المقابلة بقولك : السلام عليكم ، فإنْ أحببتَ أن تطيل اللقاء ، أو أنْ تعتكف في بيت ربك فإنه سبحانه لا يملُّ حتى تملُّوا ، فهذه – إذن – ليست عبودية ، بل عزٌّ وسيادة .

وما أجملَ ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بأَنِّي عَبْدٌ . . . يحتَفِي بي بلاَ مَواعِيدَ رَبُّ

هُوَ في قُدْسِهِ الأعَزِّ ولكِنْ . . . أنَا أَلْقى متَى وأيْنَ أُحِبّ

ولأن للصلاة هذه المنزلة بين أركان الإسلام لم تُفرض بالوحي كباقي الأركان ، إنما فُرِضَتْ مباشرة من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، حين استدعاه ربه للقائه في السماء في رحلة المعراج .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك – ولله تعالى المثل الأعلى – برئيس العمل الذي يُلقي أوامره بالتليفون ، أو بتأشيره على ورقة ، فإنْ تعرَّض لأمر هام استدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، وأعطاه الأمر مباشرة لأهميته ، كذلك كانت الصلاة ، وكذلك فُرِضَتْ على سيدنا رسول الله بالتكليف المباشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ [الروم : 31] وهنا وقفة : فكيف بعد الإنابة إلى الله والتقوى ، وبعد الأمر بإقامة الصلاة يقول ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ [

الروم : 31] ؟ وأين الشرك ممَّنْ يُؤدّي التعاليم على هذا الوجه ؟ قالوا : الشرك المنهيّ عنه هنا ليس الإشراك مع الله إلهاً آخر ، إنما أشركوا مع الله نية أخرى ، فالإشراك هنا بمعنى الرياء ، والنظر إلى الناس لا إلى الله .

لذلك يقولون : العمل من أجل الناس رياء ، وترْك العمل من أجل الناس شرك ، فالذي يصلي أو يبني لله مسجداً للشهرة ، وليحمده الناس فهو مُراءٍ ، وهو خائب خاسر ؛ لأن الناس انتفعوا بعمله ولم يُحصِّل هو من عمله شيئاً .

(253/603)

أما مَنْ يترك العمل خوفاً من الوقوع في الرياء ، فيمتنع عن الزكاة مثلاً ، خَوْفَ أن يُتَّهم بالرياء ، فهو والعياذ بالله مشرك ، لأن الناس ينتفعون بالعمل حتى وإنْ كان رياءً ، لكن إنِ امتنعتَ عن العمل فلا ينتفع الناس منك بشيء .

فالمعنى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ المشركين ﴾ [الروم : 31] أي : الشرك الخفي وهو الرياء ؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله وهو الأسوة للأمة الإيمانية يدعو ربه ويقول

" اللهم إنِّي أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك " .

فالعمل الإيماني ما كان لله خالصاً ، وعلى قَدْر الإخلاص يكون الجزاء ، فمن الناس مَنْ

يفعل الصلاح فيوافق شيئاً في نفسه ، كأن يساعده على استقامة الحياة أو على التوفير في النفقات أو غير ذلك ؛ فيستمر عليه ، لا لله إنما لمصلحته هو .

وفي هؤلاء يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والأخرة ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ [الحج : 11] .

وكالتاجر الذي يلتزم الصدق في تجارته ، لا حباً في الصدق ذاته ، إنما طمعاً في الشهرة والصِّيت وكَسْب المزيد من الزبائن ، ومثل هؤلاء ينالون من الدنيا على قَدْر سعيهم لها ، ولا يحرمهم الله ثُمرةَ مجهوداتهم ، كما قال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

فما أشبه الناس في نياتهم من الأعمال بركْب يقصدون وجهة واحدة ، لكن لكل منهم غاية يسعى إليها ، فهذا يسعى للطعام أو أكلة شهية ، وهذا يسعى لامرأة جميلة ، وهذا يسعى لدرْس علم ينتفع به ، وآخر يسعى لرؤية مَنْ يحب ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

قَصَدْتُ بالركْبِ مَنْ أَهْوى وقُلْتُ لَهُم . . . هَيّا كُلوا وخُذُوا ما حَظكم فِيهِ

لكِنْ دَعُوني أُلاَقِي مَنْ أؤملُهُ . . . عَيْني تَرَاهُ وَوُجْدَاني يُنَاجيهِ

كذلك الحق – تبارك وتعالى – يريد من عبده أنْ يقصده لذاته ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، وفَرْق بين أن تنعم بنعمة الله ، وأن تنعم بالنظر إلى الله ، فأنت في الجنة تأكل ، لا عن جوع ولا عن حاجة ، إنما لمجرد التنعُّم .

لذلك يقول سبحانه عن الشهداء : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] فتكفيهم هذه العندية ، وأنْ ينظروا إلى الله سبحانه وتعالى .

لذلك تقول رابعة العدوية : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّي أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، وإنْ كنتَ تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأدخِلني فيها ، لكني أعبدك لأنك أحقُّ أنْ تُعبدَ .

ولا شكَّ أن القليل من الناس يخلصون النية لله ، وأن الغالبية يعملون العمل كما اتفق على أية نية ، لا تعنيهم هذه المسألة ، ولا يهتمون بها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : 106] .

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

فرّقوا دينهم كالركْب الذين اختلفتْ وجهاتهم ونياتهم ﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً . . . ﴾ [الروم :

32] جمع شيعة ، وهم الجماعة المتعاونة على أمر من الأمور ، خيراً كان أو شراً ، خيراً مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصافات : 83] .

أو شراً مثل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً . . . ﴾ [القصص : 4] .

(255/603)

وفي آية أخرى : ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ . . . ﴾ [الأنعام : 65] .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : 32] لما لهم من سلطة زمنية ، ولما لهم من مكانة يخافون أنْ تهتز كالسلطة الزمنية التي منعتْ يهود المدينة من الإيمان برسول الله ، مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعرفون زمانه ، وكانوا يقيمون بالمدينة ينتظرون ظهوره ، وكل ذلك عندهم في التوراة ، حتى إنهم كانوا يصطدمون بعبدة الأصنام ، فيقولون لهم . لقد أطلَّ زمن نبي يظهر آخر الزمان سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . . ﴾ [البقرة : 89] .

لماذا ؟ حفاظاً على سلطتهم الزمنية ، وقد كانوا أهل علم وغِنيً ومكانة ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم ألغى هذه السلطة ، فلا كلام بعد كلامه صلى الله عليه وسلم ، أما مَنْ ثبت منهم على دينه الحق ، وعمل بما في التوراة فقد آمن بمحمد كعبد الله بن سلام وغيره من أحبار اليهود .

فالسلطة الزمنية هي التي حالتْ بين الناس وبين الحق الذي يؤمنون به ، وهذه السلطة الزمنية هي التي نراها الآن في هذه الفِرَق والأحزاب التي يدَّعي كل منها أنها على الحق وما سواها على الباطل .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض وَمَن فِيهِنَّ . . . ﴾ [المؤمنون : 71] .

فكل منهم يناطح الآخرين ليعلي مذهبه ، ويظهر هو على الساحة .

(256/603)

بعد ذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن الذين يكفرون بالله ، أو يتمردون على منهج الله يظلون هكذا أسْرى هذه السلطة الزمنية ، فإذا أصابتهم هزة أو بلاء لا تقوى أسبابهم على دفعه لم يجدوا ملجأ إلا الله ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ . . . ﴾ .

الضر : هو الشيء الذي تتضرر منه ، ولا تستطيبه النفس ، فإنْ أصابهم الضر وأسبابهم لا تفي بالخلاص منه ﴿ دَعَوْاْ رَّبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 33] أي : رجعوا إليه سبحانه ، والآن علموا أن لهم رباً يلجئون إليه ، وهذا يُذكِّرنا بما قاله العرب عندما فتر الوحي عن رسول الله ، فسرَّهم ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قلاه . سبحان الله الآن عرفتم أن لمحمد رباً .

وقلنا : إن ساعة الضيق والمحنة لا يَكْذب الإنسان نفسه ولا يخدعها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة حلاق الصحة الذي كان يحلّ محلّ الطبيب الآن ، فلما أنشئت كليات للطب وخرَّجت أطباء ، وذهب أحدهم إلى قرية الحلاق ، فأخذ الحلاق يهاجمه ويدَّعي أنه حديث لا خبرةَ له ، فلما مرض ابنه وأحسَّ بالخطر أخذه خُفْية في ظلام الليل ، وذهب به إلى الطبيب ، لماذا ؟ لأنه لن يغشَّ نفسه في هذه اللحظة .

﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 33] أي : يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله .

وحين نتأمل هذه المسألة نجد أن القرآن عرضها مرة بصيغة الإفراد ، فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً . . . . ﴾ [الزمر : 8] .

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . ﴾ [يونس : 12] .

لكن الكلام عن الإنسان المفرد لا يكفي لإثبات الظاهرة ؛ لأن الإنسان الواحد يمكن أن يستذل أمام ربه ، ويعود إليه بعد أنْ تجرَّأ على معصيته ، يكون ذلك بينه وبين نفسه ، فلا يفضح نفسه أمام الناس ، فأراد سبحانه أنْ يثبت هذه المسألة عند الناس جميعاً ؛ ليفضح بعضهم بعضاً ، فذكر هنا ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 33] .

وفي آية أخرى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] .

فجاء بصيغة الجمع ليفضح الكافرين بعضهم أمام بعض ، وقد يكون في هؤلاء الداعين مَنْ كان يُؤلّبهم على الله ، ويصرفهم عن الإيمان به ، وها هو الآن يدعو ويتضرع ، وحين يُفتضح أمرهم يكون ذلك أَدْعى لاستقامتهم وأدعى ألاَّ يتكبر أحد على أحد .

لذلك قلنا في ميزات الصلاة أنها تُسوِّي بين الناس ، فيجلس الرجل العادي بجوار مَنْ لم يكُن يُؤْمَل أنْ يجلس بجواره ، ويجده خاضعاً معه مطاوعاً للإمام . . الخ ففي الصلاة ، الجميع سواء ، والجميع منتفع بهذه المساواة ، آخذ منها عبرة ، فلا يتكبر بعدها أحد على أحد .

ونقف هنا عند ﴿ مَسَّ . . . ﴾ [الروم : 33] وهو اللمس الخفيف ، فالمعنى مسَّهم اليسير من الضر ، ومع ذلك ضاقتْ أسبابهم عن دفعه ، وضَجُّوا يطلبون الغَوْث .

وكلمة ﴿ أَذَاقَهُمْ . . . ﴾ [الروم : 33] الذوق حاسة من حواس الإنسان يُحِسُّ بها الطعام عند مروره على منطقة معينة في اللسان ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقةَ لا يشعر الإنسان بطعمه .

إذن : فَلَذَّة الطعام مقصورة على هذه المنطقة في الفم ، والتذوق أقوى انفعالات النفس في استقبال المذاق ؛ لذلك يقولون في الأمثال (اللي يفوت من اللسان بقي نتان) .

(258/603)

وتأمل ، كيف استعمل الحق سبحانه الإذاقةَ في مجال العذاب حين ضرب لنا هذا المثل :

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .

فذكر الإذاقة مع أن اللباسَ يستوعب الجسم كله ، وكذلك الجوع والخوف ، فكل منهما إحساس يستولي على الإنسان كله ، ومع ذلك قال ﴿ فَأَذَاقَهَا . . . ﴾ [النحل : 112] لأن الإذاقة أقوى أنواع الإدراك .

وكلمة ﴿ مِّنْهُ . . . ﴾ [الروم : 33] أي : من الله تعالى ، يعني بلا أسباب ، أو ﴿ أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ . . . ﴾ [الروم : 33] أي : بدّل الضر برحمة ، وخلّصهم من الضُّرِّ برحمة ، كما أن الإذاقة وإنْ دلَّتْ على الانفعال الشديد للمستقبل ، فإنها أيضاً تدلُّ على التناول الخفيف بلُطْف ، كما تقول : ذُقْتُ الطعام . أو تقول : والله ما ذُقْتُ لفلان طعاماً يعني : ما أكلتُ عنده من باب أَو أَوْلى .

لذلك الحق سبحانه وتعالى عبر عن الرحمة هنا بالإذاقة ؛ لأن رحمة الدنيا لا تستوعب كل رحمة الله ، فالقليل منها في الدنيا ، وجُلُّها في الآخرة .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 33] ، أما في الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] .

فلماذا قال في الأولى ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ . . . ﴾ [الروم : 33] وفي الأخرى : ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] فلم يستثْنِ منهم أحداً ؟

(259/603)

قالوا : لأن الآية الأولى تتكلم عن الذين دَعَوا الله في البَرِّ ، والناس في البر عادة ما يكونون مختلفين ، فيهم الصالح والطالح ، والمطيع والعاصي ، فهم مختلفون في رَدِّ الفعل ، فالمؤمنون لما عَينوا النجاة ورحمة الله قالوا : الحمد الله الذي نجانا ، أما المشركون فعادوا إلى كُفْرهم وعنادهم .

أما الآية الأخرى فتتكلم عن الذين دَعَوا الله في البحر ، وعادة ما نرى الذين يركبون البحر على شاكلة واحدة ، وهم لا يركبونه كوسيلة للسفر ، إنما للترف ، كما نرى البعض يتخذ لنفسه يختاً مثلاً أو عوّامة يجمع فيها أتباعه ومَنْ هم على شاكلته ، ولا بُدَّ أنهم يجتمعون على شيء يحبونه ، فهم على مذهب واحد ، وطريقة واحدة ، وسلوك واحد .

إذن : ما دام هؤلاء كانوا في البحر فلا بُدَّ أنهم كانوا مجرمين عتاة ، وكانوا سواسية في الشرك وفي التخلِّي عن الله ، بمجرد أنْ أمِنوا الخطر ، لذلك استخدم الأسلوب هنا ﴿ إِذَا . . . ﴾ [الروم : 33] الفجائية واستخدمه في آية أخرى ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] فبعد أنْ أنجاهم الله أسرعوا العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك .

ففي هذه الآية الحق سبحانه يُبيِّن لنا حقيقة الإنسان ، ومدى حرصه على جَلْب الخير لنفسه ، فإنْ كان الخير الذي أعدَّه الله له يُبطره ويُطغيه كما قال سبحانه :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7] .

فإنه لا مناصَ له من أنْ يرجع إلى ربه حين ينفض الله عنه كُلَّ أسباب الخير ، ويهدده في نفسه

وفي ذاته التي لم تنتفع بآيات الله في الكون ، فتظل في حضانة الله ، فيأتي له بالضرُّ الذي ينفض عنه كلّ أسباب البطَر والأشرَ والاستعلاء .

(260/603)

ولكنه لا يسلم نفسه للضر الذي يهلكه ، بل عندها يتنبه أن له رباً يلجأ إليه ، ولا يجد مفزعاً في الكون إلا هو ؛ لأنه يعلم جيداً أن الذين أخذوه من الله فآمن بهم وكفر بالله لن ينفعوه بشيء ؛ لأنه عبد من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . ﴾ [الإسراء : 67] فهؤلاء الذين تدعونهم لا يعرفون طريقكم ، وإنْ عرفوا لا يملكون أنْ يصلوا إليكم ، أما أنا فربكم الأعلم بكم ، والقادر على إغاثتكم ، وإنزال الرحمة بكم .

إذن : هؤلاء المشركون أشركوا بالله في وقت الرخاء ، أما في وقت الضيق والكرب فلن يخدع أحدهم نفسه ، ولن يغشّها لن يقول : يا هُبَل . لأنه يعلم أن هُبَل لا يسمعه ولا يجيبه ، فلا ينفعه الآن ، ولا ينجيه إلا الإله الحق ، فقد ألجأتْه الضرورة أن يعترف به ويدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ . . . ﴾ .

يتبادر إلى الذهن أن اللام في ﴿ لِيَكْفُرُواْ . . . ﴾ [الروم : 34] لام التعليل ، أو لام

السببية التي يكون ما بعدها سبباً لما قبلها ، كما تقول : ذاكر لتنجح ، وكذلك في الشرط والجواب : إنْ تذاكر تنجح فِعِلَّة المذاكرة النجاح .

فهل يستقيم المعنى هنا على هذا الفهم ؟ وهل نجاهم الله وأذاقهم الرحمة ليكفروا به ؟

نقول : ليس الشرط سبباً في مجيء الجواب كما يفهم السطحيون في اللغة ، بل الجواب هو السبب في الشرط ، لكنهم لم يُفرِّقوا بين سبب دافع وسبب واقع ، فالتلميذ يذاكر لأن النجاح ورد بباله ، وتراءتْ له آثاره الطيبة أولاً فدفعتْه للمذاكرة .

إذن : فالجواب سبب في الشرط أي : سبب دافع إليه ، فإذا أردتَ أن يكون واقعاً فقدِّم الشرط ليجيء الجواب .

(261/603)

وكما تقول : ركبتُ السيارة لأذهب إلى الأسكندرية ، فركوب السيارة ليس سبب ذهابك للاسكندرية ، لأنك أردْتَ أولاً الذهاب فركبتَ السيارة ، فلما ركبتها وصلتَ بالفعل .

إذن : نقول : الشرط سبب للجواب دافعاً يدفع إليه ، والجواب سبب للشرط واقعاً .

فهنا نجّاهم الله من الكرب ، وأذاقهم رحمته لا ليكفروا به ، إنما ليُبيِّن لهم أنه لا مفزعَ لهم إلا إليه ، فيتمسكون به سبحانه ، فيؤمن منهم الكافر ، ويزداد مؤمنهم إيماناً ، لكن جاء ردُّ

الفعل منهم على خلاف ذلك ، لقد كفروا بالله ؛ لذلك يسمون هذه اللام لام العاقبة أي : أن كفرهم عاقبة النجاة والرحمة .

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – لو ضممتَ طفلاً مسكيناً إلى حضانتك وربَّيته أحسن تربية ، فلما شبَّ وكَبِر تنكّر لك ، واعتدى عليك ، فقلت للناس : ربَّيته ليعتدي عليَّ ، والمعنى : ربَّيته ليحترمني ويحبني ، لكن جاءت النتيجة والعاقبة خلاف ذلك ، وهذا يدل على فساد التقدير عند الفاعل الذي ربَّي ، وعلى لُؤْم وفساد طبع الذي رُبِّي .

فالأسلوب هنا ﴿ لِيَكْفُرُواْ . . . ﴾ [الروم : 34] يحمل معنى التقريع ؛ لأن ما بعد لام العاقبة ليس هو العلة الحقيقية لما قبلها ، إنما العلة الحقيقية لما قبلها هو المقابل لما بعد اللام : أذاقهم الرحمة ، ونجاهم ليؤمنوا ، أو ليزدادوا إيماناً ، فما كان منهم إلا أنْ كفروا .

ولهذه المسألة نظائر كثيرة في القرآن ، كقوله تعالى في قصة موسى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . ﴾ [القصص : 8] .

ومعلوم أنهم التقطوه ليكون لهم قُرَّة عين ، ولو كانوا يعلمون هذه العاقبة لأغرقوه أو قتلوه كما قتلوا غيره من أطفال بني إسرائيل ، وكما يقولون في الأمثال (يربي خنَّاقه) .

فهذا دليل على غفلة الملتقِط ، وعلى غبائه أيضاً ، فكيف وهو يُقتِّل الأولاد في هذا الوقت بالذات لا يشكّ في ولد جاء في تابوت مُلْقىً في البحر ؟ أليس في هذا دلالة على أن أهله يريدون نجاته من القتل ؟ لكن كما قال سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ . . . ﴾ [الأنفال : 24] .

فأنت تُقتِّل في الأطفال لرؤيا أخبرك بها العرافون ، فسيأتي مَنْ تخاف منه إلى بابك ، وستأخذه وتُربِّيه في حضنك ، وسيكون زوال مُلْكك على يديه ، فلا تظن أنك تمكر على الله .

والقصة تدل على خيبة فرعون وخيبة العرافين ، فإذا كنتَ قد صدَّقْتَ العرافين فيما أخبروك به فما جدوى قَتْل الأطفال ، وأنت لن تدرك مَنْ سيكون زوال مُلْكك على يديه ولن تتمكن منه ؟ فلماذا تحتاط إذن ؟

لذلك يجب أن يكون تفكير البشر في إطار أن فوق البشر رباً ، والرب يكلف العدو بعدو له ليقضي عليه ، وهو سبحانه خير الماكرين ، والمكْر الحق أن يكون خُفْية بحيث لا يسشعر به الممكور به .

وقد وصل بنا الحال في القرن العشرين أن نقول : الصراحة مكْر القرن العشرين . يعني : مَنْ أراد أنْ يمكر فليقُل الحق وليكُنْ صريحاً ؛ لأننا أصبحنا في زمن قلَّتْ فيه الصراحة وقول الحق ، لدرجة أنك حين تُحدِّث الناس بالحق يشكُّون فيك ، ويستبعدون أن يكون قولك

هو الحق ، كالذي قال لجماعة يطلبونه ليقتلوه : أنا سأذهب إلى المكان الفلاني في الوقت الفلاني فقالوا : إنه يُضلِّلنا ويمكر بنا رغم أنه صادق فيما أخبرهم به .

وبعد أنْ تربَّى موسى – عليه السلام – في بيت فرعون ، ثم كلَّفه ربه بالرسالة ، وذهب إلى فرعون يدعوه إلى الله قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18] .

(263/603)

نعم ربَّيتني وليداً ، لكن الذي ربّاني وربّاك هو الذي بعثني إليك ، فأنا أبرّ المربي الأعلى قبل أنْ أبرَّ بك ، وفي هذا إشارة إلى أن عناية الله هي الأصل في تربية مَنْ تحب ، فإياك أنْ تقول : ربَّيْتُ ولدي حتى صار كذا وكذا ، بل عليك بالأَخْذ بأسباب التربية ، وتترك المربِّي الأعلى هو الذي يُربِّي على الحقيقة .

وهذا المعنى فطن إليه الشاعر ، فقال :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ فِي بَنِيكَ عنَايةً . . . فَقَدْ كذَبَ الرَّاجي وخَابَ المؤملُ

فَمُوسَى الذي ربَّاه جِبْريل كَافرٌ . . . ومُوسى الذي ربَّاهُ فِرْعَونُ مُرسَل

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 34] لأنه كفر ليتمتع بكفره في

الدنيا ؛ لأن للإيمان مطلوبات صعبة تشقُّ على النفس ، فيأمرك بالشيء الثقيل على نفسك ، وينهاك عن الشيء المحبب إليها ، أما الأصنام التي عبدوها من دون الله وغيرها من الآلهة فلا مطلوبَ لها ولا منهج .

لكنه متاع الحياة الدنيا ومتاع الدنيا قليل ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك مدة بقائك فيها فلا تقُلْ إنها ممتدة من آدم إلى قيام الساعة ، فهذا العمر الطويل لا يعنيك في شيء ، الذي يعنيك عمرك أنت .

ومهما كان عمر الإنسان في الدنيا فهو قصير وتمتُّعه بها قليل ، ثم إن هذا العمر القصير مظنون غير مُتيقن ، فربما داهمك الموت في أيِّ لحظة ، ومَنْ مات قامت قيامته .

لذلك أبهم الحق – سبحانه وتعالى – الموت ، ونثر أزمانه في الخَلْق : فهذا يموت قبل أن يولد ، وهذا يموت طفلاً ، وهذا يموت شاباً .

. الخ وإبهام الموت سبباً وموعداً ومكاناً هو عَيْن البيان ؛ لأنه أصبح شاخصاً أمام كل مِنَّا ينتظره في أيِّ لحظة ، فيستعد له .

(264/603)

ونلحظ هنا أن الأسلوب القرآني عطف فعل الأمر ﴿ فَتَمَتَّعُواْ . . ﴾ [الروم: 34] على الفعل المضارع ﴿ لِيَكْفُرُواْ . . . ﴾ [الروم: 34]، وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾ [العنكبوت: 66] فجعل التمتُّع ليس خاضعاً لفعل الأمر، إنما للعلة: ليكفروا وليتمتعوا .

لذلك اختلفوا حول هذه اللام . أهي للأمر أم للتعليل، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 34] جاءت بعد ﴿ فَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾ [الروم: 34] وهذه جاءتْ معطوفة على ﴿ لِيَكْفُرُواْ . . . ﴾ [العنكبوت: 66] فكأنه قال: اكفروا وتمتعوا، لكن ستعلمون عاقبة ذلك .

والذي جعلهم يقولون عن اللام هنا لام التعليل أنها مكسورة، أما لام الأمر فساكنة، فلما رأوا اللام مكسورة قالوا لام التعليل، أما الذي فهم المعنى منهم فقال: ما دام السياق عطف فعل الأمر فتمتعوا على المضارع المتصل باللام، فاللام للأمر أيضاً، لأنه عطف عليها فعل الأمر، وهو هنا للتهديد .

لكن، لماذا كُسِرَتْ والقاعدة أنها ساكنة؟ قال أحد النحاة: لام الأمر ساكنة، ويجوز أنْ تُكْسَر، واستشهد بهذه الآية ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾ [العنكبوت: 66] .

ونقول لمن يقول: إنها لام التعليل: إذا سمعت لام التعليل فاعلم أنها تعني لام العاقبة؛ لأن

الكفر والتمتّع لم يكُنْ سبباً في إذاقة الرحمة .

ويا مَنْ تقول لام الأمر سيقولون لك : لماذا كُسِرت ؟ وفي القرآن شواهد كثيرة تدل على أنها قد تُكسر ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ . . . ﴾ [الحج : 28] فاللام هنا مكسورة لأنها لام التعليل .

(265/603)

ثم قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : 29] فاللام سُكِّنَتْ لأنها لام الأمر .

وفي آيةٍ أخرى جُمِعت اللامان : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ . . . ﴾ [الطلاق : 7] فجاءتْ لام الأمر مكسورة ؛ لأنها في أول الجملة ، ولا يُبتدأ في اللغة بساكن ، فحُرِّكت بالكسر للتخلص من السكون ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللّهُ . . . ﴾ [الطلاق : 7] فجاءت لام الأمر ساكنة ؛ لأنها واقعة في وسط الكلام .

لذلك يجب أن يتنبه إلى هذه المسألة كُتَّاب المصحف ، وأن يعلموا أن كلام الله غالب ، فقد فات أصحاب رسم المصحف أنه مبنيٌّ من أوله إلى آخره على الوصل ، حتى في آخر آيات

سورة الناس وأول الفاتحة نقول ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس مِنَ الجنة والناس بسم الله الرحمن الرَّحِيم . . . ﴾ .

فآخِرُ القرآن موصول بأوله ، حتى لا ينتهي أبداً . وعليه فلا ترسم ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ . . . ﴾ [الطلاق : 7] بالكسر ، إنما بالسكون ، لأنها موصولة بما قبلها .

وكلمة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 34] تدلُّ على التراخي واستيعاب كل المستقبل ، سواء أكان قريباً أم بعيداً ، فهي احتياط لمن سيموت بعد الخطاب مباشرة ، أو سيموت بعده بوقت طويل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً . . . ﴾ .

كلمة (أم) لا تأتي بداية ؛ لأنها أداة تفيد التخيير بين أمرَيْن ، كما تقول : أجاء زيد أم عمرو ؟ فلا بُدَّ أن تأتي بين متقابلين ، والتقدير : أهُمُ اتبعوا أهواءهم ، أم عندهم كتاب أُنزِل إليهم فهو حجة لهم على الشرك ؟ وحيث إنهم لم ينزل عليهم كتاب يكون حُجَّة لهم فلم يَبْقَ إلا الاختيار الآخر أنهم اتبعوا أهواءهم .

(266/603)

والفعل ﴿ أَنزَلْنَا . . . ﴾ [الروم : 35] الإنزال يقتضي عُلُوَّ المنزَّل منه ، وأن المنزَّلَ عليه أَدْنى ، فالإنزال من عُلُو الربوبية إلى ذُلِّ العبودية . ونحن لم نَرَ الإنزال ، إنما الذي تلقَّى القرآن أول مرة وباشر الوحي هو الذي رآه وأخبرنا به .

والأصل في الإنزال أن يكون من الله تعالى ، وحين ينزل الله علينا إنما ليعطينا سبحانه شيئاً من هذا العُلْو ، سواء أكان العُلُو معنوياً ؛ لأن الله سبحانه ليس له مكان ، أم عُلْواً حِسِّياً كما في ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . . ﴾ [الحديد : 25] .

والسلطان : من التسلُّط ، وهي تدلُّ على القوة ، سواء أكانت قوة الحجة والبرهان ، فمَنْ أقعنك بالحجة والبرهان فهو قويٌّ عليك ، أو قوة قهر وإجبار كمَنْ يُرغِمك على فعل شيء وأنت كاره ، أما سلطان الحجة فتفعل وأنت راضٍ ومقتنع .

وإذا استقرأنا كلمة سلطان نجد أن الله تعالى عرضها لنا في موقف إبليس في الآخرة ، حين يتبرأ من الذين اتبعوه : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 22] .

أي : لم يكُنْ لي عليكم سلطان حجة وإقناع أستحوذ به على قلوبكم ، ولم يكُنْ لي عليكم سلطان قهر ، فأقهر به قوالبكم ، والحقيقة أنكم كنتم (على تشويرة) مجرد أنْ دعوتكُم جئتم مُسرعين ، وأطعتُم مختارين .

وهذا المعنى يُفسِّر لنا شيئاً في القرآن خاض الناس فيه طويلاً – عن خُبْث نية أو عن

صدق نية – هذا في قوله تعالى مرة لإبليس ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ . . . ﴾ [ص : 75] ومرة أخرى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ . . . ﴾ [الأعراف : 12] .

(267/603)

فالأولى تدل على سُلْطان القهر ، كأنك كنتَ تريد أنْ تسجد فجاء مَنْ منعك قهراً عن السجود ، والأخرى تدل على سلطان الحجة والإقناع ، فلم تسجد وأنت راضٍ ومقتنع بعدم السجود .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 35] أي : ينطق بما كانوا به يشركون ، يقول : اعملوا كذا وكذا ، فجاء هذا على وَفْق هواهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(268/603)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) ﴾

أي راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية ، متصفين بوفاته ، منحرفين بكل وجهٍ عن خلافه ، مُتَّقين صغيرَ الإثم وكبيره ، قليلَه وكثيره ، مُؤثرين يسيرَ وفاقه وعسيره ، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها جهراً ، متحققين بمراعاة فضائلها سِراً .

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

أقاموا فى دنياهم فى خمار الغفلة ، وعناد الجهل والفترة ؛ فركنوا إلى ظنونهم ، واستوطنوا مركب أوهامهم ، وتموّلوا من كيس غيرهم ، وظنوا أنهم على شيء . فإذا انكشف ضبابُ وقتهم ، وانقشع سحابُ جحدهم . . انقلب فرحُهم تراحاً ، واستيقنوا أنهم كانوا فى ضلالة ، ولم يعرّجوا إلاَّ في أوطان الجهالة .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33)

إذا أظلتهم المحنةُ ونالتهم الفتنةُ ؛ ومَسَّتْهُم البليَّةُ رجعوا إلى الله بأجْمعهم مستعينين ، وبلطفه مستجيرين ، وعن محنتهم مستكشفين .

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ لا كلُّهم – بل فريقٌ منهم بربهم يشركون ؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة فى الكفران ، ويقابلون إحسانه بالنسيان ، هؤلاء ليس لهم عهدٌ ولا وفاء . ولا فى مودتهم صفاء .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

أي عن قريبٍ سيحدث بهم مثلما أصابهم ، ثم إنهم يعودون إلى التضرع . ويأخذون فيما كانوا عليه بداءاً من التخشع ، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس خطاياهم .

(269/603)

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

بَين أنهم بَنوا على غير أصلٍ طريقَهم ، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم ، وعلى غير شَرعٍ من الله أو حجةٍ أو بيانٍ أَسَّسُوا مذاهبَهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 118.117 ﴾

(270/603)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) ﴾

التفسير : وجه تعلق السورة بما قبلها هو أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول للمشركين ما أمر الله به ﴿ صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة : 171] وكان يحقر آلهتهم وينسبها إلى العجز وعدم النفع والضر ، وكان أهل الكتاب يوافقون المسلمين في الإله وفي كثير من الأحكام ولذلك قال ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ وإلهنا وإلهكم واحد ﴾ [العنكبوت : 46] فلا جرم أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم في الأمور . فاتفق أن بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يقال له شهريران ، فسار إلى الروم بأهل فارس فظفر عليهم وقتلهم وخرب مدائنهم .

(271/603)

وكان قيصر بعث رجلاً يدعى بجنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهو أدنى الشأم إلى أرض العرب وإليه الإشارة بقوله ﴿ أدنى الأرض ﴾ لأن الأرض المعهودة عند العرب هي أرضهم أي غلبوا في أقرب أرض العرب منهم وهي أطراف الشأم . وجوز جار الله أن يراد بأرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي في أدنى أرضهم إلى عدوهم . وهذا تفسير مجاهد لأنه قال : هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم إلى فارس . عن ابن عباس : الأردن وفلسطين . ففرح المشركون بذلك فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن

الغلبة لا تدل على الحق فقد يبتلى المحبوب ويعجل عذابه ليسلم في الآجل . وقوله ﴿ في أدنى الأرض ﴾ إشارة إلى ضعفهم أي انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم في بلادهم . ثم بين أن الروم سيغلبون غلبة عظيمة بعد ذلك الضعف العظيم ، وكل ذلك دليل على أن الأمر بيد الله من قبل الغلبة ومن بعدها ، أو من قبل تلك المدة ومن بعد ذلك ، وقد وقع كما أخبر فغلبت الروم على فارس حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هنالك الرومية ، قال المفسرون : لما نزلت الآية قال أبو بكر للمشركين : لا أقر الله أعينكم ، والله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين . فقال له أبي ابن خلف : كذبت يا أبا فضيل اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه ، فخاطره على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعل الأجل ثلاث سنين . فأخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين . فلما أراد ابو بكر أن يخرج من مكة أتاه أبي فلزمه وطلب كفيلاً فكفله ابنه عبد الله بن أبي بكر ، فلما أراد أن يخرج إلى أحد أتاه عبد الله فلزمه إلى أن أقام كفيلاً ثم خرج إلى أحد ثم رجي أبي فمات بمكة من جراحته التي جرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم فظهرت الروم على فارس يوم الحديبية . وذلك عند رأس سبع سنين . فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي

وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره أن يتصدق به . قالت العلماء : إنما أبهم الوقت لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التي تقع في البلاد الشاسعة قلما يحصل الاتفاق على وقتها المعين من السنة والشهر واليوم والساعة وإن كان معلوماً للنبي بإعلام الله إياه ، فالمعاند كان يتمكن من الإرجاف بوقوع الواقعة قبل وقوعها ليحصل الخلف في الميعاد ولكن المعاند لا يتمكن من إنكار الواقعة في البضع ، ﴿ ويومئذ ﴾ أي يوم يغلب الروم فارس ويحصل ما وعد الله من غلبتهم ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ وبغلبة من له كتاب على من لا كتاب له ، أو بغيظ الشامتين بهم من كفار مكة .

وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبر به نبيهم من غلبة الروم .

(273/603)

وعن أبي سعيد الخدري : وافق ذلك يوم بدرٍ وهو المراد بنصر الله ، وذلك أن خبر الكسر لم يصل إليهم في ذلك اليوم بعينه فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده ، ولناصر القولين الأولين أن يقول : اقيم سبب الفرح ، مقام الفرح أو المراد باليوم الوقت الواسع الشامل لما بين زمان وقوع الكسر إلى زمان وصول خبر الكسر الموجب للفرح . ومن علق قوله ﴿

بنصر الله ﴾ بقوله ﴿ ينصر ﴾ بناء على أن المقصود بيان أن النصرة بيد الله لا بيان وقوع النصرة لم يقف ههنا ووقف على ﴿ المؤمنون ﴾ ﴿ وهو العزيز الرحيم ﴾ فإذا سلط العدو على الحبيب فلعزته واستغنائه عن العالمين ، وإذا نصر الحبيب فرحمته عليه . أو نقول : إن نصر المحب فلعزته واستغنائه عنه ورحمته في الآخرة واصله إليه . ﴿ وعد الله ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن ما سبق في معنى الوعد ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أنه لا خلف في وعده لأنهم بله في أمور الدين . وفي إبدال قوله ﴿ يعلمون ﴾ من قوله ﴿ لا يعلمون ﴾ أو في بيان هذا بذاك إشارة أن العلم بأمور الدنيا كالجهل المطلق ، وفي تنكير ﴿ ظاهراً ﴾ إشارة إلى قلة علمهم بظاهر الدنيا أيضاً وفي تكرير " هم " إشارة إلى أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكرة حاصلة وظاهر الدنيا ملاذها وملاعبها وباطنها مضارها ومتاعبها .

هي الدنيا تقول بملء فيها . . . حذار حذار من سفكي وفتكي

فلا يغرركم طول ابتسامي . . . فقولي مضحك والفعل مبكي

ثم أشار إلى وجه التفكر بقوله ﴿ أولم يتفكروا ﴾ وقوله ﴿ في أنفسهم ﴾ يتعلق به أما تعلق الظرف بالفعل كأنه قال : أولم يحدثوا التفكر في قلوبهم الفارغة فيكون كما لو قلت لأجل زيادة التصوير اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك مع أن الاعتقاد لا يكون إلا في القلب ، والإضمار لا يوجد إلا في النفس . وأما تعلق الجار بالفعل كقولك : تفكر في الأمور . وذلك أنه إذا تفكر في نفسه التي هي أقرب الاشياء إليه وقف على غرائب الحكم ودقائق الصنع التي أودعها الله تعالى فيها كما يكفل بيان بعضها علم التشريح فجره ذلك إلى العلم بأنه سبحانه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا متلبساً بالغرض الصحيح الذي أودعه الله فيها ، وبتقدير أجل مسمى هو وقت الجزاء والحساب ، ثم في الآية تقريران : أحدهما يناسب أصول الأشاعرة وهو أن دلائل الأنفس منجرة إلى دلائل الآفاق المذكورة للتوحيد وللعلم بالإله القادر المختار الصادق كلامه ، لكنه أخبر عن تخريب السموات والأرض وعن حشر الأجساد وانتهاء الجسمانيات إلى الإفناء ث الإعادة في الوقت المعلوم فيكون الأمر على ما أخبر .

(275/603)

وثانيهما يتوقف على أصول المعتزلة ، وهو أن التفكر في النفس يجذب بصنعه إلى معرفة الإِله الحكيم الذي لا يفعل العبث والجزاف ، فإنه خلق السموات وغيرها من الأسجام لمنافع المكلفين ، وإذا انتهى التكليف فلا بد من تخريب السموات والأرض وانتهاء الأمر إلى حالة الجزاء واللقاء كيلا تنخرم قاعدة الحكمة والتدبير ورعاية الصلاح والعدل . ثم قال ﴿ وإن كثيراً من الناس ﴾ وقد قال قبل ذلك ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ لأنه قد ذكر دليلاً على الأصول ، ولا شك أن الإيمان بعد الدليل يكون أكثر من الإيمان قبل الدليل فلا يبقى الأكثر مكما هو فعبر عن الباقي بالكثير . قال في الكشاف والمراد ﴿ بلقاء ربهم ﴾ الأجل المسمى ، والأشاعرة يحملونه على الرؤية ، واعلم أن دليل الأنفس مقدم على دليل الآفاق ، لأن الإنسان قلما يذهل عن نفسه ، وأن نفسه أقرب الشياء إليه نظير الآية قوله سبحانه ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 191] أي يعرفون الله بدلائل الأنفس في سائر الأحوال ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض بدلائل الآفاق . وإنما أخر الأنفس في قوله ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [فصلت : 53] لإن الإراءة إنما يفتقر إليها في معرفة الأبعد الأخفى كأنه قال : سنريهم آياتنا الآفاقية فإن لم يفهموها فآيات الأنفس معلومة . وهذا الترتيب لا يناسب التفكر بل الفكر يتصور دليل الأنفس أولاً ثم يرتقي إلى دليل الآفاق فظهر أن كل آية وردت على ما اقتضته الحكمة والبلاغة . وحين ذكر دليل النفس الذي لا يقع

الذهول عنه إلا ندرة ارتقى إلى دليل السموات والأرض الذي يقع الذهول عنه في كثير من الأحوال لكنه لا يحتاج إلا إلى التفات ذهني ، ثم أتبعه دليل الآفاق الذي يتوقف على السير والتحول ليقفوا على أمر أمثالهم . وحكاية أشكالهم ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدمهم كعاد وثمود كانوا أشد منهم قوة جسمانية وأثاروا

(276/603)

الأرض حرثوها وهو إشارة إلى القوة المالية . ثم اشار إلى القوة الظهرية التي يستند إليها عند الضعف والفتور وهي الحصون والعمائر بقوله ﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ هؤلاء يعني أهل مكة كانوا أهل واد غير ذي زرع ما لهم أثارة أرض أصلاً ولا عمارة لها راساً ، ففيه نوع تهكم بهم . قال أهل البرهان : إنما قال في هذه السورة وفي آخر " فاطر " وفي " المؤمن " ﴿ أولم يسيروا ﴾ بالواو وفي غيرهن ﴿ افلم ﴾ بالفاء لأن ما قبلها في هذه السورة ﴿ أولم يتفكروا ﴾ وما بعدها ﴿ وأثاروا ﴾ بالواو فوافق ما قبلها وما بعدها . وكذا في " فاطر " ما قبله ﴿ ولن تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ [الآية : 43] وما بعده ﴿ وما كان ﴾ [الآية : 44] وفي " المؤمن " ما قبله ﴿ والذين يدعون ﴾ وأما في آخر " المؤمن " فما قبله ﴿ فأي آيات الله ﴾ وما بعده

﴿ فما أغنى عنهم ﴾ [الآية : 82] وكلاهما بالفاء . قوله في هذه السورة ﴿ من قبلهم ﴾ متصل بكون آخر مضمر . وقوله ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ وكذا معطوفاه إخبار عما كانوا عليه قبل الإهلاك . وإنما قال في " فاطر " ﴿ وكانوا ﴾ بزيادة الواو لأن التقدير فينظروا كيف أهلكوا وكانوا اشد ، وخصت السورة به لقوله ﴿ وما كان الله ليعجزه ﴾ [فاطر : 44] وقال في " المؤمن " ﴿ كانوا من قبلهم كانوا هم أشد ﴾ فأظهر " كان " وزاد لفظه " هم " لأن الآية وقعت في أوائل قصة موسى وهي تتم في ثلاثين آية ، فكان اللائق به البسط دون الوجازة ولم يبسط هذا البسط في آخر السورة اكتفاء بالأول والله أعلم .

﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بوضع الأنفس الشريفة في موضع خسيس هو عبادة الأصنام . قال أهل السنة : هذا الوضع كان بمشيئة الله وإرادته لكنه صدر عنهم فأضيف إليهم ﴿ والسوأى ﴾ تانيث الأسوا وهو الأقبح وهي خبر " كان " فيمن قرأ ﴿ عاقبة ﴾ بالرفع واسم " كان " فيمن قرأ ﴿ عاقبة ﴾ بالنصب . و " ثم " لتفاوت الرتبة ، وفي التركيب وضع للمظهر موضع المضمر . والمعنى أنهم أهلكوا ثم كانت عاقبتهم السوأى وهي عذاب النار . و ﴿ أن كذبوا ﴾ المعنى لأن " أو " بأن كذبوا أو هو تفسير اساؤا

على أن الإساءة في معنى القول نحو : نادى وكتب معناه أي كذبوا وجوز جار الله أن يكون السوأى مفعول ﴿ اساؤا ﴾ و ﴿ أن كذبوا ﴾ عطف بيان لها ، وخبر "كان" محذوف إرادة الإبهام ليذهب الوهم كل مذهب فيكون تقدير الكلام . ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا أن كذبوا كذا وكذا مما لا يكتنه كنهه . قال أهل التحقيق : ذكر الزيادة في حق المحسن في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] ولم يذكر في الحق المسيء لأن جزاء سيئة سيئة بمثلها ، وذكر السبب في العقوبة وهو قوله ﴿ أن كذبوا ﴾ ولم يذكره في الآية ليعلم أن إحسانه لا يتوقف على السبب بل فضله كافٍ فيه .

(278/603)

وحين ذكر ان عاقبتهم النار وكان في ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال ﴿ الله يبدأ ﴾ يعني من خلق بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة . ثم بين ما يكون وقت الرجوع فقال ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ يعني في ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم وهو سكوت مع تحير ويأس مع بؤس ويأس لا اليأس الذي هو إحدى الراحتين وذلك إذا كان المرجو أمراً غير ضروري فيستريح الطامع من الانتظار .

ثم ذكر وجه الإبلاس وذلك قوله ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ يجحدونها وقتئذ بقوله

﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ [مريم : 82] أو كانوا في الدنيا كافرين بسببهم . ثم حكى أنهم يعني المسلمين والكافرين ﴿ يومئذ يتفرقون ﴾ فريق في الجنة وفريق في السعير تفصيله في الآيتين بعده والروضة عندهم كل أرض ذات نبات وماء . وفي الأمثال " أحسن من بيضة في روضة " يعنون بيضة النعامة وتنكير روضة للتعظيم ومعنى ﴿ يحبرون ﴾ يسرون بأنواع المسار لحظة فلحظة . حبره إذا سره سروراً تهلل ببشر . وخصه مجاهد بالتكريم ، وقتادة بالتنعيم ، وابن كيسان بالتحلية ، ووكيع بالسماع . عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن في الجنة لنهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء رخصة يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك افضل نعيم الجنة " قال الراوي : سألت ابا الدرداء بم تغنين ؟ قال : بالتسبيح .

(279/603)

وروي أن في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة ، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش في تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس باصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا . وأما معنى ﴿ محضرون ﴾ لا يغيبون عنه وقد مر في قوله ﴿ ثم هو يوم القيامة من

المحضرين ﴾ [القصص : 61] وإنما أهمل ذكر الفسقة من أهل الإيمان اكتفاء بما ذكر في الآيات الأخر كقوله ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] وكقوله ﴿ إنما التوبة على الله ﴾ [النساء : 17] إلى قوله ﴿ تبت الآن ﴾ [النساء : 18] قال جار الله : لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد وقال آخرون : لما ذكر عظمته في المبدأ بقوله ﴿ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ وفي الانتهاء بقوله ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ وكرر ذكر قيام الساعة للتأكيد والتخويف ، أراد أن ينزه نفسه عن كل سوء ويثبت لذاته كل حمد ليعلم أنه منزه عن طاعات المطيعين ، محمود على كل ما يوصل إلى المكلفين ، مذكور على لسان أهل السموات والأرضين . والتسبيح في الظاهر هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما في كل منها من كل نعمة متجددة .

(280/603)

وخص بعضهم التسبيح بالصلاة لما روي عن ابن عباس أنه قال ﴿ تمسون ﴾ صلاتا المغرب والعشاء ﴿ ويصبحون ﴾ صلاة الفجر ﴿ وعشياً ﴾ صلاة العصر و ﴿ يظهرون ﴾ صلاة الظهر أمر بالصلاة في أول النهار ووسطه وآخره ، وأمر بالصلاة أول الليل

ووسطه وهو العشاء بقوله صلى الله عليه وسلم " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك وبتأخير العشاء إلى نصف الليل " ولم يأمر بالصلاة في آخر الليل لأن النوم فيه غالب وإنه منَّ على عباده بالإستراحة في الليل بالنوم في مواضع منها قوله ﴿ ومن آياته منامكم بالليل ﴾ [الروم : 23] كما يجيء . روي عن الحسن أن الاية مدنية بناء على أنه كان يقول : فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم .

وقول الأكثر إن الخمس فرضت بمكة . قوله ﴿ وعشياً ﴾ معطوف على ﴿ حين ﴾ وما بينهما وهو قوله ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ اعتراض .

(281/603)

قال جار الله : معناه إن على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه قلت : فيه ايضاً أن الله غني عن تسبيح المسبحين فلو لم يحمده حامد فله استئهال الحمد على الإطلاق ولو حمدوه لعاد نفعه إليهم . وقدم الإمساك لأن الظلمة عدمية والأصل في الأشياء العدم ، وقدم العشي على الظهيرة لأجل الفاصلة أو للتنبيه على فضيلة صلاة العصر ، ولعل في تقديم الاعتراض المذكور على العشي إشارة إلى هذا ومعنى ﴿ ويخرج الحي من الميت ﴾ قد سلف مراراً ويحتمل أن يراد ههنا اليقظان والنائم لقوله ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ اي

من القبور ، فتنبيه النائم بعد اليقظة يشبه الإعادة ، وكذا رد الأرض إلى حالة الخضرة والنضرة بعد ذبولها . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون إلى قوله وكذلك تخرجون أدرك ما فاته من يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته من ليلته " ثم اراد أن يذكر الحجج الباهرة على ستحقاق التسبيح والتحميد له فقال ﴿ ومن آياته أن خلقكم ﴾ أي أصلكم أو كلاً منكم كما مر في أول الحج ﴿ من تراب ﴾ وذلك ان التراب أبعد الشياء عن درجة الإحياء لكثافته ولبرودته ويبسه والحياة بالحرارة والرطوبة ، ولكدورته والروح نير ولثقله وخفة الرواح ولسكونه والحي متحرك حساس ، ولا تتنافي بين هذا وبين قوله ﴿ خلق من الماء بشراً ﴾ [الفرقان : 54] لأنه أراد الأصل الثاني الذي هو النطفة ، أو أراد أن أصل البشر في الظاهر هو التراب والماء وأما النار فللإنضاج ، والهواء فللاستبقاء كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ، و ﴿ ثم ﴾ لتبعيد الرتبة و ﴿ إذا ﴾ للمفاجأة أي ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً .

(282/603)

قالوا : فيه إشارة إلى مسألة حكمية وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فيتبعه أنه حيوان تام لا أنه يخلق أولاً حيواناً ثم يجعله إنساناً ، فخلق الأنواع هو المراد الأول ثم تكون الأنواع

فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى . وقوله ﴿ بشراً ﴾ إشارة إلى القوة المدركة التي البشر بها بشروا بها يمتاز عن غيره من الحيوانات . وقوله ﴿ تنتشرون ﴾ إشارة إلى القوة المتحركة التي بها الحيوان حيوان فكأنه أشار إلى فضله وجنسه ، وكان الأولى تقديم الجنس على الفصل ، إلا أنه عكس الترتيب لأنه كأنه قال : العجب غير مختص بالإنسان بل الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب أيضاً . والانتشار إما بمعنى التردد في الحوائج كقوله ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ [الجمعة : 10] وإما بمعنى البث والتفريق كقوله ﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ [النساء : 1] .

وحين بين خلق الإنسان ولم يكن مما يبقى على مر الزمان منَّ عليهم بأن جعل نوع الإنسان باقياً بتعاقب الأشخاص فقال ﴿ ومن آياته أن خلق لكم ﴾ ولا يلزم منه أن لا يكنَّ مخلوقات للعبادة والتكليف لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه ، فقد يكون الشيء مختصاً باثنين وجعل مهيأ لآخرين على أن النعمة ما كانت تتم علينا إلا بتكليفهن ، فلولا خوف العقاب لتمردت النسوان على أزواجهن .

(283/603)

و ﴿ من أنفسكم ﴾ أي من جنسكم أو هو إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم وقد مر في " النحل " ويشهد للتفسير الأول قوله ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ فإن الجنس إلى الجنس أسكن ﴿ وجعل بينكم مودة ﴾ عن الحسن هي الجماع ﴿ ورحمة ﴾ هي الولد . وقال غيره : المودة حالة حاجة نفسه إليها ، والرحمة حالة حاجة صاحبته إليه ، وقد تفضي المودة إلى مجرد الرحمة وذلك إذا خرجت عن محل الشهوة بكبر أو مرض ، أو خرج عن إمكان رعاية حقها بكبر أو زمانة أو فقر . قال بعضهم : المودة والرحمة بعصمة الزواج من غير سابقة معرفة وقرابة وهي من قبل الله ، والفرك من قبل الشيطان ﴿ إن في ذلك ﴾ الخلق والجعل ﴿ لآيات لقوم يتفكرون ﴾ فخلق الإنسان من الوالدين آية ، وجعل أحدهما ذكراً والآخر أنثى آية ، وخروج الولد الضعيف من الموضع الضيق آية ، وجعل التوادد بين الوجين من غير صلة رحم آية ولما ذكر دلائل الأنفس أتبعها دلائل الآفاق وأعظمها خلق السموات والأرض ، فإن خلق المركبات قد يسنده بعض الجهلة إلى ما في العناصر من الكيفيات وإلى ما في السموات من الحركات والاتصالات ، وأما السماء والأرض فلا يجد بداص من أن يقول : إنهما بقدرة الله تعالى . ثم عاد إلى ذكر أحوال الأنفس ومن جملتها اختلاف الألسنة لا جرمها ، فإن التباين بين أجرامها ليس يبلغ إلى حد يعد آية بل وصفها وهو النطق وتقطيع الأصوات اللذان بهما يمتاز بعض الأصناف والأشخاص عن بعض ، واختلاف الألوان والحلي فبذلك يقع التفاوت ويرتفع الاشتباه ، فحس البصر يدرك

اختلاف الصور وحسن السمع يدرك اختلاف الأصوات وأما اللمس والشم والذوق فلا حكم ظاهراً لها في باب التمييز بين الأشخاص الإنسانية . وحيث ذكر بعض العرضيات اللازمة أراد أن يذكر الأعراض المفارقة بعضها فقال ﴿ ومن آياته منامكم ﴾ قال جار الله : هذا من باب اللف والنشر وتقدير الكلام . ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ليكون موافقاً لما جاء في مواضع آخر كقوله

(284/603)

﴿ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾ [النبأ : 10 ، 11] وقدم المنام على الابتغاء لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة قال : وإنما فصل بين القرينتين الأوليين بالقرينتين الآخرين لأنهما زمانان ، والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد يعني كأنه لم يعطف النهار على الليل والابتغاء على المنام . وجوز أن يراد منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار ، فان الإنسان كثيراً ما ينام بالنهار ويكسب بالليل .

وفي اقتران الفضل بالابتغاء إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من نفسه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه . ثم أشار إلى عوارض الآفاق فقال ﴿ ومن آياته يريكم ﴾

فأضمر " أن " واسكن الياء بعد حذفها وإنزال الفعل منزلة المصدر كما في المثل السائر " تسمع بالمعيدي خير من أن تراه " قيل : لما كان البرق من الأمور التي تتجدد زماناً دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه " أن " وقيل : ومن آياته كلام كافٍ كما تقول : منها كذا ومنها كذا .

(285/603)

وتسكت تريد بذلك الكثرة : وقيل : أراد ويريكم من آياته البرق . وانتصاب ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ كما مر في " الرعد " ثم ذكر بعض لوازم الآفاق قائلاً ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ فقيام السموات والأرض استمساكهما بغير عمد ، ومن نسب ذلك إلى الطبيعة فلا بد أن يستند الطبع إلى واجب لذاته وأمره أن يقول لهما كونا كذلك نظيره قوله ﴿ إن الله يمسك ﴾ [فاطر : 41] إلى قوله ﴿ من بعده ﴾ [فاطر : 41] واعلم أن الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة ، وعند الأشاعرة ليس كذلك . ولكن النزاع في الأمر الذي هو للتكليف لا الذي للتكوين ، فإن قوله ﴿ كن فيكون ﴾ [يس : 82] موافق للإرادة بالتفاق . قال جار الله : قوله ﴿ إذا دعاكم ﴾ بمنزلة قوله ﴿ يريكم ﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال : ومن آياته قيام السموات والأرض ، ثم خروج الموتى من

القبور إذا دعاكم مرة واحدة يا أهل القبور اخرجوا والمراد سرعة الخروج من غير توقف وإلا فلا أمر ظاهراً . أو أراد نداء الملك والأرض مكان المدعو على التقديرين لا الداعي إذ لا مكان لله مطلقاً ولا للملك في جوف الأرض . نعم ، لو كان المراد أن الملك يدعوهم وهو على وجه الأرض جاز . ومعنى " ثم " عظم ما يكون من ذلك الأمر وتهويل لتلك الحالة ، وإذا الأولى للشرط ، والثانية للمفاجأة نائبة مناب الفاء . واعلم أنه تعالى ذكر في كل باب أمرين : أما من الأنفس فخلق البشر ثم خلقهم زوجين ، وأما من الآفاق فخلق السموات والرض . ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان والألوان ، ومن عوارضه المنام والابتغاء ، ومن عوارض الآفاق البروق والأمطار ، ومن لوازمها قيام السماء والأرض . والواحد يكفي للإقرار بالحق ، إلا أن الثاني يجري مجرى الشاهد الآخر .

(286/603)

وراعى في تعداد العرضيات لطيفة ، بدأ باللوازم وختم باللوازم وذلك أن الإنسان متغير الحال ، فالأحوال اللازمة له أغرب والأفلاك ثابتة بالنسبة إلى الإنسان فعوارضها أغرب ، وبدأ في كل باب بما هو أعجب ، وإنما ختم الآية الأولى بقوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ لأن الفكر يؤدي إلى الوقوف على المعاني المقتضية للإنس والسكون وعلى

دقائق صنع الله في خلق الإنسان وبثهم في الأرض ، أو نقول : إن من الأشياء ما يعلم بمجرد الفكر كدقائق حكمة الله في خلق الإنسان ، لأن أقرب الأشياء إلى الإنسان هو ذاته فلذلك قال هنالك ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ ومنها ما يعلم من غير تجشم فكر كالاستدلال على قدرة الله بخلق السماء والأرض ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، فإن الكل تظلهم السماء وتقلهم الأرض .

(287/603)

وكل واحد منفرد بلطيفة في صورته يمتاز بها عن غيره ، ولهذا يشترك في معرفتها الناس جميعاً فلهذا قال ﴿ لآيات للعالمين ﴾ ومن حمل اختلاف الألسن على اللغات اختلاف الألوان على البياض والسواد والصفرة والسمرة ، فالاشتراك في معرفتها أيضاً ظاهر . ومن قرأ ﴿ للعالمين ﴾ بكسر اللام فقد أحسن ، فبالعلم يمكن الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره ، ومن الأشياء ما يحتاج الفكر فيه إلى إعانة مرشد كالمنام والابتغاء فإنهما لزوالهما في بعض الأوقات قد يرفعان لوازمهما فلهذا قال ﴿ لقوم يسمعون ﴾ ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد ، ومن هنا ذهب بعضهم إلى أن معنى ﴿ يسمعون ﴾ ههنا يستجيبون لما يدعون إليه ، ثم إن حدوث الولد من الوالدين كالأمر المطرد العادي فكان الولد يمكن أن يسبق إلى

الوهم إسناده إلى الطبيعة فأمر هنالك بالفكر . وأما البرق والمطر فليس أمراً عادياً ولذلك يختلف بالشدة والضعف وبحسب الأوقات والأمكنة فالعقل الصحيح يجزم بأن من فعل الفاعل المختار فلذلك قال ﴿ لقوم يعقلون ﴾ وقيل : إن العقل ملاك الأمر وهو المؤدي إلى العلم فوقع الختم عليه . وحين فرغ من تعداد الآيات وكان مدلولها الوحدانية التي هي الأصل الأول والقدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر أكد الأول بقوله ﴿ وله من في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ مطيعون منقادون وأكد الأصل الآخر بل كلا الصلين بقوله ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو ﴾ يعني أن يعيده ﴿ أهون عليه ﴾ أي في نظركم وعند معقولكم وإلا فلا صعوبة في الإبداء أصلاً حتى يقع التفضيل على حده . وإنما أخرت الصلة ههنا وقدمت في قوله في سورة مريم و ﴿ وهو على هين ﴾ [مريم : 9] لأنه قصد هناك الاختصاص يعني أن خلق الولد بين هرم وعاقر لا يهون إلا علي ، ولا معنى للاختصاص ههنا فإن الأمر مبني على المعقول بين الآدميين من ان المعاد أهون من المبدأ ولهذا قيل : أول الغزو أخرق . وليس الدخيل في أمر كالناشئ عليه . ومن الدليل العقلي على

هذا المطلوب أن الإبداء خلق الأجزاء وتاليفها ، والإعادة تأليف فقط ، ولا شك أن أمراً واحداً أهون من الأمرين ولا يلزم منه أن يكون في الأمرين صعوبة فإن من قال : الرجل القوي يقدر على حمل شعيرة من غير صعوبة وسلم السامع له ذلك فإذا قال فلان لا يتعب من حمل خردلة وإن حمل خردلة أهون عليه .

كان كلاماً معقولاً وقد أجرى الزجاج قوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ مجرى المثل فيما يصعب ويسهل .

وفسر به قوله ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ يعني هذا مثل مضروب لكم في الأرض وله المثل الأعلى من هذا المثل ومن كل مثل يضرب في السموات فيما بين الملائكة . وعن ابن عباس : أراد أن فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به لكنه ليس مكثله شيء فله المثل الأعلى وقال جار الله : المثل الوصف أي له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به ووصف في السموات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي يقدر على الخلق والإعادة ، العليم الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا يصعب عليه جمع الأجزاء بعد تفرّقها على الوجه الذي يقتضيه التدبير ولهذا ختم الاية بقوله : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ وعن مجاهد : المثل الأعلى وصفه بالوحدانية وهو قوله " لا إله إلا الله " وقد ضرب لذلك مثلاً . ومعنى ﴿ من انفسكم ﴾ أنه أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم و " من " للابتداء وفي قوله ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ للتبعيض ، والثالثة مزيدة

لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي . والمعنى هل ترضون لأنفسكم أن يكون لكم شركاء من بعض عبيدكم يشاركونكم فيما رزقناكم من الأموال والأملاك ﴿ فأنتم ﴾ يعني بسبب ذلك أنتم أيها السادات والعبيد في ذلك المرزوق ﴿ سواء ﴾ من غير تفضيل وففضل للأحرار على العبيد ﴿ تخافونهم ﴾ أن تستبدوا بتصرف دونهم ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي كما يهاب بعضكم بعضاً من الأحرار .

(289/603)

والحاصل أن من يكمون له مملوك لا يكون شريكاً له في ماله ولا يكون له حرمة كحرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له أو شفعاء عنده بغير إذنه ؟ وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله حتى يعبدوا كعبادته على أن مملوككم ليس مملوكاً لكم في الحقيقة ليس إلا اختصاص المبايعة ، ولهذا لا حكم لهم عليهم بالقتل والقطع وبالمنع من الفرائض وقضاء الحاجة والنوم . وقد يزول الاختصاص بالبيع والعتق ومملوك الله لا خروج له من ملكه بوجه من الوجوه وفي قوله ﴿ فيما رزقناكم ﴾ إشارة إلى أن الذي هو لكم ليس في الحقيقة لكم وإنما الله استخلفكم فيه ورزقكموه من فضله ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا التفصيل والتبعيد للتعظيم أو لدخوله في حيز الذكر أو المضي ﴿ نفصل الآيات ﴾ نبينها

﴿ لقوم يعقلون ﴾ لأن التمثيل إنما يكشف المعاني لأرباب العقول .

ثم شوه صورة الشرك بقوله ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ أي اشركوا ﴿ أهواءهم بغير علم ﴾ فهوى العالم ربما يتبدل بالهدى وأما الجاهل فإنه هائم في هواه كالبهائم لا يرجى ارعواه يؤكده قوله ﴿ فمن يهدي من اضل الله وما لهم من ناصرين ﴾ والإضلال ههنا لا يخفى أن الأشاعرة يحملونه على خلق الضلال في المكلف ، والمعتزلة يحملونه على الخذلان ومنع الألطاف وقد تقدم مراراً .

ثم قال لرسوله ولأمته تبعية إذا تبين الحق وظهرت الوحدانية ﴿ فأقم وجهك للدين ﴾ أي سدده نحوه غير مائل إلى غير من الأديان الباطلة ﴿ فطرت الله ﴾ أي الزموها أو عليكم بها . قال جار الله : إنما اضمرته على خطاب الجماعة لقوله ﴿ منيبين ﴾ وهو حال منهم ولأن الأمر والنهي بعده معطوفان عليه لكنك قد عرفت في الوقوف أن هذا التقدير غير لازم وعلى ذلك يحتمل أن يقدر الزم أو عليك أو أخص أو اريد واشباه ذلك .

(290/603)

وفطرة الله هي التوحيد الذي تشهد به العقول السليمة والنظر الصحيح كما جاء في الحديث النبوي "كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه

" . ويحتمل أن تكون الفطرة إشارة إلى أخذ الميثاق من الذر . وقوله ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ نفي في معنى النهي أي لا تبدلوا خلقه الذي فطلكم عليه لكن الإيمان الفطري غير كافٍ . وقيل : هو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يؤمن قومه فكأنه قال : إنهم أشقياء ومن كتب شقياً لم يسعد . وقيل : أراد أن الخلق لا خروج لهم عن عبوديته بخلاف مماليك الإنسان فإنهم قد يخرجون من ايديهم بالبيع والعتق . وفيه فساد قول من زعم أن العبادة لتحصيل الكمال فإذا كمل العبد لم يبق عليه تكليف ، وفساد قول الصابئة وبعض أهل الشك أن الناقص لا يصلح لعبادة الله ونما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله ، وفساد قول النصارى والحلولية أن الله يحل في بعض الأشخاص كعيسى وغيره فيصير إلهاً . ومعنى ﴿ فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ قد مر في آخر " الأنعام " وأنهم فرق كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها وقال أهل التحقيق : بعضهم يعبد الدنيا وبعضهم يعبد الهوى وبعضهم يريد الجنة وبعضهم يطلب الخلاص من النار . ومعنى ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ قد مر في " المؤمنين " وجوز جار الله أن يكون ﴿ من الذين ﴾ منقطعاً عما قبله ﴿ وكل حزب ﴾ مبتدأ و ﴿ فرحون ﴾ صفة كل ومعناه من المفارقين دينهم كل حزب بصفة كذا والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 401 .

411 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) ﴾

نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معينة . ذلك حين غلبت فارس على الروح فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب . وكان ذلك في إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة والمشركين . . ولما كان الروم في ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية ، وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وفألاً بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان .

ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين .

ولكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد ، ولا في حدود ذلك الحادث . إنما كانت هذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت . وليصلهم بالكون كله ، وليربط بين سنة الله في نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما . وليصل بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها . ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وإلى العالم الآخر بعد

عالم الأرض المحدود . ثم يطوف بهم في مشاهد الكون ، وفي أغوار النفس ، وفي أحوال البشر ، وفي عجائب الفطر . . فإذا هم في ذلك المحيط الهائل الضخم الرحيب يطلعون على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها ، وتوسع آمادها وأهدافها ، وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة . عزلة المكان والزمان والحادث . إلى فسحة الكون كله : ماضيه وحاضره ومستقبله ، وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه .

(292/603)

ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات في هذا الكون الكبير .

ويشعرون بضخامة النواميس التي تحكم هذا الكون ، وتحكم فطرة البشر ؛ ودقة السنن التي تصرف حياة الناس وأحداث الحياة ، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة ؛ وعدالة الموازين التي تقدر بها أعمال الخلق ، ويقوّم بها نشاطهم في هذه الأرض ، ويلقون على أساسها الجزاء في الدنيا والآخرة .

وفي ظل ذلك التصور المرتفع الواسع الشامل تتكشف عالمية هذه الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها حتى وهي ناشئة في مكة محصورة بين شعابها وجبالها ويتسع مجالها فلا تعود مرتبطة بهذه الأرض وحدها إنما هي مرتبطة كذلك بفطرة هذا الكون

ونواميسه الكبرى ، وفطرة النفس البشرية وأطوارها ، وماضي هذه البشرية ومستقبلها . لا على هذه الأرض وحدها ، ولكن كذلك في العالم الآخر الوثيق الصلة بها والارتباط .

وكذلك يرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد ؛ ويتكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم ؛ ويتطلع إلى السماء والآخرة ؛ ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار ، وخلفه وقدامه على الحوادث والمصائر .

ويدرك موقفه هو وموقف أمته في ذلك الخضم الهائل ؛ ويعرف قيمته هو وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله ، فيؤدي حينئذ دوره على بصيرة ، وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام .

ويمضي سياق السورة في عرض تلك الارتباطات ، وتحقيق دلالاتها في نظام الكون ، وتثبيت مدلولاتها في القلوب . . يمضي سياق السورة في شوطين مترابطين :

(293/603)

في الشوط الأول يربط في نصر المؤمنين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما ، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة . ويوجه قلوبهم إلى سنة الله فيمن مضى قبلهم من القرون . ويقيس عليها قضية البعث والإعادة . ومن ثم يعرض عليهم مشهداً من مشاهد القيامة

وما يجري فيه للمؤمنين والكافرين . ثم يعود من هذه الجولة إلى مشاهد الكون ، وآيات الله المبثوثة في ثناياه ؛ ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب . ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلاً يكشف سخافة فكرة الشرك ، وقيامها على الأهواء التي لا تستند إلى حق أو علم . وينهي هذا الشوط بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح . طريق الفطرة التي فطر الناس عليها ؛ والتي لا تتبدل ولا تدور مع الهوى ؛ ولا يتفرق متبعوها فرقاً وشيعاً ، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى .

(294/603)

وفي الشوط الثاني يكشف عما في طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة . ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء ، ويصور حالهم في الرحمة والضر ، وعند بسط الرزق وقبضه . ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته . ويعود إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هذه الزاوية ؛ فإذا هم لا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون . ويربط بين ظهور الفساد في البر والبحر وعمل الناس وكسبهم ؛ ويوجههم إلى السير في الأرض ، والنظر في عواقب المشركين من قبل . ومن ثم يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الاستقامة على دين الفطرة ، من قبل أن يأتي اليوم الذي يجزى فيه كل بما كسبت

يداه . ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله في مشاهد الكون كما عاد بهم في الشوط الأول . ويعقب عليها بأن الهدى هدى الله ؛ وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يملك إلا البلاغ ، فهو لا يهدي العمي ولا يسمع الصم . ثم يطوف بهم في جولة جديدة في ذات أنفسهم ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها ، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة ، ويعرض عليهم مشهداً من مشاهدها . ثم ينهي هذا الشوط ويختم معه السورة بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على دعوته ، وما يلقاه من الناس فيها ؛ والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لا بد آت ؛ فلا يقلقه ولا يستخفه الذين لا يوقنون .

(295/603)

وجو السورة وسياقها معاً يتعاونان في تصوير موضوعها الرئيسي . وهو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس ، وأحداث الحياة وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها ، وسنن الكون ونواميس الوجود . وفي ظلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل نأمة ، وكل حادث وكل حالة ، وكل نشأة وكل عاقبة ، وكل نصر وكل هزيمة . . كلها مرتبطة برباط وثيق ، محكومة بقانون دقيق . وأن مرد الأمر فيها كله لله : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ وهذه هي الحقيقة الأولى التي يؤكدها القرآن كله ، بوصفها الحقيقة

الموجهة في هذه العقيدة . الحقيقة التي تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقديرات ؛ والتي بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير . .

والآن نأخذ في عرض السورة بالتفصيل :

﴿ ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ . .

" بدأت السورة بالأحرف المقطعة : " ألف . لام . ميم " التي اخترنا في تفسيرها أنها للتنبيه إلى أن هذا القرآن ومنه هذه السورة مصوغ من مثل هذه الأحرف ، التي يعرفها العرب ؛ وهو مع هذا معجز لهم ، لا يملكون صياغة مثله ، والأحرف بين أيديهم ، ومنها لغتهم .

(296/603)

ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم في بضع سنين . وقد روى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على

فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم . فلما نزلت : ﴿ ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ﴾ . قالوا : يا أبا بكر . إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شيء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ؛ " فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " ما بضع سنين عندكم ؟ " قالوا : دون العشر . قال : اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل " قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك .

وقد وردت في هذا الحادث روايات كثيرة اخترنا منها رواية الإمام ابن جرير . وقبل أن نتجاوز الحادث إلى ما وراءه في السورة من التوجيهات نحب أن نقف أمام بعض إيحاءاته القوية .

وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان .

ومع أن الدول قديماً لم تكن شديدة الاتصال ، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن في عصرنا الحاضر . مع هذا فإن المشركين في مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم ؛ وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم

بأهل الكتاب ، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون في أي مكان ؛ وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست في عزلة عما يجري في أنحاء العالم من حولهم ، ويؤثر في قضية الكفر والإيمان .

(297/603)

وهذه الحقيقة البارزة هي التي يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا ؛ ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم . منذ حوالي أربعة عشر قرناً . ومن ثم ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية ؛ ولا يدركون أن القضية في حقيقتها هي قضية الكفر والإيمان ؛ وأن المعركة في صميمها هي المعركة بين حزب الله وحزب الشيطان .

وما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة ، وحقيقة القضية ؛ فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تتستر بها أحزاب الشرك والكفر ، فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة ، مهما تنوعت العلل والأسباب .

والإيحاء الآخر هو تلك الثقة المطلقة في وعد الله ، كما تبدو في قولة أبي بكر رضي الله عنه في غير تلعثم ولا تردد . والمشركون يعجبونه من قول صاحبه ؛ فما يزيد على أن يقول :

صدق . ويراهنونه فيراهن وهو واثق . ثم يتحقق وعد الله ، في الأجل الذي حدده : ﴿ في بضع سنين ﴾ . . وهذه الثقة المطلقة على هذا النحو الرائع هي التي ملأت قلوب المسلمين قوة ويقيناً وثباتاً في وجه العقبات والآلام والمحن ، حتى تمت كلمة الله وحق وعد الله . وهي عدة كل ذي عقيدة في الجهاد الشاق الطويل .

(298/603)

والإيحاء الثالث هو في تلك الجملة المعترضة في مساق الخبر ، من قول الله سبحانه : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ . . والمسارعة برد الأمر كله لله . في هذا الحادث وفي سواه . وتقرير هذه الحقيقة الكلية ، لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف . فالنصر والهزيمة ، وظهور الدول ودثورها ، وضعفها وقوتها . شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال ، مرده كله إلى الله ، يصرفه كيف شاء ، وفق حكمته ووفق مراده . وما الأحداث إلا آثار لهذه الإرادة المطلقة ، التي ليس عليها من سلطان ؛ ولا يدري أحد ما وراءها من الحكمة ؛ ولا يعرف مصادرها ومواردها إلا الله . وإذن فالتسليم والاستسلام هو أقصى بما يملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التي يجريها الله وفق قدر مرسوم .

﴿ ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ . .

﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ . .

﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ .

.

﴿ ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ﴾ . .

فالأمر له من قبل ومن بعد . وهو ينصر من يشاء . لا مقيد لمشيئته سبحانه . والمشيئة التي تريد النتيجة هي ذاتها التي تيسر الأسباب . فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب . والنواميس التي تصرف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة الطليقة . وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلف ؛ وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات . والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات ، وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة الطليقة .

(299/603)

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية في هذا المجال . فهي ترد الأمر كله إلى الله . ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع . أما أن تتحقق تلك النتائج فعلاً أو لا تتحقق فليس داخلاً في التكليف ، لأن مرد

ذلك في النهاية إلى تدبير الله . " ولقد ترك الأعرابي ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل يصلي قائلاً : " توكلت على الله " فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعقلها وتوكل " فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله .

﴿ ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ﴾ . .

فهذا النصر محفوف بظلال القدرة القادرة التي تنشئه وتظهره في عالم الواقع ؛ وبظلال الرحمة التي تحقق به مصالح الناس ؛ وتجعل منه رحمة للمنصورين والمغلوبين سواء . ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ وصلاح الأرض رحمة للمنتصرين والمهزومين في نهاية المطاف .

﴿ وعد الله . لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ . .

ذلك النصر وعد من الله ، فلا بد من تحققه في واقع الحياة : ﴿ لا يخلف الله وعده ﴾ فوعده صادر عن إرادته الطليقة ، وعن حكمته العميقة . وهو قادر على تحقيقه ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ، ولا يكون في الكون إلا ما يشاء .

وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذي لا يتغير ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ولو بدا في الظاهر أنهم علماء ، وأنهم يعرفون الكثير . ذلك أن علمهم سطحي ، يتعلق

بظواهر الحياة ، ولا يتعمق سننها الثابتة ، وقوانينها الأصيلة ؛ ولا يدرك نواميسها الكبرى ، وارتباطاتها الوثيقة : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ . . . ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ؛ ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه .

(300/603)

وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير ، مهما بدا للناس واسعاً شاملاً ، يستغرق جهودهم بعضه ، ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة . والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل ، تحكمه نواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه .

والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ؛ ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه ، يظل ينظر وكأنه لا يرى ؛ ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة ، ولكنه لا يدرك حكمته ، ولا يعيش بها ومعها .

وأكثر الناس كذلك ، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود ؛ وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود . والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع الناس . ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية .

﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ . . فالآخرة حلقة في سلسلة النشأة ، وصفحة من

صفحات الوجود الكثيرة . والذين لا يدركون حكمة النشأة ، ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون عن الآخرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجود ، لا تتخلف مطلقاً ولا تحيد .

والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل ؛ وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم ؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً ؛ ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً ، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض .

فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون . ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود . والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة . ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة !

(301/603)

ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها . لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة

واحدة من قيمها الكثيرة ؛ ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون . فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال . . هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا ؛ وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضي والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء . . وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه ؛ ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان . الخليفة في الأرض . المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله .

ولارتباط تحقق وعد الله بالنصر بالحق الأكبر الذي يقوم عليه هذا الوجود ، وارتباط أمر الآخرة كذلك بهذا الحق استطرد يجول بهم جولة أخرى في ضمير هذا الكون . في السماوات والأرض وما بينهما ؛ ويردهم إلى أنفسهم ينظرون في أعماقها ويتدبرون ، علهم يدركون ذلك الحق الكبير ، الذي يغفلون عنه حين يغفلون عن الآخرة ؛ ويغفلون عن الدعوة التي تقودهم إلى رؤية ذلك الحق وتدبره :

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى .

وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ .

فطبيعة تكوينهم هم أنفسهم ، وطبيعة هذا الكون كله من حولهم توحي بأن هذا الوجود قائم على الحق ، ثابت على الناموس ، لا يضطرب ، ولا تتفرق به السبل ، ولا تتخلف دورته ، ولا يصطدم بعضه ببعض ، ولا يسير وفق المصادفة العمياء ، ولا وفق الهوى المتقلب ، إنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديراً . وأن من مقتضيات هذا الحق الذي يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرة ، يتم فيها الجزاء على العمل ، ويلقى الخير والشر عاقبتهما كاملة . إنما كل شيء إلى أجله المرسوم . وفق الحكمة المدبرة ؛ وكل أمر يجيء في موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . وإذا لم يعلم البشر متى تكون الساعة ، فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون ! ولكن تأجيلها يغري الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ويخدعهم : ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ . .

ومن هذه الجولة في ضمير السماوات والأرض وما بينهما . وهي جولة بعيدة الآماد والآفاق في هيكل الكون الهائل ، وفي محتوياته المنوعة ، الشاملة للأحياء والأشياء ، والأفلاك والأجرام ، والنجوم والكواكب ، والجليل والصغير ، والخافي والظاهر ، والمعلوم والمجهول . . . من هذه الجولة البعيدة في ضمير الكون ينقلهم إلى جولة أخرى في ضمير

الزمان ، وأبعاد التاريخ ، يرون فيها طرفاً من سنة الله الجارية ، التي لا تتخلف مرة ولا تحيد :

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ؛ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ؛ وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى ، أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ . .

(303/603)

وهي دعوة إلى التأمل في مصائر الغابرين ؛ وهم ناس من الناس ، وخلق من خلق الله ، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية . فسنة الله هي سنة الله في الجميع . وسنة الله حق ثابت يقوم عليه هذا الوجود ، بلا محاباة لجيل من الناس ، ولا هوى يتقلب فتتقلب معه العواقب . حاشا لله رب العالمين !

وهي دعوة إلى إدراك حقيقة هذه الحياة وروابطها على مدار الزمان ، وحقيقة هذه الإنسانية الموحدة المنشأ والمصير على مدار القرون . كي لا ينعزل جيل من الناس بنفسه وحياته ، وقيمه وتصوراته ، ويغفل عن الصلة الوثيقة بين أجيال البشر جميعاً ، وعن وحدة

السنة التي تحكم هذه الأجيال جميعاً ؛ ووحدة القيم الثابتة في حياة الأجيال جميعاً .

فهؤلاء أقوام عاشوا قبل جيل المشركين في مكة ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ . . ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ . . فحرثوها وشقوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها ﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ . . فقد كانوا أكثر حضارة من العرب ، وأقدر منهم على عمارة الأرض . . ثم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ .

. فلم تتفتح بصائرهم لهذه السيئات ؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق . فمضت فيهم سنة الله في المكذبين ؛ ولم تنفعهم قوتهم ؛ ولم يغن عنهم علمهم ولا حضارتهم ؛ ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقونه : ﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . .

﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى ﴾ . . كانت السوأى هي العاقبة التي لقيها المسيئون وكانت جزاء وفاقاً على ﴿ أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ . .

والقرآن الكريم يدعو المكذبين المستهزئين بآيات الله أن يسيروا في الأرض فلا ينعزلوا في مكانهم كالقوقعة ؛ وأن يتدبروا عاقبة أولئك المكذبين المستهزئين ويتوقعوا مثلها ؛ وأن يدركوا أن سنة الله واحدة وأنها لا تحابي أحداً ؛ وأن يوسعوا آفاق تفكيرهم فيدركوا وحدة البشرية ، ووحدة الدعوة ، ووحدة العاقبة في أجيال البشرية جميعاً . وهذا هو التصور الذي يحرص الإسلام على أن يطبع به قلب المؤمن وعقله ، ويكرر القرآن الإيقاع حوله كثيراً .

ومن هاتين الجولتين في أغوار الكون وأغوار التاريخ يردهم إلى الحقيقة التي يغفل عنها الغافلون . حقيقة البعث والمآب . وهي طرف من الحق الأكبر الذي يقوم عليه الوجود :

﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ . .

وهي حقيقة بسيطة واضحة . والترابط والتناسق بين جزئيها أو بين حلقتيها واضح كذلك . فالإعادة كالبدء لا غرابة فيها . وهما حلقتان في سلسلة النشأة ، مترابطتان لا انفصام بينهما . والرجعة في النهاية إلى رب العالمين ، الذي أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة ، لتربية عباده ورعايتهم ومجازاتهم في النهاية على ما يعملون .

وعندما يصل السياق إلى البعث والمآب يعرض مشهداً من مشاهد القيامة ، ويرسم مصائر المؤمنين والمكذبين حين يرجعون ؛ ويكشف عن عبث اتخاذ الشركاء وسخف عقيدة المشركين :

﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ . .

(305/603)

فها هي ذي الساعة التي يغفل عنها الغافلون ، ويكذب بها المكذبون . ها هي ذي تجيء ، أو ها هي ذي تقوم ! وهؤلاء هم المجرمون حائرين يائسين ، لا أمل لهم في نجاة ، ولا رجاء لهم في خلاص . ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم في الحياة الدنيا ضالين مخدوعين ! هؤلاء هم حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع . ثم ها هم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم في الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين .

ثم ها هو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين :

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ﴾ . . ويتلقون فيها ما يفرح القلب ويسر الخاطر ويسعد الضمير .

﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ . .

وتلك نهاية المطاف . وعاقبة المحسنين والمسيئين .

ومن هذه الجولة في مشاهد القيامة في العالم الآخر يعود بهم إلى هذا العالم ، وإلى مشاهد الكون والحياة .

وإلى عجائب الخلق وأسرار النفس ، وإلى خوارق الأحداث ومعجزات التكوين . ويبدأ هذه الجولة بتسبيح الله حين تقلب الليل والنهار وحمد الله في الكون العريض بالعشي والأظهار :

(306/603)

﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون . يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به

الأرض بعد موتها . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من في السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ . .

(307/603)

إنها جولة ضخمة هائلة ، لطيفة عميقة ، بعيدة الآماد والأغوار . جولة تطوّف بالقلب البشري في الأمسيات والأصباح ، والسماوات والأرض ، والعشي والأظهار ، وتفتح هذا القلب لتدبر الحياة والموت والعمليات الدائبة في النشوء والدثور . وترتد به إلى نشأة الإنسان الأولى ، وإلى ما ركب في فطرته من ميول ونوازع ، وقوى وطاقات ، وما يقوم بين زوجيه من علائق وروابط ، وفق تلك الميول والنوازع وهذه القوى والطاقات . وتوجهه إلى آيات الله في خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان وفقاً لاختلاف البيئة والمكان . وإلى تدبر ما يعتري الكائن البشري من نوم ويقظة وراحة وكد . وإلى ما يعتري الكون من ظواهر البرق والمطر ، وما تثيره في نفوس البشر من خوف وطمع ، وفي بنية الأرض من حياة وازدهار . وتمضي هذه الجولة العجيبة في النهاية بالقلب البشري إلى قيام السماوات

والأرض في هذا كله بأمر الله ؛ وإلى توجه من في السماوات والأرض كلهم لله . وتنتهي بالحقيقة التي تتجلى حينئذ واضحة هينة يسيرة : إن الله هو يبدئ ويعيد . والإعادة أهون عليه . وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم :

﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ . .

إن ذلك التسبيح وهذا الحمد يجيئان تعقيباً على مشهد القيامة في الفقرة السابقة ، وفوز المؤمنين بروضة فيها يحبرون ، وانتهاء الكافرين المكذبين إلى شهود العذاب . ومقدمة لهذه الجولة في ملكوت السماوات والأرض ، وأغوار النفس وعجائب الخلق .

فيتسقان مع التعقيب على المشهد وعلى التقديم للجولة كل الاتساق .

(308/603)

والنص يربط التسبيح والحمد بالأوقات : الإمساء والإصباح والعشي والأظهار ؛ كما يربطهما بآفاق السماوات والأرض . فيتقصى بهما الزمان والمكان ؛ ويربط القلب البشري بالله في كل بقعة وفي كل أوان ؛ ويشعر بتلك الرابطة في الخالق مع هيكل الكون ودورة الأفلاك وظواهر الليل والنهار والعشي والأظهار . . ومن ثم يظل هذا القلب مفتوحاً يقظاً حساساً

، وكل ما حوله من مشاهد وظواهر ، وكل ما يختلف عليه من آونة وأحوال ، يذكره بتسبيح الله وحمده ؛ ويصله بخالقه وخالق المشاهد والظواهر والآونة والأحوال .

﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها . . وكذلك تخرجون ﴾ . .

﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها ﴾ . . تلك العملية الدائبة التي لا تكف ولا تني لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار في كل مكان ، على سطح الأرض ، وفي أجواز الفضاء ، وفي أعماق البحار . . ففي كل لحظة يتم هذا التحول . بل هذه المعجزة الخارقة التي لا ننتبه إليها لطول الألفة والتكرار . في كل لحظة يخرج حي من ميت ويخرج ميت من حي . وفي كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة ؛ وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام . ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات ؛ ويوجد الغاز الذي ينطلق في الجو أو تتغذى به التربة ، وتستعد للإخصاب . وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين . إنسان أو حيوان أو طائر . والجثة التي ترمى في الأرض وتختلط بالتربة وتشحنها بالغازات هي مادة جديدة للحياة وغذاء جديد للنبات ، فالحيوان والإنسان ! ومثل هذا يتم في أغوار البحار وفي أجواز الفضاء على السواء .

إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لن يتأملها بالحس الواعي والقلب البصير ، ويراها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله .

(309/603)

﴿ وكذلك تخرجون ﴾ . . فالأمر عادي واقعي لا غرابة فيه وليس بدعاً مما يشهده الكون في كل لحظة من لحظات الليل والنهار في كل مكان !

﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ . .

والتراب ميت ساكن ؛ ومنه نشأ الإنسان . وفي موضع آخر في القرآن جاء : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ فالطين هو الأصل البعيد للإنسان . ولكن هنا يذكر هذا الأصل ويعقبه مباشرة بصورة البشر منتشرين متحركين . للمقابلة في المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر الحي المتحرك . وذلك بعد قوله : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ تنسيقاً للعرض على طريقة القرآن .

وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة ، وإيحاء كذلك بالصلة الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التي يعيشون عليها ؛ والتي يلتقون بها في أصل تكوينهم ، وفي النواميس التي تحكمها وتحكمهم في نطاق الوجود الكبير .

والنقلة الضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر . . نقلة تثير التأمل في صنع الله ؛ وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله ؛ وتحرك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم .

ومن مجال الخلقة الأولى لنوع البشر ينتقل إلى مجال الحياة المشتركة بين جنسي البشر :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . .

والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين ؛ وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة . ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجاً ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس والعصب ، وراحة للجسم والقلب ، واستقراراً للحياة والمعاش ، وأنساً للأرواح والضمائر واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء .

(310/603)

والتعبير القرآني اللطيف الرفيق يصور هذه العلاقة تصويراً موحياً ، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس : ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ . . ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ . .

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . . فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر . ملبياً لحاجته الفطرية : نفسية وعقلية وجسدية . بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد . .

﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ . .

وآية خلق السماوات والأرض كثيراً ما يشار إليها في القرآن ، وكثيراً ما نمر عليها سراعاً دون أن نتوقف أمامها طويلاً . . ولكنها جديرة بطول الوقوف والتدبر العميق .

إن خلق السماوات والأرض معناه إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق ؛ الذي لا نعرف عنه إلا أقل من القليل . هذا الحشد الذي لا يحصى من الأفلاك والمدارات والنجوم والكواكب والسدم والمجرات . تلك التي لا تزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها

تكاد أن تكون لا وزن لها ولا ظل ! ومع الضخامة الهائلة ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والحركات ؛ وما بينهما من مسافات وأبعاد تحفظها من التصادم والخلل والتخلف والاضطراب ؛ وتجعل كل شيء في أمرها بمقدار .

ذلك كله من ناحية الحجم العام والنظام ، فأما أسرار هذه الخلائق الهائلة وطبائعها وما يستكن فيها وما يظهر عليها ؛ والنواميس الكبرى التي تحفظها وتحكمها وتصرفها . . فهذا كله أعظم من أن يلم به الإنسان ؛ وما عرف عنه إلا أقل من القليل ، ودراسة هذا الكوكب الصغير الضئيل الذي نعيش على سطحه لم يتم منها حتى اليوم إلا القليل !

(311/603)

هذه لمحة خاطفة عن آية خلق السماوات والأرض التي نمر عليها سراعاً .

بينما نتحدث طويلاً . وطويلاً جداً . عن جهاز صغير يركبه علماء الإنسان ؛ ويحتفظون فيه بالتناسق بين أجزائه المختلفة لتعمل كلها في حركة منتظمة دون تصادم ولا خلل فترة من الزمان ! ثم يستطيع بعض التائهين الضالين المنحرفين أن يزعم أن هذا الكون الهائل المنظم الدقيق العجيب وجد واستمر بدون خالق مدبر . ويجد من يستطيع أن يسمع لهذا الهراء ! من العلماء !

ومع آية السماوات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان . . بين بني الإنسان . ولا بد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض . فاختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكي ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان . مع اتحاد الأصل والنشأة في بني الإنسان .

وعلماء هذا الزمان يرون اختلاف اللغات والألوان ؛ ثم يمرون عليه دون أن يروا فيه يد الله ، وآياته في خلق السماوات والأرض . وقد يدرسون هذه الظاهرة دراسة موضوعية . ولكنهم لا يقفون ليمجدوا الخالق المدبر للظواهر والبواطن . ذلك أن أكثر الناس لا يعلمون . ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ . وآية خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لا يراها إلا الذين يعلمون : ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ . .

﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . .

(312/603)

وهذه آية كذلك تجمع بين ظواهر كونية وما يتعلق بها من أحوال البشرية ، وتربط بين هذه وتلك . وتنسق بينهما في صلب هذا الوجود الكبير . . تجمع بين ظاهرتي الليل والنهار ونوم

البشر ونشاطهم ابتغاء رزق الله ، الذي يتفضل به على العباد ، بعد أن يبذلوا نشاطهم في الكد والابتغاء ، وقد خلقهم الله متناسقين مع الكون الذي يعيشون فيه ؛ وجعل حاجتهم إلى النشاط والعمل يلبيها الضوء والنهار ؛ وحاجتهم إلى النوم والراحة يلبيها الليل والظلام . مثلهم مثل جميع الأحياء على ظهر هذا الكوكب على نسب متفاوتة في هذا ودرجات . وكلها تجد في نظام الكون العام ما يلبي طبيعتها ويسمح لها بالحياة .

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . . والنوم والسعي سكون وحركة يدركان بالسمع . ومن ثم يتناسق هذا التعقيب في الآية القرآنية مع الآية الكونية التي تتحدث عنها على طريقة القرآن الكريم .

﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ . .

وظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكوني ؛ ويعللها بعضهم بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء ، أو بين سحابة وجسم أرضي كقمة جبل مثلاً . ينشأ عنها تفريغ في الهواء يتمثل في الرعد الذي يعقب البرق . وفي الغالب يصاحب هذا وذلك تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم . وأياً ما كان السبب فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون كما خلقه البارئ وقدره تقديرا .

والقرآن الكريم حسب طبيعته لا يفصل كثيراً في ماهية الظواهر الكونية وعللها ؛ إنما يتخذ منها أداة لوصل القلب البشري بالوجود وخالق الوجود . ومن ثم يقرر هنا أنها آية من آيات الله أن يريهم البرق ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ . . وهما الشعوران الفطريان اللذان يتعاوران النفس البشرية أمام تلك الظاهرة . شعور الخوف من الصواعق التي تحرق الناس والأشياء أحياناً عندما يبرق البرق . أو الخوف الغامض من رؤية البرق وما يوقعه في الحس من الشعور بالقوة المصرفة لهيكل هذا الكون الهائل . وشعور الطمع في الخير من وراء المطر الذي يصاحب البرق في معظم الأحوال ؛ والذي عقب بذكره في الآية بعد ذكر البرق : ﴿ وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها ﴾ . . .

والتعبير بالحياة والموت بالقياس إلى الأرض تعبير يخيل أن الأرض كائن حيّ ، يحيا ويموت . وإنها لكذلك في حقيقتها التي يصورها القرآن الكريم . فهذا الكون خليقة حية متعاطفة متجاوبة ، مطيعة لربها خاضعة خاشعة ، ملبية لأمره مسبحة عابدة . والإنسان الذي يدب على هذا الكوكب الأرضي واحد من خلائق الله هذه ، يسير معها في موكب واحد متجه إلى الله رب العالمين .

ذلك كله بالإضافة إلى أن الماء حين يصيب الأرض ، يبعث فيها الخصب ، فتنبت الزرع الحي النامي ؛ وتموج صفحتها بالحياة المنبثقة في هذا النبات . ومن ثم في الحيوان

والإنسان . والماء رسول الحياة فحيث كان تكون الحياة .

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ . . فهنا للعقل مجال للتدبر والتفكير .

﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من في السماوات والأرض كل له قانتون ﴾ .

(314/603)

وقيام السماء والأرض منتظمة سليمة مقدرة الحركات لا يكون إلا بقدرة من الله وتدبير . وما من مخلوق يملك أن يدعي أنه هو أو سواه يفعل هذا . وما من عاقل يملك أن يقول : إن هذا كله يقع بدون تدبير . وإذن فهي آية من آيات الله أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ملبية لهذا الأمر ، طائعة له ، دون انحراف ولا تلكؤ ولا اضطراب .

﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ . .

ومن يرى هذا التقدير في نظام الكون ، وهذه السلطة على مقدراته ، لا يشك في تلبية البشر الضعاف لدعوة تصدر إليهم من الخالق القادر العظيم ، بالخروج من القبور !

ثم يأتي الإيقاع الأخير ختاماً لهذا التقرير ؛ فإذا كل من في السماوات والأرض من خلائق قانتون لله طائعون .

﴿ وله من في السماوات والأرض كل له قانتون ﴾ . . .

ولقد نرى أن الكثيرين من الناس لا قانتين لله ولا عابدين . ولكن هذا التقرير إنما يعني خضوع كل من في السماوات والأرض لإرادة الله ومشيئته التي تصرفهم وفق السنة المرسومة التي لا تتخلف ولا تحيد . فهم محكومون بهذه السنة ولو كانوا كافرين .

إنما تعصى عقولهم وتكفر قلوبهم ولكنهم مع هذا محكومون بالناموس مأخوذون بالسنة ، يتصرف فيهم خالقهم وفق ما يريد تصرفه بباقي العبيد وهم لا يملكون إلا الخضوع والقنوت .

ثم يختم تلك الجولة الضخمة الهائلة اللطيفة العميقة بتقرير قضية البعث والقيامة التي يغفل عنها الغافلون :

﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾ . .

(315/603)

وقد سبق في السورة تقرير البدء والإعادة ، وهو يعاد هنا بعد تلك الجولة العريضة ويضاف إليه جديد : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ . . وليس شيء أهون على الله ولا أصعب . ﴿ إنما

أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون ﴾ ولكنه إنما يخاطب الناس بحسب إدراكهم ، ففي تقدير الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته ، فما بالهم يرون الإعادة عسيرة على الله . وهي في طبيعتها أهون وأيسر ؟ !

﴿ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ﴾ . . . فهو سبحانه ينفرد في السماوات والأرض بصفاته لا يشاركه فيها أحد ، وليس كمثله شيء ، إنما هو الفرد الصمد .

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ . . . العزيز القاهر الذي يفعل ما يريد . الحكيم الذي يدبر الخلق بإحكام وتقدير .

وعندما تنتهي تلك الجولة التي طوف فيها القلب البشري بتلك الآفاق والآماد ، والأعماق والأغوار ، والظواهر والأحوال ، يواجهه سياق السورة بإيقاع جديد :

﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم . فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ . .

ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقاً من خلقه : جناً أو ملائكة أو أصناماً وأشجاراً . وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال . ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم في شيء من الاعتبار . فيبدو أمرهم عجباً . يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده . ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم

شركاء في مالهم . وما لهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله . وهو تناقض عجيب في التصور والتقدير .

(316/603)

وهو يفصل لهم هذا المثل خطوة خطوة : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ ليس بعيداً عنكم ولا يحتاج إلى رحلة أو نقلة لملاحظته وتدبره . . ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ؟ ﴾ . . وهم لا يرضون أن يشاركهم ما ملكت أيمانهم في شيء من الرزق فضلاً على أن يساووهم فيه ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ . . . أي تحسبون حسابهم معكم كما تحسبون حساب الشركاء الأحرار ، وتخشون أن يجوروا عليكم ، وتتحرجوا كذلك من الجور عليهم ، لأنهم أكفاء لكم وأنداد ؟ هل يقع شيء من هذا في محيطكم القريب وشأنكم الخاص ؟ وإذا لم يكن شيء من هذا يقع فكيف ترضونه في حق الله وله المثل الأعلى ؟

وهو مثل واضح بسيط حاسم لا مجال للجدل فيه ، وهو يرتكن إلى المنطق البسيط وإلى العقل المستقيم : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ .

. .

وعند هذا الحد من عرض تناقضهم في دعوى الشرك المتهافتة ، يكشف عن العلة الأصيلة في هذا التناقض المريب : إنه الهوى الذي لا يستند على عقل أو تفكير :

﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدي من أضل الله ؟ وما لهم من ناصرين ﴾ . . .

والهوى لا ضابط له ولا مقياس . إنما هو شهوة النفس المتقلبة ونزوتها المضطربة ، ورغباتها ومخاوفها . وآمالها ومطامعها التي لا تستند إلى حق ولا تقف عند حد ولا تزن بميزان . وهو الضلال الذي لا يرجى معه هدى ، والشرود الذي لا ترجى معه أوبة : ﴿ فمن يهدي من أضل الله ؟ ﴾ نتيجة لاتباعه هواه ؟ ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ يمنعونهم من سوء المصير .

وعند هذا الحد يفرغ من أمر هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم المتقلبة المضطربة ؛ ويتجه بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليستقيم على دين الله الثابت المستند على فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ وهو عقيدة واحدة ثابتة لا تتفرق معها السبل كما تفرق المشركون شيعاً وأحزاباً مع الأهواء والنزوات !

(317/603)

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ . .

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده ، وفي موضعه ، بعد تلك الجولات في ضمير الكون ومشاهده ، وفي أغوار النفس وفطرتها . . يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله ؛ كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل ، ووقفت مجردة من كل عدة لها وكل سلاح . . وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن . السلطان الذي لا تقف له القلوب ولا تملك رده النفوس .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ . . واتجه إليه مستقيماً . فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق ، ولا تستمد من علم ، إنما تتبع الشهوات ، والنزوات بغير ضابط ولا دليل . . . أقم وجهك للدين حينفاً مائلاً عن كل ما عداه ، مستقيماً على نهيه دون سواه :

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ . . وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين ؛ وكلاهما من صنع الله ؛ وكلاهما موافق لناموس الوجود ؛ وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه . والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف . وهو أعلم

بمن خلق وهو اللطيف الخبير . والفطرة ثابتة والدين ثابت : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ .

فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة .

فطرة البشر وفطرة الوجود .

«ذِلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» . . فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم .

والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيم ، ولو أنه موجه إلى الرسول – صلّى اللّه عليه وسلّم – إلا أن المقصود به جميع المؤمنين . لذلك يستمر التوجيه لهم مفصلا معنى إقامة الوجه للدين :

«مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 5 صـ 2756 . 2767 ﴾

(318/603)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : الألف ألفة طبع المؤمنين ، واللام لوم طبيعة الكافرين ، والميم مغفرة رب العالمين ، فمن اللفة أحبوا أهل الكتاب ، ومن اللوم أبغضهم الكافرون ، ومغفرة رب العالمين شملت

الفريقين حتى قال ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [الزمر : 53] إلا أن يكون هناك مخصص . ثم أشار إلى أن حال أهل الطلب يتغير بتغير الأوقات فيغلب فارس النفس روم القلب تارة وسيغلب روم القلب فارس النفس بتأييد الله ونصره ﴿ في بضع سنين ﴾ من أيام الطلب ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾ وهم الروح والسر والعقل . ﴿ أولم يتفكروا ﴾ ﴿ في ﴾ استعداد ﴿ أنفسهم ما خلق الله السموات ﴾ الروحانية ﴿ والأرض ﴾ النفسانية إلا ليكون مظهراً للحق ولأجل مسمى بالصبر والثبات في تصفية مرآة القلوب عن صدا الأوصاف الذميمة النفسانية .

(319/603)

والأجل المسمى هو أوان صفاء القلب متوجهاً إلى الحق ﴿ أولم يسيروا ﴾ في أرض البشرية بالسلوك لتبديل الأخلاق ﴿ والذين من قبلهم ﴾ هم الفلاسفة والبراهمة المعتمدون على مجرد البراهين من غير اعتبار الشرائع . والسوأى هي أن صاروا أئمة الكفر والضلال ﴿ الله يبدؤا الخلق ﴾ بتصيير النفس متعلقة بالقالب ﴿ ثم يعيده ﴾ بطريق السير والسلوك والعبور عن المنازل والمقامات إلى عالم الأرواح ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ بجذبة ﴿ ارجعي ﴾ [الفجر : 28] ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ الإرادة ﴿ يبلس

المجرمون ﴾ بتضييع الأوقات في طلب ما سوى الله . ويوم تقوم الساعة قيامة العشق يومئذ تتفرق المحبون ، فبعضهم يطلب الجنة ، وبعضهم يطلب الوصلة ، وبعضهم يريد الوحدة ﴿ فسبحان الله ﴾ حين تغلبون على ليل نيل الشهوات وحين صباح نهار تجلي شموس الوصال ، وله الحمد إن كنتم في سموات القربات أو أرض البعد والغفلات ، وسبحانه في عشاء غشاء القساوة وفي حالة استواء شمس المعرفة في وسط سماء القلب ، فإن الربح الخسران في كلتا الحالتين راجع إلى الطائفتين والله منزه عن العالمين . يخرج القلب الحي بنور الله من النفس الميتة في ظلمات صفاتها إبرازاً للطفه ، ويخرج القلب الميت عن الأخلاق الحميدة من النفس الحية بالصفات الحيوانية ، إظهاراً لقهره ، ويحيي أرض القلوب بعد موتها وكذلك تخرجون بدأ وإعادة . فمن آياته خلق سموات القلوب وأرض النفوس ، واختلاف ألسنة القلوب وألسنة النفوس ، فلسان القلب يتكلم بلغة العلويات ، ولسان النفس يتكلم بلغات السفليات ﴿ واختلاف ألوانكم ﴾ وهي الطبائع المختلفة . منكم منيريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ومنكم من يريد الله ﴿ ومن آياته منامكم ﴾ في ليل البشرية ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ في نهار الروحانية والمكاشفات الربانية ﴿ لقوم يسمعون ﴾ كلام الله من شجرة الوجود ، ويريكم بروق شواهد الحق ثم اللوامع ثم الطوالع . فتلك الأنوار ترى شهوات الدنيا نيراناً فيخاف منها ،

وترى مكاره التكاليف جناناً فيطمع فيها . أن تقوم سماء النفس وارض القلب بأمره لأن الروح من أمره ﴿ ثم إذا دعاكم ﴾ بجذبة ﴿ ارجعي ﴾ [الفجر : 28] ﴿ إذ أنتم ﴾ يعني النفس والقلب والروح ﴿ تخرجون ﴾ من أنانيته وجودكم ﴿ وهو أهون عليه ﴾ لأنه في البداية كان مباشراً بنفسه وفي الإعادة يكون المباشر إسرافيل بنفخه ، والمباشرة بنفس الغير في العمل أهون من المباشرة بنفسه عند نظر الخلق . ويحتمل أن يكون أهون من الهون بالضم وهو الذلة والضمير للخلق ، وذلك أنهم في البداية لم يكونوا ملوثين بلوث الحدوث ، ولا مدنسين بأدناس الشرك والمعاصي ، فلعزتهم في البداية باشر خلقهم بنفسه ، ولهونهم في الإعادة باشرهم بغيره ، ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ فيما أودع من الآيات في سموات الأرواح وأرض القلوب . ﴿ ضرب لكم ﴾ أي للروح والقلب والسر والعقل ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ من الأعضاء والجوارح والحواس والقوى ﴿ فيما رزقناكم ﴾ من العلوم والكشوف ﴿ تخافونهم ﴾ أن لا يضيعوا شيئاً من المواهب بالتصرفات الفاسدة ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ اي كخيفة الروح من القلب أن لا يضيع شيئاً منها بأن يصرفها في غير موضعها رياء وسمعة وهوى ، أو كخيفة القلب من السر والعقل بأن يصرفها فيما يفسد العقائد ويوقع في الشكوك . فكما لا يصلح هؤلاء لشركتكم فكذلك لا تصلحون أنتم

لشركتي إذا تجليت عليكم ، فدعوى الاتحاد والحلول باطلة والكبرياء ردائي لا غير . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 412.413 ﴾

(321/603)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/604)

الجزء الرابع بعد الستمائة

من الآية ﴿ 36 ﴾ من سورة الروم

وحتى الآية ﴿ 53 ﴾ من نفس السورة

(4/604)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بان بهذين المتعادلين أنه لم يضطرهم إلى الإشراك عرفٌ في أنفسهم مستمر دائم ، ولا دليل عقلي ظاهر ، ولا أمر من الله قاهر ، فبان أنهم لم يتبعوا عقلاً ولا نقلاً ، بل هم أسرى الهوى المبني على محض الجهل ، وكان قد صرح بذلك عقب العديل الأول ، لمح هنا ، وترك التصريح به لإغناء الأول عنه ، واستدل عليه بدليل خالفوا فيه العادة المستمرة ، والدلالة الشهودية المستقرة ، فقال عاطفاً على ﴿ وإذا مس ﴾ دالاً على خفة أحلامهم من وجه آخر غير الأول : ﴿ وإذا ﴾ معبراً بأداة التحقيق إشارة إلى أن الرحمة أكثر من النقمة ، وأسند الفعل إليه في مقام العظمة إشارة إلى سعة جوده فقال : ﴿ أذقنا ﴾ وجرى الكلام على النمط الماضي في العموم لمناسبة مقصود السورة في أن الأمر كله له في كل شيء فقال : ﴿ الناس رحمة ﴾ أي نعمة من غنى ونحوه لا سبب لها إلا رحمتنا ﴿ فرحوا بها ﴾ أي فرح مطمئن بطر آمن من زوالها ، ناسين شكر من أنعم بها ، وقال : ﴿ وإن ﴾ بأداة الشك دلالة على أن المصائب أقل وجوداً ، وقال : ﴿ تصبهم ﴾ غير مسند لها إليه تأديباً لعباده وإعلاماً بغزير كرمه ﴿ سيئة ﴾ أي شدة تسوءهم من قحط ونحوه .

(5/604)

ولما كانت المصائب مسببة عن الذنوب ، قال منبهاً لهم على ذلك منكراً قنوطهم وهم لا يرجعون عن المعاصي التي عوقبوا بسببها : ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أي من المخالفات ، مسنداً له إلى اليد لأن أكثر العمل بها ﴿ إذا هم ﴾ أي بعد ما ساءهم وجودها مساءة نسوا بها ما خولوا فيه من النعم وجملوا له من ملابس الكرم ﴿ يقنطون ﴾ أي فاجاؤوا البأس ، مجددين له في كل حين من أحيان نزولها وإن كانوا يدعون ربهم في كشفها ويستعينونه لصرفها مع مشاهدتهم لضد ذلك في كلا الشقين في أنفسهم وغيرهم متكرراً ، ولذلك أنكر عليه عدم الرؤية دالاً بواو العطف أن التقدير : ألم يروا في أنفسهم تبدل الأحوال ، قائلاً : ﴿ أولم يروا ﴾ أي بالمشاهدة والإخبار رؤية متكررة ، فيعلموا علماً هو في ثباته كالمشاهد المحسوس ، وعبر بالرؤية الصالحة للبصر والبصيرة لأن مقصود السورة إثبات الأمر كله لله ، ولا يكفي فيه إلا بذل الجهد وإمعان النظر ، والسياق لذم القنوط الذي يكفي في بقية المشاهدة لاختلاف الأحوال ، بخلاف الزمر التي مقصودها الدلالة على صدق الوعد الكافي فيه مطلق العلم .

ولما كان في البسط والقبض جمع بين جلال وجمال ، لفت الكلام بذكر الاسم الجامع فقال : ﴿ أن الله ﴾ بجلاله وعظمته ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي يكثره ﴿ لمن يشاء ﴾ أي من عباده منهم ومن غيرهم ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق ، وإن هذا شأنه دائماً مع الشخص الواحد في أوقات متعاقبة متباعدة ومتقاربة ، ومع الأشخاص ولو في الوقت الواحد ، فلو اعتبروا

حال قبضه سبحانه لم يبطروا ، ولو اعتبروا حال بسطه لم يقنطوا ، بل كان حالهم الصبر في البلاء ، والشكر في الرخاء ، والإقلاع عن السيئة التي نزل بسببها القضاء ، فقد عرف من حالهم أنهم متقيدون دائماً بالحالة الراهنة .

يغلطون في الأمور المتكررة المشاهدة ، فلا عجب في تقيدهم في إنكار البعث بهذه الحياة الدنيا .

(6/604)

ولما لم يغن أحد منهم في استجلاب الرزق قوته وغزارة عقله ودقة مكره وكثرة حيله ، ولا ضره ضعفه وقلة عقله وعجز حيلته ، وكان ذلك أمراً عظيماً ومنزعاً مع شدة ظهوره وجلالته خفياً دقيقاً كما قال بعضهم :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه . . .

وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

أشار سبحانه إلى عظمته بقوله ، مؤكداً لأن عملهم في شدة اهتمامهم بالسعي في الدنيا عمل من يظن تحصيلها إنما هو على قدر الاجتهاد في الأسباب : ﴿إن في ذلك﴾ أي الأمر العظيم من الإقتار في وقت والإغناء في آخر والتوسيع على شخص والتقتير على آخر ،

والأمن من زوال الحاضر من النعم مع تكرر المشاهدة للزوال في النفس والغير ، واليأس من حصولها عند المحنة مع كثرة وجدان الفرج وغير ذلك من أسرار الآية ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات واضحات على الوحدانية لله تعالى وتمام العلم وكمال القدرة ، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا هو لكن ﴿ لقوم ﴾ أي ذوي همم وكفاية للقيام بما يحق لهم أن يقوموا فيه ﴿ يؤمنون ﴾ أي يوجدون هذا الوصف ويديمون تجديده كل وقت لما يتواصل عندهم من قيام الأدلة ، بإدامة التأمل والإمعان في التفكر ، والاعتماد في الرزق على من قال ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : 17] أي من طالب علم فيعان عليه فلا يفرحون بالنعم إذا حصلت خوفاً من زوالها إذا أراد القادر ، ولا يغتمون بها إذا زالت رجاء في إقبالها فضلاً من الرازق ، لأن " أفضل العبادة انتظار الفرج " بل هم بما عليهم من وظائف العبادة واجبها ومندوبها معرضون عما سوى ذلك ، وقد وكلوا أمر الرزق إلى من تولى أمره وفرغ من قسمه وقام بضمانه ، وهو القدير العليم .

(7/604)

ولما أفهم ذلك عدم الاكتراث بالدنيا لأن الاكتراث بها لا يزيدها ، والتهاون بها لا ينقصها ، فصار ذلك لا يفيد إلا تعجيل النكد بالكد والنصب ، وكان مما تقدم أن السيئة من أسباب

الحق ، سبب عنه الإقبال على إنفاقها في حقوقها إعراضاً عنها وإيذاناً بإهانتها وإيقاناً بأن ذلك هو استيفاؤها واستثمارها واستنماؤها ، فقال خاصاً بالخطاب أعظم المتأهلين لتنفيذ أوامره لأن ذلك أوقع في نفوس الأتباع ، وأجدر بحسن القبول منهم والسماع :

﴿ فآت ﴾ يا خير الخلق ! ﴿ ذا القربى حقه ﴾ بادئاً به لأنه أحق الناس بالبر ، صلة للرحم وجوداً وكرماً ﴿ والمسكين ﴾ سواء كان ذا القربى أو لا ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر كذلك ، والحق الذي ذكر لهما الظاهر أنه يراد به النفل لا الواجب ، لعدم ذكر بقية الأصناف ، ودخل الفقير من باب الأولى .

(8/604)

ولما أمر بالإيتاء ، رغب فيه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الإيتاء العالي الرتبة ﴿ خير ﴾ ولما كان سبحانه أغنى الأغنياء فهو لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه لا رياء فيه ، قال معرفاً أن ذلك ليس قاصراً على من خص بالخطاب بل كل من تأسى به نالته بركته ﴿ للذين يريدون ﴾ بصيغة الجمع ، ولما كان الخروج عن المال في غاية الصعوبة ، رغب فيه بذكر الوجه الذي هو أشرف ما في الشيء المعبر به هنا عن الذات وبتكرير الاسم الأعظم المألوف لجميع الخلق فقال : ﴿ وجه الله ﴾ أي عظمة الملك الأعلى ، فيعرفون من حقه ما يتلاشى عندهم

على كل ما سواه فيخلصون له ﴿ وأولئك ﴾ العالو الرتبة لغناهم عن كل فان ﴿ هم ﴾ خاصة ﴿ المفلحون ﴾ أي الذين لا يشوف فلاحهم شيء من الخيبة ، وأما غيرهم فخائب ، أما إذا لم ينفق فواضح ، وأما من أنفق على وجه الرياء بالسمعة والرياء فإنه خسر ماله ، وأبقى عليه وباله ، وأما من أنفق على وجه الرياء الحقيقي فقد صرح به تعريفاً بعظيم فحشه صارفاً الخطاب عن المقام الشريف الذي كان مقبلاً عليه ، تعريفاً بتنزه جنابه عنه ، وبعد تلك الهمة العلية والسجايا الطاهرة النقية منه ، إلى جهة من يمكن ذلك منهم فقال : ﴿ وما آتيتم ﴾ أي جئتم أي فعلتم - في قراءة ابن كثير بالقصر ليعم المعطي والآخذ والمتسبب ، أو أعطيتم - في قراءة غيره بالمد ﴿ من ربا ﴾ أي مال على وجه الربا المحرم أو المكروه ، وهو أن يعطي عطية ليأخذ في ثوابها أكثر منها ، وكان هذا مما حرم على النبي - صلى الله عليه وسلم - تشريفاً له ، وكره لعامة الناس .

(9/604)

وعلى قراءة ابن كثير بالقصر المعنى : وما جئتم به من إعطاء بقصد الربا ﴿ ليربوا ﴾ أي يزيد ويكثر ذلك الذي أعطيتموه أو فعلتوه ، أو لتزيدوا أنتم ذلك - على قراءة المدنيين ويعقوب بالفوقانية المضمومة ، من : أربى ﴿ في أموال الناس ﴾ أي تحصل فيه زيادة تكون

أموال الناس ظرفاً لها ، فهو كناية عن أن الزيادة التي يأخذها المربي من أموالهم لا يملكها أصلاً ﴿ فلا يربوا ﴾ أي يزكوا وينمو ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الغنى المطلق وكل صفات الكمال ، وكل ما لا يربو عند الله فهو غير مبارك بل ممحوق لا وجود له ، فإنه إلى فناء وإن كثر ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ [البقرة : 276] .

ولما ذكر ما زيادته نقص ، أتبعه ما نقصه زيادة فقال : ﴿ وما آتيتم ﴾ أي أعطيتم للإجماع على مدة لئلا يوهم الترغيب في أخذ الزكاة ﴿ من زكاة ﴾ أي صدقة ، وعبر عنها بذلك ليفيد الطهارة والزيادة ، أي تطهرون بها أموالكم من الشبه ، وأبدانكم من مواد الخبث ، وأخلاقكم من الغل والدنس .

ولما كان الإخلاص عزيزاً ، أشار إلى عظمته بتكريره فقال : ﴿ تريدون ﴾ أي بها ﴿ وجه الله ﴾ خالصاً مستحضرين لجلاله وعظمته وكماله ، وعبر عن الذات بالوجه لأنه الذي يجل صاحبه ويستحي منه عند رؤيته وهو أشرف ما في الذات .

(10/604)

ولما كان الأصل : فأنتم ، عدل به إلى صيغة تدل على تعظيمه بالالتفات إلى خطاب من بحضرته من أهل قربه وملائكته ، لأن العامل يجب أن يكون له بعمله لسان صدق في الخلائق

فكيف إذا كان من الخالق ، وبالإشارة إليه بأداة البعد إعلاماً بعلو رتبته ، وأن المخاطب بالإيتاء كثير ، والعامل قليل وجليل ، فقال : ﴿ فأولئك ﴾ ولعل إفراد المخاطب هنا للترغيب في الإيتاء بأنه لا يفهم ما لأهله حق فهمه سوى المنزل عليه هذا الوحي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ المضعفون ﴾ أي الذين ضاعفوا أموالهم في الدنيا بسبب ذلك الحفظ والبركة ، وفي الآخرة بكثرة الثواب عند الله من عشرة أمثال إلى ما لا حصر له كما يقال : مقو وموسر ومسمن ومعطش – لمن له قوة ويسار وسمن في إبله وعطش ونحو ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 626 . 630 ﴾

(11/604)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ آتيتم من رباً ﴾ مقصوراً : ابن كثير ﴿ لتربوا ﴾ بضم التاء وسكون الواو على الجمع : أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب ﴿ لنذيقهم ﴾ بالنون : ابن مجاهد وأبو عون عن قنبل ﴿ يرسل الريح ﴾ على التوحيد : ابن كثير وحمزة وعلي وخلف ﴿ كسفاً ﴾ بالسكون : يزيد وابن ذكوان ﴿ آثار ﴾ على الجمع : ابن عامر وحمزة وعلي وخلف

وعاصم غير أبي بكر وحماد ﴿ ضعف ﴾ وما بعده بفتح الضاد : حمزة وعاصم غير للفضل . الباقون : بالضم وهو اختيار خلف وحفص ﴿ لا ينفع ﴾ بياء الغيبة : حمزة وعلي وخلف وعاصم . والآخرون : بتاء التأنيث ﴿ لا يستخفنك ﴾ بالنون الخفيفة : رويس عن يعقوب .

(12/604)

الوقوف : ﴿ يشركون ﴾ 5 لا وقد يوقف على توهم لام الأمر ﴿ آتيناهم ﴾ ط للعدول إلى الخطاب وابتداء أمر التهديد ﴿ فتمتعوا ﴾ قف لاستئناف التهديد ﴿ تعلمون ﴾ 5 ﴿ يشركون ﴾ 5 ﴿ بها ﴾ ج ط فصلاً بين النقيضين ﴿ يقنطون ﴾ 5 ﴿ ويقدر ﴾ ج ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ وابن السبيل ﴾ ط ﴿ وجه الله ﴾ ز ط ﴿ المفلحون ﴾ 5 ﴿ عند الله ﴾ ج ط لعطف جملتي الشرط ﴿ المضعفون ﴾ 5 ﴿ يحييكم ﴾ ط ﴿ شيء ﴾ ط ﴿ يشركون ﴾ 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ من قبل ﴾ ط ﴿ مشركين ﴾ 5 ﴿ يصدّعون ﴾ 5 ﴿ كفره ﴾ ج لما مر ﴿ يمهدون ﴾ 5 لا وقد يوقف على جعل اللام للقسم وحذف نون التأكيد ﴿ من فضله ﴾ 5 ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ تشكرون ﴾ 5 ﴿ أجرموا ﴾ ط وقيل : يوقف على ﴿ حقاً ﴾ أي وكان الانتقام حقاً . ثم ابتدأ

علينا أي واجب علينا ﴿ نصر المؤمنين ﴾ 5 ﴿ خلاله ﴾ ط ج للشرط مع الفاء ﴿ يستبشرون ﴾ 5 ﴿ لمبلسين ﴾ 5 ﴿ موتها ﴾ ط ﴿ الموتى ﴾ ج لاتفاق الجملتين مع العدول عن بيان الإحياء إلى بيان القدرة ﴿ قدير ﴾ 5 ﴿ يكفرون ﴾ 5 ﴿ مدبرين ﴾ 5 ﴿ ضلالتهم ﴾ ط ﴿ مسلمون ﴾ 5 ﴿ وشيبة ﴾ ط ﴿ ما يشاء ﴾ ج ط لاختلاف الجملتين مع اتحاد المقول ﴿ القدير ﴾ 5 ﴿ المجرمون ﴾ 5 لا لأن ما بعده جواب القسم ﴿ غير ساعة ﴾ ط ﴿ يؤفكون ﴾ 5 ﴿ يوم البعث ﴾ ز لاختلاف الجملتين مع اتحاد المقول ﴿ لا تعلمون ﴾ 5 ﴿ يستعتبون ﴾ 5 ﴿ مثل ﴾ ط ﴿ مبطلون ﴾ 5 ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ لا يوقنون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 414.415 ﴾

(13/604)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ﴾

لما بين حال المشرك الطاهر شركه بين حال المشرك الذي دونه وهو من تكون عبادته الله

للدنيا ، فإذا آتاه رضي وإذا منعه سخط وقنط ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك ، بل ينبغي أن يعبد الله في الشدة والرخاء ، فمن الناس من يعبد الله في الشدة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ ﴾ [الروم : 33] ومن الناس من يعبده إذا آتاه نعمة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ والأول كالذي يخدم مكرها مخافة العذاب والثاني كالذي يخدم أجيراً لتوقع الأجر وكلاهما لا يكون من الثبتين في ديوان المرتبين في الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن ، فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم ، وفيه مسألة : وهي أن قوله تعالى : ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ إشارة إلى دنو همتهم وقصور نظرهم فإن فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم ، فإن قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به في قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فليفرحوا ﴾ [يونس : 58] وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة ، فكيف ذلك ؟ فنقول هناك قال : فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله ، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفاً على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الأمير به ، ولو أعطى الملك فقيراً غير ملتفت إليه رغيفاً أو زبدية طعام أيضاً يفرح لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفاً وزبدية .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ لم يذكر عند النعمة سبباً لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سبباً لأن الأول يزيد في الإحسان والثاني يحقق العدل .

قوله ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ إذا للمفاجأة أي لا يصبرون على ذلك قليلاً لعل الله يفرج عنهم وإنه يذكرهم به .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أي لم يعلموا أن الكل من الله فالمحقق ينبغي أن لا يكون نظره على ما يوجد بل إلى من يوجد وهو الله ، فلا يكون له تبدل حال ، وإنما يكون عنده الفرح الدائم ، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ، ولذلك قال : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

(15/604)

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغي أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ ﴾ [الروم : 33] ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شيء من الدنيا كما هو عادة المدوكر المتسلس (1)

يعبد الله إذا كان في الخوانق والرباطات للرغيف والزبدية وإذا خلا بنفسه لا يذكر الله ، بقوله : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ وبين أنه ينبغي أن يكون ، في حالة بسط الرزق وقدره عليه ، نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الإرشاد إلى تعظيم الله والإيمان قسمان تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله يبسط الرزق ويقدر ، فلا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان فإن الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالإنفاق ، وإذا قدر لا يزداد بالإمساك ، وفيه مسائل :

---

(1) المدوكر المتسلس : لعله اسم لطائفة من بني ساسان وهم المكدون والمتسولون ، يعبدون اللّه رياء وسمعة والخوانق أو الخوانيق جمع خانقاه كلمة أعجمية وهي مكان للعبادات وأما الرباطات فهي جمع رباط وهو المكان يجتمع فيه المجاهدون في سبيل اللّه على الثغور الإسلامية للحماية على الثغور .

المسألة الأولى :

في تخصيص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية في الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الإحسان إليه على كل من له مال سواء كان زكوياً أو لم يكن ، وسواء كان بعد الحول أو قبله لأن المقصود ههنا الشفقة العامة ، وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد ، أما القريب فتجب نفقته وإن كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فإن من لا شيء له إذا بقي في ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته ، وإن لم يكن عليه زكاة ، وكذلك من انقطع في مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن يلزمه ذلك ، وإن لم تكن عليه زكاة والفقير داخل في المسكين لأن من أوصى للمساكين شيئاً يصرف إلى الفقراء أيضاً ، وإذا نظرت إلى الباقين من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك في العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ، ثم اعلم أن على مذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث قال : المسكين من له شيء ما فنقول ، وإن كان الأمر كذلك لكن لا نزاع في أن إطلاق المسكين على من لا شيء له جائز فيكون الإطلاق هنا بذلك الوجه ، والفقير يدخل في ذلك بالطريق الأولى .

المسألة الثانية :

في تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجباً سواء كان في شدة ومخمصة ، أو لم يكن كان مقدماً على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة إلا إذا كان في شدة ، ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدماً على من حاجته مختصة بموضع دون موضع .

المسألة الثالثة :

(17/604)

ذكر الأقارب في جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذو القربى ، ولم يذكر المسكين بلفظ ذي المسكنة ، وذلك لأن القرابة لا تتجدد فهي شيء ثابت ، وذو كذا لا يقال إلا في الثابت ، فإن من صدر منه رأي صائب مرة أو حصل له جاه يوماً واحداً أو وجد منه فضل في وقت يقال ذو رأي وذو جاه وذو فضل ، وإذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيراً يقال له ذو الرأي وذو الفضل ، فقال ﴿ ذَا القربى ﴾ إشارة إلى أن هذا حق متأكد ثابت ، وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال : ﴿ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 16] فإن المسكين يدوم له كونه ذا متربة ما دامت مسكنته أو يكون كذلك في أكثر الأمر .

المسألة الرابعة :

قال : ﴿ فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم ، لأن العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولاً للتشريك والأولى لكون التشريك وارداً على الكلام ، كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى إذا قال الملك خل فلان يدخل ، وفلاناً أيضاً يكون في التعظيم فوق ما إذا قال خل فلاناً وفلاناً يدخلان ، وإلى هذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : " بئس خطيب القوم أنت " حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ، ومن عصاهما فقد غوى ولم يقل ومن عصى الله ورسوله .

المسألة الخامسة :

قوله : ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير في نفسه ، وإن لم يقس إلى غيره لقوله تعالى : ﴿ وافعلوا الخير ﴾ [الحج : 77] ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : 148] والثاني أولى لعدم احتياجه إلى إضمار ولكونه أكثر فائدة لأن الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة ، عند نزول درجة ما يقاس إليه ، كما يقال السكوت خير من الكذب ، وما هو خير في نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع .

المسألة السادسة :

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ إشارة إلى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل ، فإن من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله ، وقوله : ﴿ وَجْهُ اللهِ ﴾ أي يكون عطاؤه لله لا غير ، فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله ، وإنما أراد مخلوق الله .

المسألة السابعة :

كيف قال : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ مع أن للإفلاح شرائط أخر ، وهي المذكورة في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الإفلاح ، فقوله ﴿ والذين هُمْ للزكواة فاعلون ﴾ [المؤمنون : 4] وقوله : ﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ [المؤمنون : 8] إلى غير ذلك عطف على المفلح أي هذا مفلح ، وذاك مفلح ، وذاك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الإفلاح لمن يتصدق ولا يصلي ، فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أي نظراً إلى علمه ثم إذا حد في الزنا على سبيل النكال وقطعت يده في السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل ، إنما كان ذلك لأنه أتى بالفسق ، فكذلك إيتاء المال لوجه الله يفيد الإفلاح ، اللهم إلا إذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب .

المسألة الثامنة :

لم لم يذكر غيره من الأفعال كالصلاة وغيرها ؟ فنقول الصلاة مذكورة من قبل لأن الخطاب

ههنا بقوله : ﴿ فَأْتِ ﴾ مع النبي صلى الله عليه وسلم وغيره تبع ، وقد قال له من قبل ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ [الروم : 30] وقال : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتقوه وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ [الروم : 31] .

المسألة التاسعة :

(19/604)

قوله تعالى : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ يفهم منه الحصر وقد قال في أول سورة البقرة : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [البقرة : 5] إشارة إلى من أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة ، فلو كان المفلح منحصراً في أولئك المذكورين في سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحاً ؟ فنقول هذا هو ذاك لأنا بينا أن قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ ﴾ متصل بهذا الكلام فإذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله ، فقد ثبت أنه مؤمن مقيم للصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار مثل المذكور في البقرة .

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

ذكر هذا تحريضاً يعني أنكم إذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربوا

عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام : " إن الصدقة تقع في يد الرحمن فتربوا حتى تصير مثل الجبل " فينبغي أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر .

وقوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ أي أولئك ذوو الأضعاف كالموسر لذي اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى في كونه حسنة لا في المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفاً يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشرة مرات على وجه التفضل ، فبالرغيف الواحد يكون له قصر في الجنة فيه من كل شيء ثواباً نظراً إلى الرحمة ، وعشر قصور مثله نظراً إلى الفضل .

مثاله في الشاهد ، ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرماً ، بل إذا جرت عادته بأنه يعطي على مثل ذلك ألفاً ، فإذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 108 .

﴿ 111

(20/604)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ هُوَ الرَّجُلُ يَهَبُ الشَّيْءَ يُرِيدُ أَنْ يُثَابَ أَفْضَلَ مِنْهُ فَذَلِكَ الَّذِي لَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَلَا يُؤْجَرُ صَاحِبُهُ فِيهِ وَلَا إثْمَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : هُوَ الرَّجُلُ يُعْطِي لِيُثَابَ عَلَيْهِ وَرَوَى عَبْدُ الْوَهَّابِ عَنْ خَالِدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ قَالَ : الرِّبَا ربوان فَرِبَا حَلَالٌ وَرِبًا حَرَامٌ فَأَمَّا الرِّبَا الْحَلَالُ فَهُوَ الَّذِي يُهْدَى يُلْتَمَسُ بِهِ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ وَرَوَى زَكَرِيَّا عَنْ الشَّعْبِيِّ ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ قَالَ كَانَ الرَّجُلُ يُسَافِرُ مَعَ الرَّجُلِ فَيَخِفُّ لَهُ وَيَخْدُمُهُ فَيَجْعَلُ لَهُ مِنْ رِبْحِ مَالِهِ لِيَجْزِيَهُ بِذَلِكَ .

وَرَوَى عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ عَنْ الضَّحَّاكِ ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ قَالَ هُوَ الرِّبَا الْحَلَالُ الرَّجُلُ يُهْدِي لِيُثَابَ أَفْضَلَ مِنْهُ فَذَلِكَ لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ لَيْسَ فِيهِ أَجْرٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ إثْمٌ وَرَوَى مَنْصُورٌ عَنْ إبْرَاهِيمَ ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ قَالَ لَا تُعْطِ لِتَزْدَادَ .

(21/604)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خَاصًّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ كَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ الصَّدَقَةَ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ لَا تَسْتَكْثِرْ عَمَلَك فَتَمُنَّ بِهِ عَلَى رَبِّك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(22/604)

وقال ابن العربى :

قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : بَيَّنَّا الرِّبَا وَمَعْنَاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَشَرَحْنَا حَقِيقَتَهُ وَحُكْمَهُ ، وَهُوَ هُنَاكَ مُحَرَّمٌ وَهُنَا مُحَلَّلٌ ، وَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّهُ قِسْمَانِ ؛ مِنْهُ حَلَالٌ وَمِنْهُ حَرَامٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي الْمُرَادِ بِهَذِهِ الْآيَةِ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ الرَّجُلُ يَهَبُ هِبَةً يَطْلُبُ أَفْضَلَ مِنْهَا ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُ الرَّجُلُ فِي السَّفَرِ يَصْحَبُهُ رَجُلٌ يَخْدُمُهُ وَيُعِينُهُ ، فَيَجْعَلُ الْمَخْدُومُ لَهُ بَعْضَ الرِّبْحِ

جَزَاءَ خِدْمَتِهِ ، لَا لِوَجْهِ اللَّهِ ؛ قَالَ الشَّعْبِيُّ .

الثَّالِثُ : الرَّجُلُ يَصِلُ قَرَابَتَهُ ، يَطْلُبُ بِذَلِكَ كَوْنَهُ غَنِيًّا ، لَا صِلَةً لِوَجْهِ اللَّهِ ؛ قَالَهُ إبْرَاهِيمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : أَمَّا مَنْ يَصِلُ قَرَابَتَهُ لِيَكُونَ غَنِيًّا فَالنِّيَّةُ فِي ذَلِكَ مُتَنَوِّعَةٌ ، فَإِنْ كَانَ لِيَتَظَاهَرَ بِهِ دُنْيَا فَلَيْسَ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا لَهُ مِنْ حَقِّ الْقَرَابَةِ وَبَيْنَهُمَا مِنْ وَشِيجَةِ الرَّحِمِ ، فَإِنَّهُ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى .

(23/604)

وَأَمَّا مَنْ يُعِينُ الرَّجُلَ بِخِدْمَتِهِ فِي سَفَرِهِ بِجُزْءٍ مِنْ مَالِهِ فَإِنَّهُ لِلدُّنْيَا لَا لِوَجْهِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمُرْبِي لَيْسَ لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِيَرْبُوَ فِي مَالِ نَفْسِهِ ، وَصَرِيحُ الْآيَةِ فِيمَنْ يَهَبُ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ فِي الْمُكَافَأَةِ ، وَذَلِكَ لَهُ .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : " أَيُّمَا رَجُلٍ وَهَبَ هِبَةً يَرَى أَنَّهَا لِلثَّوَابِ فَهُوَ عَلَى هِبَتِهِ حَتَّى يَرْضَى مِنْهَا " .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : الْهِبَةُ إنَّمَا تَكُونُ لِلَّهِ أَوْ لِجَلْبِ الْمَوَدَّةِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : ﴿ تَهَادَوْا تَحَابُّوا ﴾ .

وَهَذَا بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ الْعُرْفَ جَارٍ بِأَنْ يَهَبَ الرَّجُلُ الْهِبَةَ لَا يَطْلُبُ إلَّا الْمُكَافَأَةَ عَلَيْهَا ، وَتَحْصُلُ

فِي ذَلِكَ الْمَوَدَّةُ تَبَعًا لِلْهِبَةِ .

وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَثَابَ عَلَى لَقْحَةٍ ﴾ ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَى صَاحِبِهَا حِينَ طَلَبَ الثَّوَابَ ، إنَّمَا أَنْكَرَ سَخَطَهُ لِلثَّوَابِ ، وَكَانَ زَائِدًا عَلَى الْقِيمَةِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِيمَا إذَا طَلَبَ الْوَاهِبُ فِي هِبَتِهِ زَائِدًا عَلَى مُكَافَأَتِهِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فَإِنْ كَانَتْ الْهِبَةُ قَائِمَةً لَمْ تَتَغَيَّرْ ، فَيَأْخُذُ مَا شَاءَ ، أَوْ يَرُدُّهَا عَلَيْهِ .

وَقِيلَ : تَلْزَمُهُ الْقِيمَةُ ، كَنِكَاحِ التَّفْوِيضِ .

وَأَمَّا إذَا كَانَ بَعْدَ فَوَاتِ الْهِبَةِ فَلَيْسَ لَهُ إلَّا الْقِيمَةُ اتِّفَاقًا .

(24/604)

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ﴾ أَيْ لَا تُعْطِ مُسْتَكْثِرًا عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَاتِ ، وَيَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(25/604)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾

فيها وجهان :

أحدهما : أنها العافية والسعة ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : النعمة والمطر ، حكاه النقاش .

ويحتمل أنها الأمن والدعة .

﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ أي بالرحمة

. ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ فيها وجهان

: أحدهما : بلاء وعقوبة ، قاله مجاهد .

الثاني : قحط المطر ، قاله السدي .

ويحتمل ثالثاً : أنها الخوف والحذر .

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بذنوبهم

. ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن القنوط اليأس من الرحمة والفرج ، قاله الجمهور .

الثاني : أن القنوط ترك فرائض الله في اليسر ، قاله الحسن .

قوله : ﴿ فَـَٔاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾

فيهم وجهان

: أحدهما : أنهم قرابة الرجل ، أن يصل رحمهم بماله ونفسه ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : أنهم ذوو قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو المطلب يعطون حقهم من الغنيمة والفيء ، قاله السدي .

﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ هو الذي لا يجد كفايته

. ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : المسافر ، قاله مجاهد فإن كان محتاجاً فحقه في الزكاة وإن كان غير محتاج فبرّاً وصلة .

الثاني : أنه الضيف الذي ينزل بك ، قاله ابن عباس وابن جبير وقتادة ، فإن أطعمه كان برّاً وصلة ولم يجز أن يكون من الزكاة محتاجاً كان أو غير محتاج . وإن دفعت إليه مالاً جاز إذا كان فقيراً أن يكون من الزكاة ، ولم يجز إن كان غنيّاً .

قوله : ﴿ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الرجل يهدي هدية ليكافأ عليها أفضل منها ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : أنه في رجل صحبه في الطريق فخدمه فجعل له المخدوم بعض الربح من ماله جزاء لخدمته لا لوجه الله ، قاله الشعبي .

الثالث : أنه في رجل يهب لذي قرابة له مالاً ليصير به غنيّاً ذا مال ولا يفعله طلباً لثواب الله ، قاله إبراهيم .

ومعنى قوله : ﴿ فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي فلا يكون له ثواب عند الله .

قال ابن عباس : هما رِبَوان أحدهما حلال والآخر حرام ، فما تعاطيتم بينكم حلال ولا يصل إلى الله .

﴿ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أي ثواب الله ، وفيها قولان :

أحدهما : أنها الزكاة المفروضة وهو الظاهر .

الثاني : أنها الصدقة ، قاله ابن عباس والسدي .

﴿ فَأُوْلَئِكَ الْمُضْعِفُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تضاعف لهم الحسنات لأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، قاله السدي .

الثاني : تضاعف أموالهم في الدنيا بالزيادة فيها ، وقال الكلبي : لم يقل مال رجل من زكاة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(27/604)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾

لما ذكر تعالى حالة الناس متى تأتيهم شدة وضر ونجوا منه إلى سعة ذكر في هذه الآية الأمر أيضاً من الطرف الآخر بأن تنال الرحمة ثم تعقب الشدة فلهم في الرتبة الأولى تضرع ثم إشراك وقلة شكر ، ولهم في هذه فرج وبطر ثم قنط ويأس ، وكل أحد يأخذ من هذه الخلق بقسط ، والمقل والمكثر إلا من ربطت الشريعة جأشه ونهجت السنة سبيله وتأدب بأدب الله تعالى ، فصبر عند الضراء ، وشكر عند السراء ، ولم يبطر عند النعمة ، ولا قنط عند الابتلاء ، وقوله تعالى : ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أي إن الله يمتحن الأمم ويصيب منهم عند فشو المعاصي وظهور المناكر ، وكذلك قد يصاب شخص بسوء أعماله يسيء وحده ويصاب وحده ، وفي الأغلب يعفو الله عن كثير ، و" القنط " اليأس الصريح ، وقرأ أبو عمرو وجماعة " يقنِطون " بكسر النون ، وقرأ نافع والحسن وجماعة " يقنَطون " بفتحها ، وجواب الشرط في قوله ﴿ إن تصبهم ﴾ قوله ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ وذلك أنها للمفاجأة لا يبتدأ بها ، فهي بمنزلة الفاء لا يبتدأ بها ويجاب بها الشرط ، وأما " إذا " التي للشرط أو التي فيها معنى الشرط فهما يبدأ بهما ولا يكون فيهما جواب الشرط ، ثم ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره لم ييأس من روح الله على حال وهو أن الله تعالى يحض من يشاء من عباده ببسط الرزق ويقدر على من شاء منهم فينبغي لكل عبد أن يكون راجياً ما عند ربه ، ثم أمر

تعالى نبيه أمراً تدخل الأمة فيه وهذا على جهة الندب إلى إيتاء ذي القربى حقه من صلة المال وحسن المعاشرة ولين القول ، قال الحسن : ﴿ حقه ﴾ المواساة في اليسر وقول ميسور في العسر .

(28/604)

قال الفقيه الإمام القاضي : ومعظم ما قصد أمر المعونة بالمال ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " في المال حق سوى الزكاة وذلك للمسكين وابن السبيل حق " وبين أن حق هذين إنما هو في المال وغير ذلك معهما لا غناء له وكذلك يلزم القريب المعدم الذي يقضي حقه أن يقضي أيضاً حق قريبه في جودة العشرة و﴿ وجه الله ﴾ هنا جهة عبادته ورضاه و﴿ المفلحون ﴾ الفائزون ببغيتهم البالغون لآمالهم .

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

قرأ جمهور القراء " وما آتيتم " بمعنى وما أعطيتم ، وقرأ ابن كثير " ما أتيتم " بغير مد بمعنى ما فعلتم كما تقول أتيت صواباً وأتيت خطأ ، وأجمعوا على المد في قوله ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ . و" الربا " الزيادة ، واختلف المتأولون في معنى هذه الآية فقال ابن عباس وابن

جبير وطاوس : هذه آية نزلت في هبات الثواب .

قال الفقيه الإمام القاضي : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلم وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى ، وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النخعي : نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضل عليهم وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع ، وقال الشعبي : معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحداً وخف به لينتفع في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزى به الخدمة ﴿ لا يربو عند الله ﴾ .

(29/604)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا كله قريب جزء من التأويل الأول ، ويحتمل أن يكون معنى هذه الآية النهي عن الربا في التجارات ما حض عز وجل على نفع ذوي القربى والمساكين وابن السبيل أعلم أن ما فعل المرء من ربا ليزداد به مالاً وفعله ذلك إنما هو في أموال الناس فإن ذلك ﴿ لا يربو عند الله ﴾ ولا يزكو بل يتعلق فيه الإثم ومحق البركة ، وما أعطى الإنسان من زكاة تنمية لماله وتطهيراً يريد بذلك وجه الله تعالى فذلك هو الذي يجازى به أضعافاً مضاعفة على ما شاء الله تعالى له ، وقال السدي : نزلت هذه الآية في ربا ثقيف

لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش ، وقرأ جمهور القراء السبعة " ليربوا " بالياء وإسناد الفعل إلى الربا ، وقرأ نافع وحده " لتُربوا " بضم التاء على وزن تفعلوا بمعنى تكونوا ذوي زيادة ، وهذه قراءة ابن عباس وأهل المدينة الحسن وقتادة وأبي رجاء والشعبي ، قال أبو حاتم هي قراءتنا ، وقرأ أبو أبو مالك " لتربوها " بضمير المؤنث ، و" المضعف " الذي هو ذو أضعاف من الثواب كما المؤلف الذي له آلاف ، وكما تقول أخصب إذا كان ذا خصب . وهذا كثير ، ومنه أربى المتقدم في قراءة من قرأ " لتُربوا " بضم التاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(30/604)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

قال الزجاج : زعم جميع النحويين أن معنى هذا : فأقيموا وجوهكم منيبين ، لأن مخاطَبة النبي صلى الله عليه وسلم تدخل معه فيها الأُمَّة ومعنى ﴿ منيبين ﴾ : راجعين إِليه في كل ما أمر ، فلا يخرجون عن شيء من أمره .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [البقرة : 3 ، الأنعام : 159] إِلى قوله : ﴿ وإِذا مَسَّ

الناسَ ضُرٌّ دَعَوا ربَّهم مُنِيبِين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه القحط ، والرحمة : المطر .

والثاني : أنه البلاء ، والرحمة : العافية ، ﴿ إذا فريق منهم ﴾ وهم المشركون .

والمعنى : إن الكل يلتجؤون إليه في شدائدهم ، ولا يلتفت المشركون حينئذ إلى أوثانهم .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكفُروا بما آتيناهم ﴾ قد شرحناه في آخر [العنكبوت : 67] ، وقوله تعالى : ﴿ فتَمتَّعوا ﴾ خطاب لهم بعد الإخبار عنهم .

قوله تعالى : ﴿ أم أنزَلْنا عليهم ﴾ أي : على هؤلاء المشركين ﴿ سُلطاناً ﴾ أي : حُجَّة وكتاباً من السماء ﴿ فهو يتكلَّم بما كانوا به يُشْرِكون ﴾ أي : يأمرهم بالشِّرك ؟ ! وهذا استفهام إنكار ، معناه : ليس الأمر كذلك .

قوله تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس ﴾ قال مقاتل : يعني كفار مكة ﴿ رحمةً ﴾ وهي المطر .

والسيِّئة : الجوع والقحط .

وقال ابن قتيبة : الرحمة : النعمة ، والسيِّئة المصيبة .

قال المفسرون : وهذا الفرح المذكور هاهنا ، هو فرح البطر ، الذي لا شُكر فيه ، والقنوط : اليأس من فضل الله ، وهو خلاف وصف المؤمن ، فانه يشكر عند النعمة ، ويرجو عند الشدة ؛ وقد شرحناه في بني [إسرائيل : 26] إلى قوله : ﴿ ذلك ﴾ يعني إعطاء الحق

﴿ خير ﴾ أي : أفضل من الإِمساك ﴿ للذين يريدون وجه الله ﴾ أي : يطلُبون بأعمالهم ثواب الله .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من رِباً ﴾ في هذه الآية أربعة أقوال .

(31/604)

أحدها : أن الرِّبا هاهنا : أن يُهدي الرجل للرجل الشيء يقصِد أن يُثيبه عليه أكثر من ذلك ، هذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وطاووس ، [والضحاك] ، وقتادة ، والقرظي .

قال الضحاك : فهذا ليس فيه أجر ولا وزر .

وقال قتادة : ذلك الذي لا يَقبله الله ولا يَجزي به ، وليس فيه وِزْر .

والثاني : أنه الرِّبا المحرَّم ، قاله الحسن البصري .

والثالث : أن الرجل يُعطي قرابته المال ليصير به غنيّاً ، لا يقصد بذلك ثواب الله تعالى ، قاله إِبراهيم النخعي .

والرابع : أنه الرجل يُعطي من يخدمه لأجل خدمته ، لا لأجل الله تعالى ، قاله الشعبي .

قوله تعالى : ﴿ لِيَرْبُوَ في أموال الناس ﴾ وقرأ نافع ، ويعقوب : [﴿ لتَرْبُوْ ﴾] بالتاء

وسكون الواو ، أي : [في] اجتلاب أموال الناس ، واجتذابها ﴿ فلا يربو عند الله ﴾ أي : لا يزكو ولا يضاعَف ، لأنكم قصدتم زيادة العِوَض ، ولم تقصُدوا القُربة .

﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ أي : ما أَعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة ، إنما تريدون بها ما عند الله ، ﴿ فأولئك هم المُضْعِفُونَ ﴾ قال ابن قتيبة : الذين يجدون التضعيف والزيادة .

وقال الزجاج : أي ذوو الأضعاف من الحسنات ، كما يقال : رجل مُقْوٍ ، أي : صاحب قُوَّة ، ومُوسِر : صاحب يسار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(32/604)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ﴾

يعني الخِصْب والسّعة والعافية ؛ قاله يحيى بن سلام .

النّقاش : النعمة والمطر .

وقيل : الأمن والدَّعة ؛ والمعنى متقارب .

﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ أي بالرحمة .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي بلاء وعقوبة ؛ قاله مجاهد .

السُّدِّي : قحط المطر .

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما عملوا من المعاصي .

﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ أي ييأسون من الرحمة والفرج ؛ قاله الجمهور .

وقال الحسن : إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى في السرّ .

قَنِط يَقْنَط ، وهي قراءة العامة .

وقَنَط يَقْنِط ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب .

وقرأ الأعمش : "قَنِط يَقْنِط" بالكسر فيهما ؛ مثل حَسِب يَحْسِب .

والآية صفة للكافر ، يقنط عند الشدّة ، ويبطَر عند النعمة ؛ كما قيل :

كحمار السَّوء إن أعلفته . . .

رَمَح الناس وإن جاع نهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه بهذه المثابة ؛ وقد مضى في غير موضع .

فأما المؤمن فيشكر ربّه عند النعمة ، ويرجوه عند الشدّة .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق ؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى : لما تقدّم أنه سبحانه يبسط الرزق (لمن يشاء) ويقدِر أمر مَن وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنيّ .

والخطاب للنبيّ عليه السلام والمراد هو وأمته ؛ لأنه قال : "ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ" .

وأمر بإيتاء ذي القربى لِقُرب رَحِمه ؛ وخيرُ الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرّحِم .

(33/604)

وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، " فقال لميمونة وقد أعتقت وِليدةً : "أما إنّك لو أعطيْتِها أخوالَك كان أعظمَ لأجرك" " .

الثانية : واختلف في هذه الآية ؛ فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث .

وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم في البِرّ على كل حال ؛ وهو الصحيح .

قال مجاهد وقتادة : صلة الرّحِم فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورَحِمُه محتاجة .

وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبيّ صلى الله عليه وسلم .

والأوّل أصح ؛ فإن حقهم مبيّن في كتاب الله عز وجل في قوله : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى ﴾ [الأنفال : 41] .

وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذي القربى على جهة الندب .

قال الحسن : "حقَّه" المواساة في اليسر ، وقول ميسور في العسر .

﴿ والمسكين ﴾ قال ابن عباس : أي أطعم السائل الطوّاف ؛ وابن السبيل : الضيف ؛ فجعل الضيافة فرضاً ، وقد مضى جميع هذا مبسوطاً مبيَّناً في مواضعه والحمد لله .

الثالثة : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ أي إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجهُ الله والتقرُّبُ إليه .

﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ أي الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة .

وقد تقدّم في "البقرة" القول فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ الله ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : لمّا ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضاً وجهه .

وقرأ الجمهور : "آتَيْتُمْ" بالمد بمعنى أعطيتم .

وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ ؛ بمعنى ما فعلتم من رِباً لِيَرْبُوَ ؛ كما تقول : أتيت صواباً وأتيت خطأً .

وأجمعوا على المدّ في قوله : ﴿ وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا ﴾ .

والربا الزيادة وقد مضى في "البقرة" معناه ، وهو هناك محرّم وها هنا حلال .

(34/604)

وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام .

قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِي أَمْوَالِ الناس ﴾ قال : الرِّبَا رِبَوان ، ربا حلال وربا حرام ؛ فأما الرّبا الحلال فهو الذي يُهْدَى ، يُلتمس ما هو أفضل منه .

وعن الضحاك في هذه الآية : هو الرّبا الحلال الذي يُهدى ليُثاب ما هو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له فيه أجر وليس عليه فيه إثم .

وكذلك قال ابن عباس : "وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً" يريد هدية الرجل الشيء يرجو أن يثاب أفضل منه ؛ فذلك الذي لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه ، وفي هذا المعنى نزلت الآية .

قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت في هبة الثواب .

قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره ؛ فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى .

وقاله القاضي أبو بكر بن العربي .

وفي كتاب النَّسائي عن عبد الرحمن بن علقمة قال : " قدم وفد ثَقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هديّة فقال : "أهدية أم صدقة فإن كانت هدية فإنما يُبْتَغى بها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الحاجة ، وإن كانت صدقة فإنما يُبْتَغى بها وجه الله عز وجل" قالوا : لا بل هدية ؛ فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم ويسألونه " وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النَّخعِي : نزلت في قوم يُعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضّل عليهم ، وليزيدوا في أموالهم على وجه النفع لهم .

وقال الشّعْبي : معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحداً وخف له لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يَجزِي به الخدمة لا يربو عند الله .

وقيل : كان هذا حراماً على النبيّ صلى الله عليه وسلم على الخصوص ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] فنهي أن يعطي شيئاً فيأخذ أكثر منه عِوضاً .

(35/604)

وقيل : إنه الربا المحرّم ؛ فمعنى : "لاَ يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ" على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه .

قال السدي : نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف ؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش .

الثانية : قال القاضي أبو بكر بن العربي : صريح الآية فيمن يَهب يطلب الزيادة من أموال الناس في المكافأة .

قال المُهَلَّب : اختلف العلماء فيمن وَهَب هبة يطلب ثوابها وقال : إنما أردت الثواب ؛ فقال مالك : ينظر فيه ؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك ؛ مثل هبة الفقير للغنيّ ، وهبة الخادم لصاحبه ، وهبة الرجل لأميره ومَن فوقه ؛ وهو أحد قولي الشافعي .

وقال أبو حنيفة : لا يكون له ثواب إذا لم يشترط ؛ وهو قول الشافعي الآخر .

قال : والهبة للثواب باطلة لا تنفعه ؛ لأنها بيع بثمن مجهول .

واحتج الكوفي بأن موضوع الهبة التبرع ، فلو أوجبنا فيها العِوض لبطل معنى التبرع وصارت في معنى المعاوضات ، والعرب قد فرّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة ، فجعلت لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض ، والهبة بخلاف ذلك .

ودليلنا ما رواه مالك في موطئه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : أيما رجل وهب هبة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى منها .

ونحوه عن عليّ رضي الله عنه قال : المواهب ثلاث : مَوْهبة يراد بها وجه الله ، وموهبة

يراد بها وجوه الناس ، وموهبة يراد بها الثواب ؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يُثب منها .

وترجم البخاريّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساق حديث عائشة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويُثيب عليها .

وأثاب على لِقْحة ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب ، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائداً على القيمة " خرجه الترمذي .

(36/604)

الثالثة : ما ذكره عليّ رضي الله عنه وفصّله من الهبة صحيح ؛ وذلك أن الواهب لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال : أحدها : أن يريد بها وجه الله تعالى ويبتغي عليها الثواب منه .

والثاني : أن يريد بها وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويُثْنُوا عليه من أجلها .

والثالث : أن يريد بها الثواب من الموهوب له ؛ وقد مضى الكلام فيه .

وقال صلى الله عليه وسلم : " الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى " فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وابتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله ورحمته ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المضعفون ﴾ .

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنيًّا حتى لا يكون كَلاًّ فالنية في ذلك متبوعة ؛ فإن كان ليتظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله ، وإن كان لما له عليه من حق القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله .

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها فلا منفعة له في هبته ؛ لا ثواب في الدنيا ولا أجر في الآخرة ؛ قال الله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس ﴾ [البقرة : 264] الآية .

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته ، وله أن يرجع فيها ما لم يثب بقيمتها ، على مذهب ابن القاسم ، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها ، على ظاهر قول عمر وعليّ ، وهو قول مُطَرِّف في الواضحة : أن الهبة ما كانت قائمة العين ، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها وإن أثابه الموهوب فيها أكثر منها .

وقد قيل : إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء .

وقيل : تلزمه القيمة كنكاح التفويض ، وأما إذ كان بعد فوت الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقاً ؛ قاله ابن العربي .

(37/604)

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ لِّيَرْبُوَاْ ﴾ قرأ جمهور القرّاء السبعة : "ليربو" بالياء وإسناد الفعل إلى الربا .

وقرأ نافع وحده : بضم التاء (والواو) ساكنة على المخاطبة ؛ بمعنى تكونوا ذوي زيادات ، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشعبي .

قال أبو حاتم : هي قراءتنا .

وقرأ أبو مالك : "لتربوها" بضمير مؤنث .

﴿ فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ الله ﴾ أي لا يزكوا ولا يثيب عليه ؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصاً له ؛ وقد تقدّم في "النساء" .

﴿ وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ ﴾ قال ابن عباس : أي من صدقة .

﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك هُمُ المضعفون ﴾ أي ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر كما قال : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : 245] .

وقال : ﴿ وَمَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابتغآء مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ [البقرة : 265] .

وقال : "فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة ؛

مثل قوله : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] .

وفي معنى المُضعفين قولان : أحدهما : أنه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا .

والآخر : أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم ؛ أي هم أصحاب أضعاف ، كما يقال : فلان مُقْوٍ إذا كانت إبله قوية ، أَوْلَه أصحاب أقوياء .

ومُسْمِن إذا كانت إبله سماناً .

ومُعْطِش إذا كانت إبله عِطاشاً .

ومضعِف إذا كانت إبله ضعيفة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أعوذ بك من الخبيث المخبِث الشيطان الرجيم " فالمخبث : الذي أصابه خبث ، يقال : فلان رديء أي هو رديء ؛ في نفسه .

ومردِىء : أصحابهُ أردئاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(38/604)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

الضر : الشدة ، من فقر ، أو مرض ، أو قحط ، أو غير ذلك ؛ والرحمة : الخلاص من ذلك

الضر .

﴿ دعوا ربهم ﴾ : أفردوه بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضر ، وتركوا أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو تعالى ، فلهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع ، وإذا خلصهم من ذلك الضر ، أشرك فريق ممن خلص ، وهذا الفريق هم عبدة الأصنام .

قال ابن عطية : ويلحق من هذه الألفاظ شيء للمؤمنين ، إذ جاءهم فرج بعد شدة ، علقوا ذلك بمخلوقين ، أو بحذق آرائهم ، أو بغير ذلك ، ففيه قلة شكر الله ، ويسمى مجازاً .

وقال أبو عبد الله الرازي : يقول : تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني وسبب الصنم الفلاني ، بل ينبغي أن لا يعتقد أنه يخلص بسبب فلان إذا كان ظاهراً ، فإنه شرك خفي . انتهى .

و﴿ إذا فريق ﴾ : جواب ﴿ إذا أذاقهم ﴾ ، الأولى شرطية ، والثانية للمفاجأة ، وتقدم نظيره ، وجاء هنا فريق ، لأن قوله : ﴿ وإذا مس الناس ﴾ عام للمؤمن والكافر ، فلا يشرك إلا الكافر .

وضر هنا مطلق ، وفي آخر العنكبوت ﴿ إذا هم يشركون ﴾ لأنه في مخصوصين من المشركين عباد الأصنام ، والضر هناك معين ، وهو ما يتخوف من ركوب البحر .

﴿ إذا هم ﴾ : أي ركاب البحر عبدة الأصنام ، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده .

واللام في ﴿ ليكفروا ﴾ لام كي ، أو لام الأمر للتهديد ، وتقدم نظيره في آخر العنكبوت .

وقرأ الجمهور : ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ ، بالتاء فيهما .

وقرأ أبو العالية : فيتمتعوا ، بالياء ، مبنياً للمفعول ، وهو معطوف على ﴿ ليكفروا ﴾ .

فسوف يعلمون : بالياء ، على التهديد لهم .

وعن أبي العالية : فيتمتعوا ، بياء قبل التاء ، عطف أيضاً على ﴿ ليكفروا ﴾ ، أي لتطول أعمارهم على الكفر ؛ وعنه وعن عبد الله : فليتمتعوا .

وقال هارون في مصحف عبد الله : يمتعوا .

(39/604)

﴿ أم أنزلنا ﴾ ، أم : بمعنى بل ، والهمزة للإضراب عن الكلام السابق ، والهمزة للاستفهام عن الحجة استفهام إنكار وتوبيخ .

والسلطان : البرهان ، من كتاب أو نحوه .

﴿ فهو يتكلم ﴾ : أي يظهر مذهبهم وينطق بشركهم ، والتكلم مجاز لقوله : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ وهو يتكلم : جواب للاستفهام الذي تضمنه أم ، كأنه قال : بل أنزلنا عليهم سلطاناً ، أي برهاناً شاهداً لكم بالشرك ، فهو يشهد بصحة ذلك ، وإن قدر ذا سلطان ، أي ملكاً ذا برهان ، كان التكلم حقيقة .

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ : أي نعمة ، من مطر ، أو سعة ، أو صحة .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ : أي بلاء ، من حدث ، أو ضيق ، أو مرض .

﴿ بما قدمت أيديهم من ﴾ المعاصي .

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ففي إصابة الرحمة فرحوا وذهلوا عن شكر من أسداها إليهم ، وفي إصابة البلاء قنطوا ويئسوا وذهلوا عن الصبر ، ونسوا ما أنعم به عليهم قبل إصابة البلاء .

و﴿ إذا هم ﴾ جواب : ﴿ وإن تصبهم ﴾ ، يقوم مقام الفاء في الجملة الاسمية الواقعة جواباً للشرط .

وحين ذكر إذاقة الرحمة ، لم يذكر سببها ، وهو زيادة الإحسان والتفضل .

وحين ذكر إصابة السيئة ، ذكر سببها ، وهو العصيان ، ليتحقق بدله .

ثم ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره لم ييأس من روح الله ، وهو أنه تعالى هو الباسط القابض ، فينبغي أن لا يقنط ، وأن يتلقى ما يرد من قبل الله بالصبر في البلاء ، والشكر في النعماء ، وأن يقلع عن المعصية التي أصابته السيئة بسببها ، حتى تعود إليه رحمة ربه .

ومناسبة ﴿ فآت ذا القربى ﴾ لما قبله : أنه لما ذكر أنه تعالى هو الباسط القابض ، وجعل في ذلك آية للمؤمن ، ثم نبه بالإحسان لمن به فاقة واحتياج ، لأن من الإيمان الشفقة على

خلق الله ، فخاطب من بسط له الرزق بأداء حق الله من المال ، وصرفه إلى من يقرب منه من حج ، وإلى غيره من مسكين وابن سبيل .

(40/604)

وقال الحسن : هذا خطاب لكل سامع بصلة الرحم ، ﴿ والمسكين وابن السبيل ﴾ .

وقيل : للرسول ، عليه السلام .

وذو القربى : بنو هاشم وبنو المطلب ، يعطون حقوقهم من الغنيمة والفيء .

وقال الحسن : حق المسكين وابن السبيل من الصدقة المسماة لهما .

واحتج أبو حنيفة بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب .

أثبت تعالى لذي القربى حقاً ، وللمسكين وابن السبيل حقهما .

والسورة مكية ، فالظاهر أن الحق ليس الزكاة ، وإنما يصير حقاً بجهة الإحسان والمواساة .

وللاهتمام بذي القربى ، قدم على المسكين وابن السبيل ، لأن بره صدقة وصلة .

﴿ ذلك ﴾ : أي الإيتاء ، ﴿ خير ﴾ : أي يضاعف لهم الأجر في الآخرة ، وينمو ما لهم في الدنيا لوجه الله ، أي التقرب إلى رضا الله لا يضره .

ثم ذكر تعالى من يتصرف في ماله على غير الجهة المرضية فقال: ﴿ وما آتيتم ﴾ أكلة الربو ، ليزيد ويزكو في المال ، فلا يزكو عند الله ، ولا يبارك فيه لقوله : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ قال السدّي : نزلت في ربا ثقيف ، كانوا يعملون بالربا ، ويعمله فيهم قريش .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير ، وطاوس : هذه الآية نزلت في هبات ، للثواب .

وقال ابن عطية : وما جرى مجراهما مما يصنع للمجازاة ، كالسلم وغيره ، فهو وإن كان لا إثم فيه ، فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله .

وقال ابن عباس أيضاً ، والنخعي : نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضل عليهم ، وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع به ، فذلك النفع لهم .

وقال الشعبي قريباً من هذا وهو : أن ما خدم به الإنسان غيره انتفع به ، فذلك النفع لهم .

وقال الشعبي أيضاً قريباً من هذا وهو : أن لا يربو عند الله ، والظاهر القول الأول ، وهو النهي عن الربا .

وقرأ الجمهور : ﴿ وما آتيتم ﴾ ، الأول بمد الهمزة ، أي وما أعطيتم ؛ وابن كثير : بقصرها ، أي وما جئتم .

(41/604)

وقرأ الجمهور : ليربو ، بالياء وإسناد الفعل إلى الربا ؛ وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وأبو رجاء ، والشعبي ، ونافع ، وأبو حيوة : بالتاء مضمومة ، وإسناد الفعل إليهم .

وقرأ أبو مالك : ليربوها ، بضمير المؤنث .

والمضعف : ذو أضعاف في الأجر .

قال الفراء : هم أصحاب المضاعفة ، كما تقول : هو مسمن ، أي صاحب إبل سمان ، ومعطش : أي صاحب إبل عطشى .

وقرأ أبي : ﴿ المضعفون ﴾ ، بفتح العين ، اسم مفعول .

وقال الزمخشري : ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ ، التفات حسن ، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه : فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون ، والمعنى : المضعفون به بدلالة أولئك هم المضعفون ، والحذف لما في الكلام من الدليل عليه ، وهذا أسهل مأخذاً ، والأول أملأ بالفائدة : انتهى .

وإنما احتاج إلى تقدير ما قدر ، لأن اسم الشرط ليس بظرف ، لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود عليه يتم به الربط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(42/604)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ منيبين إِلَيْهِ ﴾ حالٌ من الضَّميرِ في النَّاصبِ المقدَّرِ لفطره الله أو في أقِم لعمومِه للأمَّةِ حسبما أُشير إليه وما بينَهما اعتراضٌ أي راجعين إليه من أنابَ إذا رجعَ مرَّةً بعدَ أُخرى .

وقولُه تعالى ﴿ واتقوه ﴾ أي من مخالفةِ أمرِه .

عطفٌ على المقدَّرِ المذكورِ . وكذا قولُه تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ المبدِّلين لفطرةِ الله تعالى تبديلاً ﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ بدلٌ من المشركينَ بإعادةِ الجارِّ . وتفريقُهم لدينهم اختلافُهم فيما يعبدونَه على اختلافِ أهوائِهم . وفائدةُ الإبدالِ التَّحذيرُ عن الانتماءِ إلى حزبٍ من أحزابِ المشركينَ ببيان أنَّ الكلَّ على الضَّلالِ المبينِ وقُرِىء فارقُوا أي تركُوا دينَهم الذي أُمروا به ﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ أي فِرقاً تشايعُ كلٌّ منها إمامَها الذي أضلَّها ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الدينِ المعوجِ المؤسَّس على الرَّأيِ الزَّائغِ والزَّعمِ الباطلِ ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون ظنّاً منهم أنَّه حقٌّ وأنَّى له ذلك . فالجملةُ اعتراضٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبله من تفريقِ دينِهم وكونِهم شيعاً وقد جُوِّز أنْ أن يكونَ فرحون صفةً لكلٌّ على أنَّ الخبرَ هو الظرفُ المقدَّمُ أعني من الذين فرَّقُوا ولا يخفى بعدُه .

(43/604)

﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ ﴾ أي شدّةٌ ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعينَ إليه من دعاءِ غيرِه ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً من تلك الشدّة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ ﴾ الذي كانُوا دَعَوه منيبين إليه ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجأ فريقٌ منهم الإشراكَ وتخصيصُ هذا الفعلِ ببعضِهم لما أنَّ بعضَهم ليسُوا كذلك كما في قولِه تعالى : ﴿ فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي مقيمٌ على الطَّريقِ القصدِ أو متوسطٌ في الكفرِ لانزجارِه في الجُملة ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ اللامُ فيه للعاقبةِ وقيل للأمرِ التَّهديديِّ كقولِه تعالى : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ غيرَ أنَّه التفتَ فيه للمبالغةِ وقرىء وليتمتَّعوا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ تمتُّعِكم . وقُرىء بالياءِ ، على أنَّ تمتَّعوا ماضٍ والالتفاتُ إلى الغَيبةِ في قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ للإيذان بالإعراضِ عنهم وتعديدِ جناياتِهم لغيرِهم بطريقِ المُباثّةِ ﴿ سلطانا ﴾ أي حجّةً واضحةً وقيل : ذا سلطانٍ أي مَلَكاً معه برهانٌ ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ كما في قولِه تعالى : ﴿ هذا كتابنا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ أو تكلُّمَ نطقٍ ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ بإشراكهم به تعالى أو بالأمرِ الذي بسببه يُشركون . ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ﴾ أي نعمةً من صحّةٍ وسَعَةٍ ﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ بَطَراً وأشَراً لا حَمْداً وشُكْراً ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدّةٌ ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤمِ معاصِيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤوا القُنوطَ من رحمتِه تعالى وقُرىء بكسرِ النُّونِ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي ألم ينظرُوا ولم يشاهدُوا ﴿ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ فما لهم لم يشكرُوا ولم يحتسبُوا في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ كالمؤمنينَ ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيستدلُّون بها على كمالِ القدرةِ والحكمةِ.

﴿ فَئَاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ من الصلةِ والصدقةِ وسائرِ المَبَرَّاتِ ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ ما يستحقَّانِه والخطابُ للنبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أو لمن بُسط له كما تُؤذن به الفاءُ ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ ذاتَه أو جهتَه ويقصدون بمعروفهم إيَّاه تعالى خالصاً أو جهةَ التقربِ إليه لا جهةً أُخرى ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ حيث حصَّلُوا بما بُسط لهم النَّعيمَ المُقيمَ ﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ مّن رِباً ﴾ زيادةٌ خاليةٌ عن العوضِ عند المعاملةِ وقُرِىء أتيتُم بالقصرِ أي غشيتمُوه أو رهقتمُوه من إعطاءِ رباً ﴿ لّيَرْبُوَاْ فِى أَمْوَالِ الناس ﴾ ليزيدَ ويزكو في أموالِهم ﴿ فَلاَ يَرْبُواْ عَندَ الله ﴾ أي لا يُبارك فيه وقُرِىء لتربُوا أي لتزيدُوا أو لتصيرُوا ذوي ربا ﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ مّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ أي تبتغُون به وجهَه تعالى خالِصاً ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المضعفون ﴾ أي ذوُو الأضعافِ من الثَّوابِ ونظيرُ المُضْعف المُقْوى والموسر لذي القوة واليسارِ أو الذين ضعّفوا ثوابَهم وأموالَهم بالبركةِ. وقُرِىء بفتحِ العينِ، وفي تغييرِ النَّظمِ الكريمِ والالتفاتِ من الجَزَالةِ ما لا يَخْفى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ﴾

أي نعمة من صحة وسعة ونحوهما ﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ بطرا وأشرا فإنه الفرح المذموم دون الفرح حمداً وشكراً .

وهو المراد في قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58]

وقال الإمام : المذموم الفرح بنفس الرحمة والممدوح الفرح برحمة الله تعالى من حيث أنها مضافة إلى الله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ أي فاجؤوا القنوط من رحمته عز وجل ، والتعبير بإذا أولاً لتحقق الرحمة وكثرتها دون المقابل ، وفي نسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة تعليم للعباد أن لا يضاف إليه سبحانه الشر وهو كثير كقوله تعالى : ﴿ أَنْعَمْتَ ﴾ في الفاتحة ، وعدم بيان سبب إذاقة الرحمة وبيان سبب إصابة السيئة على الاستمرار في القنوط ، والمراد بالناس أما فريق آخر غير الأول على أن التعريف للعهد أو للجنس وأما الفريق الأول لكن الحكم الأول ثابت لهم في حال تدهشهم كمشاهدة الغرق وهذا الحكم في حال آخر

لهم فلا مخالفة بين قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم : 33] وقوله سبحانه : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : 63] فلا يحتاج إلى تكلف التوفيق بأن الدعاء اللساني جار على العادة فلا ينافي القنوط القلبي ولذا سمع بعض الخائضين في دم عثمان رضي الله تعالى عنه يدعو في طوافه ويقول : اللهم اغفر لي ولا أظنك تفعل ، أو المراد يفعلون فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء ، ولا يخفى أن في المفاجأة نبوة ما عن هذا فتأمل .

وقرىء "يقنطون" بكسر النون .

(46/604)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أن يبسطه تعالى له : ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه ، وهذا اما باعتبار شخصين أو باعتبار شخص واحد في زمانين ، والمراد إنكار فرحهم وقنوطهم في حالتي الرخاء والشدة أي أولم يروا ذلك فما لهم لم يشركوا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور أي البسط وضده أو جميع ما ذكر ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة والله تعالى در من قال :

نكدر الاريب وطيب عيش الجاهل . . .

قد أرشداك إلى حكيم كامل

قال الطيبي : كانت الفاصلة قوله تعالى : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إيذاناً بأنه تعالى يفعل ذلك بمحض مشيئته سبحانه وليس الغني بفعل العبد وجهده ولا العدم بعجزه وتقاعده ولا يعرف ذلك إلا من آمن بأن ذلك تقدير العزيز العليم كما قال :

كم من أريب فهم قلبه . . .

مستكمل العقل مقل عديم ومن جهول مكثر ماله

ذلك تقدير العزيز العليم . . .

(47/604)

﴿ فَئَاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ من الصلة والصدقة وسائر المبرات ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ ما يستحقانه ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على أنه عليه الصلاة والسلام المقصود أصالة وغيره من المؤمنين تبعاً ، وقال الحسن هو خطاب لكل سامع ، وجوز غير واحد أن يكون لمن بسط له الرزق ، ووجه تعلق هذا الأمر بما قبله واقترانه بالفاء على ما ذكره الزمخشري أنه تعالى لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه

ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ، وحاصله على ما في الكشف أن امتثال أوامره تعالى مجلبة رضاه والحياة الطيبة تتبعه كما أن عصيانه سبحانه مجلبة سخطه والجدب والضيقة من روادفه فإذا استبان ذلك فآت يا محمد ومن تبعه أو فآت يا من بسط له الرزق ذا القربى حقه الخ ، وذكر الإمام وجهاً آخر مبنياً على أن الأمر متفرع على حديث البسط والقدر وهو أنه تعالى لما بين أنه سبحانه يبسط ويقدر أمر جل وعلا بالاتفاق إيذاناً بأنه لا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان فإن الله تعالى إذا بسط الرزق لا ينقص بالإنفاق وإذا قدر لا يزداد بالامساك كما قيل :

إذ جادت الدنيا عليك فجد بها . . .

على الناس طرا إنها تتقلب

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت . . .

ولا البخل يبقيها إذا هي تذهب

قال صاحب الكشف روح الله تعالى روحه : إن ما ذكره الزمخشري أوفق لتأليف النظم الجليل فإن قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزق ﴾ [الروم : 37] لتتميم الإنكار على فرح بالنعمة عن شكر المنعم ويئش عند زوالها عنه ، والظاهر على ما ذكره الإمام أن المراد بالحق الحق المالي وكذا المراد به في جانب المسكين وابن السبيل ، وحمل ذلك بعضهم على الزكاة المفروضة .

وتعقب بأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة واستثناء هذه الآية ودعوى أنها مدنية يحتاج إلى نقل صحيح ، وسبق النزول على الحكم بعيد ولذا لم يذكر هنا بقية الأصناف ، وحكى أن أبا حنيفة استدل بالآية على وجوب النفقة لكل ذي رحم محرم ذكراً كان أو أنثى إذا كان فقيراً أو عاجزاً عن الكسب ، ووجه بأن ﴿ آت ﴾ أمر للوجوب ، والظاهر من الحق بقرينة ما قبله انه مالي ولو كان المراد الزكاة لم يقدم حق القربى إذ الظاهر من تقديمه المغايرة ، والشافعية أنكروا وجوب النفقة على من ذكر وقالوا : لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين على ما بين في الفقه ، والمراد بالحق المصرح به في ذي القربي صلة الرحم بأنواعها وبالحق المعتبر في جانب المسكين وابن السبيل صدقة كانت مفروضة قبل فرض الزكاة أو الزكاة المفروضة والآية مدنية أو مكية والنزول سابق على الحكم .

واعترض على هذا بأنه إذا فسر حق الآخرين بالزكاة وجب تفسير الأول بالنفقة الواجبة لئلا يكون لفظ الأمر للوجوب والندب ، ولذا استدل أبو حنيفة عليه الرحمة بالآية على ما تقدم ، وفيه بحث .

وقال بعض أجلة الشافعية راداً على الاستدلال : إنه كيف يتم مع احتمال أن يكون الأمر

بإيتاء الصدقة أيضاً بدليل ما تلاه ، ثم إن ﴿ وَءاتِ ذَا القربى ﴾ مجمل عند المستدل ومن أين له أنه بين بذي الرحم المحرم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَقَّهُ ﴾ ثم قال : والحق أنه أمر بتوفير حقه من الصلة لا خصوص النفقة وصلة الرحمن من الواجبات المؤكدة انتهى ، والحق أحق بالاتباع ، ودليل الإمام عليه الرحمة ليس هذا وحده كما لا يخفى على علماء مذهبه .

وخص بعض الخطاب به صلى الله عليه وسلم وقال : المراد بذي القربى بنو هاشم وبنو المطلب أمر صلى الله عليه وسلم أن يؤتيهم حقهم من الغنيمة والفيء ، وفي مجمع البيان للطبرسي من الشيعة المعنى وآت يا محمد ذوي قرابتك حقوقهم التي جعلها الله تعالى لهم من الأخماس .

وروي أبو سعيد الخدري .

(49/604)

وغيره أنه لما نزلت هذه الآية أعطى عليه الصلاة والسلام فاطمة رضي الله تعالى عنها فدكا وسلمه إليها ، وهو المروى عن أبي جعفر .

وأبي عبد الله انتهى ، وفيه أن هذا ينافي ما اشتهر عند الطائفتين من أنها رضي الله تعالى

عنها ادعت فدكا بطريق الارث ، وزعم بعضهم أنها ادعت الهبة وأتت على ذلك بعلي والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم وبام أيمن رضي الله تعالى عنها فلم يقبل منها لمكان الزوجية والبنوة وعدم كفاية المرأة الواحدة في الشهادة في هذا الباب فادعت الارث فكان ما كان وهذا البحث مذكور على أتم وجه في التحفة ان أردته فارجع إليه ، وخص بعضهم ﴿ ابن السبيل ﴾ بالضيف وحقه بالإحسان إليه إلى أن يرتحل والمشهور أنه المنقطع عن ماله وبين المعنيين عموم من وجه ، وقدم ذو القربى اعتناء بشأنه وهو السر في تقديم المفعول الثاني على العطف والعدول عن وآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم ، وعبر عن القريب بذي القربى في جميع المواضع ولم يعبر عن المسكين بذي المسكنة لأن القرابة ثابتة لا تتجدد وذو كذا لا يقال في الأغلب إلا في الثابت ألا ترى أنهم يقولون لمن تكرر منه الرأي الصائب فلان ذو رأي ويكاد لا تسمعهم يقولون لمن أصاب مرة في رأيه كذلك وكذا نظائر ذلك من قولهم : فلان ذو جاه .

وفلان ذو إقدام ، والمسكنة لكونها مما تطرأ وتزول لم يقل في المسكين ذو مسكنة كذا قال الإمام : ﴿ ذلك ﴾ أي الإيتاء المفهوم من الأمر ﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسه أو خير من غيره ﴿ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ أي ذاته سبحانه أي يقصدونه عز وجل بمعروفهم خالصاً أو جهته تعالى أي يقصدون جهة التقرب إليه سبحانه لا جهة أخرى والمعنيان كما في الكشف متقاربان ولكن الطريقة مختلفة .

﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ المتصفون بالايتاء ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ حيث حصلوا بانفاق ما يفنى النعيم المقيم ، والحصر إضافي على ما قيل : أي أولئك هم المفلحون لا الذين بخلوا بما لهم ولم ينفقوا منه شيئاً .

(50/604)

وقيل : هو حقيقي على أن المتصفين بالايتاء المذكور هم الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وأنابوا إليه تعالى واتقوه عز وجل فلا منافاة بين هذا الحصر والحصر المذكور في أول سورة البقرة فتأمل .

﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ مّن رِباً ﴾ الظاهر أنه أريد به الزيادة المعروفة في المعاملة التي حرمها الشارع وإليه ذهب الجبائي وروي ذلك عن الحسن ويشهد له ما روي عن السدى من أن الآية نزلت في ربا ثقيف كانوا يربون وكذا كانت قريش ، وعن ابن عباس ومجاهد .

وسعيد بن جبير .

والضحاك .

ومحمد بن كعب القرظي .

وطاوس .

وغيرهم أنه أريد به العطية التي يتوقع بها مزيد مكافاة وعليه فتسميتها ربا مجاز لأنها سبب للزيادة ، وقيل : لأنها فضل لا يجب على المعطى .

وعن النخعي أن الآية نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضيل عليهم وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم وهي رواية عن ابن عباس فالمراد بالربا العطية التي تعطى للأقارب للزيادة في أموالهم ، ووجه تسميتها بما ذكر معلوم مما ذكرنا ، وأياً ما كان فمن بيان لما لا للتعليل .

وقرأ ابن كثير ﴿ ءاتَيْتُم ﴾ بالقصر ومعناه على قراءة الجمهور أعطيتم وعلى هذه القراءة جئتم أي ما جئتم به من عطاء ربا ﴿ لّيَرْبُوَاْ فِى أَمْوَالِ الناس ﴾ أي ليزيد ذلك الربا ويزكو في أموال الناس الذين آتيتموهم إياه ، وقال ابن الشيخ : المعنى على تفسير الربا بالعطية ليزيد ذلك الربا في جذب أموال الناس وجلبها ، وفي معناه ما قيل ليزيد ذلك بسبب أموال الناس وحصول شيء منها لكم بواسطة العطية ، وعن ابن عباس .

والحسن .

وقتادة وأبي رجاء .

والشعبي .

ونافع .

ويعقوب .

وأبي يوة ﴿ لتربوا ﴾ بالتاء الفوقية مضمومة وإسناد الفعل إليهم وهو باب الأفعال المتعدية لواحد بهمزة التعدية والمفعول محذوف أي لتربوه وتزيدوه في أموال الناس أو هو من قبيل يجرح في عراقيبها نصلي أي لتربوا وتزيدوا أموال الناس ، ويجوز أن يكون ذلك للصيرورة أي لتصيروا ذوي ربا في أموال الناس .

وقرأ أبو مالك ﴿ لتربوها ﴾ بضمير المؤنث وكان الضمير للربا على تأويله بالعطية أو نحوها ﴿ الناس فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ الله ﴾ أي فلا يبارك فيه تقديره تعالى وحكمه عز وجل ﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ مّن زكواة ﴾ أي من صدقة ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ تبتغون به وجهه تعالى خالصاً ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المضعفون ﴾ أي ذوو الاضعاف على أن مضعفا اسم فاعل من أضعف أي صار ذا ضعف بكسر فسكون بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه كأقوى وأيسر إذا صار ذا قوة ويسار فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله ، ويجوز أن يكون من أضعف والهمزة للتعدية والمفعول محذوف أي الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة .

ويؤيد هذا الوجه قراءة أبي ﴿ المضعفون ﴾ اسم مفعول ، وكان الظاهر أن يقال : فهو يربو عند الله لأنه الذي تقتضيه المقابلة إلا أنه غير في العبارة إذ أثبت غير ما قبله وفي النظم إذا أتي فيما قبل بجملة فعليه وهنا بجملة اسمية مصدرة باسم الإشارة مع ضمير الفصل لقصد المبالغة فأثبت لهم المضاعفة التي هي أبلغ من مطلق الزيادة على طريق التأكيد بالاسمية والضمير وحصر ذلك فيهم بالاستحقاق مع ما في الإشارة من التعظيم لدلالته على علو المرتبة وترك ما أتوا وذكر المؤتي إلى غير ذلك ، والالتفات عن الخطاب حيث قيل : فأولئك دون فأنتم للتعظيم كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواص الخلق تعريفاً لحالهم ، ويجوز أن يكون التعبير بما ذكر للتعميم بأن يقصد بأولئك هؤلاء وغيرهم ، والراجع في الكلام إلى ﴿ مَا ﴾ محذوف إن جعلت موصولة وكذلك أن جعلت شرطية على الأصح لأنه خبر على كل حال أي فأولئك هم المضعفون به أو فمؤتوا على صيغة اسم الفاعل أولئك هم المضعفون ، والحذف لما في الكلام من الدليل عليه ، وعلى تقدير مؤتوه العام لا يكون هناك التفات بالمعنى المتعارف ، واعتبار الالتفات أولى ، وفي الكشاف أن الكلام عليه أملأ بالفائدة وبين ذلك بأن الكلام مسوق لمدح المؤتين حثا في الفعل وهو على تقدير الالتفات من وجوه .

احدها الإشارة بأولئك تعظيماً لهم والثاني تقريع الملائكة عليهم السلام بمدحهم .

والثالث ما في نفس الالتفات من الحسن .

والرابع ما في أولئك على هذا من الفائدة المقررة في نحو

فذلك أن يهلك فحسبي ثناؤه . . .

(53/604)

بخلافه إذا جعل وصفاً للمؤتين وعلى ذلك التقدير يفيد تعظيم الفعل لا الفاعل وإن لزم بالعرض فلا يعارض ما يفيده بالأصالة فتأمل ، والآية على المعنى الأول للربا في معنى قوله عز وجل : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا وَيُرْبِى الصدقات ﴾ [البقرة : 276] سواء بسواء ، والذي يقتضيه كلام كثير أنها تشعر بالنهي عن الربا بذلك المعنى لكن أنت تعلم أنها لو أشعرت بذلك لأشعرت بحرمة الربا بمعنى العطية التي يتوقع بها مزيد مكافاة على تقدير تفسير الربا بها مع أنهم صرحوا بعدم حرمة ذلك على غيره صلى الله عليه وسلم وحرمتها عليه عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] وكذا صرحوا بأن ما يأخذه المعطى لتلك العطية من الزيادة على ما أعطاه ليس بحرام ودافعه ليس بآثم لكنه لا يثاب على دفع الزيادة لأنها ليست صلة مبتدأة بل بمقابلة ما أعطى أولا ولا ثواب فيما يدفع عوضاً وكذا لا ثواب في إعطاء تلك العطية أولاً لأنها شبكة صيد ، ومعنى قول بعض التابعين الجانب المستغزر يثاب من هبته أن الرجل الغريب إذا أهدى إليك

شيئاً لتكافئه وتزيده شيئاً فاثبه من هديته وزده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(54/604)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً ﴾ قد تقدّم تحقيق معنى المثل ، و " من " في : ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ لابتداء الغاية وهي ومجرورها في محلّ نصب صفة لمثلاً ، أي مثلاً منتزعاً ، ومأخوذاً من أنفسكم ، فإنها أقرب شيء منكم ، وأبين من غيرها عندكم ، فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحاً .

ثم بين المثل المذكور فقال : ﴿ هَل لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أيمانكم مّن شُرَكَاء فِى مَا رزقناكم ﴾ . "من" في ﴿ مما ملكت ﴾ للتبعيض ، وفي : ﴿ من شركاء ﴾ زائدة للتأكيد ، والمعنى : هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم ؟ وهم : العبيد والإماء ، والاستفهام للإنكار ، وجملة : ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء ﴾ جواب للاستفهام الذي بمعنى النفي ، ومحققه لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم في أموالهم ، أي هل ترضون لأنفسكم – والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم في البشرية – أن يساووكم في التصرّف بما

رزقناكم من الأموال ، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ؟ ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف ، أي تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم ، أي كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الأموال وجواز التصرف ، والمقصود نفي الأشياء الثلاثة : الشركة بينهم وبين المملوكين ، والاستواء معهم ، وخوفهم إياهم .

وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء والخوف كما قيل في قولهم : ما تأتينا فتحدّثنا .

(55/604)

والمراد : إقامة الحجة على المشركين فإنهم لا بدّ أن يقولوا : لا نرضى بذلك ، فيقال لهم : فكيف تنزّهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم أمثالكم في البشرية ، وتجعلون عبيد الله شركاء له ؟ فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة ؛ بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه ، والخلق كلهم عبيد الله تعالى ، ولم يبق إلاّ أنه الربّ وحده لا شريك له .

قرأ الجمهور ﴿ أنفسكم ﴾ بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله ، وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿ كذلك نُفَصّلُ الآيات ﴾ تفصيلاً

واضحاً وبياناً جلياً ﴿ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها .

ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل ، فقال : ﴿ بَلِ اتبع الذين ظَلَمُواْ أَهْوَاءهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي لم يعقلوا الآيات ، بل اتبعوا أهواءهم الزائغة ، وآراءهم الفاسدة الزائفة ، ومحل ﴿ بغير علم ﴾ النصب على الحال ، أي جاهلين بأنهم على ضلالة ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ أي لا أحد يقدر على هدايته ؛ لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته ﴿ وَمَا لَهُم مّن ناصرين ﴾ أي ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم ، ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بتوحيده وعبادته كما أمره فقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفاً ﴾ شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه ، وإقباله عليه .

وانتصاب ﴿ حنيفاً ﴾ على الحال من فاعل أقم أو من مفعوله ، أي مائلاً إليه مستقيماً عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة .

﴿ فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ الفطرة في الأصل : الخلقة ، والمراد بها هنا : الملة ، وهي الإسلام والتوحيد .

قال الواحدي : هذا قول المفسرين في فطرة الله ، والمراد بالناس هنا : الذين فطرهم الله على الإسلام ؛ لأن المشرك لم يفطر على الإسلام ، وهذا الخطاب وإن كان خاصاً برسول الله فأمته داخلة معه فيه .

قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل : والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعاً مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة " وفي رواية : " على هذه الملة – ولكن أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ " ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ .

وفي رواية " حتى تكونوا أنتم تجدعونها " وسيأتي في آخر البحث ما ورد معاضداً لحديث أبي هريرة هذا ، فكل فرد من أفراد الناس مفطور ، أي مخلوق على ملة الإسلام ، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين ، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان ، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم ، وقول جماعة من المفسرين ، وهو : الحق .

والقول بأن المراد بالفطرة هنا : الإسلام هو مذهب جمهور السلف .

وقال آخرون : هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ، فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة .

والفاطر في كلام العرب هو المبتدىء ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة ، وإهمال معناها شرعاً .

(57/604)

والمعنى الشرعيّ مقدّم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع ، ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب أو السنة في بعض المواضع مراداً بها المعنى اللغوي كقوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ [فاطر : 1] أي خالقهما ، ومبتديهما ، وكقوله : ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ [يس : 22] إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا ، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة ، وهو ما ذكره الأوّلون كما بيناه ، وانتصاب ﴿ فطرة ﴾ على أنها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها .

وقال الزجاج : فطرة منصوب بمعنى : اتبع فطرة الله ، قال : لأن معنى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ ﴾ : اتبع الدين واتبع فطرة الله .

وقال ابن جرير : هي مصدر من معنى ﴿ فأقم وجهك ﴾ لأن معنى ذلك : فطرة الله

الناس على الدين .

وقيل : هي منصوبة على الإغراء ، أي الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله ، وردّ هذا الوجه أبو حيان وقال : إن كلمة الإغراء لا تضمر إذ هي عوض عن الفعل ، فلو حذفها لزم حذف العوض ، والمعوّض عنه وهو إجحاف .

وأجيب بأن هذا رأي البصريين ، وأما الكسائي وأتباعه فيجيزون ذلك .

وجملة ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة ، أي هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه .

وقيل : هو نفي معناه النهي ، أي لا تبدّلوا خلق الله .

قال مجاهد وإبراهيم النخعي : معناه : لا تبديل لدين الله .

قال قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد : هذا في المعتقدات .

وقال عكرمة : إن المعنى : لا تغيير لخلق في البهائم بأن تخصى فحولها ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم ، أو لزوم الفطرة هو الدين القيم ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك حتى يفعلوه ويعملوا به .

﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي راجعين إليه بالتوبة والإخلاص ، ومطيعين له في أوامره ونواهيه .

ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

فإن تابوا فإن بني سليم . . . وقومهم هوازن قد أنابوا

قال الجوهري : أناب إلى الله : أقبل وتاب ، وانتصابه على الحال من فاعل أقم .

قال المبرد : لأن معنى ﴿ أقم وجهك ﴾ : أقيموا وجوهكم .

قال الفراء : المعنى : فأقم وجهك ومن معك منيبين ، وكذا قال الزجاج ، وقال : تقديره : فأقم وجهك وأمتك ، فالحال من الجميع .

وجاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه .

وقيل : هو منصوب على القطع ، وقيل : على أنه خبر لكان ، محذوفة ، أي وكونوا منيبين إليه لدلالة ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ على ذلك ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإنابة فقال : ﴿ واتقوه ﴾ أي باجتناب معاصيه ، وهو معطوف على الفعل المقدر ناصباً لمنيبين ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ التي أمرتم بها ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ بالله .

وقوله : ﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ هو بدل مما قبله بإعادة الجار ، والشيع : الفرق ، أي لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقاً في الدين يشايع بعضهم بعضاً من أهل البدع والأهواء .

وقيل : المراد بالذين فرّقوا دينهم شيعاً : اليهود والنصارى .

وقرأ حمزة والكسائي : " فارقوا دينهم " ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب ، أي فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه ، وهو التوحيد .

وقد تقدّم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنعام ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي كل فريق بما لديهم من الدين المبني على غير الصواب مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق ، وليس بأيديهم منه شيء .

وقال الفراء : يجوز أن يكون قوله : ﴿ من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ مستأنفاً كما يجوز أن يكون متصلاً بما قبله ﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ ﴾ أي قحط وشدّة ﴿ دَعَوْاْ رَبَّهُمْ ﴾ أن يرفع ذلك عنهم واستغاثوا به ﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي راجعين إليه ملتجئين به لا يعوّلون على غيره .

(59/604)

وقيل : مقبلين عليه بكل قلوبهم ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ بإجابة دعائهم ورفع تلك الشدائد عنهم ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ " إذا " هي الفجائية وقعت جواب الشرط لأنها كالفاء في إفادة التعقيب ، أي فاجأ فريق منهم الإشراك وهم الذين دعوه ،

فخلصهم مما كانوا فيه .

وهذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم ، واللام في ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ هي لام كي .

وقيل : لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد ، وقيل : هي لام العاقبة .

ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع فقال : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم .

قرأ الجمهور : ﴿ فتمتعوا ﴾ على الخطاب .

وقرأ أبو العالية بالتحتية على البناء للمفعول ، وفي مصحف ابن مسعود : "فليتمتعوا" .

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا ﴾ أم هي المنقطعة ، والاستفهام للإنكار والسلطان الحجة الظاهرة ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أي يدل كما في قوله : ﴿ هذا كتابنا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] قال الفراء : إن العرب تؤنث السلطان ، يقولون : قضت به عليك السلطان ، فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح ، وبه جاء القرآن ، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة .

وقيل : المراد بالسلطان هنا الملك ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ أي ينطق بإشراكهم بالله سبحانه ، ويجوز أن تكون الباء سببية ، أي بالأمر الذي بسببه يشركون ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا

الناس رَحْمَةً ﴾ أي خصباً ونعمة وسعة وعافية ﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ فرح بطر وأشر ، لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها إليهم ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58] .

(60/604)

ثم قال سبحانه : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدة على أي صفة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بسبب ذنوبهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ القنوط : الإياس من الرحمة ، كذا قال الجمهور .

وقال الحسن : القنوط : ترك فرائض الله سبحانه .

قرأ الجمهور : " يقنطون " بضم النون .

وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسرها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء ﴾ من عباده ويوسع له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يضيق على من يشاء لمصلحة في التوسيع لمن وسع له ، وفي التضييق على من ضيق عليه ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيستدلون على الحق لدلالتها على كمال القدرة وبديع الصنع ، وغريب الخلق .

وقد أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان يلبي أهل الشرك : لبيك لا شريك

لك إلاّ شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، فأنزل الله : ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيمانكم مِّن شُرَكَاء ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : هي في الآلهة ، وفيه يقول : تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ قال : دين الله ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ قال : القضاء القيم .

(61/604)

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن الأسود ابن سريع ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خيبر فقاتلوا المشركين ، فانتهى القتل إلى الذرية ، فلما جاؤوا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما حملكم على قتل الذرية ؟ " قالوا : يا رسول الله ، إنما كانوا أولاد المشركين ، قال : " وهل خياركم إلاّ أولاد المشركين ؟ والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد إلاّ على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها " وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه ، فإذا عبر عنه لسانه

إما شاكراً وإما كفوراً " رواه أحمد عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر .

وقال الإمام أحمد في المسند : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حماد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوماً ، فقال في خطبته حاكياً عن الله سبحانه : " وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم " الحديث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(62/604)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾

أعيد الكلام على أحوال المشركين زيادة في بسط الحالة التي يتلقون بها الرحمة وضدها تلقياً يستوون فيه بعد أن مُيز فيما تقدم حال تلقي المشركين للرحمة بالكفران المقتضي أن المؤمنين لا يتلقونها بالكفران .

فأريد تنبيههم هنا إلى حالة تلقيهم ضد الرحمة بالقنوط ليحذروا ذلك ويرتاضوا برجاء الفرج والابتهال إلى الله في ذلك والأخذ في أسباب انكشافها .

والرحمة أطلقت على أثر الرحمة وهو المنافع والأحوال الحسنة الملائمة كما ينبني عنه مقابلتها بالسيئة وهي ما يسوء صاحبه ويحزنه فالمقصد من هذه الآية تخلق المسلمين بالخلق الكامل ، ف ﴿ الناس ﴾ مراد به خصوص المشركين بقرينة أن الآية ختمت بقوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

وقدمت في هذه الآية إصابة الرحمة على إصابة السيئة عكسَ التي قبلها للاهتمام بالحالة التي جُعلت مبدأ العبرة وأصل الاستدلال ، فقوله فرحوا بها ﴾ وصف لحال الناس عندما تصيبهم الرحمة ليبنَى عليه ضده في قوله ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ لما يقتضيه القنوط من التذمر والغضب ، فليس في الكلام تعريض بإنكار الفرح حتى نضطر إلى تفسير الفرح بالبطر ونحوه لأنه عدول عن الظاهر بلا داع .

والمعنى : أنهم كما يفرحون عند الرحمة ولا يخطر ببالهم زوالها ولا يحزنون من خشيته ، فكذلك ينبغي أن يصبروا عندما يمسهم الضر ولا يقنطوا من زواله لأن قنوطهم من زواله غير جار على قياس حالهم عندما تصيبهم رحمة حين لا يتوقعون زوالها ، فالقنوط هو محل الإنكار عليهم وهذا كقوله تعالى ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسَّه الشرُّ فيؤوس قنوط ﴾ [فصلت : 49] في أن محل التعجيب هو اليأس والقنوط ، وتقدم ذكر الإذاقة آنفاً .

والقنوط : اليأس ، وتقدم في سورة الحجر (55) عند قوله تعالى ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ وأدمج في خلال الإنكار عليهم قوله ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ لتنبيههم إلى أن ما يصيبهم من حالة سيئة في الدنيا إنما سببها أفعالهم التي جعلها الله أسباباً لمسببات مؤثرة لا يحيط بأسرارها ودقائقها إلا الله تعالى ، فما على الناس إلا أن يحاسبوا أنفسهم ويجروا أسباب إصابة السيئات ، ويتداركوا ما فات ، فذلك أنجى لهم من السيئات وأجدر من القنوط .

وهذا أدب جليل من آداب التنزيل قال تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : 79] .

وقرأ الجمهور ﴿ يقنَطون ﴾ بفتح النون على أنه مضارع قَنِط من باب حسِب .

وقرأه أبو عمرو والكسائي بكسر النون على أنه مضارع قَنط من باب ضرب وهما لغتان فيه .

ثم أنكر عليهم إهمال التأمل في سنّة الله الشائعة في الناس : من لحاق الضر وانفراجه ، ومن قسمة الحظوظ في الرزق بين بسط وتقتير فإنه كثير الوقوع كل حين فكما أنهم لم يقنطوا من بسط الرزق عليهم في حين تقتيره فكدحوا في طلب الرزق بالأسباب والدعاء فكذلك كان حقهم أن يتلقوا السوء النادر بمثل ما يتلقون به ضيق الرزق ، فيسعَوا في كشف السيئة بالتوبة والابتهال إلى الله وبتعاطي أسباب زوالها من الأسباب التي نصبها الله تعالى ، فجملة

﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق ﴾ الخ عطف على جملة ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ﴾ والاستفهام إنكاري في معنى النفي ؛ أنكر عليهم عدم الرؤية تنزيلاً لرؤيتهم ذلك منزلة عدم الرؤية لإهمال آثارها من الاعتبار بها .

فالتقدير : إذا هم يقنطون كيف لم يروا بسط الله الرزق وتقتيره كأنهم لم يروا ذلك .

والرؤية بصرية .

(64/604)

وجملة ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ تذييل ، أي في جميع ما ذكر آيات كثيرة حاصلة كثرتها من اشتمال كل حالة من تلك الأحوال على أسباب خفية وظاهرة ، ومُسبباتها كذلك ، ومن تعدد أحوال الناس من الاعتبار بها والأخذ منها ، كل على حسب استعداده .

وخص القوم المؤمنون بذلك لأنهم أعمق بصائر بما ارتاضت عليه أنفسهم من آداب الإيمان ومن نصب أنفسهم لطلب العلم والحكمة من علوم الدين وحكمة النبوءة .

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

فاء التفريع تفيد أن الكلام بعدها مترتب على الكلام الذي قبلها ، وقد اشتمل الكلام قبلها

على لحاق آثار رحمة الله بالناس ، وإصابة السوء إياهم ، وعلى أن ما يصيبهم من السوء بما قدمت أيدي الناس ، وذكر بسط الرزق وتقديره .

وتضمن ذلك أن الفرح يُلْهِيهم عن الشكر ، وأن القنوط يُلْهِيهم عن المحاسبة في الأسباب ، فكان الأمر بإيتاء الضعفاء والمنكوبين إرشاداً إلى وسائل شكر النعمة عند حصولها شكراً من نوعها واستكشاف الضر عند نزوله ، وإلى أن من الحق التوسعة على المضيَّق عليهم الرزق ، كما يُحِب أن يوسع عليه رزقه ؛ فالخطاب بالأمر للنبيء صلى الله عليه وسلم باعتبار من معه من المؤمنين ممن يحق عليه الإيتاء وهو الذي بسط له في الرزق ، أي فآتوا ذا القربى حقه بقرينة قوله ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ [الروم : 38] الآية ، ويجوز أن يكون خطاباً لغير معيّن من المؤمنين .

والإيتاء : الإعطاء .

وهو مشعر بأن المعطَى مال ، ويقوي ذلك وقوع الآية عقب قوله ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ [الروم : 37] .

وصيغة الأمر من قوله ﴿ فآت ﴾ مُجمل .

والأصل في محملها الوجوب مع أن المأمور بإيتائه عبر عنه بأنه حق والأصل في الحق الوجوب .

وظاهر الآية يقتضي أن المراد حق في مال المؤتي .

وعن مجاهد وقتادة : صلة الرحم أي بالمال فرض من الله عز وجل لا تقبل صدقة أحد ورَحمه محتاجة .

(65/604)

وقال الحسن : حق ذي القربى المواساة في اليُسر ، وقول ميسور في العسر .

وقال ابن عطية : معظم ما قُصد أمر المعونة بالمال ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " في المال حق سوى الزكاة " وللمساكين وابن السبيل حق ، وبَيَّن أن حق هذين في المال أ هـ .

أقول ولذلك قال جمع كثير : إن هذه الآية منسوخة بآية المواريث ، وقال فريق : لم تنسخ بل للقريب حق في البر على كل حال ، أي لا نسخ في جميع ما تضمنته بل نسخ بعضه بآية المواريث وبقي ما عداه .

قلت : وما بقي غير منسوخ مختلفة أحكامه ، وهو مجمل تبينه أدلة أخرى متفرقة من الشريعة .

و﴿ القربى ﴾ : قُرب النسب والرحِم .

وتقدم عند قوله في سورة النساء (36) .

والمسكين تقدم في قوله ﴿ للفقراء والمساكين ﴾ في سورة التوبة (60) .

وابن السبيل : المسافر المجتاز بالقرية أو بالحي .

ووقع الحق مجملاً والحوالة في بيانه على ما هو متعارف بين الناس وعلى ما يبينه النبي .

وكانت الصدقة قبل الهجرة واجبة على الجملة موكولة إلى حرص المؤمن .

وقد أطلق عليها اسم الزكاة في آيات مكية كثيرة ، وقرنت بالصلاة ؛ فالمراد بها في تلك الآيات الصدقة الواجبة وكانت غير مضبوطة بنُصب ثم ضبطت بأصناف ونُصُب ومقاديرَ مخرجةٍ عنها .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : فإن الزكاة حق المال .

وإنما ضبطت بعد الهجرة فصار ما عداها من الصدقة غير واجب .

وقُصر اسم الزكاة على الواجبة وأطلق على ما عداها اسم الصدقة أو البر أو نحو ذلك ،

فجُماع حق هؤلاء الثلاثة المواساة بالمال ، فدل على أن ذلك واجب لهم .

وكان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بفرض الزكاة ، ثم إن لكل صنف من هؤلاء الثلاثة حقاً ؛ فحقُّ ذي القربى يختلف بحسب حاجته ؛ فللغني حقه في الإهداء تودّداً ، وللمحتاج حق أقوى .

(66/604)

والظاهر أن المراد ذو القرابة الضعيف المال الذي لم يبلغ به ضعفه مبلغ المسكنة بقرينة التعبير عنه بالحق ، وبقرينة مقابلته بقوله ﴿ لتربوا في أموال الناس ﴾ [الروم : 39] على أحد الاحتمالات في تفسيره .

وأما إعطاء القريب الغني فلعله غير مراد هنا وليس مما يشمله لفظ ﴿ حقه ﴾ وإنما يدخل في حسن المعاملة المرغب فيها .

وحق المسكين : سد خلته .

وحق ابن السبيل : الضيافة كما في الحديث " جائزته يومٌ وليلة " والمقصود إبطال عادة أهل الجاهلية إذ كانوا يؤثرون البعيد على القريب في الإهداء والإيصاء حباً للمدحة ، ويؤثرون بعطاياهم السادة وأهل السمعة تقرباً إليهم ، فأمر المسلمون أن يتجنبوا ذلك ، قال تعالى : ﴿ كُتِب عليكم إذا حَضَر أحدَكم الموتُ إنْ تَرك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ﴾ كما تقدم في سورة البقرة (180) .

ولذلك عقب بقوله هنا ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي الذين يتوخّون بعطاياهم إرضاء الله وتحصيل ثوابه وهم المؤمنون .

والإشارة بقوله ﴿ ذلك خير ﴾ إلى الإيتاء المأخوذ من قوله ﴿ فئاتِ ذا القربى حقَّه ﴾ الآية .

وذكر الوجه هنا تمثيل كأن المعطي أعطى المال بمرأى من الله لأن الوجه هو محلّ النظر .

وفيه أيضاً مشاكلة تقديرية لأن هذا الأمر أريد به مقابلة ما كان يفعله أهل الجاهلية من الإعطاء لوجه المعْطَى من أهل الوجاهة في القوم فجعل هنا الإعطاء لوجه الله .

والمراد : أنه لامتثال أمره وتحصيل رضاه .

واسم الإشارة في قوله ﴿ ذلك خير ﴾ للتنويه بالمأمور به .

و ﴿ خير ﴾ يجوز أن يكون تفضيلاً والمفضّل عليه مفهوم من السياق أن ذلك خير من صنيع أهل الجاهلية الذين يعطون الأغنياء البعداء للرياء والسمعة ، أو المراد ذلك خير من بذل المال في المراباة التي تُذكر بعد في قوله ﴿ وما ءاتيتم من رِبّاً ﴾ الآية [الروم : 39] .

ويجوز أن يكون الخير ما قابل الشر ، أي ذلك فيه خيرٌ للمؤمنين ، وهو ثواب الله .

(67/604)

وفي قوله وأولئك هم المفلحون ﴾ صيغة قصر من أجل ضمير الفصل ، وهو قصر إضافي ، أي أولئك المتفردون بالفلاح ، وهو نجاح عملهم في إيتاء من ذكر لوجه الله تعالى لا للرياء والفخر .

فمن آتى للرياء والفخر فلا فلاح له من إيتائه .

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ

لما جرى الترغيب والأمر ببذل المالِ لذَوي الحاجة وصلة الرحم وما في ذلك من الفلاح أعقب بالتزهيد في ضرب آخر من إعطاء المال لا يرضَى الله تعالى به وكان الربا فاشياً في زمن الجاهلية وصدر الإسلام وخاصة في ثقيف وقريش .

فلما أرشد الله المسلمين إلى مواساة أغنيائهم فقراءَهم أتبع ذلك بتهيئة نفوسهم للكف عن المعاملة بالربا للمقترضين منهم ، فإن المعاملة بالربا تنافي المواساة لأن شأن المقترض أنه ذو خَلّة ، وشأن المُقرِض أنه ذو جِدَة فمعاملته المقترِض منه بالربا افتراضٌ لحاجته واستغلال لاضطراره ، وذلك لا يليق بالمؤمنين .

و﴿ ما ﴾ شرطية تفيد العموم ، فالجملة معترضة بعد جملة ﴿ فئاتِ ذا القربى حقه ﴾ [الروم : 38] الخ .

والواو اعتراضية .

ومضمون هذه الجملة بمنزلة الاستدراك للتنبيه على إيتاء مال هو ذميم .

وجيء بالجملة شرطية لأنها أنسب بمعنى الاستدراك على الكلام السابق .

فالخطاب للمسلمين الذين يريدون وجهَ الله الذين كانوا يُقرضون بالربا قبل تحريمه .

ومعنى ﴿ ءاتيتم : ﴾ آتى بعضكم بعضاً لأن الإيتاء يقتضي مُعطياً وآخذاً .

وقوله ﴿ لتربوا في أموال الناس ﴾ خطاب للفريق الآخِذِ .

و﴿ لتربوا ﴾ لتزيدوا ، أي لأنفسكم أموالاً على أموالكم .

وقوله : ﴿ في أموال الناس في ﴾ للظرفية المجازية بمعنى (من) الابتدائية ، أي لتنالوا زيادة وأرباحاً تحصل لكم من أموال الناس ، فحرف ﴿ في ﴾ هنا كالذي في قول سَبْرَةَ الفقعسي:

ونَشْرَبُ فِي أثمانها ونُقامر . . .

أي نشرب ونقامر من أثمان إبلنا .

(68/604)

وتقدم بيانه عند قوله تعالى ﴿ وارْزُقُوهُمْ فيها واكْسُوهم ﴾ في سورة النساء (5) .

ومِن ﴾ في قوله ﴿ من رباً ﴾ وقوله ﴿ من زكاة ﴾ بيانية مبينة لإبهام ﴿ مَا ﴾ الشرطية في الموضعين .

وتقدم الربا في سورة البقرة .

وقوله ﴿ فلا يربو عند الله ﴾ جواب الشرط .

ومعنى ﴿ فلا يربو عند الله ﴾ أنه عمل ناقص عند الله غير زاكٍ عنده ، والنقص يكنى به عن المذمة والتحقير .

وهذا التفسير هو المناسب لحمل لفظ الربا على حقيقته المشهورة ، ولموافقة معنى قوله

تعالى : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ [البقرة : 276] ، ولمناسبة ذكر الإضعاف في قوله هنا ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ وقوله ﴿ لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ في سورة آل عمران (130) .

وهذا المعنى مروي عن السدّي والحسن .

وقد استقام بتوجيهه المعنى من جهة العربية في معنى في ﴾ من قوله ﴿ في أموال الناس .

ويجوز أن يكون لفظ ربا ﴾ في الآية أطلق على الزيادة في مال لغيره ، أي إعطاء المال لذوي الأموال قصدَ الزيادة في أموالهم تقرباً إليهم ، فيشمل هبة الثواب والهبة للزلفى والمَلَق .

ويكون الغرض من الآية التنبيه على أن ما كانوا يفعلونه من ذلك لا يغني عنهم من موافقة مرضاة الله تعالى شيئاً وإنما نفعه لأنفسهم .

ودرج على هذا المعنى جم غفير من المفسرين فيصير المعنى : وما أعطيتم من زيادة لتزيدوا في أموال الناس ، وتصير كلمة ﴿ لتربوا ﴾ توكيداً لفظيّاً ليعلق به قوله ﴿ في أموال الناس ﴾ .

وقوله ﴿ وما ءاتيتم من زكاة ﴾ الخ رجوع إلى قوله

﴿ فئاتِ ذا القربى حقه ﴾ [الروم : 38] الآية لأن ذلك الحق هو المسمى بالزكاة .

وجملة ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ جواب ﴿ وما ءاتيتم من زكاة ، ﴾ أي فمؤتوه المضعفون ، أي أولئك الذين حصل لهم الإضعاف وهو إضعاف الثواب .

وضمير الفصل لقصر جنس المضعفين على هؤلاء ، وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بإضعاف من عداهم لأن إضعاف من عداهم إضعاف دُنيوي زائل .

(69/604)

واسم الإشارة في قوله ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ للتنويه بهؤلاء والدلالة على أنهم أحرياء بالفلاح.

واسم الإشارة إظهار في مقام الإضمار اقتضاه مقام اجتلاب اسم الإشارة .

وقرأ الجمهور ﴿ ءاتيتم ﴾ بهمزتين ، أي أعطيتم .

وقرأه ابن كثير ﴿ أتيتم ﴾ بهمزة واحدة ، أي قصدتم ، أي فعلتم .

وقرأ الجمهور ﴿ ليَربوَ ﴾ بتحتية مفتوحة وفتحة إعراب على واو ﴿ ليربوَ .

﴿ وكتب في المصاحف بألف بعد الواو وليس واو جماعة بالاتفاق ، ورسم المصحف سنة .

وقرأ نافع ﴿ لتُربوا ﴾ بتاء الخطاب مضمومة وواو ساكنة هي واو الجماعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(70/604)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾

جميل أنْ يفرح الناس ، وأنْ يستبشروا برحمة الله ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون ؟ فمُجري الرحمة هو مُجري السيئة ، لكنهم فرحوا في الأولى لأنها نافعة في نظرهم ، وقنطوا في الأخرى ؛ لأنها غير نافعة في نظرهم ، وكان عليهم أنْ يعلموا أن هذه وتلك من الله ، وأن له سبحانه حكمةً في الرحمة وحكمةً في المصيبة أيضاً .

إذن : أنتم نظرتم إلى شيء وغفلتم عن شيء ، نظرتُم إلى ما وُجِد من الرحمة وما وُجِد من المصيبة ، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرحمةَ ، ومَنْ أوجد المصيبة ، ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لَعلمتُم أنه حكيم في هذه وفي تلك ، فآفة الناس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها . إذن : ينبغي ألاَّ تنظروا إلى ذات الواقع ، إنما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع .

فلو دخل عليك ولدك يبكي ؛ لأن شخصاً ضربه ، فأول شيء تبادر به : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك : فلان تقول : نعم إنه يكرهنا ويريد إيذاءنا . . الخ فإنْ قال لك : عمى ضربني فإنك تقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً أغضبه ، أو أخطأتَ في شيء فعاقبك عليه .

إذن : لم تنظر إلى الواقع في ذاته ، إنما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه ، فإنْ كان من العدو فلا بُدَّ أنه يريد شراً ، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنه يريد بك خيراً .

وهكذا ينبغي أن نربط بين الموجود ومَنْ أوجده ، فإنْ كان الذي أوجد الواقع رَبٌّ فيجب أنْ نتأمل الحكمة ، ولن نتحدث عن الرحمة ، لأن النفع ظاهر فيها للجميع ، لكن تعال نسأل عن المصيبة التي تُحزِن الناس ، فيقنطوا وييأسوا بسببها .

(71/604)

ونقول : لو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالك ، واطمأنتْ نفسك ، فالمصيبة تعني الشيء الذي يصيبك ، خيراً كان أم شراً ، أَلاَ ترى قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ . . . ﴾ [النساء : 79] .

فالمصيبة لا تُذَمُّ في ذاتها ، إنما بالنتيجة منها ، وكلمة أصاب في الحسنة وفي السيئة تدلُّ على أن سهمها أُطلِق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهي لا بُدَّ صائبتك ، لن تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك ؛ لأن الذي أطلقها إله ورب حكيم ، فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعِب نفسك ، ولا تُزاحِم الناس عليها ، وإنْ كانت مصيبة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسي ؛ لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيأس إنْ أصابتْك مصيبة ؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل ، لعل لها حكمة ، ولعل من ورائها خيراً لا تعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب .

ألم تقرأ : ﴿ وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعسى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ . . . ﴾

[البقرة : 216] .

أتذكرون حادث عمارة الموت وقد طردوا منها البواب وأسرته ، وجعلوا منها قضية في المحكمة ، وبعد أن انهارتْ العمارة ، وتبيَّن للبواب وأسرته أن ما ظنوه شراً ومصيبة كان هو عَيْن الخير .

إذن : لا تقنط من ضُرٍّ أصابك ، واعلم أن الذي أجراه عليك ربك ، وأن له حكمة فانتظر حتى تنكشف لك ، ولا يقنط إلا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه .

ثم تعالَ نناقشك في المصيبة التي قَنَط من أجلها : ألكَ دَخْلٌ فيها ؟ أم ليس لك دَخْل ؟ إنْ كان لك دَخْل فيها كالتلميذ الذي أهمل دروسه فرسب في الامتحان ، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا ، فالرسوب يُعدِّل لك خطأك ، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتى تتدارك الأمر وتجتهد .

(72/604)

فإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها ، كالذي ذاكر واجتهد ، ومع ذلك لم يُوفّق لمرض ألَمَّ به ليلة الامتحان ، أو لعارض عرض له ، نقول : إياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمَّل ما يعقُبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط .

وابحث عن حكمة ربك من إنزال هذه المصيبة بك ، كالأم التي تقول لابنها : يا بُني أنت دائماً متفوق والناس تحسدك على تفوقك ، فلعل رسوبك يصرف عنك حسدهم ، ويُنجيك من أعينهم ، فيكفوا عنك .

وحينما يأتي أبوه يقول له : يا بني هَوِّن عليك ، فلعلَّك إنْ نجحت هذا العام لم تحصل على المجموع الذي تريده ، وهذه فرصة لتتقوى وتحصل على مجموع أعلى . إذن : لن تُعدم من وراء المصيبة نفعاً ، لأن ربك قيوم ، لا يريد لك إلا الخير .

لذلك حين تستقريء الأحداث تجد أناساً فُضحوا وأُخِذوا بما لم يفعلوا ، وذهبوا ضحية شاهد زور ، أو قاضٍ حكم عن هوى . . الخ لكن لأن ربك قيوم لا يغفل يُعوِّض هذا المظلوم ويقول له : لقد أصبح لك نقطة عندي في حسابك ، فأنت اتُّهِمْتَ ظلماً ، فلك عندي إذا ارتكبتَ جريمة أَنْ أنجيك منها فلا تُعاقَب بها ، وأنت يا من عَمَّيْتَ على العدالة ، وشهدتَ زوراً ، أو : أخذت ما ليس لك ، أو أفلتَّ من العقاب فسوف أُوقِعك في جريمة لم تفعلها .

إذن : القنوط عند المصيبة لا محلَّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولا

بُدَّ أنْ تكون له حكمة قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرتَ المسألة في نفسك ، فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

وحين ننظر إلى أسلوب الآية نجد فيه مفارقات عديدة ، ففي الكلام عن الرحمة قال ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا . . . ﴾ [الروم : 36] فاستخدم أداة الشرط (إذا) .

(73/604)

أما في المصيبة فقال ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : 36] فاستخدم أداة الشرط (إنْ) ، فلماذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من إذا إلى إن ؟

قالوا : حين تقارن بين النعَم وبين المصائب التي تنزل بالإنسان في دنياه تجد أن النعم كثيرة والمصائب قليلة ، فنعم الله متوالية عليك في كل وقت لا تُعدُّ ولا تحصى ، أمّا المصائب فربما تُعَدُّ على الأصابع .

لذلك استخدم مع النعمَ (إذا) الدالة على التحقيق ، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الدالة على الشك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ [النصر : 1] فاستعمل إذا لأنها تدلُّ على التحقيق وتُرجِّح حدوث النصر ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ

أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ . . . ﴾ [التوبة : 6] .

كما نلحظ في أسلوب الآية أنها لم تذكر السبب في إذاقة الرحمة ، إنما ذكرت سبب المصيبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ [الروم : 36] ليدلَّ على عدله تعالى في إنزال المصيبة ، وتفضُّله في إذاقة الرحمة ؛ لأن الرحمة من الله والنعَم فضل من الله .

لكن في المصيبة قال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ [الروم : 36] فذكر العِلّة حتى لا يظن أحد أن الله تعالى يُجري المصيبة على عبده ظلماً ، بل بما قدَّمَتْ يداه ، فالمسألة محكومة بالعدل الإلهي .

وبين الفضل والعدل بوْن شاسع ، فلو جاءك خَصْمان لتحكم بينهما تقول : أحكم بينكما بالعدل ، أم بأفضل من العدل ؟ يقول : وهل هناك أفضل من العدل ؟ إذن : نريد العدل ، لكن تنبَّه لأن العدل يعطيك حقك ، والفضل يُترك حقك .

فكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أنكم ناجون بأعمالكم ، لا إنما بالتفضل عليكم : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58] .

يعني : مهما جمعتُم من الطاعات فلن تكفيكم ، ولا نجاةَ لكم إلا برحمة من الله وفضل .

فالحق – تبارك وتعالى – يريد منا أن نعرف أن رحمة الله وسعتْ كل شيء ، وأنه مع ما أنعم به عليكم من نِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصي لا يُعاقبكم إلا بشيء اقترفتموه يستحق العقاب ؛ ذلك لأنه رَبٌّ رحيم حكيم .

وما دام الأمر كذلك فانظر إلى آثار رحمة ربك في الكون ، وتأمل هذه النعَم ، وقفْ عند دِقَّة الأسلوب في قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا . . . ﴾ [إبراهيم : 34] .

فالعَدُّ يقتضي الكثرة و ﴿ نِعْمَتَ . . . ﴾ [إبراهيم :] مفرد ، فكيف نعدُّ يا رب ؟

قالوا : نعم هي نعمة واحدة ، لكن في طياتها نِعَم فلو فتشتها لوجدتَ عناصر الخيرية فيها لا تُعَد ولا تُحصىَ .

لذلك لما تعرضتْ الآيات لِعَدِّ نِعَم الله استخدمتْ (إنْ) الدالة على الشكِّ ؛ لأنها لا تقع تحت الحصر ولا العَدِّ ، لكن على فرض إنْ حاولت عدَّها فلن تُحصيها ، والآن ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص كليات بكاملها لدراسة علم الإحصاء ، وخرجوا علينا بإحصاءات لأمور ولأشياء كثيرة في حياتنا ، لكن لم يتعرض أحد لأنْ يُحصي نعمة الله ، لماذا ؟

لأن الإقبال على الإحصاء لا يكون إلا مع مظنَّة أنْ تُعدَّ وتستوعب ما تحصيه ، فإنْ كان خارج نطاق استيعابك فلن تتعرض لإحصائه كما لم يتعرَّضْ أحد مثلاً لِعَدِّ الرمال في

الصحراء ؛ لذلك يُشككككم الله في أنْ تعدُّوها ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ . . . ﴾ [إبراهيم : 34] فهو أمر مُستبعد ، ولن يكون .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

يبسط : يُوسّع ، ويقدِر : يعني يُضيّق .

(75/604)

يعني : ألم يروا هذه المسألة ، فواحد يُوسّع الله عليه الرزق ، وآخر يُضيّق عليه ، وربما صاحب السعة لم يتعب فيها ، إنما جاءته من ميراث أو خلافة ، وصاحب الضيق يكدّ ويتعب ، ومع ذلك فعيشته كفاف ، لذلك استقبل الفلاسفة هذه المسألة بما في ضمائرهم من إيمان أو إلحاد ، فهذا ابن الراوندي الملحد يقول :

كَمْ عَالِمٍ أعْيَتْ مَذَاهِبه . . . وجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مرْزُوقا

هَذَا الذِي ترك الأوهامَ حَائرةً . . . وَصيَّر العَالِم النِّحْرِير زِنْدِيقا

فردَّ عليه آخر ممن امتلأت قلوبهم بالإيمان :

كَمْ عَالِمٍ قَدْ باتَ في عُسْرٍ . . . وجَاهِلٍ جاهلٍ قَدْ باتَ في يُسْر

تحيَّر الناسُ في هَذا فقُلْتُ لهم . . . هَذا الذي أوجبَ الإيمان بالقدرِ

فالعالم لا يسير بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما بقيومية الخالق سبحانه عليه ، فانظر إلى البسط لمن بسط الله له ، والقبض لمن قبض الله عنه ، ولا تعزل الفعل عن فاعله سبحانه ، وتأمل أن الله تعالى واحد ، وأن عباده عنده سواء ، ومع ذلك يُوسِّع على أحدهم ويُضيِّق على الآخر .

إذن : لا بُدَّ أن في هذه حكمة ، وفي تلك حكمة أخرى ، ولو تتبعتَ عواقب السعة هنا والتضييق هناك لتراءتْ لك الحكمة .

ألا ترى صاحب سعة ورزق ونعم كثيرة ، ومع ذلك لم يستطع تربية أولاده ؛ لأن مظاهر الترف جرفتهم إلى الانحراف ، ففشلوا في حياتهم العملية ، وفي المقابل نرى الفقير الذي يعيش على الكفاف يتفوق أولاده ، ويأخذون أعلى المراتب ؟ إذن : ﴿ يَبْسُطُ الرزقِ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ . . . . ﴾ [الروم : 37] وفق حكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

(76/604)

وسبق أن ذكرنا أن في ألمانيا مدرستين فلسفيتين في الإلحاد ، إحداهما لواحد اسمه (جيبل) ، والأخرى ل (بختر) أحدهما : ينكر أن يكون للعالم إله ، يقول : لو كان للعالم إله حكيم ما خلق الأعمى والأعرج والأعور . . الخ فالحكمة في الخَلْق تقتضي المساواة ، فأخذ من

الشذوذ في الخَلْق دليلاً على إلحاده .

أما الآخر فقال : ليس للكون إله ، إنما يسير سَيْراً ميكانيكياً رتيباً ، ولو كان فيه إله لكان يخلق الخَلْق على صور مختلفة ، وتكون له إرادة مطلقة عن الميكانيكا ، فأخذ ثبات النظام دليلاً على إلحاده ليناقض مذهب سابقه .

إذن : المسألة عندهم رغبة في الإلحاد بأيِّ شكل ، وعلى أية صورة ، واستخدام منهج مُعْوج يخدم القضية التي يسعون إلى إثباتها .

ونقول في الرد على الأول الذي اتخذ من الشذوذ في الكون دليلاً على عدم وجود إله حكيم : الشذوذ الذي ذكرتَ شذوذ في الأفراد الذين يُعوض بعضهم عن بعض ، فواحد أعمى ، وآخر أعور يقابلهم ملايين المبصرين ، فوجود هذه النسبة الضئيلة لا تفسد القاعدة العامة في الخَلْق ، ولا تؤثر على حركة البشر في الكون فالصحيح يعوض غير الصحيح .

أما النظام الثابت الذي يريده الثاني فعليه أن ينظر إلى الملأ الأعلى ، وفي الكون الأعلى من شمس وقمر ونجوم .

. الخ فسيرى فيه نظاماً ثابتاً لا يتغير ، لأن الشذوذ في هذه المخلوقات يفسد الكون كله ؛ لذلك خلقه الله على هيئة الثبات وعدم الشذوذ .

إذن : في النظام العام للكون نجد الثبات ، وفي الأفراد الذين يغني الواحد منهم عن الآخر نجد الشذوذ والاختلاف ، فالثبات يثبت حكمة القدرة ، والشذوذ يثبت طلاقة القدرة .

فيا مَنْ تريد ثبات النظام دليلاً على الإيمان ، فالثبات موجود ، ويا مَنْ تريد شذوذ النظام دليلاً على الإيمان ، فالشذوذ موجود ، فما عليككما إلا أن تتفقا وأن ينفتح كل منكما على الآخر لتصلا إلى الصواب .

(77/604)

ومسألة الرزق لها فلسفة في الإسلام ، فالحق سبحانه أخبرنا بأنه الرزَّاق ، فمرة يرزق بالأسباب ، ومرة يرزق بلا أسباب ، لكن إياك أنْ تغتر بالأسباب ، فقد تقدم الأسباب وتسعى ثم لا يأتيك منها رزق ، ويخيب سَعْيك كالفلاح الذي يأخذ بالأسباب حتى يقارب الزرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه ، فاحذر أن تغتر بالأسباب ، وانظر إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : ينبغي أنْ تتحرى إلى الرزق أسبابه ولا تشغلنّ بعدها بالك بأمره ، فقد تكفل به خالقك الذي استدعاك للوجود ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

تَحَرَّ إلى الرزْقِ أَسْبابَهُ . . . ولاَ تشغلنْ بعدَهَا بَالَكا

فَإنَّك تجهلُ عنوانه . . . ورِزْقُكَ يعرِفُ عُنْوانَكا

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم : 37] قال (لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ)

لأن مسألة الرزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرازق سبحانه في الإعطاء وفي المنع .

ونلحظ على أسلوب الآية قوله تعالى في البسط : ﴿ لِمَن يَشَآءُ . . ﴾ [الروم : 37] وفي التضييق ﴿ وَيَقْدِرُ . . . ﴾ [الروم : 37] ولم يقُلْ لمن يشاء ؛ لأن البسط في نظرنا شيء محبوب نفرح له ونتمناه فقال ﴿ لِمَن يَشَآءُ . . . ﴾ [الروم : 37] لنطمئن نحن إلى أننا سندخل في هؤلاء الذين سيُبْسط لهم في الرزق ، أما في التقتير فلم يقُلْ (لمنْ) ليظل مبهماً يستبعده كلٌّ مِنّا عن نفسه

ثم يقول رب العزة سبحانه : ﴿ فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ . . . ﴾ .

حينما نتأمل النسق القرآني هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولاً البسْطَ في الرزق ، ثم التقتير فيه ، ثم أكَّد بعده مباشرة على حَقِّ ذي القُرْبى والمسكين وابن السبيل ، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرزق ، إنما هي على الجميع حتى مَنْ كان في خصاصه ، وضُيِّق عليه رزقه ، فلا ينسي هؤلاء .

(78/604)

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الروم : 38] والجميع : مَنْ بُسِط له ، ومَنْ قُتِر عليه يريدون وجه الله .

وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة : ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ والمساكين والعاملين عَلَيْهَا والمؤلفة قُلُوبُهُمْ وَفِي الرقاب والغارمين وَفِي سَبِيلِ الله وابن السبيل فَرِيضَةً مِّنَ الله والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : 60] .

فلم تذكر ذا القربى الذي ذكر هنا ، وكأن الآية تشير لنا إلى أمر ينبغي أن نلتفت إليه ، وهو أن القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة ، وهذه آفة وقع فيها كثير من الأغنياء وحتى المتدينين منهم ، فكثيراً ما يسألون : لي ابن عم ، أو لي قريب أأعطيه شيئاً من زكاة مالي ؟ وكنتُ أقول للسائل : والله ، لو علم ابن عمك أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبله منك ؛ لأن للقريب حقاً ، سواء أكنتَ غنياً تملك نصاب الزكاة ، أو لم تصل إلى حد النِّصَاب .

إذن : لا تربط هؤلاء الثلاثة – القريب والمسكين وابن السبيل – بمسألة الزكاة ، فلهم حَقٌّ حتى على الفقير الذي لا يملك نصاباً ، وعلى مَنْ ضُيِّقْ عليه رزقه .

ومع هذا الحق الذي قرره الشرع للقريب نجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب ، ويحتالون لحرمانهم منها ، فمثلاً بعض الناس لا ينجب ذكوراً ، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمهم أو أبناء عمومتهم من الميراث ، مع أن البنت لها نصف التركة ، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثلثان ، ويُوزَّع الثلث على العم أو ابن العم ؛ ذلك لأن البنات في هذه الحالة ليس لهن ذَكَر عصبة ، فيجعلها الشرع في العم أو ابن العم .

والشارع الحكيم يوازن بين الأطراف ، فيأخذ منك ويعطيك ، فلماذا في حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات ، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العم أو ابن العم بالنفقة ويقاضونه في المحاكم ، فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب نحن بحقوقنا ، فهذا نوع من التغفيل .

لماذا لا نعطي العم أو ابن العم وهو الذي سيحمي البنات ويسهر على راحتهن ، ويقف بجوارهن حال شدتهن ؟

إيَّاك – إذن – أنْ تُدخِل الأقارب في الزكاة ، أو تربط مساعدتهم بالقدرة ؛ لأن لهم عليك حقاً حال رخائك وحال شدتك .

ويكفي أن الحق سبحانه خصَّهم بقوله ﴿ ذَا القربى . . . ﴾ [الروم : 38] ولم يقُلْ : ذا المسكنة ، أو ذا السبيل ، وكلمة (ذو) بمعنى صاحب ، تدل على المصاحبة الدائمة والملازمة ، فلا نقول : فلان ذو علم لمن علم قضية أو قضيتين ، إنما لمن اتصف بالعلم الوسع وتمكَّن منه ، كذلك لا نقول فلان ذو خلق إلا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفك عنه .

ومن ذلك نقول : ذو القربى يعني ملاصقاً لك لا ينفك عنك ، فيجب أنْ تراعي حقَّه عليك ، فتجعل له نصيباً ، حتى إنْ لم تكُنْ تملك نصاباً ، وكذلك للمسكين وابن السبيل ؛ لأن الله ذكرهم معاً في غير بند الزكاة ، فدلَّ ذلك على أن لهم حقاً غير الزكاة الواجبة .

ونلحظ أن القرآن رتَّبهم حسب الأهمية والحاجة ، فأولهم القريب لقرابته الثابتة منك ، ثم

المسكين وهو متوطن معروف لك ، ثم ابن السبيل العابر الذي تراه يوماً ولا تراه بعد ذلك ، فهو حسب موضعه من الحال .

والمسكين قد يتغير حاله ، ويتيسر له الرزق فيُوسِّع الله عليه ، وابن السبيل يعود إلى بلده ، فالوصف الثابت لذي القربى ؛ لذلك وصفه الله تعالى بما يدل على الثبات .

ثم قال ﴿ حَقَّهُ . . . ﴾ [الروم : 38] فالحق ملازم له وهو أَوْلَى به ، لذلك لم يَقُل مثلاً : وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل حقوقهم .

(80/604)

وقد مثَّلوا لذلك بقولهم : قال الأمير : يدخل عليَّ فلان ، وفلان ، وفلان ، فالإذن بالدخول للأول يتبعه في ذلك الباقون .

إذن : لهؤلاء الثلاثة خصوصية ، فقد أمرك الله أنْ تعطيهم من لحمك ، وألاّ تربطهم بالزكاة ولا ببسط الرزق ، أما باقي السبعة المستحقون للزكاة فلم يُلزمك نحوهم بشيء غير الزكاة المفروضة .

ولما حدث نقاش بين العلماء حول المراد بالمسكين والفقير ، أيهما أحوج من الآخر ؟ قالوا : المسكين مَنْ له مال ، ولكن لا يكفيه ، واستشهد أبو حنيفة على هذا المعنى بقوله تعالى :

﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر . . . ﴾ [الكهف : 79] فأثبت لهم ملكية وسماهم مساكين . أما الفقير فهو الذي لا شيء له ، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين ، فيدخل في هذه الآية من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ . . . ﴾ [الروم : 38] أي : الإيفاء لهؤلاء ﴿ خَيْرٌ . . . ﴾ [الروم : 38] كلمة خير تُطلَق في اللغة ، ويُراد بها أحد معنيين : مرة نقول خير ويقابلها شر كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8] ، ومرة نقول : خير ونقصد الأَخْيَر كالأحسن أي : أفعل تفضيل ، كما جاء في قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَر . . . لكن الشائع أن تُستعمل خير في أفعل التفضيل كقول النبي صلى الله عليه وسلم : " المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير " فخَيْر الأولى بمعنى أخير . لكن لمن ؟

(81/604)

﴿ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الروم : 38] أي : في الوفاء بحقِّ ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، يريد بذلك وجه الله ، لا يريد رياءً ولا سمعة ؛ لأن الذي

يفعل خيراً يأخذ أجره مِمَّن فعل من أجله ، فمَنْ عمل لله مخلصاً فأجره على الله ، ومَنْ عمل للناس رياءً وسمعةً فليأخذ أجره منهم .

وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39] أي : فوجيء بوجود إله لم يكُنْ في باله ولم يعمل من أجله .

فمعنى ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله . . . ﴾ [الروم : 38] أي : يقصدون بعملهم وجه الله ، سواء رآه الناس ، أو أخفى عمله ، حتى لا تعلم شماله ما صنعتْ يمينه ؛ لأن الأمر قائم على النية ، فقد تعطي أمام الناس ونيتك أنْ يتأسَّوْا بك ، أو لتكُفَّ عنك ألسنتهم وقدحهم في حقك .

وحين تعطي علانية بنية خالصة لله فإنها صدقة مخصّبة للعطاء ، مخصّبة للأجر ؛ لأنك ستكون أُسْوة لغيرك فيعطي ، ويكون لك من الأجر مثله ؛ لأن مَنْ سَنَّ حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة .

والقرآن عرض علينا هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلاَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر . . . ﴾ [البقرة : 264] .

ثم يعطينا مثلاً توضيحياً : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ واللهُ لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 264] .

(82/604)

فمثَل المرائي كهذا الحجر الناعم الأملس حين يصيبه المطر ، وعليه طبقة من التراب يزيحها المطر ، ويبقى هو صَلْداً ناعماً لا يحتفظ بشيء ، ولا ينبت عليه شيء .

وهذا المثَل يُجسّد لنا خيبة سَعْي المرائي ، وأنه مغفل ، سعى واجتهد فانتفع الناس بسَعْيه ، وتعدّى خيره إلى غيره ، وخرج هو خالي الوفاض من الخير ومن الثواب .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل : ﴿ وَمَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابتغآء مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 265] .

فالصدقة ابتغاء وجه الله كالأرض الخِصْبة حين ينزل عليها المطر ، فيأتي نباتها مضاعفاً مباركاً فيه ، فإنْ لم يكُمْ مطر كفاها الطَّل لتنبت وتؤتي ثمارها ، ولو قال : كمثل جنة لكانت كافية لكنها ﴿ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ . . . ﴾ [البقرة : 265] يعني : على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها ، فكلما كانت الأرض مرتفعة زادتْ خصوبتها ، وخلَتْ من المياه الجوفية التي

تؤثر على النبات .

وهذه الجنة تُرْوى بالمطر يأتيها من أعلى ، فيغسل الأوراق والغصون ، فتزيد نضارتها وجودتها ، والأوراق هي رئة النبات .

والله تعالى يترك لآثار الذات في الناس تذكرةً وعبرة ، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به ، أو ليُخضع عنقه بهذا الجميل ، فتكون النتيجة الطبيعية أنْ ينكر الآخر جميله ، بل ويكرهه ويحقد عليه ، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله .

وهو معنى قولهم : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنه حين يراك يتذكر ما لك من يَد عليه ، وما لك من فضل ، فيخزي ويشعر بالذلة ؛ لأن وجودك يدكُّ كبرياءه ؛ لذلك يكره وجودك ، ويكره أنْ يراك .

(83/604)

فالحق سبحانه يقول : احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرياء ، أو بالأغراض الدنية ؛ لأن معروفك هذا سيُنَكر ، وسينقلب ما قدمتَ ، من خير شراً عليك . إذن : عليكم بالنظر في أعمالكم إلى وجه الله لا إلى غيره ، فإنْ حدث وأنكر جميلك فجزاؤك محفوظ عند الله ، وكأن ربك – عز وجل – يغار عليك ، ويريد أنْ يحفظ لك الجميل ويدخره عنده .

وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر بقوله :

أَقُولُ لأَصْحاب المرُوءَاتِ قَوْلَةً . . . تُريحُهُمُ إنْ أحسَنُوا وتفضَّلُوا

يَسيرُ ذوو الحَاجَاتِ خَلْفَكَ خُضَّعاً . . . فَإِنْ أدْرَكُوها خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا

فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا . . . فَإِنَّ ثوابَ الله أربى وأجْزَلُ

وسبق أنْ ذكرتُ قصة الرجل الذي قابلنا في الطريق ونحن في الجزائر ، فأشار لنا لنوصله في طريقنا ، فتوقف صاحب السيارة وفتح له الباب ، لكنه قبل أنْ يركب قال (على كام) ؟ يعني : ثمن توصيله . فقال صاحب السيارة : لله . فقال الرجل (غَلِّتها يا شيخ) .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الذين يريدون بأعمالهم وجه الله هم الذين يُغْلون أعمالهم ، أي : يرفعون قيمتها ، ويضاعفون ثوابها .

وقوله تعالى : ﴿ فآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل . . . ﴾ [الروم : 38] بعد قوله : ﴿ ويَقْدِرُ . . . ﴾ [الروم : 37] يدل في ظاهره على أنه يأخذ منك مع أنك مُقِلٌّ ، وهذا يدخل في إطار قوله تعالى : ﴿ ويُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . ﴾ [الحشر : 9] .

وقلنا : إن الشارع حكيم ، فإذا ألزمك وأخذ منك فإنما ذلك ليعطيك إنْ احتجت ، وكأنه يقول لك : اطمئن فقد أمَّنْتُ لك حياتك ، إن أصابك الفقر ، أو كنت في يوم من الأيام مسكناً أو ابن سبيل ، فكما فعلتَ سيُفعل بك .

وهذه المسألة واضحة في كفالة اليتيم ، فلو أن المجتمع الإيماني عوَّضه عن أبيه عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة " لاطمأنّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم ؛ لأنهم في مجتمع يُعوضهم عن أبيهم بآباء كثيرين .

والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً ، فإنما يُنغِّص هذه النعمة أنها عُرْضة لأنْ تزول ، فيريد الله أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة في امتداده من بعده ، وهذا هو التأمين الحق الذي أرسله الله قضية تأمينية في الكون ، ليست في شركات التأمين ، إنما في يده سبحانه حيث قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء : 9] فإذا اتقوا الله وقالوا القول السديد ، فإن يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه ، ويخافون عليه ، ويتولَّوْن أمره .

وسبق أنْ تعرَّضْنا في سورة الكهف لقصة الجدار الذي تبرع الخضر – عليه السلام – ببنائه مع أنه في قرية أهلها لئام منعوهم حتى الطعام . وقلنا : إن سؤال الطعام هو أصدق سؤال ، ولا يُرَدُّ سائله ، ومع ذلك بناه الخضر ، وقال في بيان أمر الجدار : ﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المدينة وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً . . . ﴾ [الكهف :

. [82

فصلاح الأبوْين ينفع الغلامين ، فيُسخِّر الله لهما مَنْ يبني لهما الجدار ، ويحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا ، ويستطيعا حمايته من هؤلاء اللئام الذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذيْن الصغيريْن .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن الفارق بين الهدية والصدقة ، فيقول : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ . . . ﴾ .

(85/604)

الحق – سبحانه وتعالى – يعرف أن خَلْقه يفعلون الخير ، ويطلبون الأجر عليه ، لكن هذا الطلب إذا خلا من الرياء ، لكن الحق سبحانه يريد أن يرتفع بالصدقة أو بالزكاة إلى مستوى عَالٍ ، فيأخذ صاحبها الثمن من يد الله سبحانه مضاعفاً ، وطلب الزيادات يكون في النية .

فالمؤمن مثلاً يعلم أنه إذا حُيِّيَ بتحية فعليه أنْ يردَّها بخير منها ، فقد يأتي فقير ويقدم لأحد الأغنياء هدية على قدر استطاعته ، وفي نيته أنْ يردَّها الغني بما يناسب غِنَاه ، إذن : فهو حين أعطى يطمع في الزيادة ، وإن كانت غير مشروطة ، ويجوز أنْ يردَّ الغنيُّ على الهدية

بأفضل منها ، ويجوز ألاَّ يردَّها أصلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّباً . . . ﴾ [الروم : 39] أي : الزيادة بأيِّ ألوانها عما تعطي ، وهذه الزيادة غير مشروطة في عقد ، والزيادة تكون في المال ، أو بأيِّ وسيلة أخرى فيها نفع ؛ لأنهم قالوا في تعريف الربا : كل قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا .

حتى أن الإمام أبا حنيفة كان يجلس في ظل لجاره ، فلما طلب منه جاره مالاً وأقرضه رآه الجار لا يجلس في ظل الجدار كما كان يجلس ، فسأله عن ذلك فقال : كنت أجلس في ظل جدارك وأعلم أنه تفضّل منك ، أما الآن فأخاف أنْ أجلس فيه حتى لا تظن أن هذه الجلسة للمال الذي أخذتَه مني .

فالمعنى : وما آتيتم من ربا تبغون به الزيادة سواء أكانتْ نفعاً ، أو مالاً ، أو غير مال ، سواء أكانت مشروطة أو غير مشروطة . قالوا : فما حكم الهدايا إنْ رُدَّتْ بأحسن منها ؟ وما ذنبي أنا المعطي في ذلك ؟ قالوا : لا شيء فيها بشرط ألاَّ تكون في نيتك الزيادة ، وألا تكون هديتك مشروطة ، إنما تكون تحبباً وتودداً ومعروفاً بين الناس ، إنما لا تأخذ عليها ثواباً من الله .

(86/604)

وقوله ﴿ لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس . . . ﴾ [الروم : 39] في هنا للظرفية ، فالمال ظرف ، وما تضعه فيه ينقص منه ، ويزيد ما عندك ﴿ فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله . . . ﴾ [الروم : 39] يربو عندك أنت بالزيادة التي تأخذها ممَّنْ حيَّيْته ، أمّا عند الله فلا يربو .

هكذا قال ابن عباس ، وإن كان بعض العلماء قال : هي مطلق في الربا الأصل ، وهذه مسألة كان يجب أنْ يُشرّع لها ، لكن رأى ابن عباس أن آية الربا معروفة ، وهذه للربا في زيادات التحية والمجاملات بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك . . . ﴾ [الروم : 39] أي : الذين يؤتون الزكاة ويريدون بها وجه الله ﴿ هُمُ المضعفون ﴾ [الروم : 39] ليست من الإضعاف ، إنما من الأضعاف ، فالزكاة أضعاف الفتح كما في قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . ﴾ [الحديد : 11] أما الربا فإضعاف بالكسر .

وهذه المسألة وقف عندها بعض المستشرقين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، قالوا : في القرآن آيات تصادم الحديث النبوي ، فالقرآن يقول : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . ﴾ [الحديد : 11] . إذن : القرض الحسن يضاعف به الله الثواب ، وعندكم أن الحسنة بعشر أمثالها ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " مكتوب على باب الجنة : الحسنة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر " فلو أن القرض

الحسن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، فهو بعشرين لا بثمانية عشر .

فقلنا له : لو تصدقْتَ بدولار مثلاً فقد عملتَ حسنة تُضَاعف لك إلى عشر ، لكن أردُّ إليك دولارك الذي تصدَّقْتَ به ؟ لا ، إذن حقيقة الأمر أنك أخذتَ تسعة تضاعف إلى ثمانية عشر .

(87/604)

قالوا : فلماذا زاد ثواب القرض ؟ نقول : لأن المتصدِّق حين يتصدق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال في القرض ينتظر ردّه ، فكلما صبر عليه أخذ أجراً ، ثم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال .

إذن : فالحق سبحانه يريد أنْ يُنمي القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أن تسير حركة الحياة ، وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كله في القرض ، فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذي فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

ثم إن الله تعالى احترم ملكيتك لمالك ، وحرص على حمايته لك ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فاكتبوه . . . ﴾ [البقرة : 282] .

فالله يحفظ عليك مالك لتهدأ بالاً من ناحيته ، ومع ذلك يترك مجالاً لأريحية المعطي ومروءته ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الذي اؤتمن أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ . . . ﴾ [البقرة : 283] .

وبهذه الفلسفة الإيمانية يدور المال وتسير به حركة الحياة ، بحيث يضمن لصاحب المال ماله ، لأنه مُحِبٌّ له حريص عليه ، ويضمن لمن لا مالَ له أنْ يتحرك من مال الغير ، فإذا كانت هناك أمانة أداء ، فكل صاحب أمانة عليه أنْ يؤدِّيها لمستحقها .

فإن اختلت هذه الموازين ، وماطل الفقيرُ الغنيَّ ، وضنَّ عليه أنْ يردَّ إليه حقه ، فقد فسد حال المجتمع وانهارت فيه هذه القيم ، وساعتها لا نلوم القادر على العطاء إنْ أمسك ماله عن المحتاجين للقرض ولِمَ لا ؟ والناس يأكلون الحقوق ، وبذلك تتوقف حركة الحياة ويتراجع المجتمع عن مسايرة حركة التقدم .

(88/604)

فإذا كان الربا غير المشروط ، وهو الربا في الهدايا والمجاملات والتحية بين الناس جعله الله للمودَّات وللمروءات بين الناس ، لا يثيب عليه ولا يعاقب ، وقال عنه ﴿ فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله . . . ﴾ [الروم : 39] .

أما الربا المشروط فقد وقف معه وقفة حازمة ، وشرع له عقاباً وجعل هذا العقاب من جنس ما يضادّ غرض الذي رَابَى ، فأنت ترابي لتزيد من مالك ، فيقابلك الله بالنقصان ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا . . . ﴾

[البقرة : 276] لماذا ؟

قالوا : لأن المعطي غنيٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطي منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أنْ يزيد في مال الواجد غير المحتاج ؟ وكيف تكون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتك ، ومع ذلك ترفض أن تُقرضه القرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج ؟

ثم افرض أنني أخذت هذا القرض لأثمره وأنميه فخسر ، أليس كافياً أنْ أخسر أنا عملي ، وأنْ يضيع مجهودي ؟ أمن العدل أن أخسر عملي ، ثم أكون ضامناً للزيادة أيضاً ؟ هذه ليست من العدالة ؛ لأن شرط العقد أن يحمي مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمي إلا مصلحة الدائن .

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية في الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ، أول شيء في إجراءاتهم أنْ يُسقطوا عنه الفوائد .

وهذا يوافق شرع الله في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ

تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 279] (لاتُظلمون) بمعنى : أن نردَّ إليكم رءوس أموالكم ؛ (ولا تظلمون) أي : لا نظلمك من ناحية أخرى ، فنقول لك :

إنْ أردتَ أنْ تتوب فرُدّ ما أخذتَه بالربا بأثر رجعي ؛ لأن ما أخذتَه قد صُرِف وتصعب إعادته ، وبذلك نراعي مصلحة الدائن حين نعيد إليه رأس المال ، ومصلحة المدين ، فلا نكلفه ردَّ مَا لا يقدر على ردِّه .

(89/604)

وحين نتأمل هذه المسألة : آلدول أقوى أم الأفراد ؟ الدول ، أرأيتم دولة اقترضت مالاً من دولة أخرى ، ثم استطاعت أن تُسدِّد فوائد هذا الدين فضلاً عن أصل الدَّين ؟ كذلك الأفراد الأقوياء الذين يأخذون القروض ، ثم لا يسددون مجرد الفوائد ، ولا يستطيعون جدولتها ولا تسوية حالتهم ، فيقعون في خصومات ومشاكل .

شيء آخر ، هَبْ أن رجلاً لديه مثلاً ألف جنيه ورجل لا عند له ، صاحب الألف يستطيع أن يديرها ، وأن يعيش منها ، أما الآخر الذي لا يملك شيئاً فيقترض ليعيش مثل صاحبه ، فإنْ قلت له : الألف قرضاً بمائة جنيه ، فمن أين يوفر هذه المائة ؟

إنْ أخذها من عائد المال يخسر ، وإنْ أخذها من السلعة بأنْ يُقلل من الجودة أو من العناصر

الفعالة في السلعة ، أو في التغليف ، جاءت السلعة أقلَّ من مثيلاتها وبارت . إذن : لا بد أن يتحملها المستهلك ، وهذا إضرار به ، وهو ليس طرفاً في العقد ، إذن : العقد باطل .

وحين نقول : إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان يجب أن نفهم هذه القضية جيداً ، وإياك أن تقول : إن الإسلام لا يصلح في زمان كذا ، أو في مكان كذا .

والآن نسمع البعض ينصرف عن منهج الإسلام ويقول لك ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . . ﴾ [البقرة : 286] أي : ليس في وُسْعه الآن تنفيذ شرع الله . لكن نقول له : مَن الذي يحدد الوُسْع ؟ أنت أم المشرِّع سبحانه ؟

ما دام الله تعالى قد كلَّف ، فاعلم أن التكليف في وُسْعك ، فخذ الوُسْع من التكليف ، لا أن تُقدِّر أنت الوسع وتنسى ما كلَّفك الله به .

لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوُسْع يُخفِّف عنك دون أنْ تطلب أنت التخفيف ، كما في صلاة وصوم المريض والمسافر . . الخ وكما في التيمم إنْ تعذَّر استعمال الماء .

فلا معنى لأن نقول : إن تعاليم الدين لا تناسب العصر ، إذن : اجعل العصر هو المشرِّع ، وانصرف عن تشريع السماء إلى ما يحتمله العصر .

(90/604)

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه حينما يلقي تكاليفه يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ . . . ﴾ [الأنعام : 151] فمعنى تعالوا : ارتفعوا عن مستوى أهواء البشر ، واعلوا إلى تكاليف الله ، فإنْ هبطت بالتكاليف إلى مستواك ، وقلّت ظروف العصر تحتم عليّ كذا وكذا فقد أخضعتَ منطق السماء لمنطق الأرض ، وما جاء منطق السماء إلا ليعلو بك .

فإنْ نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا ، فمنهم مَنْ يُحلِّل ، ومنهم مَنْ يُحرِّم وهم الكثرة ، وهَبْ أنهم متساوون مَنْ يحرم ومَنْ يحلل ، فما حكم الله فيما تساوتْ فيه الاجتهادات ؟ النبي صلى الله عليه وسلم أوضح لنا هذه القضية في قوله : " الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حِمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه " .

فهل قال رسول الله : فمَنْ فعل الشبهات أم : فمَنْ ترك الشبهات ؟ إذن : مَنْ وقع في الشبهات لم يستبرىء ، لا لدينه ولا لِعرْضه ، وهل يرضى أحد أنْ يُوصَف هذا الوصف ؟ وعجيب أن نسمع مَنْ يقول : وما علاقة العِرْض بهذه المسألة ؟ نقول : والله حتى غير المؤمن بدين يستنكف أن يقال عنه أنه مُرابٍ ، عِرْضه لا يقبلها فضلاً عن دينه .

لذلك ؛ فالمكارون الذين يريدون أن يُغلوها ، ويريدون أن يعيشوا على دماء الناس لا يدرون أن النفعية هي القانون الذي يحكم الله به خَلْقه ، فيجعل لهم الحسنة بعشر أمثالها ،

لذلك يقول اليهود : كيف تُحرِّمون الربا والله يعاملكم به ؟

نعم ، الحق – سبحانه وتعالى – يعاملنا بالربا ، ويعطينا بالزيادة ؛ لأن هذه الزيادة لا تُنقِص مما عنده سبحانه ، أمّا الزيادة من الناس ومن المحتاجين فإنها ترهقهم وتزيدهم فقراً وحاجة .

(91/604)

ثم دَعْكَ من هذا كله ، وتأمل في المحيط الذي تعيش فيه ، ففي كل بلد أناس يحبون الربا ويتعاملون به ، أرأيتم مرابياً مات بخير ؟ أمات مرابٍ وثروته كاملة ؟ لا ، لأن الله تعالى لم يكن ليقول ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا . . . ﴾ [البقرة : 276] ثم يترك مرابياً ينمو ماله ، ويسلم له إلى أنْ يموت ، فإن اغتنى لحين ، فإنما غِنَاه كيد فيه ، ومبالغة في إيذائه ، كما جاء في الأثر " إذا غضب الله على إنسان رزقه من الحرام ، فإن اشتد غضبه عليه بارك له فيه " .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا آوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44] .

لذلك نسمع " فلان ماهر في التجارة " ، " فلان يضع يده في التراب يصير ذهباً " . . . الخ .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين " فتحنا لهم " و " فتحنا عليهم " : " لهم " أي لصالحم بالخير ، أما " عليهم " فيعني كيداً لهم وتحدياً وإهلاكاً ، فالله تعالى يعطي الكافر ويُوسّع عليه زهرة الدنيا ، حتى إذا أخذه كان أخْذه أليماً ، كما قلنا : إنك إنْ أردت أنَ تُوقِع عدوك لا توقعه من على الحصير ، إنما من مكان عالٍ حتى يكون السقوط مؤلماً .

(92/604)

وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا آوتوا . . . ﴾ [الأنعام : 44] والفرح بالنعمة ليس ممنوعاً ، لكن هناك فرح يُحب ، وفرح يُكره ، وإلاَّ فالحق سبحانه نسب الفرح للمؤمنين في قوله تعالى في سورة الروم : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . . ﴾ [الروم : 4-5] وقال سبحانه : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله . . . ﴾ [آل عمران : 170] وقال : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ . . . ﴾ [يونس : 58] فأثبت لهم الفرح المقبول ، وهو الفرح الذي يعقبه قولنا : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ثم تشكر الله الذي أنعم عليك ، أما الفرح المكروه فهو الفرح الذي يُورِثك بَطَراً وأَشَراً وكبراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(93/604)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الروم : 37) ، وفي سورة الزمر : (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) (الزمر : 52) ، ففي آية الروم : (أَوَلَمْ يَرَوْا) وفي الأخرى : (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا) ، فللسائل أن يسأل عن الفرق ؟

(94/604)

والجواب ، والله أعلم : أن سورة الروم لما تقدم فيها قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) (الروم : 8) ، وقوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (الروم : 9) ، والتفكر تردد نظر ومباثه واعتبار ، والنظر المحال عليه فيما حضوا عليه من سيرهم في الأرض إنما هو استعلام وبحث واعتبار بحال من تقدمهم ، ناسب ذلك قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا) ، لأن قول القائل منا لغيره : ما ترى في هذا الأمر ؟ إنما يريد ابحث عما يتردد في خاطرك ويختلج في

فكرك وعرفني بما يظهر لك وتختاره ، وكذا قول القائل : افعل في هذه القضية بما أراك الله ، إنما يريد اجتهد وامض فيها من المتردد في خاطرك ما تراه أولى ، والحاصل من الرأي هنا في مثل هذا غالب ظن وليس بعلم لإمكان الخطأ فيما يراه ، إذ لسنا بمعصومين ، ولو فرضنا العصمة لكان الحاصل علماً ، وفي كتاب الله سبحانه قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم : فاحكم بينهم بما أراك الله ، وإنما أحيل ، عليه السلام ، على اجتهاده والاعتبار بما لديه من الوحي وما أنزل عليه ، إلا أنه ، عليه لاسلام ، على اجتهاده والاعتبار بما لديه من الوحي وما أنزل عليه ، إلا أنه ، عليه السلام ، مكتنف بالعصمة والحفظ من الخطأ والغلط فيما يراه مما يرجع إلى التبليغ وتقعيد أحكام شريعته ، فالحاصل

(95/604)

عن نظره صلى الله عليه وسلم وما يراه علم ، وأنا عن نظر غيره ممن ليس بمعصوم فظن كما تقدم . ولفظ رأى يصلح في الحالين ، ويقع بالاشتراك على المعنيين وعلى الإبصار ، فناسب لتردد لفظه بين هذه المعاني ، وإن كان في سورة الروم يراد به العلم ، ما تقدم في السورتين قوله : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) وقوله : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) لجامع التردد حاصل في المتواطئ بلحظ التشخص ، فوضح التناسب .

وأما سورة الزمر فلم يتقدم (بها ما تقدم) في سورة الروم مما يستدعي ذلك التناسب ، فجيء بقوله : (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا) ، فطوبق باللفظ المعنى من حيث لا تردد فيهما ولا اشتراك ، وأيضاً فقد تقدم في هذه السورة قوله تعالى : (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا) (الزمر : 2) وقوله : (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا) (الزمر : 11) وقوله : (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي) (الزمر : 14) ، والإخلاص مسبب عن العلم ، وهو ثمرته ، أعني ثمرة العلم ، فناسب هذا قوله : (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) (الزمر : 52) ، فإنهم تسبب عن علمهم الإخلاص إن سبقت سابقة سعادة ، فناسب هذا أتم مناسبة ، فهذا وجه ثان من الجواب ، وكأنه مما قدم فيه المسبب وهو الإخلاص بين يدي سببه وهو العلم ، ووضح على هذا أن ما ورد هنا لم يكن ليناسب ما في سورة الروم ، ولا ما ورد في سورة الروم ليناسب ما في سورة الزمر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 399 . 400 ﴾

(96/604)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مُنِيبِينَ ﴾ :

حالٌ مِنْ فاعل " الزموا " المضمرِ كما تقدَّم ، أو مِنْ فاعل " أَقِمْ " على المعنى ؛ لأَنَّه ليس يُرادُ به واحدٌ بعينِه ، إنما المرادُ الجميعُ . وقيل : حالٌ من الناس إذا أُريد بهم المؤمنون . وقال الزجَّاج : " بعد قوله : وَجْهَكَ " معطوفٌ محذوف تقديره : فأقمْ وجهَك وأمتك . فالحالُ من الجميع . وجاز حَذْفُ المعطوفِ لدلالةِ " مُنيبين " عليه كما جاز حَذْفُه في قوله : ﴿ يا أَيُّهَا النبي ﴾ [الطلاق : 1] أي : والناسُ لدلالة ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ عليه . كذا زعم الزجَّاج في ﴿ يا أَيُّهَا النبي ﴾ . وقيل : على خبرِ كان أي : كونوا مُنِيبين ؛ لدلالة قوله : " ولا تكونوا " .

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

قوله : ﴿ فَرِحُونَ ﴾ : الظاهر أَنَّه خبرُ " كُلُّ حِزْبٍ " وجَوَّزَ الزمخشريُّ أَنْ يرتفعَ صفةً ل " كل " قال : " ويجوز أن يكونَ " من الذين " منقطعاً مَمَّا قبله . ومعناه : من المفارقين دينَهم كلُّ حزب فَرِحين بما لديهم ، ولكنه رَفَع فرحين وصفاً ل " كل " كقولِه :

3650 وكلُّ خليلٍ غيرُها ضمِ نَفْسِه . . . . . .

. . . . . .

قال الشيخ : " قَدَّر أولاً " فرحين " مجروراً صفةً ل حِزْب ثم قال : ولكنه رُفِع على الوصف ل " كل " لأنك إذا قلتَ : " مِنْ قومِك كلُّ رجلٍ صالح " جاز في " صالح " الخفضُ نعتاً لرجل وهو الأكثر ، كقوله :

3651 جادَتْ عليه كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ . . . فَتَرَكْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرْهمِ

وجاز الرفعُ نعتاً ل "كل" كقوله :

3652 وَلَهَتْ عليه كلُّ مُعْصِفَةٍ . . . هَوْجاءُ ليس لِلُبِّها زَبْرُ

برفع "هوجاء" صفةً ل "كل" . انتهى . وهو تقريرٌ حسنٌ .

(97/604)

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33)

قوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ ﴾ : هذه "إذا" الفجائيةُ وقعَتْ جوابَ الشرطِ لأنها كالفاء في أنها للتعقيبِ ، ولا تقع أولَ/ كلامٍ ، وقد تجامِعُها الفاءُ زائدةً .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

قوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا ﴾ : يجوز أن تكونَ لامَ كي ، وأَنْ تكونَ لامَ الأمرِ ، ومعناه التهديدُ نحو : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] .

قوله : "فَتَمَتَّعُوْا" قرأ العامَّة بالخطاب فيه وفي "تَعْلمون" . وأبو العاليةِ بالياء فيهما ، والأولُ مبنيٌّ للمفعول . وعنه "فَيَتَمَتَّعوا" بياءٍ قبل التاء . وعن عبد الله "فَلْيَتَمَتعوا" بلامِ الأمر .

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

قوله: ﴿ سُلْطَانًا ﴾: أي: بُرْهاناً وحُجَّة. فإنْ جَعَلْناه حقيقةً كان "يتكلم" مجازاً، وإنْ جَعَلْناه حقيقةً كان "يتكلم" مجازاً، وإنْ جَعَلْناه على حذف مضاف أي: ذا سلطان كان "يتكلَّم" حقيقةً. وقال أبو البقاء هنا: "وقيل: هو جمعُ سَلِيْط كرَغِيف ورُغْفان" انتهى. وهذا لا يجوز لأنه كان ينبغي أَنْ يُقال: فهم يتكلمون. و "فهو يتكلمُّ" جوابُ الاستفهام الذي تضمَّنَتْه "أم" المنقطعةُ.

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

(98/604)

قوله: ﴿ لِّيَرْبُوَ ﴾: العامَّةُ على الياءِ مِنْ تحتُ مفتوحةً، أسند الفعلَ لضمير الرِّبا أي: ليزدادَ. ونافع بتاءٍ مِنْ فوقُ مضمومةً خطاباً للجماعة. فالواوُ على الأولِ لأُمِّ كلمة، وعلى الثاني كلمةُ ضميرٍ لغائبين. وقد تقدَّمتْ قراءتا "آتيتم" بالمدِّ والقصرِ في البقرة.

قوله: "المُضْعِفُون" أي: أصحابُ الأضعاف. قال الفراء: "نحو مُسْمِن، ومُعْطِش أي: ذي إبلٍ سمانٍ وإبل عِطاش". وقرأ أُبَيٌّ بفتح العين، جعله اسمَ مفعولٍ.

وقوله : " فأولئك هم " قال الزمخشري : " التفاتٌ حسن ، كأنه [قال] لملائكتِه : فأولئك الذين يريدون وجهَ اللَّهِ بصدقاتِهم هم المُضْعِفون . والمعنى : هم المُضْعِفُون به ؛ لأنه لا بُدَّ مِنْ ضميرٍ يَرْجِعُ إلى ما " انتهى . يعني أنَّ اسم الشرط متى كان غيرَ ظرفٍ وَجَبَ عَوْدُ ضميرٍ من الجواب عليه . وتقدَّم ذلك في البقرة عند قوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 97] الآية . ثم قال : ووجهٌ آخرُ : وهو أَنْ يكونَ تقديرُه : فَمُؤْتُوْه فأولئك هم المُضْعَفُون . والحَذْفُ لِما في الكلامِ مِن الدليلِ عليه . وهذا أسهلُ مَأْخَذاً ، والأول أَمْلأُ بالفائدة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 44.48 ﴾

(99/604)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾

تستميلهم طوارقُ أحوالهم ؛ وإن كانت نعمة فإلى فرح ، وإن كانت شدة فإلى قنوطٍ وَتَرح . . وليس وصفُ الأكابر كذلك ؛ قال تعالى : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءَاتَاكُمْ ﴾ [الحديد : 23] .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

الإشارة فيها إلى أن العبدَ لا يُعلِّقُ قلبه إلا بالله ؛ لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله ، وما يسرَّهم ليس وجودُه إلا من الله ، فالبسطُ الذي يسرّهم ويؤنسهم منه وجوده ، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصولُه ، فالواجبُ لزوم عَقْوَةِ الأسرار ، وقطعُ الأفكار عن الأغيار .

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

القرابةُ على قسمين : قرابةُ النسب وقرابة الدِّين ، وقرابةُ الدين أَمسُّ ، وبالمواساة أحقُّ وإذا كان الرجلُ مشتغلاً بالعبادة ، غيرَ متفرّغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمانٌ بحاله ، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقَدر ما يمكنهم ، مما يكون له عونٌ على الطاعة وفراغ القلب من كل علة ؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقَّه آكدَ ، وتَفَقُّدَه أَوْجَبَ .

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ : المريدُ هو الذي يُؤْثِرُ حقَّ الله على حظِّ نَفْسِه ؛ فإيثارُ المريد وَجه اللَّهِ أتمُّ من مراعاته حال نفسه ، فهِمَّتُه في الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على نَظَرِه لنَفْسِه وعياله وما يهمه من خاصته .

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

إيتاء الزكاة بأن تريد بها وجهَ الله ، وألا تستخدم الفقير لما تَبَرَّه به من رافقه ، بل أفضل الصدقة على ذي رَحِمٍ كاشح حتى يكون إعطاؤُه لله مجرداً عن كل نصيبٍ لَكَ فيه ، فهؤلاء هم الذين يضاعِفُ أَجْرَهم : قَهرُهم لأنفسهم حيث يخالفونها ، وفوزهُم بالعِوَض مِنْ قَبَلَ الله .

ثم الزكاة هي التطهير ، وتطهيرُ المالِ معلومٌ ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة ، وأصناف المال وأوصافه .

وزكاة البَدَنِ وزكاةُ القلبِ وزكاتُ السِّرِّ . . كلُّ ذلك يجب القيام به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 118.120 ﴾

(101/604)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا

كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وضح بهذا أنه لا زيادة إلا فيما يزيده الله ، ولا خير إلا فيما يختاره الله ، فكان ذلك مزهداً في زيادة الاعتناء بطلب الدنيا ، بين ذلك بطريق لا أوضح منه فقال : ﴿ الله ﴾ أي بعظيم جلاله لا غيره ﴿ الذي خلقكم ﴾ أي أوجدكم على ما أنتم عليه من التقدير لا تملكون شيئاً .

ولما كان الرزق موزعاً بين الناس بل هو ضيق على كثرته عن كثير منهم ، فكان رزق من تجدد – لا سيما إن كان ابناً لفقير – مستبعداً ، أشار إليه بأداة البعد فقال : ﴿ ثم رزقكم ﴾ ولما كانت إماتة المتمكن من بدنه وعقله وقوته وأسباب نبله عجيبة ، نبه عليها بقوله : ﴿ ثم يميتكم ﴾ ولما كان كل ذلك في الحقيقة عليه هيناً ، وكان الإحياء بعد الإماتة إن لم يكن أهون من الإحياء أول مرة كان مثله وإن استبعدوه قال : ﴿ ثم يحييكم ﴾ .

ولما استغرق بما ذكر جميع ذواتهم وأحوالهم ، وكان الشريك من قام بشيء من العمل أو المعمول فيه ، وكان من المعلوم أنه ليس لشركائهم في شيء من ذلك نوع صنع ، قال منكراً عليهم : ﴿ هل من ﴾ ولما كان إشراكهم بما أشركوا لم تظهر له ثمرة إلا في أنهم جعلوا لهم جزءاً من أموالهم ، عبر بقوله : ﴿ شركائكم ﴾ أي الذين تزعمونهم شركاء ﴿ من يفعل من ذلكم ﴾ مشيراً إلى علو رتبته بأداة البعد وخطاب الكل .

ولما كان الاستفهام الإنكاري التوبيخي في معنى النفي ، قال مؤكداً له مستغرقاً لكل ما يمكن منه ولو قل جداً : ﴿ من شيء ﴾ أي يستحق هذا الوصف الذي تطلقونه عليه .

ولما لزمهم قطعاً أن يقولوا : لا وعزتك ! ما لهم ولا لأحد منهم في شيء من ذلك من فعل ، أشار إلى عظيم ما ارتكبوه بما أنتجه هذا الدليل ، فقال معرضاً عنهم زيادة في التعظيم والعظمة ، منزهاً لنفسه الشريفة منها على التنزيه ببعد رتبته الشماء من حالهم :

﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه تنزهاً لا يحيط به الوصف من أن يكون محتاجاً إلى شريك ، فإن ذلك نقص عظيم .

(102/604)

ولما كان من أخبر بأنه فعل شيئاً أو يفعله كالإماتة والإحياء بالبعث وغيره لا يحول بينه وبينه المقاوم من شريك ونحوه ، قال : ﴿ وتعالى ﴾ أي علواً لا تصل إليه العقول ، كما دلت عليه صيغة التفاعل ، وجرت قراءة حمزة والكسائي بالخطاب على الأسلوب الماضي ، وأذنت قراءة الباقين بالغيب بالإعراض للغضب في قوله معبراً بالمضارع إشارة إلى أن العاقل من شأنه أنه لا يقع منه شرك أصلاً ، فكيف إذا كان على سبيل التجدد والاستمرار : ﴿ عما يشركون ﴾ في أن يفعلوا شيئاً من ذلك أو يقدروا بنوع من أنواع القدرة على أن يحولوا بينه وبين شيء مما يريد ليستحقوا بذلك أن يعظموا نوع تعظيم ، فنزهوه وعظموه بالبراءة من كل معبود سواه .

ولما بين لهم سبحانه من حقارة شركائهم ما كان حقهم به أن يرجعوا ، فلم يفعلوا ، أتبعه ما أصابهم به على غير ما كان في أسلافهم عقوبة لهم على قبيح ما ارتكبوا ، استعطافاً للتوبة فقال : ﴿ ظهر الفساد ﴾ أي النقص في جميع ما ينفع الخلق ﴿ في البر ﴾ بالقحط والخوف ونحوهما ﴿ والبحر ﴾ بالغرق وقلة الفوائد من الصيد ونحوه من كل ما كان يحصل منه قبل .

وقال البغوي : البر البوادي والمفاوز ، والبحر المدائن والقرى التي على المياه الجارية ، قال عكرمة : العرب تسمي المصر بحراً .

ثم بين سببه بقوله : ﴿ بما ﴾ ولما أغنى السياق بدلالته على السيئات عن الافتعال قال :

﴿كسبت﴾ أي عملت من الشر عملاً هو من شدة ترامیهم إليه وإن كان على أدنى الوجوه بما أشار إليه تجريد الفعل كأنه مسكوب من علو ، ومن شدة إتقان شره كأنه مسبوك .

ولما كان أكثر الأفعال باليد ، أسند إليها ما يراد به الجملة مصرحاً بعموم كل ما له أهلية التحرك فقال : ﴿أيدي الناس﴾ أي عقوبة لهم على فعلهم .

(103/604)

ولما ذكر علته البدائية ، ثنى بالجزائية فقال : ﴿لنذيقهم﴾ أي بما لنا من العظمة في رواية قنبل عن ابن كثير بالنون لإظهار العظمة في الإذاقة للبعض والعفو عن البعض ، وقراءة الباقين بالتحتانية على سنن الجلالة الماضي ؛ وأشار إلى كرمه سبحانه بقوله : ﴿بعض الذي عملوا﴾ أي وباله وحره وحرقته ، ويعفو عن كثير إما أصلاً ورأساً ، وإما المعاجلة به ويؤخره إلى وقت ما في الدنيا ، أو إلى الآخرة ، والمراد الجزاء بمثل أعمالهم جزاء لها تعبيراً عن المسبب بالسبب الذي أتوه إلى الناس فيعرفوا إذا سلبوا المال مقدار ما ذاق منهم ذلك الذي سلبوه ، وإذا قتل لهم حميم حرارة ما قاسى حميم ما قتلوه ، ونحو ذلك مما استهانوه لما أتوه إلى غيرهم من الأذى البالغ وهم يتضاحكون ويعجبون من جزعه ويستهزؤون غافلين

عن شدة ما يعاني من أنواع الحرق هو ومن يعز عليه أمره ، ويهمه شأنه ، ويده قد غلها عن المساعدة العجز ، وقصرها الضعف والقهر ؛ ثم ثلث بالعلة الغائية فقال : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي ليكون حالهم عند من ينظرهم حال من يرجى رجوعه عن فعل مثل ذلك خوفاً من أن يعاد لهم بمثل ذلك من الجزاء .

ولما كان الإنسان – لنقصه في تقيده بالجزئيات – شديد الوقوف مع العقل التجربي ، وكان علمهم بأيام الماضين ووقائع الأولين كافياً لهم في العظة للرجوع عن اعتقادهم ، والتبري من عنادهم ، وكانوا – لما لم يروا آثارهم رؤية اعتبار ، وتأمل وادكار ، عدوا ممن لم يرها ، فنبه سبحانه على ذلك بالاحتجاب عنهم بحجاب العزة ، أمراً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يأمرهم بالسير للنظر ، فقال تأكيداً لمعنى الكلام السابق نصحاً لهم ورفقاً بهم : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذي لا همّ لهم إلا الدنيا ، فلا يعبرون فيما ينظرون من ظاهر إلى باطن : ﴿ سيروا ﴾ وأشار إلى استغراق ديار المهلكين كل حد ما حولهم من الجهات كما سلف فقال : ﴿ في الأرض ﴾ فإن سيركم الماضي لكونه لم يصحبه عبرة عدم .

ولما كان المراد الانقياد إلى التوحيد ، وكان قد ذكرهم بما أصابهم على نحو ما أصاب به الماضين قال : ﴿ فانظروا ﴾ بفاء التعقيب ، ولما كان ما أحله بهم في غاية الشدة ، عرفهم بذلك ، فساق مساق الاستفهام تخويفاً لهم من إصابتهم بمثله فقال : ﴿ كيف ﴾ ولما كان عذابهم مهولاً ، وأمرهم شديداً وبيلاً ، دل عليه بتذكير الفعل فقال : ﴿ كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الذين ﴾ ولما كان المراد طوائف المعذبين ، وكانوا بعض من مضى ، فلم يستغرقوا الزمان ، بعض فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل أيامكم أذاقهم الله وبال أمرهم ، وأوقعهم في حفائر مكرهم .

ولما كان هذا التنبيه كافياً في الاعتبار ، فكان سامعه جديراً بأن يقول : قد تأملت فرأيت آثارهم عظيمة ، وصنائعهم مكينة ، ومع ذلك فمدنهم خاليه وبيوتهم خاوية ، قد ضربوا بسوط العذاب ، فعمهم الخسار والثياب ، فما لهم عذبوا ، فأجيب بقوله : ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ فلذلك أهلكناهم ولم تغنِ عنهم كثرتهم ، وأنجينا المؤمنين وما ضرتهم قلتهم .

ولما كانوا مع كثرة مرورهم على ديارهم ، ونظرهم لآثارهم ، وسماعهم لأخبارهم ، لم يتعظوا ، أشير إلى أنهم عدم ، بصرف الخطاب عنهم ، وتوجيهه إلى السامع المطيع ، فقال مسبباً عما مضى من إقامة الأدلة والوعظ والتخويف : ﴿ فأقم ﴾ أي يا من لا يفهم عنا حق الفهم سواه ، لأنا فضلناه على جميع الخلق ﴿ وجهك ﴾ أي لا تلفته أصلاً ﴿ للدين القيِّم ﴾ الذي لا عوج فيه بوجه ، بل هو عدل كله ، من التبري من الأوثان إلى التلبس بمقام

الإحسان ، فالزمه واجعله بنصب عينك لا تغفل عنه ولا طرفة عين ، لكونه سهلاً فيما تسبب الإعانه عليه في الظاهر بالبيان الذي ليس معه خفاء ، وفي الباطن بالجبل عليه حتى أنه ليقبله الأعمى والأصم والأخرس ، ويصير فيه كالجبل رسوخاً .

(105/604)

ولما كان حفظ الاستقامة عزيزاً ، أعاد التخويف لحفظ أهلها ، فقال ميسراً الأمر بعدم استغراق الزمان بإثبات الجار ، إشارة إلى الرضا باليسير من العمل ولو كان ساعة من نهار ، بشرط الاتصال بالموت : ﴿ من قبل ﴾ وفك المصدر للتصريح فقال : ﴿ أن يأتي يوم ﴾ أي عظيم ، وهو يوم القيامة ، أو الموت ، وأشار إلى تفرده سبحانه في الملك بقوله : ﴿ لا مرد له ﴾ ولفت الكلام في رواية قنبل من مظهر العظمة إلى أعظم منه لاقتضاء المقام ذلك وأظهر في رواية الباقين لئلا يتوهم عود الضمير إلى الدين فقال : ﴿ من الله ﴾ وإذا لم يرده هو لوعده بالإتيان به ، وهو ذو الجلال والإكرام ، فمن الذي يرده .

ولما حقق إتيانه ، فصل أمره مرغباً مرهباً ، فقال : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ يأتي ﴿ يصدعون ﴾ أي تتفرق الخلائق كلهم فرقة قد تخفى على بعضهم - بما أشار إليه الإدغام ، فيقولون : ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار .

ولما كان المعنى أنهم فريق في الجنة وفريق في السعير ، بين ذلك ببيان عاقبة سببه في جواب من كأنه قال : إلى أين يتفرقون ؟ قائلاً : ﴿ من كفر ﴾ أي منهم فعلم شيئاً ﴿ فعليه ﴾ أي لا على غيره ﴿ كفره ﴾ أي وباله ، وعلى أنفسهم يعتدون ولها يهدمون فيصيرون في ذلك اليوم إلى النار التي هم بها مكذبون ، ومن كان عليه كفره الذي أوبقه إلى الموت ، فلا خلاص له فيما بعد الفوت ، ووحد الضمير رداً له على لفظ من نصاً على أن كل واحد مجزيّ بعمله لا المجموع من حيث هو مجموع ، وإفهاماً لأن الكفرة قليل وإن كانوا أكثر من المؤمنين ، لأنهم لا مولى لهم ، ولتفرق كلمتهم ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ [الحشر : 14] ولأنه لا اجتماع بين أهل النار ليتأسى بعضهم ببعض ، بل كل منهم في شغل شاغل عن معرفة ما يتفق لغيره ﴿ ومن عمل صالحاً ﴾ أي بالإيمان وما يترتب عليه ، وأظهر ولم يضمر لئلا يتوهم عود الضمير على ﴿ من كفر ﴾ وبشارة بأن أهل الجنة كثير وإن كانوا قليلاً ، لأن الله مولاهم فهو يزكيهم ويؤيدهم ، وفي جمع الجزاء مع إفراد الشرط ترغيب في العمل من غير نظر إلى مساعد بأنه ينفع نفسه وغيره ، لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وأقل ما ينفع والديه وشيخه في ذلك العمل ، وعبر بالنفس ليدل – بعد الدلالة على إرادة العامل ومن

شايعه حتى كان بحكم اتحاد القصد إياه – على أن العمل الصالح يزكي النفوس ويطهرها من رذائل الأخلاق ، فقال : ﴿ فلأنفسهم ﴾ أي خاصة أعمالهم ولهم خاصة عملهم الصالح ولأنفسهم ﴿ يمهدون ﴾ أي يسوون ويوطئون منازل في القبور والجنة ، بل وفي الدنيا فإن الله يعزهم بعز طاعته ، والآية من الاحتباك : حذف أولاً عدوانهم على أنفسهم لما دل عليه من المهد ، وثانياً كون العمل خاصاً بهم لما دل عليه من كون الكفر على صاحبه خاصة ، وأحسن من هذا أن يقال : ذكر الكفر الذي هو السبب دليلاً على الإيمان ثانياً ، والعمل الصالح الذي هو الثمرة ثانياً دليلاً على العمل

(107/604)

السيء أولاً .

ولما فرغ من بيان تصدعهم ، ذكر علته فقال : ﴿ ليجزي ﴾ أي الله سبحانه الذي أنزل هذه السورة لبيان أنه ينصر أولياءه لإحسانهم لأنه مع المحسنين ، ولذلك اقتصر هنا على ذكرهم فقال : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي ولو على أدنى الوجوه ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ ولما كانت الأعمال نعمة منه ، فكان الجزاء محض إحسان ، قال : ﴿ من فضله ﴾ .

ولما كان تنعيمهم من أعظم عذاب الكافرين الذين كانوا يهزؤون بهم ويضحكون منهم ، علله بقوله على سبيل التأكيد لدعوى من يظن أن إقبال الدنيا على العصاة لمحبة الله لهم : ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ أي لا يفعل مع العريقين في الكفر فعل المحب ، فلا يسويهم بالمؤمنين ، وعلم من ذلك ما طوى من جزائهم ، فالآية من وادي الاحتباك ، وهو أن يؤتي بكلامين يحذف من كل منهما شيء ويكون نظمهما بحيث يدل ما أثبت في كل على ما حذف من الآخر ، فالتقدير هنا بعد ما ذكر من جزاء الذين آمنوا أنه يحب المؤمنين ويجزي الذين كفروا وعملوا السيئات بعدله لأنه لا يحب الكافرين ، فغير النظم ليدل مع دلالته كما ترى على ما حذف على أن إكرام المؤمنين هو المقصود بالذات ، وهو بعينه إرغام الكافرين ، وعبر في شق المؤمنين بالمنتهى الذي هو المراد من محبة الله لأنه أسرّ .

وفي جانب الكافرين بالمبدأ الذي هو مجاز لأنه أنكأ وأضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 630. 635 ﴾

(108/604)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ ﴾

أي أوجدكم ﴿ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أي أبقاكم ، فإن العرض مخلوق وليس بمبقي ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد ، أما الحشر فبقوله : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ والدليل قدرته على الخلق ابتداء ، وأما التوحيد فبقوله ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فقوله سبحانه أي سبحوه تسبيحاً أي نزهوه ولا تصفوه بالإشراك ، وقوله : ﴿ وتعالى ﴾ أي لا يجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فإذا قال سبحوه أي لا تصفوه بالإشراك ، وإذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

(109/604)

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك

مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم : ﴿ لَفَسَدَتِ السموات والأرض ﴾ [المؤمنون : 71] كما قال تعالى : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ [مريم : 90] وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذى عَمِلُواْ ﴾ واختلفت الأقوال في قوله : ﴿ فِى البر والبحر ﴾ فقال بعض المفسرين : المراد خوف الطوفان في البر والبحر ، وقال بعضهم عدم إنبات بعض الأراضي وملوحة مياه البحار ، وقال آخرون : المراد من البحر المدن ، فإن العرب تسمي المدائن بحوراً لكون مبنى عمارتها على الماء ويمكن أن يقال إن ظهور الفساد في البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار ، واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس ، فالفاسق مشرك بالله بفعله ، غاية ما في الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه ، فإذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما ، وقوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذى عَمِلُواْ ﴾ قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب افترائهم ، وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يعني كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع ، كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام ، فيقول القائل لماذا لا تؤدبه

بالكلام ؟ فإذا قال لا ينفع ربما يقع في وهمه أنه لا يبعد عن نفع ، فإذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه .

(110/604)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

لما بين حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلُ ﴾ أي قوم نوح وعاد وثمود ، وهذا ترتيب في غاية الحسن وذلك لأنه في وقت الامتنان والإحسان قال : ﴿ الله الذى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ [مريم : 40] أي آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر ﴾ [الروم : 41] أي قلل رزقكم ، ثم قال تعالى : ﴿ سِيرُواْ فِى الأرض ﴾ أي هو أعدمكم كم أعدم من قبلكم ، فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء ، ويسلب منكم الوجود والبقاء ، وأما سلب البقاء فبإظهار الفساد ، وأما سلب الوجود فبالإهلاك ، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء ، لأن الوجود أولاً ثم البقاء ، وعند السلب قدم البقاء ، وهو الاستمرار ثم الوجود .

وقوله : ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ يحتمل وجوهاً ثلاثة أحدها : أن الهلاك في الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضاً كالإهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت الثاني : أن كل كافر أهلك لم يكن مشركاً بل منهم من كان معطلاً نافياً لكنهم قليلون ، وأكثر الكفار مشركون الثالث : أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى ، كما قال تعالى : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] بل كان على الصغار والمجانين ، ولكن أكثرهم كانوا مشركين .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

(111/604)

لما نهى الكافر عما هو عليه ، أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبي عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فإنه أمر به أشرف الأنبياء ، وللمؤمنين في التكليف مقام الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام : " إن الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين " وقد ذكرنا معناه ، وقوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ﴾ يحتمل وجهين الأول : أن يكون قوله : ﴿ مِنَ الله ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ يَأْتِىَ ﴾ والثاني : أن يكون المراد ﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ﴾ أي الله لا يرد وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾

أي يتفرقون .

ثم أشار إلى التفرق بقوله : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالحا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالحا ﴾ ولم يقل ومن آمن وذلك لأن العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضاً للمكلف عليه ، وأما الكفر إذا جاء فلا زنة للعمل معه ، ووجه آخر : وهو أن الكفر قسمان : أحدهما : فعل وهو الإشراك والقول به ، والثاني : ترك وهو عدم النظر والإيمان فالعاقل البالغ إذا كان في مدينة الرسول ولم يأت بالإيمان فهو كافر سواء قال بالشرك أو لم يقل ، لكن الإيمان لا بد معه من العمل الصالح ، فإن الاعتقاد الحق عمل القلب ، وقول لا إله إلا الله عمل اللسان وشيء منه لا بد منه .

المسألة الثانية :

قال : ﴿ فَعَلَيْهِ ﴾ فوحد الكناية وقال : ﴿ فَلأَنفُسِهِمْ ﴾ جمعها إشارة إلى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته ، أما الغضب فمسبوق بالرحمة ، لازم لمن أساء .

المسألة الثالثة :

قال : ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ ولم يبين وقال في المؤمن ﴿ فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ تحقيقاً لكمال الرحمة فإنه عند الخيرين وفصل بشارة ، وعند غيره أشار إليه إشارة .

(112/604)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45)

ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح ، وهو الجزاء الذي يجازيه به الله والملك إذا كان كبيراً كريماً ، ووعد عبداً من عباده بأني أجازيك يصل إليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني أنا المجازي فكيف يكون الجزاء ، ثم إني لا أجازيك من العدل وإنما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الكافرين ﴾ أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وإن كان عند المحقق هذا الإجمال فيه كالتفصيل ، فإن عدم المحبة من الله غاية العذاب ، وأفهم ذلك ممن يكون له معشوق فإنه إذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته ، وإذا قيل له إنه قال إني أحب فلاناً كيف يكون سروره .

(113/604)

وفيه لطيفة وهي أن الله عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبد قدم الكافر فقال : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ [الروم : 44] وعندما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن فقال : ﴿ ليجزي الذين آمنوا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ لأن قوله ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ في الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا ﴾ لتحريض المؤمن فالنهي كالإيعاد والتحريض للتقرير والإيعاد مقدم عند الحكيم الرحيم ، وأما عندما ذكر الجزاء بدأ بالإحسان إظهاراً للكرم والرحمة ، فإن قال قائل هذا إنما يصح أن لو كان الذكر في كل موضع كذلك وليس كذلك فإن الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الإثابة ، فنقول إن كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ، ونحن نقول بأن كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالاً وهو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾ [الروم : 14 ، 15] قدم المؤمن على الكافر ، وههنا ذكر مثل ذلك المعنى في قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] أي يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضاً قدم الكافر في الذكر لأنه قال من قبل : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُبْلِسُ المجرمون ﴾ [الروم : 12] فذكر الكافر وإبلاسه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : 14] فكان ذكر المؤمن وحده لا بد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله :

﴿يُبْلِسُ المجرمون﴾ وقوله في حق المؤمن : ﴿فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال : ﴿وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 111.114﴾

(114/604)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾

في ﴿الفَسَادِ﴾ أربعة أقاويل

: أحدها : الشرك ، قاله السدي .

الثاني : ارتكاب المعاصي ، قاله أبو العالية .

الثالث : قحط المطر ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : فساد البر : قتل ابن آدم أخاه ، وفساد البحر : أخذ السفينة غصباً .

ويحتمل خامساً : أن ظهور الفساد ولاة السوء .

﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هنا أربعة أقاويل

: أحدها : أن البر الفيافي والبحر القرى ، قاله عكرمة ، وقال : إن العرب تسمي الأمصار

البحار .

الثاني : البر أهل العمود والبحر أهل القرى والريف ، قاله قتادة .

الثالث : أن البر بادية الأعراب ، قاله الضحاك والبحر الجزائر ؛ قاله عطاء .

الرابع : أن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر ، قاله ابن عباس .

وللمتعمقين في غوامض المعاني وجهان :

أحدهما : أن البر النفس والبحر القلب .

الثاني : أن البر اللسان والبحر القلب . لظهور ما على اللسان وخفاء ما في القلب . وهو بعيد .

﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ قال السدي : بما عملوا من المعاصي واكتسبوا من الخطايا .

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ من المعاصي جزاءً معجلاً في الدنيا وجزاءً مؤجلاً في الآخرة فصار عذاب الدنيا بعض الجزاء .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : يرجعون عن المعاصي ، قاله أبو العالية .

الثاني : يرجعون إلى حق ، قاله إبراهيم .

الثالث : يرجع من بعدهم ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : أقم وجهك للتوحيد ، قاله السدي .

الثاني : استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنة ، قاله ابن عيسى .

﴿ مِن قَبْلِ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ يعني يوم القيامة

. ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرقون قال الشاعر

:

(115/604)

وكنا كندماني جذيمة حقبةً . . . من الدهر حتى قيل له يتصدعا

أي لن يتفرقا

. ويحتمل وجهاً ثانياً : أنه ما يصدعهم يوم القيامة من أهوال .

وفيه قولان :

أحدهما : يتفرقون في عرصة القيامة فريق في الجنة وفريق في السعير ، قاله قتادة .

الثاني : يتفرق المشركون وآلهتهم في النار ، قاله الكلبي .

قوله : ﴿ . . . فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يسوون المضاجع في القبور ، قاله مجاهد .

الثاني : يوطئون في الدنيا بالقرآن وفي الآخرة بالعمل الصالح ، قاله يحيى بن سلام . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(116/604)

وقال ابن عطية :

ثم كرر مخاطبة الكفرة في أمر أوثانهم فذكر أفعال الله تعالى التي لا شريك له فيها وهي الخلق والرزق والإماتة والإحياء ولا يمكن أن ينكر ذلك عاقل ، ووقف الكفار على جهة التقرير والتوبيخ هل من شركائهم أي الذين جعلوهم شركاء من يفعل شيئاً من ذلك ، وهذا الترتيب ب ﴿ ثم ﴾ هو في الآحاد شيئاً بعد شيء ، ومن هنا أدخل الفقهاء الولد مع أبيه في تعقب الأحباس إذا كان اللفظ على أعقابهم ثم على أعقاب أعقابهم ، ثم نزه تعالى نفسه عن مقالتهم في الإشراك ، وقرأ الجمهور " يشركون " بالياء من تحت ، وقرأ الأعمش وابن وثاب بالتاء من فوق ، ثم ذكر تعالى على جهة العبرة ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي في قوله

﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ ، واختلف الناس في معنى ﴿ البر والبحر ﴾ في هذه الآية ، فقال مجاهد ﴿ البر ﴾ البلاد البعيدة من البحر ، و﴿ البحر ﴾ السواحل والمدن التي على ضفة البحر والأنهار الكبار ، وقال قتادة ﴿ البر ﴾ الفيافي ومواضع القبائل وأهل الصحاري ، و﴿ البحر ﴾ المدن جمع بحرة .

قال الفقيه الإمام القاضي : ومنه قول سعد بن عبادة للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول الحديث ولقد أجمع أهل هذه البحرة على أن يتوجوه ، ومما يؤيد هذا أن عكرمة قرأ " في البر والبحور " ، ورويت عن ابن عباس ، وقال مجاهد أيضاً : ظهور الفساد في البر قتل أحد ابني آدم لأخيه ، وفي البحر أخذ السفن غضباً ، وقال بعض العباد ﴿ البر ﴾ اللسان و﴿ البحر ﴾ القلب ، وقال الحسن بن أبي الحسن ﴿ البر والبحر ﴾ هما المعروفان المشهوران في اللغة .

(117/604)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا هو القول الصحيح وظهور الفساد فيهما هو بارتفاع البركات ونزول رزايا وحدوث فتن وتغلب عدو كافر ، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر ، قال ابن عباس : الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم وقلما توجد أمة فاضلة

مطيعة مستقيمة الأعمال إلا يدفع الله عنها هذه ، والأمر بالعكس في أهل المعاصي وبطر النعمة ، وكذلك كان أمر البلاد في وقت مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قد كان الظلم عم الأرض براً وبحراً ، وقد جعل الله هذه الأشياء ليجازي بها على المعاصي فيذيق الناس عاقبة إذنابهم لعلهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ بما كسبت ﴾ تقديره جزاء ما كسبت ، ويحتمل أن تتعلق الباء ب ﴿ ظهر ﴾ أي كسبهم المعاصي في البر والبحر هو نفس الفساد الظاهر ، والترجي في " لعل " هو بحسب معتقداتنا وبحسب نظرنا في الأمور ، وقرأ عامة القراء والناس " ليذيقهم " بالياء ، وقرأ قنبل عن ابن كثير والأعرج وأبو عبد الرحمن السلمي " لنذيقهم " بالنون ومعناهما بين ، وقرأ أيضاً أبو عبد الرحمن " لتذيقهم " بالتاء من فوق .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

(118/604)

هذا تنبيه لقريش وأمر لهم بالاعتبار فيمن سلف من الأمم وفي سوء عواقبهم بكفرهم وإشراكهم ، ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بإقامة وجهه ، والمعنى اجعل قصدك ومسعاك للدين أي لطريقه ولأعماله واعتقاداته ، و ﴿ القيم ﴾ أصله قيوم اجتمعت الواو والياء

وسبقت الياء وهي ساكنة فأبدلت الواو ياء وأدغمت الأولى في الثانية ، ثم حذره تعالى من يوم القيامة تحذيراً يعم العالم وإياهم القصد ، و ﴿ لا مرد له ﴾ معناه ليس فيه رجوع لعمل ولا لرغبة ولا عنه مدخل ، ويحتمل أن يريد لا يرده راد حتى لا يقع وهذا ظاهر بحسب اللفظ ، و ﴿ يصدعون ﴾ معناه يتفرقون بعد جمعهم ، وهذا هو التصدع والمعنى يتفرقون إلى الجنة وإلى النار ، ثم قسم الفريقين بأحكام تلحقهم من أعمال في الدنيا ثم عبر عن " الكفر " ب " عليه " وهي تعطي الثقل والمشقة وعن العمل الصالح باللام التي هي كلام الملك ، و ﴿ يمهدون ﴾ معناه يوطئون ويهيئون وهي استعارة منقولة من الفرش ونحوها إلى الأحوال والمراتب ، وقال مجاهد : هذا التمهيد هو للقبر .

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45)

اللام في قوله ﴿ ليجزي ﴾ متعلقة ب ﴿ يصدعون ﴾ [الروم : 43] ، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره ذلك أو فعل ذلك ﴿ ليجزي ﴾ وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله تعالى ﴿ من كفر ﴾ [الروم : 43] ﴿ وعمل صالحاً ﴾ [الروم : 43] ، وقوله تعالى ، ﴿ لا يحب الكافرين ﴾ ليس الحب بمعنى الإرادة ولكنه بمعنى لا يظهر عليهم أمارات رحمته ولا يرضاه لهم ديناً ونحو هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ظَهَر الفسادُ في البَرِّ والبحر ﴾

في هذا الفساد أربعة أقوال .

أحدها : نقصان البَرَكة ، قاله ابن عباس .

والثاني : ارتكاب المعاصي ، قاله أبو العالية .

والثالث : الشِّرك ، قاله قتادة ، والسدي .

والرابع : قحط المطر ، قاله عطية .

فأما البَرّ .

فقال ابن عباس : البَرُّ : البرِّيَة التي ليس عندها نهر .

وفي البحر قولان .

أحدهما : أنه ما كان من المدائن والقرى على شطِّ نهر ، قاله ابن عباس .

وقال عكرمة : لا أقول : بحركم هذا ، ولكن كل قرية عامرة .

وقال قتادة : المراد بالبَرِّ : أهل البوادي ، وبالبحر : أهل القرى .

وقال الزجاج : المراد بالبحر : مدن البحر التي على الأنهار ، وكل ذي ماءٍ فهو بحر .

والثاني : أن البحر : الماء المعروف .

قال مجاهد : ظهور الفساد في البر : قتل ابن آدم أخاه ، وفي البحر : مَلِك جائر يأخذ كل سفينة غصباً .

وقيل لعطيَّة : أيّ فساد في البحر ؟ فقال : إذا قلَّ المطر قل الغَوص .

قوله تعالى : ﴿ بما كسبتْ أيدي الناس ﴾ أي : بما عملوا من المعاصي ﴿ لِيُذيقَهم ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن محيصن ، وروح [عن يعقوب] ، وقنبل عن ابن كثير : ﴿ لِنُذيقَهم ﴾ بالنون ﴿ بعضَ الذي عَمِلوا ﴾ أي : جزاء بعض أعمالهم ؛ فالقحط جزاءٌ ، ونقصان البركة جزاءٌ ، ووقوع المعصية منهم جزاءٌ معجَّل لمعاصيهم أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ لعلَّهم يَرجِعونَ ﴾ في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الذين أُذيقوا الجزاءَ ، ثم في معنى رجوعهم قولان .

أحدهما : يرجعون عن المعاصي ، قاله أبو العالية .

والثاني : يرجعون إلى الحق ، قاله إبراهيم .

والثاني : أنهم الذين يأتون بعدهم ؛ فالمعنى : لعلَّه يرجع مَنْ بعدَهُم ، قاله الحسن .

(120/604)

قوله تعالى : ﴿ قُل سِيروا في الأرض ﴾ أي : سافِروا ﴿ فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : الذين كانوا قبلكم ؛ والمعنى : انظروا إلى مساكنهم وآثارهم ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ المعنى : فأُهلكوا بشِركهم .

﴿ فأَقَم وجهك للدّين ﴾ أي : أَقم قصدك لاتّباع الدّين ﴿ القيّمِ ﴾ وهو الإِسلام المستقيم ﴿ مِنْ قَبْلِ أن يأتيَ يومٌ لا مَرَدَّ له من الله ﴾ يعني : [يوم] القيامة لا يقدر أحد على رد ذلك اليوم ، لأن الله تعالى قد قضى كونه ﴿ يَومَئِذٍ يَصَّدَّعون ﴾ أي : يتفرّقون إلى الجنة والنار .

﴿ من كَفَرَ فعليه كُفره ﴾ أي : جزاء كفره ﴿ ومن عمل صالحاً فلأنفُسهم يَمْهَدُونَ ﴾ أي : يُوَطِّئُون .

وقال مجاهد : يسوُّون المضاجع في القبور ، قال أبو عبيدة : "مَنْ" يقع على الواحد والاثنين والجمع من المذكَّر والمؤنَّث ، ومجازها هاهنا مجاز الجميع ، و ﴿ يَمْهَد ﴾ بمعنى يكتسب ويعمل ويستعدّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(121/604)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ ﴾

ابتداء وخبر .

وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي .

ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ لا يفعل .

ثم نزّه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ، ويجعلون لهم من أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر ﴾ اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر ؛ فقال قتادة والسدّي : الفساد الشرك ، وهو أعظم الفساد .

وقال ابن عباس وعِكرمة ومجاهد : فساد الْبَرِّ قتلُ ابن آدم أخاه ؛ قابيل قُتل هابيل .

وفي البحر بالْمَلِك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً .

وقيل : الفساد القحط وقلّة النبات وذهاب البركة .

ونحوه قال ابن عباس قال : هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا .

قال النحاس : وهو أحسن ما قيل في الآية .

وعنه أيضاً : أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم .

وقال عطية : فإذا قلّ المطر قلّ الغَوْص عنده ، وأخفق الصيادون ، وعميت دواب البحر .

وقال ابن عباس : إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر ، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ .

وقيل : الفساد كساد الأسعار وقلّة المعاش .

وقيل : الفساد المعاصي وقطعُ السبيل والظلم ؛ أي صار هذا العمل مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات ؛ والمعنى كله متقارب .

والبر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس ؛ لا ما قاله بعض العُبّاد : أن البر اللسانُ والبحر القلب ؛ لظهور ما على اللسان وخفاء ما في القلب .

وقيل : البَر : الفيافي ، والبحر : القرى ؛ قاله عكرمة .

والعرب تسمي الأمصار البحار .

وقال قتادة : البَرّ أهل العمود ، والبحر أهل القرى والريف .

(122/604)

وقال ابن عباس : إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر ؛ وقاله مجاهد ، قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جارٍ فهي بحر .

وقال معناه النحاس ، قال : في معناه قولان : أحدهما : ظهر الجَدْب في البر ؛ أي في البوادي وقراها ، وفي البحر أي في مدن البحر ؛ مثل : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] . أي ظهر قلة الغيث وغلاء السعر .

﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ﴾ أي عقاب بعض ﴿ الذي عَمِلُواْ ﴾ ثم حذف .

والقول الآخر : أنه ظهرت المعاصي من قطع السبيل والظلم ، فهذا هو الفساد على الحقيقة ، والأوّل مجاز إلا أنه على الجواب الثاني ، فيكون في الكلام حذف واختصار دلّ عليه ما بعده ، ويكون المعنى : ظهرت المعاصي في البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليذيقهم عقاب بعض الذي عملوا .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يتوبون .

وقال : "بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا" لأن معظم الجزاء في الآخرة .

والقراءة "لِيُذِيقَهُمْ" بالياء .

وقرأ ابن عباس بالنون ، وهي قراءة السُّلَمِي وابن مُحَيْصِن وقُنْبُل ويعقوب على التعظيم ؛

أي نذيقهم عقوبة بعض ما عملوا .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ﴾ أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض ليعتبروا بمن قبلهم ، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل .

﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ أي كافرين فأهلكوا .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم ﴾ قال الزجاج : أي أقم قصدك ، واجعل جهتك اتباع الدّين القيم ؛ يعني الإسلام .

وقيل : المعنى أوضح الحق وبالغ في الإعذار ، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم .

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ﴾ أي لا يردّه الله عنهم ، فإذا لم يردّه لم يتهيأ لأحد دفعه .

ويجوز عند غير سيبويه "لاَ مَرَدٌّ لَهُ" وذلك عند سيبويه بعيد ، إلا أن يكون في الكلام عطف .

(123/604)

والمراد يوم القيامة .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرّقون .

وقال الشاعر :

وكنّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمةَ حِقْبَةً . . .

من الدهر حتى قِيل لن يَتَصدّعا

أي لن يتفرقا ؛ نظيره قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ "فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ" .

والأصل يتصدّعون ؛ ويقال : تصدّع القوم إذا تفرّقوا ؛ ومنه اشتق الصداع ، لأنه يفرق شُعب الرأس .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي جزاء كفره .

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يوطّئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح ؛ ومنه : مهدُ الصبيّ .

والمهاد الفراشُ ، وقد مهدت الفراش مَهْداً : بسطته ووطّأته .

وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها .

وتمهيد العذر : بسطُه وقبوله .

والتمهّد : التمكن .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد : "فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ" قال : في القبر .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ ﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله .

وقيل يصدّعون ليجزيهم الله ؛ أي ليميّز الكافر من المسلم .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(124/604)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾

كرر تعالى خطاب الكفار في أمر أوثانهم ، فذكر أفعاله التي لا يمكن أن يدعى له فيها شريك ، وهي الخلق والرزق والإماتة والإحياء ، ثم استفهم على جهة التقرير لهم والتوبيخ ، ثم نزه نفسه عن مقالتهم .

و ﴿ الله الذي خلقكم ﴾ : مبتدأ وخبر .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ﴿ الذي خلقكم ﴾ صفة للمبتدأ ، والخبر : ﴿ هل من شركائكم ﴾ ؛ وقوله : ﴿ من ذلكم ﴾ هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ لأن معناه : من أفعاله . انتهى .

والذي ذكره النحويون أن اسم الإشارة يكون رابطاً إذا كان أشير به إلى المبتدأ .

وأما ﴿ ذلكم ﴾ هنا فليس إشارة إلى المبتدأ ، لكنه شبيه بما أجازه الفراء من الربط

بالمعنى ، وخالفه الناس ، وذلك في قوله : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن ﴾ قال التقدير : يتربصن أزواجهم ، فقدر الضمير بمضاف إلى ضمير الذين ، فحصل به الربط ، كذلك قدر الزمخشري ﴿ من ذلكم ﴾ : من أفعاله المضاف إلى الضمير العائد على المبتدأ .

وقال الزمخشري أيضاً : هل من شركائكم الذين اتخذتموهم أنداداً له من الأصنام وغيرها من يفعل شيئاً ، قط من تلك الأفعال ، حتى يصح ما ذهبتم إليه ؟ فاستعمل قط في غير موضعها ، لأنها ظرف للماضي ، وهنا جعلها معمولة ليفعل .

وقال الزمخشري أيضاً : ومن الأولى والثانية ، كل واحدة مستقبلة تأكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم ؛ فمن الأولى للتبعيض ، والجار والمجرور خبر المبتدأ ؛ ومن يفعل هو المبتدأ ، ومن الثانية في موضع الحال من شيء ، لأنه نعت نكرة تقدم عليها فانتصب على الحال ؛ ومن الثالثة زائدة لانسحاب الاستفهام الذي معناه النفي على الكلام ، التقدير : من يفعل شيئاً من ذلكم ، أي من تلك الأفعال .

وقرأ الجمهور : ﴿ يشركون ﴾ ، بياء الغيبة ؛ والأعمش ، وابن وثاب : بتاء الخطاب ، والظاهر مراد ظاهر البر والبحر .

وقال الحسن : وظهور الفساد فيهما بارتفاع البركات ، ونزول رزايا ، وحدوث فتن ، وتقلب عدو كافر ، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر .

وقال ابن عباس : ﴿ الفساد في البر ﴾ ، القطاع فتسده .

وقال مجاهد : ﴿ في البر ﴾ ، بقتل أحد بني آدم لأخيه ، وفي البحر : بأخذ السفن غصباً ، وعنه أيضاً : البر : البلاد البعيدة من البحر ، والبحر : السواحل والجزر التي على ضفة البحر والأنهار .

وقال قتادة : البر : الفيافي ومواضع القبائل وأهل الصحارى والعمور ، والبحر : المدن ، جمع بحرة ، ومنه : ولقد أجمع أهل هذه البحيرة ليتوجوه ، يعني قول سعد بن عبادة في عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، ويؤيد هذا قراءة عكرمة .

والبحور بالجمع ، ورويت عن ابن عباس ، وكان قد ظهر الفساد براً وبحراً وقت بعثة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكان الظلم عم الأرض ، فأظهر الله به الدين ، وأزال الفساد ، وأخمده (صلى الله عليه وسلم) .

وقال النحاس : فيه قولان ، أحدهما : ظهر الجدب في البر في البوادي وقراها والبحر ، أي في مدن البحر ، مثل :

﴿ واسئل القرية ﴾ أي ظهر قلة العشب ، وغلاً السعر .

والثاني : ظهرت المعاصي من قطع السبيل والظلم ، فهذا هو الفساد على الحقيقة ، والأول مجاز ، وقيل : إذا قل المطر قل الغوص ، وأحنق الصياد وعميت دواب البحر .

وقال ابن عباس : إذا مطرت تفتحت الأصداف في البحر ، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ .

﴿ بما كسبت أيدي الناس ﴾ : أي بسبب معاصيهم وذنوبهم .

﴿ ليذيقهم ﴾ : أي أنه تعالى أفسد أسباب دنياهم ومحقهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما هم فيه .

وقال ابن عطية : ﴿ بما كسبت ﴾ : جزاء ما كسبت ، ويجوز أن يتعلق الباء بظهر ، أي بكسبهم المعاصي في البر والبحر ، وهو نفس الفساد الظاهر .

(126/604)

وقرأ السلمي ، والأعرج ، وأبو حيوة ، وسلام ، وسهل ، وروح ، وابن حسان ، وقنبل من طريق ابن مجاهد ، وابن الصباح ، وأبو الفضل الواسطي عنه ، ومحبوب عن أبي عمرو : لنذيقهم ، بالنون ؛ والجمهور : بالياء ، ثم أمرهم بالمسير في الأرض ، فينظروا كيف أهلك

الأمم بسبب معاصيهم وإشراكهم ، وذلك تنبيه لقريش وأمر لهم بالاعتبار بمن سلف من الأمم ، قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم .

﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ : أهلكهم كلهم بسبب الشرك ، وقوم بسبب المعاصي ، لأنه تعالى يهلك بالمعاصي ، كما يهلك بالشرك ، كأصحاب السبت .

أو أهلكهم كلهم ، المشرك والمؤمن ، كقوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ وأهلكهم كلهم ، وهم كفار ، فأكثرهم مشركون ، وبعضهم معطل .

وحين ذكر امتنانه قال : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ ، فذكر الوجود ثم البقاء بسبب الرزق .

وحين ذكر خذلانهم بالطغيان ، بسبب البقاء بإظهار الفساد ، ثم بسبب الوجود بالإهلاك .

﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ : يوم القيامة ، وفيه تحذير يعم الناس ، ﴿ لا مرد له من الله ﴾ ، المرد : مصدر رد ، ومن الله : يحتمل أن يتعلق بيأتي ، أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد حتى لا يأتي لقوله : ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ ويحتمل أن يتعلق بمحذوف يدل عليه مرد ، أي لا يرده هو بعد أن يجيء به ، ولا رد له من جهته .

﴿ يومئذ ﴾ : أي يوم إذ يأتي ذلك اليوم .

﴿ يصدعون ﴾ : يتفرقون ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه الصداع ، لأنه يفرق شعب الرأس ، وقال الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة حقبة . . .

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

ثم ذكر حالتي المتفرقين : ﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ : أي جزاء كفره ، وعبر عن حالة الكافر بعليه ، وهي تدل على الفعل والمشقة ، وعن حال المؤمن بقوله : ﴿ فلأنفسهم ﴾ ، باللام التي هي لام الملك .

(127/604)

و ﴿ يمهدون ﴾ : يوطئون ، وهي استعارة من الفرش ، وعبارة عن كونهم يفعلون في الدنيا ما يلقون به ، ما تقر به أعينهم وتسر به أنفسهم في الجنة .

وقال مجاهد : هو التمهيد للقبر .

وقال الزمخشري : وتقديم الظرف في الموضعين لدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعداه ، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه .

انتهى .

وهو على طريقته في دعواه أن تقديم المفعول وما جرى مجراه يدل على الاختصاص ، وأما

على مذهبنا فيدل على الاهتام ، وأما ما يدعيه من الاختصاص فمفهوم من آي كثيرة في القرآن منها : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ واللام في ﴿ ليجزي ﴾ ، قال الزمخشري : متعلق بيمهدون ، تعليل له وتكرير ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ، وترك الضمير إلى الصريح لتقديره أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح .

وقوله : ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ ، تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس .

وقال ابن عطية : ليجزي متعلق بيصدعون ، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره ذلك ليجزي ، وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله تعالى : ﴿ من كفر ﴾ ، ﴿ ومن عمل صالحاً ﴾ . انتهى .

ويكون قسم ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ على هذين التقديرين اللذين ذكرهما ابن عطية محذوفاً تقديره : كأنه قال : والكافرون بعدله ، ودل على حذف هذا القسيم قوله : ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ .

ومعنى نفي الحب هنا : أنه لا تظهر عليهم أمارات رحمته ، ولا يرضى الكفر لهم ديناً .

وقال الزمخشري : ﴿ من فضله ﴾ : بما تفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب ، وهذا يشبه الكناية ، لأن الفضل تبع للثواب ، فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له ، أو أراد من عطائه ، وهو ثوابه ، لأن الفضول والفواضل هي الأعطية عند العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَىْءٍ ﴾

أثبت له تعالى لوازمَ الأُلوهيَّةِ وخواصَّها ونفاها رأساً عَمَّا اتخذوه شركاء له تعالى من الأصنامِ وغيرِها مؤكّداً بالإنكارِ على ما دلَّ عليه البرهانُ والعيانُ ووقع عليه الوفاقُ ثم استنتج منه تنزهه عن الشُّركاءِ بقولِه تعالى ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقد جُوِّز أن يكونَ الموصولُ صفةً والخبرُ هل من شركائِكم والرابطُ قولُه تعالى مِن ذِلكم لأنه بمعنى من أفعاله ومن الأولى والثانية تفيدانِ شيوعَ الحُكمِ في جنسِ الشُّركاءِ والأفعالِ والثَّالثة مزيدةٌ لتعميمِ المنفيِّ وكل منها مستقلة بالتأكيدِ وقُرِىءَ تُشرِكون بصيغةِ الخطابِ ﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر ﴾ كالجدبِ والموتانِ وكثرةِ الحَرَقِ والغَرَقِ وإخفاقِ الغاصةِ ومحقِ البركاتِ وكثرةِ المضارِّ أو الضَّلالةِ والظُّلمِ ، وقيل المرادُ بالبحرِ قُرى السَّواحلِ وقُرى البحورِ ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى الناس ﴾ بشؤمِ مَعَاصيهم أو بكسبِهم إيَّاها . وقيل ظهر الفسادُ في البرِّ بقتلِ قابيلَ أخاهُ هابيلَ وفي البحرِ بأنَّ جَلَندى كانَ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَصْباً ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ

الذى عَمِلُواْ ﴾ أي بعضَ جزائِه فإنَّ تمامَه في الآخرةِ واللامُ للعلَّةِ أو للعاقبةِ وقُرىء لنُذيقهم بالنّونِ. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عمَّا كانُوا عليه.

(129/604)

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلُ ﴾ ليشاهدُوا آثارَهم ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ استئنافٌ للدّلالة على أنَّ ما أصابَهم لفشوّ الشركِ فيما بينَهم أو كان الشركُ في أكثرِهم وما دونه من المَعاصي في قليلٍ منهم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ القيم ﴾ أي البليغِ الاستقامة ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ ﴾ لا يقدرُ أحدٌ على ردّه ﴿ مِنَ الله ﴾ متعلق بيأتِى أو بمردّ لأنه مصدرٌ والمعنى لا يردُّه الله تعالى لتعلُّقِ إرادتِه القديمةِ بمجيئِه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أصله يتصدَّعون أي يتفرَّقُون فريقٌ في الجَنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ.

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وبالُ كُفرِه وهو النَّارُ المؤبَّدة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يسوون منزلاً في الجنَّة وتقديمُ الظَّرفِ في الموضعينِ للدّلالة على الاختصاصِ ﴿ لِيَجْزِىَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِن فَضْلِهِ ﴾ متلق بيصدَّعُون وقيل: بيمهدون أي يتفرَّقون بتفريقِ الله تعالى فريقينِ ليُجزي كلاً منهما بحسبِ أعمالِهم، وحيث كان جزاءُ

المؤمنين هو المقصودَ بالذَّاتِ أُبرز ذلك في معرضِ الغايةِ وعبر عنه بالفضل لما أَنَّ الإثابةَ بطريق التفضيل لا الوجوبِ وأُشير إلى جزاءِ الفريقِ الآخرِ بقولِه تعالى ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ فإنَّ عدمَ محبتِه تعالى كنايةٌ عن بُغضِه الموجبِ لغضبِه المستتبعِ للعقوبةِ لا محالةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(130/604)

وقال الآلوسى :

﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَىْءٍ ﴾

الظاهر أن الاسم الجليل مبتدأ و﴿ الذى ﴾ خبره والاستفهام إنكاري و﴿ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾ خبر مقدم و﴿ مِنْ ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿ مِنْ ﴾ فيه للتبعيض و﴿ مّن ذلكم ﴾ صفة ﴿ شَىْءٍ ﴾ قدمت عليه فاعربت حالاً و﴿ مِنْ ﴾ فيه للتبعيض أيضاً و﴿ شَىْءٍ ﴾ مفعول يفعل و﴿ مِنْ ﴾ الداخلة عليه مزيدة لتأكيد الاستغراق ، وجوز الزمخشري أن يكون الاسم الجليل مبتدأ و﴿ الذى ﴾ صفته والخبر ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾ الخ والرابط اسم الإشارة المشارية إلى أفعاله تعالى السابقة فمن ذلكم بمعنى من أفعاله ،

ووقعت الجملة المذكورة خبراً لأنها خبر منفي معنى وان كانت استفهامية ظاهراً فكأنه قيل : الله الخالق الرازق المميت المحيي لا يشاركه شيء ممن لا يفعل أفعاله هذه ، وبعضهم جعلها خبراً بتقدير القول فكأنه قيل : الله الموصوف بكونه خالقاً ورازقاً ومميتاً ومحييا مقول في حقه هل من شركائكم من هو موصوف بما هو موصوف به .

وتعقب ذلك أبو حيان بأن اسم الإشارة لا يكون رابطاً إلا إذا أشير به إلى المبتدأ وهو هنا ليس إشارة إليه لكنه شبيه بما أجازه الفراء من الربط بالمعنى وخالفه الناس وذلك في قوله تعالى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أزواجا يَتَرَبَّصْنَ ﴾ [البقرة : 234] فإن التقدير يتربصن أزواجهم فقدر الضمير بمضاف إلى ضمير ﴿ الذين ﴾ فحصل به الربط .

(131/604)

وكذلك قدر الزمخشري من ذلكم بمن أفعاله المضاف إلى ضمير المبتدأ لكن لا يخفى أن الإضافة غير معتبرة وعلى تقدير اعتبارها يلزم تقدير مضاف آخر ، وجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ الأولى لبيان من بفعل ومتعلقها محذوف و ﴿ مَن يَفْعَلُ ﴾ فاعل لفعل محذوف أي هل حصل واستقر من يفعل كائناً من شركائكم ، وكذا جوز في ﴿ مِنْ ﴾ الثانية أن تكون لبيان المستغرق ، وقيل : إن من الأولى ومن الثانية زائدتان كالثالثة وهو كما ترى ، والآية

على ما قلناه أولاً متضمنة جملتين دلت الأولى على إثبات ما هو من اللوازم المساوية للألوهية من الخلق والرزق والأمانة والإحياء له عز وجل وأفادت الثانية بواسطة عكس السالبة الكلية نفيها رأساً عن شركائهم الذين اتخذوهم شركاء له سبحانه من الأصنام وغيرها مؤكداً بالإنكار ، والعقل حاكم بأن ما يتخذ شريكاً كالذي اتخذ في الحكم المذكور أعني نفي تأتي تلك الأفعال منه ، وإن شئت جعلت ﴿ شُرَكَائِكُمْ ﴾ شاملاً للصنفين ويفهم من ذلك عدم صحة الشركة إذ لا يعقل شركة ما ليس باله لعدم وجود لازم الألوهية فيه لمن هو إله في الألوهية ولتأكيد ذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن شركهم ، والتعبير بالمضارع لما في الشرك من الغرابة أو للأشعار باستمراره وتجدده منهم ، وأشار بعضهم إلى أن تينك الجملتين يؤخذ منهما مقدمتان موجبة وسالبة كلية مرتبتان على هيئة قياس من الشكل الثاني وإن قوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ الخ يؤخذ منه سالبة كلية هي نتيجة ذلك القياس فتكون الجملتان المذكورتان في حكم قياس من الشكل الثاني ، وقوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ الخ في حكم النتيجة له ، ولا يخفى احتياج ذلك إلى تكلف فتأمل جداً .

وقرأ الأعمش .

وابن وثاب ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ بتاء الخطاب .

﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق واخفاق الصيادين والغاصة ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار ، وعن ابن عباس أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر وقالوا : إذا انقطع القطر عميت دواب البحر ، وقال مجاهد : ظهر الفساد في البر بقتل ابن آدم أخاه وفي البحر بأخذ السفن غصباً ، وفي رواية عن ابن عباس بأخذ جلندي كل سفينة غصبا ، ولعل المراد التمثيل ، وكذا يقال في قتل ابن آدم آخاه وكان أول معصية ظهرت في البر ؛ قال الضحاك : كانت الأرض خضرة مونقة يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذباً وكان لا يفترس الأسد البقرة ولا الذئب الغنم فلما قتل قابيل هابيل أقشعر ما في الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً زعافاً وقصد الحيوان بعضه بعضاً .

وذكر أن أول معصية في البحر غصب جلندي كل سفينة تمر عليه فكأن تخصيص الأمرين بالذكر لذلك ، وأياً ما كان فالبر والبحر على ظاهرهما ، وعن مجاهد البر البلاد البعيدة من البحر والبحر السواحل والمدن التي عند البحر والأنهار ، وقال قتادة : البر الفيافي ومواضع القبائل وأهل الصحاري والعمود والبحر المدن ، والعرب تسمى الأمصار بحاراً لسعتها ، ومنه قول سعد بن عبادة في عبد الله بن أبي بن سلول ، ولقد أجمع أهل هذه البحيرة يعني المدينة ليتوجوه .

قال أبو حيان : ويؤيد هذا قراءة عكرمة ﴿ والبحور ﴾ بالجمع ورويت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وجوز النحاس أن يكون البحر على ظاهره إلا أن الكلام على حذف مضاف أي مدن البحر فهو مثل ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] وجوز أيضاً أن يراد بالفساد المعاصي من قطع الطريق والظلم وغيرهما ، و ﴿ ءالَ ﴾ في ﴿ البر والبحر ﴾ للجنس وكذا في ﴿ الفساد ﴾ أي ظهر جنس الفساد من الجدب والموتان ونحوهما في جنس البر وجنس البحر ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى الناس ﴾ أي بسبب ما فعله الناس من المعاصي والذنوب وشؤمه وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] وهو على التفسير الأول للفساد ظاهر وأما على تفسيره بالمعاصي فالمعنى ظهرت المعاصي في البر والبحر بكسب الناس إياها وفعلهم لها ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ على الأول ظاهر وهو أن الله تعالى قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه وأما على الثاني فاللام مجاز على معنى أن ظهور المعاصي بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله تعالى وبال أعمالهم إرادة الرجوع

فكأنهم إنما فسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك .

وقرأ السلمي .

والأعرج.

وأبو حيوة .

وسلام .

وسهل .

وروح.

وابن حسان .

وقنبل من طريق ابن مجاهد .

وابن الصباح.

وأبي الفضل الواسطي عنه ومحبوب عن أبي عمرو لنذيقهم بالنون ، وظهور الفساد المذكور على ما أخرج ابن جرير .

(134/604)

وابن أبي حاتم عن قتادة كان قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث عليه الصلاة والسلام رجع من رجع من الناس عن الضلال والظلم ، وقيل : كان أوائل البعثة وذلك أن كفار قريش فعلوا ما فعلوا من المعاصي والاصرار على الشرك وإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا صلى الله عليه وسلم فاقحطوا وحل بهم من البلاء ما حل فأخبر الله سبحانه أن ذلك بسبب معاصيهم ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون .

وفسر هذا القائل : ﴿ الناس ﴾ بكفار قريش ، وقيل : كان في زامن سابق على زمان النزول أعم من أن يكون الزمان الذي قبيل البعثة أو بعيدها أو غير ذلك ، وحكم الآية عام في كل فساد يظهر إلى يوم القيامة ، ومن هنا قيل : من أذنب ذنباً يكون جميع الخلائق من الأنس والدواب والوحوش والطيور والذر خصماءه يوم القيامة لأنه تعالى يمنع المطر بشؤم المعصية فيتضرر بذلك أهل البر والبحر جميعاً ، وروي عن شقيق الزاهد أنه قال : من أكل الحرام فقد خان جميع الناس ، ووجه تعلق الآية بما قبلها أن فيها نعى ما يعم الشرك وغيره من المعاصي وفيما قبل نعى الشرك وفيها من تخويف المشركين ما فيها .

وقال الإمام : في وجه التعلق هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وإذا كان الشرك سببه جعل الله تعالى إظهارهم الشرك مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم لفسدت السموات والأرض كما قال سبحانه : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ [مريم

: 90] وإلى هذا أشار عز وجل بقوله سبحانه : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذى عَمِلُواْ ﴾ انتهى ، فتأمل وأنصف .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلُ ﴾

(135/604)

مسوق لتأكيد تسبب المعاصي لغضب الله تعالى ونكاله حيث أمروا بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله تعالى الأمم وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم ويتحققوا صدق ما تقدم ، وقوله تعالى : ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ استئناف للدلالة على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدمير جميعهم بل هو سبب للتدمير في أكثرهم وما دونه من المعاصي سبب له في قليل منهم .

وجوز أن يكون للدلالة على أن سوء عاقبتهم لفشو الشرك وغلبته فيهم ففيه تهويل لأمر الشرك بأنه فتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ القيم ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فأقم وتمام الكلام فيما هنا يعلم مما تقدم في هذه السورة الكريمة ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ﴾ جوز أن يتعلق بمرد

وهو مصدر بمعنى الرد ، والمعنى لا يرده سبحانه بعد أن يجيء به ولا رد له من جهته عز وجل فيفيد انتفاء رد غيره تعالى له بطريق برهاني ، واعترض بأنه لو كان كذلك للزم تنوين ﴿ يَوْمٍ ﴾ لمشابهته للمضاف .

وأجيب بأنه مبني على ما قال ابن مالك في التسهيل من أنه قد يعامل الشبيه بالمضاف معاملته فيترك تنوينه وحمل عليه قوله عليه الصلاة والسلام " لا مانع لما أعطيت " وتفصيله في شرحه ، وبعضهم جعله متعلقاً بمحذوف يدل عليه ﴿ مَرَدَّ ﴾ أي لا يرد من جهته تعالى أي لا يرده هو عز وجل ؛ وقيل : هو خبر مبتدأ محذوف والتقدير هو أي الرد المنفي كائن من الله تعالى ، والجملة استئناف جواب سؤال تقديره ممن ذلك الرد المنفي ؟ وقيل : هو متعلق بمحذوف وقع حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً للا ، وقيل : متعلق بالنفي أو بما دل عليه ، وقيل : متعلق بمحذوف وقع صفة ليوم ، وجوز كثير تعلقه بيأتي أي من قبل أي يأتي من الله تعالى يوم لا يقدر أحد أن يرده .

(136/604)

وتعقب بأن ذلك خلاف المتبادر من اللفظ والمعنى وهو مع ذلك قليل الفائدة وارتضاه الطيبي فقال : هذا الوجه أبلغ لإطلاق الرد وتفخيم اليوم وإن إتيانه من جهة عظيم قادر ذي

سلطان قاهر ومنه يعلم أن ذلك ليس قليل الفائدة .

نعم إن فيه الفصل الملبس وحال سائر الأوجه لا يخفى على ذي تمييز ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يأتي ﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أصله يتصدعون فقلبت تاؤه صاداً وأدغمت والتصدع في الأصل تفرق أجزاء الأواني ثم استعمل في مطلق التفرق أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير ، وقيل : يتفرقون تفرق الأشخاص على ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] لا تفرق الفريقين فإن المبالغة في التفرق المستفادة من ﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ إنما تناسب الأول ، ورجح الثاني بأنه المناسب للسياق والسباق إذ الكلام في المؤمنين والكافرين فما ذكر بيان لتباينهم في الدارين ويكفي للمبالغة شدة بعد ما بين المنزلتين حساً ومعنى وهو تفسير رواه عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر عن قتادة ، وروي أيضاً عن ابن زيد .

(137/604)

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وبال كفره وهي النار المؤبدة ففي الكلام مضاف مقدر أو الكفر مجاز عن جزائه بل عن جميع المضار التي لا ضرر وراءها ، وإفراد الضمير باعتبار

لفظ ﴿ مِنْ ﴾ وفيه إشارة إلى قلة قدرهم عند الله تعالى وحقارتهم مع ما علم من كثرة عددهم ، وجمعه في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا فَلِانفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ باعتبار معناها ، وفيه مع رعاية الفاصلة إشارة إلى كثرة قدرهم وعظمهم عند الله تعالى ، و ﴿ يَمْهَدُونَ ﴾ من مهد فراشه وطأه أي يوطؤون لأنفسهم كما يوطىء الرجل لنفسه فراشه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه وينغص عليه مرقده من نتوء أو قضض أو بعض ما يؤذي الراقد فكأنه شبه حالة المكلف مع عمله الصالح وما يتحصل به من الثواب ويتخلص من العقاب بحالة من يمهد فراشه ويوطؤه ليستريح عليه ولا يصيبه في مضجعه ما ينغص عليه ، وجوز أن يكون المعنى فعلى أنفسهم يشفقون على أن ذلك من قولهم في المثل للمشفق أم فرشت فأنامت فيكون الكلام كناية إيمائية عن الشفقة والمرحمة والأول أظهر ، والظاهر أن هذه التوطئة لما بعد الموت من القبر وغيره ، وأخرج جماعة عن مجاهد أنه قال ؛ فلأنفسهم يمهدون أن يسوون المضاجع في القبر وليس بذاك .

وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص وقيل : للاهتمام ، ومقابلة من ﴿ كَفَرَ ﴾ بمن عمل صالحاً لا بمن آمن إما للتنويه بشأن الإيمان بناءً على أن المراد بالعمل الصالح وإما لمزيد الاعتناء بشأن المؤمن العامل بناءً على أن المراد بالعمل الصالح ما يشمل العمل القلبي والقالبي ويشعر بأن المراد بمن عمل صالحاً المؤمن العامل قوله تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِن فَضْلِهِ ﴾ فإنه علة ليمهدون وأقيم فيه الموصول مقام الضمير تعليلاً للجزاء لما أن الموصول في معنى المشتق والتعليق به يفيد علية مبدأ الاشتقاق ، وذكر ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ للدلالة على أن الإثابة تفضل محض ؛ وتأويله بالعطاء أو الزيادة على ما يستحق من الثواب عدول عن الظاهر ، وجوز أن يكون ذلك علة ليصدعون والاقتصار على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء بفحوى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ فإن عدم المحبة كناية عن البغض في العرف وهو يقتضي الجزاء بموجبه فكأنه قيل : وليعاقب الكافرين .

وفي "الكشاف" أن تكرير الذين آمنوا وعملوا الصالحات وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده تعالى إلا المؤمن الصالح ، وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ ﴾ الخ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس ويعني بذلك كل كلامين يقرر الأول الثاني وبالعكس سواء كان صريحاً وإشارة أو مفهوماً ومنطوقاً وذلك كقول ابن هانىء :

فما جازه جود ولا حل دونه . . .

ولكن يصير الجود حيث يصير

وبيانه فيما نحن فيه أن قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ يدل بمنطوقه على ما قرر على اختصاصهم بالجزاء التكريمي وبمفهومه على أنهم أهل الولاية والزلفى ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ لتعليل الاختصاص يدل بمنطوقه على أن عدم المحبة يقتضي حرمانهم وبمفهومه على أن الجزاء لأضدادهم موفر فهو جل وعلا محب للمؤمنين ، وذكر العلامة الطيبي الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم ﴾ [الروم : 43] الآية بتمامها كالمورد للسؤال والخطاب لكل أحد من المكلفين وقوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ [الروم : 44] الآية وارد على الاستئناف منطو على الجواب فكأنه لما قيل : أقيموا على الدين القيم قبل مجيء يوم يتفرقون فيه فقيل : ما للمقيمين على الدين وما على المنحرفين عنه وكيف يتفرقون ؟ فأجيب من كفر فعليه كفره الآية ، وأما قوله سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية فينبغي أن يكون تعليلاً للكل ليفصل ما يترتب على ما لهم وعليهم لكن يتعلق بيمهدون وحده لشدة العناية بشأن الإيمان والعمل الصالح وعدم الإعباء بعمل الكافر ولذلك وضع موضعه ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ انتهى فلا تغفل ، وفي الآية لطيفة نبه عليها الإمام قدس سره وهي أن الله عز وجل عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبيد قدم الكافر وعندما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن لأن قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ وعيد للمكلف ليمتنع عما يضره لينقذه سبحانه من الشر وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ

صالحا ﴾ [الروم : 44] تحريض له وترغيب في الخير ليوصله إلى الثواب والإنقاذ مقدم عند الحكيم الرحيم وأما عند الجزاء فابتدأ جل شأنه بالإحسان إظهاراً للكرم والرحمة . هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 21 صـ ﴾

(140/604)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾

هذا الاستئناف الثاني من الأربعة التي أقيمت عليها دلائل انفراد الله تعالى بالتصرف في الناس وإبطال ما زعموه من الإشراك في الإلهية كما أنبأ عنه قوله ﴿ هل مِن شركائكم مَن يفعل مِنْ ذَلكم مِنْ شيء ، وإدماجاً للاستدلال على وقوع البعث .

وقد جاء هذا الاستئناف على طريقة قوله : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ [يونس : 34] واطَّرد الافتتاح بمثله في الآيات التي أريد بها إثبات البعث كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ، وسيأتي في الآيتين بعد هذه .

و ﴿ ثم ﴾ مستعمل في معنيي التراخي الزمني والرتبي .

و ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي

ولذلك زيدت ﴿ مِن ﴾ الدالة على تحقيق نفي الجنس كله في قوله ﴿ مِن شيء .

﴾ والمعنى : ما من شركائكم من يفعل شيئاً من ذلكم .

ف ﴿ من ﴾ الأولى بيانية هي بيان للإبهام الذي في ﴿ من يفعل ، ﴾ فيكون ﴿ من يفعل

﴾ مبتدأ وخبره محذوف دل عليه الاستفهام ، تقديره : حصل ، أو وجد ، أو هي

تبعيضية صفة لمقدر ، أي هل أحد مِن شركائكم .

و ﴿ من ﴾ الثانية في قوله ﴿ من ذلكم ﴾ تبعيضية في موضع الحال ﴿ من شيء .

ومن ﴾ الثالثة زائدة لاستغراق النفي .

وإضافة (شركاء) إلى ضمير المخاطبين من المشركين لأن المخاطبين هم الذين خلعوا على

الأصنام وصف الشركاء لله فكانوا شركاء بزعم المخاطبين وليسوا شركاء في نفس الأمر ،

وهذا جار مجرى التهكم ، كقول خالد بن الصعق لعمرو بن معديكرب في مجمع من مجامع

العرب بظاهر الكوفة فجعل عمرو يحدثهم عن غاراته فزعم أنه أغار على نهد فخرجوا

إليه يقدمهم خالد بن الصَعق وأنه قتله ، فقال له خالد بن الصعق : "مهلاً أبا ثور قتيلُك

يسمع" أي القتيل بزعمك .

والقرينة قوله "يسمع" كما أن القرينة في هذه الآية هي جملة التنزيه عن الشريك .

والإشارة بـ ﴿ ذلكم ﴾ إلى الخلق ، والرزق ، والإماتة ، والإحياء ، وهي مصادر الأفعال المذكورة .

وأفرد اسم الإشارة بتأويل المذكور .

وجملة ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ مستأنفة لإنشاء تنزيه الله تعالى عن الشريك في الإلهية .

وموقعها بعد الجملتين السابقتين موقع النتيجة بعد القياس ، فإن حاصل معنى الجملة الأولى أن الإله الحق وهو مسمى اسم الجلالة هو الذي خَلَق ورزق ويُميت ويُحيي ، فهذا في قوة مقدمة هي صغرى قياس ، وحاصل الجملة الثانية أن لا أحد من الأصنام بفاعل ذلك ، وهذه في قوة مقدمة هي كبرَى قياسسٍ وهو من الشكل الثاني ، وحاصل معنى تنزيه الله عن الشريك أن لا شيء من الأصنام بإله .

وهذه نتيجة قياس من الشكل الثاني .

ودليل المقدمة الصغرى إقرار الخصم ، ودليل المقدمة الكبرى العقل .

وقرأ الجمهور ﴿ تشركون ﴾ بفوقية على الخطاب تبعاً للخطاب في ﴿ ءاتيتم ﴾ [الروم : 39] .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بتحتية على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

موقع هذه الآية ومعناها صالح لعدة وجوه من الموعظة ، وهي من جوامع كلم القرآن .

(142/604)

والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم فأما موقعها فيجوز أن تكون متصلة بقوله قبلها ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم الآيات ﴾ [الروم : 9] ، فلما طولبوا بالإقرار على مَا رأوه من آثار الأمم الخالية ، أو أُنكِرَ عليهم عدمُ النظر في تلك الآثار ، أُتبع ذلك بما أدَّى إليه طريق الموعظة من قوله ﴿ هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ [الروم : 27] ، ومن ذكر الإنذار بعذاب الآخرة ، والتذكير بدلائل الوحدانية ونِعَم الله تعالى ، وتفريع استحقاقه تعالى الشكر لذاته ولأجل إنعامه استحقاقاً مستقراً إدراكه في الفطرة البشرية ، وما تخلل ذلك من الإرشاد والموعظة ، عاد الكلام إلى التذكير بأن ما حلّ بالأمم الماضية من المصائب ما كان إلا بما كسبت أيديهم ، أي بأعمالهم ، فيوشك أن يحلّ مثل ما حلّ بهم بالمخاطبين الذين كسبت أيديهم مثلَ ما كسبت أيدي أولئك .

فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع النتيجة من مجموع الاستدلال أو موقع الاستئناف البياني بتقدير سؤال عن سبب ما حلّ بأولئك الأمم .

ويجوز أن تقع هذه الآية موقع التكملة لقوله ﴿ وإذا مسّ الناسَ ضُر دَعوا ربهم ﴾ [الروم : 33] الآية ، فهي خبر مستعمل في التنديم على ما حلّ بالمكذبين المُخاطبين من ضرّ ليعلموا أن ذلك عقاب من الله تعالى فيقلعوا عنه خشية أن يحيط بهم ما هو أشد منه ، كما يؤذن به قوله عقب ذلك ﴿ لعلهم يرجعون .

﴿ فالإتيان بلفظ الناس في قوله ﴿ بما كسبت أيدي الناس ﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة إيضاح المقصود ، ومقتضى الظاهر أن يقال "بما كسبت أيديهم" .

(143/604)

فالآية تشير إلى مصائب نزلت ببلاد المشركين وعطلت منافعها ، ولعلها مما نشأ عن الحرب بين الروم وفارس ، وكان العرب منقسمين بين أنصار هؤلاء وأنصارِ أولئك ، فكان من جراء ذلك أن انقطعت سبل الأسفار في البر والبحر فتعطلت التجارة وقلّت الأقوات بمكة والحجاز كما يقتضيه سَوْق هذه الموعظة في هذه السورة المفتتحة بـ ﴿ غُلِبَتِ الرومُ ﴾ [الروم : 2] .

فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع الاستئناف البياني لسبب مسِّ الضر إياهم حتى لجأوا إلى الضراعة إلى الله ، وما بينها وبين جملة ﴿ وإذا مسّ الناسَ ضرّ ﴾ [الروم : 33] إلى آخره اعتراض واستطراد تخلل في الاعتراض .

ويجوز أن يكون موقعها موقع الاعتراض بين ذكر ابتهال الناس إلى الله إذا أحاط بهم ضر ثم إعراضهم عن عبادته إذا أذاقهم منه رحمةً وبين ذكر ما حلّ بالأمم الماضية اعتراضاً ينبىء أن الفساد الذي يظهر في العالم ما هو إلا من جراء اكتساب الناس وأن لو استقاموا لكان حالهم على صلاح .

و﴿ الفساد : سوء الحال ، وهو ضد الصلاح ، ودل قوله : في البر والبحر ﴾ على أنه سوء الأحوال في ما ينتفع به الناس من خيرات الأرض برها وبحرها .

ثم التعريف في ﴿ الفساد : ﴾ إما أن يكون تعريف العهد لفساد معهود لدى المخاطبين ، وإما أن يكون تعريف الجنس الشامل لكل فساد ظهر في الأرض برِّها وبحرِها أنه فساد في أحوال البر والبحر ، لا في أعمال الناس بدليل قوله ﴿ ليذيقهم بعضَ الذي عمِلوا لعلهم يرجعون ﴾ .

وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضارّه ، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ ، وفي مَوتان الحيوان المنتفع به ، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى ، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض .

وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلّة الحيتان واللؤلؤ والمرجان فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر ، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس .

وقيل : أريد بالبر البَوادي وأهل الغمور وبالبحر المدن والقرى ، وهو عن مجاهد وعكرمة وقال : إن العرب تسمي الأمصار بحراً .

قيل : ومنه قول سعد بن عبادة في شأن عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول : ولقد أجمع أهل هذه البحرة على أن يتوّجوه .

يعني بالبحرة : مدينة يثرب وفيه بُعد .

وكأنَّ الذي دعا إلى سلوك هذا الوجه في إطلاق البحر أنه لم يعرف أنه حدث اختلال في سير الناس في البحر وقلة فيما يخرج منه .

وقد ذكر أهل السير أنَّ قريشاً أصيبوا بقحط وأكلوا الميتة والعِظام ، ولم يذكروا أنهم تعطلت أسفارهم في البحر ولا انقطعت عنهم حيتان البحر ، على أنهم ما كانوا يعرفون بالاقتيات من الحيتان .

وعلى هذه الوجوه الثلاثة يكون الباء في قوله بما كسبت أيدي الناس ﴾ للعوض ، أي جزاء لهم بأعمالهم ، كالباء في قوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : 30] ، ويكون اللام في قوله ﴿ ليذيقهم ﴾ على حقيقة معنى التعليل .

ويجوز أن يكون المراد بالفساد : الشرك قاله قتادة والسدّي فتكون هذه الآية متصلة بقوله ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ إلى قوله : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ [الروم : 40] ، فتكون الجملة إتماماً للاستدلال على وحدانية الله تعالى تنبيهاً على أن الله خلق العالم سالماً من الإشراك ، وأن الإشراك ظهر بما كسبت أيدي الناس من صنيعهم .

وهذا معنى قوله في الحديث القدسي في "صحيح مسلم" : " إني خلقت عبادي حُنَفَاء كلَّهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فأجالتهم عن دينهم ، وأمَرْتهم أن يشركوا بي " الحديث .

(145/604)

فذكر البر والبحر لتعميم الجهات بمعنى : ظهر الفساد في جميع الأقطار الواقعة في البر والواقعة في الجزائر والشطوط ، ويكون الباء في قوله ﴿ بما كسبت أيدي الناس ﴾ للسببية ، ويكون اللام في قوله ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ لامَ العاقبة ، والمعنى : فأذقناهم

بعض الذي عملوا ، فجُعلت لام العاقبة في موضع الفاء كما في قوله تعالى:

﴿ فالتقطه ءال فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ﴾ [القصص : 8] ، أي فأذقنا الذين أشركوا بعض ما استحقوه من العذاب لشركهم .

ويجوز أن يكون المعنى أن الله تعالى خلق العالم على نظام مُحكم ملائم صالح للناس فأحدث الإنسان فيه أعمالاً سيئة مفسدة ، فكانت وشائجَ لأمثالها :

" وهل ينبت الخطيَّ إلا وشيجُه "

فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين : 4 6] ، وعلى هذا الوجه يكون محمل الباء ومحمل اللام مثل محملهما على الوجه الرابع .

وأطلق الظهور على حدوث حادث لم يكن ، فشبه ذلك الحدوث بعد العدم بظهور الشيء الذي كان مختفياً .

ومحمل صيغة فعل ﴿ ظهر ﴾ على حقيقتها من المضي يقتضي أن الفساد حصل وأنه ليس بمستقبل ، فيكون إشارة إلى فساد مشاهَد أو محقق الوقوع بالأخبار المتواترة .

وقد تحمل صيغة الماضي على معنى توقع حصول الفساد والإنذار به فكأنه قد وقع على طريقة ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] .

وأيّاً ما كان الفساد من معهود أو شامل ، فالمقصود أن حلوله بالناس بقدرة الله كما دل عليه

قوله ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ ، وأن الله يقدر أسبابه تقديراً خاصاً ليجازي من يغضب عليهم على سوء أفعالهم .

(146/604)

وهو المراد بما كسبت أيديهم لأن إسناد الكسب إلى الأيدي جرى مجرى المثل في فعل الشر والسوء من الأعمال كلها ، دون خصوص ما يعمل منها بالأيدي لأن ما يكسبه الناس يكون بالجوارح الظاهرة كلها ، وبالحواس الباطنة من العقائد الضالة والأدواء النفسية .

و﴿ ما ﴾ موصولة ، وحذف العائد من الصلة ، وتقديره : بما كسبته أيدي الناس ، أي بسبب أعمالهم .

وأعظم ما كسبته أيدي الناس من الأعمال السيئة الإشراك وهو المقصود هنا وإن كان الحكم عاماً .

ويعلم أن مراتب ظهور الفساد حاصلة على مقادير ما كسبت أيدي الناس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُئِلَ : أي الذنب أعظم ؟ " أن تدعُو للهِ نِدّاً وهو خلقك " وقال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : 30] وقال : ﴿ وأنْ لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ [الجن : 16] .

ويجري حكمُ تعريف ﴿ الناس ﴾ على نحو ما يجري في تعريف ﴿ الفساد ﴾ من عهد أو عموم ، فالمعهود هم المشركون وقد شاع في القرآن تغليب اسم ﴿ الناس ﴾ عليهم .

والإذاقة : استعارة مكنية ؛ شبه ما يصيبهم من الآلام فيُحسون بها بإصابة الطعام حاسة المطعم .

ولما كان ما عملوه لا يصيبهم بعينه تعين أن بعض الذي عملوا أطلق على جزاء العمل ولذلك فالبعضية تبعيض للجزاء ، فالمراد بعض الجزاء على جميع العمل لا الجزاء على بعض العمل ، أي أن ما يذيقهم من العذاب هو بعض ما يستحقونه .

وفي هذا تهديد إن لم يُقلعوا عن مساوىء أعمالهم كقوله تعالى:

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ [فاطر : 45] ، ثم وراء ذلك عذاب الآخرة كما قال تعالى : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ [طه : 127] .

والعدول عن أن يقال : بعض أعمالهم إلى ﴿ بعضَ الذي عملوا ﴾ للإيماء إلى ما في الموصول من قوة التعريف ، أي أعمالهم المعروفة عندهم المتقرر صدورها منهم .

والرجاء المستفاد من (لعلَّ) يشير إلى أن ما ظهر من فساد كاف لإقلاعهم عما هم اكتسبوه ، وأن حالهم حال من يُرجى رجوعه فإن هم لم يرجعوا فقد تبين تمردهم وعدم إجداء الموعظة فيهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أو لا يَرَوْن أنهم يُفْتَنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون ﴾ [التوبة : 126] .

والرجوع مستعار للإقلاع عن المعاصي كأنَّ الذي عصى ربه عبد أبق عن سيّده ، أو دابة قد أبدت ، ثم رجع .

وفي الحديث " الله أفرحُ بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكاني ، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا دابته عنده " .

وقرأ الجمهور ﴿ ليذيقهم ﴾ بالياء التحتية ، أي ليذيقهم الله .

ومعاد الضمير قوله ﴿ الله الذي خلقكم ﴾ [الروم : 40] .

وقرأه قنبل عن ابن كثير وروح عن عاصم بنون العظمة .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

لما وعظهم بما أصابهم من فساد الأحوال ونبههم إلى أنها بعض الجزاء على ما كسبت أيديهم عرَّض لهم بالإنذار بفساد أعظم قد يحلّ بهم مثله وهو ما أصاب الذين من قبلهم بسبب ما

كانوا عليه من نظير حال هؤلاء في الإشراك فأمرهم بالسير في الأرض والنظر في مصير الأمم التي أشركت وكذبت مثل عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم لأن كثيراً من المشركين قد اجتازوا في أسفارهم بديار تلك الأمم كما قال تعالى ﴿ وإنكم لتَمُرُّون عليهم مُصْبِحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : 137 138] .

فهذا تكرير وتأكيد لقوله السابق ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ [الروم : 9] ، وإنما أعيد اهتماماً بهذه العبرة مع مناسبة قوله ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ [الروم : 41] .

(148/604)

والعاقبة : نهاية الأمر .

والمراد بالعاقبة الجنس ، وهو متعدد الأفراد بتعدد الذين من قبل ، ولكل قوم عاقبة .

وجملة ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ واقعة موقع التعليل لجملة ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ ، أي سبب تلك العاقبة المنظورة هو إشراك الأكثرين منهم ، أي أن أكثر تلك الأمم التي شوهدت عاقبتُها الفظيعة كان من أهل الشرك فتعلمون أن سبب حلول تلك العاقبة بهم هو شركهم ، وبعض تلك الأمم لم يكونوا مشركين وإنما أصابهم لتكذيبهم رسلهم مثل

أهل مدين قال تعالى : ﴿ أكُفَّارُكُم خيرٌ من أولئكم ﴾ [القمر : 43] .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

تفرع على الإنذار والتحذير من عواقب الشرك تثبيتُ الرسول صلى الله عليه وسلم على شريعته ، ووعد بأن يأتيه النصر كقوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيَك اليقين ﴾ [الحجر : 99] ، مع التعريض بالإرشاد إلى الخلاص من الشرك باتباع الدّين القيّم ، أي الحق .

وهذا تأكيد للأمر بإقامة الوجه للدين في قوله ﴿ فأقم وجهك للدّين حنيفاً ﴾ [الروم : 30] ، فإن ذلك لما فُرع على قوله ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ [الروم : 9] ، وما اتصل من تسلسل الحجج والمواعظ فُرع أيضاً نظيره هذا على قوله ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ [الروم : 42] وقد تقدم الكلام على نظير قوله ﴿ فأقم وجهك للدّين ﴾ وعلى معنى إقامة الوجه عند قوله ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ [الروم : 30] .

(149/604)

و ﴿ القيّم ﴾ بوزن فَيْعل ، وهي زنة تدل على قوة ما تصَاغ منه ، أي : الشديد القيام ، والقيام هنا مجاز في الإصابة لأن الصواب يشبَّه بالقيام ، وضده يشبه بالعِوج ، وقد جمعهما

قوله تعالى ﴿ ولم يجعل له عِوَجاً قيّماً ﴾ [الكهف : 1 ، 2] فوصف الإسلام في الآية السابقة بالحنيف والفطرة ووصف هنا بالقيّم .

وبين ﴿ أقم ﴾ و ﴿ القيم ﴾ محسن الجناس .

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر إعراضٌ عن صريح خطاب المشركين .

والمقصود التعريض بأنهم حَرموا أنفسهم من اتباع هذا الدين العظيم الذي فيه النجاة .

يؤخذ هذا التعريض من أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالدوام على الإسلام ومن قوله عقب ذلك ﴿ يومئذ يصَّدَّعون ﴾ الآية .

والمردّ : مصدر ميمي من الردّ وهو الدفع ، و ﴿ له ﴾ يتعلق به ، و ﴿ من الله ﴾ متعلق بـ ﴿ يأتي ﴾ و ﴿ من ﴾ ابتدائية .

والمراد (باليوم) يوم عذاب في الدنيا وأنه إذا جاء لا يردّه عن المجازَيْن به رادّ لأنه آت من الله .

والظاهر أن المراد به يوم بدر .

و ﴿ يصدعون ﴾ أصله يَتصَدَّعون فقلبت التاء صاداً لتقارب مخرجيهما لتأتي التخفيف بالإدغام .

والتصدع : مطاوع الصدع ، وحقيقة الصدع : الكسر والشق ، ومنه تصدع القدح .

والمراد باليوم : يوم الحشر .

والتصدع : التفرق والتمايز .

ويكون ضمير الجمع عائداً إلى جميع الناس ، أي يومئذ يفترق المؤمنون من الكافرين على نحو قوله تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون فأما الذين ءامنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُحْبَرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآمرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ [الروم : 14 16] .

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44)

(150/604)

هذه الجملة تتنزل منزلة البيان لإجمال الجملة التي قبلها وهي ﴿ فأقم وجهك للدّين القيم ﴾ [الروم : 43] ، إذ التثبيت على الدين بعد ذكر ما أصاب المشركين من الفساد بسبب شركهم يتضمن تحقير شأنهم عند الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، فبين ذلك بأنهم لا يَضرون بكفرهم إلا أنفسهم ، والذي يكشف هذا المعنى تقديم المسند في قوله ﴿ فعليه كفره ﴾ فإنه يفيد تخصيصه بالمسند إليه ، أي فكفره عليه لا عليك ولا على المؤمنين ، ولهذا ابتدىء بذكر حال من كَفر ثم ذُكر بعدَه ﴿ من عمل صالحاً ﴾ .

واقتضى حرف الاستعلاء أن في الكفر تبعة وشدة وضَرّاً على الكافر ، لأن (عَلى)

تقتضي ذلك في مثل هذا المقام ، كما اقتضى اللام في قوله ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾ أن لِمجرورها نفعاً وغنماً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة : 286] .

وقال توبة بن الحُمَيِّر :

وقد زعمت ليلى بأني فاجر . . .

لنفسي تُقاها أو عليها فجورها

وأفرد ضمير ﴿ كفره ﴾ رعياً للفظ ﴿ مَن ﴾ .

وهذا التركيب من جوامع الكلم لدلالته على ما لا يحصى من المضارّ في الكفر على الكافر وأنه لا يَضُر غيره ، مع تمام الإيجاز ، وهو وعيد لأنه في معنى : من كفر فجزاؤه عقاب الله ، فاكتفي عن التصريح بذلك اكتفاء بدلالة (على) من قوله ﴿ فعليه كفره ﴾ وبمقابلة حالهم بحال من عمل صالحاً بقوله ﴿ ليجزي الذين ءامنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ .

وأما قوله ﴿ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾ فهو بيان أيضاً لما في جملة ﴿ فأقم وجهك للدّين القيّم ﴾ [الروم : 43] من الأمر بملازمة التحلّي بالإسلام وما في ذلك من الخير العاجل والآجل مع ما تقتضيه عادة القرآن من تعقيب النذارة بالبشارة والترهيب بالترغيب فهو كالتكملة للبيان .

وإنما قوبل ﴿ من كَفر ﴾ بـ ﴿ من عَمِل صَالِحاً ﴾ ولم يقابل بـ (مَن ءامن) للتنويه بشأن المؤمنين بأنهم أهل الأعمال الصالحة دون الكافرين .

(151/604)

فاستغني بذكر العمل الصالح عن ذكر الإيمان لأنه يتضمنه ، ولتحريض المؤمنين على الأعمال الصالحة لئلا يتّكلوا على الإيمان وحده فتفوتهم النجاة التامة .

وهذا اصطلاح القرآن في الغالب أن يَقرن الإيمان بالعمل الصالح كما في قوله تعالى قبل هذه الآية : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين ءامنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة فأولئك في العذاب مُحضَرون ﴾ [الروم : 14 16] حتى توهمت المعتزلة والخوارج أن العمل الصالح شرط في قبول الإيمان .

وتقديم ﴿ فلأنفسهم ﴾ على ﴿ يمهدون ﴾ للاهتمام بهذا الاستحقاق وللرعاية على الفاصلة وليس للاختصاص .

و ﴿ يمهدون ﴾ يجعلون مِهاداً ، والمهاد : الفراش .

مثلت حالة المؤمنين في عملهم الصالح بحال من يتطلب راحة رقاده فيوطىء فراشه ويسويه

لئلا يتعرض له في مضجعه من النتوء أو اليبس ما يستفز منامه .

وتقديم ﴿ لأنفسهم ﴾ على ﴿ يمهدون ﴾ للرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بذكر أنفس المؤمنين لأن قرينة عدم الاختصاص واضحة .

وروعي في جمع ضمير ﴿ يمهدون ﴾ معنى ﴿ مَن ﴾ دون لفظها مع ما تقتضيه الفاصلة من ترجيح تلك المراعاة .

ويتعلق ﴿ ليجزي الذين ءامنوا ﴾ بـ ﴿ يمهدون ﴾ أي يمهدون لعلة أن يجزي الله إياهم من فضله .

وعدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله ﴿ الذين ءامنوا وعملوا الصالحات ﴾ للاهتمام بالتصريح بأنهم أصحاب صلة الإيمان والعمل الصالح وأن جزاء الله إياهم مناسب لذلك لتقرير ذلك في الأذهان ، مع التنويه بوصفهم ذلك بتكريره وتقريره كما أنبأ عن ذلك قوله عقبه ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ .

(152/604)

وقد فهم من قوله ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أن الله يجازيهم أضعافاً لرضاه عنهم ومحبته إياهم كما اقتضاه تعليل ذلك بجملة ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ المقتضي أنه يحب الذين آمنوا وعملوا

الصالحات ، فحصل بقوله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ تقرير بَعد تقرير على الطرد والعكس فإن قوله ﴿ ليجزي الذين ءامنوا ﴾ دل بصريحه على أنهم أهل الجزاء بالفضل ، ودل بمفهومه على أنهم أهل الولاية .

وقوله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ يدل بتعليله لما قبله على أن الكافرين محرومون من الفضل ، وبمفهومه على أن الجزاء موفور للمؤمنين فضلاً وأن العقاب مُعيّن للكافرين عدلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(153/604)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾

سبق أنْ قلنا : إن قضية الخَلْق مُسلَّم بها ؛ لأنها قضية لم يدَّعها أحد لنفسه مع كثرة المتبجحين بالكفر والإلحاد ؛ لذلك لما ادَّعاها النمروذ الذي حاجَّ إبراهيم في ربه فقال : أنا أحيي وأميت ، فعلم إبراهيم عليه السلام أنه يريد اللجاج والسفسطة التي لا طائل منها ، وإلا فكيف يكون الأمر بقتل واحد إماتة ، والأمر بترك الآخر والعفو عنه إحياء ؟

ثم ما بال الذين خُلِقوا قبلك وميلادهم قبل ميلادك ؟ إذن : أنت لم تخلق ولم تُحي أحداً ،

وسبق أنْ بيّنا الفرق بين القتل والموت مع أنهما يشتركان في إنهاء الحياة وإزهاق الروح ، لكن الموت يكون بإزهاق الروح أولاً ، يتبعه نَقْض البنية وتحطم الجسم .

أما القتل فينقض البنية أولاً نَقْضاً يترتب عليه إزهاق الروح فالروح لا تقيم إلا في بنية سليمة ، ومثَّلنا لذلك بلمبة الكهرباء حين تحرق فينطفيء نورها ، فهل يعني ذلك أن التيار انقطع عنها ؟ لا بل هو موجود لكنه يحتاج لبنية سليمة بدليل أننا إذا استبدلنا اللمبة تضيء .

والحق – سبحانه وتعالى – يبين لنا هذا الفرق في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ . . . ﴾ [آل عمران : 144] إذن : فالنمروذ لا يحيي ، بل يُبقِي على الحياة ، ولا يُميت بل يقتل ويُزهِق الروح .

وكان بمقدور إبراهيم عليه السلام أنْ يردَّ عليه هذه الحجة ، وأنْ يكشف تزييفه ، لكنه أراد أن يأخذه إلى ميدان آخر لا يستطيع التلفيق فيه ولا التمحُّك ، فقال له : ﴿ فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ . . . ﴾ [البقرة : 258] .

كذلك مسألة الرزق فهي مُسلَّمة لله لم يدَّعِها أحد : ﴿ خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ . . . ﴾ [الروم : 40] .

بدليل أن الله تعالى جعل بعض المناطق جدباء ، يجوع فيها القادر والعاجز ، ويجوع فيها ذو المال وغير ذو المال ، ولو كان هناك رازق غير الله فَلْيُحْيِ هذه المناطق الجدباء .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . . ﴾ [الروم : 40] ولم يقل : يقتلكم ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذلكم مِّن شَيْءٍ . . . ﴾ [الروم : 40] أي : اسألهم هذا السؤال ، ودَعْهم يجيبون هم عليه : أتستطيع الأصنام التي تشركونها مع الله أنْ تفعل شيئاً من الخَلْق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة ؟

أفي قدرتها شيء من ذلك وأنتم الذين تصنعونها وتنحتون حجارتها بأيديكم ، وتُصوِّرونها كما تشاؤون ، فإذا هبَّتْ عاصفة أطاحت بها وربما كسرت ذراع أحد الأصنام فتجتمعون لإقامتها وإصلاحها ؟ فأين عقولكم ؟ وما هذه الخيبة التي أصابتكم ؟

لذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : 20] ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . . ﴾ [الحج : 73] بل وأكثر من ذلك

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73] .

بالله ، أيستطيع أحد أنْ يستردَّ ما أخذتْه منه الذبابة ؟

ونلحظ في الآية تكرار (منْ) وهي للتبعيض : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ . . . ﴾ [الروم : 40] والمعنى : لا يستطيع أحد من شركائكم أن يفعل شيئاً ولو هيّناً من الخلق ، أو الرزق ، أو الإحياء ، أو الإماتة .

لذلك يجب أنْ تُعلّقوا على هذه القضايا من الله بقول واحد ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 40] لا تعليق إلا هذا .

(155/604)

لذلك لما تكلم سيدنا إبراهيم عن الأصنام قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ . . . ﴾ [الشعراء : 77] أي : أنتم وما تعبدون من دون الله ؛ لأنهم كانوا يشركون آلهتهم مع الله ، فالله سبحانه داخل في هذه الشركة ؛ لذلك استثناه ربه ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين * الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 77-78] .

وتلحظ هنا في قوله ﴿ الذي خَلَقَنِي . . . ﴾ [الشعراء : 78] أنه لم يؤكدها بشيء ، ولم يذكر قبل الخَلْق الضمير (هو) ؛ لأن مسألة الخَلْق كما قُلْنا لم يدَّعها أحد ، أمّا في الهداية وهي مجال ادعاء ، فقال (فهو) أي : الحق سبحانه يقصر الهداية على الله ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] .

وفي هذا إشارة إلى أن القانون الذي يُنظم حياتي والمنهج الذي يهديني قانون ربي لا آخذه من أحد سواه ، وكثيراً ما نرى مَنْ يدَّعي الهداية ويقول : إنني وضعتُ قانوناً يُسعِد حياة الناس ، ويفعل كذا وكذا ، سمعنا هذه النغمة مرة من الرأسمالية ، ومرة من الاشتراكية ، ومن الشيوعية . . الخ .

إذن : هذا مجال ادعاء واسع ، فقيَّده إبراهيم – عليه السلام – وقصره على الله ، حيث لا منهجَ إلا منهجُ الله ، ولا قانونَ يحكمنا إلا قانون ربنا ، كما نقول في العامية (مفيش إلا هو) .

كذلك في مسألة الإطعام قال : ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي . . . ﴾ [الشعراء : 79] فاستخدم القصر هنا بذكر الاسم الموصول (الذي) ثم الضمير المفرد الغائب (هو) ؛ ليؤكد أن الذي يطعمه إنما هو الله ؛ لأن الإنسان قد يظن أن أباه هو الذي يطعمه ، أو أن أمه هي التي تُطعمه ؛ لأنها تُعِد له طعامه ، فهما السببان الظاهران في هذه المسألة ، فاحتاج الأمر إلى أكثر من مؤكد .

(156/604)

ثم يقول عليه السلام : ﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : 81] هكذا دون توكيد ؛ لأن الموت والحياة مسألتان مُسلَّمتان لله مفروغ منهما ، وكذلك : ﴿ والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82] وهذه أيضاً لا تكون إلا لله تعالى .

إذن : ما كان للغير فيه شبهة عمل يؤكدها ويخصُّها لله تعالى ، أما الأخرى التي لا دخْلَ لغير الله فيها فيسوقها مُطْلقة دون اختصاص .

فالتعليق في هذا الأمر العجيب لا يكون إلا بقولنا : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 40] أي : تنزيهاً له عن الشركة ، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، ولم يَقُمْ لهذه القضية منازع ، ولم يدَّعها أحد لنفسه .

إذن : فهي مُسلَّمٌ بها ، وإلا فإنْ كان هناك إله آخر فأين هو ؟ ولماذا لم يدافع عن حقه في الألوهية ؟ إن كان لا يدري فهو غافل ، وإنْ كان يدري ولم يعارض فهو جبان ، وفي كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

لذلك ربنا حكمها بقضية واحدة ، فقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر . . . ﴾ .

ظهر : بان ووضح . والظهور : أن يُبين شيء موجود بالفعل لكنَّا لا نراه ، وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ ظَهَرَ الفساد . . . ﴾ [الروم : 41] فلا بُدَّ أن الفساد كان موجوداً ،

لكن أصحاب الفساد عمُّوه وجَنُّوه إلى أن فقس وفرخ في المجتمع .

والفساد لا يظهر إنما يظهر أثره ، أتذكرون الزلزال الذي حدث والذي كشف الفساد والغش والتدليس بين المقاول والمهندس ، وكانت المباني قائمة والفساد مستتراً إما لغفلتنا عنه ، أو لتواطئنا معه ، أو لعدم اهتمامنا بالأشياء إلى أن طمَّتْ المسائل ، ففضح الله الأرض بالزلزال ، ليكشف ما عندنا من فساد .

(157/604)

فإذا ازداد الغش ، وانتشر وفَاقَ الاحتمال لابُدَّ أن يُظهره الله للناس ، فلم يَعُدْ أحد قادراً على أن يقف في وجه الفساد ، أو يمنعه ؛ لذلك يتدخَّل الحق سبحانه ، ويفضح أهل الفساد ويذيقهم آثار ما عملت أيديهم .

وتأتي ظهر بمعنى " الغلبة " كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : 14] أي غالبين . وفي سورة التحريم : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ . . ﴾ [التحريم : 4] .

وبمعنى " العلو " في قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً ﴾ [الكهف : 97] .

فالمعنى ﴿ ظَهَرَ الفساد . . . ﴾ [الروم : 41] أي : غلب الصلاح وعلا عليه ، والكون خلقه الله تعالى على هيئة الصلاح ، وأعدّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً ، وللتأكد من صدْق هذه المسألة انظر في الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه ، فلن ترى فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان .

أما ما لا تتناوله يد الإنسان ، فلا ترى فيه خللاً ؛ لأن الله خلقه منسجمَ الأجناس منسجمَ التكوين : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .

فهل خلقنا الحق سبحانه وخلق اختيارنا لنفسد في الكون ؟

لا ، إنما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج ويجعله قانوناً لحركتك بافعل ولا تفعل ، وما لم أقُل فيه (افعل) أو (لا تفعل) فأنت حر فيه ، فلا يحدث من الفعل أو من عدمه ضرر في الكون ، أمّا أنا فقد قلت افعل في الذي يحصل منه ضرر بعدم فعله ، وقلت لا تفعل في الذي يحصل ضرر من فعله .

فالفساد يأتي حين تُدخِل يدك في شيء وأنت تطرح قانون الله في افعل ولا تفعل ، أما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد ، فإنْ علا تيار الفساد وظهر على الصلاح وغلبه بان للناس .

وعندها يُنبِّهنا الحق سبحانه بالأحداث تطرقنا وتقول لنا : انظروا إلى مَنْ خالف منهج الله ماذا حدث له ؛ لذلك في أعقاب الأحداث نزداد عشقاً لله ، وحباً لطاعته ، وترى الناس (تمشي على العجين متلخبطه) ، لكن سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه من الإهمال والغفلة ، على حَدّ قول الشاعر :

تُروِّعنا الجنائِزُ مُقْبلاتٍ . . . ونلهُو حِين تَذهَبُ مُدبراتِ

كَرَوْعَةِ ثُلَّةٍ لمغَارِ ذِئْبٍ . . . فَلما غابَ عادتْ راتعاتِ

فالحق يقول : ﴿ ظَهَرَ الفساد . . . ﴾ [الروم : 41] أي : غلب على قانون الصلاح الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون ، الذي لو نالتْه يد الإنسان لَفسد هو الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . . . ﴾ [المؤمنون : 71] .

فظواهر الكون أشياء وقضايا لكل العامة ، ومن الحكمة إلاّ تنالها يد الإنسان ؛ لأن الله تعالى يريد للكون البقاء ، ولم يأْتِ أوان انتهائه ، لذلك الحق سبحانه يجعل فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين ، إلى أن يصل إلى درجة التشبُّع ، فتتفجر الأوضاع .

فقوله : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر . . . ﴾ [الروم : 41] نتيجة لدعوته صلى الله عليه وسلم ؛ لأن كلمة (ظهر) تدل على أن شيئاً وقع ، فكأنه يقول لنا : إنْ كررتم الفساد والغفلة

تكرَّر ظهور الفساد ، فهو يعطينا مُلخصاً لما حدث بالفعل من عداوتهم لرسول الله ، ومقاطعته وعزله وإغراء السفهاء منهم للتحرش به ، ثم عداوة أصحابه وإجبارهم على الهجرة إلى الحبشة حتى لا يستقر لهم قرار بمكة .

لذلك دعا عليهم رسول الله : " اللهم اشْدُد وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف " فأصابهم الجَدْب والقحط ، حتى رُوِي أنهم كانوا يذهبون للبحر لصيد السمك ، فيبتعد عنهم ولا يستقيم لهم فيعودون كما أتوا .

وهذا معنى ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر . . . ﴾ [الروم : 41] .

(159/604)

ثم يوضح الحق سبحانه سبب هذا الفساد : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس . . . ﴾ [الروم : 41] فتلحظ هنا أن الحق سبانه لما يذكر الرحمة لا يذكر عِلَّتها ، لكن يذكر عِلَّة الفساد ؛ لأن الرحمة من الله سبحانه أولاً وأخيراً تفضُّل ، أما الأخذ والعذاب فبَعدله تعالى ؛ لذلك يُبِّين لك أنك فعلت كذا ، وتستحق كذا ، فالعلَّة واضحة .

هناك قضية أخرى أحب أن أوضحها لكم ، وهي أن الحق سبحانه يعامل خَلْقه معاملته في الجزاء ، فالله يقول : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . ﴾ [الأنعام : 160

] .

إذن : فالحسنة الواحدة تستر عشر سيئات ، وكذلك في جسم الإنسان ، فيقول بعض علماء وظائف الأعضاء والتشريح : إن الكلية بها مليون خلية يعمل منها العُشْر بالتبادل ، فمجموعة تعمل ، والباقي يرتاح وهكذا . فانظر كم ترتاح الخلية حتى يأتي عليها الدور في العمل .

فكأن ربنا – سبحانه وتعالى – خلق لها العشر يقوم مقام المليون ؛ لذلك قالوا لو أن في أحد الدواوين عشرة موظفين ، منهم واحد واحد محسن ، يستر إساءة الباقين ، وكثيراً ما تلاحظ هذه الظاهرة في دواوين الحكومة ، فترى غالبية الموظفين منشغلين : هذا يقرأ الجرائد ، وهذا يشرب الشاي ، وآخر لم يأْتِ أصلاً .

وخلف كومة من الملفات تجد موظفاً نحيلاً غارقاً في العمل ، يقصده الجميع ، ويتحمل هو تقصير الآخرين ، ويؤدي عنهم ، وبه تسير دفَّة الأمور ، لكن إنْ فقدنا هذا أيضاً ، فلا بُدَّ أن تأتي ﴿ ظَهَرَ الفساد . . . ﴾ [الروم : 41] إذن : إن رأيت الفساد فاعلم أنه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كل الحدود .

وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس . . . ﴾ [الروم : 41] فلا بُدّ أن الفساد جاء من ناحيتهم ، وبالله هل اشتكينا أزمة في الهواء مثلاً ؟ لكن نشتكي تلوث

الهواء بما كسبتْ أيدي الناس ، أمّا حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان ، نجد الهواء نقياً كما خلقه الله .

(160/604)

الحق سبحانه تكفَّل لنا بالغذاء فقال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . ﴾ [فصلت : 10]

لكنا نشتكي أزمة طعام ، لماذا ؟ لأن الطعام يحتاج إلى عمل ، ونحن تكاسلنا ، وأسأنا التصرُّف في الكون ، إما بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها ، وإما بالأنانية حيث يضنُّ الواجد على غير الواجد .

وقد قرأنا مثلاً أن أمريكا تسكب اللبن في البحر ، وتعدم الكثير من المحصولات ، وفي العالم أُناس يموتون جوعاً ، إذن : هذه أنانية ، أما التكاسل فقد حدث منا في الماضي .

وانظر الآن إلى صحرائنا التي كانت جرداء قاحلة ، كيف اخضرت الآن ، وصارت مصدراً للخيرات لما اهتممنا بها ويسَّرنا ملكيتها للناس ، فإنْ ضنَّتْ الأرض في منقطة ما فقد جعل الله لنا سعة في غيرها ، فالخالق سبحانه لم يجعل الأرض لجنس ولا لوطن ، إنما جعلها مشاعاً لخَلْق الله جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا . . . ﴾ [النساء : 97

] .

ولذلك قلت في هيئة الأمم : إن في القرآن آية واحدة ، لو أخذ العالم بها لضمنت له الرخاء والاستقرار والأمان ، إنها قوله تعالى : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، لكن الواقع خلاف ذلك ، فقد وضعوا للأرض حدوداً ، وأقاموا عليها الحواجز والأسوار ، فإنْ أردتَ التنقّل من قطر إلى آخر تجشَّمت في سبيل ذلك كثيراً من المشاق في إجراءات وتأشيرات . . إلخ .

وكانت نتيجة ذلك أن يوجد في الكون رجال ازدحموا بلا أرض ، وفي موضع آخر أرض بلا رجال ، ولو حدث التكامل بين هذه وتلك لاستقامت الأمور .

(161/604)

إذن : الذين وضعوا الحدود والحواجز في أرض الله أخذوها لأنفسهم ، فلم تَعُدْ أرض الله الواسعة التي تستقبل خَلْق الله من أي مكان آخر ، إنما جعلوها أرضهم ، وأخضعوها لقوانينهم هم ، وتعجب حين تتأمل حدود الدول على الخريطة ، فهي متداخلة ، فترى جزءاً من هذه الدولة يدخل في نطاق دولة أخرى ، على شكل مثلث مثلاً ، أو تمتد أرض دولة في دولة أخرى على شكل لسان أو مناطق متعرجة ، فماذ دُمْتم قد وضعتم بينكم

حدوداً ، فلماذا لا تجعلونها مستقيمة ؟

وكأن واضعي هذه الحدود أرادوها بُؤراً للخلاف بين الدول ، ولا يخلو هذا التقسيم من الهوى والعصبيات القبلية والجنسية والقومية والدينية ، لكن لو أخذنا بقول ربنا : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] لما عانينا كل هذه المعاناة .

وقوله تعالى : ﴿ كَسَبَتْ . . . ﴾ [الروم : 41] عندنا : كسب واكتسب ، الغالب أن تكون كسب للحسنة ، واكتسب للسيئة ؛ لأن الحسنة تأتي من المؤمن طبيعة بدون تكلُّف أو افتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المجرد (كسب) .

أما السيئة ، فعلى خلاف الطبيعة ، فتحتاج منك إلى تكلُّف وافتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المزيد الدال على الافتعال (اكتسب) .

أَلَا ترى أنك في بيتك تنظر إلى زوجتك وبناتك كما تشاء ، أما الأجنبية فإنك تختلس النظرات إليها وتحتال لذلك ؟ فكل حركاتك مفتعلة ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً محرماً وممنوعاً ، أما الخير فتصنعه تلقائياً وطبيعياً بلا تكلُّف .

كما أن الحسنة لا تحتاج منك إلى مجهود ، أمّا السيئة فتحتاج إلى أنْ تُجنِّد لها كل قواك ، وأن تحتاط ، كالذي يسرق مثلاً ، فيحتاج إلى مجهود ، وإلى محاربة لجوارحه ؛ لأنها على الحقيقة تأبى ما يفعل .

ومع ذلك نلحظ قوله تعالى : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته فأولئك أَصْحَابُ النار . . . ﴾ [البقرة : 81] .

(162/604)

فجعل السيئة كَسْباً لا اكتساباً . قالوا : لأن السيئة هنا صارت عادة عنده ، وسهلت عليه حتى صارت أمراً طبيعياً يفعله ولا يبالي كالذي يفعل الحسنة ، وهذا النوع والعياذ بالله أحب السيئة وعشقها ، حتى أصبح يتباهى بها ولا يسترها ويتبجح بفعلها .

وهذا نسميه (فاقد) ، فقد أصبح الشر والفساد حرفة له ، فلا يتأثر به ، ولا يخجل منه كالذي يقبل الرِّشْوة ، ويفرح لاستقبالها ، فإن سألته قال لك : وماذا فيها ؟ أنا لا أسرق الناس .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذي عَمِلُواْ . . . ﴾ [الروم : 41] الإذاقة هنا عقوبة ، لكنها عقوبة الإصلاح كما تعاقب ولدك وتضربه حرصاً عليه ، وسبق أن قلنا : إنه لا ينبغي أن نفصل الحدث عن فاعله ، فقد يعتدي ولد على ولدك ، فيجرحه فتذهب به للطبيب ، فيجرحه جرحاً أبلغ ، لكن هذا جرح المعتدي ، وهذا جرح المداوي .

وحين يُذيق الله الإنسانَ بعض ما قدَّمت يداه يوقظه من غفلته ، ويُنبِّه فيه الفطرة الإيمانية ،

فيحتاط للأمر ولا يهمل ولا يقصر ، وتظل عنده هذه اليقظة الإيمانية بمقدار وَعْيه الإيماني ، فواحد يظلّ يقظاً شهراً ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، وآخر يظل سنة ، وآخر يظل عمره كله لا تنتابه غفلة .

وقد أذاق الله أهلَ مكة عاقبة كفرهم حتى جاعوا ولم يجدوا ما يأكلونه إلا دَمَ الإبل المخلوط بوبرها ، وهو العِلْهِز .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : 41] لأن الكلام هنا في الدنيا ، وهي ليستْ دار جزاء ، فالحق يُذيقهم بعض أعمالهم ليلتفتوا إليه سبحانه ، ويتوبوا ويعودوا إلى حظيرة الإيمان ؛ لأنهم عبيدة ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها .

(163/604)

والحق سبحانه ساعة يقول ﴿ ظَهَرَ الفساد . . . ﴾ [الروم : 41] أي : على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُبيّن لنا أن الرسل إنما جاءوا لإنقاذ البشرية من هذا الفساد ، لكن ما دام الأمر عُلِّل فالأمر يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فكلما ظهر الفساد حلَّتْ العقوبة ، فخذوها في الكون آية من آيات الله إلى قيام الساعة .

فظهر الفساد قديماً ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ

الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت : 40]

لكن هذا الأخْذ كان قبل سيدنا رسول الله في الأمم السابقة ، وكان هلاك استئصال ؛ لأن الرسل السابقين لم يُكلَّفوا بالمحاربة لأجل نَشْر دعوتهم ، فما عليهم إلا نشر الدين وتبليغه ، مع التأييد بالمعجزات ، فإنْ تأبَّى عليهم أقوامهم تولَّى الحق سبحانه عقابهم ، أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد أكرمهم الله بألاَّ يعاقبها بعذاب الاستئصال . ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : 33] .

ثم سيظهر الفساد حديثاً وسيحدث العقاب . إذن : ليست الأمة الإسلامية بِدَعاً في هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض . . . . ﴾ .

السير : الانتقال من حيز مكاني إلى حيز آخر ، وسبق أنْ قلنا : إن النظرة السطحية في ظاهر الأمر أن السير يكون على الأرض لا فيها ؛ لأننا نسكن على الأرض لا فيها ، لكن الحق سبحانه يُبصرنا بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض . . . ﴾ [الروم : 42] أن الأرض ليست هي اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضية ، أما الأرض فتشمل غلافها الجوي لذلك يدور معها وهو إكسير الحياة فيها ؛ فلا حياة لها إلا به .

إذن : فهواء الأرض من الأرض ، وهو أهم الأقوات للأحياء عليها ، فحين يقول تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . ﴾ [فصلت : 10] فالهواء داخل فيها ، لذلك قال ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض . . . ﴾ [الروم : 42] .

وقلنا : لو أنك استقرأتَ أجناس الوجود لوجدت أنك الجنس الأعلى في الكون ، وكل الأجناس تحتك تخدمك ، فأنت تنتفع بالحيوان وبالنبات وبالجماد ، فأدنى الأجناس في الكون وهو الجماد له مهمة يؤديها .

فأنت أيها الإنسان الذي كرّمك الله على كل أجناس الوجود إذا لم تبحث لك عن مهمة تؤديها في الحياة ، ودور تقوم به ، فأنت أقل منزلةً من أدنى الأجناس وهو الجماد ، إذا لم تبحث بعقلك عن شيء ترتبط به يناسب سيادتك على مَنْ دونك ، فأنت أتفه من الحجر ؛ لأن الحجر له مهمة يؤديها ، وأنت لا مهمةَ لك .

لكن هذا الجنس الأدنى إنْ أراد سبحانه أعطاه عزة فوق السيد المخدوم وهو الإنسان ، ففي فَرْض الحج يُسَنُّ لك أن تُقبّل هذا الحجر ، وتسعى جاهداً لكي تُقبّله ، وتأمل الإنسان – وهو سيد هذا الوجود – وهو يحاول أنْ يُقبّل الحجر ، ويغضب إنْ لم يتمكن من ذلك .

وتأمل الردَّ من دولة الأحجار على مَنْ عبدها من دون الله :

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعبَدُ لله . . . منَ القائمين بالأسْحارِ

تَخِذُوا صَمْتَنَا عَلَيْنَا دَليلاً . . . فَغدوْنَا لَهُم وقُودَ النارِ

قَدْ تجنَّوا جَهْلاً كما قَدْ تجنَّوْه . . . علَى ابْن مريم والحَوارِيَ

للمغَالِي جَزَاؤه والمغَالَي فيهِ . . . تُنجيهِ رَحْمةُ الغفَّارِ

ثم يقول سبحانه : ﴿ فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلُ . . . ﴾ [الروم : 42]

فالسير في الأرض يكون إما للسياحة والتأمل في آيات الله في كونه ، لذلك يستخدم فيها الفاء ﴿ فانظروا . . . ﴾ [الروم : 42] أو يسير في الأرض لطلب الرزق .

(165/604)

وفي آية أخرى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا . . . ﴾ [الأنعام : 11] والمعنى : سيروا في الأرض للاستثمار ، وطلب القوت ، وقضاء المصالح ، لكن لا يفوتكم النظر والتأمل في آيات الله وفي مخلوقاته لتأخذوا منها العبرة والعظة .

ومعنى : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلُ . . . ﴾ [الروم : 42] أي الذين ظهر الفساد بينهم ، فأذاقهم الله الألم بما كسبتْ أيديهم ، فهذه ليست عندك وحدك ، إنما

حدثتْ في الأمم السابقة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : 137] .

فهناك مدائن صالح والأحقاف وعاد وثمود والفراعنة . . إلخ انظر ما حلَّ بهم بعد الحضارة والنضارة ، بعد ما توصلوا إليه من علم التحنيط الذي لم يعرف العلم أسراره حتى الآن ، ويضعون مع جثث الموتى حبوب القمح أو الشعير ، فتظل على حالها ، بحيث إذا زُرِعت بعد آلاف السنين تنبت .

إنها قدرة علمية فائقة ، ومع ذلك ما استطاعت هذه الحضارة أن تحمي نفسها من الاندثار ، وإذا كان القرآن قد قال عن الحضارة الفرعونية ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ [الفجر : 10] فقد قال عن إرم ﴿ التِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ [الفجر : 8] .

فأيُّ حضارة هذه ؟ وأين هي الآن ؟ طمرتها رمال الأحقاف ، ودفنتها تحت أطباق الثرى ، ولا تعجب من ذلك ، ففي هذه المنطقة إنْ هبَّتْ عاصفة واحدة ، فإنها تغطي قافلة كاملة بجمالها ورجالها تحت الأرض ، فما بالك بالعواصف منذ قرون طوال ؛ لذلك نجد كل الآثار يتم التنقيب عنها حَفْراً .

إذن : فالحضارات مع عظمها لم تستطع أنْ تحمي نفسها من الزوال ، وهذا دليل على وجود قوة أعلى منها تزيلها وتقضي عليها .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم : 42] أي : أن القليل منهم لم يكُنْ مشركاً ، قالوا : هذه القِلّة هم الصبيان والمجانين ، ومن ليس له إرادة حرة ، وإن أخذت هذه القلة مع الكثرة المشركة ، فإن الله إنما أراد بهم خيراً ؛ لأن مثواهم إلى الجنة بغير حساب .

لذلك لما تكلمنا عن موسى والعبد الصالح في سورة الكهف : لما قتل الخضر الغلام تعجَّب موسى ، ففي المرة الأولى خرق السفينة واعتدى على ملْك ، أما في هذه المرة فقد أزهق روحاً ؛ لذلك قال في الأولى ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ [الكهف : 71] أي : عجيباً ، أما في الثانية فقال : ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً ﴾ [الكهف : 74] .

ثم بيَّن الخضر الحكمة من قتل الغلام فقال : إن له أبوين صالحين ، وفي علم الله تعالى أنه سيفسد عليهما دينهما ؛ لأن الفتنة تأتي الإنسان غالباً من الزوجة أو من الولد ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم . . . ﴾ [التغابن : 14] لماذا ؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما ، ولأن الفساد يأتي من ناحيتهما قال سبحانه : ﴿ مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ [الجن : 3] يعني : طمئنوا عبادي ، فلا أحد يؤثر على إرادتي .

إذن : فالخضر صنع الجميل بالوالدين ، حيث أنقذهما من هذا الابن ، وصنع أيضاً جميلاً بالغلام حيث قتله قبل سِنّ التكليف ، وجعل مصيره إلى الجنة ، وربما لو تركه لكان كافراً

بالله عاقاً لوالديه ، وهذا كله إنما جرى بأمر الله وحكمه : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي . . . ﴾ [الكهف : 82] .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لنبيه في هذه المسألة بداية من ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس . . . ﴾ [الروم : 41] ثم إنزال العقاب بهم جزاء ما عملتْ أيديهم وأجبتُك في دعوتك عليهم .

(167/604)

كل ذلك إنما يعني أنني أقوّي مركزك ، ولن أتخلى عنك ، وما دام الأمر كذلك فإياك أن يُؤثّر فيك مكرهم أو تركن إلى أحد منهم ممَّنْ قالوا لك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، لكن يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم . . . ﴾ [الروم : 43] يعني اطمئن يا محمد ، وتفرغ لعبادة الله لأنني وعدتُك بالنصر ، وأجبتُك حين قُلْت : " اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنيِّ يوسف " . ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] يعني : مَنْ لم تَنَلْهُ عقوبة الدنيا نالته عقوبة الآخرة .

وقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ . . . ﴾ [الروم : 43] لأن الوجه محلُّ التكريم ، وسيد الكائن الإنساني ، وموضع العزة فيه ، بدليل أن السجود والضراعة لله تعالى تكون بوضع هذا الوجه على الأرض ؛ لذلك حين ترسل شخصاً برسالة أو تُكلِّفه أمراً يقضيه برِجْله ، أو بيده ، أو بلسانه ، أو بأيِّ جارحة من جوارحه تقول له : أرجو أنْ تُبيِّض وجهي ؛ لأن الوجه هو السيد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88] لأنك لا تعرف سمة الناس إلا بوجوههم ، ومَنْ أراد أنْ يتنكر أو يُخفي شخصيته يستر مجرد عينيه ، فما بالك إنْ ستر كل وجهه ، وأنت لا تعرف الشخص من قفاه ، ولا من كتفه ، ولا من رجله ، إنما تعرفه بوجهه ، ويقولون : فلان وجيه القوم ، أو له وجاهته في القوم ، كلها من ناحية الوجه .

وما دام قد خصَّ الوجه ، وهو أشرف شيء فيك ، فكُلُّ الجوارح مقصودة من باب أَوْلَى فهي تابعة للوجه ، فالمعنى : أَقِم يدك فيما أمرك الله أن تفعل ورجلك فيما أمرك الله أنْ تسعى ، وقلبك فيما أمرك الله أن تشغل به ، وعينك فيما أمرك الله أن تنظر فيه . . الخ .

(168/604)

يعني : انتهز فرصة حياتك ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ . . . ﴾ [الروم : 43] هو يوم القيامة ﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ . . . ﴾ [الروم : 43] المعنى : أن الله حين يأتي به لا يستطيع أحد أنْ يسترده من الله ، أو يأخذه من يده ، أو يمنعه أنْ يأتي به ، أو أنه سبحانه إذا قضي الأمر لا يعود ولا يرجع فيه .

فكلمة ﴿ مِنَ اللهِ . . . ﴾ [الروم : 43] تعطينا المعنيين ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ . . ﴾ [الرعد : 11] فكيف تحفظه المعقِّبات من أمر الله ؟ قالوا : كونهم مُعقِّبات للحفظ أمر صادر من الله أصلاً ، وبناءً على أمره تعالى بالحفظ .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ . . . ﴾ [الروم : 43] يعني : في اليوم الذي لا مردَّ له من الله ﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] أي : هؤلاء الذين تكاتفوا على حربك وعلى عداوتك وإيذائك ، وتعصَّبوا ضدك ﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] أي : ينشقُّون بعضهم على بعض ، ويتفرقون ، وقد وردت هذه المسألة في آيات كثيرة .

والتفريق إما إيمان وكفر أي : أشقياء وسعداء ، وإما أن يكون التفريق في القوم الذين عاندوا واتبعوا أتباعهم على الشرك ، فيتبرأ كل منهم من الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا . . . ﴾ [البقرة : 166] .

ثم قال الحق ليبين لنا ذلك التفريق في الآخرة بعلّته ، وعِلَّته ما حدث في الدنيا ، فالله تعالى لا

يظلم أحداً ، فقال بعد ذلك : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ . . . ﴾ .

ما دامت القيامة أمراً لا مردَّ له من الله ، فلننتبه للعواقب ، ولنحسب لها حساباً ، فمَنْ كفر فعليه كفره ، عليه لا له ، وهذه قضية تقتضي أن نقول في مقابلها : ومَنْ آمن فله إيمانه .

(169/604)

بعد أن بيَّن الدلائل الواضحة على واحديته في الكون ، وأحديته في ذاته سبحانه ، وبيَّن الأدلة الكونية بكُلِّ صورها برهاناً وحجةً ، وضرب أمثالاً وتفصيلاً بعد ذلك قال : سأقول لكم أنكم أصبحتم مختارين أي : خلقتُ فيكم الاختيار في التكليف حتى لا أقهر أحداً على الإيمان بي .

وخَلْق الاختيار في التكليف بعد القهر في غير التكليف يدلُّ على أن الله تعالى لا يريد من عباده قوالب تأتمر بأمر القهر ، ولكنه يريد أنْ يجذب الناس بمحبوبيتهم للواحد الأحد .

وإلا فكان من الممكن أن يخلقهم جميعاً مهتدين ، وأنْ يخلقهم على هيئة لا تتمكّن من الكفر ، وتسير إلى الطاعة مرغمة ، كما قال سبحانه حكاية عن السماء والأرض : ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] وذلك يُفسِّر لنا أمانة خَلْق الاختيار في الناس .

والحق – سبحانه وتعالى – حينما تكلم عن هذه المسألة بوضوح قال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا

الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . . ﴾ [الأحزاب : 72] والإباء هنا ليس إباء تكبُّر على مراد الله ، إنما وضعوا أنفسهم في الموضع الطبيعي ، فقالوا : لا لحمل الأمانة ؛ لأننا لا نأمن أنفسنا ولا نضمنها عند الأداء .

والإنسان كذلك ابن أغيار ، فقد يحمل الأمانة ، ويضمن أداءها في وقت التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه عند الأداء ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بمَنْ يقبل الأمانة ، ويرحب بها عند التحمل ، ثم تطرأ عليه من أحداث الحياة ما يضطره لأنْ يمدَّ يده إلى هذه الأمانة وإنْ كان في نيته الأداء ، لكن يأتي وقته فلا يستطيع ، وآخر يُقدِّر هذه المسئولية ويرفض تحمل الأمانة ، وهذا هو العاقل الذي يُقدِّر الظروف وتغيّر الأحوال .

ومعلوم أن الأمانة لا تُوثَّق ، فإنْ كتبتَ وشهد عليها فإنها لم تَعُدْ أمانة ، فالأمانة إذن مردُّها لاختيار المؤتمن إنْ شاء أقرَّ بها ، وإنْ شاء أنكرها .

(170/604)

فالحق سبحانه قال حكاية عن السماوات والأرض والجبال ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . ﴾ [الأحزاب : 72] لأنهم يُقدِّرون مسئوليتها ، أما الإنسان فقد تعرَّض لحملها وقال : عندي عقل أفكر به ، وأختار بين البدائل ، وسوف أؤدي ، فضمن وقت التحمل ،

لكنهن لا يضمن وقت الأداء ، فظلم نفسه وجهل حقائق الأمور .

﴿ وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] ظلوماً لنفسه ، جهولاً بما يمكن أنْ يطرأ عليه من الأغيار .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فإنه لا يثبت على حال ؛ لذلك قلنا : إذا صعد الإنسان الجبل إلى قمته وهو ابن أغيار فليس أمامه إلا أنْ ينزل ، والعقلاء يخافون أنْ تتم لهم النعمة ؛ لأنه ليس بعد التمام إلا النقصان ، كما قال الشاعر :

إِذَا تَمَّ شيء بَدا نَقْصُه . . . ترقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيل تَمّ

فإذا قلت : لماذا خلق الله الاختيار في الإنسان ولم يخلقه في الأجناس التي تخدمه من جماد ونبات وحيوان ؟ نقول : كُنْ دقيقاً ، وافهم أنها أيضاً خُيّرت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ . . . ﴾ [الأحزاب : 72] .

إذن : هذه الأجناس أيضاً خُيِّرت ، لكنها اختارت اختياراً واحداً يكفيها كل الاختيارات ، فقالت : نريد يا رب أنْ نكون مقهورين لكل ما تريد .

ولما كنا مختارين أعطانا الله تعالى هذه القضية : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ . . . ﴾ [الروم : 44] وكلمة (عَلَيْه) تفيد الدَّين والوِزْر ، و (له) تفيد النفع ، فإذا جئنا بالمقابل بقول :

ومَنْ آمن فله إيمانه ، كما في : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13-14] .

(171/604)

لكن القرآن لم يَأْت بهذا المقابل ، إنما عَدَل إلى مسألة أخرى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] فلماذا ؟ قالوا : لأن فائدة الإيمان أن تعتقد بوجود إله قادر واحد هو الله فتؤمن به ، فإذا ما أمرك تطيع ، فعِلَّة الإيمان التكليف ؛ لذلك حين تبحث أيَّ تكليف إياك أنْ تنظر إلى عِلَّته فتقول : كلفني بكذا لكذا ، فعِلَّة التكليف وحكمته عنده تعالى .

فإذا قلنا مثلاً : حكمة الصيام أنْ يشعر الغنيُّ ويذوق ألم الجزع فيعطف على الفقير ، فهل يعني هذا أن الفقير المعدَم لا يصوم ؟ إذن : ليست هذه حكمة الصيام ، والأصوب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أراد مني أن أصوم ، وحكمة الصيام عنده هو .

ومثَّلنا لذلك ولله تعالى المثل الأعلى : أنت حين تشكو مرضاً أو ألماً تسأل عن الطبيب الماهر والمتخصص حتى تنتهي إليه ، وعندها تنتهي مهمة عقلك ، فتضع نفسك بين يديه يفحصك ويُشخِّص مرضك ، ويكتب لك الدواء ، فلا تعارضه في شيء ، ولا تسأله لماذا

كتب هذا الدواء .

فإذا سألك زائر مثلاً : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ لا تقول : لأن من خصائصه كذا ، ومن تفاعلاته كذا ، إنما تقول : لأن الطبيب وصفه لي ، مع أن الطبيب بشر قد يخطيء ، وقد يكتب لك دواءً ، أو يعطيك حقنة ترديك ، ومع ذلك تُسلِّم له بما يراه مناسباً لك ، فإذا كنت لا تناقش الطبيب وهو خطأ ، فكيف تناقش الله فيما فرضه عليك وتطلب علَّة لكل شيء ؟

ولا يناقش في عِلَل الأشياء إلا المساوي ، فلا يناقش الطبيبَ إلى طبيبٌ مثله ، كذلك يجب أنْ نُسلِّم لله تعالى بعلل الأشياء وحكمتها إلى أنْ يوجد مُسَاوٍ له سبحانه يمكن أنْ يناقشه .

(172/604)

والحق سبحانه يُبيِّن لنا عِلَّة الإيمان – لا الإيمان في ذاته – إنما ما يترتب عليه من طاعة أوامر هذا الإله ، وعلى طاعة هذه الأوامر الأوامر يترتب صلاح الكون ، بدليل أن الله يطلب من المؤمنين أنْ ينشروا الدعوة ، وأن يُبلِّغوها ، وأن يحاربوا مَنْ يعارضها ويمنعهم من نشرها .

فما شُهر السيف في الإسلام إلا لحماية بلاغ الدعوة ، فإنْ تركوك وشأنك فدَعْهم ، بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام ظل بها أصحاب ديانات أخرى على دياناتهم ، وهذا دليل على

أن الإسلام لم يُرغِم أحداً على اعتناقه .

لكن ما دام الإسلام قد فتح البلاد فلا بُدَّ أنْ تكون له الغَلَبة ، وأنْ يسير الجميع معه في ظِلِّ منهج الله ، فيكون للكافرِ ولغير ذي الدين ما لصاحب الدين .

فكأن الحق سبحانه يريد لقوانينه أنْ تحكم آمنت به أو لم تؤمن ؛ لأن صلاح الكون لا يكون إلا بهذه القوانين .

إذن : فأنت حُرٌّ ، تؤمن أو لا تؤمن ، لكن مطلوب ممَّنْ آمن أنْ يحمي الدعوة في البلاغ ، ثم يترك الناس أحراراً ، مَنْ آمن فبها ونعمت ، ومَنْ أبى نقول له : لك ما لنا ، وعليك ما علينا .

إذن : فأصل الإيمان لصلاح الخلافة ، ولا يهتم الله سبحانه بأنك تؤمن أو لا تؤمن ، ما دام منهج الخلافة قائماً ، وهذا المنهج يعود نفعه على المؤمن وعلى الكافر ، فإذا كان الإيمان يُربِّي الإنسان على ألاّ يفعل إلا خيراً وصلاحاً ، فالكافر لا بُدَّ وأن يستفيد من هذا الصلاح . وهل قال الشرع للمؤمن : لا تسرق من المؤمن ؟ لا إنما أيضاً لا تسرق من الكافر . . الخ ، فالكل أمام منهج الله سواء .

(173/604)

وفي القرآن آية ينبغي أنْ نتنبه لها ، ونعرف غير المؤمنين بها ، ليعلموا أن الإيمان إنما يحمي مصلحة الناس جميعاً ، إنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَا أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً * واستغفر الله . . . ﴾ [النساء : 105- 106] يعني : إنْ خطر لك أن تكون لصالح الخائن ، استغفر الله من هذا ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ﴾ [النساء : 107] ولو كان مؤمناً به .

ولهذه الآية قصة مشهورة هي قصة اليهودي زيد بن السمين ، وقد جاءت طعمة بن أبيريق - وكان مؤمناً - وقال : يا زيد خُذْ هذه الدرع أمانة عندك فقبله زيد ، وإذا بالدرع مسروق قد سرقه ابن أبيريق من قتادة بن النعمان ووضعه في جوال من الدقيق ، فكان على الدرع آثار الدقيق ، فلما بحث ابن النعمان عن دِرْعه دلّه أثر الدقيق على بيت ابن السمين اليهودي فاتهمه بسرقته .

ثم جاءوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليحكم في أمره ، فقصَّ عليه ما كان من أمر ابن أبيريق ، وأنه وضعه عنده على سبيل الأمانة .

وعندها عَزَّ على المسلمين أن يسرق واحد منهم ، وأن يأخذها اليهود ذِلّة في حَقِّهم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدير الأمر في رأسه ، فإنْ حكم على المسلم أخذها اليهود حجة ، وإنْ حكم للمسلم كانت عيباً وسُبَّة في الدين ، فأسعفه ربه بهذه الآية : ﴿

إِنَّآ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] فقال : بين الناس لا بين المؤمنين فحسب .

(174/604)

ومعنى ﴿ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] البعض يقولون : لا تخاصم الخائن حتى لا يضطهدك ، إنما المراد : لا تكُنْ خصيماً لصالحه . ﴿ واستغفر الله . . . ﴾ [النساء : 106] إنْ طرأتْ عليك مسألة الإسلام وصورته بين غير المسلمين ؛ لأن الله في مبدأ الإصلاح لا يحب كل خوَّان أثيم .

ولو أن غير المسلمين تنبهوا إلى هذه القضية ، وعلموا أن الله تعالى عدل الحكم للمؤمنين ، وأعلنه لرسول الله ، وقرر أن الحق هو الحق ، والكل أمامه سواء المؤمن وغير المؤمن لعلموا أن الإسلام هو الدين الحق ولأقبلوا عليه ، لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من عادى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة " .

لأنك إنْ عاديتَه واضطهدته أو هددتْه في حياته ، أو في عِرْضه ، أو في ماله لصارتْ حجة له في ألاَّ يؤمن ، وله أنْ يقول : إذا كان هذا هو حال المؤمنين ، فما الميزة في الإسلام حتى أعتنقه ؟ بل من مصلحتي أنْ أبتعد عنه ، لكن إنْ عاملتَه بالحق وبالخير والحسنى لعطفته

إلى الإسلام ، وجعلته يُؤنِّب نفسه ألاَّ يكون مسلماً .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن سيدنا إبراهيم – على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام – جاءه رجل فاشتمَّ منه أنه غير مسلم ، فلما سأله قال : أنا مجوسي فردَّ الباب في وجهه ، فانصرف الرجل ، وإذا بإبراهيم – عليه السلام – يتلقى الوحي من الله : يا إبراهيم لم تقبل أنْ تُضيِّفه لأنه على غير دينك ، وأنا قبلته طوال عمره في مُلْكي وهو كافر بي .

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به واسترضاه ، فقال الرجل : وماذا جرى لقد طردتني ونهرتني منذ قليل ؟ فقال : إن ربي عاتبني في أمرك ، فقال الرجل : إنَّ رباً يعاتب أنبياءه بشأن إعدائه لحقيق أن يُعبد . لا إله إلا الله ، إبراهيم رسول الله .

(175/604)

إذن : نفهم من هذا أن العمل الصالح هو مطلوب الإيمان ، وإذا آمنتَ بإله لتأخذ الحكم منه وأنت مطمئن أنه إله حق ، فلا يهم بعد ذلك أنْ تؤمن أو لا تؤمن المهم قاعدة الصلاح في الكون وفي حركة الحياة ؛ لذلك لم يقل ومَنْ آمن فله إيمانه ، كأن المراد بالإيمان العمل ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] لأنه لا يعمل صالحاً إلا إذا كان مؤمناً .

ونلحظ هنا أن الآية تتحدث عن صيغة المفرد : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً

. . . ﴾ [الروم : 44] ثم يتحول إلى صيغة الجمع ﴿ فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] ولم يقُلْ : فهو يمهد لنفسه ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الذي يعمل الصالح لا يعمله لذاته ، إنما له ولذريته من بعده ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . . . ﴾ [الطور : 21] إذن : ساعةَ تكلم عن الإيمان جاء بالمفرد ، وساعةَ تكلم عن الجزاء جاء بصيغة الجمع .

كما أن العمل الصالح يأتي من ذات الإنسان ، ويستقبله هو من غيره ، وكلمة (مَنْ) هنا تصلح للمفرد وللمثنى وللجمع بنوعية ، وتحل محلَّ جميع الأسماء الموصولة تقول : من جاءك فأكرمه ، ومَنْ جاءتك فأكرمها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم .

. الخ . كذلك في هذه الآية استعمل مَنْ للدلالة على المفرد ، وعلى الجمع .

وتأمَّل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [النور : 61] وهل يُسلِّم الإنسان على نفسه ؟ قالوا : نعم لأن المؤمنين شيء واحد ، إذا سلَّمْتَ على أحدهم فكأنك سلَّمت على الجميع ، وأيضاً إذا قُلْت لصاحبك السلام عليكم يردُّ عليك : وعليكم السلام ، فكأنك سلَّمْتَ على نفسك .

ومعنى ﴿ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] مأخوذة من المهْد ، وهو فراش الطفل ، والطفل لا يُمَهده ولا يُسوّيه ويُهيّئه ، ولا بُدَّ له من صدر حنون يُسوِّي له مهده ، ويفرشه ويُعده ، فكأن الذي يعمل الصالح في الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً في الآخرة ، كما يحكي أبو منصور بن حازم عن أبي عبد الله بن الحسين يقول : العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه ، كما يمهد الخادم لأحدكم فراشه .

لذلك سبق أن قلنا : إن الذين يؤثرون على أنفسهم يؤثرون من الفانية ليُدِّخر لهم في الباقية ، و " سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أُهديت له الشاة ، وعاد ليسأل أم المؤمنين عائشة عنها فقال لها : " ماذا صنعت بالشاة ؟ " فقالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، يعني : تصدَّقَتْ بها إلا كتفها ، فقال سيدنا رسول الله : " بل ، بقيت كلها إلا كتفها " .

وفي حديث آخر : " يا بْن آدم ، تقول : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما لبسْتَ فأبليتَ ، أو أكلتَ فأفنيتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيت " .

والإمام علي رضي الله عنه يسأله أحدهم : أنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام : الجواب عندك أنت ، فقال : كيف ؟ قال : هَبْ أنه دخل عليك شخص بهدية ، وآخر يطلب منك صدقة فلأيِّهما تبشُّ ؟ إنْ كنت تبش لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا وأن كنت تبشّ لطالب الصدقة فأنت من أهل الآخرة .

ذلك لأن الإنسان يحب ما يعمر له محبوبه ، فإنْ كان من أهل الدنيا يحب ما يعمرها له ، وإنْ كان من أهل الآخرة يحب مَنْ يعمر له آخرته .

ثم يعلل الحق سبحانه لماذا يمهدون لأنفسهم : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ .

(177/604)

وذكر هنا الإيمان فقال ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ [الروم : 45] ثم ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [الروم : 45] حتى لا يظن أحد أن العمل الصالح ربما يُغني عن الإيمان . وهذه مسألة شغلتْ كثيراً من الفلاسفة ، يقولون : كيف أن الرجل الكافر الذي يعمل الصالحات لا يُجازى عليها ؟

نقول له : أُجر ويُجازى على عمله الصالح لكن في الدنيا ؛ لأنه لم يعمل لله ، بل عمل للشهرة وللصيت ، وقد أخذ منها تكريماً وشهوة وتخليداً لِذكْراه وأقيمت لهم التماثيل . . إلخ ، أما جزاء الآخرة فلمَنْ عمل العمل لوجه الله خالصاً .

والقرآن يُنبّهنا إلى هذه المسألة يقول : إياكم أنْ تُغَشُّوا بمن يعمل الأعمال للدنيا : ﴿ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

وجاء في الحديث : " فعلتَ ليُقال وقد قيل " نعم بنيت مسجداً ، لكن كتبت عليه : بناه

فلان ، وشرَّف الافتتاح فلان . . الخ فماذا تنتظر بعد ذلك ، إن ربك يريد العمل الخالص لوجهه تعالى ، كما جاء في الحديث " ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما فعلت يمينه " .

فقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ [الروم : 45] يدل على أن العمل الصالح إنْ كان صالحاً بحقٍّ يفيد صاحبه في الدنيا ، لكن لا يفيده في الآخرة إلا أن يكون صادراً عن إيمان بالله ، ثم يربط الإيمان بالعمل الصالح حيث لا يغني أحدهما عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [الروم : 45] أي : تفضُّلاً من الله ، حتى لا ينخدع أحد بعمله ، ويظن أنه نجا به ، وهذه المسألة موضع نقاش بين العلماء يقولون : مرة يقول القرآن ﴿ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [الروم : 45] ومرة يقول : ﴿ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 32] أي : أنها حق لكم بما قدَّمتم من عمل ، فهل الجنة حق للمؤمنين أم فضل من الله ؟

(178/604)

ونقول : العمل الذي يطلبه الله تكليفاً من المؤمنين به يعود على مَنْ ؟ يعود على الإنسان ، ولا يستفيد الله منه بشيء ؛ لأن له تعالى صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال في الحديث القدسي : " يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلكي قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلْكي قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألني كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبرة إذا غمسه أحدكم في بحر ، ذلك أنِّي جَوَاد ماجد واجد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردتُه أن أقول له : كُنْ فيكون " .

ويقول سبحانه : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ . . . ﴾ [النحل : 96] .

إذن : فالأعمال التكليفية لخير الإنسان نفسه ، وإنْ كانت في الظاهر تقييداً لحريته ، فهو مثلاً يريد أنْ يسرق ليزيد ماله ، فنأخذ على يديه ، ونمنعه ونقول له : تنبَّه أننا منعناك من السرقة وأنت واحد ، ومنعنا الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، فأنت إذن المستفيد من منهج الله ، فلا تنظر إلى ما أخذه منك التكليف ، ولكن انظر إلى ما أعطاك هذا التكليف من الغير .

وما دام التكليف كله في مصلحتك ولخيرك أنت ، فإنْ أثابك الله عليه بعد ذلك فهو فضل من الله عليك ، كما تقول لولدك مثلاً ؛ إنْ تفوقت سأعطيك كذا وكذا مع أنه المستفيد من

التفوق ، فتكون الجائزة بعد ذلك فضلاً .

كذلك الحق تبارك وتعالى يحب عبده أنْ يتقن عمله ، وأن يجتهد فيه ؛ لذلك يعطيه مكافأة عليه مع أننا المستفيدون منه .

ويقول سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحق . . . ﴾ [النور : 25] فجعله حقاً عليه سبحانه ، كما قال : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] .

(179/604)

ولو بحثنا كلمة " حق " فلسفياً لوجدنا أن كل حق لك يقابله واجب على غيرك ، فلا يكون حقاً لك إلا إذا كان واجباً على غيرك ، فحقُّك هنا واجب إذن على الله تعالى ، لكن الواجب يقتضي مُوجباً فمَنْ أوجب على الله ؟ لا أحد ؛ لأنه سبحانه أوجبه على نفسه .

إذن : فالحق الذي جعله لك تفضُّلاً منه سبحانه ، والحق في أنه جعل لك حقاً ، كالذي ليس له حق في الميراث ، فيتفضل عليه واحد في التركة ويجعل له وصية يكتبها له ، فتصير حقاً واجباً ، له أن يطالب الورثة به شرعاً ؛ لأن المورِّث تفضَّل وجعله حقاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ [الروم : 45] نلحظ في الآية أنها تتحدث عن جزاء المؤمنين ، فما مناسبة ذِكْر الكافرين هنا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يلفت نظر

عبده الكافر إلى الإيمان ومزاياه ، كأنه يقول له : تعال إلى الإيمان لتنال هذا الجزاء .

ومثال ذلك – ولله المثَل الأعلى – رجل عنده ثلاثة أولاد وَعَدهم بهدية لكل مَنْ ينجح في دراسته ، فجاء آخر العام ونجح اثنان ، وأخذ كل منهما هديته ، وتألم الوالد للثالث الذي أخفق وتمنى لو كان مثل أخويْه .

وكذلك الحق سبحانه لا يحب الكافرين ؛ لأنه يحب أن يكون الخَلْق جميعاً مؤمنين لينالوا جزاء الإيمان ؛ لأن الجميع عباده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها ، وهم خِلْقته وصَنْعته ، وهل رأيتم صانعاً حطم صنعته وكسرها ، إذن : فالله تعالى حريص على عباده حتى الكافر منهم .

(180/604)

وجاء في الحديث القدسي : " قالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أُغرق ابن آدم ، فقط طَعِم خيرك ومنع شكرك . فماذا قال الرب الخالق للجميع ؟ قال : " دعوني ومن خلقتُ ، لو

خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم " .

لذلك يفرح الله تعالى بتوبة عبده حين يعود إليه بعد إعراض ، ويضرب لنا سيدنا رسول الله مثلاً لتوضيح هذه المسألة فيقول : " لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضله في فلاة " .

فالله لا يحب الكافرين لأنهم لم يكونوا أهلاً لتناول هذا الفضل ، وما ذاك إلا لأنه سبحانه مُحِبٌّ لهم حريص على أن ينالهم خيره وعطاؤه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(181/604)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) (الروم : 43) ، وفي سورة الشورى قوله تعالى : (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ) (الشورى : 47) ، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف ما وقع به الإتباع في الآيتين فقيل في الأولى : (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) وفي الثانية :

(مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ) ؟

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن آية الروم إنما أعقبت بقوله : (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) تمهيداً لما اتصل بها من تفصيل الأحوال في قوله : (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) (الروم : 44) ، لأن تصدعهم يراد به افتراقهم كما في قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) (الروم : 14) ، فالمراد يومئذ يصدعون إلى ما أعد لكل منهم بحسب مرتكبه وحاله في كفره وإيمانه ، وقد تضمن قوله : (فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) جزاؤه ، وأشار إلى تفصيل أحوالهم في عذابهم كل بحسب مرتكبه : (جَزَاءً وِفَاقًا) (النبأ : 26) ، وكان الكلام في قوة أن لو قيل : فعليه مطابق كفره من العذاب ، وكذلك تضمن قوله في الناجين : (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) من تفصيل الأحوال في الثواب كل بحسب ما مهد لنفسه كما في قوله : (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الطور : 16) ، فعبر عن ذلك بأوجز عبارة وأوفاها بالمقصود ، وقدمت الإشارة إلى ذلك التفصيل في الطرفين بقوله : (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) .

(182/604)

وأما آية الشورى فإنه تقدم قبلها قوله تعالى : (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ) (الشورى : 44) ، والولي من يرجع إليه انضواء واعتماداً ، ثم قال تعالى مخبراً عن الظالمين في نفي الولي والنصير عنهم : (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ) (الشورى : 46) ، فلما نفى عنهم الأولياء الناصرين والسبيل إلى التخلص ناسب ذلك أمره تعالى العباد بالاستجابة له فقال : (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ) (الشورى : 47) أي أنه آت لا محالة : (مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ) أي من ولي ترجعون إليه أو يدفع عنكم ، (وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ) أي إنكار ، فلا تعلق لكم ولا ينفعكم إنكاركم إن تعلقتم ، فحذر تعالى عباده من حال الظالمين في عدم الولي والناصر ، وأمرهم بالاستجابة قبل التورط وانقطاع الطمع والرجاء في التخلص ، وعدم جدوى الإنكار لمن ظن التعلق به ، فحذرهم مما امتحن به غيرهم بعد ذكر حال من امتحن ، فناسب ذلك لكه أوضح تناسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 400 .

401 ﴾

(183/604)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾

قال مجاهد اذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ثم قال أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة ظهر الفساد في البر والبحر أما إني لا أقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء وقال قتادة أما البر فاهل العمود وأما البحر فاهل القرى والريف قلت وقد سمي الله تعالى الماء العذب بحرا فقال هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج وليس في العالم بحر حلو واقفا وإنما هي الانهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه وقال ابن زيد ظهر الفساد في البر والبحر قال الذنوب قلت أراد أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله ليذيقهم بعض الذي عملوا لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد والنقص والشر والالآم التي يحدثها الله فى الارض بمعاصي العباد فكل ما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة كما قال بعض السلف كل ما أحدثتم ذنبا

أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة والظاهر والله أعلم إن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا فهذا حالنا وإنما إذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة ومن تأثير معاصي الله في الارض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبيارهم حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم لنواضح الابل لتأثير شؤم المعصية في الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار

(184/604)

وما ترى به من الآفات وقد ذكر الامام أحمد فى مسنده فى ضمن حديث قال وجدت في خزائن بعض بني أمية حنطة الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها كان هذا ينبت في زمن من العدل وكثير من هذه الأفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روي الترمذي في جامعه عن النبي انه قال خلق الله آدم وطوله

في السماء ستون ذراعا ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله أن يطهر الارض من الظلمة والخونة والفجرة ويخرج عبدا من عباده من أهل بيت نبيه فيملأ الارض قسطا كما ملئت جورا ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخرج الارض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس وهذا لان الارض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر ولاريب ان العقوبات التي أنزلها الله في الارض بقية آثارها سارية في الارض تطلب ما يشاء كلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الامم فهذه الآثار في الارض من آثار العقوبات كما ان هذه المعاصي من آثار الجرائم فتناسب كلمة الله وحكمة الكوني أولا وآخرا وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية والأخف للأخف وهذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ولما أثرت طاعته في الارض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة فصل

ومن عقوباتها انها تطفي من القلب نار الغيرة التي هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كمال يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديث وأشرف الناس وأعلاهم قدر وهمة أشدهم غيرة علي نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي أغير الخلق علي الامة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه انه قال أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني وفي الصحيح أيضا عنه انه قال في خطبة الكسوف يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو ترني أمته وفي الصحيح أيضا عنه أنه قال لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبنضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان والله سبحانه مع شدة غيرته يحب إن يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه وانه لايؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر اليهم ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذارا وإنذارا وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيرا ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ومن غير قبول العذر ممن إعتذر اليه

بل قد يكون له فى نفس الامر عذر ولاتدعه شدة الغيرة ان يقبل عذره وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طريق المعاذير ويرى عذرا ما ليس بعذر حتى يعذر كثير منهم بالعذر وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق وقد صح عن النبي انه قال أن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله فالتي يبغضها الله الغيرة من غير ريبة وذكر الحديث وانما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار في محل الغيرة

(186/604)

ويعذر في موضع العذر ومن كان هكذا فهو الممدوح حقا ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولايبلغ أحد إن يمدحه كما ينبغي له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته ومن وافق الله في صفه من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبا له فانه سبحانه رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء عليم يحب العلماء قوى يحب المؤمن القوي وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف حتى يحب أهل الحياء جميل يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفي بها عقوبة فان الخطر تنقلب

وسوسة والوسوسة تصير إرادة والارادة تقوي فتصير عزيمة ثم نصير فعلا ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة وحينئذ يتعذر الخروج منهما كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف في القلب جدا لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره واذا وصل الى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه اليه ويحثه عليه ويسعي له فى تحصيله ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة عليه حرام وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه لغيره فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلا ولم يجد دافعا فتمكن فكان الهلاك ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وعن ولده فإذا تكسرت طمع فيها عدوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواب الكافى صـ 73 . 75 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ ﴾ :

يجوز في خبر الجلالة وجهان ، أظهرهما : أنه الموصولُ بعدها . الثاني : أنه الجملةُ مِنْ قولِه ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ ﴾ والموصولُ صفةٌ للجلالة . وقَدَّر الزمخشري الرابطَ بين المبتدأ والجملةِ الواقعةِ خبراً فقال : " وقوله : " مِنْ ذلكم " هو الذي رَبَط الجملةَ بالمبتدأ ؛ لأنَّ معناه مِنْ أفعاله " . قال الشيخ : " والذي ذكره النحويون أنَّ اسمَ الإشارةِ يكون رابطاً إذا أُشيرَ به إلى المبتدأ ، وأمَّا " ذلك " هنا فليس إشارةً إلى المبتدأ لكنه شبيهٌ بما أجازه الفراءُ مِن الربطِ بالمعنى ، وخالفه الناسُ ، وذلك في قوله : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ ﴾ [البقرة : 234] قال : " التقدير : يتربَّصُ أزواجُهم " . فقدر الرَّبْط بمضافٍ إلى ضميرِ الذين فحصل به الربطُ ، كذلك قدَّر الزمخشريُّ " من ذلكم " : " مِنْ أفعالِه " بمضافٍ إلى الضميرِ العائد إلى المبتدأ " .

قوله : " مِنْ شركائِكم " خبرٌ مقدمٌ و " مِنْ " للتبعيض . و " مَنْ يَفْعَلُ " هو المبتدأ و " مِنْ ذلكم " متعلِّقٌ بمحذوفٍ لأنه حالٌ مِنْ " شيء " بعده ؛ فإنَّه في الأصل صفةٌ له . و " مِنْ " الثالثةُ مزيدةٌ في المفعولِ به ؛ لأنه في حَيِّزِ النفي المستفادِ من الاستفهام . والتقدير : ما الذي

يَفْعَلُ شيئاً مِنْ ذلكم مِنْ شركائكم . وقال الزمخشري : " ومِنْ الأولى والثانية كلٌّ واحدةٍ مستقلةٌ بتأكيدٍ لتعجيز شركائِهم وتجهيل عَبَدَتهم " . قال الشيخ : " ولا أَدْري ما أراد بهذا الكلام ؟ "

وقرأ الأعمش " تُشْرِكون " خطاباً .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

(188/604)

قوله : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ : أي بسببِ كَسْبهم . والباءُ متعلقةٌ ب " ظَهَر " ، أو بنفس الفساد ، وفيه بُعْدٌ .

قوله : " لِيُذِيقَهم " اللامُ للعلةِ متعلقةٌ ب " ظهر " . وقيل : بمحذوفٍ أي : عاقبهم بذلك لِيُذِيقَهم . وقيل : اللامُ للصيرورةِ . وقرأ قنبل " لنُذِيْقَهم " بنون العظمة . والباقون بياء الغيبة .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

قوله : ﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ ﴾ : المَرَدُّ مصدر رَدَّ . و " مِن الله " يجوز أن يتعلَّقَ ب يأتي أو

بمحذوفٍ يدلُّ عليه المصدر أي : لا يَرُدُّهُ من الله أحدٌ . ولا يجوز أن يعملَ فيه " مَرَدّ " لأنَّه كان ينبغي أَنْ يُنَوَّنَ ؛ إذ هو من قبيل المطوَّلات .

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44)

قوله : ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ : و " فلأنفسِهم يَمْهَدون " تقديمُ الجارَّيْنِ يُفيد الاختصاصَ بمعنى : أن ضَرَرَ كفرِ هذا ومنفعةَ عملِ هذا لا يتعدَّاه " .

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45)

قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ : في متعلَّقِه أوجهٌ ، أحدها : "يَمْهدون " . والثاني "يَصَّدَّعون " ، والثالث محذوف . قال ابن عطية : " تقديره ذلك ليجزيَ . وتكون الإشارةُ إلى ما تقرر مِنْ قوله " مَنْ كفر " و " مَنْ عمل " . وجعل الشيخُ قسيمَ قوله ﴿ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ﴾ محذوفاً لدلالة قوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ عليه . هذا إذا عَلَّقْنا اللام ب " يَصَّدَّعون " أو بذلك المحذوفِ قال : " تقديرُه ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ مِنْ فَضْلِه والكافرين بعَدْلِه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 48 . 50 ﴾

(189/604)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ظهر)

جمع الظَّهْر : ظُهُور .

ورجل مُظَهَّر : قوىّ الظهر ، وظَهِر : يشتكِى ظهره .

وَجَمَل ظَهِيرٌ وظِهْرِى : قوىّ الظهر ، وناقة ظهيرة ، وقد ظَهَرَ ظَهَارَةً .

وقولُه تعالى : ﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ، الظهر استعارة تشبيهًا للذنوب بالحِمْل الذى ينوءُ بحامله .

واستعير لظاهر الأَرض فقيل : ظَهْر الأَرض وبطنها ، قال تعالى : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ، يعنى حين أَبرزهم من ظهر آدم إلى صحراءِ الوجود للعهد والميثاق .

وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ يعنى من الشحم واللَّحم .

وقال : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ ، وقال : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ .

ويعبّر عن المركوب بالظَّهْر .

والظَّهريُّ أَيضاً : ما تجعله وراءَ ظهرك فتنساه ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ .

وظهر عليه : غلبه .

وأَظهره الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ .

وظاهرته : عاونته ، من ظاهر بين ثوبين ودِرعين : جعل كلاًّ منهما ظهرًا للآخر ، ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أَى تعاونا .

وقد ظاهر من امرأَته ، وتظاهر منها .

والظَّهِير : المُعين ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ ، أَى مُعينا للشيطان على الرّحمان .

وقال أَبو عُبيدة : الظهير هو المظهور به ، أَى هيّنًا على ربّه كالشىء الذى خلّفته وراءَ ظهرك ، من قولك : ظهرتُ بكذا ، أَى خلّفتُه ولم أَلتفت إليه .

والظِّهار : أَن يقول الرّجل لامرأَته : أنتِ علىّ كظهر أُمّى .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِمْ ﴾ .

وقرىء : (يَظَّاهَرُونَ) ، أَى يَتَظَاهَرُون فأُدغم ، و(يظَّهَّرُونَ) .

وظَهَر الشىء ظُهورًا أَصله أَن يحصل الشىء على ظَهر الأَرض فلا يخفَى وبَطَنَ : إذا حصل فى بُطْنان الأَرض فيخفَى ، ثمّ صار مستعملاً فى كل بادٍ بارز للبصر والبصيرة .

وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ؛ أَى يعلمون الأُمور الدّنْيَوِيّة دون الأُخرويّة .

والعلمُ الظاهر والباطن يشار بهما إلى المعارف الجَلِيَّة والمعارف الخفيّة ، وتارة إلى العلوم الدّنيويّة والعلوم الأُخرويَّة .

وقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أَى كثر وفشا .

وقوله : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ يعنى بالظاهرة ما نقف عليها ، والباطنة مالا نعرفها .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ ، وحُمل ذلك على ظاهره .

وقوله : ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ ، أَى لا يُطلع عليه .

وقوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، [يصحّ] أَن يكون من البُرُوز ، وأَن يكون من المعاونة والغلبة ، أَى ليغلِّبه على الدّين كلّه .

وصلاة الظُهْر لكونها فى أَظهر الأَوقات .

والظَّهِيرة : وقت الظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 548 .

550 ﴾

(191/604)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾

﴿ ثُمَّ ﴾ حرفٌ يقتضى التراخي ؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خَلْقِه إياك أن يرزقك ؛ كنتَ فى ضعف أحوالك ابتداءَ ما خَلَقَكَ ، فأثبتك وأحياك من غير حاجةٍ لك إلى رزقٍ ؛ فإلى أن خرجتَ من بَطْنِ أُمّك : إمَّا أن كان يُغْنِيكَ عن الرزق وأنت جنينٌ في بطن الأم ولم يكن لك أكلٌ ولا شُرْبٌ ، وإمَّا أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق – إنْ حَقَّ ما قالوا : إن الجنينَ يتَغَذَّى بدم الطمث . وإذا أخرجك من بطن أمك رَزَقَكَ على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم ، فَيَسَّرَ لكَ أسبابَ الأكل والشرب من لَبَنِ الأم ، ثم من فنون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق

للسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره .

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ بسقوط شهواتكم ، ويميتكم عن شواهدكم .

﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ بحياة قلوبكم ثم يحييكم بربِّكم .

ويقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق .

ويقال : لا مُكْنَةُ لك فى تبديل خَلْقِكَ ، وكذلك لا قدرةَ لَكَ على تَعَسُّر رزقِك ، فالمُوَسَّعُ عليه رزقُه –بِفَضْلِه سبحانه . . لا بمناقِب نَفْسه ، والمُقَتَّرُ عليه رزقُه بحُكْمِه سبحانه . . لا بمعايب نَفْسِه .

﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾ ؛ هل من شركائكم الذين أثبتموهم أي من الأصنام أو توهمتموهمٌّ من جملة الأنام . . مَنْ يفعل شيئاً من ذلك ؟ ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴾ تنزيهاً له وتقديساً .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

الإشارة من البرّ إلى النَّفْسِ ، ومن البحر إلى القلب .

(192/604)

وفسادُ البرّ بأَكْلْ الحرام وارتكاب المحظورات ، وفسادُ البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشّر والفِسْقِ . . وغير ذلك . وعَقْدُ الإصرارِ على المخالفاتِ من أعظمِ فسادِ القلب ، كما أَنَّ العَزْمَ على الخيرات قبل فِعْلها من أعظم الخيرات .

ومن جملة الفساد التأويلاتُ بغير حقّ ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ فى غير قيامٍ بجَدٍ ، والإغراق في الدعاوَى من غير استحياءٍ من الله تعالى .

﴿ لِيُذِقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ : بعض الذى عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب ، وعدم التأسُّف على ما فاته من الحقّ .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

﴿ يَسِيرُواْ ﴾ بالاعتبار ، واطلبوا الحقّ بنعت الأفكار .

﴿ فَانظُرُواْ ﴾ كيف كانت حال مَنْ تقدَّمكم من الأشكال والأمثال ، وقيسوا عليها حُكْمَكُم فى جميع الأحوال . ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ كانوا أكثرَهم عدداً ، ولكن كانوا في التحقيق أَقَلَّهم وزناً وقَدْراً .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

أَخْلِص قَصْدَكَ وصِدْقَ عَزْمَكَ للدين القيّم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع . فَمَنْ لم يتأدب بِمَنْ هو إمامُ وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان

خُسْرَانُه أَتَمّ من رِبْحِه ، ونقصانُه أَعَمُ من نَفْعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 120.122 ﴾

(193/604)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم في أول السورة الآيات الدالة على الوحدانية المستلزمة للبعث لأن به تمام ظهور الحكمة ، وانكشاف غطاء القلوب عن صفات العظمة ، بأن قيام السماء والأرض بأمره وأتبع ذلك ما اشتد التحامه به ، وختمه ببعض الكافرين بعد ذكر يوم البعث ، أتبعه ذكر ما حفظ به قيام الوجود ، وهو الرياح ، يجعلها سبباً في إدرار النعم التي منها ما هو أعظم أدلة البعث وهو النبات ، وهي بجملتها دليل ذلك وسبب القرار في البر والسير في البحر الموصل لمنافع بعض البلاد إلى بعض ، وبذلك انتظم الأمر لأهل الأرض ، فاستعمل المؤمن منهم ما

رزقه سبحانه من العقل في النظر في ذلك حتى أداه إلى شكره فأحبه ، واقتصر الكافر على الدأب فيما يستجلب به تلك النعم ويستكثرها ، فأبطره ذلك فأوصله إلى كفره فأبغضه ، والرياح أيضاً أشبه شيء بالناس ، منها النافع نفعاً كبيراً ، ومنها الضار ضراً كثيراً ، فقال : ﴿ ومن آياته ﴾ أي الدلالات الواضحة الدالة علم كمال قدرته وتمام علمه الدال على أنه هو وحده الذي أقام هذا الوجود ، وكما أنه أقامه فهو يقيم وجوداً آخر هو زبدة الأمر ، ومحط الحكمة ، وهو أبدع من هذا الوجود ، يبعث فيه الخلق بعد فنائهم ، ويتجلى لفصل القضاء بينهم ، فيأخذ بالحق لمظلومهم من ظالمهم ، ثم يصدعهم فيجعل فريقاً منهم في الجنة دار الإعانة والكرامة ، وفريقاً في السعير غار الإهانة والملامة ﴿ أن يرسل الرياح ﴾ على سبيل التجدد والاستمرار ، وهي ما عدا الدبور المشار في الحديث الشريف إلى الاستعاذة منها

(194/604)

" اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " وقد تقدم من شرحي لها عند ﴿ من يرسل الرياح بشراً ﴾ في [النمل : 63] ما فيه كفاية ، وفي جمعها المجمع عليه هنا لوصفها بالجمع إشارة إلى باهر القدرة ، فإن تحويل الريح الواحدة من جهة إلى أخرى أمر عظيم لا قدرة لغيره عليه

في الفضاء الواسع ، وكذا إسكانه ، فكيف إذا كانت رياح متعاكسة ، ففي إثارتها كذلك ثم إسكانها من باهر القدرة ما لا يعلمه إلا أولو البصائر ﴿ مبشرات ﴾ أي لكم بكل ما فيه نفعكم من المطر والروح وبرد الأكباد ولذة العيش .

ولما كان التقدير : ليهلك بها من يشاء من عباده ، أو ليدفع عنكم ما يحصل بفقدها من نقمته من الحر ، وما يتبعه من انتشار المفسدات ، واضمحلال المصلحات ، وطواه لأن السياق لذكر النعم ، عطف عليه قوله مثبتاً اللام إيضاحاً للمعطوف عليه :

﴿ وليذيقكم ﴾ وأشار إلى عظمة نعمة بالتبعيض في قوله : ﴿ من رحمته ﴾ أي نعمه من المياه العذبة والأشجار الرطبة ، وصحة الأبدان ، وخصب الزمان ، وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا خالقها ، ولا يتصورها حق تصورها إلا من فقد الرياح ، من وجود الروح وزكاء الأرض وإزالة العفونة من الهواء والإعانة على تذرية الحبوب وغير ذلك ، وأشار إلى عظمة هذه النعمة وإلى أنها صارت لكثرة الإلف مغفولاً عنها بإعادة اللام فقال :

﴿ ولتجري الفلك ﴾ أي السفن في جميع البحار وما جرى مجراها عند هبوبها .

ولما أسند الجري إلى الفلك نزعه منها بقوله : ﴿ بأمره ﴾ أي بما يلائم من الرياح اللينة ، وإذا أراد أعصفها فأغرقت ، أو جعلها متعاكسة فحيرت ورددت ، حتى يحتال الملاحون بكل حيلة على إيقاف السفن لئلا تتلف .

ولما كان كل من مجرد السير في البحر والتوصل به من بلد إلى بلد نعمة في نفسه ، عطف على ﴿ لتجري ﴾ قوله ، منبهاً بإعادة اللام إيضاحاً للمعطوف عليه على تعظيم النعمة : ﴿ ولتبتغوا ﴾ أي تطلبوا طلباً ماضياً بذلك السير ، وعظم ما عنده بالتبعيض في قوله : ﴿ من فضله ﴾ مما يسخر لكم من الريح بالسفر للمتجر من بلد إلى بلد والجهاد وغيره ﴿ ولعلكم ﴾ أي ولتكونوا إذا فعل بكم ذلك على رجاء من أنكم ﴿ تشكرون ﴾ ما أفاض عليكم سبحانه من نعمه ، ودفع عنكم من نقمه .

ولما كان التقدير : فمن أذاقه من رحمته ، ومن كفر أنزل عليه من نقمته ، وكان السياق كله لنصر أوليائه وقهر أعدائه ، وكانت الرياح مبشرات ومنذرات كالرسل ، وكانت موصوفة بالخير كما في الصحيح عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا " فلرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يلقاه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة " وكانت في كثرة منافعها وعمومها إن كانت نافعة ، ومضارها إن كانت ضارة ، أشبه شيء بالرسل في إنعاش قوم وإهلاك آخرين ، وما ينشأ عنها كما ينشأ عنهم .

(196/604)

كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الشيخان عن أبي موسى ـ رضى الله عنه ـ : البخاري في العلم ، ومسلم في المناقب " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكانت طائفة منها طيبة فقبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " ولما كان الأمر كذلك ، عطف على قوله : " ينصر من يشاء " وقوله : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى ﴾ أو على ما تقديره تسبيباً عن قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ : فلقد أرسلناك بشيراً لمن أطاع بالخير ، ونذيراً لمن عصى بالشر ، قوله مسلياً لهذا النبي الكريم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وأتباعه ، ولفت الكلام إلى مقام العظمة لاقتضاء سياق الانتقام لها ، وأكد إشارة إلى أن الحال باشتداده وصل إلى حالة اليأس ، أو لإنكار كثير من الناس إرسال البشر : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ بما لنا من العزة . ولما كانت العناية بالإخبار بأن عادته ما زالت قديماً وحديثاً على نصر أوليائه ، قال معلماً بإثبات الجار أن الإرسال بالفعل لم يستغرق زمان القبل ، أو أن الكلام في خصوص الأمم المهلكة : ﴿ من قبلك ﴾ مقدماً له على ﴿ رسلاً ﴾ أو للتنبيه على أنه خاتم النبيين

بتخصيص إرسال غيره بما قبل زمانه ، وقال : ﴿ إلى قومهم ﴾ إعلاماً بأن بأس الله إذا جاء لا ينفع فيه قريب ولا بعيد ، وزاد في التسلية بالتذكير إشارة إلى شدة أذى القوم لأنبيائهم حيث لم يقل " إلى قومها " .

(197/604)

ولما كان إرسال الله سبباً لا محالة للبيان الذي لا لبس معه قال : ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ فانقسم قومهم إلى مسلمين ومجرمين ﴿ فانتقمنا ﴾ أي فكانت معاداة المسلمين للمجرمين فينا سبباً لأنا انتقمنا بما لنا من العظمة ﴿ من الذين أجرموا ﴾ لأجرامهم ، وهو قطع ما أمرناهم بوصله اللازم منه وصل ما أمروا بقطعه ، فوصلوا الكفر وقطعوا الإيمان ، فخذلناهم وكان حقاً علينا قهر المجرمين ، إكراماً لمن عادوهم فينا ، وأنعمنا على الذين آمنوا فنصرناهم .

ولما كان محط الفائدة إلزامه سبحانه لنفسه بما تفضل به ، قدمه تعجيلاً للسرور وتطييباً للنفوس فقال : ﴿ وكان ﴾ أي على سبيل الثبات والدوام ﴿ حقاً علينا ﴾ أي بما أوجبناه لوعدنا الذي لا خلق فيه ﴿ نصر المؤمنين ﴾ أي العريقين في ذلك الوصف في الدنيا والآخرة ، فلم يزل هذا دأبنا في كل ملة على مدى الدهر ، فإن هذا من الحكمة التي لا ينبغي إهمالها

، فليعتد هؤلاء لمثل هذا ، وليأخذوا لذلك أهبته لينظروا من المغلوب وهل ينفعهم شيء ؟ والآية من الاحتباك : حذف أولاً الإهلاك الذي هو أثر الخذلان لدلالة النصر عليه ، وثانياً الإنعام لدلالة الانتقام عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 635. 637 ﴾

(198/604)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن يُرْسِلَ الرياح مبشرات ﴾

لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح ، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لإحسانه عوضاً ، ويذكر لأضراره سبباً لئلا يتوهم به الظلم فقال : ﴿ يُرْسِلَ الرياح مبشرات ﴾ قيل بالمطر كما قال تعالى : ﴿ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف : 57] أي قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال ، فإن الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ عطف على ما ذكرنا ، أي ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ بالمطر ، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال في

القليل ، ولما كان أمر الدنيا قليلاً وراحتها نزر قال : ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ ﴾ ، وأما في الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ أي الفعل ظاهراً عليه ولكنه بأمر الله ، ولذلك لما قال : ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ ﴾ مسنداً إلى العباد ذكر بعده ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي لا استقلال لشيء بشيء وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في الترتيب فنقول في الرياح فوائد ، منها إصلاح الهواء ، ومنها إثارة السحاب ، ومنها جريان الفلك بها فقال : ﴿ مبشرات ﴾ بإصلاح الهواء فإن إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده ، ثم جريان الفلك فإنه موقوف على اختبار من الآدمي بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها .

المسألة الثانية :

قال في قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفساد . . .

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذى عَمِلُواْ ﴾ [الروم : 41] وقال ههنا ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مّن رَّحْمَتِهِ ﴾ فخاطب ههنا تشريفاً ولأن رحمته قريباً من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم ، وأيضاً قال هناك بعض الذي علموا وقال ههنا ﴿ مّن رَّحْمَتِهِ ﴾ فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته وفيه معنيان :

أحدهما : ما ذكرنا أن الكريم لا يذكر لإحسانه ورحمته عوضاً ، وإن وجد فلا يقول أعطيتك لأنك فعلت كذا بل يقول هذا لك مني .

وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندي وثانيهما : أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل ، فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة ، وأما إذا قال ﴿ مّن رَّحْمَتِهِ ﴾ كان غاية البشارة ، ومعنى ثالث وهو أنه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهماً لنقصان ثوابهم في الآخرة ، وأما في حق الكفار فإذا قال بما فعلتم ينبىء عن نقصان عقابهم وهو كذلك .

المسألة الثالثة :

قال هناك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقال ههنا ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم .

المسألة الرابعة :

إنما أخر هذه الآية لأن في الآيات التي قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين فذكر من

المنذرات ﴿يُرِيكُمُ البرق﴾ والحادث في الجو في أكثر الأمر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيراً وتقريراً للدلائل ، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفاً وطمعاً ، أي قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا ﴿مبشرات﴾ لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم ، وحكمه به حكم جازم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

(200/604)

لما بين الأصلين ببراهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً﴾ أي إرسالهم دليل رسالتك فإنهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضاً بالبينات ، وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين ، وفي قوله تعالى : ﴿وَكَانَ حَقّاً﴾ وجهان : أحدهما : فانتقمنا ، وكان الانتقام حقاً واستأنف وقال علينا نصر

المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أي علينا نصركم أيها المؤمنون والوجه الثاني : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا ﴾ أي نصر المؤمنين كان حقاً علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى ، أما على الأول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين أنه لم يكن ظلماً وإنما كان عدلاً حقاً ، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الإثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيراً من وجودهم الخبيث ، وعلى الثاني تأكيد البشارة .

لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبىء عن اللزوم ، فإذا قال حقاً أكد ذلك المعنى ، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة ، فإن إحدى الطائفتين إذا انهزمت أولاً ، ثم عادت آخراً لا يكون النصر إلا للمنهزم ، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة ، فالكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 115.116 ﴾

(201/604)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾

قال الضحاك : بالغيث

. ويحتمل وجهاً ثانياً : بخصب الزمان وصحة الأبدان .

وقال أُبي بن كعب : كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكل شيء في القرآن من الريح فهو عذاب .

وقال عبد الله بن عمر : الريح ثمانية ، أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر .

﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ فيه تأويلان

: أحدهما : بردها وطيبها ، قاله الضحاك .

الثاني : المطر ، قاله مجاهد وقتادة .

﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ يعني السفن

. ﴿ بِأَمْرِهِ . . . ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : بقدرته في تسييرها .

الثاني : برحمته لمن فيها .

﴿ . . . وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يعني ما عدّده من نعمه فتطيعوه لأن طاعة العبد لربه في شكره لنعمته إذ ليس مع المعصية شكر ولا مع كفر النعمة طاعة .

قوله : ﴿ . . . وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نصر الأنبياء بإجابة دعائهم على المكذبين لهم من قومهم ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : نصر المؤمنين بإيجاب الذبّ عن أعراضهم ، روت أم الدرداء ، قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " مَا مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ إِلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ثم تلا هذه الآية ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(202/604)

وقال ابن عطية :

ثم ذكر تعالى من آياته أشياء يقضي كل عقل بأنها لا مشاركة للأوثان فيها وهو ما في الريح من المنافع وذلك أنها بشرى بالمطر ، ويذيق الله بها المطر ويلقح بها الشجر وغير ذلك ويجري بها السفن في البحر ويبتغي الناس بها فضل الله في التجارات في البحر وفي ذرو الأطعمة وغير ذلك ، ثم أنس محمداً بأن ضرب له مثل من أرسل من الأنبياء ، وتوعد قريشاً

بأن ضرب لهم مثل من هلك من الأمم الذين أجرموا وكذبوا الأنبياء ، ثم وعد محمداً وأمته النصر إذ أخبر أنه جعله ﴿ حقاً ﴾ عليه تبارك وتعالى ، و﴿ حقاً ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ قدمه اهتماماً لأنه موضع فائدة الجملة ، وبعض القراء في هذه الآية وقف على قوله ﴿ حقاً ﴾ وجعله من الكلام المتقدم ثم استأنف جملة من قوله ﴿ علينا نصر المؤمنين ﴾ ، وهذا قول ضعيف لأنه لم يدر قدماً عرضه في نظم الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(203/604)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ ﴾

أي ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشّرات أي بالمطر لأنها تتقدّمه .

وقد مضى في "الحجر" بيانه .

﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ يعني الغيث والخصب .

﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك ﴾ أي في البحر عند هبوبها .

وإنما زاد "بِأَمْرِهِ" لأن الرياح قد تَهُبُّ ولا تكون مواتية ، فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال

بحبسها ، وربما عصفت فأغرقتها بأمره .

﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني الرزق بالتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة .

وقد مضى هذا كلّه مبيناً .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالبينات ﴾ أي المعجزات والحجج النيّرات ﴿ فانتقمنا ﴾ أي فكفروا فانتقمنا ممن كفر .

﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ "حقًّا" نصب على خبر كان ، "ونصر" اسمها .

وكان أبو بكر يقف على "حَقًّا" أي وكان عقابنا حقا ، ثم قال : ﴿ عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ ابتداء وخبر ؛ أي أخبر بأنه لا يخلف الميعاد ، ولا خُلْف في خبرنا .

وروي من حديث أبي الدَّرداء قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من مسلم يَذُبّ عن عرض أخيه إلا كان حقًّا على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين " ذكره النحاس والثعلبيّ والزّمخشريّ وغيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنْ ءاياته أَن يُرْسِلَ الرياح ﴾

أي الشَّمالَ والصَّبَا والجَنوبَ فإنَّها رياحُ الرَّحمةِ وأما الدَّبُورُ فريحُ العذابِ ومنه قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام : " اللهمَّ اجعلْهَا رياحاً ولا تجعلْها ريحاً " وقُرِىء الرِّيحَ على إرادةِ الجنسِ ﴿ مبشرات ﴾ بالمطرِ ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مّن رَّحْمَتِهِ ﴾ وهي المنافعُ التَّابعةُ لها وقيل : الخصبُ التَّابعُ لنزولِ المطرِ المسبَّبِ عنها أو الرَّوحِ الذي هو مع هبُوبِها . واللامُ متعلقةٌ بيرسل والجملةُ معطوفةٌ على مبشّراتٍ على المعنى كأنَّه قيل ليبشركم بها وليذيقَكم أو بمحذوفٍ يُفهم من ذكرِ الإرسالِ تقديرُه وليذيقكم وليكون كذا وكذا يُرسلها لا لأمرٍ آخرَ لا تعلق له بمنافعِكم ﴿ وَلِتَجْرِىَ الفلك ﴾ بسوقِها ﴿ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ بتجارةِ البحرِ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولتشكروا نعمةَ الله فيما ذُكر من الغاياتِ الجليلةِ .

(205/604)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ ﴾ كما أرسلناك إلى قومِك ﴿ فَجَاؤُهُم بالبينات ﴾ أي جاء كلُّ رسول قومَه بما يخصُّه من البيّنات كما جئتَ قومَك ببيّناتك . والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ فصيحةٌ ، أي فكذَّبُوهم فانتقمنَا

منهم وإنَّما وضعَ موضعَ ضميرِهم الموصولُ للتنبيه على مكانِ المحذوفِ والإشعارِ بكونِه علَّةً للانتقامِ وفي قوله تعالى : ﴿ وكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ مزيدُ تشريفٍ وتكرمةٍ للمؤمنينَ حيثُ جُعلوا مستحقّين على الله تعالى أنْ ينصرَهم ، وإشعارٌ بأنَّ الانتقامَ من الكفرةِ لأجلِه وقد يُوقف على حقّاً على أنَّه متعلق بالانتقامِ ، ولعلَّ توسيط الآيةِ الكريمةِ بطريقِ الاعتراضِ بين ما سبقَ وما لحقَ من أحوالِ الرّياحِ وأحكامِها لإنذارِ الكَفَرةِ وتحذيرِهم عن الإخلالِ بمواجبِ الشُّكرِ المطلوبِ بقولِه تعالى لعلَّكم تشكرُون بمقابلةِ النعمِ المعدودةِ المنوطةِ بإرسالِها كيلا يحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بأولئك الأممِ من الانتقامِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(206/604)

وقال الآلوسى :

ولما ذكر سبحانه ظهور الفساد والهلاك بسبب المعاصي ذكر ظهور الصلاة ولم يذكر عز وجل أنه بسبب العمل الصالح لأن الكريم يذكر لعقابه سبباً لئلا يتوهم منه الظلم ولا يذكر ذلك لإحسانه فقال عز من قائل :

﴿ وَمِنْ ءاياته أَن يُرْسِلَ الرياح ﴾

الجنوب ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا والصبا ومهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش ، والشمال ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر فإنها رياح الرحمة وأما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل فريح العذاب ، وذكر أن الثلاثة الأول تلقح السحاب الماطر وتجمعه فلذا كانت رحمة ، وعن أبي عبيدة الشمال عند العرب للروح والجنوب للإمطار والإنداء والصبا لإلقاح الأشجار والدبور للبلاء وأهونه أن تثير غباراً عاصفاً يقذي العين وهي أقلهن هبوباً ، وروى الطبراني .

(207/604)

والبيهقي في سننه عن ابن عباس من حديث ذكر فيه ما كان يفعله ويقوله صلى الله عليه وسلم إذا هاجت ريح : "اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً" وهو مبني على أن الرياح للرحمة والريح للعذاب ، وفي النهاية العرب تقول : لا تلقح السحاب إلا من رياح مختلفة فكأنه قال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها لقاحاً للسحاب ولا تجعلها عذاباً ثم قال : وتحقيق ذلك مجيء الجمع في آيات الرحمة والواحد في قصص العذاب كالريح العقيم وريحاً صرصراً ، وقال بعضهم : أن ذاك لأن الريح إذا كانت واحدة جاءت من جهة واحدة فصدمت جسم الحيوان والنبات من جهة واحدة فتؤثر فيه أثراً أكثر من حاجته فتضره ويتضرر

الجانب المقابل لعكس ممرها ويفوته حظه من الهواء فيكون داعياً إلى فساده بخلاف ما إذا كانت رياحاً فإنها تعم جوانب الجسم فيأخذ كل جانب حظه فيحدث الاعتدال ، وأنت تعلم أنه قد تفرد الريح حيث لا عذاب كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس : 22] وقوله سبحانه : ﴿ ولسليمان الريح ﴾ [الأنبياء : 18] والحديث مختلف فيه فرمز السيوطي لحسنه ، وقال الحافظ الهيثمي : في سنده حسين بن قيس وهو متروك وبقية رجاله رجال الصحيح ، ورواه ابن عدي في الكامل من هذا الوجه وأعله بحسين المذكور ، ونقل تضعيفه عن أحمد .

والنسائي .

نعم إن الحافظ عزاه في الفتح لأبي يعلى وحده عن أنس رفعه ، وقال إسناده صحيح فليحفظ ذلك .

وقرأ ابن كثير .

والكسائي .

(208/604)

والأعمش ﴿ الريح ﴾ مفرداً على إرادة معنى الجمع ولذا قال سبحانه : ﴿ مبشرات ﴾ أي بالمطر ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ يعني المنافع التابعة لها كتذرية الحبوب وتخفيف العفونة وسقي الأشجار إلى غير ذلك من اللطف والنعم ، وقيل : الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها ، ولا وجه للتخصيص ، والواو للعطف ، والعطف على علة محذوفة دل عليها ﴿ مبشرات ﴾ أي ليبشركم وليذيقكم أو على ﴿ مبشرات ﴾ باعتبار المعنى فإن الحال قد يقصد بها التعليل نحو أهن زيداً مسيئاً أي لإساءته فكأنه قيل : لتبشركم وليذيقكم ، وكونه من عطف التوهم توهم أو على ﴿ يُرْسِلُ ﴾ بإضمار فعل معلل والتقدير ويرسلها ليذيقكم ، وكون التقدير ويجري الرياح ليذيقكم بعيد قيل : أو على جملة ومن آياته الخ بتقدير وليذيقكم أرسلها أو فعل ما فعل ، ولم يعتبره بعضهم لأن المقصود اندراج الإذاقة في الآيات ، وقيل : الواو زائدة ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ عز وجل وإنما جيء بهذا القيد لأن الريح قد تهب ولا تكون مواتية فلا بد من انضمام إرادته تعالى وأمره سبحانه للريح حتى يتأتى المطلوب ، وقيل : للإشارة إلى أن هبوبها مواتية أمر من أموره تعالى التي لا يقدر عليها غيره عز وجل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ بتجارة البحر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولتشكروا نعمة الله تعالى فيما ذكر .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾

اعتراض لتسليته صلى الله عليه وسلم بمن قبله على وجه يتضمن الوعد له عليه الصلاة والسلام والوعيد لمن عصاه ، وفي ذلك أيضاً تحذير عن الإخلال بمواجب الشكر .

(209/604)

والمراد بقومهم أقوامهم والإفراد للاختصار حيث لا لبس والمعنى ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أقوامهم كما أرسلناك إلى قومك ﴿ فَجَاءوهُمْ بالبينات ﴾ أي جاء كل قوم رسولهم بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك ﴿ فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ الفاء فصيحة أي فآمن بعض وكذب بعض فانتقمنا ، وقيل : أي فكذبوهم فانتقمنا منهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بالعلة والتنبيه على مكان المحذوف ، وجوز أن تكون تفصيلاً للعموم بأن فيهم مجرماً مقهوراً ومؤمناً منصوراً ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ فيه مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام لأجلهم ، والمراد بهم ما يشمل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وجوز تخصيص ذلك بالرسل بجعل التعريف عهدياً ، وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا ، وفي بعض الآثار ما يشعر بعدم اختصاصه بها وأنه عام لجميع المؤمنين فيشمل من بعد الرسل من الأمة .

أخرج ابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله تعالى أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا عليه الصلاة والسلام وكان حقاً علينا نصر المؤمنين " وفي هذا إشعار بأن ﴿ حَقّاً ﴾ خبر كان ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ الاسم كما هو الظاهر ، وإنما أخر الاسم لكون ما تعلق به فاصلة وللاهتمام بالخبر إذ هو محط الفائدة على ما في "البحر" .

قال ابن عطية : ووقف بعض القراء على ﴿ حَقّاً ﴾ على أن اسم كان ضمير الانتقام أي وكان الانتقام حقاً وعدلاً لا ظلماً ، ورجوعه إليه على حد ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] و ﴿ عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ جملة مستأنفة وهو خلاف الظاهر المؤيد بالخبر وإن لم يكن فيه محذور من حيث المعنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(210/604)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾

لما بيّن سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغي من مواساة القرابة ، وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه ، فقال : ﴿ فَئَاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته أسوته ، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه ، وقدم الإحسان إلى القرابة لأن خير الصدقة ما كان على قريب ، فهو صدقة مضاعفة وصلة رحم مرغب فيها ، والمراد : الإحسان إليهم بالصدقة والصلة والبر ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ أي وآت المسكين وابن السبيل حقهما الذي يستحقانه .

ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان ، ولكون ذلك واجباً لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول .

وقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة ؟ قيل : هي منسوخة بآية المواريث .

وقيل : محكمة وللقريب في مال قريبه الغنيّ حقّ واجب ، وبه قال مجاهد وقتادة .

قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ، ورحمه محتاج .

قال مقاتل : حق المسكين أن يتصدّق عليه ، وحق ابن السبيل الضيافة .

وقيل : المراد بالقربى : قرابة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال القرطبي : والأوّل أصح ، فإن حقهم مبين في كتاب الله عزّ وجلّ في قوله : ﴿ فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القربى ﴾ [الأنفال : 41] وقال الحسن : إن الأمر في إيتاء ذي

القربى للندب ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ أي ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرّب إلى الله سبحانه ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ أي الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالاً لأمره.

(211/604)

﴿ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رِباً ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ آتيتم ﴾ بالمدّ بمعنى أعطيتم، وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير بالقصر بمعنى ما فعلتم، وأجمعوا على القراءة بالمدّ في قوله: ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ وأصل الربى: الزيادة، وقراءة القصر تؤول إلى قراءة المدّ؛ لأن معناها: ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: أتيت خطأ وأتيت صواباً؛ والمعنى في الآية: ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض ﴿ لِّيَرْبُوَاْ فِي أَمْوَالِ الناس ﴾ أي ليزيد ويزكو في أموالهم ﴿ فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ الله ﴾ أي لا يبارك الله فيه.

قال السديّ: الربا في هذا الموضع: الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة؛ لأن ذلك لا يربو عند الله، لا يؤجر عليه صاحبه، ولا إثم عليه، وهكذا قال قتادة والضحاك.

قال الواحدي: وهذا قول جماعة المفسرين.

قال الزجاج: يعني: دفع الإنسان الشيء ليعوّض أكثر منه وذلك ليس بحرام، ولكنه لا ثواب

فيه ؛ لأن الذي يهبه يستدعي به ما هو أكثر منه .

وقال الشعبي : معنى الآية : أن ما خدم به الإنسان أحداً ، لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله .

وقيل : هذا كان حراماً على النبي صلى الله عليه وسلم على الخصوص لقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] ومعناها : أن تعطي فتأخذ أكثر منه عوضاً عنه .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في هبة الثواب .

قال ابن عطية : وما يجري مجراه مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه .

قال عكرمة : الربا ربوان : فربا حلال ، وربا حرام .

فأما الربا الحلال فهو الذي يهدي يلتمس ما هو أفضل منه : يعني كما في هذه الآية .

وقيل : إن هذا الذي في هذه الآية هو الربا المحرّم ، فمعنى لا يربو عند الله على القول لا يحكم به ، بل هو للمأخوذ منه .

(212/604)

قال المهلب : اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب ، فقال مالك : ينظر فيه ، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك ، مثل هبة الفقير للغنيّ ، وهبة الخادم

للمخدوم ، وهبة الرجل لأميره ، وهو أحد قولي الشافعي .

وقال أبو حنيفة : لا يكون له ثواب إذا لم يشترط ، وهو قول الشافعي الآخر .

قرأ الجمهور : ﴿ ليربوا ﴾ بالتحتية على أن الفعل مسند إلى ضمير الربا .

وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية مضمومة خطاباً للجماعة بمعنى : لتكونوا ذوي زيادات .

وقرأ أبو مالك : ﴿ لتربوها ﴾ ومعنى الآية : أنه لا يزكو عند الله ، ولا يثيب عليه ؛ لأنه لا يقبل إلاّ ما أريد به وجهه خالصاً له ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ أي وما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة ، وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿ فأولئك هُمُ المضعفون ﴾ المضعف دون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

قال الفراء : هو نحو قولهم : مسمن ومعطش ومضعف إذا كانت له إبل سمان ، أو عطاش ، أو ضعيفة .

وقرأ أبيّ : " المضعفون " بفتح العين اسم مفعول .

﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين ، وأنه الخالق الرازق المميت المحيي ، ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك ، فتقوم عليهم الحجة ، ثم نزّه سبحانه نفسه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي نزّهوه تنزيهاً ، وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك ، وقوله : ﴿ من شركائكم ﴾ خبر مقدّم ومن للتبعيض ، والمبتدأ هو الموصول ، أعني : من يفعل ، و ﴿ من ذلكم ﴾ متعلق بمحذوف ؛ لأنه حال من ﴿ شيء ﴾ المذكور بعده ، ومن في : ﴿ من شيء ﴾ مزيدة للتوكيد ، وأضاف الشركاء إليهم ؛ لأنهم كانوا يسمونهم آلهة ، ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم .

﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس ﴾ بيّن سبحانه : أن الشرك والمعاصي سبب لظهور الفساد في العالم .

واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور ، فقيل : هو القحط وعدم النبات ، ونقصان الرزق ، وكثرة الخوف ونحو ذلك ، وقال مجاهد ، وعكرمة : فساد البرّ : قتل ابن آدم أخاه : يعني : قتل قابيل لهابيل ، وفي البحر : الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً .

وليت شعري أيّ دليل دلهما على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب ، فإن الآية نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، والتعريف في الفساد يدلّ على الجنس ، فيعم كل فساد

واقع في حيزي البرّ والبحر .

وقال السديّ : الفساد الشرك ، وهو أعظم الفساد .

ويمكن أن يقال : إن الشرك وإن كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي ، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه .

وقيل : الفساد كساد الأسعار وقلة المعاش .

وقيل : الفساد : قطع السبل والظلم ، وقيل : غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه .

(214/604)

والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات ، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم ، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف والموتان ونقصان الزرائع ونقصان الثمار .

والبرّ والبحر هما المعروفان المشهوران .

وقيل : البرّ : الفيافي ، والبحر : القرى التي على ماء قاله عكرمة ، والعرب تسمي الأمصار : البحار .

قال مجاهد : البرّ : ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر : ما كان على شط نهر .

والأوّل أولى .

ويكون معنى البرّ : مدن البرّ ، ومعنى البحر : مدن البحر ، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها .

والباء في ﴿ بما كسبت ﴾ للسببية ، " ما " إما موصولة أو مصدرية ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذي عَمِلُواْ ﴾ اللام متعلقة بظهر ، وهي لام العلة ، أي ليذيقهم عقاب بعض عملهم أو جزاء بعض عملهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم فيه من المعاصي ويتوبون إلى الله .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلُ ﴾ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدي المشركين والعصاة بيّن لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأوّل ، وأمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم ، فإن منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار .

وجملة : ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي كانوا عليها ، وإيضاح السبب الذي صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ القيم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ ﴾ هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمته أسوته فيه ، كأن المعنى : إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدّم فأقم وجهك يا محمد إلخ .

قال الزجاج : اجعل جهتك اتباع الدين القيم ، وهو : الإسلام المستقيم ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ ا مردّ له ﴾ لا يقدر أحد على ردّه ، والمردّ مصدر ردّ ، وقيل : المعنى : أوضح الحق ، وبالغ في الأعذار ، و ﴿ مِنَ الله ﴾ يتعلق ب ﴿ يأتي ﴾ أو بمحذوف يدل عليه المصدر ، أي لا يردّه من الله أحد .

وقيل : يجوز أن يكون المعنى : لا يردّه الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه ، وفيه من الضعف وسوء الأدب مع الله ما لا يخفى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أصله يتصدعون ، والتصدع التفرق ، يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة برهة . . . من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

والمراد بتفرقهم ها هنا أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة ، وأهل النار يصيرون إلى النار .

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي جزاء كفره ، وهو النار ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح ، والمهاد : الفراش ، وقد مهدت الفراش مهداً : إذا بسطته ووطأته ، فجعل الأعمال الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها .

وقيل : المعنى : فعلى أنفسهم يشفقون ، من قولهم في المشفق : أمٌّ فرشت فأنامت ، وقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص .

وقال مجاهد : ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾ في القبر ، واللام في ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ ﴾ متعلقة ب ﴿ يصدّعون ﴾ ، أو ﴿ يمهدون ﴾ ، أي يتفرّقون ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة ليجزيهم .

وقيل : يتعلق بمحذوف .

قال ابن عطية : تقديره ذلك ليجزي ، وتكون الإشارة إلى ما تقدّم من قوله : ﴿ من عمل ﴾ و ﴿ من كفر ﴾ .

(216/604)

وجعل أبو حيان قسيم قوله : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ محذوفاً لدلالة قوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ عليه ؛ لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه ، وغضبه يستتبع عقوبته .

﴿ وَمِنْ ءاياته أَن يُرْسِلَ الرياح مبشرات ﴾ أي ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر ؛ لأنها تتقدّمه كما في قوله سبحانه : ﴿ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [النمل

: 63] قرأ الجمهور : ﴿ الرياح ﴾ وقرأ الأعمش : " الريح " بالإفراد على قصد الجنس لأجل قوله : ﴿ مبشرات ﴾ ، واللام في قوله : ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ متعلقة ب ﴿ يرسل ﴾ ، أي يرسل الرياح مبشرات ويرسلها ليذيقكم من رحمته ، يعني : الغيث والخصب .

وقيل : هو متعلق بمحذوف ، أي وليذيقكم أرسلها .

وقيل : الواو مزيدة على رأي من يجوز ذلك ، فتتعلق اللام ب ﴿ يرسل ﴾ ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ ﴾ معطوف على ﴿ ليذيقكم من رحمته ﴾ أي يرسل الرياح لتجري الفلك في البحر عند هبوبها ، ولما أسند الجري إلى الفلك عقبه بقوله : ﴿ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي تبتغوا الرزق بالتجارة التي تحملها السفن ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم فتفردون الله بالعبادة ، وتستكثرون من الطاعة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رِباً ﴾ الآية قال : الربا ربوان : ربا لا بأس به وربا لا يصلح .

فأما الربا الذي لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها ، وأضعافها .

وأخرج البيهقي عنه قال : هذا هو الربا الحلال ، أن يهدي يريد أكثر منه وليس له أجر ولا وزر ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم خاصة فقال : ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ ﴾ قال : هي الصدقة .

(217/604)

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر ﴾ قال : البر : البرية التي ليس عندها نهر ، والبحر : ما كان من المدائن والقرى على شط نهر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال : من الذنوب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ قال : يتفرقون .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(218/604)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾

عود إلى تعداد الآيات الدالة على تفرده بالإلهية فهو عطف على جملة ﴿ ومن ءاياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ [الروم : 25] وما تخلل بينهما من أفانين الاستدلال على الوحدانية والبعث ومن طرائق الموعظة كان لتطرية نشاط السامعين لهذه الدلائل الموضّحة المبينة .

والإرسال مستعار لتقدير الوصول ، أي يُقدر تكوين الرياح ونظامها الذي يوجهها إلى بلد محتاج إلى المطر .

والمبشرات : المؤذنة بالخير وهو المطر .

وأصل البشارة : الخبر السارّ .

شبهت الرياح برسل موجهة بأخبار المسرّة .

وتقدم ذكر البشارة عند قوله تعالى : ﴿ وبشر الذين ءامنوا وعملوا الصالحات ﴾ في سورة البقرة (25) ، وقوله ﴿ وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ﴾ في سورة النحل (58) ، وذلك أن الرياح تسوق سحاب المطر إلى حيث يمطر .

وتقدم الكلام على الرياح في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿ وتصريف الرياح ﴾ في سورة البقرة (164) وعلى ﴿ كونها لواقح ﴾ في سورة الحجر (22) .

وقوله ﴿ وليذيقكم ﴾ عطف على ﴿ مُبشرات ﴾ لأن ﴿ مبشرات ﴾ في معنى التعليل للإرسال .

وتقدم الكلام على الإذاقة آنفاً .

و ﴿ من رحمته ﴾ صفة لموصوف محذوف دل عليه فعل ﴿ ليذيقكم ﴾ أي : مذوقاً .

و ﴿ مِن ﴾ ابتدائية ، ورحمة الله : هي المطر .

وجريان الفلك بالرياح من حكمة خلق الرياح ومن نعمه ، وتقدم في آية سورة البقرة (164) .

والتقييد بقوله ﴿ بأمره ﴾ تعليم للمؤمنين وتحقيق للمِنة ، أي : لولا تقدير الله ذلك وجعله أسباب حصوله لما جرت الفلك ، وتحت هذا معان كثيرة يجمعها إلهام الله البشر لصنع الفلك وتهذيب أسباب سيرها .

وخلق نظام الريح والبحر لتسخير سيرها كما دل على ذلك قوله ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ وقد تقدم ذلك في سورة الحج (36) ، وتقدم هنالك معنى ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

هذه جملة معترضة مستطرَدة أثارها ذكر سير الفلك في عداد النعم فعُقب ذلك بما كان سير الفلك فيه تذكير بنقمة الطوفان لقوم نوح ، وبجعل الله الفلكَ لنجاة نوح وصالحي قومه من نقمة الطوفان ، فأريد تحذير المكذبين من قريش أن يصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم ، وكان في تلك النقمة نصر المؤمنين ، أي نصر الرسل وأتباعهم ؛ ألا ترى إلى حكاية قول نوح : ﴿ ربّ انصرني بما كذبون ﴾ في سورة المؤمنين (26) ، وقوله تعالى هنا : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ والواو اعتراضية وليست للعطف .

والانتقام : افتعال من النَّقْم وهو الكراهية والغضب ، وفعله كضرب وعلم قال تعالى ﴿ وما تنقِم منا ﴾ [الأعراف : 126] .

وفي المثل : مثَله كمثل الأرقم إن يُقتل يَنقَم بفتح القاف وإن يترك يَلْقم .

والانتقام : العقوبة لمن يفعل ما لا يرضي كأنه صيغ منه الافتعال للدلالة على حصول أثر النقم ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وما تنقم منا ﴾ وقوله ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ في سورة الأعراف (136) .

وكلمة ﴿ حقاً علينا ﴾ من صيغ الالتزام ، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ حقيقٌ عليّ أن لا أقول على الله إلاَّ الحق ﴾ [الأعراف : 105] ، وهو محقوق بكذا ، أي : لازم له ، قال الأعشى:

لحقوقة أن تستجيبي لصوته . . .

فإن وعد الصادق حق .

قال تعالى : ﴿ وعداً علينا إنّا كُنّا فاعلين ﴾ [الأنبياء : 104] .

وقد اختصر طريق الإفصاح عن هذا الغرض أعني غرض الوعد بالنصر والوعيد له فأُدرج تحت ذكر النصر معنَى الانتصار ، وأدرج ذكر الفريقين : فريق المصدقين الموعود ، وفريق المكذبين المتوعَّد ، وقد أُخلي الكلام أولاً عن ذكرهما .

(220/604)

وعن أبي بكر شعبة راوي عاصم أنه كان يقف على قوله ﴿ حَقّاً ﴾ فيكون في ﴿ كان ﴾ ضمير يعود على الانتقام ، أي وكان الانتقامُ من المجرمين حقاً ، أي : عدلاً ، ثم يستأنف بقوله ﴿ علينا نصرُ المؤمنين ﴾ وكأنه أراد التخلص من إيهام أن يكون للعباد حق على الله إيجاباً فراراً من مذهب الاعتزال وهو غير لازم كما علمت .

قال ابن عطية : وهو وقف ضعيف ، وكذلك قال الكواشي عن أبي حاتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(221/604)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾

هذه نِعَم خمس من نِعَم الله على عباده .

فإرسال الرياح وحدها نعمة ، وتبشيرها بالمطر نعمة ، وإجراء الفُلْك نعمة ، والابتغاء من فضل الله نعمة ، ثم الشُّكْر على هذا كله نعمة أخرى .

والآيات : جمع آية ، وهي كما قلنا : الشيء العجيب الذي يجب أنْ يلفت الأنظار ، وألاَّ يغفل الإنسان عنه طرفة عَيْن ، ومن ذلك قولنا : فلان آية في الفصاحة ، أو آية في الجمال . . إلخ .

وتُطلق الآيات ويراد بها معَان ثلاثة : آيات كونية تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتثبت قدرة الخالق . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر . . . ﴾ [فصلت : 37] .

وآيات بمعنى المعجزات التي تصاحب الرسل ؛ لتثبت صِدْقهم في البلاغ عن الله ، ثم الآيات التي تحمل الشرع والأحكام ، وهي آيات القرآن الكريم التي تحمل إلينا منهج الله .

وآيات بمعنى المعجزات التي تصاحب الرسل ؛ لتثبت صِدْقهم في البلاغ عن الله ، ثم الآيات التي تحمل الشرع والأحكام ، وهي آيات القرآن الكريم التي تحمل إلينا منهج الله .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن الآيات الكونية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ . . .

﴿ [الروم : 46] كلمة الرياح جمع ريح ، والرياح هنا بالمعنى العام : الهواء ، وهو أنواع : هواء ساكن ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ . . . ﴾ [الشورى : 33] .

والهواء الساكن يضايق الإنسان ، حيث يُصعِّب عليه عملية التنفس ، فيجلب الهواء لنفسه إما بيده أو بمروحة . لماذا ؟ ليجدد الأكسوجين في الهواء المحيط به فيستطيع التنفس ، والهواء يأتي مرة ساخناً يلفح الوجوه ، ومرة نسيماً مُنعِشاً عليلاً ، ويأتي عاصفاً مدمراً . . الخ .

(222/604)

والحق سبحانه – كما سبق أنْ بيَّنَا – رتَّب مقومات حياة الخليقة في الأرض على : الهواء ، ثم الماء ، ثم الطعام على هذا الترتيب ، وحَسْب أهمية هذه المقومات . فالهواء هو أهم مُقوِّم في حياة الكائن الحي ، حيث لا يصبر عليه الإنسان إلا لحظة بمقدار شهيق وزفير ولو حُبس عنه لمات . ثم الماء ويصبر عليه الإنسان إلى عشرة أيام . ثم الطعام ويصبر عليه إلى شهر .

لذلك من حكمة الخالق سبحانه ألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، ولو ملكه أحد وغضب عليك لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك ، أما الماء فقليل أنْ يُملكه للناس ، أما الطعام فكثيراً ما يملك ؛ لأن

الإنسان يصبر عليه فترة طويلة تُمكّنه أن يكتسبه ، ويحتال عليه ، أو لعل مالكَ الطعام يرقُّ قلبه ويعطيك .

لذلك نسمع من عبارات التهديد : والله لأكتم أنفاسه ، كأن هذه العملية هي أقسى ما يمكن فِعْله ؛ لأنك قد تمنع عنه الماء أو الطعام ولا يموت ، لكن إنْ منعتَ عنهَ الهواء فهي نهايته ، وهي أسرع وسائل الإبادة للإنسان وأيسرها وأقلّها أثراً ، فلا يترتب عليها دم ولا جروح مجرد منديل مبلل بالماء . إذن : الهواء مُقوِّم هام حياة وإماتة .

وقلنا : إذا حُبِس الهواء أو سكن لا يتجدد فيه الأكسوجين فيتضايق الإنسان ؛ لأن أنفاسه تكتم ، أما إذا حدثت في المكان رائحة كريهة فترى الجميع يضج : افتحوا النوافذ ، لماذا ؟ ليتجدد الهواء .

إذن : إرسال الرياح في ذاتها نعمة ، فإذا كان فيها برودة وشعرت بطراوتها فهي تُبشِّرك بالمطر ؛ لذلك كان العربي يعرف المطر قبل وقوعه ويُقدِّر مسافة السحابة التي ستمطره ، إذن : فالتبشير بالمطر نعمة أخرى .

(223/604)

وهاتان النعمتان إرسال الرياح وإنزال المطر ، لا دخلَ للإنسان فيهما ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ . . . ﴾ [الروم : 46] أي : بالمطر أما في آية الفلك ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ . . . ﴾ [الروم : 46] فنسب الجريان إلى الفُلْك لأن للإنسان يداً فيها وعملاً ، فهو صانعها ومُسيِّرها بأمر الله ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم : 46] أي : تسيرون في البحر للصيد وطلب الرزق ، أو حتى للنزهة والسياحة .

إذن : الآية التي لا دخلَ للإنسان فيها تُنسَب إلى الله وحده ، وإنْ كان للإنسان فيها عمل نسبها إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : 58-61] .

فأعطانا نعمة الحياة ، ثم ذكر ما ينقضها ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور ، ولما كانت آية الحياة وآية الموت لا دخلَ للإنسان فيها اكتفى بهذا الاستفهام ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 59] ولا أحدَ يستطيع أنْ يقول أنا خلقتُ .

أما في آية الحَرْث ، فنسب الحرث إلى الإنسان ؛ لأن عمله كثير في هذه الآية ، حيث يحرث ويبذر ويروي . . إلخ لذلك قال في نَقْض هذه النعمة ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً . . . ﴾ [الواقعة : 65] وأكدَ الفعل باللام حتى لا تغترّ بعملك في الزرع .

أما في الماء ، فلم يذكر هذا التوكيد ؛ لأن الماء نعمة لا يدَ للإنسان فيها ؛ لذلك قال في نقضها ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً . . . ﴾ [الواقعة : 70] بدون توكيد .

(224/604)

النعمة الخامسة : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم : 46] وهذه النعمة هي كنز النعم كلها وعقالها ، فإنْ شكرتَ لله نعمة عليك زادك منها : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 7] .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

يعني : يا محمد ، إنْ كنتَ تعبت في الدعوة ، ولقيت من صناديد قريش عنتاً وعناداً وإيذاءً ومكراً وتبييتاً ، فنحن مع ذلك نصرناك ، وخُذْ لك أسوة في إخوانك من الرسل السابقين ، فقد تعرَّضوا لمثل ما تعرضتَ له ، فهل أسلمنا رسولنا لأعدائه ؟ إذن : اطمئن ، فلن ينال هؤلاء منك شيئاً .

ومعنى ﴿ فَجَآءُوهُم بالبينات . . . ﴾ [الروم : 47] أي : الآيات الواضحات التي تثبت صدقهم في البلاغ عن الله ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا ﴿ فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ .

. . ﴾ [الروم: 47] وهنا إيجاز لأمر يُفهم من السياق، فلم يقُل القرآن أنهم كذبوا، إنما جاء بعاقبة التكذيب ﴿ فانتقمنا . . . ﴾ [الروم: 47].

وهذا الإيجاز واضح في قصة هدهد سليمان، في قوله تعالى: ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل: 28] وحذف ما بين العبارتين من أحداث تُفهَم من السياق، وهذا مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم.

وتكذيب الأمم السابقة للآيات التي جاءتهم على أيدي الرسل دليل على أنهم أهل فساد، ويريدون أن ينتفعوا بهذا الفساد، فشيء طبيعي أنْ يعاندوا الرسل الذين جاءوا للقضاء على هذا الفساد، وأنْ يضطهدوهم، فيغار الله تعالى على رسله ﴿ فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ . . . ﴾ [الروم: 47].

(225/604)

ثم يقرر هذه القضية: ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم: 47] وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً، ثم يُسلِمه لأعدائه، أو يتخلى عنه؛ لذلك قال سبحانه في موضع آخر: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات: 171-173].

وسبق أنْ قُلْنا : لا ينبغي أن تبحث في هذه الجندية : أصادق هذا الجندي في الدفاع عن الإسلام أم غير صادق ؟ إنما انظر في النتائج ، إنْ كانت له الغلبة فاعلم أن طاقة الإيمان فيه كانت مخلصة ، وإنْ كانت الأخرى فعليه هو أن يراجع نفسه ويبحث عن معنى الانهزام الذي كان ضد الإسلام في نفسه ، لأنه لو كان من جُنْد الله بحق لتحقق فيه ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] ولا يُغلب جند الله إلا حين تنحلّ عنهم صفة من صفات الجندية .

وتأمل مثلاً ما حدث في غزوة أحد ، حيث انهزم المسلمون – وإنْ كانت كلمة الهزيمة هنا ليست على سبيل التحقيق لأن المعركة كانت سجالاً ، وقد انتصروا في أولها ، لكن النهاية لم تكُنْ في صالحهم ؛ لأن الرماة خالفوا أمر رسول الله ، والهزيمة بعد هذه المخالفة أمر طبيعي .

وهل كان يسرُّك أيها المسلم أنْ ينتصر المسلمون بعد مخالفتهم أمر رسولهم ؟ والله لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر رسولهم لهانَ كل أمر لرسول الله بعدها ، ولقالوا : لقد خالفنا أمره وانتصرنا . إذاً فمعنى ذلك أن المسلمين لم ينهزموا ، إنما انهزمت الانهزامية فيهم ، وانتصر الإسلام بصِدْق مبادئه .

كذلك في يوم حنين الذي يقول الله فيه ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 25] حتى أن الصِّديق نفسه يقول : لن نُغلَب اليوم عن قلة ، فبدأت المسألة بالهزيمة ، لكن الأمر كما تقول (صعبوا على ربنا) فأنزل السكينة عليهم ، وشاء سبحانه أن يسامحهم في هذه الزَّلة مراعاة لخاطر أبي بكر .

فقوله تعالى ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] نعم ، نصر المؤمنين حَقٌّ على الله ، أوجبه سبحانه على نفسه ، فهو تفضُّل منه سبحانه ، كما يتفضل الموصِي بماله على الموصى له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(227/604)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) (الروم : 46) وفي سورة الجاثية : (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) (الجاثية : 12) ، للسائل أن يسأل عن زيادة (فيه) في

سورة الجاثية وكونه لم يثبت في سورة الروم ؟

والجواب ، أن هذا لا إشكال فيه ، لأن البحر لم يجر له ذكر في آية الروم ، فلم يكن للضمير ما يرجع إليه ، فلم يؤت به بهذا ، ولو قصد محل جري الفلك ألزم الإتيان بالظاهر (ولقيل) : ولتجري الفلك في البحر ، وهو مفهوم من السياق ، فلم يحتج إليه هناك . أما آية الجاثية فإنه لما قدم فيها ذكر البحر جيء بالضمير المجرور العائد إليه على ما ينبغي ، وكان له مفسراً ، فحسن الإتيان به بخلاف آية الروم ، فالفرق بينهما لا خفاء به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 401 ﴾

(228/604)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ منيبين إليه ﴾ قال : تائبين إليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ من الذين فرقوا دينهم ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وفي قوله ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ قال : يأمرهم بذلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ يقول : أم أنزلنا عليهم كتاباً فهو ينطق بشركهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ قال : الضيف ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله أولئك هم المضعفون ﴾ قال : هذا الذي يقبله الله ، ويضاعفه لهم عشر أمثالها وأكثر من ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما آتيتم من ربا . . . ﴾ قال : الربا ربا آن . ربا لا بأس به . وربا لا يصلح ، فأما الربا الذي لا بأس به ؛ فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها ، أو اضعافها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ﴾ قال : هي الهدايا .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس ﴾ قال : يعطي ما له يبتغي أفضل منه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ﴾ قال : ما أعطيتم من عطية لتثابوا عليها في الدنيا ، فليس فيها أجر .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وما آتيتم من رباً . . . ﴾ قال : هو الربا الحلال . أن تهدي أكثر منه ، وليس له أجر ولا وزر ، ونهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم خاصة فقال ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ .

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه ﴿ وما آتيتم رباً . . . ﴾ قال : الرجل يعطي الشيء ليكافئه به ، ويزداد عليه ﴿ فلا يربوا عند الله ﴾ والآخر الذي يعطي الشيء لوجه الله ، ولا يريد من صاحبه جزاء ولا مكافأة ، فذلك الذي يضعف عند الله تعالى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ قال : هي الصدقة .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال ﴿ البر ﴾ البرية التي ليس عندها نهر . و ﴿ البحر ﴾ مكان من المدائن والقرى على شط نهر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . . ﴾ الآية . قال : نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال : قحوط المطر . قيل له : قحوط المطر لن يضر البحر . قال : إذا قل المطر قل الغوص .

وأخرج ابن المنذر عن عطية رضي الله عنه في الآية . أنه قيل له : هذا البر والبحر أي فساد فيه ؟ قال : إذا قل المطر قل الغوص .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن رفيع رضي الله عنه في قوله ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال : انقطاع المطر . قيل : فالبحر ؟ قال : إذا لم يمطر عميت دواب البحر .

(230/604)

وأخرج الفريابي عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال ﴿ البر ﴾ الفيافي التي ليس فيها شيء . و ﴿ البحر ﴾ القرى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه أنه سئل عن قوله ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال : البر قد عرفناه فما بال البحر ؟ قال : إن العرب تسمي الأمصار : البحر .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال : فساد البر : قَتْلُ ابنُ آدمَ أخاه . والبحر : أَخْذُ الملكِ السفنَ غصباً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال : هذا قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم رجع راجعون من الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال ﴿ البر ﴾ كل قرية نائية عن البحر . مثل مكة والمدينة ، و ﴿ البحر ﴾ كل قرية على البحر ، مثل كوفة والبصرة والشام وفي قوله ﴿ بما كسبت أيدي الناس ﴾ قال : بما عملوا من المعاصي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في الآية قال : البحر الجزائر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿

لعلهم يرجعون ﴾ قال : يتوبون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال : عن الذنوب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ قال : أفسدهم الله بذنوبهم في بر الأرض وبحرها بأعمالهم الخبيثة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال : يرجع من بعدهم .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

(231/604)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ قال : الإِسلام ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ قال : فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ قال : يتفرقون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ يومئذ يصدعون ﴾

يومئذ يتفرقون . وقرأ (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) قال : هذا حين يصدعون يتفرقون إلى الجنة والنار .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في عذاب القبر عن مجاهد في قوله ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾ قال : يسوّون المضاجع في القبر .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ قال : بالمطر ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ قال : المطر ﴿ ولتجري الفلك بأمره ﴾ قال : السفن في البحار ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ قال : التجارة في السفن .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة . ثم تلا ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾

يرسل رياحَ الرجاءِ على قلوب العِباد فتكنس عن قلوبهم غبارَ الخوف وغُثَاء اليأس ، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بِساط الجُهْدِ ، وتكرمهم بقوى النشاط . ويرسل رياحَ البسطِ على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض ، وينشر فيها إرادة الوصال . ويرسل رياحَ التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء ، ويبشرها بدوام الوصال ، فذلك ارتياحٌ به ولكن بعد اجتياحٍ عنك .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا ، فَمَنْ قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق ، ومَنْ عارضَهم بالجحود أذقناهم عذابَ الخلود ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا ، وشَوَّشْنا عليهم ما أَمَّلوا ، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتَنَعَّموا ، وأخذنا بخناقهم فحاق بهم ما مكروا .

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بتوطئتهم بأعقاب أعدائهم ، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى

رقيناهم فوق رقابهم ، وخرَّبنا أوطانَ أعدائهم ، وهدَّمنا بنيانهم ، وأخمدنا نيرانَهم ، وعَطَّلنا عنهم ديارهم ، ومَحَوْنا بقَهْرِ التدمير آثارَهم ، فظَلَّتْ شموسهُم كاسفة ، ومكيدةُ قَهْرِنا لهم بأجمعهم خاسفة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 122 . 123 ﴾

(233/604)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أقام سبحانه الدليل على البعث وإقامة الوجود بتصريفه الرياح كيف يشاء وأتبعه آية التسلية والتهديد ، وكان عذاب المذكورين فيها بالريح أو ما هي سببه أو لها مدخل فيه ، أتبع ذلك الإعلام بأنه مختص بذلك سبحانه تنبيهاً على عظيم آية الرياح للخص على تدبرها ، مؤكداً لأمر البعث ومصرحاً به ، فقال ثانياً الكلام عن مقام العظمة الذي اقتضته النقمة إلى الاسم الأعظم الجامع الذي نظره إلى النعمة أكثر من نظره إلى النقمة : ﴿ الله ﴾ أي وحده ﴿ الذي يرسل ﴾ مرة بعد أخرى لأنه المتفرد بالكمال فلا كفوء له : ﴿ الرياح ﴾ مضطربة هائجة بعد أن كانت ساكنة ، وفي قراءة الجمهور بالجمع خلافاً لابن كثير وحمزة والكسائي تنبيه على عظيم الصنع في كونه يفعل ما ذكره بأي ريح أراد ﴿ فتثير سحاباً ﴾ لم يكن له وجود .

ولما أسند الإثارة إلى الرياح ، نزع الإسناد إليها في البسط والتقطيع فإنه لم يجعل فيه قوة شيء من ذلك ليعلم أن الكل فعله فقال : ﴿ فيبسطه ﴾ بعد اجتماعه ﴿ في السماء ﴾ أي جهة العلو .

ولما كان أمر السحاب في غاية الإعجاب في وجوده بعد أن لم يكن وأشكاله وألوانه وجميع أحواله في اجتماعه وافتراقه وكثافته وما فيه من مطر ورعد وبرق وغير ذلك مما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى ، أشار سبحانه إلى ذلك بأداة الاستفهام وإن كانوا قد عدوها هنا شرطية فقال : ﴿ كيف ﴾ أي كما ﴿ يشاء ﴾ أي في ناحية شاء قليلاً تارة كمسيرة

ساعة أو يوم ، وكثيراً أخرى كمسيرة أيام على أوضاع مختلفة تدلك قطعاً على أنه فعله وحده باختياره لا مدخل فيه لطبيعة ولا غيرها .

(234/604)

ولما كان المراد بذلك كونه على هيئة الاتصال ، دل عليه بقوله : ﴿ ويجعله ﴾ أي إذا أراد ﴿ كسفاً ﴾ أي قطعاً غير متصل بعضها ببعض اتصالاً يمنع نزول الماء ﴿ فترى ﴾ أي بسبب إرسال الله له أو بسبب جعله ذا مسامٍّ وفرج يا من أهلية الرؤية ، أو يا أشرف خلقنا الذي لا يعرف هذا حق معرفته سواه ﴿ الودق ﴾ أي المطر المتقاطر القريب الواسع ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي السحاب الذي هو اسم جنس في حالتي الاتصال والانفصال .

ولما كان سبحانه قد سبب عن ذلك سرور عباده لما يرجون من أثره وإن كانوا كثيراً ما يشاهدون تخلف الأثر لعوارض ينتجها سبحانه ، قال مسبباً عن ذلك مشيراً بأداة التحقق إلى عظيم فضله وتحقق إنعامه : ﴿ فإذا أصاب ﴾ أي الله ﴿ به من ﴾ أي أرض من ﴿ يشاء ﴾ ونبه على أن ذلك فضل منه لا يجب عليه لأحد أصلاً شيء بقوله : ﴿ من عباده ﴾ أي الذين لم تزل عبادته واجبة عليهم ، وهم جديرون بملازمة شكره ، والخضوع لأمره ، خاصاً لهم بقدرته واختياره ، وبين خفتهم بإسراعهم إلى الاستبشار مع احتمال

العاهات ، جامعاً رداً على معنى " من " أو على " العباد " لأن الخفة من الجماعة أفحش فقال : ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يظهر عليهم البشر ، وهو السرور الذي تشرق له البشرة حال الإصابة ظهوراً بالغاً عظيماً بما يرجونه مما يحدث عنه من الأثر النافع من الخصب والرطوبة واللين ؛ ثم بين طيشهم وعجزهم بقوله : ﴿ وإن ﴾ أي والحال أنهم ﴿ كانوا ﴾ في الزمن الماضي كوناً متمكناً في نفوسهم ، وبين رب يأسهم من استبشارهم دلالة على سرعة انفعالهم وكثرة تقلبهم بالجار ، فقال : ﴿ من قبل أن ينزل ﴾ أي المطر بأيسر ما يكون عليه سبحانه ﴿ عليهم ﴾ ثم أكد عظم خفتهم وعدم قدرتهم بقوله : ﴿ من قبله ﴾ أي الاستبشار سواه من غير تخلل زمان يمكن أن يدعي لهم فيه تسبب في المطر ﴿ لمبلسين ﴾ أي ساكتين على ما في أنفسهم تحيراً ويأساً وانقطاعاً ، فلم يكن لهم على الإتيان بشيء من ذلك حيلة ، ولا لمعبوداتهم صلاحية له باستقلال ولا وسيلة .

(235/604)

ولما انكشف بذلك الغطاء ، وزاحت الشبه ، أعرض سبحانه عنهم على تقدير أن يكون " ترى " لمن فيه أهلية الرؤية إيذاناً بأنه لا فهم لهم ملتفتاً إلى خلاصة الخلق الصالح للتلقي عنه قائلاً مسبباً عن ذلك : ﴿ فانظر ﴾ ولما كان المراد تعظيم النعمة ، وأن الرزق أكثر من

الخلق ، عبر بحرف الغاية إشارة إلى تأمل الأقصى بعد تأمل الأدنى فقال : ﴿ إلى آثار ﴾ ولما لم يكن لذلك سبب سوى سبق رحمته لغضبه قال : ﴿ رحمت الله ﴾ للجامع لمجامع العظة ، وأظهر ولم يضمر تنبيهاً على ما في ذلك من تناهي العظمة في تنوع الزروع بعد سقيا الأرض واهتزازها بالنبات واخضرار الأشجار واختلاف الثمار ، وتكون الكل من ذلك الماء .

ولما كان هذا من الخوارق العظيمة ، ولكنه قد تكرر حتى صار مألوفاً ، نبه على عظمته بأنه أهل لأن يسأل عنه فقال : ﴿ كيف يحيي ﴾ أي هذا الأثر أو الله مرة بعد أخرى ﴿ الأرض ﴾ بإخراج ما ذكر منها .

ولما كانت قدرته على تجديد إحيائها دائة – على ما أشار إليه المضارع ودعا إليه مقصود السورة ، أشار إلى ذلك أيضاً بترك الجار فقال : ﴿ بعد موتها ﴾ بانعدام ذلك .

ولما كان هذا دالاً على القدرة على إعادة الموتى ولا بد لأنه مثله سواء ، فإن جميع ما لا ينبته الآدميون يتفرق في الأرض بعد كونه هشيماً تذروه الرياح ، ويتفتت بحيث يصير تراباً ، فإذا نزل عليه الماء عاد كما كان أو أحسن قال : ﴿ إن ذلك ﴾ أي العظيم الشأن الذي قدر على هذا ﴿ لمحيي الموتى ﴾ كلها من الحيوانات والنباتات ، أي ما زال قادراً على ذلك ثابتاً له هذا الوصف ولا يزال ﴿ وهو ﴾ مع ذلك ﴿ على كل شيء ﴾ من ذلك وغيره ﴿ قدير ﴾ لأن نسبة القدرة منه سبحانه إلى كل ممكن على حد سواء .

ولما كان تكرار مشاهدتهم لمثل هذا الاقتدار لا يفيدهم علماً بالله تعالى ، دل على ذلك بقوله ، لافتاً الكلام إلى سياق العظمة تنبيهاً على عظيم عفوه سبحانه مع تمام القدرة ، مؤكداً له غاية التأكيد ، تنبيهاً على أنه ليس من شأن العقلاء عدم الاستفادة بالمواعظ ، معبراً بأداة الشك ، تنبيهاً على أن إنعامه أكثر من انتقامه ، مؤكداً بالقسم لإنكارهم الكفر : ﴿ ولئن أرسلنا ﴾ بعد وجود هذا الأثر الحسن ﴿ ريحاً ﴾ عقيماً ﴿ فرأوه ﴾ أي الأثر ، ويجوز أن يكون الضمير للريح من التعبير بالسبب عن المسبب ﴿ مصفراً ﴾ قد ذبل وأخذ في التلف من شدة يبس الريح إما بالحر أو البرد ﴿ لظلوا ﴾ أي لداموا وعزتنا لها يجددون الكفر أبداً وإن كان " ظل " معناه : دام نهاراً ، وعبر بالماضي موضع المستقبل نحو " ليظللن والله " تأكيداً لتحقيقه ، ولعله عبر بالظلول لأن مدة النوم لا تجديد فيها للكفر ، ولذلك أتى فيها بحرف التبعيض حيث قال : ﴿ من بعده ﴾ أي بعد اصفراره ﴿ يكفرون ﴾ بيأسهم من روح الله وجحودهم لما أسلف إليهم من النعم بعد ما تكرر من تعرفه سبحانه إليهم بالإحسان ، بعد ما التقت حلقتا البطان ، وكان وكان فلاهم عند السراء بالرحمة شكروا ، ولاعند الضراء بالنقمة صبروا ، بل لم يزيدوا هناك على الاستبشار ، ولا نقصوا هنا

شيئاً من تجديد الكفر والإصرار ، فلم يزالوا لعدم استبصارهم على الحالة المذمومة ، ولم يسبقوا في إزاله النقم ، ولا إنالة النعم ، فكانوا أضل من النعم .

(237/604)

ولما كان هذا كله من حالهم في سرعة الحزن والفرح في حالتي الشدة والرخاء وإصرارهم على تجديد الكفر دليلاً على خفة أحلامهم ، وسوء تدبرهم ، فإنهم لا للآيات المرئية يعون ، ولا للمتلوة عليهم يسمعون ، سبب عن ذلك التعريف بأن أمرهم ليس لأحد غيره سبحانه وهو قد جعلهم أموات المعاني ، فقال ممثلاً لهم بثلاثة أصناف من الناس ، وأكده لأنهم ينكرون أن يكون حالهم كذلك والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شديد السعي في إسماعهم والجهد في ذلك : ﴿ فإنك ﴾ أي استدامتهم لكفرهم هذا تارة في الرخاء وتارة في الشدة وقوفاً مع الأثر من غير نظر ما إلى المؤثر وأنت تتلو عليهم آياته ، وتنبههم على بدائع بيناته بسبب أنك ﴿ لا تسمع الموتى ﴾ أي ليس في قدرتك إسماع الذين لا حياة لهم ، فلا نظر ولا سمع ، أو موتى القلوب ، إسماعاً ينفعهم ، لأنه مما اختص به سبحانه ، وهؤلاء منهم من هم مثل الأموات لأن الله تعالى قد ختم على مشاعرهم ﴿ ولا تسمع ﴾ أي أنت في قراءة الجماعة غير ابن كثير ﴿ الصم ﴾ أي الذين لا سمع لهم أصلاً ، وذكر ابن كثير الفعل من سمع

ورفع الصم على أنه فاعل ، فكان التقدير : فإن من مات أو مات قلبه ولا يسمع ولا يسمع الصم ﴿ الدعاء ﴾ إذا دعوتهم ، ثم لما كان الأصم قد يحس بدعائك إذا كان مقبلاً بحاسة بصره قال : ﴿ إذا ولوا ﴾ وذكر الفعل ولم يقل : ولت ، إشارة إلى قوة التولي لئلا يظن أنه أطلق على المجانبة مثلاً ، ولذا بنى من فاعله حالاً هي قوله : ﴿ مدبرين ﴾ .

(238/604)

ولما بدأ بفاقد حاسة السمع لأنها أنفع من حيث إن الإنسان إنما يفارق غيره من البهائم بالكلام ، أتبعها حاسة البصر مشيراً بتقديم الضمير إلى أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجتهد في هدايتهم اجتهاد من كأنه يفعله بنفسه تدريباً لغيره في الاقتصاد في الأمور فقال : ﴿ وما أنت بهاد العمي ﴾ أي بموجد لهم هداية وإن كانوا يسمعون ، هذا في قراءة الجماعة غير حمزة ، وجعله حمزة فعلاً مضارعاً مسنداً إلى المخاطب من هدى ، فالتقدير : وما أنت تجدد هداية العمي ﴿ عن ضلالتهم ﴾ إذا ضلوا عن الطريق فأبعدوا وإن كان أدنى ضلال – بما أشار إليه التأنيث ، وإن أتعبت نفسك في نصيحتهم ، فإنهم لا يسلكون السبيل إلا وأيديهم في يدك ومتى غفلت عنهم وأنت لست بقيوم رجعوا إلى ضلالهم ، فالمنفي في هذه الجملة في قراءة الجمهور ما تقتضيه الاسمية من دوام الهداية مؤكداً ، وقراءة

حمزة ما يقتضيه المضارع من التجدد وفي التي قبلها ما تقتضيه الفعليه المضارعة من التجدد ما دام مشروطاً بالإدبار ، وفي الأولى تجدد السماع مطلقاً فهي أبلغ ثم التي بعدها ، فممثول الصنف الأول من لا يقبل الخير بوجه ما مثل أبي جهل وأبيّ بن خلف ، والثاني من قد يقارب مقاربة ما مثل عتبة بن ربيعة حين كان يقول لهم : خلوا بين هذا الرجل وبين الناس ، فإن أصابوه فهو ما أردتم وإلا فعزه عزكم ، والثالث المنافقون ، وعبر في الكل بالجمع لأنه أنكأ - والله الموفق .

(239/604)

ولما كان ذلك كناية عن إيغالهم في الكفر ، بينه ببيان أن المراد موت القلب وصممه وعماه لا الحقيقي بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ تسمع إلا من يؤمن ﴾ أي يجدد إيمانه مع الاستمرار مصدقاً ﴿ بآياتنا ﴾ أي فيه قابلية ذلك دائماً ، فهو يذعن للآيات المسموعة ، ويعتبر بالآيات المصنوعة ، وأشار بالإفراد في الشرط إلى أن لفت الواحد عن رأيه أقرب من لفته وهو مع غيره ، وأشار بالجمع في الجزاء إلى أن هذه الطريقة إن سلكت كثر التابع فقال : ﴿ فهم ﴾ أي فتسبب عن قبولهم لذلك أنهم ﴿ مسلمون ﴾ أي منقادون للدليل غاية

الانقياد غير جامدين مع التقليد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 638 .

642 ﴾

(240/604)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

بين دلائل الرياح على التفصيل الأول في إرسالها قدرة وحكمة .

أما القدرة فظاهرة فإن الهواء اللطيف الذي يشقه الودق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار ، وأما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يفضي إليه من إثارة السحب ، ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلاً ومنه ما يكون منقطعاً ، ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة ، وما يفضي إليه من إنبات الزرع وإدرار الضرع حكمة بالغة ، ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة .

(241/604)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ ﴾ اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم هو تأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ عاقبتهما أَنَّهُمَا فِى النار خالدين فِيهَا ﴾ [الحشر : 17] وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر ، والأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله ، أي من قبل إرسال الرياح ، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس ، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلساً ، فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل إنهم كانوا مبلسين ، لأن من قبله قد يكون راجباً غالباً على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله ، أي من قبل ما ذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب ، ثم لما فصل قال : ﴿ فانظر إلى ءاثار رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى ﴾ لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل ، فإن الإنسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك ، لأن الثاني يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفاً بالعطاء ، والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا بقوله إنك ميت فإنه آكد من قوله إنك تموت ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تأكيد لما يفيد الاعتراف .

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين ، وعند ظهوره يكونون مستبشرين ، بين أن تلك الحالة أيضاً لا يدومون عليها ، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون

غير ثابتين لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(242/604)

قال في الآية الأولى ﴿يُرْسِلُ الرياح﴾ على طريقة الإخبار عن الإرسال ، وقال ههنا ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ لا على طريقة الإخبار عن الإرسال ، لأن الرياح من رحمته وهي متواترة ، والريح من عذابه وهو تعالى رؤوف بالعباد يمسكها ، ولذلك نرى الرياح النافعة تهب في الليالي والأيام في البراري والآكام ، وريح السموم لا تهب إلا في بعض الأزمنة وفي بعض الأمكنة .

المسألة الثانية :

سمى النافعة رياحاً والضارة ريحاً لوجوه أحدها : النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد فجمعها ، فإن كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ، ولا تهب الريح الضارة في أعوام ، بل الضارة في الغالب لا تهب في الدهور الثاني : هو أن النافعة لا تكون إلا رياحاً فإن ما يهب مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشىء السحاب ولا يجري السفن ، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم الثالث : هو أن الريح المضرة إما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها ، أما

الكيفية فهي إذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم ، وهذا لا يكون للريح في هبوبها وإنما يكون بسبب أن الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة أو في موضع غائر وهو حار جداً ، أو تكون متكونة في أول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة ، لأن ذلك الهواء الساكن إذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب ، ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حاراً ولا متكيفاً ، لأن المكث الطويل شرط التكيف ، ألا ترى أنك لو أدخلت إصبعك في نار وأخرجتها بسرعة لا تتأثر ، والحديد إذا مكث فيها يذوب ، فإذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد في ذلك الوقت غيره من جنسه ، وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد .

(243/604)

وأما الكمية فالرياح إذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان ، ومياه العيون إذا اجتمعت تصير نهراً عظيماً لا تسده السدود ولا يرده الجلمود ، ولا شك أن في ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير ، فلهذا قال في المضرة ريح وفي النافعة رياح .

ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ، وإنباؤه إلا كفراً وإضراراً ، قال له : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الموتى وَلَا تُسْمِعُ الصم الدعاء

إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الترتيب فنقول إرشاد الميت محال ، والمحال أبعد من الممكن ، ثم إرشاد الأصم صعب فإنه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير ، والإفهام بالإشارة صعب ، ثم إرشاد الأعمى أيضاً صعب ، فإنك إذا قلت له الطريق على يمينك يدور إلى يمينه ، لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب وإرشاد الأصم أصعب ، فلهذا تكون المعاشرة مع الأعمى أسهل من المعاشرة مع الأصم الذي لا يسمع شيئاً ، لأن غاية الإفهام بالكلام ، فإن ما لا يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة ، فإن المعدوم والغائب لا إشارة إليهما فقال أولا لا تسمع الموتى ، ثم قال ولا الأصم ولا تهدي الأعمى الذي دون الأصم .

المسألة الثانية :

قال في الصم ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ ليكون أدخل في الامتناع ، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فإنما يفهم بالإشارة ، فإذا ولى ولا يكون نظره إلى المشير فإنه يسمع ولا يفهم .

المسألة الثالثة :

قال في الأصم ﴿ لَا تُسْمِعُ الصم الدعاء ﴾ ولم يقل في الموتى ذلك لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد فقال إنك داع

لست بملجىء إلى الإيمان والداعي لا يسمع الأصم الدعاء .

المسألة الرابعة :

(244/604)

قال : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى العمى ﴾ أي ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتاً وبيتين ، أي ليس شغله ذلك فقوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ نفى ذلك عنه ، وقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى العمى ﴾ يعني ليس شغلك ذلك ، وما أرسلت له .

ثم قال تعالى : ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ [النمل : 81] لما نفى إسماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حياً سميعاً وهو كذلك لأن المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت في قلبه العقائد الحقة ، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ، وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فإنهم قالوا الله يريد من الكل الإيمان ، غير أن بعضهم يخالف إرادة الله ، وقوله : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ ﴾ دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبي صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون

كما قال تعالى عنهم : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة : 285] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 117.119 ﴾

(245/604)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ . . . وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾

فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : قطعاً ، قاله قتادة .

الثاني : متراكماً بعضه على بعض ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : في سماء دون سماء ، قاله الضحاك .

﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ أي من خلال السحاب . وقرأ الضحاك بن مزاحم :

من خلله ، وفي ﴿ الْوَدْقَ ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه البرق ، حكاه أبو نخيلة الحماني عن أبيه .

الثاني : أنه المطر ، قاله مجاهد والضحاك ومنه قول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودْقُها . . . ولا أرض أبقل إبقالها

قوله : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ يعني المطر

. ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني بالماء حتى أنبتت شجراً ومرعى بعد أن كانت بالجدب مواتاً ، قال عكرمة : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ لأن القادر على إحياء الأرض الموات قادر على إحياء الأموات استدلالاً بالشاهد على الغائب .

وتأول من تعمّق في غوامض المعاني آثار رحمة الله أنه مواعظ القرآن وحججه تحيي القلوب الغافلة .

قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : فرأوا السحاب مصفراً ، لأن السحاب إذا كان كذلك لم يمطر ، حكاه علي ابن عيسى وقيل إنها الريح الدبور لأنها لا تلقح .

الثاني : فرأوا الزرع مصفراً بعد اخضراره ، قاله ابن عباس وأبو عبيدة .

﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ومعنى ظل هو أنه أوقع الفعل في صدر النهار وهو الوقت الذي فيه الظل ، لأنه وقت مختص بأهم الأمور لتقديمه عن نّية من الليل . وكذلك قولهم أضحى يفعل ، لكن قد يعبر بقولهم ظل يفعل عن فعل أول النهار وآخره اتساعاً لكثرة استعماله ، وقلَّما يستعمل أضحى يفعل إلا في صدر النهار دون آخره .

ويحتمل ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ هنا وجهين :

أحدهما : يَشْكَونَ .

الثاني : يذمّون .

(246/604)

قوله : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أن الموتى الكفار الذين يموتون على الكفر وهم الصم الذين تولوا عن الهدى فلم يسمعوه ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أن هذا مثل ضربه الله للكافرين كما أن الميت إذا خوطب لم يسمع والأصم إذا دعي لم يسمع كذلك الكافر لا يسمع الوعظ لأن الكفر قد أماته والضلال قد أصمه .

قوله : ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْ مُدْبِرِينَ ﴾ فالأصم لا يسمع الدعاء مقبلاً ولا مدبراً ولكن إذا دعي مقبلاً فقد يفهم الإشارة وإن لم يسمع الصوت ، فإذا دعي مدبراً فهو لا يفهم الإشارة ولا يسمع الصوت فلذلك صارت حاله مدبراً أسوأ ، فذكره بأسوأ أحواله .

وقيل إنها نزلت في بني عبد الدار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(247/604)

وقال ابن عطية :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ ﴾

" الإثارة " تحريكها من سكونها وتسييرها ، وبسطه ﴿ في السماء ﴾ هو نشره في الآفاق ، و" الكسف " القطع ، وقرأ جمهور القراء " كسفاً " بفتح السين ، وقرأ ابن عباس " كسفاً " بسكون السين وهي قراءة الحسن وأبي جعفر والأعرج وهما بناءان للجمع كما يقال وسدْر بسكون الدال بفتح الدال وسدَر بفتح الدال ، وقال مكي : من أسكن السين فمعناه يجعل السحاب قطعة واحدة ، و﴿ الودق ﴾ الماء يمطر ومنه قول الشاعر : [المتقارب]

فلا مزنة ودقت ودقها . . . ولا أرض أبقل إبقالها

(248/604)

و ﴿ خلاله ﴾ الفطور الذي بين بعضه وبعض لأنه متخلخل الأجزاء ، وقرأ الجمهور " من خِلاله " بكسر الخاء وألف بعد اللام جمع خلل كجبل وجبال ، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس والضحاك والحسن بخلاف عنه " من خلله " وهم اسم جنس ، والضمير في ﴿ خلاله ﴾ يحتمل أن يعود على السحاب ويحتمل أن يعود على الكسف في قراءة من قرأ

بسكون السين ، وذكر الضمير مراعاة اللفظ لا لمعنى الجمع ، كما تقول هذا تمر جيد ومن الشجر الأخضر من ناراً ، ومن قرأ "كسَفاً" بفتح السين فلا يعيد الضمير إلا على السحاب فقط ، وقوله تعالى : ﴿ من قبله ﴾ تأكيد أفاد سرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار وذلك أن قوله ﴿ من قبل أن ينزل عليهم ﴾ يحتمل الفسحة في الزمان أي من قبل بكثير كالأيام ونحوه فجاء قوله ﴿ من قبله ﴾ بمعنى أن ذلك متصل بالمطر فهو تأكيد مفيد ، وقرأ يعقوب وعيسى وأبو عمرو بخلاف عنه "ينزل" مخففة ، وقرأت عامة القراء بالتثقيل في الزاي ، وقرأ ابن مسعود عليهم "لمبلسين" بسقوط ﴿ من قبله ﴾ والإبلاس الكون في حال سوء مع اليأس من زوالها ، ثم عجبه يراد بها جميع الناس من أجل رحمة الله وهي المطر ، وقرأ أبن كثير ونافع وأبو عمرو "أثر" بالإفراد ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي "آثار" بالجمع ، واختلف عن عاصم ، وقرأ سالم "إلى إثْر" بكسر الهمزة وسكون الثاء ، وقوله ﴿ كيف يحيي ﴾ يحتمل أن يكون الضمير الذي في الفعل للأثر ، ويحتمل أن يكون لله تعالى وهو أظهر ، وقرأت فرقة "كيف تحيى" بالتاء المفتوحة "الأرضُ" بالرفع ، وقرأ الجحدري وابن السميفع وأبو حيوة "تُحيي" بتاء مضمومة على أن إسناد الفعل إلى ضمير الرحمة "الأرض" نصباً ، قال أبو الفتح : قوله "كيف تحيى" جملة منصوبة الموضع على الحال حملاً على المعنى كأنه قال محيية ، وهذه الحياة والموت استعارة في القحط والإعشاب ، ثم أخبر تعالى على جهة القياس والتنبيه عليه بالبعث والنشور ،

وقوله ﴿ على كل شيء ﴾ عموم .

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

ثم أخبر تعالى عن حال تقلب ابن آدم في أنه بعيد الاستبشار بالمطر أن بعث الله ريحاً فاصفر بها النبات ظلوا يكفرون قلقاً منهم وقلة توكل وتسليم لله تعالى ، والضمير في ﴿ رأوه ﴾ للنبات كما قلنا أو للأثر وهو حوة النبات الذي أحييت به الأرض وقال قوم هو للسحاب ، وقال قوم هو للريح ، وهذا كله ضعيف ، واللام في ﴿ لئن ﴾ مؤذنة بمجيء القسم ، وفي ﴿ لظلوا ﴾ لام القسم ، وقوله " ظلوا " فعل ماض نزله منزلة المستقبل واستنابه منابه لأن الجزاء هنا لا يكون إلا بفعل مستقبل لكن يستعمل الماضي بدل المستقبل في بعض المواضع توثيقاً لوقوعه ، وقوله تعالى : ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ الآية استعارة للكافر وقد تقدم القول على مثل هذه الآية في سورة النمل ، وكلهم قرأ " ولا تُسمع " بتاء مضمومة ونصب " الصمَّ " ، وقرأ ابن كثير وعباس عن أبي عمرو "يَسمع " بياء مفتوحةً الصمُّ رفعاً ، وقرأ الجمهور " بهادي العمي " بالإضافة ، وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيوة " بهادٍ " بالتنوين " العميَ " نصباً ، وقوله ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن ﴾ معناه إن تسمع

إسماعاً ينفع ويجدي ، وأما سماع الكفرة فغير مجد فاستويا ، وقوله تعالى : ﴿ عن ضلالتهم ﴾ لما كانت الهداية تتضمن الصرف عديت ب ﴿ عن ﴾ كما تتعدى صرفت ومعنى الآية ليس في قدرتك يا محمد ولا عليك أن تهدي ، وقرأ ابن أبي عبلة " من ضلالتهم " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(250/604)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يُرْسِلُ الرِّياح ﴾

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء ، والنخعي ، وطلحة بن مصرِّف ، والأعمش : ﴿ يُرْسِلُ الرِّيح ﴾ بغير ألف .

قوله تعالى : ﴿ فتُثير سحاباً ﴾ أي : تُزعجه ﴿ فيَبْسُطُهُ ﴾ الله ﴿ في السماء كيف يشاء ﴾ إن شاء بسطه مسيرة يوم أو يومين أو أقل أو أكثر ﴿ ويجعلُه كِسَفاً ﴾ أي : قِطعاً متفرِّقة .

والأكثرون فتحوا سين ﴿ كِسَفاً ﴾ ؛ وقرأ أبو رزين ، وقتادة ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، وابن أبي عبلة : بتسكينها ؛ قال أبو علي : يمكن أن يكون مثل سِدْرَة وسِدَر ، فيكون

معنى القراءتين واحداً ﴿ فترى الوَدْق يخرُج مِن خِلاله ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وأبو العالية : ﴿ مِن خَلِله ﴾ ؛ وقد شرحناه في [النور 43] ﴿ فإذا أَصاب به ﴾ أي : بالوَدْق ؛ ومعنى ﴿ يَستبشِرون ﴾ يفرحون بالمطر ، ﴿ وإِن كانوا مِنْ قَبْلِ أن يُنَزَّل عليهم ﴾ المطر ﴿ مِنْ قَبْله ﴾ وفي هذا التكرير ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه للتأكيد كقوله : ﴿ فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون ﴾ [الحجر : 30] ، قاله الأخفش في آخرين .

والثاني : أن "قَبْل" الأولى للتنزيل ، والثانية للمطر ، قاله قطرب .

قال ابن الأنباري : والمعنى : مِنْ قَبْل نزول المطر ، مِنْ قَبْل المطر ، وهذا مثلما يقول القائل : آتيك من قبل أن تتكلم ، من قبل ان تطمئن في مجلسك ، فلا تُنكَر الإِعادة ، لاختلاف الشيئين .

والثالث : أن الهاء في قوله : ﴿ مِنْ قبْله ﴾ ترجع إلى الهُدى وإِن لم يتقدَّم له ذِكْر ، فيكون المعنى : كانوا يقنَطنون من قبل نزول المطر ، من قبل الهُدى ، فلمَّا جاء الهُّدى والإِسلام زال القُنوط ، ذكره ابن الأنباري عن أبي عُمر الدُّوري وأبي جعفر بن قادم .

والمبلسون : الآيسون وقد سبق الكلام في هذا [الأنعام : 44] .

﴿ فانظُر إِلى آثار رحمة الله ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ إِلى أَثَر ﴾ .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿ إِلى آثار ﴾ على الجمع ، والمراد بالرحمة هاهنا المطر ، وأثرها : النبت ؛ والمعنى : انظر إِلى حسن تأثيره في الأرض ﴿ كيف يُحيي الارض ﴾ أي : كيف يجعلها تُنبت بعد أن لم يكن فيها نبت .

وقرأ عثمان بن عفان ، وأبو رجاء ، وأبو عمران الجوني ، وسليمان التيمي .

﴿ كيف تُحْيِي ﴾ بتاء مرفوعة مكسورة الياء ﴿ الأرضَ ﴾ بفتح الضاد .

قوله تعالى : ﴿ ولَئن أَرسلْنا ريحاً ﴾ [أي : ريحاً] باردة مُضِرَّة ، والريح إِذا أتت على لفظ الواحد أُريدَ بها العذاب ، ولهذا "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند هبوب الريح : "اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً" " ﴿ فرأوه مُصْفَرّاً ﴾ يعني النبت ، والهاء عائدة إِلى الأثر .

قال الزجاج : المعنى : فرأَوُا النبت قد اصفرّ وجفَّ ﴿ لظلُّوا مِنْ بَعده يكفُرونَ ﴾ ومعناه : لَيَظَلُّنّ ، لأن معنى الكلام الشرط والجزاء ، فهم يستبشرون بالغيث ، ويكفرون إِذا انقطع عنهم الغيث وجفَّ النبت .

وقال غيره : المراد برحمة الله : المطر .

و﴿ ظَلُّوا ﴾ بمعنى صاروا ﴿ من بعده ﴾ أي : من بعد اصفرار النبت يجحدون ما سلف من النِّعمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(252/604)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي يُرْسِلُ الرياح ﴾

قرأ ابن محيصِن وابن كثير وحمزة والكسائي : "الريح" بالتوحيد .

والباقون بالجمع .

قال أبو عمرو : وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع ، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد .

وقد مضى في "البقرة" معنى هذه الآية وفي غيرها .

"كِسَفاً" جمع كِسْفة وهي القطعة .

وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر "كِسْفاً" بإسكان السين ، وهي أيضاً جمع كسفة ؛ كما يقال : سِدْرة وسِدْر ؛ وعلى هذه القراءة يكون المضمر الذي بعده عائداً عليه ؛ أي فترى الودق أي المطر يخرج من خلال الكسف ؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء لا غير فالتذكير فيه حَسَن .

ومن قرأ : "كِسَفاً" فالمضمر عنده عائد على السحاب .

وفي قراءة الضحاك وأبي العالية وابن عباس : "فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ" ويجوز أن يكون خَلَل جمع خِلال .

﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ ﴾ أي بالمطر .

﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم .

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم .

و"مِنْ قَبْلِهِ" تكرير عند الأخفش معناه التأكيد ؛ وأكثر النحويين على هذا القول ؛ قاله النحاس .

وقال قُطْرُب : إن "قبل" الأولى للإنزال والثانية للمطر ؛ أي وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر .

وقيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع ، ودلّ على الزرع المطر إذ بسببه يكون .

ودلّ عليه أيضاً "فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا" على ما يأتي .

وقيل : المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته ؛ واختار هذا القول النحاس ، أي من قبل

رؤية السحاب ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي لبائسين .

وقد تقدم ذكر السحاب .

(253/604)

قوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله ﴾ يعني المطر ؛ أي انظروا نظر استبصار واستدلال ؛ أي استدلوا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى .

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي : "آثَارِ" بالجمع .

الباقون بالتوحيد ؛ لأنه مضاف إلى مفرد .

والأثر فاعل "يُحْيي" ويجوز أن يكون الفاعل اسم الله عز وجل .

ومن قرأ : "آثَارِ" بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] .

وقرأ الجحدري وأبو حيوة وغيرهما : "كَيْفَ تُحْيي الأَرْضَ" بتاء ؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة ؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة ؛ أي كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار .

"ويحيي" أي يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء .

و ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الأَرض ﴾ في موضع نصب على الحال على الحمل على المعنى لأن اللفظ لفظ الاستفهام والحال خبر ؛ والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً ﴾ يعني الريح ، والريح يجوز تذكيره .

قال محمد بن يزيد : لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقي ، نحو أعجبني الدار وشبهه .

وقيل : فرأوا السحاب .

وقال ابن عباس : الزرع ، وهو الأثر ؛ والمعنى : فرأوا الأثر مصفرًّا ؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدلّ على يبسه ، وكذا السحاب يدلّ على أنه لا يمطر ، والريح على أنها لا تُلقح

﴿ لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي لَيَظَلُّنّ ؛ وحسن وقوع الماضي في موضع المستقبل لما في الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل ؛ قاله الخليل وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾

(254/604)

أي وَضَحت الحجج يا محمد ؛ لكنهم لإلْفِهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت عقولهم وعمِيت بصائرهم ، فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم .

وهذا ردّ على القدرية .

﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي لا تُسمع مواعظَ الله إلا المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخَلقتُ لهم الهدايةَ .

وقد مضى هذا في "النمل" ووقع قوله : ﴿ بِهَادِي العمي ﴾ [النمل : 81] هنا بغير ياء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(255/604)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾

لما ذكر تعالى ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ، ذكر ظهور الصلاح .

والكريم لا يذكر لإحسانه عوضاً ، ويذكر لعقابه سبباً لئلا يتوهم به الظلم ؛ فذكر من أعلام قدرة إرسال الرياح مبشرات بالمطر ، لأنها متقدمة .

والمبشرات : رياح الرحمة ، الجنوب والشمال والصبا ، وأما الدبور ، فريح العذاب ، وليس تبشيرها مقتصراً به على المطر ، بل لها تبشيرات بسبب السفن والسير بها إلى مقاصد أهلها ، وكأنه بدأ أولاً بشيء عام ، وهو التبشير .

وقرأ الأعمش : الريح ، مفرداً ، وأراد معنى الجمع ، ولذلك قرأ : ﴿ مبشرات ﴾ .

ثم ذكر من أعظم تباشيرها إذاقة الرحمة ، وهي نزول المطر ، ويتبعه حصول الخصب ، والريح الذي معه الهبوب ، وإزالة العفونة من الهواء ، وتذرية الحبوب ، وغير ذلك .

﴿ وليذيقكم ﴾ : عطف على معنى مبشرات ، فالعامل أن يرسل ، ويكون عطفاً على التوهم ، كأنه قيل : ليبشروكم ، والحال والصفة قد يجيئان ، وفيهما معنى التعليل .

تقول : أهن زيد أسيأ وأكرم زيداً العالم ، تريد لإساءته ولعلمه .

وقيل : ما يتعلق به اللام محذوف ، أي ولكنا أرسلناها .

وقيل : الواو في وليذيقكم زائدة .

و﴿ بأمره ﴾ : أي بأمر الله ، يعني أن جريانها ، لما كان مسنداً إليها ، أخبر أنه بأمره تعالى .

﴿ من فضله ﴾ : مما يهيء لكم من الريح في التجارات في البحر ، ومن غنائم أهل الشرك .

ثم بين لرسوله بأن ضرب له مثل من أرسل من الأنبياء ، ولما كان تعالى بين الأصلين : المبدأ والمعاد ، بين ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوّة ؛ وفي الكلام حذف تقديره : وآمن به بعض وكذب بعض ، ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ .

وفي قوله : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ : تبشير للرسول وأمته بالنصر والظفر ، إذ أخبر أن المؤمنين بأولئك المؤمنين نصروا ، وفي لفظ حقاً مبالغة في التحتم ، وتكريم للمؤمنين ، وإظهار لفضيلة سابقة الإيمان ، حيث جعلهم مستحقين النصر والظفر .

والظاهر أن ﴿ حقاً ﴾ خبر كان ، و ﴿ نصر المؤمنين ﴾ الاسم ، وأخر لكون ما تعلق به فاصلة للاهتمام بالجزاء ، إذ هو محط الفائدة .

وقال ابن عطية : وقف بعض القراء على حقاً وجعله من الكلام المتقدم ، ثم استأنف جملة من قوله : ﴿ علينا نصر المؤمنين ﴾ ، وهذا قول ضعيف ، لأنه لم يدر قدر ما عرضه في نظم الآية .

وقال الزمخشري : وقد يوقف على ﴿ حقاً ﴾ ، ومعناه : وكان الانتقام منهم حقاً ، ثم يبتدأ علينا ﴿ نصر المؤمنين ﴾ . انتهى .

وفي الوقف على ﴿ وكان حقاً ﴾ بيان أنه لم يكن الانتقام ظلماً ، بل عدلاً ، لأنه لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلاّ زيادة الإثم وولادة الفاجر الكافر ، فكان عدمهم خيراً من وجودهم الخبيث .

﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ ، هذا متعلق بقوله : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ ، والجملة التي بينهما اعتراض ، جاءت تأنيساً للرسول وتسلية ووعداً بالنصر ووعيداً

لأهل الكفر ، وفي إرسالها قدرة وحكمة .

أما القدرة ، فإن الهواء اللطيف الذي يسبقه البرق بحيث يقلع الشجر ويهدم البناء ، وهو ليس بذاته يفعل ذلك ، بل بفاعل مختار .

وأما الحكمة ، ففيما يفضي إليه نفس الهبوب من إثارة السحب ، وإخراج الماء منه ، وإنبات الزرع ، ودر الضرع ، واختصاصه بناس دون ناس ؛ وهذه حكمة بالغة معروفة بالمشيئة والإثارة ، تحريكها وتسييرها .

والبسط : نشرها في الآفاق ، والكسف : القطع .

وتقدم الكلام على قوله : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ ، وذكر الخلاف في ﴿ كسفاً ﴾ وحاله من جهة القراء .

(257/604)

والضمير في : ﴿ من خلاله ﴾ ، الظاهر أنه عائد على السحاب ، إذ هو المحدث عنه ، وذكر الضمير لأن السحاب اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثه .

قيل : ويحتمل أن يعود على ﴿ كسفاً ﴾ في قراءة من سكن العين ، والمراد بالسماء : سمت السماء ، كقوله : ﴿ وفرعها في السماء ﴾ ﴿ فإذا أصاب به من يشاء ﴾ : أي

أرض من يشاء إصابتها ، فاجأهم الاستبشار ، ولم يتأخر سرورهم .

وقال الأخفش : ﴿ من قبله ﴾ تأكيد لقوله : ﴿ من قبل أن ينزل عليهم ﴾ .

وقال ابن عطية : أفاد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار ، وذلك أن قوله : ﴿ من قبل أن ينزل عليهم ﴾ يحتمل الفسحة في الزمان ، أي من قبل أن ينزل بكثير ، كالأيام ونحوه ، فجاء قوله : ﴿ من قبل ﴾ بمعنى : أن ذلك متصل بالمطر ، فهو تأكيد مقيد .

وقال الزمخشري : وبمعنى التوكيد ، فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اهتمامهم بذلك . انتهى .

وما ذكره ابن عطية والزمخشري من فائدة التأكيد في قوله : ﴿ من قبله ﴾ غير ظاهر ، وإنما هو عند ذكره لمجرد التوكيد ، ويفيد رفع المجاز فقط .

وقال قطرب : التقدير : وإن كانوا من قبل التنزيل ، من قبل المطر . انتهى .

وصار من قبل إنزال المطر : من قبل المطر ، وهذا تركيب لا يسوغ في كلام فصيح ، فضلاً عن القرآن .

وقيل : التقدير : من قبل تنزيل الغيث : من قبل أن يزرعوا ، ودل المطر على الزرع ، لأنه يخرج بسبب المطر ؛ ودل على ذلك قوله : ﴿ فرأوه مصفراً ﴾ ، يعني الزرع . انتهى .

وهذا لا يستقيم ، لأن ﴿ من قبل أن ينزل عليهم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لمبلسين ﴾ .

ولا يمكن من قبل الرزع أن يتعلق بمبلسين ، لأن حرفي جر لا يتعلقان بعامل واحد إلا إن كان بواسطة حرف العطف ، أو على جهة البدل .

وليس التركيب هنا ومن قبله بحرف العطف ، ولا يصح فيه البدل ، إذا إنزال الغيث ليس هو الزرع ، ولا الزرع بعضه .

(258/604)

وقد يتخيل فيه بدل الاشتمال بتكلف .

أما لاشتمال الإنزال على الزرع ، بمعنى أن الزرع يكون ناشئاً عن الإنزال ، فكأن الإنزال مشتمل عليه ، وهذا على مذهب من يقول : الأول يشتمل على الثاني .

وقال المبرد : الثاني السحاب ، ويحتاج أيضاً إلى حرف عطف حتى يمكن تعلق الحرفين بمبلسين .

وقال علي بن عيسى : من قبل الإرسال .

وقال الكرماني : ومن قبل الاستبشار ، لأنه قرنه بالإبلاس ، ولأنه منّ عليهم بالاستبشار . انتهى .

ويحتاج قوله وقول ابن عيسى إلى حرف العطف ، فإن ادعى في قوله من جعل الضمير في من

قبله عائد إلى غير إنزال الغيث أن حرف العطف محذوف ، أمكن ، لكن في حذف حرف العطف خلاف ، أينقاس أم لا ينقاس ؟ أما حذفه مع الجمل فجائز ، وأما وحده فهو الذي فيه الخلاف .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو ، وأبو بكر : إلى أثر ، بالإفراد ؛ وباقي السبعة : بالجمع ؛ وسلام : بكسر الهمزة وإسكان الثاء .

وقرأ الجحدري ، وابن السميفع ، وأبو حيوة : تحيي ، بالتاء للتأنيث ، والضمير عائد على الرحمة .

وقال صاحب اللوامح : وإنما أنث الأثر لاتصاله بالرحمة إضافة إليها ، فاكتسب التأنيث منها ، ومثل ذلك لا يجوز إلا إذا كان المضاف بمعنى المضاف إليه ، أو من سببه .

وأما إذا كان أجنبياً ، فلا يجوز بحال . انتهى .

وقرأ زيد بن علي : نحيي ، بنون العظمة ؛ والجمهور : ﴿ يحيي ﴾ ، بياء الغيبة ، والضمير لله ، ويدل عليه قراءة ﴿ آثار ﴾ بالجمع ، وقيل : يعود على أثر في قراءة من أفرد .

وقال ابن جني : ﴿ كيف يحيي ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال حملاً على المعنى ، كأنه قال : محيياً ، وهذا فيه نظر .

﴿ إن ذلك ﴾ : أي القادر على إحياء الأرض بعد موتها ، هو الذي يحيي الناس بعد موتهم .

وهذا الإخبار على جهة القياس في البعث ، والبعث من الأشياء التي هو قادر عليها تعالى .

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ : أخبر تعالى عن حال تقلب ابن آدم ، أنه بعد الاستبشار بالمطر ، بعث الله ريحاً ، فاصفر بها النبات .

(259/604)

لظلوا يكفرون قلقاً منهم ، والريح التي تصفر النبات صر حرور ، وهما مما يصبح به النبات هشيماً ، والحرور جنب الشمال إذا عصفت .

والضمير في ﴿ فرأوه ﴾ عائد على ما يفهم من سياق الكلام ، وهو النبات .

وقيل : إلى الأثر ، لأن الرحمة هي الغيث ، وأثرها هو النبات .

ومن قرأ : آثار ، بالجمع ، رجع الضمير إلى آثار الرحمة ، وهو النبات ، واسم النبات يقع على القليل والكثير ، لأنه مصدر سمى به ما ينبت .

وقال ابن عيسى : الضمير في ﴿ فرأوه ﴾ عائد على السحاب ، لأن السحاب إذا اصفر لم يمطر ؛ وقيل : على الريح ، وهذان قولان ضعيفان .

وقرأ صباح بن حبيش : مصفاراً ، بألف بعد الفاء .

واللام في ﴿ ولئن ﴾ مؤذنة بقسم محذوف وجوابه لظلوا ، وهو مما وضع فيه الماضي موضع المستقبل اتساعاً تقديره : ليظلن ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ أي ما يتبعون ذمهم تعالى في جميع أحوالهم ، كان عليهم أن يتوكلوا على فضل الله فقنطوا ، وإن شكروا نعمته فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار ، وإن تصبروا على بلائه كفروا .

والضمير في ﴿ من بعده ﴾ عائد على الاصفرار ، أي من بعد اصفرار النبات تجحدون نعمته .

وتقدم الكلام على قوله : ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ إلى قوله : ﴿ فهم مسلمون ﴾ في أواخر النمل ، إلا أن هنا الربط بالفاء في قوله : ﴿ فإنك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(260/604)

وقال أبو السعود :

﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح ﴾

(261/604)

استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ ما أُجمل فيما سبقَ من أحوالِ الرِّياحِ ﴿ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ ﴾ متصلاً تارةً ﴿ فِى السماء ﴾ في جوِّها ﴿ كَيْفَ يَشَاء ﴾ سائراً وواقفاً مُطبقاً وغيرَ مطبقٍ من جانبٍ دون جانبٍ إلى غيرِ ذلك. ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ تارةً أُخرى أي قِطعاً. وقُرِىء بسكونِ السِّينِ على أنَّه مخففٌ، جمعُ كِسْفة أو مصدرٌ وصفَ به ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ المطرَ ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ في التارتين. ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي بلادَهم وأراضيَهم ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فاجؤا الاستبشارَ بمجيء الخِصْبِ ﴿ وَإِن كَانُواْ ﴾ إنْ مخففة من إنَّ وضميرُ الشَّأنِ الذي هُو اسمُها محذوفٌ أي وإنَّ الشَّأنَ كانوا ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي المطرُ ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ والإيذانِ بطولِ عهدِهم بالمطرِ واستحكامِ يأسِهم منه، وقيل الضَّميرُ للمطرِ أو السَّحابِ أو الإرسالِ وقيل: للكسف على القراءةِ بالسكون وليس بواضحٍ وأقربُ من ذلك أنْ يكونَ الضَّميرُ للاستبشارِ، ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعةَ تقلبِ قلوبِهم من اليأسِ إلى الاستبشارِ بالإشارةِ إلى غايةِ تقاربِ زمانيهما ببيانِ اتصالِ اليأسِ بالتنزيلِ المتصلِ بالاستبشارِ وبشهادةِ إذا الفجائية ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ خبرُ كانُوا، واللامُ فارقةٌ، أي آيسينَ ﴿ فانظر إلى ءاثار رَحْمَةِ الله ﴾ المترتبةِ على تنزيلِ المطرِ من النباتِ والأشجارِ وأنواعِ الثمارِ. والفاءُ للدّلالةِ على سرعةِ ترتبها عليهِ. وقُرِىء أثرِ بالتوّحيدِ. وقولُه تعالى: ﴿ كَيْفَ يُحْيِ ﴾

أي الله تعالى ﴿ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ في حيّزِ النّصب بنزعِ الخافض . وكيفَ معلّقٌ لانظرْ أي فانظُرْ إلى إحيائِه البديعِ للأرضِ بعد موتِها وقيلَ : على الحاليّةِ بالتّأويلِ وأيّاً ما كان فالمُرادُ بالأمرِ بالنّظرِ التنبيهُ عَلَى عظمِ

(262/604)

قُدرتِه تعالى وسَعَةِ رحمتِه مع ما فيه من التّمهيدِ لما يعقبُه مِنْ أمرِ البعثِ ، وقُرِىء تُحيي بالتّأنيثِ على الإسنادِ إلى ضميرِ الرّحمةِ ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ العظيمَ الشّأنِ الذي ذُكر بعضُ شؤونه ﴿ لَمُحْيِى الموتى ﴾ لقادرٌ على إحيائِهم فإنّه إحداثٌ لمثلِ ما كانَ في موادّ أبدانِهم من القُوى الحَيَوانيّةِ كما أنّ إحياءَ الأرضِ إحداثٌ لمثلِ ما كانَ فيها منَ القُوى النباتيّةِ أو لمحييهم البتةَ . وقولُه تعالى ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تذييلٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبلَه أي مبالغٌ في القُدرةِ على جميعِ الأشياءِ التي من جملتِها إحياؤُهم لما أنّ نسبةَ قُدرتِه إلى الكُلّ سواءٌ .

(263/604)

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ ﴾ أي الأثرَ المدلولَ عليه بالآثار فإنَّه اسمُ جنسٍ يعمُّ القليلَ والكثيرَ ﴿ مُصْفَرّاً ﴾ بعد خُضرته وقد جُوِّز أنْ يكونَ الضَّميرُ للسَّحابِ لأنَّه إذا كان مُصفرّاً لم يُمطر ولا يخفى بعدُه . واللامُ في لئن موطِّئةٌ للقسمِ دخلتْ على حرفِ الشَّرطِ والفاءُ في فرأَوه فصيحة واللامُ في قولِه تعالى : ﴿ لَّظَلُّواْ ﴾ لامُ جوابِ القسمِ السادّ مسدَّ الجوابينِ أي وبالله لئنْ أرسلنا ريحاً حارةً أو باردةً فضربتْ زرْعَهُم بالصَّفارِ فرأَوه مُصفرّاً ليظلنَّ ﴿ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ من غيرِ تلعثُمٍ وفيه منْ ذمّهم بعد تثبيتِهم وسرعةِ تزلزلِهم بين طرَفيْ الإفراطِ والتَّفريطِ ما لا يخفى حيثُ كان الواجبُ عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى في كل حال ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبسَ عنهم القطرُ ولا ييأسوا من رَوحِ الله تعالى ويبادرُوا إلى الشُّكرِ بالطَّاعةِ إذا أصابَهم برحمتِه ولا يفرِّطوا في الاستبشارِ وأنْ يصبرُوا على بلائِه إذا اعترى زرعَهم آفةٌ ولا يكفرُوا بنعمائِه فعكسُوا الأمرَ وأَبوا ما يُجديهم وأَتَوا بما يُرديهم ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ لما أنَّهم مثلُهم لانسدادِ مشاعرِهم عن الحقِّ ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ تقييدُ الحكم بما ذُكر لبيانِ كمالِ سُوءِ حالِ الكفرةِ والتنبيه على أنَّهم جامعُون لخصلتي السُّوءِ نبوّ أسماعِهم عن الحقِّ وإعراضِهم عن الإصغاءِ إليهِ ولو كانَ فيهم إحداهُما لكفاهُم ذلك فكيفَ وقد جمعُوهما فإنَّ الأصمَّ المقبلَ إلى المتكلِّمِ ربَّما يفطَنُ من أوضاعِه وحركاتِه لشيءٍ من كلامِه وإنْ لم يسمعْهُ أصلاً وأمَّا إذا كانَ

مُعرضاً عنه فلا يكادُ يفهمُ منه شيئاً . وقُرِىء بالياءِ المفتوحةِ ورفعِ الصُّمّ ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى العمى عَن ضلالتهم ﴾ سمَّوا عُمياً إما لفقدِهم المقصودِ

(264/604)

الحقيقيّ من الإبصارِ أو لعَمَى قلوبِهم . وقُرِىء تهدِي العميَ ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تُسمِعُ ﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ فإنَّ إيمانَهم يدعُوهم إلى التَّدبرِ فيها وتلقِّيها بالقَبُولِ إو إلاَّ من يُشارفُ الإيمانَ بها ويُقبل عليها إقبالاً لائقاً ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ مُنقادُون لما تأمرُهم به من الحقِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(265/604)

وقال الآلوسى :

﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح ﴾

استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سيق من أحوال الرياح ﴿ فَتُثِيرُ سحابا ﴾ تحركه وتنشره ﴿ فَيَبْسُطُهُ ﴾ بسطاً تاماً متصلاً تارة ﴿ فِى السماء ﴾ في سمتها لا في نفس

السماء بالمعنى المتبادر ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ سائراً وواقفاً مطبقاً وغير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك فالجملة الإنشائية حال بالتأويل ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ أي قطعاً تارة أخرى.

وقرأ ابن عامر بسكون السين على أنه مخفف من المفتوح أو جمع كسفة أي قطعة أو مصدر كعلم وصف به مبالغة أو بتأويله بالمفعول أو بتقدير ذا كسف ﴿ فَتَرَى ﴾ يا من يصح منه الرؤية ﴿ الودق ﴾ أي المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ أي فرجه جمع خلل في التارتين الاتصال والتقطع فالضمير للسحاب وهو اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثه، وجوز على قراءة ﴿ كِسَفًا ﴾ بالسكون أن يكون له، وليس بشيء.

﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بلادهم وأراضيهم، والباء في ﴿ بِهِ ﴾ للتعدية ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فاجؤا الاستبشار بمجيء الخصب.

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ الودق ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي التنزيل ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي آيسين، والتكرير للتأكيد، وأفاد كما قال ابن عطية الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار، وذلك أن ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ يحتمل الفسحة في الزمان فجاء ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ للدلالة على الاتصال ودفع ذلك الاحتمال، وقال الزمخشري: أكد ليدل على بعد عهدهم بالمطر فيفهم منه استحكام يأسهم، وما ذكره ابن عطية أقرب لأن المتبادر من القبلية الاتصال وتأكيد دال على شدته.

وأبو حيان أنكر على كلا الشيخين وقال : ما ذكراه من فائدة التأكيد غير ظاهر وإنما هو عندي لمجرد التأكيد ويفيد رفع المجاز فقط ، وقال قطرب : ضمير ﴿ قَبْلِهِ ﴾ للمطر فلا تأكيد .

(266/604)

وأنت تعلم أنه يصير التقدير من قبل تنزيل المطر من قبل المطر وهو تركيب لا يسوغ في كلام فصيح فضلاً عن القرآن ، وقيل : الضمير للزرع الدال عليه المطر أي من قبل تنزيل المطر من قبل أن يزرعوا ، وفيه أن ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ ﴾ متعلق بمبلسين ولا يمكن تعلق ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ به أيضاً لأن حرفي جر بمعنى لا يتعلقان بعامل واحد إلا أن يكون بوساطة حرف العطف أو على جهة البدل ولا عاطف هنا ولا يصح البدل ظاهراً ، وجوز بعضهم فيه بدل الاشتمال مكتفياً فيه بكون الزرع ناشئاً عن التنزيل فكان التنزيل مشتملاً عليه وهو كما ترى .

وقال المبرد : الضمير للسحاب لأنهم لما رأوا السحاب كانوا راجين المطر ، والمراد من قبل رؤية السحاب ، ويحتاج أيضاً إلى حرف عطف حتى يصح تعلق الحرفين بمبلسين ، وقال علي بن عيسى : الضمير للإرسال ، وقال الكرماني : للاستبشار لأنه قرن بالإبلاس ومن

عليهم به ، وأورد عليهما أمر التعلق من غير عطف كما أورد على من قبلهما فإن قالوا بحذف حرف العطف ففي جوازه في مثل هذا الموضع قياساً خلاف .

واختار بعضهم كونه للاستبشار على أن ﴿ مِنْ ﴾ متعلقة بينزل و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى متعلقة بملبسين لأنه يفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار بشهادة إذا الفجائية فتأمل ، و ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة واللام في لمبلسين هي الفارقة ، ولا ضمير شأن مقدراً لإن لأنه إنما يقدر للمفتوحة وأما المكسورة فيجب إهمالها كما فصله في "المغني" : ، وبعض الأجلة قال بالتقدير .

﴿ فانظر إلى ءاثار رَحْمَتَ الله ﴾ المترتبة على تنزيل المطر من النبات والأشجار وأنواع الثمار ، والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه .

وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو .

وأبو بكر ﴿ أَثَرِ ﴾ بالإفراد وفتح الهمزة والثاء .

وقرأ سلام ﴿ أَثَرِ ﴾ بكسر الهمزة وإسكان الثاء ، وقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يُحْيِ ﴾ أي الله تعالى ﴿ الأَرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ في حيز النصب بنزع الخافض و ﴿ كَيْفَ ﴾ معلق لأنظر أي فانظر لإحيائه تعالى البديع للأرض بعد موتها ، وقال ابن جني : على الحالية بالتأويل أي محيياً ، وأياً ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبيه على عظيم قدرته تعالى وسعة رحمته عز وجل مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث .

وقرأ الجحدري .

وابن السميقع .

وأبو حيوة ﴿ تُحْيِ ﴾ بتاء التأنيث والضمير عائد على الرحمة ، وجوز على قراءة الحرميين ومن معهما أن يكون الضمير للأثر على أنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه ، وليس بشيء كما لا يخفى ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ العظيم الشأن ﴿ فانظر إلى ﴾ لقادر على إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية ، وقيل : يحتمل أن يكون النبات الحادث من أجزاء نباتية تفتت وتبددت واختلطت بالتراب الذي فيه عروقها في بعض الأعوام السالفة فيكون كالإحياء بعينه بإعادة المواد والقوى لا بإعادة القوى فقط ، وهو احتمال واهي القوى بعيد ، ولا نسلم أن المسلم المسترشد يعلم وقوعه ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من

جملتها إحياؤهم لما أن نسبة قدرته عز وجل إلى الكل سواء .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي النبات المفهوم من السياق كما قال أبو حيان أو الأثر المدلول عليه بالآثار أو النبات المعبر عنه بل على ما قاله بعضهم ، والنبات في الأصل مصدر يقع على القليل والكثير ثم سمي به ما ينبت ، وقال ابن عيسى : الضمير للسحاب لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر ، وقيل : للريح وهي تذكر وتؤنث ، وكلا القولين ضعيفان كما في "البحر" .

(268/604)

وقرأ جناح بن حبيش ﴿ مصفاراً ﴾ بألف بعد الفاء ، واللام في ﴿ اللهِ لَئِنْ ﴾ موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط ، والفاء ﴿ فِى فَرَأَوْهُ ﴾ فصيحة ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لَّظَلُّواْ ﴾ لام جواب القسم الساد مسد الجوابين ؛ والماضي بمعنى المستقبل كما قاله أبو البقاء .

ومكي .

وأبو حيان .

وغيرهم ، وعلل ذلك بأنه في المعنى جواب ﴿ إن ﴾ وهو لا يكون إلا مستقبلاً ، وقال

الفاضل اليمني : إنما قدروا الماضي بمعنى المستقبل من حيث أن الماضي إذا كان متمكناً متصرفاً ووقع جواباً للقسم فلا بد فيه من قد واللام معاً فالقصر على اللام لأنه مستقبل معنى وفيه نظر ، وقدروه بمضارع مؤكد بالنون أي وبالله تعالى لئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفراً بعد خضرته ونضارته ليظلن ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد الإرسال أو من بعد اصفرار زرعهم ، وقيل : من بعد كونهم راجين مستبشرين ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ من غير تلعثم نعمة الله تعالى ، وفيما ذكر من ذمهم بعدم تثبتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفي الإفراط والتفريط ما لا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله سبحانه في كل حال ويلجؤا إليه عز وجل بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته ولا يفرطوا في الاستبشار وإن يصبروا على بلائه تعالى إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه جل شأنه فعكسوا الأمر وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يؤذيهم ، ولا يخفى ما في الآيات من الدلالة على ترجيح جانب الرحمة على جانب العذاب فلا تغفل .

وقوله تعالى :

﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ تعليل لما يفهم من الكلام السابق كأنه قيل : لا تحزن لعدم اهتدائهم بتذكيرك فإنك الخ ، وفي "الكشف" اعلم أن قوله تعالى : ﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح ﴾ [الروم : 84] كلام سيق مقرراً لما فهم من قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ ﴾ [الروم : 47] الآية لدلالته على أنه عز وجل ينتقم من المكذبين برسول الله صلى الله عليه وسلم وينصر متابعيه فذكر فيه من البينات ما أجمل هنالك مما يدل على القدرة والحكمة والرحمة واختير من الأدلة ما يجمع الثلاثة وفيه ما يرشد إلى تحقيق طرفي الإيمان أعني المبدأ والمعاد وصرح بكفرانهم بالنعمة وذمهم في الحالات الثلاث لأن ذلك مما يعرفه أهل الفطرة السليمة ويتخلق به وأدمج فيه دلالته على المعاد بقوله تعالى : ﴿ فانظر إلى ءاثار رَحْمَةِ الله ﴾ [الروم : 50] ولما فرغ من حديث ذمهم بنى على هذا المدمج وما دل عليه سياق الكلام من تماديهم في الضلالة مثل هذه البينات التي لا أتم منها في الدلالة فقال سبحانه : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الروم : 53] وفيه أنهم إذا لا محالة من الذين ينتقم منهم وأنك وأشياعك من المنصورين والله تعالى أعلم اه ، فتأمله مع ما ذكرنا .

وقد تقدم الكلام في هذه الجملة خالية عن الفاء في سورة النمل (80) وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ العمى عَن ضلالتهم إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ وَمَا أَنتَ بِهَادِى ﴾ بيد أنا نذكر هنا ما ذكره الأجلة في سماع الموتى وفاء بما وعدنا هنالك فنقول ومن الله تعالى التوفيق :

نقل عن العلامة ابن الهمام أنه قال : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ ونحوها يعني من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ [فاطر : 22] ولذا لم يقولوا بتلقين القبر وقالوا : لو حلف لا يكلم فلاناً فكلمه ميتاً لا يحنث ، وحكى السفاريني في "البحور الزاخرة" أن عائشة ذهبت إلى نفي سماع الموتى ووافقها طائفة من العلماء على ذلك ، ورجحه القاضي أبو يعلى من أكابر أصحابنا يعني الحنابلة في كتابه "الجامع الكبير" واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ ونحوه ، وذهبت طوائف من أهل العلم إلى سماعهم في الجملة .

وقال ابن عبد البر : إن الأكثرين على ذلك وهو اختيار ابن جرير والطبري وكذا ذكر ابن قتيبة .

وغيره ، واحتجوا بما في "الصحيحين" عن أنس عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنهما قال : "لما كان يوم بدر وظهر عليهم يعني مشركي قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ببضعة وعشرين رجلاً وفي رواية وعشرين رجلاً من صناديد قريش فألقوا في طوى أي بئر من أطواء بدر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداهم يا أبا جهل بن هشام .

يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعد ربي حقاً ؟ فقال عمر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها فقال : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم زاد في رواية لمسلم عن أنس "ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا" وبما أخرجه أبو الشيخ من مرسل عبيد بن مرزوق قال : "كانت امرأة بالمدينة تقم المسجد فماتت فلم يعلم بها النبي صلى الله عليه وسلم فمر على قبرها فقال عليه الصلاة والسلام : ما هذا القبر ؟ فقالوا : أم محجن قال : التي كانت تقم المسجد ؟ قالوا : نعم فصف الناس فصلى عليها فقال صلى الله عليه وسلم : أي العمل وجدت أفضل ؟ قالوا يا رسول الله أتسمع ؟ قال : ما أنتم بأسمع منها فذكر عليه الصلاة والسلام أنها أجابته قم المسجد" وبما رواه البيهقي .

والحاكم وصححه .

وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على مصعب بن عمير وعلى أصحابه حين رجع من أحد فقال : "أشهد أنكم أحياء عند الله تعالى فزوروهم وسلموا عليهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة"

وبما أخرج ابن عبد البر وقال عبد الحق الإشبيلي إسناده صحيح عن ابن عباس مرفوعاً " ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا يسلم عليه إلا عرفه ورد عليه " وبما أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : "الروح بيد ملك يمشي به مع الجنازة يقول له : أتسمع ما يقال لك ؟ فإذا بلغ حفرته دفنه معه" وبما في "الصحيحين" من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه ليسمع قرع نعالهم " وأجابوا عن الآية فقال السهيلي : إنها كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِى العمى ﴾ [الزخرف : 40] أي إن الله تعالى هو الذي يسمع ويهدي .

(272/604)

وقال بعض الأجلة : إن معناها لا تسمعهم إلا أن يشاء الله تعالى أو لا تسمعهم سماعاً ينفعهم ، وقد ينفي الشيء لانتفاء فائدته وثمرته كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 179] الآية ، وهذا التأويل يجوز أن يعتبر في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم ﴾ ويكون نكتة العدول عن فإنك لا تسمع الموتى ولا الصم إلى ما في "النظم الجليل" العناية بنفي الاسماع ويجوز أن لا يعتبر فيه ويبقى الكلام على ظاهره ويكون نكتة العدول الإشارة إلى أن ﴿ لاَ

تُسْمِعُ ﴾ في كل من الجملتين بمعنى .

وقال الذاهبون إلى عدم سماعهم : الأصل عدم التأويل والتمسك بالظاهر إلى أن يتحقق ما يقتضي خلافه ، وأجابوا عن كثير مما استدل به الآخرون فقال بعضهم : إن ما وقع في حديث أبي طلحة رضي الله عنه يجوز أن يكون معجزة له صلى الله عليه وسلم ، وهو مراد من قال : إنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام وهي خوارق العادة ، والكلام في موافقها وهو الذي نفي في آية ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ ونحوها وفي قوله عليه الصلاة والسلام : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " دون ما أنتم بأسمع لما يقال ونحوه منهم تأييد ما لذلك ، وحديث أبي الشيخ مرسل وحكم الاستدلال به معروف ، على أن احتمال الخصوصية قائم فيه أيضاً ؛ وفي "صحيح البخاري" قال قتادة : أحياهم الله تعالى يعني أهل الطوى حتى أسمعهم قوله صلى الله عليه وسلم توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً ، ويؤيد ما أخرج البخاري ، ومسلم ، والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال : " وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قيل بدر فقال : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ ثم قال عليه الصلاة والسلام : إنهم الآن يسمعون ما أقول "

حيث قيد صلى الله عليه وسلم سماعهم بالآن ، وإذا قلنا ، بأن الميت يسئل سبعة أيام في قبره مؤمناً كان أو منافقاً أو كافراً وأنه حين السؤال تعاد إليه روحه كان لك أن تقول : يجوز أن يكون خطاب أهل القليب حين إعادة أرواحهم إلى أبدانهم للسؤال فإنه كما في حديث أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي كان في اليوم الثالث من قتلهم ، ويحتمل أن يكون خطابه صلى الله عليه وسلم لأم محجن كان وقت السؤال بأن يكون ذلك قبل مضي سبعة أيام عليها ، وعليه لا يكون سماعهم من المتنازع فيه لأنهم حين سمعوا إحياء لا موتى ، ويرد على هذا أن عمر رضي الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام : ما تكلم من أجساد لا أرواح لها .

(274/604)

ولم ينكر ذلك عليه صلى الله عليه وسلم بل قال عليه الصلاة والسلام له : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " ولو كان الأمر كما قال قتادة لكان الظاهر أن يقول صلى الله عليه وسلم له رضي الله تعالى عنه : ليس الأمر كما تقول إن الله عز وجل أحياهم لي أو نحو ذلك ، وعائشة رضي الله تعالى عنها أنكرت ما وقع في الحديث مما استدل به على المقصود ، ففي "صحيح البخاري" عن هشام عن أبيه قال : ذكر عند عائشة أن ابن عمر رفع إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم : " إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه " ، فقالت : وهل ابن عمر إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه ليعذب بخطيئته وذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن " قالت : وذلك مثل قوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين فقال لهم ما قال إنهم ليسمعون ما أقول إنما قال : " إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق " ثم قرأت ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى القبور ﴾ وتعقب ذلك السهيلي فقال : عائشة رضي الله تعالى عنها لم تحضر قول النبي صلى الله عليه وسلم فغيرها ممن حضر أحفظ للفظه عليه الصلاة والسلام ، وقد قالوا له : يا رسول الله أتخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم قالوا : وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحالة عالمين يعني كما تقول عائشة جاز أن يكونوا سامعين اه وهو كلام قومي ، ولا يقدح عدم حضورها في روايتها لأنه مرسل صحابي وهو محمول على أنه سمع ذلك ممن حضره أو من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو كان ذلك قادحاً في روايتها لقدح في رواية ابن عمر السابقة فإنه لم يحضر أيضاً ، ولا مانع من أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قال اللفظين جميعاً فإنه كما علم من كلام السهيلي لا تعارض بينهما ، وقال بعضهم فيما رواه البيهقي ، والحاكم وصححه ، وغيرهما : إنا لا نسلم صحته وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار ، وإن

سلمنا صحته نلتزم القول بأن الموتى الذين لا يسمعون هم من عدا الشهداء أما الشهداء فيسمعون في الجملة لامتيازهم على سائر الموتى بما أخبر عنهم من أنهم أحياء عند الله عز وجل ، وقيل في حديث ابن عبد البر : إن عبد الحق وإن قال إسناده صحيح إلا أن الحافظ ابن رجب تعقبه وقال : إنه ضعيف بل منكر وفي حديث ابن أبي الدنيا أنه على تسليم صحته لا يثبت المطلوب لأن خطاب الملك عليه السلام للروح الذي بيده وهو ليس بميت ، وفي حديث الصحيحين من سماع العبد قرع نعال أصحابه إذا دفنوه وانصرفوا عنه إنه إذ ذاك تعود إليه روحه للسؤال فيسمع وهو حي والجمهور على عود الروح إلى الجسد أو بعضه وقت السؤال على وجه لا يحس به أهل الدنيا إلا من شاء الله تعالى منهم ووراء ذلك مذاهب ، فمذهب ابن جرير وجماعة من الكرامية أن السؤال في القبر على البدن فقط وأن الله تعالى يخلق فيه إدراكاً بحيث يسمع ويعلم ويلذ ويألم ، وعلى هذا المذهب يمكن أن يقال نحو ما قيل على الأول ، ومذهب ابن حزم وابن ميسرة أنه على الروح فقط ، ومذهب أبي الهذيل وأتباعه أن الميت لا يشعر بشيء أصلاً إلا بين النفختين ، والحق أن الموتى يسمعون في الجملة وهذا على أحد وجهين ، أولهما أن يخلق الله عز وجل في بعض أجزاء الميت قوة يسمع بها متى شاء الله تعالى السلام ونحوه مما يشاء الله سبحانه سماعه أياه ولا يمنع من ذلك كونه تحت أطباق الثرى وقد انحلت منه هاتيك البنية وانفصمت العرى ولا يكاد يتوقف

في قبول ذلك من يجوز أن يرى أعمى الصين بقة أندلس ، وثانيهما أن يكون ذلك السماع للروح بلا وساطة قوة في البدن ولا يمتنع أن تسمع بل أن تحس وتدرك مطلقاً بعد مفارقتها البدن بدون وساطة قوي فيه وحيث كان لها على الصحيح تعلق لا يعلم حقيقته وكيفيته إلا الله عز وجل بالبدن كله أو بعضه بعد الموت وهو غير التعلق بالبدن الذي كان لها قبله أجرى الله سبحانه عادته بتمكينها من اسمع وخلقه لها عند زيارة القبر

(276/604)

وكذا عند حمل البدن إليه وعند الغسل مثلاً ولا يلزم من وجود ذلك التعلق والقول بوجود قوة السمع ونحوه فيها نفسها أن تسمع كل مسموع لما أن السماع مطلقاً وكذا سائر الإحساسات ليس إلا تابعاً للمشيئة فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن فيقتصر على القول بسماع ما ورد السمع بسماعه من السلام ونحوه ، وهذا الوجه هو الذي يترجح عندي ولا يلزم عليه التزام القول بأن أرواح الموتى مطلقاً في أفنية القبور لما أن مدار السماع عليه مشيئة الله تعالى والتعلق الذي لا يعلم كيفيته وحقيقته إلا هو عز وجل فلتكن الروح حيث شاءت أو لا تكن في مكان كما هو رأي من يقول بتجردها .

(277/604)

ويؤخذ من كلام ذكره العارف ابن مرجان في شرح أسماء الله تعالى الحسنى تحقيق على وجه آخر وهو أن للشخص نفساً مبرأة من باطن ما خلق منه الجسم وهي روح الجسم وروحاً أوجدها الله تبارك وتعالى من باطن ما برأ منه النفس وهي للنفس بمنزلة النفس للجسم فالنفس حجابها وبعد المفارقة في العبد المؤمن تجعل الحقيقة الروحانية عامرة العلو من السماء الدنيا إلى السماء السابعة بل إلى حيث شاء الله تعالى من العلو في سرور ونعيم وتجعل الحقيقة النفسانية عامرة السفل من قبره إلى حيث شاء الله تعالى من الجو ولذلك لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى قائماً يصلي في قبره وإبراهيم عليه السلام تحت الشجرة قبل صعودة عليه الصلاة والسلام إلى السماء ولقيهما عليهما السلام بعد الصعود في السموات العلا فتلك أرواحهما وهذه نفوسهما وأجسادهما في قبورهما وكذا يقال في الكافر إلا أن الحقيقة الروحانية له لا تكون عامرة العلو فلا تفتح لهم أبواب السماء بل تكون عامرة دار شقائها والعياذ بالله تعالى ، وبين الحقيقتين اتصال وبوساطة ذلك ومشيئته عز وجل يسمع من سلم عليه في قبره السلام ولا يختص السماع في السلام عند الزيارة ليلة الجمعة ويومها وبكرة السبت أو يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها بل يكون ذلك في السلام عند الزيارة مطلقاً فالميت يسمع الله تعالى روحه السلام عليه من زائرة في أي وقت كان ويقدره سبحانه على رد السلام كما صرح به في بعض الآثار .

وما أخرجه العقيلي من أنهم يسمعون السلام ولا يستطيعون رده محمول على نفي استطاعة الرد على الوجه المعهود الذي يسمعه الأحياء ، وقيل : رد السلام وعدمه مما يختلف باختلاف الأشخاص فرب شخص يقدره الله تعالى على الرد ولا يثاب عليه لانقطاع العمل وشخص آخر لا يقدره عز وجل ، وعندي إن التعلق أيضاً مما يتفاوت قوة وضعفاً بحسب الأشخاص بل وبحسب الأزمان أيضاً وبذلك يجمع بين الأخبار والآثار المختلفة .

(278/604)

وأما الجواب عن الآية التي الكلام فيها ونحوها مما يدل بظاهره على نفي السماع فيعلم مما تقدم فليفهم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(279/604)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾

جاءت هذه الجملة على أسلوب أمثالها كما تقدم في قوله ﴿ هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده

﴾ [الروم : 27] ، وجاءت المناسبة هنا لذكر الاستدلال بإرسال الرياح في قوله ﴿ ومن ءاياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ [الروم : 46] استدلالاً على التفرّد بالتصرف وتصوير الصنع الحكيم الدال على سعة العلم ، ثم أعقب بالاستدلال بإرسال الرياح توسلاً إلى ذكر إحياء الأرض بعد موتها المستدَلّ به على البعث ، فقد أفادت صيغة الحصر بقوله ﴿ الله الذي يرسل الرياح أنه هو المتصرف في هذا الشأن العجيب دون غيره ، وكفى بهذا إبطالاً لإلهية الأصنام ، لأنها لا تستطيع مثل هذا الصنع الذي هو أقرب التصرفات في شؤون نفع البشر .

والتعبير بصيغة المضارع في : يُرسل ، وتُثير ، ويَبسطه ، ويَجعله لاستحضار الصور العجيبة في تلك التصرفات حتى كأنَّ السامع يشاهد تكوينها مع الدلالة على تجدد ذلك .

﴿ وجمع الرياح ﴾ لِما شاع في استعمالهم من إطلاقها بصيغة الجمع على ريح البشارة بالمطر لأن الرياح التي تثير السحاب هي الرياح المختلفة جهات هبوبها بين : جَنوب وشَمَال وصَبا ودبور ، بخلاف اسم الريح المفردة فإنه غلب في الاستعمال إطلاقه على ريح القوة والشدة لأنها تتصل واردةً من صوب واحد فلا تزال تشتد .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح قال : " اللهم اجعلها رياحاً لا ريحاً " وقد تقدم قوله تعالى ﴿ وتَصْرِيف الرِّيَاح ﴾ في سورة البقرة (164) .

والإثارة : تحريك القارّ تحريكاً يضطرب به عن موضعه .

وإثارة السحاب إنشاؤه بما تحدثه الرياح في الأجواء من رطوبة تحصل من تفاعل الحرارة والبرودة.

والبسط: النشر.

والسماء: الجو الأعلى وهو جو الأسحِبة.

(280/604)

و ﴿ كيف ﴾ هنا مجردة عن معنى الاستفهام، وموقعها المفعولية المطلقة من ﴿ يبسطه ﴾ لأنها نائبة عن المصدر، أي: يَبسطه بسطاً كيفيته يشاؤها الله، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ في سورة آل عمران (6).

وتقدم أن من زعم أنها شرط لم يصادف الصواب.

و ﴿ كِسَفاً ﴾ بكسر ففتح في قراءة الجمهور جمع كِسْف بكسر فسكون، ويُقال: كِسْفة بهاء تأنيث وهو القطعة.

وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ أَوْ تَسْقُطَ السَّماء كَما زَعمت علينَا كِسْفاً ﴾ في سورة الإسراء (92).

وتقدم الكِسْف في قوله ﴿ فأسقط علينا كِسفاً من السَّماء إنْ كُنْت مِن الصَّادِقين ﴾ في

سورة الشعراء (187) .

والمعنى : أنه يبسط السحاب في السماء تارة ، أي يجعله ممتداً عاماً في جو السماء وهو المدجن الذي يظلم به الجو ويقال المغلق ، ويجعله كسفاً أي تارة أخرى كما دلت عليه المقابلة ، أي : يجعله غمامات لأن حالة جعله كسفاً غير حالة بسطه في السماء ، فتعين أن يكون الجمع بينهما في الذكر مراداً منه اختلاف أحوال السحاب .

والمقصود من هذا : أن اختلاف الحال آية على سعة القدرة .

والخطاب في ﴿ فترى الوَدْق ﴾ خطاب لغير معيّن وهو كل من يتأتى منه سماع هذا وتتأتى منه رؤية الودق .

والودق : المطر .

وضمير ﴿ خلاله ﴾ للسحاب بحالتيه المذكورتين وهما حالة بسطه في السماء وحالة جعله كسفاً فإن المطر ينزل من خلال السحاب المغلق والغمامات .

والخلال : جمع خَلَل بفتحتين وهو الفرجة بين شيئين .

وتقدم نظير هذه الجملة في سورة النور (43) .

وذكر اختلاف أحوال العباد في وقت نزول المطر وفي وقت انحباسه بين استبشار وإبلاس إدماج للتذكير برحمة الله إياهم وللاعتبار باختلاف تأثرات نفوسهم في السراء والضراء ، وفي ذلك إيماء إلى عظيم تصرف الله في خِلقة الإنسان إذ جعله قابلاً لاختلاف الانفعال مع اتحاد العقل والقلب كما جعل السحاب مختلف الانفعال من بسط وتقطع مع اتحاد الفعل وهو خروج الودق من خلاله .

و﴿ إنْ ﴾ في قوله ﴿ وإن كانوا ﴾ مخفَّفة مهملة عن العمل ، واللام في قوله ﴿ لَمُبْلِسِين ﴾ اللام الفارقة بين ﴿ إنْ ﴾ المخففة و ﴿ إنْ ﴾ الشرطية .

والإبلاس : يأس مع انكسار .

وقوله ﴿ مِنْ قَبْلِه ﴾ تكرير لقوله ﴿ من قبلِ أن ينزّل عليهم ﴾ [الروم : 49] لتوكيد معنى قبلية نزول المطر وتقريره في نفوس السامعين .

قال ابن عطية : أفاد التأكيد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار أهـ .

يعني أن إعادة قوله ﴿ مِنْ قَبْله ﴾ زيادة تنبيه على الحالة التي كانت من قبل نزول المطر .

وقال في "الكشاف" : "فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم" أهـ .

يعني أن فائدة إعادة ﴿ من قبله ﴾ أن مدة ما قبل نزول المطر مدة طويلة فأشير إلى قوتها

بالتوكيد .

وضمير ﴿ قبله ﴾ عائد إلى المصدر المأخوذ من ﴿ أن ينزل عليهم ﴾ أي تنزيله .

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

رتب على ما تقرر من استحضار صورة تكوين أسباب المطر واستبشار الناس بنزوله بعد الإبلاس ، أن اعتُرض بذكر الأمر بالنظر إلى أثر الرحمة وإغاثة الله عباده حين يحيي لهم الأرض بعد موتها بالجفاف .

والأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال .

والنظر : رؤية العين .

وعبر عن الجفاف بالموت لأن قوام الحياة الرطوبة ، وعبر عن ضده بالإحياء .

والخطاب بـ ﴿ انظر ﴾ لغير معين ليعم كل من يتأتى منه النظر مثل قوله ﴿ فترى الودق ﴾ [الروم : 48] .

(282/604)

و ﴿ رحمة الله : هي صفته التي تتعلق بإمداد مخلوقاته ذوات الإدراك بما يلائمها ويدفع عنها ما يؤلمها وذلك هو الإنعام .

وأثر الشيء : ما ينشأ عنه مما يدل عليه .

فرحمة الله دلت عليها الآثار الدالة على وجوده وتصرفه بما فيه رحمة للخلق .

وكيف ﴿ بَدل من ﴿ أثر ﴾ أو مفعول ل ﴿ انْظُرْ ﴾ أي : انظر هيئة إحياء الله الأرض بعد موتها ، تلك الحالة التي هي أثر من آثار رحمته الناس على حدّ قوله ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيفَ خُلِقت ﴾ [الغاشية : 17] إذ جعلوا ﴿ كيف ﴾ بدلاً من الإبل بدل اشتمال وإن أباه ابن هشام في "مغني اللبيب" .

وقد مضى عند قوله ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ ﴾ في سورة الفرقان (45) ، وتقدم آنفاً في قوله ﴿ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾ [الروم : 48] .

وأطلق على إنبات الأرض إحياء وعلى قحولتها الموتُ على سبيل الاستعارة .

وجملة ﴿ إن ذلك لمحيي الموتى ﴾ استئناف وهو إدماج ؛ أدمج دليل البعث عقب الاعتبار بإحياء الأرض بعد موتها .

وحرف التوكيد يفيد مع تقرير الخبر زيادة معنى فاء التسبب كقول بشار :

بَكِّرَا صاحِبَيَّ قبل الهجير . . .

إن ذاك النجاح في التبكير

إذ التقدير : فالنجاح في التبكير ، كما تقرر غير مرة .

واسم الإشارة عائد إلى اسم الله تعالى بما أُجري عليه من الإخبار بإحياء الأرض بعد

موتها ليفيد اسم الإشارة معنى أنه جدير بما يرد بعده من الخبر عن المشار إليه .

فالمعنى : أن الله الذي يحيي الأرض بعد موتها لمحيي الموتى ، تقريباً لتصور البعث .

وعدل عن الموصول إلى الإشارة للإيجاز ، ولما في الإشارة من التعظيم .

وذُيل ذلك بقوله ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ فإنه يعم جميع الأشياء والبعثُ من جملتها

إذ ليس هو إلا إيجادَ خَلق وهو مقدور لله تعالى كما أنشأ الخلق أول مرة .

والشبه تام ، لأن إحياء الأرض إيجاد أمثال ما كان عليها من النبات فكذلك إحياء الموتى

إيجاد أمثالهم .

(283/604)

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ﴿ إلى أَثَر ﴾ بالإفراد .

وقرأه الباقون ﴿ إلى ءَاثار ﴾ بصيغة الجمع .

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

عطف على جملة ﴿ وإن كانوا من قبل أن يُنزل عليهم من قبِله لمُبْلسين ﴾ [الروم : 49]

وما بينهما اعتراض واستطراد لغرض قد علمته آنفاً .

وهذه الجملة سيقت للتنبيه على أن الكُفران مطبوع في نفوسهم بحيث يعاودهم بأدنى

سبب فهم إذا أصابتهم النعمة استبشروا ولم يشكروا وإذا أصابتهم البأساء أسرعوا إلى الكفران فصُوّر لكفرهم أعجبُ صورة وهي إظهارهم إياه بحدثان ما كانوا مستبشرين منه إذ يكون الزرع أخضر والأمل في الارتزاق منه قريباً فيصيبه إعصار فيحترق فيضجّون من ذلك وتكون حالهم حالة من يكفر بالله وتجري على أقوالهم عبارات السخط والقنوط ، كما قال بعض رجّاز الأعراب إذ أصاب قومَه قحط :

ربَّ العباد ما لنا وما لكْ . . .

قد كنتَ تسقينا فما بدا لكْ

أنزِل علينا الغيثَ لاَ أبا لكْ . . .

فالضمير المنصوب في ﴿ رأوه ﴾ عائد إلى ﴿ أثر رحمة الله ﴾ [الروم : 50] وهو الزرع والكلأ والشجر .

والاصفرار في الزرع ونحوه مؤذن بيبسه ، وسموا صُفَاراً بضم الصاد وتخفيف الفاء : داء يصيب الزرع .

والمُصْفَر : اسم فاعل مقتضٍ الوصف بمعناه في الحال ، أي فرأوه يَصير أصفر ، فالتعبير بـ ﴿ مصفراً ﴾ لتصوير حدثان الاصفرار عليه دون أن يقال : فرأوه أصفر .

وظل : بمعنى صار ، والإتيان بفعل التصيير مع الإخبار عنه بالمضارع لتصوير مبادرتهم إلى

الكفر ثم استمرارهم عليه .

والحاصل أن المعنى أنه يغلب الكفر على أحوالهم .

(284/604)

واعلم أن الإتيان بالأفعال الثلاثة ماضية لأن وقوعها في سياق الشرط يمحضها للاستقبال ، فأوثرت صيغة المضي لأنها أخف والمتكلم مخيَّر في اجتلاب أيّ الصيغتين مع الشرط ، مثل قوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : 88] بصيغة المضارع لأن المقام للنفي بـ ﴿ لا وهي لا تدخل على الماضي المسند إلى مفرد إلا في الدعاء .

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52)

الفاء للترتيب على قوله ﴿ لظلوا من بعده يكفرون ﴾ [الروم : 51] المفيد أن الكفر غالب أحوالهم لأنهم بين كفر بالله وبين إعراض عن شكره ، أو الفاء فصيحة تدل على كلام مقدر ، أي إن كبر عليك إعراضهم وساءك استرسالهم على الكفر فإنهم كالموتى وإنك لا تسمع الموتى .

وهذا معذرة للنبيء صلى الله عليه وسلم ونداء على أنه بذل الجهد في التبليغ .

وفيما عدا الفاء فالآية نظير التي في آخر سورة النمل ونزيد هنا فنقول : إن تعداد التشابيه منظور فيه إلى اختلاف أحوال طوائف المشركين فكان لكل فريق تشبيه : فمنهم من غلب عليهم التوغل في الشرك فلا يصدقون بما يخالفه ولا يتأثرون بالقرآن والدعوة إلى الحق ؛ فهؤلاء بمنزلة الأموات أشباح بلا إدراك ، وهؤلاء هم دهماؤهم وأغلبهم ولذلك ابتدىء بهم .

ومنهم من يُعرض عن استماع القرآن وهم الذين يقولون : ﴿ في ءاذاننا وقر ﴾ [فصلت : 5] ويقولون : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه ﴾ [فصلت : 26] وهؤلاء هم ساداتهم ومدبّرو أمرهم يخافون إن أصْغوا إلى القرآن أن يملك مشاعرهم فلذلك يتباعدون عن سماعه ، ولهذا قُيِّد الذي شبهوا به بوقت توليهم مدبرين إعراضاً عن الدعوة ، فهو تشبيه تمثيل .

(285/604)

ومنهم من سلكوا مسلك ساداتهم واقتفوا خُطاهم فانحَرفت أفهامهم عن الصواب فهم يسمعون القرآن ولا يستطيعون العمل به ، وهؤلاء هم الذين اعتادوا متابعة أهوائهم وهم الذين قالوا : ﴿ إنّا وجدنا ءاباءنا على أمة وإنا على ءاثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف :

22] ويحصل من جميع ذلك تشبيه جماعتهم بجماعة تجمع أمواتاً وصماً وعمياً فليس هذا من تعدد التشبه لمشبهٍ واحد كالذي في قوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ [البقرة : 19] .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا تسمع الصمّ ﴾ بتاء فوقية مضمومة وكسر ميم ﴿ تُسمِع ﴾ ونصب ﴿ الصمَّ ﴾ ، على أنه خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وقرأه ابن كثير ﴿ ولا يَسمع الصمُّ ﴾ بتحتية مفتوحة وبفتح ميم ﴿ يسْمَع ﴾ ورفع ﴿ الصمّ ﴾ على الفاعلية ل ﴿ يَسمع ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ بهادي ﴾ بموحدة وبألف بعد الهاء وبإضافة ﴿ هادي ﴾ إلى ﴿ العُمْي ﴾ ، وقرأه حمزة وحْده ﴿ تهدي ﴾ بمثناة فوقية وبدون ألف بعد الهاء على الخطاب وبنصب ﴿ العُمْي ﴾ على المفعولية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(286/604)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾

الحق سبحانه يعطينا هنا مذكرة تفصيلية لعملية حركة الرياح ، وسَوْق السحاب ، وإنزال المطر ، وكلمة الرياح إذا جُمعَتْ دلَّتْ على الخير كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . ﴾ [الحجر : 22] .

أي : تُلقِّح النباتات فتأخذ من الذكَر ، وتضع في الأنثى ، فيحدث الإثمار ، ومن عجيب هذه العملية أن ترى الذكر والأنثى في العود الواحد كما في نبات الذرة مثلاً ، ففي (الشُّوشة) أعلى العود حبات اللقاح الذكر ، وفي الشعيرات التي تخرج من الكوز متصلة بالحبات توجد أعضاء الأنوثة ، ومع حركة الرياح تتناثر حبات اللقاح من أعلى وتنزل على هذه الشعيرات ، فتجد الشعيرة التي لُقحت تنمو الحبة المتصلة بها ، أما الأخرى التي لا يصلها اللقاح فتموت .

ولذلك نلحظ أن العيدان التي في مهبِّ الريح أو ناحية بحري أقلّ محصولاً من التي تليها ، لماذا ؟ لأن الرياح تحمل حبَّات لقاحها إلى العيدان الأخرى التي تليها ، فيزداد محصولها .

فإذا كانت بعض النباتات نعرف فيها الذكر من الأنثى كالنخيل ، والجميز مثلاً ، فأين الذكر والأنثى في القمح ، أو في الجوافة ، أو في الموز .

ولما درسوا حبوب اللقاح هذه وجدوا أن كل حبة مهما صَغُرت فيها أهداب دقيقة مثل القطيفة تتناثر مع الرياح ، ويحملها الهواء إلى أماكن بعيدة ؛ لذلك ترى الجبال والصحراء تخضرّ بعد نزول المطر ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟ إنها الرياح اللواقح بقدرة الخالق عز

وجل .

ولنا وَقْفة عند قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ . . . ﴾ [الشورى : 33] أي : السفن التي تسير بقوة الرياح تظل راكدة على صفحة الماء لا يحركها شيء ، فإنْ قُلْت : كيف نفهم هذا المعنى الآن مع تقدم العلم الذي سيَّر السفن بقوة البخار والديزل أو الكهرباء ، واستغنى عن الرياح ؟

(287/604)

ونقول : الرياح من معانيها الهواء ، وهي أيضاً تعني القوة مطلقاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 46] أي : قوتكم ، فالريح تعني القوة على أيِّ وضع ، سواء أسارتْ بالرياح أو بالآلة ، فهو سبحانه قادر على أنْ يُسكنها . لذلك تجد أن الرياح بمعنى القوة لها قوة آنية ، وقوة آتية ، آنية يعني الآن ، وآتية تأتي فيما بعد ، وكذلك كل إنسان وكل شيء في الكون له نَفَس وريح وكيماوية خاصة به تميزه عن غيره وهذه مهمة كلاب البوليس التي تشم رائحة المتهمين والمجرمين في قضايا المخدرات مثلاً ، فالشخص له رائحة الآن وهو موجود ، وله رائحة تظلّ في المكان حتى بعد أنْ يفارقه . لذلك يُعلِّمنا القرآن أن الريح هو أثبت الآثار في الإنسان ، واقرأ في ذلك قوله تعالى عن

يوسف ويعقوب عليهما السلام : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً . . . ﴾ [يوسف : 93] .

وكان يوسف في مصر ، ويعقوب في أرض فلسطين ، فلما فصلت العير بقميص يوسف ، وخرج من نطاق المباني التي ربما حجزتْ الرياح ، قال يعقوب

﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ . . . ﴾ [يوسف : 94] على بُعْد ما بينهما من المسافات .

وإذا أفردت الرياح دلَّتْ على الشر ، ومعنى الرياح أن تأتي ريح من هنا وريح من هنا . . فتأتيك بالأكسوجين أينما كان ، وتحمل إليك عبير العطور في الكون ، فهي إذن تأتيك بالفائدة .

وإذا أُفردت الرياح دلَّتْ على الشر ، ومعنى الرياح أن تأتي ريح من هنا وريح من هنا . . فتأتيك بالأكسوجين أينما كان ، وتحمل إليك عبير العطور في الكون ، فهي إذن تأتيك بالفائدة .

وقلنا : إن الأشياء الثابتة اكتسبتْ الثبات من وجود الهواء في كُلِّ نواحيها وجهاتها ، ولو فرَّغْتَ الهواء من ناحية من نواحي إحدى العمارات لانهارتْ في الحال ، كذلك الريح إنْ جاءت مفردة فهي مدمرة ، وفيها العطب كما في قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ [الذاريات : 41] .

وقال : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] .

فقوله تعالى : ﴿ الله الذي يُرْسِلُ الرياح . . . ﴾ [الروم : 48] فإرسال الرياح في ذاته نعمة ﴿ فَتُثِيرُ سَحَاباً . . . ﴾ [الروم : 48] إثارة السحاب أي : تهيجه وتحركه ، وهذه نعمة أخرى .

والسحاب عبارة عن الماء المتبخِّر من الأرض ، وتجمُّع بعضه على بعض في طبقات الجو ، وماء المطر ماء مُقطر بقدرة الله ، كما نُجري نحن عملية التقطير في المعامل مثلاً ، فيأتينا المطر بالماء العَذْب النقي الزلال الذي قطرته لنا عناية الخالق سبحانه دون أنْ ندري .

وإذا كان تقطير كوب واحد يحتاج إلى كل هذه العمليات ، وكل هذه التكلفة ، فما بالك بماء المطر ؟

وسبق أنْ قُلْنا : إن من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل ثلاثة أرباع اليابسة ماء لتتسع رقعة البَخْر ليكفي الربع الباقي ، وضربنا لتوضيح ذلك مثلاً بكوب الماء حين تتركه على المنضدة مثلاً ، وحين تسكبه في أرض الغرفة ، ففي الحالة الأولى يظل الماء فترة طويلة ؛ لأن البَخْر

قليل ، أما في الأخرى فإنه سرعان ما يتبخر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ . . . ﴾ [الروم : 48] وانظر إلى طلاقة المشيئة ، فالمطر يصرفه الله كيف يشاء إلى الأماكن التي تحتاج إلى مطر ، ومن العجيب أن الله تعالى حين يريد أن يرزق إنساناً ربما يرزقه من سحاب لا يمر على بلده ، وانظر مثلاً إلى النيل ، من أين يأتي ماؤه ؟ وأين سقط المطر الذي يروي أرض النيل من أوله إلى آخره ؟

(289/604)

ومعنى ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً . . . ﴾ [الروم : 48] كسفا : جمع كِسْفة ، وهي القطعة ﴿ فَتَرَى الودق . . . ﴾ [الروم : 48] المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ . . . ﴾ [الروم : 48] أي : من بين هذه السحب .

﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم : 48] والإصابة قد تكون مباشرة ، فيهطل المطر عليهم مباشرة ، وقد تكون غير مباشرة بأنْ تكون الأرض منحدرة ، فينزل المطر في مكان ويسقي مكاناً آخر ، بل ويحمل إليه الخِصْب والنماء ، كما كان النيل في الماضي يحمل الطمي من الحبشة إلى السودان ومصر .

وكان هذا الطمي يستمر مع الماء طوال مجرى النيل وإلى دمياط ، فلماذا لم يترسب طول هذه المسافات ؟

لم يترسب بسبب قوة دفع الماء وشدة انحداره ، بحيث لا يستقر هذا الطمي ولا يترسب .

وقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم : 48] لأن الرياح حين تمر عليهم تُبشّرهم بالمطر ، وحين ينزل المطر يُبشّرهم بالزرع والنماء والخِصْب والخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] .

وأذكر وأنا صغير وبلدنا على النيل ، والنيل من أمامها متسع ، وبه عدة جزر يزرعها الناس ، فأذكر أننا كنا نزرع الذرة ، وجاء الفيضان فأغرقه وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، وكان الناس يذهبون إليه ويجمعونه بالقوارب ، ورأيت النساء تزغرد والفرحة على الوجوه ، فكنت أسأل أبي رحمه الله : النيل أغرق الزرع . فلماذا تزغرد النساء ؟

فكان والدي يضحك ويقول : تزغرد النساء لأن النيل أغرق الزرع ، وهذا هو مصدر الخير ، وسبب خصوبة الأرض ، فلما كبرتُ وقرأت قصيدة أحمد شوقي رحمه الله في النيل :

مِنْ أيِّ عَهْدٍ في القُرَى تتدفَّقُ . . . وبأيِّ كَفٍّ في المدائن تُغدِق

الماءُ تُرسِلُه فيصبح عَسْجداً . . . والأرض تُغرقُها فيحيَا المغرَق

لما قرأتُ هذه القصيدة عرفت لماذا كانت النساء تزغرد حين يُغرق النيلُ الزرعَ .

والاستبشار لنزول المطر يأتي على حسب الأحوال ، فإن جاء بعد يأس وقحط وجفاف كانت الفرحة أكبر ، والاستبشار أبلغ حيث يأتي المطر مفاجئاً ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم : 48] أما إنْ جاء المطر في الأحوال العادية فإن الاستبشار به يكون أقلَّ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ . . . ﴾ .

معنى ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم : 49] آيسين من نزول المطر ، فإنْ جاءهم المطر بعد هذا اليأس كانت فرحتهم به مزودجة ومضاعفة .

وللعلماء وقفة حول هذه الآية ؛ لأنها كررتْ كلمة من قبل ، وبالتأمل نجد المعنى : من قبل أنْ ينزل عليهم ، وإنْ كانوا من قبل هذا القبل يائسين ، فهنا إذن قبلان .

ولا بُدَّ أن نفهم أن هناك إرسالاً للرياح التي تبشر بالمطر ، وهناك إنزال المطر ، فلما ينزل المطر يكون هناك قبلية له هي الإرسال ، فقبل الإرسال كان عندهم يأس ، وبعد الإرسال قالوا ربما لا تمطر .

إذن : هنا كم قبل ؟ قبل الإنزال وقبل الإرسال . فالمعنى : فهُمْ من قبله – أي من قبل أن ينزل المطر – من قبل هذا عندهم يأس .

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

كأن الحق سبحانه أراد أنْ يستدلَّ بالمَحسّ المنظور في الكون على ما يريد أنْ يخبرنا به من الغيب من أمور البعث والآخرة ؛ لذلك يعلل بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : 50] فذكر مع الأرض الفعل المضارع يحيي ، والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار وهذه عملية مُحسَّة لنا .

(291/604)

أما في إحياء الموتى فجاء بالاسم محيي ، والاسم يفيد ثبوت الصفة ؛ ليؤكد إحياء الموتى ، ومعلوم أن الموت لا يشك فيه أحد ؛ لأنه مُشَاهد لنا ، أما البعث فهو محلُّ شكٍّ لدى البعض لأنه غيب .

ومع ذلك يقول تعالى عن الموت : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون : 15] ، فيؤكد هذه القضية مرة بإنْ ، ومرة باللام ، والموت شيء واقع لا ننكره ، فلماذا كل هذا التأكيد ؟

قالوا : نعم هو واقع لا نشك فيه ، لكنه واقع مغفول عنه ، فكأن الغفلة عنه كالإنكار ، ولو

كنتم متأكدين منه ما غفلتم عنه .

فلما ذكر البعث قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 16] فأكدها بمؤكد واحد ، مع أنه محلُّ شكٍّ ، فكأنه لما قامت الأدلة عليه كان ينبغي ألاَّ يشك فيه ؛ لذلك لم يؤكده كما أكَّد الموت ، ولما غفلنا عن الأدلة كان واجباً أنْ يُؤكِّد الموت ، فأكَّد الموت ، ولم يؤكد البعث .

ومعنى ﴿ فانظر . . . ﴾ [الروم : 50] الأمر بالنظر هنا ليس (فنطزية) ولا (للفرجة) أو التسلية ، لأننا نقول : هذا الأمر فيه نظر يعني : محلاً للبحث والتقصي لنصل إلى وجه الحق فيه ، بترجيح بعض الأدلة على بعض .

إذن : (فانظر) أي : نظر اعتبار وتأمل ؛ لأننا نريد أن نقيس الغائب عنا والذي نريد أن نخبر به من أمور الآخرة بالمنظور لنا من إحياء الأرض بعد موتها .

ففي الآية دليل جديد من أدلة قدرة الحق ووحدانيته ، وهو دليل كوني نراه جميعاً ، والحق سبحانه يُلوِّن الأدلة ليلفت المخلوق إلى عظمة الخالق ليؤمن به إلهاً واحداً قاهراً قيوماً مقتدراً ، وهذه الأدلة حجة تضيء العقل ، وآيات في الكون تبرهن على الصِّدق ، وأمثال يضربها للناس في الكون وفي أنفسهم ، ووعد لمن آمن ، ووعيد لمن خالف .

وهنا أيضاً دليل كوني مشهود في الكون ، فالذي أحيا الأرض الميتة كما تشاهدون (لمحي الموتى) في الآخرة كما يخبركم ، وجاء بصيغة اسم الفاعل الدال على ثبوت صفة الإحياء قبل أنْ يُحيي ، كما نقول : فلان شاعر فلم يكتسب هذه الصفة لأنه قال شعراً ، إنما هو إنما هو شاعر قبل أن يقول ، كذلك الخالق سبحانه (محي) قبل أن يوجد منه الفعل ، وقادر قبل أنْ يخلق مقدوراً له ، وخالق قبل أنْ يخلق خَلْقاً ، فبالصفة فيه سبحانه خلق .

ولكي نُقرِّب الشبة بين إحياء الأرض بالنبات وإحياء الموتى يوم القيامة نقول : لو نظرنا إلى الإنسان لوجدنا هذا الهيكل الضخم الذي يزن إلى مائة كيلو أو يزيد ، أصل تكوينه ميكروب لا يُرَى بالعين المجردة ، حتى قالوا : إن أنسال العالم كله من الحيوان المنوي يمكن أنْ توضع في حجم كستبان الخياطة ، إذا مليء نصفه من المني ، ثم يأخذ هذا الحيوان المنوي من الغذاء من الرزق فينمو ويكبر في الحجم فقط ، لكن تظل الشخصية كما هي .

فإذا مات الإنسان يبْلَى هذا الجسد ، ويتحلل إلا عظمة الذنب ، فتبقى لا تتحلل ولا تأكلها الأرض لتكون هي البذرة التي تنبت الإنسان بقدرة الله يوم القيامة ؛ لذلك جاء في حديث إحياء الموتى يوم القيامة ؛ " فينبتون كما ينبت البقل " .

ففي هذه العظمة الصغيرة كل صفات الإنسان وخصائصه ، ومنها يعود كما كان قبل الموت ، كما نرى حبة السمسم مثلاً ، فهي رغم صِغَرها إلا أنها تحمل كل خصائص هذا النبات

كلها ، إذن : صِغَر الحجم دليل على القدرة ، فإذا ما وضعت هذه الحبة الصغيرة في البيئة المناسبة تأخذ الغذاء من التربة ومن الهواء وتنمو وتكبر ، وهذا النمو وهذا الكبر لا يعطي شخصية جديدة إنما الشخصية ثابتة ، إنما يعطي تكبيراً لها فحسب .

(293/604)

لذلك لما شرَّحوا الأرنب وجدوه صورة طبق الأصل من تشريح الإنسان ، بمعنى أن فيه كل جوارح الإنسان وكل أجهزته ، حتى البعوضة في حجمها الضئيل فيها كل الأجهزة ، لكن أين جهازها الهضمي وجهازها الدموي وجهازها العصبي والسمبتاوي والبولي . . الخ ، فدقَّة هذه المخلوقات دليل على القدرة .

وفي حضارتنا الحالية نجد أن من علامات التقدم العلمي أنْ نُصغِّر الكبير إلى أقصى درجة ممكنة ، وانظر مثلاً إلى الراديو أول ما اخترعوه كان في حجم النورج ، أما الآن فهو في حجم علبة الكبريت .

إذن : فالعظمة أن تضع كل الأجهزة في هذا الحجم الصغير ، أو تجعلها كبيرة فوق العادة وفوق القدرة ، كما في ساعة " بج بن " مثلاً .

لذلك نرى الخالق سبحانه خلق الشيء الدقيق المتناهي في الصِّغَر ، بحيث لا يُدرك بالعين

المجردة ، ومع ذلك يحتوي على كل خصائص الشيء الكبير ، وخلق من المخلوقات الضخم الذي لا تستطيع أن تحدَّه .

إذن : حينما ينمو الشيء لا يزداد خصائص جديدة ، إنما تكبُر عنده نفس الخصائص ونفس المشخَّصات الأصلية فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : لو أن إنساناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض والعياذ بالله أفقده نصف وزنه ، نقول : أين ذهب هذا النقص ؟ ذهب إلى فضلات نزلتْ منه ؛ لأن الإنسان ينمو حينما يكون الداخل إليه من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فإنْ تساوى يقف عند حَدٍّ معين لا يزيد ولا ينقص .

فإذا سخر الله لهذا المريض طبيباً يداويه ، فإنه يستعيد عافيته إلى أنْ يعود إلى وزنه الطبيعي مائة كيلو كما كان ، فهل عاد إليه ما فقده في نقص الوزن ، أم عاد إليه مثله من عناصر الغذاء والتكوين ؟ عاد إليه مثل الذي فقده .

إذن : فالشخصية هي هي باقية لا تتغير مع النقص أو الزيادة .

كذلك فالشخصية أو الخصائص موجودة في هذا الميكروب الدقيق أو في هذه الحبة الصغيرة ، إلى أنْ تُوضع في بيئتها المناسبة ، فتعطي نفس الشخصية أو نفس الخصائص لنوعها ، حتى قالوا : إن قدماء المصريين وضعوا مع الموتى بعض الحبوب ، وحفظوها طوال آلاف السنين ، بحيث إذا وُضِعت الحبة منها في التربة المناسبة فإنها تنبت .

فإذا كان الإنسان يستطيع أن يستنبت الحبة بعد بضعة آلاف من السنين ، أيكون عزيزاً على الله أنْ يستنبت بذرة الإنسان ، ويُحيي الذرة الباقية منه في الأرض حين ينزل عليها المطر بأمره تعالى يوم القيامة ؟

ثم إن الحبة الواحدة التي يستنبتها الإنسان تعطيه آلافاً من نوعها ، أما بذرة الإنسان والذرة الباقية منه فتعطي شخصاً واحداً لا غير ، أيصعب هذا على القدرة الإلهية .

لذلك يحثُّنا الحق سبحانه على التأمل في قوله ﴿ فانظر . . . ﴾ [الروم : 50] لا نظر عين ، ولكن نظر تأمُّل وتعقُّل واستنباط ، وربنا ينعى علينا الغفلة في التأمل ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

ونسمي الجدل لإظهار الحقائق (مناظرة) ، يناظر كل مِنَّا الآخر ، لا نظرَ عين ، ولكن نظر عَقْل واستنباط .

﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَتِ الله كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى . . .

﴾ [الروم: 50] أي: الذي أحياها ﴿ لَمُحْيِ الموتى . . . ﴾ [الروم: 50] وما دام قد ثبتتْ له صفة الإحياء، فإذا أخبرك بأنه يُحيي الموتى، فصدِّق وخُذْ مما شاهدته دليلاً على ما غاب عنك.

ثم يختم الحق سبحانه هذه الآية بصفة أخرى تؤكد صفة الخَلْق والإحياء ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: 50] فغير أنه سبحانه حيٌّ ومحيي له سبحانه صفات الكمال، والقدرة على كل شيء علماً وقدرةً وحكمة وبَسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً . . إلخ.

(295/604)

فبعد أنْ ذكر الحدث في الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿ يُحْيِ . . . ﴾ [الروم: 50] ذكر الاسم الدال على ثبوت الصفة ﴿ لَمُحْيِ . . . ﴾ [الروم: 50] ثم جاء بكل صفات الكمال في ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: 50].

يريد الله أن يبين أن الإنسان كنود، وأنه خُلِق جزوعاً، إنْ مسَّه الشر يجزع، وإنْ مسه الخير يمنع، فلما كان يائساً من الهواء يهبُّ عليه أرسل الله إليه الرياح، وبعد أنْ كان يائساً من قطرة الماء أنزل الله عليه المطر مدراراً، فهل أخذ في باله هذا العطاء، بحيث إذا أصابه يأس من شيء طلب فرجه من الله، وأزاح اليأس عن نفسه وقال: إن لي رباً ألجأ إليه، ولا

ينبغي لي أن أقنط وهو موجود ؟

فالذي فرج عليك من يأس الرياح ومن يأس المطر قادر أنْ يُفرِّج عنك كل كَرْب ؛ لذلك ينبغي أن يكون شعار كل مؤمن : لا كرْبَ وأنت ربٌّ ، ما دام لك ربٌّ فلا تهتم ولا تيأس ، فليستْ مع الله مشكلة المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر المؤمن له رَبٌّ يلجأ إليه إنْ عزَّتْ عليه الأسباب ، أما الكافر فما أشقاه ، فإنْ ضاقت به الأسباب لا يجد صدراً حنوناً يحتويه ، فيلجأ في كثير من الأحوال إلى الانتحار .

لذلك كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر يقوم إلى الصلاة ، وكان يقول : " ارحنا بها يا بلال " ففي الصلاة تختلي بربك وخالقك ، وتعرض عليه حاجتك ، وتستمد منه العون والقوة .

كذلك يُعلِّمنا هذا الدرس نبي الله موسى – عليه السلام – فحينما خرج ببني إسرائيل وأدركه فرعون وقومه ، فوجدوا أنفسهم محاصرين ، البحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، قالوا لموسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] وهذا منطق البشر وواقع الأشياء ، لكن كان لموسى منطق آخر ينطلق فيه من وجود رَبٍّ قادر يلجأ إليه في وقت الشدة فيفرجها عنه .

فقال موسى بملء فيه (كلا) قالها على سبيل اليقين قَوْلة الواثق من أن ربه لن يتخلى عنه ، لم يقُلْها برصيد من عنده ، إنما برصيد إيمانه في الله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] وهذا هو المَفْزَع لكل مؤمن .

لِمَ لا ، وأنت إنْ كانت لديك قضية ترتاح إنْ وكَّلْتَ فيها محامياً يدافعَ عنك ، فما بالك إنْ وكَّلت رب الأرض والسماء ، فكان هو سبحانه المحامي والقاضي والشاهد والمنفِّذ للحكم ؟

وأنت ترى القاضي في الدنيا يحكم ببينة قد يُدلِّس فيها ويحكم ، ويحكم بإقرار لا يستطيع أنْ يتنزعه من صاحبه ، أو بشهادة الشهود ، وقد يكونون شهودَ زور ، ثم هو بعد ذلك لا يملك تنفيذ حكمه ، فهناك سلطة قضائية تحكم وسلطة تنفيذية تنفذ ، حتى السلطة التنفيذية يستطيع المجرم أن يفلت منها .

أما في محكمة العدل الإلهي ، فقاضيها هو الحق – سبحانه وتعالى – فلا يحتاج إلى بينة أو إقرار أو شهود ، ولا يستطيع أحد أنْ يُدلِّس عليه سبحانه ، أو أنْ يُفلت من حكمة ؛ لذلك قال تعالى عن نفسه : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ [الأعراف : 87] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً . . . ﴾ .

لك أن تلحظ الفرق بين أسلوب هذه الآية ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً . . . ﴾ [الروم : 51]

والآية السابقة ﴿ اللهُ الذي يُرْسِلُ الرياح . . . ﴾ [الروم : 48] فيرسل : مضارع دالٌّ على الاستمرار ، والرياح كما قلنا لا تُستعمل إلا في الخير ، فكأن إرسال الرياح أمر متوافر ، وكثيراً ما يحدث فضلاً من الله وتكرُّماً .

(297/604)

أما هنا ، وفي الحديث عن الريح ، وسبق أن قُلْنا : إنها لا تستعمل إلا في الشر ، فلم يقُلْ يرسل ، بل اختار (إن) الدالة على الشك ، والفعل الماضي الدال على الانتهاء لماذا ؟ لأن ريح الشر نادراً ما تحدث ، ونادراً ما يُسلِّطها الله على عباده ، فمثلاً ريح السَّمُوم تأتي مرة في السنة ، كذلك الريح العقيم جاءتْ في الماضي مرة واحدة ، كذلك الريح الصرصر العاتية .

إذن : فهي قليلة نادرة ، ومع ذلك إنْ أصابتهم يجزعون ويأسون ، وهذا لا ينبغي منهم ، أليست لهم سابقة في عدم اليأس حين يئسوا من إرسال الرياح ، فأرسلها الله عليهم ومن إنزال المطر فأنزله الله لهم ، فلماذا القنوط والرب موجود ؟

ومعنى ﴿ فَرَأَوْهُ . . . ﴾ [الروم : 51] أي : رأوا الزرع الذي كان أخضر نضراً ﴿ مُصْفَرّاً . . . ﴾ [الروم : 51] أي : متغيراً ذابلاً ﴿ لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [الروم

: 51] يكفرون باليأس الذي يعزل الحق سبحانه عن الأحداث ، مع أن لهم سابقة ، وقد يئسوا وفرَّج الله عليهم .

ذلك لأن الإنسان لا صبرَ له على البلاء ، فإنْ أصابه سرعان ما يجزع ، ولو قال أنا لي رب أفزع إليه فيرفع عني البلاء ، وأن له حكمة سأعرفها لاستراحَ ولهانَ عليه الأمر .

ولك أنْ تسأل : لماذا قال القرآن ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا . . . ﴾ [الروم : 51] ولم يقُلْ وإن ؟

قالوا : هذه اللام الزائدة يُسمُّونها اللام واو القسم واللام مُوطِّئة له ، وللحق سبحانه أن يقسم بما يشاء على ما يشاء ، وكل قسم يحتاج إلى جواب ، تقول : والله لأضربنَّك .

كذلك الشرط في (إن) يحتاج إلى جواب للشرط ، والحق سبحانه هنا مزج بين القسمَ والشرط في جملة واحدة ، فإنْ قلت فالجواب هنا للقسمَ أم للشرط ؟

(298/604)

قالوا : فطنة العرب تأبى أنْ يوجد جوابان في جملة واحدة ، فيأتي السياق بجواب واحد نستغني به عن الجواب الآخر ، والجواب يكون لما تقدَّم ، فإنْ تقدم القسَم فالجواب للقسم ، وإنْ تقدَّم الشرط فالجواب للشرط . وهنا ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً . . . ﴾ [الروم : 51] قدم القسم ؛ لأن التقدير : والله لئن أرسلنا ريحاً . .

وكلمة ﴿ لَّظَلُّواْ . . . ﴾ [الروم : 51] مأخوذة من الظل وظلَّ فعل مَاضٍ ناقص مثل بات يعني في البيتوتة ، وأضحى يعني : استمر في وقت الضحى ، وأمسى في وقت المساء ، كذلك ظلَّ أي : استمر في الوقت الذي فيه ظِلٌّ يعني : طوال النهار ، إذن : نأخذ الزمن من المشتق منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى . . . ﴾ .

يريد الحق سبحانه أن يُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يألم لما يلاقيه من قومه ، يقول له : يا محمد لا تُتعب نفسك ؛ لأن هؤلاء لا يؤمنوا ، وما عليك إلا البلاغ ، فلا تيأس لإعراض هؤلاء ، ولا تتراجع عن تبليغ دعوتك والجهاد في سبيلها والجهر بها ؛ لأنني أرسلتك لمهمة ، ولن أتخلى عنك ، وما كان الله ليرسل رسولاً ثم يخذله أو يُسْلمه .

وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] ولو أردتُ لجعلتُهم مؤمنين قَسراً لا يملكون أنْ يكفروا : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 4] .

إنما أريد أنْ يأتوني طواعية عن محبة ، لا عن قهر ؛ لأنني لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما قلوباً تخشع ، ويستطيع أيُّ بشر بجبروته أنْ يجعلَ الناس تخضع له أو تسجد ، لكنه لا يستطيع مهما أُوتِي من قوة أنْ تُخْضِع قلوبهم ، أو يحملهم على حُبِّه .

وهنا يقول تعالى لنبيه : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى . . . ﴾ [الروم : 52] فجعلهم في حكم الأموات ، وهم أحياء يُرْزَقون ، لماذا ؟ لأن الذي لا ينفعل لما يسمع ولا يتأثر به ، هو والميت سواء .

أو نقول : إن للإنسان حياتين : حياة الروح التي يستوي فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، وحياة المنهج والقيم ، وهذه للمؤمن خاصة ، والتي يقول الله فيها : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 24] .

فهو سبحانه يخاطبهم هذا الخطاب وهم أحياء ، لكن المراد هنا حياة المنهج والقيم ، وهي الحياة التي تُورِثك نعيماً دائماً باقياً لا يزول ، خالداً لا تتركه ولا يتركك .

لذلك يقول سبحانه عن هذه الحياة : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] .

لذلك سمَّى الله المنهج الذي أنزله على رسوله روحاً : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا . . . ﴾ [الشورى : 52] لأن المنهج يعطيك حياة باقية لا تنزوي ولا تزول .

وسمَّى الملَك الذي نزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] فالمنهج روح من الله ، نزل به روح من الملائكة هو جبريل عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله ليحمله رسول مصطفى فيبثُّه في الناس جميعاً ، فَيحيَوْن الحياة الآخرة .

فالكفار بهذا المعنى يحيَوْن حياة روح القالب التي يستوي فيها جميع البشر ، لكن هم أموات بالنسبة للروح الثانية ، روح القيم والمنهج .

لذلك ، إذا كان عندنا شخص شقي أو بلطجي يفسد في المجتمع أكثر مما يصلح نقول له : أنت وجودك مثل عدمه ، لماذا ؟ لأن الحياة إذا لم تُستغل في النافع الدائم ، فلا معنى لها .

(300/604)

وهنا يقول تعالى لنبيه : لا تحزن ، ولا تذهب نفسك على هؤلاء القوم الحسرات ، فهم موتى لم يقبلوا روح المنهج وروح القيم ، وما داموا لم تدخلهم هذه الروح ، فلا أملَ في إصلاحهم ، ولن يستجيبوا لك ، فالاستجابة تأتي من أصغى سمعه ، وأعمل عقله في الكون من حوله ليصل إلى حقيقة الحياة ولغز الوجود .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا سقطتْ بك طائرة مثلاً في صحراء ، وانقطعت عن الناس ، فلا أنيس ولا شيء من حولك ، ثم فجأة رأيتَ أمامك مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، فطبيعي قبل أنْ تمتد يدك إليها لا بُدَّ أنْ تسأل نفسك : مَنْ أتى بها ؟

كذلك أنت أيها الإنسان طرأتَ على كون مُعَدٍّ لاستقبالك ، مليء بكل هذا الخير ، بالله ألاَ يستدعي هذا أنْ تسأل مَنْ أعد لي هذا الكون ؟

ثم لم يدَّعِ أحد هذا الكون لنفسه ، ثم جاءك رسول من عند الله يخبرك بحقائق الكون ، ويحل لك لغز الحياة والوجود ، لكن هؤلاء القوم لما جاءهم رسول الله أَبَوْا أن يستمعوا إليه ، ولم يقبلوا الروح الذي جاءهم به .

والحق سبحانه يعرض لنا هذه المسألة في آية أخرى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . ﴾ [محمد : 16] وهذا يعني أن روح المنهج لم تباشر قلوبهم .

ويردُّ الحق عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44] .

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فواحد يسمعه بأذن مُرْهفة وقلب واعٍ فيستفيد ، ويصل إلى حَلِّ اللغز في الكون وفي الخَلْق ؛ لأنه استجاب للروح الجديدة التي أرسلها الله له ، وآخر أعرض .

(301/604)

وهؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن إنما يخافون على مكانتهم وسيادتهم ، فهم أهل فساد وطغيان ، ويعلمون أن هذا المنهج جاء ليقيد حرياتهم ، ويقضي على فسادهم وطغيانهم

؛ لذلك رفضوه .

لذلك تجد أن الذين تصدَّوْا لدعوات الرسل وعارضوهم هم السادة والكبراء ، أَلَا تقرأ قول الحق سبحانه عن مقالتهم : ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] .

إذن : لا تتعجب من أنَّ القرآن يسمعه إنسان فيقول مُستلذاً به : الله ، أعِدْ ، وآخر ينصرف عنه لا يدري ما يقول ، والمنصرف عن القرآن نوعان : إما ينصرف عنه تكبُّراً يعني : وعي القرآن وفهمه لكن تكبَّر على الانصياع لأوامره ، وآخر سمعه لكن لم يفهمه ؛ لأن الله ختم على قلبه .

ومهمة الداعي أنْ يتعهد المدعو ، وألَّا ييأس لعدم استجابته ، وعليه بتكرار الدعوة له ، لعله يصادف عنده فترة صفاء وفطرة ، وخلو نفس ، فتثمر فيه الدعوة ويستجيب .

وإلا فقد رأينا من أهل الجاهلية مَنْ أسلم بعد فترة طويلة من عمر الدعوة أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة ، وغيرهم .

ونعلم كم كان عمر بن الخطاب كارهاً للإسلام معادياً لأهله ، وقصة ضَرْبه لأخته بعد أنْ أسلمتْ قصة مشهورة لأنها كانت سبب إسلامه ، فلما ضربها وشجَّها حتى سال الدم منها رقَّ قلبه لأخته ، فلما قرأت عليه القرآن صادف منه قلبه صافياً ، وفطرة نقية نفضت عنه عصبية الجاهلية الكاذبة فانفعل للآيات وباشرتْ بشاشتها قلبه فأسلم .

لذلك أمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يجهر بالدعوة ، وأنْ يصدع بما يُؤمر ، لعلَّ السامع تصادفه فترة تنبه لفطرته ، كما حدث مع عمر .

(302/604)

وحين نلحظ الفاء في بداية هذه الآية ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى . . . ﴾ [الروم : 52] نجد أن التقدير : فلا تحزن ، ولا يهولنك إعراضهم ؛ لأنك ما قصرْتَ في البلاغ ، إنما التقصير من المستقبل ؛ لأنهم لم يقبلوا الروح السامية التي جاءتهم ، بل نفروا من السماع ، وتناهوا عنه ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] .

ونَهْي بعضهم بعضاً عن سماع القرآن دليل على أنهم يعلمون أن مَنْ يسمع القرآن بأذن واعية لا بُدَّ أنْ يؤمن به وأنْ يقتنع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ . . . ﴾ [البقرة : 18] .

وقد علمنا من وظائف الأعضاء أن البكَم يأتي نتيجة الصمم ؛ لأن اللسان يحكي ما سمعته الأذن ، فإذا كانت الأذن صماء فلا بُدَّ أن يكون اللسان أبكمَ ، ليس لديه شيء يحكيه .

لذلك نجد الطفل العربي مثلاً حين ينشأ في بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية لأنه سمعها وتعلمها

، بل نجد صاحب اللغة نفسه تُعرض عليه الكلمات الغريبة من لغته فلا يعرفها لماذا ؟ لأنه لم يسمعها ، فحين يقول العربي عن العجوز : إنها الحَيْزبون والدَّردبيس . . الخ تقول : ما هذا الكلام ، مع أنه عربي لكن لم تسمعه أذنك .

والأذن هي أداة الالتقاط الأولى لبلاغ الرسالة ، وما دام الله تعالى قد حكم عليهم بأنهم في حكم الأموات ، فالإحساس لديهم ممتنع ، فالأذن لا تسمع آيات القرآن ، والعين لا ترى آيات الكون ولا تتأملها .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] .

وكلمة أعمى نقولها للمبصر صحيح العينين حينما يخطيء في شيء ، فتقول له : أنت أعمى ؟ لماذا ، لأنه وإنْ كان صحيح العينين ، إلا أنه لم يستعملها في مهمتهما ، فهو والأعمى سواء .

(303/604)

وهؤلاء القوم وصفهم الله بأنهم أولاً في حكم الأموات ، ثم هم مصابون بالصمم ، فلا يسمعون البلاغ ، وتكتمل الصورة بأنهم عُمْى لا يروْنَ آيات الإعجاز في الكون ، وليتهم صُمٌّ

فحسب ، فالأصم يمكن أن تتفاهم معه بالإشارة فينتفع بعينيه إنْ كان مقبلاً عليك ، لكن ما الحال إذا كان مدبراً ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الروم : 52] يعني : أعطوْكَ ظهورهم ، إذن : لمْ يَعُدْ لهم منفذ للتلقي ولا للإدراك ، فهم صُم بُكْم ، وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة البصر ، فلا أملَ في مثل هؤلاء ، ولا سبيل إلى هدايتهم .

وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى ، خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه ، ونقول لمن يكابر في العمى (فلان لا يعطي العمى حَقّه) يعني : يأنف أنْ يستعين بالمبصر ، ولو استعان بالناس من حوله لوجدهم خدماً له ولصار هو مُبصراً ببصرهم .

وقوله سبحانه : ﴿ إِن تُسْمِعُ . . . ﴾ [الروم : 53] أي : ما تُسمِع ﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [الروم : 53] وهؤلاء هم أصفياء القلوب والفطرة ، الذين يلتفتون إلى كون الله ، يتأملون أسراره وما فيه من وجوه الإعجاز والقدرة ، فيستدلون بالخَلْق على الخالق ، وبالكون على المكوِّن سبحانه ، ولِمَ لا ، ونحن نعرف مَنِ اخترع أبسط الأشياء في حياتنا ونُؤرِّخ له ، ونُخلِّد ذكراه ، ألسنا نعرف أديسون الذي اخترع المصباح الكهربائي ، والله الذي خلق الشمس لَهُوَ أَوْلَى بالمعرفة .

فإذا جاءك رسول من عند الله يخبرك بوجوده تعالى ، ويحل لك لغز هذا الوجود الذي تحتار فيه ، فعليك أنْ تُصدّقه ، وأن تؤمن بما جاءك به ؛ لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الرسل أنْ يقولوا للناس في أعقاب البلاغ ﴿ وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . ﴾ [الشعراء : 109] .

وفي هذا إشارة إلى أن العمل الذي يُؤدّيه الرسل لأقوامهم عمل يستحقون عليه أجراً بحكم العقل ، لكنهم يترفعون عن أجوركم ؛ لأن عملهم غالٍ لا يُقدّره إلا مَنْ أرسلهم ، وهو وحده القادر على أنْ يُوفّيهم أجورهم .

ومعنى ﴿ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا . . . ﴾ [الروم : 53] يعني : ينظر فيها ويتأملها ، ويقف على ما في الكون من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق ، فإذا ما جاءه رسول من عند الله أقبل عليه وآمن به ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [الروم : 53] . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(305/604)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

أخرج أبو الشيخ في العظمة عن السدي رضي الله عنه قال : يرسل الله الريح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين – طرف السماء حين يلتقيان – فتخرجه ثم تنشره فيبسطه في السماء كيف يشاء ، فيسيل الماء على السحاب ، ثم يمطر السحاب بعد ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يرسل الله الريح ، فتحمل الماء من السحاب ، فتمر به السحاب ، فتدر كما تدر الناقة ، وثجاج مثل العزالي غير أنه متفرق .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فيبسطه في السماء ﴾ قال : يجمعه ويجعله ﴿ كسفا ﴾ قال : قطعاً .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ويجعله كسفاً ﴾ قال : قطعاً يجعل بعضها فوق بعض ﴿ فترى الودق ﴾ قال : المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ قال : من بينه .

وأخرج الفريابي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فترى الودق ﴾ قال : القطر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ويجعله كسفاً ﴾ قال : سماء دون سماء وفي قوله ﴿ لمبلسين ﴾ قال : القنطين .

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52)

أخرج مسلم وابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر أياماً حتى جيفوا ، ثم أتاهم فقام يناديهم ، فقال : يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ؛ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فسمع عمر رضي الله عنه صوته فجاء فقال : يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون ؟ يقول الله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ فقال : والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم ، ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا " .

(306/604)

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر فقال " هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ ثم قال : إنهم الآن يسمعون ما أقول . فذكر لعائشة رضي الله عنها فقالت : إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق ، ثم قرأت ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ حتى قرأت الآية " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من طريق قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنهما " أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم

بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالْعَرَصَةِ ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى واتبعه أصحابه قالوا : ما ترى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم . يا فلان بن فلان ، ويا فلان ابن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنهم لأسمع لما أقول منكم " قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله ، توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأهل بدر ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(307/604)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾

قوله : ﴿ الرياح ﴾ : قرأ العامَّةُ " الرياحَ " جمعاً / لأجلِ مبشِّراتٍ . والأعمش بالإفراد ، وأراد الجنسَ لأجلِ " مبشِّرات " .

قوله : " وليُذيقَكم " إمَّا عطفٌ على معنى " مُبَشِّرات " ؛ لأنَّ الحالَ والصفةَ يُفهمان العلةَ ، فكأنَّ التقديرَ : ليبشِّرَ وليذيقَكم ، وإمَّا أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ ، أو وليذيقَكم أرسلَها ، وإمَّا أنْ تكونَ الواوُ مزيدةً على رأيٍ ، فتتعلَّقَ اللامُ ب " أَنْ يُرْسِلَ " .

قوله : ﴿ وَكَانَ حَقّاً ﴾ : بعضُ الوَقَفَةِ يقف على " حقاً " ويَبْتدِئ بما بعدَه ، يجعل اسمَ كان مضمراً فيها و " حقاً " خبرُها . أي : وكان الانتقامُ حقاً . قال ابن عطية : " وهذا ضعيفٌ ؛ لأنه لم يَدْرِ قَدْرَ ما عَرَضَه في نَظْمِ الآية " يعني الوقفَ على " حَقّاً " . وجعل بعضُهم " حَقّاً " منصوباً على المصدر ، واسمُ كان ضميرُ الأمرِ والشأن ، و " علينا " خبرٌ مقدمٌ ، و " نَصْرُ " مبتدأ مؤخرٌ . وبعضُهم جَعَلَ " حقاً " منصوباً على المصدر أيضاً ، و " علينا " خبرٌ مقدم ، و " نَصْرُ " اسمٌ مؤخر . والصحيحُ أنَّ " نَصْر " اسمها ، و " حَقّاً " خبرُها ، و " علينا " متعلقٌ ب " حَقاً " أو بمحذوفٍ صفةً له .

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)

قوله : ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه تكريرٌ ل " مِنْ قَبلِ " الأولى على سبيلِ التوكيد . والثاني : أَنْ يكونَ غيرَ مكررٍ . وذلك أن يُجعلَ الضميرُ في " قَبْله " للسحاب . وجاز ذلك لأنه اسمُ جنسٍ يجوز تذكيرُه وتأنيثُه ، أو للريح ، فتتعلَّقُ " مِنْ " الثانيةُ ب " يُنَزِّل " . وقيل : يجوزُ عَوْدُ الضمير على " كِسَفا " كذا أطلق أبو البقاء . والشيخ قَيَّده بقراءةِ مَنْ سَكَّن السين . وقد تقدَّمَتْ قراءاتُ " كِسَفاً " في " سبحان " . وللناس في هذا الموضعِ كلامٌ كثيرٌ رأيتُ ذِكْرَه لتوضيحِ معناه .

وقد أبْدى كلٌّ من الشيخَيْن : الزمخشريِّ وابنِ عطية فائدةَ التأكيدِ المذكور . فقال ابن عطية : " أفادَ الإعلامَ بسرعةِ تقلُّب قلوبِ البشر من الإبلاسِ إلى الاستبشار ؛ وذلك أن قولَه ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ يحتملُ الفُسْحَةَ في الزمانِ ، أي : من قبلِ أَنْ يُنَزِّل بكثيرٍ كالأيامِ ونحوِه فجاء " مِنْ قبله " ، بمعنى أنَّ ذلك متصلٌ بالمطر فهو تأكيدٌ مفيدٌ " .

وقال الزمخشري : " ومعنى التوكيد فيه الدلالةُ على أن عَهْدَهم بالمطرِ قد بَعُدَ فاسْتحكم يأْسُهم وتمادَى إبْلاسُهم ، فكان استبشارُهم على قَدْرِ اغتمامهم بذلك " . وهو كلامٌ حسنٌ .

إلاَّ أنَّ الشيخَ لم يَرْتَضِه منهما فقال : " ما ذكراه من فائدةِ التأكيدِ غيرُ ظاهرٍ ، وإنما هو لمجرَّدِ التوكيد ويُفيد رَفْعَ المجازِ فقط " . انتهى . ولا أدري عدمُ الظهورِ لماذا ؟ وقال قطرب : " وإن كانوا مِنْ قبلِ التنزيلِ مِنْ قبل المطَر . وقيل : التقديرُ مِنْ قبلِ إنزالِ المطرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَزْرعوا . ودَلَّ المطرُ على الزرع ؛ لأنه يَخْرج بسببِ المطر . ودلَّ على ذلك قولُه " فَرَأَوْه مُصْفَرّاً " يعني الزرعَ ؛ قال الشيخ : " وهذا لا يَسْتقيم ؛ لأنَّ ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ ﴾ متعلّقٌ ب " مُبْلِسِيْن " ولا يمكن مِنْ قَبْل الزَّرْع أَنْ يتعلَّقَ بمُبْلسين ؛ لأنَّ حرفَيْ جرّ لا يتعلَّقان بعاملٍ واحدٍ إلاَّ بوساطةِ حرفِ العطف أو البدلِ ، وليس هنا عطفٌ والبدلُ لا يَجوز ؛ إذ إنزالُ الغيثِ ليس هو الزرعَ ولا الزرعُ بعضَه . وقد يُتَخَيَّلُ فيه بدلُ الاشتمالِ بتكلُّفٍ : إمَّا لاشتمالِ الإنزالِ على الزَّرْع ، بمعنى : أنَّ الزرعَ يكون ناشِئاً عن الإنزال ، فكأن الإنزالَ مُشْتملٌ عليه . وهذا على مذهبِ مَنْ يقول : الأولُ مشتملٌ على الثاني " .

وقال المبردُ : " الثاني السحابُ ؛ لأنهم لَمَّا رَأَوْا السحابَ كانوا راجين المطرَ " انتهى . يريد مِنْ قبل رؤيةِ السحاب . ويحتاج أيضاً إلى حَرْفِ عطفٍ ليصِحَّ تعلُّقُ الحرفين ب " مُبْلسين " . وقال الرمَّاني : " من قبلِ الإرسال " . والكرماني : " من قَبْلِ الاستبشارِ ؛ لأنه قَرَنه بالإبلاس ، ولأنه مَنَّ عليهم بالاستبشار " . ويحتاج قولُهما إلى حرفِ العطفِ لِما تقدَّم ،

وادّعاءُ حرفِ العطفِ ليس بالسهلِ ؛ فإنَّ فيه خلافاً : بعضُهم يَقيسُه ، وبعضُهم لا يقيسه . هذا كلُّهُ في المفردات . أمَّا إذا كان في الجمل فلا خلافَ في اقتياسِه .

(310/604)

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

قوله : ﴿ إلى آثَارِ ﴾ : قرأ ابن عامر والأخَوان وحفص بالجمع ، والباقون بالإفراد . وسلام بكسرِ الهمزة وسكون الثاء ، وهي لغةٌ فيه .

وقرأ العامَّةُ "كيف يُحْيي " بياء الغَيْبة أي : أثر الرحمة فيمَنْ قرأ بالإفراد ، ومَنْ قرأ بالجمع فالفعلُ مسندٌ لله تعالى ، وهو مُحْتَمَلٌ في الإفراد أيضاً . والجحدري وأبو حيوة وابن السَّمَيْفع " تُحْيي " بتاء التأنيث . وفيها تخريجان ، أظهرهما : أنَّ الفاعلَ عائدٌ على الرحمة . والثاني قاله أبو الفضل : عائدٌ على أثر ، وأَنَّثَ " أثر " لاكتسابه بالإضافةِ التأنيثَ ، كنظائرَ له تقدَّمَتْ . ورُدَّ عليه : بأن شرطَ ذلك كَوْنُ المضافِ بمعنى المضاف إليه ، أو مِنْ سببِه لا أجنبياً ، وهذا أجنبيٌّ . و "كيف يُحْيي " مُعَلِّقٌ ل " انظرْ " فهو في محلِّ نصب على/ إسقاطِ الخافضِ . وقال أبو الفتح : " الجملةُ مِنْ "كيف يُحْيي " في موضعِ نصبٍ

على الحال حَمْلاً على المعنى " . انتهى وكيف تقع جملةُ الطلب حالاً ؟

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

قوله : ﴿ فَرَأَوْهُ ﴾ : أي : فَرَأَوْا النباتَ ، لدلالة السياق عليه ، أو على الأثر ؛ لأنَّ الرحمةَ هي الغيث ، وأثرُها هو النبات . وهذا ظاهرٌ على قراءةِ الإفراد ، وأمَّا على قراءة الجمع فيعودُ على المعنى . وقيل : الضمير للسَّحاب . وقيل : للريح . وقرأ جناح بن حبيش " مُصْفارَّاً " بألفٍ . و " لَظَلُّوا " جوابُ القسمِ الموطَّأ له ب " لَئِنْ " ، وهو ماضٍ لفظاً مستقبلٌ معنى كقولِه : ﴿ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة : 145] .

(311/604)

وتقدَّم الكلامُ على نحوِ ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ ﴾ إلى آخره في الأنبياء وفي النمل ، وكذلك في قراءَتَيْ " ضعف " وما الفرقُ بينهما في الأنفال ؟

والضميرُ في " مِنْ بعدِه " يعودُ على الاصفرارِ المدلولِ عليه بالصفة كقولِه :

3653 إذا نُهِي السَّفيهُ جَرَى إليه . . . . . .

. . .

أي : إلى السَّفَهِ لدلالة " السَّفيه " عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 50. 54 ﴾

(312/604)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾

يرسل رياح عَطْفِه وجُودِه مبشراتٍ بوَصْلِه وجوده ، ثم يُمطِر جودَ غيبِه على أسرارهم بلُطْفِه ، ويطوي بساطَ الحشمة عن ساحات قُرْبه ، ويضرب قبابَ الهيبة بمشاهد كَشْفِه ، وينشر عليهم أزهارَ أُنْسِه ، ثم يتجلَّى لهم بحقائق قُدْسِه ، ويسقيهم بيده شرابَ حُبِّه ، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم -لا بهِم- ولكنْ بنَفْسه ، فالعبارات عن ذلك خُرْسٌ ، والإشارات دونها طُمْسٌ .

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

يحيي الأرضَ بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليُخرِجَ زَرْعَها وثمارَها ، ويحيي

النفوس بعد نَفْرَتِها ، ويوفقها للخيرات بعد فترتها ، فتعمر أوطانُ الرِّفاق بصادق إقدامهم ، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم ، ويحيي القلوبَ بعد غفلتها بأنوار المحاضرات ، فتعود إلى استدامة الذكر بحُسْنِ المراعاة ، ويهتدي بأنوار أهلها أهلُ العسر من أصحاب الإرادات ، ويحيي الأرواح بعد حَجْبَتِها - بأنوار المشاهدات ، فتطلع شموسُها عن بُرْجِ السعادة ، ويتصل بمشامِّ أسرار الكافة نسيمُ ما يفيض عليهم من الزيادات ، فلا يبقى صاحبَ نَفَسٍ إلا حَظِيَ منه بنصيب ، ويُحْيي الأسرارَ ، وقد تكون لها وَقْفَةٌ في بعض الحالات - فتنتفي بالكلية آثارُ الغيرية ، ولا يَبْقى في الدار ديَّار ولا من سكانها آثار ؛ فسَطَواتُ الحقائق لا تثبت لها ذرَّةٌ من صفات الخلائق ، هنالك الولاية لله . . سقط الماء والقطرة ، وطاحت الرسوم والجملة .

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

(313/604)

إذا انسدَّت البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات . . كذلك مَنْ حَقَّتْ عليهم الشقاوةُ جرَّته إلى نفسها - وإنْ تَبَوَّأَ الجنةَ منزلاً .

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ مَنْ فَقَدَ الحياةَ الأصلية لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم ، وإذا كان في السريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فَسَمْعُ الظاهر لا يفيده آكَدُ الحُجَّة . وكما لا يُسْمَعُ الصُّمَّ الدعاءَ فكذلك لا يمكنه أن يهدي العُمْيَ عن ضلالتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 123 . 124 ﴾

(314/604)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(49) ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في أول الخمس الأخير من سورة الروم وهي سورة مكية ,

وآياتها ستون , وقد سميت بهذا الاسم للإشارة في مطلعها إلي هزيمة الروم (الدولة البيزنطية) علي أيدي جيوش الفرس (في حدود سنة 614 ـ 615 م) , والبشارة بنصرهم المستقبلي في بضع سنين من تاريخ نزول هذه السورة المباركة (وقد تحقق ذلك في حدود سنة 624 م أي في العام الهجري الثاني حين تحقق نصر الله للمسلمين في يوم بدر) .

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة , وركائزها الأساسية ومنها الإيمان بوحدانية الخالق (سبحانه وتعالي) بغير شريك ولا شبيه ولا منازع , وبوحدة الرسالة السماوية التي تكاملت في بعثة النبي والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) , وبوحدة الخلق , وبالآخرة وأهوالها , وحتمية الجزاء , والخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبدا أو في النار أبدا كما أخبر الصادق المصدوق (صلي الله عليه وسلم) .

وتبدأ سورة الروم بثلاثة حروف من الفواتح الهجائية (أو ما يعرف باسم الحروف المقطعة) وهي ألم ; وهذه الحروف الثلاثة تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم (هي البقرة , آل عمران , العنكبوت , الروم , لقمان , والسجدة) , وهذه الفواتح من أسرار القرآن الكريم التي حاول عدد من الدارسين الكشف عنها دون الوصول إلي إجماع في ذلك , وتوقف الكثيرون عن الخوض فيها مكتفين بتفويض أمرها إلي الله (تعالي) , راجين أن يفتح (بفضله ورحمته) باب علم لأحد المهتمين بها في مستقبل الأيام إن شاء .

وتنتقل السورة الكريمة بعد ذلك إلي زف بشري الانتصار المستقبلي للروم بعد نزول السورة ببضع سنين , وكانت جيوش الفرس قد هزمتهم قبل نزولها بعدة سنوات , وكانت فارس دولة وثنية , وكان الروم البيزنطيون من أهل الكتاب , ومن هنا كانت البشري للمسلمين .

وتؤكد الآيات في مطلع سورة الروم أن الأمر كله لله من قبل ومن بعد . . . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وتؤكد الآيات أن أكثر الناس يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

وتذكر السورة الكريمة بآيات الله في الأنفس وفي الآفاق , وبحتمية لقاء الله , وبالاعتبار بقصص الأمم السابقة , وبما نزل بهم من عذاب عقابا لهم علي تكذيبهم واستهزائهم بآيات الله ورسله , وتحذر من يأس المجرمين وحزنهم يوم تقوم الساعة , وكفرهم بشركائهم , ويومئذ يتفرق الخلق إلي صالحين وكافرين , وتتحدث الآيات عن جزاء كل منهم .

وتزخر سورة الروم بالأمر بتسبيح الله , وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله , وبحمده (تعالي) علي نعمائه , في كل وقت , وفي كل حين , كما تزخر بالآيات الكونية الدالة علي طلاقة القدرة الإلهية في الخلق والإفناء والبعث , وتضرب العديد من الأمثال . . . ! !

وتنصح سورة الروم رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , وبالتالي تنصح كل إنسان بأن يقيم وجهه للدين الإسلامي الحنيف , ذلك الدين القيم , دين الفطرة التي فطر الله (تعالي) الناس

عليها , والتي لا تبديل لها , وهي حقيقة لا يعلمها كثير من الناس , كما تنصح بالإنابة إلي الله (تعالي) وتقواه , وبإقام الصلاة ; وتحذر من الشرك والمشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون (الروم :32) .

وتتحدث سورة الروم عن شيء من التقلب في طبائع النفس الإنسانية من

مثل اللجوء إلي الله (تعالي) في الشدة , والإعراض عن هديه في الرخاء , والإيمان به (تعالي) في لحظات الضيق , والكفر به (سبحانه) وبما أنزل في لحظات السعة , وتتساءل تساؤل الاستنكار والاستهجان : هل تلقي هؤلاء المشركون من الله (تعالي) ما يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ وتضيف أن الناس إذا أذاقهم الله رحمة فرحوا بها . . . وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون علما بأن بسط الرزق لمن يشاء الله (تعالي) من عباده , وقبضه عمن يشاء من عباده هو من آيات الله البينات لقوم يؤمنون .

ومن مكارم الأخلاق التي تدعو إليها سورة الروم : الأمر بإخراج الزكاة , وإيتاء كل ذي حق حقه من ذوي القربي , والمساكين , وأبناء السبيل , والنهي عن أكل الربا , وتؤكد أن الالتزام بأوامر الله خير للذين يريدون وجه الله , وأنهم هم المفلحون والمضعفون .

وتؤكد السورة الكريمة أن الله (تعالي) هو الخلاق , الرزاق , المحيي , المميت , الباعث , الشهيد , ولا يستطيع أحد ممن أشرك به المشركون أن يفعل شيئًا من ذلك , فسبحانه الله وتعالي عما يشركون . . . ! !

وتربط السورة بين ظهور الفساد في البر والبحر وبين سوء أعمال الناس وما كسبت أيديهم . . . ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ; وتأمر بالسير في الأرض لاستخلاص العبر من تاريخ الأمم السابقة وكيف كانت عاقبة أمورهم لأن أكثرهم كانوا مشركين . . . ! !

وتوصي سورة الروم خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) ومن ثم فإنها تأمر جميع المؤمنين بضرورة الاستقامة علي الدين القيم من قبل أن تأتي الآخرة فيصدع الله (تعالي) بها كل الخلائق , ثم يجزي كلا بعمله , ويخص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالكثير من فضله , ويخص الكافرين بعذابه وعقابه , لأن الله (تعالي) لا يحب الكافرين .

وتتحدث الآيات عن إرسال الرياح مبشرات برحمة من الله وفضل , ولتجري الفلك

بأمره , وليبتغي الناس من فضله ورحمته ولعلهم يشكرون . . . ! !

وتذكر السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) بشيء من قصص

من سبقه من الأنبياء والمرسلين , وبما أصاب المجرمين من أقوامهم , كما تذكره بتعهد الله (تعالي) بنصر المؤمنين .

وتتحدث الآيات بأن الله (تعالي) هو الذي . . . يرسل الرياح فتثير سحابا , فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين * .

واعتبرت سورة الروم قدرة الله (تعالي) علي إحياء الأرض بعد موتها (وذلك بإنزال ماء المطر عليها) إثباتا لقدرته (تعالي) علي إحياء الموتي وهو علي كل شيء قدير ; وأن الناس لو رأوا الريح مصفرا لظلوا من بعده يكفرون .

وتعاود السورة توجيه الخطاب إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بقول الحق (تبارك وتعالي) له : فإنك لا تسمع الموتي ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون * .

وتؤكد الآيات أن الله (تعالي) الذي خلق الناس من ضعف , ثم جعل من بعد ضعف قوة , ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة قادر علي أن يخلق ما يشاء وهو العليم القدير .

وتكرر سورة الروم الحديث عن الساعة وأهوالها , وعن موقف كل من المجرمين والذين أوتوا العلم والإيمان فيها , وتؤكد أن معذرة الذين ظلموا لن تنفعهم يومئذ ولا هم يستعتبون ; ويقول الحق (تبارك وتعالي) أنه قد ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل , ويوجه الخطاب مرة

أخري إلي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) بقوله (عز من قائل) : . . . ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون * كذلك يطبع الله علي قلوب الذين لا يعلمون * .

وتختتم السورة بتثبيت خاتم الأنبياء والمرسلين (

(318/604)

صلي الله عليه وسلم) بوصية من الله (تعالي) له بالصبر حتي لا يستخفنه الذين لا يوقنون من الكفار والمشركين , فإن وعد الله بنصره ونصر المؤمنين حق .

والآيات الكونية التي استشهدت بها سورة الروم علي صدق ما جاء بها من حقائق العقيدة وقواعدها وأسسها ما يلي :

(1) خلق الأنفس بالحق .

(2) خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمي .

(3) أن الله (تعالي) هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده , وهو أهون عليه , وله المثل الأعلي في السماوات الأرض , وأن إليه يرجع الخلق كله .

(4) إخراج الحي من الميت , وإخراج الميت من الحي , وإحياء الأرض بعد موتها وضرب

ذلك مثلا لبعث الخلق .

(5) خلق الإنسان من تراب .

(6) خلق الإنسان في زوجية للأنس وللراحة النفسية والسكن وللذرية , وتأسيس هذه العلاقة علي أسس من المودة والرحمة , وجعل الخلق كله في زوجية حتي يتفرد الخالق (سبحانه وتعالي) بالوحدانية المطلقة فوق كافة خلقه .

(7) اختلاف ألسنة وألوان الخلق .

(8) إعطاء الإنسان القدرة علي النوم بالليل (وهو الأصل) أو بالنهار (وهو الاستثناء للضرورة) وعلي ابتغاء فضل الله .

(9) أن الله (تعالي) يري البرق للمخلوقين خوفا وطمعا .

(10) إنزال الماء من السماء فيحيي الله (تعالي) به الأرض بعد موتها .

(11) قيام السماء والأرض بأمر الله (تعالي) .

(12) بعث الأجداث من الأرض بدعوة من الله (تعالي) .

(13) خضوع وقنوت كل من في السماوات والأرض لله (سبحانه وتعالي) .

(14) أن الله (تعالي) هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له .

(15) ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره

. . . .

(16) الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله . . . .

(17) الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو القدير العليم * .

(319/604)

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة مستقلة , ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا علي النقطة السادسة عشرة التي تفصل تكوين السحب الطباقية , ولكن قبل الخوض في ذلك لابد من استعراض عدد من أقوال المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

الاتجاهات الرئيسية للرياح حول الارض

في تفسير قوله (تعالي) :

الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . (الروم :48)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : يبين تعالي كيف يخلق السحاب , الذي ينزل منه الماء , فقال تعالي :(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا) إما من البحر أو مما يشاء الله عز وجل ,(فيبسطه في السماء كيف يشاء) أي يمده فيكثره وينميه , ينشئ سحابة تري في رأي العين مثل الترس , ثم يبسطها حتي تملأ أرجاء الأفق , وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة كما قال تعالي :(وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتي إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت إلي قوله كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون) , وكذلك قال هاهنا :(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا) , قال مجاهد : يعني قطعا , وقال الضحاك : متراكما , وقال غيره : أسود من كثرة الماء تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض , وقوله تعالي :(فتري الودق يخرج من خلاله) أي فتري المطر وهو القطر , يخرج من بين ذلك السحاب (فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم . . . .

وجاء في عدد من التفاسير الأخري من مثل : الجلالين , الظلال , صفوة البيان في معاني القرآن , المنتخب في تفسير القرآن الكريم , وصفوة التفاسير (جزي الله كاتبيها خير الجزاء) كلام مشابه , لا أري ضرورة لاسترجاعه هنا .

(320/604)

من دلالات الآية الكريمة في ضوء المعارف المكتسبة

صورة حقيقية للمزن الطباقية

يقول ربنا (تبارك وتعالي) في محكم كتابه :

الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون (الروم :48)

وفي هذه الآية الكريمة ست حقائق علمية سبق القرآن الكريم كل المعارف الإنسانية بالإشارة إليها من قبل ألف وأربعمائة سنة ويمكن إيجازها فيما يلي :

أولا :(الله الذي يرسل الرياح) :

رسومات تخطيطية توضح بعض الانواع الرئيسية للسحب

تعرف الرياح بأنها خلايا من الهواء المحيط بالأرض تتحرك حركة مستقلة عن الحركة العامة للغلاف الغازي الذي يدور مع الأرض كجزء منها .

والغلاف الغازي للأرض يقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلو مترات ; وتقدر كتلته بنحو الستة آلاف تريليون طن ; ويقع أغلب هذه الكتلة (99% منها) دون ارتفاع خمسين كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر , وعلي ذلك فإن حركة الرياح تكاد تتركز أساسا في هذا الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض , وإن أمكن إدراكها إلي ارتفاع 65 كيلو مترا فوق

مستوي سطح البحر .

ويدور الغلاف الغازي للأرض مع هذا الكوكب كجزء منه بصفة عامة إلا أن كل كتلة من كتل هذا الغلاف الغازي تحتفظ بكمية حركة دوران مستقلة تجمعها عند كل خط من خطوط العرض , وتتوقف مقادير هذه الحركة المستقلة علي بعد كتلة الغاز عن محور الأرض , وعلي ذلك يكون أعلاها في المنطقة الاستوائية , وأقلها في المنطقة القطبية ; وعلي هذا الأساس تنحرف الرياح التي تهب نحو خط الاستواء تجاه الغرب والتي تهب بعيدا عنه تجاه الشرق بصفة عامة .

(321/604)

وأعلي سرعة للرياح تقع فوق نطاق الرجع مباشرة , الذي يتراوح سمكه بين ستة عشر (16) كيلو مترا فوق خط الاستواء , وعشرة كيلو مترات (10) فوق القطبين , وبين سبعة (7) وثمانية (8) كيلو مترات فوق خطوط العرض الوسطي , ولذلك فإن الرياح عندما تتحرك من خط الاستواء في اتجاه القطبين فإنها تهبط فوق هذا المنحني الوسطي , فتزداد سرعتها , هذا بالإضافة إلي أن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلي الشرق يعطي محصلة شرقية لحركة كتل الهواء في المناطق المعتدلة , ومحصلة غربية في المناطق

الاستوائية , مما يزيد من سرعان هذه الرياح العليا زيادة ملحوظة تعطيها اسم التيارات النفاثة . وهي أحزمة تكاد تغلف الأرض , يتدفق فيها الهواء بصورة متنقلة وسريعة وغير مستقرة .

وبالإضافة إلي ذلك فإن الصفات الطبيعية للكتل الهوائية المتجاورة

مثل درجة الحرارة , الضغط الجوي , درجة الرطوبة والشفافية وغيرها تتباين علي المستويين الأفقي والرأسي مما يؤدي إلي تحرك الرياح من مناطق الضغط المرتفع إلي مناطق الضغط المنخفض , ففي المنطقة الاستوائية حيث تتعامد أشعة الشمس أغلب العام , يتكون حزام من الضغط المنخفض يعرف باسم منطقة الركود تهب عليها الرياح من مناطق الضغط المرتفع حول كل من المدارين (مدار السرطان ومدار الجدي) أي من الشمال ومن الجنوب وتعرف باسم الرياح التجارية وهذه الرياح عند مرورها فوق البحار والمحيطات تتشبع ببخار الماء الذي تبخره حرارة الشمس من المسطحات المائية , ويصل إلي الهواء من تنفس وإفرازات كل من الإنسان والحيوان , ومن نتح النبات ; وعندما يصل هذا الهواء المشبع ببخار الماء إلي المنطقة الاستوائية ترتفع درجة حرارته فتقل كثافته مما يعين علي ارتفاعه إلي أعلي حيث الانخفاض المستمر في كل من الضغط ودرجة الحرارة فيعين ذلك علي تكثف بخار الماء وتكون السحب .

وفي المنطقتين المداريتين يهبط الهواء البارد من أعلي إلي أسفل لكثافته , فترتفع درجة حرارته , ويفقد رطوبته , فيزداد الجفاف وتنتشر الصحاري .

أما عند القطبين فإن برودة الجو تؤدي إلي تكوين منطقتين من مناطق الضغط المرتفع تهب منهما الرياح الباردة المعروفة باسم الشرقيات القطبية ; وبين كل من قطبي الأرض والمنطقتين المداريتين توجد منطقة ضغط منخفض في المنطقتين المعتدلتين متجهة إليها رياح رطبة دافئة تعرف باسم الغربيات السائدة , وعند التقاء الغربيات السائدة بالشرقيات القطبية يرتفع الهواء الرطب الدافئ إلي أعلي فوق الهواء البارد الجاف مثيرا لتكون السحب بإرادة الله (تعالي) .

وبالإضافة إلي هذه الخلايا الرئيسية التي تكون الدورة العامة للرياح , هناك مرتفعات ومنخفضات جوية تتم علي نطاق أصغر فتزيد من تعقيد الصورة , وبعضها عارض مؤقت (وليس ثابتا في مكان محدد , لكنه

يتحرك من مكان إلي آخر) , وبعضها ثابت محدد .

وتنجم التغيرات في الضغط الجوي أساسا عن التغيرات في كم الحرارة الذي يصل إلي الأجزاء المختلفة من سطح الأرض في أثناء دورانها حول محورها المائل علي دائرة البروج بزاوية مقدارها ست وستون درجة ونصف تقريبا أمام الشمس ; وعلي ذلك فإن مناطق

الضغط المختلفة ـ ومن ثم حركة الرياح تتبع الوضع الظاهري للشمس , فنجدها تنزاح نحو الشمال في فصل الصيف , ونحو الجنوب في فصل الشتاء .

(323/604)

وعلي ذلك فإن الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض إلي ارتفاع (65) كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر يقسم أفقيا ورأسيا إلي عدد من الكتل الهوائية التي تتمايز عن بعضها بعضا في عدد من صفاتها الطبيعية من مثل درجات الحرارة والرطوبة والضغط والشفافية , والمهيمن علي هذه الكتل الهوائية في نشأتها , وتصريفها هو الإرادة الإلهية التي تضع كلا منها لفترة محددة فوق مساحة معينة من سطح الأرض , سواء كان ذلك من اليابسة أو الماء , لأن الهواء السائد لمدة كافية فوق أية مساحة من الأرض لا يلبث أن يتأثر بخصائصها الطبيعية (خاصة درجات الحرارة والرطوبة والشفافية) بسمك يتباين بتباين طول مكثها فوق تلك المساحة الأرضية . وعند إزاحة تلك الكتل الهوائية إلي مناطق أخري بواسطة تصريف الله (تعالي) للرياح , فإنها تحمل معها صفاتها من الحرارة أو البرودة , والرطوبة أو الجفاف فتؤدي إلي التقلبات الجوية .

ويتكون علي السطح الوهمي الفاصل بين كل كتلتين من هذه الكتل الهوائية المتباينة في

صفاتها الطبيعية ما يسمي باسم الجبهات الهوائية , وهي مناطق تفاعل جوي نشط , فإذا التقت كتلتان من الهواء فإن الدافئة منهما تعلو فوق الباردة , ويتكون بينهما منطقة انتقالية هي منطقة الجبهة الهوائية التي تحول دون اختلاطهما .

والنتيجة هي قيام دورة عامة للرياح حول الأرض تبلغ من الدقة والتعقيد والانتظام ما لا يمكن لعاقل أن يرده

(324/604)

لغير الله الخالق (سبحانه وتعالي) , فإن فهمنا لبعض السنن الحاكمة للدورة العامة للرياح حول الأرض لا يخرجها عن كونها من جند الله , يسخرها بإرادته ومشيئته , ومع فهمنا لبعض تلك السنن فإن حيودا كثيرة تطرأ عليها ولا يمكن ردها إلا إلي الإرادة الإلهية التي تصرف الرياح حسب علم الله وحكمته ; فالله (تعالي) هو الذي يرسل الرياح , وهو الذي يصرفها كيف يشاء , ولا يمكن لأحد أن يتحكم في حركة الرياح غيره (سبحانه وتعالي) , والسنن التي نراها حاكمة لتلك الحركة هي من صنع الله وتدبيره , وهي أيضا محكومة بعلم الله , وحكمته وإرادته ; ومعرضة للتغيير والتحويل في كل وقت , وليس أدل علي ذلك من التقلبات الجوية , والتغير في مناخ المناطق الأرضية المختلفة من زمن إلي آخر من أزمنة

الأرض .

ثانيا :(فتثير سحابا) :

يلعب بخار الماء العالق في طبقات الغلاف الغازي المحيط بالأرض دورا مهما في نشأة جميع الظواهر الجوية باستثناء العواصف الرملية ; فعندما تسطع الشمس فوق المسطحات المائية فإن حرارتها تبخر جزءا من هذا الماء الذي يرتفع ليعلق بالأجزاء الدنيا من الغلاف الغازي المحيط بالأرض , والذي يندفع إليه أيضا كميات أخري من بخار الماء عن طريق تنفس وإفرازات أجساد كل من الإنسان والحيوان , وبخر ونتح النباتات .

ويقدر ما يرتفع من بخار الماء سنويا من الأرض إلي غلافها الغازي بنحو (380.000) من الكيلو مترات المكعبة , وتحمل الرياح هذا الكم الهائل من بخار الماء علي هيئة السحب , وبنسبة أقل علي هيئة درجات متفاوتة من الرطوبة , لتعيده مرة أخري إلي الأرض حسب تصريف الله تعالي فيما يعرف باسم دورة الماء حول الأرض , التي بدونها كان كل ماء الأرض عرضة للفساد والتعفن لكثرة ما يموت فيه من الكائنات .

وتحمل السحب نحو 20% فقط من الرطوبة (الماء) الموجودة في الغلاف الغازي للأرض , ويوجد الماء بها علي هيئة قطيرات

صغيرة جدا لا يكاد طول قطرها يتعدي الميكرون الواحد (أي 0.001 من الملليمتر) وتلتصق هذه القطيرات المائية بالهواء للزوجتها ولقدرة الماء الفائقة علي التوتر السطحي , وذلك في السحب غير الممطرة , فإذا تلقحت تلك السحب بنوي التكثف المختلفة (من مثل هباءات الغبار والهباب والأملاح وغيرها من شوائب الهواء) , أو بامتزاج سحابتين مختلفتين في صفاتهما الطبيعية , فإن مزيدا من عملية تكثف بخار الماء يؤدي إلي نمو قطيرات الماء في السحب مما يزيد من إمكان إنزالها المطر أو البرد أو الثلج أو خلائط منها بإذن الله (تعالي) .

فعندما يتكثف بخار الماء في الهواء , ويتحول إلي قطيرات من الماء أو إلي بللورات دقيقة من الثلج أو من خليط منهما يتكون كل من السحاب , والضباب , والندي , والصقيع وغيرها من الظواهر الجوية ; وكل من الندي والضباب ينجم عن التبريد بالإشعاع في أثناء الليل , بينما يمكن أن يتبرد الهواء بالتوصيل الحراري , أو بالمزج مع هواء أبرد , أو بالانتشار والتمدد ; وتتطلب عملية تكثف بخار الماء الموجود في الهواء عموما استمرار التبريد حتي تصل درجة الحرارة إلي مستوي التشبع (نقطة الندي) , وعندها يصير الهواء غير قادر علي حمل كل ما به من بخار الماء فيتكثف جزء منه علي هيئة قطيرات الماء .

وتتكون السحب نتيجة لتكثف بخار الماء في الهواء الدافئ الرطب , ويتم ذلك بتبريد هذا

الهواء بالتقائه مع جبهة باردة , أو بارتفاعه إلي أعلي فوق الجبهة الباردة , أو بارتطامه بسلاسل جبلية عالية تعين علي ارتفاعه إلي مستويات عليا ; وفي كل الأحوال يكون إرسال الرياح وتصريفها بمشيئة الله (تعالي) هو الوسيلة الفاعلة في شحنها بالرطوبة , وفي حركة الهواء الرطب أفقيا ورأسيا , ومن ثم إثارة السحب بمختلف أنواعها , ويعين في ذلك كل من حرارة الشمس , وتضاريس سطح الأرض , ودوران الأرض بميل واضح حول محورها من الغرب إلي

(326/604)

الشرق , والجاذبية الأرضية , وتدرج معدلات الضغط بين كتل الهواء المختلفة , وكل من الكهربية والمغناطيسية الجويين , وعمليات المد والجزر الهوائيين في المستويات المرتفعة , والرياح الشمسية التي تهب علي الأرض , وغيرها من العوامل , ولذلك فإن إنزال المطر من السحب لا يزال قضية غير مفهومة علميا بالتفصيل , لتداخل العديد من العوامل المؤثرة والتفاعلات غير المعروفة فيها والتي لا يمكن ردها إلا إلي الإرادة الإلهية . . . ! ! !

فسقوط المطر لا يزال سرا من أسرار الكون التي لم يستطع الإنسان أن يفهمها بالكامل إلي يومنا الراهن ونحن نعايش نهضة علمية وتقنية لم يسبق لجيل من البشر أن وصل إلي

مستواها . . . ! !

وتقسم السحب في نطاق الرجع عادة حسب ارتفاعاتها إلي ثلاث مجموعات كما يلي :

(1) سحب منخفضة : وتمتد من سطح البحر إلي ارتفاع كيلو مترين تقريبا .

(2) سحب متوسطة الارتفاع : وتمتد من كيلو مترين إلي سبعة كيلو مترات فوق مستوي سطح البحر .

(3) سحب مرتفعة : وتمتد من ارتفاع سبعة كيلو مترات فوق مستوي سطح البحر إلي ارتفاع ثلاثة عشر كيلو مترا تقريبا .

كذلك تقسم السحب حسب طرائق تكونها إلي سحب تنمو رأسيا وتعرف باسم السحب الركامية (وتصفها الآية الثالثة والأربعون من سورة النور وصفا تفصيليا مع كل الظواهر المصاحبة لها) , وسحب تنمو أفقيا وتعرف باسم السحب الطباقية وتصفها الآية التي نحن بصددها وهي الآية رقم 48 من سورة الروم وصفا بالغ الدقة في الإحكام والروعة في الإيجاز) .

وبالمزاوجة بين الأساسين السابقين تمكن علماء الأرصاد الجوية من التعرف علي عشر مجموعات رئيسية من السحب علي النحو التالي :

(أ) السحب المنخفضة :

وتقسم إلي أربع مجموعات هي :

(1) السحاب الطباقي المنبسط الخفيض أو الرهج

(Stratus) .

(2) السحاب الركامي الطباقي

(Stratocumulus) .

(3) السحاب الركامي المنخفض أو الخفيض ويعرف عند

العرب باسم القرد

(Cumulus) .

---

(4) المزن الركامية (الركام المزني) ويعرف عند العرب باسم الصيب

(Cumulonimbus) .

(ب) السحب المتوسطة :

وتقسم إلي ثلاث مجموعات هي :

(1) السحاب الركامي المتوسط

(Altocumulus) .

(2) السحاب الطباقي المتوسط

(Altostratus) .

(3) المزن الطباقية

(Nimbostratus) .

(جـ) السحب المرتفعة :

وتقسم إلي ثلاث مجموعات هي :

(1) السحاب الرقيق المرتفع ويعرف عند العرب باسم القزع

(Cirrus) .

(2) السحاب الركامي المرتفع أو السمحاق الركامي

(Cirrocumulus) .

(3) السحاب الطباقي المرتفع أو السمحاق الطباقي

(Cirrostratus) .

وتقع السحب الطباقية عادة في المستويين الأدني والأوسط من نطاق الرجع , ونادرا ما تصل إلي مستوياته العليا , وعلي العموم يهبط مستوي تكون كل أنواع السحب عن هذه المستويات المتوسطة فوق القطبين , وتزيد عنها في المناطق الاستوائية ; ويندر تكون السحب في نطاق التطبق لندرة الرطوبة فيه بصفة عامة .

ثالثا :(فيبسطه في السماء كيف يشاء) :

عندما يرسل الله (تعالي) الرياح فتدفع بكتلة من الهواء الدافئ الرطب فوق كتلة من الهواء البارد , أو تدفع بكتلة من الهواء البارد تحت كتلة من الهواء الرطب الدافئ , فإن الهواء الدافئ القليل الكثافة يطفو فوق الهواء البارد الكثيف في الحالتين , فيتمدد ويبرد , ويبدأ ما به من بخار الماء في التكثف علي هيئة قطيرات من الماء , فتتكون مجموعات من السحب المنخفضة غالبا , التي تنتشر انتشارا أفقيا في صفحة السماء علي هيئة طباقية تمتد إلي عشرات الكيلو مترات المربعة في المستوي الأفقي , وبسمك لا يتجاوز عدة مئات من الأمتار , ولذا تعرف باسم السحب الطباقية

(StratiformorLayeredClouds) .

وهذه السحب الطباقية تدفعها الرياح في اتجاه أفقي عمودي علي اتجاه جبهتها , فتزودها بمزيد من بخار الماء , فيكون انتشارها أساسا في

هذا الاتجاه الأفقي , ولكن نظرا لاختلاف درجات الحرارة في داخل هذه السحابة الأفقية الممتدة إلي عشرات الكيلو مترات يحدث بداخلها تيارات حمل خاصة عند اصطدامها

ببعض تضاريس الأرض , ولذلك فهي عادة ما تكون من أكثر أنواع السحب توزعا في السماء , وتهيئة لإنزال المطر بإذن الله , ويكون إمطارها علي مساحات شاسعة من سطح الأرض ; ولعل هذا هو المقصود من الوصف القرآني الدقيق الذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي) : فيبسطه في السماء .

رابعا :(ويجعله كسفا) :

عندما تتكون السحب الطباقية يرسل الله (تعالي) الرياح لتلقحها بنوي التكثف مما يعين علي مزيد من نمو قطيرات الماء فيها , ويجعلها مهيأة لإنزال المطر بإذن الله .

وتتخلق السحب الطباقية عادة عند التقاء كتلة من الهواء الرطب الدافئ مع كتلة من الهواء البارد , أو عند اصطدام تلك الكتلة الهوائية الرطبة بتضاريس سطح الأرض ; وعند ذلك يحدث بداخل تلك السحب الطباقية التي تنتشر أساسا في الاتجاه الأفقي بعض عمليات الرفع إلي أعلي مما يحدث تيارات حمل رأسية بداخلها تؤدي إلي تمزيقها إلي عدد كبير من القطع المتجاورة ; ولعل هذا هو المقصود بقول الحق (تبارك وتعالي) : ويجعله كسفا أي قطعا .

خامسا :(فتري الودق يخرج من خلاله) :

تتكون السحب الطباقية عادة من قطيرات الماء في أجزائها السفلي , ومن قطيرات الماء شديد البرودة في أجزائها العليا حيث تصل درجة الحرارة إلي ما دون الصفر المئوي بنحو

عشر درجات . ومن المعروف أن هذا النوع من السحب لا يتكون بداخله البرد ولا يصاحبه البرق والرعد .

وتظل قطرات الماء في السحب الطباقية تنمو بالتكثف أو بالتصعيد أو بهما معا إلي حد معين حين تتوقف عمليات التكثف .

ولكي تنزل قطرات الماء من خلال السحابة علي هيئة المطر لابد من نموها إلي أحجام وكتل تسمح بسقوطها بفعل بالجاذبية الأرضية , كما تسمح بتحملها لعمليات البخر في أثناء هذا

(329/604)

النزول في الهواء غير المشبع بين السحابة وسطح الأرض (بمتوسط سرعة في حدود سنتيمتر واحد في الثانية) حتي تصل إلي سطح الأرض علي هيئة رذاذ أو مطر .

وفي العمر العادي للسحابة فإن قطرات الماء لا يمكنها أن تنمو بالتكثف وحده إلي الحجم المطلوب (عشري المليمتر في طول القطر علي الأقل) ولكن يشاء الله (تعالي) أن يجعل من تصادم هذه القطرات والتحامها مع بعضها البعض في أثناء نزولها ما يعين علي الوصول إلي الحجم والكتلة المطلوبين لنزولها من السحابة ومرورها بسرعة أعلي في عمق الهواء غير

المشبع تحت السحابة مما يعين علي تقليل كمية التبخر منها .

كذلك فإن في الأجزاء العليا من السحب الطباقية يمكن أن يتجمد بخار الماء مباشرة كما قد يتجمد عدد من قطيرات الماء شديدة البرودة علي هيئة بللورات من الثلج تنمو بسرعة مكونة رقائق من الثلج الذي ينزل في اتجاه الأرض فينصهر متحولا إلي قطرات الماء قبل الوصول إليها .

ولم يستطع العلم إلي يومنا الراهن أن يفسر عملية إنزال المطر من السحاب تفسيرا كاملا خاصة أن العديد من السحب تحمل الصفات نفسها وتوجد تحت نفس الظروف الطبيعية والمناخية ويمطر بعضها ولا يمطر البعض الآخر , وعلي ذلك فإن المطر يعتبر سرا من أسرار الكون لم يستطع الإنسان أن يفهمه تماما , وقد رده القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إلي الإرادة الإلهية , ومن هنا جاءت الومضة النورانية السادسة في هذه الآية الكريمة التي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالي) : فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون فالحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم أنزله بعلمه والصلاة والسلام علي النبي الخاتم الذي تلقاه وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه , ودعا بدعوته إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس بعد الستمائة

من الآية ﴿ 54 ﴾ من سورة الروم

وحتى الآية ﴿ 60 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/605)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل سبحانه على قدرته على البعث بوجوه من الدلالات ، تارة في الأجسام ، وتارة في القوى ، وأكثر على ذلك في هذه السورة من الحجج البينات ، وختم لأنه لا يبصر هذه البراهين إلا مَنْ حسنت طويته ، فلانت للأدلة عريكته ، وطارت في فيافي المقادير بأجنحة

العلوم فكرته ورويته ، وصل بذلك دليلاً جامعاً بين القدرة على الأعيان والمعاني إبداء وإعادة ، ولذلك لفت الكلام إلى الاسم الجامع ولفته إلى الخطاب للتعميم والاستعطاف بالتشريف ، فقال مؤكداً إشارة إلى أن ذلك دال على قدرته على البعث ولا وهم ينكرونها ، فكأنهم ينكرونه ، فإنه لا انفكاك لأحدهما عن الآخر : ﴿ الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال وحده .

ولما كان تعريف الموصول ظاهراً غير ملبس ، عبر به دون اسم الفاعل فقال : ﴿ الذي خلقكم ﴾ أي من العدم .

ولما كان محط حال الإنسان وما عليه أساسه وجبلته الضعف ، وأضعف ما يكون في أوله قال : ﴿ من ضعف ﴾ أي مطلق – بما أشارت إليه قراءة حمزة وعاصم بخلاف عن حفص بفتح الضاد ، وقوى بما أشارت إليه قراءة الباقين بالضم ، أو من الماء المهين إلى ما شاء الله من الأطوار ، ثم ما شاء الله من سن الصبي .

ولما كانت تقوية المعنى الضعيف مثا إحياء الجسد الميت قال : ﴿ ثم جعل ﴾ عن سبب وتصيير بالتطوير في أطوار الخلق بما يقيمه من الأسباب ، ولما كان ليس المراد الاستغراق عبر بالجار فقال : ﴿ من بعد ﴾ ولما كان الضعف الذي تكون عنه القوة غير الأول ، أظهر ولم يضمر فقال : ﴿ ضعف قوة ﴾ بكبر العين والأثر من حال الترعرع إلى القوة بالبلوغ إلى التمام في أحد وعشرين عاماً ، وهو ابتداء سن الشباب إلى سن الاكتمال ببلوغ الأشد في

اثنين وأربعين عاماً فلو لا تكرر مشاهدة ذلك لكان خرق العادة في إيجاده بعد عدمه مثل إعادة الشيخ شاباً بعد هرمه ﴿ ثم جعل من بعد قوة ﴾ في شباب تقوى به القلوب ، وتحمى له الأنوف ، وتشمخ من جرائه النفوس ﴿ ضعفاً ﴾ رداً لما لكم إلى أصل حالكم .

(5/605)

ولما كان بياض الشعر يكون غالباً من ضعف المزاج قال : ﴿ وشيبة ﴾ وهي بياض في الشعر ناشىء من برد في المزاج ويبس يذبل بهما الجسم ، وينقص الهمة والعلم ، وذلك بالوقوف من الثالثة والأربعين ، وهو أول سن الاكتهال وبالأخذ في النقص بالفعل بعد الخمسين إلى أن يزيد النقص في الثالثة والستين ، وهو أول سن الشيخوخة ، ويقوى الضعف إلى ما شاء الله تعالى .

ولما كانت هذه هي العادة الغالبة وكان الناس متفاوتين فيها ، وكان من الناس من يطعن في السن وهو قوي ، أنتج ذلك كله – ولا بد – التصرف بالاختيار مع شمول العلم وتمام القدرة فقال : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ أي من هذا وغيره ﴿ وهو العليم ﴾ أي البالغ العلم فهو يسبب ما أراد من الأسباب لما يريد إيجاده أو إعدامه ﴿ القدير ﴾ فلا يقدر أحد على إبطال شيء من أسبابه ، فلذلك لا يتخلف شيء أراده عن الوقت الذي يريده فيه أصلاً ، وقدم

صفة العلم لاستتباعها للقدرة التي المقام لها ، فذكرها إذن تصريح بعد تلويح ، وعبارة بعد إشارة .

ولما ثبتت قدرته على البعث وغيره ، عطف على قوله أول السورة ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ أو على ما تقديره : فيوم يريد موتكم تموتون ، لا تستأخرون عن لحظة الأجل ولا تستقدمون ، قوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي القيامة التي هي إعادة الخلائق الذين كانوا بالتدريج في ألوف من السنين لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى في أقل من لمح البصر ، ولذا سميت بالساعة إعلاماً بيسرها عليه سبحانه ﴿ يقسم المجرمون ﴾ أي العريقون في الإجرام جرياً منهم على ديدن الجهل في الجزم بما لم يحيطوا به علماً : ﴿ ما ﴾ أي إنهم ما ﴿ لبثوا ﴾ في الدنيا والبرزخ ﴿ غير ساعة ﴾ أي قدر يسير من ليل أو نهار .

(6/605)

ولما كان هذا أمراً معجباً لأنه كلام كذب بحيث يؤرث أشد الفضيحة والخزي في ذلك الجمع الأعظم مع أنه غير مغنٍ شيئاً ، استأنف قوله تنبيهاً على أنه الفاعل له : فلا عجب ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الصرف عن حقائق الأمور إلى شكوكها ﴿ كانوا ﴾ في الدنيا كوناً هو كالجبلة ﴿ يؤفكون ﴾ أي يصرفون عن الصواب الذي منشأه تحري الصدق

والإذعان للحق إلى الباطل الذي منشأه تحري المغالبة بصرفنا لهم ، فإنه لا فرق في قدرتنا وعلمنا بين حياة وحياة ، ودار ودار ، ولعله بنى الفعل للمجهول إشارة إلى سهولة انقيادهم إلى الباطل مع أيّ صارف كان .

(7/605)

ولما وصف الجاهلين ، أتبعه صفة العلماء فقال : ﴿ وقال الذين ﴾ وعبر بقوله : ﴿ أوتوا العلم ﴾ تنبيهاً على شكر من آتاهموه ، وبناه للمجهول إشارة إلى تسهيل أخذه عليهم من الجليل والحقير ، وأتبعه ما لا يشرق أنواره ويبرز ثماره غيره ، فقال : ﴿ والإيمان ﴾ إشارة إلى تفكرهم في جميع الآيات الواضحة والغامضة مقسمين كما أقسم أولئك محققين مقالهم مواجهين للمجرمين تبكيتاً وتوبيخاً مؤكدين ما أنكر أولئك : ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله ﴾ أي في إخبار قضاء الذي له جميع الكمال الذي كتبه في كتابه الذي كان يخبر به الدنيا ﴿ إلى يوم البعث ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ [المؤمنون : 100] وأما تعيين مدة اللبث فأخفاه عن عباده ، ولما أعلم القرآن أن غاية البرزخ البعث ، وصدق في إخباره ، سببوا عن ذلك قوله : ﴿ فهذا ﴾ أي فتسبب ما كنا نقوله وتكذبوننا فيه ، نقول لكم الآن حيث لا تقدرون على تكذيب : هذا ﴿ يوم البعث ﴾ أي الذي آمنا به

وكنتم تنكرونه ، قد كان طبق ما كنا نقوله لكم ، فقد تبين بطلان قولكم ، وكنتم تدعون الخلاص فيه بأنواع من التكاذيب قصداً للمغالبة ، فما كنتم صانعين عند حضوره فاصنعوه الآن ، تنبيهاً لهم على أنه لا فائدة في تحرير مقدار اللبث في الدنيا ولا في البرزخ ، وإنما الفائدة في التصديق بما أخبر به الكتاب حيث كان التصديق نافعاً .

ولما كان التقدير : قد أتى كما كنا به عالمين ، فلو كان لكم نوع من العلم لصدقتمونا في إخبارنا به فنفعكم ذلك الآن ، عطف عليه قوله : ﴿ ولكنكم كنتم ﴾ أي كوناً هو كالجبلة لكم في إنكاركم له ﴿ لا تعلمون ﴾ أي ليس لكم علم أصلاً ، لتفريطكم في طلب العلم من أبوابه ، والتوصل إليه بأسبابه ، فلذلك كذبتم به فاستوجبتم جزاء ذلك اليوم .

(8/605)

ولما كان قوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [النساء : 173] في أشكالها من الآيات دالاً على أن هذه الدنيا دار العمل ، وأن دار الآخرة دار الجزاء ، وأن البرزخ هو حائل بينهما ، فلا يكون في واحدة منهما ما للأخرى ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فيومئذ ﴾ أي إذ تقوم الساعة ، وتقع هذه المقاولة ﴿ لا ينفع ﴾ أي نفعاً ما ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي وضعوا الأمور في غير مواضعها ﴿ معذرتهم ﴾ وهي ما تثبت عذرهم ،

وهو إيساغ الحلية في وجه يزيل ما ظهر من التقصير لأنهم لا عذر لهم وإن بالغوا في إثباته ، والعبارة شديدة جداً من حيث كانت تعطي أن من وقع منه ظلم ما يوماً ما كان هذا حاله ، وهي تدل على أنه تكون منهم معاذير ، وترقق كثير ، وتذلل كبير ، فلا يقبل منه شيء – هذا على قراءة الجماعة بتأنيث الفعل وهي أبلغ من قراءة الكوفيين بتذكيره بتأويل العذر ، لأنه إذا لم ينفع الاعتذار الكثير لم ينفع القليل الذي دل عليه المجرد ولا عكس ، ويمكن أن يكون قراءة الجمهور متوجهة للكفرة وقراءة الكوفيين للعصاة من المؤمنين ، فإن منهم من ينفعه الاعتذار فيعفى عنه ، ويشهد لهذا ما ورد في آخر أهل النار خروجاً منها أنه يسأل في صرف وجهه عنها ويعاهد ربه سبحانه أنه لا يسأله غير ذلك ، فإذا صرفه عن ذلك رأى شجرة عظيمة فيسأل أن يقدمه إلى ظلها فيقول الله : ألست أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسال ؟ فيقول : بلى ! يارب ! ولكن لا أكون أشقى خلقك – الحديث ، وفيه " وربه يعذره " فهذا قد قبل عذره في الجملة ، ولا يطلب منه أن يزيل العتب لأن ذلك لا يمكن إلا بالعمل ، وقد فات محله ، فأتت المغفرة من وراء ذلك كله .

ولما كان العتاب من سنة الأحباب قال : ﴿ ولا هم ﴾ أي الذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها ﴿ يستعتبون ﴾ أي يطلب منهم ظاهراً أو باطناً بتلويح أو تصريح أن يزيلوا ما وقعوا فيه مما يوجب العتب ، وهو الموجدة عن تقصير يقع فيه المعتوب ، لأن ذلك لا يكون إلا بالطاعة وقد فات محلها بكشف الغطاء لفوات الدار التي تنفع فيها الطاعات لكونها إيماناً

بالغيب ، والعبارة تدل على أن المؤمنين يعاتبون عتاباً يلذذهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 642. 645 ﴾

(9/605)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾

لما أعاد من الدلائل التي مضت دليلاً من دلائل الآفاق وهو قوله : ﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾ [الروم : 48] وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره أعاد دليلاً من دلائل الأنفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله ، فقال : ﴿ خَلَقَكُمْ مّن ضَعْفٍ ﴾ أي مبناكم على الضعف كما قال تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : 37] ومن ههنا كما تكون في قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنياً أي من حالة فقره ، ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٍ ﴾ فقوله من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيناً وطفلاً مولوداً ورضيعاً ومفطوماً فهذه أحوال غاية الضعف ، وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ

قُوَّةٍ ﴾ إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله ، وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ العليم القدير ﴾ .

(10/605)

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف ، ثم بين بقوله ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ إن هذا ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى في دلائل الآفاق ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السماء كَيْفَ يَشَاء ﴾ [الروم : 48] ﴿ هُوَ العليم القدير ﴾ لما قدم العلم على القدرة ؟ وقال من قبل ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الروم : 27] فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم ، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا فنقول هناك المذكور الإعادة بقوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المثل الأعلى فِي السموات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الروم : 27] لأن الإعادة تكون بكن فيكون ، فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ، ثم إن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العليم القدير ﴾ تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالماً بأعمال الخلق كان عالماً بأحوال المخلوقات فإن عملوا خيراً علمه وإن عملوا شراً علمه ، ثم إذا كان قادراً فإذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب ، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة

والعقاب الذين هما بالقدرة قدم العلم ، وأما في الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال : ﴿ وَهُوَ العليم الحكيم ﴾ وإلى مثل هذا أشار في قوله : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] عقيب خلق الإنسان ، فنقول أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم ، والخلق المفهوم من قوله : ﴿ الخالقين ﴾ إشارة إلى القدرة ، ثم لما بين ذكر الإبداء والإعادة كالإبداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

قيل ما لبثوا في الدنيا غير ساعة .

(11/605)

وقيل ما لبثوا في القبور ، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ

قوله : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُوا العلم والإيمان ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ ونحن نبين ما هو المعنى اللطيف في هاتين الآيتين ، فنقول الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله ، والموعد بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل

المدة ويريد تأخيرها ، لكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء في القبر ، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما إن مدة لبثنا قليل وإليه الإشارة بقوله : ﴿ يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ويقول الآخر لبثنا مديداً وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ يعني كان في كاتب الله ضرب الأجل إلى يوم البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني طلبكم التأخير ، لأنكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به ، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

أي لا يطلب منهم الإعتاب وهو إزالة العتب يعني التوبة التي تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لأنها لا تقبل منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 119 . 120 ﴾

(12/605)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ

قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾

يَعْنِي أَنَّهُ خَلَقَكُمْ ضُعَفَاءَ حَمْلًا فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ ثُمَّ أَطْفَالًا لَا تَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَقْوِيَاءَ ثُمَّ أَعْطَاكُمْ مِنْ الِاسْتِطَاعَةِ وَالْعَقْلِ وَالدِّرَايَةِ لِلتَّصَرُّفِ فِي اخْتِلَافِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ ثُمَّ جَعَلَكُمْ ضُعَفَاءَ فِي حَالِ الشَّيْخُوخَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ فَيَبْقَى مَسْلُوبُ الْقُوَى وَالْفَهْمِ كَالصَّبِيِّ بَلْ حَالُهُ دُونَ حَالِ الصَّبِيِّ ؛ لِأَنَّ الصَّبِيَّ فِي زِيَادَةٍ مِنْ الْقُوَى وَالْفَهْمِ مِنْ حِينِ الْبُلُوغِ وَكَمَالِ حَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَهَذَا يَزْدَادُ عَلَى الْبَقَاءِ ضَعْفًا وَجَهْلًا وَلِذَلِكَ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَرْذَلَ الْعُمُرِ وَجَعَلَ الشَّيْبَ قَرِينًا لِلضَّعْفِ بِقَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ .

وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ نَبِيِّهِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(13/605)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾

قال قتادة : من نطفة

. ﴿ ثُمَّ جَعَلَ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ قاله مجاهد : شباباً

. ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ يعني هرماً وشيبة ، قال قتادة : لأن بياض الشعر نذير بالفناء ، قال الشاعر :

أُريت الشيب من نذر المنايا . . . لصاحبه وحسبك من نذير

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ من قوة وضعف

. ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بتدبيره ﴿ الْقَدِيرُ ﴾ على إرادته .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : الكفار

. ﴿ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : في الدنيا استقلالاً لأجل الدنيا لما عاينوا من الآخرة ، قاله قتادة .

الثاني : في قبورهم ما بين موتهم ونشورهم ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي هكذا ، قاله ابن جبير

. ﴿ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يكذبون في الدنيا ، قاله قتادة .

الثاني : يصدون في الدنيا عن الإيمان بالبعث . قاله يحيى بن سلام .

قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ فيهم وجهان :

أحدهما : أنهم الملائكة ، قاله الكلبي .

الثاني : أهل الكتاب .

﴿ وَالإِيمَانَ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : الإيمان بالكتاب المتقدم من غير تحريف له ولا تبديل فيه .

الثاني : الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : لقد لبثتم في علم الله ، قاله الفراء .

الثاني : لقد لبثتم بما بيانه في كتاب الله ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ في كتاب الله والإيمان ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ قاله قتادة .

وفي ﴿ لَبِثْتُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : لبثوا في قبورهم .

الثاني : في الدنيا أحياء وفي قبورهم أموات .

(14/605)

﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ يعني الذي كذبتم به في الدنيا

. ﴿ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لا تعلمون في الدنيا أن البعث حق وقد علمتم الآن أنه حق .

قوله : ﴿ فَيَومَئِذٍ ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي عذرهم الذي اعتذروا به في تكذيبهم

. ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : لا يعاتبون على سيئاتهم ، قاله النقاش .

الثاني : لا يستتابون ، قاله بعض المتأخرين .

الثالث : لا يطلب منهم العتبى وهو أن يُرَدُوا إلى الدنيا لِيُعْتَبُوا أي ليؤمنوا ، قاله يحيى بن سلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(15/605)

وقال ابن عطية :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾

وهذه أيضاً عبر بين فيها أن الأوثان لا مدخل لها فيها .

وقرأ جمهور القراء والناس بضم الضاد في " ضُعف " ، وقرأ عاصم وحمزة بفتحها وهي قراءة ابن مسعود وأبي رجاء ، والضم أصوب ، وروي عن ابن عمر أنه قرأ النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح فردها عليه بالضم ، وقال كثير من اللغويين : ضم الضاد في البدن وفتحها في العقل ، وروي عن أبي عبد الرحمن والجحدري والضحاك أنهم ضموا الضاد في الأول والثاني وفتحو " ضَعفاً " ، وقرأ عيسى بن عمر " من ضُعُف " بضمتين ، وهذه الآية إنما يراد بها حال الإنسان ، و" الضعف " الأول هو كون الإنسان من ماء مهين ، و" القوة " بعد ذلك الشبيبة ، وقوة الأسر ، و" الضعف " الثاني الهرم والشيخ هذا قول قتادة وغيره ثم أخبر تعالى عن يوم القيامة أن المجرمين يقسمون لجاجاً منهم وتسوراً على ما لا علم لهم به أنهم ما لبثوا تحت التراب غير ساعة وهذا إتباع لتحيلهم الفاسد ونظرهم في ذلك الوقت على نحو ما كانوا في الدنيا يتبعون ذلك ، و﴿ يؤفكون ﴾ عن الحق أي يصرفون وقيل المعنى ما لبثوا الدنيا كأنهم استقلوهم لما عاينوا من أمر الآخرة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يضعفه قوله تعالى : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ إذ لو أراد تقليل الدنيا بالإضافة إلى الآخرة لكان منزعاً سديداً وكان قولهم ﴿ ساعة ﴾ تجوزاً في القدر والموازنة ، ثم أخبر تعالى عن ﴿ الذين أوتوا العلم والإيمان ﴾ أنهم يقفون في تلك الحال على حق ويعرفون أنه الوعد المتقرر في الدنيا ، وقال بعض المفسرين : إنما أراد الإيمان والعلم ففي الكلام تقديم وتأخير .

قال الفقيه الإمام القاضي : ولا يحتاج إلى هذا بل ذكر العلم يتضمن الإيمان ولا يصف الله بعلم من لم يعلم كل ما يوجب الإيمان ، ثم ذكر الإيمان بعد ذلك تنبيهاً عليه وتشريفاً لأمره كما قال تعالى : ﴿ فاكهة ونخل ورمان ﴾ [الرحمن : 68] فنبه على مكان الإيمان وخصه بالذكر تشريفاً .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

هذا إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة في أنهم لا ينفعهم الاعتذار ولا يعطون عتبى وهي الرضى ، و﴿ يستعتبون ﴾ بمعنى يعتبون كما تقال يملك ويستملك ، والباب في استفعل أنه طلب الشيء وليس هذا منه لأن المعنى كان يفسد إذا كان المفهوم منه ولا يطلب منهم عتبى .

وقرأ عاصم والأعمش " ينفع " بالياء كما قال تعالى ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه ﴾ [البقرة : 275] وحسن هذا أيضاً بالتفرقة التي بين الفعل وما أسند إليه قال الشاعر : [الطويل]

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى . . . ثلاث الأثافي والديار البلاقع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(17/605)

وقال ابن الجوزى :

﴿ اللّهُ الذي خلقكم من ضَعْف ﴾

وقد ذكرنا الكلام فيه في [الأنفال : 66] ، قال المفسرون : المعنى : خلقكم من ماءٍ ذي ضَعف ، وهو المنيّ ﴿ ثُمَّ جَعل مِنْ بَعْد ضَعْف ﴾ يعني ضعف الطفولة قوَّة الشباب ، ثُمَّ جَعل مِن بَعْد قوَّة الشباب ضعف الكِبَر ، وشيبةً ، ﴿ يخلُق ما يشاء ﴾ أي : من ضعف وقوَّة وشباب وشَيبة ﴿ وهو العليم ﴾ بتدبير خلقه ﴿ القدير ﴾ على ما يشاء .

﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ قال الزجاج : الساعة في القرآن على معنى الساعة التي تقوم فيها القيامة ، فلذلك لم تُعرف أيّ ساعة هي .

قوله تعالى : ﴿ يُقسِم المجرِمون ﴾ أي : يَحْلِف المشركون ﴿ ما لَبِثوا ﴾ في القبور ﴿ غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يؤفَكون ﴾ قال ابن قتيبة : يقال : أُفِكَ الرجلُ : إذا عُدِل به عن الصِّدق ، فالمعنى أنهم قد كذَّبوا في هذا الوقتِ كما كَذَّبوا في الدنيا .

وقال غيره : أراد الله تعالى أن يفضحهم يوم القيامة بين المؤمنين ، فحلفوا على شيء يبَين للمؤمنين كذبُهم فيه ، ويستدلُّون على كذبهم في الدنيا .

ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم بقوله : ﴿ وقال الذين أُوتوا العِلْم والإيمانَ ﴾ وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة .

والثاني : المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ لقد لَبِثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن فيه تقديماً وتأخيراً ، تقديره : وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان بالله ، قاله ابن جريج في جماعة من المفسرين .

والثاني : أنه على نظمه .

ثم في معناه قولان .

أحدهما : لقد لَبِثتم في عِلْم الله ، قاله الفراء .

والثاني : لقد لَبِثتم في خَبَر الكتاب ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ فهذا يومُ البعث ﴾ أي : اليوم الذي كنتم تُنْكِرونه ﴿ ولكنّكم كنتم لا تَعْلَمون ﴾ في الدنيا أنه يكون .

﴿ فيومَئذ لا يَنْفَعُ الذين ظَلَموا معذرتُهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ لا تَنْفَعُ ﴾ بالتاء .

(18/605)

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : بالياء ، لأن التأنيث غير حقيقي .

قال ابن عباس : لا يُقْبَلُ من الذين أشركوا عُذر ولا توبة .

قوله تعالى : ﴿ ولا هُمْ يُسْتَعْتَبون ﴾ أي : لا يُطلب منهم العتبى والرجوعُ في الآخرة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(19/605)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾

ذكر استدلالاً آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر .

ومعنى : "مِنْ ضَعْفٍ" من نطفة ضعيفة .

وقيل : "مِنْ ضَعْفٍ" أي في حال ضعف ؛ وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة

والصغر .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يعني الشبيبة .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً ﴾ يعني الهرم .

وقرأ عاصم وحمزة : بفتح الضاد فيهن ، الباقون بالضم ، لغتان ، والضم لغة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الجحدرِيّ : "من ضَعْف ثم جعل من بعد ضَعْف" بالفتح فيهما ؛ "ضُعْفاً" بالضم خاصة .

أراد أن يجمع بين اللغتين .

قال الفراء : الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم .

الجوهري : الضَّعْف والضُّعْف : خلاف القوّة .

وقيل : الضعف بالفتح في الرأي ، وبالضم في الجسد ؛ ومنه " الحديث في الرجل الذي كان يخدع في البيوع : "أنه يبتاع وفي عُقدته ضعف" " ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ مصدر كالشَّيب ، والمصدر يصلح للجملة ، وكذلك القول في الضعف والقوّة .

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ يعني من قوّة وضعف .

﴿ وَهُوَ العليم ﴾ بتدبيره .

﴿ القدير ﴾ على إرادته .

وأجاز النحويون الكوفيون "من ضَعَف" بفتح العين ، وكذا كل ما كان فيه حرف من

حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي يحلف المشركون .

(20/605)

﴿ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ليس في هذا رد لعذاب القبر ؛ إذ كان قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه تعوّذ منه ، وأمر أن يتعوّذ منه ؛ فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال : " سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم أمَّ حبيبة وهي تقول : اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية ؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سلِيه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر" " في أحاديث مشهورة خرجها مسلم والبخاريّ وغيرهما .

وقد ذكرنا منها جملة في كتاب (التذكرة) .

وفي معنى : ﴿ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ قولان : أحدهما : أنه لا بدّ من خمدة قبل يوم القيامة ؛ فعلى هذا قالوا : ما لبثنا غَيْرَ سَاعَةٍ .

والقول الآخر : أنهم يعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها ، كما قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، وإن

كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون .

قال الله عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كانوا يكذبون في الدنيا ؛ يقال : أُفِك الرجل إذا صُرف عن الصّدق والخير .

وأرض مأفوكة : ممنوعة من المطر .

(21/605)

وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذِب لما هم فيه ، والقرآن يدلّ على غير ذلك ، قال الله عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كما صُرفوا عن الحق في قَسَمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُصرفون عن الحق في الدنيا ؛ وقال جل وعز : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ [المجادلة : 18] وقال : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظر كَيْفَ كَذَبُواْ ﴾ [الأنعام : 23 24] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ اختلِف في الذين أوتوا العلم ؛ فقيل الملائكة .

وقيل الأنبياء .

وقيل علماء الأمم .

وقيل مؤمنو هذه الأمة .

وقيل جميع المؤمنين ؛ أي يقول المؤمنون للكفار ردّاً عليهم لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث .

والفاء في قوله : ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ﴾ جواب لشرط محذوف دلّ عليه الكلام ؛ مجازه : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث .

وحكى يعقوب عن بعض القراء وهي قراءة الحسن : "إلى يوم البَعَث" بالتحريك ؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الحلْق .

وقيل : معنى "فِي كِتَابِ اللَّهِ" في حكم الله .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ أي وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ لقد لبثتم إلى يوم البعث ؛ قاله مقاتل وقتادة والسّدي .

القشيري : وعلى هذا ﴿ أُوتُواْ العلم ﴾ بمعنى كتاب الله .

وقيل : الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ﴾ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه .

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذٍ .

وقيل : لما ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا .

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع ؛ يقال : استعتبته فأعتبني ، أي استرضيته فأرضاني ، وذلك إذا كنت جانياً عليه .

وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه .

وسيأتي في "فصلت" بيانه .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي : "فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ" بالياء ، والباقون بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(23/605)

وقال أبو السعود :

﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ مّن ضَعْفٍ ﴾

مبتدأٌ وخبرٌ أي ابتدأكُم ضعفاءَ وجعلَ الضَّعفَ أساسَ أمرِكم كقولِه تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ﴾ أي خلقكُم من أصلٍ ضعيفٍ هو النُّطفة . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك عند بلوغِكم الحُلُمَ أو تعلقِ الرُّوح بأبدانِكم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً

وَشَيْبَةً ﴾ إذا أخذَ منكم السنُّ . وقُرِىء بضمِّ الضَّادِ في الكلِّ وهو أَقوى لقولِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما : قرأتها على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأقرأني من ضُعفٍ . وهُما لغتَانِ كالفَقْرِ والفُقْرِ . والتَّنكيرُ معَ التَّكريرِ لأنَّ المتقدِّمَ غيرُ المتأخرِ . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ من الأشياءَ التي من جُملتِها ما ذُكر من الضَّعفِ والقُوَّةِ والشَّيبةِ ﴿ وَهُوَ العليم القدير ﴾ المبالغُ في العلمِ والقدرةِ فإنَّ التَّرديدَ فيما ذُكر من الأطوارِ المختلفةِ من أوضحِ دلائلِ العلمِ والقدرةِ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ أي القيامةُ سُمِّيتْ بها لأنَّها تقومُ من آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الدُّنيا أو لأنَّها تقعُ بغتةً وصارتْ عَلَماً لها كالنَّجمِ للثُّرَيَّا والكوكبِ للزُّهْرةِ . ﴿ يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ ﴾ أي في القبُورِ أو في الدُّنيا . والأولُ هُو الأظهرُ لأنَّ لبثَهم مُغيَّا بيومِ البعثِ كما سيأتي وليسَ لبثُهم في الدُّنيا كذلكَ وقيلَ : فيما بين فناءِ الدُّنيا والبعثِ وانقطاعِ عذابِهم . وفي الحديثِ : " ما بينَ فناءِ الدُّنيا وَالبَعثِ أربعونَ " وهُو محتملٌ للسَّاعاتِ والأيَّامِ والأعوامِ وقيلَ : لا يعلم أهي أربعونَ سنةً أو أربعونَ ألفِ سنة ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ استقلُّوا مدَّةَ لبثهم نسياناً أو كذباً أو تخميناً ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ مثلَ ذلكَ الصَّرفِ كانوا يُصرفون في الدُّنيا عن الحقِّ والصِّدقِ .

(24/605)

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان ﴾ في الدُّنيا من الملائكةِ والإنسِ ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله ﴾ في علمهِ أو قضائهِ أو ما كتبَه وعيَّنه أو في اللَّوحِ أو القرآنِ وهو قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ ﴿ إلى يَوْمِ البعث ﴾ ردُّوا بذلك ما قالُوه وأيَّدوه باليمين كأنَّهم من فرطِ حَيرتِهم لم يدرُوا أنَّ ذلك هو البعثُ الموعودُ الذي كانُوا ينكرونَه وكانُوا يسمعون أنَّه يكونُ بعد فناءِ الخلقِ كافَّة ويقدرون لذلك زماناً مديداً وإنْ لم يعتقدُوا تحقُّقه فردَّ العالِمونَ مقالتَهم ونبَّهوهم على أنَّهم لبثُوا إلى غايةٍ بعيدةٍ كانُوا يسمعونَها وينكرونَها وبكَّتوهم بالإخبارِ بوقوعِها حيثُ قالُوا ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ﴾ الذي كنتُم توعدون في الدُّنيا ﴿ ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أنَّه حقٌّ فتستعجلون به استهزاءً والفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ كما في قول مَن قالَ :

قالُوا خراسانُ أَقْصَى ما يُرادُ بنا . . . ثمَّ القُفولُ ، فقد جِئنا خُراساناً

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي عذرُهم . وقُرِىء تنفعُ بالتاء محافظةً على ظاهرِ اللفظِ وإنْ توسط بينهما فاصلٌ ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لا يُدعون إلى ما يقتضِي إعتابَهم أي إزالةَ عَتْبِهم من التَّوبة والطَّاعةِ كما دُعوا إليه في الدُّنيا من قولِهم استعتبني فلانٌ فاعتبتُه أي استرضانِي فأرضيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(25/605)

وقال الآلوسى :

﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ مّن ضَعْفٍ ﴾

مبتدأ وخبر أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 28] فمن ابتدائية وفي الضعف استعارة مكنية حيث شبه بالأساس والمادة وفي إدخال من عليه تخييل ، ويجوز أن يراد من الضعف الضعيف بإطلاق المصدر على الوصف مبالغة أو بتأويله به أو يراد من ذي ضعف والمراد بذلك النطفة أي الله تعالى الذي ابتدأ خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة كقوله تعالى : ﴿ مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 8] وهذا التفسير وإن كان مأثوراً عن قتادة إلا أن الأول أولى وأنسب بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بأبدانكم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ إذا أخذ منكم السن والمراد بالضعف هنا ابتداؤه ولذا أخر الشيب عنه أو الأعم فقوله سبحانه : ﴿ شيبة ﴾ للبيان أو للجمع بين تغيير قواهم وظواهرهم ، وفتح عاصم .

وحمزة ضاد ﴿ لأذقناك ضِعْفَ ﴾ في الجمع وهي قراءة عبد الله : وأبي رجاء .

وقرأ الجمهور بضمها فيه والضم والفتح لغتان في ذلك كما في الفقر والفقر الفتح لغة تميم والضم لغة قريش ، ولذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم قراءة الضم كما ورد في حديث

رواه أبو داود .

والترمذي وحسنه .

وأحمد .

وابن المنذر .

والطبراني .

والدارقطني .

وغيرهم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال : قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ مّن ضَعْفٍ ﴾ أي بالفتح فقال : ﴿ مّن ضَعْفٍ ﴾ يا بني أي بالضم لأنها لغة قومه عليه الصلاة والسلام ولم يقصد صلى الله عليه وسلم بذلك رد القراءة الأخرى لأنها ثابتة بالوحي أيضاً كالقراءة التي اختارها ، وروى عن عاصم الضم أيضاً ، وعنه أيضاً الضم في الأولين والفتح في الأخير ، وروى عن أبي عبد الرحمن .

والجحدري ، والضحاك الضم في الأول والفتح فيما بعد .

(26/605)

وقرأ عيسى بضم الضاد والعين وهي لغة أيضاً فيه .

وحكى عن كثير من اللغويين أن الضعف بالضم ما كان في البدن والضعف بالفتح ما كان في العقل ، والظاهر أنه لا فرق بين المضموم والمفتوح وكونهما مما يوصف به البدن والعقل ، والمراد بضعف الثاني عين الأول ، ونكر لمشاكلة ﴿ قُوَّةً ﴾ وبالأخير غيره فإنه ضعف الشيخوخة وذاك ضعف الطفولية ، والمراد بقوة الثانية عين الأولى ونكرت لمشاكلة ﴿ ضعافا ﴾ وحديث النكرة إذا أعيدت كانت غير أغلبي ، وتكلف بعضهم لتحصيل المغايرة فيما نكر وكرر في الآية فتدبر ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ خلقه من الأشياء التي من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة وخلقا أما بمعنى خلق أسبابها أو محالها وأما إيجادها أنفسه وهو الظاهر ولا داعي للتأويل فإنها ليست بعدم صرف ﴿ وَهُوَ العليم القدير ﴾ المبالغ في العلم والقدرة فإن الترديد فيما ذكر من الأحوال المختلفة مع إمكان غيره من أوضح دلائل العلم والقدرة .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ أي القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وصارت علماً لها بالغلبة كالنجم للثريا والكوكب للزهرة ، والمراد بقيامها وجودها أو قيام الخلائق فيها ﴿ يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ ﴾ أي ما أقاموا في القبور كما روى عن الكلبي .

ومقاتل ، والمراد به ما أقاموا بعد الموت ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ أي قطعة من الزمان قليلة ، وروى غير واحد عن قتادة أنهم يعنون ما لبثوا في الدنيا عير ساعة ، ورجح الأول بأنه الأظهر لأن لبثهم مغياً بيوم البعث كما سيأتي إن شاء الله تعالى وليس لبثهم في الدنيا كذلك ، وقيل : يعنون ما لبثوا فيما بين فناء الدنيا والبعث وهو ما بين النفختين ، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بين النفختين أربعون قيل أربعون يوماً يا أبا هريرة قال أبيت قيل أربعون شهراً قال أبيت قيل أربعون سنة قال : أبيت " وعني بقوله رضي الله تعالى عنه أبيت : امتنعت من بيان ذلك لكم أو أبتي أن أسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولهذا الحديث قيل لا يعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة .

وحكى السفاريني في البحور الزاخرة عن بعضهم دعوى اتفاق الروايات على أن ما بين النفختين أربعون عاماً ، وأنا أقول : الحق أنه لا يعلمه إلا الله تعالى ودعوى الاتفاق لم يقم عندي دليل عليها .

(28/605)

وذكر الزمخشري أن ذلك وقت ينقطع عذابهم فيه واستقلوا مدة لبثهم كذباً على ما روى عن الكلبي أو نسياناً لما عراهم من هول المطلع على ما قيل ، وجوز أن يكون استقلالهم تلك المدة بالإضافة إلى مدة عذابهم يومئذ ولا يبعد علمهم بها سواء كان هذا القول في أول وقت الحشر أو في أثنائه أو بعد دخول النار ، وجوز أن يكونوا عدواً مدة بقائهم في الدنيا ساعة لعدم انتفاعهم بها والكثير بلا نفع قليل كما أن القليل مع النفع كثير فالكلام تأسف وتحسر على إضاعتهم أيام حياتهم ، وبين الساعة وساعة جناس تام مماثل كما أطبق عليه البلغاء إلا من لا يعتد به ولا يضر في ذلك اختلاف الحركة الإعرابية ولا وجود أل في إحدى الكلمتين لزيادتها على الكلمة ، وكذا لا يضر اتحاد مدلولهما في الأصل لأن المعرفة فيه كالمنكر بمعنى القطعة من الزمان لمكان النقل في المعرف وصيرورته علماً على القيامة كسائر الأعلام المنقولة وأخذ أحدهما من الآخر لا يضر أيضاً كما يوضح ذلك ما قرروه في جناس الاشتقاق ، وظن بعضهم أن الساعة في القيامة مجاز ولذا أنكر التجنيس هنا إذ التجنيس المذكور لا يكون بين حقيقة ومجاز فلا تجنيس في نحو ركبت حماراً ولقيت حماراً معهمماً تعني رجلاً بليداً واشتهر أنه لم يقع في القرآن الكريم هذا النوع من الجناس إلا في هذا الموضع ، واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر عليه الرحمة موضعاً آخر وهو قوله تعالى :

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالابصار يُقَلِّبُ الله الليل والنهار إِنَّ فِى ذلك لَعِبْرَةً لأُوْلِى الأبصار ﴾ [النور : 43و 44] لأن الأبصار الأول جمع بصر والأبصار الثاني مراد به ما هو جمع بصيرة ، وتعقب بأنه وإن كان الإبصار الثاني مراد به ما هو جمع بصيرة إلا أنه ليس من باب الحقيقة بل بطريق المجاز والاستعارة لأن البصيرة ما تجمع على أبصار بل على بصائر ، فقد قال علماء العربية : إن صيغة أفعال من جموع القلة لا تطرد إلا في اسم ثلاثي مفتوح الفاء كبصر وأبصار أو مكسورها كعنب وأعناب أو مضمومها كرطب وأرطاب ساكن العين كثوب وأثواب أو محركها كما تقدم وكعضد وأعضاد وفخذ وأفخاذ ، وصيغة فعائل من جموع الكثرة لا تطرد إلا في اسم رباعي مؤنث بالتاء أو بالمعنى ثالثه مدة كسحابة وسحائب وبصيرة وبصائر وحلوبة وحلائب وشمال وشمائل وعجوز وعجائز وسعيد علم امرأة وسعائد فاستعيرت الأبصار للبصائر بجامع ما بينهما من الإدراك والتمييز .

وقد سمعت أن هذا النوع لا يكون بين حقيقة ومجاز فليحفظ ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإفك ﴿ كَانُواْ ﴾ أي في الدنيا ﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يصرفون عن الصدق والتحقيق ، والغرض من سوق الآية الإغراق في وصف المجرمين بالتمادي في التكذيب والإصرار على الباطل أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة فسوق الكلام للتعجب من اغترارهم بلامع السراب والغرض أن يحقر عندهم ما فيه من

التمتعات وزخارف الدنيا كي يقلعوا عن العناد ويرجعوا إلى سبيل الرشاد فكأنه : قيل مثل ذلك الإفك العجيب الشأن كانوا يؤفكون في الدنيا اغتراراً بما عدده ساعة استقصاراً والصارف لهم هو الله تعالى أو الشيطان أو الهوى ، وأياً ما كان فليس ذاك إلا لسوء اختيارهم وخباثة استعدادهم ، وفي الآية على أحد الأقوال دليل على وقوع الكذب في الآخرة من الكفرة .

واستدل بها بعضهم على نفي عذاب القبر ، وليس بشيء .

(30/605)

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان ﴾ في الدنيا من الملائكة أو الانس أو منهما جميعاً ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله ﴾ أي في علمه وقضائه أو ما كتبه وعينه سبحانه أو اللوح المحفوظ أو القرآن وهو قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 100] وأياً ما كان فالجار والمجرور متعلق بما عنده .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم وفيه من البعد ما فيه أن الكلام على التقديم والتأخير والأصل وقال الذين أوتوا العلم والايمان في كتاب الله لقد لبثتم ﴿ إلى يَوْمِ البعث ﴾ والكلام رد لما قالوه مؤكد باليمين أو توبيخ وتفضيح وتهكم بهم فتأمل ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ﴾ الذي كنتم توعدون في الدنيا والفاء فصيحة كأنه قيل : إن كنتم منكرين البعث فهذا يومه أي فنخبركم أنه قد تبين بطلان إنكاري وجوز أن تكون عاطفة والتعقيب ذكرى أو تعليلية ﴿ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ إنه حق لتفريطكم في النظر فتستعجلون به استهزاء ، وقيل : لا تعلمون البعث ولا تعترفون به فلذا صار مصيركم إلى النار .

وقرأ الحسن ﴿ البعث ﴾ بفتح العين فيهما ، وقرىء بكسرهما وهو اسم والمفتوح مصدر ، وفي الآية من الدلالة على فضل العلماء ما لا يخفى .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يقع ذلك من أقسام الكفار وقول أولى العلم لهم ﴿ لاَّ ينفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي عذرهم .

(31/605)

وقرأ الأكثر ﴿ تَنفَعُ ﴾ بالتاء محافظة على ظاهر الأمر للفظ وإن توسط بينهما فاصل ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ الاستعتاب طلب العتبى وهي الاسم من الاعتاب بمعنى إزالة العتب

كالعطاء والاستعطاء أي لا يطلب منهم آزالة عتب الله تعالى ، والمراد به غضبه سبحانه عليهم بالتوبة والطاعة فإنه قد حق عليهم العذاب ، وإن شئت قلت : أي لا يقال لهم ارضوا ربكم بتوبة وطاعة كما كان يقال لهم ذلك في الدنيا ، وقيل : أي لا يستقيلون فيستقالون بردهم إلى الدنيا .

وقال ابن عطية : هذا إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة بأنهم لا ينفعهم الاعتذار ولا يعطون عتبى وهى الرضا و ﴿ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ بمعنى يعتبون كما تقول يملك ويستملك والباب في استفعل أنه طلب الشيء وليس هذا منه لأن المعنى يفسد إذا كان المفهوم منه ولا يطلب منهم عتبى انتهى ، فجعل استفعل بمعنى فعل .

وحاصل المعنى عليه على ما في البحر هم من الاهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب ، وقيل : المعنى عليه هم لا يعاتبون على سياتهم بل يعاقبون ، وما ذكرناه أولاً هو الذي ينبغي أن يعول عليه ، ويا ليت شعري أين ما ادعاه ابن عطية من الفساد إذا كان المفهوم منه لا يطلب منهم عتبى على ما سمعت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(32/605)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ » .

عادت الآيات مرة أخرى ، لتصل العرض الذي تجلّى فيه آيات اللّه ، وتعرض فيها دلائل قدرته على الناس ، من مؤمنين وكافرين ، فيجد فيها المؤمنون نظرا مجدّدا إلى قدرة اللّه ، وإلى علمه ، وحكمته ، فيزداد إيمانهم تمكينا في قلوبهم ، وإشراقا في نفوسهم ، على حين تقوم على المشركين والضالين من هذه الآيات حجة أخرى ، إلى جانب ما قام عليهم من حجج ، بكفرهم وضلالهم .

وفي الآية الكريمة صورة من الصّور الحسّية التي يعيش فيها الناس ، ويمرّ بها كل فرد من أفرادهم ، على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم ، وأوطانهم .

فبدء حياة الإنسان تكون صورة باهتة من صور الحياة ، لا يكاد يرى ظلّها إلا البصر النافذ ، حيث يبدأ خلق الإنسان من نطفة ، لا تبدو في مرأى العين أكثر من سائل مختلط ، أشبه بالمخلط . . ثم يتدرج الإنسان من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة ، إلى عظام ، إلى لحم يكسو هذا العظام . .

ثم إلى وليد ينشقّ عنه رحم الأم ، وإذا هو إنسان يأخذ مكانه في المجتمع البشرى ، ويتدرج في مدارج الحياة ، من الطفولة إلى الصبا ، إلى الشباب والكهولة ، ثم ينحدر إلى الشيخوخة

والهرم.

هذا هو بعض ما للّه في الإنسان . . فلينظر الإنسان ممّ خلق ؟ ثم لينظر كيف دار دورته في الحياة ، كما يدور القمر في دورته من الهلال إلى المحاق !

(33/605)

قوله تعالى : «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ» وهذا الإنسان الذي خلق من ضعف ، والذي تعهدته القدرة الإلهية ، فأخرجت من هذا الضعف ، قوة وعقلا ، وبصرا ، وسمعا ـ هذا الإنسان قد كفر بخالقه ، وأبى أن يجعل ولاءه له وحده ، فاتخذ من دونه شركاء ، وإذا حشود كثيرة في جميع الأزمان والأمكنة ، تجتمع على الكفر باللّه ، وتعيش فى هذا الضلال ، لا تعمل ليوم الجزاء والحساب ، ولا تؤمن به ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ، وراجعوا حسابهم مع دنياهم التي أفنوا حياتهم فيها ، وجدوا أنها لم تكن إلا لحظة عابرة ، بل لقد بلغ بهم الأمر أن أيقنوا هذا ، وتحققوا منه ، فأقسموا أنهم لم يلبثوا غير ساعة . . ولا شك أن هذا غير الواقع ، وأن الوهم هو الذي يحيّل لهم قصر الزمن الذي مضى . . فقد عاش كل منهم سنين في الدنيا ، لا ساعة ، ولا يوما ، ولا شهرا . . ولكن هكذا الدنيا ، التي اتخذها الضالون المشركون ، لهوا ولعبا ، فلم

يعمروها بالتقوى والأعمال الصالحة . . ولهذا جاء قوله تعالى : « كَذِلكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ » مكذّبا مقولتهم تلك ، وإنها إفك من إفكهم ، وضلال من ضلالهم ، الذي كانوا عليه في الدنيا . . ذلك أنهم وهم في الدنيا قد رأوا الحق باطلا ، والهدى ضلالا ، والخير شرّا . . ووقع في وهمهم أنهم على الحق ، وأن ما يمسكون به من ضلال هو الهدى . . وقد صحبهم هذا الإفك في حياتهم الآخرة ، فأقسموا هذا القسم الكاذب ، أنهم ما لبثوا في دنياهم غير ساعة ! وقوله تعالى : « وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ » .

(34/605)

هو ردّ على هؤلاء المجرمين ، الذين أقسموا هذا القسم ، وأنهم ما لبثوا غير ساعة ، وفي هذا الرد تصحيح لما وهموه من لبثهم في الدنيا . . وهذا التصحيح إنما يجيئهم من أهل العلم والإيمان الذين يقولون لهم : « لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ » . . وكتاب اللّه ، هو علمه الذي حدّد به آجال الناس ، وأزمانهم ، وأودع فيه أعمالهم ، وما هو كائن في هذا الوجود . .

وقوله تعالى : « فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ » . هو خبر يراد به التقريع والنّخس لهؤلاء المجرمين ، فهم

يعرفون أن هذا اليوم الذي هم فيه هو يوم البعث ، وإخبارهم به هو تذكير لهم بما كان منهم من إنكار له ، وسخرية واستهزاء بمن كانوا يحدّثونهم به ، والذين كانوا يغرسون في الدنيا ليجنوا ثمار ما غرسوا فى الآخرة ، وفي ذلك ما يزيد في آلام المكذبين ويضاعف حسرتهم .

وفي قوله تعالى : « وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ » تقريع بعد تقريع ، ونخسة بعد نخسة ! وفي قرن العلم بالإيمان ، إشارة إلى أن العلم الذي لا يثمر عملا لا قيمة له ، وكثير من الذين أوتوا العلم لا يؤمنون بالله ، بل تغلب عليهم شقوتهم ، ويصبح العلم الذي علموه حجّة عليهم ، يضاعف لهم به العقاب ، وفي هذا يقول الله تعالى في علماء بنى إسرائيل : « يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (71 : آل عمران) ويقول سبحانه « وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » (144 : البقرة) ويقول جل شأنه : « أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (75 : البقرة) . . فالعلم الذي لا يعمل صاحبه بمقتضى ما علم ، هو شؤم على صاحبه ، لأنه لا يهتدى معه إلى

(35/605)

خير أبدا . على خلاف الذي لا علم عنده ، فإنه قد يطلب العلم ، وقد يجد الهدى مما علم .

قوله تعالى : « فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » .

أي أنه في يوم القيامة ، لا يقبل من معتذرين عذر ، ولا يطلب منهم أن يقيموا عذرا لما كان منهم من ضلال وكفر . . لقد جلّ الأمر عن العتاب . . إذ أنه إنما يعاتب من يرجى منه إصلاح ما أفسد . . وأما وأنه لا عمل بعد اليوم ، فإنه لا عتاب ، وإنما حساب وجزاء . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 11 صـ 545.548 ﴾

(36/605)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾

هذا رابع استئناف من الأربعة المتقدمة رجوع إلى الاستدلال على عظيم القدرة في مختلف المصنوعات من العوالم لتقرير إمكانية البعث وتقريب حصوله إلى عقول منكريه لأن تعدد صور إيجاد المخلوقات وكيفياته من ابتدائها عن عدم أو من إعادتها بعد انعدامها وبتطور وبدونه مما يزيد إمكان البعث وضوحاً عند منكريه ، فموقع هذه الآية كموقع قوله : ﴿ الله

الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] ونظائرها كما تقدم ؛ ولذلك جاءت فاتحتها على أسلوب فواتح نظائرها وهذا ما يؤذن به تعقيبها بقوله ﴿ ويَوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ﴾ [الروم : 55] الآية .

ثم قوله ﴿ الله الذي خلقكم ﴾ مبتدأ وصفة ، وقوله ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ هو الخبر ، أي يخلق ما يشاء مما أخبر به وأنتم تنكرون .

والضعف بضم الضاد في الآية وهو أفصح وهو لغة قريش .

ويجوز في ضاده الفتح وهو لغة تميم .

وروى أبو داود والترمذي عن عبد الله ابن عمر قال : قرأتها على رسول الله ﴿ الذي خلقكم من ضَعف ﴾ يعني بفتح الضاد فأقرأني : ﴿ من ضُعف ﴾ يعني بضم الضاد .

وقرأ الجمهور ألفاظ ﴿ ضعف ﴾ الثلاثة بضم الضاد في الثلاثة .

وقرأها عاصم وحمزة بفتح الضاد ، فلهما سند لا محالة يعارض حديثَ ابن عمر .

والجمع بين هذه القراءة وبين حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نطق بلغة الضم لأنها لغة قومه ، وأن الفتح رخصة لمن يقرأ بلغة قبيلة أخرى ، ومن لم يكن له لغة تخصه فهو مخيَّر بين القراءتين .

والضعف : الوهن واللين .

و ﴿ مِن ﴾ ابتدائية ، أي : مبتدَأ خلقه من ضعف ، أي : من حالة ضعف ، وهي حالة

كونه جنيناً ثم صبياً إلى أن يبلغ أشده ، وهذا كقوله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ [الأنبياء : 37] يدل على تمكن الوصف من الموصوف حتى كأنه منتزع منه ، قال تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ [النساء : 28] .

(37/605)

والمعنى : أنه كما أنشأكم أطواراً تبتدىء من الوهن وتنتهي إليه فكذلك ينشئكم بعد الموت إذ ليس ذلك بأعجب من الإنشاء الأول وما لحقه من الأطوار ، ولهذا أخبر عنه بقوله : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ .

وذكر وصف العلم والقدرة لأن التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم ، وإبرازُه على أحكم وجه هو من أثر القدرة .

وتنكير ﴿ ضعف وقوة ﴾ للنوعية ؛ ف ﴿ ضُعف ﴾ المذكور ثانياً هو عين ﴿ ضُعف ﴾ المذكور أولاً ، و ﴿ قوة ﴾ المذكورة ثانياً عين ﴿ قوة ﴾ المذكورة أولاً .

وقولهم : النكرة إذا أُعيدت نكرة كانت غير الأولى ، يريدون به التنكير المقصود منه الفرد الشائع لا التنكير المراد به النوعية .

وعطف ﴿ وشيبة ﴾ للإيماء إلى أن هذا الضعف لا قوة بعده وأن بعده العدم بما شاع من

أن الشيب نذير الموت .

والشيبة : اسم مصدر الشيب .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ في سورة مريم (4) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾

(38/605)

لما ذكر عدم انتفاع المشركين بآيات القرآن وشبهوا بالأموات والصم والعمي فظهرت فظاعة حالهم في العاجلة أتبع ذلك بوصف حالهم حين تقوم الساعة في استصحاب مكابرتهم التي عاشوا عليها في الدنيا ، بأن الله حين يعيد خلقهم وينشىء لهم أجساماً كأجسامهم ويعيد إليهم عقولهم يكون تفكيرهم يومئذ على وفاق ما كانوا عليه في الدنيا من السفسطة والمغالطة والغرور ، فإذا نُشروا من القبور وشعروا بصحة أجسامهم وعقولهم وكانوا قد علموا في آخر أوقات حياتهم أنهم ميتون خامرتهم حينئذ عقيدة إنكار البعث وحجتُهم السفسطائية من قولهم ﴿ هل نَدُلُّكم عَلى رَجُل يُنَبِّئُكُم إذَا مُزِقْتم كُلَّ مُمزق إنكُم لَفِي خَلْقٍ جَدِيد ﴾ [سبأ : 7] ، هنالك يريدون أن يقنعوا أنفسهم بصحة دليلهم القديم ويلتمسون اعتلالاً لتخلف المدلول بعلة أن بعثهم ما كان إلا بعد ساعة قليلة من وقت الدفن قبل أن

تنعدم أجزاء أجسامهم فيخيل إليهم أنهم مُحِقُّون في إنكاره في الدنيا إذ كانوا قد أخبروا أن البعث يكون بعد فناء الأجسام ، فهم أرادوا الاعتذار عن إنكارهم البعث حين تحققوه بما حاصله : أنهم لو علموا أن البعث يكون بعد ساعة من الحُلول في القبر لأقروا به .

وقد أنبأ عن هذا تسمية كلامهم هذا معذرة بقوله عقبه : ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ [الروم : 57] .

وهذه فتنة أصيبوا بها حين البعث جعلها الله لهم ليكونوا هُزأة لأهل النشور .

ويتضح غلطهم وسوء فهمهم كما دل عليه قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان ﴾ الآية [الروم : 56] وقد أومأ إلى أن هذا هو المراد من الآية أنه قال عقب ذلك : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ أي كهذا الخطأ كانوا في الدنيا يُصرفون عن الحق بمثل هذه الترهات .

(39/605)

وتقدم شيء من هذا في المعنى عند قوله تعالى : ﴿ يَتَخافتون بَيْنَهُم إنْ لَبِثْتُم إلاَّ عَشراً نَحْنُ أعْلَم بِمَا يَقُولون إذْ يَقُول أمْثَلهم طَرِيقَة إنْ لَبِثْتُم إلاَّ يوماً ﴾ في سورة طه (103 ، 104) .

وبلغ من ضلالهم في ذلك أنهم يُقسمون عليه ، وهذا بعدَ ما يجري بينهم من الجدال من قول

بعضهم : ﴿ إِنْ لَبِثْتُم إِلاَّ عَشْراً ﴾ وقول بعضهم : ﴿ إِنْ لَبِثْتُم إِلاَّ يَوْماً ﴾ ، وقول آخرين : ﴿ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : 19] وبعض اليوم يصدق بالساعة ، كما حكي عنهم في هذه الآية .

والظاهر أن هذا القسم يتخاطبون به فيما بينهم كما اقتضته آية سورة طه ، أو هو حديث آخر أعلنوا به حين اشتد الخلاف بينهم لأن المصير إلى الحلف يؤذن بمشادة ولجاج في الخلاف .

وفي قوله : ﴿ السَّاعَة ﴾ و ﴿ ساعة ﴾ الجناس التام .

وجملة ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ استئناف بياني لأن غرابة حالهم من فساد تقدير المدة والقسم عليه مع كونه توهماً يثير سؤال سائل عن مثار هذا الوهَم في نفوسهم فكان قوله ﴿ كَذلك كَانُوا يُؤْفَكُون ﴾ بياناً لذلك .

ومعناه : أنهم لا عجب في صدور ذلك منهم فإنهم كانوا يجيئون بمثل تلك الأوهام مدة كونهم في الدنيا ، فتصرفهم أوهامهم عن اليقين ، وكانوا يقسمون على عقائدهم كما في قوله : ﴿ وأَقْسَموا بالله جَهْدَ أَيمَانِهم لاَ يَبْعَث الله مَنْ يَمُوت ﴾ [النحل : 38] استخفافاً بالأيمان ، وكذلك إشارة إلى انصرافهم عن الحق يوم البعث .

والمشار إليه هو المشبه به والمشبه محذوف دل عليه كاف التشبيه ، والتقدير : إفكاً مثل إفكهم هذا كانوا يُؤفكون به في حياتهم الدنيا .

والمقصود من التشبيه المماثلة والمساواة .

والإفك بفتح الهمزة : الصرف وهو من باب ضرب ، ويُعدى إلى الشيء المصروف عنه بحرف (عن) ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ ليقولُنّ الله فأنَّى يُؤْفَكون ﴾ في سورة العنكبوت (60) .

(40/605)

ولم يسند إفكهم إلى آفك معين لأن بعض صرفهم يكون من أوليائهم وأيمة دينهم ، وبعضَه من طبع الله على قلوبهم .

وإقحام فعل ﴿ كانُوا ﴾ للدلالة على أن المراد في زمان قبلَ ذلك الزمن ، أي في زمن الحياة الدنيا .

والمعنى : أن ذلك خلُق تخلقوا به وصار لهم كالسجية في حياتهم الدنيا حتى إذا أعاد الله إليهم أرواحهم صدر عنهم ما كانوا تخلقوا به وقال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وقَد كُنْت بَصِيراً قَال كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنا فنسِيْتَها وكذلك اليَوْم تُنْسى وكذلك نَجْزِي مَنْ أسْرَف ﴾ الآية [طه : 125 127] وفي هذا الخبر أدب عظيم للمسلمين أن يتَحامَوْا الرذائل والكبائر في الحياة الدنيا خشية أن تصير لهم خلقاً فيحشروا عليها .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ

جعل الله منكري البعث هدفاً لسهام التغليظ والافتضاح في وقت النشور ، فلما سمع المؤمنون الذين أوتوا علم القرآن وأشرقت عقولهم في الحياة الدنيا بالعقائد الصحيحة وآثار الحكمة لم يتمالكوا أن لا يردوا عليهم غلطهم رداً يكون عليهم حسرات أن لا يكونوا قبلوا دعوة الحق كما قبلها المؤمنون .

وهذه الجملة معترضة .

وعطف الإيمان على العلم للاهتمام به لأن العلم بدون إيمان لا يرشد إلى العقائد الحق التي بها الفوز في الحياة الآخرة .

والمعنى : وقال لهم المؤمنون إنكاراً عليهم وتحسيراً لهم .

والظاهر أن المؤمنين يسمعون تَحَاجَّ المشركين بعضهم مع بعض فيبادرون بالإنكار عليهم لأن تغيير المنكر سجيتهم التي كانوا عليها .

وفي هذا أدب إسلامي وهو أن الذي يسمع الخطأ في الدين والإيمان لا يقره ولو لم يكن هو المخاطَب به .

وقولهم : ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ صرف لهم عن تلك المعذرة كأنهم يقولون : دَعُوا عنكم هذا فلا جدوى فيه واشتغِلوا بالمقصود وما وُعدتم به من العذاب يوم البعث .

وفعل ﴿ لَبِثْتُم ﴾ مستعمل في حقيقته ، أي مكثْتم ، أي استقررتم في القبور ، والخبر مستعمل في التحزين والترويع باعتبار ما يرد بعده من الإفصاح عن حضور وقت عذابهم .

و﴿ في ﴾ من قوله ﴿ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ للتعليل ، أي لبثتم إلى هذا اليوم ولم يعذبوا من قبل لأجل ما جاء في كتاب الله من تهديدهم بهذا اليوم مثل قوله تعالى : ﴿ ومِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخ إلاى يَوْمِ يُبْعَثُون ﴾ [المؤمنون : 100] ، أي : لقد بلغكم ذلك وسمعتموه فكان الشأن أن تؤمنوا به ولا تعتذروا بقولكم مَا لَبِثْنا غيرَ سَاعة .

والفاء في ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ فاء الفصيحة أفصحت عن شرط مقدر ، وتفيد معنى المفاجأة كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكم بِمَا تَقُولون ﴾ في سورة الفرقان (19) ، أي إذا كان كذلك فهذا يوم البعث كالفاء في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وهذا توبيخ لهم وتهديد وتعجيل لإساءتهم بما يترقبهم من العذاب .

والاقتصار على ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ ليتوقعوا كل سوء وعذاب .

والاستدراك في ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ استدراك على ما تضمنته جملة ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ أي لقد بلغكم ذلك وكان الشأن أن تستعدوا له ولكنكم كنتم لا تعلمون ، أي : لا تتصدون للعلم بما فيه النفع بل كان دأبكم الإعراض عن تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم

وفي التعبير بنفي العلم وقصدِ نفي الاهتمام به والعناية بتلقيه إشارة إلى أن التصدي للتعلّم وسيلة لحصوله .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

تفريع على جملة ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ [الروم : 55] .

(42/605)

والذين ظلموا هم المشركون الذين أقسموا ما لبثوا غير ساعة ، فالتعبير عنهم بالذين ظلموا إظهار في مقام الإضمار لغرض التسجيل عليهم بوصف الظلم وهو الإشراك بالله لأنه جامع لفنون الظلم ، ففيه الاعتداء على حق الله ، وظلم المشرك نفسه بتعريضها للعذاب ، وظلمهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، وظلمهم المؤمنين بالاعتداء على أموالهم وأبشارهم .

والمعذرة : اسم مصدر اعتذر ، إذا أبدى علة أو حجة ليدفع عن نفسه مؤاخذة على ذنب أو تقصير .

وهو مشتق من فعل عذره ، إذا لم يؤاخذه على ذنب أو تقصير لأجل ظهور سبب يدفع عنه المؤاخذة بما فعله .

وإضافة (مَعْذِرَة) إلى ضمير ﴿ الذين ظلموا ﴾ تقتضي أن المعذرة واقعة منهم .

ثم يجوز أن تكون الإضافة للتعريف بمعذرة معهودة فتكون هي قولهم ﴿ ما لبثوا غير ساعة ﴾ [الروم : 55] كما تقدم ، ويجوز أن يكون التعريف للعموم كما هو شأن المصدر المضاف ، أي : لا تنفعهم معذرة يعتذرون بها مثل قولهم ﴿ غَلبتْ علينا شقوتنا ﴾ [المؤمنون : 106] وقولهم ﴿ هؤلاء أضلونا ﴾ [الأعراف : 38] .

واعلم أن هذا لا ينافي قوله تعالى ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : 36] المقتضي نفي وقوع الاعتذار منهم لأن الاعتذار المنفي هو الاعتذار المأذون فيه ، أي : المقبول ، لأن الله لو أذن لهم في الاعتذار لكان ذلك توطئة لقبوله اعتذارهم نظير قوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : 255] .

والمثبت هنا معذرة من تلقاء أنفسهم لم يؤذن لهم بها فهي غير نافعة لهم كما قال تعالى ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : 106 108] وقوله ﴿ لا تجأروا اليوم

إنكم منا لا تنصرون ﴾ [المؤمنون : 65] .

وقرأ الجمهور ﴿ تنفع ﴾ بالمثناة الفوقية .

(43/605)

وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وخلف بالتحتية وهو وجه جائز لأن (معذرة) مجازيُّ التأنيث ، ولوقوع الفصل بين الفعل وفاعله بالمفعول .

و ﴿ يُستعتبون ﴾ مبني للمجهول والمبني منه للفاعل استعتب ، إذا سأل العُتبَى بضم العين وبالقصر وهي اسم للإعتاب ، أي إزالة العَتب ، فهمزة الإعتاب للإزالة ، قال تعالى : ﴿ وإن يَستعتبوا فما هُمْ من المُعتَبين ﴾ [فصلت : 24] ، فصار استُعتب المبني للمجهول جارياً على استَعتب المبني للمعلوم فلما قيل : استعتب بمعنى طلب العُتبى صار استُعتب المبني للمجهول بمعنى أُعْتِب ، فمعنى ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ : ولا هم بمزال عنهم المؤاخذة نظير قوله ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ .

وهذا استعمال عجيب جار على تصاريف متعددة في الفصيح من الكلام ، وبعض اشتقاقها غير قياسي ومن حاولوا إجراءه على القياس اضطروا إلى تكلفات في المعنى لا يرضى بها الذوق السليم ، والعجب وقوعها في "الكشاف" .

وقال في "القاموس" : واستعتبه : أعطاه العتبى كأعتبه ، وطلب إليه العتبى ضدٌّ .

والمعنى : لا ينفعهم اعتذار بعذر ولا إقرار بالذنب وطلب العفو .

وتقدم قوله ﴿ ولا هم يستعْتبون ﴾ في سورة النحل (84) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(44/605)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ .

قد بين الله تعالى الضعف الأول الذي خلقهم منه في آيات من كتابه ، وبين الضعف الأخير في آيات أخر ، قال في الأول : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] وقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 4] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الطارق : 56] وقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج : 39] إلى غير ذلك من الآيات .

وقال في الضعف الثاني : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر ﴾ [النحل : 70] و [الحج :

5] وقال : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس : 68] إلى غير ذلك من الآيات ، وأشار إلى القوة بين الضعفين في آيات من كتابه كقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 4] وإطلاقه نفس الضعف ، على ما خلق الإنسان منه ، قد أوضحنا وجهه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : 37] الآية . وقرأ عاصم وحمزة من ضعف في المواضع الثلاثة المخفوضين ، والمنصوب بفتح الضاد في جميعها ، وقرأ الباقون بالضم .

واختار حفص القراءة بالضم وفاقاً للجمهور : للحديث الوارد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عطية العوفي أنه أعنى ابن عمر قرأ عليه صلى الله عليه وسلم : من ضعف بفتح الضاد ، فرد عليه صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يقرأها بضم الضاد ، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، ورواه غيرهما والعلم عند الله تعالى .

(45/605)

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ [يونس : 45] وفي غير ذلك .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار إذا بعثوا يوم القيامة ، وأقسموا أنهم ما لبثوا غير ساعة يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان ، ويدخل فيهم الملائكة ، والرسل ، والأنبياء ، والصالحون : والله لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في سورة يس على أصح التفسيرين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] . والتحقيق أن هذا القول الكفار عند البعث ، والآية تدل على دلالة لا لبس فيها ، على أنهم ينامون نومة قبل البعث كما قاله غير واحد ، وعند بعثهم أحياء من تلك النومة التي هي نومة موت يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون : أي هذا البعث بعد الموت ، الذي وعدكم الرحمن على ألسنة رسله ، وصدق المرسلون في ذلك ، كما شاهدتموه عياناً فقوله في يس : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ [يس : 52] قول الذين أوتوا العلم والإيمان ، على التحقيق ، وقد اختاره ابن جرير ، وهو مطابق لمعنى قوله : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُوا العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ الآية .

والتحقيق أن قوله هذا إشارة إلى ما وعد الرحمن وأنها من كلام المؤمنين ، وليست إشارة إلى المرقد في قول الكفار ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا ﴾ [يس : 52] ، وقوله في كتاب الله : أي فيما كتبه وقدره وقضاه . وقال بعض العلماء : إن قوله : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن ﴾ [يس : 52] الآية من قول الكفار ، ويدل له قوله في الصافات : ﴿ وَقَالُواْ ياويلنا هذا يَوْمُ الدين هذا يَوْمُ الفصل الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات : 2021] الآية .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

قد قدمنا ما فيه من اللغات ، والشواهد العربية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل : 84] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(47/605)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾

الحق – تبارك وتعالى – بعد أنْ عرض علينا بعض الأدلة في الكون من حولنا يقول لنا : ولماذا نذهب بعيداً إذا لم تكْفِ الآيات في الكون من حولك ، فانظر في آيات نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿ وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] وجمع بين النوعين في قوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . . ﴾ [فصلت : 53] .

فهنا يقول : تأمل في نفسك أنت : ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ . . . ﴾ [الروم : 54] ، فإنْ قال الإنسان المكلف الآن : أنا لم أشاهد مرحلة الضعف التي خُلِقْتُ منها .

نقول : نعم لم تشاهدها في نفسك ، فلم تكُنْ لك ساعتها مشاهدة ، لكن شاهدتها في غيرك ، شاهدتها في الماء المهين الذي يتكوَّن منه الجنين ، وفي الأم الحامل ، وفي المرأة حين تضع وليدها صغيراً ضعيفاً ، ليس له قَدَم تسعى ، ولا يَدٌ تبطش ، ولا سِنٌّ تقطع ، ومع ذلك رُبي بعناية الله حتى صار إلى مرحلة القوة التي أنت فيها الآن .

إذن : فدليل الضعف مشهود لكل إنسان ، لا في ذاته ، لكن في غيره ، وفي مشاهداته كل يوم ، وكل منا شاهد مئات الأطفال في مراحل النمو المختلفة ، فالطفل يُولَد لا حولَ له ولا قوة ، ثم يأخذ في النمو والكِبَر فيستطيع الجلوس ، ثم الحَبْو ، ثم المشي ، إلى أنْ تكتمل أجهزته ويبلغ مرحلة الرشْد والفتوة .

وعندها يُكلِّفه الحق – سبحانه وتعالى – وينبغي أنْ نكلفه نحن أيضاً ، وأنْ نستغل فترة

الشباب هذه في العمل المثمر ، فنحن نرى الثمرة الناضجة إذا لم يقطفها صاحبها تسقط هي بين يديه ، وكأنها تريد أنْ تؤدي مهمتها التي خلقها الله من أجلها .

(48/605)

لذلك ، فإن آفتنا نحن ومن أسباب تأخُّر مجتمعاتنا أننا نطيل عمر طفولة أبنائنا ، فنعامل الشاب حتى سِنِّ الخامسة والعشرين على أنه طفل ، ينبغي علينا أن نلبي كل رغباته لا ينقصنا إلا أنْ نرضعه .

آفتنا أن لدينا حناناً (مرق) لا معنى له ، أما في خارج بلادنا ، فمبجرد أن يبلغ الشاب رُشَدْه لم يَعُدْ له حق على أبيه ، بل ينتقل الحق لأبيه عليه ، ويتحمل هو المسئولية .

والحق سبحانه يُعلِّمنا في تربية الأبناء أنْ نُعوِّدهم تحمُّل المسئولية في هذه السِّنِّ : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [النور : 59] .

فانظر أنت أيها الإنسان الذي جعلتَ كل الأجناس الأقوى منك في خدمتك ، انظر في نفسك وما فيها من آيات وما بين جنبيك من مظاهر قدرة الله ، فقد نشأتَ ضعيفاً لا تقدر على شيء يخدمك غيرك .

ومن حكمته تعالى في الطفل ألاَّ تظهر أسنانه طوال فترة الرضاعة حتى لا يؤذي أمه ، ثم

تخرج له أسنان مؤقتة يسمونها الأسنان اللبنية ؛ لأنه ما يزال صغيراً لا يستطيع تنظيفها ، فيجعلها الله مؤقتة إلى أن يكبر ويتمكَّن من تنظيفها ، فتسقط ويخرج مكانها الأسنان الدائمة ، ولو تأملتَ في نفسك لوجدتَ ما لا يُحصى من الآيات .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً . . . ﴾ [الروم : 54] أي : قوة الشباب وفتوته : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً . . . ﴾ [الروم : 54] أي : ضعف الشيخوخة ، وهذا الضعف يسري في كل الأعضاء ، حتى في العلم ، وفي الذاكرة ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً . . . ﴾ [الحج : 5] .

(49/605)

ويظل بك هذا الضعف حتى تصير إلى مثل الطفل في كل شيء تحتاج إلى مَنْ يحملك ويخدمك إذن : لا تأخذ هذه المسألة بطبع تكوينك ، ولكن بإرادة مُكوِّنك سبحانه ، فبعد أنْ كنتَ ضعيفاً يُقويك ، وهو سبحانه القادر على أنْ يعيدك إلى الضعف ، بحيث لا تستطيع عقاقير الدنيا أنْ تعيدك إلى القوة ؛ لذلك يسخر أحد العقلاء ممن يتناولون (الفيتامينات) في سِنِّ الشيخوخة ، ويقول : يا ويل مَنْ لم تكُنْ (فيتاميناته) من ظهره .

لذلك تلحظ الدقة في الأداء في قول سيدنا زكريا : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي . . .

﴾ [مريم : 4] ؛ لأن العظم آخر مخزن لقُوت الإنسان ، حيث يختزن فيه ما زاد عن حاجة الجسم من الطاقة ، فإذا لم يتغذَّ الجسم بالطعام يمتصّ من هذا المخزون من الشحوم والدهون ، ثم من العضل ، ثم من نخاع العظم ، وهو آخر مخزن للقوت في جسمك .

فمعنى قول سيدنا زكريا : ﴿ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنّي . . . ﴾ [مريم : 4] يعني : وصلتُ إلى مرحلة الحرض التي لا أملَ معها في قوة ، ويؤكد هذا المعنى بقوله ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً . . . ﴾ [مريم : 4] .

وقلنا : إن بياض الشعر ليس لوناً ، إنما البياض انعدام اللون ؛ لذلك فاللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ، ومع الشيخوخة تضعف أجهزة الإنسان ، وتضعف الغدد المسئولة عن لون الشعر عن إفراز اللون الأسود ، فيظهر الشعر بلا لون .

ونلحظ أن أغلب ما يشيب الناس يشيبون مما يُعرف ب " السوالف " من هنا ومن هنا ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشعرة عبارة عن أنبوب دقيق ، فإذا قُصَّتْ أثناء الحلق ينفتح هذا الأنبوب ، وتدخله بعض المواد الكيميا وية مثل الصابون والكولونيا ، فتؤثر على الحويصلات الملوّنة وتقضي عليها ؛ لذلك نلاحظ هذه الظاهرة كثيراً في المترفين خاصة ؛ لذلك تجد بعض الشباب يظهر عندهم الشيب في هذه المناطق من الرأس .

وقد رتب سيدنا زكريا مظاهر الضعف بحسب الأهمية ، فقال أولاً ﴿ وَهَنَ العظم مِنّي . . . ﴾ [مريم : 4] ثم ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً . . . ﴾ [مريم : 4] ومع كِبَر سيدنا زكريا وضعفه ، ومع أن امرأته كانت عاقراً إلا أن الله تعالى استجاب له في طلبه للولد الذي يرث عنه النبوة ، فبشَّره بولد وسمَّاه يحيى ، وكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لنا : إياكم ، ألا أستطيع أنْ أخلق مع الشيب والكبر والضعف ؟ لذلك قال بعدها : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ . . . ﴾ [الروم : 54] .

وقال في شأن زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾

[مريم : 9] .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العليم القدير ﴾ [الروم : 54] أي : أن هذا الخَلْق ناشيء عن علم ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] لكن العلم وحده لا يكفي ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم ، كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد الممولين ليعينه على التنفيذ ؛ لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

إذن : هذا هو الدليل النفسي على الموجد الحق الفاعل المختار الذي يفعل الأشياء بعلم

وقدرة ، ولا يكلفه العمل شيئاً ولا يستغرق وقتاً ؛ لأنه سبحانه يقول للشيء : كن فيكون ، ولا تتعجب أن ربك يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ لأنك أيها المخلوق الضعيف تفعل هذا مع أعضائك وجوارحك .

وإلاَّ فقُلْ لي : ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تقوم مثلاً أو تحمل شيئاً مجرد أن تريد الحركة تجد أعضاءك طوع إرادتك ، ودون أنْ تدري بما يحدث بداخلك من انفعالات وحركات ، وإنْ قُلت فأنا كبير وأستطيع أداء هذه الحركات كما أريد ، فما بالك بالطفل الصغير ؟

(51/605)

وسبق أن ضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بالبلدوزر ، فلكل حركة منه ذراع خاص بها يُحرِّكه السائق ، وأزرار يضرب عليها ، وربما احتاج السائق لأكثر من أداة التحريك هذه الآلة حركة واحدة .

أما أنت فمجرد أن تريد تحريك العضو تجده يتحرك معك كما تريد دون أن تعرف العضلات والأعصاب التي شاركت في حركته ، فإذا كنتَ أنت على هذه الصورة ، أتعجب من أن الله تعالى يقول للشيء كن فيكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة . . . ﴾ .

بعد أنْ عرض الحق – سبحانه وتعالى – الدليل ليهتدي به مَنْ يشاء ، ومَنْ لم يهتَد يُلوِّح له بهذا التهديد : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعةُ يُقْسِمُ المجرمون . . . ﴾ [الروم : 55] معنى كلمة ﴿ تَقُومُ الساعة . . . ﴾ [الروم : 55] تدل على أنها موجودة ، لكن نائمة تنتظر الإذن لها ، فتقوم تنتظر أنْ نقول لها : كُنْ فتكون .

فالقيام هنا له دلالته ؛ لأن الساعة أمر لا يتأَّتى به القيام ، إنما يقيمها الحق سبحانه ، فقوله ﴿ تَقُومُ . . . ﴾ [الروم : 55] كأنها منضبطة كما تضبط المنبه مثلاً ، ولها وقت تنتظره ، وهي من تلقاء نفسها إنْ جاء وقتُها قامتْ .

وحين تتأمل كلمة ﴿ تَقُومُ . . . ﴾ [الروم : 55] تجد أن القيام آخر مرحلة للإنسان ليؤدي مهمته ، فيقابلها ما قبلها ، فقبل القيام القعود ، ثم الاضطجاع ، ثم النوم ، فمعنى قيام الساعة يعني : أنها جاءت لتؤدي مهمتها أداءً كاملاً .

وسُمِّيَتْ الساعة ؛ لأنها دالة على الوقت الذي يأذن الله فيه بإنهاء العالم ، وإنْ كانت الساعة عندنا كوحدة الحساب الزمن نقول : صباحاً أو مساءً وَفْق حساب الحكومة أو الأهالي ، توقيت كذا أو كذا .

(52/605)

هذه الآلة التي في أيدينا بما تضبطه لنا من وقت أمرها هيّن ، ليست مشكلة أنْ تُقدّمِ أو تُؤخّرِ عدة ثوانٍ أو عدة دقائق ، تعمل (أتوماتيكياً) أو بالحجارة ، صُنِعتْ في سويسرا ، أو في الصين ، هذه الساعة لا تهم ، المهم الساعة الأخرى ، الساعة التي لا ساعة بعدها ، واعلم أنها منضبطةٌ سبحانه ، وما عليك إلا أنْ تضبط نفسك عليها ، وتعمل لها ألف حساب .

وعجيب أنْ يقسم الكفار يوم القيامة ﴿ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ . . . ﴾ [الروم : 55] فإنْ كذبوا في الدنيا ، فهل يَكذْبون أيضاً في الآخرة ؟ قالوا : بل يقولون ذلك على ظنهم ، وإلا فالكلام منهم في هذا الوقت ليس اختيارياً ، فقد مضى وقت الاختيار ، ولمْ يَعُدْ الآن قادراً على الكذب .

لذلك سيقول الحق سبحانه في آخر الآية : ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : 55] فقد كانوا يقلبون الحقائق في الدنيا ، أما في الآخرة فلن يقلبوا الحقائق ، إنما يقولون على حَسْب نظرهم .

والمجرمون : المجرم هو الذي خرج عن المطلوب منه بذنب يخالفه ، فنقول : فلان أجرم ، والقانون يُسمِّي الفعل جريمة .

ومعنى ﴿ مَا لَبِثُواْ . . . ﴾ [الروم : 55] اللبث : المكْث طويلاً أي في الدنيا ، أو : ما لبثوا في قبورهم بعد الموت إلى قيام الساعة ، أو : ما لبثوا بعد النفخة التي تميت إلى النفخة

التي تُحيي .

فهذه فترات ثلاث للبثهم في القبور ، أطولها للذين ماتوا منذ آدم عليه السلام ، ثم أوسطهم الذين جاءوا بعد ذلك أمثالنا ، ثم أقلّهم لُبْثاً وهم الذين يموتون بين النفختين ، وفي كل هذه الفترات يوجد كفار ، وعلى عهد آدم كان هناك كفار ، وعلى مَرِّ العصور بعده يُوجَد كفار ، حتى بين النفختين يوجد كفار ، إذن : فكلمة لبثوا هنا على عمومها : أطول ، وطويل ، وقصيرة ، وأقصر .

(53/605)

وهؤلاء يقولون يوم القيامة " ما لبثنا غير ساعة " مع أن الآخرة لا كذب فيها ، لكنهم يقولون ذلك على حسب ظنهم ؛ لأن الغائب عن الزمن لا يدري به ، والزمن ظرف لوقت الأحداث ، كما أن المكان ظرف لمكانها ، فالنائم مثلاً لا يشعر بالزمن ؛ لأن الزمن يُحسب بتوالي الأحداث فيه ، فإذا كنتَ لا تشعر بالحدث فبالتالي لا تشعر بالوقت ، سواء أكان بنوم كأهل الكهف ، أو بموت كالذي أماته الله مائة عام ثم بعثه .

ولما قاموا من النوم أو الموت لم يُوفّقوا إلا على عادة الناس في النوم ، فقالوا : ﴿ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . ﴾ [الكهف : 19] ؛ لأنه في هذه الحالة لا يدري بالزمن ، إنما يدري

بالزمن الذي يتتبع الأحداث ، وما دام الإنسان في هذه الحالة لا يدرك الزمن ، فهو صادق فيما يخبر به على ظنه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ العَآدِين ﴾ [المؤمنون : 112-113] أي : اسأل الذين يعدُّون الزمن ويحصونه علينا ، والمقصود والملائكة ، فهم الذين يعرفون الأحداث ، ويسجلونها من خَلْق آدم عليه السلام وإلى الآن ، وإلى قيام الساعة .

فلا يسأل عن عدد إلا مَنْ عدَّ بالفعل ، أو مَنْ يمكن أنْ يعُدّ ، أما الشيء الذي لا يكون مظنة العدّ والإحصاء فلا يُعَدُّ ، وهل عَدَّ أحد في الدنيا رمال الصحراء مثلاً ؟ لذلك نسمع في الفكاهات : أن واحداً سأل الآخر : تعرف في السماء كم نجم ؟ قال : تسعة آلاف مليون وخمسمائة ألف وثلاثة وتسعون نجماً ، فقال الأول : أنت كذاب ، فقال الآخر : اطلع عِدّهم .

لكن ، لماذا يستقلّ الكفار الزمن فيُقسمون يوم تقوم الساعة ما لبثوا غير ساعة ؟ وفي موضع آخر يقول عنهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] .

قالوا : لأن الزمن يختلف بحسْب أحوال الناس فيه ، فواحد يتمنى لو طال به الزمن ، وآخر يتمنى لو قصر ، فالوقت الذي يجمعك ومَنْ تحب يمضي سريعاً وتتمنى لو طال ، على خلاف الوقت الذي تقضيه على مَضض مع مَنْ تكره ، فيمر بطيئاً متثاقلاً .

على حدّ قول الشاعر :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً . . . والبَلاَيَا تُكَالُ بالقُفزان

ويقول آخر :

وَدَّعَ الصَّبر محبٌّ ودَّعكَ . . . ذائعٌ مِن سِرِّهِ مَا اسْتَوْدعَكْ

يَقْرعُ السِّنَّ على أنْ لم يكُنْ . . . زَادَ فِي تِلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

إلى أنْ يقولَ :

إنْ يَطُلْ بعدكَ لَيْلى فلكَمْ . . . بِتُّ أشكُو قِصَرَ اللَّيْلِ معكْ

ففي أوقات السرور ، الزمن قصير ، وفي أوقات الغَمِّ الزمن طويل ثقيل ، ألم تسمع للذي يقول – لما جمع الليل شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يا نَوْمُ زُلْ . . . يَا صُبْحُ قِفْ لا تطْلُعِ

كذلك الذي ينتظر سروراً يستبطيء الزمن ، ويود لو مرَّ سريعاً ليعاين السرور الذي ينتظره ، أما الذي يتوقع شراً أو ينتظره فيودُّ لو طالَ الزمن ليبعده عن الشر الذي يخافه .

لذلك نجد المؤمنين يودُّون لو قصر الزمن ؛ لأنهم واثقون من الخير الذي ينتظرهم والنعيم الذي وُعدوا به ، أما المجرمون فعلى خلاف ذلك ، يودُّون لو طال الزمن ليبعَدهم عما ينتظرهم من العذاب ؛ لذلك يقولون ما لبثنا في الدنيا إلا قليلاً ويا ليتها طالتْ بنا . إما لأنهم لا يدرون بالزمن ويقولون حَسْب ظنهم ، أو لأنهم يريدون شيئاً يُبعد عنهم العذاب .

إذن : أقسموا ما لبثوا غير ساعة ، إما على سبيل الظن ، أو لأن الغافل عن الأحداث لا يدري بالزمن ، ولا يستطيع أنْ يُحصيه ، كالعُزير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . ﴾ [البقرة : 259] فأخبره ربه أنه لبث مائة عام ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ . . . ﴾ [البقرة : 259] .

(55/605)

والذي لا شكَّ فيه أن الله تعالى صادق فيما أخبر به ، وكذلك العزير كان صادقاً في حكمه على الزمن ؛ لذلك أقام الحق – سبحانه وتعالى – الدليل على صِدْق القولين فقال : ﴿ فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ . . . ﴾ [البقرة : 259] والطعام لا يتغير في يوم أو بعض يوم ، فقام الطعام والشراب دليلاً على صِدْق الرجل .

ثم قال سبحانه ﴿ وانظر إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا

ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً . . . ﴾ [البقرة: 259] .

فقامت العظام البالية دليلاً على صِدْقه تعالى في المائة عام . ولا تقل: كيف نجمع بين صدق القولين؟ لأن الذي أجرى هذه المسألة رب، هو سبحانه القابض الباسط، يقبض الزمن في حَقِّ قوم، ويبسطه في حَقِّ آخرين .

وهذه الآية ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ . . . ﴾ [الروم: 55] جاءت بعد إعذار الله للكافرين برسله، ومعنى إعذارهم أي: إسقاط عذرهم في أنه سبحانه لم يُبيِّن لهم أدلة الإيمان في قمته بإله واحد، وأدلة الإيمان بالرسول بواسطة المعجزات حتى يؤمنوا بآيات الأحكام في: افعل، ولا تفعل .

فالآيات كما قلنا ثلاث: آيات تثبت قمة العقيدة، وهو الإيمان بوجود الإله القادر الحكيم، وآيات تثبت صِدْق البلاغ عن الله بواسطة رسله، وهذه هي المعجزات، وآيات تحمل الأحكام .

والحق سبحانه لا يطلب من المؤمنين به أنْ يؤمنوا بأحكامه في: افعل ولا تفعل إلا إذا اقتنعوا أولاً بالرسول المبلِّغ عن الله بواسطة المعجزة، ولا يمكن أنْ يؤمنوا بالرسول المبلِّغ عن الله إلا إذا ثبتَ عندهم وجود الله، ووجود الله ثابت في آيات الكون .

لذلك دائماً ما يعرض علينا الحق سبحانه آياته في الكون ، لكن يعرضها متفرقة ، فلم يصبّها علينا صبّاً ، إنما يأتي بالآية ثم يُردِفها بما حدث منهم من التكذيب والنكران ، فيأتي بالآية ونتيجتها منهم ، ذلك ليكرر الإعذار لهم في أنه لم يَعُدْ لهم عُذْر في ألاَّ يؤمنوا .

فنلحظ هذا التكرار في قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم : 46] .

ثم يذكر أن هذه الآيات لم تُجْد معهم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بالبينات فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] .

ثم يسوق آية أخرى : ﴿ الله الذي يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فانظر إلى آثَارِ رَحْمَتِ الله كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : 48-50] .

ثم يذكر سبحانه ما كان منهم بعد كلِّ هذه الآيات : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [الروم : 51] .

وهكذا يذكر الحق سبحانه الآية ، ويُتبعها بما حدث منهم من نكران ، ويكررها حتى لا تبقى لهم حجة للكفر ، ثم تأتي هذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ . . . ﴾ [الروم : 55] لتقول لهم : إنْ كنتم قد كذَّبتم بكل هذه الآيات ، فستأتيكم آية لا تستطيعون تكذيبها هي القيامة .

وعجيب أنْ يُقسِموا بالله في الآخرة ما لبثوا غير ساعة ، وقد كفروا به سبحانه في الدنيا .

وفي الآية جناس تام بين كلمة الساعة الأولى ، والساعة الثانية ، فاللفظ واحد لكن المعنى مختلف ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ . . . ﴾ [الروم : 55] أي : القيامة ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ . . . ﴾ [الروم : 55] أي : من الوقت ، ومن ذلك قول الشاعر :

رَحلْتُ عَنِ الديارِ لكُمْ أَسِيرُ . . . وقَلْبِي فِي محبتِكُمْ أَسِيرُ

أي : مأسور .

ولي أنا وزميلي الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة – أطال الله بقاءه – قصة مع الجناس ، ففي إحدى حصص البلاغة ، قال الأستاذ : لا يوجد في القرآن جناس تام إلا في هذه الآية بين ساعة وساعة ، لكن يوجد فيه جناس ناقص ، فرفع الدكتور محمد أصبعه وقال : يا

أستاذ أنا لا أحب أنْ يُقال : في القرآن شيء ناقص .

فضحك الشيخ منه وقال له : إذن ماذا نقول ؟ وقد قسم أهل البلاغة الجناس إلى تام وناقص : الأول تتفق فيه الكلمتان في عدد الحروف وترتيبها وشكلها ، فإن اختلف من ذلك شيء فالجناس بينهما ناقص ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : 1] فبين هُمزة ولمزة جناس ناقص ؛ لأنهما اختلفا في الحرف الأول .

أذكر أن الشيخ أشار إليَّ وقال : ما رأيك فيما يقول صاحبك ؟ فقلت : نسميه جناس كُل ، وجناس بعض ، يعني : تتفق الكلمتان في كل الحروف أو في بعضها ، وبذلك لا نقول في القرآن : جناس ناقص .

(58/605)

فقولهم ﴿ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ . . . ﴾ [الروم : 55] أي : الساعة الزمنية التي نعرفها ، والزمن له مقاييس : ثانية ، ودقيقة ، وساعة ، ويوم ، وأسبوع ، وشهر ، وسنة ، وقرن ، ودهر ، وهم يقصدون الساعة الزمنية المعروفة لنا .

إذن : فهم يُقلِّلون مدة مُكْثهم في الدنيا أو في القبور لما فاجأتهم القيامة ، وقد أخبرناهم وهم في سَعَة الدنيا أن متاع الدنيا قليل ، وأنها قصيرة وإلى زوال ، فلم يُصدّقوا والآن يقولون : إنها

كانت مجرد ساعة ، ولم يقولوا حتى شهر أو سنة ، فكيف تستقل ما سبق أن استكثرته ، وظننتَ أنك خالد فيه حتى قلتَ

﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر . . . ﴾ [الجاثية : 24]

.

ففي الدنيا كذَّبتم وأنكرتم ، ولم تستجيبوا لداعي الإيمان ، أما الآن في الآخرة فسوف تستجيبون استجابة مصحوبة بحمده تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 52] أي : تقولون الحمد لله والإنسان لا يحمد إلا على شيء محبوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ . . . ﴾ [الروم : 55] أي : كهذا الكذب ﴿ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : 55] والإفك من أَفك إفكاً ، أي : صرف الشيء عن وجهه ؛ لذلك سُمِّي الكذب إفكاً ؛ لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع ، فيأتي بها على غير وجهها ، أو يُوجِدها وهي غير موجودة ، أو ينكر وجودها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] وهي القرى التي قلبها الله ، فجعل عاليها سافلها .

فقوله ﴿ كَذَلِكَ . . . ﴾ [الروم : 55] أي : كهذا الإفك كانوا يُؤْفكون ، يعني : يكذِّبون

الرسل في الحقائق التي جاءوا بها من قِبلَ ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم . . . ﴾ .

(59/605)

قال هنا ﴿ العلم والإيمان . . . ﴾ [الروم : 56] فهل العِلم ينافي الإيمان ؟ لا ، لكن هناك فَرْق بينهما ، فالعلم كسب ، والإيمان أنت تؤمن بالله وإنْ لم تَرَه . إذن : شيء أنت تراه وتعلمه ، وشيء يخبرك به غيرك بأنه رآه ، فآمنتَ بصدقه فصدَّقْتَه ، فهناك تصديق للعلم وتصديق للإيمان ؛ لذلك دائما يُقَال : الإيمان للغيبية عنك ، أما حين يَقْوى إيمانك ، ويَقْوى يقينك يصير الغيب كالمشاهَد بالنسبة لك .

وقد أوضحنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى في خطابه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] .

فقال : ألم تَرَ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلِد عام الفيل ، ولم يتسَنّ له رؤية هذه الحادثة ، قالوا : لأن إخبار الله له أصدق من رؤيته بعينه .

فقوله : ﴿ أُوتُواْ العلم والإيمان . . . ﴾ [الروم : 56] لأن العلم تأخذه أنت بالاستنباط والأدلة . . . الخ ، أو تأخذه ممن يخبرك وتُصدّقه فيما أخبر ، " لذلك النبي

صلى الله عليه وسلم لما سأل الصحابي : "كيف أصبحتَ" ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، قال : "لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك" ؟

يعني : ما مدلول هذه الكلمة التي قلتها ؟

فقال الصحابي : عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ، ومدرها ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون – يريد أن يقول لرسول الله : لقد أصبحتُ وكأني أرى ما أخبرتنا به – فقال له رسول الله : "عرفتَ فالزم" .

لكن ، مَن هم الذين أوتوا العلم ؟ هم الملائكة الذين عاصروا كل شيء ، لأنهم لا يموتون ، أو الأنبياء لأن الذي أرسلهم أخبره ، أو المؤمنون لأنهم صدَّقوا الرسول فيما أخبر به .

(60/605)

وقال ﴿ أُوتُواْ العلم . . . ﴾ [الروم : 56] ولم يقل : علموا ، كأن العلم ليس كَسْباً ، إنما إيتاء من عَالِم منك يعطيك . فإنْ قُلتَ : أليس للعلماء دور في الاستدلال والنَظر في الأدلة ؟ نقول : نعم ، لكن مَنْ نصب لهم هذه الأدلة ؟ إذن : فالعلم عطاء من الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إلى يَوْمِ البعث فهذا يَوْمُ البعث . . . ﴾ [الروم : 56] يعني : مسألة مرسومة ومنضبطة في اللوح المحفوظ إلى يوم البعث ﴿ فهذا يَوْمُ

البعث . . . ﴾ [الروم : 56] الذي كنتم تكذبون به ، أما الآن فلا بُدَّ أنْ تُصدّقوا فقد جاءكم شيء لا تقدرون على تكذيبه ؛ لأنه أصبح واقعاً ومن مصلحتكم أنْ يقبل عذركم ، لكن لن يقبل منكم ، ولن نسمع لكم كلاماً لأننا قدمنا الإعذار سابقاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 56] في أول الآية قال : ﴿ أُوتُواْ العلم . . . ﴾ [الروم : 56] فنسب العلم إلى الله ، أما هنا فنسبه إليهم ؛ لأن الله تعالى نصب لهم الأدلة فلم يأخذوا منها شيئاً ، ونصب لهم الحجج والبراهين والآيات فغفلوا عنها ، إذن : لم يأخذوا من الدلائل والحجج ما يُوصّلهم إلى العلم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفعُ الذين . . . ﴾ .

قوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ . . . ﴾ [الروم : 57] أي : يوم قيام الساعة ﴿ لاَّ ينفعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم : 57] أي : لا يُقبَل منهم عذر ، ومعنى ﴿ ظَلَمُواْ . . . ﴾ [الروم : 57] أي : ظلموا أنفسهم ، والظالم يلجأ إلى الظلم ؛ لأنه يريد أن يأخذ من الغير ما عجزتْ حركته هو عن إدراكه .

فالظلم أنْ تأخذ نتيجة عرق غيرك لتحوله إلى دم فيك ، لكن دمك إنْ لم يكُنْ من عَرَقك فهو دم فاسد عليك ، ولا تأتي منه أبداً حركة إجابة في الوجود لا بُدَّ أن تكون نتيجته حركات شر ؛ لأنه دم حرام ، فكيف يتحرك في سبيل الحلال ؟

لذلك ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلى طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين " ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : 51] وقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ واشكروا للَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : 172] ثم ذكر " الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، فأَنَّى يُستجاب له " " .

إذن : كيف يُستجاب لنا وأبعاضنا كلها غير أهْلٍ لمناجاة الله بالدعاء ؟

ولا يقف الأمر عند عدم قبول العذر ، إنما ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم : 57] العتاب : حوار بلُطْف ودلال بين اثنين في أمر أغضب أحدهما ، وكان من المظنون ألاَّ يكون ، ويجب أن يعرض عليه ليصفي نفسه منه ، كأن يمر عليك صديق فلا يسلم عليك فتغضب منه ، فإنْ كنتَ حريصاً على مودته تقابله وتقول : والله أنا في نفسي شيء منك ، لأنك مررتَ فلم تسلم عليَّ يوم كذا ، فيقول لك : والله كنتُ مشغولاً بكذا وكذا ولم أَرَك ، فيزيل هذا العذر ما في نفسك من صاحبك .

ونقول : عتب فلان على فلان فأعتبه أي : أزال عتابه ؛ لذلك يقولون : ويبقى الود ما بقي العتاب ، ويقول الشاعر :

أَمَّا العِتَابُ فبالأحِبّة أَخْلَق . . . والحُبُّ يَصْلُح بالعِتَاب ويصْدُقُ

والهمزة في أعتب تسمى همزة الإزالة ، ومنها قول الشاعر :

أُرِيدُ سُلوَّكم – أي بعقلي – والقَلْبُ يأْبَى . . . وأعْتِبكُم ومِلءُ النَفْسِ عَتْبى

(62/605)

ومنه ما جاء في مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم لربه يوم الطائف بعد أن لَقي منهم ما لَقِي ، حتى لجأ إلى حائط ، وأخذ يناجي ربه : " ربِّ إلى مَنْ تَكِلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملّكته أمري ؟ إنْ لم يكنْ بك عليَّ غضب فلا أُبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . . إلى أنْ يقول : لك العُتْبى حتى ترضى " .

يعني : يا رب إنْ كنت غضبتَ لشيء بدر مني ، فأنا أريد أن أزيل عتباك عليَّ .

ومن همزة الإزالة قولنا : أعجمت الكلمة أي : أزلْتُ عُجْمتها وخفاءها ، وأوضحت معناها ، ومن ذلك نُسمِّي المعجم لأنه يزيل خفاء الكلمات ويُبيِّنها .

وتقرأ في ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا . . . ﴾ [طه : 15] أي : أقرب أنْ أزيل خفاءها بالآيات والعلامات .

وهذه الكلمة ﴿ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم : 57] وردتْ في القرآن ثلاث مرات ، ووردت مرة

واحدة مبنية للفاعل (يَسْتعتبون) ، لأنهم طلبوا إزالة عتابهم ، فلم يُزِلْه الله ولم يسمح لهم في إزالته ، أما (يُستعتبون) فلأنهم لم يطلبوا العتب بأنفسهم ، إنما جعلوا لهم شفعاء يطلبون لهم ، لكن خَاب ظنهم في هذه وفي هذه .

فالمعنى ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم : 57] لا يجرؤ شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم ، واسألوه أنْ يعتبكم أي : يزيل العتاب عنكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/605)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ضعف)

الضعْف والضُعْف : خلاف القوّةُ .

وقد ضَعُف وضَعَف – الفتح عن يونس – فهو ضعيف .

وقوم ضِعَاف وضُعَفَاءُ وضَعَفَة .

وفرّق بعضهم بين الضُّعْف والضَعْف فقال : [الضعف] – بالفتح – فى العقل والرأى ،

والضُّعف بضمّ – فى الجسد .

ورجل ضَعُوف ، أَى ضعيف .

وكذلك امرأَة ضَعُوف .

وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾ أَى من مَنِىٍّ .

وقوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ ، أَى يستميله هواه .

وقال ابن عرفة : ذهب أَبو عبيدة إلى أَن الضِّعْفين اثنان ، وهذا قول لا أُحبّه ؛ لأَنَّه قال الله تعالى : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ، وقال فى آية أُخرى : ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ فأَعْلَمْ أَن لها من هذا حَظَّيْنِ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ ، أَى لو ركنت إليهم فيما استدعَوْه منك لأَذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ؛ لأَنَّك نبىّ يضاعف لك العذاب على غيرك ، وليس على رسول الله صلَّى الله عليه وسلم نقص فى هذا الخطاب ولا وعيد ، ولكن ذكّره الله تعالى مِنَّته بالتثبيت بالنبوّة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَائِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ قال أَبو بكر : أَراد المضاعفة ، فأَلزم الضِّعْف التَّوحيد ؛ لأَنَّ المصادر ليس سبيلها التثنية والجمع .

قال : والعرب تتكلم بالضِّعف مثنىً فيقولون : إِن أَعطيتنى درهمًا فلك ضِعفاه ، يريدون مثيله .

قال : وإفراده لا بأس به ، إلاَّ أَن التثنية أَحسن .

وقال أَبو عبيدة : ضِعْف الشيء مثله ، وضِعْفاه مثلاه .

وقال في قوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ﴾ : يجعل العذاب ثلاثة أَعذِبة ، قال :

ومَجَاز يضاعف : يجعل إلى الشيء شيئان حتى يصير ثلاثة .

وقال الأَزهريّ : الضِّعف في كلام العرب : المثْل إلى ما زاد ، وليس بمقصور على المِثلين .

(64/605)

فيكونَ ما قال أَبو عبيدة صواباً ، بل جائز في كلام العرب أَن تقول : هذا ضعفه أَي مِثلاه وثلاثة أَمثاله ؛ لأَنَّ الضعف في الأَصل [زيادة] غير محصورة ، أَلا ترى إلى قوله عزَّ وجل : ﴿ فَأُوْلَائِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ لم يُرد مِثلا ولا مِثْلين ، ولكنَّه أَراد بالضعْف الأَضعاف .

قال : وأَوْلَى الأَشياء فيه أَن يجعل عشرة أَمثاله كقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ، الآية فأَقلّ الضعف محصور وهو المِثْل ، وأَكثره غير محصور .

ورجل مَضعوفٌ على غير قياس ، والقياس مُضْعَف .

وحِمْيَر تسمّي المكفوف ضعيفاً ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ أَي

ضريراً .

وأَضعاف البدن : أَعضاؤه .

وأَضعفَه : جعله ضِعفين .

واستضعفه : عدّة ضعيفا .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ .

وتضعّفه بمعناه ، ومنه قوله صلَّى الله عليه وسلم : "أَلا أُنَبِّئُك بأَهل الجنَّة .

كلُّ ضعيف متضعَّف ذى طِمْرَين لا يُؤْبَهُ به ، لو أَقسم على الله لأَبرَّه" .

وضاعفه أَى أَضعفه من الضِّعْف ، قال الله تعالى : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾ .

وقال الراغب استضعفته : وجدته ضعيفاً .

وقوبل بالاستكبار : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ .

وقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ ، فالثانى غير الأَوّل ، وكذا الثالث .

فانَّ قوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾ أَى من نطفة أَو تراب .

والثانى : هو الضَّعف الموجود فى الجنين والطِّفل .

والثالث : الذى بعد الشيوخوخة وهو المشار إليه بأَرذل العمرُ .

والقوّتان : الأُولى : هى التى تُجعل للطفل من التحرك وهدايته لاستدعاءِ اللبَن ، ودفع

الأَذى عن نفسه بالبكاءِ .

والقوّة الثانية : التى بعد البلوغ .

(65/605)

ويدل على أَنّ كلّ واحد من قوله : (ضَعْف) إشارة إلى حالة غير الحالة الأَولى ذكرُه منكّرًا ، والمنكّر متى أُعيد ذِكره وأُريد به ما تقدّم عُرّف ، كقولك : رأَيت رجلاً فقال لى الرّجل ، ومتى ذُكِر ثانيا منكَّرًا أُريد به غير الأَوّل ، ولذلك قال بن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ : لن يغلب عسرٌ يُسْرَيْن .

وقوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ فضعفُه كثرة حاجاته التى يستغنى عنها الملأُ الأَعلى .

وقولُه : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ فضعف كيده إنما هو مع (من صار) من عباد الله المذكورين فى قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ .

والضِّعْفُ من الأَسماء المتضايفة التى يقتضى وجودُ أَحدهما وجودَ الآخر ؛ كالنصف والزوج ، وهو تركُّب قَدْرين متساويين ، ويختصّ بالعدد .

فإِذا قيل : أَضعفت الشىء وضعَّته وضاعفته : ضممتُ إليه مثله فصاعدًا .

وقال بعضهم : ضاعفت أَبلغ مِنْ ضَعّفت ، ولهذا قرأ أَكثرهم (يُضَاعَفْ) قال تعالى :

﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ ، ومن قال : ضَعَفته بالتخفيف ضَعْفًا فهو مضعوف قال :

الضَّعْف مصدر ، والضِّعْف اسم ، كالثَّنْيِ والثِّنْيِ .

فضِعْف الشيء هو الذى تَثْنِيهِ .

ومتى أَضيف إلى عدد اقتضى ذلك العددُ مثلَه ، نحو أَن يقال : ضِعفُ العشرة ، وضعف

مائة ، فذلك عشرون ومائتان بلا خلاف .

وعلى هذا قال :

*جَزَيْتُكِ ضِعف الودّ لمّا اشتكيته * وما إِنْ جزاكِ الضِّعفَ من أَحد قَبْلى *

وإِذا قيل : أَعْطِهِ ضِعْفَىْ واحد اقتضى ذلك ومثلَيْه ، وذلك ثلاثة ، لأَنَّ معناه الواحد

واللذان يزاوجانه ، وذلك ثلاثة .

(66/605)

هذا إِذا كان الضِّعْف مضافًا ، ([فأَما إِذا لم يكن مضافا] فقلت : الضعفَيْن ، فإِنَّ ذلك قد

يجرى مجرى الزَّوجين فى أَنّ كلّ واحد منهما يزاوج الآخر ، فيقتضى ذلك اثنين ؛ لأَن كلّ

واحد منهما يضاعف الآخر ، فلا يخرجان عن الاثنين ، بخلاف ما إِذا أُضيف الضعفان

إلى واحد فَيَثْلِثهما نحو ضِعْفَىْ الواحد) .

وقوله : ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً ﴾ ، قيل : أَتى باللفظين على التأكيد ، وقيل : بل المضاعفة من الضَّعف لا من الضِّعْف ، والمعنى : ما تعدُّونه ضِعفًا هو ضَعف أَى نقص ، كقوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ﴾ فإِنَّهُمْ سأَلوه أَن يعذّبهم عذابًا بضلالهم وعذابًا بإِضلالهم ، كما أَشار بقوله : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ ، أَى لكل منهم ضعف ما لكم من العذاب .

وقيل : أَى لكل منكم ومنهم ضعف ما يرى الآخر ، فإِن من العذاب ظاهرا وباطنًا ، وكلّ يدرك من الآخر الظاهرَ دون الباطن ، فيقدّر أَن ليس له العذاب الباطن .

قال المتنبّى فى لفظ الضعف :

ولستَ بدُونٍ يُرتجَى الغيث دُونه * ولا منتهى الجود الذى خلفَه خَلْفُ *

ولا واحدا فى ذا الوَرَى من جماعة * ولا البعضَ من كلّ ولكنَّك الضِّعفُ *

ولا الضِّعف حتى يتبع الضِّعفَ ضِعْفُه * ولا ضِعف ضِعف الضِّعفِ بل مثلَه أَلْفُ * .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 474 . 479 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم :

آخر الأمر ما ترى . . . القبر واللحد والثرى

كذلك فى ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية فى نعت التردد والحيرة فى الطلب ، ثم بعد قوة الوصل فى ضعف التوحيد .

ويقال أولاً ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله ، ثم قوة البيان في حال العرفان ، لأنه بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخمود ، لأنه الخمود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر .

ويقال ﴿ خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ : أي حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود ثم بعده ضعف المسكنة ، قال صلى الله عليه وسلم : " أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني فى زمرة المساكين " .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

إنما كان ذلك لأحد أمرين : إمَّا لأنهم كانوا أمواتاً . . والميت لا إحساس له ، أو لأنهم عَدُّوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يَرَوْن ذلك اليوم يسيراً . وإن أهل التحقيق يخبرونهم

عن طول لُبْثِهم تحت الأرض . وإن ذلك الذي يقولونه من جملة ما كانوا يظهرون من جَحْدهم على موجب جهلهم ، ثم لا يُسْمَعُ عَذْرُهم ، ولا يُدْفَعُ ضُرَّهم .

وأخبر بعد هذا في آخر السورة عن إصرارهم وانهماكهم في غيِّهم ، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم .

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم ومضارهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 125.126 ﴾

(68/605)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبانت هذه السورة طرق الإيمان أيّ بيان ، وألقت على وجوه أهل الطغيان غاية الخزي والهوان ، وكان التقدير : لقد أتينا في هذه السورة خاصة بعد عموم ما في سائر القرآن بكل حجة لا تقوم لها الأمثال ، ولم نبق لأحد عذراً ولا شيئاً من إشكال ، لكونها ليس لها في وضوحها مثال ، عطف عليه قوله صارفاً الكلام إلى مقام العظمة تقبيحاً لمخالفتهم لما يأتي من قبله وترهيباً من الأخذ مؤكداً لأنهم ينكرون أن يكون في القرآن دلالة ، ومن أقر منهم مع الكفر فكفره قائم مقام إنكاره : ﴿ ولقد ضربنا ﴾ .

ولما كانت العناية فيها بالناس أكثر ، قال : ﴿ للناس ﴾ فقدمهم في الذكر ﴿ في هذا القرآن ﴾ أي عامة هذه السورة وغيرها ﴿ من كل مثل ﴾ أي معنى غريب هو أوضح وأثبت من أعلام الجبال ، في عبارة هي أرشق من سائر الأمثال .

ولما كان المختوم على مشاعرهم منهم لا يؤمنون بشيء .

(69/605)

وكان ذلك من أدل دليل على علمه تعالى وقدرته ، قال مقسماً تكذيباً لقولهم في الاقتراحات خاصاً من أهل العلم والإيمان رأسهم ، دلالة على أن التصرف في القلوب من العظم بمكانة تجل عن الوصف ، معبراً بالشرط إعلاماً بأنه سبحانه لا يجب عليه شيء ،

عاطفاً على نحو : فلم ينفعهم شيء من ذلك : ﴿ ولئن جئتهم ﴾ أي الناس عامة ﴿ بآية ﴾ أي دلالة واضحة على صدقك معجزة ، غير ما جئتهم به مما اقترحوه ووعدوا الإيمان به مرئية كانت أو مسموعة ﴿ ليقولن الذين كفروا ﴾ أي حكمنا بكفرهم غلظة وجفاء ، ودل على فرط عنادهم بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ولما كان التخصيص بالغلظة أشد على النفس ، ضم إليه أتباعه تسلية وبياناً لعظيم شقاقهم فقال : ﴿ أنتم ﴾ أي أيها الآتي بالآية وأتباعه ﴿ إلا مبطلون ﴾ أي من أهل العرافة في الباطل بالإتيان بما لا حقيقة له في صورة ما له حقيقة ، وأما الذين آمنوا فيقولون : نحن بهذه الآية مؤمنون .

ولما كان من أعجب العجب أن من يدعي العقل يصر على التكذيب بالحق ، ولا يصغي لدليل ، ولا يهتدي لسبيل ، قال مستأنفاً في جواب من سأله : هل يكون مثل هذا الطبع ؟ ومرغباً في العلم : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الطبع العظيم جداً ، ولما كان كون الشيء الواحد لناس هداية ولناس ضلالة جامعاً إلى العظمة تمام العلم والحكمة ، صرف الخطاب عنها إلى الاسم الأعظم الجامع فقال : ﴿ يطبع الله ﴾ أي الذي لا كفوء له ، فمهما أراد كان ، عادة مستمرة ، ونبه على كثرة المطبوع عليهم بجمع الكثرة فقال : ﴿ على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ أي لا يجددون – أي لعدم القابلية – العلم بأن لا يطلبوا علم ما يجهلونه مما حققه هذا الكتاب من علوم الدنيا والآخرة رضىً منهم بما عندهم من جهالات سموها دلالات ، وضلالات ظنوها هدايات وكمالات .

ولما كان هذا مذكراً بعظيم قدرته بعد الإياس من إيمانهم ، سبب عنه قوله : ﴿ فاصبر ﴾ أي على إنذارهم مع هذا الجفاء والرد بالباطل والأذى ، فإن الكل فعلنا لم يخرج منه شيء عن إرادتنا .

ولما كان قد تقدم إليه بأنه لا بد أن يظهر أمره على كل أمر ، علله بقوله مؤكداً لأن إنفاذ مثل ذلك في محل الإنكار لعظم المخالفين وكثرتهم مظهراً غير مضمر لئلا يظن التقييد بحيثية الطبع : ﴿ إن وعد الله ﴾ أي الذي له الكمال كله في كل ما وعدك به الذي منه نصرك وإظهار دينك على الدين كله ونصر من قارب أتباعك في التمسك بكتاب من كتب الله وإن كان قد نسخ على من لا كتاب له ﴿ حق ﴾ أي ثابت جداً يطابقه الواقع كما يكشف عنه الزمان ، وتأتي به مطايا الحدثان .

ولما كان التقدير : فلا تعجل ، عطف عليه قوله : ﴿ ولا يستخفنك ﴾ أي يحملنك على الخفة ويطلب أن تخف باستعجال النصر خوفاً من عواقب تأخيره أو بتفتيرك عن التبليغ ، بل كن بعيداً منهم بالغلظة والجفاء والصدع بمر الحق من غير محاباة ما ، بعداً لا يطمعون معه أن يحتالوا في خفتك في ذلك بنوع احتيال ، وقراءة " يستحقنك " من الحق معناها : أي لا

يطلب منك الحق الذي هو الفصل العدل بينك وبينهم أي لا تطلبه أنت ، فهو مثل : لا أرينك ههنا تنهى نفسك وأنت تريد نهيه عن الكون بحيث تراه ، والنهي في قراءة الجماعة بالثقيلة أشد منه في رواية رويس عن يعقوب بالخفيفة ، فقراءة الجماعة مصوبة إلى أصل الدين ، أي لا تفعل معهم فعلاً يطمعهم في أن تميل إليهم فيه ، وقراءة رويس إلى نحو الأموال فإنه كان يتألفهم بالإيثار بها ، ولا شك أنه إذا آثرهم على أكابر المسلمين أطمعهم ذلك في أن يطلبوا أن يميل معهم ، وما أفاد هذا إلا تحويل النهي ، ولو قيل : لا تخفن معهم ، لم يفد ذلك ، ولا يقال عكس هذا من أن النهي في الثقيلة أخف لأنه نهي عن الفعل المؤكد فيبقى أصل الفعل .

(71/605)

وكذا ما صحبه تأكيد خفيف ، وفي الخفيفة غير المؤكد تأكيداً خفيفاً فلا يبقى غير أصل الفعل فهو أبلغ ، لأن النون لم تدخل إلا بعد دخول الناهي فلم تفد إلا قوة النهي لا قوة المنهي عنه – والله أعلم .

﴿ الذين لا يوقنون ﴾ أي أذى الذين لا يصدقون بوعودنا تصديقاً ثابتاً في القلب بل هم إما شاكون فأدنى شيء يزلزلهم كمن يعبد الله على حرف ، أو مكذبون بنصر الله لأوليائه المؤمنين ولمن قاربهم في التمسك بكتاب أصله صحيح ، فهم يبالغون في العداوة والتكذيب

حتى أنهم ليخاطرون في وعد الله بنصر الروم على فارس ، كأنهم على ثقة وبصيرة من أمرهم في أن ذلك لا يكون ، فإذا صدق الله وعده في ذلك بإظهار عن قريب علموا كذبهم عياناً ، وعلموا - إن كان لهم علم - أن الوعد بالساعة لإقامة العدل على الظالم والعود بالفضل على المحسن كذلك يأتي وهو صاغرون ، ويحشرون وهو داخرون ، ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : 227] ، فقد انعطف آخرها على أولها عطف الحبيب على الحبيب ، واتصل به اتصال القريب بالقريب ، والتحم التحام النسيب بالنسيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 645. 647 ﴾

(72/605)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كل مَثَل ﴾

إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار ، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير ، فإن طلبوا شيئاً آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل ، بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل آخر بعد ما ذكر دليلاً جيداً

مستقيماً ظاهراً لا غبار عليه وعانده الخصم ، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أو لا يعترف ، فإن اعترف يكون انقطاعاً وهو يقدح في الدليل أو المستدل ، إما بأن الدليل فاسد ، وإما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال ، وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبي عليه الصلاة والسلام ، وإن لم يعترف يكون الشروع في غيره موهماً أن الخصم ليس معانداً فيكون اجتراؤه على العناد في الثاني أكثر لأنه يقول العناد أفاد في الأول حيث التزم ذكر دليل آخر .

فإن قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعاً من الدلائل ، نقول سردوها سرداً ، ثم قرروها فرداً فرداً ، كمن يقول الدليل عليه من وجوه : الأول كذا ، والثاني كذا ، والثالث كذا ، وفي مثل هذا الواجب عدم الالتفات إلى عناد المعاند لأنه يزيده بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ما وعد من الدلائل فتنحط درجته فاذن لكل مكان مقال .

وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ وفي توحيد الخطاب بقوله : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ ﴾ والجمع في قوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ لطيفة وهي أن الله تعالى قال : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِكُلِّ ءايَةٍ ﴾ جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون .

ثم بين تعالى أن ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله : ﴿ كذلك يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن قيل من لا يعلم شيئاً أية فائدة في الإخبار عن الطبع على قلبه ؟ نقول المعنى هو أن من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ، ثم إنه تعالى سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي أن صدقك يبين وقوله : ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ إشارة إلى وجوب مداومة النبي عليه الصلاة والسلام على الدعاء إلى الإيمان فإنه لو سكت لقال الكافر إنه متقلب الرأي ، لا ثبات له ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 121 ﴾

(74/605)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾

هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل وجهين

: أحدهما : أن وعد الله في نصرك وتأييدك حق .

الثاني : أن وعده في انتقامه من أعدائك حق .

﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : لا يَسْتَعْجِلَنَّكَ ، قاله ابن شجرة .

الثاني : لا يَسْتَفِزَّنَّكَ ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : لا يستنزلنك ، قاله النقاش .

﴿ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لا يؤمنون .

الثاني : لا يصدقون بالبعث والجزاء ، روى سعيد عن قتادة أن رجلاً من الخوارج قال لعلي كرم الله وجهه وهو خلفه في صلاة الصبح ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الآية . فقال له عليّ وهو في الصلاة ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(75/605)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾

ثم أخبر تعالى عن قسوة قلوبهم وعجرفة طباعهم في أنه ضرب لهم كل مثل وبين عليهم بيان الحق ثم هم مع ذلك الآية والمعجزة يكفرون ويلجون ويعمهون في كفرهم ، ويصفون أهل الحق بالإبطال ، ثم أخبر تعالى أن هذا إنما هو من طبعه وختمه على قلوب الجهلة الذين قد حتم عليهم الكفر في الأزل ، وذهب أبو عبيدة إلى أنه من قولهم طبع السيف أي صدىء أشد صدأ ، ثم أمر نبيه بالصبر وقوى نفسه لتحقيق الوعد ونهاه عن الاهتزاز لكلامهم والتحرك واضطراب النفس لأقوالهم إذ هم لا يقين لهم ولا بصيرة ، وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب " يستحقنك " بحاء غير معجمة وقاف من الاستحقاق ، والجمهور على الخاء المعجمة والفاء من الاستخفاف ، إلا أن ابن أبي إسحاق ويعقوب سكنا النون من " يستخفنك " ، وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان في صلاة الفجر فناداه رجل من الخوارج بأعلى صوته فقرأ هذه الآية : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] ، فعلم علي رضي الله عنه مقصده في هذا وتعريضه به فأجابه وهو في الصلاة بهذه الآية : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(76/605)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولئن جئتَهم بآية ﴾

أي : كعصا موسى ويده ﴿ لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ أَنْتم ﴾ أي : ما أنتم يا محمد وأصحابك ﴿ إِلا مُبْطِلون ﴾ أي : أصحاب أباطيل ، وهذا بيان لعنادهم .

﴿ كذلك ﴾ أي : كما طبع على قلوبهم حتى لا يصدّقون الآيات ﴿ يَطبع اللّهُ على قُلوب الذين لا يَعْلَمون ﴾ توحيد الله ؛ فالسبب في امتناع الكفار من التوحيد ، الطَّبْع على قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ فاصْبِر إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بنصرك وإظهارك على عدوّك ﴿ حقٌّ ﴾ .

﴿ ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ وقرأ يعقوب إلا روحاً وزيداً : ﴿ يَسْتَخِفَّنْكَ ﴾ بسكون النون .

قال الزجاج : لا يستفزّنّك عن دِينك ﴿ الذين لا يُوقِنونَ ﴾ أي : هم ضُلاّلٌ شاكُّونَ .

وقال غيره : لا يُوقِنون بالبعث والجزاء .

وزعم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(77/605)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾

أي مِن كل مَثَل يدلُّهم على ما يحتاجون إليه ، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل .

﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أي معجزة ؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿ لَّيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ أَنتُمْ ﴾ يا معشر المؤمنين .

﴿ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ أي تتبعون الباطل والسحر ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أدلّة التوحيد ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي اصبر على أذاهم فإن الله ينصرك .

﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ أي لا يستفزنّكَ عن دينك ﴿ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ قيل : هو النضر بن الحارث .

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ يقال : استخف فلان فلاناً أي استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ .

وهو في موضع جزم بالنهي ، أُكّد بالنون الثقيلة فبُنَي على الفتح كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر .

"الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ" في موضع رفع ، ومن العرب من يقول : اللذون في موضع الرفع .

وقد مضى في "الفاتحة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾

لما ذكر دلائل الآفاق ، ذكر شيئاً من دلائل الأنفس ، وجعل الخلق من ضعف ، لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفوليته ، كقوله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ والقوة التي تلت الضعف ، هي رعرعته ونماؤه وقوته إلى فصل الاكتهال .

والضعف الذي بعد القوة هو حال الشيخوخة والهرم .

وقيل : ﴿ من ضعف ﴾ : من النطفة ، كقوله : ﴿ من ماء مهين ﴾ والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه .

وقرأ الجمهور : بضم الضاد في ضعف معاً ؛ وعاصم وحمزة : بفتحها فيهما ، وهي قراءة عبد الله وأبي رجاء .

وروي عن أبي عبد الرحمن والجحدري والضحاك : الضم والفتح في الثاني .

وقرأ عيسى : بضمتين فيهما .

والظاهر أن الضعف والقوة هما بالنسبة إلى ما عدا البدن من ذلك ، وإن الضم والفتح بمعنى

واحد في ضعف .

وقال كثير من اللغويين : الضم في البدن ، والفتح في العقل .

﴿ ما لبثوا ﴾ : هو جواب ، وهو على المعنى ، إذ لو حكى قولهم ، كان يكون التركيب : ما لبثنا غير ساعة ، أي ما أقاموا تحت التراب غير ساعة ، وما لبثوا في الدنيا : استقلوها لما عاينوا من الآخرة ، أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث ، وإخبارهم بذلك هو على جهة التسور والتقول بغير علم ، أو على جهة النسيان ، أو الكذب .

﴿ يؤفكون ﴾ : أي يصرفون عن قول الحق والنطق بالصدق .

﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ : هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون .

﴿ في كتاب الله ﴾ : فيما وعد به في كتابه من الحشر والبعث والعلم يعم الإيمان وغيره ، ولكن نص على هذا الخاص تشريفاً وتنبيهاً على محله من العلم .

وقيل : ﴿ في كتاب الله ﴾ : اللوح المحفوظ ، وقيل : في علمه ، وقيل : في حكمه .

وقرأ الحسن : البعث ، بفتح العين فيهما ، وقرىء : بكسرها ، وهو اسم ، والمفتوح مصدر .

وقال قتادة : هو على التقديم والتأخير ، تقديره : أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان .

﴿ لقد لبثتم ﴾ : وعلى هذا تكون في بمعنى الباء ، أي العلم بكتاب الله ، ولعل هذا القول لا يصح عن قتادة ، فإن فيه تفكيكاً للنظم لا يسوغ في كلام غير فصيح ، فكيف يسوغ في كلام الله ؟ وكان قتادة موصوفاً بعلم العربية ، فلا يصدر عنه مثل هذا القول .

والفاء في : ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ عاطفة لهذه الجملة المقولة على الجملة التي قبلها ، وهي : ﴿ لقد لبثتم ﴾ ، اعتقبها في الذكر .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما هذه الفاء ، وما حقيقتها ؟ قلت : هي التي في قوله : فقد جئنا خراسانا . . .

وحقيقتها أنها جواب شرط يدل عليه الكلام ، كأنه قال : إن صح ما قلتم من أن أقصى ما يراد بنا قلنا القفول : قد جئنا خراساناً ، وإذا أمكن جعل الفاء عاطفة ، لم يتكلف إضمار شرط ، وجعل الفاء جواباً لذلك الشرط المحذوف ، لا تعلمون لتفريطكم في طلب الحق واتباعه .

وقيل : لا تعلمون البعث ولا تعرفون به ، فصار مصيركم إلى النار ، فتطلبون التأخير .

﴿ فيومئذ ﴾ : أي يوم إذ ، يقع ذلك من إقسام الكفار وقول أولي العلم لهم .

وقرأ الكوفيون : ﴿ لا ينفع ﴾ ، بالياء هنا وفي الطول ، ووافقهم نافع في الطول ؛ وباقي السبعة بتاء التأنيث .

﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ ، قال الزمخشري : من قولك : استعتبني فلان فأعتبته : أي استرضاني فأرضيته ، وذلك إذا كان جانياً عليه ، وحقيقته : أعتبته : أزلت عتبه .

ألا ترى إلى قوله :

غضبت تميم أن يقتل عامر . . .

يوم النثار فأعتبوا بالصيلم

كيف جعلهم غضاباً .

(80/605)

ثم قال : فأعتبوا : أي أزيل غضبهم ، والغضب في معنى العتب ، والمعنى : لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾ فإن قلت : كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات ، وغير معتبين في بعضها ؟ وقوله : ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ قلت : أما كونهم غير مستعتبين ، فهذا معناه ؛ وأما كونهم غير معتبين ، فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه ؛ فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم ، فهم عاتبون على الجاني ، غير راضين منه .

فإن يستعتبوا الله : أي يسألوه إزالة ما هم فيه ، فما هم من المجابين إلى إزالته .

وقال ابن عطية : هذا إخبار عن هول يوم القيامة ، وشدّة أحواله على الكفرة في أنهم لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يعطون عتبى ، وهو الرضا .

ويستعتبون بمعنى : يعتبون ، كما تقول : يملك ويستملك .

والباب في استفعل أنه طلب الشيء وليس هذا منه ، لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه ، ولا يطلب منهم عتبى . انتهى .

فيكون استفعل في هذا بمعنى الفعل المجرد ، وهو عتب ، أي هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب .

وقد قيل : لا يعاتبون على سيئاتهم ، بل يعاقبون .

وقيل : لا يطلب لهم العتبى .

وقيل : لا يلتمس منهم عمل وطاعة ، ولكن ضربنا إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار .

وقال الزمخشري : وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كصفة المبعوثين يوم القيامة ، وما يقال لهم ، وما لا يقع من اعتذارهم ، ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة ، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا : أجئتنا بزور باطل ؟ انتهى .

و﴿ أنتم ﴾ : خطاب للرسول والمؤمنين ، أي : تبطلون في دعواكم الحشر والجزاء .

وقال أبو عبد الله الرازي : وفي توحيد الخطاب بقول : ﴿ ولئن جئتهم ﴾ ، والجمع في قوله : ﴿ إن أنتم ﴾ لطيفة ، وهي : أن الله عز وجل قال : ﴿ ولئن جئتهم ﴾ بكل آية جاءت بها الرسل ، فيمكن أن يجاوبوه بقوله : أنتم كلكم أيها المدعون الرسالة مبطلون .

﴿ كذلك يطبع الله ﴾ : أي مثل هذا الطبع يطبع الله ، أي يحتم على قلوب الجهلة الذين قد حتم الله عليهم الكفر في الأزل ، وأسند الطبع إلى ذاته تعالى ، إذ هو فاعل ذلك ومقدره .

وقال الزمخشري : ومعنى طبع الله : صنع الألطاف التي يشرح لها الصدور حتى تقبل الحق ، ثم قال : فكأنه كذلك تصدأ القلوب وتقسو قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين ، وهم أعرف خلق الله في تلك الصفة .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

ثم أمره تعالى بالصبر على عداوتهم ، وقوّاه بتحقق الوعد أنه لا بد من إنجازه والوفاء به ، ونهاه عن الاهتزاز بكلامهم والتحرك ، فإنهم لا يقين لهم ولا بصيرة .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، ويعقوب : ولا يستحقنك : بحاء مهملة وقاف ، من الاستحقاق ؛ والجمهور : بخاء معجمة وفاء ، من الاستخفاف ؛ وسكن النون ابن أبي عبلة ويعقوب ،

والمعنى : لا يفتننك ويكونوا أحق بك من المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(82/605)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾

أي وبالله لقد بينَّا لهم كلَّ حالٍ ووصفنا لهم كلَّ صفةٍ كأنَّها في غرابتها مَثَلٌ وقصصنا عليهم كلَّ قصَّةٍ عجيبةِ الشَّأنِ كصفةِ المبعوثينَ يومَ القيامةِ وقصتهم وما يقولُونَ وما يُقال لهم ويفعلُ بهم من ردِّ اعتذارهم ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِئَايَةٍ ﴾ من آياتِ القُرآنِ النَّاطقةِ بأمثالِ ذلك ﴿ لَّيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ لفرطِ عتوّهم وعنادِهم وقساوةِ قلوبِهم مخاطبينَ للنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنين ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ أي مزوِّرون ﴿ كذلك ﴾ مثلَ ذلك الطَّبعِ الفظيعِ ﴿ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ لا يطلبونَ العلمَ ولا يتحرَّون الحقَّ بل يُصرُّون على خرافاتٍ اعتقدوها وتُرَّهاتٍ ابتدعُوها فإن الجهلَ المركَّبَ يمنعُ إدراكَ الحقِّ ويوجبُ تكذيبَ المُحقِّ .

(83/605)

﴿ فاصبر ﴾ على ما تُشاهد منهم من الأقوالِ الباطلةِ والأفعالِ السيئةِ ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ وقد وعدك بالنُّصرةِ وإظهارِ الدِّينِ وإعلاءِ كلمةِ الحقِّ ولا بُدَّ من إنجازِه والوفاءِ به لا محالةَ ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ لا يحملنَّك على الخفَّةِ والقلقِ ﴿ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ بما تتلو عليهم من الآياتِ البيّنةِ بتكذيبهم إيَّاها وإيذائِهم لك بأباطِيلِهم التي مِنْ جُملتها قولُهم إنْ أنتُم إلا مُبطلون فإنَّهم شاكُّون ضالُّون ولا يُستبعد منهم أمثالُ ذلك . وقُرِىء بالنُّون المخففةِ وقُرِىء ولا يستحقنَّك من الاستحقاقِ أي لا يفتُننَّك فيملكوكَ ويكونُوا أحقَّ بك من المؤمنينَ . وأياً ما كان فظاهرُ النَّظمِ الكريمِ وإنْ كانَ نهياً للكَفَرةِ عن استخفافِه عليه السَّلامُ عن التَّأثرِ من استخفافِهم والافتنانِ بفتنتِهم على طريقِ الكنايةِ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَن لاَّ تَعْدِلُواْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(84/605)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾

أي وبالله تعالى لقد وصفنا للناس من كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل صفة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ، فضرب المثل اتخاذه وصنعه من ضرب الخاتم واللبن . والمثل مجاز عن الصفة الغريبة ، والمراد بهذا القرآن إما هذه السورة الجليلة الشأن أو المجموع وهو الظاهر ، و ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية وجوزت الزيادة ، وقيل : المعنى وبالله تعالى لقد بينا للناس من كل مثل ينبؤهم عن التوحيد والبعث وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، فضرب بمعنى بين والمثل على أصله ، وقيل : الدليل العجيب والقرآن بمعنى المجموع ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أي مع ضربنا لهم من كل مثل في هذا القرآن الجليل الشأن لئن جئتهم بآية من آياته ﴿ لَّيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين لك وللمؤمنين ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ أي مزورون ، وجوز حمل الآية على المعجزة أي لئن جئتهم بمعجزة من المعجزات التي اقترحوها ليقولن الذين كفروا الخ ، والاتيان بالموصول دون الضمير لبيان السبب الحامل على القول المذكور ، وإذا أريد بالناس ما يعم الكفرة وغيرهم فوجه الإظهار ظاهر ، وتوحيد الخطاب في ﴿ جِئْتَهُمْ ﴾ على ما يقتضيه الظاهر ، وأما جمعه في قولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ فلئلا يبقى بزعمهم له عليه الصلاة والسلام شاهد من المؤمنين حيث جعلوا الكل مدعين ، وقال الإمام : في توحيد الخطاب في ﴿ جِئْتَهُمْ ﴾ وجمعه في ﴿ أَنتُمْ ﴾ لطيفة وهي أن الله تعالى قال : إن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل

عليهم السلام ويمكن أن يجاء بها يقولوا : أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون انتهى ، ولا يخفى أن ما ذكرناه أحسن وألطف .

(85/605)

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الطبع الفظيع ، وجوز أن يكون المعنى مثل ذلك القول ﴿ يَطْبَعُ ﴾ أي يختم ﴿ الله ﴾ الذي جلت عظمته وعظمت قدرته ﴿ على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها ، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق ، ومن هنا قالوا : هو شر من الجهل البسيط ، وما ألطف ما قيل :

قال حمار الحكيم توما . . .

لو أنصفوني لكنت أركب لأنني جاهل بسيط

وصاحبي جاهل مركب . . .

وإطلاق العلم على الطلب مجاز لما أنه لازم له عادة وقيل : المعنى يطبع الله تعالى على قلوب الذين ليسوا من أولى العلم ، وليس بذاك ، والمراد من ﴿ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يحتمل أن يكون الذين كفروا فيكون قد وضع الموصول موضع ضميرهم للنعي بما في حيز العلة ،

ويحتمل أن يكون عاماً ويدخل فيه أولئك دخولاً أولياً .

وظاهر كلام بعض الأجلة يميل إلى الاحتمال الأول ، وقد تقدم الكلام في طبعه وختمه عز وجل على القلب .

(86/605)

﴿ فاصبر ﴾ أي إذا علمت حالهم وطبع الله تعالى على قلوبهم فاصبر على مكارههم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ وقد وعدك عز وجل بالنصرة وإظهار الدين وإعلاء كلمة الحق ولا بد من إنجازه والوفاء به لا محالة ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق ﴿ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم إياها وإيذائهم لك بأباصيلهم التي من جملتها قولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ [الروم : 58] فإنهم شاكون ضالو ولا يستبدع أمثال ذلك منهم ، وقيل : أي لا يوقنون بأن وعد الله حق وهو كما ترى ، والحمل وإن كان لغيره صلى الله عليه وسلم لكن النهي راجع إليه عليه الصلاة والسلام فهو من باب لا أرينك ههنا وقد مر تحقيقه فكأنه قيل : لا تخف لهم جزعاً ، وفي الآية من إرشاده تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وتعليمه سبحانه له كيف يتلقى المكاره بصدر رحيب ما لا يخفى .

وقرأ ابن أبي إسحق .

ويعقوب ﴿ وَلاَ ﴾ بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق ، والمعنى لا يفتننك الذين لا يوقنون ويكونوا أحق بك من المؤمنين على أنه مجاز عن ذلك لأن من فتن أحداً استماله إليه حتى يكون أحق به من غيره ، والنهي على هذه القراءة راجع إلى أمته عليه الصلاة والسلام دونه صلى الله عليه وسلم لمكان العصمة ، وقد تقدم نظائر ذلك وما للعلماء من الكلام فيها .

وقرأ الجمهور بتشديد النون وخففها ابن أبي عبلة .

ويعقوب ، ومن لطيف ما يروى ما أخرجه ابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والحاكم .

(87/605)

والبيهقي في "سننه" عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رجلاً من الخوارج ناداه وهو في صلاة الفجر فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] فأجابه كرم الله تعالى وجهه وهو في الصلاة ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ ولا بدع في هذا الجواب من باب مدينة العلم وأخي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(88/605)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ ﴾

كما أرسلناك إلى قومك ﴿ فَجَاءُوهُم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات ، والحجج النيرات ﴿ فانتقمنا ﴾ : أي فكفروا فانتقمنا ﴿ مِنَ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ أي فعلوا الإجرام ، وهي الآثام ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه ، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد ، وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين ، ووقف بعض القراء على ﴿ حقاً ﴾ وجعل اسم كان ضميراً فيها وخبرها حقاً ، أي وكان الانتقام حقاً .

قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، والصحيح أن نصر المؤمنين اسمها وحقاً خبرها وعلينا

متعلق ب ﴿ حقاً ﴾ ، أو بمحذوف هو صفة له .

﴿ الله الذي يُرْسِلُ الرياح ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن كثير وابن محيصن : " يرسل الريح " بالإفراد .

وقرأ الباقون : ﴿ الرياح ﴾ قال أبو عمرو : كل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع ، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد ، وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح ، فتكون على هذا جملة : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ معترضة ﴿ فَتُثِيرُ سحابا ﴾ أي تزعجه من حيث هو ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السماء كَيْفَ يَشَاء ﴾ تارة سائراً وتارة واقفاً ، وتارة مطبقاً ، وتارة غير مطبق ، وتارة إلى مسافة بعيدة ، وتارة إلى مسافة قريبة ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة وفي سورة النور ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ تارة أخرى ، أو يجعله بعد بسطه قطعاً متفرقة ، والكسف جمع كسفة . والكسفة : القطعة من السحاب .

وقد تقدم تفسيره واختلاف القراءة فيه ﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ الودق : المطر ، و ﴿ من خلاله ﴾ : من وسطه .

وقرأ أبو العالية والضحاك : " يخرج من خلله " .

﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ أي بالمطر ﴿ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي بلادهم وأرضهم ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ إذا هي : الفجائية ، أي فاجؤوا الاستبشار بمجيء المطر ، والاستبشار : الفرح.

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي من قبل أن ينزل عليهم المطر ، وإن هي المخففة ، وفيها ضمير شأن مقدر هو اسمها ، أي وإن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم ، وقوله : ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ تكرير للتأكيد ، قاله الأخفش وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس .

وقال قطرب : إن الضمير في : ﴿ قبله ﴾ راجع إلى المطر ، أي وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر .

وقيل : المعنى : من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع والمطر .

وقيل : من قبل أن ينزل عليهم من قبل السحاب ، أي من قبل رؤيته ، واختار هذا النحاس .

وقيل : الضمير عائد إلى الكسف .

وقيل : إلى الإرسال .

وقيل : إلى الاستبشار .

والراجح الوجه الأول ، وما بعده من هذه الوجوه كلها ففي غاية التكلف والتعسف ، وخبر كان ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي آيسين أو بائسين .

وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا .

﴿ فانظر إلى أَثَرِ رَحْمَتَ الله ﴾ الناشئة عن إنزال المطر من النبات والثمار والزرائع التي بها يكون الخصب ورخاء العيش ، أي انظر نظر اعتبار واستبصار لتستدلّ بذلك على توحيد الله ، وتفرده بهذا الصنع العجيب .

قرأ الجمهور : "أثر" بالتوحيد .

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي : ﴿ آثار ﴾ بالجمع ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه ، وقيل : ضمير يعود إلى الأثر ، وهذه الجملة في محل نصب بانظر ، أي انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض .

(90/605)

وقرأ الجحدري ، وأبو حيوة : " تحيي " بالفوقية على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة ، أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ إلى الله سبحانه ، أي إن الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة ﴿ لَمُحْيِي الموتى ﴾ أي لقادر على إحيائهم في الآخرة ، وبعثهم ، ومجازاتهم كما أحيا الأرض الميتة بالمطر ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَيْء قَدِيرٌ ﴾ أي عظيم القدرة كثيرها .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ الضمير في : ﴿ فرأوه ﴾ يرجع إلى الزرع ، والنبات الذي كان من أثر رحمة الله ، أي فرأوه مصفراً من البرد الناشىء عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضراره .

وقيل : راجع إلى الريح ، وهو يجوز تذكيره وتأنيثه .

وقيل : راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار .

وقيل : راجع إلى السحاب لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر ، والأول أولى .

واللام هي الموطئة ، وجواب القسم ﴿ لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، وهو يسدّ مسد جواب الشرط .

والمعنى : ولئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة ، فضربت زرعهم بالصفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله ، ويجحدون نعمه ، وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم وعدم صبرهم ، وضعف قلوبهم ، وليس كذا حال أهل الإيمان .

ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ إذا دعوتهم ، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ومعرفتهم للصواب ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق ، ووعظتهم بمواعظ الله وذكرتهم الآخرة وما فيها ، وقوله : ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صمّ الآذان ، قد تقدّم تفسير هذا في سورة النمل .

ثم وصفهم بالعمى فقال : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ العمى عَن ضلالتهم ﴾ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغي .

(91/605)

أو لفقدهم للبصائر ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي ما تسمع إلاّ هؤلاء لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون للحق متبعون له .

﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾ ذكر سبحانه استدلالاً آخر على كمال قدرته ، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة ، ومعنى من ضعف : من نطفة .

قال الواحدي : قال المفسرون : من نطفة ، والمعنى : من ذي ضعف .

وقيل : المراد : حال الطفولية والصغر ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ ، وهي قوّة الشباب ، فإنه إذ ذاك تستحكم القوّة وتشتدّ الخلقة إلى بلوغ النهاية ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً ﴾ أي عند الكبر والهرم ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ الشيبة هي : تمام الضعف ونهاية الكبر .

قرأ الجمهور : "ضعف" بضم الضاد في هذه المواضع .

وقرأ عاصم وحمزة بفتحها .

وقرأ الجحدري بالفتح في الأوّلين والضم في الثالث .

قال الفراء : الضم لغة قريش والفتح لغة تميم .

قال الجوهري : الضعف والضعف خلاف القوّة ، وقيل : هو بالفتح في الرأي ، وبالضم في الجسم ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ يعني : من جميع الأشياء ، ومن جملتها القوّة والضعف في بني آدم ﴿ وَهُوَ العليم ﴾ بتدبيره ﴿ القدير ﴾ على خلق ما يريده ، وأجاز الكوفيون : " من ضعف " بفتح الضاد والعين .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ أي : القيامة ، وسميت ساعة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ﴿ يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ أي يحلفون ما لبثوا في الدنيا ، أو في قبورهم غير ساعة ، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدّة لبثهم ، واستقرّ ذلك في أذهانهم ، فحلفوا عليه وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع .

(92/605)

وقال ابن قتيبة : إنهم كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل ، وهذا هو الظاهر ؛ لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا ، فقد علم كل واحد منهم مقداره ، وإن أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة إن كانوا لا يعرفون الأوقات في البرزخ ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ

﴿ يقال : أفك الرجل : إذا صرف عن الصدق ، فالمعنى : مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون .

وقيل : المراد يصرفون عن الحق .

وقيل : عن الخير ، والأوّل أولى ، وهو دليل على أن حلفهم كذب .

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ اختلف في تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم ، فقيل : الملائكة .

وقيل : الأنبياء .

وقيل : علماء الأمم .

وقيل : مؤمنو هذه الأمة ، ولا مانع من الحمل على الجميع .

ومعنى في كتاب الله : في علمه وقضائه .

قال الزجاج : في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ .

قال الواحدي : والمفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير على تقدير : وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله ، وكان ردّ الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد ، أو للمقابلة لليمين باليمين ، ثم نبهوهم على طريقة التبكيت بأن ﴿ هذا ﴾ الوقت الذي صاروا فيه هو ﴿ يَوْمُ البعث ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق ، بل كنتم تستعجلونه تكذيباً واستهزاء .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي لا ينفعهم الاعتذار يومئذ ولا يفيدهم

علمهم بالقيامة .

وقيل : لما ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا .

قرأ الجمهور : ﴿ لا تنفع ﴾ بالفوقية ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتحتية ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يقال : استعتبته فأعتبني ، أي استرضيته ، فأرضاني ، وذلك إذا كنت جانياً عليه ، وحقيقة أعتبته أزلت عتبه ، والمعنى : أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إلى ذلك في الدنيا .

(93/605)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي من كلّ مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله وصدق رسله واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِئَايَةٍ ﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك ، أو لئن جئتهم بآية كالعصا واليد ﴿ لَّيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ أي ما أنت يا محمد وأصحابك إلاّ مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر وما هو مشاكل له في البطلان ﴿ كذلك يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق ، وينجون به من الباطل .

ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر معللاً لذلك بحقية وعد الله وعدم الخلف فيه ، فقال : ﴿ فاصبر ﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى وتنظره من الأفعال الكفرية فإن الله قد وعدك بالنصر عليهم وإعلاء حجتك وإظهار دعوتك ووعده حق لا خلف فيه ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ أي لا يحملنك على الخفة ، ويستفزنك عن دينك ، وما أنت عليه ، الذين لا يوقنون بالله ، ولا يصدقون أنبياءه ، ولا يؤمنون بكتبه ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، يقال : استخف فلان فلاناً ، أي استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ .

قرأ الجمهور : ﴿ يستخفنك ﴾ بالخاء المعجمة والفاء ، وقرأ يعقوب وابن أبي إسحاق بجاء مهملة وقاف من الاستحقاق ، والنهي في الآية من باب : لا أرينك ها هنا .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من مسلم يردّ عن عرض أخيه إلاّ كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة " ، ثم تلا : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ .

وهو من طريق شهر بن حوشب عن أمّ الدرداء عن أبي الدرداء .

(94/605)

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ قال : قطعاً بعضها فوق بعض ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ قال : المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ قال : من بينه .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء ﴾ في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأهل بدر ، والإسناد ضعيف .

والمشهور في الصحيحين وغيرهما أن عائشة استدلت بهذه الآية على ردّ رواية من روى من الصحابة : أن النبي صلى الله عليه وسلم نادى أهل قليب بدر ، وهو من الاستدلال بالعام على ردّ الخاص ، فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قيل له : إنك تنادي أجساداً بالية : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " وفي مسلم من حديث أنس : أن عمر بن الخطاب لما سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يناديهم ، فقال : يا رسول الله ، تناديهم بعد ثلاث ، وهل يسمعون ؟ يقول الله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ ، فقال : " والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم ، ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(95/605)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » .

هو بيان لانقطاع عذر المعتذرين ، وعتاب المستعتبين ، الذين يطلبون المعاتبة . . وذلك لما جاءهم في دنياهم من آيات اللّه ، وما حمل إليهم القرآن الكريم من دلائل وبراهين بين يدى دعوتهم إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر ، وقد ضربت لهم الأمثال على وجوه مختلفة ، فما انتفعوا بها ، ولا أخذوا العبرة والعظة من مهلك القوم الظالمين في الأمم الغابرة . .

وقوله تعالى : « وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » . إشارة إلى أن هؤلاء المكذبين المشركين ، لن تنفعهم الآيات المادية التي كانوا يطالبون النبىّ بها ، ويتحدونه بأن يأتى بمعجزة من تلك المعجزات المحسوسة التي كانت بين يدى الرسل من قبله . . ففى كل ما جاء به القرآن من آيات ، وما ضرب من أمثال ، معجزات قاهرة بيّنة ، لمن يطلب

(96/605)

الهدى أو يقبله ، إذا عرض عليه . . وهؤلاء المشركون لا يطلبون الهدى ، ولا يستجيبون له إذا دعوا ، لما ركب في طبيعتهم من فساد .

قوله تعالى : « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » .

الإشارة هنا إلى ما تضمنته الآية السابقة ، من استغلاق مدارك المشركين عن أن يدخل عليها هدى ، وذلك لأن اللّه قد طبع على قلوبهم . . وإنه مع ما ضرب اللّه سبحانه ممن أمثال ، وما حملت هذه الأمثال من شواهد واضحة وآيات بينة ، فإن أهل الضلالات والأهواء لم ينتفعوا بها ، ولم يروا إشارة مضيئة من إشاراتها ، تعدل بهم عن طريق الكفر الذي يركبونه ، إلى طريق الإيمان الذي يدعون إليه ، وهذا شأنهم أبدا مع كل آية من آيات اللّه . . وهذا لا يكون إلا عن فساد فطرة ، وعمى بصيرة ، وزيغ قلب ، وهذا ما عليه حال أولئك الذين شغلتهم دنياهم عن أن يقفوا على آيات اللّه ، وأن ينظروا فيها ، وأن يحصلوا علما منها ، فخذلهم اللّه ، وخلّى بينهم وبين أنفسهم كما يقول سبحانه : « فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ » (5 الصف) قوله تعالى : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ » .

بهذه الآية تختم السورة الكريمة ، وهى تحمل إلى النبي الكريم دعوة من اللّه سبحانه وتعالى إلى الصبر على ما يلقى من قومه من مكاره ، مستعينا على الصبر ، واحتمال المكروه ، بما وعده ربه من نصر لدين اللّه الذي يدعو إليه ، ومن تمكن له وللمؤمنين معه في هذه الدنيا ، ومغفرة من اللّه ورضوان

فى الآخرة ، هذا ، إلى ما يلقى هؤلاء المشركون الضالون من خزى وخذلان فى الدنيا ، وعذاب شديد في الآخرة .

وفي قوله تعالى : « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » - إشارة لافتة إلى ما قد يرد على النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - من تلك الخواطر التي تساور بعض النفوس ، من المؤمنين الذين اشتدت عليهم وطأة البلاء ، وطال بهم الانتظار لملاقاة ما وعدهم اللّه من نصر ، ففى ساعات الضيق والعسرة ، قد يتسرب إلى بعض المؤمنين شىء من القلق ، وربما شىء من الشك والريب ، ذلك أن للنفس البشرية حدا من الاحتمال والصبر على المكاره ، إذا بلغته زايلتها القدرة على الاحتمال ، وآذنها الصبر بالرحيل ، وعندئذ تنحلّ العزيمة ، ويضعف اليقين ، وتبرد حرارة الإيمان ، وفي هذا يقول اللّه تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ » (214 : البقرة) . . فهذه حال تعرض المؤمنين ، ولن يعصهم منها إلا التحصن بالإيمان ، واللّياذ باليقين الذي يدفع كل شك في قدرة اللّه ، وفي تحقيق ما وعد المؤمنين به ، من نصر ، وعافية مما هم فيه من بلاء .

فقوله تعالى : « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » دعوة للمؤمنين أن يوثّقوا إيمانهم باللّه ، وأن يمتحنوا هذا الإيمان على محك الشدائد والمحن ، فعلى هذا المحك يظهر معدن الإيمان ،

وتعرف حقيقته . .

والاستخفاف : أصله من الخفة ، والمراد به التحول من حال إلى حال ، والانتقال من وضع إلى وضع ، عند كل خاطرة ، ولأية مسة . . فإن

(98/605)

الخفيف من الشيء ، هدف سهل لكل عارض يعرض له ، ويريد زحزحته عن موضعه الذي هو عليه . .

والآية ، إذ تدعو المؤمنين إلى أن يكونوا من الموقنين بالله ، والمستيقنين بنصره ، فإنها تدعو النبي إلى أن يثبت في موقفه من الإيمان بربه ، والثقة فيما وعده به ، حتى ترتدّ عنه العوارض التي تعرض له داخل نفسه أو خارجها ، حين تجده جبلا راسخا ، لا تصادف أية خفة في أي جانب منه . . وقد كان صلوات الله وسلامه عليه على هذا اليقين الذي تزول الجبال ولا يزول . . حتى ليقول لعمه أبى طالب ، وقد جاء يدعوه إلى مهادنة قومه ، على أن يحتكم بما شاء فيهم ، من مال أو سلطان ، فيقول :

« والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في شمالى على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته

، أو أهلك دونه » . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 11 صـ 548.

551 ﴾

(99/605)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾

لما انتهى ما أقيمت عليه السُورة من دلائل الوحدانية وإثبات البعث عقب ذلك بالتنويه بالقرآن وبلوغه الغاية القصوى في البيان والهدى .

والضرب حقيقته : الوضع والإلصاق ، واستعير في مثل هذه الآية للذكر والتبيين لأنه كوضع الدالِّ بلصق المدلول ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ﴾ [البقرة : 26] وتقدم أيضاً آنفاً عند قوله ﴿ ضرَب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ [الروم : 28] ، وهذا كقوله تعالى ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرءان من كل مثل ﴾ المتقدم في سورة الإسراء (89) ، و (الناس) أُريد به المشركون لأنهم المقصود من تكرير هذه الأمثال ، وعطف عليه قوله ﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ الخ فهو وصف لتلقي المشركين أمثال القرآن فإذا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن فيها إرشادهم تلقوها

بالاعتباط والإنكار البحت فقالوا ﴿ إن أنتم إلا مبطلون ﴾ .

وضمير جمع المخاطب للنبي لقصد تعظيمه من جانب الله تعالى ، وإنما يقول الذين كفروا : إن أنت إلا مبطل ، فحكي كلامهم بالمعنى للتنويه بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقيل : الخطاب للرسول والمؤمنين فهو حكاية باللفظ .

وهذا تأنيس للرسول عليه الصلاة والسلام من إيمان معانديه ، أي أئمة الكفر منهم ، ولذلك اعتُرض بعده بجملة كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ بين الجملتين المتعاطفتين تمهيداً للأمر بالصبر على غلوائهم ، أي تلك سنة أمثالهم ، أي مثل ذلك الطبع الذي علمتَه يَطبع الله على قلوبهم ، وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) وفي مواضع كثيرة من القرآن .

والطبع على القلب : تصييره غير قابل لفهم الأمور الدينية وهو الختم ، وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ في سورة البقرة (7) .

(100/605)

﴿ والذين لا يعلمون ﴾ مراد بهم الذين كفروا أنفسهم ، فعدل عن الإضمار لزيادة وصفهم بانتفاء العلم عنهم بعد أن وصفوا : بالمجرمين ، والذين ظلموا ، والذين كفروا .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)

الأمر للنبيء صلى الله عليه وسلم بالصبر تفرع على جملة ﴿ ولئن جِئْتَهم بآية ﴾ [الروم : 58] لتضمنها تأييسه من إيمانهم .

وحذف متعلق الأمر بالصبر لدلالة المقام عليه ، أي اصبر على تعنتهم .

وجملة ﴿ إن وعد الله حق ﴾ تعليل للأمر بالصبر وهو تأنيس للنبيء صلى الله عليه وسلم بتحقيق وعد الله من الانتقام من المكذبين ومن نصر الرسول عليه الصلاة والسلام .

والحق : مصدر حَقّ يحِقّ بمعنى ثبت ، فالحق : الثابت الذي لا ريب فيه ولا مبالغة .

والاستخفاف : مبالغة في جعله خفيفاً فالسين والتاء للتقوية مثلها في نحو : استجاب واستمسك ، وهو ضد الصبر .

والمعنى : لا يحملُنّك على ترك الصبر .

والخفة مستعارة لحالة الجزع وظهور آثار الغضب .

وهي مثل القلق المستعار من اضطراب الشيء لأن آثار الجزع والغضب تشبه تقلقل الشيء الخفيف ، فالشيء الخفيف يتقلقل بأدنى تحريك ، وفي ضده يستعار الرسوخ والتثاقل .

وشاعت هذه الاستعارات حتى ساوت الحقيقة في الاستعمال .

ونهي الرسول عن أن يستخفه الذين لا يوقنون نهي عن الخفة التي من شأنها أن تحدث للعاقل إذا رأى عناد من هو يرشده إلى الصلاح ، وذلك مما يستفز غضب الحليم ، فالاستخفاف

هنا هو أن يؤثروا في نفسه ضد الصبر ، ويأتي قوله تعالى ﴿ فاستَخَفَّ قومَه فأطاعوه ﴾ في سورة الزخرف (54) ، فانظره إكمالاً لما هنا .

وأسند الاستخفاف إليهم على طريقة المجاز العقلي لأنهم سببه بما يصدر من عنادهم .

والذين لا يوقنون : هم المشركون الذين أجريت عليهم الصفات المتقدمة من الإجرام ، والظلم ، والكفر ، وعدم العلم ؛ فهو إظهار في مقام الإضمار للتصريح بمساويهم .

(101/605)

قيل : كان منهم النضر بن الحارث .

ومعنى لا يوقنون ﴾ أنهم لا يوقنون بالأمور اليقينية ، أي التي دلت عليها الدلائل القطعية فهم مكابرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(102/605)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : 7] وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء : 90] وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 96] الآية ، وفي غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ .

قد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء : 22] أن الله تعالى قد بين في بعض الآيات القرآنية أنه يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، بخطاب لا يريد به نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يريد به التشريع .

وبينا أن من أصرح الآيات في ذلك قوله تعالى : مخاطباً له صلى الله عليه وسلم ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء : 23] الآية ، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل نزول إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، بزمن طويل ، فلا وجه البتة لاشتراط بلوغهما ، أو بلوغ أحدهما الكبر عنده . بل المراد تشريع بر الوالدين لأمته ، بخطابه صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن قول من يقول : إن الخطاب في قوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ لمن يصح خطابه من المكلفين ، وأنه كقول طرفه بن العبد :

(103/605)

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً . . . خلاف الصواب .

والدليل على ذلك قوله بعد ذكر المعطوفات على قوله : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ ، ﴿ ذَلِكَ مِمَّآ أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ [الإسراء : 39] الآية ، ومعلوم أن قوله : ﴿ ذَلِكَ مِمَّآ أوحى إِلَيْكَ ﴾ خطاب له صلى الله عليه وسلم كما ترى ، وذكرنا هناك بعض الشواهد العربية على خطاب الإنسان ، مع أن المراد بالخطاب في الحقيقة غيره .

وبهذا تعلم أن مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ وقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] . وقوله : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ ﴾ [الإسراء : 22] يراد به التشريع لأمته لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك الكفر الذي نهى عنه .

فائدة

روي من غير وجه : أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ناداه رجل من

الخوارج في صلاة الفجر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] ، فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : 60] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(104/605)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾

وهذه الآية تعني أننا لم نترك معذرة لأحد ممن كفروا برسلهم ؛ لأننا جئنا لهم بأمثال متعددة وألوان شتى من الأدلة المشاهدة ليستدلوا بها على غير المشاهد ليأخذوا من مرائيهم ومن حواسهم دليلاً على ما غاب عنهم .

فحين يريد سبحانه أن يقنعهم بأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له يضرب لهم هذا المثَل من واقع حياتهم : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً . . . ﴾ [الزمر : 29] .

هل يستوي عبد لسيد واحد مع عبد لعدة أسياد يتجاذبونه ، إنْ أرضي واحد أسخط

الآخرين ؟

ثم يُقرّب المسألة بمثَلٍ من الأنفس ، وليس شيء أقرب إلى الإنسان من نفسه ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : 28] .

والمعنى : إذا كنتم لا تقبلون أنْ يشارككم مواليكم فيما رزقكم الله ، فتكونون في هذا الرزق سواء ، فكيف تقبلون الشركة في حق الله تعالى ؟

وحين يريد الحق سبحانه أنْ يبطل شركهم وعبادتهم للآلهة يضرب لهم هذا المثل ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73] .

والمَثَل يعني أنْ تُشبّه شيئاً بشيء ، وتلحق خفياً بجلى ، لتوضحه وليستقر في ذِهْن السامع ، كأن تشبه شخصاً غير معروف بشخص معروف ، ويُسَمَّى هذا : مثْل أو مَثَل ، تقول : فلان مثْل فلان .

أما المثل فقول من حكيم شاع على الألسنة ، وتناقله الناس كلما جاءت مناسبته ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالملك الذي أرسل امرأة تخطب له أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني ، وكان اسمها (عصام) ، فلما عادت من المهمة بادرها بقوله : ما وراءكِ يا عصام ؟

فصارت مثلاً يُقال في مثل هذه المناسبة مع أنه قيل في حادثة مخصوصة .

والمثل يقال كما هو ، لا نغير فيه شيئاً ، فنقول : ما وراءك يا عصام للمذكر وللمؤنث ، وللمفرد وللمثنى وللجمع .

ومن ذلك نُشبِّه الكريم بحاتم ، والشجاع بعنترة . . الخ لأن حاتماً الطائي صار مضربَ المثل في الكرم ، وعنترة في الشجاعة . وفي المثال نقول لمن يواجه بمَنْ هو أقوى منه : إنْ كنت ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً ، ونقول لمن لم يُعِدّ للأمر عُدَّته : قبل الرماء تُملأ الكنائن .

إذن : المثل قول شبه مضربه الآن بمورده ، سابقاً لأن المورد كان قوياً وموجزاً لذلك حُفِظ وتناقلته الألسنة .

والقرآن يسير على أسلوب العرب وطريقتهم في التعبير وتوضيح المعنى بالأمثال حتى يضرب المثل بالبعوضة ، والبعض يأنف أنْ يضرب القرآن بجلاله وعظمته مثلاً بالبعوضة ، وهو لا يعلم أن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾

[البقرة : 26] .

وليس معنى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [البقرة : 26] أي : في الكِبَر كما يظن البعض ، فيقولون : لماذا يقول فما فوقها وهو من باب أَوْلى ، لكن المراد ما فوقها في الصِّغَر وفيما تستنكرونه من الضآلة ، كالكائنات الدقيقة والفيروسات . . . الخ .

لكن ، لماذا يضرب الله الأمثال للناس ؟ قالوا : لأن الإنسان له حواسّ متعددة ، فهو يرى ويسمع ويشم ويتذوق ويلمس . . الخ ، ولو تأملتَ كل هذه الحواس لوجدتَ أن ألصق شيء بالحس أنْ يضرب ؛ لذلك حين تريد أنْ تُوقِظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزُّه كأنك تضربه فيقوم .

(106/605)

إذن : فالضرب هو الأثر الذي لا يتخلف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله . . . ﴾ [المزمل : 20] أي : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

والضرب لا يكون ضرباً يؤدي مهمة وله أثر إلا إذا كان بحيث يُؤلم المضروب ، ولا يُوجع الضارب ، وإلا فقد تضرب شيئاً بقوة فتؤلمك يدك ، فكأنك ضربتَ نفسك . وهذا المعنى فَطِن إليه الشاعر ، فقال للذين لا يؤمنون بقدر الله :

أيا هَازئاً من صُنُوف القَدَرِ . . . بنفسِكَ تعنف لاَ بالقَدرْ

ويَا ضَارِباً صَخْرَةً بالعصَا . . . ضربتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَرْ

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعركم به ، وتُحسون به حِسَّ الألم من الضرب ، فإذا لم يحسّ الإنسان بضرب المثل فهو كالذي لا يحسُّ بالضرب الحقيقي المادي ، وهذا والعياذ بالله عديم الإحساس أو مشلول الحسِّ .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ . . . ﴾ [الروم : 58] يعني : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب ؛ لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه ضرب المثل لنفسه سبحانه في قوله : ﴿ اللهُ نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح . . . ﴾ [النور : 35] .

والمثل هنا ليس لنوره تعالى كما يظن البعض ، إنما مَثَلٌ لتنويره للكون الواسع ، وهو سبحانه يُنوِّرك حِسِّياً بالشمس وبالقمر وبالنجوم ، ويُنوِّرك معنوياً بالمنهج وبالقيم .

ففائدة النور الحسي أن يزيل الظلمة ، وأنْ تسير على هُدى وعلى بصيرة فتسلم خطاك واتجاهك من أنْ تحطم ما هو أقلّ منك أو يحطمك ما هو أقوى منك ، والمحصلة ألاَّ تضر الأضعف منك ، وألاَّ يضرك الأقوى منك .

كذلك النور المعنوي ، وهو نور القيم والمنهج يمنعك أنْ تضرَّ غيرك ، ويمنع غيرك أنْ يضرَّك ، وكما ينجيك النور الحسي من المعاطب الحسية كذلك ينجيك نور القيم من المعاطب المعنوية .

لذلك يقول سبحانه بعد أن ضرب لنا هذا المثل : ﴿ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 35] .

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من مدح أبي تمام لأحد الخلفاء :

إقْدامُ عَمرٍو في سَمَاحةِ حَاتِمٍ . . . في حِلْمِ أحْنَفَ في ذَكَاءِ إيَاسِ

فقال أحد حُسَّاده على مكانته من الخليفة : أتشبه الخليفة بأجلاف العرب ؟ فأطرق هنيهة ، ثم أكمل على نفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكِروا ضرْبي لَهُ مَنْ دُونَه . . . مثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاسِ

فاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُورِه . . . مَثَلاً من المشْكَاةِ والنبراسِ

الأعجب من هذا أنهم أخذوا الورقة التي معه ، فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، وهذا يعني أنه ارتجلهما لتوّه ، وقد قلت : والله لو وجدوا هذه الأبيات مُعدة معه لما قلَّل ذلك من شأنه ، بل فيه دلالة على ذكائه واحتياطه لأمره وتوقعه لما قد يقوله الحساد والحاقدون عليه .

لكن لم تُجد هذه الأمثال ولم ينتفعوا بها ، وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد بل : ﴿ وَلَئِن

جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ . . . ﴾ [الروم : 58] أي : جديدة ﴿ لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ [الروم : 58] فيتهمون الرسل في بلاغهم عن الله بأنهم أهل باطل وكذب .

والحق سبحانه يحتجّ على الناس في أنه لم يُجبهم إلى الآيات التي اقترحوها ؛ لأن السوابق مع الأمم التي كذَّبت الرسل تؤيد ذلك ، فقد كانوا يطلبون الآيات ، فيجيبهم الله إلى ما طلبوا ، فما يزدادون إلا تكذيباً .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . ﴾ [الإسراء : 59] .

(108/605)

فالأمر لا يتعدى كونهم يريدون إطالة الإجراءات وامتداد الوقت في جدل لا يجدي ، ثم إن في إجابتهم إلى ما طلبوا رغم تكذيبهم بالآيات السابقة احتراماً لعدم إيمانهم ، ودليلاً على أن الآيات السابقة كانت غير كافية ، بدليل أنه جاءهم بآية أخرى ، إذن : فعدم مجيء الآيات يعني أن الآيات السابقة كانت كافية للإيمان لكنهم لم يؤمنوا ؛ لذلك لن نجيبهم في طلب آيات أخرى جديدة .

وهذه القضية واضحة في جدل إبراهيم – عليه السلام – مع النمروذ في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ

تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ . . . ﴾ [البقرة: 258] .

وعندها شعر إبراهيم عليه السلام بأن خَصْمه يميل إلى الجدل والسفسطة ، وأنه يريد إطالة مد الجدل ، ويريد تضييع الوقت في أخذ وردٍّ ؛ لذلك أضرب عن هذه الحجة – مع أن خَصْمه لا يميت ولا يحيى على الحقيقة – وألجأه إلى حجة أخرى لا يستطيع منها فكاكاً ، ولا يجد معها سبيلاً للمراوغة فقال : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب . . . ﴾ [البقرة: 258] فماذا يقول هذا المعاند ؟ ﴿ فَبُهِتَ الذي كَفَرَ واللهُ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [البقرة: 258] .

كذلك كان فرعون يلجأ إلى هذا الأسلوب في حواره مع موسى وهارون عليهما السلام ، ففي كل موقف كان يقول : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ [طه: 49] إنه الجدل العقيم ، يلجأ إليه مَنْ أفلس ، فلم يجد حجة يستند إليها .

(109/605)

ونلحظ في أسلوب الآية صيغة الإفراد في ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ . . . ﴾ [الروم: 58] ثم تنتقل إلى صيغة الجمع في ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ [الروم: 58] فلم يقولوا لرسولهم مثلاً

: أنت مبطل ، فلماذا ؟ قالوا : لأن الرسول حين يُكذِّبه قومه فيقولون : أنت مبطل ، فلعل من أتباعه المؤمنين به مَنْ يدافع عنه ويشهد بصدقه ، فجاءت صيغة الجمع لتفيد الشمول ، فكأنهم يقولون : أنت مبطل وكل مَنْ (يتشدد لك) .

أو يكون المعنى ﴿ إِنْ أَنتُمْ . . . ﴾ [الروم : 58] يعني : كل الرسل ﴿ مُبْطِلُونَ ﴾ [الروم : 58] أي : كاذبون تختلفون من عند أنفسكم وتقولون : هو من عند الله . وعجيب من هؤلاء أن يؤمنوا بالله ويُكذِّبوا رسله ، ككفار مكة الذين شمتوا في رسول الله حين فتر عنه الوحي فقالوا : " إن رب محمد قلاه " .

وهم لا يدرون أو الوحي كان يجهد رسول الله ، وكان يشقُّ عليه في بداية الأمر ، حتى جاء زوجه خديجة يقول : زملوني زملوني ، دثروني دثروني ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول عن المَلَك : " وضمني حتى بلغ مني الجهد " .

وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ؛ لذلك كان جبريل عليه السلام يتمثل لسيدنا رسول الله في صورة بشر ، ليس عليه غبار السفر ولا يعرفه أحد ، كما جاء لرسول الله وهو في مجلس الصحابة يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان .

إذن : مسألة فتور الوحي وانقطاعه مدة عن رسول الله أراد الله به أن يستريح رسول الله من مشقة الوحي حتى يزول عنه الألم والعناء وعندها يشتاق للوحي من جديد ، ويهون عليه فيتحمله ويصير له دُرْبه على تلقيه من الملك ، فشَوْق الإنسان إلى الشيء يجعله يتحمل

المشاقّ في سبيله ، ويُهوِّن عليه الصعاب ، كالذي يسير إلى محبوبه فلا يبالي حتى لو سار على الشوك ، أو اعترضته المخاوف والأخطار .

(110/605)

والوحي لقاء بشري بملكي ، فإما أنْ ينتقل الرسول إلى مرتبة الملَك ، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر ، وهذا التقارب لم يحدث في بداية نزول الوحي فأجهد رسول الله واحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع الوحي .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح : 2-3] أي : جعلناه خفيفاً لا يجهدك ، ويقول سبحانه في الرد عليهم : ﴿ والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 1-3] .

فعجيب أنْ يقولوا : " إن رب محمد قلاه " فيعترفون برب محمد ساعة الشدة والضيق الذي نزل به ، فأشمتهم فيه حتى قالوا : إن رب محمد جفاه ، فلما وصله ربه بالوحي ودعاهم إلى الإيمان كفروا وكذَّبوا .

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59)

قوله سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ . . . ﴾ [الروم : 59] . أي : كتكذيبهم لكل آية تأتيهم بها

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : 59] . أي ختمها وأغلقها .

فإنْ قلتَ : فمن المصلحة أنْ تظل قلوبهم مفتوحة لعلها تستقبل شيئاً من الهداية والنور .

نقول : الخَتْم على قلوب هؤلاء لا يكون إلا بعد استنفاد كل وسائل الدعوة ، فلم يستجيبوا فلا أملَ في هدايتهم ولا جدوى من سماعهم .

والحق – سبحانه وتعالى – ربٌّ يعين عبده على ما يحب ويلبي له رغبته ، حتى وإنْ كانت الكفر ، وهؤلاء أرادوا الكفر وأحبوه ، فأعانهم الله على ما أرادوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ، ولا يفارقها كفر .

لذلك سبق أنْ حذَّرنا أصحاب المصائب ، أو الذين يفقدون عزيزاً ، حذرناهم أنْ يستديموا الحزن ، وأنْ يألفوه مخافة أنْ يوافقكم الله على هواكم في محبة الحزن وعِشْقه ، فتتوالى عليكم الأحزان وتتتابع المصائب ، إياكم ان تدعوا باب الحزن مواربا ً ، بل أغلقوه بمسمار الرضا ، فالحزن إنْ ظلَّ بك فلن يدعَ لك حبيباً .

(111/605)

وكذلك نقول : إن شُغل عنك شخص فلا تُذكِّره بنفسك ، بل أَعِنْهُ على هجرك ، وساعده بألاَّ تذكره .

فإذا قلتَ : إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون ، فلماذا يختم على قلوبهم ، ولماذا يحاسبهم ؟ نقول : لأن عدم العلم نتيجة تقصيرهم ، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى ، فلم ينظروا في هذه الآيات ولم يستدلوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه ، وضرورة البلاغ من الله ، إذن : فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم .

لكن ، ماذا بعد أنْ كذَّبوا الرسل وأنكروا الآيات ، أتتوقف مسيرة الدعوة ، لأنهم صَمُّوا آذانهم عنها ؟ لقد خلق الله الكون ونثر فيه الآيات التي تدل على وجود الإله الواحد الأحد ، وجعل فيه المعجزات التي تثبت صِدْق الرسُل في البلاغ عن الله ، والحق سبحانه لا ينتفع بهذه الآيات ؛ لأن مُلْكِه تعالى لا يزيد بطاعتنا ، ولا ينقص بمعاصينا ، فالمسألة تعود إلينا نحن أولاً وآخراً ، إذن : فالحسم في هذه المسألة : دَعْكَ من هؤلاء المكذَّبين يا محمد ، واثبُتْ على ما أنت عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ . . . ﴾ .

اصبر على كرههم ، واصبر على لَدَدهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمن يؤمن بك ، اصبر على هذا كله ؛ لأن العاقبة في صالحك ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ . . . ﴾ [الروم : 60] . وقد وعد الله رسله بالنصرة والغَلَبة ، ووَعْد الله حق ، فتأكد أن النصر آتٍ .

لكن ما دام النصر آتياً ، فلماذا هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين ؟ ولماذا كل هذه المشقة

والعناء في سبيل الدعوة؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أن يُمحِّص أتباع محمد ، وأن يُدرِّبهم على مسئولية حمل أمانة الدعوة وشعلة النور من بعد رسول الله ، لا إلى اهل الجزيرة العربية وحدها ، إنما إلى الكون كله .

(112/605)

فلا بُدَّ أنْ يكونوا من أهل الثبات على المبدأ الذين لا تزعزعهم الشدائد ، والدليل على ذلك أنهم يُؤذَوْن ويُضطهدون فيصبرون ، وهذه أهم صفة فيمن يُعدُّ لتحمُّل الأمانة .

لذلك نقول : إذا رأيتَ منهجاً أو مبدأ يغدق على أصحابه أولاً ، فاعلم أنه مبدأ باطل ؛ لأن المبدأ الحق يضحي أهله من أجله بأنفسهم وبأموالهم ، يعطونه قبل أنْ يأخذوا منه ، لماذا ؟ لأن صاحب المبدأ الباطل لن يجد مَنْ يناصره على باطله إلا إذا أغراهم بالمال أولاً واشترى ذممهم ، وإلا فماذا يلجئه إلى مبدأ باطل ، ويحمله على اتباعه؟ إذن : لا بد أن يقبض الثمن أولاً .

أما المبدأ الحق فيعلم صاحبه أن الثمن مُؤجَّل للآخرة ، فهو ممنَّى بأشياء فوق هذه الدنيا يؤمن بها ويعمل من أجلها ، فتهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله في سبيل هذا المبدأ .

وفي رحلة الدعوة ، رأينا الكثيرين يتساقطون بالردة عندما تَحْدثُ لرسول الله آية أو هزة

تهزُّ الناس ، وكأن الشدة غربال يميز هؤلاء وهؤلاء ، حتى لا يبقى تحت راية لا إله إلا الله إلا الصناديد الأقوياء القادرون على حمل هذا اللواء إلى العالم كله .

فالله يقول لنبيه : اصبر على تكذيبهم وعلى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك ، فنحن مُؤيدوك ، ولن نتخلى عنك ، وقد وضح لك هذا التأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم وبيَّتوا لك في الخفاء فانتصرتَ على تبييتهم ، واستعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك ، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم .

إذن : فاطمئن ، فنحن لهم بالمرصاد ، ولن نُسْلِمك أبداً ، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب في الدنيا ، وتراه بعينك ، أو في الآخرة بعد موتك : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] .

(113/605)

ومن هذا العقاب الذي نزل بهم في الدنيا ورآه سيدنا رسول الله ما حاق بهم يوم بدر من قَتْل وأسْر وتشريد ، وقلنا : إن عمر رضي الله عنه وما أدراك ما عمر ، فقد كان القرآن ينزل على وَفْق رأيه ، ومع ذلك لما نزلت :

﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] تعجب وقال : أيُّ جمع هذا الذي سيُهزم

، ونحن عاجزون حتى حماية أنفسنا ، فلما كانت بدر ، ورأى ما رأى قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ . . . ﴾ [الروم : 60] الوعد : هو البشارة بخير لم يأت زمنه الآن ، وفَرْق بين الوعد بالخير من إنسان ، والوعد من الله تعالى ، فوَعْدكَ قد يختلف لأنك ابن أغيار ، ولا تملك كل عناصر الوفاء بالوعد ، وربما جاء وقت الوفاء فلم تقدر عليه أو تتغير نفسك من ناحيته فتبخل عليه ، أو تراه لا يستحق . . . إلخ .

إذن : الأغيار التي تنتابك أو تنتابه أو تنتاب قيمة ما تؤديه من الخير موجودة ، وقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدتَ .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أنْ نحتاط لهذا الأمر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . ﴾ [الكهف : 23-24] فاربط فِعْلك بمشيئة الله التي تُيسِّر لك الفعل ، ولا ينبغي أنْ تجزم بشيء أنتَ لا تملك شيئاً من أسبابه .

قلنا : هَبْ أنك قلتَ : سألقاك غداً في المكان الفلاني ، وسأعطيك كذا وكذا ، فأنت قلتَ هذه المقولة ووعدتَ هذا الوعد وأنت لا تضمن أن تعيش لغد ، ولا تضمن أنْ يعيش صاحبك ، وإنْ عِشْتُما لغد فقد يتغير رأيك ، أو يصيبك شيء يعوقك عن الوفاء ، إذَن : فقولك إنْ شاء الله يحميك أنْ تُوصف بالكذب في حالة عدم الوفاء ؛ لأنك وعدتَ ولم يشأ

الله ، فلا دخلَ لك في الأمر .

فالوعد الحق يأتي ممَّنْ ؟ مِنَ الذي يملك كُلَّ أسباب الوفاء ، ولا يمنعه عنه مانع .

(114/605)

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : 60] خف الشيء : لم يَعُدْ له ثِقَل ، واستخفّ غيره : طلب منه أنْ يكون خفيفاً ، فمثلاً حين تقسو على شخص يأتي آخر فيقول لك : خف عنه . واستخفّه مثل استفزّه يعني : حرّكه وذبذبه من ثباته ، فإنْ كان قاعداً مثلاً هَبَّ واقفاً .

لذلك نقول في مثل هذه المواقف (خليك ثقيل . . فلان بيستفزك يعني : يريد أنْ يُخرجك عن حلمك وثباتك . . متبقاش خفيف . . إلخ) ونقول للولد (فز) يعني قِفْ انهض ، ومنه قوله تعالى ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . . ﴾ [الإسراء : 64]

إذن : فالمعنى استخفه : حمله على الخفة وأن يتحول عن الثبات الذي هو عليه .

فالمعنى : إياك يا محمد أنْ يستفزّك القوم ، أو يُخرجوك عن ثباتك ، فتتصادم معهم ، لكن ظلّ على ثباتك في دعوتك ولا تقلق ؛ لأن الله وعدك بالنصرة ووَعْد الله حَقٌّ . والحق

سبحانه ساعة يُرخِي العنان لمن كفر به إنما يريد أنْ يُخرِج كل ما عندهم حتى لا يبقى لهم عذر ، ثم يقابلهم ببعض ما عنده مما يستحقون في الدنيا ، والباقي سيرونه في الآخرة .

والله يقول : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾

[الصافات : 171-173] .

ومن سيرة الإمام علي – رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه – علمنا أنه ابتُلي بجماعتين : الخوارج الذين يُكفِّرونه ، والشيعة الذين يُؤلهونه ويصلون به إلى درجة النبوة ، حتى صدق فيه قول رسول الله : " هلك فيك اثنان : مُحب غالٍ ، ومبغض قَالٍ " .

(115/605)

ويروى أنه – رضي الله عنه – كان يصلي يوماً الفجر بالناس ، فلما قرأ : (ولا الضالين) اقترب منه أحد الخوارج وقرأ : ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] يريد أن يقول له : أنت كافر ولن يقبل منك عملك .

وسرعان ما فطن علي لما أراده الرجل ، فقرأ بعدها مباشرة : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ

وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : 60] . يعني : لن تُخرِجني عن ثباتي وحِلْمي ولن تستفزني .

والعظمة في هذا الموقف أنْ يرد عليه لتوّه بالقول الشافي من كتاب الله دون سابق إعداد أو ترتيب ، ولِمَ لا ، وهو علي بن أبي طالب الذي أُوتِي باعاً طويلاً في البلاغة والفصاحة والحجة .

ومعنى : ﴿ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : 60] من اليقين ، وهو الإيمان الثابت الذي لا يتزعزع ، فيصير عقيدة في القلب لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(116/605)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن المنذر والطبراني والشيرازي في الألقاب والدارقطني في الافراد وابن عدي والحاكم وأبو نعيم في الحلية وابن

مردويه والخطيب في تالي التلخيص عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ فقال " من ضعف يا بني " " .

وأخرج الخطيب عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ " الله الذي خلقكم من ضعف " بالضم .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هذا الحرف في الروم ﴿ خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوّة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ قال : من نطفة ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً ﴾ قال : الهرم ﴿ وشيبة ﴾ قال : الشمط .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ قال : يعنون في الدنيا ، استقل القوم أجل الدنيا لما عاينوا الآخرة ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ قال : كذلك كانوا يكذبون في الدنيا ﴿ وقال الذين أوتوا العلم . . ﴾ الآية . قال : هذا من تقاديم الكلام وتأويلها : وقال الذين أوتوا الإِيمان والعلم في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ قال : لبثوا في علم الله في البرزخ إلى يوم القيامة ، لا يعلم متى علم وقت الساعة إلا الله ، وفي ذلك أنزل الله ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ [طه : 129] .

(117/605)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه عن علي رضي الله عنه أن رجلاً من الخوارج ناداه وهو في صلاة الفجر فقال ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لا يوقنون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(118/605)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾

قوله : ﴿ مَا لَبِثُوا ﴾ : جوابُ قولِه "يُقْسِم" وهو على المعنى ، إذ لو حُكي قولُهم بعينِه لقيل : ما لَبِثْنا . و "كذلك" أي : مِثْلَ ذلك الإفك كانوا يُؤْفَكون .

قوله : ﴿ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ : الظاهرُ أنه متعلِّقٌ ب "لَبِثْتم" بمعنى فيما وَعَدَ به في كتابه من الحشرِ والبعث . وقال قتادة : على التقديم والتأخيرِ ، والتقدير : "وقال الذين أُوْتُوا العلم في كتابِ الله لقد لَبِثْتُمْ ، و "في" بمعنى الباء أي : العلم بكتاب الله . وصدورُه عن قتادةَ بعيدٌ .

والعامَّةُ على سكون عَيْن "البعث" . والحسنُ بفتحها . وقُرِئ بكسرِها . فالمكسورُ اسمٌ ، والمفتوحُ مصدرٌ .

قوله : "فهذا يومُ" في الفاءِ قولان ، أظهرهما : أنها عاطفةٌ هذه الجملةَ على "لَقَدْ لَبِثْتُمْ" .

وقال الزمخشري : "هي جوابُ شرطٍ مقدرٍ كقوله :

3654 . . . . . .

. . . . . فقد جِئْنا خُراسانا

كأنه قيل : إنْ صَحَّ ما قُلتم : إنَّ خراسان أقصى ما يُراد بكم ، وآن لنا أن نَخْلُصَ ، وكذلك إنْ كنتم منكرينَ للبعث فهذا يومُ البعث" ويشير إلى البيت المشهور وهو :

قالوا : خراسانُ أَقْصى ما يُراد بنا . . . ثم القُفولُ فقد جِئْنا خُراسانا

قوله : " لا تَعْلَمُوْن " أي البعثَ أي : ما يرادُ بكم ، أو لا يُقَدَّرُ له مفعولٌ أي : لم يكونوا مِنْ أولي العلم . وهو أبلَغُ .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ : أي : إذ يقعُ ذلك ، ويقولُ الذين أوتوا العلمَ تلك المقالة .

(119/605)

قوله : " لا يَنْفَعُ " هو الناصبُ ل " يومئذٍ " قبله . وقرأ الكوفيون هنا وفي غافر بالياءِ مِنْ تحتُ . وافقهم نافعٌ على ما في غافر ، لأن التأنيثَ مجازيٌّ ولأنه قد فُصِل أيضاً . والباقون بالتأنيث فيهما مراعاةً للَّفْظِ .

قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ قال الزمخشري : " مِنْ قولك : اسْتَعْتَبَني فلانٌ فَأَعْتَبْتُه أي : استرضاني فَأَرْضَيْتُه ، وكذلك إذا كنتَ جانياً عليه . وحقيقةُ أَعْتَبْتَه . أَزَلْتَ عَتْبَه ألا ترى إلى قوله :

3655 غَضِبَتْ تميمٌ أَنْ يُقتَّل عامرٌ . . . يومَ النسارِ فَأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

كيف جعلهم غِضاباً ؟ ثم قال : " فَأُعْتِبوا " أي : أُزيل غَضَبُهم . والغضب في معنى العَتْبِ . والمعنى : لا يُقال لهم : أَرْضُوا ربَّكم بتوبة وطاعةٍ . ومثلُه قوله تعالى : ﴿ فاليوم لا

يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية : 35] فإنْ قلتَ : كيف جُعِلوا غيرَ مُسْتَعْتِبين في بعضِ الآيات وغيرَ مُعْتَبين في بعضها ، وهو قولُه : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ [فصلت : 24] . قلت : أمَّا كونُهم غيرَ مُسْتَعْتِبين فهذا معناه ، وأمَّا كونُهم غيرَ مُعْتَبين فمعناه : أنهم غيرُ راضين بما هم فيه ، فشُبِّهَتْ حالُهم بحالِ قومٍ جُني عليهم فهم عاتِبون على الجاني ، غيرُ راضين عنه بما هم فيه . فإنْ يَسْتَعتبوا الله أي يَسْألوه إزالة ما هم فيه فما هم مِن المجابين " انتهى .

وقال ابن عطية : " ويَسْتَعْتِبون بمعنى يَعْتِبون كما تقول : يَمْلك ويَسْتملك . والبابُ في استفعل طلبُ الشيءِ ، وليس هذا منه ؛ لأنَّ المعنى كان يَفْسُدُ ؛ إذ كان المفهومُ منه : ولا يُطْلَبُ منهم عُتْبى " . قلت : وليس فاسداً لِما تقدَّم مِنْ قولِ أبي القاسم .

(120/605)

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58)

قوله : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ ﴾ : إنما وُحِّد هنا ، وجُمع بعده في قوله : " أنتم " لنكتةٍ : وهو أنه تعالى أخبر في موضعٍ آخرَ فقال : " ولَئِنْ جئتَهم بكل آية " أي جاءَتْ بها الرسلُ . فقال

الكفار : ما أنتم أيها المدَّعون الرسالة كلُّكم إلاَّ كذا .

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ ﴾ : أي : مثلَ ذلك الطبعِ يطبعُ .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)

قوله : ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ : العامَّةُ من الاستخفاف بخاء معجمة وفاء . ويعقوب وابن أبي إسحاق بحاءٍ مهملةٍ وقاف من الاستحقاق . وابن أبي عبلة ويعقوب بتخفيف نونِ التوكيد . والنهي من باب قولهم " لا أُرَيَنَّكَ ههنا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 54. 57 ﴾

(121/605)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

انصرف إلى قوله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ يعني : فأقبل بوجهك منيباً إليه .

ويجوز أن يخاطب الرئيس بلفظ الجماعة ، لأن له أتباعاً .

وإنما يراد به هو وأتباعه كما قال : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ [الطلاق : 10] ﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ يعني : راجعين إليه من الكفر إلى التوحيد .

﴿ واتقوه وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ يعني : وأتموا الصلوات الخمس ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ على دينهم ﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ يعني : تركوا دين الإسلام الذي أمروا به .

﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ فجعلوه أديانا يعني : تركوا دينهم وصاروا فرقاً اليهود والنصارى والمجوس ، قرأ حمزة والكسائي : ﴿ فارقوا ﴾ بالألف .

وقرأ الباقون ﴿ الذين فَرَّقُواْ ﴾ بغير ألف .

فمن قرأ : فارقوا يعني : تركوا دينهم .

ومن قرأ ﴿ فَرَّقُواْ ﴾ دينهم يعني : افترقت اليهود إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى اثنتين وسبعين فرقة ، والمسلمون ثلاثة وسبعين فرقة ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ يعني : كل أهل دين بما عندهم من الدين راضون .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ ﴾ يعني : إذا أصاب الكفار شدة ﴿ دَعَوْاْ رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ يعني : منقلبين إليه بالدعاء عند الشدة والقحط ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ يعني : إذا أصابهم من الله نعمة ، وهي السعة في الرزق والخصب ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ يعني : تركوا توحيد ربهم في الرخاء ، وقد وحّدوه في الضراء .

قوله عز وجل : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءاتيناهم ﴾ قال مقاتل : تقول أذاقهم رحمة لئلا يكفروا بالذي أعطاهم من الخير .

(122/605)

ويقال : كانت النعمة سبيلاً للكفر فكأنه أعطاهم لذلك ، كما قال ﴿ فالتقطه ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خاطئين ﴾ [القصص : 8]

وقرىء في الشاذ يشركون ليكفروا ، بجزم اللام فيكون أمراً على وجه الوعيد والتهديد .

ثم قال : ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : فتمتعوا قليلاً إلى آجالكم فسوف تعلمون ما يفعل بكم يوم القيامة .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا ﴾ يعني : كتاباً من السماء ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ يعني : ينطق ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ يعني : بما كانوا يقولون من الشرك .

اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به النفي يعني : لم ينزل عليهم حجة بذلك .

وقال القتبي : فهو يتكلم فهو من المجاز ومعناه : أنزلنا عليهم برهاناً يستدلون به ، فهو يدلهم على الشرك .

ويقال : أم أنزلنا عليهم عذراً بذلك .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ﴾ يعني : المطر والسعة ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ يعني : الجوع والشدة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني : جزاء لذنوبهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ يعني : آيسين من الرزق .

قرأ أبو عمرو الكسائي : ﴿ يَقْنَطُونَ ﴾ بكسر النون .

وقرأ الباقون بالنصب .

وهما لغتان ومعناهما واحد .

ثم وعظهم ليعتبروا ويطمئنوا بالرزق فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء ﴾ يعني : يوسع ، وكان يرى صلاح العبد في ذلك .

﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يعني : يضيق العيش .

ويكون صلاحه في ذلك من البسط والتقتير ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ يعني : في البسط والتقتير ﴿ لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني يصدقون .

(123/605)

قوله عز وجل : ﴿ فَئَاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ يعني : فأعط ذا القربى حقه ، وحق القرابة هو الصلة ﴿ والمساكين ﴾ يعني : أعط السائل حقه ، وحقه أن يتصدق عليه بشيء ﴿

وابن السبيل ﴾ يعني : الضيف النازل ، وحقه أن تحسن إليه ﴿ ذلك خَيْرٌ ﴾ يعني : الذي وصف من صلة القرابة ، والمسكين ، وابن السبيل ، ذلك خير ﴿ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ يعني : أي يريدون بذلك رضاء الله ، خير من الإمساك عندهم .

﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ يعني : الناجون .

ويقال : الباقون في النعمة .

ويسمى السحور فلاحاً لأنه يبقي للصائم قوة ﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ مِّن رِباً ﴾ يعني : ما أعطيتم من عطية ﴿ لِّيَرْبُوَاْ فِى أَمْوَالِ الناس ﴾ يعني : ليزدادوا في أموال .

ومعناه : ما أعطيتم من عطية لتلتمسوا بها الزيادة ﴿ فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ الله ﴾ أي : فلا تضاعف تلك العطية عند الله عز وجل ، ما أعطيتم عند الله ولا يأثم فيه .

وروى معمر عن قتادة عن ابن عباس قال : هي هبة يريد أن يثاب أفضل منها .

فذلك الذي لا يربو عند الله ، ولا يؤجر فيه صاحبه ، ولا إثم عليه .

﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ مِّن رِباً ﴾ قال : هي الصدقة ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ المضعفون ﴾ وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

وقال عكرمة : الربا ربوان : ربا حلال ، وربا حرام .

فأما الحلال فهو هبة الرجل يريد أن يثاب ما هو أفضل منها .

وأما الحرام فزيادة خالية عن العوض في عقد المعاوضة .

وهو نوعان : ربا الفضل ، وربا النساء .

عرف ذلك في كتب الفقه .

قرأ ابن كثير ﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ ﴾ بغير مد يعني : ما جئتم .

وقرأ الباقون : بالمد يعني : ما أعطيتم .

واتفقوا في الثاني أنه بالمد .

وقرأ نافع ﴿ لتربو ﴾ بالتاء والضم ، والباقون بالياء والنصب .

فمن قرأ بالنصب .

فمعناه : لتستزيدوا أنتم زيادة في المال .

يعني : لتكثروا أموالكم بما أعطيتم .

(124/605)

ومن قرأ : ﴿ ليربو ﴾ بالياء معناه : ليربو المعطي فيكثر حتى يرد ما هو أكثر منه .

ثم بيّن ما يربو فيه فقال : ﴿ وَمَا مّن كتاب زكواة ﴾ يعني : ما أعطيتم من صدقة تريدون

وجه الله يعني : رضا الله .

ففيه الإضعاف .

فأولئك هم المضعفون للواحد عشرة فصاعداً .

ويقال : ﴿ المضعفون ﴾ أي : الواجدين من الضعف .

كما يقال : أكذبته إذا وجدته كاذباً .

ثم أخبر عن صنعه ليعرف توحيده فقال عز وجل : ﴿ الله الذى خَلَقَكُمْ ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ يعني : أطعمكم ما عشتم في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ للبعث بعد الموت ، لينْبّئكم بما عملتم في الدنيا ويجازيكم ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَىْءٍ ﴾ يعني : يفعل كفعله .

ثم نزّه نفسه فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقد ذكرناه .

ويقال : الله الذي خلقكم وطلب منكم العبادة ، ثم رزقكم وطلب الطمأنينة ، ثم يميتكم وطلب منكم الاستعداد للموت ، ثم يحييكم وطلب منكم الحجة والبرهان .

﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر ﴾ يعني : قحط المطر ، ونقص الثمار للناس والدواب .

يعني : نقص النبات في البر للدواب والوحوش ؛ وفي البحر يعني : القرى والأرضين ينقصان الثمار والزرع .

سمى القرى والمدائن بحراً لما يجري فيها من الأنهار .

ويقال : البحر نفسه لأنه إذا لم يكن مطر ، فإنه لا يخرج منه اللؤلؤ ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى الناس ﴾ أي : بما عملوا من المعاصي .

ويقال : من أذنب ذنباً فجميع الخلق من الإنس والجن ، والدواب والوحوش ، والطير والذر ، خصماؤه يوم القيامة ، لأنه يمنع المطر بالمعصية ، فيضرّ بأهل البر والبحر .

وروي عن ثقيف الزاهد أنه قال : من أكل الحرام ، فقد خان جميع الناس ، حيث لا يستجاب دعاؤه .

(125/605)

ويقال : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر ﴾ يعني : ظهرت المعاصي في البر والبحر ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى الناس ﴾ يعني : بكسب الناس .

فأول فساد البر كان من قابيل حيث قتل أخاه هابيل ، وأول فساد البحر كان من جلندا حيث كان يأخذ كل سفينة غصباً .

وقال عطية العوفي : ظهور الفساد قحوط المطر .

قيل له : هذا فساد البر فما فساد البحر ؟ قال : إذا قلّ المطر قلّ الغوص .

وقال قتادة ﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر ﴾ يعني : امتلأت الضلالة والظلم في الأرض .

وروي عن أبي العالية أنه قال البر : الأعضاء والبحر : القلوب يعني : ظهر الفساد في الناس في الأعضاء وفي القلوب .

ثم قال : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذى عَمِلُواْ ﴾ يعني : يعذبهم ببعض ذنوبهم في الدنيا ، ويّدخر البعض في الآخرة .

والذوق إنما هو كناية عن التعذيب .

فكأنه يقول : يعذبهم بالجوع والقحط في الدنيا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : لكي يرجعوا عن الكفر .

قرأ ابن كثير : ﴿ لّنُذِيقَهُمْ ﴾ بالنون أي : لنذيقهم نحن .

وقرأ الباقون : بالياء يعني : ليذيقهم الله عز وجل .

ثم خوّفهم فقال عز وجل : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض ﴾ أي : سافروا فيها ﴿ فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلُ ﴾ يعني : كيف كان آخر أمر من كان قبلهم ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ فيعتبروا بذلك .

والنظر على وجهين .

يقال : نظر إليه إذا نظر بعينه ، ونظر فيه إذا تفكر بقلبه .

وها هنا قال : ﴿ فانظروا ﴾ ولم يقل فيه ، ولا إليه .

فهو على الأمرين جميعاً .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ القيم ﴾ يعني : أخلص دينك الإسلام القيم .

يعني : المستقيم .

ويقال : أقبل بوجهك إليه .

ويقال : اثبت عليه .

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّهِ ﴾ يعني : يوم القيامة لا يقدر أحد أن يرد ذلك اليوم من الله .

ويقال : يعني : ذلك اليوم من الله .

(126/605)

ويقال : لا خلف لذلك الوعد من الله ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ يعني : يتصدعون .

فأدغم التاء في الصاد وشدد .

يعني : يتفرقون فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

ثم قال عز وجل : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ يعني : جزاء كفره وعقوبته ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا ﴾ يعني : وحّده وعمل بالطاعة بعد التوحيد ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ قال مقاتل : أي يقدمون .

وقال مجاهد .

يعني : لأنفسهم يفرشون في القبر .

ويقال : في الجنة .

ويقال : فلأنفسهم يعملون ويستعدون .

قوله عز وجل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ ينصرف إلى قوله يصدعون .

يعني : يتفرقون لكي يجزي الذين آمنوا ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني : من رزقه .

ويقال : من ثوابه .

ويقال : بفضله ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ بتوحيد الله عز وجل .

ويقال : لا يرضى دين الكافرين .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَن يُرْسِلَ الرياح ﴾ يعني : ومن علامات وحدانيته أن يعرفوا توحيده بصنعه ، أن يرسل الرياح ﴿ مبشرات ﴾ بالمطر .

ويقال : يستبشر بها الناس .

ويقال : فإذا كان الاستبشار به ينسب الفعل إليه ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ يعني : ليصيبكم من نعمته وهو المطر ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ ﴾ يعني : السفن تجري في البحر بالرياح بأمره ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني : لتطلبوا في البحر من رزقه كل هذا بالرياح ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ رب هذه النعم فتوحدوه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ يا محمد ﴿ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ موسى بالبينات ﴾ بالأمر والنهي ، فكذبوهم كما كذب قومك ﴿ فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ بالعذاب يعني : من

الذين كفروا ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا ﴾ يعني : واجباً علينا ﴿ نَصْرُ المؤمنين ﴾ بالنجاة مع رسولهم .

وإنما هو وجوب الكرم ، لا وجوب اللزوم .

(127/605)

ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا ، فقال الله عز وجل : ﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾ يعني : تدفعه وتهيجه .

يقال : ثار الغبار إذا ارتفع ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِى السماء كَيْفَ يَشَاء ﴾ يعني : كيف يشاء الله عز وجل .

إن شاء بسطه مسيرة يوم أو أكثر ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ يعني : قطعاً ﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ يعني : المطر يخرج من خلاله ، من وسط السحاب ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ يعني : بالمطر ﴿ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يعني : يفرحون بنزول المطر عليهم قرأ ابن عامر ﴿ كِسَفًا ﴾ بالجزم .

وقرأ الباقون : بالنصب .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي : من قبل

نزول المطر عليهم .

﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ يعني : آيسين من المطر .

وقال الأخفش : تكرير قبل للتأكيد .

وقال قطرب : الأول للتنزيل ، والثاني للمطر .

ثم قال : ﴿ فانظر إلى ءاثار رَحْمَةِ الله ﴾ يعني : ألوان النبات من أثر المطر منه الأخضر ، والأحمر ، والأصفر .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وابن عامر ﴿ فانظر إلى ءاثار رَحْمَةِ ﴾ بلفظ الجماعة .

قرأ الباقون بلفظ الوحدان ، لأن الوحدان يغني عن الجمع .

ثم قال : ﴿ كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ حين لم يكن فيها نبات ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ يعني : هذا الذي فعل ﴿ فانظر إلى ﴾ في الآخرة ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ يعني : الزرع متغيّراً بعد خضرته ﴿ لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ يعني : لصاروا ، وأصله العمل بالنهار .

ويستعمل في موضع صار كقوله أصبح وأمسى يوضع موضع صار ﴿ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : من بعد اصفراره يكفرون النعم .

يقول : لو فعلت ذلك لفعلوا هكذا .

ويقال : قوله : ﴿ فَرَأَوْهُ ﴾ إشارة إلى النبات ، لأن الريح مؤنثة .

(128/605)

وإنما أراد ما ينبت بالمطر .

ويقال : معناه أنهم يستبشرون إذا رأوا الغيث ، ويكفرون إذا انقطع عنهم النبات .

ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال :

﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ فشّبه الكفار بالموتى .

فكما لا يسمع الموتى النداء ، فكذلك لا يجيب ، ولا يسمع الكفار الدعاء ، إذا دعوا إلى الإيمان ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ يعني : أن الأصم إذا كان مقبلاً لا يسمع ، فكيف إذا ولى مدبراً ؟ فكذلك الكافر لا يسمع إذا كان يتصامم عند القراءة ، والقراءة ذكرناها في سورة النمل .

ثم قال عزّ وجل : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى العمى ﴾ إلى الإيمان ﴿ عَن ضلالتهم ﴾ يعني : لا تقدر أن توفقه وهو لا يرغب عن طاعتي في طلب الحق ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ يعني : ما تسمع ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى العمى ﴾ يعني : بالقرآن ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ يعني : مخلصون .

ثم أخبرهم عن خلق أنفسهم ليعتبروا ويتفكروا فيه فقال عز وجل : ﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ مّن ضَعْفٍ ﴾ يعني : من نطفة .

ويقال : صغيراً لا يعقل ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يعني : شدة بتمام خلقه ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً ﴾ يعني : بعد الشباب الهرم ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ أي : شمطاً .

قرأ عاصم في رواية حفص وحمزة : من ضعف بنصب الضاد .

وقرأ الباقون : من ضعف بالضم .

وهما لغتان ومعناهما واحد .

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ أي : يحول الخلق كما يشاء من الصورة ﴿ وَهُوَ العليم القدير ﴾ ﴿ العليم ﴾ بتحويل الخلق ، ﴿ القدير ﴾ يعني : القادر على ذلك .

قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون ﴾ يعني : يحلف المشركون ﴿ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ في الدنيا .

(129/605)

يقول الله عز وجل : كذلك كانوا يكذبون بالبعث كما أنهم كذبوا حيث قالوا ﴿ مَا لَبِثُواْ ﴾ يعني في القبور غير ساعة ويقال : ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ لأنهم يقولون مرة : ﴿

>يتخافتون بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ [طه : 103] ومرة يقولون : ﴿ >قَالَ كَذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [الكهف : 119] ومرة يقولون : ﴿ مَا لَبِثْنَا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ فيقول الله تعالى : هكذا كانوا في الدنيا .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان ﴾ يعني : أكرموا بالعلم والإيمان ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله ﴾ أي : في علم الله .

ويقال : فيما كتب الله عز وجل .

وقال مقاتل : في الآية تقديم .

يعني : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ في كتاب الله ﴿ والإيمان ﴾ وهو ملك الموت ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله إلى يَوْمِ البعث ﴾ .

ويقال : الذين أوتوا العلم بالكتاب وأوتوا ﴿ الايمان ﴾ وهم العلماء .

ثم قال : ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لا تصدقون بهذا اليوم في الدنيا .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفعُ الذين ظَلَمُواْ ﴾ يعني : أشركوا ﴿ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر : ﴿ وَلاَ تَنفَعُ ﴾ بالتاء بلفظ التأنيث ، لأن لفظ المعذرة مؤنثة .

وقرأ الباقون : بالياء ، فينصرف إلى المعنى يعني : عذرهم ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يقال : عتب يعتب إذا غضب عليه ، وأعتب يعتب إذا رجع عن ذنبه ، واستعتب إذا طلب منه

الرجوع.

يعني : أنه لا يطلب منهم الرجوع في ذلك اليوم ليرجعوا .

(130/605)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ ﴾ يعني : وصفنا وبيّنّا ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان ﴾ أي : شبه ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِئَايَةٍ ﴾ كما سألوا ﴿ لَّيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : المشركون من أهل مكة ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ يعني : يقولون ما أنت إلا كاذب ، وليس هذا من الله عز وجل ، كما كذبوا بانشقاق القمر .

يقال : أبطل الرجل إذا جاء بالباطل .

وأكذب إذا جاء بالكذب .

فقال : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ يعني : كاذبون .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله ﴾ يعني : يختم الله عز وجل ﴿ على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ فيما وعد لكم من النصر على عدوكم ، وإظهار دين الإسلام حق .

ويقال : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني : صدق في العذاب ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾

يعني : يستنزلنك عن البعث ﴿ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون .

ويقال : ﴿ لاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ يعني : لا يحملنك تكذيبهم على الخفة .

يعني : كن حليماً ، صبوراً ، وقوراً .

ويقال : ﴿ لاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ فتدعو عليهم بتعجيل العذاب ، فيهلك الذين لا يوقنون بالعذاب ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 18.11 ﴾

(131/605)

وقال الثعلبى :

قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتقوه وَأَقِيمُواْ الصلاة وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين * مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾

فرقاً كاليهود والنصارى .

أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله الدينوري ، عن محمد بن عمر بن إسحاق بن حبيش الكلواذي ، عن عبد الله بن سليمان بن الأشعث ، عن محمد بن مصفى ، عن بقية بن الوليد عن شعبة أو غيره ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن شريح ، عن عمر بن الخطّاب قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : " يا عائشة إنّ الّذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً هم أهل البدع والضّلالة من هذه الأمّة ، يا عائشة إنَّ لكلّ صاحب ذنب توبة إلاّ صاحب البدع والأهواء ليست لهم توبة ، أنا منهم بريء وهم منّي براء " .

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ قوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ خصباً ونعمة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي مصحف عبد الله وليتمتّعوا ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ . قال ابن عبّاس والضحّاك : حجّةً وعذراً . قتادة والربيع : كتاباً .

﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ ينطق ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ يعذرهم على شركهم ويأمرهم به .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(132/605)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا ﴾ . قرأ ابن كثير (آتَيْتُمْ) مقصور غير ممدود ﴿ لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس ﴾ . قرأ الحسن وعكرمة وأهل المدينة بضمّ التاء وجزم الواو وعلى الخطاب أي لتربوا أنتم ، وهي قراءة ابن عبّاس واختيار يعقوب وأيّوب وأبي حاتم .

وقرأ الآخرون (لِّيَرْبُوَ) بياء مفتوحة ونصب الواو وجعلوا الفعل للربا . واختاره أبو عبيد لقوله : ﴿ فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله ﴾ ولم يقل فلا يربى . واختلف المفسّرون في معنى الآية . فقال سعيد ابن جبير ومجاهد وطاووس وقتاده والضحاك : هو الرجل يعطي الرجل العطية ويهدي الهدية ليثاب أكثر منها ، فهذا رباً حلال ليس فيه أجر ولا وزر ، وهذا للناس عامّة ، فأمّا النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّة فكان هذا عليه حراماً لقوله عزّ وجلّ ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] . وقال الشعبي : هو الرجل يلزق بالرجل فيحف له ويخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله ليجزيه وإنّما أعطاه التماس عونه ولم يرد به وجه الله . وقال النخعي : هذا في الرجل يقول للرجل : لأمولّنك فيعطيه مراعاةً ، وكان الرجل في الجاهلية يعطي ذا القرابة له المال ليكثر ماله ، وهي رواية أبي حسين عن ابن عبّاس . وقال السدي : نزلت في ثقيف كانوا يعطون الربا .

﴿ فَلاَ يَرْبُو ﴾ يزكو ﴿ عِندَ الله ﴾ لأنّه لم يرد به وجه الله . ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ المضعفون ﴾ قال قتادة : هذا الذي يقبله الله يضاعفه له عشر أمثالها وأكثر من ذلك . ومعنى قوله : (المضعفون) . أهل التضعيف . كقول العرب : أصبحتم

مسمنين ، إذا سمنت إبلهم ، ومعطشين إذا عطشت . ورجل مقو إذا كانت إبله قويّة ، ومضعف إذا كانت ضعيفة ، ومنه الخبيث المخبّث أي أصحابه خبّثاً .

(133/605)

﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفساد ﴾ أي قحط المطر ونقص الغلاّت وذهاب البركة ﴿ فِي البر والبحر ﴾ تقول : أجدبت البرّ وانقطعت مادّة البحر ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس ﴾ بشؤم ذنوبهم .

قال قتادة : هذا قبل أَنْ يبعث الله نبيّه (عليه السلام) امتلأت الأرض ظلماً وضلالة ، فلمّا بعث الله عزّ وجلّ محمّداً (صلى الله عليه وسلم) رجع راجعون من الناس . فالبرّ أهل العمود والمفاوز والبراري ، والبحر أهل الرّيف والقرى . قال مجاهد : أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كلّ قرية على ماء جار فهو بحر .

وقال عكرمة : العرب تسمّي الأمصار بحراً . وقال عطية وغيره : البرّ ظهر الأرض ، الأمصار وغيرها ، والبحر هو البحر المعروف . وقال عطية : إذا قلّ المطر قلّ الغوص .

وقال ابن عبّاس : إذا مطرت السماء تفتح الأصداف فمها في البحر فما وقع فيها من ماء

السماء فهو لؤلؤ . وقال الحسن : البحر القرى على شاطئ البحر . قال ابن عبّاس وعكرمة ومجاهد : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر ﴾ بقتل ابن آدم أخاه ﴿ والبحر ﴾ بالمِلك الجائر الذي كان يأخذ كلّ سفينة غصباً واسمه الجلندا ، رجل من الأزد .

(134/605)

﴿ لِيُذِيقَهُمْ ﴾ قرأ السلمي بالنون وهو اختيار أبي حاتم . الباقون بالياء ﴿ بَعْضَ الذي عَمِلُواْ ﴾ أي عقوبة بعض الذي عملوا من ذنوبهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم وأعمالهم الخبيثة . ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القيم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ يتفرّقون ، فريق في الجنّة وفريق في السعير ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ يفرشون ويسوّون المضاجع في القبور . ﴿ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِن فَضْلِهِ ﴾ ثوابه ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ .

قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ نعمته المطر . ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ رزقه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بالبينات فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ أشركوا ﴿ وَكَانَ

حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ في العاقبة ، فكذلك نحن ناصروك ومظفروك على مَن عاداك وناواك . قال الحسن : يعني أنجاهم مع الرسل من عذاب الأمم .

(135/605)

أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله الدينوري ، قال أبو العبّاس أحمد بن محمد بن يوسف الصرصري ، عن الحسين بن محمد المطبقي ، عن الربيع بن سليمان ، عن علي ابن معبد عن موسى بن أعين ، عن بشير بن أبي سليمان ، عن عمرو بن مرّة عن شهر بن حوشب (عن أُمّ الدرداء) عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما مِن امرئ يردُّ عن عرضِ أخيه إلاّ كان حقّاً على الله سبحانه أنْ يردَّ عنهُ نار جهنّم يوم القيامة " ثمّ تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ .

﴿ الله الذي يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾ أخبرني ابن فنجويه عن مخلد الباقرحي ، عن الحسن بن علوية ، عن إسماعيل بن عيسى ، عن إسحاق بن بشر ، أخبرنا إدريس أبو الياس ، عن وهب بن منبه : أنّ الأرض شكت إلى الله عزّ وجلّ أيام الطوفان لأنّ الله عزّ وجلّ أرسل الماء بغير وزن ولا كيل فخرج الماء غضباً لله عزّ وجلّ فخدش الأرض

وخدّدها فقالت : يا ربّ إنّ الماء خدّدني وخدشني ، فقال الله عزّ وجلّ فيما بلغني والله أعلم إنّي سأجعل للماء غربالاً لا يخدّدك ولا يخدشكِ ، فجعل السّحاب غربال المطر .

(136/605)

﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ ردّ الكناية إلى لفظ السحاب لذلك ذكرها . والسحاب جمع كما يُقال : هذا تمر جيّد ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ قطعاً متفرّقة . ﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ وسطه . وقرأ ابن عبّاس مِن خِلَلِهِ . ﴿ فَإِذآ أَصَابَ بِهِ ﴾ أي بالودق ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُواْ ﴾ وقد كانوا ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ وقيل : وما كانوا إلاّ . قال قطرب والفائدة في تكرار قبل هاهنا أنّ الأُولى للأنزال والثّانية للمطر ، وقيل على التأكيد ، كقول الله عزّ وجلّ : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ [آل عمران : 188] كرّر تحسبَنَّ للتأكيد . وقال الشاعر :

إذا أنا لم أؤمن عليك ولم يكن . . . لقاؤك إلاّ من وراء وراء

وفي حرف ابن مسعود ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا بِمَفَازَةٍ مِنْ الْعَذَاب ﴾ غير مكرّر ، وفي حرفه أيضاً : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ

عَلَيْهِم لَمُبلِسِينَ ﴾ غير مكرّر .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ فانظر إلى آثَارِ ﴾ بالألف على الجمع أهل الشام والكوفة . واختلف فيه عن أصم ، غيرهم : أثر على الواحد ﴿ رَحْمَتِ الله ﴾ يعني المطر ﴿ كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من البعث وغيره .

(137/605)

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً ﴾ باردةً مضرّةً فأفسدت ما أنبتَ الغيث ﴿ فَرَأَوْهُ ﴾ يعني الزرع والنبات كناية عن غير مذكور ﴿ مُصْفَرّاً ﴾ يابساً بعد خضرته ونضرته ﴿ لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ وقد رأوا هذه الآيات الواضحات ، ثمّ ضرب لهم مثلاً فقال : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَادِ العمي عَن ضَلاَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾ نطفة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ شباباً ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً ﴾ هرماً ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ . قرأ يحيى وعاصم والأعمش وحمزة (بفتح) الضاد من الضعف ، غيرهم بالضمّ فيها كلّها ، واختارها أبو عبيد لأنّها لغة النبي صلى الله عليه وسلم .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان ، عن حامد بن محمد ، عن علي بن عبد العزيز قال أبو نعيم ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية العوفي قال : قرأت على ابن عمر ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً ﴾ يعني بالضم ، ثمّ قال : إنّي قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذها عليّ كما أخذتها عليك ، وكان عاصم الجحدري يقرأ ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضُعْفٍ – بالضم – قُوَّةً ثُمَّ مِنْ بَعْدِ قُوّة ضَعْفَاً – بالفتح – ﴾ أراد أن يجمع بين اللغتين . قال الفرّاء : الضمّ لغة قريش والنصب لغة تميم ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ العليم القدير ﴾ .

(138/605)

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون ﴾ يحلف المشركون ﴿ مَا لَبِثُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : 55] استقلّ القوم أجل الدنيا لمّا عاينوا الآخرة . وقال مقاتل والكلبي : يعني ما لبثوا في قبورهم غير ساعة ، استقلّوا ذلك لما استقبلوا من هول يوم القيامة ، نظيرها قوله عزّ وجلّ : ﴿ كَأَن لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً ﴾ [يونس : 45] من النهار ومن نهار ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ يكذّبون في الدُّنيا .

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله ﴾ أي فيما كتب الله لكم في

سابق علمه . وقيل : في حكم الله ، كقول الشاعر :

ومال الولاء بالبلاء فملتمُ . . . وما ذاكَ قال الله إذ هو يكتبُ

أي يحكم . وقال قتادة ومقاتل : هذا من مقاديم الكلام تأويلها : وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فِي كتاب الله والإيمانَ لقد لبثتُم ﴿ إلى يَوْمِ البعث فهذا يَوْمُ البعث ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ في الدنيا أنّه يكون وأنّكم مبعوثون ومجزّيون فكنتم به تكذّبون .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترجعون .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ ما أنتم إلاّ على باطل ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ * فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ في نصرك وتمكينك ﴿ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ يستزلنّك ويستخفنَّ رأيك عن حكمك ﴿ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 304 . 308 ﴾

(139/605)

وقال الزمخشرى :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) ﴾

وقرئ: فرّقوا دينهم بالتشديد ، أى: جعلوه أديانا مختلفة لاختلاف أهوائهم وكانُوا شِيَعاً فرقا ، كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها كُلُّ حِزْبٍ منهم فرح بمذهبه مسرور ، يحسب باطله حقا - ويجوز أن يكون مِنَ الَّذِينَ منقطعا مما قبله ، ومعناه: من المفارقين دينهم كل حزب فرحين بما لديهم ، ولكنه رفع فرحون على الوصف لكل ، كقوله:

وكل خليل غيرها ضم نفسه «1»

---

(1) وكل خليل غيرها ضم نفسه فبالصد والاعراض عنه جدير

للشماخ. ويروى: بدل الشطر الثاني: بوصل خليل صارم أو مصادر. وغيرها ضم - بالرفع -: صفة كل. أو بالجر: صفة خليل ، أى: من لم يخفض نفسه لصاحبه فهو حقيق بالصد والاعراض عنه لا بالمودة. وزادت الفاء ، لأن المبتدأ فيه معنى الشرط. والصارم: القاطع. والمصادر: المجانب ، أى: من لم يهضم نفسه لوصل خليله ، أدى به ذلك إلى القطيعة ، فان لم تكن فالى المجانبة ، فكأنه مقاطع ، أو مجانب بالفعل.

(140/605)

[سورة الروم (30): الآيات 33 إلى 34]

وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ

يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

الضر : الشدّة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك . والرحمة : الخلاص من الشدّة . واللام في لِيَكْفُرُوا مجاز مثلها في لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا . فَتَمَتَّعُوا نظير اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وبال تمتعكم . وقرأ ابن مسعود : وليتمتعوا .

[سورة الروم (30) : آية 35]

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

السلطان : الحجة ، وتكلمه . مجاز ، كما تقول : كتابه ناطق بكذا ، وهذا مما نطق به القرآن .

ومعناه : الدلالة والشهادة ، كأنه قال : فهو يشهد بشركهم وبصحته . وما في بِما كانُوا مصدرية أى : بكونهم بالله يشركون . ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها . ومعناه : فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون . ويحتمل أن يكون المعنى : أم أنزلنا عليهم ذا سلطان ، أى :

ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون .

[سورة الروم (30) : آية 36]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (36)

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً أى نعمة من مطر أو سعة أو صحة فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أى بلاء من جدب أو ضيق أو مرض - والسبب فيها شؤم معاصيهم - قنطوا من الرحمة .

[سورة الروم (30) : آية 37]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض ، فما لهم يقنطون من رحمته ، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدّة من أجلها ، حتى يعيد إليهم رحمته .

[سورة الروم (30) : آية 38]

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

حق ذى القربى : صلة الرحم . وحق المسكين وابن السبيل : نصيبهما من الصدقة المسماة لهما .

(141/605)

وقد احتج أبو حنيفة رحمه اللّه بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب . وعند الشافعي رحمه اللّه : لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين

: قاس سائر القرابات على ابن العم ، لأنه لا ولاد بينهم . فإن قلت : كيف تعلق قوله فَآتِ ذَا الْقُرْبى بما قبله حتى جيء بالفاء ؟ قلت : لما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه ، أى : يقصدون بمعروفهم إياه خالصا وحقه ، كقوله تعالى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى أو يقصدون جهة التقرّب إلى اللّه لا جهة أخرى ، والمعنيان متقاربان ، ولكن الطريقة مختلفة .

[سورة الروم (30) : آية 39]

وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

هذه الآية في معنى قوله تعالى يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ سواء بسواء ، يريد : وما أعطيتم أكلة الربا مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أموالهم : ليزيد ويزكو في أموالهم ، فلا يزكو عند اللّه ولا يبارك فيه وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ أى صدقة تبتغون به وجهه خالصا ، لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ذوو الإضعاف من الحسنات . ونظير المضعف : المقوي والموسر ، لذي القوّة واليسار : وقرئ بفتح العين . وقيل : نزلت في ثقيف ، وكانوا يربون . وقيل : المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدى له ، ليعوّضه أكثر مما وهب أو أهدى ، فليست تلك الزيادة بحرام ، ولكن المعوّض لا يثاب على تلك الزيادة . وقالوا : الربا ربوان :

فالحرام: كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه: أو يجرّ منفعة. والذي ليس بحرام: أن يستدعى بهبته أو بهديته أكثر منها. وفي الحديث «المستغزر يثاب من هبته» «1» وقرئ: وما أتيتم من ربا، بمعنى: وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا. وقرئ: لتربوا، أى: لتزيدوا في أموالهم، كقوله تعالى وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ أى يزيدها. وقوله تعالى فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه اللّه بصدقاتهم: هم المضعفون. فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون. والمعنى: المضعفون به، لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما، ووجه آخر: وهو أن يكون تقديره: فمؤتوه أولئك هم المضعفون.

والحذف لما في الكلام من الدليل عليه، وهذا أسهل مأخذا، والأوّل أملأ بالفائدة.

[سورة الروم (30): آية 40]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

---

(1). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من وجهين عن ابن سيرين عن شريح بهذا موقوفا.

اللَّهُ مبتدأ وخبره الَّذِي خَلَقَكُمْ أى اللّه هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره ، ثم قال هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ الذين اتخذتموهم أندادا له من الأصنام وغيرها مَنْ يَفْعَلُ شيئا قط من تلك الأفعال ، حتى يصح ما ذهبتم إليه ، ثم استبعد حاله من حال شركائهم . ويجوز أن يكون الَّذِي خَلَقَكُمْ صفة للمبتدإ ، والخبر : هل من شركائكم ، وقوله مِنْ ذلِكُمْ هو الذي ربط الجملة بالمبتدإ ، لأن معناه : من أفعاله . ومن الأولى والثانية والثالثة : كل واحدة منهنّ مستقلة بتأكيد ، لتعجيز شركائهم ، وتجهيل عبدتهم .

[سورة الروم (30) : آية 41]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ نحو : الجدب ، والقحط ، وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات ، ووقوع الموتان في الناس والدواب ، وكثرة الحرق والغرق ، وإخفاق الصيادين «1» والغاصة ، ومحق البركات من كل شيء ، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضارّ . وعن ابن عباس :

أجدبت الأرض وانقطعت مادّة البحر . وقالوا : إذا انقطع القطر عميت دواب البحر .

وعن الحسن أنّ المراد بالبحر : مدن البحر وقراه التي على شاطئه . وعن عكرمة : العرب

تسمى الأمصار البحار . وقرئ في البر والبحور بما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ بسبب معاصيهم وذنوبهم ، كقوله تعالى وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وعن ابن عباس ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ بقتل ابن آدم أخاه . وفي البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا : وعن قتادة : كان ذلك قبل البعث ، فلما بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجع راجعون عن الضلال والظلم . ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك . فإن قلت : ما معنى قوله لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؟ قلت أمّا على التفسير الأول فظاهر ، وهو أنّ اللّه قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ، لعلهم يرجعون عما هم عليه . وأمّا على الثاني فاللام مجاز ، على معنى أنّ ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم اللّه وبال أعمالهم إرادة الرجوع ، فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشوّ المعاصي في الأرض لأجل ذلك . وقرئ : لنذيقهم ، بالنون .

---

(1) . قوله «وإخفاق الصيادين» في الصحاح : أخفق الصائد ، إذا رجع ولم يصطد . (ع)

[سورة الروم (30) : آية 42]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب اللّه ونكاله : حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك اللّه الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم ، ودل بقوله كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ على أنّ الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم ، وأنّ ما دونه من المعاصي يكون سببا لذلك .

[سورة الروم (30) : آية 43]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

القيم : البليغ الاستقامة «الذي لا يتأتى فيه عوج مِنَ اللَّهِ إمّا أن يتعلق بيأتى ، فيكون المعنى : من قبل أن يأتى من اللّه يوم لا يردّه أحد ، كقوله تعالى فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها أو بمردّ ، على معنى : لا يردّه هو بعد أن يجيء به ، ولا ردّ له من جهته . والمردّ : مصدر بمعنى الردّ يَصَّدَّعُونَ يتصدّعون : أى : يتفرّقون ، كقوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ .

[سورة الروم (30) : الآيات 44 إلى 45]

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (45)

فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضارّ ، لأنّ من كان ضاره كفره ، فقد

أحاطت به كلّ مضرّة فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ أي يسوّون لأنفسهم ما يسوّيه لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه ، لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه عليه وينغض عليه مرقده : من نتوء أو قضض «1» أو بعض ما يؤذي الراقد . ويجوز أن يريد : فعلى أنفسهم يشفقون ، من قولهم في المشفق : أمّ فرشت فأنامت . وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أنّ ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعدّاه . ومنفعة الإيمان والعمل الصالح : ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه لِيَجْزِيَ متعلق بيمهدون تعليل له مِنْ فَضْلِهِ مما يتفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب ، وهذا يشبه الكناية ، لأن الفضل تبع للثواب ، فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له : أو أراد من عطائه وهو ثوابه ، لأن الفضول والفواضل هي الأعطية عند العرب . وتكرير الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح . وقوله إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ تقرير بعده تقرير ، على الطرد والعكس .

---

(1) . قوله «من نتوء أو قضض» النتوء : الارتفاع . والقضض : صغار الحصى . أفاده الصحاح . (ع) [. . . . .]

[سورة الروم (30) : آية 46]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)

الرِّياحَ هي الجنوب والشمال والصبا ، وهي رياح الرحمة . وأما الدبور ، فريح العذاب . ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم «اللهمّ اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا «1»» وقد عدد الأغراض في إرسالها ، وأنه أرسلها للبشارة بالغيث ولإذاقة الرحمة ، وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه ، والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض «2»» وإزالة العفونة من الهواء ، وتذرية الحبوب ، وغير ذلك وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ في البحر عند هبوبها . وإنما زاد بِأَمْرِهِ لأن الريح قد تهب ولا تكون مؤاتية «3» ، فلا بد من إرساء السفن والاحتيال لحبسها ، وربما عصفت فأغرقتها وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ يريد تجارة البحر ، ولتشكروا نعمة اللّه فيها . فإن قلت : بم يتعلق وليذيقكم ؟ قلت :

فيه وجهان : أن يكون معطوفا على مبشرات على المعنى ، كأنه قيل : ليبشركم وليذيقكم . وأن يتعلق بمحذوف تقديره : وليذيقكم ، وليكون كذا وكذا : أرسلناها .

[سورة الروم (30) : آية 47]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ

حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين ، وقد أخلى الكلام أوّلا عن ذكرهما . وقوله كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

تعظيم للمؤمنين ، ورفع من شأنهم ، وتأهيل لكرامة سنية ، وإظهار لفضل سابقة ومزية ، حيث جعلهم مستحقين على اللّه أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم ، وقد يوقف على قًّا

. ومعناه :

وكان الانتقام منهم حقا ، ثم يبتدأ : لَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على اللّه أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة «4»» . ثم

---

(1) . أخرجه الشافعي : أخبرنى من لا أنهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا نحوه ، ومن طريقه . أخرجه في المعرفة وفي الدعوات . وهذا المبهم : هو إبراهيم بن أبى يحيى وهو ضعيف . وله طريق أخرى عند أبى يعلى والطبراني وابن عدى من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به وحسين ضعيف أيضا

(2) . لم أجده .

(3) . قوله «ولا تكون مؤاتية» في الصحاح : آتيته على ذلك الأمر هؤاتاة ، إذا وافقته .

والعامة تقول :

وأتيته . (ع)

(4) . أخرجه الترمذي وأحمد والطبراني من حديث أبى الدرداء وقال حسن . ورواه إسحاق والطبراني وأبو يعلى وابن عدى من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مرفوعا نحوه وإسناده ضعيف . واختلف فيه على شهر ابن حوشب : فقال العلاج عنه هكذا ، وقال ليث بن أبى سليم عنه عن أبى هريرة ، أخرجه ابن مردويه .

(145/605)

تلا قوله تعالى كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

.

[سورة الروم (30) : الآيات 48 إلى 49]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)

فَيَبْسُطُهُ متصلا تارة وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً أى قطعا تارة فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فِي التارتين

جميعا . والمراد بالسماء . سمت السماء وشقها ، كقوله تعالى وَفَرْعُها فِي السَّماءِ ، وبإصابة العباد : إصابة بلادهم وأراضيهم مِنْ قَبْلِهِ من باب التكرير والتوكيد ، كقوله تعالى فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها . ومعنى التوكيد فيه : الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم بأسهم وتمادى إبلاسهم «1» فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .

[سورة الروم (30) : آية 50]

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

قرئ : أثر وآثار ، على الوحدة والجمع . وقرأ أبو حيوة وغيره : كيف تحيى ، أى : الرحمة إِنَّ ذلِكَ يعنى إنّ ذلك القادر الذي يحيى الأرض بعد موتها ، هو الذي يحيى الناس بعد موتهم وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ من المقدورات قادر ، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء .

[سورة الروم (30) : الآيات 51 إلى 53]

وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

فَرَأَوْهُ فرأوا أثر رحمة اللّه . لأنّ رحمة اللّه هي الغيث ، وأثرها : النبات . ومن قرأ بالجمع :

رجع الضمير إلى معناه لأنّ معنى آثار الرحمة النبات ، واسم النبات يقع على القليل والكثير ، لأنه مصدر سمى به ما ينبت . ولئن : هي اللام الموطئة للقسم ، دخلت على حرف الشرط ، ولَظَلُّوا جواب القسم سدّ مسدّ الجوابين ، أعنى : جواب القسم وجواب الشرط ، ومعناه : ليظلنّ ذمّهم اللّه تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم

---

(1) . قوله «إبلاسهم» الإبلاس : اليأس من الخير ، والسكوت ، والانكسار غما وحزنا . أفاده الصحاح . (ع)

(146/605)

على صدورهم مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر : استبشروا وابتهجوا ، فإذا أرسل ريحا فضرب زروعهم بالصفار ، ضجوا وكفروا بنعمة اللّه . فهم في جمع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، كان عليهم أن يتوكلوا على اللّه وفضله ، فقنطوا . وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ، فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار . وأن يصبروا على بلائه ، فكفروا . والريح التي اصفرّ لها النبات : يجوز أن تكون حرورا وحرجفا ، فكلتاهما مما يصوح «1» له النبات ويصبح هشيما . وقال : مصفرّا : لأنّ تلك صفرة حادثة . وقيل :

فرأوا السحاب مصفرا ، لأنه إذا كان كذلك لم يمطر .

[سورة الروم (30) : آية 54]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54)

قرئ : بفتح الضاد وضمها ، وهما لغتان ، والضم أقوى في القراءة ، لما روى ابن عمر رضى اللّه عنهما : قال : قرأتها على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من ضعف ، فأقرأنى من ضعف «2» .

قوله خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ كقوله خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ يعنى أنّ أساس أمركم وما عليه ؟ ؟ ؟ بلتكم وبنيتكم الضعف وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً أى ابتدأناكم في أوّل الأمر ضعافا ، وذلك حال الطفولة والنشء حتى بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة ، وتلك حال القوّة إلى الاكتهال وبلوغ الاشدّ ، ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم . وقيل : من ضعف من ؟ ؟ ؟ النطف ، كقوله تعالى مِنْ ماءٍ مَهِينٍ وهذا الترديد في الأحوال المختلفة ، والتغيير من هيئة إلى ؟ ؟ ؟ الهيئة وصفة إلى صفة : أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر .

[سورة الروم (30) : آية 55]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

السَّاعَةُ القيامة ، سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا . أو لأنها تقع ؟ ؟ ؟ بغتة وبديهة . كما تقول : «في ساعة» لمن تستعجله ، وجرت علما لها كالنجم للثريا ، والكوكب للزهرة . وأرادوا : لبثهم في الدنيا ، أو في القبور ، أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث . وفي الحديث :

---

(1) . قوله «وحرجفا . . . الخ» في الصحاح «الحرجف» : الريح الباردة . وفيه أيضا «صوحته الريح» :

؟ ؟ ؟ أيبسته . (ع)

(2) . أخرجه أبو داود والترمذي وإسحاق والبزار من حديث عطية عن ابن عمر دون التفسير ورواه ابن مردويه من رواية أبى عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر لكن في إسناده سلام بن سليمان .

(147/605)

«ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون» «1» قالوا : لا نعلم أهى أربعون سنة أم أربعون ألف سنة ؟ وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم ، وإنما يقدّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون كَذِلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ أى

مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا ، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق . أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة .

[سورة الروم (30) : الآيات 56 إلى 57]

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

القائلون : هم الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنون فِي كِتابِ اللَّهِ في اللوح . أو في علم الله وقضائه . أو فيما كتبه ، أى : أوجبه بحكمته . ردّوا ما قالوه وحلفوا عليه ، وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه . فإن قلت : ما هذه الفاء ؟ وما حقيقتها ؟ قلت : هي التي في قوله :

فقد جئنا خراسانا «2»

وحقيقتها : أنها جواب شرط يدل عليه الكلام ، كأنه قال : إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان ، وآن لنا أن نخلص ، وكذلك إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث ، أى فقد تبين بطلان قولكم . وقرأ الحسن يوم البعث ، بالتحريك لا يَنْفَعُ قرئ بالياء والتاء يُسْتَعْتَبُونَ من قولك : استعتبني فلان فأعتبته . أى : استرضانى فأرضيته ،

وذلك إذا كنت جانيا عليه . وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه . ألا ترى إلى قوله :

غضبت تميم أن تقتّل عامر يوم النّسار فأعتبوا بالصّيلم «3»

---

(1) . لم أجده هكذا . وفي الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا «ما بين النفختين» أربعون قالوا : يا أبا هريرة أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرا ؟ قال : أبيت قالوا : أربعون يوما ؟ قال : أبيت» .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 271 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 105 فراجعه إن شئت اه مصححه .

كيف جعلهم غضابا ، ثم قال : فأعتبوا ، أى : أزيل غضبهم . والغضب في معنى العتب .

والمعنى :

لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ، ومثله قوله تعالى لا يُخْرَجُونَ مِنْها ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

فإن قلت : كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات ، وغير معتبين في بعضها ، وهو قوله

وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين: فهذا معناه. وأما كونهم غير معتبين، فمعناه: أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم، فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه، فإن يستعتبوا اللّه: أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته.

[سورة الروم (30): الآيات 58 إلى 60]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (60)

وَلَقَدْ وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم - لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة - إذا جئتهم بآية من آيات القرآن، قالوا: جئتنا بزور وباطل، ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع اللّه على قلوب الجهلة. ومعنى طبع اللّه: منع الألطاف «1» التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق، وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدى عليه ولا تغنى عنه، كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أنّ الموعظة تلغو ولا تنجع فيه، فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدإ والرين إياها، فكأنه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة، حتى يسموا المحقين مبطلين،

وهم أعرق خلق اللّه «2» في تلك الصفة فَاصْبِرْ على عداوتهم إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله حَقٌّ لا بدّ من إنجازه والوفاء به ، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك . وقرئ بتخفيف النون . وقرأ ابن أبى إسحاق

---

(1) . قوله «و معنى طبع اللّه منع الألطاف» أوله بذلك بناء على أنه تعالى لا يخلق الشر وهو مذهب المعتزلة .

وذهب أهل السنة إلى أنه يخلقه كالخير ، فالآية على ظاهرها . (ع)

(2) . قوله «و هم أعرق خلق اللّه» في الصحاح : أعرق الرجل ، أى : صار عريقا ، وهو الذي له عرق في الكرم . (ع)

(149/605)

ويعقوب : ولا يستحقنك ، أى : لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح اللّه بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته» «1» . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 479. 489﴾

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(150/605)

وقال ابن جزى :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

منصوب على الحال في قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وأمته ، ولذلك جمعهم في قوله منيبين ، وقيل : هو حال من ضمير الفاعل المستتر في الزموا فطرة الله ، وقيل : هو حال من قوله : فطر الناس وهذا بعيد ﴿ واتقوه ﴾ وما بعده معطوف على " أقم وجهك " أو على العامل في فطرة الله وهو الزموا المضمر .

﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ المجرور بدل من المجرور قبله ، ومعنى فرقوا دينهم : جعلوه فرقاً أي اختلفوا فيه ، وقرئ : فارقوا من المفارقة أي تركوه ، والمراد بالمشركين هنا أصناف الكفار ، وقيل : هم المسلمون الذي تفرقوا فرقاً مختلفة ، وفي لفظ المشركين هنا تجوّز بعيد ، ولعل قائل هذا القول إنما قال في قول الله في [الأنعام : 159] ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ فإنه ليس هناك ذكر المشركين .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ ﴾ بالآية : إنحاء على المشركين ، لأنهم يدعون الله في الشدائد

ويشركون به في الرخاء ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ ذكر في [النحل : 55] .

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً ﴾ أم هنا منقطعة بمعنى بل ، والسلطان الحجة ، وكلامه مجاز كما تقول نطق : بكذا ، والمعنى ليس لهم حجة تشهد بصحة شركهم .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ﴾ إنحاء على من يفرح ويبطر إذا أصابه الخير ، ويقنط إذا أصابه الشر ، وانظر كيف قال هنا ﴿ إِذَا ﴾ ، وقال في الشر ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ ، لأن إذا للقطع بوقوع الشرط ، بخلاف إن فإنها للشك في وقوعه ، ففي ذلك إشارة إلى أن الخير الذي يصيب به عباده أكثر من الشرّ ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ المعنى أن ما يصيب الناس من المصائب ، فإنه بسبب ذنوبهم .

﴿ فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ يعني صلة رحم القرابة بالإحسان والمودّة ، ولو بالكلام الطيب

.

(151/605)

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِي أَمْوَالِ الناس ﴾ الآية : معناها كقوله : ﴿ يَمْحَقُ الله الربا وا وَيُرْبِي الصدقات ﴾ [البقرة : 276] أي ما أعطيتم من أموالكم على وجه الربا فلا يزكو عند الله ، وما آتيتم من الصدقات : هو الذي يزكو عند الله وينفعكم به ، وقيل : المراد أن

يهب الرجل للرجل أو يهدي له ليعوض له أكثر من ذلك ، فهذا وإن كان جائزاً فإنه لا ثواب فيه . وقرئ ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ ﴾ بالمد بمعنى أعطيتم وبالقصر يعني : جئتم أي فعلتموه ، ﴿ لِّيَرْبُوَاْ ﴾ بالتاء المضمومة ﴿ لِّيَرْبُوَاْ ﴾ بالياء مفتوحة ونصب الواو ﴿ فأولئك هُمُ المضعفون ﴾ المضعف ذو الإضعاف من الحسنات ، وفي هذه الجملة التفات لخروجه من الغيبة إلى الخطاب ، وكان الأصل أن يقال : وما آتيتم من زكاة فأنتم المضعفون ، وفيه أيضاً حذف ، لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما ، وتدقيره المضعفون به أو فمؤتوه هم المضعفون .

﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر ﴾ قيل : البر البلاد البعيدة من البحر ، والبحر هو البلاد التي على ساحل البحر ، وقيل : البر اللسان والبحر القلب وهذا ضعيف ، والصحيح أن البر والبحر المعروفان ، فظهور الفساد في البر بالقحط والفتن وشبه ذلك ، وظهور الفساد في البحر بالغرق وقلة الصيد وكساد التجارات وشبه ذلك ، وكل ذلك بسبب ما يفعله الناس من الكفر والعصيان .

﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ ﴾ أي لا رجوع له ولا بد من وقوعه ﴿ مِنَ الله ﴾ يتعلق بقوله : ﴿ يَأْتِيَ ﴾ أو بقوله لا مردّ له أي لا يرده الله ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ من الصدع وهو الفرقة أي يتفرقون : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] ﴿ فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يوطنون وهو استعارة من تمهيد الفراش ونحوه ، والمعنى أنهم يعملون ما ينتفعون به في الآخرة ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ يتعلق بيمهدون أو يصدعون ، أو بمحذوف .

﴿ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أي تبشر بالمطر ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ ﴾ عطف على ﴿ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ كأنه قال : ليبشركم وليذيقكم ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره : ليذيقكم ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ أرسلها ﴿ وَكَانَ حَقّاً ﴾ انتصب حقاً لأنه خبر كان واسمها ﴿ نَصْرُ المؤمنين ﴾ ، وقيل : اسمها مضمر يعود على مصدر انتقمنا : أي كان الانتقام حقاً ، فعلى هذا يوقف على ﴿ حَقّ ﴾ ويكون ﴿ نَصْرُ المؤمنين ﴾ مبتدأ وهذا ضعيف .

﴿ فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾ أي تحركها وتنشرها ﴿ كِسَفاً ﴾ أي قطعاً ، وقرئ بإسكان السين وهما بناءان للجمع ، وقيل : معنى الإسكان أن السحاب قطعة واحدة ﴿ الودق ﴾ هو المطر ﴿ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ الخلال الشقاق الذي بين بعضه وبعض ، لأنه متخلل الأجزاء والضمير يعود على السحاب ﴿ مِّن قَبْلِهِ ﴾ كرر للتأكيد وليفيد سرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي قانطين كقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [الشورى : 28] .

﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً ﴾ الضمير للنابت الذي ينبته الله بالمطر ، والمعنى لئن أرسل الله ريحاً فاصفر به لكفر الناس بالقنوط والاعتراض على الله ، وقيل : الضمير للريح : وقيل :

للسحاب والأول أحسن في المعنى .

﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ الآية : استعارة في عدم سماع الكفار للمواعظ والبراهين ، فشبه الكفار بالموتى في عدم إحساسهم .

﴿ خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾ الضعف الأول كون الإنسان من ماء مهين ، وكونه ضعيف في حال الطفولية ، والضعف الثاني الأخير الهم ، وقرئ بفتح الضاد وضمها وهما لغتان .

(153/605)

﴿ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ هذا جواب القسم ، ومعناه أنهم يحلفون أنهم ما لبثوا في القبور تحت التراب إلا ساعة ، أي ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة ، وذلك لاستقصار تلك المدة ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي مثل هذا الصرف كانوا يصرفون في الدنيا عن الصدق ، والتحقيق حتى يروا الأشياء على ما هي عليه .

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان ﴾ هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ردّوا مقالة الكفار التي حلفوا عليها ﴿ فِي كِتَابِ الله ﴾ يعني اللوح المحفوظ أو علم الله ، والمجرور على هذا يتعلق بقوله : ﴿ لَبِثْتُمْ ﴾ ، وقيل : يعني القرآن ، فعلى هذا يتعلق هذا المجرور بقوله ﴿ أُوتُواْ العلم ﴾ ، وفي الكلام تقديم و تأخير ، وتقديره على هذا : قال الذين أتوا العلم في

كتاب الله أي العلماء بكتاب الله وقولهم : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ ﴾ خطاب للكفار ، وقولهم : ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ﴾ : تقرير لهم ، وهو في المعنى جواب لشرط مقدّر تقديره : إن كنتم تنكرون البعث فهذا يوم البعث .

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ من العتبى بمعنى الرضا : أي ولا يرضون وليست استفعل هنا للطلب .

﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني ما وعد من النصر على الكفار ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ من الخفة : أي لا تضطرب لكلامهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 123 .

125 ﴾

(154/605)

وقال الخازن :

قوله ﴿ منيبين إليه ﴾

أي فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه لأن خطاب النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يدخل فيه الأمة والمعنى راجعين إلى الله تعالى بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة ﴿ واتقوه ﴾ أي ومع ذلك خافوه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي داوموا على أدائها في أوقاتها ﴿ ولا تكونوا من

المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ أي صاروا فرقاً مختلفة وهم اليهود والنصارى وقيل هم أهل البدع من هذه الأمة ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي راضون بما عندهم .

وقوله تعالى ﴿ وإذا مس الناس ضر ﴾ أي قحط وشدة ﴿ دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ أي مقبلين إليه بالدعاء ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة ﴾ أي خصباً ونعمة ﴿ إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ .

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ ليجحدوا نعمة الله عليهم ﴿ فتمعتوا ﴾ فيه تهديد ووعيد خاطب به الكفار ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي حالكم هذه في الآخرة ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ قال ابن عباس حجة وعذراً وقيل كتاباً ﴿ فهو يتكلم ﴾ أي ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ أي بشركهم ويأمرهم به ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ أي الخصب وكثرة المطر ﴿ فرحوا بها ﴾ أي فرحوا وبطروا ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي جدب وقلة مطر وقيل خوف وبلاء ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ من السيئات إذا ﴿ هم يقنطون ﴾ أي ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر ربه عند النعمة ويرجوه عند الشدة ﴿ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ تقدم تفسيره .

قوله ﴿ فآت ذا القربى حقه ﴾ أي من البر والصلة ﴿ والمسكين ﴾ أي حقه وهو التصدق عليه ﴿ وابن السبيل ﴾ أي المسافر وقيل الضيف ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي يطلبون ثواب الله بما كانوا يعملون ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ قوله ﴿ وما آتيتم ﴾ أي أعطيتم ﴿ من ربا ليربوا في أموال الناس ﴾ أي في اجتلاب أموال الناس واجتذابها قيل في معنى الآية هو الرجل يعطي غيره العطية ليثيبه أكثر منها فهو جائز حلال ولكن لا يثاب عليها في القيامة وهذا قوله ﴿ فلا يربو عند الله ﴾ وكان هذا حراماً على النبي خاصة لقوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أي لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيت وقيل هو الرجل يعطي صديقه أو قريبه ليكثر ماله لا يريد به وجه الله .

وقيل : هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل ربح ماله لالتماس عونه لا لوجه الله تعالى فلا يربو عند الله لأنه لم يرد بعمله وجه الله ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ أي أعطيتم من صدقة ﴿ تريدون وجه الله ﴾ أي بتلك الصدقة ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ أي يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات .

قوله تعالى ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ أي بسبب الشرك والمعاصي ظهر قحط المطر وقلة النبات في البراري والبوادي والمفاوز والقفار والبحر .

(156/605)

قيل المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية والعرب تسمي المصر بحراً تقول : أجدب البر وانقطعت مادة البحر وقيل البر ظهر الأرض الأمصار وغيرها والبحر هو المعروف وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر بخلو أجواف الأصداف من اللؤلؤ وذلك لأن الصدف إذا جاء المطر ترتفع على وجه الماء وتفتح أفواهها فما وقع فيه من المطر صار لؤلؤاً ﴿ بما كسبت أيدي الناس ﴾ أي بسبب شؤم ذنوبهم وقال ابن عباس الفساد في البر قتل أحد ابني آدم أخاه وفي البحر غصب الملك الجائر السفينة .

قيل كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة وكان البحر عذباً وكان لا يقصد البقر الغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً زعافاً وقصد الحيوان بعضها بعضاً .

وقيل : إن الأرض امتلأت ظلماً وضلالة قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما بعث رجع راجعون من الناس وقيل أراد بالناس كفار مكة ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا

﴿ يعني عقوبة الذي عملوا من الذنوب ﴾ لعلهم يرجعون ﴾ يعني عن الكفر وأعمالهم الخبيثة ﴾ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ أي لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية ﴾ كان أكثرهم مشركين ﴾ يعني فأهلكوا بكفرهم .

قوله : ﴾ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ يعني لدين الإسلام ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ يعني يوم القيامة لا يقدر أحد على رده من الخلق ﴾ يومئذ يصدعون ﴾ يعني يتفرقون ثم ذكر الفريقين فقال تعالى ﴾ من كفر فعليه كفره ﴾ يعني وبال كفره ﴾ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ أي يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور ﴾ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ قال ابن عباس : ليثيبهم الله ثواباً أكثر من أعمالهم ﴾ إنه لا يحب الكافرين ﴾ فيه تهديد ووعيد لهم .

(157/605)

قوله تعالى ﴾ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ أي تبشر بالمطر ﴾ وليذيقكم من رحمته ﴾ أي بالمطر وهو الخصب ﴾ ولتجري الفلك ﴾ أي بهذه الرياح ﴾ بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾ معناه لتطلبوا رزقه بالتجارة في البحر ﴾ ولعلكم تشكرون ﴾ أي هذه النعم .

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات ﴾ أي بالدلالات الواضحات على صدقهم ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ يعني أنا عذبنا الذين كذبوهم ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ أي مع أنجائهم من العذاب ففيه تبشير للنبي (صلى الله عليه وسلم) بالظفر في العاقبة والنصر على الأعداء عن أبي الدرداء قال : سمعت النبي صلى الله عليه سلم يقول : " ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا من كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم لقيامة ؛ ثم تلا هذه الآية : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين " أخرجه الترمذي ولفظه : " من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة " وقال حديث حسن .

(158/605)

قوله ﴿ والله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ يعني تنشره ﴿ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾ يعني مسيرة يوم أو يومين أو أكثر على ما يشاء ﴿ ويجعله كسفاً ﴾ أي قطعاً متفرقة ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من وسطه ﴿ فإذا أصاب به ﴾ يعني الودق ﴿ من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ يعني يفرحون بالمطر ﴿ وإن كانوا ﴾ أي وقد كانوا ﴿ من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ يعني

آيسين ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله ﴾ يعني المطر والمعنى انظر حسن تأثيره في الأرض وهو قوله تعالى ﴿ كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى ﴾ يعني إن الذين أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى ﴿ وهو على كل شيء قدير ولئن أرسلنا ريحاً فرآه مصفراً ﴾ أي الزرع بعد الخضرة ﴿ لظلموا من بعده ﴾ أي من بعد اصفرار الزرع ﴿ يكفرون ﴾ أي يجحدون ما سلف من النعمة والمعنى أنهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذاباً على زرعهم لجحدوا سالف نعمتي ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ أي بدأكم وأنشأكم على ضعف وقيل من ماء ذي ضعف وقيل هو إشارة إلى أحوال الإنسان كان جنيناً ثم طفلاً مولوداً ومفطوماً فهذه أحوال الضعف ﴿ ثم جعل من بعد ضعف قوة ﴾ يعني من بعض ضعف الصغر شباباً وهو وقت القوة ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً ﴾ يعني هرماً ﴿ وشيبة ﴾ وهو تمام النقصان ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ أي من الضعف والقوة والشباب والشيبة وليس ذلك من أفعال الطبيعة بل بمشيئة الله وقدرته ﴿ وهو العليم ﴾ بتدبير خلقه ﴿ القدير ﴾ على ما يشاء .

قوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ﴾ أي يحلف المشركون ﴿ ما لبثوا ﴾ أي في الدنيا ﴿ غير الساعة ﴾ معناه أنهم استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا الآخرة وقيل معناه ما لبثوا في قبورهم غير ساعة ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ يعني يصرفون عن الحق في الدنيا وذلك أنهم كذبوا في قولهم ما لبثوا غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن لا يبعثوا .

والمعنى أن الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء تبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه وكان ذلك بقضاء الله وقدره ثم ذكر إنكار المؤمن عليهم كذبتهم فقال تعالى ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله يوم البعث ﴾ أي فيما كتب الله لكم في سابق عمله من اللبث في القبور وقيل معنى الآية وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان يعني الذين يقيمون كتاب الله قالوا للمنكرين قد لبثتم إلى يوم البعث أي في قبوركم ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ أي الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ أي وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن بدليل قوله تعالى ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا تطلب منهم العتبى والرجوع في الآخرة وقيل لا تطلب منهم التوبة التي تزيل الجريمة لأنها لا تقبل منهم .

قوله تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ فيه إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار ﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا

مبطلون ﴾ يعني ما أنتم إلا على باطل وذلك على سبيل العناد .

فإن قلت ما معنى توحيد الخطاب في قوله : ولئن جئتهم والجمع في قوله : إن أنتم إلا مبطلون .

(160/605)

قلت فيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن أن يقال معناه أنكم كلكم أيها الرسل مبطلون ﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ أي توحيد الله ﴾ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ أي في نصرك وإظهارك على عدوك ﴾ ولا يستخفنك ﴾ يعني لا يحملنك على الجهل وقيل لا يستخفن رأيك ﴾ الذين لا يوقنون ﴾ يعني بالبعث والحساب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الخازن حـ 5 صـ 209.213 ﴾

(161/605)

وقال النسفى :

﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

راجعين إليه وهو حال من الضمير في "الزموا" ، وقوله ﴿ واتقوه ﴾ و ﴿ أقيموا ﴾ و ﴿ لا تكونوا ﴾ معطوف على هذا المضمر ، أو من قوله ﴿ فأقم وجهك ﴾ لأن الأمر له عليه السلام أمر لأمته فكأنه قال : فأقيموا وجوهكم منيبين إليه ، أو التقدير كونوا منيبين دليله قوله ﴿ ولا تكونوا ﴾ ﴿ واتقوه وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ أي أدوها في أوقاتها ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة ﴿ مِنَ الذين ﴾ بدل من ﴿ المشركين ﴾ بإعادة الجار ﴿ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ جعلوه أديانا مختلفة لاختلاف أهوائهم ﴿ فارقوا ﴾ حمزة وعلي وهي قراءة علي رضي الله عنه أي تركوا دين الإسلام ﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ فرقاً كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ منهم ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقاً .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ضُرٌّ ﴾ شدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك ﴿ دَعَوْاْ رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي خلاصاً من الشدة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ في العبادة ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ هذه لام كي .

وقيل : لام الأمر للوعيد ﴿ بِمَا آتيناهم ﴾ من النعم ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ بكفركم قليلاً أمر وعيد ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال تمتعكم ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا ﴾ حجة ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ وتكلمه مجاز كما تقول "كتابه ناطق بكذا" وهذا مما نطق به القرآن ، ومعناه الشهادة كأنه قال : فهو يشهد بشركهم وبصحته ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ "ما" مصدرية أي بكونهم بالله يشركون ، أو موصولة ويرجع الضمير إليها أي فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون ، أو معنى الآية أم أنزلنا عليهم ذا سلطان أي ملكاً معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ﴾ أي نعمة من مطر أوسعة أوصحة ﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ بطروا بسببها ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي بلاء من جدب أو ضيق أو مرض ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بسبب شؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ من الرحمة و ﴿ إذا ﴾ لمفاجأة جواب الشرط نابت عن الفاء لتآخيهما في التعقيب .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أنكر عليهم بأنهم قد علموا بأنه القابض الباسط فما لهم يقنطون من رحمته ، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته ! ولما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك فقال

﴿ فَئَآتِ ذَا القربى ﴾ أعط قريبك ﴿ حَقَّهُ ﴾ من البر والصلة ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ نصيبهما من الصدقة المسماة لهما ، وفيه دليل وجوب النفقة للمحارم كما هو مذهبنا ﴿ ذلك ﴾ أي إيتاء حقوقهم ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ أي ذاته أي يقصدون بمعروفهم أياه خالصاً ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون وَمَا ءاتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَاْ فِى أَمْوَالِ الناس ﴾ يريد وما أعطيتم أكلة الربا من رباً ليربوا في أموالهم ﴿ فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ الله ﴾ فلا يزكوا عند الله ولا يبارك فيه .

وقيل : هو من الربا الحلال أي وما تعطونه من الهدية لتأخذوا أكثر منها فلا يربوا عند الله لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله ﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ مِّن زكواة ﴾ صدقة ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ تبتغون به وجهه خالصاً لا تطلبون به مكافأة ولا رياء ولا سمعة ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المضعفون ﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات ونظير المضعف المقوى والموسر لذي القوة واليسار .

﴿ أتيتم من ربا ﴾ بلامد : مكي أي وما غشيتموه من إعطاء ربا ﴿ لتربوا ﴾ مدني أي لتزيدوا في أموالهم .

وقوله ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ التفات حسن لأنه يفيد التعميم كأنه قيل : من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين .

والمعنى المضعفون به لأنه لا بد له من ضمير يرجع إلى "ما" الموصولة .

وقال الزجاج : في قوله ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ أي فأهلها هم المضعفون أي هم الذي يضاعف لهم الثواب يعطون بالحسنة عشر أمثالها .

ثم أشار إلى عجز آلهتهم فقال

(164/605)

﴿ الله الذى خَلَقَكُمْ ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي : هو المختص بالخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾ أي : أصنامكم التي زعمتم أنهم شركاء لله ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ ﴾ أي : من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أي : شيئاً من تلك الأفعال فلم يجيبوا عجزاً فقال استبعاداً : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ و "من" الأولى الثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم .

﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر ﴾ نحو القحط وقلة الأمطار والريع في الزراعات والربح في

التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شيء ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ بسبب معاصيهم وشركهم كقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ أي : ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة وبالنون عن قنبل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من المعاصي ثم أكد تسبيب المعاصي لغضب الله ونكاله بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ حيث أمرهم بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة بمعصايهم .

(165/605)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ البليغ الاستقامة الذي لا يتأتى فيه عوج ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ ﴾ هو مصدر بمعنى الرد ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ يتعلق بيأتي ، والمعنى : من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد كقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ [الأنبياء : 40] أو بمرد على معنى لا يرده هو بعد أن يجيء به ولا رد له من جهته ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ يتصدعون أي : يتفرقون ثم أشار إلى غناه عنهم .

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وبال كفره ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهد لنفسه فراشه ويوطئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينغص عليه مرقده من نتوء وغيره ، والمعنى أنه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم فأضيف إليهم .

وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر ، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه .

ليجزى متعلق ب ﴿ يمهدون ﴾ تعليل له وتكرير ﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي عطائه .

وقوله ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ أي ومن آيات قدرته ﴿ أَن يُرْسِلَ الرياح ﴾ هي الجنوب والشمال والصبا وهي رياح الرحمة ، وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه السلام " اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " وقد عدد الفوائد في إرسالها فقال ﴿ مبشرات ﴾ أي أرسلها للبشارة بالغيث ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ ولإذاقة الرحمة وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض وغير ذلك .

﴿ وليذيقكم ﴾ معطوف على ﴿ مبشرات ﴾ على المعنى كأنه قيل : ليبشركم وليذيقكم ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ أي بتدبيره أو بتكوينه كقوله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ [يس : 82] الآية .

﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ يريد تجارة البحر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيها .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَاءوهُم بالبينات ﴾ أي فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ، ويدل على هذا الإضمار قوله ﴿ فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ أي كفروا بالإهلاك في الدنيا ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ أي وكان نصر المؤمنين حقاً علينا بإنجائهم مع الرسل .

وقد يوقف على ﴿ حقاً ﴾ ومعناه وكان الانتقام منهم حقاً ثم يبدأ ﴿ علينا نصر المؤمنين ﴾ والأول أصح ﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح ﴾ ﴿ الريح ﴾ مكي ﴿ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ ﴾ أي السحاب ﴿ فِى السماء ﴾ أي في سمت السماء وشقها كقوله ﴿ وَفَرْعُهَا فِى السماء ﴾ [إبراهيم : 24] ﴿ كَيْفَ يَشَاء ﴾ من ناحية الشمال أو الجنوب أو الدبور أو الصبا ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ قطعاً جمع كسفة أي يجعله منبسطاً يأخذ وجه السماء مرة ويجعله قطعاً متفرقة غير منبسطة مرة .

﴿ كسفا ﴾ يزيد وابن ذكوان ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ المطر ﴿ يَخْرُجُ ﴾ في التارتين جميعاً ﴿ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ وسطه ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ بالودق ﴿ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يريد إصابة بلادهم وأراضيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون .

(167/605)

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ المطر ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ كرر للتأكيد كقوله : ﴿ فَكَانَ عاقبتهما أَنَّهُمَا فِى النار خالدين فِيهَا ﴾ [الحشر : 17] ومعنى التوكيد فيها الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم بأسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ آيسين ﴿ فانظر إلى ءاثار ﴾ شامي وكوفي غير أبي بكر .

وغيرهم ﴿ أَثَرِ ﴾ ﴿ رَّحْمَةِ الله ﴾ أي المطر ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الأرض ﴾ بالنبات وأنواع الثمار ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي الله ﴿ لمحيي الموتى ﴾ يعني أن ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ، فهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي وهو على كل شيء من المقدورات قادر وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ أي الدبور ﴿ فَرَأَوْهُ ﴾ أي أثر رحمة الله لأن رحمة الله هي الغيث وأثرها النبات .

ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه لأن معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمي به ما ينبت ﴿ مُصْفَرّاً ﴾ بعد إخضراره .

وقال ﴿ مصفرا ﴾ لأن تلك صفرة حادثة .

وقيل : فرأوا السحاب مصفراً لأن السحاب الأصفر لا يمطر .

(168/605)

واللام في ﴿ لئن ﴾ موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط ، وسد مسد جوابي القسم والشرط ﴿ لَّظَلُّواْ ﴾ ومعناه ليظلن ﴿ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي من بعد اصفراره أو من بعد الاستبشار ، ذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا ، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا ، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ففرحوا ، وأن يصبروا على بلائه فكفروا .

﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ أي موتى القلوب أو هؤلاء في حكم الموتى فلا تطمع أن يقبلوا منك ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء ﴾ ﴿ ولا يسمع الصم ﴾ مكي ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ فإن قلت : الأصم لا يسمع مقبلاً أو مدبراً ، فما فائدة هذا التخصيص ؟ قلت : هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز بالإشارة فإذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالإشارة ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ العمى ﴾ أي عمى القلوب ، ﴿ وما أنت تهدى العمي ﴾ حمزة ﴿ عَن ضلالتهم ﴾ أي لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى طريق قد ضل عنه بإشارة منك له إليه ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ ما تسمع ﴿ إِلاَّ مَن يُؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ منقادون لأوامر الله تعالى .

﴿ الله الذى خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ﴾ من النطف كقوله ﴿ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٍ ﴾ يعني حال الشباب وبلوغ الأشد ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ يعني حال الشيخوخة والهرم ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ من ضعف وقوة وشباب وشيبة ﴿ وَهُوَ العليم ﴾ بأحوالهم ﴿ القدير ﴾ على تغييرهم وهذا الترديد في الأحوال أبين دليل على الصانع العليم القدير .

(169/605)

فتح الضاد في الكل : عاصم وحمزة ، وضم غيرهما وهو اختيار حفص ، وهما لغتان والضم أقوى في القراءة لما روي عن ابن عمر قال : قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ من ضَعف ﴾ فأقرأني ﴿ من ضُعفٍ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ أي القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة كما تقول في ساعة لمن تستعجله وجرت علماً لها كالنجم للثريا ﴿ يُقْسِمُ المجرمون ﴾ يحلف الكافرون ، ولا وقف عليه لأن ﴿ مَا لَبِثُواْ ﴾ في القبور أو في الدنيا ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ جواب القسم استقلوا مدة لبثهم في القبور أو في الدنيا لهول يوم القيامة وطول مقامهم في شدائدها أو ينسون أو يكذبون ﴿ كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا ويقولون ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين .

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان ﴾ هم الأنبياء والملائكة والمؤمنون ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله ﴾ في علم الله المثبت في اللوح أو في حكم الله وقضائه ﴿ إلى يَوْمِ البعث ﴾ ردوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ولكنكم كُنتمْ ﴾ في الدنيا ﴿ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه .

والفاء لجواب شرط يدل عليه الكلام تقديره : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي أنكرتموه

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ ﴾ بالياء : كوفي ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ كفروا ﴿ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ عذرهم ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة من قولك "استعتبني فلان فأعتبته" أي استرضاني فأرضيته ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِئَايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ أي ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور باطل ﴿ كذلك يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي مثل ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحقين مبطلين وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة ﴿ فاصبر ﴾ على أذاهم أو عداوتهم ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بنصرتك على أعدائك وإظهار دين الإسلام على كل دين ﴿ حَقّ ﴾ لا بد من إنجازه والوفاء به ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ أي لا يحملنك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة في الدعاء عليهم بالعذاب ، أو لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون فإنهم ضلال

شاكون لا يستبدع منهم ذلك ﴿ ولا يستخفنك ﴾ بسكون النون عن يعقوب ، والله الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 272.278 ﴾

(171/605)

وقال البيضاوى :

﴿ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى ، وقيل منقطعين إليه من الناب وهو حال من الضمير في الناصب المقدر لفطرة الله أو في أقم لأن الآية خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والأمة لقوله : ﴿ واتقوه وَأَقِيمُواْ الصلاة وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ﴾ غير أنها صدرت بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيماً له .

﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ بدل من المشركين وتفريقهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم ، وقرأ حمزة والكسائي "فارقوا" بمعنى تركوا دينهم الذي أمروا به . ﴿ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ فرقاً تشايع كل إمامها الذي أضل دينها . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون ظناً بأنه الحق ، ويجوز أن يجعل فرحون صفة كل على أن الخبر ﴿ مِنَ الذين فَرَّقُواْ ﴾ .

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ شدة . ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين من دعاء غيره . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً من تلك الشدة . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم بالإشراك بربهم الذي عافاهم .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتيناهم ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر بمعنى التهديد لقوله : ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ غير أنه التفت فيه مبالغة وقرىء و"ليتمتعوا" . ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة تمتعكم ، وقرىء بالياء التحتية على أن تمتعوا ماض .

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا ﴾ حجة وقيل ذا سلطان أي ملكاً معه برهان . ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ تكلم دلالة كقوله ﴿ كتابنا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ أو نطق . ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ بإشراكهم وصحته ، أو بالأمر الذي بسببه يشركون به في ألوهيته .

(172/605)

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ نعمة من صحة وسعة . ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ بطروا بسببها . ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدة . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم . ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤوا القنوط من رحمته وقرأ الكسائي وأبو عمرو بكسر النون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ فما لهم يشكروا ولم يحتسبوا في

السراء والضراء كالمؤمنين . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة .

﴿ فَئَاتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ كصلة الرحم ، واحتج به الحنفية على وجوب النفقة للمحارم وهو غير مشعر به . ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ ما وظف لهما من الزكاة ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لمن بسط له ولذلك رتب على ما قبله بالفاء . ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ ذاته أو جهته أي يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً ، أو جهة التقرب إليه لا جهة أخرى . ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم .

(173/605)

﴿ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مّن رِباً ﴾ زيادة محرمة في المعاملة أو عطية يتوقع بها مزيد مكافأة ، وقرأ ابن كثير بالقصر بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا . ﴿ لّيَرْبُوَاْ فِى أَمْوَالِ الناس ﴾ ليزيد ويزكو في أموالهم . ﴿ فَلاَ يَرْبُواْ عَندَ الله ﴾ فلا يزكو عنده ولا يبارك فيه ، وقرأ نافع ويعقوب "لتربوا" أي لتزيدوا أو لتصيروا ذوي ربا . ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُمْ مّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله ﴾ تبتغون به وجهه خالصاً ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المضعفون ﴾ ذوو الأضعاف من الثواب ونظير المضعف

المقوي والموسر لذي القوة واليسار ، أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة ، وقرىء بفتح العين وتغييره عن سنن المقابلة عبارة ونظماً للمبالغة ، والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم ، أو للتعميم كأنه قال : فمن فعل ذلك ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المضعفون ﴾ ، والراجع منه محذوف إن جعلت ما موصولة تقديره المضعفون به ، أو فَمُؤْتُوه أولئك هم المضعفون .

﴿ الله الذى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مّن شَىْءٍ ﴾ أثبت له لوازم الألوهية ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ، ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ويجوز أن تكون الكلمة الموصولة صفة والخبر ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾ والرابط ﴿ مّن ذلكم ﴾ لأنه بمعنى من أفعاله ، و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى والثانية تفيد أن شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفي وكل منها مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء ، وقرأ حمزة والكسائي بالتاء .

(174/605)

﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار ، أو الضلالة والظلم . وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرىء و"البحور" . ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى الناس ﴾ بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه ، وقيل ظهر الفساد في البر بقتل قابيل أخاه وفي البحر بأن جلندا ملك عمان كان يأخذ كل سفينة غصباً . ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذى عَمِلُواْ ﴾ بعض جزائه فإن تمامه في الآخرة واللام للعلة أو العاقبة . وعن ابن كثير ويعقوب "لّنُذِيقَهُمْ" بالنون .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلُ ﴾ لتشاهدوا مصداق ذلك وتحققوا صدقه . ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لفشو الشرك وغلبته فيهم ، أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ القيم ﴾ البليغ الاستقامة . ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ ﴾ لا يقدر أن يرده أحد ، وقوله : ﴿ مِنَ الله ﴾ متعلق ب ﴿ يَأْتِىَ ﴾ ، ويجوز أن يتعلق ب ﴿ مَرَدْ ﴾ لأنه مصدر على معنى لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ يتصدعون أي يتفرقون ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ كما قال

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وباله وهو النار المؤبدة . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ يسوون منزلاً في الجنة ، وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص .

(175/605)

﴿ لِيَجْزِيَ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِن فَضْلِهِ ﴾ علة ل ﴿ يَمْهَدُونَ ﴾ أول ﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ ، والاقتصار على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء على فحوى قوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ فإن فيه إثبات البغض لهم والمحبة للمؤمنين ، وتأكيد اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم إلى التصريح بهم تعليل له ومن فضله دال على أن الإثابة تفضل محض ، وتأويله بالعطاء أو الزيادة على الثواب عدول عن الظاهر .

﴿ وَمِنْ ءاياته أَن يُرْسِلَ الرياح ﴾ الشمال والصبا والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام " اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي "الريح" على إرادة الجنس . ﴿ مبشرات ﴾ بالمطر . ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ يعني المنافع التابعة لها ، وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها والعطف على علة محذوفة دل عليها ﴿ مبشرات ﴾

أو عليها باعتبار المعنى ، أو على ﴿ يُرْسِلُ ﴾ بإضمار فعل معلل دل عليه . ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني تجارة البحر . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولتشكروا نعمة الله تعالى فيها .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بالبينات فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ بالتدمير . ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ إشعار بأن الانتقام لهم وإظهار لكرامتهم حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم ، وعنه عليه الصلاة والسلام " ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم ثم تلا ذلك " وقد يوقف على ﴿ حَقّاً ﴾ على أنه متعلق بالانتقام .

(176/605)

﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ ﴾ متصلاً تارة . ﴿ فِى السماء ﴾ في سمتها . ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ سائراً أو واقفاً مطبقاً وغير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك . ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ قطعاً تارة أخرى ، وقرأ ابن عامر بالسكون على أنه مخفف أو جمع كسفة أو مصدر وصف به . ﴿ فَتَرَى الودق ﴾ المطر . ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ في التارتين . ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يعني بلادهم وأراضيهم .

﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ لمجيء الخصب .

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ المطر . ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم ، وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال .

﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ لآيسين .

﴿ فانظر إلى أَثَرِ رَحْمَتَ الله ﴾ أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار ولذلك جمعه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص . ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وقرىء بالتاء على إسناده إلى ضمير الرحمة . ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ يعني إن الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها . ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ لقادر على إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية ، كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية ، هذا ومن المحتمل أن يكون من الكائنات الراهنة ما يكون من مواد تفتت وتبددت من جنسها في بعض الأعوام السالفة . ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على سواء .

(177/605)

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ فرأوا الأثر أو الزرع فإنه مدلول عليه بما تقدم ، وقيل السحاب لأنه إذا كان ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ لم يمطر واللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط وقوله : ﴿ لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ جواب سد مسد الجزاء ولذلك فسر بالاستقبال . وهذه الآية ناعية على الكفار بقلة تثبتهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم ، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله ويلتجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم ولا ييأسوا من رحمته ، وأن يبادروا إلى الشكر والاستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولم يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا على بلائه إذا ضرب زرعهم بالاصفرار ولا يكفروا نعمه .

﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ وهم مثلهم لما سدوا عن الحق مشاعرهم .

﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالة ، فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يفطن منه بواسطة الحركات شيئاً ، وقرأ ابن كثير بالياء مفتوحة ورفع "الصم" .

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ العمى عَن ضلالتهم ﴾ سماهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الأبصار أو لعمى قلوبهم ، وقرأ حمزة وحده "تهدي العمي" . ﴿ إِنْ تُسْمِعِ إِلاَّ مَن يُؤْمِن بِآيَاتِنَا ﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى ، ويجوز أن يراد بالمؤمن المشارف للإيمان . ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ لما تأمرهم به .

﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ مّن ضَعْفٍ ﴾ أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله ﴿ خَلَقَ الإنسان ضَعِيفاً ﴾ أو خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك إذا بلغتم الحلم أو تعلق بأبدانكم الروح . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ إذا أخذ منكم السن ، وفتح عاصم وحمزة الضاد في جميعها والضم أقوى لقول ابن عمر رضي الله عنهما : قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم " من ضعف فأقرأني من ضُعف " وهما لغتان كالفقر والفُقر والتنكير مع التكرير لأن المتأخر ليس عين المتقدم . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من ضعف وقوة وشبيبة وشيبة . ﴿ وَهُوَ العليم القدير ﴾ فإن الترديد في الأحوال المختلفة مع إمكان غيره دليل العلم والقدرة .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة وصارت علماً بها بالغلبة كالكوكب للزهرة . ﴿ يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ ﴾ في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم ، وفي الحديث " ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون " وهو محتمل الساعات والأيام والأعوام . ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾

استقلوا مدة لبثهم إضافة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق . ﴿ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون في الدنيا .

(179/605)

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان ﴾ من الملائكة والإنس . ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كتاب الله ﴾ في علمه أو قضائه ، أو ما كتبه لكم أي أوجبه أو اللوح أو القرآن وهو قوله : ﴿ وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ . ﴿ إلى يَوْمِ البعث ﴾ ردوا بذلك ما قالوه وحلفوا عليه . ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ﴾ الذي أنكرتموه . ﴿ ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق لتفريطكم في النظر ، والفاء لجواب شرط محذوف تقديره : إن كنتم منكرين البعث فهذا يومه ، أي فقد تبين بطلان إنكاركم .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ تنفعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ وقرأ الكوفيون بالياء لأن المعذرة بمعنى العذر ، أو لأن تأنيثها غير حقيقي وقد فصل بينهما . ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لا يدعون إلى ما يقتضي إعتابهم أي إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إليه في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فأعتبته أي استرضاني فأرضيته .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ولقد وصفنا هم فيه بأنواع الصفات

التي هي في الغرابة كالأمثال ، مثل صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب ، أو بينا لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول . ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ من آيات القرآن . ﴿ لَّيَقُولَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم . ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين . ﴿ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ مزورون .

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الطبع . ﴿ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق .

(180/605)

﴿ فاصبر ﴾ على أذاهم . ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله . ﴿ حَقّ ﴾ لا بد من إنجازه . ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ ولا يحملنك على الخفة والقلق . ﴿ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك . وعن يعقوب بتخفيف النون ، وقرىء "ولا يستحقنك" أي لا يزيغنك فيكونوا أحق بك مع المؤمنين . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر

حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 335 . 343 ﴾

(181/605)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) ﴾

التفسير : لما بين التوحيد بالدلائل وبالمثل بين أنه أمر وجداني يعرفونه في حال الضر والبلاء وإن كانوا ينكرونه في حال الرحمة والرخاء ، وفي لفظي المس والإذاقة دليل على أن الإنسان قليل الصبر في حالتي الضراء والسراء . وإنما قال ﴿ إذا فريق منهم ﴾ ولم يقل " إذا هم يشركون " كما قال في آخر " العنكبوت " ، لأن الكلام هناك مع أهل الشرك وههنا مع الناس كلهم وليس كل الناس كذلك . ثم استفهم على سبيل الإنكار قائلاً ﴿ أم أنزلنا ﴾ كأنه قال : إذا تقررت الحجج المذكورة فماذا يقولون ، أيتبعون أهواءهم بغير علم أم لهم دليل على ما يقولون ؟ وإسناد التكلم إلى الدليل مجاز كما تقول : نطقت الحال بكذا .

(182/605)

و " ما " في قوله ﴿ بما كانوا ﴾ مصدرية والضمير في ﴿ به ﴾ لله أو موصولة والضمير لها اي بالأمر الذي بسببه يشركون ، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي ذا سلطان وهو الملك فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه ﴿ يشركون ﴾ وحين ذكر الشرك الظاهر أتبعه ذكر الخفي وهو أن تكون عبادة الله للدنيا فإذا أتاه بهواه رضي ، وإذا منع وعسر سخط وقنط ، والرحمة المطر والصحة والأمن وأمثالها ، والسيئة أضداد ذلك . وإنما لم يذكر سبب الرحمة ليعلم أنها بفضله وذكر سبب السيئة وهو شؤم معاصيهم ليدل على عدله . والفرح بالنعمة مذموم إذا كان مع قطع النظر عن المنعم ، فإذا كان مع ملاحظة المنعم فمحمود بل الفرح الكلي يجب أن يكون بالمنعم . والقنوط من رحمة الله أيضاً مذموم كما مر في قوله ﴿ إنه لا ييأس من روح الله غلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] ثم اشار بقوله ﴿ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ إلى أن الكل من الله فيجب أن يكون نظر المحقق في الحالين على الله . ففي حالة الرحمة يشتغل بالشكر ، وفي حالة الضراء لا ينسب الله إلى عدم القدرة وإلى عدم العناية بحال العبد بل يشتغل بالتوبة والإنابة إلى أوان الفرج والنصر ، وهذه مرتبة المؤمن الموحد فلذلك قال ﴿ إن في ذلك لايات لقوم يؤمنون ﴾ ولا يخفى أن بسط الرزق مما يشاهد ويرى فلذلك قال ﴿ أولم يروا ﴾ وقال في " الزمر " ﴿ أولم يعلموا ﴾ [الآية : 52] مناسبة لما قبله وهو ﴿ أوتيته على علم ﴾ [القصص : 78]

وقوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ قال جار الله : لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت ايديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك قائلاً ﴿ فآت ذا القربى حقه ﴾ الآية . وأقول : لما بين كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى الشفقة على خلق الله قائلاً ﴿ فآت ﴾ أيها المكلف أو النبي والأمة يتبعونه لا محالة كما مر في قوله ﴿ فأقم وجهك ﴾ [الروم : 30] وفيه أن الله إذا بسط الرزق فلا ينقص بالإِنفاق ،

(183/605)

وإذا ضيق لم يزدد بالإمساك ، فينبغي أن لا يتوقف الإنسان في الإحسان . وفي تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر دلالة على أنهم أولى بالإشفاق عليهم من سائر الأصناف . وإنما قال ﴿ ذا القربى ﴾ ولم يقل " القريب " ليكون نصاً في معناه ولا يشتبه بالقرب المكاني ، وفيه أن القرابة أمر له دوام بخلاف المسكنة وكونه من ابناء السبيل . وفي قوله ﴿ فآت ذا القربى حقه ﴾ دون أن يقول " فآت هذه الأصناف حقوقهم " تشريف لذوي القرابة حيث جعل الصنفين الآخرين تابعاً لهم على الإطلاق . فإنه إذا قال الملك : خل فلاناً يدخل وفلاناً أيضاً كان أدخل في التعظيم من أن يقول : خل فلاناً وفلاناً يدخلان ﴿ ذلك ﴾ الإيتاء ﴿ خير ﴾ في نفسه أو خير من المنع ﴿ للذين يريدون وجه الله ﴾ أي ذاته أو جهة قربته فإن

من أنفق ألوفاً رياء وسمعة لم ينل درجة من أنفق رغيفاً لوجه الله ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ كقوله في أول " البقرة " لأن قوله

﴿ فأقم وجهك ﴾ [الروم : 30] إشارة إلى الإيمان بالغيب وغيره أو إلى إقامة الصلاة ، وقوله ﴿ وآت ذا القربى ﴾ أمر بالزكاة بل بالصدقة المطلقة . وفي قوله ﴿ يريدون وجه الله ﴾ إشارة إلى الاعتراف بالمعاد . ثم أراد أن يعظم شأن الصدقة فضم إلى ذلك تقبيح أمر الربا استطراداً .

(184/605)

فمن قرأ ممدوداً فظاهر ، ومن قرأ مقصوراً فهو من الإتيان أي وما غشيتموه أو أصبتموه من إعطاء ربا ليربو أي ليزيد في أموال أكلة الربا ، وفي القراءة الأخرى ليزيد في أموالهم ﴿ فلا يربو ﴾ فلا يزكو ولا ينمو ﴿ عند الله ﴾ لأنه يمحق بركتها نظيره ما مر في آخر البقرة ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ [الآية : 276] قيل : نزلت في ثقيف وكانوا يرابون . وقيل : نزلت في الهبة أو الإهداء لأجل عوض زائد ، فبين الله تعالى أن ذلك لا يوجب الثواب عند الله وإن كان مباحاً . وفي الحديث " الجانب المستغزر يثاب عن هبته " أي الرجل الغريب إذا أهدى شيئاً فإنه ينبغي أن يزاد في عوضه . قال جار الله : في قوله ﴿

فأولئك ﴾ التفات حسن كأنه قال ذلك لخواصه ولملائكته وهو أمدح لهم من أن يقول " فأنتم المضعفون " أي ذوو الإضعاف من الحسنات نظيره المقوي والموسر لذوي القوة واليسار ، ولا رابط محذوف أي هم المضعفون به . وجوز في الكشاف أن يراد فمؤتوه أولئك هم المضعفون . قالت العلماء : أراد الإضعاف في الثواب لا في المقدار ، فليس من أعطى رغيفاً فإن الله يعطيه عشرة أرغفة ، وإنما المراد أن الرغيف الواحد لو اقتضى أن يكون ثوابه قصراً في الجنة فإن الله تعالى يعطيه عشرة قصور تفضلاً .

(185/605)

ثم عاد إلى بيان التوحيد مرة أخرى بتذكير الخلق والرزق والإماتة والإحياء بعدها نظراً إلى الدلائل ، ثم طلب منهم الإنصاف بقوله ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ قال جار الله : " من " الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم . قلت : الأولى للتبعيض كأنه أقام فعل البعض مقام فعل الكل توسعة على الخصم ، والثالثة لتأكيد الاستفهام ، والمتوسطة للابتداء ولكنه يفيد أنه رضي منهم بشيء واحد من تلك الأشياء للتوسعة المذكورة أيضاً . ثم بين أن الشرك وسائر المعاصي سبب ظهور الفساد في البر والبحر وذلك لقلة المنافع وكثرة المضار ومحق البركات

من كل شيء . وفسره ابن عباس بإجداب البر وانقطاع مادة البحر وتموجه بمائه ، وعن الحسن : المراد بالبحر مدن البحر وقراه التي على سواحله ، وقال عكرمة : العرب تسمي الأمصار بحاراً ﴿ لنذيقهم ﴾ وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن نعاقبهم بجميعها في الآخرة إرادة أن يرجعوا عما هم عليه ، وجوز جار الله أن يراد ظهر الشر والمعاصي في الأرض براً وبحراً بكسب الناس .

(186/605)

وعلى هذا فاللام في قوله ﴿ لنذيقهم ﴾ لام العاقبة . ثم أمرهم بالنظر في حال أشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم كقوم نوح وعاد وثمود ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ فيه إشارة إلى أن بعضهم كانوا مرتكبي ما دون الشرك من المعاصي ولكنهم شاركوا المشركين في الهلاك تغليظاً عليهم . أو هو كقوله ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : 25] أو المراد أن أهل الشرك كانوا أكثر من أهل سائر الأديان الباطلة كالمعطلة والمجسمة ونحوهم . خاطب نبيه وبتبعيته أمته بقوله ﴿ فأقم ﴾ كأنه قال : وإذ قد ظهر فساد سائر الملل والنحل ﴿ فاقم وجهك للدين ﴾ البليغ الاستقامة ﴿ من قبل أن يأتي ﴾ من الله ﴿ يوم ﴾ لا يرده راد . ويجوز أن يتعلق قوله ﴿ من الله ﴾ بقوله ﴿ لا مردّ ﴾

أي لا راد له من جهة الله فلا يقدر غيره على رده فلا دافع له أصلاً ﴿ يومئذ يصدّعون ﴾ أي يتصدعون والتصدع التفرق . ثم بين وجه تفرق الناس بقوله ﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ اي وبال كفره عليه لا على غيره ﴿ ومن عمل صالحاً ﴾ أي آمن وعمل صالحاً لأن العمل الصالح لا يتصور إلا بعد الإِيمان ، على أن الإِيمان ، أيضاً عمل صالح قلبي ولساني وسيصرح به في قوله ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ومعنى ﴿ يمهدون ﴾ يوطؤن كما يسوّي الراقد مضجعه وجوز جار الله ن يراد فعلى أنفسهم يشففقون من قولهم : في المشفق أم فرشت فأنامت . وذلك ان الإشفاق يلزمه التمهيد عرفاً وعادة . ثم بين غاية التمهيد بقوله ﴿ ليجزي ﴾ وقوله ﴿ من فضله ﴾ عند أهل السنة ظاهر : وحمله المعتزلة على شبه الكناية لأن الفضل تبع للثواب فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له ، أو الفضل بمعنى العطاء والثواب . وفي قوله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ وعيد عظيم لهم لأنه إذا لم يحبهم أرحم الراحمين فلا يتصور لهم خلاص من عذابه ولا مناص ولا رحمة من جهته ولا نعمة ، وفيه تعريض بأنه يحب المؤمنين ولا وعد أعظم من هذا ولا شرف فوق ذلك . قال جار الله

: تكرير الذين آمنوا وعملوا الصلاحات وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح . وقوله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس .

قلت : يشبه أن يكون مراده أنه ذكر الكافر أولاً ثم المؤمن ، وفي الآية الثانية قرر أولاً أمر المؤمن ثم أردفه بتقرير أمر الكافر . أو أراد أن قوله ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ دل بصريحه على ثواب المؤمن وبتعريضه على حرمان الكافر ، وقوله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ دل بصريحه على حرمان الكافر وبتعريضه على ثواب المؤمن .

فالأول طرد والثاني عكس وكل منهما مقرر للآخر . وحين ذكر ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح وبين أنه من دلائل الوحدانية بقوله ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح ﴾ ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح لما مر من أن الكريم لا يذكر ، لإحسانه سبباً ويذكر لأضراره سبباً . ومن قرأ على التوحيد فللدلالة على الجنس ، ومن قرأ على الجمع فإما لأنه أراد الجنوب والشمال والصبا وهي رياح الرحمة دون الدبور التي هي للعذاب ، وإما لأن أكثر الرياح نافعة والضارة كالسموم قليلة جداً لا تهب إلا حيناً ، وإما لأن الرياح إذا اجتمعت وتزاحمت وتراكمت حتى صارت ريحاً واحداً أضرت بالأشجار والأبنية وقلعتها وإذا تفرقت وصارت رياحاً اعتدلت ونفعت . قوله ﴿ مبشرات ﴾ أي بالمطر كقوله ﴿ بشراً بين يدي رحمته ﴾ [الأعراف : 57] وقيل : أي بتصحيح الأهوية وإصلاح الأبدان .

وقوله ﴿ وليذيقكم ﴾ إما معطوف على ما قبله معنى كأنه قيل : ليبشركم وليذيقكم بعض رحمته لأن راحات الدنيا زائلة لا محالة ، وإما معطوف على محذوف أي وليكون كذا وكذا أرسلناها . وفي قوله ﴿ بأمره ﴾ إشارة إلى أن مجرد هبوب الريح لا يكفي في جريان الفلك ولكنها تجري بإذن الله وجعله الريح على اعتدال وقوام . وفي قوله ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ دلالة على أن ركوب البحر لأجله التجارة جائز . وفي قوله ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ إشارة إلى أن نعم الله تعالى يجب أن تقابل بالشكر . وإنما بنى الكلام في هذه الآية على الخطاب بخلاف قوله ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا يرجعون ﴾ تشريفاً لأهل الرحمة ، ورحمة الله قريب من المحسنين فكان من حقهم أن يخاطبوا ثم أشار إلى أصل النبوة مع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ ولقد ارسلنا ﴾ واختصر الكلام فدل بذكر عاقبة الفريقين المجرم والمؤمن عليهما ، فعاقبة المجرمين الذين لم يصدِّقوا رسلهم الإنتقام منهم ، وعاقبة الذين صدَّقوهم النصر والظفر على الأعداء . وفي قوله ﴿ حقاً علينا ﴾ تعظيم لأهل الإيمان ورفع في شأنهم وإلا فلا يجب لأحد على الله شيء . ثم أراد أن يشير إلى الأصل الثالث وهو المعاد فمهد لذلك مقدمة منتزعة مما تقدم ذكره وهو بيان إرسال الرياح

لأجل إحداث السحاب الماطر المبسوطة بعضها على الاتصال والمتفرق بعضها كسفاً اي قطعاً . وقوله ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر يخرج من خلاله قد مر في النور . ثم ذكر في ضمن ذلك عجز الإنسان وقلة ثباته وتوكله وقوله ﴿ من قبله ﴾ مكرر للتأكيد ومعناه الدلالة على أن عهدهم بالمطر تطاول فاستحكم بأسهم وتحقق إبلاسهم . وقيل : اراد أنهم من قبل نزول المطر ، أو من قبل ما ذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب كانوا مبلسين ، وذلك أن عند رؤية السحب وهبوب الرياح قد يرجى المطر فلا يتحقق الإبلاس . ثم صرح بالمقصود قائلاً ﴿ إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء ﴾ من الإبداء والإعادة ﴿ قدير ﴾ .

(189/605)

ثم أكد تزلزل الإنسان وتذبذبه وأنه بأدنى سبب يكفر بنعمة الله فقال ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ ضارة باردة أو حارة ﴿ فرأوه ﴾ اي رأوا أثر الرحمة وهو النبات . ومن قرأ آثار فالضمير عائد إلى المعنى لأن آثار الرحمة النبات أيضاً واسم النبات يقع على القليل والكثير ، وإنما قال ﴿ مصفراً ﴾ ولم يقل " أصفر " لأن تلك الصفرة حادثة . وقيل : فرأوا السحاب مصفراً لأنه إذا كان كذلك لم يمطر . ثم زاد في تسلية رسوله بقوله ﴿ فإنك لا

تسمع الموتى ﴾ إلى قوله ﴿ فهم مسلمون ﴾ وقد مر في آخر النمل . ثم أعاد من دلائل التوحيد دليلاً آخر من الأنفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله وأطواره وتقلبه من ضعف الطفولية إلى قوة الشباب والكهولة ومنها إلى ضعف الهرم . وفي قوله ﴿ خلقكم من ضعف ﴾ إشارة إلى أن أساس أمر الإنسان الضعف كقوله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ [الأنبياء : 37] وقيل : من ضعف اي من نطفة .

(190/605)

وهذا الترديد في الأطوار المختلفة أظهر دليل على وجود الصانع العليم القدير . وقوله ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ كقوله في دليل الآفاق ﴿ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾ [الروم : 48] والكل إشارة إلى بطلان القول بالطبيعة المستقلة . ثم عاد إلى ذكر المعاد وأحوال القيامة ، وذكر أن الكفار يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث ، وأن أهل العلم والإيمان وهم الملائكة والأنبياء وغيرهم حالهم بالعكس . وذلك أن الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله ، والموعود بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها . ومعنى ﴿ يؤفكون ﴾ يصرفون عن الصدق والتحقيق أي هكذا كان أمرهم في الدنيا مبيناً على الظن الكاذب وكانوا يصرون

بمثله . ويحتمل أن يكونوا ناسين أو كاذبين . ومعنى في كتاب الله في اللوح والمحفوظ أو في علمه وقضائه ، أو فيما كتب وأوجب . وفيه رد قول الكفار وإلاع لهم على مصدوقية الحال . قال جار الله : في الحديث " ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون " قالوا : لا نعلم أهي أربعون سنة أو أربعون الف سنة . وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم . والفاء في قوله ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ جواب شرط يدل عليه الكلام كأنه قيل : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث وبه تبين بطلان قولكم ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ أنه حق . ثم بين أن ذلك اليوم لا يقبل فيه عذر من أهل الشرك وسائر أنواع الظلم ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا يطلب منهم الرضا فلا يقال لهم ارضوا ربكم بتوبة وطاعة ، وقد مر في " النحل " . ثم بين أن القرآن مشحون بقصص وأخبار كلها كالمثل في غرابتها وحسن مواقعها ، وأن الرسول مهما جاءهم بدليل أنكروه لأن الذي اجترأ على العناد في دليل واحد ، والأغلب أن يتجرأ على أمثاله وهذا نتيجة الطبع والخذلان ، فلا علاج في مثل هذه القضية إلا بالصبر وتحمل أعباء الرسالة إلى إنجاز وعد الله بالنصرة وإعلاء الدين .

(191/605)

ومعنى ﴿ لا يستخفنك ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق قوم شاكون فأمثال هذه الأفعال والأقوال لا تستبعد من أهل الريب والضلال أمر أن لا يضجر ويشتغل بالدعاء إلى الحق حتى يأتي أوان النصر والظفر والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 420.415 ﴾

(192/605)

وقال الخطيب الشربينى :

قوله تعالى : ﴿ منيبين ﴾

أي : راجعين ﴿ إليه ﴾ تعالى فيما أمر به ونهى عنه حال من فاعل أقم ، قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم وحدّ الخطاب أوّلاً ثم جمع ؟ قلت : خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّلاً ، وخطاب الرسول خطاب لأمّته مع ما فيه من التعظيم للإمام ، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص ﴿ واتقوه ﴾ أي : خافوه فإنكم وإن عبدتموه فلا تأمنوا أن تزيغوا عن سبيله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي : داوموا عليها وعلى أدائها في أوقاتها ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ أي : لا تكونوا ممن يدخل في عدادهم بموادةٍ أو معاشرةٍ أو عملٍ تشابهونهم فيه ، فإنه من تشبه بقوم فهو منهم ، وهو عامّ في كل مشرك سواء كان بعبادة صنمٍ أو نارٍ أو

غير ذلك . وقوله تعالى .

﴿ من الذين ﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار ﴿ فرّقوا دينهم ﴾ أي : الذي هو الفطرة الأولى ، فعبد كل قوم منهم شيئاً ودانوا ديناً غير دين مَن سواهم وهو معنى ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ أي : فرقاً متخالفين كل واحدة منهم تتشايع من دان بدينها على من خالفهم حتى كفّر بعضهم بعضاً واستباحوا الدماء والأموال ، فعلم قطعاً أنهم كلهم ليسوا على الحق ، وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الفاء وتخفيف الراء ، والباقون بغير ألف وتشديد الراء ، فعلى القراءة الأولى فارقوا أي : تركوا دينهم الذي أمروا به . ولما كان هذا أمر يتعجب من وقوعه زاده عجباً بقوله تعالى : استئنافاً ﴿ كل حزب ﴾ أي : منهم ﴿ بما لديهم ﴾ أي : عندهم ﴿ فرحون ﴾ أي : مسرورون ظناً منهم أنهم صادفوا الحق وفازوا به دون غيرهم ، ولما بين تعالى التوحيد بالدليل وبالمثل بين أنّ لهم حالة يعترفون بها وإن كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدّة بقوله تعالى:

(193/605)

أي : قحط وشدّة ﴿ دعوا ربهم ﴾ أي : الذي لم يشركه في الإحسان إليهم أحد ﴿ منيبين ﴾ أي : راجعين من جميع ضلالاتهم ﴿ إليه ﴾ أي : دون غيره علماً منهم بأنه لا

فرج لهم عند شيء غيره ، قال الرازي : في اللوامع في أواخر العنكبوت : وهذا دليل على أنّ معرفة الرب في فطرة كل إنسان وأنهم إن غفلوا في السرّاء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضرّاء ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة ﴾ أي : خلاصاً من ذلك الضرّ ﴿ إذا فريق منهم بربهم ﴾ أي : المحسن إليهم دائماً المجدّد لهم هذا الإحسان من هذا الضر ﴿ يشركون ﴾ أي : فاجأ فريق منهم الإشراك بربهم الذي عافاهم ، فإذا الفجائية وقعت جواب الشرط ؛ لأنها كالفاء في أنها للتعقيب ، ولا تقع أوّل كلام ، وقد تجامعها الفاء زائدة ، فإن قيل : ما الحكمة في قوله ههنا إذا فريق منهم وقال في العنكبوت ﴿ فلما نجاهم إلى البرّ إذا هم يشركون ﴾ (العنكبوت :)

ولم يقل فريق ؟

أجيب : بأنّ المذكور هناك غير معين وهو ما يكون من هول البحر ، والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل ، والذي لا يشرك منهم بعد الخلاص فرقة منهم فهم في غاية القلة ، فلم يجعل المشركين فريقاً لقلة مَنْ خرج من الشرك ، وأمّا المذكور ههنا الضرّ مطلقاً فيتناول ضرَ البحر والأمراض والأهوال ، والمتخلص من أنواع الضرّ خلق كثير بل جميع الناس قد يكونون قد وقعوا في ضرّ ما فتخلصوا منه ، والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركاً من جميع الأنواع إذا جمع فهم خلق عظيم وهو جميع المسلمين ، فإنهم تخلصوا من ضرّ ولم يبقوا مشركين ، وأمّا

المسلمون فلم يتخلصوا من ضرّ البحر بأجمعهم ، فلما كان الناجي من الضرّ المؤمن جمعاً كثيراً سُمّي الباقي فريقاً . وقوله تعالى:

(194/605)

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ يجوز أن تكون اللام فيه لام كي وأن تكون لام الأمر ، ومعناه التهديد كقوله تعالى ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد بقوله تعالى : ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ عاقبة تمتعكم في الآخرة وفي هذا التفات من الغيبة .

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أي : دليلاً واضحاً قاهراً أو ذا سلطان أي : ملك معه برهان ، فقوله تعالى ﴿ فهو يتكلم ﴾ على الأوّل كلاماً مجازياً وعلى الثاني كلاماً حقيقياً ، وعلى كلا الحالين هو جواب للاستفهام الذي تضمنته أم المنقطعة ﴿ بما ﴾ أي : بصحة ما ﴿ كانوا به يشركون ﴾ أي : فيأمرهم بالإشراك بحيث لا يجدوا بداً من متابعته لتزول عنهم الملامة ، وهذا الاستفهام بمعنى الإنكار أي : ما أنزلنا بما يقولون سلطاناً ، قال ابن عباس : حجة وعذراً ، وقال قتادة : كتاباً يتكلم بما كانوا به يشركون أي : ينطق بشركهم ، ولما بين تعالى حال المشرك الظاهر شركه بيّن تعالى حال المشرك الذي دونه وهو مَنْ تكون عبادته

للدنيا بقوله تعالى:

﴿ وإذا ﴾ معبراً بأداء التحقيق إشارة إلى أنّ الرحمة أكثر من النقمة ، وأسند الفعل إليه في مقام العظمة إشارة إلى سعة جوده فقال ﴿ أذقنا الناس رحمة ﴾ أي : نعمة من خصب وكثرة مطر وغنى ونحوه لا سبب لها إلا رحمتنا ﴿ فرحوا بها ﴾ أي : فرح بطر مطمئنين من زوالها ناسين شكر من أنعم بها ، ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك . فإن قيل : الفرح بالرحمة مأمور به قال تعالى : ﴿ بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ (يونس ،) وههنا ذمّهم على الفرح بالرحمة ؟

(195/605)

أجيب : بأنه هناك فرحوا برحمة الله من حيث أنها مضافة إلى الله وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم إذا كان من الله تعالى ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي : شدّة من جدب وقلة مطر وفقر ونحوه ﴿ بما قدّمت أيديهم ﴾ من السيئات ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ أي : ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمنين فإنهم يشكرونه عند النعمة ويرجونه عند الشدّة ، وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون بعد القاف ، والباقون بالفتح .

﴿ أو لم يروا ﴾ أي : يعلموا ﴿ أن الله يبسط الرزق ﴾ أي : يوسعه ﴿ لمن يشاء ﴾ امتحاناً ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيق لمن يشاء ابتلاء ، وهذا شأنه دائماً مع الشخص الواحد في أوقات متعاقبة متباعدة ومتقاربة ومع الأشخاص ولو في الوقت الواحد ، فلو اعتبروا حال قبضه سبحانه لم يبطروا ، ولو اعتبروا حال بسطه لم يقنطوا بل كان حالهم الصبر في البلاء ، والشكر في الرخاء ، والإقلاع عن السيئة التي نزل بسببها القضاء ، ولما لم تغن عن أحد منهم في استجلاب الرزق قوّته وغزارة عقله ودقة مكره وكثرة حيله ، ولا ضرّه ضعفه وقلة عقله وعجز حيلته وكان ذلك أمراً عظيماً ومنزعاً مع شدّة ظهوره وجلالته خفياً دقيقاً قال بعضهم:

*كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ** وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا *

(196/605)

أشار سبحانه إلى عظمته بقوله مؤكداً لأنّ عملهم في شدّة اهتمامهم بالسعي في الدنيا عمل مَنْ يظنّ أنّ تحصيله إنما هو على قدر الاجتهاد في الأسباب ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم من الإقتار في وقت والإغناء في آخر والتوسيع على شخص والتقتير على آخر ، والأمن من زوال الحاضر من النعم مع تكرّر المشاهد للزوال في النفس والغير واليأس من

حصولها عند المحنة مع كثرة وجدان الفرج وغير ذلك من أسرار آلائه ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات واضحات على الوحدانية لله تعالى وتمام العلم وكمال القدرة وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا هو لكن ﴿ لقوم ﴾ أي : ذوي همم وكفاية القيام بما يحق لهم أن يقوموا به ﴿ يؤمنون ﴾ أي : يوجدون هذا الوصف ويديمون تجديده كل وقت لما يتواصل عندهم من قيام الأدلة بإدامة التأمّل والإمعان والتفكر والاعتماد في الرزق على من قال ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ (القمر :)

أي : من طالب علم فيعان عليه ، فلا يفرحون بالنعم إذا حصلت خوفاً من زوالها إذا أراد القادر ذلك ، ولا يغتمون بها إذا زالت رجاء في إقبالها فضلاً من الرازق ؛ لأنّ أفضل العبادة انتظار الفرج بل همهم بما عليهم من وظائف العبادة واجبها ومندوبها ، ومعرضون عما سوى ذلك قد وكلوا أمر الرزق إلى من تولى أمره وفرغ من قسمه وقام بضمانه وهو القدير العليم ، ولما أفهم ذلك عدم الاكتراث بالدنيا لأنّ الاكتراث بها لا يزيدها ، والتهاون بها لا ينقصها قال تعالى مخاطباً لأعظم المتأهلين لتنفيذ أوامره:

﴿ فآت ﴾ يا خير الخلق ﴿ ذا القربى ﴾ أي : القرابة ﴿ حقه ﴾ أي : من البرّ والصلة ؛ لأنه أحق الناس بالبر وصلة الرحم جوداً وكرماً ﴿ والمسكين ﴾ سواء كان ذا قرابة أم لا ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر كذلك من الصدقة ، وأمّة النبيّ صلى الله عليه وسلم تبع له في ذلك .

تنبيه : عدم ذكر بقية الأصناف يدلّ على أنّ ذلك في صدقة التطوّع ، ودخل الفقير من باب أولى لأنه أسوأ حالاً من المسكين ، فإن قيل : كيف تعلق قوله تعالى ﴿ فآت ذا القربى حقه ﴾ بما قبله حتى جيء بالفاء ؟

أجيب : بأنه لما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ، وقد احتج أبو حنيفة بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب ، وعند الشافعي رضي الله عنه لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين . قاس سائر القرابة على ابن العمّ ؛ لأنه لا ولادة بينهم ، ولما أمر بالإيثار رغب فيه بقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الإيثار العالي الرتبة ﴿ خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي : ذاته أو جهته وجانبه أي : يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً لوجهه كقوله تعالى ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الاعلى ﴾ أي : يقصدون جهة التقرّب إلى الله تعالى لا جهة أخرى ، والمعنيان متقاربان ولكن الطريقة مختلفة ﴿ وأولئك ﴾ أي : العالو الرتبة لغناهم عن كل فان ﴿ هم المفلحون ﴾ أي : الفائزون الذين لا يشوب فلاحهم شيء ، وأمّا غيرهم فخائب : أمّا من لم ينفق فواضح ، وأما من أنفق على وجه الرياء فقد خسر ماله وأبقى عليه وباله كما قال

تعالى:

﴿ وما آتيتم من ربوا ﴾ أي : مال على وجه الربا المحرّم بزيادة في المعاملة أو المكروه بعطية يتوقع بها مزيد مكافأة ، وكان هذا مما حرم على النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ (المدثر :)

(198/605)

أي : لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيته تشريفاً له ، وكره لعامّة الناس فسمي باسم المطلوب من الزيادة في المعاملة فالربا ربوان : فالحرام : كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه أو يجرّ منفعة ، والذي ليس بحرام أن يستدعي بهديته أو بهبته أكثر منها ، وقرأ ابن كثير بقصر الهمزة بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا ، والباقون بمدّها ﴿ ليربو ﴾ أي : يزيد ويكثر ذلك ﴿ في أموال الناس ﴾ أي : يحصل فيه زيادة تكون أموال الناس ظرفاً لها فهو كناية عن أنّ الزيادة التي يأخذها المرابي من أموالهم لا يملكها أصلاً ، وقرأ نافع بتاء الخطاب بعد اللام مضمومة وسكون الواو ، والباقون بالياء التحتية مفتوحة وفتح الواو ﴿ فلا يربو ﴾ أي : يزكو وينمو فلا ثواب فيه ﴿ عند الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي له الغنى المطلق وصفات الكمال ، وكل ما لا يربو عند الله فهو ممحوق لا وجود له فمآله إلى فناء وإن كثر ﴿ يمحق الله الربوا

ويربى الصدقات ﴾ (البقرة :)

ولما ذكر ما زيادته نقص أتبعه ما نقصه زيادة بقوله ﴿ وما آتيتم ﴾ أي : أعطيتم ﴿ من زكاة ﴾ أي : صدقة ، وعبر عنها بذلك ليفيد الطهارة والزيادة أي : تطهرون بها أموالكم من الشبه ، وأبدانكم من موادّ الخبث ، وأخلاقكم من الغلّ والدنس ، ولما كان الإخلاص عزيزاً أشار إلى عظمته بتكريره بقوله عز وجل ﴿ تريدون ﴾ أي : بها ﴿ وجه الله ﴾ أي : عظمة الملك الأعلى ، فيعرفون من حقه ما يتلاشى عندهم كل ما سواه فيخلصون له ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ أي : ذوو الإضعاف الذين ضاعفوا أموالهم في الدنيا بسبب ذلك بالحفظ والبركة ، وفي الآخرة بكثرة الثواب عند الله من عشر أمثال إلى ما لا حصر له . ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوّة واليسار ، ولما وضح بهذا أنه لا زيادة إلا فيما يزيده الله ولا تخير إلا فيما يختاره الله بين تعالى ذلك بطريق لا أوضح منه بقوله تعالى:

(199/605)

﴿ الله ﴾ أي : بعظيم جلاله لا غيره ﴿ الذي خلقكم ﴾ أي : أوجدكم على ما أنتم عليه من التقدير لا تملكون شيئاً ﴿ ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم ﴾ أي : ممن أشركتم بالله ﴿ من يفعل من ذلكم ﴾ مشيراً إلى علوّ رتبته بأداة البعد وخطاب الكل ، ولما

كان الاستفهام الإنكاريّ التوبيخي في معنى النفي قال مؤكداً له مستغرقاً لكل ما يمكن منه ولو قلّ جدّاً : ﴿ من شيء ﴾ أي : يستحق هذا الوصف الذي تطلقونه عليه ، ولما لزمهم قطعاً أن يقولوا : لا وعزتك ما لهم ولا لأحد منهم فعل شيء من ذلك ، قال تعالى معرضاً عنهم منزهاً لنفسه الشريفة : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزه تنزهاً لا يحيط به الوصف من أن يكون محتاجاً إلى شريك ﴿ وتعالى ﴾ أي : علوّاً لا تصل إليه العقول ﴿ عما يشركون ﴾ في أن يفعلوا شيئاً من ذلك .

تنبيه : يجوز في خبر الجلالة الكريمة وجهان : أظهرهما : أنه الموصول بعدها ، والثاني : أنه الجملة من قوله تعالى ﴿ هل من شركائكم ﴾ والموصول صفة والراجع من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله ، ومن الأولى والثانية يفيدان شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال ، والثالثة مزيدة لتعميم النفي ، فكل منهما مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء ، وقرأ حمزة والكسائي بتاء الخطاب ، والباقون بالياء التحتية ، ولما بين لهم تعالى من حقارة شركائهم ما كان حقهم به أن يرجعوا فلم يفعلوا أتبعه ما أصابهم به على غير ما كان في أسلافهم عقوبة لهم على قبيح ما ارتكبوا استعظاماً للتوبة بقوله تعالى:

﴿ ظهر الفساد ﴾ أي : النقص في جميع ما ينفع الخلق ﴿ في البر ﴾ بالقحط والخوف وقلة المطر ونحو ذلك ﴿ والبحر ﴾ بالغرق وقلة الفوائد من الصيد ونحوه من كل ما كان يحصل منه . وقلة المطر كما تؤثر في البرّ تؤثر في البحر فتخلوا أجواف الأصداف من اللؤلؤ ، وذلك لأنّ الصدف إذا جاء المطر يرتفع على وجه الماء وينفتح فما وقع فيه من المطر صار لؤلؤاً وقالوا : إذا انقطع القطر عميت دوابّ البحر ، وقيل : المراد بالبرّ البوادي والمفاوز ، وبالبحر المدائن والقرى التي على المياه الجارية ، قال عكرمة : العرب تسمي المطر بحراً تقول : أجدب البرّ وانقطعت مادّة البحر ، ثم بين سببه بقوله تعالى : ﴿ بما كسبت أيدي الناس ﴾ أي : بسبب شؤم ذنوبهم ومعاصيهم كقوله تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ (الشورى :)

قال ابن عباس : الفساد في البرّ قتل أحد بني آدم أخاه ، وفي البحر غصب الملك الجبار السفينة ، قال الضحاك : كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة ، وكان ماء البحر عذباً ، وكان لا يقصد الأسد البقر والغنم ، فلما قتل قابيل هابيل اقشعرّت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً زعاقاً ، وقصد الحيوانات بعضها بعضا ، وقال قتادة : هذا قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم امتلأت الأرض ظلماً ، فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم رجع راجعون من الناس ، وقيل : أراد بالناس كفار . مكة ولما ذكر تعالى علية البدائية ثنى بعلية الجزائية بقوله تعالى:

﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ كرماً وحلماً ويعفو عن كثير إمّا أصلاً ورأساً ، وإمّا عن المعاجلة به ، ويؤخره إلى وقت ما في الدنيا أو الآخرة ، وقرأ قنبل بالنون بعد اللام ، والباقون بالياء التحتية ، ثم ثلث بالعلة الغائية بقوله تعالى : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي : عما هم عليه ، ولما بين تعالى حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم ضلال أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم بقوله تعالى : لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء الذين لا همّ لهم سوى الدنيا ﴿ سيروا في الأرض ﴾ فإنّ سيركم الماضي لكونه لم تصحبه عبرة عدمٌ ﴿ فانظروا ﴾ نظرَ اعتبار ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ أي : من قبل أيامكم لتروا منازلهم ومساكنهم خالية فتعلموا أنّ الله تعالى أذاقهم وبال أمرهم وأوقعهم في حفائر مكرهم ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أي : فلذلك أهلكناهم ولم تغن عنهم كثرتهم وأنجينا المؤمنين وما ضرّتهم قلتهم ، ولما نهى الله تعالى الكفار عما هم عليه أمر المؤمنين بما هم عليه وخاطب النبيّ صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فإنه أمر به أشرف الأنبياء بقوله تعالى:

﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ أي : المستقيم وهو دين الإسلام ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾

أي : عظيم ﴿ لا مردّ له ﴾ أي : لا يقدر أن يرده أحد . وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ يجوز أن يتعلق بيأتي أو بمحذوف يدل عليه المصدر أي : لا يردّه من الله أحد . والمراد به يوم القيامة لا يقدر أحد على رده من الله ، وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه ﴿ يومئذ ﴾ أي : إذ يأتي ﴿ يصدّعون ﴾ أي : يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير ، ثم أشار إلى التفرّق بقوله تعالى:

﴿ من كفر ﴾ أي : منهم ﴿ فعليه كفره ﴾ أي : وبال كفره ﴿ ومن عمل صالحاً ﴾ أي : بالإيمان وما يترتب عليه ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾ أي : يوطئون منازلهم في القبور وفي الجنة بل وفي الدنيا فإن الله تعالى يعزهم بعز طاعته .

(202/605)

تنبيه : أظهر قوله تعالى صالحاً ولم يضمر لئلا يتوهم عود الضمير على من كفر وبشارة بأنّ أهل الجنة كثير وإن كانوا قليلاً ؛ لأنّ الله تعالى هو مولاهم فهو مزكيهم . وأفرد الشرط وجمع الجزاء في قوله تعالى ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾ (الروم :)

إشارة إلى أنّ الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته ، وفيه ترغيب في العمل من غير نظر إلى مساعد ، وبأنه ينفع نفسه وغيره لأنّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وأقل

ما ينفع والديه وشيخه في ذلك العمل . وقوله تعالى:

﴿ ليجزي ﴾ أي : الله سبحانه وتعالى الذي أنزل هذه السورة لبيان أنه ينصر أولياءه لإحسانه لأنه مع المحسنين ، ولذلك اقتصر هنا على ذكرهم بقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي : تصديقاً لإيمانهم ﴿ من فضله ﴾ علة ليمهدون أو ليصدعون ، والاقتصار على جزاء الموصوفين للإشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء عن فحوى قوله تعالى ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ فإن فيه إثبات البغض لهم فيعذبهم ، والمحبة للمؤمنين فيثيبهم ، وتأكيدُ اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم إلى التصريح بهم تعليل لهم ، وقوله تعالى ﴿ من فضله ﴾ دال على أنّ الإثابة بمحض الفضل . ولما ذكر تعالى ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح لأن الكريم لا يذكر لإحسانه عوضاً ويذكر لأضداده سبباً لئلا يتوهم به الظلم قال تعالى:

(203/605)

﴿ ومن آياته ﴾ أي : دلالاته الواضحة ﴿ أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ أي : بالمطر كما قال تعالى ﴿ بشراً بين يدي رحمته ﴾ أي : قبل المطر ، وقيل : مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال فإن الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح

بالإفراد على إرادة الجنس ، والباقون بالجمع وهي الجنوب والشمال والصبا ؛ لأنها رياح الرحمة ، وأمّا الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً" وقوله تعالى ﴿ وليذيقكم ﴾ أي : بها ﴿ من رحمته ﴾ أي : من نعمته من المياه العذبة والأشجار الرطبة وصحة الأبدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا خالقها ، معطوف على مبشرات على المعنى كأنه قيل : ليبشركم وليذيقكم ، أو على علة محذوفة دل عليها مبشرات ، أو على يرسل بإضمار فعل معلل دل عليه أي : وليذيقكم أرسلها ﴿ ولتجري الفلك ﴾ أي : السفن في جميع البحار وما جرى مجراها عند هبوبها ، وإنما زاد ﴿ بأمره ﴾ لأن الريح قد تهب ولا تكون موافقة فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال لحبسها ، وربما عصفت وأغرقتها ﴿ ولتبتغوا ﴾ أي : تطلبوا ﴿ من فضله ﴾ من رزقه بالتجارة في البحر ﴿ ولعلكم ﴾ أي : ولتكونوا إذا فعل بكم ذلك على رجاء من أنكم ﴿ تشكرون ﴾ على ما أنعم عليكم من نعمه ودفع عنكم من نقمه .

تنبيه : قال تعالى في ظهر الفساد ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ (الروم :)

وقال ههنا ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ فخاطبهم ههنا تشريفاً ولأنّ رحمته قريب من المحسنين وحينئذ فالمحسن قريب فيخاطب ، والمسيء بعيد فلم يخاطب ، وقال هناك ﴿ بعض الذي عملوا ﴾ فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته فقال تعالى : ﴿ من رحمته ﴾ لأنّ الكريم لا يذكر لرحمته وإحسانه عوضاً فلا يقول : أعطيتك لأنك فعلت كذا بل يقول : هذا لك مني ، وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندي . وأيضاً فلو قال : أرسلت لسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة ، وأما إذا قال : من رحمته كان غاية البشارة ، وأيضاً فلو قال : بما فعلتم لكان ذلك موهماً لنقصان ثوابهم في الآخرة ، وأما في حق الكفار فإذا قال : بما فعلتم أنبأ عن نقصان عقابهم وهو كذلك وقال هناك ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ وقال هنا : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ فالواو إشارة إلى توفيقهم للشكر في النعم ، وعطف على النعم قوله تعالى:

(205/605)

﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي : بما لنا من القوة . وقال تعالى ﴿ من قبلك رسلاً ﴾ تنبيهاً على أنه خاتم النبيين بتخصيص إرسال غيره بما قبل زمانه وقال ﴿ إلى قومهم ﴾ إعلاماً بأنّ أمر الله إذا جاء لا ينفع فيه قريب ولا بعيد ﴿ فجاؤهم بالبينات ﴾ فانقسم قومهم إلى مسلمين

ومجرمين ﴿ فانتقمنا ﴾ أي : فكانت معاداة المسلمين للمجرمين فينا سبباً ؛ لأنا انتقمنا بما لنا من العظمة ﴿ من الذين أجرموا ﴾ أي : أهلكنا الذين كذبوهم لإجرامهم وهو قطع ما أمرناهم بوصله ، ولما كان محط الفائدة إلزامه سبحانه لنفسه بما تفضل به قدمه تعجيلاً للسرور وتطييباً للنفوس فقال تعالى ﴿ وكان ﴾ أي : على سبيل الثبات والدوام ﴿ حقاً علينا ﴾ أي : مما أوجبناه بوعدنا الذي لا خلف فيه ﴿ نصر المؤمنين ﴾ أي : العريقين في ذلك الوصف في الدنيا والآخرة ، ولم يزل هذا دأبنا في كل ملة على مدى الدهر فليعتدّ هؤلاء لمثل هذا وليأخذوا لمثل ذلك أهبة لينظروا من المغلوب وهل ينفعهم شيء ، روى الترمذي وحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا قوله تعالى ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ قال البقاعي : فالآية من الاحتباك أي : وهو أن يؤتى بكلامين يحذف من كل منهما شيء يكون نظمهما بحيث يدل ما أثبت في كلٍ على ما حذف من الآخر ، فحذف أوّلاً الإهلاك الذي هو أثر الخذلان لدلالة النصر عليه ، وثانياً الإنعام لدلالة الانتقام عليه ، ثم نبه تعالى على كمال قدرته فهو الناصر للمؤمنين بقوله تعالى:

﴿ الله ﴾ أي : وحده ﴿ الذي يرسل ﴾ مرة بعد أخرى ﴿ الرياح ﴾ مضطربة هائجة بعد أن كانت ساكنة ﴿ فتثير سحاباً ﴾ أي : تزعجه وتنشره ﴿ فيبسطه ﴾ بعد اجتماعه ﴿ في السماء ﴾ أي : جهة العلو ﴿ كيف يشاء ﴾ في أيّ ناحية شاء قليلاً تارة كمسير ساعة وكثيراً أخرى كمسير أيام على حسب إرادته واختياره لا مدخل فيه لطبيعة ولا غيرها ﴿ ويجعله ﴾ إذا أراد ﴿ كسفاً ﴾ أي : قطعاً غير متصل بعضها ببعض اتصالاً يمنع نزول الماء ، وقرأ ابن عامر بسكون السين بخلاف عن هشام ، والباقون بفتحها ﴿ فترى ﴾ بسبب إرسال الله له أو بسبب جعله ذا مسامّ وفروج يا من هو من أهل الرؤية ، أو يا أشرف خلقنا الذي لا يعرف هذا حق معرفته سواه ﴿ الودق ﴾ أي : المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي : السحاب الذي هو اسم جنس في حالتي الاتصال والانفصال ﴿ فإذا أصاب ﴾ أي : الله ﴿ به ﴾ أي : بالودق ﴿ من ﴾ أي : أرض من ﴿ يشاء ﴾ ونبه على أن ذلك فضل منه لا يجب عليه لأحد شيء أصلاً بقوله تعالى : ﴿ من عباده ﴾ أي : الذين لم تزل عبادته واجبة عليهم جديرون بملازمة شكره والخضوع لأمره ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي : يظهر عليهم البشر وهو السرور الذي تشرق له البشرة حال الإصابة ظهوراً بالغاً عظيماً بما يرجونه مما يحدث عنه من الأثر النافع من الخصب والرطوبة واللين ، ثم بين تعالى عجزهم بقوله تعالى:

﴿ وإن ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ كانوا ﴾ في الزمن الماضي ﴿ من قبل أن ينزل عليهم ﴾ أي

: المطر ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بسكون النون وتخفيف الزاي ، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي . وقوله تعالى ﴿ من قبله ﴾ من باب التكرير والتأكيد كقوله تعالى ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ﴾ (الحشر :)

ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول بعدما استحكم بأسهم .

وقوله تعالى ﴿ لمبلسين ﴾ إشارة إلى أنه تمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اهتمامهم بذلك ، وقبل الأولى ترجع إلى المطر والثانية إلى إنشاء السحاب فلا تأكيد .

(207/605)

﴿ فانظر إلى آثار رحمت الله ﴾ والرحمة : هي الغيث وأثرها هو النبات ، وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بألف بعد الثاء المثلثة ، والباقون بغير ألف ورسمت رحمت هذه مجرورة ، فوقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء ﴿ كيف يحيى ﴾ أي : الله ﴿ الأرض ﴾ بإخراج النبات ﴿ بعد موتها ﴾ أي : يبسها ﴿ إن ذلك ﴾ أي : القادر العظيم الشأن الذي قدر على إحياء الأرض ﴿ لمحيي الموتى ﴾ كلها من الحيوانات والنباتات أي : ما زال قادراً على ذلك كما قال تعالى ﴿ وهو على كل شيء ﴾ من ذلك وغيره ﴿ قدير ﴾ لأنّ نسبة القدرة منه سبحانه وتعالى إلى كل ممكن على حد سواء ، ولما

بين أنهم عند توقف الخير يكونون آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين أن تلك الحالة أيضاً لا يدومون عليها بقوله تعالى:

﴿ ولئن أرسلنا ﴾ أي : بعد وجود هذا الأثر الحسن ﴿ ريحاً ﴾ عقيماً ﴿ فرأوه ﴾ أي : الأثر لأنّ الرحمة هي الغيث وأثرها هو النبات أو الزرع لدلالة السياق عليه ﴿ مصفراً ﴾ قد بدل وأخذ في التلف من شدّة يبس الريح إمّا بالحرّ أو البرد ، وقيل : رأوا السحاب لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر ، ويجوز أن يكون الضمير للريح من التعبير بالسبب عن المسبب .

(208/605)

تنبيه : اللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط . وقوله تعالى ﴿ لظلوا ﴾ أي : لصاروا ﴿ من بعده ﴾ أي : اصفراره ﴿ يكفرون ﴾ أي : بيأسهم من روح الله ، جواب سدّ مسدّ الجزاء ولذلك فسر بالاستقبال . تنبيه : سمى النافعة رياحاً والضارّة ريحاً لوجوه : أحدها : أنّ النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد فجمعها لأن في كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارّة في أعوام بل الضارّة لا تهب في الدهور . ثانيها : أنّ النافعة لا تكون إلا رياحاً وأما الضارة فنفخة واحدة تقبل كريح السموم . ثالثها : جاء في الحديث أنّ ريحاً هبت فقال عليه الصلاة والسلام : "اللهمّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها

ريحاً" إشارة إلى قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ (الذاريات :)

وقوله تعالى ﴿ ريحاً صرصراً ﴾ إلى قوله ﴿ تنزع الناس ﴾ (القمر : ـ)

ولما علم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وجوه الأدلة ووعد وأوعد لم يزدهم دعاؤه إلا فرارا وكفراً وإرصاداً قال تعالى:

﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ أي : ليس في قدرتك إسماع الذين لا حياة لهم فلا نظر ولا سمع ، أو موتى القلوب إسماعاً ينفعهم لأنه مما اختص به الله تعالى ، وهؤلاء مثل الأموات ؛ لأنّ الله تعالى قد ختم على مشاعرهم ﴿ ولا تسمع الصم ﴾ أي : الذين لا سماع لهم

﴿ الدعاء ﴾ إذا دعوتهم . ولما كان الأصم قد يحس بدعائك إذا كان مقبلاً بحاسة بصره قال تعالى ﴿ إذا ولوا ﴾ وذكر الفعل ولم يقل ولت إشارة إلى قوّة التولي لئلا يظنّ أنه أطلق على المجانبة مثلاً ولهذا قال تعالى ﴿ مدبرين ﴾ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية في الوصل ، والباقون بالتحقيق وإذا . وقف حمزة وهشام على الدعاء وأبدلا الهمزة ألفاً مع المدّة والتوسط والقصر .

(209/605)

﴿ وما أنت بهادي العمي ﴾ أي : بموجد لهم هداية ﴿ عن ضلالتهم ﴾ إذا ضلوا عن الطريق ، وقرأ حمزة بتاء الخطاب مفتوحة وسكون الهاء والعمي بنصب الياء ، والباقون بالباء الموحدة مكسورة وفتح الهاء والعمي بالخفض . تنبيه : قد جعل الله تعالى الكافر بهذه الصفات وهو أنه شبهه أولاً بالميت ، وإرشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ، ثم بالأصم وإرشاد الأصم صعب فإنه لا يسمع الكلام وإنما يفهم بالإشارة والإفهام بالإشارة صعب ، ثم بالأعمى وإرشاد الأعمى أيضاً صعب فإنك إذا قلت له مثلاً : الطريق عن يمينك فإنه يدور إلى يمينه لكنه لا يبقى عليه بل يتحير عن قريب ، فإرشاد الأصم أصعب . ولهذا تكون المعاشرة مع الأعمى أسهل من المعاشرة مع الأصم الذي لا يسمع لأنّ غايته الإفهام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة فإنّ المعدوم والغائب لا إشارة إليه ، فبدأ أولاً بالميت لأنه أعلى ثم بالأدون منه وهو الأصم ، وقيده بقوله تعالى : ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ ليكون أدخل في الامتناع لأنّ الأصم ، وإن كان يفهم فإنما يفهم بالإشارة فإذا ولى لا يكون نظره إلى المشير ، فامتنع إفهامه بالإشارة أيضاً ثم بأدنى منه وهو الأعمى لما مرّ . ثم قال تعالى .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ تسمع ﴾ أي : سماع إفهام وقبول ﴿ إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ أي : القرآن فأثبت للمؤمن استماع الآيات فلزم أن يكون المؤمن حياً سميعاً بصيراً لأن المؤمن ينظر في البراهين ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ويفعل ما يجب عليه ﴿ فهم

مسلمون ﴾ أي : مطيعون كما قال تعالى عنهم ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ (البقرة :)

ولما أعاد تعالى دليل الآفاق بقوله تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ أعاد دليلاً من دلائل الأنفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله بقوله تعالى:

(210/605)

﴿ الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال ﴿ الذي خلقكم من ضعف ﴾ أي : ماء ذي ضعف لقوله تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ ﴿ ثم جعل من بعد ضعف ﴾ آخر وهو ضعف الطفولية ﴿ قوة ﴾ أي : قوّة الشباب ﴿ ثم جعل من بعد قوّة ضعفاً ﴾ أي : ضعف الكبر ﴿ وشيبة ﴾ أي : شيب الهرم وهي بياض في الشعر يحصل أوّله في الغالب في السنة الثالثة والأربعين وهو أوّل سنّ الاكتهال ، والأخذُ في النقص بالفعل بعد الخمسين إلى أن يزيد النقص في الثالثة والستين وهو أوّل سنّ الشيخوخة ، ويقوى الضعف إلى ما شاء الله تعالى ، وقرأ عاصم وحمزة بخلاف عن حفص بفتح الضاد في الثلاثة وهو لغة تميم ، والباقون بالضم وهو لغة قريش ، ولما كانت هذه هي العادة الغالبة وكان الناس متفاوتين فيها وكان من الناس من يطعن في السن وهو قويّ وأنتج ذلك كله لابدّ أن يكون التصرف بالاختيار مع شمول العلم وتمام القدرة قال تعالى ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ أي : من هذا وغيره

﴿ وهو العليم ﴾ بتدبير خلقه ﴿ القدير ﴾ على ما يشاء .

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى هنا ﴿ وهو العليم القدير ﴾ وقوله تعالى من قبل ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ والعزة إشارة إلى كمال القدرة والحكمة إشارة إلى كمال العلم فقدم القدرة هناك على العلم ؟

أجيب : بأنّ المذكور هناك الإعادة بقوله تعالى : ﴿ وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (الروم :)

(211/605)

لأنّ الإعادة بقوله تعالى : كن فيكون ، فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر . ثم إنّ قوله تعالى ﴿ وهو العليم القدير ﴾ فيه تبشير وإنذار ؛ لأنه إذا كان عالماً بأحوال الخلق يكون عالماً بأحوال المخلوق فإن عملوا خيراً علمه ، وإن عملوا شرّاً علمه ، ثم إذا كان قادراً وعلم الخير أثاب وإذا علم الشرّ عاقب ، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة والعلم قدم العلم ، وأمّا الآية الأخرى فالعلم بتلك الأحوال قبل العقاب فقال : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ ، ولما ثبتت قدرته تعالى على البعث وغيره عطف على قوله أول السورة ﴿ ويوم تقوم

الساعة يبلس المجرمون ﴾ .

﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي : القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ، أو إعلاماً بتيسيرها على الله تعالى ، وصارت علماً عليها بالغلبة كالكوكب للزهرة ﴿ يقسم ﴾ أي : يحلف ﴿ المجرمون ﴾ أي : الكافرون .ا

وقوله تعالى ﴿ ما لبثوا ﴾ جواب قوله تعالى يقسم وهو على المعنى إذ لو حكي قولهم بعينه لقيل ما لبثنا أي : في الدنيا ﴿ غير ساعة ﴾ استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا في الآخرة ، وقال مقاتل والكلبي : ما لبثوا في قبورهم غير ساعة كما قال تعالى ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ (النازعات :)

وكما قال تعالى ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ (الأحقاف :)

(212/605)

وقيل : فيما بين فناء الدنيا والبعث . وفي حديث رواه الشيخان : "ما بين النفختين أربعون" وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ذلك الصرف عن حقائق الأمور إلى شكوكها ﴿ كانوا ﴾ في الدنيا كوناً هو كالجبلة لهم ﴿ يؤفكون ﴾ أي : يصرفون عن الحق في الدنيا ، وقال مقاتل والكلبي : كذبوا في قولهم غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن

لا بعث ، والمعنى : أنّ الله تعالى أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء تبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه ، ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم بقوله تعالى:

﴿ وقال الذين أوّتوا العلم والإيمان ﴾ وهم الملائكة والأنبياء والمؤمنين ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله ﴾ أي : فيما كتب الله لكم في سابق علمه وقضائه ، أو في اللوح المحفوظ ، أو فيما وعد به في كتابه من الحشر والبعث فيكون في كتاب الله متعلق بلبثتم ، وقال مقاتل وقتادة : فيه تقديم وتأخيره معناه : وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان لقد لبثتم ﴿ إلى يوم البعث ﴾ و(في) ترد بمعنى (الباء) فردّوا ما قال هؤلاء الكفار وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ الذي أنكرتموه ، وقراء نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة ، والباقون بالإدغام .

(213/605)

تنبيه : سبب اختلاف الفريقين أنّ الموعود بوعد إذا ضرب له أجل إن علم أنّ مصيره إلى النار وهو الكافر يستقل مدّة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء في القبر ، وإن علم أنّ مصيره إلى الجنة وهو المؤمن فيستكثر المدة ولا يريد تأخيرها فيختلف الفريقان ، وفي هذه

الفاء قولان : أظهرهما : أنها عاطفة هذه الجملة على لبثتم ، وقال الزمخشريّ : هي جواب شرط مقدّر أي : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أي : فقد تبين بطلان ما قلتم ، ولما كان التقدير قد أتى فقد تبين أنه كما كنا به عالمين فلو كان لكم نوع من العلم لصدقتمونا في إخبارنا به فنفعكم ذلك الآن ، عطف عليه قوله تعالى ﴿ ولكنكم كنتم ﴾ أي : كوناً هو كالجبلة لكم في إنكاركم له ﴿ لا تعلمون ﴾ أي : ليس لكم علم أصلاً لتفريطكم في طلب العلم من أبوابه والتوصل إليه بأسبابه فلذلك كذبتم به فاستوجبتم جزاء ذلك التكذيب اليوم ، ولما كانت الآيات دالة على أنّ هذه الدار دار عمل وأنّ الآخرة دار جزاء وأنّ البرزخ حائل بينهما فلا يكون في واحدة منهما ما للأخرى ، تسبب عن ذلك قوله تعالى:

﴿ فيومئذ ﴾ أي : إذ يقع ذلك ويقول الذين أوتوا العلم تلك المقالة ﴿ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ في إنكارهم له ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي : لا يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى كما دعوا إليه في الدنيا ، من قولهم : استعتبني فلان فأعتبته أي : استرضاني فأرضيته ، وقرأ الكوفيون لا ينفع بالياء التحتية لأنّ المعذرة بمعنى العذر ولأنّ تأنيثها غير حقيقي وقد فصل بينهما ، والباقون بالتاء الفوقية ، ثم أشار تعالى إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار وأنه لم يبق من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم تقصير بقوله تعالى:

﴿ ولقد ضربنا ﴾ أي : جعلنا ﴿ للناس في هذا القرآن ﴾ أي : في هذه السورة وغيرها ﴿ من كل مثل ﴾ أي : معنى غريب هو أوضح وأثبت من أعلام الجبال في عبارة هي أرشق من سائر الأمثال ، فإن طلبوا شيئاً آخر غير ذلك فهو عناد محض ؛ لأنّ من كذب دليلاً حقاً لا يصعب عليه تكذيب الدلائل بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل آخر بعد ذكره دليلاً جيداً مستقيماً ظاهراً لا إشكال عليه وعانده الخصم وهذا من العالم فكيف بالنبيّ صلى الله عليه وسلم

فإن قيل : الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذكروا أنواعاً من الدلائل ؟

أجيب : بأنهم سردوها سرداً ثم قرروا فرداً فرداً كمن يقول : الدليل عليه من وجوه الأوّل : كذا ، والثاني : كذا ، والثالث : كذا ، وفي مثل هذا عدم الالتفات إلى عناد المعاند ؛ لأنه يريد تضييع الوقت كي لا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ما وعد من الدليل فتنحط درجته ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ ولئن ﴾ اللام لام قسم ﴿ جئتهم ﴾ يا أفضل الخلق ﴿ بآية ﴾ مثل العصا واليد لموسى عليه السلام ﴿ ليقولنّ الذين كفروا ﴾ منهم ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أنتم إلا مبطلون ﴾ أي : أصحاب أباطيل ، فإن قيل : لم وحد في قوله تعالى ﴿ جئتهم ﴾ وجمع في قوله تعالى ﴿ إن أنتم ﴾ ؟

أجيب : بأنّ ذلك لنكتة وهي أنه تعالى أخبر في موضع آخر فقال : ﴿ ولئن جئتهم بكل

آية ﴾ أي : جاءت بها الرسل فقال الكفار : ما أنتم أيها المدّعون الرسالة كلكم إلا كذا .

وقال الجلال المحلي : إن أنتم أي : محمد وأصحابه ، وأمّا الذين آمنوا فيقولون نحن بهذه الآية مؤمنون .

﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الطبع العظيم ﴿ يطبع الله ﴾ أي : الذي له العظمة والكمال ﴿ على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ توحيد الله ، فإن قيل : من لا يعلم شيئاً أي : فائدة في الإخبار عن الطبع على قلبه ؟

أجيب : بأنّ معناه أنّ من لا يعلم الآن فقد طبع على قلبه من قبل . ثم إنه تعالى سلّى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

(215/605)

﴿ فاصبر ﴾ أي : على إنذارهم مع هذا الجفاء والردّ بالباطل والأذى فإنّ الكل فعلنا لم يخرج منه شيء عن إرادتنا ﴿ إنّ وعد الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله بنصرك وإظهار دينك على الدين كله وفي كل ما وعد به ﴿ حق ﴾ أي : ثابت جدّاً يطابقه الواقع كما يكشف عنه الزمان وتأتي به مطايا الحدثان . ولما كان التقدير فلا تعجل عطف عليه قوله تعالى ﴿ ولا يستخفنك ﴾ أي : يحملنك على الخفة ويطلب أن تخف باستعجال النصر

خوفاً من عواقب تأخيره وتنفيرك عن التبليغ ﴿ الذين لا يوقنون ﴾ أي : أذى الذين لا يصدقون بوعدنا من البعث والحشر وغير ذلك تصديقاً ثابتاً في القلب بل هم إما شاكون وأدنى شيء يزلزلهم كمن يعبد الله على حرف ، أو مكذبون فهم بالغون في العداوة والتكذيب حتى إنهم لا يصدّقون في وعد الله بنصر الروم على فارس كأنهم على ثقة وبصيرة من أمرهم في أنّ ذلك لا يكون . فإذا صدق الله وعده في ذلك بإظهاره عن قرب علموا كذبهم عياناً ، وعلموا إن كان لهم علم أنّ الوعد بالساعة لإقامة العدل على الظالم والعود بالفضل على المحسن كذلك يأتي وهم صاغرون ويحشرون وهم داخرون .

﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي : منقلب ينقلبون ﴾ فقد انعطف آخر السورة على أوّلها واتصل به اتصال القريب بالقريب . وها أنا أسأل الله تعالى القريب المجيب أن يغفر ذنوب من كتب هذا وهو محمد الشربيني الخطيب ويفعل ذلك بوالديه وأولاده ومشايخه وكل محب له وحبيب ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشريّ عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما صنع في يومه وليلته" حديث موضوع رواه الثعلبيّ في تفسيره والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 242 . 258 ﴾

(216/605)

وقال القاسمي :

قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾

أي : راجعين إليه بالتوبة والإنابة : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عِمْرَان : 135] ، وهو حال من فاعل الزموا ، المقدر ناصباً لـ : ﴿ فِطْرَةَ ﴾ أو من فاعل : ﴿ أَقِمْ ﴾ على المعنى ؛ إذ لم يرد به واحد بعينه , أو لأن الخطاب له صلّى الله عليه وسلم ، ولأمته ، أو على أنه على حذف المعطوف عليه ؛ أي : أقم أنت وأمتك ، والحال من الجميع : ﴿ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ أي : جعلوه أديانا مختلفة ، لاختلاف أهوائهم : ﴿ وَكَانُوا شِيَعاً ﴾ أي : فرقاً : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي : كل حزب منهم فرح بمذهبه ، مسرور ، يحسب باطله حقاً .

قال القاشاني : يعني المفارقين الدينَ الحقيقي ، المتفرقين شيعاً مختلفة ، كل حزب عند تكدّر الفطرة ، وتكاثف الحجاب ، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب ، لكونه مقتضى طبيعة حجابه ، فيناسب حاله من الاستعداد العارضي ، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد ، ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض .

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد ، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائما ، بقوله سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ أي : شدة : ﴿ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي : راجعين إليه وحده دون شركائهم : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي : خلاصاً من تلك الشدة : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أي : بالسبب الذي آتيناهم الرحمة من أجله ، وهو الإنابة ، واللام للعاقبة . وقيل : للأمر التهديدي ، كقوله تعالى : ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : عاقبة تمتعكم ووباله .

(217/605)

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ أي : حجة واضحة قاهرة : ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أي : تكلم دلالة ، كما في قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الجاثية : 29] ، ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ أي : بإشراكهم ، وهذا استفهام إنكار ، أي : لم يكن شيء من ذلك : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ أي : نعمة من صحة وسعة : ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ أي : بطراً وفخراً ، لا حمداً وشكراً : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي : شدة : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : من المعاصي والآثام : ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ أي : ييأسون من روح الله قال : هذا إنكار على الْإِنْسَانْ من حيث هو ، إلا من عصمه الله تعالى ووفقه ، فإن الْإِنْسَانْ إذا أصابته نعمة بطر ، وقال : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : 10] ، أي

: يفرح في نفسه ، يفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط ، وأيس أن يحصّل بعد ذلك خير بالكلية قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [هود : 11] ، أي : صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء ، كما ثبت في " الصحيح " : < عجبا للمؤمن ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له > .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال الزمخشري : أنكر عليهم بأنهم قد عملوا أنه هو الباسط القابض ، فما لهم يقنطون من رحمته ، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها ، حتى يعيد إليهم رحمته ؟

ولما بين تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك ، بقوله :

(218/605)

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أي : من البر والصلة ، واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب ؛ لأن آتِ : أمر للوجوب .

والظاهر من : الحق ، بقرينة ما قبله أنه مالي ، وهو استدلال متين : ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه ، أو له شيء لا يقوم بكفايته : ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ أي : السائل فيه ، والذي انقطع به ، وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أي : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية المقصوى ، أو يريدون ذاته بمعروفهم لا رياء ولا سمعة ، ولا مكافأة يد ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ [الليل : 18 – 20] ، ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ أي : مال ترابون فيه : ﴿ لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ أي : ليزيد في أموالهم ؛ إذ تأخذون فيه أكثر منه : ﴿ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : لا يزكو ولا ينمو ولا يبارك فيه ، بل يمحقه محق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنكال ، وذكر في تفسيرها معنى آخر ، وهو أن يهب الرجل للرجل ، أو يهدي له ليعوّضه أكثر مما وهب أو أهدى . فليست تلك الزيادة بحرام ، وتسميتها ربا مجاز ؛ لأنها سبب الزيادة .

(219/605)

قال ابن كثير : وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه نهى عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلم خاصة ، قاله [في المطبوع : قال] الضحاك ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] ، أي : لا تعط العطاء ، تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح ، يعني ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل ، يريد فضلها وإضعافها . انتهى .

وأقول : في ذلك كله نظر من وجوه :

الأول – أن هذه الآية شبيهة بآية : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة : 276] ، وهي في ربا البيع الذي كان فاشياً في أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم ، امتصوا بها ثروة كثير من البؤساء ، مما خرج عن طور الرحمة والشفقة والكمال البشري . فنعى عليهم حالهم ، طلبا لتزكيتهم بتوبتهم منه ، ثم أكد ذلك في مثل هذه الآية ؛ مبالغةً في الزجر .

الثاني – أن الربا ، على ما ذكر ، مجاز ، والأصل في الإطلاق الحقيقة ، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع ، أو العقل ، ولا واحد منهما هنا ؛ إذ لا موجب له .

الثالث – دعوى أن الهبة المذكورة مباحة ، لا بأس بها بعد كونها هي المرادة من الآية بعيدة غاية البعد ؛ لأن في أسلوبها من الترهيب والتحذير ما يجعلها في مصاف المحرمات ، ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية ، كما تقرر في موضعه .

الرابع – زعمُ أن المنهي عنه هو الحضرة النبوية خاصة ، لا دليل عليه إلا ظاهر الخطاب ، وليس قاطعاً ؛ لأن اختصاص الخطاب لا يوجب اختصاص الحكم على التحقيق ، لا يقال الأصل وجوب حمل اللفظ على حقيقته ، وحملُه على المجاز لا يكون إلا بدليل ، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم في غير محل الخطاب يفتقر إلى دليل – لأنا نقول : الأصل في التشريعات العموم ، إلا ما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتنصيص ، وليس منه شيء هنا . وقد عهد في التنزيل تخصيص مراد به التعميم إجماعاً ، كآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : 1] ، وأمثالها .

الخامس – أن في هذا المنهي عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفّاء ، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم ، ما يبيّن أنه شامل لسائرهم ، لما فيه من تربية إرادتهم وتهذيب أخلاقهم . بل لو قيل إن الخطاب له صلوات الله عليه ، والمراد غيره ، كما قالوه في كثير من الآي – لم يبعد ؛ لما تقرر من عصمته ونزاهته عن هذا الخلق ، في سيرته الزكية ، وحينئذ فالوجه في الآية هو الأول ، وعليه المعول . والله أعلم : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ ﴾ أي : مال تتزكون به من رجس الشح , ودنس البخل : ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ

﴿ أي : ذوو الأضعاف من الثواب ، جمع مُضْعِف ، اسم فاعل من أضعف ، إذا صار ذا ضعف - بكسرٍ فسكون - بأن يضاف له ثواب ما أعطاه ، كأقوى وأيسر ، إذا صار ذا قوة ويسار . فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله ، أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أنفقوا ، على أنه من أضعف والهمزة للتعدية ، ومفعوله محذوف ، وهو ما ذكر .

(221/605)

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ قال القاضي : أثبت له تعالى لوازم الألوهية ، ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها ، مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ، ووقع عليه الوفاق ، ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء . انتهى .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : كثرة المضار والمعاصي على وجه الأرض , وعلى ظهر السفن في لجج البحر : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أي : من الآثام والموبقات ، ففشا الفساد ، وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ اللام للعاقبة ، أي : ظهور الشرور بسببهم ، مما

استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم ، إرادة الرجوع . وقيل اللام للعلة ، على معنى أن ظهور الجدب والقحط والغرق بسبب شؤم معاصيهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا ، وقبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ، لعلهم يرجعون عما هم عليه ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] .

(222/605)

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ أي : فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة ، لشركهم المستتبع لكل إثم وعصيان : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ ﴾ أي : لا يقدر أحد على رده ، وقوله : ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ متعلق بـ : ﴿ يَأْتِيَ ﴾ أو بـ : ﴿ مَرَدَّ ﴾ ؛ لأنه مصدر على معنى لا يرده تعالى ، لتعلق إرادته بمجيئه ، وفيه انتقاء رد غيره بطريق برهاني . وقيل عليه ، لو كان كذلك لزم تنوينه لمشابهته للمضاف . وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل في ترك تنوينه ، كما في الحديث < لا مانع لما أعطيت > : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أي : يتفرقون كالفراش المبثوث ، أو فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : 14] .

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي : وبال كفره . قال الزمخشري : كلمة جامعة ، لما لا غاية وراءه من المضار ؛ لأن من كان ضارّه كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي : يسوّون منزلاً في الجنة ، أي : يوطئونه توطئة الفراش لمن يريد الراحة عليه : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أي : بالمطر : ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾ أي : في البحر عند هبوبها : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي : بتجارة البحر : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر

(223/605)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه تسلية له صلّى الله عليه وسلم بمن قبله على وجه يتضمن الوعد له , والوعيد لمن عصاه .

قال الزمخشري : في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعظيم للمؤمنين ، ورفع من شأنهم ، وتأهيل لكرامة سنية ، وإظهار لفضل سابقة ومزية ، حيث جعلهم

مستحقين على الله أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ إما سائراً وواقفاً ، مطبقاً وغير مطبق ، من جانب دون جانب ، إلى غير ذلك : ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ أي : قطعاً تارة أخرى : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أي : المطر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾ أي : المطر : ﴿ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي : لآيسين . قال الزمخشري : من قبله ، من باب التكرير والتوكيد ، كقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ [الحشر : 17] ، ومعنى التوكيد فيه ، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال : إنه يدل على سرعة تقلب القلوب البشرية ، من الإبلاس إلى الاستبشار .

(224/605)

قال الشهاب : وما ذكره ابن عطية أقرب ؛ لأن المتبادر من القبلية الاتصال ، وتأكيده دال على شدة اتصاله : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ أي : أثر الغيث من النبات

والأشجار والحبوب والثمار : ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي : العظيم الشأن الذي ذكر بعض شؤونه : ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً ﴾ على الزرع : ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً ﴾ أي : من تاثيرها فيه : ﴿ لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه ، وفيه من ذمهم ، وعدم تدبرهم ، وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم ، وسوء رأيهم – ما لا يخفى .

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره ، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتى ، بقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أي : لما أن هؤلاء مثلهم ، لانسداد مشاعرهم عن الحق : ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ قال أبو السعود : تقييد الحكم بما ذكر ، لبيان كمال سوء حال الكفرة ، والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي السوء ، نبوّ أسماعهم عن الحق ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه ، ولو كان فيهم إحداهما ، لكفاهم ذلك ، فكيف وقد جمعوهما ؟ : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي : ما تسمع : ﴿ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : منقادون لما تأمرهم به من الحق .

تنبيه :

قال ابن كثير : وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ ، على توهيم عبد الله بن عُمَر في رواية مخاطبة النبي صلّى الله عليه وسلم القتلى الذين ألقوا في قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ! ما تخاطب من قوم قد جيّفوا ؟ فقال : < والذي نفسي بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول ، منهم ، ولكن لا يجيبون > . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن يعلمون أن ما كنتُ أقول لهم حق .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته ، تقريعاً وتوبيخاً ونقمةً .

ثم قال ابن كثير : والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عُمَر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً : < ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلّم عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام > . انتهى .

وقال ابن الهمام : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالاً بهذه الآية ونحوها ، ولذا لم يقولوا : بتلقين القبر ، وقالوا : لو حلف لا يكلم فلاناً ، فكلمه ميتاً لا يحنث . وأورد عليهم قوله صلّى الله عليه وسلم في أهل القليب < ما أنتم بأسمع منهم > وأجيب تارة بأنه روي عن عائشة رضي الله عنها أنها أنكرته , وأخرى بأنه من خصوصياته صلّى الله عليه

وسلم معجزة له ، أو أنه تمثيل ، كما روي عن علي كرم الله وجهه , وأورد عليه ما في مسلم من أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا . إلا أن يخص بأول الوضع في القبر ، مقدمة للسؤال ، جمعاً بينه وبين ما في القرآن . نقله الشهاب .

(226/605)

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ قرئ بفتح الضاد وضمها ؛ أي : من أصل ضعيف هو النطفة : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ ﴾ يعني حال الطفولة والنشء : ﴿ قُوَّةً ﴾ يعني حال البلوغ والشبيبة إلى الاكتهال وبلوغ الأشد : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ أي : بالشيخوخة والهرم : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ أي : من الأشياء ، ومنها هذه الأطوار التي يتقلب بها الْإِنْسَانْ : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ أي : الواسع العلم والقدرة ، كيف ؟ وهذا الترديد في الأحوال المختلفة والتغيير من صفة إلى صفة ، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته ، المستتبع انفراده بالألوهية : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ أي : في الدنيا أو القبور ، وإنما يقدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له ، أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا ، وهكذا كانوا يبتون أمرهم

على خلاف الحق . كذا في " الكشاف " .

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . انتهى .

وقال الشهاب : المراد من قوله : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ، تشابه حاليهم في الكذب ، وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم ؛ لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل ، والغرض من سوق الآية ، وصف المجرمين بالتمادي في الباطل ، والكذب الذي أَلِفُوه . انتهى .

وقيل : كان قسمهم استقلالاً لأجل الدنيا ، لما عاينوا الآخرة ، تأسفاً على ما أضاعوا في الدنيا .

(227/605)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ ﴾ ردا لما حلفوا عليه ، وإطلاعاً لهم على الحقيقة : ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : فيما كتبه الله وأوجبه بحكمته : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أنه حق ، لتفريطكم في طلب الحق واتباعه : ﴿

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي : بالشرك ، أو إنكار الربوبية ، أو الرسالة ، أو شيء لا يجب الإيمان به : ﴿ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي : بأنهم كفروا عن جهل ؛ لأنه إنما كان عن تقصيرهم في إزالته ، أو عن عناد : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : ولا يطلب منهم الإعتاب ؛ أي : إزالة العتب بالتوبة والطاعة ؛ لأنهما - وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصي - فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا ، لا غير .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس ، أو من كل دليل على الأمور الأخروية , والحق يجري مجرى المثل في الظهور : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ ﴾ أي : مما اقترحوه أو غيرها : ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أي : لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق , بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها ؛ فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب المحق . قاله أبو السعود .

(228/605)

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي : على ما تشاهد منهم ، من الأقوال الباطلة , والأفعال السيئة : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : في قوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : 171 - 173] ، ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ أي : لا يحملنك على الخفة والقلق : ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي : بما تتلو عليهم من الآيات البينة ، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها ؛ فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم , وجعله العاقبة لك ، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 598. 608 ﴾

(229/605)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) ﴾

يمضي هذا الشوط من السورة في مجالها الأصيل . المجال الكوني العام الذي ترتبط به أقدار الناس وأقدار الأحداث ؛ والذي تتناسق فيه سنن الكون وسنن الدين القيم بلا تعارض ولا اصطدام .

وفي هذا الشوط يرسم صورة لتقلب الأهواء البشرية أمام ثبات السنن ؛ ووهن عقائد الشرك أمام قوة الدين القيم . ويصور نفوس البشر في السراء والضراء وعند قبض الرزق وبسطه ، وهي تضطرب في تقديراتها وتصوراتها ما لم تستند إلى ميزان الله الذي لا يضطرب أبداً ، وما لم ترجع إلى قدر الله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وبمناسبة الرزق يوجههم إلى الطريقة التي تنمي المال وتزكيه . الطريقة المتفقة مع النهج القيم والطريق الواصل . ويردهم بهذا إلى معرفة الخالق الرازق الذي يميت ويحيي . أما الشركاء الذين يتخذونهم من دون الله فماذا يفعلون ؟ وينبههم إلى الفساد الذي تنشئه عقيدة الشرك في كل مكان . كما يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين إلى الاستقامة على منهجهم القيم . قبل أن يأتي اليوم الذي لا عمل فيه ولا كسب ، ولكن حساب وجزاء عما كانوا يعملون . وفي معرض الحديث عن رزق الله يوجه قلوبهم إلى أنماط من هذا الرزق . منها ما يتعلق بحياتهم المادية كالماء النازل من السماء الذي يحيي الأرض بعد موتها . وتجري الفلك فيه بأمره . ومنها تلك الآيات البينات التي تنزل على الرسول لإحياء موات القلوب والنفوس ، ولكنهم لا يهتدون ولا يسمعون . ويطوف بهم في جولة مع أطوار نشأتهم وحياتهم حتى ينتهوا إلى خالقهم ، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون . . ويختم هذا الشوط بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهه إلى الصبر حتى يتحقق وعد الله الحق اليقين .

﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون . أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . . .

إنها صورة للنفس البشرية التي لا تستمد من قيمة ثابتة ، ولا تسير على نهج واضح . صورة لها وهي تتأرجح بين الانفعالات الطارئة ، والتصورات العارضة ، والاندفاعات مع الأحداث والتيارات . فعند مس الضر يذكر الناس ربهم ، ويلجأون إلى القوة التي لا عاصم إلا إياها ، ولا نجاة إلا بالإنابة إليها . حتى إذا انكشفت الغمة ، وانفرجت الشدة ، وأذاقهم الله رحمة منه : ﴿ إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ . . وهو الفريق الذي لا يستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم .

ذلك أن الرخاء يرفع عنهم الاضطرار الذي ألجأهم إلى الله ؛ وينسيهم الشدة التي ردتهم إليه . فيقودهم هذا إلى الكفر بما آتاهم الله من الهدى وما آتاهم من الرحمة ، بدلاً من

الشكر والاستقامة على الإنابة .

وهنا يعاجل هذا الفريق بالتهديد في أشخاص المشركين الذين كانوا يواجهون الرسالة المحمدية ، فيوجه إليهم الخطاب ، ويحدد أنهم من هذا الفريق الذي يعنيه :

﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ . .

وهو تهديد ملفوف ، هائل مخيف . وإن الإنسان ليخاف من تهديد حاكم أو رئيس فكيف وهذا التهديد من فاطر هذا الكون الهائل ، الذي أنشأه كله بقولة : كن ! ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ !

وبعد هذه المعاجلة بالتهديد الرعيب يعود فيسأل في استنكار عن سندهم في هذا الشرك الذي يجازون به نعمة الله ورحمته ؛ وهذا الكفر الذي ينتهون إليه :

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ ﴾ . .

(231/605)

فإنه لا ينبغي لبشر أن يتلقى شيئاً في أمر عقيدته إلا من الله . فهل أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد بهذا الشرك الذي يتخذونه ؟ وهو سؤال استنكاري تهكمي ، يكشف عن تهافت عقيدة الشرك ، التي لا تستند إلى حجة ولا تقوم على دليل . ثم هو

سؤال تقريري من جانب آخر ، يقرر أنه لا عقيدة إلا ما يتنزل من عند الله . وما يأتي بسلطان من عنده . وإلا فهو واهن ضعيف .

ثم يعرض صفحة أخرى من صفحات النفس البشرية في الفرح بالرحمة فرح الخفة والاغترار ؛ والقنوط من الشدة واليأس من رحمة الله :

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ . .

وهي كذلك صورة للنفس التي لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها في جميع الأحوال ؛ وميزان دقيق لا يضطرب مع التقلبات . والناس هنا مقصود بهم أولئك الذين لا يرتبطون بذلك الخط ولا يزنون بهذا الميزان . فهم يفرحون بالرحمة فرح البطر الذي ينسيهم مصدرها وحكمتها ، فيطيرون بها ، ويستغرقون فيها ، ولا يشكرون المنعم ، ولا يستيقظون إلى ما في النعمة من امتحان وابتلاء . حتى إذا شاءت إرادة الله أن تأخذهم بعملهم فتذيقهم حالة ﴿ سيئة ﴾ عموا كذلك عن حكمة الله في الابتلاء بالشدة ، وفقدوا كل رجاء في أن يكشف الله عنهم الغمة ؛ وقنطوا من رحمته ويئسوا من فرجه . . وذلك شأن القلوب المنقطعة عن الله ، التي لا تدرك سننه ولا تعرف حكمته . أولئك الذين لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا !

ويعقب على هذه الصورة بسؤال استنكاري يعجب فيه من أمرهم ، وقصر نظرهم وعمى

بصيرتهم . فالأمر في السراء والضراء يتبع قانوناً ثابتاً ، ويرجع إلى مشيئة الله سبحانه ، فهو الذي ينعم بالرحمة ، ويبتلي بالشدة ؛ ويبسط الرزق ويضيقه وفق سنته ، وبمقتضى حكمته . وهذا ما يقع كل آن ، ولكنهم هم لا يبصرون :

﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ ﴾ .

.

(232/605)

فلا داعي للفرح والبطر عند البسط ، ولا لليأس والقنوط عند القبض ؛ فإنما هي أحوال تتعاور الناس وفق حكمة الله ، وفيها للقلب المؤمن دلالة على أن مرد الأمر كله لله ، ودلالة على اطراد السنة ، وثبات النظام ، رغم تقلب الأحوال :

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . .

وإذا كان الله هو الذي يبسط الرزق ويقبضه ؛ وهو الذي يعطي ويمنع وفق مشيئته ؛ فهو يبين للناس الطريق الذي تربو أموالهم فيه وتربح . لا كما يظنون هم ، بل كما يهديهم الله :

﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل . ذلك خير للذين يريدون وجه الله ؛ وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ؛ وما آتيتم من

زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ . .

وما دام المال مال الله ، أعطاه رزقاً لبعض عباده ، فالله صاحب المال الأول قد قرر قسماً منه لفئات من عباده ، يؤديها إليهم من يضع يده على ذلك المال . ومن ثم سماها حقاً . ويذكر هنا من هذه الفئات ﴿ ذا القربى والمسكين وابن السبيل ﴾ . ولم تكن الزكاة بعد قد حددت ولا مستحقوها قد حصروا . ولكن المبدأ كان قد تقرر . مبدأ أن المال مال الله ، بما أنه هو الرازق به ، وأن لفئات من المحتاجين حقاً فيه مقرراً لهم من صاحب المال الحقيقي ، يصل إليهم عن طريق واضع اليد على هذا المال . . وهذا هو أساس النظرية الإسلامية في المال . وإلى هذا الأساس ترجع جميع التفريعات في النظرية الاقتصادية للإسلام . فما دام المال مال الله ، فهو خاضع إذن لكل ما يقرره الله بشأنه بوصفه المالك الأول ، سواء في طريقة تملكه أو في طريقة تنميته ، أو في طريقة إنفاقه . وليس واضع اليد حراً في أن يفعل به ما يشاء .

وهو هنا يوجه أصحاب المال الذين اختارهم ليكونوا أمناء عليه إلى خير الطرق للتنمية والفلاح . وهي إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، والإنفاق بصفة عامة في سبيل الله : ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ . .

وكان بعضهم يحاول تنمية ماله بإهداء هدايا إلى الموسرين من الناس ، كي ترد عليه الهدية مضاعفة ! فبين لهم أن هذا ليس الطريق للنماء الحقيقي : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ . . هذا ما تذكره الروايات عن المقصود بالآية وإن كان نصها بإطلاقه يشمل جميع الوسائل التي يريد بها أصحابها أن ينموا أموالهم بطريقة ربوية في أي شكل من الأشكال . . وبين لهم في الوقت ذاته وسيلة النماء الحقيقية :

﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ . . .

هذه هي الوسيلة المضمونة لمضاعفة المال : إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد ولا عوض من الناس .

إنما هي إرادة وجه الله . أليس هو الله الذي يبسط الرزق ويقدر ؟ أليس هو الذي يعطي الناس ويمنع ؟ فهو الذي يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجهه ؛ وهو الذي ينقص مال المرابين الذين يبتغون وجوه الناس . . ذلك حساب الدنيا ، وهناك حساب الآخرة وفيه أضعاف مضاعفة . فهي التجارة الرابحة هنا وهناك !

ومن زاوية الرزق والكسب يعالج قضية الشرك ، وآثارها في حياتهم وفي حياة من قبلهم ، ويعرض نهاية المشركين من قبل وعاقبتهم التي تشهد بها آثارهم :

﴿ الله الذي خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم . هل من شركائكم من يفعل من

ذلكم من شيء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون . ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ . .

(234/605)

وهو يواجههم بواقع أمرهم وحقائق حالهم التي لا يملكون أن يماروا في أن الله وحده هو موجدها ؛ أو التي لا يملكون أن يزعموا أن لآلهتهم المدعاة مشاركة فيها . يواجههم بأن الله هو الذي خلقهم . وأنه هو الذي رزقهم . وأنه هو يميتهم . وأنه هو يحييهم . فأما الخلق فهم يقرون به . وأما الرزق فهم لا يملكون أن يزعموا أن آلهتهم المدعاة ترزقهم شيئاً . وأما الإماتة فلا حجة لهم على غير ما يقرره القرآن فيها . بقي الإحياء وكانوا يمارون في وقوعه . وهو يسوقه إليهم ضمن هذه المسلمات ليقرره في وجدانهم بهذه الوسيلة الفريدة ، التي تخاطب فطرتهم من وراء الانحراف الذي أصابهم . وما تملك الفطرة أن تنكر أمر البعث والإعادة . ثم يسألهم : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ؟ ﴾ ولا ينتظر جواباً منهم ، فهو سؤال للنفي في صورة التقريع غير محتاج إلى جواب ! إنما يعقب عليه بتنزيه الله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم ؛ وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد ، ويملؤها براً وبحراً بهذا الفساد ، ويجعله مسيطراً على أقدارها ، غالباً عليها :

﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ . . .

فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثاً ، ولا يقع مصادفة ؛ إنما هو تدبير الله وسنته . . ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ من الشر والفساد ، حينما يكتوون بناره ، ويتألمون لما يصيبهم منه : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ فيعزمون على مقاومة الفساد ، ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم .

ويحذرهم في نهاية هذه الجولة أن يصيبهم ما أصاب المشركين قبلهم ، وهم يعرفون عاقبة الكثيرين منهم ، ويرونها في آثارهم حين يسيرون في الأرض ، ويمرون بهذه الآثار في الطريق : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ .

(235/605)

وكانت عاقبتهم ما يرون حين يسيرون في الأرض ؛ وهي عاقبة لا تشجع أحداً على سلوك ذلك الطريق !

وعند هذا المقطع يشير إلى الطريق الآخر الذي لا يضل سالكوه ، وإلى الأفق الآخر الذي لا يخيب قاصدوه .

.

﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله . يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ؛ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون . ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله . إنه لا يحب الكافرين ﴾ .

والصورة التي يعبر بها عن الاتجاه إلى الدين القيم صورة موحية معبرة عن كمال الاتجاه ، وجديته ، واستقامته : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ . . . وفيها الاهتمام والانتباه والتطلع ، واستشراف الوجهة السامية والأفق العالي والاتجاه السديد .

وقد جاء هذا التوجيه أول مرة في السورة بمناسبة الكلام عن الأهواء المتفرقة والأحزاب المختلفة . أما هنا فيجيء بمناسبة الشركاء ، والرزق ومضاعفته ، والفساد الناشىء من الشرك ، وما يذوقه الناس في الأرض من ظهور الفساد واستعلائه ، وعاقبة المشركين في الأرض . يجيء بهذه المناسبة فيبين جزاء الآخرة ونصيب المؤمنين والكافرين فيها ؛ ويحذرهم من يوم لا مرد له من الله . يوم يتفرقون فريقين : ﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ . .

ويَمهَد معناه يُمهِّد ويُعبِّد ، ويعد المهد الذي فيه يستريح ، ويهيء الطريق أو المضجع المريح .

وكلها ظلال تتجمع وتتناسق ، لتصور طبيعة العمل الصالح ووظيفته . فالذي يعمل العمل الصالح إنما يمهد لنفسه ويهيء أسباب الراحة في ذات اللحظة التي يقوم فيها بالعمل الصالح لا بعدها . وهذا هو الظل الذي يلقيه التعبير . وذلك : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . . ﴿ من فضله ﴾ . . فما يستحق أحد من بني آدم الجنة بعمله . وما يبلغ مهما عمل أن يشكر الله على جزء من فضله . إنما هو فضل الله ورحمته بالمؤمنين .

وكراهيته سبحانه للكافرين : ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ . .

(236/605)

بعد ذلك يأخذ معهم في جولة أخرى تكشف عن بعض آيات الله ، وما فيها من فضل الله ورحمته ، فيما يهبهم من رزق وهدى ينزل عليهم ، فيعرفون بعضه وينكرون بعضه . ثم لا يشكرون ولا يهتدون .

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته ، ولتجري الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . الله الذي يرسل الرياح ، فتثير سحاباً ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً ، فترى الودق يخرج

من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير . ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ﴾ . . .

إنه يجمع في هذه الآيات بين إرسال الرياح مبشرات ، وإرسال الرسل بالبينات ، ونصر المؤمنين بالرسل ، وإنزال المطر المحيي ، وإحياء الموتى وبعثهم .

. وهو جمع له مغزاه . . إنها كلها من رحمة الله ، وكلها تتبع سنة الله . وبين نظام الكون ، ورسالات الرسل بالهدى ، ونصر المؤمنين ، صلة وثيقة . وكلها من آيات الله . ومن نعمته ورحمته ، وبها تتعلق حياتهم ، وهي مرتبطة كلها بنظام الكون الأصيل .

(237/605)

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ . . . تبشر بالمطر . وهم يعرفون الريح الممطرة بالخبرة والتجربة فيستبشرون بها . ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء . ﴿ ولتجري الفلك بأمره ﴾ سواء بدفع الرياح لها ؛ أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجري السفن فيها . وهي تجري مع هذا بأمر الله . ووفق سنته التي فطر

عليها الكون ؛ وتقديره الذي أودع كل شيء خاصيته ووظيفته ، وجعل من شأن هذا أن تخف الفلك على سطح الماء فتسير ، وأن تدفعها الرياح فتجري مع التيار وضد التيار . وكل شيء عنده بمقدار . . ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ في الرحلات التجارية ، وفي الزرع والحصاد ، وفي الأخذ والعطاء . وكله من فضل الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً . ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ على نعمة الله في هذا كله . . وهذا توجيه إلى ما ينبغي أن يقابل به العباد نعمة الله الوهاب .

ومثل إرسال الرياح مبشرات إرسال الرسل بالبينات :

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ﴾ . .

ولكن الناس لم يستقبلوا رحمة الله هذه وهي أجل وأعظم استقبالهم للرياح المبشرات . ولا انتفعوا بها وهي أنفع وأدوم انتفاعهم بالمطر والماء ! ووقفوا تجاه الرسل فريقين : مجرمين لا يؤمنون ولا يتدبرون ولا يكفون عن إيذاء الرسل والصد عن سبيل الله . ومؤمنين يدركون آيات الله ، ويشكرون رحمته ، ويثقون بوعده ، ويحتملون من المجرمين ما يحتملون . . ثم كانت العاقبة التي تتفق مع عدل الله ووعده الوثيق .

﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ . .

وسبحان الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين ؛ وجعله لهم حقاً ، فضلاً وكرماً . وأكده لهم في هذه الصيغة الجازمة التي لا تحتمل شكاً ولا ريباً . وكيف والقائل هو الله القوي العزيز

الجبار المتكبر ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . يقولها سبحانه معبرة عن إرادته التي لا ترد ، وسنته التي لا تتخلف ، وناموسه الذي يحكم الوجود .

(238/605)

وقد يبطئ هذا النصر أحياناً في تقدير البشر لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله ، ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها الله . والله هو الحكيم الخبير . يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه ، وفق مشيئته وسنته . وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر وقد لا تتكشف . ولكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصحيح . ووعده القاطع واقع عن يقين ، يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين .

بعد ذلك يمضي السياق يقرر أن الله هو الذي يرسل الرياح ، وينزل المطر ، ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك يحيي الموتى فيبعثون .

. سنة واحدة ، وطريقة واحدة ، وحلقات في سلسلة الناموس الكبير :

﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ . . وفق ناموسه في تكوين هذا الكون وتنظيمه وتصريفه . ﴿ فتثير سحاباً ﴾ . بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض . ﴿ فيبسطه في السماء ﴾ . . ويفرشه ويمده . ﴿ ويجعله كسفاً ﴾ . . بتجميعه وتكثيفه

وتراكمه بعضه فوق بعض ، أو يصطدم بعضه ببعض ، أو تنبعث شرارة كهربائية بين طبقة منه وطبقة ، أو كسفة منه وكسفة . ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ وهو المطر يتساقط من خلال السحاب . ﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ . . ولا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون مباشرة على المطر . والعرب أعرف الناس بهذه الإشارة . وحياتهم كلها تقوم على ماء السماء ، وقد تضمنت ذكره أشعارهم وأخبارهم في لهفة وحب وإعزاز !

﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ . .

وهذا تقرير لحالهم قبل أن ينزل عليهم المطر : حولهم من اليأس والقنوط والهمود . . ثم هم يستبشرون . . ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله ﴾ . . ! انظر إليها في النفوس المستبشرة بعد القنوط ، وفي الأرض المستبشرة بعد الهمود ؛ وفي الحياة التي تدب في التربة وتدب في القلوب .

(239/605)

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ . . إنها حقيقة واقعة منظورة ، لا تحتاج إلى أكثر من النظر والتدبر . ومن ثم يتخذها برهاناً على قضية البعث

والإحياء في الآخرة . على طريقة الجدل القرآني ، الذي يتخذ من مشاهد الكون المنظورة ، وواقع الحياة المشهودة ، مادته وبرهانه ؛ ويجعل من ساحة الكون العريض مجاله وميدانه :

﴿ إن ذلك لمحيي الموتى ﴾ . . ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ . .

وهذه آثار رحمة الله في الأرض تنطق بصدق هذا الوعد وتؤكد هذا المصير .

وبعد تقرير هذه الحقيقة يمضي في تصوير حال القوم الذين يستبشرون بالرياح المحملة بالماء ؛ ويستروحون بآثار رحمة الله عند نزوله من السماء . . يمضي في تصوير حالهم لو كانت الريح التي رأوها مصفرة بما تحمل من رمل وتراب لا من ماء وسحاب وهي الريح المهلكة للزرع والضرع أو التي يصفر منها الزرع فيصير حطاماً :

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ﴾ . .

يكفرون سخطاً ويأسا ، بدلاً من أن يستسلموا لقضاء الله ، ويتوجهوا إليه بالضراعة ليرفع عنهم البلاء . وهي حال من لا يؤمن بقدر الله ، ولا يهتدي ببصيرته إلى حكمة الله في تدبيره ، ولا يرى من وراء الأحداث يد الله التي تنسق هذا الكون كله ؛ وتقدر كل أمر وكل حادث . وفق ذلك التنسيق الشامل للوجود المترابط الأجزاء . .

وعند هذا الحد من تصوير تقلبات البشر وفق أهوائهم ، وعدم انتفاعهم بآيات الله التي يرونها ماثلة في الكون من حولهم ؛ وعدم إدراكهم لحكمة الله من وراء ما يشهدونه من وقائع وأحداث . . عند هذا يتوجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزيه عن

إخفاق جهوده في هداية الكثير منهم ؛ ويرد هذا إلى طبيعتهم التي لا حيلة له فيها ، وانطماس بصيرتهم وعماها :

﴿ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ .

.

(240/605)

وهو يصورهم موتى ولا حياة فيهم ، صماً لا سمع لهم ، عمياً لا يهتدون إلى طريق . . والذي ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لا حياة فيه . إنما هي حياة حيوانية ، بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدي بفطرته التي قلما تخونه ! والذي لا يستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ في القلوب أصم ولو كانت له أذنان تسمعان ذبذبة الأصوات ! والذي لا يبصر آيات الله المبثوثة في صفحات الوجود أعمى ولو كانت له عينان كالحيوان !

﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ . .

وهؤلاء هم الذين يسمعون الدعوة ، لأن قلوبهم حية ، وبصائرهم مفتوحة ، وإدراكهم

سليم . فهم يسمعون فيسلمون . ولا تزيد الدعوة على أن تنبه فطرتهم فتستجيب .

بعد ذلك يعود السياق ليجول بهم جولة جديدة ، لا في مشاهد الكون من حولهم ، ولكن في ذوات أنفسهم ، وفي أطوار نشأتهم على هذه الأرض ؛ ويمتد بالجولة إلى نهايتها هنالك في الحياة الأخرى . في ترابط بين الحياتين وثيق :

﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير . ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة . كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ . .

إنها جولة مديدة ، يرون أوائلها في مشهود حياتهم ؛ ويرون أواخرها مصورة تصويراً مؤثراً كأنها حاضرة أمامهم . وهي جولة موحية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ . . ولم يقل خلقكم ضعافاً أو في حالة ضعف ؛ إنما قال : ﴿ خلقكم من ضعف ﴾ كأن الضعف مادتهم الأولى التي صيغ منها كيانهم . . والضعف الذي تشير الآية إليه ذو معان ومظاهر شتى في تكوين هذا الإنسان .

إنه ضعف البنية الجسدية الممثل في تلك الخلية الصغيرة الدقيقة التي ينشأ منها الجنين . ثم في الجنين وأطواره وهو فيها كلها واهن ضعيف . ثم في الطفل والصبي حتى يصل إلى سن الفتوة وضلاعة التكوين .

ثم هو ضعف المادة التي ذرأ منها الإنسان . الطين . الذي لولا نفخة من روح الله لظل في صورته المادية أو في صورته الحيوانية ، وهي بالقياس إلى الخلقة الإنسانية ضعيفة ضعيفة .

ثم هو ضعف الكيان النفسي أمام النوازع والدفعات ، والميول والشهوات ، التي لولا النفخة العلوية وما خلقت في تلك البنية من عزائم واستعدادات ، لكان هذا الكائن أضعف من الحيوان المحكوم بالإلهام .

﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ﴾ . . قوة بكل تلك المعاني التي جاءت في الحديث عن الضعف . قوة في الكيان الجسدي ، وفي البناء الإنساني ، وفي التكوين النفسي والعقلي .

﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ . . ضعفاً في الكيان الإنساني كله .

فالشيخوخة انحدار إلى الطفولة بكل ظواهرها . وقد يصاحبها انحدار نفسي ناشئ من ضعف الإرادة ليهفو الشيخ أحيانا كما يهفو الطفل ، ولا يجد من إرادته عاصماً . ومع الشيخوخة الشيب ، يذكر تجسيماً وتشخيصاً لهيئة الشيخوخة ومنظرها .

وإن هذه الأطوار التي لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء ، والتي لا تتخلف مرة فيمن يمد له في العمر ، ولا تبطئ مرة فلا تجيء في موعدها المضروب . إن هذه الأطوار التي تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد بأنها في قبضة مدبرة ، تخلق ما تشاء ، وتقدر ما تشاء ، وترسم لكل مخلوق أجله وأحواله وأطواره ، وفق علم وثيق وتقدير دقيق : ﴿ يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ . .

ولا بد لهذه النشأة المحكمة المقدرة من نهاية كذلك مرسومة مقدرة . هذه النهاية يرسمها في مشهد من مشاهد القيامة ، حافل بالحركة والحوار على طريقة القرآن :

﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ . .

(242/605)

فهكذا يتضاءل في حسهم كل ما وراءهم قبل هذا اليوم ، فيقسمون : ما لبثوا غير ساعة . ويحتمل أن يكون قسمهم منصباً على مدة لبثهم في القبور ، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم في الأرض أحياء وأمواتاً . ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ ويصرفون عن الحق والتقدير الصحيح حتى يردهم أولو العلم الصحيح إلى التقدير الصحيح :

﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث . فهذا يوم البعث .

ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ . .

وأولو العلم هؤلاء هم في الغالب المؤمنون ، الذين آمنوا بالساعة ، وأدركوا ما وراء ظاهر الحياة الدنيا ، فهم أهل العلم الصحيح وأهل الإيمان البصير . وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ . . فهذا هو الأجل المقدور ، ولا يهم طويلاً كان أم كان قصيراً . فقد كان ذلك هو الموعد ، وقد تحقق :

﴿ فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ . .

ثم يختم المشهد بالنتيجة الكلية في إجمال يصور ما وراءه مما لحق بالظالمين الذين كانوا يكذبون بيوم الدين :

﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ . .

فلا معذرة منهم تقبل ولا يعتب عليهم أحد فيما فعلوه ، أو يطلب إليهم الاعتذار . فاليوم يوم العقاب لا يوم العتاب !

ومن هذا المشهد البائس اليائس يردهم إلى ما هم فيه من عناد وتكذيب ، وتلك كانت عاقبة العناد والتكذيب :

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ؛ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ وهي نقلة بعيدة في الزمان والمكان ; ولكنها تجيء في السياق وكأنها قريب من قريب وينطوي الزمان والمكان فإذا هم مرة أخرى أمام القرآن وفيه من كل مثل ; وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب ; وفيه من كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول ; وفيه من شتى اللمسات الموحية العميقة التأثير وهو يخاطب كل قلب وكل عقل في كل بيئة وكل محيط وهو يخاطب النفس البشرية في كل حالة من حالاتها وفي كل طور من أطوارها ولكنهم بعد هذا كله يكذبون بكل آية ولا يكتفون بالتكذيب بل يتطاولون على أهل العلم الصحيح فيقولون عنهم إنهم مبطلون ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ويعقب على هذا الكفر والتطاول كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون كذلك بمثل هذه الطريقة ولمثل هذا السبب فهؤلاء الذين لا يعلمون مطموسو القلوب لا تتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله متطاولون على أهل العلم والهدى ومن ثم يستحقون أن يطمس الله على بصيرتهم وأن يطبع على قلوبهم لما يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وهذه القلوب الدرس التاسع توجيه إلى الصبر والإتزان ثم يأتي الإيقاع الأخير في السورة بعد تلك الجولات مع المشركين في الكون والتاريخ وفي ذوات أنفسهم وفي أطوار حياتهم ثم هم بعد ذلك كله يكفرون ويتطاولون يأتي الإيقاع الأخير في صورة توجيه لقلب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن معه من المؤمنين فاصبر إن وعد الله

حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون إنه الصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحيانا بلا نهاية والثقة بوعد الله الحق والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين

(244/605)

فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين مهما يطل هذا الطريق ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم وهكذا تختم السورة التي بدأت بوعد الله في نصر الروم بعد بضع سنين ونصر المؤمنين تختم بالصبر حتى يأتي وعد الله ; والصبر كذلك على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لا يوقنون فيتناسق البدء والختام وتنتهي السورة وفي القلب منا إيقاع التثبيت القوي بالوعد الصادق الذي لا يكذب واليقين الثابت الذي لا يخون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2768 . 2778 ﴾

(245/605)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ الم غُلِبَتِ الروم فِى أَدْنَى الأرض وَهُم مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : 1 3] إلى آخره ، قيل : الألف إشارة إلى ألفة طبع المؤمنين واللام إلى لؤم طبع الكافرين والميم إلى مغفرة رب العالمين جل شأنه ، والروم إشارة إلى اقلب ، وفارس المشار إليهم بالضمير النائب عن الفاعل إشارة إلى النفس ، والمؤمنون إشارة إلى الروح والسر والعقل ، ففي الآية إشارة إلى أن حال أهل الطلب يتغير بتغير الأوقات فيغلب فارس النفس روم القلب تارة ويغلب روم القلب فارس النفس بتأييد الله تعالى ونصره سبحانه تارة أخرى وذلك في بعض سنين من أيام الطلب ويومئذ يفرح المؤمنون الروح والسر والعقل ، وعلى هذا المنهاج سلك النيسابوري :

(246/605)

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ الحياة الدنيا ﴾ [الروم : 7] فيه إشارة إلى حال المحجوبين ووقوفهم على ظواهر الأشياء ، وما من شيء إلا له ظاهر وهو ما تدركه الحواس الظاهرة منه ،

وباطن وهو ما تدركه العقل بإحدى طريق الإدراك من وجوه الحكمة فيه ، ومنه ما هو وراء طور العقل وهو ما يحصل بواسطة الفيض الإلهي وتهذيب النفس أتم تهذيب وهو وإن لم يكن من مستنبطات العقل إلا أن العقل يقبله ، وليس معنى أنه ما وراء طور العقل أن العقل يحيله ولا يقبله كما يتوهم ، ومما ذكرنا يعلم أن الباطن لا يجب أن يتوصل إليه بالظاهر بل قد يحصل لا بواسطته وذلك أعلى قدراً من حصوله بها ، فقول من يقول : إنه لا يمكن الوصول إلى الباطن إلا بالعبور على الظاهر لا يخلو عن بحث ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم : 15] أي يسرون بالسماع في روضة الشهود وذلك غذاء أرواحهم ونعيمها ، وأعلى أنواع السماع في هذه النشأة عند السادة الصوفية ما يكون من الحضرة الإلهية بالأرواح القدسية والأسماع الملكوتية ، وهذه الأسماع لم يفارقها سماع ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 172] واشتهر عندهم السماع في سماع الأصوات الحسنة وسماع الأشباه المحركة لما غلب عليهم من الأحوال من الخوف والرجاء والحب والتعظيم وذلك كسماع القرآن والوعظ والدف والشبابة والأوتار والمزمار والحداء والنشيد وفي ذلك الممدوح والمذموم .

وفي قواعد عز الدين عبد العزيز بن عبد عبد السلام الكبرى تفصيل الكلام في ذلك على أتم وجه ، وسنذكر إن شاء الله تعالى قريباً ما يتعلق بذلك والله تعالى هو الموفق للصواب ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ [الروم : 17] الخ فيه إشارة إلى أنه ينبغي استغراق الأوقات في تنزيه الله سبحانه والثناء عليه جل وعلا بما هو سبحانه وتعالى أهله فإن ذلك روضة هذه النشأة ، وفي الأثر إن حلق الذكر رياض الجنة ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ [الروم : 19] فيه إشارة إلى أن الفرع لا يلزم أن يكون كأصله .

إنما الورد من الشوك ولا . . .

ينبت النرجس إلا من بصل

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا لّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا ﴾ [الروم : 21] فيه إشارة إلى أن الاشتراك في الجنسية من أسباب الألفة .

إن الطيور على أشباهها تقع . . .

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : 32] فيه إشارة إلى أنه عز وجل لم يكره أحداً على ما هو عليه إن حقاً وإن باطلاً ، وإنما وقع التعاشق بين النفوس بحسب استعدادها وما هي عليه فأعطى سبحانه حلت قدرته كل عاشق معشوقه الذي هام به قلب استعداده وصار حبه ملء فؤاده وهذا سر الفرح ، وما ألطف ما قال قيس بن ذريح .

تعلق روحي روحها قبل خلقنا . . .

ومن قبل ما كنا نطافا وفي المهد

فزاد كما زدنا فأصبح ناميا . . .

وليس إذا متنا بمنفصم

العقد ولكنه باق على كل حادث . . .

وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

(248/605)

﴿ وَإِذَا مَسَّ الناس ﴾ [الروم : 33] الآية فيها إشارة إلى أن طبيعة الإنسان ممزوجة من هداية الروح وإطاعتها ومن ضلال النفس وعصيانها ، فالناس إذا أظلتهم المحنة ونالتهم الفتنة ومستهم البلية وانكسرت نفوسهم وسكنت دواعيها وتخلصت أرواحهم عن أسر ظلمة شهواتها رجعت أرواحهم إلى الحضرة ووافقتها النفوس على خلاف طباعها فدعوا ربهم منيبين إليه فإذا جاد سبحانه عليهم بكشف ما نالهم ونظر جل وعلا باللطف فيما أصابهم عاد منهم من تمرد إلى عادته المذمومة وطبيعته الدنية المشؤمة ﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر ﴾ [الروم : 41] الخ فيه إشارة إلى أن الشرور ليست مرادة لذاتها بل هي كبط الجرح وقطع الأصبع التي فيها آكلة ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ

يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : 60] فيه إشارة لأهل الوراثة المحمدية أهل الإرشاد بأن يصبروا على مكاره المنكرين المحجوبين الذين لا يوقنون بصدق أحوالهم ولذا يستخفون بهم وينظرون إليهم بنظر الحقارة ويعيرونهم وينكرون عليهم فيما يوقولون ويفعلون ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الموقنين وأن يحفظنا وأولادنا وإخواننا من الأمراض القلبية والقالبية بحرمة نبيه الأمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(249/605)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الرّوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)

الإعراب :

(في أدنى) متعلّق بـ (غلبت) ، (الواو) عاطفة (من بعد) متعلّق بـ (سيغلبون) .

جملة : " غلبت الروم . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " هم . . . سيغلبون . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

(4 – 5) (في بضع) متعلّق بـ (سيغلبون) بحذف مضاف أي : في مدى بضع سنين (للّه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ الأمر (قبل) ظرف زمان مبنيّ على الضم في محلّ جرّ بمن متعلّق بالخبر (من بعد) مثل من قبل فهو معطوف عليه (الواو) عاطفة (يومئذ) ظرف زمان منصوب ، مضاف متعلّق

ب (يفرح) ، والتنوين في آخره عوض من جملة محذوفة (بنصر) متعلّق بـ (يفرح) ، وفاعل (ينصر) ضمير مستتر تقديره هو يعود على لفظ الجلالة (الواو) عاطفة .

وجملة : " للّه الأمر . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " يفرح المؤمنون . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

وجملة : " ينصر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة – أو تعليليّة – .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هو العزيز . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينصر .

الصرف :

(الروم) ، اسم جنس وهو اسم لقوم سمّوا على اسم أبيهم روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم كما قيل .

(250/605)

(غلبهم) ، مصدر الثلاثيّ غلب باب ضرب ، وزنه فعل بفتحتين ، ثمّة مصادر أخرى هي : غلب بفتح فسكون ، وغلبة بفتحتين ، ومغلب بفتح الميم واللام ، وغلبّ بضمّتين وتشديد الباء المفتوحة وبكسرتين ، وغلبّة بضمّتين وتشديد الباء المفتوحة ، وغلابية بفتح الغين وكسر الباء وفتح الياء .

الفوائد

- الفرس والروم :

أطلق العرب كلمة الروم على دولة بيزنطة ، وعاصمتها القسطنطينة ، والروم اليوم هم المسيحيون الشرقيون من "كاثوليك وأرثوذكس" .

احتربت الفرس والروم في موقعة بين بصرى وأذرعات ، وانتصر الفرس ، وبلغ ذلك قريشا ، ففرحت لانتصار الشرك على أهل الكتاب ، واعتبروا ذلك نصرا لهم . وقد تلاحى أمية بن خلف وأبو بكر ، وتناحبا على مائة قلوص ، إلى تسع سنين ، يدفعها أبو بكر إلى أمية إذا

لم تنتصر الروم في هذه المدة ، ويدفعها أمية إلى أبي بكر إذا انتصرت

ولما خاف أمية أن يخرج أبو بكر من مكة طلب إليه كفيلا ، فكفله ابنه عبد اللّه ولما خرج أمية إلى أحد ومات عقب الموقعة ، نتيجة طعنة في حربة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، وقد انتصرت الروم على فارس يوم الحديبية ، فطلب أبو بكر المائة من القلوص ، فدفعت له ، فأتى أبو بكر بها رسول اللّه ، فقال له : تصدق بها ، وهكذا يتضح لدينا أسباب نزول الآية ، والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع . وقد انتصرت الروم على الفرس بعد سبع من موقعة جنوب حوران التي انتصر بها الفرس على الروم .

صدق اللّه العظيم . . . " غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ "

[سورة الروم (30) : الآيات 6 إلى 7]

وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (7)

الإعراب :

(وعد) مفعول مطلق لفعل محذوف مؤكّد لمضمون الجملة قبله منصوب (لا) نافية في الموضعين (الواو) عاطفة.

جملة: "(وعدهم) اللّه وعدا" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يخلف اللّه . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ" 1 " .

وجملة: "لكنّ أكثر الناس . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يخلف اللّه.

وجملة: "لا يعلمون . . "في محلّ رفع خبر لكنّ.

(7) (من الحياة) متعلّق بـ (ظاهرا) ، (الواو) حاليّة (عن الآخرة) متعلّق

---

(1) أجازوا أن تكون في محلّ نصب حال من المصدر (وعد) ، والمعنى وعد اللّه غير مخلف . . .

بالخبر (غافلون) ، و(هم) الثاني توكيد للأول.

وجملة: "يعلمون . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة: "هم . . . غافلون . . "في محلّ نصب حال.

البلاغة

التنكير : في قوله تعالى "يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا " :

فائدة تنكير الظاهر تقليل معلومهم ، وتقليله يقربه من النفي حتى يطابق المبدل منه ، وروي عن الحسن أنه قال في تلاوته هذه الآية : بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بأصبعه ، فيعلم أجيد هو أم رديء ، وفائدته أيضا : أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة الظواهر .

التعطف : في قوله تعالى " وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ " .

فن التعطف هو إعادة اللفظة بعينها في الجملة في الكلام أو البيت من الشعر فقد ردد " هم " للمبالغة في تأكيد غفلتهم عن الآخرة .

[سورة الروم (30) : آية 8]

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (8)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (في أنفسهم) متعلّق بـ (يتفكّروا) ، (ما) نافية ، والثانية اسم موصول في محلّ نصب معطوف على السموات بـ (الواو) (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (إلّا) للحصر (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل خلق أو مفعوله ، وعلامة الجرّ في (مسمّى) الكسرة المقدّرة (الواو) استئنافيّة (من الناس) متعلّق بنعت لـ (كثيرا) ، (بلقاء) متعلّق بـ (كافرون) خبر إنّ و(اللام) المزحلقة .

جملة : " لم يتفكّروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أجهلوا ولم يتفكّروا .

وجملة : " ما خلق اللّه . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل التفكّر المعلّق بالنفي " 1 " .

وجملة : " إنّ كثيرا . . لكافرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الروم (30) : الآيات 9 إلى 10]

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

الإعراب :

(أ ولم يسيروا) ومثل أ ولم يتفكّروا " 2 " ، (في الأرض) متعلّق بـ (يسيروا) ، (الفاء) عاطفة

(كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (الذين) ، (منهم) متعلّق بأشدّ (قوّة) تمييز منصوب ، والضمير الفاعل في (أثاروا ، عمروها) يعود على الأقدمين (أكثر) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته ، والضمير في (عمروها) الثاني يعود على أهل مكّة (بالبيّنات) متعلّق بحال

---

(1) أجاز العكبري أن تكون استئنافيّة والكلام قبلها تام .

(2) في الآية السابقة (8) .

من الرسل (الفاء) استئنافيّة (ما) نافية (اللام) لام الجحود (يظلمهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود .

والمصدر المؤوّل (أن يظلمهم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كان .

(الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (أنفسهم) مفعول به مقدّم منصوب .

جملة : " لم يسيروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أقعدوا ولم يسيروا .

وجملة : " ينظروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسيروا المنفية .

وجملة : "كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر بمعنى (التفكّر) المعلّق بالاستفهام كيف .

وجملة : "كانوا أشدّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أثاروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا " 1 " .

وجملة : " عمروها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أثاروا . . .

وجملة : " عمروها (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ " 2 " .

وجملة : " جاءتهم رسلهم . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عمروها (الأولى) " 3 " .

وجملة : " ما كان اللّه ليظلمهم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يظلمهم . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن)

---

(1) يجوز أن تكون الواو قبلها حالية ، والجملة في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

(2) والمصدر المؤوّل (ما عمروها) في محلّ جرّ بمن متعلّق بأكثر .

(3) يجوز أن تكون الواو قبلها حاليّة ، والجملة في محلّ نصب حال بتقدير قد .

المضمر .

وجملة : "كانوا . . . يظلمون . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان . .

وجملة : " يظلمون . . "في محلّ نصب خبر كانوا .

(10) (ثمّ) حرف عطف (عاقبة) خبر كان منصوب مقدم (السوءى) اسم كان مؤخّر مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف " 1 " ، (أن) حرف مصدريّ (بآيات) متعلّق بـ (كذّبوا) ، (بها) متعلّق بـ (يستهزئون) .

والمصدر المؤول : (أن كذّبوا) في محلّ جر بحرف جرّ محذوف هو اللام أو الباء متعلّق بعاقبة " 2 " .

وجملة : "كان عاقبة . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان اللّه ليظلمهم .

وجملة : " أساؤوا . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "كذّبوا . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : "كانوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوا . .

وجملة : " يستهزئون . . "في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(السوءى) ، مؤنّث الأسوأ ، اسم تفضيل من ساء الثلاثيّ ، وزنه فعلى بضمّ فسكون .

الفوائد

كيف - اسم استفهام يستفهم به عن حالة الشي ء مبني على الفتح . إذا وقعت كيف قبل اسم أو فعل ناقص كانت خبرا مقدما . مثل : كيف أخوك .

وإذا وقعت قبل الباء التي هي حرف جر فتكون هذه الباء زائدة . مثل : كيف

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا عامله أساؤوا . . أو مفعولا به عامله أساؤوا بحذف موصوف أي أساؤوا الفعلة السوءى

(2) يجوز أن يكون بدلا من السوءى إذا كان اسما للناقص فيكون المصدر في محلّ رفع . .

(256/605)

بزيد . وإذا وقع بعدها فعل تام كانت في محلّ نصب على الحال . وقد تكون كيف شرطا فتقتضي فعليه متفقي اللفظ والمعنى غير مجزومين . مثل : كيف تصنع أصنع . وتجزم عند بعضهم .

[سورة الروم (30) : الآيات 11 إلى 14]

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف في الموضعين (إليه) متعلّق بـ (ترجعون) ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

جملة : " اللّه يبدأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يبدأ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

(257/605)

وجملة : " يعيده . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبدأ .

وجملة : " ترجعون . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبدأ .

(12) (الواو) عاطفة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق (يبلس) .

وجملة : " تقوم الساعة . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة : " يبلس المجرمون . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(13) (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بخبر يكن (من شركائهم) متعلّق بحال من (شعفاء)

وهو اسم يكن (بشركائهم) متعلّق بالخبر (كافرين) .

وجملة : " لم يكن لهم شفعاء " لا محلّ لها معطوفة على جملة يبلس .

وجملة : " كانوا . . . كافرين " لا محلّ لها معطوفة على جملة يبلس .

(14) (الواو) عاطفة (يوم) مثل الأول متعلّق بـ (يتفرّقون) ، (يومئذ) تأكيد للظرف السابق ، والتنوين عوض من جملة محذوفة .

وجملة : " تقوم الساعة . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يتفرّقون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يبلس المجرمون . .

[سورة الروم (30) : الآيات 15 إلى 16]

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (16)

الإعراب :

((الفاء) استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الذين) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط أمّا (في روضة) متعلّق بخبر المبتدأ هم " 1 " ، و(الواو) في (يحبرون) نائب الفاعل .

جملة : " الذين آمنوا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هم في روضة . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " يحبرون . . " في محلّ رفع خبر ثان .

(16) (الواو) عاطفة (أمّا الذين كفروا . . .) مثل أمّا الذين آمنوا (بآياتنا) متعلّق بـ (كذّبوا ،) (الفاء) رابطة لجواب الشرط (في العذاب) متعلّق بـ (محضرون) خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين آمنوا . . .

---

(1) أو متعلّق بـ (يحبرون) ، وجملة يحبرون خبر المبتدأ (هم) .

(258/605)

وجملة : " كفروا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " كذّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أولئك . . محضرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

الصرف :

(روضة) ، اسم للحديقة أو الجنة وزنه فعلة بفتح فسكون .

الفوائد

- الغناء في الجنة :

روي عن علي رضي اللّه عنه قال : رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : إن في الجنة لمجتمعا للحور العين ، يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها ، يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن

الناعمات فلا نيأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له . .

[سورة الروم (30) : الآيات 17 إلى 19]

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (19)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (حين) ظرف منصوب متعلّق بالمصدر سبحان في المواضع الثلاثة ، والفعلان (تمسون ، تصبحون) تامّان أي تدخلون في المساء وفي الصباح ، (الواو) اعتراضية (له) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (الحمد) (في السموات) متعلّق بالحمد " 1 " ، (عشيّا) ، ظرف منصوب متعلّق

(1) علّقه العكبريّ بحال من الحمد ، ولكن العامل فيه ضعيف .

بسبحان ، فهو معطوف على حين (من الميّت) متعلّق بـ (يخرج) الأول (من الحيّ) متعلّق بـ (يخرج) الثاني (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحيي) ، (الواو) عاطفة (كذلك) متعلّق

بمحذوف مفعول مطلق عامله تخرجون " 2 " ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

جملة : " (سبّحوا) سبحان . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تمسون . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تصبحون . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة : " له الحمد . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " تظهرون . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يخرج . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يخرج (الثانية . .) . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخرج (الأولى) .

وجملة : " يحيي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخرج (الثانية) .

وجملة : " تخرجون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يحيي .

الفوائد

1 – معاني " أصبح وأمسى وأضحى " ثلاثة :

أ – أن يقترن مضمون الجملة بالأوقات الخاصة بها ، وهي الصباح والمساء والضحى .

ب – أن تفيد معنى الدخول في هذه الأوقات ، وفي هذا الحالة تكون تامة ، تكتفي بمرفوعها .

قال حميد الأرقط :

فأصبحوا والنوى عالى معرسّهم وليس كل النوى تلقي المساكين

ج- أن تكون بمعنى صار ، كقولنا أصبح عليّ فارسا ، وأمسى خالد كريما .

---

(2) أي تخرجون إخراجا من القبور كذلك الإخراج المتقدّم .

(260/605)

---

2 - اختلاف الألوان والألسنة :

حقا إذا فكر الإنسان ، كيف اختص كل فرد من أفراد الانسانية بلون وسمات فارقه عمّن سواه ، وكيف انبثقت هذه اللغات ، واختلفت هذه الألسنة بين شعوب الأرض ، وكيف اتفقت كل مجموعة من الناس على لغة خاصة بهم يتقنونها دونما سواها من اللغات ، حقا إن ذلك يملأ النفس عجبا ، والعقل إكبارا ، والقلوب إجلالا لخالق الكون ومدبر أموره وباثا في أرجائه آياته . ولكن أين العقول التي تدرك ، والنفوس التي تنصف ، والقلوب التي تعي ...؟

[سورة الروم (30) : الآيات 20 إلى 27]

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

(21) وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ
لِلْعالِمِينَ (22) وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)
وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ
(25) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

الجدول ج 21 ، ص : 35

الإعراب :

(261/605)

(الواو) عاطفة (من آياته) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر المصدر المؤوّل . .

وكذلك الأمر في المواضع الخمسة الآتية (أن) حرف مصدريّ (من تراب) متعلّق بـ

(خلقكم) ، (ثمّ) حرف عطف (إذا) فجائيّة .

والمصدر المؤوّل (أن خلقكم) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر .

جملة : " من آياته أن خلقكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخرج الحيّ . . . .

وجملة : " خلقكم . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أنتم بشر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّة .

وجملة : " تنتشرون . . . " في محلّ رفع نعت لبشر " 1 " .

(21) (الواو) عاطفة (لكم) متعلّق بـ (خلق) ، (من أنفسكم) متعلّق بـ (خلق) " 2 " ، (اللام) للتعليل (تسكنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (إليها) متعلّق بـ (تسكنوا) . .

والمصدر المؤوّل (أن تسكنوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (خلق) .

(بينكم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل " 3 " ، (في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) للتوكيد (آيات) اسم إنّ مؤخّر منصوب وعلامة النصب الكسرة . . وكذلك الحالات المشابهة في ما يلي (لقوم) متعلّق بنعت لآيات .

---

(1) أو هي خبر ثان للمبتدأ أنتم .

(2) أو متعلّق بحال من (أزواجا) . [. . . . .]

(3) أو متعلّق بـ (جعل) على أنّه بمعنى خلق أو أوجد .

وجملة : " من آياته أن خلق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من آياته أن خلقكم .

وجملة : " خلق . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تسكنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق لكم .

وجملة : " إنّ في ذلك . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ أو معترضة .

وجملة : " يتفكّرون . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

(263/605)

---

(22) (خلق) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (اختلاف) معطوف على المبتدأ خلق مرفوع .

وجملة : " من آياته خلق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من آياته أن خلقكم .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو معترضة - (23) (منامكم) مبتدأ مؤخّر مرفوع (بالليل) متعلّق بالمصدر منامكم (من فضله) متعلّق بالمصدر (ابتغاؤكم) .

وجملة : " من آياته منامكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من آياته أن خلقكم .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو معترضة - (24) (الواو) عاطفة (يريكم) مضارع مرفوع - والحرف المصدريّ مقدّر قبله قياسا على ما تقدّم من أفعال - " 1 " .

---

(1) يجوز أن يكون (من آياته) حالا من (البرق) ، والجملة حينئذ فعلية معطوفة على الجملة الاسميّة (من آياته أن خلقكم) .

(خوفا) مفعول لأجله منصوب (من السماء) متعلّق بـ (ينزّل) ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (يحيي) ، و(الباء) سببيّة (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحيي) .

وجملة : " من آياته (إراءتكم . . .) " لا محلّ لها معطوفة على جملة من آياته أن خلقكم .

وجملة : " يريكم . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المقدّر .

وجملة : " ينزّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يريكم .

وجملة : " يحيي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينزّل .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو معترضة - وجملة : "

يعقلون . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

(25) (الواو) عاطفة (بأمره) متعلّق بحال من السماء والأرض (ثمّ) حرف عطف (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب (دعوة) مفعول مطلق منصوب (من الأرض) متعلّق بـ (دعاكم) ، (إذا) فجائيّة – وجملة : " من آياته أن تقوم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من آياته أن خلقكم .

(265/605)

وجملة : " تقوم السماء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " دعاكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أنتم تخرجون . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تخرجون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

(26) (الواو) عاطفة (له) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (من) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة من (كلّ) مبتدأ مرفوع – والتنوين فيه عوض من محذوف أي كلّ مخلوق – (له) متعلّق بالخبر (قانتون) .

وجملة : " له من في السموات . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من آياته أن تقوم .

وجملة : "كلّ له قانتون . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(27) (الواو) عاطفة (هو الذي . . . يعيده) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) حاليّة – أو اعتراضيّة – والضمير (هو) يعود على الخلق أو الإعادة أو الرجوع المفهوم من السياق (عليه) متعلّق بـ (أهون) ، (الواو) عاطفة (له المثل) مثل له من . . . . (في السموات) متعلّق بحال من الضمير في الأعلى (الواو) عاطفة (الحكيم) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " هو الذي . . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة له من في السموات .

وجملة : " يبدأ . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يعيده . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هو أهون . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة – أو في محلّ نصب حال – وجملة : " له المثل . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي . . . .

وجملة : " هو العزيز . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي . . . .

---

(1) في الآية (11) من هذه السورة .

الصرف :

(أهون) ، اسم تفضيل قصد به الوصف لا التفضيل ، وزنه أفعل من (هان) الثلاثيّ .

البلاغة

فن اللف : في قوله تعالى " وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ " هذا من باب اللف ، وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار ، إلا أنه فصل بين القرينتين الأخيرتين ، لأنهما زمانان ، والزمان والواقع فيه كشيء واحد ، مع إعانة اللفّ على الاتحاد ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين ، وابتغاؤكم فيهما ، والظاهر هو الأول ، لتكرره في القرآن ، وأسدّ المعاني ما دل عليه القرآن ، يسمعونه بالآذان الواعية .

الفوائد

1 – قد تحذف أن وينزل الفعل منزلة المصدر ومن ذلك المثل المشهور :

تسمع بالمعيدي خير من أن تراه .

وأول من نطق به المنذر بن ماء السماء .

وقد أعجب بأخبار المعيدي ، فلما مثل أمامه ورأى دمامته قال المثل المذكور .

والتقدير : أن تسمع بالمعيدي إلخ .

2 – يشترط اتحاد الفاعل في الفعل وما يأتي بعده مفعولا لأجله . ولهذا السبب أجاب ابن مالك في شرح التسهيل أن معنى يريكم أي يجعلكم ترون وبذلك يتحّد فاعل الفعل " يريكم "

وفاعل الخوف والطمع فتأمل . . . !

[سورة الروم (30) : آية 28]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)

(267/605)

الإعراب :

(لكم) متعلّق بـ (ضرب) " 1 " (من أنفسكم) متعلّق بنعت لـ (مثلا) ، (هل) حرف استفهام للإنكار (لكم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ شركاء (ممّا) متعلّق بحال من شركاء (شركاء) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخّر (في ما) متعلّق بشركاء (الفاء) عاطفة (فيه) متعلّق بالخبر سواء (كخيفتكم) متعلّق بمفعول مطلق (أنفسكم) مفعول به للمصدر خيفتكم (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نفصّل (لقوم) متعلّق بـ (نفصّل) .

جملة : " ضرب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هل لكم ممّا ملكت . . " في محلّ نصب بدل من (مثلا) .

وجملة : " ملكت أيمانكم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " رزقناكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني " 2 " .

وجملة : " أنتم فيه سواء . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هل لكم ممّا . . .

وجملة : " تخافونهم . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (أنتم) .

وجملة : " نفصّل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعقلون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

[سورة الروم (30) : آية 29]

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (29)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (بغير) متعلّق بحال من

---

(1) أو بمحذوف مفعول به ثان بتضمين (ضرب) معنى جعل .

(2) يجوز أن يكون (ما) نكرة موصوفة ، فالجملة في محلّ جرّ نعت لها .

الموصول الذين ، و(أهواءهم) مفعول اتّبع منصوب (الفاء) عاطفة (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (من) الثاني اسم موصول في محلّ نصب مفعول به عامله يهدي ، والعائد محذوف أي أضلّه - أو أضلّهم - (الواو) عاطفة (ما) نافية (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (ناصرين) وهو مجرور لفظا مرفوع محلا ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " اتّبع الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " من يهدي . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يهدي . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " أضلّ اللّه . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " ما لهم من ناصرين . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " .

[سورة الروم (30) : الآيات 30 إلى 32]

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالا من العائد المحذوف أي : من أضلّه اللّه حال كونه غير منصور .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، والفاعل في (أقم) يعود على الرسول عليه السلام

(للدين) متعلّق بـ (أقم) ، (حنيفا) حال منصوبة من الفاعل أو المفعول أو الدين (فطرة)

مفعول به لفعل محذوف

على الإغراء أي : الزموا فطرة اللّه (التي) اسم موصول في محلّ نصب نعت لفطرة (عليها)

متعلّق بـ (فطر) ، (لا) نافية للجنس (لخلق) متعلّق بخبر لا (الدين) خبر المبتدأ (ذلك)

مرفوع " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا) نافية .

جملة : " أقم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن ضلّ بعض الناس فأقم وجهك

للدين . .

جملة : " (الزموا . .) فطرة اللّه . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فطر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " لا تبديل لخلق اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " ذلك الدين القيّم . . . " لا محل لها تعليل ثان .

وجملة : " لكنّ أكثر الناس . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك الدين . . .

وجملة : " لا يعلمون . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

(منيبين) حال منصوبة من فاعل (الزموا) ، وعلامة النصب الياء (إليه) متعلّق بمنيبين

(الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لا) ناهية جازمة (من المشركين) متعلّق بخبر تكونوا . .

جملة : " اتّقوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الزموا فطرة . . .

وجملة : " أقيموا . . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الزموا فطرة . . .

وجملة : " لا تكونوا من المشركين . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الزموا فطرة . . . .

---

(1) أو هو بدل من اسم الإشارة و(القيّم) هو الخبر ، وقيل : (القيم) نعت للدين ، والخبر محذوف تقديره توحيد اللّه .

(270/605)

---

(32) (من الذين) بدل من المشركين بإعادة الجارّ (بما) متعلّق بالخبر (فرحون) ، (لديهم) ظرف مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بمحذوف صلة ما .

وجملة : " فرّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كانوا شيعا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : "كلّ حزب . . . فرحون" لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(30) فطرة : رسمت التاء في هذا الموضع من المصحف مفتوحة ، ولا يوجد في القرآن غير هذا الموضع وهو لفظ جاء على وزن مصدر الهيئة من الثلاثيّ فطر ، وهو اسم بمعنى قابليّة الدين الحقّ ، أو بمعنى دين الإسلام ، وجاء في المعجم : الفطرة هو الصفة التي يتّصف بها كلّ موجود في أوّل زمان خلقته ، صفة الإنسان الطبيعيّة ، الدين ، السنّة ، . . . إلخ .

الفوائد

- فِطْرَتَ اللَّهِ :

انقسم الفلاسفة المؤلهين ، سواء أكانوا من الإسلام ، أو غير الإسلام ، إلى قسمين :

قسم اتخذ من الأدلة العلمية المركبة برهانا على وجود اللّه ، وأكثر هذه الأدلة دورانا على ألسنتهم " الدور والتسلسل " واستحالتها ، وبرهان الوجوب ، وبرهان الوجود .

وشرح هذه البراهين موجود في كتب المنطق ومؤلفات الفلاسفة وعلماء الكلام لمن أراد الاستزادة من الاطلاع .

وقسم لجأ إلى الأفكار الفطرية لدى الإنسان ، والتي تفرض نفسها على كثير من المفكرين ، وهي أسهل ، وعلى حد قولهم ، أقوى دلالة على وجود اللّه ، وقد لجأ إليها

الكثير من فلاسفة الغرب ، وأكثر من الكثير من متصوفة المسلمين وعلمائهم . وهذه الفطرة ، التي تبعث فينا الشعور بوجود الخالق العظيم ، تدفعنا بنفس الوقت للتأمل في نظام هذا الكون البديع ، بدءا من أنفسنا ونظام أجسامنا ، وانتهاء بنظام النبات والحياة الذي لا يدرك أسراره إلا العلماء . وفوق كل ذي علم عليم .

ولا أخفيك أيها القارئ ، أن الزهرة التي تنبثق من التراب ، وتتخذ أشكالها وألوانها الساحرة ، والثمرة التي تخرج من المصانع القابعة في باطن الأرض ، مختلفة الحجوم والطعوم ، لهي أكثر دلالة على خالق الكون وبارئ الإنسان من أبي الهول والأهرامات ، ومن السدود العظمى أو ناطحات السحاب . . . !

[سورة الروم (30) : الآيات 33 إلى 34]

وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ضرّ) فاعل مسّ مؤخّر مرفوع (إليه) متعلّق بمنيبين (منه) متعلّق بحال من رحمة (إذا) فجائية (منهم) متعلّق بنعت لفريق (بربّهم) متعلّق بـ (يشركون) .

جملة : " مسّ . . . ضرّ " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " دعوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أذاقهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " فريق منهم . . . يشركون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يشركون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (فريق) .

(34) (اللام) لام العاقبة " 1 " ، ، (يكفروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (بما) متعلّق بـ (يكفروا) ، والمفعول الثاني محذوف تقديره إيّاه ، وهو العائد . . .

والمصدر المؤوّل (أن يكفروا . . .) في محلّ جر باللام متعلّق بـ (يشركون) .

---

(1) أو هي لام الأمر ، وتفيد التهديد ، فالمضارع مجزوم . . . ومثله بمعنى التهديد : تمتّعوا . .

(الفاء) الأولى استئنافيّة ، والثانية تعليليّة (سوف) حرف استقبال ، ومفعول (تعلمون) محذوف أي عاقبة تمتّعكم .

وجملة : " يكفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " آتيناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تمتّعوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سوف تعلمون " لا محلّ لها تعليليّة .

[سورة الروم (30) : الآيات 35 إلى 36]

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (36)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة التي للإنكار (عليهم) معلّق بـ (أنزلنا) ، (الفاء) عاطفة (بما) متعلّق بـ (يتكلّم) ، (به) متعلّق بـ (يشركون) .

وجملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو يتكلّم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلنا .

وجملة : " يتكلّم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " كانوا به يشركون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يشركون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(36) (الواو) عاطفة (بها) متعلّق بـ (فرحوا) ، (الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ ، (إذا) فجائيّة . . .

وجملة : " أذقنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " فرحوا بها " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تصبهم سيّئة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط وفعله وجوابه ، المعطوفة بدورها على جملة أنزلنا . . .

وجملة : " هم يقنطون . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بـ (إذا) الفجائية .

وجملة : " هم يقنطون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

البلاغة

(273/605)

الالتفات : في قوله تعالى " أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً " .

التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إيذانا بالإعراض عنهم ، وتعديدا لجناياتهم لغيرهم .

المجاز : في قوله تعالى " فَهُوَ يَتَكَلَّمُ " .

فهو يدل على أن التكلم مجاز عن الدلالة ، كما تقول : كتاب ناطق بكذا ، وهذا مما نطق به القرآن ، ومعناه الدلالة والشهادة ، كأنه قال : فهو يشهد بشركهم وبصحته .

الفوائد

- تحدثنا قليلا فيما سبق عن النماذج الإنسانية المبثوثة في آيات القرآن الكريم .

ونسوق أمثلة أخرى من خلال هذه الآيات :

أ – في الآية الأولى يعرض علينا اللّه سبحانه صورة للإنسان الذي يلجأ إلى ربه ساعة الضيق ، وينصرف عن ذكره ساعة الفرج .

وهذا يذكرني بالمثل الشعبي الشائع " ما زلت صلي حتى حصّلي فإذا حصّلي بطّلت صلي " .

ب – وهذا نموذج آخر ، يكاد يكون عكس النموذج الأول ، وهو يصوّر لنا الإنسان عند ما يفرح بما يؤتيه اللّه من فضله ، وكيف يقنط ويضيق صدره عند ما يصاب بأي ضرّاء تصيبه ، فإذا هو قانط كفور .

وهذا يذكرنا بصبر الأنبياء ، الذي يغاير ما عليه الناس من الحرج وضيق الصدر ، فقد أنعم اللّه على أيوب حقبة من الدهر ، ثم ابتلاه بالأنفس والثمرات والصحة حقبة أخرى ، فكانت زوجه تطلب إليه أن يسأل اللّه العافية والنجاة من البلاء ، فكان يقول لها ، أستحي من اللّه أن أسأله العافية من البلاء ، إذ لا تساوي مدة البلاء أيام السعادة والهناء التي حبانا اللّه إياها ، فلنصبر ولنشكر ، حتى ضرب المثل بصبر أيوب .

[سورة الروم (30) : الآيات 37 إلى 38]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37) فَآتِ ذَا

الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

(274/605)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الواو) عاطفة (لمن) متعلّق بـ (يبسط . .) .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يبسط . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا .

(في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) لام الابتداء للتوكيد (لقوم) متعلّق بنعت لآيات .

جملة : " يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أغفلوا ولم يروا . . .

وجملة : " يبسط . . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يقدر . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يؤمنون . . . " في محلّ جر نعت لقوم .

(38) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (حقّه) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين (للذين) متعلّق بـ (خبر) ، (هم) ضمير فصل " 1 " .

وجملة : " آت . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كان الرزق بيد اللّه فآت . . .

وجملة : " ذلك خير . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - .

وجملة : " يريدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره المفلحون ، والجملة الاسمية خبر المبتدأ أولئك .

وجملة : " أولئك . . . المفلحون " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك خير " 1 " .

[سورة الروم (30) : آية 39]

وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم (آتيتم) فعل ماض في

محلّ جزم فعل الشرط (من ربا) متعلّق بحال من ما " 2 " ، (اللام) للتعليل (يربو) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (في أموال) متعلّق بـ (يربو) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (يربو) .

والمصدر المؤوّل (أن يربو . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (آتيتم) .

(الواو) عاطفة (ما . . . . من زكاة) مثل ما . . من ربا (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هم المضعفون) مثل هم المفلحون " 3 " .

جملة : " آتيتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يربو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " لا يربو . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . . . والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالا من فاعل يريدون .

(2) أو هو تمييز له .

(3) في الآية (38) السابقة .

وجملة : " آتيتم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيتم (الأولى) .

وجملة : " تريدون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل آتيتم " 1 " .

وجملة : " أولئك . . . المضعفون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء ، وفي الكلام التفات .

الصرف :

(المضعفون) ، جمع المضعف ، اسم فاعل من الرباعيّ أضعف ، وزنه مفعل بضمّ وكسر العين .

البلاغة

الالتفات : في قوله تعالى " فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ " .

الالتفات عن الخطاب ، حيث قيل : فأولئك دون " فأنتم " للتعظيم ، كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواص الخلق ، تعريفا لحالهم ، ويجوز أن يكون التعبير بما ذكر للتعميم ، بأن يقصد بأولئك هؤلاء وغيرهم .

[سورة الروم (30) : آية 40]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

الإعراب :

(الذي) اسم موصول خبر في محلّ رفع " 2 " ، (ثمّ) حرف عطف للتراخي في المواضع الثلاثة (هل) حرف استفهام للإنكار (من شركائكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (من) ، (من

ذلكم) متعلّق بحال من

---

(1) أو في محلّ جرّ نعت لزكاة ، والرابط محذوف أي تريدون وجه اللّه بها .

(2) يجوز أن يكون نعتا للفظ الجلالة ، والخبر هو جملة هل من شركائكم من يفعل . . .

والرابط هو (من ذلكم) والإشارة إلى أفعاله تعالى . . [. . . . .]

(276/605)

شيء (شيء) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به عامله يفعل (سبحانه) مفعول مطلق لفعل محذوف ، منصوب (عمّا) متعلّق بـ (تعالى) والعائد محذوف أي يشركونه .

جملة : " اللّه الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " رزقكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يميتكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة رزقكم .

وجملة : " يحييكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يميتكم .

وجملة : " هل من شركائكم من يفعل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يفعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " (نسبّح) سبحانه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة سيقت للدعاء .

وجملة : " تعالى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف المتقدّمة .

وجملة : " يشركون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة الروم (30) : آية 41]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)

الإعراب :

(في البرّ) متعلّق بـ (ظهر) ، (ما) حرف مصدري " 1 " ، (اللام) للتعليل (يذيقهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف أي كسبته أيدي الناس .

ضمير مستتر يعود على اللّه ، والمفهوم من السياق .

وجملة : " ظهر الفساد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كسبت أيدي الناس " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) والمصدر المؤوّل (ما كسبت . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (ظهر) .

والمصدر المؤوّل (أن يذيقهم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (ظهر) .

وجملة : " يذيقهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " لعلّهم يرجعون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يرجعون . . . " في محل رفع خبر لعلّهم .

[سورة الروم (30) : الآيات 42 إلى 43]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43)

الإعراب :

(في الأرض) متعلّق بـ (سيروا) ، (الفاء) عاطفة (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين

. . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(279/605)

وجملة : " سيروا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " انظروا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة سيروا .

وجملة : " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " كان أكثرهم مشركين " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(43) (فأقم . . . للدين) مرّ اعرابها " 1 " ، (من قبل) متعلّق بـ (أقم) ، (أن) حرف مصدريّ . .

والمصدر المؤوّل (أن يأتي . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(لا) نافية للجنس (له) متعلّق بخبر لا (من اللّه) متعلّق بمحذوف يدلّ عليه مردّ - لا يصحّ تعليقه بمردّ إذ ينبغي أن ينوّن - " 2 " ، (يومئذ) ظرف منصوب " 3 " متعلّق بـ (يصّدّعون) .

وجملة : " أقم وجهك . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أشرك بعض الناس

فأقم وجهك للدين .

وجملة : " يأتي يوم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لا مردّ له " في محلّ رفع نعت ليوم .

وجملة : " يصّدّعون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(يصّدّعون) ، فيه إبدال تاء التفعّل صادا لمجيئها قبل الصاد أصله يتصدّعون وزنه يتفعلون .

---

(1) في الآية (30) من هذه السورة .

(2) أجاز الجمل تعليقه بفعل يأتي المتقدّم أي يأتي من اللّه يوم لا مردّ له .

(3) أو مبني على الفتح لإضافته لظرف مبنيّ هو (إذ) ، والتنوين فيه هو تنوين عوض .

الجدول ج 21 ، ص : 54

[سورة الروم (30) : الآيات 44 إلى 45]

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (45)

الإعراب :

" من " اسم شرط جازم مبتدأ " كفر " في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب

الشرط (عليه) خبر مقدم للمبتدأ (كفره) (الواو) عاطفة (من) مثل الأول (لأنفسهم) متعلّق بـ (يمهدون) .

جملة : " من كفر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " عليه كفره " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " من عمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " عمل صالحا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني .

(280/605)

وجملة : " يمهدون " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . . والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط .

(45) (اللام) للتعليل (يجزي) منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل ضمير يعود على اللّه ، وهو مفهوم من السياق .

والمصدر المؤوّل (أن يجزي . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يمهدون) " 1 " .

(من فضله) متعلّق بـ (يجزي) ، (لا) نافية . .

---

(1) أو بـ (يصّدّعون) في الآية (43) ، والمعنى يتفرقّون ليجزي المؤمنين من فضله والكافرين بعد له .

(281/605)

وجملة : " يجزي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا . .

وجملة : " إنّه لا يحبّ الكافرين " لا محلّ لها تعليل لمقدّر أي يجزي الكافرين إنّه لا يحبّهم .

وجملة : " لا يحبّ الكافرين " في محلّ رفع خبر إنّ .

الفوائد

- المسؤولية والجزاء :

قال الفيلسوف الأوربي " برغسون " : إن من يتأمل في أعمال الناس ، يرى أناسا يعملون الخير ، ولا ينالهم سوى الشر وآخرون يعلمون الشر ولا ينالهم سوى الخير .

وهذا مخالف لسنن هذا الكون القائم على النظام والعدل .

إذن لا بد لهذا الكون من إله عادل ، يكافئ على الخير خيرا ، وعلى الشر شرا وبما أن

الكثير من الناس لا ينالهم العدل في هذه الدنيا ، فلا بد أن يكون للإنسان حياة غير هذه الحياة ، يقام فيها العدل ، ويستوفي فيها كل إنسان أجر ما عمل في هذه الحياة ، وهذا يتوافق مع سنن هذا الكون الكامل ، والذي لا بد له من خالق عادل قادر مريد ، وهو اللّه .

[سورة الروم (30) : آية 46]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)

الإعراب :

(282/605)

(الواو) استئنافيّة (من آياته أن يرسل . .) مثل من آياته أن خلقكم " 1 " ، (مبشّرات) حال منصوبة من الرياح ، وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل في المواضع الثلاثة (يذيقكم) مثل يجزي " 2 " ، (من رحمته) متعلّق بـ (يذيقكم) ، (تجري) مثل يجزي " 3 " ، ، (بأمره) متعلّق بـ (تجري) ، (تبتغوا) مثل يجزي " 4 " . (من فضله) متعلّق بـ (تبتغوا) ، (الواو) عاطفة . . .

والمصدر المؤوّل (أن يرسل . . .) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر .

والمصدر المؤوّل (أن يذيقكم . . .) في محلّ جر باللام متعلّق بفعل مقدّر أي يرسلها " 5 " .

والمصدر المؤوّل (أن تجري . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل مقدّر أي يرسلها .

وجملة : " (أن (تبتغوا) " في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل مقدّر أي يرسلها .

جملة : " من آياته (إرسال) الرياح " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يرسل " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يذيقكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة : " تجري الفلك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني .

وجملة : " تبتغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثالث .

---

(1) في الآية (20) من هذه السورة .

(2 ، 3 ، 4) في الآية (45) السابقة .

(5) أو متعلّق بما تعلّق به ما عطف عليه مقدّر أي يرسل الرياح مبشّرات بالمطر لتشربوا منه وليذيقكم . . .

وجملة : " لعلّكم تشكرون " لا محلّ لها معطوفة على تعليل مقدّر أي : فعل ذلك لعلّكم تفلحون ولعلّكم تشكرون .

وجملة : " تشكرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(مبشّرات) ، جمع مبشّرة مؤنّث مبشّر اسم فاعل من الرباعي بشّر ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

الاستعارة والمجاز : في قوله تعالى " وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ " .

(284/605)

الاستعارة في قوله تعالى " لِيُذِيقَكُمْ " ، وقد تقدمت كثيرا ، وهي استعارة مكنية .

المجاز المرسل : في قوله تعالى " مِنْ رَحْمَتِهِ " وهو مجاز مرسل ، علاقته الحالية ، لأن الرحمة تحل في الخصب والمطر ، فأطلق الحال وأريد المحل ، وفسر بعضهم الرحمة " أي من نعمته من المياه العذبة والأشجار الرطبة وصحة الأبدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا اللّه " .

[سورة الروم (30) : آية 47]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (من قبلك) متعلّق بحال من رسلا - أو متعلّق بـ (أرسلنا) ، (إلى قومهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (الفاء) عاطفة (بالبيّنات) متعلّق بحال من فاعل جاءوهم (الفاء) عاطفة (من الذين) متعلّق بـ (انتقمنا) ، (الواو) عاطفة (حقا) خبر كان منصوب (علينا) متعلّق بالخبر (حقا) .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم المقدّرة وجوابه وما عطف عليه استئناف اعتراضيّ .

وجملة : " جاءوهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا .

وجملة : " انتقمنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جاءوهم .

وجملة : " كان حقا . . . نصر " لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة .

[سورة الروم (30) : الآيات 48 إلى 49]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ

كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)

الإعراب :

(285/605)

(الفاء) عاطفة في المواضع الأربعة (في السماء) متعلّق بـ (يبسطه) ، (كيف) اسم شرط غير جازم في محلّ نصب حال عامله يشاء " 1 " ، (كسفا) مفعول به ثان منصوب (من خلاله) متعلّق بـ (يخرج) ، (به) متعلّق بـ (أصاب) والباء سببيّة (من عباده) متعلّق بحال من العائد المحذوف " 2 " أي يشاء إصابته من عباده (إذا) فجائيّة .

جملة : " اللّه الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يرسل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تثير . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل .

---

(1) وجوابه محذوف دلّ عليه ما قبله أي كيف يشاء يبسطه في السماء .

(2) أو هو تمييز الموصول (من) .

(286/605)

وجملة : " يبسطه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تثير .

وجملة : " يشاء " في محلّ نصب حال من فاعل يبسط .

وجملة : " يجعله . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يبسطه .

وجملة : " ترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يجعله .

وجملة : " يخرج . . . " في محلّ نصب حال من الودق .

وجملة الشرط وفعله وجوابه . . . " لا محلّ لها معطوفة على ترى .

وجملة : " أصاب . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هم يستبشرون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يستبشرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(49) (الواو) حاليّة (إن) مخفّفة من الثقيلة مهملة (من قبل) متعلّق بالخبر مبلسين (أن) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (أن ينزّل) في محلّ جرّ مضاف إليه .

ونائب الفاعل لفعل (ينزّل) ضمير مستتر تقديره هو يعود على الودق (عليهم) متعلّق بـ (ينزّل) ، (من قبله) تأكيد لما قبله (اللام) هي الفارقة .

وجملة : "كانوا . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " ينزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الفوائد

1 - كيف الشرطية :

(287/605)

جاء في المغني : تستعمل كيف على وجهين ، أحدهما كونها شرطية ، ومنه قوله تعالى : " ينفق كيف يشاء ، يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، فيبسطه في السماء كيف يشاء " فكيف ، في الأمثلة الثلاثة شرطية وشرطها محذوف لدلالة ما قبلها عليه .

2 - كيف يشاء : نورد هذا النص الذي ذكره صاحب المغنى ، لما نرى فيه من الفائدة ، فقد قال :

وتستعمل "كيف " على وجهين : أحدهما أن تكون شرطا ، فيقتضي فعلين ، متّفقي اللفظ والمعنى غير مجزومين ، نحو "كيف تصنع أصنع " . ولا يجوز "كيف تجلس أذهب " باتفاق ، ولا "كيف تجلس أجلس " بالجزم عند البصريين إلا قطربا ، لمخالفتها لأدوات الشرط بوجوب موافقة جوابها لشرطها كما مرّ . وقيل : يجوز مطلقا ، وإليه ذهب قطرب

والكوفيون ، وقيل : يجوز ، بشرط اقترانها بـ " ما " . قالوا : ومن ورودها شرطا "يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ " و "يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ " " فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ " وجوابها في ذلك كله محذوف لدلالة ما قبلها ، وهذا يشكل على إطلاقهم أن جوابها يجب مماثلته لشروطها وفي ذلك تعليقات وردود تجاوزنا ، ذكرها بغية الاختصار .

[سورة الروم (30) : آية 50]

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (إلى آثار) متعلّق بـ (انظر) ، (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب حال عامله يحيي (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحيي) ، والإشارة في (ذلك) إلى محيي الأرض وهو اللّه ، (اللام) المزحلقة (الواو) عاطفة (على كلّ) متعلّق بالخبر قدير .

جملة : " انظر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أرسل اللّه الرياح فانظر إلى آثار . . .

وجملة : " يحيي الأرض . . . " في محلّ نصب حال من لفظ

الجلالة " 1 " .

وجملة : " إنّ ذلك لمحيي . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هو . . . قدير " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ ذلك لمحيي . . . .

الصرف :

(محيي) ، اسم فاعل من الرباعيّ أحيا ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة الروم (30) : الآيات 51 إلى 53]

وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (أرسلنا) في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) عاطفة (رأوه) في محلّ جزم أيضا معطوفة على (أرسلنا) (اللام) الثانية لام القسم دلّ عليه اللام الأولى الموطّئة (من بعده) متعلّق بـ (يكفرون) .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " رأوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ظلوا . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

---

(1) وأصل المعنى : انظر إلى آثار رحمة اللّه بكيفيّة إحياء الأرض ، فاسم الاستفهام كيف كما يبدو منصوب على نزع الخافض ، ولكن صحّ الإعراب أعلاه بالتقدير .

(289/605)

وجملة : " يكفرون . . . " في محلّ نصب خبر ظلوا .

(52) (الفاء) تعليليّة (لا) نافية في الموضعين ، والمفعول الثاني لـ (تسمع) الأول ضمير يعود على المفعول الثاني لـ (تسمع) الثاني على سبيل التنازع (ولّوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . . والواو فاعل (مدبرين) حال مؤكّدة للعامل منصوب . .

وجملة : " إنّك لا تسمع . . . " لا محلّ لها تعليل لمقدّر أي : لا تحزن عليهم فإنّهم صمّ كالموتى .

وجملة : " لا تسمع الموتى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا تسمع الصمّ . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : " ولّوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله " 1 " .

(53) (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنت) ضمير منفصل اسم ما (هادي) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة رسما مراعاة لقراءة الوصل (عن ضلالتهم) متعلّق بهادي بتضمينه معنى صارف " 2 " ، (إن) نافية (إلّا) للحصر (من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (بآياتنا) متعلّق بـ (يؤمن) ، (الفاء) عاطفة . .

وجملة : " ما أنت بهادي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّك لا تسمع . . .

---

(1) يجوز تجريده من معنى الشرط ، وحينئذ يتعلّق بـ (تسمع) المتقدّم .

(2) انظر الآية (81) من سورة النمل .

الجدول ج 21 ، ص : 63

وجملة : " إن تسمع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - .

وجملة : " يؤمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هم مسلمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤمن .

الصرف :

(51) مصفرّا : اسم فاعل من الخماسيّ اصفرّ ، وقد يكون اسم مفعول فالوزن واحد

بسبب تضعيف الراء ، فإذا فكّ الإدغام ظهر الفرق بين اسم الفاعل واسم المفعول في اللفظ ، وزنه مفعلّ بضمّ الفاء وتشديد اللام . . .

[سورة الروم (30) : آية 54]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54)

الإعراب :

(290/605)

(من ضعف) متعلّق بـ (خلقكم) ، (من بعد) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل في الموضعين (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (القدير) خبر ثان مرفوع.

جملة : " اللّه الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " خلقكم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " جعل (الأولى) " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقكم.

وجملة : " جعل (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل (الأولى) .

وجملة : " يخلق . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (اللّه) " 1 " .

وجملة : " يشاء " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " هو العليم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يخلق "

.

الصرف :

(شيبة) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ شاب وزنه فعلة على وزن مصدر المرّة ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي شيب بفتح فسكون ، ومشيب بفتح الميم وكسر العين .

[سورة الروم (30) : الآيات 55 إلى 57]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يقسم) ، (ما) نافية (غير) ظرف منصوب متعلّق بـ (لبثوا) ، (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله (يؤفكون) ، الواو فيه نائب الفاعل .

جملة : " تقوم الساعة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يقسم المجرمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما لبثوا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها . [. . . . .]

(2) يجوز أن تكون حالا من فاعل يخلق .

(291/605)

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤفكون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(56) (الواو) عاطفة ، والواو في (أوتوا) نائب الفاعل (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (في كتاب) متعلّق بـ (لبثتم) بحذف مضاف أي في تقدير كتاب اللّه (إلى يوم) متعلّق بـ (لبثتم) ، (الفاء) عاطفة " 1 " (الواو) عاطفة (لا) نافية . . .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقسم المجرمون .

وجملة : " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قد لبثتم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . .

وجملة القسم المقدّر في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هذا يوم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " لكنّكم كنتم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : "كنتم لا تعلمون " في محلّ رفع خبر لكنّكم .

وجملة : " لا تعلمون " في محلّ نصب خبر كنتم .

(57) (الفاء) عاطفة (يومئذ) ظرف منصوب " 2 " متعلّق بـ (ينفع) المنفي (لا) نافية

(الذين) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به مقدّم (الواو) عاطفة

---

(1) جعلها البيضاويّ رابطة لجواب شرط مقدّر أي : إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث أي فقد تبيّن بطلان إنكاركم .

(2) أو مبني لإضافته إلى (إذ) المبني .

(لا) مثل الأولى ، والواو في (يستعتبون) نائب الفاعل .

وجملة : " لا ينفع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقسم المجرمون .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا هم يستعتبون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا ينفع . . .

وجملة : " يستعتبون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(معذرة) ، مصدر سماعيّ لفعل عذر باب ضرب أي رفع عنه اللوم أو الذنب ، وزنه مفعلة بكسر العين .

الفوائد

- " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ " .

هذه الصورة البلاغية ضرب من الجناس . وهو إيراد اللفظة الواحدة بمعنيين ، أو معان متعددة . وقد ورد هذا الفن البلاغي في الشعر الجاهلي ، وفي القرآن الكريم بصورة معتدلة ومستحسنة وجدّ مقبولة ، ولكن ما لبث الشعراء في العصور المتأخرة أن عضوا عليه بالنواجذ ، وراحوا يتبارون في الإكثار منه ، تكلفا وتمحلا ، حتى أصبح ضربا من التصنّع ، بعد أن كان نوعا من الصنعة ، وحتى أصبح ممجوجا وممقوتا لدى الشعراء في عصر الانحطاط .

ومن طريف الأمور ، أن الشعراء الشعبين ، سمعوه لدى الشعراء المثقفين ، فبهرهم شكله ، وحسبوا أنه ذروة من ذرى البلاغة ، فبنوا عليه بعض الفنون من الأدب الشعبي ، مثل " العتابا " ، وهي من الشعر المزدوج . وقد التزموا في أشطره الثلاثة الأولى بالجناس التام ، وأطلقوا عليه اسم " المرصود " ، ولم يتسامحوا في تجاوز هذه القاعدة .

وهكذا آلت كثير من المحسنات اللفظية والمعنوية إلى فنون مستقلة لدى

الجدول ج 21 ، ص : 67

الشعراء الشعبين ، ولولا الإطالة لأثبتنا الكثير من هذه الفنون ، وأوردنا الأمثلة الموضحة لهذا الاتجاه .

[سورة الروم (30) : الآيات 58 إلى 60]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (60)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لقد ضربنا) مثل لقد لبثتم " 1 " ، (الناس) متعلّق بـ (ضربنا) ، (في هذا) متعلّق بـ (ضربنا) ، (من كلّ) متعلّق بـ (ضربنا) " 2 " ، (الواو) عاطفة (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (جئتهم) في محلّ جزم فعل الشرط (بآية) متعلّق بحال من فاعل جئت (اللام) لام القسم (يقولنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . .

و(النون) للتوكيد (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر .

جملة : " قد ضربنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم استئنافيّة .

وجملة : " جئتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة .

وجملة : " يقولنّ الذين . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر الثاني .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) في الآية (56) من هذه السورة

(2) اختلف الجارّ لفظا ومعنى فصحّ التعليق بالفعل نفسه .

وجملة : " إن أنتم إلّا مبطلون " في محلّ نصب مقول القول .

(59) (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يطبع (على قلوب) متعلّق بـ (يطبع) ، (لا) نافية .

وجملة : " يطبع اللّه " لا محلّ لها اعتراضيّة – أو استئنافيّة – .

وجملة : " لا يعلمون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

(60) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (يستخفّنّك)

مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم . . . و(النون) للتوكيد ، و(الكاف) مفعول به (لا) نافية .

وجملة : " اصبر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن قال الكافرون ذلك فاصبر . . .

وجملة : " إنّ وعد اللّه حقّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يستخفّنك الذين . . . " معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " لا يوقنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 21 صـ 23.68 ﴾

(295/605)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(30) سورة الرّوم

مكيّة وآياتها ستون

[سورة الروم (30) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

اللغة :

(الرُّومُ) : سيأتي ما يقوله التاريخ عنهم في باب الفوائد .

(بِضْعِ سِنِينَ) : تقدم معنى البضع في سورة يوسف واختلاف العلماء في عدده ، واختار الأصمعي أنه من الثلاث إلى العشر .

الاعراب :

)

(296/605)

الم غُلِبَتِ الرُّومُ) ألم تقدم القول في إعرابها ، وغلبت فعل ماض مبني للمجهول والروم نائب فاعل . (فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) في أدنى متعلقان بغلبت والواو عاطفة وهم مبتدأ ومن بعد غلبهم الجار والمجرور متعلقان بقوله سيغلبون وغلبهم مصدر

الفعل المبني للمجهول وقد أضيف إلى مفعوله وجملة سيغلبون خبر المبتدأ . (فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) في بضع سنين متعلقان بقوله سيغلبون أيضا وسيأتي سر إبهام عدد السنين في باب البلاغة ولله خبر مقدم والأمر مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة كأنه جواب لسؤال مقدر وهو أي فائدة في ذكر قوله من بعد غلبهم لأن قوله سيغلبون لا يكون إلا بعد الغلبة ؟ فأجيب بأن فائدته اظهار تمام القدرة وبيان أن ذلك بأمر اللّه تعالى وحده ومن قبل متعلقان بمحذوف حال ومن حرف جر وقبل وبعد ظرفان بنيا على الضم لقطعهما عن الاضافة لفظا لا معنى ثم جرّا بمن وبقيا على ضمهما أي من قبل غلب الروم ومن بعده (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الواو عاطفة ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بيفرح والتنوين عوض عن جملة كما تقدم أي يوم تغلب الروم وبنصر اللّه متعلقان بيفرح أيضا وجملة ينصر من يشاء مستأنفة لاظهار صدق المؤمنين ومن اسم موصول مفعول لينصر وجملة يشاء صلة وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والرحيم خبر ثان .

(وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) وعد اللّه مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي تقدمت وهي قوله سيغلبون ويفرح المؤمنون وجملة لا يخلف اللّه وعده إما مفسرة مقررة

لمعنى المصدر فلا محل لها وإما حالية من المصدر والواو حالية ولكن واسمها وجملة لا يعملون خبرها . (يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) جملة يعلمون قيل هي مستأنفة وهو قول سليم لا اعتراض عليه وقال الزمخشري : " بدل من قوله يعلمون وفي هذا الابدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود الجهل الذي لا يتجاوز الدنيا ، وقوله ظاهرا من الحياة الدنيا يفيد أن للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة " وقول الزمخشري أقعد بالفصاحة وأملى بالبلاغة ولكن ابدال المثبت من المنفي لا يصح كما تنص عليه قواعد النحو . وهم مبتدأ وعن الآخرة متعلقان بغافلون وهم تأكيد لهم الأولى وغافلون خبرهم الأولى ويجوز أن تكون هم الثانية مبتدأ ثانيا خبره غافلون والجملة خبر هم الأولى .

البلاغة :

1- الإبهام :

في قوله " في بضع سنين " إبهام وفائدة التفخيم وإدخال الرهبة في قلوب المشركين في كل وقت والاشعار بأن زهوهم بأنفسهم واعتدادهم بقوتهم ليس إلا حين يطول أو يقصر ولكنه آيل

إلى الانتهاء ومفض إلى العاقبة الحتمية وهي الارتداد والانتكاس ، وقد تقدم ذكر الإبهام كثيرا .

2- التنكير :

(298/605)

و ذلك في قوله " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا " وفائدته تقليل معلومهم ، وتقليله يقربه من النفي حتى يطابق المبدل منه وهو قوله " لا يعلمون " وهذا ما يرجح البالية ولله در الزمخشري ما أبعد غوره ، وأصقل ذهنه ، وعن الحسن انه قال في تلاوته هذه الآية : بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بإصبعه فيعلم أجيد هو أم رديء وفي هذا تعليل للعلم الذي بلغ أبعد آماده فغاص في الدأماء ، وحلق في أجواز الفضاء ، وفطن إلى أبعد السرائر ، ومكنون الضمائر ، ولكنه حين يعرض لما استسر من أسرار الكون كالمبدأ والمعاد والمنتهى وقف ضئيلا لا يبدىء ولا يعيد .

3- التعطف :

في قوله : " وهم عن الآخرة هم غافلون " فن التعطف وهو إعادة اللفظة بعينها في الجملة من الكلام أو البيت من الشعر فقد ردد " هم " للمبالغة في تأكيد غفلتهم عن الآخرة .

الفوائد :

ما يقوله التاريخ :

(الرُّومُ) اسم أطلقه العرب على البيزنطيين ويطلق اليوم على المسيحيين الشرقيين الملكيين من كاثوليك وأرثوذكس ، والامبراطورية الرومانية الشرقية عرفت بالبيزنطية نسبة إلى بيزنطية اسم القسطنطينية

(299/605)

القديم سمى العرب سكانها الروم ، وأول أباطرة البيزنطين قسم أبوه ثيودوسيوس الامبراطورية إلى غربية وعاصمتها روما والى شرقية وعاصمتها القسطنطينية . وسبب نزول الآية أنه كان بين فارس والروم قتال ، فاحتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى فغلبت فارس الروم فبلغ الخبر مكة فشق على النبي والمسلمين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب وفرح المشركون وشمتوا وقالوا للمسلمين انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وفارس أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ولنظهرن عليكم فنزلت فقال لهم أبو بكر : لا يقرر اللّه أعينكم فو اللّه لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبيّ بن خلف : كذبت ، فقال له الصديق : أنت أكذب

يا عدو اللّه ، فقال : اجعل بيننا أجلا أنا حبك عليه ، والمناحبة بالحاء المهملة المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين فأخبر أبو بكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر ومادّه في الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين فلما خشي أبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر أتاه ولزمه وقال : إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي كفيلا فكفله له ابنه عبد اللّه بن أبي بكر فلما أراد أبيّ أن يخرج إلى أحد أتاه عبد اللّه فلزمه وقال : لا واللّه لا أدعك حتى تعطيني كفيلا فأعطاه كفيلا ثم خرج إلى أحد ثم رجع إلى مكة ومات بها من جراحته التي جرحه إياها النبي حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك على رأس سبع سنين من مناحبتهم فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبيّ وجاء به إلى رسول اللّه فقال له تصدق به

[سورة الروم (30) : الآيات 8 إلى 10]

(300/605)

أَ وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

الإعراب :

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على مقدر يقتضيه السياق ولم حرف نفي وقلب وجزم ويتفكروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل وفي أنفسهم متعلقان بيتفكروا وما نافية وخلق اللّه السموات فعل وفاعل ومفعول به والجملة مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها وقيل هي في محل نصب معلقة للتفكر فتكون في محل نصب على إسقاط الخافض وإلا أداة حصر وبالحق حال أي مصحوبة بالحق قال الزمخشري : " والباء في قوله إلا بالحق مثلها في قولك دخلت عليه بثياب السفر واشترى الفرس بسرجه ولجامه تريد

(301/605)

اشتراه وهو ملتبس بالسرج واللجام غير منفك عنهما وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به " وأجل عطف على الحق ومسمى نعت لأجل . (وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ

النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ) الواو حالية وإن واسمها ومن الناس صفة لكثيرا وبلقاء ربهم متعلقان بكافرون واللام المزحلقة وكافرون خبر إن . (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والواو عاطفة على مقدر يقتضيه السياق أي أقعدوا في أماكنهم ولم يسيروا ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل وفي الأرض متعلقان بيسيروا فينظروا الفاء عاطفة على يسيروا ولك أن تجعل الفاء سببية ويسيروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم لكان وعاقبة اسمها والذين مضاف اليه ومن قبلهم صلة الذين .

(كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها) جملة كانوا إما تفسيرية لا محل لها ولك أن تجعلها تابعة على البدلية ، وكان واسمها وأشد خبرها ومنهم متعلقان بأشد وقوة تمييز وأثاروا الأرض عطف على كانوا وعمروها عطف أيضا وهو فعل وفاعل ومفعول به وأكثر نعت لمصدر محذوف أي عمارة أكثر من عمارتهم ومما متعلقان بأكثر وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بمن (وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) وجاءتهم رسلهم فعل ومفعول بهم وفاعل وبالبينات متعلقان بجاءتهم والفاء عاطفة وما نافية وكان واسمها واللام لام الجحود ويظلمهم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود

والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف وقد تقدم تقريره ولكن الواو حالية ولكن حرف استدراك مهمل وكانوا فعل ماض ناقص والواو اسمها وأنفسهم مفعول مقدم ليظلمون وجملة يظلمون خبر كانوا . (ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى) ثم الفاء عاطفة للتراخي والشروع في بيان هلاكهم في الآخرة بعد هلاكهم في الدنيا وكان فعل ماض ناقص وعاقبة خبر كان المقدم والذين مضاف اليه وجملة أساءوا صلة والسوءى نعت لمصدر أساءوا . (أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ) أن وما في حيزها اسم كان المؤخر ولك أن تجعل السوءى هي الاسم وأن وما في حيزها نصب بإسقاط الخافض أو هي بدل من السوءى وفيما يلي نص اعراب أبي البقاء وهو أوضح الأعاريب : " قوله تعالى : ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى يقرأ بالرفع والنصب فمن رفع جعله اسم كان وفي الخبر وجهان أحدهما السوءى وأن كذبوا في موضع نصب مفعولا له أي لأن كذبوا أو بأن كذبوا أو في موضع جر بتقدير الجار على قول الخليل والثاني أن كذبوا أي كان آخر أمرهم التكذيب والسوءى على هذا صفة مصدر ، ومن نصب جعلها خبر كان وفي الاسم وجهان أحدهما السوءى والآخر أن كذبوا على ما تقدم ويجوز أن نجعل أن كذبوا بدلا من السوءى أو خبر مبتدأ

محذوف والسوءى فعلى من الأسوأ وهي صفة لمصدر محذوف والتقدير أساء الإساءة السوءى.

وان جعلتها اسما أو خبرا كان التقدير الفعلة السوءى أو العقوبة السوءى.

وكانوا كان واسمها وبها متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون خبر كانوا.

[سورة الروم (30) : الآيات 11 إلى 16]

(303/605)

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16)

اللغة:

(يُبْلِسُ): أبلس فلان فهو مبلس إذا سكت عن يأس ويقال:

أبلس الرجل انقطعت حجته فسكت فهو لازم لا يتعدى، وفي الكشاف:

" الإبلاس أن يبقى ساكتا يائسا متحيرا يقال ناظرته فأبلس إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج

ومنه الناقة المبلاس التي لا ترغو " وفي القاموس :

" وأبلس يئس وتحير ومنه إبليس أو هو أعجمي " فقول صاحب المنجد انه يقال " أبلسه " غلط فظيع وقد علل علماء التصريف قراءة يبلس بالبناء للمفعول بأن القائم مقام الفاعل مصدر الفعل ثم حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه إذ الأصل يبلس إبلاس المجرمين .

(رَوْضَةٍ) : الروضة : كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وفي أمثالهم : أحسن من بيضة في روضة ، يريدون بيضة النعامة . وفي الأساس واللسان : " بأرضه روضة وروضات ورياض وروّض الغيث الأرض وأراض المكان واستراض أي كثرت رياضه ومن المجاز :

أنا عندك في روضة وغدير ، ومجلسك روضة من رياض الجنة " .

(يُحْبَرُونَ) : يسرون يقال حبره إذا سره سرورا تهلّل له وجهه فيه أثره ، وفي الأساس : " وحبره اللّه سره " فهم في روضة يحبرون " وهو محبور : مسرور " قال ابن الرومي يصف العنب :

ثم جلسنا مجلس المحبور على حفافي جدول مسجور

وفي الكشاف : " ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار ، فعن مجاهد رضي اللّه عنه : يكرمون ، وعن قتادة : ينعمون ، وعن ابن كيسان : يحلون ، وعن أبي بكر بن عياش : التيجان على رؤوسهم ، وعن وكيع : السماع في الجنة وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم وفي آخر القوم أعرابي فقال :

يا رسول اللّه هل في الجنة سماع ؟ قال : نعم يا أعرابي إن في الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة ، قال الراوي : فسألت أبا الدرداء بم يتغنين ؟ قال : بالتسبيح . وروي أن في الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث اللّه ريحا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعتها أهل الدنيا لماتوا طربا " هذا ويأتي فصل ممتع عن السماع وأثره في باب الفوائد .

الاعراب :

(اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) لفظ الجلالة مبتدأ وجملة يبدأ الخلق خبره ، ثم يعيده عطف على يبدأ . (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ) الظرف متعلق بيبلس وجملة تقوم في محل

جر بإضافة الظرف إليها والساعة فاعل تقوم ويبلس المجرمون فعل وفاعل . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ) الواو عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم ويكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم ولهم خبر يكن المقدم ومن شركائهم حال لأنه كان صفة لشفعاء في الأصل وتقدم عليه وشفعاء اسم يكن وكانوا كان واسمها وبشركائهم متعلقان بكافرين وكافرين خبر كانوا . (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) الظرف متعلق بيتفرقون وقد تقدم اعراب نظيرها ويومئذ تأكيد لفظي للظرف . (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) الفاء تفريعية وأما حرف شرط وتفصيل والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وجملة عملوا الصالحات عطف على الصلة والفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط وهم مبتدأ وفي روضة متعلقان بيحبرون وجملة يحبرون خبر هم والجملة خبر الذين .

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ) عطف على الجملة السابقة ونظيرها في الاعراب ومعنى محضرون أي لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم .

الفوائد :

الغناء في الجنة وغناء الحور العين :

روي عن علي رضي اللّه عنه قال : " قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن في الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له " .

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : " إن في الجنة نهرا طول الجنة حافتاه العذارى قيام متقابلات يغنين بأحسن أصوات يسمعها الخلائق حتى ما يرون أن في الجنة لذة مثلها ، قلنا يا أبا هريرة وما ذاك الغناء ؟ قال : إن شاء اللّه التسبيح والتحميد والتقديس وثناء على الرب عز وجل " .

(306/605)

لمحة عن تاريخ الغناء :

لم يكن الغناء في غابر العصور على ما نعهده اليوم من ضبط القواعد والروابط بل كان ساذجا ، وأول من جعل له قواعد وضوابط – على ما قيل – بطليموس وهو فيلسوف رياضي اشتغل بالرياضيات والموسيقى وإليه ينسب أول سلم موسيقي ، وكان أول من غنى في العرب من النساء قينتان لعاد يقال لهما الجرادتان ومن غنائهما :

ألا يا قين ويحك قم وهينم لعل اللّه يصبحنا غماما

وأول من غنى من الرجال في اليمن ذو جدن وهو قيل من أقيال حمير وهكذا كان غناء العرب في جاهليتهم ساذجا كتغني الحداة في حداء إبلهم والفتيان بالقمر والنجم والفلاة والخيل . وقد ورد ذكر الغناء في شعرهم ، قال طرفة بن العبد :

إذا نحن قلنا : اسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تردّد

أي لم تتكلف ، وقوله مطروفة هي التي أصيب طرفها بشيء أي كأنها أصيب طرفها لفتور نظرها ويروى مطلوقة ومطروقة .

قال ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة : " غناء العرب قديما على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج ، فأما النصب فغناء الركبان والفتيان قال اسحق بن ابراهيم وهو الذي يقال له المرائي وهو الغناء الجنابي اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد اللّه بن هبل فنسب إليه ومنه كان أصل الحداء وكله يخرج من أصل الطويل في العروض ، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات وهو على ست طرائق : الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه والرمل وخفيفه ، وأما الهزج فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم .

قال اسحق : هذا كان غناء العرب حتى جاء اللّه بالإسلام وفتحت العراق وجلب الغناء

الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجزّا المؤلف بالفارسية والرومية وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير .

(307/605)

وقال الجاحظ : العرب تقطّع الألحان الموزونة على الاشعار الموزونة والعجم تمطّط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزونا على غير موزون .

ولم يزالوا على طريقتهم هذه حتى جاء الإسلام فكانوا إذ ذاك لا يطربون إلا بالقراءة والشعر الحماسي لتمكن الدين منهم ولأنهم في دور تأسيس وفتوح ، فلما استتب لهم الأمر غلب عليهم الرفه والترف فمالوا إلى الدعة ، ورقت طبائعهم ولانت جوانبهم وتفرق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالي لهم وغنوا جميعا

بالعيدان والطنابير والمعازف وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم .

تأثير الغناء :

(308/605)

قال الغزالي في الإحياء : " للّه سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى انها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا ، فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ، ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في الأوتار حتى قيل : من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج ، وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده فانه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه ، والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه فترى الجمال إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادي الحداء تمدّ أعناقها ، وتصغي إلى الحادي ناصبة آذانها وتسرع في سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها " ثم ذكر الغزالي دليلا على ما قاله قصة العبد الذي أهلك الجمال بطيب صوته إذ جعلها تقطع مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة وبعد ذلك قال : " فإن تأثير السماع في القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد في غلظ الطبع وكثافته

على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة ولذلك كانت

الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز مطلقا أن يحكم فيه بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والاشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما في القلب " .

(309/605)

و من غريب ما ينقل في تأثير الغناء : خرج مخارق المغني مع بعض أصحابه إلى بعض المتنزّهات فنظر إلى فوس مذهبة مع أحد من خرج معه فسأله إياها فكأن المسئول ضنّ بها وسنحت ظباء بالقرب منه فقال لصاحب القوس : أرأيت إن تغنيت صوتا فعطفت عليك خدود هذه الظباء أتدفع إليّ هذه القوس ؟ قال نعم ، فاندفع يغني :

ماذا تقول الظباء أفرقة أم لقاء ؟

أم عهدها بسليمى وفي البيان شفاء

مرت بنا سانحات وقد دنا الإمساء

فما أحارت جوابا وطال فيها الغناء

فعطفت الظباء راجعة إليه حتى وقفت بالقرب منه مستشرفة تنظر اليه مصغية إلى صوته فعجب من حضر من رجوعها ووقوفها وناوله الرجل القوس فأخذها وقطع الغناء

فعاودت الظباء نفارها ومضت راجعة على سننها .

قصة المليحة صاحبة الخمار الأسود :

وقصة المليحة صاحبة الخمار الأسود مشهورة وهي من خير ما يتمثّل به ويرويها الاصمعي فيقول : " قدم أعرابي بعدل من خمر العراق فباعها كلها إلا السّود فشكا ذلك إلى الدارمي (و هو مسكين الدارمي الشاعر) وكان قد تنسّك وترك الشعر ولزم المسجد فقال : ما تجعل لي ؟ على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك .

قال ما شئت . قال : فعمد الدارمي إلى ثياب نسكه فألقاها عنه وعاد إلى مثل شأنه الاول وقال شعرا ورفعه إلى صديق له من المغنين فغنّى به وكان الشعر :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبّد

قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى خطرت له بباب المسجد

ردّي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد

فشاع هذا الغناء في المدينة وقالوا : قد رجع الدارمي وتعشّق صاحبة الخمار الأسود فلم تبق مليحة في المدينة إلا اشترت خمارا أسود وباع التاجر جميع ما كان معه فجعل اخوان الدارمي من النساك يمرون فيقون : ما صنعت فيقول ستعلمون بعد حين فلما أنفد العراقي جميع ما كان معه رجع الدارمي إلى نسكه ولبس ثيابه .

هذا ولو أردنا استقصاء ما ورد في هذا الباب من التأثير العجيب لطال بنا البحث ولكنا اكتفينا بما أوردناه لئلا نخرج عن الموضوع.

[سورة الروم (30) : الآيات 17 إلى 22]

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (22)

الإعراب:

(فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) الفاء الفصيحة كأنها أبانت وأفصحت عما تقدم من عظمته في الخلق وابتداء وقيام الساعة انتهاء فإذا تبين لك ذلك فسبح اللّه واحمده على كل حال لأن التسبيح والتقديس هما الذريعتان إلى النجاة، وقيل أشار إلى الصلوات الخمس في هذه الآية لما روي عن ابن عباس عند ما سئل: " هل تجد الصلوات الخمس في

القرآن ؟ قال : نعم وتلا هذه الآية " ففي تمسون صلاتا المغرب والعشاء وفي تصبحون صلاة الفجر وفي العشي صلاة العصر وفي تظهرون صلاة الظهر أي تدخلون في الظهيرة . وسبحان اللّه مفعول مطلق لفعل محذوف وحين تمسون ظرف متعلق بسبحان وجملة

(311/605)

تمسون في محل جر بإضافة الظرف إليها وتمسون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل لأنها تامة ومعناها تدخلون في المساء وسيأتي بحث التمام في باب الفوائد وحين تصبحون عطف على حين تمسون . (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) الواو اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه نكتة أوردها الرازي وستأتي في باب الفوائد ، وله خبر مقدم والحمد مبتدأ مؤخر وفي السموات حال والأرض عطف على السموات والجملة معترضة وعشيا عطف على حين تمسون وكذلك قوله وحين تظهرون . (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) الجملة مستأنفة أو حالية ويخرج فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو يعود على اللّه والحي مفعول به ومن الميت متعلقان بيخرج أي كالانسان من النطفة والطائر من البيضة ويخرج الميت من الحي عطف على ما سبق أي كالنطفة من الإنسان والبيضة من الطائر .

(وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ) الواو عاطفة ويحيي الأرض فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وبعد موتها الظرف متعلق بيحيي وإحياؤها إخراج النبات منها وكذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الإخراج تخرجون ، وتخرجون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وقرئ بالبناء للمعلوم فالواو فاعل .

(وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) الواو عاطفة ومن آياته خبر مقدم وأن وما في حيزها مبتدأ مؤخر ومن تراب جار ومجرور متعلقان بخلقكم وثم حرف عطف للتراخي وإذا فجائية وأنتم مبتدأ وبشر خبر وجملة تنتشرون حال وسيأتي وقوع إذا الفجائية بعد ثم في باب الفوائد . (وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها)

(312/605)

الواو عاطفة والجملة معطوفة على سابقتها وقد ذكر سبحانه ست آيات من آياته ، وأزواجا مفعول خلق واللام للتعليل وتسكنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وإليها متعلقان بتسكنوا . (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وجعل عطف على خلق وبينكم ظرف في موضع المفعول الثاني لجعل ومودة هو المفعول

الأول ورحمة عطف على مودة وان حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يتفكرون صفة لقوم .

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) عطف أيضا على ما تقدم وستأتي حكمة الاختلاف بين الألسنة والألوان في باب الفوائد .

الفوائد :

1- معنى التمام في أفعال النقصان عند سيبويه والجمهور هو دلالتها على الحدث والزمان ، ومعنى النقصان عندهم هو سلب الدلالة على الحدث والتجرد للدلالة على الزمان ، وذهب ابن مالك وابن هشام إلى أن معنى التمام هو الاستغناء بالمرفوع عن المنصوب قال ابن مالك في الخلاصة : " وذو تمام ما برفع يكتفي " ومعنى النقصان هو عدم الاستغناء بالمرفوع عن المنصوب ، وقد أورد ابن مالك عشرة أمور ليبطل بها مذهب الجمهور وهي مذكورة في شرحه على التسهيل فليرجع إليها هناك من يجب الاستقصاء ، إذا عرفت هذا فاعلم أن ل " أصبح وأمسى وأضحى " ثلاثة معان :

1- أن تقرن مضمون الجملة بالأوقات الخاصة التي هي الصباح والمساء والضحى على طريقة كان .

2- أن تفيد معنى الدخول في هذه الأوقات كأظهر وأعتم وهي في هذا الوجه تكون تامة

يسكت على مرفوعها قال حميد الأرقط :

فأصبحوا والنوى عالي معرسهم وليس كلّ النوى تلقي المساكين

وقبله :

باتوا وجلتنا الصهباء بينهم كأن أظفارهم فيها السكاكين

(313/605)

و الجلة فقة التمر تتخذ من سعف النخل وليفه ولذلك وصفها بالصهبة يقول : لما أصبحوا ظهر على معرسهم وهو موضع نزولهم نوى التمر وعلاه لكثرته على انهم لحاجتهم لم يلقوا إلا بعضه .

3- أن تكون بمعنى صار كقولك : أصبح زيد غنيا وأمسى فقيرا تريد أنه صار كذلك مع قطع النظر عن وقت مخصوص ، قال عدي بن زيد :

ثم أضحوا كأنهم ورق جفّ فألوت به الصبا والدّبور

2- الاعتراض :

تقدم القول في الجمل المعترضة والواو الاعتراضية وقوله

" وله الحمد في السموات والأرض " الجملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لنكتة

أوردها الرازي وهي أن تسبيحهم لنفعهم لا له فعليهم أن يحمدوه إذا سبحوه لأجل نعمة هدايتهم إلى التوفيق .

3- الفاء قبل إذا الفجائية :

تقدم القول في إذا الفجائية ونقول هنا إن الغالب فيها أن تقع بعد الفاء لأنها تقتضي التعقيب ووجه وقوعها مع ثم بالنسبة إلى ما يليق بالحالة الخاصة أي بعد تلك الأطوار التي قصها علينا في مواضع أخر من كوننا نطفة ثم مضغة ثم عظما مجردا ثم عظما مكسوا لحما فاجأ البشرية بالانتشار أي انهم انما يصيرون بشرا بعد أطوار كثيرة .

4- الحكمة في اختلاف الألوان والألسنة :

خالف سبحانه بين الألوان والألسنة حتى ما تكاد تسمع منطقين متفقين في جرس واحد ولا جهارة واحدة وحتى ما تكاد ترى صورتين متشابهتين تمام التشابه في الألوان والسمات والقسمات لحصول التعارف وإلا فلو كانت على مسلاخ واحد وبلون واحد وتقاسيم وتقاطيع واحدة لحصل الخلل والالتباس ولا نعدم التمييز بينها جميعا حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك محالة مهما يتقاربا في وجوه الشبه .

[سورة الروم (30) : الآيات 23 إلى 26]

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26)

الاعراب :

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ) الواو عاطفة ومن آياته خبر مقدم ومنامكم مبتدأ مؤخر وبالليل متعلقان بمنامكم وابتغاؤكم عطف على منامكم ومن فضله متعلقان بابتغاؤكم .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يسمعون صفة لقوم . (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً) من آياته خبر مقدم ويريكم مبتدأ مؤخر على أنه فعل مضارع مؤول مع ان المصدرية المحذوفة والأصل أن يريكم وسيأتي المزيد من هذا المبحث الهام في باب الفوائد ويريكم فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على اللّه والكاف مفعول به أول والبرق مفعول به ثان وخوفا وطمعا نصب على أنهما مفعول لأجله وقد اعترض على هذا

الاعراب بأن من حق المفعول له أن يكون فعلا لفاعل الفعل المعلل ، والخوف والطمع ليسا كذلك ، والجواب عن هذا الاعتراض يأتي من جهتين إما ان المفعولين فاعل في المعنى لأنهم راءون فكأنه قيل يجعلكم رائين البرق

(315/605)

خوفا وطمعا والثاني أن يكون على تقدير حذف المضاف أي إراءة خوف وإراءة طمع فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ويجوز أن يكونا حالين أي خائفين طامعين وسيأتي المزيد من هذا البحث في باب الفوائد .

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها) وينزل عطف على يريكم ومن السماء جار ومجرور متعلقان بينزل وماء مفعول به فيحيي عطف على ينزل وبه متعلقان بيحيي والأرض مفعول به وبعد موتها الظرف متعلق بمحذوف حال . (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) تقدم إعرابه . (وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) عطف على ما تقدم . (ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة دعاكم في محل جر بإضافة الظرف إليها ودعاكم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ودعوة مفعول مطلق ومن الأرض متعلقان

بدعاكم ، يقال دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي ، وإذا الفجائية وهي تقوم مقام الفاء في جواب الشرط وأنتم مبتدأ وجملة تخرجون خبر . (وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ) له خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وفي السموات والأرض صلة وكل مبتدأ وله متعلقان بقانتون وقانتون خبر كل أي مطيعون طاعة انقياد .

البلاغة :

في قوله تعالى " ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله " فن اللف وقد تقدم بحثه كثيرا قال الزمخشري : " هذا من باب اللف وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل

(316/605)

والنهار . إلا أنه فصل بين القرينتين الأوليين بالقرينتين الأخريين لأنهما زمانان والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد ، ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن وأشدّ المعاني ما دل عليه القرآن يسمعونه بالآذان الواعية " أقول ما ذكره الزمخشري مشكل من جهة الصناعة النحوية لأنه إذا كان المعنى ما ذكره يكون النهار معمول ابتغاؤكم وقد تقدم عليه وهو مصدر وذلك لا يجوز ثم يلزم العطف

على معمولي عاملين فالتركيب لا يسوغ .

وشجب ابن هشام قول الزمخشري فقال : " قول الزمخشري ومن مناكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إنه من اللف والنشر وان المعنى منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار ، وهذا يقتضي أن يكون النهار معمولا للابتغاء مع تقديمه عليه وعطفه على معمول منامكم وهو بالليل وهذا لا يجوز في الشعر فكيف في أفصح الكلام ؟ " .

أقول : إن الزمخشري لم يرد العمل الذي قاله ابن هشام بل مراده أن الليل مرتبط معنى بالمنام والنهار مرتبط معنى بالابتغاء وبالليل خبر لمبتدأ محذوف والتقدير وذلك كائن بالليل والنهار والجملة معترضة حقها التأخير .

الفوائد :

1 – شرط اتحاد الفاعل في المفعول لأجله :

أشرنا في الاعراب إلى الاعتراض الموجه إلى اعراب خوفا وطمعا مفعولا لهما والرد على الاعتراض وشرط اتحاد الفاعل قاله المتأخرون

من النحاة وخالفهم ابن خروف فأجاز النصب مع اختلاف الفاعل محتجا بهذه الآية قائلا إن فاعل الإراءة هو اللّه تعالى وفاعل الخوف والطمع المخاطبون وأجاب عنه ابن مالك في شرح التسهيل فقال : " معنى يريكم يجعلكم ترون ففاعل الرؤية على هذا هو فاعل الخوف والطمع " .

و من أمثلة حذف أن وإنزال الفعل منزلة المصدر المثل المعروف " تسمع بالمعيدي خير من أن تراه " وهذا المثل يضرب لمن خبره خير من مرآه ، أول من قاله المنذر بن ماء السماء وكان يسمع بمشقة بن خمرة المعيدي ويعجبه ما يبلغه عنه فلما رآه ، وكان كريه المنظر ، قال هذا المثل فخير خبر للمصدر المنسبك من أن المضمرة في تسمع أي سماعك ، ومنه قول طرفة بن العبد :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللّذات هل أنت مخلدي

وقد روى أحضر بالنصب والرفع ووجه النصب بأن مضمرة ويؤيده وأن أشهد ، وقول الآخر :

وقالوا : ما تشاء ؟ فقلت ألهو إلى الإصباح آثر ذي أثير

وهذا البيت لعروة بن الورد العبسي من جملة أبيات منها :

أرقت وصحبتي بمضيق عمق لبرق من تهامة مستطير

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور

وقالوا ما تشاء البيت . .

وأرقت : سهرت والواو للمعية والمضيق المكان الضيق وعمق بكسر فسكون شجر ببلاد الحجاز وبضم ففتح موضع منخفض عند مكة ولعله سكن هنا للوزن والبرق متعلق بأرقت أي سهرت في هذا الموضع لأجل برق من تهامة جهة محبوبتي ويحتمل أن الواو حالية وحجتي مبتدأ خبره بمضيق عمق وإذا كان أصحابه فيه فهو فيه فرجع إلى الاول ومستطير : منتشر وتكنفوني أحاطوا بي وعداة جمع عاد بمعنى عدو وقيل جمع عدو أي هم أعداء اللّه من أجل كذبهم وزورهم وهي جملة اعتراضية ويحتمل أن عداة بدل من ضمير الفاعل أي أحاطوا بي وقالوا : ما الذي تريده ؟ فقلت ألهو أي هو أن ألهو فأن مقدرة معنى ان ولم ينتصب الفعل لفظا وقال الجوهري في الصحاح : " يقال افعل هذا آثر ذي أثير أي أول كل شيء " فأشار إلى أن آثر نصب على الظرفية المجازية أو الحالية أي افعله حال كونه أول كل شيء يؤثر فهو أفعل تفضيل بمعنى المفعول .

2- خاض المعربون كثيرا في اعراب هذه الآية وقد لخص أبو البقاء أقوالهم جميعا في ثلاثة نوردها فيما يلي بنص كلامه :

" ومن آياته يريكم البرق " فيه ثلاثة أوجه أحدها أن من آياته حال من البرق أي يريكم البرق كائنا من آياته إلا أن حق الواو أن تدخل هنا على الفعل ولكن لما قدم الفعل وكانت من جملة المعطوف أولاها الواو وحسن ذلك أن الجار والمجرور في حكم الظرف فهو كقوله : آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة ، والوجه الثاني أن أن محذوفة أي ومن آياته أن يريكم وإذا حذفت أن في مثل هذا جاز رفع الفعل

والثالث أن يكون الموصوف محذوفا أي ومن آياته آية يريكم فيها البرق فحذف الموصوف والعائد ويجوز أن يكون التقدير : ومن آياته شيء أو سحاب ويكون الفاعل ضمير شيء المحذوف " والوجه الثاني هو الذي اخترناه وهو الظاهر والأبعد عن التكلف وهو الموافق لاخواته التي ذكر فيها الحرف المصدري .

[سورة الروم (30) : الآيات 27 إلى 29]

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (29)

الإعراب :

)

(319/605)

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) الواو عاطفة وهو مبتدأ والذي خبر وجملة يبدأ الخلق صلة الذي والخلق في الأصل مصدر ولكنه إعادة الضمير في يعيده عليه بمعنى المخلوق فهو استخدام وسيأتي بحث هذا الفن الرفيع في باب البلاغة وهو الواو حالية أو عاطفة وهو مبتدأ وأهون خبره وعليه متعلقان بأهون وسيأتي السر في تذكير الضمير في قوله وهو مع أن المراد به الاعادة كما سيأتي

معنى أهون عليه وسر تأخير الجار والمجرور وهو عليه . (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الواو عاطفة وله خبر مقدم والمثل مبتدأ مؤخر والأعلى صفة وفي السموات حال والأرض عطف على السموات وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان .

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ) ضرب فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ومعنى ضرب هنا جعل ولكم في محل نصب مفعول ثان ومثلا هو المفعول الأول ومن أنفسكم صفة لمثلا أي

كائنا من أنفسكم فمن معناه الابتداء كأنه قال أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شيء منكم .

(هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ) هل حرف استفهام ولكم خبر مقدم ومما حال من شركاء لأنه في الأصل نعت نكرة فقدم عليها وجملة ملكت صلة وأيمانكم فاعل ملكت ومن حرف جر زائد وشركاء مبتدأ مؤخر وفيما رزقناكم متعلقان بشركاء وما في مما ملكت بمعنى النوع والتقدير هل شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم مستقرون لكم ، فكائنون هو الوصف المتعلق به مما ملكت فلما قدم صار حالا ومستقرون هو الخبر الذي تعلق به ولكم .

)

(320/605)

فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الفاء واقعة في جواب الاستفهام وأنتم مبتدأ وفيه متعلقان بسواء وسواء خبر وجملة تخافونهم خبر ثان لأنتم أو في موضع الحال من ضمير الفاعل في سواء أي فتساووا خائنا بعضكم من بعض مشاركته له في المال ، وكخيفتكم نعت لمصدر محذوف أي خيفة مثل خيفتكم والمصدر مضاف لفاعله وأنفسكم مفعول به للمصدر وكذلك نعت لمصدر محذوف أيضا ونفصل

الآيات فعل مضارع وفاعل

مستتر تقديره نحن والآيات مفعول به ولقوم متعلقان بنفصل وجملة يعقلون صفة لقوم .

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) حرف إضراب وعطف واتبع عطف على طريق الالتفات والذين فاعل اتبع وجملة ظلموا صلة الذين وأهواءهم مفعول به وبغير علم حال .

(فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ) الفاء الفصيحة ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة يهدي خبر ومن مفعول يهدي وجملة أضل اللّه صلة والعائد محذوف أي أضله اللّه والواو حرف عطف وما نافية ولهم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وناصرين مجرور لفظا مبتدأ مؤخر محلا ويجوز أن تجعل ما حجازية عند من يجيز تقديم خبرها على اسمها .

البلاغة :

1- فن الاستخدام :

(321/605)

في قوله " وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده " فن الاستخدام كما قررنا في الاعراب وهو فن دقيق غامض المسلك وفيه قولان : الأول أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنين اشتراكا أصليا متوسطة بين قرينتين أو متقدمة عليهما أو متأخرة عنهما يستخدم كل قرينة منهما في

معنى من معنيي تلك الكلمة المشتركة وهذا مذهب ابن مالك سواء كان الاستخدام بضمير أو بغير ضمير ، قال اللّه تعالى " لكل أجل كتاب يمحو اللّه ما يشاء ويثبت " فإن لفظة كتاب تحتمل الأجل المحتوم والكتاب المكتوب وقد توسطت بين لفظي أجل ، ويمحو إذ استخدمت أحد مفهوميها وهو الأجل بقرينة ذكر الأجل واستخدمت المفهوم الآخر وهو المكتوب بقرينة يمحو .

والقول الثاني انه اطلاق لفظ مشترك بين معنيين مطلقا فيريد بذلك اللفظ أحد المعنيين ثم يعيد عليه ضميرا يريد به المعنى الآخر أو يعيد عليه ضميرين يريد بأحدهما أحد المعنيين وبالآخر المعنى الآخر بعد استعماله في معناه الثالث وهذا هو المذهب المشهور في الاستخدام وهو طريقة صاحب الإيضاح ومن تبعه ومنه الآية التي نحن بصددها فقد أعاد الضمير وهو قوله " وهو أهون عليه " على الخلق بمفهومه الآخر وهو المخلوق لا بمفهومه الأول وهو المصدر ومنه قول البحتري :

فسقى الغضا والساكنيه وان هم شبوه بين جوانحي وضلوعي

فقد أعاد ضمير شبوه على الغضا بمفهومه الآخر وهو الشجر تكون ناره قوية وبها يضرب المثل فيقال جمر الغضا مع أنه يريد مكانا معينا تنزل فيه محبوبته .

2- وفي هذه الآية أيضا فن " المذهب الكلامي " وقيل ان أول من اخترعه الجاحظ وزعم أنه لا يوجد منه شيء في القرآن الكريم وهو مشحون به وتعريفه انه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام ومنه نوع منطقي تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة وقد ساق الرماني في إعجازه المترجم بالنكت وفي تفسيره الجامع الكبير في الضرب الخامس من باب المبالغة من الاعجاز : إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل للاحتجاج .

3- سر تذكير الضمير :

تذكير الضمير :

تذكير الضمير في قوله " وهو أهون " مع أنه عائد على الاعادة

باعتبار كونها ردا وارجاعا أو مراعاة للخبر وهو أهون قال الكرخي :

" وذكر الضمير فيه مع أنه راجع إلى الاعادة المأخوذة من لفظ يعيده نظرا إلى المعنى دون اللفظ وهو رجعه أو رده كما نظر اليه في قوله :

" لنحيي به بلدة ميتا " أي مكانا ميتا أو تذكيره باعتبار الخبر .

4- تأخير الصلة وتأخير الجار والمجرور وهو " عليه " مع أنه مقدم في قوله :

" هو عليّ هين " لأن المقصود مما نحن فيه هنا خلاف المقصود هناك فإنه اختصاص اللّه

بالقدرة على إيلاد الهم والعاقر ، وأما المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه كيف والأمر مبني على ما يعتقدونه في المشاهد من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى ، وهذا سؤال مشهور تعورف بينهم وهو انه كيف قال تعالى " وهو أهون عليه " والافعال كلها بالنسبة إلى قدرته تعالى متساوية في السهولة ؟ وإيضاحه أن الأمر مبني على ما ينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم من أن الاعادة للشيء أهون من ابتدائه لأن من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها فالإعادة محكوم عليها بزيادة السهولة وهناك جواب آخر وهو أن تكون أهون ليست للتفضيل بل هي صفة بمعنى هين كقولهم اللّه أكبر أي كبير .

]

(323/605)

سورة الروم (30) : الآيات 30 إلى 32]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

اللغة :

(حِزْبٍ) : الحزب : الجماعة من الناس ، السلاح ، جند الرجل وأصحابه الذين على رأيه ، النصيب ، القسم من القرآن أو غيره والجمع أحزاب وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وإن لم يلق بعضهم بعضا .

الاعراب :

)

(324/605)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً) الفاء الفصيحة وأقم فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ووجهك مفعول به وللدين متعلقان بأقم وحنيفا حال من فاعل أقم أو من مفعوله أو من الدين . (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها) مفعول به لفعل محذوف أي الزموا فطرة اللّه أي خلقته وإنما أضمرناه على خطاب الجماعة لقوله فيما بعد منيبين اليه كما سيأتي وقيل هي مصدر لفعل محذوف أي فطركم فطرة والتي صفة للفطرة وجملة فطر الناس صلة وعليها متعلقان بفطر . (لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) الجملة تعليل للأمر بلزوم فطرته ولا نافية للجنس وتبديل اسمها المبني على الفتح ولخلق اللّه خبر . (ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

يَعْلَمُونَ) ذلك مبتدأ والدين خبره والقيم صفة والواو حالية أو استئنافية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها . (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) منيبين حال من فاعل الزموا المضمر كما أشرنا اليه آنفا وهو أحسن من جعله حالا من فاعل أقم واتقوا اللّه عطف على الزموا المضمرة وكذلك قوله وأقيموا الصلاة ولا ناهية وتكونوا فعل مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية

والواو اسمها ومن المشركين خبرها . (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً) من الذين بدل من قوله من المشركين بإعادة العامل وجملة فرقوا دينهم صلة وكانوا شيعا كان واسمها وخبرها . (كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) كل حزب مبتدأ وبما متعلقان بفرحون ولديهم الظرف متعلق بمحذوف صلة للموصول وفرحون خبر كل والجملة مفسرة مقررة لما قبلها .

[سورة الروم (30) : الآيات 33 إلى 37]

(325/605)

وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

اللغة :

(سُلْطاناً) : السلطان : الحجة تقول له سلطان مبين أي حجة والملك وعبارة القاموس : " والسلطان الحجة وقدرة الملك وتضم لامه ، والوالي مؤنث لأنه جمع سليط للدهن كأن يضيء الملك أو لأنه بمعنى الحجة وقد يذكر ذهابا إلى معنى الرجل " وفي الأساس : " وله عليهم سلطان " ، " وما كان لي عليكم من سلطان " وله سلطان مبين :

حجة وسنابك سلطات : طوال قال الجعدي يصف فرسا :

مدلّا على سلطات النسور شمّ السنابك لم تقلب

وروّى ذباله بالسليط وهو الزيت الجيد " وقال أبو البقاء :

" والسلطان يذكر لأنه بمعنى الدليل ويؤنث لأنه بمعنى الحجة وقيل هو جمع سليط كرغيف ورغفان " (يَقْنَطُونَ) : ييئسون من الرحمة وفي المصباح هو بفتح النون وكسرها سبعيتان وبابه ضرب وتعب وفي القاموس : " قنط كنصر وضرب وحسب وكرم قنوطا وكفرح قنطا وقناطة وكمنع وحسب وهاتان على الجمع بين اللغتين يئس فهو قنط كفرح وقنّطه تقنيطا آيسه والقنط المنع وزبيب الصبي " .

الاعراب :

)

(326/605)

وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) كلام مستأنف مسوق لتصوير طبائع الناس المتقلبة وترجحهم بين الرجاء والقنوط ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة مس في محل جر بإضافة الظرف إليها والناس مفعول به مقدم وضر فاعل مؤخر وجملة دعوا ربهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وربهم مفعول به ومنيبين حال من فاعل دعوا واليه متعلقان بمنيبين . (ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) ثم حرف عطف للترتيب والتراخي وإذا شرطية وجملة أذاقهم في محل جر بإضافة الظرف إليها ومنه حال لأنه كان في الأصل صفة لرحمة ورحمة مفعول به ثان وإذا الفجائية

وهي رابطة لجواب إذا الأولى بشرطها فهي تخلف الفاء في الربط وفريق مبتدأ ومنهم صفة وبربهم متعلقان بيشركون وجملة يشركون خبر .

(لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) اللام للتعليل أو العاقبة والصيرورة وقيل هي لام الأمر والمراد بالأمر التهديد والوعيد ويكفروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام

وبما متعلقان بيكفروا وجملة آتيناهم صلة ، فتمتعوا الفاء عاطفة وتمتعوا فعل أمر التفت فيه من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في زجرهم والفاء واقعة في جواب الأمر وسوف حرف استقبال وتعلمون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل . (أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ) أم حرف عطف منقطعة فهي بمعنى بل وأنزلنا فعل وفاعل وعليهم متعلقان بأنزلنا وسلطانا مفعول به والفاء حرف عطف وهو مبتدأ وجملة يتكلم خبر وبما جار ومجرور متعلقان بيتكلم وجملة كانوا صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية وكان واسمها وبه متعلقان بيشركون وجملة يشركون خبر كانوا .

)

(327/605)

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها) عطف على ما تقدم وجملة فرحوا بها لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة أذقنا في محل جر بإضافة الظرف إليها . (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ) عطف أيضا وتصبهم فعل الشرط وسيئة فاعل والباء سببية وما اسم موصول في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بتصبهم وجملة قدمت لا محل لها وإذا الفجائية وقد نابت عن الفاء في ربط الجواب بالشرط وهم مبتدأ وجملة

يقنطون خبر وجملة إذا هم يقنطون في محل جزم جواب الشرط . (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ) الهمزة للاستفهام الانكاري المفيد للتقرير والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يروا وان واسمها وجملة يبسط الرزق خبرها ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ويقدر عطف على يبسط . (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) تقدم إعراب نظائرها كثيرا .

البلاغة :

في قوله (أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ) مجاز عقلي كما تقول كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الدلالة والشهادة فهو يشهد بشركهم أو بالذي يشركون به .

[سورة الروم (30) : الآيات 38 إلى 40]

(328/605)

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38) وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ

يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

الإعراب :

(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن مقدر تقديره إن عرفت أن السيئة أصابتهم بما قدمت

أيديهم فآت . وآت فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر تقديره أنت وذا القربى مفعول به أول وحقه مفعول به ثان ، وقد احتج أبو حنيفة بهذه الآية على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين وعاجزين عن الكسب والشافعي قاس القرابات على ابن العم لأنه لا ولادة بينهم . والمسكين عطف على ذا القربى وكذلك ابن السبيل .

)

(329/605)

ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ذلك مبتدأ وخير خبر وللذين متعلقان بخير وجملة يريدون صلة والواو فاعل ووجه اللّه مفعول به أي ثوابه وأولئك مبتدأ وهم مبتدأ ثان والمفلحون خبر هم والجملة خبر أولئك . (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ

النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ) الواو عاطفة وما شرطية في محل نصب مفعول به مقدم لآتيتم وآتيتم فعل وفاعل ومن ربا حال وليربوا اللام للتعليل ويربوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بآتيتم وفي أموال الناس متعلقان بيربوا وسيأتي معنى الظرفية في باب البلاغة والفاء رابطة لجواب الشرط ولا نافية ويربوا فعل مضارع مرفوع والجملة في محل جزم جواب الشرط وعند اللّه متعلق بيربوا . (وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) عطف على ما تقدم ومعنى قوله فأولئك هم المضعفون ذوو الأضعاف من الثواب وسيأتي سر الالتفات في باب البلاغة .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) اللّه مبتدأ والذي خلقكم خبره وجملة خلقكم صلة وما بعده عطف عليه .

(هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) هل حرف استفهام ومن شركائكم خبر مقدم ومن للتبعيض ، ومن يفعل مبتدأ مؤخر ومن ذلكم متعلق بمحذوف حال من شيء لأنه

كان في الأصل صفة له ومن حرف جر زائد وشيء مجرور بمن لفظا مفعول به ليفعل محلا وزيدت له لأن النكرة في حيز الاستفهام المتضمن معنى النفي وسبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف وتعالى فعل ماض وعما متعلقان بتعالى وما مصدرية أو موصولية .

البلاغة :

1- الكناية :

(330/605)

في قوله " ليربوا في أموال الناس " كناية لأن الزيادة التي يأخذها المرابي من أموال الناس لا يملكها أصلا فالظرفية هي موضع الكناية .

2- الالتفات :

في قوله " فأولئك هم المضعفون " التفات عن الخطاب إلى الغيبة للتعظيم فهو أمدح من أن يقول لهم فأنتم المضعفون وفيه حذف المفعول به أي ثوابهم .

[سورة الروم (30) : الآيات 41 إلى 45]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (45)

الاعراب :

)

(331/605)

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما عم في مختلف الأنحاء من البر والبحر من مفسدة وظلم ولهو ولعب وسائر ما يطلق عليه الفساد الذي هو ضد الصلاح. وظهر الفساد فعل وفاعل وفي البر والبحر متعلقان بظهر أو بمحذوف حال ولعله أرجح وبما متعلقان بظهر أي بسبب كسبهم فما مصدرية أو بسبب الذي كسبوه فهي موصولية وأيدي الناس فاعل كسبت . (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) اللام لام التعليل ويذيقهم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة والأولى أن يعلق الجار والمجرور بمحذوف أي عاقبهم بذلك وقيل اللام ليست للتعليل بل للصيرورة لأن ذلك هو مآلهم وصيرورتهم وأجاز أبو البقاء تعليقه بظهر ، والهاء مفعول به أول ليذيق وبعض الذي عملوا مفعوله الثاني ولعل واسمها وجملة يرجعون خبرها . (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ) جملة سيروا في الأرض مقول القول فانظروا عطف على سيروا وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم وكان واسمها والجملة في محل

نصب بانظروا المعلقة بالاستفهام ومن قبل متعلقان بمحذوف صلة الذين . (كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) كلام مستأنف مسوق لبيان أن ما أصابهم كان لفشو الشرك في أكثرهم والفساد والمعاصي في أقلهم . (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) الفاء الفصيحة وأقم فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت يعود على الرسول صلى اللّه عليه وسلم والمراد أمته ووجهك مفعول به وللدين متعلقان بأقم والقيم صفة للدين أي اجعل وجهتك اتباع الدين القيم البليغ الاستقامة وقد تقدم تفسير هذه الكلمة .

(332/605)

)

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) من قبل متعلقان بمحذوف حال وان وما بعدها في تأويل مصدر مضاف اليه ويوم فاعل يأتي ولا نافية للجنس ومرد اسمها وله خبرها والجملة صفة ليوم ومن اللّه لك أن تعلقه بيأتي أي يأتي من اللّه يوم لا يرده أحد ولك أن تعلقه بمحذوف يدل على المصدر المنسبك من أن ويرده ولا يجوز تعليقه بمرد لأنه يصبح عندئذ شبيها بالمضاف فيعرب ، ويومئذ ظرف أضيف لمثله متعلق بيصدعون والتنوين عوض عن جملة ويصدعون مضارع حذفت إحدى تاءيه أي يتفرقون يوم إذ يأتي هذا اليوم

، يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه الصداع لأنه يفرق شعب الرأس ، وقال الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) الجملة مفسرة لا محل لها مسوقة لتفسير قوله يصدعون ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وكفر فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة للجواب وعليه خبر مقدم وكفره مبتدأ مؤخر والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من ، ومن عمل صالحا عطف على ما سبقه مماثل له في إعرابه وقوله صالحا يجوز أن يكون مفعولا به وأن يكون نعتا لمصدر أي عملا صالحا والفاء رابطة ولأنفسهم متعلقان بيمهدون والجملة جواب الشرط أي يمهدون فرشهم الوثيرة ويوطئونها لئلا تنبوبهم فتتجافى مضاجعهم ويتنغص عيشهم . (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ) اللام للتعليل ويجزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بيمهدون أو بيصدعون

(333/605)

أو بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك كائن ليجزي والذين مفعول يجزي وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على يجزي ومن فضله متعلقان بيجزي وان واسمها وجملة

لا يحب خبرها والكافرين مفعول به والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها تعليلية .

البلاغة :

في قوله (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) جناس المناسبة اللفظي لأن للجناس أصلين وهما جناس المزاوجة وجناس المناسبة وقد تقدم ذكر هذا مستوفى .

[سورة الروم (30) : الآيات 46 إلى 50]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

اللغة :

(الرِّياحَ) : أحد جموع الريح والريح مؤنثة وتجمع أيضا على أرواح وأرياح وريح ، وجمع الجمع أراويح وأرابيح ، والرياح أربع :

الجنوب وهي القبلية ، والشمال وهي الشمالية ، والصبا وهي الشرقية ، والدبور وهي الغربية ، والثلاثة الأول رياح الرحمة والرابعة هي ريح العذاب ، وقد تقدم أن لفظ الريح لم يأت في القرآن إلا في الشر وجاء الجمع في الخير ومن ذلك نرى أن العربية غنية بمدلولاتها واننا إذا أوغلنا في الألفاظ المخصصة لبعض الأمور استنبطنا مفاهيم ربما كنا لا نعيرها التفاتا في كتابتنا الحديثة .

(كِسَفاً) : بكسر ففتح ويجوز تسكين السين جمع كسفة أي قطعة وفي القاموس : " الكسفة بالكسر القطعة من الشيء والجمع كسف وكسف وجمع الجمع أكساف وكسوف وكسفه يكسفه قطعه " .

(الْوَدْقَ) : المطر .

الاعراب :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ) كلام مستأنف مسوق لعرض آياته تعالى ومن آياته خبر مقدم وأن وما في حيزها مبتدأ مؤخر والرياح مفعول به ومبشرات حال وهذا هو الغرض الأول في إرسالها .

(وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الواو عاطفة والجملة عطف على قوله مبشرات لأن الحال

والصفة تتعاوران في إفهام العلة فكأن التقدير ليبشركم وليذيقكم ، وعبارة الزمخشري بهذا الصدد : " فإن قلت بم يتعلق وليذيقكم ؟

قلت : فيه وجهان : أن يكون معطوفا على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليبشركم وليذيقكم وأن يتعلق بمحذوف تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا أرسلناها " ومن رحمته متعلقان بيذيقكم وسيأتي معنى هذا المجاز في باب البلاغة ولتجري الفلك عطف أيضا وبأمره حال ولتبتغوا من فضله عطف أيضا ولعلكم تشكرون لعل واسمها وجملة تشكرون خبرها .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾

(335/605)

كلام مستأنف مسوق لتسليته صلى اللّه عليه وسلم وتأنيسا له وإيذانا بالنصر ، واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل ومن قبلك حال ورسلا مفعول به والى قومهم جار ومجرور متعلقان بأرسلنا فجاءوهم عطف على أرسلنا وبالبينات متعلقان بجاءوهم أو بمحذوف حال . ﴿فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الفاء عاطفة على محذوف تقديره فكذبوهم فانتقمنا ومن الذين متعلقان بانتقمنا وجملة أجرموا صلة وكان الواو استئنافية وكان فعل ماض ناقص وحقا خبرها المقدم وعلينا متعلقان بحقا أو بمحذوف صفة له ونصر المؤمنين اسمها المؤخر وهذا هو الاعراب المستقيم وقد تكلف بعض المعربين فأجازوا أن يكون حقا مصدرا وعلينا الخبر وأن يكون في كان ضمير الشأن وحقا مصدر وعلينا نصر مبتدأ وخبرا في موضع نصب خبر كان وفي هذا الكلام من تعظيم أمر المؤمنين وتأهيلهم للكرامة واستحقاق الاثابة والنصر ما فيه وفي تعريف المؤمنين تنويه بهم وإلماع إلى أن من تخلّف عن مراتبهم لا يستحق هذه

(336/605)

المنّة الكبرى. (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ) كلام مستأنف أيضا لتفصيل ما أجمله من ذكر الرياح وأحوالها والله مبتدأ والذي خبره وجملة يرسل الرياح صلة فتثير عطف على يرسل وسحابا مفعول به والفاء عاطفة ويبسطه عطف على تثير أيضا وفي السماء متعلقان بيبسطه وكيف أداة شرط وتعليق كقولهم كيف تصنع أصنع وكيف تكون أكون إلا أنه لا يجزم بها وجوابها محذوف لدلالة ما قبلها عليه وكذلك مفعول يشاء وقد تقدم أن المفعول بعد يشاء يكون محذوفا في الغالب والتقدير كيف

يشاء بسطه يبسطه فحذف بسطه لأنه مفعول يشاء وحذف يبسطه لدلالة يبسطه الأول عليه وكيف منصوب على الحال بالفعل بعده والمعنى على أي حال شاء أن يبسطه يبسطه وسيأتي مزيد بحث عن كيف الشرطية في باب الفوائد . (وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ) ويجعله عطف على يبسطه والهاء مفعول يجعل الاول وكسفا مفعوله الثاني ، فترى عطف على ما تقدم وفاعل ترى مستتر تقديره أنت والودق مفعول به وجملة يخرج حالية لأن الرؤية هنا بصرية ومن خلاله متعلقان بيخرج .

(فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أصاب في محل جرّ بإضافة الظرف إليها وبه متعلقان بأصاب ومن يشاء مفعول أصاب ومن عباده حال وإذا فجائية واقعة في جواب إذا الاولى وهم مبتدأ وجملة يستبشرون خبر . (وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ) الواو حالية أو عاطفة وإن مخففة من الثقيلة مهملة أو عاملة في ضمير شأن محذوف وكان واسمها ومن قبل متعلقان بمحذوف حال

(337/605)

وأن وما في حيزها مصدر مؤول مضاف لقبل وينزل فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن وعليهم متعلقان به ونائب الفاعل مستتر تقديره هو واللام الفارقة ومبلسين خبرها ومن قبله الثانية قيل هي تكرير وتوكيد لمن قبل الأولى قال الزمخشري : " من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها . ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك " وقال ابن عطية : " وفائدة هذا التأكيد الاعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار وذلك أن قوله : من قبل أن ينزل عليهم يحتمل الفسحة في الزمان أي من قبل أن ينزل بكثير فجاء قوله من قبله بمعنى أن ذلك متصل بالمطر فهو تأكيد مفيد " .

(فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها) الفاء الفصيحة أي إذا أردت أن تعرف ما يترتب على إنزال المطر فانظر ، وانظر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والى آثار رحمة اللّه متعلقان بانظر وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال وهي معلقة لانظر عن العمل والأرض مفعول به وبعد موتها ظرف متعلق بيحيي والجملة بدل من آثار فهي في حيز النصب بنزع الخافض والمعنى بعد كل هذا فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها والمراد التنبيه على عظيم قدرته وسعة رحمته . (إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) إن واسمها أي إن ذلك القادر واللام المزحلقة ومحيي الموتى خبرها وهو مبتدأ

وعلى كل شيء متعلقان بقدير وقدير خبر هو .

البلاغة :

في قوله " وليذيقكم من رحمته " استعارة ومجاز فالاستعارة

(338/605)

في قوله ليذيقكم وقد تقدمت كثيرا وهي استعارة مكنية والمجاز المرسل في قوله من رحمته وهو مجاز مرسل علاقته الحالية لأن الرحمة تحل في الخصب والمطر فأطلق الحال وأريد المحل وفسر بعضهم الرحمة بقوله : " أي من نعمته من المياه العذبة والأشجار الرطبة وصحة الأبدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا اللّه " .

الفوائد :

كيف أيضا :

جاء في المغني ما نصه : " وتستعمل على وجهين : أحدهما أن تكون شرطا فيقتضي فعلين متفقي اللفظ والمعنى غير مجزومين نحو كيف تصنع أصنع ولا يجوز كيف تجلس أذهب باتفاق ولا كيف تجلس أجلس بالجزم عند البصريين إلا قطربا لمخالفتها لأدوات الشرط بوجوب موافقة جوابها لشرطها كما مر ، وقيل يجوز مطلقا وإليه ذهب قطرب والكوفيون ،

وقيل يجوز بشرط اقترانها بما ، قالوا ومن ورودها شرطا " ينفق كيف يشاء " " يصوركم في الأرحام كيف يشاء " " فيبسطه في السماء كيف يشاء " وجوابها في ذلك كله محذوف لدلالة ما قبلها وهذا يشكل على إطلاقهم أن جوابها يجب مماثلته لشروطها " وقد استدرك بعض المعلقين على المغني فقال " أجاب بعضهم بأنه يمكن أن يقدر الجواب موافقا للشرط بأن يقدر الجواب فعل مشيئته متعلقة بالفعل السابق وهو دال عليه لأن الفعل الاختياري يستلزم المشيئة والأصل كيف يشاء أمرا يشاء التصوير في الأرحام ، كيف يشاء أمرا يشاء الانفاق ، كيف يشاء أمرا يشاء بسطه ، غاية الأمر أن متعلق الفعلين مختلف وهذا جواب بعيد لأنهم قالوا لدلالة ما قبلها لأن المتبادر انه دال على الجواب وعلى دفع الاشكال فيكون

ما قبلها دالا على متعلق جوابها لا على نفس جوابها وقد علمت دفع هذا بأن الفعل الاختياري وهو الفعل الواقع قبلها يستلزم المشيئة وهو الجواب المحذوف " .

[سورة الروم (30) : الآيات 51 إلى 54]

وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54)

الإعراب :

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط وأرسلنا فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط وريحا مفعول أرسلنا فرأوه عطف على أرسلنا وهو فعل وفاعل ومفعول به ومصفرا حال ولظلوا اللام واقعة في جواب القسم وظلوا فعل ماض ناقص والواو اسمها والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وقد أغنت عن جواب الشرط حسب القاعدة المشهورة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

ومن بعده حال وجملة يكفرون خبر ظلوا . (فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) الفاء تعليلية والجملة تعليل لمحذوف أي لا تجزع ولا تحزن على عدم ايمانهم فإنهم موتى صم عمي ، وان واسمها وجملة لا تسمع الموتى خبرها ولا تسمع الصم الدعاء عطف على الجملة السابقة والصم مفعول تسمع الاول والدعاء مفعول تسمع الثاني وإذا ظرف مستقبل متعلق بتسمع وجملة ولوا مضاف إليها الظرف وولوا فعل وفاعل ومدبرين

حال من الواو .

)

(340/605)

وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ) الواو عاطفة وما نافية حجازية وأنت اسمها والباء حرف جر زائد وهادي مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر ما والعمي مضاف اليه وعن ضلالتهم متعلقان بالعمي أو بهادي على تضمين هادي معنى صارف وقد تقدم نظيره .

(إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) إن نافية وتسمع فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنت وإلا أداة حصر ومن مفعول به وجملة يؤمن صلة من وبآياتنا متعلقان بيؤمن ، فهم الفاء عاطفة على المعنى وهم مبتدأ ومسلمون خبر . (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ) الله مبتدأ والذي خبر وجملة خلقكم صلة ومن ضعف متعلقان بخلقكم .

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً) ثم حرف عطف وتراخ وجعل فعل ماض ومن بعد ضعف مفعول جعل الثاني أو متعلق بجعل وقوة مفعول جعل .

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) ثم وما بعدها عطف على ما تقدم وجملة يخلق ما يشاء حالية وهو مبتدأ والعليم خبر أول والقدير خبر ثان .

[سورة الروم (30) : الآيات 55 إلى 60]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (58) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (59)

(341/605)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (60)

اللغة :

(السَّاعَةُ) : القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وبديهة وجرت علما لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة وفي القاموس : " والساعة جزء من أجزاء الجديدين والوقت الحاضر والجمع ساعات وساع والقيامة أو الوقت الذي تقوم فيه القيامة والهالكون كالجاعة للجياع " والساعة أيضا آلة يعرف بها الوقت بحسب الساعات (موالدة) ومنها الساعة الرملية والساعة الشمسية .

(يُسْتَعْتَبُونَ) : يطلب منهم العتبى أي الرجوع ، من قولك استعتبني فلان فأعتبته أي استرضاني فأرضيته وذلك إذا كنت جانيا عليه وحقيقة أعتبته أزلت عتبه ، ألا ترى إلى قوله :

غضبت تميم أن تقتل عامرا يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

كيف جعلهم غضابا ثم قال فأعتبوا أي أزيل غضبهم ، والغضب في معنى العتب ، والصيلم ماء لبني عامر والصيلم الداهية والسيف كما في الصحاح . وفي المصباح : " عتب عليه عتبا من بابي ضرب وقتل ومعتبا أيضا لامه في سخط فهو عاتب وعتاب مبالغة وبه سمي ومنه " عتّاب ابن أسيد " وعاتبه معاتبة وعتابا ، قال الخليل : حقيقة العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة ، وأعتبني الهمزة للسلب أي أزال الشكوى والعتاب واستعتب طلب الإعتاب والعتبى اسم من الإعتاب " .

(يَسْتَخِفَّنَّكَ) : يحملنك على الخفة والطيش بترك الصبر .

الاعراب :

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ) الظرف متعلق بيقسم وجملة تقوم الساعة في محل جر باضافة الظرف إليها ويقسم المجرمون فعل وفاعل وما نافية ولبثوا فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها واقعة في جواب القسم وغير ساعة ظرف متعلق بلبثوا .

(كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) كذلك نعت لمصدر محذوف أي يصرفون عن الحق وهو الصدق كما صرفوا عن الحق وهو البعث وكان واسمها

وجملة يؤفكون خبرها ويؤفكون فعل مضارع مبني للمجهول .

)

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ) الواو عاطفة وقال الذين فعل وفاعل وجملة أوتوا صلة والعلم مفعول به ثان لأوتوا والايمان عطف على العلم وجملة لقد لبثتم مقول القول واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ولبثتم فعل وفاعل وفي كتاب اللّه حال أي محسوبة في علم اللّه وقدره والى يوم البعث متعلقان بلبثتم .

(فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر كأنه قال إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث أي فقد تبين بطلان قولكم . ولكنكم الواو حالية ولكن واسمها وجملة كنتم خبرها وجملة لا تعلمون خبر كنتم .

(فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) الفاء تفصيل لما قبلها مما يفهم من أن تقليل مدة اللبث فهي الفصيحة أيضا ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بينفع والتنوين عوض عن جملة محذوفة أي يوم إذ قامت الساعة وحلف المشركين كاذبين ورد عليهم الذين أوتوا العلم والايمان من الملائكة وغيرهم ولا نافية وينفع فعل مضارع والذين

ظلموا مفعوله المقدم ومعذرتهم فاعل ينفع وقرئ ينفع بالياء والتاء لأن معذرتهم مؤنث غير حقيقي أو بمعنى العذر والواو حرف عطف ولا نافية وهم مبتدأ وجملة يستعتبون خبر ويستعتبون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

(343/605)

(وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وللناس متعلقان بضربنا وفي هذا القرآن متعلقان بمحذوف حال ومن كل مثل صفة لمفعول به محذوف أي موعظة أو قصة من كل مثل أو تكون من

للتبعيض ويكون الجار والمجرور في موضع نصب على أنه مفعول ضربنا أي وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وطرافتها .

(وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية وجئتهم فعل وفاعل ومفعول به في موضع فعل الشرط وبآية متعلقان بجئتهم وليقولن اللام واقعة في جواب القسم ويقولن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقلية فاللام مفتوحة باتفاق القراء والفاعل هو الاسم الموصول من باب اقامة الظاهر مقام المضمر وقد تقدم ذكره كثيرا وجملة كفروا صلة وإن نافية وأنتم مبتدأ وإلا أداة

حصر ومبطلون خبر أنتم والجملة مقول القول . (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) الكاف نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الطبع يطبع اللّه على قلوب الجهلة الذين لا يعلمون وجملة لا يعلمون صلة الذين .

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ) الفاء الفصيحة أي إذا علمت أن حالهم بهذه المثابة فاصبر ، واصبر فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت وجملة إن وعد اللّه حق تعليل للأمر بالصبر ولا الواو عاطفة ولا ناهية ويستخفنك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم بلا الناهية والكاف مفعول به مقدم والذين فاعل يستخفنك المؤخر وجملة لا يوقنون صلة .

البلاغة :

(344/605)

في قوله " ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة " جناس تام وقد تقدم البحث في هذا الفن ونريد الآن أن نستوفي أبحاثه فهو ضروب كثيرة منها الماثلة وهي أن تكون اللفظة واحدة باختلاف

المعنى نحو قول زياد الأعجم وقيل الصلتان العبدي يرثي المغيرة ابن المهلب :

فانع المغيرة للمغيرة إذ بدت شعواء مشعلة كنبح النابح

فالمغيرة الاولى : رجل ، والمغيرة الثانية : الفرس وهي ثانية الخيل التي تغير ، وقال أبو نواس في ابن الربيع :

عباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

وقال أبو تمام :

ليالينا بالرقمتين وأهلنا سقى العهد منك العهد والعهد والعهد

فالعهد الأول المسقى : هو الوقت ، والعهد الثاني هو الحفاظ من قولهم فلان ماله عهد ، والعهد الثالث الوصية من قولهم عهد فلان إلى فلان وعهدت إليه أي وصّاني ووصيّته ، والعهد الرابع المطر وجمعه عهاد ، واستثقل قوم هذا التجنيس وحق لهم .

هذا وقد ولع أبو تمام بالتجنيس كثيرا فأجاد في بعضه وأسف في بعضه الآخر وقد أوردنا فيما سبق من هذا الكتاب نماذج من حسناته وسيئاته ويبدو التكلف ظاهرا فيه .

أما ابن الرومي فليس من هواة الصناعة اللفظية ولم يكن يشغل باللفظ كثيرا وانما كان يجانس لمعنى يراه هو ولا يجانس لتزويق فارغ ولهو سخيف ، ومن مليح ما جاء له :

للسود في السود آثار تركن بها لمعا من البيض تثني أعين البيض

فالسود الأول : الليالي ، والسود الآخر : شعرات الرأس واللحية والبيض الأول الشيبات والبيض الآخر النساء .

وقوله :

فيسبيك بالسحر الذي في جفونه ويصبيك بالسحر الذي هو نافثه

أو مثل هذا البيت :

تصيب إذا حكمت وإن طلبنا لديك العرف كنت حيا تصوب

أو مثل هذا البيت :

ليس ينفكّ طيرها في اصطحاب تحت أظلال أيكها واصطخاب

(345/605)

و هكذا كان في كل تجنيسه الذي لا تعسف فيه وليس هو بالكثير البارز في ديوانه الكبير فإذا جنس في غير ذلك فهو عابث متعمد للعبث وليس بملفق محسّنات ولا بطالب تزويق كما قال :

لو تلفّفت في كساء الكسائي وتلبّست فروة الفرّاء

وتخلّلت بالخليل وأضحى سيبويه لديك رهن سباء

وتكوّنت من سواد أبي الاسود شخصا يكنى أبا السوداء

لأبى اللّه أن يعدك أهل العلم إلا من جملة الأغبياء ومن علماء البيان من جعل له اسما سماه

به وهو الترديد أي أن اللفظة الواحدة رددت فيه ، وهو أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ثم يرددها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه أو في قسم منه ، قال أبو تمام :

خفّت دموعك في إثر القطين لدن خفّت من الكثب القضبان والكثب

الترديد في خفت ولو جعلت الكثب ترديدا لجاز .

وقال أبو الطيب المتنبي وأحسن ما شاء :

أمير أمير عليه الندى جواد بخيل بأن لا يجودا

والترديد في أول البيت ، والعلماء بالشعر مجمعون على تقديم أبي حية النميريّ في قوله :

ألا حيّ من أجل الحبيب المغانيا لبسن البلى مما لبسن اللياليا

إذا ما تقاضى المرء يوما وليلة تقاضاه شيء لا يملّ التقاضيا

وما أجمل قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الأكدار ساحتها لو مسها حجر مستها سراء

وكذلك قول أبي تمام :

راح إذا ما الراح كنّ مطيّها كانت مطايا الشوق في الأحشاء

ردد مطيّها ومطايا الشوق .

ونعود للآية الكريمة فنذكر أن ابن أبي الحديد قد نازع في كتابه المسمى بالفلك الدائر على

المثل السائر في هذا وقال :

ان المعنى واحد في الآية ، فان يوم القيامة وان طال فهو عند اللّه تعالى كالساعة الواحدة عند أحدنا ، وحينئذ فاطلاق الساعة عليه مجاز كقولنا رأيت أسدا وزيد أسد ، وأردنا بالأول حيوانا وبالثاني الرجل الشجاع .

ولم نر أحدا نازع فيما ذكرناه غير ابن أبي الحديد ، فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 7 صـ 470 . 525 ﴾

(346/605)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/606)

الجزء السادس بعد الستمائة

(سورة لقمان)

(4/606)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة لقمان)

(5/606)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة :

فيه الأَحاديث الضعيفة التى منها حديث أُبىّ : مَنْ قرأَ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة ، وأُعطى من الحسنات بعدد مَنْ أَمر بالمعروف ، ونَهَى عن المنكر ، وحديث على ذ : يا علىّ مَنْ قرأَ لقمان كان آمنا من شدّة يوم القيامة ، ومن هَوْل الصراط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 372 ﴾

(6/606)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة لقمان

مقصودها إثبات الحكمة للكتاب اللازم منه حكمة منزله سبحانه في أقواله وأفعاله ، وقصة لقمان المسمى به السورة دليل واضح على ذلك كأنه سبحانه لما أكمل ما أراد من أول القرآن

إلى آخره براءة التى هي سورة غزو الروم ، وكان سبحانه قد ابتدأ القرآن [بعد أم القرآن] بنفي الريب عن هذا الكتاب ، وأنه هدى للمتقين ، واستدل على ذلك فيما تبعها من السور ، من ابتدأ سورة يونس بعد سورة عزو الروم بإثبات حكمته ، وأتبع ذلك دليله إلى أن ختم سورة الروم ، ابتدأ دورا جديدا على وجه أضخم من الأول ، فوصفه في أول هذه التالية للروم بما وصفه به في يونس التالية لغزو الروم ، وذلك الوصف هو الحكمة وزاد أنه هدى وهداية للمحسنين ، فهؤلاء أصحاب النهايات ، والمتقون أصحاب البدايات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 3 ﴾

(7/606)

فصل

قال الآلوسى :

سورة لقمان

13 - أخرج ابن الضريس وإبن مردويه والبيهقي في الدلائل عن إبن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : أنزلت سورة لقمان بمكة ولا استثناء في هذه الرواية وفي رواية النحاس في تاريخه عنه إستثناء ثلاث آيات منها وهي ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام إلى تمام الثلاث

فإنها نزلن بالمدينة وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر قال له أحبار اليهود : بلغنا أنك تقول : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا أعنيتنا أم قومك قال : كلا عنيت فقالوا : إنك تعلم أننا أوتينا التوراة وفيها بيان كل شيء فقال عليه الصلاة والسلام : ذلك في علم الله تعالى قليل فأنزل الآيات

ونقل الداني عن عطاء وأبو حيان عن قتادة أنهما قالا : هي مكية إلا آيتين هما ولو أن ما في الأرض إلى آخر الآيتين وقيل : هي مكية إلا آية وهي قوله تعالى : الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة فإن إيجابهما بالمدينة وأنت تعلم أن الصلاة فرضت بمكة ليلة الإسراء كما في صحيح البخاري وغيره فما ذكر من أن إيجابها بالمدينة غير مسلم ولو سلم فيكفي كونهم مأمورين بها بمكة ولو ندبا فلايتم التقريب فيها نعم المشهور أن الزكاة إيجابها بالمدينة فلعل ذلك القائل أراد أن إيجابهما معا تحقق بالمدينة لا أن إيجاب كل منهما تحقق فيها ولا يضر في ذلك أن إيجاب الصلاة كان بمكة وقيل : إن الزكاة إيجابها كان بمكة كالصلاة وتقدير الأنصباء هو الذي كان بالمدينة وعليه لا تقريب فيهما وآيها ثلاث وثلاثون في المكي والمدني وأربع وثلاثون في عدد الباقين

(8/606)

وسبب نزولها على ما في البحر أن قريشا سألت عن قصة لقمان مع ابنه وعن بر والديه فنزلت ووجه مناسبتها لما قبلها على ما فيه أيضا أنه قال تعالى فيما قبل : ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل وأشار إلى ذلك في مفتتح هذه السورة وأنه كان في آخر ما قبلها ولئن جئتهم بآية وفيها وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا وقال الجلال السيوطي : ظهر لي في اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة في الافتتاح بأن قوله تعالى : هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون متعلق بقوله تعالى : فيما قبل : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث الآية فهذا عين إيقانهم بالآخرة وهم المحسنون الموصوفون بما ذكر وأيضا ففي كلتا السورتين جملة من الآيات وابتداء الخلق

وذكر في السابقة في روضة يحبرون وقد فسر بالسماع وذكر هنا ومن الناس من يشتري لهو الحديث وقد فسر بالغناء وآلات الملاهي

وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك وأقول في الاتصال أيضا : إنه قد ذكر فيما تقدم قوله تعالى : وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وهنا قوله سبحانه : ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وكلاهما يفيد سهولة البعث وقرر ذلك هنا بقوله عز قائلا : إن الله سميع بصير وذكر سبحانه هناك قوله تعالى : وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون وقال عزوجل هنا : وإذا غشيهم موج

كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد فذكر سبحانه في كل من الآيتين قسما لم يذكره في الأخرى إلى غير ذلك

(9/606)

وما ألطف هذا الاتصال من حيث أن السورة الأولى ذكر فيها مغلوبية الروم وغلبتهم المبنيتين على المحاربة بين ملكين عظيمين من ملوك الدنيا تحاربا عليها وخرج بذلك عن مقتضى الحكمة فإن الحكيم لا يحارب على دنيا دنية لا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة وهذه ذكر فيها قصة عبد مملوك على كثير من الأقوال حكيم زاهد في الدنيا غير مكترث بها ولا ملتفت إليها أوصى إبنه بما يأبى المحاربة ويقتضي الصبر والمسالمة وبين الأمرين من التقابل ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ 64.65 ﴾

(10/606)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الم لقمان)

السّورة مكِّيَّة ، سوى آيتين : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ إلى آخر الآيتين .

عدد آياتها ثلاث وثلاثون عند الحجازيِّين ، وأَربع عند الباقين .

وكلماتها خمسمائة وثمانٍ وأَربعون .

وحروفها أَلفان ومائة وعشر .

المختلف فيها آيتان : الم ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

فواصل آياتها (ظن مرد) و (مد نظر) على الدال منها آية واحدة : ﴿ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ، وعلى الظَّاءِ آية : ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ .

سمِّيت سورة لقمان لاشتمالها على قصّته .

معظم مقصود السّورة : بشارة المؤمنين بنزول القرآن ، والأَمر بإِقامة الصَّلاة ، وأَداءِ الزَّكاة ، والشكاية من قوم اشتغلوا بلَهْو الحديث ، والشكاية من المشركين فى الإِعراض عن الحقِّ ، وإِقامة الحجّة عليهم ، والمِنَّة على لقمان بما أُعطِى من الحكمة ، والوصيّة ببرّ الوالدين ، ووصية لقمان لأَولاده ، والمِنَّة بإِسباغ النعمة ، وإِلزام الحجّة على أَهل الضَّلالة ، وبيان أَنَّ كلمات القرآن بحور المعانى ، والحجّة على حَقِّيَّة البَعْث ، والشكاية من المشركين بإِقبالهم على الحقِّ فى وقت المِحْنة ، وإِعراضهم عنه فى وقت النعمة ، وتخويف الخَلْق بصعوبة القيامة وهَوْلها ، وبيان أَنَّ خمسة علوم ممَّا يختصّ به الرّبّ الواحد تعالى فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ إلى آخرها .

النَّاسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آية واحدة ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 370 . 371 ﴾

(11/606)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة لقمان

342 - مسألة :

قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ) تقدم في العنكبوت .

343 - مسألة :

قوله تعالى : (وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) .

تقدم فى الحج

344 - مسألة :

قوله تعالى : (كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) وفى فاطر

جوابه :

والزمر : (كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى) ؟ .

جوابه :

لما تقدم هنا ذكر البعث والنشور بقوله تعالى : (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ) الآية وبعدها : (وَاخْشَوْا يَوْمًا) ناسب مجىء (إلى) الدالة على انتهاء الغاية ، لأن القيامة غاية جريان ذلك .

وفاطر والزمر تقدمها ذكر نعم الله تعالى بما خلق لمصالح الخلق ، فناسب المجىء " باللام " بمعنى : لأجل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 296 . 297 ﴾

(12/606)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات التى فى سورة لقمان (المتقدّم تفسيرها بصفحتين قبل) .

قوله : ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ [وَقْرًا ﴾ وفى الجاثية ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ ﴾ زاد فى هذه السورة ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾] : جلّ المفسرين على أَنَّ الآيتين نزلتا فى

النَضْر بن الحارث .

وذلك أَنَّه ذهب إلى فارس ، فاشترى كتاب كليلة ودِمْنة ، وأَخبار رُسْتُم وإِسفَنْديار ، وأَحاديث الأَكاسرة ، فجعل يرويها ويحدّث بها قُريشًا ، ويقول : إِنَّ محمدًا يحدّثكم بحديث عاد ، وثمود ، وأَضنا أُحدّثكم بحديث رُسْتم وإِسفنديار ، ويستملحون حديثه ، ويتركون استماع القرآن [فأنزل الله هذه الآيات ، وبالغ فى ذمه ؛ بتركه استماع القرآن] فقال : ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ أَى صَمَمًا ، لا يقرع مَسامعه صوت .

ولم يبالغ فى الجاثية هذه المبالغة ؛ لِمَا ذكر بعده ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً ﴾ لأَنَّ ذلك العلم لا يحصل إِلاَّ

بالسّماع ، أَو ما يقوم مقامه : من خطٍّ وغيره .

قوله : ﴿ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وفى الزّمر ﴿ لأَجَلٍ ﴾ قد سبق شَطْر من هذا .

ونزيد بيانا أَن (إِلى) متَّصل بآخر الكلام ، ودالّ على الانتهاءِ ، واللام متَّصلة بأَوّل الكلام ، ودالَّة على الصّلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 371.372 ﴾

(13/606)

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة لقمان

394 - قوله تعالى كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا 7 وفي الجاثية كأن لم يسمعها فبشره 8

زاد في هذه السورة كأن في أذنيه وقرا جل المفسرين على أن الآيتين نزلتا في النضر بن الحارث

وذلك أنه ذهب إلى فارس فاشترى كتاب كليلة ودمنة وأخبار رستم واسفنديار

وأحاديث الأكاسرة فجعل يرويها ويحدث بها قريشا ويقول إن محمدا يحدثكم بحديث عاد

وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار

ويستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله هذه الآيات وبالغ في ذمه لتركه

استماع القرآن فقال كأن في أذنيه وقرا أي صمما لا يقرع مسامعه صوت

ولم يبالغ في الجاثية هذه المبالغة لما ذكر بعده وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا 9 لأن

العلم لا يحصل إلا بالسماع أو ما يقوم مقامه من خط أو غيره

395 - قوله كل يجري إلى أجل مسمى 29 وفي الزمر لأجل 5 قد سبق شطر من هذا

ونزيده بيانا أن إلى متصل بآخر الكلام ودال على الانتهاء واللام متصل بأول الكلام ودال

على الصلة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 169 .

170﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان

سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان لأن فيها ذكر لقمان وحكمته وجملا من حكمته التي أدب بها ابنه .

وليس لها اسم غير هذا الاسم ، وبهذا الاسم عرفت بين القراء والمفسرين .

ولم أقف على تصريح به فيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند مقبول .

وروى البيهقي في " دلائل النبوة " عن ابن عباس : أنزلت سورة لقمان بمكة .

وهي مكية كلها عند ابن عباس في أشهر قوليه وعليه إطلاق جمهور المفسرين وعن ابن عباس من رواية النحاس استثناء ثلاث آيات من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 27- 29] .

وعن قتادة إلا آيتين إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان : 28] وفي " تفسير الكواشي " حكاية قول إنها مكية عدا آية نزلت بالمدينة وهي ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان : 4] قائلا لأن الصلاة والزكاة فرضت

بالمدينة .

ورده البيضاوي على تسليم ذلك بأن فرضها بالمدينة لا ينافي تشريعها بمكة على غير إيجاب .

والمحقوق يمنعون أن تكون الصلاة والزكاة فرضتا بالمدينة ، فأما الصلاة فلا ريب في أنها فرضت على الجملة بمكة ، وأما الزكاة ففرضت بمكة دون تعيين أنصباء ومقادير ، ثم عينت الأنصباء والمقادير بالمدينة .

ويتحصل من هذا أن القائل بأن آية ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ إلى آخرها نزلت بالمدينة قاله من قبل رأيه وليس له سند يعتمد كما يؤذن به قوله لأن الصلاة والزكاة الخ .

(15/606)

ثم هو يقتضي أن يكون صدر سورة النازل بمكة ﴿ هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : 3] ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [لقمان : 5] الخ ثم ألحق به ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان : 4] .

وأما القول باستثناء آيتين وثلاث فمستند إلى ما رواه ابن جرير عن قتادة وعن سعيد

بن جبير عن ابن عباس : أن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ [لقمان : 27] إلى آخر الآيتين أو الثلاث نزلت بسبب مجادلة كانت من اليهود أن أحبارهم قالوا : يا محمد أرأيت قوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا أردت .

قالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شئ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها في علم الله قليل ، فأنزل الله عليه ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ الآيات .

وذلك مروي بأسانيد ضعيفة وعلى تسليمها فقد أجيب بأن اليهود جادلوا في ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بأن لقنوا ذلك وفدا من قريش إليهم إلى المدينة ، وهذا أقرب للتوفيق بين الأقوال .

وهذه الروايات وإن كانت غير ثابتة بسند صحيح إلا أن مثل هذا يكتفي فيه بالمقبول في الجملة .

قال أبو حيان : سبب نزول هذه السورة أن قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن قصة لقمان مع ابنه ، أي سألوه سؤال تعنت واختبار .

وهذا الذي ذكره أبو حيان يؤيد تصدير السورة بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ [لقمان : 6] .

وهذه السورة هي السابعة والخمسون في تعداد نزول السور ، نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ .

وعدت آياتها ثلاثا وثلاثين في عد أهل المدينة ومكة ، وأربعا وثلاثين في عد أهل الشام والبصرة والكوفة .

أغراض هذه السورة

(17/606)

الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة تتصل بسبب نزولها الذي تقدم ذكره أن المشركين سألوا عن قصة لقمان وابنه ، وإذا جمعنا بين هذا وبين ما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ [لقمان : 6] من أن المراد به النضر بن الحارث إذ كان يسافر إلى بلاد الفرس فيقتني كتب اسفنديار ورستم وبهرام ، وكان يقرؤها على قريش ويقول : يخبركم محمد عن عاد وثمود وأحثكم أنا عن رستم واسفنديار وبهرام ،

فصدرت هذه السورة بالتنويه بهدى القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومثل الكمال النفساني ، فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه ، فكان صدر هذه السورة تمهيدا لقصة لقمان ، وقد تقدم الإلماع إلى هذا في قوله تعالى في أول سورة يوسف [3] ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ، ونبهت عليه في المقدمة السابعة بهذا التفسير .

وانتقل من ذلك إلى تسفيه النضر بن الحارث وقصصه الباطلة .

(18/606)

وابتدئ ذكر لقمان بالتنويه بأن آتاه الله الحكمة وأمره بشكر النعمة .

وأطيل الكلام في وصايا لقمان وما اشتملت عليه : من التحذير من الإشراك ، ومن الأمر ببر الوالدين ، ومن مراقبة الله لأنه عليم بخفيات الأمور ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر ، والتحذير من الكبر والعجب ، والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام .

وسلكت السورة أفانين ذات مناسبات لما تضمنته وصية لقان لابنه ، وأدمج في ذلك تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى وبنعمه عليهم وكيف أعرضوا عن هديه وتمسكوا بما

ألفوا عليه آباءهم .

وذكرت مزية دين الإسلام .

وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى ، وأنه لا يحزنه كفر من كفروا .

وانتظم في هذه السورة الرد على المعارضين للقرآن في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ ﴿ لقمان : 27] وما بعدها .

وختمت بالتحذير من دعوة الشيطان والتنبيه إلى بطلان ادعاء علم الغيب . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ 86.88 ﴾

(19/606)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة السورة

جاء هذا القرآن الكريم ليخاطب الفطرة البشرية بمنطقها . نزله الذي خلق هذه الفطرة , والذي يعلم ما يصلح لها وما يصلحها , ويعلم كيف يخاطبها , ويعرف مداخلها ومساربها . جاء يعرض على هذه الفطرة الحقيقة المكنونة فيها من قبل ; والتي تعرفها قبل أن تخاطب

بهذا القرآن , لأنها قائمة عليها أصلا في تكوينها الأول . . تلك هي حقيقة الاعتراف بوجود الخالق وتوحيده , والتوجه إليه وحده بالإنابة والعبادة مع موكب الوجود كله المتجه إلى خالقه بالحمد والتسبيح . . إنما تغشى على الفطرة غواش من دخان هذه الأرض ; وتغمرها غمرات من فورة اللحم والدم ; وتنحرف بها عن الطريق دفعات من الهوى والشهوة . هنا يجيء هذا القرآن ليخاطب الفطرة بمنطقها الذي تعرفه ; ويعرض عليها الحقيقة التي غفلت عنها بالأسلوب الذي تألفه ; ويقيم على أساس هذه الحقيقة منهاج الحياة كله , مستقيما مع العقيدة , مستقيما مع الفطرة , مستقيما على الطريق إلى الخالق الواحد المدبر الخبير . .

وهذه السورة المكية نموذج من نماذج الطريقة القرآنية في مخاطبة القلب البشري . وهي تعالج قضية العقيدة في نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك الحقيقة . إنها القضية التي تعالجها السور المكية في أساليب شتى , ومن زوايا منوعة , تتناول القلب البشري من جميع أقطاره ; وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التي تخاطب الفطرة وتوقظها . .

(20/606)

هذه القضية الواحدة – قضية العقيدة – تتلخص هنا في توحيد الخالق وعبادته وحده وشكر آلائه . وفي اليقين بالآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . وفي اتباع ما أنزل الله والتخلي عما عداه من مألوفات ومعتقدات .

والسورة تتولى عرض هذه القضية بطريقة تستدعي التدبر لإدراك الأسلوب القرآني العجيب في مخاطبة الفطر والقلوب . وكل داع إلى الله في حاجة إلى تدبر هذا الأسلوب . إنها تعرض هذه القضية في مجال العرض القرآني . وهو هذا الكون الكبير . سماؤه وأرضه . شمسه وقمره . نهاره وليله . أجواؤه وبحاره , أمواجه وأمطاره . نباته وأشجاره . . وهذا المجال الكوني يتكرر في القرآن الكريم . فيحيل الكون كله مؤثرات ناطقة , وآيات مبثوثة عن الإيمان والشمائل , تخاطب القلوب البشرية وتؤثر فيها وتستحييها , وتأخذ عليها المسالك والدروب .

ومع أن القضية واحدة ومجال العرض واحد , فإنها تعرض في السورة أربع مرات في أربع جولات , تطوف كل منها بالقلب البشري في ذلك المجال الفسيح , مستصحبة في كل مرة مؤثرات جديدة , ومتبعة أسلوبا كذلك جديدا في العرض والتناول . وتتبع هذه الجولات وهي تبدأ وتنتهي بطريقة عجيبة فيه متاعللقلب والعقل . إلى جانب ما فيه من دواعي التأثر والاستجابة .

تبدأ الجولة الأولى بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة ; فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف , هي آيات الكتاب الحكيم , وهي هدى ورحمة للمحسنين . وهؤلاء المحسنون هم: (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) فتقرر قضية اليقين بالآخرة وقضية العبادة لله . ومعها مؤثر نفسي ملحوظ هو أن (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) ومن ذا الذي لا يريد أن يكون من المفلحين ؟ . وفي الجانب الآخر فريق من الناس يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم , ويتخذ تلك الآيات هزوا . وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسي مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله: (أولئك لهم عذاب مهين) . . ثم يمضي في وصف حركات هذا الفريق: (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها) . . ومع الوصف مؤثر نفسي يحقر هذا الفريق: (كأن في أذنيه وقرا) ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم الواضح في التعبير: (فبشره بعذاب أليم) والبشارة هنا فيها ما فيها من التهكم الملحوظ ! . . ثم يعود إلى المؤمنين يفصل شيئا من فلاحهم الذي أجمله في أول السورة ويبين جزاءهم في الآخرة , كما كشف عن جزاء المستهزئين المستكبرين: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا , وهو العزيز الحكيم) . . وهنا يعرض صفحة الكون الكبير محالا للبرهان الذي يطالع الفطرة من كل جانب , ويخاطبها بكل لسان , ويواجهها بالحق الهائل الذي يمر عليه الناس

غافلين:(خلق السماوات بغير عمد ترونها , وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم , وبث فيها من كل دابة , وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) . . وأمام هذه الأدلة الكونية التي تهول الحس وتبده الشعور يأخذ بتلابيب القلوب الشاردة , التي تجعل لله شركاء وهي ترى خلقه الهائل العظيم:(هذا خلق الله . فأروني ماذا خلق الذين من دونه ? بل الظالمون في ضلال مبين) . .

(22/606)

وعند هذا الإيقاع الكوني الضخم العميق تنتهي الجولة الأولى بقضاياها ومؤثراتها معروضة في ساحة الكون الكبير .

فأما الجولة الثانية فتبدأ من خلال نفوس آدمية , وتتناول القضية ذاتها في المجال ذاته بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة . . (ولقد آتينا لقمان الحكمة)فما طبيعة هذه الحكمة وما مظهرها الفريد ? إنها تتلخص في الاتجاه لله بالشكر: (أن اشكر لله)فهذه هي الحكمة وهذا هو الاتجاه الحكيم . . والخطوة التالية هي اتجاه لقمان لابنه بالنصيحة:نصيحة حكيم لابنه . فهي نصيحة مبرأة من العيب , صاحبها قد أوتي الحكمة . وهي نصيحة غير متهمة , فما يمكن أن تتهم نصيحة والد لولده . هذه النصيحة تقرر قضية التوحيد التي

قررتها الجولة الأولى وقضية الآخرة كذلك مصحوبة بهذه المؤثرات النفسية ومعها مؤثرات جديدة: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) . . ويؤكد هذه القضية بمؤثر آخر فيعرض لعلاقة الأبوة والأمومة بأسلوب يفيض انعطافا ورحمة: (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين) ويقرن قضية الشكر لله بالشكر لهذين الوالدين, فيقدمها عليها: أن اشكر لي ولوالديك . . ثم يقرر القاعدة الأولى في قضية العقيدة, وهي أن وشيجة العقيدة هي الوشيجة الأولى, المقدمة على وشيجة النسب والدم . وعلى ما في هذه الوشيجة من انعطاف وقوة إلا أنها تالية للوشيجة الأولى: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما, وصاحبهما في الدنيا معروفا, واتبع سبيل من أناب إلي) . ويقرر معها قضية الآخرة: (ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) . . ويتبع هذه القضية بمؤثر هائل وهو يصور عظمة علم الله ودقته وشموله وإحاطته, تصويرا يرتعش له الوجدان البشري وهو يتابعه في المجال الكوني الرحيب: (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل, فتكن في صخرة, أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير) . . ثم يتابع لقمان وصيته لابنه بتكاليف العقيدة, بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, والصبر على ما يستتبعه هذا وذلك من

مواجهة المتاعب التي لا بد أن تواجه صاحب العقيدة , وهو يخطو بها الخطوة الطبيعية , فيتجاوز بها نفسه إلى غيره: (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) . . ومع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصاب الأدب الواجب . أدب الداعي إلى الله . ألا يتطاول على الناس , فيفسد بالقدوة ما يصلح بالكلام: (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا , إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . . والمؤثر النفسي بتحقير التصعير والنفخة ملحوظ في التعبير . وبه تنتهي هذه الجولة الثانية , وقد عالجت القضية ذاتها في مجالها المعهود , بمؤثرات جديدة وبأسوب جديد .

(24/606)

ثم تبدأ الجولة الثالثة . . تبدأ بعرض القضية المعهودة في مجال السماوات والأرض , مصحوبة بمؤثر منتزع من علاقة البشر بالسماوات والأرض وما فيها من نعم سخرها الله للناس وهم لا يشكرون: (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب

منير) . . وفي ظل هذا المؤثر يبدو الجدل في الله مستنكرا من الفطرة , تمجه القلوب المستقيمة . . ثم يتابع استنكار موقف الكفر والجمود : وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . . وهو موقف سخيف مطموس , يتبعه بمؤثر مخيف : أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ . . ومن ثم يعرض قضية الجزاء في الآخرة مرتبطة بقضية الإيمان والكفر : (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم , فننبئهم بما عملوا) . . ويشير إلى علم الله الواسع الدقيق : (إن الله عليم بذات الصدور) . ويصحب ذلك العرض بتهديد مخيف : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) . . وقرب ختام الجولة يقفهم وجها لوجه أمام منطق الفطرة وهي تواجه هذا الكون , فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير : (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : الله . قل : الحمد لله , بل أكثرهم لا يعلمون) . . ويختم الجولة بمشهد كوني يصور امتداد علم الله بلا نهاية , وانطلاق مشيئته في الخلق والإنشاء بلا حدود ; ويجعل من هذا دليلا كونيا على البعث والإعادة وعلى الخلق والإنشاء : وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير . .

وتبدأ الجولة الرابعة بمشهد كوني ذي إيقاع خاص في القلب البشري . مشهد الليل وهو يطول فيدخل في جسم النهار ويمتد ; والنهار وهو يطول فيدخل في جسم الليل ويمتد . ومشهد الشمس والقمر مسخرين في فلكيهما يجريان في حدود مرسومة إلى وقت لا يعلمه إلا خالقهما الخبير بهما وبالناس وبما يعملون: (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل , وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى , وأن الله بما تعملون خبير) . . ويتخذ من هذا المشهد الكوني دليله إلى الفطرة على القضية المعهودة: (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير) . . ويلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس في صورة الفلك التي تجري في البحر: (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟) ويعقب على هذا بوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من غرور القدرة والعلم الذي يبعدها عن بارئها ; ويتخذ من هذا المنطق دليلا على قضية التوحيد : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين , فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ; وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) . . وبمناسبة موج البحر وهوله يذكرهم بالهول الأكبر , وهو يقرر قضية الآخرة . الهول الذي يفصم وشائج الدم التي لا يفصلها في الدنيا هول: (يا أيها الناس اتقوا ربكم . واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده , ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا

يغرنكم بالله الغرور) . . وعند هذا المقطع وهذا المؤثر الذي يرتجف له الكيان يختم السورة بآية تقرر القضايا التي عالجتها جميعا , في إيقاع قوي عميق مرهوب: (إن الله عنده علم الساعة , وينزل الغيث , ويعلم ما في الأرحام . وما تدري نفس ماذا تكسب غدا , وما تدري نفس بأي أرض تموت . إن الله عليم خبير) . .

(26/606)

هذه الجولات الأربع بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها نموذج من أسلوب القرآن الكريم في معالجة القلوب . هذا الأسلوب المختار من خالق هذه القلوب العليم بمداخلها . الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 2780 . 2783﴾

(27/606)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة لقمان

مكية وآياتها أربع وثلاثون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة " سورة لقمان " من السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة ، وتعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي (الوحدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور) كما هو الحال في السور المكية .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم ، معجزة محمد الخالدة ، الباقية الدائمة على مدى الزمان ، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وذكرت دلائل القدرة الباهرة ، والإبداع العجيب ، في هذا الكون الفسيح ، المحكم النظام ، المتناسق في التكوين ، فى سمائه وأرضه ، وشمسه وقمره ، ونهاره وليله ، وفي جباله وبحاره ، وأمواجه وأمطاره ، ونباته وأشجاره ، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوحدانية ، مما يأخذ القلب ، ويبهر العقل ، ويواجه الإنسان مواجهة جاهرة ، لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم [الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون] الآيات .

* كما لفتت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوحدانية منبثة في هذا الكون البديع ، وهزت كيانهم هزا [هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين] .

* وختمت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون [يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن والده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا] الآية .

التسمية :

سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة " لقمان الحكيم " التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك ، والأمر بمكارم الأخلاق ، والنهي عن القبائح والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها ، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 486 ﴾

(28/606)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة لقمان

المراد بلهو الحديث : الجواري المغنيات ، وكتب الأعاجم ، وقد اشتريت حقيقة .

وقال ابن مسعود : لهو الحديث : الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا ونهارا ،

وعن ابن عمر " أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول فى لهو الحديث : إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل " ،

وسبيل اللّه : هو دينه ، والهزو : السخرية ، مهين : أي تلحقهم به الإهانة ، وقرا : أي صمما يمنعهم من السماع .

العمد : واحدها عماد ، وهو ما يعمد به أي يسند به ، تقول : عمدت الحائط إذا دعمته ، رواسى : أي جبالا ثوابت ، تميد : أي تضطرب ، والبثّ : الإثارة والتفريق كما قال : " كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ " والمراد الإيجاد والإظهار : وزوج : أي صنف ، كريم : أي شريف كثير المنفعة .

لقمان كان نجارا أسود من سودان مصر ذا مشافر آتاه اللّه الحكمة ، ومنحه النبوة .

والحكمة : العقل والفطنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شىء كثير ، كقوله لابنه : أي بنىّ إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفينتك فيها تقوى اللّه تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على اللّه ، لعلك تنجو ، ولا أراك ناجيا .

وقوله : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من اللّه حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه ، زاده اللّه بذلك عزا ، والذل فى طاعة اللّه ، أقرب من التعزز بالمعصية .

وقوله : يا بنىّ لا تكن حلوا فتبتلع ، ولا مرّا فتلفظ .

وقوله : يا بنى إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه

فآخه ، وإلا فاحذره .

والشكر : الثناء على اللّه تعالى ، وإصابة الحق ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له .

العظة : تذكير بالخير يرقّ له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام ، جاهداك : أي حرصا على متابعتك لهما فى الكفر ، أناب : أي رجع ، المثقال :

(29/606)

ما يوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل مثل فى الصغر ، لطيف : أي يصل علمه إلى كل خفىّ ، خبير : أي عليم بكنه الأشياء وحقائقها ، من عزم الأمور : أي من الأمور المعزومة التي قطعها اللّه قطع إيجاب ، تصعير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين ، قال أعرابى : وقد أقام الدهر صعرى بعد أن أقمت صعره ، وقال عمرو بن حنىّ التغلبي :

وكنا إذا الجبار صعّر خدّه أقمنا له من ميله فتقوّما

وفى الحديث : " يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر "

والأصعر :

المعرض بوجهه كبرا ،

وفى الحديث "كل صعّار ملعون"

أي كل ذى أبهة وكبر هو كذلك. مرحا : أي فرحا وبطرا ، والمختال : هو الذي يفعل الخيلاء وهى التبختر فى المشي كبرا ، والفخور : من الفخر وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك ، اقصد : أي توسط ، اغضض : أي انقص منه وأقصر ، من قولهم : فلان يغضّ من فلان إذا قصّر به ووضع منه وحط من قدره ، أنكر الأصوات : أي أقبحها وأصعبها على السمع من نكر (بالضم) نكارة ، أي صعب.

يسلم وجهه : أي يفوّض أمره ، محسن : أي مطيع للّه فى أمره ونهيه ، والمراد بالعروة الوثقى ، أوثق العرى وأمتنها ، وهو مثل : وأصله أن من يرقى فى جبل شاهق أو يتدلى منه يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع ، نضطرهم : أي نلزمهم ، وغليظ :

أي ثقيل ثقل الأجرام الغلاظ.

يولج : أي يدخل ، والمراد أنه يضيف الليل إلى النهار ، والعكس بالعكس ، فيتفاوت بذلك حال أحدهما زيادة ونقصانا ، تجرى أي تسير سيرا سريعا ، بنعمة اللّه أي بما تحمله من الطعام والمتاع ونحوهما ، غشيهم : أي غطاهم ، والظلل : واحدها ظلة ، وهى كما قال الراغب : السحابة تظلّ ، مقتصد : أي سالك للقصد أي للطريق المستقيم وهو التوحيد لا يعدل عنه إلى غيره ، وما يجحد : أي ما ينكر ، وختار : من الختر ، وهو أشد الغدر ، قال عمرو بن معد يكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى :

(30/606)

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير ختّار

اتقوا ربكم : أي خافوا عقابه ، لا يجزى : أي لا يغنى ، والغرور : ما غرّ الإنسان من مال وجاه ، وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة ، ما فى الأرحام : أي ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالذكورة والأنوثة ، والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 21 صـ 73 . 98 ﴾ . باختصار .

(31/606)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان

وهي مكية قال عبد الله بن عباس هي مكية إلا ثلاث آيات منها فإنهن نزلن بالمدينة وهن قوله جل وعز ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام إلى تمام الآيات الثلاث 1 – من ذلك قوله عز وجل ومن الناس من يشتري لهو الحديث آية 6 روى سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري قال سئل عبد الله بن مسعود عن قوله جل وعز ومن الناس من يشتري لهو الحديث فقال الغناء والله الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات

وبغير هذا الإسناد عنه والغناء ينبت في القلب النفاق وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الرجل يشتري الجارية المغنية تغنيه ليلا أو نهارا وروي عن ابن عمر هو الغناء وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول وروى علي بن الحكم عن الضحاك ومن الناس من يشتري لهو الحديث قال الشرك

وروى جويبر عنه قال الغناء مهلكة للمال مسخطة للرب مقساة غير للقلب وسئل القاسم بن محمد عنه فقال الغناء باطل والباطل في النار قال أبو جعفر وأبين ما قيل في الآية ما رواه عبد الكريم عن مجاهد قال الغناء وكل لعب لهو قال أبو جعفر فالمعنى ما يلهيه من الغناء وغيره مما يلهي وقد قال معمر بلغني أن هذه الآية نزلت في رجل من بني عدي يعنى النضر بن الحارث كان يشتري الكتب التي فيها أخبار فارس والروم ويقول محمد يحدثكم عن عاد وثمود وأنا

أحدثكم عن فارس والروم ويستهزئ بالقرآن إذا سمعه

2 - وقوله جل وعز ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا آية 6 أي ليضل غيره وإذا أضل غيره فقد ضل وليضل هو أي يئول أمره إلى هذا كما قال ربنا ليضلوا عن سبيلك 3 - وقوله جل وعز كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا آية 7 قال مجاهد وقرا أي ثقلا 4 - وقوله جل وعز خلق السموات بغير عمد ترونها

(32/606)

يجوز أن تكون ترونها بمعنى ترونها بغير عمد ويجوز أن تكون نعتا على قول من قال هي بعمد ولكن لا يرونها قال أبو جعفر والقولان يرجعان إلى معنى واحد لأن من قال إنها بعمد إنما يريد بالعمد قدرة الله جل وعز التي يمسك بها السموات والأرض 5 - ثم قال جل وعز وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم آية 10 أي جبالا ثابتة وقد رسا أي ثبت أن تميد بكم أي كراهة أن تميد بكم يقال ماد يميد إذا اشتدت حركته

6 - وقوله جل وعز هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه آية 11 هذا خلق الله يعني ما ذكر من خلق السموات وغيرها فأروني ماذا خلق الذين من دونه أي مما تعبدونه 7 - ثم أعلم أنهم في ضلال فقال سبحانه بل الظالمون في ضلال مبين آية 11 8 - ثم قال جل وعز ولقد آتينا لقمان الحكمة آية 12 روى سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد عن سعيد

بن المسيب قال كان لقمان من سودان مصر

وقال غيره كان في وقت داود النبي صلى الله عليه وسلم قال وهب بن منبه قرأت من حكمته أرجح من عشرة آلاف باب قال مجاهد الحكمة التي أوتيها العقل والفقه والصواب في الكلام من غير نبوة قال زيد بن أسلم الحكمة العقل في دين الله عز وجل ويقال إن ابنه اسمه ثاران 9 - وقوله جل وعز يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم قال الأصمعي الظلم وضع الشئ في غير موضعه

قال أبو جعفر الشرك نسب نعمة الله جل وعز إلى غيره

لأن الله جل وعز الرزاق والمحيي والمميت وقال هو ظالم لنفسه 10 - ثم قال جل وعز ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن آية 14 وقرأ عيسى وهنا على وهن قال الضحاك الوهن الضعف وكذلك هو في اللغة يقال وهن يهن ووهن يوهن ووهن يهن مثل ورم يرم إذا ضعف يعني ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف النفاس

(33/606)

---

11 - ثم قال جل وعز وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك آية 14 وفصاله في عامين أي فطامه في عامين أن اشكر لي ولوالديك على التقديم والتأخير والمعنى ووصينا الإنسان

أن اشكر لي ولوالديك 12 - ثم قال جل وعز وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما آية 15 يروى أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص

13 - ثم قال جل وعز وصاحبهما في الدنيا معروفا آية 15 أي مصاحبا معروفا يقال صاحبته مصاحبة ومصاحبا ومعروفا أي ما يحسن

14 - ثم رجع إلى الإخبار عن لقمان فقال يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله آية 16 وهذا على التمثيل كما قال سبحانه فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره قال سفيان بلغني أنه الصخرة التي عليها الأرضون وروى أن ابن لقمان سأله عن حبة وقعت في مقل البحر أي في مغاصه أحمد فأجابه بهذا قال أبو مالك يأت بها الله أي يعلمها الله 15 - ثم قال جل وعز إن الله لطيف خبير آية 16 قال أبو العالية أي لطيف باستخراجها خبير بمكانها 16 - وقوله جل وعز ولا تصعر خدك للناس آية 18 وقرأ الجحدري ولا تصعر ويقرأ ولا تصاعر قال الحسن وقتادة والضحاك في قوله تعالى ولا تصعر الإعراض عن الناس قال قتادة لا تتكبر فتعرض وقال إبراهيم هو التشدق

قال أبو الجوزاء يقول بوجهه هكذا ازدراء بالناس قال أبو جعفر أصل هذا من الصعر وهو داء يأخذ

الإبل تلوي منها أعناقها فقيل هذا للمتكبر لأنه يلوي عنقه تكبرا وتصعر على التكثير

وتصعر تلزم نفسك بهذا لأنه يفعله ولا داء به وتصاعر أي تعارض بوجهك 17 - ثم قال جل وعز ولا تمش في الأرض مرحا آية 18 أي متبخترا متكبرا 18 - وقوله جل وعز واقصد في مشيك واغضض من صوتك آية 19 واقصد في مشيك أي يكون متوسطا روى حيوة بن شريح عن يزيد بن أبي حبيب واقصد في مشيك قال من السرعة

(34/606)

ثم قل واغضض من صوتك آية 19 أي انقص منه وقد غض بصره ومنه فلان يغض من الناس 19 - ثم قال تعالى إن أنكر الأصوات لصوت الحمير آية 19 أي أقبحها ومنه أتانا بوجه منكر 20 - ثم قال جل وعز ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض آية 20 ما في السموات يعني الشمس والقمر والنجوم وما في الأرض من البحار والدواب وغيرها

21 - ثم قال جل وعز وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة آية 20 وقرأ ابن عباس وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة على التوحيد وقال هو ومجاهد هي الإسلام

ويجوز أن تكون نعمة بمعنى نعم كما قال سبحانه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها 22 - وقوله جل وعز ومن سلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى آية 22

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس فقد استمسك بالعروة الوثقى قال لا إله إلا الله 23 -

وقوله جل وعز

وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ آية 27 في رواية أبي عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال

قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم بلغنا أنك تقول وما أوتيتم من

العلم إلا قليلا فهذا لنا أو لغيرنا فقال صلى الله عليه وسلم للجميع فقالوا أما علمت أن الله

أعطى موسى التوراة وخلفها فينا ومعنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم التوراة وما فيها

من الأنباء في علم الله جل وعز قليل فأنزل الله ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده

من بعده

(35/606)

سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إلى تمام ثلاث آيات قال أبو جعفر فقد تبين أن الكلمات ههنا

يراد بها العلم وحقائق الأشياء لأنه علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات

والأرض من شئ وعلم ما فيه من مثاقيل الذر وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة

وعضو وما في الشجرة من ورقة وما فيها من ضروب الخلق وما يتصرف فيه من ضروب

الطعم واللون فلو سمى كل دابة وحدها وسمى أجزائها على ما يعلم من قليلها وكثيرها وما تحولت عليه في الأحوال وما زاد فيها في كل زمان وبين كل شجرة وحدها وما تفرعت عليه وقدر ما ييبس من ذلك في كل زمان ثم

كتب البيان عن كل واحد منها على ما أحاط الله عز وجل منها ثم كان البحر مدادا لذلك البيان الذي بين الله عز وجل تلك الأشياء يمده من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر 24 - وقوله جل وعز ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير قال مجاهد إنما يقول كن فيكون القليل والكثير 25 - وقوله جل وعز فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد آية 32 قال مجاهد فمنهم مقتصد في القول وهو كافر وقيل مقتصد أي مقتصد في فعله خبر أن منهم من لا يشرك 26 - وقوله جل وعز وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور

آية 32 قال مجاهد وقتادة الختار الغدور

قال أبو جعفر الختر في كلام العرب أقبح الغدر 27 - وقوله جل وعز فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور آية 33 قال مجاهد والضحاك الغرور الشيطان 28 - وقوله جل وعز إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث روي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمسة وقد ذكرنا هذا بإسناده في سورة الأنعام في قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب الآية .

انتهت سورة لقمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 5 صـ 277 .

293 ﴾

(36/606)

وقال الفراء :

سورة لقمان

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً . . . ﴾

أكثر القراءِ على نصب الهُدَى والرحمة على القطع . وقد رفعها حمزة على الائِتناف ؛ لأنها مُسْتأنفة فى آية منفصلةٍ من الآية قبلها . وهى فى قراءة عبد الله (هُدًى وبُشْرى) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ . . . ﴾

نزلت فى النَضْر بن الحارث الدارىّ . وكان يشترى كتب الأعاجم فارسَ والروم وكتب أهل الحِيرة (ويحدّث) بها أهل مكة ؛ وإذا سمع القرآن أعرض عنه واستهزأ به . فذلكَ قوله

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ وقد اختلف القراء فى ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ فرفع أكثرهم ، ونصبها يحيى بن وَثَّاب والأعمش وأصحابُه . فمن رفع ردّها عَلى ﴿ يَشْتَرِي ﴾ ومن نصبها ردّها على قوله ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : وليتَّخذها .

وقوله ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ يذهب إلى آيات القرآن . وإن شئت جعلتها للسبيل ؛ لأن السَّبيل قد تُؤنَّث قال ﴿ قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدعُو إِلَي اللهِ ﴾ وفى قراءة أُبَىّ (وإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُشْدِ لاَ يَتّخذُوهَا سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىّ يَتّخِذُوهَا سَبِيلاً ﴾ .

حدّثنا أبو العبَّاس قال حدّثنا محمد قال حدّثنا الفراء قال حَدّثنى حِبَّان عن ليث عن مجاهد فى قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ قال: هو الغِناء قال الفراء: والأوّل تفسيره عن ابن عباس .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

(37/606)

وقوله: ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ . . . ﴾

لئلاّ تميد بكم . و (أَنْ) فى هذا الموضع تكفى من (لا) كما قال الشاعر:

* والمهرُ يأبى أن يزال مُلهبا *

معناه: يأبى أن لا يزال.

سورة (لقمان)

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ . . . ﴾

من ذِكْره السمواتُ والأرضُ وإنزاله الماء من السمَاء وإنباتُه ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ ﴾ تعبدونَ ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ يعنى: آلهتهم. ثمّ أكذبهم فقال ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ . . . ﴾

حَدَّثنا أبو العباس قال حدَّثنا محمّد قال حدَّثنا الفراء قال: احدَّثنى حِبَّان عن بعض مَنْ حدَّثه قال: كان لقمان حبشِياً مجدَّعاً ذا مِشْفَر.

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً . . . ﴾

أى أحسِن صحبتَهما .

﴿ يابُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ يابُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ . . . ﴾

(38/606)

يجوز نصب المثقال ورفعُه . فمن رفع رفعه بتكُنْ واحتملت النكرة ألاَّ يكون لها فعل فى كانَ وليَس وأخواتها . ومن نصب جعَل فى (تكن) اسماً مضمرا مجهولاً مثل الهاء التى فى قوله ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ ﴾ ومثل قوله ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبصارُ ﴾ وجَاز تأنيث (تك) والمثقال ذكر لأنه مضاف إلى الحبَّة والمعنى للحبَّة ، فذهب التأنيث إليها كما قال:

وتشرق بالقول الذى قد أَذَعتَه * كَمَا شَرِقت صَدرُ القناة من الدمِ

ولو كان: ﴿ إِن يَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ كان صوابا وجاز فيه الوجهان . وقوله ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ يقال: إنَّها الصَّخرة التى تحت الأرض: وهى سِجّين: وتُكتب فيها أعمال الكفّار . وقوله ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ فيجازى بها .

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَلاَ تُصَاعِرْ . . . ﴾

قرأهَا أهل المدينة وعاصم بن أبى النَجُود والحسن: (تصعّر) بالتشديد: وقرأها يحيى وأصحابُه بالألف ﴿ ولا تُصاعِرْ ﴾ يقول: لاَ تَمِّيل خَدَّك عن الناس من قولك: رجل أَصعر. ويجوز ولا تُصْعِر ولم أسمع به.

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ . . . ﴾

يقول: إن أَقبح الأصوات لصوتُ الحمير. وأنت تقول: له وجه منكَر إذا كان قبيحاً. وقال ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ولو قيل: أصْوات الحمير لكان صواباً. ولكن الصَّوت وإن كان أُسْند إلى جمع فإن الجمع هذا الموضع كالواحد.

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾

(39/606)

وقوله: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . . . ﴾

حدّثنا أبو العباس، قال: حَدثنا محمد، قال حدثنا الفراء قال حدّثنى شَرِيك بن عبد الله

عنْ خَصِيف الجَزَرِيّ عن عِكْرِمة عن ابن عبّاس أَنه قرأ (نِعْمَةً) واحدة. قال ابن عباسٍ: ولو كانت ﴿نِعَمَهُ﴾ لكانت نعمة دونِ نعمةٍ أو قال نعمة فوق نعمةٍ، الشكّ من الفراء.

وقد قرأ قوم ﴿نِعَمُه﴾ عَلى الجمع. وهو وجه جيّد؛ لأنه قال ﴿شَاكِراً لأنعُمِه اجْتَباهُ﴾ فهذا جمع النِعَم وهو دليل على أَنَّ ﴿نِعَمَهُ﴾ جَائِز.

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ . . . ﴾

قرأها القرّاء بالتخفيف، إلا أبا عبد الرحمن فإنه قرأها (وَمَنْ يُسَلِّم) وهو كقولكَ للرجل أَسْلِم أمرك إلى الله وسلِّم.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ . . . ﴾

ترفع ﴿البحر﴾ ولو نصبته كان صواباً؛ كما قَرأت القراء ﴿وَإِذا قِيل إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ والسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ و ﴿الساعة﴾ وفى قراءة عبد الله ﴿وَبَحْرُ يَمُدُّهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ يقول: يكون مِداداً كالمداد المكتوب به. وقول عبد الله يقوّى الرفع. والشىء إذا مَدَّ الشىء فزاد فكان زيادةً فيه فهو يَمُدُّه؛ تقول دجلة تَمُدّ بِئارنا وأنهارنا، والله يُمِدّنا

بها . وتقول: قد أمددتك بألفٍ فَمَدُّوك ، يقاس على هذا كلّ ما ورد .

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

(40/606)

وقوله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . ﴾

إلا كبعث نفس واحدة . أضمر البعث لأنه فعل ؛ كما قال ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالذِي يُغْشَى عَلَيْهِ (مِنَ المَوْتِ) ﴾ المعنى – والله أعلم –: كدوران عين الذى يُغشى عليه / ب من الموت ، فأضمر الدوران والعين جميعاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

وقوله: ﴿ بِنِعْمَةِ اللَّهِ . . . ﴾

وقد قرئتْ ﴿ بنِعمَاتِ الله ﴾ وقلَّما تفعل العرب ذلكَ بفِعلةٍ: أن تُجمع عَلى التاء إنّما يجمعونها على فِعَلٍ ؛ مثل سِدْرة وسِدَر ، وخِرقة وخِرَق . وإنّما كرهوا جمعه بالتاء لأنهم يُلزمون أنفسهم كسرَ ثانية إذا جُمع ؛ كما جمعُوا ظُلْمة ظُلُمات فرفعوا ثانيها إتباعاً لرَفعة أوّلها ، وكما قالوا: حَسراتٌ فأَتبَعُوا ثانيها أولها . فلمَّا لزمهم أَن يقولوا: بِنعِمات استثقلوا أن

تتوالى كسرتان فى كلامهم ؛ لأنا لم نجد ذلكَ إلاَّ فى الإبل وحدها . وقد احتمله بعض العرب فقال: نِعماتٌ وسِدِراتٌ .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

وقوله: ﴿ كُلُّ خَتَّارٍ . . . ﴾

الخَتَّار: الغدَّار وقوله ﴿ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ فشبّهه بالظلل والموج واحد لأن الموج يركب بعضهُ بعضاً ، ويأتى شىءٌ بعد شىء فقال ﴿ كَالظُّلَلِ ﴾ يعنى السحاب .

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

(41/606)

وقوله: ﴿ بِاللَّهِ الْغَرُورُ . . . ﴾

ما غَرّك فهو غَرُور ، الشيطان غَرور ، والدنيا غرور . وتقول غررته غُروراً ولو قرئت ولا يغرنّكم بالله الغُرور يريد زينة الأشياء لكان صواباً .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا

تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ . . . ﴾

فيه تأويل جحد المعنى: ما يعلمهُ غيره ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ خرج هذا على الجحد . والمعنى الظاهرُ والأوّل معروف بالضمير للجحد .

وقوله ﴿ بِأَيِّ أَرْضٍ ﴾ وبأيّة أرض . فمن قال ﴿ بِأَيِّ أَرْضٍ ﴾ اجتزأ بتأنيث الأرض من أن يُظهِر فى أىّ تأنيثا آخر ، ومن أنَّث قال قد اجتزءوا بأىّ دون ما أضيف إليه ، فلا بدّ من التَّأنيث ؛ كقولك: مررت بامرأة ، فتقول: أيَّةٍ ، ومررت برجلين فتقول أيَّيْنِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 326. 330 ﴾

(42/606)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة لقمان

(لهو الحديث) [6] [الأسمار] والأخبار الكسروية . وقيل: الغناء . (وهناً على وهن) [14] أي: نطفة وجنيناً . وقيل: ضعف الحمل على ضعف/الأنوثة . (أن اشكر لي ولوالديك)

اشكر لي حق النعمة ، ولهما حق التربية . (وإن جاهداك) [15] أي: جهدا في قبولك ، وجهدت في الامتناع ليكون مفاعلة . (إنها إن تك) [16] بلغت . إنها إن تك: الهاء كناية عن الخطيئة ، [ويجوز أن تكون] عائدة إلى الحسنة ، كقوله: (إنها تذكرة) . (يأت بها الله) بجزائها . وقيل: إنها الرزق ، فلو كان تحت الأرض ، ولو كان أقل [قليل] لأخرجه إليك .

(ولا تصعر خدك) [18]

لا تكثر إمالة الخد عن الناس صداً وإعراضاً . وقيل: هو التشدق عند التكلم تجبراً وتعمقاً . قال الحطيئة: 937- أم من لخصم مضجعين قسيهم صعر خدودهم عظام [المفخر] . (لصوت الحمير) [19] إذ أوله زفير ، وآخره شهيق . وليس فيما يعايش الناس أرفع صوتاً من الحمير . (كنفس واحدة) [28] كخلق نفس واحدة .

(والبحر) [27] بالرفع على الابتداء ، والخبر: (يمده) . وإنما حسن الابتداء في أثناء الكلام ، لأن قوله (ولو أنما في الأرض) قد فرغ فيها "إن" من عملها . وقيل: إن واو (والبحر) واو الحال وليست للعطف ، أي: والبحر هذه حاله . (فمنهم مقتصد) [32] عدل وفي بما عاهد الله عليه في البحر . (كل ختار) جاحد . وقيل: غدار .

[تمت سورة لقمان] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1111.1114 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (لقمان)

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾

[قال] ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأن قوله ﴿ الم [1] تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [2] معرفة فهذا خبر المعرفة .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

وقال ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ وهي "بِأَنِ اشْكُرِ اللهَ" .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

وقال ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أيْ في انقضاءِ عامين ولم يذكر الانقضاء كما قال ﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ يعني أَهْلَ القرية .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

وقال ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ بلغت [159 ب] أي: "إِنْ تَكُنْ خَطِيئَةٌ مِثْقَالَ حَبَّةٍ" ورفع

بعضُهم فجعلها "كانَ" الذي لا يحتاج إلى خبر كأنه "بلغ مثقالُ حَبَّةٍ" .

وقال ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ يقول "إِنْ تَكُنْ المَعْصيةُ مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدل" .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

وقال ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ ﴾ هنا ألف استفهام ادخلها على واو العطف .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(44/606)

وقال ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ﴾ رفع على الابتداء ونصب على القطع . ورفع الاقلام على خبر "أَنَّ"* .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

وقال ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ وقد تقول: "أَيُّ امْرَأَةٍ جاءَتْكَ" و"أَيَّةُ امْرَأَةٍ جاءَتْكَ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 477.478 ﴾

(45/606)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة لقمان

6 - وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ نزلت في النّضر بن الحارث ، وكان يشتري كتبا فيها أخبار الأعاجم ، ويحدث بها أهل مكة ، ويقول : «محمد حدثكم أحاديث عاد وثمود ، وانا أحدثكم أحاديث فارس والرّوم وملوك الحيرة» «1» .

14 - وَهْناً عَلى وَهْنٍ أي ضعفا على ضعف .

فِصالُهُ : فطامه .

16 - يَأْتِ بِهَا اللَّهُ أي يظهرها اللّه ، ولا تخف عليه .

18 - وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أي تعرض بوجهك وتتكبر .

و«الأصعر» من الرجال : العرض بوجهه [كبرا] .

19 - إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ أي أقبحها . عرّفه قبح رفع الصوت في المخاطبة وفي الملاحاة ،

بقبح أصوات الحمير : لأنها عالية «2» .

---

(1) ورد عن ابن عباس أن النضر بن الحارث كان يشتري المغنيات فلا يسمع أحدا يريد الإسلام إلّا انطلق به إلى قنيته المغنية فيقول لها : اسقيه خمرا وغنيه ، ويقول له : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصوم والصلاة والقتال بين يديه .

(2) قال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير وآخره شهيق .

(46/606)

---

32 - وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ : جمع «ظلة» . يريد : أنّ بعضه فوق بعض ، فله سواد من كثرته . والبحر ذو ظلال لأمواجه . قال الجعديّ :

يعارضهن أخضر ذو ظلال على حافاته فلق الدّنان

يعني : البحر .

و(الختّار) : الغدّار . و«الختر» : أقبح الغدر ، وأشدّه .

33 - لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ أي لا يغني عنه . ولا ينفعه .

الْغَرُورُ : الشيطان ، و«الغرور» بضم الغين : الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 294. 295 ﴾

وقال الغزنوى :

سورة لقمان

6 لَهْوَ الْحَدِيثِ : الغناء «1» . نزلت في قرشي اشترى مغنية «2» .

وقيل «3» : الأسمار الكسروية اشتراها النّضر بن الحارث المقتول في أسرى بدر .

12 وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ : قال طاوس : الْحِكْمَةَ : العقل ، فقال له مجاهد : ما العقل ؟ قال : [يؤتيها] «4» من يطيع اللّه ، وإن كان أسود

---

(1) ثبت هذا المعنى في عدة آثار وردت عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما من الصحابة والتابعين رضوان اللّه عليهم .

راجع ذلك في الأدب المفرد : 275 ، وتفسير الطبري : (21/ 61 - 63) ، والمستدرك للحاكم : 2/ 411 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة لقمان» ، والسنن الكبرى للبيهقي :

10/ 225 ، كتاب الشهادات ، باب «الرجل يتخذ الغلام والجارية المغنيين ويجمع عليهما ويغنيان» .

وانظر تفسير ابن كثير : (6/ 333 ، 334) ، والدر المنثور : (6/ 504 ، 505) .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 63 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 504 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وابن مردويه عن ابن عباس أيضا .

وانظر أسباب النزول للواحدي : 400 ، وتفسير الماوردي : 3/ . 277

(3) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 326 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 276 عن الفراء والكلبي .

ونقله الواحدي في أسباب النزول : 400 عن الكلبي ، ومقاتل .

وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان : 4/ 305 ، حديث رقم (5194) عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

والمراد ب «الأسمار الكسروية» كتب الأعاجم وحكاياتهم وأساطيرهم القديمة .

(4) عن نسخة «ج» .

اللّون ، منتن الريح ، قبيح المنظر ، صغير الخطر «1» .

14 وَهْناً عَلى وَهْنٍ : نطفة وجنينا «2» . أو ضعف الحمل على ضعف الأنوثة «3» .

أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوالِدَيْكَ : اشكر لي حق النعمة ، ولهما حق التربية «4» .

15 وَإِنْ جاهَداكَ : جهدا في قبولك الشرك وجهدت في الامتناع .

وسئل الحسن : أرأيت إن قالا له : لا تصل في المسجد . قال :

فليطعهما ، فإنّما يأمرانه به شفقة أن يصيبه شيء «5» .

16 إِنَّها إِنْ تَكُ : الهاء كناية عن الخطيئة ، أو عائدة إلى الحسنة «6» .

ويجوز رفع مِثْقالَ «7» مع هذا التأنيث لأنّ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ/ خَرْدَلٍ : معناه خردلة .

و«المثقال» مقدار يوازن غيره ف «مثقال حبة» :

مقدار وزنها ، وقد كثر المثقال على مقدار الدينار ، فإذا قيل : مثقال كافور فمعناه :

مقدار الدينار الوازن ، وعلى هذا قول أبي حنيفة «8» في استثناء

---

(1) لم أقف على تخريج هذا الخبر .

(2) ذكر نحوه الماوردي في تفسيره : 3/ 280 .

(3) انظر هذا القول في تفسير الطبري : 21/ 69 ، وتفسير الماوردي : 3/ 280 ،

والمحرر الوجيز : 11/ 494 ، وزاد المسير : 6/ 319 .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 280 ، والقرطبي في تفسيره : 14/ 65 .

(5) لم أقف على تخريج هذا الخبر.

(6) تفسير الطبري: 21/ 71، وتفسير البغوي: 3/ 492، والمحرر الوجيز: 11/ 499، والبحر المحيط: 7/ 187. [.....]

(7) وهي قراءة نافع كما في السبعة لابن مجاهد: 513.

وانظر توجيه هذه القراءة في معاني القرآن للفراء: 2/ 328، ومعاني القرآن للزجاج: (4/ 197، 198)، وحجة القراءات: 565، والكشف لمكي: 2/ 188، والبحر المحيط: 7/ 187.

(8) وهو قول أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، كما في تحفة الفقهاء للسمرقندي: (3/ 327 - 328).

وانظر أقوال العلماء في هذه المسألة في الاستغناء للقرافي: (723 - 724).

(49/606)

المقدر من المقدور وإن لم يكن جنسا.

18 وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ: لا تكثر إمالته كبرا وإعراضا «1».

ولا تصاعر «2» : لا تلزم خدك الصّعر .

19 لَصَوْتُ الْحَمِيرِ : إذ أوّله زفير وآخره شهيق «3» .

28 كَنَفْسٍ واحِدَةٍ : كخلق نفس واحد «4» .

27 وَالْبَحْرُ : بالرفع على الابتداء ، والخبر يَمُدُّهُ وحسن الابتداء في أثناء الكلام لأنّ قوله :

وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ قد فرغ فيها «أن» من عملها .

وقيل : واو وَالْبَحْرُ واو حال وليس للعطف ، أي : والبحر هذه حاله «5» .

31 لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ : كل معتبر مفكّر في الخلق .

32 مَوْجٌ كَالظُّلَلِ : في ارتفاعه وتغطيته ما تحته .

فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ : عدل وفيّ بما عاهد اللّه عليه في

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 127 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 344 ، ومعاني الزجاج : 4/ 198 ، والمفردات للراغب : . 281

(2) هذه قراءة نافع ، والكسائي وحمزة ، وأبي عمرو ، كما في السبعة لابن مجاهد : 513 ، والتبصرة لمكي : 295 ، والتيسير للداني : 176 .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 77 عن قتادة ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 284 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 524 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة أيضا .

(4) ينظر هذا القول في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 128 ، وتفسير الطبري : 21/ 82 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 200 ، وتفسير الماوردي : 3/ 286 .

(5) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 200 ، وانظر إعراب القرآن للنحاس : (3/ 287 ، 288) ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 256 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1045 .

(50/606)

البحر «1» .

كُلُّ خَتَّارٍ : غدّار «2» ، وختره الشراب : أفسد مزاجه «3» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 658. 661 ﴾

---

(1) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 288 عن النقاش ، ونص كلامه : معناه : عدل في العهد ، يفي في البر بما عاهد اللّه عليه في البحر» .

(2) غريب القرآن لليزيدي : 299 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 345 ، وتفسير الطبري :

21/ 85 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 201 ، والمفردات للراغب : 142 .

(3) اللسان : 4/ 229 (ختر) .

(51/606)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة لقمان

عدد 7 - 57 - 31

نزلت بمكة بعد الصافات عدا الآيات 27 ، 28 ، 29 فإنهن نزلن بالمدينة وهي أربع وثلاثون آية ، وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة وألفان ومئة وعشرة أحرف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الم" 1 تقدم ما فيه قال أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه إن للّه في كل كتاب سرا وسر القرآن في أوائل السور ، ونقل عن علي كرم اللّه وجهه أنه كان يقول يا كهيعص يا حمعسق كأنه بعدها من أسماء اللّه واللّه أعلم بما فيه .

وفيه من مفاتح أسماء اللّه الحسنى اللّه

(52/606)

العادل المنتقم راجع أول سورة يونس المارة وما ترشدك إليه "تِلْكَ" الآيات المنزلة عليك يا أكرم الرسل هي "آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ" 2 المثبت فيه كل ما كان وسيكون بأنه كائن بمقتضى الحكمة البالغة التي لا تنخرم وقد أنزلنا عليك يا سيد الرسل هذه الآيات لتكون "هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ" 3 الذين يعملون الحسنات لأنفسهم ولغيرهم الموصوفين بقوله عزّ قوله "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" 4 بأنها حق واقع لا محالة بلا شك ولا ريب "أُولَئِكَ" المتصفون في هذه الصفات كائنون "عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ" بطرق الصواب السداد "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" 5 الفائزون بكل مطلوب الناجحون بمقاصدهم الناجون من كل سوء الظافرون بآمالهم وما يبتغونه من الدنيا والآخرة ، قال تعالى "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ" بأن يستبدل الزّمر والغناء والمعازف وشبهها بكلام اللّه تعالى ويختارها عليه وذلك أن البيع معاوضة شيء بشيء فهو استبدال معنى عبّر عنه بالشراء "لِيُضِلَّ" الناس بغير علم ولا هدى "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" العدل السوي أي انه ما شرى ذلك إلا ليصد الناس عن دين اللّه الذي هو الطريق المستقيم والأمر القويم "وَيَتَّخِذَهَا" تلك الطريقة الحقة "هُزُواً" يسخر بها ويحمل الناس على الاستهزاء بها "أُولَئِكَ" الذين هذه حالتهم "لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ" 6 عند اللّه يذلهم به ويخزيهم "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ" الذي هذا شأنه "آيَاتُنَا" المنزلة على رسولنا ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر

ويزجر الذين يضلون أنفسهم وغيرهم بها "وَلَّى" أدبر بظهره معرضا عنها و"مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا" لأنه لم يلتفت إليها بقلبه ولا بقالبه "كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا" ثقلا يمنعه عن السمع ولا وقر بها "فَبَشِّرْهُ" يا سيد الرسل على

(53/606)

طريق التهكم إذ وضع بشره بدل أنذره وخوفه "بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" 7 في الدنيا والآخرة.

مطلب تحريم الغناء وبيع الغانيات ورواسي الأرض:

نزلت هذه الآية بالنضر بن الحارث بن كلدة كان يتجر في الحيرة فيأتي بأخبار العجم، قيل إنه جاء بأخبار كليلة ودمنة معربة (وهي معروفة) إلى الحجاز وصار

(54/606)

يحدث بها قريشا ويقول لهم إن محمدا يحدثكم عن عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة، ويشتري لهم القينات والمغنيين ويجمعهم إليه صباح مساء ليسمعهم تلك الأساطير والغناء من القيّنات والزمر والمعازف من المغنين لئلا يجتمعوا إلى

محمد ويسمعوا كلام اللّه ، ومن هذا يعلم كثافة جهله لأن محمدا صلّى اللّه عليه وسلم يأتيهم بشيء قديم لا يعلمه العرب ولا العجم ولا آباؤهم من المغيبات والأحكام والقصص والأخبار والأمثال والحدود مما لم يكن في قرنهم الذين هم فيه ولا الذي قبله ، أما أخبار الأكاسرة وما في كليلة ودمنة فهي أمور واقعة في قرنهم وزمنهم وأخبارها متناقلة فيما بينهم غير خافية على آبائهم الموجودين معهم ومثل هذا لا يعد غيبا ولا معجزا ولا يصح أن يتحدى به لأن كثيرا منهم من يحسن نظم مثله بخلاف آيات اللّه التي هي من الغيب ولا يقدر أحد أن يأتي بمثلها لأنها مما يعجز عنه البشر ، روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي أمامة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا يحل تعليم المغنيات (الغناء) ولا بيعهن (ليغنين) وأثمانهن حرام وفي مثل هذا نزلت (وَمِنَ النَّاسِ) الآية وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث اللّه تعالى له شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت – أخرجه الترمذي – ولفظه عن أبي أمامة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : لا تبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا خير في تجارتهن وثمنهن حرام وفي مثل هذا نزلت (وَمِنَ النَّاسِ) الآية إلخ . وجاء عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من استمع إلى قينة صبّ في آذانه الآنك (الرصاص المذاب) يوم القيامة .

ولا شك أن الغناء مفسدة للقلب منفذة للمال مسخطة للرب وكلما أشغل عن ذكر اللّه تعالى فهو لهو ولغو واللّه تعالى يقول :

(55/606)

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) الآية 3 من سورة المؤمنين الآتية ، وقال تعالى :
(وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً) الآية 32 من الفرقان المارة في ج 1 ، وفي مدح اللّه تعالى الذين يعرضون عن اللغو ذم للذين يتوغلون به ، هذا وأن الأحاديث كالأساطير والأضاحيك من كل ما لا يعتد به ولا خير فيه من الكلام ويستعمل في قليل الكلام وكثيره لأنه يحدث شيئا فشيئا محشوّ بالكذب فسماعها من اللغو
المنهي عنه شرعا والنضر المذكور قتله رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعد واقعة بدر ، وقد عرف من مغزى هذه الآية ومعنى الأحاديث المارة ذم الغناء صراحة وقد تضافرت الآثار وكلم العلماء والأخيار على ذمه سواء كان برفع الصوت أو خفضه في كل مكان وزمان ، أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال :
إذا ركب الرجل الدابة ولم يسم ردفه الشيطان فقال تغنّه ، وإن كان لا يحسن قال تمنّه ، وذلك ليشغله عن ذكر اللّه تعالى .

وأخرجا أيضا عن الشعبي قال عن القاسم بن محمد إنه إذا سئل عن الغناء قال للسائل أنهاك عنه وأكرهه لك ، فقال السائل أحرام هو ؟ قال انظر يا ابن أخي إذا ميز اللّه تعالى الحق من الباطل في أيهما يجعل سبحانه الغناء ، يريد أنه يجعله في الباطل إذ ليس بحق ليكون مع الحق ، وما بعد الحق إلا الضلال ، ويكفي في ذمه أنه من الشيطان كما مر في الحديث السابق من أن الشيطان يوسوس له فيه ، حتى انه إذا عرف أنه لا يحسنه وسوس له بالتمني لما يخطره بباله ، فالغناء من أهواء النفس ، والتمني رأسمال المفلس .

وأخرجا عنه أيضا قال : لعن اللّه تعالى المغني والمغني له .

وجاء في السنن عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الغناء ينبت النّفاق في القلب كما ينبت الماء البقل .

(56/606)

وقال يزيد بن الوليد الناقص : يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة وانه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء داعية الزناء وإنما سمي ناقصا مع أنه أعدل ملوك بني أمية عدا عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه لأنه يعد من جملة الخلفاء الراشدين لنقصه أعطية الجند ويسمى عمر

الأشج لشجة فيه ، ولذا يقال أعدل ملوك الأمويين الأشج والناقص .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إن اللّه تعالى حرم القيناء وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأت الآية المارة .

الحكم الشرعي : قال القاضي أبو الطيب والقاضي عياض والقرطبي والماوردي نقلا عن الإمام أبي حنيفة إنه حرام ، وقال في التتارخانية إن التغنّي حرام في جميع الأديان ، وذكر في الزيادات أن الوصية للمغنين والمغنيات مما هو معصية عندنا وعند أهل الكتاب ، وعده صاحبا الهداية والذخيرة

من الكبائر ، ويستثنى منه التغني بالأعياد والأعراس ومن يغني لنفسه لدفع الوحشة وما كان فيه وعظ وحكمة ، ويدخل فيه ما يفعله بعض أهل الطرائق بحضور الولدان المرد والنساء وهو أشد حرمة ، لأن الذي يراه من مثلهم يظن جوازه من قبل المشايخ الذين أسسوا هذه الطرق وحاشاهم من ذلك وإنما يجوزون ما كان للّه وفي اللّه وإلى اللّه من القصائد والأشعار المملوءة نصحا وزجرا عن المناهي والملاهي وترغيبا للتوغل بذكر اللّه ومحبة أحبابه وفعل الخير من مجالسهم المباركة ، أما غير هذا فهو دخيل عليهم من ذوي الأهواء الفاسدة ولهذا قال مالك رضي اللّه عنه إنما يفعله (أي الغناء المؤدي للهو واللغو وغيره) عندنا الفساق ، ومن أخذ جارية وظهرت مغنية فله ردّها بالعيب وأجمعت

الحنابلة على تحريم الغناء .

والقول الوسط :

(57/606)

إذا لم يكن في الغناء مفسدة كشرب الخمر والنظر إلى الأجنبية والمرد وقول الزور ومما يرغب إلى الشهوات الدنيئة فهو مباح ، وعلى كل حال تركه أولى لأنه يشغل عن ذكر اللّه في الدنيا ويكون في الآخرة مع الباطل في وزن الأعمال .

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" زيادة على إيمانهم في الدنيا "لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ" 8 في الآخرة جزاء أعمالهم الحسنة "خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا" وهو لا يخلف وعده "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" 9 الذين يهين أعداءه بغلبته القاهرة ويعزّ أولياءه بحكمته البالغة وهو "الذي خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ" في هذه الجملة قولان صحيحان فمن قال إنه لا عمد لها البتة وقف على قوله (عَمَدٍ) ، ومن قال إن لها عمدا غير مرئية وقف على قوله "تَرَوْنَها" أي إن لها عمد عظيمة ولكنكم لا ترونها أو هي بلا عمد كما ترونها وكل بليغ في القدرة والآية محتملة للوجهين واللّه قادر على الأمرين لا يعجزه شيء ، وجيء بهذه الآية كالاستشهاد على عظيم قدرته وكمال عزته وبليغ حكمته التي هي ملاك العلم وإتقان

العمل وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وإبطال مادة الشرك وتبكيت أهله "وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ" جبالا شامخات ثوابت "أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ" لئلا تتحرك وتضطرب بكم أيها الناس فجعلها ساكنة فيما ترون من نعم اللّه عليكم ومن تمام النفع بها لأنها لو خلت من هذه الثوابت لمادت بالمياه المحيطة بها الغامرة

لأكثرها وبالرياح العواصف التي تقتضي الحكمة هبوبها وهذا مبني على كونها كروية كما ذهب إليه الغزالي وأكثر الفلاسفة ، وإلا فلو كانت بسيطة لما أثرت فيها الرياح والمياه على فرض عدم وجود الرواسي .

(58/606)

هذا ولا دلالة في الآية على انحصار حكمة اللّه بإلقاء الرواسي فيها لسلامتها من الميد بل إن لذلك حكما أخرى لا نعرفها وكذا لا دلالة فيها على عدم حركتها على الاستدارة دائما كما ذهب إليه أصحاب فيثاغورس وغيره وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في الآية 19 من سورة الحجر المارة .

واعلم أن هذه الآية الكريمة تشير إلى ما عبر عنه الجغرافيون بالقشرة الباردة أيضا لأن الرواسي هي الصخور الجامدة في أديم الأرض فانظر رعاك اللّه هل كان في زمن نزول القرآن

على حضرة الرسول الأعظم من يعرف أو يعلم أن الأرض كانت مائرة ثم برد ظهرها فتكونت قشرتها ، كلا ثم كلا ، ولكنه من غيب اللّه تعالى أجراه بواسطة أمينه جبريل عليه السلام على لسان محمد رسوله صلّى اللّه عليه وسلم راجع الآية 27 من سورة الحجر المارة أيضا .

واعلم أن الأفرنج لم يتوسعوا في معلوماتهم هذه إلا بعد نزول القرآن لأنهم يعرفونه من عند اللّه وأن ما فيه حق وصدق لذلك تدبروا فيما لا تسعه عقول الآخرين وتفكروا فيما تبحّ فيه أقوالهم وتعجز عنه أفعالهم وأعمالهم هذه التي صار الآن يضرب بها وبمعلوماتهم وموضوعاتهم الأمثال فيما هو من أمور الدنيا ولوازمها ونحن تقهقرنا عن ذلك ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، قال تعالى "وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ" من جميع انواع الدواب والدابة تطلق على ما دبّ على وجه الأرض وفي بطون المياه من إنسان وحيوان وطير وحوت ووحش وحشرات وغيرها "وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً" على تلك الأرض "فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ" وصنف "كَرِيمٍ 10" حسن كثير النفع

(59/606)

"هذا" الذي تشاهدونه أيها الناس وما قص عليكم من المخلوقات كلها "خَلْقُ اللَّهِ" الذي يدعوكم لعبادته رسولكم محمد بن عبد اللّه أسوة بمن تقدمه من الرسل الكرام "فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ" من شركائكم الذين هم في غاية السفالة وأنتم تعبدونها وتتخذونها آلهة فإنها لم تخلق أو ترزق شيئا "بَلِ الظَّالِمُونَ"

عاجزون عن جواب الحق لا يعترفون لنا بذلك لأنهم عن معرفتنا "فِي ضَلالٍ مُبِينٍ 11"

ظاهر يمنعهم من الاعتراف بنا لا يستطيعون إخفاءه.

مطلب من هو لقمان وحكمه ووصاياه وبر الوالدين:

ثم شرع يقص على رسوله من علم غيبه ليقصه على قومه فقال تعالى قوله "وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ" هو ابن باعوراء بن ناحود بن تارخ آزر والد إبراهيم عليه السلام، وقيل إن لقمان هذا الذي يقص اللّه تعالى علينا أخباره عبد حبشي، وقيل إنه أسود زنجي، وقيل السود أربعة: لقمان وبلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب والنجاشي ملك الحبشة الكائن زمن الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ورضي عنهم وسيأتي ذكره في الآية 69 من المائدة في ج 3

واتفق الحكماء على أن لقمان كان حكيما لا نبيا قال في بدء الأمالي:

وذو القرنين لم يعرف نبيا كذا لقمان فاحذر عن جدال

و قالوا إنه عاش ألف سنة حتى أدرك داود عليه السلام وتلمذ لألف نبي وتلمذ له ألف نبي وكان مفتيا وقاضيا في بني إسرائيل قبل ظهور داود وهذا من خصائصه ومقتضيات شرع من قبله أما في زماننا هذا وشريعة من قبلنا من هذه الأمة الإسلامية عدم جواز الجمع بين الإفتاء والقضاء في رجل واحد لأن الإفتاء غير القضاء قالوا ونودي في المنام هل نجعلك خليفة بين الناس فقال إن خيرني ربي قبلت العافية ولم اختر البلاء وإن عزم فسمعا وطاعة فإن فعل بي ربي أعانني وعصمني ، فقالت له الملائكة وهو لا يراهم ولم يا لقمان ؟ قال إن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن عدل فبالحري أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، وذل الدنيا المؤدي إلى الجنة خير من شرفها الموصل إلى النار ومن اختارها على الآخرة فتنته ولم يصب نعيم الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه وبلاغته وكثير معناه فنام وانتبه وإذا هو يتكلم بالحكمة وهي الإصابة بالرأي والحنكة في الأمر وشيء يجعله اللّه تعالى في القلب فينوّره فيدرك فيه كما يدرك الناس بأبصارهم بل إدراك البصيرة آكد وأحق وأصدق لأن ما يدرك بالبصر يحتمل الخطأ وما يدرك بالبصيرة لا يحتمله ، وقالوا إنه تكلم باثنى عشر بابا من الحكمة أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم ، وقالوا إن سيده قال له اعطني أطيب مضغتين من الشاة فأعطاه القلب واللسان ، ثم قال له أعطني أخبثهما فأعطاهما إياه أيضا ، فسأله عن ذلك ، فقال لا شيء أطيب منهما إذا

طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا .

ومن حكمه ليس مال كصحة ، ولا نعيم كطيب النفس ، وشر الناس الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئًا .

وقوله لابنه إن الدنيا بحر عميق غرق فيه كثيرون فاجعل سفينتك فيها تقوى اللّه وحشوها الإيمان وشراعها التوكل على اللّه ، لعلك تنجو ولا أراك ناجيا .

أي لأن النجاة بيد اللّه يهبها لمن يشاء من عباده ممن يوفقه للعمل الصالح .

(61/606)

ولهذا قرن العمل الصالح مع الإيمان في أكثر آي القرآن حتى كأن الإيمان بلا عمل لا ينفع كالعمل بلا إيمان .

وقدمنا أن الإيمان وحده كاف للنجاة إذا شاء اللّه له الخلق والأمر .

ومن حكمه قوله : من كان له من نفسه واعظ كان اللّه له حافظا ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده اللّه عزا ، والذل في طاعة اللّه أقرب من التعزز في المعصية ، وضرب الوالد لولده كالسماد للزرع .

وقال يوما لابنه لا تطلب الإمارة حتى تطلبك فإن طلبتك أعنت عليها وإذا طلبتها وكلت

إليها ، يا بني زاحم العلماء بركبتيك وانصت لهم بأذنيك ، فإن القلب يحيا بنور العلم كما تحيا الأرض بماء السماء ، يا بني لا تضحك من غير سبب ولا تمش من غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك ، يا بني لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت .

وله حكم أخرى كثيرة أفاضها اللّه عليه من نور معرفته ولهذا أعطاه الحكمة ومن يعطها فقد أعطي خيرا كثيرا .

وكررت كلمة الحكمة بالقرآن سبع عشرة مرة في معان بالغة تكرمة لمن أوتيها فيا فوز من كانت الحكمة رائده في كل أحواله ، ويا سعادة من عامل الناس بها بأقواله وأفعاله .

قال تعالى لعبده لقمان "أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ" صنيعه بك ولطفه عليك ، وإن هنا مفسرة بمعنى أي لأن في إتيان الحكمة معنى القبول ولهذا فسرت بالشكر فإذا علم الإنسان أمرين أحدهما أهم من الآخر فإذا اشتغل بالأهم كان عمله موافقا لعلمه وإن أهمل الأهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة ، وقد أمره ربه بشكر نعمه وبين فائدتها بقوله "وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ" إذ يعود نفعه إليها بازدياد النعم ورضاء المنعم "وَمَنْ كَفَرَ"

نعم اللّه عليه فلم يؤد شكرها أو استعملها في معصيته فيرجع وبال كفره عليه "فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ" عنه غير محتاج لشكره "حَمِيدٌ 12" حقيق بأن يحمد نفسه بنفسه وإن لم يحمده أحد قمين بأن يحمده خلقه على السراء والضراء والشدة والرخاء ، وجدير بأن يشكر ولو لم ينعم عليه "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ" بتقوى اللّه والإحسان لخلقه أي اذكر يا محمد لقومك ما قاله لقمان لابنه من النصح "يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ" غيره بل اعبده خالصا باعتباره الإله الواحد الذي لا رب غيره "إِنَّ الشِّرْكَ" باللّه تعالى يا بني واتخاذ آلهة من دونه للعبادة أو إشراك غيره معه في أعمالك الصالحة "لَظُلْمٌ عَظِيمٌ 13" لا أعظم منه أبدا لكونه وضع الشيء في غير محله ، وهذا إشارة إلى التكميل لأن أعلى مراتب الإنسان الكمال في نفسه والتكميل لغيره ، فقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) إيماء إلى الكمال وإرشاده لابنه بما ذكر رمز إلى التكميل وكان رضي اللّه عنه أول ما بدأ بالإرشاد ابنه وبالأهم وهو الشرك إذ غلّظه بالوصف تحذيرا من قربانه ، وهذا أيضا من الحكمة لأن الأقرب أولى بالمعروف والأعظم وزرا أوجب بأن ينهى عنه أولا .

ومن حكمته أنه كان صحب داود عليه السلام وكان يشغله بسرد الدروع فيشتغل ولا يسأل عنه لما ذا هو ، فلما نظمها داود ونسجها ولبسها قال لقمان نعم لبوس الحرب هذا ، وقال الصمت حكمة وقليل فاعله ، فقال داود بحق سميت حكيما يا لقمان .

ثم قال له ذات يوم كيف أصبحت يا لقمان ؟ قال أصبحت بيد غيري ، فصعق داود لقوله

هذا ، وفي سكوت لقمان وعدم سؤاله داود عن صنع السرد أي الزرد وهو الحلق الذي تنسج منه الدروع إعلام إلى أن اتباع أمر النبي لازم فيما يعقل وما لا يعقل إظهارا للانقياد والخضوع له والتعبد للّه الذي أرسله .

(63/606)

قال تعالى "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ" أن يبرهما ويحسن إليهما مؤمنين كانا أو كافرين "حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً" بتعب ومشقة وضعف أوهن جسمها ثقله "عَلى وَهْنٍ" لأنه يتتابع عليها ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف الولادة وضعف الرضاع فيحل بها شدة بعد شدة ومشقة بعد مشقة من تعاهده ومراقبته ليل نهار وتنظيفه صباح مساء وانشغال قلبها عنده في كل لحظة "وَفِصالُهُ" فطامه عن الرضاع

الذي يكون "فِي عامَيْنِ" تعانيه به وهن أيضا ، والعامان لمدة الرضاع هي غايتها ، قال تعالى (حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ) الآية 233 من سورة البقرة ، وسنبين تفصيله هناك إن شاء اللّه القائل للإنسان "أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ" فكما أني خلقتك فهما سبب في نشأتك ولهما حق التربية عليك كما لي حق

(64/606)

الخلق ولهذا فإن من لم يشكرهما لم يشكر اللّه ، وبما أن حقهما ينقطع في الدنيا وحقه باق قال "إِلَيَّ الْمَصِيرُ 14" في الآخرة لا لغيري فإذا أحسنت لي بالعبادة ولهما بالإحسان وشكرت نعمتنا أثبناك وإلا عاقبناك ، واعلم أيها الإنسان أنك مكلف بالإحسان لوالديك "وَإِنْ جاهَداكَ" حملاك وأقسراك "عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي" شيئا "ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" من أصناف الأوثان وكلفاك أن تعبدها معي أو من دوني "فَلا تُطِعْهُما" في هذا إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ومع هذا فعليك أن تديم الإحسان إليهما إذ يفهم من ظاهر الآية وجوب طاعتهما في كل شيء عدا الإشراك باللّه مكافأة لعظيم حقهما ، ومما يؤيد هذا قوله جل قوله "وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً" ولا يمكن مصاحبتهما في الدنيا بالمعروف والحسنى إلا بطاعتهما فيما يأتيان ويذران ومعاملتهما بجميل الخلق والحلم احتمال الأذى والصفح عن غلطتهما وادامة البر والصلة لهما ولمن يوادهما ولو كانا كافرين ، ومن البر إرشادهما بالمعروف إلى دين الحق والدعاء لهما بالتوفيق إذا لم يفعلا ، وعلى كل تجب طاعتهما إلا في الإشراك فالأمر بطاعتهما عام خص منه الشرك فقط وما هو معصية كما مر ، وقدمنا ما يتعلق بهذا بصورة مفصلة في الآية 24 من سورة الإسراء في ج 1 فراجعه ففيه كفاية ، وقد ذكر اللّه تعالى مشقة أمه دون أبيه لأن مشقة الأب عبارة عن الكسب والنصب في سبيله والتألم والسهر لما يؤذيه مما قد تشاركه فيه الأم وتنفرد هي بذلك الوهن العظيم وإنّ ما ينفرد

به الأب لا يعد شيئا بالنسبة لما تنفرد فيه الأم مدة حمله ورضاعه فضلا عن ولادته التي لا يضاهيها وهن .

ثم أمر اللّه هذا الإنسان الذي خلقه وصوره وأحسن خلقه وهداه النجدين بقوله "وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ" الأنبياء فمن دونهم الأمثل فالأمثل وتخلق بأخلاقهم في الدنيا في ذلك كله وغيره ، فيها إشارة إلى اتباع الشيخ

(65/606)

الكامل من السادة الصوفية ، تأمل وراجع الآية 38 من سورة المائدة في ج 3 والآية 120 من التوبة في ج 3 والآية 51 من الإسراء في ج 1 ، "ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ" جميعا في الآخرة أنت وأبواك وولدك والخلق كلهم "فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 15" في الدنيا إذ لا يخفى عليّ شيء من عملكم السري والجهري الخالص والمشوب ، وسأجازي كلا بحسبه .

وقد جاءت هاتان الآيتان معترضتين بين وصية لقمان لابنه على سبيل الاستطراد لما فيهما من المناسبة لما قبلهما ولما فيهما من النهي عن الشرك الذي هو أعظم المنهيات .

قال بعض المفسرين إن المراد بهاتين الآيتين أبو بكر رضي اللّه عنه لأنه حينما أسلم جاء إليه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، فأنبوه على إسلامه

وصار يأمرهم بالإيمان ويحذرهم من البقاء على الشرك ولم يزل بهم حتى أسلموا بإرشاده ، نقلا عن ابن عباس رضوان اللّه عليهم أجمعين .

مطلب قوة إيمان سعد بن أبي وقاص وآداب المشي والمكالمة ومعاملة الناس :

وقال بعضهم إنها نزلت في سعد ابن أبي وقاص لأنه لما أسلم قالت له أمه :

لتدعن هذا الدين أو أترك الأكل والشرب والاستظلال حتى أموت فتعير فيّ وبقيت ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب ولا تستظل وهو يراجعها ويتلطف بها ويقطع أملها من الرجوع عن الدين الحق ، ولم تفعل وأصرت على ما عزمت عليه ، فقال لها : واللّه لو كان لك مائة نفس وخرجت واحدة تلو الأخرى ما تركت ديني ، فلما رأت ذلك منه عادت فأكلت وشربت واستظلت بعد أن أيست من رجوعه عن دينه رحمه اللّه ورضي عنه وحشرني معه لم تأخذه رحمه اللّه الأنفة الجاهلية التي كانت قريب عهد به لصلابته في دينه الذي اعتنقه حديثا كأنه كان قديما متلبسا به وشدة عزمه وحزمه ورغبته في الدين الحق ومن يهده اللّه فلا مضل له أبدا ، على أن هذه الآية عامة تحتمل هذين السببين وغيرهما .

(66/606)

قال تعالى حكاية عن عبده لقمان "يا بُنَيَّ إِنَّها" أي الخطيئة التي تعملها "إِنْ تَكُ" في الصغر والقلة "مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ" أو أقل وإنما ذكر اللّه هذه الحبّة لأنها أكثر ما تكون في أقوال العرب يضربون بها الأمثال عند المبالغة في قلة الشيء ، وهذه الآية جواب عن قول ابن لقمان لأبيه يا أبت إذا أخطأت ولم يرني أحد هل أحاسب عليها أم لا ؟ فأجابه بما ذكر اللّه

(67/606)

وزاده تأكيدا بقوله "فَتَكُنْ" هذه الحبة "فِي صَخْرَةٍ" أي في بطنها ووسطها "أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ" بأن يستخرجها ويحاسب صاحبها عليها ويعاقبه من أجلها وهو يعلم ذلك ويعلم ما هو أدق منه ، هذا إذا عملها ، أما إذا كانت نية وحزما وعزما فقط فإنه يحاسبه عليها ولا يعاقبه ، وإن كان امتناعه عن فعلها مخافة اللّه فإنه يثاب عليها كما سيأتي تفصيله في الآية 284 من سورة البقرة في ج 3 "إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ" أيها الإنسان بعباده يعطف عليهم "خَبِيرٌ 16" بمكان وزمان الخطيئة التي تصدر من عبده وكذلك جميع ما يقع في كونه قليلا كان أو كثيرا ليلا أو نهارا "يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ" لربك "وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ" غيرك "عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ" من الأذى وتحمل سوء أخلاق غيرك ولا تقابل أحدا بما يكره "إِنَّ ذلِكَ" الذي أمرتك به كله هو "مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

17 " المقطوعة المتحتمة على البشر تشير هذه الآية إلى أن هذه الأمور الأربعة مأمور بها كل الأمم وهو كذلك إذ لا تخلو أمة من التعبد بها قال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ) الآية 6 من سورة الزمر ، وقال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً) الآية 14 من سورة الشورى الآتيتين ، لأن المرسل الشارع واحد والمرسلين على طريقة واحدة والمرسل إليهم مختلفون فهم الذين يغيرون ويبدلون في الشرائع ، قال تعالى "وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ" وجهك من اطلاق الجزء وإرادة الكل "لِلنَّاسِ" فتعرض به أنفة منهم وتكبرا عليهم بل قابلهم به كله بطلاقة وبشاشة ولين جانب وعطف ولطف وموعظة حسنة "وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً" خيلاء تعاظما على الناس وبطرا أو تعجبا وفرحا وأنانيّة بنفسك الخبيثة "إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ" 18 على الناس

(68/606)

بما يراه لنفسه من المناقب عليهم هذا وما قاله بعض المفسرين من أن المراد بقوله تعالى (وَلا تُصَعِّرْ) إلخ أي لا تذلل نفسك من غير حاجة فتلوي عنقك لا يناسب ما بعدها وأن تأويله بميله عن الناس أولى بالمقام لأنه من فعل المتكبرين المنهي عنه ، قال ابن عباس رضي اللّه عنهما :

وكنا إذا الجبار صعر خدّه أقمنا له من ميله فتقوما

وسياق ما قبله النهي عن أفعال المتجبرين وكذلك سياق ما بعده وهو قوله "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ" توسط وليكن بين الهرولة والتبختر وأن يكون تؤدة بالسكينة والوقار لأن الهرولة تذهب بهاء المؤمن والتبختر من الكبر وكلاهما مذموم راجع الآية 37 من الإسراء في ج 1 ، وقوله تعالى "وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ" ما استطعت وكلم الناس بقدر ما يسمعون ففيه الوقار لك والكرامة لمن تكلمه وكانت العرب في الجاهلية تفتخر بجهارة الصوت وتمدح به قال شاعرهم :

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرداء جهير النعم

فجاء الإسلام بذمه لأن خفض الصوت أوقر للمتكلم واحفظ للأدب وأدمث للخلق وأبسط لنفس السامع وأدعى لفهمه ويكفي فيه ذما قوله تعالى "إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ" أقبحها وأوحشها وأمجّها للطبع "لَصَوْتُ الْحَمِيرِ 19" وذلك لأنه أشبه بأصوات أهل جهنم من حيث أوله زفير وآخره شهيق ولزيادة علوه يكاد أن يصرع سامعه القريب .

(69/606)

فترشد هذه الآية الكريمة إلى أن رفع الصوت غاية في الكراهة ومخالف للآداب وكان عليه الصلاة والسلام يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت ويكره أن يكون جهيره ، راجع الآية الأخيرة من سورة الإسراء في ج 1 تعلم أن كل هذا يؤيد ما جرينا عليه من أن المراد بالتصعير الإعراض عن الناس بالوجه تجبرا ، قال تعالى "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" من الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغيرها والبحار والأنهار والمعادن والدواب وغيرها فكل ما فيها مسخر لمنافعكم أيها الناس "وَأَسْبَغَ" أتم وأكمل وأفاض "عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً" لتدركوها بحواسكم الظاهرة والباطنة المتقدمة في الآية 5 من سورة يوسف المارة ، ومن النعم الظاهرة حسن الصورة واعتدال القامة وكمال الأعضاء والنطق بجميع الحروف والرزق والمال والجاه والأولاد والخدم والأمن والأدب والعافية التي هي أساس لكل نعم وكل نعمة دونها ليست بنعمة ، ومن النعم الباطنة العقل والفهم والفكر والمعرفة والخلق الحسن والتروي في الأمر وعدا ذلك نعم كثيرة ظاهرة وباطنة أنعم اللّه بها على عباده لا يحصيها العبد ولا العد

(70/606)

قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها) الآية 18 من سورة النحل ومثلها الآية 24 من سورة إبراهيم الآتيتين فراجعهما ، ثم طفق جل شأنه يذكر بعض أحوال المتنطعين فقال "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ" نزلت هذه الآية في أمية بن خلف وأبي بن خلف وأضرابهم الذين كانوا يجادلون حضرة الرسول في صفات اللّه تعالى وهم جهال في اللّه لا علم لهم يستدلون به على جلال صفاته "وَلا هُدىً" يهتدون به إلى الصواب ليعرفوا عظيم قدرته وجليل هباته "وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ 20" يسترشدون به إلى أوامره ونواهيه ليعرفوا الحق من الباطل ومن كان كذلك ليس له أن يجادل في شيء من آيات اللّه فضلا عن ذاته المقدسة ، أما أهل العلم والهدى والكتاب فإنهم لا يجادلون في ذلك لكمال يقينهم وصدق إيمانهم وقوة دينهم وشدة عقيدتهم فيه ، وهؤلاء الفسقة

(71/606)

"وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ" واتركوا هذا الجدال المجرد عن أدلة عقلية صحيحة أو نقلية صريحة لأنها غير مستندة إلى كتاب أو اقتداء برسول "قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ" في هذا الجدال والمراء "ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا" من التقاليد المتناقلة ، قال تعالى "أَ وَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ" أي آباءهم الذين كانوا يقتفون آثارهم "إِلى عَذابِ السَّعِيرِ 21" أي أيتبعونهم ولو

كانوا كذلك ؟ ! وهذه الآية على حد قوله تعالى (أَ وَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ) الآية 170 من البقرة في ج 3 بعد قوله حكاية عنهم (بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا) والواو هنا حالية والاستفهام للتعجب "وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ" نفسه من اطلاق الجزء وإرادة الكل وإنما صح لأن الإقبال بالوجه إقبال بالكل "إِلَى اللَّهِ" بأن يفوض أمره إليه ويخلص بقلبه وقالبه لجلاله "وَهُوَ مُحْسِنٌ" في أعماله وأقواله "فَقَدِ اسْتَمْسَكَ" توثق على أتم حال "بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى" القوية من الشدة في الحبل المتين المأمون الانقطاع أي اعتصم بعهد اللّه الذي لا ينقض ووعد اللّه الذي لا يخلف بخلاف عهد ووعد الكفرة الذين لا يهمهم النكث فيه والخلف له لعدم تقيدهم بدين صحيح يرجعون إليه ، مثل اللّه تعالى حال المتوكل عليه المخلص له بحال المتدلي من علو أو المترقي إلى فوق المحتاط لنفسه من الوقوع بأن يتمسك بأمتن

(72/606)

عروة من عرى الحبل "وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ" 22 لا لأحد سواه وله فيها الأمر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد "وَمَنْ كَفَرَ" بعد إبداء هذه الدلائل الناصعة والإرشاد الصريح "فَلا يَحْزُنْكَ" يا سيد الرسل "كُفْرُهُ" لأن وباله عائد عليه وهو وأضرابه "إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ" في الآخرة ، جمع الضمير باعتبار معنى من حيث تصلح للجمع والافراد "فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا" في

الدنيا ويحاسبهم عليه ويجازيهم بمقتضاه "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ 23" دخائلها فما بالك بغيرها إذ هو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، تأمل فيما حكاه اللّه عن لقمان في مخاطبته لابنه تعلم بعض معلومات اللّه في خفايا الأمور ، قال تعالى وهؤلاء "نُمَتِّعُهُمْ" في هذه الدنيا "قَلِيلًا" مدة آجالهم المقدرة لهم فيها في علمنا وهي مهما كانت ، قليلة "ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ" نلجئهم في الآخرة فنردهم ونسوقهم سوقا عنيفا "إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ 24" قاس شديد فظيع لا يقادر قدره ولا تطيقه الأجسام ، قال تعالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ" فقلت يا سيد الرسل لعبدة الأوثان "مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ" فإنهم حتما "لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" وحده خلقها وبرأ ما فيها فيا أكرم الرسل "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ" على إلزامهم الحجة بالإقرار على دلائل التوحيد بحيث لا ينكرها الجاحد المكابر "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ 25" أنهم ملزمون بهذا الإقرار حتى إذا نبهتهم لم ينتبهوا له .

وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 7 فما بعدها من سورة العنكبوت الآتية إن شاء اللّه "لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" ملكا وعبيدا يتصرف فيهما وبمن فيهما كيف شاء "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ" عن جميع عباده وكل مكوناته "الْحَمِيدُ 26" في ذاته وصفاته وأفعاله .

مطلب الآيات المدنيات وسبب نزولها والحكمة من تأخيرها :

وهذه الآيات المدنيات الثلاث وسبب نزولها أن اليهود قالوا يا محمد بلغنا أنك تقول : (وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الآية 85 من الإسراء في ج 1 أتعنينا بهذا أم قومك فقط ؟ قال كلا عنيت ، قالوا ألست تقول وتتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء يريدون الآية 145 من الأعراف في ج 1 والآيات 43 فما بعدها من المائدة في ج 3 قال صلّى اللّه عليه وسلم هي من علم اللّه قليل وقد آتاكم اللّه بما إن

(74/606)

عملتم به انتفعتم (يعني القرآن) قالوا تزعم هذا وأنت تقول (مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) الآية 269 من البقرة في ج 3 ، لأن هذه الحادثة وقعت بالمدينة بعد نزول سورة البقرة وهي أول ما نزل فيها فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير فأنزل اللّه تعالى " وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ " مدادا حبرا يكتب فيها كلها "ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ" إذ لا نهاية لها "إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ" لا يعجزه شيء منيع لا يغلبه غالب "حَكِيمٌ 27" لا يخرج أمر عن حكمته وهذه ماهية علم اللّه وقد آمنت بها لأنه كما أنه لا يعرف كنه ذاته أحد فلا يعرف ملاك علمه أحد ولا يحيط علم الخلق كلهم بمعلوماته وهذه

الآية أبلغ من آية الكهف 108 الآتية المتقدمة عليها في النزول لأنها مكية وهذه مدنية فراجعها فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، قال تعالى "ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ" أيها الناس بالنسبة لقدرة الخلاق "إِلَّا كَنَفْسٍ" أي خلق وبعث نفس "واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ" لأقوالكم "بَصِيرٌ 28" بأعمالكم فاحتفظوا أن يراكم حيث نهاكم "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ" يدخله ويدمجه فيه "وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ" أيضا بصورة مستمرة "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ" منهما "يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" عنده دائبا إلى يوم القيامة راجع الآية 13 من سورة فاطر في ج 1 والآية 5 من سورة الزمر الآتية "وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ 29" لا يخفى عليه شيء من أعمالكم كلها ولقائل أن يقول ما هو السبب في تأخير هذه الآيات عن سورها ولم تنزل معها المكية في مكة والمدنية في المدينة ؟ فنقول إن تأخيرها لأمر اقتضته الحكمة الإلهية ، لأن اللّه رتب الأسباب على مسبباتها ، وقد سبق في علمه الأزلي

أن يكون السؤال عنها والواقعة المنبئة عنها في المكان والزمان الذي قدره لها أزلا فأخر تنزيلها لوقتها ، لأن لكل شيء أجلا ولكل أجل كتاب وقد ذكرنا غير مرة أن أفعال اللّه لا تعلل وأن ما جاء عنه وعن رسله مما لم نعقله لقصر فينا يجب أن نعتقده ونعمل فيه ولا نسأل

عن السبب إذ علينا الامتثال والإيمان والتسليم وإلا إذا ترددنا وشككنا أو توقفنا فلسنا بمؤمنين ولا مسلمين ، تدبر هذا

وسلم تسلم .

واعلم أن كل ما خطر ببالك فالله فوق ذلك ويكفيك أنه لا يسأل عما يفعل ، راجع بحث نزول القرآن في المقدمة تعلم أن "ذِلِكَ" الإله القادر على خلق السموات والأرض وما فيهما المدبر أمرهما والمسخر ما فيهما من أجرام مولج الليل في النهار وبالعكس ومجري الكواكب في أفلاكها بانتظام والجاعل ما فيها منه ما هو مستقر وما هو سائر في محوره وما هو جار في غيره وما هو طالع وما هو آفل الذي جعل في هذا العكس والطرد والاختلاف والاتفاق والسير والقرار الجاعل فيها منافع مخصوصة منها ما اطلع عليه البشر ومنها ما لم يطلع عليه تعلم أيها القارئ المتدبر "بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ" وأن ما يوقعه في ملكه هو الحق وأنه الإله الذي لا إله غيره المستحق للعبادة المستجيب للدعاء "وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هو الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ" في صفاته "الْكَبِيرُ 30" السلطان في ذاته العظيم الشأن المتعال في أسمائه الحسنى ونظير هذه الآية الآيتين 7/ 63 من سورة الحج في ج 3

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ" عليكم أيها الناس "لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ" العجيبة الدالة على كمال قدرته "إِنَّ فِي ذَلِكَ" السير على الهواء المجرد مع عظمها وثقل حمولتها "لَآيَاتٍ" بديعات "لِكُلِّ صَبَّارٍ" على أوامره وتحمل ابتلائه "شَكُورٍ 31" لنعمائه في سرانه وضرائه ، وهذان الوصفان من أكمل سمات المؤمن لأن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ، وإنما ذكر اللّه تعالى هذين الوصفين بعد ذكر الفلك لأن الراكب فيها لا يخلو عنهما كما لا يخلو من الاستدلال على قدرة اللّه وعظيم نعمته على خلقه .

قال تعالى "وَإِذَا غَشِيَهُمْ" الكفرة المذكورين أثناء ركوبهم البحر "مَوْجٌ كَالظُّلَلِ" بارتفاعه إذ يصير فوقهم كالظلة يظل من تحته كالسحاب والجبل الشاهق ورأوا الموت بأعينهم بأن تحقق عندهم الغرق "دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" وينسون أوثانهم التي يشركونها في عبادته حالة الرخاء والأمن وذلك لعلمهم أنه لا ينجيهم من الشدائد إلا هو "فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ" وأمنوا الغرق الذي كان محيقا بهم "فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ" متوسط في حاله لانزجاره في الجملة عدل فيما عاهد اللّه عليه ، ومنهم من لم يوف بعهده ولم يعتبر بما أراه اللّه من الخوف والأمن وهو المعنى بقوله تعالى

"وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ" غدار نكاث للعهد نقّاض للوعد "كَفُورٍ 32" جحود لتلك النعمة كما هو جحود لغيرها من قبل ولم يذكر في هذه الآية السابق بالخيرات لأن الأصناف ثلاثه ، راجع الآية 32 من سورة فاطر في ج 1 .

وهذه الآية عامة في كل من هذا شأنهما ، وما قيل إنها نزلت في عكرمة ابن أبي جهل حين هرب عام الفتح إلى البحر وقد أمّن رسول اللّه الناس إلا أربعة ، إذ قال صلّى اللّه عليه وسلم اقتلوهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة .

(77/606)

وهم عكرمة هذا وعبد اللّه ابن حنظل ومقيس بن حبابة وعبد اللّه بن أبي صرح ، وأنه لما ركب البحر جاءهم ريح عاصف فقال أهل السفينة أخلصوا للّه ربكم فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا ، فقال عكرمة لئن لم ينجني في البحر الإخلاص للّه الواحد فما ينجيني في البر غيره ، اللهم إن عافيتني مما أنا فيه لآتين محمدا وأضع يدي بيده ولأجدنّ عفوا كريما ، فسكن الريح فرجع إلى مكة وأسلم وحسن إسلامه رضي اللّه عنه لا يصح ، لأن هذه الآية مكية نزلت قبل الهجرة وعكرمة أسلم سنة الفتح فبين نزول هذه الآية وحادثة إسلام عكرمة سنتان وإن ما نزل بعد الهجرة يكون مدنيا وعكرمة بعد إيمانه ذلك لا يسمى (مقتصدا) بل كامل الإيمان لأنه جاء طائعا راضيا مختارا إلى حضرة النبي وآمن به إيمانا خالصا وعمل بإيمانه ومات عليه ، قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ" فلا يفيده شيئا ولا يغنيه من عذاب اللّه فتيلا "وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً"

حذف شيء من الأول لدلالة الثاني عليه على حد قوله :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

وذلك لأن كل إنسان يقول فيه نفسي نفسي فلا شفقة ولا خلة ولا شفاعة إذ ذاك إلا لمن ارتضى فإذا كان هؤلاء ينقطع بينهم المودة ولا أشفق من الوالد على ولده ولا أعظم حجة منه له ولا حق أكبر من حق الوالد على ولده ولا أوجب حرمة عليه منه ولا طاعة له إلا لله ومع هذا لا يلتفت أحدهم للآخر فغيرهم من باب أولى وذلك لشدة الهول واهتمام كل امرئ بنفسه قال تعالى (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) الآية 18 من سورة عبس المارة ج 1 ، وهذا مما وعد

(78/606)

الله به عباده "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" كائن لا محالة في ذلك اليوم الذي يكون فيه المشاححة بين الناس كما أن وعده في غيره حق أيضا "فَلا تَغُرَّنَّكُمُ" أيها الناس هذه "الْحَيَاةُ الدُّنْيا" لأنها فانية فلا تنخدعوا بزخارفها وتمويهها "وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ 33" الشيطان الذي أوقعه في البلاء غروره وكل ما يغر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة فهو غرور لأنها كلها من طرق الشيطان التي يزينها للناس فهو أخبث الغاوين فلا يرجيكم بالتوبة ويمنيكم بالمغفرة ، وإنه

يدس لكم السم في الدسم لأن الإنسان لا يدري متى يباغته أجله وإذ ذاك يندم ولات حين مندم وتكون ممن سقط في يده راجع الآية 5 من سورة فاطر في ج 1 في هذا البحث ، فعلى العاقل أن يسرع في التوبة ويجتهد في العبادة كي يلاقي ربه على حالة مرضية ، لأن الإنسان يموت على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه فلربما جاءه الموت وهو يتلبس بحالة سيئة والعياذ بالله فيندم من حيث لا ينفعه الندم والله تعالى وإن أمهل عبده فإنه لا يهمله وقد يستدرجه من حيث لا يعلم .

مطلب الأمور الخمسة التي لا يعلمها إلا الله تعالى :

(79/606)

"إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ" وقت قيامها في أي سنة وشهر ويوم وساعة ولحظة من ليل أو نهار "وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ" في الوقت والزمان والمكان الذي يريده ويقدره له بقدر معلوم عنده "وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ" هل ذكر هو أم أنثى تام الخلق أم ناقصه أو زائد فيه ، احمر أو أسود أو ما بينهما من الألوان حين قذف النطفة من الرجل في رحم المرأة كما يعلم أجله ورزقه وشقيا أو سعيدا وما يعتريه من تكوينه إلى موته وإلى بعثه وحشره وإلى دخوله الجنة أو النار وما بعد ذلك ، فالأشعة الحديثة عجزت عن معرفة الولد بعد كمال خلقه في بطن أمه أهو ذكر أم

أنثى والله تعالى أخبر أنه يعلم ذلك كله وهو نطفة في الرحم لم يكوّن بعد كما يعلم ما وراء ذلك من الحالات التي تعتوره إلى ما شاء الله والبوصلة المحدثة لمعرفة نزول المطر المشار إليها في الآية 102 من سورة الصافات المارة لا تدل إلا على ترطيب الجو المستفاد منه مظنة نزول المطر خلال أربع وعشرين ساعة على الأكثر ولا يمكن بوجه من الوجوه أن يعرف منها وقت نزوله على الضبط البتة ،

لأن الله تعالى قد يحدث في الجو ما يسلب منه تلك الرطوبة التي دلت عليها الإبرة من تأثير الرياح أو غيرها فلا ينزل المطر لذلك فلا تتعارض هذه الإبرة وغيب الله تعالى ، لإنه مما اختص به فالبشر مهما بلغ من العلوم والمعارف عاجز أن يعلم شيئًا من الغيب المبين في هذه الآية .

(80/606)

وبمناسبة هذا كان أخبرني ذات يوم السيد جميل بك السلاحوار من أهالي حلب بأن أذهب إلى الدار لأنه ستصير اليوم عواصف قوية ، فقلت له من أين عرفت هذا ؟ قال من الإبرة الموجودة لدي فقلت له لا يكون شيء إن شاء الله ، فقال لا بد من كونه ، ثم تفرقنا ولم يقع شيء طيلة اليوم والليلة ، فصادفته في اليوم الثاني وقلت له أين ما أخبرتني به من

العواصف البارحة ، فقال يا أخي إنه أمر محقق ولكن حدث في الجو تبدل حال دون وجودها والله على كل شيء قدير ، فقلت له من الآن فصاعد لا تجزم بشيء من هذا فإن الله تعالى يغير الأحوال ، فقال آمنت بالله وصدقت .

وإن ما يعدّه أهل هذا العصر من العلوم المحدثة بزعمهم قد تكون قديمة لأنهم لم يطلعوا على كل ما اطلع عليه الأوائل من العلوم فمن ينظر إلى فنّ الهندسة وصنع الأبنية القديمة والأصباغ والنقوش والتصوير والتصبير يعلم أن الأواخر لم يبلغوا بعد ما بلغه الأوائل لأنهم حتى الآن عن معرفته عاجزون وهناك تحنيط الأموات لم يقفوا على أجزاء تركيبه ومرض السرطان لم يقفوا على توقيفه مما يدل على أن جل الأشياء قديمة والناس يتأسون بآثارهم ويقتفون مآثرهم فما عثروا عليه برعوا .

به وما لم يعثروا عليه فسيعثرون عليه بعد لأن الدنيا لم تكمل بعد راجع الآية 24 من سورة يونس المارة "وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً" من خير أو شر "وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ" في سهل أو جبل في قرية أو بادية في بحر أو نهر ولا تدري بأي أرض تدفن ولا كيفية موتها هل بحرق أو تردي أو غرق أو افتراس أو غير ذلك ، وهذان الأمران وأمر الساعة لم يتطرق إليها بحث ما بوسائل معرفتها من أهل العلوم العصرية البتة ولما يتطرق والله أعلم .

لأن نهاية عقول العالمين فيها عضال وغاية سعي الساعين فيها ضلال ولهذا فإن كل ما بذله ويبذله البشر لمعرفة هذه الأمور الخمسة على الحقيقة غايته العجز لأن ما اختص اللّه به لنفسه لم يطلع عليه عباده ،

لذلك فإن نتيجة البحث فيها عقيمة ، وعاقبتها وبال إذ قد تؤدي إلى اختلال العقل أو الانتحار لأن لكل علم أصولا تحده ولا حد لعلوم اللّه ، وإذا تدبرت في قوله تعالى (عِنْدَهُ) وكلمتي (وَما تَدْرِي) (وَما تَدْرِي) علمت أنهما تشيران إلى أن هذه الثلاثة لا يحوم حول حماها البشر وإن الاثنين الآخرين وهما نزول الغيث وما في الأرحام قد يتطرق إليهما لأن العلم فيهما لا ينافي علم اللّه ولكن لا يقف على ما فيهما على الحقيقة فلا يبلغون مداهما مهما توغلوا فيهما كما هو في علم اللّه ، وإذا تأملت قوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ" الإله العظيم المبدع هو وحده لا غير "عَلِيمٌ" في هذه الأشياء

الخمسة وغيرها "خَبِيرٌ 34" بتفصيلاتها وأزمان حدوثها وقد علمت أنها من خصائصه لا دخل لخلقه فيها فسلم تسلم واعتقد ترشد .

واعلم أن كل ما خطر ببالك فاللّه فوق ذلك ، وسبب نزول هذه الآية على ما قالوا هو أنه جاء الحارث بن عمرو بن حارثة ابن حفصة من أهل البادية فسأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن الساعة ووقتها وقال إن أرضنا أجدبت فقل لي متى ينزل الغيث وتركت

امرأتي حبلى فما تلد ولقد علمت بأي أرض ولدت فأخبرني بأي أرض أموت ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال : مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية .

ويوجد في القرآن سورتان مختومتان بلفظ (خَبِيرٌ) هذه والعاديات فقط ، هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 3 صـ 474.494 ﴾

(82/606)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة لقمان عليه السلام

مكية إلا قوله ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام الآيتين فمدني

الم تقدم الكلام عليه الحكيم كاف لمن قرأ ولاحمة بالرفع لانه بتقدير هو هذى ورحمة وليس بوقف لمن قرأه بالنصب لنصبه على الحال مما قبله يوقنون تام من ربهم كاف المفلحون تام

هزموا صالح وقال أبو عمرو كاف مهين حسن أليم تام خالدين فيها حسن وقال أبو عمرو كاف ودع الله حقا أكفى منه الحكيم تام من كل دابة حسن وكذا كريم من دونه تام وكذا مبين أن شكر لله تام وكذا حميد وعظيم بوالديه كاف وكذا على وهن وفي عامين وكذا قاله أبو حاتم ولا أراها كافية لان أن اشكر منصوب بوصينا إلى ولوالديك حسن إلى المصير تام فلا تطعمها كاف وكذا معروفا ومن أناب إلى تعملون تام يأت بهم الله كاف خبير تام على ما أصابك كاف الأمور حسن وكذا خدك للناس مرحا كاف وكذا فخور وفي مشيك ومن صوتك الحمير تام وباطنه تام منير حسن عليه آباءنا كاف عذاب السعير تام وكذا الوثقي وعاقبة الأمور كفره حسن وكذا بما عملوا بذت الصدور كاف غليظ حسن وكذا اليقولن الله قل الحمد الله كاف لا يعلمون تام الأرض كاف الحميد تام كلمات الله كاف وزعم بعضهم انه يوقف على من شجرة أقلام وليس بشيء حكيم تام واحدة كاف بصير تام خبير حسن الكبير تام من آياته كاف شكور حسن له الدين كاف وكذا مقتصد كفور تام شيأ صالح إن وعد الله حق كاف وكذا الحياة الدنيا الغرور تام علم الساعة كاف وكذا وينزل الغيث وفي الأرحام وغدا وتموت آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 604 .

608 ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة لقمان

مكية وقيل إلاَّ قوله ولو أنَّما في الأرض من شجرة أقلام الآيتين فمدني وكلمها خمسمائة وثمان وأربعون كلمة وحروفها ألفان ومائة وعشرة أحرف وليس فيها شيء مما يشبه الفواصل وآيها ثلاث أو أربع وثلاثون آية

ألم تقدم الكلام عليها

الحكيم (كاف) لمن قرأ وهدى ورحمة بالرفع بتقدير هو هدى ورحمة وليس بوقف لمن رفعه خبراً ثانياً وجعل تلك مبتدأ وآيات خبراً وهدى ورحمة خبراً ثانياً نحو الرمان حلو حامض أي اجتمع فيه الوصفان وكذا ليس الحكيم بوقف إن نصب هدى ورحمة على الحال من آيات

للمحسنين (تام) في محل الذين يقيمون الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فإنْ رفعت الذين بالابتداء والخبر أولئك كان الوقف على المحسنين تاماً وكذا إن نصب بتقدير أعني أو أمدح وجائز إن جرَّ صفة للمحسنين أو بدلاً منهم أو بياناً

يوقنون (تام) إن جعل أولئك مبتدأ وخبره من ربهم وجائز إن جعل خبر الذين

من ربهم (جائز)

المفلحون (تام) باتفاق على جميع الأوجه

بغير علم (حسن) لمن رفع ويتخذها مستأنفاً من غير عطف على الصلة وليس بوقف لمن نصبها عطفاً على ليضل وبها قرأ الأخوان وحفص والباقون بالرفع عطفاً على يشتري فهو صلة

هزواً (جائز) وقال أبو عمرو كاف

مهين (تام) ولا يوقف على مستكبراً ولا على وقراً إن جل فبشره جواب إذا وإنْ جعل ولى مستكبراً جواب إذا كان الوقف على وقراً

أليم (تام)

جنات النعيم ليس بوقف لأنَّ خالدين حال مما قبله

خالدين فيها (حسن) إن نصب وعداً بمقدر أي وعدهم الله ذلك وعداً وقيل لا يوقف عليه لأنَّ ما قبله عامل فيه في المعنى

وعد الله حقاً (كاف)

الحكيم (تام)

ترونها (حسن) والعمد هي قدرة الله تعالى وقال ابن عباس لها عمد لا ترونها

أن تميد بكم (جائز) ومثله من كل دابة

كريم (تام)

هذا خلق الله (حسن) وليس تاماً كأنَّه قال هذا الذي وصفناه خلق الله وبخ بذلك الكفار

وأظهر حجته عليهم بذلك

من دونه (كاف)

(84/606)

مبين (تام)

الحكمة ليس بوقف لأنَّ ما بعدها تفسير لها ولا يفصل بين المفسر والمفسر بالوقف

أن اشكر لله (حسن)

لنفسه (أحسن) مما قبله

حميد (تام) إن قدر مع إذ فعلاً مضمراً

بالله (كاف) وقد أغرب من وقف لا تشرك وجعل بالله قسماً وجوابه إنَّ الشرك وربما

يتعمد الوقف عليه بعض المتعنتين ووجه غرابته أنَّهم قالوا إنَّ الأقسام في القرآن المحذوفة

الفعل لا تكون إلاَّ بالواو فإذا ذكرت الباء أتى بالفعل قاله في الإتقان

عظيم (تام) والوقف على بوالديه وعلى وهن وفي عامين قال أبو حاتم السجستاني هذه

الثلاثة كافية قال العماني وتبعه شيخ الإسلام أنَّها ليست كافية لأنَّ قوله أنْ أشكر لي في

موضع نصب بوصينا * لي ولواديك أرقى حسناً من الثلاثة

إليَّ المصير (تام)

فلا تطعهما (كاف) ومثله معروفاً وكذا من أناب إليّ

تعملون (تام)

أو في الأرض ليس بوقف لأنَّ قوله يأت بها الله جواب الشرط

يأت بها الله (كاف)

خبير (تام) للابتداء بالنداء

أقم الصلاة (جائز) ومثله بالمعروف وكذا عن المنكر كذا أجاز الوقف على هذه الثلاثة أبو

حاتم وكذا مثلها من الأوامر والنواهي

واصبر على ما أصابك (كاف)

من عزم الأمور (تام)

خدّك للناس (حسن)

مرحا (كاف)

فخور (تام)

في مشيك (كاف) وكذا من صوتك

لصوت الحمير (تام)

ظاهرة وباطنة (كاف) وتام عند نافع ظاهرة على اللسان وهو الإقرار وباطنه في القلب

وهو التصديق

منير (تام)

ما أنزل الله ليس بوقف لأنَّ جواب إذا ما بعده وهو قالوا

آباءنا (كاف) وقال أبو حاتم تام للاستفهام بعده وجواب لو محذوف تقديره يتبعونه

إلى عذاب السعير (تام)

الوثقى (كاف)

عاقبة الأمور (تام)

كفره (كاف) ومثله بما عملوا

بذات الصدور (تام)

قليلاً (جائز)

غليظ (تام)

ليقولن الله (حسن)

قل الحمد لله (كاف) لتمام المقول

لا يعلمون (تام)

والأرض (كاف)

الحميد (تام)

(85/606)

أقلام وقف عليه نافع والأخفش والأجود وصله على القراءتين أعني من نصب البحر ومن رفعه والذي نصبه أبو عمرو وعطفاً على اسم إن والباقون بالرفع والرفع من وجهين أحدهما عطفه على أنْ وما في حيزها والثاني إن والبحر مبتدأ ويمده الخبر والجملة حال والرابط الواو والنصب من وجهين أيضاً أحدهما أن يكون معطوفاً على ما في قوله ولو أن ما في الأرض كأَنَّه قال ولو أن شجر الأرض وأقلامها والبحر يمده والثاني نصبه بفعل مضمر على الاشتغال كأَنَّه قال ويمد البحر يمده من بعده

سبعة أبحر ليس بوقف لأنَّ قوله ما نفدت جواب لو

كلمات الله (كاف) عند الجميع

حكيم (تام)

كنفس واحدة (كاف)

بصير (تام)

والقمر (كاف)

إلى أجل مسمى ليس بوقف لأنَّ أنَّ منصوبة بما قبلها

خبير(تام) ولا وقف من قوله ذلك بأنَّ الله إلى قوله الكبير فلا يوقف على هو الحق لأنَّ أنَّ ما

موضعها جر بالعطف على ما عملت فيه الباء ولا على الباطل لأنَّ وأنَّ الله معطوفة على

ما قبلها

الكبير (تام)

من آياته (كاف)

شكور (تام)

له الدين (كاف) ومثله مقتصد

كفور (تام)

عن ولده (جائز)

شيأً (حسن)

إنَّ وعد الله حق (أحسن) مما قبله

الحياة الدنيا (حسن) للفصل بين الموعظتين

الغرور (تام)

علم الساعة (حسن) ومثله وينزل الغيث وكذا ما في الأرحام للابتداء بالنفي ومثله ماذا

تكسب غداً وكذا تموت 0

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 604.608 ﴾

(86/606)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة لقمان :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحُلوانيّ عن شباب عن أحمد بن موسى عن أبي عمرو وعيسى الثقفي : "حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهَنٍ" 1 ، بفتح الهاء فيهما .

قال أبو الفتح : الكلام هنا كالكلام فيما ذكرناه آنفا في قوله تعالى : "إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ" 2 ، وعلى أنه قد حكى أبو زيد : "فَمَا وَهِنُوا" 3 ، قراءة . فقد يمكن أن يكون "الوهَن" مصدر هذا الفعل ، كقولهم : وَضِرَ 4 وَضَرًا ، ووَحِرَ 5 وَحَرًا .

ومن ذلك قراءة الحسن بخلاف وأبي رجاء الجحدري وقتادة ويعقوب : "وَفِصَلُهُ فِي عَامَيْنِ" 6 .

قال أبو الفتح : الفصل أعم من الفصال ؛ لأنه مستعمل في الرضاع وغيره ، والفصلا هنا أوقع ؛ لأنه موضع 7 يختص بالرضاع . فإما الفصال مصدر فاصلته فغير هذا المعنى وإن كان الأصل واحدا . ومعنى ف ص ل قريب من معنى ف س ل ؛ وذلك أن الفسل الدني من الناس ، والدني هو الساقط . وإذا سقط الإنسان انقطع عن معظم ما عليه الناس ، ولذلك قالوا : فيه هو ساقط . ومنقطع ومتأخر ، فالمعنى إذا راجع إلى الانفصال والانقطاع .

---

1 سورة لقمان : 14 .

2 انظر الصفحة السابقة من هذا الجزء ، والصفحة 84 من الجزء الأول .

3 سورة آل عمران : 146 .

4 وضر : اتسخ بالدسم .

5 وحر : اشتد غضبه ، ووغر صدره .

6 الآية السابقة من سورة لقمان .

7 ساقطة في ك .

ومن ذلك قراءة عبد الكريم الجزري[1] : "فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ[2]" ، بكسر الكاف .

قال أبو الفتح هذا من قولهم[3] : وكن الطائر : إذا استقر في وكنته ، وهي مقره ليلا ، وهي أيضا عشه الذي يبيض فيه ، ووكره . ومنه قوله :

وقد أغتدى والطير في وكناتها[4]

وقد وكن يكن وكونا فهو واكن ، وجمعه وكون ، كقاعد وقعود . قال :

يذكرني سلمى وقد حال دونها حمام على بيضاتهن وكون[5]

وكأنه من مقوب الكون ؛ لأن الكون الاستقرار ، وعليه قالوا : قد تكون في منزله واستقر .

ومن ذلك قراءة يحيى بن عمارة : "وَأَصْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"[6] .

قال أبو الفتح : أصله السين ، إلا أنها أبدلت للغين بعدها صادا ، كما قالوا في سالغ[7] : صالغ ، وفي سالخ : صالخ ، وفي سقر : صقر ، وفي السقر الصقر[8] . وذلك أن حروف الاستعلاء تجتذب السين عن سفالها إلى تعاليهن ، والصاد مستعلية ، وهي أخت السين في المخرج ، وأخرى حروف الاستعلاء , وهذا التقريب بين الحروف مشروح الحديث في باب الإدغام ، ومنه قولهم في سطر : صطر ، وفي سويق : صويق .

---

1 هو عبد الكريم بن مالك الأموي مولاهم أبو سعيد الأموي الجزري الخضرمي ، بكسر المعجمة الأولى ، نسبة إلى خضرم ، قرية باليمامة أصله منها . روى عن المسيب ومقسم ، وروى عنه ابن جريج والسفيانان وخلق . ثقة ، ثبت مات سنة 117 . الخلاصة :

.205

1 سورة لقمان : 16 .

2 ساقطة في ك .

3 لامرئ القيس من معلقته ، وعجزه :

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وأعتدى : أبكر . والمنجرد : الماضي في سيره ، ويقال : هو القليل الشعر . والأوابد : الوحوش . والهيكل : الفرس العظيم الجرم . وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني : 28 .

6 سورة لقمان : 20 .

7 السالغ ، من البقر أو الغنم : التي خرج نابها , وسلغت ، كمنع ، سلوغا .

8 في البحر "7 : 190" : إن إبدال السين صادا لغة لبني كلب ، يبدلونها إذا جامعت العين ، أو الخاء ، أو القاف – صادا .

(88/606)

وحكى يونس عنهم 1 في السوق : الصوق ، وروينا عن الأصمعي ، قال : تنازع رجلان في السقر ، فقال أحدهما : بالصاد ، والآخر : بالسين ، فتراضيا بأول من يجتاز بهما ، فإذا

راكب يوضع ، فسألاه ، فقال : ليس كما قلت ولا كما قلت ، إنما هو الزقر .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "وَبَحْرٌ يُمِدُّهُ 2" ، وهي قراءة طلحة بن مصرف .

وقرأ جعفر بن محمد : "والبَحْرُ مِدَادُه" "125ظ" .

وقرأ الأعرج الحسن : "والبَحْرُ يُمِدُّه" ، برفع الياء .

قال أبو الفتح : في إعراب هذه الآية نظر ؛ وذلك أن هناك حذفا ، فتقديره : فكتب بذلك كلمات الله ما نفدت ، فحذف ذلك للدلالة عليه ، كما أن قوله ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ 3 ﴾ ، أي : فحلق فعليه فدية ، فاكتفي بالمسبب ، وهو الفدية من السبب ، وهو الحلق ، ونظائره كثيرة في القرآن وفصيح الكلام .

وأما رفع "بحر" فالابتداء ، وخبره محذوف ، أي : وهناك بحر يمده من بعده سبعة أبحر .

ولا يجوز أن يكون "وبحر" معطوفا على "أقلام" ؛ لأن البحر وما فيه من الماء ليس من حديث الشجر والأقلام ، وإنما هو من حديث المداد ، كما قرأ جعفر بن محمد : "والبَحرُ مِدَادُه" .

فأما رفع "البحر" فإن شئت كان معطوفا على موضع "أن 4" واسمها وإن كانت مفتوحة ، كما عطف على موضعها في قوله سبحانه : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ 5 ، وقد ذكرنا ما في ذلك وكيف يسقط اعتراض من تعقب فيه فيما مضى . ويدل على صحة العطف هنا ، وأن الواو ليست بواو حال قراءة أبي عمرو وغيره : "وَالْبَحْرَ يَمُدُّه

" ، بالنصب ، فهذا عطف على "ما" لا محالة . ويشهد بجواز كون الواو حالا هنا قراءة طلحة بن مصرف : "وَبَحْرٌ يُمِدُّه" ، أي : وهناك بحر يمده من بعده سبعة أبحر ، فهذه واو حال لا محالة .

---

1 في ك : وحكى يونس في السوق .

2 سورة لقمان : 27 .

3 سورة البقرة : 196 .

4 أي من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ .

5 سورة التوبة : 3 .

وأما "وَالْبَحْرُ يُمِدُّه" ، بضم الياء فتشبيه بإمداد الجيش1 ، يقال : مد النهر ، ومده نهر آخر ، وأمددت الجيش بمدد . قال الله تعالى : ﴿ مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ2 ﴾ ، قال العجاج :

ما قري مدة قري3

فأما قول الآخر :

نظرت إليها والنجوم كأنها قناديل مرس أوقدت بمداد4

فليس من المداد الذي يكتب به ، وإنما أراد هنا ما يمدها من الدهن ، كذا فسروه ، وليس بقوي أن تكون قراءة جعفر بن محمد : "والبَحرُ مِدَاده" ، أي : زائدة فيه ؛ لأن ماء البحر لا يعتد زائدا في الشجر والأقلام ؛ لأن ليس من جنسه ، فالمداد هناك إنما هو هذا المكتوب به بإذن الله .

ومن ذلك قراءة موسى بن الزبير : "الْفُلُك5" ، بضم اللام .

قال أبو الفتح : حكى أبو الحسن عن عيسى بن عمران ، قال : ما سمع ، أو ما سمعنا : فعل إلا وقد سمعنا فيه : فعل ؛ فقد يكون هذا منه أيضا ، وقد ذكرناه قبل6 .

ومن ذلك : "بِنعْمَاتِ الله5" ، ساكنة العين ، قرأها جماعة منهم الأعرج .

---

1 في ك : الجيوش .

2 سورة الأنفال : 9 .

3 قرى الماء : مسيلة من التلاع ، وجمعه أقربه . وانظر الديوان : 68 .

4 البيت للأخطل ، ويروى الشطر الأول :

رأوا بارقات بالأكف كأنها

ويروى "رأت" مكان "رأوا" ، و"مصابيح" مكان "قناديل" ، و"سرج" مكان "مرس" ، ولم نعثر على معنى مناسب لكلمة "مرس" وقد يكون محرفة . وانظر الديوان : 136 ،

واللسان "مد" .

5 سورة لقمان : 31 .

6 انظر الصفحة 137 من هذا الجزء .

(90/606)

قال أبو الفتح : ما كان على فعلة ففي جمعه بالتاء ثلاث لغات : فعلات ، وفعلات ، وفعلات : كسدرة وسدرات ، وسدرات ، وسدرات . وكذلك فعلة فيها الثلاث أيضا : الإتباع . والعدول عن ضمة العين إلى فتحها . والسكون هربا من اجتماع الضمتين : كغرفة وغرفات وغرفات ، وغرفات .

قال أبو علي : ما يدل على أن الألف والتاء في هذا النحو في تقدير الاتصال ، وأنهما ليستا كتاء التأنيث في نحو : سدرة ، وبسرة - اطراد الكسر في نحو : سدرات ، وكسرات ، وعذرات 1 ، مع عزة فعل في الواحد ، يريد إبلا ، وما لحق به مما لم يذكره صاحب الكتاب . ذكر ذلك عند تفسيره قول سيبويه : [126 و] إنك لو سميت رجلا بذيت لقلت فيه : ذيات ، بتخفيف الياء فيمن رواه هكذا . وذكر هناك أيضا صحة الواو في نحو : خطوات ، ورشوات مع ضمة ما قبلها ، قال : ولو كانت الألف والتاء في تقدير الانفصال لما صحت

الواو في نحو : خطوات ، كما لا يصح في فعلة من غزوت إذا بنيتها على التذكير فقلت : غزية ؟

وأنا من بعد أرى أن تسكين عين فعلات ، كنعمات وسدرات – أمثل من تسكين عين فعلات ، كغرفات ؛ وذلك أن صدر سدرات قليل النظير ، إنما هو إبل ، وإطل2 ، وأمرأة بلز للضخمة ، ومالا بال به . وصدر فعلات كثيرن كبرد ، ودرج ، وقرط .

ومن قال : كسرات ، فأثبت كسرة السين لم يقل كذلك في رشوات ؛ لأنه إن كسر الشين انقلبت الواو ياء . وكذلك مديات لا تضم ثانيها ؛ لئلا تنقلب الياء واوا ، فيقال : مدوات كما كان يجب في رشوات رشيات ، لكنهم جنحوا فيهما إلى الإسكان الذي كان مستعملا في الصحيح العين ، نحو : ظلمات ، وكسرات . فأما الفتح فجائز حسن نحو : رشوات ، ومديات ؛ لأن حرفي العلة تصحان هنا بعد الفتحة نحو : قنوات ، وحصيات .

وأنا أرى أن إسكان عين فعلات مما جاء في الشعر من الأسماء نحو قول ذو الرمة :

أبت ذكر عدون أحشاء قلبه خفوقا ورفضات الهوى في المفاصل 3

ليس العذر فيه كالعذر في قولهم : ظبية وظبيات ، وغلوة4 وغلوات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 166 . 170 ﴾

---

1 العذرات : جمع العذرة ، وهي الهيئة من العذر .

2 الأطل : الخاصرة .

3 انظر الصفحة 56 من الجزء الأول .

4 الغلوة : الغاية مقدار رمية سهم .

(91/606)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة لقمان

مكية قيل إلا ثلاث آيات أولهن ولو أن ما في الأرض وآيها ثلاث وثلاثون حرمي وأربع فيما سواه خلافها ثنتان ألم كوفي له الدين بصري وشامي مشبه الفاصلة في الدنيا معروفا وعكسه الحمير القراآت تقدم سكت أبي جعفر على ألم

واختلف في (هدى) و (ورحمة) الآية 3 فحمزة بالرفع عطفا على هدى وهو خبر ثان أو خبر هو محذوفا وافقه الأعمش والباقون بالنصب بالعطف أيضا على هدى على أنها حال من آيات أو الكتاب لأن المضاف جر المضاف إليه العامل ما في اسم الإشارة من معنى الفعل

وقرأ (ليضل) الآية 6 بفتح الياء ابن كثير وأبو عمرو ورويس من طريق أبي الطيب والباقون بالضم وبه قرأ رويس من غير طريق أبي الطيب من أضل رباعيا ومر بإبراهيم وأهمل في

الأصل هنا ذكر خلاف رويس

واختلف في (ويتخذها) الآية 6 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بالنصب عطفا على ليضل تشريكا في العلة وافقهم الأعمش والباقون بالرفع عطفا على يشتري تشريكا في الصلة أو استئنافا وقرأ (هزوا) حفص بإبدال همزتها واوا في الحالين وسكن الزاي حمزة وخلف ويوقف عليها لحمزة بالنقل على القياس وبالإبدال واوا مفتوحة للرسم وأما تشديد الزاي فلا يصح وأمال ﴿ ولي ﴾ (ك (تتلى) حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وسهل همز) كأن لم ( ) الأصبهاني عن ورش وقرأ نافع بإسكان ذال ( ) أذنيه وقرا (يا بني) بفتح الياء في المواضع الثلاثة حفص وقرأ البزي كذلك في يا بني أقم الصلاة فقط وسكن قنبل الياء من هذا الموضع مخففة وسكن ابن كثير بكماله ياء الأول يا بني لا تشرك ولا خلاف عنه في تشديد الياء مكسورة في الوسط يا بني إنها كما مر بهود مع توجيهه وعن الحسن وفصاله بفتح الفاء وسكون الصاد بلا ألف قال البيضاوي وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان

(92/606)

وقرأ ( ) أن أشكر (الآية 12 بكسر النون أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقرأ (مثقال) بالرفع نافع وأبو جعفر ومر بالأنبياء

واختلف في ﴿ (ولا تصاعر) ﴾ الآية 18 فنافع أبو عمرو والكسائي وخلف بألف بعد الصاد وتخفيف العين لغة الحجاز وافقهم اليزيدي والأعمش والباقون بتشديد العين بلا ألف لغة تميم من الصعر داء يلحق الإبل في أعناقهم فيميلها أي لا تمل خدك للناس أي لا تعرض عنهم بوجهك إذا كلموك تكبرا

واختلف في ( ) عليكم نعمه (الآية 20 فنافع وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر بفتح العين وهاء مضمومة غير منونة جمع نعمة كسدرة والهاء ضمير اسم الله تعالى وظاهرة حال منها وافقهم الحسن واليزيدي والباقون بسكون العين وتاء منونة اسم جنس يراد الجمع فظاهرة نعت لها أو يراد الوحدة لأنها في تفسير ابن عباس الإسلام

وقرأ بإشمام قيل هشام ورويس والكسائي وأدغم الكسائي لام ( ) بل نتبع ( ) في النون وعن الأعمش و ( ) ومن يسلم (بفتح السين وتشديد اللام مضارع سلم بالتشديد وأمال (الوثقى) حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو وقرأ (يحزنك) بضم الياء وكسر الزاي من أحزن نافع

واختلف في (والبحر) الآية 27 فأبو عمرو ويعقوب بالنصب عطفا على اسم أن وهو ما ويمده الخبر أو بمفسر بيمده والجملة حينئذ حالية وافقهما اليزيري والباقون بالرفع عطفا

على محل أن ومعمولها وفي أن الواقعة بعد لو مذهبان مذهب سيبويه الرفع على الابتداء ومذهب المبرد على الفاعل بفعل مقدر وعن الحسن (يمده) بضم الياء وكسر الميم من أمده وقرأ ( ) وأن ما يدعون (بالغيب أبو عمرو وحفص والكسائي ويعقوب وخلف وسبق بالحج وعن المطوعي ﴿ بنعمات الله) ﴾ بفتح النون والعين وألف بعد الميم على الجمع

(93/606)

وأمال (صبار) الآية 31 و (ختار) الآية 32 أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والدوري عن الكسائي وبالصغرى الأزرق وأمال (نجاهم) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وقرأ) وينزل الغيث (بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وقرأ الأصبهاني عن ورش بخلفه بإبدال همزة ( ) بأي أرض ( ) بياء مفتوحة

المرسوم وفصله بغير ألف بعد الصاد وكذا تصعر واتفقوا على قطع وأن ما تدعون كالحج وعلى كتابة بنعمت الله بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 447 . 448 ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة لقمان "

" الم " جلي لأبي جعفر .

" ورحمة " قرأ حمزة برفع التاء وغيره بنصبها .

" لهو " أجمعوا على إسكان الهاء لكونه اسما ظاهرا لا ضميرا .

" ليضل " قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بضمها .

" ويتخذها " قرأ حفص والخوان وخلف ويعقوب بنصب الذال والباقون برفعها .

" هزوا عليه " مستكبرا وهو . بوالديه ، حملته ، من خردل ، لطيف خبير ، الصلاة ، وأمر ؛ ظاهرة ، قيل ، عليه ، كله جلي .

" أذنيه " قرأ نافع بإسكان الذال وغيره بضمها ووصل ابن كثير هاءه .

" أن اشكر " كسر النون عاصم وحمزة والبصريان وضمها غيرهم .

" يا بني " قرأ حفص بفتح الياء في المواضع الثلاثة ووافقه البزي في يا بني أقم الصلاة فقط وسكن قنبل الياء في هذا الموضع خاصة وسكن ابن كثير بتمامه في الموضع الأول وهو يا

بني لا تشرك ، وقرأ بتمامه أيضا في الموضع الثاني وهو يا بني إنها بتشديد الياء وكسرها والباقون بكسر الياء مشددة في المواضع الثلاثة . والخلاصة أن في الموضع الأول وهو يا بني لا تشرك ثلاث قرآءات الأولى فتح الياء مشددة لحفص والثانية إسكان الياء مخففة لابن كثير والثالثة كسرها مشددة للباقين . وفي الثاني وهو " يا بني إنها " قراءتين " الأولى فتح الياء مشددة لحفص والثانية كسرها مشددة للباقين وفي الثالث وهو يا بني أقم الصلاة ثلاث قراءات الأولى فتح لياء مشددة لحفص والبزي والثانية إسكانها مخففة لقنبل والثالثة كسرها مشددة للباقين .

" مثقال " قرأ المدنيان برفع اللام والباقون بنصبها .

" ولا تصعر " قرأ نافع وأبو عمرو والأخوان وخلف بألف بعد الصاد وتخفيف العين والباقون بحذف الألف وتشديد العين .

" نعمة " قرأ المدنيان والبصري وحفص بفتح العين وبعد الميم هاء مضمومة على التذكير والجمع والباقون بإسكان العين وبعد الميم تاء منونة منصوبة على التأنيث والإفراد .

" السعير " آخر الربع .

الممال

الناس كله لدوري البصري هدى الثلاثة لدى الوقف وتتلى وولى وألقى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، الدنيا معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " " لبثتم " للبصري والشامي والأخوين وأبي جعفر . ولقد ضربنا لورش والبصري والشامي والأخوين وخلف اشكر لي معا للبصري بخلف عن الدوري ، بل نتبع الكسائي .

" الكبير " " خلقكم " بعد ضعف ، كذلك كانوا ، يشكر لنفسه ، قال لقمان: سخر لكم ، قيل لهم .

" وهو " عذاب غليظ ، من خلق ، عليم خبير ، جلي .

" فلا يحزنك " قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي .

" والبحر " قرأ البصريان بنصب الراء والباقون برفعها .

" يدعون " قرأ البصريان وحفص والأخوان وخلف بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب .

" بنعمت الله " رسمت بالتاء ولا يخفى حكم الوقف عليه .

" وينزل الغيث " قرأ المكي والبصريان والأخوان وخلف بالتخفيف وغيرهم بالتشديد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 255 . 257 ﴾

(96/606)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة لقمان

قوله تعالى ﴿ هدى ورحمة ﴾

أجمع القراء على نصبهما على الحال أو القطع من الآيات لأنها معرفة والهدى والرحمة نكرتان وقد تم الكلام دونهما إلا ما قرأه حمزة بالرفع وله في ذلك وجوه أحدها أن يكون هدي مرفوعة بالابتداء ورحمة معطوفة عليها للمحسنين الخبر والثاني أن يكون بدلا من قوله ! ? ! آيات الكتاب هدى ورحمة لأن آيات الكتاب كذلك هي أو يكون أضمر لها مثل ما أظهر للآيات فرفعها بذلك لأن الآيات جامعة للهدى والرحمة

قوله تعالى ﴿ ويتخذها ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه رده على قوله ﴿ يشتري ﴾

والوجه أن يضمر لها هو لأن الهاء والألف كناية عن السبيل والحجة لمن نصب أنه رده على قوله ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ وليتخذها هزوا

قوله تعالى ﴿ يا بني لا تشرك بالله ﴾ ﴿ يا بني إنها ﴾ ﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ يقرأن بالتشديد وكسر الياء وفتحها وبالتخفيف والإسكان فالحجة لمن شدد وكسر أنه أراد يا بنيي بثلاث ياءات الأولى ياء التصغير والثانية أصلية وهي لام الفعل والثالثة ياء الإضافة إلى النفس فحذف الأخير اجتزاء بالكسر منها وتخفيفا للاسم لما اجتمع فيه ثلاث ياءات ولمن فتح الياء مع التشديد وجهان أحدهما أنه أراد يا بنياه فرخم فسقطت الألف والهاء للترخيم لأنهما زائدتان فالألف زيدت لبعد الصوت والهاء للسكت فبقي الاسم على الفتح الذي كان عليه قبل الترخيم

والثاني أنه شبه هذه الياء لما رآها مشددة ومعها ياء الإضافة بياء الاثنين إذا أضيفت إليها ففتحها كما فتحوا قوله ﴿ إحدى ابنتي هاتين ﴾

(97/606)

فإن قيل فما الفرق بين قولك ابنتي وبين قولك يا بني وكلاهما مضاف إلى النفس بالياء الشديدة فقل الفرق بينهما لطيف فاعرفه وذلك أن الياء في قولك ابنتي ساكنة طبعا لأنها

بدل من الألف التي لا يمكن الحركة فيها بوجه ثم يدخل ياء الإضافة لأن النون تذهب لمعاقبتها لها والأصل في ياء الإضافة الحركة فكان الفتح أولى بها ففتحت لذلك وأدغمت فيها ياء التثنية لسكونها فهذا وجه الفتح في الياء المضاف إليها التثنية

وأما وجه كسر الياء في قولك يا بني فإن وزن ابن كوزن حصن فإذا قلت في التصغير حصين كان كقولك بني فاجتمع فيه ياء التصغير وياء الأصل التي هي لام الفعل وكان الإعراب عليها جاريا كما جرى على النون من حصين ثم دخلت عليها ياء الإضافة فاجتذبت الياء الشديدة لقوتها إلى الكسر لأن من شرطها أن تزيل الاعراب عما وليته وترده إلى الكسر كقولك حصيني فتسقط ياء الإضافة في بني لكثرة الياءات فتبقى كقولك حصين بكسر النون وسقوط الياء فأنت الآن تعلم ضرورة أن الياء من حصين ساكنة وهي ياء التصغير ومثلها في قولك بني والنون المكسورة في قولك حصين مثلها ياء الأصل في بني وهي مكسورة كالنون لتدل بالكسر على ياء الإضافة الساقطة فهذا تلخيص الفرق بين ياء الإضافة في التصغير والتثنية والدلالة على فتح الياء في التثنية وكسرها في التصغير وأما الحجة لمن خفف الياء وأسكن فإنه صغر ولم يضف فلما اجتمع في آخر الاسم ياءان حذف إحداهما وبقي الأولى وهي ياء التصغير على سكونها فأجحف بالاسم ولو أتى به منادى على أصل المواجهة لقال يا بني لأنه نداء مفرد

قوله تعالى ﴿ ولا تصعر خدك ﴾ يقرأ بإثبات الألف والتخفيف وبحذفها والتشديد وقد

ذكر في أمثاله ما يغني عن إعادته ومعنى قوله لا تصاعر خدك أي لا تمل بوجهك ولا تعرض تكبرا وأصله من الصعر وهو داء يصيب البعير فيلتوي له عنقه

(98/606)

قوله تعالى ﴿ إن تك مثقال حبة ﴾ أجمع القراء على نصب مثقال إلا نافعا فإنه رفعه والحجة لمن له أنه جعل كان مما حدث ووقع ولا خبر لها إذا كانت كذلك

قوله تعالى ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ﴾ يقرأ بالجمع والإضافة وبالتوحيد فالحجة لمن جمع أنه أراد بذلك جميع النعم التي ينعم الله بها على عباده ودليله قوله ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾ فالهاء ها هنا كناية عن اسم الله عز وجل والحجة لمن وحد أنه أراد نعمة الإسلام لأنها جامعة لكل النعم وما سواها يصغر في جنبها فالهاء ها هنا علامة للتأنيث فأما قوله ﴿ ظاهرة وباطنة ﴾ فالظاهرة نعمة الإسلام والباطنة ستر الذنوب

قوله تعالى ﴿ والبحر يمده ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه رده على ما قبل دخول إن عليها أو استأنفه بالواو كما قال ﴿ يغشى طائفة منكم وطائفة ﴾ والحجة لمن نصب أنه رده على اسم إن

فإن قيل فإن من شرط أبي عمرو أن يرفع المعطوف على إن بعد تمام الخبر كقوله ﴿

والساعة لا ريب فيها ﴾ فقل حجته في ذلك أن لو تحتاج إلى جواب يأتي بعد الابتداء والخبر فكان المعطوف عليها كالمعطوف على إن قبل تمام خبرها والدليل على ذلك أن تمام الخبر هاهنا في قوله ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ وهذا أدل دليل على دقة تمييز أبي عمرو ولطافة حذقه بالعربية

قوله تعالى ﴿ بما يعملون خبير ﴾ إجماع القراء على التاء إلا ما رواه عياش عن أبي عمرو بالياء ولم يروه اليزيدي. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 284. 287 ﴾

(99/606)

وقال ابن زنجلة :

سورة لقمان

تلك ءايت الكتب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين 2 و3

قرأ حمزة هدى ورحمة بالرفع جعلها ابتداء وخبرا

وقرأ الباقون هدى ورحمة بالنصب على الحال المعنى تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرفع على معنيين أحدهما على إضمار هو هدى ورحمة والثاني تلك هدى ورحمة

للمحسنين

ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذها هزوا 6

قرأ حمزة والكسائي وحفص ويتخذها بفتح الذال بالنسق على قوله ليضل و يتخذها

وقرأ الباقون بالرفع بالنسق على قوله ومن الناس من يشتري لهو الحديث ويتخذها

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء وقرأ الباقون بالرفع معناه ليضل غيره فإذا اضل غيره فقد ضل هو أيضا ومن قرأ ليضل فمعناه ليصير أمره إلى الضلال فكأنه وإن لم يكن يقدر أنه يضل فإنه سيصير أمره إلى أن يضل

يبني لا تشرك بالله 13

قرأ ابن كثير يا بني لا تشرك بالله بإسكان الياء خفيفة لأنه صغر الابن ولم يضفه إلى نفسه فحذف ياء وهي التي كانت لام الفعل وهذه الياء المبقاة هي ياء التصغير ولو أتى به على الأصل لقال يا بني لأنه نداء مفرد ولو كان أراد الإضافة يا بني لكسر الياء وإنما حذف الياء لأن باب النداء باب الحذف والتخفيف ألا ترى أنك تقول يا زيد فتحذف منه التنوين وتقول يا قوم فتحذف منه الياء فكذلك حذفت الياء من يا بني

قرأ حفص يا بني بفتح الياء في جميع القرآن أراد يا بنياه فرخم قد ذكرت في سورة هود

وقرأ الباقون يا بني بكسر الياء لأنهم أرادوا يا بنييي بثلاث ياءات الأولى للتصغير والثانية أصلية لام الفعل والثالثة ياء الإضافة إلى النفس فحذفت الأخيرة اجتزاء بالكسر وتخفيفا

وأدغمت ياء التصغير في ياء الفعل فالتشديد من أجل ذلك

قرأ ابن كثير في رواية قنبل يا بني أقم الصلاة 17 بالتخفيف مثل الأول وفتح البزي وحفص وكسر الباقون وقد ذكرت الحجة

يبني إنها إن تك مثقال حبة من خردل 16

(100/606)

وقرأ نافع يا بني إنها إن تك مثقال حبة بالرفع جعل كان بمعنى حدث ووقع أي إن وقع مثقال حبة كقوله وإن كان ذو عسرة فإن قيل لم قلت تك بالتاء والمثقال مذكر قيل في ذلك إن مثقالا هو السيئة أو الحسنة فأنث على المعنى وقال الفراء جاز تأنيث تك والمثقال مذكر لأنه مضاف إلى الحبة والمعنى للحبة فذهب التأنيث إليها

وقرأ الباقون إن تك مثقال نصب فاسم كان ينبغي أن يكون المظلمة أو الحسنة المعنى إن تكن المظلمة أو الحسنة مثقال حبة من خردل

ولا تصعر خدك للناس 18

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر ولا تصعر خدك بالتشديد وقرأ الباقون تصاعر

قال سيبويه صعر وصاعر بمعنى واحد كما تقول ضعف وضاعف

واسبغ عليكم نعمه ظهرة وباطنة 20

قرأ نافع وأبو عمرو وحفص واسبغ عليكم نعمه بفتح العين جمع نعمة كما تقول سدرة وسدر وحجتهم أن النعم الظاهرة غير النعم الباطنة فهي حينئذ جماعة إذ كانت منوعة وقد قال جل وعز شاكرا لأنعمه فلم يكتف بالواحدة من الجميع فلما كانت

نعم الله مختلفة بعضها في الدين وبعضها في الأرزاق وبعضه في العوافي وغير ذلك من الأحوال قرؤوا بلفظ الجمع لكثرته واختلاف الأحوال بها

وقرأ الباقون نعمة وحجتهم صحة الخبر عن ابن عباس أنه قال هي الإسلام وذلك أن نعمة الإسلام تجمع كل خير وعنه أيضا قال شهادة أن لا إله إلا الله باطنة في القلب ظاهرة في اللسان وقالوا أيضا الظاهرة شهادة أن لا إله إلا الله والباطنة طمأنينة القلب على ما عبر لسانه وأحسن ما قيل في تفسير هذه الآية أن النعمة الظاهرة نعمة الإسلام والباطنة ستر الذنوب ويجوز أن يعنى بها جماعة النعم فتؤدي الواحدة عن معنى الجمع بدلالة قوله وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

ولو أنما في الأرض من شجرة أقلم والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمت الله 27

قرأ أبو عمرو والبحر يمده بفتح الراء وقرأ الباقون بالرفع

فأما النصب فعطف على ما والمعنى ولو أن ما في الأرض ولو أن البحر فإن سأل سائل إن من اختيار أبي عمرو أن يرفع المعطوف بعد الخبر كقوله إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها فالجواب في ذلك أن الكلام في إن وعد الله حق تمام ثم يستأنف والساعة لا ريب فيها والكلام عند قوله ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام غير تام فأشبه المعطوف قبل الخبر وهذا من حذق أبي عمرو إنما لم يتم الكلام لأن لو يحتاج إلى جواب

والرفع على وجهين أحدهما على الاستئناف فجعل الواو واو الحال كأنه قال والبحر هذه حاله ويجوز أن يكون معطوفا على موضع إن مع ما بعدها

ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه البطل 30

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر وأن ما تدعون بالتاء أي يا معشر العرب من الشركاء وقرأ الباقون بالياء والقراءة في مثل هذا الحرف بالياء لأنه لم يعم الناس بأنهم كلهم كانوا يدعون من دون الله ولكن على الخواص

إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث 33

قرأ نافع وابن عامر وعاصم ينزل الغيث بالتشديد

وقرأ الباقون بالتخفيف وقد ذكرت الحجة في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 563. 567 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة لقمان

مكية قال ابن عباس إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وقال عطاء إلا آيتين وذلك أن النبي لما هاجر إلى المدينة أتته أحبار اليهود فقالوا يا محمد بلغنا أنك تقول (﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾) تعنينا أم قومك قال كلا قد عنيت قالوا وإنك تتلو أنا قد أوتينا التوراة وفيها بيان كل شيء فقال هن في علم الله قليل فأنزل الله جل وعز (﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾) إلى آخر الآيتين

ونظيرتها في البصري والشامي الأحقاف ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها خمس مئة وثمان وأربعون كلمة

وحروفها ألفان ومئة وعشرة أحرف

وهي ثلاثون وثلاث آيات في عدد المدنيين والمكي وأربع في عدد الباقين

اختلافها آيتان (﴿ الم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ مخلصين له الدين ﴾)

عدها البصري والشامي ولم يعدها الباقون وليس فيها شيء مما يشبه الفواصل ورؤوس الآي

الحكيم

2 للمحسنين

3 يوقنون

4 المفلحون

5 مهين

6 أليم

7 النعيم

8 الحكيم

9 كريم

10 مبين

11 حميد

12 عظيم

13 المصير

14 تعملون

15 خبير

16 الأمور

17 فخور

18 الحمير

19 منير

20 السعير

21 الأمور

22 الصدور

23 غليظ

24 لا يعلمون

25 الحميد

26 حكيم

27 بصير

28 خبير

29 الكبير

30 شكور

31 كفور

32 الغرور

33 خبير

34 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 206﴾

(103/606)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (هدى ورحمة) هما حالان من آيات ، والعامل معنى الإشارة ، وبالرفع على إضمار مبتدأ : أي هي أو هو .

قوله تعالى (ويتخذها) النصب على العطف على يضل ، والرفع عطف على يشترى ، أو على إضمار هو ، والضمير يعود على السبيل ، وقيل على الحديث لأنه يراد به الأحاديث ، وقيل على الآيات .

قوله تعالى (كأن لم يسمعها) موضعه حال، والعامل ولى، أو مستكبرا.

و(كأن في أذنيه وقرا) إما بدل من الحال الأولى التى هي كأن لم أو تبيين لها أو حال من الفاعل في يسمع.

قوله تعالى (خالدين فيها) حال من الجنات، والعامل ما يتعلق به لهم، وإن شئت كان حالا من الضمير في لهم وهو أقوى (وعد الله حقا) قد ذكر في الروم (بغير عمد) قد ذكر في الرعد.

قوله تعالى (هذا خلق الله) أي مخلوقه كقولهم: درهم ضرب الأمين، و (ماذا) في موضع نصب ب (خلق) لا بأرونى لأنه استفهام، فأما كون " ذا " بمعنى الذى فقد ذكر في البقرة، و (لقمان) اسم أعجمى وإن وافق العربي، فإن لقمانا فعلانا من اللقم (أن اشكر) قد ذكر نظائره (وإذ قال) أي واذكر، و (بنى) قد ذكر في هود.

قوله تعالى (وهنا) المصدر هنا حال: أي ذات وهن: أي موهونة، وقيل التقدير في وهن.

قوله تعالى (معروفا) صفة مصدر محذوف: أي أصحابا معروفا، وقيل التقدير بمعروف.

قوله تعالى (إنها إن تك) " ها " ضمير القصة أو الفعلة، و (مثقال حبة) قد ذكر في الأنبياء.

قوله تعالى (من صوتك) هو صفة لمحذوف: أي اكسر شيئا من صوتك، وعلى قول الأخفش تكون " من " زائدة.

وصوت الحمير إنما وحده لأنه جنس.

قوله تعالى (نعمه) على الجمع ونعمة على الإفراد في اللفظ ، والمراد الجنس كقوله " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " و (ظاهرة) حال أو صفة .

(104/606)

قوله تعالى (من شجرة) في موضع الحال من ضمير الاستقرار ، أو من " ما " (والبحر) بالرفع على وجهين: أحدهما هو مستأنف .

والثانى عطف على موضع اسم " إن " وبالنصب عطفا على إسم " إن " وإن شئت على إضمار فعل يفسره ما بعده وضم ياء (يمده) وفتحها لغتان .

قوله تعالى (إلا كنفس واحدة) في موضع رفع خبر خلقكم قوله تعالى (بنعمة الله) حال من ضمير الفلك ، ويجوز أن يتعلق بتجرى: أي بسبب نعمة الله عزوجل .

قوله تعالى (ولا مولود هو جاز) مولود يجور أن يعطف على والد فيكون ما بعده صفة له ، ويجوز أن يكون مبتدأ ، وإن كان نكرة لانه في سياق النفى ، والجملة بعده الخبر .

قوله تعالى (وينزل الغيث) هذا يدل على قوة شبه الظرف بالفعل ، لأنه عطفه على قوله عنده ، كذا يقول ابن جنى وغيره ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 187.189 ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة لقمان

[سورة لقمان (31) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (2)

"الم" حروف لا محل لها من الإعراب "تِلْكَ آياتُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "الْكِتابِ" مضاف إليه "الْحَكِيمِ" صفة الكتاب.

[سورة لقمان (31) : آية 3]

هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3)

"هُدىً" حال منصوبة "وَرَحْمَةً" معطوف على هدى "لِلْمُحْسِنِينَ" متعلقان برحمة.

[سورة لقمان (31) : آية 4]

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

"الَّذِينَ" اسم الموصول صفة للمحسنين "يُقِيمُونَ" مضارع وفاعله "الصَّلاةَ" مفعول به

والجملة صلة الذين "وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ" معطوف على يقيمون الصلاة والواو حالية "وَهُمْ" مبتدأ "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بيوقنون "هُمْ" ضمير فصل "يُوقِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر هم والجملة الاسمية حال.

[سورة لقمان (31) : آية 5]

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

"أُولئِكَ" اسم الإشارة مبتدأ "عَلى هُدىً" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة مستأنفة لا محل لها "مِنْ رَبِّهِمْ" متعلقان بهدى "وَأُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْمُفْلِحُونَ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة لقمان (31) : آية 6]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (6)

(106/606)

"وَمِنَ النَّاسِ" الجار والمجرور خبر مقدم "مِنَ" اسم موصول مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "يَشْتَرِي" مضارع فاعله مستتر "لَهْوَ الْحَدِيثِ" مفعول به مضاف إلى الحديث

والجملة صلة من لا محل لها "لِيُضِلَّ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيشتري "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال "عِلْمٍ" مضاف إليه "وَيَتَّخِذَهَا" مضارع معطوف على ليضل وها مفعول به أول "هُزُواً" مفعول به ثان "أُولَئِكَ" مبتدأ "لَهُمْ" خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "مُهِينٌ" صفة عذاب والجملة خبر أولئك وجملة أولئك . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 7]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (7)

"وَ" الواو حرف عطف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "آياتُنا" نائب فاعل والجملة الفعلية في محل جر بالإضافة . "وَلَّى" ماض فاعله مستتر "مُسْتَكْبِراً" حال والجملة جواب الشرط لا محل لها . "كَأَنْ" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن

محذوف "لَمْ يَسْمَعْها" مضارع مجزوم بلم وها مفعول به والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر كأن والجملة الاسمية حال . "كَأَنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي أُذُنَيْهِ" خبر كأن المقدم "وَقْراً" اسمها المؤخر والجملة الاسمية حال . "فَبَشِّرْهُ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والهاء

مفعول به والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "بِعَذابٍ" متعلقان بالفعل "أَلِيمٍ" صفة عذاب.

[سورة لقمان (31) : آية 8]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8)

(107/606)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين لا محل لها "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "لَهُمْ جَنَّاتُ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر "النَّعِيمِ" مضاف إليه والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن الذين . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 9]

خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

"خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "وَعْدَ اللَّهِ" مفعول مطلق لفعل محذوف ولفظ الجلالة مضاف إليه "حَقًّا" مفعول مطلق لفعل محذوف "وَ" الواو حالية "هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبران والجملة حال.

[سورة لقمان (31) : آية 10]

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)

"خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "بِغَيْرِ" متعلقان بالفعل "عَمَدٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها . "تَرَوْنَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة عمد "وَأَلْقى" معطوف على خلق "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "رَواسِيَ" مفعول به "أَنْ تَمِيدَ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر "بِكُمْ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول لأجله . "وَبَثَّ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "فِيها" متعلقان بالفعل "مِنْ كُلِّ" متعلقان بالفعل أيضا "دابَّةٍ" مضاف إليه "وَأَنْزَلْنا" ماض وفاعله "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بالفعل "ماءً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

"فَأَنْبَتْنا" ماض وفاعله "فِيها" متعلقان بالفعل "مِنْ كُلِّ" متعلقان بالفعل أيضا "زَوْجٍ" مضاف إليه "كَرِيمٍ" صفة زوج والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة لقمان (31) : آية 11]

هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (11)

"هذا خَلْقُ اللَّهِ" مبتدأ وخبره ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها . "فَأَرُونِي" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم مفعول به والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها . "ما ذا" اسم استفهام مفعول به مقدم لخلق "خَلَقَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة الاستفهامية سدت مسد المفعولين الثاني والثالث لأروني "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "بَلِ" حرف إضراب "الظَّالِمُونَ" مبتدأ "فِي ضَلالٍ" خبر المبتدأ "مُبِينٍ" صفة ضلال والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 12]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)

(109/606)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "آتَيْنا" ماض وفاعله "لُقْمانَ" مفعول به أول "الْحِكْمَةَ" مفعول به ثان والجملة جواب القسم لا محل

لها . "أَنِ اشْكُرْ" أن مفسرة زائدة وأمر فاعله مستتر "لِلَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة مفسرة لا محل لها . "وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "يَشْكُرْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "فَإِنَّما" الفاء رابطة إنما كافة ومكفوفة "يَشْكُرُ" مضارع فاعله مستتر "لِنَفْسِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من . . مستأنفة لا محل لها . "وَ" الواو حرف عطف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "كَفَرَ" ماض فاعله مستتر "فَإِنَّ اللَّهَ" الفاء رابطة وحرف مشبه بالفعل ولفظ الجلالة اسمه "غَنِيٌّ حَمِيدٌ" خبران والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من معطوفة على ما قبلها .

[سورة لقمان (31) : آية 13]

وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

"وَ" الواو حرف استئناف "إِذْ" ظرف زمان "قالَ لُقْمانُ" ماض وفاعله "لِابْنِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة . "وَ" الواو حالية "هُوَ" مبتدأ "يَعِظُهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال "يا بُنَيَّ" حرف نداء ومنادى مضاف "لا تُشْرِكْ" مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملتان الندائية والفعلية مقول القول . "إِنَّ الشِّرْكَ" إن واسمها "لَظُلْمٌ" اللام

المزحلقة وخبرها "عَظِيمٌ" صفة والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 14]

(110/606)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)

"وَوَصَّيْنَا" الواو واو الاعتراض وماض وفاعله "الْإِنْسانَ" مفعول به "بِوالِدَيْهِ" متعلقان بالفعل "حَمَلَتْهُ" ماض ومفعوله "أُمُّهُ" فاعل والجملة اعتراضية لا محل لها "وَهْناً" نائب مفعول مطلق "عَلى وَهْنٍ" حال . "وَفِصالُهُ" الواو اعتراضية ومبتدأ "فِي عامَيْنِ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية معترضة لا محل لها "أَنِ اشْكُرْ" أن مفسرة وأمر فاعله مستتر والجملة تفسيرية "لِي" متعلقان بالفعل "وَلِوالِدَيْكَ" معطوفان على لي "إِلَيَّ" خبر مقدم "الْمَصِيرُ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 15]

وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

"وَ" الواو حرف عطف "إِنْ" شرطية "جاهَداكَ" ماض وفاعله ومفعوله وهو في محل جزم فعل الشرط والجملة ابتدائية لا محل لها "عَلى" حرف جر "أَنْ تُشْرِكَ" مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول من أن والفعل في محل

(111/606)

جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بجاهداك "بِي" متعلقان بالفعل "ما لَيْسَ" ما مفعول به وماض ناقص "لَكَ" خبره المقدم "بِهِ" متعلقان بعلم "عِلْمٌ" اسم ليس المؤخر والجملة صلة ما "فَلا تُطِعْهُما" الفاء رابطة ومضارع مجزوم بلا الناهية والهاء مفعول به "و ما" للتثنية والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَ" الواو حرف عطف "صاحِبْهُما" أمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي الدُّنْيا" حال "مَعْرُوفاً" صفة مفعول مطلق محذوف "وَاتَّبِعْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "سَبِيلَ مَنْ" مفعول به مضاف إلى من والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنابَ" ماض فاعله مستتر "إِلَيَّ" متعلقان بالفعل والجملة صلة من "ثُمَّ" حرف عطف "إِلَيَّ" خبر مقدم "مَرْجِعُكُمْ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "فَأُنَبِّئُكُمْ" الفاء حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِما" متعلقان بالفعل "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله

والجملة الفعلية خبر كنتم وجملة كنتم . . صلة .

[سورة لقمان (31) : آية 16]

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)

(112/606)

"يا بُنَيَّ" يا حرف نداء ومنادى مضاف "إِنَّها" إن واسمها "إِنْ" حرف شرط جازم "تَكُ" مضارع ناقص مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف واسمه مستتر "مِثْقالَ" خبر تك "حَبَّةٍ" مضاف إليه والجملة ابتدائية لا محل لها ، وجملة النداء مستأنفة "مِنْ خَرْدَلٍ" صفة حبة . "فَتَكُنْ" الفاء حرف عطف ومضارع ناقص اسمه مستتر "فِي صَخْرَةٍ" خبر تكن والجملة معطوفة على ما قبلها "أَوْ" حرف عطف "فِي السَّماواتِ" جار ومجرور معطوفان على في صخرة "أَوْ" حرف عطف "فِي الْأَرْضِ" جار ومجرور معطوفان على في السموات "يَأْتِ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط "بِهَا اللَّهُ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة فاعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "لَطِيفٌ خَبِيرٌ" خبران والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . وإن ومدخولها خبر

إنها .

[سورة لقمان (31) : آية 17]

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17)

"يا بُنَيَّ" يا حرف نداء ومنادى مضاف "أَقِمِ" أمر فاعله مستتر "الصَّلاةَ" مفعول به "وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ" معطوف على ما قبله "وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ" أمر فاعله مستتر والجار والمجرور متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَاصْبِرْ" أمر فاعله مستتر "عَلى ما" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "أَصابَكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة ما . "إِنَّ ذلِكَ" إن واسمها "مِنْ عَزْمِ" متعلقان بالخبر المحذوف "الْأُمُورِ" مضاف إليه والآية مقول القول .

[سورة لقمان (31) : آية 18]

وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (18)

"وَلا تُصَعِّرْ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر "خَدَّكَ" مفعول به

"لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها ، "وَلا تَمْشِ" معطوف على ولا تصعر "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "مَرَحاً" صفة مفعول مطلق محذوف "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "لا يُحِبُّ" نافية ومضارع فاعله مستتر "كُلَّ" مفعول به "مُخْتالٍ" صفة موصوف محذوف تقديره عبد مختال "فَخُورٍ" صفة ثانية والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل .

[سورة لقمان (31) : آية 19]

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

"وَاقْصِدْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "فِي مَشْيِكَ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ" معطوف على ما قبله "إِنَّ أَنْكَرَ" إن واسمها "الْأَصْواتِ" مضاف إليه "لَصَوْتُ" اللام المزحلقة "صوت الْحَمِيرِ" خبر إن المضاف إلى الحمير والجملة الاسمية تعليل .

[سورة لقمان (31) : آية 20]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (20)

"أَلَمْ تَرَوْا" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "سَخَّرَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "ما" مفعول به "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة ما والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي تروا "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما في السموات "وَأَسْبَغَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "نِعَمَهُ" مفعول به "ظاهِرَةً" حال "وَباطِنَةً" معطوف على ظاهرة والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَمِنَ النَّاسِ" الواو حرف استئناف وخبر مقدم "مِنَ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "يُجادِلُ" مضارع فاعله مستتر "بِغَيْرِ" حال "عِلْمٍ" مضاف إليه "وَلا هُدىً" معطوف على بغير علم "وَلا كِتابٍ" معطوف على بغير علم "مُنِيرٍ" صفة كتاب .

[سورة لقمان (31) : آية 21]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (21)

"وَ" الواو حرف استئناف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "قِيلَ" ماض مبني للمجهول "لَهُمُ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "اتَّبِعُوا" أمر وفاعله "ما" مفعول به والجملة في محل رفع نائب فاعل لقيل "أَنْزَلَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة ما "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "بَلْ" حرف إضراب "نَتَّبِعُ" مضارع فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة مقول القول "وَجَدْنا" ماض وفاعله "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "آباءَنا" مفعول به. والجملة صلة ما. "أَوَلَوْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف عطف "لَوْ" شرطية غير جازمة وجوابها محذوف "كانَ الشَّيْطانُ" كان واسمها "يَدْعُوهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر كان وجملة كان . .

ابتدائية لا محل لها "إِلى عَذابِ" متعلقان بالفعل "السَّعِيرِ" مضاف إليه.

[سورة لقمان (31) : آية 22]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (22)

"وَمَنْ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "يُسْلِمْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "وَجْهَهُ" مفعول به "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَهُوَ" الواو حالية "هُوَ مُحْسِنٌ" مبتدأ وخبره والجملة حال. "فَقَدِ" الفاء رابطة قد حرف تحقيق "اسْتَمْسَكَ"

ماض فاعله مستتر "بِالْعُرْوَةِ" متعلقان بالفعل "الْوُثْقى" صفة العروة والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر وجملة من . . مستأنفة لا محل لها . "وَإِلَى اللَّهِ" خبر مقدم "عاقِبَةُ" مبتدأ مؤخر "الْأُمُورِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 23]

(116/606)

وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (23)

"وَ" الواو حرف عطف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "كَفَرَ" ماض فاعله مستتر "فَلا يَحْزُنْكَ" الفاء رابطة ومضارع مجزوم بلا الناهية والكاف مفعول به "كُفْرُهُ" فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط "إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها . "فَنُنَبِّئُهُمْ" الفاء حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِما" متعلقان بالفعل "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ما . "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "عَلِيمٌ" خبرها "بِذاتِ" متعلقان بعليم "الصُّدُورِ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . .

معطوفة على ما قبلها .

[سورة لقمان (31) : آية 24]

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (24)

"نُمَتِّعُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها . "ثُمَّ" حرف عطف "نَضْطَرُّهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "إِلى عَذابٍ" متعلقان بالفعل "غَلِيظٍ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة لقمان (31) : آية 25]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (25)

(117/606)

"وَلَئِنْ" الواو حرف استئناف واللام موطئة لقسم محذوف وإن حرف شرط جازم "سَأَلْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية لا محل لها "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات والجملة خبر من وجملة من خلق . . مفعول به ثان لسأل . "لَيَقُولُنَّ" اللام واقعة في جواب

القسم ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة فاعل والنون حرف توكيد لا محل له والجملة جواب القسم لا محل لها . "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل لفعل محذوف والجملة مقول القول . "قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها .

"الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" لفظ الجلالة

وحرف الجر خبر والجملة مستأنفة لا محل لها . "بَلْ" حرف إضراب "أَكْثَرُهُمْ" مبتدأ "لا يَعْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 26]

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26)

"لِلَّهِ" الجار ولفظ الجلالة المجرور خبر مقدم "ما" اسم موصول مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات ، "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" خبران لإن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 27]

وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)

"وَلَوْ" الواو حرف استئناف "لَوْ" شرطية غير جازمة "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "ما" اسم أن "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول ، "مِنْ شَجَرَةٍ" حال "أَقْلامٌ" خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده ، والواو حالية "وَالْبَحْرُ" مبتدأ "يَمُدُّهُ" مضارع ومفعوله والجملة خبر البحر والجملة الاسمية حال "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بالفعل "سَبْعَةُ أَبْحُرٍ" فاعل مضاف إلى أبحر "ما" نافية "نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ" ماض وفاعله ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة جواب لو لا محل لها ، "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "عَزِيزٌ حَكِيمٌ" خبران والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 28]

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

"ما" نافية "خَلْقُكُمْ" مبتدأ خبره محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها "وَلا بَعْثُكُمْ" معطوف على ما قبله "إِلَّا" حرف حصر "كَنَفْسٍ" متعلقان بمحذوف خبر بعثكم "واحِدَةٍ" صفة نفس "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" إن واسمها وخبراها والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 29]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29)

(119/606)

"أَلَمْ تَرَ" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها ، "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "يُولِجُ" مضارع فاعله مستتر "اللَّيْلَ" مفعول به "فِي النَّهارِ" متعلقان بالفعل والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها سد مسد مفعولي ترى ، "وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ" معطوف على ما قبله "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" معطوف أيضا "كُلٌّ" مبتدأ "يَجْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية حال . "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بالفعل "مُسَمًّى" صفة أجل . "وَأَنَّ اللَّهَ" الواو حرف عطف وأن ولفظ الجلالة اسمها "بِما" متعلقان بالخبر "خَبِيرٌ" "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما . والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها معطوف على ما قبله .

[سورة لقمان (31) : آية 30]

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

"ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ" اسم الإشارة مبتدأ والباء حرف جر وأن ولفظ الجلالة اسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْحَقُّ" خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "وَ" الواو حرف عطف "أَنَّ ما" أن واسمها "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما "مِنْ دُونِهِ" حال "الْباطِلُ" خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها معطوف على ما قبله ، "وَ" الواو حرف عطف "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ" خبران لأن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة لقمان (31) : آية 31]

(120/606)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31)

"أَلَمْ تَرَ" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها ، "أَنَّ الْفُلْكَ" أن واسمها "تَجْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها سد مسد مفعولي تر "فِي الْبَحْرِ" متعلقان بالفعل

"بِنِعْمَتِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل أيضا ولفظ الجلالة مضاف إليه "لِيُرِيَكُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والكاف مفعول به والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بتجري "مِنْ آياتِهِ" متعلقان بالفعل "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" خبر إن المقدم واللام المزحلقة "لَآياتٍ" اسم إن المؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها . "لِكُلِّ" صفة آيات "صَبَّارٍ" مضاف إليه وهو صفة لموصوف محذوف "شَكُورٍ" صفة ثانية .

[سورة لقمان (31) : آية 32]

وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

(121/606)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف "إِذا غَشِيَهُمْ" إذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض ومفعوله "مَوْجٌ" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة . "كَالظُّلَلِ" صفة موج "دَعَوُا اللَّهَ" ماض وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة جواب إذا لا محل لها . "مُخْلِصِينَ" حال "لَهُ" متعلقان بما قبلهما "الدِّينَ" مفعول به ، "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف "لما" ظرفية شرطية "نَجَّاهُمْ"

ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "فَمِنْهُمْ" الفاء رابطة "منهم" خبر مقدم "مُقْتَصِدٌ" مبتدأ مؤخر والجملة جواب الشرط لا محل لها والواو حرف استئناف "وَما" نافية "يَجْحَدُ" مضارع مرفوع "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "إِلَّا" حرف حصر "كُلُّ" فاعل "خَتَّارٍ" مضاف إليه وهو صفة لموصوف محذوف أي عبد ختار "كَفُورٍ" صفة ثانية والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة لقمان (31) : آية 33]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)

(122/606)

"يا أَيُّهَا" حرف نداء ومنادى نكرة مقصودة "النَّاسُ" بدل والجملة ابتدائية لا محل لها . "اتَّقُوا" أمر وفاعله "رَبَّكُمْ" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها . "وَاخْشَوْا" معطوف على اتقوا "يَوْماً" مفعول به "لا" نافية "يَجْزِي والِدٌ" مضارع وفاعله "عَنْ وَلَدِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صفة يوما . "وَ" الواو حرف عطف "لا" نافية "مَوْلُودٌ" معطوف على والد "هُوَ جازٍ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية صفة مولود "عَنْ والِدِهِ" متعلقان بجاز . "شَيْئاً" مفعول

به . "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ" إن واسمها المضاف إلى لفظ الجلالة "حَقٌّ" خبرها والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "فَلا تَغُرَّنَّكُمُ" الفاء الفصيحة ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم بلا الناهية والكاف مفعول به "الْحَياةُ" فاعل "الدُّنْيا" صفة الحياة والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها . "وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ" معطوف على سابقه والإعراب واضح .

[سورة لقمان (31) : آية 34]

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

(123/606)

"إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "عِنْدَهُ" ظرف مكان خبر مقدم "عِلْمُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن اللّه . . . مستأنفة لا محل لها . "السَّاعَةِ" مضاف إليه "وَيُنَزِّلُ" مضارع فاعله مستتر "الْغَيْثَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَيَعْلَمُ" معطوف على ينزل "ما" مفعول به "فِي الْأَرْحامِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول والواو حرف استئناف "ما" نافية "تَدْرِي نَفْسٌ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "ما

ذا" اسم استفهام مفعول به مقدم "تَكْسِبُ" مضارع فاعله مستتر "غَداً" ظرف زمان والجملة سدت مسد مفعولي تدري الواو حرف عطف "ما" نافية "تَدْرِي نَفْسٌ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "بِأَيِّ" متعلقان بتموت "أَرْضٍ" مضاف إليه "تَمُوتُ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل نصب مفعول تدري. "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "عَلِيمٌ خَبِيرٌ" خبراها والجملة مستأنفة لا محل لها. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن / لـ دعاس حـ 3 صـ 25. 33﴾

(124/606)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة لُقْمَان

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

967 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا يحل بيع الْمُغَنِّيَات وَلَا شِرَاؤُهُنَّ وَلَا التِّجَارَة فِيهَا وَلَا أَثْمَانهنَّ

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي أُمَامَة وَمن حَدِيث عمر بن الْخطاب وَمن حَدِيث عَلّي وَمن حَدِيث عَائِشَة

أما حَدِيث أبي أُمَامَة فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ من حَدِيث عبيد الله بن زحر عَن عَلّي بن يزِيد عَن الْقَاسِم أبي عبد الرَّحْمَن عَن أبي أُمَامَة عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَا تَبِيعُوا الْقَيْنَات وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ وَلَا خير فِي التِّجَارَة فِيهِنَّ وَثَمَنهنَّ حرَام فِي مثل هَذَا نزلت هَذِه الْآيَة وَمن النَّاس من يَشْتَرِي لَهو الحَدِيث الْآيَة انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث غَرِيب إِنَّمَا يروي من حَدِيث الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة وَالقَاسِم ثِقَة وَعلي ين يزِيد يضعف فِي الحَدِيث قَالَه مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَابْن أبي حَاتِم وَابْن مرْدَوَيْه والثعلبي وَالْبَغوِيّ فِي تفاسيرهم وَأَلْفَاظهمْ فِيهِ قَالَ لَا يحل بيع الْمُغَنّيَات وَلَا شِرَاؤُهُنَّ وَلَا التِّجَارَة فِيهِنَّ وَأَكل أَثْمَانهنَّ حرَام انْتَهَى وَهُوَ لفظ الْكتاب

(125/606)

وَذكره عبد الْحق فِي أَحْكَامه فِي الْبيُوع من جِهَة التِّرْمِذِيّ ثمَّ قَالَ وَعلي ابْن يزِيد ضعفه أَحْمد وَالْبُخَارِيّ وَأَبُو زرْعَة وَأَبُو حَاتِم وَقَالَ النَّسَائِيّ مَتْرُوك وَأحسن مَا وجدنَا فِيهِ قَول

ابْن عدي وَقَالَ هُوَ صَالِح فِي نَفسه إِلَّا أَن يروي عَنهُ ضَعِيف وَهَذَا قد رَوَى عَنهُ ابْن زحر وَقد ضعفه أَبُو حَاتِم وَابْن معِين وَابْن الْمَدِينِيّ وَوَثَّقَهُ البُخَارِيّ

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ ابْن مَاجه فِي التِّجَارَات ثَنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن سعيد الْقطَّان ثَنَا هَاشم بن الْقَاسِم ثَنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ عَن عَاصِم عَن أبي الْمُهلب عَن عبيد الله الإِفْرِيقِي عَن أبي أُمَامَة قَالَ نهى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن بيع الْمُغَنِّيَات وَعَن شِرَائِهِنَّ وَعَن كَسْبهنَّ وَعَن أكل أَثْمَانهنَّ انْتَهَى

وَله طَرِيق آخر عِنْد الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه عَن الْوَلِيد بن الْوَلِيد ثَنَا أَبُو ثَوْبَان عَن يَحْيَى بن الْحَارِث عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة فَذكره بِلَفْظ الطَّبَرِيّ بِزِيَادَة الحَدِيث الَّذِي بعده

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث فرج بن فضَالة عَن عَلّي بن زيد بدُون الزِّيَادَة

وَأما حَدِيث عمر فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث يزِيد بن عبد الْملك النَّوْفَلِي عَن يزِيد بن خصيفَة عَن السَّائِب بن يزِيد عَن عمر بن الْخطاب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ النّظر إِلَى الْمُغنيَة حرَام وَغِنَاهَا حرَام وَثمنهَا كَثمن الْكَلْب سحت مُخْتَصر

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بيَزِيد بن عبد الْملك وَقَالَ عَامَّة مَا يرويه غير مَحْفُوظ

وَاسْنِدِ إِلَى النَّسَائِيّ أَنه قَالَ فِيهِ مَتْرُوك الحَدِيث

وَأما حَدِيث عَلّي فَرَوَاهُ أَبُو يعل الْموصِلِي فِي مُسْنده عَن عَلّي بن يزِيد

الصدائي عَن الْحَارث بن نَبهَان عَن إِسْحَاق عَن الْحَارِث عَن عَلّي قَال نَهى رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن الْمُغَنّيَات وَعَن بيعهنَّ وشرائهن وَالتِّجَارَة فِيهِنَّ وَقَال كَسْبهنَّ

حرَام انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بِالْحَارِثِ بن نَبهَان وَفِيه أَيْضا غَيره

وَأما حَدِيث عَائِشَة فَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من حَدِيث لَيْث ابْن أبي سليم

عَن عبد الرَّحْمَن بن سابط عَن عَائِشَة مَرْفُوعا إِن الله حرم الْقَيْنَة وَبَيْعهَا وَثمنهَا وَتَعْلِيمهَا

وَالِاسْتِمَاع إِلَيْهَا ثمَّ قَرَأَ وَمن النَّاس من يَشْتَرِي لَهو الْحَدِيث انْتَهَى

وَأعله بليث بن أبي سليم قَال ابْن حبَان قد اخْتَلَط فِي آخر عمره فَكَانَ يقلب الْأَسَانِيد

وَيرْفَع الْمَرَاسِيل وَيَأْتِي عَن الثِّقَات بِمَا لَيْسَ من حَدِيثهمْ انْتَهَى

وَإِلَيْهِ أَشَارَ الْبَيْهَقِيّ فِي سننه عقيب حَدِيث أبي أُمَامَة فَقَال وَرُوِيَ عَن لَيْث ابْن أبي سليم

عَن عبد الرَّحْمَن بن سابط عَن عَائِشَة وَلَيْسَ بِمَحْفُوظ

977 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَال مَا من رجل رفع صَوته بِالْغنَاءِ إِلَّا يبْعَث الله عَلَيْهِ

شَيْطَانَيْنِ أَحدهمَا عَلَى الْمنْكب وَالْآخر عَلَى هَذَا الْمنْكب فَلَا يزَالَانِ يَضْربَانِهِ بِأَرْجُلِهِمَا حَتَّى يكون هُوَ الَّذِي يسكت

(127/606)

قلت رَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث رَشِيدين بن سعد عَن يَحْيَى بن أَيُّوب عَن عبيد الله بن زحر عَن عَلّي بن يزِيد عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا رفع رجل صَوته بِالْغنَاءِ إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه والْحَارث بن أبي أُسَامَة والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول من حَدِيث مطرح بن يزِيد عَن عبيد الله بن زحر عَن عَلّي بن يزِيد الْأَلْهَانِي عَن الْقَاسِم عَن أبي أَمَامه مَرْفُوعا لَا يحل بيع الْمُغَنّيَات وَلَا شِرَاؤُهُنَّ وَأَثْمَانُهُنَّ حرَام وَمَا من رجل رفع صَوته بِالْغنَاءِ إِلَى آخِره

بِهَذَا السَّنَد الْمَتْن رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه والثعلبي ثمَّ الواحدي فِي تفاسيرهم وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه أَيْضا مُلْحقًا بِالْحَدِيثِ الَّذِي قبله حَدثنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر بن سُفْيَان الرقي ثَنَا أَيُّوب بن مُحَمَّد الْوزان ثَنَا الْوَلِيد بن الْوَلِيد ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن ثَابت بن ثَوْبَان عَن يَحْيَى بن الْحَارِث الزيَادي عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة مَرْفُوعا نَحوه

وَرَوَاهُ فِي كِتَابه الْمُسَمَّى بِمُسْنَد الشاميين ثَنَا مُحَمَّد بن عمار الدِّمَشْقِي ثَنَا الْعَبَّاس بن الْوَلِيد الْخلال ثَنَا الْوَلِيد بن الْوَلِيد بِهِ لَا يحل بيع الْمُغَنِّيَات إِلَى آخِره سَوَاء

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل عَن مسلمة بن عَلّي أبي سعيد الْخُشَنِي ثني يَحْيَى بن الْحَارِث بِهِ وَضعف مسلمة عَن الْبُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مِعِين وَوَافَقَهُمْ وَقَالَ عَامَّة أَحَادِيثه غير مَحْفُوظَة انْتَهَى

978 - الْحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ فِي الْحَدِيث الْحَدِيث فِي الْمَسْجِد يَأْكُل الْحَسَنَات كم تَأْكُل الْبَهِيمَة الْحَشِيش

(128/606)

قلت اسْتدلَّ بِهِ الْمُصَنّف عَلَى أَن الْمُرَاد بِهِ الْحَدِيث الْمُنكر وَتقدم فِي بَرَاءَة

979 - الْحَدِيث الرَّابِع

قَالَ رجل لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من أبر قَالَ أمك قَالَ ثمَّ من قَالَ ثمَّ أمك قَالَ ثمَّ من قَالَ ثمَّ أمك قَالَ ثمَّ من قَالَ ثمَّ أَبَاك

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الْأَدَب وَالتِّرْمِذِيّ فِي الْبر والصلة من حَدِيث بهز بن حَكِيم عَن أَبِيه عَن جده قَالَ قلت يَا رَسُول الله من أبر إِلَى آخِره سَوَاء وَزَاد فِيهِ ثمَّ الْأَقْرَب فَالْأَقْرَب

انْتَهَى وَلم يعزه الطِّيبِيّ إِلَّا لِلتِّرْمِذِي

وَمَعْنَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي الْأَدَب وَمُسلم فِي الْبر والصلة عَن أبي زرْعَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ جَاءَ رجل إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ من أَحَق النَّاس بِحسن صَحَابَتِي قَالَ أمك قَالَ ثمَّ من قَالَ ثمَّ أمك قَالَ ثمَّ من قَالَ ثمَّ أمك قَالَ ثمَّ من قَالَ ثمَّ أبوك انْتَهَى

980 - الْحَدِيث الْخَامِس

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لَا صِيَام لمن لم يعزم الصّيام من اللَّيْل

قلت تقدم فِي الْبَقَرَة وَكَذَا قَوْله أَلا يرَى إِلَى قَوْله لمن لم يبيت الصّيام من اللَّيْل تقدم فِي أَوَاخِر الْبَقَرَة

981 - الْحَدِيث السَّادِس

فِي الْحَدِيث إِن الله يحب أَن يُؤْخَذ برُخصِهِ كَمَا يحب أَن يُؤْخَذ بعَزَائِمِه

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث ابْن مَسْعُود وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث عَائِشَة

أما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فَبِي النَّوْع الْحَادِي وَالسبْعين

(129/606)

من الْقسم الأول من حَدِيث عمَارَة بن غزيَّة عَن حَرْب بن قيس عَن نَافِع عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن الله يحب أَن تُؤْتَى رخصه كَمَا يحب أَن تُؤْتَى عَزَائِمه انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَالْبَزَّار وَأَبو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم وَكَذَلِكَ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالْعِشْرين

وَعمارَة بن غزيَّة احْتج بِهِ مُسلم وَوَثَّقَهُ أَحْمد وَأَبو زرْعَة وَقَالَ ابْن معِين هُوَ صَالح الحَدِيث وَقَالَ أَبو حَاتِم كَانَ صَدُوقًا وَقَالَ ابْن سعد كَانَ ثِقَة وَضَعفه ابْن حزم وَحده وَحرب بن قيس ذكره ابْن أبي حَاتِم وَلم يذكر فِيهِ جرحا

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ ابْن حبَان أَيْضا فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن وَالسِّتِّينَ من الْقسم الثَّالِث عَن هِشَام بن حسان عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه أَيْضا

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبو نعيم فِي الْحِيلَة فِي تَرْجَمَة هِشَام بن حسان

وَأما حَدِيث ابْن مَسْعُود فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه أَيْضا ثَنَا أَبو مُسلم الْكشّي ثَنَا معمر بن عبد الله الْأَنْصَارِيّ ثَنَا شُعْبَة عَن الحكم عَن إِبْرَاهِيم عَن عَلْقَمَة عَن ابْن مَسْعُود مَرْفُوعا نَحوه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عَلْقَمَة وَقَالَ لم يروه مَرْفُوعا عَن شُعْبَة إِلَّا معمر

وَرَوَاهُ غنْدر وَبكر بن بكار وَغَيرهمَا مَوْقُوفا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْعقيلِيّ عَن معمر بن عبد الله الْأَنْصَارِيّ بِهِ مَرْفُوعا وَقَالَ لَا يُتَابع عَلَى رَفعه وَوَقفه غَيره وَهُوَ أولَى انْتَهَى

(130/606)

قَالَ ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَلَى أَحَادِيث الشهَاب فَقَالَ إِنَّه من أَقْرَان معمر وَلم يُتَابع عَلَى رَفعه

وَقد رَوَاهُ روح بن عبَادَة عَن شُعْبَة مَوْقُوفا وَرَوَاهُ أَبُو إِسْحَاق

السبيعِي عَن عبد الرَّحْمَن بن عبد الله بن مَسْعُود عَن أَبِيه من قَوْله الصَّحِيح انْتَهَى

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه مَوْقُوفا

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده حَدثنَا زيد بن الْحباب حَدثنِي عمر بن عبد الله بن أبي خثعم اليمامي أَنا يَحْيَى بن أبي كثير عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة أَن رجلا قَالَ يَا رَسُول الله أقصر الصَّلَاة فِي سَفَرِي قَالَ نعم إِن الله يحب أَن يُؤْخَذ برُخصِهِ كَمَا يحب أَن يُؤْخَذ بفَرِيضَتِهِ انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بعمر بن أبي خثعم وَقَالَ إِن عمر مُنكر الحَدِيث

وَرَوَاهُ ابْن عدي أَيْضا عَن سعيد بن سعيد بن أبي المَقْبُري ثني أخي عبيد الله عَن أَبِيه عَن

أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا نَحوه وأعله بِسَعْد هَذَا وَقَالَ عَامَّة مَا يرويه لَا يُتَابع عَلَيْهِ وَلم أر للْمُتَقَدّمين فِيهِ كَلَاما انْتَهَى

قَالَ ابْن طَاهِر وَسعد هَذَا لم يتَكَلَّم فِيهِ وَلَكِن لَهُ مَنَاكِير مِنْهَا هَذَا الْحَدِيث وَقد عده ابْن عدي من مَنَاكِيره قلت وَرَوَاهُ يَحْيَى بن عبيد الله عَن أَبِيه كَذَلِك وَيَحْيَى ضَعِيف انْتَهَى

وَأما حَدِيث عَائِشَة فَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل من طَرِيقين

أَحدهمَا عَن الحكم بن عبد الله بن سعد الْأَيْلِي أَنه سمع الْقَاسِم عَن عَائِشَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن الله يحب أَن يعْمل برُخصِهِ كَمَا يحب أَن يعْمل بِفَرَائِضِهِ) انْتَهَى وَضعف الحكم هَذَا عَن جمَاعَة جدا ووافقهم

(131/606)

وَالْآخر عَن عمر بن عبيد الْبَصْرِيّ ثَنَا هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن عَائِشَة مَرْفُوعا إِن الله يحب أَن تُؤْتَى رخصه كَمَا يحب أَن تُؤْتَى عَزَائِمه

قلت وَمَا عَزَائِمه قَالَ فَرَائِضه وَضعف عمر بن عبيد هَذَا

وَقَالَ لم يروه بِهَذَا الْإِسْنَاد غَيره انْتَهَى

وَبِهَذَا السَّنَد الثَّانِي والمتن رَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُعْجَمه وَحَجمه ثَلَاثَة أَجزَاء حَدِيثِيَّة

وَكَذَلِكَ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط

قَالَ ابْن طَاهِر وَرُوِيَ هَذَا الْحَدِيث من حَدِيث عَلّي رَوَاهُ عِيسَى بن عبد الله ابْن مُحَمَّد بن عمر بن عَلّي عَن أَبِيه عَن جده عَن عَلّي مَرْفُوعا قَالَ وَعِيسَى هَذَا من أهل الْكُوفَة عَامَّة مَا يرويهِ لَا يُتَابع عَلَيْهِ انْتَهَى

حَدِيث آخر رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط ثَنَا الْفضل بن الْعَبَّاس الْقُرْطُبِيّ ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عِيسَى الْعَطَّار ثَنَا عمر بن عبد الْجَبَّار ثَنَا عبد الله بن يزِيد بن آدم عَن أبي الدَّرْدَاء وَأبي أُمَامَة وواثلة بن الْأَسْقَع وَأنس بن مَالك أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن الله يحب أَن يُؤْتَى رخصه كَمَا يحب الْعَبْد مغْفرَة ربه انْتَهَى وَقَالَ لَا يرْوَى إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد تفرد بِهِ إِسْمَاعِيل بن عِيسَى الْعَطَّار انْتَهَى

قَوْله

وَقَوْلهمْ عَزمَة من عَزمَات رَبنَا

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ فِي الزَّكَاة من حَدِيث بهز بن حَكِيم عَن أَبِيه عَن جده مُعَاوِيَة بن حيدة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ فِي كل سَائِمَة إبل فِي أَرْبَعِينَ بنت لبون لَا يفرق إبل عَن حِسَابهَا من أَعْطَاهَا مُؤْتَجرًا فَلَهُ أجرهَا فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشطر مَاله عَزمَة من عَزمَات رَبنَا لَيْسَ لآل مُحَمَّد مِنْهَا شَيْء انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَعَزاهُ الشَّيْخ فِي الْإِلْمَام إِلَى التِّرْمِذِيّ وَهُوَ خطأ

وَقَالَ الْبَيْهَقِيّ إِنَّمَا لم يخرجَاهُ لِأَنَّهُ لَا يثبت عِنْدهمَا مُعَاوِيَة بن حيدة رِوَايَة ثِقَة غير ابْنه عَلَى عَادَتهمَا فِي الصَّحَابِيّ أَو التَّابِع أَو تَابع التَّابِع إِذا لم يكن لَهُ إِلَّا راو وَاحِد لم يخرجَا حَدِيثه فِي الصَّحِيح انْتَهَى

وَقد وثق بهز بن حَكِيم أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن معِين وَابْن الْمَدِينِيّ وَابْن الْجَارُود وَغَيرهم وَلَكِن ابْن حبَان قَالَ إِنَّه كَانَ يُخطئ كثيرا قَالَ وَلَوْلَا حَدِيث إِنَّا آخذوه وَشطر إِبله لَأَدْخَلْنَاهُ فِي الثِّقَات انْتَهَى

قَالَ الشَّيْخ فِي الإِمَام وَلَا يتَعَيَّن أَن يكون الشَّيْخَان تركا تَخْرِيجه لِلْعِلَّةِ الَّتِي ذكرهَا الْبَيْهَقِيّ فقد يكونَان لم يريَا بَهْزًا من شَرطهمَا وَهُوَ وَإِن وَثَّقَهُ جمَاعَة فقد قَالَ أَبُو حَاتِم يكْتب حَدِيثه وَلَا يحْتَج بِهِ وَقَالَ أَبُو زرْعَة لَيْسَ بمَشْهُور

وَقَوله إِن الصَّحَابِيّ وَالتَّابِع إِذا لم يكن لَهُ إِلَّا راو وَاحِد لم يخرجَا حَدِيثه هَذَا قد أَبْطلهُ الْحَافِظ عبد الْغَنِيّ فِي الْكتاب الَّذِي وَضعه فِي أَوْهَام الْمدْخل للْحَاكِم انْتَهَى كَلَامه

983 - الْحَدِيث السَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سرعَة الْمَشْي يذهب بهاء الْمُؤمن

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث الْخُدْرِيّ

(133/606)

فَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أبي جَعْفَر يَعْقُوب بن الْفَرَجِيّ من حَدِيث أبي معشر عَن سعيد الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ سرعَة الْمَشْي تذْهب بهاء الْمُؤمن انْتَهَى

وَأَبُو معشر فِيهِ مقَال

وَأخرجه ابْن عدي فِي الْكَامِل عَن عمار بن مطر الْعَنْبَري الرهاوي ثَنَا ابْن أبي ذِئْب عَن الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا وَأعله بِعَمَّار هَذَا وَقَالَ

أَنه مُنكر الحَدِيث

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث الْوَلِيد بن سَلمَة قَاضِي الْأُرْدُن ثَنَا عمر بن مُحَمَّد بن صهْبَان عَن نَافِع عَن ابْن عمر مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء وَأعله بعمر بن صهْبَان وَضَعفه عَن الْبُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن معِين وَوَافَقَهُمْ وَقَالَ غَالب أَحَادِيثه غير مَحْفُوظَة

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتَاب الضُّعَفَاء أَيْضا وَأسْندَ عَن ابْن معِين أَنه قَالَ عمر بن صهْبَان لَا يُسَاوِي فلسًا وَقَالَ فِي أبي معشر اخْتَلَط فِي آخر عمره وَكَثُرت الْمَنَاكِير فِي رِوَايَته فَبطل الِاحْتِجَاج بِهِ

وَأما حَدِيث الْخُدْرِيّ فَرَوَاهُ ابْن عدي أَيْضا عَن الْوَلِيد بن سَلمَة الْمَذْكُور ثَنَا ابْن أبي ذِئْب عَن سعيد الْمَقْبُري عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَحوه

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتَاب الضُّعَفَاء وَقَالَ الْوَلِيد بن سَلمَة الطَّبَرَانِيّ قَاضِي الْأُرْدُن كَانَ يضع الْحَدِيث لَا يجوز الِاحْتِجَاج بِهِ بحَال وَابْنه إِبْرَاهِيم بن الْوَلِيد ثِقَة انْتَهَى

984 - قَوْله

قَالَت عَائِشَة فِي حق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما كَانَ إِذا مَشَى أسْرع

(134/606)

قلت غَرِيب وَفِي النِّهَايَة لِابْنِ الْأَثِير عَن عَائِشَة قَالَت كَانَ عمر إِذا مَشَى أسْرع وَإِذا قَالَ أسمع وَإِذا ضرب أوجع

وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة عمر أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ ثَنَا عمر بن سُلَيْمَان بن أبي خَيْثَمَة عَن أَبِيه قَالَ قَالَت الشِّفَاء بنت عبد الله كَانَ عمر إِذا مَشَى إِلَى

آخِره سَوَاء

985 - الحَدِيث الثَّامِن

يروي أَن أيسر مَا يعذب بِهِ أهل النَّار الْأَخْذ بالأنفاس

قَالَت غَرِيب جدا

968 - الحَدِيث التَّاسِع

فِي الحَدِيث فِي جَذَعَة ابْن نيار تجزي عَنْك وَلنْ تُجزئ عَن أحد بعْدك

قلت تقدم فِي أَوَائِل الْبَقَرَة

987 - قَوْله

رُوِيَ أَن الْحَارِث بن عَمْرو بن حَارِثَة أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا رَسُول الله أَخْبِرنِي عَن السَّاعَة مَتى قِيَامهَا وَإِنِّي قد ألقيت حباتي فِي الأَرْض وَقد أَبْطَأت عَنَّا السَّمَاء فَمَتَى تمطر وَأَخْبِرنِي عَن امْرَأَتي فقد اشْتَمَلت عَلَى حمل مَا فِي بَطنهَا أذكر أم أُنْثَى وَإِنِّي علمت مَا علمت أمس فَمَا أعمل غَدا وَهَذَا مولدِي قد عَرفته فَأَيْنَ أَمُوت فنزلت إِن الله عِنْده علم السَّاعَة الْآيَة

قلت رَوَى الطَّبَرِيّ وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما من حَدِيث ابْن أبي نجيح عَن مُجَاهِد قَالَ جَاءَ رجل من أهل الْبَادِيَة فَقَالَ يَا مُحَمَّد إِن امْرَأَتي حُبْلَى فَأَخْبِرنِي مَا تَلد وَبَلدنَا مُجْدِبَة فَأَخْبِرنِي مَا ينزل الْغَيْث وَقد علمت مَتى ولدت فَأَخْبِرنِي مَتى أَمُوت فَأَنْزل الله إِن الله عِنْده

علم السَّاعَة الْآيَة انْتَهَى

وَذكره الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول بِلَفْظ الْمنصف من غير سَنَد وَلَا راو

988 - الْحَدِيث الْعَاشِر

(135/606)

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ مَفَاتِيح الْغَيْب خمس وتلا الْآيَة

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه من حَدِيث مُحَمَّد بن زيد عَن عبد الله ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَفَاتِيح الْغَيْبِيّ خمس ثمَّ قَرَأَ عَن الله عِنْده علم السَّاعَة وَينزل الْغَيْث الْآيَة

وَرَوَاهُ فِي تَفْسِير سُورَة الرَّعْد عَن عبد الله بن دِينَار عَن ابْن عمر أطول من هَذَا وَبِه فِي التَّوْحِيد أَخْصَر مِنْهُ وَكَذَلِك رَوَاهُ فِي الاسْتِسْقَاء وَهُوَ من أَفْرَاده

989 - قَوْله

رُوِيَ أَن ملك الْمَوْت مر عَلَى سُلَيْمَان فَجعل ينظر إِلَى رجل من جُلَسَائِهِ يديم النّظر إِلَيْهِ فَقَالَ الرجل من هَذَا قَالَ ملك الْمَوْت فَقَالَ كَأَنَّهُ يُرِيدنِي وَسَأَلَ سُلَيْمَان أَن يحملهُ عَلَى الرّيح

وَيُلْقِيه ببِلَاد الْهِنْد فَفعل ثمَّ قَالَ ملك الْمَوْت لِسُلَيْمَان كَانَ دوَام نَظَرِي إِلَيْهِ تَعَجبا مِنْهُ لِأَنِّي أمرت أَن أَقبض روحه بِالْهِنْدِ

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شَيْبه فِي مُصَنفه فِي أَبْوَاب كَلَام الْأَنْبِيَاء حَدثنَا عبد الله ابْن نمير ثَنَا الْأَعْمَش عَن خَيْثَمَة عَن شهر بن حَوْشَب قَالَ دخل ملك الْمَوْت عَلَى سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام فَجعل ينظر إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من طَرِيق أَحْمد بن حَنْبَل ثَنَا عبد الله بن نمير

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي كتاب الزّهْد حَدثنَا عبد الله بن نمير بِهِ سندا ومنتا

990 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة لُقْمَان كَانَ لُقْمَان رَفِيقه يَوْم الْقِيَامَة وَأُعْطِي من الْحَسَنَات عشرا بِعَدَد من عمل بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَن الْمُنكر

(136/606)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث عَطَاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي كَعْب مَرْفُوعا وَرَوَاهُ عَن ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي سُورَة يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 67. 79 ﴾

(137/606)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة لقمان

قوله تعالى : (وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ) ، الآية/ 14 .

وفي آية أخرى : (وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً) «1» .

فنحصل من مجموع الآيتين أن الحمل أقله ستة أشهر .

فاستدل به ابن عباس على مدة الحمل ، واتفق أهل العلم عليه .

قوله تعالى : (يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ) ، الآية/ 17 ، من الناس في الأمر بالمعروف ، فظاهره يقتضي وجوب الصبر .

قوله تعالى : (وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) ، الآية/ 18 ، نهي عن التكبر .

قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ) ، الآية/ 14 .

بيناه في مواضع .

قوله تعالى : (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ) ، الآية/ 15 . مثل

---

(1) سورة الأحقاف الآية 15 .

قوله : (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) «1» . إلا أن دلالة هذا على الإجماع أبعد لأن وصية لقمان لابنه لا تقتضي الاحتجاج بالإجماع .

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) ، الآية/ 6 .

قال ابن عباس : هو الغناء ، واللّه الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث ، ومثله عن مجاهد وزاد فيه : هو الغناء والاستماع إليه .

وقال الحسن : هم الكفر والشرك ، وأنهم يضلون عن سبيل اللّه بغير علم .

وتأوله قوم على الأحاديث التي يتلهى بها أهل الباطل واللعب ، وذلك أن المعنيّ بذلك ، النضر بن الحارث ، الذي قتله رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فإنه قد كان يشتري كتبا فيها أحاديث الفرس ، فكان يتلهى بها في مجالسهم ويجعلها كالمعارضة للقرآن .

وهذه الأقوال أليق بالظاهر ، لأن الغناء لا يطلق عليه الوصف بأنه حديث ولا إضلال ، وإنما يطلق ذلك على الأحاديث الكاذبة الجارية مجرى القدح في القرآن ، على ما روي فيما كان يتعاطاه النضر بن الحارث ، فمن هذا الوجه يدل على أن الاقدام على كل قوم بغير علم لا يحسن ، لأن اللّه تعالى قبح ذلك من حيث إنه كان إقداما بغير علم «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 341. 342﴾

---

(1) سورة النساء آية 115 .

(2) لم يراع المؤلف في هذه السورة – سورة لقمان – ترتيب الآيات على نسق السورة ، ورأينا ترك ما وضعه المؤلف على وضعه ، ولم نتصرف فيه لمقتضى الأمانة ، واكتفينا بهذا التنبيه .

وقال السايس :

من سورة لقمان

قال اللّه تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

المختار عند أهل التأويل أنّ قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إلى آخر الآيتين كلام مستأنف من اللّه تعالى ، جاء معترضا بين وصايا لقمان لابنه ، ولهذا الاعتراض من البلاغة أحسن موقع ، ذلك لأنّ الفائدة فيه توكيد ما تضمّنته أولى وصايا لقمان ، وهو النهي عن الشرك ، وتقرير أنّه ظلم عظيم ، فإنه قيل : حقّا إنّ الشرك لمنهي عنه ، وإنّه لظلم عظيم مهما كانت أسبابه ، ومهما كان الحامل عليه ، فمع أننا وصّينا الإنسان بوالديه أن يبرّهما ، ويحسن إليهما ، فقد نهيناه عن إطاعتهما في الشرك لو فرض أنهما طلباه منه بإلحاح وجهد .

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ هذا اعتراض أيضا بين قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ وقوله تعالى : أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ لبيان العلة في الوصية ، أو في وجوب امتثالها . وقوله تعالى : وَهْناً عَلى وَهْنٍ حال من فاعل حَمَلَتْهُ على التأويل بالمشتق ، أي حملته أمه حال كونها ذات وهن على وهن ، أي ذات ضعف على ضعف متتابع متزايد من حين الحمل إلى الوضع .

وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ الفصال الفطام ، أي وفطامه يكون في انقضاء عامين ، أي في أوّل زمان انقضائهما .

استدل العلماء غير أبي حنيفة بقوله تعالى : وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ على أنّ مدة الرضاع الذي يتعلق به التحريم عامان ، ومثل هذه الآية في ذلك قوله في سورة البقرة : وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ [البقرة : 233] . وعلم [من] هذه [الآية] فائدة [فقد] استنبط علي وابن عباس وكثير غيرهما من قوله تعالى في سورة الأحقاف : وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً [الأحقاف : 15] أنّ أقل مدة الحمل ستة أشهر . روي أنّ عثمان أمر برجم امرأة قد ولدت لستة أشهر ، فقال له علي كرّم اللّه وجهه : قال اللّه تعالى : وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً وقال : وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ .

(140/606)

وروي أنّ عثمان رضي اللّه عنه سأل الناس عن ذلك فقال له ابن عباس مثل ذلك ، وأنّ عثمان رجع إلى قول علي وابن عباس ، وحكى الجصاص «1» اتفاق أهل العلم على أنّ أقل مدة الحمل ستة أشهر .

وذهب أبو حنيفة رحمه اللّه إلى أن مدة الرضاع المحرّم ثلاثون شهرا «2» . لقوله تعالى : وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً وسنبينه إن شاء اللّه . ثم إنه رحمه اللّه يحمل الآية التي معنا على الكثير الغالب في الفطام ، إذ إنه لا يتجاوز به في العادة عامين ، ويقول في آية البقرة إنها

لبيان المدة التي تستحق فيها المطلقة أجرا على الإرضاع ، إذ إنها لا تستحق أجرا فيما وراء العامين ، وذلك لا ينفي أن يكون ما بعد العامين إلى تمام الثلاثين شهرا من مدة الرضاع المحرّم .

وللحنفية في وجه الدلالة من قوله تعالى : وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً على مذهب الإمام طريقتان :

الأولى : أنّه ذكر في الآية أمران متعاطفان أعقبا ببيان مدتهما ، فتكون هذه المدة لكلّ من الأمرين استقلالا على ما يشهد به كلام الفقهاء في مثل قول المقرّ : عليّ لكلّ من فلان وفلان مئة إلى سنة أنّ السنة أجل كلّ من الدينين ، فتكون الثلاثون شهرا مدة كل من الحمل والرضاع ، غير أنّه قد ثبت في الحمل ما أوجب نقصه من الثلاثين شهرا ، وهو ما روي عن عائشة رضي اللّه عنها أنّ الولد لا يبقى في بطن أمه أكثر من سنتين ، ولو بقدر فلكة مغزل ، ومثل هذا لا يقال بالرأي ، فله حكم الحديث المرفوع ، وإذا كان الأمر كذلك بقيت مدة الفصال على ظاهرها .

والطريقة الثانية : في معنى قوله تعالى : وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً هي أن ليس المراد بالحمل هنا حمل الجنين في البطن ، بل حمل الولد بعد الولادة في مدة الرضاع ، وحينئذ تكون المدة المضروبة في الآية إنما هي لشيء واحد ، هو ذلك الحمل الذي ينتهي بالفصال .

وأنت تعلم أن العلماء ومنهم أبو حنيفة متفقون فيما حكى الجصاص على أنّ أقل مدة الحمل

ستة أشهر ، وأنهم استنبطوا ذلك من قوله تعالى : وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً وقوله تعالى : وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ .

فتأويل الحنفية آية الأحقاف وحملهم لها على الوجهين المتقدمين ينافي ما اتفق عليه الفقهاء جميعا ويلزمهم حينئذ أحد أمرين : إما أن الإمام لم يوافق الجماعة في أنّ أقل

---

(1) في كتابه أحكام القرآن (3/ 351) .

(2) الهداية شرح بداية المبتدي للإمام المرغيناني (1 - 2/ 243) .

(141/606)

مدة الحمل ستة أشهر ، وإما أن يكون له دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر غير هاتين الآيتين ، ولا أظن شيئا من هذين اللازمين منقولا عن أبي حنيفة رحمه اللّه .

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ أَنِ هنا على ما اختاره الزمخشري «1» وغيره تفسيرية ، فما بعدها بيان لفعل التوصية ، إذ هو متضمّن معنى القول . أي قلنا له : اشكر لي ولوالديك ، وإنما وسّط الأمر بشكر اللّه تعالى مع أنّ الوصية في الآية مخصوصة بالوالدين ، لإفادة أنّ لا يقع شكر الوالدين موقعه إلا بعد الشكر للّه .

فشكر اللّه تعالى حسن رعاية النّعم التي أنعم بها على الإنسان ، وصرفها فيما خلقت له

بالطاعة ، وإخلاص العبادة للّه ، وفعل ما يرضيه . وشكر الوالدين إطاعتهما ، وبرهما ، والقيام بكل ما يرضيهما ، إلا أنّ يكون فيه معصية للّه .

وعن سفيان بن عيينة : من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر اللّه ، ومن دعا لوالديه في أدبارها فقد شكرهما . ولعل هذا بيان لبعض أفراد الشكر إِلَيَّ الْمَصِيرُ أي إنّ مرجع الناس جميعا في الآخرة إلى اللّه وحده ، فهو الذي يحاسب العباد ، ويجازيهم على ما قدّموا من أعمال .

وهذا ظاهر في التهديد والتخويف من عاقبة المخالفة والعقوق والعصيان ، كما هو وعد بالجزاء الحسن على امتثال أمر اللّه وطاعته وبر الوالدين وصلتهما .

وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما الجهاد والمجاهدة بذل الجهد ، واستفراغ الوسع للوصول إلى الغرض . وهو هنا الإشراك باللّه . وأراد سبحانه بنفي العلم نفي الشريك ، أي لتشرك بي ما ليس بشيء ، يريد الأصنام ، كقوله سبحانه في شأنها ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ [العنكبوت : 42] .

وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً قيّد الصحبة بأنها في الدنيا . مع أنّ ذلك معروف ، إذ الدنيا هي دار التكليف ، لتهوين أمر الصحبة ، والإشارة إلى أنّها في أيام قلائل ، سريعة الانقضاء ، فلا يضرّ تحمل مشقتها ، لقلّة أيامها ، ووشك انصرامها .

و(المعروف) هنا ما يعرفه الشرع ويرتضيه ، وما يقضي به الكرم والمروءة في إطعامهما

وكسوتهما ، وعدم جفائهما وانتهارهما ، وعيادتهما إذا مرضا ، ومواراتهما إذا ماتا ، إلى ما هو معروف من خصال البر بهما وصلتهما .

أبان قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إلى آخر الآيتين أنّ أمر اللّه بالإحسان إلى الوالدين عامّ في الوالدين المسلمين والكافرين ، وأن طاعة الوالدين على أي دين كانا واجبة ، إلّا إذا أمرا بمعصية ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وأنّ طلب

---

(1) في تفسيره الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (3/ 494) .

الوالدين من ولدهما الإشراك باللّه لا يسوّغ له الشرك ، ولا يعتبر إكراها يبيح النطق بكلمة الكفر تقية .

ودلّ قوله تعالى : وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً على أنّ الولد لا يستحق القود على أحد والديه ، وأنّه لا يحد له إذا قذفه ، ولا يحبس له بدين عليه ، وأن على الولد نفقة كلّ منهما إذا احتاجا إليه ، إذ كان جميع ذلك من الصحبة بالمعروف ، وفعل ضده ينافي مصاحبتهما بالمعروف .

وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ أي اتبع سبيل من رجع إليّ بالتوحيد والإخلاص بالطاعة ، لا

سبيل والديك اللذين يأمرانك بالشرك .

أخرج الواحدي « 1 » عن عطاء عن ابن عباس أنه قال : يريد بمن أناب أبا بكر رضي اللّه عنه . فإنّ قوله تعالى : وَإِنْ جاهَداكَ إلخ نزل في سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه .

وإسلام سعد كان بسبب إسلام أبي بكر رضي اللّه عنه . وذلك كما روي عن ابن عباس أنه حين أسلم أبو بكر رآه سعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعيد بن زيد ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، فقالوا لأبي بكر : آمنت وصدّقت محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ؟ فقال أبو بكر : نعم ، فأتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فآمنوا وصدّقوا ، فأنزل اللّه تعالى يقول لسعد : وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ يعني أبا بكر رضي اللّه عنه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه كان يقول : من أناب هو محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، لكنّ جمهور المفسرين على أنّ المراد العموم ، كما هو ظاهر اسم الموصول ، ولذلك قالوا : إنّ قوله تعالى : وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ يدل على صحة إجماع المسلمين ، وأنّه حجة لأمر اللّه تعالى إيانا باتباعهم . وهو مثل قوله تعالى : وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً [النساء : 115] .

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي إليّ مرجع من آمن منكم ، ومن أشرك ، ومن برّ ، ومن عقّ ، فأنبئكم عند رجوعكم بما كنتم تعملون بأن أجازي كلّا منكم بما صدر عنه من الخير والشر .

والجملة مقرّرة لما قبلها ، ومؤكدة لوجوب الإحسان إلى الوالدين وبرهما وطاعتهما فيما يأمران به ، ما دام ليس فيه معصية للّه تعالى ، فإذا أمرا بمعصية فلا طاعة لهما ، لأنّه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 620. 623 ﴾

---

(1) انظر أسباب النزول للإمام الواحدي النيسابوري صفحة (363) .

(2) سبق تخريجه .

(143/606)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة لقمان» (31)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«الم تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ» (1 - 2) ساكن لأنه جرى مجرى فواتح سائر السور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجّى ومجاز موضعه فى المعنى كمجاز ابتداء فواتح سائر السور . ومجاز «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ» أي هذه الآيات من القرآن . .

«وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ» (10) مجازه: وجعل فيها رواسى أي جبالا قد رست أي ثبتت . .

«أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» (10) أي أن تحرّك بكم يمينا وشمالا . .

«وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ» (10) أي فرّق فى الأرض من الدواب وكل ما أكل وشرب فهو دابة . .

«ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» (11) أي الذين جعلتم معه تبارك وتعالى عن ذلك . .

«حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ» (14) مجازه: ضعفا إلى ضعفها وفى آية أخرى «وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي» (4/19) .

(144/606)

وقال زهير:

فلن يقولوا بجبل واهن خلق لو كان قومك فى أمثاله هلكوا

«1» [703] .

«وَفِصالُهُ» (14) أي فطامه . .

«وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ» (15) أي طريق من رجع وتاب إلى اللّه وهذا مما وصّى اللّه به

ثم رجع الخبر إلى لقمان فقال .

«يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ» (16) أي زنة حبة . .

«وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» (18) مجازه : ولا تقلب وجهك ولا تعرض بوجهك فى ناحية من الكبر ومنه الصعر الذي يأخذ الإبل فى رؤوسها حتى يلفت أعناقها عن رؤوسها قال عمرو بن حنىّ التّغلبىّ :

وكنا إذا الجبار صعّر خدّه أقمنا له من ميله فتقوّما

«2» [704] والصّعر داء يأخذ البعير فى عنقه أو رأسه فيشبّه به الرجل الذي يتكبر على الناس «3» .

«وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً» (18) أي لا تمرح فى مشيك من الكبر .

«إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ» (19) أي أشدّ الأصوات .

---

(1) . - 703 : ديوانه ص 180 والطبري 21/ 40 .

(2) . - 704 : أنشده صاحبا اللسان والتاج (صعر) ونسباه للمتلمس وهو من كلمة فى معجم المرزباني (ص 206) قال : وهذا البيت يروى فى قصيدة المتلمس التي أولها يعيرنى . . إلخ وأبو عبيدة وغيره يروون هذه الأبيات لجابر بن حى التغلبي والقصيدة فى شعراء الجاهلية 1/ 338 والبيت فى الطبري 21/ 43 والقرطبي 14/ 69 .

(3) . - 11 - 12 «والصعر . . . الناس» : كما فى الطبري 21/ 43 .

«وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ» (27) مجاز البحر هاهنا الماء العذب يقال :

ركبنا هذا البحر وكنا فى ناحية هذا البحر أي فى الريف لأن الملح فى البحر لا ينبت الأقلام «1» يمده من بعده أي من خلفه أي يسيل فيه سبعة أبحر ، ومجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير ، سبيله : فكتب كتاب اللّه بهذه الأقلام وبهذه البحور ما نفد كتاب اللّه

. .

«ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ» (28) مجازه مجاز قولك إلّا كخلق نفس واحدة وإلّا كبعث نفس واحدة أي كإحياء نفس لأنه إذا قدر على ذلك من بعض يقدر على بعث أكثر من ذلك إنما يقول لها : كونى فتكون وإذا قدر على أن يخلق نفسا يقدر على خلق أكثر من ذلك .

«و أن ما تدعون من دونه الباطل» (30) أي تجعلون معه قال :

ألا ربّ من تدعو صديقا وغيبه لك الدهر قد ما غير منشرح الصدر

(523) .

«وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ» (32) واحدتها ظلّة ومجازه: من شدة سواد كثرة الماء ومعظمه.

---

(1). -2- 4 «البحر هاهنا . . . الأقلام»: روى القرطبي (14/ 77) هذا الكلام عن أبى عبيدة.

(146/606)

قال النّابغة الجعدىّ وهو يصف البحر:

يماشيهنّ أخضر ذو ظلال على حافاته فلق الدّنان

«1» [705] ويروى «يعارضهن» . .

«كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ» (32) الختر أقبح الغدر قال الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير ختّار

«2» [706] وقال عمرو بن معديكرب:

وإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

«3» [707].

«لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ» (33) قوم يقولون: جزيت عنك كأنه من الجزاء وهو من أغنيت

وقوم يقولون لا يجزئ عنك ، يجعلونه من أجزأت عنك يهمزونه ويدخلون فى أوله ألفا . .

«وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» (33) مجازه أن كل من غرّك من أمر اللّه أو من غير ذلك فهو غرور شيطانا كان أو غيره ، تقديره فعول من غررت تغرّ . .

«بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» (34) يقال : بأى أرض كنت وبأيت أرض كنت لغتان . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 126. 129 ﴾

---

(1) . - 705 : فى الطبري 21/ 49 والقرطين 2/ 73 والقرطبي 14/ 80 .

(2) . - 706 : ديوانه ص 127 واللسان (ختر) والقرطبي 14/ 80 .

(3) . - 707 : فى الطبري 21/ 49 والقرطبي 14/ 80 .

(147/606)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة لقمان

بدأت سورة لقمان بذكر المحسنين والأجزية المعدة لهم ، ثم ذكرت المجرمين وما يشغبون به على الإسلام " ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها

هزوا أولئك لهم عذاب مهين " . والتحقيق أن المقصود به النضر بن الحارث ، وكان يشترى كتبا فيها أخبار ملوك الفرس ويقص منها على قريش فى أسمارها ومجالسها ، ويقول: هذا خير مما يتلوه عليكم محمد ! ولو قص الرجل فصول "ألف ليلة . . . . "كلها ما فعل شيئا غير اللغو واللهو ! ويرى بعض المفسرين أن الآية نازلة فى الغناء . وما كان قبيحا من الغناء فهو مذموم ، وكل حديث يصرف عن الحق ويشغل عن مطالبه فهو باطل . وقد أكدت الآيات جزاء المحسنين مرة أخرى " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم * خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم " . وذكرت الخالق الكبير بما هو أهل له من مجد وثناء ، وتساءلت عن الشركاء المزعومين: من هم ؟ وأين ما خلقوا ؟ إن هذيان المشركين يشبه لغط المحموم لا وزن له ولا رأى فيه ! وقد ساقت السورة هذه المعانى كلها بأسلوب آخر فى وسطها بدءا من قوله تعالى : " ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور " . وكما وعدت المحسنين بالخير توعدت المجرمين بالشر : " ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا . . " . ثم أطالت الحديث بعد ذلك عن عظمة الله الذى أخلص المحسنون له ، فبينت أن كلماته فى تصريف شئون العباد لا تنتهى . إنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض خلقا ورزقا وإحياء وإماتة ورفعا وخفضا . والأمر يتصل بخمسة مليارات من الخلق ، وآلاف لأضعاف من الحيوان والنبات

وآلاف الأضعاف من الملائكة . وهذه الألوف المؤلفة من الكواكب السابحة فى الفضاء ، ما أحسبها كالبيوت الخالية فى أرضنا . إننا لاندرى مافيها ومن فيها "ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم " . هل هذا الكم الهائل يعجزه أو يعييه ؟ كلا " ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير " . إن الذين يعبدون الله ، كأنهم يرونه إذ يرون آثاره ، جديرون بالثناء لأنهم شاموا أنوار الحقيقة ، وعرفوا عظمة الخالق من عظمة الخلق . وسورة لقمان نسبت إلى الحكيم الذى ذكرت قصته فيها . وقد ورد أن قريشا سألت عنه النبى تريد أن تعرف خبره ، فقص عليها وصيته ، وهى وصية حافلة بالخير . ولقمان الحكيم أبصر بالحقيقة من حكماء اليونان الذين اشتهرت أسماؤهم ، ففلسفتهم فكر غامض ونظرات خيالية . أما لقمان فقد لخص الحق الخالد فى منهج وجيز وأخذ به ابنه ، وتركه تراثا نبيلا . . يبدو أن الإنسان يستثقل شكر الجميل الذى يسدى إليه ، ويريد أن تخدمه عناصر الكون وهو بارد المشاعر قليل الاكتراث ! ! كثير من الناس تصنع لهم الخير ، فيأخذونه متلهفين ثم يولون الأدبار دون كلمة شكر . . ! ! وهم يعاملون ربهم بهذا الكنود ، وتصطبغ حياتهم بهذه

البلادة التى قد تأباها بعض الحيوانات . . " إن الإنسان لربه لكنود " . وأساس العلاقة بالله شكره على نعمتى الإيجاد والإمداد . ولذلك جاء فى أول الوصية للقمان " ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد " . إن الله مستغن عن العباد ، فإذا شكر عبد جداه فقد دل على وعى نبيل وفتح باب الزيادة ، وإلا فما ضر إلا نفسه ! وقد بدأت وصية لقمان لابنه بمعرفة الله الواحد " يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " . وأعقبت الوصاة للوالدين عقيدة التوحيد ، لأنهما بعد الله سر وجوده . . والغريب أن الحضارة العالمية المعاصرة لا تكترث للأبوين ، وتودعهما فى

شيخوختهما بعض

الملاجىء حتى يقضيا مستوحشين . وليس ذلك بكثير على حضارة تكره ذكر الله وتضيق بحقوقه ! ومن نصائح لقمان لابنه " يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور " . إلى أن يقول له " واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " . والوصية كلها باقة من العقائد الجليلة والأخلاق الكريمة ، وقد ذكرها القرآن الكريم لننتفع بما فيها من حكمة ، إذ الحكمة

ضالة المؤمن . وقد أعقبها بما يؤكد عاطفة الشكر ، فقال " ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير " . وبعد أن شرح حق الله فى تجويد العبادة ، قال " ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور " . وختمت سورة لقمان بتقرير المسئولية البشرية المستقلة . " لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا " . والواقع أن الإنسان صانع مستقبله ، إن نجا فبحسناته ، وإن هلك فبسيئاته " وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى " . ثم نفت السورة أن يكون للكهنة والراجمين بالغيب أى علم بالغيوب " إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت . . " . والتنبؤات الجوية ليست علما بالغيب ، بل هى استنتاجات مظنونة من بعض المظاهر الكونية القريبة والبعيدة . وكذلك الكشف بالأشعة على ما فى البطن لمعرفة نوع الجنين . إن ذلك شيء غير الإحاطة التامة بمعرفة ما تحمل كل أنثى من البشر والدواب والطيور على امتداد الزمان والمكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 318.316 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة لقمان

وحتى الآية ﴿ 15 ﴾ من نفس السورة

(4/607)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/607)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة لقمان

أقول: ظهر لي في اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة في الافتتاح ب(الم) أن قوله تعالى هنا : (هُدى ورحمة للمُحسنين الذين يقيمونَ الصلاة ويؤتون الزكاةَ وهُم بالآخرةِ هُم يوقنون) متعلق بقوله في آخر سورة الروم: (وقالَ الذينَ أُوتوا العلمَ والإِيمان لقد لبثتُم في كتاب اللهِ إلى يوم البعث)

فهذا عين إيقانهم بالآخرة ، وهم المحسنون الموقنون بما ذكر وأيضاً ففي كلتا السورتين جملة من الأديان وبدء الخلق وذكر في الروم: (في روضة يحبرون) وقد فسر بالسماع وفي لقمان: (ومِنَ الناسِ مَن يَشتري لهوَ الحديث) وقد فسر بالغناء ، وآلات الملاهي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 125 ﴾

(6/607)

قوله تعالى ﴿ الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت في آل عمران أنه أنزل بالحق ، أثبتت في السجدة تنزيله ونفي الريب عن أنه من عنده ، وأثبت أنه الحق ، واستمر فيما بعد هذا من السور مناظراً في الأغلب لما مضى كما يعرف ذلك بالإمعان في التذكر والتأمل والتدبر : ﴿ بسم الله ﴾ الذي وسع رحمة وعلماً ﴿ الرحمن ﴾ الذي بث بعموم حكمته شامل نعمته في سائر بريته ﴿ الرحيم ﴾ الذي أنار

لخاصته طريق جنته ، فداموا وهاموا في محبته .

لما ختمت الروم بالحث على العلم ، وهو ما تضمنه هذا الكتاب العظيم ، والأمر بالصبر والتمسك بما فيه من وعد ، والنهي عن الإطماع لأهل الاستخفاف في المقاربة لهم في شيء من الأوصاف ، وكان ذلك هو الحكمة ، قال أول هذه : ﴿ آلم ﴾ مشيراً بها إلى أن الله الملك الأعلى القيوم أرسل - لأنه ظاهر مع أن الباطن - جبرائيل عليه السلام إلا محمد عليه الصلاة والسلام بوحي ناطق من الحكم والأحكام بما لم ينطق به من قبله إمام ، ولا يلحقه في ذلك شيء مدى الأيام ، فهو المبدأ وهو الختام ، وإلى ذلك أو ما تعبيره بإداة البعد في قوله : ﴿ تلك ﴾ أي الآيات التي هي من العلو والعظمة بمكان لا يناله إلا من جاهد نفسه حتى هذبها بالتخلي عن جميع الرذائل ، والتحلي بسائر الفضائل ﴿ آيات الكتاب ﴾ الجامع لجميع أنواع الخير ﴿ الحكيم ﴾ بوضع الأشياء في حواق مراتبها فلا يستطاع نقض شيء من إبرامه ، ولا معارضة شيء ومن كلامه ، الدال ذلك على تمام علم منزله وخبرته ، وشمول عظمته وقدرته ، ودقيق صنائعه في بديع حكمته ، فلا بد من نصر المؤمنين ومن داناهم في التمسك بكتاب له أصل من عند الله .

(7/607)

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير : لما تكرر الأمر بالاعتبار والحض عليه والتنبيه بعجائب المخلوقات في سورة الروم كقوله سبحانه : ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [الروم : 8] وقوله : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ [الروم : 9] وقوله : ﴿ الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ﴾ [الروم : 11] وقوله : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ [الروم : 19] إلى قوله : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم : 28] وهي عشر آيات تحملت من جليل الاعتبار والتنبيه ما لا يبقى معه شبهة ولا توقف لمن وفق إلى ما بعد هذا من آيات التنبيه وبسط الدلائل وذكر ما فطر عليه العباد وضرب الأمثال الموضحة سواء السبيل لمن عقل معانيها وتدبر حكمها إلى قوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الروم : 58] وهي إشارة إلى ما أودع الله كتابه المبين من مختلف الأمثال وشتى العظات وما تحملت هذه السورة من ذلك ، أتبع سبحانه ذلك بقوله الحق : ﴿ الم تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أي دلائله وبراهينه لمن وفق وسبقت له الحسنى وهو المحسنون الذين ذكرهم بعد ، ووصف الكتاب بالحكيم يشهد لما مهدناه ، ثم أشار سبحانه إلى من حرم منفعته والاعتبار به ، واستبدل الضلالة بالهدى ، وتنكب عن سنن فطرة الله التي فطر الناس عليها فقال : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ – الآيات ، ثم أتبع ذلك بما يبكت كل معاند ، ويقطع بكل جاحد ، فذكر خلق السماوات بغير عمد مرئية مشاهدة لا يمكن

في أمرها امتراء ، ثم ذكر خلق الأرض وما أودع فيها ، ثم قال سبحانه ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ ثم اتبع ذلك بذكر من هداه سبيل الفطرة فلم تزغ به الشبه ولا تنكب سواء السبيل فقال : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ - الآية ، لتأسيس من اتبع فطرة الله التي تقدم ذكرها في سورة الروم ، ثم تناسق الكلام وتناسج - انتهى .

(8/607)

ولما كان الإحسان ما دعت إليه سورة الروم من الإيمان بلقاء الله ، منزهاً عن شوائب النقص ، موصوفاً بأوصاف الكمال ، معبوداً بما شرعه على وجه الإخلاص ، والانقياد مع الدليل كيفما توجه ، والدوران معه كيفما دار ، وكان ذلك هو عين الحكمة ، قال تعالى : ﴿ هدى ﴾ أي حال كونها أو كونه بياناً متقناً ﴿ ورحمة ﴾ أي حاملاً على القيام بكل ما دعا إليه ، والتقدير على قراءة حمزة بالرفع : هي أو هو ، وقال : ﴿ للمحسنين ﴾ إشارة إلى أن من حكمته أنه خاص في هذا الكمال وضعاً للشيء في محله بهذا الصنف ، وهم الذين لزموا التقوى فأدتهم إلى الإحسان ، وهو عبادته تعالى على المكاشفة والمراقبة فهي له أو هو لها آخر ، ثم وصفهم في سياق الرحمة والحكمة والبيان بالعدل بياناً لهم بما دعت إليه سورة الروم من كمال الإحسان في معاملة الحق والخلق اعتقاداً وعملاً فقال : ﴿ الذين

يقيمون الصلاة ﴾ أي يجعلونها كأنها قائمة بفعلها بسبب إتقان جميع ما آمر بعد فيها وندب إليه ، وتوقفت بوجه عليه ، على سبيل التجديد في الأوقات المناسبة لها والاستمرار ، ولم يدع إلى التعبير بالوصف كالمقيمين داع ليدل على الرسوخ لأن المحسن هو الراسخ في الدين رسوخاً جعله كأنه يرى المعبود ودخل فيها الحج لأنه لا يعظم البيت في كل يوم خمس رات إلا معظم له بالحج فعلاً او قوة ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي كلها فدخل فيها الصوم لأنه لا يؤدي زكاة الفطر إلا من صامه قوة أو فعلاً .

(9/607)

ولما كان الإيمان أساس هذه الأركان ، وكان الإيمان بالبعث جامعاً لجميع أنواعه ، وحاملاً على سائر وجوه الإحسان ، وكان قد ختم الروم بالإعراض أصلاً عمن ليس فيه أهلية الإيقان ، قال : ﴿ وهم ﴾ أي خاصة لكمالهم فيما دخلوا فيه من هذه المعاني ﴿ بالآخرة ﴾ التي تقدم أن المجرمين عنها غافلون ﴿ هم يوقنون ﴾ أي مؤمنون بها إيمان موقن فهم لا يفعل شيئاً الإيمان بها ، ولا يغفل عنها طرفة عين ، فهو في الذروة العليا من ذلك ، فهو يعبد الله كأنه يراه ، فآية البقرة بداية .

وهذه نهاية .

ولما كانت هذه الخلال أمهات الأفعال ، الموجبة للكمال ، وكانت مساوية من وجه لآية البقرة ختمها بختامها ، بعد أن زمها بزمامها ، فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العالوا الرتبة الحائزون منازل القربة أعظم رتبة ﴿ على هدى ﴾ أي عظيم هم متمكنون منه تمكن المستعلي على الشيء ، وقال : ﴿ من ربهم ﴾ تذكيرا لهم بأنه لولا إحسانه ما وصلوا إلى شيء . ليلزموا تمريغ الجباه على الأعتاب ، خوفاً من الإعجاب ﴿ وأولئك هم ﴾ أي خاصة ﴿ المفلحون ﴾ أي الظافرون بكل مراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 3 . 6 ﴾

(10/607)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ورحمة ﴾ بالرفع . حمزة وأبو عون عن قنبل ﴿ ليضل ﴾ بفتح الياء : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب و ﴿ يتخذها ﴾ بالنصب : يعقوب وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد ﴿ يا بني لا تشرك ﴾ بسكون الياء : البزي والقواس . وقرأ حفص والمفضل بفتح الياء وكذا في قوله ﴿ يا بني أقم ﴾ الباقون : بكسر الياء . ﴿ مثقال

﴿ بالرفع : ابو جعفر ونافع ﴿ نصاعر ﴾ بالألف : أبو عمرو ونافع وحمزة وعلي وخلف . الآخرون . بالتشديد .

الوقوف : ﴿ الم ﴾ 5 كوفي ﴿ الحكيم ﴾ 5 وقف لمن قرأ ﴿ ورحمة ﴾ بالرفع على تقدير هو هدى . ومن قرأ بالنصب على الحال والعامل معنى الإشارة في ﴿ تلك ﴾ فلا وقف ﴿ للمحسنين ﴾ 5 لا ﴿ يوقنون ﴾ 5 ط ﴿ المفلحون ﴾ 5 ﴿ بغير علم ﴾ ط قد يوقف لمن قرأ ﴿ ويتخذها ﴾ بالرفع والوصل أحسن لأنه وإن لم يكن معطوفاً على ﴿ ليضل ﴾ فهو معطوف على ﴿ يشتري ﴾ ﴿ هزواً ﴾ ط ﴿ مهين ﴾ 5 ﴿ وقرأ ﴾ ط لانقطاع النظم مع اتصال الفاء ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ النعيم ﴾ 5 لا للحال والعامل معنى الفعل في لهم ﴿ فيها ﴾ ط لأن التقدير وعد الله وعداً ﴿ حقاً ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ دابة ﴾ 5 للعدول ﴿ كريم ﴾ 5 ﴿ دونه ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ لله ﴾ ط ﴿ لنفسه ﴾ ج ﴿ حميد ﴾ 5 ﴿ بالله ﴾ ط وقد يوقف على ﴿ لا تشرك ﴾ على جعل الباء للقسم وهو تكلف ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ بوالديه ﴾ ج لانقطاع النظم مع تعلق ﴿ أن اشكر ﴾ ب ﴿ وصينا ﴾ ﴿ ولوالديك ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ 5 ﴿ معروفا ﴾ ز للعدول عن بعض المأمور إلى الكل مع اتفاق الجملتين ﴿ إلي ﴾ ج لأن " ثم " لترتيب الأخبار ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ الله ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ 5 ﴿ أصابك ﴾ ط ﴿ الأمور ﴾ 5 ج للآية ووقوع العارض مع عطف المتفقتين ﴿ مرحاً ﴾ ط ﴿ فخور ﴾ ج

لما ذكر ﴿ من صوتك ﴾ 5 ط ﴿ الحمير ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 422 ﴾

(11/607)

فصل

قال الفخر :

﴿ الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم : 58] إشارة إلى كونه معجزة وقال : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِئَايَةٍ ﴾ [الروم : 58] إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله : ﴿ الم* تِلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾ ولم يؤمنوا بها ، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ولى مُسْتَكْبِراً ﴾ [لقمان : 7] .

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (3)

فقوله ﴿ هُدًى ﴾ أي بياناً وفرقاناً ، وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى : ﴿ الم* ذلك الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى ﴾ [البقرة : 1 و2] وكما قيل هناك إن المعنى بذلك هذا ،

كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ، ويمكن أن يقال كما قلنا هناك إن تلك إشارة إلى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند إنزال هذه الآيات التي نزلت مع ﴿ الم * تِلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾ لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك إشارة إلى الكل أي آيات القرآن تلك آيات ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال في سورة البقرة ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] ولم يقل الحكيم ، وههنا قال ﴿ الحكيم ﴾ [لقمان : 2] فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر في أحواله فقال : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ وقال هناك ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] فقوله : ﴿ هُدًى ﴾ في مقابلة قوله : ﴿ الكتاب ﴾ وقوله : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ في مقابلة قوله : ﴿ الحكيم ﴾ ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكم كقوله تعالى : ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] أي ذات رضا .

المسألة الثانية :

قال هناك ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال ههنا ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب ، وينظر فيه من غير عناد ، ولما زاد ههنا رحمة قال : ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتي بالإيمان والمتقي هو التارك للكفر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة ، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة لقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال : ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأن رحمة الله قريب من المحسنين .

المسألة الثالثة :

قال هناك ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ [البقرة : 3] وقال ههنا ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ ولم يقل يؤمنون لما بينا أن المتقي هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً والمحسن هو الآتي بحق الإيمان ، ويلزمه أن لا يكون كافراً ، فلما كان المتقي دالاً على المؤمن في الالتزام صرح بالإيمان هناك تبييناً ولما كان المحسن دالاً على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ قد ذكرنا ما في الصلاة وإقامتها مراراً وما في الزكاة والقيام بها ، وذكرنا في تفسير الأنفال في أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فإنها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة ، وترك التشبه لازم

على العبد أيضاً في أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكىء عند اتكائه ، والزكاة تشبه بالسيد فإنها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات ، والتشبه لازم على العبد أيضاً في أمور ، كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد ، وعبد الجندي لا يتلبس بلباس الزهاد ، وبهما تتم العبودية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 122 . 123 ﴾

(13/607)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ الم . تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾

فيه أربعة أوجه

: أحدها : المحكم أَحكمت آياته بالحلال والحرام والأحكام . قاله يحيى بن سلام .

الثاني : المتقن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو قريب من المعنى الأول ، قاله ابن شجرة .

الثالث : البين أنه من عند الله ، قاله الضحاك .

الرابع : أنه يظهر من الحكمة بنفسه كما يظهره الحكيم بقوله ، قاله ابن عيسى .

قوله تعالى : ﴿ هُدًى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هدى من الضلالة ، قاله الشعبي .

الثاني : هدى إلى الجنة ، قاله يحيى بن آدم .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن القرآن رحمة من العذاب لما في من الزجر عن استحقاقه وهو وجهان :

أحدهما : أنه خرج مخرج النعت بأنه هدى ورحمة .

الثاني : أنه خرج مخرج المدح بأن فيه هدى ورحمة .

﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ وفي الإحسان ثلاثة أوجه

: أحدها : أنه الإيمان الذي يحسن به إلى نفسه ، قاله ابن شجرة .

الثاني : أنه الصلة والصلاة ، قاله الحسن .

الثالث : ما روى عمر بن الخطاب قال : بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فقال : يا رسول الله ما الإحسان ؟ قال : " أَن تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ . وَتُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ " قال : فإذا فعلت ذلك فأنا محسن ؟ قال : " نعم " قال الرجل : صدقت . ثم انطلق الرجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " عَلَيَّ بِالرَّجُلِ " . فطلبناه فلم نقدر عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُ أَكْبَرُ ذَلِكَ جِبْرِيلُ عَلَيهِ السَّلَامُ أَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَكُم أُمُورَ دِينِكُم

" . قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَّبِّهِم ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : على نور من ربهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : على بينة ، قاله ابن جبير .

الثالث : على بيان ، قاله يحيى بن سلام .

(14/607)

﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : بمعنى السعداء ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : المنجحون ، قاله ابن شجرة .

الثالث : الناجحون ، قاله النقاش .

الرابع : أنهم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ، قاله ابن عباس . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(15/607)

وقال ابن عطية :

﴿ الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) ﴾

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور وفي ترتيب ﴿ تلك ﴾ مع كل قول منها ، و ﴿ الحكيم ﴾ يصح أن يكون من الحكمة ويصح أن يكون من الحكم ، وقرأ جمهور القراء " هدى ورحمةً " بالنصب على الحال من المبهم ، ولا يصح أن تكون من ﴿ الكتاب ﴾ لأنه مضاف إليه ، وقرأ حمزة والكسائي " هدى ورحمةٌ " بالرفع على تقدير هو هدى ، وخصصه ﴿ للمحسنين ﴾ من حيث لهم نفعه وهم نظروه بعين الحقيقة وإلا فهو هدى في نفسه ، وفي قراءة ابن مسعود " هدى وبشرى للمؤمنين " ، ثم وصف تعالى المحسنين بأنهم الذين عندهم اليقين بالبعث وبكل ما جاء به الرسول ، وعندهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومن صفتهم ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عن الإحسان قال : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(16/607)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الم * تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾

مضى الكلام في فواتح السُّوَر و"تِلْكَ" في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أي هذه تلك .

ويقال : "تِيكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ" بدلاً من تلك .

والكتاب : القرآن .

والحكيم : المحكم ؛ أي لا خلل فيه ولا تناقض .

وقيل ذو الحكمة وقيل الحاكم ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحال ؛ مثل : ﴿ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ [الأعراف : 73] وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي .

وقرأ حمزة : "هُدًى وَرَحْمَةٌ" بالرفع ، وهو من وجهين : أحدهما : على إضمار مبتدأ ؛ لأنه أوّل آية .

والآخر : أن يكون خبر "تِلْكَ" .

والمحسن : الذي يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه .

وقيل : هم المحسنون في الدِّين وهو الإسلام ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ﴾ [النساء : 125] الآية .

﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ في موضع الصفة ، ويجوز الرفع على القطع بمعنى : هم الذين ،

والنصب بإضمار أعني .

وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في "البقرة" وغيرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(17/607)

وقال أبو السعود :

(سورة لقمان)

(مكية وقيل ﴿ إلا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ فإن وجوبهما في المدينة وهو ضعيف لأنه ينافى شرعيتهما بمكة وقيل إلا ثلاثاً من قوله ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ وهى أربع وثلاثون آية)

﴿ الم تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ سلفَ بيانُه في نظائرِه ﴿ الحكيم ﴾ أي ذي الحكمةِ لاشتماله عليها أو هو وصفٌ له بنعته تعالى أو أصلُه الحكيمُ منزلُه أو قائلُه فحُذفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليهِ مُقامَه فانقلبَ مرفُوعاً فاستكنَّ في الصّفةِ المُشبَّهةِ . وقيل الحكيمُ فعيلٌ بمعنى مُفْعَلٍ كما قالُوا أعقدتُ اللّبنَ فهو عَقِيدٌ أي مُعْقَدٌ وهو قليلٌ وقيلَ بمعنى فاعلٍ ﴿ هُدًى ورَحْمَةً ﴾ بالنَّصبِ على الحاليَّةِ من الآياتِ والعاملُ فيهما معنى

الإشارةِ. وقُرئا بالرَّفعِ على أنَّهما خبرانِ آخرانِ لاسمِ الإشارةِ أو لمبتدأ محذوف ﴿ للْمُحْسِنِينَ ﴾ أي العاملين للحسنات فإن أريد بها مشاهيرُها المعهودةُ في الدِّينِ فقولُه تعالى : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزكاة وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بيانٌ لما عملوها من الحسناتِ على طريقةِ قولِه :

الأُلمعيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّن . . . كَأَنْ قَد رَأَى وقَدْ سَمِعا

وإنْ أُريد بها جميعُ الحسناتِ فهو تخصيصٌ لهذه الثلاثِ بالذكرِ من بين سائر شُعبها لإظهارِ فضلِها وإنافتِها على غيرِها ، وتخصيصُ الوجهِ الأولِ بصورةِ كونِ الموصولِ صفةً للمحسنين والوجهِ الآخيرِ بصورةِ كونِه مبتدأً مما لا وجَه له . ﴿ أولئك على هُدًى مّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون بكلِّ مطلوبٍ والنَّاجُون من كلِّ مهروبٍ لحيازتِهم قُطريْ العلمِ والعملِ وقد مرَّ فيه من المقالِ في مطلع سورةِ البقرةِ بما لا مزيدَ عليهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(18/607)

وقال الآلوسى :

﴿ الم تِلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾

أي ذي الحكمة ، ووصف الكتاب بذلك عند بعض المغاربة مجاز لأن الوصف بذلك للتملك وهو لا يملك الحكمة بل يشتمل عليها ويتضمنها فلأجل ذلك وصف بالحكيم بمعنى ذي الحكمة ، واستظهر الطيبي أنه على ذلك من الاستعارة المكنية .

والحق أنه من باب ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] على حد لابن وتامر .

نعم يجوز أن يكون هناك استعارة بالكناية أي الناطق بالحكمة كالحي ، ويجوز أن يكون الحكيم من صفاته عز وجل ووصف الكتاب به من باب الإسناد المجازي فإنه منه سبحانه بدأً ، وقد يوصف الشيء بصفة مبدئه كما في قول الأعشى :

وغريبة تأتي الملوك حكيمة . . .

قد قلتها ليقال من ذا قالها

وأن يكون الأصل الحكيم منزله أو قائله فحذف المضاف إلى الضمير المجرور وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً ثم استكن في الصفة المشبهة .

وأن يكون ﴿ الحكيم ﴾ فعيلاً بمعنى مفعل كما قالوا : عقدت العسل فهو عقيد أي معقد وهذا قليل ، وقيل : هو بمعنى حاكم ، وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في الكلام على نظيرها .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحالية من ﴿ ءايات ﴾ والعامل فيهما معنى الإشارة على ما ذكره غير واحد وبحث فيه .

وقرأ حمزة .

والأعمش .

والزعفراني .

وطلحة .

وقنبل من طريق أبي الفضل الواسطي .

ونظيف بالرفع على الخبر بعد الخبر لتلك على مذهب الجمهور أو الخبر المحذوف أي هي أو هو هدى ورحمة عظيمة ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي العاملين الحسنات ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة للمتعاطفين ، وقوله تعالى :

﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكواة وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ إما مجرور على أنه صفة كاشفة أو بدل أو بيان لما قبله ، وإما منصوب أو مرفوع على القطع وعلى كل فهو تفسير للمحسنين على طريقة قول أوس بن حجر :

الألمعي الذي يظن بك الظن . . .

كأن قد رأى وقد سمعا

(19/607)

فقد حكي عن الأصمعي أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد عليه ، وهذا ظاهر على تقدير أن يراد بالحسنات مشاهيرها المعهودة في الدين ، وأما على تقدير أن يراد بها جميع ما يحسن من الأعمال فلا يظهر إلا باعتبار جعل المذكورات بمنزلة الجميع من باب كل الصيد في جوف الفرا ، وقيل : إذا أريد بالحسنات المذكورات يكون الموصول صفة كاشفة

وقوله تعالى : ﴿ أولئك على هُدًى مّن رَّبِهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾

استئنافاً ، وإذا أريد بها جميع ما يحسن من الأعمال وكان تخصيص المذكورات بالذكر لفضل اعتداد بها يكون الموصول مبتدأ وجملة ﴿ أولئك على هُدًى ﴾ الخ خبره والكلام استئناف بذكر الصفة الموجبة للاستئهال .

وقيل : إن الموصول على التقديرين صفة إلا أنه على التقدير الأول كاشفة وعلى التقدير الثاني صفة مادحة للوصف لا للموصوف ، وبناء ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ على ﴿ هُمْ ﴾ للتقوي ، وأعيد الضمير للتأكيد ولدفع توهم كون ﴿ بالآخرة ﴾ خبراً وجبراً للفصل بين المبتدأ وخبره ولم يؤخر الفاصل للفاصلة .

وذكر بعض أجلة المفسرين في قوله تعالى أول سورة [النمل : 3] : ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ إن بناء ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ على ﴿ هُمْ ﴾ يدل على أن مقابليهم ليسوا من اليقين في ظل ولا فيء وإن تقديم ﴿ فِى الآخرة ﴾ يدل على أن ما عليه مقابلوهم ليس من الآخرة في شيء وذلك لإفادة تقديم الفاعل المعنوي وتقديم الجار على متعلقه الاختصاص فانظر

هل يتسنى نحو ذلك هنا ، وقد مر أول سورة البقرة ما يعلم منه وجه اختيار اسم الإشارة ووجه تكراره ، وفي الآية كلام بعد لا يخفى على من راجع ما ذكروه من الكلام على ماي شبهها هناك وتأمل فراجع وتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(20/607)

وقال ابن عاشور :

﴿ الم (1) ﴾

تقدم الكلام على نظائرها في أول سورة البقرة .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

إذا كانت هذه السورة نزلت بسبب سؤال قريش عن لقمان وابنه فهذه الآيات إلى قوله ﴿ ولقد ءاتينا لقمان الحكمة ﴾ [لقمان : 12] بمنزلة مقدمة لبيان أن مرمى القرآن من قصّ القصة ما فيها من علم وحكمة وهدى وأنها مسوقة للمؤمنين لا للذين سألوا عنها فكان سؤالهم نفعاً للمؤمنين .

والإشارة بـ ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى ما سيذكر في هذه السورة ، فالمشار إليه مقدر في الذهن مترقب الذكر على ما تقدم في قوله ﴿ ذلك الكِتَاب ﴾ في أول البقرة (2) وفي أول سورة

الشعراء (2) والنمل (1) والقصص (2) .

﴿ وآيات الكتاب ﴾ خبر عن اسم الإشارة .

وفي الإشارة تنبيه على تعظيم قدر تلك الآيات بما دل عليه اسم الإشارة من البعد المستعمل في رفعة القدر ، وبما دلت عليه إضافة الآيات إلى الكتاب الموصوف بأنه الحكيم وأنه هدى ورحمة وسبب فلاح .

و ﴿ الحكيم : وصف للكتاب بمعنى ذي الحكمة ، أي لاشتماله على الحكمة .

فوصف الكِتَاب ﴾ بـ ﴿ الحَكِيم ﴾ كوصف الرجل بالحكيم ، ولذلك قيل : إن الحكيم استعارة مكنية ، أو بعبارة أرشق تشبيه بليغ بالرجل الحكيم .

ويجوز أن يكون الحكيم بمعنى المُحْكَم بصيغة اسم المفعول وصفاً على غير قياس كقولهم : عَسل عقيد ، لأنه أُحكم وأتقن فليس فيه فضول ولا مالا يفيد كمالاً نفسانياً .

وفي وصف ﴿ الكِتَاب ﴾ بهذا الوصف براعة استهلال للغرض من ذكر حكمة لقمان .

وتقدم وصف الكتاب بـ ﴿ الحَكِيم ﴾ في أول سورة يونس (1) .

وانتصب ﴿ هدى ورحمة ﴾ على الحال من ﴿ الكِتَاب ﴾ وهي قراءة الجمهور .

وإذ كان ﴿ الكِتَاب ﴾ مضافاً إليه فمسوغ مجيء الحال من المضاف إليه أن ﴿ الكِتَاب ﴾ أضيف إليه ما هو اسم جزئه ، أو على أنه حال من آيات .

والعامل في الحال ما في اسم الإشارة من معنى الفعل .

وقرأه حمزة وحده برفع ﴿ رحمةٌ ﴾ على جعل ﴿ هدىً ﴾ خبراً ثانياً عن اسم الإشارة .

ومعنى المحسنين : الفاعلون للحسنات ، وأعلاها الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولذلك خصت هذه الثلاث بالذكر بعد إطلاق المحسنين لأنها أفضل الحسنات ، وإن كان المحسنون يأتون بها وبغيرها .

وزيادة وصف الكتاب بـ ﴿ رحمة ﴾ بعد ﴿ هدى ﴾ لأنه لما كان المقصد من هذه السورة قصة لقمان نبّه على أن ذكر القصة رحمة لما تتضمنه من الآداب والحكمة لأن في ذلك زيادة على الهدى أنه تخلق بالحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، والخير الكثير : رحمة من الله تعالى .

و ﴿ الزكاة ﴾ هنا الصدقة وكانت موكولة إلى همم المسلمين غير مضبوطة بوقت ولا بمقدار .

وتقدم الكلام على ﴿ بالآخرة هم يوقنون ﴾ إلى ﴿ هم المفلحون ﴾ في أول سورة البقرة (54) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الم ﴾

سبق أنْ فصَّلنا القول في الحروف المقطعّة في بدايات السور ، وذكرنا كل ما يمكن أن يقوله بشر ، وبعد هذا كله نقول : والله أعلم بمراده ؛ لأننا مهما أوتينا من العلم فلن نصل إلى غاية هذه الحروف ، وسيظل فيها من المعاني ما نعجز نحن عن الوصول إليه .

فإنْ قلتَ : فما فائدة هذه الحروف المقطعة إنْ كانت غير معلومة المعنى ؟ نقول : نحن نناقشكم بالعقل وبالمنطق ، فالقرآن نزل بأسلوب عربي ، وتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان وأصحاب التعبير الجميل والأداء الرائع ، ونزل في قريش التي جمعتْ في لغتها كل لغات القبائل العربية ، وقد خرج منها صناديد كذبوا محمداً ، وكفروا بدعوته ، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لو كان فيها مطعن ما تركوه ، إذن : فهذا دليل على أنهم فهموا هذه الحروف ، وعرفوا أن لها معنى أبسطها أن نقول : هي من حروف التنبيه التي كان يستخدمها العرب في كلامهم ، فهي مثل (إلا) في قول الشاعر :

أَلاَ هُبِّي بِصحْنك فَاصْبِحينا . . . ولاَ تُبْقِ خُمور الأَنْدرينَا

فألا أداة للتنبيه ، وتأتي أهمية التنبيه في أول الكلام من أن المتكلم يملك زمام منطقه فيرتبه ويُعده ، ويدير المسائل بنسب ذهنية في ذِهْنه ، لكن السامع قد يكون غافلاً ، فيُفاجأ بالكلام دون استعداد ، فيفوته منه شيء ، فتأتي حروف التنبيه لتُخرِجه من غفلته ، وتسترعي انتباهه ، فلا يفوته من كلامك شيء ، إذن : أبسط ما يقال في هذه الحروف أنها للتنبيه على طريقة العرب في كلامهم .

(23/607)

وسبق أنْ بيَّنا أن القرآن مبني كله على الوصل في آياته وسوره ، بل في آخره وأوله نقول : (من الجنة والناس بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين) وكذلك في الآيات والسور .

وكأن الله تعالى يريد منك ألاَّ تفصل آية من القرآن عن التي بعدها ؛ لذلك يقولون عن قارئ القرآن : هو الحالّ المرتحل ، فهو حالٌّ في آية أو سورة ، مرتحل إلى التي تليها .

إذن : الوصْل سِمَة عامة في القرآن كله لا يستثنى من ذلك إلا الحروف المقطعة في بدايات السور ، فهي قائمة على القطع ، فلا نقول هنا ألفٌ لامٌ ميمٌ ، لكن نقول ألفْ لامْ ميمْ ، فلماذا اختلفت هذه الحروف عن السمة العامة للقرآن كله ؟

قالوا : ليدلَّك على أن الألف أو اللام أو الميم ، لكل منها معناه المستقل ، وليست مجرد حروف كغيرها من حروف القرآن ؛ لذلك خالفتْ نسق القرآن في الوصل ؛ لأن لها معنىً مستقلاً تؤديه .

ويفسر هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف " .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب . . . ﴾ .

تلك : اسم إشارة للمؤنث مثل ذلك المذكر ، وهي عبارة عن التاء للإشارة ، واللام للبُعْد ، سواء أكان في المكان أو في المكانة والمنزلة ، ثم الكاف للخطاب ، وتأتي بحسب المخاطب مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثنىً أو جمعاً .

فتقول في خطاب المفرد المذكر : تلك . وللمفردة المؤنثة : تلك . وللمثنى تلكما . . إلخ ، ومن ذلك قول امرأة العزيز في شأن يوسف عليه السلام : ﴿ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ . . . ﴾ [يوسف : 32] .

فذا اسم اشارة ليوسف ، واللام للبعد وكُنَّ ضمير لمخاطبة جمع المؤنث ويقول تعالى في خطاب موسى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ . . . ﴾ [القصص : 32] أي اليد والعصا ، فذانِ اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب .

والإشارة هنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ . . . ﴾ [لقمان : 2] لمؤنث وهي الآيات ، والمخاطب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته تبع له ، والقرآن الكريم مرة يشير إلى الآيات ، ومرة يشير إلى الكتاب نفسه ، فيقول : الكتاب أو الفرقان ، أو القرآن ولكل منها معنى .

فالكتاب دلَّ على أنه يُكتب وتحويه السطور ، والقرآن دلَّ على أنه يُقرأ وتحويه الصدور ، أما الفرقان فهذه هي المهمة التي يقوم بها : أنْ يفرق بين الحق والباطل .

وهنا قال : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾ [لقمان : 2] فوصفه بالحكمة ، أما في أول البقرة فقال : ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى . . . ﴾ [البقرة : 2] فلم يُوصَف بالحكمة ، إنما نفى عنه أن يكون فيه ريب . أي : شك .

وكلمة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ . . . ﴾ [البقرة : 2] تؤكد لنا صِدْق الرسول في البلاغ عن الله ، وصَدْق الملك الذي حمله من اللوح المحفوظ إلى رسول الله ، وقد مدحه الله بقوله ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 20] .

وقال عن سيدنا رسول الله في شأن تبليغ القرآن ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة : 44-46] .

إذن : فالقرآن كما نزل من عند الله ، لم يُغيَّر فيه حرف واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة ، وسنظل نقرأ ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ . . . ﴾ [البقرة : 2] . ويقرؤها مَنْ بعدنا إلى قيام الساعة ، فقد حكم الحق سبحانه بأنه لا ريْب في هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة ، فإنْ شككونا في شيء من كتاب ربنا فعلينا أن نقرأ : ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] .

(25/607)

فهذه قضية حكم الله بها ، وهي ممتدة وباقية ما بقيتْ الدنيا ، كما سبق أنْ قُلْنا ذلك في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفِي أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ [فصلت : 53] . فالآية تستوعب المستقبل كله ، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن ، ومستقبل مَنْ يأتي بعد إلى قيام الساعة ، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليه .

فالقرآن لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته في قَرْن واحد ، ولا في أمة واحدة ، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء ، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل العصور ، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته في الكون .

ومعنى ﴿ الكتاب الحكيم ﴾ [لقمان : 2] الكتاب لا يُوصَف بالحكمة إنما يُوصَف

بالحكمة مَنْ يعلم ، فالمعنى : الكتاب الحكيم أي : الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزِله . ومعنى حكيم : هو الذي يضع الشيء في موضعه ، ولا يضعَ الشيء في موضعه إلا الله ؛ لأنه هو الذي يعلم صِدْق الشيء في موضعه .

أما نحن فنهتدى إلى موضع الشيء ، ثم يتبين لنا خطؤه في موضعه ، ونضطر إلى تغييره أو تعديله ككثير من المخترعات التي ظننا أنها تخدم البشرية قد رأينا مضارها ، واكتوْينا بنارها فيما بعد .

فكل آية ذكرت ناحية من نواحي كمال القرآن وجهة من جهات عظمته ، إذن : فهي لقطات مختلفة لشيء واحد متعدد الملكات في الكمال ، وكذلك تجد تعدد الكمالات في الآية بعدها : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً . . . ﴾ .

هنا يقول سبحانه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : 3] أما في صدر سورة البقرة فيقول ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] وفَرْق بين المعنيين ، فالتقوى تقتضي الإيمان ، ومطلوب الإيمان الافتراض يعني : أنْ تؤدي ما فرضه الله عليك .

(26/607)

أما مطلوب الإحسان ففوق ذلك ، فالإحسان في الأداء أن تُحسن في كَمِّه ، وأن تحسن في كيفه : تحسن في كيفه بأن تستطحب مع العمل الإخلاصَ للمعمول له ، وهو الحق سبحانه ، وتحسن في كَمِّه بأنْ تعشق التكليف حتى تؤدي فوق ما فُرِض عليك ، فبدل أنْ تصلي ركعتين أن تصلي ثلاثاً أو أربعاً ، هذا إحسان في الكم .

والتقوى من عجائب التأويل القرآني كما سبق أنْ قلنا . فالقرآن يقول (اتقوا الله) ويقول (اتقوا النار) ، والمعنى عند التحقيق واحد ؛ لأن اتق النار يعني : اجعل بينك وبينها وقاية وحاجزاً يمنعك منها ، كذلك اتق الله ، لا أن تجعل بينك وبين ربك حاجزاً ؛ لأن المؤمن دائماً يكون في معية الله .

إنما اجعل بيك وبين صفات الجلال ومتعلقاتها من الله وقاية ، اتق صفات المنتقم الجبار القهار . . إلخ ؛ لأنك لستَ مطيقاً لهذه الصفات ، ولا شكَّ أن النار جندي من جند الله ، ومتعلق من متعلقات صفات الجلال إذن : فالمعني واحد .

والبعض يأخذون بالظاهر فيقولون : كيف نتقي الله ، والتقوى أن تبعد شيئاً ضاراً عنك ؟ نقول : نعم أنت تبعد عنك الكفر ، وهذا هو عين التقوى ، والمتقون هم الذين يحبون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسان اتقى الكفر فهو مُحسِن ومؤمن ، فالقرآن مرة يأتي باللازم ، ومرة بالملزوم ، ليؤدي كل منهما معنى جديداً

لذلك لما سُئِل سيدنا رسول الله عن الإحسان – في حديث جبريل – قال : " أنْ تعبد الله

كأنك تراه ، فإنْ لم تكنْ تراه فإنه يراك " .

فحين نوازن بين صدر سورة البقرة ، وبين هذه الآية ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : 3] نرى أن القرآن لا يقوم على التكرار ، إنما هي لقطات إعجازية كل منها يؤدي معنى ، وإنْ ظن البعض في النظرة السطحية أنه تكرار ، لكن هو في حقيقة الأمر عطاء جديد لو تأملته .

(27/607)

فهنا وصف الكتاب بأنه حكيم ، وأنه هدى ورحمة : والهدى هو الدلالة على الخير بأقصر طريق ، وقد نزل القرآن لهداية قوم قد ضلوا ، فلما هداهم إلى الصواب وأراهم النور أراد أنْ يحفظ لهم هذه الهداية ، وألاَّ يخرجوا عنها فقال ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ [لقمان : 3] يعني : من رحمة الله بهم ألاَّ يعودوا إلى الضلال مرة أخرى .

كما في قوله سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إِلاَّ خَسَاراً ﴾ [الإسراء : 82] . فالمعنى : شفاء لمن كان مريضاً ، ورحمة بألاَّ يمرض أبداً بعد ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة . . . ﴾ .

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين ، فهل هذه هي كل صفاتهم ، أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبالآخرة هم يوقنون ؟ قالوا : لا لكن هذه الصفات هي العُمد الأساسية ، والحق سبحانه يريد من خَلْقه سواسية في العبودية ، وهذه السواسية لا تتأتى إلا إذا تساوى الجميع .

وفي الصلاة بالذات تتجلى هذه المساواة ، وفيها يظهر عِزّ الربوبية وذل العبودية ، وفيها منتهى الخضوع لله عز وجل ، ثم هي تتكرر خمس مرات في اليوم والليلة .

أما الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصورة ، فالزكاة مثلاً تجب مرة واحدة في العام ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : 141] وتجب على القادر فقط دون غيره ، كذلك الصوم والحج ، فكأن الصلاة هي عمدة العبادات كلها ، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله لازمة للعبد ولا تسقط عنه بحال إبداً ؛ لذلك شُرعت صلاة المريض والمسافر والخائف . . . الخ .

(28/607)

وفي الصلاة استطراق للعبودية في الخَلْق جميعاً ، حيث نخلع أقدارنا حين نخلع نعالنا على باب المسجد ، ففي الصف الواحد ، الرئيس والمرءوس ، والكبير والصغير ، والرفيع

والوضيع – نقصد الوضيع في نظر الناس ، وربما لا يكون وضيعاً عند ربه – فالجميع هنا سواء ، ثم حين نرى الكبار والرؤساء والسادة معنا في الصفوف خاضعين لله أذلاء تزول بيننا الفوارق ، ويدكُّ في نفوسهم الكبرياء ، فلا يتعالى أحد في مجتمع المسلمين على أحد .

ولمنزلة الصلاة وأهميتها رأينا كيف أنها الفريضة الوحيدة التي فرضها الله علينا بالمباشرة ، أما باقي التكاليف فقد فُرِضَتْ بواسطة الوحي ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك برئيس العمل حينما يأتيه أمر هام ، فلا يأمر به بمكاتبة أو بالتليفون ، إنما يستدعي الموظف المختص إلى مكتبه ، ويلقي إليه الأمر مباشرة .

وكذلك رسول الله استدعاه ربه إلى السماء ، وأخذ حظاً بالقُرْب من الله تعالى ، والله سبحانه يعلم حب الرسول لأمته وحرصه عليهم ، وعلى أنْ ينالوا هم أيضاً هذا القرب من حضرته تعالى ، فأجابه ربه ، وجعل الصلاة حضوراً للعبد في حضرته تعالى ، وقرباً كقرب رسول الله في رحلة المعراج .

لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5]

فقال سيدنا رسول الله : " إذن ، لا أرضى وواحد من أمتي في النار " .

وكما تُحدِث الصلاة استطراق عبودية تُحِدث الزكاةُ في المجتمع استطراقاً اقتصادياً ، فيعيش الجميع الغني والفقير عيشة كريمة مُيسَّرة ، فلا يشبع واحد حتى التخمة ، والآخر

يموت جوعاً . وما بالك بمجتمع لا يتعالى فيه الكبير على الصغير ولا يبخل فيه الغني على الفقير ؟ إذن : في الصلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كله .

(29/607)

وقد فرض الله الزكاة للفقراء ؛ لأن الله سبحانه حين يستدعي عبد إلى كونه لا بُدَّ أنْ يضمن له مُقومات الحياة ، ولم لا وأنت إذا دعوْتَ شخصاً إلى بيتك لا بُدَّ أنْ تكرمه ، وأنْ تُعِد له على الأقل ضروريات ما يلزمه فضلاً عن الإكرام والحفاوة ورفاهية المأكل والمشرب .

. الخ .

فالله سبحانه استدعى عباده إلى الوجود مؤمنهم وكافرهم ، وعليه سبحانه أنْ يوفر لهم القوت ، بل كل مقومات حياتهم ، كذلك يضمن للعاجز غير القادر قوته ، لذلك يفرض الزكاة حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فهي صِلاتٌ والأولى صلاة .

ولهذه المسألة قصة في الأدب العربي ، فيُرْوى أن ابن مدبر وكنيته أبو الحسن ، كان الشعراء يقصدونه للنيل من عطاياه ، يقولون : إن الُّها تفتح اللَّها ، أي : أن العطايا تفتح الأفواه بالمدح والثناء .

لكن ، كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر بشعر لم يعجبه يأمر رجاله أنْ يأخذوه إلى المسجد

ولا يتركوه حتى يصلي لله مائة ركعة ، وبذلك خافه الشعراء وتحاشوْا الذهاب إليه إلا أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام البشري ، ذهب إليه وقال : عندي شعر أحب أنْ أنشده لك .

فقال : أتدري ما الشرط ؟ قال : نعم ، قال : قُلْ ما عندك ، فقال :

أَرَدْنَ فِي أَبي حَسَنٍ مَدِيحاً . . . كَمَا بالْمدحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَة

يعني : يذهب الشعراء إليهم لينالوا من خيراتهم .

فَقُلْنا أَكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طُرّاً . . . ومِنْ كَفَّيْهِ دجلَةُ والفُراتُ

وقالوا يَقبل المدحاةَ لكنْ . . . جَوَائِزُهُ عليهِنَّ الصَّلاَةُ

فقُلْتُ لهم ومَا تُغْنِي صَلاَتِي . . . عِيَالي إنما الشْأنُ الزَّكَاةُ

فَيأمُر لي بِكسْر الصّادِ منها . . . فَتُصبح لي الصِّلات هِي الصَّلاةُ

فلما تجرَّأ عليه أحدهم وسأله : لماذا تعاقب مَنْ لم يعجبك شعره بصلاة مائة ركعة ؟ فقال : لأنه إما مسيء وإما محسن ، فإنْ كان مسيئاً فهي كفارة لإساءته في شعره ، وإنْ كان محسناً فهي كفارة لكذبه فيَّ .

(30/607)

ثم يقول سبحانه في وصفهم : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان : 4] لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضي أنْ نعمل بمنهج الله في (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، ونحن على يقين من أننا لن نفلت من الله ولن نهرب من عقابه في الآخرة ، وأننا مُحَاسبون على أعمالنا ، فلم نُخلق عبثاً ، ولن نُتْرك سدى ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] .

ونلحظ هما في الأسلوب تكرار ضمير الغيبة (هم) فقال : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان : 4] وهذا يدلُّنا على أن الإيمان بالآخرة أمر مؤكد لا شكَّ فيه ، ومع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم ، ويؤمنون أنهم محاسبون ، وأن الله لم يكلفهم عبثاً – مع هذا – يؤكد الحق سبحانه على أمر الآخرة ؛ لأنها مسألة بعيدة في نظر الناس ، وربما غفلوا عنها لبُعْدها عنهم ، ولم لا وهم يغفلون حتى عن الموت الذي يرونه أمامهم كل يوم ، ولكن عادة الإنسان أن يستعبده في حق نفسه .

لذلك يقول الحسن البصري : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت .

أما الكفار فينكرون هذا اليوم ، ولا يؤمنون به ؛ لذلك أكد الله عليه .

ولما " سأل النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة رضي الله عنه : "كيف أصبحت يا حذيفة ؟ " قال : أصبحت مؤمنا حقاً ، فقال : " لكلِّ حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة

يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون " فقال صلى الله عليه وسلم : " عرفتَ فالزم " " .

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان : 4] من اليقين ، وهو الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع ، ولا يطرأ عليه شكٌّ فيطفو إلى العقل ليناقش من جديد وسبق أنْ قُلْنا : إن المعلومة تتدرج على ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

(31/607)

علم اليقين إذا أخبرك به مَنْ تثق به ، فإذا رأيتَ ما أخبرك به فهو عين اليقين ، فإذا باشرتَ ذلك بنفسك فهو حَقُّ اليقين .

وضربنا لذلك مثلاً إذا قلت لك : إن البيت الحرام في مكة وصفَته كذا وكذا ، وقد حدثت فيه توسعات كذا وكذا ، فهذه المعلومات بالنسبة لك علم يقين ، فإذا رأيتَ الحرم فهي عَيْن يقين ، فإذا يسَّر الله لك الحج أو العمرة فباشرْتَه بنفسك ، فهو حَقُّ اليقين .

والحق سبحانه وتعالى عالج هذه المراتب في سورتين : ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر : 1-8] .

وذلك حين يمرون على الصراط ويروْنَ النار بأعينهم رأي العين .

أما حق اليقين بالنسبة للنار ، فقد جاء في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 88-96] .

لكن ، هل القرآن نزل هُدى للمتقين ، وهدى للمحسنين فحسب ؟ قلنا : إن الهداية تأتي بمعنيين : هداية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق ومعونة ، فإن كانت هداية دلالة فقد دلّ الله المؤمن والكافر بدليل قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17]

(32/607)

فالحق سبحانه دلَّ الجميع لأنهم عباده ، فمنهم من قَبِل الدلالة واقتنع بها فآمن ، ومنهم مَنْ رفضها فكفر ، أما الذي قَبِل دلالَة الله وآمن به فيزيده الله هداية أخرى ، هي المعونة علىَ الإيمان ، فيُحبّبه إليه حتى يعشقه ، ثم يعينه عليه ، كما قال سبحانه ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ . . . ﴾ .

وصف الحق سبحانه قرآنه بأنه هدى ، أما هنا فيقول : ﴿ أولئك على هُدًى ﴾ [لقمان : 5] والمتكلم هو الله – عز وجل – فلا بُدَّ أنْ نتأمل المعنى ، ربنا عز وجل يريد أنْ يقول لنا نعم القرآن هُدى ، لكن إياك أنْ تظن أنك حين تتبع هذا الهدى تنفعه بشيء ، إنما المنتفع بالهداية أنت ، فحين تكون على الهدى يدلُّك ويسير بك إلى الخير ، فالهدى كأنه مطية يُوصِّلك إلى الخير والصلاح ، فأنت مُسْتعلٍ على الهدى إنْ قَبِلْتَه ، وإنْ كان هو مُسْتَعلياً عليك تشريعاً .

ثم هو هدى مِمَّنْ ؟ ﴿ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [لقمان : 5] ممن لا يستدرك عليه ، فإنْ دلَّك دلَّك بحق ، وهَبْ أن البشر اهتدوْا إلى شيء فيه خير ، لكن بعد فترة يعارضون هم أنفسهم هذا الطريق ، ويكتشفون له مضارّ ومثالب ، ويستدركون عليه ، وربما يعدلون عنه إلى غيره ، وكم هي القوانين البشرية التي أُلغيت أو عُدِّلت ؟

إذن : الهداية والدلالة الحقة لا تكون إلا لله ، والقانون الذي ينبغي أن يحكمنا ونطمئن إليه لا يكون إلا لله ، لماذا ؟ لأن البشر ربما ينتفعون من قوانينهم ، وقد تتحكم فيهم الأهواء أو يميلون لشخص على حساب الآخر ، أما الحق – سبحانه وتعالى – فهو وحده سبحانه الذي لا ينتفع بشيء مما شرع لعباده ، ولا يحابي أحداً على حساب أحد ، والعباد كلهم عباده وعنده سواء .

لذلك يطمئننا الحق سبحانه على تشريعه وعدالته سبحانه ، فيقول ﴿ مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ [الجن : 3] يعني : اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ، ولا ولد يظلم الناس فيحابيه ، فأنتم جميعاً عنده سواسية .

ثم هناك فَرْق بين هُدى من الله ، وهدى من الرب ، فالرب هو الذي ربَّاك ، هو الذي أوجدك من عَدم ، وأمدك من عُدْم ، وأعطاك قبل أنْ تعرف السؤال ، وتركك تربع في كونه وتتمتع بنعمه .

لذلك يُعلمك ربك : إياك أنْ تسألني عن رزق غدٍ ؛ لأنني رزقْتُك قبل أنْ تعرف أن تسأل ، ثم لم أطالبك بعبادة غدٍ ، إذن : ليكُنْ العبد مؤدباً مع ربه عزوجل .

وهكذا تتبين أن الربوبية عطاء ، أما الألوهية فتكليف .

ثم يخبر الحق سبحانه عنهم بخبر آخر ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [لقمان : 5] فالفلاح نتيجة الهدى الذي ساروا عليه واتبعوه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] .

الفلاح أصله من فلاحة الأرض بالحرث والبَذْر والسَّقْى . . الخ ، فاستعارها أسلوب القرآن للعمل الصالح ، ووجه الشبه بين الأمرين واضح ، فالفلاح يلقى الحبة فيضاعفها له ربه سبعمائة حبة ، كذلك العمل الصالح يُضَاعَف لصاحبه ، فالحسنة عند الله بعشر أمثالها

إلى سبعمائة ضعف ﴿ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: 261]

واقرأ في كتاب الله هذا المثل: ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 261].

وتأمل الاستدلال هنا: إذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطي كل هذا العطاء، فكيف يكون عطاء مَنْ خلقها؟ إذن: فهم لاشكَّ مفلحون أي: فائزون بالثمرة الطيبة التي تفوق ما بذلوه من مشقة، كما يزرع الفلاح الأرض فتعطيه أضعاف ما وُضِح فيها. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(34/607)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿ الكتاب الحكيم ﴾:

قيل: فَعيل بمعنى مُفْعَل وهذا قليلٌ قالوا: أَعْقَدْتُ اللبنَ فهو عَقِيْدٌ أي مُعْقَد، أو بمعنى فاعِل

، أو بمعنى ذي الحِكْمة ، أو أصلُه : الحكيم قائلُه ، ثم حُذِف/ المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه ، وهو الضميرُ المجرورُ ، فانقلب مرفوعاً ، فاستتر في الصفةِ . قاله الزمخشري وهو حَسَنُ الصناعةِ .

قوله : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ : العامَّةُ على النصبِ على الحال مِنْ " آيات " والعاملُ ما في اسمِ الإشارةِ من معنى الفعل ، أو المدح . وحمزة بالرفعِ على خبرِ مبتدأ مضمرٍ . وجَوَّز بعضُهم أَنْ يكونَ " هدىً " منصوباً على الحال حالَ رَفْع " رحمة " . قال : " ويكون رَفْعُها على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ أي : وهو رحمةٌ " . وفيه بُعْدٌ .

قوله : ﴿ الذين يُقِيمُونَ ﴾ : صفةٌ أو بدلٌ أو بيانٌ لما قبلَه ، أو منصوبٌ أو مرفوعٌ على القطعِ . وعلى كل تقديرٍ فهو تفسير للإحسان . وسُئِل الأصمعيُّ عن الألمعيِّ . فأنشد :

3656 الأَلْمَعِيُّ الذي يَظُنُّ بك الظْـ . . . ـنَّ كأَنْ قد رَأَى وقد سمعا

يعني أنَّ الألمعيَّ هو الذي إذا ظَنَّ شيئاً كان كمَنْ رآه وسَمِعه .

كذلك المحسنون هم الذين يَفْعلون هذه الطاعاتِ . ومثلُه : وسُئِل بعضُهم عن الهَلُوع فلم يَزِدْ أَنْ تلا ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 20 ، 21] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 59 . 60 ﴾

(35/607)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من سمعها أقر بأنه لا يسمع مثلها ، ومن عرفها أنف أن يسمع غيرها ، كلمة من سمعها طابت قصته ، وزالت بكل وجه غصته ، وتمت من النعم في الدنيا والعقبى حصته ، وزهد في دنياه من غير رغبة في عقباه ، لأنها وإن جلت غير مولاه .

كلمة من سمعها لم يرغب في عمارة فنائه ، ولم يتحشم سرعة وفاته .

﴿ الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

الألف تشير إلى آلائه ، واللام تشير إلا لطفه وعطائه ، والميم تشير إلى مجده وسنائه ؛ فبآلائه يرفع الجَحْدَ عن قلوبِ أوليائه ؛ وبلطفه وعطائه يثبت المحْبةَ فى أسرار أصفيائه ، وبمجده وسنائه مستغنٍ عن جميع خَلْقِه بوصف كبريائه .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابُ الْحَكِيمِ ﴾ : المحروس عن التغيير والتبديل .

هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3)

هو هدّى وبيان ، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله ، والمقيمين عبادةَ اللَّهِ كأنهم ينظرون إلى الله . وشَرْطُ المُحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عبادِ الله : دانيهم وقاصيهم ،

ومطيعِهم وعاصيهم .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ : يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر العورة ، وتقديم الطهارة ، واستقبال القِبْلة ، والعلم بدخول الوقت ، والوقوف في مكانٍ طاهر . وفي الباطن يأتون بشارئطها من طهارة السِّرِّ عن العلائق ، وسَتْرِ عورةَ الباطنِ بتنقيته عن العيوب ، لأنها مهما تكن فاللَّهُ يراها ؛ فإذا أَرَدْتَ ألا يرى اللَّهُ عيوبَك فاحْذَرْها حتى لا تكون . والوقوف في مكان طاهر ، وهو وقوف القلبِ على الحدّ الذي أُذِنْتَ في الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق ، وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ وقف عند حدّه . والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التذلُّل والاستكانة . وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، وتستقبل القبلةَ بنَفْسِك ، وتعلّق قلبَكَ بالله من غير تخصيص بقَطْرٍ أو مكان .

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحقِّ آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا في الدنيا والعُقبى فسلِموا ونَجَوْا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 127 . 128 ﴾

(36/607)

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان فطم النفس عن الشهوات .

أعظم هدى قائد إلى حصول المرادات ، وكان اتباعها الشهوات أعظم قاطع عن الكمالات ، وكان في ختام الروم أن من وقف مع الموهومات عن طلب المعلومات مطبوع على قلبه ، وكان ما دعا إليه الكتاب هو الحكمة التي نتيجتها الفوز ، وما دعا إليه اللهو هو السفه المضاد للحكمة ، بوضع الأشياء في غير مواضعها ، المثمر للعطب ، قال تعالى معجباً ممن يترك الجد إلى اللهو ، ويعدل عن جوهر العلم إلى صدق السهو ، عاطفاً على ما تقديره : فمن الناس من يتحلى بهذا الحال فيرقى إلى حلبة أهل الكمال : ﴿ ومن ﴾ ويمكن أن يكون حالاً من فاعل الإشارة .

أي أشير إلى آيات الكتاب الحكيم حال كونه هدى لمن ذكر والحال أن من ﴿ الناس ﴾ الذين هم في أدنى رتبة الإحساس ، لم يصلوا إلى رتبة أهل الإيمان ، فضلاً عن مقام أولي الإحسان .

ولما كان التقدير : من يسير بغير هذا السير ، فيقطع نفسه عن كل خير ، عبر عنه بقوله : ﴿ من يشتري ﴾ أي غير مهتد بالكتاب ولا مرحوم به ﴿ لهو الحديث ﴾ أي ما يلهي من الأشياء المتجددة التي تستلذ فيقطع بها الزمان من الغناء والمضحكات وكل شيء لا اعتبار فيه ، فيوصل النفس بما أوصلها إليه من اللذة إلى مجرد الطبع البهيمي فيدعوها إلى العبث من اللعب كالرقص ونحوه مجتهداً في ذلك معملاً الخيل في تحصيله باشتراء سببه ، معرضاً عن اقتناص العلوم وتهذيب النفس بها عن الهموم والغموم ، فينزل إلى أسفل سافلين كما علا الذي قبله بالحكمة إلى أعلى عليين – قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : نزلت في رجل اشترى جارية تغنيه ليلاً ونهاراً ، وقال مجاهد : في شرى القيان والمغنين والمغنيات ، وقال ابن مسعود : اللهو الغناء ، وكذا قال ابن عباس وغيره .

ولما كان من المعلوم أن عاقبة هذه الملاهي الضلال ، بانهماك النفس في ذلك ، لما طبعت عليه من الشهوة لمطلق البطالة ، فكيف مع ما يثير ذلك ويدعو إليه من اللذاذة ، فتصير أسيرة الغفلة عن الذكر ، وقبيلة الإعراض عن الفكر ، وكان المخاطب بهذا الكتاب قوماً يدعون العقول الفائقة ، والأذهان الصافية الرائقة قال تعالى : ﴿ ليضل ﴾ من الضلال

والإضلال على القراءتين ، ضد ما كان عليه المحسنون من الهدى ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الطريق الواضح الواسع الموصل إلى رضى الملك الأعلى المستجمع لصفات الكمال والجلال والجمال التي هم مقرّون بكثير منها ، منبهاً لهم على أن هذا مضل عن السبيل ولا بد ، وأن ذلك بحيث لا يخفى عليهم ، فإن كان مقصوداً لهم فهو ما لا يقصده من له عداد البشر ، وإلا كانوا من الغفلة سوء النظر وعمى البصيرة بمنزلة هي دون ذلك بمراحل .

(38/607)

ولما كان المراد : من قصد الضلال عن الشيء ، ترك ذلك الشيء ، وكان العاقل لا يقدم على ترك شيء إلا وهو عالم بأنه لا خير فيه قال : ﴿ بغير علم ﴾ ونكره ليفيد السلب العام لكل نوع من أنواع العلم ، أي لأنهم لا علم لهم بشيء من حال السبيل ولا حال غيرها ، علماً يستحق إطلاق العلم عليه بكونه يفيد ربحاً أو يبقى على رأس مال من دين أو دنيا ، فإن هذا حال من استبدل الباطل بالحق والضلال بالهدى .

ولما كان المستهزئ بالشيء المحتقر له لا يتمكن من ذلك إلا بعد الخبرة التامة بحال ذلك الشيء وأنه لا يصلح لصالحه ولا يروج له حال بحال قال معجباً تعجيباً آخر أشد من الأول بالنصب عطفاً على " يضل " في قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ، وبالرفع

للباقين عطفاً على ﴿ يشتري ﴾ : ﴿ ويتخذها ﴾ أي يكلف نفسه ضد ما تدعوه إليه فطرته الأولى أن يأخذ السبيل التي لا أشرف منها مع ما ثبت له من الجهل الطلق ﴿ هزواً ﴾ .

ولما أنتج له هذا الفعل الشقاء الدائم .

بينه بقوله ، جامعاً حملاً على معنى " من " بعد أن أفرد حملاً على لفظها ، لأن الجمع في مقام الجزاء أهول ، والتعجيب من الواحد أبلغ ﴿ أولئك ﴾ أي الأغبياء البعيدون عن رتبة الإنسان ، وتهكم بهم التعبير باللام الموضوعة لما يلائم فقال : ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ أي يثبت لهم الخزي الدائم ضد ما كان للمحسنين من الرحمة .

(39/607)

ولما كان الإنسان قد يكون غافلاً ، فإذا نبه انتبه ، دل سبحانه على أن هذا الإنسان المنهمك في أسباب الخسران لا يزداد على مر الزمان إلا مفاجأة لكل ما يرد عليه من البيان بالبغي والطغيان ، فقال مفرداً للضمير حملاً على اللفظ أيضاً لئلا يتعلق متمحل بأن المذموم إنما هو الجمع صارفاً الكلام إلى مظهر العظمة لما اقتضاه الحال من الترهيب : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ﴾ أي يتجدد عليه تلاوة ذلك مع ما له من العظمة من أيّ تال كان وإن عظم

﴿ ولى ﴾ أي بعد السماع ، مطلق التولي سواء كان على حالة المجانبة أو مدبراً

﴿ مستكبراً ﴾ أي حال كونه طالباً موجداً له بالإعراض عن الطاعة تصديقاً لقولنا آخر تلك ﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ [الروم : 58] .

ولما كان السامع لآياته سبحانه جديراً بأن تكسبه رقة وتواضعاً ، قال تعالى دالاً على أن هذا الشقي كان حاله عند سماعه وبعده كما كان قبل : ﴿ كأن ﴾ أي كأنه ، أي مشبهاً حالة بعد السماع حاله حين ﴿ لم يسمعها ﴾ فدل ذلك على أنه لم يزل على حالة الكبر لأنه شبه حاله مع السماع بحاله مع عدم السماع ، وقد بين أن حاله مع السماع الاستكبار فكان حاله قبل السماع كذلك .

ولما كان من لم يسمع الشيء قد يكون قابلاً للسمع ، فإذا كلم من قد جرت العادة بأن يسمع منه سمع ، بين أن حال هذا كما كان مساوياً لما قبل التلاوة فهو مساو لما بعدها ، لأن سمعه مشابه لمن به صم ، فالمضارع في " يتلى " مفهم لأن الحال في الاستقبال كهي في الحال فقال تعالى : ﴿ كأن في أذنيه وقراً ﴾ أي صمماً يستوي معه تكليم غيره له وسكوته .

(40/607)

ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل نخوته وكبره وعظمته ، وكان استمرار الألم أعظم كاسرٍ لذوي الشمم ، وكان من طبع الإنسان الاهتزاز لوعد الإحسان كائناً من كان نوع اهتزاز قال : ﴿ فبشره ﴾ فلما كان جديراً بأن يقبل - لا يولّي لظنه البشري - على حقيقتها لأن من يعلم أنه أهل للعذاب بأفعاله الصعاب لا يزال يتوالى عليه النعم مرة بعد مرة حتى يظن أو يكاد يقطع بأن المعاصي سبب لذلك وأنه - لما كان عند الله من عظيم المنزلة - لا يكره منه عمل من الأعمال ، قرعة بقوله : ﴿ بعذاب ﴾ أي عقاب مستمر ﴿ أليم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 8.6 ﴾

(41/607)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه الأول : أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح الثاني : هو أن الحديث إذا كان لهواً لا فائدة فيه كان أقبح

الثالث : هو أن اللهو قد يقصد به الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال أحمضوا ونقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " روحوا القلوب ساعة فساعة " رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً ويشهد له ما في مسلم " يا حنظلة ساعة وساعة " والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطايبة ، والخواص يقولون هو أمر بالنظر إلى جانب الحق فإن الترويح به لا غير فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال لقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ كان فعله أدخل في القبح .

ثم قال تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ عائد إلى الشراء أي يشتري بغير علم ويتخذها أي يتخذ السبيل هزواً أولئك ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ قوله : ﴿ مُّهِينٌ ﴾ إشارة إلى أمر يفهم منه الدوام ، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبيده ، فالجلاد إن علم أنه ممن يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه ، وإن علم أنه لا يعود إلى ما كان عليه وأمره قد انقضى ، فإنه لا يكرمه .

فقوله : ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ إشارة إلى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر ، فإن عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

أي يشتري الحديث الباطل ، والحق الصراح يأتيه مجاناً يعرض عنه ، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن ، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئاً ، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شيء يجده ويشتريها ، وهم ما كانوا يطلبونها ، وإذا جاءتهم مجاناً ما كانوا يسمعونها ، ثم إن فيه أيضاً مراتب الأولى : التولية عن الحكمة وهو قبيح والثاني : الاستكبار ، ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنياً عن الحكمة حتى يستكبر عنها ؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله ، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله ؟ الثالث : قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة الرابع : قوله : ﴿ كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ أدخل في الإعراض .

ثم قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي له عذاب مهين بشره أنت به وأوعده ، أو يقال إذا كان حاله هذا ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 123 . 124 ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ هُوَ الْغِنَاءُ وَمَا اتَّصَلَ بِهِ : فَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَالطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا يَحِلُّ بَيْعُ الْمُغَنِّيَاتِ ، وَلَا شِرَاؤُهُنَّ ، وَلَا التِّجَارَةُ فِيهِنَّ ، وَلَا أَثْمَانُهُنَّ ؛ وَفِيهِنَّ أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ﴾ الْآيَةَ .

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ جَلَسَ إلَى قَيْنَةٍ يَسْمَعُ مِنْهَا صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يُنَزِّهُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ عَنْ اللَّهْوِ وَمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ ؟ أَدْخِلُوهُمْ فِي رِيَاضِ الْمِسْكِ .

ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَسْمِعُوهُمْ حَمْدِي وَشُكْرِي ، وَثَنَائِي عَلَيْهِمْ ، وَأَخْبِرُوهُمْ أَنْ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

(44/607)

وَمِنْ رِوَايَةِ مَكْحُولٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ مَاتَ وَعِنْدَهُ جَارِيَةٌ مُغَنِّيَةٌ فَلَا تُصَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ .

الثَّانِي : أَنَّهُ الْبَاطِلُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ الطَّبْلُ ؛ قَالَهُ الطَّبَرِيُّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ ، كَانَ يَجْلِسُ بِمَكَّةَ ، فَإِذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ : إنَّ مُحَمَّدًا قَالَ كَذَا وَكَذَا ضَحِكَ مِنْهُ ، وَحَدَّثَهُمْ بِأَحَادِيثَ مُلُوكِ الْفُرْسِ ، وَيَقُولُ : حَدِيثِي هَذَا أَحْسَنُ مِنْ قُرْآنِ مُحَمَّدٍ .

الثَّانِي : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ اشْتَرَى جَارِيَةً مُغَنِّيَةً ، فَشُغِلَ النَّاسُ بِلَهْوِهَا عَنْ اسْتِمَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ بِحَالٍ ، لِعَدَمِ ثِقَةِ نَاقِلِيهَا إلَى مَنْ ذُكِرَ مِنْ الْأَعْيَانِ فِيهَا .

وَأَصَحُّ مَا فِيهِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ الْبَاطِلُ .

فَأَمَّا قَوْلُ الطَّبَرِيِّ : إِنَّهُ الطَّبْلُ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : طَبْلُ حَرْبٍ ، وَطَبْلُ لَهْوٍ ، فَأَمَّا طَبْلُ الْحَرْبِ فَلَا حَرَجَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ يُقِيمُ النُّفُوسَ ، وَيُرْهِبُ عَلَى الْعَدُوِّ .

وَأَمَّا طَبْلُ اللَّهْوِ فَهُوَ كَالدُّفِّ .

وَكَذَلِكَ آلَاتُ اللَّهْوِ الْمُشْهِرَةُ لِلنِّكَاحِ يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهَا فِيهِ ، لِمَا يَحْسُنُ مِنْ الْكَلَامِ ، وَيَسْلَمُ مِنْ الرَّفَثِ .

(45/607)

وَأَمَّا سَمَاعُ الْقَيْنَاتِ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَسْمَعَ غِنَاءَ جَارِيَتِهِ ، إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا عَلَيْهِ حَرَامًا ، لَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَلَا مِنْ بَاطِنِهَا ، فَكَيْفَ يُمْنَعُ مِنْ التَّلَذُّذِ بِصَوْتِهَا .

وَلَمْ يَجُزْ الدُّفُّ فِي الْعُرْسِ لِعَيْنِهِ ، وَإِنَّمَا جَازَ ؛ لِأَنَّهُ يُشْهِرُهُ ، فَكُلُّ مَا أَشْهَرَهُ جَازَ .

وَقَدْ بَيَّنَّا جَوَازَ الزَّمْرِ فِي الْعُرْسِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ : ﴿ أَمِزْمَارُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ : دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ ﴾ ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ انْكِشَافُ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ وَلَا هَتْكُ الْأَسْتَارِ ، وَلَا سَمَاعُ الرَّفَثِ ، فَإِذَا خَرَجَ ذَلِكَ إِلَى

مَا لَا يَجُوزُ مُنِعَ مِنْ أَوَّلِهِ ، وَاجْتُنِبَ مِنْ أَصْلِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(46/607)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾

فيه سبعة تأويلات

: أحدها : شراء المغنيات لرواية القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لَا يَحِلُّ بَيْعُ الْمُغَنِّيَاتِ وَلَا شِرَاؤُهُنَّ وَلَا التِّجَارَةُ فِيهِنَّ وَلَا أَثْمَانُهُنَّ وَفِيهِنَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ

﴾ " . الثاني : الغناء ، قاله ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وابن جبير وقتادة

. الثالث : أنه الطبل ، قاله عبد الكريم ، والمزمار ، قاله ابن زخر .

الرابع : أنه الباطل ، قاله عطاء .

الخامس : أنه الشرك بالله ، قاله الضحاك وابن زيد .

السادس : ما ألهى عن الله سبحانه ، قال الحسن .

السابع : أنه الجدال في الدين والخوض في الباطل ، قاله سهل بن عبد الله .

ويحتمل إن لم يثبت فيه نص تأويلاً ثامناً : أنه السحر والقمار والكهانة .

وفيمن نزلت قولان :

أحدهما : أنها نزلت في النضر بن الحارث كان يجلس بمكة فإذا قالت قريش إن محمداً قال كذا وكذا ضحك منه وحدثهم بحديث رستم واسفنديار ويقول لهم إن حديثي أحسن من قرآن محمد ، حكاه الفراء والكلبي .

الثاني : أنها نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية فشغل بها الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاه ابن عيسى .

﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيرِ عِلْمٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : ليصد عن دين الله ، قاله الطبري .

الثاني : ليمنع من قراءة القرآن ، قاله ابن عباس .

﴿ بِغَيرِ عِلْمٍ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : بغير حجة .

الثاني : بغير رواية .

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يتخذ سبيل الله هزواً يكذب بها ، قاله قتادة . وسبيل الله دينه .

الثاني : يستهزىء بها ، قاله الكلبي .

﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي مذل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(47/607)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾

روي أنها نزلت في قرشي اشترى جارية مغنية تغني بهجاء محمد صلى الله عليه وسلم وسبه فنزلت الآية في ذلك ، وقيل إنه ابن خطل وروي عن أبي أمامة الباهلي بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " شراء المغنيات وبيعهن حرام " وقرأ هذه الآية ، وقال في هذا المعنى أنزلت علي هذه الآية ، وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد ، وقال الحسن ﴿ لهو الحديث ﴾ المعازف والغناء ، وقال بعض الناس نزلت في النضر بن الحارث لأنه اشترى كتب رستم واسبنديار وكان يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحدثهم بتلك الأباطيل ويقول أنا أحسن حديثاً من محمد ، وقال قتادة : الشراء في هذه الآية مستعار ، وإنما نزلت الآية في أحاديث قريش وتلهيهم بأمر الإسلام وخوضهم في

الأباطيل .

قال الفقيه الإمام القاضي : فكأن ترك ما يجب وامتثال هذه المنكرات شراء لها على حد قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة : 16 ، 175] ، وقد قال مطرف : شراء ﴿ لهو الحديث ﴾ استحبابه ، قال قتادة ولعله لا ينفق فيه مالاً ولكن سماعه هو شراؤه ، وقال الضحاك ﴿ لهو الحديث ﴾ الشرك ، وقال مجاهد أيضاً ﴿ لِهو الحديث ﴾ الطبل وهذا ضرب من الغناء .

(48/607)

قال الفقيه الإمام القاضي : والذي يترجح أن الآية نزلت في لهو الحديث منضاف إلى كفر فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله : ﴿ ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ﴾ ، والتوعد بالعذاب المهين ، وأما لفظة الشراء فمحتملة للحقيقة والمجاز على ما بينا ، و ﴿ لهو الحديث ﴾ كل ما يلهي من غناء وخنى ونحوه ، والآية باقية المعنى في أمة محمد ولكن ليس ليضلوا عن سبيل الله بكفر ولا يتخذوا الآيات هزواً ولا عليهم هذا الوعيد ، بل ليعطل عبادة ويقطع زماناً بمكروه ، وليكون من جملة العصاة والنفوس الناقصة تروم تتميم ذلك النقص بالأحاديث وقد جعلوا الحديث من القربى ، وقيل لبعضهم أتمل الحديث ؟ قال : إنما

يمل العتيق .

قال الفقيه الإمام القاضي : يريد القديم المعاد ، لأن الحديث من الأحاديث فيه الطرافة التي تمنع من الملل ، وقرأ نافع وعاصم والحسن وجماعة " ليُضل " بضم الياء .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتحها ، وفي حرف أبيّ " ليضل الناس عن سبيل الله " ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم " ويتخذَها " بالنصب عطفاً على ﴿ ليضل ﴾ ، وقرأ الباقون " ويتخذُها " بالرفع عطفاً على ﴿ يشتري ﴾ ، والضمير في ﴿ يتخذها ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿ الكتاب ﴾ المذكور أولاً ويحتمل أن يعود على السبيل ، ويحتمل أن يعود على الأحاديث لأن الحديث اسم جنس بمعنى الأحاديث ، وكذلك ﴿ سبيل الله ﴾ اسم جنس ولكن وجه من الحديث وجه يليق به من السبيل .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

هذا دليل على كفر الذي نزلت فيه هذه الآية التي قبلها ، و" الوقر " في الأذن الثقل الذي يعسر إدراك المسموعات ، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث قيدت ونص عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ "مَنْ" في موضع رفع بالابتداء .

و"لَهْوَ الْحَدِيثِ" : الغناء ؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما .

النحاس : وهو ممنوع بالكتاب والسنة ؛ والتقدير : من يشتري ذا لهو أو ذات لهو ؛ مثل : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

أو يكون التقدير : لما كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشتراها للّهو .

قلت : هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدلّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه .

والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ [النجم : 61] .

قال ابن عباس : هو الغناء بالْحِمْيَرِيّة ؛ اسمدي لنا ؛ أي غنّي لنا .

والآية الثالثة قوله تعالى : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء : 64]

قال مجاهد : الغناء والمزامير .

وقد مضى في "سبحان" الكلام فيه .

وروى الترمذِيّ عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القَيْنَات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام ، في مثل هذا أنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ " إلى آخر الآية .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبي أمامة ، والقاسم ثقة وعليّ بن يزيد يضعّف في الحديث ؛ قاله محمد بن إسماعيل .

قال ابن عطية : وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد ، وذكره أبو الفرج الْجَوْزي عن الحسن وسعيد ابن جبير وقتادة والنَّخَعِيّ .

قلت : هذا أعلى ما قيل في هذه الآية ، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء .

(50/607)

روى سعيد بن جُبير عن أبي الصَّهباء البكري قال : سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ فقال : الغناء والله الذي لا إله إلا هو ؛ يرددها ثلاث مرات .

وعن ابن عمر أنه الغناء ؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول .

وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال : قال عبد الله بن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب ؛ وقاله مجاهد ، وزاد : إنّ لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل .

وقال الحسن : لهو الحديث المعازِف والغناء .

وقال القاسم بن محمد : الغناء باطل والباطل في النار .

وقال ابن القاسم سألت مالكاً عنه فقال : قال الله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ [يونس : 32] أفحق هو ؟ ! وترجم البخاري (بَابٌ كُلُّ لهو باطلٌ إذا شغل عن طاعة الله ، ومن قال لصاحبه تعال أقامِرْك) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ فقوله : "إذَا شَغَلَ عن طاعة الله" مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ .

وعن الحسن أيضاً : هو الكفر والشرك .

وتأوّله قوم على الأحاديث التي يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعِب .

وقيل : نزلت في النضر بن الحارث ؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم : رستم ، واسفنديار ؛ فكان يجلس بمكة ، فإذا قالت قريش إن محمداً قال كذا ضحك منه ، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول : حديثي هذا أحسن من حديث محمد ؛ حكاه الفرّاء والكَلْبي وغيرهما .

وقيل : كان يشتري المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قَيْنَته فيقول : أطعميه واسقيه وغَنّيه ؛ ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه .

وهذا القول والأوّل ظاهر في الشراء .

(51/607)

وقالت طائفة : الشراء في هذه الآية مستعار ، وإنما نزلت الآية في أحاديث قريش وتلهيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل .

قال ابن عطية : فكان ترك ما يجب فعله وامتثال هذه المنكرات شراءً لها ؛ على حد قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة : 16] ؛ اشتروا الكفر بالإيمان ؛ أي استبدلوه منه واختاروه عليه .

وقال مُطَرِّف : شراء لهوِ الحديث استحبابه .

قتادة : ولعلّه لا ينفق فيه مالاً ، ولكن سماعه شراؤه .

قلت : القول الأوّل أولى ما قيل به في هذا الباب ؛ للحديث المرفوع فيه ، وقول الصحابة والتابعين فيه .

وقد زاد الثعلبي والواحدِيّ في حديث أبي أمامة : " وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المَنْكِب (والآخر على هذا المنكب) فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت " وروى الترمذي وغيره من حديث أنس وغيره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " صوتان ملعونان فاجران أَنهى عنهما : صوت مزمار ورنّة شيطان عند نغمة ومَرَح ورَنّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب " وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بُعثت بكسر المزامير " خرجه أبو طالب الغَيْلاِني .

(52/607)

وخرّج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " بُعثت بهدم المزامير والطبل " وروى الترمذي من حديث عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فعلت أمّتي خمس عشرة خَصْلة حلّ بها البلاء فذكر منها : إذا اتخذت القَيْنات والمعازِف " وفي حديث أبي هريرة : " وظهرت القِيان والمعازِف " وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن الْمُنْكَدِر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جلس إلى قَينة يسمع منها صُبّ في أذنه الآنُك يوم

القيامة " وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن محمد بن المنكدِر قال : بلغنا

" أن الله تعالى يقول يوم القيامة : "أين عبادي الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان أَحِلّوهم رياض المسك وأخبروهم أني قد أحللت عليهم رضواني " "

وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثله ، وزاد بعد قوله : " المسك : ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدي وشكري وثنائي ، وأخبروهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون "

وقد روي مرفوعاً هذا المعنى من حديث أبي موسى الأشعري أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين" .

فقيل : ومَن الروحانيون يا رسول الله ؟ قال : "قرّاء أهل الجنة" " خرّجه الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول ، وقد ذكرنا في كتاب التذكرة مع نظائره : " فمن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " إلى غير ذلك .

وكل ذلك صحيح المعنى على ما بيّنّاه هناك .

ومن رواية مكحول عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلّوا عليه " ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء .

وهي المسألة :

الثانية : وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، الذي يحرّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل ، والمُجُون الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن ؛ فهذا النوع إذا كان في شعر يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرّمات لا يُختلف في تحريمه ؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق .

فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح ؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أَنْجَشة وسَلَمة بن الأَكْوع .

فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبَّابات والطار والمعازف والأوتار فحرام .

ابن العربيّ : فأما طبل الحرب فلا حرج فيه ؛ لأنه يقيم النفوس ويُرهب العدوّ .

وفي اليراعة تردّد .

والدف مباح .

الجوهريّ : وربما سمّوا قصبة الراعي التي يزمر بها هيرعة ويراعة .

قال القشيريّ : " ضُرب بين يدي النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة ، فهمّ أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح" " فكنّ يضربن ويقلن : نحن بنات النجار ، حبذا محمد من جار ، وقد قيل : إن

الطبل في النكاح كالدُّف ، وكذلك الآلات المشهِرة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رَفَث .

الثالثة : الاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُرَد به الشهادة ، فإن لم يدم لم تردّ .

وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال : سألت مالك بن أنس عما يُرخِّص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق .

وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري قال : أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه ، وقال : إذا اشترى جارية ووجدها مغنية كان له ردّها بالعيب ؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة ؛ إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأساً .

(54/607)

وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : فأما مالك فيقال عنه : إنه كان عالماً بالصناعة وكان مذهبه تحريمها .

وروي عنه أنه قال : تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب ، فقالت لي أمي : أيْ بني إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولستَ كذلك ، فاطلب العلوم الدينية ؛ فصحبت

ربيعة فجعل الله في ذلك خيراً .

قال أبو الطيب الطبريّ : وأما مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناء مع إباحته شرب النّبيذ ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب .

وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة : إبراهيم والشعبيّ وحماد والثوري وغيرِهم ، لا اختلاف بينهم في ذلك .

وكذلك لا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهية ذلك والمنع منه ؛ إلا ما روي عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً .

قال : وأما مذهب الشافعيّ فقال : الغناء مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه تردّ شهادته .

وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ روايات قال : وقد ذكر أصحابنا عن أبي بكر الخَلاّل وصاحبِه عبد العزيز إباحة الغناء ، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزُّهديّات ؛ قال : وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد ؛ ويدلّ عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية فاحتاج الصبي إلى بيعها فقال : تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية .

فقيل له : إنها تساوي ثلاثين ألفاً ؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوي عشرين ألفاً ؟ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة .

قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغني بقصائد الزهد، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشق.

وهذا دليل على أن الغناء محظور؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويت المال على اليتيم.

وصار هذا "كقول أبي طلحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم: عندي خمر لأيتام؟ فقال: "أرِقها" " فلو جاز استصلاحها لما أمِر بتضييع مال اليتامى.

قال الطبريّ: فقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه.

(55/607)

وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالسواد الأعظم" "من فارق الجماعة مات مِيتة جاهلية" قال أبو الفرج: وقال القفّال من أصحابنا؛ لا تقبل شهادة المغنّي والرقاص.

قلت: وإذ قد ثبت أن هذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز.

وقد ادّعى أبو عمر بن عبد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك.

وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [الأنعام: 59] وحسْبُك.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأما سماع القينات فيجوز للرجل أن يسمع غناء

جاريته ؛ إذ ليس شيء منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها .

أمَا أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرَّفَث ، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يحل ولا يجوز مُنع من أوّله واجتُثّ من أصله .

وقال أبو الطيّب الطبريّ : أما سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرَم فإن أصحاب الشافعيّ قالوا لا يجوز ، سواء كانت حرّة أو مملوكة .

قال : وقال الشافعيّ ؛ وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تردّ شهادته ؛ ثم غلّظ القول فيه فقال : فهي دِياثة .

وإنما جعل صاحبها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ قراءة العامة بضم الياء ؛ أي ليضل غيره عن طريق الهدى ، وإذا أضل غيره فقد ضل .

وقرأ ابن كثِير وابن محيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبي إسحاق (بفتح الياء) على اللازم ؛ أي ليَضل هو نفسه .

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ قراءة المدنيّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفاً على "مَنْ يَشْتَرِي"

ويجوز أن يكون مستأنفاً .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي : "وَيتخِذَها" بالنصب عطفاً على "لِيُضِلّ" .

(56/607)

ومن الوجهين جميعاً لا يحسن الوقف على قوله : "بِغَيْرِ عِلْمٍ" والوقف على قوله : "هُزُواً" ، والهاء في "يَتَّخِذَهَا" كناية عن الآيات .

ويجوز أن يكون كناية عن السبيل ؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر .

﴿ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي شديد يهينهم .

قال الشاعر :

ولقد جزعت إلى النصارى بعد ما . . .

لَقِيَ الصليبُ من العذاب مهينا

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ يعني القرآن .

﴿ ولى ﴾ أي أعرض .

﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ نصب على الحال .

﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ ثِقَلاً وصَمَماً .

وقد تقدّم.

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ تقدّم أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(57/607)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنَ الناس ﴾ محله الرَّفعُ على الابتداءِ باعتبارِ مضمونِه أو بتقديرِ الموصوفِ . ومَن في قولِه تعالى : ﴿ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ محلُّها الرَّفعُ على الخبريَّةِ والمعنى وبعضُ النَّاسِ ، أو وبعضٌ مِن النَّاسِ الذي يشتري أو فريقٌ يشتري على أنَّ مناطَ الإفادةِ والمقصودَ بالأصالةِ هو اتّصافُهم بما في حيّزِ الصّلةِ أو الصّفةِ لا كونُهم ذواتَ أولئك المذكورينَ كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ءامَنَّا بالله وباليوم الأخر ﴾ الآياتِ ولهوُ الحديثِ ما يُلهى عمَّا يُعنى من المهمَّاتِ كالأحاديثِ التي لا أصلَ لها والأساطيرِ التي لا اعتدادَ بها والمضاحكِ وسائرِ ما لا خيرَ فيه من فضُولِ الكلامِ . والإضافةُ بمعنى من التبيينيةِ إنْ أُريد بالحديثِ المنكرُ وبمعنى التبعيضيةِ إن أُريد به الأعمُّ مِن ذلكَ . وقيلَ نزلتِ الآيةُ في النَّضرِ بنِ الحارث اشترى كتبَ الأعاجمِ وكان يُحدّثُ بها قُريشاً ويقولُ إنْ كان

محمدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام يُحدِّثكم بحديثِ عادٍ وثمودٍ فأَنا أُحدِّثكم بحديثِ رُسْتُمَ واسفِنْدِيارَ والأكاسرةِ. وقيل كان يشتري القيانَ ويحملهنَّ على مُعاشرةِ مَن أرادَ الإسلامَ ومنعِه عنْهُ ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي دينِه الحقِّ الموصِّلِ إليهِ تعالى أو عن قراءةِ كتابِه الهادِي إليه تعالى.

وقُرِىء لِيَضلَّ بفتحِ الياء أي ليثبُتَ ويستمرَّ على ضلالِه أو ليزدادَ فيه ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بحالِ ما يشتريه أو بالتِّجارةِ حيثُ استبدلَ الشرَّ البَحتَ بالخيرِ المحضِ. ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ بالنَّصبِ عطفاً على يُضلَّ. والضَّميرُ للسَّبيلِ فإنَّه ممَّا يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ وهو دينُ الإسلامِ أو القُرآنِ أي ويتخذَها ﴿ هُزُواً ﴾ مَهزُواً بِهِ. وقُرِىء ويتخذُها بالرَّفعِ عطفاً على يشتري. وقولُه تعالى:

(58/607)

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى مَن. والجمعُ باعتبارِ معناها كما أنَّ الإفرادَ في الفعلينِ باعتبارِ لفظِها، وما فيه منْ مَعنْى البُعد مع قُربِ العهدِ بذكرِ المُشارِ إليهِ للإيذانِ ببُعدِ منزلتِهم في الشَّرارةِ أي أولئكَ الموصُوفون بما ذُكر من الاشتراءِ للإضلالِ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لما اتَّصفُوا به من إهانتِهم الحقَّ بإيثارِ الباطلِ عليهِ وترغيبِ النَّاس فيه.

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ ﴾ أي على المُشتري ، أُفرد الضَّميرُ فيه وفيما بعدَه كالضَّمائرِ الثلاثةِ الأولِ باعتبارِ لفظةِ مَن بعدَ ما جُمع فيما بينهما باعتبارِ معناها . ﴿ ءاياتنا ﴾ التي هي آياتُ الكتابِ الحكيمِ وهدى ورحمةٌ للمحسنين ﴿ وَلَّى ﴾ أعرض عنها غيرَ معتدَ بها ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ مبالغاً في التَّكبُّر ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ حالٌ من ضمير ولَّى أو من ضميرٍ مستكبراً . والأصل كأنَّه فحذف ضميرُ الشَّأنِ وخُفِّفتْ المُثقَّلةُ أي مشبهاً حاله حالَ مَن لم يسمعها وهو سامعٌ وفيه رمزٌ إلى أنَّ مَن سمعها لا يُتصوَّرُ منه التَّوليةُ والاستكبارُ لما فيها من الأمورِ الموجبةِ للإقبالِ عليها والخضوعِ لها على طريقةِ قولِ مَن قال :

كأنَّك لم تَجْزَعْ على ابنِ طَرِيْفِ . . . ﴿ كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ حال من ضميرِ لم يسمعْها أي مُشبهاً حالُه حالَ من في أذنيه ثقَلٌ مانع من السَّماعِ ويجوز أنْ يكونا استئنافين . وقُرِىء في أُذْنيهِ بسكونِ الذَّالِ . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأعلمه بأنَّ العذابَ المفرطَ في الإيلام لاحقٌ به لا محالة ، وذكرُ البشارةِ للتَّهكمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(59/607)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ الناس ﴾ أي بعض من الناس أو بعض الناس ﴿ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ أي الذي أو فريق يشتري على أن مناط الإفادة والمقصود بالأصالة هو اتصافهم بما في حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين ، والجملة عطف على ما قبلها بحسب المعنى كأنه قيل : من الناس هاد مهدي ومنهم ضال مضل أو عطف قصة على قصة ، وقيل : إنها حال من فاعل الإشارة أي أشير إلى آيات الكتاب حال كونها هدى ورحمة والحال من الناس من يشتري الخ ، و ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ على ما روي عن الحسن كل ما شغلك عن عبادة الله تعالى وذكره من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء ونحوها ، والإضافة بمعنى من أن أريد بالحديث المنكر كما في حديث " الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش " بناءً على أنها بيانية وتبعيضية إن أريد به ما هو أعم منه بناءً على مذهب بعض النحاة كابن كيسان .

والسيرافي قالوا : إضافة ما هو جزء من المضاف إليه بمعنى من التبعيضية كما يدل عليه وقوع الفصل بها في كلامهم ، والذي عليه أكثر المتأخرين وذهب إليه ابن السراج .

والفارسي وهو الأصح أنها على معنى اللام كما فصله أبو حيان في شرح التسهيل وذكر شارح اللمع .

وعن الضحاك أن ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ الشرك ، وقيل : السحر ، وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن أبي الدنيا .

وابن جرير .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الصهباء قال : سألت عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ قال : هو والله الغناء وبه فسر كثير ، والأحسن تفسيره بما يعم كل ذلك كما ذكرناه عن الحسن ، وهو الذي يقتضيه ما أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" .

وابن أبي الدنيا .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه قال : ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ هو الغناء وأشباهه ، وعلى جميع ذلك يكون الاشتراء استعارة لاختياره على القرآن واستبداله به ، وأخرج ابن عساكر عن مكحول في قوله تعالى : ﴿ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ قال الجواري الضاربات .

وأخرج آدم .

وابن جرير .

والبيهقي في سننه عن مجاهد أنه قال فيه : هو اشتراؤه المغني والمغنية والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل ، وفي رواية ذكرها البيهقي في السنن عن ابن مسعود أنه قال : في الآية هو رجل يشتري جارية تغنيه ليلاً أو نهاراً واشتهر أن الآية نزلت في النضر بن الحرث ، ففي رواية جويبر عن ابن عباس أنه اشترى قينة فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد صلى الله عليه وسلم من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت .

وفي أسباب النزول للواحدي عن الكلبي .

ومقاتل أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم وفي بعض الروايات كتب الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد .

وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم .

واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فنزلت ، وقيل : إنها نزلت في ابن خطل اشترى جارية تغني بالسب ، ولا يأبى نزولها فيمن ذكر الجمع في قوله تعالى بعد : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ ﴾ كما لا يخفى على الفطن ، والاشتراء على أكثر هذه الروايات على حقيقته ويحتاج في بعضها إلى عموم المجاز أو الجمع بين الحقيقة والمجاز كما لا يخفى على من دقق النظر ، وجعل المغنية ونحوها نفس لهو الحديث مبالغة كما جعل ﴿ النساء ﴾ في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء ﴾ [آل عمران : 14] نفس الزينة .

(61/607)

وفي "البحر" إن أريد بلهو الحديث ما يقع عليه الشراء كالجواري المغنيات وككتب الأعاجم فالاشتراء حقيقة ويكون الكلام على حذف مضاف أي من يشتري ذات لهو الحديث .

وقال الخفاجي : عليه الرحمة لا حاجة إلى تقدير ذات لأنه لما اشتريت المغنية لغنائها فكأن المشتري هو الغناء نفسه فتدبره ، وفي الآية عند الأكثرين ذم للغناء بأعلى صوت وقد تضافرت الآثار وكلمات كثير من العلماء الأخيار على ذمه مطلقاً لا في مقام دون مقام ،

فأخرج ابن أبي الدنيا .

والبيهقي في شعبه عن ابن مسعود قال : إذا ركب الرجل الدابة ولم يسم ردفه شيطان فقال : تغنه فإن كان لا يحسن قال : تمنه ، واخرجا أيضاً عن الشعبي قال : عن القاسم بن محمد أنه سئل عن الغناء فقال للسائل : أنهاك عنه وأكرهه لك فقال السائل : أحرام هو ؟ قال : انظر يا ابن أخي إذا ميز الله تعالى الحق من الباطل في أيهما يجعل سبحانه الغناء ، واخرجا عنه أيضاً أنه قال : " لعن الله تعالى المغني والمغنى له " ، وفي "السنن" عن ابن مسعود قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل " ، وأخرج عنه نحوه ابن أبي الدنيا ورواه عن أبي هريرة .

والديلمي عنه وعن أنس وضعفه ابن القطان ، وقال النووي لا يصح ، وقال العراقي : رفعه غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم وفيه إشارة إلى أن وقفه على ابن مسعود صحيح وهو في حكم المرفوع إذ مثله لا يقال من قبل الرأي ، وأخرج ابن أبي الدنيا .

وابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله تعالى إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك "

وأخرج ابن أبي الدنيا .

والبيهقي عن أبي عثمان الليثي قال : قال يزيد بن الوليد الناقص : يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السكر فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا ، وقال الضحاك : الغناء منفدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب ، وأخرج سعيد بن منصور .

وأحمد .

والترمذي .

وابن ماجه .

وابن جرير وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

وغيرهم عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام في مثل هذا أنزلت هذه الآية ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ إلى لآخر الآية " وفي رواية ابن أبي الدنيا .

وابن مردويه عن عائشة قالت : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأ ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث

﴿ " ويعود هذا ونحوه إلى ذم الغناء .

وقيل : الغناء جاسوس القلب وسارق المروءة والعقول يتغلغل في سويداء القلوب ويطلع على سرائر اوفئدة ويدب إلى بيت التخييل فينشر ما غرز فيها من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة فبينما ترى الرجل وعليه سمت الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار العلم كلامه حكمة وسكوته عبرة فإذا سمع الغناء نقص عقله وحياؤه وذهبت مروءته وبهاؤه فيستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ويبدي من أسراره ما كان يكتمه وينتقل من بهاء السكوت والسكون إلى كثرة الكلام والهذيان والاهتزاز كأنه جان وربما صفق بيديه ودق الأرض برجليه وهكذا تفعل الخمر إلى غير ذلك ، واختلف العلماء في حكمه فحكى تحريمه عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه القاضي أبو الطيب .

والقرطبي .

والماوردي .

والقاضي عياض .

(63/607)

وفي التاتارخانية اعلم أن التغني حرام في جميع الأديان ، وذكر في الزيادات أن الوصية للمغنين والمغنيات مما هو معصية عندنا وعند أهل الكتاب ، وحكى عن ظهير الدين المرغيناني : أنه قال من قال لمقري زماننا أحسنت عند قراءته كفر ، وصاحبا الهداية والذخيرة سمياه كبيرة .

هذا في التغني للناس في غير الأعياد والأعراس ويدخل فيه تغني صوفية زماننا في المساجد والدعوات بالأشعار والأذكار مع اختلاط أهل الأهواء والمرد بل هذا أشد من كل تغن لأنه مع اعتقاد العبادة وأما التغني وحده بالأشعار لدفع الوحشة أو في الأعياد والأعراس فاختلفوا فيه والصواب منعه مطلقاً في هذا الزمان انتهى .

وفي "الدر المختار" التغني لنفسه لدفع الوحشة لا بأس به عند العامة على ما في العناية وصححه العيني وغيره قال ولو فيه وعظ وحكمة فجائز اتفاقاً ومنهم من أجازه في العرس كما جاز ضرب الدف فيه ومنهم من أباحه مطلقاً ومنهم من كرهه مطلقاً انتهى .

وفي "البحر" والمذهب حرمته مطلقاً فانقطع الاختلاف بل ظاهر الهداية أنه كبيرة ولو لنفسه وأقره المنصف وقال : ولا تقبل شهادة من يسمع الغناء أو يجلس مجلسه انتهى كلام الدر .

وذكر الإمام أبو بكر الطرسوسي في كتابه في تحريم السماع أن الإمام أبا حنيفة يكره الغناء ويجعله من الذنوب وكذلك مذهب أهل الكوفة سفيان .

وحماد .

وإبراهيم .

والشعبي .

(64/607)

وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك ولا نعلم خلافاً بين أهل البصرة في كراهة ذلك والمنع منه انتهى وكأن مراده بالكراهة الحرمة ، والمتقدمون كثيراً ما يريدون بالمكروه الحرام كما في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء : 38] ونقل عليه الرحمة فيه أيضاً عن الإمام مالك أنه نهى عن الغناء وعن استماعه وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يرد بالعيب وأنه سئل ما ترخص فيه أهل المدينة من الغناء ، فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ؟ ونقل التحريم عن جمع من الحنابلة على ما حكاه شارح المقنع وغيره ، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب البلغة أن أكثر أصحابهم على التحريم وعن عبد الله ابن الإمام أحمد أنه قال : سألت أبي عن الغناء فقال ينبت النفاق في القلب لا يعجبني ثم ذكر قول مالك : إنما يفعله عندنا الفساق ، وقال المحاسبي في رسالة الإنشاء الغناء حرام كالميتة ، ونقل الطرسوسي أيضاً عن كتاب أدب القضاء أن الإمام الشافعي

رضي الله تعالى عنه قال : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته ، وفيه أنه صرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه وأنكروا على من نسب إليه حله كالقاضي أبي الطيب .

والطبري .

والشيخ أبي إسحاق في التنبيه وذكر بعض تلامذة البغوي في كتابه الذي سماه التقريب أن الغناء حرام فعله وسماعه ، وقال ابن الصلاح في فتاواه بعد كلام طويل : فإذن هذا السماع حرام بإجماع أهل الحل والعقد من المسلمين انتهى .

(65/607)

والذي رأيته في "الشرح الكبير للجامع الصغير" للفاضل المناوي أن مذهب الشافعي أنه مكروه تنزيهاً عند أمن الفتنة ، وفي "المنهاج" يكره الغناء بلا آلة قال العلامة ابن حجر لما صح عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وذكر الحديث السابق الموقوف عليه وأنه جاء مرفوعاً من طرق كثيرة بينها في كتابه كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ثم قال : وزعم أنه لا دلالة فيه على كراهته لأن بعض المباح كلبس الثياب الجميلة ينبت النفاق في القلب وليس بمكروه يرد بأنا لا نسلم أن هذا ينبت نفاقاً أصلاً ، ولئن سلمناه فالنفاق مختلف

فالنفاق الذي ينبته الغناء من التخنث وما يترتب عليه أقبح وأشنع كما لا يخفى ثم قال :

وقد جزم الشيخان يعني النووي .

والرافعي في موضع بأنه معصية وينبغي حمله على ما فيه وصف نحو خمر أو تشبب بأمرد أو أجنبية ونحو ذلك مما يحمل غالباً على معصية ، قال الأذرعي : أما ما اعتيد عند محاولة عمل وحمل ثقيل كحداء الأعراب لإبلهم والنساء لتسكين صغارهن فلا شك في جوازه بل ربما يندب إذا نشط على سير أو رغب في خير كالحداء في الحج والغزو ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض الصحابة انتهى ، وقضية قولهم بلا آلة حرمته مع الآلة ، قال الزركشي لكن القياس تحريم الآلة فقط وبقاء الغناء على الكراهة انتهى .

ومثل الاختلاف في الغناء الاختلاف في السماع فأباحه قوم كما أباحوا الغناء واستدلوا على ذلك بما رواه البخاري عن عائشة قالت : " دخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه وفي رواية لمسلم تسجى بثوبه ودخل أبو بكر فانتهرني وقال مزمارة الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجتا وكان يوم عيد " الحديث .

ووجه الاستدلال أن هناك غناءً أو سماعاً وقد أنكر عليه الصلاة والسلام إنكا أبي بكر رضي الله تعالى عنه بل فيه دليل أيضاً على جواز سماع الرجل صوت الجارية ولو لم تكن مملوكة لأنه عليه الصلاة والسلام سمع ولم ينكر على أبي بكر سماعه بل أنكر إنكاره وقد استمرتا تغنيان إلى أن أشارت إليهما عائشة بالخروج.

وإنكار أبي بكر على ابنته رضي الله تعالى عنهما مع علمه بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لظن أن ذلك لم يكن بعلمه عليه الصلاة والسلام لكونه دخل فوجده مغطى بثوبه فظنه نائماً .

وفي "فتح الباري" استدل جماعة من الصوفية بهذا الحديث على إباحة الغناء وسماعه بآلة وبغير آلة .

ويكفي في رد ذلك ما رواه البخاري أيضاً بعيده عن عائشة أيضاً قالت : "دخل على أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث قالت : وليستا بمغنيتين فقال أبو بكر : أبمزامير الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك في يوم عيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا" فنفت فيه عنهما من طريق المعنى ما أثبتته لهما باللفظ لأن الغناء يطلق على رفع الصوت وعلى الترنم الذي تسميه العرب النصب بفتح النون وسكون المهملة وعلى الحداء

ولا يسمى فاعله مغنياً وإنما يسمى بذلك من ينشد بتمطيط وتكسير وتهييج وتشويق بما فيه تعريض بالفواحش أو تصريح .

(67/607)

قال القرطبي : قولها "ليستا بمغنيتين" أي ليستا ممن يعرف الغناء كما تعرفه المغنيات المعروفات بذلك وهذا منهما تجوز عن الغناء المعتاد عند المشتهرين به وهو الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن ، وهذا النوع إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرمة لا يختلف في تحريمه وأما ما ابتدعه الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير حتى لقد ظهرت في كثير منهم فعلات المجانين والصبيان حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة وانتهى التواقح بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال وأن ذلك يثمر سني الأحوال ، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وقول أهل المخرقة والله تعالى المستعان انتهى كلام القرطبي ، وكذا الغرض من كلام فتح الباري وهو كلام حسن بيد أن قوله : وإنما يسمى بذلك من ينشد الخ لا يخلو عن شيء بناءً على أن المتبادر عموم ذلك لما يكون في المنشد منه تعريض أو تصريح بالفواحش ولما لا يكون فيه ذلك ، وقال بعض الأجلة

: ليس في الخبر الإباحة مطلقاً بل قصارى ما فيه إباحته في سرور شرعي كما في الأعياد والأعراس فهو دليل لمن أجازه في العرس كما أجاز ضرب الدف فيه ، وأيضاً إنكار أبي بكر رضي الله تعالى عنه ظاهر في أنه كان سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ذم الغناء والنهي عنه فظن عموم الحكم فأنكر ، وبإنكاره عليه الصلاة والسلام عليه إنكاره تبين له عدم العموم .

وفي الخبر الآخر ما يدل على أنه أوضح له صلى الله عليه وسلم الحال مقروناً ببيان الحكمة وهو أنه يوم عيد فلا ينكر فيه مثل هذا كما لا ينكر في الأعراس ، ومع هذا أشار صلى الله عليه وسلم بالتفافه بثوبه وتحويل وجهه الشريف إلى أن الإعراض عن ذلك أولى ، وسماع صوت الجارية الغير المملوكة بمثل هذا الغناء إذا أمنت الفتنة مما لا بأس به فليكن الخبر دليلاً على جوازه .

(68/607)

واستدل بعضهم على ذلك بما جاء عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من دهاة الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكان يتغنى ؛ ولا يخفى ما فيه فإن هذا التغني ليس بالمعنى المشهور ، ونحوه التغني في قوله عليه الصلاة والسلام : " ليس منا من لم

يتغن بالقرآن " وسفيان بن عيينة .

وأبو عبيدة فسرا التغني في هذا الحديث بالاستغناء فكأنه قيل : ليس منا من لم يستغن بالقرآن عن غيره ، وهو مع هذا تغن لإزالة الوحشة عن نفسه في عقر داره ، ومثله ما روي عن عبد الله بن عوف قال : أتيت باب عمر رضي الله تعالى عنه فسمعته يغني .

فكيف ثوائي بالمدينة بعد ما . . .

قضى وطراً منها جميل بن معمر

أراد به جميلاً الجمحي وكان خاصاً به فلما استأذنت عليه قال لي : أسمعت ما قلت ؟

قلت : نعم قال : أنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم .

وحرم جماعة السماع مطلقاً ، وقال الغزالي : السماع إما محبوب بأن غلب على السامع حب الله تعالى ولقائه ليستخرج به أحوالاً من المكاشفات والملاطفات ، وإما مباح بأن كان عنده عشق مباح لحليلته أو لم يغلب عليه حب الله تعالى ولا الهوى ، وإما محرم بأن غلب عليه هوى محرم .

(69/607)

وسئل العز بن عبد السلام عن استماع الإنشاد في المحبة والرقص فقال : الرقص بدعة لا يتعاطاه إلا ناقص العقل فلا يصلح إلا للنساء ، وأما استماع الإنشاد المحرك للأحوال السنية وذكر أمور الآخرة فلا بأس به بل يندب عند الفتور وسآمة القلب ، ولا يحضر السماع من في قلبه هوى خبيث فإنه يحرك ما في القلب ، وقال أيضاً : السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم ، وهم إما عارفون بالله تعالى ويختلف سماعهم باختلاف أحوالهم فمن غلب عليه الخوف أثر فيه السماع عند ذكر المخوفات نحو حزن وبكاء وتغير لون ، وهو إما خوف عقاب أو فوات ثواب أو أنس وقرب وهو أفضل الخائفين والسامعين وتأثير القرآن فيه أشد ، ومن غلب عليه الرجاء أثر فيه السماع عند ذكر المطمعات والمرجيات ، فإن كان رجاؤه للإنس والقرب كان سماعه أفضل سماع الراجين وإن كان رجاؤه للثواب فهذا في المرتبة الثانية ، وتأثير السماع في الأول أشد من تأثيره في الثاني ، ومن غلب عليه حب الله تعالى لإنعامه فيؤثر فيه سماع الإنعام والإكرام ، أو لجماله سبحانه المطلق فيؤثر فيه ذكر شرف الذات وكمال الصفات ، وهو أفضل مما قبله لأن سبب حبه أفضل الأسباب ، ويشتد التأثير فيه عند ذكر الإقصاء والإبعاد ، ومن غلب عليه التعظيم والإجلال وهو أفضل من جميع ما قبله ، وتختلف أحوال هؤلاء في المسموع منه ، فالسماع من الولي أشد تأثيراً من السماع من عامي ومن نبي أشد تأثيراً منه ومن ولي ، ومن الرب عز وجل أشد تأثيراً من السماع من نبي لأن كلام المهيب أشد تأثيراً في الهائب من كلام غيره كما أن كلام

الحبيب أشد تأثيراً في المحب من كلام غيره ، ولهذا لم يشتغل النبيون والصديقون وأصحابهم بسماع الملاهي والغناء واقتصروا على كلام ربهم جل شأنه ، ومن يغلب عليه هوى مباح كمن يعشق حليلته فهو يؤثر فيه آثار الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق فسماعه لا بأس به ، ومن يغلب عليه هوى محرم كعشق أمرد أو أجنبية فهو يؤثر فيه

(70/607)

السعي إلى الحرام وما أدى إلى الحرام فهو حرام ، وأما من لم يجد في نفسه شيئاً من هذه الأقسام الستة فيكره سماعه من جهة أن الغالب على العامة إنما هي الأهواء الفاسدة فربما هيجه السماع إلى صورة محرمة فيتعلق بها ويميل إليها ، ولا يحرم عليه ذلك لأنا لا نتحقق السبب المحرم ، وقد يحضر السماع قوم من الفجرة فيبكون وينزعجون لأغراض خبيثة انطووا عليها ويراؤن الحاضرين بأن سماعهم لشيء محبوب ، وهؤلاء قد جمعوا بين المعصية وبين إيهام كونهم من الصالحين ، وقد يحضر السماع قوم قد فقدوا أهاليهم ومن يعز عليهم ويذكرهم المنشد فراق الأحبة وعدم الإنس فيبكي أحدهم ويوم الحاضرين أن بكاءه لأجل رب العالمين جل وعلا وهذا مراء بأمر غير محرم ، ثم قال : اعلم أنه لا يحصل السماع المحمود إلا عند ذكر الصفات الموجبة للأحوال السنية والأفعال الرضية ، ولكل صفة من الصفات

حال مختص بها ، فمن ذكر صفة الرحمة أو ذكر بها كانت حاله حال الراجين وسمعه سماعهم ، ومن ذكر شدة النقمة أو ذكر بها كانت حاله حال الخائفين وسماعه سماعهم ، وعلى هذا القياس ، وقد تغلب الأحوال على بعضهم بحيث لا يصغي إلى ما يقوله المنشد ولا يلتفت إليه لغلبة حاله الأولى عليه انتهى ، وقد نقله بعض الأجلة وأقره وفيه ما يخالف ما نقل عن الغزالي .

ونقل القاضي حسين عن الجنيد قدس سره أنه قال : الناس في السماع إما عوام وهو حرام عليهم لبقاء نفوسهم ، وإما زهاد وهو مباح لهم لحصول مجاهدتهم ، وإما عارفون وهو مستحب لهم لحياة قلوبهم ، وذكر نحوه أبو طالب المكي وصححه السهروردي عليه الرحمة في عوارفه ، والظاهر أن الجنيد أراد بالحرام معناه الاصطلاحي .

واستظهر بعضهم أنه لم يرد ذلك وإنما أراد أنه لا ينبغي .

ونقل بعضهم عن الجنيد قدس سره أنه سئل عن السماع فقال : هو ضلال للمبتدىء والمنتهي لا يحتاج إليه ، وفيه مخالفة لما سمعت .

(71/607)

وقال القشيري رحمه الله تعالى : إن للسماع شرائط منها معرفة الأسماء والصفات ليعلم صفات الذات من صفات الأفعال وما يمتنع في نعت الحق سبحانه وما يجوز وصفه تعالى به وما يجب وما يصح إطلاقه عليه عز شأنه من الأسماء وما يمتنع ، ثم قال : فهذه شرائط صحة السماع على لسان أهل التحصيل من ذوي العقول ، وأما عند أهل الحقائق فالشرط فناء النفس بصدق المجاهدة ثم حياة القلب بروح المشاهدة فمن لم تتقدم بالصحة معاملته ولم تحصل بالصدق منازلته فسماعه ضياع وتواجده طباع ، والسماع فتنة يدعو إليها استيلاء العشق إلا عند سقوط الشهوة وحصول الصفوة ، وأطال بما يطول ذكره ، قيل : وبه يتبين تحريم السماع على أكثر متصوفة الزمان لفقد شروط القيام بأدائه .

ومن العجب أنهم ينسبون السماع والتواجد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروون عن عطية أنه عليه الصلاة والسلام دخل على أصحاب الصفة يوماً فجلس بينهم ، وقال عليه الصلاة والتحية : هل فيكم من ينشدنا أبياتاً ؟ فقال واحد :

لسعت حية الهوى كبدي . . .

ولا طبيب لها ولا راقي إلا الحبيب الذي شغفت به

فعنده رقيتي وترياقي . . .

فقام عليه الصلاة والسلام وتمايل حتى سقط الرداء الشريف عن منكبيه فأخذه أصحاب الصفة فقسموه فيما بينهم بأربعمائة قطعة ، وهو لعمري كذب صريح وإفك قبيح لا أصل له بإجماع محدثي أهل السنة وما أراه إلا من وضع الزنادقة ، فهذا القرآن العظيم يتلوه جبريل عليه السلام عليه صلى الله عليه وسلم ويتلوه هو أيضاً ويسمعه من غير واحد ولا يعتريه عليه الصلاة والسلام شيء مما ذكروه في سماع بيتين هما كما سمعت سبحانك هذا بهتان عظيم ، وأنا أقول : قد عمت البلوى بالغناء والسماع في سائر البلاد والبقاع ولا يتحاشى من ذلك في المساجد وغيرها بل قد عين مغنون يغنون على المنائر في أوقات مخصوصة شريفة بأشعار مشتملة على وصف الخمر والحانات وسائر ما يعد من المحظورات ، ومع ذلك قد وظف لهم من غلة الوقف ما وظف ويسمونهم الممجدين ، ويعدون خلو الجوامع من ذلك من قلة الاكتراث بالدين ، وأشنع من ذلك ما يفعله أبالسة المتصوفة ومردتهم ثم أنهم قبحهم الله تعالى إذا اعترض عليهم بما اشتمل عليه نشيدهم من الباطل يقولون : نعني بالخمر المحبة الالهية وبالسكر غلبتها وبمية .

وليلى .

(73/607)

وسعدى مثلا المحبوب الأعظم وهو الله عز وجل ، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَئِهِ ﴾ [الأعراف : 180]

وفي القواعد الكبرى للعز بن عبد السلام ليس من أدب السماع أن يشبه غلبة المحبة بالسكر من الخمر فإنه سوء الأدب وكذا تشبيه المحبة بالخمر لأن الخمر أم الخبائث فلا شبه ما أحبه الله تعالى بما أبغضه وقضى بخبثه ونجاسته فإن تشبيه النفيس بالخسيس سوء الأدب بلا شك فيه ، وكذا التشبيه بالخصر والردف ونحو ذلك من التشبيهات المستقبحات ، ولقد كره لبعضهم قوله : فأنت السمع والبصر لأنه شبه من لا شبيه له بروحه الخسيسة وسمعه وبصره اللذين لا قدر لهما ، ثم إنه وإن أباح بعض أقسام السماع حط على من يرقص ويصفق عنده فقال : أما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة برعونة الإناث لا يفعلها إلا أرعن أو متصنع كذاب ، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان العناء ممن طاش لبه وذهب قلبه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدي بهم يفعل شيئاً من ذلك ، وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله تعالى شأنه ولقد مانوا فيما قالوا وكذبوا فيما ادعوا من جهة أنهم عند سماع المطربات وجدوا لذتين .

احداهما لذة قليل من الأحوال المتعلقة بذي الجلال .

والثانية لذة الأصوات والنغمات والكلمات الموزونات الموجبات للذات ليست من آثار الدين ولا متعلقة بأموره فلما عظمت عندهم اللذات غلطوا فظنوا أن مجموع ما حصل لهم إنما حصل بسبب حصول ذلك القليل من الأحوال وليس كذلك بل الأغلب عليهم حصول لذات النفوس التي ليست من الدين في شيء .

(74/607)

وقد حرم بعض العلماء التصفيق لقوله عليه الصلاة والسلام : " إنما التصفيق للنساء " ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء ، ومن هاب الاله وأدرك شيئاً من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق ولا يصدران إلا من جاهل ، ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما في كتاب ولا سنة ولم يفعل ذلك أحد من الأنبياء ولا معتبر من أتباعهم وإنما يفعل ذلك الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء ؛ وقد قال تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] ولقد مضى السلف وأفاضل الخلف ولم يلابسوا شيئاً من ذلك فما ذاك إلا غرض من أغراض النفس وليس بقربة إلى الرب جل وعلا ، وفاعله إن كان ممن يقتدي به ويعتقد أنه ما فعله إلا لكونه قربة فبئس ما صنع لا يهامه أن هذا من الطاعات وإنما

هو من أقبح الرعونات .

وأما الصياح والتغاشي ونحوهما فتصنع ورياء ، فإن كان ذلك عن حال لا يقتضيهما فاثم الفاعل من جهتين .

احداهما إيهامه الحال الثابتة الموجبة لهما .

والثانية تصنعه ورياؤه ، وإن كان عن مقتض أثم اثم رياء لا غير .

(75/607)

وكذلك نتف الشعور وضرب الصدور وتمزيق الثياب محرم لما فيه من إضاعة المال ، وأي ثمرة لضرب الصدور ونتف الشعور وشق الجيوب إلا رعونات صادرة عن النفوس اه كلامه ، ومنه يعلم ما في نقل الأسنوي عنه رحمه الله تعالى أنه كان يرقص في السماع ، والعلامة ابن حجر قال : يحمل ذلك على مجرد القيام والتحرك لغلبة وجد وشهود وتجل لا يعرفه إلا أهله ، ومن ثم قال الإمام إسماعيل الحضرمي : موقف الشمس عن قوم يتحركون في السماع هؤلاء قوم يروحون قلوبهم بالأصوات الحسنة حتى يصيروا روحانيين فهم بالقلوب مع الحق وبالأجساد مع الخلق ، ومع هذا فلا يؤمن عليهم العدو ولا يعول عليهم فيما فعلوا ولا يقتدي بهم فيما قالوا اه ، وما ذكره فيمن يصدر عنه نحو الصياح والتغاشي عن حال يقتضيه لا يخلو

عن شيء ، فقد قال البلقيني فيما يصدر عنهم من الرقص الذي هو عند جمع ليس بمحرم ولا مكروه لأنه مجرد حركات على استقامة أو اعوجاج ولأنه عليه الصلاة والسلام ، أقر الحبشة عليه في مسجده يوم عيد ، وعند آخرين مكروه ، وعند هذا القائل حرام إذا كثر بحيث أسقط المروءة إن كان باختيارهم فهم كغيرهم وإلا فليسوا بمكلفين ، واستوضحه بعض الأجلة وقال : يجب اطراده في سائر ما يحكى عن الصوفية مما يخالف ظواهر الشرع فلا يحتج به لأنه ان صدر عنهم في حال تكليفهم فهم كغيرهم أو مع غيبتهم لم يكونوا مكلفين به ، والذي يظهر لي أن غناء الرجل بمثل هذه الألحان إن كان لدفع الوحشة عن نفسه فمباح غير مكروه كما ذهب إليه شمس الأئمة السرخسي لكن بشرط أن لا يسمعه من يخشى عليه الفتنة من امرأة أو غيرها ولا من يستخف به ويسترذله وبشرط أن لا يغير اسم معظم بنحو زيادة ليست فيه في أصل وضعه لأجل أن لا يخرج عن مقتضى الصنعة مثل أن يقول في الله ايلاه وفي محمد موحامد ، هذا مع كون ما يتغنى به مما لا بأس بإنشاده وإن كان للناس للهو في غير حادث سرور كعرس بأجرة أو بدونها ازدرى به لذلك أو لم يزدر كان ما

يتغنى به مباح الإنشاد أو لم يكن فحرام وإن أمنت الفتنة وأراه من الصغائر كما يقتضيه كلام الماوردي حيث قال : وإذا قلنا بتحريم الأغاني والملاهي فهي من الصغائر دون الكبائر ، وإن كان في حادث سرور فهو مباح إن أمنت الفتنة وكان ما يتغنى به جائز الإنشاد ولم يغير فيه اسم معظم ولم يكن سبباً للازدراء به وهتك مروءته ولا لاجتماع الرجال والنساء على وجه محظور ، وإن كان سبباً لمحرم فهو حرام وتتفاوت مراتب حرمته حسب تفاوت حرمة ما كان هو سبباً له وإن كان للناس لا للهو بل لتنشيطهم على ذكر الله تعالى كما يفعل في بعض حلق التهليل في بلادنا فمحتمل الإباحة إن لم يتضمن مفسدة ولعله إلى الكراهة أقرب .

(77/607)

وربما يقال : إنه حينئذ قربة كالحداء وهو ما يقال خلف الإبل من زجر وغيره إذا كان منشطاً لسير هو قربة لأن وسيلة القربة قربة اتفاقاً فيقال : لم نقف على خبر في اشتمال حلق الذكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا على عهد خلفائه وأصحابه رضي الله تعالى عنهم وهم أحرص الناس على القرب على هذا الغناء ولا على سائر أنواعه وصحت أحاديث في الحداء ولذا أطلق جمع القول بندبه وكونهم نشطين بدون ذلك لا يمنع أن يكون فيهم من يزيده ذلك نشاطاً فلو كان لذلك قربة لفعلوه ولو مرة ولم ينقل أنهم

فعلوه أصلاً ، على أنه لا يبعد أن يقال : إنه يشوش على الذاكرين ولا يتم لهم معه تدبر معنى الذكر وتصوره وهو بدون ذلك لا ثواب فيه بالإجماع ، ولعل ما يفعل على المنائر مما يسمونه تمجيداً منتظم عند الجهلة في سلك وسائل القرب بل يعده أكثرهم قربة من حيث ذاته وهو لعمري عند العالم بمعزل عن ذلك ، وإن كان لحاجة مرض تعين شفاؤه به فلا شك في جوازه والاكباب على المباح منه يخرم المروءة كاتخاذه حرفة ، وقول الرافعي : لا يخرمها إذا لاق به رده الزركشي بأن الشافعي نص على رد شهادته وجرى عليه أصحابه ونها حرفة دنية ويعد فاعلها في العرف ممن لا حياء له ، وعن الحسن أن رجلاً قال له : ما تقول في الغناء ؟ قال : نعم الشيء الغناء يوصل به الرحم وينفس به عن المكروب ويفعل فيه المعروف قال : إنما أعني الشد ، قال : وما الشد أتعرف منه شيئاً ؟ قال : نعم قال : فما هو ؟ فاندفع الرجل يغني ويلوي شدقيه ومنخريه ويكسر عينيه فقال الحسن : ما كنت أرى أن عاقلاً يبلغ من نفسه ما أرى ، واختلفوا في تعاطي خارم المروءة على أوجه .

ثالثها إن تعلقت به شهادة حرم وإلا فلا .

قال بعض الأجلة : وهو الأوجه لأنه يحرم عليه التسبب في إسقاط ما تحمله وصار أمانة عنده لغيره ويظهر لي أنه إن كان ذلك من عالم يقتدي به أو كان ذلك سبباً للازدراء حرم أيضاً وإن سماعه أي استماعه لا مجرد سماعه بلا قصد عند أمن الفتنة وكون ما يتغني به جائز الإنشاد وعدم تسببه لمعصية كاستدامة مغن لغناء آثم به مباح والأكباب عليه كما قال النووي : بسقط المروءة كالأكباب على الغناء المباح ، والاختلاف في تعاطي مسقطها قد ذكرناه آنفاً وأما سماعه عند عدم أمن الفتنة وكون ما يتغنى به غير جائز الإنشاد وكونه متسبباً لمعصية فحرام ، وتتفاوت مراتب حرمته ولعلها تصل إلى حرمة كبيرة ، ومن السماع المحرم سماع متصوفة زماننا وإن خلا عن رقص فإن مفاسده أكثر من أن تحصى وكثير مما يسمعونه من الأشعار من أشنع ما يتلى ومع هذا يعتقدونه قربة ويزعمون أن أكثرهم رغبة فيه أشدهم رغبة أو رهبة قاتلهم الله تعالى أني يؤفكون .

ولا يخفى على من أحاط خبراً بما تقدم عن القشيري وغيره أن سماعهم مذموم عند من يعتقدون انتصاره لهم ويحسبون أنهم واياه من حزب واحد فويل ان شفعاؤه خصماؤه وأحباؤه أعداؤه ، وأما رقصهم عليه فقد زادوا به في الطنبورنة وضموا كسر الله تعالى شوكتهم بذلك إلى السفه جنة ، وقد أفاد بعض الأجلة أنه لا تقبل شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدف الذي قيل يباح أو يسن ضربه لعرس وختان وغيرهما من كل سرور ، ومنه قدوم عالم ينفع المسلمين راداً على من زعم القبول فقال : وعن بعضهم تقبل شهادة

الصوفية الذين يرقصون على الدف لاعتقادهم إن ذلك قربة كما تقبل شهادة حنفي شرب النبيذ لاعتقاده إباحته وكذا كل من فعل ما اعتقد إباحته اه ، ورد بأن خطأ قبيح لأن اعتقاد الحنفي نشأ عن تقليد صحيح ولا كذلك غيره وإنما منشؤه الجهل والتقصير فكان خيالاً باطلاً لا يلتفت إليه اه .

(79/607)

ثم إني أقول : لا يبعد أن يكون صاحب حال يحركه السماع ويثير منه ما يلجئه إلى الرقص أو التصفيق أو الصعق والصياح وتمزيق الثياب أو نحو ذلك مما هو مكروه أو حرام فالذي يظهر لي في ذلك أنه إن علم من نفسه صدور ما ذكر كان حكم الاستماع في حقه حكم ما يترتب عليه ، وإن تردد فيه فالأحوط في حقه إن لم نقل بالكراهة عدم الاستماع ، ففي الخبر " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ثم إن ما حصل له شيء من ذلك بمجرد السماع من غير قصد ولم يقدر على دفعه أصلاً فلا لوم ولا عتاب فيه عليه ، وحكمه في ذلك حكم من اعتراه نحو عطاس وسعال قهريين ولا يشترط في دفع اللوم والعتاب عنه كون ذلك مع غيبته فلا يجب على من صدر منه ذلك إن لم يغب إعادة الوضوء للصلاة مثلا ، ولينظر فيما لو اعتراه وهو في الصلاة بدون غيبة هل حكمه حكم نحو العطاس والسعال إذا اعتراه فيها أم لا ، والذي

سمعته عن بعض الكبار الثاني فتدبر .

ومن الناس من يعتريه شيء مما ذكر عند سماع القرآن اما مطلقاً أو إذا كان بصوت حسن ، وقلما يقع ذلك من سماع القرآن أو غيره لكامل .

(80/607)

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه قيل لها : إن قوماً إذا سمعوا القرآن صعقوا فقالت : القرآن أكرم من ان يسرق منه عقول الرجال ولكنه كما قال الله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ وكثيراً ما يكون لضعف تحمل الوارد ، وبعض المتصنعين يفعله رياء ، وعن ابن سيرين أنه سئل عمن يسمع القرآن فيصعق فقال : ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا فهو كما قالوا ، ولا يرد على إباحة الغناء وسماعه في بعض الصور خبر ابن مسعود "الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل" لا لأن الغناء فيه مقصور وأن المراد به غني المال الذي هو ضد الفقر إذ يرد ذلك أن الخبر روي من وجه آخر بزيادة والذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع ، ومقابلة الغناء بالذكر ظاهر في المراد به التغني ، على أن الرواية كما قال بعض الحفاظ بالمد بل لأن المراد أن الغناء من شأنه أن يترتب عليه النفاق

أي العملي بأن يحرك إلى غدر وخلف وعد وكذب ونحوها ولا يلزم من ذلك اطراد الترتب .

وربما يشير إلى ذلك التشبيه في قوله : كما ينبت الماء البقل فإن انبات الماء البقل غير مطرد ، ونظير ذلك في الكلام كثير ، والقائل بإباحته في بعض الصور إنما يبيحه حيث لا يترتب عليه ذلك .

نعم لا شك أن ما هذا شأنه الأحوط بعد كل قيل وقال عدم الرغبة فيه كذا قيل .

(81/607)

وقيل : يجوز أن يكون أريد بالنفاق الايماني ، ويؤيده مقابلته في بعض الروايات بالإيمان ويكون مساق الخبر للتنفير عن الغناء إذ كان الناس حديثي عهد بجاهلية كان يستعمل فيها الغناء للهو ويجتمع عليه في مجالس الشرب ، ووجه انباته للنفاق إذ ذاك أن كثيراً منهم لقرب عهده بلذة الغناء وما يكون عنده من اللهو والشرب وغيره من أنواع الفسق يتحرك قلبه لما كان عليه ويحن حنين العشار إليه ويكره لذلك الإيمان الذي صده عما هنالك ولا يستطيع لقوة شوكة الإسلام أن يظهر ما أضمر وينبذ الإيمان وراء ظهره ويتقدم إلى ما عنه تأخر فلم يسعه إلا النفاق لما اجتمع عليه مخافة الردة والاشتياق فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك ،

وأما الآية فإن كان وجه الاستدلال بها تسمية الغناء لهواً فكم لهو هو حلال وإن كان الوعيد على اشترائه واختياره فلا نسلم أن ذلك على مجرد الاشتراء لجواز أن يكون على الاشتراء ليضل عن سبيل الله تعالى ولا شك أن ذلك من الكبائر ولا نزاع لنا فيه ؛ وقال ابن عطية : الذي يترجح أن الآية نزلت في لهو الحديث مضافاً إلى الكفر فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ الخ اه .

ومما ذكرنا يعلم ما في الاستدلال بها على حرمة الملاهي كالرباب والجنك والسنطير والكمنجة والمزمار وغيرها من الآلات المطربة بناء على ما روي عن ابن عباس .

والحسن أنهما فسرا ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ بها نعم أنه يحرم استعمالها واستماعها لغير ما ذكر فقد صح من طرق خلافاً لما وهم فيه ابن حزم الضال المضل فقد علقه البخاري ووصله الإسماعيلي .

وأحمد .

وابن ماجه .

وأبو نعيم .

وأبو داود بأسانيد صحيحة لا مطعن فيها وصححه جماعة أخرون من الأئمة كما قاله بعض الحفاظ أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ليكونن في أمتي قوم يستحلون الخز والخمر

والمعازف " وهو صريح في تحريم جميع آلات اللهو المطربة ومما يشبه الصريح في ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الملاهي عن أنس .

(82/607)

وأحمد والطبراني عن ابن عباس .

وأبي أمامة مرفوعاً " ليكونن في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف " وهي الملاهي التي سمعتها ، ومنها الصنج العجمي وهو صفر يجعل عليها أوتار يضرب بها على ما ذهب إليه غيرو احد خلافاً للماوردي حيث قال : إن الصنج يكره مع الغناء ولا يكره منفرداً لأنه بانفراده غير مطرب ؛ ولعله أراد به العربي وهو قطعتان من صفر تضرب أحدهما بالأخرى فإنه بحسب الظاهر هو الذي لا يطرب منفرداً لكن يزيد الغناء طربا ، وذكر أنه يستعمله المخنثون في بعض البلاد ، ولا يبعد عليه القول بالحرمة ، ومنها اليراع وهو الشبابة فإنه مطرب بانفراده بل قال بعض أهل الموسيقى : إنه آلة كاملة جامعة لجميع النغمات إلا يسيراً ، وقد أطنب الإمام الدولقي وهو من أجلة العلماء في دلائل تحريمه ؛ ومنها القياس وهو اما أولى أو مساو وقال : العجب كل العجب ممن هو من أهل العلم بزعم أن الشبابة حلال اه ومنه يعلم ما في قول التاج السبكي في

توشيحه لم يقر عندي دليل على تحريم اليراع مع كثرة التتبع والذي أراد الحل فإن انضم إليه محرم فلكل منهما حكمه ، ثم الأولى عندي لمن ليس من أهل الذوق الأعراض عنه مطلقاً لأن غاية ما فيه حصول لذة نفسانية وهي ليست من المطالب الشرعية وأما أهل الذوف فحالهم مسلم إليهم وهم على حسب ما يجدونه من أنفسهم اه .

وحكى عن العز بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد انهما كانا يسمعان ذلك والظاهر أنه كذب لا أصل له وبذلك جزم بعض الأجلة ، ولا يبعد حلها إذا صفر فيها كالأطفال والرعاء على غير القانون المعروف من الأطراب .

(83/607)

ومنها العود وهو آلة للهو غير الطنبور وإطلاقه بعضهم عليه وحكاية النجس ابن طاهر عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي أنه كان يسمع العود من جملة كذبه وتهوره كدعواه إجماع الصحابة والتابعين على إباحة الغناء واللهو ، ومثله في المجازفة وارتكاب الأباطيل على الجزم ابن حزم لا الدف فيجوز ضربه من رجل وامرأة لا من امرأة فقط خلافاً للحليمي واستماعه لعرس ونكاح وكذا غيرهما من كل سرور في الأصح وبحل ذي الجلاجل منه وهي إما نحو حلق يجعل داخله كدف العرب أو صنوج عراض من صفر تجعل في حروف

دائرته كدف العجم جزم جماعة وجرم آخرون بحرمته وبها أقول لأنه كما قال الأذرعي أشد اطراباً من أكثر الملاهي المتفق على تحريمها ، وبعض المتصوفة ألفوا رسائل في حل الأوتار والمزامير وغيرها من آلات اللهو وأتوا فيها بكذب عجيب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه رضي الله تعالى عنهم والتابعين والعلماء العاملين وقلدهم في ذلك من لعب به الشيطان وهوى به الهوى إلى هوة الحرمان فهو عن الحق بمعزل وبينه وبين حقيقة التصوف ألف ألف منزل ، وإذا تحقق لديك قول بعض الكبار بحل شيء من ذلك فلا تغتر به لأنه مخالف لما عليه أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم من الأكابر المؤيد بالأدلة القوية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ما عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن رزق عقلاً مستقيماً وقلباً من الأهواء الفاسدة سليماً لا يشك في أن ذلك ليس من الدين وأنه بعيد بمراحل عن مقاصد شريعة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ؛ واستدل بعض أهل الإباحة على حل الشبابة بما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن نافع عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع صوت زمارة راع فجعل إصبعيه في أذنيه وعدل عن الطريق وجعل يقول : يا نافع أتسمع فأقول : نعم فلما قلت : لا رجع إلى الطريق ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يفعله ، وأخرجه ابن أبي الدنيا .

والبيهقي عن نافع أيضاً ، وسئل عنه الحافظ محمد بن نصر السلامي فقال : إنه حديث صحيح ، ووجه الاستدلال به أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر ابن عمر وكان عمره إذ ذاك كما قال الحافظ المذكور سبع عشرة سنة بسد أذنيه ولا نهي الفاعل فلو كان ذلك حراماً لأمر ونهى عليه الصلاة والسلام ، وسد أذنيه صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون لكونه عليه الصلاة والسلام إذ ذاك في حال ذكر أو فكر وكان السماع يشغله عليه الصلاة والسلام والتحية ويحتمل أن يكون إنما فعله صلى الله عليه وسلم تنزيها ؛ وقال الأذرعي : بهذا الحديث استدل أصحابنا على تحريم المزامير وعليه بنوا التحريم في الشبابة اه .

(85/607)

والحق عندي أنه ليس نصاً في حرمتها لأن سد الأذنين عند السماع من باب فعله صلى الله عليه وسلم وليس مما وضح فيه أمر الجبلة ولا ثبت تخصيصه به عليه الصلاة والسلام ولا مما وضح أنه بيان لنص علم جهته من الوجوب والندب والإباحة فإن كان مما علمت صفته فلا يخلو من أن تكون الوجوب أو الندب أو الإباحة لا جائز أن تكون الوجوب المستلزم لحرمة

سماع اليراع إذ لا قائل بأنه يجب على أحد سد الاذنين عند سماع محرم إذ يأمن الاثم بعد القصد فقد قالوا : إن الحرام الاستماع لا مجرد السماع بلا قصد ، وفي الزواجر الممنوع هو الاستماع لا السماع لا عن قصد اتفاقاً ، ومن ثم صرح أصحابنا يعني الشافعية أن من بجواره آلات محرمة ولا يمكنه إزالتها لا يلزمه النقلة ولا يأثم بسماعها لا عن قصد واصغاء اه ، والظاهر أن الأمر كذلك عند سائر الأئمة ، نعم لهم تفصيل في القعود في مكان فيه نحو ذلك ، قالفي تنوير الأبصار وشرحه الدر المختار : دعى إلى وليمة وثمة لعب وغناء قعد وأكل ولو على المائدة لا ينبغي أن يقعد بل يخرج معرضاً لقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأنعام : 68] فإن قدر على المنع فعل وإلا يقدر صبر ان لم يكن ممن يقتدي به فإن كان مقتدى به ولم يقدر على المنع خرج ولا يقعد لأن فيه شين الدين ، والمحكى عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه كان قبل أن يصير مقتدى به ، وإن علم أولاً لا يحضر أصلاً سواء كان ممن يقتدي به أولاً اه فتعين كونها الندب أو الإباحة وكلا الأمرين لا يستلزمان الحرمة فيحتمل أن يكون ذلك حراماً أو مكروها يندب سداً لاذنين عند سماعه احتياطاً من أن يدعو إلى الاستماع المحرم أو المكروه ، وإن كان مما لم تعلم صفته فقد قالوا فيما كان كذلك : المذاهب فيه بالنسبة إلى الأمة خمسة الوجوب والندب والإباحة والوقف والتفصيل وهو أنه إن ظهر قصد القربة فالندب وإلا فالإباحة ويعلم مما ذكرنا الحال على كل

مذهب والذي يغلب على الظن أن ما أشار إليه الخبر ان كان الزمر بزمارة الزاعي على وجه التأنق وإجراء النغمات التي تحرك الشهوات كما يفعله من جعل ذلك صنعته اليوم فاستماعه حرام وسد الاذنين المشار إليه فيه لعله كان منه عليه الصلاة والسلام تعليماً للأمة أحد طرق الاحتياط المعلوم حاله لئلا يجرهم ذلك إلى الاستماع وإلا فالاستماع لمكان العصمة مما لا يتصور في حقه صلى الله عليه وسلم ، ومن عرف قدر الصحابة واطلع على سبيلهم وحرصهم على التأسي به عليه الصلاة والسلام لم يشك في أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه سد أذنيه أيضاً تأسياً ويكون حينئذ قوله عليه الصلاة والسلام الذي يشير إليه الخبر له رضي الله تعالى عنه أتسمع على معنى تسمع أتسمع وإنما أسقط تسمع لدلالة الحال عليه إذ من سد أذنيه لا يسمع ، وإنما أذن له صلى الله عليه وسلم بذلك لموضع الحاجة وهذا أقرب من احتمال كون سد الأذنين منه صلى الله عليه وسلم لأنه كان في حال ذكر أو فكر وكان يشغله صلى الله عليه وسلم عند السماع .

وأما عدم نهيه عليه الصلاة والسلام من كان يزمر عن الزمر والإنكار عليه فلا يسلم دلالته على الجواز فإنه يجوز أن يكون الصوت جاء بعيد وبين الزامر وبينه عليه الصلاة والسلام ما يمنع من الوصول إليه أو لم يعرف عينه صلى الله عليه وسلم لأن الصوت قد جاء من وراء حجاب ولا تتحقق القدرة معه على الإنكار ، ويجوز أيضاً أن يكون التحريم معلوماً من قبل وعلم من النبي صلى الله عليه وسلم الإصرار عليه وأن يكون قد علم إصرار ذلك الفاعل على فعله فيكون ذلك كاختلاف أهل الذمة إلى كنائسهم ، وفي مثل ذلك لا يدل السكوت وعدم الإنكار على الجواز إجماعاً ، ومن قال بأن الكافر غير مكلف بالفروع قال : يجوز أن يكون ذلك الزامر كافراً وأن السكوت في حقه ليس دليل الجواز وان كان الزمر بها لا على وجه التأنق وإجراء النغمات التي تحرك الشهوات فلا بعد في أن يقال بالجواز والإباحة فعلا واستماعاً ، وسد الأذنين عليه لغاية التنزع اللائق به عليه الصلاة والسلام ، وقول الأذرعي في الجواب أن قوله في الخبر زمارة راع لا يعين إنها الشبابة فإن الرعاة يضربون بالشعيبية وغيرها يوهم أن ما يسمى شعيبية مباح مفروغ منه وفيه نظر فإنها عبارة عن عدة قصبات صغار ولها اطراب بحسب حذق متعاطيها فهي شبابة أو مزمار لا محالة ، وفي إباحة ذلك كلام ، وبعد هذا كله نقول : إن الخبر المذكور رواه أبو داود وقال : إنه منكر وعليه لا حجة فيه للطرفين وكفى الله تعالى المؤمنين القتال ، ثم إنك إذا ابتليت بشيء من ذلك فإياك ثم إياك أن تعتقد أن فعله أو استماعه قربة كما يعتقد ذلك من لا خلاق له من المتصوفة فلو كان

الأمر كما زعموا لما أهمل الأنبياء أن يفعلوه ويأمروا اتباعهم به ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا أشار إليه كتاب من الكتب المنزلة من السماء ، وقد قال الله تعالى :

(88/607)

﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] ولو كان استعمال الملاهي المطربات أو استماعها من الدين ومما يقرب إلى حضرة رب العالمين لنبيه صلى الله عليه وسلم وأوضحه كمال الإيضاح لأمته ، وقد قال عليه الصلاة والسلام "والذي نفسي بيده ما تركت شيئاً يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا أمرتكم به وما تركت شيئاً يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة إلا نهيتكم عنه" وما ذكر داخل في الشق الثاني كما لا يخفى على من له قلب سليم وعقل مستقيم فتأمل وأنصف وإياك من الاعتراض قبل أن تراجه تعرف ، ولنا عودة إن شاء الله تعالى للكلام في هذا المطلب يشر الله تعالى ذلك لنا بحرمة حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم .

واستدل بعضهم بالآية على القول بأن لهو الحديث الكتب التي اشتراها النضر بن الحرث على حرمة مطالعة كتب تواريخ الفرس القديمة وسماع ما فيها وقراءته ، وفيه بحث ، ولا

يخفى أن فيها من الكذب ما فيها فالاشتغال بها لغير غرض ديني خوض في الباطل ، وعده ابن نجيم في رسالته في بيان المعاصي من الصغائر ومثل له بذكر تنعم الملوك والأغنياء فافهم هذا ، ومن الغريب البعيد وفيه جعل الاشتراء بمعنى البيع ما ذهب إليه صاحب التحرير قال : يظهر لي أنه أراد سبحانه بلهو الحديث ما كانوا يظهرونه من الأحاديث في تقوية دينهم والأمر بالدوام عليه وتغيير صفة الرسول عليه الصلاة والسلام وأن التوراة تدل على أنه من ولد اسحق عليه السلام يقصدون صد أتباعهم عن الإيمان وأطلق اسم الاشتراء لكونهم يأخذون على ذلك الرشا و الجعائل من ملوكهم ، وقال : يؤيده قوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ وهو كما ترى ، والمراد بسبيله تعالى دينه عز وجل أو قراءة كتابه سبحانه أو ما يعمهما ، واللام في ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ للتعليل .

وقرأ ابن كثير .

(89/607)

وأبو عمرو ﴿ لِيَضِلَّ ﴾ بفتح الياء ، والمراد ليثبت على ضلاله ويزيد فيه فإن المخبر عنه ضال قبل : واللام للعاقبة وكونها على أصلها كما قيل بعيد ، وجوز الزمخشري أن يكون قد وضع ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ على هذه القراءة موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة

فدل بالرديف وهو الضلال على المردوف وهو الاضلال ، ووجه الدلالة أنه أريد بالضلال الضلال المضاعف في شأن من جانب سبيل الله تعالى وتركه رأساً وهذا الضلال لا ينفك عن الإضلال وبالعكس ، وبه يندفع نظر صاحب الفرائد بأن الضلال لا يلزمه الاضلال ، وفيه توافق القراءتين وبقاء اللام على حقيقتها ، وهي على الوجهين متعلقة بقوله سبحانه : ﴿ يشتري ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً به أيضاً أي يشتري ذلك بغير علم بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ، ويجوز أن يكون متعلقاً بيضل أي ليضل عن سبيله تعالى جاهلاً أنها سبيله عز وجل أو جاهلاً أنه يضل أو جاهلاً الحق ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ يُضِلَّ ﴾ والضمير للسبيل فإنه ما يذكر ويؤنث ، وجوز أن يكون للآيات ، وقيل : يجوز أن يكون للأحاديث لأن الحديث اسم جنس بمعنى الأحاديث وهو كما ترى ﴿ هُزُواً ﴾ أي مهزواً به .

وقرأ جمع من السبعة ﴿ يتخذها ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ مَن يَشْتَرِى ﴾ وجوز أن يكون على إضمار هو ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لما اتصفوا به من اهانتهم الحق بايثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه والجزاء من جنس العمل ، و ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى ﴿ مِنْ ﴾ وما فيه من معنى البعد للإشارة إلى بعد المنزلة في الشرارة ، والجمع في اسم الإشارة والضمير باعتبار معناها كما أن الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها ، وكذا في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ ﴾ ففي الآية مراعاة اللفظ ثم مراعاة المعنى ثم مراعاة اللفظ ونظيرها في ذلك قوله تعالى في سورة الطلاق (11) ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله ﴾ الآية ، قال أبو حيان : ولا نعلم جاء في القرآن ما حمل على اللفظ ثم على المعنى ثم على اللفظ غير هاتين الآيتين ، وقال الخفاجي : ليس كذلك فإن لها نظائر أي وإذا تتلى على المشتري المذكور ﴿ ءاياتنا ﴾ الجليلة الشأن ﴿ وَلِىَّ ﴾ أعرض عنها غير معتد بها ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ مبالغاً في التكبر فالاستفعال بمعنى التفعل ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ حال من ضمير ﴿ وَلِىَّ ﴾ أو من ضمير ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ أي مشابهاً حاله في اعراضه تكبراً أو في تكبره حال من لم يسمعها وهو سامع ، وفيه رمز إلى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول الخنساء :

أيا شجر الخابور مالك مورقا . . .

كأنك لم تجزع على ابن طريف

و ﴿ كَانَ ﴾ المخففة ملغاة لا حاجة إلى تقدير ضمير شأن فيها وبعضهم يقدره ﴿ كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ أي صمما مانعاً من السماع ، وأصل معنى الوقر الحمل الثقيل استعير

للصمم ثم غلب حتى صار حقيقة فيه ، والجملة حال من ضمير لم يسمعها أو هي بدل منها بدل كل من كل أو بيان لها ويجوز أن تكون حالاً من أحد السابقين ، ويجوز أن تكون كلتا الجملتين مستأنفتين والمراد من الجملة الثانية الترقي في الذم وتثقيل ﴿ كَأَنَّ ﴾ في الثانية كأنه لمناسبته للثقل في معناه ، وقرأ نافع ﴿ فِى أُذُنَيْهِ ﴾ بسكون الذال تخفيفاً ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي أعلمه أن العذاب المفرط في الإيلام لاحق به لا محالة ، وذكر البشارة للتهكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(91/607)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

عطف على جملة ﴿ تلك ءايات الكتاب الحكيم ﴾ [لقمان : 2] .

والمعنى : أن حال الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين ، وأن من الناس معرضين عنه يؤثرون لهو الحديث ليضلّوا عن سبيل الله الذي يهدي إليه الكتاب .

وهذا من مقابلة الثناء على آيات الكتاب الحكيم بضد ذلك في ذم ما يأتي به بعض الناس ، وهذا تخلّص من المقدمة إلى مَدخل للمقصود وهو تفظيع ما يدعو إليه النضر بن الحارث

ومشايعوه من اللهو بأخبار الملوك التي لا تكسب صاحبها كمالاً ولا حكمة .

وتقديم المُسند في قوله ﴿ من الناس ﴾ للتشويق إلى تلقي خبره العجيب .

والاشتراء كناية عن العناية بالشيء والاغتباط به وليس هنا استعارة بخلاف قوله ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ في سورة البقرة (16) ؛ فالاشتراء هنا مستعمل في صريحه وكنايته : فالصريح تشويه لاقتناء النضر بن الحارث قِصص رستم وإسفنديار وبهرام ، والكناية تقبيح للذين التّفوا حوله وتلقّوا أخباره ، أي من الناس من يشغله لهو الحديث والولع به عن الاهتداء بآيات الكتاب الحكيم .

واللهو : ما يُقصد منه تشغيل البال وتقصير طول وقت البطالة دون نفع ، لأنه إذا كانت في ذلك منفعة لم يكن المقصود منه اللهو بل تلك المنفعة .

ولهو الحديث ﴿ ما كان من الحديث مراداً للهو فإضافة ﴿ لهو ﴾ إلى ﴿ الحديث ﴾ على معنى ﴿ مِن ﴾ التبعيضية على رأي بعض النحاة ، وبعضهم لا يثبت الإضافة على معنى ﴿ من ﴾ التبعيضية فيردها إلى معنى اللام .

وتقدم اللهو في قوله ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ في سورة الأنعام (32) .

والأصح في المراد بقوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ أنه النضر بن الحارث فإنه كان يسافر في تجارة إلى بلاد فارس فيتلقى أكاذيب الأخبار عن أبطالهم في الحروب المملوءة أكذوبات فيقصّها على قريش في أسمارهم ويقول : إن كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وإسفنديار وبهرام .

ومن المفرسين من قال : إن النضر كان يشتري من بلاد فارس كُتب أخبار ملوكهم فيحدث بها قريشاً ، أي بواسطة من يترجمها لهم .

ويشمل لفظ ﴿ النَّاس ﴾ أهل سامره الذين ينصتون لما يقصه عليهم كما يقتضيه قوله تعالى إثره ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

وقيل المراد بـ ﴿ من يشتري لهو الحديث ﴾ من يقتني القينات المغنيات .

روى الترمذي عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمان عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا خير في تجارةٍ فيهن وثمنُهن حرام " في مثل ذلك أُنزلت هذه الآية ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ إلى آخر الآية .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة وعلي بن يزيد يضعف في الحديث سمعت محمداً يعني البخاري يقول علي بن يزيد يضعف أ هـ .

وقال ابن العربي في "العارضة" : في سبب نزولها قولان : أحدهما أنها نزلت في النضر بن

الحارث .

الثاني أنها نزلت في رجل من قريش قيل هو ابن خطل اشترى جارية مغنية فشغل الناس بها عن استماع النبي صلى الله عليه وسلم أ هـ .

وألفاظ الآية أنسب انطباقاً على قصة النضر بن الحارث .

ومعنى ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أنه يفعل ذلك ليلهي قريشاً عن سماع القرآن فإن القرآن سبيل موصل إلى الله تعالى ، أي إلى الدين الذي أراده ، فلم يكن قصده مجرد اللهو بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله ، وهذا زيادة في تفظيع عمله .

وقرأ الجمهور ﴿ ليُضل ﴾ بضم الياء .

(93/607)

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، أي ليزداد ضلالاً على ضلاله إذ لم يكتف لنفسه بالكفر حتى أخذ يبث ضلاله للناس ، وبذلك يكون مآل القراءتين متحدّ المعنى .

ويتعلق ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ بفعل ﴿ يشتري ﴾ ويتعلق به أيضاً قوله ﴿ بغير علم ﴾ لأن أصل تعلق المجرورات أن يرجع إلى المتعلَّق المبني عليه الكلام ، فالمعنى : يشتري لهو الحديث بغير علم ، أي عن غير بصيرة في صالح نفسه حيث يستبدل الباطل بالحق .

والضمير المنصوب في ﴿ يتخذها ﴾ عائد إلى ﴿ سبيل الله ، ﴾ فإن السبيل تؤنث .

وقرأ الجمهور ﴿ ويتخذُها ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ يشتري ، ﴾ أي يشْغل الناس بلهو الحديث ليصرفهم عن القرآن ويتخذ سبيل الله هزؤاً .

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بالنصب عطفاً على ﴿ ليضل ، ﴾ أي يلهيهم بلهو الحديث ليضلهم وليتخذ دين الإسلام هزءاً .

ومآل المعنى متّحد في القراءتين لأن كلا الأمرين من فعله ومن غرضه .

وأما الإضلال فقد رُجح فيه جانب التعليل لأنه العلة الباعثة له على ما يفعل .

والهزؤ : مصدر هَزأ به إذا سخر به كقوله ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزؤاً ﴾ [البقرة : 231] ولما كان ﴿ من يشتري لهو الحديث ﴾ صادقاً على النضر بن الحارث والذين يستمعون إلى قصصه من المشركين جيء في وعيدهم بصيغة الجمع ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

واختير اسم الإشارة للتنبيه على أن ما يرد بعد اسم الإشارة من الخبر إنما استحقه لأجل ما سبق اسمَ الإشارة من الوصف .

وجملة أولئك لهم عذاب مهين ﴾ معترضة بين الجملتين جملة ﴿ من يشتري ﴾ وجملة ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ﴾ فهذا عطف على جملة ﴿ يشتري ﴾ الخ .

والتقدير : ومن الناس من يشتري الخ و ﴿ إذا تتلى عليه ءاياتنا ولى مستكبراً ﴾ ؛

فالموصول واحد وله صلتان : اشتراء لهو الحديث للضلال ، والاستكبار عندما تتلى عليه آيات القرآن .

ودل قوله ﴿ تتلى عليه ﴾ أنه يواجه بتبليغ القرآن وإسماعه .

(94/607)

وقوله ﴿ ولى ﴾ تمثيل للإعراض عن آيات الله كقوله تعالى ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ [النازعات : 22] و ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ حال ، أي هو إعراض استكبار لا إعراض تفريط في الخير فحسب .

وشُبه في ذلك بالذي لا يسمع الآيات التي تتلى عليه ، ووجه الشبه هو عدم التأثر ولو تأثراً يعقبه إعراضٌ كتأثر الوليد بن المغيرة .

و ﴿ كأنْ ﴾ مخففة من (كأنَّ) وهي في موضع الحال من ضمير ﴿ مستكبراً .

﴾ وكرر التشبيه لتقويته مع اختلاف الكيفية في أن عدم السمع مرة مع تمكن آلة السمع ومرة مع انعدام قوة آلته فشبه ثانياً بمن في أذنيه وقر وهو أخص من معنى ﴿ كأن لم يسمعها .

﴾ ومثل هذا التشبيه الثاني قول لبيد :

فتنازعا سَبِطاً يَطير ظلاله . . .

كدخان مُشْعَلَةٍ يشِبّ ضِرامها

مشموله غُلِثتْ بنابت عَرْفَج . . .

كدُخان نارٍ سَاطِع أسنامُها

والوقر : أصله الثقل ، وشاع في الصمم مجازاً مشهوراً ساوى الحقيقة ، وقد تقدم في قوله ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ في سورة الأنعام (25) .

وقرأ نافع في أذْنيه ﴾ بسكون الذال للتخفيف لأجل ثقل المثنى ، وقرأه الباقون بضم الذال على الأصل .

وقد ترتب على هذه الأعمال التي وصف بها أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُوعِده بعذاب أليم .

وإطلاق البشارة هنا استعارة تهكمية ، كقول عمرو بن كلثوم:

فعجَّلْنا القِرى أنْ تشتمونا . . .

وقد عذب النضر بالسيف إذ قتل صبراً يوم بدر ، فذلك عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة أشد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(95/607)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الكتاب وآياته ، وأن فيه هدى ورحمة لمن اتبعه وفلاحاً لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعاً آخر من الناس ينتفعون بالضلال ويستفيدون منه ، وإلا ما راجتْ سوقه ، ولما انتشر بين الناس أشكالاً وألواناً .

لذلك نرى للضلال فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر

لتظل مكاسبهم ، ولتظل لهم سيادتهم على الخَلْق وعبوديتهم لهم واستنزاف خيراتهم .

وطبيعي إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف في وجهه إلا هؤلاء يحاربونه ويحاربون أهله ويتهمونهم ويُشككون في نواياهم ، بل ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء مرة وبالتعدي مرة أخرى .

وربما قطعوا عليهم سبل الحياة ، كما عزلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شِعْب أبي طالب ، ثم يُكرهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهم إلى الحبشة مرة ، وإلى المدينة مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن حياتهم تقوم على هذا الضلال فلا بُدَّ أنْ يحافظوا عليه

.

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون في وجه الدعوة إلى الإيمان يعرفون تماماً أنهم لو تركوا الناس يسمعون منهج الله وداعي الخير لا بُدَّ أنْ يميلوا إليه ؛ لذلك

يَحُولُون بين آذان الناس ومنطق الحق ، فهم الذين قالوا للناس : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ . . . ﴾ [فصلت : 26]

وما ذلك إلا أنهم واثقون من لغة القرآن وجمال أسلوبه ، واستمالته للقلوب بحلو بيانه ، فلو سمعتْه الأذن العربية لا بُدَّ وأنْ تتأثر به ، وتقف على وجوه إعجازه ، وتنتهي إلى الإيمان . فإذا ما أفلتَ منهم أحد ، وانصرف إلى سماع الحق أتوْهُ بصوارف أخرى وأصوات تصرفه عن الحق إلى الباطل .

(96/607)

وقوله ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ [لقمان : 6] من هنا للتبعيض أي : الناس المستفيدون من الضلال ، والذين يسؤوهم أنْ يأتم الناس جميعاً بمنطق واحد ، وهدف واحد ؛ وهدى واحد لأن هذه الوحدة تقضي على تميزهم وجبروتهم وظلمهم في الأرض ؛ لذلك يبذلون قصارى جهدهم في الضلال ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله . . ﴾ [لقمان : 6]

قوله تعالى : ﴿ يَشْتَرِي ﴾ [لقمان : 6] من الشراء الذي يقابله البيع ، والشراء أنْ تدفع ثمناً وتأخذ في مقابله مُثمناً ، وهذا بعدما وُجِد النقد ، لكن قبل وجود النقد كان الناس

يتعاملون بالمقايضة والتبادل سلعة بسلعة ، وفي هذه الحالة فكل سلعة مباعة وكل سلعة مشتراة ، وكل منهما بائع ومُشْتر .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ﴾ [يوسف : 20] .

والمعنى : شروه أي : باعوه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابتغآء مَرْضَاتِ الله . . . ﴾ [البقرة : 207] .

أي : يبيعها ، إذن : الفعل (شَرَى) يأتي بمعنى البيع ، وبمعنى الشراء .

أما إذا جاء الفعل بصيغة (اشترى) فإنه يدل على الشراء الذي يُدفع له ثمن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً . . . ﴾ [آل عمران : 199]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [التوبة : 111]

وعادة تدخل الباء على المتروك تقول : اشتريتُ كذا بكذا

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث . . . ﴾ [لقمان : 6]

نجد أن هذه عملية تحتاج إلى طلب للشيء المشترَى ، ثم إلى ثمن يُدفع فيه ، وليت الشراء لشيء مفيد إنما ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ [لقمان : 6] وهذه سلعة خسيسة .

إذن : هؤلاء الذين يريدون أنْ يصدوا عن سبيل الله تحملوا مشقة الطلب ، وتحملوا غُرْم الثمن ، ثم وُصِفوا بالخيبة لأنهم رَضوا بسلعة خسيسة ، والأدهى من ذلك والأمرّ منَه أن يضعوا هذا في مقابل الحق الذي جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مشقة وبلا ثمن ، جاءهم فضلاً من عند الله وتكرماً : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23]

فأيُّ حمق هذا الذي يوصفون به ؟

وكلمة اللهو : ذكر القرآن اللهو وذكر اللعب في عدة آيات ، قدَّمت اللعب على اللهو في قوله تعالى : ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : 32]

وفي قوله تعالى : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الحديد : 20]

وقدمت اللهو في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [العنكبوت : 64]

فقدمت الآيات اللعب في آيتين ؛ لأن اللعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة ، كما يلعب الأطفال ، يعني : حركة لا هدفَ لها ، ونقول عنها (لعب عيال) وسُمِّيت لعباً ؛ لأن الطفل يلعب قبل أنْ يُكلِّف بشيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف ، فإن اللعب يشغله عن شيء طُلب منه ، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ [الجمعة : 11]

إذن : فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحة فيه ، ويشغلك عن مطلوب منك .

(98/607)

فآية سورة العنكبوت التي قدمت اللهو على اللعب تعني أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب ، فهذه أبلغ في المعنى من تقديم اللعب ؛ لأن اللعب لم يُلهه عن شيء .

لكن ، ما اللهو الذي اشتروه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن دعوة الإسلام ؟ إنهم لما سمعوا القرآن فيه قصصاً عن عاد وثمود ، وعن مدين وفرعون . . الخ ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناس بمثل هذه القصص .

وقد ذهب واحد منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حِمْيَر ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجلساً يجتمع الناس فيه ليقصّها عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول الله .

وآخر يقول : بل جاء أحدهم بمغنية تغنيهم أغاني ماجنة متكسرة .

ومعنى : ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ [لقمان : 6] قال العلماء : هو كل ما يُلهي عن مطلوب لله ، وإنْ لم يكُنْ في ذاته في غير مطلوب الله لَهْواً ، وعليه فالعمل الذي يُلهي صاحبه من صناعة أو زراعة . . الخ يُعَدُّ من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومن التصرفات ما يُعَدُّ لهواً ، وإنْ لم يشغلك عن شيء كالغناء ، وللعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلات الطرب والحركات الخليعة الماجنة ، ولفقهائنا القدامى رأيهم في هذا الموضوع ، لكن العلماء المحدثين والذين يريدون أنْ يُجيزوا هذه المسألة يأخذون من كلام القدماء زاوية ويُطبِّقونها على غير كلامهم .

نعم ، أباح علماؤنا الأُنْس بالغناء في الأفراح وفي الأعياد اعتماداً على " قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق الذي رأى جاريتين تغنيان في بيت رسول الله فنهرهما ، وقال : أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : " دعهما ، فإننا في يوم عيد " " .

وكذلك أباحوا الأناشيد التي تقال لتلهب حماس الجنود في الحرب ، أو التي ينشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل ، أو المرأة التي تهدهد ولدها لينام .

ومن ذلك حداء الإبل لتسرع في سيرها ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأنجشة : " رفقاً بالقوارير " فشبَّه النساء في لُطفهن ورقّتهن بالقوارير ، فإذا ما أسرعتْ بهن الإبل هُزَّت بهن الهوادج ، وهذا يشقُّ على النساء .

إذن : لا مانع من كل نصٍّ له غرض نبيل ، أما إنْ أهاج الغرائز فهو حرام – والكلام هنا عن مجرد النص – لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة الغرائز في البشر ؛ لذلك نسميها غريزة ؛ لأن لها عملاً وتفاعلاً في نفسك بدون أيِّ مؤثرات خارجية ، ولها طاقة لا بُدَّ أنْ تتحرك ، فإنْ أثرْتَها أنت ثارتْ ونزعتْ إلى ما لا تُحمدَ عُقْباه .

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشعور ثلاث : يدرك بحواسه ، ثم وجدان يتكوَّن في النفس نتيجة للإدراك ، ثم النزوع والعمل الذي يترجم هذا الوجدان .

ومن رحمة الله بنا أن الشرع لا يتدخل في هذه المسألة إلا في مرحلة النزوع ، فيقول لك : قِفْ لا تمدّ يدك إلى ما ليس لك : ومثَّلنا لهذه المسألة بالوردة تراها في البستان ، ويُعجبك منظرها ، وتجذبك رائحتها فتعشقها وهذا لك ، فإن مددْتَ يدك لتقطفها يقول لك الشارع قِفْ ليس من حقك .

إذن : فالشارع الحكيم لا يتدخَّل في مرحلة الإدراك ، ولا في المواجيد إلا في مسألة واحدة لا يمكن الفصل فيها بين الإدراك والوجدان والنزوع ، لأنها جميعها شيء واحد ، إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التي لا تحل له ، لماذا هذه المسألة بالذات ؟

(100/607)

قالوا : لأنها لا تقف عند حَدِّ الإعجاب بالمنظر ، إنما يُرثك هذا الإعجاب انفعالاً خاصاً في نفسك ، ويُورثك تشكلاً خاصاً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع ، فرحمة بك يا عبدي أنا سأتدخل في هذا الأمر بالذات من أوله ، وأمنعك من مجرد الإدراك ، لأنك إنْ أدركتَ وجدتَ ، وإنْ وجدتَ نزعتَ إلى ما تجد فأثمت في أعراض الناس أو كبت في نفسك ، فأضررتَ بها ، وربك يريد أنْ يُبرئك من الإثم ومن الإضرار بالنفس ، فالأسلم لكم أنْ تغضُّوا أبصاركم .

إذن : لا تقُل الغناء لكن قُلْ النص نفسه : إنْ حثَّ على فضيلة فهو حلال ، وإنْ أهاج الغرائز فهو حرام وباطل ، كالذي يُشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها ، فهذا حرام حتى في غير الغناء ، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمته وتضاعف إثمه .

أما ما نراه الآن وما نسمعه مما يُسمُّونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات

وخلاعات وموسيقى صاخبة ، فلا شكّ في حرمته .

فكل ما يُخرج الإنسان عن وقاره ورزانته وكل ما يجرح المشاعر المهذبة فهو حرام ، ثم إن الغناء صوت فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيّج ، تستعمل فيه الأيدي والأرجل والعينان والوسط . . الخ فهذا كله باطل ومحرم .

ولا ينبغي للمؤمن الذي يملك زمام نفسه أن يقول : إنهم يفرضون ذلك علينا ، فالمؤمن له بصيرة يهتدي بها ، ويُميز بين الغثّ والسمين ، والحق والباطل ، فكُنْ أنت حكماً على ما ترى وما تسمع ، بل ما يرى وما يسمع أهلك وأولادك ، وبيدك أنت الزمام إنْ شئتَ سمعتَ ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز ، فلا حجة لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يجبرك على سماع أو رؤية ما تكره .

(101/607)

ففي رمضان مثلاً ، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ، ونقوم ليله ، وينبغي أن نكرمه ، ونحتفظ فيه بالوقار والروحانية ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو الذي يتنافى والصيام ، فإنْ سألتهم قالوا : الناس مختلفو الأمزجة ، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم ، لكن للمؤمن ولاية على نفسه وهو يملك زمامها ، فلا داعي أن تتهم أحداً ما دام الأمر في يدك ، وعليك أن

تنفذ الولاية التي ولاك الله ، فإنْ فعلتَ ففي يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسة الباقية .

ثم إن ما يحلّ من الغناء مشروط بوقت لا يكون سمة عامة ولا عادة مُلِحّة على الإنسان يجعلها ديدنه ؛ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " روِّحوا القَلوب ساعة بعد ساعة " .

وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين يُدخِلون في الغناء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يَثيرون الغرائز ، ويستعدون على الشباب غير القادر على الزواج ، ويلبهون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة .

. الخ

إذن : القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى ، فكل ما يثير الغرائز ، ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام ، سواء أكان نصاً بلا لحن ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداء مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء .

لكن ، لماذا يكلفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث ؟

العلة كما قال الحق سبحانه : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [لقمان : 6] وفرْق بين مَنْ يشتري اللهو لنفسه يتسلى به ، ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يَضِلَّ ويُضل غيره ؛ لذلك فعليه تبعة الضَّلالَيْن : ضلالة في نفسه ، وإضلاله لغيره .

وقوله : ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ [لقمان : 6] لا يقتصر على الغناء والكلام ، إنما يشمل الفعل أيضاً ، وربما كان الفعل أغلب .

(102/607)

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [لقمان : 6] يدل على عدم معرفتهم حتى بأصول التجارة في البيع والشراء ، فالتاجر الحق هو الذي يشتري السلعة ، بحيث يكون نفعها أكثر من ثمنها ، أما هؤلاء فيشترون الضلال ؛ لذلك يقول الحق عنهم : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ ﴾ [البقرة : 16]

والسبيل : هو الطريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق ، وهو الصراط المستقيم الذي قال الله تعالى عنه ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] لذلك نقول في علم الهندسة : المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين .

وقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ [لقمان : 6] أي : السبيل ؛ لأن السبيل تُذكَّر وتؤنث ، تُذكَّر باعتبار الطريق ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [الأعراف : 146]

وتُؤنَّث على اعتبار الشِّرْعة ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ

﴾ [يوسف : 108]

هؤلاء الذين يشترون الضلال لإضلال الناس لا يكتفون بذلك ، إنما يسخرون من أهل الصلاح ، ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والنهج القويم ، ويُسفِّهون رأيهم وأفعالهم . ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا كله : ﴿ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان : 6] أولئك : أي الذين سبق الحديث عنهم ، وهم أهل الضلال ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان : 6] ووصْف العذاب هنا بالمهانة دليل على أن من العذاب ما ليس مُهيناً ، بل ربما كان تكريماً لمن وقع عليه كالرجل الذي يضرب ولده ليُعلِّمه ويُربِّيه ، فهو يضربه لا ليعذبه ويؤلمه ويهينه ، إنما لكي لا يعود إلى الخطأ مرة أخرى . على حَدّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيزْدجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً . . . فَلْيقسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَم

إذن : فمن العذاب ما هو تذكير وتطهير أو ترضية وتكريم لمستقبل ، وإنما سُمِّي عذاباً تجاوزاً ، فهو في هذه الحالة لا يُعَدُّ عذاباً .

(103/607)

وفي هذا المعنى قال الزمخشري رضي الله عنه : الملك يكون عنده الخادم ، فيفعل ما لا يُرضي سيده ، فيأمر صاحب الشرطة أنْ يأخذه ويعذبه جزاء ما فعل ، فيأخذه الشرطي

ويُعذَّبه بقدر لا يتعداه ، لأنه يعلم أنه سيعود مرة أخرى إلى خدمة السيد ، فالعذاب في هذه الحالة يكون بقدر ما فعل الخادم ليس مهنياً له . لكن إنْ قال له : خُذْ هذا الخادم واقْصِه عن الخدمة أو افصله ، يعني : ليست له عودة فلا شكَّ أن العذاب سيكون مهنياً وأليماً .

فالعذاب إنْ سمَّيناه عذاباً يكون إكراماً لمن تحب وتريد أن تطهره ، أما العذاب المهين فهو لمن لا أمل في عودته ، والإهانة تقتضي الأبدية والخلود .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً . . . ﴾ [لقمان : 7] بعد قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [لقمان : 6] يدلنا على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ أمر دعوته ، حتى لمن يعلم عنه أنه ضَلَّ في نفسه ، بل ويريد أنْ يُضل غيره .

ومعنى ﴿ ولى ﴾ [لقمان : 7] يعني : أعرض وأعطانا (عرض أكتافه) كما نقول : وتولى وهو مستكبر ﴿ ولى مُسْتَكْبِراً ﴾ [لقمان : 7] أي : تكبَّر على ما يُدْعى إليه ، أنت دُعيت إلى حق فاستكبرت ، ولو كنت مستكبراً في ذاتك لما لجأت إلى باطل لتشتريه ، إذن : فكيف تستكبر عن قبول الحق وأنت محتاج حتى إلى الباطل ؟

ولماذا تتكبَّر وليس عندك مُقوِّمات الكِبْر ؟ ومعلوم أنك تستكبر عن قبول الشيء إنْ كان عندك مثله ، فكيف وأنت لا تملك لا مثله ولا أقل منه ؟

(104/607)

إذن : فاستكبارك في غير محله ، والمستكبر دائماً إنسان في غفلة عن الله ؛ لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس – وربما كان لديه من المقومات ما يستكبر به على الناس – لكنه غفل عن الله ، ولو استحضر جلال ربه وكبرياءه سبحانه لاستحى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء صفة العظمة وصفة الجلال التي لا تنبغي إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرف لنا وحماية تمنعنا أن نكون عبيداً لغيره سبحانه .

لذلك نسمع في الأمثال العامية (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) فإنْ كان لي كبير خافني الناس واحتميتُ به ، كذلك المؤمن يحتمي بكبرياء ربه ؛ لأن كبرياء الله على الجميع والكل أمامه سواسية ، لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه أمام الحق سبحانه .

إذن : فكبرياؤه تعالى لصالحنا نحن .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ [لقمان : 7] أي : ثِقَل وصَمَم ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : 7] ونحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا في الخير

، فهي الإخبار بأمر سارٍّ لم يأْت زمنه ، كما تبشر ولدك بالنجاح قبل أنْ تظهر النتيجة .

أما البشارة بالعذاب فعلى سبيل التهكّم بهم والسخرية منهم ، كما تتهكم من التلميذ المهمل فتقول له : أبشرك رسبت هذا العام . واستخدام البُشرى في العذاب كأنك تنقله فجأة من الانبساط إلى الانقباض ، وفي هذا إيلام للنفس قبل أن تُقاسي ألم العذاب ، فالتلميذ الذي تقول له : أُبشِّرك يستبشر الخير بالبشرى ، ويظن أنه نجح لكن يُفَاجأ بالحقيقة التي تؤلمه .

والشاعر يُصوِّر لنا هذه الصدمة الشعورية بقوله :

كَما أبرقَتْ يَوْماً عِطَاشَاً غَمامَةٌ . . . فَلمّا رأَوْهَا أَقْشَعَتْ وتجلَّتِ

ويقول آخر :

فَأَصْبحتُ من ليلى الغَداةَ كقَابِضٍ . . . علَى الماء خَانَتْه فُروجُ الأَصَابِعِ

(105/607)

لذلك يقولون : ليس أشرّ على النفس من الابتداء المطمع يأتي بعده الانتهاء الموئس ، وسبق أن مثلنا لذلك بالسجين الذي بلغ به العطش منتهاه ، ورجا السجان ، إلى أنْ جاء له بكوب من الماء ، ففرح واستبشر ، وظن أن سبحانه رجل طيب أصيل فلما رفع الكوب إلى فيه ضربه السجان من يده فأراقه على الأرض .

ولا شكّ أن هذا آلم وأشدّ على نفس السجين ، ولو رفض السجان أنْ يأتي له بالماء من البداية لكان أخفّ ألماً . وهذا الفعل يسمونه " يأس بعد إطماع " فقد ابتدأ معه بداية مُطمِعة ، وانتهى به إلى نهاية موئسة ، نعوذ بالله من القبض بعد البسط .

ثم يذكر الحق سبحانه عقوبة الإضلال عن سبيل الله والتولّي والاستكبار ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : 7] فعذابهم مرة (مهين) ومرة (أليم) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(106/607)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (لقمان : 7) ، وفي سورة الجاثية : (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (الجاثية : 7 ، 8) للسائل أن يسأل عن تخصيص آية لقمان بقوله : (كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا) ؟

(107/607)

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن آية الجاثية لما تقدم فيها : (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا) ، فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الأذن لأنه قد ذكر سماعه الآيات ، والوقر مانع من السمع ، فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه . فإن قيل : لو ذكر هنا الوقر في الأذنين لم يكن ليكون إلا تأكيداً لبيان توليه وإعراضه فكان يناسب ، قلت لو وكد بذلك لاقتضى مقاربة عدم السماع ، وليس المراد – والله أعلم – إلا أنه سمع وأعرض ، فكأنه لم يسمع ، ليجري الوارد هنا مع قوله تعالى فيمن صمم على كفره من يهود : (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة : 75) ، وإذا أريد إبقاء سماعهم ، ولم يرد منعه البتة ، لم يناسبه التأكيد المقرب من المنع من أن التنبيه الواقع (مراد) ، فحصل المقصود ، والله أعلم . ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان ، وتقدم ذكر المشار إليه فيها بقوله : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) (لقمان : 6) ، وهذه زيادة مرتكب ، فناسبها ذكر زيادة الوقر . مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية ، فازداد وضوح التلاؤم ، وإن عكس الوارد لا يلائم ، والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 402 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ يعني باطل الحديث . وهو النضر بن الحارث بن علقمة . اشترى أحاديث العجم وصنيعهم في دهرهم ، وكان يكتب الكتب من الحيرة والشام ويكذب بالقرآن ، فأعرض عنه فلم يؤمن به .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : شراؤه استحبابه . وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق . وفي قوله ﴿ ويتخذها هزواً ﴾ قال : يستهزىء بها ويكذبها .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ويتخذها هزواً ﴾ قال : سبيل الله يتخذ السبيل هزواً .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ﴿ وليضل عن سبيل الله ﴾ قال : قراءة القرآن ، وذكر الله . نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية .

وأخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : أنزلت في النضر بن الحارث . اشترى قينة فكان لا يسمع بأحد يريد الإِسلام إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه ، فنزلت .

(109/607)

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذي وابن ماجة وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي امامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القينات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ، ولا خير في تجارة فيهن ، وثمنهن حرام . في مثل هذا أنزلت هذه الآية ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ان الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها . ثم قرأ ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ " .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : هو الغناء وأشباهه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : هو شراء المغنية .

وأخرج ابن عساكر عن مكحول رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : الجواري الضاربات .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي الصهباء قال : سألت عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه عن قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : هو – والله – الغناء .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير عن شعيب بن يسار قال : سألت عكرمة رضي الله عنه عن ﴿ لهو الحديث ﴾ قال : هو الغناء .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد

رضي الله عنه ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : هو الغناء ، وكل لعب ولهو .

(110/607)

وأخرج ابن أبي الدنيا من طريق حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم رضي الله عنه ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : هو الغناء وقال مجاهد رضي الله عنه : هو لهو الحديث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني رضي الله عنه ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : الغناء والباطل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ في الغناء والمزامير .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع ، والذكر ينبت الإِيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن إبراهيم رضي الله عنه قال : كانوا يقولون : الغناء ينبت النفاق في

القلب .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في سننه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : إذا ركب الرجل الدابة ولم يسم ردفه شيطان ، فقال : تغنه ، فإن كان لا يحسن قال له : تمنه .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي امامة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان باعقابهما على صدره حتى يمسك " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن الشعبي عن القاسم بن محمد رضي الله عنه أنه سئل عن الغناء ، فقال : أنهاك عنه ، وأكرهه لك . قال السائل : احرام هو ؟ قال : انظر يا ابن أخي . إذا ميز الله الحق من الباطل في أيهما يجعل الغناء .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن الشعبي قال : لعن المغني والمغنى له .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن فضيل بن عياض قال : الغناء رقية الزنا .

(111/607)

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي عثمان الليثي قال : قال يزيد بن الوليد الناقص : يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة ، ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعل السكر ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء داعية الزنا .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر الأموي عمر بن عبد الله قال : كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى مؤدب وِلْدِهِ : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سهل مولاه . أما بعد فإني اخترتك على علم مني لتأديب وِلْدِي ، وصرفتهم إليك عن غيرك من مواليَّ وذوي الخاصة بي ، فخذهم بالجفاء فهو أمكن لاقدامهم ، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة ، وكثرة الضحك فإن كثرته تميت القلب ، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فإنه بلغني عن الثقات من حملة العلم إن حضور المعازف ، واستماع الأغاني ، واللهج بهما ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب ، ولعمري ولتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذوي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه ، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء ينتفع به ، وليفتح كل غلام منهم بجزئه من القرآن يثبت في قراءته ، فإذا فرغ منه تناول قوسه وكنانته وخرج إلى الغرض حافياً ، فرمى سبعة ارشاق ثم انصرف إلى القائلة ، فإن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول : يا بني قيلوا فإن الشياطين لا تقيل والسلام .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن رافع بن حفص المدني قال : أربع لا ينظر الله إليهن يوم القيامة . الساحرة . والنائحة . والمغنية . والمرأة مع المرأة . وقال : من أدرك ذلك الزمان فأولى به طول الحزن .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين رضي الله عنه قال : ما قدّست أمة فيها البربط .

(112/607)

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ولعب ، ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : خدش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة شيطان " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن رضي الله تعالى عنه قال : صوتان ملعونان . مزمار عند نغمة . ورنة عند مصيبة .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : أخبث الكسب كسب الزمارة .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن نافع قال : كنت أسير مع عبد الله بن عمر رضي الله

عنهما في طريق ، فسمع زمارة راع ، فوضع أصبعيه في أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ؟ قلت : لا . فأخرج أصبعيه من أذنيه وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر " أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : في هذه الآية ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل " .

وأخرج الحاكم في الكنى عن عطاء الخراساني رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ في الغناء والباطل والمزامير .

وأخرج آدم وابن جرير والبيهقي في سننه عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : هو اشتراؤه المغني والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : هو رجل يشتري جارية تغنيه ليلاً أو نهاراً .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

أخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ﴾ قال : مكذباً بها .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وقراً ﴾ قال : ثقلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(113/607)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ : ما يشغل عن ذكر الله ، ويَحْجُبُ عن اللَّهِ سماعُه . ويقال : هو لَغْوُ الظاهر الموجبُ سَهْوَ الضمائر ، وهو ما يكون خَوضاً فى الباطل ، وأخذاً بما لا يعنيك .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

المُفْتَرِقُ بِهَمِّه ، والمُتَشَتِّتُ بقلبه لا تزيده كثرةُ الوعظِ إلا نفوراً ونُبُوّاً ؛ فسماعُه كَلاَ سماع ، ووعظه هباءٌ وضياع ، كما قيل :

إذا أنا عاتَبْتُ الملولَ فإنما . . . أُخُطُّ بأقلامي على الماءِ أحرُفا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 128 . 129 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت معرفة ما لأحد الجزءين باعثة على السؤال عما للحزب الآخر ، وكانت إجابة السؤال عن ذلك من أتم الحكمة ، استأنف تعالى قوله مؤكداً لأجل إنكار الكفرة : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أو اوجدوا الإيمان ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً له ﴿ الصالحات ﴾ وضعاً للشيء في محله عملاً بالحكمة ﴿ لهم جنات ﴾ أي بساتين ﴿ النعيم ﴾ فأفاد سبحانه بإضافتها إليه أنه لا كدر فيها أصلاً ولا شيء غير النعيم .

ولما كان ذلك قد لا يكون دائماً .

وكان لا سرور بشيء منقطع قال : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي دائماً .

ولما كانت الثقة بالوعد على قدر الثقة بالواعد ، وكان إنجاز الوعد من الحكمة ، قال مؤكداً لمضمون الوعد بالجنات : ﴿ وعد الله ﴾ الذي لا شيء أجل منه ؛ فلا وعد أصدق من وعده ، ثم أكده بقوله : ﴿ حقاً ﴾ أي ثابتاً ثباتاً لا شيء مثله ، لأنه وعد من لا شيء مثله ولا كفوء له .

ولما كان النفس الغريب جديراً بالتأكيد ، أتى بصفتين مما أفهمه الإتيان بالجلالة تصريحاً بهما تأكيداً لأن هذا لا بد منه فقال : ﴿ وهو ﴾ أي وعد بذلك والحال أنه ﴿ العزيز ﴾ فلا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ أي المحكم لما يقوله ويفعله ، فلا يستطاع نقضه ولا نقصه .

(115/607)

ولما ختم بصفتي العزة – وهي غاية القدرة – والحكمة – وهي ثمرة العلم – دل عليها باتقان أفعاله وإحكامها فقال : ﴿ خلق السماوات ﴾ أي على علوها وكبرها وضخامتها ﴿ بغير عمد ﴾ وقوله : ﴿ ترونها ﴾ دال على الحكمة ، إن قلنا إنه صفة لعمد أو استئناف ، إما أن قلنا بالثاني فلكون مثل هذا الخلق الكبير الواسع يحمل بمحض القدرة ، وإن قلنا بالأول فتركيب مثله على عمد تكون في العادة حاملة له وهي مع ذلك بحيث لا

ترى أدخل في الحكمة وأدق في اللطافة والعظمة ، لأنه يحتاج إلى عملين : تخفيف الكثيف وتقوية اللطيف .

ولما ذكر العمد المقلة ، اتبعه الأوتاد المقرة فقال : ﴿ وألقى في الأرض ﴾ أي التي أنتم عليها ، جبالاً ﴿ رواسي ﴾ والعجب من فوقها وجميع الرواسي التي تعرفونها تكون من تحت ، تثبتها عن ﴿ أن تميد ﴾ أي تتمايل مضطربة ﴿ بكم ﴾ كما هو شأن ما على ظهر الماء . ولا ذكر إيجادها وإصلاحها للاستقرار .

ذكر ما خلقت له من الحيوان فقال : ﴿ وبث فيها ﴾ أي فرق ﴿ من كل دابة ﴾ ولما ذكر ذلك ذكر ما يعيش به ، فقال منبهاً لمظهر العظمة على أن ذلك وإن كان لهم في بعضه تسبب لا يقدر عليه إلا هو سبحانه : ﴿ وأنزلنا ﴾ أي بما لنا من العزة اللازمة للقدرة ، وقدم ما لا قدرة لمخلوق عليه بوجه فقال : ﴿ من السماء ماء ﴾ ولما تسبب عن ذلك تدبير الأقوات ، وكان من آثار الحكمة التابعة للعمل ، دل عليه بقوله : ﴿ فأنبتنا ﴾ أي بما لنا من العلو في الحكمة ﴿ فيها ﴾ أي الأرض بخلط الماء بترابها ﴿ من كل زوج ﴾ أي صنف من النبات متشابه ﴿ كريم ﴾ بما له من البهجة والنضرة الجالبة للسرور والمنفعة والكثرة الحافظة لتلك الدواب .

ولما ثبت بهذا الخلق العظيم على هذا الوجه المحكم عزته وحكمته ، ثبتت ألوهيته فألزمهم وجوب توحيده في العبادة كما توحد بالخلق ، لأن ذلك عين الحكمة ، كما كان خلقه لهذا الخلق على هذا النظام ليدل عليه سبحانه سر الحكمة ، فقال ملقناً للمحسنين من حزبه ما ينبهون به المخالفين موبخاً لهم مقبحاً لحالهم في عدولهم عنه مع علمهم بما له من التفرد بهذه الصنائع : ﴿ هذا ﴾ أي الذي تشاهدونه كله ﴿ خلق الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة فلا كفوء له .

ولما كان العاقل بل وغيره لا ينقاد لشيء إلا أن رأى له فعلاً يوجب الانقياد له ، نبه على ذلك بقوله جواباً لما تقديره : فإن ادعيتم لما دونه مما عبدتموه من دونه خلقاً عبدتموه لأجله : ﴿ فأروني ماذا خلق الذين ﴾ زاد اسم الإشارة زيادة في التقريع بتأكيد النفي المقصود من الكلام ، ونبه على سفول رتبتهم بقوله مضمراً لأنه ليس فيما أسند إلى الاسم الأعظم حيثية يخشى من التقييد بها نقص : ﴿ من دونه ﴾ فسأله في رؤية ما خلقوا غبنه أحد أصلاً بأن انقدتم لما لا ينقاد له حيوان فضلاً عن إنسان بكونه لا فعل له أصلاً ، فكان من حقكم – إن كانت لكم عقول – أن تبحثوا اولاً هل لهم أفعال أم لا ؟ ثم إذا ثبت فهل هي محكمة أم لا ، ثم إذا ثبت فهل شاركهم غيرهم أم لا ، وإذا ثبت أن غيرهم شاركهم فأيهما أحكم وأما أنكم تنقادون لهم ولا فعل لهم أصلاً ثم تقدرون أن لهم أفعالاً ترجونهم بها وتخشونهم ،

فهذا ما لا يتصوره حيوان أصلاً ، ولذلك قال تعالى : ﴿ بل ﴾ منبهاً على أن الجواب : ليس لهم خلق ، بل عبدتهم أو أنتم في جعلهم شركاء ، هكذا كان الأصل ، ولكنه قال :

﴿ الظالمون ﴾ أي العريقون في الظلم ، تعميماً وتنبيهاً على الوصف الذي أوجب لهم كونهم ﴿ في ضلال ﴾ عظيم جداً محيط بهم ﴿ مبين ﴾ أي في غاية الوضوح ، وهو كونهم يضعون الأشياء عنهم بجبال الهوى فلا حكمة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 10.8 ﴾

(117/607)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) ﴾

(118/607)

لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى ، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار ، فهذا له مراتب من الإقبال والقبول والعمل به ، فإن من سمع شيئاً وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف : إحداها : توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب الثانية : تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً للراحة إلى القلب ، ولا يبين النقمة ، وإنما ينبه عليها تنبيهاً الثالثة : قال عذاب ، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون ، وإنما أشار إلى الخلود بقوله : ﴿ مُّهِينٌ ﴾ وصرح في الثواب بالخلود بقوله : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ ، الرابعة : أكد ذلك بقوله : ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقّاً ﴾ ولم يذكره هناك الخامسة : قال هناك لغيره ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ ﴾ وقال ههنا بنفسه ﴿ وَعَدَ اللهُ ﴾ ، ثم لم يقل أبشركم به لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون ، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله ، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ورضوان وجنات لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيم ﴾ [التوبة : 21] ولولا قوله : ﴿ مِنْهُ ﴾ لما عظمت البشارة ، ولو كانت ﴿ مِنْهُ ﴾ مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة فإن قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله : ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُون ﴾ [فصلت : 30] نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها ، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى :

﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : 32] والنزل ما يهيأ عند النزول والإكرام العظيم بعده ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل ، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغي ، فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر .

(119/607)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

ثم قال تعالى : ﴿ خُلِقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .

بين عزته وحكمته بقوله : ﴿ خُلِقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ اختلف قول العلماء في السموات فمنهم من قال إنها مبسوطة كصفيحة مستوية ، وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين ، والغزالي رحمه الله قال نحن نوافقهم في ذلك فإن لهم عليها دليلاً من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز ، وإن كان في الباب خبر نؤوله بما يحتمله ، فضلاً من أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحاً ، بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] والفلك اسم لشيء مستدير ، بل الواجب أن يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع ، وإذا علم هذا فنقول السماء في مكان وهو

فضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس إلا بقدرة مختارة وإليه الإشارة بقوله : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ أي ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهي لا تزول إلا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى أن السموات بأسرها ومجموعها لا مكان لها لأن المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكناً والحيز ما يشار إلى ما فيه بسببه يقال ههنا وهناك على هذا قالوا إن من يقع من شاهق جبل فهو في الهواء في حيز إذ يقال له هو ههنا وهناك ، وليس في مكان إذ لا يعتمد على شيء ، فإذا حصل على الأرض حصل في مكان ، إذا علم هذا فالسماوات ليست في مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه راجع إلى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد

والثاني : أنه راجع إلى العمد أي بغير عمد مرئية ، وإن كان هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وإرادته .

(120/607)

ثم قال تعالى : ﴿ وأَلقى فِى الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كل زوج كريم ﴾ .

أي جبالاً راسية ثابتة ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ أي كراهية أن تميد وقيل المعنى أن لا تميد ، واعلم أن

الأرض ثباتها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الأراضي الرملة ينتقل الرمل الذي فيها من موضع إلى موضع ، ثم قال تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أي سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فأسكنا الأرض وحركنا الدواب ولو كانت الأرض متزلزلة وبعض الأراضي يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التي لا تعيش في موضع تقع في ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب ، أما إذا كانت الأرض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك في المواضع التي تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء ﴾ هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده ، وتمامها بسكون الأرض لأن البذر إذا لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات ، والعدول من المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فمذكورة في باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا ثم إن بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً .

(121/607)

وأما الحكمة فمن وجهين أحدهما : أن خلق الأرض ثقيل ، والسماء في غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع ، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة ، لأن لها اختيار ، فنقول الأول طبيعي والآخر اختياري للحيوان ، ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعاً فإن الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختياراً ، إذ الماء لا اختيار له فهو بإرادة الله تعالى ، فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء ﴾ الثاني : هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ، متكثرة في كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي من كل جنس ، وكل جنس فتحته زوجان ، لأن النبات إما أن يكون شجراً ، وإما أن يكون غير شجر ، والذي هو الشجر إما أن يكون مثمراً ، وإما أن يكون غير مثمر ، والمثمر كذلك ينقسم قسمين ، وقوله تعالى : ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي ذي كرم ، لأنه يأتي كثيراً من غير حساب أو مكرم مثل بغض للمبغض .

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)

قوله تعالى : ﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلِ الظالمون فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي بين أو مبين للعاقل أنه ضلال ، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال ، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق

المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فإنه يكون غاية الضلال ، فالمقصد هو الله تعالى ، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال ، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ما سواه يكون كالذي على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب .

(122/607)

وأما الذي تولى لا يصل إلى المقصود أصلاً ، وإن دام في السفر ، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم في غير موضعها أو الواضعون أنفسم في عبادة غير الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 125 . 127 ﴾

(123/607)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

فيه قولان

: أحدهما : بعمد لا ترونها ، قاله عكرمة ومجاهد .

الثاني : أنها خلقت بغير عمد ، قاله الحسن وقتادة .

﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً

. ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي لئلا تميد بكم وفيه وجهان

: أحدهما : معناه أن لا تزول بكم ، قاله النقاش .

الثاني : أن لا تتحرك بكم ، قاله يحيى بن سلام . وقيل : إن الأرض كانت تتكفأ مثل السفينة فأرساها الله بالجبال وأنها تسعة عشر جبلاً تتشعب في الأرض حتى صارت لها أوتاداً فتثبتت وروى أبو الأشهب عن الحسن قال : لما خلق الله الأرض جعلت تميد فلما رأت الملائكة ما تفعل الأرض قالوا : ربنا هذه لا يقر لك على ظهرها خلق ، فأصبح قد ربطها بالجبال فلما رأت الملائكة الذي أرسيت به الأرض عجبوا فقالوا : يا ربنا هل خلقت خلقاً هو أشد من الجبال ؟ قال : نَعَم الرِّيحُ قالوا : هل خلقت خلقاً هو أشد من الريح ؟ قال : " نَعَمْ ابنُ آدَمَ " .

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : وخلق فيها ، قاله السدي .

الثاني : وبسط ، قاله الكلبي .

الثالث : فرق فيها من كل دابة وهو الحيوان سُمِّيَ بذلك لدبيبه والدبيب الحركة .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنهم الناس هم نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ،

قاله الشعبي .

الثاني : أن نبات الأرض أشجارها وزرعها ، والزوج هو النوع .

وفي الكريم ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الحسن ، قاله قتادة .

الثاني : أنه الطيب الثمر ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أنه اليانع ، قاله ابن كامل .

ويحتمل رابعاً : أن الكريم ما كثر ثمنه لنفاسة القدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون

حـ 4 صـ ﴾

(124/607)

وقال ابن عطية :

(125/607)

ولما ذكر عز وجل حال هؤلاء الكفرة وتوعدهم بالنار على أفعالهم ، عقب بذكر المؤمنين وما وعدهم به من ﴿ جنات النعيم ﴾ ليبين الفرق ، و ﴿ وعدَ الله ﴾ منصوب على المصدر ، و ﴿ حقاً ﴾ مصدر مؤكد ، وقوله تعالى : ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على ﴿ السماوات ﴾ فيكون المعنى أن السماء بغير عمد وأنها ترى كذلك ، وهذا قول الحسن والناس ، و ﴿ ترونها ﴾ على هذا القول في موضع نصب على الحال ، ويحتمل أن يعود الضمير على " العمد " فيكون ﴿ ترونها ﴾ صفة للعمد في موضع خفض ، ويكون المعنى أن السماء لها عمد لكن غير مرئية قاله مجاهد ونحا إليه ابن عباس ، والمعنى الأول أصح والجمهور عليه ، ويجوز أن تكون ﴿ ترونها ﴾ في موضع رفع على القطع ولا عمد ثم ، و" الرواسي " هي الجبال التي رست أي ثبتت في الأرض ، وقوله : ﴿ أن تميد ﴾ بمعنى لئلا تميد ، والميد التحرك يمنة ويسرة وما قرب من ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ من كل زوج ﴾ أي من كل نوع ، و" الزوج " في النوع والصنف وليس بالذي هو ضد الفرد ، وقوله تعالى : ﴿ كريم ﴾ يحتمل أن يريد مدحه من جهة إتقان صنعه وظهور حسن الرتبة والتحكيم للصنع فيه فيعم حينئذ جميع الأنواع لأن هذا المعنى في كلها ، ويحتمل أن يريد مدحه بكرم جوهره وحسن منظره ومما تقضي له النفوس بأنه أفضل من سواه حتى يستحق الكرم ، فتكون الأزواج على هذا مخصوصة في نفائس الأشياء ومستحسناتها ،

ولما كان عظم الموجودات كذلك خصص الحجة بها . وقوله : ﴿ أنبتنا ﴾ يعم جميع أنواع الحيوان وأنواع النبات والمعادن ، ثم وقف تعالى الكفار على جهة التوبيخ وإظهار الحجة على أن هذه الأشياء هي مخلوقات الله تعالى ، ثم سألهم أن يوجدوه ما خلق الأوثان والأصنام وغيرهم ممن عبد ، أي أنهم لن يخلقوا شيئاً ، بل هذا الذي قريش فيه ضلال مبين ، فذكرهم بالصفة التي تعم معهم سواهم ممن فعل فعلهم من الأمم ، وقوله : ﴿ ماذا ﴾ يجوز أن تكون " ما " استفهاماً في موضع رفع

(126/607)

بالابتداء و" ذا " خبرها بمعنى الذي والعائد محذوف ، ويجوز أن تكون " ما " مفعولة ب " أروني " و" ذا " و" ما " بمعنى الذي والعائد محذوف تقديره في الوجهين خلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(127/607)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جَنَّاتُ النعيم ﴾

لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي دائمين .

﴿ وَعْدَ الله حَقّاً ﴾ أي وعدهم الله هذا وعداً حقاً لا خُلْف فيه .

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ تقدّم أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ تكون "تَرَوْنَهَا" في موضع خفض على النعت ل"عَمَد" فيمكن أن يكون ثَمّ عَمَد ولكن لا تُرَى .

ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من "السَّمَوَات" ولا عَمَد ثَمّ الْبَتّة .

النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفاً ، ولا عَمَد ثَمّ ؛ قاله مكيّ .

ويكون "بِغَيْرِ عَمَدٍ" التمام .

وقد مضى في "الرعد" الكلام في هذه الآية .

﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت .

﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ في موضع نصب ؛ أي كراهية أن تميد .

والكوفيون يقدّرونه بمعنى لئلا تميد .

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ عن ابن عباس : من كل لون حَسَن .

وتأوّله الشعبيّ على الناس ؛ لأنهم مخلوقون من الأرض ؛ قال : من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم ، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم .

وقد تأول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب ، وظاهر القرآن يدلّ على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ هذا خَلْقُ الله ﴾ مبتدأ وخبر .

والخلق بمعنى المخلوق ؛ أي هذا الذي ذكرته مما تعاينون "خَلْقُ اللَّهِ") أي مخلوق الله ، أي خلقها من غير شريك .

﴿ فَأَرُونِي ﴾ معاشر المشركين ﴿ مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام .

﴿ بَلِ الظالمون ﴾ أي المشركون ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي خسران ظاهر .

و"ما" استفهام في موضع رفع بالابتداء وخبره "ذا" وذا بمعنى الذي .

(128/607)

و"خلق" واقع على هاء محذوفة ؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه ؛ والجملة في موضع نصب ب"أروني" وتضمر الهاء مع "خلق" تعود على الذين ؛ أي فأروني الأشياء

التي خلقها الذين من دونه .

وعلى هذا القول تقول : ماذا تعلمت ، أنحوٌ أم شعر .

ويجوز أن تكون "ما" في موضع نصب ب"أروني" و"ذا" زائد ؛ وعلى هذا القول يقول : ماذا تعلمت ، أنحواً أم شعراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(129/607)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

هذه السورة مكية ، قال ابن عباس : إلا ثلاث آيات ، أولهنّ : ﴿ ولو أن ما في الأرض ﴾ .

وقال قتادة : إلا آيتين ، أوّلهما : ﴿ ولو أن ﴾ إلى آخر الآيتين ، وسبب نزولها أن قريشاً سألت عن قصة لقمان مع ابنه ، وعن بر والديه ، فنزلت .

وقيل : نزلت بالمدينة إلا الآيات الثلاثة : ﴿ ولو أن ما في الأرض ﴾ إلى آخرهنّ ، لما نزل ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ وقول اليهود : إن الله أنزل التوراة على موسى وخلفها فينا ومعنا ، فقال الرسول : " التوراة وما فيها من الأنباء قليل في علم الله " ، فنزل : ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ .

ومناسبتها لما قبلها أنه قال تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ فأشار إلى ذلك بقوله : ﴿ الم ، تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ ؛ وكان في آخر تلك : ﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ وهنا : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولىّ مستكبراً ﴾ ، وتلك إشارة إلى البعيد ، فاحتمل أن يكون ذلك لبعد غايته وعلو شأنه .

و﴿ آيات الكتاب ﴾ : القرآن واللوح المحفوظ .

ووصف الكتاب بالحكيم ، إما لتضمنه للحكمة ، قيل : أو فعيل بمعنى المحكم ، وهذا يقل أن يكون فعيل بمعنى مفعل ، ومنه عقدت العسل فهو عقيد ، أي معقد ، ويجوز أن يكون حكيم بمعنى حاكم .

وقال الزمخشري : الحكيم : ذو الحكمة ؛ أو وصف لصفة الله عز وجل على الإسناد المجازي ، ويجوز أن يكون الأصل الحكيم قابله ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة .

وقرأ الجمهور : ﴿ هدى ورحمة ﴾ ، بالنصب على الحال من الآيات ، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ، قاله الزمخشري وغيره ، ويحتاج إلى نظر .

وقرأ حمزة ، والأعمش ، والزعفراني ، وطلحة ، وقنبل ، من طريق أبي الفضل الواسطي : بالرفع ، خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر بعد خبر ، على مذهب من يجيز ذلك .

﴿ للمحسنين ﴾ : الذين يعملون الحسنات ، وهي التي ذكرها ، كإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيقان بالآخرة ، ونظيره قول أوس :

الألمعي الذي يظن بك ال . . .

ظن كأن قد رأى وقد سمعا

حكي عن الأصمعي أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد ، وخص المحسنون ، لأنهم هم الذين انتفعوا به ونظروه بعين الحقيقة .

وقيل : الذين يعملون بالحسن من الأعمال ، وخص منهم القائمون بهذه الثلاثة ، لفضل الاعتداد بها .

ومن صفة الإحسان ما جاء في الحديث من أن الإحسان : " أن تعبد الله كأنك تراه " وقيل : المحسنون : المؤمنون .

وقال ابن سلام : هم السعداء .

وقال ابن شجرة : هم المنجحون .

وقيل : الناجون ، وكرر الإشارة إليهم تنبيهاً على عظم قدرهم .

ولما ذكر من صفات القرآن الحكمه ، وأنه هدى ورحمة ، وأن متبعه فائز ، ذكر حال من يطلب من بدل الحكمة باللهو ، وذكر مبالغته في ارتكابه حتى جعله مشترياً له وباذلاً فيه

رأس عقله ، وذكر علته وأنها الإضلال عن طريق الله .

ونزلت هذه الآية في النضر بن الحارث ، كان يتجر إلى فارس ، ويشتري كتب الأعاجم ، فيحدث قريشاً بحديث رستم واسفندار ويقول : أنا أحسن حديثاً .

وقيل : في ابن خطل ، اشترى جارية تغني بالسب ، وبهذا فسر ﴿ لهو الحديث ﴾ : المعازف والغناء .

وفي الحديث من رواية أبي أمامة ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " شراء المغنيات وبيعهم حرام " ، وقرأ هذه الآية .

وقال الضحاك : ﴿ لهو الحديث ﴾ : الشرك .

وقال مجاهد ، وابن جريج : الطبل ، وهذا ضرب من آلة الغناء .

وقال عطاء : الترهات .

وقيل : السحر .

وقيل : ما كان يشتغل به أهل الجاهلية من السباب .

وقال أيضاً : ما شغلك عن عبادة الله ، وذكره من السحر والأضاحيك والخرافات والغناء .

وقال سهل : الجدال في الدين والخوض في الباطل ، والظاهر أن الشراء هنا مجاز عن اختيار الشيء ، وصرف عقله بكليته إليه .

فإن أريد به ما يقع عليه الشراء ، كالجواري المغنيات عند من لا يرى ذلك ، وككتب الأعاجم التي اشتراها النضر ؛ فالشراء حقيقة ويكون على حذف ، أي من يشتري ذات لهو الحديث .

وإضافة لهو إلى الحديث هي لمعنى من ، لأن اللهو قد يكون من حديث ، فهو كباب ساج ، والمراد بالحديث : الحديث المنكر .

وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى من التبعيضية ، كأنه قال : ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه . انتهى .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ ليضل ﴾ بفتح الياء ، وباقي السبعة : بضمها .

قال الزمخشري : فإن قلت : القراءة بالرفع بينة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو أن يصد الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح ؟ قلت : معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ، ولا يصدق عنه ، ويزيد فيه ويمده بأن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصد الناس عنه .

والثاني : أن يوضع ليضل موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة ، فدل

بالرديف على المردوف .

فإن قلت : قوله بغير علم ما معناه ؟ قلت : لما جعله مشترياً لهو الحديث بالقرآن قال : يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها ، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ أي وما كانوا مهتدين للتجارة وبصراء بها . انتهى .

و﴿ سبيل الله ﴾ : الإسلام أو القرآن ، قولان .

قال ابن عطية : والذي يترجح أن الآية نزلت في لهو الحديث مضافاً إلى الكفر ، فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله : ﴿ ليضل ﴾ إلى آخره .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص : ﴿ ويتخذها ﴾ ، بالنصب عطفاً على ﴿ ليضل ﴾ ، تشريكاً في الصلة ؛ وباقي السبعة : بالرفع ، عطفاً على ﴿ يشتري ﴾ ، تشريكاً في الصلة .

والظاهر عود ضمير ﴿ ويتخذها ﴾ على السبيل ، كقوله : ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ قيل : ويحتمل أن يعود على ﴿ آيات الكتاب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزواً ﴾ قيل : ويحتمل أن يعود على الأحاديث ، لأن الحديث اسم جنس بمعنى الأحاديث .

وقال صاحب التحرير : ويظهر لي أنه أراد بلهو الحديث : ما كانوا يظهرونه من الأحاديث في تقوية دينهم ، والأمر بالدوام عليه ، وتفسير صفة الرسول ، وأن التوراة تدل على أنه من ولد إسحاق ، يقصدون صد أتباعهم عن الإيمان ، وأطلق اسم الشراء لكونهم يأخذون على ذلك الرشا والجعائل من ملوكهم ، ويؤيده ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ : أي دينه .

انتهى ، وفيه بعض حذف وتلخيص .

﴿ وإذا تتلى عليه ﴾ : بدأ أولاً بالحمل على اللفظ ، فأفرد في قوله : ﴿ من يشتري ﴾ ، ﴿ وليضل ﴾ ، ﴿ ويتخذها ﴾ ، ثم جمع على الضمير في قوله : ﴿ أولئك لهم ﴾ ، ثم حمل على اللفظ فأفرد في قوله : ﴿ وإذا تتلى ﴾ إلى آخره .

ومن في : ﴿ من يشتري ﴾ موصولة ، ونظيره في من الشرطية قوله : ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ فما بعده أفرد ثم قال : ﴿ خالدين ﴾ ، فجمع ثم قال : ﴿ قد أحسن الله له رزقاً ﴾ فأفرد ، ولا نعلم جاء في القرآن ما حمل على اللفظ ، ثم على المعنى ، ثم على اللفظ ، غير هاتين الآيتين .

والنحويون يذكرون ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ الآية فقط ، ثم على المعنى ، ثم على اللفظ ، ويستدلون بها على أن هذا الحكم جار في من الموصولة ونظيرها مما لم يثن ولم يجمع من

الموصولات .

وتضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه التولية عن الحكمة ، ثم الاستكبار ، ثم عدم الالتفات إلى سماعها ، كأنه غافل عنها ، ثم الإيغال في الإعراض بكون أذنيه كأن فيهما صمماً يصده عن السماع .

و﴿ كأن لم يسمعها ﴾ : حال من الضمير في ﴿ مستكبراً ﴾ ، أي مشبهاً حال من لم يسمعها ، لكونه لا يجعل لها بالاً ولا يلتفت إليها ؛ وكأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن واجب الحذف .

و﴿ كأن في أذنيه وقراً ﴾ : حال من لم يسمعها .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكونا استئنافين .

انتهى ، يعني الجملتين التشبيهيتين .

(133/607)

ولما ذكر ما وعد به الكفار من العذاب الأليم ، ذكر ما وعد به المؤمنين .

وقرأ زيد بن علي : خالدون ، بالواو ؛ والجمهور : بالياء .

وانتصب ﴿ وعد الله ﴾ على أنه مصدر مؤكد لنفسه ، و﴿ حقاً ﴾ على المصدر

المؤكد لغيره ، لأن قوله : ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ ، والعامل فيها متغاير ، فوعد الله منصوب ، أي يوعد الله وعده ، وحقاً منصوب بأحق ذلك حقاً .

﴿ خلق السموات ﴾ إلى ﴿ فأنبتنا ﴾ ، تقدم الكلام على ذلك .

ومعنى ﴿ كريم ﴾ : مدحته بكرم جوهره ونفاسته وحسن منظره ، وما تقضي له النفوس بأنه أفضل من غيره حتى استحق الكرم ، فيخص لفظ الأزواج ما كان نفيساً مستحسناً من جهة ، أو مدحته بإتقان صفته وظهور حسن الرتبة والتحكم للصنع فيه ، فيعم جميع الأزواج ، وهو الأنواع .

﴿ هذا خلق الله ﴾ : إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته ، وبخ بذلك الكفار وأظهر حجته .

والخلق بمعنى المخلوق ، كقولهم : درهم ضرب الأمير ، أي مضروبه .

ثم سألهم على جهة التهكم بهم أن يورده .

وأما خلقته آلهتم لما ذكر مخلوقاته ، فكيف عبدوها من دونه ؟ ويجوز في ماذا أن تكون كلها موصولة بمعنى الذي ، وتكون مفعولاً ثانياً لأروني .

واستعمال ماذا كلها موصولاً قليل ، وقد ذكره سيبويه .

ويجوز أن تكون ما استفهامية في موضع رفع على الابتداء ، وذا موصولة بمعنى الذي ، وهو خبر عن ما ، والجملة في موضع نصب بأروني ، وأروني معلقة عن العمل لفظاً لأجل الاستفهام .

ثم أضرب عن توبيخهم وتبكيتهم إلى التسجيل عليهم بأنهم في حيرة واضحة لمن يتدبر ، لأن من عبد صنماً وترك خالقه جدير بأن يكون في حيرة وتيه لا يقلع عنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(134/607)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ بيانٌ لحالِ المُؤمنين بآياتِه تعالى إثرَ بيانِ حالِ الكافرينَ بها أي الذين آمنُوا بآياتِه تعالى وعملُوا بموجبِها ﴿ لَهُمْ ﴾ بمقابلة ما ذُكر من إيمانِهم وأعمالِم ﴿ جنات النعيم ﴾ أي نعيمُ جنَّاتٍ فعكسَ للمُبالغةِ والجملة خبرُ أنَّ والأحسن أنْ يجعل لَهمُ هو الخبرَ لأنَّ وجنَّاتُ النَّعيمِ مرتفعاً به على الفاعليَّةِ .

وقولُه تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من الضَّميرِ في لهم أو مِن جنَّاتِ النَّعيمِ لاشتماله على ضميريهما والعاملُ ما تعلَّق به اللامُ ﴿ وَعْدَ الله حَقّا ﴾ مصدرانِ مؤكّدانِ ، والأول لنفسه والثَّاني لغيرِه لأنَّ قولَه تعالى لهم جنَّاتُ النَّعيمِ في معنى وعَدَهم الله جنَّاتِ النَّعيمِ .

﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الذي لا يغلبه ليمنعه من إنجازِ وعدِه أو تحقيقِ وعيدِه ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيهِ الحكمةُ والمصلحةُ .

﴿ خَلَقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ الخ استئنافٌ مسوقٌ للاستشهادِ بما فُصِّل فيه على عزَّته تعالى التي هي كمالُ القدرةِ وحكمتِه التي هي كمالُ العلمِ وتمهيدُ قاعدةِ التوحيد وتقريرُه وإبطالُ أمرِ الإشراكِ وتبكيتُ أهلِه . والعَمَدُ جمعُ عمادٍ كأَهبٍ جمعُ إهابٍ وهو ما يُعمَّدُ به أي يُسندُ . يُقال عمَّدتُ الحائطَ إذا دعَّمتُه أي بغيرِ دعائم ، على أنَّ الجمعَ لتعددِ السَّمواتِ . وقولُه تعالى : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ استئنافٌ جِيءَ بِه للاستشهادِ على ما ذُكر من خلقِه تعالى لها غيرَ معمودةٍ بمُشاهدتِهم لها كذلك ، أو صفةٌ لعَمَدٍ أي خلقَها بغيرِ عمدٍ مرئيَّةٍ على أنَّ التَّقييدَ للرَّمزِ إلى أنَّه تعالى عمَّدها بعَمدٍ لا تَرَونها هي عَمَدُ القُدرةِ ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ بيانٌ لصُنعه البديعِ في قرارِ الأرض إثرَ بيانِ صُنعه الحكيمِ في قرارِ السَّمواتِ والأرضِ أي ألقى فيها جبالاً ثوابتَ . وقد مرَّ ما فيه من الكلامِ في سُورة الرَّعدِ ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ كراهةَ أنْ تميلَ بكم فإنَّ بساطةَ أجزائِها تقتضِي تبدُّلَ أحيازِها وأوضاعِها لامتناعِ اختصاصِ كلٍ منها لذاتِه أو لشيءٍ من لوازمِه بحيِّزٍ معيَّنٍ ووضعٍ مخصوصٍ ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ من كلِّ نوعٍ من أنواعِها ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً ﴾ هو المطرُ ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ بسببِ ذلك الماءِ ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ من كلِّ صنفٍ

كثيرِ المنافعِ . والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ في الفعلينِ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بأمرِها ﴿ هذا ﴾ أي ما ذُكر من السَّمواتِ والأرضِ وما تعلَّق بهما من الأمورِ المعدودةِ ﴿ خَلَقَ الله ﴾ أي مخلوقُه ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ ممَّا اتخذتُموهم شركاءَ له سبحانه في العبادةِ حتَّى استحقُّوا به المعبوديَّةَ . وماذا نُصب بخَلْقُ ، أو مَا مرتفعٌ بالابتداءِ وخبرُه ذَا بصلتِه ، وأرُوني

(136/607)

متعلّقٌ به . وقولُه تعالى : ﴿ بَلِ الظالمون فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ إضرابٌ عن تبكيتِهم بما ذُكر إلى التَّسجيلِ عليهم بالضَّلالِ البيِّنِ المُستدعي للإعراضِ عن مخاطبتِهم بالمقدّماتِ المعقولةِ الحقَّةِ لاستحالةِ أنْ يفهمُوا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلمِ ببطلانِ ما هُم عليه أو يتأثَّروا من الإلزامِ والتَّبكيتِ فينزجُروا عنه . ووضعُ الظَّاهرِ موضعَ ضميرِهم للدّلالةِ على أنَّهم بإشراكِهم واضعون للشَّيءِ في غيرِ موضعِه ومتعدُّون عن الحدودِ وظالمون لأنفسِهم بتعريضِها للعذابِ الخالدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(137/607)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى أثر بيان حال الكافرين بها أي أن الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها ﴿ لَهُمْ ﴾ بمقابلة ما ذكر من إيمانهم وعملهم ﴿ جنات النعيم ﴾ أي انلعيم الكثير وإضافة الجنات إليه باعتبار اشتمالها عليه نظير قولك : كتب الفقه وفي هذا إشارة إلى أن لهم نعيمها بطريق برهاني فهو أبلغ من لهم نعيم الجنات إذ لا يستدعي ذلك أن تكون نفس الجنات ملكلهم فقد يتنعم بالشيء غير مالكه ، وقيل : في وجه الابلغية أنه لجعل النعيم فيه أصلاً ميزت به الجنات فيفيد كثرة النعيم وشهرته ، وأياً ما كان فجنات النعيم هي الجنات المعروفة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال : جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن وفيها جوار خلقن من ورد الجنة قيل : ومن يسكنها ؟ قال : الذين هموا بالمعاصي فلما ذكروا عظمتي راقبوني والذين انثنت اصلابهم في خشيتي ، والله تعالى أعلم بصحة الخبر ، والجملة خبران ، قيل : والأحسن أن يجعل ﴿ لَهُمْ ﴾ هو الخبر لأن و ﴿ جنات النعيم ﴾ مرتفعاً به على الفاعلية ، وقوله تعالى :

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من الضمير المجرور أو المستتر في ﴿ لَهُمْ ﴾ بناء على أنه خبر

مقدم أو من ﴿ جنات ﴾ بناء على أنه فاعل الظرف لاعتماده بوقوعه خبراً والعامل ما تعله به اللام .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ خالدون ﴾ بالواو وهو بتقدير هو ﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدر مؤكد لنفسه أي لما هو كنفسه وهي الجملة الصريحة في معناه أعني قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ جنات النعيم ﴾ [لقمان : 8] فإنه صريح في الوعد .

وقوله تعالى : ﴿ حَقّ ﴾ مصدر مؤكد لتلك الجملة أيضاً إلا أنه يعد مؤكداً لغيره إذ ليس كل وعد حقاً في نفسه .

وجوز أن يكون مؤكداً لوعد الله المؤكد ، وأن يكون مؤداً لتلك الجملة معدوداً من المؤكد لنفسه بناء على دلالتها على التحقيق والثبات من أوجه عدة وهو بعيد .

(138/607)

وفي "الكشف" لا يصح ذلك لأن الأخبار المؤكدة لا تخرج عن احتمال البطلان فتأمل ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الذي لا يغلبه شيء ليمنع من انجاز وعده وتحقيق وعيده ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، ويفهم هذا الحصر من الفحوى ، والجملة

تذييل لحقية وعده تعالى المخصوص بمن ذكر المومى إلى الوعيد لأضدادهم .

﴿ خُلِقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ الخ

(139/607)

استئناف جيء به للاستشهاد بما فصل فيه على عزته عز وجل التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم وإتقان العمل وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله ، والعمد جمع عماد كأهب جمع أهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط إذا دعمته أي خلقها بغير دعائم على أن الجمع لتعدد السماوات ، وقوله تعالى : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ استئناف في جواب سؤال تقديره ما الدليل على ذلك ؟ فهو مسوق لا ثبات كونها بلا عمد لأنها لو كانت لها عمد رؤيت فالجملة لا محل لها من الإعراب والضمير المنصوب للسماوات والرؤية بصرية لا علمية حتى يلزم حذف أحد مفعوليها ، وجوز أن يكون صفة لعمد فالضمير لها أي خلقها بغير عمد مرئية على التقييد للرمز إلى أنه تعالى عمدها بعمد لا ترى وهو يعمد القدرة ، وروى ذلك عن مجاهد وكون عمادها في كل عصر الإنسان الكامل في ذلك العصر ولذا إذا انقطع الإنسان الكامل وذلك عند انقطاع النوع الإنساني تطوي السماوات كطي السجل للكتب كلام لا عماد له من كتاب أو سنة

فيما نعلم وفوق كل ذي علم عليم ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ بيان لصنعه تعالى البديع في قرار الأرض إثر بيان صنعه عز وجل الحكيم في قرار السماوات أي ألقى فيها جبالاً شوامخ أو ثوابت كراهة ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ أو لئلا تميد أي تضطرب ﴿ بِكُمْ ﴾ لو لم يلق سبحانه وتعالى فيها رواسي لما أن الحكم اقتضت خلقها على حال لو خلت معه عن الجبال لمادت بالمياه المحيطة بها الغامرة لأكثرها والرياح العواصف التي تقتضي الحكمة هبوبها أو بنحو ذلك ، وقد يعد منه حركة ثقيل عليها ، وقد ذكر بعض الفلاسفة أنه يلزم بناء على كرية الأرض ووجوب انطباق مركز ثقلها على مركز العالم حركتها مع ما فيها من الجبال بسبب حركة ثقيل من جانب منها إلى آخر لتغير مركز الثقل حينئذ إلا أنه لم يظهر ذلك لكون الأثقال المتحركة عليها كلا شيء بالنسبة إليها مع ما فيها ، ولعل من يعد حركة الثقيل عليها

من أسباب الميد لو خلت من الجبال يقول : لا يبعد حركة ثقيل عليها كما جرى من مكان إلى آخر فاجتمع حتى صار بحراً عظيماً مع ما ينضم إلى ذلك مما تنقله الأهوية من الرمال الكثيرة والتراب يكون له مقدار يعتقد به بالنسبة إلى الأرض خالية من الجبال فتتحرك

بحركته إلى خلاف جهته ، ثم إن الميد لولا الرواسي بنحو المياه والرياح متصور على تقدير كون الأرض كروية كما ذهب إليه الغزالي وكذا ذهب إلى كروية السماء ، وجاء في رواية عن ابن عباس ما يقتضيه وإليه ذهب أكثر الفلاسفة مستدلين عليه بما في التذكرة وشروحها وغير ذلك وهو الذي يشهد له الحس والحدس ، وعلى تقدير كونها غير كروية كما ذهب إليه من ذهب واختلفوا في شكلها عليه وتفصيل ذلك يطلب من محله ، ولا دلالة في الآية على انحصار حكمة إلقاء الرواسي فيها بسلامتها عن الميد فإن لذلك حكماً لا تحصى .

وكذا لا دلالة فيها على عدم حركتها على الاستدارة دائماً كما ذهب إليه أصحاب فيثاغورس ، ووراءه مذاهب أظهر بطلاناً منه .

نعم الأدلة النقلية والعقلية على ذلك كثيرة ﴿ وَبَثَّ فِيهَا ﴾ أي أوجد وأظهر ، وأصل البث الإثارة والتفريق ومنه ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ [القارعة : 6] و ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] وفي تأخيره إشارة إلى توقفه على إزالة الميد ﴿ مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ من كل نوع من أنواعها ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء ﴾ هو المطر والمراد بالسماء جهة العلو ، وجوز تفسيرها بالمظلة وكون الإنزال منها بضرب من التأويل ، وترك التأويل لا ينبغي أن يعول عليه إلا إذا وجد من الأدلة ما يضطرنا إليه لأن ذلك خلاف المشاهد ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي بسبب ذلك الماء ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي صنف ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي شريف كثير

المنفعة ، والالتفات إلى ضمير العظمة في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بهما لتكررهما مع ما فيهما من استقامة حال الحيوان وعمارة الأرض ما لا يخفى .

(141/607)

﴿ هذا ﴾ أي ما ذكر من السماوات والأرض وسائر الأمور المعدودة ﴿ خَلَقَ الله ﴾ أي مخلوقه ﴿ فَأَرُونِى ﴾ أي اعلموني وأخبروني ، والفاء واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا علمتم ذلك فأورني ﴿ مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به العبودية ، و ﴿ مَاذَا ﴾ يجوز أن يكون اسماً واحداً استفهاماً ويكون مفعولاً لخلق مقدماً لصدراته وأن يكون ﴿ مَا ﴾ وحدها اسم استفهام مبتدأ و ﴿ ذَا ﴾ اسم موصول خبرها وتكون الجملة معلقاً عنها سادة مسد المفعول الثاني لأروني ، وأن يكون ﴿ مَاذَا ﴾ كله اسماً موصولاً فقد استعمل كذلك على قلة على ما قال أبو حيان ويكون مفعولاً ثانياً له والعائد محذوف في الوجهين وقوله تعالى :

﴿ بَلِ الظالمون فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ اضراب عن تبكيتهم بما ذكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت

فينزجروا عنه ، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه ومعتدون عن الحد وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(142/607)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ الم * تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾

قد تقدم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة ومحلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده ، وبيان مرجع الإشارة أيضاً ، و ﴿ الحكيم ﴾ إما أن يكون بمعنى مفعل ، أو بمعنى فاعل ، أو بمعنى ذي الحكمة أو الحكيم قائله ، و ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ منصوبان على الحال على قراءة الجمهور .

قال الزجاج : المعنى : تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة ، وقرأ حمزة : " ورحمة " بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف ، أي هو هدى ورحمة ، ويجوز أن يكونا خبر تلك .

والمحسن : العامل للحسنات ، أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان : فقال : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه

فإنه يراك " ، ثم بين عمل المحسنين فقال : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزكواة وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ والموصول في محل جر على الوصف للمحسنين ، أو في محل رفع ، أو نصب على المدح أو القطع ، وخص هذه العبادات الثلاث ؛ لأنها عمدة العبادات ﴿ أولئك على هُدًى مّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ قد تقدم تفسير هذا في أوائل سورة البقرة ، والمعنى هنا : أن أولئك المتصفين بالإحسان وفعل تلك الطاعات التي هي أمهات العبادات هم على طريقة الهدى ، وهم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيري الدارين .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ : محل ﴿ ومن الناس ﴾ الرفع على الابتداء كما تقدم بيانه في سورة البقرة ، وخبره ﴿ من يشتري لهو الحديث ﴾ ، و " من " إما موصولة أو موصوفة ، و ﴿ لهو الحديث ﴾ : كل ما يلهي عن الخير من الغناء والملاهي والأحاديث المكذوبة وكل ما هو منكر ، والإضافة بيانية .

وقيل : المراد : شراء القينات المغنيات والمغنين ، فيكون التقدير : ومن يشتري أهل لهو الحديث .

قال الحسن : لهو الحديث : المعازف والغناء .

وروي عنه أنه قال : هو الكفر والشرك .

قال القرطبي : إن أولى ما قيل في هذا الباب هو : تفسير لهو الحديث بالغناء ، قال : وهو قول الصحابة والتابعين ، واللام في ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ للتعليل .

قرأ الجمهور بضم الياء من ﴿ ليضل ﴾ أي ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق ، وإذا أضل غيره فقد ضل في نفسه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وحميد ، وورش وابن أبي إسحاق بفتح الياء . أي ليضل هو في نفسه .

قال الزجاج : من قرأ بضم الياء ، فمعناه : ليضل غيره ، فإذا أضل غيره فقد ضل هو ، ومن قرأ بفتح الياء فمعناه : ليصير أمره إلى الضلال ، وهو وإن لم يكن يشتري للضلالة ، فإنه يصير أمره إلى ذلك ، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد ، ويؤيد هذا سبب نزول الآية وسيأتي .

قال الطبري : قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبد الله العنبري .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته إذ ليس شيء منها عليه حرام لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها ؟ قلت : قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم في الغناء وما استدل به المحللون له والمحرمون له

، وحققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها وتدبر معانيها إلى النظر في غيرها ، وسميتها : [إبطال دعوى الإجماع ، على تحريم مطلق السماع] فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغي فليرجع إليها .

ومحل قوله : ﴿ بغير علم ﴾ النصب على الحال ، أي حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه ، أو بحال ما ينفع من التجارة ، وما يضر ، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ قرأ الجمهور برفع : " يتخذها " عطفاً على ﴿ يشتري ﴾ فهو من جملة الصلة .

وقيل : الرفع على الاستئناف والضمير المنصوب في ﴿ يتخذها ﴾ يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها ، والأول أولى .

(144/607)

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش : ﴿ ويتخذها ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ يضل ﴾ ، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل ، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم ، والمعنى : أنه يشتري لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله واتخاذ السبيل هزواً ، أي مهزوءاً به ، والسبيل يذكر ويؤنث ، والإشارة بقوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ إلى من ، والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها ، والعذاب المهين : هو

الشديد الذي يصير به من وقع عليه مهيناً .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ﴾ أي وإذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزىء ﴿ ولى مُسْتَكْبِراً ﴾ أي أعرض عنها حال كونه مبالغاً في التكبر ، وجملة : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ في محل نصب على الحال ، أي كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها ، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع ، وجملة : ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ حال ثانية ، أو بدل من التي قبلها ، أو حال من ضمير يسمعها ، ويجوز أن تكون مستأنفة .

والوقر : الثقل ، وقد تقدم بيانه ، وفيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي أخبره بأن له العذاب البليغ في الألم ، ثم لما بيّن سبحانه حال من يعرض عن الآيات بيّن حال من يقبل عليها ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي آمنوا بالله وبآياته ولم يعرضوا عنها بل قبلوها وعملوا بها ﴿ لَهُمْ جنات النعيم ﴾ أي : نعيم الجنات فعكسه للمبالغة ، جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المهين ، وانتصاب ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ على الحال .

وقرأ زيد بن علي : " خالدون فيها " على أنه خبر ثان لأن ﴿ وَعْدَ الله حَقّاً ﴾ هما مصدران الأول مؤكد لنفسه ، أي وعد الله وعداً .

والثاني مؤكد لغيره ، وهو مضمون الجملة الأولى وتقديره : حق ذلك حقاً .

والمعنى : أن وعده كائن لا محالة ولا خلف فيه ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الذي لا يغلبه غالب ﴿ الحكيم ﴾ في كل أفعاله وأقواله .

ثم بيّن سبحانه عزته وحكمته بقوله : ﴿ خلِقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ العمد : جمع عماد ، وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد .

و ﴿ ترونها ﴾ في محل جرّ صفة ل ﴿ عمد ﴾ فيمكن أن تكون ثمّ عمد ، ولكن لا ترى . ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال ، أي ولا عمد ألبتة .

قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفاً ، أي ولا عمد ثم ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ في محل نصب على العلة ، أي كراهة أن تميد بكم .

والكوفيون يقدّرونه : لئلا تميد ، والمعنى : أنها خلقها وجعلها مستقرّة ثابتة لا تتحرّك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أي من كلّ نوع من أنواع الدوابّ ، وقد تقدّم بيان معنى البثّ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أي أنزلنا من السماء مطراً فأنبتنا فيها بسبب إنزاله من كلّ زوج ، أي من كل صنف ، ووصفه بكونه كريماً ؛ لحسن لونه وكثرة منافعه .

وقيل : إن المراد بذلك : الناس ، فالكريم منهم من يصير إلى الجنة ، واللئيم من يصير إلى

النار .

قاله الشعبي ، وغيره ، والأوّل أولى .

والإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى ما ذكر في خلق السموات والأرض ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ خَلْقُ الله ﴾ أي مخلوقه ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ من آلهتكم التي تعبدونها ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : فأروني أيّ شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله أو يقاربه ، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت .

(146/607)

ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر فقال : ﴿ بَلِ الظالمون فِي ضلال ﴾ فقرّر ظلمهم أوّلاً وضلالهم ثانياً ، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور ، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا يهتدي إلى الحق .

وقد أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ يعني : باطل الحديث .

وهو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم وصنيعهم في دهرهم .

وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ويكذب بالقرآن .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عنه في الآية قال : باطل الحديث وهو : الغناء ونحوه ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ قال : قراءة القرآن وذكر الله ، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في السنن عنه أيضاً في الآية قال : هو الغناء وأشباهه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : الجواري الضاربات .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن أبي الصهباء قال : سألت عبد الله بن مسعود عن قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ قال : هو والله الغناء .

ولفظ ابن جرير : هو الغناء ، والله الذي لا إله إلاّ هو ، يردّدها ثلاث مرات .

وأخرج سعيد ابن منصور وأحمد والترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القينات ولا تشتروهنّ ، ولا خير في تجارة فيهنّ وثمنهنّ حرام " في مثل هذا أنزلت هذه الآية ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ الآية ، وفي إسناده عبيد بن زحر عن عليّ بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن وفيهم ضعف .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله حرّم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها " ، ثم قرأ ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل " ورويا ه عنه موقوفاً .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما رفع أحد صوته بغناء إلاّ بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك " وفي الباب أحاديث في كل حديث منها مقال .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ قال : الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر ؛ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ : " إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل " وأخرج ابن أبي الدنيا ، والبيهقي عن نافع قال : كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق ، فسمع زمارة فوضع أصبعيه في أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع ، أتسمع ؟ قلت : لا ، فأخرج أصبعيه من أذنيه .

وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(148/607)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) ﴾

لما ذكر عذاب من يُضل عن سبيل الله اتبع ببشارة المحسنين الذين وصفوا بأنهم يقيمون الصلاة إلى قوله ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ [لقمان : 5] .

وانتصب ﴿ وعدَ الله ﴾ على المفعول المطلق النائب عن فعله ، وانتصب ﴿ حقاً ﴾ على الحال المؤكدة لمعنى عاملها كما تقدم في صدر سورة يونس .

وإجراء الاسمين الجليلين على ضمير الجلالة لتحقيق وعده لأنه لعزته لا يعجزه الوفاء بما وعَد ، ولحكمته لا يخطىء ولا يذهل عما وعد ، فموقع جملة ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾

موقع التذييل بالأعم .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

استئناف للاستدلال على الذين دأبهم الإعراض عن آيات الله بأن الله هو خالق المخلوقات فلا يستحق غيرهُ أن تثبت له الإلهية فكان ادعاء الإلهية لغير الله هو العلة للإعْراض عن آيات الكتاب الحكيم ، فهم لما أثبتوا الإلهية لما لا يخلق شيئاً كانوا كمن يزعم أن الأصنام مماثلة لله تعالى في أوصافه فذلك يقتضي انتفاء وصف الحكمة عنه كما هو منتف عنها .

ولذا فإن موقع هذه الآيات موقع دليل الدليل ، وهو المقام المعبر عنه في علم الاستدلال بالتدقيق ، وهو ذكر الشيء بدليله ودليل دليله ، فالخطاب في قوله ﴿ ترونها ﴾ و ﴿ بكم ﴾ للمشركين ، وقد تقدم في سورة الرعد (2) قوله : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ وتقدم في أول سورة النحل (15) قوله ﴿ وألقى في الأرض رواسيَ أن تَميدَ بكم ﴾ والمعنى خوفَ أن تميد بكم أو لئلا تُميدكم كما بين هنالك .

(149/607)

وتقدم في سورة البقرة (164) قوله : ﴿ وبثّ فيها من كل دابّة وتصريف الرياح ﴾ وقوله ﴿ أنزلنا من السماء ماء ﴾ وهو نظير قوله في سورة البقرة (164) ﴿ وما أنزل الله من

السماء من ماء ﴾ وقوله في سورة الرعد (17) ﴿ أنزل من السماء ماء فسالتْ أوْدِيَةٌ ﴾ والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله وأنزلنا ﴾ للاهتمام بهذه النعمة التي هي أكثر دوراناً عند الناس .

وضمير ﴿ فيها ﴾ عائد إلى الأرض .

والزوج : الصنف ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ في طه (53) وقوله ﴿ وأنبتت من كل زوج بَهيج ﴾ في سورة الحج (5) .

والكريم : النفيس في نوعه ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ إنِّي أُلقِيَ إليّ كتابٌ كريم ﴾ في سورة النمل (29) .

وقد أدمج في أثناء دلائل صفة الحكمة الامتنان بما في ذلك من منافع للخلق بقوله أن تميد بكم وبَث فيها من كل دابة ﴾ فإن من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحوم أوانسها ووحوشها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها وقرونها وأسنانها والحمل عليها والتجمل بها في مرابطها وغدوّها ورواحها ، ثم من نعمة منافع النبات من الحب والثمَر والكلأ والكمأة .

وإذ كانت البحار من جملة الأرض فقد شملَ الانتفاع بدواب البحر فالله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة فأرانا آثار الحكمة والرحمة .

وجملة ﴿ هذا خلق الله ﴾ إلى آخرها نتيجة الاستدلال بخلق السماء والأرض والجبال

والدواب وإنزال المطر .

واسم الإشارة إلى ما تضمنه قوله ﴿ خلق السماوات ﴾ إلى قوله ﴿ من كل زوج كريم .

﴾ والإتيان به مفرداً بتأويل المذكور .

والانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله ﴿ خلق الله ﴾ التفاتاً لزيادة التصريح بأن الخطاب وارد من جانب الله بقرينة قوله ﴿ هذا خلق الله ﴾ وكذلك يكون الانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله ﴿ ماذا خلق الذين من دونه ﴾ التفاتاً لمراعاة العود إلى الغيبة في قوله ﴿ خَلق الله .

(150/607)

﴾ ويجوز أن تكون الرؤية من قوله ﴿ فأروني ﴾ علمية ، أي فأَنْبِئُوني ، والفعل معلقاً عن العمل بالاستفهام بـ ﴿ ماذا ﴾ .

فيتعين أن يكون ﴿ فأروني ﴾ تهكماً لأنهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله زيادة على كون الأمر مستعملاً في التعجيز ، لكن التهكم أسبق للقطع بأنهم لا يتمكنون من مكافحة الله قبل أن يقطعوا بعجزهم عن تعيين مخلوق خلقه من دون الله قطعاً نظرياً .

وصوغ أمر التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز لاقتضائها الاقتناع منهم بأن

يحضروا شيئاً يدّعون أن آلهتهم خلقته .

وهذا كقول حُطائط بن يعفر النهشلي وقيل حاتم الطائي:

أريني جواداً مات هَزلاً لعلني . . .

أرى ما ترين أو بخيلا مخلَّدا

أي : أحضرني جواداً مات من الهزال وأرينيه لعلي أرى مثل ما رأيتيه .

والعرب يقصدون في مثل هذا الغرض الرؤية البصرية ، ولذلك يكثر أن يقول : ما رأتْ عيني ، وانظر هل ترى .

وقال امرؤ القيس:

فللَّه عيناً من رأى من تفرق . . .

أشتّ وأنأى من فراق المحصب

وإجراء اسم موصول العقلاء على الأصنام مجاراة للمشركين إذ يعدُّونهم عقلاء .

و﴿ مِنْ دونه ﴾ صلة الموصول .

و(دون) كناية عن الغير ، و ﴿ مِن ﴾ جارّة لاسم المكان على وجه الزيادة لتأكيد الاتصال بالظرف .

و﴿ بل ﴾ للإضراب الانتقالي من غرض المجادلة إلى غرض تسجيل ضلالهم ، أي في اعتقادهم إلهية الأصنام ، كما يقال في المناظرة : دع عنك هذا وانتقل إلى كذا .

و ﴿ الظالمون : المشركون .

والضلال المبين : الكفر الفظيع ، لأنهم أعرضوا عن دعوة الإسلام للحق ، وذلك ضلال ، وأشركوا مع الله غيره في الإلهية ، فذلك كفر فظيع .

وجيء بحرف الظرفية لإفادة اكتناف الضلال بهم في سائر أحوالهم ، أي : شدة ملابسته إياهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(151/607)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) ﴾

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات في مقابل الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ، وهذه سِمَة من سمات الأسلوب القرآني ؛ لأن ذكر الشيء مع مقابله يُوضِّح المعنى ويعطيه حُسْناً ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13-14]

فالجمع بين المتقابلات يُفرح المؤمن بالنعيم ، ثم يفرحه بأنْ يجد أعداءه من الكفار الذين غاظوه واضطهدوه وعذَّبوه يجدهم في النار .

وقلنا : إن الحق – سبحانه وتعالى – حينما يتكلم عن الإيمان يردفه بالعمل الصالح ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [لقمان : 8] لأن الإيمان أن تعلم قضايا غيبية فتُصدّق بها ، لكن ما قيمة هذا الإيمان إذا لم تنفذ مطلوبه ؟

وكذلك في سورة العصر : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [العصر : 1–3] ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه ، وإلا فما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة ، لكن لا تُوظف ما تؤمن به ، ولا تترجمه إلى عمل وواقع ؛ لذلك إنْ اكتفيتَ بالإيمان ككلمة تقال دون عمل ، فقد جعلت الإيمانَ حجة عليك لا حجةً لك .

ومعنى ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [لقمان : 8] أي : الصالح ، والحق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح ، فالشيء الصالح عليك أنْ تزيد من صلاحه ، فإنْ لم تقدر فلا أقلَّ من أنْ تدعَ الصالح على صلاحه فلا تفسده .

ثم يذكر سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النعيم ﴾ [لقمان : 8] فهي جنات لا جنة واحدة ، ثم هي جنات النعيم أي : المقيم الذي لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ الله حَقّاً . . . ﴾ .

حين نتأمل هذه الآيات نلمس رحمة الله بعباده حتى الكافر منهم الذي ضلَّ وأضلَّ ، ومع ذلك فالله رحيم به حتى في تناول عذابهم ، ألا ترى أن الله تعالى قال في عذابهم أنه مهين ، وأنه أليم ، لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود لنعيم الجنات ، كما أن العذاب جاء بصيغة المفرد ، أما الجنة فجاءت بصيغة الجمع ، ثم أخبر عنها أنها ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقّاً ﴾ [لقمان : 9]

والوعد يستخدم دائماً لِعَدةٍ بخير يأتيك ، وقلنا : إن العبد يعِد وقد لا يفي بوعده ؛ لأنه لا يملك كل مُقوّمات الوفاء ، أما الوعد إنْ كان من الله فهو محقق لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد ؛ لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد ؛ لأنه سبحانه ليس له شريك ، كالرجل الذي أراد أنْ يذم آخر فقال له : الدليل على أن الله ليس له شريك أنه خلقك ، فلو كان له شريك لقال له : لا داعي لأنْ تخلق هذا .

لذلك يعلمنا الحق – سبحانه وتعالى – أنْ نردف وَعْدنا بقولنا : إن شاء الله حتى نكون منصفين لأنفسنا من الناس ، ولا نُتهم بالكذب إذا لم نَفِ ، وعندها لي أن أقول : أردت ولكن الله لم يُرِد ، فجعلت المسألة في ساحة ربك عز وجل .

وبهذه المشيئة رحم الله الناس من ألسنة الناس ، فإذا كلفتني بشيء فلم أقضه لك فاعلم أن له قدراً عند الله لم يأتِ وقته بعد ، واعلم أن الأمر لا يُقْضي في الأرض حتى يُقْضي في

السماء ، فلا تغضب ولا تتحامل على الناس ، فالأمور ليست بإرادة الناس ، وإنما بإرادة الله .

لذلك حين تتوسط لأخيك في قضاء مصلحة وتُقْضي على يديك ، المؤمن الحق الذي يؤمن بقدر الله يتأدب مع الله فيقول : قُضِيْتْ معي لا بي ، يعني : شاء الله أنْ يقضيها فأكرمني أن أتكلم فيها وقت مشيئته تعالى ، كذلك يقول الطبيب المؤمن : جاء الشفاء عندي لا بي .

(153/607)

ولو فهم الناس معنى قدر الله لاستراحوا ، فحين ترى المجدّ العامل يُقْصي ويُبعد ، وحين ترى الخامل والمنافق يُقرّب ويعتلي أرفع المناصب فلا تغضب ، وإذا لم تحترمه لذاته فاحترم قدر الله فيه .

فالمسائل لا تجري في كَوْن الله بحركة (ميكانيكية) ، إنما بقدر الله الذي يرفع مَنْ يشاء ويضع مَنْ يشاء ، وله سبحانه الحكمة البالغة في هذه وتلك ، وإلا لقلنا كما يقول الفلاسفة : إن الله تعالى خلق القضايا الكونية ثم تركها للناس يُسيّرونها .

والحق سبحانه ما ترك هذه القضايا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾

[الشورى : 49-50] .

فبعد هذه الآية لا يقل أحد : إن فلاناً لا ينجب أو فلانه لا تنجب ؛ لأن هذه مرادات عليا لله تعالى ، ولو أن العقيم احترم قَدَر الله في العقم لجعل الله كل مَنْ يراهم من الأولاد أولاده ، وما دام الله تعالى قال ﴿ يَهَبُ ﴾ [الشورى : 49] فالمسألة في كل حالاتها هبة من الله تعالى لا دَخْلَ لأحد في الذكورة أو الأنوثة أو العقم . فلماذا – إذن – قبلتَ هبة الله في الذكور ، ولم تقبل هبة الله في العقم ؟

وسبق أن تحدثنا عن وَأْد البنات قبل الإسلام ؛ لأن البنت كانت لا تركب الخيل ، ولا تدافع عن قومها ، ولا تحمل السلاح . . إلخ ، فلما جاء الإسلام حرم ذلك وكرَّم المرأة ، وأعلى من شأنها ، لكن ما زالت المفاضلة قائمة بين الولد والبنت .

والآن احتدم صراع مفتعل بين أنصار الرجل وأنصار المرأة ، والإسلام بريء من هذا الصراع ؛ لأن الرجل والمرأة في الإسلام متكاملان لا متضادان ، وعجيب أنْ نرى من النساء مَنْ تتعصب ضد الرجال وهي تُجَنّ إنْ لم تنجب الولد ، وهذه شهادة منهن بأفضليته .

(154/607)

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يعلمنا أن مَنْ يحترم قدره في إنجاب البنات يقول الله له : لقد احترمتَ قدري فسوف أعطيك على قدرْي ، فيعطيه الله البنين ، أو يُيسِّر لبناته أزواجاً يكونون أبرَّ به من أولاده وأطوع .

ثم ألاَ ترى أن الله تعالى قدم البنات ، في الهبة ، فقال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ [الشورى : 49] لماذا ؟ لأنه سبحانه يعلم محبة الناس للذكور : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يتوارى مِنَ القوم مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ [النحل : 58-59] .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [لقمان : 9] العزيز الذي لا يغلب ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل ﴿ الحكيم ﴾ [لقمان : 9] أي : حين يعِد ، وحين يفي بالوعد .

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان الفطري بوجود الإله : ﴿ خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ . . . ﴾ .

أولاً : ذكر الحق سبحانه آية كونية لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفار أو من الملاحدة ، وهي آية موجودة ومُشَاهدة ، وبعد أن قال سبحانه أنا خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأْتِ مَنْ يعارضه فيقول : بل أنا خالق السماء والأرض .

وسبق أنْ قلنا : إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يَقُمْ لها معارض ، فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو الخالق فقد انتهتْ المسألة ، وإذا كان هناك خالق

غيره سبحانه فأين هو؟ هل درى أن واحداً آخر أخذ منه الخَلْق ، ولماذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه؟ أو أنه لم يَدْرِ بشيء فهو إله (نائم على ودنه) ، وفي كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد .

لذلك قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] ، فهذه شهادة الذات للذات ، ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

(155/607)

وسبق أن مثَّلنا لذلك – ولله المثل الأعلى – بجماعة جلسوا في مجلس فلما انفضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا في مجلسه ، وسألهم عنها فلم يقُلْ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال : والله لقد نسيت حافظة نقودي هنا ، فلا شكَّ إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدَّعها واحد آخر منهم .

والحق سبحانه يقول في إثبات هذه القضية : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] أي : لذهبوا يبحون عمَّنْ أخذ منهم الخَلْق والناس ، وأخذ منهم الألوهية .

فإنْ قالوا نحن آلهة لكن فوقنا إله أكبر يردُّ الحق عليهم : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51]

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان : 10] حين تدور في أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلّك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلمة ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان : 10] تحمل معنيين : إما هي فعلاً بغير عمد ، أو لها عمد لكن لا نراها ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان : 10] يعني : لا نرى لها عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم .

فإنْ قلت ، فما هذه العمد التي لا نراها ؟ البعض يقول : هي الجاذبية ، وهذا القول مجانب للصواب ، والحق سبحانه يكفينا مؤنة البحث في هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ . . . وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65]

إذن : لا نملك إلا أنْ نقول إنها ممسوكة بقدرة الله ، ولكي لا نحار في كيفية ذلك يُقرِّب الله لنا هذه المسألة بمثال مُشاهد لنا ، فالطير يمسكه الله في جو السماء :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله . . . ﴾ [النحل : 79]

وفي موضوع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] إذن : فهو سبحانه يمسكها بقانون ، لكن لا نعرفه نحن ولا ندركه .

والسماء في اللغة : كل مَا علاك فأظلّك ، فالغيم الذي يعلوك وتراه قريباً منك يُعد من السماء بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً ﴾ [لقمان : 10] والماء ينزل من الغيم ، لا من السماوات العلا ، والفرق بينهما أن الغيم تراه في مكان دون آخر ، وتراه مُتقطعاً منفطراً ، أمَّا السماء العليا فهي بشكل واحد ، لا ترى فيها من فطور .

وحين تكلم الحق سبحانه عن الأرض والسماء قال : إنها سبع سماوات ، ولم يقُلْ سبع أراضين ، بل ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلّك ، فالأرض كل ما أقلَّك ، لكن أين هذه الأرَضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه مرَّ بها في مرحلة المعراج فقال في الأولى كذا وكذا ، وفي الثانية كذا وكذا ، وما دامتْ السماء كل ما أظلك ، والأرض كل ما أقلك فالخَلْق في السماء الأولى مثلاً سماؤهم السماء الثانية ، وأرضهم سماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ ﴾ [لقمان : 10] أي : الجبال الراسية الثابتة المتصلة بالأرض اتصالاً وثيقاً بحيث لا تتخلخل منها ، والعلة في خَلْق الجبال الرواسي على الأرض ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان : 10] أي : تميل وتضطرب بكم ، ولو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتاجت إلى ما يثبتها .

(157/607)

إذن : فالأرض متحركة ، وما خُلِقت الجبال إلا لتثبيتها وضبط حركتها ، فدَّلت هذه الآية على صِدْق النظرية القائلة بدوران الأرض ، كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88]

إذن : فللجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض ، فإنْ قُلْتَ : ولماذا لا نراها ؟ نقول : لأن وحدة المكان تجعلك لا تدرك هذه الحركة ، فالمتحد في مكان لا تختلف مرائي الأشياء بالنسبة له

.

فلو تصوَّرنا أن هذا المسجد الذي يجمعنا صُمِّم على هيئة رَحَىً تدور بنا ، فهل نشعر بدورانه ونحن ندور بدورانه ؟ لا نشعر ، لماذا ؟ لأن مواقعنا من بعض ثابتة لا تتغير ، كذلك موقعنا من المكان ؛ لذلك لا نشعر بالحركة لكن نشعر بالحركة حين نقيس متحركاً بثابت ،

فلو فتحنا الباب مثلاً أو الشباك ورأينا ما هو خارج المسجد ، عندها نشعر أننا نتحرك .

إذن : لا يمكن لِمَنْ على الأرض أن يشعر بحركتها ؛ لأنه يتحرك معها ، وما دامت الجبال أوتاداً في الأرض وهي – أي الجبال – تمر مرَّ السحاب فلا بُدَّ أن الأرض كذلك تمر وتتحرك بنفس الحركة ، وحركة الجبال ليست ذاتية ، إنما هي تابعة لحركة الأرض ، والحق سبحانه شبَّه حركة الجبال بحركة السحاب ، والسحاب حركته غير ذاتية ، إنما هي تابعة لحركة الرياح .

ثم يذكر الحق سبحانه علة أخرى لخَلْق الجبال : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [لقمان : 10] وسبق أنْ أوضحنا أن الجبال تمثل مخازن للقوت الذي به قوام الحياة للإنسان وللحيوان والذي ينشأ من الزرع ، وبيَّنا أن الطبقة الخارجية للجبال تتفتتْ بعوامل التعرية ، ثم يحملها ماء المطر إلى الوديان فتزيد من خصوبة الأرض بمقدار كل عام ، ومن الجبال أيضاً يتكون الماء في الأنهار او في مسارب الأرض فنخرجه حين الحاجة إليه .

(158/607)

ومن حكمته تعالى أنْ جعل الجبال راسية ثابتة ، وجعلها صلدة وإلا لو كانت هشّة لأذابتها الأمطار وفتتها في عدة سنوات ، ثم حرمت الأرض من الخصوبة التي تستمدها من الجبال ؛

لذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] فمع زيادة السكان تزداد المساحة الخِصْبة التي يُكوّنها الغِرْين الذي يتفتت من الجبال عاماً بعد عام .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . ﴾ [فصلت : 9-10]

فالجبال جعلها الله راسية حتى لا تضطرب بنا الأرض ، وجعلها صلبة لأنها مخزن الخِصْب الذي يُمِدُّنا بالزرع الذي به قِوَام حياتنا .

ومن رحمة الله بالإنسان أنْ جعل فيه ذاتية استبقاء الحياة ، فإن مُنِع عنه الطعام أو الشراب تغذَّى من المخزون في جسمه ؛ فيأخذ أولاً من الدهن ، ثم من اللحم ، ثم من العظم ؛ لذلك قلنا : إن العظم هو آخر مخازن القوت في جسم الإنسان ، وفي ضوء ذلك نفهم قول سيدنا زكريا : ﴿ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي ﴾ [مريم : 4]

يعني : قد بلغتُ آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة .

فكان من رحمة الله بالخَلْق أنْ جعل حتى شَرَه الإنسان للطعام والشراب رحمة به ، حيث يتحول الزائد عن طاقته وحاجته إلى مخزون في جسمه ، فإذا انقطعتْ به السُّبُل أو تعذَّر عليه الطعام والشراب استمد مما في جسمه .

كذلك من رحمة الله بالإنسان أنْ جعله يصبر على الطعام إلى شهر ، ويصبر على الماء من

ثلاثة أيام إلى عشرة بحسب ما في جسمه من مخزون الطعام والشراب ، اما الهواء فلا يصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ؛ لذلك تتجلى رحمته تعالى وحكمته في خَلْقه بألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، فلو مَلكه عدوك لمتّ قبل أن يرضى عنك .

(159/607)

وقوله : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [لقمان : 10] بث أي : نشر ، والدابة : كل ما له دبيب على الأرض ، والدبيب بحسب ما يدبّ على الأرض ، وكل ما يمشي على الأرض له دبيب نسمعه في الحيوان الضخم مثلاً ، لكن لا نسمعه في النملة مثلاً ، فهي أيضاً لها دبيب بدليل قولنا : فلان يسمع دبّة النملة ، إذن : لها دبيب على الأرض ، لكن أذن مَنْ التي تستطيع أنْ تسمعه ؟

وقوله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [لقمان : 10] كل تعني سوراً كلياً يضم كل ما له حركة ودبيب على الأرض ، يعني : كل ما يقال له دابة بداية من النملة أو الفيروسات الآن إلى أكبر حيوان على الأرض .

وقوله (من) تتدرج من الصغير إلى الكبير فتدلُّ على الشمول .

ومن هذه الدواب ما أحله الله ومنها ما حرمه ؛ لذلك يقول البعض : ما دام الله حرَّم هذه

الحيوانات ، فما الضرورة في خَلْقها ؟ وهل كل شيء مخلوق يُؤكل ؟

لا ، ليس كل مخلوق من الحيوانات يؤكل ؛ لأن له مهمة أخرى يؤديها .

ولو تأملت ما حُرِّم عليك لوجدته يخدمك في ناحية أخرى ، فمنه ما يمد الحيوانات التي تأكلها ، ومنه ما فيه خاصية تحتاج إليها في غير الأكل ، فالثعبان مثلاً لا نرى فيه إلا أنه مخلوق ضار ، لكن ألم نحتَجْ إلى سُمِّه الآن ، ونجعله مَصْلاً نافعاً ؟ ألسنا ننتفع بجلوده ؟ الخ ، فإذا كنا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده في نواحٍ أخرى .

كذلك الخنزير مثلاً : البعض يقول : ما دام الله تعالى حرمه ، فلماذا خلقه ؟ سبحان الله ، هل خلق الله كل شيء لتأكله أنت ؟ ليس بالضرورة أنْ تأكل كل شيء ، لأن الله جعل لك طعامك الذي يناسبك ، أتأكل مثلاً البترول ؟ كيف ونحن نرى حتى السيارات والقطارات والطائرات لكل منها وقوده المناسب له ، فالسيارة التي تعمل بالبنزين مثلاً لا تعمل بالسولار . . الخ ، فربك أعطاك قُوتَك كما أعطى لغيرك من المخلوقات أقواتها .

(160/607)

لذلك ؛ إذا نظرت في غابة لم تمتد إليها يد الإنسان تجد فيها جميع الحيوانات والطيور والدواب والحشرات . . الخ دون أنْ تجد فيها رائحة كريهة أو منظراً مُنْفراً ، لماذا ؟

لأن الحيوانات يحدث بينها وبين بعضها توازن بيئي ، فالضعيف منها والمريض طعام للقوي ، والخارج من حيوان طعام لحيوان آخر . . وهكذا ، فهي محكومة بالغريزة لا بالعقل والاختيار .

وكل شيء لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير على أدقِّ نظام فلا تجد فيه فساداً أبداً إلا إذا طالتْه يد البشر ، ولك أنْ تذهب إلى إحدى الحدائق أو المنتزهات في شم النسيم مثلاً لترى ما تتركه يد الإنسان في الطبيعة .

لكن ، لماذا وُصِف الإنسان بهذا الوصف ؟ ولماذا قُرِن وجوده بالفساد ؟ نقول : لأَنه يتناول الأشياء بغير قانون خالقها ، ولو تناول الأشياء بقانون الخالق عز وجل ما أحدث في الطبيعة هذا الفساد .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان لا قدرةَ له على شيء من مخلوقات الله إلا إذا ذلَّلها الله له ويسّرها لخدمته ، بدليل أن الولد الصغير يركب الفيل ويسحب الجمل ويُنيخه ويحمله الأثقال في حين لا قدرةَ لأحدنا على ثعبان صغير ، أو حتى برغوث ، لماذا ؟ لأن الله تعالى ذلَّلَ لنا هذا ، ولم يُذلِّل لنا هذا .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : 10] من السماء : أي من جهة العلو ومن ناحية السماء ، وإلا فالمطر لا ينزل من السماء ، إنما من الغمام ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا . . ﴾ [لقمان : 10] أي : في الأرض : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [

لقمان : 10] زوج أي : نوع من النبات ، فهي كلمة تدل على مفرد ، لكن معه مثله ، والبعض يظن أنها تعني اثنين وهذا خطأ ؛ لذلك نقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوج رغم أنه مفرد ، لكن قُرِن بغيره .

(161/607)

وقال تعالى عن التكاثر : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ . . ﴾ [الذاريات : 49]

فَسمّي الذكر (زوج) وسمّي الأنثى (زوج) .

ومثلها كلمة (توأم) فهي تدل على مفرد ، لكن مفرد لم يُولَد وحده إنما معه غيره ، والبعض يقول (توأم) ويقصد الاثنين ، إنما الصواب أن نقول هما توأمان .

ووصف الحق سبحانه الزوج أي النوع من النبات بأنه ﴿ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : 10] لأنه يعطيك بكرم وسخاء ، فالحبة تعطيك سبعمائة حبة ، وهذا عطاء المخلوق لله ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن . . . ﴾ .

والكلام هنا مُوجَّه للمكابرين وللمعاندين الجاحدين لآيات الله : ﴿ هذا ﴾ [لقمان : 11] أي : ما سبق ذِكْره لكم من خَلْق السماوات بغير عمد ، ومن خَلَق الجبال الرواسي

والدواب وإنزال المطر وإحياء النبات . . الخ .

هذا كله ﴿ خَلْقُ الله . . . ﴾ [لقمان : 11] فلم يدَّعِهِ أحد لنفسه ، وليس لله فيه شريك ﴿ فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونه . . ﴾ [لقمان : 11] أي : الذين اتخذتموهم شركاء مع الله ، ماذا خلقوا ؟

وليس لهذا السؤال إجابة عندهم ، حيث لا واقع له يستدلون به ، ولا حتى بالمكابرة ؛ لأن الحق أبلج والباطل لجلج ، لذلك لم نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أن يقول آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

(162/607)

والحق سبحانه في الرد عليهم يبين لهم أن المسألة لا تقف عند عدم قدرتهم على الخَلْق ، إنما لا يعرفون كيف خُلقوا هم أنفسهم : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 11] وفي قول الله ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] دليل على صِدْق القرآن ومظهر من مظاهر إعجازه ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أنه سيُوجد مُضلون يضلون الناس في مسألة الخَلْق ، ويصرفونهم عن الحق بكلام باطل .

وفعلاً صدق الله وسمعنا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، وسمعنا مَنْ يقول إن الإنسان في أصله قرد . . الخ ، ولولا هذه الأقاويل وغيرها ما صدقت هذه الآية ، ولجاء أعداء الإسلام يقولون لنا : أين المضلون الذين أخبر عنهم القرآن ؟

فكأن كل كلام يناقض ﴿ هذا خَلْقُ الله . . ﴾ [لقمان : 11] هو كلام مُضِل ، وكأن هؤلاء المضلين – في غفلة منهم ودون قصد – يؤيدون كلام الله ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51]

ونجد هذه المسألة أيضاً في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يطلع علينا من حين لآخر مَنْ ينكر سنة رسول الله ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه .

وعندها نقول : سبحان الله ، كأن الله تعالى أقامكم دليلاً على صِدْق رسوله ، فقد أخبر الرسول عنكم ، وعما تقولونه في حَقِّ سنته ، حيث قال : " يوشك رجل يتكئ على أريكته ، يُحدَّث بالحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه " .

ومعنى : ﴿ هذا خَلْقُ الله ﴾ [لقمان : 11] أي : مخلوقاته ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ . . ﴾ [لقمان : 11] ولن نطلب منك خَلْقاً كخَلْق السماء والأرض والجبال ، ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل اختلقوا أقلّ شيء في الموجودات التي ترونْها ، وليس هناك أقل من الذباب : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . ﴾ [الحج : 73] بل وأبلغ من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73]

ثم يختم الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ بَلِ الظالمون فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان : 11] أي : ضلال محيط بهم من كل اتجاه ، والضلال المبين المحيط لا تُرْجى معه هداية ، فلن يهتدي هؤلاء ، وما عليك إلا أنْ تصبر على دعوتك يا محمد حتى يُبدلك الله خيراً من هؤلاء ، ويكونون لك جنوداً يؤمنون بك ، وينصرون دعوتك . وقد كان . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(164/607)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن دينا رضي الله عنه قال : ﴿ جنات النعيم ﴾ بين جنات الفردوس ، وبين جنات عدن ، وفيها جوار خلقن من ورد الجنة . قيل : ومن يسكنها ؟ قال : الذين هموا بالمعاصي ، فلما ذكروا عظمتي راقبوني ، والذين انثنت أصلابهم في خشيتي .

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿ هذا خلق الله ﴾ أي ما ذكر من خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من الدواب ، وما أنبت من كل زوج ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ يعني الأصنام . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ :

من بابِ الإِضافةِ بمعنى " مِنْ " لأنَّ اللهو يكون حديثاً وغيره كبابِ ساجٍ وجُبَّةِ خَزٍّ . وقيل : هو على حذف مضاف أي : يشتري ذواتِ لَهْوِ الحديثِ ؛ لأنها نزلتْ في مشتري المغنّيات . والأول أُبلغُ .

قوله : " لِيُضِلَّ " قرأ ابن كثير وأبو عمرو " لِيَضِلَّ " بفتح حرفِ المضارعةِ . والباقون بضمّه ، مِنْ أضَلَّ غيرَه ، فمفعولُه محذوفٌ . وهو مُسْتَلْزِمٌ للضلالِ ؛ لأنَّ مَنْ أضَلَّ فقد ضَلَّ مِنْ غيرِ عكسٍ . وقد تقدَّمَ ذلك في سورة إبراهيم . قال الزمخشري هنا : " فإنْ قلت : القراءةُ بالرفعِ بَيِّنَةٌ ؛ لأنَّ النَّضِرَ كان غرضُه باشتراءِ اللَّهْوِ أن يَصُدَّ النَاسَ عن الدخولِ في الإِسلام واستماعِ القرآن ويُضِلَّهم عنه فما معنى القراءةِ بالفتح ؟ قلت : معنيان ، أحدُهما : ليَثْبُتَ على ضلالِه الذي كان عليه ولا يَصْدِفَ عنه ، ويَزِيدَ فيه ويَمُدَّه ؛ فإن المخذولَ كان شديدَ الشَّكيمةِ في عداوةِ الدين ، وصَدِّ الناسِ عنه . الثاني : أَنْ يُوْضَعَ " لِيَضِلَّ " موضعَ لِيُضِلَّ ؛ مِنْ قِبَلِ أنَّ مَنْ أَضَلَّ كان ضالاًّ لا محالةَ فدَلَّ بالرَّديفِ على المَرْدُوف " .

قوله : " بغيرِ عِلْمٍ " حالٌ أي : يشتري بغيرِ علمٍ بأحوالِ التجارة حيث اشترى ما يَخْسَرُ فيه الدارَيْنِ .

قوله : وَيَتَّخِذَها " قرأ الأخوانَ وحفصٌ بالنصب عطفاً على " لِيُضِلَّ " فهو علةٌ كالذي قبلَه . والباقون بالرفع عطفاً على "يَشْتري " فهو صلةٌ . وقيل : الرفعُ على الاستئنافِ من غير عطفٍ على الصلةِ . والضميرُ المنصوبُ يعود على الآيات المتقدّمةِ أو السبيلِ ؛ لأنه يُؤَنَّثُ ، أو الأحاديثِ الدال عليها " الحديث " لأنه اسمُ جنسٍ .

(166/607)

قوله : " أولئك لهم " حُمِلَ أولاً على لفظ " مَنْ " فَأُفْرِدَ ، ثم على معناها فجُمِعَ ، ثم على لفظِها فأُفْرِد في قوله : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ ﴾ . وله نظائرُ تقدَّمَ التنبيهُ عليها في المائدة ، عند قولِه تعالى : ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 60] . وقال الشيخ : " ولا نعلم جاءَ في القرآن ما حُمِلَ على اللفظ ثم على المعنى ثم على اللفظ غيرَ هاتين الآيتين " . قلت : وُجِدَ غيرُهما كما قَدَّمْتُ التنبيهَ عليه في المائدة .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ : حالٌ مِنْ فاعل " وَلَّى " أو مِنْ ضمير " مُسْتَكْبِراً " .

قوله : ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ حالٌ ثالثةٌ أو بدلٌ مِمَّا قبلها ، أو حالٌ مِنْ فاعل "يَسْمَعْها " ،

أو تبيينٌ لما قبلها . وجوّز الزمخشريُّ أَنْ تكونَ جملتا التشبيهِ استئنافيتين .

خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

قوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ : هو حالٌ . وخبرُ "إنَّ" الجملةُ مِنْ قولِه : "لهم جَنَّاتُ" .

والأحسنُ أَنْ يُجْعَلَ "لهم" هو الخبرَ وحده ، و "جناتُ" فاعلٌ به . وقرأ زيدُ بن علي "خالدون" بالواو فيجوزُ أَنْ يكون هو الخبرَ ، والجملة - أو الجارُّ وحده - حالٌ . ويجوز أَنْ يكونَ "خالدون" خبراً ثانياً لـ إنَّ .

قوله : "وَعْدَ اللَّهِ" مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسِه لأنَّ قوله : "لهم جنات" في معنى : وَعَدَهم اللَّهُ ذلك . و "حَقًّا" مصدرٌ مؤكِّدٌ لغيره ، أي : لمضمونِ تلك الجملةِ الأولى ، وعاملُهما مختلِفٌ : فتقديرُ الأولِ : وَعَدَ اللَّهُ ذلك وَعْداً ، وتقديرُ الثاني : أحقُّ ذلك حقاً .

(167/607)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)

قوله : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ : تقدَّم في الرعد .

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)

قوله : ﴿ مَاذَا خَلَقَ ﴾ : " ما " استفهامٌ . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في البقرة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 60.63 ﴾

(168/607)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) ﴾

﴿ ءَامَنُواْ ﴾ : صَدَّقوا ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ : تَحَقَّقُوا ؛ فاتصافُ تحقيقِهم راجعٌ إلى تصديقهم ، فَنَجَوْا وسَلِمُوا ؛ فهم في راحاتهم مقيمون ، دائمون لا يَبْرَحُون .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

أمسك السمواتِ بقدرته بغير عِماد ، وحفَظَهَا لا إلى سِناد أو مشدودةً إلى أوتاد ، بل بحُكْم الله وبتقديره ، ومشيئته وتدبيره .

﴿ وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ . . . ﴾ في الظاهر الجبال ، وفي الحقيقة الأَبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق ، بهم يقيهم ، وبهم يَصرِف البَلاءَ عن قريبهم وقاصيهم .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . . ﴾ المطر من سماء الظاهر في رياض الخُضْرَة ؛ ومن سماء

الباطن فى رياض أهل الدنوّ والحَضْرَة .

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)

هذا خَلْقُ الله العزيز في كبريائه ، فأروني ماذا خَلَقَ الذين عَبدْتم من دونه في أرضه وسمائه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 129.130 ﴾

(169/607)

" من صور الإعجاز فى القرآن "

- قانون الطاقة المتاحة وحتمية الخلق

ينص قانون الطاقة المتاحة إلى أن جزيئات المادة تتجه نحو الفوضى مع مرور الوقت، والنظام الفريد في الكون دليل واضح على وجود من يحفظ هذا النظام ويديره ألا وهو الله سبحانه وتعالى قال الله تعالى في كتابه العزيز: (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[يس : 40]

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: (ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) [الأنعام: 102] .

وقال تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)[الزمر : 62] .

كل يوم يزيد إيماننا بالله سبحانه وتعالى من كثرة الآيات الجلية التي نراها في الآفاق والأنفس، ومن الأدلة اليقينية على وجد الله سبحانه قانون الطاقة المتاحة أو ما يعرف بـ (القانون الثاني للحرارة الديناميكية) Second law of thermodynamics الذي سوف نتناوله اليوم بشيء من التفصيل .

ينص هذا القانونعلى أن الحرارة تنتقل دائماً من (وجود حراري) إلى (عدم حراري) ، والعكس غير ممكن وهو أن تنتقل هذه الحرارة من (وجود حراري قليل) أو (وجود حراري عدم) إلى (وجود حراري أكثر) ، فإن ضابط التغير هو التناسب بين (الطاقة المتاحة) و (الطاقة غير المتاحة) أي طاقة الكون تتبدل باستمرار وبناء على هذا الكشف العلمي الهام فإن (عدم كفاءة عمل الكون) يزداد يوما بعد يوم، ولابد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة (للحياة والعمل) ، وسيترتب على ذلك أن تنتهي العمليات الكيماوية والطبيعي، وتنتهي –تلقائيا –مع هذه النتيجة (الحياة) .

(170/607)

وبما أنالعمليات الكيماوية والطبيعية جارية وأن الحياة قائمة، فإن هذا يثبت قطعاً أن الكون ليس بأزلي، إذ لو كان الكون أزليا لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد بناء

على هذا القانون، ولما بقى في الكون بصيص من الحياة فمثلا الشمس تفقد حوالي 554مليون طن من كتلتها كل ثانية لتتحول إلى طاقة فلو كان الكون أزلي لأحترقت الشمس بالكامل منذ زمن طويل كما ينص القانون الثاني للحرارة الديناميكية إلى أن جزيئات المادة تتجه نحو الفوضى والانحلال مع مرور الوقت، ولكن النظام البديع في هذا الكون يدل على انه هناك من يصون هذا النظام ويحافظ عليه وهذا دليل واضح على وجود خالق لهذا الكون .

يقولعالم الحيوان الأمريكي الأستاذ (إدوارد لوثر كسيل) :

تحرق الشمس من مادتها حوالي 554 طن في كل ثانية لتتحول هذه المادة إلى طاقة فلو كان هذا الكون أزلي لاحترقت الشمس منذ زمن بعيد

(وهكذا أثبتت البحوث العلمية –دون قصد –أن لهذا الكون (بداية) فأثبتت تلقائيا وجود الإله، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولابد أن يحتاج إلى المحرك الأول–الخالق الإله) (1) .

وقد قال نفس الكلام السير جيمس: (تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغيير الحرارة Entropy سوف تستمر حتى تنتهي طاقتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها ، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر

فيها . إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ومن ثم لابد لها من بداية ولابد أنه قد حدثت عملية في الكون، يمكن أن نسميها (خلقا في وقت ما) حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليا)(2) .

ويقول العالم الفيزيائي (Frederick Bermham) مؤلف كتاب تاريخ العلم (Science historian) :(في الوقت الحالي الأوساط العلمية تعتبر فكرة خلق الله للكون فكرة محترمة أكثر من أي وقت مضى منذ مئات السنين) . (3)

(171/607)

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) [محمد : 19] . صدق الله العظيم

بقلم فراس نور الحق

مدير موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

quranmiracles@gmail.com

المصادر:

كتاب الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان

http://www.witnesscreation.com/space/lawsofscience.php

http://www.al-jazirah.com/magazine/17122002/alm32.htm

الصور من موقع الموسوعة الحرة

الهوامش:

(1) The Evidence of God, p. 51.

(2) The mysterious universe , p .133

(3)

http://www.witnesscreation.com/space/lawsofscience.php

0-الاختراعات الحديثة تقليد لخلق الله

ظظظد / مروة عزمى جنينة

قسم الحيوان الزراعي - كلية الزراعة

- جامعة المنصورة- مصر

Marwaaz2002@yahoo.com

قال تعالى:(قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) .

عندما ننظر لعصر التقدم والتكنولوجيا الذي نعيشه الآن ونقارن ذلك بالسنوات الماضية نقف في ذهول واستعجاب ! ! ! . . . . فمنذ عقود ماضية كان يحلم العلماء بوسيلة مواصلات سريعة وآمنة أسرع من الدابة فإذا بمن يصنع لنا السيارات ثم فاق خيال العلماء لأكثر من ذلك وأرادوا وسيلة أسرع من السيارة والقطار فإذا بصناعة الطائرات والتي أصبحت حقيقة بعد أن كانت حلما . . . . ولم يتوقف الحلم لصناعة شكل واحد من الطائرات بل ادخلوا عليها تعديلات كثيرة ليتلاءم شكل جناح الطائرة مع السرعة والمسافة المقطوعة في الطيران . . . . . وآخر فكر بعمق كيف أقوم بحفظ هذا الكم الكبير من المعلومات والعمليات الحسابية واستردها في اى وقت أشاء فإذا بتكنولوجيا صناعة الكمبيوتر . . . . أما إذا وصلنا لمجال الطب فقد فاق تفكير علمائنا حدود الخيال فهذه

كلية صناعية . . .وهذا قلب صناعي . . . . .وتلك مفصل صناعي . . . . .وذاك أعين صناعية . . .ترى وماذا بعد ؟ ؟ ؟ ! ! ! !

إذا توقفنا قليلا على الأمثلة السابقة وتساءلنا :-

من أين استوحى هؤلاء العلماء أفكارهم ؟ ؟ ؟ هل هو ذكاء خارق ؟ ؟ ؟ أم الهام فطرى ؟ ؟ ؟ أم قدرات خاصة ؟ ؟ ؟ أم ماذا ؟ ؟ ؟

الإجابة أحبائي في الله إنهم استوحوا أفكارهم العبقرية والتي اذهلت البشر على مر السنين في شتى المجالات . . . .من خلق وإبداع الله عز وجل لمخلوقاته وهذا يطلق عليه لفظ التقنية أو التكنولوجيا الطبيعية (Bionics) :إي تقليد الطبيعة للاستفادة منها في مجالات التكنولوجيا المختلفة .

اختراع الطائرات اعتمد على تقليد الطيور

واليكم الأمثلة التي توضح ذلك:-

أجنحة الطيور . . . .وصناعة الطائرات:-

عندما فكر المخ البشرى في صناعة الطائرة شاهد الطيور وهى تحلق بأجنحتها فى الفضاء الفسيح ومن هنا جاء بفكرة الطيران وكيف يصنع تركيب يشبه جناح الطائر ويكون خفيفا ومتزنا فى الهواء ومرت الفكرة بمراحل عديدة إلى أن وصلت إلى صناعة الطائرات والتطورات الهائلة التى دخلت علي صناعتها ليتناسب حجم الطائرة وحجم الجناح مع المسافة التي تطيرها الطائرة وهذا تقليد أيضا لأجنحة الطيور وحجمها وحجم المسافة التي يطيرها الطائر .

سطح زهرة اللوتس(lotus flower) . . .وهندسة الأسطح والجدران:

عند فحص علماء النبات لسطح زهرة اللوتس تحت المجهر الالكتروني وجدوا أن الخلايا النباتية لسطح زهرة اللوتس تتكون من أشكال هندسية تنتظم بشكل محدد هذا الشكل الطبيعي يجعلها تتخلص من الأتربة طبيعيا . . . ومن هنا فكر العلماء بتقليد هذا الإبداع الربانى فى بناء الجدران وأرضية البلاط ليتخلص من الأتربة والقاذورات آليا بنفس فكرة زهرة اللوتس .

صورة لزهرة اللوتس

صورة لانسياب الماء عبر الزهرة بشكل لولبي

صورة لسطح الزهرة بالمجهر

أجنحة حشرات أبو دقيق . . . . واستخدام الفوتونات كناقل للمعلومات بدلا من الالكترونات:

تتميز أجنحة الحشرات المسماة أبو دقيق butterfly بقدرة أجنحتها على إنتاج ألوان زاهية ومشرقة من خلال عملية فيزيقية تسمى Nanostructures وهذا الإعجاز الرباني جعل العالم جورج باركر يستخدم تكنولوجيا الفوتونات كناقل للمعلومات بدلا من الالكترونات .

حشرة أبو دقيق

صورة لقطعة من الجناح بالمجهر الإلكتروني

البكتيريا الأرجوانية . . . . . ووقود المستقبل:

الشكل يبين العلاقة التكافلية بين البكتريا الأرجوانية والطحالب الخضراء لإنتاج الهيدروجين

(174/607)

البكتيريا الأرجوانية(Nostoc muscorum) نوع من البكتيريا تقوم بتثبت النتروجين الجوى وإنتاج الامونيا التي تعتبر مخصب للتربة الزراعية أما في حالة عدم توافر النتروجين الجوى فإنها تقوم بإنتاج الهيدروجين من خلال علاقة تكافلية مع نوع من الطحالب الخضراء(green algae) . والهيدروجين يعتبره العلماء وقود المستقبل ومن هذه الفكرة قام العلماء بإنتاج الهيدروجين صناعيا من خلال تكنيك يسمى(Nostoc muscorum) والتي استوحت فكرته من خلال الآلية الطبيعية التي وهبها الله سبحانه وتعالى للبكتيريا الأرجوانية والطحالب الخضراء .

المخ البشرى . . . . .وجهاز الكمبيوتر:

من نعم الله على الإنسان نعمه العقل والتفكير والاحتفاظ بالمعلومات داخل المخ والذي يهيمن على جميع العمليات الحيوية داخل الجسم . . . . . ومن هنا جاءت فكرت صناعة أجهزة الكمبيوتر والتي تعتمد على تخزين وحفظ المعلومات التى يغذى بها الإنسان جهاز

الكمبيوتر ليحتفظ بها ويسترجعها فى اى وقت .

الكلى والقلب والمفاصل الصناعية . . . . . وعالم الطب

أما ما حدث من طفرة هائلة في مجال الطب من زراعة كلى صناعية بدلا من الطبيعية التي توقفت عن العمل أو قلب صناعي أو مفصل صناعي أو . . . أو . . . فجميع هذه الأعضاء الصناعية تقوم نوعا ما بمهام العضو الطبيعي . . ولكن من أين جاء الأطباء بالتركيب الدقيق لهذه الأعضاء الصناعية ؟ ؟ ؟ بالطبع من تقليد خلق الله عز وجل فهم يقلدون ميكانيكية عمل العضو الطبيعي وشكله وحجمه للمساعدة على علاج المرضى .

لكن هل صنع البشر كصنع الله ؟ ؟ ؟

بالطبع لا . . . . . لهذا أسال كل من ينكرون وجود الله عز وجل ويقولون أن هذا الكون خلق من الطبيعة . . . نقول لهم ومن خلق هذه الطبيعة وهذه المخلوقات التي لا حصر لها ولا عدد ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ يصمتون كان على رؤوسهم الطير . . . . .

نقول لهم انه الله الحق الخالق البارئ المصور العزيز الجبار الذي خلق كل شيء بقدر ونظام محكم لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى وها انتم كل يوم في شتى مجالات العلم تكتشفون بأنفسكم قدرة الخالق عز وجل وتكتشفون أن هذا الكون لم يخلق عبثا وإنما خلق بنظام محكم لا عوج فيه وان خالق هذا الكون واحد احد لا ثاني له .

قال تعالى:

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [لقمان : 11]

سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد . (فصلت: 53)

0-نظام العناصر الدورية وحتمية الخالق

ديمتري ماندليف مكتشف النظام الدوري للعناصر الكيميائية في الطبيعة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [الذاريات] .

كم هي كثيرة الآيات والبراهين العلمية الدالة على وجود خالق حكيم بديع للسماوات

والأرض، واليوم سنتناول أحد تلك البراهين العلمية وهي نظام العناصر الدورية الذي أكتشفه العالم الروسي ديمتري ماندليف (Dmitri Mendeleev) .

(176/607)

إن أول شيء يشاهده الطالب في معمل الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها ، وقد وضع العالم الروسي (ماندليف) خريطة للعناصر الكيماوية بمقاديرها الجوهرية وسميت ب(الخريطة الدورية) Periodic Chart، وفى ذلك الوقت لم تكن كل العناصر قد تم كشفها حتى تملأ كل الخانات الموجودة في الخريطة، فتركها (ماندليف) خالية؛ إلى أن ملأها العلماء فيما بعد ، كما تخيلها العالم الروسي من قبل كشفها بسنين طويلة، وهذه الخريطة تحوى جميع العناصر الجوهرية بأرقام وقوائم مختلفة . ومعنى الأرقام الجوهرية هو العدد الخاص الذي يوجد في مركز الذرة، من الشحنات الكهربية الإيجابية (البروتون) وهذا العدد هو الفارق بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر؛ فالهيدروجين الذي نعتبره أبسط عنصر يوجد في مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربية الإيجابية، وكذلك توجد في العنصر المسمى (هيليم) شحنتان، وفى (ليثيم) ثلاث شحنات . وما كان لنا أن نتمكن من وضع خرائط العناصر المختلفة إلا بناء على قوانينها الرياضية العجيبة . وهل هناك مثال

للضبط أفضل من أننا عثرنا على العنصر رقم (101) بمجرد معرفة شحناته الكهربية الخمسة عشر ؟ ! !

صورة للجدول الدوري الذي أكتشفه ماندليف

ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع في الطبيعة عبارة: (الصدفة الدورية) Periodic Chance وإنما هو (القانون الدوري) Periodic Law . وليس من الممكن أن تنكر لما تطلبه هذه الضوابط والنظم من وجود إله مبدع للكون . فإن عدم إيمان العلم الحديث بالإله إنكار في الواقع لكشوفه كنتيجة حتمية !

بقول عالم الطبيعة الأمريكي (جورج إيرل ديفيس) :

)

(177/607)

لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله . وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله) ؛ ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيبا : إلها غيبياً ومادياً في آن واحد ! ! إننى أفضل أن أؤمن

بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومدبره ومديره، بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات)(The Evidence of God p. 71,) .

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿ الطور/35 ﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿ الطور/36 ﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿ الطور/37 ﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿ الطور/38 ﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿ الطور/39 ﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿ الطور/40 ﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿ الطور/41 ﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿ الطور/42 ﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ الطور/43 ﴾ .

إعداد فراس نور الحق

مدير موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

quranmiracles@gmail.com

المراجع :

كتاب الإسلام يتحدى تأليف وحيد الدين خان

الموسوعة الحرة

0-مناقير الطيور آية من آيات الله

بقلم د/ مروة عزمى جنينة

كلية الزراعة –جامعة المنصورة–مصر

marwaaz2002@yahoo.com

قال تعالى : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم)

العنكبوت: 60

(178/607)

إن الكون الذى حولنا يسبح بحمد الخالق عز وجل, ويوجد على كوكب الأرض الملايين من الكائنات الحية الحيوانية والتي حباها الله سبحانه وتعالى بالعديد من التحورات والتراكيب التي تلائم طريقة وطبيعة تغذيتها . . . .ففي الحيوانات اللافقارية مثل القواقع(الحلزونات) نجد أن الله حباها بتركيب يسمى آلة البشر موجود في تجويفها الفمى وهذا التركيب يحمل مجموعة من الأسنان الموجودة في عدة صفوف تستخدمها في بشر الأجزاء النباتية أو

افتراس حيوانات أخرى . . . . . أما الحيوانات الثديية مثل الأسود والنمور نجد أن الله عز وجل قد حباها بأسنان وقواطع حادة لتستخدمها في تمزيق وتقطيع فرائسها المختلفة . . . وإذا انتقلنا إلى الزواحف مثل التماسيح نجد أن فمها الكبير المتسع مزود بمجموعة كبيرة من الأسنان الكبيرة جدا والحادة والقوية التي تستخدمها في نهش أجزاء فريستها وتقطيعها ثم ابتلاعها . . . . أما طائفة الطيور فقد ذودها الله جل في علاه في مقدمة منطقة الرأس بتراكيب تسمى (المناقير) والتي تختلف في الشكل والحجم حسب طبيعة غذاء الطائر وسلوكه والبيئة التي يعيش فيها لتؤدى وظائف متنوعة مثل التقاط الغذاء والدفاع وبناء الأعشاش وتنظيف الريش وتنسيقه . . . . .

تعالوا احبائى نشاهد عظمة الله في تنوع أشكال المناقير لتلاءم طبيعة غذاء كل طائر :

*الطيور التي تتغذى على الحبوب: كالعصافير والحمام والببغاء يكون المنقار سميكا ومخروطي الشكل ويستدق بشكل مفاجئ ، وهذا النوع من المناقير يساعد في التقاط البذور وفي تقشيرها وكذلك استخراج البذور من المخاريط النباتية .

*الطيور التي تتغذى على اللحوم: كالصقور فيكون طرف منقارها حادا ومدببا على شكل الخطاف ليساعدها في تمزيق اللحوم إلى قطع صغيرة ملائمة للبلع .

* الطيور التي تتغذى على السمك: مثل طائر مالك الحزين تمتاز بمنقار طويل وطرفه مدبب كطرف الحربة لتقوم باصطياد الأسماك من الماء . . . . أما البجع والذي يتغذى أيضا على السمك نجد أن فراغ الفم يمتد من أسفل ليكون جراب يخزن فيه السمك الذي يقوم باصطياده ويسع هذا الجراب لحوالي 16 رطل من السمك .

* الطيور الناقرة للخشب: مثل طائر ناقر الخشب والتي تمتاز بمنقار قوي يشبه الأزميل قادر على نقر الخشب واختراق الطبقة الفلينية للأشجار للبحث عن الحشرات المتواجدة في الثقوب .

* الطيور المائية: كالبط مثلا يتميز منقارها بأنه طويل ونهايته عريضة كما يوجد عليه صفائح مثقبة لتصفية المواد التي يحتويها الماء .

* الطيور الماصة للرحيق: مثل طائر الطنان والذي يقوم بامتصاص الرحيق من الأزهار الطويلة العنق حيث يتميز الطائر بوجود منقار أنبوبي طويل جدا وحاد يدفعه في داخل قلب الزهرة لامتصاص الرحيق ويعتبر المنقار هنا أيضاً وسيلة هامة لتلقيح الزهور المختلفة .

* الطيور التي تعيش على الشواطئ أو التي تخوض في الماء: مثل طائر الشنقب (الجهلول) تستعمل منقارها الطويل والرفيع للنبش في الطين أو الرمل بحثا عن الغذاء .

*الطيور التي تلتقط الحشرات من أوراق النباتات: مثل الهدهد يكون منقارها رفيعا ومدببا كالملقط

*والطيور التي تلتقط الحشرات وهي طائرة: مثل طائر السنونو تتميز بمنقار مضغوط من أعلى للأسفل ويصل أقصى عرض له عند قاعدته .

صورة لطائر الببغاء الذي يتغذى على الحبوب

صورة للصقر الذي يتغذى على اللحم

صورة لطائر مالك الحزين الذي يتغذى على السمك

صورة لنقار الخشب الذي يتغذى على الحشرات التي تعيش داخل الأشجار

صورة لطائر البط

صورة لطائر الطنان الذي يعيش على رحيق الأزهار

طائر الهدهد الذي يعيش على الحشرات

صورة لطائر السنونو

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

)

(180/607)

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [لقمان : 11]

صدق الله العظيم

0-التكافل عند الحيوانات

سمكة المهرج ومجسات شقائق النعمان

كم هي كثيرة الآيات والبراهين التي تدلنا على وجود خالق واحد مبدع للكون فأينما نظرت في هذا الكون تجد آلاف الآيات المبهرة للعقول، يقول الله سبحانه وتعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [الذاريات] .

ويقول الشاعر العباسي أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يعصى الإله . . . . أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيء له آية . . . . تدل على أنه واحد !

وكما هو معروف فإن إيمان الإنسان يزيد وينقص وإن النظر في آيات الله والتعرف على قدرته يزيد في إيمان العبد فينعكس هذا على سلوكه فعندما يخشع القلب تخشع الجوارح .

سوف نحدثكم اليوم عن التكافل والتعاون بين الكائنات الحية أو ما يعرف ب (Symbiosis) .

والتكافل هي أن يعيش كائنين مختلفين معاً لا يستطيع أحدهما الاستغناء على الطرف الآخر حيث يقدم كل منهم خدمة للآخر مقابل أن يحصل منه على خدمة مماثلة يستفيد منها للإبقاء على حياته يستفيد فيه كائن واحد على الأقل .

والأمثلة على علاقة التكافل بين الكائنات الحية كثيرة جداً ولكن سوف نورد بعض الأمثلة:

o سمكة المهرج ومجسات شقائق النعمان:

تعتبر العلاقة بين السمك المهرج Ocellari مثال جيد على علاقة التكافل المعروفة

بالتعايش، حيث تعيش سمكة المهرج في مجسات شقائق النعمان نوع Ritteri . تحمي السمكة شقائق النعمان من الأسماك التي تتغذى عليها ، وبالمقابل تحمي اللواسع او المجسات اللاسعة لشائق النعمان من الكائنات التي تفترس سمكة المهرج (الطبقة المخاطية التي تحيط بالسمكة المهرجة تحميها من المجسات اللاسعة) .

سمكة الغوبي مع الروبيان

o سمكة الغوبي مع الروبيان (القريدس) :

(181/607)

سمكة الغوبي (goby fish) التي تعيش مع القريدس أحيانًا . يقوم القريدس (shrimp) بحفر وتنظيف الجحر الذي يعيشان به معًا في الرمل . يكون القريدس تقريبًا أعمى مما يجعله فريسة سهلة عندما يكون في السطح . تقوم سمكة الغوبي بلمس القريدس بواسطة ذيلها لتنبئه في حالة الخطر . وعند حدوث ذلك، يتراجع كلاً من القريدس وسمكة الغوبي لداخل الجحر .

o دودة siboglinid والبكتريا التكافلية:

العلاقة الموجودة بين دودة (siboglinid tube worms) والبكتريا التكافلية(symbiotic bacteria) التي تعيش في الفتحات الحرارية والمنافذ الباردة.

لا تملك هذه الدودة جهازاً هضميًا وتعتمد على متكافلاتها الداخلية في الحصول على الغذاء. إما أن تؤكسد البكتريا كبرتيد الهيدروجين أو الميثان الذي تحصل عليه من المضيف. اكتشفت هذه الديدان في أواخر العام الميلادي 1980 في الينابيع الحارة قرب جزر غالاباغوس ووجدت كذلك في العمق البحري للينابيع الحارة والمنافذ الباردة في جميع المحيطات.

o حيوانات التنظيف:

هناك أشكال متنوعة مثل سمك التنظيف وطيور التنظيف التي تتغذى على الحشرات والفطريات التي تعيش على الطرف الآخر إضافة إلى أكل الجلد الميت والطفيليات بحيث يكون هناك منفعة متبادلة.

سلحفات بحرية وحولها بعض أسماك التنظيف

سمكة بحرية وحولها بعض اسماك التنظيف

حيوان الجاموس مع أحد طيور التنظيف

التكافل ونظرية التطور:

يقول العلماء إن التكافل بين الحيوانات يعد برهان ينقد نظرية التطور، وحجتهم أنه في حال التكافل الإجباري بين كائنيين لا يمكن لكائن أن يعيش بدون الآخر في هذه العلاقة الإجبارية، إذاً فإنهما يجب أن يأتيان للوجود في نفس الوقت، كما أن التكافل والتعاون بين الكائنات الحية يخالف فكرة الصراع من أجل البقاء والتي هي الأساس الفكري لنظرية التطور.

كلمة أخيرة:

(182/607)

مع كل هذه الأدلة الواضحة التي تبرهن على وجود إله قادر خالق نجد من ينكر وجود الله على الرغم من أن العلم يؤكد أن الكون نشأ من العدم وأن النظام الفائق في هذا الكون دليل ساطع على وجد قدرة عاقلة قادرة أوجدت كل هذا النظام وإذا عرفنا أن أهم علماء

هذا العصر ممن كان لهم بصمة واضحة على مسيرة العلم المعاصر كانوا مؤمنين بوجود إله خالق لهذا الكون من العدم أمثال(روجر بيكون،فرانسيز بيكون، غاليلو غاليلي، يوهانز كابلر، باسكال بلاس، جون راي، روبرت بوي، أنتوني فون ليونهوك، إسحاق نيوتن، السّير وليام هيرشيل، جريجوري ميندل، لويس باستور، اللّورد كيلفن، ألبرت آينشتاين) كل هؤلاء العلماء صرحوا بكل وضوح أنهم مؤمنون بوجود إله خالق وأن هذا الكون لم يخلق عبثاً ، يقول الله سبحانه وتعالى:(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران : 191] .

أليس حرياً بملاحدة العرب أن يعودوا إلى صوابهم ويحكموا عقولهم وينظروا إلى هذه الحقائق بموضوعية حتى يصلوا إلى الحق .

بقلم فراس نور الحق

مدير موقع موسوعة الإعجاز الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

quranmiracles@gmail.com

مقالات للمؤلف:

? قتال المسلمين للترك

? المصائب التي حلت بفرعون

? التطاول في البنيان

? الزائدة الدودية . . . تشهد على وجود الله

? محاكم التفتيش وإبادة المسلمين في الأندلس

0-آية من آيات الله في النحل

أحبتي في الله ! في كل يوم يزداد إيماننا بكتاب ربنا ، ويزداد حبُّنا لهذا الدين الحنيف، والسبب في ذلك هو كثرة الحقائق العلمية التي يزخر بها هذا القرآن، والتي يكتشفها العلماء في كل يوم، وهذا يجعلنا نفتخر بانتمائنا للإسلام – الرسالة الخاتمة .

(183/607)

ومن عجائب النحل ظاهرة يسميها العلماء ظاهرة السُّكر عند النحل، فبعض النحل يتناول أثناء رحلاته بعض المواد المخدرة مثل الإيثانول ethanol وهي مادة تنتج بعد تخمّر بعض الثمار الناضجة في الطبيعة، فتأتي النحلة لتلعق بلسانها قسماً من هذه المواد فتصبح "سكرى" تماماً مثل البشر، ويمكن أن يستمر تأثير هذه المادة لمدة 48 ساعة .

إن الأعراض التي تحدث عند النحل بعد تعاطيه لهذه "المسكرات" تشبه الأعراض التي

تحدث للإنسان بعد تعاطيه المسكرات، ويقول العلماء إن هذه النحلات السكرى تصبح عدوانية، ومؤذية لأنها تفسد العسل وتفرغ فيه هذه المواد المخدرة مما يؤدي إلى تسممه، ولكن الله تعالى يصف العسل بأنه (شفاء) في قوله تعالى: (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) [النحل: 69] . فماذا هيَّأ الله لهذا العسل ليبقى سليماً ولا يتعرض لأي مواد سامة ؟

طبعاً من رحمة الله تعالى بنا ولأنه جعل في العسل شفاء، فمن الطبيعي أن يهيئ الله وسائل للنحل للدفاع عن العسل وبقائه صالحاً للاستخدام. وهذا ما دفع العلماء لدراسة هذه الظاهرة ومتابعتها خلال 30 عاماً، وكان لابد من مراقبة سلوك النحل.

بعد المراقبة الطويلة لاحظوا أن في كل خلية نحل هناك نحلات زودها الله بما يشبه "أجهزة الإنذار"، تستطيع تحسس رائحة النحل السكران وتقاتله وتبعده عن الخلية ! ! وتأملوا معي الحكمة التي يتمتع بها عالم النحل، حتى النحلة التي تسكر مرفوضة وتطرد بل و"تُجلد" من قبل بقية النحلات المدافعات، أليس النحل أعقل من بعض البشر ؟ !

(184/607)

لقد زود الله تبارك وتعالى النحل "بتجهيزات" يعرف من خلالها تلك النحلة التي تعاطت مادة مسكرة (ثمار متخمرة) فتميزها على الفور وتطردها وتبعدها من الخلية لكي لا تُفسد العسل الذي تصنعه، وتضع هذه النحلات قوانين صارمة تعاقب بموجبها تلك النحلة التي تسكر (تشرب الخمر)، تبدأ هذه العقوبات من الطرد والإبعاد وتنتهي بكسر الأرجل، فسبحان الله، حتى النحل يرفض الخمر!!! المصدر: الموسوعة الحرة.

إن النحلات التي تتعاطى هذه المسكرات تصبح سيئة السمعة، ولكن إذا ما أفاقت هذه النحلة من سكرتها سُمح لها بالدخول إلى الخلية مباشرة وذلك بعد أن تتأكد النحلات أن التأثير السام لها قد زال نهائياً.

حتى إن النحلات تضع من أجل مراقبة هذه الظاهرة وتطهر الخلية من أمثال هؤلاء النحلات تضع ما يسمى "bee bouncers" وهي النحلات التي تقف مدافعة وحارسة للخلية، وهي تراقب جيداً النحلة التي تتعاطى المسكرات وتعمل على طردها، وإذا ما عاودت الكرة فإن "الحراس" سيكسرون أرجلها لكي يمنعوها من إعادة تعاطي المسكرات!!!

ويخطر ببالنا السؤال التقليدي الذي نطرحه عندما نرى مثل هذه الظاهرة: مَن الذي علَّم النحل هذا السلوك؟ ربما نجد إشارة قرآنية رائعة إلى أن الله تعالى هو من أمر النحل بسلوك طريق محددة بل وذلَّل لها هذه الطرق، يقول تعالى مخاطباً النحل: (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ

ذُلُلًا) [النحل: 69].

وهنا يعجب الإنسان من هذا النظام الفائق الدقة! ربما نجد فيه إجابة لهؤلاء المعترضين على القوانين التي جاء بها الإسلام عندما حرَّم تعاطي المسكرات وأمر بجلد شارب الخمر، فإذا كان النحل يطبق هذا النظام بكل دقة، أليس الأجدر بنا نحن البشر أن نقتدي بالنحل؟!

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

مصدر المعلومة:

(185/607)

1- The Development of an Ethanol Model Using Social Insects I: Behavior Studies of the Honey Bee (Apis mellifera L.): Neurobiological, Psychosocial, and Developmental Correlates of Drinking, Charles I. Abramson, Sherril M. Stone,

Richard A. Ortez, Alessandra Luccardi, Kyla L. Vann, Kate D. Hanig, Justin Rice, Alcoholism: Clinical & Experimental Research. 24(8):1153–1166, August 2000.

2- Bees and toxic chemicals, www.wikipedia.org

0-الخلايا البشري آية دالة على الله

صورة لخلايا دموية الوكي بيدا

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ) [السجدة: 7].

وقال الله تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [البقرة: 117].

وقال الله تعالى: (صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ) [البقرة: 138].

حديثنا اليوم عن الخلايا التي هي من خلق الله سبحانه وتعالى وسوف نبحر في هذا هذا العالم العجيب الذي يعبر على عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى.

يوجد في جسم الإنسان حوالي مئتي نوع من الخلايا تقريباً مختلفة الأشكال، ومن أهم و أبرز هذه الاختلافات هي التي توجد بين خلايا الأعصاب و خلايا العضلات و خلايا الدم في الشكل، فإن كل هذه الخلايا على الرغم من أنظمتها تتفق في الأساس، إلا أن تصميمها البارع يجعها تقوم بوظائفها على أكمل وجه و بكفاءة عالية كلٌّ في موقع عمله .

(186/607)

فأمامنا نموذجان لخلايا مختلفة في الشكل وهما خلايا الأعصاب وخلايا الدم، فخلايا الأعصاب يمتد طولها إلى المتر تقريباً ، و تبدأ من العمود الفقري و تنتهي عند القدم، و بذلك تصل الأوامر و الإنذارات من المخ إلى مواقعها المطلوبة مارة بالخلايا على خط واحد مستقيم في أقصر وقت ممكن أي: بسرعة فائقة جداً .

أما خلايا الدم فيصل طولها إلى 7 ميكرومتر على عكس ما كان عليه شكل خلايا الأعضاء .

هذه الحجم المتناهي في الصغر يجعلها تمر بسهولة من خلال الشعيرات الدموية حيث أصبح وجهها الخلايا على هيئة أسطوانة صغيرة جداً مجوفة من الداخل، مما يجعل الخلية ذات مساحة واسعة من الداخل يسمح لها بعلمية استنشاق الأوكسجين (O) وطرد ثاني

أوكسيد الكربون (CO2) بصورة عالية جداً، و لو تخليتم وجود ملايين الخلايا في كل متر مكعب من الدم فسوف لا يصل تصوركم إلى حجم المساحة التي تتم فيها عملية أخذ الأوكسجين .

و كذلك فإن الخلايا الموجودة في أعيننا وآذاننا تتميز على حسب أشكالها الكوكليو(OKLEOK) الذي يوجد في الأذن الداخلية هو عبارة عن خلايا تتكون من شعيرات صغيرة جداً، تتذبذب هذه الشعيرات بتأثير الموجات الصوتية وتعمل بتحويل الموجات الصوتية وتعمل بتحويل ضغط الموجات إلى السائل الذي يوجد في الأذن إلي إنذار عصبي، والخلايا الموجودة في شبكية العين مخلوقة لتؤدي وظيفتها بأحسن صورة ممكنة، فخلايا الشبكية ذات الشكل المخروطي تحتوي على العديد من الأغشية لتسهيل الاتصال العصبي وتحتوي كذلك على صبغات عديدة حساسة تجاه الضوء، إن هذا التركيب يكسب خلية الشبكية حساسية عالية تجاه الضوء . وهذا النظام يكسب كل خلية من الخلايا مستوى عالي الكفاءة لكي تصبح حساسة جداً .

الشكل يبين صورة لخلية عصبية(neurones) فتأمل قدرة الله تعالى كيف خلق هذا الخلق العظيم من طين هذه الصورة مأخوذة من موقع الوكي بيدا

و هناك أيضاً خلايا ماصة للأغذية داخل الأمعاء الرفيعة صممت هيئتها على حسب وظيفتها لتكون مناسبة للقيام بهذه الوظيفة .

فيوجد فوق كل خلية غطاء من الشعيرات المجهرية المسمات بالمكرووفيللي والجزيئات الناقلة التي تقوى على هذه الشعيرات التي تأخذ ما تحتاج إليه من غذاء و تطرد الفائض عن حاجتها ، و بذلك يتم طور هام من أطوار هضم الغذاء .

ويجب ألا ننسى أن جميع الخلايا في جسم الإنسان تكونت عن طريق الانقسام والتكاثر داخل الخلية الواحدة .

و لهذا فهل يعقل أن الخلايا هي التي اختارت الأشكال المناسبة لتأدية الوظيفة المطلوبة بكفاءة عند بناء الجسم .

فلا أدلّ من هذا على أن الله وحده سبحانه و تعالى هو الذي خلق الأشكال اللازمة والمناسبة لتؤدي وظيفتها بكفاءة عالية .

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز على لسان نبي الله موسى عليه السلام: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه : 50] .

المصدر:

مقالة من كتاب السلوك الذكي لدى الخلية تأليف هارون يحيى بتصرف .

0-آيات الله في تيسير الحياة للأحياء وحمايتها

الدجاجة تصدر أصواتاً مميزة من أجل استدعاء أفراخها

بقلم المرحوم عبد الرزاق نوفل

قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) (لقمان:20) .

(188/607)

ظلت الحياة تدب على الأرض منذ ملايين السنين، متغلبة على ما يقابلها من صعاب متحررة إلى كل ما يلائم البيئة والتي تعيش فيها، وبذلك تعددت الأحياء ودامت الحياة . . وهناك ملابسات وظروف يسرت حياة الأحياء لا يمكن للعقل أن يحيط بها إلا أن يسلم بقدرة الخالق وعظمته . . علاوة على وجوده . . . فالدراسات العميقة التي تولتها كافة الهيئات العلمية، لا تستطيع الا أن تعترف بأن مقومات الحياة في الأحياء، إنما هي أدلة

ناطقة تشهد على وجود الله .

لغة الكائن الحي

الإنسان

قال تعال (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: 31)

ترى لو لم يلهم الله الأحياء بأن يتخاطبوا ، وأن يلهم كل صنف لغة يتفاهمون، بها كيف تكون الحياة . . ؟ لغة الإنسان، عبارة عن ألفاظ وجمل ينادي بها على الأسماء ويشرح بها الأفعال، وأصوات تعبر عن الاستحسان والاستهجان، قهقهة للفرح، وآهة للألم والحزن وأنين ونداء للاستغاثة، وبهذه أصبح الإنسان يستطيع أن يطلب الغذاء إذا جاع، وأن يستغيث إذا ألم به مكروه . . . وتمكن من أن يتفاهم مع غيره بما حفظ عليه حياته . . . ومن أعجب ما يسرت به الحياة على الأحياء . . تفاهم الذين أصابهم العي في ألسنتهم، أو حرموا الكلام أصلا . . فهم يتفاهمون بإشارات أسرع من الألفاظ، وإذا تخاطب اثنان منهم قل من يستطيع أن يتسامعهما ، بل لا يمكن لغيرهما أن يفهم كلامهما السريع الطويل . . ولم يتعلموا هذه اللغة إطلاقاً . . إنما يسرت لهم كما يسرت لغيرهم الكلام من لدن حكيم خبير .

الحيوان :

قال تعالى : (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) (النمل:18)

(189/607)

أثبت العلم أن للحيوان لغته الخاصة، فلكل نوع من أنواع الحيوانات لغة خاصة به، يتفاهم بها ، ويتعارف مع غيره على أحوال ما حوله . . فهذه هي الدجاجة التي تصدر أصواتاً مميزة، فنرى صغارها أقبلت في سرعة تلتقط معها الحب . . وتصدر أصواتاً مخافة، فإذا بالصغار تهرول إلى العش في لحظة .

ويقول " ألن ديفو "أحد علماء الحيوان أنه وقف يوماً يراقب ثلاثة من صغار الثعلب تلعب حول أمها ، وإذا بصغير منها يدخل في الغابة، ويبتعد عنها بعدا بحيث غاب عن النظر، فاستوت الأم قائمة ومدت أنفها إلى الناحية التي ذهب منها ،، وبقيت على حالها هذه برهة عاد بعدها الصغير في اتجاه أمه لا يلتفت يمنة أو يسرة، كأنما كانت تجذبه بخيط لا تراه العين . ومن الدراسات المماثلة أمكن لعلماء الحيوان تعلم لغة الحيوانات .

و النحلة إذا عثرت على حقل مزهر عادت إلى الخلية وما إن تتوسطها حتى ترقص رقصاً خاصاً ، فإذا بالنحل يندفع إليها ، ويسير خلفها إلى حيث تهديه النحلة إلى الزهور .

ويقول اللورد " أفبري " أنه طالما أراد أن يمتحن عقل النمل، والوقوف على طريقة التفاهم بين أفراد، فمما فعله في هذا السبيل، أنه وجد يوماً نملة خارجة وحدها من جحرها، فأخذ ذبابة ولصقها على فلينة بدبوس، وألقاها في طريق النملة، فما أن عثرت عليها، حتى أخذت تعالجها بفمها وأرجلها مدة تزيد على العشرين دقيقة، تيقنت بعدها، فعادت أدراجها إلى جحرها، وبعد ثوان معدودة، خرجت النملة تتقدم نحوها ومعها اثنتي عشرة نملة من أخواتها، انتهت بها إلى الذبابة ثم وقع عليها النمل، يمزقها تمزيقاً، وعاد النمل إلى جحره وكل منها تحمل جزءاً من الذبابة . . فالنملة الأولى قد رجعت إلى زميلتها ولم يكن معها شيء قط . . فكيف تم لها أن تخبر باقي النمل بأنها وجدت طعاماً سائغاً، وفريسة شهية ما لم يكن تم ذل بلغة خاصة . . . ! ! !

(190/607)

ويتكلم نمل الشجر في المناطق الاستوائية بلغة عجيبة، إذ يصعد إلى الشجرة ويدق دقات غير منتظمة، تقارب إشارات مورس التلغرافية، ويبلغ من قوتها أن تسمع من بعيد . . . . ! ! وما صرير صرصار الغيط، الذي كثيراً ما يسمع في الليل الدافئة في الحدائق والمزارع، إلا دعوة منه لأنثاه إذا بعدت عنه . وكذلك نقيق الضفادع الذي لا

يحدث إلا ليلاً .

وقد لوحظ أن أسراب الفيلة، لا تكف لحظة عن غمغمة، طالما هي تسير في رهط، فإذا تفرقت الجماعة، وسار كل فيل على حدة انقطع الصوت تماماً . . ومن

صورة لغرابين على على حجرين بجانب بعض

أعجب ما يؤيد لغة الفيلة، تلك الأصوات المزعجة التي تلاحظ عندما تجتمع الفيلة المحكوم عليها لتعيش وحيدة . . . فقد حكمت عليه الفيلة بالعزلة والوحدة . . . ! ! !

وأصوات الغراب مميزة تميزاً واضحاً . . فنعيبه أكبر على الخطر . وهو يصدره ليحذر به أبناء جنسه، بينما يصدر في مرحه ولعبه أصواتاً أخرى تقرب من

القهقهة ومما يثبت تفاهم جماعات الغربان ما تأتيه في حياتها من أمور تكاد تكون عجيبة، إذ المتداول أن الغراب من الطيور الحقيرة التي يمر عليها الإنسان دون انتباه، ويقول " اكلاند " إن الغراب يفوق الطيور الأخرى منه حجماً ،والأقوى منه، بسبب مكره الممتاز، وبالرغم من أن الغراب لص، وفيه عيوب أخرى من سفاهة ودناءة وخسة،فهو طائر مسل عندما

تراقبه . . راقب جماعة من الغربان وقت نومها ، تجد أنه بعد محادثة طويلة ذات ضوضاء مع جيرانها ، وانتقالها من مكان إلى آخر ، يستقر العجوز على فرع شجرة، ويبدأ في التأهب للنوم مبكراً ، وما يكاد يفعل حتى تأتي بعض الغربان الأشقياء ، تدور حوله مرة أو مرتين، ثم تحط بجواره حتى يوشك أن يفقد توازنه أو تصطدم به عمداً لزحزحته من مكانه . . . فيعلوا صراخه لانتهاك حرمته، وإقلاق راحته، بصوت مميز . وتتكرر هذه المحاولات وتصيح صغار الغربان بأصوات ضاحكة تعلن عن فرحها . . وليس هناك أدنى شك في أن الغربان مغرمة بالهزل، وتنظم الألعاب لنفسها . فقد قرر العلماء أنها تلعب المساكة والاستغماء . . . ! !

صورة لنملة الخشب على أحد جذوع الأشجار في أحد الغابات الإستوائية

ومما لوحظ في دراسة حياة الغربان أنها تحب كل الأشياء التي تبرق في الشمس . ولكل غراب مخزنه السري الخاص به الذي قد يكون ثغرة في شجرة، أو تحت سقف برج قديم، أو خلف حجر في كوبري، وقد وجد أن بأحد المخازن التي أمكن اكتشافها ، من دراسي حياة الغربان قطعة من مرآة مكسورة ويد فنجان، وقطعة من صفيح وأخرى من معدن، وأشياء تافهة متنوعة كلها تتفق في أنها تتألق في الشمس .

ويفهم الحيوان لغة الإنسان ويستجيب لها ، كما يدعو الإنسان الدجاج إلى الغذاء بصوت معروف، ويدعوا الإوز والبط بصوت مغاير ويدعو الدواب إلى الشراب بالصفير كما يستطيع الأولاد في الريف عند صيد السمك من جذبه قريباً منهم بأصوات خاصة . وكلنا نعلم أن الكلب في المنزل أن الكلب في المنزل يعرف بل ينفذ أوامر سيده، وفي أمريكا رجل أسمه "جاك ماينز " تخصص في دراسة الإوز البري، وبلغ من علمه بلغتها ، أنه يستطيع أن يدعو سرباً طائراً إلى النزول، حيث يختفي وذلك بأن يخاطب الإوز بلغتها ويخبرها بوجود بركة صالحة وطعام كثير .

وقد يستطيع الإنسان أن يبادل الحيوان لغته ويتفاهم معه، فقد كتب "مورتون طمسون " في "مجلة "The American Mercury أن أخاه لويس الطالب بمدرسة الطيران كان يسمى " لويس الحصان " إذ أنه كان يكلم الخيل ويحادثها ، وبدأ بذلك وهو طالب في مدرسة قرية في " سان دييجو " وكان بها خيول غير مروضة، كثيراً ما قضى معها لويس الأوقات الطويلة، يلاعبها ويروضها ، ولم يقضي إجازته، بل ولا فسحته إلا إما راكباً أو مصاحباً حصاناً . وكان يراهن التلاميذ على أي حصان يفوز في سباقها . . ولم يحدث أن أخطأ مرة، ولما حاول أخوه أن يهتدي إلى سر ذلك، أجابه أن الخيل تخبرني عن حالتها في الجري، ورأيها في راكبها ، وفي المضمار ، وكثيراً ما وضع ذلك موضع الاختبار والامتحان،

فكان يذهب إلى حلبة الخيل في أي مكان وكلما مر به حصان نظر إليه لويس نظرة متسائلة بصوت معين، فيلتفت الحصان ويلوي عنقه بهزات معينة، وهمهمة خاصة . ثم أخيراً ينطق لويس برقم الحصان الذي سيفوز . قال لأخيه يوماص : الجواد 1 يتمنى أن يربح، ولكنه لا يحب راكبه . أما الجواد 2 فحالته اليوم سيئة، ولن يفوز . أما رقم 3 فهو يتحدى إذ أنه صمم على الفوز .

النوم

(193/607)

قال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (الروم:23) .

إن من أهم ما أنعم الله به على الكائن الحي النوم، وهو في الواقع دليل لا يقاربه شك على وجود الله . فالنوم عملية تتم دون أن يكون للإنسان دخل بها . ولا سيطرة له عليها . فهو في وقت معين تبدأ قواه في التناقص، وتعتريه حالة من الاستعداد للنوم، ثم لابد بعد ذلك من أن ينام . وأهمية النوم يمكن إدراكها بالتجارب التي أجريت على الحيوان، وأتضح منها أن النوم أهم للحياة من الطعام والشراب . وقد قرر علماء روس أن التجارب التي أجريت على

صغار الكلاب أثبتت أنها لم تستطع الحياة لأكثر من خمسة أيام بلا نوم، بينما عاشت مثيلاتها التي تنام عشرين يوماً بلا أكل .

و لم يمكن للعلماء أن يقرروا ماذا في الجسد أثناء النوم أكثر من أن النائم يتخلص من إجهاده الجسدي وإرهاقه الفكري، وإن استرخاء عضلات الإنسان بنومه، تساعد على تنشيط وتنظيم الدورة الدموية، التي تطرد من الجسم ما قد يكون سببه الإجهاد من مواد ضارة .

ومن دلائل وجود الله أن تشترك الكائنات الحية في النوم، فالحيوانات تنام وتصحوا كالإنسان، وقد ثبت أن الحيوانات تحلم كذلك في منامها . وأن بعض الكلاب تنهض من نومها فزعة تتلفت في كل الاتجاهات مما يدل على أنها كانت فريسة حلم مخيف . وتنام أيضاً الحيوانات الدنيا والأسماك والحشرات ولو أنه من الصعب تمييز حالتها بين اليقظة والنوم .

صورة لعصافير نائمة على غصن شجرة

و قد أجريت تجارب بأن وضع بقرب الحشرات أو الحيوانات ليلاً ما يثيرها ويفزعها ، فلم تتحرك حتى الفجر ، بينما ظهر عليها بعض الاختلاف في المظهر بعد الفجر ، إذ تصرفت الخائفة الفزعة .

ومن أرحم آيات الله أن الطير ينام على غصنه، لا يقع بالرغم من أن قبضة الطائر لابد أن تسترخي كباقي عضلاته حين يغلبه النعاس، إذ أن الأوتار التي تحدث البسط والقبض في المخلب الطائر تلتف حول مفصل ساقه، فحين ينام ويثني ثقل جسمه هذا المفصل . تشد الأوتار مخلبه فيزيد تشبث قبضة الطائر على غصنه، ويتم ذلك دون تفكير، بل دون أن يعيها أو يحسها الطائر . . . ! ! ! .

وقد قرر علماء النبات، أنهم بدراسة الأزهار والتطورات التي تشملها في كل وقت، أتضح لهم أن النبات ينام كما ينام كل كائن حي، مشاهد النوم تظهر واضحة جلية في الأزهار ومما يثبت أن تفتح الأزهار لا دخل له بالشمس والضوء ما نراه في الأزهار التي يختص بها فراشات الليل إذ تتفتح أزهارها ، في الليل، وتكون في تمام تفتحها عند منتصف الليل سواء أكانت الليلة قمرية أم مظلمة . . وهناك أزهار تقفل أوراقها . وتستسلم للنوم العميق ظهراً ، حتى أولاد الفلاحين في الجهات التي تنمو فيها هذه الأزهار يعرفون غذائهم من نومها .

ومن الأدلة الدالة التي تثبت حساسية النبات، ويقظته، نشاطه وكسله، ما نشر أخيراً من أن " البروفسور سنج ط " رئيس قسم النباتات بإحدى جامعات الهند ، وضع نظرية تقول: أن نمو النبات يزداد عند سماعه الأصوات الموسيقية، وأن للنبات آذناً حساسة للموسيقى . وقد شرح الأستاذ المذكور لمندوب وكالة الأنباء العربية في أوائل فبراير

1956 تاريخ اكتشافه لهذه المشاهدات وأن أول نجاح حصل عليه كان في 10 ديسمبر 1952 م، إذ بينما كان ينظر في تلك الليلة بأنفاس مبهورة في نتائج تجاربه في غرفته بالجامعة، كان مساعده يراقب حركة الكلوروبلازم في داخل البروتوبلازم مستعيناً بمجهر وساعة. ولم يلبث أن دخل على أستاذه مسرعاً يقول أنه لاحظ سرعة في حركة الكلوروبلازم، راجعة إلى الموسيقى الصوتية التي كانت مسلطة على البروتوبلازم !!.

0-آيات الله في حماية الكائن الحي لنفسه

(195/607)

عندما تلدغ الحية الذئب يسرع إلى مضغ جذور اللوف العطري، مضغ الواثق من الشفاء به فمن هداه وعلمه أن في جذور اللوف العطري الشفاء.

بقلم المرحوم الداعية عبد الرزاق نوفل

قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (يوسف:105).

وقال الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى

جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)[الشورى : 29] .

قال الله تعالى:(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [الجاثية : 4] .

إن الآيات الدالة على وجود الله وقدرته وتصرفه في الكون أكثر من أن تحصى ولكن تحتاج إلى عقل متدبر وسوف نتناول بعض الآيات لعلها تكون شفاء لما في الصدور من شك وريبة .

يقول العلماء إن ما يتخذه الجسم داخلياً من طرق الحماية لمما يؤكد على وجود الله سبحانه وتعالى، يقول الدكتور " والتركانن " العالم الفسيولوجي : أنه لو أنك عرفت كثيراً من أسرار الجسم البشري، لعجبت كيف يمرض أحد من الناس : ففي داخل الجسم دنيا قائمة تتصرف بإلهام واضح في دفع المرض، بل المحافظة على صحة الكائن بما يعجز عنه أي طبيب . ويقرر الأطباء أنهم في علاجهم، إنما يحاولون تقليد ما يجري داخل الإنسان نفسه، وأن العقاقير التي يصفونها إنما لمساعدة الداخل فيما يقوم به . . . دون أن يكون للإنسان أي فضل فيه بل حتى معرفته ! ! !

و إذا كان الإنسان يعتبر لذلك أوضح الأمثلة، على ما يقوم به لحماية نفسه خارجياً ، بالحرب والسعي والفكر والكر، والعمل والراحة ، وأخذ الدواء . وداخلياً حيث لا دخل له . بارتفاع الحرارة، وتكوين الأجسام المضادة، وهجوم كريات الدم، فإن الحيوان ليعبر أيضا من أروع الأمثلة التي تظهر لنا بوضوح قوة ما تتخذه الحياة في حماية الحيوان ؟

يقول الدكتور " ارشبيولد تلدج " انه بينما كان يمر ومعه أحد الحيوانات الوحشية التي استأنسها ، جرح سلك شائك ذلك الحيوان في جنبه جراحاً غائرة، فسارع الدكتور إلى غسل الجرح بمطهر وربطه بالضمادات، وما هي إلا برهة، حتى وجد الحيوان قد نزع الضمادات وألقاها ، وجعل يلعق الجرح برفق حتى يبعد الشعر الذي يغطي الجرح، وتركه معرضاً للهواء والشمس . وظل الحيوان يتعهد جرحه، حتى برىء

ويقول هذا الدكتور أيضاً ، أن قدماء الهنود الحمر وأسلافنا قد اهتدوا إلى معرفة أصول الطب، بمراقبة الحيوانات وهي تسعى إلى النبات الذي تتداوى به من جرح، أو حمى أو سوء هضم، وبملاحظتهم الدب الذي أصابه المرض وهو ينبش الأرض باحثاً عن جذور نبات السرخس، وبرؤيتهم الذئب الذي لدغته الحية وهو يسرع إلى مضغ جذور اللوف العطري، مضغ الواثق من الشفاء به .

وعرف عن الحيوانات والطيور، أنها تأخذ مكانا ظليلا باردا طلق الهواء قريبا من الماء، إذا أصابته الحمى، بينما تأخذ لها مكانا شرقيا دافئا تسطع فيه الشمس إذا ما أصابها البرد . كما لوحظ عنها أيضا أنها إذا أصابها شعور بفساد ما أكلته أو إذا أقتضى أمر

شفائها إخراج ما بجسدها عمدت إلى نباتات مسهلة تعرفها أو تمكنت من القيء بنفسها وكثيراً ما شوهد أن الطيور والحيوانات، إذا ما أصاب أحد قوائمها خلع أو كسر، بترت هذا العضو المكسور بنفسها فوراً فتشفي حالا . هذا ويعرف أهل الغابات أن دجاج الأرض إذا انكسرت بنفسها ساقه، يتخذ له جبيرة من الطين، وقد يقويها ببعض ما يجده من ألياف .

الفيلة في الغابات، لا تسير فرادى إطلاقا إلا الأفراد الذين حكم عليهم بالشرود وجماعة الفيلة يتقدمها دليلها إلى الماء أو الغذاء

وكلنا نرى الطيور وهي تنظف منقارها في الحائط أو الأغصان وإذا صادفك نسر بعد أن يكون قد تناول غذاءه، لتعجب حينما تراه يكرر تنقية منقاره وتنظيفه أكثر من مرة .

(197/607)

وتستحم الطيور والحيوانات في مواقيت معينة لا تحيد عنها أبدا، وقد عرف أنها تستحم لا لتنظيف أبدانها فقط، بل لتجدد نشاطها .

وإذا كان هذا هو ما يحاوله الكائن الحي للمحافظة على نفسه، فإن هناك العديد من

الأدلة، على أن النوع نفسه يتخذ من ضروب الحيطة والحذر للمحافظة على أفراده، ما يجعل الإنسان يؤمن بوجود قوة علوية ترعى كافة الكائنات على اختلاف أنواعها .

فكل الحيوانات والطيور التي تسير في هيئة جماعات، تتخذ من بعض أفرادها خفراء يحرسونها ، وأدلة يكفون الطريق لها . وليس ذلك عن مصادفة بل عن قصد وتدبير، فإن الفيلة في الغابات، لا تسير فرادى إطلاقا إلا الأفراد الذين حكم عليهم بالشرود وجماعة الفيلة يتقدمها دليلها إلى الماء أو الغذاء . وأسراب الطيور في سيرها ، يحرسها أكبر ذكورها ، ويسير في مؤخرتها ضعافها ، بينما الظباء تسير حراسها في الخلف لأن الذئب وهو أخطر الحيوانات عليها لا يهاجم القطيع إلا من خلفه .

و تظهر قافلة الاكتشاف واضحة في الجراد ، فإن المقدمة التي تسير لتكتشف الطريق لا تزيد على بضعة أفراد وهذه تكون إنذارا بسرب الجراد الذي قد يغطي مساحة ألفي ميل مربع .

المصدر : كتاب " الله والعلم الحديث " بقلم عبد الرزاق نوفل الناشر العربي الطبعة الثالثة 1393هـ 1973م .

0–الفيزياء ووجود الخالق

مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين

تأليف الأستاذ الدكتور

جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

واشنطن - الولايات المتحدة الأمريكية

هذا الكتاب يظهر بعض البراهين العقلية التي تبرهن على وجود الخالق سبحانه ويرد على بعض الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق .

لتحميل الكتاب أضغط هنا

الكتاب عبارة عن ملف PDF مضغوط على برنامج Win rar

0-التراكيب النباتية والرحمة الإلهية

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

أستاذ النبات في جامعة عين شمس

يقول الدارونيون إن الحياة خلقت بالمصادفة و العشوائية, و الحقيقة العلمية و الشواهد النباتية تبين أن كل مخلوق ميسر لما خلق الله كما قال تعالى: ((رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)([طه:50] . أي أعطاه صورته و هيئته الخاصة بخاصيته وأداء وظيفته في الحياة ثم هداه إلى ما يصلح عليه هذه الحياة, و عند دراستنا للنباتات الأرضية نجد أن هناك الطحالب و هي من النباتات الدنيا و التي يعيش معظمها في المياه, و هناك النباتات العليا التي يعيش معظمها على اليابسة فمعظمها نباتات برية, و قد خلق الله سبحانه وتعالى هذه النباتات الأرضية و يسرها للمعيشة في بيئتها الأرضية مصداقا لقوله تعالى: ((رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى() [طه:50] فما الصفات التي خص الله بها هذه النباتات الأرضية للتكيف مع الحياة البرية والتغلب على المشكلات والخصائص الأرضية ؟ المشكلة الأولى للنباتات البرية: إن الماء و المعادن لا تحيط بالنبات من جميع الجهات كما هو الحال في الطحالب المائية, و هنا زود الخالق سبحانه وتعالى النباتات الأرضية بأشباه الجذور (Rhizoids) أو الجذور (Roots), المهيئة للانغماس والتعمق داخل التربة وامتصاص الماء من الأرض و تجميعه للنباتات, وهذه الجذور طويلة ومتفرعة,ومتشعبة وعميقة حتى تؤدي الوظيفة التي خلقها الله تعالى من أجلها , ولا يعقل

أن تخلق هذه التراكيب المعجزة بالمصادفة والعشوائية كما يدعي أصحاب النظرية الدارونية التطورية .

(199/607)

والمشكلة الثانية والخاصية الثانية التي يتعرض لهما النبات الأرضي هما كيفية نقل الماء من أشباه الجذور والجذور إلى جميع أجزاء النبات, وهنا وهب الله سبحانه وتعالى تلك النباتات ورزقها قنوات توصيل معجزة وهي الخشب(Xylem) الذي يقوم بتوصيل الماء والعناصر الضرورية من التربة عبر أنسجة الجذور إلى الساق والأوراق والأزهار والثمار, وباقي أجزاء النبات وتقابل تلك النباتات مشكلة أخرى وهي كيفية نقل الغذاء المصنع في الأوراق عادة إلى باقي أجزاء الكائن الحي, وهنا رزق الله النبات أوعية اللحاء (Phloem) المتخصصة في نقل الغذاء المجهز في الأوراق عادة إلى باقي أجزاء النبات ويقابل النبات الأرضي مشكلة تبخر الماء من جسم النبات بعد دخوله إليه مما يؤدي إلى جفاف النبات خاصة في البيئات الصحراوية وموت النبات, وهنا رزق الله النباتات الأرضية مادة الكيوتين (Cuticle) غير المنفذة للماء, وغطى بها الأوراق وباقي أجزاء النبات, وساعدها بمادة شمعية تمنع تبخر الماء, وأمد النبات بآليات لمنع تبخر الماء, كما

بينا في مقال النباتات الصحراوية والرحمة الإلهية,والعجيب أن تلك المواد تقل في البيئات غير الجافة وتزداد في البيئات الجافة . وتحتاج النباتات الأرضية إلى الغازات اللازمة للتنفس كالأكسجين, والبناء الضوئي وثاني أكسيد الكربون, وهنا زود الله سبحانه و تعالى تلك النباتات بفتحات تهوية, وثقوب (Air pors) وثغور (Stomata) تفتح وتغلق بآليات معجزة بحسب الحاجة للغازات الهوائية وهيأها للحصول على تلك الغازات بآليات معجزة .

(200/607)

وتحتاج النباتات الأرضية إلى ضوء الشمس للقيام بعملية البناء الضوئي وإعداد الغذاء باستخدام ثاني أكسيد الكربون الهوائي والمذاب في الماء , وطاقة ضوء الشمس و تكوين أول منتجات البناء الضوئي وهو السكر (Sugar) وإنتاج الأكسجين (Oxygen) ورزق الله سبحانه وتعالى تلك النباتات الأوراق (Leaves) وهيأها لوظيفتها بأن جعلها مفلطحة لاقتناص أكبر كمية من الضوء خاصة في نباتات الظل وجعل تلك الأوراق إبرية في البيئات الصحراوية والبيئات الباردة, وجعل في تلك الأوراق مفاعلات حيوية معجزة تقوم باقتناص الطاقة الضوئية وامتصاص الماء وثاني أكسيد الكربون لتكوين الغذاء

وهي البلاستيدات الخضراء (Chloroplast) وخلق فيها صبغ اليخضور (Chlorophyll) ورتب هذه البلاستيدات وتراكيبها بطريقة معجزة لهدايتها إلى أداء وظيفتها الحيوية على الوجه الأكمل . وتحتاج تلك النباتات الأرضية إلى دعامة لتجابه الضغوط والمؤثرات الخارجية من جميع الجهات, فزودها الله سبحانه وتعالى خلايا وأنسجة وأعضاء التدعيم الملجننة السميكة الجدار والقوية ومنها أنسجة الخشب . وحيث إن هذه النباتات ثابتة فإنها تحتاج إلى الالتقاء للتلقيح والتزاوج لإنتاج الذرية,

البلاستيدات الخضراء

(201/607)

فزودها الله سبحانه وتعالى الأزهار وألوانها الجذابة, ورحيقها المميزة, وتركيبها المعجز لجذب الحشرات وباقي الكائنات الحية المساعدة على نقل حبوب اللقاء من النباتات المذكرة إلى النباتات المؤنثة, وجعل بعضها هوائي التلقيح وخلق لها آليات مساعدة على ذلك, وجعل أجزاء تذكيرها متلاعبة بالهواء لنثر حبوب اللقاح, وجعل للأزهار المؤنثة أعضاء تأنيث صائدة لتلك الحبوب من الهواء وجعل حبوب اللقاح خفيفة غير لزجة

وبأعداد وفيرة لتتم عملية التلقيح الهوائي بنجاح . والنباتات الأرضية تحتاج إلى انتقال إنتاجها وأنسالها من مكان نموها إلى مكان آخر منعاً للتكدس و بحثاً عن بيئة مناسبة فكانت الجراثيم المحمولة بالهواء (Borne Spors) والبذور (Seeds) والثمار ووسائل انتثار وانتشار الجراثيم والبذور والحبوب وباقي الثمار وهذا ما فصلناه في كتبنا إعجاز النبات في القرآن الكريم, وآيات معجزات من القرآن الكريم و عالم النبات, ومعجزات حيوية, والكائنات الحية والبيئة والكائنات الحية و البيئة . هذا وبالله التوفيق .

يمكن التواصل على الإيميل التالي:

phy_tech@hotmail.com

0-ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى

صورة لنوع من أنوع البكتريا صورت بالمجهر الإلكتروني

- وقف سيدنا موسى، وسيدنا هارون عليهما الصلاة والسلام أمام فرعون، بعدما أوحى الله سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام بقوله (اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري . اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعلّه يتذكر أو يخشى) سورة طه آية (43 - 44) .

- فسألهم فرعون قائلا، كما قال تعالى: (قال فمن ربكما يا موسى) طه آية (49) .

- فرد سيدنا موسى على فرعون بآية كافيه جامعة شامله معجزه لخصت كل نعم الله على خلقه مع حكمته وعلمه وقدرته وإبداعه في الخلق قائلا (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه آية (50) .

- فما هو الإعجاز والإيجاز في هذه الآية ؟ ! !

(202/607)

قال الشيخ حسنين مخلوف رحمه الله في كلمات القرآن تفسير وبيان:

- خلقه: أي صورته اللائقة بخاصته ومنفعته .

- هدى: أرشده إلى ما يصلح له .

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

- قال فرعون لموسى على وجه الإنكار (فمن ربكما يا موسى ؟) فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح فقال : (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ، أي : ربنا الذي خلق جميع المخلوقات ، وأعطى كل مخلوق خلْقه اللاّئق به ، على حسن صنعه من خلْقه ، من كبر الجسم وصغره ، وتوسطه ، وجميع صفاته .

- ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه، الهداية الكاملة المشاهدة في جميع المخلوقات . فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه . حتى أن الله أعطى الحيوان البهيم " من الفطرة والخِلْقه " ما يتمكن به من ذلك وهذا كقوله تعالى (الذي أحسن كل شيء خَلَقه) فالذي خَلَق المخلوقات وأعطاها خَلْقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حُسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجوداً، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب . فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة، ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين، أكبر من ذلك . ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا الدليل القاطع عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود فقال لموسى (فما بال القرون الأولى) سورة طه آية (51) . (أ . هـ)

- ونحن نقول وبالله التوفيق:

- الإجابة التي أجابها سيدنا موسى على فرعون إجابة غاية في الإيجاز والإعجاز، وتكفى ردا على كل ملحد وكل مشكك في وجود الله وخلْقه للخلق وابداعة في الصنع .

- فكان المفروض أن يقول سيدنا موسى ربنا الذي يحيينا ويميتنا ويرزقنا ولكنه يجيب ببلاغة الأنبياء وصدق الأصفياء وبوحى من السماء (ربنا الذي أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى) .

- فمن أعطى البكتيريا الدقيقة المقدرة على تعرف عائلها ومهاجمته في مقتل حتى تقضي عليه ؟ !

ومن علَّمها أن تتجرثم عند قرب وفاة العائل ونفاذ الغذاء ومسببات الحياة الخَضَرِيَّةَ ،وعليها أن تدخل في طور الحياة الجرثومية وإلآ هلكت ؟ !

- ومن أعطى الفطريات أقوى وأخطر جهاز أنزيمي وحامضي في العالم، لتفتت وتحلل الصخر، والزجاج، والرخام، والحديد، والجلد، والشعر لتتغذى على محتواها ؟ !

- ومن أعطى الفيروسات المقدرة على حمل صفاتها الوراثية، وتضاعف أحماضها النووية في أعجاز عجيب، تعجز كل مختبرات البشر عن الإتيان به وعرفها متي تتحول إلى جماد ومتي تدب فيها الحياة.

- ومن أعطى الزهرة أوراقها الملونة ورائحتها الطيبة ورحيقها الحلو لجذب الحشرات حتى تلقِّحها لتتم دوره حياتها ؟ !

- ومن أعطى أزهار التلقيح الهوائي تلك الأعضاء التكاثرية الريشية لاستقبال حبوب اللقاح من الهواء، ومن علمها أن تنتج ملايين حبوب اللقاح الهوائية حتى يكون هناك فرصة لالتقاط بعضها وإتمام دورة الحياة ؟ !

- والحشرة التي تخدِّر أحد اليرقات لحشرات أخرى بكميه محددة ومحسوبة من المخدر ثم تبيض بيضها عليها فإذا فقس البيض انتهى زمن التخدير وأكلت اليرقات الجديدة اليرقة المخدرة الحيَّة ؟ !

- ومن علَّم العنكبوت صنع هذا النسيج البديع الذي يصطاد به الفرائس، وينزل به من السقوف .

صورة سرب من الطيور المهاجرة وتحت شكل يوضح جهة هجرة هذه الطيور من الشمال البارد إلى الجنوب الاستوائي

- ومن علَّم الأسماك المهاجرة طريق العودة إلى ديار الآباء، وتخطى السدود والحواجز ؟ !

- ومن علَّم الطيور المهاجرة ترك البيئة الثلجية قبل حلول موسم الثلج، والهجرة إلى مسافات طويلة للذهاب إلى المناطق الدافئة ؟ !

- ومن علَّم وأعلم الضفدعة بالبيات الشتوي وتخزين الغذاء إلى وقت هذا البيات تفاديا للهلاك بالبرد وقله الغذاء .

- ومن علَّم بعض البذور والحبوب النباتية أن لا تنبت رغم توفر جميع شروط وعوامل الإنبات من حيوية للجنين، ووفرة الماء، والأكسيجين، ودرجه الحرارة الملائمة، ويتعذر إنباتها وتدخل في طور السكون أو الكُمون ؟ ! ولولا هذا الكمون لنبتت الحبوب والبذور على أمهاتها، وسقطت في الأرض، وتعذر نقلها وتخزينها والاستفادة منها اقتصاديا وغذائيا .

فمن أعطى هذه الحبة والبذرة تلك الخِلْقة والحكمة ؟ !

- ومن علَّم دودة القز صنع تلك الشرانق، كبسولات حفظ العذارى وحمايتها ؟ ومن أعطاها هذه الغدد المصنعة للحرير الطبيعي الذي تفخر ملكات العالم بارتدائه ولبسه ؟ !

- ومن أنبأ بيضة دود القز أن الربيع أتى وأن غذاءها من أوراق نبات التوت قد ظهرت بوادرها ، ولو خرجت قبل ذلك لهلكت ؟ ! فتخرج في الميعاد العلمي المحدد لها ؟ !

- من جعل الجذر دائما يتجه إلى الأرض والماء ؟ !

والساق تتجه إلى الهواء والضوء ؟ ! !

ومن زود ورقه النبات ببلاستيدات اقتناص الطاقة وصنع الغذاء ؟ ! وعضيَّات تحرير الطاقة ألمسماه بالميتوكندريا ؟ ! !

- إن أبلغ أجابه على جميع المعجزات في الخَلْق، والإبداع في الصُّنع والتدبير في الخِلْقَة هو قول ربنا سبحانه وتعالى على لسان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام:

(قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلْقه ثم هدى) سورة طه آية (50) .

- وبهذا تكون تلك الآية من الآيات الكافيات المعجزات .

إعداد الأستاذ الدكتور نظمى خليل أبو العطا موسى

phy_tech@hotmail.com

الهوامش

1- آيات كافيات , نظمي خليل أبو العطا .

0-حمامة مكتوب على جناحيها الله ومحمد

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت : 53] .

(205/607)

صور حقيقية لحمامة بيضاء أرسلها أحد الأخوة من تونس وقد كتب على أحد الجناحين اسم الجلالة (الله) وعلى الجناح الآخر (محمد) بشكل خلقي وبدون تدخل بشر فهل هناك شك أن الإسلام هو دين الله ؟

يمكن التواصل مع صاحب الحمامة على العنوان التالي:

صاحبة الحمامة رجا بن أحمد

من تونس

. . . 002169

m.charni@gmail.com

0-بديع السماوات والأرض

كما هو معلوم فإن كل صانع يضع في صنعته علامات ودلائل تدل عليه حتى لا يدعي أحدٌ أنه هو المصنع زوراً وعدوناً مثل العلامة التجارية وغيرها من وسائل حفظ الصنعة كذلك الله سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى أودع في مخلوقاته دلائل وعلامات تدل عليه ومن أهم العلامات التي تدل عليه سبحانه إتقان الصنعة وتفردها عن المشابهة بصناعة مثلها فمن أحب أن يعرف عجزه ويعرف عظمة الخالق سبحانه فليحاول أن يأتي بصنعة تشبه صنعته سبحانه .

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا

ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ [الحج : 73] .

ويقول سبحانه وتعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)[الشورى : 29]

ويقول سبحانه وتعالى:(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [الجاثية : 4]

ويقول سبحانه وتعالى:(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)[الأنعام : 38]

(206/607)

فمكن كانت كذلك صنعته وقدرته كان أحق بالعبادة عمن سواه وكان أحق أن يتبع شرعه، لذلك أخوتي أدعوكم وأدعو نفسي إلى التأمل في خلق الله تعالى تأمل عقل واعي يريد الحقيقة فيتبعها .

قال الله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ) [البقرة: 164].

وإليكم بعض الصورة لبعض الحشرات والمخلوقات التي أبدعها الله سبحانه وتعالى:

يقول الشاعر:

لله في الآفاق آيات لعلّ

أقلها هو ما إليه هداكا

ولعل ما في النفس من آياته

عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكا

والكون مشحون بأسرار إذا

حاولت تفسيراً لها أعياكا

قل للطبيب تخطفته يد الردى

من يا طبيب بطبه أرداكا

قل للمريض نجا وعوفي بعد ما

عجزت فنون الطب من عافاكا

قل للصحيح يموت لا من علة

من بالمنايا يا صحيح دهاكا

قل للبصير وكان يحذر حفرةً

فهوى بها من ذا الذي أهواكا

بل سائل الأعمى خطا بين الزحـ

ام بلا اصطدام من يقود خطاكا

قل للجنين يعيش معزولاً بلا راعٍ

ومرعى ما الذي يرعاكا

قل للوليد بكى وأجهش بالبكا

لدى الولادة ما الذي أبكاكا

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه

فاسأله من ذا با لسموم حشاكا

واسأله كيف تعيش يا ثعبان

أو تحيا وهذا السم يملأُ فاكا

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت

شهداً وقل للشهد من حلاّكا

بل سائل اللبن المصفى كان

بين دمٍ وفرثٍ من الذي صفّاكا

وإذا رأيت الحي يخرج من حنايا ميت

فاسأله من يا حي قد أحياكا

قل للنبات يجف بعد تعهدٍ

ورعايةٍ من بالجفافِ رماكا

وإذا رأيت النبت في الصحراء

يربو وحد فاسأله من أرباكا

(207/607)

وإذا رأيت البدر يسري ناشراً

أنواره فاسأله من أسراكا

واسأل شعاع الشمس يدنو وهي

أبعد كل شيء ما الذي أدناكا

قل للمرير من الثمار من الذي

بالمر من دون الثمار غذاكا

وإذا رأيت النخل مشقوق النوى

فاسأله من يا نخل شق نواكا

وإذا رأيت النار شب لهيبها

فاسأل لهيب النار من أوراكا

وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً

قمم السحاب فسله من أرساكا

وإذا ترى صخراً تفجر بالمياه

فسله من بالماء شق صفاكا

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال

سرى فسله من الذي أجراكا

وإذا رأيت البحر بالماء الأجاج طغى

فسله من الذي أطغاكا

وإذا رأيت الليل يغشي داجياً

فاسأله من يا ليل حاك دجاكا

وإذا رأي الصبح يسفر ضاحكاً

فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا

ستجيب ما في الكون من آياته

عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكا

ربي لك الحمد العظيم لذاتك

حمداً وليس لواحدٍ إلاّ كا

يا مدرك الأبصار والأبصار

لا تدري له ولكنهه إدراكا

إن لم تكن عيني تراك فإنني

في كل شيء أستبين علاكا

يا منبت الأزهار عاطرة الشذى

ما خاب يوماً من دعا ورجاكا

يا مجري الأنهار عاذبة الندى

ما خاب يوماً من دعا ورجاكا

يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي

با لله جل جلاله أغراكا

اللهم نوّر قلوبنا بنور القرآن الكريم

إعداد فراس نور الحق

مدير موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

للتواصل : nouralhak@hotmail.com

0-تصرفات الجنين داخل الرحم عالم من الأسرار

تبدأ حياة الجنين بالتقاء البويضة بالحيوان المنوي لتبدأ انقسامات الخلايا فيزداد عددها وتتشكل الأعضاء وتبدأ بأداء وظائفها مكونة بذلك مخلوق بشري متواضع الحجم معقد التطور و التصرفات يأخذ من الرحم محل إقامة له حتى يحين موعد التقائه بالعالم الخارجي !!

(208/607)

ومع تقدم العلم وتطور أجهزة الأشعة التليفزيونية و خاصة رباعية الأبعاد أصبح من الممكن الاجابة علي كثير من الأسئلة بخصوص حياة الجنين داخل رحم الأم فقد فتح جهاز

الالتراساوند الرباعي الأبعاد نافذة إلى رحم المرأة لكشف أسرار ذلك الكائن البشري و الإجابة على الكثير من التساؤلات التي تحيط به و التي أذهلت العلماء لفترة طويلة من الزمن وأثارت فضول الآباء :متى تبدأ حركة الجنين ؟ و ما هي أشكال هذه الحركة ؟ ومتى تشعر بها الأم ؟ وهل للجنين حواس ؟هل يشعر بالألم ؟ هل ينام ؟ هل يحلم ؟ هل لديه قدرة على التعلم وهل لديه ذاكرة ؟ وهل استثارة الجنين ظاهرة صحية ؟ كثير من الأسئلة التي لم يكن ممكنا الإجابة عليها لولا التطورات الهائلة التي طرأت على أجهزة الالتراساوند .

(209/607)

تبدأ حركات الجنين الأولى – والتي تمكن الأطباء من مراقبتها – ما بين الأسبوع السابع ومنتصف الأسبوع الثامن وهي بالطبع حركة غير محسوسة لدى الأم . وعبارة عن حركة فجائية تستمر من ثانية إلى ثانيتين وكأنها انتقال لجسم الجنين ككل و الذي يبلغ طوله(2سم) تقريبا في تلك الفترة من مكان لآخر ويسبق حركة الجنين هذه نبضات قلبه التي يمكن مراقبتها خلال الأسبوع السادس تقريبا . ومن هذه اللحظة تبدأ حياة الجنين العملية في رحم أمه وفي كل يوم ينمو به الجنين تزداد حركاته تعقيدا وتتوظف أعضاؤه تدريجيا . هذه الحركات تأخذ أشكالا متعددة وقد ظن العلماء لفترة طويلة من الزمن بأن هذه الحركات

تبدأ كردود فعل غير أنه تبين أنها تبدأ كحركات تلقائية وعفوية غير مخطط لها وقد تكون هذه الحركات الابتدائية التي سبق الحديث عنها لمرة واحدة أو كحركات متتالية يفصلها ثوان عن بعضها البعض, وتتطور ليبدأ الجنين بضم وفرد جذعه وبعد ذلك ضم وفرد أطرافه و تحريك جسمه ككل بدون وضوح لحركة الأطراف . وهذه الحركة الإجمالية للجسم تزداد قوة من الأسبوع الثامن – حيث تبدأ – حتى الأسبوع الثاني عشر فتتراوح بين القوة و الضعف . إلا أن أعظم ما يميزها أنها تعطي إيحاء بالثقة العالية التي يحتفظ بها هذا المخلوق الصغير لنفسه دائما .

ومن الحركات الطريفة التي يمكن مراقبتها و التي تبدأ مع الأسبوع التاسع ,
الحازوقة(Hiccup) و التي يصاحبها انقباض في الحجاب الحاجز يمكن أن يراقبه الأطباء بحركات البطن والصدر, وعادة تتكرر الحازوقة عند الجنين بفترات زمنية متقاربة و ثابتة ونادرا ما تحدث لمرة واحدة فقط .

(210/607)

أما حركات الفم فهي متنوعة و في غاية الروعة تبدأ بتحريك الفك بفتحه وإغلاقه وحركات شبيهة للمضغ منذ منتصف الأسبوع العاشر تقريبا ومن ثم التثاؤب في منتصف

الأسبوع الحادي عشر و الذي يبدأ بفتح الجنين لفمه وإرخاء اللسان للأسفل و يبقى على هذا الوضع لمدة (ثانية إلى ثمان ثواني) حتى يعود لوضعه الطبيعي وقد يتساءل البعض ما الذي يجعل الجنين يتثاءب ؟ !

إن السبب الذي يدفعنا نحن البالغين والأطفال للتثاؤب هو نفسه الذي يدفع هذا المخلوق الذي لا يتجاوز طوله السنتميترات القليلة للتثاؤب كذلك , وهو نقص الأكسجين المغذي للدماغ في حالات النعاس و الملل وقليلا ما يرتبط بالإرهاق . فيقوم الجسم بحركة لا إرادية للفم لتهيئة فرصة لاستنشاق أكبر نسبة أكسجين . والتثاؤب ظاهرة قد ترتبط ببعض الحالات المرضية كفقر الدم , وبذلك هي صفة مشتركة بين الأجنة الأصحاء وغير الأصحاء .

(211/607)

أما المص والبلع فيمكن ملاحظته في منتصف الأسبوع الثاني عشر وعندها يمكن مراقبة الجنين وهو يمص إصبعه أو يضع يده على وجهه و يفرد ويضم أصابعه ويضع يد فوق الأخرى ويحرك بقدميه, ويتحرك بحركات بهلوانية و يمارس تمارينه الرياضية في محاولة منه لجذب انتباه أبويه وليوصل رسالة صغيرة من محيطه الصغير بأنه إنسان بشخصية منفردة و

احتياجات خاصة , حتى قبل أن يتم الثلث الأول من الحمل . وكلما اقترب الجنين من النهاية كانت تصرفاته أقرب ما يكون لتصرفات حديث الولادة . وبالرغم من كل هذه الحركات و المشاكسات التي تبدأ في عمر رحمي صغير جدا إلا أن الأم لا تشعر بها إلا ما بين الأسبوع السادس عشر و العشرين تقريبا . وما تشعر به الأم يشكل نسبة لا تذكر من حركات الجنين الذي ينام و يستيقظ ويمارس نشاطاته و يتحرك بمعدل خمسين حركة /ساعة بل أنه يمر بمراحل النوم التي نمر بها فهو يشعر بالنعاس ويغرق بنوم عميق يحلم خلاله بأحلام تجعله يبتسم أو يمتعض وفي كثير من الأحيان يغضب بل و يعقد حاجبيه , وهذا نراه في النوم واليقظة .

إن مراحل النوم هذه تتمحور و تأخذ شكلها النهائي مع تطورات الدماغ عند الجنين حتى تصبح مع اقتراب موعد الولادة متطابقة لتلك التي عند حديث الولادة . ويجدر بالذكر أن الجنين في الأسبوع (32) تقريبا ينام بنسبة 85-90% من يومه . بقي أن نقول أن حركات الجفون عند الجنين تظهر بين الأسبوعين الثامن عشر و العشرين إلا أن مراقبتها ليس بالأمر السهل, مما صرف اهتمام معظم الأطباء عنها .

أما السؤال الأكثر تعقيدا هو هل يحس الجنين وهل يمتلك الحواس التي نمتلكها ؟ ! بعد الأبحاث التي أجراها العلماء جاءت الإجابة بنعم .

وأول حاسة تبدأ عند الجنين هي حاسة اللمس , والإحساس باللمس يبدأ بالوجه في الأسبوع السابع تقريبا لينتقل بعدها تدريجيا لباقي أعضاء الجسم فنجد الجنين يلمس وجهه بيده ويتلمس جسده . ومع الأسبوع الرابع عشر تتشكل مستقبلات التذوق عند الجنين فنجده يمص ويبلع بل و الأغرب من ذلك أنه يراوح في سرعة بلع السائل الأمنيوسي بناء على النكهة التي تكون غالبة على هذا السائل والتي تأخذ طابعها من تغذية الأم . وقد وجد العلماء أن البلع يكون أنشط للمذاق الأحلى ! ! انه حقا مخلوق يستحق الاحترام .

أما حاسة السمع عند الجنين فتبدأ أبكر مما يظن الجميع , حيث تبدأ في الأسبوع السادس عشر بالرغم من أن الأذن نفسها تأخذ شكلها النهائي في الأسبوع الرابع و العشرين . ومن ذلك نستنتج أنه عندما يحين موعد الولادة يمتلك الجنين قدرة سمعية مطابقة تقريبا لقدرتنا نحن البالغين على السمع . . اكتسبها من خبرته العريقة التي مارسها ما يقارب الستة أشهر سمع من خلالها نبضات قلب أمه و تدفقات الدم وكل ما كان يصله عبر جدار البطن والرحم إضافة إلى صوت المعدة والأمعاء فهو محيط مزعج . ويمكن أن تراقب الجنين على جهاز الالتراساوند وهو يهتز بقوة للمنبهات الصوتية القوية بل إنه يولد وهو يفضل صوت أمه وقد سجلت حالات كان نبض الجنين يتباطىء بها عند سماع صوت أمه أو عند سماع قصة يميزها بصوت مألوف لديه فهو لا يسمع فقط بل يميز الأصوات كذلك وهذا برهان أن

ملكة التعليم تتشكل عند الإنسان قبل أن يعانق العالم الخارجي , وكذلك الذاكرة .

وهذه الاستنتاجات خرج بها العلماء من المراقبة الطويلة للأجنة ضمن الأبحاث, إضافة لمراقبة تصرفات الخديج , حيث وجدوا ردود فعل للصوت لدى خديج بالأسبوع الرابع والعشرين .

(213/607)

حاسة البصر هي آخر الحواس تشكلا عند الجنين وقد اختبر علماء اليابانيين هذه الحاسة بتسليط ضوء شديد على بطن الأم وقد سجلوا استجابة من الجنين . غير أن معظم العلماء حذروا من إجراء تلك التجارب على الأجنة أو الخدج قبل أن يكون الجنين جاهزا لاستقبال مثل هذه المؤثرات و المنبهات . بل عزى بعضهم التلف الذي يصيب شبكية العين عند الخدج و الذي يعزيه الأطباء منذ زمن طويل لتركيز الأكسجين العالي الذي يزود به الخديج أن سببه الفعلي هو تعرض الخديج لدرجات عالية من الضوء هو غير مجهز فعليا لاستقبالها في هذه المرحلة العمرية .

فدماغ الجنين مثلا في عمر 6 أشهر من الحمل لا يكون مجهزا لاستقبال أو ترجمة الإشارات التي ترسلها العين مما يؤثر على تطور الدماغ عند الجنين .

والعلماء بشكل عام ضد المؤثرات الخارجية فوق المتوقعة بأنواعها السمعية , البصرية أو الحسية . والتي تتجاوز حدود الأحاديث القصيرة الهادئة و رواية القصص لفترات قصيرة . لأن كل هذه المؤثرات تؤثر على نمط حياة الجنين من حيث النوم و اليقظة مما يؤثر على تطور الدماغ و الأعصاب و بالتالي يعطي نتائج عكسية للنتائج التي يتوقعها الأبوين كازدياد التطور الذهني للجنين في المستقبل . و الطريقة الأمثل لتحقيق هذا الهدف هو توفير بيئة رحمية للجنين خالية من المواد السامة لأم بدون ضغوطات نفسية وتحصل على تغذية سليمة . وقد أثبت العلماء أن نسبة الذكاء عند الأطفال تتأثر بالبيئة الرحمية أكثر مما تتأثر بالعامل الوراثي .

هل يشعر الجنين بالألم ؟

(214/607)

أما الإحساس بالألم فإنه – على غير المتوقع – يتشكل عند الجنين بسن مبكرة و يلاحظ الأطباء ذلك من خلال سحب السائل الأمنيوسي و الذي يتم به إدخال إبرة للرحم فإذا ما وخزت الإبرة الجنين عرضيا فإن الجنين ينسحب بسرعة في محاولة للهرب و الأكثر من ذلك أنه قد يهاجم الإبرة مرة ثانية ليدافع عن نفسه وقد تبين ارتفاع في هرمون بيتا – اندورفينز –

وهو الهرمون المسئول عن تفاعل الجسم مع الضغوطات و التهديدات إلي (6) أضعاف بالإضافة إلى تسارع في التنفس عند تعرض الجنين لجسم حاد . وهذه نتيجة تجارب قام بها العلماء بلندن ليثبتوا أن الجنين يشعر بالألم بعد أن أنكر جراحي الأجنة ذلك لوقت طويل من الزمن . بقي أن نقول أنه قد تم تسجيل حالة بكاء لخديج في الأسبوع الثالث و العشرين .

وهناك رأي آخر يقول بأن الجنين لايشعر بالألم: فقد أكد الدكتور "كلارك روزين" الباحث الأمريكي في دراسة له نشرتها "مجلة الرابطة الطبية الأمريكية" أن ردود الفعل العصبية واستجابات التوتر الهرمونية الموجودة في مرحلة مبكرة في مراحل نحو الجنين لا تعتبر دليلاً جليًا أو كافيًا على إدراك الألم، مشيرًا إلى أن وظيفة إدراك الألم لا تبدأ قبل الفترة الثالثة (آخر ثلاثة أشهر) من الحمل .

ورغم أنه أعلن أن المعلومات المتوفرة حاليًا حول هذا الموضوع لا تزال شحيحة، ولكنه يؤكد أن الإحساس بالألم يتطلب الإدراك الواعي بعامل حسي غير مستحب، وهذا لا يمكن أن يحصل إلى حين نمو بعض الأنسجة التي تصل بين المِهاد البصري في المخ ولحاء المخيخ خلال فترة الجزء الثالث من فترة كامل الحمل .

وعادة لا تظهر هذه الوصلات العصبية إلا بحلول الأسبوع الثالث والعشرين من الحمل، وربما لا تبدأ في التشكل إلى إلا بحلول الأسبوع الثلاثين . وفقًا لما أورده موقع "سيريانيوز الإلكتروني" .

ومن جهته أكد البروفيسور البريطاني "تشارلز روديك" أن نتائج البحث الأمريكي متناسقة مع ما هو معروف حتى الآن عن الآلام التي يشعر بها الجنين، مضيفاً أنه كي يشعر الجنين بالألم يجب أن تكون المنظومة العصبية الأساسية موجودة لديه وتعمل .

ويبدو أن هذا البحث قد تلقفته العديد من الأيادي التي تطالب بعمليات الإجهاض بحجة أن الجنين في الشهور الأولى لا يشعر بالألم، إلا أن قدرة الضحية على الإحساس بالألم ليست هي ما يجعل القتل شيئاً يلقى المعارضة بل إنه انتهاك لأبسط حقوق الفرد الإنسانية ألا وهو الحق في الحياة . (مفكرة الاسلام)

من كل ما ذكر أصبح كل ما نراه عبر جهاز الالتراساوند رباعي الأبعاد مفسر وواضح فلهذا الصغير شخصية مستقلة لها بصمات خاصة تعطي إيحاء عما سيكون في مستقبله البعيد .

وأجمل ما يمكن أن يراه المرء على جهاز الالتراساوند رباعي الأبعاد توائم في حالة وفاق يداعب أحدهم وجه الآخر أو يوقظ أحدهم الآخر أو حتى يضرب أحدهم الآخر . .

إنه عالم مليء بالأسرار .

صور لأجنة حيوانية في الرحم

صورة لجنين سمك الدولفين

صورة لجنين فيل في بطن أمه

صورة لجنين كلب في بطن أمه

صورة لجنين فيل في بطن أمه

صورة لجنين كلب في بطن أمه

صورة لجنين فيل في بطن أمه

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [الجاثية : 4]

وقال تعالى اللَّهُ : (الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ

ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)[الروم : 54]

وقال الله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت : 53] .

مصدر الصور:

(216/607)

الصور المعروضة لجنين الإنسان هي صور لأجنة بأعمار متفاوتة التقطت عن طريق جهاز الالتراساوند رباعي الأبعاد في عيادة الدكتور نجيب ليوس الكائنة في جبل الحسين,عمان . أما صور أجنة الحيوانات فهي نقلا عن موقع أخبار العالم .

بقلم د . محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائي طب و جراحة العيون

عضو الجمعية الرمدية المصرية

جمهورية مصر العربية

دمياط – الزرقا –ش طارق بن زياد

لمراسلة المؤلف

dr_mohamed_60@hotmail.com

الهاتف الجوال: 002010 . . .

الهاتف الثابت: 0020 . . . .0020 . . .

المصادر:

http://www.layyous.com/root%20folder/ultrasound_photosar.htm(1)

(2)مفكرة الإسلام

(3)موقع أخبار العالم

0-طائر الطنان آية من آيات الله

صورة لذكر طائر الطنان

قال تعالى:(أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) . (النحل:79)

اليوم احبائى في الله سوف نطير ونسبح معا في الفضاء الفسيح عابرين فيها البحار والمحيطات والقارات مع مجموعة من اصغر أنواع الحيوانات الفقارية بل واصغر أنواع الطيور على وجه الأرض حتى ألان . أنها مجموعة من الطيور التي تتميز بصغر حجمها ورقتها

ورشاقتها وسرعتها وخفتها ووداعتها وجمال ألوان ريشها التي أبدعها الخالق عز وجل . أنها مجموعة من الطيور اشتق اسمها من صوت ضربات أجنحتها السريعة والتي تصل إلى حوالي 80 ضربة / الثانية . أعرفتم احبائى ما هي هذه المجوعة من الطيور ؟ ؟ ؟

إنها مجموعة الطيور الطنانة . . Hummingbird

(217/607)

تتبع الطيور الطنانة فصيلة Trochilidae ويوجد منها حوالي 300 نوع تنتشر في الأمريكتين والمكسيك وكوبا وجزر الهند وألاسكا . يتنوع حجمها فمنها اكبر الطيور الطنانة والذي يسمى بالطائر الطنان العملاق Giant hummingbird والذي يبلغ وزنة حوالي 21 جرام وطوله حوالي 12 سم إلى اصغر الطيور الطنانة بل واصغر أنواع الطيور والفقاريات على وجهة الأرض وهو طائر النحلة الطنان The bee hummingbird والذي يزن حوالي من 8و2:1 جرام وطوله حوالي 5 سم .

هل تهاجر الطيور الطنانة ؟ ولماذا تهاجر ؟

تهاجر الطيور الطنانة من الأماكن الباردة شمالا إلى الأماكن الدافئة الجنوبية ولكن لماذا

تهاجر ؟ نتيجة لبرودة الجو ودخول فصل الخريف تقل فترات سطوح الشمس فتحدث تغيرات هرمونية داخل أجسام هذه الطيور تجعلها تهاجر إلى الأماكن الجنوبية الأكثر دفئ وذات النهار الأطول وذات فترات إضاءة أطول . فنجد هذه الطيور تعبر البحار وتهاجر منفردة وليست في مجموعات فمعظمها يهاجر من وسط المكسيك إلى ألاسكا والعودة مرة ثانية إلى أوطانها وخلال هذه الرحلة تطير بسرعة طيران حوالي 27 ميل / الساعة وتتعرض إثناء طيرانها إلى الموت بفعل الرياح الشديدة والتي تسقط على أثرها صرعا .

ماهى المميزات التي تتميز بها الطيور الطنانة عن باقي الطيور وباقي الفقاريات ؟

يصل معدل ضرب الجناح لطائر الطنان أثناء موسم التزاوج إلى 200 ضربة في الثانية فسبحان الله

1- أعلى نسبة تنفس حوالي 250 مرة / الدقيقة

2- أعلى معدل لنبضات القلب حوالي 480 دقة / الدقيقة أما أثناء الطيران يصل معدل دقات القلب إلى 1260 دقة/ الدقيقة

3- أعلى درجة حرارة للجسم تصل إلى 40 درجة مئوية

4- أعلى سرعة طيران للأجنحة حوالي 80 ضربة / الثانية وإثناء موسم التزواج يزيد المعدل إلى 200 ضربة / الثانية

5- تأكل كلا 15 : 20 دقيقة وتهضم الغذاء في خلال 10 : 15 دقيقة

6- تأكل نصف وزنها من الغذاء يوميا و تشرب حوالي 8 مرات وزنها من الماء يوميا

(218/607)

7- تتميز بمنقار طويل ورفيع جدا ووجود لسان انبوبى الشكل تمده بداخل الزهور لامتصاص الرحيق

8- أجنحتها تتحرك حركة دائرية لأعلى وأسفل ويمينا ويسارا

9- الهكيل العظمى كله مجوف وخفيف الوزن ماعدا عظام الأجنحة مصمتة

10- لا تمشى على الأرض بأرجلها فهي تفضل السباحة في الهواء فوق سطح الأرض للانتقال من مكان لأخر أما أصابع أرجلها فتساعدها على الإمساك بفروع الأشجار

11- أكثر الطيور كثافة في معدل انتشار الريش على الجسم في البوصة المربعة

12- أصغر أنواع البيض هو البيض الذي تضعه أنثى الطنان فحجمها في حجم حبة القهوة

بعد أن تعرفنا بشكل عام على أهم مميزات الطيور الطنانة تعالوا معي احبائى نصطحب طائرة ونسبح في الهواء ونعبر البحار والمحيطات والبلدان حتى نصل إلى كوبا (ولماذا كوبا ؟ ؟) لأنها البلد الوحيدة التي ينتشر بها هذا الطائر ونهبط بالطائرة على احد

حدائقها أو غاباتها المفتوحة لنقترب أكثر ونشاهد اصغر الطيور الطنانة واصغر حيوان فقاري على وجه الأرض والذي يقطن غابات وحدائق كوبا .

انه طائر النحلة الطنان (The bee hummingbird)

وتعالوا نسال أنفسنا لماذا سمي بهذا الاسم ؟ ماذا يأكل ؟ ومن يأكله ؟ كيف يتغلب على قله الغذاء أثناء الظروف القاسية من البرودة ؟

كيف نميز الذكور عن الإناث ؟ ما هي طقوس الزواج ؟ وما هي دورة حياته ؟ ومن المسئول عن بناء العش وتربية الصغار ؟ وما هي مكونات العش ؟ كيف يطير ؟ وكيف يتنفس ؟ ماحجم القلب بالنسبة للجسم و ما عدد دقاته ؟

صورة لطائر النحل الطنان وهو يقترب من زهرة من أجل مص الرحيق

لماذا سمي بهذا الاسم ؟

سمي بطائر النحلة الطنان لسببين الأول لصغر حجمة والذي يزيد قليلا عن حجم ملكة النحل فوزنه ما بين (1.2 و2)جرام أما الطول حوالي 5سم والسبب الآخر (في اسم الطنان) لحركة أجنحته السريعة والتي ينتج عنها صوت طنين لهذا سمي بطائر النحلة الطنان .

ماذا يأكل ؟ ومن يأكله ؟

يتغذى الطائر بصفة أساسية على رحيق الأزهار فهو يزور مئات الزهور يوميا ليلعق منها الرحيق بواسطة لسانه الانبوبى فهو يلعق حوالي 13 لعقة / الثانية . ويعتبر وسيلة التلقيح الوحيدة لعدد من أنواع النباتات من خلال تنقلة من زهرة إلى أخرى وتعلق حبوب اللقاح بمنقارة أثناء إدخاله داخل الزهرة ومنها إلى زهرة أخرى فيلقحها . ويعتبر الرحيق مصدرا للطاقة التي تحتاجها في اليوم واللازمة للطيران وتتغذى أيضا على عدد من الحشرات الصغيرة مثل النمل والذباب كمدر للبروتين . وتقوم بهضم الغذاء في خلال 15 دقيقة ويتحول إلى طاقة تستهلكها في الطيران من زهرة لأخرى بحثا عن الرحيق وكذلك تستخدمها في عمليه التنفس ولهذا فهي تأكل كل 15 دقيقة وتعد من أسرع أنواع الحيوانات في سرعة التمثيل الغذائي والايض على سطح الأرض .

وقال تعالى: (وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(العنكبوت: 60)0

من يأكله ؟

يؤكل طائر النحلة الطنان بواسطة الصقور والغربان والبوم وعندما يشعر احد أفرادها

بطائر مفترس يقترب منه أو من عشه يقوم بالطيران في الهواء وعمل حركات بهلوانية في الهواء لأعلى وأسفل والى اليمين واليسار مع إصدار صوتا عاليا يحذر به باقي الطيور الطنانة حتى تبتعد عن المكان بالطيران في الهواء وهى تمتاز في طيرانها عن باقي الطيور بقدرة أجنحتها على الطيران بشكل دائري في كل الاتجاهات .

كيف يتغلب على قله الغذاء أثناء الظروف القاسية من البرودة ؟

صورة لذكر طائر الطنان الأخضر في أثناء الطيران

تقوم هذه الطيور بتقليل معدل التنفس وخفض درجة حرارة جسمها من 40 درجة مئوية إلى 20 درجة . وتقلل معدل ضربات القلب إلى 10/1 المعدل الطبيعي . وتسكن في العش بدون حركة حتى لا تستهلك سوى طاقة بسيطة من جسمها . ولو استمرت لمدة يوم بعد تحسن الأحوال الجوية في البحث عن غذاء ولم تجد فإنها تموت .

(220/607)

قال تعال: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه:50) .

كيف نميز بين الذكور والإناث ؟

تتميز الذكور بصغر حجمها عن الإناث فيصل حجمها إلى 8ر1 جرام إما الإناث فحوالي 2جرام كذلك لون الريش في الذكور يختلف عن الإناث .

فالذكر :لون ريش الظهر يجمع بين ألوان قوس قزح والرقبة لونها احمر ناري أما السطح البطن رمادي اللون وذيل الريش ابيض ناصع اللون .

أما الإناث: لون ريش الظهر ازرق مخضر لامع والرقبة لونها ابيض أما السطح البطن رمادي اللون شاحب وذيل الريش ابيض ناصع .

ما هي طقوس الزواج بين الذكور والإناث ؟

يقوم الذكر بنفش ريشه الملون الجذاب وتتجمع حوله العديد من الإناث إلى إن يلاقى إعجاب من أحدى الإناث فيقوم بالطيران والسباحة في الهواء وعمل حركات شقلبة في الهواء ويرتفع إلى حوالي 60 قدم عن سطح الأرض وتطير ورائه الأنثى وأثناء الطيران يزيد معدل ضربات القلب إلى 200 دقه/ الثانية . ثم يسقط بسرعة على الأرض ويحدث التزواج بينهما في حوالي من 3: 5 ثواني .

ما هي دورة حياته ؟ ومن الذي يقوم ببناء العش ورعاية الصغار ؟

بعد أن شاهدنا التزاوج بين الذكر والأنثى نجد إن الذكر يختفي عن أنثاه وتبدأ الأنثى بمفردها في بناء العش ووضع بيضتان في حجم حبة القهوة ويفقس البيض بعد حوالي 14: 19 يوم ويغطي الريش أجسامهم بعد حوالي 21 يوم وترعاهم الأم لمدة 40 يوم من الفقس

وتمدهم بالغذاء والماء اللازمة لهم . تعيش هذه الطيور من 5: 10 سنوات ولكن معظمها يتعرض للموت والهلاك بسبب الظروف الجوية القاسية في الشتاء .

ما هو حجم العش وما هي مكوناته ؟

صورة لعش طائر الطنان والذي يحتوي على فرخين

اصغر عشوش الطيور على الإطلاق فقطره حوالي 3سم ويتكون من الزغب والألياف والأغصان الرفيعة الجافة وشبكات العنكبوت والتي تعتبر أحيانا مصدر لموت الأنثى حيث تلتف حول أرجلها وجسمها وتقيدها عن الحركة فتموت .

كيف تطير ؟

(221/607)

الطنان من الطيور الواحيدة التي تتميز بان أجنحتها تتحرك في جميع الاتجاهات حركة دائرية ويصل عدد ضربات الأجنحة إلى حوالي من 60:80 ضربة / الثانية وتزيد إثناء طيران الزواج إلى 200 ضربة / الثانية . ولكن ما هو الاختلاف في التركيب العظمى لأجنحة الطيور الطنانة عن باقي الطيور لتساعدها على هذه الحركة ؟ ؟ ؟ أنها تستخدم

عظام اليد في الطيران ونجد عظام الساعد قصيرة جدا ومفصل الرسغ والمرفق لا تتحرك ومفصل الكتف المتصل بالجسم يتحرك في جميع الاتجاهات بسهوله مما ينتج عنه حركة الطائر الطنان الدائرية في جميع الاتجاهات . أما باقي الطيور تستخدم عظام الذراع بأكمله في الطيران فتكون الحركة محدودة لأعلى وأسفل فقط بالإضافة إلى إن مفصل الرسغ والمرفق متحركة .

كيف تتنفس ؟

تتنفس الهواء الجوى من خلال الرئتين الصغيرتين الموجودتان في منطقة الصدر والمدعمة بتسعة أكياس هوائية تتصل بالرئة عن طريق أنابيب صغيرة وتعمل الأكياس الهوائية على حفظ توازن الطائر إثناء الطيران وخفة وزنه . ويبلغ معدل التنفس حوالي 250 مرة / الدقيقة . اى ما يعادل تنفس حمامة 10 مرات .

ما حجم القلب بالنسبة للجسم و ما عدد دقاته ؟

يمثل القلب حوالي 5و2 ٪ من حجم الجسم ويدق القلب حوالي 480 دقة/ الدقيقة وهى أعلى معدل لضربات القلب في اى حيوان فقاري آخر .

قال تعالى: (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) [الأنعام : 38] صدق الله العظيم

بقلم/ مروة عزمى مختار جنينة

مدرس مساعد بقسم الحيوان الزراعي بكلية الزراعة جامعة المنصورة- مصر

marwaaz2002@yahoo.com

المراجع:

-1

http://www.arthurgrosset.com/sabirds/beehummingbird.html

-2 http://www.answers.com/topic/bee-hummingbird

-3 http://www.enchantedlearning.com

-4-1 http://www.sandiegozoo.org/animalbytes/t-

-5

http://www.mschloe.com/hummer/huminfo.htmhummingbird.html

-6 http://en.wikipedia.org/wiki/Hummingbird

مصدر الصور: http://en.wikipedia.org

0-الغراب آية من آيات الله

حديثنا اليوم احبائى في الله عن طائر يعد من أذكى الطيور . اختلف حوله الناس فمنهم من تعجب من ذكائه وتعاون أفراد جماعته كلا مع الآخر ومنهم من اتهمه بأنه طائر شؤم وخرابومنهم من أزعجه نعيقه المستمر . لهذا حاولت أن نقترب أكثر نحو هذا الطائر لنرى كيف قام بدور المعلم للإنسان وعلمه أول درس في حياته ؟ وكيف انه يستخدم ابسط أدواته للحصول على احتياجاته اليومية من الغذاء ؟ وكيف يتعاون الذكر مع الأنثى في تربية الصغار ؟ وكيف يحمى الذكر أنثاه ويخلص لها طيلة حياته ؟ وكيف انه يؤمن بالحكمة التي تقول أن الكثرة تغلب الشجاعة ؟

هل عرفتوا احبائى ما هو هذا الطائر الذي سوف أحدثكم عنه ؟ انه طائر :-

الغراب: Crow

هيا احبائى نتعرف على الغراب ونتحدث عن عظمه الخالق عز وجل وبديع آياته فى تلك الطائر وكيف أن الله وهبه الذكاء وحسن التصرف وعلمه الحب والحنان والتعاون مع أفراد نوعه ونذكر أنفسنا بهذه الصفات الحميدة التى غابت كثيرا فى الآونة الأخيرة

عنمجتمعنا العربى الاسلامى وندعو الله عز وجل أن نرجع إلى صوابنا وان نتمسك بحسن الأخلاق .

ما هو الغراب ؟

هو طائر يتبع جنس Corvus ومنه حوالي 27 نوع تنتشر فى معظم أنحاء العالم ما عدا القارة القطبية الجنوبية وأمريكا الجنوبية . الذكور عادة اكبر حجما من الإناث . معظم ريش الغربان يتميز باللون الأسود ذات اللمعان الواضح ولكن ما حكمة الله عز وجل بهذا اللون الأسود ؟ وهل يخلق الله شيئا عبثا ؟ بلا شك لا ! ! ! !

قال تعالى: (الذي أحسن كل شيء خلقه) السجدة: 7

أن هذا اللون الأسود للريش يجعل الغربان تتوارى فى ظلمة الليل عن أعدائها من البوم والصقور التى تنشط ليلا وتفترسها .

(223/607)

تعالوا معي احبائى نتجول فى وطننا العربي لنتعرف على أهم أنواع الغربان التي تقطنه:

1 – الغراب النوحى :–

طوله حوالي 50سم لون ريش الجسم اسود ما عدا ريش الرقبة لونه بنى وينتشر هذا النوع

فى شمال إفريقيا .

2- الغراب المروحي الذيل:-

والذي أطلق عليه العرب (غراب البين) واتهموه بأنه يجلب الخراب وقد نهانا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام عن التشاؤم .

فقال صلى الله عليه وسلم(لا عدوى ولا طيره) صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويتميز هذا الغراب بأنه اصغر من النوع السابق ولونه اسود مع لمعان مزرق وذو ذيل قصير مروحى وجناحه طويل يشبها لخفاش . وينتشر هذا النوع فى السعودية والسودان والصومال ومصر وفلسطين .

3- غراب المنازل الهندي:

طوله حوالي 40 سم ويتميز لون الريش بأنه اسود فى منطقة الرأس والعنق والظهر والجناحين والذيل أما باقى الجسم فلون الريش رمادى . وينتشر هذا النوع فى دولة الإمارات العربية وعمان والسعودية .

4- الغراب الاورق:

طوله 43 سم لونه اسود مع رمادى لامع وينتشر فى مصر و فلسطين وسوريا .

ما هو اصغر أنواع الغربان ؟

هو نوع من الغربان يسمى غراب السمك Corvus ossifragus وينتشر هذا النوع

على الشريط الساحلى للولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية الشرقية ويقوم بالتغذية على الأسماك ويتميز بصغر حجمه فهو يساوى حجم حمامة صغيرة ويتميز أيضا بصوته الحاد المرتفع جدا والذي يسبب إزعاج لباقى أنواع

صورة لغراب يبحث عن الغذاء

الغربان .

ما هى لغة التعارف بين الغربان ؟

تقوم الغربان بإصدار أصوات عالية ذات ترددات مختلفة هذه الترددات تعتبر لغة التعارف فيما بينهما فلكل نوع من الغربان صوتا بتردد معين وهذه الترددات بمثابة شفرات استخبارية للمجموعة الواحدة, فسماع احد الغربان لصوت غراب أخر غريب عن نوعه أو غريب عن قبيلته فنجده يصدر اصواتا مستمرة عن طريقها تتجمع جميع قبيلته وتحشد جموعها وتتصدى لهذا الغراب الغريب عنهم وتبدأ فى قتاله .

ما هو غذاء الغربان ؟

تتغذى الغربان على المحاصيل الزراعية والفاكهة والديدان والحشرات والقواقع وبيض الطيور الأخرى والأسماك وأيضا الحيوانات الميتة والمقتولة فى الشوارع وتقوم بتخزين غذائها وتخفيه بأوراق الشجر والأكياس وغيرها

بعيدا عن أعدائها من الطيور .

قال تعالى : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم)

العنكبوت: 60

هيا بنا نقترب أكثر من احد عشوش الغربان ولكني أحذركم احبائى من العبث فى العش أو محاولة الإمساك بالصغار أو قتلها . . . .لماذا ؟ لان الغربان لا تنسى الإساءة والتعدي على مملكتها , فلا أنسى ما ذكره احد الأشخاص عن عبث ابنة الصغير فى احد عشوش الغربان بأحد الحدائق العامة القريبة من منزله واخذ من العش احد الصغار فإذا بالذكر والأنثى يطاردون الابن لمدة عشر سنوات كلما شاهدوه خارج المنزل وفى كل مرة يريدون الهبوط على رأسه وجرحه . ولهذا أحذركم قبل الاقتراب من العش فنحن احبائى اتفقنا من البداية أننا أمام آية من آيات عظمة الخالق تتمثل فى ذكاء هذا الطائر وحكمته .

ما هى مكونات العش ؟

صورة لعش الغراب

تتواجد أعشاش الغربان غالبا على الأشجار وعند النظر فى مكونات العش نجده عبارة عن أوراق متراكمة من الأشجار والريش وأغصان وأعواد جافة وما هذا ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ أنها قطع من الصابون الملونة وأشياء أخرى ذات ألوان جذابة زاهية . سبحان الله إن هذا المخلوق يحب ويقدر الجمال فيقوم بتجميع أى شيئ ذات ألوان زاهية وجميلة وجذابة ويحتفظ بها فى عشه ليشع العش بهجة وجمال فهو مملكته الخاصة .

شاهدوا هذه الأعداد الكثيرة من العشوش التى تنتشر على هذه الشجرة وانظروا أيضا إلى تلك العشوش الموجودة على الأشجار المجاورة أنها تدل على أن الغربان طيور اجتماعية تعيش فى تجمعات كبيرة كل تجمع يسمى

(بالمجثم roost :):

(225/607)

و المجثم الواحد يقطنه المئات بل الآلاف من الغربان والتي تنتمي لنوع واحد وتتواجد افراد المجثم على عدد من الأشجار المجارة لبعضها . ولكن ما الحكمة من معيشة الغربان فى تجمعات كبيرة ؟ ؟ ؟ لقد ذكرت لكم أن الغربان تؤمن بفطرتها التى وهبها لها الله عز وجل

أن الكثرة تغلب الشجاعة والقوة . نعم فالغربان طيور ضعيفة بالمقارنة بأعدائها من الصقور والبوم والتى تنشط ليلا وتفترسها لهذا فتعيش الغربان فى تجمعات كبيرة ترهب بها أعدائها من الطيور الأخرى حيث تبدأ الغربان بإصدار نعيقها المرتفع المستمر قبل غروب الشمس لتتجمع من جميع الاتجاهات وتبدأ كل جماعة أو كل مجثم بالسكون والاستعداد للنوم داخل أعشاشه .

ما هى مميزات المناطق التى تقطنها مجاثم الغربان ؟

هذه المناطق يجب أن تكون قريبة من مصدر الغذاء ومصادر المياة بالإضافة أنها تكون مناطق هادئة وأكثر دفئا ولا يقطنها البوم أو الصقور . لكن لاحظ العلماء فى الآونة الأخيرة انتشار الغربان فى المدن الكبيرة وحدائقها العامة وقلتها فى القرى (لماذا ؟ ؟ ؟) هذا ما جعل الكثير من العلماء المهتمين بسلوك الطيور يبحثوا فى هذه الظاهرة إلى أن توصلوا إلى عدة أسباب دعت الغربان لتفضيل المدن عن الفرى وهى :

1- إن القرى يكثر بها إطلاق الأعيرة النارية دون السيطرة على ذلك بعكس المدن الكبرى التى تحرم إطلاق النار فى شوارعها

2- المدن الكبرى يكثر بها الحدائق العامة ذات الأشجار العالية بالمقارنة بالقرى التى يلجا سكانها الى تقطيع الأشجار والاستفادة من أخشابها

3- الإضاءة المستمرة ليلا فى شوارع المدن والتى تعتبر مصدر آمان للغربان أثناء نومها

على الأشجار حيث إن قوة إبصارها ضعيفة فى الظلام

أتتعجبون احبائى من هذا الطائر ؟ ؟ لا تتعجبوا احبائى أنا لم اذكر سوى لمحات بسيطة من فطنة وذكاء هذا الطائر تعالوا اطرح عليكم سؤال آخر

لماذا تلجا بعض الغربان لقتل بعضها ؟

(226/607)

من ذكاء هذا الطائر انه إذا أصيب احد إفراده بمرض ما ولاحظت أفراد الجماعة عدم قدرته على الطيران هنا يأخذوا قرارا بقتله ثم دفنه لأنهم يخافون من انتشار مرضه إلى باقى أفراد المجثم فيضحوا بهذا الفرد من اجل سلامة باقى الأفراد . من علم هذا الطائر هذا التفكير واتخاذ القرار الجماعى فى الوقت المناسب ؟ انه الله عز وجل البارئ المصور تبارك الله فى صنعه وفى حكمته جل فى علاة .

لقد شاهدنا العش وانبهرنا بجمالة وألوانه الزاهية ولكن ما هى الروح التى تسود على ساكنى هذا العش ؟ ؟ ؟

أهي روح الحب والمودة والرحمة ؟ أم كما نرى كثيرا فى حياتنا اليومية العديد والعديد من البيوت والقصور الفاخرة الانقية والتى وبكل أسف تخلو من روح المودة والرحمة التى دعانا

الله عز وجل إليها سواء بين الزوجين أو بين الأبناء والآباء أو بين الأبناء وبعضهم .

سوف تتعجبون احبائى عندما أقول لكم إن الغربان التى نتهمها بأنها مصدر الخراب والنحس أنها تفوقت على الكثير من بنى البشر فنحن لا نرى عشا من أعشاشها إلا وتسكنه روح الرحمة والمودة والحب والتعاون بين أفراده .

صورة لغراب أسود

تعالوا معى نتعرف على أفراد هذا العش وتلمسوا بأنفسكم الحب الذى ينبعث بين أفراده .

(227/607)

ففي أواخر الشتاء عندما يصل الذكر لسن البلوغ (4 سنوات تقريبا) يبدأ بالبحث عن شريكة حياته وتبدأ الرحلة بإصدار صوتا مرتفعا ينادى به على الإناث البالغة (3 سنوات تقريبا) إلى أن تقترب واحدة منه فيبدأ بنفش ريش جسمه وأجنحته وذيله قليلا كعلامة منه على قبولها ثم يبدأ فى الغناء لها أغنية قصيرة ثم يحدث الزواج بينها ويبدأ كلا منهما فى تنظيف ريش الآخر وتجهيز وبناء العش والذي يستغرق تكوينه حوالى أسبوعين . وبعد أن يصبح عش الزوجية جاهزا لهما تبدأ الأنثى فى وضع البيض حوالى

من 6:2 بيضات خلال أسبوع ثم يفقس البيض بعد حوالى 19 يوم وتظل الصغار بعد الفقس من 45:30 يوم فى العش قبل التريش ثم بعد ذلك تبدأ فى الطيران ومساعدة الأبوين فى الحصول على الغذاء وتجميعه . ولا تضع الأنثى بيضا آخر خلال السنة فهى لها جيل واحد فقط سنويا من الأبناء .

هل يتزوج ذكر الغراب بأخرى ؟

لا يتزوج الذكر مطلقا بأنثى أخرى طيلة حياته والتى تصل فى بعض الأنواع إلى 21 سنة . ولكن هناك حالتين لزواجه من أخرى وهى عندما ينتظر فقس البيض الذى وضعته الأنثى فإذا لم يفقس البيض فيترك كلا منهما الآخر ويبدأ فى البحث عن وليف آخر . وقد يلجأ أيضا للزواج من أخرى عند موت وليفته . يا الله إن الغراب ذلك المخلوق الضعيف يعلمنا اليوم دروسا وعبر فى المحبة والمودة والإخلاص بين الزوجين وانه عندما يبحث عن أنثى أخرى للزواج منها فيكون لسبب قوى وقهري وهو إما للحفاظ على نوعه وذريته أو لوحدته بعد موت وليفته و ليس للبحث عن جمال أنثى أخرى أجمل من أنثاه أو اصغر سنا منها أو . . . أو . . . .أو . . .

ما هى مهام أفراد العش ؟

الأنثى تكون مهمتها الأساسية هى حضانة البيض حتى الفقس وإطعام الصغار بعد الفقس أما الذكر فمهمته الأساسية حماية العش من الأعداء حيث يقف على حافته لمنع دخول أى ذكر غريب من مجثم آخر وإذا دخل عشه يقوم بقتله . وكلاهما أيضا يقوم بالبحث عن الغذاء وجلبه إلى العش . عند وجود أكثر من جيل من الأبناء داخل العش فتقوم الأبناء بمساعدة الآباء فى جلب الغذاء وتنظيف العش وإطعام الصغار وحماية العش .

سبحان الله درس آخر نتعلمه من ذكر الغراب وهو حفاظه على بيته وحميته ونخوته تجاه أنثاه وصغاره بالإضافة لمساعدته لأنثاه فى تربية الصغار والحصول على الغذاء .

لقد تعلمنا دروسا كثيرة من حياة الغربان, دروسا فى الحب والوفاء والإخلاص بين الشريكين إلى حب العمل والتعاون بين أفراد الأسرة إلى الحفاظ على الجماعة والدفاع عنها ضد أي غازي أو معتدى . وبعد كل ذلك تعالوا احبائى نتحدث عن أهم درس وأول درس تعلمه الإنسان من الغراب فى بداية خلق الخليقة . انه درسا لم ولن ينساه قابيل عندما طوعت له نفسه قتل أخيه هابيل بسبب الحقد والغيرة منه لان الله تقبل قربانه ولم يتقبله من قابيل فقتل أخيه وظل يحمله على ظهره ويطوف فى الأرض بحثا عن مكان يخفى فيه جثه أخيه . فإذا به يرى غرابا يثير الأتربة فى الأرض ليخفى غراب آخر ميت . وهنا أراد الله عز وجل أن يعطى درسا لقابيل وكل بنى البشر وهو أن الحقد والكراهية والقتل لا تكون

نهايتها سوى الخلود فى النار حفظنا الله وإياكم منها . والدرس الثانى أن الإنسان مهما أوتى من العلم والمال والقوة والحكمة فانه لا يتعدى إلا أن يكون مخلوقا من مخلوقات الله التى تعيش فى ملكوته, فهذا الطائر الصغير بعث الله فيه من الحكمة والذكاء التى جعلته يعلم الإنسان كيف يوارى سوءة أخيه .

قال تعالى فى سورة المائدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

(229/607)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28)

إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (29)

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)

صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ولكن بعد كلام الله العظيم ما زال من يشكك فى كلام الله ويقول معقول هذا الطائر الضعيف يعلم الإنسان دفن الموتى ؟ ؟ ؟ نقول لهم نعم فالله قادر على كل شيئ وإذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون . فيختم الله على قلوبهم بالكفر ويشككون أيضا فى كلام الله ورسالة رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ويقلون نريد إثبات علمى يثبت لنا أن هذا الطائر يتمتع بقدر كبير من الذكاء والحكمة, فنقول لهم تعالوا إلى التجارب والبراهين العلمية والتى قام بها عدد من العلماء الأجانب و التى تثبت قدرة الخالق عز وجل وإبداع صنعه والقدر الكبير من الذكاء الذى وهبه لهذا الطائر .

(230/607)

** قام احد العلماء الاسرائليينوالمهتمون بدراسة سلوك الطيور بتتبع احد الغربان التى تسمى wild hooded crow والمنتشرة فى إسرائيل وفجأة وجد احد الغربان تقوم بتجميع فتات الخبز وتشبكها بمساعدة أصابع أرجلها فى فرع من فروع الأشجار ثم تسقطها فى البحيرة وعندما يتجمع السمك على فتات الخبز تحت سطح الماء تنقض عليهم وتمسك بهم بمنقارها ثم تطير بالسمك إلى عشها .

لقد تعجب هذا العالم من هذا المشهد وكاد يجن ويقول من وضع هذا الذكاء وهذه الحكمة فى عقل هذا الغراب ؟ ؟ ؟ نقول له انه الله عز وجل والذي حدثنا منذ آلاف السنين عن ذكاء هذا الطائر وكيف انه يوارى سوءة أخيه .

قال تعال: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه:50

** وفى دراسة بريطانية أخرى لاكتشاف ذكاء هذا الطائر :

قام فريق بريطانى بأخذ احد إناث الغربان إلى احد المعامل البريطانية ووضعوا لحم مهروس داخل أنبوبة اختبار وبالقرب منها قطعة من السلك المعدنى الطويل وتركوا الغراب مع هذه الأدوات داخل المعمل وقاموا بتصوير ما يحدث . فوجدوا بعد اقل من 10 دقائق أن أنثى الغراب قامت بثنى نهاية السلك المعدنى ليصبح مثل الخطاف وأدخلته برجلها إلى داخل أنبوبة الاختبار ثم قامت بسحب اللحم المهروس من داخلها ثم التهمتها . فاعتقدوا العلماء أنها فعلت ذلك صدفة فكرروا التجربة 10 مرات ونجحت أنثى الغراب فى العشر مرات فى إخراج اللحم والتهامها .

قال تعالى: (ما من دابة إلا هو أخد بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) هود: 56

صدق الله العظيم

بقلم:

مروة عزمى مختار جنينة

مدرس مساعد بقسم الحيوان الزراعي بكلية الزراعة جامعة المنصورة– مصر

Marwaaz2002@yahoo.com

المراجع:–

http://arabic.peopledaily.com.cn/200208/12/ara20020812_56502.html

http://www.birds.cornell.edu/crows/crowinfo.htm

http://www.wild–bird–watching.com/index.html

http://en.wikipedia.org/wiki

http://www.pestproducts.com/crows.htm

---

http://www.crows.net/index.html

0–أسرار عالم النمل

بقلم الداعية عبد الدائم الكحيل

يوجد اليوم أكثر من عشرة آلاف نوع من النمل في العالم. وجميع هذه الأنواع تعيش في مجتمعات منظمة تتعاون وتبني وتدافع وتتكلم وتحس . . . ولها دماغ وأعصاب . . . .

فسبحان الله !

من خلال مجموعة من الصور الرائعة سوف نرى عظمة الخالق في أضعف مخلوقاته ! إنها نملة صغيرة لا نكاد نحسّ بها ، ولكنها على درجة عالية من التعقيد ، فسبحان الله !

حجم النملة

يبلغ طول النملة من 2 ميليمتر وحتى 25 ميليمتر، للنملة رأس كبير قياساً مع حجم جسمها ، ولها بطن بيضاوية وخصر صغير، ولها فكين تستطيع بهما حمل أشياء ثقيلة جداً بالنسبة لها ، وتستخدمها أيضاً للحفر . ولها فكان داخليان لمضغ الطعام . كما لها هوائيان تستخدمهما لتحسس الأشياء – للتذوق والشم !

ذكاء النمل

يعتبر السلوك الاجتماعي للنمل هو الأعقد بين عالم الحشرات، ولذلك جاء القرآن بسورة كاملة اسمها سورة (النمل) ، وذكر فيها المولى تبارك وتعالى قدرة النمل على التكلم، وقد أثبت العلم وجود لغة خاصة تتفاهم من خلالها النمل وتتواصل حتى عن بعد ، فسبحان الله !

صورة حديثة لدماغ النملة ! ! A: صورة الدماغ كما يظهر بواسطة الفلور المشع . B:

صورة للجزء الخاص بتحليل المعلومات في دماغ النملة . C: منحني يبين استجابة النملة لدى نشر رائحة معينة، حيث نلاحظ وجود نشاط في الدماغ تمثله القفزة في المنحني . D: اختبار للنملة بواسطة كرة إلكترونية تظهر ذكاء النمل وسرعة استجابته للمؤثرات .

(232/607)

والسؤال: ألا تستحق هذه النملة الذكية أن تُذكر في القرآن ؟ ؟ يقول تعالى في سورة النمل في سياق قصة سيدنا سليمان عليه السلام: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)[النمل: 18-19] .

قوة النملة

تستطيع النملة حمل أشياء تزن عشرين ضعفاً وزن جسمها ، وتصور عزيزي القارئ لو أن رجلاً بهذه القوة فإنه سيحمل سيارة وزنها ألف كيلو غرام بسهولة، قارن قوة النملة مع قوتك، لتجد أن النملة أقوى منك بعشرين ضعفاً على الأقل ! !

أقدم نملة

أقدم نملة على وجه الأرض تم اكتشافها في حجر في أمريكا عمر هذه النملة 92 مليون سنة، واكتشفت عام 1998 ، وقد عاشت هذه النملة في عصر الديناصورات، وسبحان الله ديناصور يزن عشرات الآلاف من الكيلوغرامات قد هلك وانقرض، ولكن نملة لا تزن إلا جزءاً من الغرام باقية تتكاثر كل هذه السنين !

فكّ أقوى مما نتصوّر

صورة لفك النملة، تستطيع به حفر الأرض ، وتستطيع القتال والدفاع عن نفسها ، كما تستطيع أن تأكل وتمضغ الطعام ! وتأمل معي هذا التصميم المعجز لفكي النملة، وإذا ما قارنا حجم فكي النملة بحجم فكي تمساح مثلاً نجد أن فك التمساح أكبر بآلاف المرات من فك النملة، ولكن فك النملة أقوى بكثير من فك التمساح قياساً إلى حجمها ! !

ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه

(233/607)

إن الله تعالى كما هدى النمل هدى الشجر أيضاً ! فقد وجد العلماء نوعاً من أنواع النمل يعيش دائماً في شجرة محددة هي شجرة الخرنوب، والعجيب أن الغذاء الذي يحبه هذا النوع من النمل تفرزه الشجرة من خلال فتحات خاصة على شكل محلول سكري، يتغذى عليه النمل، بل إن النمل يتغذى على أوراق هذه الشجرة لأنه صغير ومناسب لصغارها ، ولكن ماذا تستفيد الشجرة من ذلك ؟

وجد العلماء بعد مراقبة طويلة أن الذي يهلك هذه الشجرة هو بعض أنواع الحشرات الضارة، ولكن النمل قد زوده الله تعالى بجهاز معقد يقوم بلسع الحشرات الآتية إلى الشجرة وتحميها من التآكل بفعل هذه الحشرات الضارة، فسبحان الله الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً !

رأس النملة

صورة لرأس النملة، هذا الرأس يحوي دماغاً معقداً تستطيع النملة به التفكير وإجراء الحسابات اللازمة، وإطلاق الإنذار لدى التعرض للهجوم ! ونلاحظ وجود ستة أرجل وقرني استشعار أو هوائيين .

كما أن الله تبارك وتعالى قد زود النملة بالقدرة على إفراز مواد كيميائية مطهرة، تستطيع بها تعقيم العش وتطهير اليرقات والبيوض لئلا تهلكها البكتريا والفطور، فهي تقوم بتغليف

الشرانق بغلاف من هذه المادة يحميها من شر البكتريا ، وتستخدمها أيضاً لتطهير غذائها المختزن لفترات طويلة، ولولا هذه المادة لهلك النمل على الأرض، فسبحان الله ! وتستطيع النملة أن تفرز حمض النمليك الذي يعتبر مادة مخدرة للخصم، تستخدمه للدفاع عن نفسها .

عيون النملة

صورة دقيقة تظهر عين النملة، وللنملة عيون مركبة تستطيع بواسطتها أن ترى الأشياء ولكن رؤية ضعيفة بسبب أنها تمضي معظم وقتها في الظلام تحت التراب . وتأمل معي كيف أن هذه العين محاطة ببعض الشعيرات الدقيقة لحمايتها !

مستعمرات النمل

(234/607)

يمكن أن تشكل عدة نملات فقط مستعمرة، ويمكن أن تكون المستعمرة مؤلفة من ملايين النملات ! ولكن معظم المستعمرة تتألف من النملات العاملات وهذه لا يمكنها التزاوج، إنما تقوم بمعظم العمل مثل جمع الغذاء ورعاية الصغار والدفاع عن المستعمرة . وهذه صورة

لإحدى مستعمرات النمل تضم ألاف النملات .

أجهزة "الإستشعار" عند النمل

صورة لقرن الاستشعار لدى النملة (الهوائي) ، وتأمل معي التعقيد والدقة في التصميم والصنع، مع العلم أن سماكة هذا الهوائي لا تتجاوز أجزاء قليلة من المئة من الميليمتر . وتأمل معي كيف يبرز قرن الاستشعار ويتمفصل مع رأس النملة بدقة فائقة تعجز تقنيات القرن الحادي والعشرين عن تقليدها ! لقد هيَّأ الله للنملة قروناً تستشعر بها وتتحسس وتتذوق الغذاء ! وهذان القرنان هما مصدر المعلومات بالنسبة للنملة وتكون في حالة الحركة عندما تكون النملة نشيطة . ويسمي العلماء هذين القرنين بالهوائيين، لأن لديهما القدرة على تلقي المعلومات عن بعد وإرسالها كذلك .

التزاوج عند النمل

إن الملكة هي الوحيدة القادرة على التزاوج ولها أجنحة وهي أكبر من بقية النملات، وهذه الملكة تتزاوج مع النمل المذكر ذي الأجنحة أيضاً ، حيث تنتج الملكة البيض ومن ثم ستفقس هذه البيض لتكون النمل العامل والملكات الجدد . أما الذكور فلا يقومون بأي دور سوى التزاوج حيث يموتون مباشرة بعد تلقيح الملكة .

للذكور خصيتين تنتجان الحيوانات المنوية، التي تستطيع بها تلقيح الملكة، وللذكر عضو يسمى aedeagus يدخله في فتحة خاصة في جسم الملكة ويلقي بالحيوانات المنوية فيه، وللملكة مبايض لإنتاج البيض، وتضع البيوض من خلال عضو اسمه Eovipositor .

(235/607)

وبالتالي فإن هذه البويضات تنتقل في جسم الملكة حتى تصبح قريبة من مكان التلقيح وتنتج البيضات الملقحة، والتي ستصبح فيما بعد أطفالاً من النمل ! والعجيب أن البيوض الملقحة سوف تتحول إلى نملات عاملات أو ملكات، وهنالك بيوض لا يتم تلقيحها ، وعلى الرغم من ذلك سوف تتحول إلى ذكور فيما بعد ، فسبحان الله ! ما هذا النظام المعقد والمحكم في نملة لا يتجاوز طولها عدة مليمترات !

بيوض النملة

تنتج ملكة النمل عدداً ضخماً من البيوض يقدر بالملايين، ومن رحمة الله بهذه البيوض الضعيفة والصغيرة والتي لا نكاد نشعر بوجودها أنه زوَّد النملة بالقدرة على إفراز مواد

مطهرة ومعقمة تخرج من قنوات دقيقة، لتحفظ هذه البيوض سليمة من أي بكتريا أو مكروه قد يصيبها ، والسؤال: من الذي زوَّد هذه النملة بهذه المادة ومن الذي سخر لها الطريق عبر شبكة أنابيب دقيقة لتفرزها ، ومن الذي هداها وعلمها وأخبرها أن هذه المادة يجب أن تعقم بها بيوضها ؟ ؟ فسبحان القائل في كتابه وعلى لسان نبيه موسى عليه السلام مخاطباً فرعون عندما سأله من ربُّك يا موسى: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)[طه: 50] .

النمل والبيئة

إن النمل ضروري جداً للحفاظ على البيئة، فهي تأكل الحشرات وتقلّب التربة فيدخل الهواء إليها ، وهي غذاء مهم للعديد من الحشرات، وتلقح الزهور أحياناً ، وتحرك المادة العضوية في التربة، وتعتبر النملة من أهم الحشرات المفترسة للحشرات الأخرى وبالتالي تحدث توازناً في عالم الحشرات .

أرجل النملة

صورة لرجل نملة ! ! ! تأمل معي التصميم الدقيق والمرن لهذا العضو الذي لا يكاد يُرى، وتأمل كيف زوَّد الله هذه الأرجل بأشعار صغيرة لدفع الضرر عن النملة، ومساعدتها على المشي بكافة الاتجاهات والتسلق وغير ذلك . وللنملة ستة أرجل تنتهي بمخالب،

وتستعمل للمشي ولتنظيف الجسم والهوائيات ومعالجة الغذاء .

رحمة النمل

(236/607)

ومن عجائب ما رآه العلماء أن بعض أنواع النمل تعيش مع عبيد لها ، تجبرهم على جمع العلف اللازم للغذاء ، وتأكل معاً ، ولكن هذه النملات حريصة على إطعام "العبيد" ولكن إذا غاب العبيد أو أصابه مكروه تمتنع النملات عن الأكل حتى ولو كان الغذاء موجوداً وتستمر كذلك حتى يعود العبيد أو أنها تموت جوعاً ! ! ! وسبحان الله من الذي جعل في قلبها هذه الرحمة ! ومن الذي علمها أن تحافظ على عبيدها وتطعمهم مما تأكل ؟ ؟

فم النملة

صورة لفم النملة، تقوم النملة بهضم الطعام بعد تحويله للحالة السائلة، حيث تخلطه بعصائر هاضمة باستخدام لسانها ، وهنالك آلية تمنع دخول الجزيئات الصلبة من الغذاء إلى المنطقة الهضمية، ويمكن أن يبقى الغذاء في المنطقة الهضمية للنملة لفترات طويلة قبل أن تستخدمه كغذاء ،

وللنملة قلب على شكل أنبوب يدفع العضلات وبالتالي يندفع الدم عديم اللون في جسمها ، وجهاز للهضم وجهاز للتناسل، وللنملة مجموعة أنابيب تدفع الهواء خلال جسدها وهي بمثابة الرئتين للتنفس .

عمر النمل وأعداده

صورة لنملة كبيرة تسمى ملكة النار، وتعيش ملكة نملة النار سبع سنوات بينما تعيش النملات العاملات بحدود من 50 إلى 150 يوماً فقط . هنالك مستعمرات تبلغ مساحتها أكثر من 2.7 كيلو متر مربع، وتحتوي على أكثر من مليون ملكة، وأكثر من 300 مليون عاملة، تعيش في أكثر من 45 ألف عش، وقد اكتُشفت هذه المستعمرة في اليابان عام 2002 . وتقوم ملكة نملة النار بإنتاج البيوض، وتضع هذه الملكة 100 بيضة في الساعة الواحدة باستمرار، وتنتج ملايين البيوض .

أعشاش النمل

يبني النمل أعشاشه عادة تحت التراب على عمق 10 أمتار، حيث تكون درجة الحرارة مناسبة له طيلة أيام السنة، وقد زود الله النمل بذكاء كاف لصيانة منزلهم من الأعشاب الضارة وبقايا الطعام، وترتيب المنزل بشكل جيد، فمن أين لها القدرة على ذلك؟ إنه الله تعالى القائل على لسان موسى عليه السلام عندما أنكر فرعون وجود الله وسأله من ربك يا موسى فرد عليه: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)[طه: 50] . فالله تعالى هو من أعطى هذه النملة خلقها وشكلها وزودها بالأجهزة المناسبة ثم هداها كيف تقوم بأعمالها دون تقصير أو خلل أو ملل .

إن النمل بنّاء ماهر وذكي جداً، ففي هذا العش الذي يظهر في الصورة رفع النمل مدخل العش فوق مستوى سطح الأرض خوفاً من الأمطار والمياه، مع العلم أن العش تحت سطح التراب ولكن الذي يظهر في الصورة هو مدخل العش فقط !

مَن الذي هدى النملة وعلّمها ؟

يقول العلماء حسب آخر الأبحاث إن النملة تنشأ لا تعلم شيئاً ثم تتعلم جميع المهام الواجب القيام بها وفق برنامج شديد التعقيد يهديها إلى الطريق الصحيح، والسؤال: أليس هذا هو ما تعنيه الآية: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) ؟ !

مواضيع ذات صلة :

? الإعجاز العلمي للقرآن في النمل القسم الأول

? تحطم النمل

? الدفاع عن النفس عند النمل

? تنبيه الألباب إلى حديث الذباب

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

بعض المراجع الأجنبية

1- Neuronal representation and processing of chemosensory communication signals in the ant brain, Universit?tsbund Würzburg.

2- Super ant colony hits Australia, www.news.bbc.co.uk

3- Ants,www.en.wikipedia.org

4- http://encarta.msn.com/Ant.html

5- http://www.thesahara.net/ants.htm

.

.

.

0-وإن من شيء إلا يسبح بحمده

(238/607)

يقول عز من قائل: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [الإسراء: 44] . هذه آية عظيمة تخبرنا بأمر لا ندركه ولكنه موجود ونحن كمؤمنين نؤمن بكل ما جاء في كتاب الله، ولكن كيف نقنع من لا يؤمن بهذا الكتاب العظيم ؟

إن الذي يتأمل هذه الآية يدرك أن كل المخلوقات تسبح بحمد ربها ، الإنسان والشجر والنجوم و . . . ، ولكن ما لفت انتباهي أن الله تعالى قال: (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ولم يقل (ولكن لا تسمعون تسبيحهم) ، إذن نحن يمكن أن نسمع تسبيح هذه المخلوقات ولكن لا نستطيع ترجمتها ولا نستطيع أن نفقهها ، فالفقه يكون بعد السماع .

بعبارة أخرى إذا قلنا لإنسان أنت لا تفقه ما نقوله لك، فهذا يعني أننا نتكلم أمامه ويسمعنا ولكنه لا يفهم ماذا نقول، ومن هنا يمكن أن نستنتج أن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أشار

بوضوح إلى إمكانية أن نسمع أصوات التسبيح الصادرة من كل شيء من حولنا ولكننا لن ندرك معنى ما تقوله ولا يمكن أن نفهم أو نفقه هذه الأصوات .

وهذا ما يكتشفه العلماء اليوم ! فقد لاحظ العلماء أن بعض النباتات تصدر ذبذبات صوتية في المجال الذي يسمعه الإنسان، أي ضمن ترددات من 20 إلى 20000 ذبذبة في الثانية، ولكن الإشارات الصوتية التي تطلقها هذه النباتات ضعيفة جداً ولا يمكن سماعها إلا بعد تقويتها وتكبيرها آلاف المرات .

كل شيء في الوجود يتكلم ويصدر ترددات صوتية، فالنباتات والأشجار لها أصوات محددة وتتأثر بالأصوات أيضاً ، وهذا ما تكشفه الأبحاث الجديدة في علم النبات .

(239/607)

ثم بدأ العلماء يلاحظون أن بعض النجوم تصدر أصواتاً مسموعة، فالنجم النيوتروني الذي سماه الله تعالى بالطارق يصدر صوتاً يشبه صوت المطرقة، والثقوب السوداء تصدر أصواتاً أيضاً ، ومنذ فترة تمكن العلماء من تسجيل الصوت الذي أصدره الكون بعد ولادته !

ولكن من أكثر الاكتشافات غرابة أن الخلية الحية تصدر ترددات صوتية، وهذا ينطبق على جميع الخلايا، وكانت أوضح الترددات ما تصدره خلايا القلب! فقد اكتشف الدكتور Gimzewski أستاذ الكيمياء في جامعة كاليفورنيا وباستخدام كمبيوتر ذري أن كل خلية تصدر صوتاً محدداً يختلف عن الخلية الأخرى!

حتى الشريط الوراثي داخل خلايا أجسامنا يصدر ذبذبات صوتية محددة، وكأنه يسبح الله ليل نهار ولذلك من الممكن أن يتأثر بالتسبيح!! ولذلك أخي القارئ وأختي القارئة أظن بأن التسبيح لله تعالى يمكن أن يؤثر في نظام عمل هذا الشريط الوراثي الذي يتحكم بحياتنا وأمراضنا، أي يمكن أن يؤثر التسبيح عليه فيكون وسيلة للشفاء من الأمراض المستعصية، والله تعالى أعلم.

الدلافين والصراصير والطيور والنحل وغيرها من الكائنات الحية جميعها تصدر أصواتاً، ثم اكتشف العلماء أن الفيروسات تصدر ترددات صوتيه، حتى إنهم يحاولون ابتكار طريقة جديدة للكشف المبكر عن الأمراض بتتبع أصوات الجراثيم والفيروسات في الجسم!!

وقد يتطور العلم فيكتشف أن الذرة تصدر ترددات صوتية، فيكون بذلك كل شيء يسبح لله كما أخبر بذلك القرآن، ويكون هذا من الأدلة العلمية على صدق هذا الكتاب وسبقه

العلمي . بل إن العلماء اليوم يعتقدون أن كل شيء في الوجود له صوته المحدد والخاص به، ويقولون:

"إن قوة غريبة موجودة في كل مكان تسيطر وتؤثر على كل شيء نراه أو نشعر به" [1] .

أليست هذه القوة هي قوة الله تعالى خالق الوجود ؟ لماذا لا تكون هذه الأصوات هي أصوات تسبيح وخضوع لله تعالى وتعظيم وشكر لنعمه عزّ وجلّ ؟

(240/607)

وأقول لك أخي القارئ ! إذا كان كل شيء يسبح الله ليلاً نهاراً لا يمل ولا يفتر، فلماذا تنسى ذكر الله والتسبيح ؟ لماذا لا يكون كل كلامك تسبيحاً لله تعالى، وهل فكرت أن تسبح الله في كل يوم مئة مرة فقط ؟ إذا كان الفيروس الذي هو أحقر شيء في الوجود، إذا كان هذا الفيروس الذي لا يُرى يسبّح الله، ألسنا أحق بالتسبيح ونحن الذين ندَّعي الإيمان ؟

من أجل ذلك اعتبر نبينا صلى الله عليه وسلم أن كلمة (سبحان الله وبحمده) من أحب الكلمات إلى الله تعالى، وأن من قالها كل يوم مئة مرة حُطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر ! ! وصدق الله القائل: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [الإسراء: 44] .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المسبِّحين

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

المراجع

1- Sound healing, www.findarticles.com.

2- Joel Schwarz, How little gray cells process sound: they're really a series of computers, University of Washington, Nov. 21, 1997.

3-[1] Black Hole Sound Waves, (NASA), Sept. 9, 2003.

0-هذا خلق الله الخلية

حديثنا اليوم عن الخلية (The cell) أساس معجزة الحياة على الأرض ، فالكائنات الحية أما أنها تتكون من خلية أو أكثر خلقت في نظام معجز وتدبير محكم ، هذه الخلية لا تتولد إلاَّ من خلية حية سابقة لها في الخلق والوجود ، وقد فشلت جميع الجهود العلمية المادية في إحداث خلية واحدة ، ففي كل خلية يكمن سر الحياة وعظمة الخالق سبحانه

وتعالى وهذا ما سنعيش معه في السطور التالية:

صورة لخلايا متراصة صورت بالمجهر الإلكتروني

(241/607)

في الماضي كان الماديون الداروينيون أصحاب نظرية الصدفة والعشوائية والطفرة والانتخاب الطبيعي والمنكرون لوجود الله ، كانوا ينظرون إلى سر الحياة نظرة قاصرة جاهلة فقسموا الخلايا حسب أهوائهم وقصورهم العلمي إلى خلايا بدائية حقيرة ، وخلايا متطورة عظيمة ، ولكن ثبت بالعلم الحديث إن أقل خلية في الوجود تحمل نفس الصفات المعجزة لأعظم خلية من وجهة نظرهم .

فخلية الاميبا أكثر تعقيداً في برمجتها من خلايا مخ أعظم عالم فضاء في العالم ، حيث تعجز خلايا المخ عن تغذية نفسها والتكاثر والتجدد والتكيف بينما خلية الاميبا تغذي نفسها وتجدد أجزائها إذا تلفت وتتكيف بنفسها مع أعتا الظروف البيئية الخارجية بينما تفشل خلايا المخ في القيام بذلك بذاتها .

جميع الخلايا تحتوي على غشاء الخلية يحيط بسائل حيوي عجيب هو السيتوبلازم بداخله

من خمسة إلى ستة أنواع العضيات الخلوية الرئيسة كل عضي منها أرقى من أعظم مصنع كيماوي عرفته البشرية وأنشأه العلماء على الأرض ، ومن هذه العضيات ، الريبوزومات (Ribosomcs) والليسوسومات (Lysosmc) والميتوكوندريات (Mitochondria) والبلاسيدات (Plastidcs) والنواة (Nuclcus) وتحتوي الخلية الواحدة على 2000-3000 مصنع من هذه المصانع العجيبة في حيز قد لا يتجاوز بضعة ميكرونات microns(وهو عبارة عن جزء من ألف جزء من المليمتر أي 10 من المتر) .

ويقوم العضى أو المصنع في الخلية بعمليات حيوية كيماوية لو أردنا إتمامها خارج الخلية لاحتجنا إلى مصنع مساحته أكبر من مساحة أكبر دولة في العالم ويفشل هذا المصنع في إتمام بعض هذه العمليات بنفس الكفاءة التي تتم بها في خلية أميبية واحدة في بركة ماء في العلم .

تحاط الخلية عادة بجدار خلوي ، وتحتوي جميع الخلايا غشاء الخلية (ccll mcmbranc) . وهذه الغشاء من أكثر المنافذ الحية سراً وغموضاً في الوجود فهو

يقف خارج الخلية مكوناً أعتا وأدق نظام عبوري في العلم حيث يمثل الحصن أو القلعة أو منافذ الحدود التي تحمى حياة الكائنات الحية من الخلل والانهيار والموت والدمار .

الشكل التالي يبين البرامسيوم أحادي الخلية

هذا الغشاء ينفذ بكل دقة تعاليم المرور من الخلية وإليها ، وأي مادة كيماوية أو فيزيائية أو حيوية تحاول عبور هذا الغشاء عليها أن تبرز هويتها الحيوية وظيفتها التي استدعيت من أجلها للخلية ، ومدة بقائها في الخلية ، ومساراتها الحيوية ولو اختلت هذه الوظيفة العبورية التنظيمية لغشاء الخلية لهلكت ومرضت ومرض الكائن الحي وهلك ، وقد تهلك جميع المخلوقات الحية إذا فقدت سر الحياة الذي يكمن في هذا النظام المروري الانفاذى لغشاء الخلايا .

وأعجب ما في الحياة والوجود أن المواد الميتة خارج الخلية (كربوهيدرات – دهون – بروتينات – أملاح عندما تعبر غشاء الخلية ويسمح لها بالاندماج مع مكونات الخلية بالسيتوبلازمية وعضياتها الخلوية ، فإن هذه المواد تتحول من مواد ميتة لا حياة فيها إلى عضيات حية تتغذى ، وتتنفس ، وتتألم مصداقاً لقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام : 95] .

أما سيتوبلازم (Cytoplasm) الخلية فهو الوسط الحي الذي شاء الله سبحانه وتعالى أن يحمل سر الحياة في الكائنات الحية والتي عجزت مختبرات العلم الحديث أن تدب الحياة في نفس مكوناته بعد إن عرف تركيبه . في السيتوبلازم توجد العضيات الحية في تنظيم عجيب وترتيب مبدع ، ونشاهدها تحت المجهر الضوئي وهي تتهادي داخل السيتوبلازم وتتحرك بقوة لا يعرف العلم كنهها إلى الآن . وكل كائن حي مهما صغر فهو جهاز علمي بديع معقد يقوم بجميع الوظائف الحيوية وتؤدي كل خلية عملها الحيوي بدقة متناهية يتضاءل أمامها أقصى ما وصل إليه الإنسان من أجهزة علمية ﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان : 11] .

- فماذا خلق الداروينيون الماديون ؟ !

- وماذا خلق الشيوعيون الملحدون ؟ !

- وماذا خلق العابدون لغير الله سبحانه وتعالى ؟ !

- وإلى الملتقى بإذن الله مع عضيات الخلية المعجزة التي تسبح في سيتوبلازمها الحي ؟

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا موسى

http://nazme.net/ar/?p=home

أخبار الخليج- صفحة 14- الاثنين 1994/2/21 .

مصدر الصور: موقع الموسوعة الحرة

http://en.wikipedia.org/wiki/Cell_%28biology%29

0-آيات إبداع الله في المحار

صورة لمحارة بعد فتح الصدفة

قال تعالى:(قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (يونس:101) .

(244/607)

عندما ننظر حولنا نرى الكون الذي حولنا يسبح بعظمة الخالق عز وجل ونعمة العظيمة التي لا تحصى ولا تعد . فنحن على سطح الأرض نشاهد الآلاف والآلاف من الكائنات الحية الحيوانية والنباتية التي تشهد بوحدانية الله عز وجل وبديع صنعه . وأردت احبائى اليوم أن نترك سطح الأرض ونسبح معا بعيدا بعيدا إلى أعماق احد البحار أو المحيطات لنشاهد أيه من آيات قدرة الله . فقد أبحرنا قبل ذلك احبائى وشاهدنا الأسماك المضيئة وامسكنا

بحيوان الجمبري .

أما اليوم سنبحر معا لنرى لوحة ربانية بديعة تناسقت ألوانها ونقوشها وزخارفها لتبهر كل من يراها بجمالها الفتان .

هل ذهبتم احبائى قبل ذلك إلى احد الشواطئ وقومتم بتجميع بعض الأصداف البديعة الألوان والأشكال والإحجام ؟ اعتقد أن الكثير منا يحب هذه الهواية الجميلة .

ولكننا مع انبهارنا بجمال أصداف هذه الحيوانات نسال أنفسنا ما اسم هذا الحيوان ؟ ما هو تركيب جسمه من الداخل ؟ هل يتنفس ؟ وكيف يتنفس داخل أعماق البحار ؟ هل يتغذى ؟ وما هو غذائه ؟ كيف يتحرك ويسبح في الماء ؟ كيف يتكاثر ؟ كيف تتكون هذه الصدفة البديعة الألوان ؟ وما هي استخداماتها وفوائدها ؟ وهل يعتبر هذا الحيوان غذاء للإنسان أم لا ؟ هل له فوائد طبية للإنسان ؟

وبعد ذلك احبائى أحدثكم عن صناعة مكسبها ملايين الدولارات ويعيش عليها العديد من بلدان العالم التي انعم الله عليهم بوجود أنواع من هذا الحيوان في بحارهم .

هل عرفتوا أحبائي ما هذا الحيوان الذي سوف أحدثكم عنه اليوم ؟ ؟ ؟ ؟ انه حيوان :- المحار Oysters

المحار: حيوان بحري يتبع شعبة الرخويات Phylum :Mollusca والتي تمثل ثاني شعبة حيوانية من حيث التعداد بعد شعبة مفصليات الأرجل وينتمي إلى طائفة الحيوانات ذات المصراعين Class: Bivalvia والتي تحتوى على حوالي 30 ألف نوع بعضه يعيش في المياه المالحة والبعض الأخر يعيش في المياه العذبة ونراه يعيش داخل تلك المياه أما مدفون في رمال قاع البحر أو بالقرب من الصخور . معظم أنواع المحار تفضل العيش في مستعمرات كبيرة.

ما هو تركيب جسم المحار ؟

يتركب من أجزاء رخوة رهيفة في شكل فصين يسمى كل فص بالبرنس وهو الذي يقوم بإفراز الصدفة الخارجية للمحار ويحيط بفصي البرنس تجويف يسمى تجويف البرنس والذي يحتوى بداخله على جميع الأعضاء الداخلية والأجهزة المختلفة . من الخارج نجد صدفة تغطى هذه الأجزاء الرخوة مكونة من مصراعين اى من جزئين, مصراع ايمن وأخر أيسر ويتصل المصراعين من الناحية الظهرية برباط مفصلي يمسكهما من اعلي بالإضافة إلى وجود بعض الندب الصغيرة على المصراعين من الداخل عبارة عن زوج من العضلات المقربة وزوج من العضلات المبعدة والتي تساعد في فتح وغلق مصراعي الصدفة . ويوجد بين تجويف البرنس والمصراعينشيء (النحل اسفينى أو يشبه البلطة .

قال تعالى: صنع الله الذي أتقن كل شيء (النحل:88)

كيف يتنفس المحار داخل أعماق المياه ؟

يتنفس المحار عن طريق انتشار الأكسجين المذاب في الماء والذي يدخل من فتحة صغيرة على جانبي كل مصراع تسمى الفتحة الشهيقية والتي يدخل منها الماء متجها إلى تجويف البرنس ثم إلى النسيج المبطن للخياشيم والتي تحتوى على أوعية دموية ينتشر خلالها الأكسجين ثم يخرج ثاني أكسيد الكربون من خلال فتحة أخرى تسمى الفتحة الزفيرية والتي تعلو الفتحة الشهيقية على جانبي كل مصراع .

قال تعالى: (هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين) لقمان: 11

(246/607)

هل بعد هذا الإبداع الرباني من يشكك في وحدانية الله سبحانه وتعالى وصدق القرآن الكريم ؟ ومن يشكك في عظمة الله ووحدانيته سبحانه وتعالى يرينا ماذا خلق ؟

!!!!!

ما هو غذاء المحار ؟ وكيف يتغذى ؟

يتغذى المحار على الكائنات الحية الدقيقة مثل الأوليات والحبيبات العضوية العالقة بالماء .

ولكن كيف تتم عملية التغذية ؟ ؟ ؟ هل يخلق الله سبحانه وتعالى اى كائن حي إلا ويرزقه من حيث لا يحتسب ويهيا له ذلك ؟ بالطبع نعم

قال تعالى : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم)

العنكبوت: 60

نجد أن هذا الحيوان يقوم بفتح مصراعين الصدفة عن بعضهما فيدخل كمية من تيار الماء المحمل بالكائنات الحية الدقيقة إلى تجويف البرنس وتدفع الأهداب الموجودة على الخياشيم المواد الغذائية إلى داخل فتحة الفم ومنها إلى المرئ القصير ثم إلى المعدة حيث يتم الهضم ويوجد بعدها غدة تفرز إنزيمات هضمية وتفتح في الأمعاء ثم المستقيم حيث تتجه نواتج عملية الهضم من خلاله إلى خارج جسم المحار عبر فتحة الشرج الموجودة على جدار تجويف البرنس .

صورة لجزء من محارة يظهر فيها جوف المحارة

كيف يتحرك المحار ؟ وكيف يسبح في الماء ؟

يتحرك المحار عن طريق القدم العضلي الذي يشبه البلطة وذلك بواسطة مجموعة من العضلات التي تساعد على خروج القدم وانبعاد المصراعين عن بعضهما وبالتالي يستخدم

المحار قدمه كمجداف للعوم في الماء وإذا أراد التوقف عن السباحة والاستقرار على احد الصخور فانه يدخل القدم داخل الصدفة من خلال العضلات المقربة التي تغلق مصراعي الصدفة إلى بعضهما .

ما هو تركيب جهازه التناسلي ؟ وكيف يتكاثر ؟

(247/607)

عادة الأجناس في المحار منفصلة إلا انه في بعض الأنواع نجد أنها خناث . فالجهاز التناسلي في الأنثى يتكون من مبيضين كل مبيض يفتح في قناة المبيض والتي تنتهي بالفتحة التناسلية الأنثوية . أما الذكور فيتكون جهازها التناسلي من خصيتين ثم قناة تسمى الوعاء الناقل والتي تنتهي بالفتحة التناسلية الذكرية .

كيف يتم التكاثر بين الذكور والإناث ؟ ؟ ؟

تقوم الإناث بإنتاج البويضات والتي تخرج من الفتحة التناسلية من الأم وتتعلق بالخيوط الخيشومية للخياشيم الموجودة بجسم الأنثى يتبع ذلك دخول كمية من الماء عبر الفتحة الشهيقية للصدفة إلى داخل جسم الأنثى ونجد أن هذا الماء المتدفق إلى الخيوط الخيشومية للأنثى محملا بأعداد من الحيوانات المنوية السابحة فيه وبمجرد وصولها هذا

المكان تتقابل مع البويضات وتخصبها وتظل البويضات المخصبة عالقة بالخيوط الخيشومية للأنثى طول فترة الشتاء وبمجرد دخول فصل الربيع يفقس البيض المخصب إلى يرقات تسمى يرقات الجلوكيديوم والتي تستقر على الصخور وتمكث فترة إلى أن تبدأ في تكوين الصدفة وتتحول إلى حيوان كامل .

سبحانك يا الله انه إتقان الرحمن الرحيم الذي خلق كل شيء بحساب وقدر وخلق منها الذكر والأنثى وهيا لها تكاثرها والحفاظ عليها من الانقراض .

قال تعالى: (ما من دابة إلا هو أخد بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) هود:56

أما الأفراد الخناث احبائى فعملية التكاثر تختلف عن السابقة حيث نجد أن المحار الواحد به الأعضاء الجنسية الأنثوية والذكرية ويتم التكاثر بان تفرز المناسل الحيوانات المنوية أولا وتلقى بها في الماء ثم تفرز بعد ذلك البويضات وتلقى بها في الماء أيضا ثم يحدث التلقيح في الماء وتكوين اليرقة ثم تتحور إلى حيوان كامل وهكذا في تتابع مستمر .

ما هو تركيب صدفة المحار وكيف تتكون ؟

كما ذكرنا سابقا أن صدفة المحار مكونة من مصراعين وكل مصراع مزود من الداخل بأزواج من العضلات المقربة والمبعدة للصدفة وعند فحص الصدفة وجد أنها تتركب من ثلاث طبقات متراكبة فوق بعضها وهذه الطبقات هي البشرة وهى الطبقة الخارجية للصدفة ثم الطبقة المنشورية ثم الطبقة الداخلية والتي تسمى الطبقة اللؤلؤية . والأجزاء السابقة عبارة عن بلورات كربونات الكالسيوم المتماسكة مع بعضها بواسطة مادة تسمى الصدفين .

ولكن ما أهمية الصدفة بالنسبة للمحار ؟

تعتبر الصدفة هي مصدر الحماية لجسم الحيوان الرخو الرقيق من المؤثرات الخارجية ومن المفترسات البحرية الأخرى ولو تم نزع الصدفة من على جسم الحيوان يموت في الحال .

ما هي استخدامات أصداف المحار للإنسان ؟

نظرا للألوان البديعة والنقوش الباهرة التي حباها الله لأصداف المحار فان أصدافه تدخل في صناعات عديدة مثل صناعة الحلي التي تتزين بها النساء وصناعة الأزرار الفاخرة والغالية الثمن وكذلك مقابض السكاكين وبعض الآلات الموسيقية وصناعة الساعات .

بعض استعمالات المحار في الزينة

قال تعالى في كتابه الحكيم:

)وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) النحل: 14 .

واعدتكم احبائى بالحديث عن صناعة تساوى الآلاف الدولارات يقوم عليها العديد من الشعوب التي حباها الله ببعض أنواع من المحار التي تقوم بإنتاج أجمل وأروع أنواع اللؤلؤ . نعم أقول اللؤلؤ لماذا تستعجبون ! ! إنها قدرة الله القادر على كل شيء وانه كلام الله الذي لا ينطق عن الهوى .

هيا نتعرف معا على كيفية تكوين المحار للؤلؤ ؟ ؟

(249/607)

عند دخول جسم غريب مثل حبه الرمل أو حصاة بين الصدفة وفص البرنس فيقوم البرنس كوسيلة دفاعية بتكوين حلقات من مادة لؤلؤية حول الجسم الغريب وتتكون في شكل بلورات فوق بعضها شفافة اللون لامعة عند مرور الضوء بها يحدث انكسار له فتعطى ألوان الطيف المتعددة الجميلة . وهناك نوع من المحار يقوم بإنتاج لؤلؤ لونه اسود اللون وهو

نادر الوجود وغالى الثمن ويسمى black Tahitian pearls .

فسبحان الله هذا المخلوق الضعيف البسيط ينتج للإنسان ثروات باهظة الثمن .

كيف استغل الإنسان المحار في إنتاج اللؤلؤ صناعيا وكميا ؟ ؟ ؟

من أوائل الشعوب التي قامت بعمل مزارع لتربية المحار وإنتاج اللؤلؤ هي اليابان والتي تنتج أفضل أنواعه ثم انتقلت الصناعة إلى الدول العربية المطلة على الخليج العربي ثم إلى استراليا وأخيرا إلى أمريكا والتي ينتشر بها محار الماء العذب .

اللؤلؤ الذي يستخرج من المحار

وتقوم الصناعة بعمل أحواض لتربية المحار بها سواء محار مياه عذبة أو مالحة حسب النوع ثم يتم حقن المحار بمادة رملية وإدخالها بين البرنس والصدفة فيبدأ المحار بتكوين المادة اللؤلؤية التي تحيط بهذا الجسم الغريب ويتم تجميع اللؤلؤ بعد حوالي مرور من عامين إلى أربعة أعوام حسب نوع المحار وذلك في أقفاص شبكية واستخراج اللؤلؤة المتكونة بداخله والتي يختلف أيضا حجمها وشكلها حسب نوع المحار . بعد ذلك يجمع اللؤلؤ ويتم إدخاله في صناعة الحلي والمشغولات الذهبية الباهظة الثمن .

هل هناك فوائد أخرى للمحار ؟ وهل ثبت العلم بعض الفوائد الطبية له ؟

يعتبر المحار غذاء مفضل لكثير من البلدان المطلة على البحار وهو غذاء غنى بالحديد

والكالسيوم وفيتامين (أ) وكذلك الزنك بالإضافة انه ذو سعرات حرارية منخفضة . ويؤكل بأشكال مختلفة ففي فرنسا مثلا يؤكل نيا مع إضافة الخل والليمون إليه أما في أمريكا وبعض الدول العربية فيؤكل مطبوخ أو مدخن .

يستعمل المحار كوجبة غذائية هامة

(250/607)

أما عن الفوائد الطبية للمحار :-

إن باحثون بريطانيون صمموا أقراصا جديدة من خلاصة المحار ، تساعد في علاج آلام المفاصل والتهابها ، وقد ثبتت فعاليتها في تخفيف أعراض المرض وتقدمه . وقال الباحثون إن أقراص "جلوكوزامين سلفات" تخفف حالات التهاب المفاصل العظمي ، الذي يؤثر على عدة ملايين من الناس في بريطانيا ، مما يقدم أول إثبات فعلي على إمكانية علاج هذه الحالة بتلك الطريقة . ويرى العلماء أن الأقراص الجديدة طبيعية ، وتمثل بديلا فعالا لمسكنات الألم ، ومضادات الالتهاب ، التي عادة ما تتسبب في ظهور تأثيرات سلبية ، فتساعد في تقليل الالتهاب والألم وحركة المفصل وصنعت مكملات هذه المادة من المحار البحري ، على

شكل كبسولات أو سائل، وينبغي تعاطيه لشهر واحد على الأقل، قبل أن تبدأ تأثيراته المطلوبة بالظهور .

بعد أن أبحرنا سويا إلى أعماق البحار وشاهدنا عظمة الخالق وبديع صنعه نعود معا إلى سلامة الله إلى سطح الأرض ونسترخي للحظات ونسترجع ما شهدناه من إبداع الخالق خلال رحلتنا هذه ونسال أنفسنا هل مازال من يشكك في وحدانية الله ؟ هل مازال من يشكك في كلام الله الذي انزله على أفضل البشر سيدنا محمد عليه السلام ؟لو أن الإجابة بنعم هناك من يشكك في وحدانية الله ورسالة سيدنا محمد ساترك لكم احبائى الحكم على هؤلاء . والى أن نلتقي مرة أخرى مع آية من آيات قدرة الله في الكائنات الحية الحيوانية أترككم في رعاية الله وآمنه .

بقلم/ مروة عزمي جنينة

مدرس مساعد بكلية الزراعة –جامعة المنصورة

Marwaaz2002@yahoo.com

المصادر والمراجع

مصدر الصور : الموسوعة الحرة

http://en.wikipedia.org/wiki/Main_Page

http://www.alarabiya.net

/http://en.wikipedia.org

http://library.kcc.hawaii.edu/external/ctsa/publications/Blackpearl.htm0-Introductio

http://www.cst.cmich.edu/users/dietr1rv/D's-zoogemrocks/Default.htm

http://www.biomescenter.com

---

http://www.biomescenter.com/ra_easternoyster.htm

http://csd.unl.edu

0-آيات الله في الحمام الزاجل

بقلم: حسن شهاب الدين

استطاع العلماء والباحثين بجامعة فرانكفورت الألمانية فهم ظاهرة الملاحة عند الحمام الزاجل وعمله كساعي بريد, لا يضل السبيل ولا يخطئ الهدف إلا إذا تعرض لكارثة تعيق رحلته. وقد كانت الفكرة السائدة عند الإنسان القديم حول اهتداء الحمام الزاجل

لسبيله بفضل ما يعرف بالبوصلة الكيميائية التي تعتمد على قوة الملاحظة والذاكرة الجغرافية والارتباط الوثيق بموطنه وبيته . الأمر الذي جعل الإنسان يروضه ويستأنسه ويستفيد من ميزاته .

وأهم الميزات التي تجعل الحمام الزاجل ساعي بريد هي:

- اعتماد الحمام الزاجل على ميل الشمس كمؤشر على اتجاهه

صور لبعض الحمائم في حديقة عامة

لامتلاكه ساعة حيوية داخلية مرتبطة بتعاقب الليل والنهار, وعند التلاعب بهذه الساعة بتعريض الحمامة لضوء اصطناعي قوي تظن أن النهار قد طال, وفي هذه الحالة وعند إطلاقها إلى مسافة بعيدة فإنها تتخذ اتجاها خاطئًا, ولكنها تصححه فيما بعد, وبالتالي فإن الشمس تفيد الحمامة في إعطائها مؤشرا على الاتجاه ولا تفيدها في تحديد موقعها الجغرافي بدقة .

- وجود بلورات مغناطيسية داخل رأس الحمامة .

في عام 1979 فحص العلماء دماغ الحمام الزاجل, واكتشفوا وجود كميات كبيرة من الجزيئات المغناطيسية متمركزة في أسفل جمجمته ضمن نسيج يبلغ سمكه (1 – 2مم), وهذه الجزيئات عند استخراجها تبين أنها تتكون من (بلورات أكسيد الحديد المغناطيسي) ويبلغ عددها حوالي(10) ملايين جزيء تقع في النسيج الدماغي المرتبط ارتباطا وثيقا مع العصب المسؤول عن نقل السيالات العصبية الشمية, وكل ذرة من أكسيد الحديد المغناطيسي تتصرف وكأنها مغناطيس صغير. وهكذا يكون دماغ الحمامة قادرا على تخزين وجهة الطيران في الذاكرة, ووجد الباحثون أن حساسية هذه البلورات تجاه أية تقلبات في شدة المجال المغناطيسي الأرضي مهما كانت ضعيفة هي حساسية دقيقة تساعدها على المقارنة بين شدة المجال المغناطيسي في الأرض التي توجّه إليها وشدته في موطنه الأصلي.

يتمتع الحمام الزاجل بمواهب أودعها الله سبحانه وتعالى في جسمه تمكنه من الملاحة الجوية بحيث لا يضل السبيل ولا يخطئ الهدف إلا إذا تعرض لكارثة تعيق رحلته.

– قرن آمون في دماغ الحمام الزاجل.

عند مراقبة النشاط الدماغي للحمامة أثناء رحلتها أثبت فريق من علماء الطيور في إيطاليا بأن معالجة المعلومات المكانية تجري في جزء من دماغها يدعى قرن

آمون . (hippocampus) ويقع في الفص الصدغي من الدماغ الذي يساعدها في ترجمة المعلومات التي تردها من حواسها .

- منقار الحمام الزاجل

(253/607)

وجد علماء الطيور الألمان عند الحمام الزاجل وفي الخلايا العصبية عند مقدمة المنقار جزيئات مغناطيسية نانومترية من صنفين مختلفين من الحديد الممغنط تضمن له معرفة الاتجاه بالاعتماد على المجال المغناطيسي الأرضي . ولكي نتخيل مدى شدة دقة هذا النظام الملاحي المغناطيسي في منقار الطير تجدر الإشارة إلى أن أي تغيير بحدود 50 نانوتسلا (التسلا وحدة قياس المجال المغناطيسي) في شدة المجال المغناطيسي الأرضي التي تبلغ 50000 نانوتسلا, يكفي لتنشيط النظام الملاحي الطبيعي ولتوجيه الطير توجيها جديدا .

- كما أن الحمامة تعتمد على جميع حواسها لتحديد موقعها بدقة, فهي تستطيع تحديد موقعها عن طريق حاسة الشم حيث ترسم لنفسها خريطة لرائحة بيتها وتربط بها الروائح التي تستقبلها من الهواء . وبالتالي فهي قادرة على اتباع تسلسل تلك الروائح التي تحدد من

خلالها موقعها , وعند التلاعب بهذه الحاسة بإشباع فتحتي الأنف عندها بروائح قوية فإنها تعاني من إيجاد طريقها .

وتحدد موقعها أيضا بالاعتماد على حاسة السمع, فقد تبين بالدراسة أن الحمامة تسمع أصواتا ذات تردد منخفض جدا لا يشعر به الإنسان لتحدد لنفسها خريطة سمعية لموقعها تشمل الأصوات ذات التردد المنخفض الناتج عن أمواج البحر وعن الرياح وحتى عن النشاط الزلزالي للأرض .

- وتعتمد على حاسة النظر حيث ترسم خريطة لمختلف المعالم ذات العلاقة بطريقها وبوجهتها النهائية .

ولمعرفة الدقة في تحديد المسار والطريق المتبع استعان الباحثون بأجهزة تتبع (نظام التوقيع العالمي gps) المرتبط بالأقمار الصناعية, عند إلصاقها على ظهر الحمامة لمتابعة مسارها في رحلاتها .

والشيء العجيب أن الحمام الزاجل ليس الكائن الوحيد الذي يمتلك مثل هذا النظام الملاحي وهو موجود عند كل الطيور المهاجرة والنحل والدلافين والحيتان بالإضافة إلى

سلاحف البحر والكثير من أنواع البكتريا الدقيقة, وكل هذه الأنواع المختلفة من الحيوانات قادرة على تحديد وجهتها الصحيحة بفضل الحقل المغناطيسي لكوكب الأرض .

قال الله سبحانه:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ 11 ﴾) سورة لقمان .

وقال سبحانه:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿ 88 ﴾) سورة النمل .

المراجع:

القرآن الكريم .

الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي في تفسير الآية (40) من سورة التوبة .

قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل ابن كثير/ ص(72) .

القصيدة النبوية للشاعر محمد علي مغربي / ص(130) .

المجلة الفرنسية science et vit آذار .

المواقع:

http://news.bbc.co.uk/go/click/rss/0.91/public/-/hi/arabic/sci_tech/newsid_4043000/4043909.stm

http://www.asharqalawsat.com/details.asp?section

375276=article&10104=issue&=54

للمراسلة shehap4@maktoob.com

0-الأعفان في خدمة الإنسان معجزة حيوية

الدكتور نظمي خليل أبو العطا

بهذا العنوان المثير بدأت أول مؤلفاتي العلمية المنشورة المتواضعة, وبهذا العنوان المثير والغريب دخلت مجال الصراعات الإدارية والبيروقراطية العامة والخاصة .

(255/607)

فعندما نشرت العدد الأول من كتابي الأعفان في خدمة الإنسان فوجئت يومها أن الدنيا وقفت من حولي بسبب هذا الكتيب البسيط وأبت أن تقعد , وقفت الدنيا لكي توقف هذا التمرد العلمي, إذ كيف يتسنى لهذا المدرس الجامعي المبتدئ أن يؤلف كتاباً بعد حصوله على الدكتوراه بأشهر قليلة, وينشره دون أن يستأذن, وفتشوا في الدفاتر القديمة فوجدوا أن هناك قانوناً وضع لضبط العمل العلمي في الجامعة, وهذا القانون لا يجيز

للحاصل على الدكتوراه بنشر كتب قبل عامين بالتمام والكمال على حصوله على الدكتوراه, هكذا قيل لي يومها , ويعلم الله أنني ألفت هذا الكتاب للناس خارج القسم قربة لله, وللعاملين بداخله بالمجان .

هذا القانون التنظيمي المتميز في نظري لم ير النور ولم نسمع به من قبل لأن أحداً من الذين سبقوني في قسمنا بالذات لم يؤلف كتاباً خارج المقررات الدراسية بعد حصوله على الدكتوراه حتى يوم صدور كتيب الأعفان في خدمة الإنسان سنة 1987م, وفجأة خرجت نصوص القانون من دفاترها القديمة لكي تحاكمني على هذه الفعلة الشنعاء والحمد لله الذي نجاني منها .

واليوم في بداية عام (2005م) وأنا أُراجع الكتب في مكتبتي وجدت هذا الكتيب البسيط الذي كتب على الآلة الكاتبة العتيقة وطبع وسحب بالاستنسل, وشممت رائحة المذيب والأحبار التي شممتها يومها وهي تنطلق من هذا المكتب البسيط الذي طبعه, وأنا فرح مسرور بهذا المولود الجديد الذي تابعت إعداده وولادته لحظة بلحظه, وكيف لا وهو مولودي الأول, هذا المولود الضعيف الذي ما ظننت وقت طباعته في هذا المكتب المتواضع للآلة الكاتبة أنه سيوقف الدنيا من حولي, وسيقلق البعض, كما أقلق جاليليو رجال الكنيسة في أوروبا عندما حاكموه بقوله أن الأرض تدور, واضطروه إلى التراجع عن

هذه الحقيقة العلمية, وبعد خروجه من المحكمة صرخ بالأرض وضربها بقدميه قائلاً لها :

قولي لهم أنك تدورين, وظل يتمتم ويقول: ولكنها تدور, ولكنها تدور, ولكنها تدور .

(256/607)

البنسيليوم منتج مضادات الحيوية

واليوم في نفس مكان طباعة هذا البحث يجثم هذا المطعم لشواء اللحم والدجاج مطلقاً كميات الدهن المحترق وأول اكسيد الكربون السام ليغرق البيوت والأشجار والإنسان والملابس برائحة الشواء ليؤكد تحول مركز التفكير من العقول إلى البطون, في فلسفة تك أوي, في النظام العالمي الجديد .

هذه لقطة من قصتي مع الأعفان في خدمة الإنسان, تلك الأعفان التي قضيت معها أكثر من أحد عشر عاماً في مختبر الكائنات الحية الدقيقة لإنتاج الدهن والبروتين منها في رسالتي الماجستير والدكتوراه (1), وكانت النتائج مذهلة .

فقد أمكنني وزملائي في المختبر استغلال المولاس, وهي مادة متبقية من صناعة السكر, ومادة منقوع الذرة, وهي مادة متبقية من صناعة النشا والخميرة من نبات الذرة, مع استخدام ماء البحر كمصدر للمعادن والأملاح, والحصول على نتائج والحمد لله متميزة

حيث أمكن إنتاج :

70% من الوزن الجاف للفطر دهن .

20% من الوزن الجاف للفطر بروتين .

10% من الوزن الجاف للفطر مادة أخرى .

والآن أخي الإنسان ماذا تعرف عن الأعفان ؟

وكيف سخرها الله سبحانه وتعالى لخدمتك ؟

الأعفان (Moulds) مجموعة من الفطريات مثل الأسبرجيللاس (Aspergillus), والبنسليوم (Penicillium), وعفن الخبز (Rhizopus), والفيوزاريوم (Fusarium), والميوكر (Mucur), والألترناريا (Alternaria) وغيرها .

والفطريات مملكة مستقلة في الممالك الخمس للكائنات الحية حسب التقسيم الخماسي لواتيكر (Whittaker) عام (1969م) (2) .

والفطريات كائنات حية دقيقة خالية من اليخضور أو الخضر (Chlorophyll) , ولذلك فهي تعتمد على غيرها في تصنيع الغذاء , فهي غير ذاتية التغذية .

والفطريات موجودة في معظم البيئات الأرضية , وتخالط الانسان في كل مكان فهي معه في مطبخه , وثلاجته , ومخزنه , ومزرعته , ومسكنه , ومدرسته , وحافلته , وحظيرته , وحديقته . . . . إلى آخره .

وهي تنقسم إلى خمسة أقسام هي : الفطريات التزاوجية (Zygomycota) وهي تتكاثر جنسياً بالتكاثر التزاوجي , والفطريات الزقية (Ascomycota) وهي تتكاثر جنسياً لتعطي الجراثيم الزقية , والفطريات البازيدية أو الصولجانية (Basidiomycota) والتي تعطي الجراثيم على الزوائد البازيدية أو الصولجانية, والجراثيم البيضية (Oomycota) والتي تتكاثر بالتكاثر البيضي , وهناك الفطريات الناقصة (Deuteromycota) التي لم تتعرف إلى الآن على نوع التكاثر الجنسي فيها .

البنسيليوم

(onera) , ومملكة الطلائعيات (Protista) , ومملكة الفطريات (Mycotaأو Fungi) , والمملكة النباتية (Plantae) , والمملكة الحيوانية (Animalia) .

وهناك الأعفان اللزجة (Slim Mould) التي وضعت في مملكة الطلائعيات .

ونحن نرى الأعفان كنموات بيضاء أو سوداء على الطماطم , ونراها زرقاء مخضرة على

البرتقال, وسوداء داكنة على الخبز, وخضراء مشوبة بصفرة قليلة على الخبز أيضا .

وعندما تترك ربة البيت رغيفاً من الخبز المندى بالماء في المطبخ الدافئ , فإنها تلاحظ ظهور بقع بيضاء صغيرة عليه , وكأنها نقط دقيق, سرعان ما تتسع دائرتها لتكون بقعة بيضاء على هيئة مستعمرات فطرية (Fungalcolonies) والتي تتسع لتغطي مساحة واسعة من سطح الرغيف , ثم تبدأ في الاسوداد تدريجياً ليكون عفن الخبز الأسود الذي يحلل الخبز بإنزيماته , ونفس الشيء يحدث مع البرتقال لتعطي العفن الأخضر اللون .

وتحتوي مملكة الفطريات على أكثر من مئة ألف نوع من الفطريات, ولو أردنا أن نعرض عليك كل أنواع الفطريات المعروفة إلى الآن على شريط مسجل بحيث يبقى كل نوع فطري أمامك خمس دقائق لتتعرف شكله الظاهري فقط فإنك تحتاج إلى سنة كاملة تجلس فيها ليل نهار دون أن يغمض لك فيها جفن حتى تنتهي من هذا العرض الشائق والغريب (3) .

(258/607)

ومع أن الفطريات لاتمتلك جهاز تغذية ذاتية كما هو الحال في الطحالب والنبات المحتوية على اليخضور, فإن الله سبحانه وتعالى رزقها بأقوى جهاز انزيمي حيوي في العالم تستطيع به

تحليل الأخشاب والجلود , والعظام, والشعر , والمطاط, والبترول, والكربوهيدرات, والدهون, والبروتين, وهي تكنس الأرض وتنظفها بالتعاون مع البكتيريا من أجساد الموتى من الحيوان والإنسان, وهي تحلل النبات الميت, وبقاياه المتساقطة منه وهو حي .

ولذلك يتغذى العفن الفطري على ملايين المواد العضوية كالملابس , والأحذية , والحقائب, وقلف الأشجار, والفلين, وروث البهائم, والمربات, والبقول المعبأة, وصناديق الشحن الخشبية والورقية والفاكهة, واللحوم, والأسماك, والصموغ, والدهانات, والصوف, والشعر , وتعيش على جلد الانسان ومخلفاته .

عفن الخبز على الفاكهه

وتحتاج الفطريات في تغذيتها إلى المواد الكربوهيدراتية لبناء أجسامها وإنتاج الطاقة, وتحتاج إلى المواد البروتينية أو الأزوتية لبناء سيتوبلازمها وإنتاج الانزيمات , وبعضها يحتاج إلى الفيتامينات , وهي تحتاج أيضاً إلى الماء والمعادن والأملاح في تغذيتها ونموها كباقي الكائنات الحية .

ويمكن زراعة الفطريات وخاصة الأعفان منها على مخلفات المصانع , والأسواق, والحدائق , والمطاعم , والمنازل, والمزارع لإنتاج الأعلاف, والدهن, والبروتين, والفيتامينات , والهرمونات , ومضادات الحيوية , والإنزيمات وغيرها من المنتجات

الفطرية .

والفطريات لا تحتاج في زراعتها إلى أرض زراعية, ومساحات واسعة, ولا مجهود شاق, ولا تتحكم فيها عوامل البيئة الحقلية الخارجية أوقلة المياه كالزراعات التقليدية .

(259/607)

وتستخدم الأعفان في تحسين طعم المواد الغذائية كما هو الحال في الجبن الركفورت (Roquefort) المحتوي على البنسيليوم , كما تستخدم في انتاج الكومبوست الزراعي, وإنتاج بعض السكريات العديدة ذات الخاصية الهيجروسكوبيه التي تستخدم في الاحتفاظ بالماء في التربة الصحراوية متغلبة على أصعب مشكلة في الأرض الرملية وهي تسرب الماء .

كما يستخدم فطر البنسيليوم و العديد من الفطريات في إنتاج مضادات الحيوية . وتستخدم الفطريات في إنتاج الفيتامينات, والهرمونات, والصموغ من المخلفات الصناعية .

الخبز وجبة دسمة للأعفان

وفي غرفة واحدة مساحتها 6×6م نستطيع إنتاج حمض ليمونيك (Citricacid) في عام

يعادل إنتاج كل أشجار الليمون في العالم في نفس العام .

وفي غرفة مساحتها 6×6م يمكننا استخدام قش الأرز , الذي يمثل كارثة بيئية في بعض البلدان , يمكن استخدامه في زراعة عيش الغراب (المشروم – Mashroom)ت(4) وانتاج كميات هائلة من هذا الفطر المحتوي (500) طن متري في العام والذي يحتوي على 2.4 % من الوزن الجاف بروتين , 0.3% دهن و 4% كربوهيدرات علاوه على المعادن والأملاح ويسمي البعض هذا الفطر ببروتين الفقراء .

والأمل معقود بإذن الله على استغلال الأعفان وباقي الفطريات في حل مشكلة الغذاء في العالم وبذلك يتحقق قولنا الأعفان في خدمة الانسان وصدق الله العظيم القائل : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) البقرة 29 .

البنسيليوم ينمو بانتظام على الوسط الغذائي

وقال تعالى: (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) فصلت 9-10 .

انظر التفاصيل في كتابنا آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات والمنشور على شبكة الانترنيت (موضوع وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام) .

(260/607)

يمكن مراسلة الدكتور نظمي خليل أبو العطا على الإيميل التالي:

phy_tech@hotmail.com

يمكن التعليق على هذه المقالة بالضغط هنا

(1) – رسالة الماجستير (1979م) بعنوان : إنتاج الدهن بواسطة بعض الفطريات المعزولة محلياً

– ورسالة الدكتوراه بعنوان : دراسات على بعض الأنشطة الأيضية لبعض الفطريات, مع اشاره خاصة إلى الليبيدات (1984م) .

(2) – قسم واتيكر سنة (1969م) الكائنات الحية إلى خمس ممالك هي مملكة الأوليات

(3) – انظر الأعفان في خدمة الإنسان, نظمي خليل موسى, القاهرة : مكتبة النور .

– وانظر الفطريات والحياة, عبد المحسن صالح , القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب .

(4) – المشروم ليس من الأعفان بل من الفطريات البازيدية, التي أعددنا عنها مقالاً خاصاً بعنوان الفطريات البازيدية في خدمة البشرية , وان كان غزله الفطري يقوم بنفس دور الأعفان .

0–أحجار من العقيق مكتوب عليها اسم الجلالة

قال تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) . (سورة فصلت ، الآية 53)

إخوتي وأخواتي الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن من عظيم فضل الله سبحانه على عباده أن يريهم الآيات والبراهين على قدرته سبحانه وعلى رسالة نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في كل شيء وفي أي شيء فكل ما في الكون هو عبد لله سبحانه وناطق بقدرته وبروبيته وآية من آياته جل في علاه, كل ذلك لكي تبقى صلتنا بالله ونراه سبحانه معنا أينما كنا رحمة بنا ولكي نعبده بدرجة الإحسان التي هي من أعلى المراتب .

قال الله تعالى:(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) .

إن ما سنعرضه عليكم هو مجموعة نادرة من أحجار العقيق الطبيعية والتي يتجلى فيها لفظ الجلالة وبخطوط مختلفة وأيضا صورة الكعبة المشرفة بهيئاتها المختلفة وألوانها الحقيقية وخطوطها لتمثل إعجاز رباني عظيم خصوصا" إذا علمنا ان عمر هذه الأحجار النادرة هو ما بين (25 الى 30) مليون عاما ، وهذا ما ذكره ودونه الأستاذ البروفسور في علم الجيولوجيا / العالم زغلول النجار (حفظه الله) حيث عاين الأحجار بنفسه وحدد عمرها وأيضا تكلم عنها في حلقة عن الإعجاز العلمي بث ليلة القدر للعام 2002 من على قناة الشارقة الفضائية وذكر عمر الأحجار كذلك في نفس الحلقة كذلك هذه الأحجار مزودة بشهادات علمية من مختبرات متخصصة في علوم الأحجار تثبت بأنها أحجار طبيعية 100% وكل ما فيها طبيعي كذلك, وهي مملوكة لمواطن عراقي يعيش في دبي حفظها في أحد صناديق الإيداع في أحد بنوك البنوك في دبي .

يمكن مشاهدة الصور التالية بشكل مكبر بالضغط عليها :

إلى اليسار صورة لحجر من العقيق تم العثور عليه في اليمن عليه صورة للكعبة على ربوة وإلى جانبه صورة حقيقة للكعبة المشرفة تصور أن عمر هذا الحجر حوالي 30 مليون سنة أي (30.000.000 سنة) فتأمل يرعاك الله .

http://www.55a.net/images/kbaimg/18b.jpg

صور حقيقة أخرى لأحجار من العقيق الطبيعي عليها صورة للكعبة المشرفة

http://www.55a.net/images/kbaimg/11b.jpg

http://www.55a.net/images/kbaimg/6b.jpg

أحجار من العقيق كتب عليها لفظ الجلالة

حجر من العقيق عليه صورة تشبه قبة الصخرة

http://www.55a.net/images/kbaimg/15b.jpg

http://www.55a.net/images/kbaimg/10b.jpg

لقد أطلع الدكتور زغلول النجار على الأحجار ودون ملاحظاته في ثلاث صفحات أكد فيها صدق هذه الأحجار أضغط على الصور لتكبيرها

http://www.55a.net/images/kbaimg/12b.jpg

http://www.55a.net/images/kbaimg/5b.JPG

ثلاث وثائق مصدقة من جهات عالمية متخصص في الأحجار الكريمة تأكد على حقيقة

هذه الأحجار الكريمة أضغط على الصور لتكبيرها

يمكن مراسلة مالك الأحجار

المهندس / محمد مطر

konozstone@yahoo.com

0-آيات عظمة الله في طائر البوم Tytonidae

قال تعالى :(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (الأنعام:38)

نظرة العرب إلى البوم أو الهامة :

ورد في التراث " اتبع البوم يدلك على الخراب " و من أساطير العرب قبل الإسلام إنه ليس من

ميت يموت و لا قتيل يقتل إلا و تخرج من رأسه هامة فإن كان قتل و لم يؤخذ بثأره

نادت الهامة على قبره : اسقوني فإني صدية .

و كانت العرب تنظر إلى البوم على أنه طائر الشؤم و تتشائم به ، و هنا قصة مشهورة رويت عن المأمون :

أشرف الخليفة المأمون يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً و بيده فحمة يكتب بها على حائط القصر ، فقال المأمون لبعض خدمه اذهب إلى ذلك الرجل و انظر ما يكتب و ائتني به فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً و قبض عليه و تأمل ما كتبه فإذا هو :

يا قصر جمع فيه الشوم و اللوم

متى يعشش في أركانك البوم

يوم يعشش فيك البوم من فرحي

أكون أول ما ينعيك مرغوم

و لما مثل بين يدي المأمون ن قال له ويلك ما حملك على هذا ؟

قال مررت على هذا القصر العامر و أنا جائع فقلت في نفسي : لو كان خراباً لم أعدم منه رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه و أتقوت بثمنه ، فأمر له المأمور بألف دينار يأخذها كل عام مادام القصر عامراً بأهله .

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وسأل عن الهامة قال : " لا عدوى ولا طيرة ولا هامة " .

(263/607)

وقد اثبت العلم ما ذهبت إليه السنة من نفي الشؤم عن البوم أو الهامة فقد تبن أن البوم في غاية الأهمية للبيئة ،وقد جعلها الله مع غيرها من الحيوانات صمام الأمان الذي ينظم أعداد القوارض في البيئة فهي تأكل الفئران والجرذان والأفاعي والحشرات والعصافير حيث تصيد حوالي 5000 فأر في السنة الواحدة وطريقة صيد بعض أنواع البوم تعد هادفة متخصصة فهي تختار من الأرانب الأفراد الضعيفة والمريضة فتحدد التكاثر وتمنع انتشار المرض فعندما أنتشر وباء الأرانب في أوربا في أوائل الخمسينات من القرن العشرين سلمت أرانب جنوب أسبانيا من الوباء ، فتبين أن وراء ذلك أنواع من البوم المفترس كانت تكثر في تلك البيئة فإذا تذكرنا أن البوم يصيد 15 فأراً يومياً فكم هي الفائدة كبيرة التي تعود على الإنتاج الزراعي .

المرجع : مقالة للدكتور أسعد الفارس عن مجلة التقدم العلمي العدد الأربعون ديسمبر 2002م

0-لقطات من رحلتي مع نحلة

الأستاذ طارق السقا

دفعتني نحلة إلى رحلة . الرحلة لم أكن قد خططت لها . و مكان الرحلة كان إلى عالم النحل العجيب . سبب هذه الرحلة حديث نبوي . فلقد قرأت ما جاء في شعب البيهقي عن مجاهد قال: صاحبت عمر بن الخطاب رضي الله عنه من مكة إلى المدينة فما سمعته يحدث عن رسول الله إلا هذا الحديث:

" إن مثل المؤمن كمثل النحلة . إن صاحبته نفعك، وإن شاورته نفعك، وإن جالسته نفعك، وكل شأنه منافع "

ودفعني هذا التشبيه إلى تلكم الرحلة . و كان القصد من ورائها الإجابة على سؤال: لماذا شبه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن الحق بالنحلة ؟

خاصة أنه قال في حديث آخر:

" المؤمن كالنحلة إن أكلت أكلت طيبا وإن وضعت وضعت طيبا وإن وقعت على عود لم تكسره "

وأثناء رحلة البحث عن الإجابة عن هذا السؤال جاءت هذه اللقطات .

اللقطة الأولى:

يظهر فيها حسن تعامل النحل مع أوامر ربه . يظهر فيها كيف يتعامل هذا المخلوق مع أوامر الخالق فمنذ أن أوحى الله سبحانه وتعالى إلي النحل " وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون* ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا . . . . . "(النحل 69) منذ ذلك الوقت يستحيل أن تجد للنحل بيوتا في غير هذه الأمكنة الثلاث: الجبال . . والشجر . . والبيوت . على نفس ترتيب الآية . أمر من الله . أعقبه تنفيذ من النحل . بلا تسويف ولا تحايل ولا تباطؤ .

أنها صورة تعكس أرقى درجات السمع والطاعة للخالق من مخلوق .

ومن حسن الامتثال وكمال السمع والطاعة عند النحل, تجد أيضا أن أكثر بيوت النحل في الجبال – وهي المتقدمة في الآية ثم الشجر ثم فيما يعرش الناس ويبنون بيوتهم . وكذلك تجد أن أرقى وأجود أنواع العسل هي عسل نحل الجبال ثم عسل نحل الشجر ثم عسل نحل البيوت . وهنا لا يجب أن يفوتنا أن نضع هذه الصورة جنبا إلى جنب مع صورة تعاملنا نحن بني البشر مع أوامر ربنا عز وجل .

صورة لخلية نحل اتخذت بيتاً على أحد الجبال

لنقارن . . ونقارن . . ونمعن في المقارنة . علنا ندرك جانباً من الإجابة علي السؤال: لماذا شبه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن الحق بالنحلة ؟ .

ومن طبائع النحل المعروفة والتي تدل على حسن امتثاله لأوامر ربه, أنه دائما ما يتخذ البيوت قبل المراعى . فهي إذا ما أصابت موضعا مناسبا بنت فيه بيوتها أولا . ثم بعد ذلك تخرج من تلك البيوت ترعى وتأكل من كل الثمرات ثم تأوي إلى بيوتها . لأن ربها سبحانه وتعالى أمرها بذلك . أمرها باتخاذ البيوت أولا ثم الأكل بعد ذلك . وهنا قد تبعد المراعى عن البيوت الأميال والأميال . وقد يفصل بين المراعي وبيوت النحل السهول و الجبال .

صورة لخلية نحل اتخذت بيتاً على جذع شجرة في إحدى الغابات الطبيعية

(265/607)

وقد يتطلب هذا من النحل عبور الروابي والوديان . ومع ذلك فإن طاعتها لربها جعلها تنسى بعد المسافات وكثرة المشقات فالمؤمن الحق – كالنحل – يجب ألا يفكر إلا في تنفيذه

الأوامر الربانية . أما المشقات, والتبعات, والمنغصات فهي أمور ثانوية يجب ألا يفكر فيها المسلم . لأنه لو فكر فيها فربما تلكأ أو تباطأ أو قصر . ولكن طالما أن الأمر من عند الحق فيجب أن لا يشغل بال المؤمن الحق غير تنفيذ أمر الحق . وهكذا يفعل الصالحون .

انظر إلى نبي الله نوح لما أمرها لله: بأن يصنع الفلك في البيئة الصحراوية .

وانظر إلي سيدنا موسى لما أمره الله: " أن اضرب بعصاك البحر " وانظر كيف تعامل سيدنا إبراهيم مع أمر الله له بذبح إسماعيل . لكن انظر كيف كانت درجة السمع والطاعة من هؤلاء جميعا وكيف كانت النتائج . ليتأكد لك أن السعادة والفوز يكمنان في حسن تنفيذ العبد لأوامر ربه, حتى ولو كانت هذه الأمور تفوق قدرات عقولنا القاصرة, أو حتى عجزنا عن استيعاب مرامي التكاليف ساعة التنفيذ .

اللقطة الثانية:

وتظهر فيها كيف أن النحل يقضي حياته في حركة ونشاط وانتقال من طيب إلى أطيب, ومن أثر نافع إلى أنفع . "فمن اجل أن تقوم النحلة بإطعامنا كيلو جرام واحد ومن العسل إنها تقوم بما يقرب 600 ألف إلى 800 الف طلعة وتقف على مليون زهرة وتقطع ما يزيد عن 10 أضعاف الكرة الأرضية رغم الرياح والأنواء" . وكأن الرسول لما شبه المؤمن الحق بالنحلة أراده أن يتمثل هذا الخلق . وأراده أن يتحلى بثقافة النحل في السمو, وعلو الهمة, والتعامل مع الأمور بجدية, وقوة من يبتغي وجه الله:-

طالب العلم مع علمه

والعامل في صناعته

والتاجر في تجارته

والمزارع في زراعته

و الداعي إلى الله في دعوت

فلا فلاح لكل من ينتج إنتاجا ماديا أو معنويا دون أن تسود بينهم ثقافة النحل في النفع والعطاء .

النحل يقضي حياته في حركة ونشاط وانتقال من طيب إلى أطيب

اللقطة الثالثة:

(266/607)

ويظهر فيها كيف أن النحل يجيد توظيف الطاقات . فالنحل يجيد هذه المهارة . وهذه مهارة لازمة للأمم والأفراد والجماعات . ولا يرقى الإنسان إلا بها . فمن النحل من يعمل العسل, وبعضها يعمل الشمع, وبعضها يسقي الماء, وبعضها يبني البيوت, وبعضها يقوم

بأعمال النظافة، وبعضها يقوم بأعمال التكييف والتبريد والتهوية, وبعضها يقوم بالتلقيح, وبعضها يقوم الاستكشاف والاستطلاع. الكل يعمل وينتج. كل حسب سنه ووظيفته وقدراته وميوله واستعداداته. فلقد علمنا النحل من خلال هذه اللقطة أنه من لا يجيد توظيف الطاقات يغرق في العثرات. ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينوه- لي ولك- أن يتحلى كل منا به بهذا الخلق.

اللقطة الرابعة:

ويظهر فيها أحد طبائع النحل العجيبة. فالنحل يرفض رفضا باتا أن يوجد في مملكته عاطل عن العمل " فمن طبائع النحل أنها لا تترك عندها بطالا إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية. لأنه

يضيق المكان.

ويفني العسل.

ويعلم النشيط الكسل.

وهذه مهارة إدارية راقية ما أحوجنا أن نتمثلها واقعا في حياتنا الإدارية. فلو علم كل عامل في مؤسسته أن مصيره الإقصاء ما لم يؤدي ما هو مطلوب منه. وما لم يحقق ما هو مطلوب منه من مستهدفات حسب خطة المؤسسة العامة التي يعمل فيها, لعاد ذلك بمردود ايجابي على الأمة. أما أن تدخل المؤسسات الحكومية في بلاد المسلمين وتجدها مكتظة

بالعشرات ممن لا وظائف لهم ولا عمل لهم فهذه انتكاسة .

لقد وصلت المؤسسات الصناعية العظمى في اليابان وأوروبا إلى ما وصلت إليه من رقي وارتقاء وتقدم بفضل تطبيقها لهذه السياسة الراقية التي يجب أن نتعلمها نحن من النحلة .

اللقطة الخامسة:

(267/607)

تظهر كيف أن النحل يفضل العمل في صمت وهدوء وبعيدا عن أعين الناس . فيروى أن آرسطاطاليس صنع بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما يصنع النحل . فأبت أن تعمل حتى لطخته بالطين من الداخل . لطخته بالطين حتى تنأى بنفسها عن الظهور . وكأنها وعت خطورة آفة الرياء والنفاق وحب الظهور وحب الرياسة وكلها آفات مهلكات . لطخة بيتها بالطين من الداخل بحثا عن الإخلاص . وكأنها تدرك قول ابن القيم رحمه الله تعالى: (الإخلاص ألا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه) . لطخته وكأنها أرادت أن ترسل لنا من – خلف الطين – رسالة مفادها أن عليكم بالإخلاص في كل أعمالكم وأقوالكم . فالإخلاص وهو قارب النجاة من الغرق في بحر النفاق والشرك والرياء وحب الظهور وبوار الأعمال نعوذ بالله من ذلك . ولعله الدرس الذي أراد الرسول صلى

الله عليه وسلم من تشبيه المؤمن بالنحلة أن يأخذه عنها و يتعلمه منها .

اللقطة السادسة: –

ويظهر فيها مجموعة الآفات التي تعوق النحل عن العمل والإنتاج والتميز هذه الآفات هي:

الظلام الغيوم الرياح الدخان الماء النار

وكذلك المؤمن له آفات تبعده عن العمل والإنتاج والتميز في حياته منها : –

ظلام الغفلة غيوم الشك رياح الفتنة دخان الحرام ماء السمعة نار الهوى . كما قال ابن الأثير

اللقطة السابعة: –

(268/607)

ويظهر فيها مجتمع النحل وهو لا يستطيع أن يعيش أو ينتج أو يعمل إلا في جماعات .

جماعات يحكمها تنظيم دقيق مبهر . تنظيم تتوزع فيه الاختصاصات المسؤوليات والمهام في عيش جماعي رائع وتكافل عجيب . فإذا ما انعزلت إحداها عن جماعتها لسبب من الأسباب فإنها تسارع إلى أن تنضم إلى جماعة أخرى من طبيعتها . إذا قبلتها فنعمت . وإن تموت . لها فإنها تموت . نعم تموت . تموت ببعدها عن الجماعة . فكأنها تدرك أن (الجماعة رحمة و الفرقة عذاب) . كأنها تعلم (أن يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في

النار)، وكأنها وعت قول سيدنا علي رضي الله عنه: (كدر الجماعة خير من صفو الفرد) . كأنها تريد إن تذكرنا – ونحن في زمن التشرذم – بما جاء في الصحيحين: "أن مَن فارق الجماعة شبراً فمات، فميتة جاهلية" .

اللقطة الثامنة: –

(269/607)

ويظهر فيها إلى حسن استخدام النحل إلى الوقت . فالنحل لديه قدرة فائقة على الاستخدام المزدوج للوقت . فهو لا يضيع وقته أبدا فيما لا فائدة منه . بل يستغل كل ثانية فيما هو نافع . " فمثلا في طريقها الذي قد يصل إلى عشرات الكيلو مترات من مكان رحيق الأزهار إلى خلاياها . تجري النحلة عدة عمليات كيميائية بالغة التعقيد لتحويل الرحيق إلى عسل . ويتم هذا في الطريق ولا تنتظر حتى تعود . " ولقد أخذ اليابانيون هذه الفكرة من النحل في مجال الصناعة . فمعروف أن اليابان ليس عندها مواد أولية . وهم من كبار مصدري الستانلس . هذه المادة تتواجد بوفر شاسعة . تراليا . والمسافة بين البلدتين شاسعة . فصنع اليابانيون بواخر عملاقة تصل إلى أواخر استراليا . تأخذ المواد الأولية من هناك . وفي الطريق إلى أسواق الشرق الأوسط يتم تصنيع هذه المواد الأولية في البواخر

أثناء العودة . ثم يتم تسليمها مصنعة جاهزة إلى أسواق المستهلكين في كل مكان . وهذا ما تفعله النحلة . وهذا ما يجب أن يتحلى به المؤمن الحق . فالوقت سلاح ارتقى من أتقن حسن استغلاله وتعس من عطله . وتاريخ الأمم خير شاهد : فالأمة التي لا تنشئ أبنائها على كيفية إتقان إدارة الوقت والاستفادة من كل وحداته أمة مهزومة لا يمكن لها ولا لأبنائها أن يرتقوا أو يتبوؤا منزلة بين العظماء .

وفي النهاية

هذا عرض سريع لعدد من اللقطات السريعة التي سجلها الباحث خلال هذه الرحلة .

ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لما شبه المؤمن الحق بالنحلة كان يدعونا إلى أن نتمثل هذه الصفات واقعا في حياتنا :

فمن خصائص ملكة النحل أنها ليس لها إبرة تلدغ بها أحد من مملكتها .

أنها تتصف بالعدل والإنصاف بين أعضاء مملكتها .

ملكة النحل لا يسمح لمتطفل ولا لعدو أن ينتهك حرمة بيتها .

ملكة النحل ترعى صغارها وتهتم بهم اهتماما لا حدود له .

إن اتخاذ القرار في عالم النحل عملية تحكمها أرقى درجات الشورى والتشاور .

النحل دائما ما يتنزه عن النجاسات والأقذار .

النحل لا يأكل إلا طيبا .

النحل لا يأكل من كسب غيره .

النحل لا يأكل إلا قدر شبعه .

إذا قل غذاء النحل (العسل) قذفه بالماء ليكثر خوفا على نفسه من نفاذه .

النحل لا يشرب من الماء إلا ما كان صافيا عذبا . ويجد في طلبه مهما بعد .

النحل من أصغر المخلوقات حجما وأضعفها بنية إلا أنها الأكثر عطاء وتأثيرا .

بيت النحل تنطبق عليه أرقى المواصفات الهندسية في العمران والبنيان .

النحل يسير في سبيل جمع الرحيق بسرعة 60 كم / ساعة وهو ما يعادل عشرة أمثال سرعة الإنسان .

يعرف عن النحل قلة آذاه .

يعرف عن النحل النظافة الكاملة والتامة .

النحل يسعى في النهار سعيا لا حدود له .

- 18 . النحل يوفر الجهد والوقت على بعضه البعض .

ملكة النحل ترعى صغارها وتهتم بهم اهتماما لا حدود له .

فإذا ما وقعت نحلة على زهرة وامتصت رحيقها فإنها تترك علامة أن هذه الزهرة مُص رحيقها من قبل حتى توفر الجهد والعناء على بني جنسها .

إن حشرة بهذه الصفات وهذه القدرات وهذا السمو وهذا الرقي لجديرة بأن يشبه بها المؤمن الحق كما يريده الله ورسوله .

ولما قال صلى الله عليه وسلم (كل الذباب في النار إلا النحل) جاء هذا الكلام . فكما استثنى طياته بشارة للمسلم الذي تعرف على طبائع هذه الحشرة وتعلم منها وسلك مسلكها أن يحرم جسده على النار . فكما استثنى رسول الله النحل من بين الذباب من دخول النار . فلعل الله يستثنى المسلم العامل بهذه الأخلاق السامية وهذه الطبائع وهذه المهارات من بين بقية البشر ويحرم جسده على النار لينعم بصحبة النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .

طارق حسن السقا

alsaqa22@hotmail.com

المراجع :

-1- حياة الحيوان - الدميري - باب النحل - ص 1249

-2 بحث بعنوان:التكوين الاجتماعي في عالم النحل كما صوره القرآن الكريم - د/ يحيى البشتاوي - موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

---

http://www.nooran.org/H/H5/2.htm

3-- ندوات الإعجاز العلمي : الندوة 08 / 30 : النحل ، لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

http://www.nabulsi1.com/text/10nadwat/913-all/913-02d.html

4-من أسرار عالم النحل - مقال الدكتور حسان شمسي باشا

http://www.khayma.com/chamsipasha/Bee.htm

0-معجزة التركيب الضوئي في النبات

لاحظ جان بابتيستا فان هيلمونت الفيزيائي البلجيكي في القرن السابع عشر نمو شجرة الصفصاف وأخذ بعض القياسات في إحدى تجاربه العلمية وفي البداية قام بوزن الشجرة ثم وزنها مرة ثانية بعد مرور خمس سنوات فوجد أن وزنها زاد 75 كيلوغراماً، مع أن التربة في الوعاء الذي نما فيه النبات لم تنقص سوى بضعة غرامات خلال هذه المدة وكشف الفيزيائي فان هيلمونت في هذه التجربة أن التربة في الوعاء لم تكن السبب الوحيد في نمو شجرة الصفصاف بما أن النبات قد استخدم كمية صغيرة جداً من التربة لينمو إذن يجب أن يكون قد تلقى تغذية من مكان آخر (1) لا تستخدم النباتات التربة فقط عند إنتاج غذائها؛ فهي تستخدم -إلى جانب المعادن في التربة- الماء وثاني أكسيد الكربون من الجو وتأخذ المعادن الرئيسية وتحولها بواسطة معامل مصغرة في أوراقها وبذلك تقوم بعملية التركيب الضوئي وقبل تفحص المراحل المتعددة للتركيب الضوئي من المفيد أن نلقي نظرة على الأوراق التي تلعب دوراً هاماً في هذه العملية التركيب العام للأوراق عند دراسة النباتات من وجهة نظر التركيب العام أو من قبل علم الأحياء المجهري نلاحظ أن الأوراق تمتلك أنظمة دقيقة ومعقدة جداً لإنتاج الطاقة، ولكي تنتج الأوراق هذه الطاقة تحتاج إلى أخذ الحرارة من ثاني أكسيد الكربون من الخارجلنلق أولاً نظرة على التركيب الخارجي للأوراق، والأسطح الخارجية للأوراق واسعة مما يمكنها من تبادل الغازات (مثل امتصاص ثاني أكسيد الكربون وطرح الأكسجين) الضرورية للتركيب الضوئي يمكّن شكل الأوراق

العريض والمنبسط جميع الخلايا من أن تكون قريبة من السطح، وبفضل هذا يتم تبادل الغازات بشكل أسهل وبإمكان ضوء الشمس أن يصل إلى جميع الخلايا التي تقوم بالتركيب الضوئي ولنتخيل ماذا سيحدث إذا لم تكن الأوراق عريضة ومسطحة وكان لها أي شكل هندسي أو عشوائي آخر فلن تستطيع القيام بالتركيب الضوئي، ما عدا المناطق المعرضة مباشرة لأشعة

(273/607)

الشمس وهذا يعني أن النباتات لن تكون قادرة على إنتاج الطاقة أو الأكسجين بشكل كافٍ وينتج عن ذلك نقص في الطاقة بالنسبة إلى الكائنات ولا تنتهي الأنظمة ذات التصميم الخاص" عند هذا الحد فبفضل خاصية الانتقاء الضوئي تتجه أنسجة الورقة إلى الضوء، وهذا ما يدفع أوراق النباتات للاتجاه نحو الشمس، ويمكن ملاحظة ذلك في النباتات التي توضع في أوعية وعلينا أن نلقي نظرة على التركيب الفيزيولوجي للأوراق لكي نفهم كيف تحدث هذه العمليات ذات الأهمية الحيوية إذا نظرنا إلى ورقة مقسومة بالعرض نرى تركيباً متكونا من أربع طبقات؛ الأدمة: وهي التي تغطي أعلى الورقة وأسفلها، ولا تتضمن اليخضور ودورها هو حماية الورقة من التأثيرات الخارجية البشرة: طبقة شمعية غير لا

تسمح للماء بالنفاذ وتغطي القسم الخارجي من الأدمة

يلاحظ في الصورة إلى اليسار نبات الخطاف (رانونكلوس فيكاريا) وهو مثل باقي النباتات يتوجه تدريجيا نحو الشمس. وتشبه زهرته هوائي الرادارات. وهذا التوجه يجعل النبات يحقق الفائدة القصوى من أشعة الشمس. ويرى في الصورة إلى الأسفل نبات عباد الشمس الذي يغير اتجاهه تبعا لتغير موقع الشمس في الهواء. فالخلايا الموجودة في أوراق النبات تمتاز بالحساسية تجاه أشعة الشمس، وهذه الخلايا هي التي توجه النبات نحو تلك الأشعة.

(274/607)

وعندما ننظر إلى الطبقات الداخلية من الورقة نرى أنها مكونة عموماً من طبقتين من الخلايا، منها خلايا غنية باليخضور بشكل صفوف لا ثغرات فيها وهي الطبقة الحاجزة التي تشكل النسيج الداخلي، وتقوم بعملية التركيب الضوئي؛ وتأتي تحتها الطبقة الإسفنجية التي تمكّن الورقة من التنفس وهناك جيوب هوائية بين طبقات الخلايا في هذا النسيج وكما رأينا فلكل طبقة من هذه الطبقات وظيفة مهمة في بنية الورقة وهذا التنظيم

له أهمية كبيرة بالنسبة إلى عملية التركيب الضوئي لأنه يمكّن الورقة من أن تنشر الضوء وتوزعه بشكل أفضل مما يزيد قدرتها على القيام بعملية التنفس والتركيب الضوئي ويوجد في الغابات المطرية الاستوائية الكثيفة على سبيل المثال نزعة لنمو النباتات ذات الأوراق الضخمة، ولهذا أسباب مهمة جداً: فمن الصعب على ضوء الشمس أن يصل إلى جميع أقسام النباتات المجموعة معاً بشكل متساوٍ حيث الأشجار كثيفة والمطر يهطل بشدة في أغلب الأحيان، وهذا ما يجعل من الضروري أن تزيد النباتات من مساحة الورقة لكي تلتقط الضوء وفي تلك المناطق حيث تدخل أشعة الشمس بصعوبة من الضروري لأسطح الأوراق أن تكون كبيرة لكي يتمكن النبات من إنتاج الغذاء، وبفضل هذه الميزة تتعرض النباتات الاستوائية للشمس بأحسن طريقة ممكنة من ناحية ثانية توجد الأوراق الصغيرة في المناخات الجافة والقاسية لأنه في هذه الظروف المناخية يكون فقدان الحرارة مضراً جداً، فكلما كبر سطح الورقة ازداد تبخر الماء وفقدان الحرارة؛ ولهذا السبب فإن سطح الورقة التي تلتقط الضوء صمم بحيث يمكنها من حفظ الماء بأكثر الطرق اقتصادية، فانكماش الأوراق في البيئة الصحراوية يصل إلى مستويات كبيرة، وعلى سبيل المثال نجد في نبات الصبار أشواكا بدل الأوراق ويتم التركيب الضوئي في هذا النبات من قبل الساق اللبية التي تخزن الماء إن ذلك لا يكفي للتحكم في عملية فقدان الماء لأنه مهما صغر حجم الورقة فوجود المسام

(275/607)

الدقيقة في الأدمة يعرضها لخسارة مزيد من الماء، ولهذا السبب توجد آلية لتعويض التبخر، والنبات له طريقة لتنظيم التبخر الزائد عن طريق التحكم في درجة فتحات المسام إما بتوسيعها أو بتقليصها حسب الحاجة إن التقاط الضوء للقيام بعملية التركيب الضوئي ليس هو العمل الوحيد الذي تقوم به الأوراق الوحيد، فمن المهم لها أيضاً أن تحصل على ثاني أكسيد الكربون من الجو وتوجهه إلى المناطق التي تقوم بعملية التركيب الضوئي،

يتبين من الصورتين أن هناك اختلافا شاسعا بين النباتات الصحراوية والنباتات الإستوائية من ناحية التركيب والشكل.

(276/607)

وهي تقوم بذلك بواسطة المسام الموجودة في أوراقها الثغيرة: تصميم دقيق دور هذه المسامات المجهرية على سطح الأوراق هو نقل الضوء والماء وأخذ ثاني أكسيد الكربون

الضروري لعملية التركيب الضوئي من الهواء ويمكن للمسام أن تغلق أو تفتح حسب الحاجة وعندما تفتح يتم تبادل الأكسجين وبخار الماء بين خلايا الورقة مع ثاني أكسيد الكربون المطلوب لعملية التركيب الضوئي وبهذه الطريقة يطرح الإنتاج الفائض وتُمتص المواد المطلوبة للاستفادة منها أحد أهم سمات المسام أنها توجد في الجانب السفلي من الأوراق مما يخفف التأثيرات المؤذية لأشعة الشمس إلى أدنى حد ولو كانت المسام التي تطرح الماء في النبات على سطح الأوراق بأعداد كبيرة لكانت معرضة للشمس لفترات طويلة مما يجعلها تطرح الماء باستمرار، وفي هذه الحالة يموت النبات نتيجة نقصان الماء يسمح تركيب المسام المجوف بتبادل الغازات بين الورقة والهواء ويعتمد فتح المسام على الظروف الخارجية (مستويات الضوء والحرارة والرطوبة وثاني أكسيد الكربون) والحالة الداخلية للنبات خاصة مستوى الماء فيه وينظم فتح المسام أو إغلاقها عملية تبادل الغازات والماء هناك تفاصيل دقيقة في بنية المسام صممت مع الأخذ بعين الاعتبار جميع العوامل الخارجية؛ وكما نعرف فإن مستويات الرطوبة ودرجة الحرارة والغاز وتلوث الهواء في تغير دائم وتمتلك مسام الأوراق بنية تتكيف مع الظروف المتغيرة ونورد هنا مثالاً لشرح ما سبق ذكره:

تتعرض النباتات مثل قصب السكر والقمح للحرارة والهواء الجاف فترة طويلة وتبقى مسامها مغلقة جزئياً أو كلياً طيلة اليوم لكي تحافظ على الماء، إلا أن هذه النباتات تحتاج امتصاص ثاني أكسيد الكربون في النهار للقيام بالتركيب الضوئي وفي الظروف العادية تبقى

المسام مفتوحة قدر الإمكان لكن هذا مستحيل في هذه الحالة لأن النبات يستمر في فقدان الرطوبة من مسامه ويموت سريعاً لهذا السبب على المسام أن تبقى مغلقة وبعض

(277/607)

النباتات التي تعيش في المناخات الحارة لها مضخة تمتص غاز ثاني أكسيد الكربون بشكل أكثر فعالية من الهواء إلى الورقة وتستخدم هذه النباتات مضخات كيميائية لتمتص ثاني أكسيد الكربون في أوراقها حتى لو كانت مسامها مغلقة (2)ولو غابت هذه المضخات لبعض الوقت لما أمكن للنبات أن ينتج أي تغذية لأنه لا يستطيع امتصاص غاز ثاني أكسيد الكربون ويموت نتيجة لذلك وهذا دليل على أن هذه المضخات الكيميائية لم تكن نتيجة سلسلة من المصادفات عبر الزمن وهذا النظام يعمل في النباتات بشكل فعال فقط حين تتوفر جميع عناصره، ولهذا السبب لا يمكن أن تكون المسام قد نشأت وتطورت نتيجة المصادفات؛ لأن المسام – بتركيبها بالغ الدقة– تم تصميمها وبكلام آخر تم خلقها لكي تقوم بهذه المهام بأفضل طريقة ممكنة تطور الورقة من وجهة نظر التطوريينكما رأينا هناك أنظمة معقدة للغاية محشورة في جسم أخضر بالغ الصغر، وهي تعمل بدقة منذ ملايين السنين كيف توافقت الأنظمة في هذه المنطقة الصغيرة جداً ؟ كيف نشأ التصميم المعقد في الأوراق ؟

هل من الممكن أن ينشأ هذا التصميم الدقيق والفريد من تلقاء نفسه ؟ إذا سألنا المدافعين عن نظرية التطور هذه الأسئلة فإن جوابهم سيكون هو نفسه دائماً سيضعون تفسيرات وافتراضات متناقضة تفتقد إلى المنطق، وسيفشلون في الإجابة على السؤال كيف "نشأت" أنواع النباتات والأشجار والأزهار ونباتات البحر والفطور التي لا تعد ولا تحصى عندما يتم تفحص النظريات الموضوعة من قبل التطوريين بخصوص تطور النباتات يتبين أنها ادعاءات سخيفة لا معنى لها وتقترح نظرية تيلوم أن الورقة نشأت عبر تكرار تفرع واندماج أنظمة الساق المعقدة (3) ولنفكر الآن في الأسئلة التي ستنشأ عن هذا الزعم الذي لا أساس له: – كيف حدثت هذه التفرعات والاندماجات ؟ – نتيجة أي مصادفة تحولت إلى أوراق، مع بنيتها وتصميمها المختلف ؟ – كيف نشأت الآلاف بل الملايين من أنواع النباتات والأزهار

والأشجار والأعشاب من هذه النباتات البدائية ؟ ليس لدى التطوريين أية أجوبة علمية أو منطقية لهذه الأسئلة، وككل موضوع لا يستطيع التطوريون أن يفسروا نشوء النباتات إلا بسيناريوهات تعتمد فقط على الخيال وحسب نظرية أخرى هي نظرية اينيشن تفترض أن

الورقة تطورت من خلال نمو بسيط للساق (4) لنتفحص مرة أخرى الأسئلة التي تنشأ من هذه النظرية كيف حدث أن قطعا من النسيج النباتي ظهرت في أماكن محددة من جسم النبات لتتحول إلى أوراق ؟ وبعد ذلك، كيف تحولت إلى أوراق ؟ وليس أي أوراق بل أوراق بتراكيب دقيقة لا نقص فيها وبأعداد لا تحصى ؟ لنعد أدراجنا قليلاً كيف ظهرت سوق النباتات مع هذه التغيرات إلى الوجود حسب نظرية اينيشن ؟ لا توجد إجابات علمية لدى التطوريين على أسئلة من هذا النوع ما تريد نظريات التطوريين أن تشرحه فعلاً هو التالي: ظهرت النباتات نتيجة لأحداث نشأت بالمصادفة، ونشأت السوق والفروع أيضاً بالمصادفة ونشأ اليخضور من حبيبات اليخضور بمصادفة أخرى، وكذلك نشأت الطبقات المختلفة في الأوراق بالمصادفة مصادفة تتبعها أخرى وفي آخر الأمر تظهر الأوراق ببنيتها الخاصة التي لا عيب فيها ! لا يمكن تجاهل حقيقة أن جميع التراكيب في الأوراق – التي يدّعون أنها نشأت بالمصادفة– أتت سوية في الوقت نفسه وحسب التطوريين نشأت جميع الآليات في الورقة بالمصادفات تدريجياً عبر الزمن، وفي الوقت نفسه يتنبأ المنطق التطوري بأن الأعضاء أو الأنظمة التي لم تستخدم تختفي في النهاية بشكل طبيعي وبما أن هذه الآليات مرتبطة ببعضها البعض فليس من الصواب أن نقول إن إحداها نشأت بالمصادفة لأنه تبعاً للمرحلة الثانية من منطق التطوريين ستكون قد اختفت لأنها لم تعد ذات أهمية ولهذا السبب يجب أن توجد جميع الأنظمة المعقدة في الجذور والسوق

والأوراق في الوقت نفسه لكي يعيش النبات وُجدت النباتات بأنظمتها الدقيقة دون أي خلل مثل جميع الكائنات الحية في العالم من لحظة خلقها

(279/607)

إلى يومنا هذا بدون أي تغير في خصائصها بدءاً من سقوط الأوراق إلى تحولها نحو الشمس، من لونها الأخضر إلى طبيعة أجسامها الخشبية، من ظهور جذورها إلى انبثاق ثمارها؛ لا يشوب هذه التراكيب الدقيقة أي نقص أو عيب ومن المستحيل حتى بتقنية اليوم أن نقلد أو نعيد إنتاج أي من هذه الأنظمة (التركيب الضوئي على سبيل المثال) .

(280/607)

هذه الصعوبة هي أحد الأدلة على أن الأوراق لم تظهر بالمصادفة، فهي تمتلك تراكيب خاصة لتفي بحاجات النبات وتنتج الطعام وتقوم بالتنفس وهذا التصميم الدقيق يثبت وجود مصمم قدير، لا يعجزه شيء، قادر على كل شيء وليس هناك شك أنه الله رب العالمين، الذي خلق الأوراق بهذا التصميم البديع معجزة التركيب الضوئي صمم كوكب

الأرض ليكون صالحاً للحياة، وتمد الأرض البيئة بأسباب الحياة بفضل التوازنات الدقيقة القائمة عليها ، من مستويات الغاز في الغلاف الجوي إلى بُعدها عن الشمس، ومن الجبال إلى وجود ماء الشرب، من التنوع الهائل للنباتات إلى حرارة الأرض إذا قُدر للمكونات التي تصنع الحياة أن تعيش فيجب أن يتم الحفاظ على التوازنات الفيزيائية والبيولوجية مثال: لا غنى عن الجاذبية لكي تعيش الكائنات الحية على الأرض وكذلك المواد التي تنتجها النباتات ضرورية لبقاء الحياة على الأرض وكما أشرنا سابقاً تدعى العملية التي يقوم بها النبات لإنتاج هذه المواد العضوية بالتركيب الضوئي –التي يمكن أن نلخصها بأن النبات ينتج غذائه الخاص– هذه العملية التي تجعل النباتات مختلفة عن غيرها من الكائنات الحية ويكمن الفرق في وجود تراكيب في خلايا النبات (مختلفة عن خلايا الإنسان أو الحيوان) تستطيع الاستفادة المباشرة من ضوء الشمس، وبواسطة هذه التراكيب تحول خلايا النبات أشعة الشمس –التي يمتصها البشر والحيوانات بواسطة الطعام– إلى طاقة تخزنها بوسائل خاصة، وبهذه الطريقة تكتمل عملية التركيب الضوئي بالطبع ليس النبات هو الذي يقوم بعملية التركيب الضوئي ولا الأوراق ولا حتى مجموع خلايا النبات بل هو عضو صغير يوجد في خلايا النبات يدعى حبيبة اليخضور التي تعطي النباتات لونها الأخضر وهي التي تقوم بهذه العملية ويبلغ حجم حبيبة اليخضور واحداً بالألف من الميليميتر، ولهذا السبب

لا ترى إلا بالمجهر؛ ويلعب جدار حبيبة اليخضور – الذي يبلغ حجمه واحدا بالمائة مليون من المتر –

(281/607)

دوراً هاماً في عملية التركيب الضوئي وكما نرى من هذه الأرقام فهي بالغة الصغر، وهذه العمليات كلها تحدث في هذه البيئة المجهرية وهذه إحدى الخصائص المذهلة للتركيب الضوئي.

حبيبة اليخضور معمل زاخر بالأسرار:

توجد في حبيبة اليخضور أشكال متنوعة لحدوث عملية التركيب الضوئي مثل: الثايلاكويدز، أغشية داخلية وخارجية، أنسجة، أنزيمات، ريبوزومات، RNA، DNA. وترتبط هذه الأشكال ببعضها البعض، وكل واحد منها له وظيفة في غاية الأهمية، فعلى سبيل المثال: ينظم الغشاء الخارجي لحبيبة اليخضور تدفق المواد الداخلة والخارجة؛ ويتألف نظام الغشاء الداخلي من جيوب مسطحة تشبه الديسكات أو الأقراص، تتمركز فيها جزيئات الخضاب (اليخضور) والأنزيمات الضرورية للتركيب الضوئي، والعديد منها بشكل سويقات تشكل ما يدعى "غرانا" تسمح بأعلى امتصاص

لضوء الشمس وهذا يعني أن امتصاص النبات لضوء أكثر يجعله قادراً على القيام بعمليات تركيب ضوئي أكثر يحيط بالثايلاكويدز نسيج عضوي يدعى ستروما (نسيج ضام) يحتوي على أنزيمات أخرى إضافة إلى(DNAحمض نووي ريبي يحمل المعلومات الجينية في الخلية) و(RNAحمض نووي ريبي يحوي مادة كيميائية هامة توجد في جميع الخلايا الحية) والريبوزومات تنتج حبيبات اليخضور بما تملكه من DNAوريبوزومات بروتينات معينة كما تعيد انتاجها هناك نقطة هامة أخرى في التركيب الضوئي وهي حدوث كل هذه العمليات في مدة قصيرة جداً بحيث لا تلاحظ تستجيب الآلاف من أصباغ اليخضور الموجودة في حبيبات اليخضور في وقت واحد لضوء الشمس في زمن

(282/607)

إن البلاستيدات الخضراء الموجودة في النباتات هي التي تتولى القيام بعملية التركيب الضوئي . والصورة الجانبية تمثل بلاستيدة خضراء مكبرة تحت المجهر لأنها صغيرة الحجم جدا ولايصل حجمها إلا إلى واحد بالألف من المليميتر . وتحتوي البلاستيدة الخضراء على أعضاء عديدة جدا تقوم بمجموعها بإجراء عملية التركيب الضوئي . وتتألف

الأخيرة من مراحل عديدة لا يزال بعضها مجهولا . وتجري هذه العملية المعقدة داخل هذه العضيوات المجهرية وبسرعة فائقة .

(283/607)

قياسي خلال جزء من الألف من الثانية يصور العلماء عملية التركيب الضوئي في حبيبات اليخضور على أنها سلسلة طويلة لتفاعل كيميائي، إلا أنهم لا يستطيعون تفسير بعض الأقسام التي تحدث في التفاعل بسبب سرعتها الكبيرة وينظرون إليها بذهول ولكن من الواضح أن التركيب الضوئي يتضمن مرحلتين تعرفان بـ "التفاعلات الضوئية" و"التفاعلات اللاضوئية" التفاعلات الضوئيةتشكل أشعة الشمس حزمة مستمرة، فمجال الأشعة الذي تكتشفه العضويات بأعينها – الضوء المرئي – هو المجال نفسه تقريباً الذي تستخدمه النباتات والطول الموجي الأقصر (الضوء الأزرق) فيه طاقة أكثر من الطول الموجي الأطول (الضوء الأحمر) ويمتص الخضاب الضوء المرئي بينما تمتص أنواع أخرى من الخضاب أطوالاً موجية مختلفة ويمتص الكلوروفيل أو اليخضور – الخضاب الرئيس في عملية التركيب الضوئي – أولاً الضوء في المناطق الحمراء والزرقاء من الطيف المرئي ولا يحبذ اليخضور امتصاص الضوء الأخضر بل يعكسه وتظهر النباتات خضراء

عادة لأن أوراقها تعكس معظم الضوء الأخضر الذي ينصب عليها (5) تبدأ عملية التركيب الضوئي بامتصاص الخضاب لأشعة الشمس مما يجعل النبات يبدو أخضر اللون كيف يبدأ اليخضور هذه العملية ؟ لكي نجيب على هذا السؤال من المفيد أولاً أن ندرس تركيب الثايلاكويد الذي يوجد داخل حبيبات اليخضور ويحتوي على اليخضور هناك نوعان من اليخضور (أ) و (ب) وتبدأ التفاعلات الضوئية للتركيب الضوئي عندما يمتص "اليخضور أ" والخضاب أو الصبغيات المساعدة له الضوء وكما نرى في الصورة التي توضح البنية التفصيلية للثايلاكويد ، جزيئات اليخضور والخضاب المساعد ومستقبلات الإلكترون منظمة بوحدات تدعى المنظومة الضوئية وهناك نوعان منها المنظومة الضوئية 1 والمنظومة الضوئية 2 وتنقل طاقة الضوء إلى جزيء "يخضور أ" الذي يدعى مركز التفاعل وتعطي الطاقة التي تم الحصول عليها من امتصاص أشعة الشمس زيادة للالكترونات السالبة

فاقدة الطاقة في مركز التفاعل وتستخدم هذه الإلكترونات الغنية بالطاقة في مراحل تالية للحصول على الأكسجين من الماء في هذه المرحلة هناك تدفق في الإلكترونات وتُستبدل

الإلكترونات المفقودة من "المنظومة الضوئية"1 بإلكترونات من "المنظومة الضوئية"2 أما الإلكترونات المفقودة من "المنظومة الضوئية"2 فتستبدل بإلكترونات منزوعة من الماء، ونتيجة لذلك ينفصل الأكسجين عن الماء وكذلك البروتونات والإلكترونات في نهاية تدفق الإلكترون يتم نقل الإلكترونات مع البروتونات من الماء إلى داخل 'الثايلاكويد وتتحد مع جزيء حامل الهيدروجين NADP+ (نيكوتيناميد أدينين ثنائي نّوويد الفوسفات) وينتج جزيء NADPHمن هذا ينشأ بروتون عبر غشاء الثايلاكويد أثناء تدفق الإلكترونات من حامل إلى حامل مع نظام نقل الإلكترونات، وتُستخدم الطاقة الكامنة لتشكيل الأدينوسين ثلاثي الفوسفات ATP(تستخدمه الخلية في عملياتها الخاصة التي تحتاج إلى طاقة)، وهكذا تصبح الطاقة التي يحتاجها النبات ليصنع غذاءه جاهزة للاستخدام في نهاية هذه العمليات هذه الأحداث– التي حاولنا أن نلخصها كسلسلة تفاعل– هي الجزء الأول من عملية التركيب الضوئي ومما لا شك فيه أن الطاقة ضرورية للنباتات لإنتاج غذائها، وليتم الحصول عليها – يجب أن تكتمل العمليات الأخرى– بفضل تصميم خاص (عملية خاصة لإنتاج الوقود (التفاعلات اللاضوئية تعرف هذه العمليات – المرحلة الثانية من التركيب الضوئي–ا بالتفاعلات اللاضوئية أو دورة كالفين، وتحدث في مناطق حبيبات اليخضور المعروفة بـ"النسيج الضام" وتُستخدم ATP المشحونة بالطاقة وجزيئات NADPH الناتجة من التفاعلات الضوئية لإنقاص ثاني أكسيد

الكربون إلى كربون عضوي، ويستخدم الناتج النهائي للتفاعلات اللاضوئية كمادة أولية لمركبات عضوية أخرى تحتاجها الخلية احتاج

(285/607)

إن مادة اليخضور في النباتات تقبع داخل مايسمى بالحزوز الموجودة في البلاستيدات . والشكل التخطيطي أعلاه يوضح تركيب الحز الواحد . ويجب ألا ننسى بأن هذا الحز ما هو إلا جزء من البلاستيدة التي يبلغ حجمها واحدا من الألف بالمليمتر . ومن المستحيل أن يظهر هذا التركيب الخارق للحز بتأثير الصدفة البحتة . فالورقة النباتية مثلها مثل أي شيء في الوجود مخلوقة بقدرة الله عز وجل .

(286/607)

العلماء لمئات السنين لكي يفهموا الخطوط الرئيسية في سلسلة التفاعل التي لخصناها هنا يُنتج النبات الكربون العضوي –الذي لا يمكن أن يُنتج بأية طريقة أخرى– منذ ملايين السنين ويعد الكربون مصدر الطاقة لجميع أنظمة الكائنات الحية تعمل الأنزيمات وتراكيب أخرى

ذات خواص مختلفة أثناء تفاعلات التركيب الضوئي بتعاون كامل ولا يستطيع أي مخبر في العالم –مهما بلغ تطور تجهيزاته– أن يعمل بالطاقة التي تعمل بها النباتات؛ فهذه العمليات تجري داخل عضو بالغ الصغر يبلغ حجمه واحدا بالألف من الميليميتر وتطبق الصيغ المتنوعة منذ ملايين السنين بدون خطأ في جميع أنواع النباتات، ولا أخطاء في ترتيب التفاعلات ولا خلط بين كميات المواد الأساسية المستخدمة في التركيب الضوئي هناك جانب آخر في عملية التركيب الضوئي، حيث تقود العمليات المعقدة المذكورة سابقا النباتات في نهاية التركيب الضوئي لإنتاج الغلوكوز والأكسجين الأساسيين للكائنات الحية وتُستخدم هذه المنتجات التي تصنعها النباتات كطعام من قبل البشر والحيوانات وبواسطة هذا الطعام تخزن الطاقة في خلاياها وتستخدمها وتستفيد جميع الكائنات الحية بفضل هذا النظام من طاقة الشمس يتم التعرف على خواص الطاقة التي ستُستخدم في عملية التركيب الضوئي أثناء العمليات الجارية في المعمل الكيميائي، وعندما يُنظر إلى هذه العملية من وجهة النظر هذه نُدرك ماهية تفاصيلها الدقيقة التي تمت بشكل مخطط له، لذا فإن خواص طاقة الضوء المستنبطة من الشمس يمكن أن تفي بحاجة الطاقة اللازمة لحبيبات اليخضور لإنتاج التفاعلات الكيميائية الصحيحة لكي نفهم هذا التوازن الدقيق يحسن بنا أن نتفحص أهمية ضوء الشمس في التركيب الضوئي هل تم تنظيم ضوء الشمس خصيصاً للتركيب الضوئي ؟ أو هل النباتات مرنة بشكل كافٍ لتستخدم أيّ ضوء يأتي في طريقها

وتبدأ التركيب الضوئي بمساعدته؟ تستطيع النباتات القيام بالتركيب الضوئي بفضل حساسية اليخضور

(287/607)

إزاء طاقة الضوء والنقطة المهمة هنا أن مواد اليخضور تستخدم ضوءا ذي طول موجي خاص وأشعة الشمس لها الطول الموجي الصحيح الذي يحتاجه اليخضور وبتعبير آخر هناك انسجام كلي بين ضوء الشمس واليخضور يقول جورج غرينشتاين الفلكي الأمريكي عن هذا الانسجام الدقيق في كتابه "الكون التكافلي": يُتم جزيء اليخضور عملية التركيب الضوئي وتبدأ آلية التركيب الضوئي بامتصاص الضوء من جزيء اليخضور وليحدث هذا يجب أن يكون الضوء ذا لون صحيح، فاللون الخاطئ لن يقوم بالمهمة المطلوبة ويمكن أن نشبه ذلك بجهاز التلفاز، فلكي يستطيع الجهاز استقبال قناة معينة يجب أن تكون الموجة على تلك القناة والشيء نفسه بالنسبة إلى التركيب الضوئي فالشمس تعمل كمرسل ويعمل جزيء اليخضور كمستقبل تماما مثل جهاز التلفاز وإذا لم يكن هناك تناغم بين اليخضور والشمس واللون فلن يحدث التركيب الضوئي؛ وهذا يثبت أن لون الشمس هو اللون الصحيح (6) بإيجاز يجب أن تكون كل الظروف في تلك اللحظة مناسبة لكي

يحدث التركيب الضوئي وسيكون من المفيد الآن أن نطرح سؤالا آخر يمكن أن يخطر ببالنا هل يمكن أن يكون قد حدث تغير عبر الزمن في ترتيب العملية أو المهام التي تقوم بها جزيئات اليخضور ؟ في إجابة على هذا السؤال يقول المدافعون عن نظرية التطور – الذين يدعون أن هناك توازنات حساسة في الطبيعة حدثت نتيجة المصادفة: "لو كانت هناك بيئة مختلفة، فإن النباتات تشرع في عملية التركيب الضوئي في تلك البيئة أيضاً لأن الكائنات الحية سوف تتكيف مع الوضع الجديد" بيد أن هذا المنطق خاطئ كلياً، لأنه لكي تقوم النباتات بالتركيب الضوئي يجب أن تكون في تناغم وانسجام في تلك اللحظة مع الضوء القادم من الشمس ويكشف الفلكي جورج غرينشتاين – أحد دعاة التطور – هذا المنطق الخاطئ بقوله: "قد يعتقد المرء في حدوث تكيف معين، أي تكيف حياة النبات مع خواص ضوء الشمس هل كان باستطاعة جزيء آخر أن يحل محل اليخضور إذا كانت

حرارة الشمس مختلفة ويتجه نحوها ليمتص ضوءا مختلف اللون ؟ إن الإجابة على هذا السؤال هي بالنفي، فكل الجزيئات تمتص الضوء ذي الألوان المتشابهة ويتم امتصاص الضوء بتنشيط الإلكترونات في الجزيئات للحصول على طاقة أعلى والمقياس العام المطلوب للقيام

بهذا الأمر هو نفسه مهما كان الجزيء، وعلاوة على ذلك يتألف الضوء من فوتونات وحزم من الطاقة، وإذا كانت الفوتونات ذات طاقة خاطئة فإنّ عملية الامتصاص تتعطل وفي الواقع هناك تناسب دقيق بين فيزيائية النجوم وفيزيائية الجزيئات، وعند اختلال هذا التناسب تكون الحياة مستحيلة" (7) لا يمكن أن يكون التركيب الضوئي مصادفة بالرغم من جميع هذه الحقائق الواضحة، يمكن أن نوجه مجموعة من الأسئلة مرة أخرى للذين يستمرون في دعم نظرية التطور، ويمكن أن نتأكد أن هذا النظام (التركيب الضوئي) لم يأتِ نتيجة المصادفة مَنْ وضع التخطيط لهذه الآلية التي لا تضاهي والتي وضعت في منطقة صغيرة مجهرية؟ هل بإمكاننا أن نتخيل أن خلايا النبات خططت لهذا النظام؟ وبتعبير آخر هل أن النبات هو الذي فكر في هذا النظام وخططه؟ إن الجواب هو بالتأكيد لا، لأنه من البديهي أن خلايا النبات لا تستطيع التفكير أو التخطيط وهي لم تخلق هذا النظام الدقيق الذي نراه، إذن في هذه الحالة هل هو نتاج عقل بشري فريد ومبدع؟ الجواب أيضا بالنفي، إذ لا يعقل أن يكون الإنسان هو الذي أنجز هذا المعمل الذي لا يصدق في مساحة لا تتجاوز واحداً بالألف من الميليميتر، فالإنسان في الواقع لا يستطيع حتى مشاهدة ما يحدث داخل هذا المعمل المجهري بالغ الصغر عندما نتأمل معا في ادعاءات التطوريين نعرف لماذا كانت الإجابة على الأسئلة بالنفي، وسوف تتوضّح أكثر الإجابة حول كيفية ظهور النباتات تدعي نظرية التطور أن جميع الكائنات الحية نشأت على مراحل، وأنه كان هناك

تطور من البسيط إلى المعقد ولنتفحص الأمر هل يمكن أن يكون هذا الزعم صحيحا بأن نرى هل بإمكاننا

(289/607)

أن نحدد عدد الأقسام الموجودة داخل عملية التركيب الضوئي ونفترض على سبيل المثال أن هناك 100 عنصر ضروري لحدوث عملية التركيب الضوئي (على الرغم من وجود أعداد أكبر بكثير في الواقع)، وإذا أكملنا افتراضنا لنتخيل أن من هذه المائة عنصر ظهر عنصران –كما يدعي التطوريون– بالمصادفة، ولنفترض أنهما توالدا ذاتياً، ففي هذه الحالة يجب أن تكون هناك فترة انتظار لملايين السنين لظهور بقية العناصر؛ وحتى لو تطورت هذه العناصر لتنضم إلى بعضها البعض فلن يكون هذا مفيداً في غياب بعضها الآخر ومن المستحيل أن نتوقع أن تشكل

(290/607)

باقي العناصر نظاماً لا يعمل في غياب أحد عناصره؛ ولهذا السبب فإن ادعاء التطوريين أن نظاماً معقداً مثل التركيب الضوئي ظهر بتطور تدريجي بالمصادفة من العناصر التي يتألف منها بعد أن اجتمعت مع بعضها البعض يتناقض مع العقل والمنطق، ولا يمت إلى العلم بصلة يمكننا أن نلاحظ عدم جدوى هذا الادعاء بأن نلقي نظرة أخرى على بعض مراحل التركيب الضوئي أوّلا –لكي يحدث التركيب الضوئي– يجب أن تكون جميع الأنزيمات والأنظمة موجودة في خلايا النبات في الوقت نفسه، كما يجب أن تُرتب المدة الزمنية لكل عملية وكمية الأنزيمات بشكل صحيح ودقيق في كل مرة لأن أصغر خطأ أو تشابك في التفاعلات التي تحدث (مدة العملية على سبيل المثال أو تغير صغير في كمية الضوء التي تدخل أو المواد الأساسية) تفسد المنتج الذي يظهر في نهاية التفاعل وتجعله عديم الفائدة لو نقص أحد العناصر التي وصفناها فإن النظام كله يصبح عديم الفعالية يبرز سؤال عند هذه النقطة هو كيف بقيت جميع هذه العناصر غير الفاعلة على قيد الحياة حتى أصبح النظام بكامله جاهزاً ؟ هناك حقيقة معروفة بأنه كلما نقص حجم تركيب ما تزداد نوعية هندسة أنظمته وذكائها وعندما تتناقص آلية في الحجم فهي تكشف قوة التكنولوجيا المستخدمة فيها تظهر ومقارنة الكاميرات أو آلات التصوير اليوم وتلك المصنوعة في السنوات الماضية هذه الحقيقة بشكل أوضح وتزيد هذه الحقيقة من أهمية التركيب الدقيق في الأوراق والسؤال كيف تقوم النباتات بعملية التركيب الضوئي في هذه المعامل

بالغة الصغر في حين لم يستطع الإنسان القيام بها في معامل

عملية التركيب الضوئي

(291/607)

عندما تسقط أشعة الشمس على الورقة النباتية تنفذ خلال الطبقات المتكونة للورقة، عندئذ تقوم تراكيب اليخضور الموجودة ضمن البلاستيدات الخضراء بتحويل الطاقة الموجودة في الأشعة الشمسية إلى طاقة كيمياوية . وبدوره يقوم النبات باستخدام هذه الطاقة لصنع الغذاء . إن هذه العبارات القليلة ما هي إلا خلاصة شديدة الإيجاز لما استطاع العلماء من سبر غور مايجري داخل النباتات عبر بحوث مضنية تكللت بالنجاح في خلال منتصف القرن العشرين . ولأجل فهم مايجري خلال عملية التركيب الضوئي ينبغي دراسة التفاعلات الكيميائية التي تملأ صفحات عديدة مكتوبة . ومع كل هذا الكشف العلمي فلايزال هناك المجهول مما يتعلق بهذه العملية . أما النباتات فلم تتوقف عن أداء هذه العملية منذ ملايين السنين موفرة بذلك للبيئة الأوكسجين والغذاء اللازمين .

(292/607)

الضخمة ؟ لا يستطيع دعاة التطور تقديم أية أجوبة معقولة لهذه الأسئلة وغيرها ؛ ويختلقون بدلاً من ذلك سيناريوهات خيالية متعددة، أما التكتيك المتبع في هذه السيناريوهات فهو إغراق الموضوع بتعابير وتفسيرات تقنية غامضة وديماغوجية يحاولون فيها إخفاء "حقيقة الخلق" البّينة في جميع الكائنات الحية باستخدام أعقد المصطلحات، وبدلاً من الإجابة على أسئلة مثل كيف ؟ ولماذا ؟ يضعون معلومات تفصيلية ويضيفون مفاهيم تقنية ثم يقولون في النهاية إنها نتيجة التطور ومع ذلك لا يستطيع حتى أكثر دعاة التطور تصلباً إخفاء دهشته أمام أنظمة النباتات الإعجازية يمكننا أن نستشهد بأحد أساتذة التطور في تركيا علي ديميرسوي كمثال حيث يشدد البروفيسور ديميرسوي على إعجازية عملية التركيب الضوئي ويدلي بالاعتراف التالي: "التركيب الضوئي في الواقع حدث معقد ، ويبدو من المستحيل حدوثه في جزء صغير من الخلية؛ لأنه من المستحيل أن تنشأ جميع المستويات دفعة واحدة ولا معنى لها إن ظهرت فرادى" (8) وُجدت آلية العمل الدقيقة في التركيب الضوئي في كل نبات على الأرض؛ وتحدث هذه العملية حتى في الأعشاب التي نراها عادية جداً وإذا أخذنا من نبات معين المواد ذاتها بنفس الكميات التي لها دور في التفاعل سوف يفرز المنتجات نفسها ، كما أن سرعة التفاعل وتعاقبه هي نفسها ؛ وينطبق هذا على جميع النباتات التي تقوم بالتركيب الضوئي بدون استثناء من غير المنطقي بالطبع أن ننسب

قدرات مثل الفكر وعملية اتخاذ القرار للنباتات، لكن أن نفسر هذا النظام الموجود في كل النباتات الخضراء والذي يعمل إلى درجة تصل إلى حد الكمال بقولنا "لقد تطور وفق سلسلة من المصادفات" يتجاوز كل منطق نواجه عند هذه النقطة حقيقة جلية هي أن التركيب الضوئي نظام معقد تم تصميمه بإدراك خارق بمعنى خلقه الله تعالى وقد وجدت هذه الآليات لحظة نشوء النباتات، ووجود هذا النظام الدقيق في مكان بالغ الصغر يبرهن لنا على

قوة المصمّم نتائج التركيب الضوئي نتائج التركيب الضوئي الذي يحدث في حبيبات اليخضور مهمة جداً لجميع الكائنات الحية في العالم إن الكائنات الحية هي سبب الازدياد المستمر في غاز ثاني أكسيد الكربون وارتفاع درجة الحرارة في الهواء ويدخل الغلاف الجوي نتيجة لتنفس البشر والحيوانات والعضويات المجهرية في التربة كل سنة 92 بليون طن من غاز ثاني أكسيد الكربون وحوالي 37 بليون طن أخرى خلال تنفس النباتات؛ هذا بالإضافة إلى كمية غاز ثاني أكسيد الكربون المطروحة في الجو من الوقود المستخدم في أنظمة التدفئة في المعامل والمنازل ووسائل النقل التي لا تقل عن 18 بليون طن وهذا يعني أنه

يتم طرح 147 بليون طن خلال دوران غاز ثاني أكسيد الكربون على الأرض، كما يُظهر أن مستويات ثاني أكسيد الكربون في العالم في ارتفاع مستمر إن التوازن البيئي يختل ما لم يعدل هذا الارتفاع وربما تنخفض، على سبيل المثال، كمية الأكسجين في الجو وربما ترتفع درجة الحرارة ونتيجة لذلك يبدأ ذوبان الجليد مما يؤدي إلى غمر بعض المناطق بالمياه وتتحوّل مناطق أخرى لتصبح صحاري مما يعرض الحياة على وجه الأرض للخطر؛ لكن شيئًا من هذا لا يحدث على الإطلاق لأن عملية التركيب الضوئي التي تقوم بها النباتات تُنتج الأكسجين باستمرار للحفاظ على التوازن لا تتغير حرارة الأرض باستمرار لأن النباتات تساعد في الحفاظ على التوازن وتمتص النباتات 129 بليون طن من ثاني أكسيد الكربون من الجو لأغراض التنظيف كل سنة وهذا رقم هائل جداً وقلنا إن

تعتبر النباتات من أهم العوامل المحافظة على التوازن البيئي . و نستطيع أن ندرك هذه الحقيقة عبر إجراء مقارنة بسيطة . فالحيوانات و الكائنات الحية الأخرى التي تعيش في عالمنا تستخدم الأوكسيجين و تطلق غاز ثاني أوكسيد الكاربون إلى الجو . و كذلك تطلق حرارة و بخار الماء . و تقوم المصانع أيضا لنفس كمية من الحرارة و ثاني أوكسيد الكاربون

نتيجة مختلف الأنشطة الصناعية . و في المقابل ذلك تقوم النباتات بإمتصاص الحرارة و غاز ثاني أوكسيد الكاربون من الجو . و هي تستخدم كليهما خلال عملية التركيب الضوئي مطلقة الأوكسيجين بإستمرار إلى الجو . أن مثل هذا التوازن الدقيق لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يفترض وجوده بالمصادفة . فأن مثل هذا الإفتراض يكون منافيا للعقل و المنطق السيلم .

(295/607)

كمية الكربون المطروحة في الجو تبلغ 147 بليون طن، فهناك عجز بمقدار 18 بليون طن في دورة غاز ثاني أكسيد الكربون/الأكسجين على الأرض تعد لها دورة مختلفة لغاز ثاني أكسيد الكربون/أكسجين في المحيطات (9) بفضل عملية التركيب الضوئي تمتص النباتات غاز ثاني أكسيد الكربون من الجو (تحوله إلى غذاء) وتطلق الأكسجين، وبهذا لا يفسد نظام التوازن الطبيعي ذي الأهمية الحيوية للحياة على الأرض أبداً لا يوجد أي مصدر طبيعي آخر يعوض نقص الأكسجين في الجو، ولهذا السبب لا يمكن الاستغناء عن النباتات للحفاظ على أنظمة جميع الكائنات الحية التركيب الضوئي وتغذية النباتات تعد منتجات التركيب الضوئي في غاية الأهمية للنباتات وللكائنات الحية الأخرى، حيث يحصل البشر

والحيوانات على الطاقة اللازمة للعيش باستهلاك الطعام الذي تنتجه النباتات إذا تخيلنا أنّ الأحداث التي ناقشناها لم تحدث في الأوراق بل في مكان آخر، فما هو نوع التجهيز الذي نتخيله؟ هل من الممكن أن يكون معملاً متعدد المهام مجهزاً بمعدات لتكوين الغذاء من ثاني أكسيد الكربون في الجو، بالإضافة إلى آلات لها القدرة على صنع الأكسجين وطرحه، ويحتوي على أنظمة تحافظ على توازن درجة الحرارة؟ لن يتخيل المرء بالتأكيد شيئاً بحجم راحة اليد وكما رأينا تمتلك الأوراق هذه الآليات المثالية التي تحافظ على درجة الحرارة، وتسمح بتبخر الماء وفي الوقت نفسه تنتج الطعام وتمنع فقدان الماء إنها أعجوبة في التصميم، تجري جميع هذه العمليات التي عددناها في ورقة واحدة (مهما كان حجمها) بل في خلية واحدة في ورقة واحدة وأكثر من ذلك في آن واحد تشير الحقائق السابقة إلى عمل النباتات وهي نِعم خُلقت بهدف خدمة الكائنات الحية صممت معظم هذه النعم للجنس البشري لننظر إلى بيئتنا وما نأكله لنلقي نظرة على الساق الجافة لكرمة العنب وعلى جذورها الرفيعة نحصل على 50 أو 60 كيلو غراماً من العنب من هذه الساق التي يمكن كسرها

بسهولة فقد صُمم لون ورائحة ومذاق العنب خصيصاً ليعجب الإنسان لنتأمل البطيخ الأحمر تنشأ هذه الفاكهة المليئة بالماء من أرض جافة عندما يكون الإنسان بأمس الحاجة لها في فصل الصيف لنتفحص رائحة البطيخ الرائعة ومذاقه اللذيذ من وجهة نظر خبير من لحظة نشوئه، ثم لنفكر بالعمليات التي تجري في معمل لتصنيع العطور، من صنع الرائحة إلى الاحتفاظ بها، ولنقارن نوعية منتج المعمل ورائحة البطيخ يقوم الناس عند صنع الروائح بإتباع قواعد تحكم جودة النوعية كل الوقت لكن لا حاجة لأي تحكم بالنوعية للحفاظ على روائح الفاكهة البطيخ الأحمر والأصفر والبرتقال والليمون والأناناس وجوز الهند لها نفس الرائحة الفريدة أينما وجدت في العالم بدون استثناء لا تشبه رائحة البطيخ الأصفر رائحة البطيخ الأحمر أبداً وكذلك لا تشبه رائحة اليوسفي تلك للفريز

عندما نتمعن مليا في اختلاف الفواكه و الخضر فيما بينها من ناحية المذاق و الطعم و الرائحة يتبادر إلى أذهاننا السؤال الآتي: لا يمكن أن يكون هناك إدراكا معينا لدى كل من البطيخ و العنب و المشمش و الباقلاء . . .الخ في اكتساب الرائحة و الطعم المميزين بالرغم من اشتراك جميع هذه الأصناف في الفواكه و الخضر في النمو بالتربة الواحدة و امتصاص الماء و المواد المعدنية نفسها . لا شك أن هناك التمايز المذهل لا يحدث إلا بالإلهام الرباني

على الرغم من أن جميعها تنشأ من نفس التربة لكن روائحها لا تمتزج أبداً، فهي تحتفظ بشذاها الأصلي دائماً لندرس الآن تركيب هذه الفاكهة بتفصيل أكثر تحتفظ الخلايا الإسفنجية للبطيخ الأحمر بكميات كبيرة من الماء ولهذا السبب يتألف قسم كبير من البطيخ الأحمر من الماء، لكن هذا الماء لا يكمن في مكان واحد فهو موزع بالتساو في جميع أجزاء البطيخة إذا أخذنا بعين الاعتبار قوة الجاذبية يجب أن يتركز معظم الماء في الجزء السفلي من الفاكهة بينما يكون الجزء العلوي جافاً ولبياً، في حين لا يحدث شيء من هذا في البطيخ الأحمر حيث يتوزع الماء بشكل متساوٍ داخله وينطبق ذات الشيء بالنسبة للسكر والمذاق والرائحة لا يوجد أي خطأ في وضع البذور بشكل صفوف كل بذرة تحمل شيفرة البطيخ الأحمر التي ستنقلها معها لأجيال أخرى بعد آلاف السنين كل بذرة مغطاة بطبقة خاصة لحمايتها أُعد هذا التصميم المثالي بهدف منع أي أذى للمعلومات الموجودة داخل البذرة الغلاف لا قاسٍ ولا ليّن بل فيه كمية كافية من القساوة والمرونة هناك طبقة ثانية تحت الغلاف الخارجي مباشرة ومناطق اجتماع الأقسام العلوية والسفلية واضح وهي مصممة خصيصاً لكي تتشبث بها البذور تُفتح البذرة بفضل هذا التصميم فقط عند الظروف المناسبة من الحرارة والرطوبة، وينبت القسم الأبيض المسطح في البذرة لاحقاً ليتحول إلى ورقة خضراء لنتأمل تركيب قشرة البطيخ الأحمر الخلايا هي التي تجعل هذه القشرة ناعمة

ومغطاة بطبقة شمعية تتخلى كل خلية من الخلايا عن نفس الكمية من المادة الشمعية في القشرة ليتشكل الغطاء الشمعي، بالإضافة إلى ذلك ما يجعل القشرة ناعمة ومدورة هو كمال تصميم خلايا البطيخ الأحمر لهذا السبب يجب أن تعرف كل خلية مكانها وإلا لن يكون هناك نعومة وشكل دائري خارجي للبطيخ الأحمر كما نرى هناك انسجام دقيق بين الخلايا التي تكّون البطيخ الأحمر يمكننا أن ندرس كل النباتات الموجودة في العالم بنفس

(298/607)

الطريقة سنصل إلى استنتاج أن النباتات صُممت من أجل البشر والكائنات الحية الأخرى جعل الله رب العالمين النباتات طعاماً لجميع الكائنات الحية وخلقها بمذاقات وروائح مختلفة يقول في كتابه العزيز: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) سورة النحل :13 .

(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) سورة ق:9-11 .

لماذا تكون النباتات باردة؟ لا تتدفأ نبتة وقطعة حجر في نفس المكان بنفس درجة الحرارة، بالرغم من أنهما تستقبلان نفس الكمية من الطاقة الشمسية سيتأثر كل مخلوق

حي بشكل سلبي إذا بقي لفترة طويلة معرضاً للشمس إذن ما الشيء الذي يجعل النباتات تتأثر بالحرارة في حدها الأدنى ؟ كيف تتدبر النباتات هذا ؟ لماذا لا يحدث شيء لها في الحرارة العالية حتى لو

يرى في الصورة كيفية قيام نبات الكاميللا بعملية النتح بسبب تأثير الوسط عالي الرطوبة ففي مثل هذه الأوساط عالية الرطوبة تقوم النباتات بطرح النيغ الموجود في اللحاء الورقي حفاظا على الحرارة الداخلية و التوازن المائي و نتيجة لذلك تفعل هذه النباتات فعل المرطب للجو .

(299/607)

احترقت أوراقها تحت ضوء الشمس خلال الصيف ؟ تأخذ النباتات الحرارة من الجو الخارجي بمعزل عن تدفئتها الداخلية وتحافظ على توازن درجات الحرارة في العالم، وعند قيامها بعملية الاحتباس الحراري هذه تتعرض هي نفسها لهذه الحرارة كيف يمكن للنباتات أن تستمر بأخذ الحرارة من الخارج بدلاً من أن تتأثر بالحرارة المتزايدة ؟ من الطبيعي أن تحتاج النباتات لماء أكثر من الكائنات الحية كونها تحت الشمس دائماً ، وتفقد النباتات الماء أيضاً بتعرق أوراقها كما لمسنا في أقسام سابقة لكي تمنع النباتات فقدان الماء هذا تكون

أسطح أوراقها التي تتوجه دوماً للشمس مغطاة بطبقة شمعية غير نفوذة للماء تعرف بالبشرة المتصلبة مإذا عن ما تحت سطح الأوراق ؟ لأن النباتات تفقد الماء منها أيضاً فالمسام التي تكون عادة في أسفل السطح عملها نشر الغازات حيث ينظم فتح وإغلاق المسام امتصاص النبات لغاز ثاني أكسيد الكربون وطرحه للأكسجين، لكن ليس بطريقة تؤدي لفقدان الماء بالإضافة إلى ذلك تبدد النباتات الحرارة بطرق مختلفة هناك آليتين هامتين لتبديد الحرارة في النباتات أولها إذا كانت حرارة الورقة أعلى من محيطها يدور الهواء من الورقة باتجاه الخارج تؤدي تغيرات الهواء الناشئة من توزيع الحرارة إلى ارتفاع الهواء الساخن تاركاً سطح الورقة الذي يهبط عليه الهواء البارد لأنه أكثر كثافة من الهواء الساخن؛ بهذه الطريقة تُخفض درجة الحرارة وتتبرد الورقة تستمر هذه العملية طالما كانت حرارة الورقة على السطح أعلى من الخارج لا يتغير هذا الوضع أبداً في البيئات الجافة جداً مثل الصحراء أما الآلية الثانية التي تقوم بها النباتات لتبديد الحرارة فهي التعرق حيث تتعرق الأوراق بطرح بخار الماء الذي يساعد على تبريد النبات صممت أنظمة التعرق هذه لتناسب الظروف التي يعيش فيها النبات يمتلك كل نبات الأنظمة التي يحتاجها هل من الممكن أن يأتي نظام التعرق الفائق التعقيد بالصدفة ؟ لكي نجيب

على هذا السؤال لننظر إلى نباتات الصحراء تكون أنسجة نباتات الصحراء غالباً كثيفة جداً ولبية، وقد صممت لتحافظ على الماء لا أن تبخره لأنه في الصحراء ليس بالإمكان تعويض الماء المفقود على الرغم من أن النباتات يمكنها أن تبدد الحرارة بكلا الطريقتين إلا أنها هنا تستخدم طريقة واحدة فقط هي الوحيدة التي تبقيها على قيد الحياة يتناسب تصميم نباتات الصحراء مع الظروف الصحراوية من المستحيل أن نفسر هذا على أنه مصادفة لو لم تمتلك النباتات أنظمة التبريد هذه لكان بقاءها بضع ساعات تحت الشمس مميتاً لها يمكن لضوء الشمس عند الظهيرة في دقيقة واحدة أن يرفع درجة حرارة سنتيمتر واحد من الورقة حتى 37 درجة مئوية تبدأ خلايا النبات في فقدان الحياة عندما ترتفع درجة الحرارة إلى 50-60 درجة مئوية، وبكلام آخر ثلاث دقائق من ضوء الشمس المباشر عند الظهيرة كافية لموت النبات (10) لكن النباتات محمية من درجات الحرارة القاتلة بواسطة الآليتين المذكورتين أعلاه إن التبخر الذي يستعمله النبات في تبديد الحرارة هام جداً لجهة تنظيم مستوى الماء في الجو؛ حيث يمكّن النباتات من إطلاق مستويات عالية من البخار في الجو بانتظام يمكن وصف هذا النشاط بأنه نوع من الهندسة المائية تطلق أشجار في منطقة مساحتها ألف متر مربع من الغابة 7^5 طن من الماء في الجو (11) تشبه الأشجار المضخات المائية الضخمة التي تمرر الماء من التربة إلى جذوعها ثم ترسله إلى الجو

هذا العمل مهم جداً، إذا لم تمتلك الأشجار هذه الميزة فإن دورة الماء على الأرض لن تحدث كما هي اليوم، مما يعني دمار التوازنات في العالم يمكن للنباتات أن تمرر أطناناً من الماء عبر أجسامها برغم أن سوقها مغطاة بمادة خشبية جافة، فهي تأخذ الماء من التربة وبعد استعماله في أجزاء متنوعة من المعامل الفائقة التقنية في أجسامها تُرجعه مرة ثانية إلى الطبيعة ماء نقياً؛ وأثناء عملها هذا تفصل قسم من الماء الممتص بهدف

استخدام الهيدروجين في عملية إنتاج الغذاء (12) يحدث ما وصفناه على أنه تعرق الأوراق أو الرطوبة الموجودة حيث تعيش الأشجار نتيجة النشاطات الأساسية لبقاء الحياة على سطح كوكب الأرض ما نراه في عمليات النباتات هو نظام متقن يمكن أن يتوقف لو أُخذ جزء منه بعيداً ليس هناك شك أن الله الرؤوف الرحيم هو الذي صمم هذا النظام الدقيق ووضعه في النباتات (هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهوَ العَزِيزُ الحَكِيم) سورة الحشر: 24

الورقة أصغر أداة تنظيفاً

تقتصر الخدمات التي تقوم بها النباتات للكائنات الحية الأخرى على طرح الأكسجين والماء؛ حيث تقوم الأوراق بنفس الوقت بأعمال تنظيف وتنقية متطورة للغاية تعمل أدوات التنظيف التي نستعملها عادة في حياتنا اليومية نتيجة دراسات طويلة من قبل خبراء وبعد بذل الكثير من الجهد والمال؛ وتحتاج هذه الأدوات إلى صيانة تقنية دائمة خلال وبعد الاستعمال، بالإضافة إلى إمكانية ظهور بعض عيوب في الإنتاج التي تنشأ بشكل يومي ووجود الكادر الضروري والحاجة لمعدات أخرى وتجديدها عند الضرورة يعني هذا كله الكثير من العمليات كما رأينا هناك المئات من التفاصيل لأخذها بعين الاعتبار حتى في أصغر قطعة من معدات التنظيف في حين أن النباتات تعمل نفس عمل هذه الأدوات مقابل ضوء الشمس والماء فقط، وتقوم بنفس خدمة التنظيف هذه بفعالية أكبر، كما أن لا مشكلة لديها من ناحية زيادة الفضلات، لأن الفضلات التي تنتجها بعد تنظيف الهواء هي الأكسجين الذي تحتاجه كل الكائنات الحية! تملك أوراق الأشجار مصافي صغيرة تلتقط الملوثات الموجودة في الهواء هناك الآلاف من الشعيرات والمسام الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة على سطح الورقة، حيث تلتقط كل سمة من المسام ملوثات الجو وترسلها إلى أجزاء أخرى من النبات لتمتصها هذه التراكيب على أسطح الأوراق رقيقة جداً بسمك شريط فيلم التصوير، لكن عندما نفكر أن هناك ملايين الأوراق في العالم يصبح من الواضح أن كمية

الملوثات المحصورة في الأوراق لا يستهان بها ، على سبيل المثال: تلتقط شجرة زان عمرها مائة عام وفيها حوالي نصف مليون ورقة كمية من الملوثات أعلى مما يخمّن المرء تلتقط مساحة ألف متر مربع من أشجار الدُّلب 3 .

(303/607)

---

5 طن من الملوثات أما من أشجار الصنوبر 2,5طن من الملوثات تسقط هذه المواد على الأرض عند أول هطول للمطر إن الهواء في غابة تبعد 2 كم عن منطقة مأهولة هو أنظف بسبعين في المائة من الهواء الموجود فيها ؛حتى في فصل الشتاء عندما تفقد الأشجار أوراقها تستطيع تصفية ستين بالمائة من الغبار في الهواء يمكن للأشجار أن تحبس الغبار الذي يزن من 5–10 أضعاف وزن أوراقها :إن معدل البكتيريا أو الجراثيم في منطقة مشجرة أقل بكثير من المنطقة الخاوية من الأشجار (13)هذه أرقام مهمة جداً يمكن وصف كل شيء يحدث في الأوراق على أنه معجزة فردية:هذه الأنظمة في الأوراق الخضراء ، في التخطيط الرائع للمعمل المجهري البالغ الصغر هي أدلة على خلق الله رب العالمين وأتت ليومنا هذا من مئات الآلاف من السنين بنفس الحالة التامة بدون أي تغيرات أو عيوب تساقط الأوراق: أمر نلاحظه جميعاً ضوء الشمس مهم جداً للنباتات وخاصة

للأوراق حيث يُنتج الغذاء يصبح الهواء مع اقتراب فصل الشتاء أبرد والنهار أقصر والضوء الذي يصل من الشمس للأرض أقل يسبب هذا النقص تغيرات في النباتات وتبدأ شيخوخة الأوراق أو سقوطها قبل أن تفقد الأشجار أوراقها تبدأ بامتصاص كل المواد الغذائية في الأوراق وهدفها من ذلك هو منع المواد مثل البوتاسيوم والفوسفات والنترات من الزوال بعد تساقط الأوراق تتوجه هذه المواد من خلال أنابيب تمر عبر طبقات اللحاء ومركز جذع الشجرة يسهل جمع هذه المواد في الزيليم أو الجزء الخشبي من الشجرة من عملية هضمها تُسقط الأشجار أوراقها لأن الماء في التربة يتجمد في الطقس البارد ويصعب امتصاصه، لكن التعرق في الأوراق يستمر بالرغم من الجو البارد عندما تستمر ورقة في التعرق في وقت تشح فيه المياه تصبح عبئاً على النبات، وعلى أية حال ستتجمد الخلايا في الورقة وتتكسر في أيام الشتاء الباردة لهذا السبب تقوم الشجرة بمبادرة مبكرة وتحرر نفسها من الأوراق قبل حلول الشتاء وبهذه

(304/607)

الطريقة لن يضيع مخزونها من الماء (14) يبدو سقوط الورقة كأنه عملية فيزيائية بحتة لكنه في الواقع نتيجة لتسلسل الأحداث الكيميائية يوجد في خلايا راحة الورقة خضاباً يدعى

فيتوكروم وهو حساس للضوء ويعطي اللون للنباتات يسمح للشجرة إدراك أن الليالي تطول وبالتالي يقل الضوء الذي يصل للأوراق عندما يتحسس الفيتوكروم هذا التغير يسبب تغيرات متنوعة ضمن الورقة ويبدأ برنامج شيخوخة الورقة إحدى علائم شيخوخة الورقة أن الخلايا في راحتها تبدأ بإنتاج غاز الأيثلين ويقوم هذا الغاز بتدمير اليخضور الذي يعطي اللون الأخضر للورقة بكلام آخر تسحب الشجرة اليخضور من الأوراق يمنع غاز الايثلين انتاج هرمون الأكسين –الذي يساعد على النمو ويؤخر سقوط الأوراق– فتبدأ الورقة بفقدانها لليخضور والأكسين بتلقي طاقة أقل من الشمس وإنتاج كمية أقل من السكر، يظهر علاوة على ذلك الكاروتينويد أو الصبغ الجزراني الذي كان مقموعاً حتى الآن ليعطي الورقة لونها الغني وتبدأ الورقة بتغيير اللون (48(ينتشر الايثلين بعد فترة وجيزة في كل أجزاء الورقة وعندما يصل إلى سويقة الورقة تنتفخ خلايا صغيرة هناك وتعطي زيادة في الشدة بالسويقة يزداد عدد الخلايا الموجودة في ذلك القسم من السويقة التي تنضم إلى جذع الشجرة، وتبدأ بإنتاج أنزيمات خاصة تمزق أنزيمات السلولوز في أول الأمر الأغشية المكونة من السلولوز ثم تمزق أنزيمات البكتيناز طبقة البكتين التي تربط الخلايا ببعضها البعض لا تستطيع الورقة أن تتحمل شدة التوتر وتبدأ بالانفصال عن الساق يمكن وصف هذه العمليات التي ذكرناها على أنها توقف إنتاج الغذاء وبدء انفصال الورقة عن الساق تحدث تغيرات متلاحقة حول الانفصال المتزايد وتبدأ الخلايا بإنتاج مادة السوبرين التي تستقر فوق

جدار السلولوز وتقويه تترك الخلايا وراءها فجوة كبيرة بدل الطبقة الإسفنجية وتموت (15)يُظهر ما تم وصفه حتى الآن أنه من الضروري حتى تسقط ورقة واحدة من

سلسلة من الأحداث المترابطة تحدد الفيتوكرومات أن هناك نقصاً في الضوء، وتسارع كل الأنزيمات الضرورية لسقوط الأوراق إلى العمل في الوقت المناسب، ثم تبدأ الخلايا بإنتاج السوبرين في مكان انفصال سويقة الورقة، من الواضح ما يتطلب انفصال الورقة من روعة ودقة سلسلة من الأحداث المتصلة لا يمكن "للصدفة" أن تكون تفسيراً لهذه السلسلة من العمليات المخططة التي تتبع بعضها بانتظام ودقة تعمل خطة سقوط الورقة بأسلوب متقن ودقيق لا تتلقى الورقة قبل أن تنفصل كلياً عن الجذع أي كمية من الماء من الأنابيب الناقلة لهذا السبب يضعف تشبث الورقة بمكانها تدريجياً، وتكفي أن تهب ريح خفيفة لكي تنقصف سويقة الورقة توجد في الورقة الميتة التي تسقط على التربة مواد غذائية يمكن للفطور والبكتيريا أن تستفيد منها تتعرض هذه المواد بواسطة عضويات مجهرية لتغيرات تجعلها تختلط مع التربة، ويمكن للأشجار أن تأخذ هذه المواد مرة ثانية كغذاء من التربة بواسطة جذورها .

المصدر : موقع الداعي التركي هارون يحيى :

http://www.harunyahya.com

الهوامش :

1. John King, Reaching for The Sun, 1997, Cambridge University Press, Cambridge, p.18

2. John King, Reaching for The Sun, 1997, Cambridge University Press, Cambridge, p.24

3. http://www.sidwell.edu/us/science/vlb5/Labs/Classification_Lab/Eukarya/Plantae/Filicophyta

4. http://www.sidwell.edu/us/science/vlb5/Labs/Class/ification_Lab/Eukarya/Plantae/Filicophyta

5. Eldra Pearl Solomn, Linda R. Berg, Diana W. Martin, Claude Villee, Biology, Saunders College Publishing, p. 191

6. George Greenstein, The Symbiotic Universe, p.96

7. George Greenstein, The Symbiotic Universe, p. 96-7

8. Prof. Dr. Ali Demirsoy, Kalitim ve Evrim (Inheritance and Evolution), Ankara, Meteksan Yayinlari, p.80

---

9. Bilim ve Teknik Dergisi (Science and Technology Journal), September 1991, p.38

10. Bilim ve Teknik Dergisi (Science and Technology Journal), September 1991, p.38

11. Bilim ve Teknik Dergisi (Science and Technology Journal), May 1985, p.9

12. Bilim ve Teknik Dergisi (Science and Technology Journal), September 1991, p.39

13. Bilim ve Teknik Dergisi (Science and Technology Journal), August 1998, p.92

14. Lathiere, S. & Science Vie Junior, November 1997

15. Lathiere, S. & Science Vie Junior, November 1997

16. Malcolm Wilkins, Plantwatching, New York, Facts on File Publications, 1988, p.171

0-ظاهرة الشفق آية من آيات الخالق

لقد استطاع العلماء تفسير ظاهرة الشفق التي ظلت مجهولة قروناً طويلة. فعندما تسقط أشعة الشمس على الغلاف الجوي للأرض فإنها تخترق بلورات الثلج الصغيرة الموجودة في هذا الغلاف وكأنه موشور زجاجي يتحلل الضوء من خلاله إلى ألوان الطيف الضوئي السبعة.

الصورة التي أمامنا هي منظر رائع يستمر عادة لمدة ساعة ويمتد لعدة كيلو مترات في السماء. وتعتبر هذه الظاهرة فريدة من نوعها على الأرض.

أما ظاهرة الشفق القطبي فهي تحدث نتيجة عمليات معقدة. فالشمس تقذف ملايين الأطنان في الانفجارات الشمسية، وعندما يصل الحقل المغنطيسي القوي الناتج عن هذه

الانفجارات إلى غلاف الأرض الجوي فإنه يتفاعل مع الحقل المغنطيسي للأرض ويتبدد عند منطقة القطبين، ويحدث نتيجة ذلك الشفق القطبي، وهي من روائع الظواهر الكونية وآية تشهد على عظمة وإبداع الخالق تبارك وتعالى .

صورة التقطت عند القطب الشمالي ونلاحظ فيها الألوان الزاهية لهذا الشفق، فسبحان مبدع هذه المخلوقات !

(307/607)

لقد اكتشف العلماء أن الشمس تطلق ريحاً عاصفة تصل إلى حدود الأرض ولكن الله برحمته لم يسمح لهذه الريح أن تقترب منا ولذلك فقد حفظ أرضنا بغلاف مغنطيسي محكم يحيط بالأرض من جميع جوانبها ، وتنطلق خطوطه من القطبين وتعود إلى القطبين . إن مهمة هذا الحقل المغنطيسي هي تلقف هذه الريح الشمسية الملتهبة وتبديدها والتفاعل معها وحرقها ، مما يؤدي إلى توهج الجزء الخارجي من الغلاف الجوي لنرى هذه الصورة الرائعة .

صورة نرى عليها الأرض وكيف تنطلق من القطبين خطوط المجال المغنطيسي الذي هو بحق درع محكم يحفظ الأرض، وهذا الغلاف هو جزء من السماء الدنيا وهو ما أشار إليه القرآن بقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) [الأنبياء: 32].

صورة رائعة لظاهرة الشفق القطبي، ونرى فيها الألوان الزاهية وبخاصة اللون الأخضر الذي يميز هذه الظاهرة عن غيرها .

يقول سبحانه وتعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)[الانشقاق: 16-25] .

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

1- Aurora, www.en.wikipedia.org

2- Aurora , National Geographic

0-نحلة أسرع من سوبر كمبيوتر

(308/607)

لقد وجد العلماء أن النحلة تستخدم الأشعة الفوق بنفسجية للرؤية، وهذه الأشعة تتميز بأن موجاتها قصيرة، لذلك تستطيع النحلة الرؤيا بشكل أسرع بكثير من الإنسان . لأنه يجب عليها التمييز بسرعة أثناء طيرانها من أجل البحث عن غذائها بين الزهور . والنحلة عندما تشاهد فيلم فيديو، فإنها لا ترى إلا صوراً ثابتة، لأن سرعة الرؤية لديها أكبر من الإنسان، ولذلك فإن الصور المتتالية والتي لا تميزها أعيننا فنراها وكأنها تتحرك، فإن النحلة تميز هذه الصور صورة صورة .

سرعة المعالجة عن النحلة

يقول العلماء إن النحلة تستطيع القيام بمليون مليون عملية حسابية في الثانية الواحدة، وهذا يعدّ أسرع من أي جهاز كمبيوتر في العالم[Byte Magazine, October, 1992]!!

صورة بالألوان الحقيقية لعين النحلة وتظهر باللون الأحمر، وتظهر عليها أكثر من 30 ألف عدسة ضوئية فائقة ! ! مما يجعل النحلة ترى أفضل منا بكثير، ويحاول العلماء اليوم صنع كاميرا بعدسات تشبه عين النحلة، ولكنهم يقفون عاجزين أمام روعة التصميم الإلهي المحكم لهذه العين . المصدر www.photos-of-the-year.com

تتألف عين النحلة من آلاف العدسات الصغيرة، وهي عبارة عن عدسات لها شكل سداسي، وقد وجد العلماء أن هذا التصميم يساعد النحلة على الرؤيا عبر الغابات ولتتحاشى الاصطدامات أثناء طيرانها وبخاصة عندما تطير وسط حشد من النحل . ويعجب العلماء الماديون كيف استطاعت النحلة تطوير عملية الرؤيا عندها ، مع العلم أن دماغها يحوي آلاف الملايين من الخلايا ، وأن حجم هذا الدماغ لا يزيد على حجم رأس الدبوس .

تأمل معي أخي القارئ هذا الرأس لنحلة لا يتجاوز حجم دماغها رأس الإبرة، وعلى الرغم من ذلك يحوي آلاف الملايين من الخلايا ، تعمل جميعها بسرعة مذهلة تعجز أضخم أجهزة الكمبيوتر في العالم عن تقليدها ، فسبحان الله ! المصدر www.photos-of-the-year.com

ويقول البروفيسور لي أحد مصممي العين الاصطناعية التي حاول من خلالها تقليد عين النحلة: إنني "كم أود أن أفهم كيف تستطيع الطبيعة تكوين طبقة فوق طبقة من البنى الكاملة المنظمة بدون الحاجة إلى تقنية دقيقة ذات تكاليف باهظة"

[www.bbc.co.uk] .

إن الجواب نجده في قول الحق تبارك وتعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [الأنعام: 101-103] .

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

0-الأممية عند الحيوانات بعض الأمثلة

بقلم الأستاذ محمد محمد معافى علي

الأممية لدى الحيوان

أخبرنا الله عز وجل في الآية التي نحن بصددها أن عالم الدواب والطيور أمم شتى وأنواع متعددة وأصناف مختلفة وأجناس وألوان عدة وهذا ما تضمنه قوله عز وجل (أمم) وهذا ما يؤكده علم الحيوان اليوم، فالباحثون يؤكدون أن عالم الحيوان أشبه بالمدن الهائلة والشعوب المتعددة الأعراف والأعراق واللغات والعادات والأجناس التي لا حصر لها ويعجز العقل عن تصور أعدادها الهائلة والضخمة وأنسب وصف لهذه الكائنات ذوات الأعداد الهائلة هو مصطلح " الأمم "كما وصفها القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ونضرب لهذه الأعداد الضخمة والهائلة بعض الأمثلة :

تعد الطيور الجاثمة أكثر من 5000 نوع وكل نوع من هذه الطيور هو أيضاً أنواع عدة فمثلا طيور الفران الأمريكية الإستوائية حوالي 221نوعاً صغيرة الحجم نوعاً ما وذوات عادات متنوعة جداً .

(310/607)

وهناك 223نوعاً من الطيور النملية والدج النملي والبيتا النملية مرتبطة ارتباط وثيقا بطيور الفران الأمريكية الجنوبية والوسطى .

وأما طيور كوتنجا المزركشة فتضم تقريبا 90 نوعا تقريبا من الطيور المزركشة والمبهرجة جدا .

كما تعد طيور الجنة ـ سميت بذلك لأن لديها ريشاً فاتنا جداً حتى اعتقدوا أنه لابد آت من الجنة فتبلغ أنواعه 42 تقريبا .[1]

وأما طيور النمانم ـ وهي طيور صغيرة عاملة ـ فتضم أكثر من 60 نوعاً إلا أنها طيور مدهشة جداً لما تصدره من أصوات البقبقة المرتفعة إلى درجة لا تصدق وتنتشر بكثرة في أمريكا[2] .

كما تبلغ أنواع صياد الذباب أكثر من 1200 نوع .[3]

وتضم مثلا آكلات الحشرات أكثر من 370 نوعا .[4]

وهناك أكثر من 300 نوع من الطيور المخوضة والنوارس وطيور الأوك .

وتضم طيور زمّار الرمل أكثر من 60 نوعاً .

وتبلغ أنواع طيور النورس أكثر من 90 نوعاً .

أما أنواع الحمام واليمام فهنالك حوالي 290 نوعا منها موزعة في أرجاء العالم . ويبلغ أنواع الببغاوات أكثر من 500 نوع .

وتبلغ أنواع البوم أكثر من 123 نوعا .

وتبلغ أنواع طيور الضوع والسبد تشتمل على نحو 90 نوعا .

وتبلغ طيور الرفراف حوالي 87 نوعا تتواجد في أنحاء العالم .

كما يبلغ طير نقّار الخشب أكثر من 200 نوعا في جميع أنحاء العالم .[5]

"وفي عالم القرود تبلغ مثلا قرود العالم القديم أكثر من 60 نوعا ومن عجائبها أن لها 32 سنا كالإنسان .

وبالنظر إلى الزواحف نجدها أعدادا هائلة جداً وأنواعا لا حصر لها كذلك فمثلا الحيات العمياء تبلغ أنواعها 15 . نوعا وهي تعيش وتحيا تحت الأرض وهذا من حكم الله تعالى إذ علم أنها لا تحتاج إلى العينين لأنها تعيش تحت الأرض فلا حاجة لها إلى العينين .

كما تشتمل مجموعة السلحفيات على السلاحف والحمسات. وهي سلحفة المياه العذبة. فتضم حوالي 100 نوع وتبلغ أنواع السحالي العملاقة أكثر من 700 نوع في مناطق العالم الجديد .

(311/607)

وتبلغ أنواع الحرباء حوالي 85 نوعا كما تبلغ السحالي السامة حوالي 3000 نوعا من السحالي ونوعان فقط منها يفرزان السم وهي السحالي المخرزة والهيلية .

والأفاعي أيضا أنواع شتى منها السام ومنها غير السام متعددة الأشكال والألوان خذ نوعا

منها فقط وهي أفاعي الكوبرا والممبا حيث تبلغ أكثر من 200 نوع تقريبا .

كما تشتمل الحيات الخبيثة على حوالي 100 نوع.

وتقول بعض المصادر العلمية أن عدد أنواع الثعابين الحالية أكثر من 2700 نوع ثلثها فقط سام" [6]

وأما الخنافس فتضم أكثر من 300 ألف نوع .[7]

"وأما الثدييات عموما فتضم أكثر من 4200 نوع .

وتبلغ الخفافيش حوالي 900 نوع أو أكثر .

وتضم فصيلة الكنغر والولبات حوالي 55 نوعا متفاوتا في الحجم .

كما تضم مجموعة السنوريات حوالي 36 نوعا تعيش تقريبا في كافة أنحاء العالم عدا أستراليا والقطب الجنوبي ويبلغ نوع سنور الزباد والرّباح والنمس حوالي 8 . نوعا " .[8]

وبالجملة يعتقد العلماء بإمكانية وجود أكثر من عشرة ملايين نوع أو جنس من الحيوانات في العالم ولكن قد نكون هناك أنواع أكثر بكثير بانتظار اكتشافها .[9]

يقول الأستاذ/السيد سلامة السقا [10] "أكثر من مليون نوع من الحيوان استطاع الإنسان أن يتعرف عليها ولا يعرف أعداد كل نوع إلا الله سبحانه وتعالى 6000نوع من الزواحف و800000 نوع من المفصليات منها حوالي 700000 نوع من الحشرات وأكثر من 100000 نوع من الرخويات وأكثر من 9000 نوع من الطيور وآلاف وآلاف لا يعلمها

إلا الله تسكن في الأرض وتنتشر في جنباتها وتغوص في أعماقها ومائها ويحملها هواءها ...الخ"

ألا تدلنا هذه الأرقام على أممية الحيوانات كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

عبودية الكائنات لله سبحانه وتعالى:

(312/607)

الكائنات كلها من إنسان أو حيوان أو نبات تعبد ربها وخالقها وتوحده فطرت وجبلت على هذا وصار جزءً من تكوينها ومن خلقتها لا ينكر ذلك إلا جاحد أو جاهل وقد تواترت الأدلة على هذا من الكتاب والسنة والوقائع والشواهد .

فمن الكتاب الكريم قال تعالى :(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)[11] .

وقال تعالى:(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[12]

وقال تعالى :(وَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿ 48 ﴾ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)[13] .

قال ابن عباس في رواية عطاء قوله تعالى:(إلا أمم أمثالكم) يريد يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني مثل قوله تعالى:(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ)[14] .

نعم وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الحيوانات لديها بعض السلوكيات الغريبة التي لا تفسير لها إلا أنها عبودية لله سبحانه وتعالى فهي نفس ما يفعله المؤمن ويصنعه تعبدا لله وتقربا إليه سبحانه وتعالى من صيام ودعاء وتوجه إليه سبحانه .

(313/607)

يقول الأستاذ مختار سالم في كتابه الطب الإسلامي بين العقيدة والإبداع "إكتشف علماء الطبيعة أن الإنسان ليس هو الكائن الحي الذي يصوم وإنما جميع المخلوقات الحية في الكون تمر بفترة صوم اختياري مهما توفر لها الغذاء في الطبيعة حولها فالحيوانات تصوم فهناك من الحيوانات ما يسكن في حجرة أياما وربما شهورا متوالية يمتنع فيها عن الحركة والأكل، والطيور أيضا تصوم فمن الطيور ما يكمن في عشه ويمتنع عن الطعام في مواسم معينة كل

عام، والأسماك أيضاً تصوم فبعض الأسماك يدفن نفسه في قاع المحيط أو قاع النهر لفترة معينة بدون أكل والحشرات كذلك تصوم فمن المعروف أن الحشرة تمر بمرحلة تتحوصل فيها ويمتنع الطعام، وحتى النبات أيضا يصوم، لقد لاحظ العلماء أن هذه المخلوقات تخرج بعد فترة الصيام هذه أكثر نشاطاً وحيوية وان أكثرها يزداد نموا وصحة بعد الصوم فالحيوانات منها ما يجدد جلده وقواه والطائر يكتسي ريشا جديداً زاهيا ويبدأ في التزاوج والحشرة تخرج بعد صيامها لتأكل بنهم شديد وتتكاثر بسرعة والنبات ينمو ويترعرع ويصبح أكثر نضجاً بعد فترة صيامه"[15]

المبحث الثاني:

الجوانب العلمية التي اكتشفها العلم الحديث في التماثل بين الإنسان وسائر الكائنات الحية على وجه الأرض (الجوانب السلوكية والأخلاقية)

ويشتمل على ستة مطالب وهي :

البيت الزوجي لدى الحيوانات .

الجنس لدى الحيوانات .

من أعاجيب الحيوانات في حياتها الجنسية

أثر الرائحة العطرة في ثوران الغريزة الجنسية لدى الحيوانات .

تنظيم العملية الجنسية لدى الحيوانات .

لغيرة لدى بعض الحيوانات "البط "

البيت الزوجي لدى الحيوانات :

(314/607)

ليس الإنسان وحده الذي يعيش في بيت يسكنه كما قال تعالى(وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا)[16]بل كذلك الحيوانات والطيور وغيرها من الكائنات المختلفة والمخلوقات وقد أكد هذه الحقيقة عالم الحيوان ب . ألتوم حيث يرفض الفكرة القائلة بأن الطائر يستطيع الذهاب حيث يشاء . "ولقد ثبت أن الطيور تتقاسم المسكن فيما بينها وأن لكل منها حماه الخاص الواضح المعالم والحدود والذي يقوم بحراسته والدفاع عنه ومنع أبناء جنسه من اختراقه أو الدخول إليه . إن امتلاك الحمى أمر شائع ومعروف لدى جميع الأنواع الحيوانية وفي كل مراحل تطورها فما هي الأمور التي يوفرها امتلاك الحمى ؟ .

يحتل كل عنصر من عناصر الحيوانات مساحة كافية توفر له ما يحتاجه للبقاء والتناسل ولهذا السبب نلاحظ أن مساحة الحمى مرتبطة إلى حد كبير بحجم الحيوان ونوعية غذائه

.

وغالبا ما يشكل الحمى المكان الذي يلتقي فيه الذكر بالأنثى وهذا ما نلاحظه بشكل

خاص لدى الطيور المهاجرة مثل اللقلق لدى عودتها إلى المناطق الاستوائية تبادر إلى البحث عن عشها القديم إنها أكثر إخلاصا للمكان منها إلى شريكها منزل واضح المعالم يؤمن للزوجين مكانا حميما يلتقيان فيه أثناء وقت السفاد وخلال عملية تربية الصغار [17]"

أقول هذا الحمى الذي نجده من أساسيات الحياة الحيوانية كما رأينا فهو كذلك يعتبر للإنسان فمن المحال أن تجد إنسانا بلا حمى وإلى هذا أشار تعالى بقوله سبحانه :(وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)[18]

الجنس لدى الحيوانات:

من سنن الله تعالى في المخلوقات والكائنات سنة التكاثر والتزاوج قال تعالى (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[19] .

(315/607)

و الكائنات جميعا فطرت على سلوك محدد في هذا المجال ولندع الكتب العلمية تتحدث عن هذا الخلق لدى الحيوانات .

جاء في موسوعة التعايش واللغة والجنس لدى الحيوان ما نصه :[20]

"إذا حكمنا على الحياة الجنسية عند الحيوان بمفاهيمنا الأخلاقية فإننا نعتبر بعض الحيوانات أزواجا مثاليين ونعتبر بعضها الآخر إما زير نساء وتبع نساء أو مومسات كما لا تغيب عنا عند بعضها الآخر صورة الباشاوات الذين كانوا يعيشون داخل قصر يعج بالحريم وهناك أيضا العزاب الأبديون والمطلقات والأرامل ومع ذلك فما من سبب يدعوا للبهجة أو للغضب أو للشكوى فالسلوك الجنسي واحد من أبرز الخصائص التي تميز كل نوع أنه يكشف عن التنظيم الإجتماعي للنوع ومدى تكيفه مع متطلبات البيئة التي يعيش فيها يسافد الحيوان حيوانا واحدا فقط عند الأنواع الأحادية الزواج ويتولى الوالدان مهمة العناية بذريتهما . هذا حال غالبية الطيور إذا بقي الزوجان على إخلاصهما طوال الحياة، يمكن الكلام على زواج أحادي دائم لا يفترق الزوجان إلا إذا أخل أحدهما في القيام بواجباته لكنهما يحافظان على علاقتهما حتى خارج موسم بناء العش . "أه

من أعاجيب الحيوانات الجنسية :(أثر الرائحة العطرة في ثوران الغريزة الجنسية لدى الحيوانات)

من الأعاجيب التي وجدها الباحثون في علم الحيوان أن الذكر يعاف الأنثى المتبرجة التي تستخدم ألواناً غير ألوانها الطبيعية حيث " يرفض الذكر التسافد مع أنثى متبرجة رغم

إلحاحها وتوسلاتها وتنتهي العلاقة بين الإثنين خلال أسبوع أو أسبوعين . لا يقبل الذكر نزو الأنثى إلا إذا كانت ألوانها طبيعية وصحيحة "[21]

(316/607)

بل وجد أن الحيوانات (الذكور منها على وجه الخصوص) أيضا تتأثر بالروائح العطرة وتهيج بمجرد شم رائحة عطرة من أنثى ومن هذه الكائنات الحشرات وبالذات الفراشات " ففي نهايه آب 1978م عقدت ندوة للتداول في احدث الطرق والوسائل لمقاومة الحشرات التي تضر بالزراعة حيث قدم الدكتور / فاكلاف سكيهار في آخر النتائج التي توصل إليها في دراسته لموضوع وسائل الإغواء الجنسي لدى "الليمانتريياديه" بين إستعمال الشفافات (جمع شفافة وهي صورة أو رسم على زجاج أو فيلم يجلي للعين بنور مشع من خلفه) كيف وقع مئات الذكور في الشرك باستخدام مثيرات اصطناعية عرض معلومات دقيقة تتعلق بظهور هذه الطفيليات الخطيرة بالنسبة للزراعة بطريقة توزعها ، بهجرتها وقد حصل على هذه المعلومات بسبب حساسيات ذكورها التي تفوق كل تصور إزاء رائحة الأنثى المهيجة، وصف هذا الباحث كيف أجرى تجاربه التي أجراها في الغابات التشيكية قبل بضعة أسابيع من إنعقاد الندوة وكذلك ذكر النتائج التي توصل إليها .

فجأة أخذت فراشتان تحومان حول المؤتمرين دون توقف وبشكل أزعج الحاضرين، عرف الخبراء في القاعة أنهما ذكرين من الفصيلة المعروفة باسم " بوريتتريا دبسيار " ظن الحضور بادئ ذي بدئ أن أحد أفراد البعثة التشيكوسلوفاكية أطلقهما في الوقت المناسب يتجهان نحو " فاكلاف " الذي كان يحمل دون شك قرصا من المادة المهيجة للذكور إذ أن آثاراً من المادة المهيجة لا ترى بالعين المجردة إستمرت فوق يديه رغم غسلهما المتكرر يوميا ، هذه الآثار الباقية لتلك الرائحة كانت كافية لخداع الفراشتين الذكور التي كانت في حديقة مجاورة شمت رائحة المحاضر المعطر فاتجهت نحو مصدر الرائحة كشفت هذه الواقعة عن المفعول المدهش لهذا الإفراز الهرموني الجنسي أو الفيرومون الجنسي الذي حدد هويته الإنسان كما قام بتركيبه .

(317/607)

عرف علماء الحشرات منذ زمن طويل قدرة إناث الفراش العذروات على الجذب والإغواء كما توصل هواة جمع الفراش إلى الحصول على نماذج نادرة من الفراش الليلي عن طريق استخدام الإناث المأسورة وهكذا كانوا يفوزون بالحصول على أنواع لم تكن معروفة قبلا في الناحية .

أول فيرومون تفرزه الحشرات تم التوصل إلى عزله وتحديد هويته كيميائيا عام 1959م إنه الفيرومون الذي تفرزه قزية التوت " بومبيكس موري" استغرق الحصول على 12 ملغ من هذه المادة البالغة النقاء 20 سنة من العمل الشاق المتواصل لفريق من علماء الكيمياء الحياتية العاملين بإشراف الأستاذ / أدولف بيتيناند يتفرز هذا الفيرومون الجنسي المعروف باسم " بومبيكول " الغدد الشمية للأنثى ويعرف علماء الحشرات أن بضعة مليغرامات منه كافية لجذب نصف مليون ذكر . [22]

وليس هذا شأن الفراشات فقط بل حتى لدى القرش والأسماك إذ يثير الذكر ويجذبه للميول للأنثى الشم يقول ألفا الوارديني [23] " إننا نملك الكثير من الدلائل والبراهين أن الإشارات الكيميائية حاضرة ماثلة في العلاقات الغرامية لهذه الحيوانات تعتمد ذكور بعض أنواع السمك الأعمى من مثل " الآنوبتيشتيس جورداني "المكسيكي وحوت الجن الأعمى "تيفلوغوبيوس كاليفورنينز" على حاسة الشم في بحثها عن الأنثى .

خلال تجربة أجريت على نوع آخر من أنواع حوت الجن " باتيفوبيوس سوبراتور "لوحظ إمكان بدء ذكر معزول بالغزل إذا ما أضفنا إلى حوضه ماء حوض كانت تقيم فيه أنثى ممتلئة تتغير حاله بعد عشر ثوان " أهـ

قلت إنه الطبع والغريزة التي فطر الله عليها الكائنات جميعا فالأنثى التي تريد إغواء الذكور وفتنتهم وجذب أحاسيسهم وأنظارهم ومشاعرهم إليها ما عليها إلا أن تنشر رائحة عطرة في أنوف الذكور فتهيج الشهوات وتسعر النفوس وهذا ليس فقط في عالم الإنسان بل كما رأينا حتى في عالم الحيوانات والحشرات ولهذا ورد النهي النبوي والتحذير من خروج النساء متعطرات لما يسبب ذلك من ثوران الشهوات وولعة القلوب بتلك المارّة وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي موسى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: "كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس، فهي كذا وكذا، يعني زانية" . في الباب عن أبي هريرة،وقال هذا حديث حسن صحيح .

ومن العجب أن يجادل العلمانيون في هذه الحقيقة المسلّم بها حتى في عالم الحشرات فتقوم قائمة أحدهم لم الإسلام حرّم على المرأة أن تتعطر أو تتزين إذا هي خرجت من بيتها وماذا سيحدث لو أن امرأة فعلت ذلك، وكيف أجاز الإسلام للرجل أن يتعطر ولم يجز ذلك للأنثى ؟ وهم بذلك يريدون مصادمة الفطرة البشرية بل حتى السنن الكونية التي بني عليها الوجود، وهم بهذا يعلنون إرادتهم الفساد والإفساد في الأرض وكما قال تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ 19 ﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .[24]

تنظيم العملية الجنسية لدى الحيوانات:

ليس فقط الإنسان وحده الذي ينظم العملية الجنسية بل كذلك حتى الحيوانات لها نظامها الخاص حيث أثبتت الدراسات ما يلي:

(319/607)

" يتسافد الفراش عادة في ساعة محددة من اليوم إنها ساعة خاصة بكل نوع لا تطلق الأنثى نداءاتها إلا في ذلك الوقت كما أن الذكر لا يحفل بتلك النداءات بتلك النداءات إلا في تلك الساعة ، بعضها يتسافد مع إطلالة النهار بعضها الآخر يؤثر أول الليل بعضها الآخر يتقاسم سائر ساعات الليل .

قام أحد الباحثين طوال أسبوعين بالنهوض كل ليلة في الثالثة صباحا للتأكد من دقة مواعيد ذكرين عاشقين من نوعين من أنواع الفراش يأتيان للقاء أنثيين في قفص كانت الدقة في الحضور تفتقر أحيانا إلى حوالي خمس دقائق فقط "[25]

يقول ابن القيم وهو يتكلم عن الجماع الضار ويبين أن أفضل أوقات الساعات المتأخرة من ما نصه " ونوع ضار بكميته كالإكثار منه فإنه يسقط القوة ويضر بالعصب ويحدث الرعشة والفالج والتشنج ويضعف البصر وسائر القوى ويطفىء الحرارة الغريزية ويوسع المجارى

ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية وأنفع أوقاته ما كان بعد انهضام الغذاء في المعدة وفى زمان معتدل لا على جوع فإنه يضعف الحار الغريزي ولا على شبع فإنه يوجب أمراضا سددية ولا على تعب ولا إثر حمام ولا استفاغ ولا انفعال نفساني كالغم والهم والحزن وشدة الفرح وأجود أوقاته بعد هزيع من الليل إذا صادف انهضام الطعام ثم يغتسل أو يتوضأ"[26]

أقرأ المزيد

الأمية في الحيوانات – أمم أمثالكم

الأمية عند الحيوانات – بعض الأمثلة

الأمية عند الحيوانات – من أخلاقيات الحيوان

الأمية عند الحيوان – لإنسان يتعلم من الحيوان

الأمية عند الحيوانات – الرحمة والعطف

24موسوعة الحيوان "الطيور "الجزء الخامس ص5 ..54 بتصرف [2]المرجع السابق ص57 [3]المصدر السابق 58 [4]موسوعة الحيوان الجزء السادس [5]موسوعة الحيوان "الطيور"ص28.. 51[6] موسوعة الحيوان "البرمائيات والزواحف الجزء الرابع ص3.6 . بتصرف . [7]موسوعة الحيوان نمط حياة الحيوانات السلوك والتكاثر والتمويه صـ37 . [8]موسوعة الحيوان الثدييات الجزء السادس صـ36.2 [9]أنظر موسوعة الحواس الخمس لدى الحيوان "حاسة التذوق" [10]في كتابه أسرار الموت والحياة والروح والجسد صـ36 [11]الحج الآية 18 [12]الإسراء آية 44 [13]النحل 48 [14] شفاء العليل لإبن القيم ص77 [15]الطب الإسلامي بين العقيدة والإبداع صـ28 . [16]النحل 8 [17]أنظر موسوعة التعايش واللغة والجنس لدى الحيوان ص7 . 12بتصرف [18]النحل 8 . [19]الآية 49من سورة الذاريات [20]صـ 48 [21]موسوعة التعايش اللغة والجنس لدى الحيوان ص61 [22]المرجع السابق من ص1.3.1.8 [23]في كتابه " موسوعة التعايش واللغة و الجنس لدى الحيوانات ص 118 [24]النور الآية 19 [25]موسوعة التعايش واللغة والجنس لدى الحيوانات ص 1.7 [26]الطب النبوي لإبن القيم ص 2.5

0-الأمية عند الحيوانات من أخلاقيات الحيوان

بقلم الأستاذ محمد محمد معافى علي

الغيرة لدى بعض الحيوانات "البط "

ليست الغيرة من خصائص الأنثى " المرأة " في عالم البشر فقط بل هي كذلك في المخلوقات والكائنات كلها ونضرب مثالا لهذه الغيرة في عالم الحيوان " البط "كمثال

صورة لزوج من البط

(321/607)

" إذا شاهدت بطة بطة أخرى داخل الحمى الزوجي فإنها تشجع صاحبها على مهاجمتها بحركات من الرأس وصرخات نشزة تطلقها ، ينقض الذكر على الفور على البطة الدخيلة خافض الجناحين مادا عنقه إلى الأمام يعود بعد ذلك نحو صاحبته لكن بما أنه لا يزال مثارا فإنها هي الأخرى ليست بمنأى عن خطر تعرضها لهجومه ومع ذلك فإنه يستطيع التوقف في اللحظة المناسبة يرفع رأسه علامة الهدوء ويطلق الزوجان صرخة مدوية أطلق على هذا السلوك " احتفال النصر " "[1]

ومن هنا نفهم أن الغيرة لدى المرأة من ضرتها طبيعة بشرية نفسية لا يمكن تجاهلها أو

إلغاؤها وإلى هذا أشار بقوله e" غارت أمكم " [2]

من أخلاقيات الحيوان ويشتمل على ستة مباحث وهي :

الوفاء والأمانة الزوجية لدى الحيوان

يقول الأستاذ /ألفانا الوارديني[3] " اختار الباحثون ترغل الغابات (ستربيتوبيليا يتريتر) حقلا لتجاربهم أجروا عملية تسافد بين عدد من هذه الطيور ثم فرقوا بين الذكور والإناث وذلك طوال ثمانية أشهر بعدها بدأت التجارب الحاسمة الهدف هو التأكد من قدرة الأزواج على التعارف من جديد وأن شعورهما المتبادل لا يزال قائما ، قسمت الطيور إلى مجموعات صغيرة وضع ثلاثة ذكور وثلاث إناث في مطيرة في غابة قريبة وضعت في المجموعة الأنثى التي سبق للذكر أن سافدها تابع علماء الطيور باهتمام ما يسافد الذكر مع من يتعاون لبناء عشه وحضن بيضه جاءت النتائج غير قابلة للنقاش، بعد عزلة طويلة في محيط مجهول تعرف كل ترغل إلى صاحبته التي سبق له أن سافدها في المختبر . [4]"

ومن قصص الكلاب في الوفاء قصة الكلب Bede الذي سافر مسافة قدرها 300ميل من كون وول إلى إيسكس بحثا عن صاحبه "[5]

ولعل الحصان العربي الأصيل هو مضرب الأمثال في الوفاء لصاحبه ومن عجائب قصصه ما يلي " جاء علي باشا اللالا إلى الجزيرة العربية بتكليف من عباس باشا الأول خديوي مصري ليشتري له أحسن الخيول العربية من مهدها الأول وكان من خبراء الخيل ومن العارفين بعادات البدو وتقاليدهم ولهجاتهم فاشترى عددا كبيرا من عتاق الخيل وحملها إلى مصر لاستيلادها وإكثارها وتحسين نسل الخيول المصرية بها وكان من جملة ما اشترى فرسا كان صاحبها غائبا عن أهله لأداء فريضة الحج فباعها شيخ القبيلة نيابة عنه، فلما عاد وسأل عن فرسه أخبروه بالخبر ودفعوا إليه الثمن فأبى البيع وحمل المال قاصدا إلى مصر لاسترجاع فرسه وكان قد مضى على بيعها أكثر من ثمانية أشهر فاحتج لدى عباس باشا وطلب إعادة فرسه إليه قائلا إنني لم أبعها ولم أوافق على بيعها فقال عباس باشا نحن لا نعرف فرسك لأننا اشترينا خيولا متعددة لا تحصى فهل أنت تعرف فرسك فقال إن لم تعرفني فرسي فلا فرس لي عندكم وأسامحك بها ولا أريد ثمنها فسر عباس من جوابه وأمر بإخراج الخيل إلى الساحة حيث كانوا يطلقونها فيها لترويضها فخرجت الخيل نافرة بطرة وأخذت تجري بسرعة وتلعب وتصهل وتحمحم حتى إذا سكنت وهدأت وقف البدوي على مكان مرتفع ورفع صوته يناديها باسمها ويدعوها إليه فرفعت الفرس رأسها وحركت أذنيها لتميز الصوت حتى إذا كرر النداء صهلت وأسرعت وأخذت تشمه وتمرغ وجهها على يده فقبلها وبكى من فرح اللقاء بها وحسن وفائها له ، فتأثر عباس وصحبه أشد

التأثر وأعاد إليه فرسه ولم يأخذ ثمنها" [6]أهـ

هذا في عالم الحيوان وأما في عالم الإنسان فتحدثنا كتب التاريخ عن وفاء كثير من الإناث لأزواجهن فيرفضن الزواج بعد وفاتهم من أمثال :

أم هانئ بنت أبي طالب، ونائلة بنت الفرافصة الكلبية امرأة عثمان بن عفان، ـ والرباب بنت امرئ القيس بن عدي بن جابر بن كعب بن عليم، وأم الدرداء امرأة أبي الدرداء، وامرأة هدبة بن خشرم العذري .

وغيرهن كثير جدا، ونجدهن كذلك اليوم كثيرا، إنها الفطرة والرحمة والوفاء الذي غرسه الله عز وجل فيمن شاء من الناس والدواب ولوجود المودة والرحمة التي بين الزوجين . قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[7] .

التعاون والمحبة في عالم الحيوان "النحل"

التعاون والمحبة في عالم الحيوان :

لا يمكن للحياة أن تسير بدون تعاون ومحبة بين الكائنات ولذا تجد التعاون في أكمل صوره وأزهى حلله وأتم أحواله بين المخلوقات والكائنات تدع اللسان يلهج دوما فسبحان الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى كما تسبح سائر المخلوقات وتلهج بذكر الله عز وجل ونضرب لهذا التعاون بين الكائنات بمثال واحد من بين ما لا يعد ولا يحصى من الأمثلة بالتعاون في عالم النحل، يقول الدكتور / يوسف عز الدين[8] " لو اكتشف أحد عمال النحل حقلا أو كمية من النباتات تعتبر مصدرا للغذاء فإنه يعود للمستعمرة ليخبر باقي العمال عن هذا الكنز الذي اكتشفه وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لماذا تفعل هذا إنها ترقص رقصات عجيبة ذات مدلولات معينة إذ أن جسمها يصنع في أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس وإذا كان الحقل قريبا من المستعمرة فإن الرقصة في هذه الحالة تختلف عنها في حالة بعد الحقل مسافة أطول ومن هذه الرقصات يفهم النحل أن حقلا من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها يقع على بعد معين والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل إلا أن باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله فيطير باقي الأفراد ويصلون إلى ذلك الحقل مباشرة لإحضار مزيد من الغذاء "

النحل مثال جلي للتعاون بين الحيوان

هداية الحمام وعجائب صنع الله فيه وأوجه التماثل بينه وبين الإنسان:

(325/607)

تلمس العناية والهداية الإلهية في كل المخلوقات والكائنات ليس فقط في عالم الإنسان بل في كل شيء من خلق الله تعالى كما قال تعال:]قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [[9] ومن هداية الله تعالى هدايته سبحانه وتعالى للحمام، ولعل أحسن من تكلم عن هذه الهداية الإمام ابن القيم عليه رحمة الله تعالى في كتابه شفاء العليل [10]حيث يقول "

والحمام يشاكل الناس في أكثر طباعه ومذاهبه فإن من إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها وفيه أخرى لا ترد يد لامس وأخرى لا تنال إلا بعد الطلب الحثيث وأخرى تركب من أول وهلة وأول طلب وأخرى لها ذكر معروف بها وهي تمكن ذكرا آخر منها وإذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها وأخرى تمكن من يغنيها عن زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره وأخرى تمعط الذكر وتدعوه إلى نفسها وأنثى تركب أنثى وتساحقهما وذكر يركب ذكراً ويعسفه وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام وفيها من لا تبيض

وإن باضت أفسدت البيضة كالمرأة التي لا تريد الولد كيلا يشغلها عن شأنها وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر أي ذكر كان أسرعت هاربة ولا تواتي غير زوجها البتة بمنزلة المرأة الحرة ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها ثم ينتقل عنها إلى غيرها وكذلك الأنثى توافق ذكرا آخر عن زوجها وتنتقل عنه وإن كانوا جميعا في برج واحد ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر فتعايرهم كلهم حتى إذا غلب واحد منهم لرفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب وفي الحديث أن النبي eرأى حمامة تتبع حمامة فقال " شيطان يتبع شيطانة "ومنها ما يزق[11] فراخه خاصة ومنها ما فيه شفقة ورحمة بالغة يزق فراخه وغيرها ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس لئلا يعرض لها من يصيدها ولا يرد مياههم بل يرد المياه التي لا يردها الناس "أهـ

(326/607)

ويواصل ابن القيم حديثه القيم عن الحمام وبدائع صنع الله فيه وعجيب هدايته إلى ما هداه إليه في حديث طويل ممتع يدل على أن التفكر في خلق الله منهج أخذ به أهل العلم أنفسهم تحقيقا لأمر الله لعباده في التفكر والنظر فيقول " وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية حتى قال الشافعي أعقل الطير الحمام ويبرد الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب ربما

زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها وتنهى الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيما فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت التسافد وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها والإناث عن ذكورها ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها ويتعرفون صحة طرقها ومحلها لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكرا من عرض الحمام فتعتريها الهجنة والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماما ساقطا لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها ويقولون هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه وهو أشد متنا وأقوى بدنا وأحسن اهتداء وطائفة منهم يختار لذلك الإناث ويقولون الذكر إذا سافر وبعد عهده حن إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها فيترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها وهدايته على قدر التعليم والتوطين والحمام موصوف باليمن والألف للناس ويحب الناس ويحبونه ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه

ويعود إليه من مسافات بعيدة وربما صد فترك وطنه عشر حجج وهو ثابت على الوفاء [12]"

(327/607)

الأنثى للبيت والتربية والذكر للعمل والكسب

ومن عجائب صنع الله في الحمام وخلقه وإبداعه فيه أن حدد للذكر وظائفه وللأنثى وظائفها فلا يتجاوز ولا يتعدى وظيفته ، فللأنثى البيت والرضاعة والحضانة وللذكر القوت وجلب الرزق .

وإلى هذا أشار ابن القيم أيضا فقال " ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى وجلب القوت والرزق على الذكر فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم والأم هي التي تحبل وتلد وترضع . . . فمن قسم بينهما الحضانة والكد فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى وأكثر ساعات جلب القوت على الأب "[13]

الأنثى تقوم برعاية الصغار والذكر يقوم بالبحث عن الطعام

نعم إنها طبيعة المخلوقات كلها جبلت على هذا ، الأنثى تلد وتحضن وترعى الأولاد والذكر هو الذي يسترزق ويكد لأجل عياله، وعجبا !

(328/607)

ما بال العلمانيين لا يكادون يفقهون حديثا ما بالهم يصادمون سنن الكون، ما بالهم يصادمون حقائق بديهية حتى في عالم الحيوان فضلا عن عالم الإنسان ما بالهم يصرون على إخراج المرأة من عشها ومملكتها ، وهم بذلك إنما يخرجونها من فطرتها وطهارتها إلى أهوائهم وشهواتهم يلعبون بها كالدمية بين أيدي الأطفال ما بالهم يضيعون أطفالها وصغارها ويدعونهم بلا أم وبلا تربية ولا رعاية، ألا جلت حكمة الله تعالى وتقدست أسماؤه القائل (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . .) ومن عجيب السياق القرآني أن قرن القرار في البيوت بالتبرج، لأن المرأة إن هي خرجت من بيتها خرجت من فطرتها وانسلخت واضطرت إلى التبرج والسفور لترضي بذلك أعين الجماهير الذين يرمقونها بأعينهم الخبيثة الملوثة . وأضحت المرأة دمية من الدمى لما عليها من المساحيق والألوان وملابس العري الفاضحة وكأنها كائن آخر ، فهل تعود الإنسانية إلى

سنن الكون التي خلقها الله تعالى وفق إرادته ومشيئته سبحانه فتتوافق مع سننه في الكون والخلق، أم أن الإنسانية تتجه صوب الهلاك والدمار بمعارضتها سنن الحياة والأحياء التي وضعها الخالق جل وعلا الذي يعلم السر وأخفى القائل]وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[

الهداية الإلهية للحيوان في البحث عن معاشه وحرصه عليه

(329/607)

يقول ابن القيم في سياق حديثه عن النمل والنحل " وهذا النمل من أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب شيء فإن النملة تخرج من بيتها تطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق فإذا ظفرت به حملته وساقته في طريق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيه أقواتها في وقت الإمكان فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها فتفلقه فلقتين لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنين فلقته أربعا فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوما ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها "[14]

وذكر أيضا ابن القيم وهو يواصل منهجه في التأمل والتفكر في مخلوقات الله تعالى فيقول " والنمل من أحرص الحيوانات ويضرب بحرصه المثل ويذكر أن سليمان لما رأى حرص النملة

وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة ؟

فقالت ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعدما قالت ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد فيه حبة ونصف حبة فقال أين زعمك ، أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات فقالت نعم ولكن لما رأيتك مشغولا بمصالح بني جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاءً لنفسي فعجب سليمان من شدة حرصها وهذا من أعجب الهداية والعطية .

ومن حرصها أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء علما منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها "[15]

أقرأ المزيد

الأمية في الحيوانات – أمم أمثالكم

الأمية عند الحيوانات – بعض الأمثلة

الأمية عند الحيوانات – من أخلاقيات الحيوان

الأمية عند الحيوان – لإنسان يتعلم من الحيوان

الأمية عند الحيوانات – الرحمة والعطف

]

(330/607)

1]المرجع السابق ص 133 [2]رواه مسلم وغيره [3]في كتابه موسوعة التعايش ص 134 [4]المرجع السابق ص 136 [5]عجائب الحاسة السادسةص 62 [6]أننظر الجواد العربي للمؤلف علي البرازي ص149 [7]الروم 21 [8]في كتابه " النحلة تسبح الله "نقلا عن كتاب العقيدة في الله ص 126للأستاذ د/ عمر سليمان الأشقر [9]طه الآية5 . [1 .]شفاء العليل ص72 [11]قال في لسان الميزان الز مصدر زق الطائر الفرخ يزقه زقا وزقزقه غره وزقه أطعمه [12]شفاء العليل ص 71 [13]شفاء العليل ص 76.73 [14]شفاء العليل ج1صـ68 [15]المرجع السابق

0–الأمية عند الحيوانات الرحمة والعطف

بقلم الأستاذ محمد محمد معافى علي

الرحمة والعطف في عالم الحيوان:

فطر الله الكائنات على خلق الرحمة والرأفة والشفقة والحنان حتى تلك الحيوانات الشرسة التي تنقض على فرائسها فتلتهمها في غضون ثوان معدودات، لكنها أيضا مع شراستها هذه فهي لا تخلو من الرحمة والرأفة التي جبلها ربها وخالقها عليها كما هو في عالم الثعابين مثلا حيث لا تأكل صغارها وكالأسود الضواري والوحوش الكواسر، تجد أنها تسقط كل ضراوتها وقوتها أمام عاطفة الأمومة والأبوة ونضرب مثالا لهذه الكائنات التي جبلت على خلق الرحمة رغم ما وهبها الله تعالى من قدرة وضراوة وهي التماسيح :

(331/607)

"اعتاد الناس على الاعتقاد بأن التماسيح تأكل صغارها لأنهم شاهدوها وأفواهها مليئة بصغار التماسيح، والحقيقة أن التماسيح تمارس الأبوة برعاية كاملة فالأنثى تضع بيضا في عش على شكل هضبة صغيرة في أطراف المياه ويتكون عش البيض من الطين والنباتات ويصل ارتفاعه إلى حوالي متر واحد ، ترقد الأنثى فوق قمة ذلك العش وتحرس بيضها إلى أن يفقس ويستغرق ذلك زهاء شهرين كاملين، ثم يبدأ صغار التماسيح في الصراخ والحركة داخل العش فتقوم الأم بفتح العش والسماح لهم بالخروج ثم تلتقطهم الأم بفمها وتأخذهم إلى داخل الماء، وهذا هو السبب الذي يجعل الناس يعتقدون أن التماسيح تلتهم صغارها ،

يبقى الصغار تحت رعاية الأم إلى أن يصل سنهم حوالي عام كامل تحرسهم أمهم خلاله بعناية إلى أن يكبروا " [1]

وهذه الصورة مطردة في كل الكائنات الحية فمن ذا الذي خلق وركب فيها هذه العاطفة، ترى ماذا لو لم تكن هذه العاطفة ركبت في أعماق المخلوقات كيف ستكون الحياة على هذه البسيطة ؟ . فسبحان الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سلمان في قوله ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ قال: إنا نجده في التوراة عطيفتين، إن الله خلق السموات والأرض ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتباذلون، وبها يتزاورون، وبها تحن الناقة، وبها تنتج البقرة، وبها تيعر الشاة، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع .

وأخرج أحمد ومسلم عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسع وتسعون إلى يوم القيامة" .

وفي الحديث أيضا "إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام وفبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة" أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان .

الخداع والمكر لدى الحيوانات:

ليس الخداع والمكر مذموم كله، بل في بعض الأحوال يتعين للنجاة من ظالم أو معتد جبار وهذا ما تفعله الحيوانات التي في بعض الأحوال تلجأ إليه لإنقاذ حياتها من الأخطار ومن الحيل التي تستعملها لإغواء مفترسيها :

التظاهر بالموت :

"حيث يتخذ الأبوسوم سلوكا يسمى التظاهر بالموت لخطر ما يجلس على جنبه مرتخيا ومدليا لسانه من فمه وعيناه مغمضتان وفي هذه الحال يدع عدوه يلعب به ويحركه إلى أن يفقد اهتمامه به ويذهب بعيدا ، وهنالك حيوانات أخرى تتخذ هذه الطريقة لتنجو من الأعداء كالثعابين والثدييات الصغيرة كالقوارض والسحالي "[2]

لنحل اجتماعي جدا

نحل العسل يعتبر اجتماعياً للغاية حيث يعيش في مستعمرات يزيد عدد النحل فيها عن 8 . . . . نحلة، فانظر إلى قدرة بعض الكائنات على التعايش مع الآخرين وتحمل أذاهم

وشرورهم .

بعض الحيوانات عميقة النوم جداً

ليس فقط من الناس من هو عميق النوم فلا تكفيه ساعات الليل أو ساعات النهار نوما بل كذلك في عالم الحيوان .

" لاشك أن سائر الحيوانات بل والطيور والحشرات وحتى الأسماك لا تستطيع إغلاق عيونها لعدم أجفان لديها إلا أنها تظل بحاجة للنوم مثل الإنسان، بعض الأسماك تستلقي فوق قاع البحر أو تدفن نفسها في رماله والبعض الآخر يحتمي بالشقوق الموجودة بين الصخور أو تنام بين شجيرات الأعشاب البحرية بهذه الطريقة تحمي نفسها من الحيوانات الجائعة التي تمارس الصيد ليلا، وهناك نوع من السمك يسمى " السمك الرئوي " أكثر نوما من غيرها حيث يدخل في سبات عميق خلال فترة الصيف الأفريقي الحار عندما تجف المستنقعات ومجاري الأنهار التي يعيش فيها " [3]

(333/607)

هل تحب الحيوانات الجمال أيضا ؟

ثبت هذا علميا وهو مسلم به. إلا البعض منها . " وحتى تتأكد من ذلك قم بالتجربة التالية

حيث يمكنك إغراء النحل والفراش بشكل خاص ويشمل ذلك نباتات البديلة واللافندر والزهور المتسلقة على الجدران، راقب كيف تتغذى الحشرات بالرحيق ولكن لا تقترب منها كثيرا حتى لا تخاف منك وتبتعد "

عيون الطيور تشبه عيون البشر

" للطيور عيونا تشبه أعيننا فالطيور الجارحة مثل النسور والصقور لديها أفضل حاسة بصر من بين جميع الحيوانات على الأرض وتستطيع رؤية الأشياء على مسافات تعادل ثلاثة أضعاف المسافات التي يستطيعها الإنسان مما يجعلها أمهر الطيور في الصيد " [4]

الوطنية في عالم الحيوان

" يستغرب البروفسور الهندي عالم الطيور، ك. نيلكنن. لما لهذه المخلوقات من أعمال جبارة حيث استطاعت وتستطيع أن تجوب الآفاق الواسعة فوق اليابسة والبحار دونما دليل أو لها علم بالملاحة الجوية، ويذكر أن طائرا بحريا من فصيلة النوارس نقل من أوسلو وأرسل بالطائرة إلى جزيرة صقلية ثم أطلق في عاصمتها بالرموفما كان من هذا الطائر إلا أن عاد إلى موطنه قاطعا مسافة ثلاثة آلاف ميل وثمانمئة " 38 . . " دون أن يضل الطريق " [5]

يقول الأستاذ / السيد سلامة السقا [6] " إن أسماك السلمون الصغيرة تمضي سنوات في البحر ثم تعود كل منها إلى النهر الخاص بها حتى إنها تصعد جانب النهر الذي يصب عنده

النهير الذي ولدت فيه وإذا انتقلت إلى نهير آخر فإنها تشق طريقها ضد التيار قاصدة موطنها الأصلي .

جوانب من تفوق الحيوان على الإنسان

(334/607)

" قد يتميز الإنسان على كثير من مخلوقات الأرض ببعض قدراته إلا أن الكثير منها يفوق الإنسان في نواحي أخرى عديدة فالإنسان القوي قد يستطيع أن يحمل ما يعادل وزنه مثلا إلا أنه لا يقارن بقوة النملة مثلا والتي تستطيع أن تحمل ما يوازي وزنها خمسه وعشرين مرة، فتخيل إنسانا وزنه ثمانون كيلو جراما يحمل ما وزنه ألفان من الكيلوجرامات لاشك أن ذلك لم يحدث ولن يحدث، ويقال أن العنكبوت لو كان في حجم الإنسان لاستطاع أن يحمل حوالي ستين طنا وحده دون مساعدة ولا تسل عن الحيوانات الأكبر حجما من الإنسان فالفيل العادي تعادل قوته قوة مائة وخمسين رجلا أو يزيد ، فالإنسان بذلك ليس أقوى المخلوقات ولا يعد من بين الأقوياء فيها كذلك فليس الإنسان من أكثر المخلوقات تحملا لظروف البيئة أو غيرها فالإنسان لا يتحمل الجوع أو العطش إلا أياما معدودة يموت بعدها كما أنه لا يصمد للتغيرات الشديدة في درجات الحرارة بالمقارنة بمخلوقات الأرض الأخرى، نرى أن

الكثير من الحيوانات من الحيوانات في المناطق الباردة تظل أشهرا مدفونة تحت الثلوج فيما يعرف بالبيات الشتوي تعود بعده إلى سابق نشاطها وحيويتها كما يستطيع الجمل أن يقاوم العطش ويتحمله أسابيع طويلة ويمكن أن يظل الحصان أسابيع بدون طعام، كما يعيش العنكبوت ما يقرب من العام بدون طعام، بل إن مقدرة الإنسان أن يستعيض مما يفقد من خلاياه محدودة جدا ومقصورة على الجروح البسيطة والتئام الكسور، ولكن جسم الإنسان إذا فقد جزءً من إصبعه أو عضوا من أعضائه فلا يمكنه استعاضته بالمرة بينما الوزغة مثلا حين تفقد ذيلها ينمو لها ذيل غيره وبسرعة وهي ظاهرة تتميز بها السحالي عموما، كما تسارع دودة الأرض بصنع رأس لها إذا قطع رأسها وإذا قطعت الدودة إلى نصفين فإن كل نصف منها ينمو ليصبح دودة كاملة ويستطيع سرطان البحر عند فقده أحد مخالبه أن ينشط خلاياه ليتم استعاضة المخلب المفقود بآخر جديد في نفس مكانه وله نفس

تركيبه ولها كلها وغيرها قدرات يفتقدها الجسم البشري،ورغم إمكانيات الإنسان وما يفعله لتنميتها بالرياضة والتدريب إلا أنها تظل محدودة وإن بدت لنا متطورة ومتميزة فما

وصل إليه الإنسان من سرعة في الجري كما تدل مسابقة المائة متر وكسر حاجز العشر ثوان فيها فإنها لا تقارن بسرعة النمر الأمريكي التي تصل إلى 80/كم في الساعة أو إلى سرعة الصقر المنقض من السماء على فريسته التي تصل إلى 380كم في الساعة بل إن ما توصل إليه الإنسان من أرقام قياسية في القفز لا يمكن نقارنتها بقفزة بعض الضفادع التي تستطيع القفز مسافة عشرة أمتار أي حوالي طولها مائة مرة، ناهيك عما تقوم به بعض الحشرات مثل الجراد والحشرات الصغيرة مثل البراغيث مثلا من قفزات عملاقة بالنسبة لطولها وحجمها " [7].

النمل يربي المواشي ويفلح الأرض:

(336/607)

تحت هذا العنوان يقول د/ عمر سليمان الأشقر في كتابه " العقيدة في الله " [8] " ومن عجائب النمل ما ذكره الدكتور يوسف عز الدين فقد ذكر أن النمل عرف الزرع والرعي عن طريق الغريزة، إن حشرات المن التي يطلق عليها أحيانا اسم " قمل النبات " التي نراها على أوراق بعض النباتات يرعاها النمل ليستفيد منها ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المن فإذا جاؤا به وصنعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم

ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم فإذا فقس بيض المن وخرجت منه الصغار أطعموها وأكرموها وبعد فترة قصيرة يأخذ المن يدر سائلا حلوا كالعسل كما تدر البقرة اللبن ويتولى النمل حلب هذا المن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار، ولا يعتني النمل بتربية " المواشي " هذه وحدها بل يعتني كذلك بالزرع وفلاحة الأرض، لقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما بها أرز قصير من نوع نصف بري كانت مسافة القطعة خمسة أقدام طولا في ثلاثة عرضا وكان طول الأرز نحو ستة سنتيمترات ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أن أحدا لابد يعتني بها فالطينة حول الجذور كانت مشققة و الأعشاب القريبة كانت مستأصلة والغريب أنه لم يكن على مقربة من هذا المكان عود آخر من الأرز، فهذا الأرز لم ينم من تلقاء نفسه وإنما زرعه زارع، ولوحظ أن طوائف النمل تأتي إلى هذا المزروع وتذهب عنه فانبطح العالم على الأرض يلاحظ ما يصنعه ولم يلبث أن عرف أن هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة من الأرض وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له تشغل كل وقته فبعضه كان يشق الأرض ويحرثها والبعض الآخر كان يزيل الأعشاب الضارة فإذا ظهر عود من عشب غريب قام إليه بعض النمل فيقضمونه ثم يحملونه بعيدا عن المزرعة، نما الأرز حتى بلغ 60 سم وكانت حبوب الأرز قد نضجت فلما بدأ موسم الحصاد شاهد صفا من شغالة النمل لا ينقطع متجها نحو العيدان فيتسلقها إلى أن يصل

إلى حبوب الأرز فتنزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب وتهبط بها سريعا إلى الأرض ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض، بل الأعجب من ذلك أن طائفة من النمل كانت تتسلق الأعواد فتلتقط الحب ثم تلقي به بينما طائفة أخرى تتلقاه وتذهب به إلى مخازن تحت الأرض، ويعيش هذا النوع من النمل عيشة مدنية في بيوت كبيوتنا ذات شقق وطبقات، أجزاء منها تحت الأرض وأجزاء فوق الأرض وفي هذه المدن نجد الخدم والعبيد ،بل الأعجب من ذلك نجد الممرضات اللاتي تعني بالمرضى ليلا ونهارا ونجد منها من يرفع جثث من يموت من النمل "

بعض الحيوانات تستقبح الجريمة :

في البخاري عن عمرو بن ميمون: رأيت في الجاهلية قرداً زنا بقردة فاجتمع عليهما القردة "فرجموهما حتى ماتا . .

وقال الإمام ابن القيم في شفاء العليل معلقا على هذا الحديث : "فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم"

قال الإمام المناوي في فيض القدير ما نصه:

قد أذنت هذه الأخبار بقبح الزنا وقد تظافر على ذلك أرباب الملل والنحل بل وبعض البهائم ففي البخاري أن قردة في الجاهلية زنت فرجمت وساقه الإسماعيلي مطولاً عن عمرو بن ميمون قال: كنت باليمن في غنم لأهلي فجاء قرد مع قردة فتوسد يدها فجاء قرد أصغر منه فغمزها فسلت يدها من تحت رأس القرد سلاً رفيقاً وتبعته فوقع عليها وأنا أنظر ثم رجعت فجعلت تدخل يدها تحت خد الأول برفق فاستيقظ فرحاً فشمها فصاح فاجتمعت القردة فجعل يصيح ويرمى إليها فذهبت القردة يمنة ويسرة فجاءوا بذلك القرد فحفروا لهما حفرة فرجموهما وذكر أبو عبيدة في كتاب الخيل من طريق الأوزاعي أن مهراً نزى على أمه فامتنع فأدخلت بيتاً وجللت بكساء فأنزى عليها فنزى فلما شم ريح أمه عمد إلى ذكره فقطعه من أصله بأسنانه .

(حم عن أبي ذر) رمز السيوطي لحسنه" .

الحيوانات أيضا تستخدم الدواء وتتطبب كذلك:

(338/607)

هذا الثعلب إذا أصابه صدع أو جرح يأتي إلى صنع معروف فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم والدب إذا أصابه جرح يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش

فيتداوى به فيبرأ"

الخاتمة

وهكذا يتبين لكل ذي عقل دلائل آيات الله تعالى ووحدانيته في الأنفس والكائنات تجعل العاقل يلهج بوحدانية الله تعالى وكما قيل :

وله في كل شيئ آية تدل على أنه الواحد

وحتى نتعرف على أسرار الخلق والإبداع الإلهي لابد من النظر والتأمل في المخلوقات وعجائب صنع الله فيه حينذاك نرى ونشاهد علم الله تعالى وقدرته وكماله ورحمته وعزته وقيوميته وحكمته وسائر صفات الكمال والجلال الإلهي حين ذاك نردد مع هذه الكائنات بلسان واحد لاإله إلاالله وحده لاشريك كما قال تعالى:

]تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا [. [10]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ظهر السبت الموافق 4من ذي الحجة سنة 1422هـ

أعده وجمعه الفقير إلى ربه / محمد محمد معافى علي

غفر الله تعالى له ولوالديه وللمسلمين

يمن مرسالتنا من خلال البريد التالي :

moafa12@hotmail.com

أقرأ المزيد

الأمية في الحيوانات – أمم أمثالكم

الأمية عند الحيوانات – بعض الأمثلة

الأمية عند الحيوانات – من أخلاقيات الحيوان

الأمية عند الحيوان – لإنسان يتعلم من الحيوان

الأمية عند الحيوانات – الرحمة والعطف

1]أنظر موسوعة علم الحيوان ص28 [2][2]أنظر موسوعة الحيوان " الثدييات " ص 8

[3]أنظر أسئلة وأجوبة العلوم بتصرف [4]أسئلة وأجوبة في العلوم " علم الحيوان " ص9

[5]أنظر هجرة الحيوان ص82

]

6]في كتابه أسرار الموت والحياة والروح والجسد ص33 [7]أسرار الموت والحياة ص 34وما بعدها [8]133 [9]الذرق قال في لسان العرب لإبن منظور الذرق بضم الذال وفتح الراء الحندقوق وهو نبات معروف . [10] الإسراء 44

0-الساعة الحيوية آية من آيات الله

أخيراً بدأ العلماء باكتشاف حقيقة الساعة الحيوية الموجودة داخل أجسامنا ، ووجدوا أن مثل هذه الساعة موجودة في كل خلية من خلايا جسمنا ! فهنالك مورثات محددة داخل الخلية مسؤولة عن ضبط الوقت .

ففي القلب هنالك ساعة خاصة به لتضبط دقاته، وفي الكبد هناك ساعة تضبط عملية تصفية السموم، وفي الكلى ساعة خاصة لتنظيم عمليات التبول، وهكذا في كل جزء وفي كل خلية من جسمنا هنالك ساعة ضبط الوقت !

العجيب أن هذه الساعة موجودة عند جميع الكائنات مثل الفأر والنحلة والفراشة وجميع الحيوانات والأسماك، وموجودة كذلك عن النباتات، إذن كل شيء حي زوّده الله بساعة دقيقة لتضبط عملياته الحيوية .

لقد وجد العلماء حديثاً مورثات محددة في نواة الخلية تتحكم بالوقت في جسم الإنسان وتنظم عملياته الحيوية [1]، لذلك حتى عندما نعزل إنساناً ونضعه في كهف مظلم مثلاً،

أي نغير الظروف الطبيعية فلم يعد يرى الضوء أو الشمس ولم يعد يعرف الوقت ليلاً أو نهاراً، وعلى الرغم من ذلك فإن أجهزة الجسم تقوم بدورها، فينام ويستيقظ باكراً حسب عادته.

إن هذه الساعة تمارس عملها في الفضاء أيضاً بغياب الجاذبية الأرضية، فتجد أن جسم رائد الفضاء يقوم بمهامه كاملة على الرغم من وجوده في ظروف فقدان الجاذبية. وتقوم أيضاً بتنظيم عملية النوم والاستيقاظ والشهية للطعام، وتعمل باستمرار على مدى 24 ساعة دون توقف،

(340/607)

وصدق الله عندما يقول: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان: 1-2].

تبدأ الساعة الحيوية بممارسة مهامها منذ اللحظة الأولى لخلق الإنسان، ففي رحم الأم تبدأ النطفة بتلقيح البويضة وتبدأ دقات الزمن وتبدأ عمليات الانقسام الخلوي بخلية واحدة

وتنتهي بعدة تريليونات من الخلايا وهو الإنسان، وكل ذلك يتم وفق نظام دقيق ومحسوب ومقدر، فسبحان الله!

القسم الأمامي من الدماغ

لقد وجد العلماء أن الساعة الحيوية هي عبارة عن مجموعة خلايا تقع في مقدمة الدماغ في منطقة الناصية خلف العينين، وهذه الساعة ترسل الإشارات بشكل دائم إلى الجسم ليقوم بعملياته بنظام محكم. ويقوم الباحثون في جامعة هارفارد بدراسة الآلية الدقيقة لهذه العملية [2].

إذن يمكن القول إن منطقة الناصية هي المسؤولة عن توجيه كل الكائنات الحية في حركتها وحياتها. فقد لاحظ الأطباء أن المنطقة الأمامية من الدماغ والتي يمكن أن نسميها الناصية، تتركز فيها العلميات العقلية الكبرى وتتحكم هذه المنطقة بالسلوك الاجتماعي، وهذه المنطقة تتحكم حتى بكثير من الأمراض النفسية، بل وتسيطر على العمليات المختلفة في أجزاء الدماغ.

وقد لاحظ العلماء على مدى أكثر من نصف قرن أنه إذا تم قطع بعض الأعصاب التي تصل الناصية بالمنطقة الخلفية من الدماغ، فإن بعض الأمراض تزول وتختفي أعراضها، وهذا يؤكد الدور المهم للناصية في توجيه كامل الدماغ للقيام بمهامه، وكأن هذه الناصية هي التي

تتحكم بالإنسان [3] .

يقول أحد العلماء حديثاً [4]:

(341/607)

Actually, brain imaging has shown that the frontal lobes may be divided into seventeen or more subregions, each responsible for a slightly different kind of work that the human performs. So a problem anywhere in this area will impact the way a child approaches and performs any task.

في الحقيقة تظهر الصور الملتقطة للدماغ أن المنطقة الأمامية (وهي الناصية) يمكن تقسيمها إلى سبع عشرة منطقة، وكل منطقة تتحكم بعمل معين، بحيث أنه إذا تعرضت هذه المنطقة لأي مشكلة لدى الطفل فإنه يعاني من مشاكل في أي مهمة يريد إنجازها . وبالتالي فإن هذه المنطقة هي التي تنظم عمل الجسم بأكمله، ومن هنا تأتي أهميتها في علاج الأمراض .

تشير المناطق الزرقاء وهي في منطقة الناصية في مقدمة الدماغ، إلى وجود نشاط للمخ في

هذه المناطق نتيجة اختلال السلوك الاجتماعي لدى المريض . أي أن منطقة الناصية تمثل مركز القيادة لدى الإنسان . المصدر: موقع جائزة نوبل على الإنترنت .

وهنا يتجلى قول الحق عز وجل: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[هود: 56] .

في داخل كل خلية من خلايا جسدنا ساعة حيوية فائقة الدقة، وهذه الساعة تتحكم بجميع العمليات الحيوية بدءاً من ولادة الإنسان وحتى موته، ويقول العلماء إن البرنامج الموجود في كل خلية والذي يسير بخطوات دقيقة لا يشذ عنها ، وقد بُرمجت هذه الساعة لتدق عدداً محدداً من الدقات، لا تزيد ولا تنقص، وعندما تدق آخر دقة فإن الموت يأتي بعدها ولا يتأخر أبداً . وربما نعجب من دقة البيان الإلهي عندما وصف لنا لحظة الموت فقال: (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) [النحل: 61] .

(342/607)

ولنسأل أولئك الملحدين الذين يعتبرون أن الكون وجد بالمصادفة، كيف تسير هذه العمليات الدقيقة جداً داخل آلاف البلايين من الخلايا في جسم الإنسان، ولو اختل نظام

خلية واحدة لاختل الجسد كله ؟ من الذي أودع في كل خلية من خلايا البشر والنبات والحيوان ساعة دقيقة لا تحتاج إلى صيانة ولا تتأخر ولا تتقدم ؟ أليس هو الله ؟ . انتهى

انتهى ﴿ الإعجاز العلمى فى القرآن ﴾

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

هوامش

1-[1] Keith McKeown , New "Clock Gene" Uncovered, The Scripps Research Institute, 2004.

2-[1] Link found between body rhythms and circadian clock, light, Harvard College, 2002.

3- Bengt Jansson, Controversial Psychosurgery Resulted in a Nobel Prize, www.nobelprize.org, October 29, 1998.

4- Zack Lynch, The Search for Emotional Truth, www.corante.com, November 10, 2006.

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ثبتت حكمته سبحانه وأنه أبعدهم عنها بما قضى عليهم من الجهل وغباوة العقل وآتاها من تاب ، واعتصم بآيات الكتاب ، توقع السامع الإخبار عن بعض من آتاه الحكمة من المتقدمين الذين كانوا من المحسنين ، فوضعوا الأشياء في مواضعها بأن آمنوا على قوله : " وهو العزيز الحكيم " أو على مقدر تقديره : لأنا أضللناهم بحكمتنا وآتينا الحكمة الذين قبلوا آياتنا وأحسنوا التعبد لنا فما عبدوا صمناً ولا مالوا إلى لهو ، لأن ذلك عين الحكمة لكونه وضعاً للشيء في محله ، فهو تقدير لتخصيص النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(344/607)

بالرسالة : ﴿ ولقد آتينا ﴾ بما لنا من العظمة والحكمة ﴿ لقمان ﴾ وهو عبد من عبيدنا ﴿ الحكمة ﴾ وهو العلم المؤيد بالعمل والعمل المحكم بالعلم ، وقال الحرالي : هي العلم بالأمر الذي لأجله وجب الحكم ، والحكم الحمل على جميع أنواع الصبر والمصابرة ظاهراً بالإيالة العالية ، ولا يتم الحكم وتستوي الحكمة إلا بحسب سعة العلم ، وقال ابن ميلق : إن مدارها على إصابة الحق والصواب في القول والعمل ، ولهذا قال ابن قتيبة : لا يقال لشخص حكيماً حتى تجتمع له الحكمة في القول والفعل ، قال : ولا يسمى المتكلم بالحكمة حكيماً حتى يكون عاملاً بها - انتهى .

(345/607)

ومن بليغ حكمته ما أسنده صاحب الفردوس عن ابن عمر - رضى الله عنهما - ان النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " حقاً أقول ! لم يكن لقمان نبياً ، ولكن كان عبداً ضمضامة كثير التفكر حسن اليقين ، أحب الله فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، كان نائماً نصف النهار

إذ جاءه نداء ، قيل : يا لقمان ، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق ، فأجاب : إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء ، وإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة ، فإني أعلم أنه أن فعل ذلك ربي عصمني وأعانني ، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، إذ يعدل فبالحري أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ، ومن تخير الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولا يصيب الآخرة ، فعجبت الملائكة من حسن منطقه ، فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها " وفي الفردوس عن مكارم الأخلاق لأبي بكر بن لال عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة وواحد في الصمت " ، وقال لقمان : لا مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس ، وقال : ضرب الوالد لولده كالسماء للزرع ، وقيل له : أيّ الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً ، وقيل له : ما أقبح وجهك ! فقال : تعيب النقش أو النقاش ، وقال البغوي : إنه قيل له : لم بلغت ما بلغت ؟ قال : بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني – انتهى .

(346/607)

فهو سبحانه من حكمته وحكمه أن يرفع ما يشاء بما يعلمه منه سلامة الطبع وإن كان عبداً فلا يدع أن يختص محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذا النسب العالي والمنصب المنيف في كل خلق شريف بالرسالة من بين قريش وإن لم يكن من أهل الدنيا المتعظمين بها ، قال ابن ميلق : من حكمته سبحانه أن يجمع بين أثرى عدله وفضله ، وأن يعاقب بينهما في الظهور فيذل ويعز ويفقر ويغني ويسقم ويشفي ويفني ويبقي إلى غير ذلك ، فما من سابق عدل إلا له لاحق فضل ، ولا سابق فضل إلا له لاحق عدل ، غير أن أثر العدل والفضل قد يتعلق بالبواطن خاصة ، وقد يتعلق أحدهما بالظاهر والآخر بالباطن ، وقد يكون اختلاف تعلقهما في حالة واحدة ، وقد يكون على البدل ، وعلى قدر تعلق الأثر السابق يكون تعلق الأثر اللاحق .

ولما كانت الحكمة قاضية بذلك ، أجرى الله سبحانه آثار عدله على ظواهر أصفيائه دون بواطنهم ، ثم عقبت ذلك بإيراد آثار فضله على بواطنهم وظواهرهم حتى صار من قاعدة الحكمة الإلهية تفويض ممالك الأرض للمستضعفين فيها كالنجاشي حيث بيع في صغره ، وذلك كثير موجود بالاستقراء ، فمن كمال تربية الحكيم لمن يريد إعلاء شأنه أن يجري على ظاهره من أثر العدل ما فيه تكميل لهم وتنوير لمداركهم وتطهير لوجودهم وتهذيب وتأديب – إلى غير ذلك من فوائد التربية ، ومن تتبع أحوال الأكابر من آدم عليه السلام وهلم جراً

رأى من حسن بلاء الله سبحانه وتعالى لهم ما يشهد لما قررته بالصحة إن شاء الله تعالى - انتهى .

(347/607)

ولما كانت الحكمة هي الإقبال على الله قال : ﴿ أن اشكر ﴾ وهو وإن كان تقديره : قلنا له كذا ، يؤول إلى " آتيناه الشكر " وصرف الكلام إلى الاسم الأعظم الذي لم يتسم به غيره سبحانه دفعاً للتعنت ، ونقلاً عن مظهر العظمة إلى أعظم منها فقال : ﴿ لله ﴾ بأن وفقناه له بما سببناه له من الأمر به لأن الحكمة في الحقيقة هي القيام بالشكر لا الإيصاء به ، ويمكن أن تكون " أن " مصدرية ، ويكون التقدير : آتيناه إياها بسبب الشكر ، وعبر بفعل الأمر إعلاماً بأن شكره كان لامتثال الأمر ليكون أعلى .

ولما كان التقدير : فبادر وشكر ، فما نفع إلا نفسه ، كما أنه لو كفر ما ضر إلا نفسه ، عطف عليه معرفاً أنه غني عن شكر الشاكرين قوله معبراً بالمضارع الدال على أن من أقبل عليه - في أيّ زمان كان - يلقاه ويكون معروفه له دائماً بدوام العمل : ﴿ ومن يشكر ﴾ أي يجدد الشكر ويتعاهد به نفسه كائناً من كان ﴿ فإنما يشكر ﴾ أي يفعل ذلك ﴿ لنفسه ﴾ أي فإنما ينفع نفسه ، فإن الله يزيده من فضله فإن الله شكور مجيد ﴿ ومن كفر ﴾ فإنما يضر

نفسه ، وعبر بالماضي إشارة إلى أن من وقع منه كفر ولو مرة جوزي بالإعراض عنه ﴿ فإن الله ﴾ عبر بالاسم الأعظم لأنه في سياق الحكمة ، والحكيم من أدام استحضار صفات الجلال والجمال فغلب خوفه رجاءه ما دام في دار الأكدار ﴿ غني ﴾ عن الشكر وغيره ﴿ حميد ﴾ أي له جميع المحامد وإن كفره جميع الخلائق ، فإن تقدير الكفر عليهم بحيث لا يقدرون على الانفكاك عنه من جملة محامدة بالقدرة والعزة والفهم والعظمة .

(348/607)

ويجوز – وهو أقرب – أن يعود " غني " إلى الكافر و " حميد " إلى الشاكر ، فيكون اسم فاعل ، فيكون التقدير : ومن كفر فإنما يكفر على نفسه ، ثم سبب عن الجملتين وهما كون عمل كل من الشاكر والكافر لا يتعداه قوله " فإن الله غني " أي عن شكر الكافر " حميد " للشاكر ، والآية على الأول من الاحتباك : تخصيص الشكر بالنفس أولاً يدل على حذف مثله من الكفر ثانيا ، وإثبات الصفتين يدل على حذف مثلهما أولاً .

ولما كان الإنسان لا يعرف حكمة الحكيم إلا بأقواله وأفعاله ، ولا صدق الكلام وحكمته إلا بمطابقته للواقع ، فكان التقدير : اذكر ما وصفنا به لقمان لتنزل عليه ما تسمع من أحواله وأفعاله في توفية حق الله وحق الخلق الذي هو مدار الحكمة ، عطف عليه قوله :

﴿ وإذ ﴾ أي واذكر بقلبك لتتعظ وبلسانك لتعظ غيرك - بما أنك رسول - ما كان حين ﴿ قال لقمان لابنه ﴾ ما يدل على شكره في نفسه وامره به لغيره فإنه لا شكر يعدل البراءة من الشرك ، وفيه حث على التخلق بما مدح به لقمان بما يحمل على الصبر والشكر والمداومة على كل خير ، وعلى تأديب الولد ، بسوق الكلام على وجه يدل على تكرير وعظه فقال : ﴿ وهو يعظه ﴾ أي يوصيه بما ينفعه ويرقق قلبه ويهذب نفسه ، ويوجب له الخشية والعدل .

ولما كان أصل توفية حق الحق تصحيح الاعتقاد وإصلاح العمل ، وكان الأول أهم ، قدمه فقال : ﴿ يا بني ﴾ فخاطبه بأحب ما يخاطب به ، مع إظهار الترحم والتحنن والشفقة ، ليكون ذلك أدعى لقبول النصح ﴿ لا تشرك ﴾ أي لا توقع الشرك لا جليا ولا خفياً ، ولما كان في تصغيره الإشفاق عليه ، زاد ذلك بإبراز الاسم الأعظم الموجب لاستحضار جميع الجلال ، تحقيقاً لمزيد الإشفاق .

(349/607)

فقال : ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ، ثم علل هذا النهي بقوله : ﴿ إن الشرك ﴾ اي بنوعيه ﴿ لظلم عظيم ﴾ أي فهو ضد الحكمة ، لأنه وضع الشيء في غير

محله ، فظلمه ظاهر من جهات عديدة جداً ، أظهرها أنه تسوية المملوك الذي ليس له من ذاته إلا العدم نعمة منه أصلاً بالمالك الذي له وجوب الوجود ، فلا خير ولا نعمة إلا منه ، وفي هذا تنبيه لقريش وكل سامع على أن هذه وصية لا يعدل عنها ، لأنها من أب حكيم لابن محنو عليه محبوب ، وأن آباءهم لو كانوا حكماء ما فعلوا إلا ذلك ، لأنه يترتب عليها ما عليه مدار النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية ، العاجلة والآجلة ، وهو الأمن والهداية ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [الأنعام : 82] فإنه لما نزلت تلك الآية كما هو صحيح البخاري في غير موضع عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ شق ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم فقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إنه ليس بذاك ، ألم تسمع إلى قول لقمان ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ " .

ولما ذكر سبحانه وتعالى ما أوصى به ولده من شكر المنعم الأول الذي لم يشركه في إيجاده أحد ، وذكر ما عليه الشرك من الفظاعة والشناعة والبشاعة ، أتبعه سبحانه وصيته للولد بالوالد لكونه المنعم الثاني المتفرد سبحانه بكونه جعله سبب وجود الولد اعترافاً بالحق وإن صغر لأهله وإيذاناً بأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس ، وتفخيماً لحق الوالدين ، لكونه قرن عقوقهما بالشرك ، وإعلاماً بأن الوفاء شيء واحد متى نقص شيء منه

تداعى سائره كما في الفردوس عن أبي الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

(350/607)

" لو أن العبد لقي الله بكمال ما افترض عليه ما خلا بر الوالدين ما دخل الجنة ، وإن بر الوالدين لنظام التوحيد والصلاة والذكر " ولذلك لفت الكلام إلى مظهر العظمة ترهيباً من العقوق ورفعاً لما لعله يتوهم من أن الانفصال عن الشرك لا يكون إلا بالإعراض عن جميع الخلق .

ولما قد يخيله الشيطان من أن التقيد بطاعة الوالد شرك ، مضمناً تلك الوصية إجادة لقمان عليه السلام في تحسين الشرك وتقبيح الشرك لموافقته لأمر رب العالمين ، وإيجاب امتثال ابنه لأمره ، فقال مبيناً حقه وحق كل والد غيره ، ومعرفاً قباحة من أمر ابنه بالشرك لكونه منافياً للحكمة التي أبانها لقمان عليه السلام ، وتحريم امتثال الابن لذلك ووجوب مخالفته لأبيه فيه تقديماً لأعظم الحقين ، وارتكاباً لأخف الضررين : ﴿ ووصينا ﴾ أي قال لقمان ذلك لولده نصحاً له والحال أنا بعظمتنا وصينا ولده به بنحو ما أوصاه به في حقنا – هكذا كان الأصل ، ولكنه عبر بما يشمل غيره فقال : ﴿ الإنسان ﴾ أي هذا النوع على لسان أول

نبي أرسلنا وهلم جراً وبما ركزناه في كل فطرة من أنه ما جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿ بوالديه ﴾ فكأنه قال : إن لقمان عرف نعمتنا عليه وعلى أبناء نوعه لوصيتنا لأولادهم بهم فشكرنا ولقن عنا نهيهم بذلك عن الشرك لأنه كفران لنعمة المنعم ، فانتهى في نفسه ونهى ولده ، فكان بذلك حكيماً .

ولما كانت الأم في مقام الاحتقار لما للأب من العظمة بالقوة والعقل والكد عليها وعلى ولدها ، نوه بها ونبه على ما يختص به من أسباب وجود الولد وبقائه عن الأب مما حصل لها من المشقة بسببه وما لها إليه من التربية .

(351/607)

فقال معللاً أو مستأنفاً : ﴿ حملته أمه وهناً ﴾ أي حال كونها ذات وهن تحمله في أحشائها ، وبالغ بجعلها نفس الفعل دلالة على شدة ذلك الضعف بتضاعفه كلما أثقلت ﴿ على وهن ﴾ أي هو قائم بها من نفس خلقها وتركيبها إلى ما يزيدها التمادي بالحمل ، ثم أشار إلى ما لها عليه من المنة بالشفقة وحسن الكفالة وهو لا يملك لنفسه شيئاً بقوله :

﴿ وفصاله ﴾ أي فطامه من الرضاعة بعد وضعه .

ولما كان الوالدان يعدان وجدان الولد من أعظم أسباب الخير والسرور ، عبر في أمره بالعام

الذي تدور مادته على السعة لذلك وترجية لهما بالعول عليه وتعظيماً لحقهما بالتعبير بما يشير إلى صعوبة ما قاسيا فيه باتساع زمنه فقال : ﴿ في عامين ﴾ تقاسي فيهما في منامه وقيامه ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى ، وفي التعبير بالعام أيضاً إشارة إلى تعظيم منتهاه بكونها تعد أيام رضاعه – مع كونها أضعف ما يكون في تربيته – أيام سعة وسرور ، والتعبير ب " في " مشيراً إلى أن الوالدين لهما أن يفطماه قبل تمامهما على حسب ما يحتمله حاله ، وتدعو إليه المصلحة من أمره .

ولما ذكر الوصية وأشار إلى أمهات أسبابها ، ذكر الموصى به فقال مفسراً ل " وصينا " : ﴿ أن اشكر ﴾ ولما كان الشكر منظوراً إليه أتم نظر ، قصر فعله ، أي أوجد هذه الحقيقة ولتكن من همك .

(352/607)

ولما كان لا بد له من متعلق ، كان كأنه قال : لمن ؟ فقال مقدماً ما هو أساس الموصى به في الوالدين ليكون معتداً به ، لافتاً القول إلى ضمير الواحد من غير تعظيم تنصيصاً على المراد : ﴿ لي ﴾ أي لأني المنعم بالحقيقة ﴿ ولوالديك ﴾ لكوني جعلتهما سبباً لوجودك والإحسان بتربيتك ، وذكر الإنسان بهذا الذكر في سورة الحكمة إشارة إلى أنه أتم

الموجودات حكمة قال الرازي في آخر سورة الأحزاب من لوامعه : الموجودات كلها كالشجرة ، والإنسان ثمرتها ، وهي كالقشور والإنسان لبابها ، وكالمبادئ والإنسان كمالها ، ومن أين للعالم ما للإنسان ؟ بل العالم العلوي فيه ، ليس في العالم العلوي ما فيه ، فقد جمع ما بين العالمين بنفسه وجسده ، واستجمع الكونين بعقله وحسه ، وارتفع عن الدرجتين باتصال الأمر الأعلى به وحياً قولياً ، وسلم لمن له الخلق والأمر تسليماً اختيارياً طوعياً . ثم علل الأمر بالشكر محذراً فقال : ﴿ إليّ ﴾ لا إلى غيري ﴿ المصير ﴾ أي فأسألك عن ذلك كما كانت منهما البداءة ظاهراً بما جعلت لهما من التسبب في ذلك ، فيسألانك عن القيام بحقوقهما وإن قصرت فيها شكواك إلى الناس وأقاما عليك الحجة وأخذا بحقهما .

(353/607)

ولما ذكر سبحانه وصيته بهما وأكد حقهما ، أتبعه الدليل على ما ذكر لقمان عليه السلام من قباحة الشرك فقال : ﴿ وإن جاهداك ﴾ أي مع ما أمرتك به من طاعتهما ، وأشار بصيغة المفاعلة إلى مخالفتهما وإن بالغا في الحمل على ذلك ﴿ على أن تشرك بي ﴾ وأشار بأداة الاستعلاء إلى أنه لا مطمع لمن أطاعهما في ذلك ولو باللفظ فقط أن يكون في عداد المحسنين وإن كان الوالدان في غاية العلو والتمكن من الأسباب الفاتنة له بخلاف سورة

العنكبوت فإنها لمطلق الفتنة ، وليست لقوة الكفار ، فعبر فيها بلام العلة ، إشارة إلى مطلق الجهاد الصادق بقويه وضعيفه ، ففي الموضعين نوع رمز إلى أنه إن ضعف عنهما أطاع باللسان ، ولم يخرجه ذلك عن الإيمان ، كما أخرجه هنا عن الوصف بالإحسان ، ولذلك حذر في الأية التي بعد تلك من النفاق لأجل الفتنة ، وأحال سبحانه على اتباع الأدلة على حكم ما وهب من العقل عدلاً وإنصافاً فقال : ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ إشارة إلى أنه لا يمكن أن يدل علم من أنواع العلوم على شيء من الشرك بنوع من أنواع الدلالات بل العلوم كلها دالة على الوحدانية على الوجه الذي تطابقت عليه العقول ، وتظافرت عليه من الأنبياء والرسل النقول ، وأما الوجه الذي سماه أهل الإلحاد بمذهب الاتحاد توحيداً فقد كفى في أنه ليس به علم إطباقهم على أنه خارج عن طور العقل ، مخالف لكل ما ورد عن الأنبياء من نقل ، وإن لبسوا بإدعاء متابعة بعض الآيات كما بينه كتابي الفارض ، فلا يمكن أن يتمذهب به أحد إلا بعد الانسلاخ من العقل والتكذيب بالنقل ، فلم يناد أحد على نفسه بالإبطال ما نادوا به على أنفسهم ولكن من يضلل الله فما له من هاد .

(354/607)

فلما قرر ذلك على هذا المنوال البديع ، قال مسبباً عنه : ﴿ فلا تطعهما ﴾ أي في ذلك ولو اجتمعا على المجاهدة لك عليه ، بل خالفهما ، وإن أدى الأمر إلى السيف فجاهدهما به ، لأن أمرهما بذلك مناف للحكمة حامل على محض الجور والسفه ، ففيه تنبيه لقريش على محض الغلط في التقليد لآبائهم في ذلك .

ولما كان هذا قد يفهم الإعراض عنهما رأساً في كل أمر إذا خالفا في الدين ، أشار إلى أنه ليس مطلقاً فقال : ﴿ وصاحبهما في الدنيا ﴾ أي في أمورها التي لا تتعلق بالدين ما دامت حياتهما .

ولما كان المبنى على النقصان عاجزاً عن الوفاء بجميع الحقوق ، خفف عليه بالتنكير في قوله : ﴿ معروفاً ﴾ أي ببرهما إن كانا على دين يقران عليه ومعاملتهما بالحلم والاحتمال وما يقتضيه مكارم الأخلاق ومعالي الشيم ، قال ابن ميلق : ويلوح من هذه المشكاة تعظيم الأشياخ الذين كانوا في العادة سبباً لإيجاد القلوب في دوائر التوحيد العلمية والعملية – يعني ففي سوق هذه الوصية هذا المساق أعظم تنبيه على أن تعظيم الوسائط من الخلق ليس مانعاً من الإخلاص في التوحيد ، قال ابن ميلق : ومن هنا زلت أقدام أقوام تعمقوا في دعوى التوحيد حتى أعرضوا عن جانب الوسائط فوقعوا في الكفر من حيث زعموا التوحيد فإن تعظيم المعظم في الشرع تعظيم لحرمات الله ، وامتثال لأمر الله ، ولعمري إن هذه المزلة ليتعثر بها أتباع إبليس حيث أبى أن يسجد لغير الله ، ثم قال ما معناه : وهؤلاء قوم أعرضوا

عن تعظيم الوسائط زاعمين الغيرة على مقام التوحيد ، وقابلهم قوم أسقطوا الوسائط جملة وقالوا : إنه ليس في الكون إلا هو ، وهم أهل الوحدة المطلقة ، والكل على ضلال ، والحق الاقتصاد والعدل في إثبات الخالق وتوحيده ، وتعظيم من أمر بتعظيمه من عبيده .

(355/607)

ولما كان ذلك قد يجر إلى نوع وهن في الدين ببعض محاباة ، نفى ذلك بقوله : ﴿ واتبع ﴾ أي بالغ في أن تتبع ﴿ سبيل ﴾ أي دين وطريق ﴿ من أناب ﴾ أي أقبل خاضعاً ﴿ إليّ ﴾ لم يلتفت إلى عبادة غيري ، وهم المخلصون من أبويك وغيرهما ، فإن ذلك لا يخرجك عن برهما ولا عن توحيد الله والإخلاص له ، وفي هذا حث على معرفة الرجال بالحق ، وأمر بحك المشايخ وغيرهم على محك الكتاب والسنة ، فمن كان عمله موافقاً لها اتبع ، ومن كان عمله مخالفاً لهما اجتنب .

ولما كان التقدير : فإن مرجع أموركم كلها في الدنيا إليّ ، عطف عليه قوله : ﴿ ثم إليّ ﴾ أي في الآخرة ، لا إلى غيري مرجعك - هكذا كان الأصل ، ولكنه جمع لإرادة التعميم فقال معبراً بالمصدر الميمي الدال على الحدث وزمانه ومكانه : ﴿ مرجعكم ﴾ حساً ومعنى ، فأكشف الحجاب ﴿ فأنبئكم ﴾ أي أفعل فعل من يبالغ في التنقيب والإخبار عقب ذلك

وبسببه ، لأن ذلك أنسب شيء للحكمة وإن كان تعقيب كل شيء بحسب ما يليق به ﴿ بما كنتم ﴾ بما هو لكم كالجبلة ﴿ تعملون ﴾ أي تجددون عمله من صغير وكبير ، وجليل وحقير ، وما كان في جبلاتكم مما لم يبرز إلى الخارج ، فأجازي من أريد وأغفر لمن أريد ، فأعد لذلك عدته ، ولا تعمل عمل من ليس له مرجع يحاسب فيه ويجازي على مثاقيل الذر من أعماله ، ولعله عبر عن الحساب بالتنبئة لأن العلم بالعمل سبب للمجازاة عليه أو لأنه جمع القسمين ، ومحاسبة السعيد العرض فقط بدلالة التضمن ومحاسبة الشقي بالمطابقية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 10 . 18 ﴾

(356/607)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة أَنِ اشكر للَّهِ ﴾

(357/607)

لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم بإشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء بقوله : ﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ وبين أن المشرك ظالم ضال ، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى ، وهو أن اتباع النبي عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهاراً للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة ، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبي عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمة وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ عبارة عن توفيق العمل بالعلم ، فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة ، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى ، فنقول حصول العمل على وفق المعلوم ، والذي يدل على ما ذكرنا أن من تعلم شيئاً ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيماً وإنما يكون مبخوتاً ، ألا ترى أن من يلقي نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال إنه حكيم ، وإن ظهر لفعله مصلحة وخلو عن مفسدة ، لعدم علمه به أولاً ، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقي نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال إنه حكيم وإن علم ما يكون في فعله ، ثم الذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ فإن أن في مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله : ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ وهو كذلك ، لأن من جملة ما يقال إن العمل موافق للعلم ، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر ، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقاً لعلمه وكان حكمة ،

وإن أهمل الأهم كان مخالفاً للعلم ولم يكن من الحكمة في شيء ، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضي ، ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله : ﴿ وَمَن

(358/607)

كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه ، وفي الآية مسائل ولطائف الأولى : فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر ، لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغي أن يكون قد أوتي الحكمة والجواب : أن قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين ، وفي الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف .

المسألة الثانية :

قال في الشكر ﴿ ومن يشكر ﴾ بصيغة المستقبل ، وفي الكفران ﴿ ومن كفر فإن الله غني ﴾ ، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد ، كقول القائل : من دخل داري فهو حر ، ومن يدخل داري فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغي أن يكرر

، والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران ، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله ، بل أبداً يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر إدخاله في الوجود ، كما قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ [النمل : 19] وكما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل : 18] فأشار إليه بصيغة المستقبل تنبيهاً على أن الشكر بكماله لم يوجد وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام ، فقال بصيغة الماضي .

المسألة الثالثة :

(359/607)

قال تعالى هنا : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ ﴾ بتقديم الشكر على الكفران ، وقال في سورة الروم : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] وههنا الذكر للترغيب ، لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد ، وقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ يحقق ما ذكرنا أولاً ، لأن المذكور في سورة الروم لما كان بعد اليوم الذي لا مرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ومن عمل ، وههنا لما كان المذكور في الابتداء

قال ﴿ وَمَن يَشْكُرْ ﴾ بلفظ المستقبل وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ ﴾ عن حمد الحامدين ، حميد في ذاته من غير حمدهم ، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامداً لله تعالى .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

(360/607)

عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه وحين جعلناه واعظاً لغيره وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكملاً لغيره فقوله : ﴿ أَنِ اشكر ﴾ إشارة إلى الكمال وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ إشارة إلى التكميل ، وفي هذا لطيفة وهي أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب فإن إرشاد الولد أمر معتاد ، وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فلا ، ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ [الإسراء : 70] في عبادة الخسيس أو لأنه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله ، وأما أنه عظيم فلأنه وضع

في موضع ليس موضعه ، ولا يجوز أن يكون موضعه ، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطي عمراً يكون ظلماً من حيث إنه وضع مال زيد في يد عمرو ، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق ، وأما الإشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلاً .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)

(361/607)

لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين أنها غير ممتنعة ، بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الأبوين ، ثم بين السبب فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ﴾ يعني لله على العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ما له صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فإن الحمل به يظهر الوجود ، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أي صارت بقدرة الله سبب وجوده ﴿ وفصاله في عامين ﴾ ، أي صارت بقدرته أيضاً سبب بقائه ، فإذا كان منها ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما له شبه العبادة من الخدمة ، فإن الخدمة لها صورة العبادة ، فإن قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر

السبب في حق الأم فنقول خص الأم بالذكر وفي الأب ما وجد في الأم فإن الأب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله : ﴿ أَنِ اشكر لِى ولوالديك ﴾ لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله ، فإن الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال : ﴿ أَنِ اشكر لِى ولوالديك ﴾ ثم بين الفرق وقال : ﴿ إِلَىَّ المصير ﴾ يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة ، فإن إلي المصير أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء عليَّ وقت المصير إليّ .

(362/607)

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

يعني أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله ، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما ، وقد ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت ، وقال ههنا ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ ، يعني صاحبهما بجسمك فإن حقهما على جسمك ، واتبع سبيل النبي عليه السلام بعقلك ، فإنه مربي عقلك ، كما أن الوالد مربي جسمك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 127 . 129 ﴾

(363/607)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾

قَالَ الضَّحَّاكُ : ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ ، يَعْنِي ضَعْفَ الْوَلَدِ عَلَى ضَعْفِ الْأُمِّ وَقِيلَ : بَلْ الْمَعْنَى فِيهِ شِدَّةُ الْجَهْدِ ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ يَعْنِي فِي انْقِضَاءِ عَامَيْنِ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ فَحَصَلَ بِمَجْمُوعِ الْآيَتَيْنِ أَنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ وَبِهِ اسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى مُدَّةِ أَقَلِّ الْحَمْلِ وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَيْهِ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(364/607)

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ أَبَانَ تَعَالَى بِذَلِكَ أَنَّ أَمْرَهُ بِالْإِحْسَانِ إلَى الْوَالِدَيْنِ عَامٌّ فِي الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ وَالْكُفَّارِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ

جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْقَوَدَ عَلَى أَبِيهِ وَأَنَّهُ لَا يُحَدُّ لَهُ إذَا قَذَفَهُ وَلَا يُحْبَسُ لَهُ بِدَيْنٍ عَلَيْهِ وَأَنَّ عَلَيْهِ نَفَقَتَهُمَا إذَا احْتَاجَا إلَيْهِ ؛ إذْ كَانَ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنْ الصُّحْبَةِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَفِعْلُ ضِدِّهِ يُنَافِي مُصَاحَبَتَهُمَا بِالْمَعْرُوفِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا : إنَّ الْأَبَ لَا يُحْبَسُ بِدَيْنِ ابْنِهِ ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ يَحْبِسُهُ إذَا كَانَ مُتَمَرِّدًا .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إلَيَّ ﴾ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى إيَّانَا بِاتِّبَاعِهِمْ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(365/607)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي ذِكْرِ لُقْمَانَ : وَفِيهِ سَبْعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ : كَانَ

لُقْمَانُ أَسْوَدَ مِنْ سُودَانِ مِصْرَ ، حَكِيمًا ، ذَا مَشَافِرَ ، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا .

الثَّانِي : قَالَ قَتَادَةُ : خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ ، فَاخْتَارَ الْحِكْمَةَ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ نَائِمٌ ، فَقَذَفَ عَلَيْهِ الْحِكْمَةَ ، فَأَصْبَحَ يَنْطِقُ بِهَا ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنَّهُ لَوْ أَرْسَلَ إِلَيَّ النُّبُوَّةَ عَزْمَةً لَرَجَوْتُ الْفَوْزَ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ خَيَّرَنِي ؛ فَخِفْتُ أَنْ أَضْعُفَ عَنْ النُّبُوَّةِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ كَانَ مِنْ النُّوبَةِ قَصِيرًا أَفْطَسَ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ كَانَ حَبَشِيًّا .

الْخَامِسُ : أَنَّهُ كَانَ خَيَّاطًا .

السَّادِسُ : أَنَّهُ كَانَ رَاعِيًا ، فَرَآهُ رَجُلٌ كَانَ يَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ قَالَ : أَلَسْتَ عَبْدَ بَنِي فُلَانٍ الَّذِي كُنْتَ تَرْعَى بِالْأَمْسِ ؟ قَالَ : بَلَى .

قَالَ : فَمَا بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى ؟ قَالَ : قَدَرُ اللَّهِ ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِينِي .

السَّابِعُ : أَنَّهُ كَانَ عَبْدًا نَجَّارًا قَالَ لَهُ سَيِّدُهُ : اذْبَحْ شَاةً ، وَأْتِنِي بِأَطْيَبِهَا بِضْعَتَيْنِ فَأَتَاهُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ .

(366/607)

ثُمَّ أَمَرَهُ بِذَبْحِ شَاةٍ ، وَقَالَ لَهُ : أَلْقِ أَخْبَثَهَا بِضْعَتَيْنِ ، فَأَلْقَى اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ ، فَقَالَ : أَمَرْتُك أَنْ تَأْتِيَنِي بِأَطْيَبِهَا بِضْعَتَيْنِ فَأَتَيْتَنِي بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ ، وَأَمَرْتُك أَنْ تُلْقِي أَخْبَثَهَا بِضْعَتَيْنِ ، فَأَلْقَيْت اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ ، فَقَالَ : لَيْسَ شَيْءٌ أَطْيَبَ مِنْهُمَا إذَا طَابَا ، وَلَا شَيْءَ أَخْبَثُ مِنْهَا إذَا خَبُثَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى عُلَمَاؤُنَا عَنْ مَالِكٍ أَنَّ لُقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ ؛ إنَّ النَّاسَ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ مَا يُوعَدُونَ ، وَهُمْ إلَى الْآخِرَةِ سِرَاعًا يَذْهَبُونَ ، وَإِنَّك قَدْ اسْتَدْبَرْت الدُّنْيَا مُنْذُ كُنْت ، وَاسْتَقْبَلْت الْآخِرَةَ ، وَإِنَّ دَارًا تَسِيرُ إلَيْهَا أَقْرَبُ إلَيْك مِنْ دَارٍ تَخْرُجُ عَنْهَا .

وَقَالَ لُقْمَانُ ، يَا بُنَيَّ ؛ لَيْسَ غِنًى كَصِحَّةٍ ، وَلَا نِعْمَةٌ كَطِيبِ نَفْسٍ .

وَقَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ لَا تُجَالِسْ الْفُجَّارَ ، وَلَا تُمَاشِهِمْ ، اتَّقِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ السَّمَاءِ ، فَيُصِيبَك مَعَهُمْ .

وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ؛ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَمَاشِهِمْ ، عَسَى أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ رَحْمَةٌ فَتُصِيبَك مَعَهُمْ .

وَقَالَ : يَا بُنَيَّ ؛ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَزَاحِمْهُمْ بِرُكْبَتَيْك ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ بِالْعِلْمِ ، كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بِوَابِلِ الْمَطَرِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّهُ كَانَ لُقْمَانُ بْنَ عَادٍ الْأَكْبَرَ ، وَكَانَ لُقْمَانُ الْأَصْغَرَ ، وَلَيْسَ بِلُقْمَانَ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ .

وَكَانَ لُقْمَانُ هَذَا الَّذِي تَذْكُرُهُ الْعَرَبُ حَكِيمًا .

وَفِي أَخْبَارِهَا أَنَّ أُخْتَ لُقْمَانَ كَانَتْ امْرَأَةً مُحَمَّقَةً ، وَكَانَ لُقْمَانُ حَكِيمًا نَجِيًّا ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ لِامْرَأَتِهِ : هَذِهِ لَيْلَةُ طُهْرِي فَهَبِي لِي لَيْلَتَك ، طَمَعًا فِي أَنْ تَعْلَقَ مِنْ أَخِيهَا بِنَجِيبٍ ، فَفَعَلَتْ ، فَحَمَلَتْ مِنْ أَخِيهَا ، فَوَلَدَتْ لُقَيْمَ بْنَ لُقْمَانَ ، وَفِيهِ يَقُولُ النَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ : لُقَيْمُ بْنُ لُقْمَانَ مِنْ أُخْتِهِ فَكَانَ ابْنَ أُخْتٍ لَهَا وَابْنَا لَيَالِي حُمْقٌ فَاسْتَحْصَنَتْ عَلَيْهِ فَغَرَّ بِهَا مُظْلِمًا فَقَرَّ بِهِ رَجُلٌ مُحْكِمٌ فَجَاءَتْ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : ذَكَرَ مَالِكٌ كَلَامًا كَثِيرًا مِنْ الْحِكْمَةِ عَنْ لُقْمَانَ ، وَأَدْخَلَ مِنْ حِكْمَتِهِ فَصْلًا فِي كِتَابِ الْجَامِعِ مِنْ مُوَطَّئِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ ، وَذَكَرَ مِنْ حِكْمَتِهِ فَصْلًا يَعْضُدُهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، لِيُنَبِّهَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ تُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا أَيْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ ، وَهِيَ الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾

اختلف في نبوته على قولين

: أحدهما : أنه نبي ، قاله عكرمة والشعبي .

الثاني : أنه حكيم وليس بنبي ، قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب . ووهب بن منبه ، قال إسماعيل : كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة .

وقال قتادة : خير الله لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة على النبوة فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة فأصبح ينطق بها ، فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إليّ بالنبوة عزمة لرجوت فيه العون منه ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب إليّ .

واختلف في جنسه على قولين :

أحدهما : أنه كان من النوبة قصيراً أفطس ، قاله جابر بن عبد الله .

الثاني : كان عبداً حبشياً ، قاله ابن عباس .

واختلف في صنعته على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كان خياطاً بمصر ، قاله سعيد بن المسيب .

الثاني : أنه كان راعياً فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال : ألست عبد بني فلان الذي

كنت ترعى بالأمس ؟ قال بلى ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَرُ الله وأدائي الأمانة ، وصدق الحديث وتركي ما لا يعنيني ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر .

الثالث : أنه كان نجاراً فقال له سيده : اذبح لي شاة وأتني بأطيبها مضغتين فأتاه باللسان والقلب فقال له : ما كان فيها شيء أطيب من هذين فسكت ، ثم أمره فذبح له شاة ثم قال : أَلقِ أخبثها مضغتين فألقى اللسان والقلب فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت باللسان والقلب فقال إنه ليس شيىء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا ، قاله خالد الربعي .

واختلف في زمانه على قولين :

أحدهما : أنه كان فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام .

(369/607)

الثاني : أنه ولد كوش بن سام بن نوح ، ولد لعشر سنين من ملك داود عليه السلام وبقي إلى زمن يونس عليه السلام .

وفي ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ التي أوتيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الفهم والعقل ، قاله السدي .

الثاني : الفقه والعقل والإصابة في القول ، قاله مجاهد .

الثالث : الأمانة .

﴿ أَنِ اشكُرْ لِلَّهِ ﴾ يعني نعم اللَّه ، فيه وجهان

: أحدهما : معنى الكلام : ولقد آتيناه الحكمة وآتيناه الشكر لله ، قاله المفضل .

الثاني : آتيناه الحكمة لأن يشكر لله ، قاله الزجاج .

وفي شكره أربعة أوجه :

أحدها : هو حمده على نعمه .

الثاني : هو ألا يعصيه على نعمه .

الثالث : هو ألا يرى معه شريكاً في نعمه عليه .

الرابع : هو طاعته فيما أمره .

﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي يعود شكره إلى نفسه لأنه على النعمة إذا زاد من الشكر .

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يعني كفر بالله واليوم الآخر ، قاله مجاهد .

الثاني : كُفْرُ النعمة ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : غني عن خلقه حميد في فعله ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : غني عن شكره مستحمد إلى خلقه ، قاله ابن عيسى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴾

أي واذكر يا محمد مقالة لقمان لابنه ، وفي اسم ابنه ثلاثة أقاويل :

أحدها : مشكم ، قاله الكلبي .

الثاني : أنعم ، حكاه النقاش .

الثالث : بابان .

﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ أي يُذكِرُه ويؤدبه

. ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني عند اللَّه ، وسماه ظلماً لأنه قد ظلم به نفسه ، وقيل إنه قال ذلك لابنه وكان مشركاً ، وقوله ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ ليس هو حقيقة التصغير وإن كان على لفظه وإنما هو على وجه الترقيق كما يقال للرجل يا أُخَيّ . وللصبي هو كُوَيّس .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ يعني براً وتحنناً عليهما . وفيهما قولان :

أحدهما : أنها عامة وإن جاءت بلفظ خاص والمراد به جميع الناس ، قاله ابن كامل .

الثاني : خاص في سعد بن أبي وقاص وُصي بأبويه ؛ واسم أبيه مالك واسم أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية ، حكاه النقاش .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : معناه شدة على شدة ، قاله ابن عباس .

الثاني : جهداً على جهد . قاله قتادة .

الثالث : ضعفاً على ضعف ، قاله الحسن وعطاء . ومن قول قعنب ابن أم صاحب :

هل للعواذل من ناهٍ فيزجرها . . . إن العواذل فيها الأينُ والوهن

يعني الضعف

. ثم فيه على هذا التأويل ثلاثة أوجه :

أحدها : ضعف الولد على ضعف الوالدة ، قاله مجاهد .

الثاني : ضعف نطفة الأب على نطفة الأم ، قاله ابن بحر .

الثالث : ضعف الولد حالاً بعد حال فضعفه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً سوياً ثم مولوداً ثم رضيعاً ثم فطيماً ، قاله أبو كامل .

ويحتمل رابعاً : ضعف الجسم على ضعف العزم .

﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ يعني بالفصال الفطام من رضاع اللبن

. واختلف في حكم الرضاع بعد الحولين هل يكون في التحريم كحكمه في الحولين على أربعة أقاويل :

أحدهما : أنه لا يحرم بعد الحولين ولو بطرفة عين لتقدير الله له بالحولين ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لاَ رَضَاعَةَ بَعْدَ الحَوْلَيْنِ " وهذا قول الشافعي .

الثاني : أنه يحرم بعد الحولين بأيام ، وهذا قول مالك .

الثالث : يحرم بعد الحولين بستة أشهر استكمالاً لثلاثين شهراً لقوله : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] قاله أبو حنيفة .

الرابع : أن تحريمه غير مقدر وأنه يحرم في الكبير كتحريمه في الصغير ، وهذا قول بعض أهل المدينة .

(371/607)

﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ أي اشكر لي النعمة ولوالديك التربية . وشكر الله بالحمد والطاعة وشكر الوالدين بالبر والصلة ، قال قتادة : إن الله فرق بين حقه وحق الوالدين وقال اشكر لي ولوالديك .

﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ يعني إلى الله المرجع فيجازي المحسن بالجنة والمسيء بالنار ، وقد روى عطاء عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رِضَا الرَّبِّ مِن رِضَا الوَالِدِ وَسَخَط الرَّبِّ مَن سَخَط الوَالِدِ

" . قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ ﴾ يعني أراداك

. ﴿ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ معناه أنك لا تعلم أن لي شريكاً . ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ يعني في الشرك

. ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ أي احْتِسَاباً . قال قتادة : تعودهما إذا مرضا وتشيعهما إذا ماتا ، وتواسيهما مما أعطاك الله تعالى .

﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ قال يحيى بن سلام : من أقبل بقلبه مخلصاً وهو النبي صلى الله عليه السلام والمؤمنون . روى مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : حلفت أم سعد ألا تأكل ولا تشرب حتى تشرب حتى يتحوّل سعد عن دينه فأبى عليها فلم تزل كذلك حتى غشى عليها ثم دعت الله عليه فأنزل الله فيه هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾

﴿ لقمان ﴾ رجل حكيم بحكمة الله تعالى وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدين والعقل ، واختلف هل هو نبي مع ذلك أو رجل صالح فقط ، فقال بنبوءته عكرمة والشعبي ، وقال بصلاحه فقط مجاهد وغيره ، وقال ابن عباس : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين أحب الله فأحبه فمن عليه بالحكمة وخيره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق ، فقال يا رب إن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء وإن عزمت علي فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمني وكان قاضياً في بني إسرائيل نوبياً أسود مشقق الرجلين ذا مشافر " ، قاله سعيد بن المسيب ومجاهد وابن عباس ، وقال له رجل كان قد رعى معه الغنم ما بلغ بك يا لقمان ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعني ، وقال ابن المسيب : كان سودان مصر من النوبة ، وقال خالد بن الربيع : كان نجاراً ، وقيل كان خياطاً ، وقيل كان راعياً ، وحكم لقمان كثيرة مأثورة ، قيل له وأي الناس شر ؟ قال الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئاً .

(373/607)

وقوله تعالى : ﴿ أن اشكر ﴾ يجوز أن تكون ﴿ أن ﴾ في موضع نصب على إسقاط حرف الجر أي " بأن اشكر لله " ، ويجوز أن تكون مفسرة أي كانت حكمته دائرة على الشكر لله ومعانيه وجميع العبادات والمعتقدات داخلة في شكر الله تعالى ، ثم أخبر تعالى أن الشاكر حظه عائد عليه وهو المنتفع بذلك . و ﴿ الله ﴾ تعالى ﴿ غني ﴾ عن الشكر فلا ينفعه شكر العباد ﴿ حميد ﴾ في نفسه فلا يضره كفر الكافرين و ﴿ حميد ﴾ بمعنى محمود أي هو مستحق ذلك بذاته وصفاته ، وقوله ﴿ وإذ قال ﴾ يحتمل أن يكون التقدير واذكر إذ قال ، ويحتمل أن يكون التقدير " وآتيناه الحكمة إذ قال " واختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه واسم ابنه ثاران ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم " يا بنيِّ " بالشد والكسر في الياء في الثلاثة على إدغام إحدى الياءين في الأخرى ، وقرأ حفص والمفضل عن عاصم " يا بنيَّ " بالشد والفتح في الثلاثة على قولك يا بنيا ويا غلاما ، وقرأ ابن أبي برة عن ابن كثير " يا بنيْ " بسكون الياء ، و ﴿ يا بني إنها ﴾ [لقمان : 16] بالكسر ، و ﴿ يا بنيَّ أقم الصلاة ﴾ [لقمان : 17] بفتح الياء ، وروى عنه قنبل بالسكون في الأولى والثالثة وبكسر الوسطى وظاهر قوله ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أنه من كلام لقمان ، ويحتمل أن يكون خبراً من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى ، ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لما نزلت ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام : 82] أشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم ، فأنزل

الله تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فسكن إشفاقهم .

قال الفقيه الإمام القاضي : وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون ذلك خبراً من الله تعالى ، وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ

(374/607)

هاتان الآيتان اعتراض أثناء وصية لقمان ، ووجه الطبري ذلك بأنها من معنى كلام لقمان ومما قصده ، وذلك غير متوجه لأن كون الآيتين في شأن سعد بن أبي وقاص حسب ما أذكره بعد يُضعِّفُ أن تكون مما قالها لقمان ، وإنما الذي يشبه أنه اعتراض أثناء الموعظة وليس ذلك بمفسد للأول منها ولا للآخر ، بل لما فرغ من هاتين الآيتين عاد إلى الموعظة على تقدير إضمار وقال أيضاً لقمان ثم اختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه ، وهذه الآية شرك الله تعالى الأم والوالد منها في رتبة الوصية بهما ، ثم خصص الأم بدرجة ذكر الحمل ودرجة ذكر الرضاع فتحصل للأم ثلاث مراتب وللأب واحدة ، وأشبه ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل من أبر ؟ " قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : ثم أمك . قال ثم من ؟ قال : ثم أمك . قال ثم من ؟ قال ثم أباك " فجعل له الربع من المبرة كالآية . ﴿ وهناً على

وهن ﴾ معناه ضعفاً على ضعف ، وقيل إشارة إلى مشقة الحمل ومشقة الولاد بعده ، وقيل إشارة إلى ضعف الولد وضعف الأم معه ، ويحتمل أن أشار إلى تدرج حالها في زيادة الضعف ، فكأنه لم يعين ضعفين بل كأنه قال حملته أمه والضعف يتزيد بعد الضعف إلى أن ينقضي أمره ، وقرأ عيسى الثقفي " وهَناً على وهَن " بفتح الهاء ، ورويت عن أبي عمرو وهما بمعنى واحد ، وقرأ جمهور الناس " وفصاله " ، وقرأ الحسن وأبو رجاء والجحدري ويعقوب " وفصله " ، وأشار ب " الفصال " إلى تعديد مدة الرضاع فعبر عنه بغايته ، والناس مجموع على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات ، وأما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعامين لا زيادة ولا نقص ، وقالت فرقة العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع في حكم واحد يحرم ، وقالت فرقة إن فطم الصبي قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم ، وقوله تعالى : ﴿ أن اشكر ﴾ يحتمل أن يكون التقدير " بأن اشكر " ، ويحتمل أن تكون مفسرة ، وقال سفيان بن

عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى . ومن دعا لوالديه في دبر الصلوات فقد شكرهما ، وقوله تعالى : ﴿ إليّ المصير ﴾ توعد أثناء الوصية ، وقوله تعالى : ﴿

وإن جاهداك ﴾ الآية روي أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص وذلك أن أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية لما أسلم حلفت أن لا تأكل ولا تشرب حتى يفارق دنيه ويرجع إلى دين قومه فلج سعد في الإسلام ، وكانت هي إذا أفرط عليه الجوع والعطش شحوا فاها ، ويروى شجروا فاها ، أي فتحوه بعود ونحوه وصبوا ما يرمقها ، فلما طال ذلك ورأت أن سعداً لا يرجع أكلت ، ففي هذه القصة نزلت الآيات ، قاله سعد بن أبي وقاص والجماعة من المفسرين .

قال الفقيه الإمام القاضي : فمطلب الآية الأولى الأمر ببر الوالدين وتعظيمه ، ثم حكم بأن ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي ، وجملة هذا الباب أن طاعة الوالدين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان ، وتلزم طاعتهما في المباحات وتستحسن في ترك الطاعات الندب ، ومنه أمر جهاد الكفاية والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة ، على أن أقوى من الندب لكن يعلل بخوف هلكة عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة ، فلا يكون أقوى من الندب ، وخالف الحسن في هذا الفصل فقال إن منعته أمه من شهود العشاء الآخرة شفقة فلا يطعها ، وقوله ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ يعني الأبوين الكافرين أي صلهما بالمال وادعهما برفق ، ومنه قول أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قدمت عليها خالتها ، وقيل أمها من الرضاعة ، فقالت : يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها ؟ قال نعم . وراغبة قيل معناه عن الإسلام .

قال الفقيه الإمام القاضي : والأظهر عندي أنها راغبة في الصلة وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها ، ووالدة أسماء هي قتيلة بنت عبد عزى بن عبد أسعد وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام .

(376/607)

وقوله تعالى : ﴿ واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ ، وصية لجميع العالم كأن المأمور الإنسان ، و﴿ أناب ﴾ معناه ، مال ورجع إلى الشيء ، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين ، وحكى النقاش أن المأمور سعد والذي أناب أبو بكر ، وقال : إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزبير فقالوا آمنت ؟ قال نعم ، فنزلت فيه ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ﴾ [الزمر : 9] فلما سمعها الستة آمنوا فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ [الزمر : 17] إلى قوله ﴿ أولئك الذي هداهم الله ﴾ [الزمر : 18] . ثم توعد عز وجل بالبعث من القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(377/607)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ مفعولان .

ولم ينصرف "لُقْمَانَ" لأن في آخره ألفاً ونوناً زائدتين ؛ فأشبه فُعلان الذي أنثاه فُعلَى فلم ينصرف في المعرفة لأن ذلك ثقل ثان ، وانصرف في النكرة لأن أحد الثقلين قد زال ؛ قاله النحاس .

وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح ، وهو آزر أبو إبراهيم ؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق .

وقيل : هو لقمان بن عنقاء بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة ؛ ذكره السهيليّ .

قال وهب : كان ابنَ أخت أيوب .

وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب .

الزَّمَخْشَرِيّ : وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل كان من أولاد آزر ، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم ، وكان يُفتي قبل مبعث داود ، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له ، فقال : ألا أكتفي إذ كُفيت .

وقال الواقدي : كان قاضياً في بني إسرائيل .

وقال سعيد بن المسيّب : كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله تعالى

الحكمة ومنعه النبوّة ؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبياً .

وقال بنبوّته عِكرمة والشعبيّ ؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوّة .

والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمة الله تعالى وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدِّين والعقل قاضياً في بني إسرائيل ، أسود مشقَّق الرِّجلين ذا مشافر ، أي عظيم الشفتين ؛ قاله ابن عباس وغيره .

وروي من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لم يكن لقمان نبيًّا ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين ، أحبّ الله تعالى فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، وخيّره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق ؛ فقال : ربّ ، إن خيّرتني قبلتُ العافية وتركت البلاء ، وإن عزمتَ عليّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمني " ؛ ذكره ابن عطية .

(378/607)

وزاد الثعلبيّ : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لَمِ يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها ، يغشاه المظلوم من كل مكان ، إن يُعَنْ فبالْحَرَى أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة .

ومن يكن في الدنيا ذليلاً فذلك خير من أن يكون فيها شريفاً .

ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة .

فعجبت الملائكة من حسن منطقه ؛ فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلّم بها .

ثم نودي داود بعده فقبلها يعني الخلافة ولم يشترط ما اشترطه لقمان ، فهوَى في الخطيئة غير مرة ، كل ذلك يعفو الله عنه .

وكان لقمان يوازره بحكمته ؛ فقال له داود : طوبى لك يا لقمان ! أعطيت الحكمة وصُرف عنك البلاء ، وأُعطي داود الخلافة وابتُلي بالبلاء والفتنة .

وقال قتادة : خيّر الله تعالى لقمان بين النبوّة والحكمة ؛ فاختار الحكمة على النبوّة ؛ فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم فذرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطِق بها ؛ فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوّة وقد خيّرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إليّ بالنبوّة عَزْمة لرجوْت فيها العون منه ، ولكنه خيّرني فخفت أن أضعُف عن النبوّة ، فكانت الحكمة أحبّ إليّ .

واختلف في صنعته ؛ فقيل : كان خياطاً ؛ قاله سعيد بن المسيّب ، وقال لرجل أسود : لا تحزن من أنك أسود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثةٌ من السودان : بلال ومِهْجع مولى عمر ولقمان .

وقيل : كان يحتطب كل يوم لمولاه حُزْمه حطب .

وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض .

وقيل : كان راعياً ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له : ألست عبد بني فلان ؟ قال : بلى .

قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدَر الله ، وأدائي الأمانة ، وصدق الحديث ، وترك ما لا يعنيني ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر .

(379/607)

وقال خالد الرَّبَعي : كان نجاراً ؛ فقال له سيده : اذبح لي شاة وائتني بأطيبها مُضْغتين ؛ فأتاه باللسان والقلب ؛ فقال له : ما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ فسكت ، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له : ألق أخبثها مضغتين ؛ فألقى اللسان والقلب ؛ فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تُلقي أخبثها فألقيت اللسان والقلب ؟ ! فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

قلت : هذا معناه مرفوع في غير ما حديث ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلُحت صَلُح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " وجاء في اللسان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة ؛ ومنها قوله عليه السلام : " من وقاه الله شر اثنتين وَلَج الجنة : ما بين لَحْيَيْه ورجليه . . .

" الحديث .

وحِكَم لقمان كثيرةٌ مأثورة هذا منها .

وقيل له : أيّ الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئاً .

قلت : وهذا أيضاً مرفوع معنى ، قال صلى الله عليه وسلم : " كلّ أمتي معافى إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عمِلت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربّه ويصبح يَكْشِف سِتر الله عنه " رواه أبو هريرة خرجه البخاري .

وقال وهب بن منبّه : قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب .

وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع ، وقد ليّن الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله ، فأدركته الحكمة فسكت ؛ فلما أتمها لبِسها وقال : نِعم لَبُوسُ الحرب أنتِ .

فقال : الصمت حكمة ، وقليل فاعله .

فقال له داود : بحقٍّ مّا سُمّيت حكيماً .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشكر لِلَّهِ ﴾ فيه تقديران : أحدهما أن تكون "أن" بمعنى أي مفسرة ؛ أي قلنا له اشكر .

والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها ؛ كما حكى سيبويه : كتبت إليه أن قم ؛ إلا أن هذا الوجه عنده بعيد .

وقال الزجاج : المعنى ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن يشكر الله تعالى .

وقيل : أي بأن اشكر الله تعالى فشكر ؛ فكان حكيماً بشكره لنا .

والشكر لله : طاعته فيما أمر به .

وقد مضى القول في حقيقته لغة ومعنى في "البقرة" وغيرها ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه ؛ لأن نفع الثواب عائد إليه .

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي كفر النعم فلم يوحّد الله ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ ﴾ عن عبادة خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ عند الخلق ؛ أي محمود .

وقال يحيى بن سلام : "غَنِيّ" عن خلقه "حَمِيدٌ" في فعله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ قال السُّهَيْلِي : اسم ابنه ثاران ؛ في قول الطبري والقُتَبِيّ .

وقال الكلبي : مشكم .

وقيل أنعم ؛ حكاه النقاش .

وذكر القشيري أن ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما .

قلت : ودلّ على هذا قوله : ﴿ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وفي صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " واختلف في قوله : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فقيل : إنه من كلام لقمان .

(381/607)

وقيل : هو خبر من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى ؛ ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لما نزلت : ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فسكن إشفاقهم ، وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبراً من الله تعالى ؛ وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد .

و"إذ" في موضع نصب بمعنى اذكر .

وقال الزجاج في كتابه في القرآن : إن "إذ" في موضع نصب ب"آتينا" والمعنى : ولقد آتينا

لقمان الحكمة إذ قال .

النحاس : وأحسبه غلطاً ؛ لأن في الكلام واواً تمنع من ذلك .

وقال : "يَا بُنَيِّ" بكسر الياء ؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة ، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده ؛ وقد مضى في "هود" القول في هذا .

وقوله : "يا بني" ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه ، وإنما هو على وجه الترقيق ؛ كما يقال للرجل : يا أُخَيّ ، وللصبي هو كُوَيْس .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ ﴾

فيه ثماني مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصيّة لقمان .

وقيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ابنَه ؛ أخبر الله به عنه ؛ أي قال لقمان لابنه : لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والديك ، فإن الله وصّى بهما في طاعتهما مما لا يكون شركاً ومعصية لله تعالى .

وقيل : أي وإذ قال لقمان لابنه ؛ فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه ؛ أي قلنا له اشكر لله ، وقلنا له ووصينا الإنسان .

وقيل : وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وأمرنا الناس بهذا ، وأمر لقمان به ابنه ؛ ذكر هذه الأقوال القشيريّ .

(382/607)

والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وَقّاص ؛ كما تقدم في "العنكبوت" وعليه جماعة المفسرين .

وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان ، وتلزم طاعتهما في المباحات ، ويستحسن في ترك الطاعات الندب ؛ ومنه أمر الجهاد الكفاية ، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة ؛ على أن هذا أقوى من الندب ؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها ، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب .

وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال : إن منعته أمّه من شهود العِشاء شفقة فلا يطعها .

الثانية : لما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب ، وللأب واحدة ؛ وأشبه ذلك " قوله صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل : من أَبَرّ ؟ قال : "أمّك" قال : ثم من ؟ قال : "أمك" قال ثم من ؟ قال : "أمك" قال : ثم من ؟ قال : "أبوك" " فجعل له الرّبع من المَبَرَّة كما في هذه الآية ؛ وقد مضى هذا كله في "سبحان" .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف .

وقيل : المرأة ضعِيفة الخلقة ثم يُضعفها الحمل .

وقرأ عيسى الثَّقَفيّ : "وَهَناً على وَهَن" بفتح الهاء فيهما ؛ ورويت عن أبي عمرو ، وهما بمعنًى واحد .

قال قَعْنَب بن أم صاحب :

هل للعواذل من ناهٍ فيَزْجُرَها . . .

إن العواذل فيها الأَين والوَهَن

يقال : وَهَن يَهِن ، ووَهُن يَوْهَنُ ووَهِن ، يَهِن ؛ مثل وَرُم يَرِم .

وانتصب "وَهْناً" على المصدر ؛ ذكره القشيري .

النحاس : على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر ؛ أي حملته بضعف على ضعف .

وقرأ الجمهور : "وَفِصَالُهُ" وقرأ الحسن ويعقوب : "وفَصْله" وهما لغتان ، أي وفصاله في انقضاء عامين ؛ والمقصود من الفصال الفطام ، فعبّر بغايته ونهايته .

ويقال : انفصل عن كذا أي تميّز ؛ وبه سُمِّيَ الفَصِيل .

الرابعة : الناس مُجْمِعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات ، وأما في تحريم اللبن فحدّدت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص .

وقالت فرقة : العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع .

وقالت فرقة : إن فُطم الصبيّ قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرّم ؛ وقد مضى هذا في "البقرة" مستوفًى .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشكرلي ﴾ "أَن" في موضع نصب في قول الزجاج ، وأن المعنى : ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي .

النحاس : وأجود منه أن تكون "أن" مفسرة ، والمعنى : قلنا له أن اشكر لي ولوالديك .

قيل : الشكر لله على نعمة الإيمان ، وللوالدين على نعمة التربية .

وقال سفيان بن عُيَيْنة : من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قد بينا أن هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لمّا أسلم ، وأن أمّه وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أُمَيَّة حلفت ألاّ تأكل ؛ كما تقدم في الآية قبلها .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ نعت لمصدر محذوف ؛ أي مصاحباً معروفاً ؛ يقال صاحبته مصاحبة ومصاحَباً .

و"مَعْرُوفاً" أي ما يحسن .

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلاَنة القول والدعاء إلى الإسلام برفق .

(384/607)

وقد " قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبيّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت : يا رسول الله ، إن أميّ قدِمت عليّ وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : "نعم" " وراغبة قيل معناه : عن الإسلام .

قال ابن عطية : والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة ، وما كانتِ لِتقْدم على أسماء لولا حاجتها .

ووالدة أسماء هي قُتيلة بنت عبد العُزّى بن عبد أسد .

وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان قديمة الإسلام .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وصيّة لجميع العالم ؛ كأن المأمور

الإنسان .

و"أَنَابَ" معناه مال ورجع إلى الشيء ؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين .

وحكى النقاش أن المأمور سعد ، والذي أناب أبو بكر ؛ وقال : إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزّبير فقالوا : آمنت ! قال نعم ؛ فنزلت فيه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الليل سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : 9] فلمّا سمعها الستة آمنوا ؛ فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا وأنابوا إِلَى الله لَهُمُ البشرى إلى قوله أولئك الذين هَدَاهُمُ الله ﴾ [الزمر : 17 18] .

وقيل : الذي أناب النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس : ولما أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر ؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عُتبة .

ثم توعّد عز وجل بِبَعث مَن في القبور والرجوع إليه للجزاءِ والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾

(386/607)

كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ بطلانِ الشّركِ وهو لقمانُ بنُ باعُوراء من أولادِ آزرَ بنِ أختِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ أو خالتِه وعاشَ حتَّى أدركَ داودَ عليه السَّلامُ وأخذ عنْهُ العلمَ وكان يُفتي قبل مبعثِه وقيل : كان قاضياً في بني إسرائيلَ . والجمهورُ على أنَّه كانَ حكيماً ولم يكُنْ نبيّاً ، والحكمةُ في عُرفِ العُلماءِ : استكمالُ النَّفسِ الإنسانيَّةِ باقتباسِ العُلومِ النَّظريةِ واكتسابِ المَلَكةِ التَّامةِ على الأفعالِ الفاضلةِ على قدرِ طاقتِها . ومن حكمتِه أنَّه صحبَ داودَ عليه السَّلام شُهوراً وكان يسرد الدّرعَ فلم يسألْه عنها فلمَّا أتمَّها لبسها وقال نعمَ لبوسُ الحربِ أنتِ فقال : (الصَّمتُ حكمةٌ وقليلٌ فاعلُه) فقال له داودُ عليه السَّلامُ : بحقَ ما سُمّيت حكيماً وأنَّ داودَ قال له يوماً كيفَ أصبحتَ فقال أصبحتُ في يَدَيْ غيرِي فتفكَّر داودُ فيه فصعِق صعقةً . وأنَّه أمرَه مولاهُ بأنْ يذبحَ شاةً ويأتي بأطيبِ مُضغتينِ منها فأتى باللّسانِ والقلبِ ، ثمَّ بعد أيَّامٍ أمره بأنْ يأتيَ بأخبثِ مُضغتينِ منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال : هُما أطيبُ شيءٍ إذا طابَا وأخبثُ شيءٍ إذا خُبثا . ومعنى ﴿ أَنِ اشكر للهِ

﴿ أي اشكُر له تعالى على أنَّ أنْ مفسّرةٌ فإنَّ إيتاءَ الحكمةِ في معنى القَولِ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ ﴾ الخ استئنافٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبله موجبٌ للامتثالِ بالأمر أي ومَن يشكُرْ له تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأنَّ منفعتَهُ التي هي ارتباطُ العتيدِ واستجلابُ المزيدِ مقصورةٌ عليها ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ ﴾ عن كلِّ شيءٍ فلا يحتاجُ إلى الشُّكرِ ليتضررَ بكفرِ مَن كفَرَ ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيقٌ بالحمد وإنْ لم يحمدْهُ أحدٌ أو محمودٌ بالفعل ينطقُ بحمدِه جميعُ المخلوقاتِ بلسانِ الحالِ . وعدمُ التَّعرضِ لكونِه تعالى مشكُوراً لما أنَّ الحمدَ متضمنٌ للشكرِ

(387/607)

بل هو رأسُه ، كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " الحمدُ رأسُ الشُّكرِ لم يشكرِ اللهَ عبدٌ لم يحمدْهُ " فإثباتُه له تعالى إثباتٌ للشكرِ له قطعاً .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴾ أنعمَ وقيل أشكمَ وقيل ماثانَ ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بنى ﴾ تصغيرُ إشفاقٍ . وقُرِىء يا بنيْ بإسكانِ الياءِ وبكسرِها ﴿ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ ﴾ قيل : كانَ ابنُه كافراً فلم يزلْ به حتَّى أسلم ومن وقفَ على لا تُشرِكْ جعلَ باللهِ قسماً ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ أو للانتهاءِ عن الشِّركِ ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه ﴾ الخ كلامٌ مستأنفٌ

اعترض به على نهجِ الاستطرادِ في أثناءِ وصيَّةِ لقمانَ تأكيداً لما فيها من النَّهيِ عن الشّركِ .

وقولُه تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ﴾ إلى قولِه في عامينِ اعتراضٌ بين المفسَّر والمفسّر . وقولُه تعالى : ﴿ وَهْناً ﴾ حالٌ من أمّه أي ذاتَ وهنٍ أو مصدرٌ مؤكّدٌ لفعلٍ هو الحالُ أي تهِنُ وَهْناً . وقولُه تعالى : ﴿ على وَهْنٍ ﴾ صفة للمصدرِ أي كائناً على وَهنٍ أي تضعُف ضعفاً فوقَ ضعفٍ فإنَّها لا تزالُ يتضاعفُ ضعفُها .

وقُرِىء وَهَنا على وَهَن بالتَّحريك يقالُ وَهِن يَهِنُ وَهَنا ووَهَن يَوْهِنُ وَهْناً ﴿ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ ﴾ أي فطامُه في تمامِ عامينِ وهي مدَّةُ الرَّضاعِ عند الشَّافعيّ وعند أبي حنيفةَ رحمهما الله تعالى هي ثلاثُون شهراً . وقد بُيِّن وجهُه في موضعِه . وقُرِىء وفَصْلُه . ﴿ أَنِ اشكرلى ولوالديك ﴾ تفسيرٌ لوصَّينا وما بينهما اعتراضٌ مؤكّدٌ للوصيّةِ في حقّها خاصَّة ولذلك (قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لمن قالَ له مَن أبرُّ ؟ " أمَّك ثمَّ أمَّك ثمَّ أمَّك ثمَّ قال بعدَ ذلكَ ثمَّ أباكَ " ﴿ إِلَىَّ المصير ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الامتثالِ أي إليَّ الرُّجوع لا إلى غيرِي فأجازيك على ما صَدَرَ عنْك من الشُّكرِ والكُفرِ .

(388/607)

﴿ وَإِن جاهداك على أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ﴾ أي بشركته له تعالى في استحقاقِ العبادةِ ﴿ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك ﴿ وصاحبهما فِى الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ أي صحاباً معروفاً يرتضيه الشَّرعُ وتقتضيه المروءةُ. ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ في الطَّاعةِ ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مرجعُك ومرجعُهما ومرجعُ من أناب إليَّ ﴿ فَأُنَبِّئُكُم ﴾ عند رجوعِكم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأنْ أجازيَ كُلاًّ منكم بما صدَرَ عنه من الخيرِ والشرِّ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(389/607)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾

كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك بالنقل بعد الإشارة إلى بطلانه بالعقل .

ولقمان اسم أعجمي لا عربي مشتق من اللقم وهو على ما قيل : ابن باعوراء قال وهب : وكان ابن أخت أيوب عليه الصلاة والسلام ، وقال مقاتل : كان ابن خالته ، وقال عبد الرحمن السهيلي : هو ابن عنقا بن سرون ، وقيل : كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه فلما بعث قطع الفتوى فقيل

له فقال : ألا أكتفي إذا كفيت ، وقيل : كان قاضياً في بني إسرائيل ، ونقل ذلك عن الواقدي إلا أنه قال : وكان زمانه بين محمد .

وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، وقال عكرمة .

والشعبي كان نبياً ، والأكثرون على أنه كان في زمن داود عليه السلام ولم يكن نبياً .

واختلف فيه أكان حراً أو عبداً والأكثرون على أنه كان عبداً .

واختلفوا فقيل : كان حبشياً ، وروى ذلك عن ابن عباس .

ومجاهد .

وأخرج ذلك ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً ، وذكر مجاهد في وصفه أنه كان غليظ الشفتين مصفح القدمين ، وقيل : كان نوبياً مشقق الرجلين ذا مشافر ، وجاء ذلك في رواية عن ابن عباس .

وابن المسيب .

ومجاهد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير قال : قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة ، وأخرج هو .

وابن جرير .

وابن المنذر عن ابن المسيب أنه قال : إن لقمان كان أسود من سودان مصر ذا مشافر

أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة .

واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال فقال خالد بن الربيع : كان نجاراً بالراء ، وفي معانى الزجاج كان نجاداً بالدال وهو على وزن كتاب من يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وأحمد في الزهد .

وابن المنذر عن ابن المسيب أنه كان خياطاً وهم أعم من النجاد .

(390/607)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان راعياً وقيل : كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة ولا وثوق لي بشيء من هذه الأخبار وإنما نقلتها تأسياً بمن نقلها من المفسرين الأخيار غير أني اختار أنه كان رجلاً صالحاً حكيماً ولم يكن نبياً .

و ﴿ الحكمة ﴾ على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس العقل والفهم والفطنة .

وأخرج الفريابي .

وأحمد في الزهد .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم عن مجاهد أنها العقل والفقه والإصابة في القول ، وقال الراغب : هي معرفة الموجودات وفعل الخيرات وقال الإمام : هي عبارة عن توفيق العمل بالعلم ثم قال : وإن أردنا تحديداً بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول : حصول العمل على وفق المعلوم وقال أبو حيان : هي المنطق الذي يتعظ به ويتنبه ويتناقله الناس لذلك ، وقيل : اتقان الشيء علماً وعملاً وقيل : كمال حاصل باستكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها وفسرها كثير من الحكماء بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية .

(391/607)

ولهم تفسيرات أخر وما لها وما عليها من الجرح والتعديل مذكوران في كتبهم ومن حكمته قوله لابنه : أي بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى وحشوها الايمان وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك أن تنجو ولا أراك ناجياً ، وقوله : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزاً والذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية وقوله : ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع وقوله : يا بني إياك والدين فإنه ذل النهار هم الليل وقوله يا

بني ارج الله عز وجل رجاء لا يجريك على معصيته تعالى وخف الله سبحانه خوفاً لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه ، وقوله : من كذب ذهب ماء وجهه ومن ساء خلقه كثير غمه ونقل الصخور من موضعها أيسر من إفهام من لا يفهم ، وقوله : يا بني حملت الجندل والحديد وكل شيء ثقيل فلم أحمل شيئاً هو أثقل من جار السوء ، وذقت المرار فلم أذق شيئاً هو أمر من الفقر ، يا بني لا ترسل رسولك جاهلاً فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك ، يا بني إياك والكذب فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه ، يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا ، يا بني لا تأكل شبعاً عل شبع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله ، يا بني لا تكن حلواً فتبلع ولا مراً فتلفظ ، وقوله لابنه : لا يأكل طعامك إلا الأتقياء وشاور في أمرك العلماء ، وقوله : لا خير لك في أن تتعلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحمل حزمة وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى ، وقوله : يا بني إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره ، وقوله : لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء ، وقوله : يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بد لك منه

، يا بني كن كمن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب ذمهم فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة ، وقوله : يا بني امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكت سالم وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك إلى غير ذلك مما لا يحصى ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ أي أي أشكر على أن ﴿ إن ﴾ تفسيرية وما بعدها تفسير لايتاء الحكمة وفيه معنى القول دون حروفه سواء كان بإلهام أو وحي أو تعليم .

وجوز أن يكون تفسيراً للحكمة باعتبار ما تضمنه الأمر ، وجعل الزجاج ﴿ إن ﴾ مصدرية بتقدير اللام التعليلية ولا يفوت معنى الأمر كما مر تحقيقه .

(393/607)

وحكى سيبويه كتبت إليه بأن قم ، والجار متعلق بآتينا ، وجوز كونها مصدرية بلا تقدير على أن المصدر بدل اشتمال من الحكمة ، وهو بعيد ﴿ وَمَن يَشْكُرْ ﴾ الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالأمر أي ومن يشكر له تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفعه من ارتباط القيد واستجلاب المزيد والفوز بجنة الخلود مقصورة عليها ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ ﴾ عن كل شيء فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرر بكفر من كفر ﴿

حَمِيدٌ ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده تعالى جميع المخلوقات بلسان الحال ، فحميد فعيل بمعنى محمود على الوجهين ، وعدم التعرض لكونه سبحانه وتعالى مشكوراً لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال صلى الله عليه وسلم : " الحمد رأس الشكر لم يشكر الله تعالى عبد لم يحمده " فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعاً ، وفي اختيار صيغة المضي في هذا الشق قيل : إشارة إلى قبح الكفران وأنه لا ينبغي إلا أن يعد في خبر كان ، وقيل إشارة إلى أنه كثير متحقق بخلاف الشكر ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] وجواب الشرط محذوف قام مقامه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ الله ﴾ الخ ، وكان الأصل ومن كفر فإنما يكفر على نفسه لأن الله غني حميد ، وحاصله ومن كفر فضرر كفره عائد عليه لأنه تعالى غني لا يحتاج إلى الشكر ليتضرر سبحانه بالكفر محمود بحسب الاستحقاق أو بنطق ألسنة الحال فكلا الوصفين متعلقن بالشق الثاني ، وجوز أن يكون ﴿ غَنِيٌّ ﴾ تعليلاً لقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ حَمِيدٌ ﴾ تعليلاً للجواب المقدر للشرط الثاني بقرينة مقابله وهو فإنما يكفر على نفسه ، وأن يكون كل منهما متعلقاً بكل منهما ، ولا يخفى ما في ذلك من التكلف الذي لم يدع إليه ولم تقم عليه قرينة فتدبر .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ ﴾ تاران على ما قال الطبري .

والقتيبي ؛ وقيل : ماثا بالمثلثة ، وقيل : أنعم ، وقيل : أشكم وهما بوزن أفعل ، وقيل : مشكم بالميم بدل الهمزة ، و﴿ إِذْ ﴾ معمول لا ذكر محذوفاً ، وقيل : يحتمل أن يكون ظرفاً لآتينا والتقدير وآتيناه الحكمة إذ قال واختصر لدلالة المقدم عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ جملة حالية ، والوعظ كما قال الراغب زجر مقترن بتخويف ، وقال الخليل : هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب ﴿ أَوْ بَنِى ﴾ تصغير إشفاق ومحبة لا تصغير تحقير .

ولكن إذا ماحب شيء تولعت . . .

به أحرف التصغير من شدة الوجد

وقال آخر :

ما قلت حبيبي من التحقير . . .

بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

وقرأ البزي هنا ﴿ يا بَنِى ﴾ بالسكون وفيما بعد ﴿ يا بني إِنَّهَا ﴾ [لقمان : 16] بكسر الياء ﴿ يا بني أَقِمِ ﴾ [لقمان : 17] بفتحها ، وقنبل بالسكون في الأولى والثالث والكسر في الوسطى ، وحفص .

والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير يا بنيا والاجتزاء بالفتحة عن الألف ، وقرأ باقي السبعة بالكسر فيها ﴿ لاَ تُشْرِكْ بالله ﴾ قيل : كان ابنه كافراً ولذا نهاه عن الشرك

فلم يزل يعظه حتى أسلم ، وكذا قيل في امرأته .

وأخرج ابن أبي الدنيا في نعت الخائفين عن الفضل الرقاشي قال : ما زال لقمان يعظ ابنه حتى مات .

(395/607)

وأخرج عن حفص بن عمر الكندي قال : وضع لقمان جراباً من خردل وجعل يعظ ابنه موعظة ويخرج خردلة فنفد الخردل فقال : يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظتها جبلاً لتفطر فتفطر ابنه ، وقيل : كان مسلماً والنهي عن الشرك تحذير له عن صدوره منه في المستقبل ، والظاهر أن الباء متعلق بما عنده ، ومن وقف على ﴿ لاَ تُشْرِكْ ﴾ جعل الباء للقسم أي أقسم بالله تعالى ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ والظاهر أن هذا من كلام لقمان ويقتضيه كلام مسلم في "صحيحه" ، والكلام تعليل للنهي أو الانتهاء عن الشرك ، وقيل : هو خبر من الله تعالى شأنه منقطع عن كلام لقمان متصل به في تأكيد المعنى ، وكون الشرك ظلماً لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه وكونه عظيماً لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا نعمة له .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه ﴾ الخ

كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد في أثناء وصية لقمان تأكيداً لما فيه من النهي عن الإشراك فهو من كلام الله عز وجل لم يقله سبحانه للقمان ، وقيل : هو من كلامه تعالى قاله جل وعلا وكأنه قيل : قلنا له اشكر وقلنا له وصينا الإنسان الخ ، وفي "البحر" لما بين لقمان لابنه إن الشرك ظلم ونهاه عنه كان ذلك حثاً على طاعة الله تعالى ثم بين أن الطاعة أيضاً تكون للأبوين وبين السبب في ذلك فهو من كلام لقمان مما وصى به ابنه أخبر الله تعالى عنه بذلك ، وكلا القولين كما ترى ، والمعنى وأمرنا الإنسان برعاية والديه ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً ﴾ أي ضعفاً ﴿ على وَهْنٍ ﴾ أي ضعف ، والمصدر حال من ﴿ أُمُّهُ ﴾ بتقدير مضاف أي ذات وهن ؛ وجوز جعله نفسه حالاً مبالغة لكنه مخالف للقياس إذ القياس في الحا لكونه مشتقاً ، ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لفعل مقدر أي تهن وهناً ، والجملة حال من ﴿ أُمُّهُ ﴾ أيضاً .

(396/607)

وأياً ما كان فالمراد تضعف ضعفاً متزايداً بازدياد ثقل الحمل إلى مدة الطلق ، وقيل : ضعفاً متتابعاً وهو ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف النفاس ، وجوز أن يكون حالاً من الضمير المنصوب في ﴿ حَمَلَتْهُ ﴾ العائد على ﴿ الإنسان ﴾ وهو الذي يقتضيه ما

أخرجه ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : ﴿ وَهْناً ﴾ الولد ﴿ على وَهْنٍ ﴾ الوالدة وضعفها ، والمراد أنه حملته حال كونه ضعيفاً على ضعيف مثله ، وليس المراد أنها حملته حال كونه متزايد الضعف ليقال إن ضعفه لا يتزايد بل ينقص .

وقرأ عيسى الثقفي .

وأبو عمرو في رواية ﴿ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ بفتح الهاء فيهما فاحتمل أن يكون من باب تحريك العين إذا كانت حرف حلق كالشعر والشعر على القياس المطرد عند الكوفي كما ذهب إليه ابن جني ، وأن يكون مصدر وهن بكسر الهاء يهوهن بفتحها فإن مصدره جاء كذلك وهذا كما يقال تعب يتعب تعباً كما قيل : وكلام صاحب "القاموس" ظاهر في عدم اختصاص أحد المصدرين بأحد الفعلين قال : الوهن الضعف في العمل ويحرك والفعل كوعد وورث وكرم .

﴿ وفصاله ﴾ أي فطامه وترك ارضاعه .

وقرأ الحسن .

وأبو رجاء وقتادة .

والجحدري .

ويعقوب ﴿ وفصاله ﴾ وهو أعم من الفصال ، والفصال ههنا أوقع من الفصل لأنه موقع

يختص بالرضاع وإن رجعا إلى أصل واحد على ما قال الطيبي ﴿ فِى عَامَيْنِ ﴾ أي في انقضاء عامين أي في أول زمان انقضائهما ، وظاهر الآية أن مدة الرضاع عامان وإلى ذلك ذهب الإمام الشافعي .

والإمام أحمد .

وأبو يوسف .

ومحمد ، وهو مختار الطحاوي .

(397/607)

وروى عن مالك ، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن مدة الرضاع الذي يتعلق به التحريم ثلاثون شهراً لقوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وفصاله ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] ، ووجه الاستدلال به أنه سبحانه وتعالى ذكر شيئين وضرب لهما مدة فكانت لكل واحد منهما بكمالها كالأجل المضروب للديني على شخصين بأن قال : أجلت الدين الذي لي على فلان والدين الذي لي على فلان سنة فإنه يفهم أن السنة بكمالها لكل ، أو على شخص بأن قال لفلان علي ألف درهم وعشرة أقفزة إلى سنة فصدقه المقر له في الأجل فإذا مضت السنة يتم أجلهما جميعاً إلا أنه قالم النقص في أحدهما أعني مدة الحمل لقول

عائشة الذي لا يقال مثله إلا سماعاً : الولد لا يبقى في بطن أمه أكثر من سنتين ولو بقدر فلكة مغزل فتبقى مدة الفصال على ظاهرها ، وما ذكر هنا أقل مدته وفيه بحث ﴿ أَنِ اشكر لِي ولوالديك ﴾ تفسير لوصينا كما اختاره النحاس فإن تفسيرية ، وجوز أن تكون مصدرية بتقدير لام التعليل قبلها وهو متعلق بوصينا وبلا تقدير على أن يكون المصدر بدلاً من والديه بدل الاستمال ، وعليه كأنه قيل : وصينا الإنسان بوالديه بشكرهما وذكر شكر الله تعالى لأن صحة شكرهما تتوقف على شكره عز وجل كما قيل في عكسه لا يشكر الله تعالى من لا يشكر الناس ولذا قرن بينهما في الوصية ، وفي هذا من البعد ما فيه ، وأما القول بأن الأمر يأبى التفسير والتعليل والبدلية بشيء كما أشرنا إليه قريباً ، وعلى الأوجه الثلاثة يكون قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ إِلى عَامَيْنِ ﴾ اعتراضاً مؤكداً للتوصية في حق الأم خصوصاً لذكر ما قاسته في تربيته وحمله ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث صحيح رواه الترمذي .

وأبو داود عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لمن سأله عمن يبره : أمك وأجابه عن سؤاله به ثلاث مرات ، وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائه : احمل أمي وهي الحمالة . . .

ترضعني الدرة والعلالة ولا يجازي والد فعاله

ولله تعالى در من قال :

لأمك حق لو علمت كبير . . .

كثيرك يا هذا لديه يسير فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي

لها من جراها أنة وزفير وفي الوضع لو تدري عليها مشقة . . .

فمن غصص لها الفؤاد يطير وكم غسلت عنك الأذى بيمينها

وما حجرها إلا لديك سرير وتفديك مما تشتكيه بنفسها . . .

ومن ثديها شرب لديك نمير وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها

حنوا وإشفاقاً وأنت صغير فآها لذي عقل ويتبع الهوى . . .

وآهاً لأعمى القلب وهو بصير فدونك فارغب في عميم دعائها

فأنت لما تدعو به لفقير . . .

واختلف في المراد بالشكر المأمور به فقيل هو الطاعة وفعل ما يرضي كالصلاة والصيام بالنسبة إليه تعالى وكالصلة والبر بالنسبة إلى الوالدين ، وعن سفيان بن عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ومن دعا لوالديه في ادبارها فقد شكرهما ولعل هذا بيان لبعض أفراد الشكر ﴿ إِلَيَّ المصير ﴾ تعليل لوجوب الامتثال بالأمر أي إلى الرجوع لا

إلى غيري فأجازيك على ما صدر عنك مما يخالف أمري .

﴿ وَإِن جاهداك على أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ﴾

أي باستحقاقه الإشراك أو بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ، والجار متعلق بقوله تعالى : ﴿ عِلْمٌ ﴾ وما مفعلو ﴿ تُشْرِكْ ﴾ كما اختاره ابن الحاجب ثم قال : ولو جعل ﴿ تُشْرِكْ ﴾ بمعنى تكفر وجعلت ﴿ مَا ﴾ نكرة أو بمعنى الذي بمعنى كفراً أو الكفر وتكون نصباً على المصدرية لكان وجهاً حسناً ، والكلام عليه أيضاً بتقدير مضاف أي وإن جاهدك الوالدان على أن تكفر بي كفراً ليس لك أو الكفر الذي ليس لك بصحته أو بحقيته علم ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك والمراد استمرار نفي العلم لا نفي استمراره فلا يكون الإشراك إلا تقليداً .

(399/607)

وفي "الكشاف" أراد سبحانه بنفي العلم نفي ما يشرك أي لا تشرك بي ما ليس بشيء يريد عز وجل الأصنام كقوله سبحانه : ﴿ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ ﴾ : وجعله الطيبي على ذلك من باب نفي الشيء بنفي لازمه وذلك أن العلم تابع للمعلوم فإذا كان الشيء معدوماً لم يتعلق به موجوداً ، ونقل عن ابن المنير أنه عليه من باب :

على لا حب لا يهتدي بمناره . . .

أي ما ليس بإله فيكون لك علم بإلهيته وفي "الكشف" أن الزمخشري أراد أنه بولغ في نفي الشريك حتى جعل كلا شيء ثم بولغ حتى ما لا يصح أن يتعلق به علم والمعدوم يصح أن يعلم ويصح أن يقال إنه شيء فأدخل في سلك المجهول مطلقاً وليس من قبيل نفي العلم لنفي وجوده وهذا تقرير حسن وفيه مبالغة عظيمة منه يظهر ترجيح هذا المسلك في هذا المقام على أسلوب .

ولا ترى الضب بها ينجحر . . .

اه فافهم ولا تغفل ﴿ وصاحبهما فِى الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ أي صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم والمروءة كإطعامهما واكسائهما وعدم جفائهما وانتهارهما وعيادتهما إذا مرضا ومواراتهما إذا ماتا ، وذكر ﴿ فِى الدنيا ﴾ لتهوين أمر الصحبة والإشارة إلى أنها في أيام قلائل وشيكة الانقضاء فلا يضر تحمل مشقتها لقلة أيامها وسرعة انصرامها ؛ وقيل : للإشارة إلى أن الرفق بهما في الأمور الدنيوية دون الدينية .

وقيل : ذكره لمقابلته بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي رجع ﴿ إِلَىَّ ﴾ بالتوحيد والإخلاص بالطاعة ، وحاصله اتبع سبيل المخلصين لا سبيلهما ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي رجوعك ورجوعهما وزاد بعضهم من أناب وهو خلاف الظاهر ، وأياً ما كان ففيه تغليب للخطاب على الغيبة ﴿ فَأُنَبِّئُكُم ﴾ عند

رجوعكم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر ،

والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص .

أخرج أبو يعلى .

والطبراني .

وابن مردويه .

(400/607)

وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي أن سعد بن أبي وقاص قال : أنزلت في هذه الآية ﴿ وَإِن جاهداك ﴾ الآية كنت رجلاً براً بأمي فلما أسلمت قالت : يا سعد وما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال يا قاتل أمه قلت : لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء فمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد اشتهد جهدها فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله ولو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي فلما رأت ذلك أكلت فنزلت هذه الآية ، وذكر بعضهم أن هذه وما قبلها أعني قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان ﴾ [لقمان :

14] الآية نزلتا فيه قيل ولكون النزول فيه قيل : من أناب بتوحيد الضمير حيث أريد بذلك أبو بكر رضي الله تعالى عنه فإن إسلام سعد كان بسبب إسلامه .

أخرج الواحدي عن عطاء عن ابن عباس قال إنه يريد بمن أناب أبو بكر وذلك أنه حين أسلم رآه عبد الرحمن بن عوف .

وسعيد بن زيد وعثمان وطلحة والزبير فقالوا لأبي بكر آمنت وصدقت محمداً صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : نعم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمنوا وصدقوا فأنزل الله تعالى يقول لسعد : ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعني أبا بكر رضي الله تعالى عنه ، وابن جريج يقول كما أخرج عنه ابن المنذر من أناب محمد عليه الصلاة والسلام ، وغير واحد يقول هو صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، والظاهر هو العموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(401/607)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾

الواو عاطفة قصة لقمان على قصة النضر بن الحارث المتقدمة في قوله تعالى ﴿ ومن الناس

من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ [لقمان : 6] باعتبار كونها تضمنت عجيب حاله في الضلالة من عنايته بلهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذ سبيل الله هزؤاً ، وباعتبار كون قصة لقمان متضمنة عجيب حال لقمان في الاهتداء والحكمة ، فهما حالان متضادان ؛ فقُطِع النظر عن كون قصة النضر سيقت مساق المقدمة والمدخل إلى المقصود لأن الكلام لما طال في المقدمة خرجت عن سَنن المقدمات إلى المقصودات بالذات فلذلك عطفت عطفَ القصص ولم تُفصل فَصْل النتائج عقب مقدماتها .

وقد تتعدد الاعتبارات للأسلوب الواحد فيتخير البليغ في رعيها كقوله تعالى ﴿ يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ﴾ في سورة البقرة (49) ، ﴿ ويذبحون أبناءكم ﴾ في سورة [إبراهيم : 1] .

وافتتاح القصة بحرفي التوكيد : لام القسم و (قد) للإنباء بأنها خبر عن أمر مهم واقع .

و ﴿ لقمان ﴾ اسم رجل حكيم صالح ، وأكثر الروايات في شأنه التي يعضد بعضها وإن كانت أسانيدها ضعيفة تقتضي أنه كان من السود ، فقيل هو من بلاد النوبة ، وقيل من الحبشة .

وليس هو لقمان به عاد الذي قال المثل المشهور : إحدى حُظيات لقمان .

والذي ذكره أبو المهوش الأسدي أو يزيد بن عمر يصعق في قوله:

تراه يطوف الآفاق حرصاً . . .

ليأكل رأس لقمان بن عاد

(402/607)

ويعرف ذلك بلقمان صاحب النسور ، وهو الذي له ابن اسمه لقيم وبعضهم ذكر أن اسم أبيه باعوراء ، فسبق إلى أوهام بعض المؤلفين أنه المسمى في كتب اليهود بلعام بن باعوراء المذكور خبره في "الإصحاحين" (22 و23) من "سفر العدد" ، ولعل ذلك وهَم لأن بلعام ذلك رجل من أهل مَدْيَن كان نبيئاً في زمن موسى عليه السلام ، فلعل التوهم جاء من اتحاد اسم الأب ، أو من ظن أن بلعام يرادف معنى لقمان لأن بلعام من البلع ولقمان من اللّقم فيكون العرب سموه بما يرادف اسمه في العبرانية .

وقد اختلف السلف في أن لقمان المذكور في القرآن كان حكيماً أو نبيئاً .

فالجمهور قالوا : كان حكيماً صالحاً .

واعتمد مالك في "الموطأ" على الثاني ، فذكره في "جامع الموطأ" مرتين بوصف لقمان الحكيم ، وذلك يقتضي أنه اشتهر بذلك بين علماء المدينة .

وذكر ابن عطية : أن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لم يكن

لقمان نبيئاً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسنَ اليقين أحبَّ الله تعالى فأحبه فمنَّ عليه بالحكمة " ويظهر من الآيات المذكورة في قصته هذه أنه لم يكن نبيئاً لأنه لم يمتن عليه بوحي ولا بكلام الملائكة .

والاقتصارُ على أنه أوتي الحكمة يومىء إلى أنه أُلهم الحكمة ونطق بها ، ولأنه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى

﴿ وهو يعظه ﴾ [لقمان : 13] وذلك مؤذن بأنه تعليم لا تبليغ تشريع .

وذهب عكرمة والشعبي : أن لقمان نبيء ولفظ الحكمة يسمح بهذا القول لأن الحكمة أطلقت على النبوءة في كثير من القرآن كقوله في داود ﴿ وءاتيناه الحكمة وفصلَ الخطاب ﴾ [ص : 20] .

وقد فسرت الحكمة في قوله تعالى ﴿ ومن يُؤْت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] بما يشمل النبوءة .

وأن الحكمة "معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه" وأعلاها النبوءة لأنها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفاً لما هي عليه في نفس الأمر إذ النبوءة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن عمله شيء .

وسيأتي أن إيراد قوله تعالى ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ [لقمان : 14] في أثناء كلام لقمان يساعد هذا القول .

وذكر أهل التفسير والتاريخ أنه كان في زمن داود .

وبعضهم يقول : إنه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، فتعين أنه عاش في بلاد إسرائيل .

وذكر بعضهم أنه كان عبداً فأعتقه سيده ، وذكر ابن كثير عن مجاهد : أن لقمان كان قاضياً في بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام ، ولا يوجد ذكر ذلك في كتب الإسرائيليين .

قيل كان راعياً لغنم وقيل كان نجاراً وقيل خياطاً .

وفي "تفسير ابن كثير" عن ابن وهب أن لقمان كان عبداً لبني الحسحاس وبنو الحسحاس من العرب وكان من عبيدهم سحيم العبد الشاعر المخضرم الذي قتل في مدة عثمان .

وحكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقرّبة للخفيات بأحسن الأمثال .

وقد عني بها أهل التربية وأهل الخير ، وذكر القرآن منها ما في هذه السورة ، وذكر منها مالك في "الموطأ" بلاغين في كتاب "الجامع" وذكر حكمة له في كتاب "جامع العتبية" وذكر منها أحمد بن حنبل في "مسنده" ولا نعرف كتاباً جمع حكمة لقمان .

وفي "تفسير القرطبي" قال وهب بن منبه : قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب .

ولعل هذا إن صح عن وهب بن منبه كان مبالغة في الكثرة .

وكان لقمان معروفاً عند خاصة العرب .

قال ابن إسحاق في "السيرة" : قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجّاً أو معتمراً فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرِضها عليّ ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله .

قال ابن إسحاق : فقدم المدينة فلم يلبث أن قتلته الخزرج وكان قتله قبل يوم بعاث .

(404/607)

وكان رجال من قومه يقولون : إنّا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قومه يدْعُونه الكامل أ هـ .

وفي "الاستيعاب" لابن عبد البر : أنا شَاكٌّ في إسلامه كما شك غيري .

وقد تقدم في صدر الكلام على هذه السورة أن قريشاً سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لقمان وابنه وذلك يقتضي أنه كان معروفاً للعرب .

وقد انتهى إليّ حين كتابة هذا التفسير من حِكَم لقمان المأثورة ثمان وثلاثون حكمةً غير ما ذكر في هذه الآية وسنذكرها عند الفراغ من تفسير هذه الآيات .

والإيتاء : الإعطاء ، وهو مستعار هنا للإلهام أو الوحي .

و﴿ لقمان ﴾ : اسم علَم مَادته مادة عربية مشتق من اللَّقْم ، والأظهر أن العرب عربوه بلفظ قريب من ألفاظ لغتهم على عادتهم كما عربوا شاول باسم طالوت وهو ممنوع من الصرف لزيادة الألف والنون لا للعجمة .

وتقدم تعريف الحكمة عند قوله تعالى ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ في سورة البقرة (269) ، وقوله ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ في سورة النحل (125) .

وأنْ ﴾ في قوله ﴿ أن اشكر لله ﴾ تفسيرية وليست تفسيراً لفعل ﴿ ءاتينا ﴾ لأنه نصب مفعوله وهو الحكمة ، فتكون ﴿ أنْ ﴾ مفسرة للحكمة باعتبار أن الحكمة هنا أقوال أوحيت إليه أو ألهمها فيكون في الحكمة معنى القول دون حروفه فيصلح أن تُفسر بـ ﴿ أنْ ﴾ التفسيرية ، كما فسرت حاجة في قول الشاعر الذي لم يُعرف وهو من شواهد العربية:

إنْ تحملا حاجة لي خفّ محملها . . .

تستوجبا منة عندي بها ويَدا

أنْ تقرءان علي أسماء ويحكما . . .

مني السلامَ وأن لا تُخبرا أحدا

والصوفية وحكماء الإشراق يرون خواطرَ الأصفياء حجة ويسمونها إلهاماً .

ومال إليه جمّ من علمائنا .

وقد قال قطب الدين الشيرازي في "ديباجة شرحه على المفتاح" : أما بعد إني قَد ألقي إليَّ على سبيل الإنذار ، من حضرة الملك الجبار ، بلسان الإلهام ، إلاَّ كوَهَم من الأوهام ، ما أورثني التجافيَ عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار السرور ، الخ .

(405/607)

وكان أول ما لُقنه لقمان من الحكمة هو الحكمة في نفسه بأن أمره الله بشكره على ما هو محفوف به من نعم الله التي منها نعمة الاصطفاء لإعطائه الحكمة وإعداده لذلك بقابليته لها .

وهذا رأس الحكمة لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء وقبل التصدي لإرشاد غيره ، وأن أهم النظر في حقيقته هو الشعور بوجوده على حالة

كاملة والشعور بموجده ومفيض الكمال عليه ، وذلك كله مقتض لشكر موجده على ذلك .

وأيضاً فإن شكر الله من الحكمة ، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم ، فالحكيم يبث في الناس تلك الحقائق على حسب قابلياتهم بطريقة التشريع تارة والموعظة أخرى ، والتعليم لقابليه مع حملهم على العمل بما علموه من ذلك ، وذلك العمل من الشكر إذ الشكر قد عُرف بأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من مواهب ونِعم فيما خلق لأجله ؛ فكان شكر الله هو الأهم في الأعمال المستقيمة فلذلك كان رأس الحكمة لأن من الحكمة تقديم العلم بالأنفع على العلم بما هو دونه ؛ فالشكر هو مبدأ الكمالات علماً ، وغايتها عملاً .

وللتنبيه على هذا المعنى أعقب الله الشكر المأمور به ببيان أن فائدته لنفس الشاكر لا للمشكور بقوله ﴿ ومَن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ لأن آثار شكر الله كمالات حاصلة للشاكر ولا تنفع المشكور شيئاً لغناه سبحانه عن شكر الشاكرين ، ولذلك جيء به في صورة الشرط لتحقيق التعلق بين مضمون الشرط ومضمون الجزاء ، فإن الشرط أدل على ذلك من الإخبار .

وجيء بصيغة حصر نفع الشكر في الثبوت للشاكر بقوله ﴿ فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي ما يشكر إلا لفائدة نفسه ، ولام التعليل مؤذنة بالفائدة .

وزيد ذلك تبيناً بعطف ضده بقوله ﴿ ومَن كفر فإن الله غنيّ حميد ﴾ لإفادة أن الإعراض عن الشكر بعد استشعاره كفر للنعمة وأن الله غنيّ عن شكره بخلاف شأن المخلوقات إذ يكسبهم الشكر فوائد بين بني جنسهم تجر إليهم منافع الطاعة أو الإعانة أو الإغناء أو غير ذلك من فوائد الشكر للمشكورين على تفاوت مقاماتهم ، والله غني عن جميع ذلك ، وهو ﴿ حميد ﴾ ، أي : كثير المحمودية بلسان حال الكائنات كلها حتى حال الكافر به كما قال تعالى ﴿ ولله يسجد مَن في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ سورة الرعد (15) .

ومن بلاغة القرآن وبديع إيجازه أن كان قوله أن اشكر لله ﴾ جامعاً لمبدأ الحكمة التي أوتيها لقمان ، ولأمره بالشكر على ذلك ، فقد جمع قوله ﴿ أن اشكر لله ﴾ الإرشاد إلى الشكر ، مع الشروع في الأمر المشكور عليه تنبيهاً على المبادرة بالشكر عند حصول النعمة .

وإنما قوبل الإعراض عن الشكر بوصف الله بأنه حميد لأن الحمد والشكر متقاربان ، وفي الحديث : " الحَمدُ رأس الشكر " فلما لم يكن في أسماء الله تعالى اسم من مادة الشكر إلا اسمه الشكور وهو بمعنى شاكر ، أي : شاكر لعباده عبادتَهم إياه عُبر هنا باسمه ﴿ حميد ﴾ .

وجيء في فعل ﴿ يشكر ﴾ بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد .

واللام في قوله ﴿ أن اشكر لي ﴾ [لقمان : 14] داخلة على مفعول الشكر وهي لام ملتزم زيادتها مع مادة الشكر للتأكيد والتقوية ، وتقدم في قوله ﴿ واشكُرُوا لي ﴾ في سورة البقرة (152) .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

عطف على جملة ﴿ ءاتينا لقمان الحكمة ﴾ [لقمان : 12] لأن الواو نائبة مناب الفعل فمضمون هذه الجملة يفسر بعض الحكمة التي أوتيها لقمان .

والتقدير : وآتيناه الحكمة إذْ قال لابنه فهو في وقت قوله ذلك لابنه قد أوتي حكمة فكان ذلك القول من الحكمة لا محالة ، وكل حالة تصدر عنه فيها حكمة هو فيها قد أوتي حكمة .

و﴿ إذ ﴾ ظرف متعلق بالفعل المقدّر الذي دلت عليه واو العطف ، أي والتقدير : وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه .

وهذا انتقال من وصفه بحكمة الاهتداء إلى وصفه بحكمة الهدى والإرشاد .

ويجوز أن يكون ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ ظرفاً متعلقاً بفعل (اذكر) محذوفاً .

وفائدة ذكر الحال بقوله ﴿ وهو يعظه ﴾ الإشارة إلى أن قوله هذا كان لتلبس ابنه بالإشراك ، وقد قال جمهور المفسرين : إن ابن لقمان كان مُشركاً فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده ، فإن الوعظ زجرٌ مقترن بتخويف قال تعالى ﴿ فأَعْرِضْ عنهم وعِظهم وقُل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ [النساء : 63] ويعرف المزجور عنه بمتعلق فعل الموعظة فتعين أن الزجر هنا عن الإشراك بالله .

ولعل ابن لقمان كان يدين بدين قومه من السودان فلما فتح الله على لقمان بالحكمة والتوحيد أَبى ابنه متابعته فأخذ يعظه حتى دان بالتوحيد ، وليس استيطان لقمان بمدينة داود مقتضياً أن تكون عائلته تدين بدين اليهودية .

وأصل النهي عن الشيء أن يكون حين التلبس بالشيء المنهي عنه أو عند مقاربة التلبس به ، والأصل أن لا ينهى عن شيء منتف عن المنهي .

وقد ذكر المفسرون اختلافاً في اسم ابن لقمان فلا داعي إليه .

وقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصول الشريعة وهي : الاعتقادات ، والأعمال ، وأدب المعاملة ، وأدب النفس .

وافتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب ، فالنداء مستعمل مجازاً في طلب حضور الذهن لوعي الكلام وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ يا أَبَتِ إني رأيتُ أحَدَ عَشَرَ كوكباً ﴾ [يوسف : 4] وقوله ﴿ يا بُني لا تقصص رؤياك ﴾ في سورة يوسف (5) وقوله ﴿ إذْ قال الحواريون يا عيسى ابنَ مريم هل يستطيع ربك أن يُنَزّل علينا مائدة من السماء ﴾ في سورة العقود (112) وقوله تعالى ﴿ إذ قال لأبيه يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسمع ولا يبْصر ﴾ في سورة مريم (42) .

و﴿ بُنَيّ ﴾ تصغير (ابن) مضافاً إلى ياء المتكلم فلذلك كسرت الياء .

وقرأه الجمهور بكسر ياء ﴿ بُنَيِّ ﴾ مشدّدة .

وأصله : يا بُنَيْيي بثلاث ياءات إذ أصله الأصيل يا بُنَيْوِي لأن كلمة ابن واوية اللام الملتزمة حذفها فلما صُغر ردّ إلى أصله ، ثم لما التقت ياء التصغير ساكنة قبل واو الكلمة المتحركة بحركة الإعراب قلبت الواو ياء لتقاربهما وأدغمتا ، ولما نودي وهو مضاف إلى ياء المتكلم حذفت ياء المتكلم لجواز حذفها في النداء وكراهية تكرر الأمثال ، وأشير إلى الياء المحذوفة بإلزامِه الكسرَ في أحوال الإعراب الثلاثة لأن الكسرة دليل على ياء المتكلم .

وتقدم في سورة يوسف .

والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له ، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير ، ففيه حث على الامتثال للموعظة .

ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها قبل ذلك تخليتُها عن مبادىء الفساد والضلال ، فإن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل .

وكان أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين هما الدُهرية والإشراك ، فكان قوله ﴿ لا تشرك بالله ﴾ يفيد إثبات وجود إله وإبطال أن يكون له شريك في إلهيته .

(409/607)

وقرأ حفص عن عاصم في المواضع الثلاثة في هذه السورة ﴿ يا بنيَّ ﴾ بفتح الياء مشددة على تقدير : يا بنَيَّا بالألف وهي اللغة الخامسة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ثم حذفت الألف واكتفي بالفتحة عنها ، وهذا سماع .

وجملة ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره ، فإنه ظلم لحقوق الخالق ، وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات ، وظلم لأهل

الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم ، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها .

وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق ، ودل عليه الحديث في "صحيح مسلم" عن عبد الله بن مسعود قال : " لما نزلت ﴿ الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام : 82] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿ يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ " .

وجوّز ابن عطية أن تكون جملة ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ من كلام الله تعالى ، أي : معترضة بين كِلم لقمان .

فقد روي عن ابن مسعود أنهم لما قالوا ذلك أنزل الله تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ، وانظر من روى هذا ومقدار صحته .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾

إذا درجنا على أن لقمان لم يكن نبيئاً مبلغاً عن الله وإنما كان حكيماً مرشداً كان هذا الكلام اعتراضاً بين كلامي لقمان لأن صيغة هذا الكلام مصوغة على أسلوب الإبلاغ والحكاية لقول من أقوال الله .

والضمائر ضمائر العظمة جرَّتْه مناسبة حكاية نهي لقمان لابنه عن الإشراك وتفظيعه بأنه ظلم عظيم .

(410/607)

فذكر الله هذا لتأكيد ما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بتعميم النهي في الأشخاص والأحوال لئلا يتوهم متوهم أن النهي خاص بابن لقمان أو ببعض الأحوال فحكى الله أن الله أوصى بذلك كل إنسان وأن لا هوادة فيه ولو في أحرج الأحوال وهي حال مجاهدة الوالدين أولادَهم على الإشراك .

وأحسن من هذه المناسبة أن تجعل مناسبة هذا الكلام أنه لما حكى وصاية لقمان لابنه بما هو شكر الله بتنزيهه عن الشرك في الإلهية بيَّن الله أنه تعالى أسبق منَّة على عباده إذ أوصى الأبناء ببر الآباء فدخل في العموم المنة على لقمان جزاءً على رعيه لحق الله في ابتداء موعظة ابنه فالله أسبق بالإحسان إلى الذين أحسنوا برَعْي حقه .

ويقوي هذا التفسير اقتران شكر الله وشكر الوالدين في الأمر .

وإذا درجنا على أن لقمان كان نبيئاً فهذا الكلام مما أبلغه لقمان لابنه وهو مما أوتيه من الوحي ويكون قد حكي بالأسلوب الذي أوحي به إليه على نحو أسلوب قوله ﴿ أن اشكر

لله ﴾ [لقمان : 12] وهذا الاحتمال أنسب بسياق الكلام ، ويرجحه اختلاف الأسلوب بينها وبين آيتي سورة العنكبوت وسورة الأحقاف لأن ما هنا حكاية ما سبق في أمة أخرى والأخريين خطاب أنف لهذه الأمة .

وقد روي أن لقمان لما أبلغ ابنه هذا قال له : إن الله رضيني لك فلم يوصِني بك ولم يرضَك لي فأوصاكَ بي .

والمقصود من هذا الكلام هو قوله ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ﴾ إلى آخره . . . وما قبله تمهيد له وتقرير لواجب بر الوالدين ليكون النهي عن طاعتهما إذا أمرا بالإشراك بالله نهياً عنه في أوْلى الحالات بالطاعة حتى يكون النهي عن الشرك فيما دون ذلك من الأحوال مفهوماً بفحوى الخطاب مع ما في ذلك من حسن الإدماج المناسب لحكمة لقمان سواء كان هذا من كلام لقمان أو كان من جانب الله تعالى .

(411/607)

وعلى كلا الاعتبارين لا يحسن ما ذهب إليه جمع من المفسرين أن هذه الآية نزلت في قضية إسلام سعد بن أبي وقاص وامتعاض أمه ، لعدم مناسبته السياق ، ولأنه قد تقدم أن نظير هذه الآية في سورة العنكبوت نزل في ذلك ، وأنها المناسبة لسبب النزول فإنها أخلِيت عن

الأوصاف التي فيها ترقيق على الأم بخلاف هذه ، ولا وجه لنزول آيتين في غرض واحد ووقت مختلف وسيجيء بيان الموصَى به .

والوهْن بسكون الهاء مصدر وَهَن يهِن من باب ضرَب .

ويقال : وَهَنٌ بفتح الهاء على أنه مصدر وهِنَ يَوْهَن كوَجِلَ يَوجَل .

وهو الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء .

وانتصب ﴿ وَهْناً ﴾ على الحال من ﴿ أمّه ﴾ مبالغة في ضعفها حتى كأنها نفس الوهْن ، أي واهنة في حمله ، و ﴿ على وهن ﴾ صفة ل ﴿ وَهْناً ﴾ أي وهْناً واقعاً على وهْن ، كما يقال : رجع عوْداً على بدء ، إذا استأنف عملاً فرغ منه فرجع إليه ، أي : بعد بدء ، أو ﴿ على ﴾ بمعنى (مع) كما في قول الأحوص:

إني على ما قد علِمت محسَّد . . .

أنمي على البغضاءِ والشَنآنِ

فإن حمل المرأة يقارنه التعب من ثقل الجنين في البطن ، والضُعفُ من انعكاس دمها إلى تغذية الجنين ، ولا يزال ذلك الضعف يتزايد بامتداد زمن الحمل فلا جرم أنه وَهْن على وَهْن .

وجملة ﴿ حملته أمه وهناً على وهن ﴾ في موضع التعليل للوصاية بالوالدين قصداً لتأكيد تلك الوصاية لأن تعليل الحكم يفيده تأكيداً ، ولأن في مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث في نفس الولد على أن يبرّ بأمه ويستتبع البرّ بأبيه .

وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين بذكر أحوال خاصة بأحدهما وهي الأم اكتفاء بأن تلك الحالة تقتضي الوصَاية بالأب أيضاً للقياس فإن الأب يلاقي مشاقّ وتعباً في القيام على الأم لتتمكن من الشغل بالطفل في مدة حضانته ثم هو يتولى تربيته والذبّ عنه حتى يبلغ أشدّه ويستغني عن الإسعاف كما قال تعالى ﴿ وقُلْ ربِّ ارْحَمْهُما كَما ربَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : 24] ، فجمعهما في التربية في حال الصغر مما يرجع إلى حفظه وإكمال نشأته ، فلما ذكرت هنا الحالة التي تقتضي البر بالأم من الحمل والإرضاع كانت منبهة إلى ما للأب من حالة تقتضي البرَّ به على حساب ما تقتضيه تلك العلة في كليهما قوة وضعفاً .

ولا يقدح في القياس التفاوت بين المقيس والمقيس عليه في قوة الوصف الموجب للإلحاق .

وقد نبَّه على هذا القياس تشريكهما في التحكم عقب ذلك بقوله ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ وقوله ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ .

وحصل من هذا النظم البديع قضاء حق الإيجاز .

وأمّا رجحان الأم في هذا الباب عند التعارض في مقتضيات البرور تعارضاً لا يمكن معه الجمع فقال ابن عطية في "تفسيره" : شرك الله في هذه الآية الأم والأب في رتبة الوصية بهما

ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل ودرجة الرضاع فتحصل للأم ثلاث مراتب وللأب واحدة ، وأشبه ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل : مَن أُبِرُّ ؟ قال : أمَّك .

قال : ثم مَن ؟ قال : أمَّك .

قال : ثم مَن ؟ قال : أمَّك .

قال : ثم مَن ؟ قال : أباك .

فجعل له الربع من المبرّة .

وهذا كلام منسوب مثله لابن بطّال في شرح "صحيح البخاري" .

(413/607)

ولا يخفى أن مساق الحديث لتأكيد البر بالأم إذ قد يقع التفريط في الوفاء بالواجب للأم من الابن اعتماداً على ما يلاقيه من اللين منها بخلاف جانب الأب فإنه قوي ولأبنائه تَوَقَ من شدته عليهم ، فهذا مساق الحديث ولا معنى لأخذه على ظاهره حتى نذهب إلى تجزئة البرّ بين الأم والأب أثلاثاً أو أرباعاً وهو ما استشكله القرافي في "فائدة من الفرق الثالث والعشرين" ، وحسبنا نظم هذه الآية البديع في هذا الشأن .

وأما لفظ الحديث فهو مسوق لتأكيد البر بالأم خشية التفريط فيه .

وليس معنى "ثُمَّ" فيه إلا محاكاة قول السائل "ثُمَّ مَن" بقرينة أنه عطف بها لفظ الأم في المرتين ولا معنى لتفضيل الأم على نفسها في البر .

وإذ كان السياق مسوقاً للاهتمام تعين أن عطف الأب على الأم في المرة الثالثة عطف في الاهتمام فلا ينتزع منه ترجيح عند التعارض .

ولعل الرسول عليه الصلاة والسلام علم من السائل إرادة الترخيص له في عدم البرّ .

وقد قال مالك لرجل سأله : أن أباه في بلد السودان كتب إليه أن يقدم عليه وأن أمه منعته فقال له مالك : أطِعْ أباك ولا تعْصِ أمك .

وهذا يقتضي إعراضه عن ترجيح جانب أحد الأبوين وأنه متوقف في هذا التعارض ليحمل الابن على ترضية كليهما .

وقال الليث : يرجح جانب الأم .

وقال الشافعي : يرجح جانب الأب .

وجملة ﴿ وفصاله في عامين ﴾ عطف على جملة ﴿ حملتْه أمه ﴾ الخ ، فهي في موقع الحال أيضاً .

وفي الجملة تقدير ضمير رابط إياها بصاحبها ، إذ التقدير : وفصالها إياه ، فلما أضيف الفصال إلى مفعوله علم أن فاعله هو الأم .

والفِصال : اسم للفطام ، فهو فصل عن الرضاعة .

وتقدم في قوله ﴿ فإن أرادَا فِصالاً ﴾ في سورة البقرة (233) .

وذكر الفِصال في معرض تعليل حقية الأم بالبرّ ، لأنه يستلزم الإرضاع من قبل الفِصال ، وللإشارة إلى ما تتحمله الأم من كدَر الشفقة على الرضيع حين فصاله ، وما تشاهده من حزنه وألمه في مبدأ فطامه .

(414/607)

وذُكر لمدة فِطامه أقصاها وهو عامان لأن ذلك أنسب بالترقيق على الأم ، وأشير إلى أنه قد يكون الفطام قبل العامين بحرف الظرفية لأن الظرفية تصدق مع استيعاب المظروف جميعَ الظرف ، ولذلك فموقع في أبلغ من موقع (من) التبعيضية في قول سبَرة بن عمرو الفقعسي :

ونَشْرَب في أثمانها ونُقَامِر . . .

لأنه يصدق بأن يستغرق الشرابُ والمقامرة كامل أثمان إبله .

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ في سورة النساء (5) .

وقد حمله علي بن أبي طالب أوْ ابن عباس على هذا المعنى فأخذ منه أن أقل مدة الحمل ستة أشهر جمعاً بين هذه الآية وآية سورة الأحقاف كما سيأتي هنالك .

وجملة أن اشكر لي ولوالديك ﴾ تفسير لفعل ﴿ وصينا .

﴾ و ﴿ أن ﴾ تفسيرية ، وإنما فُسرت الوصية بالوالدين بما فيه الأمرُ بشكر الله مع شكرهما على وجه الإدماج تمهيداً لقوله ﴿ وإن جاهداك على أن تُشْرِك بي ﴾ الخ .

وجملة ﴿ إلي المصير ﴾ استئناف للوعظ والتحذير من مخالفة ما أوصى الله به من الشكر له .

وتعريف ﴿ المصير ﴾ تعريف الجنس ، أي مصير الناس كلهم .

ولك أن تجعل أل عوضاً عن المضاف إليه .

وتقديم المجرور للحصر ، أي ليس للأصنام مصير في شفاعة ولا غيرها .

وتقدم الكلام على نظير قوله ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي إلى فلا تطعهما ﴾ في سورة العنكبوت (8) ، سوى أنه قال هنا على أن تُشرِك بي ﴾ وقال في سورة العنكبوت ﴿ لِتُشْرِك بِي ﴾ فأما حرف ﴿ على ﴾ فهو أدلّ على تمكن المجاهدة ، أي مجاهدة قوية للإشراك ، والمجاهدة : شدة السعي والإلحاح .

والمعنى : إن ألحَّا وبالغا في دعوتك إلى الإشراك بي فلا تطعهما .

وهذا تأكيد للنهي عن الإصغاء إليهما إذا دعَوَا إلى الإشراك .

وأما آية العنكبوت فجيء فيها بلام العلة لظهور أن سعداً كان غنياً عن تأكيد النهي عن طاعة أمه لقوة إيمانه .

وقال القرطبي : إن امرأة لقمان وابنه كانا مُشركَيْن فلم يزل لقمان يعظهما حتى آمنا ، وبه يزيد ذكر مجاهدة الوالدين على الشرك اتضاحاً .

والمصاحبة : المعاشرة .

ومنه حديث معاوية بن حيدة "أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أحقُّ الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمَّك" الخ .

والمعروف : الشيء المتعارف المألوف الذي لا ينكر فهو الشيء الحسن ، أي صاحبْ والديْك صحبةً حسنة ، وانتصب ﴿ معروفاً ﴾ على أنه وصف لمصدر محذوف مفعول مطلق ل ﴿ صاحِبْهُما ، ﴾ أي صِحاباً معروفاً لأمثالهما .

وفهم منه اجتناب ما ينكر في مصاحبتهما ، فشمل ذلك معاملة الابن أبويه بالمنكر ، وشمل ذلك أن يدعو الوَالدُ إلى ما ينكره الله ولا يرضى به ولذلك لا يُطاعَان إذا أمرَا بمعصية .

وفهم من ذكر ﴿ وصاحبْهما في الدنيا معروفاً ﴾ أثر قوله ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ﴾ الخ . . .

أن الأمر بمعاشرتهما بالمعروف شامل لحالة كون الأبوين مشركين فإن على الابن معاشرتهما

بالمعروف كالإحسان إليهما وصلتهما .

وفي الحديث : أن أسماء بنت أبي بكر قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي جاءت راغبة أفأصلها ؟ فقال : نعم ، صلي أمّكِ ، وكانت مشركة وهي قتيلة بنت عبد العزى .

وشمل المعروف ما هو معروف لهما أن يفعلاه في أنفسهما ، وإن كان منكراً للمسلم فلذلك قال فقهاؤنا : إذا أنفق الولد على أبويه الكافرين الفقيرين وكان عادتهما شرب الخمر اشترى لهما الخمر لأن شرب الخمر ليس بمنكر للكافر ، فإن كان الفعل منكراً في الدينين فلا يحلّ للمسلم أن يشايع أحد أبويه عليه .

واتباعُ سبيل من أناب هو الاقتداء بسيرة المنيبين لله ، أي الراجعين إليه ، وقد تقدم ذكر الإنابة في سورة الروم (33) عند قوله ﴿ منيبين إليه ﴾ وفي سورة هود (88) .

فالمراد بمن أناب : المقلعون عن الشرك وعن المنهيات التي منها عقوق الوالدين وهم الذين يدعون إلى التوحيد ومن اتبعوهم في ذلك .

وجملة ﴿ ثم إلي مرجعكم ﴾ معطوفة على الجمل السابقة و ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي المفيد للاهتمام بما بعدها ، أي وعلاوة على ذلك كله إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون .

وضمير الجمع للإنسان والوالدين ، أي مرجع الجميع .

وتقديم المجرور للاهتمام بهذا الرجوع أو هو للتخصيص ، أي لا ينفعكم شيء مما تأملونه من الأصنام .

وفرع على هذا ﴿ فأنبئكم ﴾ الخ . . .

والإنباء كناية عن إظهار الجزاء على الأعمال لأن الملازمة بين إظهار الشيء وبين العلم به ظاهرة .

وجملة ﴿ ثم إليّ مرجعكم ﴾ وَعد ووعيد .

وفي هذه الضمائر تغليب الخطاب على الغيبة لأن الخطاب أهم لأنه أعرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾

الحق سبحانه آتانا قبل أنْ يخلقنا ، وآتانا بعد أن خلقنا بالمنهج ثم وَالَى إلينا بمواكب الرسالات التي تحمل إلى كل بيئة المنهج الذي يناسبها ، وقبل أن يخرج آدم عليه السلام لتحمُّل عبء هذه الخلافة أعطى الله له تجربة ، هذه التجربة مفادها أن يحافظ على منهج ربه في (افعل) و (لا تفعل) وأن يحذر كيد الشيطان .

وقد مرَّ آدم بهذه التجربة البيانية قبل أن يجتبيه الله للنبوة وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أن كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصي آدم ربه ، وهو نبي والنبي معصوم ؟

ونقول : نعم ، عصى آدم ربه ، لكن قبل النبوة ، وهو ما يزال بشراً عادياً ؛ لذلك قال سبحانه في حقه : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى * ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ [طه : 121-122]

إذن : جاء الاجتباء بعد المعصية ، فإنْ قلتَ : فما الداعي للعصيان يصدر من آدم ، وهو يُعد للنبوة ؟ قالوا : لأنه أبو البشر ، والبشر قسمان : بشر معصومون ، وهم الأنبياء ، وبشر ليست لهم عصمة وهم عامة الناس غير الأنبياء ، ولا بُدَّ لآدم أنْ يمثل النوعين لأنه أبو الجميع ، فمثَّل البشر عامة حين وقع في المعصية ، ومثّل الأنبياء حين اجتباه ربه وتاب عليه ، فجمع بذلك بين الملحظين .

هنا يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا . . ﴾ [لقمان : 12] والإيتاء يُطلَق على الوحي مع الفارق بينهما ، فإنْ أطلق الوحي فإنه ينصرف إلى الوحي للرسول بمنهج من الله ، ويُعرَف الوحي عامة بأنه إعلام بخفاء .

ومن ذلك قوله تعالى في الوحي للملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ [الأنفال : 12]

ويُوحِي للبشر ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ . . ﴾ [القصص : 7]

(418/607)

ويوحى للحيوان ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً . . . ﴾ [النحل : 68]

ومن ذلك أيضاً يوحي الشياطين بعضهم إلى بعض من شياطين الإنس أو الجن : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 121]

كذلك يوحي الله إلى أهل الخير من أتباع الرسل : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي . . . ﴾ [المائدة : 111]

هذا في المعنى اللغوي للوحي وهو : إعلام بخفاء ، فإنْ قصدت الوحي الشرعي الاصطلاحي : فهو إعلام من الله لرسوله بمنهجه . وهذا التعريف يُخرِج كل الأنواع السابقة .

والحق سبحانه عبَّر عن الإيتاء العام بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ . . ﴾ [الشورى : 51]

والإيتاء يُقصد به الإلهام ، ويكون حين تتوفر للإنسان آلة استقبال سليمة صالحة لاستقبال الإلهام والخاطر من الحق سبحانه وتعالى ، وآلة الاستقبال لا تصلح للاستقبال عن الله تعالى إلا إذا كانت على مواصفات الخالق سبحانه صانعها ومبدعها ، كما يلتقط (الراديو أو التليفزيون) الإرسال ، فإن انقطع عنك الإرسال فاعلم أن جهاز استقبالك به عطب ، أما الإرسال فموجود لا ينقطع ، ولله تعالى المثل الأعلى .

وله سبحانه إرسال دائم إلى عباده ، لا يلتقطه إلا مَنْ صفَتْ آلة استقباله ، وصلحت للتلقي عن الله ، وهذه الآلة لا تصلح إلا إذا كانت على المنهج في افعل ولا تفعل ، لا تصلح إذا تكونت من الحرام وتغذَّتْ به ؛ لأن الحرام يفسد كيماوية الفطرة التي خلقها الله في عباده يوم أن أخذ عليهم العهد : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى . . ﴾ [الأعراف : 172]

فهذه الذرية لو ظلتْ على حالها من الصفاء يوم كانت في ظهر آدم ويوم أخذ الله عليها العهد ، ولو التزمت منهج ربها في (افعل) و (لا تفعل) لكانت أهلاً لإلهام الله ؛ لأن آلة استقبالها عن الله سليمة .

وتأمل في وحي الله إلى أم موسى : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي . . ﴾ [القصص : 7]

فأيُّ آلة استقبال هذه التي استقبلتْ هذا الأمر ونفذته دون أنْ تناقشه ، واطمأنتْ إليه قبل أنْ تفكر فيه ؟ وكيف تقتنع الأم أن الموت المحقق يُنجي وليدها من موت مظنون ؟

لذلك نقول : إذا صادف الإلهام آلة استقبال سليمة فإنه لا يوجد في النفس ما يصادره ، ولا ما يبحث عن دليل ، فقامت أم موسى ونفذت الأمر كما أُلقي إليها ، هذا هو الإيتاء .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف : 65] والعبد الصالح لم يكن نبياً ، ومع ذلك آتاه الله بدون واسطة ، فكان هو مُعلِّماً للنبي ، وما ذلك إلا لأنه عبد لله على منهج موسى ، وأخلص لله تعالى فآتاه الله من عنده .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً . . ﴾ [الأنفال : 29] وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17

[

إذن : كلُّ ما علينا لنأخذ إلهامات الحق سبحانه أنْ نحتفظ بصفاء البنية التي خلقها الله لتظل بمواصفات خالقها ، ثم نسير بها على منهجه تعالى في افعل ولا تفعل ، وكان سيدنا لقمان من هذا النوع الصافي الطاهر النقي ، الذي لم يخالط جسمه حرام ، والذي لا يغفل عن منهج ربه ؛ لذلك آتاه الله الحكمة ، وقال فيه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة . . ﴾ [لقمان : 12]

(420/607)

وقد اختلف العلماء فيه : أهو نبي أم غير نبي ، والغالب أنه غير نبي ؛ لأن القائلين بنبوته ليس لهم سند صحيح ، والجمهور اجتمعوا على أنه رجل صالح مرهف الحس ، دقيق الإدراك ، والحسّ كما قلنا هو الأصل الأول في المعلومات ، وكان لقمان لا يمر على الأشياء إلا بهذا الحسِّ المرهف والإدراك الدقيق العميق ، فتتكون لديه مُدْركات ومواجيد دقيقة تختمر في نفسه ، فتتجمع لديه مجموعة من الفضائل والقيم التي تسوس حركة حياته ، فيسعد بها في نفسه ، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتعبير الحسن ، كذلك كان لقمان .

وللعلماء أبحاث حول شخصية لقمان وجنسيته ، فمنهم مَنْ ذهب إلى أنه كان أسود اللون غليظ الشفتين كأهل جنوب إفريقيا ، لكنه مع ذلك أبيض القلب نقي السريرة ، تخرج من بين شفتيه الغليظتين الحِكَم الرقيقة والمعاني الدقيقة .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قالوا : " إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم " .

لذلك حين ترى مَنْ هو أقل منك في مال ، أو صحة ، أو جاه ، أو منظر فلا تغتر بذلك ، وانظر وتأمل ما تميزّ به عليك ؛ لأن الخالق سبحانه – كما قلنا – وزَّع فضله بين عباده بالتساوي ، بحيث يكون مجموع كل إنسان يساوي مجموع الآخر ، ولا تفاضلَ بين المجموعات إلا بالتقوى : " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح " .

فالذين يحلو لهم أنْ يقسموا المهن مثلاً إلى مهن شريفة وأخرى حقيرة نقول : ليست هناك مهنة حقيرة ما دام المجتمع في حاجة إليها ولا تستقيم حركة الحياة إلا بها ، فكيف تحقرها ؟ وكيف تحقر أهلها ؟ والله لو قعد الوزراء في بيوتهم أسبوعاً ما حدث شيء ، لكن لو تعطل عمال النظافة مثلاً أو الصرف الصحي ليوم واحد لحدثتْ مشكلة ، ولأصبحت الدنيا (خرارة) .

وكيف نحقر هذه المهن ونحقر أصحابها ، وهم يرضوْنَ باليسير ، ويتحملون ما لا يطيقه غيرهم ، كيف نحقرهم ، والله تعالى يقول : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ . . . ﴾ [الحجرات : 11]

فإن قلت : ما دام ليس نبياً ، فكيف يؤتيه الله ؟ نقول : بالمدد والإلهام الذي قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : 29] فمَنْ يحافظ على مواصفات التكوين بمنطق الله يأخذ من الله مباشرة .

كما لو طلب منك ولدك مبلغاً من المال يتاجر به في السوق ، فتعطيه مبلغاً يسيراً تُجرِّبه به ، فإنْ أفلح وربحت تجارته يطمئن قلبك فتزيده أضعاف ما أخذ في المرة الأولى ، كذلك الإنسان إن أحسن صحبته لربه داوم الله عليه فضله ووالى إليه فيضه .

لذلك يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز : ما قصر بنا في علم ما نجهل إلا عدم عملنا بما علمنا - يعني : لو كنا أهلاً للزيادة لزادنا ، لو كنا مأمونين على ما علمنا فوظّفناه في حركة حياتنا لجاءتنا فيوضات إشراقية وعطاءات من ربنا ممتدة لا تنتهي ، أما إنْ أخذنا العلم فألقيناه جانباً ولم نعمل به ، فما الداعي للزيادة ، وأنت لم تستفِدْ بما عندك ؟

وكما تكلم العلماء في شخصية لقمان وجنسيته تكلموا في حكمته ، فسأله أحدهم وقد تبسَّط معه في الحديث : ألم تكُنْ عبداً تخدم فلاناً ؟ قال : بلى ، قال : فَبِمَ أوتيت الحكمة ؟

قال : باحترامي قدر ربي ، وأدائي الأمانة فيما وليت من عَمل ، وصدق الحديث ، وعدم تعرُّضي لما لا يعنيني .

وهذه الصفات كافية لأنْ تكون منهجاً لكل مؤمن ، ولأنْ ينطق صاحبها بالحكمة ، والله لو كانت فيه صفة الصدق في الحديث لكانت كافية .

(422/607)

لذلك وصل لقمان إلى هذه المرتبة وهو العبد الأسود ، فآتاه الله الحكمة مباشرة ، وهو ليس نبياً ولا رسولاً ، وسُمِّيت إحدى سور القرآن باسمه ، وهذا يدلك على أن الإنسان إذا اعتدل مع الله وأخلص في طاعته فإن الله يعطيه من فيضه الواسع ، فيكون له ذِكْر في مصافِّ الرسل والأنبياء .

ويُرْوَى من حكمة لقمان أن سيده أمره أن يذبح له شاة ثم يأتيه بأطيب مُضْغتين فيها ، فذبح الشاة وجاءه بالقلب واللسان ، وفي اليوم التالي قال له : اذبح لي شاة وأتني بأخبث مُضغتين فيها ، فجاءه أيضاً بالقلب واللسان فسأله : ألم تَأْتِ بهما بالأمس على أنهما أطيب مضغتين في الشاة ؟ قال : بلى فليس شيء أطيب منهما إذا طَابَا ، ولا شيء أخبث منهما إذا خَبُثَا .

وبعد لقمان جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : " . . . ألا أن في الجسد مضغة إذا صَلُحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب " .

ويقول صلى الله عليه وسلم في حديث آخر : " من حفظ ما بين لحييه وما بين رِجْليه دخل الجنة " .

ويُروى أن لقمان كان يفتي الناس ، وكانوا يثقون بكلامه ، وكان ذلك قبل داود عليه السلام ، فلما جاء داود كفَّ لقمان عن الفُتْيا ، فلما سألوه : لماذا امتنعتَ عن الفُتْيا ؟ فقال – وهذه أيضاً من حكمته : ألاَ أكتفي إذا كُفيت ؟

يعني : لماذا أتمسَّك بها وقد بعث الله لي مَنْ حملها عني ، وهو يعلم تماماً أنه مجرد عبد صالح (أي : أنه أخذ الحكمة من منازلهم كما يقال) ، أما داود فرسول من عند الله ، ومن الحكمة أنْ يُفسِح له هذا المجال ، ويترك له ساحة الفُتْيا في القوم لعله يأتي بأفضل مما عند لقمان ؛ لذلك تركها له عن رضاً وطيب خاطر .

والبعض يقول : إن الله خيَّره بين أن يكون نبياً أو حكيماً ، فقال : أما وقد خيَّرتني يا رب ، فأنا أختار الراحة وأترك الابتلاء ، أما إنْ أردْتها يا رب عزمة فأنا سأقبلها سمعاً وطاعة ؛ لأني أعلم أنك لن تخذلني .

والحق سبحانه يُنطق لقمان بأشياء من الحكمة يسبق بها النبوة ؛ ليبين لنا أن الإنسان من الممكن أن يكون ربانياً ، كما جاء في الحديث القدسي : " عبدي ، أطعني تكُنْ ربانياً ، تقول للشيء كُنْ فيكون " .

ذلك لأن فضل الله ليس له حدود ، وليس عليه حرج ، وبابه تعالى مفتوح ، المهم أن تكون أهلاً لأنْ تلِجَ هذا الباب ، وأنْ تكون في معية ربك دائماً .

ومما يُرْوَى من حكمة لقمان أنه غاب في سَفْرة ، ثم عاد فلقيه تابعه ، فقال له : مَا حال أبي ؟ فقال : مات ، فقال لقمان : الآن ملكْتُ أمري ، ثم سأل : فما حال زوجتي ؟ فقال : ماتت ، فقال : جدّدتُ فراشي ، ثم سأل عن أخته ، فقال : ماتت ، فقال : ستَر الله عِرْضي ، ثم سأل عن أخيه ، فقال : مات ، فقال : انقصم ظهري .

وهذا الكلام لا يصدر إلا عن حكمة ، فكثيراً ما يفرح الابن – خاصة العاق – بموت أبيه ؛ لأنه سيترك له المال يتمتع به ، أما لقمان فيقول عندما علم بموت أبيه : الآن ملكْتَ أمري ؛ لأنه في حياة أبيه كان له أمر ، لكن أمره ليس في يده إنما في يد أبيه ، فلما مات أبوه صار أمره بيده .

وهذه الحكمة توضح لنا قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنت وما ملكت يداك لأبيك " كأنه من العيب أن تقول في حياة أبيك : أنا أملك كذا وكذا . أما الآن فقد تجاوز الأبناء كل هذه القيم ، ونسمع الابن يقول لأبيه : اكتب لي كذا وكذا .

أما قوله : " جددت فراشي " فهي كلمة لها معنى كبير : أنا لا أُدخِل الجديدة على فراش القديمة حتى لا أجرح مشاعرها ، أو أنني لا أتزوج إلا بعد وفاة زوجتي الأولى ؛ ذلك لأن الغيرة طبع في النساء .

(424/607)

وكانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكر السيدة خديجة ، فقد " دخلت فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم على أبيها مُغْضبة فقال صلى الله عليهم وسلم : " ما أغضبك يا أم أبيها " فقالت : والله إن عائشة قالت لي : إن رسول الله تزوج أمك ثيباً ، ولم يتزوج بِكْراً غيري ، فقال لها رسول الله : " إذا أعادت عليك هذا القول – وانظر هنا إلى أدب النبوة في الردّ وفي سرعة الخاطر – فقولي لها : ولكن أمي تزوجتْ رسول الله وهو بكر ، وتزوجيته أنت وهو ثيّب " هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعِدْها عائشة مرة أخرى .

وقد يقول قائل : وكيف تغار عائشة ، وهي أم المؤمنين وزوج رسول الله ؟ قالوا : هذه الغيرة

لها معنى ، فقد عقد رسول الله عليها وهي بنت السادسة ، ودخل بها وهي بنت التاسعة ، وقد جاوز صلى الله عليه وسلم الخمسين من عمره ، ومع فارق السن بينهما رضيتْ عائشة برسول الله ؛ لأنها رأتْ فيه من مزايا نوره ما جعلها تَغَار عليه رغم كِبَر سنّه وصِغَر سنها ، فلم تنظر إليه على أنه رجل عجوز يكبرها ، بل رأَتْ فيه ما يفوق ويعلو على مجرد الشباب .

إذن : فمعنى : " جددت فراشي " أنني أراعي مشاعر الزوجة الجديدة ، فلا أُدِخلها على فراش القديمة فأصدمها به ، وأُلهب مشاعر الغيرة عندها ، حتى من التي ماتت ، وأنا أريد أن تكون صافية التكوين لذاتي ، راضية عن كل تصرفاتي ، أريد أن أمنع كل شبهة تقلق كونها سكناً لي ، وأنا سَكَن لها .

(425/607)

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة . . . ﴾ [لقمان : 12] فالذي آتى هو الله عز وجل ، والحكمة : مادة حكَم تدل على وَضْع الشيء في موضعه ، ومنها الحاكم ؛ لأنه يضع الحق في نصابه ، حتى في الدواب نسمي الحديدة التي توضع في فم الفرس لأتحكم في حركته (حَكَمه) ؛ لأن الهدف من ركوب الخيل مختلف ، فمرة أركبه للنزهة ، ومرة

أركبه لأدرك به صَيْداً ، ومرة للكرِّ وللفرِّ في المعركة ، فكُلُّ هدف من هذه له حركة ، وينبغي أنْ أتحكم في حصاني ليؤدي لي ما أريده منه .

إذن : فالحكمة تعني في معناها العام وَضَع الشيء في موضعه ، وهي مجموعة من مَلَكات الفضائل تصدر عنها الأشياء التي تضع كل أمر في محله لكن بيُسْر وبلا مشقة ولا تعب ، كالشيخ الذي ظل يدرس في الأزهر مثلاً عشرين أو ثلاثين سنة تذهب إليه ، وتستفتيه في أمر من الأمور ، فيجيبك بيُسْر وسهولة ، وبدون تفكير أو إعداد ، لماذا ؟ لأن الفُتْيا أصبحت ملَكَه عنده لا تحتاج منه إلى مجهود ولا مشقة .

ومن الحكمة أنْ يخلق الله لك أشياءً ، ويهديك لأنْ تستنبط منها أشياءً أخرى .

وساعة تسمع من الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ . . ﴾ [لقمان : 12] فاعلم أن هنا قَسَماً فالواو واو القسم ، والمقسَم عليه مُؤكَّد باللام ومُؤكَّد بقد التي تفيد التحقيق .

قوله سبحانه : ﴿ آتَيْنَا . . ﴾ [لقمان : 12] الحق - سبحانه وتعالى - في إتيانه للأشياء يعني تعدِّي ما قدره لمن قدره من خير ظاهر ومن خير مستور . وقبل أنْ يخلق الله الإنسان خلق له ، فجاء الإنسان الأول (آدم عليه السلام) وطرأ على كون فيه كل مُقوِّمات حياته من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب . . الخ .

وكل ذلك مُسخَّر له تسخيراً لا دَخْلَ للمنتفع به فيه ، وهذا أول الإيتاء ، بل قبل ذلك ، وفي

الأزل قبل أن يخلق الإنسان خلق له مُقوّمات مادته ومُقوّمات قيمه وروحه – أي : أوجدها

.

(426/607)

لأننا نعلم أن كل صانع قبل أن يُقدِم على صَنْعة لا بُدَّ أن يُحدّد الغاية ، ويضع الهدف منها أولاً ، لا أنْ يصنع الشيء ثم ينظر فيه : لأيِّ شيء يصلح هذا الشيء ، كذلك لا بُدَّ أنْ يسبق الصنعةَ منهجُ صيانتها .

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له مُقوّماته المادية والمعنوية ، والمنهج الذي يُصلِحه وحدّد الهدف من وجوده ؛ لذلك يُنبِّهنا الحق سبحانه إلى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان ﴾ [الرحمن : 1-3] فقبل أنْ يخلق الله الإنسانَ وضع المنهج الذي به صيانته ، وهو القرآن الكريم .

إذن : فمعنى الإيتاء أنْ يعدي الله ما قدره من خير ظاهر أو خير مستور لمن قدره ، والخير يكون على نوعين : خير يقيم المادة ، وخير يقيم القيم الروحية ، المادة تقوم بالهواء وبالطعام وبالشراب . . الخ ، والقيم تقوم بالوحي وبالمنهج الذي حمله الرسل بافعل ولا تفعل .

والله تعالى آتى كثيراً من خلقه ، فلماذا خَصَّ لقمان بالذات ، فقال ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ

الحكمة . . ﴾ [لقمان : 12] ؟ قالوا : لأن الله تعالى حين يأمر الرسل بأمر ليُبلِّغوه يُعِد الرسل لهذا الأمر ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا ، إن الفَطرة السليمة تهتدي إلى الله ، وإلى المطلوب من الله بدون وحي ، وبدون إعداد .

ومن ذلك ما رُوِي عن سيدنا عمر – رضي الله عنه – من أنه كان يُحدِّث سيدنا رسول الله بالأمر ، ويقترح عليه فيأتي الوحي موافقاً لرأيه ، فكيف يتسنى لعمر أن يقترح على رسول الله وفي وجوده ، وهو المشرع الثاني بعد القرآن ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة إذا صَفتْ لله تستطيع أنْ تهتدي إلى الأشياء ، وتصل إلى الحق قبل أنْ ينزل الوحي به .

(427/607)

إذن : فالإيتاء من الله لا يأتي عبثاً ، فالإيتاء الأول كان لآدم عليه السلام ، وآدم شاء الله أنْ يجعله خليفة له في الأرض ، ولا يعني هذا أنه أول المخلوقات في الأرض ، والحق سبحانه لم يَقُلْ إنني أول ما خلقتُ خلقتُ آدم ، وبدليل قوله تعالى : ﴿ والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ [الحجر : 27] .

ومسألة الخَلْق هذه هيِّنة على الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ * وَمَا ذلك عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : 19-20] فالمسألة ليست نادرة حدثت مرة واحدة ، ولن تحدث بعد ذلك .

وللعلماء كلام طويل في عوالم أخرى غير عالمنا كعالم الجن ، وعالم البنِّ ، وعالم الجن وغيرها مما لا يعلمه إلا الله ، لكن إنْ حدَّثك المضللون الذين يريدون أنْ يستدركوا على الدين ويقولون : إن الحفريات أثبتت وجود مخلوقات قبل آدم ، فكيف تقولون : إن آدم أول مخلوق ؟

ونقول لهؤلاء : لم يقُلْ أحد : إن آدم أول مخلوق على الأرض ، إنما هو أول هذا الجنس البشري الذي نسميه " إنسان " لكن سبقته أجناس أخرى ، وشاء الله أنْ يجعل آدم خليفة في الأرض ، ثم أخبر الملائكة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . ﴾ [البقرة : 30] والله حين يخبر الملائكة هذا الخبر لا يستشيرهم ، إنما ليبين لهم أمراً واقعاً ، وخصَّ الملائكة بهذا الإخبار ؛ لأنه سيكون لهم دور مع هذا الخليفة الجديد . إذن : فالذين قال الله لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً . . ﴾ [البقرة : 30] ليسوا كل الملائكة ، إنما الذين لهم دور ومهمة مع هذا المخلوق ، أما باقي الملائكة فلا يدرون بآدم ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، وليس في بالهم إلا الله .

(428/607)

والقرآن الكريم يشير لنا إلى هذه المسألة إشارةً دقيقة في قوله تعالى مخاطباً إبليس لما رفض السجود لآدم : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ص : 75] والعالون هم الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود .

وقلنا : إن الله تعالى كرَّم آدم حين خلقه تعالى ، وباشر خَلْقه بيده سبحانه ، ولم يخلقه كباقي المخلوقات (بكُنْ) ؛ لذلك جاء في حيثية النقد على إبليس : ﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . ﴾ [ص : 75]

إذن : مباشرة الخَلْق باليد دليل على العناية بالمخلوق ؛ لأن اليد هي الآلة الفاعلة لأكثر الأشياء ، وحتى الآن نفخر بعمل اليد فنقول (هذا الشيء يدويّ) يعني : لم تصنعه آلة صماء ، إنما يد مفكر يتقن الصنعة .

وفي مسألة خَلْق آدم – عليه السلام – يحلو للبعض أن يقول : هو الذي أخرجنا من الجنة ، فهل قال الله تعالى قبل أن يصدر أول بيان عن آدم أنني خلقتُه للجنة ، ثم عصى آدم ربه وتسبب في أنْ نخرج منها ؟

لم يقُلْ ذلك ، إنما قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً . . ﴾ [البقرة : 30] فهو – إذن – مخلوق للأرض ، وما الجنة التي دخلها إلا جنة التجربة لا جنة الخلد ، والبعض يظن أن كلمة الجنة إذا أُطلقَتْ تعني جنة الآخرة ، وهذا خطأ بدليل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم : 17]

وقوله تعالى : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ . . ﴾ [الكهف : 32]

(429/607)

فالجنة في اللغة هي المكان المليء بالأشجار الكثيفة التي تستر مَنْ يسير فيها ، كما تستره أيضاً عن البيئة الخارجية ؛ لأنها تكفيه بما فيها عن الاحتياج إلى غيرها ، فبها كل مُقوّمات الحياة ، ومن ذلك الجنة التي دخلها آدم ؛ لأن الله تعالى أراد أنْ يصنع لآدم تدريباً على مهمة الخلافة ، ولم لا ونحن نُدرِّب كل صاحب مهمة على مهمته قبل أنْ يقوم بها ، حتى لاعب الكرة .

وحين نأخذ المتدرب لندربه على أداء مهمته لا بُدَّ أن نوفر له كل مُقوّمات حياته ، ونتكفل له بكل ما يعينه على أداء مهمته ، فنقدم له إقامة كاملة من طعام وشراب ومسكن . . إلخ وكذلك فعل الله تعالى لآدم فقال له ﴿ يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ [البقرة : 35]

وحين نقارن بين ما أباحه الله لآدم وما حظره عليه نجد أنه تعالى أباح له كُلَّ ما في الجنة ولم يحرم عليه إلا هذه الشجرة التي أوضحها وبيَّنها له . كما نلحظ قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْرَبَا .

. ﴾ [البقرة : 35] ولم يقُلْ : لا تأكلا ؛ لأن القرب من الشيء قد يُغرِي بمزاولته ، فاحتطْ أنت لنفسك بعدم القرب منه .

وهذا التدريب لآدم فيه إشارة رمزية لكل تكليف من الله لخَلْقه في (افعل) و (لا تفعل) .

ثم يذكِّر الحق سبحانه آدم بالمقدمة العدائية التي حدثتْ بينه وبين إبليس ، وينصحه بأنْ يحذر هذا العدو ؛ لأنه أبى أنْ يسجد له لما أمره الله بالسجود استكباراً وعُتواً .

والله حين يأمر بالسجود لآدم إنما يريد السجود للأمر والانصياع له ، لا السجود لآدم في ذاته ؛ لذلك نجد الأمر من الله تعالى يختلف باختلاف المأمورين ، فمرة ينهي عن شيء ويأمر بمثله ليرى مدى انضباطك للأمر وللنهي .

(430/607)

ففي الحج مثلاً ، يأمرك أنْ تُقبِّل حجراً ، وأنْ ترمي حجراً آخر وترجمه ، وهذا حجر وذاك حجر ، إذن : فالحجرية غير منظورة ، لكن المنظور فيه إلى الأمر أو النهي .

وبصرف النظر عن المصلحة أو الحكمة من الأمر أو النهي ، فمثلاً حينما يتعذر الماء يشرع التيمم بدلاً من الوضوء ، فيأتي مَنْ يقول : الوضوء للنظافة ، فما النظافة في التيمم ، وهو يُلوِّث الجسم ؟

ونقول : فَرْق بين النظافة والتطهير ، والمراد من التيمم التطهير بشيء هو أصل في مادتك وتكوينك ، فالمسألة انضباط في طاعة الأمر بأن تفعل شيئاً تجعله مقدمة لصلاتك ، كأنك لا تُقبل على الصلاة إلا بتهيئة ، وأيضاً لأن الصلاة بها قِوامَ روحك وحياتك ، وحياتك في الأصل ومادتك من الماء الذي تستخدمه في الوضوء والتراب الذي تستخدمه التيمم .

إذن : لهاتين المادتين رمزية يجب أن تُلحظ في الدخول على الله في الصلاة ، ولا يليق بالمؤمن أنْ يُفلسف أمور العبادات ويبحث عن عِلّتها والحكمة أو المصلحة من أدائها ، إنما يكفي أن يقول : عِلَّة هذا الأمر أن الله أمر به أنْ يفعل ، وعلة هذا الحكم أن الله أمر به ألاَّ يُفعل .

لذلك ورد عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال : لو كانت المسألة بالعقل لكان أسفل الخُفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه ، إذن : المسألة طاعة والتزام للأمر وللنهي ؛ لذلك من غير المناسب أن نقول : إن من حكمة الصوم : أنْ يَشعر الغني بألم الجوع ، فيعطف على الفقير ؛ لأنني سأقول لك إذن : لماذا يصوم الفقير ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً وما زلْنا نكرره . قلنا : إن أعز شيء على المرء صحته ، فإنْ أصابته علة ، فأول ما يُعمِل عقله يبحث عن الطبيب المتخصص في مرضه فيذهب إليه ، ثم يسلم له نفسه ليفحصه ، ثم يكتب له الدواء فيأخذه ويتناوله دون أنْ يسأل عن عِلَّته ، أو لماذا وصفه الطبيب ، لماذا ؟

لأن الطبيب مؤتمن بعد أنْ تعلَّم ودرس وتخصَّص ، فأنت لا تسأله ولا تناقشه : لماذا كتب لك هذا الدواء ، وهو مع ذلك إنسان وعُرْضة للخطأ وللسهو وللنسيان ، ومع ذلك لا يناقش . إذن : علة تناول الدواء أن الطبيب وصفه لي ، وعلة كل أمر عند الآمر به .

والآمر في العبادات هو الحق – سبحانه وتعالى – فلا يليق بالمؤمن بعد أن آمن بالله وبحكمته وقدرته أنْ يبحث ليعلم الحكمة من كل أمر يأتيه من ربه عز وجل .

نعود إلى آدم – عليه السلام – وأن الجنة التي دخلها كانت للتدريب والتجربة ولم تكُنْ جنة الخلد ، تدرَّب فيها آدم على : كل (افعل) وعلى : لا تقرب (لا تفعل) واحذر الشيطان فإنه عدو لك ، وسوف يوسوس لك ، ويغويك ؛ لأنه لا يريد أنْ يكونَ عاصياً وحده ، يريد أنْ يجرَّك معه إلى حمأة المعصية .

وظل آدم وزوجته يأكلان كما قال تعالى من الجنة رغداً حيث شاءا ، دون أنْ يقربا هذه الشجرة التي بيَّنها الله لهما إلى أنْ وسوس لهما الشيطان وأغراهما بالأكل منها ، مع أن الله تعالى حذَّرهما ، وأعطاهما حقنة مناعة ضد الشيطان ووسوسته ، ومع ذلك حدثتْ من آدم الغفلة .

وهذه الغفلة الله يُنبِّه بها ذرية آدم من بعده : أن الشيطان لن يدعكم ، وسوف يدخل عليكم بألاعيبه وحيله ، كما دخل على أبيكم آدم ، فكونوا منه على حذر ، وابحثوا

بعقولكم ما يلقيه إليكم من وساوس بالله .

ماذا قال إبليس لآدم حين أغواه بالأكل من الشجرة ؟ قال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ [الأعراف : 20]

أليس من المنطق أن نقول : ولماذا لم تأكل أنت منها يا إبليس فتصير مَلَكاً ، وتصير من الخالدين ، ولا تتمحك فتقول : ﴿ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر : 36] إذن : كان على آدم أنْ ينتبه إلى مكايد الشيطان وألاعيبه .

(432/607)

ثم يُنبِّهنا – سبحانه وتعالى – من خلال هذه القصة إلى أن الشيطان سيأتينا في مقام الطاعة ، فلو أن آدم وزوجه ذهبا إلى هذه ذهبا إلى هذه الشجرة وأكلا منها ما وسوس لهما ، فهذا دليل على أنهما احتاطا للأمر ، فلم يقربا من الشجرة تنفيذاً لأمر الله ؛ لذلك تدخَّل الشيطان .

إذن : نقول إن الشيطان لا يتدخل إلاّ في مجال الطاعة ، أما المعصية فصاحبها كفاه مؤنة الوسوسة ، الشيطان يذهب إلى المسجد لا يذهب إلى الخمارة ؛ لأن الذي يذهب إلى الخمارة صار شيطاناً في ذاته ، فما حاجته لإبليس ؟

لذلك يقول تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] أي : في مواضع الخير وطرق الصلاح والهداية لأبطل أعمالهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، ونحن نلحظ ذلك في صلاتنا مثلاً ، فقد تنسى شيئاً ، وتحاول أن تتذكره فلا تستطيع ، وفجأة وأنت تصلي تتذكره .

فلو أننا أخذنا (الروشتة) من خالقنا عز وجل وبمجرد أنْ ينزغنا الشيطان نقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتنبّه الشيطان ، وعلم أننا لسنا في غفلة ، وأننا نكشف ألاعيبه ، ونعرف حيله وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 200]

وقد وصف الله الشيطان بأنه خنّاس ، يعني : إذا ذُكِر الله خنس وتضاءل ، فإنْ جاءك هذا الخاطر الشيطاني – حتى وإنْ كنتَ تقرأ القرآن – قُلْ بجرأة وقوة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ليعلم أن ألاعيبه لا تخفي عليك فينصرف عنك ، أما أن تخضع له فإنه يعطيك فقط طرف الخيط ، ويفتح لك باباً يشغلك به ، ثم يتركك أنت (تكرُّ) هذا الخيط من نفسك ، ويذهب هو (يستغفل) واحداً غيرك .

(433/607)

والشيطان رغم عِلْمه ، إلا أن فيه تغفيلاً بدليل أنه أعلن عن خطته ، وأظهر لنا مكايده قبل أنْ يكيدنا بها ، فقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] وقال ﴿ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ . . ﴾ [الأعراف : 17] ، فالذي يدبر المكايد ويتآمر على غيره لا يعلن عن مكايده مُقدماً ، ونحن أيضاً كان علينا أنْ نحذر هذه المكايد خاصة ، وقد أعلن عدونا عنها .

ولك أنْ تلحظ في خطة إبليس أنه يأتيك من جهاتك الربع ، ومعلوم أن الجهات ست ، فلماذا لم يذكر فوقنا وتحتنا ؟ قالوا : لأن هاتين الجهتين محلُّ نظر إلى الله عز وجل ، فالعبد ينظر إلى عِزِّ الربوبية في عليائه وذُلِّ العبودية إذا اتجه في سجوده إلى أسفل .

إذن : فأنت في معية ربك في هاتين الجهتين ، والشيطان لا ينال منك إلا وأنت بعيد عن معية ربك . ومثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ؛ قلنا : إن الغلام إذا كان يسير في يد أبيه وفي صحبته ، لا يجرؤ أحد من أمثاله على الاعتداء عليه ، إنما إنْ سار وحده فهو عُرْضة للإيذاء .

وهذا دليل على علم إبليس وعلى ذكائه ، ونلحظ هذا أيضاً في قوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82-83] كأنه يقول لربه : أنا لا أقترب من عبادك الذين هم في حضانتك ، وفي معيتك .

والتغفيل الأكبر في إبليس أنه مع علمه بمقام ربه يتمرد على أمره ، حين يأمره بالسجود فلا

يسجد .

إذن : نبّه الله تعالى آدم وحذره من كيْد إبليس ، وكان عليه أنْ يحذر وألاَّ تدخل عليه حيلة الأكل من الشجرة إلا أنه في غفلة منه عن أمر ربه أكل من الشجرة ، فلما خالف الأمر اختلفتْ طبيعته ، وبدَتْ له ولزوجه السَّوْءة ، وكانت المرة الأولى التي يشعر فيها آدم بعورته عند خروج الغائط .

(434/607)

لكن ، ما الفرق بين فتحة دخول الطعام (الفم) وفتحة خروجه ؟ ولماذا أصبحت هذه عورة ، وهذه غير عورة ؟

قالوا : لأن آدم حال طاعته لأمر ربه في الأكل من ثمار الجنة كان يأكل بطهي ربه ، وهو طهي بحكمة وبقدر معلوم ، يكفي مقومات الحياة ولا يزيد عنها ، لذلك لمْ يَبْق في بطن آدم فضلات ، ولم توجد عنده غازات أو أرياح ، فلم يشعر في هذه الحالة بحاجة إلى التغوط ، فكانت الفتحتان متساويتين ، هذه فتحة ، وهذه فتحة .

فلما خالف آدم ربه وذاق الشجرة اختلفتْ الأغذية في بطنه ، وحدث لها تفاعلات ، ونتج عنها فضلات وأرياح ، ولما أحسَّ بها آدم نفر منها وأصابه الخجل ، وشعر أنها عورة ينبغي

أنْ تُستر ، فالطبع السليم لا بُدَّ أنْ ينفر منها ؛ لذلك أخذ يزيل هذا الأذى عن نفسه ، ويستره بأوراق الشجر ، ومنذ ذلك الحين لم يستطع آدم أن يسدَّ هذه الفتحة ، ولن تُسدَّ .

إذن : الحق سبحانه جعل الدُّرْبة لآدم في الجنة هذه ، وهيَّأ له فيها طعامه ، ونهاه عن نوع بعينه ، فأمره ونهاه وعلَّمه وحذَّره ، فلما وقع في المخالفة وأغواه الشيطان ، ولم يعمل بنصيحة ربه أخرجه إلى الأرض بهذه التجربة ، لتكون رمزاً له ولذريته من بعده : إنْ سِرْتَ على منهجي ووِفْق أوامري في (فعل) و (لا تفعل) فلن تجد عورة في الكون كله ، ونحن نرى ذلك فعلاً في حركة حياتنا في الكون ، فلا نرى عورة في المجتمع ولا خللاً إلا إذا خُولِفَتْ أوامر الله .

هذا هو الإتيان الأول ، بعد ذلك قدَّر الله غفلة البشر ، فأرسل إليهم الرسل بالمنهج ، فكان إتيان آخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ [النساء : 163] وقال في عيسى عليه السلام : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإنجيل ﴾ [الحديد : 27]

(435/607)

وهذا الإيتاء من الله يتم في خفاء ؛ لذلك يُسمونه وحياً ، وهو من الغيبيات ، فالله تعالى لا يمدُّ يده فيعطي النبي أو الرسول شيئاً حسِّياً ، ومن هنا ارتبط الإيمان بالغيبيات دون

المحسَّات ، فأنا لا أقول مثلاً : آمنتُ بأنني قاعد في مسجد الشيخ سليمان وأمامي جَمْع من الإخوة . . الخ . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الإيمان بأمر غيبي .

الحق – سبحانه وتعالى – يُؤتِي على توالي العصور أنبياءه معجزات ، ويؤتيهم منهجاً يسوس حركة الحياة ، ولا يقتصر إيتاء الله على الرسل ، إنما يؤتى غير الرسل ، ويؤتى الحيوان . . الخ .

ثم يعطينا الحق سبحانه نموذجاً للحكمة التي آتاها لقمان : ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ . . ﴾ [لقمان : 12] هذه هي الحكمة الأولى في الوجود ؛ لأنك إنْ شكرتَ الله على ما قدَّم لك قبل أنْ توجد ، وعلى ما أعطاك قبل تسأل ، وعلى ما هدى جوارحك لتؤدي مهمتها حتى وأنت نائم ، كأنه تعالى يقول لعباده : ناموا أنتم فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم .

فإن شكرك لله يهدم أول لبنة من لبنات الاغترار ، فالذي يفسد خلافة الإنسان في الأرض أنْ يغترَّ بما أعطاه الله وبما وهبه ، وينسى أنه خليفة ، ويعتبر نفسه أصيلاً في الكون ، والشكر لله تعالى يكون على ما قدَّم لك من نعم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] أي : تشكر الله على ما سبق ، فقد وُلدتَ لا تعلم شيئاً ، ثم تكونت عندك آلات الإدراك والعلم ، فعلمتَ وملأت قلبك بالمعاني الجميلة ؛ لذلك تشكر الله عليها ، فجَعْل هذه الآلات لك ، عِلَّته أنْ تشكر

أي : على ما مضى .

ثم هناك شكر آخر ، لا على ما فات ، لكن شكر هو في ذاته نعمة جديدة ، وتأمل في ذلك قول الله تعالى :

(436/607)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . ﴾ [الروم : 46] هذه كلها نِعَم يعطف عليها بقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم : 46]

فعطف الشكر على النعم السابقة يعني أنه في ذاته نعمة ، وإلا لقال كما في الآية السابقة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78]

والشكر بهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . ﴾ [إبراهيم : 7] فهذا شكر لما سبق ، وهذا شكر لما هو آتٍ .

والشكر في قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ . . ﴾ [لقمان : 12] مُوجه إلى الله تعالى ، فكيف إذا توجه الشكر في أسباب تناوله إلى غير الله ، كأنْ تشكر صاحبك الذي قدم لك معروفاً مثلاً ؟ قالوا : لو تأملتَ شكر غير الله ممن قدَّم لك معروفاً يستوجب الشكر لوجدته

يؤول إلى شكر الله في النهاية .

لذلك قالوا : لا تشكر الله إلا حين تشكر مَنْ ساق لك الجميل على يديه ، يعني : جعله سبباً في قضاء حاجتك ، ثم إن الذي قدَّم لك جميلاً ، ما قدّمه لك وما آثرك على نفسه إلا لأن الله أمره بذلك ، ودعاه إليه . وأثابه على فعله ، فإذا سلسلتَ الشكر لانتهى إلى شكر الله تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : 12] علمنا أن الشكر لله هو أول الحكمة ، فلماذا ؟ لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره .

وإياك أن تظن أن من مقومات قيومية ربك أنْ تشكره ، فشكْرك وعدمه سواء بالنسبة لله تعالى ، كيف وقد وسِع سبحانه الكافر الذي كفر به ، ولم يقطع عنه نعمه ؛ ذلك لأنه سبحانه غني عن خَلْقه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : 12] لأنه سبحانه يعرف أنه رب ، حتى للكافر الجاحد .

(437/607)

ونلحظ في الأسلوب هنا عظمة وروعة ، ففي الشكر قال سبحانه ﴿ وَمَن يَشْكُرْ . . ﴾ [لقمان : 12] أما في الكفر فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ . . ﴾ [لقمان : 12] ولم يقل : ومَنْ يكفر ، وفَرْق بين الأسلوبين ، والكلام هنا كلام ربٍّ ، ففي الشكر جاء بالفعل المضارع ﴿ يَشْكُرْ . . . ﴾ [لقمان : 12] الدال على الحال والاستقبال ، فالشكر متجدد ودائم على خلاف الكفر .

وكأنه – سبحانه وتعالى – لا يريد من عبده الدوام على كفره ، فلعله يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان ، فجاء بالفعل الماضي ﴿ كَفَرَ . . ﴾ [لقمان : 12] أي : في الماضي فحسب ، وقد لا يعود في المستقبل ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم .

ومعنى ﴿ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : 12] من صيغ المبالغة على وزن " فعيل " وتأتي مرة بمعنى " فاعل " مثل رحيم ، ومرة بمعنى " مفعول " مثل قتيل أي : مقتول ، والمعنى هنا ﴿ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : 12] أي : محمود وجاءت هذه الصفة بعد ﴿ غَنِيٌّ ﴾ [لقمان : 12] لأن الكافر لو كان يعلم أن الله لم يقطع عنه نعمه رغم كفره به لحمد هذا الإله الذي حلم عليه ، ولم يعامله بالمثل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ . . . ﴾ .

يعطينا الحق سبحانه طرفاً من حكَم لقمان التي رواها القرآن الكريم : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ

لأبنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ . . ﴾ [لقمان : 13] قوله : ﴿ وَإِذْ . . ﴾ [لقمان : 13] أي : اذكر يا محمد حين قال لقمان لابنه ، وتوجيه حكمة لقمان ونصيحته لابنه يدلُّنا على صدق ما رُوِيَ عنه أنه كان يفتي الناس ويعظهم قبل سيدنا داود عليه السلام ، فلما جاء داود أمسك لقمان وقال : ألا أكتفي وقد كُفِيت ، ثم وجه نصائحه لمن يحب وهو ولده .

(438/607)

ولذلك ، فالإمام أبو حنيفة – رضوان الله عليه – عندما شكاه القاضي ابن أبي ليلى إلى الخليفة أنه يفند شكاواه وأحكامه ، فأرسل إليه الخليفة بأنْ يترك الفتوى ، وبينما هو في بيته إذ جاءته ابنته وقالت له : يا أبي حدث لي كذا وكذا – تريد أن تستفتيه – فماذا قال لها وهي ابنته ؟ قال : سِلَي أخاك حماداً ، فإن أمير المؤمنين نهاني عن الفُتْيا .

وفَرْق بين أنْ يتكلم الإنسان مع عامة الخَلْق ، وبين أنْ يتكلم مع ولده ، فالابن هو الإنسان الوحيد في الوجود الذي يودُّ أبوه أن يكون الابن أفضلَ وأحسن حالاً منه ، ويتمنى أن يُعوِّض ما فاته في نفسه في ولده ويتدارك فيه ما فاته من خير .

ومعنى ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ . . ﴾ [لقمان : 13] الوعظ : هو التذكير بمعلومة عُلِمت من قبل مخافة أنْ تُنْسى ، فالوعظ لا يكون بمعلومة جديدة ، إنما يُنبه غفلتك إلى شيء موجود

عندك ، لكن غفلت عنه ، فهناك فَرْق بين عالمٍ يُعلم ، وواعظ يعظ ، والوعظ للابن يعني أنه كان على علم أيضاً بالمسائل ، وكان دور الوالد أنْ يعظه ويُذكّره .

ونلحظ في أسلوب الآية أن الله تعالى لما أخبر عنه قال ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ . . ﴾ [لقمان : 13] ولما تكلم لقمان عن ابنه قال ﴿ يابني . . ﴾ [لقمان : 13] ولم يقل يا ابني ، فصغّره تصغير التلطف والترقيق ، وليوحي له : إنك لا تزال في حاجة إلى نصائحي ، وإياك أنْ تظن أنك كَبِرت وتزوجت فاستغنيتَ عني .

وأول عِظَة من الوالد للولد ﴿ لاَ تُشْرِكْ بالله . . ﴾ [لقمان : 13] وهذه قمة العقائد ؛ لذلك بدأ بها ؛ لأنه يريد أنْ يُصحّح له مفهومه في الوجود ، ويلفت نظره إلى أن الأشياء التي نعم بها آباؤك وأجدادك لا تزال تعطي في الكون ، ومن العجيب أنها باقية ، وهي تعطِي في حين يموت المعطَى المستفيد بها .

(439/607)

وتأمل منذ خلق الله الكون كم جيل من البشر انتفع بالشمس ؟ ومع ذلك انذثروا جميعاً ، وما زالت الشمس باقية ، كذلك القمر والهواء والجبال . . الخ . فكيف وأنت سيد هذا الكون يكون خادمك أطول عمراً منك ؟

إذن : على العاقل أن يتأمل ، وعلى الإنسان الذي كرّمه الله على سائر المخلوقات أن يقول : لا بُدَّ أن لي عمراً أطول من عمر هذه المخلوقات التي تخدمني ، وهذا لا يتأتى إلا حين تصل عمرك في الدنيا بعمرك في الآخرة ، وهذا يستدعي أن تؤمن بالله وألاّ تشرك به شيئاً ، فهو وحده سبحانه الذي خلق لك هذا كله ، وأعدّه لخدمتك قبل أن توجد :

واقرأ :

﴿ هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ . . ﴾ [لقمان : 11]

فكيف تدعي أن لله شركاء في الخَلْق ، وهم أنفسهم لم يدَّعوا أنهم آلهة ، أو أنهم خلقوا شيئاً في كون الله ؟ كيف وأنت تسير في الصحراء ، فترى الحجر يعجبك فتأخذه وتُسوِّيه وتجعله إلهاً ولو هبَّتْ الريح لأطاحتْ به ؟

ثم ما المنهج الذي جاءتكم به هذه الآلهة بِمَ أمرتكم وعَمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدت من نعيم لمن عبدها ، وماذا أعدَّت من عذاب لمن كفر بها ؟ إذن : فهذه آلهة بلا تكليف ، والعبادة في حقيقتها أنْ يطيع العابد أمر معبوده ، إذن : هي آلهة باطلة لا يخفى بطلانها على العاقل .

لذلك يقول لقمان : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] نعم الشرك ظلم ؛ لأن الظلم يعني : نَقْل حق الغير إلى الغير ، وقمة الظلم ومنتهاه أن تأخذ حق الله ، وتعطيه لغير الله ، ألا ترى أن الصحابة ضجُّوا لما نزل قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : 82]

وقالوا : يا رسول الله ، ومَنْ منا لم يخالط إيمانه ظلم ؟ فهدَّأ رسول الله من رَوْعهم وطمأنهم أن المراد بالظلم هنا ظلم القمة أي : الشرك بالله ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]

(440/607)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ . . . ﴾ .

أهذه وصية من وصايا لقمان لابنه ، أم هي كلام جديد من الله تعالى جاء في سياق كلام لقمان ؟ قالوا : هو من كلام الحق تبارك وتعالى ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا . . . ﴾ [لقمان : 15] ومن التكريم للقمان أن الله تعالى ساق هذه الوصية بعد وصيته لابنه ، فجاءت وكأنها حكاية عنه .

ومعنى ﴿ وَوَصَّيْنَا . . ﴾ [لقمان : 14] يعني : علّمنا ووعظنا ، وهما يدلان على معلومات تبتدئ بعلمنا ويذكر بها في وعظنا ، ويُوفى بها حين جمعنا كل الخير في كلمة واحدة ؛ لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما خطب الناس في حجة الوداع ذكر أمهات الفضائل ، لماذا ؟ لأنه آخر كلامه إليهم ، والموقف لا يناسب أنْ يذكر فيه تفاصيل

الدين كله ، فاكتفى بذكر أسسه وقواعده ، كالرجل منّا حين تحضره الوفاة يجمع أولاده ، ويوصيهم ، فيختار الأمور الهامة والخلاصة في أضيق نطاق .

الله تعالى يقول : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ . . . ﴾ [لقمان : 14] والوصية بالوالدين بالذات أخذتْ رقعة واسعة في كتاب الله ، في هذه الآية ذكر علة الوصية ، فقال :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ . . . ﴾ [لقمان : 14]

وفي خمس آيات أخرى وردتْ كلمة (إحساناً) ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله وبالوالدين إِحْسَاناً . . . ﴾ [البقرة : 83]

وفي سورة النساء : ﴿ واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً . . . ﴾ [النساء : 36]

وفي الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً . . . ﴾ [الأنعام : 151]

(441/607)

وفي الإسراء : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً . . . ﴾ [الإسراء : 23]

وفي الأحقاف : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . ﴾ [الأحقاف : 15]

وفي آية واحدة وردت كلمة (حسناً) في سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً . . . ﴾ [العنكبوت : 8]

وفي آية واحدة أيضاً جاءت الوصية بالوالدين دون ذكر لهاتين الكلمتين : (حُسْناً وإحساناً) هي الآية التي نحن بصدد الحديث عنها .

لكن ، ما الفرق بين (إحساناً) و (حُسناً) ؟ الفرق أن الإحسان مصدر أحسن ، وأحسن حدث ، تقول : أحسن فلان إحساناً . أما حُسناً فمن الحسن وهو المصدر الأصيل لهذه المادة كما تقول : فلان عادل ، فوصفته بالعدل ، فإنْ أردتَ أنْ تبالغ في هذا الوصف تقول : فلان عَدْل أي : في ذاته ، لا مجرد وَصْف له .

إذن : فحُسْناً آكد في الوصف من إحساناً ، فلماذا جاءت في هذه الآية بالذات : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً . . . ﴾ [العنكبوت : 8] قالوا : لأن هذه الآية تتعرض لمسألة صعبة تمسُّ قمة العقيدة ، فسوف يطلب الوالدان من الابن أنْ يشرك بالله .

لذلك احتاج الأمر أنْ نوصي الابن بالحُسْن في ذاته ، وفي أسمى توكيداته فلم يقُلْ هنا (إحْسَاناً) إنما قال (حُسْناً) حتى لا يظن أن دعوتهما إياه إلى الشرك مبرر لإهانتهما ، أو

التخلي عنهما ؛ لذلك يُعلِّمنا ربنا :

﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ [لقمان : 15]

(442/607)

وإنْ كانت الوصية هنا بالوالدين ألا أن حيثيات الوصية خاصة بالأم ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : 14] فلم يذكر شيئاً عن دور الأب ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكلام هنا كلام رب ، وما عليك إلا أنْ تُعمِل فيه فكرك وقلبك لتصل إلى دقائقه

.

الله تعالى يُذكِّرنا هنا بدور الأم خاصة ، لأنها تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صُنْعها ، فهو مستور عنك لا تعرفه ، أما الأفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كِبَرك وإدراكك للأمور من حولك ، فالابن يعرف ما قدَّم أبوه من أجله .

فكأن أفعال الأب وُجِدت حين تم تكوين العمر العقلي الواعي ، ففهم الابن ما فعل أبوه ، وكثيراً ما سمع الابن : أبوك ذهب إلى كذا ، أبوك أحضر لك كذا ، وهذا الأمر عندما يأتي أبوك . . الخ ، فدوْر الأب ظاهر على خلاف دور الأم ؛ لذلك ذكره الحق – تبارك وتعالى – هنا ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ [لقمان : 14]

ويأتي مَنْ يقول : أليس الابن نتيجة التقاء الأب والأم ، فهما فيه سواء ؟ ونقول : بلى ، لكن مشقة الأم فيه أوضح أثناء الحمل وعند الولادة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالشهوة لَزهدَ الناس فيه لما تتحمله الأم من مشاق ، ولما يتحمله الأب من تبعات الأولاد .

ونعرف قصة المرأة التي ذهبت تقاضي زوجها لأنه يريد يأخذ ولدها منها ، فقالت للقاضي وقد قال لها : أليس الولد ولدكما معاً ؟ قالت : بلى ، ولكنه حمله خِفّاً ووضعه شهوة ، وحملتُه وهناً على وهن ، فحكم لها .

(443/607)

ومعنى : ﴿ وَهْناً على وَهْنٍ . . ﴾ [لقمان : 14] أي : ضعفاً على ضعف ، والمرأة بذاتها ضعيفة ، فاجتمع لها ضعفها الذاتي مع ضعف بسبب الجنين الذي يتغذى منها ، ويكبر في أحشائها يوماً بعد يوم ؛ لذلك قلنا : إن من حكمة الله تعالى في خَلْق الرحم أنْ جعله قابلاً للتمدد والاتساع ليحتوي الجنين في مراحل الحمل المختلفة إلى أنْ يزيد الجنين زيادةً لا يتحملها اتساع الرحم فينفجر إيذاناً بولادة إنسان جديد وخَلْق آخر كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14]

فالجنين كان خَلْقاً تابعاً لأمه في غذائه وفي تنفسه وحركته ، لكن حينما جاء أمر الله وأذن

بميلاده أنشأه خَلْقاً آخر له مُقوِّمات حياة مستقلة غير متصل بأمه .

ويقولون في هذه العملية (القرن طش) كما تنفجر البالونة إذا نُفخت لدرجة أكثر مما تتحمل ، ومن العجيب أن الرحم يتسع بقدرة الله لعدة توائم كما نرى ونسمع .

ومن عظمة الخالق سبحانه في مسألة الرزق أن رزق الجنين يأتيه منفصلا عن رزق أمه ، فلكل منها رزق لا يأخذه الآخر ، ومعلوم أن المرأة حين يُقدَّر لها حَمْل ينقطع عنها الدم الذي كان ينزل بصفة دورية حال فراغ الرحم من الحمل ، هذا الدم هو الذي جعله الله غذاءً للجنين الجديد .

أما إذا لم يُقدَّر لها حمل فإنَّ جسمها يطرد هذا الدم ويتخلص منه ولا يستفيد به ، لماذا ؟ لأنه ليس غذاءها ، وكأن الخالق – عز وجل – يُنبِّهنا أن لكل منا رزقه الذي لا يتعدَّاه إلى غيره .

(444/607)

وأيضاً من حكمته تعالى في وَضْع الجنين في بطن أمه عند الولادة أنْ ينزل برأسه ، وهذا هو الوضع الطبيعي لولادة طفل سليم ؛ لأن أول ضروريات الحياة للطفل ساعةَ ينفصل عن أمه أنْ يتنفس ، فإذا نزل برأسه – وهذا الوضع يحاول أطباء الولادة التأكد منه – استطاع

التنفس حتى وإنْ تعسر نزول باقي جسمه ، أمّا إنْ نزل الطفل بعكس هذا الوضع فإنه يختنق ويموت قبل أنْ يتم نزوله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ . . ﴾ [لقمان : 14] الفصال : أي الانفصال عن الأم في مسألة الرضاعة ، ومنه : يسمون ولد الناقة الذي استغنى عن لبنها : الفصيل أي الذي فُصِل عن أمه ، وأصبح قادراً على أنْ يأكل ، وأن يعيش دون مساعدتها ، وحتى عملية فصال الولد عن أمه فيها مشقة وألم للأم .

أما العملية الجنسية التي أثمرتْ الولد فكانت شركة بينهما ، وبذلك لا بُدَّ أن نعترف أن للأم الدور الأكبر وعليها العبء الأكبر في مسألة الأولاد ؛ لذلك كان لها الحظ الأفر في وصية النبي صلى الله عليه وسلم للصحابي الذي سأله : مَنْ أحق الناس بحُسْن صحابتي يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، فأعطى كلاً منهما على قدر ما قدَّم .

ومسألة الفصال هذه شُرحت في آيات أخرى ، ففي سورة البقرة : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة . . . ﴾ [البقرة : 233] وهذه تؤكد ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : 14]

وفي آية أخرى تجمع الحمل والرضاعة معاً : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . ﴾ [

الأحقاف : 15] وبخصم العامين من الثلاثين شهراً يكون الباقي ستة أشهر ، وهي أقلّ مدة للحمل .

(445/607)

وهذه المسألة اعتمد عليها الإمام علي – رضي الله عنه – حينما رأى عمر رضي الله عنه يريد أن يُقيم الحد على امرأة ولدتْ لستة أشهر ؛ لأنه يعتقد أن مدة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : يا أمير المؤمنين ، الله يقول غير ذلك ، فقال : وماذا يقول الله ؟ فذكر عليٌّ الآيتين السابقتين : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . ﴾ [الأحقاف : 15]

والأخرى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ﴾ [لقمان : 14]

ثم بيَّن له عليٌّ أن أقلَّ مدة للحمل بناءً على هاتين الآيتين ستة أشهر ، فقال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

وقوله تعالى : ﴿ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ﴾ [لقمان : 14] فالله تعالى هو المستحق للشكر أولاً ؛ لأنه سبحانه هو الذي أنشأ من عدم ، وأمدَّ من عُدْم ، ثم الوالدان لأنهما السبب في الإيجاد وإنشاء الولد .

فكأن الحق سبحانه مسبِّب أعلى ؛ لأنه خلق من لا شيء ، والوالدان سبب من أسباب

الله في الوجود ، إذن : لا تُحسِن شكر الله الخالق الأول والمسبِّب الأعلى حتى تُحسِن شكر الوالدين ، وهما السبب الثاني في وجودك .

فقوله سبحانه : ﴿ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ﴾ [لقمان : 14] أي : على الإيجاد ، لكن في موضع آخر : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : 24] وهذه للإيجاد وللتربية وللرعاية ، فكما أن هناك أبوةً للإيجاد هناك أبوة للتربية ، فكثيراً ما نجد الطفل يربيه غير أبيه وغير أمه ، ولا بُدَّ أنْ يكون لهؤلاء نصيب من الشكر ومن الولاء والبرِّ ما دام أن الله تعالى ذكرهم في العلة ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : 24]

(446/607)

والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ، فإذا لم يكُنْ للأب الحقيقي وجود ، فالأبوة لمن ربَّى ، وله نفس حقوق الأب من حيث الشكْر والبر والمودة ، بل ينبغي أن يكون حقُّه مضاعفاً ؛ لأن في الأب الحقيقي عطف البُضع على البُضع ، وفي الأب المربِّي عطف الدين على الدين ، وهذه مسألة أخرى غير مجرد الأبوة .

لكن ، هل شكر الله أولاً دُرْبة على أنْ تشكر الوالدين ، وهما السبب المباشر في وجودك ؟

أم أن شكرَ الوالدين دربةٌ على أن تشكر الله الذي خلقك وأوجدك ؟ نقول : هما معاً ، فشُكْر الله يستلزم شكْر الوالدين ، وشكر الوالدين ينتهي إلى شُكْر الله .

وقوله : ﴿ إِلَيَّ المصير ﴾ [لقمان : 14] أي : المرجع ، والمعنى : أنني أوصيك بأهم شيء فاحذر أنْ تخالف وصيتي ؛ لأنني أقدر على أنْ أعاقب مَنْ خالف .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن . . . ﴾ .

يؤكد الحق سبحانه على أمر الوالدين ، وكأنه سبحانه استدرك غير مُستدَرَك ، فليس لأحد أنْ يستدرك على الله ، وكأن واحداً كان يناقش رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الوالدين وما نزل في شأنهما ، فسأل : كيف لو أمراني بالكفر ، أأكفر طاعة لهما ؟ لذلك جاء الحكم من الله في هذه المسألة .

وفي آية العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : 8]

فذكر فيها (حُسْناً) ولم يقل فيها ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ [لقمان : 15]

فكأن كلمة الحُسْن ، وهي الوصف الجامع لكلِّ مدلولات الحُسْن أغنتْ عن المصاحبة بالمعروف .

ومعنى ﴿ جَاهَدَاكَ . . ﴾ [لقمان : 15] نقول : جاهد وجهد ، جهد أي في نفسه ، أما جهاد ففيها مفاعلة مع الغير ، نقول : جاهد فلان فلاناً مثل قاتل ، فهي تدل على المشاركة في الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً ، فكل منهما فاعل ، وكل منهما مفعول ، لكن تغلب الفاعلية في واحد ، والمفعولية في الآخر .

فمعنى ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ . . ﴾ [لقمان : 15] لا تعني مجرد كلمة عَرَضَا فيها عليك أن تشرك بالله ، إنما حدث منهما مجهود ومحاولات لجذبك إلى مجاراتها في الشرك بالله ، فإن حدث منهما ذلك فنصيحتي لك ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا . . ﴾ [لقمان : 15]

ثم إياك أنْ تتخذ من كفرهما ودعوتهما لك إلى الكفر سبباً في اللدد معهما ، أو قطع الرحم ، فحتى مع الكفر يكون لهما حق عليك ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . ﴾ [لقمان : 15] ثم إنهما كفرا بي أنا ، وأنا الذي أوصيك بهما معروفاً .

وقوله تعالى : ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ . . ﴾ [لقمان : 15] أي : لن تكون وحدك ، إنما سبقك أُنَاسٌ قبلك تابوا وأنابوا فكُنْ معهم ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ . . ﴾ [لقمان : 15] أي : مأواكم جميعاً .

قالوا : إن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خالي سعد ، فليُرني امرؤ خاله " ولما أسلم سعد غضبت أمه – وكانت شديدة

الحب له فكادت تُجَنُّ وحلفتْ لا تأكل ولا تشرب ولا تغتسل ، وأنْ تتعرَّى في حَرِّ الشمس حتى يرجع دينه ، فلما علم سعد بذلك قال : دعوها والله لو عضَّها الجوع لأكلتْ ، ولو عضَّها العطش لشربتْ ، ولو أذاها القمل لاغتسلتْ ، أما أنا فلن أحيد عن الدين الذي أنا عليه ، فنزلا : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ . . ﴾ [لقمان : 15]

ولو أن الذي يكفر بالله ويريد لغير من المؤمنين أنْ يكفر معه كابن أو غيره ، ثم يرى وصية الله به رغم كفره لعلم إن الله تعالى رب رحيم لا يستحق منه هذا الجحود .

(448/607)

وسبق أن ذكرنا الحديث القدسي الذي قالت فيه الأرض :

" رب ائذن لي أن أخسف بابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك وقالت السماء : رب ائذن لي أن أسقط كسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أُغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك . . الخ ، فقال الحق تبارك وتعالى : لو خلقتموهم لرحمتموهم " .

ذلك لأنهم عباد الله وصَنْعته ، وهل رأيتم صاحب صنعة يُحطِّم صنعته ، وجاء في الحديث النبوي : " الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله في أرض

فلاة" .

إذن : فِنعْمَ الرب هو .

ويُروى أن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – جاءه ضيف ، فرأى أن سَمْته غير سَمْت المؤمنين ، فسأله عن دينه فقال : إنه من عُبَّاد النار ، فردَّ إبراهيم الباب في وجهه ، فانصرف الرجل ، فعاتب الله نبيه إبراهيم في شأن هذا الرجل فقال : يا إبراهيم ، تريد أن تصرفه عن دينه لضيافة ليلة ، وقد وَسِعْتُه طوال عمره ، وهو كافر بي ؟

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب الله له ، فقال الرجل : نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه في أعدائه ، ثم شهد ألاَّ إله إلا الله .

فلو أن الكافر الذي يريد الكفر لغيره يعرف أن الله يوصي به وهو كافر ، ويُرقِّق له القلوب لَعاد إلى ساحة الإيمان بالله ؛ لذلك كثيراً ما نقابل أصحاب ديانات أخرى يعشقون الإسلام فيختارونه ، فيغضب عليهم أهلهم فنقول للواحد منهم : كُنْ في دينك الجديد أبرَّ بهم من دينك القديم ، ليعلموا محاسن دينك ، فضاعف لهم البر ، وضاعف لهم المعروف ، لعل ذلك يُرقِّق قلوبهم ويعطفهم نحو دينك .

وتأمل عظمة الأسلوب في ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . ﴾ [لقمان : 15] فلم يقل مثلاً أعطهم معروفاً ، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضي متابعتهما وتفقُّد شأنهما ، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه ، ويعطيهما قبل أنْ يسألا ، فلا يلجئهما إلى ذُلِّ السؤال ، وهذا في ذاته إحسان آخر .

كالرجل الذي طرق بابه صديق له ، فلما فتح له الباب أسرَّ له الصديق بشيء فدخل الرجل وأعطى صديقه ما طلب ، ثم دخل بيته يبكي فسألته زوجته : لم تبكي وقد وصلْته ؟ فقال : أبكي لأنني لم أتفقد حاله فأعطيه قبل أن يذلَّ نفسه بالسؤال .

والحق – تبارك وتعالى – حين يقول بعد الوصية بالوالدين : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : 15] إنما لينبهنا أن البرَّ بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف لم يُنسى لك ذلك ، إنما سيُكتب لك ، وسيكون في ميزانك ؛ لأنك أطعتَ تكليفي وأمري ، وأدَّيتَ ، فلك الجزاء لأنك عملتَ عملاً إيمانياً لا بُدَّ أن تُثاب عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(450/607)

وقال الشيخ الصابونى

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ﴾

سورة لقمان

[1] " طاعة الوالدين " أو " بر الوالدين "

التحليل اللفظي

﴿ الحكمة ﴾ : الإصابة في القول والعمل . وأصل الحكمة : وضع الشيء في موضعه قال تعالى : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ [البقرة : 269] .

قال الرازي : الحكمة عبارة عن التوفيق بين العلم والعمل ، فكل من أوتي توفيق العلم بالعمل فقد أوتي الحكمة .

وفي " اللسان " : أحكم الأمر : أتقنه ، ويقال للرجل إذا كان حكيما : قد أحكمته التجارب ، والحكيم : المتقن للأمور . وقد كان لقمان حكيما على الرأي الراجح ولم يكن نبيا .

﴿ غني ﴾ : مستغن عن الخلق ليس بحاجة إلى أحد ، والعباد محتاجون إليه جل وعلا ﴿ يا أَيُّهَا الناس أنتم الفقرآء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ [فاطر : 15] .

﴿ حميد ﴾ : فعيل بمعنى (مفعول) أي محمود يحمده أهل السماء وأهل الأرض .

قال أبو السعود : (حميد) أي حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد ، والمعنى أنه تعالى مستحق

للحمد سواء شكره الناس أو لم يشكروه .

﴿ يعظه ﴾ : العظة والموعظة بمعنى (النصيحة) و (الإرشاد) بالأسلوب الحكيم ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] . وفي حديث العرباض بن ساريه (خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب . . . .) .

﴿ وهنا ﴾ : مصدر وهن بمعنى ضعف ، والوهن الضعف ، وفي التنزيل ﴿ رب إني وهن العظم مني ﴾ [مريم : 4] .

قال الزجاج : (وهنا على وهن) أي ضعفا على ضعف ، والمعنى : لزمها بحملها إياه أن تضعف مرة بعد مرة ، فلا يزل ضعفها يتزايد من حين الحمل إلى الولادة ، لأن الحمل كلما عظم ازدادت به ثقلا وضعفا . ثم هي في أصل خلقتها ضعيفة البنية والحمل يزيدها ضعفا .

﴿ وفصاله ﴾ : فطامه ، والفصال : يراد منه ترك الإرضاع ، وهو لفظ يستعمل في الرضاع خاصة ، وأما الفصل فهو أعم منه ، لأنه يستعمل في الرضاع وغيره ، وقيل : هما

بمعنى واحد .

قال في " اللسان " : والفصال : الفطام ، قال تعالى : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ [الأحقاف : 15] .

وفصلت المرأة ولدها أي فطمته ، وفي الحديث (لا رضاع بعد فصال) قال ابن الأثير : أي بعد أن يفصل الولد عن أمه ، وبه سمي الفصيل من أولاد الإبل ، فعيل بمعنى مفعول .

ومعنى الآية : أي فطامه يتم في انقضاء عامين .

﴿ المصير ﴾ : المرجع والمآب قال تعالى : ﴿ وإليه المصير ﴾ [المائدة : 18] أي الرجوع والمآب ، وصرت إلى فلان مصيرا ، قال الجوهري : وهو شاذ والقياس مصار مثل معاش ، وفي كلام الفزاري لعمه (ابن عنقاء) : ما الذي أصارك إلى ما أرى يا عم ؟ قال : بخلك بمالك ، وبخل غيرك من أمثالك ، وصوني أنا وجهي عن مثلهم وتسآلك !

﴿ جاهداك ﴾ : أي بذلا أقصى ما في وسعهما من أجل حملك على الإشراك بالله ، يقال : جاهد أي بذل جهده قال تعالى :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ [العنكبوت : 69] والجهاد المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة ، ولهذا يسمى المحارب (مجاهدا) لأنه يبذل ماله ونفسه وروحه في سبيل الله . فهو قد بذل كل ما لديه قال الشاعر :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة . . . وأي جهاد غيرهن أريد ؟

﴿ معروفا ﴾ : أي صاحبهما مصاحبة بالمعروف ، والمعروف ما يستحسن من الأفعال

.

﴿ أناب ﴾ : أي رجع إلى ربه وتاب إليه ، والمنيب : الراجع إلى ربه ، السالك طريق الاستقامة ، ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ [سبأ : 9] .

قال الطبري : وقوله ﴿ واتبع سبيل من أناب إلي ﴾ يقول : واسلك طريق من تاب من شركه ، ورجع إلى الإسلام ، واتبع محمدا صلى الله عليه وسلم .

المعنى الإجمالي

نبه الباري جل وعلا في هذه الآيات الكريمة إلى المقام الرفيع الذي أعطيه العبد الصالح (لقمان) . . وذكر بحق الوالدين ، وحذر من الشرك ، الذي هو أعظم الجرائم عند الله ، فالله جل ثناؤه يخبرنا عن أمر ذلك العبد الصالح ، الذي رزقه الله الحكمة ، وآتاه العقل والرشد ، فكان ينطق بالحكمة ويعلمها الناس .

وقد عدد سبحانه وتعالى بعض هذه النصائح ، التي أوصى بها (لقمان الحكيم) ولده ، وكان من أهمها وأخطرها ، التحذير من (الكفر والإشراك) لأنه نهاية القبح والشناعة ﴿

ومن يشرك بالله فكأنما خر من السمآء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ [الحج : 31] .

يقول الله جل ثناؤه ما معناه : اذكر يا محمد لقومك . موعظة لقمان لابنه ، وهو أشفق الناس عليه ، وأحبهم لديه ، حين نبهه إلى خطر الشرك بالله ، وجحود نعمائه .

وحذره من ضرره ، لأنه ظلم صارخ ، وعدوان مبين ، لما فيه من وضع الششيء في غير موضعه . فمن سوى بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله الرازق ، والصنم الذي لا يسمع ولا ينفع ولا يغني عن صاحبه شيئا . فهو – بلا شك – أحمق الناس . وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة . وحري به أن يوصف بالظلم ، ويجعل في عداد البهائم .

وبعد أن ذكر سبحانه ما أوصى به لقمان ابنه من شكر المنعم ، وذكر ما في الشرك من الشناعة . أتبعها سبحانه بوصية مستقلة عن وصايا لقمان ألا وهي (الوصية بالوالدين) ليشير إلى قبح الشرك ، ويؤكد حكمة الرجل الصالح (لقمان) لابنه في نهيه عن الشرك فكأنه تعالى يقول : مع أننا أوصينا الإنسان بوالديه ، وأمرناه بالعطف عليهما ، والإحسان إليهما ، وألزمناه طاعتهما لما تحملا في سبيله من المتاعب والمصاعب ، مع كل هذا فقد حذرناه من طاعتهما في حالة الشرك والعصيان ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فالوضع السليم بين (الأب وابنه) هي الطاعة والإحسان ، وامتثال كمال الأدب مع من رباه وتعب في شأن تربيته .

﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ [الإسراء : 24] فإذا تغير الوضع ، وأصبح الأب والأم مدعاة للشرك ، ومصدرا للعصيان ، فلا سمع ولا طاعة ولا استجابة لصوت الضلال ، مهما بذلا من جهد ، ومع كل ذلك فقد ختم الله جل ثناؤه الآية الكريمة بوجوب صحبتهما بالمعروف والإحسان إليهما في الدنيا حتى ولو كانا مشركين ، لأن حقهما على ولدهما عظيم ، وكفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحملاها في تربية الولد ، فالإحسان إليهما واجب ، وطاعتهما في معصية الله ممنوعة ، واتباع سبيل المؤمنين الصادقين هو الطريق السوي الذي يوصل إلى رضوان الله تعالى .

سبب النزول

روى الحافظ (ابن كثير) في تفسيره عن (سعد بن أبي وقاص) رضي الله عنه أنه قال : (كنت رجلا برا بأمي ، فلما أسلمت ، قالت يا سعد : ما هاذ الدين الذي أراك قد أحدثت ! لتدعن دينك هذا ، أو لا آكل ، ولا أشرب ، حتى أموت فتعير بي ، فيقال : يا قاتل أمه ، فقلت لها : يا أمه لا تفعلي ، فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبدا) ! !

قال : فمكثت يوما وليلة ولم تأكل ، فأصبحت وقد جهدت ، فمكثت يوما وليلة أخرى لا

تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها . . فلما رأيت ذلك جئت إليها فقلت : يا أمه ، تعلمين والله ، فإن شئت فكلي وإن شئت فدعي . . فلما رأت صلابته في دينه أكلت فأنزل الله عز وجل ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي . . . ﴾ الآية .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : ذكر الله سبحانه وتعالى في الوصية (أمر الوالدين) ثم نوه بشأن الأم خاصة ، فهو من باب ذكر (الخاص بعد العام) لزيادة العناية والاهتمام ، ولبيان أن حق الأم على الولد أعظم من حق الأب ، وقوله تعالى : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن ﴾ هذه جملة اعتراضية .

قال الزمخشري : في " الكشاف " : فإن قلت : قوله تعالى : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن ﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر ؟ قلت : لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب ، في حملة وفصاله هذه المدة المتطاولة ، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا وتذكيرا بحقها العظيم مفردا ، ومن ثم قال بعد ذلك : أباك .

وروي عن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره ، وهو يقول في حدائه : (أحمل أمي وهي الحمالة ، ترضعني الدرة والعلالة ، ولا يجازى والد فعاله) .

اللطيفة الثانية : حين أمر سبحانه بشكر الوالدين قدم شكره تعالى على شكرهما فقال ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ وفي هذا التقديم إشارة إلى أن حق الله أعظم من حق الوالدين ، وشكره أوجب وألزم ، لأنه تعالى هو المنعم الحقيقي ، المتفضل على عباه بالنعم ، وشكر الوالدين جزء من شكر المنعم ، والله جل وعلا هو السبب الحقيقي في الخلق والايجاد ، والوالدان سبب ظاهري ، فينبغي أن يقدم السبب الحقيقي على السبب الظاهري .

اللطيفة الثالثة : تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر فقوله تعالى : ﴿ إلي المصير ﴾ وقوله ﴿ ثم إلي مرجعكم ﴾ تقدم الجار والمجرور على المتعلق به فأفاد معنى الحصر والمعنى : إلي المرجع والمآب لا إلى غيري ، وإلي مرجع الخلائق جميعا لا إلى أحد سواي .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ في الدنيا ﴾ ذكر الدنيا في الآية الكريمة ، فيه إشارة إلى (تهوين) أمر الصحبة ، وتقليل مدتها لأنها في أيام قلائل ، وشيكة الزوال والانقضاء ، فلا يصعب على الإنسان تحملها .

ولقد أحسن من قال :

دقات قلب المرء قائلة له . . . إن الحياة دقائق وثواني

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ واتبع سبيل من أناب إلي ﴾ في الآية الكريمة إشارة إلى سلوك طريق الصالحين والاقتداء بالسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين . وفسره بعضهم بأن المراد بقوله تعالى : ﴿ وهنا على وهن ﴾ هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه أي أتبع سبيله في الإيمان لأن إسلام (سعد) كان بسببه .

والصحيح كما قال الألوسي : أنها عامة تعم كل من اتصف بهذا الوصف .

وجوه القراءات

1- قوله تعالى : ﴿ وهنا على وهن ﴾ قراءة الجمهور بسكون الهاء ، وقرأ الضحاك وعاصم ﴿ وهنا على وهن ﴾ بفتح الهاء فيهما .

2- قوله تعالى : ﴿ وفصاله في عامين ﴾ قرأ النخعي والأعمش ﴿ وفصاله ﴾ بفتح الفاء ، والجمهور بكسرها ، وقرأ الحسن وأبو رجاء ﴿ وفصله ﴾ بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف .

3- قوله تعالى : ﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ [لقمان : 17] قراءة الجمهور بفتح الياء على تقدير ﴿ يا بنيا ﴾ والاجتزاء بالفتحة عن الألف ، وقرأ البزي ﴿ يا بني ﴾ بالسكون ، وقرأ بعضهم ﴿ يا بني ﴾ بكسر الياء مع التشديد .

وجوه الإعراب

1- قوله تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان ﴾ إذ ظرف متعلق بفعل مقدر ، وتقديره : إذكر إذ قال لقمان ، و (لقمان) ممنوع من الصرف للتعريف والألف والنون الزائدتين كعثمان ، وعمران ، ويجوز أن يكون أعجميا ، فلا ينصرف للعجمة والتعريف .

2- قوله تعالى : ﴿ وهو يعظه ﴾ وهنا : حال من الفاعل ، والمعنى حملته أمه ذات وهن أو واهنة ، وهذا اختيار أبي حيان والزمخشري .

والمصدر يأتي (حالا) بكثرة كما قال ابن مالك :

ومصدر منكر حالا يقع . . . بكثرة كبغتة زيد طلع

واختار ابن الأنباري أن يكون منصوبا بنزع الخافض وتقديره : حملته أمه بوهن ، فحذف حرف الجر فاتصل الفعل به فنصبه .

والأرجح الأول لعدم احتياجه للتأويل بخلاف الثاني .

(456/607)

4- قوله تعالى : ﴿ أن اشكر لله ﴾ قال الزجاج : هي في موضع نصب على حذف حرف الجر ، وتقديره ، بأن اشكر ، وقيل (أن) مفسرة بمعنى (أي) كقوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا ﴾ [ص : 6] قال النحاس : والأجود أن تكون مفسرة .

5- قوله تعالى : ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾ انتصب (معروفا) على أنه صفة لمصدر محذوف تقديره : صحابا معروفا أو بنزع الخافض والتقدير : وصاحبهما بالمعروف

.

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هي مدة الرضاع المحرم ؟

استدل الفقهاء على أن مدة الرضاع الذي يتعلق به التحريم هو سنتان بهذه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وفصاله في عامين ﴾ فإن المراد بالفصال الفطام فتكون السنتان هي تمام مدة الرضاع .

واستدلوا أيضا بقوله تعالى في سورة البقرة [233] ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة . . . ﴾ الآية . على أن أقصى مدة الرضاع سنتان فقط

.

وهذا رأي الجمهور (مالك والشافعي وأحمد) رحمهم الله تعالى .

وذهب الإمام (أبو حنيفة) رحمه الله إلى أن مدة الرضاع المحرم سنتان ونصف ، ودليله قوله تعالى في سورة الأحقاف [15] : ﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا . . . ﴾ الآية .

وله في الاستدلال من الآية الكريمة وجهان :

الوجه الأول : أن المراد بالحمل هنا ليس حمل الجنين في بطن أمه ، وإنما حمله على اليدين من أجل الإرضاع فكأن الله تعالى يقول : تحمل الأم ولدها بعد الولادة لترضعه مدة ثلاثين شهرا ، فتكون المدة المذكورة في الآية الكريمة لشيء واحد وهو الرضاع .

(457/607)

الوجه الثاني : أن الله سبحانه وتعالى ذكر في الآية الكريمة أمرين وهما : (الحمل) و (الفصال) ، وأعقبهما بذكر بيان المدة ، فتكون هذه المدة لكل من الأمرين استقلالا ويصبح المعنى على هذا التأويل : حملة ثلاثون شهرا ، وفصاله ثلاثون شهرا أي إن المدة لكل منهما (عامان ونصف) وبذلك يثبت أن مدة الرضاع عامان ونصف ، وهو كما إذا قال إنسان عليه دين (لفلان وفلان عندي مائة إلى سنة) فتكون السنة هي أجل كل من الدينين ، وكذلك هنا تكون الثلاثون شهرا مدة كل من الحمل والرضاع . وهذا الرأي الذي ذهب إليه (أبو حنيفة) رحمة الله لم يوافقه عليه تلميذاه (أبو يوسف) و (الإمام محمد) بل قالوا بمثل قول الجمهور وهو أن مدة الرضاع المحرم عامان فقط .

الترجيح : ولعلنا بعد استعراض الأدلة نرجح قول الجمهور ، لا سيما وأن تلميذيه قد خالفاه فيما ذهب إليه ، ودليل أبي حنيفة وإن كان وجيها إلا أن يحتاج إلى تكلف في التأويل

بخلاف دليل الجمهور . والله أعلم .

الحكم الثاني : كم هي مدة الحمل الشرعي ؟

أجمع الفقهاء على أن أقل مدة الحمل هي ستة أشهر ، وهذا الحكم مستنبط من قوله تعالى : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ [الأحقاف : 15] ومن قوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ وفصاله في عامين ﴾ فمن مجموع الآيتين الكريمتين يبتين أن أقل مدة الحمل هي ستة شهور . . قال (ابن العربي) في تفسيره : روي أن امرأة تزوجت فولدت لستة أشهر من يوم تزوجت ، فأتي بها عثمان رضي الله عنه فأراد أن يرجمها ، فقال (ابن عباس) لعثمان : إنها إن تخاصمكم بكتاب الله تخصمكم ، قال الله عز وجل : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ [الأحقاف : 15] وقال : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة . . . ﴾ [البقرة : 233] فالحمل ستة أشهر ، والفصال أربع وعشرون شهرا ، فخلى عثمان رضي الله عنه سبيلها .

وفي رواية أن (علي بن أبي طالب) قال له ذلك .

قال ابن العربي : وهو استنباط بديع .

الحكم الثالث : هل يقتص من الوالد بجنايته على الولد ؟

ذهب الجمهور الفقهاء إلى أن الولد لا يستحق القود على أحد والديه بجناية أحدهما عليه ، ولا يقتص منهما بسبب الولد ، كما لا يحد إذا قذفه أحدهما ولا يحبس له بدين عليه .

ودليلهم أن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالصحبة لهما بالمعروف فقال ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾ وليس من المعروف أن يقتص من الوالد للولد ، ولا أن يحبس في دينه ، ولا أن يحد إذا قذفه لأن ذلك كله مما يتنافى مع صحبتهما بالمعروف . ولأنهما كانا سببا في حياته ، فلا يصح أن يكون الولد سببا في إهلاك والديه . وقد جاء في الحديث ما يؤيد هذا حيث قال صلى الله عليه وسلم " لا يقاد للولد من والده " .

الحكم الرابع : هل تلزم طاعة الوالدين في الأمور المحظورة ؟

قال العلامة القرطبي : (إن طاعة الأبوين لا تراعى في ارتكاب كبيرة ، ولا في ترك فريضة وتلزم طاعتهما في المباحات ، ونقل عن (الحسن) أنه قال : إن منعته أمه من شهود صلاة العشاء شفقة فلا يطعها) .

ثم قال : والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق . وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قدمت عليها أمها من الرضاعة فقالت : " يا رسول الله إن أمي قدمت

علي وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : نعم " .

وهذه الأحكام استنبطها العلماء من قوله تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ فكما تحرم طاعة الوالدين في الشرك تحرم في كل معصية ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهذا المعنى قد سنه الخليفة الراشد (أبو بكر) رضي الله عنه في خطبته الأولى حين تولى الخلافة على المؤمنين . فكان فيما قال :

(أما بعد . أيها الناس : إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم) .

الحكم الخامس : هل يصح سلوك طريق غير المؤمنين ؟

ظاهر قوله تعالى : ﴿ واتبع سبيل من أناب ﴾ وجوب الاقتداء بالسلف الصالح وسلوك طريق المؤمنين ، وتحريم السير في اتجاه يخالف اتجاههم كطريق المنافقين والكافرين . وقد صرح بهذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ [النساء : 115] . فلا

بد من الانضواء تحت رأية أهل التوحيد والإيمان واتباع سبيلهم ، فالخير كله في الاقتداء بهم ، والسير على منوالهم . ولقد أحسن من قال :

فكل خير في اتباع من سلف . . . وكل شر في ابتداع من خلف

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

1- الحكمة هبة إليهة لا تنال إلا بطريق التقوى والعمل الصالح .

2- شكر النعمة واجب على المرء . ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله .

3- الشرك من أعظم الذنوب ، وأكبر الجرائم عند الله وهو محبط للعمل .

4- طاعة الوالدين من طاعة الله ، وبرهما مقرون بعبادة الله تعالى .

5- حق الأم على ولدها أعظم من حق الأب لأن أتعابها عليها أكثر .

6- لا تجوز الطاعة في المعصية . إنما الطاعة في المعروف كما بينه عليه السلام .

حكمة التشريع

(460/607)

أوصى الله تعالى بالوالدين إحسانا ، وأمر ببرهما وطاعتهما والإحسان إليهما ، وخص (الأم) بمزيد من العناية والاهتمام ، فجعل حقها أعظم من حق الأب ، لما تحملته من شدائد

وأهوال تجاه طفلها الوليد ، ولما قاسته من آلام في سبيل تربيته وحياته . فمن أحق بالعناية والرعاية من الأم ؟ ! الأم التي حنت عليه فغذته بلبانها ، وغمرته بحنانها ، وآثرته على نفسها وراحتها فشقيت من أجل سعادته ، وتعبت من أجل راحته ، وتحملت الأثقال والآلام في سبيل أن ترى وليدها زهرة يانعة ، تعيش بين أزهار الربيع ، فكم من ليلة سهرت من أجل راحته ، لتطرد عنه شبح الخوف ، أو تزيل عنه ألم المرض ، وكم من ساعة قضتها بين جدران البيت تحمله على يديها ، متعبة مثقلة لتواسيه في وقت شدته ومحنته . . .

فهل يليق بعد كل هذا أن يسلك طريق العقوق ، أو يجنح إلى الإساءة والعصيان ؟ !

فحق الأم على ولدها عظيم ، وفضلها عليه كبير وجسيم ، إذ هي السبب المباشر في حياة هذا الطفل بعد الله عز وجل ، فلولا رعايتها وحنانها ، ولولا تحملها المتاعب والآلام ، لما تربى وليد ، ولا عاش إنسان ! !

وقد أمر الله تعالى بشكر الوالدين ، وطاعتهما وبرهما حتى ولو كانا (مشركين) ، ولكنه جل ثناؤه حذر من اتباعهما ومسايرتهما في أمر الكفر والإشراك ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل . . فطاعتهما مشروطة بطاعة الله ، وفي الحدود التي يقرها الشرع الحنيف ، ولا يكون فيها تضييع لحق الخالق ، أو حق المخلوق ، فشكر الوالدين من شكر الله ، وطاعتهما – فيما ليس فيه معصية – من طاعة الله ! ! وصدق الله حيث يقول : ﴿ ووصينا الإنسان

بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ [الأحقاف : 15] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 235 . 248 ﴾

(461/607)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على الأمر ببر الوالدين الكافرين وقد جاءت آية أخرى يفهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ﴾ الآية .

ثم نص على دخول الآباء في هذا بقوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُم ﴾ .

والذي يظهر لي والله تعالى أعلم أنه لا معارضة بين الآيتين .

ووجه الجمع بينهما أن المصاحبة بالمعروف أعم من الموادة لأن الإنسان يمكنه إسداء المعروف لمن يوده ومن لا يوده والنهي عن الأخص لا يستلزم النهي عن الأعم فكأن الله حذَّر من الموادة المشعرة بالمحبة والموالاة بالباطن لجميع الكفار يدخل في ذلك الآباء وغيرهم وأمر

الإنسان بأن لا يفعل لوالديه إلا المعروف وفعل المعروف لا يستلزم المودة لأن المودة من أفعال القلوب لا من أفعال الجوارح.

ومما يدل لذلك إذنه صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت أبي بكر الصديق أن تصل أمها وهي كافرة وقال بعض العلماء أن قصتها سبب لنزول قوله تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ الآية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 234 ﴾

(462/607)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾

ولقمان قيل : أعجميٌّ . وهو الظاهر . فمنعُه للتعريفِ والعُجْمةِ الشخصية . وقيل : عربيٌّ مشتقٌّ مِن اللَّقْمِ وهو حينئذٍ مرتجلٌ ؛ لأنه لم يَسْبِقْ له وَضْعٌ في النكرات . ومَنْعُه حينئذٍ للتعريفِ وزيادةِ الألفِ والنون .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

والعاملُ في "إذ" مضمرٌ . "وهو يَعِظُهُ" جملةٌ حاليةٌ . "يا بُنيَّ" قد تقدَّم خلافُ القرَّاء فيه

. وتقدَّم الكلامُ أيضاً على ﴿ وَصَّيْنَا الإنسان ﴾ في العنكبوت [الآية : 8] .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)

قوله : ﴿ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ : يجوز أَنْ ينتصِبَ على الحال مِنْ " أمُّه " أي : ضَعْفاً على ضَعْفٍ ، أو مِنْ مفعولِ " حَمَلَتْه " أي : عَلَقَةً ثم نطفة ثم مُضغة . وكلاهما جاء في التفسير . وقيل : منصوبٌ على إسقاطِ الخافض أي : في وَهْنٍ . قاله أبو البقاء . و " على وَهْن " صفةٌ لـ " وَهْناً " .

وقرأ الثقفي وأبو عمرو في روايةٍ ﴿ وَهَناً على وَهْنٍ ﴾ بفتحِ الهاءِ فيهما . فاحتمل أَنْ يكونا لغتين كالشَّعْر والشَّعَر ، واحتمل أنْ يكونَ المفتوحَ مصدرَ وَهِنَ بالكسر يَوْهَنُ وَهَناً .

وقرأ الجحدريُّ وقتادةُ وأبو رَجاءٍ / " وفَصْلُه " دونَ ألفٍ أي : وفِطامُه .

قوله : " أن اشْكُرْ " في " أنْ " وجهان ، أحدهما : أنها مفسرة . والثاني : أنها مصدريةٌ في محلِّ نصبٍ بـ " وَصَّيْنا " . وهو قولُ الزجَّاج .

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

قوله : ﴿ مَعْرُوفاً ﴾ : صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي : صِحاباً معروفاً وقيل : الأصلُ : بمعروفٍ .

قوله : " إليَّ " متعلِّقٌ ب أنابَ . " ثم إليَّ " متعلقٌ بمحذوفٍ لأنه خبرُ " مَرْجِعُكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 63.64 ﴾

(464/607)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾)

﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ الإصابة في العقل والعقد والنطق . ويقال ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث هِمةَ النفس . ويقال ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ ألا تكون تحت سلطان الهوى . ويقال ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ الكوْن بحكم من له الحكم . ويقال ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ معرفة قدْر نَفسك حتى لا تمدّ رِجليك خارجاً عن كسائك . ويقال ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ ألا

تستعصي عَلَى مَنْ تعلم أَنك لا تقاومه .

﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ : حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاطفات الرَّبّ . فهو مقلوب قولهم : كَشَرَتْ عن أنيابها الداية ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذَب وَجبذَ .

ويقال الشكرُ تحققكَ بعجزك عن شكره . ويقال الشكر ما به يحصل كمالُ استلذاذ النعمة . ويقال الشكر فضلةٌ تظهر عَلَى اللسان من امتلاء القلب بالسرور ؛ فينطلق بمدح المشكور . ويقال الشكر نعتُ كلّ غنيٍّ كما أن الكفرانَ وَصفُ كلِّ لَئيم . ويقال الشكر قرْع باب الزيادة . ويقال الشكر قيد الإنعام . ويقال الشكر قصة يمليها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال . ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ [النمل : 40] . لأنه في صلاحها ونصيبها يسعى .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

الشِّرْكُ عَلَى ضربين : جَليّ وخفيّ ؛ فالجليُّ عبادة الأَصنام ، والخفيّ حسبان شيء من الحدثان من الأنام . ويقال الشِّرْكُ إثباتُ غَيْرٍ مع شهود الغيب . ويقال الشرك ظلمَ عَلَى القلب ، والمعاصي ظلم عَلَى النفس ، وظلم النفوس مُعَرَّضٌ للغفران ، ولكنّ ظلم القلوب لا سبيل إليه للغفران .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)

أوجب الله شُكرَ نفسه وشكر الوالدين . ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما ، وألا يُكْتَفى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما عُلِم أنَّ شُكْرَ الحقِّ لا يكْفي فيه مجرَّدُ القول ما لم تكن فيه موافقةُ العقل ؛ وذلك بالتزام الطاعة ، واستعمال النعمة فى وجه الطاعة دون صَرفِها فى الزَّلَّة ؛ فشكرُ الحقِّ بالتعظيم والتكبير ، وشكرُ الوالدين بالإنفاق والتوفير .

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

إنْ جاهداك على أن تشرك بالله ، أو تسعى بما هو زلة فى امر الله– فلا تطعهما ، ولكن عاشرهما بالجميل ؛ تخشين في تليين ، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرَجٌ ، وانفرد بسرِّك لله ، ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ : وهو المنيبُ إليه حقاً من غير أن تبقى بقية فى النفْس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 130. 131 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن بعد الستمائة

من الآية ﴿ 16 ﴾ من سورة لقمان

وحتى الآية ﴿ 21 ﴾ من نفس السورة

(4/608)

قوله تعالى ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فرغ من تأكيد ما قاله لقمان عليه السلام في الشكر والشرك فعلم ما أوتي من الحكمة ، وختمه بعد الوصية بطاعة الوالد بذكر دقيق الأعمال وجليلها ، وأنها في علم الله سواء ، حسن جداً الرجوع إلى تمام بيان حكمته ، فقال بادئاً بما يناسب ذلك من دقيق العلم

ومحيطه المكمل لمقام التوحيد ، وعبر بمثقال الحبة لأنه أقل ما يخطر غالباً بالبال ، وهي من أعظم حاث على التوحيد الذي مضى تأسيسه : ﴿ يا بني ﴾ متحبباً مستعطفاً ، مصغراً له بالنسبة إلى حمل شيء من غضب الله تعالى مستضعفاً : ﴿ إنها ﴾ أي العمل ، وأنث لأنه في مقام التقليل والتحقير ، والتأنيث أولى بذلك ، ولأنه يؤول بالطاعة والمعصية والحسنة والسيئة ﴿ إن تك ﴾ وأسقط النون لغرض الإيجار في الإيصاء بما ينيل المفاز ، والدلالة على أقل الكون وأصغره ﴿ مثقال ﴾ أي وزن ، ثم حقرها بقوله : ﴿ حبة ﴾ وزاد في ذلك بقوله : ﴿ من خردل ﴾ هذا على قراءة الجمهور بالنصب ، ورفع المدنيان على معنى أن الشأن والقصة العظيمة أن توجد في وقت من الأوقات هنة هي أصغر شيء وأحقره – بما أشار إليه التأنيث .

ولما كان قد عرف أن السياق لماذا أثبت النون في قوله مسبباً عن صغرها : ﴿ فتكن ﴾ إشارة إلى ثباتها في مكانها .

(5/608)

وليزداد تشوف النفس إلى محط الفائدة ويذهب الوهم كل مذهب لما علم من أن المقصد عظيم بحذف النون وإثبات هذه ، وعسرّها بعد أن حقرها بقوله معبراً عن أعظم الخفاء

وأتم الإحراز : ﴿ في صخرة ﴾ أي أيّ صخرة كانت ولو أنها أشد الصخور وأقواها وأصغرها وأخفاها .

ولما أخفى وضيق ، أظهر ووسع ، ورفع وخفض ، ليكون أعظم لضياعها لحقارتها فقال : ﴿ أو في السماوات ﴾ أي في أيّ مكان كان منها على سعة أرجائها وتباعد أنحائها ، وأعاد " أو " نصاً على إرادة كل منهما على حدته ، والجار تأكيداً للمعنى فقال : ﴿ أو في الأرض ﴾ أي كذلك ، وهذا كما ترى لا ينفي أن تكون الصخرة فيهما أو في إحداهما ، وعبر له بالاسم الأعظم لعلو المقام فقال : ﴿ يأتِ بها الله ﴾ بعظم جلاله ، وباهر كبريائه وكماله ، بعينها لا يخفى عليه ولا يذهب شيء منها ، فيحاسب عليها ، ثم علل ذلك من علمه وقدرته بقوله مؤكداً إشارة إلى أن إنكار ذلك لما له من باهر العظمة من دأب النفوس إن لم يصحبها التوفيق : ﴿ إنّ الله ﴾ فأعاد الاسم الأعظم تنبيهاً على استحضار العظمة وتعميماً للحكم ﴿ لطيف ﴾ أي عظيم المتّ بالوجوه الخفية الدقيقة الغامضة في بلوغه إلى أمر أراده حتى بضد الطريق الموصل فيهما يظهر للخلق ﴿ خبير ﴾ بالغ العلم بأخفى الأشياء فلا يخفى عليه شيء ، ولا يفوته أمر .

(6/608)

ولما نبهه على إحاطة علمه سبحانه وإقامته للحساب ، أمره مما يدخره لذلك توسلاً إليه ، وتخضعاً لديه ، وهو رأس ما يصلح به العمل ويصحح التوحيد ويصدقه ، فقال : ﴿ يا بني ﴾ مكرراً للمناداة على هذا الوجه تنبيهاً على فرط النصيحة لفرط الشفقة ﴿ أقم الصلاة ﴾ أي بجميع حدودها وشروطها ولا تغفل عنها ، سعياً في نجاة نفسك وتصفية سرك ، فإن إقامتها – وهي الإتيان بها على النحو المرضي – مانعة من الخلل في العمل ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ لأنها الإقبال على من وحدته فاعتقدت أنه الفاعل وحده وأعرضت عن كل ما سواه لأنه في التحقيق عدم ، ولهذا الإقبال والإعراض كانت ثانية التوحيد ، وترك ذكر الزكاة تنبيهاً على أن من حكمته تخليه وتخلي ولده من الدنيا حتى مما يكفيهم لقوتهم .

ولما أمر بتكميله في نفسه بتكميل نفسه توفية لحق الحق ، عطف على ذلك تكميله لنفسه بتكميل غيره توفية لحق الخلق ، وذلك أنه لما كان الناس في هذه الدار سفراً ، وكان المسافر إن أهمل رفيقه حتى أخذ أوشك أن يؤخذ هو ، أمره بما يكمل نجاته بتكميل رفيقه ، وقدمه – وإن كان من جلب المصالح – لأنه يستلزم ترك المنكر ، وأما ترك المنكر فلا يستلزم فعل الخير ، فإنك إذا قلت : لا تأت منكراً ، لم يتناول ذلك في العرف إلا الكف عن فعل المعصية ، لا فعل الطاعة ، فقال : ﴿ وأمر بالمعروف ﴾ أي كل من تقدر على أمره تهذيباً لغيرك شفقة على نفسك بتخليص أبناء جنسك .

ولما كانت هذه الدار سفينة لسفر من فيها إلى ربهم ، وكانت المعاصي مفسدة لها ، وكان فساد السفينة مغرقاً لكل من فيها : من أفسدها ومن أهمل المفسد ولم يأخذ على يده ، وكان الأمر بالمعروف نهياً عن المنكر ، صرح به فقال : ﴿ وانه ﴾ أي كل من قدرت على نهيه ﴿ عن المنكر ﴾ حباً لأخيك ما تحب لنفسك ، تحقيقاً لنصيحتك ، وتكميلاً لعبادتك ، لأنه ما عبد الله أحد ترك غيره يتعبد لغيره ، ومن هذا الطراز قول أبي الأسود رحمه الله تعالى :

(7/608)

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها . . .

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

لأنه أمره أولاً بالمعروف ، وهو الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإذا أمر نفسه ونهاها ، ناسب أن يأمر غيره بنهاه ، وهذا وإن كان من قول لقمان عليه السلام إلا أنه لما كان في سياق المدح له كنا مخاطبين به .

ولما كان القابض على دينه في غالب الأزمان كالقابض على الجمر ، لأنه يخالف المعظم فيرمونه عن قوس واحدة لا سيما أن أمرهم ونهاهم ، قال تعالى : ﴿ واصبر ﴾ صبراً

عظيماً بحيث يكون مستعلياً ﴿ على ما ﴾ أي الذي ، وحقق بالماضي أنه لا بد من المصيبة ليكون الإنسان على بصيرة ، فقال : ﴿ أصابك ﴾ أي في عبادتك من الأمر بالمعروف وغيره سواء كان بواسطة العباد أو لا كالمرض ونحوه ، وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بالصبر لأنها ملاك الاستعانة

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] واختلاف المخاطب في الموضعين أوجب اختلاف الترتيبين ، المخاطب هنا مؤمن متقلل ، وهناك كافر متكثر .

ولما كان ما أحكمه له عظيم الجدوى ، وجعل ختامه الصبر الذي هو ملاك الأعمال والتروك كلها ، نبهه على ذلك بقوله على سبيل التعليل والاستئناف إيماء إلى التبجيل :

﴿ إن ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي أوصيتك به لا سيما الصبر على المصائب : ﴿ من عزم الأمور ﴾ أي معزوماتها ، تسمية لاسم المفعول أو الفاعل بالمصدر ، أي الأمور المقطوع بها المفروضة أو القاطعة الجازمة بجزم فاعلها ، أي التي هي أهل لأن يعزم عليها العازم ، وينحو إليها بكليته الجازم ، فلا مندوحة في تركها بوجه من الوجوه في ملة من الملل .

(8/608)

ولما كان من آفات العبادة لا سيما الأمر والنهي – لتصورهما بصورة الاستعلاء – الإعجاب إلى الكبر ، قال محذراً من ذلك معبراً عن الكبر بلازمه ، لأن النفي الأعم نفي للأخص ، منبهاً على أن المطلوب في الأمر والنهي اللين لا الفظاظة والغلظة الحاملان على النفور : ﴿ ولا تصعر خدك ﴾ أي لا تمله معتمداً إمالته بإمالة العنق متكلفاً لها صرفاً عن الحالة القاصدة ، وأصل الصعر داء يصيب البعير يلوي منه عنقه ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي : تصاعر ، والمراد بالمفاعلة والتفعيل تعمد فعل ذلك لأجل الكبر حتى يصير خلقاً ، والمراد النهي عما يفعله المصعر من الكبر – والله أعلم .

ولما كان ذلك قد يكون لغرض من الأغراض التي لا تذم ، أشار إلى المقصود بقوله تعالى : ﴿ للناس ﴾ بلام العلة ، أي لا تفعل ذلك لأجل الإمالة عنهم ، وذلك لا يكون إلا تهاوناً بهم من الكبر ، بل أقبل عليهم بوجهك كله مستبشراً منبسطاً من غير كبر ولا علو ، وأتبع ذلك ما يلزمه فقال : ﴿ ولا تمش ﴾ ولما كان في أسلوب التواضع وذم الكبر ، ذكره بأن أصله تراب ، وهو لا يقدر أن يعدوه فقال : ﴿ في الأرض ﴾ وأوقع المصدر موقع الحال أو العلة فقال : ﴿ مرحاً ﴾ أي اختيالاً وتبختراً ، أي لا تكن منك هذه الحقيقة لأن ذلك مشي أشر وبطر وتكبر ، فهو جدير بأن يظلم صاحبه ويفحش ويبغي ، بل امش هوناً فأن ذلك يفضي بك إلى التواضع ، فتصل إلى كل خير ، فترفق بك الأرض إذا صرت فيها حقيقة بالكون في بطنها .

ولما كانت غاية ذلك الرياء للناس والفخر عليهم المثمر لبغضتهم الناشئة عن بغضة الله تعالى ، علله بقوله مؤكداً لأن كثيراً من الناس يظن أن أسباغ النعم الدنيوية من محبة الله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي لا ينبغي الكبر إلا له لما له من العظمة المطلقة .

(9/608)

ولما كان حب الله الذي يلزمه حب الناس محبوباً للنفوس ، وكان فوات المحبوب أشق على النفوس من وقوع المحذور ، وكانت " لا " لا تدخل إلا على المضارع المستقبل قال : ﴿ لا يحب ﴾ أي فيما يستقبل من الزمان ، ولو قال " يبغض " لاحتمال التقييد بالحال ، ولما كان النشر المشوش أفصح لقرب الرجوع تدليا فيما ترقى فيه المقبل قال : ﴿ كل مختال ﴾ أي مراء للناس في مشيه تبختراً يرى له فضلاً على الناس فيشمخ بأنفه ، وذلك فعل المرح ﴿ فخور ﴾ يعدد مناقبه ، وذلك فعل المصعر ، لأن ذلك من الكبر الذي تردى به سبحانه وتعالى فمن نازعه إياه قصمه .

ولما كان النهي عن ذلك امراً بأضداده ، وكان الأمر بإطلاق الوجه يلزم منه الإنصاف في الكلام ، وكان الإنصاف في الكلام والمشي لا على طريق المرح والفخر ربما دعا إلى الاستماتة في المشي والحديث أو الإسراع في المشي والسر والجهر بالصوت فوق الحد ، قال

محترساً في الأمر بالخلق الكريم عما يقارب الحال الذميم : ﴿ واقصد ﴾ أي اعدل وتوسط ﴿ في مشيك ﴾ لا إفراط ولا تفريط مجانباً لوثب الشطار ودبيب المتماوتين ، وعن ابن مسعود : كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ، والقصد في الأفعال كالقسط في الأوزان – قال الرازي في اللوامع ، وهو المشي الهون الذب ليس فيه تصنع للخلق لا بتواضع ولا بتكبر ﴿ واغضض ﴾ أي انقص ، ولأجل ما ذكر قال : ﴿ من صوتك ﴾ بإثبات " من " أي لئلا يكون صوتك منكراً ، وتكون برفع الصوت فوق الحاجة حماراً ، وأما مع الحاجة كالأذان فهو مأمور به .

(10/608)

ولما كان رفع الصوت فوق العادة منكراً كما كان خفضه دونها تماوتاً أو دلالاً وتكبراً ، وكان قد أشار إلى النهي عن هذا ب " من " فأفهم أن الطرفين مذمومان ، علل النهي عن الأول دالاً بصيغة " أفعل " على اشتراك الرفع كله في النكارة ذاكراً أعلاها تصويراً له بأقبح صورة تنفيراً عنه فقال : ﴿ إن أنكر ﴾ أي أفظع وأبشع وأوحش ﴿ الأصوات ﴾ أي كلها المشتركة في النكارة برفعها فوق الحاجة ، وأخلى الكلام عن لفظ التشبيه فأخرجه مخرج الاستعارة تصويراً لصوت الرافع صوته فوق الحاجة بصورة النهاق وجعل المصوت كذلك

حماراً ، مبالغة في التهجين ، وتنبيهاً على أنه من كراهة الله له بمكان فقال : ﴿ لصوت الحمير ﴾ أي هذا الجنس ، لما له من الغلو المفرط من غير حاجة ، وأوله زفير وآخره شهيق ، وهما فعل أهل النار ، وأفرده ليكون نصاً على إرادة الجنس لئلا يظن أن الاجتماع شرط في ذلك ولذكر الحمار مع ذلك من بلاغة الذم والشتم ما ليس لغيره ولذلك يستهجن التصريح باسمه ، وهذا يفهم أن الرفع مع الحاجة غير مذموم فإنه ليس بمستنكر ولا مستبشع ، ولقد دعت هذه الآيات إلى معالي الأخلاق ، وهي أمهات الفضائل الثلاث : الحكمة والعفة والشجاعة ، وأمرت بالعدل فيها ، وهي وظيفة التقسيط الذي هو الوسط الذي هو مجمع الفضائل ، ونهت عن مساوئ الأخلاق ، وهي الأطراف التي هي مبدأ الرذائل الحاصل بالإفراط والتفريط ، فإقامة الصلاة التي هي روح العبادة المبنية على العلم هي سر الحكمة والنهي ، أمر بالشجاعة ونهى عن الجبن ، وفي النهي عن التصعير وما معه نهي عن التهور ، والقصد في المشي والغض في الصوت أمر بالعفة ونهي عن الاستماتة والجمود والخلاعة والفجور ، وفي النهي عن الاستماتة نهي عما قد يلزمها من الجربزة ، وهي الفكر بالمكر المؤدي إلى اللعنة ، وعن الانحطاط إلى البله والغفلة ، والكافل بشرح هذا ما قاله الشيخ سعد الدين التفتازاني في الكلام على الإجماع من تلويحه ، قال : إن الخالق

تعالى وتقدس قد ركب في الإنسان ثلاث قوى : إحداها مبدأ إدراك الحقائق ، والشوق إلى النظر في العواقب ، والتمييز بين المصالح والمفاسد ، ويعبر عنها بالقوة النطقية والعقلية والنفس المطمئنة الملكية ، والثانية مبدأ جذب المنافع وطلب الملاذ من المآكل والمشارب وغير ذلك ، وتسمى القوة الشهوية والبهيمية والنفس الأمارة ، والثالثة مبدأ الإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع ، وهي القوة الغضبية والسبعية والنفس اللوامة ، ويحدث من اعتدال الحركة الأولى الحكمة ، والثانية العفة ، والثالثة الشجاعة ، فأمهات الفضائل هي هذه الثلاث ، وما سوى ذلك إنما هو من تفريعاتها وتركيباتها ، وكل منها وكل منها محتوش بطرفي إفراط وتفريط هما رذيلتان ، أما الحكمة فهي معرفة الحقائق على ما هي بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المعبر عنه بمعرفة النفس ما لها وما عليها المشار إليه بقوله تعالى :

(12/608)

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] وإفراطها الجربزة ، وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات ، وعلى وجه لا ينبغي ، كمخالفة الشرائع -

نعوذ بالله من علم لا ينفع قلت : وهي بجيم ثم مهملة ثم موحدة ثم زاي مأخوذة من الجربز – بالضم ، وهو الخب ، أي الخداع الخبيث – والله أعلم ، وتفريطها الغباوة التي هي تعطيل القوة الفكرية بالإرداة والوقوف عن اكتساب العلوم النافعة ، وأما الشجاعة فهي انقياد السبعية للناطقة ليكون إقدامها على حسب الروية من غير اضطراب في الأمور الماثلة ، حتى يكون فعلها جميلاً ، وصبرها محموداً ، وإفراطها التهور ، أي الإقدام على ما لا ينبغي ، وتفريطها الجبن ، أي الحذر عما لا ينبغي ، وأما العفة فهي انقياد البهيمة للناطقة ، لتكون تصرفاتها بحسب اقتضاء الناطقة ، لتسلم عن استعباد الهوى إياها ، واستخدام اللذات ، وإفراطها الخلاعة والفجور ، أي الوقوع في ازدياد اللذات على ما يجب ، وتفريطها الجمود ، أي السكوت عن طلب الذات بقدر ما رخص فيه العقل والشرع إيثاراً لا خلقة ،

فالأوساط فضائل ، والأطراف رذائل ، وإذا امتزجت الفضائل الثلاث حصلت من اجتماعها حالة متشابهة هي العدالة ، فبهذا الاعتبار عبر عن العدالة بالوساطة ، أي في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] وإليه أشير بقوله عليه الصلاة والسلام " خير الأمور أوساطها " والحكمة في النفس البهيمية بقاء البدن الذي هو مركب النفس الناطقة ليصل إلى كمالها اللائق بها ، ومقصدها المتوجه إليه ، وفي السبعية كسر البهيمية وقهرها ودفع الفساد المتوقع من استيلائها ، واشترط التوسط في أفعالها لئلا

تستعبد الناطقة هواهما وتصرفاها عن كمالها ومقصدها - انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ6 صـ18.23 ﴾

(13/608)

فصل

قال الفخر :

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾)

لما قال : ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقع لابنه أن ما يفعل في خفية يخفي فقال : ﴿ يا بني إنها ﴾ أي الحسنة والسيئة إن كانت في الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ فَتَكُنْ ﴾ بالفاء لإفادة الاجتماع يعني إن كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله لأن الفاء للاتصال بالتعقيب .

المسألة الثانية :

(14/608)

لو قيل الصخرة لا بد من أن تكون في السموات أو في الأرض فما الفائدة في ذكرها ؟ ولأن القائل لو قال هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلاً في أحد القسمين فكيف يفهم هذا ، فنقول الجواب عنه من أوجه أحدها : ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لا في الأرض ولا في السماء والثاني : ما قاله الزمخشري وهو أن فيه إضماراً تقديره فتكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الأرض والثالث : أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز ، أما الثاني فلما بينتم أن من قال هذا في دار زيد أو في غيرها أو في دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة في قوله أو في غيرها ، وأما الأول فلأن قول القائل هذا في دار زيد أو في دار عمرو أو في غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الأخص أو نقول خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون في غاية الصغر ومنها أن يكون بعيداً ، ومنها أن يكون في ظلمة ، ومنها أن يكون من وراء حجاب ، فإن انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيراً قريباً في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العبادة ، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله : ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ إشارة إلى الصغر وقوله : ﴿ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ ﴾ إشارة إلى الحجاب وقوله : ﴿ أَوْ فِى السموات ﴾ إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد وقوله : ﴿ أَوْ فِى الأرض ﴾ إشارة إلى الظلمات فإن

جوف الأرض أظلم الأماكن وقوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللهُ ﴾ أبلغ من قول القائل يعلمها الله لأن من يظهر له الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره فقوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللهُ ﴾ أي يظهرها الله للأشهاد وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ ﴾ أي نافذ القدرة ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي عالم ببواطن الأمور .

(15/608)

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17)

لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصاً ، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر ﴾ أي إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكمل غيرك ، فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكملوا غيرهم ، فإن قال قائل كيف قدم في وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر ، وقبل قدم النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف فإنه أول ما قال ﴿ يا بنى لاَ تُشْرِكْ ﴾ ثم

قال : ﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف ، فإن المشرك بالله لا يكون نافياً لله في الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكر والمعروف في معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه ، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد في التفسير أن ابنه كان مشركاً فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم ، وأما ههنا فأمر أمراً مطلقاً والمعروف مقدم على المنكر ثم قال تعالى : ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ ﴾ يعني أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذي فأمره بالصبر عليه ، وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ أي من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول ، كما تقول أكلي في النهار رغيف خبز أي مأكولي .

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18)

(16/608)

لما أمره أمره بأن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين أحدهما : التكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له والثاني : التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه فقال : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ تكبراً ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرض مَرَحًا ﴾ تبختراً

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر ﴿ فَخُورٌ ﴾ يعني من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه ، وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ ثم قال : ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف ﴾ وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ لأن في طرف الإثبات من لا يكون كاملاً لا يمكن أن يصير مكملاً فقدم الكمال ، وفي طرف النفي من يكون متكبراً على غيره متبختراً لأنه لا يتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه ، وأما من يكون متبختراً في نفسه لا يتكبر ، ويتوهم أنه يتواضع للناس فقدم نفي التكبر ثم نفي التبختر ، لأنه لو قد نفي التبختر للزم منه نفي التكبر فلا يحتاج إلى النهي عنه .

ومثاله أنه لا يجوز أن يقال لا تفطر ولا تأكل ، لأن من لا يفطر لا يأكل ، ويجوز أن يقال لا تأكل ولا تفطر ، لأن من لا يأكل قد يفطر بغير الأكل ، ولقائل أن يقول إن مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أي لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهيين بل واحداً .

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

(17/608)

لما قال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرض مَرَحًا ﴾ وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذي يخالف غاية الاختلاف ، وهو مشي المتماوت الذي يرى من نفسه الضعف تزهداً فقال : ﴿ واقصد فِي مَشْيِكَ ﴾ أي كن وسطاً بين الطرفين المذمومين ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي ؟ فنقول : نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد والذي يظهر وجوه الأول : هو أن الإنسان لما كان شريفاً تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطراً فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشي ، فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشياً إليه فإن عجز عن إبلاغ كلامه إليه ، وبعض الحيوانات يشارك الإنسان في تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى إلى غيرها ، والإنسان يميز البعض عن البعض فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر الثاني : هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فإنه حركة وسكون ، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا لله ، وقد أشار إليه بقوله : ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ [لقمان : 16] أي أصلح ضميرك فإن الله خبير ، بقي الأمران فقال : ﴿ واقصد فِى مَشْيِكَ

واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال الثالث : هو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد في الأوصاف الإنسانية والأوصاف التي هي للملك الذي هو أعلى مرتبة منه ، والأوصاف التي للحيوان الذي هو أدنى مرتبة منه .

فقوله : ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر ﴾ إشارة إلى المكارم المختصة بالإنسان فإن الملك لا يأمر ملكاً آخر بشيء ولا ينهاه عن شيء .

(18/608)

وقوله : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحاً ﴾ الذي هو إشارة إلى عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التي هي صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم .

وقوله : ﴿ واقصد فِى مَشْيِكَ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ إشارة إلى المكارم التي هي صفة الحيوان ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي ، نقول أما على قولنا إن المشي والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب إن أدركه بالمشي إليه فذاك ، وإلا فيوقفه

بالنداء ، فنقول رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة ، وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن .

وأما السرعة في المشي فلا تؤذي أو إن كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ، ولأن المشي يؤذي آلة المشي والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع على باب القلب ، فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشي ، وأما على قولنا الإشارة بالشيء والصوت إلى الأفعال والأقوال فلأن القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى .

المسألة الثانية :

كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيراً ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم في أكثر الأمر لمصلحة وعمارة فلا ينكر ، بخلاف صوت الحمير وهذا وهو الجواب الثاني .

المسألة الثالثة :

(19/608)

أنكر هو أفعل التفضيل فمن أي باب هو ؟ نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه ، بمعنى أشدها طاعة فإن أفعل لا يجيء في مفعل ولا في مفعول ولا في باب العيوب إلا ما شذ ، كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع ، وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول ، وأحمق من فلان من باب العيوب ، وعلى هذا فهو في باب أفعل كأشغل في باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر ، أو نقول هو من باب أشغل مأخوذاً من نكر الشيء فهو منكر ، وهذا أنكر منه ، وعلى هذا فله معنى لطيف ، وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك ، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح ، وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور ، ويمكن أن يقال هو من نكير كأجدر من جدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 132.129 ﴾

(20/608)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَك ﴾

يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَك مِنْ النَّاسِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي وُجُوبَ الصَّبْرِ وَإِنْ خَافَ عَلَى النَّفْسِ إلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ إعْطَاءَ التَّقِيَّةِ فِي حَالِ الْخَوْفِ فِي آيٍ غَيْرِهَا قَدْ بَيَّنَّاهَا ، وَقَدْ اقْتَضَتْ الْآيَةُ وُجُوبَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ .

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : مَعْنَاهُ لَا تُعْرِضْ بِوَجْهِك عَنْ النَّاسِ تَكَبُّرًا وَقَالَ إبْرَاهِيمُ هُوَ التَّشَدُّقُ وَمَعْنَاهُ يَرْجِعُ إلَى الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ الْمُتَشَادِقَ فِي الْكَلَامِ مُتَكَبِّرٌ ، وَقِيلَ : إنَّ أَصْلَ الصَّعَرِ دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فِي أَعْنَاقِهَا وَرُءُوسِهَا حَتَّى يَلْوِيَ وُجُوهَهَا وَأَعْنَاقَهَا فَيُشَبِّهُ بِهَا الرَّجُلَ الَّذِي يَلْوِي عُنُقَهُ عَنْ النَّاسِ ، قَالَ الشَّاعِرُ : وَكُنَّا إذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(21/608)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾

الْمَرَحُ الْبَطَرُ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ وَازْدِرَاءُ النَّاسِ وَالِاسْتِهَانَةُ بِهِمْ ، فَنَهَى اللَّهُ عَنْهُ ؛ إذْ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إلَّا جَاهِلٌ بِنَفْسِهِ وَأَحْوَالِهِ وَابْتِدَاءِ أَمْرِهِ وَمُنْتَهَاهُ ؛ قَالَ الْحَسَنُ : أَنَّى لِابْنِ آدَمَ الْكِبْرَ

وَقَدْ خَرَجَ مِنْ سَبِيلِ الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ الْمُتَكَبِّرُ وَالْفَخُورُ الَّذِي يَفْتَخِرُ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى النَّاسِ اسْتِصْغَارًا لَهُمْ ، وَذَلِكَ مَذْمُومٌ ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الشُّكْرَ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ لَا التَّوَصُّلَ بِهَا إلَى مَعَاصِيهِ .

﴿ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ ذَكَرَ نِعَمَ اللَّهِ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ ﴾ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ إنَّمَا ذَكَرَهَا شُكْرًا لَا افْتِخَارًا ، عَلَى نَحْوِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّثْ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِك ﴾ قَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : (هُوَ السُّرْعَةُ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَأَوَّلَهُ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْمُخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَا يُسْرِعُ فِيهَا فَسُرْعَةُ الْمَشْيِ تُنَافِي الْخُيَلَاءَ وَالتَّكَبُّرَ .

(22/608)

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِك إنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ فِيهِ أَمْرٌ بِخَفْضِ الصَّوْتِ ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إلَى التَّوَاضُعِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ وَرَفْعُ الصَّوْتِ عَلَى وَجْهِ ابْتِهَارِ النَّاسِ وَإِظْهَارِ الِاسْتِخْفَافِ بِهِمْ مَذْمُومٌ ،

فَأَبَانَ عَنْ قُبْحِ هَذَا الْفِعْلِ وَأَنَّهُ لَا فَضِيلَةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْحَمِيرَ تَرْفَعُ أَصْوَاتَهَا وَهُوَ أَنْكَرُ الْأَصْوَاتِ ؛ قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ ﴾ : أَقْبَحُهَا ، كَمَا يُقَالُ : هَذَا وَجْهٌ مُنْكَرٌ ؛ فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ وَأَدَّبَ الْعِبَادَ تَزْهِيدًا لَهُمْ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(23/608)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ ﴾ يَعْنِي لَا تُمِلْهُ عَنْهُمْ تَكَبُّرًا ، يُرِيدُ أَقْبِلْ عَلَيْهِمْ مُتَوَاضِعًا ، مُؤْنِسًا مُسْتَأْنِسًا ، وَإِذَا حَدَّثَك أَحَدُهُمْ فَأَصْغِ إلَيْهِ ، حَتَّى يُكْمِلَ حَدِيثَهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَالَ الشَّاعِرُ : وَكُنَّا إذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمِ يُرِيدُ : فَتَقَوَّمْ أَنْتَ ، أَمْرٌ ، ثُمَّ كُسِرَتْ لِلْقَافِيَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ : ﴿ بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْهِ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ ، وَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وَعَنْهُ ، صَحِيحًا : ﴿ الَّذِي يَجُرُّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وَعَنْهُ مِثْلُهُ : ﴿ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إلَى مَنْ جَرَّ إزَارَهُ بَطَرًا ﴾ .

وَعَنْهُ مِثْلُهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ : أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الْإِزَارِ ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ : أَنَا أُخْبِرُكُمْ بِعِلْمٍ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ إزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ ، لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ ، وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فَفِي النَّارِ ﴾ .

(24/608)

قَالَ الْقَاضِي : رُوِيَ أَنَّ الْمُخْتَالَ هُوَ قَارُونُ ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مَعْصُومَةٌ مِنْ الْخَسْفِ .

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ ، وَفِي صَحِيحِ الْأَخْبَارِ ﴿ أَنَّهُ سَيُخْسَفُ بِجَيْشٍ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْصِدُ الْبَيْتَ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ ، أَمَا إنَّهُ يَتَبَخْتَرُ فَلَمْ تُخْسَفْ بِهِ الْأَرْضُ حَقِيقَةً خُسِفَ بِهِ

فِي الْعَمَلِ مَجَازًا ، فَلَمْ يَرْقَ لَهُ عَمَلٌ إلَى السَّمَاءِ ، وَهُوَ أَشَدُّ الْخَسْفِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْقَصْدُ فِي الْمَشْيِ يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ تَكُونَ السُّرْعَةَ ، وَيَحْتَمِلُ التُّؤَدَةَ ؛ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ فِي مَوْضِعِهِ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْمَشْيَ بِقَصْدٍ ، لَا يَكُونُ عَادَةً ، بَلْ يَجْرِي عَلَى حُكْمِ النِّيَّةِ ، وَلَا يَسْتَرْسِلُ اسْتِرْسَالَ الْبَهِيمَةِ ؛ وَالْكُلُّ صَحِيحٌ مُرَادٌ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِك ﴾ يَعْنِي لَا تَتَكَلَّفْ رَفْعَ الصَّوْتِ ، وَخُذْ مِنْهُ مَا تَحْتَاجُ إلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الْجَهْرَ بِأَكْثَرَ مِنْ الْحَاجَةِ تَكَلُّفٌ يُؤْذِي .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِمُؤَذِّنٍ تَكَلَّفَ رَفْعَ الْأَذَانِ بِأَكْثَرَ مِنْ طَاقَتِهِ : لَقَدْ خَشِيت أَنْ تَنْشَقَّ مُرَيْطَاؤُك .

وَالْمُؤَذِّنُ هُوَ أَبُو مَحْذُورَةَ سَمُرَةَ بْنُ مِعْيَرٍ .

وَالْمُرَيْطَاءُ : مَا بَيْنَ السُّرَّةِ إلَى الْعَانَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾

وهذا مثل مضروب لمثقال حبة من خردل . قال قتادة : من خير أو شر .

﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ ﴾ فيها قولان

: أحدهما : أنها الصخرة التي تحت الأرض السابعة قاله الرُبَيعُ بن أنس والسدي . قال عبد الله بن الحارث وهي صخرة على ظهر الحوت ، قال الثوري : بلغنا أن خضرة السماء من تلك الصخرة ، وقال ابن عباس هذه الصخرة ليست في السماء ولا في الأرض . وقيل إن هذه الصخرة هي سجِّين التي يكتب فيها أعمال الكفار ولا ترفع إلى السماء .

الثاني : معنى قوله في صخرة أي في جبل ، قاله قتادة .

﴿ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : بجزاء ما وازنها من خير أو شر .

الثاني : يعلمها الله فيأتي بها إذا شاء ، كذلك قليل العمل من خير أو شر يعلمه الله فيجازي عليه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ باستخراجها . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بمكانها ، قاله الربيع بن أنس

. روى علي بن رباح اللخمي قال : لما وعظ لقمان ابنه بهذا أخذ حبة من خردلٍ فأتى بها

البحر فألقاها في عرضه ثم مكث ما شاء ثم ذكرها وبسط يده فبعث الله ذبابة فاختطفتها وحملتها حتى وضعتها في يده .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : على ما أصابك من الأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الثاني : على ما أصابك من البلوى في نفسك أو مالك .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : ما أمر الله به من الأمور .

الثاني : من ضبط الأمور ، قاله المفضل .

الثالث : من قطع الأمور .

وفي العزم والحزم وجهان :

أحدهما : أن معناهما واحد وإن اختلف لفظهما .

الثاني : معناهما مختلف وفي اختلافهما وجهان :

أحدهما : أن الحزم الحذر والعزم القوة ، ومنه المثل : لا خير في عزم بغير حزم .

(26/608)

الثاني : أن الحزم التأهب للأمر والعزم النفاذ فيه ، ومنه قولهم في بعض الأمثال : رَوِّ بحزم فإذا استوضحت فاعزم .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ونافع .

﴿ تُصَاعِر ﴾ بألف ، وتصاعر تفاعل من الصعر وفيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أنه الكبر ، قاله ابن عباس .

الثاني : الميل ، قاله المفضل .

الثالث : التشدق في الكلام ، حكاه اليزيدي ، وتُصَعِّرْ هو على معنى المبالغة .

وفي معنى الآية خمسة أوجه :

أحدها : أنه إعراض الوجه عن الناس تكبراً ، قاله ابن جبير .

الثاني : هو التشدق ، قاله إبراهيم النخعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الثالث : أن يلوي شدقه عند ذكر الإنسان احتقاراً ، قاله أبو الجوزاء ، قال عمرو بن كلثوم .

وكنا إذا الجبّارُ صعر خَدّه . . . أقمنا له من صعره فتقوّما

الرابع : هو أن يعرض عمن بينه وبينه إحنة هجراً له فكأنه أمر بالصفح والعفو ، قاله الربيع بن أنس .

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : يعني بالمعصية ، قاله الضحاك .

الثاني : بالخيلاء والعظمة ، قاله ابن جبير .

الثالث : أن يكون بطراً أشراً ، قاله ابن شجرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أنه المنان ، قاله أبو ذر .

الثاني : المتكبر ، قاله مجاهد .

الثالث : البطر ، قاله ابن جبير . وروى أبو ذر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ثَلاَثَةٌ يَشْنَؤُهُم اللَّهُ : الفَقِيرُ المُخْتَالُ ، والبَخِيلُ المَنَّانُ ، والبَيِّعُ الحَلاَّفُ " . ﴿ فَخُورٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أنه المتطاول على الناس بنفسه ، قاله ابن شجرة .

الثاني : أنه المفتخر عليهم بما يصفه من مناقبه ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أنه الذي يعدد ما أعطى ولا يشكر الله فيما أعطاه ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : معناه تواضع في نفسك ، قاله مجاهد .

الثاني : انظر في مشيك موضع قدمك ، قاله الضحاك .

الثالث : اسرْع في مشيتك ، قاله يزيد بن أبي حبيب .

الرابع : لا تسرع في المشي ، حكاه النقاش . وقد روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سُرْعَةُ المَشْيِ تُذْهِبُ بَهَاءَ وَجْهِ المَرْءِ

" . الخامس : لا تختل في مشيتك ، قاله ابن جبير

. ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوتِكَ ﴾ أي اخفض من صوتك والصوت هو أرفع من كلام المخاطبة .

﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ يعني شر الأصوات ، قاله عكرمة وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أقبح الأصوات ، قاله ابن جبير .

الثاني : قد تقدم .

الثالث : أشد ، قاله الحسن .

الرابع : أبعد ، قاله المبرد .

﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أنها العطسة المرتفعة ، قاله جعفر الصادق .

الثاني : أنه صوت الحمار .

وفي تخصيصه بالذكر من بين الحيوان وجهان :

أحدهما : لأنه أقبحها في النفس وأنكرها عند السمع وهو عند العرب مضروب به المثل ، قال قتادة : لأن أوله زفير وآخره شهيق .

الثاني : لأن صياح كل شيء تسبيحه إلا الحمار فإنه يصيح لرؤية الشيطان ، قاله سفيان الثوري ، وقد حكي عن بشر بن الحارث أنه قال : نهيق الحمار دعاء على الظلمة .

والسبب في أن ضرب الله صوت الحمار مثلا ما روى سليمان بن أرقم عن الحسن أن المشركين كانوا في الجاهلية يتجاهرون ويتفاخرون برفع الأصوات فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز ، ومن كان أخفض صوتاً كان أذل ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ أي لو أن شيئاً يُهَابُ لصوته لكان الحمار فجعلهم في المثل بمنزلته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(28/608)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾

المعنى وقال لقمان ﴿ يا بني ﴾ ، وهذا القول من لقمان إنما قصد إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه ، لأن " الخردلة " يقال إن الحس لا يقدر لها ثقلاً إذ لا ترجح ميزاناً ، وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بها علماً . وقوله ﴿ مثقال حبة ﴾ عبارة تصلح للجواهر ، أي قدر حبة ، وتصلح للأعمال أي ما تزنه على جهة المماثلة قدر حبة ، وظاهر الآية أنه أراد شيئاً من الأشياء خفياً قدر حبة ، ويؤيد ذلك ما روي من أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة تقع في مقل البحر يعلمها الله ، فراجعه لقمان بهذه الآية . وذكر كثير من المفسرين أنه أراد الأعمال المعاصي والطاعات ، ويؤيد ذلك قوله ﴿ يأت بها الله ﴾ أي لا تفوت ، وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف منضاف ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى ، وفي القول الآخر ليس ترجية ولا تخويف . ومما يؤيد قول من قال هي من الجواهر قراءة عبد الكريم الجزري " فتكِنّ " بكسر الكاف وشد النون من الكن الذي هو الشيء المغطى ، وقرأ جمهور القراء " إن تك " بالتاء من فوق " مثقالَ " بالنصب على خبر "كان " واسمها مضمر تقديره مسألتك على ما روي ، أو المعصية أو الطاعة على القول الثاني . ولهذا المقدر هو الضمير في ﴿ إنها ﴾ . وقرأ نافع وحده بالتاء أيضاً " مثقالُ " بالرفع على اسم "كان " وهي التامة . وأسند إلى المثقال فعلاً فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه وهذا كقول الشاعر : [الطويل]

مشين كما اهتزت رماح تسفهت . . . أعاليَها مرُّ الرياح النواسم

وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر . وقوله ﴿ فتكن في صخرة ﴾ ، قيل أراد الصخرة التي عليها الأرض والحوت والماء وهي على ظهر ملك وقيل هي صخرة في الريح .

(29/608)

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله ضعيف لا يثبته سند ، وإنما معنى الكلام المبالغة والانتهاء في التفهيم ، أي أن قدرته تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء وفي الأرض . وقرأ قتادة " فتكِن " بكسر الكاف والتخفيف من كن يكن ، وتقدمت قراءه عبد الكريم " فتكِنّ " . وقوله ﴿ يأت بها الله ﴾ إن أراد الجواهر فالمعنى ﴿ يأت بها ﴾ إن احتيج إلى ذلك أو كانت رزقاً ونحو هذا ، وإن أراد الأعمال فمعناه ﴿ يأت ﴾ بذكرها وحفظها فيجازي عليها بثواب أو عقاب . و ﴿ لطيف خبير ﴾ صفتان لائقتان بإظاهر غرائب القدرة ، ثم وصى ابنه بعظم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل هو في نفسه ويزدجر عن المنكر وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع ، وقوله ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ يقتضي حضاً على تغيير المنكر وإن نال ضرراً فهو إشعار بأن المغير يؤذي أحياناً ، وهذا القدر هو على جهة الندب والقوة في ذات الله ، وأما على اللزوم فلا .

وقوله تعالى ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ يحتمل أن يريد مما عزمه الله وأمر به ، قاله ابن جريج ، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزم أهل الحزم والسالكين طريق النجاة ، والأول أصوب ، وبكليهما قالت طائفة . وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن محيصن " ولا تصاعر " ، وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد وأبو جعفر " ولا تصعر " ، وقرأ الجحدري " ولا تصْعر " بسكون الصاد والمعنى متقارب ، و" الصعر " الميل ومنه قول الأعرابي : " وقد أقام الدهر صعري بعد أن أقمت صعره " ، ومنه قول عمرو بن حنى التغلبي : [الطويل]

وكنا إذا الجبار صعر خده . . . أقمنا له من ميله فتقوم

(30/608)

أي فتقوم أنت ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد الطبري " فتقوما " وهو خطأ لأن قافية الشعر مخفوضة ، وفي بيت آخر أقمنا له من خده المتصعر . فمعنى الآية ولا تمل ﴿ خدك للناس ﴾ كبراً عليهم ونخوة وإعجاباً واحتقاراً لهم وهذا هو تأويل ابن عباس وجماعة ، ويحتمل

أن يريد أيضاً الضد ، أي ﴿ ولا تصاعر خدك ﴾ سؤالاً ولا ضراعة بالفقر ، والأول أظهر بدلالة ذكر الاختيال والفخر بعد ، وقال مجاهد " ولا تصعر " أراد به الإعراض هجرة بسبب إحنة ، والمرح النشاط ، والمشي مرحاً هو في غير شغل ولغير حاجة ، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء ، فالمرح مختال في مشيه وقد قال عليه السلام " من جَرَّ ثَوْبَهُ خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة " ، وقال : " بينما رجل من بني إسرائيل يجر ثوبه خيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة " ، وقال مجاهد " الفخور " هو الذي يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تعالى .

قال الفقيه الإمام القاضي : وفي الآية الفخر بالنسب وغير ذلك ، ولما نهاه عن الخلق الذميم رسم له الخلق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله من القصد في المشي وهو أن لا يتخرق في إسراع ولا يواني في إبطاء وتضاؤل على نحو ما قال القائل : [مجزوء الرمل]

كلنا نمشي رويد . . . كلنا يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد . . . وأن لا يمشي مختالاً متبختراً ونحو هذا مما ليس في قصد ، و" غض الصوت " أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه ، ثم عارض ممثلاً بصوت الحمير على جهة التشبيه ، أي تلك هي التي بعدت عن الغض فهي أنكر الأصوات ، فكذلك كل ما بعد عن الغض من أصوات البشر فهو في طريق تلك وفي الحديث

" إذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً " ، وقال سفيان الثوري : صياح كل شيء تسبيح إلا نهيق الحمير ، وقال عطاء : صياح الحمير دعاء على الظلمة ، و﴿ أنكر ﴾ معناه أقبح وأخشن ، و﴿ أنكر ﴾ عبارة تجمع المذام اللاحقة للصوت الجهير ، وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت الجهير على خلق الجاهلية ومنه قول الشاعر يمدح آخر : [المتقارب]

جهير الكلام جهير العطاس . . . جهير الرواء جهير النعم

ويعدو على الأين عدو الظليم . . . ويعلو الرجال بخلق عمم

فنهى الله تعالى عن هذه الخلق الجاهلية ، وقوله ﴿ لصوت الحمير ﴾ أراد ب " الصوت " اسم الجنس ، ولذلك جاء مفرداً ، وقرأ ابن أبي عبلة " أنكر الأصوات أصوات الحمير " بالجمع في الثاني دون لام ، والغض رد طمحان الشيء كالنظر وزمام الناقة والصوت وغير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(32/608)

وقال القرطبى :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾

المعنى : وقال لقمان لابنه يا بُنَيّ .

وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى .

وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه ، لأن الخردلة يقال : إن الحِسّ لا يدرك لها ثِقَلاً ، إذ لا ترجّح ميزاناً .

أي لو كان للإنسان رزق مثقال حبّة خَرْدَل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه ؛ أي لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض ، وعن اتباع سبيل من أناب إليّ .

قلت : ومن هذا المعنى " قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود : "لا تكثِر همك ما يُقَدّر يكون وما تُرْزق يأتيك" " وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ؛ سبحانه لا شريك له .

وروي أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة تقع في سُفل البحر أيعلمها الله ؟ فراجعه لقمان بهذه الآية .

وقيل : المعنى أنه أراد الأعمال ، المعاصي والطاعات ؛ أي إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقالَ حبة يأت بها الله ؛ أي لا تفوت الإنسان المقدّر وقوعُها منه .

وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى .

وفي القول الأوّل ليس فيه ترجية ولا تخويف .

قوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر ، أي قدر حبة وتصلح للأعمال ؛ أي ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة .

ومما يؤيّد قول من قال هي من الجواهر : قراءة عبد الكريم الجَزَري "فتكِنّ" بكسر الكاف وشدّ النون ، من الكنّ الذي هو الشيء المغطى .

(33/608)

وقرأ جمهور القرّاء : "إِنْ تَكُ" بالتاء من فوق "مِثْقَالَ" بالنصب على خبر كان ، واسمها مضمر تقديره : مسألتك ، على ما روي ، أو المعصية والطاعة على القول الثاني ؛ ويدلّ على صحته قول ابن لقمان لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله ؟ فقال لقمان له : ﴿ يا بني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ الآية .

فما زال ابنه يضطرب حتى مات ؛ قاله مقاتل .

والضمير في "إِنَّهَا" ضمير القصة ؛ كقولك : إنها هند قائمة ؛ أي القصة إنها إن تك مثقال

حبة .

والبصريون يجيزون : إنها زيد ضربته ؛ بمعنى إن القصة .

والكوفيون لا يجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا .

وقرأ نافع : "مِثقالُ" بالرفع ، وعلى هذا "تكُ" يرجع إلى معنى خردلة ؛ أي إن تك حبة من خردل .

وقيل : أسند إلى المثقال فِعلاً فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه ؛ لأن مثقال الحبة من الخردل إما سيئة أو حسنة ؛ كما قال : ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] فأنّث وإن كان المِثل مذكراً ؛ لأنه أراد الحسنات .

وهذا كقول الشاعر :

مَشَيْنَ كما اهتزت رِماحٌ تسفّهَتْ . . .

أعالِيهَا مَرُّ الرياح النّواسِم

و"تَكُ" ها هنا بمعنى تقع فلا تقتضي خبرا .

قوله تعالى : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ قيل : معنى الكلام المبالغة والانتهاء في التفهيم ؛ أي أن قدرته تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء والأرض .

وقال ابن عباس : الصخرة تحت الأرَضين السبع وعليها الأرض .

وقيل : هي الصخرة على ظهر الحوت .

وقال السُّدّي : هي صخرة ليست في السموات والأرض ، بل هي وراء سبع أَرَضين عليها مَلَك قائم ؛ لأنه قال : ﴿ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض ﴾ وفيهما غُنْية عن قوله : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ ؛ وهذا الذي قاله ممكن ، ويمكن أن يقال : قوله : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ تأكيد ؛ كقوله : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَق ﴾ [العلق : 21] ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] .

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا بني أَقِمِ الصلاة ﴾ وصّى ابنه بعُظْم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر ، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع .

ولقد أحسن من قال :

وابدأ بنفسك فانهها عن غَيّها . . .

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

في أبيات تقدّم في "البقرة" ذكرها .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ؛ فهو إشعار بأن المغيِّر يؤذَى أحياناً ؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوّة في ذات الله ؛ وأما على اللزوم فلا ، وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في "آل عمران والمائدة" .

وقيل : أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها ، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل ؛ وهذا قول حسن لأنه يعمّ .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره .

وقيل : إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور ؛ أي مما عزمه الله وأمر به ؛ قاله ابن جريج .

(35/608)

ويحتمل إن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة .

وقول ابن جريج أصوب .

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن مُحَيْصِن : "تصاعر" بالألف بعد الصاد .

وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد : "تُصَعّر" وقرأ الجحدرِي : "تُصْعر" بسكون الصاد ؛ والمعنى متقارب .

والصَّعَر : الميل ؛ ومنه قول الأعرابي : وقد أقام الدهر صعرى ، بعد أن أقمت صعره .

ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التّغلبي :

وكنا إذا الجبّار صَعّر خدّه . . .

أقمنا له من مَيْله فَتقوَّمِ

وأنشده الطبري : "فتقوّمَا" .

قال ابن عطية : وهو خطأ ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة .

وفي بيت آخر :

أقمنا له من خدّه المتصعر . . .

قال الهروي : "ولا تصاعر" أي لا تعرِض عنهم تكبّراً عليهم ؛ يقال : أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَد إذ أصابه داء يَلْوِي منه عنقه .

ثم يقال للمتكبّر : فيه صَعَر وصَيَد ؛ فمعنى : "لا تُصَعِّر" أي لا تلزم خدّك الصَّعَر .

وفي الحديث : " يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر " والأصعر : المعرض بوجهه كبرا ؛ وأراد رُذالة الناس الذين لا دين لهم .

وفي الحديث : "كلّ صعّار ملعونٌ " أي كل ذي أُبّهة وكبر .

الثانية : معنى الآية : ولا تُمِل خدّك للناس كبراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم .

وهذا تأويل ابن عباس وجماعة .

وقيل : هو أن تلوِي شِدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره ؛ فالمعنى : أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً ، وإذا حدّثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه .

وكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل .

(36/608)

قلت : ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا

يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث " فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه .

وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك ؛ وكذلك يصنع هو بك .

ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسرّه ويسرّك ؛ فمعنى التدابر موجود فيمن صَعّر خده ، وبه فسر مجاهد الآية .

وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : قوله : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ كأنه نهى أن يذِلّ الإنسان نفسه من غير حاجة ؛ ونحو ذلك روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس للإنسان أن يذلّ نفسه " .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ أي متبخترا متكبراً ، مصدر في موضع الحال ، وقد مضى في "سبحان" .

وهو النشاط والمشي فرحاً في غير شغل وفي غير حاجة .

وأهل هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء ؛ فالمرِح مختال في مشيته .

روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزدي عن غُضيف بن الحارث قال : أتيت بيت المقدس أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير قال : فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يا ابن آدم ما غَرّك بي ! ألم تعلم أني بيت الوحدة ! ألم تعلم أني بيت الظلمة ! ألم تعلم أني بيت الحق ! يا ابن آدم ما غَرّك بي ! لقد

كنت تمشي حولي فَدّادا .

قال ابن عائذ قلت لغُضيف : ما الفدّاد يا أبا أسماء ؟ قال : كبعض مِشيتك يا ابن أخي أحياناً .

قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال كثير وذا خُيلاء .

وقال صلى الله عليه وسلم : " من جرّ ثوبه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة " والفخور : هو الذي يعدد ما أعطِي ولا يشكر الله تعالى ؛ قاله مجاهد .

وفي اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك .

(37/608)

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ واقصد فِي مَشْيِكَ ﴾ لما نهاه عن الخُلُق الذميم رسم له الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال : "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ" أي توسّط فيه .

والقصد : ما بين الإسراع والبطء ؛ أي لا تَدِبّ دبيب المُتَمَاوتين ولا تَثب وثب الشطار ؛

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن " فأما ما روي

عنه عليه السلام أنه كان إذا مشى أسرع ، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما : كان إذا مشى أسرع فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت ؛ والله أعلم .

وقد مدح الله سبحانه مَن هذه صفته حسبما تقدّم بيانه في "الفرقان" .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ أي انقص منه ؛ أي لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه ؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي .

والمراد بذلك كله التواضع ؛ وقد قال عمر لمؤذّن تكلّف رفع الأذان بأكثر من طاقته : لقد خشيت أن ينشق مُرَيْطَاؤك ! والمؤذّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر .

والمُرَيْطاء : ما بين السرة إلى العانة .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ أي أقبحها وأوحشها ؛ ومنه أتانا بوجه منكر .

والحمار مَثَل في الذم البليغ والشتيمة ، وكذلك نُهاقه ؛ ومن استفحاشهم لذكره مجرداً أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون : الطويل الأذنين ؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة .

وقد عُدَّ في مساوىء الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة .

ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرُّجْلة .

وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذللاً لله تبارك وتعالى .

الرابعة : في الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة بقبح أصوات الحمير ؛ لأنها عالية .

(38/608)

وفي الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً " وقد روي : أنه ما صاح حمار ولا نبح كلب إلا أن يرى شيطاناً .

وقال سفيان الثَّوْرِي : صياح كل شيء تسبيح إلا نهيق الحمير .

وقال عطاء : نهيق الحمير دعاء على الظلمة .

الخامسة : وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملة ؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغير ذلك ، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، حتى قال شاعرهم :

جَهِير الكلام جهير العُطاس . . .

جهِير الرُّواء جهير النَّعَم

ويَعْدُو على الأَينَ عَدْوَى الظَّليم . . .

ويعلو الرجال بخَلْق عَمَم

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ أي لو أن شيئاً يهاب لصوته لكان الحمار ؛ فجعلهم في المثل سواء .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ لَصَوْتُ الحمير ﴾ اللام للتأكيد ، ووحد الصوت وإن كان مضافاً إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة ، وهو مصدر صات يَصُوت صَوْتاً فهو صائت .

ويقال : صوّت تصويتاً فهو مصوِّت .

ورجل صاتٌ أي شديد الصوت بمعنى صائت ؛ كقولهم : رجل مالٌ ونالٌ ؛ أي كثير المال والنوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(39/608)

وقال ابن كثير :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ،

فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة [من] خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ ضمير الشأن والقصة . وجوز على هذا رفع ﴿ مِثْقَالَ ﴾ والأول أولى .

وقوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أي : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 ، 8]

(40/608)

، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صَمَّاء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض فإن الله يأتي بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دَقت ولطفت وتضاءلت ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم .

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، ذكره السُّدِّي بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفي ، وأبي مالك ، والثوري ، والمِنهال بن عمرو ، وغيرهم . وهذا والله أعلم ، كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصدق ، ولا تكذب ، والظاهر – والله أعلم – أن المراد : أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا دَراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن أحدكم يعمل في صخرة صَمَّاء ، ليس لها باب ولا كوَّة ، لخرج عمله للناس كائنًا ما كان" (1) .

ثم قال : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ أي : بحدودها وفروضها وأوقاتها ، ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أي : بحسب طاقتك وجهدك ، ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ ، علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أي : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

---

(1) المسند (28/3) وحسنه الهيثمي في المجمع (225/10) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان .

وقوله : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول : لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقارًا منك لهم ، واستكبارًا عليهم ولكن أَلِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث : "ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المِخيلَة ، والمخيلة لا يحبها الله" .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقِرَ عبادَ الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفي وعكرمة عنه .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ : لا تكَلَّم وأنت معرض .

وكذا رُوي عن مجاهد ، وعِكْرِمة ، ويزيد بن الأصم ، وأبي الجوزاء ، وسعيد بن جُبَيْر ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم .

وقال إبراهيم النَّخعِي : يعني بذلك : التشديق في الكلام .

والصواب القول الأول .

قال ابن جرير : وأصل الصَّعَر : داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلفَتَ أعناقُها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر ، ومنه قول عمرو بن حُني التَّغْلبي :

وكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صَعّر خَدّه . . . أقَمْنَا لَه مِنْ مَيْلِه فَتَقَوّمَا (1)

وقال أبو طالب في شعره :

وكُنَّا قَديمًا لا نقرُّ ظُلامَة . . . إذا ما ثَنوا صُعْر الرؤوس نُقِيمها (2)

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي : جذلا متكبرًا جبارًا عنيدًا ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ، فخور : أي على غيره ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : 37] ، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى ، حدثنا أبي ، عن ابن أبي ليلى ، عن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس قال : ذكر الكبر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فشدد فيه ، فقال : "إن الله لا يحب كل مختال فخور" . فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ، ويعجبني شِراك نعلي ، وعِلاقة سَوْطي ، فقال :

"ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تَسْفه الحق وتَغْمِط الناس" (3) .

ورواه من طريق أخرى بمثله ، وفيه قصة طويلة ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته (4) .

وقوله : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : امش مشيًا مقتصدا ليس بالبطيء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، بل عدلا وسطًا بين بين .

---

(1) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة (127/2) .

(2) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (269/1) .

(3) المعجم الكبير (69/2) وفيه انقطاع بين ابن أبي ليلى وثابت .

(4) المعجم الكبير (70/2) من طريق عبد الرحمن بن يزيد ، عن عطاء ، عن بنت ثابت بقصة أبيها ، وقال الهيثمي في المجمع (322/9) : "وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها ، وبقية رجاله رجال الصحيح" .

(43/608)

وقوله : ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أي : لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أي : غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشَبه بالحمير في علوه ورفعه

، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه" .

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم [أنه] قال : "إذا سمعتم صياح الديكة

(44/608)

فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطانًا" .

وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر بن ربيعة به ، (1) وفي بعض الألفاظ : "بالليل" ، فالله أعلم .

فهذه وصايا نافعة جدًا ، وهي من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجًا ودستورًا إلى ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن إسحاق ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرني نَهْشَل

بن مُجَمّعِ الضبي عن قزعة ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئًا حفظه" (2) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم [بن مُخَيْمِرة يحدث عن أبي موسى الأشعري] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار" (3) .

وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضَمْرَة ، حدثنا السَّرِيّ بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني ، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن المسعودي ، عن عَوْن بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني ، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام – يعني السلام – ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فَأَجِلْ سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

---

(1) النسائي في السنن الكبرى (11391) وصحيح البخاري برقم (3301) وصحيح مسلم برقم (2779) وسنن أبي داود برقم (5102) وسنن الترمذي برقم (3459) .

(2) المسند (87/2) .

(3) ورواه الحاكم في المستدرك (411/2) وقال : "هذا متن شاهده إسناد صحيح" وأقره الذهبي .

(45/608)

وحدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة ، عن حفص بن عمر ، رضي الله عنه ، قال : وضع لقمان جرابًا من خردل إلى جانبه ، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة ، حتى نفذ الخردل ، فقال : يا بني ، لقد وعظتك موعظة لو وُعِظَها جبل لتفطر . قال : فتفطر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عبد الباقي المِصّيصي ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، حدثنا أيين بن سفيان المقدسي ، عن خليفة بن سلام ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اتخذوا

(46/608)

السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن" (1) .

قال أبو القاسم الطبراني : أراد الحبش .

فصل في الخمول والتواضع : وذلك متعلق بوصية لقمان ، عليه السلام ، لابنه ، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتابًا مفردًا [و] نحن ، نذكر منه مقاصده ، قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عبد الله بن موسى المدني ، عن أسامة بن زيد ، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "رُبَّ أشعثَ ذي طِمْرَين يُصْفَح عن أبواب الناس ، إذا أقسم على الله لأبره" (2) .

ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلي بن زيد ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ، وزاد ، منهم البراء بن مالك (3) .

[وروي أيضا عن أنس ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة"] . وقال أبو بكر بن سهل التميمي : حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، عن عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر ، رضي الله عنه ، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل

يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول : "إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة" (4) .

---

(1) المعجم الكبير (198/11) وقال الهيثمي في المجمع (235/4) : "فيه أبين بن سفيان وهو ضعيف" .

(2) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (5054) "مجمع البحرين" قال : "حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، فذكر مثله - ثم قال - لم يروه عن حفص إلا أسامة" ، وله شاهد في صحيح مسلم برقم (2622) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . تنبيه : سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ، وكذا الرواية بعده .

(3) ورواه الترمذي في السنن برقم (3854) من طريق سيار عن جعفر بن سليمان به ، وقال : "هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه" .

(4) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا برقم (8) .

حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عَثَّام بن علي ، عن حميد بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "رُبَّ ذي طمرين لا يُؤبَه له ، لو أقسم على الله لأبره ، لو قال : اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئًا" (1) .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من أمتي مَنْ لو أتى باب أحدكم يسأله دينارًا أو درهما أو

(1) سقط الحديث من مخطوطة التواضع والخمول ، ورواه الديلمي في مسند الفردوس برقم (3246) من طريق ابن أبي الدنيا .

فلسًا لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره" (1) .

وهذا مرسل من هذا الوجه .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عَوْف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذو طمرين لا يُؤبَه له ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم يُنصَت لهم ، حوائج أحدهم تتجلجل في صدره ، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم" (2) .

قال : وأنشدني عمر بن شَبَّةَ ، عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك :

ألا رُبّ ذي طمْرَين في مَنزل غَدًا . . . زرَابيه مَبْثُوثةً ونَمَارقُه . . .

قَد اطَّرَدَتْ أنهاره حَوْلَ قَصْره . . . وَأشرَقَ والتفَّتْ عَلَيه حَدَائقُه (3)

وروي – أيضا – من حديث عُبَيد الله بن زَحْر ، عن علي بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة مرفوعا : "قال الله : من أغبط أوليائي عندي : مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضا في الناس ، لا يشار إليه بالأصابع . إن صبر على ذلك" . قال : ثم نَقَد رسول الله بيده وقال : "عُجّلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه" (4) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله إلى الله الغرباء . قيل : ومَنْ الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم ، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم (5) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترك ؟ ألم . . ؟ ألم . . ؟ ألم أحمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تُعرَف فافعل ، وما عليك ألا يُثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محمودًا عند الله .

---

(1) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا برقم (1) ، وهو مرسل .

(2) ورواه ابن أبي الدنيا في الأولياء برقم (9) عن الحسن مرسلا بنحوه ، وقد سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول .

(3) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا برقم (5) .

(4) التواضع والخمول برقم (13) وقد قال ابن حبان : "إذا روى عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم فهو مما عملته أيديهم" .

(5) التواضع والخمول برقم (16) .

(49/608)

وكان ابن مُحَيْرِيز يقول : اللهم إني أسألك ذكرا خاملا .

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من

أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

ثم قال (1) : باب ما جاء في الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصري ، حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الحارث وابن لَهِيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سِنَان بن سعد ، عن أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "حسب امرئ من

---

(1) أي ابن أبي الدنيا .

(50/608)

الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم" (1) .

وروي مثله عن إسحاق بن البهلول ، عن ابن أبي فُدَيْك ، عن محمد بن عبد الواحد الأَخْنَسِيّ ، عن عبد الواحد بن أبي كثير ، عن جابر بن عبد الله مرفوعا ، مثله (2) .

وروي عن الحسن مرسلا نحوه (3) ، فقيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق (4) .

وعن علي ، رضي الله عنه ، قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم

واكتم ،

واصمت تسلم ، تَسُر الأبرار ، وتغيظ الفجار .

وقال إبراهيم بن أدهم ، رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة .

وقال أيوب : ما صدق الله عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه .

وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس .

وقال سِمَاك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء .

وقال أَبَان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف ؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم .

وقال : حدثنا علي بن الجَعْد ، أخبرنا شعبة ، عن عَوْف ، عن أبي رَجَاء قال : رأى طلحة قوما يمشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار .

وقال ابن إدريس ، عن هارون بن عنترة ، عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وقال ابن عون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ما أغلِقُ عليه بابي ، ما اتبعني منكم رجلان .

وقال حماد بن زيد : كنا إذا مررنا على المجلس ، ومعنا أيوب ، فسلم ، ردوا ردا شديدا ، فكان ذلك يَغُمه .

(1) التواضع والخمول برقم (30) وفيه سنان بن سعد ضعيف .

(2) التواضع والخمول برقم (31) وقال العراقي : "ليس معروفا من حديث جابر إنما هو معروف من حديث أبي هريرة" .

(3) التواضع والخمول برقم (32) .

(4) التواضع والخمول برقم (33) .

(51/608)

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص ، واليوم في تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلبسهما أياما ثم خلعهما ، وقال : لم أر الناس يلبسونهما .

وقال إبراهيم النَّخَعي : لا تلبس من الثياب ما يُشهر في الفقهاء ، ولا ما يزدريك السفهاء .

وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التي يُشتَهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ، ويستذل دينه .

(52/608)

وحدثنا خالد بن خِدَاش : حدثنا حماد ، عن أبي حسنة – صاحب الزيادي – قال : كنا عند أبي قِلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق .

وقال الحسن ، رحمه الله : إن قوما جعلوا الكبر في قلوبهم ، والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ، ما لهم تفاقدوا .

وفي بعض الأخبار أن موسى ، عليه السلام ، قال لبني إسرائيل : ما لكم تأتوني عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب ، البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم بالخشية .

فصل في حسن الخلق

قال أبو التياح : عن أنس ، رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا (1) .

وعن عطاء ، عن ابن عمر : قيل : يا رسول الله ، أيّ المؤمنين أفضل ؟ قال : "أحسنهم خلقا" (2) .

وعن نوح بن عباد ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعا : "إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه دَرَك جهنم وهو عابد" (3) . وعن سِنَان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : "ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة" (4) . وعن عائشة مرفوعا : "إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم

الليل وصائم النهار" (5) .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، أخبرني أبي وعمي ، عن جدي ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يُدخل الناسَ الجنة ، فقال : "تقوى الله وحسن الخلق" . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : "الأجوفان : الفم والفرج" (6) .

وقال أسامة بن شَرِيك : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءته الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يا رسول الله ، ما خير ما أعطي الإنسان ؟ قال : "حسن الخلق" (7) .

---

(1) التواضع والخمول برقم (163) .

(2) التواضع والخمول برقم (164) .

(3) التواضع والخمول برقم (168) .

(4) التواضع والخمول برقم (169) .

(5) التواضع والخمول برقم (166) .

(6) التواضع والخمول برقم (170) .

(7) التواضع والخمول برقم (171) .

وقال يعلى بن مملك : عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء – يبلغ به – قال : "ما [من] شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق" (1) ، وكذا رواه عطاء ، عن أم الدرداء ، به (2) .

وعن مسروق ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : "إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا" (3) .

حدثنا عبد الله بن أبي بدر ، حدثنا محمد بن عبيد ، عن محمد بن أبي سارة ، عن الحسن

---

(1) التواضع والخمول برقم (172) .

(2) التواضع والخمول برقم (173) .

(3) التواضع والخمول برقم (174) .

بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطي المجاهد في سبيل الله ، يغدو عليه الأجر ويروح" (1) .

وعن مكحول ، عن أبي ثعلبة مرفوعا : "إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا ، أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني منزلا في الجنة مساويكم أخلاقا ، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون" (2) .

وعن أبي أويس ، عن محمد بن المنْكَدِر ، عن جابر مرفوعا : "ألا أخبركم بأكملكم إيمانا ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطؤون أكنافا ، الذين يُؤْلفون ويَأْلفون" (3) .

وقال الليث ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ، عن بكر بن أبي الفرات قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما حَسَّن الله خَلْق رجل وخُلُقه فَتَطْعَمَه النار" (4) .

وعن عبد الله بن غالب الحُدَّاني ، عن أبي سعيد مرفوعا : "خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل ، وسوء الخلق" (5) ، وقال ميمون بن مِهْرَان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر" (6) .

حدثنا علي بن الجعد ، حدثنا أبو المغيرة الأَحْمَسِيّ ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قريش قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل" (7) .

وقال عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي هريرة مرفوعا : "إنكم لا تَسَعُون

الناس بأموالكم ، ولكن يَسَعُهم منكم بسط وجوه وحسن خلق" (8) .

وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل في ذم الكبر

قال علقمة ، عن ابن مسعود – رفعه – : "لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال حبة من كِبْر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان" (9) .

---

(1) التواضع والخمول برقم (176) .

(2) التواضع والخمول برقم (177) .

(3) التواضع والخمول برقم (178) .

(4) التواضع والخمول برقم (180) .

(5) التواضع والخمول برقم (182) .

(6) التواضع والخمول برقم (183) .

(7) التواضع والخمول برقم (184) .

(8) التواضع والخمول برقم (190) .

(9) التواضع والخمول برقم (192) .

وقال إبراهيم بن أبي عَبْلَة ، عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : "من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، أكبه الله على وجهه في النار" (1) .

حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا أبو معاوية ، عن عمر بن راشد ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه مرفوعا : "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب"(2) .

وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن داود ، عليهما السلام ، ذات يوم البساط في مائتي

(1) التواضع والخمول برقم (196) .

(2) التواضع والخمول برقم (198) .

ألف من الإنس ، ومائتي ألف من الجن ، فَرُفع حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء ، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر ، فسمعوا صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رفع .

حدثنا أبو خَيثَمة ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان ، حتى إن أحدنا ليُقذر نفسه ، يقول : خرج من مجرى البول مرتين (1) .

وقال الشعبي : من قتل اثنين فهو جبار ، ثم تلا ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص : 19] وقال الحسن : عجبا لابن آدم ، يغسل الخرء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر ! يعارض جبار السموات ، قال : حدثنا خالد بن خِدَاش ، حدثنا حماد بن زيد ، عن علي بن الحسن ، عن الضحاك بن سفيان ، فذكر الحديث . ضرب مثل الدنيَا بما يخرج من ابن آدم (2) .

وقال الحسن ، عن يحيى ، عن أبي قال : إن مطعم بن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قَزّحَه ومَلَّحه .

وقال محمد بن الحسين بن علي – من ولد علي رضي الله عنه – : ما دخل قلبَ رجل شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .

وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ، ولا مع التوحيد نفاق .

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته ، وذلك قبل أن يستخلف ، فطعنه طاوس في جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن من في بطنه خرء ؟ فقال له كالمعتذر إليه : يا عم ، لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها .

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية .

فصل في الاختيال

عن أبي ليلى ، عن ابن بُرَيْدة ، عن أبيه مرفوعا : "مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه" (3) .

---

(1) التواضع والخمول برقم (200) .

(2) التواضع والخمول برقم (210) .

(3) التواضع والخمول برقم (238) .

ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعا مثله (1) . وحدثنا محمد بن بَكَّار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعًا : "لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَنْ جر إزاره" (2) . و"بينما رجل يتبختر في برديه ، أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة" (3) .

وروى الزهري عن سالم ، عن أبيه : "بينما رجل . . . " إلى آخره (4) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 6 صـ 337.346 ﴾

---

(1) التواضع والخمول برقم (239) .

(2) التواضع والخمول برقم (232) .

(3) التواضع والخمول برقم (233) .

(4) التواضع والخمول برقم (234) .

(58/608)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾

لقمان : اسم علم ، فإن كان أعجمياً فمنعه من الصرف للعجمة والعلمية ، وإن كان عربياً فمنعه للعلمية وزيادة الألف والنون ، ويكون مشتقاً من اللقم مرتجلاً ، إذ لا يعلم له وضع في النكرات .

صعر : مشدد العين ، لغة بني تميم .

قال شاعرهم :

وكنا إذا الجبار صعر خده . . .

أقمنا له من ميله فيقوم

فيقوم : أمر بالاستقامة للقوافي في المخفوضة ، أي فيقوم إن قاله أبو عبيدة وإنشاد الطبري فيقوما فعلاً ماضياً خطأ ، وتصاعر لغة الحجاز ، ويقال : يصعر .

قال الشاعر :

أقمنا له من خده المتصعر . . .

ويقال : أصعر خده .

قال الفضل : هو الميل ، وقال اليزيدي : هو التشدق في الكلام .

وقال أبو عبيدة : أصل هذا من الصعر ، داء يأخذ الإبل في رؤوسها وأعناقها ، فتلتوي منه أعناقها .

القلم : معروف .

الختار : شديد الغدر ، ومنه قولهم :

إنك لا تمد إلينا شبراً من غدر . . .

إلا مددنا لك باعاً من ختر

وقال عمرو بن معدي كرب :

وإنك لو رأيت أبا عمير . . .

ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى :

فالأيلق الفرد من تيماء منزله . . .

حصن حصين وجار غير ختار

(59/608)

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد ، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يبني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾

اختلف في لقمان ، أكان حراً أم عبداً ؟ فإذا قلنا : كان حراً ، فقيل : هو ابن باعورا .

قال وهب : ابن أخت أيوب عليه السلام .

وقال مقاتل : ابن خالته .

وقيل : كان من أولاد آزر ، وعاش ألف سنة ، وأدرك داود عليه السلام ، وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود ، فلما بعث داود ، قطع الفتوى ، فقيل له : لم ؟ فقال : ألا أكتفي إذا كفيت ؟ وكان قاضياً في بني إسرائيل .

وقال الواقدي : كان قاضياً في بني إسرائيل ، وزمانه ما بين عيسى ومحمد ، عليهما السلام ، والأكثرون على أنه لم يكن نبياً .

وقال عكرمة ، والشعبي : كان نبياً .

وإذا قلنا : كان عبداً ، اختلف في جنسه ، فقال ابن عباس ، وابن المسيب ، ومجاهد : كان نوبياً مشقق الرجلين ذا مشافر .

وقال الفراء وغيره : كان حبشياً مجدوع الأنف ذا مشفر .

واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال ، فقال خالد بن الربيع : كان نجاراً ، وفي معاني الزجاج : كان نجاداً ، بالدال .

وقال ابن المسيب : كان خياطاً .

وقال ابن عباس : كان راعياً .

وقيل : كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة .

وهذا الاضطراب في كونه حراً أو عبداً ، وفي جنسه ، وفيما كان يعانيه ، يوجب أن لا يكتب شيء من ذلك ، ولا ينقل .

لكن المفسرون مولعون بنقل المضطربات حشواً وتكثيراً ، والصواب تركه .

وحكمة لقمان مأثورة كثيرة ، منها : قيل له : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً .

وقال له داود ، عليه السلام ، يوماً : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت في يد غيري ، فتفكر داود فيه ، فصعق صعقة .

وقال وهب بن منبه : قرأت في حكم لقمان أكثر من عشرة آلاف .

و ﴿ الحكمة ﴾ : المنطق الذي يتعظ به ويتنبه به ، ويتناقله الناس لذلك .

﴿ أن اشكر ﴾ ، قال الزمخشري : أن هي المفسرة ، لأن إيتاء الحكمة في معنى القول ، وقد نبه سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما ، أو عبادة الله والشكر له ، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشك .

وقال الزجاج: المعنى: ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ لأن يشكر الله، فجعلها مصدرية، لا تفسيرية.

وحكى سيبويه: كتبت إليه بأن قم.

﴿ فإنما يشكر لنفسه ﴾: أي ثواب الشكر لا يحصل إلا للشاكرين، إذ هو تعالى غني عن الشكر، فشكر الشاكر لا ينفعه، وكفر من كفر لا يضره.

و﴿ حميد ﴾: مستحق الحمد لذاته وصفاته.

﴿ وإذ قال ﴾: أي واذكر إذ، وقيل: يحتمل أن يكون التقدير: وآتيناه الحكمة، إذ قال، واختصر لدلالة المتقدم عليه.

وابنه بارّ، أي: أو أنعم، أو اشكر، أو شاكر، أقوال.

﴿ وهو يعظه ﴾: جملة حالية.

قيل: كان ابنه وامرأته كافرين، فما زال يعظهما حتى أسلما.

والظاهر أن قوله: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ من كلام لقمان.

وقيل: هو خبر من الله، منقطع عن كلام لقمان، متصل به في تأكيد المعنى؛ وفي صحيح مسلم ما ظاهره أنه من كلام لقمان.

وقرأ البزي: ﴿ يا بني ﴾، بالسكون، و﴿ يا بني إنها ﴾: بكسر الياء، و﴿ يا بني أقم ﴾: بفتحها.

وقيل : بالسكون في الأولى والثانية ، والكسر في الوسطى ؛ وحفص والمفضل عن عاصم : بالفتح في الثلاثة على تقدير يا بنيا ، والاجتزاء بالفتحة عن الألف .

وقرأ باقي السبعة : بالكسر في الثلاثة .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ : لما بين لقمان لابنه أن الشرك ظلم ونهاه عنه ، كان ذلك حثاً على طاعة الله ، ثم بين أن الطاعة تكون للأبوين ، وبين السبب في ذلك ، فهو من كلام لقمان مما وصى به ابنه ، أخبر الله عنه بذلك .

وقيل : هو من كلام الله ، قاله للقمان ، أي قلنا له اشكر .

وقلنا له : ﴿ ووصينا ﴾ .

وقيل : هذه الآية اعتراض بيّن أثناء وصيته للقمان ، وفيها تشديد وتوكيد لاتباع الولد والده ، وامتثال أمره في طاعة الله تعالى .

وقال القرطبي : والصحيح أن هذه الآية وآية العنكبوت نزلتا في سعد بن أبي وقاص ، وعليه جماعة من المفسرين .

ولما خص الأم بالمشقات من الحمل والنفاس والرضاع والتربية ، نبه على السبب الموجب

للإيصاء ، ولذلك جاء في الحديث الأمر ببرّ الأم ثلاث مرات ، ثم ذكر الأب ، فجعل له مرة الربع من المبرة .

﴿ وهناً على وهن ﴾ ، قال ابن عباس : شدة بعد شدة ، وخلقاً بعد خلق .

وقال الضحاك : ضعفاً بعد ضعف .

وقال قتادة : جهداً على جهد ، يعني : ضعف الحمل ، وضعف الطلق ، وضعف النفاس ، وانتصب على هذه الأقوال على الحال .

وقيل : ﴿ وهناً على وهن ﴾ : نطفة ثم علقة ، إلى آخر النشأة ، فعلى هذا يكون حالاً من الضمير المنصوب في حملته ، وهو الولد .

وقرأ عيسى الثقفي ، وأبو عمرو في رواية : وهناً على وهن ، بفتح الهاء فيهما ، فاحتمل أن يكون كالشعر والشعر ، واحتمل أن يكون مصدر وهن بكسر الهاء يوهن وهناً ، بفتحها في المصدر قياساً .

وقرأ الجمهور : بسكون الهاء فيهما .

وقرأوا : ﴿ وفصاله ﴾ .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وقتادة ، والجحدري ، ويعقوب : وفصله ، ومعناه الفطام ، أي في تمام عامين ، عبر عنه بنهايته ، وأجمعوا على اعتبار العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات ، وأما في تحريم اللبن في الرضاع فخلاف مذكور في الفقه .

و ﴿ أن اشكر ﴾ في موضع نصب ، على قول الزجاج .

وقال النحاس : الأجود أن تكون مفسرة .

﴿ لي ﴾ : أي على نعمة الإيمان .

﴿ ولوالديك ﴾ : على نعمة التربية ﴿ إليّ المصير ﴾ : توعد أثناء الوصية .

﴿ وإن جاهداك ﴾ إلى : ﴿ فلا تطعهما ﴾ : تقدم الكلام عليه في العنكبوت ، إلا أن هنا عليّ ، وهناك لتشرك بلام العلة .

وانتصب ﴿ معروفاً ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي صحاباً ، أو مصاحباً معروفاً وعشرة جميلة ، وهو إطعامهما وكسوتهما وعدم جفائهما وانتهارهما ، وعيادتهما إذا مرضا ، ومواراتهما إذا ماتا .

﴿ واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ : أي رجع إلى الله ، وهو سبيل الرسول لا سبيلهما .

﴿ ثم إليّ مرجعكم ﴾ : أي مرجعك ومرجعهما ، فأجازي كلاً منكم بعمله .

ولما نهى لقمان ابنه عن الشرك ، نبهه على قدرة الله ، وأنه لا يمكن أن يتأخر عن مقدوره شيء فقال : ﴿ يا بني إنها إن تك ﴾ ، والظاهر أن الضمير في إنها ضمير القصة .

وقرأ نافع : مثقال ، بالرفع على ﴿ إن تك ﴾ تامة ، وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر ، وأخبر عن مثقال ، وهو مذكر ، إخبار المؤنث ، لأضافته إلى مؤنث ، وكأنه قال : إن تك زنة حبة ؛ وباقي السبعة : بالنصب على ﴿ إن تك ﴾ ناقصة ، واسمها ضمير يفهم من سياق الكلام تقديره : هي ، أي التي سألت عنها .

وكان فيما روي قد سأل لقمان ابنه : أرأيت الحبة تقع في مغاص البحر ؟ أيعلمها الله ؟ فيكون الضمير ضمير جوهر لا ضمير عرض ، ويؤيده قوله : ﴿ إن تك مثقال حبة ﴾ .

وقرأ عبد الكريم الجزري : فتكن ، بكسر الكاف وشد النون وفتحها ؛ وقراءة محمد بن أبي فجة البعلبكي : فتكن ، بضم التاء وفتح الكاف والنون مشددة .

(63/608)

وقرأ قتادة : فتكن ، بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون ، من وكن يكن ، ورويت هذه القراءة عن عبد الكريم الجزري أيضاً : أي تستقر ، ويجوز أن يكون الضمير ضمير عرض ، أي تلك الفعلة من الطاعة أو المعصية .

وعلى من قرأ بنصب مثقال ، يجوز أن يكون الضمير في أنها ضمير الفعلة ، لا ضمير القصة .

قال الزمخشري : فمن نصب يعني مثقال ، كان الضمير للهيئة من الإساءة والإحسان ، أي كانت مثلاً في الصغر والقماءة ، كحبة الخردل ، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه ، كجوف الصخرة ، أو حيث كانت من العالم العلوي أو السفلي .

﴿ يأت بها الله ﴾ ، يوم القيامة ، فيحاسب عليها .

﴿ إن الله لطيف ﴾ ، يتوصل علمه إلى كل خفي .

﴿ خبير ﴾ : عالم بكنهه .

وعن قتادة : لطيف باستخراجها ، خبير بمستقرها .

وبدأ له بما يتعلق به أولاً ، وهو كينونة الشيء .

﴿ في صخرة ﴾ : وهو ما صلب من الحجر وعسر إخراجه منها ، ثم أتبعه بالعالم العلوي ، وهو أغرب للسامع ، ثم أتبعه بما يكون مقر الأشياء للشاهد ، وهو الأرض .

وعن ابن عباس والسدي ، أن هذه الصخرة هي التي عليها الأرض .

قال ابن عباس : هي تحت الأرضين السبع ، يكتب فيها أعمال الفجار .

قال ابن عطية : قيل : أراد الصخرة التي عليها الأرض والحوت والماء ، وهي على ظهر ملك .

وقيل : هي صخرة في الريح ، وهذا كله ضعيف لا يثبت سنده ، وإنما معنى الكلام : المبالغة والانتهاء في التفهم ، أي إن قدرته تنال ما يكون في تضاعيف صخرة ، وما يكون في

السماء والأرض . انتهى .

قيل : وخفاء الشيء يعرف بصغره عادة ، ويبعده عن الرائي .

وبكونه في ظلمة وباحتجابه ، ففي صخرة إشارة إلى الحجاب ، وفي السموات إشارة إلى البعد ، وفي الأرض إشارة إلى الظلمة ، فإن جوف الأرض أظلم الأماكن .

وفي قوله : ﴿ يأت بها الله ﴾ دلالة على العلم والقدرة ، كأنه قال : يحيط بها علمه وقدرته .

(64/608)

ولما نهاه أولاً عن الشرك ، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته ، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات ، فبدأ بأشرفها ، وهو الصلاة ، حيث يتوجه إليه بها ، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن جميعها ، أو على ما يصيبه بسبب الأمر بالمعروف ممن يبعثه عليه ، والنهي عن المنكر ممن ينكره عليه ، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك ، وهذا إنما يريد به بعد أن يمثل هو في نفسه فيأتي بالمعروف .

إن ذلك إشارة إلى ما تقدم مما نهاه عنه وأمره به .

والعزم مصدر ، فاحتمل أن يراد به المفعول ، أي من معزوم الأمور ، واحتمل أن يراد به

الفاعل ، أي عازم الأمور ، كقوله : ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ وقال ابن جريج : مما عزمه الله وأمر به ؛ وقيل : من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة .

والظاهر أنه يريد من لازمات الأمور الواجبة ، لأن الإشارة بذلك إلى جميع ما أمر به ونهى عنه .

وهذه الطاعات يدل إيصاء لقمان على أنها كانت مأموراً بها في سائر الملل .

والعزم : ضبط الأمر ومراعاة إصلاحه .

وقال مؤرج : العزم : الحزم ، بلغة هذيل .

والحزم والعزم أصلان ، وما قاله المبرد من أن العين قلبت حاء ليس بشيء ، لاطراد تصاريف كل واحد من اللفظين ، فليس أحدهما أصلاً للآخر .

﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ : أي لا تولهم شق وجهك ، كفعل المتكبر ، وأقبل على الناس بوجهك من غير كبر ولا إعجاب ، قاله ابن عباس والجماعة .

قال ابن خويز منداد : نهى أن يذل نفسه من غير حاجة ، وأورد قريباً من هذا ابن عطية احتمالاً فقال : ويحتمل أن يريد : ولا سؤالاً ولا ضراعة بالفقر .

قال : والأول ، يعني تأويل ابن عباس والجماعة ، أظهر لدلالة ذكر الاختيال والعجز بعده .

وقال مجاهد : ﴿ ولا تصعر ﴾ ، أراد به الإعراض ، كهجره بسبب أخيه .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم ، وزيد بن علي : تصعر ، بفتح الصاد وشد العين ؛ وباقي السبعة : بألف ؛ والجحدري : يصعر مضارع أصعر .

﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ : تقدم الكلام على هذه الجملة في سورة سبحان : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ تقدم الكلام في النساء على نظير هذه الجملة في قوله : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ .

ولما وصى ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ صار هو في نفسه ممتثلاً للمعروف مزدجراً عن المنكر ، أمر به غيره وناهياً عنه غيره ، نهاه عن التكبر على الناس والإعجاب والمشي مرحاً ، وأخبره أنه تعالى لا يحب المختال ، وهو المتكبر ، ولا الفخور .

قال مجاهد : وهو الذي يعدد ما أعطي ، ولا يشكر الله .

ويدخل في الفخور : الفخر بالأنساب .

﴿ واقصد في مشيك واغضض من صوتك ﴾ : ولما نهاه عن الخلق الذميم ، أمره بالخلق الكريم ، وهو القصد في المشي ، بحيث لا يبطىء ، كما يفعل المتنامسون والمتعاجبون ، يتباطؤون في نقل خطواتهم المتنامسين للرياء والمتعاجب للترفع ، ولا يسرع ، كما يفعل الخرق المتهور .

ونظر أبو جعفر المنصور إلى أبي عمرو بن عبيد فقال : كلكم يمشي رويداً ، كلكم يطلب

صيداً ، غير عمرو بن عبيد .

وقال ابن مسعود : كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ، ولكن مشياً بين ذلك .

وقيل : معناه : اجعل بصرك موضع قدمك .

وقرىء : وأقصد ، بهمزة القطع : أي سدد في مشيك ؛ من أقصده الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية ، ونسبها ابن خالويه للحجاز .

والغض من الصوت : التنقيص من رفعه وجهارته ، والغض : رد طموح الشيء ، كالصوت والنظر والزمام .

وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت ، وتمدح به في الجاهلية ، ومنه قول الشاعر :

جهير الكلام جهير العطاس . . .

جهير الرواء جهير النعيم

ويخطو على الأين خطو الظليم . . .

ويعلو الرجال بخلق عميم

وغض الصوت أوفر للمتكلم ، وأبسط لنفس السامع وفهمه .

(66/608)

وأنكر : أفعل ، إن بنى من فعل المفعول ، كقولهم : أشغل من ذات النحيين ؛ وبناؤه من ذلك شاذ .

والأصوات : أصوات الحيوان كلها .

وأنكر جماعة للمذام اللاحقة للأصوات ، والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة .

شبه الرافعون أصواتهم بالحمير ، وأصواتهم بالنهاق ، ولم يؤت بأداة التشبيه ، بل أخرج مخرج الاستعارة ، وهذه أقصى مبالغة في الذم والتنفير عن رفع الصوت .

ولما كان صوت الحمير متماثلاً في نفسه ، لا يكاد يختلف في الفظاعة ، أفرد لأنه في الأصل مصدر .

وأما أصوات الحمير فغير مختلفة جداً ، جمعت في قوله : ﴿ إن أنكر الأصوات ﴾ ، فالمعنى : أنكر أصوات الحمير ، بالجمع بغير لام .

وقال الحسن : كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات ، فرد عليهم بأنه لو كان خيراً ، فضل به الحمير .

والظاهر أن قوله : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ من كلام لقمان لابنه ، تنفيراً له عن رفع الصوت ، ومماثلة الحمير في ذلك .

قيل : هو من كلام الله تعالى ، وفرغت وصية لقمان في قوله : ﴿ واغضض من صوتك ﴾ رداً لله به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ، ورفع الصوت يؤذي السامع

ويقرع الصماخ بقوة ، وربما يخرج الغشاء الذي هو داخل الأذن .

وقيل : ﴿ واقصد في مشيك ﴾ : إشارة الى الأفعال ، ﴿ واغضض من صوتك ﴾ : إشارة إلى الأقوال ، فنبه على التوسط في الأفعال ، وعلى الإقلال من فضول الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(67/608)

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالى ﴿ يَا بَنِى ﴾ الخ

شروعٌ في حكايةِ بقيةِ وصايا لقمانَ إثرَ تقريرِ ما في مطلعِها من النَّهيِ عن الشّركِ وتأكيدِهِ بالاعتراضِ ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي إنَّ الخصلةَ من الإساءةِ أو الإحسانِ إنْ تكُ مثلاً في الصّغرِ كحَبَّةِ الخردلِ ، وقُرِىء برفعِ مثقال على أنَّ الضَّميرَ للقصَّةِ وكانَ تامَّةٌ . والتَّأنيثُ لإضافةِ المثقالِ إلى الحبَّةِ كما في قولِ مَن قالَ :

(68/608)

كَما شرِقتْ صدرُ القناةِ من الدَّمِ . . . أو لأنَّ المرادَ به الحسنةُ أو السيِّئةُ ﴿ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السموات أَوْ فِى الأرض ﴾ أي فتكُن مع كونِها في أقصى غاياتِ الصِّغرِ والقَماءةِ في أخفى مكانٍ وأحرزه كجوفِ الصَّخرةِ أو حيثُ كانتْ في العالمِ العُلويِّ أو السُّفليِّ ﴿ يَأْتِ بِهَا الله ﴾ أي يُحضرها ويُحاسبُ عليها ﴿ إِنَّ الله لَطِيفٌ ﴾ يصلُ علمُه إلى كلِّ حفيَ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بكُنهِه وبَعْدَ ما أمرَهُ بالتَّوحيدِ الذي هُو أولُ ما يجبُ على الإنسانِ في ضمنِ النَّهي عن الشِّركِ ونبَّهه على كمالِ علمِ الله تعالى وقدرتِه أمرَه بالصَّلاة التي هي أكملُ العباداتِ تكميلاً له من حيثُ العملُ بعد تكميلِه من حيثُ الاعتقادُ فقال مستميلاً له ﴿ يَا بَنِىَّ أَقِمِ الصلاة ﴾ تكميلاً لنفسِك ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر ﴾ تكميلاً لغيرِك ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ ﴾ من الشَّدائدِ والمحنِ لا سيَّما فيما أُمرت به ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى كلِّ ما ذُكر ، وما فيهِ من معنى البُعد مع قُرب العهدِ بالمشارِ إليه لما مرَّ مراراً من الإشعارِ ببُعدِ منزلتِه في الفضل ﴿ مِنْ عَزْمِ الامور ﴾ أي ممَّا عزمَهُ الله تعالى وقطَعه على عبادِه من الأمورِ لمزيدِ مزيَّتِها ، مصدرٌ أُطلق على المفعول ، وقد جُوِّز أنْ يكونَ بمعنى الفاعلِ من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أي جدَّ والجملةُ تعليلٌ لوجوبِ الامتثالِ بما سبقَ من الأمرِ والنَّهي وإيذانٌ بأنَّ ما بعدها ليس بمثابتِه .

(69/608)

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي تُمِله ولا تُوَلِّهم صفحة وجهك كما هو ديدنُ المتكبرينَ . من الصَّعرِ وهو الصَّيَدُ وهو داءٌ يصيبُ البعيرَ فيلوى منه عنقَهُ . وقُرِىء ولا تُصاعرْ . وقُرِىء ولا تَصْعِرْ من الإفعالِ والكلُّ بمعنى مثل عَلاَهُ وعَالاَهُ وأعَلاَهُ ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ أي فَرَحاً مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ أو مصدرُ مؤكّدٌ لفعلٍ هو الحالُ أي تمرحُ مَرَحاً أو لأجلِ المرحِ والبَطَرِ . ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ تعليلٌ للنَّهي أو موجبه ، وتأخيرُ الفخورِ مع كونِه بمقابلةِ المصعّرِ خدَّه عن المختالِ وهو بمقابلةِ الماشِي مَرَحا رعايةً للفواصلِ . ﴿ واقصد فِى مَشْيِكَ ﴾ بعد الاجتنابِ عن المَرَحِ فيه أي توسَّطْ بين الدبيبِ والإسراعِ وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " سرعةُ المشيِ تُذهِبُ بهاءَ المُؤمنِ " وقولُ عائشةَ في عمرَ رضي الله عنهما : (كانَ إذا مشَى أسرعَ) فالمرادُ به ما فوقَ دبيبِ المتماوتِ . وقُرِىء بقطعِ الهمزةِ من أقصَدَ الرَّامِي إذا سدَّدَ سهمَه نحوَ الرَّميةِ . ﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ وانقُص منه واقصُر ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الاصوات ﴾ أي أوحشَها ﴿ لَصَوْتُ الحمير ﴾ تعليلٌ للأمرِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه مبنيٌّ على تشبيهِ الرَّافعينَ أصواتَهم بالحميرِ ، وتمثيلِ أصواتِهم بالنُّهاقِ وإفراطٌ في التَّحذيرِ عن رفعِ الصَّوتِ والتَّنفيرِ عنه ، وإفرادُ الصَّوتِ مع إضافتِه إلى الجمعِ لما أنَّ المرادَ ليس بيانَ حالِ صوتِ كلِّ واحدٍ من آحادِ هذا

الجنسِ حتى يُجمعَ بل بيانَ حالِ صوتِ هذا الجنسِ من بينِ أصواتِ سائرِ الأجناسِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(70/608)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ الخ

رجوع إلى القصة بذكر بقية ما أريد حكايته من وصايا لقمان أثر تقرير ما في مطلعه من النهي عن الشرك وتأكيده بالاعتراض ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي الخصلة من الإساءة والإحسان لفهمها من السياق .

وقيل : وهو كما ترى أنها أي التي سألت عنها ، فقد روى أن لقمان سأله ابنه أرأيت الحبة تقع في مغاص البحر أيعلمها الله تعالى فقال يا بني إنها أي التي سألت عنها ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي إن تكن مثلاً في الصغر كحبة الخردل والمقال ما يقدر به غيره لتساوي ثقلهما وهو في العرف معلوم .

وقرأ نافع .

والأعرج .

وأبو جعفر ﴿ مِثْقَالَ ﴾ بالرفع على أن الضمير للقصة و ﴿ تَكُ ﴾ مضارع كان التامة والتأنيث لإضافة الفاعل إلى المؤنث كما في قول الأعشى :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته . . .

كما شرقت صدر القناة من الدم

أو لتأويله بالزنة أو الحسنة والسيئة ﴿ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السموات أَوْ فِى الأرض ﴾ أي فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر والقماءة في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ، وقيل : في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو أعلاه كمحدب السماوات أو أسفله كمقعر الأرض ، ولا يخفى أنه لا دلالة في النظم على تخصيص المحدب والمقعر ولعل المقام يقتضيه إذ المقصود المبالغة .

(71/608)

وفي قوله تعالى : ﴿ فِي السموات ﴾ لا يأبى ذلك لأنها ذكرت بحسب المكانية أو للمشاكلة أو هي بمعنى علي ، وعبر بها للدلالة على التمكن ومع هذا الظاهر ما تقدم ، وفي "البحر" أنه بدأ بما يتعقله السامع أولاً وهو كينونة الشيء في صخرة وهو ما صلب من الحجر وعسر الإخراج منه ثم أتبعه بالعالم العلوي وهو أغرب للسامع ثم أتبعه بما يكون مقر الأشياء

للشاهد وهو الأرض ، وقيل : إن خفاء الشيء وصعوبة نيله بطرق بغاية صغره وبعده عن الرائي وبكونه في ظلمة وباحتجابه فمثقال حبة من خردل إشارة إلى غاية الصغر ، و ﴿ فِى صَخْرَةٍ ﴾ إشارة إلى الحجاب و ﴿ فِي السموات ﴾ إشارة إلى البعد و ﴿ فِى الأرض ﴾ إشارة إلى الظلمة فإن جوف الأرض أشد الأماكن ظلمة وأياً ما كان فليس المراد بصخرة صخرة معينة ، وعن ابن عباس .

والسدي أن هذه الصخرة هي التي عليها الأرض ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن الأرض على نون والنون على بحر والبحر على صخرة خضراء خضرة الماء منها والصخرة على قرن ثور وذلك الثور على الثرى ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى .

وفسر بعضهم الصخرة بهذه الصخرة ، وقيل : هي صخرة في الريح ، قال ابن عطية : وكل ذلك ضعيف لا يثبت سنده وإنما معنى الكلام المبالغة والانتهاء في التفهيم أي إن قدرته عز وجل تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء وما يكون في الأرض اه ، والأقوى عندي وضع هذه الأخبار ونحوها فليست الأرض إلا في حجر الماء وليس الماء إلا في جوف الهواء وينتهي الأمر إلى عرش الرحمن جل وعلا والكل في كف قدرة الله عز وجل .

وقرأ عبد الرحيم الجزري ﴿ فَتَكُنْ ﴾ بكسر الكاف وشد النون وفتحها ، وقرأ محمد بن أبي فجة البعلبكي ﴿ فَتَكُنْ ﴾ بضم التاء وفتح الكاف والنون مشددة ، وقرأ قتادة ﴿ فَتَكُنْ ﴾ بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون ورويت هذه القراءة عن الجزري أيضاً ، والفعل في جميع ما ذكر من وكن الطائر إذا استقر في وكنته أي عشه ففي الكلام استعارة أو مجاز مرسل كما في المشفر ، والضمير للمحدث عنه فيما سبق ، وجوز أن يكون للابن والمعنى إن تختف أو تخف وقت الحساب يحضرك الله تعالى ، ولا يخفى أنه غير ملائم للجواب أعني قوله تعالى : ﴿ يَأْتِ بِهَا الله ﴾ أي يحضرها فيحاسب عليها ، وهذا إما على ظاهره أو المراد يجعلها كالحاضر المشاهد لذكرها والاعتراف بها ﴿ إِنَّ الله لَطِيفٌ ﴾ يصل علمه تعالى إلى كل خفي ﴿ خَبِيرق ﴾ عالم بكنهه .

وعن قتادة لطيف باستخراجها خبير بمستقرها ، وقيل : ذو لطف بعباده فيلطف بالإتيان بها بأحد الخصمين خبير عالم بخفايا الأشياء وهو كما ترى ، والجملة علة مصححة للإتيان بها ، أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح اللخمي أنه لما وعظ لقمان ابنه وقال : ﴿ يا بنى إِنَّهَا إِن تَكُ ﴾ الآية أخذ حبة من خردل فأتى بها إلى اليرموك وهو واد في الشام فألقاها في عرضه ثم مكث ما شاء الله تعالى ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذباب حتى وضعها في راحته والله تعالى أعلم ، وبعد ما أمره بالتوحيد الذي هو أول ما يجب على المكلف في

ضمن النهي عن الشرك ونبهه على كمال علمه تعالى وقدرته عز وجل أمره بالصلاة التي هي أكمل العبادات تكميلاً من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلاً له : ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ تكميلاً لنفسك ، ويروى أنه قال له : يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء صلها واسترح منها فإنها دين ، وصل في جماعة ولو على رأس زج ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر ﴾ تكميلاً لغيرك والظاهر أنه ليس المراد معروفاً ومنكراً معينين .

(73/608)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أنه قال : وأمر بالمعروف يعني التوحيد وأنه عن المنكر يعني الشرك ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ ﴾ من الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واحتياج الأخيرين للصبر على ما ذكر ظاهر ، والأول لأن إتمام الصلاة والمحافظة عليها قد يشق ولذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] وقال ابن جبير : واصبر على ما أصابك في أمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول : إذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك في ذلك أذى وشدة فاصبر عليه ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي الصبر على ما أصابك عند ابن جبير ،

وهو يناسب إفراد اسم الإشارة وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته في الفضل ، أو الإشارة إلى الصبر وإلى سائر ما أمر به والإفراد للتأويل بما ذكر وأمر البعد على ما سمعت ﴿ مِنْ عَزْمِ الامور ﴾ أي مما عزمه الله تعالى وقطعه قطع إيجاب وروي ذلك عن ابن جريج ، والعزم بهذا المعنى مما ينسب إلى الله تعالى ومنه ما ورد من عزمات الله عز وجل ، والمراد به هنا المعزوم إطلاقاً للمصدر على المفعول ، والإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الأمور المعزومة .

وجوز أن يكون العزم بمعنى الفاعل أي عازم الأمور من عزم الأمر أي جد فعزم الأمور من باب الإسناد المجازي كمكر الليل لا من باب الإضافة على معنى في وإن صح ، وقيل : يريد من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة ، واستظهر أبو حيان أنه أراد من لازمات الأمور الواجبة ، ونقل عن بعضهم أن العزم هو الحزم بلغة هذيل ، والحزم والعزم أصلان ، وما قاله المبرد من أن العين قلبت حاء ليس بشيء لاطراد تصاريف كل من اللفظين فليس أحدهما أصلاً للآخر ، والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق وفيه اعتناء بشأنه .

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي لا تمله عنهم ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبرون قاله ابن عباس .

وجماعة وأنشدوا :

وكنا إذا الجبار صعر خده . . .

أقمنا له من ميله فتقوما

فهو من الصعر بمعنى الصيد وهو داء يعتري البعير فيلوي منه عنقه ويستعار للتكبر كالصعر ، وقال ابن خويزمنداد : نهى أن يذل نفسه من غير حاجة فيلوي عنقه ، ورجح الأول بأنه أوفق بما بعد ، ولام ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ تعليلية والمراد ولا تصعر خدك لأجل الإعراض عن الناس أو صلة .

وقرأ نافع وأبو عمرو .

وحمزة .

والكسائي ﴿ تصاعر ﴾ بألف بعد الصاد .

وقرأ الجحدري تصعر مضارع أصعر والكل واحد مثل علاه وعالاه وأعلاه .

﴿ مَسْؤُولاً وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرض ﴾ التي هي أحط الأماكن منزلة ﴿ مَرَحاً ﴾ أي فرحاً وبطراً ، مصدر وقع موقع الحال للمبالغة أو لتأويله بالوصف أو تمرح مرحاً على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة في موضع الحال أو لأجل المرح على أنه مفعول له ، وقرىء

مرحاً بكسر الراء على أنه وصف في موضع الحال ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ تعليل للنهي أو موجبه والمختال من الخيلاء وهو التبختر في المشي كبراً ، وقال الراغب : التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه ، ومنه تؤول لفظ الخيل لما قيل أنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه نخوة ، والفخور من الفخر وهو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ويدخل في ذلك تعداد الشخص ما أعطاه لظهور أنه مباها بالمال ، وعن مجاهد تفسير الفخور بمن يعدد ما أعطى ولا يشكر الله عز وجل ، وفي الآية عند الزمخشري لف ونشر معكوس حيث قال : المختال مقابل للماشي مرحاً وكذلك الفخور للمصعر خده كبراً وذلك لرعاية الفواصل على ما قيل ، ولا يأبى ذلك كون الوصية لم تكن باللسان العربي كما لا يخفى .

(75/608)

وجوز أن يكون هناك لف ونشر مرتب فإن الاختيال يناسب الكبر والعجب وكذا الفخر يناسب المشي مرحاً ، والكلام على رفع الإيجاب الكلي والمراد السلب الكلي ، وجوز أن يبقى على ظاهره ، وصيغة ﴿ فَخُورٌ ﴾ للفاصلة ولأن ما يكره من الفخر كثرته فإن القليل منه يكثر وقوعه فلطف الله تعالى بالعفو عنه وهذا كما لطف بإباحة اختيال المجاهد بين

الصفني وإباحة الفخر بنحو المال لمقصد حسن .

﴿ واقصد فِى مَشْيِكَ ﴾ بعد الاجتناب عن المرح فيه أي توسط فيه بين الدبيب والإسراع من القصد وهو الاعتدال ، وجاء في عدة روايات إلا أن في أكثرها مقالاً يخرجها عن صلاحية الاحتجاج بها كما لا يخفى على من راجع شرح الجامع الصغير للمناوي عن النبي صلى الله عليه وسلم " سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن " أي هيبته وجماله أي تورثه حقارة في أعين الناس ، وكأن ذلك لأنها تدل على الخفة وهذا أقرب من قول المناوي لأنها تتعب فتغير البدن والهيئة .

(76/608)

وقال ابن مسعود : كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشياً بين ذلك ، وما في النهاية من أن عائشة نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً فقالت : ما لهذا ؟ فقيل : إنه من القراء فقالت : كان عمر رضي الله تعالى عنه سيد القراء وكان إذا مشى أسرع وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع ، فالمراد بالإسراع فيه ما فوق دبيب المتماوت وهو الذي يخفي صوته ويقل حركاته مما يتزيا بزي العباد كأنه يتكلف في اتصافه بما يقربه من صفات الأموات ليوهم أنه ضعف من كثرة العبادة فلا ينافي الآية ، وكذا ما ورد في صفته صلى الله عليه

وسلم إذ يمشي كأنما ينحط من صبب وكذا لا ينافيها قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] إذ ليس الهون فيه المشي كدبيب النمل ، وذكر بعض الأفاضل أن المذموم اعتياد الإسراع بالإفراط فيه ، وقال السخاوي : محل ذم الإسراع ما لم يخش من بطء السير تفويت أمر ديني ، لكن أنت تعلم أن الإسراع المذهب للخشوع لإدراك الركعة مع الإمام مثلاً مما قالوا إنه مما لا ينبغي فلا تغفل ، وعن مجاهد أن القصد في المشي التواضع فيه ، وقيل : جعل البصر موضع القدم ، والمعول عليه ما تقدم .

وقرىء ﴿ واقصد ﴾ بقطع الهمزة ونسبها ابن خالويه للحجازي من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية ووجهه إليها ليصيبها أي سدد في مشيك والمراد أمش مشياً حسناً ، وكأنه أريد التوسط به بين المشيين السريع والبطىء فتتوافق القراءاتان ﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ أي انقص منه واقصر من قولك فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه وحط من درجته .

وفي "البحر" الغضرد طموح الشيء كالصوت والنظر ويستعمل متعدياً بنفسه كما في قوله :

فغض الطرف إنك من نمير . . .

ومتعدياً بمن كما هو ظاهر قول الجوهري غض من صوته .

والظاهر إن ما في الآية من الثاني ، وتكلف بعضهم جعل من فيها للتبعيض ، وادعى آخر كونها زائدة في الإثبات ، وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت وتمدح به في الجاهلية ومنه ، قول الشاعر :

جهير الكلام جهير العطاس . . .

جهير الرواء جهير النعم

ويخطو على العم خطو الظليم . . .

ويعلو الرجال بخلق عمم

والحكمة في غض الصوت المأمور به أنه أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الاصوات ﴾ أي أقبحها يقال وجه منكر أي قبيح قال في "البحر" : وهو أفعل بني من فعل المفعول كقولهم : أشغل من ذات النحيين وبناؤه من ذلك شاذ ، وقال بعض : أي أصعبها على السمع وأوحشها من نكر بالضم نكارة ومنه ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر : 6] أي أمر صعب لا يعرف ، والمراد بالأصوات أصوات الحيوانات أي إن أنكر أصوات الحيوانات ﴿ لَصَوْتُ الحمير ﴾ جمع حمار كما صرح به أهل اللغة ولم يخالف فيه غير السهيلي قال : أنه فعيل اسم جمع كالعبيد وقد يطلق على اسم الجمع الجمع عند اللغويين ، والجملة تعليل للأمر بالغض على أبلغ وجه وآكده حيث شبه الرافعون أصواتهمب

الحمير وهم مثل في الذم البليغ والتشمية ومثلت أصواتهم بالنهاق الذي أوله زفير وآخره شهيق ثم أخلي الكلام من لفظ التشبيه وأخرج مخرج الاستعارة ، وفي ذلك من المبالغة في الذم والتهجين والإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه ما فيه ، وإفراد الصوت مع جمع ما أضيف هو إليه للإشارة إلى قوة تشابه أصوات الحمير حتى كأنها صوت واحد هو أنكر الأصوات ، وقال الزمخشري أن ذلك لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس ، قيل : فعلى هذا كان المناسب لصوت الحمار بتوحيد المضاف إليه .

وأجيب بأن المقصود من الجمع التتميم والمبالغة في التنفير فإن الصوت إذا توافقت عليه الحمير كان أنكر .

(78/608)

وأورد عليه أنه يوهم أن الأنكرية في التوافق دون الانفراد وهو لا يناسب المقام ، وأجيب بأنه لا يلتفت إلى مثل هذا التوهم ، وقيل : لم يجمع الصوت المضاف لأنه مصدر وهو لا يثنى ولا يجمع ما لم تقصد الأنواع كما في ﴿ أَنكَرَ الاصوات ﴾ فتأمل ، والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الاصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ من كلام لقمان لابنه تنفيراً له عن رفع الصوت ،

وقيل : هو من كلام الله تعالى وانتهت وصية لقمان بقوله : ﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ رد سبحانه به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورفعه مع أن ذلك يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذي هو داخل الأذن وبين عز وجل أن مثلهم في رفع أصواتهم مثل الحمير وأن مثل أصواتهم التي يرفعونها مثل نهاقها في الشدة مع القبح الموحش وهذا الذي يليق أن يجعل وجه شبه لا الخلو عن ذكر الله تعالى كما يتوهم بناءً على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري قال : صياح كل شيء تسبيحه إلا لحماء لما أن وجه الشبه ينبغي أن يكون صفة ظاهرة وخلو صوت الحمار عن الذكر ليس كذلك ، على أنا لا نسلم صحة هذا الخبر فإن فيه ما فيه ، ومثله ما شاع بين الجهلة من أن نهيق الحمار لعن للشيعة الذين لا يزالون ينهقون بسب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومثل هذا من الخرافات التي يمجها السمع ما عدا سمع طويل الأذنين ، والظاهر أن المراد بالغض من الصوت الغض منه عند التكلم والمحاورة ، وقيل : الغض من الصوت مطلقاً فيشمل الغض منه عند العطاس فلا ينبغي أن يرفع صوته عنده إن أمكنه عدم الرفع ، وروي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ما يقتضيه ثم أن الغض ممدوح أن لم يدع داع شرعي إلى خلافه ، وأردف الأمر بالقصد في المشي بالأمر بالغض من الصوت لما أنه كثيراً ما يتوصل إلى المطلوب بالصوت بعد العجز عن التوصل إليه بالمشي كذا قيل ، هذا وأبعد بعضهم في الكلام على هذين الأمرين فقال : إن الأول إشارة إلى

(79/608)

التوسط في الأفعال والثاني إشارة إلى الاحتراز من فضول الكلام والتوسط في الأقوال ، وجعل قوله تعالى : ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ [لقمان : 61] الخ إشارة إلى إصلاح الضمير وهو كما ترى .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ لَصَوْتُ الحمير ﴾ بالجمع بغير لام التأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(80/608)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾

اختلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي ؟ مشتق من اللقم ، فمن قال : إنه عجمي ، منعه للتعريف والعجمة ، ومن قال : إنه عربي منعه للتعريف ، ولزيادة الألف والنون .

واختلفوا أيضاً هو نبيّ أم رجل صالح ؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبيّ .

وحكى الواحدي عن عكرمة والسدي والشعبي : أنه كان نبياً ، والأوّل أرجح لما سيأتي في آخر البحث .

وقيل : لم يقل بنبوّته إلا عكرمة فقط ، مع أن الراوي لذلك عنه جابر الجعفي وهو ضعيف جدّاً .

وهو لقمان بن باعورا بن ناحور بن تارخ ، وهو آزر أبو إبراهيم ، وقيل : هو لقمان بن عنقا بن مرون ، وكان نوبياً من أهل أيلة ذكره السهيلي .

قال وهب : هو ابن أخت أيوب .

وقال مقاتل : هو : ابن خالته ، عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود ، فلما بعث داود قطع الفتوى ، فقيل له ، فقال : ألا أكتفي إذ كفيت ؟ قال الواقدي : كان قاضياً في بني إسرائيل ، والحكمة التي آتاه الله هي : الفقه والعقل والإصابة في القول ، وفسر الحكمة من قال : بنبوّته بالنبوّة ﴿ أَنِ اشكرلي ﴾ : " أن " هي المفسرة ؛ لأن في إيتاء الحكمة معنى القول .

وقيل : التقدير قلنا له : أن اشكر لي .

وقال الزجاج : المعنى : ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن أشكر لي .

وقيل : بأن أشكر لي فشكر فكان حكيماً بشكره ، والشكر لله الثناء عليه في مقابلة النعمة وطاعته فيما أمر به .

ثم بين سبحانه : أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر ، فقال : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه وفائدته حاصلة له ؛ إذ به تستبقى النعمة وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي من جعل كفر النعم مكان شكرها ، فإن الله غنيّ عن شكره غير محتاج إليه ، حميد مستحق للحمد من خلقه ؛ لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها ، ولا يحصر عددها ، وإن لم يحمده أحد من خلقه ، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال .

قال يحيى بن سلام : غنيّ عن خلقه حميد في فعله .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴾ قال السهيلي : اسم ابنه ثاران في قول ابن جرير والقتيبي .

وقال الكلبي : مشكم .

وقال النقاش : أنعم .

وقيل : ماتان .

قال القشيري : كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما ، وهذه الجملة معطوفة على ما تقدّم ، والتقدير : آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه ، وحين جعلناه

واعظاً لغيره .

قال الزجاج : " إذ " في موضع نصب ب ﴿ آتينا ﴾ .

والمعنى : ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال .

قال النحاس : وأحسبه غلطاً لأن في الكلام واواً ، وهي تمنع من ذلك ، ومعنى ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ : يخاطبه بالمواعظ التي ترغبه في التوحيد ، وتصدّه عن الشرك ﴿ يا بني لاَ تُشْرِكْ بالله ﴾ قرأ الجمهور بكسر الياء .

وقرأ ابن كثير بإسكانها .

وقرأ حفص بفتحها ، ونهيه عن الشرك يدلّ على أنه كان كافراً كما تقدّم ، وجملة : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليل لما قبلها ، وبدأ في وعظه بنهيه عن الشرك لأنه أهمّ من غيره .

وقد اختلف في هذه الجملة ، فقيل : هي من كلام لقمان .

وقيل : هي من كلام الله ، فتكون منقطعة عما قبلها ، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح أنها لما نزلت ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82] شق ذلك على الصحابة ، وقالوا : أينا لم يظلم نفسه .

فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فطابت أنفسهم .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه ﴾ هذه التوصية بالوالدين وما بعدها إلى قوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ اعتراض بين كلام لقمان لقصد التأكيد لما فيها من النهي عن الشرك بالله ، وتفسير التوصية هي قوله : ﴿ أَنِ اشكر لي ولوالديك ﴾ ، وما بينهما اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر ، وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد ، وأكبرها وأشدّها وجوباً ، ومعنى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ أنها حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، وقيل : المعنى : إن المرأة ضعيفة الخلقة ، ثم يضعفها الحمل .

وانتصاب ﴿ وهناً ﴾ على المصدر .

وقال النحاس : على أنه مفعول ثان بإسقاط الحرف ، أي حملته بضعف على ضعف ،

وقال الزجاج : المعنى : لزمها بحملها إياه أن تضعف ، مرّة بعد مرة .

وقيل : انتصابه على الحال من أمه ، و ﴿ على وهن ﴾ صفة ل ﴿ وهناً ﴾ أي : وهناً كائناً على وهن .

قرأ الجمهور بسكون الهاء في الموضعين .

وقرأ عيسى الثقفي وهي رواية عن أبي عمرو بفتحهما وهما لغتان .

قال قعنب :

هل للعواذل من ناه فيزجرها . . . إن العواذل فيها الأين والوهن

﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ الفصال : الفطام ، وهو أن يفصل الولد عن الأم ، وهو مبتدأ وخبره الظرف .

وقرأ الجحدري ، وقتادة وأبو رجاء ، والحسن ويعقوب : " وفصله " وهما لغتان ، يقال : انفصل عن كذا ، أي تميز ، وبه سمي الفصيل .

وقد قدّمنا أن أمة في قوله : ﴿ أَنِ اشكر لي ولوالديك ﴾ هي المفسرة .

وقال الزجاج : هي مصدرية .

والمعنى : بأن اشكر لي .

قال النحاس : وأجود منه أن تكون " أن " مفسرة ، وجملة : ﴿ إِلَيَّ المصير ﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر ، أي الرجوع إليّ لا إلى غيري .

(83/608)

﴿ وَإِن جاهداك على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي ما لا علم لك بشركته ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك .

وقد قدّمنا تفسير الآية ، وسبب نزولها في سورة العنكبوت ، وانتصاب ﴿ مَّعْرُوفاً ﴾

على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي وصاحبهما صحاباً معروفاً .

وقيل : هو منصوب بنزع الخافض ، والتقدير : بمعروف ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ أي اتبع سبيل من رجع إليّ من عبادي الصالحين بالتوبة والإخلاص ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ جميعاً لا إلى غيري ﴿ فَأُنَبِّئُكُم ﴾ أي أخبركم عند رجوعكم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشرّ فأجازي كلّ عامل بعمله .

وقد قيل : إن هذا السياق من قوله : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ إلى هنا من كلام لقمان فلا يكون اعتراضاً وفيه بعد .

ثم شرع سبحانه في حكاية بقية كلام لقمان في وعظه لابنه فقال : ﴿ يا بنى إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ الضمير في ﴿ إنها ﴾ عائد إلى الخطيئة ، لما روي : أن ابن لقمان قال لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد هل يعلمها الله ؟ فقال : إنها ، أي الخطيئة ، والجملة الشرطية مفسرة للضمير ، أي إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل .

قال الزجاج : التقدير : إن التي سألتني عنها إن تك مثقال حبة من خردل ، وعبر بالخردلة ؛ لأنها أصغر الحبوب ، ولا يدرك بالحسّ ثقلها ولا ترجح ميزاناً .

(84/608)

وقيل : إن الضمير في : ﴿ إنها ﴾ راجع إلى الخصلة من الإساءة والإحسان ، أي إن الخصلة من الإساءة والإحسان إن تك مثقال حبة إلخ ، ثم زاد في بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ فإن كونها في الصخرة قد صارت في أخفى مكان وأحرزه ﴿ أَوْ فِي السموات أَوْ فِي الأرض ﴾ أي أو حيث كانت من بقاع السماوات ، أو من بقاع الأرض ﴿ يَأْتِ بِهَا الله ﴾ أي يحضرها ، ويحاسب فاعلها عليها ﴿ إِنَّ الله لَطِيفٌ ﴾ لا تخفى عليه خافية ، بل يصل علمه إلى كل خفيّ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بكل شيء لا يغيب عنه شيء .

قرأ الجمهور : ﴿ إن تك ﴾ بالفوقية على معنى إن تك الخطيئة أو المسألة ، أو الخصلة أو القصة .

وقرءوا : ﴿ مثقال ﴾ بالنصب على أنه خبر كان ، واسمها هو أحد تلك المقدرات .

وقرأ نافع برفع : " مثقال " على أنه اسم كان وهي تامة .

وأنث الفعل في هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث .

وقرأ الجمهور : ﴿ فتكن ﴾ بضم الكاف .

وقرأ الجحدري بكسرها وتشديد النون .

من الكنّ الذي هو الشيء المغطى .

قال السدّي : هذه الصخرة هي صخرة ليست في السماوات ، ولا في الأرض .

ثم حكى سبحانه عن لقمان : أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصيبة .

ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات وعماد الخير كله ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ إلى الطاعات المذكورة ، وخبر " إنّ " قوله : ﴿ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ أي مما جعله الله عزيمة وأوجبه على عباده .

وقيل : المعنى : من حق الأمور التي أمر الله بها .

والعزم يجوز أن يكون بمعنى : المعزوم ، أي من معزومات الأمور أو بمعنى العازم كقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ [محمد : 21] قال المبرد : إن العين تبدل حاء .

فيقال : عزم وحزم .

قال ابن جرير : ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق ، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة ، وصوّب هذا القرطبي .

(85/608)

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تصعّر ﴾ ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم : " تصاعر " والمعنى متقارب .

والصعر : الميل ، يقال : صعر خدّه وصاعر خدّه : إذا أمال وجهه ، وأعرض تكبراً .

والمعنى : لا تعرض عن الناس تكبراً عليهم ، ومنه قول الشاعر :

وكنا إذا الجبار صعر خدّه . . . مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ورواه ابن جرير هكذا :

وكنا إذا الجبار صعر خدّه . . . أقمنا له من ميله فتقوّما

قال الهروي : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي لا تعرض عنهم تكبراً ، يقال : أصاب البعير صعر : إذا أصابه داء يلوي عنقه .

وقيل : المعنى : ولا تلو شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره .

وقال ابن خويز منداد : كأنه نهى أن يذلّ الإنسان نفسه من غير حاجة ، ولعله فهم من التصعير التذلل ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي : خيلاء وفرحاً ، والمعنى : النهي عن التكبر والتجبر ، والمختال يمرح في مشيه ، وهو مصدر في موضع الحال ، وقد تقدّم تحقيقه ، وجملة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ تعليل للنهي لأن الاختيال هو المرح ، والفخور هو الذي يفتخر على الناس بما له من المال أو الشرف أو القوّة أو غير ذلك ، وليس منه التحدّث بنعم الله ، فإن الله يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : 11] .

﴿ واقصد فِي مَشْيِكَ ﴾ أي توسط فيه ، والقصد ما بين الإسراع والبطء ، يقال : قصد

فلان في مشيته : إذا مشى مستوياً لا يدبّ دبيب المتماوتين ، ولا يثب وثوب الشياطين .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى أسرع ، فلا بدّ أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحدّ في السرعة .

وقال مقاتل : معناه : لا تختل في مشيتك .

وقال عطاء : امش بالوقار ، والسكينة .

(86/608)

كقوله : ﴿ يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] ﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ أي انقص منه ، واخفضه ولا تتكلف رفعه ، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع ، وجملة ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ تعليل للأمر بالغضّ من الصوت ، أي أوحشها ، وأقبحها .

قال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ؛ أوّله زفير وآخره شهيق .

قال المبرد : تأويله : إن الجهر بالصوت ليس بمحمود ، وإنه داخل في باب الصوت المنكر .

واللام في ﴿ لصوت ﴾ للتأكيد ، ووحد الصوت مع كونه مضافاً إلى الجمع لأنه مصدر ، وهو يدلّ على الكثرة ، وهو مصدر صات يصوت صوتاً فهو صائت .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : كان حبشياً "

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً .

وأخرج الطبراني ، وابن حبان في الضعفاء ، وابن عساكر عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن " قال الطبراني : أراد الحبشة .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ يعني : العقل والفهم والفطنة في غير نبوّة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه كان نبياً ، وقد قدّمنا أن الراوي عنه جابر الجعفي ، وهو ضعيف جداً .

(87/608)

وأخرج أحمد والحكيم والترمذي ، والحاكم في الكنى ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً

حفظه " وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه ، ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله .

وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع ، وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز وقطيعة للوقت ، ولم يكن نبياً حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا ، ولا صحّ إسناد ما روي عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التي هي ضالة المؤمن .

وأخرج أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي : أن سعد بن أبي وقاص قال : أنزلت فيّ هذه الآية : ﴿ وَإِن جاهداك على أَن تُشْرِكَ بِي ﴾ ، وقد تقدّم ذكر هذا .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ قال : شدّة بعد شدّة ، وخلقاً بعد خلق .

وأخرج الطبراني وابن عديّ وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله : ﴿ وَلاَ تُصَعّرْ خَدّكَ لِلنّاسِ ﴾ ، فقال : " ليّ الشدق " وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ تُصَعّرْ خَدّكَ لِلنّاسِ ﴾

قال : لا تتكبر ، فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم إذا كلموك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(88/608)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾

تكرير النداء لتجديد نشاط السامع لوعي الكلام .

وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿ إن تَكُ مثقالُ ﴾ برفع ﴿ مثقالُ ﴾ على أنه فاعل ﴿ تَكُ مِن (كان) التامة .

وإنما جيء بفعله بتاء المضارعة للمؤنثة ، وأعيد عليه الضمير في قوله بها ﴾ مؤنثاً مع أن ﴿ مثقال لفظ غير مؤنث لأنه أضيف إلى حبة ﴾ فاكتسب التأنيث من المضاف إليه ، وهو استعمال كثير إذا كان المضاف لو حذف لما اختل الكلام بحيث يستغنى بالمضاف إليه عن المضاف ، وعليه فضمير ﴿ إنها ﴾ للقصة والحادثة وهو المسمى بضمير الشأن ، وهو يقع بصورة ضمير المفردة المؤنثة بتأويل القصة ، ويختار تأنيث هذا الضمير إذا كان في

القصة لفظ مؤنث كما في قوله تعالى ﴿ فإنها لا تَعْمَى الأبصار ﴾ [الحج : 46] ، ويكثر وقوع ضمير الشأن بعد (إنَّ) كقوله تعالى ﴿ إنه مَن يأتِ ربه مجرماً فإنَّ له جَهَنم لا يَمُوت فيها ولا يَحْيى ﴾ [طه : 74] ، ومن ذلك تقدير ضمير الشأن اسماً لحرف (أنَّ) المفتوحة المخففة ، وهو يفيد الاهتمام بإقبال المخاطب على ما يأتي بعده ، فاجتمع في هذه الجملة ثلاثة مؤكدات : النداء ، وإنَّ ، وضمير القصة ، لعظم خطر ما بعده المفيد تقرير وصفه تعالى بالعلم المحيط بجميع المعلومات من الكائنات ، ووصفه بالقدرة المحيطة بجميع الممكنات بقرينة قوله ﴿ يأت بها الله .

﴾

وقد أفيد ذلك بطريق دلالة الفحوى ؛ فذُكر أدقُّ الكائنات حالاً من حيث تعلق العلم والقدرة به ، وذلك أدق الأجسام المختفي في أصْلَب مكان أو أقصاه وأعزِّه منالاً ، أو أوسعه وأشده انتشاراً ، ليعلم أن ما هو أقوى منه في الظهور والدّنو من التناول أولى بأن يحيط به علم الله وقدرته .

وقرأه الباقون بنصب ﴿ مثقالَ ﴾ على الخبرية ل ﴿ تكُ ﴾ مِن (كان) الناقصة ، وتقدير اسم لها يدل عليه المقام مع كون الفعل مسنداً لمؤنث ، أي إن تك الكائنة ، فضمير ﴿ إنها ﴾ مراد منه الخصلة من حسنة أو سيئة أخذاً من المقام .

والمثقال بكسر الميم : ما يقدر به الثقل ولذلك صيغ على زنة اسم الآلة .

والحبة : واحدة الحَبّ وهو بذر النبات من سنابل أو قطنية بحيث تكون تلك الواحدة زريعة لنوعها من النبات ، وقد تقدم في سورة البقرة (261) قوله ﴿ كَمَثَل حَبَّة أنبتَتْ سَبْع سَنَابل ﴾ وقوله ﴿ إنَّ الله فَالِق الحَب والنَّوى ﴾ في سورة الأنعام (95) .

والخردل : نبت له جذر وساق قائمة متفرعة إسطوانية أوراقها كبيرة يُخرج أزهاراً صغيرة صُفْراً سنبلية تتحول إلى قرون دقيقة مربعة الزوايا تخرج بزوراً دقيقة تسمى الخردل أيضاً ، ولبّ تلك البزور شديد الحرارة يلدغ اللسان والجلد ، وهي سريعة التفتق ينفتق عنها قشرها بدقّ أو إذا بلت بمائع ، فتستعمل في الأدوية ضمَّادات على المواضع التي فيها التهاب داخلي من نزلة أو ذات جنْب وهو كثير الاستعمال في الطب قديماً وحديثاً .

وقد أخذ الأطباء يستغنون عنه بعقاقير أخرى .

وتقدم نظير هذا في سورة الأنبياء (47)

﴿ فلا تُظْلَم نفس شيئاً وإن كان مثقالُ حَبة من خردل أتينَا بها ﴾ وقوله ﴿ أو في السموات ﴾ عطف على ﴿ في صخرة ﴾ لأن الصخرة من أجزاء الأرض فذكر بعدها

﴿ أو في السماوات ﴾ على معنى : أو كانت في أعزّ مَنَالاً من الصخرة ، وعطف عليه ﴿ أو في الأرض ﴾ وإنما الصخرة جزء من الأرض لقصد تعميم الأمكنة الأرضية فإن الظرفية تصدق بهما ، أي : ذلك كله سواء في جانب علم الله وقدرته ، كأنه قال : فتكن في صخرة أو حيث كانت من العالم العلوي والعالم السفلي وهو معنى قوله ﴿ وما يعزب عن ربك مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس : 61] .

(90/608)

والإتيان كناية عن التمكن منها ، وهو أيضاً كناية رمْزيَّة عن العلم بها لأن الإتيان بأدق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لا يكون إلا عن علم بكونها في ذلك المكان وعلم بوسائل استخراجها منه .

وجملة ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ يجوز أن تكون من كلام لقمان فهي كالمقصد من المقدمة أو كالنتيجة من الدليل ، ولذلك فصلت ولم تعطف لأن النتيجة كبدل الاشتمال يشتمل عليها القياس ولذلك جيء بالنتيجة كلية بعد الاستدلال بجزئية .

وإنما لم نجعلها تعليلاً لأن مقام تعليم لقمان ابنه يقتضي أن الابن جاهل بهذه الحقائق ، وشرط

التعليل أن يكون مسلَّماً معلوماً قبل العلم بالمعلَّل ليصح الاستدلال به .

ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان تعليماً من الله للمسلمين .

واللطيف : مَن يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق ، فهو وصف مؤذن بالعلم والقُدرة الكاملين ، أي يعلم ويقدر وينفذ قدرته ، وتقدم في قوله ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ في سورة الأنعام (103) .

ففي تعقيب ﴿ يأت بها الله ﴾ بوصفه بـ (اللطيف) إيماء إلى أن التمكن منها وامتلاكها بكيفية دقيقة تناسب فلق الصخرة واستخراج الخردلة منها مع سلامتهما وسلامة ما اتصل بهما من اختلال نظام صُنعه .

وهنا قد استوفى أصول الاعتقاد الصحيح .

وجملة ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ [لقمان : 16] يجوز أن تكون من كلام لقمان وأن تكون معترضة من كلام الله تعالى .

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17)

انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة ، والصلاة التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين

بها لقمان ، والصلاة عِماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح .

(91/608)

وإقامة الصلاة إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها .

وتقدم في أول سورة البقرة .

وشمل الأمرُ بالمعروف الإتيانَ بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال ليتطلَّب بيانه في تضاعيف وصايا أبيه كما شمل النهيُ عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة كذلك .

والأمر بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي إتيان الآمر وانتهاءه في نفسه لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر ، ومصالح ومفاسد ، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناسَ ونهيه إياهم .

فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى ، إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخيرَ وبثِّه في الناس وكفه عن الشر وزجره الناس عن ارتكابه ، ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه .

ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يَجران للقائم بهما معاداةً من بعض الناس أو أذى من بعض فإذا لم يصبر على

ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شك أن يتركهما .

ولما كانت فائدة الصبر عائدة على الصابر بالأجر العظيم عُدَّ الصبر هنا في عداد الأعمال القاصرة على صاحبها ولم يلتفت إلى ما في تحمل أذى الناس من حسن المعاملة معهم حتى يذكر الصبر مع قوله ﴿ ولا تصاعر خَدّك للناس ﴾ [لقمان : 18] لأن ذلك ليس هو المقصود الأول من الأمر بالصبر .

والصبر : هو تحمل ما يحل بالمرء مما يؤلم أو يحزن .

وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ في سورة البقرة (45) .

وجملة إن ذلك من عزم الأمور ﴾ موقعها كموقع جملة ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى المذكور من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصاب .

والتأكيد للاهتمام .

والعزم مصدر بمعنى : الجزم والإلزام .

والعزيمة : الإرادة التي لا تردد فيها .

و ﴿ عزم ﴾ مصدر بمعنى المفعول ، أي من معزوم الأمور ، أي التي عزمها الله وأوجبها .

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18)

انتقل لقمان بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن احتقار الناس وعن التفخر عليهم ، وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس وعدّ نفسه كواحد منهم .

وقرأ الجمهور ﴿ ولا تُصاعر .

﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب ﴿ ولا تصعِّر .

﴾ يقال : صَاعَر وصَعَّر ، إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر ، وهو مشتق من الصَعَر بالتحريك لِداء يصيبُ البعير فيلوي منه عنقه فكأنه صيغ له صيغة تكلف بمعنى تكلف إظهار الصعَر وهو تمثيل للاحتقار لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال .

قال عمرو بن حُنَي التغلبي يخاطب بعض ملوكهم:

وكُنّا إذا الجبّار صَعَّر خدَّه . . .

أقمنا له من ميله فتقوَّمِ

والمعنى : لا تحتقر الناس فالنهي عن الإعراض عنهم احتقاراً لهم لا عن خصوص مصاعرة الخد فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك فهو قريب من قوله تعالى ﴿ فلا تقل لهما

أُفَ ﴾ [الإسراء : 23] إلا أن هذا تمثيل كنائي والآخر كناية لا تمثيل فيها .

وكذلك قوله ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ تمثيل كنائي عن النهي عن التكبر والتفاخر لا عن خصوص المشي في حال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره .

والمَرح : فرْط النشاط من فَرح وازدهاء ، ويظهر ذلك في المشي تبختراً واختيالاً فلذلك يسمى ذلك المشي مَرَحاً كما في الآية ، فانتصابه على الصفة لمفعول مطلق ، أي مَشياً مرحاً ، وتقدم في سورة الإسراء (37) وموقع قوله ﴿ في الأرض ﴾ بعد ﴿ لا تمش ﴾ مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض هو الإيماء إلى أن المشي في مكان يمشي فيه الناس كلهم قويّهم وضعيفهم ، ففي ذلك موعظة للماشي مرحاً أنه مساو لسائر الناس .

(93/608)

وموقع ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ موقع ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ [لقمان : 16] كما تقدم .

والمختال : اسم فاعل من اختال بوزن الافتعال من فِعل خَال إذا كان ذا خُيلاء ، فهو خائل .

والخُيلاء : الكبر والازدهاء ، فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف فوزن المختال مختيل

فلما تحرّك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفاً ، فقوله ﴿ إن الله لا يحب كل مختال ﴾ مقابل قوله ﴿ ولا تصاعر خدك للناس ﴾ ، وقوله ﴿ فخور ﴾ مقابل قوله ﴿ ولا تَمش في الأرض مرحاً ﴾ .

والفَخور : شديد الفخر .

وتقدم في قوله ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فَخوراً ﴾ في سورة النساء (36) .

ومعنى ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أن الله لا يرضى عن أحد من المختالين الفخورين ، ولا يخطر ببال أهل الاستعمال أن يكون مفاده أن الله لا يحب مجموع المختالين الفخورين إذا اجتمعوا بناء على ما ذكره عبد القاهر من أن ﴿ كُل ﴾ إذا وقع في حيز النفي مؤخراً عن أداته ينصبّ النفي على الشمول ، فإن ذلك إنما هو في ﴿ كل ﴾ التي يراد منها تأكيد الإحاطة لا في ﴿ كل ﴾ التي يراد منها الأفراد ، والتعويل في ذلك على القرائن .

على أنّا نرى ما ذكره الشيخ أمرٌ أغلبي غير مطرد في استعمال أهل اللسان ولذلك نرى صحة الرفع والنصب في لفظ (كل) في قول أبي النجم العِجلي:

قد أصبحتْ أُمّ الخيار تدّعي . . .

عليَّ ذنباً كلّه لم أصنع

وقد بينت ذلك في تعليقاتي على دلائل الإعجاز .

وموقع جملة ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ يجوز فيه ما مضى في جملة ﴿ إن

الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] وجملة ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ [لقمان : 16] ، وجملة ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ [لقمان : 17] .

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

(94/608)

بعد أن بيّن له آداب حسن المعاملة مع الناس قفَّاها بحسن الآداب في حالته الخاصة ، وتلك حالتا المشي والتكلم ، وهما أظهر ما يلوح على المرء من آدابه .

والقصد : الوسط العَدل بين طرفين ، فالقصد في المشي هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب ويقال : قصد في مشيه .

فمعنى ﴿ اقْصِدْ في مشيك ﴾ : ارتكب القصد .

والغَضُّ : نقص قوة استعمال الشيء .

يقال : غَضَّ بصره ، إذا خفَّض نظره فلم يحدّق .

وتقدم قوله تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغُضُّوا من أبصارهم ﴾ في سورة النور (30) .

فغض الصوت : جعله دون الجهر .

وجيء بـ ﴿ مِن ﴾ الدالة على التبعيض لإفادة أنه يغض بعضه ، أي بعضَ جهره ، أي

ينقص من جُهُورته ولكنه لا يبلغ به إلى التخافت والسرار .

وجملة ﴿ إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير ﴾ تعليل علل به الأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمنة تشبيهاً بليغاً ، أي لأن صوت الحمير أنكر الأصوات .

ورفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير فله حظ من النكارة .

و﴿ أنكَر : ﴾ اسم تفضيل في كون الصوت منكوراً ، فهو تفضيل مشتق من الفعل المبني للمجهول ومثله سماعي وغيرُ شاذ ، ومنه قولهم في المثل : "أشغل من ذات النِّحْيَيْنِ" أي أشد مشغولية من المرأة التي أُريدت في هذا المثل .

وإنما جمع ﴿ الحمير ﴾ في نظم القرآن مع أن ﴿ صوت ﴾ مفرداً ولم يقل الحمار لأن المعرف بلام الجنس يستوي مفرده وجمعُه .

ولذلك يقال : إن لام الجنس إذا دخلتْ على جَمع أبطلت منه معنى الجَمْعِيَّة .

وإنما أوثر لفظ الجمع لأن كلمة الحمير أسعد بالفواصل لأن من محاسن الفواصل والأسجاع أن تجري على أحكام القوافي ، والقافية المؤسسة بالواو أو الياء لا يجوز أن يرد معها ألف تأسيس فإن الفواصل المتقدمة من قوله ﴿ ولقد ءاتينا لقمان الحكمة ﴾ [لقمان : 12] هي : حميد ، عظيم ، المصير ، خبير ، الأمور ، فخور ، الحمير .

وفواصل القرآن تعتمد كثيراً على الحركات والمُدود والصيغ دون تماثل الحروف وبذلك تخالف قوافي القصائد .

وهذا وفاء بما وعدتُ به عند الكلام على قوله تعالى ﴿ ولقد ءاتينا لقمان الحكمة ﴾ من ذكر ما انتهى إليه تتبعي لما أُثِر من حِكمة لقمان غير ما في هذه السورة وقد ذكر الألوسي في "تفسيره" منها ثمانياً وعشرين حكمة وهي:

قوله لابنه : أي بني ، إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها أناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحِشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك أن تنجو ولا أراك ناجياً .

وقوله : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية .

وقوله : ضَرْبُ الوالد لولده كالسماد للزرع .

وقوله : يا بني إياك والدَّين فإنه ذل النهار وَهَمُّ الليل .

وقوله : يا بني ارجُ الله عز وجل رجاء لا يجرِّئك على معصيته تعالى ، وخَفِفِ الله سبحانه خوفاً لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه .

وقوله : من كَذب ذهب ماء وجهه ، ومَن ساء خلُقُه كثُر غمُّه ، ونقل الصخور من

مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم .

وقوله : يا بني حَملْتُ الجندل والحديد وكلَّ شيء ثقيل فلم أحمل شيئاً هو أثقل من جار السوء ، وذقت المِرار فلم أذق شيئاً هو أمرّ من الفقر .

يا بني لا تُرسِلْ رسولك جاهلاً فإن لم تجد حكيماً فكن رسولَ نفسك .

يا بني ، إياك والكذب ، فإنه شَهي كلحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه .

يا بني ، احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا .

يا بني ، لا تأكل شِبَعاً على شِبَع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله .

يا بني ، لا تكُن حُلواً فتُبلَعَ ولا تكن مُرّاً فتُلْفَظ .

وقوله لابنه : لا يأكل طعامك إلاَّ الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء .

(96/608)

وقوله : لا خير لك في أن تتعلمَ ما لم تَعْلَم ولَمّا تعملْ بما قد علمت فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحمل حُزْمَة وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى .

وقوله : يا بني ، إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذَره .

وقوله : لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .

وقوله : يا بني ، أَنْزِل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بدّ لك منه .

يا بنيّ ، كن كمن لا يبتغي محمدَة الناس ولا يكسب ذمهم فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة .

وقوله : يا بني ، امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكتَّ سالم ، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك .

وأنا أقفّي عليها ما لم يذكره الألوسي .

فمن ذلك ما في "الموطأ" فيما جاء في طلب العلم من كتاب "الجامع" : مالك أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال : يا بني ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور العلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء .

وفيه فيما جاء في الصدق والكذب من كتاب وفيه فيما جاء في الصدق والكذب من كتاب "الجامع" أنه بلغه أنه قيل للقمان : ما بلغ بك ما نرى يريدون الفضل ؟ فقال : صدقُ الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعْنيني .

وفي "جامع المستخرجة" للعتبي قال مالك : بلغني أن لقمان قال لابنه : يا بُني ليكنْ أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح امرأةً صالحة .

وفي "أحكام القرآن" لابن العربي عن مالك : أن لقمان قال لابنه : يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون وهم إلى الآخرة سراعاً يذهبون ، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنتَ واستقبلتَ الآخرة ، وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها .

وقال : ليس غنى كصحة ، ولا نعمة كطِيب نفْس .

(97/608)

وقال : يا بني لا تجالس الفجار ولا تماشهم اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبَك معهم ، وقال : يا بني ، جالس العلماء ومَاشِهِم عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم .

وفي "الكشاف" : أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنتَ تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنتَ تراني أسود فقلبي أبيض .

وأن مولاه أمره بذبحِ شاة وأن يأتيه بأطيب مضغتين فأتاه باللسان والقلب ، ثم أمره بذبح أخرى وأنْ أُلْقِ منها أخبث مضغتين ، فألقى اللسان والقلب ؛ فسأله عن ذلك ، فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا .

ودخل على داود وهو يسرد الدروع فأراد أن يسأله عماذا يصنع ، فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها داود لَبِسها وقال : نِعم لَبُوس الحرب أنتِ .

فقال لقمان : الصمتُ حكمة وقليل فاعله .

وفي "تفسير ابن عطية" : قيل للقمان : أيّ الناس شرّ ؟ فقال : الذي لا يبالي أن يراه الناس سيّئاً أو مسيئاً .

وفي "تفسير القرطبي" : كان لقمان يفتي قبل مبعث داود فلما بعث داود قطع الفتوى .

فقيل له ، فقال : ألا أكتفِي إذا كُفِيتُ .

وفيه : إن الحاكم بأشدّ المنازل وكدرها يغشاه المظلوم من كل مكان إنْ يصبْ فبالحريِّ أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة .

ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً .

ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتْه الدنيا ولا يُصب الآخرة .

وفي "تفسير البيضاوي" : أن داود سأل لقمان : كيف أصبحتَ ؟ فقال : أصبحت في يَديْ غيري .

وفي "درة التنزيل" المنسوب لفخر الدين الرازي : قال لقمان لابنه : إن الله رَضيني لك فلم يُوصني بكَ ولم يرضَك لي فأوصاك بي .

وفي "الشفاء" لعياض : قال لقمان لابنه : إذا امتلأتْ المَعِدة نامت الفِكْرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وفي كتاب "آداب النكاح" لقاسم بن يأمون التليدي الأخماسي : أن من وصية لقمان : يا بني إنما مَثَل المرأة الصالحة كمثَل الدهن في الرأس يُلَيِّن العروق ويحسن الشعر ، ومَثَلها كمثل التاج على رأس الملك ، ومثلها كمثَل اللؤلؤ والجوهر لا يدري أحد ما قيمته .

ومثَل المرأة السوء كمثل السَّيْل لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه : إذا تكلمتْ أسمعت ، وإذا مشت أسرعت ، وإذا قعدت رفعت ، وإذا غضبت أسمعت .

وكل داء يبرأ إلاَّ داء امرأة السوء .

يا بني ، لأن تساكن الأسد والأسْوَد خير من أن تساكنها : تبكي وهي الظالمة ، وتحكم وهي الجائرة ، وتنطق وهي الجاهلة وهي أفعى بلدغها .

وفي "مجمع البيان" للطبرسي : يا بني ، سافر بسيفك وخُفّك وعمامتك وخبائك وسِقائك وخيوطك ومخرزك ، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك ، وكن لأصحابك موافقاً إلا في معصية الله عز وجل .

يا بني ، إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم ، وأكثر التبسم في وجوههم ، وكن كريماً على زادك بينهم ، فإذا دعوك فأجبهم ، وإذا استعانوا بك فأعِنْهم ، واستعمِل طول الصمت وكثرة الصلاة ، وسَخاء النفس بما معك من دابّة أو ماء أو زاد ، وإذا استشهدوك على الحق فاشهَد لهم ، واجهد رأيك لهم إذا استشاروك ، ثم لا تعزم حتى

تثبت وتنظر ، ولا تُجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقعد وتنام وتأكل وتصلي وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته ، فإن من لم يمحض النصيحة من استشارة سلبه الله رأيه ، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم ، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم ، واسمع لمن هو أكبر منك سنّاً .

وإذا أمروك بأمر وسألوك شيئاً فقل نعم ولا تقل (لا) فإن (لا) عِيٌّ ولؤم ، وإذا تحيرتم في الطريق فأنزلوا ، وإذا شككتم في القصد فقفوا وتآمروا ، وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم ولا تسترشدوه فإن الشخص الواحد في الفلاة مُريب لعله يكون عين اللصوص أو يكون هو الشيطان الذي حيّركم .

(99/608)

واحذروا الشخصين أيضاً إلا أن تروا ما لا أرى لأن العاقِل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحق منه والشاهد يرى ما لا يرى الغائب .

يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء ، صلِّها واسترح منها فإنها دَين ، وصلِّ في جماعة ولو على رأس زَجّ .

وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لوناً وألينها تربة وأكثرها عشباً .

وإذا نزلت فصلّ ركعتين قبل أن تجلس ، وإذا أردت قضاء حاجتك فأبْعِد المذهب في الأرض .

وإذا ارتحلت فصلّ ركعتين ثم ودّع الأرض التي حللتَ بها وسلّم على أهلها فإن لكل بقعة أهلا من الملائكة ، وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتى تبتدىء فتتصدق منه فافعل .

وعليك بقراءة كتاب الله لعله يعني الزبور ما دمت راكباً ، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملاً عملاً ، وعليك بالدعاء ما دمت خالياً .

وإياك والسير في أول الليل إلى آخره .

وإياك ورفع الصوت في مسيرك .

فقد استقصينا ما وجدنا من حكمة لقمان مما يقارب سبعين حكمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(100/608)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يا بني . . ﴾ [لقمان : 16]

نداء أيضاً للتطلف والترقيق ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ . . ﴾ [لقمان : 16]

يريد لقمان أن يدل ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هي صفة العلم المطلق الذي لا تخفى عليه خافية ، وكأنه يقول له : إياك أن تظن أن ما يخفى على الناس يخفى على الله تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14]

وكما ان الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل ، حتى إن كانت في باطن صخرة ، أو في السماوات ، أو في الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دَقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند مسألة علم الله الخفي بخفايا خَلْقه ، وعند قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : 110] يقولون : الله يمتنُّ بعلم ما نكْتُم ، فكيف يمتنُّ بعلم الجهر ، وهو معلوم للجميع ؟

ونقول : الحق سبحانه في قوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : 110] لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جماعة ، فهو يعلم جَهْر الجماعة في وقت واحد ، ومثَّلْنا لذلك بمظاهرة مثلاً ، فيها الآلاف من البشر يهتفون بأصوات مختلفة وشعارات شتى ، منها ما يعاقب عليه القانون ، فهل تستطيع مع اختلاط الأصوات وتداخلها أن تُميِّز بينها ، وتُرجع كل كلمة إلى صاحبها ؟

إنك لا تستطيع ، مع أن هذا جهر يسمعه الجميع ، أما الحق – تبارك وتعالى – فيعلم كل كلمة

، ويعلم مَنْ نطق بها ويردّ كل لفظ إلى صاحبه . إذن : من حقه تعالى أن يمتنَّ بعلم الجهر ، بل إن عِلْم الجهر أعظم من علْم السرِّ وأبلغ .

(101/608)

وقوله تعالى ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ . . ﴾ [لقمان : 16] أي : وزن حبة الخردل ، وكانت أصغر شيء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلة ، وليس لك الآن أن تقول : وهل حبة الخردل أصغر شيء في الوجود ؟ فالقرآن ذكرها مثالاً للصِّغَر على قدر معرفة الناس بالأشياء عند نزوله ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرة والأقلَّ منها .

لذلك لما اخترعوا في ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد (أي الجزء الذي لا يتجزأ) ، واستطاعوا تفتيت الذرة ، ظنوا أن في هذه العملية مأخذاً على القرآن ، فقد ذكر القرآن الذرة ، وجعلها مقياساً دينياً في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8] لكن لم يذكر الأقلَّ منها ، ومعلوم أن الجزء أصغر من كله .

ونقول : قرأتم شيئاً وغابت عنكم أشياء ، ولو كان لديكم إلمام بكلام الله لعلمتم أن فيه احتياطاً لما توصلتم إليه ، ولما ستتوصلون إليه فيما بعد ، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى

عن الذرة : ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

[يونس : 61]

بل نقول : إن الاحتياط هنا احتياط مركب ، فلم يقل صغير إنما قال (أصغر) وهذا يدل على وجود رصيد في كلام الله لكل مُفتّت من الذرة .

وقوله : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله . . ﴾ [لقمان : 16] ﴿ فِي صَخْرَةٍ . . ﴾ [لقمان : 16] أي : على حبكة الوجود ، وفي أضيق مكان ﴿ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض . . ﴾ [لقمان : 16] يعني : في المتسع الذي لا حدود له ، فلا في الضيق المحكم ، ولا في المتسع يخفى على الله شيء ﴿ يَأْتِ بِهَا الله . . ﴾ [لقمان : 16] واستصحب حيثيات الإتيان بها بوصفين لله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 16]

(102/608)

وجمع بين هاتين الصفتين ؛ لأنك قد تكون خبيراً بالشيء عالماً بمكانه ، لكنك لا تستطيع الوصول إليه ، كأنْ يكون في مكان ضيق لا تنفذ إليه يدك ، وعندها تستعين بآلة دقيقة كالملقاط مثلاً ، فالخبرة موجودة ، لكن ينقصك اللطف في الدخول .

والحق – سبحانه وتعالى – لطيف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكل شيء مهما صغر ، قادر على الإتيان به مهما دقَّ ؛ لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل في الأشياء .

ونحن نعلم أن الشيء كلما دقَّ ولَطُف كان أعنف حتى في المخلوقات الضارة ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمَنْ بنى بيتاً في الخلاء ، وأراد أنْ يؤمِّن نوافذه من الحيوانات والحشرات الضارة ، فوضع على النوافذ شبكة من الحديد تمنع اللصوص والحيوانات الكبيرة ، ثم تذكّر الفئران والثعابين فضيّق الحديد ، ثم تذكّر الذباب والناموس فاحتاج إلى شيء أضيق وأدقّ ، إذن : كلما كان عدوك لطيفاً دقيقاً كان أعنف ، واحتاج إلى احتياط أكثر .

فقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 16] يعني : لا يعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر في الوصول إلى الأشياء .

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده ، ولم يأمره حتى الآن بشيء من التكاليف ، إنما حرص أنْ يُنبه : أنك قد آمنت بالله وبلغَك منهجه واستمعت إليه ، فأطع ذلك المنهج في افعل ولا تفعل ، لكن قبل أنْ تباشر منهج ربك في سلوكك اعلم أنك تتعامل مع إله قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغيب عنه شيء ، فادخل على المنهج بهذا الاعتقاد .

وإياك أنْ تتغلَّب عليك شبهة أنك لا ترى الله ، فإنك إنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، واعلم أن

عملك محسوب عليك ، وإنْ كان في صخرة صماء ضيقة ، أو في سماء ، أو في أرض شاسعة .

(103/608)

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى في الحديث القدسي : " يا عبادي : إنْ كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّي أراكم ، فَلِمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم ؟ " .

بعد ذلك يدخل لقمان في وعظه لولده مجال التكليف ، فيقول له : ﴿ يا بني أَقِمِ الصلاة . . . ﴾ .

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هي الركن الأول بعد أنْ تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فُرِضت بالمباشرة ، ولأهميتها جُعِلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال ، أما بقية الأركان فقد تسقط عنك لسبب أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يَبْق معك إلا الشهادتان والصلاة ؛ لذلك جعلها النبي صلى الله عليه وسلم عماد الدين .

ولذلك بدأ بها لقمان : ﴿ يا بني أَقِمِ الصلاة . . . ﴾ [لقمان : 17] لأنها استدامة إعلان

الولاء لله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة ، فحين يناديك ربك (الله أكبر) فلا ينبغي أن تنشغل بمخلوق عن نداء الخالق ، وإلا فما موقف الأب مثلاً حين ينادي ولده فلا يجيبه ؟ فاحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب .

ثم تأمل النداء للصلاة الذي اهتدتْ إليه الفطرة البشرية السليمة ، وأقرّه سيدنا رسول الله : الله أكبر الله أكبر ، يعني أكبر من كل ما يشغلك عنه ، فإياك أن تعتذر بالعمل في زراعة أو صناعة أو تجارة عن إقامة الصلاة .

وقد ناقشتُ أحد أطباء الجراحة في هذه المسألة ، فقال : كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت له : بالله لو اضطررتَ لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال : أذهب ، فقلت : فالصلاة أوْلَى ، ولا تعتقد أن الله تعالى يكلِّف العبد تكليفاً ، ثم يضنّ عليه باتساع الزمن له ، بدليل أنه تعالى يراعي وقت العبد ومصالحه وإمكاناته ، ففي السفر مثلاً يشرع لك الجمع والقصر .

(104/608)

فبإمكانك أنْ تُوفِّق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما بجمع التقديم أو التأخير ، وكم يتسع وقتك ويخلو من مشغولية العبادة إذا جمعتَ الظهر والعصر جمْعَ تقديم ، والمغرب

والعشاء جَمْع تأخير في آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمعَ تأخير ، فتصليهما قبل المغرب ، ثم تصلي المغرب والعشاء جمع تقديم ؟

إذن : المسألة فيها سِعَة ، ولا حجةَ لأحد في تَرْك الصلاة بالذات ، أما الذين يقولون في مثل هذه الأمور ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . . ﴾ [البقرة : 286] وأن هذا ليس في وُسْعي . . فنقول لهم : لا ينبغي أنْ تجعل وُسْعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم في الوُسْع ، وما دام ربك – عز وجل – قد كلَّفك فقد علم سبحانه وُسْعْك وكلّفك على قدره بدليل ما شرعه لك من رُخَص إذا خرجتْ العبادة عن الوُسْع .

وقال ﴿ أَقِمِ الصلاة . . ﴾ [لقمان : 17] لأن الصلاة أول اكتمال في الإجماع لمنهج الله ، وبها يكتمل إيمان الإنسان في ذاته ، وسبق أن قلنا : إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان الإسلام هي الخمس المعروفة ، أمَّا أركان المسلم فهي الملازمة له التي لا تسقط عنه بحال ، وهي الشهادتان والصلاة ، وإنْ كان على المسلم أنْ يؤمن بها جميعاً ، لكن في العمل قد تسقط عنه عدا الصلاة والشهادتين .

ثم يبين لقمان لولده : أن الإيمان لا يقف عند حدِّ الاستجابة لهذين الركنين الأساسيين ، إنما من الإيمان ومن كمال الإيمان أنْ تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، فيقول له : ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر . . ﴾ [لقمان : 17] فانشغل بعد كمالك بإقامة الصلاة ، بأنْ

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فبالصلاة كَمُلْتَ في ذاتك ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنقل الكمال إلى الغير ، وفي ذلك كمال الإيمان .

(105/608)

وأنت حين تأمر بالمعروف ، وحين تنهي عن المنكر لا تظن أنك تتصدَّق على الآخرين ، إنما تؤدي عملاً يعود نفعه عليك ، فبه تجد سعة الراحة في الإيمان ، وتجد الطمأنينة والراحة الذاتية ؛ لأنك أدْيتَ التكاليف في حين قصرَّ غيرك وتخاذل .

ولا شك أن في التزام غيرك وفي سيره على منهج الله راحة لك أنت أيضاً ، وإلا فالمجتمع كله يَشْقى بهذه الفئة القليلة الخارجة عن منهج الله .

ومن إعزاز العلم أنك لا تنتفع به الانتفاع الكامل إلا إذا عدَّيته للغير ، فإنْ كتمته انتفع الآخرون بخيرك ، وشقيتَ أنت بشرّهم . إذن : لا تنتفع بخير غيرك إلا حين تؤدي هذه الفريضة ، فتأمر غيرك بالمعروف ، وتنهاه عن المنكر ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، وبذلك تنال الحظين ، حظك عند الله لأنك أدْيتَ ، وحظك عند الناس لأنك في مجتمع متكامل الإيمان ينفعك ولا يضرك .

ولك هذا أن تلحظ أن هذه الآية لم تقرن إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة كعادة الآيات ، فغالباً ما

نقرأ : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة . . . ﴾ [البقرة : 43]

وحين نستقرئ كلمة الزكاة في القرآن الكريم نجد أنها وردت اثنتين وثلاثين مرة ، اثنتان منها ليستا في معنى زكاة المال المعروفة النماء العام إنما بمعنى التطهر ، وذلك في قوله تعالى في قصة الخضر وموسى عليه السلام : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ . . . ﴾ [الكهف : 74]

ثم قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ [الكهف : 81]

والمعنى : طهرناهم حينما رفعنا عنهم باباً من أبواب الفتنة في دين الله .

(106/608)

والموضع الآخر في قوله تعالى : ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 13]

فالمعنى : وهبنا لمريم شيئاً نُزكيها به ؛ ذلك لأن الزكاة أول ما تتعدى تتعدَّى من واجد لمعدم ، ومريم لم تتزوج فهي مُعْدَمة في هذه الناحية ؛ لذلك وهبها الله النماء الخاص من ناحية أخرى حين نفخ فيها الروح من عنده تعالى .

وفي موضع واحد ، جاءت الزكاة بمعنى زكاة المال ، لكن غير مقرونة بالصلاة ، وذلك في

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : 39]

وفي هذه الآية قال لقمان لولده : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ . . ﴾ [لقمان : 17] ولم يقل : وآتِ الزكاة ، فلماذا ؟

ينبغي أن نشير إلى أن القرآن جمع بين الصلاة والزكاة ؛ لأن الصلاة فيها تضحية بالوقت ، والوقت زمن العمل ، والعمل وسيلة الكسب والمال ، إذن ؛ ساعة تصلي فقد ضحيْتَ بالوقت الذي هو أصل المال ، فكأن في الصلاة تصدقت بمائة في المائة من المال المكتسب في هذا الوقت ، أمّا في الزكاة فأنت تتصدَّق بالعُشْر ، أو نصف العشر ، أو رُبْع العشر ، ويبقى لك معظم كسبك ، فالواقع أن الزكاة في الصلاة أكبر وأبلغ من الزكاة نفسها .

إذن : لما كانت الزكاة في كل منهما ، قرن القرآن بينهما إلا في هذا الموضع ، ولما تتأمله تجده من دقائق الأسلوب القرآني ، فالقرآن يحكي هذه الوصايا عن لقمان لولده ، ولنا فيه ملحظان :

الأول : أن الله تعالى لم يكلِّف العبد إلا بعد سِنِّ البلوغ إلا في الصلاة ، وجعل هذا التكليف مُوجهاً إلى الوالد أو ولي الأمر ، فأنابه أن يكلف ولده بالصلاة ، وأن يعاقبه إنْ أهمل في أدائها ، ذلك ليربي عند ولده الدُّرْبة على الصلاة ، بحيث يأتي سِنّ التكليف ، وقد ألفَها الولد وتعوَّد عليها ، فهي عبادة تحتاج في البداية إلى مران وأخذ وردَّ ، وهذا أنسب للسنَّ المبكرة .

والوالد يُكلف ولده على اعتبار أنه الموجد الثاني له ، والسبب المباشر في وجوده ، وكأن الله تعالى يقول : أنا الموجد لكم جميعاً وقد وكَّلتُك في أنْ تكلِّف ولدك ؛ لأن معروفك ظاهر عنده ، وأياديك عليه كثيرة ، فأنت القائم بمصالحه المُلَبِّي لرغباته ، فإنْ أمرته قَبِل منك واطاعك ، فهي طاعة بثمنها .

وطالما وكلتك في التكليف فطبيعي أنْ أُوكِّلك في العقوبة ، فإنْ حدث تقصير في هذه المسألة فالمخالفة منك ، لا من الولد ؛ لأنني لم أُكلِّفه إنما كلَّفْتُك أنت .

لذلك بدأ لقمان أوامره لولده بإقامة الصلاة ، لأنه مُكلَّف بهذا الأمر ، فولده ما يزال صغيراً بدليل قوله ﴿ يابني . . ﴾ [لقمان : 17] فالتكليف هنا من الوالد ، فإنْ كان الولد بالغاً حال هذا الأمر فالمعنى : لاحظ التكليف من الله بإقامة الصلاة .

أما الزكاة ، وهي تكليف من الله أيضاً فلم يذكرها هنا – وهذه من حكمة لقمان ودقَّة تعبيره ، وقد حكاها لنا القرآن الكريم لنأخذ منها مبادئ نعيش بها .

ثانياً : إنْ كلَّفه بالزكاة فقال : أقم الصلاة وآتِ الزكاة فقد أثبت لولده ملكية ، ومعروف أن الولد لا ملكيةَ له في وجود والده ، بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " أنت ومالك لأبيك " وذكرنا أن لقمان لما علم بموت أبيه قال : إذن ملكتُ أمري فأمره ليس مِلْكاً له في حياة أبيه ؛ لذلك لم يأمر ولده بالزكاة ، فالزكاة في ذمته هو ، لا في ذمة ولده .

(108/608)

وتتأكد لدينا هذه المسألة حين نقرأ قول الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾

[النور : 61]

فالله تعالى رفع عنَّا الحرج أنْ نأكل من هذه البيوت ، ونلحظ أن الآية ذكرتْ الأقارب عدا الأبناء ، وكان الترتيب المنطقي أن يقول بعد أمهاتكم : أو بيوت أبنائكم ، فلماذا لم يذكر هنا بيوت الأبناء ؟ قالوا : لأنها داخلة في قوله : بيوتكم ، فبيت الابن هو بيت الأب ، والولد وما ملكتْ يداه مِلْكٌ لأبيه .

ثم يقول لقمان لولده : ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ . . ﴾ [لقمان : 17] الصبر : حَمْل النفس على التجلُّد للأحداث ، حتى لا تعينَ الأحداث على نفسك بالجزع ، فأنت أمام الأحداث تحتاج إلى قوة مضاعفة ، فكيف تُضعِف نفسك أمامها ؟

والمصيبة تقع إما لك فيها غريم ، أو ليس لك فيها غريم ، فالذي يسقط مثلاً ، فتنكسر ساقه ، أو الذي يفاجئه المرض . . الخ هذه أقدار ساقها الله إليك بلا سبب فلا غريم لك فيها ؛ لذلك يجعلها في ميزانك : إما أنْ يعلي بها درجاتك ، وإما أنْ يُكفِّر بها سيئاتك ؛ لذلك كان الكفار يفرحون إذا أصاب المسلمين مصيبة ، كما فرحوا يوم أُحُد ، وقد ردَّ الله عليهم وبيَّن غباءهم ، وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا . . . ﴾ [التوبة : 51] وتأمل الجار والمجرور (لنا) ولم يقُلْ كُتب علينا ، إذن : فالمعصية في حساب (له) لا (عليه) فلماذا تفرحون في المصيبة تقع بالمسلمين ؟

(109/608)

وأوصى بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن الذي يتعرض لهذين الأمرين لا بُدَّ أن يصيبه سوء من جراء أمره بالمعروف أو نَهْيه عن المنكر ، فإنْ تعرضتْ للإيذاء فاصبر ؛ لأن هذا الصبر يعطيك جزاءً واسعاً .

وتغيير المنكر له مراحل وضحها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : " مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيّرِه بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان "

.

فالله أمرك أنْ تُغيّرِ المنكر ، لكن جعل لك تقدير المسألة ومدى إمكانك فيها ، فالدين يريدك مُصلحاً لكن لا يريد أنْ تلقى بنفسك إلى التهلكة ، فلك أنْ تُغيّرِ المنكر بيدكَ فتضرب وتمنع إذا كان لك ولاية على صاحب المنكر ، كأن يكون ولدك أو أخاك . . إلخ .

فلك أن تضربه مثلاً إنْ رأيتَ سيجارة في فمه ، أو أنْ تكسر له كأس الخمر إنْ شربها أو تمزق له مثلاً ورق " الكوتشينة " ، فإنْ لم تكُنْ لك هذه الاستطاعة فيكفي أنْ تُغيّرِ بلسانك إنْ كانت لديك الكلمة الطيبة التي تداوي دون أن تجرح الآخرين ، ودون أنْ يؤدي النصح إلى فتنة ، فيكون ضرره أكثر من نفعه .

فإنْ لم يكُنْ في استطاعتك هذه أيضاً ، فليكُنْ تغيير المنكر بالقلب ، فإنْ رأيتَ منكراً لا تملك إلا أنَّ تقول : اللهم إنَّ هذا منكر لا يرضيك لكن أُيَعدُّ عمل القلب تغييراً للمنكر وأنت مطالب بأنْ تُغيّرِه بيدك يعني : إلى ضده ؟ وهل هذه الكلمة تغير من الواقع شيئاً ؟

قالوا : لا يحدث التغيير بالقلب إلا إذا كان القالب تابعاً للقلب ، فالقلب يشهد أنَّ هذا منكر لا يُرضي الله ، والقالب يساند حتى لا تكون منافقاً ، فأنت أنكرتَ عليه الفعل ، ولا

استطاعة لك على أنْ تمنعه ، ولا أن تنصحه ، فلا أقلَّ من أنْ تعزله عن حياتك وتقاطعه ، وإلاَّ فكيف تُغيِّر بقلبك إنْ أنكرتَ عليه فعله وأبقيتَ على وُدِّه ومعاملته ؟

(110/608)

إذن : لا يكون التغيير بالقلب إلا إذا أحسَّ صاحب المنكر أنه في عزلة ، فلا تهنئه في فرح ، ولا تعزيه في حزن ، وإنْ كنتَ صاحب تجارة ، فلا تَبِعْ له ولا تشتر منه .

. الخ .

وما استشرى الباطل وتَبجح أهل الفساد وأهل المنكر إلا لأن الناس يحترمونهم ويعاملونهم على هذه الحال ، بل ربما زاد احترام الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم .

فالتغيير بالقلب ليس كلمة تقال إنما فعل وموقف ، وقد علَّمنا ربنا – تبارك وتعالى – هذه القضية في قوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ المنافقين والكافرين فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ [النساء : 140]

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين

﴿ [الأنعام : 68]

والنبي صلى الله عليه وسلم في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا بغير عذر في غزوة تبوك ، يُعلِّمنا كيف نعزل أصحاب المنكر ، لا بأن نعزلهم في زنزانة كما نفعل الآن ، إنما بأن نعزل المجتمع عنهم ، ليس المجتمع العام فحسب ، بل عن المجتمع الخاص ، وعن أقرب الناس إليه .

(111/608)

وقد تخلف عن هذه الغزوة عدة رجال اعتذروا لرسول الله فقَبِل علانيتهم وترك سرائرهم لله ، لكن هؤلاء الثلاثة لم يجدوا لأنفسهم عذراً ، ورأوا أنهم لا يستطيعون أنْ يكذبوا على رسول الله ، ولم يحبسهم الرسول ، إنما حبس المجتمع عنهم حتى الأقارب ، فكان الواحد منهم يمشي و (يتمحك) في الناس ليكلمه أحد منهم ، فلا يكلمه أحد ، وكعب بن مالك يتسوَّر على ابن عمه الحديقة ، ويقول له : تعلم أني أحب الله ورسوله فلا يجيبه ، ويصلي بجوار الرسول يلتمس أنْ ينظر إليه ، فلا ينظر إليه .

ولما نجحت هذه المقاطعة على هذا المستوى أعلاها الشرع وتسلسل بها إلى الخصوصيات في البيت ، فعزل هؤلاء الثلاثة عن زوجاتهم ، فأمر كلاً منهن ألاَّ يقربها زوجها إلى أن يحكم الله في أمرهم ، حتى أن واحدة من هؤلاء جاءت لرسول الله وقالت :

يا رسول الله ، إن زوجي رجل كهدبة الثوب (يعني : ليست له رغبة في أمر النساء) فأذن لها رسول الله في أن تخدمه على ألاَّ يقربها .

ظل هؤلاء الثلاثة ثلاثين يوماً في هذا الامتحان العام وعشرة أيام في الامتحان الخاص ، ونجح المجتمع العام ، ونجح المجتمع الخاص ، وهكذا علَّمنا الشرع كيف نعزل أصحاب المنكر وأهل الجريمة ، فعزل المجتمع عنهم أبلغ من عزلهم عن المجتمع ، لذلك كان وَقْع هذه العزلة قاسياً على هؤلاء .

فهذا كعب بن مالك يحكي قصته ويقول : لقد ضاقت بي الأرض على سعتها ، والحق يقول في وصف حالهم : ﴿ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ [التوبة : 118]

فلما استوى المجتمع العام والمجتمع الخاص على منهج الله فرَّج الله عن هؤلاء الثلاثة ، ونزل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ [التوبة : 118]

(112/608)

فأسرع أحدهم يبشر كعباً بهذه البشرى فطار كعب فرحاً بها ، وقال : فوالله ما ملكتُ أنْ أخلع عليه ثيابي كلها ، ثم أستعير ثياباً أذهب بها إلى رسول الله .

إذن : ينبغي أن نعزل المجتمع كله عن أصحاب المنكر ، لا أن نعزلهم هم في السجون ، لكن مَنْ يضمن لنا استقامة المجتمع في تنفيذ هذه العزلة كما نفذها المجتمع المسلم على عهد رسول الله ؟

نعود إلى ما كنا نتحدث عنه من أن المصيبة إذا كانت قدراً من الله ليس لك فيها غريم ، فإن الصبر عليها هيِّن ، فالأمر بينك وبين ربك ، أما إنْ كان لك في المصيبة غريم كأن يعتدي عليك أحد فيحرق زرعك أو يقتل ولدك ، فهذه تحتاج إلى صبر أشد ، فكلما رأيتَ غريمك هاجتْ نفسك وغلى الدم في عروقك ، فيحتاج إلى طاقة أكبر ليحمل نفسه على الصبر .

لذلك يقول سبحانه في هذه المسألة : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] فأكَّدها باللام ؛ لأنها تحتاج إلى طاقة أكبر من الصبر وضبط النفس حتى لا تتعدى كلما رأيت الغريم ، وهذا من المواضع التي وقف عندها المستشرقون يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله .

يقولون : ما الفرق بين قول القرآن ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43]

ثم أيهما أبلغ من الأخرى ، فإنْ كانت الأولى بليغة فالأخرى غير بليغة .

ونقول في الرد عليهم : كل من الآيتين بليغة في سياقها ، فالتي أُكِّدت باللام جاءت في المصيبة التي لك فيها غريم وتحتاج إلى صبر أكبر ، أما الأخرى ففي المصيبة التي ليس لك فيها غريم ، فهي بينك وبين ربك ، والصبر عليها هيّن يسير .

لذلك ، فالحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفِّي النفس ويمنع ثورتها ، فيقول : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل ، ثم يُرقِّى المسألة ، ويفتح باباً للعفو :

(113/608)

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ . . . ﴾ [الشورى : 40] وقال في موضع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : 126]

فحين يبيح لك ربك أنْ تأخذ بحقك تهدأ نفسك ، وربما تتنازل عن هذا الحق بعد أن أصبح في يدك ؛ لذلك كثيراً ما نرى – خاصة في صعيد مصر حيث توجد عادة الأخذ بالثأر – القاتل يأخذ كفنه على يديه ، ويدخل به على ولي الدم ، ويُسلِّم نفسه إليه ،

وعندها لا يملك ولي الدم إلا أن يعفو .

حتى في مسألة القتل والقصاص يجعل الحق سبحانه مجالاً لترقية النفس البشرية وأريحيتها ، بل ويُسمّي الطرفين إخوة في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . . . ﴾ [البقرة : 178]

ففي هذا الجو وفي أثناء ما تسيل الدماء يُحدّثنا ربنا عن العفو والإحسان والأخوة ، ومعلوم أن هناك فَرْقاً بين أن تأخذ الحق ، وبين أنْ تنفذ أخذ الحق بيدك .

فالله تعالى خالق النفس البشرية ويعلم ما جُبلَتْ عليه من الغرائز وما تُكِنّه من العواطف ، وما يستقر فيها من القيم والمبادئ ، لكنه – سبحانه وتعالى – لا يبني الحكم على ارتفاع المناهج في الإنسان ، إنما على ضوء هذه الطبيعة التي خلقه عليها ، فليس الخَلْق كلهم على درجة من الورع تدعوهم إلى العفو والصفح ؛ لذلك أعطاك حقَّ الرد بالمثل على مَن اعتدى عليك ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . . ﴾ [الشورى : 40] وقال : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . . ﴾ [النحل : 126]

ومع ذلك حين تتأمل هذه الآيات تجد أن تنفيذها من الصعوبة بمكان ، فمَنْ لديه القدرة والمقاييس الدقيقة التي تُوقفه عند حدِّ المثلية التي أمر الله بها ؟

وسبق أنْ بيَّنا : أنه إذا اعتدى عليك شخص وضربك مثلاً ، أتستطيع أنْ تضربه مثل ضربته لا تزيد عليها ، لأنك إنْ زدتَ صرْتَ ظالماً ، واقرأ بقية الآية : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ [الشورى : 40]

وسبق أنْ ذكرنا قصة المرابي اليهودي الذي اتفق مع مدينه على أنْ يقطع من جسمه رطلاً ، إذا لم يُؤدِّ في الموعد المحدد ، وفعلاً جاء موعد السداد ، ولم يَفِ المدين ، فرفع اليهودي أمره إلى القاضي وأخبره بشرطه – وكان القاضي مُوفَّقاً قد نوَّر الله بصيرته ، فقال لليهودي : نعم لك حَقٌّ في أن تُنفذ ما اتفقنا عليه ، وسأعطيك السكين على أنْ تأخذ من المدين رطلاً من لحمه في ضربة واحدة ، بشرط إذا زدتَ عنها أو نقصتَ أخذناه من لحمك .

وعندها انصرف اليهودي ؛ لأن المثلية لا يمكن أن تتحقق ، فكأن الله تعالى بهذا الشرط – شرط المثلية في الردِّ – يلفت انتباهك إلى أن العفو أوْلَى بك وأصلح .

إذن : يُحدِّثنا الحق – تبارك وتعالى – عن العفو وعن الإحسان في المصيبة التي لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذي قرره لك فقد أرحتَ نفسك ، لكن حرمتها الأجر الذي تكفَّل الله لك به إنْ أنت عفوتَ .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يريد أنْ يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء ، فالذي كان من حقك أنْ تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحت حياته مِلْكاً لك ، فهل يفكر لك في سوء

بعدها ؟

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34]

(115/608)

وأذكر أنني جاءني مَنْ يقول : والله أنا دفعتُ بالتي هي أحسن مع خصمي ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى ، فقلت له : عليك أن تراجع نفسك ؛ لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتي هي أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعتَ بالتي هي أحسن لَصدق الله معك ، ورأيت خَصْمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أنْ تُجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ .

والنبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا أنْ نبقى على يقين التوكل سارياً دون أنْ نفكر كيف يحدث ، وقصة الصحابية أم مالك شاهدَة على ذلك ، فقد كان عندها غنم تحلب لبنها ، فتصنع مما زاد عن حاجتها وحاجة أولادها زبداً ، وكانت تهدي منه إلى رسول الله في عكة عندها ، فكان أهل بيت رسول يُفرغون هذه العكة في آنيتهم ، ثم يعيدونها إليها وهكذا .

حتى قالت أم مالك : والله ما أصبتُ إداماً إلا من هذه العكة ، وكانت كلما احتاجت

الإدام أفرغتْ العكة ، فوجدت بها الإدام حتى بعد أن أفرغها أهل بيت الرسول ، لكن خُيِّل لها في يوم من الأيام أنها أسرفت في استعمال هذه العكة ، وظنت أن ما بها من إدام قد نفد ، فأخذتها وعصرتها ، فلم تجد فيها شيئاً ، فظنت أن رسول الله غاضب منها ، فذهبت إليه وقصَّتْ عليه هذه المسألة ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : " " أعَصرتيها يا أم مالك ؟ " فقالت : نعم يا رسول الله ، فأخبرها أن التجربة مع الله شكٌّ وأنها لو لم تعصرها ولم تظن هذا الظن لبقيتْ العُكَّة على حالها " ، وكما تعودت منها .

وتلحظ أن كلمة (أصابك) والمصيبة تدل على أنها واقعة بك ولن تنجو منها ؛ لأنها قدر أرسل إليك بالفعل ، وسيصيبك لا محالة ، والمسألة مسألة وقت إلى أنْ يصلك هذا السهم الذي أُطِلق عليك ، فإياك أنْ تقول : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، فما سُمِّيت المصيبة بهذا الاسم إلا لأنها صائبتك لا تستطيع أنْ تفرَّ منها . كما يقولون عن الموت : تأكد أنك ستموت ، وعمرك بمقدار أنْ يصلك سهم الموت .

(116/608)

وكلمة ﴿ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] نقول : فلان له عزم ، ونسمع القرآن يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله . . . ﴾ [آل عمران : 159] العزم : الفرض المقطوع

به ، والذي لا مناص عنه ، ومنه ما جاء في قول لقمان لما خيَّره ربه بين أن يكون رسولاً أو حكيماً ، فاختار الراحة وترك الابتلاء ، لكنه قال : يارب إنْ كانت عزمة منك فسمعاً وطاعة ، يعني : أمراً مفروضاً ينبغي ألاَّ نحيد عنه .

والعزم يعني شحن كل طاقات النفس للفعل والقطع به ، فالصلاة على الميت مثلاً لا تُسمَّى عزيمة ؛ لأنها فرض كفاية إنْ فعلها البعض سقطتْ عن الباقين ، على خلاف الصلاة التامة في السفر مثلاً حيث يعتبرها الإمام أبو حنيفة عزيمة لا رخصة ، فإن أتممت الصلاة في السفر أسأْت ، عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه " .

والمعنى : لا ترد يد الله المبسوطة لك بالتيسير في الصلاة أثناء السفر .

ثم يعتمد في هذا الرأي على دليل آخر من علم الأصول هو أن الصلاة فُرِضَتْ في الأصل مثنى مثنى ، ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضر . إذن : فصلاة السفر مع الأصل ، فلو أتممتَ الصلاة في السفر أسأْتَ .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ . . . ﴾ .

معنى : تصعر من الصَّعَر ، وهو في الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته ، ويشبه به الإنسان المتكبر الذي يميل بخدِّه ، ويُعرض عن الناس تكبّراً ، ونسمع في العامية يقولون للمتكبر (فلان ماشي لاوي رقبته) .

فقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ . . ﴾ [لقمان : 18] واختيار هذا التشبيه بالذات كأن الحق سبحانه يُنبِّهنا أن التكبُّر وتصعير الخدِّ داء ، فهذا داء جسدي ، وهذا داء خلقي . وقد تنبه الشاعر إلى هذا المعنى فقال :

فَدَعْ كُلَّ طَاغِيةٍ للزَّمانِ . . . فإنَّ الزمانَ يُقيم الصَّعَر

(117/608)

يعني : إذا لم يستطع أبناء الزمان تقويم صعر المتكبر ، فدعْه للزمان فهو جدير بتقويمه ، وكثيراً ما نرى نماذج لأناس تكبروا وتجبروا ، وهم الآن لا يستطيع الواحد منهم قياماً أو قعوداً ، بل لا يستطيع أنْ يذب الطير عن وجهه .

والإنسان عادة لا يتكبر إلا إذا شعر في نفسه بميزة عن الآخرين ، بدليل أنه إذا رأى مَنْ هو أعلى منه انكسر وتواضع وقوَّم من صَعره ، ومثَّلنا لذلك ب (فتوة) الحارة الذي يجلس على القهوة مثلاً واضعاً قدماً على قدم ، غير مُبَال بأحد ، فإذا دخل عليه (فتوة) آخر أقوى منه تلقائياً يعتدل في جلسته .

وهذه المسألة تفسر لنا الحكمة التي تقول (اتق شر من أحسنت إليه) لماذا ؟ لأن الذي أحسنتَ إليه مرتْ به فترة كان ضعيفاً محتاجاً وأنت قوي فأحسنتَ إليه ، وقدَّمْتَ له

المعروف الذي قوّم حياته فأصبح لك يَدٌ عليه ، وكلما رآك ذكَّرته بفترة ضعفه ، ثم إن الأيام دُوَل تدور بين الخَلْق ، والضعيف يصبح قوياً ويحب أنْ يُعلي نفسه بين معارفه ، لكنه لا بُدَّ أن يتواضع حينما يرى مَنْ أحسن إليه ، وكأن وجود مَنْ أحسن إليه هو العقبة أمام عُلُوِّه وكبريائه ؛ لذلك قيل : (اتق شر من أحسنت إليه) .

ثم أن الذي يتكبر ينبغي أنْ يتكبَّر بشيء ذاتي فيه لا بشيء موهوب له ، وإذا رأيتَ في نفسك ميزة عن الآخرين فانظر فيما تميزوا وهم به عليك ، وساعة تنظر إلى الخَلْق والخالق تجد كل مخلوق لله جميلاً .

(118/608)

لذلك تروى قصة الجارية التي كانت تداعب سيدتها ، وهي تزينها وتدعو لها بفارس الأحلام ابن الحلال ، فقالت سيدتها : لكني مشفقة عليك ؛ لأنك سوداء لم ينظر أحد إليك ، فقالت الجارية : يا سيدتي ، اذكري أن حُسْنك لا يظهر لأعين الناس إلا إذا رأوا قُبْحي – فالذي تراه أنت قبيحاً هو في ذاته جميل ، لأنه يبدي جمال الله تعالى في طلاقة القدرة – ثم قالت : يا هذه ، لا تغضبي الله بشيءٍ من هذا ، أتعيبين النقش ، أم تعيبين النقاش ؟ ولو أدركت ما فيَّ من أمانة التناول لك في كل ما أكلف به وعدم أمانتك فيما يكلفك به أبوك

لعلمت في أي شيء أنا جميلة .

ويقول الشاعر في هذا المعنى :

فَالوَجْه مِثْلُ الصُّبْح مُبيضٌ . . . والشَّعْر مثْل الليْل مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لما اسْتجْمعَا حَسُناَ . . . والضِّد يُظْهِر حُسْنَهُ الضِّدُّ

والله تعالى يُعلّمنا هذا الدرس في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . ﴾ [الحجرات : 11]

فإذا رأيتَ إنساناً دونك في شيء ففتش في نفسك ، وانظر ، فلا بُدَّ أنه متميز عليك في شيء آخر ، وبذلك يعتدل الميزان .

فالله تعالى وزَّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ولم يحابِ منهم أحداً على أحد ، وكما قلنا : مجموع مواهب كل إنسان يساوي مجموع مواهب الآخر .

وسبق أن ذكرنا أن رجلاً قال للقمان : لقد عرفناك عبداً أسود غليظ الشفاه ، تخدم فلاناً وترعى الغنم ، فقال لقمان : نعم ، لكني أحمل قلباً أبيض ، ويخرج من بين شفتيَّ الغليظتين الكلام العذب الرقيق .

ويكفي لقمان فخراً أن الله تعالى ذكر كلامه ، وحكاه في قرآنه وجعله خالداً يُتْلى ويُتعبَّد به ، ويحفظه الله بحفظه لقرآنه .

ولنا مَلْحظ في قوله تعالى ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ . . ﴾ [لقمان : 18] فكلمة للناس هنا لها مدخل ، وكأن الله تعالى يقول لمن يُصعِّر خده ؛ لا تَدْعُ الناس إلى العصيان والتمرد على أقدار الله بتكبُّرك عليهم وإظهار مزاياك وسَتْر مزاياهم ، فقد تصادف قليلَ الإيمان الذي يتمرد على الله ويعترض على قدره فيه حينما يراك متكبراً متعالياً وهو حقير متواضع ، فإنْ كنت محترف صَعَر و (كييف) تكبُّر ، فليكُنْ ذلك بينك وبين نفسك ، كأن تقف أمام المرآة مثلاً وتفعل ما يحلو لك مما يُشْبع عندك هذا الداء .

فكأن كلمة ﴿ لِلنَّاسِ . . ﴾ [لقمان : 18] تعني : أن الله تعالى يريد أنْ يمنع رؤية الناس لك على هذا الحال ؛ لأنك قد تفتن الضعاف في دينهم وفي رضاهم عن ربهم .

ثم يقول لقمان : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً . . ﴾ [لقمان : 18] المرح هو الاختيال والتبختر ، فربُّكَ لا يمنعك أنْ تمشي في الأرض ، لكن يمنعك أنْ تمشي مِشيْة المتعالي على الناس ، المختال بنفسه ، والله تعالى يأمرنا : ﴿ فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ [الملك : 15]

فالمشي في الأرض مطلوب ، لكن بهيئة خاصة تمشي مَشْياً سوياً معتدلاً ، فعمر – رضي

الله عنه – رأى رجلاً يسير متماوتاً فنهره ، وقال : ما هذا التماوت يا هذا ، وقد وهبك الله عافية ، دَعْها لشيخوختك .

ورأى رجلاً يمشي مشية الشطار – يعني : قُطَّاع الطرق – فنهاه عن القفز أو الجري والإسراع في المشي .

إذن : المطلوب في المشي هيئة الاعتدال ، لذلك سيأتي في قول لقمان : ﴿ واقصد فِي مَشْيِكَ . . . ﴾ [لقمان : 19] يعني : لا تمشِ مشية المتهالك المتماوت ، ولا تقفز قفز أهل الشر وقُطَّاع الطريق .

(120/608)

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : 18] المختال : هو الذي وجد له مزية عند الناس ، والفخور الذي يجد مزية في نفسه ، والله تعالى لا يحب هذا ولا ذاك ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يحكم الناس بمبدأ المساواة ليعلم الناس أنه تعالى ربُّ الجميع ، وهو سبحانه المتكبِّر وحده في الكون ، وإذا كان الكبرياء لله وحده فهذا يحمينا أنْ يتكبّر علينا غيره ، على حدّ قول الناظم :

والسُّجُود الذي تَجْتويه . . . من أُلُوفِ السُّجُودِ فيه نَجَاةُ

فسجودنا جميعاً للإله الحق يحمينا أن نسجد لكل طاغية ولكل متكبر ومتجبر ، فكأن كبرياء الحق – تبارك وتعالى – في صالح العباد .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان لقمان عليه السلام : ﴿ واقصد فِي مَشْيِكَ . . . ﴾

.

القصد : هو الإقبال على الحدث ، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين ، يعني : توسطاً واعتدالاً ، هذا في المشي ﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ . . ﴾ [لقمان : 19] أي : اخفضه وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأذن .

لكن ، لماذا جمع السياق القرآني بين المشي والصوت ؟ قالوا : لأن للإنسان مطلوبات في الحياة ، هذه المطلوبات يصل إليها ، إما بالمشي – فأنا لا أمشي إلى مكان إلا إذا كان لي فيه مصلحة وغرض – وإما بالصوت فإذا لم أستطع المشي إليه ناديته بصوتي .

إذن : إما تذهب إلى مطلوبك ، أو أنْ تستدعيه إليك . والقصد أي التوسط في الأمر مطلوب في كل شيء ؛ لأن كل شيء له طرفان لا بُدَّ أن يكون في أحدهما مبالغة ، وفي الآخرة تقصير ؛ لذلك قالوا : كلا طرفي قصد الأمور ذميم .

ثم يقول سبحانه مُشبِّهاً الصوت المرتفع بصوت الحمار : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ [لقمان : 19] والبعض يفهم هذه الآية فهماً يظلم فيه الحمير ، وعادة ما يتهم

البشرُ الحميرَ بالغباء وبالذلة ، لذلك يقول الشاعر :

ولاَ يُقيم علَى ضيَمْ يُرَادُ به . . . إلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحيِّ والوَتدُ

(121/608)

هذا على الخسفْ مربوطٌ برمته . . . وذَا يُشَدُّ فَلاَ يَرْثى لَهُ أَحَد

ونعيب على الشاعر أن يصف عِيرَ الحي – والمراد الحمار – بالذلة ، ويقرنه في هذه الصفة بالوتد الذي صار مضرب المثل في الذلة حتى قالوا (أذلّ من وتد) لأنك تدقّ عليه بالآلة الثقيلة حتى ينفلق نصفين ، فلا يعترض عليك ، ولا يتبرم ولا يغيثه أحد ، فالحمار مُسخّر ، وليس ذليلاً ، بل هو مذلَّل لك من الله سبحانه .

ولو تأملنا طبيعة الحمير لوجدنا كم هي مظلومة مع البشر ، فالحمار تجعله لحمل السباخ والقاذورات ، وتتركه ينام في الوحل فلا يعترض عليك ، وتريده دابة للركوب فتنظفه وتضع عليه السِّرْج ، وفي فمه اللجام ، فيسرع بك إلى حيث تريد دون تذمر أو اعتراض .

وقالوا في الحكمة من علو صوت الحمار حين ينهق : أن الحمار قصير غير مرتفع كالجمل مثلاً ، وإذا خرج لطلب المرعى ربما ستره تلّ أو شجرة فلا يهتدي إليه صاحبه إلا إذا نهق ، فكأن صوته آلة من آلات البادية الطبيعية ولازمة من لوازمه الضرورية التي تناسب طبيعته

.

لذلك يجب أن نفهم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ [لقمان : 19] فنهيق الحمار ليس مُنكَراً من الحمار ، إنما المنكر أن يشبه صوت الإنسان صوت الحمار ، فكأن نهيق الحمار كمال فيه ، وصوتك الذي يشبهه مُنكَر مذموم فيك ، وإلا فما ذنب الحمار ؟

إنك تلحظ الجمل مثلاً وهو أضخم وأقوى من الحمار إذا حمَّلته حِمْلاً فإنه (ينعَّر) إذا ثقل عليه ، أما الحمار فتُحمّله فوق طاقته فيحمل دون أنْ يتكلم أو يبدي اعتراضاً ، الحمار بحكم ما جعل الله فيه من الغريزة ينظر مثلاً إلى (القناة) فإنْ كانت في طاقته قفز ، وإنْ كانت فوق طاقته امتنع مهما أجبرته على عبورها .

(122/608)

أما الإنسان فيدعوه غروره بنفسه أنْ يتحمّل مالَا يطيق . ويُقال : إن الحمار إذا نهق فإنه يرى شيطاناً ، وعلمنا بالتجربة أن الحيوانات ومنها الحمير تشعر بالزلزال قبل وقوعه ، وأنها تقطّع قيودها وتفرّ إلى الخلاء ، وقد لوحظ هذا في زلزال أغادير بالمغرب ، ولاحظناه في زلزال عام 1992م عندما هاجت الحيوانات في حديقة الحيوان قبيل الزلزال .

ثم إن الحمار إنْ سار بك في طريق مهما كان طويلاً فإنه يعود بك من نفس الطريق دون أنْ تُوجّهه أنت ، ويذهب إليه مرة أخرى دون أنْ يتعدّاه ، لكن المتحاملين على الحمير يقولون : ومع ذلك هو حمار لأنه لا يتصرف ، إنما يضع الخطوة على الخطوة ، ونحن نقول : بل يُمدح الحمار حتى وإنْ لم يتصرف ؛ لأنه محكوم بالغريزة .

كذلك الحال في قول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً . . . ﴾ [الجمعة : 5]

فمتى نثبت الفعل وننفيه في آن واحد ؟ المعنى : حملوها أي : عرفوها وحفظوها في كتبهم وفي صدورهم ، ولم يحملوها أي : لم يؤدوا حق حملها ولم يعملوا بها ، مثَلهم في ذلك ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً . . . ﴾ [الجمعة : 5] فهل يُعَدُّ هذا ذَماً للحمار ؟ لا ، لأن الحمار مهمته الحمل فحسب ، إنما يُذمّ منهم أَنْ يحملوا كتاب الله ولا يعملوا به ، فالحمار مهمته أنْ يحمل ، وأنت مهمتك أنْ تفقه ما حملت وأنْ تؤديه .

فالاعتدال في الصوت أمر ينبغي أن يتحلى به المؤمن حتى في الصلاة وفي التعبد يُعلّمنا الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وابتغ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 110] أما ما تسمعه من (الجعر) في مكبرات الصوت والنُّواح طوال الليل فلا ينالنا منه إلا سخط المريض وسخط صاحب العمل وغيرهم ، ولقد تعمدنا عمل إحصاء فوجدنا أن الذين يأتون إلى المسجد هم هم لم يزيدوا شيئاً ب (الميكروفونات) .

(123/608)

كذلك الذين يعرفون أصواتهم بقراءة القرآن في المساجد فيشغلون الناس ، وينبغي أن نترك كل إنسان يتقرب إلى الله بما يخفّ على نفسه : هذا يريد أنْ يصلي ، وهذا يريد أن يُسبِّح أو يستغفر ، وهذا يريد أنْ يقرأ في كتاب الله ، فلماذا تحمل الناس على تطوعك أنت ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(124/608)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (لقمان : 17) ، (وقال في سورة) الشورى : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (الشورى : 43) ، يسأل عن مقتضى توكيد الخبر في هذه الآية وسقوط التوكيد من الأولى ؟

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن آية الشورى ، لما دخلها معنى القسم ، وكانت على تقديره ، إذ اللام في قوله : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ) توطئة له ودالة على تضمين الآية معناه ، وناسب ذلك زيادة لام التأكيد في خبر إن ، وذلك ظاهر في معنى الآية . وأما آية لقمان فقوله فيها : (إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) مجرد إخبار عن حال ما وقعت الوصية به ، ولا مدخل للقسم هنا ولا معنى له ، فلم تدخل لام التأكيد في الخبر إذ ليس في الآية معنى قسم يستدعيها ، ولا وقع في اللفظ ما يطابقها ، فورد كل على ما يجب ويناسب ، ولو قدر العكس لما ناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 402 . 403 ﴾

(125/608)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : كان حبشياً " .

وأخرج ابن أبي شيبة في الزهد وأحمد وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين وابن جرير وابن

المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان لقمان عليه السلام عبداً حبشياً نجاراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : قلت لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما : ما انتهى إليكم من شأن لقمان عليه السلام ؟ قال : كان قصيراً ، أفطس من النوبة .

وأخرج الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم . والنجاشي . وبلال المؤذن " قال الطبراني : أراد الحبشة .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سادات السودان أربعة : لقمان الحبشي . والنجاشي . وبلال . ومهجع " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ، ومنعه النبوة .

وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب رضي الله عنه يسأله ، فقال له سعيد رضي الله عنه : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال . ومهجع مولى عمر بن الخطاب . ولقمان الحكيم كان

أسود نوبياً ذا مشافر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان لقمان عليه السلام عبداً أسود .

(126/608)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال : كان لقمان عليه السلام عبداً حبشياً ، غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، قاضياً لبني إسرائيل .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن المنذر عن سعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنه أن لقمان عليه السلام كان خياطاً .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان لقمان عليه السلام من أهون مملوكيه على سيده ، وإن أول ما رؤي من حكمته أنه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج فأطال فيه الجلوس ، فناداه لقمان أن طول الجلوس على الحاجة ينجع منه الكبد ، ويكون منه الباسور ، ويصعد الحر إلى الرأس ، فأجلس هوينا وأخرج ، فخرج فكتب حكمته على باب الحش قال : وسكر مولاه ، فخاطر قوماً على أن يشرب ماء بحيرة ، فلما أفاق عرف ما وقع منه ،

فدعا لقمان فقال : لمثل هذا كنت أخبؤك .

فقال : اجمعهم ، فلما اجتمعوا قال : على أي شيء خاطرتموه ؟ قالوا : على أن يشرب ماء هذه البحيرة قال : فإن لها مواد فاحبسوا موادها عنها قالوا : كيف نستطيع أن نحبس موادها ؟ قال : وكيف يستطيع أن يشربها ولها مواد ؟

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ قال : يعني العقل ، والفهم ، والفطنة . من غير نبوّة .

(127/608)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لقمان كان عبداً كثير التفكر ، حسن الظن ، كثير الصمت ، أحب الله فأحبه الله تعالى ، فمن عليه بالحكمة ، نودي بالخلافة قبل داود عليه السلام ، فقيل له : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : إن أجبرني ربي عز وجل قبلت ، فإني أعلم أنه إن فعل ذلك أعانني . وعلمني . وعصمني . وإن خيرني ربي قبلت العافية ، ولم أسأل البلاء ، فقالت الملائكة : يا لقمان لم ؟ ! قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، فيخذل أو

يعان ، فإن أصاب فبالحري أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكون في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً شائعاً ، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ولا يصير إلى ملك الآخرة . فعجبت الملائكة من حسن منطقه ، فنام نومة فغط بالحكمة غطاً فانتبه فتكلم بها ، ثم نودي داود عليه السلام بعده بالخلافة ، فقبلها ولم يشترط شرط لقمان ، فأهوى في الخطيئة ، فصفح عنه وتجاوز . وكان لقمان يؤازره بعلمه وحكمته فقال داود عليه السلام : طوبى لك يا لقمان ، أوتيت الحكمة فصرفت عنك البلية ، وأوتي داود الخلافة فابتلى بالذنب والفتنة " .

وأخرج الفريابي وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ قال : العقل ، والفقه ، والاصابة في القول في نبوّه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ قال : الفقه في الإِسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

(128/608)

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : خير الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوّة . فاختار الحكمة على النبوّة ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم ، فذر عليه الحكمة ، فاصبح ينطق بها فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوّة ، وقد خيرك ربك ؟ فقال : لو أنه أرسل إلي بالنبوّة عزمة لرجوت فيها الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيرني ، فخفت أن أضعف عن النبوّة ، فكانت الحكمة أحب إلي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه أنه سئل أكان لقمان عليه السلام نبياً ؟ قال : لا . لم يلوح إليه ، وكان رجلاً صالحاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله تعالى عنه قال : كان لقمان عليه السلام نبياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ليث رضي الله تعالى عنه قال : كانت حكمة لقمان عليه السلام نبوّة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله تعالى عنه قال : كان لقمان عليه السلام رجلاً صالحاً ولم يكن نبياً .

وأخرج الطبراني والرامهرمزي في الأمثال بسند ضعيف عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لقمان عليه السلام قال لابنه : يا بني عليك بمجالس العلماء ، واستمع كلام الحكماء ، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما تحيا

الأرض الميتة بوابل المطر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه ذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال . ولا حسب . ولا خصال . ولكنه كان رجلاً صمصامة سكيتاً ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ، ولا يتنحنح ، ولا يبول ، ولا يتغوّط ، ولا يغتسل ، ولا يعبث ، ولا يضحك ، كان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول : حكمة يستعيدها إياه ، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكماء لينظر ويتفكر ويعتبر . فبذلك أوتي ما أوتي .

(129/608)

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وابن جرير عن عمر بن قيس رضي الله عنه قال : مر رجل بلقمان عليه السلام والناس عنده فقال : ألست عبد بني فلان ؟ قال : بلى . قال : ألست الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا ؟ قال : بلى . قال : فما الذي بلغ بك ما أرى ؟ قال : تقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وطول السكوت عما لا يعنيني .

وأخرج أحمد في الزهد عن محمد بن جحادة رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي والحاكم في الكني والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عمر

رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في نعت الخائفين عن الفضل الرقاشي قال : ما زال لقمان يعظ ابنه حتى انشقت مرارته فمات .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن حفص بن عمر الكندي قال : وضع لقمان عليه السلام جراباً من خردل إلى جنبه ، وجعل يعظ ابنه موعظة ويخرج خردلة ، فنفذ الخردل فقال : يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظتها جبلاً لتفطر .

فتفطر ابنه .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني إياك والتقنع فإنها مخوفة بالليل ، ومذلة بالنهار " .

وأخرج العسكري في الأمثال والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس ؛ أن لقمان عليه السلام كان عبداً لداود ، وهو يسرد الدرع ، فجعل يفتله هكذا بيده ، فجعل لقمان عليه السلام يتعجب ويريد أن يسأله وتمنعه حكمته أن يسأله ، فلما فرغ منها صبها على نفسه وقال : نعم درع الحرب هذه . فقال لقمان : الصمت من الحكمة وقليل فاعله ، كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتني .

وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإِيمان عن عون بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني ارج الله رجاء لا تأمن فيه مكره ، وخف الله مخافة لا تيأس بها من رحمته ، فقال : يا أبتاه وكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد ؟ قال : المؤمن كذا له قلبان . قلب يرجو به . وقلب يخاف به .

وأخرج البيهقي عن سليمان التيمي رضي الله تعالى عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني أكثر من قول : رب اغفر لي ، فإن لله ساعة لا يرد فيها سائل .

وأخرج البيهقي والصابوني في المائتين عن عمر بن سليم رضي الله عنه قال : بلغني أن لقمان عليه السلام قال لابنه : يا بني حملت الحجارة ، والحديد ، والحمل الثقيل ، فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء ، يا بني إني قد ذقت المر كله فلم أذق شيئاً أمر من الفقر .

وأخرج ابن أبي الدنيا في اليقين عن الحسن رضي الله عنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن العمل لا يستطاع إلا باليقين ، ومن يضعف يقينه يضعف عمله ، يا بني إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريبة فاغلبه باليقين والنصيحة ، وإذا جاءك من قبل الكسل والسآمة فاغلبه بذكر القبر والقيامة ، وإذا جاءك من قبل الرغبة والرهبة فاخبره أن الدنيا مفارقة

متروكة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن وهب رضي الله تعالى عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني اتخذ تقوى الله تجارة يأتك الربح من غير بضاعة .

(131/608)

وأخرج ابن أبي الدنيا في الرضا عن سعيد بن المسيب قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته إلا جعلت في الضمير منك أن ذلك خير لك . قال : أهذه فلا أقدر أعطيكها دون أن أعلم ما قلت كما قلت ، قال : يا بني فإن الله قد بعث نبياً . هلم حتى تأتيه فصدقه . قال : اذهب يا أبت . فخرج على حمار وابنه على حمار ، وتزودا ثم سارا أياماً وليالي حتى تلقتهما مفازة ، فأخذا أهبتهما لها فدخلاها ، فسارا ما شاء الله حتى ظهرا وقد تعالى النهار ، واشتد الحر ، ونفد الماء والزاد ، واستبطآ حماريهما ، فنزلا فجعلا يشتدان على سَوْقِهما ، فبينما هما كذلك إذ نظر لقمان أمامه فإذا هم بسواد ودخان ، فقال في نفسه : السواد : الشجر .

والدخان : العمران والناس .

فبينما هما كذلك يشتدان إذ وطىء ابن لقمان على عظم في الطريق ، فخر مغشياً عليه ،

فوثب إليه لقمان عليه السلام ، فضمه إلى صدره واستخرج العظم بأسنانه ، ثم نظر إليه فذرفت عيناه فقال : يا أبت أنت تبكي وأنت تقول : هذا خير لي ، كيف يكون هذا خيراً لي ؟ وقد نفد الطعام والماء ، وبقيت أنا وأنت في هذا المكان ، فإن ذهبت وتركتني على حالي ذهبت بهم وغم ما بقيت ، وان أقمت معي متنا جميعاً فقال : يا بني . أما بكائي فرقة الوالدين ، وأما ما قلت كيف يكون هذا خيراً لي ؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به ، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ، ثم نظر لقمان أمامه فلم يَرَ ذلك الدخان والسواد .

(132/608)

وإذا بشخص أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بيض ، وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحاً ، فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريباً فتوارى عنه ، ثم صاح به : أنت لقمان ؟ قال : نعم . قال : أنت الحكيم ؟ قال : كذلك . فقال : ما قال لك ابنك ؟ قال : يا عبد الله من أنت ؟ ! اسمع كلامك ولا أرى وجهك قال : أنا جبريل . أمرني ربي بخسف هذه المدينة ومن فيها ، فاخبرت انكما تريدانها ، فدعوت ربي أن يحبسكما عنها بما شاء ، فحبسكما بما ابتلي به ابنك ، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسفت ، ثم مسح جبريل عليه السلام يده على

قدم الغلام فاستوى قائماً ، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعاماً ، وعلى الذين كان فيه الماء فامتلأ ماء ، ثم حملهما وحماريهما فزجل بهما كما يزجل الطير ، فإذا هما في الدار الذي خرجا بعد أيام وليال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح اللخمي ؛ أنه لما وعظ لقمان عليه السلام ابنه قال : ﴿ إنها إن تك . . . ﴾ . أخذ حبة من خردل فأتى بها إلى اليرموك ، فألقاها في عرضه ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم ذكر وبسط يده فأقبل بها ذباب حتى وضعها في راحته .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن مالك رضي الله عنه قال : بلغني أن لقمان عليه السلام قال لابنه : ليس غنى كصحة ، ولا نعيم كطيب نفس .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : من كذب ذهب ماء وجهه ، ومن ساء خلقه كثر غمه ، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والبيهقي عن الحسن رضي الله تعالى عنه أن لقمان قال لابنه : يا بني حملت الجندل .

(133/608)

والحديد . وكل شيء ثقيل . فلم أحمل شيئاً هو أثقل من جار السوء ، وذقت المر فلم أذق شيئاً هو أمر من الفقر ، يا بني لا ترسل رسولك جاهلاً ، فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك ، يا بني إياك والكذب ، فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يقلي صاحبه ، يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس ، فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس تشهيك الدنيا ، يا بني لا تأكل شبعاً على شبع ، فإنك إن تلقه للكلب خير من أن تأكله ، يا بني لا تكن حلواً فتبلع ، ولا مراً فتلفظ .

وأخرج البيهقي عن الحسن رضي الله عنه أن لقمان عليه السلام قال لابنه : يا بني لا تكونن أعجز من هذا الديك الذي يصوّت بالأسحار ، وأنت نائم على فراشك .

وأخرج عبد الله في زوائده والبيهقي عن عثمان بن زائدة رضي الله تعالى عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي عن سيار بن الحكم قال : قيل للقمان عليه السلام : ما حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما قد كفيت ، ولا أتكلف ما لا يعنيني .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي عثمان الجعدي رجل من أهل البصرة قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله ، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهد فيك .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عكرمة رضي الله عنه أن لقمان عليه السلام قال : لا

تنكح أمة غيرك ، فتورث بنيك حزناً طويلاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن محمد بن واسع رضي الله عنه قال : كان لقمان عليه السلام يقول لابنه : يا بني اتق الله ، ولا تر الناس أنك تخشى الله ليكرمك بذلك وقلبك فاجر .

(134/608)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعي رضي الله تعالى عنه قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له سيده : اذبح لي شاة . فذبح له شاة فقال له : ائتني بأطيب مضغتين فيها . فأتاه باللسان والقلب فقال : أما كان شيء أطيب من هذين ؟ قال : لا . فسكت عنه ما سكت ، ثم قال له : اذبح لي شاة . فذبح له شاة فقال له : ألق أخبثها مضغتين . فرمى باللسان والقلب فقال أمرتك بأن تأتي بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب ، فقال : إنه ليس شيء بأطيب منها إذا طابا ، ولا بأخبث منهما إذا خبثا .

وأخرج عبد الله في زوائده عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام : ألا أن يد الله على أفواه الحكماء .

لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له .

وأخرج عبد الله عن سفيان رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني ما ندمت على الصمت قط وإن كان الكلام من فضة كان السكوت من ذهب .

وأخرج أحمد عن قتادة رضي الله عنه أن لقمان عليه السلام قال لابنه : يا بني اعتزل الشر كيما يعتزلك ، فإن الشر للشر خلق .

وأخرج عن هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة – يعني حكمة لقمان عليه السلام – يا بني إياك والرغب كل الرغب ، فإن الرغب كل الرغب ينفذ القرب من القرب ، ويترك الحلم مثل الرطب ، يا بني إياك وشدة الغضب ، فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم .

(135/608)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه وهو يعظه : يا بني اختر المجالس على عينك ، فإذا رأيت المجلس يذكر الله عز وجل فيه فاجلس معهم ، فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك ، وإن تك غبياً يعلموك ، وان يطلع الله عز وجل إليهم برحمة تصبك معهم ، يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر فيه الله

فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك ، وإن تك عَيِياً يزيدوك عياً ، وان يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم ، ويا بني لا يغيظنك امرؤ رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين ، فإن له عند الله قاتلاً لا يموت .

وأخرج عبد الله في زوائده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور في أمرك العلماء .

وأخرج أحمد عن هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة – يعني حكمة لقمان – لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وهجك بسيطاً ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء وقال : مكتوب في التوراة كما تَرحمون تُرحمون . وقال : مكتوب في الحكمة : كما تَزْرَعُونَ تَحْصِدُون . وقال : مكتوب في الحكمة : أحب خليلك وخليل أبيك .

وأخرج أحمد عن أبي قلابة رضي الله عنه قال : قيل للقمان عليه السلام : أي الناس أصبر ؟ قال : صبر لا معه أذى . قيل : فأي الناس أعلم ؟ قال : من ازداد من علم الناس إلى علمه . قيل فأي الناس خير ؟ قال : الغني . قيل : الغني من المال ؟ قال : لا . ولكن الغني إذا التمس عنده خير وجدوا لا أغنى نفسه عن الناس .

وأخرج أحمد عن سفيان رضي الله عنه قال : قيل للقمان عليه السلام : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال : وجدت في بعض الحكمة . يبرد الله عظام الذين يتكلمون باهواء الناس ، ووجدت في الحكمة : لا خير لك في أن تتعلم ما لم تعلم إذا لم تعمل بما قد علمت ، فإن مثل ذلك رجل احتطب حطباً فحمل حزمة ، فذهب يحملها ، فعجز عنها فضم إليها أخرى .

وأخرج أحمد عن محمد بن جحادة رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام : يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم .

وأخرج أحمد عن سفيان رضي الله عنه عمن أخبره أن لقمان عليه السلام قال لابنه : أي بني إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثير ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله ، وحشوها الإيمان بالله ، وشراعها التوكل على الله ، لعلك أن تنجو ، ولا أراك ناجياً .

وأخرج عبد الله في زوائده عن عوف بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني إني حملت الجندل والحديد فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء ، وذقت المرارة كلها فلم أذق أشد من الفقر .

وأخرج أحمد عن شرحبيل بن مسلم رضي الله عنه أن لقمان قال : أقصر من اللجاجة ، ولا أنطق فيما لا يعنيني ، ولا أكون مضحاكاً من غير عجب ، ولا مشاء إلى غير أرب .

وأخرج أحمد عن أبي الجلد رضي الله عنه قال : قرأت في الحكمة : من كان له من نفسه

واعظاً كان له من الله حافظاً ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن دينار رضي الله عنه أن لقمان عليه السلام قال لابنه : يا بني انزل نفسك منزلة من لا حاجة له بك ، ولا بد لك منه ، يا بني كن كمن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب ذمهم ، فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة .

وأخرج أحمد عن ابن أبي يحيى رضي الله تعالى عنه قال : قال لقمان لابنه : أي بني أن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

(137/608)

وأخرج أحمد عن معاوية بن قرة قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني جالس الصالحين من عباد الله فإنك تصيب بمجالستهم خيراً ، ولعله أن يكون آخر ذلك تنزل عليهم الرحمة فتصيبك معهم ، يا بني لا تجالس الأشرار فإنك لا يصبك من مجالستهم خير ، ولعله أن يكون في آخر ذلك أن تنزل عليهم عقوبة فتصيبك معهم .

وأخرج أحمد عن ابن أبي نجيح رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام : الصمت حكم وقليل فاعله فقال طاوس رضي الله عنه : أي أبا نجيح من قال واتقى الله خير ممن

صمت واتقى الله .

وأخرج أحمد عن عون رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني إذا انتهيت إلى نادي قوم فارمهم بسهم الإِسلام ، ثم اجلس في ناحيتهم ، فإن أفاضوا في ذكر الله فاجلس معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم .

وأخرج عبد الله في زوائده عن عبد الله بن دينار رضي الله تعالى عنه : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام في الطريق فقال : ما فعل أبي ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمري قال : ما فعلت أمي ؟ قال : ماتت . قال : ذهب همي قال : ما فعلت امرأتي ؟ قال : ماتت قال : جدد فراشي قال : ما فعلت أختي ؟ قال : ماتت قال : سترت عورتي قال : ما فعل أخي ؟ قال : مات قال : انقطع ظهري .

وأخرج عبد الله في زوائده عن عبد الوهاب بن بخت المكي رضي الله تعالى عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله ليحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء .

وأخرج عن عبد الله بن قيس رضي الله تعالى عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني امتنع مما يخرج من فيك فإنك ما سكت سالم ، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك .

وأخرج أحمد عن محمد بن واسع رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم .

وأخرج أحمد عن بكر المزني رضي الله عنه قال : قال لقمان عليه السلام : ضرب الوالد لولده كالماء للزرع .

وأخرج القالي في أماليه عن العتبي قال : بلغني أن لقمان عليه السلام كان يقول : ثلاثة لا يعرفون إلا ثلاثة مواطن : الحليم عند الغضب . والشجاع عند الحرب . وأخوك عند حاجتك إليه .

وأخرج وكيع في الغرر عن الحنظلي رضي الله عنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فاغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره .

وأخرج الدارقطني عن مالك بن أنس رضي الله عنه قال : بلغني أن لقمان عليه السلام قال لابنه : يا بني إنك منذ نزلت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الأخرى ، فَدَارٌ أنت إليها تسير أقرب من دار أنت عنها تُبَاعِد .

وأخرج ابن المبارك عن ابن أبي مليكة رضي الله عنه أن لقمان عليه السلام كان يقول : اللهم لا تجعل أصحابي الغافلين ، إذا ذكرتك لم يعينوني ، وإذا نسيتك لم يذكروني ، وإذا أمرت لم يطيعوني ، وإن صمت أحزنوني .

وأخرج الحكيم الترمذي عن معتمر عن أبيه أن لقمان عليه السلام قال لابنه : يا بني عود لسانك أن يقول : اللهم اغفر لي . فإن لله ساعة لا يرد فيها الدعاء .

وأخرج الخطيب عن الحسن رضي الله تعالى عنه قال : قال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني إياك والدَّيْن فإنه ذُلُّ النهارِ هَمُّ الليلِ .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإِيمان عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته ، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته .

وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه قال : قال لقمان عليه السلام : إذا جاءك الرجل وقد سقطت عيناه فلا تقض له حتى يأتي خصمه قال : يقول لعله أن يأتي وقد نزع أربعة أعين .

(139/608)

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الحسن رضي الله عنه قال : قال الله عز وجل " يا ابن آدم خلقتك وتعبد غيري ، وتدعو إلي وتفر مني ، وتذكرني وتنساني هذا أظلم ظلم في الأرض " ثم يتلو الحسن ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)

أخرج أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي قال : إن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هذه الآية ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ كنت رجلاً براً بأمي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد وما هذا الذي أراك قد أحدثْتَ ؟ لتَدَعَنَّ دينَك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعَيَّرَ بي ، فيُقال يا قاتل أمه قلت : يا أمه لا تفعلي فإني لا أدع ديني هذا لشيء ، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فاصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة وقد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت . فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن عساكر عن سعد قال : نزلت فيَّ أربع آيات : الأنفال ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ والوصية والخمر .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي . . . ﴾ .

وأخرج ابن سعد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال : جئت من الرمي فإذا الناس مجتمعون على أمي حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وعلى أخي عامر حين أسلم فقلت : ما شأن الناس ! فقالوا : هذه أمك قد أخذت أخاك عامراً تعطي الله عهداً : أن لا يظلها ظل ، ولا تأكل طعاماً ، ولا تشرب شراباً حتى يدع الصباوة . فأقبل سعد رضي الله عنه حتى تخلص إليها فقال : علي يا أمه فاحلفي قالت : لم ؟ قال : أن لا تستظلي في ظل ، ولا تأكلي طعاماً ، ولا تشربي شراباً ، حتى تريْ مقعدك من النار : فقالت : إنما أحلف على ابني البر . فأنزل الله ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وهناً على وهن ﴾ قال : شدة بعد شدة ، وخلقاً بعد خلق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني في قوله ﴿ وهناً على وهن ﴾ قال : ضعفاً على ضعف .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وهناً على وهن ﴾ قال : مشقة وهو الولد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وهناً على وهن ﴾

قال : الولد على وهن ؟ قال : الوالدة وضعفها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ قال : تعودهما إذا مرضا ، وتتبعهما إذا ماتا ، وتواسيهما مما أعطاك الله ﴿ واتبع سبيل من أناب إليَّ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ واتبع سبيل من أناب إليَّ ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ قال : من خير أو شر ﴿ فتكن في صخرة ﴾ قال : في جبل .

(141/608)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الأرض على نون ، والنون على بحر ، والبحر على صخرة خضراء ، فخضرة الماء من تلك الصخرة قال : والصخرة على قرن ثور ، وذلك الثور على الثرى ، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله . فذلك قوله : ﴿ الله له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ [طه : 6] فجميع ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى في حرم الرحمن ، فإذا كان يوم القيامة لم

يبق شيء من خلقه ، قال : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ فيهتز ما في السموات والأرض فيجيب هو نفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ يأت بها الله ﴾ قال : يعلمها الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الله لطيف ﴾ قال : باستخراجها . قال : بمستقرها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وأمر بالمعروف ﴾ يعني بالتوحيد ﴿ وانه عن المنكر ﴾ يعني عن الشرك ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ في أمرهما يقول : إذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر ، وأصابك في ذلك أذى وشدة ، فاصبر عليه ﴿ إن ذلك ﴾ يعني هذا الصبر على الأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ من عزم الأمور ﴾ يعني من حق الأمور التي أمر الله تعالى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ من الأذى في ذلك ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ يقول : مما عزم الله عليه من الأمور ، ومما أمر الله به من الأمور .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر والخطيب في تالي التلخيص عن أبي جعفر الخطمي رضي الله عنه أن جده عمير بن حبيب وكانت له صحبة أوصى بنيه قال : يا بني إياكم ومجالسة السفهاء فإن مجالستهم داء ، إنه من يحلم عن السفيه يسر بحلمه ، ومن يحبه يندم ، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير ، ومن يصبر على ما يكره يدرك ما يحب ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى ، وليثق بالثواب من الله ، ومن يثق بالثواب من الله لا يجد مس الأذى .

وأخرج الطبراني وابن عدي وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ قال : ليّ الشدق " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ يقول : لا تتكبر . فتحقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ قال : هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ قال : الصدود والإِعراض بالوجه عن الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ يقول : لا تعرض وجهك عن فقراء الناس تكبراً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن الربيع بن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ قال : ليكن الفقير والغني عندك في العلم سواء ، وقد عوتب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ عبس وتولى ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ واقصد في مشيك ﴾ قال : تواضع .

(143/608)

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن يزيد بن أبي حبيب رضي الله عنه في قوله ﴿ واقصد في مشيك ﴾ قال : يعني السرعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ واقصد في مشيك ﴾ يقول : لا تختال : ﴿ واغضض من صوتك ﴾ قال : اخفض من صوتك عن الملأ ﴿ إن

أنكر الأصوات ﴾ قال : أقبح الأصوات ﴿ لصوت الحمير ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ واقصد في مشيك ﴾ قال : نهاه عن الخيلاء ﴿ واغضض من صوتك ﴾ قال : أمره بالاقتصاد في صوته ﴿ إن أنكر الأصوات ﴾ قال : أقبح الأصوات ﴿ لصوت الحمير ﴾ قال : أوّله زفير وآخره شهيق .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ قال : أنكرها على السمع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري رضي الله عنه قال : صياح كل شيء تسبيحه إلا الحمار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه قال : لو كان رفع الصوت خيراً ما جعله الله للحمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(144/608)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ ﴾ :

ضميرُ القصةِ . والجملةُ الشرطيةُ مفسِّرةٌ للضميرِ . وتقدَّم أنَّ نافعاً يقرأُ " مثْقال " بالرفع على أنَّ "كان" تامةٌ وهو فاعلُها . وعلى هذا فيُقال : لِمَ لَحِقَتْ فعلَه تاءُ التأنيث ؟ قيل : لإضافته إلى مؤنث ، ولأنه بمعنى : زِنَةُ حَبَّة . وجَوَّز الزمخشري في ضمير " إنها " أَنْ تكونَ للهَنَةِ من السَّيِّئاتِ أو الإحسان في قراءةِ مَنْ نصب " مِثْقال " . وقيل : الضميرُ يعودُ على ما يُفْهَمُ مِنْ سياقِ الكلامِ أي : إنَّ التي سألْتَ عنها إنْ تَكُ . وفي التفسير : أنه سأل أباه : أرأيتَ الحبة تقع في مَغاصِ البحر : أيعلُمها اللَّه ؟

وقرأ عبد الكريم الجَزَرِيُّ " فَتَكِنَّ " بكسرِ الكاف وتشديد النونِ مفتوحةً أي : فتستقرَّ . وقرأ محمد بن أبي فجة البعلبكي " فَتُكَنَّ " كذلك إلاَّ أنه مبنيٌّ للمفعول . وقتادة " فَتَكِنُ " بكسرِ الكاف وتخفيف النونِ مضارعَ " وَكَنَ " أي : استقرَّ في وَكْنِه ووَكْرِه .

قوله : ﴿ مِنْ عَزْمِ ﴾ : عَزْم مصدرٌ . يجوز أَنْ يكونَ بمعنى مفعول أي : مِنْ معزوماتِ الأمورِ أو بمعنى عازِم كقولِه : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ [محمد : 21] وهو مجازٌ بليغٌ . وزعَم المبرد أنَّ العينَ تُبْدَلُ حاءً فقال : حَزْمٌ وعَزْمٌ . والصحيحُ أنهما مادَّتان مختلفتان اتَّفَقتا في المعنى .

قوله : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ ﴾ : قرأ نافعٌ وأبو عمرو والأخَوان " تَصاعَرَ " بألفٍ وتخفيفِ العينِ . والباقون دون ألفٍ وتشديد العين ، والرسمُ يَحْتَمِلُهما ؛ فإنَّ الرسمَ بغيرِ ألفٍ . وهما لغتان

: لغةُ الحجازِ التخفيفُ ، وتميمٌ التثقيلُ . فمِن التثقيلِ قوله :

3657 وكُنَّا إذا الجبارُ صَعَّرَ خَدَّه . . . أقَمْنا له مِنْ مَيْلِه فَيُقَوَّمُ

ويقال أيضاً : تَصَعَّر . قال :

(145/608)

3658 . . . . . أَقَمْنا له مِنْ خَدِّه المُتَصَعِّرِ

وهو من المَيْل ؛ وذلك أنَّ المتكبِّر يَميل بخَدِّه تكبُّراً كقوله ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ [الحج : 9] . قال أبو عبيدة : " أصلُه من الصَّعَر ، داءٌ يأخُذُ الإبلَ في أعناقِها فتميلُ وتَلْتوي " . وتفسيرُ اليزيديِّ له بأنَه التَّشَدُّقُ في الكلامِ لا يوافِقُ الآيةَ هنا .

قوله : ﴿ واقصد ﴾ : هذا قاصِرٌ بمعنى اقتصِدْ واسْلُكْ الطريقةَ الوُسْطى بين ذلك قَواما . وقُرِئ " وأَقْصِدْ " بهمزةِ قطعٍ ، مِنْ أَقْصَدَ إذا سَدَّدَ سهمَه للرَّمْيَةِ .

قوله : " مِنْ صَوْتِك " تبعيضيَّةٌ . وعند الأخفش يجوز أَنْ تكونَ مزيدةً . ويؤيِّدُه ﴿ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ ﴾ [الحجرات : 3] وقيل : " مِنْ صوتِك " صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ أي : شيئاً مِنْ صوتِك وكانت الجاهليةُ يتمدَّحون برفعِ الصوتِ قال :

3659 جَهيرُ الكلامِ جَهيرُ العُطاس . . . جَهيرُ الرُّواءِ جَهيرُ النِّعَمْ

قوله : " إنَّ أَنْكَرَ " قيل : " أنكر " مبنيٌّ للمفعولِ نحو : " أَشْغَلُ مِنْ ذاتِ النَّحْيَيْن " . وهو مختلَفٌ فيه . ووُحّد " صوت " لأنه يُرادُ به الجنسُ ولإضافتِه لجمع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 64.66 ﴾

(146/608)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمةُ فلا محالةَ تصل إلى المقسوم له بغير مرية . . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ : عالم بدقائق الأمور وخفاياها .

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17)

الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه ، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك ، ومنْ لا حُكْمَ له عَلَى نَفسه لا ينفذ حكمه

على غيره .

والمعروف الذي يجب الأمرُ به و ما يُوَصِّلُ العبدَ إلى الله ، والمنكرُ الذي يجب النهي عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله .

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ تنبيهٌ عَلَى أنَّ منْ قام بحق امْتُحِنَ في الله ؛ فسبيله أنْ يصبرَ لله – فإنْ منْ صبرَ لله لا يَخسر عَلَى الله .

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18)

يعني لا تتكبرْ عَلَى الناسِ ، وطالِعْهم من حيث النسبة والتحقق بأنكَ بمشهدٍ منْ مولاك .

ومَنْ عَلِمَ أنّ مولاه ينظر إليه لا يتكبرُ ولا يتطاول بل يتخاضع ويتضاءل .

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

كُنْ فانياً عن شواهدك ، مُصطَلَماً عن صَوْلَتك ، مأخوذاً عن حَوْلِكَ وقوتك ، مُنْتَشِقاً مما استولى عليك من كشوفات سِرّك .

وانظر مَنْ الذي يسمع صوتَكَ حتى تستفيق من خمار غفلتك ؛ ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ : في الإشارة هو الذي يتكلم فى لسان المعرفة من غير إذنٍ من الحقِّ .

وقالوا : إنه الصوفيُّ يتكلم قبل أوانه .

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 132 . 133 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

التفسير : لما قال في آخر السورة المتقدمة ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الزمر : 27] وكان في إشارة إلى إعجاز القرآن ، ودل ما بعده إلى تمام السورة على أنهم مصرون على كفرهم ، أكد تلك المعاني في أول هذه السورة . وتفسيره إلى ﴿ المفلحون ﴾ كما في أول البقرة . إلا قوله ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ فإنه مذكور في أول " يونس " . وحيث زاد ههنا ﴿ ورحمة ﴾ قال ﴿ للمحسنين ﴾ فإن الإحسان مرتبة فوق التقوى لقوله صلى الله عليه وسلم " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه " ولقوله سبحانه ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [النحل : 128] ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] ومما يؤيد ما قلنا أنه لم يقل هنا ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : 3] لئلا يلزم شبه التكرار ، فإن الإحسان لا مزيد عليه في باب

العقائد . ثم بين حال المعرضين عن الحق بقوله ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ الإضافة بمعنى " من " أي الحديث الذي هو لهو ومنكر .

(148/608)

وجوز في الكشاف أن تكون " من " للتبعيض أي يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه وفيه نظر ، لأنه يصح هذا التأويل في قولنا " خاتم فضة " وليس بمشهور . قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحرث وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً . وقيل : كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ويقول : هذا خير مما يدعوك محمد إليه من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . فعلى هذا معنى ﴿ ليضل ﴾ بضم الياء ظاهر ، ومن قرأ بالفتح فمعناه الثبات على الضلال أو الإضلال نوع من الضلال . وقوله ﴿ بغير علم ﴾ متعلق ب ﴿ يشتري ﴾ كقوله ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ [البقرة : 16] أي للتجارة قاله في الكشاف وغيره . ولا يبعد عندي تعلقه بقوله ﴿ ليضل ﴾ كما قال ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [النحل : 25] قال المحققون : ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح ، وإذا كان الحديث لهواً لا فائدة فيه كان أقبح . وقد يسوغه

بعض الناس بطريق الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال أحمضوا . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ روّحوا القلوب ساعة فساعة ﴾ والعوام يفهمون منه الترويح بالمطايبة وإن كان الخواص يحملونه على الاشتغال بجانب الحق كقوله " يا بلال روّحنا " ثم إنه إذا لم يقصد به الإحماض بل يقصد به الإضلال لم يكن عليه مزيد في القبح ولا سيما إذا كان معه اشتغاله بلهو الحديث مستكبراً عن آيات الله التي هي محض الحكمة كما قال ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ﴾ ومحل ﴿ كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ﴾ نصب على الحال قال جار الله : الأولى حال من ضمير ﴿ مستكبراً ﴾ والثانية من ﴿ لم يسمعها ﴾ قلت : هذا بناء على تجويز الحال المتداخلة وإلا فمن الجائز أن يكون كل منهما و ﴿ مستكبراً ﴾ حالاً من فاعل ﴿ ولى ﴾ أي مستكبراً مشابهاً لمن لم يسمعها مشابهاً لمن في أذنيه وقر . وجوز أي

(149/608)

يكونا مستأنفين وتقدير كأن المخففة كأنه والضمير للشأن ، قال أهل البرهان : هذه الآية والتي في الجاثية نزلتا باتفاق المفسرين في النضر إلا أنه بالغ ههنا في ذمة لتركه استماع القرآن فقال بعد قوله ﴿ كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ﴾ اي صمماً لا يقرع مسامعه صوت ،

فإن عدم السماع أعم من أن يكون بوقر الأذن أو بنحو غفلة . وترك الجملة الثانية في " الجاثية " لأنه لم يبن الكلام هنالك على المبالغة بدليل قوله ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً ﴾ [الجاثية : 9] والعلم لا يحصل إلا بالسماع أو ما يقوم مقامه من خط وغيره . وحين بين وعيد أعداء الدين بين حال أولياء الله بقوله ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية .

(150/608)

وقد مر مثله مراراً وفي قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ إشارة إلى أنه لا غالب ولا مناوئ ، يعطي النعيم من شاء والبؤس من شاء حسب ما تقتضيه حكمته وعدله . ثم بين عزته وحكمته بقوله ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ وقد مر في أول " الرعد " . وقوله ﴿ وألقى في الأرض ﴾ مذكور في أول " النحل " و ﴿ من كل زوج كريم ﴾ ذكر في أول الشعراء . هذا ر الذي ذكر من السموات بكيفياتها والأرض بهيآتها بسائطها ومركباتها ﴿ خلق الله ﴾ أي مخلوقه ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ وهم الآلهة بزعمهم . وهذا أمر تعجيز وتبكيت فلهذا سجل عليهم بالضلال المبين . ثم بين فساد اعتقاد أهل الشرك بأنه مخالف ايضاً لعقيدة الحكماء الذين يعولون على المعقول الصرف منهم لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته أو من أولاد آزر ، عاش ألف سنة وأدرك داود عليه

السلام وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له ؟ فقال : الا أكتفي إذا كفيت وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً . عن ابن عباس : لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان راعياً أسود فرزقه الله العتق ورضي الله قوله " ووصيته " وحكاها في القرآن . وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة . وقال عكرمة والشعبي : كان نبياً . روي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد وقد لين الله له الحديد ، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله . فقال له داود عليه السلام : بحق ما سميت حكيماً . روي أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب ، ثم امره بمثل ذلك بعد ايام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب أيضاً فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا ، وأخبث ما فيها إذا خبثا .

(151/608)

ثم فسر الحكمة بقوله ﴿ أن اشكر لله ﴾ لأن إيتاء الحكمة في معنى القول . قال العلماء : هذا أمر تكوين أي جعلناه شاكراً فإن أمر التكليف يستوي فيه الجاهل والحكيم ، وفيه

تنبيه على أن شكر المعبود الحق رأس كل العبادة وسنام الحكمة وفائدته ترجع إلى العبد لا إلى المعبود فإنه غني عن شكر الشاكرين مستحق للحمد وإن لم يكن على وجه الأرض حامد . وحين بين كماله شرع في تكميله وذلك لأبنه المسمى أنعم أو أشكم . قيل : كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظمهما حتى أسلما . ووجه كون الشرك ظلماً عظيماً أنه وضع في أخس الأشياء – وهو الفقير المطلق – موضع اشرف الاشياء – وهو الغني المطلق – ثم وصى الله سبحانه الإنسان بشكر إنعام الوالدين وبطاعتهما وإن كانا كافرين إلا أن يدعواه إلى الإشراك بالله .

(152/608)

وهذه جملة معترضة نيط باعتراضها غرضان : أحدهما أن طاعة الأبوين تالية لعبادة الله ، والثاني تأكيد كون الشرك أمراً فظيعاً منكراً حتى إنه يلزم فيه مخالفة من يجب طاعته .

وقوله ﴿ حملته أمه وهناً ﴾ أي حال كونها تهن وهناً ﴿ على وهن ﴾ أي ضعفاً على ضعف ، لأن الحمل كلما زاد وعظم ازدادت ثقلاً وضعفاً ، اعتراض في اعتراض تحريضاً على رعاية حق الوالدة خصوصاً . روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال : " قلت : يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك ثم أمك ثم أباك " وقوله ﴿ وفصاله في عامين ﴾ توقيت

للفطام كما مر في " البقرة " في قوله ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ [البقرة : 233] وفيه تنبيه آخر على ما كابدته الأم من المشاق . ومعنى ﴿ معروفاً ﴾ صحاباً أو مصاحباً معروفاً على ما يقتضيه العرف والشرع . وفي قوله ﴿ واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ إشارة أخرى إلى أنهما لو لم يكونا منيبين إلى الرب لم يتبع سبيلهما في الدين وإن لزم طاعتهما في الدنيا وفي باب حسن العشرة والصحبة . واتفق المفسرون على أن هذه الآية ونظيرتها التي في " العنكبوت " وفي " الأحقاف " نزلت في سعد بن ابي وقاص وفي أمه حمنة بنت ابي سفيان ، وذلك أنه حين أسلم قالت : يا سعد ، بلغني أنك قد صبأت ، فوالله لا يظلني سقف بيت وإن الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفر بمحمد - وكان أحب ولدها إليها " فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه فنزلت هذه الآيات ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتراضاها بالإحسان وإنما لم يذكر في هذه السورة قوله ﴿ حسناً ﴾ لأن قوله ﴿ أن اشكر ﴾ قام مقامه ، وإنما قال ههنا ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك ﴾ لأنه أراد ون حملاك على الإشراك ، وقال في العنكبوت ﴿ لتشرك ﴾ [العنكبوت : 8] موافقة لما قبله فإنما يجاهد لنفسه مع أن مبني الكلام هناك الاختصار . وحين وصف نفسه بكماله في خاتمة الآية بقوله ﴿ فأنبئكم

بما كنتم تعملون ﴾ أتبعه ما يناسبه من وصايا لقمان وهوة قوله ﴿ يا بني إنها ﴾ أي القصة ﴿ إن تك ﴾ أي الحبة من الإساءة أو الإحسان في الصغر كحبة الخردل ويجوز أن يقال : الحبة إن تك كحبة الخردل . ومن قرأ ﴿ مثقال ﴾ بالرفع تعين أن يكون الضمير في ﴿ إنها ﴾ للقصة وتأنيث ﴿ تك ﴾ لإضافة المثقال إلى الحبة . وروي أن ابن لقمان قال له : أرأيت الحبة تكون في مقل البحر اي في مغاصة يعلمها الله ؟ إن الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة لأن الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء .

سؤال : الصخرة لا بد أن تكون في السموات أو في الأرض فما الفائدة في ذكرها ؟ الجواب على قول الظاهريين من المفسرين ظاهر لأنهم قالوا : الصخرة هي التي عليها الثور وهي لا في الأرض ولا في السماء .

(154/608)

وقال أهل الأدب : فيه إضمار والمراد في صخرة أو في موضع آخر من السموات والأرض ومثله قول جار الله ، أراد فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت العالم العلوي أو السفلي ، وقال أهل التحقيق : إن خفاء الشيء يكون إما لغاية

صغره ، وإما لاحتجاجه ، وإما لكونه بعيداً ، وإما لكونه في ظلمة . فأشار إلى الأول بقوله ﴿ مثقال من خردل ﴾ وإلى الثاني بقوله ﴿ فتكن في صخرة ﴾ وإلى الثالث بقوله ﴿ أو في السموات ﴾ وإلى الرابع بقوله ﴿ أو في الأرض ﴾ وقوله ﴿ يأت بها الله ﴾ أبلغ من قول القائل " يعلمه الله " ففيه مع العلم بمكانه إظهار القدرة على الإتيان به ﴿ إن الله لطيف ﴾ نافذ القدرة ﴿ خبير ﴾ ببواطن الأمور ، وحين منع ابنه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بمكارم الأخلاق والعادات وأولها الصلاة ، وفيها تعظيم المعبود الحق ، وبعدها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فبهما تتم الشفقة على خلق الله . وقوله ﴿ واصبر على ما اصابك ﴾ من أذيات الخلق في البأس ، أو هو مطلق في كل ما يصيبه من المصائب والمكاره ﴿ إن ذلك ﴾ المذكور ﴿ من عزم الأمور ﴾ أي من معزوماتها من عزم الأمر بالنصب إذا قطعه قطع إيجاب وإلزام ، ومنه العزيمة خلاف الرخصة ، أو من عزم الأمر بالرفع أي جد وقد مر في آخر " آل عمران " . وحين أمره بأن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره وكان يخشى عليه أن يتكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له أو يتبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه قال ﴿ ولا تصعِّر خدك للناس ﴾ يقال : أصعر خدَّه وصعره وصاعره من الصعر بفتحتين وهو داء يصيب البعير يلوي منه عنقه . والمعنى : أقبل على الناس بكل وجهك تواضعاً لا بشق الوجه كعادة المتكبرين . ومعنى ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ مذكور في سورة " سبحان الذي " والمختال والفخور مذكوران في

سورة النساء . فالمختال هو الماشي لأجل الفرح والنشاك لا لمصلحة دينية أو دنيوية ، والفخور هو المصعر خده ،

(155/608)

بين أن الله لا يحبهما فيلزم الاجتناب عن الاتصاف بصفتهما . ثم امره عند الاحتياج إلى المشي لضرورة بالمشي القصد أي الوسط بين السرعة والإبطاء على قياس سائر الأخلاق والآداب فخير الأمور أوساطها ، ومثله غض الصوت حين التكلم . قال أهل البيان : في تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير التي هي مثل في البلادة حتى استهجن التلفظ باسمها في أغلب الأمر ، وفي تمثيل أصواتهم بالنهاق ثم إخلاء الكلام عن أداة التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة ، تنبيه على أن الإفراط في رفع الصوت من غير ضرورة ولا فائدة مكروه عند الله جداً ، واشتقاق أنكر من النكر ليكون على القياس لا من المنكر والحمير جمع الحمار ، وإنما لم يقل أصوات الحمير لأن المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق وغير الناطق له صوت ، وإن أنكر أصوات هذه الأجناس صوت أفراد هذا الجنس .

قال بعض العقلاء : من نكر صوت هذا الحيوان أنه لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفي أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق ، وأما سائر الحيوانات فلا يصيح إلا لحاجة

قالوا : ومن فوائد عطف الأمر بغض الصوت على الأمر بالقصد في المشي ، أن الحيوان يتوصل إلى مطلوبه بالمشي فإن عجز عن ذلك فبالتصويت والنداء كالغنم تطلب السخلة ، ومنها أن الإنسان له عقيدة ولسان وجوارح يتحرك بها كسائر الحيوانات فأشار إلى الأولى بقوله ﴿ إنها إن تك مثقال حبة ﴾ أي أصلح ضميرك فإن الله خبير ، واشار إلى التوسط في أفعال الجوارح بقوله ﴿ واقصد في مشيك ﴾ وإلى التوسط في الأقوال بقوله ﴿ اغضض من صوتك ﴾ أو نقول : اشار بقوله ﴿ أقم الصلاة ﴾ إلى الأوصاف الملكية التي يجب أن تكون في الإنسان ، وبقوله ﴿ وأمر ﴾ إلى قوله ﴿ مرحاً ﴾ إلى الأوصاف الفاضلة الإنسانية ، وبقوله ﴿ واقصد ﴾ ﴿ واغضض ﴾ غلى الأوصاف التي يشارك فيها الإنسان سائر الحيوان والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 427.422 ﴾

(156/608)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

الافتتاح بالأحرف المقطعة . " ألف . لام . ميم " والإخبار عنها بأنها : ﴿ تلك آيات

الكتاب الحكيم ﴾ للتنبيه إلى أن آيات الكتاب من جنس تلك الأحرف على نحو ما تقدم في السور المبدوءة بالأحرف واختيار وصف الكتاب هنا بالحكمة ، لأن موضوع الحكمة مكرر في هذه السورة ، فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب في وجوه المناسب على طريقة القرآن الكريم . ووصف الكتاب بالحكمة يلقي عليه ظلال الحياة والإرادة ، فكأنما هو كائن حي متصف بالحكمة في قوله وتوجيهه ، قاصد لما يقول ، مريد لما يهدف إليه . وإنه لكذلك في صميمه . فيه روح . وفيه حياة . وفيه حركة . وله شخصية ذاتية مميزة . وفيه إيناس . وله صحبة يحس بها من يعيشون معه ويحيون في ظلاله ، ويشعرون له بحنين وتجاوب كالتجاوب بين الحي والحي ، وبين الصديق والصديق ! هذا الكتاب الحكيم . أو آياته . ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ﴾ فهذه حاله الأصيلة الدائمة . . أن يكون هدى ورحمة للمحسنين . هدى يهديهم إلى الطريق الواصل الذي لا يضل سالكوه . ورحمة بما يسكبه الهدى في القلب من راحة وطمأنينة وقرار ؛ وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح ؛ وبما يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به ؛ ثم بين هذه القلوب ونواميس الكون الذي تعيش فيه ، والقيم والأحوال والأحداث التي تتعارف عليها القلوب المهتدية ، وتتعارف الفطر التي لا تزيغ . .

والمحسنون هم : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ . .

وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفي وقتها أداء كاملاً تتحقق به حكمتها وأثرها في الشعور والسلوك ، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، ويتم به هذا الأنس بالله وتذوق حلاوته التي تعلق القلوب بالصلاة . . وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطري ، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون . ويجد الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التي لم يفسدها الترف ولا الحرمان . .

واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري ، وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا ؛ ومراقبة الله في السر والعلن وفي الدقيق والجليل ؛ والوصول إلى درجة الإحسان التي سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " .

وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة ؛ لأنهم بما في قلوبهم من تفتح وشفافية يجدون في صحبة هذا الكتاب راحة وطمأنينة ؛ ويتصلون بما في طبيعته من هدى ونور ، ويدركون مراميه وأهدافه الحكيمة ، وتصطلح نفوسهم عليه ، وتحس بالتوافق والتناسق ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق .

وإن هذا القرآن ليعطي كل قلب بمقدار ما في هذا القلب من حساسية وتفتح وإشراق ؛

وبقدر ما يقبل عليه في حب وتطلع وإعزاز . إنه كائن حي يعاطف القلوب الصديقة ، ويجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفرفة والحنين !

(158/608)

وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة . . ﴿ أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾ . ومن هُدي فقد أفلح ، فهو سائر على النور ، واصل إلى الغاية ، ناج من الضلال في الدنيا ، ومن عواقب الضلال في الآخرة ؛ وهو مطمئن في رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود ؛ فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن في الوجود .

أولئك المهتدون بالكتاب وآياته ، المحسنون ، المقيمون للصلاة ، المؤتون للزكاة ، الموقنون بالآخرة ، المفلحون في الدنيا والآخرة . . أولئك فريق . . وفي مقابلهم فريق :

﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً . أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقرا . فبشره بعذاب أليم ﴾ . .

ولهو الحديث كل كلام يلهي القلب ويأكل الوقت ، ولا يثمر خيراً ولا يؤتي حصيلة تليق

بوظيفة الإنسان المستخلف في هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والصلاح. هذه الوظيفة التي يقرر الإسلام طبيعتها وحدودها ووسائلها ، ويرسم لها الطريق . والنص عام لتصوير نموذج من الناس موجود في كل زمان وفي كل مكان . وبعض الروايات تشير إلى أنه كان تصويراً لحادث معين في الجماعة الإسلامية الأولى . وقد كان النضر بن الحارث يشتري الكتب المحتوية لأساطير الفرس وقصص أبطالهم وحروبهم ؛ ثم يجلس في طريق الذاهبين لسماع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم محاولاً أن يجذبهم إلى سماع تلك الأساطير والاستغناء بها عن قصص القرآن الكريم . ولكن النص أعم من هذا الحادث الخاص إذا صح أنه وارد فيه . وهو يصور فريقاً من الناس واضح السمات ، قائماً في كل حين . وقد كان قائماً على عهد الدعوة الأولى في الوسط المكي الذي نزلت فيه هذه الآيات .

(159/608)

﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ . . يشتريه بماله ويشتريه بوقته ، ويشتريه بحياته . يبذل تلك الأثمان الغالية في لهو رخيص ، يفني فيه عمره المحدود ، الذي لا يعاد ولا يعود ، يشتري هذا اللهو ﴿ ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ﴾ فهو جاهل

محجوب ، لا يتصرف عن علم ، ولا يرمي عن حكمة ؛ وهو سيِّئ النية والغاية ، يريد ليضل عن سبيل الله . يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذي ينفق فيه الحياة . وهو سيِّئ الأدب يتخذ سبيل الله هزواً ، ويسخر من المنهج الذي رسمه الله للحياة وللناس .

ومن ثم يعالج القرآن هذا الفريق بالمهانة والتهديد قبل أن يكمل رسم الصورة : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ . . ووصف العذاب بأنه مهين مقصود هنا للرد على سوء الأدب والاستهزاء بمنهج الله وسبيله القويم .

ثم يمضي في استكمال صورة ذلك الفريق : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها ﴾ وهو مشهد فيه حركة ترسم هيئة المستكبر المعرض المستهين . ومن ثم يعالجه بوخزة مهينة تدعو إلى تحقير هذه الهيئة : ﴿ كأن في أذنيه وقرا ﴾ وكأن هذا الثقل في أذنيه يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة ، وإلا فما يسمعها إنسان له سمع ثم يعرض عنها هذا الإعراض الذميم . ويتمم هذه الإشارة المحقرة بتهكم ملحوظ : ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ فما البشارة في هذا الموضوع إلا نوع من التهكم المهين ؛ يليق بالمتكبرين المستهزئين !

وبمناسبة الحديث عن جزاء الكافرين المستكبرين المعرضين يتحدث عن جزاء المؤمنين العاملين ، الذين تحدث عنهم في صدر السورة ؛ ويفصل شيئاً من أمر فلاحهم الذي أجمله هناك :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقاً ، وهو العزيز الحكيم ﴾ . .

(160/608)

وحيثما ذكر الجزاء في القرآن الكريم ذكر قبله العمل الصالح مع الإيمان . فطبيعة هذه العقيدة تقتضي ألا يظل الإيمان في القلب حقيقة مجردة راكدة معطلة مكنونة ؛ إنما هو حقيقة حية فاعلة متحركة ، ما تكاد تستقر في القلب ويتم تمامها حتى تتحرك لتحقق ذاتها في العمل والحركة والسلوك ؛ ولتترجم عن طبيعتها بالآثار البارزة في عالم الواقع ، المنبئة عما هو كائن منها في عالم الضمير .

وهؤلاء الذين آمنوا وحققوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ لهم جنات النعيم خالدين فيها ﴾ . . لهم هذه الجنات وهذا الخلود تحقيقاً لوعد الله الحق . ﴿ وعد الله حقاً ﴾ فقد بلغ من فضل الخالق على العباد أن يوجب على نفسه الإحسان إليهم جزاء إحسانهم لأنفسهم لا له سبحانه ! وهو الغني عن الجميع !

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ . . القادر على تحقيق وعده ، الحكيم في الخلق والوعد والتحقيق .

وآية القدرة ، وآية الحكمة ، وبرهان تلك القضايا السابقة في سياق السورة . . آية ذلك كله وبرهانه هو هذا الكون الكبير الهائل ، الذي لا يدعي أحد من البشر أنه خلقه ، ولا أن أحداً آخر خلقه من دون الله ؛ وهو ضخم هائل دقيق النظام ، متناسق التكوين ، يأخذ بالقلب ، ويبهر اللب ، ويواجه الفطرة مواجهة جاهرة لا تملك الإفلات منها أو الإعراض عنها ؛ ولا تملك إلا التسليم بوحدانية الخالق العظيم ، وضلال من يشرك به آلهة أخرى ظلماً للحق الواضح المبين :

﴿ خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ . .

وهذه السماوات بظاهر مدلولها ودون تعمق في أية بحوث علمية معقدة تواجه النظر والحس ، هائلة فسيحة سامقة .

(161/608)

وسواء أكانت السماوات هي هذه الكواكب والنجوم والمجرات والسدم السابحة في الفضاء الذي لا يعلم سره ومداه إلا الله ؛ أو كانت هي هذه القبة التي تراها العين ولا يعرف أحد ما

هي على وجه التحقيق . سواء أكانت السماوات هذه أو تلك فهناك خلائق ضخمة هائلة معلقة بغير عمد تسندها ؛ والناس يرونها حيثما امتدت أبصارهم بالليل والنهار . ومهما نأت بهم الأبعاد والأسفار على ظهر كوكبهم السيار . ومجرد تأملها بالعين المجردة ، ودون إدراك حقيقة ضخامتها التي تدير الرؤوس ، كاف وحده لرعشة الكيان الإنساني وارتجافه أمام الضخامة الهائلة التي لا نهاية لها ولا حدود . وأمام النظام العجيب الذي يمسك بهذه الخلائق كلها في مثل هذا التناسق . وأمام هذا الجمال البديع الذي يجتذب العين للنظر فلا تمل ، ويجتذب القلب للتأمل فلا يكل ؛ ويستغرق الحس فلا يكاد يؤوب من ذلك التأمل الطويل المديد ! فكيف إذا عرف الإنسان أن كل نقطة من هذه النقط الصغيرة المضيئة السابحة في هذا الفضاء الهائل قد تبلغ كتلتها أضعاف كتلة الأرض التي تقله ملايين المرات ؟

ومن هذه الرحلة الهائلة في أجواز الفضاء على إيقاع تلك الإشارة السريعة : ﴿ خلق السماوات بغير عمد ترونها ﴾ يرتد السياق بالقلب البشري إلى الأرض فيستقر عليها وما يكاد ! إلى الأرض الصغيرة . الذرة ، التي لا تبلغ أن تكون هباءة في كتلة الكون الضخمة . يرتد إلى هذه الأرض التي يراها الإنسان فسيحة لا يبلغ أطرافها فرد واحد في عمره القصير ، ولو قضاه في رحلة دائمة على هذا الكوكب الصغير ؟ يرتد بالقلب إلى هذه الأرض ليعيد النظر إليها بحس مفتوح يقظ ، وليجلو عنه ملالة التكرار والألفة لمشاهد هذه الأرض

العجيبة :

﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ . .

(162/608)

والرواسي الجبال . ويقول علماء طبقات الأرض ؛ إنها تضاريس في قشرة الكرة الأرضية تنشأ من برودة جوف الأرض وتجمد الغازات فيه ، ونقص حجمها ، فتنكمش القشرة الأرضية وتتجعد ، وتقع فيها المرتفعات والمنخفضات وفق الانكماشات الداخلية في حجم الغازات حين تبرد ويصغر حجمها هنا وهناك . وسواء أصحّت هذه النظرية أم لم تصح ، فهذا كتاب الله يقرر أن وجود هذه الجبال يحفظ توازن الأرض فلا تميد ولا تتأرجح ولا تهتز . وقد تكون نظرية علماء الأرض صحيحة ويكون بروز الجبال على هذا النحو حافظاً لتوازن الأرض عند انكماش الغازات وتقبض القشرة الأرضية هنا وهناك ، ويكون نتوء الجبال هنا موازناً لانخفاض في قشرة الأرض هناك . وكلمة الله هي العليا على كل حال . والله هو أصدق القائلين .

﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ . .

وهذه إحدى عجائب الوجود الكبيرة . فوجود الحياة على هذه الأرض سر لا يدعي أحد

حتى اليوم إدراكه ولا تفسيره .

الحياة في أول صورها . في الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة . فكيف بضخامة هذا السر والحياة تتنوع وتتركب وتتعدد أنواعها وأجناسها وفصائلها وأنماطها إلى غير حد يعلمه الإنسان أو يحصيه ؟ ومع هذا فإن أكثر الناس يمرون بهذه العجائب مغمضي العيون مطموسي القلوب وكأنما يمرون على شيء عادي لا يستلفت النظر . بينما هم يقفون مدهوشين مذهولين أمام جهاز من صنع الإنسان ساذج صغير بسيط التكوين حين يقاس إلى خلية واحدة من الخلايا الحية ، وتصرفها الدقيق المنظم العجيب . ودعك من الأحياء المقعدة . فضلاً على الإنسان ، الذي يحوي جسمه مئات المعامل الكيماوية العجيبة ومئات المخازن للإيداع والتوزيع ، ومئات المحطات اللاسلكية للإرسال والاستقبال ؛ ومئات الوظائف المعقدة التي لا يعرف سرها إلا العليم الخبير ! ! !

﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ . .

(163/608)

وإنزال الماء من السماء إحدى العجائب الكونية التي نمر عليها كذلك غافلين . هذا الماء الذي تفيض به مجاري الأنهار ، والذي تمتلئ به البحيرات ، والذي تتفجر به العيون . . هذا

كله ينزل من السماء وفق نظام دقيق ، مرتبط بنظام السماوات والأرض ، وما بينهما من نسب وأبعاد ، ومن طبيعة وتكوين . . وإنبات النبات من الأرض بعد نزول الماء عجيبة أخرى لا ينقضي منها العجب . عجيبة الحياة ، وعجيبة التنوع ، وعجيبة الوراثة للخصائص الكامنة في البذرة الصغيرة ، لتعيد نفسها في النبتة وفي الشجرة الكبيرة . وإن دراسة توزيع الألوان في زهرة واحدة من نبتة واحدة لتقود القلب المفتوح إلى أعماق الحياة وأعماق الإيمان بالله مبدع هذه الحياة . .

والنص القرآني يقرر أن الله أنبت النبات أزواجاً : ﴿ من كل زوج كريم ﴾ وهي حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم بالاستقراء قريباً جداً . فكل نبات له خلايا تذكير وخلايا تأنيث ، إما مجتمعة في زهرة واحدة ، أو في زهرتين في العود الواحد ، وإما منفصلة في عودين أو شجرتين ، ولا توجد الثمرة إلا بعد عملية التقاء وتلقيح بين زوج النبات ، كما هو الشأن في الحيوان والإنسان سواء .

ووصف الزوج بأنه ﴿ كريم ﴾ يلقي ظلاً خاصاً مقصوداً في هذا الموضع ليصبح لائقاً بأن يكون ﴿ خلق الله ﴾ وليرفعه أمام الأنظار مشيراً إليه . . ﴿ هذا خلق الله ﴾ وليتحداهم به ويتحدى دعواهم المتهافتة . . ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ ﴾ . . وليعقب على هذا التحدي في أنسب وقت : ﴿ بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ . . وأي ضلال وأي ظلم بعد هذا الشرك ، في هذا المعرض الكوني الباهر الجليل ؟

وعند هذا الإيقاع القوي يختم الجولة الأولى في السورة ذلك الختام المؤثر العميق .

بعد ذلك يبدأ الجولة الثانية . يبدؤها في نسق جديد . نسق الحكاية والتوجيه غير المباشر . ويعالج قضية الشكر لله وحده ، وتنزيهه عن الشرك كله ، وقضية الآخرة والعمل والجزاء في خلال الحكاية .

(164/608)

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ؛ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾ .

ولقمان الذي اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضية التوحيد وقضية الآخرة تختلف في حقيقته الروايات : فمن قائل : إنه كان نبياً ، ومن قائل : إنه كان عبداً صالحاً من غير نبوة والأكثرون على هذا القول الثاني ثم يقال : إنه كان عبداً حبشياً ، ويقال : إنه كان نوبياً . كما قيل : إنه كان في بني إسرائيل قاضياً من قضاتهم . . وأياً من كان لقمان فقد قرر القرآن أنه رجل آتاه الله الحكمة . الحكمة التي مضمونها ومقتضاها الشكر لله : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ﴾ . . وهذا توجيه قرآني ضمني إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم المختار الذي يعرض قصته وقوله . وإلى جوار هذا التوجيه الضمني توجيه

آخر ، فشكر الله إنما هو رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو ، والله غني عنه . فالله محمود بذاته ولو لم يحمده أحد من خلقه : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾ . . وإذن فأحمق الحمقى هو من يخالف عن الحكمة ؛ ولا يدخر لنفسه مثل ذلك الرصيد .

ثم تجيء قضية التوحيد في صورة موعظة من لقمان الحكيم لابنه :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . .

(165/608)

وإنها لعظة غير متهمة ؛ فما يريد الوالد لولده إلا الخير ؛ وما يكون الوالد لولده إلا ناصحاً . وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ؛ ويعلل هذا النهي بأن الشرك ظلم عظيم . ويؤكد هذه الحقيقة مرتين . مرة بتقديم النهي وفصل علته . ومرة بإنّ واللام . . وهذه هي الحقيقة التي يعرضها محمد صلى الله عليه وسلم على قومه ، فيجادلونه فيها ؛ ويشكون في غرضه من وراء عرضها ؛ ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم ! فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها ؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة ، بعيدة من كل ظنة ؟ ألا إنها الحقيقة القديمة التي تجري على لسان كل من آتاه الله

الحكمة من الناس ؛ يرارد بها الخير المحض ، ولا يراد بها سواه . . وهذا هو المؤثر النفسي المقصود .

وفي ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد في أسلوب رقيق ؛ ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة . ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على تلك العلاقة الوثيقة :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك ، إليّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إليَّ . ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . .

وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم ، وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلاً .

(166/608)

ومعظمها في حالة الوأد وهي حالة خاصة في ظروف خاصة ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه . فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد

الحياة ، كما يريدها الله ؛ وإن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال ، في غير تأفف ولا شكوى ؛ بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان ! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان ! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة ! فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولّي الذاهب في أدبار الحياة ، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة ! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه ، ولو وقف عمره عليهما . وهذه الصورة الموحية : ﴿ حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين ﴾ ترسم ظلال هذا البذل النبيل . والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر ؛ وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق . . روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده بإسناده " عن بريد عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل أديت حقها ؟ قال : لا . ولا بزفرة واحدة " هكذا . . ولا بزفرة . . في حمل أو في وضع ، وهي تحمله وهناً على وهن . وفي ظلال تلك الصورة الحانية يوجه إلى شكر الله المنعم الأول ، وشكر الوالدين المنعمين التاليين ؛ ويرتب الواجبات ، فيجيء شكر الله أولاً ويتلوه شكر الوالدين . . ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ . . ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة : ﴿ إليّ المصير ﴾ حيث ينفع رصيد الشكر المذخور .

ولكن رابطة الوالدين بالوليد على كل هذا الانعطاف وكل هذه الكرامة إنما تأتي في ترتيبها بعد وشيجة العقيدة . فبقية الوصية للإنسان في علاقته بوالديه : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ . . فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة ، وتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة . فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن اقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته وكل ما عدا الله لا ألوهية له فتعلم ! فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول في الطاعة .

ولكن الاختلاف في العقيدة ، والأمر بعدم الطاعة في خلافها ، لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة : ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾ فهي رحلة قصيرة على الأرض لا تؤثر في الحقيقة الأصيلة : ﴿ واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ من المؤمنين ﴿ ثم إليَّ مرجعكم ﴾ بعد رحلة الأرض المحدودة ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ولكل جزاء ما عمل من كفران أو شكران ، ومن شرك أو توحيد .

روي أن هذه الآية نزلت هي وآية العنكبوت المشابهة وآية الأحقاف كذلك في سعد بن أبي وقاص وأمه (كما قلت في تفسيرها في الجزء العشرين في سورة العنكبوت) . وروي أنها

نزلت في سعد بن مالك . ورواه الطبراني في كتاب العشرة بإسناده عن داود بن أبي هند . والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص . وهو الأرجح . أما مدلولها فهو عام في كل حال مماثلة ، وهو يرتب الوشائج والروابط كما يرتب الواجبات والتكاليف . فتجيء الرابطة في الله هي الوشيجة الأولى ، ويجيء التكليف بحق الله هو الواجب الأول . والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة ويؤكدها في كل مناسبة وفي صور شتى لتستقر في وجدان المؤمن واضحة حاسمة لا شبهة فيها لا غموض .

(168/608)

وبعد هذا الاستطراد المعترض في سياق وصية لقمان لابنه ، تجيء الفقرة التالية في الوصية ، لتقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . ولكن هذه الحقيقة لا تعرض هكذا مجردة ، إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح ، وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان ، وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف :

﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة ، أو في السماوات ، أو في الأرض ، يأت بها الله . إن الله لطيف خبير ﴾ . .

وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب

وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور . وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء ، العميقة الإيقاع . . حبة من خردل . صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة . ﴿ فتكن في صخرة ﴾ . . صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها . ﴿ أو في السماوات ﴾ . . في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . ﴿ أو في الأرض ﴾ ضائعة في ثراها وحصاها لا تبين . ﴿ يأت بها الله ﴾ . . فعلمه يلاحقها ، وقدرته لا تفلتها . ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ . . تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف .

ويظل الخيال يلاحق تلك الحبة من الخردل في مكامنها تلك العميقة الوسيعة ؛ ويتملى علم الله الذي يتابعها . حتى يخشع القلب وينيب ، إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب . وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب . بهذا الأسلوب العجيب . ويمضي السياق في حكاية قول لقمان لابنه وهو يعظه . فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها في الضمير . بعد الإيمان بالله لا شريك له ؛ واليقين بالآخرة لا ريب فيها ؛ والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل . . فأما الخطة التالية فهي التوجه إلى الله بالصلاة ، والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله ، والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التي لا بد أن تكون :

«يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ . إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» . .

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم . . توحيد للّه ، وشعور برقابته ، وتطلع إلى ما عنده ، وثقة في عدله ، وخشية من عقابه . ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر ، بالزاد الأصيل . زاد العبادة للّه والتوجه إليه بالصلاة . ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى اللّه ، من التواء النفوس وعنادها ، وانحراف القلوب وإعراضها . ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي . ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء . . «إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» . .

وعزم الأمور : قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم .

ويستطرد لقمان في وصيته التي يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى اللّه . فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير . ومن باب أولى يكون التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل :

«وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً . إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ . إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» . .

والصعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها . والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر . حركة الكبر والازورار ، وإمالة الخد للناس في تعال واستكبار ! والمشي في الأرض مرحا هو المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس . وهي حركة كريهة يمقتها اللّه ويمقتها الخلق . وهي تعبير عن شعور مريض بالذات ، يتنفس في مشية الخيلاء ! «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» . .

(170/608)

ومع النهي عن مشية المرح ، بيان للمشية المعتدلة القاصدة : «وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» . . والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف . وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال . ومن القصد كذلك . لأن المشية القاصدة إلى هدف ، لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر ، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق .

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته . وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب ، أو شاك في قيمة قوله ، أو قيمة شخصه يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق ! والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله : «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» . .

فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية ، مع النفور والبشاعة .

ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع ، ثم يحاول . .

شيئًا من صوت هذا الحمير . . !

وهكذا تنتهي الجولة الثانية ، بعد ما عالجت القضية الأولى ، بهذا التنويع في العرض ،

والتجديد في الأسلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2783 . 2790 ﴾

(171/608)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ هي للعوام مقادير معينة من المال كربع العشر من عشرين ،

وللخواص إخراج كل المال في سبيل الله ، ولأخص الخواص بذل الوجود لنيل المقصود ﴿

لهو الحديث ﴾ قال الجنيد : السماع على أهل النفوس حرام لبقاء نفوسهم ، وعلى أهل

القلوب مباح لوفور علومهم وصفاء قلوبهم ، وعلى أصحابنا واجب لفناء حظوظهم . ﴿

وإذ قال لقمان ﴾ القلب ﴿ لابنه ﴾ السر المتولد من ازدواج الروح والقلب ﴿ وهو يعظه

﴾ أن لا يتصف بصفات النفس العابدة للشيطان والهوى والدنيا ﴿ في عامين ﴾ يريد

فطامه عن مألوفات الدارين ﴿ وإن جاهداك ﴾ فيه أن السر لا ينبغي له أن يلتفت إلى الروح أو القلب إذا اشتغلا بغير الله في أوقات الفترات ، فإن الروح قد يميل غلى مجانسة من الروحانيات ، والقلب يميل تارة إلى الروح ، وأخرة إلى النفس ولكنه يرجى الصلاة بعد الفترة ، وأما السر فإذا زال عن طبيعته وهو الإخلاص في التوحيد فإصلاح حاله ممكن بعيد . ﴿ واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ وهو الخفي . ﴿ إنها إن تك ﴾ يعني القسمة الأزلية من السعادة وضدها ﴿ لصوت الحمير ﴾ قالوا : هو الصوفي يتكلم قبل أوانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 427 ﴾

(172/608)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضت هذه الجمل ، رافعة أعناقها على المشتري وزحل ، قابلة لمن يريد عملها مع الكسل ، والضجر في الفكر والملل ، وأين الثريا من يد المتناول ، وكان قد أخبر سبحانه وتعالى في أول السورة أن الآيات المسموعة هدى لقوم وضلال لآخرين ، وكان من الغرائب أن شيئاً واحداً يؤثر شيئين متضادين ، وأتبع ذلك ما دل على أنه من بالغ الحكمة بوجوه مرضية مشرقة مضيئة ، لكنها بمسالك دقيقة وإشارات خفية ، إلى أن ختم بالنهي عن التكبر ، ورفع الصوت فوق الحاجة ، إشارة إلى أن فاعل ما لا حاجة إليه غير حكيم ، وكان التكبر على الناس والتعالي عليهم من آثار الفضل في النعمة ، وكانت العادة جارية بأن اللك يخضع له تارة لمجرد عظمته ، وتارة خوفاً من سطوته ، وتارة رجاء لنعمته ، أبرز سبحانه وتعالى غيب ما وصف به الآيات المسموعة من تأثير الضدين في حالة واحدة في شاهد الآيات المرئية على وجه يدل على استحقاقه ، لما أمر به لقمان عليه السلام من العبادة والتذلل ، وأن إليه المرجع ، وهو عالم على استحقاقه ، لما أمر به لقمان شيء ، وأن كل ما ترى خلقه مذكراً بأن النعمة إنما هي منه ، فلا ينبغي لأحد أن يفخر بما آتاه غيره ، ولو كل فيه إلى نفسه لم يقدر على شيء منه ، محذراً من سلبها عن المتكبر وإعطائها للذليل المحتقر ، فقال : ﴿ ألم تروا ﴾ اي تعلموا علماً هو في ظهوره كالمشاهدة أيها المشترون لهو الحديث ، المتكبرون علي المقبلين على الله ، المتخلين عن الدنيا ، الذين قلنا لهم رداً عن الشرك وإبعاداً عن الهوى والإفك ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ ﴿ أن

الله ﴾ أي الحائز لكل كمال ﴿ سخر لكم ﴾ أي خاصة ﴿ ما في السماوات ﴾ بالإنارة والإظلام ، والحر والبرد وغير ذلك من الإنعام ، وأكده بإعادة الموصول والجار ، لأن المقام حقيق به فقال : ﴿ وما في الأرض ﴾ بكل ما يصلحكم فتعلموا أن الكل خلقه ، ما لأحد ممن دونه فيه شيء ، وأنه محيط بكل شيء قدرة وعلماً ، فهو قادر

(173/608)

على تعسيره فينبئكم بما كنتم تعملون ويحضره لكم وإن كان في أخفى الأماكن ﴿ وأسبغ ﴾ أي أطال وأوسع وأتم وأفضل عن قدر الحاجة وأكمل ﴿ عليكم ﴾ أيها المكلفون ﴿ نعمه ﴾ أي واحدة تليق بالدنيا - في قراءة الجماعة بإسكان العين وتاء تأنيث منصوبة منونة تنوين تعظيم ، مشيراً إلى أنها ذات أنواع كثيرة جداً ، بما دلت عليه قراءة المدنيين وأبي عمرو وحفص عن عاصم بجعل تاء التأنيث ضميراً له سبحانه مع فتح العين ليكون جمعاً ﴿ ظاهرة ﴾ وهي ما تشاهدونها متذكرين لها ﴿ وباطنة ﴾ وهي ما غابت عنكم فلا يحسونها ، أو تحسونها وهي خفية عنكم ، لا تذكرونها إلا بالتذكير ، وكل منكم يعرف ذلك على الإجمال ، فاعبدوه لما دعت إليه مجلة لقمان عليه السلام لتكونوا من المحسنين ، حذراً من سلب نعمه ، وإيجاب نقمه ، ويجوز أن تكون الآية دليلاً على قوله تعالى : ﴿ خلق

السماوات بغير عمد ترونها ﴾ .

ولما كان التقدير : ومع كون كل منكم أيها الخلق يعرف أن ذلك نعمة منه سبحانه تعالى وحده فمن الناس من أذعن وأناب وسلم لكل ما دعا إليه كتابه الحكيم على لسان رسوله النبي الكريم فكان من الحكماء الحسنين فاهتدى عطف عليه قوله مظهراً موضع ضمير المخاطبين مما يشير إليه النوس : ﴿ ومن الناس ﴾ أي الذين هم أهل للاضطراب ، ويمكن أن يكون حالاً من ﴿ ألم تروا ﴾ ويكون ﴿ ألم تروا ﴾ دليلاً على أول السورة ، أي أشير إلى الآيات حال كونها هدى لمن ذكر والحال أن من الناس من يشتري اللهو ، ألم تروا دليلاً على أن من الناس المعاند بعد وضوح الدليل أن الله سخر لكم جميع العالم وأنعم عليكم بما أنعم والحال أن من الناس ﴿ من يجادل ﴾ فلا لهو أعظم من جداله ، ولا كبر مثل كبره ، ولا ضلال مثل ضلاله ، وأظهر لزيادة التشنيع على هذا المجادل ، وإشارة إلى قبح المجادلة من غير نظر إلى النعم فقال تعالى : ﴿ في الله ﴾ المحيط بكل شيء علماً وقدرة .

(174/608)

ولما كان سبحانه في ظهور وجوده وأوصافه بحيث لا يخفى بوجه ، وكان المجادل قد يكون فهماً ، قال : ﴿ بغير ﴾ أي بكلام متصف بأنه غير ﴿ علم ﴾ أي بل بألفاظ هي في ركاكة

معانيها لعدم استنادها إلى حس ولا عقل ملحقة بأصوات الحيوانات العجم ، فكان بذلك حماراً تابعاً للهوى .

ولما كان المعنى قد يظهر لبعض القاصرين ، لوروده على لسان من لا يعتبر ، فإذا أضيف إلى كبير ، تؤمل ولم يبادر إلى رده لاستعظامه ، فظهر على طول حسه ، قال معبراً بأداة النفي الحقيقة به ، لأن الموضع لها ، وعدل عنها اولاً لئلا يظن أن المذموم إنما هو المجادل إذا كان غير متصف بالعلم وإن كان جداله متصفاً بالعلم : ﴿ ولا هدى ﴾ أي وارد عمن عهد منه سداد الأقوال والأفعال بما أبدى من المعجزات والآيات البينات ، فوجب أخذ اقواله مسلمة وإن لم يظهر معناها .

ولما كان القول قد يكون مقبولاً لاستناده إلى الله تعالى وإن لم يكن اصلاً معقولاً ، قال : ﴿ ولا كتاب ﴾ أي من الله ؛ ووصفه بما هو لازمه لا ينفك عنه فقال : ﴿ منير ﴾ أي بين غاية البيان ، مبين لغيره على عادة بيان الله سبحانه وتعالى ، أو يكون أريد بالوصف الإعجاز لإظهاره قطعاً أنه من الله ، فإنه ليس كل كتاب الله كذلك .

ولما كان المجادل بغير واحد من هذه الثلاثة تابعاً هواه مقلداً مثله قطعاً ، وكان حال المجادلين هذا لظهور أدلة الوحدانية عجباً ، عجب منهم تعجيباً آخر بإقامتهم على الضلال مع إيضاح الادلة فقال : ﴿ وإذا قيل ﴾ أي من أيّ قائل كان .

ولما كان ضلال الجمع أعجب من ضلال الواحد ، وكان التعجيب من جدال الواحد تعجيباً من جدال الاثنين فأكثر من باب الأولى ، أفرد أولاً وجمع هنا فقال : ﴿ لهم ﴾ أي للمجادلين هذا الجدال : ﴿ اتبعوا ما ﴾ أي ابذلوا جهدكم في تبع الذي ، وأظهر لزيادة التشنيع أيضاً فقال : ﴿ أنزل الله ﴾ الذي خلقكم وخلق آباءكم الأولين ، وهو الذي لا عظيم إلا هو ﴿ قالوا ﴾ جموداً : لا نفعل ﴿ بل نتبع ﴾ وإن جاهدنا بالأنفس والأموال ﴿ ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ لأنهم أثبت منا عقولاً ، وأقوم قيلاً ، وأهدى سبيلاً .

ولما كانوا لا يسلكون طريقاً حسياً بغير دليل ، كان التقدير : أتتبعونهم لو كان الهوى يدعوهم فيما وجدتموهم عليه إلى ما يظن فيه الهلاك ، لكونه بغير دليل ، فعطف عليه قوله : ﴿ أو لو كان الشيطان ﴾ أي البعيد من الرحمة المحترق باللعنة ، وهو أعدى اعدائهم ، دليللهم فهو ﴿ يدعوهم ﴾ إلى الضلال فيوقعهم فيما يسخط الرحمن فيؤديهم ذلك ﴿ إلى عذاب السعير ﴾ وعبر بالمضارع تصويراً لحالهم في ضلالهم وأنه مستمر ، وأطلق العذاب على سببه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 23 . 26 ﴾

(176/608)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ نعمه ﴾ على الجمع : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وسهل وحفص ﴿ والبحر ﴾ بالنصب : أبو عمرو ويعقوب عطفاً على اسم " أن " الآخرون : بالرفع حملاً على محل " أن " ومعمولها ﴿ وأن ما يدعون ﴾ على الغيبة : أبو عمرو وحمزة وعلي وخلف وحفص وسهل ويعقوب ﴿ وينزل الغيث ﴾ التشديد : ابو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وعاصم .

الوقوف : ﴿ وباطنه ﴾ ط ﴿ منير ﴾ 5 ﴿ آباءنا ﴾ ط ﴿ السعير ﴾ 5 ﴿ الوثقى ﴾ ط ﴿ الأمور ﴾ 5 ﴿ كفره ﴾ 5 ﴿ عملوا ﴾ ط ﴿ الصدور ﴾ 5 ﴿ غليظ ﴾ 5 ﴿ ليقولن الله ﴾ ط ﴿ الله ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ الحميد ﴾ 5 ﴿ كلمات الله ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ 5 ﴿ واحدة ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ 5 ﴿ والقمر ﴾ ز لأن قوله ﴿ كل ﴾ مبتدأ مع عطف " أن " على " أن " الأولى ﴿ خبير ﴾ 5 ﴿ الباطل ﴾ لا ﴿ الكبير ﴾ 5 ﴿ من آياته ﴾ ط ﴿ شكور ﴾ 5 ﴿ الدين ﴾ ج ﴿ مقتصد ﴾ ط ﴿ كفور ﴾ 5 ﴿ عن ولده ﴾ لا لعطف الجملتين المختلفتين لفظاً مع صدق الاتصال معنى ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ الدنيا ﴾ قف للفصل بين الموعظتين ﴿ الغرور ﴾ 5 ﴿ الساعة ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ الغيث ﴾ ج وإن اتفقت

الجملتان للتفصيل بين عيب وغيب ﴿ الأرحام ﴾ ط لابتداء الجملة المنفية التي فيها استفهام ﴿ غداً ﴾ ط لابتداء نفي آخر مع تكرار نفس دون الاكتفاء بضميرها ﴿ تموت ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 428 ﴾

(177/608)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

لما استدل بقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ على الوحدانية ، وبين بحكاية لقمان أن معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة ، وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة ، ولو كان تعبداً محضاً للزم قبوله ، فضلاً عن أنه على وفق الحكمة ، استدل على الوحدانية بالنعمة لأنا بينا مراراً أن الملك يخدم لعظمته ، وإن لم ينعم ويخدم لنعمته أيضاً ، فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد وإلقائه في الأرض الرواسي .

وذكر بعض النعم بقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء مَاء ﴾ [لقمان : 10] ذكر بعده عامة

النعم فقال : ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السموات ﴾ أي سخر لأجلكم ما في السموات ، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده ، وسخر ما في الأرض لأجل عباده ، وقوله : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة ﴾ وهي ما في الأعضاء من السلامة ﴿ وَبَاطِنَةً ﴾ وهي ما في القوى فإن العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ، ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر ، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر ، وفي كل واحد معنى باطن من الأبصار والسمع والذوق والشم ، وكذلك كل عضو ، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائماً ، وهذا أحسن مما قيل فإن على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الأنفس فقوله : ﴿ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ يكون إشارة إلى النعم الآفاقية ، وقوله : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ يكون إشارة إلى النعم الأنفسية ، وفيهما أقوال كثيرة مذكورة في جميع كتب التفاسير ، ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولاً منقولاً ، وإن لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغاً معقولاً .

(178/608)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ يعني لما ثبت الوحدانية بالخلق والإنعام فمن الناس من يجادل في الله ويثبت غيره ، إما إلهاً أو منعماً ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كتاب

مُّنِيرٍ ﴾ هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب ، والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب ، وبيانه هو أن العلم تدخل فيه الأشياء الواضحة اللائحة التي تعلم من غير هداية هاد ، ثم الهدى يدخل فيه الذي يكون في كتاب والذي يكون من إلهام ووحي ، فقال تعالى : ﴿ يجادل ﴾ ذلك المجادل لا من علم واضح ، ولا من هدى أتاه من هاد ، ولا من كتاب وكأن الأول إشارة إلى من أوتي من لدنه علماً كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء : 113] والثاني : إشارة إلى مرتبة من هدى إلى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 5] والثالث : إشارة إلى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى : ﴿ الم * ذلك الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 1 ، 2] وقال في هذه السورة : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : 3] وقال في السجدة : (23) ﴿ وَلَقد ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إسرائيل ﴾ فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام ، والنبي هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الأمين ، فقال تعالى : يجادل من يجادل لا بعلم آتيناه من لدنا كشفاً ، ولا بهدى أرسلناه إليه وحياً ، ولا بكتاب يتلى عليه وعظاً .

(179/608)

ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال في الكتاب : ﴿ وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف ، فلو قال ولا كتاب لكان لقائل أن يقول لا يجادل من غير كتاب ، فإن بعض ما يقولون فهو في كتابهم ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم ، فقال : ﴿ وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ فإن ذلك الكتاب مظلم ، ولما لم يحتمل في المرتبة الأولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير أو حق أو غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فإن النبي عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله ، وهم يأخذون بكلام آبائهم ، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء ثم إن ههنا شيئاً آخر وهو أنهم قالوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ يعني نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل ، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جائزاً ، ويحتمل أن يكون حراماً ، وهم تعاطوه ، ويحتمل أن يكون واجباً في اعتقادهم والقول بين الدلالة ، فلو سمعنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله ، لكان الواجب الأخذ بالقول ، فكيف والقول من الله والفعل من الجهال ، ثم قال تعالى : ﴿ أَوْلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ استفهاماً على سبيل التعجب في

الإنكار يعني الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب ، وهم مع هذا يتبعون الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 133.134 ﴾

(180/608)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾

وفي تسخيره ذلك وجهان :

أحدهما : تسهيله .

الثاني : الانتفاع به .

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيكُمْ نِعَمَهُ ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وحفص بغير تنوين على الجمع والباقون بالتنوين يعني نعمة واحدة ، وفي هذه القراءة وجهان :

أحدهما : أنه عنى الإسلام فجعلها واحدة ، قاله إبراهيم .

الثاني : أنه قصد التكثير بلفظ الواحد كقول العرب : كثر الدينار والدرهم ، والأرض سيف وفرس ، وهذا أبلغ في التكثير من لفظ الجمع ، قاله ابن شجرة .

وفي قوله : ﴿ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ خمسة أقاويل :

أحدها : أن الظاهرة الإسلام ، والباطنة ما ستره الله من المعاصي قاله مقاتل .

الثاني : أن الظاهرة على اللسان ، والباطنة في القلب ، قاله مجاهد ووكيع .

الثالث : أن الظاهرة ما أعطاهم من الزي والثياب ، والباطنة متاع المنازل ، حكاه النقاش .

الخامس : الظاهرة الولد ، والباطنة الجماع .

ويحتمل سادساً : أن الظاهرة في نفسه ، والباطنة في ذريته من بعده .

ويحتمل سابعاً : أن الظاهرة ما مضى ، والباطنة ما يأتي .

ويحتمل ثامناً : أن الظاهرة في الدنيا ، والباطنة في الآخرة .

ويحتمل تاسعاً : أن الظاهرة في الأبدان ، والباطنة في الأديان .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : نزلت في يهودي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو ؟ فجاءت صاعقة فأخذته .

الثاني : أنها نزلت في النضر بن الحارث كان يقول : إن الملائكة بنات الله ، قاله أبو مالك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(181/608)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع ، وذلك أن تسخير هذه الأمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والحيوان والنبات إنما هو بمسخر ومالك ، وقرأ يحيى بن عمارة وابن عباس " وأصبغ " بالصاد على بدلها من السين لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سفلها إلى علوها فتردها صاداً ، والجمهور قراءتهم بالسين ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم والحسن والأعرج وأبو جعفر وابن نصاح وغيرهم " نعمَه " جمع نعمة كسدرة وسدر بفتح الدال ، و" الظاهرة " هي الصحة وحسن الخلقة والمال وغير ذلك ، و" الباطنة " المعتقدات من الإيمان ونحوه والعقل .

قال ابن عباس " الظاهر " الإسلام وحسن الخلقة ، و" الباطنة " ما يستر من سيىء العمل ، وفي الحديث قيل يا رسول الله قد عرفنا الظاهرة فما الباطنة ؟ قال : ستر ما لو رآك الناس عليه لقتلوك .

(182/608)

قال الفقيه الإمام القاضي : ومن " الباطنة " التنفس والهضم والتغذي وما لا يحصى كثرة ، ومن " الظاهرة " عمل الجوارح بالطاعة . قال المحاسبي رحمه الله " الظاهرة " تعم الدنيا و " الباطنة " تعم العقبى ، وقرأ جمهور الناس " نعمة " على الإفراد ، فقال مجاهد المراد لا إله إلا الله ، وقال ابن عباس أراد الإسلام ، والظاهر عندي أنه اسم جنس كقوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : 34 ، النحل : 18] ، ثم عارض بالكفرة منها على فساد حالهم وهم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ ومن الناس ﴾ ، وقال النقاش : الإشارة إلى النضر بن الحارث ونظرائه لأنهم كانوا ينكرون الله ويشركون الأصنام في الألوهية ، فذلك جدالهم ، و ﴿ بغير علم ﴾ أي لم يعلمهم من يقبل قوله ولا عندهم هدى قلب ولا نور بصيرة يقيمون بها حجة ولا يتبعون بذلك كتاباً بأمر الله يقر بأنه وحي ، بل ذلك دعوى منهم وتخرص ، وإذا دعوا إلى اتباع وحي الله رجعوا إلى التقليد المحض بغير حجة فسلكوا طريق الآباء ، ثم وقف الله تعالى وهم المراد بالتوفيق على اتباعهم دين آبائهم أيكون وهم بحال من يصير ﴿ إلى عذاب السعير ﴾ فكان القائل منهم يقول هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف كما كان اتساق الكلام فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾

ذكر نعمه على بني آدم ، وأنه سخّر لهم "مَا فِي السَّمَوَاتِ" من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجرّ إليهم منافعهم .

"وَمَا فِي الأَرْضِ" عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى .

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ أي أكملها وأتمها .

وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة : "وَأَصْبَغَ" بالصاد على بدلها من السين ؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سُفْلها إلى عُلوّها فتردّها صاداً .

والنِّعَم : جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر (بفتح الدال) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص .

الباقون : "نِعمةً" على الإفراد ؛ والإفراد يدلّ على الكثرة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] .

وهي قراءة ابن عباس من وجوه صحاح .

وقيل : إن معناها الإسلام ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : " الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك ، والباطنة ما ستر عليك من سيّء عملك "

النحاس : وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عز وجل : ﴿ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ

وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: 6] قال: يدخلكم الجنة.

وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمّا كان الإسلام يؤول أمره إلى الجنة سُمّيَ نعمة.

وقيل: الظاهرة الصحة وكمال الخلق، والباطنة المعرفة والعقل.

وقال المحاسبي: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العُقْبى.

وقيل: الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات.

وقد سرد الماوَرْديّ في هذا أقوالاً تسعة، كلها ترجع إلى هذا.

(184/608)

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تقدّم معناها في "الحج" وغيرها.

نزلت في يهوديّ جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، مِن أيّ شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته؛ قاله مجاهد.

وقد مضى هذا في "الرعد" .

وقيل : إنها نزلت في النضر بن الحارث ، كان يقول : إن الملائكة بنات الله ؛ قاله ابن عباس .

﴿ يُجَادِلُ ﴾ يخاصم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بغير حجة ﴿ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي نيّر بيّن ؛ إلا الشيطان فيما يلقى إليهم .

﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : 121] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعدُ .

﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ يتبعونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(185/608)

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

رجوعٌ ما سلفَ قبل قصّةِ لقمانَ من خطابِ المشركينَ وتوبيخٌ لهم على إصرارِهم على ما هُم عليه مع مشاهدتِهم لدلائلِ التَّوحيدِ ، والمرادُ بالتَّسخيرِ إمَّا جعلُ المسخَّرِ بحيثُ ينفعُ المسخَّرَ له أعمَّ من أنْ يكونَ مُنقاداً له يتصرَّفُ فيه كيفَ يشاءُ ويستعملُه حسبما يريدُ

كعامَّة ما في الأرضِ من الأشياءِ المسخَّرة للإنسانِ المستعملةِ له من الجمادِ والحيوانِ أو لا يكونُ كذلك بل يكونُ سبباً لحصولِ مرادِه من غيرِ أن يكونَ له دخلٌ في استعمالِه كجميعِ ما في السَّمواتِ من الأشياءِ التي نيطتْ بها مصالحُ العبادِ معاشاً أو مَعَاداً ، وإما جعلُه منقاداً للأمرِ مذللاً على أنَّ معنى لكُم لأجلِكم فإنَّ جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ من الكائناتِ مسخرةٌ لله تعالى مستتبعةٌ لمنافعِ الخلقِ ، وما يستعملُه الإنسانُ حسبما يشاءُ وإن كان مسخَّراً له بحسبِ الظَّاهرِ فهو في الحقيقةِ مسخَّرٌ لله تعالى ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ محسوسةً ومعقولةً معروفةً لكم وغيرَ معروفةٍ وقد مرَّ شرحُ النِّعمةِ وتفصيلُها في الفاتحةِ . وقُرِىء أصبغَ بالصَّادِ وهو جارٍ في كلِّ سينٍ قارنت الغينَ أو الخاءَ أو القافَ كما تقولُ في سَلَخ صَلَخ وفي سَقَر صَقَر وفي سَالِغ صالغ وقُرِىء نعمةً ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ في توحيدِه وصفاتِه ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مستفادٍ من دليلٍ ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ من جهةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ أنزلَه الله سبحانَه بل بمجرَّدِ التَّقليدِ .

(186/608)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي لمن يجادلُ ، والجمعُ باعتبار المعنى ﴿ اتبعوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ يُريدون به عبادةَ الأصنامِ ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ ﴾ أي آباءَهم لا أنفسَهم كما قيل : فإنَّ مدارَ إنكارِ الاتباعِ واستبعادِه كونُ المتبوعينَ تابعينَ للشَّيطانِ لا كونُ أنفسِهم كذلك ، أي أيتبعونَهم ولو كان الشَّيطانُ يدعُوهم فيما هم عليه من الشّرك ﴿ إلى عَذَابِ السعير ﴾ فهُم متوجهون إليه حسبَ دعوتِه ، والجملةُ في حيّز النَّصبِ على الحاليَّةِ وقد مرَّ تحقيقُه في قولِه تعالى : ﴿ أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهم لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ من سُورة البقرةِ بما لا مزيدَ عليهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(187/608)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾

رجوع إلى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد ، والتسخير على ما قال الراغب سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهراً ، وفي إرشاد العقل السليم المراد به إما جعل المسخر

بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله كيف يريد كعامة ما في الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما في السماوات من الأشياء التي نيطت بها مصالح العباد معاشاً أو معاداً ، وأما جعله منقاداً للأمر مذللاً على أن معنى ﴿ لَكُمْ ﴾ لأجلكم فإن جميع ما في السماوات والأرض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخر لله عز وجل ﴿ وَأَسْبَغَ ﴾ أي أتم وأوسع ﴿ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ جمع نعمة وهي في الأصل الحالة المستلذة فإن بناء الفعلة كالجلسة والركبة للهيئة ثم استعملت فيما يلائم من الأمور الموجبة لتلك الحالة إطلاقاً للمسبب على السبب ، وفي معنى ذلك قولهم : هي ما ينتفع به ويستلذ ومنهم من زاد ويحمل عاقبته ، وقال بعضهم : لا حاجة إلى هذه الزيادة لأن اللذة عند المحققين أمر تحمد عاقبته وعليه لا يكون لله عز وجل على كافر نعمة ، ونقل الطيبي عن الإمام أنه قال : النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير ، ومنهم من يقول : المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير قالوا : وإنما زدنا قيد الحسنة لأن النعمة يستحق بها الشكر وإذا كانت قبيحة لا يستحق بها الشكر ، والحق أن هذا القيد غير معتبر لأنه يجوز

أن يستحق الشكر بالإحسان وإن كان فعله محظوراً لأن جهة الشكر كونه إحساناً وجهة استحقاق الذم والعقاب الحظر فأي امتناع في اجتماعهما ،

(188/608)

ألا ترى أن الفاسق يستحق الشكر لإنعامه والذم لمعصية الله تعالى فلم لا يجوز أن يكون الأمر ههنا كذلك ، أما قولنا : المنفعة فلأن المضرة المحضة لا تكون نعمة ، وقولنا : المفعولة على جهة الإحسان لأنه لو كان نفعاً وقصد الفاعل به نفع نفسه لا نفع المفعول به لا يكون نعمة وذلك كمن أحسن إلى جاريته ليربح عليها اه ، ويعلم منه حكم زيادة ويحمد عاقبته ﴿ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ أي محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة ، وعن مجاهد النعمة الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء والباطنة الإمداد من الملائكة عليهم السلام ، وعن الضحاك الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة ، وقيل : الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح والباطنة القلب والعقل والفهم ، وقيل : الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم الآخرة ، وقيل : الظاهرة نحو إرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق لقبول الإسلام والإتيان به والثبات على قدم الصدق ولزوم العبودية والباطنة ما أصاب الأرواح في عالم الذر من رشاش نور النور .

وأول الغيث قطر ثم ينسكب . . .

ونقل بعض الإمامية عن الباقر رضي الله تعالى عنه أنه قال : الظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من معرفة الله تعالى وتوحيده والباطنة ولا يتنا أهل البيت وعقد مودتنا ، والتعميم الذي أشرنا إليه أولاً أولى ، لكن أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء قال : سألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ قال : هذه من كنوز علمي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما الظاهرة فما سوى من خلقك وأما الباطنة فما ستر من عورتك ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم .

وفي رواية أخرى رواها ابن مردويه .

والديلمي .

والبيهقي .

(189/608)

وابن النجار عن ابن عباس أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ ﴾ الخ قال : أما الظاهرة فالإسلام وما سوى من خلقك وما أسبغ عليك من

رزقه وأما الباطنة فما ستر من مساوىء عملك فإن صح ما ذكر فلا يعدل عنه إلى التعميم إلا أن يقال : الغرض من تفسير الظاهرة والباطنة بما فسرنا به التمثيل وهو الظاهر لا التخصيص وإلا لتعارض الخبران .

ثم إن ظاهر هذين الخبرين يقتضي كون الذنب وهو المعبر عنه في الأول بما ستر من العورة وفي الثاني بما ستر من مساوىء العمل نعمة ولم نر في كلامهم التصريح بإطلاقها عليه ويلزمه أن من كثرت ذنوبه كثرت نعم الله تعالى عليه فكان المراد أن النعمة الباطنة هي ستر ما ستر من العورة ومساوىء العمل ولم يقل كذلك اعتماداً على وضوح الأمر ، وجاء في بعض الآثار ما يقتضي ذلك ، أخرج ابن أبي حاتم .

والبيهقي .

عن مقاتل أنه قال في الآية : ﴿ ظاهرة ﴾ الإسلام ﴿ وَبَاطِنَةً ﴾ ستره تعالى عليكم المعاصي ، بل جاء في بعض روايات الخبر الثاني وأما ما بطن فستر مساوىء عملك .

وجوز أن يكون ﴿ مَا ﴾ في ما ستر في الخبرين مصدرية ومن صلة ستر لا بيان لما وقرأ .

يحيى بن عمارة وأصبغ بالصاد وهي لغة بني كلب يبدلون من السين إذا اجتمعت مع أحد الحروف المستعلية الغين والخاء والقاف صاداً فيقولون في سلخ صلخ وفي سقر صقر وفي سائغ صائغ ولا فرق في ذلك بين أني يفصل بينهما فاصل وأن لا يفصل ، وظاهر كلام بعضهم أنه لا فرق أيضاً بين أن تتقدم السين على أحد تلك الأحرف وأن تتأخر ، واشترط آخر

تقدم السين ، وذكر الخفاجي أنه إبدال مطرد .

وقرأ بعض السبعة .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ نِعْمَتَ ﴾ بالإفراد .

وقرىء ﴿ نِعْمَتَهُ ﴾ بالأفراد والإضافة ، ووجه الإفراد بإرادة الجنس كما قيل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] وقال الزجاج من قرأ .

(190/608)

﴿ نِعْمَتَ ﴾ فعلى معنى ما أعطاهم من التوحيد ومن قرأ نعمه بالجمع فعلى جميع ما أنعم به عليهم والأول أولى ، ونصب ﴿ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ في قراءة التعريف على الحالية وفي قراءة التنكير على الوصفية ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل ﴾ من الجدال وهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله كان المتجادلين يفتل كل منهما صاحبه عن رأيه .

وقيل : الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة وكأن الجملة في موضع الحال من ضميره تعالى فيما قبل أي ألم تروا أن الله سبحانه

فعل ما فعل من الأمور الدالة على وحدته سبحانه وقدرته عز وجل والحال من الناس من ينازع ويخاصم كالنضر بن الحرث وأبي ابن خلف كانا يجادلان النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فِى اللهِ ﴾ أي في توحيده عز وجل وصفاته جل شأنه كالمشركين المنكرين وحدته سبحانه وعموم قدرته جلت قدرته وشمولها للبعث ولم يقل فيه بدل في الله بإرجاع الضمير للاسم الجليل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ﴾ تهويلاً لأمر الجدال ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مستفاد من دليل عقلي ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ راجع إلى رسول مأخوذ منه ، وجوز جعل الهدى نفس الرسول مبالغة وفيه بعد ﴿ وَلاَ كِتَابٍ ﴾ أنزله الله تعالى ﴿ مُّنِيرٍ ﴾ أي ذي نور ، والمراد به واضح الدلالة على المقصود ، وقيل : منقذ من ظلمة الجهل والضلال بل يجادلون بمجرد التقليد كما قال سبحانه :

(191/608)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى ﴿ اتبعوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ يريدون عبادة ما عبدوه من دون الله عز وجل ، وهذا ظاهر في منع التقليد في أصول الدين والمسألة خلافية فالذي ذهب إليه الأكثرون ورجحه الإمام الرازي والآمدي أنه لا يجوز التقليد في الأصول بل يجب النظر والذي ذهب إليه عبيد الله

بن الحسن العنبري وجماعة الجواز وربما قال بعضهم : إنه الواجب على المكلف وإن النظر في ذلك والاجتهاد فيه حرام ، وعلى كل يصح عقائد المقلد المحق وإن كان آثماً بترك النظر على الأول ؛ وعن الأشعري أنه لا يصح إيمانه ، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : هذا مكذوب عليه لما يلزمه تكفير العوام وهم غالب المؤمنين ، والتحقيق أنه إن كان التقليد أخذاً لقول الغير بغير حجة مع احتمال شك ووهم بأن لا يجزم المقلد فلا يكفي إيمانه قطعاً لأنه لا إيمان مع أدنى تردد فيه وإن كان لكن جزماً فيكفي عند الأشعري وغيره خلافاً لأبي هاشم في قوله لا يكفي بل لا بد لصحة الإيمان من النظر ، وذكر الخفاجي أنه لا خلاف في امتناع تقليد من لم يعلم أنه مستند إلى دليل حق ، وظاهر ذم المجادلين بغير علم ولا هدى ولا كتاب أنه يكفي النظر الدليل النقلي الحق كما يكفي فيه الدليل العقلي .

(192/608)

﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ ﴾ أي يدعو آباءهم لا أنفسهم كما قيل : فإن مدار إنكار الاستتباع كون المتبوعين تابعين للشياطين وينادي عليه قوله تعالى : ﴿ أَوْلَوْ كَانَ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ ﴾ بعد قوله سبحانه : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ [البقرة : 170] ويعلم منه حال رجوع الضمير إلى المجموع أي أولئك المجادلين وآباءهم ﴿ إلى

عَذَابِ السعير ﴾ أي إلى ما يؤول إليه أو يتسبب منه من الإشراك وإنكار شمول قدرته عز وجل للبعث ونحو ذلك من الضلالات ، وجوز بقاء ﴿ عَذَابِ السعير ﴾ على حقيقته والاستفهام للإنكار ويفهم التعجيب من السابق أو للتعجيب ويفهم الإنكار من السياق والواو حالية والمعنى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب ، وجوز كون الواو عاطفة على مقدر أي أيتبعونهم لو لم يكن الشيطان يدعوهم إلى العذاب ولو كان يدعوهم إليه ، وهما قولان مشهوران في الواو الداخلة على ﴿ لَوْ ﴾ الوصلية ونحوها ، وكذا في احتياجها إلى الجواب قولان قول بالاحتياج وقول بعدمه لانسلاخها عن معنى الشرط ، ومن ذهب إلى الأول قدره هنا لا يتبعوهم وهو مما لا غبار عليه على تقدير كون الواو عاطفة ، وأما على تقدير كونها حالية فزعم بعضهم أنه لا يتسنى وفيه نظر ، وقد مر الكلام على نحو هذه الآية الكريمة فتذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(193/608)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض ﴾

رجوع إلى تعداد دلائل الوحدانية وما صحب ذلك من منة على الخلق ، فالكلام استئناف ابتدائي عن الكلام السابق ورجوع إلى ما سلف في أول السورة في قوله تعالى : ﴿ خَلَق السَّماوات بِغَير عمد ﴾ [لقمان : 10] فإنه بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض والحيوان والأمطار عاد هنا الاستدلال والامتنان بأن سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض .

وقد مضى الكلام على هذا التسخير في تفسير قوله تعالى ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ الآيات من سورة إبراهيم (32) ، وكذلك في سورة النحل (3) .

ومعنى ﴿ سخر لكم ﴾ لأجلكم لأن من جملة ذلك التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار والرياح ونور الشمس والقمر ومواقيت البروج والمنازل والاتجاه بها .

والخطاب في ﴿ ألم تروا ﴾ يجوز أن يكون لجميع الناس مؤمنهم ومشركهم لأنه امتنان ، ويجوز أن يكون لخصوص المشركين باعتبار أنه استدلال .

والاستفهام في ﴿ ألم تروا ﴾ تقرير أو إنكار لعدم الرؤية بتنزيلهم منزلة من لم يروا آثار ذلك التسخير لعدم انتفاعهم بها في إثبات الوحدانية .

والرؤية بصرية .

ورؤية التسخير رؤية آثاره ودلائله .

ويجوز أن تكون الرؤية علمية كذلك ، والخطاب للمشركين كما في قوله ﴿ خلق السماوات

بغير عَمد ترونها ﴾ .

وإسباغ النِعم : إكثارها .

وأصل الإسباغ : جعل ما يلبس سابغاً ، أي وافياً في الستر .

ومنه قولهم : درع سابغة .

ثم استعير للإكثار لأن الشيء السابغ كثير فيه ما يتخذ منه من سَرْد أو شُقَق أثواب ، ثم شاع ذلك حتى ساوى الحقيقة فقيل : سوابغ النعم .

والنعمة : المنفعة التي يقصد بها فاعلُها الإحسان إلى غيره .

وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر نِعَمهُ ﴾ بصيغة جمع نعمة مضاف إلى ضمير الجلالة ، وفي الإضافة إلى ضمير الله تنويه بهذه النِعم .

(194/608)

وقرأ الباقون ﴿ نِعْمَةً ﴾ بصيغة المفرد ، ولما كان المراد الجنس استوى فيه الواحد والجمع .

والتنكير فيها للتعظيم فاستوى القراءتان في إفادة التنويه بما أسبغ الله عليهم .

وانتصب ﴿ ظاهرة وباطنة ﴾ على الحال على قراءة نافع ومن معه ، وعلى الصفة على

قراءة البقية .

والظاهرة : الواضحة .

والباطنة : الخفية وما لا يعلم إلا بدليل أو لا يعلم أصلاً .

وأصل الباطنة المستقرة في باطن الشيء أي داخله ، قال تعالى : ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ [الحديد : 13] فكم في بدن الإنسان وأحواله من نعم يعلمها الناس أو لا يعلمها بعضُهم ، أو لا يعلمها إلا العلماء ، أو لا يعلمها أهل عصر ثم تنكشف لمن بعدهم ، وكلا النوعين أصناف دينية ودنيوية .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾

الواو في قوله ﴿ ومن الناس من يجادل ﴾ واو الحال .

والمعنى : قد رأيتم أن الله سخّر لكم ما في السماوات وأنعم عليكم نعماً ضافية في حال أن بعضكم يجادل في وحدانية الله ويتعامى عن دلائل وحدانيته .

وجملة الحال هنا خبر مستعمل في التعجيب من حال هذا الفريق .

ولك أن تجعل الواو اعتراضيَّة والجملة معترضة بين جملة ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ﴾ وبين جملة ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ﴾ [لقمان : 25] .

وقوله ﴿ ومِنَ النَّاس ﴾ من الإظهار في مقام الإضمار كأنه قيل : ومنكم ، و ﴿ مِن ﴾ تبعيضية .

والمراد بهذا الفريق : هم المتصدون لمحاجة النبي صلى الله عليه وسلم والتمويه على قومهم مثل النضر بن الحارث ، وأمية بن خلف ، وعبد الله بن الزِّبْعَرى .

(195/608)

وشمل قوله ﴿ بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ مراتبَ اكتساب العلم وهي إما : الاجتهاد والاكتساب ، أو التلقي من العالم ، أو مطالعة الكتب الصائبة .

وتقدم تفسير نظير هذه الآية في سورة الحج (8) .

وجملة ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ الخ عطف على صلة ﴿ مَن ، ﴾ أي : مَن حالهم هذا وذاك ، وتقدم نظير هذه الجملة في سورة البقرة (170) .

والضمير المنصوب في قوله ﴿ يدعوهم ﴾ عائد إلى الآباء ، أي أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يَدعو الآباء إلى العذاب فهم يتبعونهم إلى العذاب ولا يهتدون .

و ﴿ لو ﴾ وصلية ، والواو معها للحال .

والاستفهام تعجيبي من فظاعة ضلالهم وعماهم بحيث يتبعون من يدعوهم إلى النار ،

وهذا ذم لهم .

وهو وزان قوله في آية البقرة (170) : ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ﴾ والدعاء إلى عذاب السعير : الدعاء إلى أسبابه .

والسعير تقدم في قوله تعالى : ﴿ كلما خَبَتْ زِدْنَاهم سعيراً ﴾ في سورة الإسراء (97) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(196/608)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

التسخير : هو الانقياد للخالق الأعلى بمهمة يؤديها بلا اختيار في التنقُّل منها ، كما سخر الله الشمس والقمر . . إلخ ، فعلى الرغم من أن كثيراً من الناس منصرفون عن الله وعن منهج الله لم تتأبَّ الشمس في يوم من الأيام أنْ تشرق عليهم ، ولا امتنع عنهم الهواء ، ولا ضنَّتْ عليهم الأرض بخيراتها ولا السماء بمائها ، لماذا ؟ لأنها مُسخَّرة لا اختيار لها .

ولا نفهم من ذلك أن الله سخَّر هذه المخلوقات رغماً عنها ، فهذا فهم سطحي لهذه المسألة ، حيث يرى البعض أن الإنسان فقط هو الذي خُيِّر ، إنما الحقيقة أن الكون كله خُيِّر ، وهذا

واضح في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72]

إذن : فالجميع خُيِّر ، خُيِّرت السماوات والأرض والجبال فاختارت أن تكون مُسخَّرة لا إرادة لها ، وخُيِّر الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ؛ لأن له عقلاً يفكر به ويقارن بين البدائل .

ومعنى التسخير أنك لا تستطيع أن تخضع ما ينفعك من الأشياء في الكون بعقلك ولا بإرادتك ولا بالمنهج ، والدليل على ذلك أنك إذا صِدْتَ طيراً وحبسته في قفص ومنعته من أنْ يطير في السماء وتريد أن تعرف : أهو مُسخَّر لك أم غير مسخر وحبسه حلال أم حرام ؟ فافتح له باب القفص ، فإنْ ظلَّ في صحبتك فهو مُسخَّر لك ، راضٍ عن بقائه معك باللقمة التي يأكلها أو المكان الذي أعددتَهُ له ، وإنّ خرج وترك صحبتك فاعلم أنه غير مُسخَّر لك ، ولا يحقُّ لك أن تستأنسه رغماً عنه .

(197/608)

لذلك سيدنا عمر – رضي الله عنه – لما مَرَّ بغلام صغير يلعب بعصفور أراد أنْ يُعلِّمه درساً وهو ما يزال (عجينة) طيِّعة ، فأقنعه أنْ يبيعه العصفور ، فلما اشتراه عمر وصار

في حوزته أطلقه ، فقال الغلام : فو الله ما قَصَرْتُ بعدها حيواناً على الأنس به .

وسبق أنْ تكلمنا عن مسألة التسخير ، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبي الصغير ولم يُسخِّر لك مثلاً البرغوث فلو لم يُذلِّل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها في خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . . ﴾ [لقمان : 20] أسبغ : أتمّ وأكمل ، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود : ﴿ أَنِ اعمل سَابِغَاتٍ . . . ﴾ [سبأ : 11] أي : دروعاً ساترة محكمة تقي لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح ، والدروع تُجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين ، وقد علَّم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع ، ليست ملساء ، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة ، ولا تنزحلق فتصيب مكاناً آخر .

ورُوِي أن لقمان رأى دواد – عليه السلام – يعجن الحديد بين يديه فتعجب ، لكنه لم يبادر بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع ، فأخذه ولبسه وقال : نِعْمَ لَبُوس الحرب أنت ، فقال لقمان : الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله فظلت حكمة تتردد إلى آخر الزمان .

فمعنى أسبغ علينا النعمة : أتمها إتماماً يستوعب كل حركة حياتكم ، ويمدكم دائماً

بمقوِّمات هذه الحياة بحيث لا ينقصكم شيء ، لا في استبقاء الحياة ، ولا في استبقاء النوع ؛ لأن الذي خلق سبحانه يعلم كل ما يحتاجه المخلوق .

(198/608)

أما إذا رأيتَ قصوراً في ناحية ، فالقصور من ناحية الخَلْق في أنهم لم يستنبطوا من معطيات الكون ، أو استنبطوا خيرات الكون ، لكن بخلوا بها وضنُّوا على غيرهم ، وهذه هي آفة العالم في العصر الحديث ، حيث تجد قوماً قعدوا وتكاسلوا عن البحث وعن الاستنباط ، وآخرين جدُّوا ، لكنهم بخلوا بثمرات جدهم ، وربما فاضتْ عندهم الخيرات حتى ألقَوْها في البحر ، وأتلفوها في الوقت الذي يموت فيه آخرون جوعاً وفقراً .

إذن : فآفة العالم ليس في أنه لا يجد ، إنما في أنه لا يحسن استغلال ما يجد من خيرات ، ومن مُقوِّمات لله تعالى في كونه . فقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . . ﴾ [لقمان : 20] هذه حقيقة لا ينكرها أحد ، فهل تنكرون أنه خلقكم ، وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً منها تتناسلون ؟

هل تنكرون أنه خلق السماوات بما فيها من الكواكب والمجرَّات ، وخلق الليل فيه منامكم ، والنهار وفيه سعيكم على معايشكم ؟ ثم في أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواس الظاهرة

وغير الظاهرة ، وجعل لكل منها مجالاً ومهمة تؤديها دون أنْ تشعر أنت بما أودعه الله في جسمك من الآيات والمعجزات ، وكل يوم يطلع علينا العلم بجديد من نِعَم الله علينا في أنفسنا وفي الكون من حولنا .

فمعنى ﴿ ظَاهِرَةً . . ﴾ [لقمان : 20] أي : التي ظهرتْ لنا : ﴿ وَبَاطِنَةً . . ﴾ [لقمان : 20] لم نصل إليها بعد ، ومن نِعَم الله علينا ما ندركه ، ومنها ما لا ندركه .

تأمل في نفسك مثلاً الكليتين وكيف يعمل بداخلك وتصفي الدم من البولينا ، فتنقيه وأنت لا تشعر بها ، وأول ما فكر العلماء في عمل بديل لها حال فشلها صمموا جهازاً يملأ حجرة كبيرة ، كانت نصف هذا المسجد من المعدات لتعمل عمل الكليتين ، ثم تبين لهم أن الكُلْية عبارة عن مليون خلية لا يعمل منها إلا مائة بالتناوب .

(199/608)

وقالوا : إن الفشل الكُلَوي عبارة عن عدم تنبه المائة خلية المناط بها العمل في الوقت المناسب يعني المائة الأولى أدَّتْ مهمتها وتوقفت دون أنْ تنبه المائة الأخرى ، ومن هندسة الجسم البشري أن خلق الله للإنسان كليتين ، حتى إذا تعطلت إحداهما قامت الأخرى بدورها .

أما النعم الباطنة فمنه ما يُكتشف في مستقبل الأيام من آيات ونِعَم ، فمنذ عدة سنوات أو عدة قرون لم نكُنْ نعرف شيئاً عن الكهرباء مثلاً ، ولا عن السيارات وآلات النقل وعصر العجلة والبخار .

. إلخ .

كلها نِعَم ظاهرة لنا الآن ، وكانت مستورة قبل ذلك أظهرها النشاط العلمي والبحث والاستنباط من معطيات الكون ، وحين تحسب ما أظهره العلم من نِعَم الله تجده حوالي 3% ونسبة 97% عرفها الإنسان بالصدفة .

وقلنا : إن أسرار الله ونعمه في كونه لا تتناهى ، وليس لأحد أن يقول : إن ما وضعه الله في الأرض من آيات وأسرار أدى مهمته ؛ لأنه باقٍ ببقاء الحياة الدنيا ، ولا يتوقف إلا إذا تحقَّق قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس . . . ﴾ [يونس : 24]

وفي الآخرة سنرى من آيات الله ومن عجائب مخلوقاته شيئاً آخر ، وكأن الحق تعالى يقول لنا : لقد رأيتُم آياتي في الدنيا واستوعبتموها ، فتعالوا لأُريكم الآيات الكبرى التي أعددتها لكم في الآخرة .

ففي الآخرة سأنشئكم نشأة أخرى ، بحيث تأكلون ولا تتغوَّطون ولا تتألمون ، وتمر عليكم الأعوام ولا تشيبون ، ولا تمرضون ، ولا تموتون ، لقد كنتم في الدنيا تعيشون بأسبابي ، أما في

الآخرة فأنتم معي مع المسبِّب سبحانه ، فلا حاجة لكم للأسباب ، لا لشمس ولا لقمر ولا . . إلخ .

(200/608)

لذلك نقول : من أدب العلماء أنْ يقولوا اكتشفنا لا اخترعنا ؛ لأن آيات الله ونِعَمه مطمورة في كونه تحتاج لمن يُنقِّب عنها ويستنتجها مما جعله الله في كونه من معطيات ومقدمات .

وسبق أنْ قلنا : إن كل سرٍّ من أسرار الله في كونه له ميلاد كميلاد الإنسان ، فإذا حان وقته أظهره الله ، إما ببحث العلماء وإلا جاء مصادفة تكرُّماً من الله تعالى على خَلْقه الذين قَصُرَت جهودهم عن الوصول إلى أسراره تعالى في كونه .

وفي هذا إشارة مقدمة لنْ نؤمن بالغيب الذي أخبرنا الله به ، فما دُمْنا قد رأينا نِعَمه التي كانت مطمورة في كونه فينبغي علينا أنْ نؤمنَ بما يخبرنا به من الغيب ، وأنْ نأخذَ من المُشاهَد دليلاً على ما غاب .

واقرأ في هذه المسألة قول الله تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ . . . ﴾ [البقرة : 255] أي : شاء سبحانه أنْ يوجد هذا الغيب ، وأن يظهر للناس بعد أنْ كان مطموراً ، فإنْ صادف بحثاً جاء مع البحث ، وإنْ لم يصادف جاء مصادفة وبلا

أسباب ، بدليل أنه نسب إحاطة العلم لهم .

أما الغيب الذي ليس له مُقدّمات توصل إليه ، ولا يطلع عليه إلا الله فهو المعنيّ بقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . ﴾ [الجن : 26-27]

وقال سبحانه : ﴿ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . . ﴾ [لقمان : 20] لأن الظاهرة تلفتنا إلى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، والباطنة يدخرها الله لمن يأتي بعد ، ثم يدخر ادخاراً آخر ، بحيث لا يظهر إلا حين نكون مع الله في جنة الله .

(201/608)

وقد حاول العلماء أن يُعدّدوا النعم والآيات الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة ما يعطيه لنا في الدنيا ظاهراً ، والباطنة ما أخبرنا الله بها ، فمثلاً حين تريد الجهاد في سبيل الله تُعِدُّ لذلك عُدَّته من سلاح وجنود . . إلخ وتأخذ بالأسباب ، فيؤيدك الله بجنود من عنده لم تروْها ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 12] والرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا ببعض هذه النعم الباطنة ، فيقول : " للمؤمن ثلاثة هي له وليست له – يعني ليست من عمله – أما الأولى : أن المؤمنين يصلون عليه ، وأما

الثانية فجعل الله له ثلث ماله يوصي به – يعني : لا يتركه للورثة إنما يتصرف هو فيه ، وكان المنطق أن تستفيد بما لك وأنت حيٌّ ، فإذا ما انتهيت فليس لك منه شيء وينتقل إلى الورثة يوزعه الله تعالى بينهم بالميراث الذي شرعه ، فمن النعم أن يباح لك التصرف في ثلث ما لك توصي به لتُكفّر به عن سيئاتك وتُطَهر به ذنوبك – أما الثالثة : أن الله تعالى ستر مساويك عن خَلْقه ، ولو فضحك بها لنبذك أهلك وأحبابك وأقرباؤك " .

إن من أعظم النعم علينا أن يحجب الله الغيب عن خَلْق الله ، ولو خيَّرتَ أيَّ إنسان : أتحب أن تعرف غَيْب الناس ويعرفوا غيبك ؟ فلا شكَّ في أنه لن يرضى بذلك أبداً .

والنبي صلى الله عليه وسلم يوضح هذه المسألة في قوله : " لو تكاشفتم ما تدافنتم " يعني : لو ظهر المستور من غيب الإنسان ، واطلع الناس على ما في قلبه لتركوه إنْ مات لا يدفنونه ، ولقالوا دَعُوه للكلاب تأكله ، جزاءً له على ما فعل .

لكن لما ستر الله غيوب الناس وجدنا حتى عدو الإنسان يُسرع بحمله ودفنه ، كما قال القائل : محا الموت أسباب العداوة بيننا . لكن من غباء الإنسان أن ينبشَ عن عيوب الآخرين ، وأنْ يتتبعَ عوراتهم ، فهل ترضى أنْ يعاملك الناس بالمثل ، فيتتبعون عوراتك ، ويبحثون عن عيوبك ؟

ثم إن سيئة واحدة يعرفها الناس عنك كفيلة بأن تُزهّدهم في كل حسناتك ، والله تعالى يريد أنْ ينتفع الناس بعضهم ببعض ليثرى حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : 20]

المجادلة : الحوار في أمر ، لكل طرف فيه جنود ، وكل منهم لا يؤمن برأي الآخر ، والجدل لا يكون إلا في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، ويسمونه الجدل الحتمي ، وهذا يكون موضوعياً لا لَددَ فيه ، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير ، وفيه تقابل الرأي بالرأي ليثمر الجدال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ [العنكبوت : 46] أما الجدل الذي يريد فيه كل طرف أنْ يُعلي رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شيء .

والجدل مأخوذ من الجَدْل أي الفَتْل ، والشيء حين يُفتل على مثله يقويه ، كذلك الرأي في الجدل يُقوِّي الرأي الآخر ، فإذا ما انتهيا إلى الصواب تكاتفا على إظهاره وتقويته ، فالجدل المراد به تقوية الحق وإظهاره .

فإنْ كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كل طرف على أن يعلي رأيه ولو بالباطل .

والحق سبحانه يبين لنا أن من الناس من ألفَ الجدل في الله على غير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ، فيقولون مثلاً في جدالهم : أللكون إله موجود ؟ وإنْ كان موجوداً ، أهو واحد أم متعدد ؟ وإنْ كان موجوداً أيعلم الجزئيات أم الكليات ؟ أيزاول مُلْكه كل وقت ؟ أم أنه خلق القوانين ، ثم تركها تعمل في الكون وتُسيِّره ؟ كأن الله تعالى زاول سلطانه في المُلْك مرة واحدة .

(203/608)

ومعلوم أن الله تعالى قيُّوم أي : قائم على أمر الخَلْق كله في كل وقت ، والدليل على ذلك هذه المعجزات التي خرقتْ النواميس لتدلّ على صِدْق الرسل في البلاغ عن الله ، كما عرفنا في قصة إحراق إبراهيم – عليه السلام – فلو أن المسألة إنجاء إبراهيم من النار لما مكّنهم الله منه ، أو مكَنهم منه ومن إلقائه في النار ، ثم أرسل على النار سحابة تُطفِئها .

لكن أراد سبحانه أن يشعلوا النار ، وأنْ يُلقوا بإبراهيم فيها ، ومع ذلك يخرج منها سالماً ليروْا بأعينهم هذه المعجزة الخارقة لقانون النار ليكبتهم الله ، ولا يعطيهم الفرصة ليخدعوا الناس ، ولو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم لوجودا هذه الفرصة ولقالوا : لو أمسكنا به لفعلنا به كذا وكذا .

ومعنى ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . ﴾ [لقمان : 20] العلم أن تعرف قضية وتجزم بها ، وهي واقعة وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، فإنْ كانت القضية التي تؤمن بها غير واقعة ، فهذا هو الجهل ، فالجاهل لا يوضع في مقابل العالم ؛ لأن الجاهل لديه علم بقضية لكنها باطلة ، وهذا يتعبك في الإقناع ؛ لأنه ليس خالي الذهن ، فيحتاج أولاً لأنْ تُخرج من ذهنْه القضية الباطلة وتُحلِ محلها القضية الصحيحة ، أما الأُميّ فهو خالي الذِّهن من أي قضيةَ .

فإنْ كانت القضية التي تجزم بها واقعة لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، كالولد الصغير الذي علمناه أن (الله أحد) واستقرتْ في ذهنه هذه المسألة ؛ لأن أباه أو معلمه لقَّنه هذه القضية حتى أصبحتْ عقيدة عنده ، فالذي يُدلِّل عليها مَنْ لقنّها له إلى أنْ يكبر ، ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

والعلم أنواع ، منها وأولها : العلم البدهي الذي نصل إليه بالبديهة دون بحث ، فمثلاً حين نرى الإنسان يتنفس نعلم أنه حيٌّ بالبديهة ، ونعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا ، والأرض تحتنا . . الخ .

(204/608)

وإذا نظرتَ إلى معلومات الأرض كلها تجد أن أم هذه المعلومات البديهة . فعلم الهندسة مثلاً يقوم على نظريات تستخدم الأولى منها مقدمة لإثبات الثانية ، والثانية مقدمة لإثبات الثالثة وهكذا .

فحين تعيد تسلسل النظريات الهندسية فإنك لا بُدَّ عائد إلى النظرية الأولى وهي بديهة تقول : إذا التقى مستقيم بآخر نتج عن هذا الالتقاء زاويتان قائمتان .

إذن : فأعقد النظريات لا بُدَّ أن تعود إلى أمر بدهي منثور في كون الله ، المهم مَنْ يلتفت إليه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله . . . ﴾ [لقمان : 20] أي : وجوداً وصفاتاً ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : 20] يعني : أن الجدل يصحّ إنْ كان بعلم وهدى وكتاب منير ، فإنْ كان بغير ذلك فلا يُعَدُّ جدلاً إنما مراء لا طائل من ورائه .

ومعنى الهدى : أي الاستدلال بشيء على آخر ، كالعربي الذي ضَلَّ في الصحراء ، فلما رأى على الرمال بَعْراً وأثراً لأقدام استأنس بها ، وعلم أنه على طريق مطروق ولا بُدَّ أن يمرَّ به أحد ، فلما عرضتْ له قضية الإيمان استدل عليها بما رأى فقال :

البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ،

نجوم تزهر ، وبحار تزخر . . أَلاَ يدل ذلك على اللطيف الخبير .

فالإنسان حين ينظر في الكون وفي آياته لا بُدَّ أنْ يصل من خلالها إلى الخالق عز وجل ، فما كان لها أنْ تتأتى وحدها ، ثم إنه لم يدَّعها أحدٌ لنفسه ممَّنْ ينكرون وجود الله ، وقلنا : إن أتفه الأشياء التي نراها لا يمكن ان توجد هكذا بدون صانع ، فمثلاً الكوب الذي نشرب فيه ، هل رأينا مثلاً شجرة تطرح لنا أكواباً ؟

(205/608)

إذن : لا بُدَّ أن لها صانعاً فكر في الحاجة إليها ، فصنعها بعد أنْ كان الإنسان يشرب الماء عباً ، أو نزحاً بالكفن وما توصلنا إلى هذا الكوب الرقيق النظيف إلا بعد بحث العلماء في عناصر الوجود ، أيها يمكن أنْ يعطيني هذه الزجاجة الشفافة ، فوجدوا أنها تُصنَع من الرمل بعد صَهْره تحت درجة حرارة عالية ، فهذا الكوب الذي يمكن أنْ نستغني عنه أخذ منا خبرة وقدرة وعلماً . . إلخ .

فما بالك بالشمس التي تنير الكون كله منذ خلق الله هذا الكون دون أنْ تكلّ أو تملَّ أو تتخلف يوماً واحداً ، وهي لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار ، أليست جديرة بأن نسأل عمَّنْ خلقها وأبدعها على هذه الصورة ، خاصة وانها فوق قدرتنا ولا تنالها

إمكاناتنا .

هذه هي الآيات التي نأخذها بالأدلة ، لكن هذه الأدلة لا تُوصِّلنا إلا إلى أن لهذا الكون بآياته العجيبة خالقاً مبدعاً ، لكن العقل لا يصل بي إلى هذا الخالق : مَنْ هو ، وما اسمه ، إذن : لا بُدَّ من بلاغ عن الله على يد رسول يبلغنا مَنْ هذا الخالق وما اسمه وما مطلوباته ، وماذا أعدّ لمن أطاعه ، وماذا أعدَّ لمن عصاه .

وفَرْق بين التعقُّل والتصوُّر ، والذي أتعب الفلاسفة أنهم خلطوا بينهما ، فالتعقل أن أنظر في آيات الكون ، وأرى أن لها موجداً ، أمّا التصور فبأنْ أتصور هذا الموجِد : شكله ، اسمه ، صفاته . . إلخ وهذه لا تتأتى بالعقل ، إنما بالرسول الذي يأتي من قِبَل الإله الموجد .

وسبق أن ضربنا مثلاً – ولله تعالى المثل الأعلى – قلنا : لو أننا نجلس في مكان مغلق ، وطرق الباب طارق ، فكلنا يتفق على أن طارقاً بالباب لا خلاف في هذه ، لكن نختلف في تصوُّره ، فواحد يتصور انه رجل ، وآخر يقول : طفل ، وآخر يتصوَّره امرأة ، وواحد يتصوره بشيراً ، وآخر يتصوره نذيراً . . إلخ .

(206/608)

إذن : اتفقنا في التعقُّل ، واختلفنا في التصور ، ولكي تعرف مَن الطارق فعلينا أن نقول : من الطارق ؟ ليعلن هو عن نفسه ويخبرنا مَنْ هو ؟ ولماذا جاء ؟ ويُنهي لنا في هذا الخلاف .

كذلك الحق – تبارك وتعالى – هو الذي يخبرنا عن نفسه ، لكن كيف يتم ذلك ؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أنْ يتجلى الله عليه بالخطاب ، بأن يكون مُعدّاً لتلقِّي هذا الخطاب ، لا أنْ يخاطب كل الناس .

وقد مثَّلْنا لذلك أيضاً (بلمبة) الكهرباء الصغيرة أو (الراديو) الذي لا يتحمل التيار المباشر ، بل يحتاج إلى (ترانس) أو منظم يعطيه الكهرباء على قَدْره وإلا حُرق ، فحتى في الماديات لا بد من قوي يستقبل ليعطي الضعيف .

والحق سبحانه يُعد من خَلْقه مَنْ يتلقى عنه ، ويُبلِّغ الناس ، فيكلم الله الملائكة ، والملائكة تكلم الرسل من البشر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً . . ﴾ [الشورى : 51]

وإلا لو كلَّم الله جميع البشر ، فما الحاجة للرسل ؟ لذلك لما سُئِل الإمام علي رضي الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : لو عرفتُ ربي بمحمد لكان محمد أوثقَ عندي من ربي ، ولو عرفتُ محمداً بربي ، فما الحاجة إذن للرسل ، لكن عرفتُ ربي بربي ، وجاء محمد ، فبلَّغني مراد ربي مني . إذن : لا بُدَّ من هذه الواسطة .

والحق سبحانه يعطينا في القرآن مثالاً يوضح هذه المسألة في قوله تعالى عن سيدنا موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ . . ﴾ [الأعراف : 143] فبماذا أجابه ربه ؟ ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي . . . ﴾ [الأعراف : 143] ولم يقل سبحانه : أنا لا أُرَى ، والمعنى : لو أعددتُكَ الإعدادَ المناسب لهذه الرؤية لرأيتَ بدليل أننا سنُعَدُّ في الآخرة على هيئة نرى فيها الله عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22-23]

(207/608)

وفي المقابل يقول عن الكفار الذين سيُحرمون هذه الرؤية ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : 15]

ثم لما تجلى الحق سبحانه للجبل ، وهو الجنس الأقوى من موسى مادةً وصلابة أندكَّ الجبل ، ونظر موسى إلى الجبل المتجلَّي عليه فخرَّ صَعقاً ، فما بالك لو نظر إلى المتجلِّي سبحانه ؟

إذن : الحق سبحانه حينما يريد أنْ يخاطب أحداً من خَلْقه ، أو يتجلى عليه يُعِدُّه لذلك ، ويُربِّيه على عينه ، كما قال عن موسى

﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] وقال في موضع آخر : ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ [طه : 41] ثم يقوم هذا المربي الذي رباه الله بتربية الخَلْق .

وقد ربى محمد صلى الله عليه وسلم أمته في ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن الله تعالى

خاطب كل إنسان بالمنهج لاستغرقتْ تربية الناس وقتاً طويلاً ؛ لذلك يصطفي الله الرسل ، ويعطيهم من الخصائص ما يُمكِّنهم من تربية الأمم بعد أنْ ربَّاهم الله ، واصطنعهم على عينه .

إذن : كان ولابُدَّ من إرسال الرسل للبلاغ عن الله : مَنْ هو ، ما اسمه ، ما صفاته ؟ ما مطلوباته ؟ ماذا أعدَّ لمن اطاعه ؟ وماذا أعد لمن عصاه . . إلخ . لذلك فأول دليل على بطلان الشرك أنْ تقول للذي يشرك الشمس أو القمر أو الأصنام مع الله في العبادة : وماذا قالت لك هذه الأشياء ؟ ما مطلوباتها ؟ ما مرادها منك ؟ وإلا ، فلماذا تعبدها والعبادة في أوضح معانيها : طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه ؟

(208/608)

فإنْ قُلْتَ : إذن لماذا قَبِلَتْ عقول هؤلاء القوم أنْ يعبدوا هذه الأشياء ؟ نقول : لأن التديُّنَ طبيعة في النفس البشرية ومركوز في الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلاً منا فيه ذرة حية من أبيه – عليه السلام – لم يطرأ عليها الفناء ، وإلا لما وُجِد الإنسان ، وهذه الذرة في كل منا هي التي شهدتْ الفطرة ، وشهدتْ الخلقَ ، وشهدتْ العهد الذي أخذه الله علينا جميعاً ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 172]

فإنْ حافظتَ على إشراقية هذه الذرة فيك ، ولم تُعرِّضها لما يطمس نورها – ولا يكون ذلك إلا بالسير على منهج خالقك وبناء لبنات جسمه مما أحل الله – إنْ فعلتَ ذلك أنار الله وجهك وبصيرتك .

لذلك جاء في الحديث أن العبد يشكو : يقول " دعوتُ فلم يُستجب لي ، لكن أنّى يستجاب له ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام ؟ " كيف وقد طمس الذرة النورانية فيه ، وغفل عن قانون صيانتها ؟ واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 123-124]

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتي حين تنطمس النورانية الإيمانية ، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التي شهدتْ خَلْق الله ، وشهدتْ له بالربوبية ، ولو حافظت عليها لظلّتْ كل التعاليم واضحة أمامك ، وما غفلت عن منهج ربك هذه الغفلة التي جرَّتْ عليك المعيشة الضنك ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً . . . ﴾ [الأنفال : 29] أي : نوراً يهديكم وتُفرِّقون به بين الحق والباطل .

(209/608)

والحق سبحانه يوضح لنا ما يطمس الفطرة الإيمانية ، وهما أمران : الغفلة والتي قال الله عنها : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : 172] والقدوة التي قال الله عنها : ﴿ إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ . . . ﴾ [الأعراف : 173]

فالذي يطمس الفطرة الإيمانية الغفلة عن المنهج ، هذه الغفلة تُوجِد جيلاً لا يتمسك بمنهج الحق ، وبذلك تكون العقبة في الجيل الأول الغفلة ، لكن في الأجيال اللاحقة الغفلة والقدوة السيئة ، وهكذا كلما تنقضي الأجيال تزداد الغفلة ، وتزداد القدوة السيئة ؛ لذلك يوالي الحق سبحانه إرسال الرسل ليزيح عن الخَلْق هذه الغفلة ، وليوجد لهم من جديد قدوةً حسنة ، ليقارنوا بين منهج الحق ومنهج الخَلْق .

فمَنْ أراد أنء يجادل في الله فليجادل بعلم وبهدى وبكتاب منير مُنزَّلٍ من عند الله ، ووَصْف الكتاب بأنه منير يدلُّنا على أن الكتاب المنسوب إلى الله تعالى لأبدَّ أن يكون منيراً ؛ لكنه قد يفقد هذا النور بما يطرأ عليه من تحريف وتبديل ونسيان وكتمان . . إلخ .

وقد أوضح الله تعالى هذه المراحل في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ . . . ﴾ [الأنعام : 44]

ثم : ﴿ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ البينات والهدى . . ﴾ [البقرة : 159]

وإن كان الإنسان يُعذَر في النسيان ، فلا يُعذَر في الكتمان ، ثم الذي نجا من النسيان ومن

الكتمان وقع في التحريف ﴿ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ . . ﴾ [المائدة : 13] ولَيْتهم اقتصروا على ذلك ، إنما اختلفوا من عند أنفسهم كلاماً ، ثم نسبوه إلى الله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله . . . ﴾ [البقرة : 79] فأنواع الطمس هذه أربعة ظهرت كلها في اليهود .

(210/608)

إذن : فالكتب التي بأيديهم لا تصلح للجدل في الله ؛ لأنها تفقد العلم والحجة والهدى ، ولا تُعَدُّ من الكتاب المنير المشرق الذي يخلو من التضبيبات والفجوات ، فجوات النسيان والكتمان ، والتحريف والاختلاق .

فمَنْ يريد أنْ يجادل في الله فليجادل بناء على علم بدهيٍّ أو هدى استدلالي ، أو كتاب منير . والكتب المنزَّلة كثيرة ، منها صحف إبراهيم وموسى ، ومنها زُبُر الأولين ، والزبور نزل على سيدنا داود ، والتوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى – عليهم جميعاً السلام – وهذه كلها كتب من عند الله ، لكن هل طرأ عليها حالة عدم الإنارة ؟

نقول : نعم ، لأنها انطمست بشهوات البشر فيها وبأهوائهم التي شوَّهتها وأخرجتها عن الإشراقية والنورانية التي كانت لها ، وهذا نتيجة السلطة الزمنية وهي أقسى شيء في

تغيير المناهج .

هذه السلطة الزمنية هي التي منعتْ اليهود أن يؤمنوا برسول الله ، وهم يعلمون بعثته في بلاد العرب ، ويعلمون موعده وأوصافه ، وأنه صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ؛ لذلك يقول القرآن عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ . . . ﴾ [الأنعام : 20]

ويقول عنهم : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 146] لذلك ، سيدنا عبد الله بن سلام يقول عن سيدنا رسول الله : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد .

ويحكي القرآن عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون برسول الله على الكفار فيقولون لهم : لقد أظل زمان نبي جديد نسبقكم إليه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين ﴾ [البقرة : 89]

(211/608)

لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنه سيسلبهم المكانة التي كانت لهم ، والريادة التي أخذوها في العلم والاقتصاد والحرب . . إلخ ، لقد كانوا يُعِدُّون واحداً منهم ليُنصِّبوه ملكاً عليهم في المدينة

ليلة هاجر إليها رسول الله ، فلما دخلها رسول الله لم تعُد لأحد مكانة الريادة بعد رسول الله ، فرفض هذا الملك الجديد .

إذن : فكل الكتب السماوية لحقها التحريف والتغيير ، فلم يضمن لها الحق سبحانه الصيانات التي تحميها كما حمى القرآن ، وما ذاك إلا ليظهر شرف النبي الخاتم ، فالكتب السابقة للقرآن جاءت كتبَ أحكام ، ولم تكن معجزة في ذاتها ، فالرسل السابقون كانت لهم معجزات منفصلة عن الكتب وعن المنهج ، فموسى عليه السلام معجزته : العصا واليد . إلخ وكتابه ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته أنْ يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله وكتابه ومنهجه الإنجيل .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فمعجزته وكتابه ومنهجه هو القرآن ، فهو منهج ومعجزة ستصاحب الزمان إلى أنْ تقوم الساعة ؛ لأن رسالته هي الرسالة الخاتمة ، فلا بُدَّ أن يكون كتابه ومعجزته كذلك فنقول : هذا محمد وهذه معجزته .

أما الرسالات السابقة فكانت المعجزة وقتية لمن رآها وعاصرها ولولا أن الله أخبرنا بها ما عرفنا عنها شيئاً ، وما صدَّقنا بها ، وسبق أنْ شبَّهناها بعود الكبريت الذي يشعل مرة واحدة رآه مَنْ رآه ، ثم يصبح خبراً ؛ لذلك لا نستطيع أن نقول مثلاً : هذا موسى عليه السلام وهذه معجزته ؛ لأننا لم نرَ هذه المعجزة .

ولما كانت الكتب السابقة كتباً تحمل المنهج ، وليست معجزة في ذاتها ترك الله تعالى

حفظها لأهلها الذين آمنوا بها ، وهذا أمر تكليفي عُرْضة لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصَى ، فكان منهم أنْ عصوا هذا الأمر فحدث تضبيب في هذه الكتب .

(212/608)

يقول تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله . . . ﴾ [المائدة : 44]

وساعة تسمع الهمزة والسين والتاء ، فاعلم أنها للطلب : استحفظتُك كذا يعني : طلبتُ منك حِفْظه ، مثل : استفهمتُ يعني طلبت الفهم ، واستخرجت ، واستوضحت . . إلخ

.

فلما جُرِّب الخَلْق في حفظ كلام الخالق فلم يؤدوا ، ولم يحفظوا ، تكفَّل الله سبحانه بذاته بحفظ القرآن ، وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9]

لذلك ظلَّ القرآن كما نزل لم تَنَلْه يد التحريف أو الزيادة أو النقصان ، وصدق الله تعالى حين قال في أول سوره ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ . . . ﴾ [البقرة : 2] لا الآن ، ولا بعد ، ولا إلى قيام الساعة ، حتى أن أعداء القرآن أنفسهم قالوا : لا يوجد كتاب مُوثَّق في التاريخ إلا القرآن .

والعجيب في مسألة حِفْظ القرآن أن الذي يحفظ شيئاً يحفظه ليكون حجة له ، لا حجة عليه ، كما تحفظ أنت الكمبيالة التي لك على خصمك ، أما الحق – سبحانه وتعالى – فقد ضمن حِفْظ القرآن ، والقرآن ينبئ بأشياء ستوجد فيما بعد ، والحق سبحانه لا يحفظ هذا ويُسجّله على نفسه ، إلا إذا ضمن صِدْق وتحقُّق ما أخبر به وإلا لما حفظه ، إذن : فحِفْظ الحق سبحانه للقرآن دليل على أنه لا يطرأ شيء في الكون أبداً يناقض كلام الله في القرآن :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82]

وسبق أنْ قُلنا : إن القرآن حكم في أشياء مستقبلية للخلق فيها اختيار ، فيأتي اختيار الخَلْق وفق ما حكم ، مع أنهم كافرون بالقرآن ، مكذبون له ، ومع ذلك لم يحدث منهم إلا ما أخبر الله به ، وكان بإمكانهم أنْ يمتنعوا ، لكن هيهات فلا يتم في كون الله إلا ما أراد .

(213/608)

لكن ، ماذا نفعل فيمَنْ يجادل في الله بغير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ؟ نلفته إلى العلم ، وإلى الهدى ، وإلى الكتاب المنير .

ندعوهم إلى النظر في الآيات الكونية ، وفي البدهيات التي تثبت وجود الخالق عز وجل ،

ندعوهم إلى الهدى ، والاستدلال وإلى النظر في المعجزة التي جاء بها رسول الله ، ألم يخبر وهو في شدة الحصار الذي ضربه عليه وعلى آله كفار مكة حتى اضطروهم إلى أكل الميتة وأوراق الشجر . . إلخ .

إلم يُخبر القرآن في هذه الأثناء بقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] حتى أن سيدنا عمر ليتعجب : أيُّ جمع هذا ؟ ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى بعينه ما حاق بالكفار قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

ألم يقل القرآن عن الوليد بن المغيرة ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ [القلم : 16] وفعلاً ، لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه . ألم يُشِرْ رسول الله قبل المعركة إلى مصارع القوم ، فيقول وهو يشير إلى مكان بعينه : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، ثم تأتي المعركة ويُقتل هؤلاء في نفس الأماكن التي أشار إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن أشياء تدل على أنه كتاب يُنوِّر لنا الماضي ، ويُنوِّر لنا الحاضر والمستقبل . وسبق أنْ قُلْنا : إن الغيب دونه حجب الزمان ، أو حجب المكان ، فما سبقك من أحداث يحجبها عنك حجاب الزمان الماضي ، وما سيحدث في المستقبل

يحجبه عنك حجاب الزمان المستقبل ، أما الحاضر الذي تعيشه فيحجبه عنك المكان ، بل وقد تكون في نفس المكان وتجلس معي ، لكنك لا تعرف ما في صدري مثلاً .

(214/608)

وكل هذه الحجب خرقها الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فمثلاً في غزوة مؤتة لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشه إليها ، وبقي هو في المدينة قال : حين وزَّع القيادة : يحمل الراية فلان ، فإذا قُتِل يحملها فلان ، فإذا قُتِل يحملها فلان وسمَّى هؤلاء الثلاثة ، ثم قال : فإذا قُتِل الثالث فاختاروا من بينكم مَنْ يحملها .

وجلس النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه في المدينة ، وأخذ يصف لهم المعركة وصفاً تفصيلياً ، فلما عاد الجيش من مؤتة وجدوا واقع المعركة وفق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المدينة .

وقد نبهتنا هذه المسألة إلى السر في تسمية مؤتة (غزوة) وكانوا لا يقولون غزوة إلا للتي شهدها رسول الله بنفسه ، أما التي لا يخرج فيها فتسمّى (سرية) فلما أخبر صلى الله عليه وسلم بما يدور في المعركة مع بُعد المسافات اعتبرها المسلمون غزوة .

بل وأبلغ من ذلك ، فالحق سبحانه كسف لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يدور في نفوس

قومه : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ . . . ﴾ [المجادلة : 8]

هذه كلها من آيات الإنارة في القرآن التي استوعبتْ الماضي والحاضر والمستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا . . . ﴾ .

كلمة ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ . . ﴾ [لقمان : 21] عامة تشمل كل الكتب المنزَّلة ، وأقرب شيء في معناها أن نقول : اتبعوا ما أنزل الله على رسلكم الذين آمنتم بهم ، ولو فعلتم ذلك لَسلَّمتم بصدق رسول الله وأقررتم برسالته .

أو : يكون المعنى ﴿ اتبعوا مَا أَنزَلَ اللهُ . . ﴾ [لقمان : 21] أي : تصحيحاً للأوضاع ، واعرضوه على عقولكم وتأملوه .

(215/608)

لكن يأتي ردهم : (بَلْ) وبل تفيد إضرابهم عما أنزل الله ﴿ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا . . ﴾ [لقمان : 21] وفي آية أخرى ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ . . . ﴾ [البقرة : 170]

فما الفرق بين (وجدنا) و (ألفينا) وهما بمعنى واحد ؟ قالوا : لأن أعمار المخاطبين مختلفة في صُحْبة آبائهم والتأثر بهم ، فبعضهم عاش مع آبائه يُقلِّدهم فترة قصيرة ، وبعضهم

عاصر الآباء فترة طويلة حتى أَلف ما هم عليه وعشقه ؛ لذلك قال القرآن مرة (أَلْفَيْنَا) ومرة (وَجَدْنَا) .

والاختلاف الثاني نلحظه في اختلاف تذييل الآيتين ، فمرة يقول : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 170] ومرة أخرى يقول : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة : 104]

فما الفرق بين : يعقلون ويعلمون ؟

الذي يعقل هو الذي يستطيع بعقله أنْ يستنبط الأشياء ، فإذا لم يكن لديه العقل الاستنباطي عرف المسألة ممَّنْ يستنبطها ، وعليه فالعلم أوسع دائرة من العقل ؛ لأن العقل يعلم ما عقله ، أما العلم فيعلم ما عقله هو ما عقله غيره ، فقوله (يَعْلَمُونَ) تشمل أيضاً (يَعْقِلُونَ) .

إذن : إذا نُفي العقل لا يُنفي العلم ؛ لأن غيرك يستنبط لك فالرجل الريفي البسيط يستطيع أن يدير التلفزيون مثلاً ويستفيد به ويتجول بين قنواته ، وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعة عمل هذا الجهاز الذي بين يديه ، إنما تعلَّمه من الذي يعلمه ، فالإنسان يعلم ما يعقله بذاته ، ويعلم ما يعقله غيره ، ويؤديه إليه ؛ لذلك فنَفْي العلم دليل على الجهل المطبق الذي لا أملَ معه في إصلاح الحال .

ونلحظ أيضاً أن القرآن يقول هنا : ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا . . ﴾ [لقمان : 21] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ . . . ﴾ [المائدة : 104] فقولهم : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا فيه دلالة على إمكانية اتباعهم الحق ، فالإنكار هنا بسيط ، أما الذين قالوا ﴿ حَسْبُنَا . . . ﴾ [المائدة : 104] يعني : يكفينا ولا نريد غيره ، فهو دلالة على شدة الإنكار ؛ لذلك في الأولى نفى عنهم العقل ، أما في الأخرى فنفى عنهم العلم ، فعَجُز الآيات يأتي مناسباً لصدرها .

وهنا يقول تعالى في تذييل هذه الآية ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ [لقمان : 21] لأن آباءهم ما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عبادة الأصنام والكفر بالله إلا بوسوسة الشيطان ، فالشيطان قَدْر مشترك بينهم وبين آبائهم .

وهذا يدلنا على أن منافذ الإغواء مرة تأتي من النفس ، ومرة تأتي من الشيطان ، وبهما يُطمس نور الإيمان ونور المنهج في نفس المؤمن .

وسبق أنْ بينَّا أنك تستطيع أن تفرق بين المعصية التي تأتيك من قِبَل الشيطان ، والتي تأتيك من قِبَل نفسك ، فالشيطان يريدك عاصياً على أيِّ وجه من الوجوه ، فإذا تأبيْتَ عليه في ناحية نقلك إلى ناحية أخرى .

أما النفس فتريد معصية بعينها تقف عندها لا تتحول عنها ، فالنفس تميل إلى شيء بعينه ،

ويصعب عليها أنْ تتوبَ منه ، ولكل نفس نقطة ضعف أو شهوة تفضلها ؛ لذلك بعض الناس لديهم كما قلنا (طفاشات) للنفوس ؛ لأنهم بالممارسة والتجربة يعرفون نقطة الضعف في الإنسان ويصلون إليه من خلالها ، فهذا مدخله كذا ، وهذا مدخله كذا .

لكن نرى الكثيرين ممن يقعون في المعصية يُلْقون بالتبعة على الشيطان ، فيقول الواحد منهم : لقد أغواني الشيطان ، ولا يتهم نفسه ، وهذا يكذّبه الحديث النبوي في رمضان :

(217/608)

" إذا جاء رمضان فُتِحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين " .

فلو أن المعاصي كلها من قِبَل الشيطان ما رأينا معصية في رمضان ، ولا ارتكبت فيه جريمة ، أما وتقع فيه المعاصي وتُرتكب الجرائم ، فلا بُدَّ أن لها سبباً آخر غير الشيطان ؛ لأن الشياطين مُصفَّدة فيه مقيدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(218/608)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ نِعَمَهُ ﴾ :

قرأ نافعٌ وأبو عمرو وحفص " نِعَمَه " جمعَ نِعْمة مضافاً لهاءِ الضمير ، ف " ظاهرةً " حالٌ منها . والباقون " نِعْمةً " بسكون العين ، وتنوينِ تاء التأنيث ، اسمَ جنسٍ يُراد به الجمعُ ف " ظاهرة " نعتٌ لها . وقرأ ابنُ عباس ويحيى بن عمارة " وأَصْبَغَ " بإبدال السينِ صاداً . وهي لغةُ كلبٍ يفعلون ذلك مع الغينِ والخاء والقاف . وتقدَّم نظيرُ هذه الجملِ كلِّها في البقرة ، والكلامُ على " أَوَلَوْ " ونحوِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 67 ﴾

(219/608)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

أثبت في كل شيءٍ منها نَفْعاً لكم ، فالسماء لتكونَ لكم سقفاً ، والأرض لتكون لكم فِراشاً ، والشمس لتكون لكم سراجاً ، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب ، والنجوم

لتهتدوا بها .

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ : الإسباغُ ما يُفْضُلُ عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة .

قوله : ﴿ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ : تكلموا فيه فأكثروا . فالظاهرةُ وجودُ النعمة ، والباطنةُ شهودُ المنعِم . والظاهرةُ الدنيويةُ ، والباطنةُ الدينية . والظاهرة حُسْنُ الخَلْق ، والباطنة حُسْنُ الخُلُق . الظاهرةُ نَفْس بلا زلّة ، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلة . الظاهرةُ العطاء ، والباطنة الرضاء . الظاهرة في الأموال ونمائها ، والباطنة في الأحوال وصفائها . الظاهرةُ النعمةُ ، والباطنةُ العصمةُ . الظاهرةُ توفيقُ الطاعات ، والباطنةُ قبولُها . الظاهرة تسوية الخَلْقِ ، والباطنة تصفية الخُلُق . الظاهرة صحبة الصالحين ، والباطن حِفْظُ حُرْمَتِهم . الظاهرةُ الزهدُ في الدنيا ، والباطنةُ الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى . الظهارة الزهد ، والباطنةُ الوَجْدُ . الظاهرة توفيق المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة . الظاهرة وظائف النَّفْس ، والباطنة لطائف القلب . الظاهرةُ اشتغالُكَ بنَفْسِك عن الخَلْق ، والباطنةُ اشتغالُك بربّك عن نَفْسِك . الظاهرة طَلَبُهُ ، الباطنةُ وجوده . الظاهرةُ أَنْ تَصِلَ إليه ، الباطنة أن تبقى معه .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21)

(220/608)

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى مُحَوِّل أحوالهم ، فأَمَّا منْ سَمَتْ نَفْسُه ، وخلص في الله قَصْدُه فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وسَلَكَ المحجَّةَ المُثْلَى . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 133.134 ﴾

(221/608)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿ الم تِلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾

يعني : هذه آيات القرآن المحكم من الباطل .

ويقال : أحكم حلاله وحرامه .

ويقال : محكم لا يرد عليه التناقض ﴿ هُدًى ﴾ يعني : بياناً من الضلالة .

ويقال : هادياً ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من العذاب ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يحسنون العمل وهم

المؤمنون .

لأن كل مؤمن محسن .

قرأ حمزة : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالضم ، والباقون بالنصب .

فمن قرأ : بالضم ، فعلى الإضمار .

ومعناه : هو هدى ورحمة على معنى تلك هدى ورحمة .

ومن نصب فهو على الحال المعنى تلك آيات في حال الهداية والرحمة .

ثم نعت المحسنين فقال تعالى : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ يعني : يقرون بها ويتمونها .

قوله ﴿ ويُؤْتُونَ الزكواة ﴾ يعني : يقرون بها ويؤدونها ﴿ وَهُم بالآخرة ﴾ يعني : بالبعث الذي فيه جزاء أعمالهم ﴿ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بأنها كائنة ﴿ أولئك ﴾ يعني : أهل هذه الصفة ﴿ على هُدًى مّن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني : بيان من ربهم .

بيّن لهم طريقهم ووفّقهم لذلك ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ يعني : الفائزون بالخير .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ يعني : من الناس ناس يشترون أباطيل الحديث ، وهو النضر بن الحارث كان يخرج إلى أرض فارس تاجراً ، ويشتري من هنالك من أحاديثهم ، ويحمله إلى مكة ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم بالأحاديث طرفاً منها ، وأنا أحدثكم بالحديث تاماً ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ﴾ يعني : يصرف الناس عن دين ﴿ الله ﴾ عز وجل .

ويقال : يشتري جواري مغنيات .

قال أبو الليث رحمه الله : حدثني الثقة بإسناده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاَ يَحِلُّ بَيْعُ المُغَنِّيَاتِ وَلا شِرَاؤُهُنَّ وَلا التِّجَارَةُ فِيهِنَّ وَأَكْلُ أَثْمَانِهِنَّ حَرَامٌ " .

(222/608)

وفيه أنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ قال : شراء المغنية .

ويقال : ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ ها هنا الشرك .

يعني : يختار الشرك على الإيمان ليضل عن سبيل الله عز وجل .

يعني : ليصرف الناس بذلك عن سبيل الله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني : بغير حجة ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ يعني : سبيل الله عز وجل ، لأن السبيل مؤنث كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هذه سبيلى أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى وَسُبْحَانَ الله وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ [يوسف : 108] ويقال : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ يعني : آيات القرآن التي ذكر في أول السورة استهزاء بها ، حيث جعلها بمنزلة حديث رستم واسفنديار .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بنصب الياء .

وقرأ الباقون : بالضم .

فمن قرأ بالنصب فمعناه : ليضل بذلك عن سبيل الله .

يعني : بترك دين الإسلام .

ومن قرأ بالضم يعني : بصرف الناس عن دين الإسلام ، ويصرف نفسه أيضاً .

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ بنصب الذال .

وقرأ الباقون : بالضم .

فمن نصبها ردّها على قوله : ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ يعني : لكي يضل ولكي ﴿ أُنذِرُواْ هُزُواً ﴾

ومن قرأ : بالضم ردّها على قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ وقال ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يهانون به .

(223/608)

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ﴾ يعني : إذا قرىء عليه القرآن ﴿ ولى مُسْتَكْبِراً ﴾ يعني : أعرض مستكبراً عن الإيمان والقرآن ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ يعني : كأن لم يسمع ما في القرآن من الدلائل والعجائب ﴿ كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ أي : ثقلاً فلا يسمع

القرآن يعني : يتصامم ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فلما ذكر عقوبة الكافر ذكر على أثر ذلك ثواب المؤمنين فقال :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جنات النعيم ﴾ في الآخرة ﴿ خالدين ﴾ يعني : دائمين ﴿ فِيهَا وَعْدَ الله حَقّاً ﴾ أوجبه الله عز وجل لأهل هذه الصفة ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ حكم بالعذاب للكافرين ، والنعيم للمؤمنين .

ثم بيّن علامة وحدانيته فقال : ﴿ خُلِقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أي : خلقها بغير عمد ترونها بأعينكم .

ويقال : معناه ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أنتم يعني : لها عمد ولكن لا ترونها .

والعمد جماعة العماد .

ثم قال : ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ يعني : الجبال الثوابت ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ يعني : لكيلا تزول بكم الأرض .

ثم قال : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا ﴾ يعني : وخلق فيها في الأرض .

ويقال : وبسط فيها ﴿ مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ وقد ذكرناه .

ثم قال : ﴿ هذا خَلْقُ الله ﴾ يقول : هذا الذي خلقت أنا ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني : الذين تدعونه إلها من دونه يعني : الأصنام .

ويقال : هذا خلق الله .

يعني : مخلوق الله .

ويقال : هذا صنع الله .

ثم قال : ﴿ بَلِ الظالمون فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي : الكافرون في خطأ بيّن ، لا يعتبرون ولا يتفكرون فيما خلق الله عز وجل فيعبدونه ويقال في ضلال مبين يعني : في خسران بيّن .

(224/608)

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ وقال مجاهد : يعني : أعطينا لقمان العقل والفقه والإصابة في غير نبوة .

ويقال أيضاً : الحكمة والعقل والإصابة في القول .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما زَهِدَ عَبْدٌ فِي الدُّنْيَا إلاَّ أَثْبَتَ الله تَعَالَى الحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ ، وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ ، وَبَصَّرَهُ عُيُوبَ الدُّنْيَا وَعُيُوبَ نَفْسِهِ . وَإِذَا رَأَيْتُمْ أَخَاكُمْ قَدْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا فَاقْتَرِبُوا إِلَيْهِ فَاسْتَمِعُوا مِنْهُ ، فإنه يُلَقَّى الحِكْمَةَ " .

وقال السدي : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ يعني : النبوة .

وعن عكرمة قال : كان لقمان نبياً .

وعن وهب بن منبه قال : كان لقمان رجلاً حكيماً ، ولم يكن نبياً .

وروي عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً .

ويقال : إن أول ما ظهرت حكمته أن مولاه قال له يوماً : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها .

ثم قال : أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب .

ثم مكث ما شاء الله .

ثم قال له : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها .

فقال : أخرج لنا أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب .

فسأله عن ذلك فقال لقمان : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وذكر عن وهب بن منبه أن لقمان خُيِّرَ بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة .

قال : فبينما كان يعظ الناس يوماً وهم مجتمعون عليه ، إذ مرّ به عظيم من عظماء بني إسرائيل .

فقال : ما هذه الجماعة ؟ فقيل له : جماعة اجتمعت على لقمان الحكيم .

فأقبل إليه .

فقال له : ألست عبد بني فلان ؟ فقال : نعم .

فقال : فما الذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وتركي ما لا

يعنيني .

فانصرف عنه متعجباً وتركه .

(225/608)

ثم قال تعالى : ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ يعني : حكماً من أحكام الله ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ ويقال : معناه ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ وقلنا له : اشكر لله بما أعطاك من الحكمة ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ يعني : ثواب الشكر لنفسه ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي : جحد فلا يوحّد ربه ﴿ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ ﴾ عن خلقه وعن شكرهم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ في فعاله ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لاِبْنِهِ ﴾ قال مقاتل : كان اسم ابنه أنعم ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ ويقال : معناه قال لابنه واعظاً ﴿ يَعِظُهُ يا بنى لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : ذنب عظيم لا يغفر أبداً ، وكان ابنه وامرأته كافرين ، فما زال بهما حتى أسلما .

وقال مقاتل : زعموا أنه كان ابن خالة أيوب .

وذكر القاسم بن عباد بإسناده عن عبد الله بن دينار : أن لقمان قدم من سفر ، فلقيه غلامه ، قال : ما فعل أبي ؟ قال : مات .

فقال : ملكت أمري .

قال : وما فعلت أمي ؟ قال : قد ماتت .

قال : ذهب همي .

قال : فما فعلت أختي ؟ قال : ماتت فقال : سترت عورتي .

قال : فما فعلت امرأتي ؟ قال : قد ماتت .

فقال : جدد فراشي .

قال : فما فعل أخي ؟ قال : مات .

قال : انقطع ظهري .

وفي رواية أُخرى قال : ما فعل أخي ؟ قال : مات .

فقال : انكسر جناحي .

ثم قال : فما فعل ابني ؟ قال : مات .

فقال : انصدع قلبي .

وقال وهب بن منبه كان لقمان عبداً حبشياً لرجل من بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام ، فاشتراه ، فأعتقه وكان حبشياً أسود ، غليظ الشفتين والمنخرين ، غليظ العضدين والساقين ، وكان رجلاً صالحاً أبيض القلب ، وليس يصطفي الله عز وجل عباده على الحسن والجمال ، وإنما يصطفيهم على ما يعلم من غائب أمرهم .

قرأ عامر في رواية حفص وابن كثير في إحدى الروايتين : ﴿ أَوْبَنِى ﴾ بالنصب .

وقرأ الباقون : بالكسر وقد ذكرناه .

(226/608)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان ﴾ فكأنه يقول : آمركم بما أمر به لقمان لابنه بأن لا تشركوا بالله شيئاً ، وآمركم بأن تحسنوا إلى الوالدين فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان ﴾ يعني : أمرناه بالإحسان ﴿ بوالديه ﴾ .

ثم ذكر حق الأم وما لقيت من أمر الولد من الشدة فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ يعني : ضعفاً على ضعف ، لأن الحمل في الابتداء أيسر عليها .

فكلما ازداد الحمل يزيدها ضعفاً على ضعف ﴿ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ ﴾ يعني : فطامه بعد سنتين من وقت الولادة ﴿ أَنِ اشكر لِى ولوالديك ﴾ يعني : وصّيناه وأمرناه بأن اشكر لي بما هديتك للإسلام ، واشكر لوالديك بما فعله إليك ﴿ إِلَىَّ المصير ﴾ فأجازيك بعملك .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِن جاهداك ﴾ يعني : وإن قاتلاك .

يعني : أن حرمة الوالدين وإن كانت عظيمة ، فلا يجوز للولد أن يطيعهما في المعصية .

فقال : ﴿ وَإِن جاهداك ﴾ يعني : وإن قاتلاك .

ويقال : وإن أراداك ﴿ على أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعني : ما ليس لك به حجة بأن معي شريكاً ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في الشرك ﴿ وصاحبهما فِى الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ يعني : عاشرهما في الدنيا معروفاً بالإحسان ، وإنما سمي الإحسان معروفاً لأنه يعرفه كل واحد .

قال وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حُسْنَ المُصَاحَبَةِ أَنْ يُطْعِمَهُمَا إذا جَاعَا ، وَأَنْ يَكْسُوَهُمَا إذا عَرِيَا " .

ثم قال : ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ يعني : اتبع دين من أقبل إلي بالطاعة .

ثم استأنف فقال : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ في الآخرة .

وقال بعضهم : إنما أتمّ الكلام عند قوله : ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ يعني : دين من أقبل على الطاعة .

(227/608)

ثم استأنف الكلام فقال : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ تكراراً على وجه التأكيد ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : فأجازيكم بها .

ثم رجع إلى حديث لقمان فقال : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا ﴾ يعني : الخطيئة ﴿ إِن تَكُ ﴾

قال مقاتل : وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه : يا أبتاه إن عملت بالخطيئة حيث لا يراني أحد ، فكيف يعلمها الله سبحانه وتعالى .

فرد عليه لقمان وقال : ﴿ تَعْمَلُونَ يا بنى إِنَّهَا إِن تَكُ ﴾ يعني : الخطيئة ﴿ إِن تَكُ ﴾ ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ يعني : وزن خردلة ﴿ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ ﴾ أي : الصخرة التي هي أسفل الأرضين .

وقال بعضهم : أراد بها كل صخرة ، لأنه قال بلفظ النكرة .

يعني : ما في جوف الصخرة الصماء .

وقال مقاتل : هي الصخرة التي في أسفل الأرض ، وهي خضراء مجوفة .

ثم قال : ﴿ أَوْ فِى السموات أَوْ فِى الأرض يَأْتِ بِهَا الله ﴾ يعني : يجازي بها الله .

أي : يعطيه ثوابها .

ويقال : ﴿ يَأْتِ بِهَا الله ﴾ عند الميزان ، فيجازيه بها .

ويقال : هذا مثل لأعمال العباد ﴿ يَأْتِ بِهَا الله ﴾ يعني : يعطيه ثوابها عز وجل كقوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] يعني : يرى ثوابه .

قرأ نافع ﴿ مِثْقَالَ ﴾ بضم اللام .

وقرأ الباقون : بالنصب .

فمن قرأه بالضم جعله اسم يكن .

ومن قرأ بالنصب جعله خبراً .

والاسم فيه مضمر ومعناه : إن تكن صغيرة قدر مثقال حبة .

وإنما قال : إن تكن بلفظ التأنيث لأن المثقال أضيف إلى الحبة .

فكان المعنى للحبة .

وقيل : أراد به الخطيئة .

ومن قرأ : بالضم جعله اسم تكن .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ يعني : لطيف باستخراج تلك الحبة ، خبير بمكانها .

وقال أهل اللغة : اللطيف في اللغة يعبر به عن أشياء .

يقال للشيء الرقيق وللشيء الحسن : لطيف .

وللشيء الصغير ؛ لطيف .

ويقال للمشفق : لطيف .

(228/608)

ثم قال عز وجل : ﴿ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً أَقِمِ الصلاة ﴾ يعني : أتمّ الصلاة ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف ﴾ يعني : التوحيد .

ويقال : أظهر العدل ﴿ وانه عَنِ المنكر ﴾ وهو كل ما لا يعرف في شريعة ، ولا سنة ، ولا معروف في العقل ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ ﴾ يعني : إذا أمرت بالمعروف أو نهيت عن المنكر ، فأصابك من ذلك ذلّ أو هوان أو شدة ، فاصبر على ذلك ف ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ يعني : من حق الأمور .

ويقال : من واجب الأمور .

وصارت هذه الآية بياناً لهذه الأمة ، وإذناً لهم ، أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ينبغي أن يصبر على ما يصيبه في ذلك ، إذا كان أمره ونهيه لوجه الله تعالى ، لأنه قد أصاب ذلك في ذات الله عز وجل .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ ﴾ بالتشديد بغير ألف .

وقرأ الباقون : ولا تصاعر بالألف والتخفيف .

وهما لغتان ومعناهما واحد .

يقال : صعر خده وصاعره ومعناهما : الإعراض على جهة الكبر .

يعني : لا تعرض بوجهك عن الناس متكبراً .

وقال مقاتل : لا تعرض وجهك عن فقراء المسلمين ، وهكذا قال الكلبي .

وقال العتبي : أصله الميل .

ويقال : رجل أصعر إذا كان به داء ، فيميل رأسه وعنقه من ذلك إلى أحد الجانبين .

ويقال : معناه لا تكلم أحداً وأنت معرض عنه ، فإن ذلك من الجفاء والإذاء .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ يعني : لا تمشي بالخيلاء ، والمرح والبطر والأشر كله واحد ، وهو أن يعظم نفسه في النعم ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ يعني : مختالاً في مشيته ، فخوراً في نعم الله عز وجل .

﴿ واقصد فِى مَشْيِكَ ﴾ يعني : تواضع لله تعالى في المشي ، ولا تختل في مشيتك .

ويقال : أسرع في مشيتك ، لأن الإبطاء في المشي يكون من الخيلاء .

﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ يعني : اخفض .

ومن صلة في الكلام اخفض كلامك ، ولا تكن سفيهاً .

(229/608)

ثم ضرب للصوت الوضيع مثلاً فقال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الاصوات ﴾ يعني : أقبح الأصوات ﴿ لَصَوْتُ الحمير ﴾ لشدة أصواتها .

وإنما ذكر صوت الحمير ، لأن صوت الحمار كان هو المعروف عند العرب وسائر الناس بالقبح ، وإن كان قد يكون ما سواه أقبح منه في بعض الحيوان .

وإنما ضرب الله المثل بما هو المعروف عند الناس .

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ﴾ يعني : قل يا محمد لأهل مكة : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ ﴾ ذلل لكم ﴿ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ كل ذلك من الله تعالى .

يعني : ومن قدرة الله ورحمته وحده لا شريك له ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ فالظاهرة التي يراها الناس ، والباطنة ما غاب عن الناس .

ويقال : النعم الظاهرة شهادة أن لا إله إلاَّ الله ، وأما الباطنة فالمعروفة بالقلب .

وقال مقاتل : الظاهرة : تسوية الخلق والرزق .

والباطنة : تستر عن العيون .

عن ابن عباس قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ فقال : " الظَّاهِرَةُ الإِسْلامُ ، وَالبَاطِنَةُ مَا سَتَرَ سَوْأَتَكَ " .

قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص : ﴿ نِعَمَهُ ﴾ بنصب العين وميم ، وضم الهاء .

وقرأ الباقون : ﴿ نِعَمَهُ ﴾ بجزم العين ونصب الهاء والميم .

فمن قرأ ﴿ نِعَمَهُ ﴾ بالجزم فهي نعمة واحدة وهي ما أعطاه الله من توحيده .

ومن قرأ : ﴿ نِعَمَهُ ﴾ فهو على معنى جميع ما أنعم الله عز وجل عليهم .

ثم قال : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ يعني : يخاصم في دين الله عز وجل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني : بغير حجة وهو النضر بن الحارث ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ أي : بغير بيان من الله عز وجل ﴿ وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ أي : مضيئاً فيه حجة .

(230/608)

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني : لكفار مكة ﴿ اتبعوا مَا أَنزَلَ الله ﴾ على نبيه من القرآن ، فآمنوا به ، وأحلّوا حلاله ، وحرموا حرامه ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ يقول الله عز وجل ؛ ﴿ أَوْلَوْ كَانَ الشيطان ﴾ يعني : أو ليس الشيطان ﴿ يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ يعني : يدعوهم إلى تقليد آبائهم بغير حجة ، فيصيروا إلى عذاب السعير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 19 . 25 ﴾

(231/608)

وقال الثعلبي :

﴿ الم * تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم * هُدًى وَرَحْمَةً ﴾

قرأ العامة بالنصب على الحال والقطع ، وقرأ حمزة (ورحمةٌ) بالرفع على الابتداء ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ * الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة وَهُمْ بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ * أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ .

قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ .

قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار بن قصي ، كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها ويحدّث بها قريشاً ويقول لهم : إنَّ محمّداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أُحدّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأعاجم والأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، وقال مجاهد : يعني شراء (القيان) والمغنّين ، ووجه الكلام على هذا التأويل يشتري ذات أو ذا لَهْوَ الْحَدِيثِ .

أخبرنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق المزكى سنة ثلاث وثمانين ، حدّثني جدّي محمد بن إسحاق بن خزيمة) عن علي بن خزيمة) عن علي بن حجرة ، عن مُستمغل بن ملجان الطائي ، عن مطرح بن يزيد ، عن عبيد الله بن زجر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يحلّ تعليم المغنيات ولا بيعهن ، وأثمانهن حرام ، وفي مثل هذا نزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ الناس مَن

يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ . . . " إلى آخر الآية .

وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلاّ بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتّى يكون هو الذي يسكت .

وقال آخرون : معناه يستبدل ويختار اللهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن وقال : سبيل الله : القرآن .

(232/608)

وقال أبو الصهباء البكري : سألت ابن مسعود عن هذه الآية ، فقال : هو الغناء والله الذي لا إله إلاّ هو يردّدها ثلاث مرّات ، ومثله روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس . ابن جريج : هو الطبل . عبيد عن الضحّاك : هو الشرك . جويبر عنه : الغناء ، وقال : الغناء مفسدة للمال ، مسخطة للربّ مفسدة للقلب . وقال ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عبّاس : نزلت هذه الآية في رجل اشترى جارية تغنّيه ليلاً ونهاراً . وكلّ ما كان من الحديث مُلهياً عن سبيل الله إلى ما نهى عنه فهو لهو ومنه الغناء وغيره . وقال قتادة : هو كلّ لهو لعب . قال عطاء : هو الترّهات والبسابس . وقال مكحول : مَنْ اشترى جارية ضرّابة ليمسكها لغناها وضَرْبِها مقيماً عليه حتّى يموت لم أُصلِّ عليه ، إنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ وَمِنَ

الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ . . . إلى آخر الآية .

وروى علي بن يزيد عن القاسم بن أبي أمامه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله تعالى بعثني رحمةً وهدىً للعالمين وأمرني بمحق المعازف والمزامير والأوتار والصّلب وأمر الجاهلية ، وحلفَ ربّي بعزّته لا يشرب عبد من عبيدي جرعة من خمر متعمّداً إلاّ سقيته من الصديد مثلها يوم القيامة مغفوراً له أو معذّباً ، ولا يسقيها صبيّاً صغيراً ضعيفاً مسلماً إلاّ سقيته مثلها من الصديد يوم القيامة مغفوراً له أو معذّباً ، ولا يتركها من مخافتي إلاّ سقيته من حياض القدس يوم القيامة . لا يحلّ بيعهن ولا شرائهن ولا تعليمهن ولا التجارة بهن وثمنهنّ حرام " يعني الضوارب .

وروى حمّاد عن إبراهيم قال : الغناء ينبت النفاق في القلب . وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يحرقُون الدفوف .

(233/608)

أخبرنا عبدالله بن حامد ، عن ابن شاذان ، عن جيغويه ، عن صالح بن محمد ، عن إبراهيم ابن محمد ، عن محمد بن المنكدر قال : بلغني أنَّ الله عزّ وجلّ يقول يوم القيامة : أين الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللّهو ومزامير الشيطان ؟ أدخلوهم رياض المسك ، ثمّ

يقول للملائكة : أسمعوا عبادي حمدي وثنائي وتمجيدي وأخبروهم أنْ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ بنصب الذال عطفاً على قوله : ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ وهو اختيار أبي عبيد قال : لقربه من المنصوب ، وقرأ الآخرون بالرفع نسقاً على قوله : ﴿ يَشْتَرِي ﴾ .

﴿ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ ﴾ إخبرهُ ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جَنَّاتُ النعيم * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَهُوَ العزيز الحكيم * خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أي نوعاً حسناً ﴿ هذا ﴾ الذي ذكرت ممّا يعاينون ﴿ خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ من آلهتكم التي تعبدونها ﴿ بَلِ الظالمون فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ يعني العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأُمور .

قال محمّد بن إسحاق بن يسار : وهو لقمان بن باعور بن باحور بن تارخ وهو آزر ، وقال وهب : كان ابن أُخت أيوب . وقال مقاتل : ذُكر أنَّ لقمان كان ابن خالة أيوب .

قال الواقدي : كان قاضياً في بني إسرائيل ، واتّفق العلماء على أنّه كان حكيماً ولم يكن نبيّاً إلاّ عكرمة فإنّه قال : كان لقمان نبيّاً ، تفرّد بهذا القول .

حدّثنا أبو منصور الجمشاذي قال : حدّثني أبو عبدالله محمد بن يوسف ، عن الحسين بن محمد ، عن عبدالله بن هاشم ، عن وكيع عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة قال : كان لقمان نبيّاً . وقال بعضهم : خُيِّر لقمان بين النبوّة والحكمة ، فاختار الحكمة .

وروى عبدالله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه يقول : " حقّاً أقول لم يكن لقمان نبيّاً ولكن عبد صمصامة كثير التفكير ، حسن اليقين ، أحبَّ الله فأحبّه وضمن عليه بالحكمة " .

(وروي أنّ لقمان في ابتداء أمره) كان نائماً نصف النهار إذ جاءهُ نداء : يا لقمان هل لك أنْ يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحقّ ؟ فأجاب الصوت فقال : إنْ خيّرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء ، وإنْ عزم عليَّ فسمعاً وطاعة . فإنّي أعلم إنْ فعل ذلك بي عصمني وأعانني ، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم : لِمَ يا لقمان ؟ قال : لأنّ الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كلّ مكان إن (وفى فبالحري) أن ينجو ، وإن أخطأ

أخطأ طريق الجنّة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً (وفي الآخرة شريفاً) خير من أن يكون) في الدنيا) شريفاً (وفي الآخرة ذليلاً) .

ومن تخيّر الدنيا على الآخرة تفتهُ الدنيا ولا يصيب الآخرة ، فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأُعطي الحكمة . فانتبه يتكلّم بها .

ثمّ نودي داود بعده فقبلها ولم يشرط ما شرط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرّة كلّ ذلك يعفو الله عزّ وجلّ عنه ، وكان لقمان يؤازره بحكمته ، فقال له داود : طوبى لك يا لقمان أُعطيت الحكمة وصُرفتْ عنك البلوى . وأُعطي داود الخلافة وأُبتلي بالبليّة والفتنة .

(235/608)

وحدّثنا الإمام أبو منصور بن الجمشاذي لفظاً قال : حدّثني أبو عبد الله بن يوسف عن الحسن بن محمد ، عن عبد الله بن هاشم ، عن وكيع ، عن محمّد بن حسّان ، عن خالد الربعي قال : كان لقمان عبداً حبشيّاً نجّاراً . وأخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه قال : حدّثني أبو بكر بن مالك القطيعي ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبي عن أسود بن عامر ، عن حمّاد ، عن علي بن يزيد ، عن سعيد بن المسيب أنّ لقمان كان خيّاطاً .

﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ يعني وقلنا له : أن اشكر لله .

﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

قال مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين ، متشقّق القدمين . وروى الأوزاعي عن عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد : لا تحزن من أجل أنّك أسود ، فإنّه كان من أخيَر الناس ثلاثة من السودان : بلال ومهجع مولى عمر بن الخطّاب ولقمان الحكيم كان أسود نوبيّاً من سودان مصر ذا مشافر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ ﴾ واسمه أنعم ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بني لا تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ قال ابن عبّاس : شدّة بعد شدّة . الضحاك : ضعف على ضعف . قتادة : جهداً على جهد . مجاهد وابن كيسان : مشقّة على مشقّة .

﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ فطامه . وروي عن يعقوب : وفصله ﴿ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ﴾ أنبأني عبد الله بن حامد الأصفهاني ، عن الحسين بن محمد بن الحسين البلخي قال : أخبرني أبو بكر محمّد بن القاسم البلخي ، عن نصير بن يحيى ، عن سفيان بن عيينة في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ قال : مَنْ صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله ، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات فقد شكر للوالدين .

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ عِشْرة جميلة ، وتقديره : بالمعروف .

﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ ﴾ واسلك طريق محمّد وأصحابه .

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ نزلت هاتان الآيتان في سعد بن أبي وقّاص وأُمّه ، وقد مضت القُصّة .

﴿ يا بني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ قال بعض النحاة : هذه الكناية راجعة إلى الخطيئة والمعصية ، يعني : إنَّ المعصية إنْ تَكُ . يدلّ عليه قول مقاتل : قال أنعم بن لقمان لأبيه : يا أبة إنْ عملت بالخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله ؟ فقال له : يا بُني إنّها إنْ تَكُ . وقال آخرون : هذه الهاء عماد ، وإنّما أنّث لإنّه ذهب بها إلى الحبّة ، كقول الشاعر :

ويشرق بالقول الذي قد اذعته . . . كما شرقت صدر القناة من الدم

ويرفع المثقال وينصب ، فالنّصب على خبر كان والرّفع على اسمها ومجازه : إنْ تقع وحينئذ لا خبر له : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ قال قتادة : في جبل ، وقال ابن عبّاس : هي صخرة تحت الأرضين السبع وهي التي يكتب فيها أعمال الفجّار ، وخضرة السماء منها ، وقال السدي : خلق الله الأرض على حوت وهو النون الذي ذكره الله عزّ وجلّ في القرآن ﴿ ن

والقلم ﴾ [القلم : 1] والحوت في الماء ، والماء على ظهر صفاة ، والصفاة على ظهر ملك والملك ، على صخرة ، وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض ، والصخرة على الرّيح .

﴿ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيف ﴾ باستخراجها ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم بمكانها . ورأيت في بعض الكتب أنّ لقمان (عليه السلام) قال لابنه : يا بُني ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ إلى آخر الآية . فانفطر من هيبة هذه الكلمة فمات فكانت آخر حكمته .

(237/608)

قوله : ﴿ يا بني أَقِمِ الصلاة وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ أي الأُمور الواجبة التي أمر الله بها ، وقال ابن عبّاس : حزم الأُمور . مقاتل : حقّ الأُمور . ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ قرأ النخعي ونافع وأبو عمرو وابن محيص ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي تصاعر بالألف .

أخبرني أبو عبد الله بن فنجويه قال : أخبرني أبو حبش قال أبو القاسم بن الفضل قال أبو زرعة : حدّثني نضر بن علي قال : أخبرني أبي عن معلى الورّاق عن عاصم الجحدري ﴿

وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ ﴾ بضم التاء وجزم الصاد من أصعر . الباقون ﴿ تُصَعِّرْ ﴾ من التّصعير . قال ابن عبّاس : يقول لا تتكبّر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك . مجاهد : هو الرجل يكون بينه وبينك إحنة فتلقاه فيعرض عنك بوجهه . عكرمة : هو الذي إذا سُلّم عليه لوى عنقه تكبّراً . الربيع وقتادة : لا تحقّر الفقراء ، ليكن الفقير والغني عندك سواء . عطاء : هو الذي يلوي شِدقه . أخبرنا عبدالله بن حامد ، عن حامد بن محمد ، عن محمد ابن صالح ، عن عبد الصمد ، عن خارجة بن مصعب ، عن المغيرة ، عن إبراهيم في قوله : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاس ﴾ قال : التشديق في الكلام . وقال المؤرّخ : لا تعبس في وجوه الناس . وأصل هذه الكلمة من المَيل ، يقال : رجل أصعَر إذا كان مائل العنق . وجمعُهُ صُعر ، ومنه ، الصّعر : وهو داء يأخذ الإبل في أعناقها ورؤوسها حتى يلفت أعناقها ، فشُبّه الرجل المتكبّر الذي يعرض عن الناس احتقاراً لهم بذلك . قال الشاعر يصف إبلاً :

وردناه في مجرى سهيل يمانياً . . . بصعر البري من بين جمع وخادج

أي مائلات البري . وقال آخر :

وكنّا إذا الجبّار صعّر خدّه . . . أقمنا له من ميله فتقوّما

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ أي خيلاءَ . ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ في مشيته ﴿ فَخُورٍ ﴾ على الناس .

أخبرني عبد الله بن حامد الوزان ، عن أحمد بن محمد بن شاذان ، عن جيغويه ، عن صالح ابن محمد ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خرج رجل يتبختر في الجاهلية عليه حُلّة ، فأمر الله عزّ وجلّ الأرضَ فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة " .

﴿ واقصد فِي مَشْيِكَ ﴾ أي تواضع ولا تتبختر وليكن مشيك قصداً لا بخيلاء ولا إسراع .

أخبرنا الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران المقرئ سنة إحدى وثمانين وثلثمائة قال : أخبرني أبو العبّاس محمد بن إسحاق السرّاج وأبو الوفا ، المؤيّد بن الحسين بن عيسى قالا : قال عبّاس بن محمد الدوري ، عن الوليد بن سلمة قاضي الأردن ، عن عمر بن صهبان ، عن نافع عن ابن عمر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

" سرعة المشي يذهب بهاء المؤمن " .

﴿ واغضض ﴾ واخفض ﴿ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ قال مجاهد وقتادة والضحاك : أقبح ، أوّله زفير وآخره شهيق ، أمره بالاقتصاد في صوته .

عكرمة والحكم بن عيينة : أشدّ . ابن زيد : لو كان رفع الصوت خيراً ما جعله للحمير .

أخبرنا أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الحري قال : أخبرني أبو حامد أحمد بن عبدون بن عمارة الأعمش قال : أخبرني أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي ، عن يحيى بن صالح الوحاضي ، عن موسى بن أعين قال : سمعت سفيان يقول في قوله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ يقول : صياح كلّ شيء تسبيح لله عزّ وجلّ إلاّ الحمار . وقيل : لأنّه ينهق بلا فائدة .

(239/608)

أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه عن محمد بن الحسين بن بشر قال : أخبرني أبو بكر ابن أبي الخصيب ، عن عبد الله بن جابر ، عن عبد الله بن الوليد الحراني ، عن عثمان بن عبد الرحمن ، عن عنبسة بن عبد الرحمن ، عن محمد بن زادان ، عن أُمّ سعد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الله عزّ وجلّ يبغض ثلاثة أصوات : نهقة الحمار ، ونباح الكلب ، والداعية بالحرب " .

فصل في ذِكْر بعض ما رُوي مِنْ حِكَمِ لُقمان

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان الأصفهاني ، عن أحمد بن شاذان ، عن جيغويه بن محمد (

عن صالح بن محمد) عن إبراهيم بن أبي يحيى ، عن محمد بن عجلان قال : قال لقمان : ليس مال كصحّة ، ولا نعيم كطيب نفس .

وأخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الدينوري ، عن عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي ، عن محمد بن عبد الغفّار الزرقاني ، عن أبو سكين زكريا بن يحيى بن عمر بن (حفص) عن عمّه أبي زجر بن حصن ، عن جدّه حميد بن منهب قال : حدّثني طاووس ، عن أبي هريرة قال : مرَّ رجل بلقمان والناس مجتمعون عليه فقال : ألستَ بالعبد الأسود الذي كُنتَ راعياً موضع كذا وكذا ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني .

(240/608)

وأخبرني الحسين بن محمد قال : أخبرني أبو الحسين بكر بن مالك القطيعي ، عن عبد الله ابن أحمد بن حنبل ، عن أُبيّ ، عن وكيع قال : أخبرني أبو الأشهب ، عن خالد الربعي قال : كان لقمان عبداً حبشيّاً نجّاراً ، فقال له سيّده : اذبح لنا شاة ، فذبح له شاة ، فقال له : ائتني بأطيب المضغتين فيها ، فأتاه باللسان والقلب . فقال : ما كان فيها شيء أطيب من هذا ؟ قال : لا ، قال : فسكت عنه ما سكت ، ثمّ قال له : اذبح لنا شاة ، فذبح شاة ،

فقال : ألقِ أخبثها مضغتين ، فرمى باللسان والقلب ، فقال : أمرتك أنْ تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللّسان والقلب وأمرتك أنْ تلقي أخبثها مضغتين فألقيتَ اللسان والقلب ؟ فقال : لأنّه ليس شيء بأطيب منهما إذا طابا وأخبث منهما إذا خبثا .

وأخبرني الحسين بن محمد ، عن أحمد بن جعفر بن حمدان ، عن يوسف بن عبد الله عن موسى ابن إسماعيل ، عن حمّاد بن سلمة ، عن أنس أنّ لقمان كان عند داود (عليه السلام) وهو يسرد درعاً فجعل لقمان يتعجّب ممّا يرى ، ويريد أن يسأله ، ويمنعه حكمه عن السؤال ، فلمّا فرغ منها وجاء بها وصبها قال : نِعمَ درع الحرب هذهِ فقال لقمان : إنّ من الحكم الصمت وقليل فاعله .

(وأخبرني الحسين بن محمد بن ماهان عن علي بن محمد الطنافسي) قال : أخبرني أبو أُسامة ووكيع قالا : أخبرنا سفيان ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : كان لقمان من أهون مملوكيه على سيّده . قال : فبعثه مولاه في رقيق له إلى بستان له ليأتوه من ثمره ، فجاؤوا وليس معهم شيء ، وقد أكلوا الثمر ، وأحالوا على لقمان . فقال لقمان لمولاه : إنّ ذا الوجهين لا يكون عند الله أميناً ، فاسقني وإيّاهم ماءً حميماً ثمّ أرسِلنا فلْنعدُ ، ففعل ، فجعلوا يقيئون تلك الفاكهة وجعل لقمان يقيء ماءً ، فعرف صدقه وكذبهم .

قال : أوّل ما روي من حكمته ، أنّه بينا هو مع مولاه ، إذ دخل المخرج فأطال فيه الجلوس ، فناداه لقمان : إنّ طول الجلوس على الحاجة ينجع منه الكبد ، ويورث الباسور ، ويصعد الحرارة إلى الرأس ، فاجلس هوناً ، وقم هوناً ، قال : فخرج وكتب حكمته على باب [الحش] .

قال : وسكر مولاه يوماً فخاطر قوماً على أن يشرب ماء بحيرة ، فلمّا أفاق عرف ما وقع فيه فدعا لقمان فقال : لمثل هذا كنتُ اجتبيتك ، فقال : اخرج كرسيّك وأباريقك ثمّ اجمعهم ، فلمّا اجتمعوا قال : على أيّ شيء خاطرتموه ؟ قالوا : على أن يشرب ماء هذه البحيرة ، قال : فإنّ لها موادَّ احبسوا موادّها عنها ، قالوا : وكيف نستطيع أن نحبس موادها عنها ؟ قال لقمان : وكيف يستطيع شربها ولها موادّ ؟ !

وأخبرني الحسين بن محمد ، عن عبيد الله بن محمد بن شنبه ، عن علي بن محمد بن ماهان ، عن علي بن محمد الطنافسي قال : أخبرني أبو الحسين العكلي [عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن داود بن عمر ، عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار أنّ لقمان قدم من سفر ،] فلقي غلامه في الطريق ، فقال : ما فعل أبي ؟ قال : مات ، قال : الحمد لله ، ملكت أمري . قال : ما فعلت امرأتي ؟ قال : ماتت . قال : جدّدَ فراشي ، قال : ما فعلت أُختي ؟ قال : ماتت ، قال : سترَ عورتي ، قال : ما فعل أخي ؟ قال : مات ، قال :

انقطع ظهري .

وأخبرني الحسين بن محمد قال : أخبرني أبو بكر بن مالك ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبي ، عن سفيان قال : قيل للقمان : أيّ الناس شرّ ؟ قال : الذي لا يبالي أنْ يراه الناس مسيئاً . وقيل للقمان : ما أقبح وجهك قال : تعيب بهذا على النقش أو على النقّاش ؟

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ .

(242/608)

قرأ نافع وشيبه وأبو جعفر وأبو رجاء العطاردي وأبو محلز وأبو عمرو والأعرج وأيّوب وحفص ﴿ نِعَمَهُ ﴾ بالجمع والإضافة ، واختاره أبو عبيد وأبو معاذ النحوي وأبو حاتم ، وقرأ الآخرون منُوّنة على الواحد ومعناها جمع أيضاً ، ودليله قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] وقال مجاهد وسفيان : هي لاَ إِلَهَ إِلاّ الله ، وتصديقه أيضاً ما أخبرني أبو القاسم (الحبيبي) أنّه رأى في مصحف عبد الله ﴿ نِعْمَتَهُ ﴾ بالأضافة والتوحيد ﴿ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ اختلفوا فيها فأكثروا . فقال ابن عبّاس : أمّا الظاهرة فالدين والرياش ، وأمّا الباطنة فما غاب عن العباد وَعَلِمَهُ الله .

مقاتل : الظاهرة تسوية الخَلق والرّزق والإسلام ، والباطنة ما ستر من ذنوب بني آدم فلم يعلم بها أحد ولم يعاقب عليها . الضحّاك : الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء ، والباطنة المغفرة . القرظي : الظاهرة محمّد صلى الله عليه وسلم والباطنة المعرفة . ربيع : الظاهرة بالجوارح والباطنة بالقلب . عطاء الخراساني : الظاهرة تخفيف الشرائع ، والباطنة الشفاعة . مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء ، والباطنة الإمداد بالملائكة .

(243/608)

أخبرنا الحسين بن محمد بن إبراهيم النيستاني ، قال : أخبرنا أبو الفضل محمد بن إبراهيم ابن محمش ، قال : أخبرني أبو يحيى زكريا بن يحيى بن الحرب ، عن محمد بن يوسف بن محمد ابن سابق الكوفي قال : أخبرني أبو مالك الجبنى ، عن جويبر ، عن الضحاك قال : سألت ابن عبّاس عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ فقال : هذا من محرزي الذي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : " يا رسول الله ما هذه النعمة الظاهرة والباطنة ؟ قال : أمّا الظاهرة فالإسلام وما حسن من خلقك وما أفضل عليك من الرزق ، وأمّا الباطنة ما ستر من سوء عملك ، يا ابن عبّاس يقول الله تعالى : إنّي

جعلت للمؤمن ثلثا صلاة المؤمنين عليه بعد انقطاع عمله أُكفّر به عن خطاياه ، وجعلت له ثلث ماله ليكفّر به عنه من خطاياه وسترت عليه سوء عمله الذي لو قد أبديته للناس لنبذه أهله فما سواهم " .

وقال محمّد بن علي الترمذي : النعمة الظاهرة : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : 3] والباطنة قوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] .

(الحرث بن أسد المحاسبي) : الظاهرة نعيم الدنيا ، والباطنة نعيم العقبى . عمرو بن عثمان الصدفي : الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة تضعيف الصنائع .

وقيل : الظاهرة الجزاء ، والباطنة الرضا . سهل بن عبد الله : الظاهرة إتباع الرسول ، والباطنة محبّته . وقيل : الظاهرة تسوية الظواهر والباطنة تصفية السرائر . وقيل : الظاهرة التبيين ، بيانه قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 221] والباطنة التزين قوله : ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 7] وقيل : الظاهرة الرزق المكتسب ، والباطنة الرزق من حيث لا يُحتسب .

وقيل : الظاهرة المدخل للغذاء ، والباطنة المخرج للأذى . وقيل : الظاهرة الجوارح ، والباطنة المصالح . وقيل : الظاهرة الخَلق ، والباطنة الخُلق . وقيل الظاهرة التنعيم ، بيانه قوله : ﴿ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الحمد : 7] والباطنة التعليم . قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 151] وقيل : الظاهرة ما أعطى وحبا من النعماء ، وقيل الباطنة : ما طوي وزوي من أنواع البلاء ، وقيل : الظاهرة الدعوة ، بيانه قوله : ﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام ﴾ [يونس : 25] والباطنة الهداية . بيانه قوله : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [يونس : 25] .

وقيل : الظاهرة الإمداد بالملائكة ، والباطنة إلقاء الرعب في قلوب الكفّار ، وقيل : الظاهرة تفصيل الطاعات ، وهو أنّه ذكَر طاعتك واحدة فواحدة وأثنى عليك بها وأثابك عليها ، بيانه قوله : ﴿ التائبون ﴾ [التوبة : 112] وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] وقوله : ﴿ إِنَّ المسلمين والمسلمات ﴾ [الأحزاب : 35] إلى آخر الآية . والباطنة إجمال المعاصي وذلك أنّه دعاك منها إلى التوبة باسم الإيمان من غير عدّها وتفصيلها ، بيانه قوله : ﴿ وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَ المؤمنون ﴾ [النور : 31] وقيل : الظاهرة إنزال الأقطار والأمطار ، والباطنة إحياء الأقطار والأمصار .

وقيل : الظاهرة التوفيق للعبادات ، والباطنة الإخلاص والعصمة من المراءات ، وقيل :

الظاهرة ذكر اللسان ، والباطنة ذكر الجنان ، وقيل : الظاهرة تلاوة القرآن والباطنة معرفته . وقيل : الظاهرة ضياء النهار للتصرّف والمعاش ، والباطنة ظلمة الليل للسكون والقرار . وقيل : الظاهرة النطق ، والباطنة العقل ، وقيل : الظاهرة نِعَمَهُ عليك بعد ما خرجت من بطن أُمّك ، والباطنة : نِعَمَهُ عليك وأنت في بطن أُمّك .

(245/608)

وقيل : الظاهرة الشهادة الناطقة ، والباطنة السعادة السابقة . وقيل : الظاهرة ألوان العطايا ، والباطنة غفران الخطايا . وقيل : الظاهرة وضع الوزر ورفع الذّكر ، والباطنة شرح الصدر .

وقيل : الظاهرة فتح المسالك والباطنة نزع الممالك ممّن خالفك ، وقيل : الظاهرة المال والأولاد ، والباطنة الهدى والارشاد ، وقيل : الظاهرة القول السديد والباطنة التأييد والتسديد ، وقيل : الظاهرة ما يكفِّر الله به الخطايا من الرزايا والبلايا ، والباطنة ما يعفو عنه ولا يؤاخذ به في الدنيا والعقبى ، وقيل : الظاهرة ما بينك وبين خلقه من الأنساب والأصهار ، والباطنة ما بينك وبينه من القرب والأسرار والمناجاة في الأسحار ، وقيل : الظاهرة العلوّ بيانه قوله : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ [آل عمران : 139] والباطنة الدنوّ بيانه

قوله : ﴿ أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : 11] .

قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحرث حين زعم أنّ الملائكة بنات الله ﴿ وَلاَ هُدَىً وَلاَ كِتَابٍ مُنير وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتبعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ﴾ قال الأخفش : لفظه استفهام ومعناه تقرير ، وقال أبو عبيدة : لو هاهنا متروك الجواب مجازه أَوَلَو كَانَ ﴾ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ أي موجباته فيتبعونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 309 .

320 ﴾

(246/608)

وقال الزمخشرى :

سورة لقمان

مكية [إلا الآيات 72 و28 و29 فمدنية] وآياتها 34 وقيل 33 [نزلت بعد الصافات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة لقمان (31) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (2) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

الْكِتابِ الْحَكِيمِ ذى الحكمة. أو وصف بصفة اللّه تعالى على الإسناد المجازى. ويجوز أن يكون الأصل: الحكيم قائله، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن في الصفة المشبهة هُدىً وَرَحْمَةً بالنصب على الحال عن الآيات، والعامل فيها:

ما في تلك من معنى الإشارة. وبالرفع على أنه خبر بعد خبر، أو خبر مبتدإ محذوف لِلْمُحْسِنِينَ للذين يعملون الحسنات وهي التي ذكرها: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس:

الألمعى الّذى يظن بك الظّنّ كأن قد رأى وقد سمعا «1»

---

(1) أيتها النفس احملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

إن الذي جمع السماحة والنجدة والبر والتقى جمعا

الألمعى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

أودى فلا تنفع الاشاحة من أمر لمن يحاول البدعا

لأوس بن حجر ، يرثى فضالة بن كلدة . يقول : يا نفس احتملي جزعا عظيما ، إن الذي تخافين منه قد حصل ، وبينه بقوله : إن الذي جمع المكارم كلها أودى ، أى : هلك . وجمع - بالضم - : توكيد للصفات قبله . والألمعى :

نصب على الصفة للذي ، وفسره بأنه الذي يظن بك ، يعنى كل مخاطب ، أى : يظن الظن الحق ، كأنه قد رأى وسمع ما ظنه أو يظن الظن فيصيب ، كأنه قد رآه إن كان فعلا ، أو سمعه إن كان قولا . وفيه نوع من البديع يسمى التفسير ، وهو أن يؤتى بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفته بدون تفسيره ، ذكره السيوطى في شرح عقود الجمان . والاشاحة :

الشجاعة والجد في القتال . وضمن «تنفع» معنى «تحفظ» فعداه بمن ، أى : فلا تحفظ الشجاعة من مكروه أحدا .

وعداه باللام ، نظرا للفظه . والأقرب أن من واللام زائدتان لتوكيد الكلام ، أى : فلا تنفع الاشاحة شيئا من النفع أحدا من الناس يحاول ويطلب بدائع الأمور وعظائمها ، يعنى : أن فضالة كان كذلك فمات ، وفيه نوع تسل . [. . . . .]

حكى عن الأصمعى : أنه سئل عن الألمعى فأنشده ولم يزد . أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ، ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها .

[سورة لقمان (31) : الآيات 6 إلى 7]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (7)

اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعنى وَلَهْوَ الْحَدِيثِ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام ، وما لا ينبغي من كان وكان ، ونحو الغناء وتعلم الموسيقار «1» ، وما أشبه ذلك . وقيل : نزلت في النضر بن الحرث ، وكان يتجر إلى فارس ، فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة ، فيستمحلون حديثه ويتركون استماع القرآن . وقيل : كان يشترى المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . وفي حديث النبي صلى اللّه عليه وسلم «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهنّ ولا أثمانهنّ «2» «وعنه صلى اللّه عليه وسلم «ما من رجل

(1) . قوله «و تعلم الموسيقار» يونانية . ومعناه : علم الغناء ، وبغير راء : ذات الغناء ، كذا قيل . (ع)

(2) . أخرجه الطبري وابن أبى حاتم وغيرهما من رواية عبيد اللّه بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة بهذا . وهو عند أحمد وابن أبى شيبة والترمذي وأبى يعلى من هذا الوجه وهو ضعيف ، ورواه الطبراني من طريق يحيى بن الحارث عن القاسم نحوه . وله طريق آخر عند ابن ماجة من رواية عبيد اللّه الأفريقى عن أبى أمامة ، قال : «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن بيع المغنيات وعن شرائهن ، وعن كسبهن وعن أكل أثمانهن وفي الباب عن عمر . أخرجه الطبراني وابن عدى من رواية يزيد بن عبد الملك النوفلي عن يزيد بن خصيف عن السائب بن يزيد عن عمر نحوه ، ويزيد بن عبد المطلب ضعيف وعن على أخرجه أبو يعلى وابن عدى .

وفيه الحارث بن نهان وهو ضعيف ، وعن عائشة أخرجه البيهقي وفيه ليث بن أبى سليم وهو ضعيف .

يرفع صوته بالغناء إلا بعث اللّه عليه شيطانين : أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب ، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت «1» «وقيل : الغناء منفدة للمال ، مسخطة للرب ، مفسدة للقلب . فإن قلت : ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث ؟ قلت :

معناها التبيين ، وهي الإضافة بمعنى من ، وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه ، كقولك : صفة خز ، وباب ساج «2» . والمعنى : من يشترى اللهو من الحديث ، لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره ، فبين بالحديث . والمراد بالحديث . الحديث المنكر ، كما جاء في الحديث : «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش «3»» ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى «من» التبعيضية ، كأنه قيل : ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذي هو اللهو منه . وقوله يَشْتَرِي إما من الشراء ، على ما روى عن النضر : من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان . وإما من قوله اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ أى استبدلوه منه واختاروه عليه . وعن قتادة : اشتراؤه :

استحبابه ، يختار حديث الباطل على حديث الحق . وقرئ : لِيُضِلَّ بضم الياء وفتحها . وسَبِيلِ اللَّهِ دين الإسلام أو القرآن . فإن قلت : القراءة بالضم بينة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو : أن يصدّ الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ،

ولا يصدف عنه ، ويزيد فيه ويمدّه ، فإن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصدّ الناس عنه .

والثاني : أن يوضع ليضل موضع ليضل ، من قبل أن من أضل كان ضالا لا محالة ، فدل بالرديف على المردوف . فإن قلت : ما معنى قوله بِغَيْرِ عِلْمٍ ؟ قلت : لما جعله مشتريا لهو الحديث بالقرآن قال : يشترى بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها ، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق .

ونحوه قوله تعالى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ أى : وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها : وقرئ وَيَتَّخِذَها بالنصب والرفع عطفا على يشترى . أو ليضل ، والضمير للسبيل ، لأنها مؤنثة ، كقوله تعالى وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً .

---

(1) . أخرجه أبو يعلى وإسحاق والحارث من طريق أبى أمامة وهو عند الطبراني من رواية يحيى بن الحارث عن القاسم في الحديث الذي قبله .

(2) . قوله «كقولك صفة خز وباب ساج» لعله محرف . وأصله جبة خز ، ثم رأيت في الصحاح : صفة الدار والسرج : واحدة الصفف اه ، فلعل صفة السرج تكون من خز . (ع)

(3) . تقدم في براءة .

وَلَّى مُسْتَكْبِراً زاما «1» لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأسا : تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً أى ثقلا ولا وقر فيهما ، وقرئ : بسكون الذال . فإن قلت : ما محل الجملتين المصدرتين بكأن ؟ قلت : الأولى حال من مستكبرا والثانية من لم يسمعها : ويجوز أن تكونا استئنافين ، والأصل في كأن المخففة : كأنه ، والضمير : ضمير الشأن .

[سورة لقمان (31) : الآيات 8 إلى 11]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (11)

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا مصدران مؤكدان ، الأوّل : مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره ، لأن قوله لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ في معنى : وعدهم اللّه جنات النعيم ، فأكد معنى الوعد بالوعد . وأما حَقًّا فدال على معنى الثبات : أكد به معنى الوعد ، ومؤكدهما جميعا قوله لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه ، يقدر على الشيء وضده ، فيعطى النعيم من شاء والبؤس من شاء ، وهو الْحَكِيمُ لا يشاء إلا ما توجبه الحكمة والعدل تَرَوْنَها الضمير فيه للسماوات ، وهو استشهاد برؤيتهم لها ، غير معمودة على قوله بِغَيْرِ عَمَدٍ كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح تراني فإن قلت : ما محلها من الإعراب ؟ قلت : لا محل لها لأنها مستأنفة . أو هي في محل الجرّ صفة للعمد أى : بغير عمد مرئية ، يعنى : أنه عمدها بعمد لا ترى ، وهي إمساكها بقدرته هذا إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته . والخلق بمعنى المخلوق . والَّذِينَ مِنْ دُونِهِ آلهتهم ، بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه اللّه وأنشأه . فأرونى ما ذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة ، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورّط في ضلال ليس بعده ضلال .

[سورة لقمان (31) : آية 12]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)

هو لقمان بن باعورا : ابن أخت أيوب أو ابن خالته . وقيل : كان من أولاد آزر ، وعاش

---

(1) . قوله «زاما لا يعبأ بها» في الصحاح : زم بأنفه ، أي : تكبر ، فهو زام . (ع)

ألف سنة ، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له ؟ فقال : ألا أكتفى إذا كفيت ؟ وقيل : كان قاضيا في بنى إسرائيل ، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لقمان لم يكن نبيا ولا ملكا . ولكن كان راعيا أسود ، فرزقه اللّه العتق ، ورضى قوله ووصيته ، فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته . وقال عكرمة والشعبي : كان نبيا . وقيل : خير بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة «1» . وعن ابن المسيب : كان أسود من سودان مصر خياطا ، وعن مجاهد : كان عبدا أسود غليظ الشفتين متشفق «2» القدمين . وقيل : كان نجارا . وقيل : كان راعيا وقيل : كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة . وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض . وروى أن رجلا وقف عليه في مجلسه فقال : ألست الذي ترعى معى في مكان كذا ؟ قال : بلى . قال ما بلغ بك ما أرى ؟

قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني . وروى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين اللّه له الحديد كالطين ، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله ، فقال له داود : بحق ما سميت حكيما . وروى أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب

مضغتين ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك ؟ فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا ، وأخبث ما فيها إذا خبثا . وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود : لا تحزن ، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر ، ولقمان . أَنِ هي المفسرة ، لأنّ إيتاء الحكمة في معنى القول ، وقد نبه اللّه سبحانه على أنّ الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي : هو العمل بهما وعبادة اللّه والشكر له ، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر غَنِيٌّ غير محتاج إلى الشكر حَمِيدٌ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد .

[سورة لقمان (31) : آية 13]

وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

قيل : كان اسم ابنه «أنعم» وقال الكلبي : «أشكم» وقيل : كان ابنه وامرأته كافرين ، فما زال

---

(1) . ذكر محمود في ذلك اختلاف العلماء في نبوته ، وذكر أثناء ذلك أنه خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة . قال أحمد : وفي هذا بعد بين ، وذلك أن الحكمة داخلة في النبوة ، وقطرة من بحرها ، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره . وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة ،

(2) . قوله «متشفق» في الصحاح: «الشفق» : الرديء من الأشياء . يقال : غطاء مشفق ، أى : مقلل اه والظاهر أنه متشقق بقافين . (ع)

(251/608)

بهما حتى أسلما لَظُلْمٌ عَظِيمٌ لأنّ التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ، ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصوّر أن تكون منه - : ظلم لا يكتنه عظمه .

[سورة لقمان (31) : الآيات 14 إلى 15]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

أى حَمَلَتْهُ تهن وَهْناً عَلى وَهْنٍ كقولك رجع عودا على بدء ، بمعنى ، يعود عودا على بدء ، وهو في موضع الحال . والمعنى : أنها تضعف ضعفا فوق ضعف ، أى : يتزايد ضعفها ويتضاعف ، لأنّ الحمل كلما ازداد وعظم ، ازدادت ثقلا وضعفا . وقرئ : وهنا على وهن ، بالتحريك عن أبى عمرو . يقال : وهن يوهن . ووهن يهن . وقرئ : وفصله أَنِ

اشْكُرْ تفسير لوصينا ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أراد بنفي العلم به نفيه ، أى : لا تشرك بى ما ليس بشيء «1» ، يريد الأصنام ، كقوله تعالى ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ . مَعْرُوفاً صحابا ، أو مصاحبا معروفا حسنا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة ، وما يقتضيه الكرم والمروءة وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ يريد : واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه - وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما في الدنيا - ثم إلىّ مرجعك ومرجعهما ، فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما ، علم بذلك حكم الدنيا وما يجب على الإنسان في صحبتهما ومعاشرتهما : من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه ، وما لهما من المواجب التي لا يسوغ الإخلال بها ، ثم بين حكمهما وحالهما في الآخرة . وروى : أنها نزلت في سعد بن أبى وقاص وأمّه . وفي القصة : أنها مكثت ثلاثا لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاها «2» بعود . وروى أنه قال : لو كانت لها سبعون نفسا فخرجت ، لما ارتددت إلى الكفر . فإن قلت : هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان ؟ قلت : هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد ، تأكيدا لما في وصية لقمان من النهى عن الشرك . فإن قلت : فقوله حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر ؟ قلت : لما

---

(1) . قال محمود : «معناه : ما ليس بشيء ، وعبر بنفي العلم عن نفى المعلوم» قال أحمد : هو من باب قوله :

على لاحب لا يهتدى بمناره

أى : ما ليس باله فيكون لك علم بالالهية ، وليس كما ذكره في قول فرعون ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي وقد مر معناه فيما تقدم .

(2) . قوله «حتى شجروا فاها بعود» في الصحاح : شجرة بالرمح ، أى : طعنه . (ع)

(252/608)

وصى بالوالدين : ذكر ما تكابده الأمّ وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدّة المتطاولة ، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا «1» . وتذكيرا بحقها العظيم مفردا ، ومن ثمّ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لمن قال له : من أبر ؟ «أمّك ثم أمّك ثم أمّك» ثم قال بعد ذلك «ثم أباك «2»» . وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائه بنفسه :

أحمل أمّى وهي الحمّاله ترضعنى الدرّة والعلالة

ولا يجازى والد فعاله «3»

فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز ، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم : إن علمت أنه يقوى على

الفطام فلها أن تفطمه . ويدل عليه قوله تعالى وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وبه استشهد الشافعي رضى اللّه عنه على أن مدة الرضاع سنتان ، لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما ، وهو مذهب أبى يوسف ومحمد . وأما عند أبى حنيفة رضى اللّه عنه .

فمدة الرضاع ثلاثون شهرا . وعن أبى حنيفة : إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام ثم أرضعته ، لم يكن رضاعا . وإن أكل أكلا ضعيفا لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته ، فهو رضاع محرم .

[سورة لقمان (31) : آية 16]

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)

قرئ مِثْقالَ حَبَّةٍ بالنصب والرفع ، فمن نصب كان الضمير للهنة «4» من الإساءة أو الإحسان ،

---

(1) . قال محمود : «فيه تخصيص حق الأم ، وهو مطابق لبدايته ، فذكرها في وجوب البر في الحديث المأثور» قال أحمد : وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء : إن اللأم من عمل الولد قبل الحلم جله ، وهو مما يفيد تأكيد حقها ، واللّه أعلم .

(2) . أخرجه أبو داود والترمذي من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال «قلت

يا رسول اللّه من أبر ؟

الحديث» وله شاهد في الصحيحين من حديث أبى زرعة عن أبى هريرة قال «جاء رجل إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : من أحق بصحابتى ؟ - الحديث»

(3) . لعربي يحمل أمه إلى الحج ، وهي الحمالة : جملة حالية ، أى : كثيرة الحمل بحسب ما كان . أو من عادتها ذلك ، وترضع : حال متداخلة ، والدرة - بالضم : كثرة اللبن وسيلانه ، والمراد بها : اللبن الكثير . والعلالة - بالضم - :

بقية اللبن ، والحلبة بين الحلبتين ، وتطلق على بقية جرى الفرس . والعلل : الشرب الثاني ، والشرب الأول النهل :

وروى ترضعنى الدرة . والفعال - بالفتح - : فعل الخير وأراد بالوالد : الأم ، أو ما يشمل الأب والأم .

(4) . قوله «للهنة من الاساءة» في الصحاح «هن» : على وزن أخ : كلمة كناية . ومعناه : شيء ، ومؤنثه :

هنة . والقماءة : الصغر والحقارة . كذا في الصحاح (ع) [. . . . .]

أى : إن كانت مثلا في الصغر والقماءة كحبة الخردل ، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة «1» أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلى يَأْتِ بِهَا اللَّهُ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ يتوصل علمه إلى كل خفى خَبِيرٌ عالم بكنهه .

وعن قتادة : لطيف باستخراجها ، خبير بمستقرّها . ومن قرأ بالرفع : كان ضمير القصة ، وإنما أنث المثقال لإضافته إلى الحبة ، كما قال :

كما شرقت صدر القناة من الدّم «2»

وروى أنّ ابن لقمان قال له : أرأيت الحبة تكون في مقل البحر - أى : في مغاصه - يعلمها اللّه ؟ فقال : إنّ اللّه يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة ، لأنّ الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء .

وقيل : الصخرة هي التي تحت الأرض ، وهي السجين يكتب فيها أعمال الكفار . وقرئ : فتكن ، بكسر الكاف . من وكن الطائر يكن : إذا استقر في وكنته ، وهي مقره ليلا .

[سورة لقمان (31) : آية 17]

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17)

وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ يجوز أن يكون عاما في كل ما يصيبه من المحن ، وأن يكون خاصا بما يصيبه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : من أذى من يبعثهم على الخير

وينكر عليهم الشر إِنَّ ذِلِكَ مما عزمه اللّه من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب والزام . ومنه الحديث «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل «3»» أى لم يقطعه بالنية : ألا ترى إلى قوله عليه السلام «لمن لم يبيت السيام» «4» ومنه «إنّ اللّه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» «5»

---

(1) . قال محمود : «هذا من البديع الذي يسمى التتميم» قال أحمد : يعنى أنه تمم خلفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة ، وهو من وادى قولها كأنه علم في رأسه نار .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 395 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . تقدم في البقرة .

(4) . تقدم أيضا .

(5) . أخرجه ابن أبى شيبة وابن عدى من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة «أن رجلا قال يا رسول اللّه ، أقصر الصلاة في سفري ؟ قال : نعم ، إن اللّه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بفريضته» وفيه عمر بن عبد اللّه بن أبى خشعم اليمامي وهو منكر الحديث : قاله ابن عدى ، وأخرجه أيضا من طريق سعد بن سعيد بن أبى سعيد ، حدثني أخى عبد اللّه عن أبيه . أن أبى هريرة مرفوعا نحوه ، ورواه ابن حبان وأحمد والبزار ، وأبو يعلى من رواية حرب ابن قيس عن نافع عن ابن عمر بلفظ «إن اللّه يحب أن تؤتى رخصه كما

يحب أن تؤتى عزائمه» وفي الباب عن ابن عباس . أخرجه ابن حبان والطبراني وأبو نعيم في الحلية من رواية هشام بن حسان عن عكرمة عنه بلفظ ابن عمر وعن ابن مسعود أخرجه الطبراني والعقيلي وأبو نعيم من رواية معمر بن عبد اللّه الأنصارى عن شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن علقمة عنه تفرد برفعه معمر ، ووقفه غندر وروح بن عبادة وغيرهما عن شعبة . أخرجه ابن أبى شيبة وغيره . وعن عائشة : أخرجه ابن عدى من رواية الحكم بن عبد اللّه الأيلى عن القاسم عن عائشة ومن رواية عمر بن عبيد البصري عن هشام عن أبيه عنها والحكم وعمر ضعيفان . وأخرجه الطبراني في الأوسط من طريق إسماعيل بن عيسى العطار ، حدثنا عمر بن عبد الجبار ، حدثنا عبد اللّه بن زيد بن آدم عن أبى الدرداء وأبى أمامة وواثلة وأنس به وقال : لا يروى إلا بهذا الاسناد تفرد به إسماعيل . قلت : والاسناد مجهول . قوله «و قولهم عزمة من عزمات ربنا» هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد والحاكم والبيهقي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، في أثناء حديثه قال فيه «و من منعها يعنى الزكاة فانا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا ليس لآل محمد منها شيء وإسناده حسن .

(254/608)

وقولهم : عزمة من عزمات ربنا . ومنه : عزمات الملوك . وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده :

عزمت عليك إلا فعلت كذا ، إذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بدّ من فعله ولا مندوحة في تركه .

وحقيقته : أنه من تسمية المفعول بالمصدر ، وأصله من معزومات الأمور ، أى : مقطوعاتها ومفروضاتها . ويجوز أن يكون مصدرا في معنى الفاعل . أصله : من عازمات الأمور ، من قوله تعالى فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ كقولك : جد الأمر ، وصدق القتال . وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها في سائر الأمم ، وأنّ الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها ، موصى بها في الأديان كلها .

[سورة لقمان (31) : الآيات 18 إلى 19]

وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (18)
وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

تصاعر ، وتصعر : بالتشديد والتخفيف . يقال : أصعر خدّه ، وصعره ، وصاعره : كقولك أعلاه وعلاه وعالاه : بمعنى . والصعر والصيد : داء يصيب البعير يلوى منه عنقه . والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعا ، ولا تولهم شق وجهك وصفحته ، كما يفعل المتكبرون . أراد :

وَلا تَمْشِ تمرح مَرَحاً أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحا . ويجوز أن يريد : ولا تمش لأجل المرح والأشر ، أى لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشى كثير من الناس لذلك ، لا لكفاية مهم دينى أو دنيوى . ونحوه قوله تعالى وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ . والمختال : مقابل للماشي مرحا ، وكذلك الفخور للمصعر خدّه كبرا وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ واعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين : لا تدب دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثيب الشطار . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» «1» وأما قول

---

(1) . جاء من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وابن عمر ، وأخرجه ابن عدى من رواية عمار بن مطرد وهو لتروك ، وقد تابعه الوليد بن سلمة وهو أو هي منه ، لكنه قال : عن ابن أبى ذئب عن المغيرة عن أبى سعيد والوليد بن سلمة . وفيه إسناد آخر أخرجه ابن عدى من روايته عن عمرو بن صهبان عن نافع عن ابن عمر ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبى معشر عن سعيد عن أبى هريرة وإسناده ضعيف أيضا

عائشة في عمر رضى اللّه عنهما «كان إذا مشى أسرع» «1» فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت. وقرئ: وأقصد، بقطع الهمزة، أى: سدّد في مشيك من أقصد الرامي إذا سدّد سهمه نحو الرمية وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ وانقص منه واقصر، من قولك: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه أَنْكَرَ الْأَصْواتِ أوحشها، من قولك: شيء نكر، إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت. والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجردا وتفاديهم من اسمه: أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة: وقد عدّ في مساوي الآداب: أن يجرى ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرجلة «2»، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة - وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا - ومبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة اللّه بمكان. فإن قلت: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؟ قلت: ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

[سورة لقمان (31): آية 20]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (20)

ما فِي السَّماواتِ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك وَما فِي الْأَرْضِ البحار والأنهار والمعادن والدواب وما لا يحصى وَأَسْبَغَ وقرئ بالسين والصاد ، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف ، تقول في سلخ ، صلخ ، وفي سقر : صقر ، وفي سالغ : صالغ «3»

---

(1) . ذكره ابن الأثير في النهاية ، قلت : لعله أخذه عن الفائق ، وفي الطبقات لابن سعد من رواية سليمان ابن أبى حثمة قال قالت الشفاء بنت عبد اللّه ، وهي أم سليمان : كان عمر إذا مشى . . . فذكره .

(2) . قوله «منه الرجلة» أى : المشي برجله ، يعنى : وإن أتعبه المشي وعدم الركوب . وفي الصحاح «الرجل» بالتحريك : مصدر قولك : رجل - بالكسر - أى : بقي راجلا . (ع)

(3) . قوله «وفي سالغ صالغ» في الصحاح : سلغت البقرة والشاة ، إذا أسقطت السن التي خلفت السديس والسلوغ في ذوات الأظلاف : بمنزلة البزول في ذوات الأخفاف . (ع)

وقرئ : نعمه ، ونعمة ، ونعمته . فإن قلت : ما النعمة ؟ قلت : كل نفع قصد به الإحسان ، والله تعالى خلق العالم كله نعمة ، لأنه إما حيوان ، وإما غير حيوان . فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان ، والحيوان نعمة من حيث أنّ إيجاده حيا نعمة عليه . لأنه لولا إيجاده حيا لما صح منه الانتفاع ، وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة . فإن قلت : لم كان خلق العالم مقصودا به الإحسان ؟ قلت : لأنه لا يخلقه إلا لغرض ، وإلا كان عبثا ، والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع ، لأنه غنى غير محتاج إلى المنافع ، فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه . فإن قلت : فما معنى الظاهرة والباطنة ؟ قلت : الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة ، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل ، أو لا يعلم أصلا ، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها ، وقد أكثروا في ذلك : فعن مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء ، والباطنة : الأمداد من الملائكة . وعن الحسن رضى الله عنه : الظاهرة : الإسلام . والباطنة الستر . وعن الضحاك : الظاهرة : حسن الصورة ، وامتداد القامة . وتسوية الأعضاء . والباطنة : المعرفة . وقيل : الظاهرة البصر ، والسمع ، واللسان ، وسائر الجوارح الظاهرة . والباطنة :

القلب ، والعقل ، والفهم ، وما أشبه ذلك . ويروى في دعاء موسى عليه السلام : إلهى ،

دلني على أخفى نعمتك على عبادك ، فقال : أخفى نعمتي عليهم النفس . ويروى : أن أيسر ما يعذب به أهل النار : الأخذ بالأنفاس «1» .

[سورة لقمان (31) : آية 21]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (21)

معناه أَيتبعونهم وَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 489. 499 ﴾

---

(1) . لم أجده .

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ هُدىً ورحمةً ﴾

وقرأ حمزة وحده : ﴿ ورحمةٌ ﴾ بالرفع .

قال الزجاج : القراءة بالنصب على الحال ؛ والمعنى : تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة ؛ ويجوز الرفع على إِضمار ﴿ هو هدىً ورحمةٌ ﴾ وعلى معنى ﴿ تلك هدىً

ورحمةٌ ﴾ .

وقد سبق تفسير مفتتحَ هذه السورة [البقرة : 1-5] إلى قوله : ﴿ ومِنَ النَّاس من يشتري لَهْوَ الحديث ﴾ قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رجل اشترى جارية مغنّيةً .

وقال مجاهد : نزلت في شراء القِيَان والمغنّيات .

وقال ابن السائب ومقاتل : نزلت في النَّضْر بن الحارث ، وذلك أنه كان تاجراً إلى فارس ، فكان يشتري أخبار الأعاجم فيحدّث بها قريشاً ويقول لهم : إنَّ محمداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أُحدِّثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فنزلت فيه هذه الآية .

وفي المراد بلهو الحديث أربعة أقوال .

أحدها : [أنه] الغناء .

كان ابن مسعود يقول : هو الغناء والذي لا إله إلا هو ، يُردِّدها ثلاث مرات ؛ وبهذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال : اللهو : الطبل .

والثاني : أنه ما ألهى عن الله ، قاله الحسن ، وعنه مثل القول الأول .

والثالث : أنه الشِّرك ، قاله الضحاك .

والرابع : الباطل ، قاله عطاء .

وفي معنى ﴿ يشتري ﴾ قولان.

أحدهما: يشتري بماله؛ وحديث النضر يعضده.

والثاني: يختار ويستحبّ، قاله قتادة، ومطر.

وإنما قيل لهذه الأشياء: لهو الحديث، لأنها تُلهي عن ذِكْر الله.

قوله تعالى: ﴿ لِيَضِلَّ ﴾ المعنى: ليصير أمره إلى الضلال، وقد بيّنّا هذا الحرف في [الحج: 9].

وقرأ أبو رزين، والحسن وطلحة بن مصرف، والأعمش، وأبو جعفر: ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بضم الياء، والمعنى: لِيُضِلَّ غيره، وإذا أضَلَّ غيره فقد ضَلَّ هو أيضاً.

(258/608)

قوله تعالى: ﴿ ويَتَّخِذَها ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ ويَتَّخِذُها ﴾ برفع الذال.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بنصب الذال.

قال أبو علي: من نصب عطف على ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ ﴿ ويَتَّخذ ﴾ ومن رفع عطفه على ﴿ من يشتري ﴾ ﴿ ويتخذ ﴾.

وفي المشار إليه بقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ قولان .

أحدهما : أنها الآيات .

والثاني : السبيل .

وما بعد هذا مفسر في مواضع قد تقدَّمت [الاسراء : 46 ، الانعام : 25 ، البقرة : 25 ، الرعد : 2 ، النحل : 15 ، الشعراء : 7] إلى قوله : ﴿ ولقد آتَيْنا لُقمَان الحكمة ﴾ وفيها قولان .

أحدهما : الفهم والعقل ، قاله الأكثرون .

والثاني : النبوَّة .

وقد اختُلف في نبوَّته على قولين :

أحدهما : أنه كان حكيماً ولم يكن نبيّاً ، قاله سعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه كان نبيّاً ، قاله الشعبي ، وعكرمة ، والسدي .

هكذا حكاه عنهم الواحدي ، ولا يعرف ، إلاَّ أن هذا ممَّا تفرَّد به عكرمة ؛ والقول الأول أصح .

وفي صناعته ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان خيّاطاً ، قاله سعيد بن المسيب .

والثاني : راعياً ، قاله ابن زيد .

والثالث : نجاراً ، قاله خالد الربعي .

فأما صفته ، فقال ابن عباس : كان عبداً حبشيّاً .

وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان أسود من سودان مصر .

وقال مجاهد : كان غليظ الشفتين مشقَّق القدمين ، وكان قاضياً على بني إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشكُر لله ﴾ المعنى : وقلنا له : أن أشكر لله [على] ما أعطاك من الحكمة ﴿ ومن يشكُرْ فانَّما يَشكُرُ لنَفْسه ﴾ أي : إنما يفعل لنفسه ﴿ ومن كَفَرَ ﴾ النِّعمة ، فإن الله لغنيٌّ عن عِبادة خَلْقه .

قوله تعالى : ﴿ ووصَّينا الإنسان بوالديه ﴾

قال مقاتل : نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وقد شرحنا ذلك في [العنكبوت : 8] .

(259/608)

قوله تعالى : ﴿ حملتْه أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ وقرأ الضحاك ، وعاصم الجحدري ﴿ وَهَناً على وَهَنٍ ﴾ بفتح الهاء فيهما .

قال الزجاج : أي ضَعْفاً على ضَعْف .

والمعنى : لزمها بحَمْلها إيَّاه أن تَضْعُف مَرَّةً بعد مَرَّة .

وموضع "أن" نصب ب ﴿ وصَّيْنا ﴾ ؛ المعنى : ووصَّينا الإِنسان أن أشكُر لي ولوالدَيْك ، أي : وصَّيناه بشُكْرنا وشُكر والدَيه .

قوله تعالى : ﴿ وفِصَالُه في عامَين ﴾ أي : فِطامُه يقع في انقضاء عامين .

وقرأ إِبراهيم النخعي ، وأبو عمران ، والأعمش : ﴿ وفَصَالُه ﴾ بفتح الفاء .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن وأبو رجاء ، وطلحة بن مصرِّف ؛ وعاصم الجحدري ، وقتادة ؛ ﴿ وفَصْلُه ﴾ بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف .

والمراد : التنبيه على مشقَّة الوالدة بالرَّضاع بعد الحمل .

قوله تعالى : ﴿ وإِن جاهَداكَ ﴾ قد فسرنا ذلك في سورة [العنكبوت : 8] إِلى قوله : ﴿ وصاحِبْهُما في الدُّنيا معروفاً ﴾ قال الزجاج : أي مُصَاحَباً معروفاً ، تقول صاحبه مُصَاحَباً ومُصَاحَبَةً ؛ والمعروف : ما يُستحسن من الأفعال .

قوله تعالى : ﴿ واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أناب إِليَّ ﴾ أي : مَنْ رَجَع إِليَّ ؛ وأهل التفسير يقولون : هذه الآية نزلت في سعد ، وهو المخاطَب بها .

وفي المراد بمَنْ أناب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أبو بكر الصِّدِّيق ، قيل لسعد : اتَّبِع سبيله في الإِيمان ، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء .

وقال ابن إِسحاق : أسلم على يَدي أبي بكر [الصِّدِّيق] : عثمانُ بن عفان ، وطلحة ،

والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف .

والثاني : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن السائب .

والثالث : مَنْ سلك طريق محمد وأصحابه ، ذكره الثعلبي .

ثم رجع إلى الخبر عن لقمان فقال : ﴿ يا بُنيَّ ﴾ .

وقال ابن جرير : وجه اعتراض هذه الآيات بين الخبرين عن وصيَّة لقمان أنَّ هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه .

(260/608)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثقالَ حَبَّة ﴾ وقرأ نافع وحده : ﴿ مِثقالُ حَبَّة ﴾ برفع اللام .

وفي سبب قول لقمان لابنه هذا قولان .

أحدهما : أن ابن لقمان قال لأبيه : أرأيتَ لو كانت حبَّة في قعر البحر أكان اللّهُ يعلَمُها ؟ فأجابه بهذه الآية ، قاله السدي .

والثاني : أنه قال يا أبت إن عملتُ الخطيئة حيث لا يراني أحد ، كيف يعلَمُها الله ؟ فأجابه بهذا ، قاله مقاتل .

قال الزجاج : من قرأ برفع المثقال مع تأنيث ﴿ تَكُ ﴾ فلأنَّ ﴿ مثقال حبَّة من خردل ﴾

راجع إلى معنى : خردلة ، فهي بمنزلة : إن تَكُ حبَّةٌ من خردل ؛ ومن قرأ ﴿ مثقالَ حبَّة ﴾ فعلى معنى : إن التي سألتَني عنها إن تَكُ مثقالَ حبَّة ، وعلى معنى : إنَّ فَعْلَة الإنسان وإن صَغُرت يأت بها الله .

وقد بيَّنَّا معنى ﴿ مثقالَ حبَّة من خردل ﴾ في [الأنبياء 47] .

قوله تعالى : ﴿ فتكُن في صخرة ﴾ قال قتادة : في جبل .

وقال السدي : هي الصخرة التي تحت الأرض السابعة ، ليست في السماوات ولا في الأرض .

وفي قوله : ﴿ يأت بها اللّهُ ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : يعلَمها اللّهُ ، قاله أبو مالك .

والثاني : يُظهرها ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : يأت بها الله في الآخرة للجزاء عليها .

﴿ إنَّ الله لطيف ﴾ قال الزجاج : لطيف باستخراجها ﴿ خبير ﴾ بمكانها .

وهذا مَثَل لأعمال العباد ، والمراد أنَّ الله تعالى يأتي بأعمالهم يوم القيامة ، مَنْ يعمل مثقال ذَرَّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذَرَّة شرّاً يره .

قوله تعالى : ﴿ واصْبِر على ما أصابك ﴾ أي : في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنْكَر من الأذى .

وباقي الآية مفسر في [آل عمران : 286] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُصَعِّر خدَّكَ للنَّاس ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم ، وأبو جعفر ، ويعقوب : ﴿ تُصَعِّر ﴾ بتشديد العين من غير ألف .

وقرأ نافع ، [وأبو عمرو] ، وحمزة ، والكسائي : بألف من غير تشديد .

(261/608)

قال الفراء : هما لغتان ، ومعناهما : الإِعراض من الكِبْر .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو رجاء ، وابن السميفع ، وعاصم الجحدري : ﴿ ولا تُصْعِر ﴾ باسكان الصاد وتخفيف العين من غير ألف .

وقال الزجاج : معناه : لا تُعْرِض عن الناس تكبُّراً ؛ يقال : أصاب البعير صَعَرٌ : إِذا أصابه داءٌ يَلوي منه عُنُقه .

وقال ابن عباس : هو الذي إِذا سُلِّم عليه لوى عُنُقه كالمستكبِر .

وقال أبو العالية : ليكن الغنيُّ والفقير عندك في العِلْم سواءً .

وقال مجاهد : هو الرجل يكون بينه وبين أخيه الحِنَة ، فيراه فيُعرض عنه .

وباقي الآية بعضه مفسر في [بني إِسرائيل : 37] وبعضه في سورة [النساء : 36] .

قوله تعالى : ﴿ واقْصِدْ في مَشْيِكَ ﴾ أي : ليكن مشيُك قصداً ، لا تخيُّلاً ولا إسراعاً .

قال عطاء : امش بالوقار والسّكينة .

قوله تعالى : ﴿ واغضُض من صوتك ﴾ أي : انقص منه .

قال الزجاج : ومنه قولهم : غضضتُ بصري ، وفلان يغضُّ من فلان ، أي : يقصر به .

﴿ إنَّ أنكر الأصوات ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، وابن أبي عبلة : ﴿ أنَّ أنكر الأصوات ﴾ بفتح الهمزة .

ومعنى ﴿ أنكر ﴾ : أقبح ؛ تقول : أتانا فلان بوجهٍ منكَر ، أي : قبيح .

وقال المبرّد : تأويله : أن الجهر بالصوت ليس بمحمود ، وأنه داخل في باب الصوت المنكَر .

وقال ابن قتيبة : عَرَّفَهُ قُبْحَ رفْعِ الأصوات في المخاطبة والمُلاحاة بقبح أصوات الحمير ، لأنها عالية .

قال ابن زيد : لو كان رفع الصوت خيراً ، ما جعله الله للحمير .

وقال سفيان الثوري : صياح كل شيء تسبيح لله عز وجل ، إلا الحمار ، فانه ينهق بلا فائدة .

فإن قيل : كيف قال ﴿ لَصَوتُ ﴾ ولم يقل ﴿ لأَصواتُ الحمير ﴾ ؟ فالجواب : أن لكل جنس صوتاً ، فكأنه قال : إن أنكر أصوات الأجناس صوت هذا الجنس .

قوله تعالى : ﴿ وأَسبغَ عليكم ﴾ أي : أَوسعَ وأَكملَ ﴿ نَعَمَهُ ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿ نِعَمَهُ ﴾ ، أرادوا جميع ما أنعم به .

(262/608)

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ نِعْمَةً ﴾ على التوحيد .

قال الزجاج : هو ما أعطاهم من توحيده .

وروى الضحاك عن ابن عباس ، قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ! ما هذه النّعمة الظاهرة والباطنة ؟ فقال : "أمَّا ما ظهر : فالإِسلام ، وما سوَّى اللّهُ مِنْ خَلْقِك ، وما أَفضل عليك من الرِّزق .

وأمَّا ما بطن : فستر مساوىء عملك ، ولم يفضحك" " وقال الضحاك : الباطنة : المعرفة ، والظاهرة : حسن الصورة ، وامتداد القامة ، وتسوية الأعضاء .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كان الشَّيطان يَدْعُوهم ﴾ هو متروك الجواب ، تقديره : أفتتَّبعونه ؟ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(263/608)

وقال ابن جزى :

﴿ الكتاب الحكيم ﴾ ذكر في يونس .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ هو الغناء ، وفي الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال شراء المغنيات وبيعهنّ حارم ، وقرأ هذه الآية ، وقيل : نزلت في قرشي اشترى جارية مغنية تغني بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالشراء على هذا حقيقة ، وقيل : نزلت في النضر بن الحارث ، وكان قد تعلم أخبار فارس ، فذلك هو لهو الحديث ، وشراء لهو الحديث استحبابه وسماعه ، فالشراء على هذا مجاز ، وقيل ﴿ لَهْوَ الحديث ﴾ : الطبل ، وقيل : الشرك ، ومعنى اللفظ يعم ذلك كله ، وظاهر الآية أنه لهوٌ مضافٌ إلى الكفر بالدين واستخفاف ، لقوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ الآية ، وأن المراد شخص معين ، لوصفه بعد ذلك بجملة أوصاف .

﴿ بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ذكر في [الرعد : 2] ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي لئلا تميد بكم .

﴿ لُقْمَانَ ﴾ رجل ينطق بالحكمة واختلف هل هو نبيّ أم لا ؟ وفي الحديث لم يكن لقمان نبياً ، ولكن عبداً حسن اليقين أحب الله فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، روي أنه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وروي أنه كان قاضي بني إسرائيل ، واختلف في صناعته ، فقيل

: كان نجاراً وقيل : خياطاً ، وقيل : راعي غنم ، وكان ابنه كافراً فما زال يوصيه حتى أسلم ، وروي أن اسم ابنه ثاران .

(264/608)

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان ﴾ هذه الآية والتي بعدها اعتراض في اثناء وصية لقمان لابنه ؛ على وجه التأكيد لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بالله ، ونزلت الآية في سعد بن أبي وقاص وأمه حسبما ذكرنا في العنكبوت ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ أي ضعفاً على ضعف ، لأن الحمل كلما عظم ازدادت الحامل به ضعفاً ، وانتصاب ﴿ وَهْناً ﴾ بفعل مضمر تقديره : تهن وهنا ﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ اي فطامه ، وأشار بذلك إلى غاية مدة الرضاع ﴿ أَنِ اشكر ﴾ تفسير للوصية واعترض بينهما وبين تفسيرها بقوله : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ ليبين ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها ، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب .

﴿ يا بني ﴾ الآية : رجع إلى كلام لقمان ، والتقدير : وقال لقمان يا بنيّ ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي وزنها ، والمراد بذلك أن الله يأتي بالقليل والكثير ، من أعمال العباد فعبَّر بحبة الخردل ليدل على ما هو أكثر ﴿ فِي صَخْرَةٍ ﴾ قيل : معنى الكلام أن مثقال خردلة

من الأعمال أو من الأشياء ولو كانت في أخفى موضع كجوف صخرة ، فإن الله يأتي بها يوم القيامة ، وكذلك لو كانت في السموات أو في الأرض .

﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ ﴾ أمر بالصبر على المصائب عموماً ، وقيل : المعنى ما يصيب من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر ﴿ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ يحتمل أن يريد ما أمر الله به على وجه العزم والإيجاب ، أو من مكارم الأخلاق التي يعزم عليها أهل الحزم والجد ، ولفظ العزم مصدر يراد به المفعول أي : من معزومات الأمور .

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ الصعر في اللغة : الميل أي لا تول الناس خدك وتعرض عنهم تكبراً عليهم ﴿ مَرَحاً ﴾ ذكر في [الإسراء : 37] ﴿ مُخْتَالٍ ﴾ من الخيلاء .

﴿ واقصد فِي مَشْيِكَ ﴾ أي اعتدل فيه ولا تتسرع إسراعاً يدل على الطيش ، والخفة ، ولا تبطئ إبطاء يدل على الفخر والكبر .

(265/608)

﴿ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ الظاهرة : الصحة والمال وغير ذلك ، والباطنة : النعم التي لا يطلع عليها الناس ، ومنها ستر القبيح من الأعمال ، وقيل : الظاهرة نعم الدنيا ، والباطنة : نعم العقبى ، واللفظ أعم من ذلك كله .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث وأمثاله .

﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ معناه أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 126 . 127 ﴾

(266/608)

وقال الخازن :

قوله ﴿ الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين ﴾

يعني الذين يعملون الحسنات ، ثم ذكرهم فقال ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ الآية قيل : نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة وكان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم ويحدث بها قريشاً ويقول إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن .

فأنزل الله هذه الآية وقيل هو شراء القينات والمغنين ، ومعنى الآية ومن الناس من يشتري ذات لهو أو ذا لهو الحديث ؛ وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي أمامة قال : قال رسول

الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام " وفي مثل ذلك نزلت هذه الآية ﴿ ومن الناس من يشتري لهو ليضل عن سبيل الله ﴾ وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله له شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت أخرجه الترمذي وهذا لفظه عن أبي أسامة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام " وفي مثل هذا نزلت ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ الآية وعن أبي هريرة " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار " وقال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أصل عليه إن الله تعالى يقول : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ الآية وعن أبي مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى تشتري يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن .

(267/608)

وقال أبو الصهباء : سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات وقال إبراهيم النخعي الغناء ينبت النفاق وقيل : هو كل لهو ولعب وقيل : هو الشرك ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ يعني عن دين الإسلام وسماع القرآن ﴿ بغير علم ﴾ يعني يفعله عن جهل وحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ﴿ ويتخذها هزواً ﴾ أي يتخذ آيات الله مزحاً ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين هذه صفتهم ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ .

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ﴾ أي لا يعبأ بها ولا يرفع رأساً ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ أي يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ﴿ كأن في أذنيه وقراً ﴾ أي ثقلاً ولا وقر فيهما ﴿ فبشره بعذاب أليم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقاً ﴾ يعني وعدهم الله ذلك وعداً حقاً وهو لا يخلف المعياد ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ قوله تعالى ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ قيل إن السماء خلقت مبسوطة كصفحة مستوية وهو قول المفسرين وهي في الفضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس ذلك إلا بقدره قادر مختار وإليه الإشارة بقوله بغير عمد ﴿ ترونها ﴾ أي ليس لها شيء يمنعها الزوال من موضعها وهي ثابتة لا تزول وليس ذلك إلا بقدرة الله تعالى .

وفي قوله ترونها وجهان : أحدهما أنه راجع إلى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد .

(268/608)

الوجه الثاني أنه راجع إلى العمد ومعناه بغير عمد مرئية ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ أي لئلا تتحرك بكم ﴿ وبث فيها ﴾ أي في الأرض ﴿ من كل دابة ﴾ أي يسكنون فيها ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ يعني المطر وهو من إنعام الله على عباده وفضله ﴿ فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي من كل صنف حسن ﴿ هذا ﴾ يعني الذي ذكرت مما تعاينون ﴿ خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ أي آلهتكم التي تعبدونها ﴿ بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ قوله ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ قيل هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ وهو آزر .

وقيل كان ابن أخت أيوب .

وقيل كان ابن خالته .

وقيل إنه عاش ألف سنة حتى أدرك داود وقيل إنه كان قاضياً في بني إسرائيل .

واتفقت العلماء على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً إلا عكرمة فإنه قال : كان نبياً وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة .

(269/608)

وروي أنه كان نائماً نصف الليل فنودي يا لقمان هل لك أن نجعلك خليفة في الأرض فتحكم بين الناس فأجاب الصوت فقال إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن عزم علي فسمعاً وطاعة وإني أعلم أن الله إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني فقالت الملائكة بصوت لا يراهم لم يا لقمان ؟ قال إن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاها الظلم من كل مكان إن عدل فبالحرى أن ينجو وإن أخطأ الطريق أخطأ طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولم يصب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودي داود بعده ، فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو الله عنه وكان لقمان يوازر داود لحكمته وقيل كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً وقيل كان خياطاً وقيل كان راعي غنم فروي أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال ألست فلاناً الراعي قال : بلى قال فبم بلغت ما بلغت ؟ قال بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني ، وقيل كان

عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين وقيل : خير السودان بلال بن رباح ومهجع مولى عمر ولقمان والنجاشي رابعهم أوتي الحكمة والعقل والفهم وقيل العلم والعمل به ولا يسمى الرجل حكيماً حتى يجمعها وقيل الحكمة المعرفة والإصابة في الأمور وقيل : الحكمة شيء يجعله الله في القلب ينوره كما ينور البصر فيدرك المبصر .

وقوله ﴿ أن أشكر الله ﴾ وذلك لأن المراد من العلم العمل به والشكر عليه ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي عليه يعود نفع ذلك وكذلك كفرانه ﴿ ومن كفر ﴾ عليه يعود وبال كفره ﴿ فإن الله غني ﴾ أي غير محتاج إلى شكر الشاكرين ﴿ حميد ﴾ أي هو حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد .

(270/608)

وقوله تعالى ﴿ وإذ قال لقمان لابنه ﴾ قيل اسمه أنعم وقيل أشكم ﴿ وهو يعظه ﴾ وذلك لأن أعلى مراتب الإنسان أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره فقوله ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ﴾ إشارة إلى الكمال وقوله وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه إشارة إلى التكميل لغيره وبدأ بالأقرب إليه وهو ابنه وبدأ في وعظه بالأهم وهو المنع من الشرك وهو

قوله ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ لأن التسوية بين من يستحق العبادة وبين من لا يستحقها ظلم عظيم لأنه وضع العبادة في موضعها .

(271/608)

قوله ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ﴾ قال ابن عباس شدة بعد شدة وقيل إن المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والتعب والمشقة وذلك لأن الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف والرضاعة ضعف ﴿ وفصاله في عامين ﴾ أي فطامه في سنتين ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير ﴾ لما جعل الله بفضله للوالدين صورة التربية الظاهرة وهو الموجد والمربي في الحقيقة جعل الشكر بينهما فقال اشكر لي ولوالديك ثم فرق فقال إلي المصير يعني أن نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي عليك في الدنيا والآخرة وقيل لما أمر بشكره وشكر الوالدين قال الجزاء على وقت المصير إلي ، قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بين ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ قال النخعي : يعني أن طاعتهما واجبة فان أفضى ذلك إلى الإشراك بي فلا تطعهما في ذلك لأن لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ﴿ وصاحبهما في الدنيا

معروفاً ﴾ أي بالمعروف وهو البر والصلة والعشرة الجميلة ﴿ واتبع سبيل من أناب إلي ﴾ أي اتبع دين من أقبل إلى طاعتي وهو النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وقيل من أناب إلي يعني أبا بكر الصديق قال ابن عباس : وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وقالوا له قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قالت نعم إنه صادق فآمنوا به ثم حملهم إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الإسلام أسلما بإرشاد أبي بكر ﴿ ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

(272/608)

﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله ؟ قال يا بني إنها أي الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل أي في الصغر ﴿ فتكن ﴾ أي من صغرها ﴿ في صخرة ﴾ قال ابن عباس : صخرة تحت الأرضين السبع وهي التي يكتب فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها وقيل خلق الله الأرض على حوت وهو النون والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك وقيل على ظهر ثور وهو على صخرة وهي التي ذكر لقمان ليست

في الأرض ولا في السماء فلذلك قال ﴿ أو في السموات أو في الأرض ﴾ والصخرة على متن الريح والريح على القدرة ﴿ يأت بها الله ﴾ معناه الله عالم بها قادر على استخراجها وهو قوله ﴿ إن الله لطيف ﴾ أي باستخراجها ﴿ خبير ﴾ أي بمكانها ومعنى الآية الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها قيل إن هذه الكلمة آخر كلمة قالها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها وعظمتها فمات ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ من الأذى ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ يعني إقامة الصلاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى من الأمور الواجبة التي أمر الله بها ﴿ ولا تصعر ﴾ وقرىء تصاعر ﴿ خدك للناس ﴾ قال ابن عباس لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك وقيل هو الرجل يكون بينك وبينه محبة فيلقاك فتعرض عنه وقيل هو الذي إذا سلم عليه ولوى عنقه تكبراً وقيل معناه لا تحتقر الفقراء فليكن الفقير والغني عندك سواء ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي خيلاء ﴿ إن الله لا يحب كل مختال ﴾ في مشيه ﴿ فخور ﴾ أي على الناس ﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي ليكن في مشيتك قصد بين الإسراع والتأني أما بالإسراع فهو من الخيلاء وأما التأني فهو أن يرى في نفسه الضعف تزهداً وكلا الطرفين مذموم بل ليكن مشيك بين السكينة والوقار ﴿ واغضض ﴾ أي اخفض وقيل وانقص ﴿ من صوتك إن أنكر ﴾ أي أقبح ﴿ الأصوات

لصوت الحمير ﴾ لأن أوله زفير وآخره شهيق وهما صوت أهل النار وعن الثوري في هذه الآية قال صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار وقيل معنى الآية هو العطسة القبيحة المنكرة قال وهب : تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم ومن حكمته قيل : إنه كان عبداً حبشياً فدفع إليه مولاه شاة وقال له : اذبحها وائتني بأطيب مضغتين منها فاتاه باللسان والقلب ثم دفع إليه أخرى وقال له اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا وقال لقمان ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس .

وقيل للقمان أي الناس شر قال الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً .

قوله ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ ﴾ أي أتم وأكمل ﴿ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ قال ابن عباس النعمة الظاهرة الإسلام والقرآن والباطنة ما ستر عليكم من الذنوب ولم يعجل عليكم بالنقمة ؛ وقيل الظاهرة تسوية الأعضاء وحسن الصورة والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة الرزق والباطنة حسن الخلق وقيل الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقيل الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء والباطنة الامداد بالملائكة وقيل الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ نزلت في النضر بن الحارث وأبي بن خلف وأمية بن خلف

وأشباههم كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه سلم في الله وفي صفاته بغير علم ﴿ ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه أباءنا ﴾ قال الله تعالى ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم ﴾ معناه أفيتبعونهم وإن كان الشيطان يدعوهم ﴿ إلى عذاب السعير ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 213.218 ﴾

(274/608)

وقال النسفى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ آلمِ تلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾

ذي الحكمة أو وصف بصفة الله عز وجل على الإسناد المجازي ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ حالان من الآيات والعامل معنى الإشارة في ﴿ تلك ﴾ حمزة بالرفع على أن ﴿ تلك ﴾ مبتدأ و ﴿ آيات الكتاب ﴾ خبره و ﴿ هدى ﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف أي هو أو هي هدى ورحمة ﴿ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ للذين يعملون الحسنات المذكورة في قوله ﴿ الدين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكواة وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ونظيره قول أوس

الألمعيّ الذي يظن بك ال . . .

ظن كأن قد رأى وقد سمعا

أو للذين يعملون جميع ما يحسن .

ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاثة لفضلها

﴿ أولئك على هُدًى ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ مّن رَّبِهِمْ ﴾ صفة ل ﴿ هدى ﴾ ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ عطف عليه ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ نزلت في النضر بن الحرث وكان يشتري أخبار الأكاسرة من فارس ويقول : إن محمداً يقص طرفاً من قصة عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث الأكاسرة فيميلون إلى حديثه ويتركون استماع القرآن .

واللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني ولهو الحديث نحو السمر بالأساطير التي لا أصل لها والغناء وكان ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما يحلفان أنه الغناء .

وقيل : الغناء مفسدة للقلب منفدة للمال مسخطة للرب .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم " ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين : أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت " والاشتراء من الشراء كما روي عن النضر ، أو من قوله ﴿ اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أي استبدلوه منه واختاروه عليه أي يختارون حديث الباطل على حديث الحق .

وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى "من" ، لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبيّن بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث " الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش " أو للتبعيض كأنه قيل : ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه .

﴿ لِيُضِلَّ ﴾ أي ليصد الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ، ﴿ ليضَل ﴾ مكي وأبو عمرو أي ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ويزيد فيه ﴿ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ عن دين الإسلام والقرآن ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي جهلاً منه بما عليه من الوزر به ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ أي السبيل بالنصب كوفي غير أبي بكر عطفاً على ﴿ ليضل ﴾ ومن رفع عطفه على ﴿ يشتري ﴾ ﴿ هُزُواً ﴾ بسكون الزاي والهمزة : حمزة ، وبضم الزاي بلا همز : حفص ، وغيرهم بضم الزاي والهمزة ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي يهينهم و "من" لإبهامه يقع على الواحد والجمع أي النضر وأمثاله

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ولى مُسْتَكْبِراً ﴾ أعرض عن تدبرها متكبراً رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو حال من ﴿ مستكبرا ﴾ والأصل كأنه والضمير ضمير الشأن ﴿ كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ ثقلاً وهو حال من ﴿ لم يسمعها ﴾ ﴿ أذنيه ﴾ : نافع ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جنات النعيم ﴾ ولا وقف عليه لأن ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من الضمير في ﴿ لهم ﴾ ﴿ وَعْدَ الله حَقّا ﴾ مصدران مؤكدان الأول مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره إذ لهم جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم ، فأكد معنى الوعد بالوعد ، و ﴿ حقاً ﴾ يدل على معنى الثبات فأكد به معنى الوعد ومؤكدهما ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الذي لا يغلبه شيء فيهين أعداءه بالعذاب المهين ﴿ الحكيم ﴾ بما يفعل فيثيب أولياءه بالنعيم المقيم .

(277/608)

﴿ خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ جمع عماد ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ الضمير للسماوات وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله ﴿ بغير عمد ﴾ كما تقول لصاحبك "أنا بلا سيف ولا رمح تراني" ، ولا محل لها من الأعراب لأنها مستأنفة أو في محل الجر صفة ل ﴿

عمد ﴾ أي بغير عمد مرئية يعني أنه عمدها بعمد لا ترى وهي إمساكها بقدرته ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ لئلا تضطرب بكم ﴿ وَبَثَّ ﴾ ونشر ﴿ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ كَرِيمٍ ﴾ حسن ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته ﴿ خَلَقَ الله ﴾ أي مخلوقه ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني آلهتهم بكّتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله ، فأروني ما خلقته الهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة ﴿ بَلِ الظالمون فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ وهو لقمان ابن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته .

وقيل : كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال : ألا أكتفي إذا كفيت ؟ وقيل : كان خياطاً .

وقيل نجاراً وقيل راعياً وقيل ، كان قاضياً في بني إسرائيل .

وقال عكرمة والشعبي : كان نبياً .

والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً .

وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل .

وقيل : تتلمذ لألف وتتلمذ له ألف نبي .

و"أن" في ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ مفسرة والمعنى أي اشكر الله لأن إيتاء الحكمة في معنى القول ، وقد نبه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له حيث فسر إيتاء الحكمة بالحث على الشكر .

(278/608)

وقيل : لا يكون الرجل حكيماً حتى يكون حكيماً في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته ،

وقال السري السقطي : الشكر أن لا تعصي الله بنعمه .

وقال الجنيد : أن لا ترى معه شريكاً في نعمه .

وقيل : هو الإقرار بالعجز عن الشكر .

والحاصل أن شكر القلب المعرفة ، وشكر اللسان الحمد ، وشكر الأركان الطاعة ، ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل .

﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن منفعته تعود إليه فهو يريد المزيد ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ النعمة ﴿ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ ﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد ﴿ وَإِذْ ﴾ أي واذكر إذ ﴿ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ ﴾ أنعم أواشكم ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بنى ﴾ بالإسكان مكي ﴿ يا بني ﴾ حفص بفتحه في كل القرآن ﴿ لا تُشْرِكْ بالله إِنَّ

الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا وهي منه ومن لا نعمة له أصلاً .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ أي حملته تهن وهناً على وهن أي تضعف ضعفاً فوق ضعف أي يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل كلما ازداد أو عظم ازدادت ثقلاً وضعفاً ﴿ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ ﴾ أي فطامه عن الرضاع لتمام عامين ﴿ أَنِ اشكر لِى ولوالديك ﴾ هو تفسير ل ﴿ وصينا ﴾ أي وصيناه بشكرنا وبشكر والديه .

وقوله ﴿ حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ﴾ اعتراض بين المفسر والمفسر لأنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق في حمله وفصاله هذه المدة الطويلة تذكيراً "بحقها العظيم مفرداً" .

(279/608)

وعن ابن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما ﴿ إِلَىَّ المصير ﴾ أي مصيرك إليّ وحسابك عليّ ﴿ وَإِن جاهداك على أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أراد بنفي العلم به نفيه أي لا تشرك بي ما ليس بشيء يريد الأصنام ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في الشرك ﴿ وصاحبهما فِى الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ صفة مصدر محذوف أي صحاباً معروفاً حسناً بخلق جميل وحلم واحتمال

وبر وصلة ﴿ واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ أي سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا .

وقال ابن عطاء : صاحب من ترى عليه أنوار خدمتي .

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما .

وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك يعني إنا وصيناه بوالديه وأمرناه أن لا يطيعهما في الشرك وإن جهدا كل الجهد لقبحه .

﴿ يا بنى إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ بالرفع : مدني ، والضمير للقصة وأنت المثقال لإضافته إلى الحبة كما قال :

كما شرقت صدر القناة من الدم

(280/608)

و "كان" تامة والباقون بالنصب والضمير للهنة من الإساءة والإحسان أي إن كانت مثلاً في الصغر كحبة خردل ﴿ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السماوات أَوْ فِى الأرض ﴾ أي فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة ، أو حيث كانت في العالم العلوي أو

السفلي والأكثر على أنها التي عليها الأرض وهي السجين يكتب فيها أعمال الفجار وليست من الأرض ﴿ يَأْتِ بِهَا اللهُ ﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ ﴾ بتوصل علمه إلى كل خفي ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم بكنهه أو لطيف باستخراجها خبير بمستقرها ﴿ يا بنى أَقِمِ الصلاة وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر واصبر على مَا أَصَابَكَ ﴾ في ذات الله تعالى إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، أو على ما أصابك من المحن فإنها تورث المنح ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ الذي وصيتك به ﴿ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ أي مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب وإلزام أي أمر به أمراً حتماً ، وهو من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أي مقطوعاتها ومفروضاتها ، وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم .

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي ولا تعرض عنهم تكبراً .

﴿ تصاعر ﴾ أبو عمرو ونافع وحمزة وعلي ، وهو بمعنى تصعّر ، والصعر داء يصيب البعير يلوي منه عنقه والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعاً ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأرض مَرَحًا ﴾ أي تمرح مرحاً ، أو أوقع المصدر موقع الحال أي مرحاً ، أو ولا تمش لأجل المرح والأشر ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ متكبر ﴿ فَخُورٌ ﴾ من يعدد مناقبه تطاولا

﴿ واقصد ﴾ القصد التوسط بين العلو والتقصير ﴿ فِى مَشْيِكَ ﴾ أي اعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثوب الشطار .

(281/608)

قال عليه السلام " سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن " وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنه : كان إذا مشى أسرع ، فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشياً بين ذلك .

وقيل : معناه وانظر موضع قدميك متواضعاً ﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ وانقص منه أي اخفض صوتك ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات ﴾ أي أوحشها ﴿ لَصَوْتُ الحمير ﴾ لأن أوله زفير وآخره شهيق كصوت أهل النار .

وعن الثوري : صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار فإنه يصيح لرؤية الشيطان ولذلك سماه الله منكراً .

وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيه على أن أرفع الصوت في غاية الكراهة يؤيده ما روي أنه عليه السلام كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت

ويكره أن يكون مجهور الصوت .

وإنما وحد صوت الحمير ولم يجمع لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من احاد هذا الجنس حتى يجمع ، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده .

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السماوات ﴾ يعني الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ﴿ وَمَا فِى الأرض ﴾ يعني البحار والأنهار والمعادن والدواب وغير ذلك ﴿ وَأَسْبَغَ ﴾ وأتم ﴿ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ مدني وأبو عمرو وسهل وحفص . ﴿ نعمة ﴾ غيرهم والنعمة كل نفع قصد به الإحسان ﴿ ظاهرة ﴾ بالمشاهدة ﴿ وَبَاطِنَةً ﴾ ما لا يعلم إلا بدليل ثم قيل : الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة ، والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك .

ويروى في دعاء موسى عليه السلام : إلهي دلني على أخفى نعمتك على عبادك فقال : أخفى نعمتي عليهم النفس .

وقيل : تخفيف الشرائع وتضعيف الذرائع والخلق ونيل العطايا وصرف البلايا وقبول الخلق ورضا الرب .

وقال ابن عباس : الظاهرة ما سوّى من خلقك والباطنة ما ستر من عيوبك .

﴿ ومِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ولاَ هُدًى ولاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحرث وقد مر في "الحج"

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ معناه أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 278 . 283 ﴾

(283/608)

وقال البيضاوى :

سورة لقمان

مكية إلا آية وهي ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ فإن وجوبهما بالمدنية وهو ضعيف لأنه لا ينافي شرعيتهما بمكة وقيل إلا ثلاثاً من قوله ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ وهي أربع وثلاثون آية ، وقيل ثلاث وثلاثون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ المٓ تِلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾ سبق بيانه في "يونس" .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ حالان من الآيات والعامل فيهما معنى الإِشارة ، ورفعهما حمزة على الخبر بعد الخبر أو الخبر لمحذوف .

﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بيان لإِحسانهم أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه لفضل اعتداد بها وتكرير الضمير للتوكيد ولما حيل بينه وبين خبره .

﴿ أولئك على هُدًى مّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ ما يلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتبار بها والمضاحك وفضول الكلام ، والإِضافة بمعنى من وهي تبينية إن أراد بالحديث المنكر وتبعيضية إن أراد به الأعم منه . وقيل نزلت في النضر بن الحارث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشاً ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة . وقيل كان يشتري القيان ويحملهن على معاشرة من أراد الإِسلام ومنعه عنه . ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ دينه أو قراءة كتابه ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بمعنى ليثبت على ضلاله ويزيد فيه . ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن . ﴿ وَيَتَّخِذَهَا

هُزُواً ﴾ ويتخذ السبيل سخرية ، وقد نصبه حمزة والكسائي ويعقوب وحفص عطفاً على ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ . ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لإهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه .

(284/608)

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ولى مُسْتَكْبِراً ﴾ متكبراً لا يعبأ بها . ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ مشابهاً حاله حال من لم يسمعها . ﴿ كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ مشابهاً من في أذنيه ثقل لا يقدر أن يسمع ، والأولى حال من المستكن في ﴿ وَلِىَّ ﴾ أو في ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ ، والثانية بدل منها أو حال من المستكن في ﴿ لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ ويجوز أن يكونا استئنافين ، وقرأ نافع ﴿ فِى أُذُنَيْهِ ﴾ . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أعلمه بأن العذاب يحيق به لا محالة وذكر البشارة على التهكم .

﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جنات النعيم ﴾ أي لهم نعيم الجنات فعكس للمبالغة .

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من الضمير في ﴿ لَهُمْ ﴾ أو من ﴿ جنات النعيم ﴾ والعامل ما تعلق به اللام . ﴿ وَعْدَ الله حَقّاً ﴾ مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره لأن قوله ﴿ لَهُمْ جنات ﴾ وعد وليس كل وعد حقاً . ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ . الذي لا يغلبه شيء

فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده .

﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته .

﴿ خَلَقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ قد سبق في "الرعد" . ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ ﴾ جبالاً شوامخ . ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ كراهة أن تميد بكم ، فإن تشابه أجزائها يقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز ووضع معينين . ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ من كل صنف كثير المنفعة وكأنه استدل بذلك على عزته التي هي كمال القدرة ، وحكمته التي هي كمال العلم ، ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله :

(285/608)

﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ هذا الذي ذكر مخلوقه فماذا خلق آلهتكم حتى استحقوا مشاركته ، و﴿ مَاذَا ﴾ نصب ب ﴿ خلقَ ﴾ أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته ﴿ فَأَرُونِى ﴾ معلق عنه . ﴿ بَلِ الظالمون فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ إضراب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على ناظر ، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ يعني لقمان بن باعوراء من أولاد آزر ابن أخت أيوب أو خالته ، وعاش حتى أدرك داود عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه ، والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً . والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها . ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت فقال : الصمت حكم وقليل فاعله ، وأن داود عليه السلام قال له يوماً كيف أصبحت فقال أصبحت في يدي غيري ، فتفكر داود فيه فصعق صعقة . وأنه أمره بأن يذبح شاة ويأتي بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ، ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا . ﴿ أَنِ اشكر للَّهِ ﴾ لأن أشكر أو أي أشكر فإن إيتاء الحكمة في معنى القول . ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفعه عائد إليها وهو دوام النعمة واستحقاق مزيدها . ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ ﴾ لا يحتاج إلى الشكر . ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمد ، أو محمود ينطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ ﴾ أنعم أو أشكم أو ما ثان . ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بنى ﴾ تصغير إشفاق ، وقرأ ابن كثير هنا وفي ﴿ يا بنى أَقِمِ الصلاة ﴾ بإسكان الياء ، وحفص فيهما وفي ﴿ يا بنى إِنَّهَا إِن تَكُ ﴾ بفتح الياء ومثله البزي في الأخير وقرأ الباقون في الثلاثة بكسر الياء . ﴿ لاَ تُشْرِكْ بالله ﴾ قيل كان كافراً فلم يزل به حتى أسلم ، ومن وقف على ﴿ لاَ تُشْرِكْ ﴾ جعل بالله قسماً . ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه ومن لا نعمة منه .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالديه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً ﴾ ذات وهن أو تهن وهنا ﴿ على وَهْنٍ ﴾ أي تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها والجملة في موضع الحال ، وقرىء بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا . ﴿ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ ﴾ وفطامه في انقضاء عامين وكانت ترضعه في تلك المدة ، وقرىء "وفصله في عامين" وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان . ﴿ أَنِ اشكر لى ولوالديك ﴾ تفسير ل ﴿ وَصَّيْنَا ﴾ أو علة له أو بدل من والديه بدل الاشتمال ، وذكر الحمل والفصال في البين اعتراض مؤكد للتوصية في حقها خصوصاً ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام لمن قال مَنْ أُبِرّ " أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك أباك "

﴿ إِلَىَّ المصير ﴾ فأحاسبك على شكرك وكفرك .

﴿ وَإِن جاهداك على أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما ، وقيل أراد بنفي العلم به نفيه . ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك . ﴿ وصاحبهما فِى الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم . ﴿ واتبع ﴾ في الدين ﴿ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة . ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ مرجعك ومرجعهما . ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأن أجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما ، والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به ، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تلو الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراك فما ظنك بغيرهما (روي) نزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمه مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تطعم فيها شيئاً ، ولذلك قيل من أناب إليه أبو بكر رضي الله عنه فإنه أسلم بدعوته .

﴿ يا بنى إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي أن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل . ورفع نافع ﴿ مِثْقَالَ ﴾ على أن الهاء ضمير القصة وكان تامة وتأنيثها لإضافة المثقال إلى الحبة كقول الشاعر :

كما شرقت صدر القناة من الدم . . . أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة . ﴿ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السموات أَوْ فِى الأرض ﴾ في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة أو أعلاه كمحدب السموات أو أسفله كمقعر الأرض . وقرىء بكسر الكاف من وكن الطائر إذا استقر في وكنته . ﴿ يَأْتِ بِهَا الله ﴾ يحضرها فيحاسب عليها . ﴿ إِنَّ الله لَطِيفٌ ﴾ يصل علمه إلى كل خفي . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم بكنهه .

(288/608)

﴿ يا بنى أَقِمِ الصلاة ﴾ تكميلاً لنفسك . ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر ﴾ تكميلاً لغيرك . ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ ﴾ من الشدائد سيما في ذلك . ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ إشارة إلى الصبر أو إلى كل ما أمر به . ﴿ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب مصدر أطلق للمفعول ، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأمر ﴾ أي جد .

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تمله عنهم ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبرون من الصعر وهو داء يعتري البعير فيلوي عنقه . وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي "وَلاَ تصاعر" ، وقرىء "وَلاَ تُصَعِّرْ" والكل واحد مثل علاه وأعلاه وعالاه . ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى

الأرض مَرَحًا ﴾ أي فرحاً مصدر وقع موقع الحال أي تمرح مرحاً أو لأجل المرح وهو البطر . ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ علة للنهي وتأخير ال ﴿ فَخُورٌ ﴾ وهو مقابل للمصعر خده والمختال للماشي مرحاً لتوافق رؤوس الآي .

﴿ واقصد فِى مَشْيِكَ ﴾ توسط فيه بين الدبيب والإِسراع . وعنه عليه الصلاة والسلام : " سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن " ، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد ما فوق دبيب المتماوت ، وقرىء بقطع الهمزة من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية . ﴿ واغضض مِن صَوْتِكَ ﴾ وانقص منه واقصر . ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات ﴾ أوحشها . ﴿ لَصَوْتُ الحمير ﴾ والحمار مثل في الذم سيما نهاقه ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين ، وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراجه مخرج الإِستعارة مبالغة شديدة وتوحيد الصوت لأن المراد تفضيل الجنس في النكير دون الآحاد أو لأنه مصدر في الأصل .

(289/608)

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات ﴾ بأن جعله أسباباً محصلة لمنافعكم . ﴿ وَمَا فِى الأرض ﴾ بأن مكنكم من الإِنتفاع به بوسط أو غير وسط ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ

ظاهرة وبَاطِنَةً ﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه وقد مر شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة ، وقرىء "وأصبغ" بالإبدال وهو جار في كل سين اجتمع من الغين أو الخاء أو القاف كصلخ وصقر ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص "نِعَمَهُ" بالجمع والإضافة . ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ في توحيده وصفاته . ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مستفاد من دليل . ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ راجع إلى رسول . ﴿ وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ أنزله الله بل بالتقليد كما قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ وهو منع صريح من التقليد في الأصول . ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ ﴾ يحتمل أن يكون الضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ ولآبائهم . ﴿ إلى عَذَابِ السعير ﴾ إلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك وجواب محذوف مثل لاتبعوه ، والإستفهام للإنكار والتعجب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 344.349 ﴾

(290/608)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة لقمان

مكية أو إلا ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ الآيتينوهي أربع أو ثلاث وثلاثون آية ،

وخمسمائة وثمانوأربعون كلمة ، وألفان ومائة وعشرة أحرف

﴿ بسم الله ﴾ أي : الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ﴿ الرحمن ﴾ الذي شملت نعمته سائر بريته ﴿ الرحيم ﴾ بأوليائه فخصهم بمعرفته قوله تعالى:

﴿ ألم ﴾ تقدّم الكلام عليه في أوّل سورة البقرة ، وقيل : إنه أشار بذلك إلى أن الله الملك الأعلى أرسل جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم بوحي ناطق من الحكم والأحكام بما لم ينطق به من قبله إمام ولا يلحقه في ذلك نبي مدى الأيام فهو المبدأ وهو الختام ، وإلى ذلك أومأ بتعبيره بأداة البعد في قوله تعالى:

﴿ تلك ﴾ أي : الآيات التي هي من العلوّ والعظمة بمكان ﴿ آيات الكتاب ﴾ أي : الجامع لجميع أنواع الخير ﴿ الحكيم ﴾ بوضع الأشياء في حواق مراتبها فلا يستطاع نقص شيء من إبرامه ، ولا معارضة شيء من كلامه الدال ذلك على تمام علم منزله وشمول عظمته وقدرته ، والإضافة بمعنى من ، وقوله تعالى:

(291/608)

﴿ هدى ورحمة ﴾ بالرفع وهي قراءة حمزة خبر مبتدأ مضمر هي أو هو ، وقرأ الباقون بالنصب على الحال من آيات والعامل ما في اسم الإشارة من معنى الفعل . وقال تعالى

﴿ للمحسنين ﴾ إشارة إلى أنّ رحمة الله قريب من المحسنين فإنه تعالى قال في البقرة : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ولم يقل الحكيم وههنا قال : الحكيم ؛ لأنه لما زاد ذكر وصف في الكتاب زاد ذكراً من أحواله فقال ﴿ هدى ورحمة ﴾ وقال هناك ﴿ هدى للمتقين ﴾ فقوله تعالى هدى في مقابلة قوله تعالى الكتاب ، وقوله تعالى : ورحمة في مقابلة قوله تعالى : الحكيم ، ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكمة كقوله تعالى في عيشة راضية أي : ذات رضا . وقوله تعالى هناك : للمتقين وقوله تعالى هنا للمحسنين لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال للمتقين أي : يهدي به من يتقي الشرك والعناد ، وههنا زاد قوله تعالى ورحمة فقال للمحسنين كما قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس :) فناسب زيادة

قوله تعالى ورحمة ولأنّ المحسن يتقي وزيادة ثم وصف المحسنين بقوله تعالى:

(292/608)

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أي : يجعلونها كأنها قائمة بسبب إتقان جميع ما أمر به فيها وندب إليه ، ودخل فيها الحج لأنه لا يعظم البيت في كل يوم خمس مرّات إلا معظم له بالحج فعلاً أو قوّة ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي : كلها فدخل فيها الصوم ؛ لأنه لا يؤدّي زكاة الفطر إلا من

صامه فعلاً أو قوّة . ولما كان الإيمان أساس هذه الأركان وكان الإيمان بالبعث جامعاً لجميع أنواعه وحاملاً على سائر وجوه الإحسان قال تعالى ﴿ وهم بالآخرة ﴾ أي : التي تقدّم أنّ المجرمين عنها غافلون ﴿ هم يوقنون ﴾ أي : يؤمنون بها إيمان موقن فهو لا يفعل شيئاً ينافي الإيمان ، ولا يغفل عنه طرفة عين ، فهو في الذورة العليا من ذلك فهو يعبد الله تعالى كأنه يراه ، فآية البقرة بداية وهذه نهاية ، ولما كانت هذه الخلال أمهات الأفعال الموجبة للكمال وكانت مساوية من وجه لآية البقرة ختمها بختامها بعد أن زمها بزمامها فقال .

﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة الحائزون من منازل القرب أعظم رتبة ﴿ على هدى ﴾ أي : متمكنون منه تمكن المستعلي على الشيء ، وقال ﴿ من ربهم ﴾ تذكيراً لهم بأنه لولا إحسانه لما وصلوا إلى شيء ليلزموا تمريغ الجباه على الأعتاب خوفاً من الإعجاب

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي : الظافرون بكل مراد ، لما بين سبحانه وتعالى حال من تحلى بهذا الحال فترقى إلى حلية أهل الكمال بين حال أضدادهم بقوله تعالى:

﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ أي : ما يلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتبار فيها والمضاحك وفضول الكلام ، فإن قيل : ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث ؟

أجيب : بأنّ معناها التبيين وهي الإضافة بمعنى من وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه كقوله : جبة خزَ وباب ساجٍ ، والمعنى : من يشترى اللهو من الحديث لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبين بالحديث ، والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث : "الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش" ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى مِنْ التبعيضية ، كأنه قيل : ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو .

قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم ويحدّث بها قريشاً ويقول : إنّ محمداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال مجاهد : يعني شراء المغنيات والمغنين .

ووجه الكلام على هذا التأويل : من يشتري ذات أو ذا لهو الحديث .

(294/608)

وقيل : كان النضر يشتري المغنيات ولا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينة فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ويقول : هذا خير لك مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن

تقاتل بين يديه ، وعن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهنّ وأثمانهنّ حرام" وفي مثل هذا نزلت الآية وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت" ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم "نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار" وقال مكحول : من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أصل عليه إن الله تعالى ليقول ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ الآية ، وعن الحسن وغيره قالوا : لهو الحديث هو الغناء ، والآية نزلت فيه ومعنى يشتري لهو الحديث يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن ، وقال أبو الصهباء : سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال : هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو يردّدها ثلاث مرّات . وقال إبراهيم النخعيّ : الغناء ينبت النفاق في القلب ، قال وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون الدفوف ، وقال ابن جريج : لهو الحديث هو الطبل ، وقال الضحاك : هو الشرك ، وقال قتادة : هو كل لهو ولعب ، وقيل : الغناء منفدة للمال مسخطة للرّب مفسدة للقلب ﴿ ليضلّ عن سبيل الله ﴾ أي : الطريق الواضح الموصل للملك الأعلى المستجمع لصفات الكمال ضدّ ما كان عليه المحسنون من الهدى ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء قبل الضاد من الضلالة بمعنى ليثبت على ضلاله ، والباقون بضمها ، ونكر قوله تعالى ﴿ بغير علم ﴾ ليفيد السلب العامّ

لكل نوع من أنواع العلم أي : لأنه لا علم بشيء من حال السبيل ولا حال غيرها علماً يستحق إطلاق العلم عليه ، فإن قيل : ما معنى قوله تعالى بغير علم ؟

(295/608)

أجيب : بأنه تعالى لما

جعله مشترياً لهو الحديث بالقرآن قال يشتري بغير علم بالتجارة بغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق . ونحوه قوله تعالى ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ (البقرة :)

أي : وما كانوا مهتدين بالتجارة وبصراء بها ﴿ ويتخذها ﴾ أي : السبيل التي لا أشرف منها مع ما ثبت له من الجهل المطلق ﴿ هزواً ﴾ أي : مهزوّا بها ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بنصب الذال عطفاً على يضلّ ، والباقون بالرفع على يشتري ، وسكن حمزة زاي هزواً وضمها الباقون ، ولما انفتح هذا الشقاء الدائم بينه بقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء البعداء البغضاء ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ لإهانتهم الحق باستثناء الباطل عليه ، ولما كان الإنسان قد يكون غافلاً فإذا نبه انتبه نبه سبحانه وتعالى على أن هذا الإنسان المنهمك في أسباب الخسران لا يزداد على ممرّ الزمان إلا مفاجأة لكل ما يرد عليه من البيان

بقوله تعالى:

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ﴾ أي : تتجدّد عليه تلاوتها أي : تلاوة القرآن من كل تال كان ﴿ ولى ﴾ أي : بعد السماع مطلق التولية سواء كان على المجانبة أو مدبراً ﴿ مستكبراً ﴾ أي : طالباً للكبر موجداً له بالإعراض عن الطاعة ﴿ كأن ﴾ أي : كأنه لم ﴿ يسمعها ﴾ فهو لم يزل على حالة الكبر ﴿ كأن في أذنيه وقراً ﴾ أي : صمماً يستوي معه تكليم غيره له وسكوته (تنبيه) : جملتا التشبيه حالان من ضمير ولى ، أو الثانية بيان للأولى . وقرأ نافع بسكون الذال ، والباقون بضمها ، ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال تعالى ﴿ فبشره ﴾ أي : أعلمه ﴿ بعذاب أليم ﴾ أي : مؤلم ، وذكر البشارة تهكم به وهو النضر بن الحارث كما مرّت الإشارة إليه ، ولما بين تعالى حال المعرض عن سماع الآيات بين حال من يقبل على تلك الآيات بقوله تعالى:

(296/608)

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا الإيمان ﴿ وعملوا ﴾ أي : تصديقاً له ﴿ الصالحات لهم جنات ﴾ أي : بساتين ﴿ النعيم ﴾ أي : نعيم جنات فعكس للمبالغة كما أنّ لهؤلاء العذاب المهين ، ووحد العذاب وجمع الرحمة إشارة إلى أنّ الرحمة واسعة أكثر من الغضب ،

ولما كان ذلك قد لا يكون دائماً وكان السرور بشيء قد ينقطع قال تعالى:

﴿ خالدين فيها ﴾ أي: دائماً ، وقوله تعالى ﴿ وعد الله ﴾ أي: الذي لا شيء أجل منه مصدر مؤكد لنفسه ؛ لأنّ قوله تعالى جنات في معنى وعدهم الله تعالى ذلك وقوله تعالى ﴿ حقاً ﴾ مصدر مؤكد لغيره أي: لمضمون تلك الجملة الأولى وعاملهما مختلف ، فتقدير الأولى: وعد . الله ذلك وعداً . وتقدير الثانية: أحق ذلك حقاً فأكد نعيم الجنات ولم يؤكد العذاب المهين ﴿ وهو العزيز ﴾ أي: فلا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ أي: الذي لا يضع شيئاً إلا في محله ، ولما ختم بصفتي العزة وهي غاية القدرة والحكمة وهي ثمرة العلم دل عليهما بإتقان أفعاله بقوله تعالى:

﴿ خلق السموات ﴾ على علوّها وكبرها وضخامتها ﴿ بغير عمد ﴾ وقوله تعالى ﴿ ترونها ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه راجع إلى السموات إذ ليست بعمد أصلاً وأنتم ترونها كذلك بغير عمد ، الثاني: أنه راجع إلى العمد ومعناه بغير عمد مرئية ، وعلى كلا الوجهين هي ثابتة لا تزول وليس ذلك إلا بقدرة قادر مختار ، تنبيه: أكثر المفسرين أنّ السموات مبسوطة كصحف مستوية لقوله تعالى ﴿ يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتب ﴾ (الأنبياء:)

وقال بعضهم: إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالي رحمه الله تعالى حيث قال: ونحن نوافقهم في ذلك فإنّ لهم عليّ دليلاً من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز ، وإن كان

في الباب خبر يؤّول بما يحتمله فضلاً عن أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحاً بل فيه ما يدل على الاستدارة كقوله تعالى ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ (الأنبياء :)

(297/608)

والفلك اسم لشيء مستدير بل الواجب أنّ السموات سواء كانت مستديرة أو صفيحة مستقيمة هي مخلوقة لله تعالى باختيار لا بإيجاب وطبع ، ولما ذكر تعالى العمد المقلة ذكر الأوتاد المقرّة بقوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض ﴾ أي : التي أنتم عليها جبالاً ﴿ رواسي ﴾ والعجب أنها من فوقها وجميع الرواسي التي تعرفونها تكون من تحت تثبتها عن ﴿ أن تميد ﴾ أي : تتحرك ﴿ بكم ﴾ كما هو شأن ما على ظهر الماء ﴿ وبث ﴾ أي : فرّق ﴿ فيها من كل دابة ﴾ وقوله تعالى:

﴿ وأنزلنا ﴾ أي : بما لنا من القوّة ﴿ من السما ماء ﴾ فيه التفات عن الغيبة ، ولما تسبب عن ذلك تدبير الأقوات وكان من آثار الحكمة التابعة للعلم دل عليه بقوله تعالى :

﴿ فأنبتنا ﴾ أي : بما لنا من العلوّ في الحكمة ﴿ فيها ﴾ أي : الأرض بخلط الماء بترابها ﴿ من كل زوج ﴾ أي : صنف من النبات متشابه ﴿ كريم ﴾ بما له من البهجة والنضرة الجالبة للسرور ، وفي هذا دليل على عزته التي هي كمال القدرة ، وحكمته التي هل كمال

العلم مهد به قاعدة التوحيد وقرّرها بقوله تعالى:

﴿ هذا ﴾ أي: الذي تشاهدونه كله ﴿ خلق الله ﴾ أي: الذي له جميع الكمال فلا كفء له، فإن ادعيتم ذلك ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ أي: غيره، بكتهم بأنّ هذه الأشياء العظيمة مما خلقه تعالى وأنشأه، فأروني ما خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة.

(298/608)

تنبيه: ما استفهام إنكار مبتدأ و(ذا) بمعنى الذي بصلته خبره، وأروني معلق عن العمل، وما بعده سدّ مسدّ المفعولين، ثم أضرب عن تبكيتهم بقوله تعالى: ﴿ بل ﴾ منبهاً على أنّ الجواب ليس لهم خلق هكذا كان الأصل ولكنه قال تعالى ﴿ الظالمون ﴾ أي: العريقون في الظلم تعميماً وتنبيهاً على الوصف الذي أوجب لهم كونهم ﴿ في ضلال ﴾ عظيم جدّاً محيط بهم ﴿ مبين ﴾ أي: في غاية الوضوح وهو كونهم يضعون الأشياء في غير مواضعها لأنهم في مثل الظلام لا نور لهم لانحجاب شمس الأنوار عنهم بجبل الهوى فلا حكمة لهم، ثم إنه تعالى لما نفاها عنهم أثبتها لبعض أوليائه بقوله تعالى:

﴿ ولقد آتينا ﴾ بما لنا من العظمة والحكمة ﴿ لقمان ﴾ وهو عبد من عبيدنا المطيعين لنا

﴿ الحكمة ﴾ وهو العلم المؤيد بالعمل أو العمل المحكم بالعلم ، قال ابن قتيبة : لا يقال لشخص حكيم حتى يجتمع له الحكمة في القول والفعل .

قال : ولا يسمى المتكلم بالحكمة حكيماً حتى يكون عاملاً بها ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي العقل والفهم والفطنة ، واختلف في نسبه وفي سبب حكمته فقيل : هو لقمان بن باعورا ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته ، وقيل : كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل : له فقال ألا أكتفي إذا كفيت ، وقيل كان قاضياً في بني إسرائيل وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً .

(299/608)

أخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه سئل أكان لقمان نبياً قال : لا لم يوح إليه وكان رجلاً حكيماً ، وعن ابن عباس : لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان راعياً أسود ورزقه الله تعالى العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن لتتمسكوا بوصيته ، وقال ابن المسيب : كان أسود من سودان مصر خياطاً ، وقال مجاهد : كان عبداً أسود غليظ الشفتين مشقق القدمين ، وقيل كان نجاراً ، وقيل كان راعياً ، وقيل كان يحتطب لمولاه كل

يوم حزمة حطب ، وقال عكرمة والشعبي : كان نبياً ، وقيل خير بين النبوّة والحكمة ، فاختار الحكمة ، وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه إن كنت تراني أسود فقلبي أبيض ، وعن عكرمة قال : كان لقمان أهون مملوك على سيده وأوّل ما رؤي من حكمته أنه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج وأطال فيه الجلوس فنادى لقمان أنّ طول الجلوس على الحاجة يسيح منه الكبد ويكون منه الباسور ويصعد الحرّ إلى الرأس فخرج وكتب حكمته على الحش . قال : وسكر مولاه فخاطر قوماً على أن يشرب ماء بحيرة فلما أفاق عرف ما وقع منه فدعا لقمان فقال لمثل هذا كنت أخبؤك قال اجمعهم فلما اجتمعوا قال على أي . شيء خاطرتموه . قالوا : على أن يشرب ماء هذه البحيرة . قال : فإن لها موادّاً فاحبسوا موادها عنه ، قال : وكيف نستطيع أن نحبس موادها . قال : فكيف يستطيع أن يشربها ولها مواد .

(300/608)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن لقمان كان عبداً كثير التفكر ، حسن الظنّ ، كثير الصمت ، أحب الله فأحبه الله فمنّ عليه بالحكمة نودي بالخلافة قبل داوود فقيل له يا لقمان هل لك

أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس . قال لقمان : إن أجبرني ربي قبلت فإني أعلم أنه إن فعل ذلك أعانني وعلمني وعصمني ، وإن خيرني اخترت العافية ولم أسأل البلاء فقالت الملائكة : يا لقمان لم ؟ قال : لأنّ الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان فيخذل أو يعان ، فإن أصاب فبالحري أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً فهو خير من أن يكون شريفاً ضائعاً ، ومن تخير الدنيا على الآخرة . نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة . فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ، ثم نودي داود بعده بالخلافة فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فوقع في الذي حكاه الله عنه فصفح الله تعالى عنه وتجاوز ، وكان لقمان يؤازره أي : يساعده بعلمه وحكمته فقال داود طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة فصرفت عنك البلية وأوتي داود الخلافة فابتلى بالذنب والفتنة" .

(301/608)

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : "خير الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوّة فاختار الحكمة فأتاه جبريل وهو نائم فذرّ عليه الحكمة فأصبح ينطق بها فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوّة وقد خيرك ربك ؛ فقال إنه لو أرسل إلي بالنبوّة عزمة لرجوت فيها الفوز

منه ولكنت أرجو أن أقوم بها ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوّة فكانت الحكمة أحب إليّ" . وروي أنه دخل على داود وهو يصنع الدروع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله . فقال له داود لحق ما سميت حكيماً ، وروي أنّ مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب ثم أمره بمثل ذلك وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا ، وروي أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال ألست فلان الراعي فيم بلغت ما بلغت قال بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني ، وعن ابن المسيب أنه قال لأسود : لا تحزن فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان كان أسود نوبياً ذا مشافر ، وروي سادات السودان أربعة لقمان الحبشي والنجاشي وبلال ومهجع .

وعن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة وواحد في الصمت" وقال لقمان لا مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس ، وقال ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع ، ولما كانت الحكمة هي الإقبال على الله قال الله تعالى ﴿ أن اشكر لله ﴾ أي : وقلنا له أن أشكر لله على ما أعطاك من الحكمة ﴿ ومن يشكر ﴾ أي : يجدّد الشكر ويتعاهده بنفسه كائناً من كان ﴿ فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي : لأنّ ثواب شكره

له ﴿ ومن كفر ﴾ أي : النعمة ﴿ فإن الله غني ﴾ عن الشكر وغيره ﴿ حميد ﴾ أي : له جميع المحامد وإن كفره جميع الخلق .

(302/608)

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني ﴾ تصغير إشفاق ، وقرأ حفص بفتح الياء وسكنها ابن كثير ، وكسرها الباقون ﴿ لا تشرك بالله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ إن الشرك ﴾ أي : بالله ﴿ لظلم عظيم ﴾ فرجع إليه وأسلم ثم قال له أيضاً : يا بني اتخذ تقوى الله تعالى تجارة يأتيك الفرج من غير بضاعة ، يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس ، فإنّ الجنائز تذكر الآخرة والعرس يشهيك الدنيا ، يا بني لا تأكل شبعاً من شبع فاتك أن تلقيه للكلب خير من أن تأكله ، يا بني لا تكونن أعجز من هذا الديك الذي يصوّت بالأسحار وأنت النائم على فراشك ، يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ، يا بنيّ لا ترغب في ودّ الجاهل فترى أنك ترضى عمله ، يا بنيّ اتق الله ولا تُري الناس أنك تخشى ليكرموك بذلك وقلبك فاجر ، يا بني ما ندمت على الصمت قط فإنّ الكلام إذا كان من فضة كان السكوت من ذهب ، يا بني اعتزل الشر كيما يعتزلك فإنّ الشرّ للشرّ خلف ، يا بني إياك وشدّة الغضب فإنّ شدّة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم ، يا بني عليك بمجالس العلماء واستمع كلام

الحكماء فإن الله تعالى يحي القلب الميت بنور الحكمة كما يحي الأرض بوابل المطر فإن من كذب ذهب ماء وجهه ومن ساء خلقه كثر غمه ، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم ، يا بني لا ترسل رسولاً جاهلاً فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك ، يا بني لا تنكح أمة غيرك فتورث بنيك حزناً طويلاً ، يا بني يأتي على الناس زمان لا تقرّ فيه عين حليم ، يا بني اختر المجالس على عينك فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجلّ فاجلس معهم فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك ، وإن تك غبياً يعلموك ، وإن يطلع الله عز وجلّ عليهم برحمة تصبك معهم ، يا بنيّ لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر فيه الله تعالى فإنك إن تكن عالماً لا ينفعك علمك ، وإن تكن غبياً يزيدوك غباوة وإن يطلع الله تعالى عليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم ، يا بني لا يأكل طعامك إلا الأتقياء وشاور في

(303/608)

أمرك

العلماء ، يا بني إنّ الدنيا أمر عميق وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله وحشوها الإيمان بالله ، وشراعها التوكل على الله لعلك أن تنجو ولا أراك ناجياً ، يا بني إني حملت الجندل والحديد فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء ، وذقت المرارة كلها فلم أذق

أشد من الفقر ، يا بني كن ممن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب مذمتهم فنفسه عنهم في غنى والناس منه في راحة ، يا بُنَي إنّ الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك ، يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإنّ الله ليحي القلوب بنور الحكمة كما يحي الأرض الميتة بوابل السماء ، يا بني لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم ، يا بني إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره ، يا بني إنك منذ نزلت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار أنت إليها تسير أقرب من دار أنت عنها تباعد ، يا بني عود لسانك أن يقول : اللهم اغفر لي فإن لله ساعات لا ترد ، يا بني إياك والدين فإنه ذل النهار وهم الليل ، يا بني ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته ا . ه . وإنما أكثرت من ذلك لعل الله ينفعني ومن طالعه بذلك ، وسيأتي في كلام الله تعالى زيادة على ذلك واقتصرت على هذا القدر وإلا فمواعظه لابنه لو أراد شخص الإكثار منها لجعل منها مجلدات .

(304/608)

فقد أخرج ابن أبي الدنيا عن حفص بن عمر الكندي قال : وضع لقمان عليه السلام جراباً من خردل إلى جنبه وجعل يعظ ابنه موعظة ويخرج خردلة فنفذ الخردل فقال : يا بني

وعظتك موعظة لو وعظتها جبلاً لتفطر فتفطر ابنه . فسبحان من يعز ويذل ، ويغني ويفقر ، ويشفي ويمرض ، ويرفع من يشاء وإن كان عبداً فلا بدع أن يخص محمداً صلى الله عليه وسلم ذا النسب العالي والمنصب المنيف بالرسالة من بين قريش وإن لم يكن من أهل الدنيا المتعظمين بها ، ولما ذكر سبحانه ما أوصى به ولده من شكر المنعم الأوّل الذي لم يشركه في إيجاده أحد وذكر ما عليه الشرك من الفظاعة والشناعة أتبعه وصيته سبحانه للولد بالوالد لكونه المنعم الثاني بالسببية في وجوده بقوله تعالى:

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ أي : أمرناه أن يبرهما ويطيعهما ويقوم بهما ، ثم بين تعالى السبب في ذلك بقوله تعالى : ﴿ حملته أمه وهناً ﴾ أي : حال كونها ذات وهن بحمله وبالغ في جعلها نفس الفعل دلالة على شدّة ذلك الضعف ﴿ على وهن ﴾ أي : ضعف الحمل ، وضعف الطلق ، وضعف الولادة ، ثم أشار إلى ما لها عليه من المنة بعد ذلك بالشفقة وحسن الكفالة وهو لا يملك لنفسه شيئاً بقوله تعالى : ﴿ وفصاله ﴾ أي : فطامه من الرضاعة بعد وضعه ﴿ في عامين ﴾ تقاسي فيهما في منامه وقيامه ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى ، فإن قيل وصى الله تعالى بالوالدين وذكر السبب في حق الأم مع أن الأب وجد منه أكثر من الأم لأنه حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ ؟

أجيب : بأن المشقة الحاصلة للأم أعظم فإن الأب حمله خفيفاً لكونه من جملة جسده والأم حملته ثقيلاً آدمياً مودعاً فيها وبعد وضعه وتربيته ليلاً ونهاراً وبينهما ما لا يخفى من المشقة ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن قال له : من أبر ؟ : "أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك" وقوله تعالى ﴿ أن اشكر لي ﴾ لأني المنعم في الحقيقة ﴿ ولوالديك ﴾ أي : لكوني جعلتهما سبباً لوجودك والإحسان بتربيتك تفسير لوصينا أو عدة له ، ثم علل الأمر بالشكر محذراً بقوله تعالى : ﴿ إليّ ﴾ لا إلى غيري ﴿ المصير ﴾ فأحاسبك على شركك ومعاصيك ، وعن القيام بحقوقهما ، قال سفيان بن عيينة في هذه الآية : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر لله ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين ، ولما ذكر تعالى وصيته بهما وأكد حقهما أتبعه الدليل على ما ذكر لقمان من قباحة الشرك بقوله تعالى:

(306/608)

﴿ وإن جاهداك ﴾ أي : مع ما أمرتك به من طاعتهما ﴿ على أن تشرك بي ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما ليس لك به علم ﴾ موافق للواقع لأنه لا يمكن أن يدل علم من أنواع العلوم على

شيء من الشرك بل العلوم كلها دالة على الوحدانية ، ولما قرر ذلك على هذا المنوال البديع قال مسبباً عنه ﴿ فلا تطعهما ﴾ أي : في ذلك ولو اجتمعا على المجاهدة لك عليه بل خالفهما ، وإن أدى الأمر إلى السيف فجاهدهما به لأن أمرهما بذلك مناف للحكمة حامل على محض الجور والسفه ففيه تنبيه لقريش على محض الغلط في التقليد لآبائهم في ذلك ، وربما أفهم ذلك الإعراض عنهما بالكلية فلهذا قال تعالى ﴿ وصاحبهما في الدنيا ﴾ أي : في أمورها التي لا تتعلق بالدين ما دمت حياً بها ﴿ معروفاً ﴾ ببرهما إن كانا على دين يقران عليه ومعاملتهما بالحلم والإحتمال وما تقتضيه مكارم الأخلاق ومعالي الشيم ، ولما كان ذلك قد يجرّ إلى نوع وهن في الدين ببعض محاباة نفي ذلك بقوله تعالى : ﴿ واتبع ﴾ أي : بالغ في أن تتبع ﴿ سبيل ﴾ أي : دين وطريق ﴿ من أناب ﴾ أي : أقبل خاضعاً ﴿ إليّ ﴾ لم يلتفت إلى عبادة غيري وهم المخلصون ، فإن ذلك لا يخرجك عن برهما ولا عن توحيد الله تعالى ولا عن الإخلاص له .

(307/608)

تنبيه : في هذا حث على معرفة الرجال بالحق وأمر بحك المشايخ وغيرهم على محك الكتاب والسنة ، فمن كان عمله موافقاً لهما اتبع ، ومن كان عمله مخالفاً لهما اجتنب .

وإذا كان مرجع أمورهم كلها إليه في الدنيا ففي الآخرة كذلك كما قال تعالى ﴿ ثم إليّ ﴾ أي : في الآخرة ﴿ مرجعكم فأنبئكم ﴾ أي : أفعل فعل من يبالغ في التعقيب والاختبار عقب ذلك وتبيينه لأنّ ذلك أنسب شيء للحكمة وتعقب كل شيء بحسب ما يليق به ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي : تجيد دون عمله من صغير وكبير ، وجليل وحقير ، فأجازي من أريد وأغفر لمن أريد ، فأعد لذلك عدته ، ولا تعمل عمل من ليس له مرجع يحاسب فيه ويجازي على مثاقيل الذر من أعماله ، والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال تعالى : وصينا بمثل ما وصى به وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تلو الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يتبعا في الإشراك فما ظنكم بغيرهما ونزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمه مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تطعم فيها شيئاً ، ولذلك قيل من أناب إليّ هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه فإن سعداً أسلم بدعوة أبي بكر له ، ثم إن ابن لقمان قال لأبيه : يا أبتِ إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله تعالى فقال .

﴿ يا بني ﴾ مجيباً له مستعطفاً مصغراً له بالنسبة إلى حلم شيء من غضب الله تعالى ﴿ إنها ﴾ أي : الخطيئة ﴿ إن تك ﴾ وأسقط النون لغرض الإيجاز في الإيصاء ﴿ مثقال ﴾ أي : وزن ، ثم حقرها بقوله ﴿ حبة ﴾ وزاد في ذلك بقوله ﴿ من خردل ﴾ أي : إن تكن في الصغر كحبة الخردل ، وقرأ نافع مثقال بالرفع على أنّ الهاء ضمير الخطيئة

كما مر أو القصة وكان تامة ، وتأنيثها الإضافة المثقال إلى الحبة كقول الأعشى:

*وتشرق بالقول الذي قد ذكرته ** كما شرقت صدر القناة من الدم*

(308/608)

والشرق الغصة ، يقال شرق بريقه أي : غص ، والشاهد في شرقت حيث أنه لإضافة الصدر إلى القناة ، وصدرها ما فوق نصفها ، ثم أثبت النون في قوله مبيناً عن صغرها ﴿ فتكن ﴾ إشارة إلى ثباتها في مكانها وليزداد شوق النفس إلى محط الفائدة ويذهب الوهم كل مذهب معبراً عن أعظم الخفاء وأتم الأحوال ﴿ في صخرة ﴾ أيّ صخرة كانت ولو أنها أشد الصخور وأخفاها ، ولما أخفى وضيق أظهر ووسع ورفع وخفض ليكون أعظم لضياعها لحقارتها بقوله ﴿ أو في السموات ﴾ أي : في أيّ مكان منها على سعة أرجائها وتباعد أنحائها ، وأعاد أونصاً على إرادة كل منهما على حدته بقوله ﴿ أو في الأرض ﴾ أي : كذلك وهذا كما ترى لا ينفي أن تكون الصخرة فيهما أو في غيرهما أو في أحدهما .

(309/608)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ بن رباح أنه لما وعظ لقمان ابنه وقال إنها إن تك الآية أخذ حبة من خردل فأتى بها إلى اليرموك فألقاها في عرضه ، ثم مكث ما شاء الله تعالى ، ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذباب حتى وضعها في راحته ، وقال بعض المفسرين : المراد بالصخرة : صخرة عليها الثور وهي لا في الأرض ولا في السماء ، وقال الزمخشري : فيه إضمار تقديره إن تكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الأرض ، وقيل : هذا من تقديم الخاص وتأخير العامّ وهو جائز في مثل هذا التقسيم ، وقيل : خفاء الشيء يكون بطرق : منها : أن يكون في غاية الصغر ، ومنها : أن يكون بعيداً ، ومنها أن يكون في ظلمة ، ومنها : أن يكون وراء حجاب فإذا امتنعت هذه الأمور فلا يخفى في العادة فأثبت لله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط بقوله إن تك مثقال حبة من خردل إشارة إلى الصغر ، وقوله فتكن في صخرة إشارة إلى الحجاب وقوله أو في السموات إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد ، وقوله أو في الأرض إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن وقوله ﴿ يأت بها الله ﴾ أبلغ من قول القائل يعلمها الله لأنّ من يظهر له شيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره ، فقوله يأت بها الله أي : يظهرها للإشهاد يوم القيامة فيحاسب بها عاملها .

﴿ إنّ الله ﴾ أي : الملك العظيم ﴿ لطيف ﴾ أي : نافذ القدرة يتوصل علمه إلى كل خفي

عالم بكنهه ، وعن قتادة لطيف باستخراجها ﴿ خبير ﴾ أي : عالم ببواطن الأمور فيعلم مستقرها ، روي في بعض الكتب أنّ هذه آخر كلمة تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها فمات .

قال الحسن : معنى الآية هو الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها ، ولما نبه على إحاطة علمه سبحانه وإقامته للحساب أمره بما يدخره لذلك توسلاً إليه وتخشعاً لديه وهو رأس ما يصلح به العمل ويصحح التوحيد ويصدقه بقوله:

(310/608)

﴿ يا بني ﴾ مكرر للمناداة تنبيهاً على فرط النصيحة لفرط الشفقة ﴿ أقم الصلاة ﴾ أي : بجميع حدودها وشروطها ولا تغفل عنها تسبباً في نجاة نفسك وتصفية سرك فإن إقامتها وهو الإتيان بها على النحو المرضي مانعة من الخلل في العمل ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لأنها الإقبال على من وحدته ، فاعتقدت أنه الفاعل وحده وأعرضت عن كل ما سواه لأنه في التحقيق عدم ولهذا الإقبال والإعراض كانت ثابتة للتوحيد وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيآتها اختلفت وترك ذكر الزكاة تنبيهاً على أنه من حكمته ، والحكمة تخليه وتخلي ولده من الدنيا حتى ما يكفيهم لقوتهم ولما ، أمره بتكميله

في نفسه توفية لحق الحق عطف على ذلك تكميله لغيره بقوله ﴿ وأمر بالمعروف ﴾ أي : كل من تقدر على أمره تهذيباً لغيرك وشفقة على نفسك لتخليص أبناء جنسك ﴿ وإنه ﴾ أي : كل من قدرت على نهيه ﴿ عن المنكر ﴾ حباً لأخيك ما تحب لنفسك تحقيقاً لنصيحتك وتكميلاً لعبادتك ، ومن هذا الطراز قول أبي الأسود رحمه الله تعالى:

*ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ** فإن انتهت عنه فأنت حكيم*

لأنه أمره أولاً بالمعروف وهو الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإذا أمر نفسه ونهاها ناسب أن يأمر غيره وينهاه ، وهذا وإن كان من قول لقمان إلا أنه لما كان في سياق المدح له كنا مخاطبين به ، فإن قيل كيف قدم في وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر وحين أمر أنه قدم النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف فقال : لا تشرك بالله ثم قال أقم الصلاة ؟

(311/608)

أجيب : بأنه كان يعلم أنّ ابنه معترف بوجود الإله فما أمره بهذا المعروف بل نهاه عن المنكر الذي ترتب على هذا المعروف ، وأمّا ابنه فأمره أمراً مطلقاً والمعروف يقدم على المنكر ، ولما كان القابض على دينه في غالب الأزمان كالقابض على الجمر قال له ﴿ واصبر ﴾

صبراً عظيماً بحيث تكون مستعلياً ﴿ على ما ﴾ أي : الذي ﴿ أصابك ﴾ أي : في عبادتك وغيرها من الأمر بالمعروف وغيره سواء أكان بواسطة العباد أم لا كالمرض ، وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بالصبر لأنهما ملاك الاستعانة قال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ (البقرة :)

وأخرج أحمد عن هشام ابن عروة عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة يعني حكمة لقمان عليه السلام لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسيطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطايا . وقال : مكتوب في الحكمة أو في التوراة الرفق رأس الحكمة ، وقال : مكتوب في التوراة كما تَرحمون تُرحمون ، وقال : مكتوب في الحكمة كما تزرعون تحصدون ، وقال : مكتوب في الحكمة أحبب خليلك وخليل أبيك ، وقيل للقمان : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً ، ومن حكمته أنه قال : أقصر عن اللجاجة ولا أنطق فيما لا يعنيني ولا أكون مضحاكاً من غير عجب ولا مشاء لغير أرب ، ومنها من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية ، ومنها أنه كان يقول ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، وأخوك عند حاجتك إليه .

ولما كان ما أحكمه لولده عظيم الجدوى وجعل ختامه الصبر الذي هو ملاك الأعمال نبه بذلك بقوله على سبيل الاستئناف أو التعليل ﴿ إن ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم الذي أوصيك به لا سيما الصبر على المصائب ﴿ من عزم الأمور ﴾ أي : معزوماتها تسمية لاسم المفعول أو الفاعل بالمصدر أي : الأمور المقطوع بها المفروضة ، أو القاطعة الجازمة وبجزم فاعلها ، ثم حذره عن الكبر معبراً عنه بلازمه لأن نفي الأعم نفي للأخص بقوله . "

(313/608)

﴿ ولا تصعر خدّك ﴾ أي : لا تمله متعمداً إمالته بإمالة العنق متكلفاً لها صرفاً عن الحالة القاصدة ، قال أبو عبيدة : وأصل الصعر داء يصيب البعير يلوى منه عنقه ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم بغير ألف بعد الصاد وتشديد العين ، والباقون بألف بعد الصاد وتخفيف العين ، والرسم يحتملها فإنه رسم بغير ألف وهما لغتان لغة الحجاز التخفيف ، وتميم التثقيل ، ولما كان ذلك قد يكون لغرض من الأغراض التي لا تدوم أشار إلى المقصود بقوله ﴿ للناس ﴾ بلام العلة أي : لا تفعل ذلك لأجل الإمالة عنهم وذلك لا يكون إلا تهاوناً بهم من الكبر بل أقبل عليهم بوجهك كله مستبشراً منبسطاً من غير كبر ولا عتو ، وعن ابن

عباس لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ، وقيل هو الرجل يكون بينك وبينه الشحنة فيلقاك فتعرض عنه ، وقيل هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه تكبراً ، وقيل معناه : لا تحقر الفقير ، ليكن الفقير والغني عندك سواء ، ثم أتبع ذلك ما يلزمه بقوله ﴿ ولا تمش ﴾ وأشار بقوله ﴿ في الأرض ﴾ إلى أنّ أصله تراب وهو لا يقدر أن يعدوه وسيصير إليه وأوقع المصدر موقع الحال والعلة في قوله ﴿ مرحاً ﴾ أي : اختيالاً وتبختراً أي : لا تكن منك هذه الحقيقة لأن ذلك مشي أشر بطر متكبر فهو جدير بأن يظلم صاحبه ويفحش ويبغي بل أمش هوناً فإن ذلك يفضي بك إلى التواضع فتصل إلى كل خير فترفق بك الأرض إذا صرت في بطنها ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي له الكبرياء والعظمة ﴿ لا يحب ﴾ أي : يعذب ﴿ كل مختال ﴾ أي : مراء للناس في مشيه متبختر يرى له فضلاً على الناس ﴿ فخور ﴾ على الناس بنفسه يظن أن إسباغ النعم الدنيوية من محبة الله تعالى له وذلك من جهله ، فإن الله يسبغ نعمه على الكافر الجاحد فينبغي للعارف أن لا يتكبر على عباده فإن الكبر هو الذي تردى به سبحانه فمن نازعه فيه قصمه ، ولما كان النهي عن ذلك أمراً بضدّه قال:

﴿ واقصد ﴾ أي : اقتصد واسلك الطريق الوسطى ﴿ في مشيك ﴾ بين ذلك قواماً أي : ليكن مشيك قصداً لا تخيلاً ولا إسراعاً أي : بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثب الشطار ، قال صلى الله عليه وسلم "سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن" وأمّا قول عائشة في عمر رضي الله تعالى عنهما : كان إذا مشى أسرع ، فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت ، وقال عطاء : امش بالوقار والسكينة لقوله تعالى يمشون : على الأرض هوناً وعن ابن مسعود : كانوا ينهون عن وثب اليهود ودبيب النصارى ، والقصد في الأفعال كالقسط في الأوزان ، قاله الرازي : في اللوامع وهو المشي الهون الذي ليس فيه تصنع للخلق لا بتواضع ، ولا بتكبر ﴿ واغضض ﴾ أي : انقص ﴿ من صوتك ﴾ لئلا يكون صوتك منكراً وتكون برفع الصوت فوق الحاجة كالأذان فهو مأمور به ، وكانت الجاهلية يتمدحون برفع الصوت قال القائل :

*جهير الكلام جهير العطاس ** جهير الروى جهير النغم*

وقال مقاتل : اخفض من صوتك ، فإن قيل : لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي ؟

(315/608)

أجيب : بأن رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوته وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن ، وأما سرعة المشي فلا تؤذي وإن آذت فلا تؤذي غير من في طريقه ، والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولأنّ المشي يؤذي آلة المشي ، والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فإنّ الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ، ولا كذلك المشي . وأيضاً فلأن قبح القول أقبح من قبح الفعل وحسنه أحسن ، لأنّ اللسان ترجمان القلب ، ولما كان رفع الصوت فوق الحاجة منكر كما أن خفضه دونها تماوت وتكبر وكان قد أشار إلى النهي عن هذا بمن فأفهم أنّ الطرفين مذمومان علل النهي عن الأوّل بقوله ﴿ إن أنكر ﴾ أي : أفظع وأبشع وأوحش ﴿ الأصوات ﴾ كلها المشتركة في المكاره برفعها فوق الحاجة ، وأخلى الكلام من لفظ التشبيه ، وأخرجه مخرج الاستعارة تصوير الصوت الرافع صوته فوق الحاجة بصورة النهاق وجعل المصوت كذلك حماراً مبالغة في التهجين وتنبيهاً على أنه من الكراهة بمكان فقال ﴿ لصوت الحمير ﴾ أي : هذا الجنس لما له من العلو المفرط من غير حاجة فإنّ كل حيوان قد يفهم من صوته أنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو لغير ذلك ، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق بصوت أوّله زفير وآخره شهيق وهما فعل أهل النار ، وأفرد الصوت ليكون نصاً على إرادة الجنس لئلا يظن أنّ الاجتماع شرط في ذلك ، ولذكر الحمار مع ذلك من بلاغة الشتم والذم ما ليس لغيره ولذلك يستهجن التصريح باسمه بل يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به

فيقولون الطويل الأذنين كما يكنى عن الأشياء المستقذرة وقد عد في مساوئ الأداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من ذوي المروءة من العرب من لا يركب الحمار استنكافاً ، وإن بلغت منه الرحلة ، وإنما ركبه صلى الله عليه وسلم لمخالفته عادتهم وإظهاره التواضع من

نفسه ، وأمّا الرفع مع الحاجة فغير مذموم فإنه ليس بمستنكر ولا مستبشع .

(316/608)

فإن قيل كيف يفهم كونه أنكر الأصوات مع أن حز المنشار بالمبرد ودق النحاس بالحديد أشد صوتاً ؟

أجيب : من وجهين : الأوّل : المراد أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد السؤال ، والثاني : أن الصوت الشديد لحاجة ومصلحة لا يستبشع ولا ينكر صوته كما مرت الإشارة إليه ، بخلاف صوت الحمير ، قال موسى بن أعين سمعت سفيان الثوري يقول في قوله تعالى ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ قال : صياح كل شيء تسبيح لله تعالى إلا الحمار ، وقال جعفر الصادق في ذلك : هي العطسة القبيحة المنكرة ، وقال وهب : تكلم لقمان باثني عشر ألف كلمة من الحكمة أدخلها الناس في كلامهم .

قال خالد الربعي : كان لقمان عبداً ومن حكمته أنه دفع إليه مولاه شاة فقال له : اذبحها وائتني بأطيب مضغتين فيها فأتاه باللسان والقلب ثم دفع إليه شاة أخرى فقال اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا وقد مرت الإشارة إلى ذلك .

(317/608)

ومن حكمته أنه قال لابنه : يا بني لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته إلا جعلت في الضمير منك إن ذلك خير لك ، ثم قال لابنه : يا بني إن الله قد بعث نبياً هلم حتى نأتيه فنصدقه فخرج على حمار وابنه على حمار وتزودا ، ثم سارا أياماً وليالي حتى لقيتهما مفازة فأخذا أهبتها لها فدخلا فسارا ما شاء الله تعالى حتى ظهرا وقد تعالى النهار ، واشتد الحر ، ونفد الماء والزاد ، واستبطأ حماريهما فنزلا وجعلا يشتدان على سوقهما فبينما هما كذلك إذ نظر لقمان أمامه فإذا هو بسواد ودخان فقال في نفسه : السواد الشجر والدخان العمران والناس ، فبينما هما يشتدان إذ وطئ ابن لقمان على عظم ناتئ على الطريق فخر مغشياً عليه فوثب إليه لقمان وضمه إلى صدره واستخرج العظم بأسنانه ثم نظر إليه لقمان فذرفت عيناه فقال : يا أبت أنت تبكي وأنت تقول هذا خير لي وقد نفد الطعام والماء

وبقيت أنا وأنت في هذا المكان فإن ذهبت وتركتني على حالي ذهبت بهم وغم ما بقيت ، وإن أقمت معي متنا جميعاً ، فقال : يا بني أمّا بكائي فرقة الوالدين ، وأمّا ما قلت كيف يكون هذا خيراً فلعل ما صرف عنك ، أعظم مما ابتليت به ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ، ثم نظر لقمان أمامه فلم ير ذلك الدخان والسواد وإذا بشخص أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بياض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحاً فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريباً فتوارى عنه ؛ ثم صاح به أنت لقمان قال نعم ، قال أنت الحكيم ، قال كذلك يقال : قال ما قال لك ابنك . قال : يا عبد الله من أنت ؟ أسمع كلامك ولا أرى وجهك ، قال : أنا جبريل أمرني ربي بخسف هذه القرية ومن فيها فأخبرت أنكما تريدانها فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء فحبسكما بما ابتلى به ابنك ولولا ذلك لخسفت بكما مع من خسفت ، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم ابنه فاستوى قائماً ومسح بيده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعاماً وعلى الذي كان فيه الماء فامتلأ ماء ثم حملهما وحماريهما

(318/608)

فرحل

بهما كما يرحل الطير فإذا هما في الدار التي خرجا بعد أيام وليال منها .

وعن عبد الله بن دينار أن لقمان قدم من سفر فلقي غلامه في الطريق فقال : ما فعل أبي ؟ فقال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمري ، قال : ما فعلت أمي ؟ قال : ماتت ، قال : ذهب همي . قال : ما فعلت امرأتي ؟ قال : ماتت ، قال : جدد فراشي . قال : ما فعلت أختي ؟ قال : ماتت . قال : سترت عورتي ، قال : ما فعل أخي ؟ قال : مات ، قال : انقطع ظهري .

وعن أبي قلابة قال : قيل للقمان أي الناس أصبر ؟ قال : صبر لا معه أذى ، قيل : فأيّ الناس أعلم ؟ قال : من ازداد من علم الناس إلى علمه ، قيل : فأي الناس خير ؟ قال : الغني ، قيل الغني من المال ؟ قال : لا ، ولكن الغني من التمس عنده خير وجد وإلا أغنى نفسه عن الناس .

وعن سفيان : قيل للقمان : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً ، وعن عبد الله بن زيد قال قال لقمان ألا إن يد الله على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله تعالى له ، ولما استدل سبحانه بقوله تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ على الوحدانية وبين بحكمة لقمان أنّ معرفة ذلك غير مختصة بالنبوّة استدل ثانياً على الوحدانية بالنعم بقوله تعالى:

﴿ ألم تروا ﴾ أي : تعلموا علماً هو في ظهوره كالمشاهدة ﴿ أن الله ﴾ أي : الحائز لكل كمال ﴿ سخر لكم ﴾ أي : لأجلكم ﴿ ما في السموات ﴾ من الإنارة والإظلام والشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر والبرد وغير ذلك من الإنعامات مما لا يحصى ، كما قال ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ ﴿ و ﴾ سخر لكم ﴿ ما في الأرض ﴾ من البحار والثمار والآبار والأنهار والدواب والمعادن وغير ذلك مما لا يحصى

﴿ وأسبغ ﴾ أي : أوسع وأتم ﴿ عليكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ نعمه ﴾ قرأه نافع وأبو عمرو وحفص بفتح العين وبعد الميم هاء مضمومة ، والباقون بسكون العين وبعد الميم تاء مفتوحة منونة ، ومعناها الجمع أيضاً كقوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (إبراهيم :)

(319/608)

واختلف في قوله عز وجل ﴿ ظاهرة وباطنة ﴾ على أقوال : فقال عكرمة عن ابن عباس : النعمة الظاهرة : القرآن والإسلام ، والباطنة : ما ستر عليك من الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة ، وقال الضحاك : الظاهرة حسن الصورة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة ، وقال مقاتل : الظاهرة تسوية الخلق والرزق والإسلام ، والباطنة ما ستر من الذنوب ، وقال الربيع : الظاهرة الجوارح والباطنة القلب ، وقال عطاء الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة

الشفاعة ، وقال مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء والباطنة الإمداد بالملائكة ، وقال سهل بن عبد الله : الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته ، وقيل الظاهرة تمام الرزق والباطنة تمام الخلق ، وقيل الظاهرة الإمداد بالملائكة والباطنة إلقاء الرعب في قلوب الكفار ، وقيل الظاهرة الإقرار باللسان والباطنة الاعتقاد بالقلب ، وقيل الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة ، والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ، ويروى في دعاء موسى : عليه السلام إلهي دلني على إخفاء نعمتك على عبادك ، فقال : أخفى نعمتي عليهم النفس ، ويروى أن أيسر ما يعذب به أهل النار الأخذ بالأنفاس ، ونزل في النضر بن الحارث وأبي بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في الله تعالى وفي صفاته .

(320/608)

﴿ ومن الناس ﴾ أي : أهل مكة ﴿ من يجادل ﴾ أي : يحاجج فلا لهو أعظم من جداله ولا كبر مثل كبره ولا ضلال مثل ضلاله وأظهر زيادة التشنيع على هذا المجادل بقوله تعالى : ﴿ في الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة ثم بين تعالى مجادلته أنها ﴿ بغير علم ﴾ أي : مستفاد من دليل بل بألفاظ في ركاكة معانيها لعدم إسنادها إلى حس ولا عقل ملحقة

بأصوات الحيوانات العجم فكان بذلك حماراً تابعاً للهوى ﴿ ولا هدى ﴾ أي : من رسول عُهِد منه سداد الأقوال والأفعال بما أبدى من المعجزات والآيات البينات فوجب أخذ أقواله مسلمة وإن لم يظهر معناها ﴿ ولا كتاب ﴾ أي : من الله تعالى ، ثم وصفه بما هو لازم له بقوله تعالى : ﴿ منير ﴾ أي : بين غاية السبيان ؛ بل إنما يجادل بالتقليد كما قال تعالى: ﴿ وإذا قيل ﴾ أي : من أي : قائل كان ﴿ لهم ﴾ أي : المجادلين هذا الجدال ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ أي : الذي خلقكم وخلق آباءكم الأوّلين ﴿ قالوا ﴾ جحوداً لا نفعل ﴿ بل نتبع ﴾ وإن أتيتنا بكل دليل ﴿ ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ لأنهم أثبت منا عقولاً وأقوم قيلاً وأهدى سبيلا ، فهذه المجادلة في غاية القبح فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم ، وبين كلام الله تعالى وبين كلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله تعالى وكلام الجهال ﴿ أولو ﴾ أي : أيتبعونهم ولو ﴿ كان الشيطان ﴾ أي : البعيد من الرحمه ، المحترق باللعنة ﴿ يدعوهم ﴾ إلى الضلال فيوبقهم فيما يسخط الرحمن فيؤديهم لك ﴿ إلى عذاب السعير ﴾ وجواب لو محذوف مثل لا تتبعوه ، والاستفهام للإنكار والتعجب ، والمعنى أن الله تعالى يدعوهم إلى الثواب والشيطان يدعوهم إلى العذاب وهم مع هذا يتبعون الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 259.277 ﴾

وقال القاسمى :

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ أي : ذي الحكمة الناطق بها : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بيان لإحسانهم ، يعني ما عملوه من الحسنات , أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه ، لإظهار فضلها وإناقتها على غيرها . والمراد بالزكاة ، على أنها مكية هي مطلق إخراج المال تقرباً بالتصديق منه ، وتزكية للنفس بإيتائه ، من وصمة البخل والشح المردي لها , لا أنصباؤها المعروفة ؛ فإنها إنما بيّنت بالمدينة

﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ تعريض بالمشركين , وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد الهدى والرحمة والحكمة ، ما يلهي من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم , ليضلوا أتباعهم عن الدين الحق .

قال الزمخشري : واللهو : كل باطل ألهى عن الخير ، وعما يعني . ولهو الحديث نحو السمر بالأساطير ، والأحاديث التي لا أصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول

الكلام , وما لا ينبغي ، مما كانوا يؤفكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه , ويؤثرونه على حديث الحق . وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : بما هي الكمالات ومنافعها ، والنقائص ومضارها : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ الضمير للسبيل ، وهو مما يذكر ويؤنث : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

(322/608)

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى ﴾ أي : أعرض عنها : ﴿ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ أي : ثقلاً مانعاً من السماع : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الضمير للسماوات ، وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح تراني . والجملة لا محل لها ؛ لأنها مستأنفة ، أو في محل الجر ، صفة للعمد , أو بغير عمد مرئية ؛ يعني أنه عمدها بعمد لا ترى , وهي إمساكها بقدرته . كذا في " الكشاف " : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي : تميل فتهلككم لما في جوفها من قوة الجيشان : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أي : من كل نوع من أنواعها : ﴿

وَأَنزَلْنَا ﴾ أي : لحفظكم وحفظ دوابكم ، وللرفق بكم وبدوابكم : ﴿ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي : صنف من الأغذية والأدوية : ﴿ كَرِيمٍ ﴾ أي : كثير المنافع .

(323/608)

﴿ هَذَا ﴾ أي : ما ذكر من السماوات والأرض ، وما تعلق بهما من الأمور المعدودة : ﴿ خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أي : مخلوقه : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أي : مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة : ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذكر ، إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة ؛ لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً ، فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه ، أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه . ووضعُ الظاهر موضعَ ضميرهم ؛ للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه , ومتعدون عن الحدود ، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد . أفاده أبو السعود .

ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوي الحكمة . كيف لا ؟ والتوحيد أساس الحكمة ، بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ يعني استكمال النفس

بالعلوم النظرية ، وملكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية ، آمرين له على لسان نبي أو بطريق الإلهام ؛ على قول الجمهور أنه حكيم . أو الوحي ؛ على قول عِكْرِمَة أنه نبي ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أي : على ما أعطاك من نعمه ، من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً . كذا قاله المهايمي , والأظهر أنّ : ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة ؛ فإن إيتان الحكمة في معنى القول . والشكر : كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لعود ثمرات شكره عليه : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي : غني عن كل شيءٍ ، فلا يحتاج إلى الشكر , وحقيق بالحمد . بل نطق بحمده كل موجود .

تنبيه :

(324/608)

قال ابن كثير : اختلف السلف في لقمان ؛ هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ، على قولين ؟ : الأكثرون على الثاني , ويقال إنه كان قاضياً على بني إسرائيل ، في زمن داود عليه السلام , وما روي من كونه عبداً مسّه الرق ، ينافي [في المطبوع : وينافي] كونه نبياً ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها , ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما

يُنقل كونه نبياً عن عِكْرِمَة ، إن صح السند إليه ؛ فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عِكْرِمَة . قال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي , وهو ضعيف . والله أعلم . انتهى .

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور في التوراة ، وكان حكيم شعب وثنيّ ، وكان منبأ عن الله تعالى , وأغرب في تقريبه ، بأن الفعل العربي وهو : لقم , معناه بالعبري بلع . والله أعلم .

وقد نظم السيوطي من اختلف في نبوته ، فقال :

~وَاخْتُلِفَتْ فِيْ خَضِرٍ أَهْلُ النُّقُوْلْ قِيْلَ نَبِيٌّ أَوْ وَلِيٌّ أَوْ رَسُوْلْ

~لُقْمَانَ ، ذِيْ القَرْنَيْنِ ، حَوَّا ، مَرْيَمِ وَالْوَقْفُ فِيْ الجَمِيْعِ رَأْيُ الْمُعْظَمِ ثم قرن لقمان ، بوصيته إياه بعبادة الله وحده ، البرَّ بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [الإسراء : 23] ، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن الكريم . وقال ههنا :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ أي : بالإحسان إليهما ، لاسيما الوالدة ؛ لأنه : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ ﴾ أي : ضعفا فوق ضعف إلى الولادة . و : ﴿ وَهْناً ﴾ . حال من : ﴿ أُمُّهُ ﴾ أي : ذات وهن ، أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال ؛ أي : تهن وهناً . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى وَهْنٍ ﴾ صفة للمصدر ؛ أي : كائناً على وهن ، أي : تضعف ضعفاً فوق ضعف ؛ فإنها لا تزال يتزايد ضعفها ؛ لأن الحمل كلما عظم ازدادت ثقلاً وضعفاً : ﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ أي : فطامه : ﴿ فِي عَامَيْنِ ﴾ ثم فسر الوصية بقوله سبحانه : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ أي : بأن تعرف نعمة الإحسان ، وتقدره قدره .

قال في " البصائر " : الشكر مبني على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، والثناء عليه بها ، وأن لا يستعملها فيما يكره . هذه الخمسة هي أساس الشكر ، وبناؤه عليها ، فإن عدم منها واحدة ، اختلّت قاعدة من قواعد الشكر ، وكل من تكلم في الشكر ، فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ تعليل لوجوب الامتثال ؛ أي : إليّ الرجوع ، لا إلى غيري ، فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر .

تنبيهات

الأول – قال الزمخشري : فإن قلت : قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ كيف اعتراض به بين المفسر والمفسر ؟ قلت : لما وصى بالوالدين ، ذكر ما تكابده الأم ، وتعانيه من المشاق ، والمتاعب في حمله ، وفصاله هذه المدة المتطاولة ، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً ، وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً . ومن ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم لمن قال له من أبرّ ؟ : < أمك ثم أمك ثم أمك > . ثم قال بعد ذلك : < ثم أباك > . وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره ، وهو يقول في حدائه بنفسه .

~أَحْمِلُ أُمِّي وَهِيَ الْحَمَّالَهْ تُرْضِعُنِي الدِّرَّةَ وَالْعَلَالَهْ

وَلَا يُجَازِي وَالِدٌ فِعَالَهْ

الثاني – قال الحافظ ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ كقوله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : 233] ، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة ، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال في الآية الأخرى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] ، وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة ، وتعبها ، ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً ، ليُذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه , كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : 24] .

الثالث – قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى في توقيته بهذه المدة ، أنها الغاية التي لا تتجاوز , والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم ، إن علمت أنه يقوى على الفطام ، فلها أن تفطمه , ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : 233] .

(327/608)

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : في إشراك ما لا تعلمه مستحقاً للعبادة ، تقليداً لهما . وقال الزمخشري : أراد بنفي العلم به نفيه ، أي : لا تشرك بي ما ليس بشيء ، يريد الأصنام . كقوله : ﴿ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت : 42] .

قال في " الكشف " [كذا] : ليس هذا من قبيل نفي العلم لنفي وجوده ، كما مر في القصص . وإلا لقال ما ليس بموجود . بل أراد أنه بُولِغ في نفيه حتى جعل كلا شيء [في المطبوع : كلاً شيء] ، ثم بُولغ في سلك المجهول المطلق .

قال الشهاب : وهذا تقرير حسن ، فيه مبالغة عظيمة : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً

﴿ أي : صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ، ويقتضيه الكرم .

قال السيوطي في " الإكليل " : في الآية أن الوالد لا يطاع في الكفر ، ومع ذلك يصحب معروفاً : ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ أي : بالتوحيد والإخلاص في الطاعات ، وعمل الصالحات : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كناية عن الجزاء ، كما تقدم نظائره .

قال القاضي : والآيتان ، يعني : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ إلى قوله - : ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ معترضتان في تضاعيف وصية لقمان ، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك . كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به ، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك ؛ فإنهما - مع أنهما تلو البارئ تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة - لا يجوز أن يطاعا في الإشراك . فما ظنك بغيرهما ؟ انتهى .

ثم يبين تعالى بقية وصايا لقمان ، بقوله سبحانه :

(328/608)

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي : إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان ، إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل : ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ

﴿ أي : فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر ، في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة ، أو حيث كانت في العلم العلوي أو السفلي : ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أي : يحضرها ويحاسب عليها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ أي : ينفذ علمه وقدرته في كل شيء : ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي : يعلم كنه الأشياء ، فلا يعسر عليه . والآية هذه كقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ [الأنبياء : 47] الآية ، وقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 و 8] .

لطيفة :

قوله تعالى : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ الآية ، من البديع الذي يسمى التتميم ؛ فإنه تمم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة , وهو من وادي قولها :

~ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أي : بحدودها وفروضها وأوقاتها ، لتكميل نفسك بعبادة ربك : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ لتكميل غيرك : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ أي : من المحن والبلايا , أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف , والنهي عن المنكر ؛ لأن الداعي إلى الحق معرّض لإيصال الأذى إليه ، وهو أظهر . ويطابقه آية : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : 3] ، ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الصبر ، أو إلى كل ما أمر به : ﴿ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي : مما عزمه الله من الأمور ، أي : قطعه قطع إيجاب .

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : لا تعرض بوجهك عنهم ، إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم , ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث < ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط > : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ﴾ أي : خيلاء متكبراً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ أي : معجب في نفسه : ﴿ فَخُورٍ ﴾ أي : على غيره : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : توسط بين الدبيب والإسراع : ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أي : انقص من رفعه ، وأقصر ، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس ، إنكارهم على صوت الحمير ، كما قال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ معللاً للأمر على أبلغ وجه وآكده وأنكر بمعنى أوحش . من قولك : شيء نكر ؛ إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت ، كما يقال في العرف للقبيح . وحش ، وأصله ضد الأنس والألفة . فهو إما مجاز أو كناية .

قال الزمخشري : الحمار مثلٌ في الذم البليغ والشتيمة ، وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكره مجرداً ، وتفاديهم من اسمه ، أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به ؛ فيقولون : الطويل الأذنين . كما يكنى عن الأشياء المستقذرة ، وقد عُد في مساوي الآداب ، أن

يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة ، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً ، وإن بلغت منه الرحلة . فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وأن جعلوا حميراً ، وصوتهم نهاقاً – مبالغة شديدة في الذم والتهجين ، وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه ، وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان . انتهى .

تنبيه :

(330/608)

جاء ذكر لقمان في أحاديث مرفوعة : منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول اله صلّى الله عليه وسلم قال : < إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه > . وروى ابن أبي حاتم عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار > .

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبي حاتم عن السري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وعن عَوْن بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني ! إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام – يعني السلام – ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . نقله ابن كثير رحمه الله .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : من النجوم والشمس والقمر ، التي ينتفعون من ضيائها , وما تؤثره في الحيوان ، والنبات ، والجماد بقدرته تعالى , وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التي خلقها تعالى لنفع من سُخرت له , وكذا ما أوجد في الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار ، ليستعملها من سُخرت له فيما فيه حياته ، وراحته ، وسعادته : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ أي : محسوسة ومعقولة , كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ يعني الجاحدين نعمته تعالى : ﴿ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ أي : في توحيده وإرساله الرسل : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : برهان قاطع مستفاد من عقل : ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ أي : دليل مأثور عن نبي : ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي : منزل من لدنه تعالى ، بل لمجرد التقليد . والمنير : بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل والضلال

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي : لمن يجادل , والجمع باعتبار المعنى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : يدعو آباءهم إلى اعتقادات وأعمال ، هي أسباب العذاب ، كأنه يدعوهم إلى عين العذاب . فهم متوجهون إليه حسب دعوته ، ومن كان كذلك فأنى يتبع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 618.610 ﴾

(332/608)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/609)

الجزء التاسع بعد الستمائة

من الآية ﴿ 22 ﴾ من سورة لقمان

وحتى الآية ﴿ 32 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/609)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فمن جادل في الله فلا متمسك له ، عطف عليه قوله في شرح حال أضدادهم : ﴿ ومن يسلم ﴾ أي في الحال أو الاستقبال ﴿ وجهه ﴾ أي قصده وتوجهه وذاته كلها .

ولما كان مقصود السورة إثبات الحكمة ، عدى الفعل ب " إلى " تنبيهاً على إتقان الطريق بالوسائط من النبي أو الشيخ وحسن الاسترشاد في ذلك ، فقال معلقاً بما تقديره : ساتراً وواصلاً ﴿ إلى الله ﴾ الذي له صفات الكمال ، فلم يبق لنفسه أمر أصلاً ، فهو لا يتحرك إلا بأمر من أوامره سبحانه ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه ﴿ محسن ﴾ أي مخلص بباطنه كما أخلص بظاهره فهو دائماً في حال الشهود ﴿ فقد استمسك ﴾ أي أوجد الإمساك بغاية ما يقدر عليه من القوة في بادئه الأمور لترقية نفسه من حضيضها إلى أوج الروح على أيدي المسلكين الذين اختارهم لدينه ، العارفين بأخطار السير وعوائق الطريق ﴿ بالعروة الوثقى ﴾ التي هي أوثق ما يتمسك به فلا سقوط له أصلاً ، فليسررك شكره فإن ربه يعليه إلى كل مراد ما دام متمسكاً بها تمثيلاً لحال هذا السائر بحال من سقط في بئر ، أو أراد أن

يرقى جبلاً ، فادعى له صاحبه حبلاً ذا عرى فأخذ بأوثقها ، فهو يعلو به إذا جره صديقه .

وهو قادر على جره لا محالة من غير انفصام ، لأن متمسكه في غاية الإحكام .

ولما كان الكل صائرين إليه ، رافدين عليه : من استمسك بالأوثق ، ومن استمسك بالأوهى ، ومن لم يتمسك بشيء ، إلا أن الأول صائر مع السلامة ، وغيره مع العطب ، قال مظهراً تعظيماً للأمر ولئلا يقيد بحيثية عاطفاً على ما تقديره : فيصير إلى الله سالماً ، فإلى الله عاقبته لا محال : ﴿ وإلى الله ﴾ أي الملك الأعظم وحده تصير ﴿ عاقبة الأمور ﴾ أي كما أنه كانت منه بادئتها ، وإنما خص العاقبة لأنهم مقرون بالبادئة .

(5/609)

ولا ذكر المسلم ذكر الكافر فقال : ﴿ ومن كفر ﴾ أي ستر ما أداه إليه عقله من أن الله لا شريك له ، وأنه لا قدرة لأحد سواه ، ولم يسلم وجهه إليه ، فتكبر على الدعاة وأبى أن ينقاد لهم ، اتباعاً لما قاده إليه الهوى .

بأن جعل لنفسه اختياراً وعملاً فعل القوي القادر ، فقد ألقى نفسه في كل هلكة لكونه لم يتمسك شيء ﴿ فلا يحزنك ﴾ أي يهمك ويوجعك ، وأفرد الضمير باعتبار لفظ من لإرادة

التنصيص على كل فرد فقال : ﴿كفره﴾ كائناً من كان فإنه لم يَفُتك شيء فيه خير ولا معجز لنا ليحزنك ، ولا تبعة عليك بسببه ، وفي التعبير هنا بالماضي وفي الأول بالمضارع بشارة بدخول كثير في هذا الدين ، وأنهم لا يرتدون بعد إسلامهم ، وترغيب في الإسلام لكل من كان خارجاً عنه ، فالآية من الاحتباك : ذكر الحزن ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً ، وذكر الاستسماك أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً .

ولما كان الحزن بمعنى الهم ، حسن التعليل بقوله التفاتاً إلى مظهر العظمة التي هذا من أخفى مواضعها ، وجمع لأن الإحاطة بالجمع أدل على العظمة : ﴿إلينا﴾ أي خاصة بما لنا من العظمة التي لا تثبت لها الجبال ﴿مرجعهم﴾ أي رجوعهم وزمانه ومكانه أي معنى في الدنيا وحساً يوم الحساب ، لا إلى غيرنا ، ولما بين أنهم في قبضته ، وأنه لا بد من بعثهم ، بين أن السبب في ذلك حسابهم لتظهر الحكمة فقال : ﴿فننبئهم﴾ بسبب إحاطتنا بأمرهم وعقب رجوعهم ﴿بما عملوا﴾ أي ونجازيهم عليه إن أردنا .

(6/609)

ولما كان معنى التضعيف : نفعل معهم فعل منقب عن الأمور مفتش على جليها وخفيها ، جليلها ودقيقها ، فلا نذر شيئاً منها ، علله بقوله معبراً بالاسم الأعظم المفهم للعظمة

وغيرها من صفات الكمال التي من أعظمها العلم ، لفتاً للكلام عن العظمة التي لا تدل على غيرها إلا باللزوم ، مؤكداً لإنكارهم شمول علمه ﴿ إن الله عليم ﴾ أي محيط العلم بما له من الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ بذات الصدور ﴾ أي بالأعمال التي هي صاحبتها ، ومضمرة ومودعة فيها ، فناشئة عنها ومن قبل أن تبرز إلى الوجود ، فكيف بذلك بعد عملها .

ولما تشوف المسلم إلى إهلاك من هذا شأنه وإلى العلم بمدة ذلك ، وكان من طبع الإنسان العجلة ، أجاب من يستعجل بقوله عائداً إلى مظهر العظمة التي يتقاضاها إذلال العدو وإعزاز الولي : ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ أي من الزمان ومن الحظوظ وإن جل ذلك عند من لا علم له ، فلا تشغلوا أنفسكم بالاستعجال عليهم فإن كل آت قريب .

ولما كان إلجاء المتجبرين إلى العذاب امراً مستبعداً ، أشار بأداة البعد إلى ما يحصل عنده من صفات الجلال ، التي تذل الرجال ، وتدك الجبال ، وفيه أيضاً إشارة إلى استطالة المحسنين من تمتيعهم وإن كان قليلاً في الواقع ، أو عند الله فقال : ﴿ ثم نضطرهم ﴾ أي نأخذهم اخذاً لا يقدرون على الانفكاك عنه بنوع حيلة ، وأشار إلى طول إذلالهم في مدة السوق بحرف الغاية ، فكان المعنى : فنصيرّهم بذلك الأخذ ﴿ إلى عذاب غليظ ﴾ أي شديد ثقيل ، لا ينقطع عنهم أصلاً ولا يجدون لهم منه مخلصاً من جهة من جهاته ، فكأنه في شدته وثقله جرم غليظ جداً إذا برك على شيء لا يقدر على الخلاص منه .

ولما كان من أعجب العجب مجادلتهم مع إقرارهم بما يلزمهم به قطعاً التسليم في أنه الواحد لا شريك له وأن له جميع صفات الكمال فله الحمد كله ، قال : ﴿ ولئن ﴾ أي يجادلون أو يقولون : بل نتبع آباءنا والحال أنهم أن ﴿ سألتهم من خلق السماوات ﴾ بأسرها ﴿ والأرض ﴾ وجميع ما فيها ﴿ ليقولن ﴾ ولما كان الأنسب للحكمة التي هي مطلع السورة الاقتصار على محل الحاجة ، لم يزد هنا على المسند إليه بخلاف الزخرف التي مبناها الإبانة ، فقال لافتاً القول عن العظمة إلى أعظم منها فقال : ﴿ الله ﴾ أي " المسمى بهذا الاسم الذي جمع مسماه بين الجلال والإكرام " فقد أقروا بأن كل ما أشركوا به بعض خلقه ومصنوع من مصنوعاته .

ولما كانوا يعتقدون أن شركائهم تفعل لهم بعض الأفعال ، فلذلك كانوا يرجونهم ويخافونهم ، كما أن ذلك واضح في قصة عم أنس الصم وغيرها ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يعلمهم أنه لا خلق لغيره ولا أمر ، بل هو مبدع كل شيء في السماوات والأرض كما أبدعهما ، وأن من جملة ذلك مما يستحق به الحمد سبحانه قهرهم على تصديقه صلى الله عليه السلام بمثل هذا الإقرار وهم في غاية التكذيب ، فقال مستأنفاً : ﴿ قل الحمد ﴾ أي

الإحاطة بجميع أوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي الذي له الإحاطة الشاملة الكاملة من غير تقييد بخلق الخافقين ولا غيره " الأمر أعظم من مقالة قائل "كما أحاط بما تعلمونه من خلق السماوات والأرض ، فهو فاعل الإفعال كلها ، كما أنه خالق الذوات كلها ، ولا شريك له في شيء من الأمر ، كما أنه لا شريك له في شيء من الخلق .

(8/609)

ولما كانوا يظنون أن أصنامهم تصنع شيئاً كما قالت امرأة ذي النور الدوسي ـ رضى الله عنه ـ : هل يخشى على الصبية من ذي الشرى ، وكما قال قوم ضمام بن ثعلبة ـ رضى الله عنه ـ لما سب آلهتهم : اتق الجذام اتق البرص ، وكما قال سادن العزى ، وكما قالت ثقيف في طاغيتهم ، حتى أنهم قالوا عندما سويت بالأرض ، والله ليغضبن الأساس ، حتى حمل ذلك المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ على أن حفر الأساس ، وكانوا إذا مستهم الضراء لا سيما في البحر تبرؤوا منها ، وأسندوا الأمر إلى من هو له كما هو مضمون التوحيد ، فكان ربما قال قائل استناداً إلى ذلك : إنهم ليعلمون ما أثبت بالتحميد ، قال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي إن الله هو المنفرد بكل شيء كما أنه تفرد بخلق السماوات والأرض ، وأنه لا يكون شيء ، إلا بإذنه لأنهم لا يعملون بما يعلمون من ذلك ، وعلم لا يعمل به عدم ، بل العدم

خير منه ، وكان القليل هم المقتصدون عند النجاة من الشدة كما سيأتي آنفاً ، أو يكون المعنى أنه لا علم لهم أصلاً إذ لو كان لهم علم لنفعهم في علمهم بالله ، أو في أنهم لا يقرون بتفرده سبحانه بالخلق والرزق ، فيكون ذلك موجباً لتناقضهم وملزماً لهم بالإقرار بصدقك غي الحكم بوحدانيته على الإطلاق .

ولما أثبت لنفسه سبحانه الإحاطة بأوصاف الكمال ، شرع يستدل على ذلك ، فقال مبيناً أن ما أخبر أنه صنعه فهو له : ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط بجميع أوصاف الكمال خاصة دون غيره ﴿ ما في السماوات ﴾ كلها .

ولما تحرر بما تقدم أنهم عالمون مقرون بما يلزم عنه وحدانيته ، لم يؤكد بإعادة ﴿ ما ﴾ والجار ، بل قال : ﴿ والأرض ﴾ أي كلها كما كانتا مما صنعه ، فلا يصح أن يكون شيء من ذلك له شريكاً .

(9/609)

ولما ثبت ذلك أنتج قطعاً قوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ هو ﴾ أو وحده ، وأكد لأن ادعائهم الشريك يتضمن إنكار غناه ، ولذلك أظهر موضع الإضمار إشارة إلى أن كل ما وصف به فهو ثابت له مطلقاً من غير تقييد بحيثيته ﴿ الغني ﴾ مطلقاً ، لأن جميع الأشياء

له ومحتاجة إليه ، وليس محتاجاً إلى شيء أصلاً .

ولما كان الغني قد لا يوجب الحمد لله : ﴿ الحميد ﴾ أي المستحق لجميع المحامد ، لأنه المنعم على الإطلاق ، المحمود بكل لسان ألسنة الأحوال والأقوال ، ولو كان نطقها ذماً فهو حمد من حيث إنه هو الذي أنطقها ، ومن قيد الخرس أطلقها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 26 . 29 ﴾

(10/609)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾

لما بين حال المشرك والمجادل في الله بين حال المسلم المستسلم لأمر الله فقوله : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله ﴾ إشارة إلى الإيمان وقوله : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ إشارة إلى العمل الصالح فتكون الآية في معنى قوله تعالى : ﴿ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ [الكهف : 88] وقوله : ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه إلى أعلى

المقامات وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال ههنا : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ ﴾ وقال في سورة البقرة (112) : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ فعدى ههنا بإلى وهناك باللام ، قال الزمخشري معنى قوله : ﴿ أَسْلَمَ وجههُ لِلَّهِ ﴾ أي جعل نفسه لله سالماً أي خالصاً والوجه بمعنى النفس والذات ، ومعنى قوله : ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ ﴾ يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا ، ويمكن أن يزاد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم إلى الله ، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص ، يقول القائل أسلمت وجهي إليك أي توجهت نحوك وينبىء هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول وقوله أسلمت وجهي لك يفيد الاختصاص ولا ينبىء عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول ، إذا علم هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى ﴾ فقال الله رداً عليهم : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ [البقرة : 111] ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى :

﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 112] أي أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمناً قليلاً تدخلون (النار) ومن كان بكليته لله لا يدخلها ، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر إلا الله وقال : أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ، ثم بين كذبهم وقال : بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة .

ثم قال تعالى : ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أوثق العرى جانب الله لأن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ، ثم قال تعالى : ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ يعني استمسك بعروة توصله إلى الله وكل شيء عاقبته إليه فإذا حصل في الحال ما إليه عاقبته في عاقبته في غاية الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله ﴾ [البقرة : 110] .

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23)

لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ ﴾ أي لا تحزن إذا كفر كافر فإن من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن ، بل قد يؤنب المكذب على الزيادة في التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل ، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب ، فقال فلا يحزنك كفره ، فإن المرجع إلي فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أضمرته صدورهم ، وذات الصدور هي المهلك ، ثم إن الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ أي بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله : ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أي نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذاباً غليظاً فيضطرون إلى عذاب النار فراراً من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار ، وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمحضر الأنبياء ، وهو يتحقق بقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

الآية متعلقة بما قبلها من وجهين أحدهما : أنه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله ، لأن خالق السموات والأرض يحتاج إليه كل ما في السموات والأرض ، وكون الحمد كله لله يقتضي أن لا يعبد غيره ، لكنهم لا يعلمون هذا والثاني : أن الله تعالى لما سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم ﴾ أي لا تحزن على تكذيبهم فإن صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا ، قال وليس لا يتبين إلا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لأنهم معترفون بأن خلق السموات والأرض من الله ، وهذا يصدقك في دعوى الوحدانية ويبين كذبهم في الإشراك فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب مكذبيك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالاً للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلأن يعطي ويمنع ولا يكون في ضميره من يعطي بل يريد أن له عطاءً ومنعاً فكذلك ههنا قال لا يعلمون أي ليس لهم علم وعلى الأول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو أنهم لا يعلمون أن الحمد كله لله ، والثاني أبلغ لأن قول القائل :

فلان لا علم له بكذا ، دون قوله فلان لا علم له ، وكذا قوله فلان : لا ينفع زيداً ولا يضره ، دون قوله : فلان لا يضر ولا ينفع .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26)

(14/609)

ذكر بما يلزم منه ، وهو أنه يكون له ما فيهما والأمر كذلك عقلاً وشرعاً ، أما عقلاً فلأن ما في السموات المخلوقة مخلوق وإضافة خلقه إلى من منه خلق السموات والأرض لازم عقلاً لأنها ممكنة ، والممكن لا يقع ولا يوجد إلا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنة أو بواسطة كما يقوله غيرهم ، وكيفما فرض فكله من الله لأن سبب السبب سبب ، وأما شرعاً فلأن من يملك أرضاً وحصل منها شيء ما يكون ذلك لمالك الأرض فكذلك كل ما في السموات والأرض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والأرض وإذا كان الأمر كذلك تحقق أن الحمد كله لله .

ثم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله هُوَ الغنى الحميد ﴾ فيه معان لطيفة أحدها : أن الكل لله وهو غير محتاج إليه غير منتفع به وفيها منافع فهي لكم خلقها فهو غني لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها وثانيها : أن بعد ذكر الدلائل على أن الحمد كله لله ولا تصلح

العبادة إلا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر ، والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال إنه غني عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين ، وحميد في نفسه فيتبين به إصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون وثالثها : هو أن السموات وما فيها والأرض وما فيها إذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غني إلا الله فهو الغني المطلق وكل محتاج فهو حامد ، لاحتياجه إلى من يدفع حاجته فلا يكون الحميد المطلق إلا الغني المطلق فهو الحميد ، وعلى هذا (يكون) الحميد بمعنى المحمود ، والله إذا قيل له الحميد لا يكون معناه إلا الواصف ، أي وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة ، والعبد إذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ، ويحتمل كونه عابداً شاكراً له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 134.137 ﴾

(15/609)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : معناه يخلص لله ، قاله السدي .

الثاني : يقصد بوجهه طاعة الله .

الثالث : يسلم نفسه مستسلماً إلى الله وهو محسن يعني في عمله .

﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ فيها أربعة تأويلات

: أحدها : قول لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس .

الثاني : القرآن ، قاله أنس بن مالك .

الثالث : الإسلام ، قاله السدي .

الرابع : الحب في الله والبغض في الله ، قاله سالم بن أبي الجعد .

وفي تسميتها بالعروة الوثقى وجهان :

أحدهما : أنه قد استوثق لنفسه فيما تمسك به كما يستوثق من الشيء بإمساك عروته .

الثاني : تشبيهاً بالبناء الوثيق لأنه لا ينحل .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ قال مجاهد : وعند الله ثواب ما صنعوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(16/609)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾

لما ذكر تعالى حال الكفرة أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين ليبين الفرق وتتحرك النفوس إلى طلب الأفضل ، وقرأت عامة القراء " يسْلم " بسكون السين وتخفيف اللام .

(17/609)

وقرأ عبد الله بن مسلم وأبو عبد الرحمن " يسَلّم " بفتح السين وشد اللام ومعناه يخلص ويوجه ويستسلم به ، و" الوجه " هنا الجارحة استعير للمقصود لأن القاصد للشيء فهو مستقبله بوجهه فاستعير ذلك للمقاص ، و" المحسن " الذي جمع القول والعمل ، وهو الذي شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عن الإحسان ، و﴿ العروة الوثقى ﴾ استعارة للأمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة ولا إخلال والعرى موضع التعليق فكأن المؤمن متعلق بأمر الله فشبه ذلك ﴿ بالعروة ﴾ ، و﴿ الأمور ﴾ جمع أمر وليس بالمضاد للنهي ، ثم سلى عز وجل نبيه عن موجدته لكفر قومه وإعراضهم فأمره لا يحزن لذلك بل يعمد لما كفله من التبليغ ويرجع الكل إلى الله تعالى ، وقرأت فرقة "يُحزنك " من الرباعي ، وقرأت فرقة "يَحزنك " من الثلاثي ، و" ذات الصدور " ما فيها والقصد من ذلك

إلى المعتقدات والآراء ، ومن ذلك قولهم " الذئب مغبوط بذي بطنه " ، ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه " ذو بطن بنت خارجة " ، والمتاع القليل هو العمر في الدنيا ، و" العذاب الغليظ " معناه المغلظ المؤلم ، ثم أقام عليه الحجة في أمر الأصنام بأنهم يقرون بأن الله تعالى خالق المخلوقات ويدعون مع ذلك إلهاً غيره ، والمعنى ﴿ قل الحمد لله ﴾ على ظهور الحجة عليكم ، وقوله تعالى : ﴿ بل أكثرهم ﴾ إضراب عن مقدر تقديره ليس دعواهم بحق ونحو هذا ، وقوله ﴿ أكثرهم ﴾ على أصله لأن منهم من شذ فعلهم كزيد بن عمرو بن نفيل ، وقس ، وورقة بن نوفل ، ويحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى من هو معد أن يسلم ، ثم أخبر على جهة الحكم وفصل القضية بأن الله له ملك السماوات والأرض وما فيها ، أي وأقوال هؤلاء لا معنى لها ولا حقيقة و﴿ الغني ﴾ الذي لا حاجة به في وجوده وكماله إلى شيء ولا نقص بجهة من الجهات ، و﴿ الحميد ﴾ المحمود أي كذلك هو بذاته وصفاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(18/609)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله ﴾

أي يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى .

﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع ؛ نظيره : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [طه : 112] .

" وفي حديث جبريل قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" " ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ قال ابن عباس : لا إله إلا الله ؛ وقد مضى في "البقرة" .

وقد قرأ عليّ ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسُّلَمِي وعبد الله بن مسلم بن يسار : "وَمَنْ يُسَلِّم" .

النحاس : و"يسلّم" في هذا أعرف ؛ كما قال عز وجل : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : 20] ومعنى : "أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ" قصدت بعبادتي إلى الله عز وجل ؛ ويكون "يسلّم" على التكثير ؛ إلا أن المستعمل في سلّمت أنه بمعنى دفعت ؛ يقال سلمت في الحنطة ، وقد يقال أسلمت .

الزمخشريّ : قرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : "وَمَنْ يُسَلّم" بالتشديد ؛ يقال : أسلم أمرك وسلّم أمرك إلى الله تعالى ؛ فإن قلت : ما له عُدّي بإلى ، وقد عدّي باللام في قوله عز وجل : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 112] ؟ قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله ؛ أي خالصاً له .

ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه .

والمراد التوكل عليه والتفويض إليه .

﴿ وإلى الله عَاقِبَةُ الأمور ﴾ أي مصيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عملوا ﴾ أي نجازيهم .

﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ .

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ أي نبقيهم في الدنيا مدّة قليلة يتمتعون بها .

﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أي نلجئهم ونسوقهم .

(19/609)

﴿ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وهو عذاب جهنم .

ولفظ "مَن" يصلح للواحد والجمع ، فلهذا قال : "كُفْرُهُ" ثم قال : "مَرْجِعُهُمْ" وما بعده على المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ أي هم يعترفون بأن الله خالقهن فلم يعبدون غيره .

﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ أي على ما هدانا له من دينه ، وليس الحمد لغيره .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا ينظرون ولا يتدبّرون .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ أي ملكاً وخلقاً .

﴿ إِنَّ الله هُوَ الغني ﴾ أي الغني عن خلقه وعن عبادتهم ، وإنما أمرهم لينفعهم .

﴿ الحميد ﴾ أي المحمود على صنعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(20/609)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله ﴾

بأنْ فوّض إليه مجامعَ أمورِه وأقبلَ عليه بكلّيته ، وحيثُ عُدّي باللامِ قصد معنى الاختصاصِ . وقُرِىء بالتَّشديدِ . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي في أعمالِه آتٍ بها جامعةً بين الحُسنِ الذاتِيّ والوصفيّ وقد مرَّ في آخرِ سورةِ النَّحلِ ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي تعلَّق بأوثقِ ما يتعلَّق به من الأسبابِ وهو تمثيلٌ لحالِ المتوكلِ المشتغلِ بالطَّاعةِ بحالِ من أراد أنْ يترقَّى إلى شاهقِ جبلٍ فتمسَّك بأوثقِ عُرى الحبلِ المُتدلّي منه ﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى أحدٍ غيرِه ﴿ عاقبة الامور ﴾ فيجازيه أحسنَ الجزاء . ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ

كُفْرُهُ ﴾ فإنَّه لا يضرُّك في الدُّنيا ولا في الآخرةِ . وقُرِىء فلا يُحزِنك من أحزَن المنقول من حَزِن بكسرِ الزَّاي وليس بمستفيضٍ ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ لا إلى غيرِنا ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ في الدُّنيا من الكفرِ والمَعَاصي بالعذابِ والعقابِ . والجمعُ في الضَّمائرِ الثَّلاثةِ باعتبارِ معنى مَن كما أنَّ الإفرادَ في الأولِ باعتبارِ لفظِها ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليلٌ للتنبئةِ المعبَّرِ بها عن التَّعذيبِ ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ تمتيعاً أو زماناً قليلاً فإنَّ ما يزول وإنْ كانَ بعد أمدٍ طويلٍ بالنسبةِ إلى ما يدومُ قليلٌ ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يثقُل عليهم ثقلَ الأجرامِ الغلاظِ أو يضمُّ إلى الإحراقِ الضَّغطَ والتضييق .

(21/609)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ لغايةِ وضوحِ الأمرِ بحيث اضطروا إلى الاعترافِ به ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على أنْ جعلَ دلائلَ التَّوحيدِ بحيثُ لا يكادُ ينكرها المكابرون أيضاً ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ شيئاً من الأشياءِ فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافِهم وقيل : لا يعلمون أنَّ ذلك يلزمُهم ﴿ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ فلا يستحقُّ العبادةَ فيهما غيرُه . ﴿ إِنَّ الله هُوَ الغنى ﴾ عن العالمينَ ﴿ الحميد ﴾ المستحقُّ

للحمدِ وإنْ لم يحمدْهُ أحدٌ أوالمحمودُ بالفعلِ يحمدُه كلُّ مخلوقٍ بلسانِ الحالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(22/609)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ ﴾

بأن فرض إليه تعالى جميع أموره وأقبل عليه سبحانه بقلبه وقالبه ، فالإسلام كالتسليم التفويض ، والوجه الذات ، والكلام كناية عما أشرنا إليه من تسليم الأمور جميعها إليه تعالى والإقبال التام عليه عز وجل وقد يعدى الإسلام باللام قصداً لمعنى الإخلاص .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي .

وعبد الله بن مسلم بن يسار ﴿ يُسَلِّمْ ﴾ بتشديد اللام من التسليم وهو أشهر في معنى التفويض من الإسلام ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي في أعماله والجملة في موضع الحال .

﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ تعلق أتم تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وهذا تشبيه تمثيلي مركب حيث شبه حال المتوكل على الله عز وجل المفوض إليه أموره كلها

المحسن في أعماله بمن ترقى في جبل شاهق أو تدلى منه فتمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمور انقطاعه ، وجوز أن يكون هناك استعارة في المفرد وهو العروة الوثقى بأن يشبه التوكل النافع المحمود عاقبته بها فتستعار له ﴿ وإلى الله عاقبة الامور ﴾ أي هي صائرة إليه عز وجل لا إلى غيره جل جلاله فلا يكون لأحد سواه جل وعلا تصرف فيها بأمر ونهي وثواب وعقاب فيجازي سبحانه هذا المتوكل أحسن الجزاء ، وقيل : فيجازي كلاً من هذا المتوكل وذاك المجادل بما يليق به بمقتضى الحكمة ، وأل في الأمور للاستغراق ، وقيل : تحتمل العهد على أن المراد الأمور المذكورة من المجادلة وما بعدها ، وتقديم ﴿ إِلَى الله ﴾ للحصر رداً على الكفرة في زعمهم مرجعية آلهتهم لبعض الأمور .

واختار بعضهم كونه إجلالاً للجلالة ورعاية للفاصلة ظناً منه أن الاستغراق مغن عن الحصر وهو ليس كذلك .

(23/609)

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ أي فلا يهمنك ذلك ﴿ إِلَيْنَا ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ مَرْجِعُهُمْ ﴾ رجوعهم بالبعث يوم القيامة ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي بعملهم أو بالذي عملوه في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب ، وقيل : إلينا مرجعهم في الدارين فنجازيهم

بالإهلاك والتعذيب والأول أظهر وأياً ما كان فالجملة في موضع التعليل كأنه قيل : لا يهمنك كفر من كفر لأنا ننتقم منه ونعاقبه على عمله أو الذي عمله والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الإفراد في الأول باعتبار لفظها ، وقرىء في السبع ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ ﴾ مضارع أحزن مزيد حزم اللام ؛ وقدر اللزوم ليكون للنقل فائدة وحزن وأحزن لغتان ، قال اليزيدي : حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم وقد قرىء بهما ، وذكر الزمخشري أن المستفيض في الاستعمال ماضي الأفعال ومضارع الثلاثي والعهدة في ذلك عليه ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليل للتنبئة المعبر بها عن المجازاة أن يجازيهم سبحانه لأنه عز وجل عليم بالضمائر فما ظنك بغيرها .

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ثقيل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ ، والمراد بالاضطرار أي الإلجاء إلزامهم ذلك العذاب الشديد الزام المضطر الذي لا يقدر على الانفكاك مما ألجىء إليه ، وفي الانتصاف تفسير هذا الاضطرار ما في الحديث من أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد فيرسل عليهم الزمهرير فيكون أشد عليهم من اللهب فيتمنون عود اللهب اضطراراً فهو اختيار عن اضطرار وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث قال :

يرون الموت قداماً وخلفا . . .

فيختارون والموت اضطرار

وقيل : المعنى نضم إلى الإحراق الضغط والتضييق فلا تغفل .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾

(24/609)

أي خلقهن الله تعالى ، وجوز أن يكون التقدير الله خلقهن والأول أولى كما فصل في محله وقولهم ذلك لغاية وضوح الأمر بحيث اضطروا إلى الاعتراف به ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به جل شأنه في العبادة التي لا يستحقها غير الخالق والمنعم الحقيقي .

وجوز جعل المحمود عليه جعل دلائل التوحيد بحيث لا ينكرها المكابر أيضاً ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك يلزمهم قيل : وفيه إيغال حسن كأنه قال سبحانه : وإن جهلهم انتهى إلى أن لا يعلموا أن الحمد لله ما موقعه في هذا المقام ، وقد مر تمام الكلام في نظير الآية في العنكبوت فتذكر .

﴿ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾

(25/609)

خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لأحد سواه عز وجل استقلالاً ولا شركة فلا يستحق العبادة فيهما غيره سبحانه وتعالى بوجه من الوجوه ، وهذا إبطال لمعتقدهم من وجه آخر لأن المملوك لا يكون شريكاً لمالكه فكيف يستحق ما هو حقه من العبادة وغيرها ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الغنى ﴾ عن كل شيء ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمده جل وعلا أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال ، وكأن الجملة جواب عما يوشك أن يخطر ببعض الأذهان السقيمة من أنه هل اختصاص ما في السماوات والأرض به عز وجل لحاجته سبحانه إليه ، وهو جواب بنفي الحاجة على أبلغ وجه فقد كان يكفي في الجواب إن الله غني إلا أنه جيء بالجملة متضمنة للحصر للمبالغة وجيء بالحميد أيضاً تأكيداً لما تفيده من نفي الحاجة بالإشارة إلى أنه تعالى منهم على من سواه سبحانه أو متصف بسائر صفات الكمال فتأمل جداً ، وقال الطيبي : إن قوله تعالى : ﴿ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ تهاون بهم وإبداء أنه تعالى مستغن عنهم وعن حمدهم وعبادتهم ولذلك علل بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الغنى ﴾ أي عن حمد الحامدين ﴿ الحميد ﴾ أي المستحق للحمد وإن لم يحمدوه عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(26/609)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

هذا مقابل قوله ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ [لقمان : 20] إلى قوله : ﴿ يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ [لقمان : 21] ، فأولئك الذين اتبعوا ما وجدوا ءاباءهم عليه من الشرك على غير بصيرة فوقعوا في العذاب ، وهؤلاء الذين لم يتمسكوا بدين آبائهم وأسلموا لله لما دعاهم إلى الإسلام فلم يصدّهم عن اتباع الحق إلف ولا تقديس آباء ؛ فأولئك تعلقوا بالأوهام واستمسكوا بها لإرضاء أهوائهم ، وهؤلاء استمسكوا بالحق إرضاء للدليل وأولئك أرضوا الشيطان وهؤلاء اتّبعوا رضى الله .

وإسلام الوجه إلى الله تمثيل لإفراده تعالى بالعبادة كأنه لا يقبل بوجهه على غير الله ، وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ بَلى مَن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ في سورة البقرة (112) ، وقوله ﴿ فَقُل أسلَمْتُ وجهيَ لله ﴾ في سورة آل عمران (20) .

وتعدية فعل ﴿ يُسْلم ﴾ بحرف ﴿ إلى ﴾ هنا دون اللام كما في آيتي سورة البقرة (112) وسورة آل عمران (20) عند الزمخشري مجاز في الفعل بتشبيه نفس الإنسان بالمتاع الذي يدفعه صاحبه إلى آخر ويَكِلُه إليه .

وحقيقته أن يعدى باللام ، أي وجهه وهو ذاته سالماً لله ، أي خالصاً له كما في قوله تعالى ﴿

فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهيَ لله ﴾ في سورة آل عمران (20) .

والإحسان : العمل الصالح والإخلاص في العبادة .

وفي الحديث : الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

والمعنى : ومن يسلم إسلاماً لا نفاق فيه ولا شك فقد أخذ بما يعتصم به من الهُوِيّ أو التزلزل .

وقوله ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ مضى الكلام على نظيره عند قوله تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ في سورة البقرة (25) ، وهو ثناء على المسلمين .

(27/609)

وتذييل هذا بقوله ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ إيماء إلى وعدهم بلقاء الكرامة عند الله في آخر أمرهم وهو الحياة الآخرة .

والتعريف في ﴿ الأمور ﴾ للاستغراق ، وهو تعميم يراد به أن أمور المسلمين التي هي من مشمولات عموم الأمور صائرة إلى الله وموكولة إليه فجزاؤهم بالخير مناسب لعظمة الله .

والعاقبة : الحالة الخاتمة والنهاية .

و ﴿ الأمور : جمع أمر وهو الشأن .

وتقديم ﴿ إلى الله ﴾ للاهتمام والتنبيه إلى أن الراجع إليه يلاقي جزاءه وافياً .

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23)

لما خلا ذَمّ الذين كفروا عن الوعيد وانتقل منه إلى مدح المسلمين ووعدهم عطف عِنان الكلام إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتهوين كفرهم عليه تسلية له وتعريضاً بقلة العِبْءِ بهم لأن مرجعهم إلى الله فيريهم الجزاء المناسب لكفرهم ، فهو تعريض لهم بالوعيد . وأُسند النهي إلى كفرهم عن أن يكون محزناً للرسول صلى الله عليه وسلم مجازاً عقلياً في نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن مداومة الفكر بالحزن لأجل كفرهم لأنه إذا قلع ذلك من نفسه انتفى إحزان كفرهم إياه .

وقرأ نافع ﴿ يُحْزِنك ﴾ بضم التحتية وكسر الزاي مضارع أحزنه إذا جعله حزيناً .

وقرأ البقية ﴿ يَحْزُنك ﴾ بفتح التحتية وضم الزاي مضارع حَزَنه بذلك المعنى ، وهما لغتان : الأولى لغة تميم ، والثانية لغة قريش ، والأولى أقيس وكلتاهما فُصحى ولغة تميم من اللغات التي نزل بها القرآن وهي لغة عُلْيا تميم وهم بنو دارم كما تقدم في المقدمة السادسة .

وزعم أبو زيد والزمخشري : أن المستفيض أحْزَن في الماضي ويُحْزن في المستقبل ، يريدان الشائع على ألسنة الناس ، والقراءة رواية وسنة .

وتقدم في سورة يوسف (13) ﴿ إنّي لَيحزنني ﴾ وفي سورة الأنعام (33) ﴿ قد نعلم أنه ليُحزنك الذي يقولون ﴾ وجملة ﴿ إلينا مرجعهم ﴾ واقعة موقع التعليل للنهي ، وهي أيضاً تمهيد لوعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله يتولى الانتقام منهم المدلول عليه بقوله ﴿ فنُنبئهم ﴾ مفرعاً على جملة ﴿ إلينا مرجعهم ﴾ كناية عن المجازاة ؛ استعمل الإنباء وأريد لازمه وهو الإظهار كما تقدم آنفاً .

وجملة ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ تعليل لجملة ﴿ فننبئهم بما عملوا ، ﴾ فموقع حرف ﴿ إنّ ﴾ هنا مغنٍ عن فاء التسبب كما في قول بشار :

إن ذاك النجاح في التبكير . . .

و ﴿ ذات الصدور : هي النوايا وأعراض النفس من نحو الحِقد وتدبير المكر والكفر .

ومناسبته هنا أن كفر المشركين بعضُه إعلان وبعضه إسرار قال تعالى : ﴿ وأسِرُّوا قولكم أو اجهَروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ [الملك : 13] ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ في سورة الأنفال (43) .

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24)

استئناف بياني لأن قوله ﴿ إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ [لقمان : 23] يثير في نفوس السامعين سؤالاً عن عدم تعجيل الجزاء إليهم ، فبيّن بأن الله يُمهِلُهم زمناً ثم يوقعهم في عذاب لا يجدون منه منجى .

وهذا الاستئناف وقع معترضاً بين الجمل المتعاطفة .

والتمتيع : العطاء الموقت فهو إعطاء المتاع ، أي الشيء القليل .

و ﴿ قليلاً ﴾ صفة لمصدر مفعول مطلق ، أي تمتيعاً قليلاً ، وقلته بالنسبة إلى ما أعدّ الله للمسلمين أو لقلة مدته في الدنيا بالنسبة إلى مدة الآخرة ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ في الأعراف (24) .

والاضطرار : الإلجاء ، وهو جعل الغير ذا ضرورة ، أي : لزوم ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ثم أضْطَرُّه إلى عذاب النار ﴾ في سورة البقرة (126) .

(29/609)

والغليظ : من صفات الأجسام وهو القوي الخشن ، وأطلق على الشديد من الأحوال على وجه الاستعارة بجامع الشدة على النفس وعدم الطاقة على احتماله .

وتقدم قوله ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ في سورة هود (58) كما أطلق الكثير

على القوي .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

عطف على جملة ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ [لقمان : 21] باعتبار أن ما وَجَدوا عليه آباءهم هو الإشراك مع الله في الإلهية ، وإن سألهم سائل : مَن خلق السماوات والأرض يقولوا خلقهن الله ، وذلك تسخيف لعقولهم التي تجمع بين الإقرار لله بالخلق وبين اعتقاد إلهية غيره .

والمراد بالسماوات والأرض : ما يشمل ما فيها من المخلوقات ومن بين ذلك حجارة الأصنام ، وتقدم نظيرها في سورة العنكبوت .

وعبر هنا بـ ﴿ لا يعلمون ﴾ وفي سورة (العنكبوت63) بـ ﴿ لا يعقلون ﴾ تفنناً في المخالفة بين القصتين مع اتحاد المعْنى .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26)

موقع هذه الجملة من التي قبلها موقع النتيجة من الدليل في قوله : ﴿ لله ما في السماوات ﴾ فلذلك فصلت ولم تعطف لأنها بمنزلة بدل الاشتمال من التي قبلها ، كما تقدم آنفاً في قوله ﴿ يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ [لقمان : 16] ؛ فإنه لما تقرر إقرارهم لله بخلق السماوات والأرض لزمهم إنتاج أن ما في السموات والأرض ملك لله ومن جملة ذلك أصنامهم .

والتصريح بهذه النتيجة لقصد التهاون بهم في كفرهم بأن الله يملكهم ويملك ما في السماوات والأرض ، فهو غني عن عبادتهم محمود من غيرهم .

وضمير ﴿ هو ﴾ ضمير فصل مُفاده اختصاص الغِنى والحمْد بالله تعالى ، وهو قصر قلب ، أي ليس لآلهتهم المزعومة غنى ولا تستحق حمداً .

(30/609)

وتقدم الكلام على الغني الحميد عند قوله ﴿ فإن الله غني حميد ﴾ في أول السورة لقمان (12) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(31/609)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

يعني : مَنْ أراد أن يُخلِّص نفسه من الجدل بغير علم ، وبغير هدى ، وبغير كتاب منير ، فعليه أنْ يُسلم وجهه إلى الله ؛ لأن الله تعالى قال في آية أخرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

﴾ [ص : 82] ثم استثنى منهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [الحجر : 40]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . ﴾ [الإسراء : 65]

ومعنى ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله . . ﴾ [لقمان : 22] أخلص وجهه في عبادته لله وحده ، وبذلك يكون في معية الله ، ومَنْ كان في معية ربه فلا يجرؤ الشيطان على غوايته ، ولا يُضيع وقته معه ، إنما ينصرف عنه إلى غافل يستطيع الدخول إليه ، فالذي ينجيك من الشيطان أن تُسلم وجهك لله .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالولد الصغير حينما يسير في صحبة أبيه فلا يجرؤ أحد من الصبيان أن يعتدي عليه ، أما إنْ سار بمفرده فهو عُرْضة لذلك ، لا يَسْلم منه بحال ، كذلك العبد إن انفلتَ من يد الله ومعيته .

وهذا المعنى ورد أيضاً في قوله سبحانه : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ . . . ﴾ [البقرة : 112] وهنا قال ﴿ إِلَى الله . . . ﴾ [لقمان : 22] فما الفرق بين حرفي الجر : إلى ، اللام ؟

استعمال (إلى) تدل على أن الله تعالى هو الغاية ، والغاية لا بُدَّ لها من طريق للهداية يُوصِّل إليها . أمَّا (اللام) فتعني الوَصْل لله مباشرة دون قطع طريق ، وهذا الوصول المباشر لا يكون إلا بدرجة عالية من الإخلاص لله .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ . . ﴾ [لقمان : 22] يعني : أنك على الطريق الموصِّل إلى الله تعالى ، وأنك تؤدي ما افترضته عليك .

(32/609)

ومن إسلام الوجه لله قَوْل ملكة سبأ : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [النمل : 44] الكلام هنا كلام ملكة ، فلم تقل : أسلمتُ لسليمان ، لكن مع سليمان لله ، فلا غضاضة إذن .

وإسلام الوجه لله ، أو إخلاص العمل لله تعالى عملية دقيقة تحتاج من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة ؛ لأن النفس لا تخلو من هفوة ، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله ، لكن سرعان ما تتدخل النفس بما لها من حب الصِّيت والسمعة ، فيخالط العملَ شيء من الرياء ولو كان يسيراً .

لذلك ؛ فإن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحمل عنا هذه المسألة ويطمئن المسلم على عمله ، فيقول في دعائه : " اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك " .

والنبي صلى الله عليه وسلم ليس مظنة ذلك ، لكن الحق سبحانه علَّمه أن يتحمل عن أمته

كما تحمَّل الله عنه في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ . . . ﴾ [الأنعام : 33] أي : أنك أسمى عندهم من أن تكون كاذباً . ﴿ ولكن الظالمين بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : 33]

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى . . ﴾ [لقمان : 22] كلمة استمسك تدلُّ على القوة في الفعل والتشبُّث بالشيء ؛ كما نقول (تبِّت فيه) ، وهي تعني : طلب أنْ يمسك ؛ لذلك لم يَقُل مسكَ إنما (استمسك) . وأول مظاهر الاستمساك أنك لا تطمئن إلى ضعف نفسك ، فيكون تمسك بالعروة الوثقى أشدّ ، كما لو أنك ستنزل من مكان عالٍ على حبل مثلاً فتتشبت به بشدة ؛ لأنك إنْ تهاونت في الاستمساك به سقطت ، وهذا دليل على ثقتك بضعف نفسك ، وأنه لا ينُجيك من الهلاك ، ولا واقي لك إلا أنْ تستمسك بهذا الحبل .

كذلك الذي يُسلِّم وجهه لله ويُمسِك بالعروة الوثقى ، فليس له إلا هذه مُنْجية وواقية .

(33/609)

وكلمة ﴿ بالعروة الوثقى . . ﴾ [لقمان : 22] العروة : هي اليد التي نمسك بها الكوز أو الكوب أو الإبريق ، وهي التي تفرق بين الكوب والكأس ، فالكأس لا عروة لها ، إلا إذا

شُرب فيها الشراب الساخن ، فيجعلون لها يداً .

ومعنى ﴿ الوثقى . . ﴾ [لقمان : 22] أي : المحكمة ، وهي تأنيث أوثق ، نقول : هذا أوثق ، وهذه وُثْقى ، مثل أصغر وصُغْرى ، وهي تعني الشيء المرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصله ، فإنْ كان دَلْواً فهي وُثْقى بالدلو ، وإنْ كان كوباً فهي وُثْقى بالكوب ، فهي الموثقة التي لا تنقطع ، ولا تنفصل عن أصلها .

والعُرْوة تختلف باختلاف الموثِّق ، فإنْ صنع العروة صانع غاشٌّ ، جاءت ضعيفة هشَّة ، بمجرد أنْ تمسك بها وتنخلع في يدك ، وهذا ما نسميه " الغش التجاري " وهو احتيال لتكون السلعة رخيصة يقبل عليها المشتري ، ثم يكون المعوِّض في ارتفاع قطع الغيار ، كما نرى في السيارات مثلاً ، فترى السيارة رخيصة وتنظر إلى ثمن قطع الغيار تجده مرتفعاً .

إذن : إرادة عدم التوثيق لها مقصد عند المنتفع ، فإذا كان الموثِّق هو الله تعالى فليس أوثق من عُرْوته .

وفي موضع آخر يقول الحق عنها ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ . . . ﴾ [آل عمران : 103] فالعروة الوُثْقى هي حبل الله المتين الذي يجمعنا فلا نتفرق ؛ لذلك في الاصطلاح نسمي الفتحة في الثوب والتي يدخل فيها الأزرار (عروة) لماذا ؟ لأنها هي التي تجمع الثوب ، فلا يتفرق .

وفي آية أخرى وصفَ العروة الوثقى بقوله سبحانه : ﴿ لاَ انفصام لَهَا . . ﴾ [البقرة : 256]

(34/609)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وإلى الله عَاقِبَةُ الأمور ﴾ [لقمان : 22] أي : مرجعها ، فلا نظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو أنه سبحانه يتركنا سُدًى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] . ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذي أعطى لنفسه شهواتها في الدنيا أوفر حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغشَّ عبده الذي آمن به ، وسار على منهجه ، أو يسلمه للظلمة والمنحرفين .

وإذا كانت لله تعالى عاقبة الأمور أي : في الآخرة ، فإنه سبحانه يترك لنا شيئاً من ذلك في الدنيا نصنعه بذواتنا لتستقيم بنا مسيرة الحياة وتثمر حركتها ، ومن ذلك مثلاً ما نجريه من الامتحانات للطلاب آخر العام لنميز المجدّ من الخامل ، وإلا تساوى الجميع ولم يذاكر أحد ، ولم يتفوق أحد ؛ لذلك لا بُدَّ من مبدأ الثواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة ، فإذا كنا نُجري هذا المبدأ في دنيانا ، فلماذا نستنكره في الآخرة ؟

فهل يليق بهذا العالَم الذي خلقه الله على هذه الدقة ؛ وكوّنه بهذه الحكمة أن يتركه هكذا

هَملاً يستشري فيه الفساد ، ويرتع فيه المفسدون ، ثم لا يُحاسبون ؟ إن كانت هذه هي العاقبة ، فيا خسارة كل مؤمن ، وكل مستقيم في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم . . . ﴾ .

بعد أن بيّن الحق سبحانه أن إليه مرجع كل شيء ونهاية الأمور كلها ، أراد أن يُسلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ . . ﴾ [لقمان : 23] أي : بعدما قلناه من الجدل بالعلم وبالهدى وبالكتاب المنير ، وبعدما بيناه من ضرورة إسلام الوجه لله ، مَنْ يكفر بعد ذلك ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ . . ﴾ [لقمان : 23]

(35/609)

وهذا القول من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم يدل على أن الله علم أن رسوله يحب أن تكون أمته كلها مؤمنة ، وأنه يحزن لكفر من كفر منهم ويؤلمه ذلك ، وقد كرر القرآن هذا المعنى في عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] ويقول : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3]

فالله تعالى يريد أنْ يقول لرسوله : أنا أرسلتُك للبلاغ فحسب ، فإذا بلَّغْت فلا عليك بعد

ذلك ، وكثيراً ما تجد في القرآن عتاباً لرسول الله في هه المسألة ، وهو عتاب لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذي أجهد نفسه في المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ عَبَسَ وتولى * أَن جَآءَهُ الأعمى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ [عبس : 1-3]

والعتاب هنا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الرجل المؤمن الذي جاءه يستفهم عن أمور دينه ، وذهب يدعو الكفار والمكّذبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير ، إذن : فالعتاب هنا عتاب لصالح الرسول لا ضده ، كما يظن البعض في فهمهم لهذه الآيات .

كذلك الأمر في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ . . . ﴾ [التحريم : 1] فالله يعاتب رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحله الله لها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ . . ﴾ [لقمان : 23] يعني : إذا لم تَرَ فيهم عاقبة كفرهم ، وما ينزل بهم في الدنيا ، فسوف يرجعون إلينا ونحاسبهم في الآخرة ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ . . . ﴾ [غافر : 77] أي : ترى بعينك ما ينزل بهم من العقاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77]

إذن : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ . . ﴾ [لقمان : 23] هذه هي الغاية النهائية ، وهذه لا تمنع أن نُرِيَك فيهم أشياء تُظهر عزتك وانتصارك عليهم ، وانكسارهم وذِلَّتهم أمامك ، وهذا ما حدث يوم الفتح يوم أنْ دخل النبي مكة منصراً ومتواضعاً يطأطئ رأسه بأدب وتواضع ؛ لأنه يعلم أن النصر من الله ، وكأنه صلى الله عليه وسلم يقول لأهل مكة : لقد كنتم تريدون المُلْك لتتكبروا به ، وأنا أريده لأتواضع به ، وهذا هو الفرق بين عزَّة المؤمن وعِزّة الكافر .

لذلك لما تمكن رسول الله من رقابهم – بعد أنْ فعلوا به ما فعلوا – جمعهم وقال قولته المشهورة :

" يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ " قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .

ولك أنْ تلحظ تحوُّل الأسلوب من صيغة الإفراد في ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ . . ﴾ [لقمان : 23] إلى صيغة الجمع في ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ . . ﴾ [لقمان : 23] ولم يقل : إليَّ مرجعه ؛ لأن مَنْ في اللغة تقوم مقام الأسماء الموصولة كلها ، فإنْ أردتَ لفظها فأفردها ، وإن أردتَ معناها فاجمعه .

وقوله تعالى : ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عملوا . . ﴾ [لقمان : 23] لأننا نُسجِّله عليهم ونحصيه ، كما قال سبحانه : ﴿ أَحْصَاهُ الله وَنَسُوهُ . . . ﴾ [المجادلة : 6] ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ

بِذَاتِ الصدور ﴾ [لقمان : 23] أي : بنات الصدر ومكنوناته يعلمها الله ، حتى قبل أنْ تُترجم إلى نزوع سلوكي عملي أو قَوْلي ، فالله يعلم ما يختلج في صدورهم من حقد أو غلٍّ أو حسد أو تآمر .

و﴿ عَلِيمٌ . . . ﴾ [آل عمران : 119] صيغة مبالغة من العلم ، وفَرْق بين عالم وعليم : عالم : ذاتٌ ثبت لها العلم ، أما عليم فذات عِلْمها ذاتي ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ . . . ﴾ .

(37/609)

الحق سبحانه يُبيِّن لكل مؤمن ألاَّ يغتر بحال الكفار حين يراهم في حال رَغَد من العيش ، وسعة وعافية وتمكُّن ؛ لأن ذلك كله متاع قليل ، والحق سبحانه يريد من أتباع الأنبياء أنْ يدخلوا الدين على أنه تضحية لا مغنم .

وسبق أن أوضحنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين مبدأ الحق ومبدأ الباطل بشيء واحد ، هو استهلال الاثنين ، فالداخل في مبدأ الحق مستعد لأنْ يُضحِّي ، والداخل في مبدأ الباطل ينتظر أنْ يأخذ المقابل ؛ لذلك ضحَّى المسلمون الأوائل في سبيل دينهم بالأنفس والأموال ،

وتركوا بلادهم وأبناءهم لماذا ؟ لأنهم مُكلَّفون بأداء مهمة إنسانية عالمية ، لا يحملها إلا مَنْ كان مستعداً للعطاء ، أما أصحاب الدعوات الباطلة كالشيوعية وغيرها فلا بُدَّ أنْ يأخذوا أولاً .

لذلك روُي أن صحابياً حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم البشرى بالجنة ، وأنه ليس بينه وبينها إلا أنْ يحارب فيُقتل ألقى تمرات كانت في يده ، ولم ينتظر حتى يمضغها ، وأسرع إلى المعركة مُبتغياً الشهادة وطامعاً فيما عند الله ، وقد سُمع منهم في ساحة القتال أنْ ينادي أحدهم : هُبّي يا رياح الجنة ، وآخر يقول : إني لأجد ريح الجنة دون أحد .

فقوله تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : 24] هذا التمتُّع بزينه الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم ، وقلنا : إنك لا تلقى بعدوك من على الحصيرة مثلاً ، إنما تعليه وترفعه ليكون أَخْذه أليماً وشديداً ، كذلك الحق سبحانه يُمتِّعهم ، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم .

واقرأ في هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا آتَوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44] أي : يائسون .

وكلمة الفتح لا تؤدي نفعاً إلا إذا جاءت معرفة (الفتح) وقلنا : هناك فرق بين فتح لك وفتح عليك ، فتح لك أي : لصالحك ، أمّا فتح عليك أي : أعطاك الدنيا لتكون حِمْلاً فوق رأسك .

إذن : فإذا رأيت لهم هذا الفتح فلا تغترّ به ، واعلم انهم نَسُوا ما ذُكِّروا به . وقد ورد في الأثر أن الله تعالى إذا غضب من المرء رزقه من الحرام ، فإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه .

ذلك ليظل في سَعَة ورَغَد عيش وعُلو مكان ، حتى إذا أخذه الله آلمه الأخذ واشتد عليه ، فأَخْذُ الكافر وهو في أَوْج قوته وجبروته يدل على قوة الأَخْذ وقدرته ، أما الضعيف فلا مزيّة في أَخْذه ، كالذي يريد أنْ يحطم الرقم القياسي مثلاً ، فإنه يعمد إلى أعلى الأرقام فيحطمها ليثبت جدارته .

ومن ذلك أيضاً نرى أن القرآن لما أراد التحدي ببلاغته وفصاحته تحدَّى العرب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة وفن الأداء البياني ، ولا معنى لأنْ يتحدى عَيّياً لا يقدر على الكلام .

ومعنى ﴿ نَضْطَرُّهُمْ . . ﴾ [لقمان : 24] نلجئهم أي : نُضيِّق عليهم الخناق ، بحيث لا يجدون إلا العذابَ الغليظ ، أو : أن فترة الحساب وما قبل العذاب أشدّ من العذاب نفسه ، كما جاء في الحديث من " أن الشمس تدنو من الرؤوس ، حتى ليتمنى الناسُ الانصرافَ ولو

إلى النار" .

ووصف العذاب هنا بأنه ﴿ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : 24] والغِلظ يعني السُّمْك ، فالمعنى أنه عذاب كبير يصعب قلقلة النفس منه ، فلو كان رقيقاً لربما أمكن الإفلات منه .

ثم يعود السياق إليهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ . . . ﴾ .

هذا إفحام لهم ، حيث شهدوا بأنفسهم أن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض ، وتعجب بعد ذلك لأنهم ينصرفون عن عبادة الخالق سبحانه إلى عبادة مَنْ لا يخلق ولا يرى ولا يسمع .

(39/609)

لذلك بعد هذه الشهادة منهم ، وبعد أنْ قالوا (الله) يُتبعها الحق سبحانه بقول ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ . . ﴾ [لقمان : 25] أي : الحمد لله ؛ لأنهم أقروا على أنفسهم ، ونحن في معاملاتنا نفعل مثل هذا ، فحين يعترف لك خَصمْك تقول : الحمد لله .

وهذه الكلمة تُقال تعليقاً على أشياء كثيرة ، فحين يعترف لك الخَصْم بما تريد تقول : الحمد لله ، وحين يُخلِّصك الله من أذى أحد الأشرار تقول : الحمد لله أي : الذي نجانا من فساد هذا المفسد .

فلو بلغنا خبر موت أحد الأشقياء أو قُطّاع الطرق نقول : الحمد لله أي : الذي خلصنا من شرّه ، وأراح منه البلاد والعباد ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 45]

كذلك تقال حينما يُنصَف المظلوم ، وتُردُّ إليه مظلمته ، أو تظهر براءته ، كما سنقول – إنْ شاء الله – في الآخرة : ﴿ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : 34] ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ * وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [الزمر : 73 – 74]

فالحمد لله تُقال أيضاً عند خلوصك إلى غاية تُخرِجك مما كنتَ فيه من الضيق ، ومن الهَمّ ، ومن الحزن ، وتقال حين ندخل الجنة ، وننعم بنعيمها ونعلم صِدْق الله تعالى فيما أخبرنا به من نعيمها .

(40/609)

هذا كله حَمْد على نعمه ، وهناك الحمد الأعلى : ألم تقرأ الحديث القدسي : " إن الله يتجلى على خَلْقه المؤمنين في الجنة فيقول : يا عبادي ، ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وكيف تزيدنا وقد أعطيْتنا مَا لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ؟ قال : أُحِلُّ عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعدها أبداً " فماذا بعد هذا الرضوان ؟

يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الزمر : 75]

هذا هو الحمد الأعلى ، فقد كنت في الحمد مع النعمة ، وأنت الآن في الحمد مع المنعم سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : 25] وهم أهل الغفلة عن الله ، أو ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : 25] أي : العلم الحقيقي ، النافع ، وإنْ كانوا يعلمون العلم من كتاب غير منير ، أو : يعلمون العلم الذي يُحقِّق لهم شهواتهم .

ثم ينتقل السياق إلى آيات كونية فيقول سبحانه : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السماوات . . . ﴾ .

بعد أن سجَّل الله تعالى عليهم اعترافهم وشهادتهم بأنه سبحانه خالق السماوات والأرض ، أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن السماوات والأرض ظرف لما فيهما ، وفيهما أشياء كثيرة ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لا نعرفه ، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه ، فما في (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها ، وما في الخزانة من جواهر وأموال أو أوراق

هامة أنفَسُ من الخزانة وأهمّ .

لذلك قلنا : إياك أنْ تجعل كتاب الله حافظة لشيء هام عندك ؛ لأنه أغلى من أيِّ شيء فينبغي أنْ نحفظه ، لا أنْ نحفظ فيه .

(41/609)

وكأن في الآية إشارة إلى أنهم كما اقرُّوا لله تعالى بخَلْق السماوات والأرض ينبغي أنْ يُقروا كذلك بأن له سبحانه ما فيهما ، وهذه مسألة عقلية يهتدي إليها كل ذي فكر سليم ، فما دامت السماوات والأرض لله ، فله ما فيهما ، وهَبْ أن لك قطعة أرض تمتلكها ، ثم عثرتَ فيها على شيء ثمين ، إنه في هذه الحالة يكون مِلكك شرعاً وعقلاً .

وينبغي للعاقل أنْ يتأمل هذه المسألة : لله تعالى ما في السماوات وما في الأرض ، ومن هذه الأشياء الإنسان الذي كرَّمه الله ، وجعله سيداً لجميع المخلوقات وأعلى منها ، بدليل أنها مُسخَّرة لخدمته : الحيوان والنبات والجماد ، فهل يصح أن يكون الخادم أعظم من سيده أو أطول عمراً منه ؟

فعلى العاقل أن يتأمل هذه المسألة ، وأن يستعرض أجناس الكون ويتساءل : أيكون الجماد الذي يخدمني أطول عمراً مني ؟

إذن : لا بد أن لي حياة أخرى تكون أطول من حياة الشمس والقمر وسائر الجمادات التي تخدمني ، وهذا لا يكون إلا في الآخرة حيث تنكدر الشمس ، وتتلاشى كل هذه المخلوقات ويبقى الإنسان .

إذن : أنت محتاج لما في الأرض ولما في السماء من مخلوقات الله ، وبه وحده سبحانه قوامها مع أنه سبحانه غنيٌّ عنها لا يستفيد منها بشيء ، فالله سبحانه خلق ما هو غنيٌّ عنه ؛ لذلك يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الغني الحميد ﴾ [لقمان : 26] لأنه سبحانه بصفات الكمال خلق ، فلم يزِدْه الخلق صفة كمال لم تكُنْ له ، فهو مُحْيٍ قبل أنْ يوجد مَنْ يُحييه ، مُعِزٌّ قبل أنْ يوجد من يعزه .

وقلنا : إنك لا تقول فلان شاعر لأنك رأيته يقول قصيده ؛ بل لأنه شاعر قبل أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

(42/609)

فمعنى ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الغني . . . ﴾ [لقمان : 26] أي : الغني المطلق ؛ لأن له سبحانه كل هذه المُلْك في السماوات والأرض ، بل جاء في الحديث القدسي أن السماء والأرض بالنسبة لمُلْك الله تعالى كحلقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة ، فلا تظن أن مُلْك الله هو مجرد هذه

المخلوقات التي نعلمها ، رغم ما توصَّل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية

.

فالله سبحانه هو الغنيُّ الغِنَي المطلق ؛ لأنه خلق هذا الخَلْق وهو غني عنه ، ثم أعطاه لعبيده وجعله في خدمتهم ، فكان من الواجب لهذا الخالق أن يكون محموداً ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الغني الحميد ﴾ [لقمان : 26] وحميد فعيل بمعنى محمود ، وهو أيضاً حامد كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 158] لكن ، شاكر لمن ؟

قالوا : إذا كان العبد يشكر ربه ، وقد علَّمه الله : أن الذي يحيِّيك بتحية ينبغي عليك أنْ تُحيِّيَه بأحسن منها ، فربُّك يعاملك هذه المعاملة ، فإنْ شكرْتَهُ يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك . أي : مكافأة لك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(43/609)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ .

وعلى العكس : -

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

إلينا إيابُهم ، ومِنَّا عذابُهم ، وعلينا حسابُهم . ولئن سألتَهم عن خالقهم لأَقرُّوا ، ولكن إذا عادوا إلى غيّهم نقضوا وأصروا .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26)

لله ما في السموات والأرض مِلْكاً ، ويُجْرِي فيهم حُكْمَه حَقًّا ، وإليه مَرْجِعُهم حتماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 134 ﴾

(44/609)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الغني قد يكون ماله محصوراً كما في السماوات والأرض الذي قدم أنه له ، والمحمود قد يكون ما يحمد عليه مضبوطاً مقصوراً أثبت أنه على غير ذلك ، بل لا حد لغناه ، ولا ضبط لمعلوماته ومقدوراته الموجبة لحمده ولا تناه ، فقال : ﴿ ولو ﴾ أي له الصفتان المذكورتان والحال أنه لو ﴿ أنّ ما في الأرض ﴾ أي كلها ، ودل على الاستغراق وتقصى كل فرد فرد من الجنس بقوله : ﴿ من شجرة ﴾ حيث وحدها ﴿ أقلام ﴾ أي والشجرة يمدها من بعدها على سبيل المبالغة سبع شجرات ، وأن ما في الأرض من بحر مداد لتلك الأقلام ﴿ والبحر ﴾ أي والحال أن البحر ، وعلى قراءة البصريين بالنصب التقدير : ولو أن البحر ﴿ يمده ﴾ أي يكون مدداً وزيادة فيه ﴿ من بعده ﴾ أي من ورائه ﴿ سبعة أبحر ﴾ فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد الذي الأرض كلها له دواة كلمات الله ﴿ ما نفدت ﴾ وكرر الاسم الأعظم تعظيماً للمقام فقال مظهراً للإشارة مع التبرك إلى عدم التقيد بشيء وإن جل : ﴿ كلمات الله ﴾ وفنيت الأقلام والمداد ، وأشار بجمع القلة مع الإضافة إلى اسم الذات إلى زيادة العظمة بالعجز عن ذلك القليل فيفهم العجز عن الكلم من باب الأولى ، ويتبع الكلمات الإبداع ، فلا تكون كلمة إلا الأحداث شأن من الشؤون

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] وعلم من ذلك نفاد الأبحر كلها لأنها محصورة ، فهي لا تفي بما ليس بمحصور ، فيا لها من عظمة لا تتناهى ! ومن كبرياء لا تجارى ، ولا تضاهى ، لا جرم كان نتيجة ذلك قوله مؤكداً لأن ادعاءهم الشريك إنكار للعزة ، وعدم البعث إنكار للحكمة : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً من غير قيد أصلاً ﴿ عزيز ﴾ أي يعجز كل شيء ولا يعجزه شيء ﴿ حكيم ﴾ يحكم ما أراده ، فلا يقدر أحد على نقضه ، ولا علم لأحد من خلقه إلا ما علمه ، ولا حكمة لأحد منهم إلا بمقدار ما أورثه ، وقد علم أن الآية من الاحتباك : ذكر الأقلام دليلاً على حذف مدادها ، وذكر السبعة في مبالغة الأبحر دليلاً على حذفها في الأشجار ، وهو من عظيم هذا الفن ، وعلم أيضاً من السياق أن المراد بالسبعة المبالغة في الكثرة لا حقيقتها ، وأن المراد بجمع القلة في " أبحر " الكثرة ، لقرينة المبالغة ، وبجمع القلة في ﴿ كلمات ﴾ حقيقتها لينتظم المعنى ، وكل ذلك سائغ شائع في لغة العرب .

(46/609)

ولما ختم بهاتين الصفتين بعد إثبات القدرة على الإبداع من غير انتهاء ، ذكر بعض آثارهما في البعث الذي تقدم أول السورة وأثناءها ذكره إلى حذرهم به في قوله " إلينا مرجعهم " فقال : ﴿ ما خلقكم ﴾ أي كلكم في عزته وحكمته إلا كخلق نفس واحدة ، وأعاد النافي نصاً على كل واحد من الخلق والبعث على حدته فقال : ﴿ ولا بعثكم ﴾ كلكم ﴿ إلا كنفس ﴾ أي كبعث نفس ، وبين الأفراد تحقيقاً للمراد ، وتأكيداً للسهولة فقال :

﴿ واحدة ﴾ فإن كلماته مع كونها غير نافدة نافذة ، وقدرته مع كونها باقية بالغة ، فنسبه القليل والكثير إلى قدرته على حد سواء ، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، ثم دل على ذلك بقوله مؤكداً لأن تكذيبهم لرسوله وردهم لما شرفهم به يتضمن الإنكار لأن يكونوا بمرأى منه ومسمع : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة الشاملة ﴿ سميع ﴾ أي بالغ السمع يسمع كل ما يمكن سمعه من المعاني في آن واحد لا يشغله شيء منها عن غيره ﴿ بصير ﴾ بليغ البصر يبصر كذلك كل ما يمكن أن يرى من الأعيان والمعاني ، ومن كان كذلك كان المحيط العلم بالغه شامل القدرة تامها ، فهو يبصر جميع الأجزاء من كل ميت ، ويسمع كل ما يسمع من معانيه ، فهو بإحاطة علمه وشمول قدرته يجمع تلك الأجزاء ، ويميز بعضها من بعض ، ويودعها تلك المعاني ، فإذا هي أنفس قائمة كما كانت أول مرة في أسرع من لمح البصر .

ولما قرر هذه الآية الخارقة ، دل عليها بأمر محسوس يشاهد كل يوم مرتين ، مع دلالته على

تسخير ما في السماوات والأرض ، وإبطال قولهم : ﴿ ما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] بأنه ، هو الذي أوجد الزمان بتحريك الأفلاك ، خاصاً بالخطاب من لا يفهم ذلك حق فهمه غيره ، أو عاماً كل عاقل ، إشارة إلى أنه في دلالته على البعث في غاية الوضوح فقال : ﴿ ألم تر ﴾ أي يا من يصلح لمثل هذا الخطاب ، ويمكن أن يكون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لا يعلم ذلك من المخلوقين حق علمه غيره .

(47/609)

ولما كان كان البعث مثل إيجاد كل من الملوين بعد إعدامه ، فكان إنكاره إنكاراً لهذا ، نبه على ذلك بالتأكيد فقال : ﴿ أن الله ﴾ أي بجلاله وعز كماله ﴿ يولج ﴾ أي يدخل إدخالاً لا مرية فيه ﴿ الليل في النهار ﴾ فيغيب فيه بحيث لا يرى شيء منه ، فإذا النهار قد عم الأرض كلها أسرع من اللمح ﴿ ويولج النهار ﴾ أي يدخله كذلك ﴿ في الليل ﴾ فيخفي حتى لا يبقى له أثر ، فإذا الليل قد طبق الآفاق : مشارقها ومغاربها في مثل الظرف ، فيميز سبحانه كلاً منهما – وهو معنى من المعاني – من الآخر بعد إضمحلاله ، فكذلك الخلق والبعث في قدرته بعزته وحكمته لبلوغ سمعه ونفوذ بصره ، ولما كان هذا معنى من المعاني يتجدد في كل يوم وليلة ، عبر فيه بالمضارع .

ولما كان النيران جرمين عظيمين قد صرفنا على طريق معلوم بقدر لا يختلف ، عبر فيهما بالماضي عقب ما هما آيتاه فقال : ﴿ وسخر الشمس ﴾ آية للنهار بدخول الليل فيه ﴿ والقمر ﴾ آية لليل كذلك ! ثم استأنف ما سخرا فيه فقال : ﴿ كل ﴾ أي منهما ﴿ يجري ﴾ أي في فلكه سائراً متمادياً وبالغاً ومنتهياً .

ولما كان محط مقصود السورة الحكمة ، وكانت هذه الدار مرتبطة بحكمة الأسباب والتطوير ، والمد في الإبداع والتسيير ، كان الموضع لحرف الغاية فقال : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ لا يتعداه في منازل معروفة في جميع الفلك لا يزيد ولا ينقص ، هذا يقطعها في الشهر مرة وتلك في السنة مرة ، لا يقدر منهما أن يتعدى طوره ، ولا أن ينقص دوره ، ولا أن يغير سيره .

(48/609)

ولما بان بهذا التدبير المحكم ، في هذا الأعظم ، شمول علمه وتمام قدرته ، عطف على " أن الله " قوله مؤكداً لأجل أن أفعالهم أفعال من ينكر علمه بها : ﴿ وأن الله ﴾ أي بما له من صفات الكمال المذكورة وغيرها ، وقدم الجار إشارة إلى تمام علمه بالأعمال كما مضت الإشارة إليه غير مرة ، وعم الخطاب بياناً لما قبله وترغيباً وترهيباً فقال : ﴿ بما تعملون ﴾

أي في كل وقت على سبيل التجدد ﴿ خبير ﴾ لا يعجزه شيء منه ولا يخفى عنه ، لأنه الخالق له كله دقه وجله ، وليس للعبد في إيجاده غير الكسب لأنه لا يعلم مقدار الحركات والسكنات في شيء منه ، ولو كان هو الموجد له لعلم ذلك لأنه لا يقدر على الإيجاد ناقص العلم أصلاً ، وكم أخبر سبحانه في كتبه وعلى لسان أنبيائه بأشياء مستقبلية من أمور العباد ، فكان ما قاله كما قاله ، لم يقدر أحد منهم أن يخالف في شيء مما قاله ، فتمت كلماته ، وصدقت إشاراته وعباراته ، وهذا دليل آخر على تمام القدرة على البعث وغيره باعتبار أن الخلائق في جميع الأرض يفوتون الحصر ، وكل منهم لا ينفك في كل لحظة عن عمل من حركة وسكون ، وهو سبحانه الموجد لذلك كله في كل أن دائماً ما تعاقب الملوان ، وبقي الزمان ، لا يشغله شأن منه على شأن ، وقد كان الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م لما خوطبوا بهذا في غاية العلم به .

لما ذكر من دليله ، ولما شاهدوا من إخبار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مغيبات تتعلق بأناس غائبين وأناس حاضرين ، منهم البعيد جداً والمتوسط والقريب ، وغير ذلك من أحوال توجب القطع لهم بذلك ، هذا علمهم فكيف يكون عالم المخصوص في هذه الآية بالخطاب ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، مع ما يشاهد من آثاره سبحانه وتعالى ، ويطلع عليه من إبداعه في ملكوت السماوات والأرض وغير ذلك مما أطلعه عليه سبحانه وتعالى من عالم الغيب والشهادة .

ولما ثبت بهذه الأوصاف الحسنى والأفعال العلى أنه لا موجد بالحقيقة إلا الله قال : ﴿ ذلك ﴾ أي ذكره لما من الأفعال الهائلة والأوصاف الباهرة ﴿ بأن ﴾ أي بسبب أن ﴿ الله ﴾ أي الذي لا عظيم سواه ﴿ هو ﴾ وحده ﴿ الحق ﴾ أي الثابت بالحقيقة وثبوت غيره في الواقع عدم ، لأنه مستفاد من الغير ، وليس له الثبوت من ذاته ، ومنه ما أشركوا به ، ولذلك أفرده بالنص ، فقال صارفاً للخطاب الماضي إلى الغيبة على قراءة البصريين وحمزة وحفص عن عاصم إيذاناً بالغضب ، وقراءة الباقين على الأسلوب الماضي ﴿ وأنَّ ما يدعون ﴾ أي هؤلاء المختوم على مداركهم ، وأشار إلى سفول رتبتهم بقوله : ﴿ من دونه ﴾ .

ولما تقدمت الأدلة الكثيرة على بطلان آلهتهم بما لا مزيد عليه ، كقوله ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ وأكثر هنا من إظهار الجلالة موضع الإضمار تنبيهاً على عظيم المقام لم تدع حاجة إلى التأكيد بضمير الفصل فقال : ﴿ الباطل ﴾ أي العدم حقاً ، لا يستحق أن تضاف إليه الإلهية بوجه من الوجوه ، وإلا لمنع من شيء من هذه الأفعال مرة من المرات ، فلما وجدت على هذا النظام علم أنه الواحد الذي لا مكافئ له .

ولما كانوا يعلونها عن مراتبها ويكبرونها بغير حق ، قال : ﴿ وأن الله ﴾ أي الملك الأعظم وحده ، ولما كان النيران مما عبد من دون الله ، وكانا قد جمعاً علواً وكبراً ، وكان ليس لهما من ذاتهما إلا العدم فضلاً عن السفول والصغر ، ختم بقوله : ﴿ هو العلي الكبير ﴾ أي عن أن يداينه في عليائه ضد ، أو يباريه في كبريائه ند . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 33.29 ﴾

(50/609)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾

لما قال تعالى : ﴿ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ وكان ذلك موهماً لتناهي ملكه لانحصار ما في السموات وما في الأرض فيهما ، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ ويكتب بها والأبحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله ، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ، ووجهها أن العجائب بقوله كن وكن كلمة وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز .

يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ، ويقال للدواء في حق المريض هذا شفاؤك ، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً لوجوده من غير أب ، فإن قال قائل الآية واردة في اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره ، فقال الذي في التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالى ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية ، وقيل أيضاً إنها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام إنك تقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] وتقول : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد ، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل ، وقيل أيضاً إنها نزلت رداً على الكفار حيث قالوا بأن ما يورده محمد سينفد ، فقال إنه كلام الله وهو لا ينفد .

(51/609)

وما ذكر من أسباب النزول ينافي ما ذكرتم من التفسير ، لأنها تدل على أن المراد الكلام ، فنقول ما ذكرتم من اختلاف الأقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا ، لأنه إذا صلح جواباً لهذه الأشياء التي ذكرتموها وهي متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافي هذا ، لأن كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الإتيان بمثله ، وإذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل

فيها كلامه ، لا يقال إنك جعلت الكلام مخلوقاً ، لأنا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب ، وأما الكلمات فهي من صفات الله تعالى واعلم أن الآية وإن كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب ، ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله ، فإنه بأمر الرسول كتب كذلك ، وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه ، ثم إن الآية فيها لطائف الأولى : قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ وحد الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل ولو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام ولا قال ولو أنما في الأرض من شجرة قلم إشارة إلى التكثير ، يعني ولو أن بعدد كل شجرة أقلاماً ، الثانية : قوله ﴿ والبحر يمده ﴾ تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ، ثم قوله : ﴿ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ إشارة إلى بحار غير موجودة ، يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر وقوله : ﴿ سَبْعَةُ ﴾ ليس لانحصارها في سبعة ، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر ، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد ، لأنها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة ، والذي يدل عليه وجوه الأول : هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان ، لأن المكان فيه الأجسام والزمان فيه الأفعال ، لكن المكان منحصر في سبعة أقاليم والزمان في سبعة أيام ، ولأن الكواكب السيارة سبعة ، وكان المنجمون ينسبون إليها أموراً ، فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في

العادة فاستعملت في كل كثير الثاني : هو أن الآحاد إلى العشرة وهي العقد الأول وما بعده يبتدىء من الآحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر ، ثم المئات من العشرات والألوف من المئات ، إذا علم هذا فنقول أقل ما يلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة ، لأنه يحتاج إلى طرفين مبدأ ومنتهى ووسط ، ولهذا يقال أقل ما يكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف ، فإذا كانت الثلاثة هو القسم الأول من العشرة التي هو العدد الأصلي تبقى السبعة القسم الأكثر ، فإذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ، ولهذا فإن المعدودات في العبادات من التسبيحات في الانتقالات في الصلوات ثلاثة ، والمرار في الوضوء ثلاثة تيسيراً للأمر على المكلف اكتفاءً بالقسم الأول ، إذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام :

" المؤمن يأكل في معى والكافر يأكل في سبعة أمعاء " إشارة إلى قلة الأكل وكثرته من غير إرادة السبعة بخصوصها ، ويحتمل أن يقال إن لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير ، ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية أبواب إشارة إلى زيادتها فإن فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها ، والذي يدل على ما ذكرنا في السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واواً ، يقول الفراء إنها واو الثمانية وليس ذلك إلا للاستئناف لأن العدد بالسبعة يتم في العرف ، ثم بالثامن استئناف جديد اللطيفة الثالثة : لم يقل في الأقلام المدد لوجهين أحدهما : هو أن قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ بينا أن المراد منه هو أن

يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الأقلام أكثر من الأشجار الموجودة وقوله في البحر : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ إشارة إلى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر في المعنى والثاني : هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فإنه هو النافد والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد في البحر الذي هو كالمداد .

(53/609)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ لما ذكر أن ملكوته كثيراً أشار إلى ما يحقق ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي كامل القدرة فيكون له مقدورات لا نهاية لها وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لا تصلح للإيجاد وهو حكيم كامل العلم ففي علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مداداً لما نفد ما في علمه وقدرته .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل استبعادهم للمعشر وقال : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ سميع لما يقولون بصير بما يعملون فإذاً كونه قادراً على البعث ومحيطاً بالأقوال والأفعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29)

يحتمل أن يقال : إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [لقمان : 20] على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار ﴾ وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ إشارة إلى ما في السموات ، وقوله بعد هذا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِى فِى البحر بِنِعْمَتِ الله ﴾ [لقمان : 31] إشارة إلى ما في الأرض .

(54/609)

ويحتمل أن يقال إن وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ [الجاثية : 24] والدهر هو الليالي والأيام ، قال الله تعالى هذه الليالي والأيام التي تنسبون إليها الموت والحياة هي بقدرة الله تعالى فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ ثم إن قائلاً لو قال إن ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التي هي فوق الأرض أكثر من التي تحت الأرض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس

والقمر ﴾ يعني إن كنتم لا تعترفون بأن هذه الأشياء كلها في أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة إلى الله تعالى ، فالآجال إن كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس إلا بالله وقدرته ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

إيلاج الليل في النهار يحتمل وجهين أحدهما : أن يقال المراد إيلاج الليل في زمان النهار أي يجعل في الزمان الذي كان فيه النهار الليل ، وذلك لأن الليل إذا كان مثلاً اثنتي عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجوداً في زمان كان فيه النهار وثانيهما : أن يقال المراد إيلاج زمان الليل في النهار أي يجعل زمان الليل في النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنتي عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجوداً في النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل في النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لا بد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال في الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل في زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل في النهار لأن الثاني يجعل الظرف مظروفاً .

(55/609)

إذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار ﴾ أي يوجده في وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء : 12] وقوله : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وقوله : ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ [الجاثية : 5] ومن جنسه قوله : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهي أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ في الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الأمور كالأعمى والأصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع إذ الحجر والشجر لا بصر لهما ولا سمع ولا يقال لشيء منهما إنه أصم أو أعمى إذا علم هذا فنقول ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما وإلا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شيء ، ويترتب عليه مقتضاه لا تطلب النفس له سبباً ، لأن من يرى المتعيش في السوق ، لا يقول لم دخل السوق وما يثبت على خلاف المقتضى تطلب النفس له سبباً ، كمن يرى ملكاً في السوق يقول لم دخل ، فإذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيراً ، وإذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تطلب النفس سببه وهو الليل الذي هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالباً سببه ثم ذكر بعده

الأمر الآخر .

المسألة الثانية :

قال : ﴿ يُولِجُ ﴾ بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر سخر بصيغة الماضي لأن إيلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى : ﴿ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ [ياس : 39] .

المسألة الثالثة :

(56/609)

قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لما بينا أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار ، وههنا كذلك ، لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب ، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون عجيباً .

المسألة الرابعة :

ما تعلق قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ بما تقدم ؟ نقول لما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أن ما يقع في هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله .

المسألة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه الأكثرون ، وكأنه ترك الخطاب مع غيره ، لأن من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لإصرارهم ، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ناظرون إليه الوجه الثاني : أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحداً فيقول لجمع عظيم : يا مسكين إلى الله مصيرك ، فمن نصيرك ، ولماذا تقصيرك .

فقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يكون خطاباً من ذلك القبيل أي يا أيها الغافل ألم تر هذا الأمر الواضح .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

(57/609)

ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله : ﴿ إِنَّ الله هُوَ الغنى الحميد ﴾ [لقمان : 26] وقوله : ﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : 27] وقوله : ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان : 28] وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ [لقمان : 27] وبقوله : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار ﴾ [لقمان : 29] وعلى الجملة فقوله : ﴿ هُوَ الغنى ﴾ إشارة إلى كل صفة سلبية فإنه إذا كان غنياً لا يكون عرضاً محتاجاً إلى الجوهر في

القوام ، ولا جسماً محتاجاً إلى الحيز في الدوام ، ولا شيئاً من الممكنات المحتاجة إلى الموجد ، وذكر بعده جميع الأوصاف الثبوتية صريحاً وتضمناً ، فإن الحياة في ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أي ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذي لا زوال له وهو الثبوت ، فإن المذهب الصحيح أن وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظراً إليه والله له الثبوت والوجود نظراً إليه فهو الحق وما عداه الباطل لأن الباطل هو الزائل يقال بطل ظله إذا زال وإذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاماً لا نقص فيه .

(58/609)

ثم اعلم أن الحكماء قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالصبي والمريض والأعمى (والمكتفي) وهو الذي أعطى ما يدفع به حاجته في وقته كالإنسان والحيوان الذي له من الآلات ما يدفع به حاجته في وقتها لكنها في التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له ، وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئاً كما قال جبريل عليه السلام " لو دنوت أنملة لاحترقت " لقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ

لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] (وفوق التمام) هو الذي حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له أو احتاج إليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال ، فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام إذا ثبت هذا فنقول قوله : ﴿ هُوَ الحق ﴾ إشارة إلى التمام وقوله : ﴿ وَأَنَّ الله هُوَ العلى الكبير ﴾ أي فوق التمام وقوله : ﴿ وَهُوَ العلى ﴾ أي في صفاته وقوله : ﴿ الكبير ﴾ أي في ذاته وذلك ينافي أن يكون جسماً في مكان لأنه يكون حينئذ جسداً مقدراً بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض لكنه كبير من مطلقاً أكبر من كل ما يتصور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 137 . 141 ﴾

(59/609)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَو أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ . . ﴾ الآية .

وفي سبب نزولها قولان :

أحدهما : ما رواه سعيد عن قتادة أن المشركين قالوا إنما هو كلام يعني القرآن يوشك أن ينفد ، فأنزل الله هذه الآية يعني أنه لو كان شجر البر أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر مداداً لتكسرت

الأقلام ونفد ماء البحور قبل أن تنفد عجائب ربي وحكمته وعلمه .

الثاني : ما رواه ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قالت له أحبار اليهود يا محمد أرأيت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] إيانا تريد أم قومك ؟ قال : " كُلٌّ لَمْ يُؤْتَ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً أَنْتُم وَهُمْ " قالوا : فإنك تتلو فيما جاءك من الله أنَّا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّهَا فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ " فنزلت هذه الآية

. ومعنى : ﴿ . . . يَمُدُّهُ . . . ﴾ أي يزيد فيه شيئاً بعد شيء فيقال في الزيادة . مددته وفي المعونة أمددته . ﴿ . . . مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ ونفاد الشيء هو فناء آخره بعد نفاد أوله فلا يقال لما فني جملة : نفد .

وفي ﴿ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ هنا أربعة أوجه :

أحدها : أنها نعم الله على أهل طاعته في الجنة .

الثاني : على أصناف خلقه .

الثالث : جميع ما قضاه في اللوح المحفوظ من أمور خلقه .

الرابع : أنها علم الله .

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يقال إنها نزلت في أُبي بن خلف وأبي الأشدين ومنبه ونبيه ابني الحجاج بن السباق قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله

خلقنا أطواراً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم تقول إنا نبعث خلقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة فأنزل الله هذه الآية لأن الله لا يصعب عليه ما يصعب على العباد وخلقه لجميع العالم كخلقه لنفس واحدة .

(60/609)

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ سميع لما يقولون ، بصير بما يفعلون .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يأخذ الصيف من الشتاء ويأخذ الشتاء من الصيف ، قاله ابن مسعود ومجاهد .

الثاني : ينقص من النهار ليجعله في الليل وينقص من الليل ليجعله في النهار ، قاله الحسن وعكرمة وابن جبير وقتادة .

الثالث : يسلك الظلمة مسالك الضياء ويسلك الضياء مسالك الظلمة فيصير كل واحد منهما مكان الآخر ، قاله ابن شجرة .

ويحتمل رابعاً : أنه يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار إذا أقبل ، ويدخل ضوء النهار في ظلمة الليل إذا أقبل ، فيصير كل واحد منهما داخلاً في الآخر .

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يعني إلى وقته في طلوعه وأفوله لا يعدوه ولا يقصر عنه ، وهو معنى قول قتادة .

الثاني : إلى يوم القيامة ، قاله الحسن .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يعني بما تعملون في الليل والنهار

. قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : هو الله الذي لا إله غيره ، قاله ابن كامل .

الثاني : أن الحق اسم من أسماء الله ، قاله أبو صالح .

الثالث : أن الله هو القاضي بالحق .

ويحتمل رابعاً : أن طاعة الله حق .

﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : الشيطان هو الباطل ، قاله مجاهد .

الثاني : ما أشركوا بالله تعالى من الأصنام والأوثان ، قاله ابن كامل .

﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ أي العلي في مكانته الكبير في سلطانه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾

روي عن ابن عباس أن سبب هذه الآية أن اليهود قالت يا محمد كيف عنينا بهذا القول ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : 85] ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله تعالى وأحكامه وعندك أنها تبيان كل شيء ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " التوراة قليل من كثير " ونزلت هذه الآية ، وهذا هو القول الصحيح ، والآية مدنية وقال قوم : سبب الآية أن قريشا قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينجسر فنزلت هذه الآية ، وقال السدي : قالت قريش ما أكثر كلام محمد فنزلت .

قال الفقيه الإمام القاضي : والغرض منها الإعلام بكثرة كلمات الله تعالى وهي في نفسها غير متناهية وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ، وأيضاً فإن الآية إنما تضمنت أن ﴿ كلمات الله ﴾ لم تكن لتنفد ، وليس تقتضي الآية أنها تنفد بأكثر من هذه " الأقلام " والبحور ، قال أبو علي : المراد ب " الكلمات " والله أعلم ما في المقدور دون ما أخرج منه إلى الوجود ، وذهبت فرقة إلى أن " الكلمات " هنا إشارة إلى المعلومات .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا قول ينحو إلى الاعتزال من حيث يرون في الكلام أنه مخلوق وهذه الآية بحر نظر ، نور الله تعالى قلوبنا بهداه ، وقرأ أبو عمرو وحده من السبعة وابن أبي إسحاق وعيسى " والبحرَ " بالنصب عطفاً على " ما " التي هي اسم " أن " ، وقرأ جمهور الناس و" البحرُ " بالرفع على أنه ابتداء وخبره في الجملة التي بعده لأن تقديرها هذه ، حاله كذا ، قدرها سيبويه وقال بعض النحويين هو عطف على " أن " لأنها في موضع رفع بالابتداء ، وقرأ جمهور الناس "يَمده " من مد وقرأ الحسن بن أبي الحسن "يُمده " من أمد ، وقالت فرقة هما بمعنى واحد ، وقالت فرقة مد الشيء بعضه بعضاً وأمد الشيء ما ليس منه ، فكأن " الأبحر السبعة " المتوهمة ليست من ﴿ البحر ﴾ الموجود ، وقرأ جعفر بن محمد " والبحر مداده " وهو مصدر ، وقرأ ابن مسعود " وبحر يمده " ، وقرأ الحسن " ما نفد كلام الله " ، ثم ذكر تعالى أمر الخلق والبعث أنه في الجميع وفي شخص واحد بالسواء لأنه كله بكن فيكون قاله مجاهد .

وحكى النقاش أن هذه الآية في أبي بن خلف وأبي الأسود ونبيه ومنبه ابني الحجاج وذلك أنهم قالوا يا محمد إنا نرى الطفل يخلق بتدرج وأنت تقول الله يعيدنا دفعة واحدة فنزلت الآية

بسببهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

(63/609)

هذا تنبيه خوطب به محمد صلى الله عليه وسلم والمراد به جميع العالم ، وهذه عبرة تدل على الخالق المخترع أن يكون الليل بتدرج والنهار كذلك فما قصر من أحدهما زاد في الآخر ثم بالعكس ينقسم بحكمة بارىء العالم لا رب غيره ، و﴿ يولج ﴾ معناه يدخل ، و" الأجل المسمى " القيامة التي تنتقض فيها هذه البنية وتكور الشمس ، وقرأ جمهور القراء " بما تعملون " بالتاء من فوق ، وقرأ عباس عن أبي عمرو " يعلمون " بالياء ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ الإشارة ب ﴿ ذلك ﴾ إلى هذه العبرة وما جرى مجراها ، ومعنى ﴿ هو الحق ﴾ أي صفة الألوهية له حق ، فيحسن في القول تقدير ذو ، وذلك الباب متى أخبر بمصدر عن عين فالتقدير ذو كذا وحق مصدر منه قول الشاعر :

فإنما هي إقبال وإدبار . . . وهذا كثير ومتى قلت كذا وكذا حق فإنما معناه اتصاف كذا بكذا حق ، وقوله ﴿ وأن ما تدعون من دونه ﴾ يصح أن يريد الأصنام وتكون بمعنى الذي ويكون الإخبار عنها ب ﴿ الباطل ﴾ على نحو ما قدمناه في ﴿ الحق ﴾ ، ويصح

أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية كأنه قال وأن دعاءكم من دونه آلهة الباطل أي الفعل الذي لا يؤدي إلى الغاية المطلوبة به ، وقرأ الجمهور " تدعون " بالتاء من فوق ، وقرأ " يدعون " بالياء ابن وثاب والأعمش وأهل مكة ورويت عن أبي عمرو ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(64/609)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾

لما احتجّ على المشركين بما احتجّ بيّن أن معاني كلامه سبحانه لا تنفد ، وأنها لا نهاية لها .

وقال القَفّال : لما ذكر أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض وأنه أسبغ النعم نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً ، والبحار مداداً فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب .

قال القُشَيْرِيّ : فردّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات ، وحملُ الآية على الكلام القديم أوْلى ؛ والمخلوق لا بدّ له من نهاية ، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفي النهاية عما يقدّر في المستقبل على إيجاده ، فأما ما حصره الوجود وعدّه فلا بدّ من تناهيه ، والقديمُ لا

نهاية له على التحقيق .

وقد مضى الكلام في معنى "كَلِمَاتُ اللَّهِ" في آخر "الكهف" .

وقال أبو عليّ : المراد بالكلمات والله أعلم ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود .

وهذا نحو مما قاله القَفّال ، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غير متناهية ، وإنما قرّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ؛ لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور .

ومعنى نزول الآية : يدلّ على أن المراد بالكلمات الكلام القديم .

قال ابن عباس : إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت : يا محمد ، كيف عُنينا بهذا القول ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان كل شيء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التوراة قليل من كثير " ونزلت هذه الآية ، والآية مدنية .

(65/609)

قال أبو جعفر النحاس : فقد تبيّن أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه عز وجل علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من كل شيء ، وعلم ما

فيه من مثاقيل الذرّ ؛ وعلم الأجناس كلّها وما فيها من شعرة وعضو ، وما في الشجرة من ورقة ، وما فيها من ضروب الخلق ، وما يتصرف فيه من ضروب الطّعم واللون ؛ فلو سَمّى كل دابة وحدها ، وسَمَى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوّلت عليه من الأحوال ، وما زاد فيها في كل زمان ، وبيّن كلّ شجرة وحدها وما تفرّعت إليه ، وقدّر ما ييبس من ذلك في كل زمان ، ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها ، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر .

قلت : هذا معنى قول القفال ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى .

وقال قوم : إن قريشاً قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر ؛ فنزلت .

وقال السديّ : قالت قريش ما أكثر كلام محمد ! فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء ، وخبره في الجملة التي بعدها ، والجملة في موضع الحال ؛ كأنه قال : والبحر هذه حاله ؛ كذا قدّرها سيبويه .

وقال بعض النحويين : هو عطف على "أنّ" لأنها في موضع رفع بالابتداء .

وقرأ أبو عمرو وابن إسحاق : "وَالْبَحْرَ" بالنصب على العطف على "ما" وهي اسم "أنّ" .

وقيل : أي ولو أن البحر يمدّه أي يزيد فيه .

وقرأ ابن هُرْمُز والحسن : "يمدّه" ؛ من أمدّ .

قالت فرقة : هما بمعنًى واحد .

وقالت فرقة : مدّ الشيء بعضه بعضاً ؛ كما تقول : مدّ النيل الخليج ؛ أي زاد فيه .

وأمدّ الشيء ما ليس منه .

وقد مضى هذا في "البقرة .

وآل عمران" .

وقرأ جعفر بن محمد : "والبحر مداده" .

﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ تقدم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم أيضاً .

(66/609)

وقال أبو عبيدة : البحر هاهنا الماء العذب الذي ينبت الأقلام ، وأما الماء الملح فلا ينبت الأقلام .

قوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال الضحاك : المعنى ما ابتداء خلقكم جميعاً إلا كخلق نفس واحدة ، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة .

قال النحاس : وهكذا قدّره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة ؛ مثل : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

وقال مجاهد : لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون .

ونزلت الآية في أُبَيّ بن خلف وأبي الأسدين ومُنَبّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق ، قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد خلقنا أطواراً ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عِظاماً ، ثم تقول إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة ! فأنزل الله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد ، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة .

﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لما يقولون ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بما يفعلون .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ تقدم في "الحج وآل عمران" .

﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ أي ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع .

﴿ كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال الحسن : إلى يوم القيامة .

قتادة : إلى وقته في طلوعه وأفوله لا يَعْدُوه ولا يَقْصُر عنه .

﴿ وَأَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي مَن قدر على هذه الأشياء فلا بدّ من أن يكون عالماً بها ، والعالم بها عالم بأعمالكم .

وقراءة العامة "تَعْمَلُونَ" بالتاء على الخطاب .

وقرأ السُّلَمِيّ ونصر بن عاصم والدُّورِيّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر .

(67/609)

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقرّوا ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل ﴾ أي الشيطان ؛ قاله مجاهد .

وقيل : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان .

﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلي الكبير ﴾ العليّ في مكانته ، الكبير في سلطانه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(68/609)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

﴿ سخر لكم ﴾ : تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع من تسخير ﴿ ما في السموات

﴾ : من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب ؛ ﴿ وما في الأرض ﴾ : من الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والبحار ، وغير ذلك ؛ وذلك لا يكون إلا بمسخر من مالك متصرف كما يشاء .

وقرأ ابن عباس ، ويحيى بن عمارة : وأصبغ بالصاد ، وهي لغة لبني كلب ، يبدلونها من السين ، إذا جامعت الغين أو الخاء أو القاف صاداً ؛ وباقي القراء : بالسين على الأصل .

وقرأ الحسن ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص : ﴿ نعمه ﴾ ، جمعاً مضافاً للضمير ؛ وباقي السبعة ، وزيد بن علي : نعمة ، على الإفراد .

والظاهر أنه يراد بالنعمة الظاهرة : الإسلام ، والباطنة : الستر .

وعن الضحاك ، الظاهرة : حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء ، والباطنة : المعرفة .

وقيل : الظاهرة : البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح ، والباطنة : القلب والعقل والفهم .

والذي ينبغي أن يقال : إن الظاهرة مما يدرك بالمشاهدة ، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل ، أو لا يعلم أصلاً .

فكم من نعمة في بدن الإنسان لا يعلمها ، ولا يهتدي إلى العلم بها ؟ وانتصب ﴿ ظاهرة ﴾ على الحال من ﴿ نعمه ﴾ ، الجمع على الصفة ، ومن نعمة على الإفراد .

وتقدم الكلام على : ﴿ ومن الناس ﴾ إلى : ﴿ منير ﴾ ، في الحج ، وعلى ما بعده إلى : ﴿ آباءنا ﴾ ، في نظيره في البقرة .

﴿ أولو ﴾ : كان تقديره : أيتبعونهم في أحوالهم ؟ وفي هذه الحال التي لا ينبغي أن لا يتبع فيها الآباء ؟ لأنها حال تلف وعذاب .

(69/609)

وقد تقدم لنا أن مثل هذا التركيب الذي فيه ولو ، إنما يكون في الشيء الذي كان ينبغي أن لا يكون ، نحو : اعطوا السائل ولو جاء على فرس ، ردوا السائل ولو بظلف محرق ، ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ وكذلك هذا ، كان ينبغي من دعا إلى عذاب السعير أن لا يتبع .

وقرأ الجمهور :

﴿ ومن يسلم ﴾ ، مضارع أسلم ؛ وعلي ، والسلمي ، وعبد الله بن مسلم بن يسار : بتشديد اللام ، مضارع سلم ، وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة في البقرة ، والمراد : التفويض إلى الله .

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ : تقدم الكلام عليه في البقرة .

وقال الزمخشري ، من باب التمثيل : مثلت حال المتوكل بحال من تدلى من شاهق ، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه . انتهى .

ولما ذكر حال الكافر المجادل ، ذكر حال المسلم ، وأخبر بأن منتهى الأمور صائرة إليه .

وقال ابن عطية : والعروة : موضع التعليق ، فكأن المؤمن متعلق بأمر الله ، فشبه ذلك بالعروة .

وسلى رسوله بقوله : ﴿ ومن كفر ﴾ ، إلى آخره ، وشبه إلزام العذاب وإرهاقهم إليه باضطرار من يضطر إلى الشيء الذي لا يمكنه دفعه ، ولا الإنفكاك منه .

والغلظ يكون في الإجرام ، فاستعير للمعنى ، والمراد : الشدة .

﴿ ليقولنّ الله ﴾ : أقام الحجة عليهم بأنهم يقرون بأن الله هو خالق العالم بأسره ، ويدعون مع ذلك إلهاً غيره .

﴿ قل الحمد لله ﴾ على ظهور الحجة عليهم .

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ : إضراب عن مقدر ، تقديره : ليس دعواهم ، نحو : لا يعلمون أن ما ارتكبوه من ادعاء إله غير الله لا يصح ، ولا يذهب إليه ذو علم .

ثم أخبر أنه مالك للعالم كله ، وأنه هو الغني ، فلا افتقار له لشيء من الموجودات .

﴿ الحميد ﴾ : المستحق الحمد على ما أنشأ وأنعم .

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ : تقدم في أول السورة سبب نزول هذه الآية .

ولما ذكر تعالى أن ما في السموات والأرض ملك له ، وكان ذلك متناهياً ، بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها ، فقال : ﴿ ولو أن ما في الأرض ﴾ ، وأن بعد لو في موضع رفع على الفاعلية ، أي لو وقع أو ثبت على رأي المبرد ، أو في موضع مبتدأ محذوف الخبر على رأي غيره ، وتقرر ذلك في علم النحو .

و﴿ من شجرة ﴾ : تبيين لما ، وهو في التقرير في موضع الحال من الضمير الذي في الجار والمجرور المنتقل من العامل فيه ، وتقديره : ولو أن الذي استقر في الأرض كائناً من شجرة وأقلام خبر لأن ، وفيه دليل على بطلان دعوى الزمخشري وبعض العجم ممن ينصر قوله : إن خبر أن الجائية بعد لو لا يكون اسماً جامداً ولا اسماً مشتقاً ، بل يجب أن يكون فعلاً ، وهو قول باطل ، ولسان العرب طافع بالزيادة عليه .

قال الشاعر :

ولو أنها عصفورة لحسبتها . . .

مسومة تدعو عبيداً وأيماً

وقال الآخر :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر . . .

تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

وقال آخر :

ولو أن حياً فائت الموت فاته . . .

أخو الحرب فوق القارح القدوان

وهو كثير في لسانهم .

والظاهر أن الواو في قوله : ﴿ والبحر ﴾ ، في قراءة من رفع ، وهم الجمهور ، واو الحال ؛ والبحر مبتدأ ، و ﴿ يمده ﴾ الخبر ، أي حال كون البحر ممدوداً .

وقال الزمخشري : عطفاً على محل إن ومعمولها على ولو ، ثبت كون الأشجار أقلاماً ، وثبت أن البحر ممدوداً بسبعة أبحر . انتهى .

وهذا لا يتم إلا على رأي المبرد ، حيث زعم أن ﴿ أن ﴾ في موضع رفع على الفاعلية .

وقال بعض النحويين : هو عطف على أن ، لأنها في موضع رفع بالإبتداء ، وهو لا يتم إلا على رأي من يقول : إن أن بعد لو في موضع رفع على الابتداء ، ولولا يليها المبتدأ اسماً صريحاً إلا في ضرورة شعر ، نحو قوله :

لو بغير الماء حلقي شرق . . .

كنت كالغصان بالماء اعتصاري

فإذا عطفت والبحر على أن ومعموليها ، وهما رفع بالابتداء ، لزم من ذلك أن لو يليها الاسم مبتدأ ، إذ يصير التقدير : ولو البحر ، وذلك لا يجوز إلا في الضرورة ، إلا أنه قد يقال : إنه يجوز في المعطوف عليه نحو : رب رجل وإخيه يقولان ذلك .

وقرأ عبد الله : وبحر يمده ، بالتنكير بالرفع ، والواو للحال ، أو للعطف على ما تقدم ؛ وإن كانت الواو واو الحال ، كان بحر ، وهو نكرة ، مبتدأ ، وذكروا في مسوغات الابتداء بالنكرة أن تكون واو الحال تقدمته ، نحو قوله :

سرينا ونجم قد أضاء فقد بدا . . .

محياك أخفى ضوؤه كل شارق

وقرأ الجمهور : ﴿ يمده ﴾ بالياء ، من مد ؛ وابن مسعود ، وابن عباس : بتاء التأنيث ، من مد أيضاً ؛ وعبد الله أيضاً ، والحسن ، وابن مطرف ، وابن هرمز : بالياء من تحت ، من أمد ؛ وجعفر بن محمد : والبحر مداده ، أي يكتب به من السواد .

وقال ابن عطية : هو مصدر . انتهى .

﴿ من بعده ﴾ : أي من بعد نفاد ما فيه ، ﴿ سبعة أبحر ﴾ : لا يراد به الاقتصار على

هذا العدد ، بل جيء للكثرة ، كقوله : المؤمن من يأكل في معي واحد ، والكافر في سبعة أمعاء ، لا يراد به العدد ، بل ذلك إشارة إلى القلة والكثرة .

ولما كان لفظ سبعة ليس موضوعاً في الأصل للتكثير ، وإن كان مراداً به التكثير ، جاء مميزه بلفظ القلة ، وهو أبحر ، ولم يقل بحور ، وإن كان لا يراد به أيضاً إلا التكثير ، ليناسب بين اللفظين .

فكما يجوز في سبعة ، واستعمل للتكثر ، كذلك يجوز في أبحر ، واستعمل للتكثير .

وفي الكلام جملة محذوفة يدل عليها المعنى ، وكتب بها الكتاب كلمات الله .

﴿ ما نفدت ﴾ ، والمعنى : ولو أن أشجار الأرض أقلام ، والبحر ممدود بسبعة أبحر ، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ، ﴿ ما نفدت ﴾ ، ونفدت الأقلام والمداد الذي في البحر وما يمده ، كما قال : ﴿ لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ﴾ الآية .

(72/609)

وقال الزمخشري : فإن قلت : زعمت أن قوله : ﴿ والبحر يمده ﴾ ، حال في أحد وجهي الرفع ، وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال ، قلت : هو كقوله :

وقد اغتدي والطير في وكناتها . . .

وجئت والجيش مصطف ، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف .

يجوز أن يكون المعنى : وبحرها ، والضمير للأرض . انتهى .

وهذا الذي جعله سؤالاً وجواباً من واضح النحو الذي لا يجهله المبتدئون فيه ، وهو أن الجملة الإسمية إذا كانت حالاً بالواو ، لا يحتاج إلى ضمير يربط ، واكتفى بالواو فيها .

وأما قوله : وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف ، فليس بجيد ، لأن الظرف إذا وقع حالاً ، ففي العامل فيه ضمير ينتقل إلى الظرف .

والجملة الاسمية إذا كانت حالاً بالواو ، فليس فيها ضمير منتقل .

وأما قوله : ويجوز ، فلا يجوز إلا على رأي الكوفيين ، حيث يجعلون أل عوضاً من الضمير .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل : ﴿ من شجرة ﴾ ، على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر ؟ قلت : أريد تفصيل الشجر ونقضها شجرة شجرة ، حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا قد بريت أقلاماً .

انتهى .

وهذا النوع هو مما أوقع فيه المفرد موقع الجمع ، والنكرة موقع المعرفة ، ونظيره : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة ﴾ وكقول العرب : هو أول فارس ، وهذا أفضل عالم ، يريد من الآيات ومن الرحمات ومن الدواب ، وأول الفرسان .

أخبروا بالمفرد والنكرة ، وأرادوا به معنى الجمع المعرف بأل ، وهو مهيع في كلام العرب معروف .

وكذلك يتقدر هذا من الشجرات ، أو من الأشجار .

وفي هذا الكلام من المبالغة في تكثير الأقلام والمداد ما ينبغي أن يتأمل ، وذلك أن الأشجار مشتمل كل واحدة منها على الأغصان الكثيرة ، وتلك الأغصان كل غصن منها يقطع على قدر القلم ، فيبلغ عدد الأقلام في التناهي إلى ما لا يعلم به ، ولا يحيط إلا الله تعالى .

(73/609)

وقرأ الجمهور : ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ ، بالألف والتاء .

وقرأ زيد بن علي : كلمة الله ، على التوحيد .

وقرأ الحسن : ما نفد ، بغير تاء ، كلام الله .

قال أبو علي : المراد بالكلمات ، والله أعلم : ما في المعدوم دون ما خرج من العدم إلى الوجود .

وقالت فرقة : المراد بكلمات الله : معلوماته .

وقال الزمخشري : فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والمواضع مواضع التكثير لا التقليل ، فهلا

قيل : كلم الله ؟ قلت : معناه أن كلماته لا تفي بكتبها البحار ، فكيف بكلمة ؟ انتهى .

وعلى تسليم أن كلمات جمع قلة ، فجموع القلة إذا تعرفت بالألف واللام غير العهدية ، أو أضيفت ، عمت وصارت لا تخص القليل ، والعام مستغرق لجميع الأفراد .

﴿ إن الله عزيز ﴾ : كامل القدرة ، فمقدوراته لا نهاية لها .

﴿ حكيم ﴾ : كامل العلم ، فمعلوماته لا نهاية لها .

ولما ذكر تعالى كمال قدرته وعلمه ، ذكر ما يبطل استبعادهم للحشر .

﴿ إلا كنفس واحدة ﴾ : إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتي : كونوا فيكونون ، فالقليل والكثير ، والواحد والجمع ، لا يتفاوت في قدرته .

وقال النقاش : هذه الآية في أبيّ بن خلف ، وأبي الأسد ، ونبيه ومنبه ابني الحجاج ، قالوا : يا محمد : إنا نرى الطفل يخلق بتدريج ، وأنت تقول : الله يعيدنا دفعة واحدة ، فنزلت .

﴿ إن الله سميع بصير ﴾ : سميع كل صوت ، بصير كل مبصر في حالة واحدة ، لا يشغله إدراك بعضها عن بعض ، فكذلك الخلق والبعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(74/609)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾

أي لو أن الأشجارَ أقلامٌ وتوحيدُ الشَّجرةِ لما أنَّ المراد تفصيلُ الآحادِ ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعدِ نفاده ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ أي والحالُ أنَّ البحرَ المحيطَ بسعته يمدُّه الأبحرُ السبعةُ مدّاً لا ينقطعُ أبداً وكتبتْ بتلك الأقلامِ وبذلك المدادِ كلماتُ الله ﴿ مَا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ ونفدتْ تلك الأقلامُ والمدادُ كما في قوله تعالى : ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات ربّى ﴾ وقُرِىء يُمدُّه من الإمدادِ بالياء والتاءِ . وإسنادُ المدّ إلى الأبحرِ السَّبعةِ دونَ البحرِ المحيطِ مع كونِه أعظمَ منها وأطمَّ لأنَّها هي المجاورةُ للجبالِ و منابعِ المياه الجاريةِ وإليها تنصبُّ الأنهارُ العظامُ أولاً ومنها ينصبُّ إلى البحرِ المحيطِ ثانياً . وإيثارُ جمعِ القلَّةِ في الكلماتِ للإيذانِ بأنَّ ما ذُكر لا يَفي بالقليلِ منها فكيفَ بالكثيرِ ﴿ أَنَّ الله عَزِيزٌ ﴾ لا يُعجزه شيءٌ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يخرجُ عن علمِه وحكمتِه أمرٌ فلا تنفذُ كلماتُه المؤسسةُ عليهما ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ أي إلا كخلقِها وبعثِها في سهولةِ التَّأتِّي إذ لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ لأن مناطَ وجودِ الكلِّ تعلقُ إرادتِه الواجبةِ مع قدرتِه الذاتيَّةِ حسبما يفصحُ عنه قولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ يسمعُ كلَّ مسموعٍ ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يبصرُ كلَّ مبصرٍ لا يشغلُه علمُ بعضِها عن علمِ بعضٍ فكذلك الخلقُ والبعثُ .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ قيل : الخطابُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم وقيل : عامٌّ لكلِّ أحدٍ ممّن يصلحُ للخطابِ وهو الأوفقُ لما سبقَ وما لحقَ أي ألم تعلم علماً قويّاً جارياً مجرى الرؤيةِ ﴿ أَنَّ اللهَ يُولِجُ الليلَ فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ أي يُدخل كلَّ واحدٍ منهما في الآخرِ ويضيفه إليه فيتفاوتُ بذلك حالُه زيادةً ونقصاناً ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ عطفٌ على يُولج والاختلافُ بينهما صيغة لما أنَّ إيلاجَ أحد المَلَوين في الآخرِ متجددٌ في كلِّ حينٍ ، وأما تسخيرُ النَّيِّرينِ فأمرٌ لا تعددَ فيه ولا تجددَ وإنَّما التعدُّدُ والتجدّد في آثارِه وقد أُشير إلى ذلك حيثُ قيل ﴿ كُلٌّ يَجْرِى ﴾ أي بحسبِ حركتِه الخاصَّة وحركتِه القسريةِ على المداراتِ اليوميةِ المتخالفةِ المتعددةِ حسب تعددِ الأيّامِ جريا مستمراً ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قدَّره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامةِ كما رُوي عن الحسنِ رحمه الله : فإنَّه لا ينقطعُ جريُهما إلا حينئذٍ والجملةُ على تقدير عمومِ الخطاب اعتراضٌ بين المعطوفينِ لبيانِ الواقعِ بطرقِ الاستطرادِ ، وعلى تقديرِ اختصاصِه به عليه الصَّلاة والسَّلام يجوزُ أن يكونَ حالاً من الشَّمسِ والقمرِ فإنَّ جريانَهما إلى يومِ القيامةِ من جُملةِ ما في حيّزِ رؤيتِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ هذا وقد جُعل جريانُهما عبارةً عن حركتِهما الخاصَّة بهما في فلكِهما والأجلُ

المسمَّى عن منتهى دورِتهما وجُعل مَّدةُ الجريانِ للشمسِ سنة وللقمرِ شهراً فالجملةُ حينئذٍ بيان لحكمِ تسخيرِهما وتنبيهٌ على كيفيَّةِ إيلاجِ أحدِ المَلَوين في الآخرِ وكونِ ذلك بحسبِ اختلافٍ جَرَيانِ الشَّمسِ على مَدَاراتِها اليوميَّةِ فكُلما كان جريانُها متوجهاً إلى سمتِ الرَّأسِ تزدادُ القوسُ التي هي فوق الأرضِ كبراً فيزدادُ النَّهارُ طُولاً بإنضمامِ بعضِ أجزاءِ الليلِ إليهِ إلى أنْ يبلغَ المدارَ الذي هو

(76/609)

أقربُ المداراتِ إلى سمتِ الرَّأسِ وذلك عند بلوغِها رأسِ السَّرطانِ ثم ترجعُ متوجهةً إلى التباعدِ عن سمتِ الرَّأسِ قلا تزال القِسيُّ التي هي فوقَ الأرضِ تزدادُ صغراً فيزدادُ النَّهارُ قِصراً بانضمامِ بعضِ أجزائه إلى اللَّيلِ إلى أنْ يبلغَ المدارَ الذي هو أبعدُ المداراتِ اليوميةِ عن سمتِ الرأسِ وذلك عندَ بلوغِها برجَ الجَدي .

وقولُه تعالى ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عطفٌ على أنَّ اللهَ يُولج الخ داخلٌ معه في حيّزِ الرؤيةِ على تقديري خصوصِ الخطابِ وعمومه فإنَّ مَن شاهدَ مثلَ ذلك الصُّنعِ الرَّائقِ والتَّدبيرِ الفائقَ لا يكادُ يغفلُ عن كونِ صانعِه عزَّ وجلَّ محيطاً بجلائلِ أعمالِه ودقائقِها

(77/609)

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما تُلي من الآياتِ الكريمةِ ، وما فيهِ من مَعْنى البعدِ للإيذانِ ببُعد منزلتِها في الفضلِ وهُو مبتدأٌ خبرُه قولُه تعالى ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ أي بسببِ بيانِ أنَّه تعالى هو الحقُّ إلهيَّته فقط ولأجلِه لكونِها ناطقةً بحقيةِ التَّوحيدِ ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل ﴾ أي ولأجلِ بيانِ بطلانِ آلهيّةِ ما يدعونَه من دونِه تعالى لكونِه شاهدةً بذلك شهادةً بينةً لا ريبَ فيها . وقُرِئ بالتَّاءِ والتَّصريحُ بذلك مع أنَّ الدّلالةَ على اختصاصِ حقَّيةِ الإلهيةِ به تعالى مستتبعةٌ للدّلالةِ على بُطلانِ إلهيّةِ ما عداهُ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بأمرِ التَّوحيدِ وللإيذانِ بأنَّ الدّلالةَ على بُطلانِ ما ذُكر ليستْ بطريقِ الاستتباعِ فقط بلْ بطريقِ الاستقلالِ أيضاً . ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلى الكبير ﴾ أي وبيانُ أنَّه تعالى هو المترفعُ عن كلِّ شيءٍ المتسلطُ عليه فإنَّ ما في تضاعيفِ الآياتِ الكريمةِ مبيّنٌ لاختصاصِ العلوِّ والكبرياءِ به تعالى أيّ بيانٍ . هذا وقيل : ذلك أيْ ما ذُكر من سَعةِ العلمِ وشمولِ القُدرةِ وعجائبِ الصُّنعِ تعالى واختصاصِ الباري تعالى به بسببِ أنَّه الثَّابتُ في ذاتِه الواجبُ من جميعِ جهاتِه أَو الثابتُ إلهيّتُه ، وأنتَ خبيرٌ بأنَّ حقَّيته تعالى وعلوَّه وكبرياءَهُ وإنْ كانتْ صالحةً لمناطيةِ ما ذُكر من الأحكامِ المعدودةِ لكنّ بطلانَ إلهية الأصنامِ لا دخلَ له في المناطيَّةِ قطعاً فلا مساغَ لنظمِه في سلكِ الأسبابِ بل هو تعكيسٌ للأمرِ ضرورةَ أنَّ الأحكامَ المذكورةَ هي المقتضيةُ لبطلانِها لا أنَّ بطلانَها يقتضيها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾

أي لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلاما فإن وما بعدها فاعل ثبت مقدر بقرينة كون ﴿ إن ﴾ دالة على الثبوت والتحقق وإلى هذا ذهب المبرد ، وقال سيبويه : إن ذلك مبتدأ مستغن عن الخبر لذكر المسند والمسند إليه بعده ، وقيل : مبتدأ خبره مقدر قبله ، وقال ابن عصفور : بعده : و ﴿ مَّا فِى الأرض ﴾ اسم أن و ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ بيان لما أو للضمير العائد إليها في الظرف فهو في موضع الحال منها أو منه أي ولو ثبت أن الذي استقر في الأرض كائناً من شجرة ، و ﴿ أَقْلاَمٌ ﴾ خبر أن قال أبو حيان : وفيه دليل دعوى الزمخشري وبعض العجم ممن ينصر قوله : إن خبر أن الجائة بعد لو لا يكون إسماً جامداً ولا إسماً مشتقاً بل يجب أن يكون فعلاً وهو باطل ولسان العرب طافح بخلافه ، قال الشاعر :

ولو أنها عصفورة لحسبتها . . .

مسومة تدعو عبيداً وأزنماً

وقال آخر :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر . . .

تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

(79/609)

إلى غير ذلك ، وتعقب بأن اشتراط كون خبرها فعلاً إنما هو إذا كان مشتقاً فلا يرد ﴿ أَقْلَامٌ ﴾ هنا ولا ما ذكر في البيتين ، وأما قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ ﴾ [الأحزاب : 20] فلو فيه للتمني والكلام في خبر أن الواقعة بعد لو الشرطية ، والمراد بشجرة كل شجرة والنكرة قد تعم في الإثبات إذا اقتضى المقام ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14] وقول ابن عباس رضي الله عنهما لبعض أهل الشام وقد سأله عن المحرم إذا قتل جرادة أيتصدق بتمرة فدية لها ؟ تمرة خير من جرادة على ما اختاره جمع ولا نسلم المنافاة بين هذا العموم وهذا التاء فكأنه قيل : ولو أن كل شجرة في الأرض أقلام الخ ، وكون كل شجرة أقلاماً باعتبار الأجزاء أو الأغصان فيؤل المعنى إلى لو أن أجزاء أو أغصان كل شجرة في الأرض أقلاماً الخ ، ويحسن إرادة العموم في نحو ما نحن فيه كون الكلام الذي وقعت فيه النكرة شرطاً بلو وللشرط .

مطلقاً قرب ما من النفي فما ظنك به إذا كان شرطاً بها وإن كانت هنا ليست بمعناها

المشهور من انتفاء الجواب لانتفاء الشرط أو العكس بل هي دالة على ثبوت الجواب أو حرف شرط في المستقبل على ما فصل في المغنى ، واختيار ﴿ شَجَرَةٍ ﴾ على أشجار أو شجر لأن الكلام عليه أبعد عن ابعتار التوزيع بأن تكون كل شجرة من الأشجار أو الشجر قلما المخل بمقتضى المقام من المبالغة بكثرة كلماته تعالى شأنه : وفي البحر أن هذا مما وقع فيه المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة ، ونظيره

(80/609)

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ [البقرة : 106] ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [فاطر : 2] ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السموات ومَا فِى والأرض مِنْ دَآبَّةٍ ﴾ [النحل : 49] وقول العرب : هذا أول فارس وهذا أفضل عالم يراد من الآيات ومن الرحمات ومن الدواب وأول الفرسان وأفضل العلماء ذكر المفرد النكرة وأريد به معنى الجمع المعرف باللام وهو مهيع في كلام العرب معروف وكذلك يقدر هنا من الشجرات أو من الأشجار اه فلا تغفل .

وقال الزمخشري : إنه قال سبحانه ﴿ شَجَرَةٍ ﴾ على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر لأنه أريد تفصيل الشجر شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحد إلا وقد بريت أقلاماً .

وتعقب بأن إفادة المفرد التفصيل بدون تكرار غير معهود والمعهود إفادته ذلك بالتكرير نحو جاؤوني رجلاً رجلاً فتأمل ، واختيار جمع القلة في ﴿ أَقْلَامٌ ﴾ مع أن الأنسب للمقام جمع الكثرة لأنه لم يعهد للقلم جمع سواه وقلام غير متداول فلا يحسن استعماله ﴿ والبحر ﴾ أي المحيط فأل للعهد لأنه المتبادر ولأنه الفرد للكامل إذ قد يطلق على شعبه وعلى الإنهار العظام كدجلة والفرات ، وجوز إرادة الجنس ولعل الأول أبلغ ﴿ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نفاده وقيل من ورائه ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ مفروضة كل منها مثله في السعة والإحاطة وكثرة الماء ، والمراد بالسبعة الكثرة بحيث تشمل المائة والألف مثلاً لا خصوص العدد المعروف كما في قوله عليه الصلاة والسلام : "المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء" واختيرت لها لأنها عدد تام كما عرفت عند الكلام في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : 169] وكثير من المعدودات التي لها شأن كالسماوات والكواكب السيارة والأقاليم الحقيقة وأيام الأسبوع إلى غير ذلك منحصر في سبع فلعل في ذكرها هنا دون سبعين المتجوز به عن الكثرة أيضاً رمزاً إلى شأن كون تلك الأبحر عظيمة ذات شأن ولما لم تكن موضوعة في الأصل لذلك بل للعدد المعروف القليل جاء تمييزها أبحر

بلفظ القلة دون بحور وإن كان لا يراد به إلا الكثرة ليناسب بين اللفظين فكما تجوز في السبعة واستعملت للتكثير تجوز في أبحر واستعمل فيه أيضاً ، وكان الظاهر بعد جعل ما في الأرض من شجرة أقلام أن يقال : والبحر مداد لكن جيء بما في النظم الجليل لأن يمده يغنى عن ذكر المداد لأنه من قولك : مد الدواة وأمدها أي جعلها ذات مداد وزاد في مدادها ففيه دلالة على المداد مع ما يزيد في المبالغة وهو تصوير الإمداد المستمر حالاً بعد حال كما تؤذن به صيغة المضارع فأفاد النظم الجليل جعل البحر المحيط بمنزلة الدواة وجعل أبحر سبعة مثله مملوءة

(82/609)

مداداً فهي تصب فيه مدادها أبداً صبا لا ينقطع ، ورفع ﴿ البحر ﴾ على ما استظهره أبو حيان فيه على الابتداء وجملة يمده خبره والواو للحال والجملة حال من الموصول أو الضمير الذي في صلته أي لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلاماً في حال كون البحر ممدوداً بسبعة أبحر ، ولا يضر خلو الجملة عن ضمير ذي الحال فإن الواو يحصل بها من الربط ما لا يتقاعد عن الضمير لدلالتها على المقارنة ، وأشار الزمخشري إلى أن هذه الجملة وما أشبهها كقوله :

وقد اغتدى والطير في وكناتها . . .

بمنجرد فيد الأوابد هيكل

وجئت والجيش مصطف من الأحوال التي حكمها حكم الظروف لأنها في معناها إذ معنى جئت والجيش مصطف مثلاً ومعنى جئت وقد اصطفاف الجيش واحد وحيث أن الظرف يربطه بما قبله تعلقه به وإن لم يكن فيه ضمير وهو إذا وقع حالاً استقر فيه الضمير فما يشبهه كأنه فيه ضمير مستقر ، ولا يرد عليه اعتراض أبي حيان بأن الظرف إذا وقع حالاً ففي العامل فيه ضمير ينتقل إلى الظرف ، والجملة الإسمية إذا كانت حالاً بالواو فليس فيها ضمير منتقل فكيف يقال إنها في حكم الظرف .

نعم الحق أن الربط بالواو كاف عن الضمير ولا يحتاج معه إلى تكلف هذه المؤنة ، وجوز أن تكون الجملة حالاً من الأرض والعامل فيه معنى الاستقرار والرابط ما سمعت أو أل التي في ﴿ البحر ﴾ بناء على رأي الكوفيين من جواز كون أل عوضاً عن الضمير كما في قوله تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الابواب ﴾ [ص : 50] أي ولو ثبت كون الذي استقر في الأرض من شجرة أقلاماً حال كون بحرها ممدوداً بسبعة أبحر قال في الكشف : ولا بد أن يجعل ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ بياناً للضمير العائد إلى ﴿ مَا ﴾ لئلا يلزم الفصل بين أجزاء الصلة بالأجنبي .

و ﴿ البحر ﴾ على تقدير جعل أل فيه عوضاً عن المضاف إليه العائد إلى الأرض يحتمل أن يراد به المعهود وأن يراد به غيره ، وقال الطيبي : إن البحر على ذلك يعم جميع الأبحر لقرينة الإضافة ويفيد أن السبعة خارجة عن بحر الأرض وعلى ما سواه يحتمل الحصة المعهودة المعلومة عند المخاطب .

ورد بأن لا فرق بينهما بل كون بحرها للعهد أظهر لأن العهد أصل الإضافة ولا ينافيه كون الأرض شاملة لجميع الأقطار لأن المعهود البحر المحيط وهو محيط بها كلها ، وجوز الزمخشري كون رفعه بالعطف على محل أن ومعمولها ، وجملة ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ حال على تقدير لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلاماً وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر ، وتعقب بأن الدال على الفعل المحذوف هو أن وخبره على ما قرر في بابه فإذن لا يمكن افضاء المحذوف إلى المعطوف دون ملاحظة دال وفي هذا العطف إخراج عن الملاحظة ، وأجيب بأنه يحتمل في التابع ما لا يحتمل في المتبوع ، ثم لا يخفى أن العطف على هذا من عطف المفرد على المفرد لا المفرد على الجملة كما قيل إذ الظاهر أن المعطوف عليه إنما هو المصدر الواقع فاعلاً لثبت وهو مفرد لا جملة ، وجوز أن يكون العطف على ذلك أيضاً بناء على رأي من يجعله مبتدأ ، وتعقب بأنه يلزم أن يلي لو الاسم الصريح الواقع مبتدأ إذ يصير التقدير ولو البحر وذلك على ما قال أبو حيان لا يجوز إلا في ضرورة شعر نحو قوله :

لو بغير الماء حلقي شرق . . .

كنت كالغصان بالماء اعتصاري

(84/609)

وأجيب بأنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع كما في نحو رب رجل وأخيه يقولان ذلك ، وقال بعضهم : إنه يلزم على العطف السابق أن يلي لو الاسم الصريح وهو أيضاً مخصوص بالضرورة وأجاب بما أجيب وفيه عندي تأمل ، وجوز كون الرفع على الابتداء ، وجملة ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ خبر المبتدأ والواو واو المعية وجملة المبتدأ وخبره في موضع المفعول معه بناء على أنه يكون جملة كما نقل عن ابن عشام ولا يخفى بعده ، وجوز كون الواو على ذلك للاستئناف وهو استئناف بياني كأنه ؟ قيل : ما المداد حينئذ فقيل : والبحر الخ ، وتعقب بأن اقتران الجواب بالواو وإن كانت استئنافية غير معهود ، وما قيل : إنه يقترن بها إذا كان جواباً للسؤال على وجه المناقشة لا للإستعلام مما لا يعتمد عليه ، ومن هنا قيل : الظاهر على إرادة الاستئناف أن يكون نحوياً ، وجوز في هذا التركيب غير ما ذكر من أوجه الأعراب أيضاً .

وقرأ البصريان ﴿ والبحر ﴾ بالنصب على أنه معطوف على اسم أن و ﴿ يمده ﴾ خبر

له أي ولو أن البحر ممدود بسبعة أبحر .

قال ابن الحاجب في أماليه : ولا يستقيم أن يكون ﴿ والبحر يَمُدُّهُ ﴾ حالاً لأنه يؤدي إلى تقييد المبتدأ الجامد بالحال ولا يجوز لأنها لبيان الفاعل أو المفعول والمبتدأ ليس كذلك ويؤدي أيضاً إلى كون المبتدأ لا خبر له ولا يستقيم أن يكون ﴿ أَقْلاَمٌ ﴾ خبراً له لأنه خبر الأول اه ، ولم يذكر احتمال تقدير الخبر لظهور أنه خلاف الظاهر .

وجوز أن يكون منصوباً على شرطية التفسير عطفاً على الفعل المحذوف أعني ثبت ودخول لو على المضارع جائز ، وجملة ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ الخ حينئذ لا محل لها من الإعراب .

وقرأ عبد الله ﴿ وبحر ﴾ بالتنكير والرفع وخرج ذلك ابن جنى على أنه مبتدأ وخبره محذوف أي هناك بحر يمده الخ ، والواو واو الحال لا محالة ، ولا يجوز أن يعطف على ﴿ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ لأن البحر وما فيه ليس من حديث الشجر والأقلام وإنما هو من حديث المداد .

(85/609)

وفي البحر ان الواو على هذه القراءة للحال أو للعطف على ما تقدم ، وإذا كانت للحال كان ﴿ بَحْرٍ ﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة تقدم تلك الواو فقد عد من مسوغات

الابتداء بالنكرة كما في قوله :

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا . . .

محياك أخفى ضوءه كل شارق

اه ولا يخفى أنه إذا عطف على فاعل ثبت فجملة ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ في موضع الصفة له لا حال منه ؛ وجوز ذلك من جوز مجيء الحال من النكرة ، والظاهر على تقدير كونه مبتدأ جعل الجملة خبره ولا حاجة إلى جعل خبره محذوفاً كما فعل ابن جنى .

وقرأ ابن مسعود .

وأبي ﴿ تمده ﴾ بتاء التأنيث من مد كالذي في قراءة الجمهور .

وقرأ ابن مسعود أيضاً .

والحسن .

وابن مصرف .

وابن هرمز ﴿ والبحر يَمُدُّهُ ﴾ بضم الياء التحتية من الأمداد .

قال ابن الشيخ : يمد بفتح فضم ويمد بضم فكسر لغتان بمعنى .

وقرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما ﴿ والبحر ﴾ أي ما يكتب به من الحبر ، وقال ابن عطية : هو مصدر ﴿ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ جواب ﴿ لَوْ ﴾ وفي الكلام اختصار يسمى حذف إيجاز ويدل على المحذوف السياق والتقدير ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله تعالى ما نفدت لعدم تناهيها ونفد تلك الأقلام والمداد لتناهيها ، ونظير ذلك في الاشتمال على إيجاز الحذف قوله تعالى : ﴿ أَوْ بِهِ أَذًى مّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ [البقرة : 196] أي فحلق رأسه لدفع ما به من الأذى ففدية ، والمراد بكلماته تعالى كلمات علمه سبحانه وحكمته جل شأنه وهو الذي يقتضيه سبب النزول على ما أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : سأل أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروم فأنزل سبحانه ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] فقالوا : تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فنزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّ ﴾ الخ .

وظاهر هذا أن اليهود قالوا : ذلك له عليه الصلاة والسلام مشافهة وهو ظاهر في أن الآية مدنية ، وقيل : إنهم أمروا وفد قريش أن يقولوا له صلى الله عليه وسلم ذلك وهذا القائل يقول : أنها مكية ، وحاصل الجواب أنه وإن كان ما أوتيتموه خيراً كثيراً لكونه حكمة إلا أنه قليل بالنسبة إلى حكمته عز وجل .

وفي رواية أنه نزل بمكة قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ ﴾ الخ فلما هاجر عليه الصلاة والسلام أتاه أحبار اليهود فقالوا بلغنا أنك تقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أفعنيتنا أم قومك فقال صلى الله عليه وسلم :

(87/609)

" كلا عنيت " فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك إن أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء فقال عليه الصلاة والتحية : " هي في علم الله تعالى قليل وقد أتاكم ما إن عملتم به نجوتم " قالوا : يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] فكيف يجتمع ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " هذا علم قليل وخير كثير " فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وهذا نص في أن الآية مدنية ، وقيل : المراد بها مقدوراته جل وعلا وعجائبه عز وجل التي إذا أراد سبحانه شيئاً منها قال تبارك وتعالى له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (117) ومن ذلك قوله تعالى في عيسى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلقاها إلى مَرْيَمَ ﴾ [النساء : 171] وإطلاق الكلمات على ما ذكر من اطلاق السبب على المسبب ، وعلى هذا وجه ربط الآية بما قبلها أظهر على ما قيل وهو أنه سبحانه لما قال : ﴿ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ [

لقمان : 26] وكان موهما لتناهي ملكه جل جلاله أردف سبحانه ذلك بما هو ظاهر بعدم التناهي وهذا ما اختاره الإمام في المراد بكلماته تعالى إلا أن في انطباقه على سبب النزول خفاء ، وعن أبي مسلم المراد بها ما وعد سبحانه به أهل طاعته من الثواب وما أوعد جل شأنه به أهل معصيته من العقاب ، وكأن الآية عليه بيان لأكثرية ما لم يظهر بعد من ملكه تعالى بعد بيان كثرة ما ظهر ، وقيل : المراد بها ما هو المتبادر منها بناء على ما أخرج عبد الرزاق .

وابن جرير .

وابن المنذر .

(88/609)

وغيرهم عن قتادة قال : قال المشركون إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فنزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ الآية ، وفي وجه ربط الآية عليه بما قبلها وكذا بما بعدها خفاء جدا إلا أنه لا يقتضي كونها مدنية ، وإيثار الجمع المؤنث السالم بناء على أنه كجمع المذكر جمع قلة لاشعاره وان اقترن بما قد يفيد معه الاستغراق والعموم من أل أو الإضافة نظراً لأصل وضعه وهو القلة بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير .

وقرأ الحسن .

﴿ مَّا نَفِدَتْ ﴾ بغير تاء ﴿ كَلاَمَ اللهِ ﴾ بدل كلمات الله ﴿ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه جل شأنه شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يخرج عن علمه تعالى وحكمته سبحانه شيء ، والجملة تعليل لعدم نفاد كلماته تبارك وتعالى .

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾

أي الا كخلقها وبعثها في سهولة التأتي بالنسبة إليه عز وجل إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن لأن مناط وجود الكل تعلق إرادته تعالى الواجبة أو قوله جل وعلا : كن مع قدرته سبحانه الذاتية وإمكان المتعلق ولا توقف لذلك على آلة ومباشرة تقتضي التعاقب ليختلف عنده تعالى الواحد والكثير كما يختلف ذلك عند العباد .

﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع كل مسموع ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فكذا الخلق والبعث وحاصله كما أنه تعالى شأنه يبصر واحد يدرك سبحانه المبصرات ويسمع واحد يسمع جل وعلا المسموعات ولا يشغله بعض ذلك عن بعض كذلك فيما يرجع إلى القدرة والفعل فهو استشهاد بما سلموه فشبه المقدورات فيما يراد منها بالمدركات فيما يدرك منها كذا في الكشف .

واستشكل كون ذلك مسلماً بأنه قد كان بعضهم إذا طعنوا في الدين يقول : أسروا قولكم

لئلا يسمع اله محمد صلى الله عليه وسلم فنزل : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الملك : 13] .

(89/609)

وأجيب بأنه لا اعتداد بمثله من الحماقة بعد ما رد عليهم ما زعموا وأعلموا بما أسروا ، وقيل : إن الجملة تعليل لإثبات القدرة الكاملة بالعلم الواسع وأن شيئاً من المقدورات لا يشغله سبحانه عن غيره لعلمه تعالى بتفاصيلها وجزئياتها فيتصرف فيها كما يشاء كما يقال : فلأن يجيد عمل كذا لمعرفته بدقائقه ومتمماته ، والمقصود من إيراد الوصفين إثبات الحشر والنشر لأنهما عمدتان فيه ألا ترى كيف عقب ذلك بما يدل على عظيم القدرة وشمول العلم .

وأياً ما كان يندفع توهم أن المناسب لما قبل أن يقال : إن الله قوي قدير أو نحو ذلك دون ما ذكر لأن الخلق والبعث ليسا من المسموعات والمبصرات ، وعن مقاتل أن كفار قريش قالوا : إن الله تعالى خلقنا أطواراً نطفة علقة مضغة لحماً فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة فنزلت وذكر النقاش أنها نزلت في أبي بن خلف .

وأبي الأسود ونبيه .

ومنبه ابني الحجاج ، وذكر في سبب نزولها فيهم نحو ما ذكر ، وعلى كون سبب النزول ذلك قيل : المعنى أنه تعالى سميع بقولهم ذلك بصير بما يضمرونه وهو كما ترى .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ قيل : خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم وقيل : عام لكل من يصلح للخطاب وهو الأوفق لما سبق وما لحق أي ألم تعلم .

(90/609)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ الليل ﴾ أي يدخل كل واحد منها في الآخر ويضيفه سبحانه إليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصاناً ، وعدل عن يولج أحد الملوين في الآخر مع أنه اخصر للدلالة على استقلال كل منهما في الدلالة على كمال القدرة ، وقدم الليل على النهار لمناسبته لعالم الإمكان المظلم من حيث إمكانه الذاتي ، وفي بعض الآثار كان العالم في ظلمة فرش الله تعالى عليهم من نوره ، وهذا الإيلاج إنما هو في هذا العالم ليس عند ربك صباح ولا مساء ، وقدم الشمس على القمر في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ مع تقديم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لأنها كالمبدأ للقمر ولأن تسخيرها لغاية عظمها أعظم من تسخير القمر وأيضاً آثار ذلك التسخير أعظم من آثار تسخيره وقال الإمام في تعليل تقديم كل على ما قدم عليه : لأن

الأنفس تطلب سبب المقدم أكثر مما تطلب سبب المؤخر وبين ذلك بما بين ، ولعل ما ذكرناه أولى لا سيما إذا صح أن نور القمر مستفاد من ضياء الشمس وعطف قوله سبحانه : ﴿ سَخَّرَ ﴾ على قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ﴾ والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد في كل حين وأما التسخير فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد وإنما التعدد والتجدد في آثاره كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِى ﴾ يسير سيراً سريعاً مستمراً ﴿ إلى أَجَلٍ ﴾ أي منتهى للجري ﴿ مُّسَمًّى ﴾ سماه الله تعالى وقدره لذلك ، وهو كما قال الحسن يوم القيامة فإنه لا ينقطع جري النيرين وتبطل حركتهما إلا في ذلك اليوم ، والظاهر أن هذا الجري هو هذه الحركة التي يشاهدها كل ذي بصر من أهل المعمورة ، وهي عند الفلاسفة بواسطة الفلك الأعظم فإن حركته كذلك وبها حركة سائر الإفلاك وما فيها من الكواكب ويسمى حركة الكل والحركة اليومية والحركة السريعة والحركة الأولى والحركة

(91/609)

على خلاف التوالي والحركة الشرقية ، وبعضهم يسميها الحركة الغربية ، وقيل : ما يعم هذه الحركة وحركتهما الخاصة بهما وهي حركتهما بواسطة فلكيهما على التوالي من المغرب إلى

المشرق وهي للقمر أسرع منها للشمس ، وليس في العقل الصريح والنقل الصحيح ما يأبى إثبات هاتين الحركتين لكل من النيرين كما لا يخفى على المنصف العارف ، ومنتهى هذا الجري العام لهاتين الحركتين يوم القيامة أيضاً ، والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد ، وعلى تقدير اختصاصه به صلى الله عليه وسلم يجوز أن تكون حالاً من الشمس والقمر فإن جريهما إلى يوم القيامة من جملة ما في حيز رؤيته عليه الصلاة والسلام ، وقيل جريهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما والأجل المسمى لجري الشمس آخر السنة المسماة بالسنة الشمسية الحقيقية وهي زمان مفارقة الشمس أية نقطة تفرض من فلك البروج إلى عودها إليها بحركتها الخاصة ، وجعلوا ابتداءها من حين حلول الشمس رأس الحمل ومدتها عند بعض ثلثمائة وخمسة وستون يوماً بليلته وربع يوم كذلك وعند بطليموس ثلثمائة وخمسة وستون يوماً بليلته وخمس ساعات وخمس وخمسون دقيقة واثنتا عشرة ثانية ، وعند بعض المتأخرين ثلثمائة وخمسة وستون يوما وخمس ساعات وست وأربعون دقيقة وأربع وعشرون ثانية ، وعند الحكيم محيي الدين الكسر الزائد خمس ساعات ودقيقة ، وبالرصد الجديد الذي تولاه الطوسي بمراغة خمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة ، ووجد برصد سمرقند أزيد من هذا بربع دقيقة ، وأما الاصطلاحية فاعتبرها بعض كالروم والأقدمين من الفرس ثلثمائة وهمسة وستون يوماً بليلته وربع يوم كذلك وأخذ الكسر ربعاً تاماً إلا أن الروح يجعلون ثلاث سنين ثلثمائة

وخمسة وستين ويكبسون في الرابعة بيوم والفرس كانوا يكسبون في مائة وعشرين سنة بشهر ، واعتبرها بعض آخر كالقبط والمستعملين لتاريخ الفرس من المحدثين وستين يوماً بليلته وأسقط الكسر رأساً

(92/609)

ولجرى القمر آخر الشهر القمري الحقيقي وهو زمان مفارقة القمر أي وضع يعرض له من الشمس إلى عوده إليه ، وجعلوا ابتداءه من اجتماع الشمس والقمر وزمان ما بين الاجتماعين المتتاليين ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ ﴾ من الأيام ودقائقها ونوانيها تقريباً وأما الشهر الغير الحقيقي فالمعتبر فيه الهلال ويختلف زمان ما بين الهلالين كما هو معروف .

قيل : وعلى هذا فالجملة بيان لحكم تسخيرهما أو تنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوين في الآخر ، وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجهاً إلى سمت الرأس تزداد القوس التي فوق الأرض كبراً فيزداد النهار طولاً بانضمام بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار الذي هو أقرب المدارات إلى سمت الرأس وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة إلى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التي فوق الأرض تزداد صغراً فيزداد النهار قصراً بانضمام بعض أجزائه إلى

الليل إلى أن يبلغ المدار الذي هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها رأس الجدى .

وأنت تعلم أنه لا مدخل لجريان القمر في الإيلاج فالتعرض له في الآية الكريمة يبعد هذا الوجه ، ولعل الأظهر على تقدير جعل جريهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما أن يجعل الأجل المسمى عبارة عن يوم القيامة أو يجعل عبارة عن آخر السنة والشهر المعروفين عند العرب فتأمل ، وجرى يتعدى بإلى تارة وباللام أخرى وتعديته بالأول باعتبار كون المجرور غاية وبالثاني باعتبار كونه غرضاً فتكون اللام لام تعليل أو عاقبة وجعلها الزمخشري للاختصاص ولكل وجه ، ولم يظهر لي وجه اختصاص هذا المقام بإلى وغيره باللام ، وقال النيسابوري : وجه ذلك أن هذه الآية صدرت بالتعجيب فناسب التطويل وهو كما ترى فتدبر ، وقوله تعالى :

(93/609)

﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عطف على قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ ﴾ الخ داخل معه في حيز الرؤية على تقديري خصوص الخطاب وعمومه فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير اللائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها وقرأ

عياش عن أبي عمرو .

﴿ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ بياء الغيبة .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تضمنته الآيات وأشارت إليه من سعة العلم وكمال القدرة واختصاص الباري تعالى شأنه بها ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ أي بسبب أنه سبحانه وحده الثابت المتحقق في ذاته أي الواجب الوجود .

(94/609)

﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ إلهاً ﴿ الباطل ﴾ المعدوم في حد ذاته وهو الممكن الذي لا يوجد إلا بغيره وهو الواجب تعالى شأنه ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلى ﴾ على الأشياء ﴿ الكبير ﴾ عن أن يكون له سبحانه شريك أو يتصف جل وعلا بنقص لا بشيء أعلى منه تعالى شأنه شأناً وأكبر سلطاناف ، ووجه سببية الأول لما ذكر أن كونه تعالى وحده واجب الوجود في ذاته يستلزم أن يكون هو سبحانه وحده الموجد لسائر المصنوعات البديعة الشأن فيدل على كمال قدرته عز وجل وحده والايجاب قد أبطل في الأصول ومن صدرت عنه جميع هاتيك المصنوعات لا بد من أن يكون كامل العلم على ما بين في الكلام ، ووجه سببية الثالث لذلك أن كونه تعالى وحده علياً على جميع الأشياء متسلطاً عليها متنزهاً

عن أن يكون له سبحانه شريك أو يتصف بنقص عز وجل يستلزم كونه تعالى وحده واجب الوجود في ذاته وقد سمعت الكلام فيه ، وأما وجه سببية كون ما يدعونه من دونه إلهاً باطلاً ممكناً في ذاته لذلك فهو أن إمكانه على علو شأنه عندهم على ما عداه مما لم يعتقدوا إلهيته يستلزم إمكان غيره مما سوى الله عز وجل لأن ما فيه مما يدل على إمكانه موجود في ذلك حذو القذف بالقذة ومتى كان ما يدعونه إلهاً من دونه تعالى وغيره مما سوى الله سبحانه وتعالى ممكناً انحصر وجوب الوجود في الله تعالى فيكون جل وعلا وحده واجب الوجود في ذاته وقد علمت إفادته للمطلوب وكأنه إنما قيل أن ما يدعون من دونه الباطل دون أن ما سواه الباطل مثلا نظير قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . .

(95/609)

تنصيصاً على فظاعة ما هم عليه واستلزام ذلك إمكان ما سوى الله تعالى من الموجودات من باب أولى بناء على ما يزعم المشركون في آلهتهم من علو الشأن ولم يكتف في بيان السبب بقوله سبحانه : ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ بل عطف عليه ما عطف مع أنه مما يعود إليه وتشعر تلك الجملة به إظهاراً لكمال العناية بالمطلوب وبما يفيده منطوق المعطوف من بطلان

الشريك وكونه تعالى هو العلي الكبير .

وقيل : أي ذلك الاتصاف بما تضمنته الآيات من عجائب القدرة والحكمة بسبب أن الله تعالى هو الإله الثابت إلهيته وإن من دونه سبحانه باطل الإلهية وإن الله تعالى هو العلي الشأن الكبير السلطان ومدار أمر السببية على كونه سبحانه هو الثابت الإلهية وبين ذلك الطيبي بأنه قد تقرر أن من كان إلهاً كان قادراً خالقاً عالماً إلى غير ذلك من صفات الكمال ثم قال إن قوله تعالى ذلك بأن الله هو الحق كالفذلكة لما تقدم من قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ﴾ [لقمان : 13] إلى ﴿ هذا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلى الكبير ﴾ كالفذلكة لتلك الفواصل المذكورة هنالك كلها .

ولعل ما قدمنا أولى بالاعتبار ، وقال العلامة أبو السعود في الاعتراض على ذلك : أنت خبير بأن حقيته تعالى وعوله وكبرياءه وإن كانت صالحة لمناطية ما ذكر من الصفات لكن بطلان إلهية الأصنام لا دخل له في المناطية قطعاً فلا مساغ لنظمه في سلك الأسباب بل هو تعكيس للأمر ضرورة أن الصفات المذكورة هي المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها انتهى ، وفيه تأمل والعجب منه أنه ذكر مثل ما اعترض عليه في نظير هذه الآية في سورة الحج ولم يتعقبه بشيء .

وجوز أن يكون المعنى ذلك أي ما تلى من الآيات الكريمة بسبب بيان أن الله هو الحق إلهيته فقط ولأجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد ولأجل بيان بطلان إليهة ما يدعون من دونه لكونها شاهدة شهادة بينة لا ريب فيها ولأجل بيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شيء المتسلط عليه فإن ما في تضاعيف تلك الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به أي بيان وهو وجه لا تكلف فيه سوى اعتبار حذف مضاف كما لا يخفى وكأنه إنما قيل هنا : وأن ما يدعون من دونه الباطل بدون ضمير الفصل ، وفي سورة الحج (62) ﴿ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ بتوسيط ضمير الفصل لما أن الحط على المشركين وآلهتهم في هذه السورة دون الحط عليهم في تلك السورة .

وقال النيسابوري في ذلك أن آية الحج وقعت بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين فناسب ذلك توسيط الضمير بخلاف ما هنا ويمكن أن يقال تقدم في تلك السورة ذكر الشيطان مرات فلهذا ذكرت تلك المؤكدات بخلاف هذه السورة فإنه لم يتقدم ذكر الشيطان فيها نحو ذكره هناك ، وقرأ نافع .

وابن كثير .

وابن عامر .

وأبو بكر ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بتاء الخطاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع إلى توبيخ المشركين وتبكيتهم وإقامة الحجج عليهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ قال الزجاج : معنى تسخيرها للآدميين : الانتفاع بها انتهى ، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبني آدم ، أي التي ينتفعون بها الشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك .

ومن جملة ذلك : الملائكة فإنهم حفظة لبني آدم بأمر الله سبحانه ، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبني آدم : الأحجار والتراب والزرع والشجر والثمر والحيوانات التي ينتفعون بها والعشب الذي يرعون فيه دوابهم ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة ، فالمراد بالتسخير جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له ، سواء كان منقاداً له ، وداخلاً تحت تصرّفه أم لا ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ أي أتمّ وأكمل عليكم نعمه ، يقال : سبغت النعمة إذا تمت وكملت .

قرأ الجمهور : ﴿ أسبغ ﴾ بالسين ، وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة : " أصبغ " بالصاد

مكان السين .

والنعم جمع نعمة على قراءة نافع وأبي عمرو وحفص ، وقرأ الباقون : " نعمة " بسكون العين على الإفراد والتنوين اسم جنس يراد به الجمع ويدلّ به على الكثرة ، كقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] وهي قراءة ابن عباس .

والمراد بالنعم الظاهرة : ما يدرك بالعقل أو الحسّ ويعرفه من يتعرفه ، وبالباطنة : ما لا يدرك للناس ، ويخفى عليهم .

وقيل : الظاهرة : الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة ، والعقل .

وقيل : الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال ، وفعل الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفعه الله عن البعد من الآفات .

(98/609)

وقيل : الظاهرة نعم الدنيا ، والباطنة : نعم الآخرة .

وقيل : الظاهرة : الإسلام والجمال ، والباطنة : ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِي الله ﴾ أي في شأن الله سبحانه في توحيده وصفاته ؛ مكابرة وعناداً بعد ظهور الحق له وقيام الحجة عليه ، ولهذا قال : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ من عقل ولا

نقل ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ يهتدي به إلى طريق الصواب ﴿ وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أنزله الله سبحانه ، بل مجرّد تعنت ، ومحض عناد .

وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ الله ﴾ أي إذا قيل لهؤلاء المجادلين .

والجمع باعتبار معنى من ، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت .

و ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءنَا ﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام ، ونمشي في الطريق التي كانوا يمشون بها في دينهم ، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت ﴿ أَوْلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ أي يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم في دينهم ، أي يتبعونهم في الشرك ، ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ، ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير ؛ لأنه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم ، ويجوز أن يراد أنه يدعو جميع التابعين والمتبوعين إلى العذاب ، فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك ، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم ، وجواب لو محذوف ، أي يدعوهم فيتبعونهم ، ومحل الجملة النصب على الحال .

وما أقبح التقليد ، وأكثر ضرره على صاحبه ، وأوخم عاقبته ، وأشأم عائدته على من وقع فيه .

فإن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق ، فتأبى ذلك ، وتتهافت في نار الحريق ، وعذاب السعير .

(99/609)

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله ﴾ أي يفوّض إليه أمره ، ويخلص له عبادته ويقبل عليه بكليته ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في أعماله ؛ لأن العبادة من غير إحسان لها ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها ، لا تقع بالموقع الذي تقع به عبادة المحسنين .

وقد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال له : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي اعتصم بالعهد الأوثق وتعلق به ، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل ، فتمسك بأوثق عرى حبل متدلّ منه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ أي مصيرها إليه لا إلى غيره .

وقرأ عليّ بن أبي طالب والسلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار : " ومن يسلم " بالتشديد ، قال النحاس : والتخفيف في هذا أعرف كما قال عزّ وجلّ : ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : 20] ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ أي لا تحزن لذلك ، فإن كفره لا

يضرك ، بيّن سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين ، ثم توعدهم بقوله :

﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي نخبرهم بقبائح أعمالهم ، ونجازيهم عليها ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي بما تسرّه صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية .

فالسرّ عنده كالعلانية .

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها .

فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم .

وانتصاب ﴿ قليلاً ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي تمتيعاً قليلاً : ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي نلجئهم إلى عذاب النار .

فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه وأصيب به ، فلهذا استعير له الغلظ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ أي يعترفون بالله خالق ذلك لوضوح الأمر فيه عندهم .

(100/609)

وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد وبطلان الشرك ، ولهذا قال : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ أي قل يا محمد : الحمد لله على اعترافكم ، فكيف تعبدون غيره ، وتجعلونه شريكاً

له؟ أو المعنى: فقل: الحمد لله على ما هدانا له من دينه، ولا حمد لغيره، ثم أضرب عن ذلك فقال: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا ينظرون ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة دون غيره.

﴿ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ ملكاً، وخلقاً فلا يستحق العبادة غيره ﴿ إِنَّ الله هُوَ الغني ﴾ عن غيره ﴿ الحميد ﴾ أي المستحق للحمد أو المحمود من عباده بلسان المقال أو بلسان الحال.

ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السماوات والأرض أتبعه بما يدلّ على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد، ولا يحصر بحدّ فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ أي لو أن جميع ما في الأرض من الشجر أقلام.

ووحد الشجرة لما تقرّر في علم المعاني: أن استغراق المفرد أشمل، فكأنه قال: كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بريت أقلاماً، وجمع الأقلام لقصد التكثير، أي لو أن يعدّ كل شجرة من الشجر أقلاماً.

قال أبو حيان: وهو من وقوع المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة كقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ [البقرة: 106]، ثم قال سبحانه: ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ أي يمدّه من بعد نفاده سبعة أبحر.

قرأ الجمهور: ﴿ والبحر ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ، و ﴿ يمدّه ﴾ خبره، والجملة في محل

الحال ، أي والحال أن البحر المحيط مع سعته يمدّه السبعة الأبحر مدّاً لا ينقطع ، كذا قال سيبويه .

وقال المبرد : إن البحر مرتفع بفعل مقدّر تقديره : ولو ثبت البحر حال كونه تمدّه من بعده سبعة أبحر .

وقيل : هو مرتفع بالعطف على أن وما في حيزها .

(101/609)

وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق : " والبحر " بالنصب عطفاً على اسم أن ، أو بفعل مضمر يفسره ﴿ يمدّه ﴾ .

وقرأ ابن هرمز والحسن : "يمدّه" بضم حرف المضارعة ، وكسر الميم ، من أمدّ .

وقرأ جعفر بن محمد : " والبحر مداده " وجواب لو : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ أي كلماته التي هي عبارة عن معلوماته .

قال أبو عليّ الفارسي : المراد بالكلمات والله أعلم : ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود ، ووافقه القفال فقال : المعنى : أن الأشجار لو كانت أقلاماً والبحار مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب .

قال القشيري : ردّ القفال معنى الكلمات إلى المقدورات .

وحمل الآية على الكلام القديم أولى .

قال النحاس : قد تبين أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه جلّ وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السماوات والأرض من شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذرّ ، وعلم الأجناس كلها ، وما فيها من شعرة وعضو وما في الشجرة من ورقة ، وما فيها من ضروب الخلق .

وقيل : إن قريشاً قالت : ما أكثر كلام محمد ، فنزلت : قاله السديّ ، وقيل : إنها لما نزلت ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] في اليهود ، قالوا : كيف ، وقد أوتينا التوراة فيها كلام الله ، وأحكامه ، فنزلت .

قال أبو عبيدة : المراد بالبحر هنا الماء العذب الذي ينبت الأقلام ، وأما الماء المالح ، فلا ينبت الأقلام .

قلت : ما أسقط هذا الكلام ، وأقلّ جدواه ﴿ أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي غالب لا يعجزه شيء ، ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته .

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ أي إلا كخلق نفس واحدة ، وبعثها .

قال النحاس : كذا قدّره النحويون كخلق نفس مثل قوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

قال الزجاج : أي قدرة الله على بعث الخلق كلهم ، وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة ، وبعث نفس واحدة ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لكل ما يسمع ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بكل ما يبصر .

وقد أخرج البيهقي في الشعب عن عطاء قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية ، قال : هذه من كنوز علمي سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " أما الظاهرة : فما سوّى من خلقك ، وأما الباطنة : فما ستر من عورتك ، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم " وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، والديلمي وابن النجار عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ فقال : " أما الظاهرة : فالإسلام ، وما سوّى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه ، وأما الباطنة : فما ستر من مساوي عملك " وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : النعمة الظاهرة : الإسلام ، والنعمة الباطنة : كل ما يستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : أنه قال في

تفسير الآية هي : لا إله إلا الله .

وأخرج ابن أبي إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض ﴾ الآية ؟ أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : يا محمد ، أرأيت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] إيانا تريد أم قومك ؟ فقال : " كُلا " ، فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك : أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ؟ فقال : " إنها في علم الله قليل " ، وأنزل الله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض ﴾ الآية .

وأخرجه ابن مردويه عنه بأطول منه .

وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن مسعود نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(103/609)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ . . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

ومما يكشف عن غنى اللّه الغنى المطلق ، واستحقاقه الحمد ، حمدا مطلقا ، هو سعة

ملكه الذي لا حدود له ، وما للّه من تصريف في هذا الملك ، كيف شاءت إرادته . . لا معقب لحكمه .

فلو تصور متصور أن كل ما في الأرض من شجر كان أقلاما ، وأن كل مياه البحار قد أصبحت مدادا . . ثم أخذت هذه الأقلام تستملى من هذا المداد ، وتكتب - من غير توقف - ما تتلقّى من كلمات اللّه - لما نفدت كلمات اللّه ! وكلمات اللّه ، هى مقدراته التي يقوم بها الوجود ، وينشأ عنها كل موجود .

فبالكلمة ، خلق اللّه كل شىء . . « إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (82 : يس) .

- وفي قوله تعالى : « مِنْ شَجَرَةٍ » - إشارة إلى استغراق كل ما في الأرض ، شجرة شجرة ، من كل جنس ، وكل صنف من أصناف الشجر . .

ولو جاء النظم القرآنى « من شجر » بالجمع بدلا « من شجرة » بالإفراد ، لما دلّ على هذا الاستغراق ، الذي يشمل كل شجرة في الأرض ولكان فيه متأول يتناول بعض الشجر دون بعض ، أو الشجر الذي تستعمل منه الأقلام دون غيره مثلا . .

وفي التعبير بكلمات اللّه - وهو جمع قلّة - بدلا من « كلام » الذي هو جمع

كثرة ، إشارة إلى أن القليل من كلام اللّه ، وهو الكلمات ، لا ينفذ ، ولو فنيت فى كتابتها الأقلام من كل شجر الأرض ، وجفّت في مدّ هذه الأقلام بالمداد كلّ بحار العالم . . !

فكيف بالكثير من كلام اللّه .

هذا ، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : « قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً » (109 : الكهف) .

وفي هذه الصورة ، لم تذكر الأقلام التي تستملى من هذا البحر ، اكتفاء بما جاء هنا من ذكر الأقلام . . فالصورتان تكمل إحداهما الأخرى ، وليست إحداهما تكرارا للأخرى ، كما يبدو ذلك في ظاهر الأمر .

ويلاحظ أن البحر هنا يمدّه من بعده سبعة أبحر ، على حين أنه في سورة الكهف يمدّه بحر مثله . . وقد يبدو أن في هذا تناقضا عند من يأخذ بظاهر الأمور ، ولا يتعمق النظر فيها . .

إن الأمر قائم على الفرض ، وكثير من مادة الفرض وقليلها سواء فى تحقيق المطلوب منه ، وهو الدلالة على سعة علم اللّه ، وبسطة سلطانه ، وامتداد ملكه ، الذي لا ينفد ، وأن بحرا واحدا ، أو جزءا من هذا البحر ليكفى عند التجربة في الكشف عن سعة هذا العلم ، وبسطة ذلك السلطان ، وامتداد هذا الملك . .

فالبحر الذي يمده من بعده سبعة أبحر ، يواجهه الحكم ب قوله تعالى : « ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ » مع السكوت عن نفاد ماء البحر .

والبحر الذي يمده بحر مثله ، يواجهه الحكم بقوله سبحانه : « لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً » .

(105/609)

ففى كل صورة من الصورتين احتمال ترفعه الصورة الأخرى .

والاحتمال في قوله تعالى في سورة الكهف : « لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً » هو أنه يمكن أن تنفد كلمات اللّه ، لو جىء بمثلى هذا البحر ، مددا ، أو بثلاثة أمثاله . . وقد رفع هذا الاحتمال قوله تعالى فى سورة لقمان : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ » .

والاحتمال في قوله تعالى في سورة لقمان : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ » . هو أن الأبحر لم تنفد ، وأن كلمات اللّه لم تنفد ، وأنه لو نفدت الأبحر لنفدت كلمات اللّه ، وقد رفع هذا الاحتمال قوله تعالى في سورة الكهف : « لَنَفِدَ الْبَحْرُ » . .

وعد إلى الآيتين مرة أخرى :

« وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ . . ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ » . . (لقمان) « قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً » (الكهف) واجعل من الآيتين آية واحدة ، تجد الأبحر قد نفدت ، وما نفذت كلمات اللّه ، وتجد كلمات اللّه لا نفاد لها ، ولو مدّ البحر ، لا ببحر واحد مثله ، بل بسبعة أبحر ! .

هذا كلام اللّه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه . .

« وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً » .

ـ وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » توكيد لسلطان اللّه ، وتمكنه تمكن العزيز الذي لا يغلب ، الحكيم الذي تجرى أحكام عزّته على العدل

(106/609)

والإحسان ، لا العسف والجبروت ، شأن كل عزّة لا تحكمها الحكمة .

قوله تعالى : « ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

كانت الآية السابقة معرضا فسيحا لقدرة اللّه ، وإنه لا يحسن النظر فيه ، والإفادة منه ، إلا من أوتى بصرا نافذا ، وبصيرة مشرقة ، ثم كان معه ـ مع هذا ـ قلب مؤمن . .

وفي هذه الآية ، معرض محدود من معارض هذا الوجود ، وهو معرض الخلق والبعث . .

ثم أجمل هذا العرض في وحدة من وحدات الخلق ، وهى الإنسان ، فى ذات واحدة ، ونفس واحدة . .

فهذا الإنسان ، فى خلقه ، وبعثه ، يكفى النظر إليه وحده ، فى الاستدلال على قدرة اللّه ، وعلى أنه هو الخالق لهذا الوجود الذي لا حدود له . .

فمن نظر إلى الإنسان ، وإلى أصل نشأته ، وكيف تنقل في الخلق ، من حال إلى حال ، حتى صار هذا الكائن القوىّ ، العاقل ، الذي يمخر عباب البحر ، ويغوص في أعماق المحيط ، ويحلق في أجواء السماء ، بل ويطأ القمر بقدميه - من نظر إلى هذا الإنسان الذي تخلق من نطفة ، تخلقت من من أخلاط مختلفة ، ثم نظر إليه في قوته وجبروته ، ثم أعاد النظر إليه وقد ردّ إلى الشيخوخة والهرم - رأى كمال قدرة اللّه ، وعلمه ، وحكمته ، وأنه وحده سبحانه ، القادر على كل شىء ، قدرة مطلقة لا يعجزها شىء . . وأن الذي خلق الإنسان ، قادر على أن يخلق الناس جميعا ، وأن الذي خلق الناس ، قادر على أن يخلق السموات والأرض . . ففى القليل ما يدل على الكثير ، وإن قطرة الماء لتحمل في كيانها خصائص ما في البحار كلها من مياه . . !

ـ وفي قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » . إشارة إلى شمول سمع اللّه لكل شيء ، وإحاطة بصره بكل شيء ، يستوى في هذا خفيض الأصوات وجهيرها ، وقريب الأشياء وبعيدها . . وأقرب مثل لهذا ـ وللّه المثل الأعلى ـ السمع والبصر ، فى كيان الإنسان . . فالسمع السليم ، يستقبل ويسمع جميع الأصوات الواقعة تحت دائرة حسه ، لا فرق في ذلك بين كلام الإنسان ، وأصوات الحيوان ، وحفيف الأشجار ، وهدير الرعد ، وخرير الماء . .

وكذلك البصر السليم ، يرى كل المرئيات التي تقع في دائرته ، سواء في ذلك الجميل والقبيح ، والأبيض والأسود ، والمتحرك والثابت .

فإذا كان سمع الإنسان وبصره ، يتّسعان لأكثر من شيء في وقت واحد ، أفلا يكون في قدرة اللّه أن يسمع كل شيء ، ويبصر كل شيء ؟ وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يتخذ من الوسائل ما يرى بوساطتها الأشياء البعيدة التي لم تكن تراها عينه ، ويسمع الأصوات الخفية التي لم تكن تسمعها أذنه ـ أفلا يكون ذلك مما تطوله القدرة الإلهية وتعمل به ؟ وإذا كان الإنسان قد استطاع أن ينقل الأصوات والمرئيات ، لسمعه وبصره ، من أطراف الأرض كلها في لحظة ، أ فلا تستطيع القدرة القادرة أن تفعل الكثير الذي لا حدود له في هذا المقام ؟

وإذا كان بين العلماء الذين يملكون هذه الوسائل ، وبين من يعيشون في حدود حواسهم الطبيعية ـ هذا المدى البعيد في مدركات السمع والبصر ـ أفلا يكون بين اللّه سبحانه وتعالى

وبين خلقه ، ما لا نهاية له من فروق ؟ وإذن فما الفرق بين الخالق وما خلق ؟ « أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ ؟ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟ » (17 : النحل) .

(108/609)

قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

وهذا معرض آخر من المعارض الدالة على قدرة اللّه ، وسعة علمه ، ونفوذ سلطانه ، إلى جانب تلك المعارض التي عرضتها الآيات السابقة .

(109/609)

فهنا ـ فى هذا المعرض ـ نشهد تلك الحركة الدائبة التي يدور في فلكها الليل والنهار ، على هذا النظام الدقيق البديع ، الذي لا يتوقف لحظة ، ولا ينحرف قيد أنملة .

وولوج الليل في النهار ، مغيبه فيه ، ودخوله في كيانه ، وكذلك ولوج النهار فى الليل ، هو مغيبه في الليل ، وتواريه في داخله . .

ومن هذه الصورة نرى الظلام مستكنّا في أحشاء النور : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ » ثم نرى النور مطويّا في كيان الظلام : « وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ » . .

فمن أحشاء النور يخرج الظلام ، ومن أحشاء الظلام يولد النور . . وهذا من دلائل القدرة القادرة ، التي تؤلّف بين الأضداد . . « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ . . ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ » (95 : الأنعام) .

ومن آياته سبحانه ، أنه سخر الشمس والقمر ، وأجراهما على هذا النظام المحكم ، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا ، فتتجلّى آية الشمس في النهار ، وتتجلى آية القمر في الليل : « تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً » (61 : الفرقان) . . ولكلّ من الشمس والقمر فلكها الذي تدور فيه ، من غير أن ينحرف أيّ منها عن مداره : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (40 : يس) .

وقوله تعالى : « إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى » . الأجل المسمى ، هو الزمن المحدد لدورة كلّ من الشمس والقمر ، أو هو الأمد المحدد لهما الجريان فيه ، ثم إذا انتهى هذا الأمد توقّفا ، أو أخذا اتجاها آخر . . شأنهما في هذا شأن كل مخلوق . .

فلا دوام لحال أبدا . .

ـ وقوله تعالى : « وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » معطوف على قوله تعالى :

«أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ . . . » وكأنه تعقيب عليه . . وذلك أن الذي ينظر متأملا في نظام الوجود ، وفي قدرة اللّه الممسكة به ، لا بد أن يؤدّيه هذا النظر المتأمل ، إلى إدراك هذه الحقيقة ، وهو أن اللّه عليم بكل ما نعمل ، فلا تخفى عليه خافية من أعمالنا ، دقيقها وعظيمها ، خيرها وشرّها . . إنه علم العليم الخبير ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . .

قوله تعالى : « ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» .

الإشارة هنا ، إلى ما عرضته الآيات من مظاهر قدرة للّه ، وسعة علمه . .

والجار والمجرور في قوله تعالى : « بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ » متعلق بمحذوف ، يدل عليه السياق وتقديره : يقضى ، أو يقطع . ونحو هذا . . أي أن ذلك الذي يراه الراءون في هذا الوجود من آيات القدرة ، ومظاهر العلم ـ يقضى ، ويقطع بأن اللّه هو الحق ، أي الإله الحق ، الذي يتفرد بالألوهة ، من غير شريك ، كما يقضى بأن تلك الآلهة التي يعبدها المشركون من دون اللّه ، هى الباطل كله ، لا شىء من حق فيه أبدا . . وذلك من شأنه أن يقضى ويقطع بأن

اللّه هو « العليّ » ، المنفرد بالعلوّ والسلطان ، « الكبير » الذي له الكبرياء وحده ، وأن مادونه دون ضئيل ، لا وزن له ، ولا قدر ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 11 صـ 583.590 ﴾

(111/609)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾)

تكرر فيما سبق من هذه السورة وصف الله تعالى بإحاطة العلم بجميع الأشياء ظاهرةً وخفيةً فقال فيما حكى من وصية لقمان : ﴿ إنها إن تكُ مثقالَ حبة من خردل ﴾ إلى قوله ﴿ لطيف خبير ﴾ [لقمان : 16] ، وقال بعد ذلك ﴿ فنُنبئُهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ﴾ [لقمان : 23] فعقب ذلك بإثبات أن لعلم الله تعالى مظاهرَ يبلّغ بعضها إلى من اصطفاه من رسله بالوحي مِما تقتضي الحكمة إبلاغه ، وأنه يستأثر بعلم ما اقتضت حكمته عدم إبلاغه ، وأنه لو شاء أن يبلغ ما في علمه لما وفّت به مخلوقاته الصالحة لتسجيل كلامه بالكتابة فضلاً على الوفاء بإبلاغ ذلك بواسطة القول .

وقد سُلك في هذا مسلك التقريب بضرب هذا المثل ؛ وقد كان ما قُصَّ من أخبار الماضين

موطئاً لهذا فقد جرت قصة لقمان في هذه السورة كما جرت قصة أهل الكهف وذي القرنين في سورة الكهف (109) فعقبتا بقوله في آخر السورة : ﴿ قل لو كان البحر مِدَاداً لكلمات ربي لَنَفِد البحر قبل أن تَنْفَد كلماتُ ربي ولو جئنا بمثله مَدَداً ﴾ وهي مشابهة للآية التي في سورة لقمان .

فهذا وجه اتصال هذه الآية بما قبلها من الآيات المتفرقة .

ولما في اتصال الآية بما قبلها من الخفاء أخذ أصحاب التأويل من السلف من أصحاب ابن عباس في بيان إيقاع هذه الآية في هذا الموْقع .

(112/609)

فقيل : سبب نزولها ما ذكره الطبري وابن عطية والواحدي عن سعيد بن جبير وعكرمة وعطاء بن يسار بروايات متقاربة : أن اليهود سألوا رسول الله أو أغَروا قريشاً بسؤاله لمَّا سمعوا قول الله تعالى في شأنهم : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : 85] فقالوا : كيف وأنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن سألوه : هي في علم الله قليل ، ثم أنزل الله ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ الآيتين أو الآيات الثلاثَ .

وعن السدّي قالت قريش : ما أكثر كلامَ محمدٍ فنزلت : ﴿ ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ .

وعن قتادة قالت قريش : سيتِمّ هذا الكلام لمحمد وينحسِر أي محمد صلى الله عليه وسلم فلا يقول بعده كلاماً .

وفي رواية : سينفَدُ هذا الكلام .

وهذه يرجع بعضها إلى أن هذه الآية نزلت بالمدينة فيلزم أن يكون وضعها في هذا الموضع من السورة بتوقيف نبوي للمناسبة التي ذكرناها آنفاً ، وبعضها يرجع إلى أنها مكية فيقتضي أن تكون نزلت في أثناء نزول سورة لقمان على أن توضع عقب الآيات التي نزلت قبلها .

و﴿ كلمات ﴾ جمع كلمة بمعنى الكلام كما في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إنها كلمةٌ هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 100] أي : الكلام المنبىء عن مراد الله من بعض مخلوقاته مما يخاطب به ملائكته وغيرَهم من المخلوقات والعناصر المعدودة للتكون التي يقال لها : كن فتكون ، ومن ذلك ما أنزله من الوحي إلى رسله وأنبيائه من أول أزمنة الأنبياء وما سينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم أي لو فُرض إرادة الله أن يكتب كلامَه كله صُحفاً ففُرضت الأشجار كلها مقسمة أقلاماً ، وفرض أن يكون البحر مداداً فكُتب بتلك الأقلام وذلك المدادِ لنفِد البحر ونفِدت الأقلام وما نفدت كلمات الله في نفس الأمر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وتَمَّت كلمات ربّك صدقاً وعدلاً ﴾ [الأنعام : 115] فالتمام هنالك بمعنى التحقق والنفوذ ، وتقدم قوله تعالى : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ في سورة الأنفال (7) .

وقد نُظمت هذه الآية بإيجاز بديع إذ ابتُدئت بحرف ﴿ لو ﴾ فعلم أن مضمونها أمر مفروض ، وأن ل ﴿ لو ﴾ استعمالات كما حققه في "مغنى اللبيب" عن عبارة سيبويه . وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون ﴾ في سورة الأنفال (23) .

﴿ ومن شجرة ﴾ بيان ل ﴿ ما ﴾ الموصولة وهو في معنى التمييز فحقه الإفراد ، ولذلك لم يقل : من أشجار .

والأقلام : جمع قلَم وهو العود المشقوق ليرفع به المداد ويكتب به ، أي : لو تصير كل شجرة أقلاماً بمقدار ما فيها من أغصان صالحة لذلك .

والأقلام هو الجمع الشائع لقلَم فيرَد للكثرة والقلة .

و ﴿ يَمّده ﴾ بفتح الياء التحتية وضم الميم ، أي : يزيده مِداداً .

والمداد بكسر الميم الحِبر الذي يُكتب به .

يقال : مَد الدّوَاةَ يمدُها .

فكان قوله ﴿ يمده ﴾ متضمناً فرض أن يكون البحر مداداً ثم يُزاد فيه إذا نشف مدادُه سبعةُ أبحر ، ولو قيل : يُمده ، بضم الميم من أمد لفات هذا الإيجاز .

والسبعة : تستعمل في الكناية عن الكثرة كثيراً كقول النبي صلى الله عليه وسلم " والكافر يأكل في سبعة أمعاء " فليس لهذا العدد مفهوم ، أي والبحر يمده أبحر كثيرة .

ومعنى ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ ما انتهت ، أي : فكيف تحسب اليهود ما في التوراة هو منتهى كلمات الله ، أو كيف يحسب المشركون أن ما نزل من القرآن أو شك أن يكون انتهاء القرآن ، فيكون المَثل على هذا الوجه الآخر وارداً مورد المبالغة في كثرة ما سينزل من القرآن إغاظة للمشركين ، فتكون ﴿ كلمات الله ﴾ هي القرآن ، لأن المشركين لا يعرفون كلمات الله التي لا يحاط بها .

(114/609)

وجملة ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ تذييل ، فهو لعزته لا يَغلبه الذين يزعمون عدم الحاجة إلى القرآن ينتظرون انفحام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لحكمته لا تنحصر كلماته لأن الحكمة الحق لا نهاية لها .

وقرأ الجمهور برفع ﴿ والبحرُ ﴾ على أن الجملة الاسمية في موضع الحال والواو واو الحال

وهي حال مِن ﴿ ما في الأرض من شجرة ، ﴾ أي : تلك الأشجار كائنة في حال كون البحر مداداً لها ، والواو يحصل بها من الربط والاكتفاء عن الضمير لدلالتها على المقارنة .

وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿ والبحرَ ﴾ بالنصب عطفاً على اسم (إنّ) .

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

استئناف بياني متعلق بقوله ﴿ إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ [لقمان : 23] لأنه كلما ذكر أمر البعث هجس في نفوس المشركين استحالة إعادة الأجسام بعد اضمحلالها فيكثر في القرآن تعقيب ذكر البعث بالإشارة إلى إمكانه وتقريبه .

وكانوا أيضاً يقولون : إن الله خلقنا أطواراً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحماً وعظماً فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة وكيف يحيي جميع الأمم والأجيال التي تضمنتها الأرض في القرون الكثيرة ، وكان أُبَيّ بنُ خلف وأبو الأسد أو أبو الأسدين ونُبَيْه ، ومُنبِّه ، ابنا الحجاج من بني سهم ، يقولون ذلك وربما أسرّ به بعضهم .

وضميرَا المخاطَبين مراد بهما جميع الخلق فهما بمنزلة الجنس ، أي ما خلْقُ جميع الناس أول مرة ولا بَعْثُهم ، أي خلقُهم ثاني مرة إلا كخلق نفس واحدة لأن خلق نفس واحدة هذا الخلق العجيب دال على تمام قدرة الخالق تعالى فإذا كان كامل القدرة استوى في جانب قدرته القليل والكثير والبدء والإعادة .

وفي قوله ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب لقصد مجابهتهم

بالاستدلال المُفْحِم.

وفي قوله ﴿ كنفس واحدة ﴾ حذف مضاف دل عليه ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم.

﴾ والتقدير: إلا كخلق وبعث نفس واحدة.

(115/609)

وذلك إيجاز كقول النابغة:

وقد خِفت حتى ما تزيدُ مخافتي . . .

على وَعِل في ذي المَطارة عاقِل

التقدير: على مخافة وعل.

والمقصود: إن الخلق الثاني كالخلق الأول في جانب القدرة.

وجملة ﴿ إن الله سميع بصير ﴾: إما واقعة موقع التعليل لكمال القدرة على ذلك الخلق العجيب استدلالاً بإحاطة علمه تعالى بالأشياء والأسباب وتفاصيلها وجزئياتها ومن شأن العالم أن يتصرف في المعلومات كما يشاء لأن العجز عن إيجاد بعض ما تتوجه إليه الإرادة إنما يتأتى من خفاء السبب الموصل إلى إيجاده، وإذ قد كان المشركون أو عقلاؤهم يسلمون أن الله يعلم كل شيء جعل تسليمهم ذلك وسيلة إلى إقناعهم بقدرته تعالى على كل

شيء ، وإما واقعة موقع الاستئناف البياني لما ينشأ عن الإخبار بأن بعثهم كنفس من تعجب فريق ممن أسروا إنكار البعث في نفوسهم الذين أوما إليهم قوله آنفاً : ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ [لقمان : 23] ، ولأجل هذا لم يقل : إن الله عليم قدير .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

استدلال على ما تضمنته الآية قبلها من كون الخلق الثاني وهو البعث في متناول قدرة الله تعالى بأنه قادر على تغيير أحوال ما هو أعظم حالاً من الإنسان ، وذلك بتغيير أحوال الأرض وأُفقها بين ليل ونهار في كل يوم وليلة تغييراً يشبه طُروّ الموت على الحياة في دخول الليل في النهار ، وطروّ الحياة على الموت في دخول النهار على الليل ، وبأنه قادر على أعظم من ذلك بما سخره من سير الشمس والقمر .

فهذا الاستدلال على إمكان البعث بقياس التمثيل بإمكان ما هو أعظم منه من شؤون المخلوقات بعد أن استدل عليه بالقياس الكلي الذي اقتضاه قوله ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ [لقمان : 28] من إحاطة العلم الإلهي بالمعلومات المقتضي إحاطة قدرته بالممكنات لأنها جزئيات المعلومات وفرعٌ عنها .

(116/609)

والخطاب لغير معين ، والمقصود به المشركون بقرينة ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ .

والرؤية علْمية ، والاستفهام لإنكار عدم الرؤية بتنزيل العالمين منزلة غير عالمين لعدم انتفاعهم بعلمهم .

والإيلاج : الإدخال .

وهو هنا تمثيل لتعاقب الظلمة والضياء بولوج أحدهما في الآخر كقوله ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس : 37] .

وتقدم الكلام على نظيره في قوله ﴿ تُولج الليل في النهار ﴾ أول سورة آل عمران (27) ، وقوله ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ﴾ الآية في سورة الحج (61) مع اختلاف الغرضين .

والابتداء بالليل لأن أمره أعجب كيف تغشَى ظُلمته تلك الأنوار النهارية ، والجمع بين إيلاج الليل وإيلاج النهار لتشخيص تمام القدرة بحيث لا تُلازم عملاً متماثلاً .

والكلام على تسخير الشمس والقمر مضى في سورة الأعراف .

وتنوين ﴿ كلٌّ ﴾ هو المسمى تنوين العوض عن المضاف إليه ، والتقدير : كلٌّ من الشمس والقمر يجري إلى أجل .

والجري : المشي السريع ؛ استعير لانتقال الشمس في فلكها وانتقال الأرض حول الشمس وانتقال القمر حول الأرض ، تشبيهاً بالمشي السريع لأجل شسوع المسافات التي تقطع في

خلال ذلك .

وزيادة قوله ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ للإشارة إلى أن لهذا النظام الشمسي أمداً يعلمه الله فإذا انتهى ذلك الأمد بطل ذلك التحرك والتنقل ، وهو الوقت الذي يؤذن بانقراض العالم ؛ فهذا تذكير بوقت البعث .

فيجوز أن يكون ﴿ إلى أجل ﴾ ظرفاً لغواً متعلقاً بفعل ﴿ يجري ، ﴾ أي : ينتهي جريه ، أي سيره عند أجل معيَّن عند الله لانتهاء سيرهما .

ويجوز أن يكون ﴿ إلى أجل ﴾ متعلقاً بفعل ﴿ سَخَّر ﴾ أي : جعل نظام تسخير الشمس والقمر منتهياً عند أجل مقدّر .

وحرف ﴿ إلى ﴾ على التقديرين للانتهاء .

وليست ﴿ إلى ﴾ بمعنى اللام عند صاحب "الكشاف" هنا خلافاً لابن مالك وابن هشام ، وسيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى ﴿ وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ في سورة فاطر (13) .

(117/609)

﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ عطف على ﴿ أن الله يولج الليل في النهار ﴾ ، فهو داخل في الاستفهام الإنكاري بتنزيل العالم منزلة غيره لعدم جريه على موجَب العلم ، فهم يعلمون أن الله خبير بما يعملون ولا يَجرون على ما يقتضيه هذا العلم في شيء من أحوالهم .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة موجه إلى غير معين ، والمقصود به المشركون بقرينة قوله ﴿ وأن ما تدعون من دونه الباطل ﴾ بتاء الخطاب في قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم .

والمشار إليه هو المذكور آنفاً وهو الإيلاج والتسخير .

وموقع هذه الجملة موقع النتيجة من الدليل فلها حكم بدل الاشتمال ولذلك فصلت ولم تعطف فإنهم معترفون بأن الله هو فاعل ذلك فلزمهم الدليل ونتيجته .

والمعنى : أن إيلاج الليل في النهار وعكسه وتسخير الشمس والقمر مُسبب عن انفراد الله تعالى بالإلهية ، فالباء للسببية ، وهو ظرف مستقر خبر عن اسم الإشارة .

وضمير الفصل مفيد للاختصاص ، أي : هو الحق لا أصنامكم ولا غيرها مما يُدّعى إلهية غيره تعالى .

و ﴿ الحق : هنا بمعنى الثابت ، ويفهم أن المراد حقية ثبوت إلهيته بقرينة السياق ولمقابلته بقوله وأن ما تدعون من دونه الباطل ، ﴾ والمعنى : لما كان ذلك الصنع البديع مسبباً عن

انفراد الله بالإلهية كان ذلك أيضاً دليلاً على انفراد الله بالإلهية للتلازم بين السبب والمسبب .

والتعريف في ﴿ الحق ﴾ و ﴿ الباطل ﴾ تعريف الجنس .

وإنما لم يؤت بضمير الفصل في الشق الثاني لأن ما يدعونه من دون الله من أصنامهم يشترك معها في أنه باطل .

وذكر ضمير الفصل في نظيره من سورة الحج (73) لاقتضاء المقام ذلك كما تقدم .

(118/609)

والظاهر أنا إذا جعلنا الباء في ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ باء السببية أن يكون قوله ﴿ وأن ما تدعون من دونه الباطل ﴾ عطفاً على الخبر وهو مجموع ﴿ بأن الله .

﴾ فالتقدير : ذلك أن ما تدعون من دونه الباطل .

ويقدر حرف جر مناسب للمعنى حُذف قبل ﴿ أنّ ﴾ وهو حرف (على) أي : ذلك دال .

وهذا كما قدر حرف (عن) في قوله تعالى : ﴿ وترغبون أن تنكِحوهن ﴾ [النساء : 127] ولا يكون عطفاً على مدخول باء السببية إذ ليس لبطلان آلهتهم أثر في إيلاج الليل

في النهار وتسخير الشمس والقمر ، أو تقدر لام العلة ، أي ذلك ، لأن ما تدعونه باطل ؛ فلذلك لم يكن لها حظ في إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر باعتراف المشركين .

وقوله ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ واقع موقع الفذلكة لما تقدم من دلالة إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر لأنه إذا استقر أنَّ ما ذُكر دال على أن الله هو الحق بالإلهية ، ودال على أن ما يدعونه باطل ، ثبت أنه العلي الكبير دون أصنامهم .

وقد اجتلب ضمير الفصل هنا للدلالة على الاختصاص وسلب العلو والعظمة عن أصنامهم .

والأحسن أن نجعل الباء للملابسة أو المصاحبة وهي ظرف مستقر خبر عن اسم الإشارة ، فإن شأن الباء التي للملابسة أن تكون ظرفاً مستقراً بل قال الرضِيُّ : إنها لا تكون إلاّ كذلك ، أي أنها لا تتعلق إلا بنحو الخبر أو الحال كما قال:

وما لي بحمد الله لحم ولا دم . . .

أي : حالة كوني ملابساً حمد الله ، أي : غير ساخط من قضائه ، ويقال : أنت بخير النظرين ، أي : مستقر .

فالتقدير : ذلك المذكور من الإيلاج والتسخير ملابس لحقيَّة إلهية الله تعالى ، ويكون المعطوفان معطوفين على المجرور بالباء ، أي ملابس لكون الله إلهاً حقاً ، ولكون ما تدعون من دونه باطل الإلهية ولكون الله هو العلي الكبير .

والملابسة المفادة بالباء هي ملابسة الدليل للمدلول وبذلك يستقيم النظم بدون تكلف ، ويزداد وقوع جملة ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ إلى آخرها في موقع النتيجة وضوحاً .

وضمير الفصل في قوله وأن الله هو العلي الكبير ﴾ للاختصاص كما تقدم في قوله : ﴿ إن الله هو الغني الحميد ﴾ [لقمان : 26] .

و ﴿ العلي ﴾ : صفة مشتقة من العلوّ المعنويّ المجازي وهو القدسية والشرف .

والكبير : وصف مشتق من الكِبَر المجازي وهو عظمة الشأن .

وتقدم نظير هذه الآية في سورة الحج (63) مع زيادة ضمير الفصل في قوله ﴿ وأن ما تدعون من دونه هو الباطل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾

قوله تعالى ﴿ مِن شَجَرَةٍ . . ﴾ [لقمان : 27] مِنْ : هنا تفيد العموم أي : من بداية ما يُقال له شجرة ، وفرق بين أنْ تقول : ما عندي مال ، وما عندي من مال ، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من الله الذي لا يُعتدُّ به ، أمّا (من مال) فقد نفيت جنس المال قليله وكثيره . وتقول : ما في الدار أحد . وربما يكون فيها طفل مثلاً أو امرأة ، أمّا لو قلْتَ : ما في الدار من أحد ، فهذا يعني خُلوها من كل ما يقال له أحد .

والشجرة : هي النبات الذي له ساق ، وقد تشابكتْ أغصانها ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [النساء : 65]

أما النبات الذي ليس له ساق فهو العُشْب أو النجم الذي ينتشر على سطح الأرض ، خاصة بعد سقوط الأمطار ، وهذا لا تُؤخذ منه الأقلام ، إنما من الشجرة ذات الغصون والفروع .

وقد ذكر القرآن الكريم هذين النوعين في كلام معجز ، فقال سبحانه : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 5-6] فالشمس والقمر ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] أي : حساب دقيق محكم ؛ لأن بهما حساب الزمن ، ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] أي : في خضوع لله تعالى .

وكلمة النجم هنا يصح أنْ تُضاف إلى الشمس والقمر ، ويصح أنْ تضاف للشجر ، فهو لفظ يستخدم في معنى ، ويؤدي معنى آخر بضميمة ضميره .

وقد تنبه الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

أُرَاعِي النجْمَ في سَيْرِي إليكُمُ . . . ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوادِي

فهو ينظر إلى نجم السماء ليهتدي به في سيره ، ويرعى جواده نَجْم الأرض ، ومن ذلك أيضاً كلمة العين ، فتأتي بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس ، وبمعنى عين الماء ، وبمعنى العين المبصرة .

(121/609)

ومعنى : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ . . ﴾ [لقمان : 27] أي : يُعينه ويساعده إنْ نفذ ماؤه . ولك هنا أن تسأل : لماذا جعل الإمداد للماء ، ولم يجعله للشجر ؟ قالوا : لأن القلم الواحد يكتب بحبر كثير لا حَصْر له ، فالحبر مظنة الانتهاء ، كما أن الشجر ينمو ويتجدد ، أما ماء البحر فثابت لا يزيد .

واقرأ أيضاً في هذه المسألة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : 109]

والعدد سبعة هنا ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ . . ﴾ [لقمان : 27] لا يُراد به العدد ، إنما يراد به الكثرة كما في قوله تعالى : ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ . . . ﴾ [الطلاق : 12] فهذه مجرتنا

الشمسية ، فما بالك بالسموات في المجرات الأخرى ، وقد علمنا أن السماء هي كل ما علاك فأظلك .

إذن : يرد العدد سبعة على سبيل الكثرة ، والعرب كانوا يعتبرون هذا العدد نهاية للعدد ؛ لأن العدد معناه الأرقام التي تبين المعدود ، فهناك فرق بين العدد والمعدود ، ولما تبيّنا هذا الفرق استطعنا أنْ نرد على المستشرقين في مسألة تعدد الزوجان ، فالعدد يعني 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 أما المعدود ، فما يميز هذه الأعداد .

والرسول صلى الله عليه وسلم حينما أراد أن يُنهي التعدد المطلق للزوجات لما أنزل الله عليه أن يأمر الناس أن مَنْ معه أكثر من أربع زوجات أنْ يُمسك أربعاً منهن ويفارق الباقيات .

وكان عند رسول الله في هذا الوقت تسع زوجات لم يشملهُنَّ هذا الحكم ، فقالوا : لماذا استثنى الله محمداً من هذا الحكم ؟ وكيف يكون عنده تسع ، وعند امته أربع ؟ ولم يفطنوا إلى مسألة العدد والمعدود : هل استثنى الله تعالى رسوله في العدد ، أم في المعدود ؟

(122/609)

نقول : استثناه في المعدود ؛ لأنه تعالى خاطب نبيه في آية أخرى : ﴿ لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . . ﴾ [الأحزاب : 52] ففرض على رسول الله أنْ يقتصر على هؤلاء ، لا يزيد عليهن ، ولا يتزوج بعدهن حتى لو مُتْنَ جميعاً .

إذن : لم يستثنه في العدد ، وإلا لكان من حقِّه إذا ماتت واحدة من زوجاته أنْ يتزوج بأخرى ، وإنْ مُتْن جميعاً يأتي بغيرهن .

ولك أن تقول : ولماذا جعل الله الاستثناء في المعدود لا في العدد ؟ قالوا : لأن زوجات غير النبي صلى الله عليه وسلم إذا طلَّقها زوجها لها أن تتزوج بغيره ، لكن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين ومحرمات عليهم ، فإنْ طلَّق رسول الله إحدى زوجاته بقيت بلا زواج .

لذلك أُمِر رسول الله أنْ يمسك زوجاته التسع ، شريطة ألاَّ يزيد عليهن ، في حين يُباح لغيره أن يتزوج بأكثر من تسع ، بشرط ألاَّ يبقى معه أكثر من أربع ، وعليه ، فهذا الحكم ضيَّق على رسول الله في هذه المسألة في حين وسَّع على أمته .

ونعلم أنَّ معظم زوجات النبي كُنَّ كبيرات في السِّن ، وبعضهن كُنَّ لا إرْبة لهن في مسألة الرجل ، لكنهن يحرصن على شرف الانتساب لرسول الله ، وعلى شرف كَوْنهن أمهات المؤمنين ؛ لذلك كانت الواحدة منهن تتنازل عن قَسمْها في البيتوتة لضرتها مكتفية بهذا

الشرف .

إذن : التفريق بين العدد والمعدود خلَّصنا من إفك المستشرقين ، ومن تحاملهم على رسول الله واتهامهم له بتعدد الزوجات ، وأنه صلى الله عليه وسلم وسَّع على نفسه وضيَّق على أمته .

(123/609)

ومسألة العدد والمعدود هذه مسألة واسعة حيّرت حتى الدارسين للنحو ، فلا إشكال في العدد واحد والعدد اثنان ؛ لأننا نقول في المفرد المذكر : واحد والمؤنث : واحدة .

وللمثنى المذكر : اثنان ، وللمؤنث : اثنتان . فالعدد يوافق المعدود تذكيراً وتأنيثاً ، لكن الخلاف يبدأ من العدد ثلاثة ، حيث يذكَّر العدد مع المعدود المؤنث ، ويُؤنَّث مع المعدود المذكَّر ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

قالوا : لاحظ أن التذكير هو الأصل ؛ ولذلك احتاج التأنيث إلى علامة ، أما المذكَّر وهو الأصل فلا يحتاج إلى علامة ، تقول : قلم . وتقول : دواة . فاحتاجت إلى علامة للتأنيث فهي الفرع والمذكر هو الأصل .

وتعالَ إلى الأعداد من ثلاثة إلى عشرة ، تقول : ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة . . . إلخ

فالعدد نفسه مبنيٌّ على التاء ، وليست هي تاء التأنيث ، لأنها أعداد مجردة بلا معدود ، فإذا أردنا تأنيث هذا العدد وبه تاء لا نضيف إليه تاءً أخرى ، إنما نحذف التاء فيكون الحذف هو علامة التأنيث ويبقى العدد مع المذكر على الأصل بالتاء .

فما حكاية العدد سبعة بالذات ؟ قالوا : إن العدد واحد هو الأصل في الأعداد ؛ لأن العدَّ ينشأ من ضم واحد إلى آخر ، فواحد هو الخامة التي تتكون منها الأعداد فتضم واحداً إلى واحد وتقول : اثنان وتضم إلى الاثنين واحداً ، فيصير العدد ثلاثة . . وهكذا .

ومعلوم أن أقلَّ الجمع ثلاثة ، والعدد إما شفع وإما وتر ، الشفع هو الذي يقبل القسمة على الاثنين ، والوتر لا يقبل القسمة على الاثنين ، والله تعالى يقول : ﴿ والشفع والوتر ﴾ [الفجر : 3] فبدأ بالشفع وأوله الاثنان ثم الثلاثة ، وهي أول الوتر ، أما الواحد فقد تركناه لأنه كما قلنا الخامة التي يتكون منها جميع الأعداد .

(124/609)

وما دام الله تعالى قال : ﴿ والشفع والوتر ﴾ [الفجر : 3] فالاثنان أول الشفع ، والثلاثة أول الوتر ، وأربعة ثاني الشفع ، وخمسة ثاني الوتر ، وستة ثالث الشفع ، وسبعة ثالث الوتر .

وقلنا : إن الجمع أقلُّه ثلاثة ، فاعتبرت العرب العدد سبعة أقصى الجمع وتراً وزوجاً ، وانتهت عند هذا العدد ، فإذا أرادوا العدّ أكثر من ذلك أتوْا بواو يسمونها واو الثمانية ، وقد سار القرآن الكريم في أحكام العدد هذه على ما سارت عليه العرب .

واقرأ إنْ شئت هذه الآيات : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا . . . ﴾ [الزمر : 71]

أما في الجنة فيقول سبحانه : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا . . . ﴾ [الزمر : 73]

فما الفرق بين الآيتين ؟ ولماذا جاءت الواو في الثانية ، ولم تُذْكر في الأولى ؟

قالوا : لأن ﴿ فُتِحَتْ . . . ﴾ [الزمر : 71] في الأولى جواب شرط ، وهذا الجواب كانوا يُكذِّبونه وينكرونه . والشرط تأسيس ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا . . . ﴾ [الزمر : 71] ماذا حدث ؟ ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا . . . ﴾ [الزمر : 71] إنما هل كان المؤمنون المتقون الذين يذهبون إلى الجنة يُكذِّبون بهذا اليوم ؟

إذن ف : ﴿ فُتِحَتْ . . . ﴾ [الزمر : 71] هنا لا تكون جواباً ؛ لأنهم يعلمون يقيناً أنها ستفتح ، أما الجواب فسيأتي في : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ * وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ

فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [الزمر : 73-74]

ولما كانت أبواب النار سبعة لم يذكر الواو ، أما في الجنة فذكر الواو ، لأن أبوابها ثمانية .

(125/609)

كذلك اقرأ قول الله تعالى ولاحظ متى تستخدم الواو : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5]

تجد الواو قبل الثمانية ، ذلك لأن العرب تعتبر السبعة منتهى العدد بما فيه من زوج وفرد .

وقوله تعالى : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ . . ﴾ [لقمان : 27] أي : يُجعل مِداداً لكلمات الله ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله .

. ﴾ [لقمان : 27] كلمات الله هي السبب في إيجاد المقدورات العجيبة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] فكل مراد من شيء سببه كن .

وهنا عجيبة ينبغي أنْ نتأملها : فالله تعالى يقول للشيء وهو لم يُخْلق بعد (كن) ، كأن كل الأشياء موجودة في الأزل ومكتوبة ، تنتظر هذا الأمر (كن) ، فتبرز إلى الوجود ، كما يقول

أهل المعرفة : أمور يبديها ولا يبتديها .

إذن : ﴿ كَلِمَاتُ الله . . ﴾ [لقمان : 27] هي كن وكل مرادات الله في كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم ، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة .

ألم يَقُلْ في العجيب من أمر عيسى عليه السلام ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ . . . ﴾ [النساء : 171] والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق الطبيعي في خَلْق البشر من أب وأم ، إنما خَلِق بهذه الكلمة (كن) . لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنفسه طلاقة القدرة في الإيجادات وأنه سبحانه يخلق كما يشاء ، فمرة يخلق بلا أب وبلا أم ، كما خلق آدم عليه السلام ، ومرة يخلق بأم دون أب كما خلق عيسى عليه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء .

إذن : القسمة العقلية موجودة بكل وجوهها .

(126/609)

إذن : مع طلاقة القدرة لا اعتبارَ للأسباب ، فأنت إنْ أردتَ أنْ تكوِّن مثلاً قطرة الماء ، فعليك أن تأتي بالأكسوجين والأيدروجين بطريقة معينة ليخرج لك الماء وإلا فلا ، أما الخالق – عز وجل – فيخلق بالأشياء وبدون شيء ، لأن الأشياء بالنسبة لله تعالى

ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هي فاعلة بمراد الله فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : 27] والعزيز هو الذي يَغلب ويَقْهر ولا يُقهر ، ولا يستدرك أحد على فعله حتى لو كان مخالفا لعقله هو ، وتأمل معنى العزة ، وكيف وردت في هذا الموقف من قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام . ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [المائدة : 116] إلى أن يقول : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118]

والمنطق العقلي يقتضي أن نقول في عرف البشر : فإنك أنت الغفور الرحيم ، فالمقام مقام مغفرة ، لكن عيسى عليه السلام يأتي بها ، لا من ناحية الغفران والرحمة ، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التي لا يستدرك عليها أحد . ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] والمعنى : لو قال الناس لماذا غفرتَ لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا ؟ فالإجابة أنني أنا العزيز الذي أغلب ولا أُغلب ، ولا يستدرك أحد على حكمي ، إذن : ذَيَّل الآية بالعزة لعزة الله تعالى في خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ . . . ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً على قضية البعث والقيامة ، ويريد سبحانه أنْ ينصب للناس في حركة حياتهم موازين الجزاء ؛ لأن كل عمل لا توجد فيه موازين للجزاء يعتبر عملاً باطلاً ، ولا يمكن أنْ يستغنى عن الجزاء ثواباً وعقاباً إلا مَنْ كان معصوماً او مُسخَّراً ، فالمعصوم قائم دائماً على فِعْل الخير ، والمسخّر لا خيار له في أنْ يفعل أو لا يفعل .

إذن : إذا لم يتوفر مبدأ الجزاء ثواباً وعقاباً في غير هذين لا بُدَّ أنْ يوجد فساد ، إذا لم يُثب المختار على الفعل ، ويعاقب على الترك اضطربت حركة الحياة ، حتى في المجتمعات التي لا تؤمن بإله وضعت لنفسها هذا القنون ، قانون الثواب والعقاب .

والحق – سبحانه وتعالى – يعطينا مثالاً لهذا المبدأ في قوله تعالى من قصة ذي القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ [الكهف : 84-85]

أراد الحق سبحانه أن يبين أن الرجل الممكّن في الأرض له مهمة ، هذه المهمة هي شكر الله على التمكين ولا يكون إلا بإقامة ميزان العدالة في الكون ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ . . ﴾ [الكهف : 86] أي : في رأي العين ، وإلا فهي لا تغرب أبداً ، إنما تغرب عن جماعة في مكان ، وتشرق على جماعة في مكان آخر . ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ [الكهف :

ولا يُفوّض إنسان في أنْ يُعذّب أو يتخذ الحسنى إلا إذا كانت لديه مقاييس وميزان العدالة ، وقد قال الله عنه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ [الكهف : 84] أي : نعمة وميزاناً لتوزيع هذه النعمة ، فلم تقتصر نعمة الله عليه في أنه صاحب سلطان وجبروت ، إنما عنده المقوّمات الحياتية ، وعنده ميزان العدالة الذي يضبط استطراق النِّعَم في الكون كله .

(128/609)

فالذي خُيِّر في أنْ يفعل أو لا يفعل أراد أنْ يبين منهجه في أنه لم يأخذ الاختيار وسيلة لتثبيت الأهواء ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ [الكهف : 87] هذا هو العقاب ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ [الكهف : 88] أي : بعد أنْ ينال ثوابه ، نعطيه فوق ذلك حوافز تشجعه ، ونقيم له حفلة تكريم لنغري غيره بأن يسلك مسلكه .

إذن : فقضية الثواب والعقاب أمر لازم ، وإذا كان هذا في الأمور الحياتية الجزئية ، فهو أَوْلى في أمور الدين والقيم التي تسيطر على كل موازين الحياة ، لا بُدَّ من وقت للثواب وللعقاب ، وإلا استشرى الظلم واغتال الناس ، وقضى عليهم وأخذ منهم كل مُتع الحياة ، فانتفع بذلك

المفسد ، وخاب كل مَن التزم بدين الله وقيم منهجه .

لذلك تجد الحق – تبارك وتعالى – يؤكد دائماً على مسألة البعث والقيامة والحساب ، وترى أعداء الدين يحاولون أنْ يُشككوا في هذه القضية ، وأنْ يُزحزحوا الناس عن الإيمان بها بطرق شتى .

فالفلاسفة لهم في ذلك دور ، وللملاحدة دور ، ولأهل الكتاب دور ؛ لذلك تجد التوراة مثلاً تكاد تخلو من إشارة عن اليوم الآخر ، وهذا أمر غريب لا يمكن تصوره في كتاب ودين سماوي ومنهج حياة .

وما ذلك إلا لأن أهل التوراة أرادوا أنْ يُزحزحوا الناس عن أمور عدة ليثبتوا لأنفسهم سلطة زمنية مادية ، حتى إنهم طمعوا في أنْ يرتقوا بهذه السلطة حتى يصلوا إلى الله تعالى ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يا موسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً . . . ﴾ [البقرة : 55]

(129/609)

ولما أنزل الله عليهم المنَّ ، وهو مادة حُلْوة كطعم القشدة جعلها تتساقط عليهم ، وأنزل عليهم السلوى ، وهي طيور مثل السمان تنزل عليهم جاهزة مُعدَّة للتناول رفضوا عطية الله

لهم ، وطعامه الذي أُعدَّ من أجلهم ، وقالوا : بل نريد طعاماً نصنعه بأيدينا ، وقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . ﴾ [البقرة : 61] ، فقال لهم : ﴿ اهبطوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ . . . ﴾ [البقرة : 61]

وما دام الأمر بالنسبة لهؤلاء مادياً فلا بُدَّ أنْ يزحزح نفسه عن الآخرة وعن القيامة والحساب ، لذلك راحوا يُشكِّكون فيها ، أما الفلاسفة فقالوا : حين يبعث الله إنساناً بعد الموت وقد تحللتْ أعضاؤه وصارت تراباً ، ثم غرست في هذا المكان شجرة فتغذتْ من هذا التراب ، وأكل إنسان آخر من ثمارها وانتقلتْ إليه بعض خلايا وجزيئات الأول ، فإذا كان هناك بعث أُتبعت هذه الجزئيات مع الأول أم مع الآخر ؟ فإنْ كانت مع الأول فهي نقص في الآخر والعكس . هذه هي شبهة الفلاسفة .

وقد تخبَّط الفلاسفة هذا التخبُّط ؛ لأنهم لم يفطنوا إلى شيء في الوجود يعطي قيماً للغيبيات ، وقد أوضحنا هذه المسألة فقلنا لهم : لو أن إنساناً يزن مائة كيلو مثلاً أصيب بمرض أفقده أربعين كيلو من وزنه ، فماذا يعني هذا النقص بالنسبة للشخص نفسه ؟

هذه المسألة يتحكم فيها أمران : الغذاء والإخراج ، ففي فترة النمو يكون الداخل للجسم أكثر من الخارج ، أما في فترة الشيخوخة مثلاً فالخارج أكثر ، فإنْ توازن الأمران كانت حالة من الثبات لا يزيد فيها الشخص ولا ينقص ، وهي فترة الثبات .

فالشخص الذي نقص من وزنه أربعون كيلو ، ثم شفاه الله وعادت إليه عافيته حتى زاد

وزنه وعاد إلى حالته الطبيعية ، فهل تغيَّر الشخص حال نقصان وزنه ؟ وهل تغيَّر حال عودته إلى طبيعته ؟ أم ظلت الشخصية والذاتية هي هي ؟

(130/609)

إذن : المسألة في تكوين الجسم ليست ذرات وجزئيات ، إنما هي شخصية معنوية خاصة وإنْ تكوَّنت من جزيئات المادة وهي الستة عشر عنصراً التي تكوِّن جسم الإنسان ، والتي تبدأ بالأكسوجين وتنتهي بالمنجنيز ، وهي نفس العناصر المكوِّنة لتربة الأرض التي نأكل منها ، وهذه العناصر بنسب تختلف من شخص لآخر .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4] يعني : نعرف ما نقص من كل إنسان : كذا في الحديد ، وكذا من الأكسوجين ، وكذا من الفسفور . . إلخ .

إذن : حين يبعث الله الإنسان بعد الموت يبعث هذه الشخصية المعنوية بهذه الأجزاء المعروفة ، فيأتي الشخص هو هو .

ومن القضايا التي أثاروها في مسألة البعث والالتباسات التي يحاولونها يقولون : الله تعالى يخلق الإنسان في مدة تسعة أشهر ، أو ستة أشهر ، يمر خلالها بعدة مراحل : نطفة ، ثم

علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم يكسو هذه العظام لحماً ، هذا للإنسان الواحد ، فكم تستغرق إعادة خَلْق البشر من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ؟

ونقول : لقد ذكرتم كيفية خَلْق سلالة الإنسان والتي تستغرق تسعة أو ستة أشهر ، لكن لم تذكروا خَلْق الأصل ، وهو آدم عليه السلام ، وقد خلقه الله على هيئته وصورته التي كان عليها ، فلم يكُنْ صغيراً وكبر ، إنما خُلِق كبيراً مستوياً كاملاً ، ثم نُفِخت فيه الروح .

ثم إن عناصر الفعل هي : الفعل ، والفاعل ، والمنفعل ، يُضاف إليها الزمن الذي سيتم فيه الفعل ، فأنا أريد أنْ أنقل هذه (الحملة) من هنا إلى هناك فنقلنا فعل ، وأنا الفاعل ، والجملة هي المنفعل ثم الزمن الذي يستغرقه الحدث ، والزمن يعني توزيع جزئيات الحدث على جزيئات الزمن فإذا أردت أن تخيط ثوبا بطريقة يدوية فإنه يأخذ منك وقتاً طويلاً ، فإن خِطَّه بالماكينة أخذ وقتاً أقلّ بكثير .

(131/609)

إذن : فزمن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل ، وتذكرون أنه في الماضي كانت الشوارع تضاء بمصابيح الزيت ، وكان لكل منطقة عامل يصعد إلى سلم إلى كل فانوس ليشعله ، أما الآن فتستطيع أن تنير مدينة بأكملها بضغط زر واحد . إذن : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن .

فتعال إذن إلى مسألة البعث والإعادة بعد الموت : أهي بقوتك أنت لتحسبها بما يناسب قوتك وقدرتك ؟ إنها بقوة الله عز وجل ، والله لا يعالج الأمور كما نفعل ولا يزاولها ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ . إذن : فالفعل بالنسبة لله تعالى لا يحتاج إلى زمن تُوزَّع فيه جزئيات الفعل على جزئيات الزمن .

ولِمَ تستبعد هذا في حقِّ الله تعالى ، وقد أعطاك ربك طرفاً منه رغم قدرتك المحدودة ؟ ألستَ تجلس في مثل هذا المجلس فترانا جميعاً مرة واحدة في نظرة واحدة ، كذلك تسمع الجميع دفعة واحدة ؟ ألستَ تقوم بمجرد أن تريد أنْ تقوم ، وتنفعل جوارحك لك بمجرد أنْ يخطر الفعل على بالك ؟ أتفكر أنت في العضلات التي تحركتْ والإشارات التي تمتْ بداخلك لتقوم من مجلسك ؟

وقد سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة حين قارنَّا حركة الإنسان في سلاستها وطواعية الجوارح لمراد صاحبها بحركة الحفار مثلاً ، فهو لا يؤدي حركة إلا بالضغط على زر خاص بها .

فإذا كنت أنت أيها العبد تنفعل لك جوارحك وأعضاؤك بمرادك في الأشياء ، فهل تستبعد في حق الله أنْ يفعل بكلمة كُنْ ؟ كيف وأنت ذاتك تفعل بدون أنْ تقولها ؟ مجرد الإرادة منك تفعل ما تريد .

فإنْ قلتَ : كيف يفعل الحق سبحانه بكلمة كُنْ ، وأنا أفعل بدون أنْ أقولها ؟ نقول : نعم أنت

تفعل بدون كُنْ ؛ لأن الأشياء ليست منفعلة لك أنت ، إنما هي مُسخَّرة بكُنْ الأولى حين قال الله لها كوني مُسخَّرة لإرادته ، إذن : أنا أفعل بدون كُنْ ؛ لأنها ليست في مقدوري أنا ، فكأن كُنْ الأولى من الله تعالى هي كُنْ لنا جميعاً .

(132/609)

وبهذا الفهم استطعنا تفسير حادثة الإسراء والمعراج ، واستطعنا الرد على منكريها ، فالله يقول : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . ﴾ [الإسراء : 1]

فلما سمع الكفار بالحادثة أنكروها وقالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ نعم أنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن فعلكم يحتاج إلى زمن ومزاولة نوزع فيها جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أمَّا محمد فلم يقُلْ سريتُ ، فيكون في الفعل كأحدكم إنما قال : أُسرِي بي .

إذن : فهو محمول على قدرة أخرى ، فالفعل لا يُنسب إليه إنما إلى حامله إلى الله ، وقلنا : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن ، فإذا كانت القوة قوة الحق – تبارك وتعالى – فلا زمن ؛ لذلك يقول سبحانه في مسألة الخلق والإعادة : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ . .

﴾ [لقمان : 28]

فالأمر يسير على الله ؛ لأن خَلْق النفس الواحدة وخَلْق جميع الأنفس يتم بكُنْ ، فالمسألة لا تحتاج إلى تسعة أو ستة أشهر .

وضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بصناعة الزبادي مثلاً ، فأنت تأتي باللبن وتضع عليه المادة المعروفة وتتركه في درجة حرارة معينة فيتحول تلقائياً إلى الزبادي الذي تريده ، فهل جلستَ أمام كل علبة تُحوّلها بنفسك ، أم أنك عملت العملية المعروفة في هذه الصناعة ، ثم تركت هذه المواد تتفاعل بذاتها ؟

كذلك شاء الله تعالى أنْ يوجد الإنسان جنيناً في بطن أمه ، وأن تجري عليه أمور النمو بطبيعتها ، إذن : خَلْق الإنسان لا يقاس بالنسبة لله تعالى بالزمن ، وقد حَلَّ لنا الإمام علي كرم الله وجهه هذه القضية حينما سُئِل : كيف يحاسب الله الناس جميعاً من لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة في وقت واحد ؟

فقال : يحاسبهم جميعاً في وقت واحد ، كما أنه يرزقهم جميعاً في وقت واحد ؛ لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن .

(133/609)

ثم يذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان : 28]

سميع بصير صيغة مبالغة من السمع والبصر ، وقلنا : إنك وأنت العبد المخلوق تستطيع أن ترى هذا الجمع مرة واحدة في نظرة واحدة ، وكذلك تسمعه ، فما بالك بسمَعْ الله تعالى وبصره ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ . . . ﴾ .

هذه آيات كونية واضحة مرئية للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصي ، فالحق سبحانه يوزع لنا الوقت بين ليل ونهار ، لكنه ليس توزيعاً متساوياً (ميكانيكياً) ، بحيث يكون كل منهما أربعاً وعشرين ساعة ثابتة على التقدير الجبري كما يقولون ؛ لذلك نرى اليوم ينقص مثلاً عن الأربع وعشرين ساعة عدة دقائق تُضاف إلى زمن الليل أو العكس .

لذلك قالوا من أيام بطليموس : السنة 365 يوماً وخمس ساعات ، وخمس وخمسون دقيقة ، واثنتا عشرة ثانية بالدقة . بعدها انتهوا إلى أنَّ السنة 365 يوماً وربع يوم عن طريق الجبر ، فكل ثلاث سنين نجبر الرابعة ، ويقولون : سنة بسيطة ، وسنة كبيسة أي : طويلة ، فالتي تقبل القسمة على أربعة سنة كبيسة ، لذلك نجد شهر فبراير في هذه السنة 29 يوماً ، ذلك لنعوض اليوم .

وكلمة يوم تعني الليل والنهار ، لكن القسمة بينهما ليست متساوية ، فالحق – تبارك وتعالى – بصنعته الحكيمة أراد أنْ يُوزع الحرارة والبرودة على كل مناطق المعمورة ، ويعطي لكل

منطقة ما تحتاجه لتنبت أرضها ، وتعطينا نحن مقومات حياتنا ، بدليل أن من النباتات ما لا ينمو إلا في الصيف ، ومنها ما لا ينمو إلا في الشتاء ، كذلك في الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي .

(134/609)

لذلك ، عرفنا أخيراً أن الخالق سبحانه جعل لمحور الأرض ميلاً بمقدار 23 . 5 درجة عن مستوى مدارها فهي إذن غير مستوية ، ففي فصل الشتاء يكون القسم الكبير منها مواجهاً لليل ، والآخر مواجهاً للنهار ، فتجد ليل الشتاء أطول من ليل الصيف وأبرد منه ، ويبلغ ليل الشتاء أقصى ما يمكن من الطول وهو 12 ساعة فهي شهر كيهك ، حتى أن الفلاحين يقولون في كيهك (كياك صباحك مساك قوم من نومك حضر عشاك) .

ومقابل ذلك في فصل الصيف ، فكأن ميل محور الأرض سرٌّ من أسرار هندسة هذا الكون ، ففي الحادي والعشرين من حزيران (يونيو) يبدأ الانقلاب الصيفي ، وفي الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) يبدأ الانقلاب الشتوي ، ثم الاعتدال الربيعي في الحادي والعشرين من آذار (مارس) ، والاعتدال الخريفي في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر) . وفي الاستواء الربيعي والاستواء الخريفي تجد أن الليل مساو للنهار ، وجوّهما معتدل لا

حر ولا برد .

فقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ الليلَ فِي النهار ويُولِجُ النهارَ فِي الليل . . ﴾ [لقمان : 29] يعني : لا تظن أن الليل والنهار قسمة متساوية ؛ لأن الله تعالى بحكمته يُدخل جزءاً من الليل في النهار ، أو جزءاً من النهار في الليل ، فيزيد في أحدهما ، وينقص من الآخر لحكمة أرادها سبحانه وتعالى لصالح الإنسان ، وإمداداً له بمقوّمات حياته ، لتعلم أن ما يطرأ على الليل أو النهار من تغيير الأشياء لها مناط في الحكمة الإلهية العليا .

وحين نُقسِّم اليوم إلى ليل ونهار – وهي قسمة كما قلنا ليست رتيبة ولا متساوية – فإن لليل مهمة في الحياة وللنهار مهمة ، كما بيّن لنا سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا الليلَ لِبَاساً *وَجَعَلْنَا النهارَ مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 10-11]

(135/609)

معنى اللباس أن تسكن فيه وتكِنّ وتستر نفسك ؛ لذلك عرفنا فيما بعد أن الضوء أثناء النوم أمر غيرَ صحي ، وفهمنا قول رسول الله : " أطفئوا المصابيح إذا رقدتم " .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ والضحى * والليلِ إذَا سجى ﴾ [الضحى : 1-2] ويقول : ﴿ والليلِ إذَا يغشى * والنهارِ إذَا تجلى ﴾ [الليل :

1-2] ليبين لك أن لكل منهما مهمة في حركة حياتك ، فالنهار للحركة ، والليل للسكون ، وعليك ألا تخلط بين هاتين المهمتين دون داع ، وقد استثنينا من هذه القاعدة مَنْ تحتم عليهم طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ويرتاحوا بالنهار .

والخالق عز وجل في حركة الليل والنهار أسراراً وعجائب ينبغي أن نتنبه إليها بمعطيات العلم ، ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل لكل سر في الكون ميلاداً يولد فيه ، ونثر أسرار كونه على خَلْقه ولم يُظهرها لجيل واحد ، وإلا لو كشف القرآن كل أسراره للأمة الأمية التي عاصرتْ نزوله لانصرفتْ عن الدعوة الجديدة بتكذيب هذه القضايا التي لم تصدقها العقول حتى في العصر الحديث ورغم تقدم العلوم ، فمثلاً لما قال العلماء بكروية الأرض ودورانها حول الشمس لم نصدق هذه الحقائق حتى جاءتنا الصور الفضائية التي تؤكد ذلك .

وقلنا : إن ميلاد سِرٍّ من أسرار الكون قد يصادف بحثاً من البشر ، فيأتي السر ويظهر على أنه نتيجة لهذا البحث ، وإلا أظهره الله للناس بالمصادفة رحمة بهم وتفضُّلاً عليهم ؛ لذلك نجد أن معظم الاكتشافات جاءت صدفة ، لم يَسْعَ إليها البشر ، ولم يذهبوا إليها بمقدمات .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن الليل والنهار يقول كلاماً عاماً يفهمه كل معاصر لمرحلة من مراحل التقدم العلمي : ﴿ وَجَعَلْنَا اليل والنهار آيَتَيْنِ . . . ﴾ [الإسراء : 12]

ويقول : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] ومعنى خلفه يعني : يخالف أحدهما الآخر ويأتي بعده ، وهذا صحيح الآن ، فنحن نرى الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، لكن كيف نتصور هذه المسألة في بَدْء الخَلْق ؟

لو أن البداية كانت بخَلْق الأرض مواجهة للشمس ، فالنهار إذن أولاً ليس خِلْفة لشيء قبله ، ثم تغيب الشمس فينشأ الليل ليكون خِلْفة للنهار ، وفي المقابل إن وجدت الأرض غير مقابلة للشمس ، فالليل هو الأول ليس خِلْفة لشيء قبله .

إذن : لا يحل لنا هذه المسألة إلا قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً . . . ﴾ [الفرقان : 62] أي : من بداية الخَلْق وهما خِلْفة ، وهذا لا يتأتى ولا يسوغ إلا إذا كانت الأرض مكوَّرة ، بحيث يكون الجزء المقابل للشمس منها مكوِّناً للنهار ، والجزء الآخر لليل في وقت واحد ، فلما تحركت الأرض في دورانها صار كل منها خِلْفة للآخر ، إذن : معطيات القرآن يهضمها العقل ، ولا يعارضها أبداً .

تذكرون في الثلاثينيات وبالتحديد عام 1928 فسروا السماوات السبع بأنها الكواكب السبعة السيارة التي تدور حول الشمس ، ذلك ليقربوا العلم للناس ، ويشاء الله – سبحانه وتعالى – أن يكتشفوا بعدها (نبتون) ثم (بلوتو) فصاروا تسعة كواكب ، وأظهر الله لهم

فساد هذا التأويل .

وفي الكون عجائب كثيرة نعرفها حتى عن طريق الكفار ، وكأن الله سخَّر حتى الكافر ليُثبت إيمان المؤمن ، فإذا كنا قد عرفنا اليوم عندنا على الأرض ، وأنه ليل ونهار يُكوِّنان أربعاً وعشرين ساعة ، فماذا يعني اليوم بالنسبة للكواكب الأخرى ؟

لما عرفوا أفلاك الكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس وجدوا أقربها للشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المريخ ، ثم المشتري ، ثم زحل ، ثم نبتون ، ثم بلوتو ، وهو أبعد الكواكب عن الشمس .

(137/609)

ومن عجائب اليوم في هذه الكواكب أن يوم الزهرة مثلاً 244 يوماً بيومنا نحن ، أما العام فيساوي 225 يوماً بيومنا ، فكأن يوم الزهرة أطول من عامها ، كيف ؟ قالوا : لأن المدار مختلف عن مدار الأرض ، فاليوم نتيجة دورة الكوكب حول نفسه ، والعام نتيجة دورة الكوكب حول الشمس .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر . . . ﴾ [لقمان : 29] ولك أن تلحظ دقة الأداء القرآني في الانتقال من الفعل المضارع ﴿ يُولِجُ . . . ﴾ [لقمان : 29] إلى

الماضي ﴿ سَخَّرَ . . . ﴾ [لقمان : 29] ففي الكلام عن حركة الليل والنهار قال ﴿ يُولِجُ . . . ﴾ [لقمان : 29] ولما تكلم عن الشمس والقمر قال : ﴿ سَخَّرَ . . . ﴾ [لقمان : 29] لماذا ؟

قالوا : لأن التسخير تم مرة واحدة ، ثم استقر على ذلك ، أما إيلاج الليل في النهار ، وإيلاج النهار في الليل فأمر مستمر يتكرر كل يوم ، فناسبه المضارع الدالّ على التكرار .

وقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [لقمان : 29] أي : إلى غاية محدودة ؛ لذلك نسمي العمر النهائي : الأجل . والمراد بالأجل المسمى يوم القيامة ، فكأن الخالق سبحانه ضمن لنا استمرار الشمس والقمر إلى قيام الساعة ، فاطمئنوا .

ثم أيُّ عظمة هذه في كوكب مضيء ينير العالم كله منذ خلقه الله وإلى قيام الساعة ، دون صيانة ودون قطعة غيار ؛ ذلك لأنه مبني على التسخير القهري الذي يمنع الاختيار ، فليس للشمس أنْ تمتنع عن الشروق وكذلك القمر ، ومن العظمة في الألوهية هذه الرحمانية الرحيمة التي تحتضن الجميع المؤمن بها والكافر .

(138/609)

وفي هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [لقمان : 29] وفي مواضع أخرى ورد بلفظ ﴿ لأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [الرعد : 2] باللام بدلاً من إلى ، وكذلك في سورتي فاطر (13) والزمر (5) ، ولكل من الحرفين معنى ﴿ إلى أَجَلٍ . . . ﴾ [لقمان : 39] تعطينا الصورة لمشية الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل ، إنما ﴿ لأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [فاطر : 13] أي : الوصول المباشر للأجل .

وكما أن لليل مهمة وللنهار مهمة ، كذلك للشمس مهمة ، وللقمر مهمة بيَّنها الله في قوله : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً . . . ﴾ [يونس : 5] .

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان : 61] فالضياء للشمس فيه نور وحرارة ، على خلاف نور القمر الذي يناسب حالماً لا حرارة فيه .

ومن عجائب أمر القمر أننا كُنَّا نحسبه قطعة من اللؤلؤ مضيئة في السماء ، حتى إن الشعراء درجوا على تشبيه المحبوبة بالقمر ، ولو عرفوا حقيقة القمر التي عرفناها نحن اليوم ما صحَّ منهم هذا التشبيه ، فقد أطلعنا العلم أن القمر ما هو إلا حجارة وجسم معتم لا يضيء بذاته ، إنما يعكس فقط ضوء الشمس ؛ لذلك لما شبَّه أحد الشعراء محبوبته بالقمر أنكرتْ عليه هذا التشبه :

شبَّهْتُها بالبدْرِ فَاسْتَضْحكتْ . . . وقابَلَتْ قَوْلِي بالنُّكْر

أي : تكلفت الضحك .

وَسفَّهَتْ قوْلي وقَالَتْ متَى . . . سَمُجْتُ حتى صِرْتُ كالبدْرِ

ولك أن تسأل فمن أين عرفت سماجة البدر ، وأنه حجارة لا جمالَ فيها ؟ تجيب هي حين تقول :

البَدْرُ لاَ يرنُو بعيْن كَما . . . أَرْنُو ولاَ يَبْسِمُ عن ثَغْر

ولاَ يُميط المرْطَ عن نَاهدٍ . . . ولا يشدُّ العقد في نَحْر

مَنْ قَاسَ بالبَدْر صَفائي فَلا . . . زَالَ أَسِيراً في يَدِي هَجْري

(139/609)

إذن : فحقيقة القمر التي عرفناها أخيراً آية من آيات الله الظاهرة والباطنة في الكون أطلعنا الله عليها بسلطان العلم ، فلما تيسَّر للبشر الصعود إلى سطحه عرفنا أنه جسم مُعْتم ، وصخور لا تنير بذاتها ، إنما تعكس أشعة الشمس ، فتصل إلينا هادئة حالمة ، وكأن القمر كما يقولون : (يصنع من الفسيخ شربات) .

ومن حكمة الخالق سبحانه في خَلْق الشمس والقمر أن تكون الشمس ميزاناً لمعرفة اليوم ، والقمر لمعرفة الشهر ، وهو الأصل في التكليفات ، لأن له شكلاً مميزاً في أول الشهر على

خلاف الشمس ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب . . . ﴾ [يونس : 5] .

وتتجلى عظمة التكليف الإلهي وارتباطه بالقمر في فريضة الحج مثلاً ، بحيث يتنقل موعد الحج على مدار العام كله ، فمرة يأتي في الصيف ، وأخرى في الشتاء . . إلخ مما يُيسِّر للحجاج ما يناسب كلاً منهم من الجو الملائم ، ويقطع الأعذار في التخلف عن أداء هذه الفريضة .

إذن : بالتوقيت القمري يأتي الحج في كل أوقات السنة ؛ لذلك قال البعض : إن ليلة القدر دائرة في العام كله إذا ما قارنا التوقيت الشمسي بالتوقيت القمري ، فإن اتفقنا على أن ليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان ، فإنها ستوافق أول يناير مثلاً ، وفي العام التالي توافق الثاني ، ثم الثالث وهكذا . . وهذا من رحمة الله تعالى بعبادة . .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 29] وما دام أنه سبحانه خبير بما تعملون ، فهو الذي يهيىء لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته ؛ لذلك شرع لكم الأعمال التي تنظم حركة حياتكم وحركة عبادتكم ؛ لذلك نجد رمضان مثلاً يدخل بالليل فنقول هذه الليلة من رمضان ، أما يوم عرفة فيدخل بيومه لأنه يوم مجموع له الناس .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 29] معطوفة على ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ . . . ﴾ [لقمان : 29] فالتقدير : وألم تر أن الله بما تعملون خبير .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ . . ﴾ [لقمان : 30] إشارة إلى ما تقدم ذِكْره من دخول الليل في النهار ، ودخول النهار في الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، ذلك كله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق . . ﴾ [لقمان : 30] فكل ما تقدم نشأ عن صفة من صفات الله وهو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، فكأن ناموس الكون بكل أفلاكه وبكل المخلوقات فيه له نظام ثابت لا يتغير ؛ لأن الذي خلقه وأبدعه حق ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق . . ﴾ [لقمان : 30]

وما دام الله تعالى هو (الحق) فما يدَّعونه من الشركاء هم الباطل ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل . . ﴾ [لقمان : 30] ، فلا يوجد في الشيء الواحد حَقَّان ، فإنْ كان أحدهما هو الحق فغيره هو الباطل ، فالحق واحد ومقابله الباطل . وأيُّ باطل أفظع من عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة وشركاء مع الله عز وجل ؟

كيف وهي حجارة صوَّروها بأيديهم وأقاموها ليعبدوها من دون الله ، والحجارة جماد من جمادات الأرض ، والجماد هو العبد الأول لكل المخلوقات ، عبد للنبات ، وعبد

للحيوان ، وعبد للإنسان ؛ لأنه مُسخّر لخدمة هؤلاء جميعاً .

فكيف بك وأنت الإنسان الذي كرّمك ربك وجعل لك عقلاً مفكراً تتدنى بنفسك وترضى لها أنْ تعبد أدنى أجناس الوجود ، وتتخذها شريكاً مع الله ، وأنت ترى الريح إذا اشتدتْ أطاحتْ باللات أو بالعزى ، وألقتْه على الأرض ، وربما كُسرت ذراعه ، فاحتاج لمن يصلح هذا الإله ، إذن ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل . . ﴾ [لقمان : 30]

(141/609)

لذلك ؛ قلنا في الحروب التي تنشب بين الناس : إنها لا تنشب بين حقين ؛ لأن الحقيقة لا يوجد فيها حقَّان ، إنما هو حق واحد ، والآخر لا بُدَّ أن يكون باطلاً ، أو تنشأ بين باطلين ، أما نشأتها بين حق وباطل فإنها في الغالب لا تطول ؛ لأن الباطل زهوق .

والعاقبة لا بُدَّ أنْ تكون للحق ولو بعد حين ، أما الباطل فإنه زَهُوق ، إنما تطول المعركة إنْ نشبت بين باطلين ، فليس أحد الطرفين فيها أهلاً لنصرة الله ، فتظل الحروب بينهما حتى يتهالكا ، وتنتهي مكاسب طغيان كل منهما ، ولا يردهما إلا مذلَّة اللجوء إلى التصالح بعد أنْ فقدا كل شيء .

لذلك نرى هذه الظاهرة أيضاً في توزيع التركات والمواريث بين المستحقين لها ، حيث ينشب

بينهم الخلاف والطعن واللجوء إلى القضاء والمحامين حتى يستنفد هذا كله جزءاً كبيراً من هذه التركة ، حتى إذا ما صَفَتْ مما كان بها من أموال جُمعتْ بالباطل ترى الأطراف يميلون إلى الاتفاق والتصالح وتقسم ما بقي .

واقرأ إنْ شئت حديث رسول الله صلى الله عليهم وسلم : " مَنْ أصاب مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر " ومعنى : مهاوش يعني التهويش أو كما نقول (بيهبش) من هنا ومن هنا ، وطبيعي أن يُذهِب الله هذا المال في الباطل وما لا فائدة منه .

وسبق أن أعطينا مثلاً لمصارف المال الحرام بالأب يرجع إلى بيته ، فيجد ابنه مريضاً حرارته مرتفعة ، فيسرع به إلى الطبيب ويصيبه الرعب ، ويتراءى له شبح المرض ، فينفق على ابنه المئات ، أما الذي يعيش على الكفاف ويعرق في كسب عيشه بالحلال فيكفيه في مثل هذه الحالة قرص أسبرين وكوب ليمون ، فالأول أصاب ماله من مهاوش ، والآخر أصابه من الحلال .

(142/609)

فقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق . . ﴾ [لقمان : 30] يعني : أن الحق هو الظاهر وهو الغالب ، فإنْ قلتَ كيف ونحن نرى الباطل قد يعلو على الحق ويظهر عليه ؟

ونقول : نعم ، قد يعلو الباطل لكن إلى حين ، وهو في هذه الحالة يكون جندياً من جنود الحق ، كيف ؟ حينما يعلو الباطل وتكون له صَوْلَة لا بُدَّ أن يعض الناس ويؤذيهم ويذيقهم ويلاته ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه ويتشوقون إليه .

إذن : لولا الباطل ما عرفنا ميزة الحق ، ومثال ذلك الألم الذي يصيب النفس الإنسانية فينبهها إلى المرض ، ويظهر لها علتها ، فتطلب الدواء ، فالألم جندي من جنود الشفاء ، وقلنا سابقاً : إن الكفر جندي من جنود الإيمان .

لذلك لا تحزن إنْ رأيتَ الباطل عالياً ، فذلك في صالح الحق ، واقرأ قول ربك عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا . . . ﴾ [الرعد : 17] يعني : يأخذ كل وادٍ على قدره وسِعَته من الماء ﴿ فاحتمل السيل زَبَداً رَّابياً . . . ﴾ [الرعد : 17] وهو القش والفتات الذي يحمله الماء ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل . . . ﴾ [الرعد : 17] أي : مثلاً لكل منهما . ﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً . . . ﴾ [الرعد : 17] يعني : مطروداً مُبْعداً من الجفوة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [الرعد : 17]

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه ﴿ الحق . . ﴾ [لقمان : 30] وأن غيره من آلهة المشركين هم الباطل ذكر لنفسه سبحانه صفتين أخريين ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلي الكبير ﴾ [لقمان : 30] العلي الكبير يقولها الله تعالى ، ويقولها رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونقولها نحن ؛ لأن الله قالها ؛ ولأن النبي الصادق أخبرنا بها ، لكن المسألة أن يشهد بها مَنْ كفر بالله .

لذلك يعلمنا ربنا – تبارك وتعالى – أن نحمد الله حينما يشهد الكافر لله رغم كفره به ، كما ورد في الآيات السابقة : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : 25]

فهذه الشهادة منهم تستحق من المؤمن أن يقول : الحمد لله ؛ لأنها شهادة ممَّنْ كفر بالله وكذَّب رسوله وحاربه ، وأيضاً تنظر إلى هذا الكافر الذي تأبَّى على منهج الله وكذَّب رسوله حين يصيبه مرض مثلاً ، أيستطيع أنْ يتأبى على المرض كما تأبَّى على الله ؟ هذا الذي أَلِف التمرد على الله : أيتمرد إنْ جاءه الموت .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . ﴾ [الإسراء : 76] أي : لا يجدون أمامهم ساعة الكرب والهلاك إلا الله ؛ لأن الإنسان في هذه الحالة لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، بالله أرأيتم إنساناً أحاطتْ به الأمواج ، وأشرف

على الهلاك يدعو يقول : يا هبل ؟ إذن : الله هو العلي وهو الكبير ، وغيره شرك وباطل .

وسبق أن ضربنا مثلاً للإنسان ، وأنه لا يغشُّ نفسه ، ولا يخدعها خاصة إذا نزلتْ به ضائقة بالحلاق أو حكيم الصحة كما يطلقون عليه ، فهو يداوي أهل القرية ويسخر من طبيب الوحدة الصحية ، ويتهمه بعدم الخبره لكن حين مرض ولده وأحسَّ بالخطر أخذ الولد وتسلَّل به في ظلام الليل ، وذهب إلى الطبيب .

(144/609)

فلله وحده العلو ، ولله وحده الكبرياء ، بدليل أن الكافر حين تضطره أمور الحياة وتُلجئه إلى ضرورة لا مخرجَ منها لا يقول إلا : يا الله يا رب .

فالله هو العليُّ بشهادة مَنْ كفر به ، ثم أردف صفة (العلى) بصفة (الكبير) ؛ لأن العلى يجوز أنه علا بطغيان وعدم استحقاق للعلو ، لكن الحق سبحانه هو العلي ، وهو الكبير الذي يستحق هذا العلو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(145/609)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (لقمان : 29) ، وفي سورة فاطر : (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ) (فاطر : 13) ، وفي سورة الزمر : (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) (الزمر : 5) ، للسائل أن يسأل عن قوله في سورة لقمان : (إِلَى أَجَلٍ) بإلى ، وفي السورتين بعد (لِأَجَلٍ) فجُر أجل باللام مع اتحاد المعنى ، فما الفرق ؟

والجواب ، والله أعلم : أن آية لقمان تقدمها التنبيه على الاعتبار بها بقوله : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) ثم قال : (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) فعطف بواو النسق المقتضية الجمع ، فدخل هذا مع ما قبله تحت حكم التنبيه بقوله : (أَلَمْ تَرَ) ، وحكم التنبيه بالاعتبار منسحب على المجموع للاشتراك في اللفظ والمعنى ، فطال الكلام بحسب ما اتقضاه مقصوده ، فناسب طوله الجر بما يناسبه مما لا يخرج عن معنى اللام الجارة وهو إلى ، فانجر الأجل بها . ولما بنيت الآيتان بعد على إيجاز ليس في آية لقمان ناسبه الجر باللام

اكتفاء بما يحرز المعنى المقصود ويناسب التركيب ، وورد كل على ما يناسب أتم مناسبة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 403 ﴾

(146/609)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾

قوله : ﴿ والبحر ﴾ : قرأ أبو عمرو بالنصب ، والباقون بالرفع . فالنصبُ من وجهين ، أحدُهما : العطفُ على اسمِ " أنَّ " . أي : ولو أنَّ البحرَ ، و " يَمُدُّه " الخبرُ . والثاني : النصبُ بفعلٍ مضمرٍ يُفَسِّره " يمدُّه " والواوُ حينئذٍ للحال . والجملةُ حاليةٌ ، ولم يُحْتَجْ إلى ضميرٍ رابطٍ بين الحالِ وصاحبِها ، للاستغناءِ عنه بالواوِ . والتقديرُ : ولو أنَّ الذي في الأرضِ حَالَ كونِ البحرِ ممدوداً بكذا .

وأمَّا الرفعُ فمِنْ وجهين ، أحدُهما : العطفُ على أنَّ وما في حَيِّزها . وقد تقدَّم لك في " أنَّ " الواقعةِ/ بعد " لو " مذهبان : مذهبُ سيبويهِ الرفعُ على الابتداء ، ومذهبُ المبردِ على الفاعليةِ بفعلٍ مقدر ، وهما عائدان هنا . فعلى مذهبِ سيبويه يكون تقديرُ العطفِ : ولو

البحر . إلاَّ أنَّ الشيخَ قال : إنه لا يلي " لو " المبتدأُ اسماً صريحاً إلاَّ في ضرورةٍ ، كقوله :

3660 لو بغير الماءِ حَلْقي شَرِقٌ . . . . . .

. . . . .

وهذا القولُ يُؤَدِّيْ إلى ذلك . ثم أجابَ بأنه يُغْتَفَرُ في المعطوفِ ما لا يُغْتَفَرُ في المعطوفِ عليه كقولهم : " رُبَّ رجلٍ وأخيه يقولان ذلك " . وعلى مذهبِ المبرد يكون تقديرُه : ولو ثَبَت البحرُ ، وعلى التقديرَيْن يكون " يمدُّه " جملةً حالية من البحر .

والثاني : أنَّ " البحر " مبتدأٌ ، و " يَمُدُّه " الخبر ، والجملةُ حالية كما تقدَّم في جملةِ الاشتغال ، والرابط الواو . وقد جَعَله الزمخشريُّ سؤالاً وجواباً . وأنشد :

3661 وقد أَغْتَدِيْ والطيرُ في وُكُناتِها . . . . . .

(147/609)

و " مِنْ شجَرة " حالٌ : إمَّا من الموصولِ ، أو من الضميرِ المستترِ في الجارِّ الواقعِ صلةً ، و " أقلامٌ " خبرُ " أنَّ " . قال الشيخُ : " وفيه دليلٌ على مَنْ يَقولُ – كالزمخشريِّ ومَنْ يتعصَّب له من العجم – على أنَّ خبر " أنَّ " الواقعة بعد " لو " لا يكونُ اسماً البتة لا جامداً ولا مشتقاً ، بل يتعيَّنُ أَنْ يكونَ فعلاً " قال : " وهو باطِلٌ " وأنشد :

3662 ولو أنها عُصْفورةٌ لَحَسِبْتُها . . . مُسَوَّمَةً تَدْعو عبيداً وأَزْنَما

وقال :

3663 ما أطيبَ العَيْشَ لو أنَّ الفتى حَجَرٌ . . . تَنْبُو الحوادِثُ عنه وهْو مَلْمُومُ

وقال :

3664 ولو أنَّ حياً فائتُ الموتِ فاته . . . أخو الحربِ فوقَ القارِحِ العَدَوانِ

قال : " وهو كثيرٌ في كلامِهم " . قلت : وقد تقدمَ أولَ هذا الموضوع أنَّ هذه الآيةَ ونحوَها تُبْطِلُ ظاهرَ قولِ المتقدمين في " لو " أنها حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ ؛ إذ يَلْزَمُ محذورٌ عظيمٌ : وهو أنَّ ما بعدها إذا كان منفيًّا لفظاً فهو مُثْبَتٌ معنىً ، وبالعكس . وقوله : " ما نَفِدَتْ " منفيٌّ لفظاً ، فلو كان مثبتاً معنىً فَسَدَ المعنى ، فعليك بالالتفاتِ إلى أولِ البقرةِ .

وقرأ عبد الله " وبَحْرٌ " بالتنكير وفيه وجهاه معرَّفاً . وسَوَّغ الابتداءَ بالنكرةِ وقوعُها بعد واوِ الحال ، وهو معدودٌ من مسوّغات الابتداء بالنكرةِ . وأنشدوا :

3665 سَرَيْنا ونجمٌ قد أضاء فَمُذْ بَدا . . . مُحَيَّاكَ أخفى ضَوْءُه كلَّ شارِقِ

وبهذا يظهرُ فسادُ قولِ مَنْ قال : إنَّ في هذه القراءةِ يتعيَّنُ القولُ بالعطفِ على " أنَّ " ، كأنه تَوَهَّم أنه ليس ثَمَّ مُسَوِّغٌ .

وقرأ عبد الله وأُبَيٌّ " تَمُدُّه " بالتأنيثِ لأجل " سبعة " . والحسن وابن هرمز وابن مصرف "

يُمِدُّه " بالياء من تحتُ مضمومةً وكسرِ الميم مِنْ أمَدَّه . وقد تقدَّم اللغتان في آخر الأعراف وأوائل البقرة .

(148/609)

قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : لِمَ قيل : " مِنْ شجرة " بالتوحيد ؟ قلت : أُريد تفصيلُ الشجرِ وتَقَصِّيها شجرةً شجرةً حتى لا يَبْقَى من جنس الشجرِ واحدةٌ إلاَّ قد بُرِيَتْ أقلاماً " . قال الشيخ : وهو مِنْ وقوع المفردِ موقعَ الجمع والنكرةِ موقعَ المعرفةِ ، كقوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ [البقرة : 106] قلت : وهذا يَذْهبُ بالمعنى الذي أبداه الزمخشري . وقال أيضاً : " فإنْ قلت : " الكلماتُ " جمع قلةٍ ، والموضعُ موضعُ تكثيرٍ ، فهلا قيل : كَلِم . قلت : معناه أنَّ كلماتِه لا تَفي بكَتْبَتِها البحارُ ، فكيف بكَلِمِه " ؟ قلت : يعني أنه من بابِ التثنية بطريق الأَوْلى . وردَّه الشيخُ : بأنَّ جَمْعَ السلامة متى عُرِّف بأل غيرِ العَهْدية أو أُضيف عَمَّ . قلت للناسِ خلافٌ في " أل " هل تعُمُّ أو لا ؟ وقد يكونُ الزمخشريُّ مِمَّنْ لا يَرَى العمومَ ، ولم يَزَلِ الناسُ يسألونَ في بيت حَسَّان رضي الله عنه :

3666 لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى . . . . . .

ويقولون : كيف أتى بجمع القِلَّة في مقام المدح ؟ ولِمَ لم يَقُلْ الجِفان ؟ وهو تقريرٌ لما قاله

الزمخشريُّ واعترافٌ بأنَّ أل لا تؤثّر في جمع القلةِ تكثيراً .

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

قوله : ﴿ إِلَّا كَنَفْسٍ ﴾ : خبرُ " ما خَلْقُكم " والتقدير : إلاَّ كخَلْقِ نَفْسٍ واحدةٍ وبَعْثِها . وهنا " إلى أَجَل " وفي الزمر ﴿ لأَجَلٍ ﴾ [الآية : 5] لأنَّ المعنيين لاِئقان بالحرفَيْن فلا عليك في أيِّهما وقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 67.72 ﴾

(149/609)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾

لو أنَّ ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ والبحارُ كانت مداداً ، وبمقدار ما يقابله تُنْفَقُ القراطيسُ ، ويتكلَّفُ الكُتَّابُ حتى تتكسر الأقلامُ ، وتفنى البحارُ ، وتستوفي القراطيسُ ، وتفنى أعمارُ الكُتَّاب . . ما نَفِدَت معاني ما لنا مَعَكَ من الكلام ، والذي نُسْمِعُك فيما نخاطبك به لأنك معنا أَبَدَ الأبد ، والأبديُّ من الوصف لا يتناهى .

ويقال إن كان لك معكم كلامٌ كثير فما عندكم ينفذ وما عند الله باقٍ :

صحائفُ عندي للعتاب طَوَيْتُها . . . ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطول

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

إيجادُ القليل أو الكثير عليه وعنده سيَّان ؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر ، ولا من القليل راحةٌ ويُسْر ، إنما أَمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] يقوله بكلمته ولكنه يكوّنه بقدرته ، لا بمزاولة جهد ، ولا باستفراغ وُسْعٍ ، ولا بدعاءِ خاطرٍ ، ولا بطُرُوءِ غَرَض .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

﴿ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ : الكائنُ الموجودُ ، مُحِقُّ الحقِّ ، و ﴿ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ : من العَدَمِ ظَهَرَ ومعه جوازُ العَدَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 135 ﴾

(150/609)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا

نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تضمنت الآية ثلاثة أشياء ، أتبعها دليلها ، فقال منبهاً على أن سيرنا في الفلك مثل سير النجوم في الفلك ، وسير أعمارنا في فلك الأيام حتى يولجنا في بحر الموت مثل سير كل من الليل والنهار في فلك الشمس حتى يولجه في الآخر فيذهب حتى كأنه ما كان ، ولولا تفرده بالحقية والعلو والكبر ما استقام ذلك ، خاصاً بالخطاب أعلى الناس ، تنبيهاً على أن هذه لكثرة الألف لها أعرض عن تأملها ، فهو في الحقيقة حث على تدبرها ، ويؤيده الإقبال على الكل عند تعليلها : ﴿ ألم تر أن الفلك ﴾ أي السفن كباراً وصغاراً ﴿ تجري ﴾ أي بكم حاملة ما تعجزون عن نقل مثله في البر ، وعبر بالظرفية إشارة إلى أنه ليس لها من ذاتها إلا الرسوب في الماء لكثافتها ولطافته فقال : ﴿ في البحر ﴾ أي على وجه الماء ، وعبر عن الفعل بأثره لأنه أحب فقال : ﴿ بنعمت الله ﴾ أي برحمة الملك الأعلى المحيط علماً وقدرة وإحسانه ، مجدداً ذلك على مدى الزمان عليكم في تعليمكم صنعها حتى تهيأت لذلك على يدي أبيكم نوح العبد الشكور عليه السلام ﴿ ليريكم من آياته ﴾ أي عجائب قدرته ودلائله التي تدلكم على أنه الحق الذي أثبت بوجوب وجوده ما ترون من الأحمال الثقال

على وجه الماء الذي ترسب فيه الإبرة فما دونها ، وهي مساوية لغيرها في أن الكل من التراب ، فما فاوت بينها إلا هو بتمام قدرته وفعله بالاختيار .

(151/609)

ولما كان هذا أمراً إذا جرد النظر فيه عن كونه قد صار مألوفاً بهر العقول وحير الفهوم ، أشار إليه بقوله مؤكداً تنبيهاً مما هم فيه من الغفلة عنه ، لافتاً الخطاب بعد الجمع إلى الإفراد تنبيهاً على دقة الأمر وأنه – وإن كان يظن أنه ظاهر – لا يفهمه حق فهمه غيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر الهائل البديع الرفيع ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات واضحات على ما له من صفات الكمال في عدم غرقه وفي سيرة إلى البلاد الشاسعة ، والأقطار البعيدة ، وفي كون سيره ذهاباً وإياباً تارة بريحين ، وأخرى بريح واحدة ، وفي إنجاء أبيكم نوح عليه السلام ومن أراد الله من خلقه به وإغراق غيرهم من جميع أهل الأرض ، وفي غير ذلك من شؤونه ، وأموره وفنونه ، ونعمه وفتونه وإن كان أكثر ذلك قد صار مألوفاً لكم فجهلتم أنه من خوارق العادات ، ونواقض المطردات ، وعلم من ختام التي قبلها أن المراد – بقوله جامعاً لجميع الإيمان الذي هو نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر ، وذلك تمام صفة المؤمن مظهراً موضع لك أو لكم – ما أفاد الحكم بكل من شاركه ـ صلى

الله عليه وسلم ـ في الوصفين المذكورين : ﴿ لكل صبار ﴾ إدامة الفكر في هذه النعم واستحضارها في الشدة والرخاء ، وأنها من عند الله ، وأنه لا يقدر عليها سواه ، والإذعان له في جميع ذلك ، حفظاً لما دل عليه العقل من أخذ الميثاق بالشكر ، وأن لا يصرف الحق إلى غير أهله ، فيلزم عليه الإساءة إلى المحسن ﴿ شكور ﴾ عليه مبالغ في كل من الصبر والشكر ، وعلم من صيغة المبالغة في كل منهما أنه لا يعرف في الرخاء من عظمة الله ما كان يعرفه في الشدة إلا من طبعهم الله على ذلك ووفقهم له وأعانهم عليه بحفظ العهد وترك النقض جرياً مع ما تدعو إليه الفطرة الأولى السليمة ، وقليل ما هم ، وقال الرازي في اللوامع : وكيفما كان فالصبر هو الثبات في مراكز العبودية ، والشكر رؤية النعمة من المنعم الحق وصرف نعمه إلى محابّه .

(152/609)

ولما كانوا يسارعون إلى الكفر بعد انفصالهم من هذه الآية العظمية ، وإلباسهم ههذ النعمة الجسيمة ، التي عرفتهم ما تضمنته الآية السالفة من حقيته وحده وعلوه وكبره وبطلان شركائهم ، أعرض عنهم وجه الخطاب لأنهم لم يرجعوا بعد الوضوح إيذاناً باستحقاق شديد الغضب والعذاب ، فقال معجباً عاطفاً على ما تقديره : وأما غير الصبار الشكور

فلا يرون ما في ذلك من الآيات في حال رخائهم : ﴿ وإذا غشيهم ﴾ أي علاهم وهم فيها حتى صار كالمغطى لهم ، لأنه منعهم من أن تمتد أبصارهم كما كانت ﴿ موج ﴾ أي هذا الجنس ، ولعله أفرده لأنه لشدة اضطرابه وإيتانه شيئاً في أثر شيء متتابعاً يركب بعضه كأنه شيء واحد ، وأصله من الحركة والازدحام ﴿ كالظلل ﴾ أي حتى كان كأطراف الجبال المظلمة لمن يكون إلى جانبها ، وللإشارة إلى خضوعهم غاية الخضوع كرر الأسم الأعظم فقال : ﴿ دعوا الله ﴾ أي مستحضرين لما يقدر عليه الإنسان من كماله بجلاله وجماله ، عالمين بجميع مضمون الآية السالفة من حقيته وعلوه وكبره وبطلان ما يدعون من دونه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ لا يدعون شيئاً سواه بألسنتهم ولا قلوبهم لما اضطرهم إلى ذلك من آيات الجلال ، وقسرهم عليه من العظمة والكمال ، واقتضى الحال في سورة الحكمة حذف ما دعوا به لتعظيم الأمر فيه لما اقتضاه من الشدائد لتذهب النفس فيه كل مذهب .

ولما كان القتل بالسيف أسهل عندهم من أن يقال عنهم : إنهم أقروا بشيء هم له منكرون لأجل الخوف خوف السبة بذلك والعار حتى قال من قال : لولا أن يقال إني ما أسلمت إلا جزعاً من الموت فيسب بذلك بني من بعدي لأسلمت .

(153/609)

بين لهم سبحانه أنهم وقعوا بما فعلوا عند خوف الغرق في ذلك ، وأعجب منه رجوعهم إلى الكفر عند الإنجاء ، لما فيه مع ذلك من كفران الإحسان الذي هو عندهم من أعظم الشنع ، فقال دالاً بالفاء على قرب استحالتهم وطيشهم وجهالتهم : ﴿ فلما نجّاهم ﴾ أي خلصهم رافعاً لهم ، تنجية لهم عظيمة بالتدريج من تلك الأهوال ﴿ إلى البر ﴾ نزلوا عن تلك المرتبة التي أخلصوا فيها الدين ، وتنكبوا سبيل المفسدين وانقسموا قسمين ﴿ فمنهم ﴾ أي تسبب عن نعمة الإنجاء وربط بها إشارة إلى أن المؤثر لهذا الانقسام إنما هو الاضطرار إلى الإخلاص في البحر والنجاة منهم أنه كان منهم ﴿ مقتصد ﴾ متكلف للتوسط والميل للإقامة على الطريق المستقيم ، وهو الإخلاص في التوحيد الذي ألجأه إليه الاضطرار ، وهم قليل – بما دل عليه التصريح بالتبعيض ، ومنهم جاحد للنعمة ملق لجلباب الحياة في التصريح بذلك ، وهو الأكثر – كما مضت الإشارة إليه ودل عليه ترك التصريح فيه بالتبعيض ، وما يقتصد إلا كل صبار شكور ، إما حالاً وإما مالاً ﴿ وما يجحد ﴾ وخوّف الجاحد بمظهر العظمة التي من شأنها الانتقام ، فقال صارفاً القول إليه : ﴿ بآياتنا ﴾ أي ينكرها مع عظمها ولا سيما بعد الاعتراف بها ﴿ إلا كل ختار ﴾ أي شديد الغدر عظيمه لما نقض من العهد الهادي إليه العقل والداعي إليه الخوف ﴿ كفور ﴾ أي عظيم الكفر لإحسان من هو متقلب في نعمه ، في سره وعلنه ، وحركاته وسكناته ، ولا نعمة إلا وهي منه ، ومن هنا جاءت المبالغة في الصفتين ، وعلم أنهما طباق ومقابلة لختام

التي قبلها ، وأن الآية من الاحتباك : دل ذكر المقتصد أولاً على " ومنهم جاحد " ثانياً ، وحصر الجحود في الكفور ثانياً على حصر الاقتصاد في الشكور أولاً ، قال البغوي : قيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين هرب ـ رضى الله عنه ـ عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف – يعني : فقال الركاب على عادتهم : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم ههنا شيئاً – فقال عكرمة ـ رضى

(154/609)

الله عنه ـ : لئن أنجاني الله من هذا لأرجعن إلى محمد ولأضعن يدي في يده فسكنت الريح ، فرجع عكرمة ـ رضى الله عنه ـ إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه ، وقال مجاهد : مقتصد في القول مضمر للكفر ، وقال الكلبي : مقتصد في القول أي من الكفار ، لأن بعضهم كان أشد قولاً وأعلى في الافتراء من بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 33 ـ 36 ﴾

(155/609)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِى فِى البحر بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته ﴾

لما ذكر آية سماوية بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ [لقمان : 29] وأشار إلى السبب والمسبب ذكر آية أرضية ، وأشار إلى السبب والمسبب فقوله : ﴿ الفلك تَجْرِى ﴾ إشارة إلى المسبب وقوله : ﴿ بِنِعْمَتِ الله ﴾ إشارة إلى السبب أي إلى الريح التي هي بأمر الله ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته ﴾ يعنى يريكم بإجرائها بنعمته ﴿ مِّنْ ءاياته ﴾ أي بعض آياته ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ صبار في الشدة شكور في الرخاء ، وذلك لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء عند النعم والآلاء فيصبر إذا أصابته نقمة ويشكر إذا أتته نعمة وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر " إشارة إلى أن التكاليف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام " الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف " .

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

لما ذكر الله أن في ذلك لآيات ذكر أن الكل معترفون به غير أن البصير يدركه أولا ومن في بصره ضعف لا يدركه أولا ، فإذا غشيه موج ووقع في شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه

مخلصاً أي يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه ، فإذا نجاه من تلك الشدة قد بقي على تلك الحالة وهو المراد بقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ وقد يعود إلى الشرك وهو المراد بقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(156/609)

قوله : ﴿ مَّوْجٌ كالظلل ﴾ وحد الموج وجمع الظلل ، وقيل في معناه كالجبال ، وقيل كالسحاب إشارة إلى عظم الموج ، ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وإذا نظرت في الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة .

المسألة الثانية :

قال في العنكبوت ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك دَعَوُاْ الله ﴾ ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] وقال ههنا ﴿ فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ فنقول لما ذكر ههنا أمراً عظيماً وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه

شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا ﴾ في مقابلة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ [لقمان : 31] يعني يعترف بها الصبار الشكور ، ويجحدها الختار الكفور والصبار في موازنة الختار لفظاً ، ومعنى والكفور في موازنة الشكور ، أما لفظاً فظاهر ، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الأضرار ، فإنه يصبر ويفوض الأمر إلى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه ، وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 141.142 ﴾

(157/609)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾

يحتمل وجهين

: أحدهما : برحمة الله لكم في خلاصكم منه .

الثاني : بنعمة الله عليكم في فائدتكم منه .

﴿ لِيُرِيَكُم مِّنَ ءَايَاتِهِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : يعني جري السفن فيه ، قاله يحيى بن سلام ، وقال الحسن : مفتاح البحار السفن ، ومفتاح الأرض الطرق ، ومفتاح السماء الدعاء .

الثاني : ما تشاهدونه من قدرة الله فيه ، قاله ابن شجرة .

الثالث : ما يرزقكم الله منه ، قاله النقاش .

﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : صبَّار على البلوى شكور على النعماء .

الثاني : صبَّار على الطاعة شكور على الجزاء .

قال الشعبي : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وإلى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كالسحاب ، قاله قتادة .

الثاني : كالجبال ، قاله الحسن ويحيى بن سلام .

وفي تشبيهه بالظل وجهان :

أحدهما : لسواده ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : لعظمه .

﴿ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ يعني موحدين له لا يدعون لخلاصهم سواه .

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾ يعني من البحر

. ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : معناه عَدل في العهد ، يفي في البر بما عاهَد الله عليه في البحر ، قاله النقاش .

الثاني : أنه المؤمن المتمسك بالتوحيد والطاعة ، قاله الحسن .

الثالث : أنه المقتصد في قوله وهو كافر ، قاله مجاهد .

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أنه الجاحد ، قاله عطية .

الثاني : وهو قول الجمهور أنه الغدار ، قال عمرو بن معدي كرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير . . . ملأت يديك من غدرٍ وختر

وجحد الآيات إنكار أعيانها والجحد بالآيات دلائلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(159/609)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾

الرؤية في قوله ﴿ ألم تر ﴾ رؤية العين يتركب عليها النظر والاعتبار ، والمخاطب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد الناس أجمع ، و ﴿ الفلك ﴾ جمع وواحد بلفظ واحد ، وقرأ موسى بن الزبير " الفلُك " بضم اللام ، وقوله ﴿ بنعمة الله ﴾ يحتمل أن يريد ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات ، فالباء للأرزاق ، ويحتمل أن يريد الريح وتسخير الله البحر ونحو هذا ، فالباء باء السبب ، وقرأ الجمهور " بنعمة " ، وقرأ الأعرج ويحيى بن يعمر " بنعمات " على الجمع ، وقرأ ابن أبي عبلة " بنَعِمات " بفتح النون وكسر العين ، وذكر تعالى من صفة المؤمن " الصبار " و" الشكور " لأنهما عظم أخلاقه الصبر على الطاعات وعلى النوائب وعلى الشهوات ، والشكر على الضراء والسراء ، وقال الشعبي الصبر

نصف الإيمان والشكر نصفه الآخر ، واليقين الإيمان كله . و" غشي " غطى ، أو قارب ، و" الظلل " السحاب ، وقرأ محمد بن الحنفية " الظلال " ومنه قول النابغة الجعدي يصف البحر : [الوافر]

يماشيهن أخضر ذو ظلال . . . على حافاته فلق الدنان

ووصف تعالى في هذه الآية حالة البشر الذين لا يعتبرون حق العبرة ، والقصد بالآية تبيين آية تشهد العقول بأن الأوثان والأصنام لا شرك لها فيه ولا مدخل وقوله تعالى : ﴿ فمنهم مقتصد ﴾ قال الحسن منهم مؤمن يعرف حق الله تعالى في هذه النعم .

وقال مجاهد : يريد ﴿ فمنهم مقتصد ﴾ على كفره أي منهم من يسلم الله ويفهم نحو هذا من القدرة وإن ضل في الأصنام من جهة أنه يعظمها بسيرته ونشأته ، والختّار القبيح الغدر وذلك أن نعم الله تعالى على العباد كأنها عهود ومنن يلزم عنها أداء شكرها فمن كفر ذلك وجحد به فكأنه ختر وخان ، ومن " الختر " قول عمرو بن معدي كرب : [الوافر]

وإنك لو رأيت أبا عمير . . . ملأت يديك من غدر وختر

وقال الحسن : " الختار " هو الغدار ، و﴿ كفور ﴾ بناء مبالغة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك ﴾

أي السفن ﴿ تَجْرِي ﴾ في موضع الخبر .

﴿ فِي البحر بِنِعْمَةِ الله ﴾ أي بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه .

وقرأ ابن هُرمُز : "بنعمات الله" جمع نعمة وهو جمع السلامة ، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت .

﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ ﴾ "مِنْ" للتبعيض ، أي ليريكم جري السفن ؛ قاله يحيى بن سلام .

وقال ابن شجرة : "مِنْ آيَاتِهِ" ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه .

النقاش : ما يرزقهم الله منه .

وقال الحسن : مفتاح البحار السفن ، ومفتاح الأرض الطرق ، ومفتاح السماء الدّعاء .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي صبّار لقضائه شكور على نعمائه .

وقال أهل المعاني : أراد لكل مؤمن بهذه الصفة ؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان .

والآية : العلامة ، والعلامة لا تستبين في صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء .

قال الشّعْبِيّ : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ؛ ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : 20] وقال عليه السلام : " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر " .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ قال مقاتل : كالجبال .

وقال الكلبي : كالسحاب ؛ وقاله قتادة : جمع ظُلّة ؛ شبّه الموج بها لكبرها وارتفاعها .

قال النابغة في وصف بحر :

يماشيهن أخضر ذو ظلال . . .

على حافاته فِلَق الدّنان

وإنما شبّه الموج وهو واحد بالظل وهو جمع ؛ لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء ويركب بعضه بعضاً كالظلل .

وقيل : هو بمعنى الجمع ، وإنما لم يجمع لأنه مصدر .

وأصله من الحركة والازدحام ؛ ومنه : ماج البحر ، والناس يموجون .

قال كعب :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه . . .

أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد بن الحنفية : "مَوْجٌ كالظِّلال" جمع ظِلّ ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ موحّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه ؛ وقد تقدّم .

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾ يعني من البحر .

﴿ إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن عباس : مُوفٍ بما عاهد عليه الله في البحر .

النقاش : يعني عدل في العهد ، وفَى في البر بما عاده عليه الله في البحر .

وقال الحسن : "مُقْتَصِدٌ" مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة .

وقال مجاهد : "مُقْتَصِدٌ" في القول مضمر للكفر .

وقيل : في الكلام حذف ؛ والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر .

ودلّ على المحذوف قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ الختار : الغدار .

والخَتْر : أسوأ الغدر .

قال عمرو بن معدِيكرِب :

فإنك لو رأيت أبا عمير . . .

ملأت يديك من غدْر وختْر

وقال الأعشى :

بالأبلقِ الفَرْدِ من تَيْماء منزِلُهُ . . .

حِصنٌ حَصين وجارٌ غيرُ خَتّار

قال الجوهري : الخَتْر الغدر ؛ يقال : خترَه فهو ختار .

الماورديّ : وهو قول الجمهور .

وقال عطية : إنه الجاحد .

ويقال : خترَ يَخْتِر ويَخْتُر (بالضم والكسر) خَتْرا ؛ ذكره القُشَيري .

وجحدُ الآيات إنكار أعيانها .

والجحد بالآيات إنكار دلائلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(162/609)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِى فِى البحر بِنِعْمَتِ الله ﴾

بإحسانِه في تهيئةِ أسبابِه وهو استشهادٌ آخرُ على باهرِ قُدرتِه وغايةِ حكمتِه وشمولِ

إنعامِه . والباءُ إمَّا متعلقةٌ بتجري أو بمقدَّرٍ هو حالٌ من فاعِله أي ملتبسةٌ بنعمتِه تعالى .

وقُرِىء الفُلُك بضمِّ اللامِ وبنعماتِ الله وعينُ فَعَلات يجوزُ فيه الكسرُ والفتحُ والسكونُ ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته ﴾ أي بعضَ دلائلِ وحدتِه وعلمِه وقدرتِه . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ تعليلٌ لما قبله أيْ إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ عظيمةً في ذاتِها كثيرةً في عددِها لكلِّ مَن يُبالغ في الصَّبرِ على المشاقِّ فيتعبُ نفسَه في التفكرِ في الأنفسِ والآفاقِ ويبالغُ في الشُّكرِ على نعمائِه وهما صِفتا المُؤمنِ فكأنَّه قيل لكلِّ مؤمنٍ ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي علاهُم وأحاطَ بهم ﴿ مَّوْجٌ كالظلل ﴾ كما يظل من جبلٍ أو سحابٍ أو غيرِهما .

وقُرِىء كالظِّلالِ جمْعِ ظُلَّةٍ كقُلَّةٍ وقِلالٍ . ﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ لزوالِ ما ينازعُ الفطرةَ من الهَوَى والتَّقليدِ بما دهاهم من الدَّواهي والشَّدائدِ ﴿ فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي مقيمٌ على القصدِ السويِّ الذي هو التَّوحيدُ أو متوسطٌ في الكُفر لانزجارِه في الجُملةِ ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدَّارٍ فإنَّه نقضٌ للعهدِ الفطريِّ أو رفضٌ لما كان في البحرِ . والختر أشدُّ الغدرِ وأقبحُه . ﴿ كَفُورٍ ﴾ مبالغٌ في كفرانِ نعمِ الله تعالى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(163/609)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِى فِى البحر بِنِعْمَتِ الله ﴾

استشهاد أخر على باهر قدرته جل وعلا وغاية حكمته عز وجل وشمول انعامه تبارك وتعالى ، والمدار بنعمة الله تعالى إحسانه سبحانه في تهيئة أسباب الجري من الريح وتسخيرها فالباء للتعدية كما في مررت بزيد أو سببية متعلقة بتجري .

وجوز أن يراد بنعمته تعالى ما أنعم جل شأنه به مما تحمله الفلك من الطعام والمتاع ونحوه فالباء للملابسة والمصاحبة متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ضمير الفلك أي جري مصحوبة بنعمته تعالى ؛ وقرأ موسى بن الزبير ﴿ الفلك ﴾ بضم اللام ومثله معروف في فعل مضموم الفاء .

حكى عن عيسى بن عمر أنه قال : ما سمع فعل بضم الفاء وسكون العين إلا وقد سمع فيه فعل بضم العين .

وفي "الكشاف" كل فعل يجوز فيه فعل كما يجوز في كل فعل فعل ، وجعل ضم العين للاتباع وإسكانها للتخفيف .

وقرأ الأعرج .

والأعمش .

وابن يعمر ﴿ عَبْدُ الله ﴾ بكسر النون وسكون العين جمعاً بالألف والتاء وهو جمع نعمة

بكسر فسكون ، ويجوز كما قال غير واحد في كل جمع مثله تسكين العين على الأصل وكسرها اتباعاً للفاء وفتحها تخفيفاً .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ عَبْدُ الله ﴾ بفتح النون وكسر العين جمعاً لنعمة بفتح النون وهي اسم للتنعم ، وقيل : بمعنى النعمة بالكسر ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته ﴾ أي بعض دلائل ألوهيته تعالى ووحدته سبحانه وقدرته جل شأنه وعلمه عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ءايات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ تعليل لما قبله أي إن فيما ذكر لآيات عظيمة في ذاتها كثيرة في عدها لكل مبالغ في الصبر على بلائه سبحانه ومبالغ في الشكر على نعمائه جل شأنه .

(164/609)

و ﴿ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ كناية عن المؤمن من باب حي مستوى القامة عريض الأظفار فإنه كناية عن الإنسان لأن هاتين الصفتين عمدتا الايمان لأنه وجميع ما يتوقف عليه إما ترك للمألوف غالباً وهو بالصبر أو فعل لما يتقرب به وهو شكر لعمومه فعل القلب والجوارح واللسان ، ولذا ورد " الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر " ، وذكر الوصفين بعد الفلك فيه أتم مناسبة لأن الراكب فيه لا يخلو عن الصبر والشكر ، وقيل : المراد بالصبار كثير الصبر على التعب في كسب الأدلة من الأنفس والآفاق وإلا فلا اختصاص للآيات بمن

تعب مطلقاً وكلا الوصفين بنيا بناء مبالغة ، وفعال على ما في "البحر" أبلغ من فعول لزيادة حروفه ، قيل : وإنما اختير زيادة المبالغة في الصبر إيماء إلى أن قليله لشدة مرارته وزيادة ثقله على النفس كثير .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ ﴾ أي علاهم وغطاهم من الغشاء بمعنى الغطاء من فوق وهو المناسب هنا ، وقيل : أي أي أتاهم من الغشيان بمعنى الإتيان وضمير ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ أن اتحد بضمير المخاطبين قبله ففي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة وإلا فلا التفات ، والموج ما يعلو من غوارب الماء وهو اسم جنس واحدة موجة وتنكيره للتعظيم والتكثير ، ولذا أفرد مع جمع المشبه به في قوله تعالى : ﴿ كالظلل ﴾ وهو جمع ظلة كغرفة وغرف وقربة وقرب ، والمراد بها ما أظل من سحاب أو جبل أو غيرهما .

وقرأ الراغب : الظلة السحابة تظل وأكثر ما يقال فيما يستوخم ويكره ، وفسر قتادة الظلل هنا بالسحاب ، وبعضهم بالجبال ، وقرأ محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنه ﴿ كالظلال ﴾ وهو جمع ظلة أيضاً كعلبة وعلاب وجفرة وجفار ، وإذا ظرف لقوله تعالى : ﴿ أَثْقَلَت دَّعَوَا ﴾ أي دعوا ﴿ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ إذا غشيهم موج كالظلل وإنما فعلوا ذلك حينئذ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد .

﴿ فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ سالك القصد أي الطريق المستقيم لا يعدل عنه لغيره ، وأصله استقامة الطريق ثم أطلق عليه مبالغة ، والمراد بالطريق المستقيم التوحيد مجازاً فكأنه قيل : فمنهم مقيم على التوحيد ، وقول الحسن : أي مؤمن يعرف حق الله تعالى في هذه النعمة يرجع إلى هذا ، وقيل : مقتصد من الاقتصاد بمعنى التوسط والاعتدال .

والمراد حينئذ على ما قيل متوسط في أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء موف بما عاهد عليه الله تعالى في البحر ، وتفسيره بموف بعهده مروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ويدخل في هذا البعض على هذا المعنى عكرمة بن أبي جهل فقد روى السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : لما كان فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يكفوا عن قتل أهلها إلا أربعة نفر منهم قال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة عكرمة بن أبي جهل .

وعبد الله بن خطل .

وقيس بن ضبابة .

وعبد الله بن أبي سرح .

فأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم ريح عاصفة فقال أهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجني في البر

غيره .

اللهم إن لك على عهداً إن أنت عافيني مما أنا فيه أن آتي محمداً صلى الله عليه وسلم حتى أضع يدي في يده فلأجنده عفواً كريماً فجاء وأسلم ، وقيل : متوسط في الكفر لانزجاره بما شاهد بعض الانزجار .

وقيل : متوسط في الإخلاص الذي كان عليه في "البحر" فإن الإخلاص الحادث عند الخوف قلما يبقى لأحد عند زوال الخوف .

وأياً ما كان فالظاهر أن المقابل لقسم المقتصد محذوف دل عليه قوله تعالى :

(166/609)

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ والآية دليل ابن مالك ومن وافقه على جواز دخول الفاء في جواب لما ومن لم يجوز قال : الجواب محذوف أي فلما نجاهم إلى البر انقسموا قسمين فمنهم مقتصد ومنهم جاحد ، والختار من الختر وهو أشد الغدر ومنه قولهم : إنك لا تمد لنا شبراً من غدر إلا مددنا لك باعاً من غدر ، وبنحو ذلك فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لابن الأزرق وأنشد قول الشاعر :

لقد علمت واستيقنت ذات نفسها . . .

بأن لا تخاف الدهر صرمى ولاختزى

ونحوه قول عمرو بن معدي كرب :

وإنك لو رأيت أبا عمير . . .

ملأت يديك من غدر وختر

وفي "مفردات الراغب" الختر غدر يختر فيه الإنسان أي يضعف ويكسر لاجتهاده فيه أي وما يجحد بآياتنا ويكفر بها إلا كل غدار أشد الغدر لأن كفره نقض للعهد الفطري ، وقيل : لأنه نقض لما عاهد الله تعالى عليه في البحر من الإخلاص له عز وجل ﴿ كَفُورٌ ﴾ مبالغ في كفران نعم الله تعالى ، و ﴿ خَتَّارٍ ﴾ مقابل لصبار لأن من غدر لم يصبر على العهد وكفور مقابل لشكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(167/609)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾

استئناف جاء على سنن الاستئنافين اللذين قبله في قوله ﴿ ألم تروا أن الله سخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ [لقمان : 20] وقوله : ﴿ ألم تر أن الله يُولج الليل في النهار

﴾ [لقمان : 29] ، وجيء بها غير متعاطفة لئلا يتوهم السامع أن العطف على ما تخلل بينها ، وجاء هذا الاستئناف الثالث دليلاً ثالثاً على عظيم حكمة الله في نظام هذا العالم وتوفيق البشر للانتفاع بما هيّأه الله لانتفاعهم به .

فلما أتى الاستئنافان الأولان على دلائل صنع الله في السماوات والأرض جاء في هذا الثالث دليل على بديع صنع الله بخلق البحر وتيسير الانتفاع به في إقامة نظام المجتمع البشري .

وتخلص منه إلى اتخاذ فريق من الناس موجبات الشكر دواعي كفر .

فكان خلق البحر على هذه الصفة العظيمة ميسراً للانتفاع بالأسفار فيه حين لا تغني طرق البر في التنقل غناء فجعله قابلاً لحمل المراكب العظيمة ، وألْهَم الإنسان لصنع تلك المراكب على كيفية تحفظها من الغرق في عباب البحر ، وعصمهم من توالي الرياح والموج في أسفارهم ، وهداهم إلى الحيلة في مصانعتها إذا طرأت حتى تنجلي ، ولذلك وصف هذا الجري بملابسة نعمة الله فإن الناس كلما مَخرت بهم الفلك في البحر كانوا ملابسين لنعمة الله عليهم بالسلامة إلا في أحوال نادرة ، وقد سميت هذه النعمة أمراً في قوله ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ في سورة الحج (65) ، أي : بتقديره ونظام خلقه .

وتقدم تفصيله في قوله ﴿ فإذا ركبوا في الفلك ﴾ في سورة العنكبوت (65) ، وفي قوله :

﴿ هو الذي يُسيّركم في البرّ والبحر ﴾ الآيات من سورة يونس (22) وقوله : ﴿ ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ في سورة الحج (65) .

(168/609)

ويتعلق ﴿ ليريكم ﴾ بـ ﴿ تجري ﴾ أي : تجري في البحر جرياً ، علةُ خَلْقه أن يريكم الله بعض آياته ، أي : آياته لكم فلم يذكر متعلق الآيات لظهوره من قوله ﴿ ليريكم ﴾ وجريُ الفلك في البحر آية من آيات القدرة في بديع الصنع أن خلق ماء البحر بنظام ، وخلق الخشب بنظام ، وجعل لعقول الناس نظاماً فحصل من ذلك كله إمكان سير الفلك فوق عباب البحر .

والمعنى : أن جري السفن فيه حِكم كثيرة مقصودة من تسخيره ، منها أن يكون آية للناس على وجود الصانع ووحدانيته وعلمه وقدرته .

وليس يلزم من لام التعليل انحصار الغرض من المعلَّل في مدخولها لأن العلل جزئيةٌ لا كلية .

وجملة ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ لها موقع التعليل لجملة ﴿ ليريكم من ءاياته .

﴾ ولها موقع الاستئناف البياني إذ يخطر ببال السامع أن يسأل : كيف لم يهتد المشركون

بهذه الآيات ؟ فأفيد أن الذي ينتفع بدلالتها على مدلولها هو ﴿ كل صبّار شكور ﴾ ، ثناء على هذا الفريق صريحاً ، وتعريضاً بالذين لم ينتفعوا بدلالتها .

واقتران الجملة بحرف ﴿ إنَّ ﴾ لأنه يفيد في مثل هذا المقام معنى التعليل والتسبب .

وجعل ذلك عدة آيات لأن في ذلك دلائل كثيرة ، أي : الذين لا يفارقهم الوصفان .

والصبَّار : مبالغة في الموصوف بالصبر ، والشّكور كذلك ، أي : الذين لا يفارقهم الوصفان .

وهذان وصفان للمؤمنين الموحّدِين في الصبر للضراء والشكر للسراء إذ يرجون بهما رضى الله تعالى الذي لا يتوكلون إلا عليه في كشف الضر والزيادة من الخير .

(169/609)

وقد تخلقوا بذلك بما سمعوا من الترغيب في الوصفين والتحذير من ضديهما قال : ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ [البقرة : 177] ، وقال : ﴿ لئن شكرتم لأزِيدَنَّكم ﴾ [إبراهيم : 7] فهم بين رجاء الثواب وخوف العقاب لأنهم آمنوا بالحياة الخالدة ذات الجزاء وعلموا أن مَصِيرهم إلى الله الذي أمَر ونهى ، فصارا لهم خلقاً تطبعوا عليه فلم يفارقاهم البتة أو إلا نادراً ؛ فأما المشركون فنظرهم قاصر على الحياة

الحاضرة فهم أُسَراء العالم الحِسيّ فإذا أصابهم ضر ضجروا وإذا أصابهم نفع بَطَروا ، فهم أخلياء من الصبر والشكر ، فلذلك كان قوله ﴿ لكل صبّار شكور ﴾ كنايةً رمزية عن المؤمنين وتعريضاً رمزياً بالمشركين .

ووجه إيثار خلقي الصبر والشكر هنا للكناية بهما ، من بين شعب الإيمان ، أنهما أنسب بمقام السير في البحر إذ راكب البحر بين خطر وسلامة وهما مظهر الصبر والشكر ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ هو الذي يسيركم في البرّ والبحر حتى إذا كنتم في الفلك ﴾ الآية في سورة يونس (22) .

وفي قوله لكل صبّار شكور ﴾ حسن التخلص إلى التفصيل الذي عقبه في قوله ﴿ وإذا غشيهم موج كالظُّلَل ﴾ الآية ، فعطف على آيات سير الفلك إشارة إلى أن الناس يذكرون الله عند تلك الآيات عند الاضطرار ، وغفلتهم عنها في حال السلامة ، وهو ما تقدم مثله في قوله في سورة العنكبوت (65) : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ وقوله في سورة يونس (22) : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرَيْنَ بهم بريح طيبة ﴾ الآيات .

والغشيان : مستعار للمجيء المفاجىء لأنه يشبه التغطية ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ يُغشي الليل النهار ﴾ في سورة الأعراف (54) .

والظُّلَل : بضم الظاء وفتح اللام : جمع ظُلّة بالضم وهي : ما أظلّ من سحاب .

والفاء في قوله فمنهم مقتصد ﴾ تدلّ على مقدر كأنه قيل : فلما نجاهم انقسموا فمنهم مقتصد ومنهم غيره كما سيأتي .

وجعل ابن مالك الفاء داخلة على جواب ﴿ لمّا ﴾ أي رابطة للجواب ومخالفوه يمنعون اقتران جواب ﴿ لما بالفاء كما في مغني اللبيب ﴾ .

والمقتصد : الفاعل للقصد وهو التوسط بين طرفين ، والمقام دليل على أن المراد الاقتصاد في الكفر لوقوع تذييله بقوله ﴿ وما يجحد بآياتنا إلاّ كل خَتّار كفور ﴾ ولقوله في نظيره في سورة العنكبوت (65) ﴿ فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون ﴾ وقد يطلق المقتصد على الذي يتوسط حالُه بين الصلاح وضده .

كما قال تعالى : ﴿ منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ [المائدة : 66]

والجاحد الكفور : هو المُفرط في الكفر والجَحد .

والجُحود : الإنكار والنفي .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ في سورة الأنعام (33) .

وعلم أن هنالك قسماً ثالثاً وهو الموقن بالآيات الشاكر للنعمة وأولئك هم المؤمنون .

قال في سورة فاطر (32) ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾

وهذا الاقتصار كقول جرير:

كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهم . . .

من العبيد وثلث من مواليها

أي : والثلث الآخر من أنفسهم .

والخَتَّار : الشديد الختر ، والختر : أشدّ الغدر .

وجملة وما يجحد ﴾ إلى آخرها تذييل لأنها تعم كل جاحد سواء من جحد آية سير الفلك وهول البحر ويجحد نعمة الله عليه بالنجاة ومن يجحد غير ذلك من آيات الله ونعمه .

والمعنى : ومنهم جاحد بآياتنا .

وفي الانتقال من الغيبة إلى التكلم في قوله ﴿ بآياتنا ﴾ التفات .

والباء في ﴿ بآياتنا ﴾ لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول مثل قوله ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] ، وقول النابغة:

لك الخير إن وارت بك الأرض واحداً . . .

وقوله تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلاَّ تخويفاً ﴾ [الإسراء : 59] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه بعض الآيات الكونية البعيدة عنا أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً آخر للآيات التي بيْن أيدينا في الأرض فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِي فِي البحر بِنِعْمَةِ الله . . ﴾ [لقمان : 31] ألم تر : يعني ألم تعلم ﴿ أَنَّ الفلك . . ﴾ [لقمان : 31] أي : السفن .

وربما أن سيدنا رسول الله لم يَرَ هذه السفن في البحار ، ولم تكن قد ظهرت السفن العملاقة التي نراها اليوم كالأعلام ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام ﴾ [الرحمن : 24]

ومتى وُجِدت البوارج العالية التي تشبه الجبال والمكوّنة من عدة أدوار . لم توجد إلا حديثاً ، إذن : فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33]

ومَنْ يبحث في القرآن يجد فيه الكثير من هذه الآيات التي تثبت صِدْق القرآن وصِدْق رسول الله في البلاغ عن الله .

وذكرنا قصة المرأة التي أسلمت لما قرأت التاريخ الإسلامي ، وقرأت في سيرة رسول الله أن المؤمنين به كانوا يجعلون عليه حراسة دائمة يتبادلونها حماية له من أعدائه ، وفجأة صرف رسول الله هؤلاء الحرس من حوله وقال لهم لقد أنزل الله عليَّ ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس . . . ﴾ [المائدة : 67] فوقفت المرأة عند هذه الآية وقالت : والله لو أن هذا الرجل كان يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه في حياته .

وقلنا في معنى ﴿ أَلَمْ تَرَ . . ﴾ [لقمان : 31] أنها بمعنى ألم تعلم ، لأن إعلام الله لك أوثق من رؤية عينيك .

(172/609)

وكلمة ﴿ تَجْرِي فِي البحر بِنِعْمَةِ الله . . ﴾ [لقمان : 31] الجري : حركة تودع فيها مكاناً إلى مكان آخر ، هذا التوديع إما أن تمشي الهُوَيْنَا أو تجري . لكن ما هي نعمة الله في جريها ؟ أولاً كانت أول سفينة من الخشب المربوط إلى بعضه بالحبال والدُّسُر ، وكان الغاطس منها في الماء حوالي شبر واحد يزيح من الماء بحجم وزن السفينة ، فإذا ما

وضعت عليها ثقلاً فإنها تغطس بمقدار هذا الثقل ، حتى إذا ما زاد وزن الماء المزاح عن وزن السفينة وحمولتها فإنها تغرق .

وهذه الفكرة هي التي تُستخدم في الغواصات ، فبالوزن يتم التحكم في حركة الغواصة تحت الماء . والآن نرى السفن العملاقة والتي تُصنع من الحديد ، والعجيب أن هذا الحديد الصلب يحمله الماء السائل الليّن ويجري به ، ثم تأتي الريح فتدفع السفن إلى حيث تريد ، حتى وإنْ كانت تسير عكس جريان الماء ، ويتمكن ربان السفينة من التحكم في حركتها باستخدام بعض الآلات البسيطة وبتوجيه الشراع بطريقة معينة فتسير السفينة حسب ما أراد حتى لو كان اتجاهها عكس اتجاه الريح ، ويسمون هذه الحركة (تسفيح) .

لذلك يقول سبحانه عن حركة السفن : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ . . . ﴾ [الشورى : 33]

وكأن الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن أقل الأشياء كثافة بقوة الحق له يحمل أكثر الأشياء كثافة ، وانظر إنْ شئتَ إلى جرارات النقل الثقيل ، هذه الجرارات العملاقة التي تحمل عدة أطنان من الحديد مثلاً على أي شيء تسير وتتحرك ؟ إنها تسير وتتحرك على الهواء المضغوط في عجلاتها ، والذي يأخذ قوته من هذا الضغط ، بحيث إذا زدتَ في ضغط هذه العجلات تقوي على نفسها فتنفجر .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ . . ﴾ [لقمان : 31] أي : من عجائبه في كونه في البحار ، ففي الماضي كنا لا نرى من المخلوقات في الأعماق إلا السمك الذي يصطاده الصيادون ، أما الآن ومع تطور علوم البحار وطرق التصوير تحت الماء أصبحنا نرى في أعماق البحار عجائب أكثر مما نراه على اليابسة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان : 31] قوله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ . . ﴾ [لقمان : 31] توحي بأن آيات الله في كونه كثيرة ، لكن على الإنسان أنْ يبذل جهداً في البحث عنها واكتشافها ، وعليه أن يكون صبَّاراً على مشقة البحث والغوص تحت الماء ، فإذا ما رأينا ما في أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله فقد وجب علينا الشكر ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان : 31] والشكر لا يكون إلا عن نعمة جدَّت لم تكُنْ موجودة من قبل .

إذن : الحق – تبارك وتعالى – يريد منا أن نستقبل آياته في الكون استقبالَ بحث وتأمل ونظر ، لا استقبال غفلة وإعراض ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105]

وتقديم صبَّار على شكور دليل على أن الصبر على مشقات العمل والبحث والاستنباط والاكتشاف يُؤتى نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ . . . ﴾ .

معنى ﴿ غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ . . ﴾ [لقمان : 32] يعني : غطاهم واحتواهم ؛ لذلك قال : ﴿ كالظلل . . ﴾ [لقمان : 32] جمع ظُلَّة ، وهي التي تعلو الإنسان وتظلله ، ولا يكون الموج كذلك إلا إذا علا عن مستوى الإنسان ، وخرج عن رتابة الماء وسجسجته . ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ . . . ﴾ [الأعراف : 171]

(174/609)

وأنت تشاهد هذه المظاهر إذا كنتَ في عرض البحر ، فترى الموجة من بعيد أعلى منك ، وأنها حتماً ستطمسك ، حتى إذا ما وصلتْ إليك شاهدتَ فيها مظهراً من لطف الله بك ، حيث تتلاشى وتمر من تحتك بسلام ، وهذا شيء عجيب ونعمة تستوجب الشكر . فالموج إذن شيء مخيف ؛ لذلك لما غشيهم وأيقنوا الهلاك ﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . ﴾ [لقمان : 32] دعوا الله رغم أنهم كافرون به ، لكن المرء في مثل هذه الحال لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فالأمر جد ، فلم يدعوا اللات أو العزى ، ولم يقُلْ أحد منهم يا هبل ، إنما دعوا الله بإخلاص لله ، فإنْ كانوا ملتفتين لدين آخر في عبادة الأصنام ، ففي هذا الموقف لا بُدَّ أن يُخلصوا لله ؛ لأنهم واثقون أن الأصنام لن تنفعهم ، وأنها لا تملك لهم ضراً

ولا نفعاً ، ولن يكون النفع وكشف البلاء إلا من الله الحق .

فإنْ قُلْتَ : ما دام الأمر كذلك ، فما الذي صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام .

قلنا : إن التديُّن طبيعة في النفس البشرية ، وهذه الطبيعة باقية في ذرات كل إنسان منذ خلق الله آدم ، وأخذ من صُلْبه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 172] فشهدوا .

فكل واحد منا فيه ذرة شهدتْ هذا العهد ، وهذه الذرة هي مصدر الإشراقات في نفس المؤمن ، وعليه أنْ يحافظ عليها بأن يأخذ قانون صيانة هذه الذرة ممن خلقها ، لا أنْ يطمس نورها بمخالفة قانون صيانته الذي وضعه له ربه – عز وجل – فيكون كمَنْ قال الله فيه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 124]

النبي صلى الله عليه وسلم يُوضح لنا هذه المسألة بقوله : "كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصرِّانه أو ، يُمجِّسانه " .

(175/609)

فالنفس الإنسانية بخير ما دام فيها الإشراقيات الإلهية الأولى التي شهدتْ أن الله هو الرب ، لكن إذا تضبَّبت فلا بُدَّ أن تحدث الخيبة ويدخل الفساد .

إذن : التديُّن طَبْع في النفس ، لكن التديُّن الحق له مطلوبات ومنهج بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا يريد أنْ يُرضي نفسه بأن يكون مُتديناً ، لكن يريد أنْ يريح نفسه من مطلوبات هذا التدين ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة إله لا مطلوبات له ، وقد توفرت هذه في عبادة الأصنام .

لكن نقول لمن عبد الأصنام : لا بُدَّ أنْ يأتي عليك الوقت الذي لا تلتفت فيه إلى الأصنام ، بل إلى الإله الحق الذي هربتْ من مطلوباته وانصرفت عن عبادته ، لا بُدَّ أن تلجئك الأحداث إلى أنْ تلوذ به ؛ لذلك يقولون في المثل (اللي متحبش تشوف وجهه ، يُحوجك الزمن لقفاه) .

فأنتم أعرضتم عن الله وكفرتم به ، فلما نزلت بكم الأحداث وأحاطت بكم الأمواج صِرْتم أرانب ، فلماذا الآن تلجئون إلى الله ؟ لماذا لم تستمروا على عنادكم وتكبُّرهم حتى على الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ . . ﴾ [لقمان : 32] وكان ينبغي عليهم بعد أنْ نجاهم وأسعفهم ، كان ينبغي عليهم أن يؤمنوا به ، وأنْ يطيعوه ، وأن تؤثر فيهم هذه الهزة التي زلزلتهم ، إلا أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والإعراض عن

الله ، وطاوع نفسه وشهوته .

هذه هي حال الكافر حينما يتعرض للابتلاء والتمحيص ، فإنه ينتكس ولا يرعوى على خلاف المؤمن ، فإنه إن تعرَّض لمثل هذا الاختبار يزداد إيماناً ويقيناً .

والمقتصد هو البين بين ، تأخذه الأحداث والخطوب ، فتردُّه إلى الله حال الكرب والشدة ، لكنه إذا كشف عنه تردد وضعفتْ عنده هذه الروح ، بدليل أن الله تعالى يذكر في مقابل المقتصد نوعاً آخر منهم غير مقتصد ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان : 32]

(176/609)

فمنهم من بهت كفره حينما تنبه في الوازع الإيماني ، لكنه لما نجا غرَّته الدنيا من جديد ، ومنهم الجاحد الخَتَّار أي : الغادر .

ولك أنْ تلحظ المقابلة بين صبَّار وختَّار ، وبين شكور وكفور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(177/609)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾

في الظاهر سلامتُهم في السفينة ، وفي الباطن سلامتُهم من حدثان الكون ، ونجاتهم فى سفائن العصمة في بحار القدرة .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ وَقُوفٍ لا ينهزم من البلايا ، شَكُورٍ على ما يصيبه من تصاريف التقدير من جنسي البلايا والعطايا .

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تلفظَهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة ، فإذا جاد الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم :

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بِحِلْمنا . . . أحباءَنا : كم تجهلون ونَحْلُمُ ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 136 . 137 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العاشر بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/610)

الجزء العاشر بعد الستمائة

من الآية ﴿ 33 ﴾ من سورة لقمان

وحتى الآية ﴿ 34 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/610)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ظهرت بما ذكر في هذه السورة دقائق الحكمة ، وانتشرت في الخافقين ألوية العظمة ونفوذ الكلمة ، وأعربت ألسن القدرة عن دلائل الوحدانية ، فلم تدع شيئاً من العجمة ، فظهر كالشمس أنه لا بد من الصيرورة إلى يوم الفصل وختم بالمكذب ، أمر سبحانه عباده عامة عاصيهم ومطيعهم بالإقبال عليه ، وخوّفهم ما هم صائرون إليه ، منادياً لهم بأدنى

أوصافهم لما لهم من الذبذبة كما عرف به الحال الذي شرح آنفاً فقال : ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي عامة ، ولفت الكلام إلى الوصف المذكر بالإحسان ترغيباً وترهيباً فقال : ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي والذي لا إله لكم غيره ، لأنه لا محسن إليكم غيره ، اتقاء يدوم وأنتم في غاية الاجتهاد فيه ، لا كما فعلتم عند ما رأيتم من أهوال البحر .

(5/610)

ولما كانت وحدة الأله الملك توجب الخوف منه ، لأنه لا مكافئ له ، وكان أن عهد منه أنه لا يستعرض عبادة لمجازاتهم على أعمالهم لا يخشى كما يخشى إذا علم منه أن يستعرضهم قال : ﴿ واخشوا يوماً ﴾ لا يشبه الأيام ، ولا يعد هول البحر ولا غيره عند أدنى هول من أهواله شيئاً بوجه .

ولما كان المجرم إذا علم أن له عند الملك من يدفع عنه فتر ذلك من خوفه ، وكان ما بين الوالد والولد من الحنو والشفقة والعطف والرحمة الداعية إلى المحاماة والنصرة والفداء بالنفس والمال أعظم مما بين غيرهما ، فإذا انتفى إغناء أحدهما عن الآخر انتفى غيرهما بطريق الأولى قال : ﴿ لا يجزي ﴾ أي يغني فيه ، ولعله حذف الصلة إشارة إلى أن هذا الحال لهم دائماً إلا أنه سبحانه أقام في هذه الدار أسباباً ستر قدرته بها ، فصار الجاهل يحيل الأمر

ويسنده إليها ، وأما هناك فتزول الأسباب ، وينجلي غمام الارتياب ، ويظهر اختصاص العظمة برب الأرباب .

ولما كانت شفقة الوالد – مع شمولها لجميع أيام حياته – أعظم فهو يؤثر حياة ولده على حياته ويؤثر أن يحمل بنفسه الآلام والأموال بدأ به فقال : ﴿ والد ﴾ كائناً من كان ﴿ عن ولده ﴾ أي لا يوجد منه ولا يتجدد في وقت من الأوقات نوع من أنواع الجزاء وإن تحقق أن الولد منه ، والتعبير بالمضارع إشارة إلى أن الوالد لا يزال تدعوه الوالدية إلى الشفقة على الولد ، وتجدد عنده العطف والرقة ، والمفعول إما محذوف لأنه أشد في النفي وآكد ، وإما مدلول عليه بما في الشق الذي بعده .

(6/610)

ولما كان الولد لا يتوقع منه الإغناء عن والده في الهزاهز إلا بعد بلوغه ، أخره في عبارة دالة على ثبات السلب العام فقال : ﴿ ولا مولود ﴾ أي مولود كان ﴿ هو جاز عن والده ﴾ وإن علم أنه بعضه ﴿ شيئاً ﴾ من الجزاء ، وفي التعبير ب " هو " إشعار بأن المنفي نفعه بنفسه ، ففيه ترجية بأن الله قد يأذن له في نفعه إذا وجد الشرط ، وعبر هنا بالاسم الفاعل لأن الولد من شأنه أن يكون ذلك له ديدناً لما لأبيه عليه من الحقوق ، والفعل يطلق على من ليس

من شأنه الاتصاف بمأخذ اشتقاقه ، فعبر به في الأب لأنه لاحق للولد عليه يوجب عليه ملازمة الدفع عنه ، ويكون ذلك من شأنه ومما يتصف به فلا ينفك عنه ، وذلك كما أن الملك لو خاط صح أن يقول في تلك الحال : أنه يخيط ، ولا يصح " خياط " لأن ذلك ليس من صنعته ، ولا من شأنه .

(7/610)

ولما كان من المعلوم أن لسان حالهم يقول : هل هذا اليوم كائن حقاً ؟ أجيب هذا السؤال بقوله مؤكداً لمكان إنكارهم ، لأفتاً القول إلى الاسم الأعظم لاقتضاء الوفاء له : ﴿ إن وعد الله ﴾ الذي له جميع معاقد العز والجلال ﴿ حق ﴾ يعني أنه سبحانه قد وعد به على جلال جلاله ، وعظيم قدرته وكماله ، فكيف يجوز أن يقع في وهم فضلاً عن أوهامكم أن يخلفه مع أن أدناكم – أيها العرب كافة – لا يرى أن يخلف وعده وإن ارتكب في ذلك الأخطار ، وعانى فيه الشدائد الكبار ، فلما ثبت أمره ، وكان حبهم لسجن هذا الكون المشهود ينسيهم ذلك اليوم ، لما جعل سبحانه في هذا الكون من المستلذات ، تسبب عنه قوله : ﴿ فلا تغرنكم ﴾ مؤكداً لعظم الخطب ﴿ الحياة الدنيا ﴾ أي بزخرفها ، ولا ما يبهج من لا تأمل له من فاني رونقها ، وكرر الفعل والتأكيد إشارة إلى أن ما لهم من الألف بالحاضر

مُعم لهم عما فيه من الزور ، والخداع الظاهر والغرور ، فقال مظهراً غير مضمر لأجل زيادةً التنبيه والتحذير : ﴿ ولا يغرنكم بالله ﴾ الذي لا أعظم منه ولا مكافئ له مع ولايته لكم ﴿ الغرور ﴾ أي الكثير الغرور المبالغ فيه ، وهو الشيطان الذي لا أحقر منه ، لما جمع من البعد والطرد والاحتراق مع عداوته بما يزين لكم من أمرها ، ويلهيكم به من تعظيم قدرها ، وينسيكموه من كيدها وغدرها ، وتعبها وشرها ، وأذاها وضرها ، فيوجب ذلك لكم الإعراض عن ذلك اليوم ، فلا تعدونه معاداً ، فلا تتخذون له زاداً ، لما اقترن بغروره من حلم الله وإمهاله ، قال سعيد بن جبير ـ رضى الله عنه ـ : الغرة أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة .

(8/610)

ولما كان من الأمر الواضح أن لسان حالهم بعد السؤال عن تحقق ذلك اليوم يسأل عن وقته كما مضى في غير آية ، ويأتي في آخر التي بعدها ، إنا تعنتاً واستهزاء وإما حقيقة ، أجاب عن ذلك ضاماً إليه أخواته من مفاتيح الغيب المذكورة في حديث ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ الآتي ، لما في ذلك من الحكمة التي سقيت لها السورة ، مرتباً لها على الأبعد فالأبعد عن علم الخلق ، فقال مؤكداً لما يعتقدون في كهانهم مظهراً الاسم الأعظم غير

مضمر لشدة اقتضاء المقام له : ﴿ إن الله ﴾ أي بما له من العظمة وجميع أوصاف الكمال ﴿ عنده ﴾ أي خاصة ، ولو قيل له مثلاً ما أفاد الحضور ، ولو قيل " لديه " لأوهم التعبير بلدي التي هي للحضور أن ذلك كناية عن قربها جداً ، وأوهم أن علمه تعالى يتفاوت تعلقه بالأشياء بخصوص أو عموم لأجل أن " لدى " أخص من عند فكانت عند أوفق للمراد ، فإنها أفادت التمكن من العلم مع احتمال تأخرها وسلمت من تطرق احتمال فاسد إليها ﴿ علم الساعة ﴾ أي وقت قيامها ، لا علم لغيره بذلك أصلاً .

(9/610)

ولما كان سبحانه قد نصب عليها أمارات توجب ظنوناً في قربها ، وكشف بعض أمرها ، عبر تعالى بالعلم ، ولما كانوا قد ألحوا في السؤال عن وقتها ، وكانت أبعد الخمس عن علم الخلق ، وكانت شيئاً واحداً لا يتجزى ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : 13] أبرزها سبحانه في جملة اسمية دالة على الدوام والثبوت على طريق الحصر ، وهذا هو المفتاح الأول من مفاتيح الغيب ينفتح به من العلوم ما يجل عن الحصر عن قيام الأنفس بأبدانها ، ماثلة على مذاقها بجميع أركانها ، وأشكالها وألوانها ، وسائر شأنها ، وطيران الأرواح بالنفخ إليها واحتوائها عليها على اختلاف أنواعهم ، وتغاير

صورهم وأطوالهم ، وتباين ألسنتهم وأعمالهم ، إلى غير ذلك من الأمور ، وعجائب المقدور ، ثم سعيهم إلى الموقف ثم وقوفهم ، ثم حسابهم إلى استقرار الفريقين في الدارين ، هذا إلى موجهم من شدة الزحام ، والكروب العظام بعضاً في بعض .

يطلبون من يشفع لهم في الحساب حتى يقوم المصطفى - صلى الله عليه وسلم - المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون إلى انتقاض السماوات ، وانكدار ما فيها من النيرات ، ونزول الملائكة بعد قيامهم من منامهم ، وهم من لا يحصى أهل سماء منهم ، كثرة ، كيف وقد أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم يصلي هذا إلى تبدل الأراضي وزوال الجبال ، ونسف الأبنية والروابي والتلال ، وغير ذلك مما لا يعلمه حق علمه إلا هو سبحانه .

﴿ المفتاح الثاني ﴾ : آية الله في خلقه على قيام الساعة ، وأدل الأدلة عليه وهو إنزال المطر الذي يكشف عن الاختلاط في أعماق الأراضي بالتراب الذي كان نباتاً ثم إعادته نبتاً كما كان من قبل على اختلاف ألوانه ، ومقاديره وأشكاله ، وأغصانه وأفنانه ، وروائحه وطعومه ، ومنافعه وطبائعه - إلى غير ذلك من شؤونه ، وأحواله وفنونه ، التي لا يحيط بها علماً إلا خالقها ومبدعها وصانعها .

ولما كانوا ينسبون الغيث إلى الأنواء أسند الإنزال إليه سبحانه ليفيد الامتنان ، وعبر بالجملة الفعلية للدلالة على التجدد فقال : ﴿ وينزل الغيث ﴾ بلام الاستغراق القائمة مقام التسوير ب "كل" وقد أفاد ذلك الاختصاص بالعلم بوقته ومكانه ومقداره وغير ذلك من شؤونه ، فإن من فعل شيئاً حقيقة لم يعلم أحد وقت فعله وقوعه إلا من قبله .

﴿ المفتاح الثالث ﴾ : علم الأجنة وهو الرتبة الثانية في الدلالة على البعث الكاشف عن تخطيطها وتصويرها ، وتشكيلها وتقديرها ، على وصفي الذكورة والأنوثة ، مع الوضوح أو الإشكال ، والوحدة أو الكثرة ، والتمام أو النقص – إلى ما هناك من اختلاف المقادير والطبائع ، والأخلاق والشمائل ، والأكساب والصنائع ، والتقلبات في مقدار العمر والرزق في الأوقات والأماكن – وغير ذلك من الأحوال التي لا يحصيها إلا بارئ النسم ، ومحيي الرمم .

ولما كانت للخلق في ذلك لكثرة الملابسات والمعالجات ظنون في وجود الحمل أولاً ، ثم في كونه ذكراً أو أنثى ثانياً ، ونحو ذلك بما ضرب عليه من الأمارات الناشئة عن طول التجارب ، وكثرة الممارسة ، عبر العلم فقال : ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ من ذكر أو أنثى حي أو ميت وغير ذلك ، وصيغة المضارع لتجدد الأجنحة شيئاً فشيئاً وقتاً بعد وقت ، والكلام في اللام والاختصاص بالعلم كالذي قبله سواء .

﴿ المفتاح الرابع ﴾ : الكسب الناشئ عما في الأرحام الفاتح لكنوز السعادة وآفات الشقاوة والمسفر عن حقائق الضمائر في صدقها عند البلاء وكذبها ، وعن مقادير العزائم ورتب الغرائز ، وعن أحوال الناس عند ذلك في الصداقة والعداوة والذكاء والغباوة والصفاء والكدر والسلامة والحيل ، وغير ذلك من الصحة والعلل ، في اختلاف الأمور ، وعجائب المقدور ، في الخيور والشرور ، مما لا يحيط به إلا مبدعه ، وغارزه في عباده وودعه ، ولكون الإنسان – مع أنه ألصق الأشياء وألزمه له – لا يعلمه مع إيساعه الحيلة في معرفته ، عبر فيه بالدراية لأنها تدل على الحيلة بتصريف الفكر وإجالة الرأي – كما تقدم في سورة يوسف عليه السلام – أن مادة " درى " تدور على الدوران ، ومن لوازمه إعمال الحيلة وإمعان النظر ، فهي أخص من مطلق العلم فقال : ﴿ وما تدري نفس ﴾ أي من الأنفس البشرية وغيرها ﴿ ما ﴾ وأكد المعنى ب " ذا " وتجريد الفعل فقال : ﴿ ذا تكسب غداً ﴾ أي في المستقبل من خير أو شر بوجه من الوجوه ، وفي نفي علم ذلك من العبد مع كونه ألصق الأشياء به دليل ظاهر على نفي علم ما قبله عنه لأنه أخفى منه ، وقد تقدم إثبات علمه له سبحانه وتعالى ، فصار على طريق الحصر ، وعلم أيضاً أنه لا يسند إلى

العبد الأعلى طريق الكسب لأنه لو كان مخلوقاً له لعلمه قطعاً ، فثبت أنه سبحانه وتعالى خالقه ، فعلم اختصاصه بعلمه من هذا الوجه أيضاً .

﴿ المفتاح الخامس ﴾ : مكان الموت الذي هو ختام الأمر الدنيوي وطي سجل الأثر الشهودي ، وابتداء الأمر الأخروي الظهر لأحوال البرزخ في النزول مع المنتظرين لبقية السفر إلى دائرة البعث وحالة الحشر إلى ما هنالك من ربح وخسران ، وعز وهوان ، وما للروح من الاتصال بالجسد والرتبة في العلو والسفول ، والصعود والنزول ، إلى ما وراء ذلك إلى ما لا آخر مما لا يعلم تفاصيله وجمله وكلياته وجزئياته إلا مخترعه وبارئه ومصطنعه .

(12/610)

ولما كان لا يعلمه الإنسان بنوع حيلة من شدة حذره منه وحبه لو أنفق جميع ما يمكله لكي يعلمه ، عبر عنه عن الذي قبله فقال مؤكداً بإعادة النافي والمسند : ﴿ وما تدري ﴾ وأظهر لأنه أوضح وأليق بالتعميم فقال : ﴿ نفس ﴾ أي من البشر وغيره ﴿ بأيّ أرض تموت ﴾ ولم يقل : بأي وقت ، لعدم القدرة على الانفكاك عن الوقت مع القدرة على الانفكاك عن مكان معين ، وإحاطة العلم بكراهة كل أحد للموت ، فكان ذلك أدل دليل على جهله بموضوع موته إذ علم به لبعد عنه ولم يقرب منه ، وقد روى البخاري حديث

المفاتيح عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم قرأ ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية " ، وله عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ في حديث سؤال جبرئيل عليه السلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أشراط الساعة فأخبره ببعضها وقال : " خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيب ﴾ " – إلى آخر السورة ، فقد دل الحديث قطعاً على أن الآية فيما ينفرد سبحانه وتعالى بعلمه ، وقد رتبها سبحانه هذا الترتيب لما تقدم من الحكمة وعلم سر إتيانه بها تارة في جملة اسمية وتارة في فعلية ، وتارة ليس فيها ذكر للعلم ، وأخرى يذكر فيها ، ويسند إليه سبحانه ، ولكن لا على وجه الحصر ، وتارة بنفي العلم من غيره فقط من غير إسناد للفعل إليه ، وعلم سر قوله " بأيّ أرض " دون أيّ وقت ، كما في بعض طرق الحديث .

(13/610)

ولما كان قد أثبت سبحانه لنفسه اختصاص العلم عن الخلق بهذه الأشياء ، أثبت بعدها ما هو أعلم لتدخل فيه ضمناً فيصير مخبراً بعلمه لها مرتين ، فقال على وجه التأكيد لأنهم ينكرون بعض ما يخبر به ، وذلك يستلزم إنكارهم لبعض علمه : ﴿ إنّ الله ﴾ أي المختص

بأوصاف الكمال والعظمة والكبرياء والجلال ﴿ عليم ﴾ أي شامل العلم للأمور كلها ، كلياتها وجزئياتها ، فأثبت العلم المطلق لنفسه سبحانه بعد أن نفاه على الغير في هذه الخمس تارة نصاً وأخرى بطريق الأولى أو باللازم ، فانطبق الدليل على الدعوى – والله الموفق .

ولما أثبت العلم على هذا الوجه ، أكده لأجل ما سيقت له السورة بقوله : ﴿ خبير ﴾ أي يعلم خبايا الأمور ، وخفايا الصدور ، كما يعلم ظواهرها وجلاياها ، كل عنده على حد سواء ، فهو الحكيم في ذاته وصفاته ، ولذلك أخفى هذه المفاتيح عن عباده ، لأنه لو أطلعهم عليها لفات كثير من الحكم ، باختلاف هذا النظام ، على ما فيه من الإحكام ، فقد انطبق آخر السورة – بإثباته الحكمة بإثبات العلم والخبر مع تقرير أمر الساعة التي هي مفتاح الدار الآخرة – على أولها المخبر بحكمة صفته التي من علمها حق علمها ، وتخلق بما دعت إليه وحضت عليه لا سيما الإيقان بالآخرة ، كان حكيماً خبيراً عليماً مهذباً مهدياً مقرباً علياً ، فسبحانه من هذا كلامه ، وتعالى كبرياؤه وعز مرامه ، ولا إله غيره وهو اللطيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 36 . 41 ﴾

(14/610)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾

لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحداً أوجب التقوى البالغة فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير ، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد ، وذلك لأن الملك إذا كان واحداً ويعهد منه أنه لا يعلم شيئاً ولا يستعرض عباده ، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ، ثم أكده بقوله : ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ وذلك لأن المجرم إذا علم أن له عند الملك من يتكلم في حقه ويقضي ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف مثل ما يخاف إذا علم أنه ليس له من يقضي عنه ما يخرج عليه ، ثم ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالأدنى على الأعلى ، وذكر الولد والوالد جميعاً فيه لطيفة ، وهي أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد ، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد كالإهانة ، فإن من يريد إحضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الإبن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله ، فإذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه

ويتحمله هو بنفسه فقوله : ﴿ لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ في دفع الآلام ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ في دفع الاهانة ، وفي قوله : ﴿ لاَّ يَجْزِى ﴾ وقوله : ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ ﴾ (لطيفة أخرى) وهي أنا ذكرنا أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغي ولا يكون من شأنه لأن الملك إذا كان يخيط شيئاً يقال إنه يخيط ولا يقال هو خياط ، وكذلك من يحيك شيئاً ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك ، إذا علمت هذا فنقول الابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له

(15/610)

عليه من الحقوق والوالد يجزي لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال في الوالد لا يجزي وقال في الولد ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ وهو يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون تحقيقاً لليوم يعني اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق والثاني : أن يكون تحقيقاً لعدم الجزاء يعني : ﴿ لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ لأن الله وعد بألا تزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق ، فلا يجزي والأول أحسن وأظهر .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ يعني إذا كان الأمر كذلك فلا تغتروا بالدنيا

فإنها زائلة لوقوع (ذلك) اليوم المذكور بالوعد الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ يعني الدنيا لا ينبغي أن تغركم بنفسها ولا ينبغي أن تغتروا (بها) وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها ومنهم من يوسوس في صدره الشيطان ويزين في عينه الدنيا ويؤمله ويقول إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة ، فنهاهم عن الأمرين وقال كونوا قسما ثالثاً ، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا في الأعين .

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ

(16/610)

يقول بعض المفسرين إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك ، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة ، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره ، ولأن يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة في برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره ، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر وإنما الحق فيه أن نقول لما قال الله : ﴿ اخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن

وَلَدِهِ ﴾ وذكر أنه كائن بقوله : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ كأن قائلاً قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم ما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ، ثم ذكر الدليلين الذين ذكرناهما مراراً على البعث أحدهما : إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فانظر إلى ءاثار رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الموتى ﴾ [الروم : 49 ، 50] وقال تعالى : ﴿ وَيُحْيِ الأَرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : 19] وقال ههنا يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال ﴿ وَهُوَ الذى يُنَزِّلُ الغيث ﴾ [الشورى : 28] وقال : ﴿ ويحيي الأرض ﴾ [الروم : 19] وثانيهما : الخلق ابتداء كما قال : ﴿ وَهُوَ الذى الله الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [الروم : 27] وقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ثُمَّ الله يُنشِىء النشأة الأخرة ﴾ [العنكبوت : 20] إلى غير ذلك فقال ههنا ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأرحام ﴾ إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها ، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام ، ثم قال لذلك الطالب علمه : يا أيها السائل إنك تسأل عن

الساعة أيان مرساها ، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها ، فإنك لا تعلم معاشك ومعادك ، ولا تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك ، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك ، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون ، فالله ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الأمور من يومك ، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضاً تهيىء أمورك بسبب ذلك العلم وإنما لم يعلمك لكي تكون في وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلاً على الله ولا أعلمك الأرض التي تموت فيها كي لا تأمن الموت وأنت في غيرها ، فإذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه ، وهي الساعة ، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون ، وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ لما خصص أولا علمه بالأشياء المذكورة ، بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ذكر أن علمه غير مختص بها ، بل هو عليم مطلقاً بكل شيء ، وليس علمه علماً بظاهر الأشياء فحسب ، بل خبير علمه واصل إلى بواطن الأشياء ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 143 . 144 ﴾

(18/610)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ مَفْهُومُ هَذَا الْخِطَابِ الْإِخْبَارُ بِمَا يَعْلَمُهُ هُوَ دُونَ خَلْقِهِ وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا بِإِعْلَامِهِ إيَّاهُ ؛ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ وُجُودِ الْحَمْلِ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَتْ قَدْ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ وُجُودُهُ ، وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ نَافِي حَمْلِ امْرَأَتِهِ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرَ قَاذِفٍ لَهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِيمَا سَلَفَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَحِقُّ عِنْدَ اللَّهِ فَضِيلَةً بِشَرَفِ أَبِيهِ وَلَا بِنَسَبِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْصُصْ أَحَدًا بِذَلِكَ دُونَ أَحَدٍ ، وَبِذَلِكَ وَرَدَ الْأَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ وَقَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا يَأْتِينِي النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ فَأَقُولُ إنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا .

﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ مَعْنَاهُ لَا يُغْنِي ، يُقَالُ : جَزَيْت عَنْك إذَا أَغْنَيْت عَنْك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(19/610)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم وَاخْشُوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه لا يغني والد عن ولده يقال جزيت عنك بمعنى أغنيت عنك ، قاله ابن

عيسى . عيسى .

الثاني : لا يقضي والد عن ولده ، قاله المفضل وابن كامل .

الثالث : لا يحمل والد عن ولده ، قال الراعي :

وأجزأت أمر العالمين ولم يكن . . . ليجزي إلا كاملٌ وابن كامل

أي حملت

. ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ يعني البعث والجزاء

. ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : لا يغرنكم الإمهال عن الانتقام .

الثاني : لا يغرنكم المال عن الإسلام .

﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وهي تقرأ على وجهين

: أحدهما : بالضم .

الثاني : بالفتح وهي قراءة الجمهور .

ففي تأويلها بالضم وجهان :

أحدهما : أن الغُرور الشيطان ، قاله مجاهد .

الثاني : الأمل وهو تمني المغفرة في عمل المعصية ، قاله ابن جبير .

ويحتمل ثالثاً : أن تخفي على الله ما أسررت من المعاصي .

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

يحتمل وجهين

: أحدهما : أن قيامها مختص بعلمه .

الثاني : أن قيامها موقوف على إرادته .

﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فيما يشاء من زمان ومكان

. ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : من ذكر وأنثى ، سليمٍ وسقيم .

الثاني : من مؤمن وكافر وشقي وسعيد .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : من خير أو شر .

الثاني : من إيمان أو كفر .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : على أي حكم تموت من سعادة أو شقاء ، حكاه النقاش .

(20/610)

الثاني : في أي أرض يكون موته ودفنه وهو أظهر . وقد روى أبو مليح عن أبي عزة الهذلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ إِلَيْهَا حَاجَةً فَلَمْ يَنْتِهِ حَتَّى يُقَدِمَهَا " ثم قرأ صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

وقال هلال بن إساف : ما من مولود يولد إلا وفي سرته من تربة الأرض التي يدفن فيها .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : عليم بالغيب خبير بالنية .

الثاني : عليم بالأعمال خبير بالجزاء .

ويقال إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية يقال له الوارث بن عمرو بن حارثة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد ، وبلادنا جدبة فأخبرني

متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى تقول الساعة ؟ فنزلت هذه الآية ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(21/610)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾

﴿ يجزي ﴾ معناه يقضي ، والمعى لا ينفعه بشيء ولا يدفع عنه ، و﴿ هو جاز ﴾ جملة في موضع الصفة ، أي ولا يجزي مولود قد كان في الدنيا يجزي ، و﴿ الغرور ﴾ التطميع بما لا يتحصل ، و﴿ الغرور ﴾ الشيطان ، بذلك فسر مجاهد والضحاك وقال هو الأمل والتسويف ، وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة " الغُرور " بضم العين ، وقال سعيد بن جبير : معنى الآية أن تعمل المعصية وتتمنى المغفرة ، وقرأ الجمهور "يَجزي " بفتح الياء من جزا ، وقرأ عكرمة "يُجزي " بضم الياء على ما لم يسم فاعله ، وحكى ابن مجاهد قراءة " لا يُجزىء " بضم الياء والهمز وفي رفع " مولودٌ " اضطراب من النحاة قال المهدوي : ولا يكون مبتدأ لأنه نكرة وما بعده صفة له فيبقى بغير خبر .

(22/610)

وقرأ ابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة ويعقوب " ولا يغرنكم " خفيفة النون ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ﴾ ذكر النقاش أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الخمس وروي أنه سأل عن بعضها عن جنين وعما يكسب ونحو هذا فنزلت الآية حاصرة لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى ولن تجد من المغيبات شيئاً إلا هذه أو ما يعيده النظر ، والتأويل إليها ، و﴿ علم الساعة ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ، أي كل ما شأنه أن يعلم من أمر الساعة ولكن الذي استأثر الله تعالى به هو علم الوقت وغير ذلك قد أعلم ببعض منه ، وكذلك نزول الغيث أمر قد استأثر الله تعالى بتفصيله وعلم وقته الخاص به ، وأمر الأجنة كذلك ، وأفعال البشر وجميع كسبهم كذلك وموضع موت كل بشر كذلك إلا الأصقاع والموضع الخاص بالجسد ، وقرأ ابن أبي عبلة " بأيَّة أرض " فتح الياء وزيادة تاء تأنيث ، و﴿ عليم خبير ﴾ صفتان متشابهتان لمعنى الآية ، وقال ابن مسعود : كل شيء أوتي نبيكم إلا مفاتيح الخمس ثم تلا الآية ، وقرأ " وينزِل " خفيفة أهل الكوفة وأبو عمرو وعيسى ، وقرأ " وينزّل " بالتثقيل نافع وأبو جعفر وعاصم وشيبة ، وذكر أبو حاتم في ترجيح التثقيل رؤيا . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربَّكُمْ ﴾

يعني الكافر والمؤمن ؛ أي خافوه ووحّدوه .

﴿ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ تقدّم معنى "يَجْزِي" في البقرة وغيرها .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث لم تَمَسَّه النار إلا تحِلّة القسم " وقال : " من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهنّ كنّ له حجاباً من النار " قيل له : المعنيّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنب ولده ، ولا مولود ذنب والده ، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر .

والمعنيُّ بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار ، ويكون الولد سابقاً له إلى الجنة .

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ ﴾ أي تخدعنكم ﴿ الحياة الدنيا ﴾ بزينتها وما تدعو إليه فتتّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله

الغرور ﴾ قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة والحديد بفتح الغين ، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره ، وهو الذي يغرّ الخلق ويمنّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة ؛ وفي سورة "النساء" : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ [النساء : 120] .

وقرأ سِماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْقَع بضم الغين ؛ أي لا تغترّوا .

كأنه مصدر غرّ يغر غُروراً .

قال سعيد بن جُبير : هو أن يعمل بالمعصية ويتمنى المغفرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾

زعم الفراء أن هذا معنى النفي ؛ أي ما يعلمه أحد إلا الله تعالى .

(24/610)

قال أبو جعفر النحاس : وإنما صار فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ " لأنه صلى الله عليه وسلم قال : في قول الله عز وجل : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] "إنها هذه" " قلت : قد ذكرنا في سورة "الأنعام" حديث ابن عمر في هذا ، خرجه البخاري .

و" في حديث جبريل عليه السلام قال : "أخبرني عن الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً" قال : "صدقت" " لفظ أبي داود الطيالسيّ .

وقال عبد الله بن مسعود : كل شيء أوتي نبيّكم صلى الله عليه وسلم غير خمس : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ ، الآية إلى آخرها .

وقال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملَك مقرّب ولا نبيّ مرسل ؛ فمن ادّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه خالفه .

ثم إن الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم .

والمراد إبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقي بالأنواء وقد يعرف بطول التجارِب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك ؛ حسبما تقدّم ذكره في الأنعام .

وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده .

وروي أن يهودياً كان يحسب حساب النجوم ، فقال لابن عباس : إن شئت نبّأتك نجم ابنك ، وأنه يموت بعد عشرة أيام ، وأنت لا تموت حتى تعمى ، وأنا لا يحول عليّ الحول حتى أموت .

قال : فأين موتك يا يهوديّ ؟ فقال : لا أدري .

فقال ابن عباس : صدق الله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فرجع ابن عباس

فوجد ابنه محموماً ، ومات بعد عشرة أيام .

ومات اليهوديّ قبل الحول ، ومات ابن عباس أعمى .

قال عليّ بن الحسين راوي هذا الحديث : هذا أعجب الأحاديث .

(25/610)

وقال مقاتل : إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة ، أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد ، وبلادنا جدبة فأخبرني متى ينزل الغيث ، وقد علمتُ متى وُلدت فأخبرني متى أموت ، وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرني ماذا أعمل غداً ، وأخبرني متى تقوم الساعة ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ ذكره القُشَيْرِي والماوَرْدِيّ .

وروى أبو المَلِيح عن أبي عَزّة الهُذَلِيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يَقْدَمَها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ إلى قوله بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ "

ذكره الماورديّ ، وخرّجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بمعناه .

وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة) مستوفًى .

وقراءة العامة : "وَيُنَزِّلُ" مشدّداً .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخففاً .

وقرأ أُبَيّ بن كَعْب : "بِأَيَّةِ أَرْضٍ" الباقون "بِأَيِّ أَرْضٍ" .

قال الفراء : اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أيّ .

وقيل : أراد بالأرض المكان فذكّر .

قال الشاعر :

فلا مُزْنة وَدَقَتْ ودْقَها . . .

ولا أرضَ أبقَل إبقالَها

وقال الأخفش : يجوز مررت بجارية أيّ جارية ، وأيّة جارية .

وشبه سيبويه تأنيث "أيّ" بتأنيث كُلّ في قولهم : كُلَّتُهُنَّ .

﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ "خَبِيرٌ" نعت ل"عليم" أو خبر بعد خبر .

والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(26/610)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾

﴿ يولج الليل ﴾ : الجملتين شرحت في آل عمران وهنا .

﴿ إلى أجل ﴾ ، ويدل على الأنتهاء ، أي : يبلغه وينتهي إليه .

وفي الزمر : ﴿ لأجل ﴾ ويدل على الاختصاص بجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى ، وجري الشمس مختص بآخر السنة ، وجري القمر بآخر الشهر ؛ فكلا المعنيين متناسب لجريهما ، فلذلك عدى بهما .

وقرأ عياش ، عن أبي عمرو : بما يعملون ، بياء الغيبة .

﴿ ذلك بأن الله ﴾ الآية ، تقدم شرحها في الحج وهنا .

﴿ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ ، وفي الحج ﴿ من دونه هو الباطل ﴾ بزيادة هو .

ولما ذكر تعالى تسخير النيرين وإمتنانه بذلك علينا ، ذكر أيضاً من سخر الفلك من العالم الأرضي بجامع ما اشتركا فيه من الجريان .

وقرأ الجمهور : ﴿ بنعمة الله ﴾ على الإفراد اللفظي .

وقرأ الأعرج ، والأعمش ، وابن يعمر : بنعمات الله ، بكسر النون وسكون العين جمعاً بالألف والتاء .

وقرأ ابن أبي عبلة : بفتح النون وكسر العين بالألف والتاء والباء ، وتحتمل السببية : أي

تجري بسبب الريح وتسخير الله ، وتحتمل الحالية ، أي مصحوبة بنعمة الله ، وهي ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات .

وقال ابن عطية : الباء للالصاق . انتهى .

وقرأ موسى بن الزبير : ﴿ الفلك ﴾ ، بضم اللام .

و ﴿ صبار شكور ﴾ : بنيتا مبالغة ، وفعال أبلغ لزيادة حروفه .

ولما تقدم ذكر جري الفلك في البحر ، وكأن في ذلك ما لا يخفى على راكبه من الخوف ، وتقدم ذكر النعمة ، ناسب الختم بالصبر على ما يحذر ، وبالشكر على ما أنعم به تعالى ، وشبه الموج في ارتفاعه واسوداده واضطرابه بالظلل ، وهو السحاب .

وقيل : كالظلل : كالجبال ، أطلق على الجبل ظلة .

وقرأ محمد بن الحنفية : كالظلال ، وهما جمع ظلة ، نحو : قلة وقلل وقلال .

(27/610)

وقوله : ﴿ وإذا غشيهم ﴾ ، فيه التفات خرج من ضمير الخطاب في ﴿ ليريكم ﴾ إلى ضمير الغيبة في ﴿ غشيهم ﴾ .

و ﴿ موج ﴾ : اسم جنس يفرق بينه وبين مفرده بتاء التأنيث ، فهو يدل على الجمع ،

ولذلك شبهه بالجمع .

﴿ فمنهم مقتصد ﴾ ، قال الحسن : أي مؤمن يعرف حق الله في هذه النعم .

وقال مجاهد : مقتصد على كفره : أي يسلم لله ويفهم أن نحو هذا من القدرة ، وإن ضل في الأصنام من جهة أنه يعظمها .

قيل : أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر .

قال الزمخشري : يعني أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا ينبغي لأحد قط . انتهى .

وكثر استعمال الزمخشري قط ظرفاً ، والعامل فيه غير ماضٍ ، وهو مخالف لكلام العرب في ذلك .

فقبل حذف مقابل فمنهم مؤمن مقتصد تقديره : ومنهم جاحد ودل عليه ، قوله : ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ .

وعلى هذا القول يكون مقتصد معناه : مؤمن مقتصد في أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موف بما عاهد الله عليه في البحر ، وختم هنا ببنيتي مبالغة ، وهما : ﴿ ختار ﴾ ، و ﴿ كفور ﴾ .

فالصبار الشكور معترف بآيات الله ، والختار الكفور يجحد بها .

وتوازنت هذه الكلمات لفظاً ومعنىً .

أما لفظاً فظاهر ، وأما معنىً فالختار هو الغدار ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن

الصبارّ يفوّض أمره إلى الله ، وأما الغدار فيعهد ويغدر ، فلا يصبر على العهد : وأما الكفور فمقابلته معنى للشكور واضحة .

ولما ذكر تعالى الدلائل على الوحدانية والحشر من أوّل السورة ، أمر بالتقوى على سبيل الموعظة والتذكير بهذا اليوم العظيم .

﴿ لا يجزي ﴾ : لا يقضي ، ومنه قيل للمتقاضي : المتجازي ، وتقدم الكلام في ذلك في أوائل البقرة .

(28/610)

ولما كان الوالد أكثر شفقة على الولد من الولد على أبيه ، بدأ به أولاً ، وأتى في الإسناد إلى الوالد بالفعل المقتضي للتجدد ، لأن شفقته متجددة على الولد في كل حال ، وأتى في الإسناد إلى الولد باسم الفاعل ، لأنه يدل على الثبوت ، والثبوت يصدق بالمرة الواحدة .

والجملة من لا يجزي صفة ليوم ، والضمير محذوف ، أي منه ، فإما أن يحذف برمته ، وإما على التدريج حذف الخبر ، فتعدى الفعل إلى الضمير وهو منصوب فحذف .

وقرأ الجمهور : لا يجزي مضارع جزى ؛ وعكرمة : بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول ؛ وأبو السماك ، وعامر بن عبد الله ، وأبو السوار : لا يجزىء ، بضم الياء وكسر الزاي

مهموزاً ، ومعناه : لا يغني ؛ يقال : أجزأت عنك جزاء فلان : أي أغنيت .

ويجوز في ﴿ ولا مولود ﴾ وجهان : أحدهما : أن يكون معطوفاً على والد ، والجملة من قوله : ﴿ هو جاز ﴾ ، صفة لمولود .

والثاني : أن يكون مبتدأ ، وهو مبتدأ ثان ، وجاز خبره ، والجملة خبر للأول ، وجاز الابتداء به ، وهو نكرة لوجود مسوغ ذلك ، وهو النفي .

وذهل المهدوي فقال : لا يكون ﴿ مولود ﴾ مبتدأ ، لأنه نكرة وما بعده صفة ، فيبقى بلا خبر و﴿ شيئاً ﴾ منصوب بجاز ، وهو من باب الأعمال ، لأنه يطلبه ﴿ لا يجزي ﴾ ويطلبه ﴿ جاز ﴾ ، فجعلناه من أعمال الثاني ، لأنه المختار .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : نغرنكم ، بالنون الخفيفة .

وقرأ سماك بن حرب ، وأبو حيوة : الغرور بالضم ، وهو مصدر ؛ والجمهور : بالفتح ، وفسره ابن مجاهد والضحاك بالشيطان ، ويمكن حمل قراءة الضم عليه جعل الشيطان نفس الغرور مبالغة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : قوله : ﴿ ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ هو وارد على طريق من التوكيد ، لم يرد عليه ما هو معطوف عليه .

قلت : الأمر كذلك ، لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، وقد انضم إلى ذلك قوله : ﴿ هو ﴾ ، وقوله : ﴿ مولود ﴾ ، والسبب في مجيئه هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين ، وغالبهم قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي ، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس أن ينفعوا آباءهم في الآخرة ، وأن يشفعوا لهم ، وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً ، فلذلك جيء به على الطريق الأوكد .

ومعنى التوكيد في لفظ المولود : أن الواحد منهم لو شفع للوالد الأدنى الذي ولد منه ، لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده ، لأن الولد يقع على الولد ، وولد الولد بخلاف المولود ، فإنه لمن ولد منك .

﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ : يروى أن الحارث بن عمارة المحاربي قال : يا رسول الله ، أخبرني عن الساعة متى قيامها ؟ وإني لقد ألقيت حباتي في الأرض ، وقد أبطأت عني السماء ، متى تمطر ؟ وأخبرني عن امرأتي ، فقد اشتملت على ما في بطنها ، أذكر أم أنثى ؟ وعلمت ما علمت أمس ، فما أعمل غداً ؟ وهذا مولدي قد عرفته ، فأين أموت ؟ فنزلت .

وفي الحديث : " خمس لا يعلمهنّ إلا الله " ، وتلا هذه الآية .

وعلم : مصدر أضيف إلى الساعة ، والمعنى : علم يقين ، وفيها : ﴿ وينزل الغيث ﴾ في

آياته من غير تقديم ولا تأخير .

﴿ ما في الأرحام ﴾ من ذكر أم أنثى ، تام أو ناقص ، ﴿ وما تدري نفس ﴾ ، برة أو فاجرة .

﴿ ماذا تكسب غداً ﴾ من خير أو شر ، وربما عزمت على أحدهما فعلمت ضده .

﴿ بأي أرض تموت ﴾ : وربما أقامت بمكان ناوية أن لا تفارقه إلى أن تدفن به ، ثم تدفن في مكان لم يخطر لها ببال قط .

وأسند العلم إلى الله ، والدراية للنفس ، لما في الدراية من معنى الختل والحيلة ؛ ولذا وصف الله بالعالم ، ولا يوصف بالداري .

وأما قوله :

لاهم لا أدري وأنت الداري . . .

فقول عربي جلف جاهلي ، جاهل بما يطلق على الله من الصفات ، وما يجوز منها وما يمتنع .

وقرأ الجمهور : ﴿ بأي أرض ﴾ .

(30/610)

وقرأ موسى الأسواري ، وابن أبي عبلة : بأية أرض ، بتاء التأنيث لإضافتها إلى الموت ، وهي لغة قليلة فيهما .

كما أن كلاًّ إذا أضيفت إلى مؤنث قد تؤنث ، تقول : كلهنّ فعلن ذلك ، وتدري معلقة في الموضعين .

فالجملة من قوله : ﴿ ماذا تكسب ﴾ في موضع مفعول ﴿ تدري ﴾ ، ويجوز أن يكون ماذا كلها موصولاً منصوباً بتدري ، كأنه قال : وما تدري نفس الشيء التي تكسب غداً . وبأي متعلق بتموت ، والباء ظرفية ، أي : في أي أرض ؟ فالجملة في موضع نصب بتدري . ووقع الإخبار بأن الله استأثر بعلمه هذه الخمس ، لأنها جواب لسائل سأل ، وهو يستأثر بعلم أشياء لا يحصيها إلا هو ، وهذه الخمس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(31/610)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ أي لا يقضي عنه وقُرِىء لا يُجزى من أجزأَ إذا أغنَى والعائدُ إلى الموصوفِ محذوفٌ أي لا يجزى فيهِ ﴿ ولاَ

مَوْلُودٌ ﴾ عطفٌ على والدٌ ، أو هُو مبتدأٌ خبرُه ﴿ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ وتغييرُ النَّظمِ للدّلالةِ على أنَّ المولودَ أولى بأن لا يجزِي وقطعِ طَمَعِ مِنَ توقَّع من المؤمنينَ أنْ ينفع أباهُ الكافرَ في الأخرة. ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بالثَّوابِ والعقابِ ﴿ حَقّ ﴾ لا يمكن إخلافُه أصلاً ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ أي الشَّيطانُ المبالغُ في الغرورِ بأنْ يحملَكم على المعاصِي بتزيينها لكمُ ويرجّيكُم التوبةَ والمغفرةَ.

﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾

(32/610)

علمُ وقتِ قيامِها لما رُوي أنَّ الحارثَ بنَ عمروٍ أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال مَتَى السَّاعةُ وإنيّ قد ألقيتُ حَبَّاتي في الأرضِ فمتى السماءُ تُمطر؟ وحَمْلُ امرأتِي ذكرٌ أَمْ أُنثى وما أعملُ غداً ، وأينَ أموتُ فنزلتْ. وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: " مفاتحُ الغيبِ خمسٌ وتلا هذه الآية " ﴿ وَيُنَزّلُ الغيث ﴾ في إبَّانِه الذي قدَّره وإلى محلّهِ الذي عيَّنه في علمِه ، وقُرِىءَ يُنزل من الإنزالِ ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الارحام ﴾ من ذكرٍ أو أنثى تامٍ أو ناقصٍ ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ ﴾ من النُّفوسِ ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ من خيرٍ أو شرٍ وربما تعزمُ على شيءٍ منهما فتفعلُ خلافَه ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ كما لا تدري في

أيِّ وقتٍ تموتُ . رُوي : " أنَّ ملكَ الموتِ مرَّ على سُليمانَ عليه السَّلامُ فجعلَ ينظرُ إلى رجلٍ من جلسائِه . يُديمُ النَّظرَ إليهِ فقال الرَّجُل مَن هذا قال مَلَكُ الموتِ فقال كأنه يُريدني فمرِ الرِّيحَ أن تحملَني وتلقيني ببلادِ الهندِ ففعلَ ثم قال المَلَكُ لسليمانَ عليهما السَّلامُ كان دوامُ نظري إليه تعجُّباً منه حيثُ كنت أُمرتُ بأنْ أقبضَ روحَهُ بالهندِ وهو عندَك " . ونسبةُ العلمِ إلى الله تعالى والدراية إلى العبدِ للإيذانِ بأنَّه إنْ أعملَ حِيلَه وبذلَ في التَّعرفِ وسعَه لم يعرفْ ما هُو لاحقٌ به من كسبِهِ وعاقبتِه فكيف بغيرِه مما لم ينُصبْ له دليلٌ عليه . وقُرِئ بأيَّةِ أرضٍ . وشبَّه سيبويهِ تأنيثَها بتأنيثِ كلَ في كلتهنَّ . ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ مبالغٌ في العلمِ فلا يعزبُ عن علمِه شيءٌ من الأشياءِ التي من جُملتِها ما ذُكر . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ يعلمُ بواطنَها كما يعلمُ ظواهرَها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(33/610)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾

أمر بالتقوى على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم بعد ذكر دلائل الوحدانية ، ويجزي من جزى بمعنى قضى ومنه قيل للمتقاضي المتجازي أي لا يقضي والد عن ولده شيئاً .

وقرأ أبو السماء .

وعامر بن عبد الله .

وأبو السوار ﴿ لا ﴾ بضم الياء وكسر الزاي مهموزاً ومعناه لا يغني والد عن ولده ولا يفيده شيئاً من أجزأت عنك مجزأ فلان أي أغنيت .

وقرأ عكرمة ﴿ يَوْماً لاَّ يَجْزِى ﴾ بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول والجملة على القراءات صفة يوماً والراجع إلى الموصوف محذوف أي فيه فأما أن يحذف برمته وأما على التدريج بأن يحذف حرف الجر فيعدي الفعل إلى الضمير ثم يحذف منصوباً ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ ﴾ إما عطف على ﴿ وَالِدٌ ﴾ فهو فاعل ﴿ يَجْزِى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ في موضع الصفة له والمنفي عنه هو الجزاء في الآخرة والمثبت له الجزاء في الدنيا أو معنى هو جاز أي من شأنه الجزاء لعظيم حق الوالد أو المراد بلا يجزي لا يقبل منه ما هو جاز به ، وأما مبتدأ والمسوغ للابتداء به مع أنه نكرة تقدم النفي ، وذهل المهدوي عن ذلك فمنع صحة كونه مبتدأ وجملة ﴿ هُوَ جَازٍ ﴾ خبره و ﴿ شَيْئاً ﴾ مفعول به أو منصوب على المصدرية لأنه صفة مصدر محذوف ، وعلى الوجهين قيل تنازعه ﴿ يَجْزِى ﴾ واختيار ما لا يفيد التأكيد في الجملة الأولى وما يفيده في الجملة الثانية لأن أكثر المسلمين وأجلتهم حين الخطاب كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر وعلى الدين

الجاهلي فلما كان غناء الكافر عن المسلم بعيداً لم يحتج نفيه إلى التأكيد ، ولما كان غناء الملسم عن الكافر مما يقع في الأوهام أكد نفيه قاله الزمخشري .

(34/610)

وتعقبه ابن المنير بأنه يتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذ والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس ، ورده في "الكشف" بأن المتقدمتين فاسدتان ، أما الثانية فلما تقرر في أصول الفقه أن ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ يتناول الموجودين ، وأما لغيرهم فبالإعلام أو بطريقه والمالكية موافقة ، وأما الأولى فعلى تقدير التسليم لا شك أن أجلة المؤمنين وأكابرهم إلى انقراض الدنيا هم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ومعلوم أن أكثرهم قبض آباؤهم على الكفر فمن أين التوقيف اه .

(35/610)

واختار ابن المنير في وجه ذلك أن الله تعالى لما أكد الوصية بالآباء وقرن وجوب شكرهم بوجوب شكره عز وجل وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع سبحانه ههنا وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة يجزيه حقه عليه ويكفيه ما يلقاه من أهوال يوم القيامة كما أوجب الله تعالى عليه في الدنيا ذلك في حقه فلما كان جزاء الولد عن الوالد مظنة الوقوع لأنه سبحانه حض عليه في الدنيا كان جديداً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم ولا كذلك العكس وقريب منه ما قاله الإمام : إن الولد من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما عليه من الحقوق والولد يجزي لما فيه من النفقة وليس ذلك بواجب عليه فلذا قال سبحانه في الوالد : ﴿ لاَّ يَجْزِى ﴾ وفي الولد ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ ﴾ ألا ترى أنه يقال لمن يحيك وليست الحياكة صنعته هو يحيك ولمن يحيك وهي صنعته هو حائك ، وقيل إن التأكيد في الجملة الثانية الدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى لأنه دون الوالد في الحنو والشفقة فلما كان أولى بهذا الحكم استحق التأكيد وفي القلب منه شيء ، وقد يقال : إن العرب كانوا يدخرون الأولاد لنفعهم ودفع الأذى عنهم وكفاية ما يهمهم ولعل أكثر الناس اليوم كذلك فأريد حسم توهم نفعهم ودفعهم الأذى وكفاية المهم في حق آبائهم يوم القيامة فأكدت الجملة المفيدة لنفي ذلك عنهم وعد من جملة المؤكدات التعبير بالمولود لأنه من ولد بغير واسطة بخلاف الولد فإنه عام يشمل ولد الولد فإذا أفادت الجملة أن الولد الأدنى لا يجزي عن والده علم أن من عداه من ولد الولد لا يجزى عن جده من باب أولى .

واعترض بأن هذه التفرقة بين الولد والمولود لم يثبتها أهل اللغة ، ورد بأن الزمخشري .

والمطرزي ذكرا ذلك وكفى بهما حجة ، ثم إن في عموم الولد لولد الولد أيضاً مقالاً فقد ذهب جمع أنه خاص بالولد الصلبي حقيقة .

(36/610)

وقال صاحب المغرب يقال للصغير مولود وإن كان الكبير مولوداً أيضاً لقرب عهده من الولادة كما يقال لبن حليب ورطب جني للطري منهما ، ووجه أمر التأكيد عليه بأنه إذا كان الصغير لا يجزي حينئذ مع عدم اشتغاله بنفسه لعدم تكليفه في الدنيا فالكبير المشغول بنفسه من باب أولى وهو كما ترى ، وخصص بعضهم العموم بغير صبيان المسلمين لثبوت الأحاديث بشفاعتهم لوالديهم .

وتعقب بأن الشفاعة ليست بقضاء ولو سلم فلتوقفها على القبول يكون القضاء منه عز وجل حقيقة فتدبر .

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ قيل بالثواب والعقاب على تغليب الوعد على الوعيد أو هو بمعناه اللغوي ﴿ حَقٌّ ﴾ ثابت متحقق لا يخلف وعدم إخلاف الوعد بالثواب مما لا كلام فيه وأما عدم إخلاف الوعد بالعقاب ففيه كلام والحق أنه لا يخلف أيضاً ، وعدم تعذيب من يغفر له

من العصاة المتوعدين فليس من إخلاف الوعيد في شيء لما أن الوعيد في حقهم كان معلقاً بشرط لم يذكر ترهيباً وتخويفاً ، والجملة على هذا تعليل لنفي الجزاء ، وقيل : المراد إن وعد الله بذلك اليوم حق ، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه لما قيل : يا أيها الناس اتقوا يوماً الخ سأل سائل أن يكون ذلك اليوم ؟ فقيل : إن وعد الله حق أي نعم يكون لا محالة لمكان الوعد به فهو جواب على أبلغ وجه ، وإليه يشير كلام الإمام ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ بأن تلهيكم بلذاتها عن الطاعات ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ أي الشيطان كما روى عن ابن عباس .

وعكرمة .

وقتادة .

ومجاهد .

(37/610)

والضحاك بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة منه تعالى أو يذكر لكم أنها لا تضر من سبق في علم الله تعالى موته على الايمان وأن تركها لا ينفع من سبق في العلم موته على الكفر ، وعن أبي عبيدة كل شيء غرك حتى تعصى الله تعالى وتترك ما

أمرك سبحانه به فهو غرور شيطاناً أو غيره ، وإلى ذلك ذهب الراغب قال : الغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان .

وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين وبالدنيا لما قيل : الدنيا تغر وتضر وتمر ، وأصل الغرور من غر فلاناً إذا أصاب غرته أي غفلته ونال منه ما يريد والمراد به الخداع ، والظاهر أن ﴿ بالله ﴾ صلة ﴿ يَغُرَّنَّكُم ﴾ أي لا يخدعنك بذكر شيء من شؤنه تعالى يجسركم على معاصيه سبحانه .

وجوز أن يكون قسماً وفيه بعد ، وقرأ ابن أبي إسحاق .

وابن أبي عبلة .

ويعقوب ﴿ تَغُرَّنَّكُمُ ﴾ بالنون الخفيفة .

وقرأ سمال بن حرب .

وأبو حيوة ﴿ الغرور ﴾ بضم الغين وهو مصدر والكلام من باب جد جده ، ويمكن تفسيره بالشيطان بجعله نفس الغرور مبالغة .

﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ الخ ،

أخرج ابن المنذر عن عكرمة أن رجلاً يقال له الوارث بن عمرو جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً ؟ وقد

علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت ؟ فنلزت هذه الآية ، وذكر نحوه محيى السنة البغوي .

والواحدي .

(38/610)

والثعلبي فهو نظراً إلى سبب النزول جواب لسؤال محقق ونظراً إلى ما قبلها من الآية جواب لسؤال مقدر كأن قائلاً يقول : متى هذا اليوم الذي ذكر من شأنه ما ذكر ؟ فقيل : إن الله ، ولم يقل إن علم الساعة عند الله مع أنه أخصر لأن اسم الله سبحانه أحق بالتقديم ولأن تقديمه وبناء الخبر عليه يفيد الحصر كما قرره الطيبي مع ما فيه من مزية تكرر الإسناد ، وتقديم الظرف يفيد الاختصاص أيضاً بل لفظ عند كذلك لأنها تفيد حفظه بحيث لا يوصل إليه فيفيد الكلام من أوجه اختصاص علم وقت القيامة بالله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ أي في إبانه من غير تقديم ولا تأخير في بلد لا يتجاوزه به وبمقدار تقتضيه الحكمة ، الظاهر أنه عطف على الجملة الظرفية المبنية على الاسم الجليل على عكس قوله تعالى : ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ [المؤمنون : 21] فيكون خبراً مبنياً على الاسم الجليل مثل المعطوف عليه فيفيد الكلام الاختصاص أيضاً والمقصود

تقييدات التنزيل الراجعة إلى العلم لا محض القدرة على التنزيل إذ لا شبهة فيه فيرجع الاختصاص إلى العلم بزمانه ومكانه ومقداره كما يشير إلى ذلك كلام الكشف ، وقال العلامة الطيبي في "شرح الكشاف" : دلالة هذه الجملة على علم الغيب من حيث دلالة المقدور المحكم المتقن على العلم الشامل ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الارحام ﴾ أي أذكر أم أنثى أتام أم ناقص وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال عطف على الجملة الظرفية أيضاً نظير ما قبله ، وخولف بين ﴿ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ وبين هذا ليدل في الأول على مزيد الاختصاص اعتناء بأمر الساعة ودلالة على شدة خفائها ، وفي هذا على استمرار تجدد التعلقات بحسب تجدد المتعلقات مع الاختصاص ، ولم يراع هذا الأسلوب فيما قبله بأن يقال : ويعلم الغيث مثلاً إشارة بإسناد التنزيل إلى الاسم الجليل صريحاً عظم شأنه لما فيه من كثرة المنافع لأجناس

(39/610)

الخلائق وشيوع الاستدلال بما يترتب عليه من إحياء الأرض على صحة البعث المشار إليه بالساعة في الكتاب العظيم قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فانظر إلى ءاثار رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ ﴾

[الروم: 49، 50] وقال سبحانه: ﴿ ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ [الروم: 19] إلى غير ذلك، وربما يقال: إن لتنزيل الغيب وإن لم يكن الغيث المعهود دخلاً في المبعث بناء على ما ورد من حديث مطر السماء بعد النفخة الأولى مطراً كمني الرجال، وقيل: الاختصاص راجع إلى التنزيل وما ترجع إليه تقييداته التي يقتضيها المقام من العلم، وفي ذلك رد على القائلين مطرنا بنوء كذا وللاعتناء برد ذلك لما فيه من الشرك في الربوبية عدل عن يعلم إلى ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ ﴾ أي كل نفس برة كانت أو فاجرة كما يدل عليه وقوع النكرة في سياق النفي ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ أي في الزمان المستقبل من خير أو شر، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ عطف على ما استظهره "صاحب الكشف" على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ وأشار إلى أنه لما كان الكلام مسوقاً للاختصاص لا لإفادة أصل العلم له تعالى فإنه غير منكر لزم من النفي على سبيل الاستغراق اختصاصه به عز وجل على سبيل الكناية على الوجه الأبلغ، وفي العدول عن لفظ العلم إلى لفظ الدراية لما فيها من معنى الختل والحيلة لأن أصل دري رمي الدرية وهي الحلقة التي يقصد رميها الرماة وما

يتعلم عليه الطعن والناقة التي يسيبها الصائد ليأنس بها الصيد فيستتر من ورائها فيرميه وفي كل حيلة ، ولكونها علماً بضرب من الختل والحيلة لا تنسب إليه عز وجل إلا إذا أولت بمطلق العلم كما في خبر خمس ﴿ لا أءلاه مَّعَ اللهِ تَعَالَى ﴾ وقيل : قد يقال الممنوع نسبتها إليه سبحانه بانفراده تعالى أما مع غيره تبارك اسمه تغليباً فلا ، ويفهم من كلام بعضهم صحة النسبة إليه جل وعلا على سبيل المشالكة كما في قوله :

لا هم لا أدري وأنت الداري . . .

(41/610)

فلا حاجة إلى ما قيل : إنه كلام إعرابي جلف لا يعرف ما يجوز إطلاقه على الله تعالى وما يمتنع فيكون المعنى لا تعرف كل نفس وإن أعملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان من معرفة ما عداهما أبعد وأبعد ، وقد روعي في هذا الأسلوب الإدماج المذكور ولذا لم يقل : ويعلم ماذا تكسب كل نفس ويعلم أن كل نفس بأي أرض تموت .

وجوز أن يكون أصل ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ وأن ينزل الغيث فحذف إن وارتفع الفعل كما في قوله :

أيهذا الزاجري أحضر الوغى . . .

وكذا قوله سبحانه : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الارحام ﴾ والعطف على ﴿ عِلْمُ الساعة ﴾ فكأنه قيل : إن الله عنده علم الساعة وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام ، ودلالة ذلك على اختصاص علم تنزيل الغيث به سبحانه ظاهر لظهور أن المراد بعنده تنزيل الغيث عنده علم تنزيله ، وإذا عطف ﴿ يُنَزِّلِ ﴾ على ﴿ الساعة ﴾ كان الاختصاص أظهر لانسحاب علم المضاف إلى الساعة إلى الانزال حينئذ فكأنه قيل : إن الله عنده علم الساعة وعلم تنزيل الغيث ، وهذا العطف لا يكاد يتسنى في ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ إذ يكون التقدير وعنده علم علم ما في الأرحام وليس ذاك بمراد أصلاً .

وجعل الطيبي ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ ﴾ الخ معطوفاً على خبر إن من حيث المعنى بأن يجعل المنفي مثبتاً بأن يقال : ويعلم ماذا تكسب كل نفس غداً ويعلم أن كل نفس بأي أرض تموت وقال : إن مثل ذلك جائز في الكلام إذا روعي نكتة كما في قوله تعالى : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَن لا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إحسانا ﴾ [الأنعام : 151] فإن العطف فيه باعتبار رجوع التحريم إلى ضد الإحسان وهي الإساءة ، وذكر في بيان نكتة العدول عن المثبت إلى المنفي نحو ما ذكرنا آنفاً .

وتعقب ذلك "صاحب الكشف" بأن عنه مندوحة أي بما ذكر من عطفه على جملة ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ وقال الإمام : في وجه نظم الجمل الحق أنه تعالى لما قال : ﴿ واخشوا يَوْماً ﴾ [لقمان : 33] الخ وذكر سبحانه أنه كائن بقوله عز وجل قائلاً : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان : 33] فكأن قائلاً يقول : فمتى هذا اليوم ؟ فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغيره تعالى وذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ ثم ذكر جل وعلا الدليلين اللذين ذكرا مراراً على البعث .

(43/610)

أحدهما إحياء الأرض بعد موتها المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ والثاني الخلق ابتداء المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الارحام ﴾ فكأنه قال عز وجل : يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله تعالى قادر عليها كما هو سبحانه قادر على إحياء الأرض وعلى الخلق في الأرحام ثم بعد جل شأنه له أن يعلم ذلك بقوله عز وجل وما تدري الخ فكأنه قال تعالى : يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها وإن من الأشياء ما هو أهم منها لا تعلمه فإنك لا تعلم معاشك ومعادك فما تعلم ماذا تكسب غداً

مع أنه فعلك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى يكون والله تعالى ما علمك كسب غدك ولا علمك أين تموت مع أن لك في ذلك فوائد شتى وإنما لم يعلمك لكي تكون في كل وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلاً عليه سبحانه ولكيلا تأمن الموت إذا كنت في غير الأرض التي أعلمك سبحانه أنك تموت فيها فإذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه وهو وقت القيامة وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمك جل وعلا بذلك على ألسنة أنبيائه تعالى عليهم الصلاة والسلام انتهى ، ولا يخفى أن الظاهر على ما ذكره أن يقال : ويخلق ما في الأرحام كما قال سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ ووجه العدول عن ذلك إلى ما في النظم الجليل غير ظاهر على أن كلامه بعد لا يخلو عن شيء ، وكون المراد اختصاص علم هذه الخمس به عز وجل الذي تدل عليه الأحاديث والآثار ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة من حديث طويل :

(44/610)

" أنه صلى الله عليه وسلم سئل متى الساعة ؟ فقال للسائل : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان

في خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ويُنَزِّلُ الغيث ﴾ الآية " أي إلى آخر السورة كما في بعض الروايات ، وما وقع عند البخاري في "التفسير" من قوله : إلى الأرحام تقصير من بعض الرواة ، وأخرجا أيضاً هما وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفتاح وفي رواية مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون في غد ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت وما يدري أحد متى يجيء المطر "

وأخرج أحمد .

والبزار .

وابن مردويه .

والروياني .

والضياء بسند صحيح عن بريدة قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خمس لا يعلمهن إلا الله إن الله عنده علم الساعة الآية " وظاهر هذه الأخبار يقتضي أن ما عدا هذه الخمس من المغيبات قد يعلمه غيره عز وجل وإليه ذهب من ذهب .

أخرج حميد بن زنجويه عن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنه أنه ذكر العلم بوقت الكسوف قبل الظهور فأنكر عليه فقال : إنما الغيب خمس وتلا هذه الآية وما عدا ذلك

غيب يعلمه قوم ويجهله قوم ، وفي بعض الأخبار ما يدل على أن علم هذه الخمس لم يؤت للنبي صلى الله عليه وسلم ويلزمه أنه لم يؤت لغيره عليه الصلاة والسلام من باب أولى .

أخرج أحمد .

والطبراني .

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية ، وأخرج أحمد .

وأبو يعلى .

وابن جرير .

وابن المنذر .

(45/610)

وابن مردويه عن ابن مسعود قال : أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيء غير الخمس ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : لم يغم على نبيكم صلى الله عليه وسلم إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان إن الله عنده علم الساعة إلى

آخر السورة ، وأخرج سعيد بن منصور .

وأحمد .

والبخاري في الأدب عن ربعي بن حراش قال : حدثني رجل من بني عامر أنه قال : يا رسول الله هل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لقد علمني الله تعالى خيراً وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله تعالى الخمس إن الله عنده علم الساعة الآية ، وصرح بعضهم باستئثار الله تعالى بهن ، أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

(46/610)

عن قتادة أن قال في الآية : خمس من الغيب استأثر الله تعالى بهن فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً إن الله عنده علم الساعة ولا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة ولا في أي شهر أليلاً أم نهاراً وينزل الغيث فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث أليلاً أم نهاراً ويعلم ما في الأرحام فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكراً أم أنثى أحمر أو أسود ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً أخيراً أم شراً وما تدري بأي أرض تموت ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض أفي بحر أم في بر في سهل أم في جبل ، والذي ينبغي أن يعلم أن كل غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل وليس المغيبات محصورة بهذه الخمس وإنما خصت بالذكر

لوقوع السؤال عنها أو لأنها كثيراً ما تشتاق النفوس إلى العلم بها ، وقال القسطلاني : ذكر صلى الله عليه وسلم خمساً وإن كان الغيب لا يتناهى لأن العدد لا ينفي زائداً عليه ولأن هذه الخمسة هي التي كانوا يدعون علمها انتهى ، وفي التعليل الأخير نظر لا يخفى وأنه يجوز أن يطلع الله تعالى بعض أصفيائه على إحدى هذه الخمس ويرزقه عز وجل العلم بذلك في الجملة وعلمها الخاص به جل وعلا ما كان على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كل منها وتفصيله على الوجه الأتم ، وفي "شرح المناوي الكبير للجامع الصغير" في الكلام على حديث بريدة السابق خمس لا يعلمهن إلا الله على وجه الاحاطة والشمول كلياً وجزئياً فلا ينافيه اطلاع الله تعالى بعض خواصه على بعض المغيبات حتى من هذه الخمس لأنها جزئيات معدودة ، وإنكار المعتزلة لذلك مكابرة انتهى ، ويعلم مما ذكرنا وجه الجمع بين الأخبار الدالة على استئثار الله تعالى بعلم ذلك وبين ما يدل على خلافه كبعض إخباراته عليه الصلاة والسلام بالمغيبات التي هي من هذا القبيل يعلم ذلك من راجع نحو الشفاء والمواهب اللدنية مما ذكر فيه معجزاته صلى الله عليه وسلم وأخباره عليه الصلاة والسلام بالمغيبات ، وذكر القسطلاني أنه عز

وجل إذا أمر بالغيث وسوقه إلى ما شاء من الأماكن علمته الملائكة الموكلون به ومن شاء سبحانه من خلقه عز وجل ، وكذا إذا أراد تبارك وتعالى خلق شخص في رحم يعلم سبحانه الملك الموكل بالرحم بما يريد جل وعلا كما يدل عليه ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(48/610)

" إن الله تعالى وكل بالرحم ملكاً يقول : يا رب نطفة يا رب علقة يا رب مضغة فإذا أراد الله تعالى أن يقضي خلقه قال : أذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق والأجل ؟ فيكتب في بطن أمه فحينئذ يعلم بذلك الملك ومن شاء الله تعالى من خلقه عز وجل " وهذا لا ينافي الاختصاص والاستئثار بعلم المذكورات بناء على ما سمعت منا من أن المراد بالعلم الذي استأثر سبحانه به العلم الكامل بأحوال كل على التفصيل فما يعلم به الملك ويطلع عليه بعض الخواص يجوز أن يكون دون ذلك العلم بل هو كذلك في الواقع بلا شبهة ، وقد يقال فيما يحصل للأولياء من العلم بشيء مما ذكر إنه ليس بعلم يقيني قال : على القاري في "شرح الشفا" : الأولياء وإن كان قد ينكشف لهم بعض الأشياء لكن علمهم لا يكون يقينياً والهامهم لا يفيد إلا أمراً ظنياً ومثل هذا عندي بل هو دونه بمراحل علم النجومي ونحوه

بواسطة أمارات عنده بنزول الغيث وذكورة الحمل أو أنوثته أو نحو ذلك ولا أرى كفر من يدعي مثل هذا العلم فإنه ظن عن أمر عادي ، وقد نقل العسقلاني في فتح الباري عن القرطبي أنه قال : من ادعى علم شيء من الخمس غير مسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كاذباً في دعواه وأما ظن الغيث فقد يجوز من المنجم وغيره إذا كان عن أمر عادي وليس ذلك بعلم ، وعليه فقول القسطلاني من ادعى علم شيء منها فقد كفر بالقرآن العظيم ينبغي أن يحمل العلم فيه على نحو العلم الذي استأثر الله تعالى به دون مطلق العلم الشامل للظن وما يشبهه ، وبعد هذا كله إن أمر الساعة أخفى الأمور المذكورة وإن ما أطلع الله تعالى عليه نبيه صلى الله عليه وسلم من وقت قيامها في غاية الإجمال وإن كان أتم من علم غيره من البشر صلى الله عليه وسلم .

(49/610)

وقوله عليه الصلاة والسلام : " بعثت أنا والساعة كهاتين " لا يدل على أكثر من العلم الإجمالي بوقتها ولا أظن أن خواص الملائكة عليهم السلام أعلم منه صلى الله عليه وسلم بذلك ، ويؤيد ظني ما رواه الحميدي في نوادره بالسند عن الشعبي قال : سأل عيسى ابن مريم جبريل عليهما السلام عن الساعة فانتفض بأجنحته ، وقال : ما المسؤول بأعلم من

السائل ، والمراد التساوي في العلم بأن الله تعالى استأثر بعلمها على الوجه الأكمل ويرشد إلى العلم الإجمالي بها ذكر أشراطها كما لا يخفى ، ويجوز أن يكون الله تعالى قد أطلع حبيبه عليه الصلاة والسلام على وقت قيامها على وجه كامل لكن لا على وجه يحاكي علمه تعالى به إلا أنه سبحانه أوجب عليه صلى الله عليه وسلم كتمه لحكمة ويكون ذلك من خواصه عليه الصلاة والسلام ، وليس عندي ما يفيد الجزم بذلك ، هذا وخص سبحانه المكان في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليعرف الزمان من باب أولى فإن الأول في وسع النفس في الجملة بخلاف الثاني ، وأخرج أحمد وجماعة عن أبي غرة الهذلي قال :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله تعالى قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها ثم قرأ عليه الصلاة والسلام وما تدري نفس بأي أرض تموت " وأخرج ابن أبي شيبة في "المصنف" عن خيثمة أن ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فقال الرجل : من هذا ؟ قال : ملك الموت فقال : كأنه يريدني فمر الريح أن تحملني وتلقيني بالهند ففعل فقال الملك : كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك .

(50/610)

و ﴿ تَدْرِى ﴾ في الموضعين معلقة فالجملة من قوله تعالى : ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ ﴾ في موضع المفعول ، ويجوز أن تكون ﴿ مَاذَا ﴾ كلها موصولاً منصوب المحل بتدري كأنه قيل : وما تدري نفس الشيء الذي تكسبه غداً و ﴿ بِأَىّ ﴾ متعلق بتموت والباء ظرفية ، والجملة في موضع نصب بتدري .

وقرأ غير واحد من السبعة ﴿ يُنَزّلِ ﴾ من الإنزال ، وقرأ موسى الإسواري .

وابن أبي عبلة ﴿ بِئَايَةٍ أَرْضُ ﴾ بتاء التأنيث لإضافتها إلى المؤنث وهي لغة قليلة فيها كما أن كلاً إذا أضيفت إلى مؤنث قد تؤنث نادراً فيقال : كلتهن فعلن ذلك فليعلم والله عز وجل أعلم ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم فلا يعزب عن علمه سبحانه شيء من الأشياء ﴿ خَبِيرٌ ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها فالجمع بين الوصفين للإشارة إلى التسوية بين علم الظاهر والباطن عنده عز وجل والجملة على ما قيل في موضع التعليل لعلمه سبحانه بما ذكر ، وقيل : جواب سؤال نشأ من نفي دراية الأنفس ماذا تكسب غداً وبأي أرض تموت كأنه قيل : فمن يعلم ذلك فقيل : إن الله عليم خبير وهو جواب بأن الله تعالى يعلم ذلك وزيادة ، ولا يخفى أنه إذا كانت هذه الجملة من تتمة الجملتين اللتين قبلها كانت دلالة الكلام على انحصار العلم بالأمرين اللذين نفي العلم بهما عن كل نفس ظاهرة جداً فتأمل ذاك والله عز وجل يتولى هداك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾

الخطاب بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لكلّ أحد يصلح لذلك ، أو للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ أي يدخل كل واحد منهما في الآخر ، وقد تقدّم تفسيره في سورة الحج والأنعام ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ أي ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديراً للآجال ، وتتميما للمنافع ، والجملة معطوفة على ما قبلهما مع اختلافهما ﴿ كُلٌّ يَجْرِي إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ اختلف في الأجل المسمى ماذا هو ؟ فقيل : هو يوم القيامة .

وقيل : وقت الطلوع ووقت الأفول ، والأوّل أولى ، وجملة : ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ معطوفة على أن ﴿ الله يولج ﴾ أي خبير بما تعملونه من الأعمال ؛ لا تخفى عليه منها خافية ؛ لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما تعملونه بالأولى .

قرأ الجمهور : ﴿ تعملون ﴾ بالفوقية ، وقرأ السلمي ونصر بن عامر والدوري عن أبي عمرو بالتحتية على الخبر .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره ، والباء في ﴿ بِأَنَّ الله ﴾ للسببية ، أي ذلك بسبب أنه سبحانه ﴿ هُوَ الحق ﴾ وغيره الباطل ، أو متعلقة بمحذوف ، أي فعل ذلك ليعلموا أنه الحق ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل ﴾ قال مجاهد : الذي يدعون من دونه هو الشيطان .

وقيل : ما أشركوا به من صنم ، أو غيره ، وهذا أولى ﴿ وَأَنَّ الله هُوَ العلي الكبير ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ أن الله هو الحق ﴾ والمعنى : أن ذلك الصنع البديع الذي وصفه في الآيات المتقدّمة للاستدلال به على حقية الله ، وبطلان ما سواه ، وعلوّه وكبريائه ﴿ هو العليّ ﴾ في مكانته ، ذو الكبرياء في ربوبيته وسلطانه .

(52/610)

ثم ذكر من عجيب صنعه وبديع قدرته نوعاً آخر فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِي فِى البحر بِنِعْمَتِ الله ﴾ أي بلطفه بكم ورحمته لكم ، وذلك من أعظم نعمه عليكم : لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم في البحر لطلب الرزق ، وقرأ ابن هرمز : " بنعمات الله " جمع نعمة ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته ﴾ " من " للتبعيض ، أي ليريكم بعض آياته .

قال يحيى بن سلام : وهو جري السفن في البحر بالريح .

وقال ابن شجرة : المراد بقوله : ﴿ من آياته ﴾ : ما يشاهدونه من قدرة الله .

وقال النقاش : ما يرزقهم الله في البحر ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أي إن فيما ذكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ وشكر كثير ، يصبر عن معاصي الله ، ويشكر نعمه .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كالظلل ﴾ شبه الموج لكبره بما يظلّ الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرهما ، وإنما شبه الموج وهو واحد بالظلل وهي جمع ، لأن الموت يأتي شيئاً بعد شيء ، ويركب بعضه بعضاً .

وقيل : إن الموج في معنى الجمع لأنه مصدر ، وأصل الموج : الحركة والازدحام ، ومنه يقال : ماج البحر وماج الناس .

وقرأ محمد بن الحنفية : "موج كالظلال" جمع ظلّ : ﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي دعوا الله وحده لا يعوّلون على غيره في خلاصهم ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضرّ ولا ينفع سواه ، ولكنه تغلب على طبائعهم العادات وتقليد الأموات ، فإذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله ، وأخلصوا دينهم له ؛ طلباً للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر ﴾ صاروا على قسمين : فقسم ﴿ مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي موف بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له ، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر ، وأخرجه إلى

البرّ سالماً .

قال الحسن : معنى ﴿ مقتصد ﴾ مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة .

(53/610)

وقال مجاهد : مقتصد في القول مضمر للكفر ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون في الكلام حذف ، والتقدير فمنهم مقتصد ومنهم كافر ، ويدلّ على هذا المحذوف قوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ الختر : أسوأ الغدر ، وأقبحه ، ومنه قول الأعشى :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله . . . حصن حصين وجار غير ختار

قال الجوهري : الختر : الغدر ، يقال : ختره فهو ختار .

قال الماوردي : وهذا قول الجمهور .

وقال ابن عطية : إنه الجاحد ، وجحد الآيات : إنكارها ، والكفور : عظيم الكفر بنعم الله سبحانه .

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ أي : لا يغني الوالد عن ولده شيئاً ، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه .

وقد تقدّم بيان معناه في البقرة ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ ذكر سبحانه فردين

من القرابات وهو الوالد والولد ، وهما الغاية في الحنوّ والشفقة على بعضهم البعض ، فما عداهما من القرابات لا يجزي بالأولى ، فكيف بالأجانب ؟ اللهمّ اجعلنا ممن لا يرجو سواك ولا يعوّل على غيرك ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ لا يتخلف فما وعد به من الخير وأوعد به من الشرّ فهو كائن لا محالة ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ وزخارفها فإنها زائلة ذاهبة ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين المعجمة .

والغرور هو : الشيطان ؛ لأن من شأنه أن يغرّ الخلق ويمنيهم بالأماني الباطلة ، ويلهيهم عن الآخرة ، ويصدّهم عن طريق الحق .

وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السميفع بضم الغين مصدر غرّ يغرّ غروراً ، ويجوز أن يكون مصدراً واقعاً وصفاً للشيطان على المبالغة .

﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ أي علم وقتها الذي تقوم فيه .

قال الفراء : إن معنى هذا الكلام النفي ، أي : ما يعلمه أحد إلا الله عزّ وجلّ .

(54/610)

قال النحاس : وإنما صار فيه معنى : النفي لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال في قوله :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] "إنها هذه" ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ في الأوقات التي جعلها معينة لإنزاله ، ولا يعلم ذلك غيره ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحام ﴾ من الذكور والإناث والصلاح والفساد ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ ﴾ من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجنّ والإنس ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ من كسب دين أو كسب دنيا ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أي بأيّ مكان يقضي الله عليها بالموت .

قرأ الجمهور : ﴿ وينزل الغيث ﴾ مشدّداً .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخففاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ بأيّ أرض ﴾ ، وقرأ أبيّ بن كعب وموسى الأهوازي : "بأية" وجوّز ذلك الفراء وهي لغة ضعيفة .

قال الأخفش : يجوز أن يقال : مررت بجارية أيّ جارية .

قال الزجاج : من ادّعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ خَتَّار ﴾ قال : جحاد .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ قال : هو الشيطان .

وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية ، فقال : إن امرأتي حبلى ، فأخبرني ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة ، فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه وزاد : وقد علمت ما كسبت اليوم ، فماذا أكسب غداً ؟ وزاد أيضاً أنه سأله عن قيام الساعة .

(55/610)

وأخرج البخاري ومسلم ، وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلا الله : لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا ما في الأرحام إلا الله ، ولا متى ينزل الغيث إلا الله ، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إلا الله " وفي الصحيحين ، وغيرهما من حديث أبي هريرة في حديث سؤاله عن الساعة وجوابه بأشراطها ، ثم قال : " في خمس لا يعلمهنّ إلا الله ، ثم تلا هذه الآية " وفي الباب أحاديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(56/610)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً »

.

يجزى : أي يتحمل الجزاء عن غيره ، ويستقلّ به دونه . .

الغرور : ما يغرّر الإنسان ، ويدفع به إلى مواطن البلاء ، والشر . . من شيطان ، أو مال ، أو سلطان . .

وبهذه الآية ، والآية التي بعدها تختم السورة . . وفي هذا الختام دعوة عامة للناس جميعا إلى اللّه ، وإلى الإيمان به ، والخشية له ، واتقاء عذابه يوم القيامة ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت ، ولا يغنى أحد عن أحد شيئا . .

فهنالك تتقطع الأنساب ، ويشغل كل امرئ بنفسه ، « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . » (34 ـ 37 : عبس) . . « يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » (88 ـ 89 : الشعراء) .

ـ وقوله تعالى : « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » وعد اللّه هنا هو يوم القيامة ، حيث وعد الناس بالبعث من بعد موتهم ، ليلقوا جزاء ما عملوا . . وهذا وعد حق . .

« وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ » (6 : الروم) .

ـ وقوله تعالى : « فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » تحذير من الغفلة عن هذا اليوم ، ومن عدم العمل له ، والحذر مما يشغل الإنسان عنه ، من متاع الحياة الدنيا وزخارفها ، ومن المغريات التي تزين للإنسان الشر ، وتدفعه عن مواقع الإحسان ، بما يوسوس له به الشيطان ، وما تزين له به النفس .

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي

(57/610)

نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة قد جاءت داعية إلى الإيمان بالله ، وإلى خشية عقابه يوم القيامة . . وقد جاء فيها قوله تعالى : « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » ليؤكد وقوع هذا اليوم ، وأنه آت لا ريب فيه ، إذ كان وعدا من الله . . والله لا يخلف وعده . .

وهنا في هذه الآية ، تقرير لهذه الحقيقة ، وتأكيد لوقوعها كما وعد الله . .

وذلك أن أكثر ما أضل الضالين ، هو إنكارهم ليوم القيامة ، أو تشككهم فى وقوعه ، إذ كان أمرا بعيدا عن متناول الحس ، والإدراك ، بعيدا عن التصور ، إذا قيس بمقاييس المادة . .

فجاءت هذه الآية لتؤكد هذه الحقيقة ، ولترى أن هناك أمورا حاضرة يعمل فيها الإنسان ، ثم هى مع هذا محجوبة عنه ، إن عرف مبتداها ، لم يعرف منتهاها ، وإن أمسك بأولها ، أفلت منه آخرها ، ومن ذلك اتجاه مسيرة الإنسان في الحياة ، وما يقرر له من رزق فيها . . إن أحدا لا يستطيع أن يخطّ المصير الذي هو صائر إليه ، ولا يدرى ماذا ستطلع به الأيام عليه من خير أو شر . . فإذا كان ذلك كذلك ، فلم يجادل الإنسان في أمر الآخرة ؟ ولم يشكّ في وقوعها إذا كان علمه قاصرا محدودا ، لا يستطيع أن يكشف به ما يلقاه في عده ؟

ـ وفي قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » أسلوب قصر ، مؤكد ، ويراد به قصر علم الساعة على اللّه وحده . وعلم الساعة هو كل ما يتصل بها ، من اليوم الذي تجىء فيه ، وما يقع فيها من أحداث ، وما يلقى كل إنسان من جزاء . .

(58/610)

ـ وقوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » معطوف على خبر إنّ ، وهو قوله تعالى : « عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » فهو جملة بمعنى يعلم . . أي إن اللّه يعلم الساعة ، وينزل الغيث . . أي أنه سبحانه هو الذي ينزل الغيث بأمره وقدرته . . يسوقه إلى حيث يشاء ، وينزله حيث

يشاء ، ومتى يشاء . . وليس يعترض على هذا بما يصطنعه العلم اليوم من مطر صناعى ، فإن هذا المطر إنما يصطاده العلم اصطيادا ، من بخار الماء الذي أنزله اللّه . . وإنه لا يعدو أن يكون أشبه بقطرات الماء التي تتكاثف على سطح إناء مملوء بماء مثلوج ، أو قطرات الندى التي تتساقط من الهواء على النبات في الليل ! .

وإذا كان للعلم أن يقف لهذه الحقيقة ، فليصطنع الهواء أولا ، ثم ليصطنع الماء ثانيا ، ثم ليجمع بين الماء والهواء ثالثا . . وعندئذ يقال إن العلم إنما يعمل فيما هو له . . أما أن يعمل العلم فيما هو للّه ، فهو لا يعدو أن يكون نفسه مادة من تلك المواد التي يعمل فيها .

. وقوله تعالى : « وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ » معطوف على قوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » . . وقد عرضنا لتفسير هذه الآية عند تفسير قوله تعالى : « اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ » (8 : الرعد) .

وعلم اللّه تعالى لما في الأرحام ، هو علم شامل يكشف عما في الأرحام كلها ، فى الإنسان والحيوان ، وما في كل رحم من ذكر أو أنثى ، وما يكون لهذا المخلوق من حياة ، وما يقدّر له من رزق ! .

وقد وقف أكثر المفسرين بمفهوم هذا العلم على نوعيّة الكائن في الرحم ، أهو ذكر أم أنثى ؟ . وهذا مفهوم قاصر لا يناسب علم اللّه الواقع على ما في الأرحام . .

إن علم اللّه علم كاشف لكل ما في الأرحام ، ما كان منها ، وما سيكون ، ثم هو علم كاشف لكل مولود يولد منها ، والصورة التي سيكون عليها ، والمكان

(59/610)

الذي يأخذه في الحياة ، والخطّ الذي يسير عليه المولود من مولده إلى مماته . .

هذا ، وقد انزعج إيمان كثير من المؤمنين حين جاءتهم أنباء العلم ، بأن العلماء قد استطاعوا ـ أو هم على وشك أن يستطيعوا ـ معرفة ما في رحم الأمّ . . من ذكر أو أنثى !

ونقول لهؤلاء المشفقين على إيمانهم من هذا الذي دخل به العلم على الدين متحديا قدرة اللّه ـ كما يتصورون ـ نقول لهم : ليس الأمر على ما تتصورون . .

فلا تضيقوا بالعلم ذرعا ، ولا تنظروا إليه شزرا ، بل دعوا العلم ينطلق إلى أبعد غاياته ، وشاركوا في موكبه الفاتح المظفر . . فما هو إلا ضوء من أضواء الحق ، تكشف عن بعض آيات اللّه ، وعلمه ، وقدرته . .

وماذا على الدّين من أن ينظر العلم في آية من آيات اللّه ، كهذه الأجنّة التي أودعها الخالق في الأرحام ، فعرف العلم منها ماذا أودع اللّه فيها ؟ وماذا على الدين من أن ينظر العلم إلى البعوضة بالمجهر ، فيرى فيها كائنا سويّ الخلق ، ذا فم ، وعين ، وأجنحة ، وأرجل . . ثم

أعمل فيها مبضعه تحت المجهر ، فرأى لها أجهزة للهضم والتنفس ! وجوارح للسمع والبصر ، والشم ، والذوق ؟ وماذا على الدين من العلم ، لو نظر إلى الشمس ، ووضعها تحت مقاييسه ، فرأى فيها أنها ليست هذه الكرة الصغيرة المضيئة ، التي نراها ، بل رآها كونا عظيما ، ملتهبا ، يبلغ حجمه مليونا وربع مليون من مثل حجم الأرض ؟ وماذا على الدين لو نظر العلم في المجرة فرأى فيها ملايين من الشموس التي تكبر شمسنا حجما وأثرا ؟

ماذا على الدين من فتوحات العلم هذه ؟

إن العلم هنا هو خير داعية إلى اللّه ، وإلى الإيمان به ، وملء القلوب والعيون جلالا وهيبة وإعظاما للّه !

(60/610)

إن العلم إنما يعمل هنا فيما خلق اللّه ، لا فيما خلق العلم . .

فليغرس الماديون الذين يجهلون قدر العلم ، كما جهلوا قدر اللّه . . إن من صفات اللّه سبحانه أنه العليم ، وأن العلم هو أجل نعم اللّه على عباده ، وهو الذي ترجح به موازين الناس ، وترتفع به منازل بعضهم على بعض : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . . » (9 : الزمر) . . وإنه ليكفى العلم قدرا وجلالا ، أن يرفع اللّه قدر أهله ،

وينزلهم منازل رضوانه ، بقدر ما حصّلوا من علم ، وما حققوا من إيمان . . فيقول سبحانه : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ » (11 : المجادلة) . . بل يكفى أن نظم اللّه سبحانه وتعالى العلماء في عداد الملائكة ، فقال سبحانه : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ » (18 : آل عمران) .

. وقوله تعالى : « وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » هو من بعض علم اللّه في خلقه ، وأنه سبحانه ، هو الذي يقدّر الأرزاق ، كما يقدّر الأعمار . . فلا يدرى إنسان ماذا قسم اللّه له من رزق ، وماذا كتب اللّه له من عمر . . كما لا يدرى أحد على أي ميتة يموت ، ولا في أي موضع يموت ! « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » . . فهو سبحانه الذي يعلم كل هذا علم الخبير بما يعلم . انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 593 . 597 ﴾

(61/610)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾

إن لم يكن ﴿ يا أيها الناس ﴾ خطاباً خاصاً بالمشركين فهو عام لجميع الناس كما تقرر في

أصول الفقه ، فيعم المؤمن والمشرك والمعطل في ذلك الوقت وفي سائر الأزمان إذ الجميع مأمورون بتقوى الله وأن الخطوات الموصلة إلى التقوى متفاوتة على حسب تفاوت بُعد السائرين عنها ، وقد كان فيما سبق من السورة حظوظ للمؤمنين وحظوظ للمشركين فلا يبعد أن تعقَّب بما يصلحِ لِكِلا الفريقين ، وإن كان الخطاب خاصاً بالمشركين جرْياً على ما روي عن ابن عباس أن ﴿ يا أيها الناس ﴾ خطاب لأهل مكة ، فالمراد بالتقوى : الإقلاع عن الشرك .

وموقع هذه الآية بعد ما تقدمها من الآيات موقع مقصد الخُطبة بعد مقدماتها إذ كانت المقدمات الماضية قد هيّأت النفوس إلى قبول الهداية والتأثر بالموعظة الحسنة ، وإن لاصطياد الحكماء فُرصاً يحرصون على عدم إضاعتها ، وأحسن مُثُلها قول الحريري في "المقامة الحادية عشرة" : "فلما ألحدوا الميْت ، وفات قول ليت ، أشرف شيخ من رُباوة ، متحضرٌ بهراوة ، فقال : لِمثْل هذا فليعمل العاملون ، فاذكروا أيأيها الغافلون ، وشمروا أيها المقصرون" الخ . . .

فأما القلوب القاسية ، والنفوس المتعاصية ، فلن تأسُوَها آسية .

ولاعتبار هذا الموقع جعلت الجملة استئنافاً لأنها بمنزلة الفذلكة والنتيجة .

والتقوى تبتدىء من الاعتراف بوجود الخالق ووحدانيته وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وتنتهي إلى اجتناب المنهيات وامتثال المأمورات في الظاهر والباطن في سائر

الأحوال .

وتقدم تفصيلها عند قوله تعالى ﴿ هدىً للمتقين ﴾ في سورة البقرة (2) وتقدم نظير هذا في سورة الحج (32) .

وخشية اليوم : الخوف من أهوال ما يقع فيه إذ الزمان لا يخشى لذاته ، فانتصب يوماً ﴾ على المفعول به .

(62/610)

والأمر بخشيته تتضمن وقوعه فهو كناية عن إثبات البعث وذلك حظ المشركين منه الذين لا يؤمنون به حتى صار سمة عليهم قال تعالى ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ [الفرقان : 21] .

وجملة ﴿ لا يَجْزِي والدٌ عن ولده ﴾ الخ صفة يوم وحذف منها العائد المجرور بـ (في) توسعاً بمعاملته معاملة العائد المنصوب كقوله ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ في سورة البقرة (48) .

وجَزى إذا عدي بـ عن ﴾ فهو بمعنى قضى عنه ودفع عنه ، ولذلك يقال للمتقاضي : المتجازي .

وجملة ﴿ ولا مولود ﴾ الخ عطف على الصفة و ﴿ مولود ﴾ مبتدأ .

و ﴿ هو ﴾ ضمير فصل .

و ﴿ جاز ﴾ خبر المبتدأ .

وذكر الوالد والولد هنا لأنهما أشد محبة وحمية من غيرهم فيعلم أن غيرهما أولى بهذا النفي ، قال تعالى : ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴾ الآية [عبس : 34 35] .

وابتدىء بـ ﴿ الوالد ﴾ لأنه أشد شفقة على ابنه فلا يجد له مخلصاً من سوء إلا فعله .

ووجه اختيار هذه الطريقة في إفادة عموم النفي هنا دون طريقة قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً ﴾ في سورة البقرة (123) ، أن هذه الآية نزلت بمكة وأهلها يومئذ خليط من مسلمين وكافرين ، وربما كان الأب مسلماً والولد كافراً وربما كان العكس ، وقد يتوهم بعضُ الكافرين حين تُداخلهم الظنون في مصيرهم بعد الموت أنه إذا ظهر صدق وعيد القرآن إياهم فإن من له أب مسلم أو ابن مسلم يدفع عنه هنالك بما يُدلّ به على رَبّ هذا الدين ، وقد كان قاراً في نفوس العرب التعويل على المولَى والنصير تعويلاً على أن الحَمية والأنفة تدفعهم إلى الدفاع عنهم في ذلك الجمع وإن كانوا من قبل مختلفين لهم لضيق عطن أفهامهم يقيسون الأمور على معتادهم .

وهذا أيضاً وجه الجمع بين نفي جزاء الوالد عن ولده وبين نفي جزاء الولَد عن والده ليشمل الفريقين في الحالتين فلا يتوهم أن أحد الفريقين أرجى في المقصود .

ثم أوثرت جملة ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ بطرق من التوكيد لم تشتمل على مثلها جملة ﴿ لا يجزي والد عن ولده ﴾ فإنها نظمت جملة اسمية ، ووُسِّط فيها ضمير الفصل ، وجعل النفي فيها منصبّاً إلى الجنس .

ونكتة هذا الإيثار مبالغة تحقيق عدم جَزْءِ هذا الفريق عن الآخر إذ كان معظمُ المؤمنين من الأبناء والشبابِ ، وكان آباؤهم وأمهاتهم في الغالب على الشرك مثل أبي قحافة والد أبي بكر ، وأبي طالب والد علي ، وأم سعد بن أبي وقاص ، وأم أسماء بنت أبي بكر ، فأُريد حسم أطماع آبائهم وما عسى أن يكون من أطماعهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة بشيء .

وعبر فيها بـ ﴿ مولود ﴾ دون (ولد) لإشعار ﴿ مولود ﴾ بالمعنى الاشتقاقي دون (ولد) الذي هو اسم بمنزلة الجوامد لقصد التنبيه على أن تلك الصلة الرقيقة لا تخول صاحبها التعرض لنفع أبيه المشرك في الآخرة وفاء له بما تُومىء إليه المولُودية من تجشّم المشقة من تربيته ، فلعله يتجشم الإلحاح في الجزاء عنه في الآخرة حسماً لطمعه في الجزاء عنه ، فهذا تعكيس للترقيق الدنيوي في قوله تعالى ﴿ وقل ربّ ارحمهما كما ربَّيَاني صغيراً ﴾ [الإسراء : 24] وقوله : ﴿ وصاحبْهما في الدنيا معروفاً ﴾ [لقمان : 15] .

وجملة ﴿ إن وعد الله حق ﴾ علة لجملتي ﴿ اتقوا ربّكم واخْشَوْا يوماً ﴾ .

ووعدُ الله : هو البعث ، قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخِرون عنه ساعةً ولا تستقدمون ﴾ [سبأ : 29 30] .

وأكد الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ مُراعاة لمنكري البعث ، وإذ قد كانت شبهتهم في إنكاره مشاهدة الناس يموتون ويخلفهم أجيال آخرون ولم يرجع أحد ممن مات منهم ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] وقالوا : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [الأنعام : 29] .

(64/610)

فُرع على هذا التأكيد إبطال شبهتهم بقوله : ﴿ فلا تَغرنَّكم الحياة الدنيا ﴾ ، أي لا تغرنّكم حالة الحياة الدنيا بأن تتوهموا الباطل حقاً والضرّ نفعاً ، فإسناد التغرير إلى الحياة الدنيا مجاز عقلي لأن الدنيا ظرف الغرور أو شُبْهَتِه ، وفاعل التغرير حقيقة هم الذين يُضِلّونهم بالأقيسة الباطلة فيشبهون عليهم إبطاء الشيء باستحالته فذُكرت هنا وسيلة التغرير وشبهته ثم ذكر بعده الفاعل الحقيقي للتغرير وهو الغَرور .

و ﴿ الغَرور بفتح الغين : من يكثر منه التغرير ، والمراد به الشيطان بوسوسته وما يليه في

نفوس دعاة الضلالة من شبه التمويه للباطل في صورة وما يلقيه في نفوس أتباعهم من قبول تغريرهم .

وعطف ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ لأنه أدخل في تحذيرهم ممن يلقون إليهم الشبه أو من أوهام أنفسهم التي تخيل لهم الباطل حقاً ليهموا آراءهم .

وإذا أريد بالغَرور الشيطان أو ما يشمله فذلك أشد في التحذير لما تقرر من عداوة الشيطان للإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يَفْتِنَنّكم الشيطان كما أخرج أبوَيْكم من الجَنة ﴾ [الأعراف : 27] وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذُوه عدواً ﴾ [فاطر : 6] ، ففي التحذير شوب من التنفير .

والباء في قوله ﴿ ولا يغرنكم بالله ﴾ هي كالباء في قوله تعالى ﴿ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ﴾ [الانفطار : 6] .

وقرر في "الكشاف" في سورة الانفطار معنى الباء بما يقتضي أنها للسببية ، وبالضرورة يكون السبب شأناً من شؤون الله يناسب المقام لا ذاتَ الله تعالى .

(65/610)

والذي يناسب هنا أن يكون النهي عن الاغترار بما يسوّله الغَرور للمشركين كتوهم أن الأصنام شفعاء لهم عند الله في الدنيا واقتناعهم بأنه إذا ثبت البعث على احتمال مرجوح عندهم شفعت لهم يومئذ أصنامهم ، أو يغرُّهم بأن الله لو أراد البعث كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لبعث آباءهم وهم ينظرون ، أو أن يغرهم بأن الله لو أراد بعث الناس لعجّل لهم ذلك وهو ما حكى الله عنهم : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] فذلك كله غرور لهم مُسبب بشؤون الله تعالى .

ففي هذا ما يوضح معنى الباء في قوله تعالى : ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ وقد جاء مثله في سورة الحديد (14) .

وهذا الاستعمال في تعدية فعل الغرور بالباء قريب من تعديته بـ (من) الابتدائية في قول امرىء القيس:

أغرَّكِ مني أن حبَّك قَاتِلي . . .

أي : لا يغرنَّك مِن معاملتي معك أن حبك قاتلي .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾

كان من جملة غرورهم في نفي البعث أنهم يجعلون عدم إعلام الناس بتعيين وقته أمارةً على أنه غير واقع .

قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] وقال : ﴿

وما يُدْرِيك لعلّ السَّاعة قريبٌ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى: 17، 18] ، فلما جرى في الآيات قبلها ذكر يوم القيامة أعقبت بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا الله .

فجملة ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لوقوعها جواباً عن سؤال مقدَّر في نفوس الناس .

والجمل الأربع التي بعدها إدماج لجمع نظائرها تعليماً للأمة .

(66/610)

وقال الواحدي والبغوي : إن رجلاً من محارب خصفة من أهل البادية سماه في "الكشاف" الحارث بن عمرو ووقع في "تفسير القرطبي" وفي "أسباب النزول" للواحدي تسميته الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : متى الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وتركتُ امرأتي حبلى فما تلد ؟ وماذا أكسب غداً ؟ وبأي أرض أموت ؟ ، فنزلت هذه الآية ، ولا يُدرى سند هذا .

ونُسب إلى عكرمة ومقاتل ، ولو صح لم يكن منافياً لاعتبار هذه الجملة استئنافاً بيانياً فإنه مقتضى السياق .

وقد أفاد التأكيد بحرف ﴿ إن ﴾ تحقيق علم الله تعالى بوقت الساعة ، وذلك يتضمن

تأكيد وقوعها .

وفي كلمة ﴿ عنده ﴾ إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم لأن العندية شأنها الاستئثار .

وتقديم ﴿ عند ﴾ وهو ظرف مسند على المسند إليه يُفيد التخصيص بالقرينة الدالة على أنه ليس مراد به مجرد التقوي .

وجملة ﴿ وينزل الغيث ﴾ عطف على جملة الخبر .

والتقدير : وإن الله ينزل الغيث ، فيفيد التخصيص بتنزيل الغيث .

والمقصود أيضاً عنده علم وقت نزول الغيث وليس المقصود مجرد الإخبار بأنه ينزل الغيث لأن ذلك ليس مما ينكرونه ولكن نُظمت الجملة بأسلوب الفعل المضارع ليحصل مع الدلالة على الاستئثار بالعلم به الامتنان بذلك المعلوم الذي هو نعمة .

وفي اختيار الفعل المضارع إفادة أنه يجدد إنزال الغيث المرة بعد المرة عند احتياج الأرض .

ولا التفاتَ إلى من قدروا : ﴿ ينزل الغيث ، بتقدير (أنْ) ﴾ المصدرية على طريقة قول طرفة:

ألا أيهذا الزاجري احضُر الوغى . . .

للبون بين المقامين وتفاوت الدرجتين في البلاغة .

وإذ قد جاء هذا نسقاً في عداد الحصر كان الإتيان بالمسند فعلاً خبراً عن مسند إليه

مقدم مفيداً للاختصاص بالقرينة ؛ فالمعنى : وينفرد بعلم وقت نزول الغيث من قرب وبعد وضبط وقت .

(67/610)

وعطف عليه ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ أي : ينفرد بعلم جميع أطواره من نطفة وعلقة ومضغة ثم من كونه ذكراً أو أنثى وإبان وضعه بالتدقيق .

وجيء بالمضارع لإفادة تكرر العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال .

والمعنى : ينفرد بعلم جميع تلك الأطوار التي لا يعلمها الناس لأنه عطف على ما قصد منه الحصر فكان المسند الفعلي المتأخر عن المسند إليه مفيداً للاختصاص بالقرينة كما قلنا في قوله تعالى : ﴿ والله يقدّر الليل والنهار .

وأما قوله وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ فقد نسج على منوال آخر من النظم فجعل سَداه نفي علم أيّة نفس بأخص أحوالها وهو حال اكتسابها القريب منها في اليوم الموالي يوم تأملها ونظرها ، وكذلك مكانُ انقضاء حياتها للنداء عليهم بقلة علمهم ؛ فإذا كانوا بهذه المثابة في قلة العلم فكيف يتطلعون إلى علم أعظم حوادث هذا العالم وهو حادث فنائه وانقراضه واعتياضه بعالم الخلود .

وهذا النفي للدراية بهذين الأمرين عن كل نفس فيه كناية عن إثبات العلم بما تكسب كل نفس والعلمُ بأي أرض تموت فيها كل نفس إلى الله تعالى ، فحصلت إفادة اختصاص الله تعالى بهذين العِلْمين فكانا في ضميمة ما انتظم معهما مما تقدمهما .

وعبر في جانب نفي معرفة الناس بفعل الدراية لأن الدراية علم فيه معالجة للاطلاع على المعلوم ولذلك لا يعبر بالدراية عن علم الله تعالى فلا يقال : الله يدري كذا ، فيفيد : انتفاء علم الناس بعد الحرص على علمه .

والمعنى : لا يعلم ذلك إلا الله تعالى بقرينة مقابلتهما بقوله ﴿ وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ﴾ .

وقد علق فعل الدراية عن العمل في مفعولين بوقوع الاستفهامين بعدهما ، أي ما تدري هذا السؤال ، أي جوابه .

وقد حصل إفادة اختصاص الله تعالى بعلم هذه الأمور الخمسة بأفانين بديعة من أفانين الإيجاز البالغ حد الإعجاز .

ولقبت هذه الخمسة في كلام النبي صلى الله عليه وسلم بمفاتح الغيب وفسر بها قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ [الأنعام : 59] .

ففي "صحيح البخاري" من حديث ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَفاتح الغيب خمس " ثم قرأ : ﴿ إن الله عنده علم السَّاعة ﴾ الآية ، ومن حديث أبي هريرة : في خمس لا يعلمهن إلا الله إن الله عنده علم الساعة جواباً عن سؤال جبريل : متى الساعة ؟ . . .

.

ومعنى حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة : أنها هي الأمور المغيّبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم وأن التعبير عنها بالمفاتح أنها تكون مجهولة للناس فإذا وقعت فكأنَّ وقوعها فَتح لما كان مغلقاً وأما بقية أحوال الناس فخفاؤها عنهم متفاوت ويمكن لبعضهم تعيينها مثل تعيين يوم كذا للزفاف ويوم كذا للغزو وهكذا مواقيت العبادات والأعياد ، وكذلك مقارنات الأزمنة مثل : يوم كذا مدخل الربيع ؛ فلا تجد مغيبات لا قِبَل لأحد بمعرفة وقوعها من أحوال الناس في هذا العالم غير هذه الخمسة فأما في العَوالم الأخرى وفي الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة وليست لها مفاتح عِلم في هذا العالم .

وجملة ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ مستأنفة ابتدائية واقعة موقع النتيجة لما تضمنه الكلام السابق من إبطال شبهة المشركين بقوله تعالى : ﴿ إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا

﴿ [لقمان : 33] كموقع قوله في قصة [لقمان : 16] : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ عقب قوله : ﴿ إنها إنْ تك مثقال حبة من خردل ﴾ الآية [لقمان : 16] .

والمعنى : أن الله عليمٌ بمدى وعده خبيرٌ بأحوالكم مما جمعه قوله وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ الخ ولذا جمع بين الصفتين : صفة ﴿ عليم ﴾ وصفة ﴿ خبير ﴾ لأن الثانية أخص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(69/610)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾

خطاب الحق سبحانه لعباده بيأيها الناس يدل على أنه تعالى يريد أنْ يُسعدهم جميعاً في الآخرة ، وسبق أنْ ذكرنا الحديث القدسي الذي تقول فيه الأرض : يارب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم ، وقالت البحار : نغرقه . . . إلخ ، فكان الرد من الخالق عز وجل " دعوني وخلقي ، فلو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم " .

وقوله تعالى : ﴿ اتقوا رَبَّكُمْ . . ﴾ [لقمان : 33] التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما يضرك

وقاية تقيك وتحميك ؛ لذلك يقول تعالى في آية أخرى ﴿ واتقوا النار . . . ﴾ [آل عمران : 131] وهما بمعنى واحد ؛ لأن معنى اتقوا الله : اجعلوا بينكم وبين صفات جلال ربكم وانتقامه وجبروته وقاية ، وكذلك في : اتقوا النار .

فالخطاب هنا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى يريد أن يُدخلهم جميعاً حيِّز الإيمان والطاعة ، ويريد أنْ يعطيهم ويمنّ عليهم ويعينهم ، وكأنه سبحانه يقول لهم : لا أريد لكم نعَم الدنيا فحسب ، إنما أريد أنْ أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة .

وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له ، كما ذكرنا في قصة اليهودي الذي اتهموه ظلماً بسرقة درع أحد المسلمين ، وقد عزَّ على المسلمين أنْ يُرمى واحد منهم بالسرقة ، فجعلوها عند اليهودي ، وعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله ، فأداره في رأسه : كيف يتصرف فيه ؟

فأسعفه الله ، وأنزل عليه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله . . . ﴾ [النساء : 105] لا بين المؤمنين فحسب ﴿ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] أي : لا تخاصم لصالح الخائن ، وإن كان مسلماً ، فالناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان .

وفَرْق بين : اتقوا ربكم واتقوا الله ؛ لأن عطاء الربوبية غير عطاء الألوهية ، عطاء الربوبية إيجاد من عَدَم ، وإمداد من عُدْم ، وتربية للمؤمن وللكافر ، أما عطاء الألوهية فطاعة وعبادة وتنفيذ للأوامر ، فاختار هنا الرب الذي خلق وربَّى ، وكأنه سبحانه يقول للناس جميعاً : من الواجب عليكم أن تجعلوا تقوى الله شكراً لنعمته عليكم ، وإنْ كنتم قد كفرتُم بها .

ولا تنتهي المسألة عند تقوى الرب في الدنيا ، إنما ﴿ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ . . ﴾ [لقمان : 33] أي : خافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربكم ، وكلمة (يوم) تأتي ظرفاً ، وتأتي اسماً مُتصرِّفاً ، فهي ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث في هذا اليوم كما تقول : خِفْت شدة الملاحظة يوم الامتحان ، فالخوف من الحدث ، لا من اليوم نفسه ، أمَّا لو قلت خفت يوم الامتحان ، فالخوف من كل شيء في هذا اليوم ، أي من اليوم نفسه .

فالمعنى هنا ﴿ واخشوا يَوْماً . . ﴾ [لقمان : 33] لأن اليوم نفسه مخيف بصرف النظر عن الجزاء فيه ، وفي هذا اليوم ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ . . ﴾ [لقمان : 33] خصَّ هنا الوالد والولد ؛ لأنه سبحانه نصح الجميع ، ثم خصَّ الوالدين في الوصية المعروفة ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ . . . ﴾ [لقمان : 14]

ثم ذكر حيثيات هذه الوصية وقال : ﴿ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ . . . ﴾ [لقمان : 14

] فجعل لهما فضلاً ومَيْزة ومنزلة عند الله ، حتى أصبحا مظنة النفع حتى يوم القيامة ، فأراد سبحانه أنْ يُبينَّ لنا أن نفع الوالد لولده ينقطع في الآخرة ، فكلٌّ منهما مشغول بنفسه ، فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه .

وفي سورة البقرة : ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً . . . ﴾ [البقرة : 48]

أي : مطلق النفس ، لا مجرد الوالد والولد ، إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أياً كان

.

(71/610)

والآية بهذا اللفظ وردت في موضعين : اتفقا في الصدر ، واختلفا في العَجُز ، وهي تتحدث عن نَفْسين : الأولى هي النفس الجازية أي : التي تتحمل الجزاء ، والأخرى هي النفس المجزَّية التي تستحق العقوبة .

فالآية التي نظرت إلى النفس المجزَّى عنها ، جاء عَجُزها ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ . . . ﴾ [البقرة : 123]

ومعنى : عَدْل أي فدية ، فالنفس المجزيّ عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية ، فلا يقبل منها فدية ، لكنها لا تيأس ، بل تبحث عَمَّنْ يشفع لها من

أصحاب الجاه والمنزلة يتوسط لها عند الله ، وهذه أيضاً لا تنفع .

أما النفس الجازية ، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة ، فإنْ لم تُقبل عرضت العدل والفدية ؛ لذلك جاء عَجز الآية الأخرى الذي اعتبر النفس الجازية بتقديم الشفاعة على العدل .

إذن : ذَيْل الآية الأولى عائد على النفس المجزيَّ عنها ، وذيل الآية الثانية يعود على النفس الجازية .

وهنا ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ . . ﴾ [لقمان : 33] لأن الوالد مظنّة الحنان على الولد ، وحين يرى الوالد ولده يُعذَّب يريد أنْ يفديه ، فقدَّم هنا (الوالد) ثم قال : ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً . . ﴾ [لقمان : 33] فقدم المولود ، وكان مقتضى الكلام أنْ نقول : ولا يجزي ولده عن والده ، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود ؟

الكلام هنا كلام رب ، وفرْق كبير بين ولد ومولود ؛ لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر ، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أنْ يجزوا عنهم يوم القيامة ، فأنزل الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألاَّ يطمعوا في أنْ يدفعوا شيئاً عن آبائهم الذين ماتوا على الكفر .

(72/610)

لذلك لم يقل هنا ولد ، إنما مولود ، لأن المولود هو المباشر للوالد ، والولد يقال للجد وإنْ علا فهو ولده ، والجد وإنْ علا والده ، فإذا كانت الشفاعة لا تُقبل من المولود لوالده المباشر له ، فهي من باب أَوْلَى لا تُقبل للجدِّ ؛ لذلك عَدل عن ولد إلى مولود ، فالمسألة كلام رب حكيم ، لا مجرد رَصْف كلام .

لكن ، متى يجزي الوالد عن الولد ، والمولود عن والده ؟ قالوا : الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية ، فإذا رأى الوالد ولده يتألم سارع إلى أنْ يشفع له ويدفع عنه الألم ، أما الولد فلا يدفع عن أبيه الألم لأنه كبير ، إنما يدفع عنه الإهانة ، فالوالد يشفع في الإيلام ، والولد يشفع في الإهانة ، فكل منهما مقام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ . . ﴾ [لقمان : 33] عرفنا أن الوعد : إخبار بشيء يسر لم يَأْتِ وقته ، وضده الوعيد ، وهو إخبار بشيء يؤذي لم يأْتِ وقته بعد ، لكن ما فائدة كل منهما ؟

فائدة الوعد أنْ تستعدَّ له ، وتأخذ في أسبابه ، فهو يشجعك على العمل والسعي الذي يُحقِّق لك هذا الوعد كأنْ تَعِد ولدك مثلاً بجائزة إنْ نجح في الامتحان ، وعلى العكس من ذلك الوعيد ؛ لأنه يُخوِّفك من عاقبته فتحترس ، وتأخذ بأسباب النجاة منه .

إذن : الوعد حق ، وكذلك الوعيد حق ، لكنه خصَّ الوعد لأنه يجلب للنفس ما تحب ، أمّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبها ، ووضحنا هذه المسألة بأن الحق – سبحانه وتعالى

- يتكلم في النعم أن منها نِعَم إيجاب ، ونِعَم سلب .

واقرأ في ذلك قول ربك : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 35-36]

(73/610)

فإذا كانت الجنة وما فيها نعماً تستحق الشكر ، ويمتّ الله بها علينا ، فأيُّ نعمة في الشواظ والنار والعذاب ؟ قالوا : هي نعمة من حيث هي تحذير وتخويف من العذاب لتبتعد عن أسبابه ، وتنجو منه قبل أنْ تقع فيه ، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غِرَّة ، ونبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه .

ووَعْد الله حقٌّ ؛ لأنه وعد ممَّنْ يملك الوفاء بما وعد ، وإنفاذ ما وعد به ، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء ، فوعده لا يُوصَف بأنه حق ؛ لذلك قال سبحانه في سورة الكهف : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . ﴾ [الكهف : 23-24]

فأنت وإنْ كنتَ صادقاً فيما وعدتَ به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى أنْ تفي بما وعدتَ ، فإنْ بقيت فقد تتغير الأسباب فتحول بينك وبين الوفاء ، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه

الأسباب .

إذن : تأدب ودَعِ الأمر لِمَنْ يملك كل أسباب إنفاذ الوعد ، وقُلْ سأفعل كذا إن شاء الله ، حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول : أردتُ لكن الله لم يشأ .

وكأن ربنا – عز وجل – يريد أنْ يداري كذبنا ويستره علينا ، يريد ألاَّ يفضحنا به ، وأخرجنا من هذه المسئولية بترك المشيئة له سبحانه ، وكأن قدر الله في الأشياء صيانة لعبيده من عبيده . لذلك كثيراً ما نقول حينما لا نستطيع الوفاء : هذا قدر الله ، وماذا أفعل أنا ، والأمر لا يُقضى في الأرض حتى يُقضى في السماء .

وما دمنا قد آمنا بقدر الله والحكمة منه ، فلا تغضب مني إنْ لم أفِ لك وأنت كذلك ، والعاقل يعلم تماماً حين يقضي أمراً لأحد أن قضاء الأمر جاء معه لا به ، فالقدر قضاء ، ووافق قضاؤه قضاء الله للأمر ، فكأن الله كرَّمه بأنْ يقضي الأمر على يديه ، لذلك قلنا : إن الطبيب المؤمن يقول : جاء الشفاء معي لا بي ، وأن الطبيب يعالج والله يشفي ، إذن : لا يُوصَف الوعد بأنه حقٌّ إلا وعد الله عز وجل .

(74/610)

وما دام وعد الله حقاً فعليك أنْ تفعل ما وعدك عليه بالخير وتجتنب ما توعَّدك عليه بشرٍّ ، وألاَّ تغرك الحياة ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا . . ﴾ [لقمان : 33] أي : بزينتها وزُخْرفها ، فهي سراب خادع ليس وراءه شيء ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115]

والحق سبحانه يضرب لنا مثلاً للدنيا ، لا ليُنفِّرنا منها ، وإنما لنحتاط في الإقبال عليها ، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هي مجال للعمل للآخرة ومضمار للتسابق إليها .

يقول تعالى في هذا المثل : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا . . . ﴾ [الكهف : 45] فسماها دنيا ، وليس هناك وصف أبلغ في تحقيرها من أنها دنيا ﴿ كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح . . . ﴾ [الكهف : 45] نعم ، كذلك الدنيا تزدهي ، لكن سرعان ما تزول ، تبدأ ابتداءً مقنعاً مغْرياً ، وتنتهي انتهاءً مؤسفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ [لقمان : 33] والغَرور بالفتح الذي يغرُّك في شيء ما ، والغرور يوضحه لنا الشاعر الجاهلي وهو يخاطب محبوبته فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التدلُّل . . . وإنْ كنت قَدْ أَزْمعتِ صَرْمي فأَجْمِلي

أغرَّك مني أنَ حبَّكِ قَاتِلي . . . وأَنَّكِ مَهْما تأْمُري القَلْبَ يفعَلِ

فمعنى غرّك : أدخل فيك الغرور ، بحيث تُقبل على الأشياء ، وتتصرف فيها في كنف هذا الغرور وعلى ضوئه .

(75/610)

والغَرُور بالفتح هو الشيطان ، وله في غروره طرق وألوان ، فغرور للطائعين وغرور للعاصين ، فلكل منهما مدخل خاص ، فيغرّ العاصي بالمعصية ، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم ، وقد عصا أبوه فغفر الله له . لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم * الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : 6-7] فأجاب هو : غرَّني كرمه ، لأنه خلقني وسوَّاني في أحسن صورة ، وعاملني بكرم ودلَّلني ، حتى أصابني الغرور بذلك ، ولو أنه عز وجل قسا علينا ما اغتررنا .

وكان لأحدهم دَيْن خمسة صاغ فضة عند آخر ، فردَّها إليه ، فلما نظر فيها الدائن وجدها ممسوحة فأعادها إليه ، فقال المدين : والله لو كنت كريماً لقبلتها دون أنْ تنظر فيها .

فأخذ الواعظ هذه الواقعة وأراد أنْ يعظ بها الدائن ، وكان يصلي صلاةً لا خشوعَ فيها ، فقال له : إن صلاتك هذه لا تعجبني ، فهي نَقْر لا خشوع فيها ، أرأيت لو أن لك دَيْنا

فأعطاك صاحب الدين نقوداً ممسوحة قديمة أكنت تقبلها ؟ فقال الرجل : والله لو كنتُ كريماً أقبلها ولا أردها .

ثم يقول الحق سبحانه مختتماً سورة لقمان : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ . . . ﴾ .

بعد أن حذرنا ربنا – تبارك وتعالى – من الغرور في الحياة الدنيا يُذكِّرنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وقيامه وساعة ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . ﴾ [لقمان : 34]

والساعة لا تعني القيامة فحسب ، إنما لكل منا ساعته ، لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته .

لماذا ؟ لأنه انقطع عمله ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأن قيامته قامت بموته .

وقلنا : إن عمر الدنيا بالنسبة لك هو مقدار عمرك فيها ، وإنْ كان عمر الدنيا على الحقيقة من لَدُن آدم – عليه السلام – إلى قيام الساعة ، لكن ماذا استفدتَ أنت من عمر غيرك ؟

(76/610)

إذن : لا ينبغي أن تقول : إن الدنيا طويلة ؛ لأن عمرك فيها قصير ، ثم إنك لا تعلمه ، ولا تستطيع أنْ تتحكم فيه ، وكما أبهم الله الساعة أبهم الأجل ؛ لأن في إبهامه أنفع البيان ، فلما أبهم الله الأجل جعل النفس البشرية تترقبه في كل لحظة ، فكل لحظة تمر عليك يمكن أن

يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت في كل الزمن ، وما دام الأمر كذلك فلا بُدَّ أن ينتبه الإنسان ويخشى أن يموت وهو على معصية ، فالإبهام هنا هو عَيْن البيان .

وقلنا : إن الذين ماتوا من لَدُن آدم عليه السلام يلبثون في قبورهم طوال هذه المدة ، فإذا ما قامت القيامة ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] لماذا ؟ قالوا : لأن قياس الزمن إنما يتأتى بالأحداث ، فحيث لا توجد أحداث لا يوجد زمن .

ومثَّلْنا لذلك بأهل الكهف الذين مكثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ومع ذلك لما سأل بعضهم بعضاً ﴿ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . ﴾ [الكهف : 19] لماذا ؟ لأن النوم يخلو من الأحداث ، فلا يشعر النائم فيه بالزمن ، كما أنهم لما رأى بعضهم بعضاً بعد هذه الفترة رآه على حالته التي نام عليها لم يتأثر بمرور هذه المدة ، ولم تتغير هيئته ، فأقصى ما يمكن تصوُّره أن يقول : لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وكذلك الحال في قصة العُزير الذي قال الله عنه : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . ﴾ [البقرة : 259] ؛ لأن هذه هي أطول مدة يمكن أن ينامها الإنسان .

ثم أخبره ربه ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ . . . ﴾ [البقرة : 259] ويريد الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق الرجل في قوله يوماً أو بعض يوم ، وعلى صدقه تعالى في قوله مائة عام ، فيقول سبحانه : ﴿ فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ . . . ﴾ [البقرة : 259] أي : لم يتغير .

وهذا دليل على صِدْقه في يوم أو بعض يوم

﴿ وانظر إلى حِمَارِكَ . . . ﴾ [البقرة : 259]

وهذا دل على صدق الحق – تبارك وتعالى – في قوله ﴿ مائَةَ عَامٍ . . . ﴾ [البقرة : 259] فكلا القولين صادق ؛ لأن الله تعالى هو القابض الباسط ، يقبض الزمن في حق قوم ، ويبسطه في حق آخرين .

وهذه الآية جمعتْ خمسة أمور استأثر الله تعالى بعلمها : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . ﴾ [لقمان : 34]

فهل هذه هي كل الغيبيات في الكون ؟ نقول : في الكون غيبيات كثيرة لا نعرفها ، فلا بُدَّ أن

هذه الخمس هي المسئول عنها ، وجاء الجواب على قدر السؤال ، بالله لو هَبَّتْ الريح ، وحملتْ معها بعض الرمال ، أنعرف أين ذهبت هذه الذرات ؟ وفي أي ناحية ، أنعرف ورق الشجر كم تساقط منها ؟

هذه كلها غيبيات لا يعلمها أيضاً إلا الله ، أما نحن فلا نعلم حتى عدد النِّعَم التي أنعم الله بها علينا ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا . . . ﴾ [إبراهيم : 34]

إذن : فهذه نماذج لما استأثر الله بعلمه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : 27]

(78/610)

فلله تعالى في كونه أسرار لا تُحصى ، أجَّل الله ميلادها ؛ لنعلم أننا في كل يوم نجهل ما عند الله ، وكل يوم يطلع علينا العلماء والباحثون بجديد من أسرار الكون – هذا ونحن لا نزال في الدنيا ، فما بالنا في الآخرة ، وفي الجنة إن شاء الله ؟

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال : " فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " .

والإنسان يكتسب المعلومات ، إما برؤية العين ، أو بسماع الأذن ، ومعلوم أن رقعة السمع أوسع من البصر ؛ لأنك لا ترى إلا ما تراه عيناك ، لكن تسمع لمرائي الآخرين ، ثم أنت تسمع وترى موجوداً ، لكن هناك ما لا يخطر على قلب بشر يعني : أشياء غيبية لم تطرأ على بال أحد ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 17]

وقد ورد في أسباب نزول مفاتح الغيب هذه ، أن رجلاً من محارب ، اسمه الحارث بن عمرو بن حارثة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله : أريد أنْ أعرف متى الساعة ، وقد بذرْت بذري ، وأنتظر المطر فمتى ينزل ؟ وامرأتي حامل ، وأريد أن تلد ذكراً ، وقد أعددت لليوم عُدَّته ، فماذا أُعِد لغد ؟ وقد عرفت موقع حياتي ، فكيف أعرف موقع مماتي ؟

هذه خمس مسائل مخصوصة جاء بها الجواب من عند الله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة وَيُنَزِّلُ الغيث وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحام وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .

. ﴾ [لقمان : 34] .

وعجيب أنْ نرى من خَلْق الله مَنْ يحاول أن يستدرك على مقولة الله في هذه الغيبيات

الخمس ، كالذين حاولوا أنْ يتنبأوا بموعد قيام الساعة ، وقد كذبوا جميعاً ، ولو قُدِّر لهم الإيمان بالله ، والعلم كما قاله الله في قيام الساعة ما تجرأ منهم أحد على هذه المسألة .

(79/610)

وقلنا : إن الحق سبحانه أخفى موعد الساعة لكي نستشعرها دائماً ، وفي كل وقت ، حتى الذين لا يؤمنون بها ويشكُّون فيها ، وإذا ما استشعرها الناس عملوا لها ، واستعدوا لأهوالها ، كما أخفى الله عن الإنسان ساعة موته ومكان أجله ، وجعل الموت يدور على العباد على غير قاعدة .

فمنهم مَنْ يموت بعد دقائق من مولده ، ومنهم مَنْ يعمر مئات السنين ، كما أنه سبحانه لم يجعل للموت مقدمات من مرض أو غيره ، فكم من مريض يُعافى ، وصحيح يموت ، كما يقولون : كيف مريضكم ؟ قال : سليمنا مات ، وصدق القائل :

فلا تَحْسَبَ السُّقْم كأْسَ الممات . . . وإنْ كَان سُقْماً شَديد الأَثَر

فرُبَّ عليل تَرَاهُ اسْتفَاق . . . ورُبّ سِلَيم تَرَاه اسْتتر

كذلك الموت لا يرتبط بالسِّن :

كم بُودرت غادة كَعَابٌ . . . وغُودِرَتْ أمُّها العَجُوزُ

يجوزُ أنْ تبطئ المنَايَا . . . والخُلْدُ في الدَّهْرِ لا لا يَجُوزُ

إذن : أخفى الله القيامة وأخفى الموت ؛ لنظل على ذُكْر له نتوقعه في كل لحظة ، فنعمل له ، ولنتوقع دائماً أننا سنلقى الله ، فنعد للأمر عُدته ؛ لأن مَنْ مات فقد قامت قيامته ؛ لأنه انقطع عمله ، ففي إبهام موعد القيامة وساعة الموت عَيْن البيان لكل منهما ، فالإبهام أشاعه في كل وقت .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث . . ﴾ [لقمان : 34] وهذا أيضاً ، ومع تقدُّم العلوم حاول البعض التنبؤ به بناء على حسابات دقيقة لسرعة الرياح ودرجة الحرارة . . إلخ ، وربما صَحَّتْ حساباتهم ، لكن فاتهم أن الله أقداراً في الكون تحدث ولا تدخل في حساباتهم ، فكثيراً ما نُفَاجأ بتغيُّر درجة الحرارة أو اتجاه الريح ، فتنقلب كل حساباتنا .

(80/610)

لذلك من عجائب الخَلْق أنك كلما اقتربتَ من الشمس وهي مصدر الحرارة تقِلُّ درجة الحرارة ، وكلما ابتعدت عنها زادت درجة الحرارة ، إذن : المسألة ليست روتينية ، إنما هي قدرة لله سبحانه ، والله يجمع لك الأسباب ليثبت لك طلاقة قدرته التي تقول للشيء : كُنْ فيكون .

ألسنا نُؤمر في الحج بأن نُقبِّل حجراً ونرمي آخر ، وكل منهما إيمان وطاعة ، هذا يُباس وهذا يُداس ، هذا يُقبَّل وهذا يقنبل ، لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد منا الالتزام بأمره ، وانصياع النفس المؤمنة للرب الذي أحيا ، والرب الذي كلَّف .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحام . . ﴾ [لقمان : 34] هذه أيضاً من مفاتح الغيب ، وستظل كذلك مهما تقدمت العلوم ، ومهما ادَّعى الخَلْق أنهم يعلمون ما في الأرحام ، والذي أحدث إشكالاً في هذه المسألة الآن الأجهزة الحديثة التي استطاعوا بها رؤية الجنين ، وتحديد نوعه أذكر أم أنثى ، فهذه الخطوة العلمية أحدثتْ بلبلة عند بعض الناس ، فتوهموا أن الأطباء يعلمون ما في الأرحام ، وبناءً عليه ظنوا أن هذه المسألة لم تَعُدْ من مفاتح الغيب التي استأثر الله بها .

ونقول : أنتم بسلطان العلم علمتم ما في الأرحام بعد أن تكوَّن ووضحتْ معالمه ، واكتملتْ خِلْقته ، أما الخالق – عز وجل – فيعلم ما في الأرحام قبل أنْ تحمل الأم به ، ألم يُبشِّر الله تعالى نبيه زكريا عليه السلام بولده يحيى قبل أن تحمل فيه أمه ؟ ونحن لا نعلم هذا الغيب بذواتنا ، إنما بما علّمنا الله ، فالطبيب الذي يُخبرك بنوع الجنين لا يعلم الغيب ، إنما مُعلَّم غيب .

والله – تبارك وتعالى – يكشف لبعض الخلق بعض الغيبيات ، ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبي بكر – رضي الله عنه – حين أوصى ابنته عائشة – رضي الله عنها – قبل أن يموت وقال لها : يا عائشة إنما هما أخواك وأختاك ، فتعجبت عائشة حيث لم يكن لها من الإخوة سوى محمد وعبد الرحمن ، ومن الأخوات أسماء ، لكن كان الصِّديق في هذا الوقت متزوجاً من بنت خارجة ، وكانت حاملاً وبعد موته ولدتْ له بنتاً ، فهل تقول : إن الصِّدِّيق كان يعلم الغيب ؟ لا ، إنما أُعِلم من الله . إذن : الممنوع هنا العلم الذاتي أن تعلم بذاتك .

ثم إن الطبيب يعلم الآن نوع الجنين ، إما من صورة الأشعة أو التحاليل الي يُجريها على عينة الجنين ، وهذا لا يُعتبر علماً للغيب ، و (الشطارة) أن تجلس المرأة الحامل أمامك وتقول لها : أنت إنْ شاء الله ستلدين كذا أو كذا ، وهذا لا يحدث أبداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً . . ﴾ [لقمان : 34]

الإنسان يعمل ، إما لدنياه ، وإما لأُخْراه ، فالمعنى إما تكسب من الخير المادي لذاتك لتعيش ، وإن كان من مسألة التكليف ، فالنفس إما تعمل الخير أو الشر ، الحسنة أو السيئة ، والإنسان في حياته عُرضَة للتغيُّر .

لذلك يقال في الأثر : " يا ابن آدم ، لا تسألني عن رزق غدٍ ، كما لو أطالبك بعمل غد " .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . ﴾ [لقمان : 34] وهذه المسألة حدث فيها إشكال ؛ " لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الأنصار أنه سيموت بالمدينة حينما وزع الغنائم على الناس جميعاً ما عدا الأنصار ؛ لذلك غضبوا ووجدوا في أنفسهم شيئاً ؛ لأن رسول الله حرمهم ، لكن سيدنا رسول الله جمعهم وتلطَّف معهم في الحديث واعترف لهم بالفضل فقال : والله لو قلتم أني جئت مطروداً فآويتموني فأنتم صادقون ، وفقيراً فأغنيتموني فأنتم صادقون . . لكن الأ تحبون أن يرجع الناس بالشاه والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله " ، وقال في مناسبة أخرى " المحيا محياكم ، والممات مماتكم " .

إذن : نُبِّئ رسول الله أنه سيموت بالمدينة ، والله يقول : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .

. ﴾ [لقمان : 34] نقول : الأرض منها عام ومنها خاصّ ، فأرض المدينة شيء عام ، نعم سيموت بالمدينة ، لكن في أيِّ بقعة منها ، وفي أي حجرة من حجرات زوجاته ، إذن : إذا علمتَ الأرض العامة ، فإن الأرض الخاصة ما زالت مجهولة لا يعلمها أحد .

يُروى أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي كان يحب الحياة ويحرص عليها ، ويخاف الموت ، وكان يستشير في ذلك المنجّمين والعرافين ، فأراد الله أنْ يقطع عليه هذه المسألة ، فأراه في المنام أن يداً تخرج من البحر وتمتد إليه ، وهي مُفرَّجة الأصابع هكذا ، فأمر بإحضار مَنْ يُعبِّر له هذه الرؤيا ، فكان المتفائل منهم ، أو الذي يبغي نفاقه يقول له : هي خمس سنوات وآخرون قالوا : خمسة أشهر ، أو خمسة أيام أو دقائق .

(83/610)

إلى أن انتهى الأمر عند أبي حنيفة رضي الله عنه فقال له : إنما يريد الله أن يقول لك : هي خمسة لا يعلمها إلا الله ، وهي : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة وَيُنَزِّلُ الغيث وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحام وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . ﴾ [لقمان : 34]

وما دامت هذه المسائل كلها مجهولة لا يعلمها أحد ، فمن المناسب أن يكون ختام الآية ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 34]

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُريح خَلْقه من الفكر في هذه المسائل الخمس ، وكل ما يجب أن نعلمه أن المقادير تجري بأمر الله لحكمة أرادها الله ، وأنها إلى أجل مسمى ، وأن العلم بها لا

يُقدّم ولا يُؤخّر ، بالله ماذا يحدث لو علمت ميعاد موتك ؟ لا شيء أكثر من أنك ستعيش نَكِداً حزيناً طول الوقت لا تجد للحياة لذة .

لذلك أخفى الله عنّا هذه المسألة لنُقبِل على الله بثقتنا في مجريات قدر الله فينا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(84/610)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ الآية .

هذه الآية تدل بظاهرها على أن يوم القيامة لا ينفع فيه والد ولده وقد جاءت آية أخرى تدل على رفع درجات الأولاد بسبب صلاح آبائهم حتى يكونوا في درجة الآباء مع أن عملهم أي الأولاد لم يبلغهم تلك الدرجة إقرارا لعيون الآباء بوجود الأبناء معهم في منازلهم من الجنة وذلك نفع لهم وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية . .

ووجه الجمع أُشير إليه بالقيد الذي في هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ

بِإِيمَانٍ ﴾ وعين فيها النفع بأنه إلحاقهم بهم في درجاتهم بقيد الإيمان فهي أخص من الآية الأخرى والأخص لا يعارض الأعم .

وعلى قول من فسر الآية بأن معنى قوله: ﴿ لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ لا يقضي عنه حقا لزمه ولا يدفع عنه عذابا حق عليه ، فلا إشكال في الآية .

وسيأتي لهذا زيادة إيضاح في سورة النجم في الكلام على: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى ﴾ الآية إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 234 . 235 ﴾

(85/610)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء رضي الله عنه قال : " سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ قال : هذه من كنوز علي قال

: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما الظاهرة ؛ فما سوى من خلقك ، وأما الباطنة ؛ فما ستر من عورتك ، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي والديلمي وابن النجار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ قال : " أما الظاهرة ؛ فالإِسلام وما سوى من خلقك ، وما أسبغ عليك من رزقه ، وأما الباطنة ؛ فما ستر من مساوىء عملك ، يا ابن عباس إن الله تعالى يقول : ثلاث جعلتهن للمؤمن : صلاة المؤمنين عليه من بعده . وجعلت له ثلث ماله أكفر عنه من خطاياه . وسترت عليه من مساوىء عمله ، فلم أفضحه بشيء منها ، ولو أبديتها لنبذه أهله فمن سواهم " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ قال : النعمة الظاهرة : الإِسلام . والنعمة الباطنة : كل ما ستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ قال : هي لا إله إلا الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله

عنهما أنه كان يقرأها ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ﴾ قال : لو كانت نعمة كانت نعمة دون نعمة .

(86/610)

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ﴾ قال : لا إله إلا الله ظاهرة قال : على اللسان ﴿ وباطنة ﴾ قال : في القلب .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن مقاتل رضي الله عنه في قوله ﴿ نعمه ظاهرة ﴾ قال : الإِسلام ﴿ وباطنة ﴾ قال : ستره عليكم المعاصي .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ قال : أما الظاهرة : فالإِسلام . والقرآن ، وأما الباطنة : فما ستر من العيوب .

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن أحبار

يهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : يا محمد أرأيت قولك ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ايانا تريد أم قومك ؟ فقال : كلا . . . فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ؟ فقال : إنها في علم الله قليل . فأنزل الله في ذلك ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام . . . ﴾ " .

(87/610)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " اجتمعت اليهود في بيت فارسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن ائتنا . فجاء فدخل عليهم فسألوه عن الرجم فقال : أخبروني بأعلمكم . فأشاروا إلى ابن صوريا الأعور قال : أنت أعلمهم قال : إنهم يزعمون ذاك قال : فنشدتك بالمواثيق التي أخذت عليكم ، وبالتوراة التي أنزلت على موسى . ما تجدون في التوراة ؟ قال : لولا أنك نشدتني بما نشدتني به ما أخبرتك ، أجد فيها الرجم قال : فقضى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : صدقت يا محمد عندنا التوراة فيها حكم الله ، فكانوا قبل ذلك لا يظفرون من النبي صلى الله عليه وسلم بشيء قال : فنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : 85] . فاجتمعوا في ذلك البيت فقال رئيسهم : يا معشر اليهود لقد ظفرتم بمحمد فأرسلوا إليه .

فجاء فدخل عليهم فقالوا : يا محمد ألست أنت أخبرتنا أنه أنزل عليك ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ ثم تخبرنا أنه أنزل عليك ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فهذا مختلف . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم قليلاً ولا كثيراً قال : ونزل على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ وجميع خلق الله كتاب ، وهذا البحر يمد فيه سبعة أبحر مثله ، فمات هؤلاء الكتاب كلهم ، وكسرت هذه الأقلام كلها ، ويبست هذه البحور الثمانية ، وكلام الله كما هو لا ينقص ، ولكنكم أوتيتم التوراة فيها شيء من حكم الله ، وذلك في حكم الله قليل . فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم فأتوه فقرأ عليهم هذه الآية قال : " فرجعوا مخصومين بشر " " .

(88/610)

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقول . فقال رجل : يا محمد تزعم أنك أوتيت الحكمة ، وأوتيت القرآن ، وأوتينا التوراة ، فأنزل الله ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ وفيه يقول : علم الله أكثر من ذلك ﴿ وما أوتيتم من العلم ﴾ فهو كثير لكم لقولكم قليل عندي " .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه قال : سأل أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح . فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فقالوا : تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، وقد أوتينا التوراة : وهي الحكمة ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ فنزلت ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وأبو نصر السجزي في الابانة عن قتادة رضي الله عنه قال : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فنزلت ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ يقول : لو كان شجر الأرض أقلاماً ، ومع البحر سبعة أبحر مداد لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحور ، قبل أن تنفد عجائب ربي ، وحكمته وعلمه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه قال : قال حيي بن أخطب : يا محمد تزعم أنك أوتيت الحكمة ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ وتزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، فكيف يجتمع هاتان ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ ونزلت التي في الكهف ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي . . . ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وأبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي الجوزاء رضي الله عنه في قوله ﴿

ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ يقول : لو كان كل شجرة في الأرض أقلاماً ، والبحار مداداً ، لنفد الماء ، وتكسرت الأقلام ، قبل أن تنفد كلمات ربي .

(89/610)

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ " والبحر يمده " رفع .

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ قال : يقول له كن فيكون . القليل والكثير .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ يقول : إنما خلق الله الناس كلهم وبعثهم كخلق نفس واحدة وبعثها . وفي قوله ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ﴾ قال : نقصان الليل زيادة النهار ﴿ ويولج النهار في الليل ﴾ نقصان النهار زيادة في الليل ﴿ كل يجري إلى أجل مسمى ﴾ لذلك كله وقت واحد معلوم ، لا يعدوه ولا يقصر دونه . وفي قوله

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ قال : إن أحب عباد الله إليه الصبار الشكور ، الذي إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر . وفي قوله ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ قال : كالسحاب وفي قوله ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ قال : غدار بذمته ، كفور بربه .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فمنهم مقتصد ﴾ قال : في القول وهو كافر ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار ﴾ قال : غدار ﴿ كفور ﴾ قال : كافر .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ختار ﴾ قال : جحاد .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ كل ختار كفور ﴾ قال : الجبار . الغدار . الظلوم . الغشوم . ﴿ الكفور ﴾ الذي يغطي النعمة قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر وهو يقول :

لقد علمت واستيقنت ذات نفسها . . . بأن لا تخاف الدهر صرمي ولا ختري

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ كل ختار ﴾ قال : الذي يغدر بعهده ﴿ كفور ﴾ قال : بربه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ قال : هو الشيطان .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ قال : أن تعمل بالمعصية وتتمنى المغفرة .

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

أخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال " جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتي حبلى ، فاخبرني ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة ، فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت ، فأخبرني متى أموت ؟ فأنزل الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه " أن رجلاً يقال له : الوراث . من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان . جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا ، فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى ، فمتى تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم ، فماذا أكسب غداً ؟ وقد علمت بأي أرض ولدت ، فبأي أرض أموت ، فنزلت هذه الآية " .

(91/610)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ قال : خمس من الغيب استأثر بهن الله فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أي سنة ولا في أي شهر ، أليلاً أم نهاراً ﴿ وينزل الغيث ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، أليلاً أم نهاراً ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ أخيراً أم شراً ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أم بر ، في سهل أم في جبل .

وأخرج الفريابي والبخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله . لا يعلم ما في غد إلا الله . ولا متى تقوم الساعة إلا الله . ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله . ولا متى ينزل الغيث إلا الله . وما تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال " يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثكم بأشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كانت الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها ، في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا ﴿ إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث . . . ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه والروياني والضياء بسند صحيح عن بريدة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، مثله .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه " أن أعرابياً وقف على النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر على ناقة له عشراء فقال : يا محمد ما في بطن ناقتي هذه ؟ فقال : له رجل من الأنصار : دع عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلم إلي حتى أخبرك : وقعت أنت عليها وفي بطنها ولد منك ؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : إن الله يحب كل حي كريم متكره ، ويبغض كل لئيم متفحش ، ثم أقبل على الأعرابي فقال : خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة حمراء إذ جاء رجل على فرس فقال : من أنت ؟ قال " أنا رسول الله قال : متى الساعة ؟ قال : غيب ، وما يعلم الغيب إلا الله قال : ما في بطن فرسي ؟ قال : غيب ، وما يعلم الغيب إلا الله قال : فمتى تمطر ؟ قال : غيب وما يعلم الغيب إلا الله " .

وأخرج أحمد والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيء غير الخمس ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال " لم يعم على نبيكم صلى الله عليه وسلم إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية . في آخر لقمان إلى آخر السورة " .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والبخاري في الأدب عن ربعي بن حراش رضي الله عنه قال : حدثني رجل من بني عامر أنه قال : يا رسول الله هل بقي من العلم شيء لا تعلمه فقال : " لقد علمني الله خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله . الخمس ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ " .

(93/610)

وأخرج ابن ماجة عن الربيع بنت معوذ رضي الله تعالى عنها قالت : " دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة عرسي وعندي جاريتان تغنيان وتقولان : وفينا نبي يعلم ما في غد . فقال : " أما هذا فلا تقولوه ، لا يعلم ما في غد إلا الله " " .

وأخرج الطيالسي وأحمد وابن أبي حاتم وابن مردوية والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي غرة الهذلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة ، فلم ينته حتى يقدمها ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ " .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن مردويه عن مطر بن عكامس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة ".

(94/610)

وأخرج أحمد عن عامر أو أبي عامر أو أبي مالك " أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في مجلس فيه أصحابه ، جاءه جبريل عليه السلام في غير صورته ، فحسبه رجلاً من المسلمين ، فسلم فرد عليه السلام ، ثم وضع يده على ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله ما الإِسلام ؟ قال : أن تسلم وجهك لله ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : نعم . قال : ما الإِيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، والموت ، والحياة بعد الموت ، والجنة والنار ، والحساب والميزان ، والقدر خيره وشره . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت قال : نعم . ثم قال : ما الإِحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فهو يراك قال : فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت ؟ قال : نعم . قال : فمتى الساعة يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان

الله . . . ! خمس لا يعلمها إلا الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة . وينزل الغيث . ويعلم ما في الأرحام . وما تدري نفس ماذا تكسب غداً . وما تدري نفس بأي أرض تموت . إن الله عليم خبير ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(95/610)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾

وقرأ أبو عمرو في روايةٍ : ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ بياءِ الغَيْبة . والباقون بالتاء خطاباً .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31)

قوله : ﴿ بِنِعْمَةِ الله ﴾ : يجوز / أَنْ يتعلَّقَ ب " تَجْري " أو بمحذوفٍ على أنها حالٌ : ملتبسةً بنعمةِ اللَّهِ . والأعمش والأعرج " بِنِعْمات " جمعاً . وابنُ أبي عبلة كذلكَ إلاَّ أنه فتح النونَ وكسر العَيْن . وموسى بن الزبير " الفُلُك " بضمتين .

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

قوله : ﴿ خَتَّارٍ ﴾ : مثالُ مبالغةٍ مِن الخَتْرِ ، وهو أشَدُّ الغَدْرِ . قال الأعشى :

3667 بأبلقِ الفَرْدِ مِنْ تَيْماءَ مَنْزِلُه . . . حِصْنٌ حَصينٌ وجارٌ غيرُ خَتَّارِ

وقال عمرو بن معد يكرب :

3668 فإنَّك لو رَأَيْتَ أبا عُمَيْرٍ . . . مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وخَتْرِ

وقالوا : " إنْ مَدَدْتَ لنا شِبْراً من غَدْرٍ مَدَدْنا لك باعاً مِنْ خَتْرٍ " .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)

(96/610)

قوله : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ ﴾ : جوَّزوا فيه وجهين ، أحدهما : أنه مبتدأٌ ، وما بعدَه الخبرُ .

والثاني : أنه معطوفٌ على " والدٌ " ، وتكون الجملةُ صفةً له . وفيه إشكالٌ : وهو أنه نَفَى عنه أن يَجْزِيَ ، ثم وَصَفَه بأنه جازٍ . وقد يُجاب عنه : بأنه وإن كان جازياً عنه في الدنيا فليس جازياً عنه يوم القيامة فالحالان باعتبار زَمَنين .

وقد منع المهدويُّ أَنْ يكونَ مبتدأً قال : " لأنَّ الجملةَ بعده صفةٌ له فيبقى بلا خبرٍ ، ولا

مُسَوِّغَ غيرُ الوصف " . وهو سهوٌ . لأنَّ النكرةَ متى اعتمدَتْ على نفيٍ ساغ الابتداءُ بها . وهذا مِنْ أشهرِ مُسَوِّغاتِه . وقال الزمخشري : " فإن قلت : قوله : ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ واردٌ على طريقٍ من التوكيد لم يَرِدْ عليه ما هو معطوفٌ عليه . قلت : الأمر كذلك لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ آكدُ من الفعلية ، وقد انضمَّ إلى ذلك قولُه : " هو " وقوله : " مولودٌ " . قال : " ومعنى التوكيدِ في لفظِ المولود : أنَّ الواحدَ منهم لو شَفَعَ للوالدِ الأَدْنَى الذي وُلد منه لم تُقْبَلْ منه فضلاً أَنْ يَشْفَعَ لمَنْ فوقَه مِنْ أجدادِه لأنَّ " الولدَ " يقع على الولدِ وولدِ الولدِ ، بخلاف المولودِ فإنه للذي وُلد منك " قال : " والسببُ في مجيئِه على هذا السَّنَنِ أنَّ الخطابَ للمؤمنين ، وعِلِّيَّتُهم قُبِضَ آباؤُهم على الكفر ، فأريد حَسْمُ أطماعِهم وأطماعِ الناسِ فيهم " .

والجملةُ مِنْ قولِه : " لا يَجْزِي " صفةٌ لـ " يومٍ " ، والعائدُ محذوفٌ أي : فيه ، فحُذِف برُمَّتِه أو على التدريج .

وقرأ عكرمة " لا يُجْزَى " مبنياً للمفعول . وأبو السَّمَّال وأبو السِّوار " لا يُجْزِئ " بالهمز ، مِنْ أَجْزأ عنه أي : أغنى .

قوله : " شيئاً " منصوبٌ على المصدر وهو من الإِعمال ؛ لأنَّ " يَجْزي " و " جازٍ " يَطْلبانِه . والعاملُ جازٍ ، على ما هو المختارُ للحذفِ من الأول .

قوله : " فلا تَغُرَّنَّكُمْ " العامَّةُ على تشديد النون . وابنُ أبي إسحاق وابنُ أبي عبلة ويعقوبُ بالخفيفة ، وسماك بن حرب ويعقوب " الغُرور " بالضمِّ وهو مصدرٌ ، والعامَّةُ بالفتح صفةُ مبالغةٍ كشَكُور . وفُسِّر بالشيطان . على أنَّه يجوز أَنْ يكونَ المضمومَ مصدراً واقعاً وصفاً للشيطان .

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

قوله : ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ " ما " استفهامية فتُعَلِّقَ الدِّراية ، وأن تكونَ موصولةً فتنتصِبَ بها ، وقد عُرِفَ حكمُ " ماذا " أولَ الكتابَ ، وتكرَّر في غُضُونه .

قوله : " بأيِّ أرضٍ " متعلقٌ ب " تموتُ " وهو مُعَلِّقٌ للدِّراية ، فهو في محلِّ نصبٍ . وقرأ موسى الأسواري " بأيةِ أرضٍ " على تأنيثها . وهي لغة ضعيفة ، كتأنيث " كل " حيث قالوا : كلتهن ، فعلَّق ذلك . والباءُ ظرفيةٌ بمعنى : في : أيْ : في أرض نحو : زيد بمكة أي : فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 72 . 75 ﴾

(98/610)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾

يخوّفهم مرةً بأفعاله فيقول : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً ﴾ [البقرة : 48] ، ومرةً بصفاته فيقول : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق : 14] ومرةً بذاته فيقول : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ .

يتفرّد بِعلم القيامة ، ويعلم ما في الأرحام ذكورَهَا وإناثها ، شقيها وسعيدها ، حسنها وقبيحها ويعلم متى يُنزِّل الغيث ، وكم قطرة يُنزله ، وبأي بقعة يُمطرها .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

ما تدري نفسُ ماذا تكسب غداً من خير وشر ، ووفاق وشقاق ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ؛ أتدرك مرادَها أم يفوت ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 137 ﴾

بحث نفيس يتعلق بالآية الكريمة :

معرفة الأطباء لنوع الجنين ذكرا كان أو أنثى لا يتناقض مع معرفة علم الله تعالى للغيب ، فإن كان الأطباء بعد التخلق قد عرفوا نوع الجنين ، فإنهم قبل التخلق لم يكونوا يعرفون نوعه ، كما أنهم لا يعرفون مدة بقائه جنينا على وجه اليقين ، في بطن أمه ، ولا يعرفون ما سيكون عمله ، ولا يعرفون رزقه ، ولا يعرفون أيكون شقيا أم سعيدا . كما أن الآية لم تصرح بعدم معرفة نوع الجنين ، وإنما قالت :(ويعلم ما في الأرحام) بصيغة العموم لا بالخصوص .

أما الحديث الوراد في أن الآية نزلت سؤالا عما تلد المرأة ، فهو حديث منقطع لا يصح .

أما المخصص لقوله :(ما في الأرحام) ، هو الواقع الذي لا شك فيه ، وتخصيص الواقع والعقل للنص الشرعي أمر متفق عليه بين أهل الأصول .

وليس هناك تناقض بين النصوص الشرعية والعلم الحديث إذا كان قد وصل إلى مرتبة العلم القطعي ، لا مجرد النظريات التي لم تستقر .

يقول الشيخ محمد صالح المنجد من علماء السعودية:

قبل أن أتكلم عن هذه المسألة أحب أن أبين أنه لا يمكن أن يتعارض صريح القرآن الكريم مع الواقع أبداً , وأنه إذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة , فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا

حقيقة له , وإما أن يكون القرآن الكريم غير صريح في معارضته , لأن صريح القرآن الكريم وحقيقة الواقع كلاهما قطعي , ولا يمكن تعارض القطعيين أبداً .

(100/610)

فإذا تبين ذلك بواسطة الآلات الدقيقة للكشف عما في الأرحام , والعلم بكونه ذكرا أو أنثى فإنه لا يعارض الآية , حيث إن الآية تدل على أمر غيبي وهو متعلق علم الله تعالى في هذه الأمور الخمسة, والأمور الغيبية في حال الجنين هي : مقدار مدته في بطن أمه, وحياته, وعمله, ورزقه, وشقاوته أو سعادته, وكونه ذكراً أم أنثى, قبل أن يُخلَّق, أما بعد أن يخلق فليس العلم بذكورته, أو أنوثته من علم الغيب , لأنه بتخليقه صار من علم الشهادة إلا أنه مستتر في الظلمات الثلاثة, التي لو أزيلت لتبين أمره, ولا يبعد أن يكون فيما خلق الله تعالى من الأشعة أشعة قوية تخترق هذه الظلمات حتى يتبين الجنين ذكراً أم أنثى . وليس في الآية تصريح بذكر العلم بالذكورة والأنوثة, وكذلك لم تأت السنة بذلك .

وأما ما نقله السائل عن ابن جرير عن مجاهد أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم, عما تلد امرأته, فأنزل الله الآية . فالمنقول هذا منقطع لأن مجاهداً رحمه الله من التابعين .

وأما تفسير قتادة رحمه الله فيمكن أن يحمل على أن اختصاص الله تعالى بعلمه ذلك إذا

كان لم يُخلَّق , أما بعد أن يخلق فقد يعلمه غيره . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية لقمان :

وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه, ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء من خلقه . ا . هـ

وأما سؤالكم عن المخصص لعموم قوله تعالى (ما في الأرحام) . فنقول : إن كانت الآية تتناول الذكورة والأنوثة بعد التخليق فالمخصص الحس والواقع, وقد ذكر علماء الأصول أن المخصصات لعموم الكتاب والسنة إما النص أو الإجماع أو القياس أو الحس أو العقل وكلامهم في ذلك معروف .

وإذا كانت الآية لا تتناول ما بعد التخليق وإنما يراد بها ما قبله, فليس فيها ما يتعارض ما قيل من العلم بذكورة الجنين وأنوثة . انتهى

ويقول الشيخ عطية صقر من كبار علماء الأزهر :

(101/610)

يقول الله تعالى: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) (سورة الرعد : 8) ، ويقول: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ) (سورة لقمان : 34) .

لا يتنافَى علم البشر بنوع الجَنين في بطن أمّه مع علم الله بما في الأرحام ، وذلك لأربعة أمور :

أوّلها : أن الله يعلم ذلك قبل أن يتخلّق الجنين ، أي قبل أن تتلقّح بويضة الأنثى بماء الذَّكر ، إلى أن يولَدَ ، بل قبل أن يكون هناك الزّواج بين الرّجل والمرأة ، والطِّبُّ لا يعرف ذلك إلا بعد إخصاب البُويضة بزمن يمكنهم فيه الفحص والاستدلال ، وما يقال: إنّهم يعرفون ذلك قبل الإخصاب بفحص ماء الرجل ومعرفة الكُروموسومات الغالبة فيه ، فإن هناك عوامل أخرى لا يستطيع العلم التحكُّم فيها ، وكلها تحت إرادة الله سبحانه ، وما يَستنبطونَه مقدّمًا فهو لا يعدو مرحلة الظَّنّ والتَّخمين .

ثانيها : أنَّ عِلم الله بنوع الجنين علم حقيقي لا يتخلَّف ، وعلم العلماء بذلك علم ظنّي قد يتخلّف ، وبخاصّة في الأيام الأولى للحمل .

ثالثهما : أنَّ علم الله بالجَنين علم شامل لنوعه ورِزقه وأجله وسعادَته وشقائه ، وذلك غير مُستطاع إلا لله سبحانه تعالى ، الذي قَدَّر كل شيء قبل أن يخلُقَه .

رابعها : أن علم الله لا يسبقه جهلٌ ، وعلم غيره مسبوق بالجهل .

وبهذه الأمور وغيرها يظَلُّ علم الله سبحانه في قدسيّته وشموله وصِدقه لا يُدانيه فيه مخلوق من مخلوقاته . قال تعالى: (وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاّ هُوَ) (سورة الأنعام : 59) ، وقد بين الحديث هذه المَفاتح بقوله تعالى: (إنَّ اللهَ عِندَه عِلم السّاعةِ . . .) كما

رواه البخاري فعلمها قاصر عليه وحده " لا يَعلَمُها إلاّ هُوَ " وذلك على الوجه المُبين فيما تقدّم .

(102/610)

والله أعلم هناك نوعان من كروموزومات الجنس . أما الذي في بويضة المرأة فهو دائمًا من النوع المسمى) X (وأما منويات الرجل فبعضها يحمل (X)والآخر يحمل (Y)وكلاهما موجود بأعداد وفيرة مختلطين في القذيفة المنوية الواحدة . فإن قدر أن يلقح البويضة منوي يحمل (X) كان كروموزوما الجنس في الجنين الناتج (XX) وهذا الجنين أنثى . وإلا فهما (X Y) وهذا الجنين ذكر .

دار البحث ولا يزال عما تختلف فيه المنويات حاملة (X) عن تلك حاملة (Y) من خصال . وثبت أنهما يختلفان في الكتلة وفي سرعة الحركة وفي الأثر الكهربي وفي القدرة على اقتحام وسط لزج واجتيازه وفي درجة نشاطها باختلاف التفاعل الكيميائي للبيئة المحيطة . واستخدمت هذه الفروق في إتاحة الفرصة لأحدهما دون الآخر في أن يكون السابق إلى تلقيح البويضة ومن ثم اختيار جنس الجنين الناتج .

وقد تم تطبيق ذلك فعلاً في صناعة تربية الحيوان . حيث تتم تهيئة الظروف المرغوبة

وإجراء التلقيح الصناعي للإناث والحصول على مواليد من الجنس المنشود إن لم يكن دائما فبنسبة عالية .

ولم يتم ذلك في الإنسان حتى الآن . . لأسباب أهمها أن من الصعب إخضاع الطبيعة الإنسانية لظروف التجربة الحيوانية من منع عن الجنس لفترات طويلة تكتنفها تلقيحة صناعية واحدة . . ولكن أصبح في حيز الاحتمال أن يصل العلم إلى المزيد في هذا الشأن . . بل إن بعض السيدات تتحايل على ذلك بمعرفة نوع الجنين الذي في أرحامهن بشفط جزء من السائل الرحمي الذي حول الجنين وفحص ما فيه من خلاياي الجنين المنفوضة ، فإن لم يكن الجنين من الجنس المراد طلبن من الطبيب إجهاضه وذلك في البلاد التي تبيح الإجهاض . . على أن رأينا نحن واضح في أن الإجهاض حرام .

ولكن ماذا لو تم التغلب على الصعوبات الباقية بغير إجهاض وهذا أمر محتمل ؟

(103/610)

وفي مهنتي أرى أم البنات تريد أن تحدد عدد أطفالها ولكنها تزيد وتزيد في انتظار الذكر المنشود . فهل إن استطاعت من البدء إنجاب الذكر أفضى ذلك إلى تقليل التناسل ؟

وهل يجنح الأغنياء إلى إنجاب الذكور حرصًا على الثروة أن تخرج من الأسرة إن ورثت

البنت وانضمت بما تملك إلى زوج غريب يحمل أولاده منها اسمه واسم أسرته ثم تؤول إليهم أملاك أمهم بالوراثة ؟

أو أن الإنسان إن حاول أن يأخذ على عاتقه مهمة الطبيعة الحكيمة بعيدة النظر في توزيع الجنس آل به الأمر إلى أن يفسد حيث ظن أنه يصلح كما فعل من قبل وهو يعبث بالتوازن الحيوي على هذه الأرض .

الدكتور الشيخ يوسف عبد الله القرضاوي بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

لا ريب أن هذه القضايا قضايا خطيرة تستحق الاهتمام من المشتغلين بفقه الشريعة وبيان أحكامها ، وخصوصًا إذا كانت في حيز الإمكان القريب ، كما يؤكد الأطباء وإن كان من فقهاء السلف رضي الله عنهم من جعل نهجه رفض الإجابة عما لم يقع بالفعل من الحوادث المسئول عنها ، حتى لا يجري الناس وراء الافتراضات المتخيلة ، مما لا يقع مثله إلا شاذاً ، بدل أن يعيشوا في الواقع ، ويبحثوا عن علاج لأدوائه .

فعن ابن عمر قال: لا تسألوا عما لم يكن: فإني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن .

وكان بعضهم يقول للسائل عن أمر: أوقد وقع ؟ فإن وقع أجابه . وإلا قال له: إذا وقع فاسأل .

وكانوا يسمون من سأل عما لم يقع: " أرأيتيًا " نسبة إلى قوله: " أرأيت لو كان كذا وحدث

كذا " الخ . . . .

قال الشعبي إمام الكوفة في عصر التابعين: والله لقد بغّض هؤلاء القوم إليّ المسجد . قلت: من هم يا أبا عمر ؟ قال: الأرأيتيون .

وقال: ما كلمة أبغض إليّ من " أرأيت " ؟ !

ويمكننا أن نقتدي بهؤلاء الأئمة ، ونقول للسائل: دع الأمر حتى يقع بالفعل ، فإذا حدث أجبنا عنه ، ولا نتعجل البلاء قبل وقوعه .

(104/610)

وما يدرينا ؟ لعل عقبات لم يحسب العلماء حسابها ، أو قدروا في أنفسهم التغلب عليها . تقف في طريقهم ، فلا يستطيعون تنفيذ ما جربوه في بعض الحيوان على نوع الإنسان .

ولكنا – مع هذا – نحاول الجواب لأمرين:

الأول: إن موجه السؤال يعتقد أن الأمر وشيك الوقوع ، وليس من قبيل الفروض المتخيلة التي كان يسأل عن مثلها " الأرأيتيون " فلابد أن نتهيأ لبيان حكم الشرع فيما يترتب عليها من آثار لم يسبق لها نظير في الحياة الإسلامية ، بل الإنسانية .

الثاني: إن السؤال فيما أرى أيضاً فيما يتضمن بحث مشروعية هذه الأعمال المطروحة

للاستفتاء:

أتدخل في باب الجائز أم المحظور

قضية اختيار الجنس:

أما قضية اختيار جنس الجنين، من ذكورة وأنوثة، فهي تصدم الحس الديني لأول وهلة وذلك لأمرين:

الأول: أن علم ما في الأرحام للخالق سبحانه، لا للخلق. قال تعالى: (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد) وهو من الخمسة التي هي مفاتيح الغيب المذكورة في آخر سورة لقمان (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام).

فكيف يدعي بشر أنه يعلم جنس الجنين ويتحكم فيه؟

الثاني: أن ادعاء التحكم في جنس الجنين تطاول على مشيئة الله تعالى، التي وزعت الجنسين بحكمة ومقدار، وحفظت التوازن بينهما على تطاول الدهور، واعتبر ذلك دليلاً من أدلة وجود الله تعالى وعنايته بخلقه وحسن تدبيره لملكه.

يقول تعالى: (لله ملك السموات والأرض، يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير).

ولكن لماذا لا يفسر علم ما في الأرحام بالعلم التفصيلي لكل ما يتعلق بها؟ فالله يعلم عن

الجنين: أيعيش أم يموت ؟ وإذا نزل حيا : أيكون ذكيًا أم غبيًا ضعيفًا أم قويًا ، سعيدًا أم شقيًا ؟ أما البشر فأقصى ما يعلمون: أنه ذكر أو أنثى .

(105/610)

وكذلك يفسر عمل الإنسان في اختيار الجنس: أنه لا يخرج عن المشيئة الإلهية ، بل هو تنفيذ لها . فالإنسان يفعل بقدرة الله ، ويشاء بمشيئة الله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . وفي ضوء هذا التفسير ، قد يرخص الدين في عملية اختيار الجنس ، ولكنها يجب أن تكون رخصة للضرورة أو الحاجة المنزلة منزلة الضرورة ، وإن كان الأسلم والأولى تركها لمشيئة الله وحكمته (وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة

والله أعلم

يقول الأستاذ الدكتور عجيل النشمي أستاذ الشريعة الإسلامية بالكويت:

هذا سؤال أجابت عنه ندوة "الإنجاب في ضوء الإسلام" التي عقدت في الكويت ، 11 شعبان 1403هـ الموافق 24 مايو 1983م ، ونبدأ ببيان الجانب العلمي ليمكن تصور الموضوع ، ثم بناء الحكم الشرعي عليه .

هناك إنجازان علميان في الموضوع:

الأول: معرفة جنس الجنين ذكراً أو أنثى بواسطة شفط بعض السائل المحيط به من الرحم ، وفيه بعض خلايا الجنين من سطح جسمه ، وتُفحص هذه الخلايا ومنها يعرف جنس الجنين .

الثاني: اكتشاف الاختلاف بين المنوي المفضي للذكورة والمنوي المفضي للأنوثة في طائفة من الصفات كالكتلة والسرعة والقدرة على اختراق المخاط اللزج في قناة عنق الرحم ، وغير ذلك .

وقد تم هذا في النطاق الحيواني ، ويطبق في صناعة تربية الحيوان ، وذلك بتحضير كمية كبيرة من السائل المنوي تجمع من عدد كبير من الفحول أمكن فصلها قسمين: أحدهما ترجح فيه المنويات المفضية إلى الأنوثة ، والآخر ترجح فيه المنويات المفضية إلى الذكورة ، وباستعمال أحد القسمين في التلقيح الصناعي للإناث أمكن أن يميل ميزان الفردية من النسبة الطبيعية ، وهي نحو 50٪ لكل جنس إلى نسبة 70٪ في اتجاه الجنس المطلوب .

(106/610)

وأما من الناحية الفقهية فإن الموضوع لا يدخل في باب العقيدة مطلقاً ، بل يجب أن نعتقد أن كل ما يتوصل إليه الإنسان ، إنما هو بإرادة الله وعلمه ، فلو فرضنا أن طبيباً أو مجموعة من

الأطباء غير المسلمين توصلوا إلى قضية التحكم في نوع الجنين ، فهل معنى هذا أن إرادتهم وعلمهم غلب إرادة الله وعلمه ؟ !

لا يحق لمسلم أن يعتقد هذا وإلا خرج من الملة والدين والعياذ بالله ، فإرادة الله هي الغالبة لا ريب ، والنتيجة النهائية التي تحصل هي إرادة الله ، والله عز وجل هو الذي أقدرنا على ذلك ، فالمسألة ليست عقائدية قطعاً وإنما هي : هل حلال أن نفعل ذلك أم حرام ؟ ومن ناحية أخرى ، فإن هذا الموضوع ليس فيه تغيير لخلق الله ، فالحيوان المنوي هو الحيوان المنوي ، والبويضة هي البويضة ، وإنما هناك تدخل من الإنسان في أن تلقح هذه البويضة بنوع من الحيوان المنوي ، فهنا لا تغيير لخلق الله تبارك وتعالى ، والله له الخلق والأمر ، والحيوان المنوي خلقه والبويضة خلقه ، والموضوع يدخل في قضية الأحكام .

(107/610)

والتحكم إذا خلا من المقاصد الفاسدة والشريرة ، فهو من باب أخذ الأسباب والمعالجات التي تكون قبل الحمل ، كتحديد موعد التقاء الزوجين أو أخذ أدوية معينة ، وقد أباح الإسلام العزل ، وهو نوع من التحكم ، ومن ناحية أخرى أجاز الإسلام أن يدعو المسلم ربه أن يرزقه ذكراً أو أنثى ، وقد سأل نبي الله زكريا عليه السلام أن يرزقه الله ذكراً فقال : "فهب

لي من لدنك وليا (5) يرثني" (مريم) ، فلا مانع من الحرص على ذلك والدعاء به ، وإن من المقرر: أن ما يحرم فعله يحرم طلبه ، وأن من شروط الدعاء ألا يسأل أمراً محرماً . ومن جانب آخر ، يثبت ألا منافاة لفعل التحكم مع إرادة الله ، إن مراد الله لا يُعرف للإنسان إلا بعد وقوعه ، وإرادته تمضي طبقاً لما يشاء سبحانه ولا راد لأمره ، وهذا مقتضى العقيدة الإيمانية الصحيحة في مسألة القضاء والقدر ، فالعلم بالمقدور علماً سابقاً لوقوعه هو ما اختص الله به ، ولا يتخلف عنه القضاء الواقع ، وإن الذي يقع فعلاً هو المقدور المغيب ، وما قواعد الوراثة ، إلا نظم وأسباب كونية أودعها الله في مخلوقاته ويرفعها متى تعلقت بذلك إرادته .

وقد يتوهم البعض أن التحكم في جنس الجنين مصادم لقوله تعالى: "يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور 49 أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما" (الشورى) ، وطبقاً لما سبق من بيان أن المسلم يعتقد أن إرادة الله ومشيئته هي النافذة ، فلا تصادم مع الآية ، ولذلك جاز أن تذهب المرأة أو الرجل إلى الطبيب لعلاج العقم أخذاً بالأسباب .

(108/610)

ومن جانب آخر ، فإن عمل ذلك على نطاق فردي لا شيء فيه ، مثل العزل أو تنظيم النسل ، ولكن يصبح قضية خطيرة إذا كان على نطاق عام يشمل المجتمع كتقنين معين ، فالعزل أو تنظيم النسل جائز في الحالات الفردية ، لكنه لا يجوز تعميمه باعتباره قانوناً عاماً ، وقد جاء في توصيات ندوة "الإنجاب في ضوء الإسلام" في موضوع التحكم ما يلي:

"اتفقت وجهة النظر الشرعية على عدم جواز التحكم في جنس الجنين إذا كان ذلك على مستوى الأمة ، أما على المستوى الفردي فإن محاولة تحقيق رغبة الزوجين المشروعة في أن يكون الجنين ذكراً أو أنثى بالوسائل الطبية المتاحة: فلا مانع منها شرعاً عند بعض الفقهاء المشاركين في الندوة ، في حين رأى غيرهم عدم جوازه ، خشية أن يؤدي إلى طغيان جنس على جنس" . والذي يظهر لنا والله أعلم أن عملية التحكم أو الاصطفاء لجنس معين هو في ذاته عمل طبي لا تلحقه الحرمة إلا إذا أفضى إلى محرم ، لأنه يصبح حينئذ وسيلة وطريقاً للحرام فيأخذ حكمه .

وهو إذا طبق على نطاق عام كان ذريعة إلى فساد فيما قد يحدثه الناس من فوضى واختلال في توازن الذكورة والأنوثة . وأما إذا طبق على نطاق فردي وكان قبل الحمل فلا مانع منه . . . والله أعلم .

(109/610)

وأما ما ورد في السؤال ، عما إذا كان هناك مصادمة وتعارض لعلم الطب اليوم لنوع الجنين ذكراً أو أنثى مع قوله تعالى: "ويعلم ما في الأرحام" (لقمان:34) ، فيجاب بأنه لا تعارض إطلاقاً بين علم الطب لنوع الجنين وعلم الله عز وجل ، ومثل هذه الآية قوله تعالى: "الله يعلم ما تحمل كل أنثى" وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار (8) عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (9) "(الرعد) . فعلم الله عز وجل ليس محصورا في معرفة ما في الأرحام من الذكورة أو الأنوثة ، وإنما يشمل كل ما يتعلق بما في الرحم ، هل سيعيش هذا الجنين أم سيموت ؟ ! هل سيكون سعيدا أم شقيا ؟ ! . . . إلى آخر ذلك ، وأما علم الإنسان فمحصور في معرفة أنه ذكر أو أنثى ، وهذا العلم بإرادة الله ومشيئته عز وجل ، فهو الذي مكن الإنسان أن يصل بعلمه إلى ذلك: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله "(الإنسان:30) . أهـ

(110/610)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ ﴾

أي : يخلص دينه .

ويقال : يخلص عمله لله ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ يعني : موحد .

ويقال : ذكر الوجه ، وأراد به هو .

يعني : ومن أخلص نفسه لله عز وجل بالتوحيد ، وبأعمال نفسه ، وهو محسن في عمله .

قرأ عبد الرحمن السّلمي : ﴿ وَمَن يُسَلِّمْ ﴾ بنصب السين ، وتشديد اللام من سلم يسلم .

وقراءة العامة ﴿ وَمَن يُسْلِمْ ﴾ بجزم السين وتخفيف اللام من سلم يسلم ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ يعني : قد أخذ بالثقة ﴿ وإلى الله عاقبة الامور ﴾ يعني : إليه مرجع وعواقب الأمور .

ويقال : العباد إليه فيجازيهم بأعمالهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ وذلك أنهم لما كذبوا بالقرآن وقالوا : إنه يقول من تلقاء نفسه ، شقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فنزل ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ بالقرآن ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ يعني : إلينا مصيرهم ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ يعني : يجازيهم بجحودهم ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ بما في قلبك من الحزن مما قالوا وقال الكلبي : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ من خير أو شر .

ثم قال عز وجل : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ يعني : يسيراً في الدنيا ، فكل ما هو فانٍ فهو قليل ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ يعني : نلجئهم ﴿ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يعني : شديد لا يفتر عنهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ يعني : الكفار ﴿ مِنْ خلاق السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على إقراركم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يعني : الكفار ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون .

ثم قال عز وجل : ﴿ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ من الخلق ﴿ إِنَّ الله هُوَ الغنى ﴾ عن عبادة خلقه ﴿ الحميد ﴾ في فعاله .

ويقال : حميد أي : محمود .

يعني : يحمد ويشكر .

(111/610)

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ الآية .

قال قتادة : ذلك أن المشركين قالوا : هذا كلام يوشك أن ينفد وينقطع .

فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَّا فِى الأرض ﴾ الآية .

قال ابن عباس في رواية أبي صالح : إن اليهود أعداء الله .

سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح فنزل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] قالوا : كيف تقول هذا وأنت تزعم أن من أُوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ؟ فنزل ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ يقول : لو أن الشجر تبرى وتجعل أقلاماً ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ تكون كلها مداداً ، يكتب بها علم الله عز وجل ، لانكسرت الأقلام ، ولنفد المداد ، ولم ينفد علم الله تعالى .

فما أعطاكم الله من العلم قليل فيما عنده من العلم .

قرأ أبو عمرو : ﴿ والبحر يَمُدُّهُ ﴾ بنصب الراء .

وقرأ الباقون : بالضم .

فمن قرأ بالنصب نصبه .

لأنّ معناه : ولو أن ما في الأرض وأن البحر يمده .

ومن قرأ بالضم : فهو على الاستئناف ﴿ والبحر يَمُدُّهُ ﴾ يعني : أمد إلى كل بحر مثله ما نفدت ﴿ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ يعني : علمه وعجائبه .

ويقال : معاني كلمات الله .

لأن لكل آية ولكل كلمة من المعاني ما لا يدرك ولا يحصى .

ويقال : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ لأن كلمات الله لا تدرك ما تكلم به في الأزل سبحانه وتعالى .

ثم قال : ﴿ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ عزيز بالنعمة على الكافر ، حكيم حكم أنه ليس لعلمه غاية ، وأن العلم للخلق غاية .

(112/610)

ثم قال عز وجل : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ قال مقاتل : نزلت في أبي بن خلف وابني أسد منبه ونبيه كلاهما ابني أسد قالوا : إن الله عز وجل خلقنا أطواراً ، نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم يقول : إنه بعث في ساعة واحدة ، فقال الله عز وجل : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ أيها الناس جميعاً .

يقال : ها هنا مضمر .

فكأنه يقول : إلا كخلق نفس واحدة ، وكبعث نفس واحدة .

ويقال : معناه قدرته على بعث الخلق أجمعين ، وعلى خلق الخلق أجمعين ، كقدرته على خلق نفس واحدة .

ويقال : ﴿ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ أي : إلا كخلق آدم عليه السلام .

ثم قال: ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لمقالتهم ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بهم.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ الليلَ فِى النهار ﴾ يعني: انتقاص كل واحد منها بصاحبه.

ويقال: يدخل الليل في النهار، والنهار في الليل ﴿ وَيُولِجُ النهارَ فِى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ يعني: ذللهما لبني آدم ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني: يجريان في السماء إلى يوم القيامة، وهو الأجل المسمى.

ويقال: يجري كل واحد منهما إلى أجله في الغروب، حتى ينتهي إلى وقت نهايته ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

روي عن أبي عمرو في إحدى الروايتين أنه قرأ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء بلفظ المغايبة.

وقرأ الباقون: بالتاء على معنى المخاطبة.

ثم قال عز وجل: ﴿ ذلك ﴾ يعني: هذا الذي ذكر من صنع الله عز وجل بالنهار والليل والشمس والقمر ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ يعني: ليعلموا أن الله هو الحق ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل ﴾ يعني: من الآلهة لا يقدرون على شيء من ذلك يعني: لا تنفعهم عبادتها.

قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص: وإنما ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بالياء على

معنى الخبر عنهم .

وقرأ الباقون : بالتاء على معنى المخاطبة لهم .

(113/610)

ثم عظّم نفسه فقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلى الكبير ﴾ يعني : ليعلموا أن الله هو الرفيع الكبير .

يعني : العظيم ، وهو الذي يعظم ويحمد .

ثم بيّن قدرته فقال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك ﴾ يعني : السفن ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِى ﴾ أي : برحمة الله لمنفعة الخلق ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته ﴾ يعني : من علامات وحدانيته .

ويقال : من عجائبه .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ يعني : إن الذي ترون في البحر ﴿ لآيَاتٍ ﴾ يعني : لعبارات ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ على أمر الله عز وجل عند البلاء .

ويقال : الذي يصبر في الأحوال كلها ، شكوراً لله عز وجل في نعمه .

ويقال : ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ يعني : لكل مؤمن موحد .

وإنما وصفه بأفضل خصلتين في المؤمن ، لأن أفضل خصال المؤمن : الصبر والشكر .

والصبار هو للمبالغة في الصبر .

والشكور على ميزان فعول هو للمبالغة في الشكر .

وروي عن قتادة أنه قال : إن أحب العباد إلى الله من إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر .

فأعلم الله عز وجل أن المتفكر المعتبر في خلق السموات والأرض هو الصبار والشكور .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل ﴾ يعني : أتاهم موج ، كما يقال : من غشي سدد السلطان يجلس ويقوم .

ويقال : علاهم .

ويقال : غطاهم موج كالظلل يعني : كالسحاب .

ويقال : كالجبال ، وهو جمع ظلة .

يعني : يأتيهم الموج بعضه فوق بعض وله سواد لكثرته .

﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ يعني : أخلصوا له بالدعوة ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر ﴾ يعني : إلى القرار ﴿ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ يعني : فمنهم من يؤمن ، ومنهم من يكفر ولا يؤمن .

ثم ذكر المشرك الذي ينقض العهد فقال تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ يعني : لا يترك العهد ﴿ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ يعني : غدار بالعهد .

كفور لله عز وجل في نعمه .

وقال القتبي : الختر أقبح الغدر .

﴿ كَفُورٌ ﴾ على ميزان فعول .

(114/610)

وإنما يذكر هذا اللفظ إذا صار عادة له كما يقال : ظلوم .

وقد ذكر الكافر بأقبح خصلتين فيه ، كما ذكر المؤمن بأحسن خصلتين فيه وهو قوله : ﴿ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ يعني : وحّدوه وأطيعوه ﴿ واخشوا ﴾ يعني : واخشوا عذاب يوم ﴿ يَوْماً لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ يعني : هو جاز عن والده شيئاً ، ولا ينفع والد عن ولده .

ويقال : لا يقضي والد عن ولده ما عليه ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ يعني : لا يقدر الولد أن ينفع والده شيئاً ، وهذا في الكفار خاصة .

وأما المؤمن فإنه ينفع كما قال في آية أُخرى : ﴿ والذين ءَامَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : 21]

ثم قال : ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني : البعث بعد الموت كائن ولا خلف فيه ﴿ فَلاَ

تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ يعني : لا يغرّنكم ما في الدنيا من زينتها وزهوتها ، فتركنوا إليها ، وتطمئنوا بها ، وتتركوا الآخرة والعمل لها ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ يعني : لا يغرنكم الشيطان عن طاعة الله عز وجل .

ويقال : كل مضل هو شيطان .

وقال أهل اللغة : ﴿ الغرور ﴾ بنصب الغين هو الشيطان .

وبالضم أباطيل الدنيا .

(115/610)

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ قال مقاتل : نزلت في رجل يقال له : الوليد بن عمرو من أهل البادية ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ أرضنا أجدبت ، فمتى ينزل الغيث ؟ وتركت امرأتي حبلى ، فماذا تلد ؟ وقد علمت بأيِّ أرض ولدت ، فبأيِّ أرض أموت ؟ وقد علمت ما عملت اليوم ، فماذا أنا عامل غداً ؟ ومتى الساعة ؟ فنزل ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ يعني : علم القيامة لا يعلمه غيره ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ يعني : وهو الذي ينزل الغيث متى شاء ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الارحام ﴾ من ذكر وأنثى ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ في سهل أو جبل .

وروي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ الله فَقَرَأَ : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ الآية " .

وقال ابن مسعود كل شيء أوتي نبيكم إلا مفاتيح الغيب الخمس .

﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ إلى آخر السورة .

وقالت عائشة رضي الله عنها : من حدثكم بأنه يعلم ما في غد فقد كذب .

ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ يعني : بأي مكان تموت ، وبأي قدم تؤخذ ، وبأي نفس ينقضي أجله .

وروى شهر بن حوشب قال : دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فقال رجل من جلسائه لسليمان : من هذا ؟ فقال ملك الموت .

فقال : لقد رأيته ينظر إليّ كأنه يريدني .

فأريد أن تحملني على الريح حتى تلقيني بالهند .

ففعل .

ثم أتى ملك الموت إلى سليمان فسأله عن نظره ذلك .

فقال : إني كنت أعجب أني كنت أمرت أقبض روحه في أرض الهند في آخر النهار وهو عندك .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ يعني : بهذه الأشياء التي ذكرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 25. 29 ﴾

(116/610)

وقال الثعلبى :

قوله : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ ﴾

أي يخلص دينه لله ويفوّض أمره إليه ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (يُسلِّمْ) بالتشديد ، وقراءة العامّة بالتخفيف من الإسلام وهو الاختيار لقوله : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ ﴾ [البقرة : 112] وأشباه ذلك .

﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في عمله ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي : اعتصم بالطريق الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه . وقال ابن عبّاس : هي : ﴿ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ ﴾ [الصافات : 35] .

﴿ وإلى اللهِ عَاقِبَةُ الأمور ﴾ يعني مرجعها . ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عملوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور * نُمَتِّعُهُمْ ﴾ نعمّرهم ونمهلهم ﴿ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ نُلجئهم ، ونردّهم ﴿ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض إِنَّ الله هُوَ الغني الحميد ﴾ .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ الآية . قال المفسّرون : سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرّوح فأنزل الله بمكّة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ [الإسراء : 85] الآية ، " فلمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود ، فقالوا : يا محمّد بلغنا عنك أنّك تقول : وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ، أفعنيتنا أم قومك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : كلاًّ قد عنيت . قالوا : ألستَ تتلوا فيما جاءَك : إنّا قد أُوتينا التّوراة وفيها علم كلّ شيء ؟

(117/610)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي في علم الله قليلٌ وقد آتاكم الله ما إنْ عملتم به انتفعتم . قالوا : يا محمّد كيف تزعم هذا وأنت تقول : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ فكيف يجتمع هذا قليل وخير كثير ؟ فأنزل الله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ " أي بريت أقلاماً ﴿ والبحر ﴾ بالنصب ابن أبي إسحاق وأبو عمرو ويعقوب . غيرهم بالرّفع ، وحجّتهم : قراءة عبد الله وبحر ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ أي يزيده وينصب

عليه ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من خلفه ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ﴾ وفي هذه الآية اختصار تقديرها : ولو أنَّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّهُ من بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفدت كلمات الله ، وهذه الآية تقتضي أنّ كلامه غير مخلوق ؛ لأنّه لا نهاية له ولما يتعلّق به من معناه فهو غير مخلوق .

﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ هذه الآية على قول عطاء بن يسار : مدنيّة ، قال : نزلت بعد الهجرة كما حكينا . وعلى قول غيره : مكّيّة ، قالوا : إنّما أمرَ اليهود وفد قريش أنْ يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ويقولوا له ذلك وهو بعد بمكّة ، والله أعلم .

قوله : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعني إلاّ كخلق نفس واحدة وبعثها لا يتعذر عليه شيء وهذا كقوله :

﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كالذي يغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ [الأحزاب : 19] أي كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت .

(118/610)

﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ ﴾ الذي

ذكرتُ لتعلموا : ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلي الكبير * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِي فِي البحر بِنِعْمَةِ اللهِ ﴾ برحمة الله ، ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على أمر الله ﴿ شَكُورٍ ﴾ على نِعَمِهِ . قال أهل المعاني : أراد لكلّ مؤمن ، لأنّ الصّبر والشكر من أفضل خصال المؤمنين .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل ﴾ قال مقاتل : كالجبال . وقال الكلبي : كالسحاب (والظلل) جمع ظلّه شَبَّهَ الموجَ بها في كثرتها وارتفاعها كقول النّابغة في صفة بحر :

يماشيهن أخضر ذو ظلال . . . على حافاته فلق الدنان

وإنّما شبّه الموج وهو واحد بالظلل وهي جمع ، لِأنَّ الموج يأتي شيء بعد شيء ويركب بعضه بعضاً كالظلل . وقيل : هو بمعنى الجمع ، وإنّما لم يجمع لأنّه مصدر ، وأصله من الحركة والازدحام .

﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن عبّاس : موف بما عاهد الله عليه في البحر . ابن كيسان : مؤمن . مجاهد : مقتصد في القول مضمر للكفر . الكلبي : مقتصد في القول من الكفّار لأنَّ بعضهم أشدّ قولاً وأغلى في الافتراء من بعض . ابن زيد : المقتصد الذي على صلاح من الأمر . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدّار ﴿ كَفُورٍ ﴾ جحود ، والختر أسوأ الغدر . وقال عمرو بن معدي كرب :

وإنّك لو رأيت أبا عمير . . . ملأت يديك من غدر وختر

قوله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي ﴾ لا يقضي ولا يُغني ولا يكفّر ﴿ وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ . قراءة العامّة : بفتح الغين ها هنا وفي سورة الملائكة والحديد وقالوا : هو الشيطان . وقال سعيد بن جبير : هو أن يعمل بالمعصية ويتمنّى المغفرة . وقرأ سماك بن حرب : بضم الغين ومعناه لا تغتروا ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ الآية . نزلت في الوارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن خصفة من أهل البادية ، أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة ووقتها وقال : إنّ أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث ؟ وتركتُ امرأتي حبلى فما تلد ؟ وقد علمتُ أين وُلدتْ فبأيّ أرض تموت ؟ فأنزل الله هذه الآية .

أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون ، عن أحمد بن محمد بن الحسن ، عن محمد بن يحيى ، عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، عن أبي عن ابن شهاب ، عن سالم بن عبد الله ابن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال :

" مفاتيحُ الغيب خمسة ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ الآية " .

وروى يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله هل من العلم علم لم تؤته ؟ فقال : لقد أُوتيتُ علماً كثيراً أو علماً حسناً (أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ تلا رسول الله هذه الآية ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ إلى قوله : ﴿ خَبِيرٌ ﴾ فقال : هؤلاء خمسة لا يعلمهنّ إلاّ الله تبارك وتعالى .

(120/610)

وأخبرنا أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الحربي قال : أخبرني أبو حامد أحمد بن حمدون بن عمارة الأعمش ، عن علي بن حشرم ، عن الفضل بن موسى ، عن رجل سمّاه قال : بلغ ابن عبّاس أنَّ يهودياً خرج من المدينة يحسب حساب النجوم فأتاه فسأله . فقال : إنْ شئت أنبأتك عن نفسك وعن ولدك . فقال : إنّك ترجع إلى منزلك وتلقى لك بابن محموم ، ولا تمكث عشرة أيّام حتّى يموت الصبي ، وأنت لا تخرج من الدُّنيا حتى تعمى ، فقال ابن عبّاس : وأنت يا يهودي ؟ قال : لا يحول عليَّ الحول حتى أموت ، قال : فأين موتك ؟ قال : لا أدري . قال ابن عبّاس : صدق الله ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ . قال : فرجع ابن عبّاس فتلقّى بابن محموم فما بلغَ عشراً حتّى مات الصبي ، وسأل عن اليهودي قبل الحول فقالوا : مات ، وما خرجَ ابن عبّاس من الدنيا حتّى ذهب بصره . قال علي : هذا أعجب

حديث .

قوله : ﴿ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ كان حقه بأيّة أرض ، وبه قرأ أُبيّ بن كعب ، إلاّ أنّ مَن ذَكَّر قال : لِإنّ الأرض ليس فيها من علامات التأنيث شيء . وقيل : أراد بالأرض المكان فلذلك ذَكَّر ، وأحتجُ بقول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها . . . ولا الأرض أبقل إبقالها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 321.324 ﴾

(121/610)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) ﴾

قرأ على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : ومن يسلم بالتشديد ، يقال : أسلم أمرك وسلم أمرك إلى اللّه . فإن قلت : ماله عدّى بإلى ، وقد عدّى باللام في قوله بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ؟ قلت :

معناه مع اللام : أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما للّه . أى خالصا له . ومعناه - مع إلى - :

(122/610)

أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه . والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى من باب التمثيل : مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق ، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أى هي صائرة إليه .

[سورة لقمان (31) : الآيات 23 إلى 24]

وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (24)

قرئ : يحزنك ، ويحزنك : من حزن ، وأحزن . والذي عليه الاستعمال المستفيض : أحزنه ويحزنه . والمعنى : لا يهمنك كفر من كفر وكيده للإسلام ، فإن اللّه عزّ وجلّ دافع كيده في نحره ، ومنتقم منه ، ومعاقبه على عمله إِنَّ اللَّهَ يعلم ما في صدور عباده ، فيفعل بهم على حسبه نُمَتِّعُهُمْ زمانا قَلِيلًا بدنياهم ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ شبه إلزامهم التعذيب

وإرهاقهم إياه باضطرار المضطرّ إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك «1» منه.

والغلظ: مستعار من الأجرام الغليظة. والمراد الشدّة والثقل على المعذب.

[سورة لقمان (31): الآيات 25 إلى 27]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ إلزام لهم على إقرارهم بأنّ الذي خلق السماوات والأرض هو اللّه وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر. وأن لا يعبد معه غيره، ثم قال بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّ ذلك يلزمهم، وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ عن حمد الحامدين المستحق للحمد، وإن لم يحمدوه.

---

(1). قال محمود: «شبه إلزامهم التعذيب باضطرار المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه» قال أحمد:

وتفسير هذا الاضطرار في الحديث في أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد، فيرسل اللّه عليهم الزمهرير.

فيكون عليهم كشدة اللهب، فيتمنون عود اللهب اضطرارا، فهو إخبار عن اضطرار.

وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث يقول :

يرون الموت قداما وخلفا فيختارون والموت اضطرار

(123/610)

قرئ : والبحر ، بالنصب عطفا على اسم إنّ ، وبالرفع عطفا على محل إن ، ومعمولها على .

ولو ثبت « 1 » كون الأشجار أقلاما ، وثبت البحر ممدودا بسبعة أبحر . أو على الابتداء والواو للحال ، على معنى . ولو أنّ الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدودا ، وفي قراءة ابن مسعود :

وبحر يمدّه على التنكير ، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأوّل . وقرئ : يمدّه ، ويمدّه . وبالتاء والياء . فإن قلت : كان مقتضى الكلام أن يقال : ولو أنّ الشجر أقلام ، والبحر مداد . قلت :

أغنى عن ذكر المداد قوله : يمدّه ، لأنه من قولك : مدّ الدواة وأمدّها ، جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادا ، فهي تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع . والمعنى :

ولو أنّ أشجار الأرض أقلام ، والبحر ممدود بسبعة أبحر . وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات اللّه ، لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد ، كقوله تعالى قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي . فإن قلت : زعمت أنّ قوله وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ حال في أحد وجهى الرفع ، وليس فيه ضمير راجع إلى ذى الحال . قلت : هو كقوله :

وقد اغتدى والطّير في وكناتها «2»

و : جئت والجيش مصطف ، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف . ويجوز أن يكون المعنى : وبحرها ، والضمير للأرض . فإن قلت : لم قيل مِنْ شَجَرَةٍ على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر ؟ قلت : أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة ، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاما . فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل . فهلا قيل : كلم اللّه ؟ قلت : معناه أنّ كلماته لا تفي بكتبتها البحار ، فكيف بكلمة ؟

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أنها نزلت جوابا لليهود لما قالوا «قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة» وقيل : إن المشركين قالوا : إنّ هذا يعنون الوحى - كلام سينفد ، فأعلم اللّه أن كلامه لا ينفد . وهذه الآية عند بعضهم مدنية ، وأنها نزلت بعد الهجرة ، وقيل هي مكية ، وإنما أمر اليهود وقد قريش أن يقولوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ألست تتلو

فيما أنزل عليك : أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يعجزه شيء حَكِيمٌ لا يخرج من علمه وحكمته شيء ، ومثله لا تنفد كلماته وحكمه .

---

(1) . قوله «و معمولها على : ولو ثبت» لعله : على معنى ولو . . . الخ . (ع)

(2) وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

لامرئ القيس من معلقته . وقد : للتكثير . والوكنات : جمع وكنة بضمتين ، وبتثليث أوله وسكون ثانيه :

موضع الطير الذي يبيت فيه ، والباء للملابسة ، والمجرد : دقيق الشعر قصيره . أو سريع الجري . وشبه الفرس بالقيد تشبيها بليغا : أى : لا تنفك منه الأوابد : وهي الوحوش ، ولا تفوته هيكل : عظيم الجسم .

(124/610)

[سورة لقمان (31) : آية 28]

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إلا كخلقها وبعثها ، أى : سواء في قدرته القليل والكثير ، والواحد والجمع ، لا يتفاوت ، وذلك أنه إنما كانت تفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد :

أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل ، وقد تعالى عن ذلك إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يسمع كل صوت ويبصر كل مبصر في حالة واحدة ، لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض ، فكذلك الخلق والبعث .

[سورة لقمان (31) : الآيات 29 إلى 30]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

كل واحد من الشمس والقمر يجرى في فلكه ، ويقطعه إلى وقت معلوم : الشمس إلى آخر السنة ، والقمر إلى آخر الشهر . وعن الحسن : الأجل المسمى : يوم القيامة . لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ . دلّ أيضا بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب ، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق : على عظم قدرته وحكمته . فإن قلت : يجرى لأجل مسمى ، ويجرى إلى أجل مسمى : أهو من تعاقب الحرفين ؟ قلت : كلا ، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن «1» . ولكن المعنيين . أعنى الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأنّ قولك يجرى إلى أجل مسمى : معناه يبلغه وينتهى كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض ، لأنّ قولك يجرى إلى أجل مسمى : معناه يبلغه وينتهى إليه . وقولك : يجرى لأجل مسمى : تريد

يجرى لإدراك أجل مسمى ، تجعل الجري مختصا بإدراك أجل مسمى . ألا ترى أن جرى الشمس مختص بآخر السنة ، وجرى القمر مختص بآخر الشهر ، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه ذِلكَ الذي وصف من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون . فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون اللّه ، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته . وأنّ من دونه باطل الإلهية وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الشأن الْكَبِيرُ السلطان . أو ذلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أنّ اللّه هو الحق ، وأنّ إلها غيره باطل ، وأنّ اللّه هو العليّ الكبير عن أن يشرك به .

---

(1) . قوله «إلا بليد الطبع ضيق العطن» في الصحاح : أنه مبرك الإبل عند الماء ، لتشرب عللا بعد نهل . (ع) [. . . . .]

(125/610)

[سورة لقمان (31) : آية 31]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31)

قرئ : الفلك ، بضم اللام . وكل فعل : يجوز فيه فعل ، كما يجوز في كل فعل فعل ، على

مذهب التعويض . وبنعمات اللّه : بسكون العين . وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون بِنِعْمَتِ اللَّهِ بإحسانه ورحمته صَبَّارٍ على بلائه شَكُورٍ لنعمائه ، وهما صفتا المؤمن ، فكأنه قال : إنّ في ذلك لآيات لكل مؤمن .

[سورة لقمان (31) : آية 32]

وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

يرتفع الموج ويتراكب ، فيعود مثل الظلل ، والظلة : كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ : كالظلال ، جمع ظلة ، كقلة وقلال فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ متوسط في الكفر والظلم ، خفض من غلوائه ، وانزجر بعض الانزجار . أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر ، يعنى أنّ ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف ، لا يبقى لأحد قط ، والمقتصد قليل نادر . وقيل : مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه اللّه في البحر . والختر : أشدّ الغدر .

ومنه قولهم : إنك لا تمدّ لنا شبرا من غدر إلا مددنا لك باعا من ختر ، قال :

وإنّك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر «1»

[سورة لقمان (31) : آية 33]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)

لا يَجْزِي لا يقضى عنه شيئا . ومنه قيل للمتقاضى : المتجازى . وفي الحديث في جذعة

---

(1) . الغدر : أشد الختر . وروى : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رأى رجلا عد بأصابع يده اليمنى : سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، وبأصابع اليسرى : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ملأت يديك خيرا ، شبه المعقول بالمحسوس على سبيل المكنية . وملء اليدين : تخييل ، وذكرهما لأن الرجل عد بهما ، فضربه الشاعر مثلا لحال أبى عمير ومن يراه على سبيل الاستعارة التمثيلية التهكمية ، فان من رآه وعد معايبه ، كأنه ملأ يديه شرا لا خيرا ، وحذف العد إشارة إلى أنه بمجرد الرؤية يحصل ذلك .

(126/610)

ابن نيار : تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك «1» . وقرئ : لا يجزئ : لا يغنى «2» .

يقال :

أجزأت عنك مجزأ فلان . والمعنى : لا يجزى فيه ، فحذف الْغَرُورُ الشيطان . وقيل : الدنيا وقيل : تمنيكم في المعصية المغفرة . وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : الغرّة باللّه : أن يتمادى الرجل في المعصية ويتمنى على اللّه المغفرة . وقيل : ذكرك لحسناتك ونسيانك

لسيئاتك غرّة .

وقرئ بضم الغين وهو مصدر غره غرورا ، وجعل الغرور غارّا ، كما قيل : جدّ جدّه ، أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور . فإن قلت : قوله وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف «3» عليه . قلت : الأمر كذلك ، لأنّ الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، وقد انضم إلى ذلك قوله هُوَ وقوله مَوْلُودٌ والسبب في مجيئه على هذا السنن : أنّ الخطاب للمؤمنين وعليتهم «4» : قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلى ، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم : أن ينفعوا آباءهم في الآخرة ، وأن يشفعوا لهم ، وأن يغنوا عنهم من اللّه شيئا ، فلذلك جيء به على الطريق الآكد . ومعنى التوكيد في لفظ المولود : أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه ، لم تقبل شفاعته ، فضلا أن يشفع لمن فوقه من أجداده ، لأنّ الولد يقع على الولد وولد الولد ، بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك .

[سورة لقمان (31) : آية 34]

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

روى أنّ رجلا من محارب وهو الحرث بن عمرو بن حارثة أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه ، أخبرنى عن الساعة متى قيامها ، وإنى قد ألقيت حباتى في الأرض

وقد

---

(1) . تقدم في أوائل البقرة .

(2) . قوله «و قرئ لا يجزئ لا يغنى» لعله : أى لا يغنى . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت : لم أكد الجملة الثانية دون الأولى ؟ قلت : لأن أكثر المسلمين كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر ، فلما كان إغناء الكافر عن المسلم بعيدا لم يحتج تأكيدا ، ولما كان إغناء المسلم عن الكافر قد يقع في الأوهام أكد نفيه» قال أحمد : وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصا بالموجودين حينئذ ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس ، فالجواب المعتبر – والله أعلم – أن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء ، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل ، وأوجب على الولد أن يكتفى والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ها هنا وهم الوالد في ان يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه ، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه ، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع – لأن الله حضه عليه في الدنيا – كان جديرا بتأكيد النفي لازالة هذا الوهم ، ولا كذلك العكس ، فهذا جواب كاف شاف للعليل ، إن شاء الله تعالى .

(4) . قوله «و عليتهم» أى أشرافهم وعظماؤهم . (ع)

أبطأت عنا السماء ، فمتى تمطر ؟ وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها ، أذكر أم أنثى ؟

وإني علمت ما علمت أمس ، فما أعمل غدا ؟ وهذا مولدي قد عرفته ، فأين أموت «1» ؟ فنزلت وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «مفاتح الغيب خمس» «2» وتلا هذه الآية . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب ، إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار . وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدّة عمره ، فرأى في منامه كأن خيالا أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس ، فاستفتى العلماء في ذلك ، فتأوّلوها بخمس سنين ، وبخمسة أشهر ، وبغير ذلك ، حتى قال أبو حنيفة رحمه اللّه : تأويلها أنّ مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه ، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أيان مرساها وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ في إبانه من غير تقديم ولا تأخير ، وفي بلد لا يتجاوزه به وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ أذكر أم أنثى ، أتام أم ناقص ، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال وَما تَدْرِي نَفْسٌ برّة أو فاجرة ما ذا تَكْسِبُ غَداً من خير أو شر ، وربما كانت عازمة على خير فعملت شرا ، وعازمة على شر فعملت خيرا

وَما تَدْرِي نَفْسٌ أين تموت ، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت : لا أبرحها وأقبر فيها ، فترمى بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ، ولا حدّثتها به ظنونها .

وروى أنّ ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فقال الرجل من هذا ؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه يريدني . وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ، ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجبا منه ، لأنى أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك «3» . وجعل العلم للّه والدراية للعبد ، لما في الدراية من معنى الختل والحيلة .

والمعنى : أنها لا تعرف – وإن أعملت حيلها – ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ، ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته ، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما ، كان من معرفة ما عداهما أبعد . وقرئ : بأية أرض . وشبه سيبويه تأنيث «أىّ» بتأنيث «كل» في قولهم : كلتهنّ .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر «4» .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 499 . 505﴾

---

(1) . هكذا ذكره الواحدي والثعلبي بغير سند . وأخرجه الطبري وابن أبى حاتم من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد ، قال «جاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد إن امرأتى

حبلى فأخبرني متى تلد ؟ فذكره»

(2) . أخرجه البخاري من حديث ابن عمر

(3) . موقوف . رواه أحمد في الزهد وابن أبي شيبة قالا حدثنا عبد اللّه بن نمير عن الأعمش عن خيثمة عن شهر بن حوشب قال «دخل ملك الموت ، فذكره»

(4) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب .

(128/610)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ومن يُسْلِمْ وجهه ﴾

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو العالية ، وقتادة : ﴿ ومن يُسَلِّم ﴾ بفتح السين وتشديد اللام .

وذكر المفسرون أن قوله : ﴿ ومن كَفَرَ فلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ﴾ منسوخ بآية السيف ، ولا يصح ، لأنه تسلية عن الحُزن ، وذلك لا ينافي الأمر بالقتال .

وما بعد هذا قد تقدم تفسير ألفاظه في مواضع [هود : 48 ، العنكبوت : 61 ، البقرة : 267] إلى قوله : ﴿ ولو أَنَّما في الأرض مِنْ شجرة أقلامٌ ﴾ وفي سبب نزولها قولان .

أحدهما : " أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتَ قول الله عز وجل : ﴿ وما أُوتيتم من العِلْم إلاَّ قليلاً ﴾ [الاسراء : 85] ، إيَّانا يريد ، أم قومك ؟ فقال : "كُلاًّ" ، فقالوا : ألستَ تتلو فيما جاءك أنَّا قد أوتينا التوراة فيها تِبيانُ كل شيء ؟ فقال : "إنَّها في عِلْم الله قليل" " ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أن المشركين قالوا في القرآن : إنَّما هو كلام [يوشك أن] يَنْفَد وينقطع ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

ومعنى الآية : لو كانت شجر الأرض أقلاماً ، وكان البحر ومعه سبعة أبحر مِداداً – وفي الكلام محذوف تقديره : فكُتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله – لتكسَّرت الأقلامُ ونَفِذت البحور ، ولم تَنْفَذ كلماتُ الله ، أي : لم تنقطع .

فأما قوله : ﴿ والبَحْرُ ﴾ فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ والبَحْرُ ﴾ بالرفع ، ونصبه أبو عمرو .

وقال الزجاج : من قرأ : ﴿ والبَحْرَ ﴾ بالنصب ، فهو عطف على "ما" ؛ المعنى : ولو أن ما في الأرض ، ولو أن البحر ؛ والرفع حسن على معنى : والبحرُ هذه حالُه .

(129/610)

قال اليزيدي : ومعنى ﴿ يَمُدُّهُ مِنْ بَعده ﴾ : يزيد فيه ؛ يقال : مُدَّ قِدْرَكَ ، أي : زِدْ في مائها ، وكذلك قال ابن قتيبة : ﴿ يَمُدُّه ﴾ من المِداد ، لا من الإِمداد ، يقال : مَدَدْتُ دواتي بالمِداد ، وأَمددتُه بالمال والرجال .

قوله تعالى : ﴿ ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إِلا كنَفْس واحدة ﴾ سبب نزولها أن أُبيَّ بن خلف في آخرين من قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الله خلقنا أطواراً : نطفة ، علقة ، مضغة ، عظاماً ، لحماً ، ثم تزعم أَنَّا نُبْعَث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة ؟ ! فنزلت هذه الآية ومعناها : ما خَلْقُكم أيُّها الناس جميعاً في القُدرة إِلا كخَلْق نفس واحدة ، ولا بَعْثُكم جميعاً في القُدرة إِلا كبعث نفس واحدة ، قاله مقاتل .

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [آل عمران : 27 ، الرعد : 2 ، الحج : 62] إلى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْك تجري في البحر بِنعمة الله ﴾ قال ابن عباس : من نِعَمه جريان الفُلْك ﴿ لِيُرِيَكم من آياته ﴾ أي : لِيُرِيَكم من صنعته عجائبه في البحر ، وابتغاء الرزق ﴿ إِنَّ في ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ قال مقاتل : أي : لكل صبور على أمر الله ﴿ شكورٍ ﴾ في نِعَمه .

قوله تعالى : ﴿ وإِذا غَشِيَهم ﴾ يعني الكفار ؛ وقال بعضهم : هو عامّ في الكفار والمسلمين ﴿ موجٌ كالظُّلَل ﴾ قال ابن قتيبة : وهي جمع ظُلَّة ، يراد أنَّ بعضه فوق بعض ، فله سوادٌ من كثرته .

قوله تعالى : ﴿ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ له الدّين ﴾ وقد سبق شرح هذا [يونس : 22] ؛ والمعنى أنهم لا يذكُرون أصنامهم في شدائدهم إنما يذكُرون الله وحده ، وجاء في الحديث أن عكرمة بن ابي جهل لمَّا هرب يوم الفتح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أهل السفينة : أَخْلِصوا ، فإن آلهتكم لا تُغْني عنكم شيئاً هاهنا ، فقال عكرمة : ما هذا الذي تقولون ؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلاَّ اللّهُ ، فقال : هذا إله محمد الذي كان يدعونا إليه ، لَئن لم ينجني في البحر إلاَّ الإخلاص ما ينجيني في البَرّ غيرُه ، ارجعوا بن ، فرجَع فأسلم .

قوله تعالى : ﴿ فمِنهم مُقْتَصِدٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مؤمن ، قاله الحسن .

والثاني : مقتصد في قوله ، وهو كافر ، قاله مجاهد .

يعني أنه يعترف بأن الله وحده القادر على إنجائه وإن كان مُضْمِراً للشّرك .

والثالث : أنه العادل في الوفاء بما عاهد اللّهَ عليه في البحر من التوحيد ، قاله مقاتل .

فأما ﴿ الخَتَّار ﴾ فقال الحسن : هو الغدَّار .

قال ابن قتيبة : الخَتْرُ : أقبح الغَدْر وأشدُّه .

قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاس اتَّقُوا ربّكم ﴾ قال المفسرون : هذا خطاب لكفار مكة .

وقوله : ﴿ لا يَجزي والدٌ عن ولده ﴾ أي : لا يقضي عنه شيئاً من جنايته ومظالمه .

قال مقاتل : وهذا يعني به الكفار .

وقد شرحنا هذا في [البقرة : 48] .

قال الزجاج : وقوله : ﴿ هو جازٍ ﴾ جاءت في المصاحف بغير ياء ، والأصل ﴿ جازيٌ ﴾ بضمة وتنوين .

وذكر سيبويه والخليل أن الاختيار في الوقف هو ﴿ جازٍ ﴾ بغير ياءٍ ، هكذا وقف الفصحاء من العرب ليُعلموا أن هذه الياء تسقُط في الوصل .

وزعم يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقف بياءٍ ، ولكن الاختيار اتِّباع المصحف .

(131/610)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي : بالبعث والجزاء ﴿ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا ﴾ بزينتها عن الإِسلام والتزوُّد للآخرة ﴿ ولا يَغُرَّنَّكم بالله ﴾ أي : بحِلْمه وإِمهاله ﴿ الغَرورُ ﴾ يعني : الشيطان ، وهو الذي من شأنه أن يَغُرَّ .

قال الزجاج : ﴿ الغَرور ﴾ على وزن الفَعول ، وفَعول من أسماء المبالغة ، يقال : فلان أَكُول : إِذا كان كثير الأكل ، وضَروب : إِذا كان كثير الضَّرْب ، فقيل للشيطان : غَرور ، لأنه يَغُرُّ

كثيراً .

وقال ابن قتيبة : الغَرور بفتح الغين : الشيطان ، وبضمها : الباطل .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله عنده عِلْم الساعة ﴾ سبب نزولها " أن رجلاً من أهل البادية جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إِنَّ امرأتي حُبْلى ، فأَخبِرني ماذا تَلِد ؟ وبلدنا مُجْدِب ، فأَخبِرني متى يَنزل الغيث ؟ وقد علمت متى وُلدتُ ، فأخبرني متى أموتُ " ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

ومعنى الآية : ﴿ إِنَّ الله ﴾ عز وجل ﴿ عنده عِلْم الساعة ﴾ متى تقوم ، لا يعلم سواه ذلك ﴿ ويُنْزِلُ الغَيْثَ ﴾ وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ ويُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد ، فلا يعلم أحد متى يَنزل الغيث ، أَلَيْلاً أم نهاراً ﴿ ويَعْلَمُ ما في الأرحام ﴾ لا يعلم سواه ما فيها ؛ أذكراً أم أنثى ، أبيض أو أسود ﴿ وما تَدري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً ﴾ أخيراً أم شرّاً ﴿ وما تَدري نَفْس بأيِّ أرض تموت ﴾ أي : بأيِّ مكان .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، وابن أبي عبلة : ﴿ بأَيَّة أرض ﴾ بتاء مكسورة .

والمعنى : ليس أحد يعلم [أين] مضجعه من الأرض حتى يموت ، أفي برٍّ أو بحر أو سهل أو جبل .

وقال أبو عبيدة : [يقال] : بأيِّ أرض كنتَ ، وبأية أرض كنت ، لغتان .

وقال الفراء : من قال : بأيِّ أرض ، اجتزأ بتأنيث الأرض من أن يُظهر في "أيّ" تأنيثاً آخر .

قال ابن عباس : هذه الخمس لا يعلمها ملَك مقرَّب ولا نبيٌّ [مرسَل] مصطفى .

قال الزجاج : فمن ادَّعى أنه يعلم شيئاً من هذه كفر بالقرآن لأنه خالفه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(132/610)

وقال ابن جزى :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾

يسلم أي يخلص أو يستسلم أو ينقاد ، والوجه هنا عبارة عن القصد ﴿ بالعروة الوثقى ﴾ ذكر في البقرة .

﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ وما بعده ذكر في العنكبوت .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ الآية إخبار بكثرة كلمات الله ، والمراد اتساع علمه ومعنى الآية : أن شجر الأرض لو كانت أقلاماً ، والبحر لو كان مداداً يصب فيه سبعة أبحر صَبّاً دائماً وكتبت بذلك كلمات الله لنفدت الأشجار والبحار ولم تنفد كلمات الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية ، وكلمات الله غير متناهية ، فإن قيل : لم لم يقل والبحر مداداً كما قال في الكهف قل لو كان البحر مدداً ؟ فالجواب : أنه أغنى من ذلك قوله : ﴿

يَمُدُّهُ ﴾ لأنه من قولك مدّ الدواة وأمدّها ، فإن قيل لم قال : ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ ولم يقل من شجر باسم الجنس الذي يقتضي العموم ؟ فالجواب أنه أراد تفصيل الشجر إلى شجرة شجرة حتى لا يبقى منها واحدة ، فإن قيل : لم قال ﴿ كَلِمَاتُ الله ﴾ ولم يقل كلم الله بجمع الكثرة ؟ فالجواب أن هذا أبلغ لأنه إذا لم تنفد الكلمات مع أنه جمع قلة ، فكيف ينفد الجميع الكثير . وروي أن سبب الآية أن اليهود قالوا : قد أوتينا التورات وفيها العلم كله فنزلت الآية ؛ لتدل أن ما عندهم قليل من كثير ، والآية على هذا مدنية ، وقيل : أن سببها إن قريشاً قالوا إن القرآن سينفد .

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ بيان لقدرة الله على بعث الناس وردّ على من استبعد ذلك .

﴿ يُولِجُ الليل فِي النهار ﴾ أي يدخل كلاً منهما في الآخر بما يزيد في أحدهما وينقص من الآخر ، أو بإدخال ظلمة الليل على ضوء النهار وإدخال ضوء النهار على ظلمة الليل ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله ﴾ يحتمل أن تكون الباء سببية ، أو يكون المعنى ذلك بأن الله شاهد هو الحق .

﴿ بِنِعْمَةِ اللهِ ﴾ يحتمل أن يريد بذلك ما تحمله السفن من الطعام والتجارات ، والباء للإلصاق أو للمصاحبة ، أو يريد الريح فتكون الباء سببية ﴿ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ مبالغة في صابر وشاكر .

﴿ كالظلل ﴾ جمع ظلة وهو ما يعلوك من فوق ، شبَّه الموج بذلك إذا ارتفع وعظم حتى علا فوق الإنسان ﴿ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ المقتصد المتوسط في الأمر ، فيحتمل أن يريد كافراً متوسطاً في كفره لم يسرف فيه أو مؤمناً متوسطاً في إيمانه ، لأن الإخلاص الذي عليه في البحر كان يزول عنه ، وقيل : معنى مقتصد مؤمن ثبت في البر على ما عاهد الله عليه في البحر ﴿ خَتَّارٍ ﴾ أي غدّار شديد الغدر ، وذلك أنه جحد نعمة الله غدراً .

﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ أي لا يقضي عنه شيئاً ، والمعنى ، أنه لا ينفعه ولا يدفع عنه مضرة ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ ﴾ أي ولد فكما لا يقدر الوالد لولده على شيء ، كذلك لا يقدر الولد لوالده على شيء ﴿ الغرور ﴾ الشيطان وقيل : الأمر والتسويف .

﴿ عِلْمُ الساعة ﴾ أي متى تكون ، فإن ذلك مما انفرد الله بعلمه ، ولذلك جاء في الحديث : " مفاتح الغيب خمس " وتلا هذه الآية ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ يعني من خير أو شر أو ما أو ولد أو غير ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 127 . 129 ﴾

وقال الخازن :

قوله ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾

أي يخلص لله دينه ويفوض إليه أمره ﴿ وهو محسن ﴾ أي في عمله ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخلف عهده ولا يخاف انقطاعه ويرتقي بسببه إلى أعلى المراتب والغايات ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ أي مصير جميع الأشياء إليه ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم .

قوله تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ أي نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا إلى انقضاء آجالهم ﴿ ثم نضطرهم ﴾ أي نلجئهم ونردهم ﴿ إلى عذاب غليظ ﴾ إلى النار في الآخرة ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد الله بل أكثرهم لا يعلمون لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ قال المفسرون لما نزلت بمكة ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الآية وهاجر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا " يا محمد بلغنا أنك تقول ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ أتعنينا أم قومك فقال كلا قد عنيت قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هي في علم الله قليل وقد أتاكم الله بما إن علمتم به انتفعتم به قالوا كيف تزعم هذا وأنت تقول ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير " فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا تكون هذه الآية مدنية وقيل إن اليهود أمروا وفد قريش أن يسألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويقولوا له ذلك وهو بمكة وقيل إن المشركين قالوا إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فأنزل الله تعالى ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ أي بريت أقلاماً وقيل بعدد كل شجرة قلم ﴿ والبحر يمده ﴾ أي يزيده وينصب إليه ﴿ من بعده سبعة أبحر ﴾ أي مداداً والخلائق يكتبون به كلام الله ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ لأنها لا نهاية لها ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ .

قوله تعالى ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها لا يتعذر عليه شيء ﴿ إن الله سميع ﴾ أي لأقوالكم ﴿ بصير ﴾ بأعمالكم ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى

وأن الله بما تعملون خبير ذلك بأن الله هو الحق ﴾ يعني ذلك الذي هو قادر على هذه الأشياء التي ذكرت هو الحق المستحق للعبادة ﴿ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ يعني لا يستحق العبادة ﴿ وأن الله هو العلي ﴾ يعني في صفاته له الصفات العليا والأسماء الحسنى ﴿ الكبير ﴾ في ذاته أنه أكبر من كل كبير.

(136/610)

قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الفلك ﴾ يعني السفن والمراكب ﴿ تجري في البحر بنعمة الله ﴾ يعني ذلك من نعمة الله عليكم ﴿ فيريكم من آياته ﴾ يعني من عجائب صنائعه ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار ﴾ يعين على ما أمر الله ﴿ شكور ﴾ لإنعامه ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ يعني كالجبال وقيل كالسحاب شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها ﴿ دعو الله مخلصين له الدين ﴾ معناه أن الإنسان إذا وقع في شدة ابتهل إلى الله بالدعاء وترك كل من عداه ونسي جميع ما سواه فاذا نجا من تلك الشدة فمنهم من يبقى على تلك الحالة وهو المقتصد وهو قوله تعالى ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ يعني عدل موفٍ في البر بما عاهد عليه الله في البحر من التوحيد والثبوت على الإيمان وقيل نزلت في عكرمة بن أبي جهل وذلك أنه هرب عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة : لئن أنجانا

الله من هذا لأرجعن إلى محمد صلى الله عليه سلم ولأضعن يده في يدي فسكت الريح ورجع عكرمة إلى مكة وأسلم وحسن إسلامه ومنهم من لم يوف بما عاهد وهو المراد بقوله ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار ﴾ يعني غدار ﴿ كفور ﴾ يعني جحود لأنعمنا عليه .

(137/610)

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ يعني خافوا ربكم ﴿ وأخشوا ﴾ يعني وخافوا ﴿ يوماً لا يجزي ﴾ يعني لا يقضي ولا يغني ﴿ والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ قيل معنى الآية إن الله ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد فنبه بالأعلى على الأدنى وبالأدنى على الأعلى فالوالد يجزي عن ولده لكمال شفقته عليه والولد يجزي عن والده لما له من حق التربية وغيرها فإذا كان يوم القيامة فكل إنسان يقول نفسي ولا يهتم بقريب ولا بعيد كما قال ابن عباس كل امرىء تهمه نفسه ﴿ إن وعد الله حق ﴾ قيل إنه تحقيق اليوم معناه اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن بوعد الله به ووعده حق وقيل الآية تحقيق بعدم الجزاء يعني لا يجزي والد عن ولده في ذلك اليوم والقول الأول أحسن وأظهر ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ يعني لأنها فانية ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ يعني الشيطان : قال سعيد بن جبير يعمل بالمعاصي ويتمنى المغفرة .

قوله تعالى ﴿ إن الله عنده علم الساعة الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن حفصة من أهل البادية أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فسأله عن الساعة ووقتها وقال إن أرضنا أجدبت فقل لي متى ينزل الغيث وتركت امرأتي حبلى فمتى تلد ولقد علمت أين ولدت فبأي أرض أموت فأنزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " مفاتيح الغيب خمس إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير " ومعنى الآية إن الله عنده علم الساعة فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو أي شهر أو أي يوم ليلاً أو نهاراً ﴿ وينزل الغيث ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً إلا الله ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ أذكر أم أنثى أحمر أم أسود تام الخلقة أم ناقص ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ من خير أو شر ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ يعني ليس أحد من الناس يعلم أين مضجعه من الأرض في بر أو بحر في سهل أو جبل ﴿ إن الله عليم ﴾ يعني بهذه الأشياء وبغيرها ﴿ خبير ﴾ أي ببواطن الأشياء كلها ليس علمه محيطاً بالظاهر فقط بل علمه محيط بالظاهر والباطن قال ابن

عباس : هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مصطفى فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الأمور فإنه كفر بالقرآن لأنه خالفه والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 218.220 ﴾

(139/610)

وقال النسفى :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله ﴾

عدِّي هنا ب "إلى" ، وفي ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 112] باللام فمعناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله أي خالصاً له ، ومعناه مع "إلى" أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه والمراد التوكل عليه والتفويض إليه ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ فيما يعمل ﴿ فَقَدِ استمسك ﴾ تمسك وتعلق ﴿ بالعروة ﴾ هي ما يعلق به الشيء ﴿ الوثقى ﴾ تأنيث الأوثق مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ أي هي صائرة إليه فيجازي عليها ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ ولم يسلم وجهه لله ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ من حزن ، ﴿ يُحزِنك ﴾ نافع من أحزن أي لا يهمنك كفر من كفر ﴿

إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ فنعاقبهم على أعمالهم ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ إن الله يعلم ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسبه

﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ زماناً ﴿ قَلِيلاً ﴾ بدنياهم ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ نلجئهم ﴿ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطر إلى الشيء ، والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة والمراد ، الشدة والثقل على المعذب ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده ، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره .

ثم قال ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم يتنبهوا ﴿ لِلَّهِ مَا فِى السماوات والأرض إِنَّ الله هُوَ الغنى ﴾ عن حمد الحامدين ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمدوه .

(140/610)

قال المشركون : إن هذا أي الوحي كلام سينفذ فأعلم الله أن كلامه لا ينفذ بقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾

والبحر بالنصب أبو عمرو ويعقوب عطفاً على اسم "أن" وهو "ما" ، والرفع على محل "أن" ومعمولها أي ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر ، أو على الابتداء والواو للحال على معنى : ولو أن الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدوداً وقرىء يُمِدّهُ وكان مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد ، لكن أغنى عن ذكر المداد قوله ﴿ يمده ﴾ لأنه من قولك "مد الدواة وأمدها" جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً فهي تصب فيه مدادها أبداً صباً لا ينقطع .

والمعنى : ولو أن أشجار الأرض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته وتفدت الأقلام والمداد كقوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لكلمات رَبِّى لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبِّى ﴾ [الكهف : 109]

فإن قلت : زعمت أن قوله ﴿ والبحر يمده ﴾ حال في أحد وجهي الرفع وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال .

قلت : هو كقولك "جئت والجيش مصطف" وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف .

وإنما ذكر شجرة على التوحيد لأنه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاماً ، وأوثر الكلمات وهي جمع قلة على الكلم وهي جمع كثرة لأن معناه أن كلمات لا تفي بكتبتها لبحار فكيف بكلمه ﴿ أَنَّ

الله عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شيء فلا تنفد كلماته وحكمه

(141/610)

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ إلا كخلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة فحذف للعلم به أي سواء في قدرته القليل والكثير فلا يشغله شأن عن شأن ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ لقول المشركين إنه لا بعث ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بأعمالهم فيجازيهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُولِجُ الليل فِى النهار ﴾ يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار إذا أقبل الليل ﴿ وَيُولِجُ النهار فِى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ لمنافع العباد ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِى ﴾ في فلكه ويقطعه ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى يوم القيامة أو إلى وقت معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر ﴿ وَأَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وبالياء : عياش .

دل أيضاً بتعاقب الليل والنهار وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين في فلكيهما على تقدير وحساب وبإحاطته بجميع أعمال الخلق على عظم قدرته وكمال حكمته ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ ﴾ بالياء : عراقي غير أبي بكر ﴿ مِن دُونِهِ الباطل وَأَنَّ الله هُوَ

العلى الكبير ﴾ أي ذلك الوصف الذي وصف به من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون ، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله ! إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت الإلهية وأن من دونه باطل الإلهية وأنه هو العلي الشأن الكبير السلطان .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك ﴾ وقريء ﴿ الفلك ﴾ وكل فُعْل يجوز فيه فعل كما يجوز في كل فُعُل فُعْل ﴿ تَجْرِى فِي البحر بنعمت الله ﴾ بإحسانه ورحمته أو بالريح لأن الريح من نعم الله ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته ﴾ عجائب قدرته في البحر إذا ركبتموها ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على بلائه ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعمائه ، وهما صفتا المؤمن فالإيمان نصفان : نصفه شكر ونصفه صبر فكأنه قال : إن في ذلك لآيات لكل مؤمن .

(142/610)

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي الكفار ﴿ مَّوْجٌ كالظلل ﴾ الموج يرتفع فيعود مثل الظلل والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما ﴿ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي باقٍ على الإيمان والإخلاص الذي كان منه ولم يعد إلى الكفر ، أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر يعني أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف

لا يبقى لأحد قط والمقتصد قليل نادر ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا ﴾ أي بحقيقتها ﴿ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدار والختر أقبح الغدر ﴿ كَفُورٌ ﴾ لربه ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ لا يقضي عنه شيئاً والمعنى لا يجزيء فيه فحذف ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه لأن الجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله ﴿ هو ﴾ وقوله ﴿ مولود ﴾ والسبب في ذلك أن الخطاب للمؤمنين وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر فأريد حسم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة.

ومعنى التأكيد لفظ المولود أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لأجداده إذ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك كذا في الكشاف ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بالبعث والحساب والجزاء ﴿ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ﴾ بزينتها فإن نعمتها دانية ولذتها فانية ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ الشيطان أو الدنيا أو الأمل.

(143/610)

﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ أي وقت قيامها ﴿ وَيُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد : شامي ومدني وعاصم ، وهو عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل تقديره : إن الله يثبت عنده علم الساعة وينزل ﴿ الغيث ﴾ في إبّانه من غير تقديم ولا تأخير ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي وَأُوْلُو الأرحام ﴾ أذكر أم أنثى وتام أم ناقص ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ ﴾ برة أو فاجرة ﴿ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شراً وعازمة على شر فعملت خيراً ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أي أين تموت ؟ وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت لا أبرحها فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها .

روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل : من هذا ؟ فقال له : ملك الموت .

قال : كأنه يريدني وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ثم قال ملك الموت لسليمان : كان دوام نظري إليه تعجباً منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك .

وجعل العلم لله والدارية للعبيد لما في الدارية من معنى الختل والحيلة ، والمعنى أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته ، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان معرفة ما عداهما أبعد وأما المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر في الطالع وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً على أنه مجرد

الظن والظن غير العلم .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم " مفاتح الغيب خمس " وتلا هذه الآية .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من ادّعى علم هذه الخمسة فقد كذب .

(144/610)

ورأى المنصور في منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمسة أشهر وبخمسة أيام فقال أبو حنيفة رضي الله عنه : هو إشارة إلى هذه الآية ، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بالغيوب ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما كان ويكون .

وعن الزهريّ رضي الله تعالى عنه : أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفي حـ 3 صـ 283.286 ﴾

(145/610)

وقال البيضاوى :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله ﴾

بأن فوض أمره إليه وأقبل بشراشره عليه من أسلمت المتاع إلى الزبون ، ويؤيده القراءة بالتشديد وحيث عدى باللام فلتضمن معنى الإخلاص . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في عمله . ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ تعلق بأوثق ما يتعلق به ، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه . ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ إذ الكل صائر إليه .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة ، وقرىء ﴿ فَلاَ يَحْزُنْكَ ﴾ من أحزن وليس بمستفيض . ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ في الدارين . ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ بالإهلاك والتعذيب . ﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ فمجازٍ عليه فضلاً عما في الظاهر .

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ تمتيعاً أو زماناً قليلاً فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل . ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ أو يضم إلى الإحراق الضغط .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذاعته . ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على إلزامهم والجائهم إلى

الإعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك يلزمهم .

﴿ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾ لا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿ إِنَّ الله هُوَ الغنى ﴾ عن حمد الحامدين . ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمد .

(146/610)

﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ﴾ ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً ، وتوحيد ﴿ شَجَرَةٍ ﴾ لأن المراد تفصيل الآحاد . ﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ والبحر المحيط بسعته مداداً ممدوداً بسبعة أبحر ، فأغنى عن ذكر المداد بمده لأنه من مد الدواة وأمدها ، ورفعه للعطف على محل أن ومعموليها وبمده حال أو للابتداء على أنه مستأنف أو الواو للحال ، ونصبه البصريان بالعطف على اسم ﴿ أَن ﴾ أو إضمار فعل يفسره ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ ، وقرىء "تمده" "ويمده" بالياء والتاء .

﴿ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد وإيثار جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير . ﴿ أَنَّ الله عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شيء . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر ، والآية جواب لليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

وقد أنزل التوراة وفيها علم كل شيء .

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة ﴾ إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن لأنه يكفي لوجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية كما قال ﴿ إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ يسمع كل مسموع ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يبصر كل مبصر لا يشغله إدراك بعضها عن بعض فكذلك الحق .

(147/610)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِى ﴾ كل من النيرين يجري في فلكه . ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى منتهى معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر . وقيل إلى يوم القيامة والفرق بينه وبين قوله ﴿ لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أن ال ﴿ أَجَلٌ ﴾ ها هنا منتهى الجري وثمة غرضه حقيقة أو مجازاً وكلا المعنيين حاصل في الغايات . ﴿ وَأَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم بكنهه .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الذي ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها . ﴿ بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته ، أو الثابت إلهيته . ﴿ وَأَنَّ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل ﴾ المعدوم في حد

ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله أو الباطل إلهيته ، وقرأ البصريان والكوفيون غير أبي بكر بالياء . ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلى الكبير ﴾ مترفع على كل شيء ومتسلط عليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِى فِى البحر بِنِعْمَةِ الله ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وكمال حكمه وشمول إنعامه والباء للصلة أو الحال ، وقرىء ﴿ الفلك ﴾ بالتثقيل و"بنعمات الله" بسكون العين ، وقد جوز في مثله الكسر والفتح والسكون . ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءاياته ﴾ دلائله . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على المشاق فيتعب نفسه بالتفكر في الأفاق والأنفس . ﴿ شَكُورٍ ﴾ يعرف النعم ويتعرف مانحها ، أو للمؤمنين فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر .

(148/610)

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ ﴾ علاهم وغطاهم . ﴿ مَّوْجٌ كالظلل ﴾ كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما ، وقرىء كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال . د ﴿ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد . ﴿ فَلَمَّا نجاهم إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ مقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد ، أو متوسط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدار فإنه نقض

للعهد الفطري ، أو لما كان في البحر والختر أشد الغدر . ﴿ كَفُورٌ ﴾ للنعم .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ لا يقضي عنه ، وقرىء "لا يجزىء" من أجزأ إذا أغنى والراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزى فيه . ﴿ وَلاَ مَوْلُودٌ ﴾ عطف على ﴿ وَالِدٌ ﴾ أو مبتدأ خبره . ﴿ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي ، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة . ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بالثواب والعقاب . ﴿ حَقّ ﴾ لا يمكن خلفه . ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصي .

(149/610)

﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾

علم وقت قيامها . لما روي أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : متى قيام الساعة ؟ وإني قد ألقيت حباتي في الأرض فمتى السماء تمطر ؟ وحمل امرأتي أذكر أم أنثى ؟ وما أعمل غداً وأين أموت ؟ فنزلت . وعنه عليه الصلاة والسلام " مفاتح الغيب خمس " وتلا هذه الآية . ﴿ وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ في إبانه المقدر له والمحل المعين له في

علمه ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأرحام ﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص . ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ من خير أو شر وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه . ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت . روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظم إليه ، فقال الرجل من هذا ؟ قال : ملك الموت فقال كأنه يريدني فمر الريح أن تحملني وتلقيني بالهند ففعل فقال الملك : كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك" ، وإنما جعل العلم لله تعالى والدراية للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العلمين ، ويدل على أنه إن أعمل حيلة وأنفذ فيها وسعه لم يعرف ما هو الحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه ، وقرىء "بأية أرض" وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل في ﴿ كُلُّهُنَّ ﴾ .

﴿ إِنَّ الله عَلِيمٌ ﴾ يعلم الأشياء كلها . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها .

وعنه عليه الصلاة والسلام " من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة ، وأعطي من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 349 . 353 ﴾

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾

التفسير : لما ذكر أن معرفة الصانع غير مختصة بالنبوة ولكنها توافق الحكمة ايضاً ، ولو كانت تعبداً محضاً للزم قبوله ، كيف وإنها توافق المعقول ، أعاد الاستدلال بالأمور المشاهدة الآفاقية والأنفسية . ومعنى ﴿ سخر لكم ﴾ لأجلكم كما مر في سورة إبراهيم من قوله ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ [إبراهيم : 33] الآية ومعنى ﴿ اسبغ ﴾ أتم ، والنعم الظاهرة كل ما يوجد للحس الظاهر إليه سبيل ومن جملتها الحواس أنفسها . والباطنة مالا يدرك إلا بالحس الباطن أو بالعقل أو لا يعلم أصلاً . ومن المفسرين من يخص ، فعن مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء ظاهراً ، والباطنة إمداد الملائكة . وعن الضحاك : الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة والعلم .

وقيل : النفس . ثم ذكر أن بعض الناس يجادلون في الله بعد ظهور الدلائل على وحدانيته وقد مر في أول " الحج " . ثم ذكر أنه لا مستند له في ذلك إلا التقليد ، ثم وبخه على جهله وتقليده بأنه يتبع سبيل الشيطان ولو دعاه إلى النار قائلاً ﴿ أولو كان ﴾ إلخ . ومعناه

أيتبعونهم ولو كان كذا ؟ ثم اراد أن يفصل حال المؤمن والكافر بعض التفصيل فقال ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾ وهو نظير قوله في " البقرة " ﴿ بلى من أسلم وجهه لله ﴾ [الآية : 112] والفرق أن معناه مع " إلى " يرجع إلى التفويض والتسليم ، ومع اللام يؤل إلى الإخلاص والإذعان والاستمساك بالعروة الوثقى تمثيل كما مر في آية الكرسي .

(151/610)

وقوله ﴿ يمتعهم ﴾ الاية . كقوله في البقرة ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره ﴾ [الآية : 126] وغلظ العذاب شدته . ثم بين أنهم معترفون بالمعبود الحق إلا أنهم يشركون به وقد مر في آخر " العنكبوت " مثله إلا أنه قال في آخره ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ وذلك أنه زاد هناك قوله ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ [الرعد : 2] فبالغ ، فإن نفي العقل أبلغ من نفي العلم إذ كل عالم عاقل ولا ينعكس . ثم ذكر أن الملك كله له وهو غني على الإطلاق حميد بالاستحقاق . وحين بين غاية قدرته أراد أن يبين أنه لا نهاية لعلمه فقال ﴿ ولو أن ما في الأرض ﴾ الاية . عن ابن عباس : أنها نزلت جواباً لليهود وأن التوراة فيها كل الحكمة . وقيل : هي جواب قول المشركين أن الوحي سينفد .

(152/610)

وتقدير الآية على قراءة الرفع : لو ثبت كون الأشجار أقلاماً وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر . ويجوز أن تكون الجملة حالاً واللام في البحر للجنس . وجعل جنس البحار ممدوداً بالسبعة للتكثير لا للتقدير ، فإن كثيراً من الشياء عددها سبعة كالسيارات السبعة والأقاليم السبعة وأيام الأسبوع ومثله قوله صلى الله عليه وسلم " المؤمن يأكل في معاً واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء " أراد الأكل الكثير . وقال في الكشاف جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوأة مداداً ، فهي تصب فيه مدادها ابداً صباً لا ينقطع . قلت : جعله الأبحر سبعة تقديراً ينافي قوله " أبدا لا ينقطع " وإنما لم يجعل للأقلام مداداً لأن نقصان المداد بالكتابة أظهر من نقصان القلم . وإنما لم يقل : كلم الله " على جمع الكثرة للمبالغة إذ يفهم منه أن كلماته لا تفي بكتبتها البحار فكيف بكلمه ؟ وقيل : أراد بكلماته عجائب مصنوعاته الموجودة بكلمة " كن " وقد مر نظير هذه الآية في آخر الكهف . ثم بين أنه لا يصعب على قدرته كثرة الإيجاد والإعدام فإن تعلق قدرته بمقدور واحد كتعلقها بمقدورات غير محصورة لأن اقتداره لا يتوقف على آلة وعدة وإنما ذلك له ذاتي يكفي فيه الإرادة . ثم أكد ذلك بأن سمعه يتعلق في زمان واحد بكل المسموعات ، وكذا بصره بكل المبصرات من غير أن يشغله شيء عن شيء . ثم أعاد طرفاً من دلائل قدرته مع تذكير بعض نعمه قائلاً ﴿ الم تر ﴾ وقد مر نظيره في " الحج " إلى قوله ﴿ الكبير

﴿ وقوله ههنا ﴿ يجري إلى أجل مسمى ﴾ وقوله في " فاطر " و " الزمر " ﴿ لأجل مسمى ﴾ [الزمر : 5 ، فاطر : 13] يؤل إلى معنى واحد وإن كان الطريق مغايراً ، لأن الأول معناه انتهاؤهما إلى وقت معلوم وهو للشمس آخر السنة وللقمر آخر الشهر . وعن الحسن : هو يوم القيامة لأن جريهما لا ينقطع إلا وقتئذ .

(153/610)

والثاني معناه اختصاص الجري بإدراك أجل معلوم كما وصفنا . ووجه اختصاص هذا المقام بإلى وغيره باللام ، أن هذه الآية صدِّرت بالتعجيب فناسب التطويل . والمشار إليه بذلك هو ما وصف من عجيب قدرته أو أراد أن الموحى من هذه الآيات بسبب بيان أن الله هو الحق . قال بعضهم ﴿ العلي ﴾ إشارة إلى كونه تماماً وهو أن حصل له كما ينبغي أن يكون له . و ﴿ الكبير ﴾ إشارة إلى كونه فوق التمام وهو أنه يحصل لغيره ما يحتاج إليه . ثم أكد الآية السماوية بالآية الأرضية .

ومعنى ﴿ بنعمته ﴾ بإحسانه ورحمته أو بالريح الطيبة التي هي بأمر الله ﴿ إن في ذلك ﴾ الإجراء ﴿ لايات لكل صبار ﴾ على الضراء ﴿ شكور ﴾ في السراء . ووجه المماسبة أن كلتا الحالتين قد يقع لراكب البحر أو صبار على النواحي والتروك شكور في

الأفعال والأوامر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر " ثم ذكر أن بعض الناس لا يخلص لله إلا عند الشدائد ، وإنما وحد الموج وجمع الظلل وهي كل ما أظلك من جبل أو سحاب ، لأن الموج الواحد يرى له صعود ونزول كالجبال المتلاصقة . وإنما قال ههنا .

﴿ فمنهم مقتصد ﴾ وقد قال فيما قبل ﴿ إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت : 65] لأنه ذكر ههنا الموج وعظمته ولا محالة يبقى لمثله اثر في الخيال فيخفض شيئاً من غلو الكفر والظلم وينزجر بعض الانزجار ، ويلزمه أن يكون متوسطاً في الإخلاص أيضاً لا غالياً فيه ، وقل مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر . والختر أشد الغدر ومنه قولهم " لا تمد لنا شبراً من غدر إلا مددنا لك باعاً من ختر " . والختار في مقابلة الصبار لأن الختر لا يصدر إلا من عدم الصبر وقلة الاعتماد على الله في دفع المكروه . والكفور طباق الشكور . وحين بيَّن الدلائل وعظ بالتقوى وخوف من هول يوم القيامة . ومعنى ﴿ لا يجزي ﴾ لا يقضي كما مر في أول " البقرة " .

(154/610)

وذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليلزم منه عدم الانتفاع بغيرهما بالأولى ، وفيه إشارة إلى ما جرت به العادة من أن الأب يتحمل الآلام عن ابنه ما أمكن ، والولد يتحمل الإهانة عن الأب ما أمكن ، فكأنه قال : لا يجزي فيه ﴿ والد عن ولده ﴾ شيئاً من الآلام ﴿ ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ من أسباب الإهانة . قال جار الله : إنما أوردت الجملة الثانية إسمية لأجل التوكيد . وذلك أن الخطاب للمؤمنين فأراد حسم أطماعهم أن يشفعوا لآبائهم الكفرة وفي توسيط " هو " مزيد تأكيد . وفي لفظ ﴿ المولود ﴾ دون أن قول " ولا ولد " تأكيد آخر ، لأن الولد يقع على ولد الولد أيضاً بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك فكأنه قيل : إن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوقه .

(155/610)

وقيل : إنما أوردت الثانية إسمية لأن الابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما عليه من الحقوق والوالد يجزي شفقة لا وجوباً ﴿ إن وعد الله ﴾ بمجيء ذلك اليوم ﴿ حق ﴾ أو وعده بعدم جزاء الوالد عن الولد وبالعكس حق . و ﴿ الغرور ﴾ بناء مبالغة وهو الشيطان اي لا ينبغي أن تغرنكم الدنيا بنفسها ويزينها في أعينكم غار من الشيطان أو

النفس الأمارة . روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " مفاتيح الغيب خمس " وتلا قوله ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ إلى آخرها . وعن المنصور ، أنه همه معرفة مدة عمره فرأى في منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر واشار إليه بالأصابع الخمس . فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوها بخمس سنين وبخمسة أشهر وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة : تأويلها أن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه . قال في التفسير الكبير : ليس مقصود الآية أنه تعالى مختص بمعرفة هذه الأمور فقط فإنه يعلم الجوهر الفرد أين هو وكيف هو من أول يوم خلق العالم إلى يوم النشور ، وإنما المراد أنه تعالى حذر الناس من يوم القيامة . كان لقائل أن يقول : متى الساعة ؟ فذكر أن هذا العلم لا يحصل لغيره ولكن هو كائن لدليلين ذكرهما مراراً وهو إنزال الغيث المستلزم لإحياء الأرض وخلق الأجنة في الأرحام ، فإن القادر على الإبداء قادر على الإعادة بالأولى . ثم إنه كأنه قال : أيها السائل إن لك شيئاً أهم منها لا تعلمه فإنك لا تعلم معاشك ومعادك فلا تعلم ﴿ ماذا تكسب غداً ﴾ مع أنه فعلك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة ؟ والسر في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت بل مكانة هو أنه ينافي التكليف كما مر في أول " طه " ، ولو علم المكلف مكان موته لأمن الموت إذا كان في غيره . والسر في إخفاء الكسب في غير الوقت الحاضر هو أن يكون المكلف ابداً مشغول السر بالله معتمداً عليه في اسباب الرزق وغيره . روي أن ملك الموت مر

(156/610)

على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه . فقال الرجل : من هذا ؟ قال : ملك الموت . فقال : كأنه يريدني . وسأل سليمان أن يحمله على الريح إلى بلاد الهند ففعل . ثم قال ملك الموت لسليمان : كان نظري إليه تعجباً منه لأني أمرت أن اقبض روحه بالهند وهو عندك . قال جار الله : جعل العلم لله والدراية للعبد لما في الدراية من معنى الختل والحيلة كأنه قال : إنها لا تعرف وإن أعلمت حيلها وقرئ ﴿ بآية أرض ﴾ والأفصح عدم تأنيثه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 428.432 ﴾

(157/610)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

ولما بين تعالى حال المشرك والمجادل في الله بين تعالى حال المسلم المستسلم لأمر الله تعالى بقوله تعالى:

﴿ ومن يسلم ﴾ أي : في الحال والاستقبال ﴿ وجهه ﴾ أي : قصده وتوجهه وذاته كلها

﴿ إلى الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال بأن فوض أمره إليه فلم يبق لنفسه أمر أصلاً فهو لا يتحرك إلا بأمر من أوامره سبحانه ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه ﴿ محسن ﴾ أي : مخلص بباطنه كما أخلص بظاهره فهو دائماً في حال الشهود ﴿ فقد استمسك ﴾ أي : أوجد الإمساك بغاية ما يقدر عليه من القوّة في تأدية الأمور ﴿ بالعروة الوثقى ﴾ أي : اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه ؛ لأنّ أوثق العرى جانب الله تعالى فإن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ، وهذا من باب التمثيل مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق جبل فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ، فإن قيل كيف قال ههنا ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾ فعداه بإلى ، وقال في البقرة ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ (البقرة :)

فعداه باللام ؟

أجيب : بأن أسلم يتعدّى تارة باللام ، وتارة بإلى ، كما يتعدّى أرسل تارة باللام وتارة بإلى قال تعالى ﴿ وأرسلناك للناس رسولاً ﴾ وقال تعالى ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ ﴿ وإلى الله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ عاقبة الأمور ﴾ أي : مصير جميع الأشياء إليه ، كما أنّ منه باديتها ، وإنما خص العاقبة لأنهم مقرون بالبادية ، ولما بين تعالى حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال تعالى:

﴿ ومن كفر ﴾ أي : ستر ما أداه إليه عقله من أن الله تعالى لا شريك له وأن لا قدرة أصلاً لأحدٍ سواه ولم يسلم وجهه إليه ﴿ فلا يحزنك ﴾ أي : يهمك ويوجعك ﴿ كفره ﴾ كائناً من كان ، فإنه لم يفتك شيء فيه ولا معجز لنا ليحزنك ولا تبعة عليك بسببه في الدنيا وفي الآخرة ، وأفرد الضمير في كفره اعتباراً بلفظ من لإرادة التنصيص على كل فرد ، وفي التعبير هنا بالماضي وفي الأوّل بالمضارع بشارة بدخول كثير في هذا الدين وأنهم لا يرتدون بعد إسلامهم ، وترغيب في الإسلام لكل من كان خارجاً عنه فالآية من الاحتباك ، ذكر الحزن ثانياً دليلاً على حذف ضدّه أوّلاً ، وذكر الاستمساك أوّلاً دليلاً على حذف ضدّه ثانياً ﴿ إلينا ﴾ أي : في الدارين ﴿ مرجعهم فننبئهم ﴾ أي : بسبب إحاطتنا بأمرهم وعقب رجوعهم ﴿ بما عملوا ﴾ أي : ونجازيهم عليه إن أردنا ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ عليم ﴾ أي : محيط العلم بما له من الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ بذات الصدور ﴾ أي : لا يخفى عليه سرّهم وعلانيتهم فينبئهم بما أسرّت صدورهم .

﴿ نمتعهم ﴾ أي : نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا ﴿ قليلاً ﴾ أي : إلى انقضاء آجالهم فإن كل آت قريب ، وإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل ﴿ ثم نضطرّهم ﴾ أي : نلجئهم ونردّهم في الآخرة ﴿ إلى عذاب غليظ ﴾ أي : شديد ثقيل لا ينقطع عنهم أصلاً ولا يجدون لهم منه محيصاً من جهة من جهاته فكأنه في شدّته وثقله جرم عظيم غليظ جدّاً إذا ترك على

شيء لا يقدر على الخلاص منه ، ثم إنه تعالى لما سلى قلب النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ فلا يحزنك كفره ﴾ أي : لا تحزن على تكذيبهم فإن صدقك وكذبهم يتبين عن قريب وهو رجوعهم إلينا على أنه لا يتأخر إلى ذلك اليوم بل يتبين قبل يوم القيامة كما قال تعالى:

(159/610)

﴿ ولئن ﴾ اللام لام قسم ﴿ سألتهم من خلق السموات ﴾ أي : بأسرها ومن فيها ﴿ والأرض ﴾ كذلك وقوله تعالى ﴿ ليقولنّ الله ﴾ أي : المسمى بهذا الاسم حذف منه نون الرفع لتوالي والأمثال وواو الضمير لالتقاء الساكنين ، فقد أقرّوا بأن كل ما أشركوا به بعض خلقه ومصنوع من مصنوعاته ، ولما تبين بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال الله تعالى مستأنفاً ﴿ قل الحمد ﴾ أي : الإحاطة بجميع أوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الشاملة من غير تقييد بخلق الخافقين ولا غيره على ظهور الحجة عليهم بالتوحيد ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي : ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك ، ولما أثبت لنفسه سبحانه الإحاطة بأوصاف الكمال استدلّ على ذلك بقوله تعالى:

﴿ لله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ ما في السموات ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ كذلك ملكاً وخلقاً فلا يستحق العبادة فيهما غيره ، ولما ثبت ذلك أنتج قطعاً قوله تعالى ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الغني ﴾ مطلقاً لأن جميع الأشياء له ومحتاجة إليه وليس محتاجاً إلى شيء أصلاً ﴿ الحميد ﴾ أي : المستحق لجميع المحامد لأنه المنعم على الإطلاق المحمود بكل لسان من ألسنة الأحوال والأقوال لأنه هو الذي أنطقها ومن قيد الخرس أطلقها ، ولما قال تعالى ﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ أوهم تناهي ملكه لانحصار ما في السموات والأرض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما ، بين تعالى أنه لأحد ولا ضبط لمعلوماته ومقدوراته الموجبة لحمده بقوله تعالى:

(160/610)

﴿ ولو أن ما في الأرض ﴾ أي : كلها ، ودل على الاستغراق وتقضي كل فرد فرد من أفراد الجنس بقوله تعالى : ﴿ من شجرة ﴾ حيث وحدها ﴿ أقلام ﴾ أي : والشجرة يمدّها من بعدها على سبيل المبالغة سبع شجرات وأنّ ما في الأرض من البحر مداد لتلك الأقلام ﴿ والبحر ﴾ أي : والحال أنّ البحر ﴿ يمده ﴾ أي : يكون مداداً له وزيادة فيه ﴿ من بعده ﴾ أي : من ورائه ﴿ سبعة أبحر ﴾ تكتب بتلك الأقلام وذلك المداد الذي الأرض

كلها له دواة ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ وفنيت الأقلام والمداد ، قال المفسرون : نزل بمكة قوله تعالى .

﴿ ويسئلونك عن الروح ﴾ (الإسراء ،)

الآية فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه أحبار اليهود فقالوا يا محمد بلغنا أنك تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلا أفعنيتنا أم قومك فقال صلى الله عليه وسلم "كلاً قد عنيت ، فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنّا أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء فقال : صلى الله عليه وسلم هي في علم الله تعالى قليل وقد أتاكم ما إن عملتم به انتفعتم ، قالوا : يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فكيف يجتمع هذا علم قليل وخير كثير ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية" ، وقال قتادة إنّ المشركين قالوا : إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فنزلت ، فإن قيل كان مقتضى الكلام أن يقال : ولو أنّ الشجر أقلام والبحر مداد ؟

أجيب : بأنه أغنى عن ذكر المداد قوله تعالى يمدّه لأنه من مدّ الدواة وأمدّها جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة وجعل الأبحر السبعة مملوأة مداداً فهي تصب فيه مدادها أبداً صباً لا ينقطع ، والمعنى : ولو أن أشجار الأرض أقلام ، والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد كقوله تعالى ﴿ قل لو كان البحر مداد الكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ (الكهف :)

لأنّ المحصور لا يفي بما ليس بمحصور ، فيا لها من عظمة لا تتناهى ، ومن كبرياء لا يجارى ولا يضاهى .

فإن قيل لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس ؟

أجيب : بأنه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاماً ، فإن قيل الكلمات جمع قلة والموضع موضع التكثير لا التقليل فهلا قيل كلم الله ؟

أجيب : بأنّ معناه أنّ كلماته لا تفي بها البحار فكيف بكلمه ، وقرأ أبو عمرو : والبحر بنصب الراء وذلك من وجهين : أحدهما : العطف على اسم أن ، أي : ولو أنّ البحر ، ويمدّه الخبر ، والثاني : النصب بفعل مضمر يفسره يمدّه والواو حينئذ للحال والجملة حالية ، ولم يحتج إلى ضمير رابط بين الحال وصاحبها للاستغناء عنه بالواو ، والتقدير : ولو أنّ الذي في الأرض حال كون البحر ممدوداً بكذا ، وقرأ الباقون برفع الراء وذلك من وجهين : أيضاً أحدهما : العطف على أن وما في حيزها ، والثاني : أنه مبتدأ ، ويمدّه الخبر ، والجملة حالية والرابط الواو تنبيه : قوله تعالى سبعة ، ليس لانحصارها في سبعة وإنما الإشارة إلى

المدد والكثرة ولو بألف بحر ، وإنما خصصت السبعة بالذكر من بين الأعداد لأنها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة ، ويدل على ذلك وجهان : الأوّل : أن المعلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان فالزمان منحصر في سبعة أيام والمكان منحصر في سبعة أقاليم ، ولأنّ الكواكب السيارة سبعة والمنجمون ينسبون إليها أموراً فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة فاستعملت في كل كثير .

(162/610)

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء" الثاني : أن في السبعة معنى يخصها ولذلك كانت السموات سبعاً والأرضون سبعاً وأبواب جهنم سبعاً وأبواب الجنة ثمانية ، لأنها الحسنى وزيادة ، فالزيادة هي الثامن ؛ لأن العرب عند الثامن يزيدون واو تقول القراء لها واو الثمانية وليس ذلك إلا للإستئناف لأنّ العدد تم بالسبعة ، ثم بين نتيجة ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ عزيز ﴾ أي : كامل القدرة لا نهاية لمقدوراته ﴿ حكيم ﴾ أي : كامل العلم لا نهاية لمعلوماته .

تنبيه : قد علم مما تقرّر أنّ الآية من الاحتباك ذكر الأقلام دليلاً على حذف مدادها وذكر

السبعة في مبالغة الأبحر دليلاً على حذفها في الأشجار ، ولما ختم تعالى بهاتين الصفتين بعد إثبات القدرة على الإبداع من غير انتهاء ذكر بعض آثارها في البعث بقوله تعالى:

﴿ ما خلقكم ﴾ أي : كلكم في عزته وحكمته إلا كخلق نفس واحدة ، وأعاد النافي نصاً على كل واحد من الخلق والبعث على حدته بقوله تعالى : ﴿ ولا بعثكم ﴾ أي : كلكم ﴿ إلا كنفس ﴾ أي : كبعث نفس ، وبين الأفراد تحقيقاً للمراد تأكيداً للسهولة بقوله تعالى : ﴿ واحدة ﴾ فإن كلماته مع كونها غير نافذة نافذة وقدرته مع كونها باقية بالغة فنسبة القليل والكثير إلى قدرته على حدّ سواء ؛ لأنه لا يشغله شأن ، عن شأن ، ثم دل على ذلك بقوله تعالى : مؤكداً ﴿ إن الله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ سميع ﴾ أي : بالغ السمع يسمع كل مسموع ﴿ بصير ﴾ أي : بليغ البصر يبصر كل مبصر لا يشغله شيء عن شيء ، ولما قرّر تعالى هذه الآية الخارقة دل عليها بأمر محسوس يشاهد كل يوم مرّتين بقوله تعالى:

(163/610)

﴿ ألم تر ﴾ وهو محتمل وجهين : أحدهما : أن يكون الخطاب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم الأكثر وكأنه تعالى ترك الخطاب مع غيره ؛ لأن من هو غيره من الكفار لا فائدة في الخطاب معهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم تبع له ، والوجه الثاني : المراد منه الوعظ والواعظ

يخاطب ولا يعين أحداً فيقول لجمع عظيم : يا مسكين إلى الله مصيرك فمن نصيرك ولماذا تقصيرك ﴿ أنّ الله ﴾ أي : بجلاله وعز كماله ﴿ يولج ﴾ أي : يدخل إدخالاً لا مرية فيه ﴿ الليل في النهار ﴾ فيغيب فيه بحيث لا يرى شيء منه فإذا النهار قد عمّ الأرض كلها أسرع من اللمح ﴿ ويولج النهار ﴾ أي : يدخله كذلك ﴿ في الليل ﴾ فيخفى حتى لا يبقى له أثر فإذا الليل قد طبق الآفاق مشارقها ومغاربها في مثل الطرف فيميز سبحانه كلاً منهما من الآخر بعد اضمحلاله فكذلك الخلق والبعث في قدرته بعزته وحكمته لبلوغ سمعه ونفوذ بصره ﴿ وسخر الشمس ﴾ آية للنهار يدخل الليل فيه ﴿ والقمر ﴾ أي : آية لليل كذلك ثم استأنف ما سخرا فيه بقوله تعالى : ﴿ كل ﴾ أي : منهما ﴿ يجري ﴾ أي : في فلكه سائراً متمادياً وبالغاً ومنتهياً ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ لا يتعداه في منازل معروفة في جميع الفلك لا يزيد ولا ينقص هذا في الشهر مرّة وتلك في السنة مرّة ، لا يقدر واحد منهما أن يتعدّى طوره ولا أن ينقض دوره ولا أن يغير سيره .

تنبيه : قال تعالى يولج بصيغة المستقبل ، وقال في الشمس والقمر وسخر بصيغة الماضي لأن إيلاج الليل في النهار أمر يتجدّد كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمرّ كما قال تعالى ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ (يس :)

وقال ههنا إلى أجل ، وفي الزمر لأجل ؛ لأن المعنيين لائقان بالحرفين فلا عليك في أيهما وقع .

قال الأكثرون : هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل : عامّ ، ولما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أنّ ما يقع في هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى عليه بقوله تعالى : ﴿ وإنّ الله ﴾ أي : بما له من صفات الكمال ﴿ بما تعملون ﴾ أي : في كل وقت على سبيل التجدّد ﴿ خبير ﴾ أي : لا يخفى عليه شيء منه ؛ لأنه الخالق له كله دقه وجله ولما ثبت بهذه الأوصاف الحسنى والأفعال العليا أنه لا موجد بالحقيقة إلا الله تعالى: قال تعالى ﴿ ذلك ﴾ أي : المذكور ﴿ بأنّ ﴾ أي : بسبب أن ﴿ الله ﴾ أي : الذي لا عظيم سواه ﴿ هو ﴾ وحده ﴿ الحق ﴾ أي : بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته المستحق للعبادة ﴿ وأنّ ما يدعون ﴾ أي : هؤلاء المختوم على مداركهم وأشار إلى سفول رتبتهم بقوله تعالى : ﴿ من دونه ﴾ أي : غيره ﴿ الباطل ﴾ أي : العدم في حدّ ذاته لا يستحق أن تضاف إليه الإلهية بوجه من الوجوه ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص يدعون بالياء على الغيبة ، والباقون بالتاء على الخطاب وإن مقطوعة من ما في الرسم ﴿ وأنّ الله ﴾ أي : الملك الأعظم وحده ﴿ هو العليّ ﴾ على خلقه بالقهر فله الصفات العليا والأسماء الحسنى ﴿ الكبير ﴾ أي : العظيم في ذاته وصفاته . ولما قال تعالى ﴿ ألم تر أنّ الله يولج الليل في النهار وسخر الشمس والقمر ﴾ ذكر آية سماوية وأشار

إلى السبب والمسبب ذكر بعده آية أرضية تدلّ على باهر قدرته وكمال نعمته وشمول إنعامه وأشار إلى السبب والمسبب بقوله تعالى:

(165/610)

﴿ ألم تر ﴾ وفي المخاطب بذلك ما تقدّم ﴿ أنّ الفلك ﴾ أي : السفن كباراً وصغاراً ﴿ تجري ﴾ أي : بكم حاملة ما تعجزون عن نقل مثله في البرّ ﴿ في البحر ﴾ أي : على وجه الماء ﴿ بنعمة الله ﴾ أي : بإنعام الملك الأعلى المحيط علماً وقدرة المحسن إليكم بتعليم صفتها حتى تهيأت لذلك على يد أبيكم نوح العبد الشكور عليه السلام ، وقيل : نعمة الله هنا هي الريح التي تتحرك بأمر الله ﴿ ليريكم من آياته ﴾ أي : عجائب قدرته ودلائله التي تدلكم على أنه الحق الذي أثبت بوجوب وجوده ما ترون من الأحمال الثقال على وجه الماء الذي ترسب فيه الإبرة فما دونها ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر الهائل البديع الرفيع ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات واضحات على ماله من صفات الكمال ﴿ لكل صبار ﴾ على المشاق فيبعث نفسه في التفكير في عدم غرقه وفي مسيره إلى البلاد الشاسعة والأقطار البعيدة ، وفي كون سيره ذهاباً وإياباً تارة بريحين ، وتارة بريح واحدة . وفي إنجاء أبيه نوح عليه السلام ومن أراد الله تعالى من خلقه بها وإغراق غيرهم من جميع

أهل الأرض ، وفي غير ذلك من شؤونه وأموره ﴿ شكور ﴾ أي : مبالغ في كل من الصبر والشكر لأنهما الإيمان ، كما ورد : الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ، وعلم من صيغة المبالغة في كل منهما أنه لا يعرف في الرخاء من عظمة الله ما كان يعرفه في الشدّة إلا من طبعهم الله تعالى على ذلك ووفقهم له وأعانهم عليه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ (سبأ :)

وها أنا أسأل الله الحنان المنان من فضله أن يجعلني منهم ويفعل ذلك بأهلي وأحبابي فإنه كريم جواد ، ولما ذكر تعالى أن في ذلك لآيات ذكر أنّ الكل معترفون غير أنّ البصير يدركه أوّلاً ومن في بصيرته ضعف لا يدركه أوّلاً كما قال تعالى:

(166/610)

﴿ وإذا غشيهم ﴾ أي : علاهم وهم في الفلك حتى صار كالمغطي لهم ﴿ موج ﴾ أي : هذا الجنس وأفرده لشدّة اضطرابه وإتيانه شيئاً في أثر شيء متابعاً يركب بعضه بعضاً كأنه شيء واحد ، وأصله من الحركة والازدحام واختلف في قوله تعالى ﴿ كالظلل ﴾ فقال مقاتل : كالجبال ، وقال الكلبي : كالسحاب . والظلل جمع ظلة شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها ، فإن قيل : كيف جعل الموج وهو واحد كالظلل وهو جمع ؟

أجيب : بأنّ الموج يأتي منه شيء بعد شيء فلما صاروا إلى هذه الحالة ﴿ دعوا الله ﴾ أي : مستحضرين لما يقدر عليه الإنسان من كماله بجلاله وجماله عالمين بجميع مضمون الآية السابقة من حقيته وعلوّه وكبريائه وبطلان ما يدعونه من دونه ﴿ مخلصين له الدّين ﴾ أي : الدعاء بأن ينجيهم لا يدعون شيئاً سواه بأنفسهم ولا قلوبهم لما اضطرّهم إلى ذلك ﴿ فلما نجاهم ﴾ أي : خلصهم من تلك الأهوال ﴿ إلى البر ﴾ نزلوا عن تلك المرتبة التي أخلصوا فيها الدين وانقسموا قسمين ﴿ فمنهم ﴾ أي : تسبب عن نعمة الإنجاء أنه كان منهم ﴿ مقتصد ﴾ أي : عدل موف في البرّ بما قد عاهد الله عليه في البحر من التوحيد له ، بمعنى أنه ثبت على ذلك وهم قليل كما دل عليه التصريح بالتبعيض ، قيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب في عام الفتح إلى البحر فجاءتهم ريح عاصف فقال عكرمة : لئن نجاني الله من هذه لأرجعنّ إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولأضعنّ يدي في يده فسكنت الريح فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه ، قال مجاهد : مقتصد في القول مضمر للكفر ، قال الكلبي : مقتصد في القول أي : من الكفار لأنّ بعضهم كان أشدّ قولاً وأعلى في الافتراء من بعض ومنهم جاحد للنعمة ملق لجلبات الحياء في التصريح بذلك وهو الأكثر كما دل عليه ترك التصريح فيه بالتبعيض .

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى في العنكبوت ﴿ فلما نجاهم إلى البرّ إذا هم يشركون ﴾

(العنكبوت :)

وقال هنا ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ ؟

(167/610)

أجيب : بأنه لما ذكر ههنا أمراً عظيماً وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر ، فذكر إشراكهم حيث لم يبق عندهم أثر وقوله تعالى ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار ﴾ أي : غدّار فإنه نقض للعهد الفطري أي : لما كان في البحر والختر أشدّ الغدر ﴿ كفور ﴾ أي : للنعم في مقابله قوله تعالى إن في ذلك لآيات أي : يعترف بها الصبار الشكور ، ويجحدها الختار الكفور ، فالصبار في موازنة الختار لفظاً ومعنى ، والكفور في موازنة الشكور كذلك أما لفظا فيهما فظاهر ، وأمّا كون الختار في موازنة الصبار معنى فلأن الختار هو الغدّار الكثير الغدر أو شديد الغدر مثال مبالغة من الختر وهو أشدّ الغدر ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ؛ لأنّ الصبور لا يعهده منه الإضرار فإنه يصبر ويفوّض الأمر إلى الله تعالى ، وأما الغدّار ليعاهدك ولا يصبر على العهد فينقضه . وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر ، ولما ذكر تعالى الدلائل من أول السورة إلى هنا وعظ بالتقوى بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الناس ﴾ أي : عامّة . وقيل : أهل مكة ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي : الذي لا محسن إليكم غيره ﴿ واخشوا ﴾ أي : خافوا ﴿ يوماً ﴾ لا يشبه الأيام ولا يعدّ هول البحر ولا غيره عند أدنى هول من أهواله شيئاً بوجه ﴿ لا يجزي ﴾ أي : لا يقضي ولا يغني ﴿ والد عن ولده ﴾ والراجع إلى الموصوف محذوف أي : لا يجزي فيه . وفي التعبير بالمضارع إشارة إلى أنّ الوالد لا تزال تدعوه الوالدية إلى الشفقة على الولد ويتجدّد عنده العطف والرقة . والمفعول إما محذوف لأنه أشدّ في النفي وإما مدلول عليه بما في الشق الذي بعده . وقوله تعالى ﴿ ولا مولود ﴾ عطف على والد أو مبتدأ وخبره ﴿ هو جاز عن والده ﴾ أي : فيه ﴿ شيئاً ﴾ من الجزاء وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي ، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ﴿ إنّ وعد الله ﴾ أي : الذي له معاقد العز والجلال ﴿ حق ﴾ أي : أنّ هذا اليوم الذي هذا شأنه هو كائن ؛ لأنّ الله تعالى وعد به ووعده حق ، وقيل : إنّ وعد الله حق بأن لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً لأنه وعد بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق ﴿ فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ﴾ بزخرفها ورونقها فإنها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق ﴿ ولا يغرّنكم

بالله ﴾ أي : الذي لا أعظم منه ولا مكافئ مع ولايته معكم ﴿ الغرور ﴾ أي : الكثير الغرور المبالغ فيه وهو الشيطان الذي لا أحقر منه لما جمع من البعد والطرد والاحتراق مع عداوته بما يزين لكم من أمرها ويلهيكم به من تعظيم قدرها وينسيكم كيدها وغدرها وتعبها وأذاها فيوجب ذلك لكم الإعراض عن ذلك اليوم فلا تعدّونه معاداً فلا تتخذون له زاد لما اقترن بغروره من حلم الله تعالى وإمهاله ، قال سعيد بن جبير : الغرة بالله أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة ، وروي أنّ الحارث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى قيام الساعة وإني قد ألقيت حباً في الأرض فمتى السماء تمطر ، وحمل

(169/610)

امرأتي أذكر أم أنثى وما أعمل غداً وأين أموت ؟ فنزل قوله تعالى:

﴿ إن الله ﴾ أي : بما له من العظمة وجميع أوصاف الكمال ﴿ عنده ﴾ أي : خاصة ﴿ علم الساعة ﴾ أي : وقت قيامها لا علم لغيره بذلك أصلاً ﴿ وينزل الغيث ﴾ أي : في أوانه المقدّر له والمحل المعين له في علمه ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح النون وتشديد الزاي ، والباقون بسكون النون وتخفيف الزاي ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ أي : من ذكر أو أنثى أحيّ أو ميت تامّ أو ناقص ﴿ وما تدري نفس ﴾ أي : من الأنفس البشرية وغيرها

﴿ ماذا تكسب غداً ﴾ أي : من خير أو شرّ وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه .

﴿ وما تدري نفس بأي : أرض تموت ﴾ أي : كما لا تدري في أي : وقت تموت ويعلمه الله تعالى ، وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال : يا رسول الله إنّ امرأتي حبلى فأخبرني ما تلد ، وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعن عكرمة أنّ رجلاً يقال له الوارث من بني حازن جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد متى قيام الساعة وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ، وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد ، وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً ، وقد علمت بأيّ أرض ولدت فبأي أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية ، وعن قتادة قال : خمس من الغيب استأثر الله بهنّ فلم يطلع عليهنّ ملكاً مقرّباً ولا نبياً مرسلاً : إنّ الله عنده علم الساعة فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي : سنة ولا في أي : شهر أليلاً أم نهاراً ، وينزل الغيث فلا يعلم أحد متى ينزل أليلاً أم نهاراً ، ويعلم ما في الأرحام فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى أحمر أم أسود ، ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً أخيراً أم شراً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض أفي بحر أم في برّ أم سهل أم جبل .

(170/610)

وعن أحمد وابن أبي شيبة موقوفاً على شهر بن حوشب أنّ ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فقال الرجل : من هذا ؟ فقال : ملك الموت ، فقال : فكأنه يريدني فمر الريح أن تحملني وتلقيني بالهند ، فأمر سليمان الريح فحلمته إلى بلاد الهند فوق سحابة فلما استقرّ فيها قبض روحه ملك الموت ، عليه السلام ثم جاء إلى سليمان عليه السلام فسأله عن نظره إلى الرجل ، فقال ملك الموت : كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذا أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك ، وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلا الله لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا ما في الأرحام إلا الله ، ولا متى ينزل الغيث إلا الله ، وما تدري نفس بأي : أرض تموت إلا الله" .

(171/610)

وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أنّ رجلاً قال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثكم بأشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كانت الحفاة الرعاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول

رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها . وخمس من الغيب لا يعلمهنّ إلا الله ، ثم تلا إنّ الله عنده علم الساعة إلى آخر الآية ، وعن أبي أمامة أنّ إعرابياً وقف على النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر على ناقة له عشراء فقال : يا محمد ما في بطن ناقتي هذه ؟ فقال له رجل من الأنصار : دع عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلم إلي حتى أخبرك ، وقعت أنت عليها وفي بطنها ولد منك ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : "إنّ الله يحب كل حيي كريم ويبغض كل قاس لئيم متفحش ثم أقبل على الأعرابي فقال خمس لا يعلمهنّ إلا الله إنّ الله عنده علم الساعة الآية" وعن سلمة بن الأكوع قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة حمراء إذ جاءه رجل على فرس فقال له من أنت : "قال أنا رسول الله قال متى الساعة قال غيب وما يعلم الغيب إلا الله قال ما في بطن فرسي قال غيب وما يعلم الغيب إلا الله قال فمتى نمطر قال غيب وما يعلم الغيب إلا الله" وعن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس إنّ الله عنده علم الساعة الآية" .

وعن ابن مسعود قال أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيء غير خمس : إنّ الله عنده علم الساعة الآية ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لم يعم على نبيكم إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان : إنّ الله عنده علم الساعة إلى آخر السورة ، وعن ربعي قال حدّثني رجل من بني عامر أنه قال : يا رسول الله هل بقي من

العلم شيء لا تعلمه ؟ فقال : "لقد علمني الله خيراً وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله الخمس إن الله عنده علم الساعة الآية" .

(172/610)

وعن بنت معوّذ قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة عرسي وعندي جاريتان تغنيان وتقولان : وفينا نبيّ يعلم ما في غد فقال : "أما هذا فلا تقولاه ما يعلم ما في غد إلا الله" وعن ابن عزة الهذلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تدري نفس بأي : أرض تموت" ، وعن أبي مالك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم "بينما هو جالس في مجلس فيه أصحابه جاءه جبريل في غير صورته يحسبه رجلاً من المسلمين فسلم فردّ ، عليه السلام ثم وضع يده على ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : أن تسلم وجهك لله وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت قال نعم ثم قال ما الإيمان قال أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والموت والحياة بعد الموت والجنة والنار والحساب والميزان والقدر خيره وشرّه ، قال فإذا فعلت

ذلك فقد آمنت قال نعم ثم قال ما الإحسان قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك قال فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت قال نعم ثم قال فمتى الساعة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله : إنّ الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت" .

(173/610)

﴿ إن الله ﴾ أي : المختص بأوصاف الكمال ﴿ عليم ﴾ أي : شامل علمه للأمور كلها كلياتها وجزئياتها ، فأثبت العلم المطلق لنفسه سبحانه بعد أن نفاه عن الغير في هذه الخمس ﴿ خبير ﴾ أي : يعلم خبايا الأمور وخفايا الصدور ، كما يعلم ظواهرها وجلاياها كل عنده على حدّ سواء فهو الحكيم في ذاته وصفاته ، ولذلك أخفى هذه المفاتيح عن عباده ؛ لأنه لو أطلعهم عليها لفات كثير من الحكم باختلال هذا النظام على ما فيه من الأحكام فقد انطبق آخر السورة بإثبات العلم والخبر مع تقرير أمر الساعة التي هي مفتاح الدار الآخرة على أوّلها المخبر بحكمة صفته التي من علمها حق علمها وتخلق بما دعت إليه وحضت عليه ، لا سيما الإيقان بالآخرة كان حيكماً .

فسبحان من هذا كلامه وتعالى كبرياؤه وعز مرامه . وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة ، وأعطي من الحسنات عشراً بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 277.288 ﴾

(174/610)

وقال القاسمي :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

أي : في أعماله : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ أي : تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب ، وهو تمثيلٌ لحال المؤمن المخلص المحسن ، بحال من أراد رقيّ شاهق ، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي : من الأعمال الظاهرة والباطنة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد

ينكرها المكابرون أيضاً : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : شيئًا ما ؛ فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم

(175/610)

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : فلا يستحق العبادة فيهما غيره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي : عن العالمين ، وهم فقراء إليه جميعا : ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ أي : المحمود فيما خلق وشرع ، بلسان الحال والمقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي : من بعد نفاده : ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أي : التي أوجد بها الكائنات ، وسيوجد بها ما لا غاية لحصره ومنتهاه ، والسبعة إنما ذكرت على سبيل المبالغة لا الحصر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي : إلا كخلقها وبعثها في سهولته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : أمد قدره الله تعالى لجريهما ، وهو يوم القيامة : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي : لأن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق ، والتدبير الفائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطاً بما يأتي ويذر .

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم ، وشمول القدرة ، وعجائب الصنع ، واختصاص البارئ بها : ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أي : بسبب أنه الحق ، وجوده وإلهيته : ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ أي : بإحسانه في تهيئة أسبابه : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي : عظيم الصبر على البأساء والضراء : ﴿ شَكُورٍ ﴾ أي : كثير الشكر للنعم ، بالقيام بحقها : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم ﴾ أي : علاهم وأحاط بهم : ﴿ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ أي : كالسحب والحجب : ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : التجأوا إليه تعالى وحده ، لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد ، بما دهاهم من الضر : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن كثير : قال مجاهد : أي : كافر ، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] ، وقال ابن زيد : هو المتوسط في العمل ، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ [فاطر : 32] الآية ، فالمقتصد ههنا هو المتوسط في العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من

شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات في البحر ، ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب في العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك ، كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم . انتهى

(177/610)

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ أي : غدار ، ناقض للعهد الفطريّ ، ولعقد العزيمة وقت الهول البحري : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أي : مبالغ في كفران نعمه تعالى ، لا يقضي حقوقها ، ولا يستعملها في محابّه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ أي : ليس بمغنٍ أحدهما عن الآخر شيئاً ، لانقطاع الوصل في ذلك اليوم الرهيب . قال أبو السعود : وتغيير النظم – في الثانية – للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى ، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي بالثواب والعقاب ، لا يمكن إخلافه : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي : الشيطان .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي : علم وقت قيامها : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ أي : في

وقته الذي قدره ، وإلى محله الذي عينه في علمه : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ أي : من ذكرٍ أو أنثى ، سعيد أو شقي : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ أي : من خير أو شر : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أي : في بلدها أو غيره ؛ لاستئثار الله تعالى بعلم ذلك ، وقد جاء الخبر بتسمية [في المطبوع : تسمية] هذه الخمس : مفاتح الغيب : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي : بما كان ويكون ، وبظواهر الأشياء وبواطنها ، لا إله إلا هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 618. 621 ﴾

(178/610)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾

تبدأ الجولة الثالثة بنسق جديد . تبدأ بعرض الدليل الكوني مرتبطاً بالناس ، متلبساً بمصالحهم وحياتهم ومعاشهم ، متعلقاً بنعم الله عليهم ، نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة ، تلك التي يستمتعون بها ، ولا يستحيون معها أن يجادلوا في الله المنعم المتفضل الوهاب . . ثم تسير على هذا النسق في تقرير القضية الأولى التي عالجتها الجولتان الأولى والثانية . .

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ؛ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ؟ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ ﴾ . .

وهذه اللفتة المكررة في القرآن بشتى الأساليب تبدو جديدة في كل مرة ، لأن هذا الكون لا يزال يتجدد في الحس كلما نظر إليه القلب ، وتدبر أسراره ، وتأمل عجائبه التي لا تنفد ؛ ولا يبلغ الإنسان في عمره المحدود أن يتقصاها ؛ وهي تبدو في كل نظرة بلون جديد ، وإيقاع جديد .

والسياق يعرضها هنا من زاوية التناسق بين حاجات الإنسان على الأرض وتركيب هذا الكون ! مما يقطع بأن هذا التناسق لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ؛ وأنه لا مفر من التسليم بالإرادة الواحدة المدبرة ، التي تنسق بين تركيب هذا الكون الهائل وحاجات البشر على هذا الكوكب الصغير الضئيل . . الأرض . . !

(179/610)

إن الأرض كلها لا تبلغ أن تكون ذرة صغيرة في بناء الكون . والإنسان في هذه الأرض خليقة صغيرة هزيلة ضعيفة بالقياس إلى حجم هذه الأرض ، وبالقياس إلى ما فيها من قوى ومن خلائق حية وغير حية ، لا يعد الإنسان من ناحية حجمه ووزنه وقدرته المادية شيئاً إلى جوارها . ولكن فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه ، وتكريمه له على كثير من خلقه . . هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن في نظام الكون وحساب . وأن يهيء الله له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ، ومن ذخائره وخيراته . وهذا هو التسخير المشار إليه في الآية ، في معرض نعم الله الظاهرة والباطنة ، وهي أعم من تسخير ما في السماوات وما في الأرض . فوجود الإنسان ابتداء نعمة من الله وفضل ؛ وتزويده بطاقاته واستعداداته ومواهبه هذه نعمة من الله وفضل ؛ وإرسال رسله وتنزيل كتبه فضل أكبر ونعمة أجل ؛ ووصله بروح الله من قبل هذا كله نعمة من الله وفضل ؛ وكل نفس يتنفسه ، وكل خفقة يخفقها قلبه ، وكل منظر تلتقطه عينه ، وكل صوت تلتقطه أذنه ، وكل خاطر يهجس في ضميره ، وكل فكرة يتدبرها عقله . . إن هي إلا نعمة ما كان لينالها لولا فضل الله .

(180/610)

وقد سخر الله لهذا المخلوق الإنساني ما في السماوات ، فجعل في مقدوره الانتفاع بشعاع الشمس ونور القمر وهدي النجوم ، وبالمطر والهواء والطير السابح فيه . وسخر له ما في الأرض . وهذا أظهر وأيسر ملاحظة وتدبراً . فقد أقامه خليفة في هذا الملك الطويل العريض ، ومكنه من كل ما تذخر به الأرض من كنوز . ومنه ما هو ظاهر ومنه ما هو مستتر . ومنه ما يعرفه الإنسان ومنه ما لا يدرك إلا آثاره ؛ ومنه ما لم يعرفه أصلاً من أسرار القوى التي ينتفع بها دون أن يدري . وإنه لمغمور في كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعمة الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها ، ولا يحصي أنماطها . . ومع هذا كله فإن فريقاً من الناس لا يشكرون ولا يذكرون ولا يتدبرون ما حولهم ، ولا يوقنون بالمنعم المتفضل الكريم .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ . .

وتبدو هذه المجادلة مستغربة مستنكرة في ظل ذلك البرهان الكوني ، وفي جوار هذه النعمة السابغة . ويبدو الجحود والإنكار بشعاً شنيعاً قبيحاً ، تنفر منه الفطرة ، ويقشعر منه الضمير . ويبدو هذا الفريق من الناس الذي يجادل في حقيقة الله ، وعلاقة الخلق بهذه الحقيقة . يبدو منحرف الفطرة ولا يستجيب لداعي الكون كله من حوله ؛ جاحداً النعمة لا يستحيي أن يجادل في المنعم بكل هذه النعم السابغة . ويزيد موقفه بشاعة أنه لا يرتكن في هذا الجدال إلى علم ؛ ولا يهتدي بهدى ، ولا يستند إلى كتاب ينير له القضية ويقدم له الدليل .

﴿ وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ . .

فهذا هو سندهم الوحيد ، وهذا هو دليلهم العجيب ! التقليد الجامد المتحجر الذي لا يقوم على علم ولا يعتمد على تفكير . التقليد الذي يريد الإسلام أن يحررهم منه ؛ وأن يطلق عقولهم لتتدبر ؛ ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور ، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضي المنحرف ، ويتمسكوا بالأغلال والقيود .

(181/610)

إن الإسلام حرية في الضمير ، وحركة في الشعور ، وتطلع إلى النور ، ومنهج جديد للحياة طليق من إسار التقليد والجمود . ومع ذلك كان يأباه ذلك الفريق من الناس ، ويدفعون عن أرواحهم هداه ، ويجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . . ومن ثم يسخر منهم ويتهكم عليهم ، ويشير من طرف خفي إلى عاقبة هذا الموقف المريب :

﴿ أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ ﴾ . .

فهذا الموقف إنما هو دعوة من الشيطان لهم ، لينتهي بهم إلى عذاب السعير . فهل هم مصرون عليه ولو قادهم إلى ذلك المصير ؟ . . . لمسة موقظة ومؤثر مخيف ، بعد ذلك الدليل الكوني العظيم اللطيف .

وبمناسبة ذلك الجدال المتعنت الذي لا يستند إلى علم ، ولا يهتدي بهدى ، ولا يستمد من كتاب . يشير إلى السلوك الواجب تجاه الدليل الكوني والنعمة السابغة :

﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

.

إنه الاستسلام المطلق لله مع إحسان العمل والسلوك الاستسلام بكامل معناه ، والطمأنينة لقدر الله . والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة ، والاسترواح للرعاية ، والرضى الوجداني ، رضى السكون والارتياح . . كل أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله . والوجه أكرم وأعلى ما في الإنسان . .

﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ . . العروة التي لا تنقطع ولا تهن ولا تخون ممسكاً بها في سراء أو ضراء ، ولا يضل من يشد عليها في الطريق الوعر والليلة المظلمة ، بين العواصف والأنواء !

هذه العروة الوثقى هي الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة بين قلب المؤمن المستسلم وربه . هي الطمأنينة إلى كل ما يأتي به قدر الله في رضى وفي ثقة وفي قبول ، طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها في مواجهة الأحداث ، وفي الاستعلاء على السراء فلا تبطر ، وعلى الضراء فلا تصغر ؛ وعلى المفاجآت فلا تذهل ؛ وعلى اللأواء في طريق الإيمان ، والعقبات تتناثر فيه من هنا ومن هناك .

إن الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار . وخطر المتاع فيها والوجدان ليس أصغر ولا أقل من خطر الحرمان فيها والشقاء . وخطر السراء فيها ليس أهون ولا أيسر من خطر الضراء . والحاجة إلى السند الذي لا يهن ، والحبل الذي لا ينقطع ، حاجة ماسة دائمة . والعروة الوثقى هي عروة الإسلام لله والاستسلام والإحسان . ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ . . وإليه المرجع والمصير . فخير أن يسلم الإنسان وجهه إليه منذ البداية ؛ وأن يسلك إليه الطريق على ثقة وهدى ونور . .

﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا ، إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلاً ، ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ . .

(183/610)

تلك نهاية من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن . وهذه نهاية من يكفر ويخدعه متاع الحياة .

نهايته في الدنيا تهوين شأنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين . ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴾ . . فشأنه أهون من أن يحزنك ، وأصغر من أن يهمك . . ونهايته في الأخرى التهوين من شأنه كذلك . وهو في قبضة الله لا يفلت وهو مأخوذ بعمله ، والله أعلم بما عمل وبما يخفيه في صدره من نوايا : ﴿ إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا . إن الله عليم بذات الصدور ﴾ . . ومتاع الحياة الذي يخدعه قليل ، قصير الأجل ، زهيد القيمة . . ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ . . والعاقبة بعد ذلك مروعة فظيعة وهو مدفوع إليها دفعاً لا يملك لها رداً : ﴿ ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ . . ووصف العذاب بالغلظ يجسمه على طريقة القرآن والتعبير بالاضطرار يلقي ظل الهول الذي يحاول الكافر ألا يواجهه ، مع العجز عن دفعه ، أو التلكؤ دونه ! فأين هذا ممن يسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى ، ويصير إلى ربه في النهاية هادئ النفس مطمئن الضمير ؟

ثم يقفهم أمام منطق فطرتهم ، حين تواجه الكون ، فلا تجد مناصاً من الاعتراف بالحقيقة الكامنة فيها وفي فطرة الكون على السواء ؛ ولكنهم يزيغون عنها وينحرفون ، ويغفلون منطقها القويم :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : الله .

قل : الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما في السماوات والأرض . إن الله هو الغني الحميد ﴾ . .

(184/610)

وما يملك الإنسان حين يستفتي فطرته ويعود إلى ضميره أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الناطقة . فهذه السماوات والأرض قائمة . مقدرة أوضاعها وأحجامها وحركاتها وأبعادها ، وخواصها وصفاتها . مقدرة تقديراً يبدو فيه القصد ، كما يبدو فيه التناسق . وهي قبل ذلك خلائق لا يدعي أحد أنه خلقها ؛ ولا يدعي أحد أن خالقاً آخر غير الله شارك فيها ؛ ولا يمكن أن توجد هكذا بذاتها . ثم لا يمكن أن تنتظم وتتسق وتقوم وتتناسق بدون تدبير ، وبدون مدبر . والقول بأنها وجدت وقامت تلقائياً أو فلتة أو مصادفة لا يستحق احترام المناقشة . فضلاً على أن الفطرة من أعماقها تنكره وترده . وأولئك الذين كانوا يواجهون عقيدة التوحيد بالشرك ؛ ويقابلون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجدال العنيف ؛ لم يكونوا يستطيعون أن يزيفوا منطق فطرتهم حين تواجه بالدليل الكوني الممثل في وجود السماوات والأرض ، وقيامهما أمام العين ، لا تحتاجان إلى أكثر من النظر !

ومن ثم لم يكونوا يتلجلجون في الجواب : لو سئلوا : ﴿ من خلق السماوات والأرض ؟ ﴾ وجوابهم ﴿ الله ﴾ . . لذلك يوجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليعقب على جوابهم هذا بحمد الله : ﴿ قل : الحمد لله ﴾ . . الحمد لله على وضوح الحق في الفطرة ، والحمد لله على هذا الإقرار القهري أمام الدليل الكوني . والحمد لله على كل حال . ثم يضرب عن الجدل والتعقيب بتعقيب آخر : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . . ومن ثم يجادلون ويجهلون منطق الفطرة ، ودلالة هذا الكون على خالقه العظيم .

وبمناسبة إقرار فطرتهم بخلق الله للسماوات والأرض يقرر كذلك ملكية الله المطلقة لكل ما في السماوات والأرض . ما سخره للإنسان وما لم يسخره . وهو مع ذلك الغني عن كل ما في السماوات والأرض ، المحمود بذاته ولو لم يتوجه إليه الناس بالحمد :

﴿ لله ما في السماوات والأرض . إن الله هو الغني الحميد ﴾ . .

(185/610)

والآن تختم هذه الجولة بمشهد كوني يرمز إلى غنى الله الذي لا ينفد ، وعلمه الذي لا يحد ، وقدرته على الخلق والتكوين المتجددين بغير ما نهاية ، ومشيئته المطلقة التي لا نهاية لما تريد :

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ما خلْقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة .

إن الله سميع بصير ﴾ . .

إنه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة ، ليقرب إلى تصورهم معنى تجدد المشيئة الذي ليس له حدود ؛ والذي لا يكاد تصورهم البشري يدركه بغير هذا التجسيم والتمثيل .

إن البشر يكتبون علمهم ، ويسجلون قولهم ، ويمضون أوامرهم ، عن طريق كتابتها بأقلام كانت تتخذ من الغاب والبوص يمدونها بمداد من الحبر ونحوه . لا يزيد هذا الحبر على ملء دواة أو ملء زجاجة ! فها هو ذا يمثل لهم أن جميع ما في الأرض من شجر تحول أقلاماً . وجميع ما في الأرض من بحر تحول مداداً . بل إن هذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك . . وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة ، الدالة على علمه ، المعبرة عن مشيئته . . فماذا ؟ لقد نفدت الأقلام ونفد المداد . نفدت الأشجار ونفدت البحار . . وكلمات الله باقية لم تنفد ، ولم تأت لها نهاية . . إنه المحدود يواجه غير المحدود . ومهما يبلغ المحدود فسينتهي ؛ ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئاً على الإطلاق . . إن كلمات الله لا تنفد ، لأن علمه لا يحد ، ولأن إرادته لا تكف ، ولأن مشيئته سبحانه ماضية ليس لها حدود ولا قيود .

وتتوارى الأشجار والبحار ، وتنزوي الأحياء والأشياء ؛ وتتوارى الأشكال والأحوال .

ويقف القلب البشري خاشعاً أمام جلال الخالق الباقي الذي لا يتحول ولا يتبدل ولا يغيب ؛ وأمام قدرة الخالق القوي المدبر الحكيم : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ . .

وأمام هذا المشهد الخاشع يلقي بالإيقاع الأخير في هذه الجولة ؛ متخذاً من ذلك المشهد دليلاً كونياً على يسر الخلق وسهولة البعث :

(186/610)

﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير ﴾ . .

والإرادة التي تخلق بمجرد توجه المشيئة إلى الخلق ، يستوي عندها الواحد والكثير ؛ فهي لا تبذل جهداً محدوداً في خلق كل فرد ، ولا تكرر الجهد مع كل فرد . وعندئذ يستوي خلق الواحد وخلق الملايين . وبعث النفس الواحدة وبعث الملايين . إنما هي الكلمة . هي المشيئة : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ومع القدرة العلم والخبرة مصاحبين للخلق والبعث وما وراءهما من حساب وجزاء دقيق : ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ . .

وتأتي الجولة الأخيرة تعالج القضية التي عالجتها الجولات الثلاث من قبل . فتقرر أن الله هو

الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل . وتقرر إخلاص العبادة لله وحده . وتقرر قضية اليوم الآخر الذي لا يجزى فيه والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً . . وتستصحب مع هذه القضايا مؤثرات منوعة جديدة . وتعرضها في المجال الكوني الفسيح . .

﴿ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ؟ وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ؟ وأن الله بما تعملون خبير ؟ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير ﴾ .

.

ومشهد دخول الليل في النهار ، ودخول النهار في الليل ، وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول ، مشهد عجيب حقاً ، ولكن طول الألفة والتكرار يفقد أكثر الناس الحساسية تجاهه فلا يلحظون هذه العجيبة ، التي تتكرر بانتظام دقيق ، لا يتخلف مرة ولا يضطرب ؛ ولا تنحرف تلك الدورة الدائبة التي لا تكل ولا تحيد . . والله وحده هو القادر على إنشاء هذا النظام وحفظه ؛ ولا يحتاج إدراك هذه الحقيقة إلى أكثر من رؤية تلك الدورة الدائبة التي لا تكل ولا تحيد .

(187/610)

وعلاقة تلك الدورة بالشمس والقمر وجريانهما المنتظم علاقة واضحة . وتسخير الشمس والقمر عجيبة أضخم من عجيبة الليل والنهار ونقصهما وزيادتهما . وما يقدر على هذا التسخير إلا الله القدير الخبير . وهو الذي يقدر ويعلم أمد جريانهما إلى الوقت المعلوم . ومع حقيقة إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ؛ وحقيقة تسخير الشمس والقمر وهما حقيقتان كونيتان بارزتان حقيقة أخرى مثلهما يقررها معهما في آية واحدة : ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ . . وهكذا تبرز هذه الحقيقة الغيبية ، إلى جانب الحقائق الكونية . حقيقة مثلها ، ذات ارتباط بها وثيق .

ثم يعقب على هذه الحقائق الثلاث بالحقيقة الكبرى التي تقوم عليها الحقائق جميعاً . الحقيقة الأولى التي تنبثق منها الحقائق جميعاً . وهي الحقيقة التي تعالجها الجولة ؛ وتقدم لها بهذا الدليل :

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير ﴾ . .

ذلك . . ذلك النظام الكوني الثابت الدائم المنسق الدقيق . . ذلك النظام قائم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل . قائم بهذه الحقيقة الكبرى التي تعتمد عليها كل حقيقة ، والتي يقوم بها هذا الوجود . فكون الله هو الحق . سبحانه . هو الذي يقيم هذا الكون ، وهو الذي يحفظه ، وهو الذي يدبره ، وهو الذي يضمن له الثبات والاستقرار والتماسك

والتناسق ، ما شاء الله له أن يكون . .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ . . كل شيء غيره يتبدل . وكل شيء غيره يتحول . وكل شيء غيره تلحقه الزيادة والنقصان ، وتتعاوره القوة والضعف ، والازدهار والذبول ، والإقبال والإدبار . وكل شيء غيره يوجد بعد أن لم يكن ، ويزول بعد أن يكون . وهو وحده سبحانه الدائم الباقي الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا يحول ولا يزول . .

(188/610)

ثم تبقى في النفس بقية من قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ . . بقية لا تنقلها الألفاظ ولا يستقل بها التعبير البشري الذي أملك . بقية يتمثلها القلب ويستشعرها الضمير ؛ ويحسها الكيان الإنساني كله ويقصر عنها التعبير ! . . وكذلك : ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ . . الذي ليس غيره " عليّ " ولا " كبير " ! ! ! ترى قلت شيئاً يفصح عما يخالج كياني كله أمام التعبير القرآني العجيب ؟ أحس أن كل تعبير بشري عن مثل هذه الحقائق العليا ينقص منها ولا يزيد ؛ وأن التعبير القرآني كما هو هو وحده التعبير الموحي الفريد ! ! !

ويعقب السياق على ذلك المشهد الكوني ، وهذه اللمسة الوجدانية ، بمشهد آخر من

مألوف حياة البشر .

مشهد الفلك تجري في البحر بفضل الله . ويقفهم في هذا المشهد أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر وخطره ، مجردة من القوة والبأس والبطر والغرور :

﴿ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ . .

(189/610)

والفلك تجري في البحر وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء . فخلقة هذه الخلائق بخواصها هذه هي التي جعلت الفلك تجري في البحر ولا تغطس أو تقف . ولو اختلت تلك الخواص أي اختلال ما جرت الفلك في البحر . لو اختلت كثافة الماء أو كثافة مادة الفلك . لو اختلت نسبة ضغط الهواء على سطح البحر . لو اختلت التيارات المائية والهوائية . لو اختلت درجة الحرارة عن الحد الذي يبقي الماء ماء ، ويبقي تيارات الماء والهواء في الحدود المناسبة . . لو اختلت نسبة واحدة أي اختلال ما جرت الفلك في الماء ، وبعد ذلك كله يبقى أن الله هو حارس الفلك وحاميها فوق ثبج

الأمواج وسط العواصف والأنواء ، حيث لا عاصم لها إلا الله . فهي تجري بنعمة الله وفضله على كل حال . ثم هي تجري حاملة نعمة الله وفضله كذلك . والتعبير يشمل هذا المعنى وذاك : ﴿ ليريكم من آياته ﴾ . . وهي معروضة للرؤية ، يراها من يريد أن يرى ؛ وليس بها من غموض ولا خفاء . . ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ . . صبار في الضراء ، شكور في السراء ؛ وهما الحالتان اللتان تتعاوران الإنسان .

ولكن الناس لا يصبرون ، ولا يشكرون ، إنما يصيبهم الضر فيجأرون ، وينجيهم الله من الضر فلا يشكر منهم إلا القليل :

﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ . .

فأمام مثل هذا الخطر ، والموج يغشاهم كالظلل والفلك كالريشة الحائرة في الخضم الهائل . . تتعرى النفوس من القوة الخادعة ، وتتجرد من القدرة الموهومة ، التي تحجب عنها في ساعات الرضاء حقيقة فطرتها ، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها . حتى إذا سقطت هذه الحوائل ، وتعرت الفطرة من كل ستار ، استقامت إلى ربها ، واتجهت إلى بارئها ، وأخلصت له الدين ، ونفت كل شريك ، ونبذت كل دخيل . و دعوا الله مخلصين له الدين .

﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ . .

لا يجرفه الأمن والرخاء إلى النسيان والاستهتار ؛ إنما يظل ذاكراً شاكراً ، وإن لم يوف حق الله في الذكر والشكر ؛ فأقصى ما يبلغه ذاكر شاكر أن يكون مقتصداً في الأداء .

ومنهم من يجحد وينكر آيات الله بمجرد زوال الخطر وعودة الرخاء : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ . . والختار الشديد الغدر ، والكفور الشديد الكفر ؛ وهذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد آيات الله بعد هذه المشاهد الكونية ، ومنطق الفطرة الخالص الواضح المبين .

وبمناسبة هول البحر وخطره الذي يعري النفوس من غرور القوة والعلم والقدرة ، ويسقط عنها هذه الحواجز الباطلة ، ويقفها وجهاً لوجه أمام منطق الفطرة . . بمناسبة هذا الهول يذكرهم بالهول الأكبر ، الذي يبدو هول البحر في ظله صغيراً هزيلاً . هول اليوم الذي يقطع أواصر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد ، ويحول بين المولود والوالد ، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة ، مجردة من كل عون ومن كل سند ، موحشة من كل قربى ومن كل وشيجة :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ . .

إن الهول هنا هول نفسي ، يقاس بمداه في المشاعر والقلوب . وما تنقطع أواصر القربى

والدم ؛ ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد ، وبين المولود والوالد . وما يستقل كل بشأنه ، فلا يجزى أحد عن أحد ، ولا ينفع أحداً إلا عمله وكسبه . ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظير له في مألوف الناس . . فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجيء في موضعها الذي فيه تستجاب ؛ وقضية الآخرة تعرض في ظلال هذا الهول الغامر فتسمع لها القلوب .

﴿ إن وعد الله حق ﴾ . . فلا يخلف ولا يتخلف ؛ ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب . ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذي لا يغني فيه والد عن ولد ولا مولود عن والد .

(191/610)

﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ . . وما فيها من متاع ولهو ومشغلة ؛ فهي مهلة محدودة وهي ابتلاء واستحقاق للجزاء .

﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ . . من متاع يُلهي ، أو شغل يُنسي ، أو شيطان يوسوس في الصدور . والشياطين كثير . الغرور بالمال شيطان . والغرور بالعلم شيطان . والغرور بالعمر شيطان . والغرور بالقوة شيطان . والغرور بالسلطان شيطان . ودفعة الهوى شيطان . ونزوة الشهوة شيطان . وتقوى الله وتصور الآخرة هما العاصم من كل غرور !

وفي ختام الجولة الرابعة وختام السورة ، وفي ظل هذا المشهد المرهوب يجيء الإيقاع الأخير في السورة قوياً عميقاً مرهوباً ، يصور علم الله الشامل وقصور الإنسان المحجوب عن الغيوب . ويقرر القضية التي تعالجها السورة بكل أجزائها ، ويخرج هذا كله في مشهد من مشاهد التصوير القرآني العجيب .

﴿ إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت . إن الله عليم خبير ﴾ . .

والله سبحانه قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه ؛ ليبقى الناس على حذر دائم ، وتوقع دائم ، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها ، وهم لا يعلمون متى تأتي ، فقد تأتيهم بغتة في أية لحظة ، ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد .

وكنز الرصيد .

والله ينزل الغيث وفق حكمته ، بالقدر الذي يريده ؛ وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله ؛ ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه . والنص يقرر أن الله هو الذي ينزل الغيث ، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية التي تكونه والتي تنظمه . فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة . كما هو ظاهر من النص . وقد وهم الذين عدوه في الغيبيات المختصة بعلم الله . وإن كان علم الله وحده هو العلم في كل

أمر وشأن . فهو وحده العلم الصحيح الكامل الشامل الدائم الذي لا يلحق به زيادة ولا نقصان .

(192/610)

﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ . . اختصاص بالعلم كالاختصاص في أمر " الساعة " فهو سبحانه الذي يعلم وحده . علم يقين . ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور . من فيض وغيض . ومن حمل حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم . ونوع هذا الحمل ذكراً أم أنثى ، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة . وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته . . فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى .

﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ . . ماذا تكسب من خير وشر ، ومن نفع وضر ، ومن يسر وعسر ، ومن صحة ومرض ، ومن طاعة ومعصية . فالكسب أعم من الربح المالي وما في معناه ؛ وهو كل ما تصيبه النفس في الغداة . وهو غيب مغلق ، عليه الأستار . والنفس الإنسانية تقف أمام سدف الغيب ، لا تملك أن ترى شيئاً مما وراء الستار .

وكذلك : ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ فذلك أمر وراء الستر المسبل السميك الذي لا تنفذ منه الأسماع والأبصار .

وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة ، تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود ، وعجزها الواضح ، ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدعاة . وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً ؛ وأن وراء الستر الكثير مما لم يعلمه الناس . ولو علموا كل شيء آخر فسيظلون واقفين أمام ذلك الستر لا يدرون ماذا يكون غداً ! بل ماذا يكون اللحظة التالية . وعندئذ تطامن النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله .

والسياق القرآني يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير في القلب البشري في رقعة فسيحة هائلة . .

(193/610)

رقعة فسيحة في الزمان والمكان ، وفي الحاضر الواقع ، والمستقبل المنظور ، والغيب السحيق . وفي خواطر النفس ، ووثبات الخيال : ما بين الساعة البعيدة المدى ، والغيث البعيد المصدر ، وما في الأرحام الخافي عن العيان . والكسب في الغد ، وهو قريب في الزمان ومغيب في المجهول . . وموضع الموت والدفن ، وهو مبعد في الظنون .

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء . ولكن اللمسات التصويرية العريضة بعد أن تتناولها

من أقطارها تدق في أطرافها ، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول ونقف بها جميعا أمام كوة صغيرة مغلقة ، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد ، ولا نكشف القاصي منها والدان «1» . . ولكنها تظل مغلقة في وجه الإنسان ، لأنها فوق مقدور الإنسان ، ووراء علم الإنسان . تبقى خالصة للّه لا يعلمها غيره ، إلا بإذن منه وإلا بمقدار . «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» وليس غيره بالعليم ولا بالخبير . .

وهكذا تنتهي السورة ، كما لو كانت رحلة هائلة بعيدة الآماد والآفاق والأغوار والأبعاد . ويؤوب القلب من هذه الرحلة المديدة البعيدة ، الشاملة الشاسعة ، وئيد الخطى لكثرة ما طوّف ، ولجسامة ما يحمل ، ولطول ما تدبر وما تفكر ، في تلك العوالم والمشاهد والحيوانات ! وهي بعد سورة لا تتجاوز الأربع والثلاثين آية . فتبارك اللّه خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن شفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 5 صـ 2792 . 27800 ﴾

(194/610)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة ﴾

هي تسخير ما في السموات وما في الأرض من الأجسام العلوية والسفلية ، البسطية والمركبة . وباطنة هي تسخير ما في سموات القلوب من الصدق والإخلاص والتوكل والشكر وسائر المقامات القلبية والروحانية بأن يسر العيون عليها بالسكون المتدارك بالجذبة والانتفاع بمنافعها والاجتناب عن مضارها . وتسخير ما في أرض النفوس من اضداد الأخلاق المذكورة بتبديلها بالحميدة والتمتع بخواصها والتحرز عن آفاتها . ﴿ ثم نضطرهم ﴾ لفساد استعدادهم ﴿ تجري في البحر بنعمة الله ﴾ سلامتهم في الظاهر معلومة ، وأما في الباطن فنجاتهم بسفائن العصمة من بحار القدرة أو بسفينة الشريعة بملابسة الطريقة في بحر الحققة لإِراءة آيات شواهد الحق ، وإذا تلاطمت عليهم أمواج بحار التقدير تمنوا أن تلفظهم نفحات الألطاف إلى سواحل الأعطاف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 432 ﴾

(195/610)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في السورة الكريمة : ﴿ الم ﴾ [لقمان : 1] إشارة إلى آلائه تعالى ولطفه

جل شأنه ومجده عز وجل ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ بحضور القلب والإعراض عن السوي وهي صلاة خواص الخواص ، وأما صلاة الخواص فبنفي الخطرات الردية والإرادات الدنيوية ولا يضر فيها طلب الجنة ونحوه ، وأما صلاة العوام فما يفعله أكثر الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكواة ﴾ [لقمان : 4] ببذل الوجود للملك المعبود لنيل المقصود وهي زكاة الأخص ، وزكاة الخاصة ببذل المال كله لتصفية قلوبهم عن صدإ محبة الدنيا ، وزكاة العامة ببذل القدر المعروف من المال المعلوم على الوجه المشروع المشهور لتزكية نفوسهم عن نجاسة البخل ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث ﴾ [لقمان : 6] هو ما يشغل عن الله تعالى ذكره ويحجب عنه عز وجل استماعه ، وأما الغناء فهو عند كثير منهم أقسام منها ما هو من لهو الحديث ، ونقل بعضهم عن الجنيد قدس سره أنه قال : السماع على أهل النفوس حرام لبقاء نفوسهم وعلى أهل القلوب مباح لوفور علومهم وصفاء قلوبهم وعلى أصحابنا واجب لفناء حظوظهم ، وعن أبي بكر الكناني سماع العوام على متابعة الطبع وسماع المريدين رغبة ورهبة وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل من هؤلاء مصدر ومقام ، وذكروا أن من القوم من يسمع في الله ولله وبالله ومن الله جل وعلا ولا يسمع بالسمع الإنساني بل يسمع بالسمع الرباني كما في الحديث القدسي "كنت سمعه الذي يسمع به" وقالوا : إنما حرم اللهو لكونه لهواً فمن لا يكون لهواً بالنسبة إليه لا يحرم عليه إذ علة

الحرمة في حقه منتفية والحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، ويلزمهم القول بحل شرب المسكر لمن لا يسكره لا سيما لمن يزيده نشاطاً للعبادة مع ذلك ، ومن زنادقة القلندرية من يقول بحل الخمر والحشيشة ونحوها من

(196/610)

المسكرات المحرمة بلا خلاف زاعمين أن استعمال ذلك يفتح عليهم أبواب الكشوف ، وبعض الجهلة الذين لعب بهم الشيطان يطلبون منهم المدد في ذلك الحال قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة ﴾ [لقمان : 12] قيل : هي إدراك خطاب الحق بوصف الإلهام ، وذكروا أن الحكمة موهبة الأولياء كما أن الوحي موهبة الأنبياء عليهم السلام فكل ليس بكسبي إلا أن للكسب مدخلاً ما في الحكمة ، فقد ورد "من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه" والحكمة التي يزعم الفلاسفة أنها حكمة ليست بحكمة إذ هي من نتائج الفكر ويؤتاها المؤمن والكافر وقلما تسلم من شوائب آفات الوهم ، ولهذا وقع الاختلاف العظيم بين أهلها وعدها بعض الصوفية من لهو الحديث ولم يبعد في ذلك عن الصواب ، وأشارت قصة لقمان إلى التوحيد ومقام جمع الجمع وعين الجمع واتباع سبيل الكاملين والإعراض عن السوي وتكميل الغير والصبر على

الشدائد والتواضع للناس وحسن المماشاة والمعاملة والسيرة وترك التماوت في المشي وترك رفع الصوت ، وقيل : ﴿ الحمير ﴾ في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَنكَرَ الاصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ [لقمان : 19] هم الصوفية الذين يتكلمون بلسان المعرفة قبل أن يؤذن لهم ، وطبق بعضهم جميع ما في القصة على ما في الأنفس ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً ﴾ قال الجنيد : النعم الظاهرة حسن الأخلاق والنعم الباطنة أنواع المعارف ، وقيل : على قراءة الأفراد النعمة الظاهرة اتباع ظاهر العلم والباطنة طلب الحقيقة في الاتباع ، وقيل : النعمة الظاهر نفس بلا زلة والباطنة قلب بلا غفلة .

(197/610)

﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : 20] يشير إلى أهل الجدل من الفلاسفة فإنهم يجادلون في ذات الله تعالى وصفاته عز وجل كذلك عند التحقيق لأنهم لا يعتبرون كلام الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا الكتب المنزلة من السماء وأكثر علومهم مشوب بآفة الوهم ومع هذا فشؤون الله جل وعلا طور ما وراء طور العقل .

هيهات أن تصطاد عنقاء البقا . . .

بلعابهن عناكب الأفكار

وأبعد من محدب الفلك التاسع حصول علم بالله عز وجل وبصفاته جل شأنه يعتد به بدون نور إلهي يستضيء العقل به وعقولهم في ظلمات بعضها فوق بعض ، وقد سدت أبواب الوصول إلا على متبع للرسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعضهم مخاطباً لحضرة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام :

وأنت باب الله أي امرىء . . .

أتاه من غيرك لا يدخل

(198/610)

﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ الله هُوَ العلى الكبير ﴾ [لقمان : 30] فيه إشارة إلى أنه سبحانه تمام وفوق التمام ، والمراد بالأول من حصل له كل ما جاز له وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الحق ﴾ والمراد بالثاني من حصل له ذلك وحصل لما عداه ما جاز له وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ هُوَ العلى الكبير ﴾ ووراء هذين الشيئين ناقص وهو ما ليس له ما ينبغي كالصبي والمريض والأعمى ومكتف وهو من أعطى ما

تندفع به حاجته في وقته كالإنسان الذي له من الآلات ما تندفع به حاجته في وقته لكنها في معرض التحلل والزوال ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان : 34] الآية ذكر غير واحد حكايات عن الأولياء متضمنة لإطلاع الله تعالى إياهم على ما عدا علم الساعة من الخمس وقد علمت الكلام في ذلك ، وأغرب ما رأيت ما ذكره الشعراني عن بعضهم أنه كان يبيع المطر فيمطر على أرض من يشتري منه متى شاء ، ومن له عقل مستقيم لا يقبل مثل هذه الحكاية ، وكم للقصاص أمثالها من رواية نسأل الله تعالى أن يحفظنا وإياكم من اعتقاد خرافات لا أصل لها وهو سبحانه ولي العصمة والتوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(199/610)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

الإعراب :

جملة : " تلك آيات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

(3 – 4) (هدى) حال منصوبة من الكتاب ، والعامل فيها الإشارة (للمحسنين) متعلّق بـ (رحمة) ، (الذين) اسم موصول في محلّ جرّ نعت للمحسنين " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (بالآخرة) متعلّق بالخبر (يوقنون) ، (هم) الثاني توكيد للأول . .

وجملة : " يقيمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يؤتون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هم . . . يوقنون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يوقنون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(5) (على هدى) متعلّق بخبر محذوف للمبتدأ أولئك (من ربّهم) متعلّق بنعت لهدى (الواو) عاطفة (هم) مبتدأ ثان في محلّ رفع خبره (المفلحون) " 2 " .

وجملة : " أولئك على هدى . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أولئك هم المفلحون " لا محلّ لها معطوفة على جملة أولئك على هدى .

وجملة : " هم المفلحون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) الثاني .

(الواو) عاطفة (من الناس) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (من) " 3 " ،

(اللام) للتعليل (يضلّ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل ضمير مستتر يعود

على من (عن سبيل) متعلّق بـ (يضل) ، (بغير) متعلّق بحال من فاعل يشتري . (هزوا)

مفعول به ثان

---

(1) أو عطف بيان عليه . . . ويجوز أن يكون مبتدأ خبره جملة أولئك على هدى . .

(2) أو هو ضمير فصل لا عمل له .

(3) يجوز أن يكون نعتا لمبتدأ مقدّر ، والخبر من يشتري . . . أي : بعض الناس من

يشتري .

عامله يتّخذها (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) .

والمصدر المؤوّل (أن يضلّ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يشتري) .

وجملة : " من الناس . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أولئك على هدى .

وجملة : " يشتري . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يتّخذها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يضلّ .

وجملة : " أولئك لهم عذاب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

(7) (الواو) عاطفة (آياتنا) نائب الفاعل مرفوع (عليه) متعلّق بـ (تتلى) ، (مستكبرا) حال منصوبة من فاعل ولّى (كأن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير محذوف يعود على من يشتري (في أذنيه) متعلّق بخبر كأنّ المشدّدة (وقرا) اسم كأنّ منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بعذاب) متعلّق بـ (بشّره) .

وجملة : " تتلى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ولّى . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كأن لم يسمعها . . . " في محلّ نصب حال ثانية من فاعل ولّى .

وجملة : " لم يسمعها . . . " في محلّ رفع خبر (كأن) المخفّفة .

وجملة : " كأنّ في أذنيه وقرا . . . " في محلّ نصب بدل من كأن لم

يسمعها " 1 " .

وجملة : " بشره . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن جاءك فبشّره . . . " 2 "

.

الصرف :

(7) مستكبرا : اسم فاعل من السداسيّ استكبر ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " الْكِتَابِ الْحَكِيمِ " .

وصف الكتاب بالحكيم مجاز ، لأن الوصف بذلك للتملك ، هو لا يملك الحكمة ، بل يشتمل عليها ويتضمنها ، فلأجل ذلك وصف بالحكيم بمعنى ذي الحكمة .

ويجوز أن يكون هناك استعارة بالكناية ، أي الناطق بالحكمة كالحي ويجوز أن يكون الحكيم في صفاته عز وجل ، ووصف الكتاب به من باب الإسناد المجازي .

الفوائد

1 - الإضافة بمعنى " من " :

" وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ " فإضافة اللهو إلى الحديث الغاية منها التبيين

وضابطها أن يكون الاسم الثاني " من المضاف والمضاف إليه " صالح للإخبار به عن الأول ، نحو " خاتم فضة " أي خاتم كائن من فضة .

2 - النضر بن الحارث :

---

(1) أو حال ثالثة . . . أو حال من فاعل يسمعها . هذا وجوّز الزمخشري جعل الجملتين التشبيهيّتين مستأنفتين .

(2) يجوز جعل الجملة معطوفة على ما قبلها برابط السببيّة ، والفاء هي الفصيحة .

الجدول ج 21 ، ص : 73

ذكر المفسرون والمؤرخون ، أن النضر بن الحارث ، كان يأتي الحيرة بقصد التجارة ، ثم يشتري كتبا فيها أخبار الأعاجم ، فيأتي مكة ويحدث أهلها بما فيها ، ويقول : إن محمدا يحدثكم بأخبار عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بأحاديث فارس والروم ، فيستحسنون ذلك ، وينصرفون عن سماع القرآن ، فنزلت بهم هذه الآية . ومن المعلوم أن أسباب النزول ، تكون خاصة ، ثم تسري أحكامها فيما بعد على العموم .

[سورة لقمان (31) : الآيات 8 إلى 9]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

الإعراب :

(لهم جنّات) مثل لهم عذاب " 1 " .

---

(1) في الآية (6) من هذه السورة .

وجملة : " إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " لهم جنات . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(9) (خالدين) حال مقدّرة منصوبة (فيها) متعلّق بخالدين (وعد) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (حقا) مفعول مطلق مؤكّد لمضمون الجملة منصوب (الواو) عاطفة (الحكيم) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " (وعد) اللّه وعدا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو العزيز . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة لقمان (31) : آية 10]

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ

دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)

الإعراب :

(بغير) متعلّق بحال من السموات (الواو) عاطفة (في الأرض) متعلّق بـ (ألقى) ، (أن) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (أن تميد . . .) في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف أي خشية أن تميد " 1 " .

(بكم) متعلّق بـ (تميد) ، (فيها) متعلّق بـ (بثّ) (من كلّ) متعلّق بـ (بثّ) ومن تبعيضيّة (من السماء) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (الفاء) عاطفة (فيها) متعلّق بـ (أنبتنا) ، (من كلّ) متعلّق بـ (أنبتنا) ومن تبعيضيّة .

جملة : " خلق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ترونها . . . " في محلّ جرّ نعت لعمد .

وجملة : " ألقى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : " تميد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " بثّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقى .

وجملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقى .

وجملة : " أنبتنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلنا .

الفوائد

---

(1) يجوز جرّ المصدر المؤوّل بحرف جرّ محذوف بتقدير (لا) نافية قبل الفعل أي : لئلّا تميد بكم . . والجار متعلّق بـ (ألقى) .

(203/610)

- الزوجية في البنات كما هي في الأحياء :

من عظيم خلق اللّه ، أن الزوجية ، وهي الذكورة والأنوثة ، موجودة في النبات ، كما هي موجودة في الأحياء ، وهي سنة من سنن اللّه ، وناموس مما أودعه اللّه في سائر مخلوقاته ، ولئن ذهب بعضهم ، في تعليلات غير مقبولة لوجود الازدواجية في الأحياء ، وزعم أنها وليدة المصادفة أو التطور أو غير ذلك ، فإنه سيقف مبهوتا أمام هذه الازدواجية في النبات الذي لا حياة فيه ولا عقل ، ومع ذلك فقد زوّده اللّه بهذه الثنائية التي تضمن له توالده وتكاثره واستمرار نوعيته . فتبصر هديت إلى الرشد والسداد .

[سورة لقمان (31) : آية 11]

هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (11)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عامله خلق " 1 " ، (من دونه) متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (بل) للإضراب الانتقاليّ (في ضلال) متعلّق بخبر محذوف للمبتدأ الظالمون .

جملة : " هذا خلق اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أروني . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كنتم صادقين في دعواكم عبادة غير اللّه فأروني . .

وجملة : " خلق الذين . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل الرؤية المعلّق بالاستفهام ما ذا .

وجملة : " الظالمون في ضلال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة لقمان (31) : آية 12]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)

---

(1) أو (ما) مبتدأ و(ذا) اسم موصول خبر ، والجملة مفعول ثان لـ (أروني) .

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق ، وامتنع (لقمان) عن التنوين للعلميّة والعجمة (أن) حرف تفسير " 1 " ، (للّه) متعلّق بـ (اشكر) ، (الواو) استئنافيّة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (لنفسه) متعلّق بـ (يشكر) ، (الواو) عاطفة و(الفاء) رابطة لجواب الشرط الثاني .

وجملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اشكر . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " من يشكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشكر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " إنّما يشكر . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " من كفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من يشكر .

وجملة : " كفر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني .

وجملة : " إنّ اللّه غنيّ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 3 " .

---

(1) تقدّمه فعل فيه معنى القول : آتينا . [. . . . .]

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(3) أو هي تعليل للجواب المقدّر أي استغنى اللّه عنه فإن اللّه غنيّ . . .

(205/610)

الصرف :

(لقمان) قيل هو اسم علم أعجميّ ، وقيل هو عربيّ منع من التنوين للعلميّة وزيادة ألف ونون ، والأول أظهر . . . قيل هو ابن أخي إبراهيم ، وقيل هو ابن أخت أيّوب أو ابن خالته .

[سورة لقمان (31) : آية 13]

وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفي مفعول به لفعل مقدر تقديره اذكر (لابنه) متعلّق بـ (قال) ، (الواو) حاليّة (بنيّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم . .

(206/610)

(الياء) الثانية مضافة إليه (لا) ناهية جازمة (باللّه) متعلّق بـ (تشرك) (اللام) المزحلقة تفيد التوكيد .

جملة : " (اذكر) إذ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال لقمان . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هو يعظه . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يعظه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة النداء وجوابه في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تشرك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّ الشرك لظلم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(الشرك) ، مصدر الثلاثيّ شرك استعمل اسما ، فعله من باب فرح ، وزنه فعل بكسر فسكون .

الفوائد

- لقمان الحكيم :

في اسمه قولان :

أحدهما : أنه اسم أعجمي منع من الصرف للعجمة والعلمية .

وثانيهما : أنه عربي ومنع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون . والأول أولى .

وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا . . .

وقد نسجت حول حكمة لقمان أساطير كثيرة ، نورد هذه الأقوال لرجحانها :

أ – قال قتادة : خيّره اللّه بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة . فقذفت عليه وهو نائم فأصبح ينطق بالحكمة . فسئل عن ذلك ، فقال : لو أرسل اللّه إليّ النبوة عزمة لرجوت الفوز بها ، ولكنه خيرني ، فخفت أن أضعف عن النبوة .

ب – قال سعيد بن المسيب :

كان أسود من سودان مصر ، حكمته من حكمة الأنبياء وقيل : كان خياطا وقيل : راعيا ، فرآه رجل يعرفه قبل ذلك ، فقال : أ لست عبد بني فلان ، كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : وما يعجبك من أمري ؟ قال :

وطء الناس بساطك ، وغشيانهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال : يا ابن أخي ، إن صنعت ما أقول لك ، كنت لك . قال : وما أصنع ؟ قال : غضّ بصري ، وكفّ لساني ، وعفّة طمعي ، وحفظ فرجي ، وقيامي بعهدي ، ووفائي بوعدي ، وتكرمة ضيفي ، وحفظ جاري ، وترك ما لا يعنيني ، فذلك الذي صيرني كما ترى . ويروى أنه قال :

قدر اللّه ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وترك ما لا يعنيني .

ج – و

قال أنس : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : الحكمة تزيد الشريف شرفا ، وترفع المملوك حتى يجلس مجالس الملوك . قال اللّه تعالى : " وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ " .

د – قال الثعالبي المفسّر : اتفق العلماء على أن لقمان لم يكن نبيّا ، إلا عكرمة ، تفرّد بأنه نبيّ . . .

ه – قال وهب بن منبه : كان لقمان ابن أخت داود عليه السلام . وقيل : ابن خالته . وكان في زمنه ، وكان داود يقول له : طوبى لك ، أوتيت الحكمة ، وصرفت عنك البلوى ، وأوتي داود الخلافة وبلي بالبلية ، وكان داود يغشاه ويقوله : انظروا إلى رجل أوتي الحكمة ووقي الفتنة .

وقال عبد الوارث : أوتي لقمان الحكمة في مقالة قالها ، فقيل : وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحق ، فقال : إن تختر لي فسمعا وطاعة ، وإن تخيرني أختر العافية ، وإنه من يبيع الآخرة بالدنيا يخسرهما جميعا . ولأن أعيش حقيرا ذليلا أحب إلي من أن أعيش قويا عزيزا . وقيل : كان عبدا نجارا ، فقال له سيده : اذبح شاة وائتني بأطيب مضغتين ، فأتاه بالقلب واللسان . ثم أمره بمثل ذلك أن يخرج أخبث مضغتين فأخرج القلب واللسان . فقال

له : ما هذا ؟ فقال : ليس شي ء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

و- وقال أبو إسحاق الثعالبي :

(208/610)

كان لقمان من أهون مماليك سيده عليه ، فبعثه مولاه مع عبيد له إلى بستانه يأتونه بشي ء من ثمر ، فجاءوه وما معهم شي ء ، وقد أكلوا الثمر ، وأحالوا على لقمان . فقال لقمان لمولاه : ذو الوجهين لا يكون عند اللّه وجيها ، فاسقني وإياهم ماء حميما ، ثم أرسلنا لنعود ، ففعل فجعلوا يقيئون تلك الفاكهة ، ولقمان يتقيّأ ماء ، فعرف مولاه صدقه وكذبهم ، وقيل : إنه دخل على داود وهو يسرد الدرع ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت ! فقال : الصمت حكمة ، وقليل فاعله . فقال له داود : بحق ما سميت حكيما . . !

[سورة لقمان (31) : الآيات 14 إلى 15]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة – أو اعتراضيّة – (بوالديه) متعلّق بـ (وصّينا) ، وعلامة الجرّ الياء (وهنا) مصدر في موضع الحال " 1 " من أمّه (على وهن) متعلّق بنعت لـ (وهنا) ، (الواو) عاطفة (في عاملين) متعلّق بخبر المبتدأ فصاله (أن اشكر لي) مثل أن اشكر للّه " 2 " ، لوالديك متعلّق بما تعلّق به (لي) فهو معطوف عليه (إليّ) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المصير .

جملة : " وصّينا . . . " لا محلّ لها استئناف اعتراضيّ بين كلام لقمان .

وجملة : " حملته أمّه " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " فصاله في عامين " لا محلّ لها معطوفة على جملة حملته أمّه .

وجملة : " اشكر لي " لا محلّ لها تفسيريّة لمفهوم التوصية .

وجملة : " إليّ المصير " لا محلّ لها تعليليّة .

---

(1) أو مفعول مطلق لفعل محذوف ، والجملة المقدّرة حال من أمّه .

(2) في الآية (12) من هذه السورة . . وفي قوله (وصّينا) معنى القول دون حروفه ، ويجوز أن يكون (أن) حرفا مصدريا ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (وصّينا) ، وما بين المتعلّقين اعتراض .

(15) (الواو) عاطفة (جاهداك) في محلّ جزم فعل الشرط . . و(الألف) فاعل ،

و(الكاف) مفعول به (أن) حرف مصدريّ ونصب (بي) متعلّق بـ (تشرك) ،

(ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (لك) متعلّق بخبر ليس (به) حال من علم .

والمصدر المؤوّل (أن تشرك) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (جاهداك) .

(الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية جازمة (الواو) عاطفة (في الدنيا) متعلّق بـ

(صاحبهما) ، (معروفا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته " 1 " أي صحابا

معروفا (الواو) عاطفة (إليّ) متعلّق بـ (أناب) (ثمّ) حرف عطف (إليّ) الثاني متعلّق

بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر مرجعكم (الفاء) عاطفة (ما) حرف مصدري " 2 "

.

والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أنبّئكم) .

وجملة : " جاهداك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وصّينا . . .

وجملة : " تشرك . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ليس لك به علم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا تطعهما . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " صاحبهما . . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " اتّبع . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

---

(1) يجوز نصبه على نزع الخافض أي : بالمعروف .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، أو نكرة موصوفة ، والعائد محذوف أي تعملونه . . .

والجملة صلة أو نعت .

(210/610)

وجملة : " أناب . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إليّ مرجعكم " لا محلّ لها معطوفة على تعليل مقدّر أي :

فإنّكم ميّتون ثمّ إليّ مرجعكم . . .

وجملة : " أنبّئكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة إليّ مرجعكم .

وجملة : " كنتم تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(وهنا) ، مصدر وهن باب وعد ووثق أي ضعف ، ووهنه غيره متعدّ ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

فن عكس الظاهر ، أو نفي الشيء بإيجابه : في قوله تعالى " ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ " .

أي لا تشرك بي ما ليس بشيء ، يريد الأصنام ، وعبّر بنفي العلم عن نفي المعلوم .

الفوائد

الجملة المعترضة :

وهي من الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب ، وهي تعترض بين شيئين متلازمين ، لإفادة الكلام تقوية وتسديدا أو تحسينا وقد وقعت في مواضع ، أهمها :

1 – بين الفعل ومرفوعه ، كقول جويرية بنت زيد :

وقد أدركتني والحوادث جمة أسنّه قوم لا ضعاف ولا عزل

2 – بين الفعل ومفعوله ، كقول أبي النجم العجلي :

وبدلت – والدهر ذو تبدل – هيفا دبورا بالصّبا والشّمأل

3 – بين المبتدأ وخبره : كقول : معن بن أوس المزني :

الجدول ج 21 ، ص : 83

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى نوادب لا يملكنه ونوائح .

4 – بين الشرط وجوابه : كقول النابغة الذبياني :

لعمري – وما عمري عليّ بهيّن لقد نطقت بطلا عليّ الأقارع

الأقارع : بنو قريع بن عوف .

6 - بين الموصوف وصفته : كقوله تعالى فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ - لَوْ تَعْلَمُونَ - عَظِيمٌ .

7 - بين سوف والفعل ، كقول زهير بن أبي سلمى :

وما أدري وسوف - إخال - أدري أقوم آل حصن أم نساء

(211/610)

---

8 - بين جملتين مستقلتين : كما في الآية التي نحن بصددها ، وهي قوله تعالى وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ - حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ ، وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ - أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ .

9 - بين الموصول وصلته ، كقول جرير :

ذاك الذي - وأبيك - يعرف مالكا والحق يدفع ترّهات الباطل

10 - بين ما أصله مبتدأ وخبر ، كقول محمد بن بشير الخارجي :

لعلك - والموعود حق لقاؤه - بدا لك في تلك القلوص بداء

قال البيت في رجل وعده بقلوص ثم مطله والقلوص من النوق الشابة ، وجمعها قلص

وقلائص ، وجمع القلص قلاص .

[سورة لقمان (31) : الآيات 16 إلى 19]

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

الإعراب :

(يا بنيّ) مرّ إعرابها " 1 " ، (تك) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف ، واسمه ضمير مستتر يعود على الخصلة السيئة التي كنّى عنها بالضمير إنّها (من خردل) متعلّق بنعت لحبّة (الفاء) عاطفة (في صخرة) متعلّق بخبر تكن " 2 " ، (في السموات) مثل في صخرة وكذلك (في الأرض) (بها) متعلّق بـ (يأت) ، (خبير) خبر ثان مرفوع .

جملة : " يا بنيّ . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز قول لقمان .

---

(1) في الآية (13) من السورة .

(2) يجوز أن يكون الفعل تاما فيتعلق الجار بالفعل التام .

وجملة : " إنّها إن تك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إن تك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تكن في صخرة . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة إن تك . . .

وجملة : " يأت بها اللّه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّ اللّه لطيف . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(17) (يا بنيّ) مثل الأولى (بالمعروف) متعلّق بـ (اومر) ، (عن المنكر) متعلّق بـ (انه) ، (على ما) متعلّق بـ (اصبر) ، (من عزم) متعلّق بخبر إنّ . . . .

وجملة : " يا بنيّ (الثانية) " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " أقم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اومر . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقم .

وجملة : " انه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقم .

وجملة : " اصبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقم .

وجملة : " أصابك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّ ذلك من عزم الأمور " لا محلّ لها تعليليّة .

(18) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (للناس) متعلّق بـ (تصعّر) (لا) مثل الأولى (في الأرض) متعلّق بـ (تمش) (مرحا) مصدر في موضع الحال " 1 " ، (لا) نافية (فخور) نعت لمختال مجرور مثله .

وجملة : " لا تصعّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لا تمش . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " إنّ اللّه لا يحبّ " لا محلّ لها تعليل للنهي .

وجملة : " لا يحبّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(19) (الواو) عاطفة (في مشيك) متعلّق بـ (اقصد) ، (من صوتك) متعلّق بـ (اغضض) " 2 " ، (اللام) المزحلقة .

وجملة : " اقصد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " اغضض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوعه .

(2) غضّ صوته وغضّ من صوته .

وجملة : " إنّ أنكر . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(16) صخرة : اسم جامد ذات ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

(19) مشيك : مصدر سماعيّ لفعل مشى باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(صوتك) ، الاسم من (صات ، يصوت) باب نصر ، (ويصات) باب فتح ، وهو المصدر أيضا ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(أنكر) على وزن اسم التفضيل من (نكر) الثلاثيّ باب فرح ، وزنه أفعل .

البلاغة

التتميم : في قوله تعالى " إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ . . "

والمعنى أنه تمم خفاء الهنة أو الخطيئة في نفسها ، بخفاء مكانها من الصخرة ، والأخفى من الصخرة ، كأن تكون في صخرة مستقرة في أغوار الأرض السحيقة ، أو في الأعالي من أجواز الفضاء ، ومنه في الشعر قول الخنساء :

وإن صخرا لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقولها " في رأسه نار " تتميم جميل لا بد منه لتجسيد الظهور والشهرة للسارين والغادين .

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ " .

حيث أخلي الكلام من لفظ التشبيه ، وأخرج مخرج الاستعارة ، فجعلوا حميرا ، وجعل صوتهم نهاقا ، مبالغة في الذم والتهجين وإفراطا في النهي عن رفع الصوت والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة الموجعة ، وكذلك نهاقه .

[سورة لقمان (31) : الآيات 20 إلى 21]

(214/610)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (21)

الإعراب :

(لكم) متعلّق بـ (سخّر) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما ، وكذلك (في الأرض) صلة ما الثاني .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه سخّر . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعوليّ تروا .

(الواو) عاطفة (عليكم) متعلّق بـ (أسبغ) ، (ظاهرة) حال من نعمه منصوبة و(الواو)

استئنافيّة (من الناس) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر من (في اللّه) متعلّق بـ (يجادل) بحذف مضاف أي في توحيده أو صفاته (بغير) حال من فاعل يجادل (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي في الموضعين (هدى ، كتاب) معطوفان على علم مجروران .

جملة : " تروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سخّر . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " أسبغ . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة سخّر .

وجملة : " من الناس من يجادل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يجادل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول من .

(21) (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (قيل) ، (بل) للإضراب الانتقالي (عليه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله وجدنا (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (إلى عذاب) متعلّق بـ (يدعوهم) .

وجملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اتّبعوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : " أنزل اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) هي في الأصل جملة مقول القول .

وجملة : " نتّبع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . ومقول القول محذوف أي : لا نتّبع ما أنزل اللّه بل نتّبع . . .

وجملة : " وجدنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " كان الشيطان يدعوهم " في محلّ نصب حال من الآباء . . .

وجواب لو محذوف يفسّره ما قبله .

وجملة : " يدعوهم . . . " في محلّ نصب خبر كان .

البلاغة

الطباق : في قوله تعالى " وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً " .

والمراد بالنعم الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة ، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل .

[سورة لقمان (31) : الآيات 22 إلى 25]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (24) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إلى اللّه) متعلّق بـ (يسلم) ، (الواو) حاليّة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (بالعروة) متعلّق بـ (استمسك) ، (الواو) عاطفة (إلى اللّه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر عاقبة .

جملة : " من يسلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " هو محسن . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " استمسك . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إلى اللّه عاقبة . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(23) (الواو) عاطفة (كفر) مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية جازمة (إلينا) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ مرجعهم (الفاء) عاطفة (ما) حرف مصدري " 2 " ، (بذات) متعلّق بعليم .

والمصدر المؤوّل (ما عملوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (ننبّئهم) .

وجملة : " من كفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من يسلم .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط الجواب معا .

(2) أو اسم موصول – أو نكرة موصوفة – في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، أي عملوه . . . والجملة صلة أو نعت .

(216/610)

وجملة : "كفر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " لا يحزنك كفره . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إلينا مرجعهم " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " ننبّئهم " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " إنّ اللّه عليم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(24) (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته " 2 " ، (ثمّ) حرف عطف (إلى عذاب) متعلّق بـ (نضطرهم) بتضمينه معنى نردّهم .

وجملة : " نمتّعهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نضطرّهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة نمتّعهم .

(25) (الواو) عاطفة (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (سألتهم) في محلّ

جزم فعل الشرط (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) لام القسم (يقولنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (اللّه) مبتدأ خبره محذوف أي خالقها (للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (بل) للإضراب الانتقاليّ (لا) نافية .

وجملة : " إن سألتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من كفر .

وجملة : " من خلق . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل السؤال

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا . [. . . . .]

(2) أو مفعول فيه نائب عن الظرف متعلّق بـ (نمتّعهم) .

(217/610)

المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " خلق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " يقولنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة .

وجملة : " اللّه (خالقها) " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الحمد للّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أكثرهم لا يعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم) .

البلاغة

التشبيه التمثيلي المركب : في قوله تعالى " فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى " .

حيث شبه حال المتوكل على اللّه عز وجل ، المفوض إليه أموره كلها ، المحسن في أعماله ، بمن ترقى في جبل شاهق أو تدلى منه ، فتمسك بأوثق عروة من حبل متين ، مأمون انقطاعه ويجوز أن يكون هناك استعارة في المفرد وهو العروة الوثقى ، بأن يشبه التوكل النافع المحمود عاقبته بها ، فتستعار له .

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ " .

فقد شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه ، باضطرار المضطّر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه . والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة . والمراد الشدة والثقل على المعذب .

[سورة لقمان (31) : الآيات 26 إلى 27]

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)

الإعراب :

(للّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (هو) ضمير فصل " 1 " ، (الحميد) خبر ثان مرفوع للحرف المشبّه بالفعل .

جملة : " للّه ما في السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ اللّه . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

(27) (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم " 2 " ، (في الأرض) متعلّق بمحذوف صلة ما (من شجرة) حال من ضمير الوجود " 3 " ، (أقلام) خبر أنّ مرفوع (الواو) حاليّة (من بعده) متعلّق بحال من سبعة أبحر " 4 " ، (ما) نافية .

والمصدر المؤوّل (أنّ ما في الأرض . . . أقلام) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت . .

(1) أو هو مبتدأ خبره الغنيّ . . والجملة الاسميّة خبر إنّ .

(2) لا يصحّ هنا تسميتها (حرف امتناع لامتناع) حتّى لا يلزم نفاد الكلمات مع عدم كون كلّ ما في الأرض من شجرة أقلام وهذا باطل ذلك لأن كلّ شيء امتنع ثبت نقيضه ، فاذا امتنع (ما نفدت) ثبت نفدت .

(3) أو هو تمييز (ما) .

(4) نعت تقدّم على المنعوت .

الجدول ج 21 ، ص : 93

وجملة : " (ثبت) وجود الأقلام . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " البحر يمدّه . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يمدّه . . . سبعة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (البحر) .

وجملة : " ما نفدت كلمات . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّ اللّه عزيز . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

(27) بعض أحكام (لو) :

1 - هي خاصة بالفعل ، وقد يليها اسم مرفوع معمول لمحذوف يفسره ما بعده :

كقول عمر رضي اللّه عنه : " لو غيرك قالها يا أبا عبيدة " أو يليها اسم منصوب كذلك ،

كقولنا : " لو زيدا رأيته أكرمته " ، أو خبر لكان محذوفة ، نحو : " التمس ولو خاتما من حديد " .

(219/610)

---

2 - تقع " أنّ " بعدها كثيرا ، كقوله تعالى وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وموضع (أن واسمها وخبرها) أي المصدر المؤول عنه - عند جميع النحاة - الرفع ، فقال سيبويه : في محلّ رفع مبتدأ ولا تحتاج إلى خبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند إليه ، واختصت من بين سائر ما يؤول بالاسم بالوقوع بعد لو وقيل : في محلّ رفع مبتدأ والخبر محذوف ، ثم قيل : يقدر الخبر مقدما أي لو ثابت إيمانهم ، وقال ابن عصفور : بل يقدر هنا مؤخرا .

وذهب المبرد والزجاج والكوفيون إلى أن المصدر المؤول في محلّ رفع على الفاعلية ، والفعل مقدر بعدها ، أي (ولو ثبت أنهم آمنوا) . وهذا هو القول الراجح ، لأن (لو) تختص بالدخول على الأفعال .

قال الزمخشري : ويجب كون " أنّ " فعلا ليكون عوضا من الفعل المحذوف ، ورده ابن الحاجب وغيره بقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وقالوا : إنما ذاك في الخبر المشتق لا الجامد كالذي في الآية . وقد وجدت آية في التنزيل وقع

فيها الخبر مشتقا ، ولم ينتبه لها الزمخشري ، كما لم ينتبه لآية لقمان ، ولا ابن الحاجب وإلا لما منع من ذلك ، ولا ابن مالك ، وإلا لما استدل بالشعر ، وهي قوله تعالى وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ . ونحن نعترض على ابن هشام في وجه الاستشهاد بهذه الآية لأن " لو " في الآية الكريمة هي حرف مصدري وليست لو الشرطية .

3 – يغلب دخول " لو " على الماضي ، لذا فهي لم تجزم ، ولو أريد بها معنى " إن " الشرطية .

(220/610)

---

4 – جواب : " لو " فعل ماض مثبت أو منفي بما ، والغالب على المثبت دخول اللام عليه ، كقوله تعالى لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً ومن تجرده منها لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً والغالب على المنفي تجرده منها ، كقوله تعالى وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ ، أو مضارع منفي بلم كقول عمر " لو لم يخف اللّه لم يعصه " .

5 – خداع وغرور :

قال المفسرون : لما نزلت بمكة وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وهاجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا :

يا محمد ، بلغنا أنك تقول : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا أ تعنينا أم قومك ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : كلّا قد عنيت . قالوا : أ لست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء . فقال رسول اللّه - صلّى اللّه عليه وسلّم - هي في علم اللّه قليل ، وقد أتاكم اللّه بما إن عملتم به انتفعتم . قالوا : كيف تزعم هذا وأنت تقول (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير فأنزل اللّه هذه الآية . وقيل إن المشركين قالوا : إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية .

[سورة لقمان (31) : آية 28]

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

الإعراب :

(ما) نافية (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (إلّا) للحصر (كنفس) متعلّق بخبر المبتدأ خلقكم بحذف مضاف أي كخلق نفس . .

جملة : " ما خلقكم . . . إلّا كنفس " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ اللّه سميع . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

[سورة لقمان (31) : الآيات 29 إلى 30]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

الإعراب :

(ألم تر أنّ اللّه يولج) مثل نظيرها " 1 " ، (في النهار) متعلّق بـ (يولج) الأول ، وكذلك (في الليل) بـ (يولج) الثاني (كلّ) مبتدأ ، والتنوين عوض من المضاف إليه المحذوف (إلى أجل) متعلّق بـ (يجري) . . .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يولج) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

(ما) حرف مصدريّ " 2 " .

---

(1) في الآية (20) من هذه السورة .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي تعملونه .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه . . . خبير) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل (أنّ اللّه يولج) .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبير .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يولج الليل . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يولج النهار . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يولج الليل .

وجملة : " سخّر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يولج الليل .

وجملة : " كلّ يجري . . . " في محلّ نصب حال من الشمس والقمر .

وجملة : " يجري . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كل) .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(30) (ذلك) مبتدأ (هو) ضمير فصل " 1 " في الموضعين . . (من دونه) حال من العائد المحذوف .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه . . . الحقّ) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبر المبتدأ (ذلك) .

والمصدر المؤوّل (أنّ ما . . . الباطل) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

---

(1) أو هو مبتدأ خبره الحقّ في الأول والعليّ في الثاني ، والجملة الاسميّة لكلّ منهما خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه . . . العليّ) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق.

وجملة: " ذلك بأنّ اللّه . . . " لا محلّ لها تعليل لما تقدّم.

البلاغة

المخالفة في الصيغة: في قوله تعالى " وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ " .

عطف قوله سبحانه " سخر " على قوله تعالى " يولج " ، والاختلاف بينهما صيغة، لما أن إيلاج أحدهما في الآخر متجدد في كل حين، وأما التسخير فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد، وإنما التعدد والتجدد في آثاره.

[سورة لقمان (31): الآيات 31 إلى 32]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

الإعراب:

(ألم تر أنّ الفلك تجري) مثل نظيرها " 1 " ، (في البحر) متعلّق بـ (تجري) ، (بنعمة) متعلّق

بفعل تجري " 2 " ، (اللام) للتعليل (يريكم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من آياته) متعلّق بـ (يريكم) . .

والمصدر المؤوّل (أن يريكم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تجري) .

(في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) لام التوكيد (آيات) اسم

---

(1) في الآية (20) من هذه السورة مفردات ومصدرا .

(2) والباء للمصاحبة أو السببيّة ، أو متعلّق بحال من الفاعل .

إنّ منصوب وعلامة النصب الكسرة (لكلّ) متعلّق بآيات " 1 " ، (شكور) نعت لصبّار مجرور مثله .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يريكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(32) (الواو) عاطفة (كالظلل) متعلق بنعت لموج (له) متعلّق بحال من (لدين) وهو مفعول

اسم الفاعل مخلصين (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (إلى البرّ) متعلّق بـ (نجّاهم) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (منهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (مقتصد) " 2 " ، (الواو) استئنافيّة (بآياتنا) متعلّق بـ (يجحد) ، (إلّا) للحصر بعد النفي (كلّ) فاعل يجحد مرفوع (كفور) نعت لختّار مجرور .

وجملة : " غشيهم موج . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " دعوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه " لا محلّ لها معطوفة على الشرط الأول وفعله وجوابه .

وجملة : " نجّاهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " منهم مقتصد . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) أو متعلّق بنعت لآيات .

(2) وفي الآية حذف أي : ومنهم باق على كفره - أو كافر - .

وجملة : " ما يجحد . . . إلّا كلّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(ختّار) ، صيغة مبالغة من الثلاثيّ ختر باب ضرب أي غدّار وخدّاع ، وزنه فعّال .

[سورة لقمان (31) : الآيات 33 إلى 34]

(225/610)

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

الإعراب :

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الناس) بدل من أيّ - أو عطف بيان - مرفوع لفظا (يوما) مفعول به منصوب (عن ولده) متعلّق بـ (يجزي) ، (لا) زائدة لتأكيد النفي (مولود) معطوف على والد مرفوع مثله " 1 " ، (هو) مبتدأ خبره (جاز) وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الياء المحذوفة (عن والده) متعلّق بجاز (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر عامله جاز (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تغرنّكم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم (لا يغرّنكم) مثل لا تغرّنكم (بالله) متعلّق بـ

(يغرّنكم) جملة النداء . . . لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو هو مبتدأ خبره جملة هو جاز ، وقد سوّغ الابتداء بالنكرة اعتمادها على النفي .

(226/610)

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اخشوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " لا يجزي والد . . . " في محلّ نصب نعت لـ (يوما) والرابط مقدّر .

وجملة : " هو جاز . . . " في محلّ رفع نعت لمولود .

وجملة : " إنّ وعد اللّه حقّ " لا محلّ لها استئناف في حيّز النداء .

وجملة : " لا تغرّنكم الحياة " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي :

إن عرفتم هذه الأحكام فلا تغرّنكم . . .

(227/610)

وجملة : " لا يغرّنكم . . . الغرور " معطوفة على جملة لا تغرّنكم الحياة . . .

(34) (عنده) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ علم (في الأرحام) متعلّق بمحذوف صلة ما (ما) نافية (ماذا) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (غدا) ظرف منصوب متعلّق بـ (تكسب) ، (ما تدري) مثل الأولى (بأيّ) متعلّق بـ (تموت) ، (خبير) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " إنّ اللّه عنده . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عنده علم الساعة . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ينزّل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : " يعلم ما في الأرحام . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : " ما تدري نفس . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تكسب غدا . . . " في محلّ نصب مفعول تدري المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " ما تدري (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما تدري الأولى .

وجملة : " تموت . . . " في محلّ نصب مفعول تدري المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " إنّ اللّه عليم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(جاز) ، اسم فاعل من (جزى) الثلاثيّ ، وزنه فاع ، حذف حرف العلّة لالتقاء الساكنين

فهو اسم منقوص .

(الغرور) ، اسم لما يسبب الانخداع ، وجاء في التفسير أنه الشيطان . . . وزنه فعول بفتح الفاء .

(الغيث) ، اسم لماء السماء وفعله غاث يغيث ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

للضمائر شأن كبير في الفصاحة والبلاغة ، ولها تأثير في قوة الكلام وضعفه ، أو توكيده وعدم توكيده ، ومن ذلك قوله " وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً " ، فقد ورد الضمير بعد مولود ، ولم يرد بعد والد في قوله " لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ " وذلك لسر يتجاوز الإعراب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 21 صـ 102.69 ﴾

(228/610)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(31) سورة لقمان

مكيّة وآياتها اربع وثلاثون

[سورة لقمان (31) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (2) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (7)

اللغة :

(لَهْوَ الْحَدِيثِ) اللهو كل باطل ألهى عن الخير يقال لهوت لهوا وفلان مشتغل بالملاهي وفيهن ملهى وملعب ، قال زهير :

وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعيّن الناظر المتوسم

الملهى اللهو أو موضعه ، يقول : وفي هؤلاء النسوان لهو أو موضع لهو للمتأنق الحسن المنظر ومناظر معجبة لعين الناظر المتتبع محاسنهن وسمات جمالهن .

(وَقْراً) : صمما .

الاعراب :

(الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ) ألم تقدم اعرابها ، وتلك مبتدأ وآيات الكتاب خبر والحكيم صفة للكتاب وسيأتي معنى إسناد الحكمة اليه في باب البلاغة ، وهدى ورحمة حالان من الآيات والعامل فيهما ما في تلك من معنى الاشارة ، وقرأ حمزة بالرفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف أي هو هدى ورحمة وللمحسنين متعلقان بمحذوف صفة أو بنفس المصدر . (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) الذين نعت للمحسنين وجملة يقيمون الصلاة صلة ويؤتون الزكاة عطف عليها داخل في حيز الصلة وهم مبتدأ وبالآخرة متعلقان بيوقنون وهم الثاني تأكيد للأول وجملة يوقنون خبر هم . (أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) تقدمت الآية بلفظها في سورة البقرة .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) كلام مستأنف مسوق لتقرير حال اللاهين الذين يستنزفون أوقات فراغهم باللهو ومضاحيك الكلام ولغو الحديث وباطله ، وسيأتي في باب الفوائد ما قالوه في أسباب نزولها . ومن الناس خبر مقدم ومن اسم موصول مبتدأ مؤخر ومن مفرد لفظا جمع معنى وروعي لفظها أولا في ثلاثة ضمائر يشتري ويضل ويتخذ وروعي معناها في موضعين

و هما أولئك لهم ثم رجع إلى اللفظ في خمسة ضمائر وهي وإذا تتلى إلى آخر الآية كما سيأتي وجملة يشتري لهو الحديث صلة وليضل اللام للتعليل ويضل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بيشتري وعن سبيل اللّه متعلقان بيضل وبغير علم حال من فاعل يشتري أي يشتري غير عالم بحال ما يشتريه وقد تقدم تقرير الاستعارة في الاشتراء في سورة البقرة. (وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ) ويتخذها بالنصب عطفا على ليضل وقرئ بالرفع عطفا على يشتري والضمير للسبيل لأنها مؤنثة ويتخذها فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره هو والهاء مفعول يتخذ الاول وهزوا مفعوله الثاني وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر ومهين صفة والجملة خبر أولئك.

(وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة تتلى في محل جر باضافة الظرف إليها وتتلى فعل مضارع مبني للمجهول وعليه متعلقان بتتلى وآياتنا نائب فاعل وجملة ولى لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ومستكبرا حال. (كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ) كأن مخففة من

الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف وجملة لم يسمعها خبرها والجملة نصب على الحال من فاعل ولى وكأن حرف تشبيه ونصب وفي أذنيه خبر كأن المقدم ووقرا اسم كان المؤخر والجملة حال أيضا من فاعل لم يسمعها أو بدل من جملة كأن لم يسمعها وأجاز الزمخشري أن تكون جملتا التشبيه استئنافيتين ، فبشره الفاء الفصيحة وبشره فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به والأمر بالبشارة هو للتهكم وبعذاب متعلقان ببشره وأليم صفة .

البلاغة :

1- الاسناد المجازي :

(231/610)

في قوله تعالى " الكتاب الحكيم " إسناد مجازي ويجوز أن يكون بمعنى ذي الحكمة ، وقال الزمخشري : " ويجوز أن يكون الأصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن في الصفة المشبهة بعد " وهذا من أروع التعليل .

2- الإيجاز :

وفي قوله : " للمحسنين " إيجاز بليغ أي الذين يعملون الحسنات وهي لا تحصى ولكنه خص

منها هذه الثلاث ، ونظير هذا الإيجاز قول أوس بن حجر في مرثاته لفضالة بن كلدة :

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

حكي عن الأصمعي أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد ، وهذه المرثاة من أفضل ما سمع في الرثاء وأولها :

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

إن الذي جمع السماحة والنجدة والبر والتقى جمعا

الألمعي الذي يظن إلخ . . .

أودى فلا تنفع الاشاحة من أمر لمن يحاول البدعا

يقول : يا نفس احتملي جزعا عظيما إن الذي تخافين منه قد حصل ، وبيّنه بقوله إن الذي جمع . . . . وأودى : هلك ، وجمعا بالضم توكيد للصفات قبله والألمعي نصب على النعت للذي وفسره بأنه الذي يظن بك يعني كل مخاطب أي يظن الظن الحق كأنه قد رأى وسمع ما ظنه أو يظن الظن فيصيب كأنه قد رآه إن كان فعلا أو سمعه إن كان قولا وفيه نوع من البديع يسمى التفسير وهو أن يؤتى بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفته دون تفسيره .

الفوائد :

1 - قصة النضر بن الحارث :

اعلم أن المقصود بآيات اللّه أن يتوجه الخطاب فيها إلى العموم ولكن أسباب النزول خاصة ، ثم تسري أحكامها فيما بعد على العموم وقد ذكروا في أسباب نزول قوله " ومن الناس من يشتري لهو الحديث " الآية أن النضر بن الحارث كان يأتي الحيرة فيتجر ويشتري كتب أخبار الأعاجم ويحدث بها أهل مكة ويقول : إن محمدا يحدثكم بأحاديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بأحاديث فارس والروم فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن . والحيرة بكسر الحاء مدينة بقرب الكوفة .

2- معنى الإضافة :

إضافة اللهو إلى الحديث معناها التبيين وهي الاضافة بمعنى من وضابطها أن يكون المضاف بعد المضاف إليه صالحا للاخبار به عنه كخاتم فضة ، وقد مر هذا البحث في مكان آخر من هذا الكتاب .

[سورة لقمان (31) : الآيات 8 إلى 11]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (11)

الإعراب :

)

(233/610)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ) كلام مستأنف مسوق لبيان حال المؤمنين وان واسمها وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا ولهم خبر مقدم وجنات النعيم مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر إن . (خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) خالدين حال مقدرة من المجرور باللام في لهم أي مقدرا لهم الخلود فيها إذا دخلوها وفيها متعلقان بخالدين ووعد اللّه حقا : مصدران مؤكدان الأول مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره لأن معنى لهم جنات النعيم وعدهم اللّه بها فأكد معنى الوعد بالوعد وحقا دال على معنى الثبات أكد به معنى الوعد ، وعاملها مختلف فتقدير الأولى وعد اللّه ذلك وعدا وتقدير الثانية وحقه حقا ومؤكدهما جميعا واحد وهو قوله لهم جنات النعيم وهو مبتدأ والعزيز . خبر أول والحكيم خبر ثان . (خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها) الجملة مستأنفة مسوقة للتدليل على قدرته وعزته سبحانه . وخلق فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو والسموات مفعول به وبغير عمد في موضع نصب على الحال أي

حالية من عمد وقد مر نظيره في الرعد وجملة ترونها صفة لعمد أي بغير عمد مرئية .

(وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ) وألقى عطف على خلق وفاعله مستتر تقديره هو يعود على اللّه وفي الأرض متعلقان بألقى ورواسي صفة مفعول به محذوف أي جبالا رواسي وان وما في حيزها في محل نصب مفعول لأجله أي أن لا تميد بكم أو كراهة أن تميد بكم وبكم متعلقان بتميد وبثّ عطف على ألقى وفيها متعلقان ببث ومن كل دابة صفة لمفعول به محذوف أي حيوانات من كل دابة .

)

(234/610)

وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) وأنزلنا عطف على طريق الالتفات عن الغيبة إلى التكلم وأنزلنا فعل وفاعل ومن السماء متعلقان بأنزلنا وماء مفعول به فأنبتنا عطف على أنزلنا وفيها متعلقان بمحذوف حال ومن كل زوج متعلقان بأنبتنا أو صفة لمفعول محذوف أي نباتا من كل زوج وكريم صفة لزوج . (هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) هذا مبتدأ والاشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته وخلق اللّه خبر والخلق بمعنى المخلوق ، فأروني الفاء الفصيحة وأروني فعل أمر يحتاج لثلاثة مفاعيل الياء أولها وجملة

الاستفهام المعلقة سدت مسد المفعولين الباقيين ويجوز أن تكون أروني بمعنى أخبروني فتتعدى لمفعولين الأول مفرد صريح وهو ضمير المتكلم والثاني الجملة الاستفهامية ، وماذا اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لخلق أو ما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبر وخلق الذين فعل وفاعل ومن دونه صلة الذي . (بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) بل إضراب انتقالي والظالمون مبتدأ وفي ضلال خبر ومبين صفة لضلال .

[سورة لقمان (31) : الآيات 12 إلى 13]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

الإعراب :

)

(235/610)

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل ولقمان مفعول به أول والحكمة مفعول به ثان

وسيأتي الكلام مفصلا عن لقمان وترجمته . (أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) يجوز أن تكون أن هي المفسرة لأن الإيتاء فيه معنى القول أي قلنا له اشكر ويجوز أن تكون على بابها فهي في تأويل مصدر في موضع نصب كما حكى سيبويه كتبت إليه أن قم والأول أظهر ، ولله متعلقان باشكر ومن الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويشكر فعل الشرط والفاء رابطة وانما كافة ومكفوفة والجملة في محل جزم جواب الشرط ومن كفر عطف على ومن يشكر داخلة في حيزها والجملة خبر من .

(وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ) الظرف متعلق بمحذوف أي اذكر وجملة قال لقمان في محل جر باضافة الظرف إليها ولابنه متعلقان بقال والواو واو الحال وهو مبتدأ وجملة يعظه خبر والجملة حالية .

(يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) الجملة مقول القول ولا ناهية وتشرك فعل مضارع مجزوم بلا وبالله متعلقان بتشرك وجملة

إن الشرك تعليل للنهي لا محل لها وان واسمها واللام المزحلقة وظلم خبرها وعظيم صفة .

الفوائد :

لقمان وترجمته ولمح من أخباره :

قيل هو اسم أعجمي فهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وقيل عربي فهو ممنوع من

الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون والأول أظهر وأورده صاحب القاموس في مادة لقم وقال " ولقمان الحكيم اختلف في نبوته وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا " .

ولطرافة شخصيته وما نسج حولها من الأساطير نورد الأقوال السبعة فيه باختصار :

(236/610)

1- قال قتادة : خيّره اللّه بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة فقذفت عليه وهو نائم فأصبح ينطق بالحكمة فسئل عن ذلك فقال :

لو أرسل اللّه إليّ النبوة عزمة لرجوت الفوز بها ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوّة .

وقيل : كان من النوبة قصيرا أفطس الأنف وقيل كان حبشيا .

2- قال سعيد بن المسيّب : كان أسود من سودان مصر ذا مشفر حكمته من حكمة الأنبياء ، وقيل كان خيّاطا وقيل راعيا فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال : ألست عبد بني فلان ؟ كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : وما يعجبك من أمري ؟ قال : وطء الناس بساطك وغشيانهم بابك ورضاهم بقولك ،

قال : يا ابن أخي إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك ، قال : وما أصنع ؟

قال : غضّ بصري ، وكف لساني وعفة طمعي وحفظ فرجي وقيامي بعهدي ووفائي

بوعدي وتكرمة ضيفي وحفظ جاري وترك مالا يعنيني فذلك الذي صيرني كما ترى ، ويروى أنه قال : قدر اللّه وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنيني .

3- وقال أنس : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : الحكمة تزيد الشرف شرفا وترفع المملوك حتى يجلس مجالس الملوك ، قال اللّه تعالى : " ولقد آتينا لقمان الحكمة " .

4- وقال الثعالبي المفسر : اتفق العلماء على أن لقمان لم يكن نبيا إلا عكرمة تفرد بأنه نبي .

5- وقال وهب بن منبه : كان لقمان ابن أخت داود عليه السلام وقيل ابن خالته وكان في زمنه وكان داود يقول له : طوبى لك أوتيت الحكمة وصرفت عنك البلوى ، وأوتي داود الخلافة وبلي بالبلية ، وكان داود يغشاه ويقول : انظروا إلى رجل أوتي الحكمة ووقي الفتنة .

(237/610)

6- وقال عبد الوارث : أوتي لقمان الحكمة في قالة قالها ، فقيل : وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحق ؟ فقال : إن تختر لي فسمعا وطاعة وان تخيرني أختر العافية وإنه من يبع الآخرة بالدنيا يخسرهما جميعا ولأن أعيش حقيرا ذليلا أحبّ إليّ من أن أعيش قويا عزيزا ، وقيل كان عبدا نجارا ، فقال له سيده اذبح شاة وائتني

بأطيب مضغتين فأتاه بالقلب واللسان ثم أمره بمثل ذلك وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج القلب واللسان ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا .

7- وقال أبو اسحق الثعالبي : كان لقمان من أهون مماليك سيده عليه فبعثه مولاه مع عبيد له إلى بستانه يأتونه بشيء من ثمر فجاءوه وما معهم شيء وقد أكلوا الثمر وأحالوا على لقمان ، فقال لقمان لمولاه : ذو الوجهين لا يكون عند اللّه وجيها فاسقني وإياهم ماء حميما ثم أرسلنا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيئون تلك الفاكهة ولقمان يتقيأ ماء فعرف مولاه صدقه وكذبهم . وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت ، فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله ، فقال له داود : بحق ما سميت حكيما .

هذا وأخبار لقمان وحكمته أكثر من أن تستوعبها ترجمة فحسبنا ما تقدم .

[سورة لقمان (31) : الآيات 14 إلى 15]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

اللغة :

)

(238/610)

وَهْناً) : الوهن : الضعف وفي المختار : " الوهن الضعف وقد وهن من باب وعد ووهنه غيره يتعدى ويلزم ووهن بالكسر يهن وهنا لغة فيه وأوهنه غيره ووهنه توهينا والوهن والموهن نحو من نصف الليل ، قال الاصمعي : هو حين يدبر الليل " .

(وَفِصالُهُ) : فطامه وفي القاموس : " الفصال : فطم الولد " وفيه أيضا : " وفصل الولد عن الرضاع وبابه ضرب " .

الاعراب :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ) كلام معترض على سبيل الاستطراد في أثناء وصية لقمان مؤكد لما اشتملت عليه من النهي عن الشرك . ووصينا فعل وفاعل والإنسان مفعول به وبوالديه متعلقان بوصينا وجملة حملته أمه اعتراضية بين المفسّر والمفسّر وحملته أمه فعل ماض ومفعول به وفاعل ووهنا على وهن حال من أمه أي ذات وهن أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أي تهن وهنا وعلى وهن صفة

للمصدر أي كائنا على وهن وقيل منتصب بنزع الخافض أي حملته بضعف على ضعف ، وقال الزجاج : المعنى لزمها بحملها إياه أن يضعف مرة بعد مرة ، وقال الزمخشري : " أي حملته أمه تهن وهنا على وهن كقولك رجع عودا على بدء وهو في موضع الحال والمعنى أنها تضعف ضعفا فوق ضعف أي يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلا وضعفا " والواو عاطفة وفصاله مبتدأ وفي عامين خبر .

(239/610)

)

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) أن مفسرة والجملة تفسير لوصّينا كما تقدم واختار الزجاج أن تكون أن على بابها أي مصدرية ومحل المصدر النصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بوصينا وليس قوله ببعيد واشكر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولي متعلقان باشكر ولوالديك عطف على لي وإليّ خبر مقدم والمصير مبتدأ والجملة استئنافية . (وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما) الواو عاطفة وإن شرطية وجاهداك فعل ماض وفاعل ومفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط وعلى حرف جر وأن تشرك المصدر المؤول مجرور بعلى والجار والمجرور متعلقان بجاهداك وبي

متعلقان بتشرك وما موصول مفعول به وجملة ليس صلة ولك خبر ليس المقدم وبه متعلقان بعلم وعلم اسم ليس المؤخر ، فلا الفاء رابطة ولا ناهية وتطعهما فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به والميم والألف حرفان دالان على التثنية وجملة فلا تطعهما في محل جزم جواب الشرط .

(وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً) الواو عاطفة وصاحبهما فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت ومفعول به وفي الدنيا حال ومعروفا صفة لمصدر محذوف أي صحابا معروفا واختار بعضهم أن ينصب بنزع الخافض أي بالمعروف . (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) واتبع فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وسبيل مفعول به ومن مضاف اليه وجملة أناب صلة من وإليّ متعلقان بأناب ، ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وإليّ خبر مقدم ومرجعكم مبتدأ مؤخر ، فأنبئكم الفاء عاطفة وأنبئكم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وبما متعلقان بأنبئكم وكنتم تعملون كان واسمها وجملة تعملون خبرها .

(240/610)

البلاغة :

في قوله " ما ليس لك به علم " فن عكس الظاهر أو نفي الشيء بإيجابه وقد تقدم القول فيه مرارا ، فقد أراد بنفي العلم نفيه أي لا تشرك بي ما ليس بشيء يريد الأصنام على حد قوله " على لاحب لا يهتدى بمناره " أي ما ليس بإله فيكون لك علم بالإلهية .

[سورة لقمان (31) : الآيات 16 إلى 19]

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

اللغة :

(خَرْدَلٍ) : الخردل : نبات له حب صغير جدا أسود مقرّح الواحدة خردلة ويقال خردل الطعام أكل خياره وخردل اللحم قطع أعضاءه وافرة صغارا ، ولحم خراديل : مقطع ومفرد ويضرب بها المثل في الضآلة وقد تقدم هذا في الأنبياء .

(وَلا تُصَعِّرْ) : لا تحل وجهك تكبرا ، قال أبو عبيدة : وأصل الصعر داء يصيب البصير ويلتوي عنقه ، ولما كان ذلك قد يكون لغرض من الأغراض التي لا تدوم أشار إلى المقصود به

بقوله للناس بلام العلة أي لا تفعل ذلك لأجل الإمالة عنهم . وفي المصباح : الصعر بفتحتين ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشدقين وربما كان الإنسان أصعر خلقة أو صعره غيره بشيء يصيبه وهو مصدر من باب تعب وصعر خدّه بالتثقيل وصاعره أماله عن الناس إعراضا وتكبرا " وفي الأساس : " في عنقه وخده صعر : ميل من الكبر ، يقال :

(241/610)

لأقيمنّ صعرك ، ويقول : في عينه صور ، وفي خده صعر ، وهو أصعر ، وصعّر خده وصاعره ولا تصاعر خدك وفلان متصاعر وقد تصاعر ، قال حسان :

ألسنا نذود المعلمين لدى الوغى ذيادا يسلّي نخوة المتصاعر

والنعام صعر خلقة والإبل تصاعر في البرى وفي الحديث :

" يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر " .

وللصاد مع العين فاء وعينا للكلمة خاصة الصلف والاستعلاء يقال أمر صعب وخطة صعبة وعقبة صعبة وهي من العقاب الصعاب ووقع في خطط صعاب ولا يخفى ما في ذلك من الصلف والاستعلاء وأصعب الجمل لم يركب ولم يمسسه حبل فهو مصعب ومن مجاز هذه المادة : فلان مصعب من المصاعب كما تقول قرم من القروم ويقال صعد السطح

وصعد إلى السطح وصعد في السلم وفي السماء وتصعد وتصاعد وصعّد في الجبل وطال في الأرض تصويبي وتصعيدي

وأصعد في الأرض ذهب مستقبل أرض أرفع من الأخرى وأصعدت السفينة مدّ شراعها فذهبت بها الريح وعليك بالصعيد أي اجلس على الأرض وصعيد الأرض وجهها وتنفّس الصعداء إذا علا نفسه وذهب السهم صعدا وكأن قامته صعدة وهي القناة النابتة مستقيمة ، قال الأحنف :

إن على كل رئيس حقّا أن يخضب الصّعدة أو تندقّا

ومن المجاز : له شرف صاعد وجد مساعد ، ورتبته بعيدة المصعد والمصاعد ، وعنق صاعد : طويل ، وجارية صعدة : مستقيمة القامة ، وجوار صعدات بالسكون ، وأخذ مائة فصاعدا بمعنى فزائدا ، وأرهقته صعودا : حملته مشقّة .

والصعافقة هم الذين يحضرون السوق بغير رأس مال فإذا اشترى أحد شيئًا دخلوا معه فيه . وصعقتهم السماء وأصعقتهم :

أصابتهم بصاعقة وهي نار لا تمر بشيء إلا أحرقته مع وقع شديد ، والصعلكة معروفة وهي الفقر والذهاب في الأرض بعيدا ، قال أبو داود :

مثل عير الفلاة صعلكه البقل مشيح بأربع عسرات أربع أتن ، وقال ذو الرمة :

تخيل في المرعى لهنّ بشخصه مصعلك أعلى قلّة الرأس نقنق

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) : أي توسط فيه ، قال الزمخشري :

" واعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين : لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثب الشطار ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن " وأما قول عائشة في عمر رضي اللّه عنهما :

" كان إذا مشي أسرع " فإنما أرادت السرعة المرتفعة على دبيب المتماوت " .

(وَاغْضُضْ مِنْ طرفك) : وانقص منه واقصر ، من قولك فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه ، وفي الأساس : " واغضض من صوتك : اخفض منه ، وغضّ طرفك ، وطرف غضيض ، وغضّ من لجام فرسك أي صوبه وطأ منه لتنقص من غربه ، واغضض لي ساعة أي احبس علي مطيتك وقف عليّ ، قال الجعدي :

خليلي غضّا ساعة وتهجرا أي احبسا عليّ ركابكما ساعة ثم ارتحلا متهجّرين ، وفلان غضيض : ذليل بين الغضاضة وعليك في هذا غضاضة فلا تفعل ولحقته من كذا غضاضة أي نقص وعيب " .

الاعراب :

(يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) يا بني تقدم إعرابه كثيرا وهذا من تتمة وصية لقمان ، وان واسمها وإن شرطية وتك فعل مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسم تك مستتر يعود إلى الخطيئة وذلك

(243/610)

أن ابن لقمان قال : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يعلمها أحد كيف يعلمها اللّه ؟ فقال يا بني انها إن تك مثقال حبة من جنس الخردل ، ومثقال خبر تك وحبة مضاف اليه ومن خردل صفة لحبة أي فكانت مثلا لحبة الخردل في الصغر والقماءة . (فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) فتكن عطف على تك واسم تكن مستتر تقديره هي أي الخطيئة والهنة وفي صخرة خبر تكن ، أو في السموات أو في الأرض عطف على في صخرة أي في أخفى مكان من الثلاث المذكورات ويأت جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة وبها متعلقان بيأت واللّه فاعل وإن واسمها وخبراها .

(يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) أقم فعل أمر وفاعله مستتر وجوبا تقديره أنت والصلاة مفعول به وأمر بالمعروف عطف وكذلك وانه عن المنكر . (وَاصْبِرْ

عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذِلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) إن وخبرها المقدم واسمها المؤخر ومعنى عزم الأمور : من معزوماتها فهو مصدر بمعنى المفعول أو بمعنى الفاعل أي من عازمات الأمور أي مما جعله اللّه عزيمة وأوجبه على عباده .

(وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً) الواو حرف عطف ولا ناهية وتصعر فعل مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر تقديره أنت وللناس متعلقان بتصعر ولا تمش عطف على ولا تصعر وفي الأرض متعلقان بتمش ومرحا مصدر وقع موقع الحال أو نعت لمصدر محذوف أي مشيا مرحا أو مفعول لأجله أي لا تمش لأجل المرح والأشر .

وعبارة الزمخشري " أراد ولا تمش تمرح مرحا أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحا ويجوز أن يراد لأجل المرح والأشر " .

(244/610)

)

إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ) إن واسمها وجملة لا يحب خبرها وكل مفعول يحب وفخور عطف على مختال . (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) الواو عاطفة واقصد فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وفي مشيك متعلقان بأقصر واغضض من

صوتك عطف على ما تقدم . (إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) الجملة تعليل للأمر بخفض الصوت بصورة مؤكدة كما سيأتي في باب البلاغة وإن واسمها والأصوات مضاف اليه واللام المزحلقة للتأكيد وصوت الحمير خبر إن .

البلاغة :

في قوله : " إنها إن تك مثقال حبة من خردل " الآية فن التمام أو التتميم وقد تقدمت الاشارة إلى الفن في مواطن من هذا الكتاب ، والمعنى انه تمم خفاء الهنة أو الخطيئة في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة والأخفى من الصخرة كأن تكون في صخرة مستقرة في أغوار الأرض السحيقة أو في الأعالي من أجواز الفضاء ، ومنه في الشعر قول الخنساء :

وإن صخرا لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقولها " في رأسه نار " تتميم جميل لا بد منه لتجسيد الظهور والشهرة للسارين والغادين .

وقول عنترة العبسي :

أثني عليّ بما علمت فإنني سهل مخالقتي إذا لم أظلم

فقوله " لم أظلم " تتميم حسن .

ومن التتميم الحسن قول امرئ القيس يصف الفرس :

على هيكل يعطيك قبل سؤاله أفانين جري غير كزّ ولا واني

فقوله " قبل سؤاله " تتميم عجيب لقوله " أفانين جري " وما أجمل قول زهير بن أبي سلمى

في هذا الباب :

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

والتتميم هنا في قوله " على علاته " وهو تتميم عجيب تضمن مبالغة أعجب . ويجري على هذا المنوال قول ابن محكان السعدي حين قدم إلى القتل :

(245/610)

و لست- وإن كانت إليّ حبيبة- بباك على الدنيا إذا ما تولت قال أبو العباس المبرد : فاستثنى : " وإن كانت إليّ حبيبة " استثناء مليحا ، ونوى التقديم والتأخير فلذلك جاز له أن يأتي بالضمير مقدّما على مظهره .

2- التأكيد بأن وفنون أخرى :

ومن بديع هذه الآية " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " فنون عديدة نشير إليها :

أ- فقد أتى بالتمثيل مؤكدا بإن أولا وعزز هذا التأكيد باللام فصار الكلام خبرا إنكاريا كأن التمثيل أمر مبتوت فيه لا يتطرق اليه الشك ، فقد تدخل إن في الجملة فترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف مقطوعا موصولا معا ، واستخدامها على هذا الوجه يحتاج إلى تدبر وروية معا ، وقد خفي سر هذا الاستخدام حتى على أفراد العلماء روي عن

الأصمعي أنه قال : كنت أسير مع أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر وكانا يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام ثم يقولان يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ، وأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة ؟ قال :

هي التي بلغتكم . قالوا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال :

نعم بلغني أن سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أرد عليه مالا يعرف ، قالا :

فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكّرا يا صاحبيّ قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

(246/610)

حتى فرغ منها فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان " إن ذاك النجاح في التبكير " " بكّرا فالنجاح في التبكير " كان أحسن فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت : " إن ذاك النجاح في التبكير " كما يقول الأعراب البدويون ولو قلت : بكرا في النجاح كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذاك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيه . قال عبد القاهر في تعليقه على هذه القصة : " فهل كان هذا القول من خلف والنقد

على بشار إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه ؟ " .

ومضى عبد القاهر في تحليله لبيت بشار فقال : أما ان الجملة مستأنفة مع إنّ فلأنها غير معطوفة على ما قبلها بالواو وهي واقعة في جواب سؤال مقدر فكأن سائلا سأل : ولما ذا يطلب إلى صاحبيه أن يبكرا قبل الهجير فكان الجواب : إن ذلك النجاح في التبكير واما انها تصل جملتها بالجملة السابقة فالدليل عليه أنك لو أسقطت " إن " من الجملة لرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء فتقول : بكرا صاحبي قبل الهجير فذاك النجاح في التبكير ولعل ذلك هو سر لطفها ودقتها وجزالة التعبير بها وهو سمة البناء الأعرابي الوحشي على عكس ما لو قال : بكرا فالنجاح في التبكير فهو بناء سهل واضح الترابط بالفاء وذلك سمة بناء الجمل عند المولّدين وإذا كانت الفاء تفيد الربط فانها لا تفيد التوكيد الذي تدل على " إن " وهذا البناء الجزل هو الذي جاء في القرآن إلى درجة لا يدركها الإحصاء .

ويروي عبد القاهر في دلائل الاعجاز حديث يعقوب بن اسحق الكندي المتفلسف إذ ركب إلى أبي العباس وقال له : إني لأجد في كلام العرب حشوا فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟

فقال : أجد العرب يقولون : عبد اللّه قائم ثم يقولون : إن عبد اللّه قائم ثم يقولون : إن عبد اللّه لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد .

كلام العرب حشوا فقال أبو العباس : في أي موضوع وجدت ذلك ؟

فقال أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم عبد اللّه قائم إخبار عن قيامه وقولهم إن عبد اللّه قائم جواب عن سؤال سائل وقولهم : إن عبد اللّه لقائم جواب عن انكار منكر قيامه فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني .

وانما أطلنا في الاقتباس لدقة هذا البحث وخفائه وهو في الآية التي نحن بصددها واقع أجمل موقع وألطفه ، موضح لتعليل الأمر بخفض الصوت مبني على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهيق وافراط في التنفير عن رفع الصوت وقد أجاد الخطيب في تعليله لهذا التعليل وننقل فصله بطوله لروعته وابداعه قال :

" فإن قيل : لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي ؟ أجيب بأن رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوته وربما يخرق الغشاء الذي في داخل الأذن وأما سرعة المشي فلا تؤذي وإن آذت فلا تؤذي غير من في طريقه والصوت يبلغ من على اليمين وعلى اليسار ولأن المشي يؤذي آلة المشي والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فإن الكلام ينقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشي ، وأيضا فلان قبيح القول أقبح

من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب ، ولما كان رفع الصوت فوق الحاجة منكرا كما أن خفضه دونها يعتبر تماوتا وتكبرا وكان قد أشار إلى النهي عن هذا بمن فأفهم أن الطرفين مذمومان علّل النهي عن الأول بقوله إن أنكر أي أفظع وأشنع الأصوات برفعها فوق الحاجة لصوت الحمير أي هذا الجنس لما له من العلو المفرط من غير حاجة فإن كل حيوان قد يفهم من صوته أنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو لغير ذلك والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق بصوت أوله شهيق وآخره شهيق " .

ب- توحيد الصوت :

(248/610)

و قال الزمخشري : " لم وحّد صوت الحمير ولم يجمع ؟

قلت ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع وانما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده " .

الاستعارة التصريحية :

وفي هذه الآية الاستعارة التصريحية حيث أخلي الكلام من لفظ التشبيه وأخرج مخرج الاستعارة فجعلوا حميرا وجعل صوتهم نهاقا مبالغة في الذم والتهجين وإفراط في النهي عن رفع الصوت والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة الموجعة وكذلك نهاقه .

ومن استفحاشهم لذكره مجردا وتفاديهم من اسمه انهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الأذنين ، وعن عبد الحميد الكاتب انه قال : لا تركب الحمار فإنه إن كان فارها أتعب يدك وإن كان بليدا أتعب رجلك . وقال أعرابي : بئس المطية الحمار إن وفقته أدلى وإن تركته ولى ، كثير الروث ، قليل الغوث ، سريع إلى الفرارة ، بطيء في الغارة ، لا توقى به الدماء ، ولا تمهر به النساء ، ولا يحلب في الإناء . ومن العرب من لا يركبه أبدا ولو بلغت به الحاجة والجهد .

الصوت مصدر :

وفي القرطبي : " لصوت الحمير اللام للتأكيد ووحد الصوت وإن كان مضافا إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة وهو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت ويقال صوّت تصويتا فهو مصوت ورجل صات أي شديد الصوت بمعنى صائت " .

[سورة لقمان (31) : الآيات 20 إلى 24]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (21) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (24)

اللغة :

(وَأَسْبَغَ) : وأتم ، يقال : أسبغ اللّه عليه النعمة أتمها وأسبغ الثوب : أوسعه وأطاله وأسبغ الرجل لبس درعا سابغة وأسبغ له النفقة وسّع عليه وأنفق تمام ما يحتاج اليه ، وفي المصباح : " وسبغت النعمة سبوغا اتسعت وأسبغها اللّه أفاضها وأتمها وأسبغت الوضوء أتممته " وقرئ بالسين وبالصاد ، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف تقول في سلخ صلخ وفي سقر صقر وفي سالغ صالغ ومعنى سالغ من سلغت البقرة والشاة إذا أسقطت السنّ التي خلقت السديس والسلوغ في ذوات الأظلاف بمنزلة البزول في ذوات الأحقاف .

)

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى) : جاء في القاموس ما يلي : " العروة من الدلو والكوز المقبض ومن الثوب أخت زره كالعري ويكسر ومن الفرج لحم ظاهره يعرض فيأخذ يمنة ويسرة مع أسفل البظر وفرج معرّى والجماعة من العضاة والحمض يرعى في الجدب والأسد والشجر الملتفّ تشتوفيه الإبل فتأكل منه أو مالا يسقط ورقه في الشتاء والنفيس من المال كالفرس الكريم وموالي البلد " وفي الأساس واللسان : " وتستعار العروة لما يوثق به ويعوّل عليه فيقال للمال النفيس والفرس الكريم : لفلان عروة ، وللابل عروة من الكلأ وعلقة :

لبقية تبقى منه بعد هيج النبات تتعلق بها لأنها عصمة لها تراغم إليها وقد أكل غيرها قال لبيد :

خلع الملوك وسار تحت لوائه شجر العرا وعراعر الأقوام

أي هم عصم للناس كالعضاه التي تعتصم بها الأموال ، ويقال لقادة الجيش : العرا ، والصحابة رضوان اللّه عليهم عرى الإسلام ، وقول ذي الرّمة :

كأن عرا المرجان منها تعلّقت على أمّ خشف من ظباء المشاقر

أراد بالعرا : الأطواق . . . والعروة من أسماء الأسد " .

الاعراب :

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) كلام مستأنف للرجوع إلى ما سلف قبل قصة لقمان ووصيته من خطاب

(251/610)

المشركين . والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والواو عاطفة على ما تقدم من خطابهم ولم حرف نفي وقلب وجزم وتروا فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والرؤية قلبية وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تروا وأن واسمها وجملة سخر خبرها ولكم متعلقان بسخر وما مفعول به وفي السموات متعلقان بمحذوف هو صلة ما وما في الأرض عطف على ما في السموات . (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً) وأسبغ عطف على سخر وعليكم متعلقان بأسبغ ونعمه مفعول به وظاهرة حال وباطنة عطف على ظاهرة وسيأتي معنى الظاهرة والباطنة في باب البلاغة . (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ) الواو استئنافية ومن الناس خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يجادل صلة من إذا كانت موصولة أو صفة لها إذا كانت نكرة تامة بمعنى ناس وفي الله متعلقان بيجادل أي في توحيده وصفاته وبغير علم حال ولا هدى معطوفة ولا كتاب منير عطف على علم . (وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ

آباءَنا) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة فيل في محل جر باضافة الظرف إليها ولهم متعلقان بقيل وجملة اتبعوا مقول القول وما مفعول به وجملة أنزل اللّه صلة وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وبل حرف إضراب وعطف ونتبع فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره نحن وما مفعول به وجملة وجدنا صلة وعليه متعلقان بوجدنا أو بمحذوف هو مفعول وجدنا الثاني وآباءنا هو مفعول وجدنا الاول أي وجدنا آباءنا عاكفين عليه .

(أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والواو فيها وجهان أحدهما أن تكون

(252/610)

عاطفة على محذوف وثانيهما انها حالية ، وعلى كل حال لا بد من تقدير محذوف معناه : أيتبعونه ولو كان الشيطان يدعوهم ، ولو شرطية وجوابها محذوف أي يدعوهم فيتبعون ومحل الجملة النصب على الحال ، وكان الشيطان كان واسمها وجملة يدعوهم خبرها والى عذاب السعير متعلقان بيدعوهم . (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى) الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويسلم فعل مضارع

مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره هو ووجهه مفعول به والى اللّه متعلقان بيسلم ويسلم يتعدى باللام ولكنه عدي هنا بإلى ليكون معناه أنه سلم نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع اليه والمراد التوكل عليه والتفويض اليه ، والواو واو الحال وهو مبتدأ ومحسن خبر ، فقد الفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق واستمسك فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وبالعروة جار ومجرور متعلقان باستمسك والوثقى صفة للعروة والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من .

(وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ) إلى اللّه خبر مقدم وعاقبة الأمور مبتدأ مؤخر . (وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ) الواو حرف عطف والجملة معطوفة على سابقتها ولا ناهية ويحزنك فعل مضارع مجزوم بلا والجملة في محل جزم جواب الشرط . (إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ) إلينا خبر مقدم ومرجعهم مبتدأ مؤخر فننبئهم الفاء عاطفة وننبئهم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره نحن ومفعول به وبما متعلقان بننبئهم وجملة عملوا صلة ما وإن واسمها وعليم خبرها وبذات الصدور متعلقان بعليم . (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ) جملة نمتعهم يجوز أن تكون حالية من

فاعل نمتعهم وأن تكون مستأنفة وقليلا ظرف أو صفة لمصدر محذوف أي زمانا قليلا أو متاعا قليلا ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ونضطرهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به والى عذاب متعلقان بنضطرهم وغليظ صفة لعذاب .

البلاغة :

1- الطباق :

في قوله " وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة " طباق وقد مرّ بحثه والمراد بالنعم الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة ، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل ، وجميل قوله صلى اللّه عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : " الظاهرة الإسلام وما حسن من خلقك والباطنة ما ستر عليك من سيىء عملك " وقد أفاض المفسرون فيها مما يرجع اليه في المطولات .

2- الاستعارة التمثيلية :

وذلك في قوله " فقد استمسك بالعروة الوثقى " فقد مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من جبل شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه وقيل هو تشبيه تمثيلي لذكر طرف التشبيه .

3- الاستعارة المكنية :

وفي قوله " ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ " استعارة مكنية فقد شبه إلزامهم التعذيب وارهاقهم إياه باضطرار المضطر إلى الشيء الذي

لا يقدر على الانفكاك منه أي يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة والمراد الشدة والثقل على المعذّب .

[سورة لقمان (31) : الآيات 25 إلى 27]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)

الإعراب :

)

(254/610)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) كلام مستأنف مسوق لبيان تناقضهم مع أنفسهم واعترافهم بما لا يسع المكابرين إنكاره من دلائل التوحيد الساطعة . واللام موطئة للقسم وإن شرطية وسألتهم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعل ومفعول به ومن اسم استفهام مبتدأ وجملة خلق السموات والأرض في محل رفع خبر والجملة الاسمية في

محل نصب مفعول به ثان لسألتهم واللام واقعة في جواب القسم ويقولن فعل مضارع حذفت منه نون الرفع لتوالي الأمثال وواو الضمير لالتقاء الساكنين واللّه خبر لمبتدأ محذوف أي هو اللّه أو مبتدأ حذف خبره أي اللّه خالقها . (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الحمد مبتدأ وللّه خبر والجملة مقول قول والأمر للالزام لهم على قرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض هو

اللّه وحده وأنه يجب أن يكون الحمد والشكر مصروفين له وبل حرف إضراب انتقالي للتنبيه بأنهم إذا ألزموا بذلك لم يلتزموا به ولم ينتبهوا ، وأكثرهم مبتدأ وجملة لا يعلمون خبر . (لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) للّه خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وفي السموات والأرض صلة وإن حرف مشبه بالفعل ولفظ الجلالة اسمها وهو ضمير فصل والغني خبرها الأول والحميد خبرها الثاني . (وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ) كلام مستأنف مسوق للتنبيه على أن معاني كلامه سبحانه لا تنفد ، ولو حرف شرط غير جازم وسيأتي مزيد بحث عنها في باب الفوائد وأن وما بعدها فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت وأن واسمها وفي الأرض صلة ما ومن شجرة في موضع الحال من ضمير الاستقرار أو من ما وأقلام خبر أن .

)

وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) والبحر الواو حالية أو عاطفة والبحر مبتدأ خبره جملة يمده أو معطوف على موضع أن ومعمولها إذ هو مرفوع على الفاعلية كما تقدم وقرئ والبحر بالنصب عطف على اسم أن ، ويمده فعل مضارع ومفعول به مقدم ومن بعده حال وسبعة أبحر فاعل يمده وجملة ما نفدت جواب لو فلا محل لها وإن واسمها وعزيز خبرها الاول وحكيم خبرها الثاني .

الفوائد :

1 - تكلمنا فيما سبق عن " لو " ووعدناك بأن ننقل لك الخلاف الذي شجر بين النحاة والمعربين حول هذه الآية التي طال

حولها الجدل وسنقدم لك خلاصة لأقوالهم لتقف على ما يذهلك من براعة الاستنتاج ودقة المنطق .

(256/610)

قال الشيخ شهاب الدين القرافي : " قاعدة " لو " أنها إذا دخلت على ثبوتين كانا منفيين وعلى نفيين كانا ثبوتين وعلى نفي وثبوت فالنفي ثبوت والثبوت نفي ، تقول لو جاءني

لأكرمته فهما ثبوتان فما جاءك ولا أكرمته ، ولو لم يستدن لم يطالب فهما نفيان وقد استدان وطولب ، ولو لم يؤمن أريق دمه التقدير انه آمن ولم يرق دمه وبالعكس لو آمن لم يقتل ، وإذا تقررت هذه القاعدة فيلزم أن تكون كلمات اللّه قد نفدت وليس كذلك لأن " لو " دخلت على ثبوت أولا ونفي آخرا فيكون الأول نفيا وهو كذلك فإن الشجرة ليست أقلاما ويلزم أن يكون النفي الأخير ثبوتا فتكون نفدت وليس كذلك ونظير هذه الآية قوله عليه الصلاة والسلام : " نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه " إذ يقتضي انه خاف وعصى مع الخوف وهو أقبح فيكون ذلك ذنبا لكن الحديث سبق وعادة الفضلاء الولوع بالحديث كثيرا ، أما الآية فقليل من يتفطن لها وقد ذكروا في الحديث وجوها وأما الآية فلم أر لأحد فيها شيئا ويمكن تخريجها على ما قالوه في الحديث غير أنه ظهر لي جواب عن الحديث والآية جميعا وسأذكره فيما بعد ، وقال ابن عصفور : " لو " في الحديث بمعنى " إن " لمطلق الربط وان لا يكون نفيها ثبوتا ولا ثبوتها نفيا فيندفع الإشكال وقال الشيخ شمس الدين الخسروشاهي : إن " لو " في أصل اللغة لمطلق الربط وانما اشتهرت في العرف بانقلاب ثبوتها نفيا وبالعكس ، والحديث انما ورد بمعنى اللفظ في اللغة ، وقال الشيخ ابن عبد السلام : الشيء الواحد قد يكون له سبب واحد فينتفي عند انتفائه وقد يكون له

سببان لا يلزم من عدم أحدهما عدمه لأن السبب الثاني يخلف الأول كقولنا في زوج هو ابن عم لو لم يكن زوجا لورث أي بالتعصيب فانهما سببان لا يلزم من عدم أحدهما عدم الآخر وكذلك ها هنا إذ الناس في الغالب إنما لم يعصوا لأجل الخوف فإذا ذهب الخوف عصوا لاتحاد السبب في حقهم فأخبر صلى اللّه عليه وسلم أن صهيبا رضي اللّه عنه اجتمع له سببان يمنعانه من المعصية وهذا مدح جليل وكلام حسن ، وأجاب غيرهم بأن الجواب محذوف تقديره لو لم يخف اللّه عصمه اللّه ، ويدلّ على ذلك قوله : لم يعصه ، وهذه الأجوبة تتأتى في الآية غير الثالث فإن عدم نفاد كلمات اللّه تعالى وانها غير متناهية أمر ثابت لها لذاتها وما بالذات لا يعلّل بالأسباب فتأمل ذلك . هذا كلام الفضلاء الذي اتصل بي .

ويتابع القرافي : والذي ظهر لي أن " لو " أصلها أن تستعمل للربط بين شيئين نحو ما تقدم ثم أنها أيضا تستعمل لقطع الرابط فتكون جوابا لسؤال محقّق ومتوهم وقع فيه ربط فتقطعه أنت لاعتقادك بطلان ذلك الربط كما لو قال القائل لو لم يكن ذلك زوجا لم يرث فتقول أنت : لو لم يكن زوجا لم يحرم ، تريد أن ما ذكرته من الربط بين عدم الزوجية وعدم الإرث ليس بحق فمقصودك قطع ربط كلامه لا ربط كلامه وتقول لو لم يكن زيدا عالما لأكرم أي لشجاعته جوابا لسؤال سائل يتوهمه أو سمعته يقول إنه إذا لم يكن عالما لم يكرم فيربط بين عدم العلم وعدم الإكرام فتقطع أنت ذلك الربط وليس مقصودك أن تربط بين عدم العلم والإكرام لأن

ذلك غير مناسب ولا من أغراض العقلاء ولا يتجه كلامك إلا إلى عدم الربط ، فكذلك الحديث لما كان الغالب على الناس أن يرتبط عصيانهم بعدم خوف اللّه

(258/610)

تعالى وان ذلك في الأوهام قطع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هذا الربط وقال لو لم يخف اللّه يعصه وكذلك لما كان الغالب أن الأشجار كلها إذا صارت أقلاما والبحر الملح مع غيره يكتب به الجميع والوهم يقول ما يكتب بهذا شيء إلا نفد وما عساه أن يكون قطع اللّه هذا الربط وقال ما نفدت إلخ . . . وهذا الجواب أصلح من الاجوبة المتقدمة لوجهين أحدهما شموله لهذين الموضعين وبعضها لم يشمل كما تقدم وثانيهما أن لو بمعنى خلاف الظاهر وما ذكرته من الجواب ليس مخالفا لعرف أهل اللغة فانهم يستعملون ما ذكرته ولا يفهمون غيره في تلك الموارد ونعم هذا الجواب الواجب لذاته لصفات اللّه تعالى وكلماته والممكن القابل للتعليل كطاعة صهيب رضي اللّه عنه " انتهى كلام شهاب الدين .

أما ابن هشام فبعد أن ذكر أن " لو " المستعملة على خمسة أوجه قال : " الثاني انها تفيد امتناع الشرط وامتناع الجواب جميعا وهذا هو القول الجاري على ألسنة المعربين ونص عليه جماعة من النحويين وهو باطل بمواضع كثيرة منها قوله تعالى : " ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة

وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا " " ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات اللّه " وقول عمر رضي اللّه عنه : نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه ، وبيانه أن كل شيء امتنع ثبت نقيضه فاذا امتنع " ما قام " ثبت " قام " وبالعكس ، وعلى هذا فيلزم على هذا القول في الآية الاولى ثبوت إيمانهم مع عدم نزول الملائكة وتكليم الموتى لهم وحشر كل شيء عليهم وفي الثانية نفاد الكلمات مع عدم كون كل ما في الأرض من شجرة أقلاما تكتب الكلمات وكون

البحر الأعظم بمنزلة الدواة وكون السبعة الأبحر مملوءة مدادا وهي تمد ذلك البحر ، ويلزم في الأثر ثبوت المعصية مع ثبوت الخوف وكل ذلك عكس المراد ، والثالث أنها تفيد امتناع الشرط خاصة ولا دلالة لها على امتناع الجواب ولا على ثبوته ولكنه إن كان مساويا للشرط في العموم كما في قولك لو كانت الشمس طالعة كان النهار موجودا ، لزم انتفاؤه لأنه يلزم من انتفاء السبب المساوي انتفاء مسببه وإن كان أعم كما في قولك : لو كانت الشمس طالعة كان الضوء موجودا فلا يلزم انتفاؤه وانما يلزم انتفاء القدر المساوي منه للشرط وهذا قول المحققين " إلى أن يقول :

" ويتلخص على هذا أن يقال إن " لو " تدل على ثلاثة أمور :

عقد السببية والمسببية وكونهما في الماضي وامتناع السبب ثم تارة يعقل بين الجزأين ارتباط مناسب وتارة لا يعقل فالنوع الاول على ثلاثة أقسام :

ما يوجب فيه الشرع أو العقل انحصار مسببية الثاني في سببية الأول نحو قوله تعالى : " ولو شئنا لرفعناه بها " ونحو لو كانت الشمس طالعة كان النهار موجودا ، وهذا يلزم فيه من امتناع الأول امتناع الثاني قطعا . وما يوجب أحدهما فيه عدم الانحصار المذكور نحو : لو نام لانتقض وضوءه وهذا لا يلزم فيه من امتناع الأول امتناع الثاني كما قدمنا .

وما يجوز فيه العقل ذلك نحو : لو جاءني زيد أكرمته فإن العقل يجوز انحصار سبب الإكرام في المجيء ويرجحه أن ذلك هو الظاهر من ترتيب الثاني على الأول وأنه المتبادر إلى الذهن واستصحاب الأصل وهذا النوع يدل فيه العقل على انتفاء المسبب المادي لانتفاء السبب

(260/610)

لا على الانتفاء مطلقا ويدل الاستعمال والعرف على الانتفاء المطلق ، والنوع الثاني (وهو ما لا يعقل فيه بين الجزأين ارتباط مناسب) قسمان : أحدهما ما يراد فيه تقرير الجواب وجد الشرط أو فقد ولكنه مع فقده أولى وذلك كالأثر المروي عن عمر في صهيب رضي

اللّه عنهما : " نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه " فإنه يدل على تقرير عدم العصيان على كل حال وعلى انتفاء المعصية مع ثبوت الخوف أولى وانما لم تدل " لو " على انتفاء الجواب لأمرين :

أحدهما : أن دلالتها على ذلك انما هو من باب مفهوم المخالفة وفي هذا الأثر دل مفهوم الموافقة على عدم المعصية لأنه إذا انتفت المعصية عند عدم الخوف فعند الخوف أولى وإذا تعارض هذان المفهومان قدم مفهوم الموافقة .

الثاني : انه لما فقدت المناسبة انتفت العلّية فلم يجعل عدم الخوف علة عدم المعصية فعلمنا أن عدم المعصية معلل بأمر آخر وهو الحياء والمهابة والإجلال والإعظام وذلك مستمر مع الخوف فيكون عدم المعصية عند عدم الخوف مستندا إلى ذلك السبب وحده وعند الخوف مستندا اليه فقط أو اليه والى الخوف معا وعلى ذلك تتخرج آية " لقمان " السابقة لأن العقل يجزم بأن الكلمات إذا لم تنفد مع كثرة هذه الأمور فلأن لا تنفد مع قلتها وعدم بعضها أولى " .

هذا ومن نسب الأثر بهذا اللفظ إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقد وهم وإنما الوارد ما رواه أبو نعيم في الحلية أن النبي قال في سالم مولى أبي حذيفة أنه شديد الحب للّه تعالى لو كان لا يخاف اللّه ما عصاه .

2- لما ذا وحد الشجرة ؟ :

وقال الزمخشري : " فإن قلت لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر ؟ قلت : أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاما " .

(261/610)

و وحد الشجرة لما تقرر في علم المعاني أن استغراق المفرد أشمل فكأنه قال كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجرة واحدة إلا وقد بريت أقلاما وجمع الأقلام لقصد التكثير أي لو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاما .

[سورة لقمان (31) : الآيات 28 إلى 32]

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

اللغة :

(كَالظُّلَلِ) : الظلل : جمع ظلة بضم الظاء كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو شجر أو غيرها .

(خَتَّارٍ) : مبالغة من الختر وهو أشد الغدر ومنه قولهم : انك لا تمد لنا شبرا من الغدر إلا مددنا لك باعا من ختر ، قال :

وانك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

(262/610)

و قوله ملأت يديك من غدر وختر شبه المعقول بالمحسوس على سبيل الاستعارة المكنية وملء اليدين تخييل ، وروي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رأى رجلا عدّ بأصابع يده اليمنى : سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وبأصابع اليسرى : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني فقال رسول اللّه : ملأت يديك خيرا .

الاعراب :

(ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) ما نافية وخلقكم مبتدأ ولا

بعثكم عطف على خلقكم وإلا أداة حصر والكاف خبر خلق أو الجار والمجرور خبر خلق ولا بد من تقدير مضاف أي إلا كخلق نفس واحدة وما بعثكم إلا كبعث نفس واحدة ، والكلام مستأنف مسوق للرد على المتشككين الذين قالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم إن اللّه خلقنا أطوارا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم تقول إنا نبعث خلقا جديدا جميعا في ساعة واحدة ، وان واسمها وسميع

(263/610)

خبرها الأول وبصير خبرها الثاني . (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ) الهمزة للاستفهام الانكاري التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي تر وأن واسمها وجملة يولج الليل في النهار خبرها وجملة يولج النهار في الليل عطف عليها . (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) الواو عاطفة وسخر عطف على يولج وستأتي علة المخالفة في الصيغة في باب البلاغة والشمس مفعول سخر والقمر عطف على الشمس وكل مبتدأ وجملة يجري خبر والى أجل متعلقان بيجري ، وسيأتي سر هذا الحرف في باب البلاغة ، وان واسمها وبما تعملون متعلقان بخبير وخبير خبر إن . (ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

الْباطِلُ) ذلك مبتدأ وخبره بأن اللّه وأن اسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والحق خبر أن أو خبر هو والجملة خبر أن وأن عطف على بأن وأن واسمها وجملة يدعون صلة ما ومن دونه حال والباطل خبر أن . (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) عطف على ما تقدم .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ) الهمزة للاستفهام الانكاري التقريري أيضا ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وأن وما بعدها في محل نصب مفعول تر وأن واسمها وجملة تجري في البحر خبرها وبنعمة اللّه حال أي مصحوبة بنعمته .

)

لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) اللام للتعليل ويريكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ومن آياته في محل نصب مفعول به ثان ليريكم وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبر إن المقدم واللام المزحلقة وآيات اسم إن ولكل صفة لآيات وصبار مضاف لكل وشكور صفة لصبار . (وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا

(264/610)

اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة غشيهم في محل جر باضافة

الظرف اليه وغشيهم فعل ماض ومفعول به وموج فاعل وكالظلل صفة لموج وجملة دعوا اللّه لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ومخلصين حال وله متعلقان بمخلصين والدين مفعول لمخلصين لأنه اسم فاعل . (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) الفاء عاطفة ولما حينية ظرفية أو رابطة ونجاهم فعل ماض ومفعول به وفاعل مستتر تقديره هو والى البر متعلقان بنجاهم والفاء تفريعية ومنهم خبر مقدم ومقتصد مبتدأ مؤخر أي متوسط في الكفر والظلم لأنه انزجر بعض الانزجار ، وقيل المقتصد المتوسط بين السابق بالخيرات والظالم لنفسه وفي الكلام إيجاز سيأتي في باب البلاغة . (وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) الواو استئنافية وما نافية ويجحد فعل مضارع مرفوع وبآياتنا متعلقان بيجحد وإلا أداة حصر وكل فاعل وختار مضاف اليه وكفور صفة لختار .

البلاغة :

المخالفة في الصيغة وفي حرفي الجر :

في قوله " وسخر الشمس والقمر " مخالفة في الصيغة بين سخر المعطوف ويولج المعطوف عليه لأن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد كل حين فعبر عنه بالصيغة المتجددة حينا بعد حين وأما تسخير النيرين فهو أمر لا يتجدد ولا يتعدد بل هو ديمومة متصلة متتابعة فعبر عنه بالصيغة الماضية الكائنة .

وفي قوله : " إلى أجل غير مسمى " مخالفة بين حرف الجر " إلى " المستعمل هنا وحرف الجر " اللام " المستعمل في مكان آخر فليس هو من تعاقب الحرفين فالاول للانتهاء والثاني للاختصاص وكل واحد منهما واقع موقعه ملائم لصحة الغرض الذي هدف اليه ، لأن قولك يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه وينتهي إليه وقولك يجري لأجل مسمى معناه يجري لإدراك أجل مسمى ، فما ينتهي هنا غاية ما ينتهي اليه الخلق فناسب ذكر " إلى " ، وما في فاطر والزمر ليس من هذا الوادي فناسب ذكر اللام وهذا من الدقائق البديعة فتأمل .

[سورة لقمان (31) : الآيات 33 إلى 34]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

الإعراب :

)

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ) اتقوا ربكم فعل أمر وفاعل ومفعول به واخشوا عطف على اتقوا ويوما مفعول به وجملة لا يجزي والد عن ولده صفة

ليوما . (وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) ولا مولود عطف على والد وهو مبتدأ وجاز خبر وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين والجملة صفة ليوما وشيئا مفعول جاز أو يجزي فالمسألة من باب التنازع وإن وعد اللّه حق ان واسمها وخبرها .

(266/610)

(فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) الفاء الفصيحة ولا ناهية وتغرنكم فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم بلا الناهية والحياة فاعل تغرنكم والكاف مفعوله والدنيا صفة للحياة ولا يغرنكم باللّه الغرور عطف على ما تقدم مماثل له في إعرابه والغرور بفتح الغين كل ما يسبب الانخداع والافتتان . (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ) كلام مستأنف مسوق لتقرير تفرد اللّه بالاحاطة بالمغيبات ، وسبب نزولها ان الحارث بن عمرو بن حارثة أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه أخبرني عن الساعة متى قيامها وإني قد ألقيت حياتي في الأرض وقد أبطأت عنا السماء فمتى تمطر ؟ وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها أذكر أم أنثى ؟

وإني علمت ما علمت أمس فما أعمل غدا ؟ وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت ؟ .

وان واسمها وعنده ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وعلم الساعة مبتدأ مؤخر والجملة خبر إن وينزل الغيث عطف على عنده علم الساعة فهو بمثابة خبر ثان ويعلم ما في الأرحام عطف أيضا .

)

وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً) الواو حرف عطف وما نافية وتدري فعل مضارع ونفس فاعله وماذا اسم استفهام مركب في محل نصب مفعول مقدم لتكسب وجملة تكسب سادة مسد مفعولي تدري المعلقة بالاستفهام وغدا ظرف متعلق بتكسب ويجوز أن تكون ما مبتدأ وذا اسم موصول في محل رفع خبر ، وقد تقدم القول في ماذا .

(وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الواو حرف عطف وما نافية وتدري فعل مضارع مرفوع ونفس فاعل وبأي أرض متعلق بتموت وهو معلق للدراية فالجملة في محل نصب والباء ظرفية بمعنى في أي في أي أرض وان واسمها وخبرها .

البلاغة :

للضمائر شأن كبير في الفصاحة والبلاغة ولها تأثير في قوة الكلام وضعفه ، أو توكيده وعدم توكيده ، ومن ذلك قوله " ولا مولود هو جاز عن والده شيئا " فقد ورد الضمير بعد مولود ولم يرد بعد والد في قوله " لا يجزي والد عن ولده شيئا " وذلك لسر يتجاوز الاعراب ، وقد أجاب الامام الزمخشري بجواب في غاية الدقة ولكنه أغفل أمرا هاما يرد عليه ، وفيما يلي نص قوله :

"

فإن قلت : قوله ولا مولود هو جاز عن والده شيئا وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه ؟ قلت الأمر كذلك لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة وأن يشفعوا لهم وأن يغنوا عنهم من اللّه شيئا فلذلك جيء به على الطريق الآكد " وواضح من هذا التعليل الجميل أنه يتمشى على الموجودين في زمن النبي صلى اللّه عليه وسلم أو أنه خاص بهم والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطبق عليهم اسم الناس فالأولى أن يقال في جواب السؤال ان اللّه تعالى

لما أكد الوصية على الآباء وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه وغاية طوقه قطع هنا وهم الوالد في أن يكون

الولد في القيامة مظنة لأنه يجزيه حقه عليه ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة كما أوجب اللّه عليه في الدنيا ذلك في حقه ، ولما كان إجزاء الولد عن الوالد ظنة الوقوع وموطن الأمل لأن اللّه حضه عليه في الدنيا كان جديرا بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم وهذا غير وارد في حق الولد على الوالد وهذا من الحسن بمكان فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 7 صـ 526.569﴾

(268/610)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى عشر بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/611)

الجزء الحادى عشر بعد الستمائة

(سورة السجدة)

(4/611)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة السجدة)

(5/611)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

فيه حديث أُبيٍّ السّاقط سنده : من قرأَ سورة ﴿ الم * تَنزِيلُ ﴾ أُعطى من الأَجر كمن أَحيا ليلة القدر ، وكان صلَّى الله عليه وسلَّم لا ينام حتَّى يقرأَ ﴿ الم * تَنزِيلُ ﴾ السّجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْك ﴾ ويقول : هما يَفْضُلان كلَّ سورة فى القرآن بسبعين حسنة ، ومن قرأَها كتب له سبعون حسنة ومُحِى عنه سبعون سيِّئة ورفع له سبعون درجة ؛ وحديث علىّ مَنْ قرأَ ﴿ الم * تَنزِيلُ ﴾ ضَحك الله إِليه يوم القيامة ، وقُضى له كلُّ حاجة له عند الله وأَعطاه إِيَّاه بكلِّ آية قرأَها غرفة فى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 375.376 ﴾

(6/611)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة السجدة

مقصودها إنذار الكفار بهذا الكتاب السار للأبرار بدخول الجنة والنجاة من النار ، واسمها السجدة منطبق على ذلك بما دعت إليه آيتها من الإخبات وترك الاستكبار ، وكذا تسميتها بآلم تنزيل فإنه مشير إلى تأمل جميع السورة ، فهو في غاية الوضوح في هذا المقصود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 42 ﴾

(7/611)

فصل

قال الآلوسى :

سورة السجدة

23 - وتسمى المضاجع أيضا كما في الإتقان وفي مجمع البيان إنها كما تسمى سورة السجدة تسمى سجدة لقمان لئلا تلتبس بحم السجدة وأطلق القول بمكيتها أخرج إبن الضريس وإبن مردويه والبيهقي في الدلائل عن إبن عباس إنها نزلت بمكة وأخرج إبن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله وجاء في رواية أخرى عن الحبر إستثناء أخرج النحاس عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات أفمن كان مؤمنا إلى تمام الآيات الثلاث وروى مثله عن مجاهد والكلبي وأستثنى بعضهم أيضا آيتين أخريين

وهما قوله تعالى تتجافى جنوبهم إلخ وأستدل عليه ببعض الروايات في سبب النزول وستطلع على ذلك إن شاء الله تعالى وأستبعد إستثناؤهما لشدة إرتباطهما بما قبلهما وهي تسع وعشرون آية في البصرى وثلاثون في الباقية ووجه مناسبتها لما قبلها إشتمال كل على دلائل الألوهية وفي البحر لما ذكر سبحانه فيما قبل دلائل التوحيد وهو الأصل الأول ثم ذكر جل وعلا المعاد وهو الأصل الثاني وختم جل شأنه به السورة ذكر تعالى في بدء هذه السورة الأصل الثالث وهو النبوة

(8/611)

وقال الجلال السيوطي في وجه الإتصال بما قبلها : إنها شرح لمفاتح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة ما قبل فقوله تعالى ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون شرح قوله تعالى : إن الله عنده علم الساعة ولذلك عقب بقوله سبحانه : عالم الغيب والشهادة وقوله تعالى : أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز شرح قوله سبحانه : وينزل الغيث وقوله تبارك وتعالى : الذي أحسن كل شيء خلقه الآيات شرح قوله جل جلاله : ويعلم ما في الأرحام وقوله عزوجل : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها شرح قوله تعالى : وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وقوله جل وعلا : أئذا ضللنا

في الأرض إلى قوله تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون شرح قوله سبحانه : وما تدري نفس بأي أرض تموت ولا يخلو عن نظر وجاء في فضلها أخبار كثيرة أخرج أبو عبيد وإبن الضريس من مرسل المسيب بن رافع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : تجيء ألم تنزيل وفي رواية ألم السجدة يوم القيامة لها جناحان تظل صاحبها وتقول : لا سبيل عليه لا سبيل عليه

وأخرج الدارمي والترمذي وإبن مردويه عن طاوس قال : ألم السجدة وتبارك الذي بيده الملك تفضلان

(9/611)

على كل سورة في القرآن بستين حسنة وفي رواية عن إبن عمر تفضلان ستين درجة على غيرهما من سور القرآن

وأخرج أبو عبيد في فضائله وأحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وإبن مردويه عن جابر قال : كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك

وأخرج إبن مردويه عن إبن عمر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ

تبارك الذي بيده الملك وألم تنزيل السجدة بين المغرب والعشاء الآخرة فكأنما قام ليلة القدر وروى نحوه هو والثعلبي والواحدي من حديث أبي بن كعب والثعلبي دونهم من حديث إبن عباس وتعقب ذلك الشيخ ولي الدين قائلا : لم أقف عليه وهذه الروايات كلها موضوعة لكن رأيت في الدر المنثور أن الخرائطي أخرج في مكارم الأخلاق من طريق حاتم بن محمد عن طاوس أنه قال ما على الأرض رجل يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك في ليلة إلا كتب له مثل أجر ليلة القدر قال حاتم : فذكرت ذلك لعطاء فقال : صدق طاوس والله ما تركتهن منذ سمعت بهن إلا أن أكون مريضا ولم أقف على ما قيل في هذا الخبر صحة وضعفا ووضعا وفيه أخبار كثيرة في فضلها غير هذا الله تعالى أعلم بحالها وكان عليه الصلاة والسلام يقرؤها وهل أتى في صلاة فجر الجمعة وهو مشعر بفضلها والحديث في ذلك صحيح لا مقال فيه

أخرج إبن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائي وإبن ماجه عن أبي هريرة قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ في الفجر يوم الجمعة ألم تنزيل السجدة وهل أتى على الإنسان وأخرج أبو داؤد وهؤلاء إلا البخاري نحوه عن ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 21 صـ 115.116 ﴾

(10/611)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ألم تنزيل)

السّورة مكِّيّة بالاتفاق ، سوى ثلاث آيات ، فإِنها مدنيّة ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ﴾ إِلى آخر الآيات الثلاثة .

عدد آياتها تسع وعشرون عند البصرِيّين ، وثلاثون عند الباقين .

كلماتها ثلاثمائة وثلاثون .

وحروفها أَلْف وخمسمائة وتسع وتسعون .

المختلف فيها آيتان (الم) ﴿ خَلْقٌ جَدِيْدٌ ﴾ فواصل آياتها (ملن) على الميم اثنان : الم و ﴿ العَزِيزُ الرّحِيم ﴾ وعلى اللام آية ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ولها ثلاثة أَسماء : سورة السّجدة ، لاشتمالها على سجدة التلاوة ، الثانى سجدة لقمان ؛ للتميّز عن حم السّجدة الثالث المضاجع : لقوله ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ .

مقصود السّورة : تنزيل القرآن ، وإنذار سيّد الرُّسُل ، وتخليق السماءِ والأَرض ، وخَلْق الخلائق ، وتشوير العاصين فى القيامة ، ومَلْءُ جهنَّم من أَهل الإِنكار ، والضَّلالة ، وإِسقاط خواصّ العِبَاد فى أَجواف اللَّيالى للعبادة ، وإِخبارهم بما ادُّخِر لهم فى العُقْبى : من أَنواع

الكرامة ، والتفريق بين الفاسقين والصادقين فى الجزاءِ ، والثواب ، فى يوم المآب ، وتسلية النبى صلى الله عليه وسلم بتقرير أَحوال الأَنبياءِ الماضين ، وتقرير حُجَّة المنكرين للوحدانية ، وأَمر الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم بالإِعراض عن مكافأَة أَهل الكفر ، وأَمره بانتظار النَّصر ، بقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانْتَظِرْ إِنَّهُم مُنْتَظِرُوْنَ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آية واحدة : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ م (آية السّيف ن) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 373.374 ﴾

(11/611)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة السجدة

345 - مسألة :

قوله تعالى : (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ) ، وقال في الحج :

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) .

وفى سأل سائل : (كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) ؟ .

جوابه :

أن المراد هنا : ما ينزل به الملك من السماء ، ثم يصعد إليها ، ويكون السماء هنا عبارة عن جهة سدرة المنتهى لا عن سماء الدنيا .

والمراد بآية الحج أن عذاب المعذب في جهنم يوما واحدا بقدر عذاب المعذب ألف سنة ، لأنه جاء بعد قوله تعالى : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ) .

والمراد بآية سأل سائل : يوم القيامة لما فيه من الأهوال والشدائد .

وقوله تعالى : (فى يوم) راجع إلى قوله تعالى : (بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) أى واقع ليس له دافع فى يوم كان مقداره . الآية .

وقيل المراد به : نزول الملك من سدرة المنتهى وعوده إليها ، وأن مقدار ذلك على لم سير أهل الدنيا "خمسين ألف سنة" وفيه نظر ، والله أعلم .

346 – مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ)

وفى الزمر :

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) . وفى الأنعام :

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) ومثله: (وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ) الآية ؟ .

جوابه:

الجامع للآيات أن لملك الموت أعوانا من الملائكة يعالجون الروح حتى تنتهي إلى الحلقوم، فيقبضها هو.

فالمراد هنا: قبضه لها عند انتهائها إلى الحلقوم. والمراد بآية الأنعام: هو وأعوانه. وبآية الزمر: الله تعالى وقضاؤه بذلك أو معناه خلق سلب تلك الروح من جسدها.

وقيل المراد بقوله تعالى: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ) وبقوله تعالى: (يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ) أي يستوفى عدد أرواحكم، من قولهم: توفيت الدين إذا استوفيته أجمع.

(12/611)

---

347 - مسألة:

قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ) بالواو، و (مِنْ قَبْلِهِمْ).

وفي طه: "بالفاء"، وحذف (من) ؟ .

جوابه :

أن آية طه جاءت بعد ذكر موسى وفرعون ، والسامرى وهلاكهم ، وذكر آدم وحواء ، فناسب " قبل " العامة لما تقدم من الزمان . وأية السجدة : خالية من ذلك ، فأتى ب (من) المقربة للزمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 297. 300﴾

(13/611)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، وفى سأل سائل ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ موضع بيانه التفسير .

والغريب فيه ما رُوى عن عِكْرِمة فى جماعة : أَن اليوم فى المعارج عبارة عن أَول أَيام الدّنيا إِلى انقضائها ، وأَنَّها خمسون أَلْفَ سنة ، لا يدرى أَحدٌ كمْ مضَى وكم بقى إِلاَّ اللهُ عزَّ وجلَّ . ومن الغريب أَنَّ هذه عبارة عن الشدة ، واستطالة أَهلها إِياها ؛ كالعادة فى استطالة أَيام الشدة والحزن ، واستقصار أَيام الرَّاحة والسّرور ، حتى قال القائل : سَنة الوصل سِنَة [و] سِنة الهجْر سَنَة .

وخُصّت هذه السّورة بقوله : أَلف سنة ، لما قبله ، وهو قوله : ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ وتلك الأَيام من جنس ذلك اليوم وخصّت سورة المعارج بقوله ﴿ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ لأَن فيها ذكر القيامة وأَهوالِها ، فكان هو اللائق بها .

قوله ﴿ ثُمَّ أَعْرِضْ عَنْهَا ﴾ (ثمّ) ههنا يدلّ على أَنَّه ذُكِّرَ مرّات ، ثم تأَخّر (و) أَعرض عنا . والفاءُ على الإِعراض عقيب التذكير .

قوله : ﴿ عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وفى سبأ ﴿ الَّتِي كُنتُم بِهَا ﴾ لأَنَّ النَّار وقعت فى هذه السُّورة موقع الكناية ، لتقدّم ذكرها ، والكنايات لا توصف ، فوُصف العذاب ، وفى سبأ لم يتقدم ذكر النَّار ، فحسن وصف النار .

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ بزيادة (مِن) سبق فى طه .

قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ ليس غيره ؛ لأَنَّه لما ذكر القرون والمساكن بالجمع حسن جمع الآيات ، ولمّا تقدّم ذكر الكتاب – وهو مسموع – حسن لفظ السّماع فختم الآية به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 374. 375 ﴾

(14/611)

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة السجدة

396 – قوله في يوم كان مقداره ألف سنة 5 وفي المعارج خمسين ألف سنة 4 موضع بيانه التفسير والغريب فيه ما روي عن عكرمة في جماعة أن اليوم في المعارج عبارة عن أول أيام الدنيا إلى انقضائها وأنها خمسون ألف سنة لا يدري أحد كم مضى وكم بقي إلا الله عز و جل

ومن الغريب أن هذه عبارة عن الشدة واستطالة أهلها إياها كالعادة في استطالة أيام الشدة والحزن واستقصار أيام الراحة والسرور حتى قال القائل سنة الوصل سنة بكسر السين وسنة الهجر سنة بفتح السين

وخصت هذه السورة بقوله ألف سنة لما قبله وهو قوله في ستة

أيام 4 وتلك الأيام من جنس ذلك اليوم

وخصت المعارج بقوله خمسين ألف سنة لأن فيها ذكر القيامة وأهوالها فكان اللائق بها

397 – قوله ثم أعرض عنها 22 ثم ههنا تدل على الإعراض عقب التذكير

398 – قوله عذاب النار الذي كنتم به تكذبون 20 وفي سبأ التي كنتم 42 لأن النار في هذه السورة وقعت موقع الكناية لتقدم ذكرها والكنايات لا توصف فوصف العذاب وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار قبل 6 فحسن وصف النار

399 - قوله أو لم يهد لهم 26 بالواو من قبلهم بزيادة من سبق في طه

400 - قوله إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون 26 ليس غيره لأنه لما ذكر القرون والمساكن بالجمع حسن جمع الآيات ولما تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع حسن ذكر لفظ السماع فختم الآية به. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 170. 171﴾

(15/611)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة السجدة

أشهر أسماء هذه السورة هو سورة السجدة ، وهو أخصر أسمائها ، وهو المكتوب في السطر المجعول لاسم السورة من المصاحف المتداولة .

وبهذا الاسم ترجم لها الترمذي في " جامعه " وذلك بإضافة كلمة سورة إلى كلمة السجدة .

ولا بد من تقدير كلمة ﴿ ألم ﴾ محذوفة للاختصار إذ لا يكفي مجرد إضافة سورة إلى

السجدة في تعريف هذه السورة ، فإنه لا تكون سجدة من سجود القرآن إلا في سورة من السور .

وتسمى أيضا ﴿ ألم تَنْزِيلُ ﴾ ؛ روى الترمذي عن جابر بن عبد الله : " إن النبيء صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ ﴿ ألم تَنْزِيلُ ﴾ [السجدة : 1, 2] و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : 1] .

وتسمى " ألم تنزيل السجدة " .

وفي " صحيح البخاري " عن أبي هريرة : " كان النبيء صلى الله عليه وسلم يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر " ألم تنزيل السجدة " و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ [الانسان : 1] .

قال شارحو " صحيح البخاري " ضبط اللام من كلمة ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ بضمة على الحكاية ، وأما لفظ " السجدة " في هذا الحديث فقال ابن حجر : هو بالنصب .

وقال العيني والقسطلاني بالنصب على أنه عطف بيان – يعني أنه بيان للفظ ﴿ ألم تَنْزِيلُ ﴾ – ، وهذا بعيد لأن لفظ السجدة ليس اسما لهذه السورة إلا بإضافة " سورة " إلى " السجدة " ، فالوجه أن يكون لفظ " السجدة " في كلام أبي هريرة مجرورا بإضافة مجموع ﴿ ألم تَنْزِيلُ ﴾ إلى لفظ " السجدة " ، وسأبين كيفية هذه الإضافة .

وعنونها البخاري في " صحيحه " : " سورة تنزيل السجدة " .

ويجب أن يكون ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ مضمونا على حكاية لفظ القرآن ، فتميزت هذه السورة بوقوع

سجدة تلاوة فيها من بين السور المفتتحة بـ ﴿ ألم ﴾ ، فلذلك فمن سماها سورة السجدة عنى تقدير مضاف أي سورة " ألم السجدة " .

ومن سماها تنزيل السجدة فهو على تقدير " ألم تنزيل السجدة " بجعل

(16/611)

﴿ ألم تَنْزِيلُ ﴾ اسما مركبا ثم أضافته إلى السجدة ، أي ذات السجدة ، لزيادة التمييز والإيضاح ، وإلا فإن ذكر كلمة ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ كاف في تمييزها عما عداها من ذوات ﴿ ألم ﴾ ثم اختصر بحذف ﴿ ألم ﴾ وإبقاء ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ ، واضيف ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ إلى " السجدة " على ما سيأتي في توجيه تسميتها " ألم تنزيل السجدة " .

ومن سماها " إلم السجدة " فهو على إضافة " ألم " إلى " السجدة " إضافة على معنى اللام وجعل " ألم " اسما للسورة .

ومن سموها " ألم تنزيل السجدة " لم يتعرضوا لضبطها في " شروح صحيح البخاري " ولا في النسخ الصحيحة من " الجامع الصحيح " ، ويتعين أن يكون ﴿ ألم ﴾ مضافا إلى ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ على أن مجموع المضاف والمضاف إليه اسم لهذه السورة محكي لفظه ؛ فتكون كلمة ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ مضمونه على حكاية لفظها القرآني ، وأن يعتبر هذا المركب الإضافي

اعتبار العلم مثل : عبد الله ، ويعتبر مجموع ذلك المركب الإضافي مضافا إلى السجدة

إضافة المفردات ، وهو استعمال موجود ، ومنه قول تأبط شرا :

إني لمهد من ثنائي فقاصد . . .

به لبن عم الصدق شمس بن مالك

إذ أضاف مجموع " ابن عم " إلى " الصدق " ، ولم يرد إضافة عم إلى الصدق .

وكذلك قول أحد الطائيين في " ديوان الحماسة " :

داو ابن السوء بالنأي والغنى . . .

كفى بالغنى والنأي عنه مداويا

فإنه ما أراد وصف عمه بالسوء ولكنه أراد وصف ابن عمه بالسوء .

فأضاف مجموع ابن عم إلى السوء ، ومثله قول رجل من كلب في " ديوان الحماسة " :

هنيئا لابن عم السوء أني

مجاوره بني ثعل لبوني

وقال عيينة بن مرداس في " الحماسة " :

فلما عرفت اليأس منه وقد بدت . . .

أيادي سبا الحاجات للمتذكر

فأضاف مجموع " أيادي سبا " وهو كالمفرد لأنه جرى مجرى المثل إلى الحاجات .

وقال بعض رجازهم :

أنا ابن عم الليل وابن خاله

إذا دجى دخلت في سرباله

(17/611)

فأضاف " ابن عم " إلى لفظ " الليل " ، وأضاف " ابن خال " إلى ضمير " الليل " على معنى أنا مخالط الليل ، ولا يريد إضافة عم ولا خال إلى الليل .

ومن هذا اسم عبد الله بن قيس الرقيات ، فالمضاف إلى " الرقيات " هو مجموع المركب إما " عبد الله " ، أو " ابن قيس "

(18/611)

لا أحد مفرداته .

وهذه الإضافة قريبة من إضافة العدد المركب إلى من يضاف إليه مع بقاء اسم العدد على بنائه كما تقول : أعطه خمسة عشره .

وتسمى هذه السورة أيضا سورة المضاجع لوقوع لفظ " المضاجع " في قوله تعالى :

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : 16] .

وفي " تفسير القرطبي " عن " مسند الدرامي " أن خالد بن معدان 1 سماها : المنجية .

قال : بلغني أن رجلا يقرؤها ما يقرأ شيئا غيرها ، وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها

وقالت : رب اغفر له فإنه كان يكثر من قراءتي فشفعها الرب فيه وقال : اكتبوا له بكل

خطيئة حسنة وارفعوا له درجة اهـ .

وقال الطبرسي : تسمى " سورة سجدة لقمان " لوقوعها بعد سورة لقمان لئلا تلتبس

بسورة " حم السجدة " ، أي كما سموا سورة " حم السجدة " وهي سورة فصلت " سورة

سجدة المؤمن " لوقوعها بعد سورة المؤمنين .

وهي مكية في إطلاق أكثر المفسرين وإحدى روايتين عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه

استثناء ثلاث آيات مدنية وهي : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ﴾ إلى ﴿ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : 18- 21] .

قيل نزلت يوم بدر في علي بن أبي طالب والوليد ابن عقبة وسيأتي إبطاله .

وزاد بعضهم آيتين ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ إلى ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[السجدة : 16 ، 17] لما روي في سبب نزولها وهو ضعيف .

والذي نعول عليه أن السورة كلها مكية وأن ما خالف ذلك إن هو إلا تأويل أو إلحاق خاص

بعام كما أصلنا في المقدمة الخامسة .

نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة نوح ، وقد عدت الثالثة والسبعين في النزول .

وعدت آياتها عند جمهور العادين ثلاثين ، وعدها البصريون سبعا وعشرين .

من أغراض هذه السورة

أولها التنويه بالقرآن أنه منزل من عند الله ، وتوبيخ المشركين على ادعائهم أنه مفترى بأنهم لم يسبق لهم التشرف بنزول كتاب .

والاستدلال على إبطال إلهية أصنامهم بإثبات انفراد الله بأنه خالق السماوات والأرض ومدبر أمورهما .

وذكر البعث والاستدلال على كيفية بدء خلق الإنسان ونسله ، وتنظيره بإحياء الأرض ، وأدمج في ذلك أن إحياء الأرض نعمة عليهم كفروا بمسديها .

والإنحاء على الذين أنكروه ووعيدهم .

والثناء على المصدقين

---

1 خالد بن معدان الكلاعي الحمصي أبو عبد الله من فقهاء التابعين .

توفي سنة ثلاث أو أربع أو ثمان ومائة, روى عن جماعة من الصحابة مرسلا .

بآيات الله ووعدهم ، ومقابلة إيمانهم بكفر المشركين ، ثم إثبات رسالة رسول عظيم قبل محمد صلى الله عليه وسلم هدى به أمة عظيمة .

والتذمير بما حل بالمكذبين السابقين ليكون ذلك عظة للحاضرين ، وتهديدهم بالنصر الحاصل للمؤمنين .

وختم ذلك بانتظار النصر .

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنه تحقيرا لهم ، ووعده بانتظار نصره عليهم .

ومن مزايا هذه السورة وفضائلها ما رواه الترمذي والنسائي وأحمد والدرامي عن جابر بن عبد الله قال : "كان النبيء صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ ﴿ الم تَنْزِيلُ ﴾ [السجدة : 1 ، 2] و﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : 1] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ 138 . 141 ﴾

(20/611)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة السجدة

هذه السورة المكية نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطر , ويركزها في القلوب: عقيدة الدينونة لله الأحد الفرد الصمد , خالق الكون والناس , ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله . والتصديق برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) الموحى إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى الله . والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء .

هذه هي القضية التي تعالجها السورة ; وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكية . كل منها تعالجها بأسلوب خاص , ومؤثرات خاصة ; تلتقي كلها في أنها تخاطب القلب البشري خطاب العليم الخبير , المطلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها , ومنحنياتها ودروبها , العارف بطبيعتها وتكوينها , وما يستكن فيها من مشاعر ,وما يعتريها من تأثرات واستجابات في جميع الأحوال والظروف .

وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة . فهي تعرضها في آياتها الأولى ; ثم تمضي بقيتها تقدم مؤثرات موقظة للقلب , منيرة للروح , مثيرة للتأمل والتدبر ; كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية معروضة في صفحة الكون ومشاهده ; وفي نشأة الإنسان وأطواره ; وفي مشاهد من اليوم الآخر حافلة بالحياة

والحركة ; وفي مصارع الغابرين وآثارهم الناطقة بالعبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها ! كذلك ترسم السورة صورا للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلعها إلى ربها . وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها ; وتعرض صورا للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء , وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان , يشهده كل قارئ لهذا القرآن .

(21/611)

وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة , وإلى الخوف والخشية مرة , وإلى التطلع والرجاء مرة . وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد , وتارة بالإطماع , وتارة بالإقناع . . ثم تدعه في النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين . تدعه لنفسه يختار طريقه , وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور .

ويمضي سياق السورة في عرض تلك القضية في أربعة مقاطع أو خمسة متلاحقة متصلة:يبدأ بالأحرف المقطعة (ألف . لام . ميم)منبها بها إلى تنزيل الكتاب من جنس هذه الأحرف . ونفي الريب عن تنزيله والوحي به: (من رب العالمين) . . ويسأل سؤال استنكار عما إذا كانوا يقولون:افتراه . ويؤكد أنه الحق من ربه لينذر قومه (لعلهم يهتدون) .

.

وهذه هي القضية الأولى من قضايا العقيدة:قضية الوحي وصدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في التبليغ عن رب العالمين .

ثم يعرض قضية الألوهية وصفتها في صفحة الوجود :في خلق السماوات والأرض وما بينهما , وفي الهيمنة على الكون وتدبير الأمر في السماوات والأرض , ورفع الأمر إليه في اليوم الآخر . . ثم في نشأة الإنسان وأطواره وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك . والناس بعد ذلك قليلا ما يشكرون .

وهذه هي القضية الثانية:قضية الألوهية وصفتها :صفة الخلق , وصفة التدبير , وصفة الإحسان , وصفة الإنعام , وصفة العلم . وصفة الرحمة . وكلها مذكورة في سياق آيات الخلق والتكوين .

ثم يعرض قضية البعث , وشكهم فيه بعد تفرق ذراتهم في التراب: وقالوا :أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ? ويرد على هذا الشك بصيغة الجزم واليقين .

وهذه هي القضية الثالثة:قضية البعث والمصير .

(22/611)

ومن ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة: إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم يعلنون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحق الذي جاءتهم به الدعوة . ويقولون الكلمة التي لو قالوها في الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة ; ولكنها في موقفهم ذاك لا تجدي شيئا ولا تفيد . لعل هذا المشهد أن يوقظهم – قبل فوات الأوان – لقول الكلمة التي سيقولونها في الموقف العصيب . فيقولوها الآن في وقتها المطلوب .

وإلى جوار هذا المشهد البائس المكروب يعرض مشهد المؤمنين في هذه الأرض: إذا ذكروا بآيات ربهم . . (خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) . . وهي صورة موحية شفيفة ترف حولها القلوب . يعرض إلى جوارها ما أعده الله لهذه النفوس الخاشعة الخائفة الطامعة من نعيم يعلو على تصور البشر الفانين: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) . . ويعقب عليه بمشهد سريع لمصائر المؤمنين والفاسقين في جنة المأوى وفي نار الجحيم وبتهديد المجرمين بالانتقام منهم في الأرض أيضا قبل أن يلاقوا مصيرهم الأليم .

ثم ترد إشارة إلى موسى – عليه السلام – ووحدة رسالته ورسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) والمهتدين من قومه , وصبرهم على الدعوة , وجزائهم على هذا الصبر بأن جعلهم الله أئمة . وفي هذه الإشارة إيحاء بالصبر على ما يلقاه الدعاة إلى الإسلام من كيد ومن

تكذيب .

وتعقب هذه الإشارة جولة في مصارع الغابرين من القرون , وهم يمشون في مساكنهم غافلين . . ثم جولة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء بالحياة والنماء ; فيتقابل مشهد البلى ومشهد الحياة في سطور .

وتختم السورة بحكاية قولهم: (متى هذا الفتح ?) وهم يتساءلون في شك عن يوم الفتح الذي يتحقق فيه الوعيد . والجواب بالتخويف من هذا اليوم والتهديد . وتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليعرض عنهم ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

(23/611)

والآن نأخذ في عرض السورة بالتفصيل:

الدرس الأول: 1 - 3 إثبات النبوة والوحي

ألم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون:افتراه ? بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون . .

ألف . لام . ميم . . هذه الأحرف التي يعرفها العرب المخاطبون بهذا الكتاب ; ويعرفون ما يملكون أن يصوغوا منها ومن نظائرها من كلام , ويدركون الفارق الهائل بين ما يملكون أن

يصوغوه منها وبين هذا القرآن ; وهو فارق يدركه كل خبير بالقول , وكل من يمارس التعبير باللفظ عن المعاني والأفكار . كما يدرك أن في النصوص القرآنية قوة خفية , وعنصرا مستكنا , يجعل لها سلطانا وإيقاعا في القلب والحس ليسا لسائر القول المؤلف من أحرف اللغة , مما يقوله البشر في جميع الأعصار . وهي ظاهرة ملحوظة لا سبيل إلى الجدال فيها , لأن السامع يدركها , ويميزها , ويهتز لها , من بين سائر القول , ولو لم يعلم سلفا أن هذا قرآن ! والتجارب الكثيرة تؤكد هذه الظاهرة في شتى أوساط الناس .

والفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هذه الحروف من كلام , هو كالفارق بين صنعة الله وصنعة البشر في سائر الأشياء . صنعة الله واضحة مميزة , لا تبلغ إليها صنعة البشر في أصغر الأشياء . وإن توزيع الألوان في زهرة واحدة ليبدو معجزة لأمهر الرسامين في جميع العصور . . وكذلك صنع الله في القرآن وصنع البشر فيما يصوغون من هذه الحروف من كلام ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2802 . 2804 ﴾

(24/611)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة السجدة

مكية وآياتها ثلاثون آية

بين يدي السورة

سورة السجدة مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية (الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والكتب والرسل ، والبعث والجزاء) والمحور الذي تدور عليه السور الكريمة ، هو موضوع (البعث بعد الفناء) الذي طالما جادل المشركون حوله ، واتخذوه ذريعة لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام .

* تبتدىء السورة الكريمة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم ، المعجزة الكبرى لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل ، ومع وضوح إعجازه ، وسطوع آياته ، وإشراقة بيانه ، وسمو أحكامه ، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن ، واختلقه من تلقاء نفسه ، فجاءت السورة الكريمة ترد هذا البهتان ، بروائع الحجة والبرهان [الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه . .] الآيات .

* ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، ببيان آثار قدرة الله قي الكائنات العلوية والسفلية ، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إبداع الواحد القهار [الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام . .] الآيات .

* ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة ، في إنكارهم للبعث والنشور ، ورد عليها

بالحجج القاطعة ، والأدلة الساطعة ، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد ، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة ، أمام قوارع القرآن ، وروائع الحجة والبيان [وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد] الآيات .

* وختمت السورة بالحديث عن يوم الحساب ، وما أعد الله فيه للمؤمنين المتقين ، من النعيم الدائم في جنات الخلد ، وما أعده للمجرمين من العذاب والنكال في دار الجحيم [أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون] الآيات .

التسمية :

سميت " سورة السجدة " لما فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار ، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم [خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون] . (تفسير سورة السجدة)

قال الله تعالى : [الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . .] إلى قوله [جزاء بما كانوا

يعملون] . من آية (1) إلى آية (17) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 500 ﴾

(26/611)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة السجدة

ذكروا بها : أي وعظوا ، خروا : أي سقطوا ، سبحوا بحمد ربهم : أي نزهوه عما لا يليق به ، تتجافى : أي ترتفع وتبتعد ، قال عبد اللّه بن رواحة :

وفينا رسول اللّه يتلو كتابه إذا انشقّ معروف من الصبح ساطع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والجنوب : واحدها جنب ، وهو الشق ، والمضاجع : واحدها مضجع ، وهو مكان النوم ، أخفى لهم : أي خبّئ لهم ، من قرة أعين : أي من شىء نفيس تقرّ به أعينهم وتسرّ .

أصل الفسق : الخروج من فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها ، ثم استعمل فى الخروج من الطاعة وأحكام الشرع مطلقا ، فهو أعم من الكفر ، وقد يخص به كما فى قوله : " وَمَنْ

كَفَرَ بَعْدَ ذِلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ " والمأوى : المسكن وأصل النزل : ما يعدّ للنازل من الطعام والشراب والصلة ، ثم أطلق على كل عطاء ، والمراد به هنا الثواب والجزاء ، الأدنى : أي الأقرب ، والمراد به عذاب الدنيا ، فإنه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه ، وقد ابتلاهم اللّه بسنى جدب وقحط أهلكت الزرع والضرع ، والعذاب الأكبر : عذاب يوم القيامة .

الفتح : أي الفصل فى الخصومة بيننا وبينكم ، وينظرون : أي يمهلون ويؤخرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 21 صـ 110 . 120 ﴾ . باختصار .

(27/611)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة السجدة

وهي مكية قال عبد الله بن عباس إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة وفي رجلين من قريش وهن أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا إلى آخر الآيات الثلاث 1 - من ذلك قوله جل وعز آلم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين

المعنى هذا تنزيل الكتاب وقيل المعنى آلم من تنزيل الكتاب

ويجوز أن يكون المعنى تنزيل الكتاب لا شك فيه وقد بينا معنى آلم ولا ريب فيه في سورة البقرة 2 - وقوله جل وعز أم يقولون افتراه آية 3 أي بل أيقولون افتراه 3 - وقوله جل وعز يدبر الأمر من السماء إلى الأرض أي يقضي القضاء في السماء ثم ينزله إلى الأرض 4 - وقوله جل وعز ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون آية 5 قال أبو جعفر هذه الآية مشكلة وقد قال في موضع آخر في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ولأهل التفسير فيها أقوال أ - من ذلك ما حدثنا بكر بن سهل قال حدثنا عبد الله بن

صالح قال حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في يوم كان مقداره ألف سنة قال هذا في الدنيا وقوله جل وعز في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة قال فهذا يوم القيامة جعله الله عز وجل على الكفار مقدار خمسين ألف سنة ب - وحدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام قال حدثنا أبو داود

سليمان بن داود قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن وهب بن منبه في يوم كان مقداره ألف سنة قال ما بين أسفل الأرض إلى العرش ج قال ابن أبي نجيح عن مجاهد وفي ذلك قال الدنيا من أولها

إلى آخرها خمسون ألف سنة لا يدري أحد كم مضى منها ولا كم بقي قال أبو جعفر وقيل يوم القيامة أيام فمنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة قال أبو جعفر يوم في اللغة بمعنى وقت فالمعنى على هذا تعرج الملائكة والروح إليه في وقت مقداره ألف سنة وفي وقت آخر أكثر من ذاك وعروجا أكثر من ذاك مقداره خمسون ألف سنة 5 – وقوله جل وعز الذي أحسن كل شئ خلقه آية 7 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال أتقنه قال وهو مثل قوله تعالى أعطى كل شئ خلقه أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ولا خلق البهيمة على خلق الإنسان وقيل أي لم يعجزه

وأحسن ما قيل في هذا ما رواه خصيف عن عكرمة عن ابن عباس في قوله جل وعز أحسن كل شئ خلقه قال أحسن في خلقه جعل الكلب في خلقه حسنا قال أبو جعفر ومعنى هذا أحسن في فعله كما تقول أحسن فلان في قطع اللص 6 – وقوله جل وعز ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين آية 8 السلالة للقليل مما ينسل والمهين الضعيف

7 – وقوله جل وعز وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد آية 10 وروى عن الحسن أنه قرأ صللنا بفتح اللام وروى بعضهم بكسر اللام قال مجاهد ضللنا أي أهلكنا قال أبو جعفر معنى ضللنا صرنا ترابا وعظاما فلم نتبين وهو يرجع إلى قول مجاهد ومعنى

صللنا بفتح اللام أنتنا وتغيرنا وتغيرت صورنا يقال صل اللحم وأصل إذا أنتن وتغير ويجوز أن يكون من الصلة وهي الأرض اليابسة ولا يعرف صللنا بكسر اللام

(29/611)

---

8 - وقوله جل وعز ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعما صالحا آية 12 في الكلام حذف والمعنى ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم لرأيت ما تعتبر به اعتباره شديدا والمعنى يقولون ربنا ثم حذف القول أيضا 9 - وقوله جل وعز ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها آية 13 أي لو شئنا لأريناهم آية تضطرهم إلى الإيمان كما قال تعالى إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين 10 - ثم قال جل وعز ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين آية 13 قال قتادة أي بذنوبهم

11 - وقوله جل وعز تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا آية 16 روى قتادة عن أنس قال يتيقظون بين العشاء والعتمة فيصلون وقال عطاء لا ينامون قبل العشاء حتى يصلوها وقال الحسن ومجاهد يصلون في جوف الليل

وكذلك قال مالك والأوزاعي

وهذا القول أشبهها لجهتين إحداهما أن أبا وائل روى عن معاذ بن جبل قال قال لي النبي صلى الله عليه وسلم ألا أدلك على أعمال الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى يعملون والجهة الأخرى أنه جل وعز قال فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين حدثنا محمد بن أحمد يعرف بالجريجي قال حدثنا محمد بن عبد الرحمن السلمي قال حدثنا عمرو بن عبد الوهاب قال حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن

(30/611)

النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ من قرات أعين فهذه بصلاة الليل أشبه لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفي روى أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال ربكم أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر اقرءوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون 306 – وقوله جل وعز أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا آية 18 روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال نزلت في رجلين من قريش إلى تمام الآيات الثلاث

وقال ابن أبي ليلى نزلت في علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ورجل من قريش وقيل

نزلت في علي عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي معيط فشهد الله جل وعز لعلي بن أبي طالب بالإيمان وأنه في الجنة 13 - فقال جل وعز أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى آية 19 وجاء على الجمع لأن الاثنين جماعة ويكون لجميع المؤمنين وإن كان سبب النزول مخصوصا لإبهام من

14 - وقوله جل وعز ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون آية 21 روى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود ولنذيقنهم من العذاب الأدنى قال يوم بدر لعلهم يرجون لعلى من تقى منهم يتوب وروى إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي الأحوص وأبي عبيدة عن عبد الله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى قال سنون أصابت قوما قبلكم وروى عكرمة عن ابن عباس ولنذيقنهم من العذاب الأدنى قال الحدود

وقال علقمة والحسن وأبو العالية والضحاك قالوا المصيبات في الدنيا وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال القتل والجوع لقريش في لدنيا دون العذاب الأكبر يوم القيامة في الآخرة وروى أبو يحيى عن مجاهد قال العذاب الأدنى عذاب القبر وعذاب الدنيا وروى الأعمش عن مجاهد قال المصيبات وهذه الأقوال ليست بمتناقضة وهي ترجع إلى أن معنى الأدنى ما كان قبل يوم القيامة

15 - وقوله جل وعز ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه آية 23 قيل الهاء للكتاب واسم موسى صلى الله عليه وسلم مضمر والمعنى الهاء لموسى وحذف الكتاب لأنه تقدم ذكره وهذا أولى والمعنى فلا تكن في شك من تلقي موسى الكتاب بالقبول ومخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة لجميع الناس ويجوز أن يكون المعنى قل لهذا الشاك ويجوز أن يكون المعنى فلا تكن في شك من تلقي هذا الخبر بالقبول

قال قتادة معنى ذلك فلا تكن في شك من أنك لقيته أو تلقاه ليلة أسري به

واختار هذا القول بعض أهل العلم لأن ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أريت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة الحديث فالتقدير على هذا فلا تكن في مرية من لقائه أنه قد رأى موسى ليلة أسري به وتأول وجعلناه بمعنى وجعلنا موسى هدى أي رشادا لبني إسرائيل يرشدون باتباعه ويصيبون الحق بالاقتداء به وقد روى سعيد عن قتادة وجعلناه هدى لبني إسرائيل قال جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل

16 - وقوله جل وعز أو لم نهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من آية 26 القرون أي أولم نبين لهم

17 - وقوله جل وعز أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز آية 27 قال مجاهد هي الأرض التي لا تنبت قال الضحاك هي الأرض التي لا نبات بها قال أبو جعفر الجرز في اللغة

الأرض اليابسة المحتاجة إلى

الماء التي ليس فيها نبات كأنها أكلت ما فيها ومنه قيل رجل جروز إذا كان أكولا

18 - وقوله جل وعز ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين آية 28 قال مجاهد هو يوم القيامة وقال قتادة الفتح القضاء وقال الفراء والقتبي فتح مكة قال أبو جعفر والقول الأول أولى لقوله تعالى قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم آية 29 وسمى فتحا لأن الله جل وعز يفتح فيه على المؤمنين

(32/611)

أو لأن القضاء فيه كما قال تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق أي اقض 19 - ثم قال جل وعز فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ثم نسخ هذا بالأمر بالقتال.

انتهت سورة السجدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿معاني القرآن / للنحاس حـ 5 صـ 297. 314﴾

(33/611)

وقال الفراء :

سورة (السجدة)

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . . . ﴾

يقول: أحسنه فجعله حَسَناً . ويقرأ (أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ) قرأها أبو جعفر المدنىّ كأنه قال: أَلهم خَلْقه كلّ ما يحتاجونَ إليه فالخلق ، منصوبون بالفعل الذى وقع على (كلّ) كأنك قلت أعْلمهم كل شىء وأحسنهم . وقد يكون الخلق منصوبا كما نُصب قوله ﴿ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ فى أشباه له كثيرة من القرآن ؛ كأنك قلت: كُلَّ شىء خَلْقاً منه وابتداء بالنعم .

﴿ وَقَالُواْ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ ضَلَلْنَا . . . ﴾

و ﴿ ضَلِلْنا ﴾ لغتان . وقد ذكر عن الحسن وغيره أَنه قرأ ﴿ إذا صَلِلنا ﴾ حتى لقد رُفعت إلى علىّ ﴿ صَلِلنا ﴾ بالصاد ولست أعرفها ، إلا أن تكون لغةً لم نسمعها إنما تقول العرب: قد صَلّ اللحمُ فهو يَصِلّ ، وأصَلّ يُصِلّ ، وخَمّ يَخِمّ وأخمّ يُخمّ . قال الفرّاء : لو كانت: صَلَلنا بفتح اللام لكان صوابا ، ولكنى لا أعرفها بالكسر .

والمعنى فى ﴿ إذا ضَلَلْنا فى الأَرْضِ ﴾ يقول: إذا صارت لحومنا وعظامنا تراباً كالأرض .

وأنت تقول: قد ضلّ الماءُ فى اللبن ، وضلَّ الشىءُ فى الشىءِ إذا أخفاه وغلبهُ .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً . . . ﴾

كان المنافقون إذا نودى بالصلاة فإنْ خَفُوا عن أعين المسْلمينَ تركوها ، فأنزل الله . ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ﴾ إذا نودوا إلى الصّلاة أتوها فركعُوا وسَجَدوا غير مستكبرين . .

(34/611)

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

وقوله: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ . . . ﴾

يقال: هو النوم قبل العِشاء . كانوا لا يضعون جُنوبهم بين المغرب والعِشاء حتى يُصلّوها .

ويقال: إنهم كانوا فى ليلهم كلّه ﴿ تَتَجَافَى ﴾ : تقلق ﴿ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ عن النوم فى الليل /ا كلّه ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ .

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ مَّآ أُخْفِيَ . . . ﴾

وكلّ ينصب بالياء ؛ لأنه فعل ماض ؛ كما تقول: أُهلِك الظالمون . وقرأها حمزة (مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) بإرسال الياء . وفى قراءة عبد الله (مَّآ نُخْفِي لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ فهذا اعتبار وقوّة لحمزة . وكلٌّ صواب . وإذا قلت ﴿ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ وجعلت (ما) فى مذهب (أى) كانت (ما) رفعاً بما لم تُسَمّ فاعله . ومن قرأ ﴿ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ بإرسال الياء وجعَل (ما) فى مذهب (أىّ) كانت نصباً فى ﴿ أُخْفِى ﴾ و ﴿ نُخْفِى ﴾ ومَن جعلها بمنزلة الشىء أوقع عليها (تَعْلَمُ) فكانت نَصْباً فى كلّ الوجوه . وقد قرئت (قُرَّاتِ أَعْيُن) ذُكرت عن أبى هريرة .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ . . . ﴾

ولم يقل: يستويان ؛ لأنها عامّ ، وإذا كان الأثنان غير مصمود لهما ذَهَبَا مذهب الجمع تقول فى الكلام: ما جعل الله المسلم كالكافر فلا تَسوِّيَنَّ بينهم ، وبينهما . وكلّ صواب .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى . . . ﴾

حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفرّاء قال: حدّثنى شَرِيك بن عبد الله عن منصور عن إبراهيم أو عن مجاهد - شكّ الفراء - فى قوله ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى ﴾ قال مَصائبُ تصيبهم فى الدنيا دون عذاب الله يوم القيامة.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ . . . ﴾

القراء جميعاً على ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ بتشديد الميم ونصب اللام. وهى فى قراءة عبد الله (بما صَبَروا) وقرأها الكسائىّ وحمزة (لِما صَبَروا) على ذلك. وموضع (ما) خَفْض إذا كسرت اللام. وإذا فتحت وشدّدت فلا موضع لها إنما هى إداة.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا . . . ﴾

(كَمْ) فى موضع رفع بـ (يَهْدِ) كأنكَ قلت: أوَلم تهد هم القرون الهالكة. وفى قراءة عبد الله فى سورة طه (أَوَلَمْ يَهد لهم مَنْ أهلكنا) وقد يكون (كَم) فى موضع نصب بأَهلكنا وفيه تأويل الرفع فيكون بمنزلة قولك: سواءٌ عَلىّ أزيداً ضربت أم عمراً، فترفع (سواء) بالتأويل.

وتقول: قد تبيّن لى أقام زيد أم عمرو، فتكون الجملة مرفوعة فى المعنى؛ كأنك قلت: تبيَّن

لى ذاك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ . . . ﴾

(36/611)

والجُرُز: التى لا نباتَ فيها : ويقال للناقة: إنها لجُرَاز إذا كانت تأكل كلّ شىء ، وللإنسان: إنه لَجَرُوز إذا كان أكولاً ، وسيف جُرَاز إذا كان لا يُبقى شيئاً إلاَّ قطعه . ويقالُ: أرض جُرُز وجُرْز ، وأرْض جَرَز وَجَرْزٌ ، لبنى تميم ، كلّ لو قرئ به لكان حَسَناً . وهو مثل البُخُل والبُخْل والبَخَل والبَخْل والرُعب والرهب والشغل فيه أربع مثل ذلك .

﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ . . . ﴾

يعنى فتح مكة ﴿ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ ﴾ فذكر ذلك لمن قتله خالد بن الوليد من بنى كنانة يومئذٍ ، قالوا: قد أسْلمنا ، فقال خالد : إن كنتم أسلمتم فضَعُوا السّلاح ففعلوا ، فلمَّا وضعوه أثْخَنَ فيهم ؛ لأنهم كانوا قتلوا عوفاً أبا عبدالرحمن بن عوف وجدّاً لخالدٍ قبل ذلكَ:

المغيرة. ولو رفع ﴿ يوم الفتح ﴾ عَلى أَوّل الكلام لأن قوله ﴿ مَتَى هذا الفتح ﴾ (مَتى) فى موضع رفع ووجهُ الكلام أن يكون ﴿ مَتَى ﴾ فى موضع نصب وهو أكثر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 330. 333 ﴾

(37/611)

وقال بيان الحق الغزنوى:

سورة الم السجدة

(أم يقولون) [3] فيه حذف، أي: فهل [يؤمنون] به أم [يقولون]. وقيل: معناه: بل [يقولون]. والأصح: أنها أم المنقطعة، تؤدي معنى واو العطف -ولذلك لا يكون إلا بعد كلام- وتؤدي معنى الاستفهام. كما قال الأعشى: 938- هريرة ودعها وإن لام لائم

غداة غد أم أنت للبين واجد

ثم أقام "الواو" عقيب هذا البيت مقام "أم" كما أقام "أم" مقام "الواو" في هذا البيت، فقال: 939- لقد كان في حول ثواء ثويته [تقضي] لبانات ويسأم سائم/. (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) [5] أي: من السماء العليا إلى الأرض الدنيا كلها يدبره. وقيل: معناه إنه يدبر الأمر في السماء، ثم ينزل بالأمر الملك إلى الأرض. (ثم يعرج إليه) أي: إلى الموضع الذي فيه

يثبت الأعمال والآجال . أو مكان الملك الذي أمره الله أن يقوم فيه . وقيل: إنه جبريل يصعد إلى السماء بعد نزوله بالوحي . (في يوم كان مقداره ألف سنة)

أي: الملائكة التي تصعد بأعمال العباد في يوم واحد [تصعد وتقطع] مسافة ألف سنة . وقيل: إن الله تعالى يقضي أمر العالم لألف سنة في يوم واحد ، ثم يلقيه إلى الملائكة ، وكذلك أبداً . واليوم عبارة عن الوقت ، لا عن وضح النهار ، قال سلامة [بن] جندل: 940- يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب . (أحسن كل شيء خلقه) [7] "خلق" بدل من "كل" ، وهو بدل الشيء من نفسه ، أي: أحسن خلق كل شيء . قال ابن عباس: حتى جعل الكلب في خلقه حسناً ، ولفظ الكسائي: أحسن ما خلق . وقول سيبويه: إنه مصدر من غير صدر ، أي: خلق كل شيء خلقه . [وعلى قراءة خلقه] الضمير في الهاء ، يجوز أن يعود إلى الفاعل وهو الله ، وإلى المفعول المخلوق . (أءذا ضللنا) [10] هلكنا وبطلنا . قال الأخطل: 941- كنت القذى في موج أكدر مزبد قذف الأتي به فضل ضلالا .

(38/611)

(لأتينا كل نفس هداها) [13] أي: هدايتها إلى طريق الجنة. وقيل: آتيناها الهدى إلجاءً. (تتجافى جنوبهم) [16] [تنبو وترتفع]. قال عبد الله بن رواحة: 942- وفينا رسول الله يتلو كتابه كما انشق معروف من الفجر ساطع 943- تراه يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين [الـ]مضاجع/

(من العذاب الأدنى) [21] مصائب الدنيا. قيل: عذاب قريش بالقحط سبع سنين.

(إلى الأرض الجرز) [27] اليابسة. وقيل: الأرض التي لا تسقى إلا بالسيول والأمطار.

[تمت سورة السجدة]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1115.1120 ﴾

(39/611)

وقال الأخفش:

سورة (السجدة)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

قال ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ بالياء يعني "ألم يُبَيِّن" وقال بعضهم ﴿ أَوَلَمْ نَهْدِ ﴾ أي: أَوَلَمْ نُبَيِّنْ لَهُم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معاني القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 479 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة السجدة

وهي مكية كلها إلا ثلاث آيات من قوله : أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً إلى قوله :

كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ «1»

5 - يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أي يقضي القضاء مِنَ السَّماءِ ، فينزله إِلَى الْأَرْضِ . ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ أي يصعد إليه فِي يَوْمٍ واحد كانَ مِقْدارُهُ أي مسافة نزوله وصعوده أَلْفَ سَنَةٍ يريد : نزول الملائكة وصعودها .

10 - وَقالُوا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ ؟ أي بطلنا وصرنا ترابا .

11 - قُلْ : يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ . هو من «توفّي العدد واستيفائه» . وأنشد ابو عبيدة :

إنّ بني الأدرم ليسوا من أحد ليسوا إلى قيس وليسوا من أسد

ولا توفّاهم قريش في العدد أي لا تجعلهم [قريش] وفاء لعددها . والوفاء : التّمام .

16 - تَتَجافى جُنُوبُهُمْ «2» أي ترتفع .

---

(1) من الآية 16 إلى الآية 20 مدينة . [. . . . .]

(2) أخرج الترمذي وصححه عن أنس أن آية تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى القمة.

(41/611)

---

26 - أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ أي يبيّن لهم.

27 - الْأَرْضِ الْجُرُزِ: الغليظة اليابسة التي لا نبت فيها.

وجمعها: «أجراز». ويقال: سنون أجراز، إذا كانت سني جدب.

28 - مَتى هذَا الْفَتْحُ؟ يعني: فتح مكة.

29 - قُلْ: يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ، وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ. يقال: «أراد قتل خالد بن الوليد - يوم فتح مكة - من قتل».

والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 296. 297﴾

(42/611)

وقال الغزنوى :

سورة السجدة

في الحديث «1» : أنّ النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم كان لا يأوي إلى فراشه حتى يقرأ تنزيل السجدة وتبارك الملك .

3 أَمْ يَقُولُونَ : فيه حذف ، أي : فهل يؤمنون به أم يقولون «2» ؟ أو معناه : بل يقولون «3» .

5 يُدَبِّرُ الْأَمْرَ : معناه يدبّر الأمر من السّماء ثم ينزل بالأمر الملك إلى الأرض «4» .

---

(1) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن : 184 عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه . وكذا الإمام أحمد في مسنده : 3/ 340 ، والإمام البخاري في الأدب المفرد : 414 ، والدارمي في سننه : 2/ 547 ، كتاب فضائل القرآن ، باب «في فضل سورة تنزيل السجدة وتبارك» والترمذي في سننه : 5/ 165 ، كتاب فضائل القرآن ، باب «ما جاء في فضل سورة الملك» ، والنسائي في عمل اليوم والليلة : 431 ، وابن السّني في عمل اليوم والليلة : 318 ، والحاكم في المستدرك : 2/ 412 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة السجدة» ، وقال : «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

(2) تفسير البغوي : 3/ 497 .

(3) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 130 ، وقال الزمخشري في الكشاف : 3/ 240 :

»

وهذا أسلوب صحيح محكم أثبت أولا أن تنزيله من رب العالمين ، وأن ذلك ما لا ريب فيه ، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله : أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ، لأن «أم» هي المنقطعة الكائنة بمعنى «بل» ، والهمزة إنكارا لقولهم وتعجيبا منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك . . . » .

وانظر هذا المعنى ل «أم» في كتاب حروف المعاني للزجاجي : 48 ، ورصف المباني : 179 ، والجنى الداني : 225 ، واللسان : 12/ 35 (أمم) .

(4) تفسير الماوردي : 3/ 291 ، وزاد المسير : 6/ 333 . [. . . . .]

(43/611)

ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ : إلى المكان الذي أمر أن يقوم فيه .

فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ : أي : الملائكة التي تصعد بأعمال العباد في يوم واحد ، تصعد وتقطع مسافة ألف سنة «1» ، أو اللّه يقضي أمر العالم لألف سنة في يوم واحد ثمّ

يلقيه إلى الملائكة «2» .

4 ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ : ب «ثمّ» صح معنى استولى على العرش بإحداثه «3» ، كقوله «4» : حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ حتى يصح معنى نَعْلَمَ ، أي : معنى الصفة بهذا .

7 أحسن كل شيء خلقه «5» : خلقه بدل من كُلَّ شَيْءٍ بدل الشيء من نفسه ، أي : أحسن خلق كل شيء حتى جعل الكلب في خلقه حسنا .

ولفظ الكسائي : أحسن ما خلق ، وقول/ سيبويه «6» : إنه مصدر من

---

(1) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 21/ 93 عن ابن زيد ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 292 ، والقرطبي في تفسيره : 14/ 87 عن ابن شجرة .

(2) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 292 عن مجاهد ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 334 ، والقرطبي في تفسيره : 14/ 87 .

وأخرج نحوه الطبري في تفسيره : (21/ 92 ، 93) عن مجاهد . ثم قال : «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : معناه : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه في يوم ، كان مقدار ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه ، ونزوله إلى الأرض ألف سنة مما تعدون من أيامكم ، خمسمائة في النزول ، وخمسمائة في الصعود ، لأن ذلك أظهر معانيه ، وأشبهها بظاهر التنزيل» اه .

(3) تقدم بيان مذهب السلف في الاستواء ، وأنه معلوم والكيف مجهول .

ينظر ص 79 .

(4) سورة محمد : آية : 31 .

(5) بإسكان اللام ، قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، وابن عامر .

السبعة لابن مجاهد : 516 ، والتبصرة لمكي : 296 ، وانظر توجيه هذه القراءة في

معاني الزجاج : 4/ 204 ، وحجة القراءات : 568 ، والكشف لمكي : 2/ 191 .

(6) ينظر قول سيبويه في إعراب القرآن للنحاس : 3/ 292 ، ومشكل إعراب القرآن

لمكي :

2/ 567 ، والبحر المحيط : 7/ 199 .

(44/611)

غير صدر أي : خلق كل شيء خلقه ، وعلى قراءة خلقه «1» الضمير في الهاء يجوز

للفاعل وهو اللّه ، وللمفعول [و هو] «2» المخلوق .

10 إِذا «3» ضَلَلْنا : هلكنا وبطلنا «4» ، وصللنا «5» : تغيّرنا أو يبسنا والصّلّة :

الأرض اليابسة «6» .

13 لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها : بالإيحاء «7» . أو إلى طريق الجنّة «8» .

16 تَتَجافى جُنُوبُهُمْ : تنبو وترتفع «9» . وعن أنس «10» : أنها نزلت فينا

---

(1) بفتح اللام ، قراءة عاصم ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي .

السبعة لابن مجاهد : 516 ، والتبصرة لمكي : 296 ، والتيسير للداني : 177 .

(2) ما بين معقوفين عن «ك» .

(3) هكذا في الأصل ، وهي قراءة ابن عامر كما في السبعة لابن مجاهد : 516 ، وقرأ الباقون :

أَإِذا ضَلَلْنا .

(4) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 346 ، وتفسير الطبري : 21/ 97 ، والمفردات للراغب :

298 ، وتفسير القرطبي : 14/ 91 .

(5) في الأصل : «وضللنا» بالضاد المعجمة ، والصواب بالصاد المهملة عن معاني الزجاج :

4/ 205 .

وهي قراءة شاذة نسبت إلى علي وابن عباس ، وأبان بن سعيد بن العاص ، والحسن ، والأعمش .

ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 331 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 293 ، والمحتسب

لابن جني : 2/ 173 ، والبحر المحيط : 7/ 200 .

(6) ينظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 205 ، والصحاح : 5/ 1744 ، واللسان : 11/ 384 (صلل) .

(7) في «ج» : بالإلجاء .

(8) ينظر تفسير الماوردي : 3/ 295 ، وتفسير القرطبي : 14/ 96 . [. . . . .]

(9) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 132 ، وغريب القرآن لليزيدي : 300 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 346 ، وتفسير الطبري : 21/ 99 ، واللسان : 14/ 148 (جفا) .

(10) أخرجه الواحدي في أسباب النزول : 404 ، وذكره البغوي في تفسيره : 3/ 500 ، بغير سند .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 546 ، وعزا إخراجه إلى ابن مردويه عن أنس رضي اللّه عنه .

معشر الأنصار ، كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء .

21 مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى : مصائب الدنيا «1» .

27 الْأَرْضِ الْجُرُزِ : اليابسة ، كأنها تأكل نباتها «2» . رجل جروز : لا يبقي من الزاد شيئا «3» .

23 وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ : أي : بعد الموت «4» . أو لقاء ربه «5» .

قال الحسن «6» : آتيناه الكتاب فلقي من قومه أذى ، فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ أذى مثله .

28 مَتى هذَا الْفَتْحُ : فتح الحكم بيننا وبينكم ، ويوم الفتح : يوم القيامة «7» .

30 إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ : الموت الذي يؤدي إلى ذلك ، أو سيأتيهم ذلك فكأنهم ينتظرونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 662. 665 ﴾

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (21/ 108 ، 109) عن ابن عباس ، وأبي بن كعب ، وأبي العالية ، والحسن ، والضحاك .

(2) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 4/ 211 .

وانظر هذا المعنى في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 133 ، وغريب القرآن لليزيدي : 300 ، وتفسير غريب القرآن : 347 ، والمفردات للراغب : 91 .

(3) معاني القرآن للفراء : 2/ 333 ، واللسان : 5/ 316 (جرز) .

(4) لم أقف على هذا القول ، وأورد الماوردي في تفسيره : 3/ 299 قولا لم ينسبه ، وهو : «فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى في القيامة وستلقاه فيها» .

وذكره - أيضا - القرطبي في تفسيره : 14/ 108 .

(5) أي من لقاء موسى عليه السلام لربه . وأخرج الطبراني في المعجم الكبير : 12/ 160 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في قوله : وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ ، قال : «جعل موسى هدى لبني إسرائيل ، وفي قوله : فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ قال : «لقاء موسى ربه عز وجل» .

وانظر تفسير الماوردي : 3/ 299 ، وزاد المسير : 6/ 343 ، وتفسير ابن كثير : 6/ 372 .

(6) ينظر قوله في تفسير الماوردي : 3/ 299 ، والمحرر الوجيز : (11/ 550 ، 551) ، وزاد المسير : 6/ 343 ، والبحر المحيط : 7/ 205 .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 116 عن مجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 557 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد أيضا .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة السجدة

عدد 25 و75 - 32

نزلت بمكة بعد سورة المؤمنين عدا الآيات ص 16 إلى 20 فإنهن نزلن بالمدينة .

وهي ثلاثون آية ، وثلاثمائة وثمانون كلمة ، وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفا ، وتسمى سورة المضاجع ، ومثلها في عدد الآي سورة تبارك وسورة الفجر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الم" 1 تقدم ما فيه والله أعلم بما فيه ، راجع أول سورة لقمان المارة ، وعلى أنه اسم للسورة يكون

مبتدأ خبره قوله تعالى "تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ" 2 لجميع العالمين المدركين "أَمْ" استفهام إنكار ، ويفيد الانتقال من كونه منزلا من الله بلا شك ولا شبهة إلى ما يتفوه فيه الكفرة مما حكى الله عنهم بقوله عز قوله "يَقُولُونَ افْتَراهُ" محمد من تلقاء نفسه واختلقه كلا "بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ" يا سيد الرسل لا يقدر أحد أن يبتدع مثله وقد أنزلنا عليك "لِتُنْذِرَ" به "قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ" هم قومك إذ لم ينذروا من قبل أحد بعد إسماعيل عليه السلام الذي اندرست شريعته وتفادم عهده ولم يترك لهم كتابا يرجعون إليه

من بعده ، راجع الآية 44 من سورة سبا المارة وأول سورة يس في ج 1 ، "لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ" 3 به .

مطلب في أهل الفترة من هم ، ونسبة أيام الآخرة لأيام الدنيا .

(47/611)

قال ابن عباس هذا في الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ولا حجة في هذه الآية على عدم عموم رسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلم أو أنها قاصرة على العرب لعدم وجود حجة القصر ، والآيات في التعميم كثيرة ، إلا أنه لما كانت الأمم غير العرب تتهافت عليها الرسل واحدا بعد واحد - كما مر في الآية 44 من سورة المؤمنين المارة - دون العرب ، قال تعالى (ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ) الآية ، ولأنهم أمّيون ولا كتاب لديهم يقتدون بما فيه من أمور دينهم ، بخلاف اليهود والنصارى فإنهما بعد انقطاع الرسل عنهم ملزمون باتباع شرائع من قبلهم ورسلهم الذين كانوا يدعونهم بمقتضاها ، إذ أن دعوتهم منحصرة بهم ، وقد جاء في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام (إني حقا أرسلت إلى بني إسرائيل) وفي نسخة (إلى خراف إسرائيل) فثبت من هذا أن العرب لم تدعهم إلى اللّه رسل بني إسرائيل ، ولما كان كل نبي تنقطع أحكام نبوته بعد موته إلا محمدا صلّى اللّه عليه وسلم لأنه

خاتم النبيين والمرسلين ورسالته عامة إلى الخلق كافة ، وكانت ذرية كل نبي ملزمة باتباع شريعته ، كان على قريش أن تلتزم شريعة إسماعيل عليه السلام كما كان أوائلهم متمسكين بها ، إلا أنه فشت فيهم عبادة الأوثان التي أحدثها عمرو الخزاعي وعكفوا عليها إلا ما ندر منهم كزيد بن عمرو بن نوفل العدوي والد سعيد أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وقد عاصر النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وقالوا إنه آمن به

قبل بعثته وقد مات إبان بناء الكعبة عام 25 من ولادته صلّى اللّه عليه وسلم الواقعة عام الفيل سنة 570 من ولادة عيسى عليه السلام ، وكان يعيب على قريش ذبحهم لغير اللّه ، وقس بن ساعدة الإيادي كان مؤمنا باللّه وعاصر حضرة الرسول أيضا ، وتوفي أوائل البعثة الشريفة ، وخالد ابن سنان العيسي كذلك كان مؤمنا .

(48/611)

وما قيل إنهم رحمهم اللّه كانوا أنبياء لا صحة له البتة ، أما ورقة بن نوفل فقيل إنه تنصر .

هذا ، ولا تعارض بين هذه الآية وآية فاطر 24 وهي (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) كما أوضحناه في تفسيرها ، فراجعها يتبين لك أنه خلا أول العرب أي سلف نذير فيهم وهو إسماعيل عليه السلام ، إلا أنه لم يرسل إليهم رسول بعده وبقوا طيلة هذه المدة العظيمة

مهملين دون رسول ولا كتاب ، بيد أن الأمم الأخرى تتابعت عليهم الرسل .

وقال بعض المفسرين إن (ما) هنا في هذه الآية اسم موصول ، وعليه يكون المعنى لتنذر قوما العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك ، يريد بهذا النذير إسماعيل ، وهو ليس بشيء ، لأن أكثرهم لا يعرفون أنه كان هناك نبي أم لا ، وما جرينا عليه بأن (ما) نافية أنسب بالمقام وأولى بالمعنى وأقوى حجة وبرهانا .

هذا وإذا علمت نفي مجيء رسول إليهم تعلم أنهم لم يؤاخذوا على عدم القيام بالشرائع ، لأنها لا تدرك إلا من قبل الرسول ولكنهم يؤاخذون بعدم معرفة اللّه وتوحيده ، لأن العقل السليم قد يوصل إلى ذلك من غير واسطة الرسل ، وقدمنا ما يتعلق في هذا في الآية 15 من سورة الإسراء في ج 1 فراجعها .

أما ما يتعلق في عموم رسالته فقدمناه أيضا في الآية 28 من سورة سبأ المارة .

قال تعالى "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ" هو المستحق للعبادة وحده ، راجع الآية 116 من سورة المؤمنين المارة وما ترشدك إليه تقف على معنى العرش وعظمته .

واعلموا أيها الناس أنكم "ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ" يلي أموركم وينصركم غيره "وَلا شَفِيعٍ" دون أمره ورضاه فزعمكم بشفاعة الأصنام باطلة "أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ" 4 بمواعظ اللّه وتتعظون بعبره وهو الذي "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" في الدنيا على وجه الحكمة والإتقان فينزله "مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ" مدة دوامها "ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ" ذلك الأمر كله ليحكم فيه وقت فصل القضاء بين الناس في الآخرة ، قال تعالى (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) الآية 4 من سورة المعارج الآتية .

واعلم أن هذه المسافة ما بين الأرض وسدرة المنتهى التي هي مقام جبريل عليه السلام .

قال ابن عباس لعبد اللّه بن فيروز حين سأله عن هذه الأيام : أيام سماها اللّه لا أدري ما هي وأكره أن أقول في كتاب اللّه ما لا أعلم .

وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية المذكورة إن شاء اللّه فراجعه "فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ" بالنسبة لتقدير أيامكم أيها الناس "أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ" 5 الآن وذلك أن مسافة ما بين الأرض وسماء الدنيا على ما جاءت به الآثار خمسمائة سنة ، فيكون صعوده ونزوله ألف سنة ، بحيث لو كانت هذه المسافة موجودة وسار عليها ابن آدم فلا يقطعها إلا بألف سنة .

هذا إذا كان العروج لسماء الدنيا فقط ، أما إذا كان لمحل صدور الأمر فهو أكثر بكثير كما سيأتي في الآية 4 المذكورة آنفا ، "ذلِكَ" الإله العظيم الذي صنع ما ذكر هو "عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ" أي ما غاب عن هذا الكون في الآخرة وما عاينوه في الدنيا "الْعَزِيزُ" الغالب أمره

كل شيء "الرَّحِيمُ" بأهل طاعته "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" في الدارين "وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ" آدم عليه السلام "مِنْ طِينٍ" 7 وقرأ بعضهم وبدى ، وعليه قول ابن رواحه :

(50/611)

باسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا

"ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ" نطفة سيّالة من الإنسان مكونة "مِنْ ماءٍ مَهِينٍ" 8 حقين ضعيف قليل "ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ" أي جعل فيه الشيء الذي اختص به تعالى ولذلك أضافه لنفسه المقدسة تشريفا له وإظهارا بأنه مخلوق كريم على ربه وإعلاما بأن له شأنا بنسبته إلى الحضرة الإلهية يؤيد هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه خلق آدم على صورته ، وفي رواية على صورة الرحمن .

وهذه الرواية الأخيرة لم تبق مجالا للتأويل والتفسير ، أما الأول فقد قال بعضهم إن الضمير يعود إلى آدم أي على صورته نفسه التي هو عليها وليس بشيء والنفخ على حقيقته ، وقدمنا ما يتعلق فيه في الآية 8 من سورة المؤمنين والآية 66 من سورة النحل المارتين ، وفيهما ما يرشدك إلى غيرها مما هو مشبع فيه بحثه .

واعلم

أن المباشر لهذا النفخ الملك الموكل بذلك ، والروح جسم لطيف كالهواء سار في البدن سريان الماء في العود وماء الورد بالورد والنار بالفحم ، وقد أقام العلامة ابن الجوزي على هذا مئة دليل تشهد لها ظواهر الأخبار ، ولذلك اخترته على غيره من أقوال كثيرة للفلاسفة وغيرهم ، وقد أوضحت ما يتعلق به في الآية 84 من سورة الإسراء في ج 1 فراجعه .

(51/611)

ثم ذكر جل ذكره ما يترتب على نفخ الروح في الجسد فقال "وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ" 9 اللّه على هذه النعم والحواس العظيمة والجوارح الكريمة التي هي من أبلغ قدرة اللّه تعالى في الإنسان وأكبرها نفعا له ، وقدم السمع لأن الإنسان يسمع أولا ثم ينظر إلى القائل ليعرفه ثم يتفكر بقلبه فيفهم معناه ، ولا خلاف في أن السمع أفضل من البصر لإمكان التفاهم مع الأعمى دون الأصم "وَقالُوا" الكفرة منكر والبعث "أَإِذا ضَلَلْنا" غيّبنا وصرنا ترابا مخلوطا بتراب الأرض ووضعنا فيها فلم يبق ما نتميز به عنها بأن تغلغلنا "فِي الْأَرْضِ" حتى كنا من ترابها ، قال النابغة يرثي النعمان :

وآب مضلوه بعين جليّة وغودر بالجولان حزم ونائل

"أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" بعد ذلك استفهام إنكار وتعجب مما يقول لهم حضرة الرسول انكم تحيون بعد موتكم هذا وتحاسبون على أعمالكم ، قال تعالى لا ترد عليهم يا حبيبي فتقول لهم نعم إنكم تخلقون ثانيا ، لأنهم ينكرون أكثر من ذلك "بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ" 10 جاحدون ، وهذا انتقال من بيان كفرهم بالبعث إلى ما هو أشد وأفظع وهو جحود مقابلة ربهم بالحساب والجزاء لأنهم لو صدقوا بالحياة الثانية لم يصدقوا بأنهم يعذبون ويثابون على ما وقع منهم من خير وشر ولم يصدقوا أن هناك نارا للكافر وجنة للمؤمن ، لأنهم ينكرون الحشر الذي هو أول مقدمات لقاء اللّه وهذه تضاهي الآية 33 من الأنعام المارة ، "قُلْ" لهم يا سيد الرسل بل قد "يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ" لقبض أرواحكم في الدنيا "ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ" بعد موتكم "تُرْجَعُونَ" 11 في الآخرة لا محالة ، وهذه رد لقولهم إنا لا نلاقي اللّه ولا نعود إليه وهو أبلغ

(52/611)

من إنكارهم البعث ، ولولا تحقق الرجعة إلى اللّه واليقين بإثابة المحسن وعقاب المسيء لما رأيت من يفعل الخير أبدا ولتوغل الناس في الشر ، لأن العامل يعمل رجاء الأجر وخوفا من العقاب .

أما العبادة فهي مستحقة للّه تعالى ، ولو لم يثب عليها ويخلق الجنة لفاعلها والنار لجاحدها لكان جديرا بأن يعبد ويوحد وينزه ويمجّد لذاته المقدسة ، إذ ينبغي أن تكون العبادة خالصة للّه استحقاقا لربوبيته .

قال تعالى "وَلَوْ تَرى " يا محمد في الموقف العظيم يوم الجزاء "إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ" حياء وندما على تفريطهم "عِنْدَ رَبِّهِمْ" يقولون يا "رَبَّنا أَبْصَرْنا" بأم أعيننا ما كنا نكذب به من الحياة بعد الموت "وَسَمِعْنا" الآن تصديق ما أخبرتنا به رسلك "فَارْجِعْنا" إلى الدنيا "نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ" 12 الآن بكل ما أتتنا به الأنبياء ، فيجيبهم أن لا مجال لإجابة هذا الطلب كما مر ، وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما هالك مرآه من أحوال الكافرين وما يحل بهم من أنواع العذاب .

قال تعالى "وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها" بأن وفّقناها في الدنيا للإيمان بما أردناه "وَلكِنْ" لم نشأ ذلك إذ "حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" 13 تأكيدا لعدم استثناء أحد من العصاة .

ونظير هذه الآية الآية 119 من سورة هود المارة ، ثم يقال لهم "فَذُوقُوا" العذاب الأليم "بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا" الذي جحدتموه في الدنيا "إِنَّا نَسِيناكُمْ" لا نلتفت إليكم أبدا فنجعلكم كالمنسيين وهو عبارة عن تركهم في العذاب لأن النسيان محال على اللّه فهو من باب المشاكلة على حد قوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) على قول بعض المفسرين .

ويقال لهم أيضا "وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ" الدائم الذي لا نهاية له "بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 14 من المعاصي وذلك بعد أن يطرحوا في النار تنفيذا لعهد اللّه ، لأن أمثالهم لا يؤمنون لسابق شقائهم "إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها" وتليت عليهم "خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ" في سجودهم ونزهوه عما يقول الكفرة "وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ" 15 عن الإيمان بها وتصديق من أنزلت عليه ولا يأنفون من وضع جباههم على الأرض بل ولا من تمريغ وجوههم في التراب إذلالا لأنفسهم واحتراما لخالقهم وخشوعا لهيبته وخضوعا لجلاله وتعظيما لربوبيته لسابق سعادتهم .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال :

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى ما يجد أحد مكانا لوضع جبهته في غير وقت الصلاة .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويلتا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي

النار .

وقدمنا في الآية 50 من سورة النحل ما يتعلق بالسجود فراجعه .

مطلب الآيات المدنيات ، وقيام الليل ، والحديث الجامع ، وأحاديث لها صلة بهذا البحث :

قال تعالى "تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ" الفرش وما بمعناها من كل ما يضطجع عليه "يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً" من عقابه "وَطَمَعاً" في ثوابه "وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ" 16 من فضول أموالهم على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل أداء لشكر ما أولاهم به من النعم وشفقة على عيال اللّه الذين أنعم عليهم بها من فضله وكرمه .

وهذا أول الآيات التي نزلت في الانتظار للصلاة بعد الصلاة .

(54/611)

وقال أنس : نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع حتى نصلي العشاء مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

وأخرج مسلم من حديث عثمان بن عفان : من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوها ولو حبوا .

والآية واردة في صلاة الليل بعد النوم ، لأن سياقها يدل على ذلك ، ولا تسمى صلاة الليل تهجدا إلا بعد النوم ، وهي كناية عن اشتغالهم بالعبادة وتركهم النوم المستفاد من قوله (تتجافى) أي تتباعد جنوبهم عن النوم .

ثم طفق جل شأنه يبين لعباده الذين هذا شأنهم ما لهم عنده من الثواب العظيم في الآخرة الذي يتنافس به المتنافسون بقوله جل قوله "فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ" وهم أولئك الكرام الذين مرت خصلتهم الحسنة التي يمجدها لهم ربهم .

والتنوين في

كلمة نفس يشعر بأنه لا يعلم أحد غيره من نبي مرسل أو ملك مقرب ما حيء لهؤلاء الكرام عنده في الآخرة جزاء تركهم النوم وانصبابهم لطاعة اللّه "مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ" أي شيء عظيم تطيب به أنفسهم وتنشرح به صدورهم "جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ 17" في دنياهم .

روي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : يقول اللّه تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس) الآية .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، فقلت لم تصنع هذا يا رسول اللّه وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا ؟ وهذا الحديث لم تسمعه عائشة عند نزول هذه الآيات ، إذ كان عمرها دون الست سنين عند نزولها ، لأنه كان قبل الهجرة بسنة تقريبا وهي تزوجت برسول اللّه بعد الهجرة في السنة الثانية منها ، وكان عمرها تسع سنين ، وهذا الحديث روته بعد ذلك وجيء به هنا للمناسبة ، وهكذا كثير من الأحاديث تذكر بمناسبة الآيات مع أنها قد تكون سمعت من حضرة الرسول قبل نزولها وقد يكون بعده .

وروى البخاري عن الهيثم بن سنان أنه سمع أبا هريرة في قصة يذكر فيها النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن أخا لكم لا يقول الرفث يعني بذلك ابن راوحة قال شعرا :

وفينا رسول اللّه يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات ما إذا قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وأخرج الترمذي عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه قال : كنت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في سفرة فأصبحت يوما قريبا منه ، فقلت يا رسول اللّه أخبرني بعمل يدخلني الجنة

ويباعدني عن النار ، قال سألت عن عظيم ، وإنه ليسير عمن يسره اللّه عليه ، تعبد اللّه ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ (تتجافى جنوبهم) حتى بلغ

(جزاء بما كانوا يعملون) ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟

قلت بلى يا رسول اللّه ، قال رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد .

(56/611)

ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت بلى يا رسول اللّه ، فأخذ بلسانه وقال اكفف عليك هذا ، فقلت يا رسول اللّه وإنا لمؤاخذون بما يتكلم ؟ فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم ، أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ .

وأخرج الترمذي عن أبي أمامه الباهلي عن رسول صلّى اللّه عليه وسلم قال : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم ، وتكفير للسيئات ، ومنهاة عن الآثام ، ومطردة الداء عن الجسد .

وعن ابن مسعود قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عجب ربنا من رجلين ، رجل ثار عن أوطائه ولحافه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته ، فيقول اللّه عز وجل لملائكته أنظروا إلى عبدي ثار من فراشه ووطائه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي ، ورجل غزا في سبيل اللّه وانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه ، فيقول اللّه تعالى أنظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي حتى أهريق دمه – أخرجه الترمذي – هذا ، واعلم أن الهيثم المار ذكره في الحديث الأول ليس له في الصحيحين عن أبي هريرة غير ذلك الحديث .

قال تعالى "أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ" 18 عند اللّه أبدا ، وهذا استفهام إنكاري ، أي لا يستوي المؤمن الموصوف بتلك الأوصاف الفاضلة مع الفاسق قط ، بل بينهما بون شاسع .

قالوا نزلت هذه الآية في سيدنا علي كرم اللّه وجهه حينما قال له الوليد بن عقبة بن أبي معيط أسكت فإنك صبيّ وأنا شيخ أبسط منك لسانا وأحدّ سنانا وأشجع جنانا وأملأ حشوا في الكتيبة ، فقال له أسكت فإنك فاسق .

(57/611)

وظاهر الآية العموم في كل مؤمن وفاسق لأنها واردة بمعرض ضرب المثل ولفظ التنكير يؤيد هذا المعنى الأخير ، "أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" في دنياهم "فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى" في أخراهم ، وهي نوع من الجنان تأوي إليها أرواح الشهداء "نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ" 19 من الخير فإذا كان هذا نزلهم فما بالك بما يكرمهم اللّه به بعد ، وهو المعطي العظيم الكريم ؟ ، راجع معنى النزل في الآية 710 من سورة الكهف المارة "وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا" وأما هنا واردة بمعرض التقسيم موضحة ما للفريقين بالآية قبلها ، أي وهذه الطائفة "فَمَأْواهُمُ النَّارُ" في الآخرة فتراهم والعياذ باللّه "كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها" لأنهم خالدون فيها ، كما أن الطائفة الأولى خالدون في الجنة "وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ" 20 في الدنيا ، وهذا آخر الآيات المدنيات ، ولا يوجد في القرآن آية بتأبيد الكافرين في النار إلا في موضعين هذه والآية 33 من سورة الجن في ج 1 هذا في القسم المكي وفي القسم المدني أيضا في موضعين في الآية 169 من سورة النساء وفي الآية 65 من سورة الأحزاب ج 3 .

قال تعالى "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى " في هذه الدنيا كالقحط والأسر والجلاء والخذلان والقتل وسائر المصائب فيها ، وفسر أبو عبيدة العذاب الأدنى هذا بعذاب القبر وحكي أيضا عن مجاهد ولكن آخر الآية ينفيه ويصرفه لما ذكرناه ، "دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ" الذي يوقعه فيكم يوم القيامة وهو الخلود بالنار "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" 21 عن غيهم وبغيهم ، أي لعل من سلم من تلك الآفات يرجع إلى الإيمان ، أما من أصيب فمات فلا يدخل في هذا الترجي فلو كان المراد بالعذاب الأدنى عذاب القبر لما وجد تلاقيه بالرجوع ليرجى لهم إذ لا رجوع بعده إلى الدنيا "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ" الدالة على أنه واحد وعلى صحة وقوع البعث والجزاء "ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها" فلم يتدبرها وأصر على شركه ، وثم هنا لاستبعاد الإعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وعليه قول جعفر بن علية الخارجي :

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

أي أن هذا لا أظلم منه فهو أظلم من كل ظالم إذ لا أكبر منه جرما "إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ" أمثاله المتوغلين في الإجرام "مُنْتَقِمُونَ" 22 منهم بالعذاب الأكبر لأنهم لم يتعظوا بما لاقوه من عذاب الدنيا "وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ" التوراة "فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ" إليه ولا تشك في إلقاء مثل ذلك الكتاب وجنسه إليك من قبلنا فكما ألقينا إلى موسى وعيسى وداود الكتب

ألقينا إليك هذا القرآن أيضا ، وإيتاء ذلك الجنس باعتبار إيتاء التوراة وإلقاء باعتبار إلقاء القرآن ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً) الآية 14 من سورة الإسراء ج 1 ، وقال بعض المفسرين : إن ضمير (لقائه) يعود إلى موسى على ما جرينا عليه أولا وهو أظهر ، ولكن الأكثر على الثاني أي بعوده إلى محمد كما ذكرناه ، ولهذا أثبتنا الوجهين .

وقال بعضهم ونسبه لابن عباس لا تشك من لقاء موسى ليلة المعراج بعود الضمير إلى موسى نفسه ، واستدل صاحب هذا القول بما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : رأيت ليلة أسري بي موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلا مربوعا مربوع الخلق إلى الحمرة وإلى البياض سبط الشعر ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال في آيات أراهنّ اللّه إياه ، فلا تكن في مرية من لقائه .

وروى مسلم عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : أتيت على موسى ليلة المعراج ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره .

وهذان الحديثان لا شك فيهما ، إلا أن الأخذ فيهما يوجب عود الضمير إلى غير مذكور وهو لا يجوز إلا في المتعارف المشهور من المقام والسياق ، وهنا ليس كذلك ، وعليه فإن عوده إلى الكتاب أنسب وأقرب ، يؤيده قوله تعالى "وَجَعَلْناهُ" ذلك الكتاب الذي طلبنا عدم الشك منك في لقائه لأخيك موسى "هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ" 23 كما جعلنا كتابك هدى للخلق كافه "وَجَعَلْنا مِنْهُمْ" أي بني إسرائيل "أَئِمَّةً" أنبياء يقتدى بهم "يَهْدُونَ" الناس "بِأَمْرِنا" إياهم بذلك فيدعونهم إلى ما فيها من دين اللّه وشريعته "لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا" أولئك الأئمة "بِآياتِنا يُوقِنُونَ" 24 أنها من عند اللّه إيقانا لا مرية فيه ، ويا خاتم الرسل "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ" بين الأنبياء وأممهم وبين المؤمنين والكافرين وبين الظالمين والمظلومين "يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" 25 في الدنيا بالأمور الدينية والدنيوية ، وإذ ذاك يظهر المحق من المبطل .

قال تعالى "أَ وَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ" وقرىء بالنون أي يبين أو نبين والفاعل على كلا الحالين يعود إلى اللّه "كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ"

الخالية وهم الآن "يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ" عند ذهابهم وإيابهم في أسفارهم ولم يعتبروا ويتعظوا "إِنَّ فِي ذلِكَ" أي إهلاك الأمم السالفة وجعل أمتك يمرحون في منازلهم "لَآياتٍ" كافيات للاتعاظ "أَ فَلا يَسْمَعُونَ" 26 هذه الآيات وما جرى على أسلافهم فينتبهون من

غفلتهم وينتهون عن كفرهم .

قال تعالى "أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ" اليابسة ذات النبات اليابس المجروز المأكول ، والجرز هو القطع أي الأرض المقطوع عنها الماء أو المقطوع نباتها لعدمه .

(61/611)

واعلم أنه لا يقال للأرض السبخة التي لا تنبت جرز لأن اللّه تعالى قال "فَنُخْرِجُ بِهِ" أي الماء الذي سقناه إليها "زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ" من عشه وتبنه "وَأَنْفُسُهُمْ" من حبه وثمره "أَ فَلا يُبْصِرُونَ" 27 ذلك فيستدلون به على كمال قدرة اللّه وإحيائهم بعد موتهم كما تحيا الأرض بعد موتها ، أفلا يعتبرون بذلك ؟ والأرض السبخة لا تنبت بالطبع ولو أنزل إليها الماء إلا بعد حين بأن تتغير عما هي عليه ، وإنما قدّم الأنعام على البشر لأن أول الزرع يصلح لها ، ولأنه غذاؤها ، والبشر قد يكتفي بغيره .

هذا وبعد أن ذكر الرسالة والتوحيد أتبعها بذكر الحشر فقال "وَيَقُولُونَ" مع ذلك كله كأن لم ينزل عليهم شيء ولم يحذرهم أحد أبدا مستفهمين استفهام استهزاء وسخرية "مَتى هذَا الْفَتْحُ" الحكم والقضاء الذي توعدنا به يا محمد أنت وأصحابك "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 28 بقولكم ووعدكم ، والفتح بلغة القرآن الفصل والحكم ، قال تعالى (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا

بِالْحَقِّ) الآية 89 من الأعراف ج 1 ، راجع الآية 15 من سورة إبراهيم المارة ، والعرب تسمي القاضي فاتحا ، فأنزل اللّه تعالى جوابا لهم "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء الهازئين الساخرين إذا جاء "يَوْمَ الْفَتْحِ" القضاء بين الناس يود الذين كفروا أن يؤمنوا ولكن "لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ" لفوات وقته ولو آمنوا لا يقبل منهم "وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ" 29 ليعتذروا إذ يأتيهم بغتة على حين غفلة في وقت لا توبة ولا إمهال فيه "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ" يا حبيبي "وَانْتَظِرْ" موعد نصرك عليهم وإهلاكهم كما "إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ" 30 نزول حوادث الزمن فيك وليسوا بمبصرين ذلك .

هذا وما قيل إن هذه الآية

منسوخة قيل لا وجه له ، لأنها ختمت بما يدل على التهديد والوعيد وبدئت بما يدل على الإعراض في مناظرتهم ، فلا يتعين فيها النسخ .

وما قيل إن يوم الفتح هو يوم بدر أو يوم فتح مكة لا يتجه أيضا ، لأن الإيمان فيهما مقبول والإمهال موجود ، وقد نفى اللّه هذين فيه ، فتعين أنه يوم القيامة يوم الجزاء الذي لا يقبل فيه شيء من ذلك ولا غيره .

ولا يوجد في القرآن سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقرأ في الفجر يوم الجمعة (ألم تنزيل الكتاب) و(هل أتى على الإنسان) .

وأخرج الترمذي عن جابر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ (ألم تنزيل الكتاب) و(تبارك الذي بيده الملك) .

وأخرج الترمذي عن طاوس قال : تفضلان عن كل سورة في القرآن سبعين حسنة .

وأخرج بن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من قرأ (تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) و(الم تَنْزِيلُ) السجدة بين المغرب والعشاء الأخيرة ، فكأنما قام ليلة القدر .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق من طريق حاتم بن محمد عن طاوس أنه قال : ما على الأرض رجل يقرأ الم السجدة وتبارك الذي بيده الملك في ليلة إلا كتب له مثل أجر ليلة القدر .

وجاء فيما أخرجه أبو عبيد وغيره أنها تأتي يوم القيامة لها جناحان تدافع عن قارئها ، وتقول لا سبيل عليه .

والأخبار بفضلها كثيرة ، وكذلك في فضل تبارك .

واللّه أعلم وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا

محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 369. 381 ﴾

(63/611)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة السجدة

مكية

ألم تقدم الكلام عليه تنزيل الكتاب يعلم حكمه مما مر ثم أم يقولون افتراه كاف وكذا من ربك ومن قبلك يهتدون تام على العرش حسن وقال أبو عمرو وكاف ولا شفيع كاف أفلا تتذكرون حسن إلى الأرض صالح مما تعدون حسن خلقه كاف وكذا من روحه والأفئدة تشكرون حسن جديد كاف كافرون تام ترجعون حسن عند ربهم كاف ويبتدأ ربنا أي يقولون ربنا يوقنون كاف هداها جائز ولا أحب تعمده أجمعين كاف وكذا يومكم هذا إن انا نسيناكم أكفى تعملون حسن وكذا الا يتكبرون عن المضاجع كاف إن جعل يدعون ربهم مستأنفا وليس بوقف إن جعل حالا وطمعا كاف ينفقون حسن من قرة أعين صالح يعملون

تام لا يستوون حسن وقال أبو عمرو كاف المأوى صالح يعملون كاف النار صالح تكذبون حسن يرجعون تام ثم أعرض عنها كاف منتقمون تام من لقائه لبني إسرائيل أكفى منه يوقنون حسن يختلفون تام في مساكنهم حسن وقال أبو عمرو كاف يسمعون تام وأنفسهم كاف وكذا أفلا تبصرون صادقين حسن ينظرون كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 612.609 ﴾

(64/611)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة السجدة

مكية قال ابن عباس إلاَّ ثلاث آيات نزلت بالمدينة في عليّ بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان لأمه وكان بينهما كلام فقال الوليد لعليّ أنا أبسط منك كلاماً وأحدّ منك سناناً وأشجع منك جناناً وأرد منك للكتيبة فقال عليّ اسكت فإنَّك فاسق فأنزل الله فيهما أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون إلى آخر الثلاث آيات كلمها ثلاثمائة وثمانون كلمة وحروفها ألف وخمسمائة وثمانية وعشرون حرفاً وآيها تسع وعشرون أو ثلاثون آية في المدني الأوَّل كسورة المُلك ونوح

الم (تام) إن جعل تنزيل مبتدأ خبره لا ريب فيه وكذا إن جعل ألم مبتدأ محذوف الخبر أو خبر مبتدأ محذوف أو قدرت قبله فعلاً وليس ألم وقفاً إن جعل مبتدأ خبره تنزيل وكذا إن جعل ألم قسماً

لا ريب فيه ليس بوقف

العالمين (كاف) لأنَّ أم بمعنى همزة الاستفهام أي أيقولون افتراه

والوقف على افتراه (كاف) فصلاً بين ما حكى عنهم وما حكى عن الله تعالى

الحق من ربك ليس بوقف لأنَّ اللام التي بعده متعلقة بما قبلها وإن علقت بتنزيل لا يوقف على شيء من أوّل السورة إلى يهتدون لاتصال الكلام بعضه ببعض

يهتدون (تام)

على العرش (حسن)

ولا شفيع (كاف)

تتذكرون (أكفى) على استئناف ما بعده ووقف الأخفش على يدبر الأمر وأباه غيره

إلى الأرض (جائز)

مما تعدون (كاف)

ذلك عالم الغيب العامة على رفع عالم مبتدأ والعزيز الرحيم خبر إن أو نعتان أو العزيز مبتدأ والرحيم صفته والذي أحسن خبره أو العزيز خبر مبتدأ محذوف

والشهادة (حسن) إن رفع العزيز خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن عطف على ما قبله الرحيم (كاف) إن جعل ما بعده في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل في موضع رفع نعتاً لما قبله أو جرّ الثلاثة بدلاً من الضمير في إليه وبها قرأ زيد بن علي رضي الله عنهما كأنَّه قال ثم يعرج الأمر المدبر إليه عالم الغيب أي إلى عالم الغيب قاله السمين

(65/611)

خلقه (كاف) على القراءتين أي خلقه وخلقه قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بسكون اللام والباقون بفتحها فعلاً ماضياً وليس بوقف لمن قرأ خلقه بسكون اللام والرفع فعلى هذه القراءة يوقف على كل شيء ثم يبتدأ خلقه أي ذلك خلقه

وبدأ خلق الإنسان من طين (جائز) ومثله مهين

من روحه (كاف) ومثله والأفئدة

تشكرون (تام)

جديد (كاف)

كافرون (تام)

وكل بكم (جائز)

ترجعون (تام) قرأ العامة ترجعون ببنائه للمفعول وقرأ زيد بن عليّ ببنائه للفاعل

عند ربهم (حسن) ثم يبتدأ ربنا أبصرنا أي يقولون ربنا

موقنون (تام)

هداها ليس بوقف لتعلق ما بعده به استدراكاً

أجمعين (كاف)

يومكم هذا (كاف)

نسيناكم (أكفى) مما قبله

تعملون (تام)

لا يستكبرون (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً مما قبله وكان

الوقف على المضاجع

وطمعاً (حسن)

ينفقون (كاف)

من قرة أعين (جائز) ونصب جزاء على المصدر أي يجزون جزاء وقال الخليل وسيبويه

نصب على أنَّه مفعول من أجله والمعنى واحد وإن كان كذلك فما قبله بمنزلة العامل فيه فلا

يوقف على ما قبله قرأ حمزة أخفى فعلاً مضارعاً مسنداً لضمير المتكلم ولذلك سكنت

ياؤه وقرأ الباقون أخفى فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ولذلك فتحت ياؤه

من قرة بيان لما أبهم في ماء

يعملون (تام)

فاسقاً (جائز) لانتهاء الاستفهام روي أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعمد الوقوف على فاسقاً ثم يبتدئ لا يستوون وإن كان التمام على لا يستوون لأنَّه لما استفهم منكراً بقوله أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً نفى التسوية ثم أكد النفي بقوله لا يستوون

ولا يستوون قال الهمداني شبه التام وقال أبو عمرو (كاف)

المأوى (جائز)

يعملون (تام)

النار (جائز) ولا وقف من قوله كلما أرادوا إلى تكذبون فلا يوقف على فيها

تكذبون (كاف)

يرجعون (تام)

ثم أعرض عنها (كاف)

منتقمون (تام)

من لقائه (حسن)

لبني إسرائيل (أحسن) مما قبله

لما صبروا (كاف) على القراءتين أعني قراءة لما صبروا بكسر اللام وفتحها فقرأ العامة لما صبروا بفتح اللام وتشديد الميم جوابها متقدم عليها وهو جعلناه هدى وقيل ليس بوقف على قراءة الإخوان لما بكسر اللام وتخفيف الميم على أَنَّها لام العلة وما مصدرية والجار متعلق بالجعل أي جعلناهم كذلك لصبرهم وإيقانهم ومن شدّد لما لا يمكنه العطف لأنَّ يقينهم لا يختص بحال دون حال والصبر قد يتبدل بالشكر وهو فيهما موقن قاله السجاوندي وهو توجيه حسن

يوقنون (تام) ومثله يختلفون

في مساكنهم (كاف) ومثله لآيات على استئناف ما بعده

يسمعون (تام)

وأنفسهم (كاف)

يبصرون (تام)

صادقين (تام)

إيمانهم (جائز)

ينظرون (تام)

فأعرض عنهم (جائز) ومثله وانتظر ولا يجمع بينهما

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 612.609 ﴾

(67/611)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الزهري : "وَبَدَا خَلْقَ الْإِنْسَانِ" 1 ، بغير همز .

قال أبو الفتح : ترك الهمز في هذا عندنا على البدل ، لا على التخفيف القياسي ، ومثله بيت الكتاب :

رَاحَتْ بِمَسلَمَةَ البِغَالَ عَشِيَةً فَارْعَى فَزَارَةُ لا هَنَاكِ الْمَرْتَعُ 2

ولو كان تخفيفا قياسيا لجعل الهمزة 3 بين بين ، فقال : "بدا" ، ولو أسندت الفعل 4 إلى نفسك على التخفيف القياسي قلت : "126ظ" بَدَاتُ ، بألف لا همز في لفظها ، وعلى البدل : بَدَيتُ ، كما حكي عنهم : قريتُ ، وأخطيتُ . وقد مضى ذلك 5 .

ومن ذلك قراءة علي وابن عباس رضي الله عنهما وأبان بن سعيد بن العاص6 والحسن بخلاف : "صَلِلْنَا7" ، بالصاد ، مكسورة اللام .

---

1 سورة السجدة : 7 .

2 البيت للفرزدق ، يقوله حين عُزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق ووليها عمر بن هبيرة الفزاري ، فهجا الفرزدق قومه ، ودعا عليهم ألا يهنئوا النعمة بولايته . وأراد بغال البريد التي قدمت بمسلمة عند عزله . وارعى : من رعت الماشية ، وإذا سرحت بنفسها على المرعى . وفزارة : أبو قبيلة من غطفان . وقوله : ارعى فزارة لا هناك المرتع ، قد صار مثلا ، يضرب لمن يصيب شيئًا ينفس به عليه . وانظر الكتاب : 2 : 170 ، وشواهد الشافية : 338 .

3 سقط في ك : "لجعل الهمزة" .

4 في ك : ولو أسندت إلى نفسك .

5 انظر الصفحة 67 من الجزء الأول .

6 هو أبان بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ، كان أبوه من أكابر قريش ، وله أولاد نجباء ، أسلم منهم خالد وعمرو ، ولأبان صحبة . انظر الإصابة : 1 : 23 .

7 سورة السجدة : 10 .

وقرأ أيضا بالصاد مفتوحة اللام الحسن ، بخلاف .

قال أبو الفتح : صَلَّ اللحمُ يَصِلُّ : إذا أنتنَ . وصَلَّ أيضا يَصَلُّ - بفتح الصاد - والكسر في المضارع أقوى اللغتين . والمعنى : إذا دُفِنّا في الأرض ، وصلت أجسامنا ، يقال : صل اللحم وأصل صلولا وصلالا ، قال :

هُو الفَتَى كُلُّ الفَتَى فاعلمي لا يفسِدُ اللحمَّ لديهِ الصلُولُ1

وقال زهير :

تُلَجلِجُ مضغةً فيها أبيض أصلتْ فهي تحتَ الكشْحِ داءُ2

ومن ذلك قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وأبي هريرة وأبي الدرداء وابن مسعود وعون العقيلي3 "قُرَّات أَعْيُنٍ"4 .

قال أبو الفتح : القرة المصدر ، وكان قياسه ألا يجمع ؛ لأن المصدر اسم جنس ، والأجناس أبعد شيء عن الجمعية لاستحالة المعنى في ذلك ، لكن جعلت القرة هنا نوعا . فجاز جمعها كما تقول : نحن في أشغال ، وبيننا حروب ، وهناك أحزان وأمراض . وحسَّن لفظ الجمع هنا أيضا إضافة "القرات" إلى لفظ الجماعة ، أعني "الأعين" . فقولنا إذاً : أشغال

القوم أشبه لفظا من أشغال زيد ، وكلاهما صحيح ، غير أن فيه ما ذكرته . وليس ينبغي أن يحتقر في هذه اللغة الشريفة تجانس الألفاظ ؛ فإن أكثرها دائر عليه في أكثر الوقت .

---

1 البيت للحطيئة ، وروي الشطر الأول .

ذاك فتًى يبذُلُ ذا قدره

انظر اللسان "صلى" .

2 من قصيدة في هجاء بني عليم ، وكان نزل فيهم رجل من بني عبد الله بن غطفان فأكرموه وأحسنوا جوراه ، وكان رجلا مولعا بالقمار : فنهوه عنه فأبى ، فقمر مرة ، فردوا عليه ، ثم قمر أخرى فردوا عليه ، ثم قمر الثالثة فلم يردوا عليه ، فرحل عنهم وشكا إلى زهير ، فهجاهم .

والأنيض : اللحم الذي لم ينضج . يقول : أخذت هذا المال كما يلجلج الرجل المضغة فلا يبتعلها ولا يلقيها ، فإن حبسته فقد انطويت على داء . وانظر الديوان : 82 وما بعدها .

3 كان له اختيار في القراءة ، أخذ القراءة عرضا على نصر بن عاصم ، وروى القراءة عنه المعلى .

4 سورة السجدة : 17 .

ومن ذلك قراءة ابن السميفع : "يُمَشُّونَ فِي مَسَاكِنِهِم" 1 ، وقرأ أيضا : "إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُون" 2 .

قال أبو الفتح : دفع أبو حاتم هذه القراءة بالفتح ، واعتزم الكسر ، واستدل على ذلك بقوله

﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُون ﴾ 3 .

و "يُمَشُّون" للكثرة ، قال :

يُمَشِّي بيننا حانوتُ خَمْرٍ من الخُرْسِ الصراصرة القِطاط 4 . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 171.174 ﴾

---

1 سورة السجدة : 26 .

2 سورة السجدة : 30 .

3 سورة الدخان : 59 .

4 انظر الصفحة 120 من الجزء الأول .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة السجدة

مكية قيل إلا خمس آيات تتجافى إلى يكذبون وقيل إلا ثلاثا أفمن كان مؤمنا وآيها تسع وعشرون بصري وثلاثون في الباقي خلافها ثنتان ألم كوفي جديد حجازي وشامي مشبه الفاصلة ثلاثة طين يستوون إسرائيل القراآت تقدم سكت أبي جعفر على ( ) الم ( ) كمد ( ) لا ريب (وسطا لحمزة بخلفه وأمال ﴿ أتيهم ﴾ و (استوى) حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه (وسهل) الهمزة الأولى كالياء من ( ) السماء إلى ( ) قالون والبزي مع المد والقصر وسهل الثانية كالياء أيضا الأصبهاني وأبو جعفر ورويس بخلفه وهو أحد وجهي الأزرق والثاني له من إبدالها ياء ساكنة بلا إشباع لتحرك ما بعدها وهما لقنبل وله ثالث إسقاط الأولى كأبي عمرو ورويس في وجهه الثاني والباقون بتحقيقهما وعن الحسن والمطوعي ﴿ مما يعدون ﴾ بالياء من تحت

واختلف في (خلقه) الآية 7 فنافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح اللام فعلا ماضيا موضعه نصب صفة كل أو جر صفة شيء وافقهم الحسن والأعمش والباقون بسكونها بدل من كل بدل اشتمال أي أحسن خلق كل شيء فالضمير في خلقه يعود على كل وقيل يعود على الله فيكون حينئذ منصوبا نصب المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله كقوله تعالى صنع الله أي خلقه خلقا وهو قول سيبويه ورجح بأنه أبلغ في الامتنان لأنه إذا قيل

أحسن كل شيء كان أبلغ من أحسن خلق كل شيء لأنه قد يحسن الخلق ولا يكون الشيء في نفسه حسنا ومعنى أحسن حسن إذ ما من خلق إلا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة فالكل حسن وإن تفاوتت فيه الأفراد

(71/611)

وقرأ) أئذا ( ) أئنا (الآية 10 بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني نافع والكسائي ويعقوب وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وكل مستفهم على أصله فقالون وأبو عمرو وأبو جعفر بالتسهيل مع الفصل وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل بلا فصل والباقون بالتخفيف بلا فصل غير أن أكثر الطرق عن هشام على الفصل كما مر وناصب الظرف محذوف أي انبعث إذا ضللنا ومن قرأ إذا بالخبر فجواب إذا محذوف أي إذا ضللنا نبعث ويكون إخبارا منهم على طريق الاستهزاء وكذا من قرأ إنا على طريق الخبر وعن الحسن ﴿ صللنا) ﴾ بصاد مهملة أي صرنا بين الصلة وهي الأرض الصلبة

وأمال ﴿ يتوفيكم ﴾ و (تتجافى) حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه وقرأ) ترجعون ( ) بالبناء للفاعل يعقوب

وقرأ الأصبهاني (لأملأن) الآية 13 بتسهيل الهمزة الثانية كوقف حمزة مع تحقيق الأولى وتسهيلها

(72/611)

واختلف في (أخفي) الآية 17 فحمزة ويعقوب بإسكان الياء فعلا مضارعا مسندا لضمير المتكلم مرفوعا تقديرا ولذا سكنت ياؤه وعن ابن محيصن والأعمش بفتح الهمزة والفاء ماضيا مبنيا للفاعل وأبدل التاء ألفا ابن محيصن والشنبوذي عن الأعمش وسكنها المطوعي عنه وزاد بعدها تاء المتكلم فصارت أخفيت والباقون بضم الهمزة وكسر الفاء وفتح الياء مبنيا للمفعول وعن الأعمش من (قرأت) جمعا بالألف والتاء وأبدل همز (المأوى) الأصبهاني وأبو عمرو بخلفه وأبو جعفر كحمزة وقفا وأماله حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومر إشمام قيل قريبا لهشام والكسائي ورويس وقرأ ( ) إسرائيل ( ) بالتسهيل أبو جعفر مع المد والقصر وثلث همزة الأزرق بخلفه ومر ذلك كوقف حمزة عليه وسهل الثانية من أئمة مع القصر قالون والأزرق وابن كثير وأبو عمرو ورويس وسهله مع المد الأصبهاني وأبو جعفر واختلف في كيفية التسهيل فقيل بين بين وقيل هو الإبدال ياء مكسورة ولا يجوز الفصل بالألف حالة الإبدال عن أحد كما مر مفصلا

والباقون بالتحقيق والقصر بخلف عن هشام في المد

واختلف في) لما صبروا ( ) الآية 24 فحمزة والكسائي ورويس بكسر اللام وتخفيف الميم على أنها جارة معللة متعلقة بجعل وما مصدرية أي جعلناهم أئمة هادين لصبرهم وافقهم والأعمش والباقون بفتح اللام وتشديد الميم كلمة واحدة تضمنت معنى المجازاة وهي التي تقتضي جوابا أي لما صبروا جعلناهم الخ أو ظرفية أي جعلناهم أئمة حين صبروا وسهل الثانية كالياء من الماء إلى نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وأمال متى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه وكذا أبو عمرو من روايتيه جميعا كما نقله في النشر عن ابن شريح ومن معه وأقره وإن قصر الخلاف في الطيبة على الدوري فقط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 450.449 ﴾

(73/611)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة السجدة "

" الم " فيه ، افتراه ، لتنذر ، يدبر ، لا يخفى .

" السماء إلى " قرأ قالون والبزي بتسهيل الأولى مع المد والقصر وعلى المد يكون لقالون في

المد المنفصل وهو مقداره ألف المد والقصر وعلى القصر يكون له في المنفصل ، القصر فقط أما البزي فله قصر المنفصل فقط على وجهي السماء إلى وقرأ البصري بإسقاط الأولى مع القصر والمد وعلى المد يكون للدوري مد المنفصل وقصره وعلى القصر القصر فقط أما السوسي فله قصر المنفصل على وجهي السماء إلى قرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية ولورش وقنبل إبدالها حرف مد مع القصر .

"كل شيء خلقه " لا يخفى ما فيه لورش حمزة وهشام وأبي جعفر وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام والباقون بإسكانها .

" أئذا ضللنا ، أئنا " قرأ نافع ويعقوب والكسائي بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني . وقرأ الشامي وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وكل على أصله في الهمزتين وقد سبق بيان مذاهبهم فيها مرارا ولا تنس أن هشاما هنا ليس له إلا الإدخال مع التحقيق .

"كافرون " رقق الراء ورش وهو آخر الربع .

الممال

" الوثقى والدنيا " بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . افتراه بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، النهار وصبار وختار بالإمالة للبصري والدوري وبالتقليل لورش ، مسمى لدى الوقف ونجاهم وآتاهم واستوى وسواه بالإمالة للأصحاب

والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " إن الله هو ، بأن الله هو ، وأن الله هو ، ويعلم ما ، جعل لكم ، ولا إدغام في يحزنك كفره كما قال الشاطبي : وقد أظهروا في كاف يحزنك كفره إلخ .

" ترجعون " لا يخفى ما فيه ليعقوب .

" رءوسهم " شئنا ، ذكروا ، يستكبرون ، وقيل ، أظلم ، ذكر ، إسرائيل ، تأكل ، منه يبصرون ، كله واضح .

" لأملأن " لحمزة وقفا التسهيل قولا واحدا في الهمزة الثانية والتحقيق والتسهيل في الأولى .

(74/611)

" أخفى " قرأ حمزة ويعقوب بإسكان الياء والباقون بفتحها ولا خلاف بينهم في ضم الهمزة وكسر الفاء .

" أئمة " سبق حكمها قريبا في القصص .

" لما صبروا " قرأ الأخوان ورويس بكسر اللام وتخفيف الميم والباقون بفتح اللام وتشديد الميم .

" الماء إلى " سهل الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون

" منتظرون " رقق الراء ورش وهو آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" يتوفاكم " وهداها وتتجافي والمأوى وفمأواهم والأدنى وهدى لدى الوقف ومتى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . ترى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش ؛ موسى لدى الوقف بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . الناس لدوري البصري ، النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " المجرمون ناكسوا ، جهنم من ، وقيل لهم ، الأكبر لعلهم ، أظلم ممن ، وجعلناه هدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 257 . 258 ﴾

(75/611)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة السجدة

قوله تعالى ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾

يقرأ بإسكان اللام وفتحها فالحجة لمن أسكن أنه أراد الذي جعل عباده يحسنون خلق كل شيء ويحتمل أن يكون أراد المصدر فكأنه قال الذي أحسن كل شيء خلقا وابتداء والحجة لمن فتح أنه أراد الفعل الماضي والهاء المتصلة به في موضع نصب لأنها كناية عن مفعول به ومعناه أنه أحسن خلق كلا شيء خلقه فكونه على إرادته ومشيئته فله في كلا شيء صنعة حسنة تدل بآثارها على وحدانيته وحكمته ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾ وعليها الحسن والقبيح

قوله تعالى ﴿ أئذا ضللنا في الأرض أئنا ﴾ يقرا بالاستفهام والإخبار وقد تقدم ذكره

قوله تعالى ﴿ ما أخفي لهم ﴾ أجمع القراء على فتح الياء إلا حمزة فإنه أسكنها فالحجة لمن فتح أنه جعلها فعلا ماضيا لما لم يسم فاعله وألفه ألف قطع والحجة لحمزة أنه جعله إخبارا عن المتكلم فأسكن الياء علامة للرفع

قوله تعالى ﴿ لما صبروا ﴾ يقرأ بفتح اللام والتشديد وبكسرها والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد حين صبروا ووقت صبروا ودليله قولك ولاك السلطان لما صبرت والحجة لمن خفف أنه أراد لصبرهم لأنه جعل ما مع صلتها بمعنى المصدر وما في قراءة من شدد في موضع نصب على الظرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 287 . 288 ﴾

وقال ابن زنجلة :

سورة السجدة

الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسن من طين 7

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر أحسن كل شيء خلقه بسكون اللام قال الزجاج قوله خلقه منصوب على أنه مصدر

دل عليه ما تقدم من قوله أحسن كل شيء المعنى الذي خلق كل شيء خلقه وابتدأه ابتداء ويجوز أن يجعل خلقه بدلا من كل شيء التقدير الذي أحسن خلق كل شيء وهذا مذهب سيبويه وجاء في التفسير أن تأويلها ألهم خلقه كل ما يحتاجون إليه كأنه قال أعلمهم كل ما يحتاجون إلى علمه فأما الضمير الذي أضيف إليه خلق فلا يخلو من أن يكون ضمير اسم الله أو يكون كناية عن المفعول به فالذي يدل عليه نظائره أن الضمير لاسم الله نحو قوله صنع الله و وعد الله فكما أضيفت هذا المصادر إلى الفاعل فكذلك يكون خلقه مضافا إلى ضمير الفاعل لأن قوله أحسن كل شيء يدل على خلق كل شيء

قرأ نافع وأهل الكوفة خلقه بفتح اللام جعلوه فعلا ماضيا أي أحسن كل شيء فخلقه قال

أهل التأويل أحسن أي أحكم كما أراد لا كمن يريد أن يأتي بالشيء حسنا فيقع قبيحا كالخط والصورة مما يعلمه الإنسان وكان ابن عباس يقول القرد ليس بحسن ولكنه أحكم خلقه وقيل إن الحسن موجود في كل ما خلق الله من جميع الحيوان وهو أن أثر صنع الله والدلالة على وحدانيته موجودة فيه وشاهد هذا القول قوله إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها وعلى الأرض حيات وعقارب وقردة وليست من الزينة ولكن المعنى انها مخلوقات الله وفيها آثار صنع الله وقال آخرون إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها يعني الرجال فالهاء في قوله خلقه ضمير الخلق

فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين 17

قرأ حمزة ما أخفي لهم ساكنة الياء وجعله فعلا مستقبلا الله جل وعز يخبر عن نفسه أي ما أخفي لهم وحجته ما يتصل بالحرف وهو قوله قبله ومما رزقناهم ينفقون 16 ويقوي هذا قراءة عبد الله بن مسعود ما نخفي لهم بالنون

(77/611)

وقرأ الباقون ما أخفي بفتح الياء جعلوه فعلا ماضيا على ما لم يسم فاعله ويقوي بناء الفعل للمفعول به قوله فلهم جنات المأوى 19 فأبهم ذلك كما أبهم قوله أخفي لهم ولم يسند إلى

فاعل بعينه ولو كان أخفي كما قرأه حمزة لكان أعطيهم جنات المأوى ليوافق أعطي أخفي في ذكر فاعل الفعل

وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا 24

قرأ حمزة والكسائي لما صبروا بكسر اللام وتخفيف الميم المعنى جعلناهم أئمة لصبرهم وقرأ الباقون لما صبروا بالتشديد قال الزجاج من قرأ لما صبروا فالمعنى معنى حكاية المجازاة لما صبروا جعلناهم أئمة وأصل الجزاء في هذا كأنه قال إن صبرتم جعلناكم أئمة فلما صبروا جعلوا أئمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 567 . 569 ﴾

(78/611)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة السجدة

مكية قال ابن عباس وعطاء إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة في علي رضي الله تعالى عنه والوليد بن عقبة وكان بينهما كلام فقال الوليد لعلي رضي الله عنه أنا أبسط منك لسانا وأحد منك سنانا وأرد للكتيبة فقال له علي اسكت فإنك فاسق فأنزل الله تعالى فيهما

جل وعز (﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾) إلى آخر الآيات الثلاث

ونظيرتها في المدني الأول الملك ونوح وفي المدني الأخير والمكي نوح فقط وفي الكوفي

والشامي الملك والفجر وفي البصري الفتح والحديد ونوح والتكوير والفجر

وكلمها ثلاث مئة وثمانون كلمة

وحروفها ألف وخمس مئة وثمانية عشر حرفا

وهي عشرون وتسع آيات في البصري وثلاثون آية في عدد الباقين

اختلافها آيتان (﴿ الم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ لفي خلق جديد ﴾) لم

يعدها الكوفي والبصري وعدها الباقون وليس فيها شيء مما يشبه الفواصل ورؤوس الآي

العالمين

2 يهتدون

3 تتذكرون

4 تعدون

5 الرحيم

6 من طين

7 مهين

8 تشكرون

9 جديد

* كافرون

10 ترجعون

11 موقنون

12 أجمعين

13 تعملون

14 لا يستكبرون

15 ينفقون

16 يعملون

17 لا يستوون

18 يعملون

19 تكذبون

20 يرجعون

21 منتقمون

22 لبني إسرائيل

23 يوقنون

24 يختلفون

25 يسمعون

26 يبصرون

27 صادقين

28 ينظرون

29 منتظرون

30 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 207﴾

(79/611)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (ألم) يجوز أن يكون مبتدأ ، و (تنزيل) خبره ، والتنزيل بمعنى المنزل وهو في المعنى كما ذكرناه في أول البقرة فعلى هذا (لاريب فيه) حال من الكتاب ، والعامل تنزيل ، و (من

رب) يتعلق بتنزيل أيضا ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في فيه ، والعامل فيها الظرف لأن ريب هنا مبنى ، ويجوز أن يكون تنزيل مبتدأ ، ولاريب فيه الخبر ، ومن رب حال كما تقدم ، ولايجوز على هذا أن تتعلق " من " بتنزيل ، لأن المصدر قد أخبر عنه ، ويجوز أن يكن الخبر من رب ،

ولاريب فيه حال من الكتاب ، وأن يكون خبرا بعد خبر .

قوله تعالى (أم يقولون) أم هنا منقطعة ، أي بل أيقولون ، و " ما " في (ما أتاهم) نافية ، والكلام صفة لقوم .

قوله تعالى (مما تعدون) يجوز أو يكون صفة لألف ، وأن يكون صفة لسنة .

قوله تعالى (الذى أحسن) يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف: أي هو الذى ، أو خبرا بعد خبر ، والعزيز مبتدأ ، والرحيم صفة ، والذى خبره ، و (خلقه) بسكون اللام بدل من كل بدل الاشتمال: أي أحسن خلق كل شئ ، ويجوز أن يكون مفعولا أول ، وكل شئ ثانيا ، وأحسن بمعنى عرف: أي عرف عباده كل شئ ، ويقرأ بفتح اللام على أنه فعل ماض ، وهو صفة لكل أو لشئ .

قوله تعالى (أئذا ضللنا) بالضاد : أي ذهبنا وهلكنا ، وبالصاد : أنتنا من قولك: صل للحم إذا أنتن ، والعامل في " إذا " معنى الجملة التى في أولها إنا : أي إذا هلكنا نبعث ، ولا يعمل فيه (جديد) لأن ما بعد " إن " لا يعمل فيما قبلها (ولو ترى) هو من رؤية العين ، والمفعول

محذوف: أي ولو ترى المجرمين ، وأغنى عن ذكره المبتدأ ، و (إذ) ها هنا يراد بها المستقبل ، وقد ذكرنا مثل ذلك في البقرة ، والتقدير: يقولون ربنا ، وموضع المحذوف حال والعامل فيها (ناكسوا) .

قوله تعالى (فذوقوا بما نسيتم) أي فذوقوا العذاب ، ويجوز أن يكون مفعول

(80/611)

فذوقوا (لقاء) على قول الكوفيين في إعمال الأول ، ويجوز أن يكون مفعول ذوقوا (هذا) أي هذا العذاب .

قوله تعالى (تتجافى) و (يدعون ربهم) في موضع الحال ، و (خوفا وطمعا) قد ذكر في الأعراف .

قوله تعالى (ما أخفى لهم) يجوز أن تكون " ما " استفهاما ، وموضعها رفع بالابتداء ، وأخفى لهم خبره على قراءة من فتح الياء وعلى قراءة من سكنها ، وجعل أخفى مضارعا تكون " ما " في موضع نصب بأخفى ويجوز أن تكون " ما " بمعنى الذى منصوبة بتعلم ، و (من قرة) في الوجهين حال من الضمير في أخفى ، و (جزاء) مصدر أي جوزوا جزاء .

قوله تعالى (لا يستوون) مستأنف لا موضع له ، وهو بمعنى ما تقدم من التقدير ، و (نزلا) قد

ذكر في آل عمران .

قوله تعالى (الذى كنتم به) هو صفة العذاب في موضع نصب ، ويجوز أن يكون صفة النار ، وذكر على معنى الجحيم أو الحريق .

قوله تعالى (من لقائه) يجوز أن تكون الهاء ضمير اسم الله: أي من لقاء موسى الله ، فالمصدر مضاف إلى المفعول ، وأن يكون ضمير موسى فيكون مضافا إلى الفاعل ، وقيل يرجع إلى الكتاب كما قال تعالى " وإنك لتلقى القرآن " وقيل من لقائك يا محمد موسى صلى الله وسلم عليهما ليلة المعراج (لما) بالتشديد ، ظرف ، والعامل فيه جعلنا منهم أو يهددون ، وبالتخفيف وكسر اللام على أنها مصدرية (كم أهلكنا) قد ذكر في طه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 189.190 ﴾

(81/611)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة السجدة

[سورة السجده (32) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (2)

"الم" حروف لا محل لها من الإعراب "تَنْزِيلُ الْكِتابِ" مبتدأ مضاف إلى الكتاب "لا" نافية للجنس "رَيْبَ" اسمها المبني على الفتح "فِيهِ" خبر لا والجملة حال "مِنْ رَبِّ" خبر تنزيل "الْعالَمِينَ" مضاف إليه.

[سورة السجده (32) : آية 3]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3)

"أَمْ" حرف عطف "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها. "افْتَراهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول. "بَلْ" حرف عطف وإضراب "هُوَ الْحَقُّ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "مِنْ رَبِّكَ" حال "لِتُنْذِرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر "قَوْماً" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال ثانية "ما أَتاهُمْ" ما نافية وماض ومفعوله "مِنْ" حرف جر زائد "نَذِيرٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل أتاهم والجملة صفة قوما "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بنذير "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَهْتَدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية تعليل.

[سورة السجده (32) : آية 4]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (4)

(82/611)

"اللَّهُ الَّذِي" لفظ الجلالة مبتدأ واسم الموصول خبره والجملة مستأنفة لا محل لها "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات والجملة صلة. "وَ" الواو حرف عطف "ما" معطوف على السموات والأرض "بَيْنَهُما" ظرف مكان "فِي سِتَّةِ" متعلقان بخلق "أَيَّامٍ" مضاف إليه "ثُمَّ" حرف عطف "اسْتَوى" ماض فاعله مستتر "عَلَى الْعَرْشِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها. و"ما" نافية "لَكُمْ" خبر مقدم "مِنْ دُونِهِ" حال "مِنْ" حرف جر زائد "وَلِيٍّ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "وَ" الواو حرف عطف "لا" نافية "شَفِيعٍ" معطوف على ولي "أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ" الهمزة حرف استفهام وتوبيخ والفاء حرف استئناف ولا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها.

[سورة السجده (32) : آية 5]

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)

"يُدَبِّرُ" مضارع فاعله مستتر "الْأَمْرَ" مفعول به والجملة حال "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بالفعل "إِلَى الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل أيضا "ثُمَّ" حرف عطف "يَعْرُجُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل

"فِي يَوْمٍ" حال "كانَ مِقْدارُهُ" كان واسمها "أَلْفَ" خبرها المضاف "سَنَةٍ" مضاف إليه والجملة صفة يوم "مِمَّا" متعلقان بمحذوف صفة ألف "تَعُدُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 6]

ذِلكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6)

"ذِلكَ عالِمُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "الْغَيْبِ" مضاف إليه "وَالشَّهادَةِ" معطوفة على الغيب "الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" خبران أيضا .

[سورة السجده (32) : آية 7]

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (7)

"الَّذِي" الاسم الموصول خبر رابع "أَحْسَنَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "كُلَّ شَيْءٍ"

مفعول به مضاف إلى شيء "خَلَقَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة شيء "وَبَدَأَ" الواو حرف عطف وماض معطوف على أحسن "خَلْقَ الْإِنْسانِ" مفعول به مضاف إلى الإنسان "مِنْ طِينٍ" متعلقان بخلق

[سورة السجده (32) : آية 8]

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (8)

"ثُمَّ" حرف عطف "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "نَسْلَهُ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها . "مِنْ سُلالَةٍ" متعلقان بالفعل "مِنْ ماءٍ" صفة سلالة "مَهِينٍ" صفة ماء .

[سورة السجده (32) : آية 9]

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (9)

"ثُمَّ" حرف عطف "سَوَّاهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها والواو حرف عطف "نَفَخَ" معطوف على سواه "فِيهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ رُوحِهِ" متعلقان بالفعل أيضا "وَجَعَلَ" معطوف على نفخ "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "السَّمْعَ" مفعول به "وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ" معطوفان على السمع "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق "ما" زائدة "تَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 10]

وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (10)

"وَقالُوا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَإِذا ضَلَلْنا" الهمزة للاستفهام وإذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "أَإِنَّا" الهمزة حرف استفهام وإن واسمها "لَفِي" اللام المزحلقة "فِي خَلْقٍ" متعلقان بمحذوف خبر إن "جَدِيدٍ" صفة خلق والجملة مؤكدة لما قبلها "بَلْ" حرف إضراب "هُمْ" مبتدأ "بِلِقاءِ" متعلقان بالخبر "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "كافِرُونَ" خبر.

[سورة السجده (32) : آية 11]

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "يَتَوَفَّاكُمْ" مضارع ومفعوله "مَلَكُ الْمَوْتِ" فاعل مضاف إلى الموت والجملة مقول القول "الَّذِي" صفة ملك "وُكِّلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل

مستتر "بِكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "ثُمَّ" حرف عطف "إِلى رَبِّكُمْ" متعلقان بما بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما

قبلها .

[سورة السجده (32) : آية 12]

وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12)

"وَلَوْ" الواو حرف استئناف "لَوْ" شرطية غير جازمة "تَرى " مضارع فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "إِذِ" ظرف زمان "الْمُجْرِمُونَ" مبتدأ "ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ" خبر مضاف إلى رؤوسهم والجملة في محل جر بالإضافة "عِنْدَ" ظرف مكان "رَبِّهِمْ" مضاف إليه وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا .

(85/611)

"رَبَّنا" منادى مضاف "أَبْصَرْنا" ماض وفاعله والجملة الفعلية كالجملة الندائية مقول قول محذوف "وَسَمِعْنا" معطوف على أبصرنا "فَارْجِعْنا" الفاء الفصيحة وفعل دعاء ومفعوله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "نَعْمَلْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر "صالِحاً" مفعول به "إِنَّا" إن واسمها "مُوقِنُونَ" خبرها والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 13]

وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13)

"وَلَوْ" الواو حرف استئناف "لَوْ" شرطية غير جازمة "شِئْنا" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "لَآتَيْنا" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "كُلَّ نَفْسٍ" مفعول به مضاف إلى نفس "هُداها" مفعول به ثان "وَلكِنْ" مخففة من الثقيلة "حَقَّ الْقَوْلُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنِّي" حال "لَأَمْلَأَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر "جَهَنَّمَ" مفعول به والجملة جواب القسم لا محل لها "مِنَ الْجِنَّةِ" متعلقان بالفعل "وَالنَّاسِ" معطوف على الجنة "أَجْمَعِينَ" توكيد

[سورة السجده (32) : آية 14]

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

"فَذُوقُوا" الفاء حرف استئناف وأمر وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "بِما" الباء حرف جر ما مصدرية "نَسِيتُمْ" ماض وفاعله والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بحرف الجر وهما متعلقان بالفعل "لِقاءَ يَوْمِكُمْ" مفعول به مضاف إلى يومكم "هذا" صفة يومكم "إِنَّا" إن واسمها "نَسِيناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "وَذُوقُوا" أمر وفاعله "عَذابَ الْخُلْدِ" مفعول به مضاف إلى الخلد والجملة مقول قول محذوف "بِما" متعلقان بالفعل "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله وجملة كنتم صلة ما لا محل لها .

[سورة السجدة (32) : آية 15]

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (15)

"إِنَّما" كافة ومكفوفة "يُؤْمِنُ" مضارع مرفوع "بِآياتِنَا" متعلقان بالفعل "الَّذِينَ" فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "ذُكِّرُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "بِها" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة . "خَرُّوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "سُجَّداً" حال "وَسَبَّحُوا" معطوف على خروا "بِحَمْدِ" متعلقان بالفعل "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "لا" نافية "يَسْتَكْبِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر هم والجملة الاسمية حال .

[سورة السجده (32) : آية 16]

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (16)

(87/611)

"تَتَجافى جُنُوبُهُمْ" مضارع وفاعله والجملة حال "عَنِ الْمَضاجِعِ" متعلقان بالفعل "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "رَبَّهُمْ" مفعول به "خَوْفاً" مفعول لأجله "وَطَمَعاً" معطوف على خوفا والجملة حال أيضا والواو حرف عطف "وَمِمَّا" متعلقان بالفعل بعدهما "رَزَقْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة ما "يُنْفِقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على جملة يدعون.

[سورة السجده (32) : آية 17]

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (17)

"فَلا" الفاء حرف استئناف "لا" نافية "تَعْلَمُ نَفْسٌ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "ما" مفعول به "أُخْفِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة ما "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ قُرَّةِ" حال "أَعْيُنٍ" مضاف إليه "جَزاءً" مفعول مطلق لفعل محذوف "بِما" متعلقان بجزاء "كانُوا" كان واسمها "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر

كانوا وجملة كانوا . . صلة ما لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 18]

أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (18)

"أَفَمَنْ" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف عطف ومن اسم موصول مبتدأ "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "مُؤْمِناً" خبره والجملة صلة من "كَمَنْ" خبر المبتدأ من . "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "فاسِقاً" خبره والجملة صلة من "لا يَسْتَوُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 19]

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (19)

"أَمَّا" حرف شرط وتفصيل "الَّذِينَ" ، مبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به والجملة صلة الذين ، "فَلَهُمْ" الفاء رابطة "لهم" متعلقان بخبر مقدم "جَنَّاتُ الْمَأْوى" مبتدأ مؤخر مضاف إلى المأوى والجملة الاسمية خبر الذين وجملة أما الذين . . مستأنفة لا محل

لها "نُزُلًا" حال "بِما" متعلقان بنزلا "كانُوا" كان واسمها "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا . . وجملة كانوا . . صلة ما لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 20]

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20)

"وَأَمَّا" الواو حرف عطف "أَمَّا" حرف شرط وتفصيل "الَّذِينَ" مبتدأ "فَسَقُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "فَمَأْواهُمُ" الفاء رابطة. "مأواهم النَّارُ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر الذين وجملة أما الذين معطوفة على ما قبلها "كُلَّما" ظرف زمان متضمن معنى الشرط "أَرادُوا" ماض وفاعله "أَنْ يَخْرُجُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به لأرادوا "مِنْها" متعلقان بالفعل "أُعِيدُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة جواب الشرط لا محل لها . "فِيها" متعلقان بالفعل "وَقِيلَ" معطوف على أعيدوا "لَهُمْ" متعلقان بقيل "ذُوقُوا" أمر وفاعله "عَذابَ النَّارِ" مفعول به مضاف إلى النار والجملة نائب فاعل لقيل. "الَّذِي" صفة عذاب "كُنْتُمْ" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بما بعدهما "تُكَذِّبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم . . صلة الذي لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 21]

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

"وَلَنُذِيقَنَّهُمْ" الواو حرف قسم وجر والمقسم به محذوف واللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به والفاعل مستتر والجملة جواب القسم لا محل لها "مِنَ الْعَذابِ" متعلقان بالفعل "الْأَدْنى" صفة العذاب "دُونَ الْعَذابِ" ظرف مكان مضاف إلى العذاب "الْأَكْبَرِ" صفة العذاب. "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَرْجِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية تعليل.

[سورة السجده (32) : آية 22]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

"وَمَنْ" الواو حرف استئناف "مَنْ أَظْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "مِمَّنْ" متعلقان بأظلم "ذُكِّرَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بِآياتِ" متعلقان بالفعل "رَبِّهِ" مضاف إليه والجملة صلة من. "ثُمَّ" حرف عطف "أَعْرَضَ" ماض فاعله مستتر "عَنْها" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها.

"إِنَّا" إن واسمها "مِنَ الْمُجْرِمِينَ" متعلقان بالخبر "مُنْتَقِمُونَ" والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 23]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (23)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر والمقسم به محذوف واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "آتَيْنا" ماض وفاعله "مُوسَى" مفعول به أول "الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة جواب القسم لا محل

(90/611)

لها . "فَلا تَكُنْ" الفاء الفصيحة ومضارع ناقص مجزوم بلا الناهية واسمه مستتر "فِي مِرْيَةٍ" خبر تكن والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "مِنْ لِقائِهِ" متعلقان بمرية "وَجَعَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "هُدىً" مفعوله الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها "لِبَنِي" جار ومجرور متعلقان بهدى وعلامة الجر الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه .

[سورة السجده (32) : آية 24]

وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (24)

"وَجَعَلْنا" ماض وفاعله "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "أَئِمَّةً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "يَهْدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة أئمة "بِأَمْرِنا" متعلقان بالفعل "لَمَّا" ظرفية حينية "صَبَرُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَكانُوا" كان واسمها "بِآياتِنا" متعلقان بما بعدهما "يُوقِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة السجده (32) : آية 25]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

"إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "يَفْصِلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان "يَوْمَ الْقِيامَةِ" ظرف زمان مضاف إلى القيامة "فِيما" متعلقان بالفعل يفصل "كانُوا" كان واسمها "فِيهِ" متعلقان بما بعدهما "يَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . صلة لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 26]

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (26)

"أَوَلَمْ يَهْدِ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلم "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "كَمْ" خبرية في محل نصب مفعول به مقدم لأهلكنا "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله والجملة فاعل يهد "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "مِنَ الْقُرُونِ" متعلقان بمحذوف حال أيضا "يَمْشُونَ" مضارع وفاعله والجملة حال "فِي مَساكِنِهِمْ" متعلقان بالفعل. "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" خبره المقدم "لَآياتٍ" اللام المزحلقة واسم إن المؤخر والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها ، "أَفَلا" الهمزة حرف استفهام توبيخي والفاء حرف استئناف ولا نافية "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 27]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (27)

"أَوَلَمْ يَرَوْا" الهمزة حرف استفهام توبيخي والواو حرف استئناف ومضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها . "أَنَّا" أن واسمها "نَسُوقُ" مضارع فاعله مستتر "الْماءَ" مفعول به والجملة

الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها مفعول يروا "إِلَى الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "الْجُرُزِ" صفة الأرض "فَنُخْرِجُ" الفاء حرف عطف ومضارع فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل "زَرْعاً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "تَأْكُلُ" مضارع مرفوع "مِنْهُ" متعلقان بالفعل "أَنْعامُهُمْ" فاعل "وَأَنْفُسُهُمْ" معطوف على أنعامهم والجملة صفة زرعا .

"أَفَلا" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف "لا" نافية "يُبْصِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة السجده (32) : آية 28]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (28)

(92/611)

"وَيَقُولُونَ" الواو حرف استئناف ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "مَتى" اسم استفهام متعلق بمحذوف خبر مقدم "هذَا" مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول "الْفَتْحُ" بدل من اسم الإشارة . "إِنْ" حرف شرط جازم "كُنْتُمْ صادِقِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف .

[سورة السجده (32) : آية 29]

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (29)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "يَوْمَ الْفَتْحِ" ظرف زمان مضاف إلى الفتح "لا" نافية "يَنْفَعُ" مضارع مرفوع "الَّذِينَ" مفعول به مقدم "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "إِيمانُهُمْ" فاعل ينفع والواو حرف عطف "وَلا" نافية "هُمْ" مبتدأ "يُنْظَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ . والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة السجده (32) : آية 30]

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

"فَأَعْرِضْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَانْتَظِرْ" معطوف على اعرض . "إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ" إن واسمها وخبرها والجملة الاسمية تعليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 34 . 40﴾

(93/611)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة آلم تَنْزِيل السَّجْدَة

ذكر فِيهَا سِتَّة أَحَادِيث

991 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم للْمُغِيرَة لَو نظرت إِلَيْهَا

قلت احْتج بِهِ المُصَنّف عَلَى أَن لَو فِيهِ للتَّمَنِّي

والْحَدِيث رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن ماجة فِي سُنَنهمْ وَابْن حبَان وَالْحَاكِم فِي صَحِيحهمَا وَأحمد والدارمي وَعبد بن حميد وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم وَالْبَيْهَقِيّ وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي سننَيْهِمَا وَابْن شيبَة وَعبد الرَّزَّاق فِي مصنفيهما وَكلهمْ لم يذكرُوا فِيهِ لَو أَخْرجُوهُ كلهم من حَدِيث الْمُغيرَة بن شُعْبَة أَنه خطب امْرَأَة فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْظُر إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَن يُؤْدم بَيْنكُمَا انْتَهَى وَفِيه كَلَام مَبْسُوط فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة وَلم يجد أحدا رَوَاهُ بِلَفْظَة لَو إِلَّا أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فَإِنَّهُ رَوَاهُ فِي غَرِيب الحَدِيث لَهُ حَدثنِي أَبُو مُعَاوِيَة عَن عَاصِم عَن بكر بن عبد الله الْمُزنِيّ عَن الْمُغيرَة بن شُعْبَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ للْمُغِيرَة وَقد خطب امْرَأَة لَو نظرت إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَن يُؤْدم بَيْنكُمَا انْتَهَى

وَلَو احْتج الْمُصَنّف بقوله تَعَالَى أَو تَقول حِين ترَى الْعَذَاب لَو أَن لِي كرة فَأَكُون من الْمُحْسِنِينَ لَكَانَ أولَى مَعَ أَن التَّمَنِّي فِي الحَدِيث غير ظَاهر وَالتَّمَنِّي فِي الْآيَة ظَاهر قطعا لوُجُود النصب فِي جَوَابه

992 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي تَفْسِيرهَا يَعْنِي قَوْله تَعَالَى تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع قَالَ قيام العَبْد من اللَّيْل

(94/611)

قلت رَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسانيدهم عَن حَمَّاد بن سَلَمَة عَن عَاصِم بن بَهْدَلَة عَن شهر بن حَوْشَب عَن معَاذ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع قَالَ قيام العَبْد من اللَّيْل انْتَهَى

وَمن طَرِيق أَحْمد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه

وَمَعْنَاهُ عِنْد التِّرْمِذِيّ فِي الْإِيمَان وَابْن ماجة فِي الْفِتَن عَن أبي وَائِل عَن معَاذ قَالَ كنت مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي سفر فَأَصْبَحت يَوْمًا قَرِيبا مِنْهُ إِلَى أَن قَالَ أَلَا أدلك عَلَى أَبْوَاب الْخَيْر الصَّوْم جنَّة وَالصَّدَقَة تُطْفِئ الْخَطِيئَة كَمَا يُطْفِئ المَاء النَّار وَصَلَاة الرجل فِي

جَوف اللَّيْل ثمَّ قرَأَ تتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

993 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِذا جمع الله الْأَوَّلِين والآخرين يَوْم الْقِيَامَة جَاءَ مُنَاد يُنَادي بِصَوْت يسمع الْخَلَائق كلهم سَيعْلَمُ أهل الْجمع الْيَوْم من أولَى بِالْكَرمِ ثمَّ يرجع فينادي ليقمْ الَّذين كَانَت تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع فَيقومُونَ وَهُوَ قَلِيل ثمَّ يرجع فينادي ليقمْ الَّذين كَانُوا يحْمَدُونَ الله فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء فَيقومُونَ وهم قَلِيل

فَيسرحُونَ جَمِيعًا إِلَى الْجنَّة ثمَّ يُحَاسب سَائِر النَّاس

(95/611)

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسنديهما أخبرنَا أَبُو مُعَاوِيَة ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن إِسْحَاق عَن شهر بن حَوْشَب عَن أَسمَاء بنت يزِيد عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ يحْشر النَّاس يَوْم الْقِيَامَة فِي صَعِيد وَاحِد فَيسْمعهُمْ الدَّاعِي وَينْفذهُمْ الْبَصَر ثمَّ يقوم مُنَاد فينادي سَيعْلَمُ أهل الْجمع الْيَوْم من أولَى بِالْكَرمِ فَيَقُول أَيْن الَّذين كَانُوا يحْمَدُونَ الله

فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء فَيقومُونَ وهم قَلِيل فَيدْخلُونَ الْجنَّة بغَيْر حِسَاب ثمَّ يعود فينادي أَيْن الَّذين كَانُوا لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَة وَلَا بيع عَن ذكر الله فَيقومُونَ وهم قَلِيل فَيدْخلُونَ الْجنَّة بغَيْر حِسَاب ثمَّ يُحَاسب سَائِر النَّاس انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره عَن عبد الرحمن بن إِسْحَاق بِهِ بلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالْعِشْرين بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُور فَذكره إِلَى قَوْله فينادي ليقمْ الَّذين كَانَت تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع فَيقومُونَ وهم قَلِيل فَيدْخلُونَ الْجنَّة بغَيْر حِسَاب ثمَّ يُحَاسب سَائِر النَّاس انْتَهَى

(96/611)

وَاخْتَصَرَهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي تَفْسِير سُورَة النُّور عَن أبي إِسْحَاق عَن عبد الله بن عَطاء عَن عقبَة بن عَامر الْجُهَنِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ يجمع النَّاس فِي صَعِيد وَاحِد فَيَنْفُذهُمْ الْبَصَر وَيسْمعهُمْ الدَّاعِي فينادي مُنَاد سَيعْلَمُ أهل الْجمع لمن الْكَرم الْيَوْم ثَلَاث مَرَّات ثمَّ يَقُول أَيْن الَّذين كَانَت تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع ثمَّ يَقُول أَيْن الَّذين كَانُوا لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَة وَلَا بيع عَن ذكر الله ثمَّ يُنَادي أَيْن الْحَمَّادُونَ الَّذين كَانُوا يحْمَدُونَ ربهم وَصَححهُ

994 - قَوْله

عَن أنس بن مَالك قَالَ كَانَ أنَاس من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يصلونَ من صَلَاة الْمغرب إِلَى صَلَاة الْعشَاء الْآخِرَة فَنزلت تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع الْآيَة

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي قيام اللَّيْل من حَدِيث سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة عَن أنس بن مَالك فِي هَذِه الْآيَة تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع يدعونَ رَبهم خوفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفقُونَ قَالَ كَانُوا يَنْتَفِلُونَ مَا بَين الْمغرب وَالْعشَاء يصلونَ قَالَ وَكَانَ الْحسن يَقُول هُوَ قيام اللَّيْل انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث الْحَارِث بن وجيه سَمِعت مَالك ابْن دِينَار يَقُول سَأَلت أنس بن مَالك عَن قَوْله تَعَالَى تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع قَالَ كَانَ أنَاس من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يصلونَ من الْمغرب إِلَى الْعشَاء وَأنزل الله فيهم هَذِه الْآيَة انْتَهَى

(97/611)

وَله سَنَد آخر عِنْد الْبَزَّار فِي مُسْنده عَن عبد الحميد بن سُلَيْمَان حَدثنِي مُصعب عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه قَالَ قَالَ بِلَال كُنَّا نجلس وناس من أَصْحَاب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

يصلونَ بعد الْمغرب إِلَى الْعشَاء فَنزلت هَذِه الْآيَة تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجع انْتَهَى قَالَ وَلَا نعلم رَوَى أسلم عَن بِلَال إِلَّا هَذَا الحَدِيث وَلَا نعلم لَهُ طَرِيقا عَن بِلَال إِلَّا هَذِه الطَّرِيق انْتَهَى

955 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أَعددْت لعبادي الصَّالِحين مَا لَا عين رَأَتْ وَلَا أذن سَمِعت وَلَا خطر عَلَى قلب بشر بله مَا أطلعتهم عَلَيْهِ اقْرَءُوا إِن شِئْتُم فَلَا تعلم نَفْس مَا أُخْفِي لَهُم من قُرَّة عين

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة وَاللَّفْظ لمُسلم

عَن أبي الزِّنَاد عَن الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ يَقُول الله تَعَالَى أَعددْت لعبادي الصَّالِحين مَا لَا عين رَأَتْ وَلَا أذن سَمِعت وَلَا خطر عَلَى قلب بشر ذخْرا بله مَا أطْلعكُم الله عَلَيْهِ ثمَّ قَرَأَ فَلَا تعلم نَفْس مَا أُخْفِي لَهُم من قُرَّة أعين انْتَهَى قَوْله ذخْرا بله مَا أطْلعكُم الله عَلَيْهِ زِيَاد لمُسلم

قَالَ الْبَيْهَقِيّ لَيْسَ عِنْد الْبُخَارِيّ ذخْرا بله مَا أطلعْتُم عَلَيْهِ بل انْفَرد بِهِ مُسلم

996 - قَوْله

رُوِيَ أَنه شجر بَين عَلّي بن أبي طَالب والوليد بن عقبَة بن أبي معيط يَوْم بدر كَلَام فَقَال لَهُ الْوَلِيد اسْكُتْ فَإِنَّك صبي أَنا أشب مِنْك شبَابًا وَأجْلَد مِنْك جلدا وأذرب مِنْك لِسَانا وَأحد مِنْك سانا وَأَشْجَع مِنْك جنَانًا وَأَمْلَأُ مِنْك حَشْوًا فِي الكتيبة فَقَال لَهُ عَلّي اسْكُتْ فَإِنَّك فَاسق فَنزلت أَفَمَن كَانَ مُؤمنا كمن كَانَ فَاسِقًا

قلت رَوَاهُ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول أخبرنَا أَبُو بكر أَحْمد بن مُحَمَّد الْأَصْبَهَانِيّ ثَنَا عبد الله بن مُحَمَّد الْحَافِظ ثَنَا إِسْحَاق بن بيَان ثَنَا حُبَيْش بن مُبشر الْفَقِيه ثَنَا عبيد الله بن مُوسَى ثَنَا ابْن أبي لَيْلَى عَن الحكم عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَال قَال الْوَلِيد بن عقبَة بن أبي معيط لعَلي بن أبي طَالب أَنا أحد مِنْك سِنَانًا وَأنْشط مِنْك لِسَانا وَأَمْلَأُ للكتيبة مِنْك فَقَال لَهُ عَلّي اسْكُتْ يَا فَاسق فَإِنَّمَا أَنْت فَاسق فَنزلت أَفَمَن كَانَ مُؤمنا كمن كَانَ فَاسِقًا قَال يَعْنِي بِالْمُؤمنِ عليا وَبِالْفَاسِقِ الْوَلِيد بن عقبَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثَنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم ثَنَا إِسْحَاق ابْن بيَان بِهِ

وَرَوَاهُ أَيْضا عَن عَلّي بن منْدَل عَن الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن أبن عَبَّاس فَذكره

997 - الْحَدِيث الْخَامِس

قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ آلم تَنْزِيل و تبَارك الَّذِي بِيَدِهِ الْملك أعطي من الْأَجر كَمَا لو أَحْيَا لَيْلَة الْقدر

قلت وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث أبي عصمَة نوح بن أبي مَرْيَم عَن زيد الْعمي عَن أبي نَضرة

عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا لَيْس فِيهِ و تبَارك الَّذِي بِيَدِهِ الْملك

وَهَكَذَا هُوَ الْفَائِق لِابْنِ غَنَائِم

(99/611)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه ثَنَا دَاوُد فِي تَفْسِيره حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد ثَنَا الْحُسَيْن بن مَنْصُور الروماني ثَنَا دَاوُد بن معَاذ المصّيصِي ثَنَا فَهد أَبُو الْخَيْر الْموصِلِي وَعبد الله ابْن وهب الْمصْرِيّ قَالَا ثَنَا اللَّيْث بن سعد عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ تبَارك الَّذِي بِيَدِهِ الْملك و آلم تَنْزِيل السَّجْدَة بَين الْمغرب وَالْعشَاء فَكَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَة الْقدر انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَيْضا بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان لَيْس فِيهِ بَين الْمغرب وَالْعشَاء

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

998 - الْحَدِيث السَّادِس

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام من قَرَأَ آلم تَنْزِيل فِي بَيته لم يدْخل الشَّيْطَان بَيته ثَلَاثَة أَيَّام

قلت غَرِيب جدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 83.89 ﴾

(100/611)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة السّجدة» (32)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«الم» (1) ساكن لأنه جرى مجرى فواتح سائر السور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجي ومجاز موضعه فى المعنى كمجاز ابتداء فواتح سائر السور . .

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ» (3) مجازه مجاز «أم» التي توضع فى موضع معنى الواو ومعنى «بل» ، سبيلها : ويقولون ، وبل يقولون ، قال الأخطل :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظّلام من الرّباب خيالا

(69) أي بل رأيت . «افْتَراهُ» أي تكذّبه واخترقه وتخلّقه من قبل نفسه . .

«ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» (5) مجازه : ينزل وهو من المعارج أي الدّرج . .

«أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» (7) مجازه : أحسن خلق كل شىء والعرب تفعل هذا يقدّمون ويؤخرون قال الشاعر :

وطعني إليك الليل حضنيه إنّني لتلك إذا هاب الهدان فعول

(388) معناه : وطعني حضنى الليل إليك وقال الراعي :

كأن هن دا ثناياها وبهجتها يوم التقينا على أدحال دبّاب

(389)

(101/611)

أي كأن ثنايا هند وبهجة هند دبّاب : مكان سمّى أدحال دبّاب وهو اسم مكان أو رجل ، واحد الأدحال دحل ، قال ذو الرّمّة :

عفا الزّرق من أطلال ميّة فالدّحل

«1» [708] .

«ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ» (8) مجازه ثم خلق ولده من ماء انسلّ فخرج من مائه أي هراقته يقال : انسل فلان وفلان لم ينسل ، مهين أي ضعيف مائع رقيق قال :

فجاءت به غضب الأديم غضنفرا سلالة فرج كان غير حصين

(624) .

«قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» (9) مجازه : تشكرون قليلا و «ما» من حروف الزوائد قال الشاعر :

فعن ما ساعة وفدوا إليه بما أعد منهم أهلا ومالا

(709) أي ففى ساعة أي بعد ساعة . .

«وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ» (10) مجازه : همدنا فلم يوجد لنا لحم ولا عظم . .

«قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ» (11) مجازه من : توفّى العدد من الموتى .

---

(1) . - 708 : هذا صدر بيت عجزه :

فأحماد حوضى حيث زاحمها الحبل

فى ديوانه ص 454 وأمالى المرتضى 3/ 116 .

(102/611)

قال منظور الزّبيرىّ :

إن بنى الأدرم ليسوا من أحد ليسوا إلى قيس وليسوا من أسد

«1» [710] ولا توفّاهم قريش فى العدد .

«إِنَّا نَسِينا كُمْ» (14) مجازه : إنا تركناكم ولم ننظر إليكم والله عز وجل لا ينسى فيذهب الشيء من ذكره قال النّابغة :

كأنه خارجا من جنب صفحته سفّود شرب نسوه عند مفتأد

«2» [711] أي تركوه . .

«تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ» (16) مجازه : ترتفع عنها وتنحّى لأنهم يصلون بالليل ،

قال الزفيان من بنى عوافة :

وصاحبى ذات هباب دمشق كأنها غبّ الكلال زورق «3» [712]

أذلّ برءا الثافرين دوسق شوارها قتودها والنمرق

---

(1) . - 710 : لم أقف على ترجمته والرجز مروى عن أبى عبيدة فى القرطين 2/ 73 والشطر الأول مع الثالث فقط فى الطبري 21/ 56 واللسان والتاج (و فى) .

(2) . - 711 : ديوانه من الستة ص 6 والقرطبي 14/ 98 والخزانة 1/ 521 .

[. . . . .]

(3) . - 712 : الزفيان : اسمه عطاء بن أسيد أحد بنى عوافة بن سعد وكنيته أبو المر قال انظر المؤتلف ص 133 ومعجم الشعراء للمرزبانى ص 298 . - الشطران الأولان فى بقية ديوانه فى مجموع أشعار العرب 2/ 100 وهما مع أشطار أخرى فى اللسان (دمشق) ولم يتيسر لى تحقيق كلمتى «برءا النافرين» وتفسير أبى عبيدة لهما فى المعاجم .

وبرة فيها زمام معلق كأن ثنيين شجاع مطرق

وابن ملاط متجاف أدفق برءا : متعوج على خلقة الطير زيّن ، وثافر الزّور مقدّمه ومؤخره ، وبيت دوسق ليس بعظيم ولا صغير وسط ، متجاف : أي متنحّى عن كركرتها . .

«يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» (24) أي بما تقوّيهم وبقوتنا . .

«أَ وَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ» (26) الواو مفتوحة لأنها واو الموالاة وليست بواو «أ و» فتكون ساكنة ولا الألف التي قبلها خرجت مخرج ألف الاستفهام وهى فى موضع التقرير ومجاز «يَهْدِ لَهُمْ» يبيّن لهم وهو من الهدى «1» . .

«إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ» (27) أي الغليظة اليابسة التي لم يصبها مطر . .

«وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ» (28) مجازه هذا الحكم والثواب والعقاب . .

«وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ» (30) هى مكية وكل آية أمر فيها النبي صلى اللّه عليه وسلم بالمكث والانتظار والصّفح والعفو فهى مكية إلى أن أمر بالهجرة فلما قدم المدينة أمر بالبسط والحرب فكل آية أمر فيها بالبسط فهى مدنيّة ومدنية أيضا أو غير ذلك وليست بمكية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 130. 133 ﴾

---

(1) . - 6 - 8 «يهد لهم . . . الهدى» رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 396.

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة السجدة

سورة السجدة مكية ، أفادت فى صدرها ميلاد الأمة الإسلامية فى التاريخ العام . فإن هذا القرآن النازل يقينا من عند الله جاء إلى أمة لم يكن لها إلف بالوحى ، فصاغها فى قالب جديد وحملها رسالة عالمية ! ! " أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون " . كانت هناك رسالات محلية قديمة فى بعض القبائل والشعوب ، انتهت فى مكانها أو زمانها . أما الرسالة التى تحرك بها الجرب أجمعون وغيروا بها وجه العالم ، فهى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وناسب هنا وصف الله الذى أسدى هذا الصنيع " الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع . . . " ولما كان خالق هذا العالم الرحب هو مدبر أمره فى لمح البصر على سعة أرجائه ، فقد احتاج ذلك إلى شرح . إن الأرض تلف حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة ، وتلف حول الشمس خلال 365

يوما . والشمس وأسرتها تجرى فى مدار حاشد بالنجوم . والمجرات السابحة فى الفضاء لا ندرى إلا القليل من شئونها . والضوء يقطع المسافة بين الأرض والشمس فى بضع دقائق ! ما هذا الملكوت الضخم ؟ إن إدارة شئونه تحتاج بمقاييسنا الزمنية إلى أزمنة بعيدة إلى ألف عام أو أكثر ، لكنها فى عمل الخالق الكبير لا تستغرق زمانا يذكر . ما المدة التى تستغرقها العين فى نظر المرئيات ؟ لا شىء ! إن الله يريد فيفعل ، فإذا فى دنيانا محو وإثبات ووجود وموات وهزائم وانتصارات . . إلخ . " يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم " .

والأمة الإسلامية التى ظهرت فى تاريخ العالم لها خصائص تميزها عن أمم أخرى فهى أول كل شىء توحد الله وتخصه بالأسماء الحسنى وترفع عملها إليه على عكس الحضارة

(105/611)

الحديثة التى جفت فيها منابع الزبانية فلا تعبد إلا نفسها ، ثم هى تذكر اليوم الآخر وتستعد له . أما الناس الآن فهم يطردون ذكر هذا اليوم عن نفوسهم " وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون " . وسيندمون غدا على هذا الإلحاد " ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا

موقنون " . وهيهات ، لقد انتهى أوان البذر وجاء أوان الحصاد . . ولن يفلح إلا من قدم الإيمان والعمل الصالح . ومن خصائص أمتنا أنها تقيم الصلوات سحابة النهار وبعض الليل ، وأن فيها من " تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون" إن الليل موطن الجريمة والمتع الحرام فى المدنية الحديثة ، ولا مكان للصلاة فى أعمال النهار . فهل يستوى الفريقان ؟ " أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون " . والنظام الإسلامى للزمن يظهر فى قوله تعالى " وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا " . فلابد من عمل ولابد من راحة ، ولا يجوز نسيان الله فى الحالين . " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " . ومشكلة البشرية الآن ليست ترك الصلاة فقط ، بل رسم الخطط لإضاعتها " أرأيت الذي ينهى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى " . وقد ووجه المسلمون قديما بجمهرة من الماديين الغلاظ يحتقرون العبادة ولا يتصورون جوها ، وهم اليوم يواجهون الصنف نفسه مستكبر برقته الصناعى وتفوقه العسكرى . ويجب علينا أن نصبر على هذه المواجهة ، وندفع ثمنها " ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون " . ثم ذكر الله نبيه محمدا بأن المرسلين من قبله لقوا العنت وتحملوا الشدائد ، فليصبر كما صبروا "ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل * وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون " .

والمعنى أن القيادة لا تتم لأهلها إلا إذا جمعوا بين الصبر واليقين . وهل كان إبراهيم إماما للناس إلا لأنه اختبر فنجح ؟ ومن طلب عظيما خاطر بعظيمته . وقد قيل لنبينا إنه ملاق موسى حتما ، فهل لقيه بعد الموت أو لقيه قبل ذلك ليلة الإسراء ؟ ليكن هذا أو ذاك فإن موعد اللقاء الجامع حق . وقال ابن عاشور فى تفسيره إن اللقاء هنا الجهاد ، وكأن الله يقول لنبيه: كما كابد موسى كيد فرعون وعوج قومه ، ستلقى ما لقى من خصومك ومن قومك . . . لكن العاقبة للتقوى والنصر للمؤمنين " أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون " ؟ والواقع أن المسلمين فى هذه الأيام يقع عليهم حيف رهيب ، ومن يسمع مآسيهم فى البلقان والهند تغلبه الحسرات . . لقد طويت أحكام القرآن وشعائره وشرائعه وأهيل عليها التراب والقلة المكافحة تجد من خصومها الازدراء والإهانة ، ولكن الأمل فى الله باق يحكم بين عباده بالحق . " ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين * قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون * فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 321.319 ﴾

(107/611)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى عشر بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/612)

الجزء الثانى عشر بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة السجدة

وحتى الآية ﴿ 14 ﴾ من نفس السورة

(4/612)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/612)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة السجدة

أقول وجه اتصالها بما قبلها أنها شرحت مفاتح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان فقوله هنا : (ثُمَ يعرجِ إِليهِ في يومٍ كانَ مقداره أَلف سنة مما تعدون) شرح لقوله هناك: (إِنَّ اللهَ عِندهُ عِلمَ الساعة) ولذلك عقب هنا بقوله: (عالِمِ الغيبَ والشِهادة) وقوله: (أَولَم يروا أَنّا

نسوق الماء إلى الأَرض الجرز) شرح لقوله: (ويُنزلُ الغيث) وقوله: (الذي أَحسنَ كل شيء خلقه) شرح لقوله: (ويعلَم ما في الأَرحام)

وقوله: (يدبر الأَمر من السماء إلى الأرض) و(ولو شئنا لآتينا كل نفسٍ هُداها) شرح لقوله: (وما تَدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً) وقوله: (أَئذا ضللنا في الأرض) إلى قوله: (قُل يتوفاكُم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم مرجعكُم) شرح لقوله: (وما تَدري نفسٌ بأَي أَرض تموت) فللهِ الحمد على ما ألهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 125. 126﴾

(6/612)

قوله تعالى ﴿ الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

(بسم الله) ذي الجلال والإكرام العزيز الغفار (الرحمن) بعموم الشارة والنذارة (الرحيم) الذي أسكن في قلوب أحبابه الشوق إليه والخشوع بين يديه

(الم) تقدم في البقرة وغيرها شيء من أسرار هذه الأحرف ، ومما لم يسبق أنها إشارة إلى أن الله المحيط في علمه وقدرته وكل شأنه أرسل جبريل عليه السلام إلى محمد الفاتح الخاتم (صلى الله عليه وسلم) بكتاب معجز دال بإعجازه على صحة رسالته ، ووحدانية من أرسله ، وعدله في العاصين ، وفضله على المطيعين ، وسرد سبحانه هذه الأحرف في أوائل أربع من هذه السور ، فزادت على الطواسين بواحدة ، وذلك بقدر العدد الذي يؤكد به ، وزيادة مبدأ العدد إشارة إلى أن التكرير لم يرد به مطلق التأكيد ، بل دوام التكرير ، إشارة إلى أن هذه المعاني يفي غاية الثبات لا انقطاع لها – والله الهادي .

ولما كانت المقصود في التي قبلها إثبات الحكمة لمنزل هذا الكتاب الذي هو بيان كل شيء الملزوم لتمام العلم وكمال الخبرة الذي ختمت به بعد أن أخبر أنه سبحانه مختص بعلم المفاتيح بعد أن أنذر بأمر الساعة ، فثبت بذلك وما قبله أنه ما أثبت شيئًا فقدر غيره من أهل الكتاب ولا غيرهم على نفيه ، ولا نفي شيئًا فقدر غيره على إثباته ولا إثبات شيء منه ، كانت نتيجة ذلك أنه لا يكون شيء من الأشياء دقيقها وجليلها إلا يعلمه سبحانه وتعالى ، وأجل ذلك إنزالا هذا الذكر الحكيم الذي فيه إثبات هذه العلوم مع شهادة العجز عن معارضته له بأنه من عند الله ، فلذلك قال (تنزيل الكتاب) أي السوابق (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) ثم عطف سبحانه على الجميع فدعاهم إلى تقواه ، وحذرهم يوم المعاد وشدته ، وحذرهم من الاغترار ، وأعلمهم أنه

المتفرد بعلم الساعة ، وإنزال الغيث ، وعلم ما في الأرحام ، وما يقع من المكتسبات ، وحيث يموت كل من الخلوقات ، فلما كانت سورة لقمان – بما بين من مضمنها – محتوية من التنبيه والتحريك على ما ذكر ، ومعلمة بانفراده سبحانه بخلق الكل وملكهم ن اتبعها تعالى بما يحكم بتسجيل صحة الكتاب ، وأنه من عنده وأن ما انطوى عليه من الدلائل والبراهين يرفع كل ريب ، ويزيل كل شك ،

(7/612)

﴿ الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ﴾ أي أيقع منهم هذا بعد وضوحه وجلاء وشواهده ، ثم أتبع ذلك بقوله : ﴿ مالكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ وهو تمام لقوله : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾ ولقوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ ولقوله : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ ولقوله : ﴿ اتقوا ربكم ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ بما ذكرتم ، ألا ترون أمر لقمان وهدايته بمجرد دليل فطرته ، فما لكم بعد التذكير وتقريع الزواجر وترادف الدلائل وتعاقب الآيات تتوقفون عن السلوك إلى ربكم وقد أقررتم بأنه خالقكم ، ولجأتم إليه عند احتياجكم ؟ ثم أعلم نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

برجوع من عاند وإجابته حين لا ينفعه رجوع ، ولا تغني عنه إجابة ، فقال : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ كما فعلنا بلقمان ومن أردنا توفيقه ، ثم ذكر انقسامهم بحسب السوابق فقال : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ ثم ذكر مصير الفريقين ومآل الحزبين ، ثم أتبع ذلك بسوء حال من ذكر فأعرض فقال : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ وتعلق الكلام إلى آخر السورة – انتهى .

ولما كان هذا الذي قدمه أول السورة على هذا الوجه برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً على أن هذا الكتاب من عند الله ، كان – كما حكاه البغوي والرازي في اللوامع – كأنه قيل : هل آمنوا به ؟ ﴿ أم يقولون ﴾ مع ذلك الذي لا يمترئ فيه عاقل ﴿ افتراه ﴾ أي تعمد كذبه .

(8/612)

ولما كان الجواب : إنهم ليقولون : افتراه ، وكان جوابه : ليس هو مفتري لما هو مقارن له من الإعجاز ، ترتب عليه قوله : ﴿ بل هو الحق ﴾ أي الثابت ثباتاً لا يضاهيه ثبات شيء من الكتب قبله ، كائناً ﴿ من ربك ﴾ المحسن إليك بإنزاله وإحكامه ، وخصه بالخطاب إشارة إلى أنه لا يفهم حقيقته حق الفهم سواه .

ولما ذكر سبحانه إحسانه إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ صريحاً ، أشار بتعليله إلى إحسانه

به أيضاً إلى كافة العرب ، فقال مفرداً النذارة لأن المقام له بمقتضى ختم لقمان : ﴿ لتنذر قوماً ﴾ أي ذوي قوة جلد ومنعة وصلاحية للقيام بما أمرهم به ﴿ ما أتاهم من نذير ﴾ أي رسول في هذه الإزمان القريبة لقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن المراد الفترة ، ويؤيده إثبات الجار في قوله : ﴿ من قبلك ﴾ أي بالفعل شاهدوه أو شاهده آباؤهم .

وإما بالمعنى والقوة فقد كان فيهم دين إبراهيم عليه السلام إلى أن غيّره عمرو بن لحي ، وكلهم كان يعرف ذلك وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يعبد صنماً ولا استقسم بالأزلام ، وذلك كما قال تعالى :

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [فاطر : 24] أي شريعته ودينه ، والنذير ليس مخصوصاً بمن باشر – نبه على ذلك أبو حيان .

ويمكن أن يقال : ما أتاهم من ينذرهم على خصوص ما غيروا من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأما إسماعيل ابنه عليه السلام فكان بشيراً لا نذيراً ، لأنهم ما خالفوه ، وأحسن من ذلك كله ما نقله البغوي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ومقاتل أن ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإنه قد نقل عيسى عليه السلام لما أرسل رسله إلى الآفاق أرسل إلى العرب رسولاً .

ولما ذكر علة الإنزال ، أتبعها علة الإنذار فقال : ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أي ليكون حالهم في مجاري العادات حال من ترجى هدايته إلى كمال الشريعة ، وأما التوحيد فلا عذر لأحد فيه بما أقامه الله من حجة العقل مع ما أبقته الرسل عليهم الصلاة والسلام آدم فمن بعده من واضح النقل بآثار دعواتهم وبقايا دلالاتهم ، ولذلك قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن سأله عن أبيه : " أبي وأبوك في النار " وقال : " لا تفتخروا بآبائكم الذين مضوا في الجاهلية فوالذي نفسي بيده لما تدحرج الجعل خير منهم " في غير هذا من الأخبار القاضية بأن كل من مات قبل دعوته على الشرك فهو للنار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 42 ـ 45 ﴾

(10/612)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ خلقه ﴾ بفتح الام : عاصم وحمزة وعلي وخلف ونافع وسهل : الآخرون : بالسكون على البدل من كل شيء . وعلى الأول يكون وصفاً له ﴿ أئذا ﴾ ﴿ أئنا ﴾

كما في "الرعد" ﴿ ما أخفي ﴾ بسكون الياء على أنه فعل مضارع متكلم: حمزة.

الباقون: بفتحها على أنه فعل ماضٍ مجهول ﴿ لما صبروا ﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم: حمزة وعلي ورويس. الباقون: بفتح اللام وتشديد الميم ﴿ أولم نهد ﴾ بالنون: يزيد عن يعقوب.

الوقوف: ﴿ الم ﴾ 5 كوفي ﴿ العالمين ﴾ 5 ط لأن "أم" استفهام تقريع غير عاطفة بل هي منقطعة ﴿ افتراه ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ يهتدون ﴾ 5 ﴿ العرش ﴾ ط ﴿ شفيع ﴾ 5 ﴿ تتذكرون ﴾ 5 ط ﴿ تعدون ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ ط ﴿ من طين ﴾ 5 ج لأن "ثم" لترتيب الأخبار ﴿ مهين ﴾ 5 ج لذلك ﴿ والأفئدة ﴾ ط ﴿ تشكرون ﴾ 5 ﴿ جديد ﴾ 5 ﴿ كافرون ﴾ 5 ﴿ ترجعون ﴾ 5 ﴿ عند ربهم ﴾ ط لحق القول المحذوف ﴿ موقنون ﴾ 5 ﴿ أجمعين ﴾ 5 ﴿ هذا ﴾ ج للابتداء بان مع تكرار ﴿ وذوقوا ﴾ ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ لا يستكبرون ﴾ 5 ﴿ وطمعاً ﴾ ز لانقطاع النظم بتقديم المفعول ﴿ ينفقون ﴾ 5 ﴿ أعين ﴾ ج لأن ﴿ جزاء ﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً له وأن يكون مصدراً لفعل محذوف ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ فاسقاً ﴾ ط لانتهاء الاستفهام إلى الأخبار ﴿ لا يستوون ﴾ 5 ﴿ المأوى ﴾ ز لمثل ما مر في ﴿ جزاء ﴾ ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ ط ﴿ تكذبون ﴾ 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ عنها ﴾ ط ﴿ منتقمون ﴾ 5 ﴿ إسرائيل ﴾ 5 ج وإن اتفقت الجملتان للعدول عن ضمير

المفعول الأول وهو واحد إلى ضمير الجمع في الثانية ﴿ صبروا ﴾ ط لمن شدد ﴿ يوقنون ﴾ 5 ﴿ يختلفون ﴾ 5 ﴿ مساكنهم ﴾ ط ﴿ لآيات ﴾ ط ﴿ يسمعون ﴾ 5 ﴿ وأنفسهم ﴾ ط ﴿ يبصرون ﴾ 5 ﴿ صادقين ﴾ 5 ﴿ ينظرون ﴾ 5 ﴿ منتظرون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 434.435 ﴾

(11/612)

فصل

قال الفخر :

﴿ الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) ﴾

لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة فقال : ﴿ الم * تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقد علم ما في قوله : ﴿ الم ﴾ وفي قوله : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال : ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ وقال من قبل ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : 3] وقال في البقرة (2) : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وذلك لأن من يرى كتاباً عند غيره ، فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فيقول ما هذا الكتاب ؟ فإذا قيل هذا فقه أو

تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو ؟ ولا يقال أولا : هذا الكتاب تصنيف من ؟ ثم يقول فيماذا هو ؟ إذا علم هذا فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة ، ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطاعته .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3)

يعني أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ، ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الإنذار ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

كيف قال ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ﴾ مع أن النذر سبقوه الجواب : من وجهين أحدهما : معقول والآخر منقول ، أما المنقول فهو أن قريشاً كانت أمة أمية لم يأتيهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد ، فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع أنبياء بني إسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوماً من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين

ولا شرع ؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعني ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصاً بالعرب بل أهل الكتاب أيضاً لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آباءهم ، وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذي عليه الأكثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفاراً ولأن النبي أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولاً ، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم وإن أراد طهر وجه الأرض باهلاكهم ، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم ﴾ أي بعد الضلال الذي كان بعد الهداية لم يأتهم نذير .

المسألة الثانية :

(13/612)

لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفي ما عداه فقوله : ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم ﴾ يوجب أن يكون إنذاره مختصاً بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلاً إلى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولاً إليهم نقول هذا فاسد من وجوه أحدها : أن التخصيص لا يوجب نفي ما عداه والثاني : أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره في أن التخصيص إن كان له سبب غير نفي ما عداه لا يوجب نفي ما عداه ، وههنا وجد ذلك لأن إنذارهم كان أولى ، ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] ولم يفهم منه أنه لا ينذر غيرهم أو لم يأمر بإنذار غيرهم وإنذار المشركين كان أولى ، لأن إنذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك الثالث : هو أن على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلا ، لأن أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسلا إلى الكل على درجة سواء ، وبهذا يتبين حسن ما اخترناه ، وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعني تنذرهم راجياً أنت اهتداءهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 145.146 ﴾

(14/612)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ الم . تَنزِيلُ الْكِتَابِ ﴾

يعني القرآن

. ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك فيه أنه تنزيل

. ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ والريب هو الشك الذي يميل إلى السوء والخوف ، قال أبو ذؤيب

:

أسرين ثم سمعن حساً دونه . . . سرف الحجاب وريب قرع يقرع

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ يعني كفار قريش يقولون إن محمداً افترى هذا القرآن ويكذبه .

﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني القرآن حق نزل عليك من ربك

. ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يعني قريشاً ، قاله قتادة : كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير من قبل محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(15/612)

وقال ابن عطية :

﴿ الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) ﴾

﴿ تنزيل ﴾ يصح أن يرتفع بالابتداء والخبر ﴿ لا ريب ﴾ ويصح أن يرتفع على أنه خبر ابتداء ، وهو إما الحروف المشار إليها على بعض الأقوال في أوائل السور ، وإما ذلك تنزيل أو نحو هذا من التقدير بحسب القول في الحروف وقوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي هو كذا في نفسه ولا يراعى ارتياب الكفرة ، وقوله ﴿ من رب العالمين ﴾ متعلق ب ﴿ تنزيل ﴾ ، ففي الكلام تقديم وتأخير ، ويجوز أن يتعلق بقوله ﴿ لا ريب ﴾ أي لا شك فيه من جهة الله تعالى وإن وقع شك للفكرة فذلك لا يراعى ، والريب الشك وكذلك هو في كل القرآن إلا قوله ﴿ ريب المنون ﴾ [الطور : 30] وقوله ﴿ أم يقولون ﴾ إضراب ، كأنه قال بل أيقولون ، و ﴿ افتراه ﴾ اختلقه ، ثم رد تعالى على مقالتهم هذه وأخبر أنه ﴿ الحق ﴾ من عند الله ، واللام في قوله ﴿ لتنذر ﴾ يجوز أن تتعلق بما قبلها ، ولا يجوز الوقف على قوله ﴿ من ربك ﴾ ويجوز أن تتعلق بفعل مضمر تقديره أنزله لتنذر فيوقف حينئذ على قوله ﴿ من ربك ﴾ ، وقوله ﴿ ما أتاهم من نذير ﴾ أي لم يباشرهم ولا رأوه هم ولا آباؤهم العرب ، وقوله تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [فاطر : 24] يعم من بوشر من النذر ومن سمع به فالعرب من الأمم التي خلت فيها النذر على هذا الوجه لأنها علمت بإبراهيم وبنيه ودعوتهم وهم ممن لم يأتهم نذير مباشر لهم سوى محمد صلى الله عليه

وسلم ، وقال ابن عباس ومقاتل : المعنى لم يأتهم نذير في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(16/612)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الم * تَنزِيلُ الكتاب ﴾

الإجماع على رفع "تَنْزِيلُ الْكِتَابِ" ولو كان منصوباً على المصدر لجاز ؛ كما قرأ الكوفيون : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين * على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ [ياس : 53] .

و"تَنْزِيلُ" رفع بالابتداء والخبر ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

أو خبر على إضمار مبتدأ ؛ أي هذا تنزيل ، أو المتلوّ تنزيل ، أو هذه الحروف تنزيل .

ودلّت : ﴿ الم ﴾ على ذكر الحروف .

ويجوز أن يكون "لاَ رَيْبَ فِيهِ" في موضع الحال من "الْكِتَابِ" .

و ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ الخبر .

قال مكيّ : وهو أحسنها .

ومعنى : "لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" لا شك فيه أنه من عند الله ؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأوّلين .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ هذه "أَمْ" المنقطعة التي تقدّر ببل وألف الاستفهام ؛ أي بل أيقولون .

وهي تدلّ على خروج من حديث إلى حديث ؛ فإنه عز وجلّ أثبت أنه تنزيل من رب العالمين ، وأن ذلك مما لا ريب فيه ، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ أي افتعله واختلقه .

﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ كذّبهم في دعوى الافتراء .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ قال قتادة : يعني قريشاً ، كانوا أمّة أميّة لم يأتهم نذير من قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

و"لِتُنْذِرَ" متعلق بما قبلها فلا يوقف على "مِنْ رَبِّكَ" .

ويجوز أن يتعلق بمحذوف ؛ التقدير : أنزله لتنذر قوماً ، فيجوز الوقف على "مِنْ رَبِّكَ" .

و"ما" في قوله : ﴿ مَّآ أَتَاهُم ﴾ نفي .

﴿ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ صلة .

و"نَذِيرٍ" في محل الرفع ، وهو المُعْلِم المُخَوِّف .

وقيل : المراد بالقوم أهل الفَترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ؛ قاله ابن عباس ومقاتل .

وقيل : كانت الحجة ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدّم من الرسل وإن لم يروْا رسولاً ؛ وقد تقدّم هذا المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(17/612)

وقال أبو السعود :

(سورة السجدة مكية وهى ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون)

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴾

(18/612)

﴿ الم ﴾ إمَّا اسمٌ للسورة فمحلّه الرَّفعُ على أنَّه خبر لمبتدأ محذوفٍ أي هذا مسمَّى بألمِ والإشارةُ إليها قبل جريانِ ذكرِها قد عرفتَ سرَّها ، وإمَّا مسرودٌ على نمطِ التَّعديدِ فلا محلَّ له من الإعرابِ ، وقوله تعالى ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ على الأول خبرٌ بعدَ خبرٍ على أنَّه مصدرٌ أُطلق على المفعولِ مبالغةً وعلى الثَّاني خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي المؤلَّفُ من جنسِ ما ذُكر تنزيلُ الكتابِ وقيل خبرٌ لألم أي المسمَّى تنزيلُ الكتابِ وقد مرَّ مراراً أن ما يُجعل عنواناً

للموضوعِ حقُّه أنْ يكونَ قبل ذلك معلومَ الانتسابِ إليه وإذ لا عهدَ بالتَّسميةِ قبلُ فحقُّها الإخبارُ بها ، وقوله تعالى ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبرٌ ثالثٌ على الوجهِ الأولِ وثانٍ على الأخيرينِ وقيل : خبرٌ لتنزيلُ الكتابِ فقولُه تعالى ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ متعلقٌ بمضمرٍ هو حالٌ من الضَّميرِ المجرورِ أي كائناً منه تعالى ، لا بتنزيلُ لأنَّ المصدرَ لا يعملُ فيما بعد الخبرِ والأوجهُ حينئذٍ أنَّه الخبرُ ، ولا ريبَ فيهِ حالٌ من الكتابِ أو اعتراضٌ والضَّميرُ في فيهِ راجعٌ إلى مضمونِ الجملةِ كأنَّه قيل لا ريبَ في ذلك أي في كونِه منزَّلاً من ربِّ العالمين . ويُؤيده قولُه تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ فإنَّ قولَهم هذا إنكارٌ منهم لكونه من ربِّ العالمين فلا بدَّ أنْ يكونَ موردُه حكماً مقصودَ الإفادةِ لا قيداً للحكم بنفيِ الرَّيب عنه وقد رُدَّ عليهم ذلك وأُبطل حيث جِيء بأم المنقطعةِ إنكاراً له وتعجيباً منه لغاية ظهور بُطلانِه واستحالةِ كونِه مفترى ثم أُضرب عنه إلى بيانِ حقّيةِ ما أنكروه حيثُ قيل : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ بإضافة اسم الربِّ إلى ضميره عليه الصَّلاة والسَّلام بعد إضافته فيما سبق إلى العالمين تشريفاً له عليه الصَّلاة والسَّلام ثم أيَّد ذلك ببيان غايته حيثُ قيل : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مِّن نَّذِيرٍ مِّن

(19/612)

قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ فإنَّ بيان غايةِ الشيءِ وحكمته لا سيَّما عند كونها غاية حميدةً مستتبعة لمنافعَ جليلةٍ في وقت شدَّةِ الحاجة إليها ممَّا يُقرر وجودَ الشيءِ ويؤكِّده لا محالة ولقد كانت قريشٌ أضلَّ النَّاسِ وأحوجَهم إلى الهدايةِ بإرسال الرَّسول وتنزيل الكتاب حيثُ لم يبعث إليهم من رسولٍ قبله عليه الصَّلاة والسَّلام أي ما أتاهم من نذير من قبل إنذارك أو من قبل زمانِك ، والتَّرجِّي معتبرٌ من جهته عليه الصَّلاة والسَّلام أي لتندرَهم راجياً لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم ، واعلم أنَّ ما ذُكر من التَّأييدِ ، إنَّما يتسنَّى على ما ذُكر من كون تنزيلُ الكتابِ مبتدأً وأما على سائرِ الوجوهِ فلا تأييدَ أصلاً لأنَّ قولَه تعالى من ربِّ العالمين خبرٌ رابعٌ على الوجهِ الأولِ وخبرٌ ثالثٌ على الوجهين الأخيرينِ وأيّاً ما كان فكونُه من ربِّ العالمين حكمٌ مقصودُ الإفادةِ لا قيدٌ لحكمٍ آخرَ . فتدبَّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(20/612)

وقال الآلوسى :

﴿ الم ﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هذا الم ، وقوله تعالى :

﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ خبر بعد خبر على أنه مصدر باق على معناه لقصد المبالغة أو بتقدير مضاف أو هو مؤول باسم المفعول أي منزل وإضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف أو بيانية بمعنى من ، وقوله سبحانه : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبر ثالث ، وقوله تعالى : ﴿ مِن رَّبّ العالمين ﴾ خبر رابع ، وجوز أن يكون ﴿ الم ﴾ مبتدأ وما بعده أخبار له أي المسمى بالم الكتاب المنزل لا ريب فيه كائن من رب العالمين ، وتعقب بأن ما يجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لا عهد بالنسبة قبل فحقها الإخبار بها .

وقال أبو البقاء : ﴿ الم ﴾ يجوز أن يكون مبتدأ و ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بمعنى منزل خبره و ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ حال من ﴿ الكتاب ﴾ والعامل فيها المضاف وهي حال مؤكدة و ﴿ مَن رَّبُّ ﴾ متعلق بتنزيل ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف هو حال من الضمير المجرور في ﴿ فِيهِ ﴾ والعامل فيها الظرف ﴿ لاَ رَيْبَ ﴾ لأنه هنا مبني وفيه ما سمعت ، وهذا التعلق يجوز أيضاً على تقدير أن يكون ﴿ الم ﴾ خبر مبتدأ محذوف وما بعده أخباراً لذلك المحذوف ، وإن جعل ﴿ الم ﴾ مسروداً على نمط التعديد فلا محل له من الإعراب ، وفي إعراب ما بعد عدة أوجه ، قال أبو البقاء : يجوز أن يكون ﴿ تَنزِيلَ ﴾ مبتدأ و ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ الخبر و ﴿ مَن رَّبُّ ﴾ حال كما تقدم ، ولا يجوز على هذا أن يتعلق بتنزيل لأن

المصدر قد أخبر عنه ، ويجوز أن يكون الخبر ﴿ مَن رَّبٌّ ﴾ و﴿ لاَ رَيْبَ ﴾ حالاً من ﴿ الكتاب ﴾ وأن يكون خبراً بعد خبر انتهى .

(21/612)

ووجه منع التعلق بالمصدر بعد ما أخبر عنه أنه عامل ضعيف فلا يتعدى عمله لما بعد الخبر وعن التزام حديث التوسع في الظرف سعة هنا أو أن المتعلق من تمامه والاسم لا يخبر عنه قبل تمامه ، وجوز ابن عطية تعلق ﴿ مَن رَّبٌّ ﴾ بريب وفيه أنه بعيد عن المعنى المقصود ، وجوز الحوفي كون ﴿ تَنزِيلَ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب ، وقال أبو حيان : الذي اختاره أن يكون ﴿ تَنزِيلَ ﴾ مبتدأ ﴿ وَلاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراض لا محل له من الإعراب و﴿ مِن رَّبّ العالمين ﴾ الخبر وضمير ﴿ فِيهِ ﴾ راجع لمضمون الجملة أعني كونه منزلاً من رب العالمين لا للتنزيل ولا للكتاب كأنه قيل : لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين وهذا ما اعتمد عليه الزمخشري وذكر أنه الوجه ويشهد لوجاهته قوله تعالى :

(22/612)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ فإن قولهم هذا مفترى إنكار لأن يكون من رب العالمين أي فالأنسب أن يكون نفي الريب عما أنكروه وهو كونه من رب العالمين جل شأنه ، وقيل : أي فلا بد من أن يكون مورده حكماً مقصوداً بالإفادة لا قيداً للحكم بنفي الريب عنه ، وفيه بحث ، وكذا قوله سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ فإنه تقرير لما قبله فيكون مثله في الشهادة ثم قال في نظم الكلام على ذلك : إنه أسلوب صحيح محكم أثبت سبحانه أولاً أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك مما لا ريب فيه أي لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله تعالى وهو أبعد شيء منه لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك أصلاً عنه وهو كونه معجزاً للبشر ، ثم أضرب جل وعلا عن ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ لأن ﴿ أَمْ ﴾ هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه لظهور عجز بلغائهم عن مثل أقصر سورة منه فهو إما قول متعنت مكابر أو جاهل عميت منه النواظر ، ثم أضرب سبحانه عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك ، وفي "الكشف" أن الزمخشري بين وجاهة كون ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ مبتدأ و ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراضاً و ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ خبراً بحسن موقع الاعتراض إذ ذاك ثم حسن الإنكار على الزاعم أنه مفترى مع وجود نافي الريب ومميطه ثم إثبات ما هو المقصود وعدم الالتفات إلى شغب هؤلاء المكابرة بعد التلخيص البليغ بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ وما في إيثار لفظ ﴿ الحق ﴾ وتعريفه

تعريف الجنس من الحسن ؛ ويقرب عندي من هذا الوجه جعل ﴿ تَنزِيلَ ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ في موضع الحال من ﴿ الكتاب ﴾ و ﴿ مَن رَّبُّ ﴾ خبراً فتدبر ولا تغفل ، وزعم أبو عبيدة أن ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل الانتقالية وقال : إن هذا خروج من حديث إلى حديث وليس بشيء .

(23/612)

والظاهر أن ﴿ مِن رّبّكَ ﴾ في موضع الحال أي كائناً من ربك ، وقيل : يجوز جعله خبراً ثانياً وإضافة الرب إلى العالمين أولاً ثم إلى ضمير سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ثانياً بعد ما فيه من حسن التخلص إلى إثبات النبوة وتعظيم شأنه علا شأنه فيه أنه عليه الصلاة والسلام العبد الجامع الذي جمع فيه ما فرق في العالم بالأسر ، وورود ه على أسلوب الترقي دل على أن جمعيته صلى الله عليه وسلم أتم مما لكل العالم وحق له ذلك صلوات الله تعالى وسلامه عليه ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ بيان للمقصود من تنزيله فقيل لهو متعلق بتنزيل ، وقيل : بمحذوف أي أنزله لتنذر الخ ، وقيل : بما تعلق به ﴿ مِن رّبّكَ ﴾ ﴿ وقوما ﴾ مفعول أول لتنذر والمفعول الثاني محذوف أي العقاب و ﴿ فِى مَا ﴾ نافية كما هو الظاهر و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى صلة ﴿ وَنَذِيرٌ ﴾ فاعل ﴿ ءاتاهم ﴾ ويطلق على

الرسول وهو المشهور وعلى ما يعمه والعالم الذي ينذر عنه عز وجل قيل : وهو المراد هنا كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] .

وجوز أن يكون النذير ههنا مصدراً بمعنى الإنذار و ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي من قبل إنذارك أو من قبل زمانك متعلق بأتى والجملة في موضع الصفة لقوما ، والمراد بهم قريش على ما ذهب إليه غير واحد ، قال في "الكشف" : الظاهر أنه لم يبعث إليهم رسول منهم قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ملزمين بشرائع الرسل من قبل وإن كانوا مقصرين في البحث عنها لا سيما دين إبراهيم .

وإسماعيل عليهما السلام إن قلنا : إن دعوتي موسى .

وعيسى عليهما السلام لم تعما وهو الأظهر ، وقد تقدم لك القول بانقطاع حكم نبوة كل نبي ما عدا نبينا صلى الله عليه وسلم بعد موته فلا يكلف أحد مطلقاً يجيء بعده باتباعه والقول بالانقطاع إلا بالنسبة لمن كان من ذريته ، والظاهر أن قريشاً كانوا ملزمين بملة إبراهيم .

(24/612)

وإسماعيل عليهما السلام وإنهم لم يزالوا على ذلك إلى أن فشت في العرب عبادة الأصنام التي أحدثها فيهم عمرو الخزاعي لعنه الله تعالى فلم يبق منهم على الملة الحنيفية إلا قليل بل أقل من القليل فهم داخلون في عموم قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] فإنه عام للرسول وللعالم الذي ينذر كذا قيل .

واستشكل مع ما هنا ، وأجيب بأن المراد هنا ما أتاهم نذير منهم من قبلك وإليه يشير كلام الكشف وهناك ﴿ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ منها أو من غيرها أو يحمل النذير فيه على الرسول ، وفي تلك الآية على الأعم قال أبو حيان : في تفسير سورة الملائكة إن الدعاء إلى الله تعالى لم ينقطع عن كل أمة إما بمباشرة من أنبيائهم وإما بنقل إلى وقت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم والآيات التي تدل على أن قريشاً ما جاءهم نذير معناها لم يباشرهم وآباءهم الأقربين وإما أن النذارة انقطعت فلا .

نعم لما شرعت آثارها تندرس بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وما ذكره أهل علم الكلام من حال أهل الفترات فإن ذلك على حسب الفرض لا أنه واقع فلا توجد أمة على وجه الأرض إلا وقد علمت الدعوة إلى الله عز وجل وعبادته انتهى .

وفي القلب منه شيء ، ومقتضاه أن المنفي ههنا إتيان نذير مباشر أي نبي من الأنبياء عليهم السلام قريشاً الذين كانوا في عصره عليه الصلاة والسلام قبله صلى الله عليه وسلم وأنه كان فيهم من ينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده بالنقل أي عن نبي كان يدعو إلى ذلك

، والأول : مما لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان بل لا ينبغي أن يتوقف فيه إنسان ، والثاني : مظنون التحقق في زيد بن عمرو بن نفيل العدوي والد سعيد أحد العشرة فإنه عاصر النبي صلى الله عليه وسلم واجتمع وآمن به قبل بعثته عليه الصلاة والسلام ولم يدركها إذ قد مات وقريش تبني الكعبة وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين ، وكان على ملة إبراهيم .

(25/612)

وإسماعيل عليهما السلام ، فقد صح عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي نفسي بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ، وفي بعض طرق الخبر عنه أيضاً بزيادة ، وكان يقول : اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته ، وذكر موسى بن عقبة في "المغازي" سمعت من أرضي يحدث أن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبحهم لغير الله تعالى وصح أنه لم يأكل من ذبائح المشركين التي أهل بها لغير الله ، وأخرج الطيالسي في مسنده عن ابنه سعيد أنه قال : " قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أبي كان كما رأيت وكما بلغك أفاستغفر له : قال ، نعم فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده " ولا يبعد ممن كان هذا شأنه الإنذار والدعوة إلى عبادة الله

تعالى بل من أنصف يرى تضمن كلامه الذي حكته أسماء وإنكاره على قريش الذبح لغير الله تعالى الذي ذكره الطيالسي الدعوة إلى دين إبراهيم عليه السلام وعبادة الله سبحانه وحده ، وكذا تضمن كلامه النقل أيضاً ، ويعلم مما نقلناه أن الرجل رضي الله تعالى عنه لم يكن نبياً وهو ظاهر ، وزعم بعضهم أنه كان نبياً ، واستدل على ذلك بأنه كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : هلموا إلي فإنه لم يبق على دين الخليل غيري ؛ وصحة ذلك ممنوعة ، وعلى فرض التسليم لا دليل فيه على المقصود كما لا يخفى على من له أدنى ذوق ، ومثل زيد رضي الله تعالى عنه قس بن ساعدة الأيادي فإنه رضي الله تعالى عنه كان مؤمناً بالله عز وجل داعياً إلى عبادته سبحانه وحده وعاصر النبي صلى الله عليه وسلم ومات قبل البعثة على الملة الحنيفية وكان من المعمرين ، ذكر السجستاني أنه عاش ثلاثمائة وثمانين سنة ، وقال المرزباني : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة وذكروا في شأنه أخباراً كثيرة لكن قال الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة قد أفرد

(26/612)

بعض الرواة طريق قس وفيه شعره وخطبته وهو في الطوالات للطبراني وغيرها وطرقه كلها ضعيفة وعد منها ما عد فليراجع ، ثم إن الإشكال إنما يتوهم لو أريد بقريش جميع أولاد

قصي أو فهر أو النضر أو الياس أو مضر أما إذا أريد من كان منهم حين بعث صلى الله عليه وسلم فلا كما لا يخفى على المتأمل فتأمل ، وقيل : المراد بهم العرب قريش وغيرهم ولم يأت المعاصرين منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نذير من الأنبياء عليهم السلام غيره صلى الله عليه وسلم وكان فيهم من ينذر ويدعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده وليس بنبي على ما سمعت آنفاً ، وأما العرب غير المعاصرين فلم يأتهم من عهد إسماعيل عليه السلام نبي منهم بل لم يرسل إليهم نبي مطلقاً ، وموسى .

وعيسى .

وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا إليهم على الأظهر ، وخالد بن سنان العبسي عند الأكثرين ليس بنبي ، وخبر ورود بنت له عجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وقوله صلى الله عليه وسلم لها : مرحباً بابنة نبي ضيعه قومه ونحوه من الإخبار مما للحفاظ فيه مقال لا يصلح معه للاستدلال ، وفي شروح الشفاء والإصابة للحافظ ابن حجر بعض الكلام في ذلك ، وقيل : المراد بهم أهل الفترة من العرب وغيرهم حتى أهل الكتاب ، والمعنى ما أتاهم نذير من قبلك بعد الضلال الذي حدث فيهم .

(27/612)

هذا وكأني بك تحمل النذير هنا على الرسول الذي ينذر عن الله عز وجل وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] ليوافق قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله ﴾ [النحل : 36] وأظن أنك تجعل التنوين في أمة للتعظيم أي وإن من أمة جليلة معتنى بأمرها إلا خلا فيها نذير ولقد بعثنا في كل أمة جليلة معتنى بأمرها رسولاً أو تعتبر العرب أمة وبني إسرائيل أمة ونحو ذلك أمة دون أهل عصر واحد وتحمل من لم يأتهم نذير على جماعة من أمة لم يأتهم بخصوصهم نذير ، ومما يستأنس به في ذلك أنه حين ينفي إتيان النذير ينفي عن قوم ونحوه لا عن أمة فليتأمل ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في هذا المقام ، وجوز كون ﴿ مَا ﴾ موصولة وقعت مفعولاً ثانياً لتنذر و ﴿ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ عليه متعلق بأتاهم أي لتنذر قوماً العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك أي على لسان نذير من قبلك واختاره أبو حيان ، وعليه لا مجال لتوهم الأشكال لكن لا يخفي أنه خلاف المتبادر الذي عليه أكثر المفسرين ، والاقتصار على الإنذار في بيان الحكمة لأنه الذي يقتضيه قولهم : ﴿ افتراه ﴾ دون التبشير ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي لأجل أن يهتدوا بإنذارك إياهم أو راجياً لاهتدائهم ، وجعل الترجي مستعاراً للإرادة منسوباً إليه عز وجل نزغة اعتزالية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ الم (1) ﴾

تقدم ما في نظائره .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) ﴾

افتتحت السورة بالتنويه بشأن القرآن لأنه جامع الهدى الذي تضمنته هذه السورة وغيرها ولأن جماع ضلال الضالّين هو التكذيب بهذا الكتاب ، فالله جعل القرآن هدى للناس وخصّ العرب أن شَرفهم بجعلهم أولَ من يتلقّى هذا الكتاب ، وبأنْ أنزله بلغتهم ، فكان منهم أشد المكذبين بما جاء به ، لا جرم أن تكذيب أولئك المكذبين أعرق في الضلالة وأوغل في أفَن الرأي .

وافتتاح الكلام بالجملة الاسمية لدلالتها على الدَوام والثبات .

وجيء بالمسند إليه معرفاً بالإضافة لإطالته ليحصل بتطويله ثم تعقيبه بالجملة المعترضة التشويقُ إلى معرفة الخبر وهو قوله ﴿ من رب العالمين ﴾ ولولا ذلك لقيل : قرآن منزل من رب العالمين أو نحو ذلك .

وإنما عدل عن أسلوب قوله ﴿ ألم ذلك الكِتاب لا رَيْب فِيه ﴾ في سورة البقرة (1 ، 2) لأن تلك السورة نازلة بين ظهراني المسلمين ومن يُرجى إسلامهم من أهل الكتاب وهم ﴿

الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [البقرة : 4] ؛ وأما هذه السورة فقد جابَه الله بها المشركين الذين لا يؤمنون بالإله الواحد ولا يوقنون بالآخرة فهم أصلب عُوداً ، وأشد كفراً وصُدوداً .

فقوله ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ لا ريب فيه ﴾ جملة هي صفة للكتاب أو حال أو هي معترضة .

وقوله ﴿ من رب العالمين ﴾ خبر عن المبتدأ و ﴿ من ﴾ ابتدائية .

والمعنى : من عنده ووحيه ، كما تقول : جاءني كتاب من فلان .

ووقعت جملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ بأسلوب المعلوم المقرّر فلم تجعل خبراً ثانياً عن المبتدأ لزيادة التشويق إلى الخبر ليقرر كونه من رب العالمين .

(29/612)

ومعنى ﴿ لا ريب فيه ﴾ أنه ليس أهلاً لأن يرتاب أحد في تنزيله من ربِّ العالمين لما حفّ بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنه ليس من كلام البشر بسبب إعجاز أقصر سورة منه فضلاً عن مجموعه ، وما عضده من حال المرسَل به من شهرة الصدق والاستقامة ، ومجيء مثله من مثله مع ما هو معلوم من وصف الأمية .

فمعنى نفي أن يكون الريب مظروفاً في هذا الكتاب أنه لا يشتمل على ما يثير الريب ، فالذين ارتابُوا بل كذبوا أن يكون من عند الله فهم لا يعْدُون أن يكونوا متعنّتين على علم ، أو جُهّالاً يقولون قبل أن يتأملوا وينظروا ؛ والأولون زعماؤهم والأخيرون دهماؤهم ، وقد تقدم ذلك في أول سورة البقرة .

واستحضار الجلالة بطريق الإضافة بوصف ﴿ رب العالمين ﴾ دون الاسم العلَم وغيره من طرق التعريف لما فيه من الإيماء إلى عموم الشريعة وكون كتابها منزّلاً للناس كلهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية ، كما قال تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ [المائدة : 48] .

وفيه إيماء إلى أن من جملة دواعي تكذيبهم به أنه كيف خص الله برسالته بشراً منهم حسداً من عند أنفسهم لأن ربوبية الله للعالمين تنبىء عن أنه لا يُسأل عما يفعل وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

جاءت ﴿ أَمْ ﴾ للإضراب عن الكلام السابق إضرابَ انتقال ، وهي ﴿ أَمْ ﴾ المنقطعة التي بمعنى بل التي للإضراب .

وحيثما وقعت ﴿ أَمْ ﴾ فهي مؤذنة باستفهام بالهمزة بعدها الملتزم حذفها بعد ﴿ أَمْ . ﴾ والاستفهام المقدر بعدها هنا تعجيبي لأنهم قالوا هذا القول الشنيع وعُلِمه الناس عنهم

فلا جرم كانوا أحقَّاء بالتعجيب من حالهم ومقالهم لأنهم أبدوا به أمراً غريباً يُقضى منه العجب لدى العقلاء ذوي الأحلام الراجحة والنفوس المنصفة ، إذ دلائل انتفاء الريب عن كونه من رب العالمين واضحة بَله الجزم بأنه مفترى على الله تعالى .

(30/612)

وصيغ الخبر عن قولهم العجيب بصيغة المضارع لاستحضار حالة ذلك القول تحقيقاً للتعجيب منه حتى لا تغفل عن حال قولهم أذهانُ السامعين كلفظ (تقول) في بيت هُذْلول العنبري من شعراء الحماسة:

تقول وصكّت صدرَها بيمينها . . .

أبعلي هذا بالرَّحَى المتقاعسُ

وفي المضارع مع ذلك إيذان بتجدد مقالتهم هذه وأنهم لا يقلعون عنها على الرغم مما جاءهم من البينات رغم افتضاحهم بالعجز عن معارضته .

والضمير المرفوع في ﴿ افتراه ﴾ عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه معلوم من مقام حكاية مقالهم المشتهر بين الناس ، والضمير المنصوب عائد إلى ﴿ الكتاب ﴾ [السجدة : 2] .

وأضرب على قولهم ﴿ افتراه ﴾ إضراب إبطال بـ ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ لإثبات أن القرآن حق ، ومعنى الحق : الصدق ، أي : فيما اشتمل عليه الذي منه أنه منزَّل من الله تعالى .

وتعريف ﴿ الحق ﴾ تعريف الجنس المفيد تحقيق الجنسية فيه .

أي : هو حق ذلك الحق المعروفة ماهيته من بين الأجناس والمفارق لجنس الباطل .

وفي تعريف المسند بلام الجنس ذريعة إلى اعتبار كمال هذا الجنس في المسند إليه وهو معنى القصر الادعائي للمبالغة نحو : أنت الحبيب وعمرو الفارس .

و﴿ من ربك ﴾ في موضع حال من ﴿ الحق ، ﴾ والحق الوارد من قِبل الله لا جرم أنه أكمل جنس الحق .

وكاف الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم واستحضرت الذات العلية هنا بعنوان ﴿ ربك ﴾ لأن الكلام جاء رداً على قولهم ﴿ افتراه ، ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم فكان مقام الرد مقتضياً تأييد من ألصقوا به ما هو بريء منه بإثبات أن الكتاب حق من ربِّ من ألصقوا به الافتراء تنويهاً بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتخلصاً إلى تصديقه لأنه إذا كان الكتاب الذي جاء به حقاً من عند الله فهو رسول الله حقاً .

وقد جاءت هذه الآية على أسلوب بديع الإحكام إذ ثبت أن الكتاب تنزيل من رب جميع الكائنات ، وأنه يحق أن لا يرتاب فيه مرتاب ، ثم انتقل إلى الإنكار والتعجيب من الذين جزموا بأن الجائي به مفتر على الله ، ثم رد عليهم بإثبات أنه الحق الكامل من ربِّ الذي نَسبوا إليه افتراءه فلو كان افتراه لقدر الله على إظهار أمره كما قال تعالى:

﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لَقَطَعْنَا منه الوَتِين فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة : 44 47] .

ثم جاء بما هو أنكى للمكذبين وأبلغ في تسفيه أحلامهم وأوغل في النداء على إهمالهم النظر في دقائق المعاني ، فبين ما فيه تذكرة لهم ببعض المصالح التي جاء لأجلها هذا الكتاب بقوله : ﴿ لتُنْذِر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ فقد جمعوا من الجهالة ما هو ضِغْث على إبَّالَة ، فإن هذا الكتاب ، على أن حقيته مقتضية المنافسة في الانتفاع به ولو لم يُلفَتُوا إلى تقلده وعلى أنهم دعوا إلى الأخذ به وذلك مما يوجب التأمل في حقّيته ؛ على ذلك كلِّه فهم كانوا أحوج إلى اتباعه من اليهود والنصارى والمجوس لأن هؤلاء لم تسبق لهم رسالة مرسل فكانوا أبعد عن طرق الهدى بما تعاقب عليهم من القرون دون دعوة رسول فكان ذلك كافياً في حرصهم على التمسك به وشعورهم بمزيد الحاجة إليه رجاء منهم أن يهتدوا ، قال تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل

الكتاب على طائفتين مِن قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدَف عنها ﴾ [الأنعام : 155 157] ، فمثَل هؤلاء المكذبين كمَثل قول المعري:

هل تَزجرنَّكُمُ رِسالةُ مرسَل . . .
أم ليس ينفع في أُولاَك أُلُوكُ

(32/612)

والقوم : الجماعة العظيمة الذين يجمعهم أمر هو كالقِوام لهم من نسب أو موطن أو غرض تجمعوا بسببه .

وأكثر إطلاقه على الجماعة الذين يرجعون في النسب إلى جَدّ اختصوا بالانتساب إليه .

وتميزوا بذلك عمن يشاركهم في جدّ هو أعلى منه ، فقُريش مثلاً قومٌ اختصوا بالانتساب إلى فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة فتميزوا عمن عداهم من عقب كنانة فيقال : فلان قرشي وفلان كناني ولا يقال لمن هو من أبناء قريش كناني .

ووصف القوم بأنهم ﴿ ما أتاهم من نذير ﴾ قبلَ النبي صلى الله عليه وسلم والنبي حينئذ

يدعو أهل مكة ومن حولها إلى الإسلام وربما كانت الدعوة شملت أهل يثرب وكلّهم من العرب فظهر أن المراد بالقوم العرب الذين لم يأتهم رسول قَبْل محمد عليه الصلاة والسلام فإما أن يكون المراد قريشاً خاصة ، أو عرب الحجاز أهلَ مكة والمدينة وقبائل الحجاز ، وعرب الحجاز جذمان : عدنانيون وقحْطانيون ؛ فأما العدنانيون فهم أبناء عدنان وهم من ذرية إسماعيل وإنما تقومت قوميتهم في أبناء عدنان : وهم مُضَرٌ وربيعةٌ وأنمار ، وإيادٌ .

وهؤلاء لم يأتهم رسول منذ تقومت قوميتهم .

وأما جدهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فإنه وإن كان رسولاً نبيئاً كما وصفه الله تعالى في سورة مريم ، فإنما كانت رسالته خاصة بأهله وأصهاره من جُرهُم ولم يكن مرسلاً إلى الذين وجُدوا بعده لأن رسالته لم تكن دائمة ولا منتشرة ، قال تعالى:

﴿ وكان يأمر أهلَه بالصلاة والزكاة ﴾ [مريم : 55] .

وأما القحطانيون القاطنون بالحجاز مثل الأوس والخزرج وطيْء فإنهم قد تغيرت فرقهم ومواطنهم بعد سَيْل العَرم وانقسموا أقواماً جُدداً ولم يأتهم نذير منذ ذلك الزمن وإن كان المنذِرون قد جاءوا أسلافَهم مثلُ هود وصالح وتُبع ، فذلك كان قبل تقوُّم قوميتهم الجديدة .

وإما أن يكون المراد العرَب كلَّهم بما يشمل أهل اليمن واليمامة والبحرين وغيرهم ممن شملتهم جزيرة العرب وكلّهم لا يعْدون أن يرجعوا إلى ذيْنك الجِذمين ، وقد كان انقسامهم أقواماً ومواطن بعد سَيل العَرم ولم يأتهم نذير بعد ذلك الانقسام كما تقدم في حال القحطانيين من أهل الحجاز .

وأما ما ورد من ذكر حنظلة بن صَفوان صاحب أهل الرَّسّ ، وخالد بن سِنان صاحب بني عَبْس فلم يثبت أنهما رسولان واختُلف في نبوّتهما .

وقد روي أن ابنة خالد بن سنان وفدت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهي عجوز وأنه قال لها : " مرحباً بابنة نبيء ضيَّعه قومُه " .

وليس لذلك سند صحيح .

وأيّاً مَّا كان فالعرب كلهم أو الذين شملتهم دعوة الإسلام يومئذ يحق عليهم وصف ﴿ ما أتاهم من نذير ﴾ من وقت تحقق قوميتهم .

والمقصود به : تذكيرهم بأنهم أحوج الأقوام إلى نذير ، إذ لم يكونوا على بقية من هُدى وأثارةُ هِمَمهم لاغتباط أهل الكتاب ليتقبلوا الكتاب الذي أنزل إليهم ويسبقوا أهل الكتاب إلى اتّباعه ؛ فيكون للمؤمنين منه السبْق في الشرع الأخير كما كان لمن لم يُسلم من أهل الكتاب السبق ببعض الاهتداء وممارسة الكتاب السابق .

وقد اهتم بعض أهل الأحلام من العَرب بتطلب الدين الحق فتهوّد كثير من عرب اليمن ، وتنصّرتْ طيء وكَلْب وتغلب وغيرهم من نصارى العرب ، وتتبع الحنيفية نفر مثل قُسّ بن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نُفيل ، وأمية بن أبي الصلت ، وكان ذلك تطلباً للكمال ولم يأتهم رسول بذلك .

وهذا التعليل لا يقتضي اقتصار الرسالة الإسلامية على هؤلاء القوم ولا ينافي عموم الرسالة لمن أتاهم نذير ، لأن لام العلة لا تقتضي إلا كون ما بعدها باعثاً على وقوع الفعل الذي تعلقت به دون انحصار باعثِ الفعل في تلك العلة ، فإن الفعل الواحد قد تكون له بواعث كثيرة ، وأفعال الله تعالى منوطة بحكم عديدة ، ودلائلُ عموم الرسالة متواترة من صريح القرآن والسنّة ومن عموم الدعوة .

(34/612)

وقيل : أُريد بالقوم الذين لم يأتهم نذير من قبلُ جميعُ الأمم ، وأن المراد بأنهم لم يأتهم نذير أنهم كلَّهم لم يأتهم نذير بعد أن ضلّوا ، سواء منهم من ضلّ في شرعه مثل أهل الكتاب ، ومن ضلّ بالخلو عن شرع كالعَرب .

وهذا الوجه بعيد عن لفظ (قوم) وعن فعل ﴿ أتاهم ﴾ ومفيتٌ للمقصود من هذا

الوصف كما قدمناه .

وأما قضية عموم الدعوة المحمدية فدلائلها كثيرة من غير هذه الآية .

و(لعلّ) مستعارة تمثيلاً لإرادة اهتدائهم والحرص على حصوله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(35/612)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الم (1) ﴾

هذه من الحروف المقطَّعة المبنية على الوقف ، على خلاف آيات القرآن التي بُنِيتْ كما قُلْنا على الوصل من أول القرآن إلى آخره ، بل على وصل آخره بأوله ؛ لذلك لا ينبغي أن تقرأ القرآن على الوصل ، ما دام نَفَسُكَ يساعدك ، ولا تقف إلا إذا انقطع النفَس ، فتقف وتُسكِّن الحرف الذي وقفتَ عليه .

وقد قال علماء القراءات : وليس في القرآن مِنْ وقف وجب ؛ لأنه بُني على الوصل ، فلا تقف إلا إذا ضاق نَفَسُك ؛ لذلك جعلوا في القرآن مواضع للوقف ، وتُرسم في المصحف (صِلى ، قِلى ، ج) ، لكن الأصل الوصل .

وقلنا : إن أوضح مثال على الوصل في القرآن أن كلمة الناس في آخر سورة الناس ، وهي آخر القرآن لم تأْتِ ساكنة ، إنما متحركة بالكسر (الناسِ) ؛ لأن الله تعالى قدَّر حلَّكَ في الناس فجعلك ترحل إلى بسم الله الرحمن الرحيم في أول الفاتحة ، فلا تقطع الصلة بين آخر القرآن وأوله ، وسمَّيْنا قارئ القرآن لذلك (الحالّ المرتحل) .

وهنا تأتي ﴿ الم ﴾ [السجدة : 1] بعد مفاتح الغيب الخمسة التي سبقتْ في آخر سورة لقمان ، وكأنها مُلْحقة بها ، فهي سِرٌّ استأثر الله تعالى بعلمه ، ونحن في تفسيرنا لها نحوم حولها ؛ لذلك كل مَنْ فسَّر الحروف المقطَّعة في بدايات السور لا بُدَّ أن يقول بعدها : والله أعلم بمراده ؛ لأن تفسيراتنا كلها اجتهادات تحوم حول المعنى المراد ؛ لذلك نحن لا نقول هذه الكلمة في كل آيات القرآن ، إنما في هذه الآيات والحروف بالذات .

وكيف بنا حين يجمعنا الله تعالى إنْ شاء الله في مقعد صِدْق عند مليك مقتدر ، كيف بنا حين نسمع هذا القرآن مباشرة من الله عز وجل ؟ لا شكَّ أننا سنسمع كلاماً كثيراً غير الذي سمعناه ، ومعاني كثيرة غير التي توصَّلنا إليها في اجتهاداتنا ، وعندها سنعرف مرادات الله تعالى في هذه الحروف ، وسنعرف كم قَصُرَتْ عقولنا عن فهمها ، وكم كنا أغبياء في فَهْمنا لمرادات ربنا .

وقوله تعالى ﴿ الم ﴾ [السجدة : 1] عادةً يأتي بعد هذه الحروف المقطعة أمر يخصُّ الكتاب العزيز .

وهنا يقول سبحانه :

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2)

مادة (نزل) وردتْ في القرآن بلفظ : نزل ، ونزَّل ، وأنزل ، أنزل تدل على التعدية ، يعني : أن الله تعالى عدَّى القرآن من اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يباشر مهمته في السماء الدنيا ، وهذا الإنزال من الله تعالى .

أما نزَّل فالتنزيل مهمة الملائكة ؛ لذلك يقول تعالى في الإنزال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] أي : من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم تتنزَّل به الملائكة مُنجَّماً حسب الأحداث ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193]

ويقول سبحانه : ﴿ وبالحق أَنزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ . . . ﴾ [الإسراء : 105] فقد كان محفوظاً عندنا في اللوح المحفوظ ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ [الواقعة : 193] ثم نزل به الروح الأمين جبريل .

وما دام ﴿ نَزَلَ بِهِ . . . ﴾ [الشعراء : 193] فهذا يعني أن القرآن نزل معه ، فقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] تساوي تماماً ﴿ وبالحق أَنزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ

. . . ﴾ [الإسراء : 105] . فالنزول يُنسَب مرة إلى القرآن ، ومرّةً إلى الروح الأمين . ومادة نزل وما يُشتق منها من إنزال وتنزيل تفيد كلها أنه جاء من جهة العلو إلى جهة أسفل منه ، كأنك تتلقّى من جهة أعلى منك وأرفع ، وما دُمْتَ تتلقى من جهة أعلى منك ، فإيّاك أنْ يضل بك الفكر لناحية أخرى .

(37/612)

لذلك يقول تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم في أمر التكليف : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 151] فنحن نفهم أن تعالوا بمعنى تعالَ . أي : أقبل ، لكنها تحمل مع هذا المعنى معنى العلو : أقبل دانياً إلى متعالٍ ، تعالَ من أوضاعك الرضية إلى عُلُو ربك في الملأ الأعلى .

تعالَ يعني : لا تأخذ من نفسك ولا من مُسَاوٍ لك ، إنما ارتفع وخُذْ من الأعلى ، ارتفع عن مستوى الأرض وعقولهم وأفكارهم ، وخُذْ من الذي شرَّع لك ؛ لأنه لا بُدَّ أن تكون عنده أمور ومواصفات آمن لك وأسلم ؛ لأن علمه أوسع ، فلا يُشَرِّع لك اليوم ما ينقضه غداً . ثم إنَّ شرعه لك يستوعب كل نواحي حياتك وأقضيتها ، وهذه المواصفات لا تكون إلا في الحق – تبارك وتعالى – وهو سبحانه أرحم بك من الوالدة بولدها ، فلا يُشرِّع لك إلا ما

يُصلحك ، ثم هو سبحانه ليس له غرض أو مصلحة ذاتية من وراء هذا التشريع ، كما نرى في تشريعات البشر للبشر .

وقد رأينا الرأسماليين حينما شرّعوا قانوناً جاء يخدمهم ، وليكونوا هم أول المنتفعين به ؛ لذلك سرعان ما تهاوى ؛ لأن شرط المشرِّع الحق ألاَّ ينتفع هو بما يُشرِّع ، وعليه فلا مشرِّع حقٍّ إلا الله .

لذلك رأينا حتى غير المؤمنين بالله من الكافرين أو المشركين بعد أنْ تعضَّهم الأحداث ، وتخفق قوانينهم في حَلَّ مشاكلهم يلجئون إلى حلول لها من قوانين الإسلام .

ولما سُئلنا في سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ [التوبة : 33] وفي موضع آخر ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ والله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [الصف : 8]

(38/612)

قالوا لنا : هذا يعني أن الإسلام ظاهر على الأديان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فما بالنا نرى الآن أكثر أهل الأرض من غير المسلمين ؟

فقلت في الرد عليهم : والله لو فهمتُم أسرار اللغة ، وتأملتُم هذه الآية لوجدتم أن الرَّد فيها ، فواحدة تقول : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [الصف : 8] ، والأخرى تقول ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ [التوبة : 33]

إذن : فالكفر والشرك موجودان مع وجود الإسلام ، وليس معنى الظهور هنا أن يطمس هؤلاء ، أو أنْ يُقْضَى عليهم قضاء مبرماً ، إنما يظهر عليهم بحيث يُضطرون إليه ، ويلجئون إلى أحكامه ، رغم عدم إيمانهم به ، وهذا أبلغ في الظهور ، أنْ تأخذ بما في القرآن وأنت غير مؤمن به ؛ لأنك لا تجد حلاً لقضاياك إلا فيه .

وأوضح مثال على ذلك أنهم هاجموا شرع الله في مسألة الطلاق ، وفي مسألة تعدُّد الزوجات ، واتهموا الإسلام بالوحشية . . إلخ ، ثم تضطرهم أقضية الحياة ومشاكلها أنْ يشرِّعوا الطلاق ، وأنْ يأخذوا به على مرأى ومَسْمع من الفاتيكان ، فماذا جرى ؟ فنقول لهم : هل أسلمتم وآمنتم ؟ لا ، إنما لجأنا إليه ؛ لأن فيه الحل لهذه المشاكل التي أحاطتْ بنا .

فهذه إذن شهادة العدو لدين الله ، وهذا هو أعظم الإظهار للإسلام على هذه الأديان ؛ لأنهم أسلموا ، لقالوا عنهم : أخذوا بهذا الشرع لأنهم لو أسلموا ، إنما ها هم يأخذون به وهم به كافرون مشركون .

ومعنى ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ . . ﴾ [السجدة : 2] أي : لا شكَّ فيه ، وقلنا : إن النسب في القضايا . أي نسبة شيء لشيء إما مجزوم بها أو غير مجزوم بها ، فلو قُلْنا : الأرض كروية

هذه قضية جزم بها الآن ، ونستطيع التدليل على صحتها دليلاً حسياً ، فهذه قضية واقعة ومجزوم بصحتها ، وعليها دليل في الكون .

(39/612)

فإنْ كانت القضية غَيْرَ مجزوم بها ، فهي بين ثلاث حالات : إما فيها شكّ ، أو ظنّ ، أو وهم : الشك أنْ تتساوى الكِفَّتان : الإثبات والنفي ، والظن أن تغلب جانب الإثبات فلا تجزم به إنما ترجّحه ، فإنْ غلَّبْتَ الأخرى وجعلتها هي الراجحة ، فهذا توهم .

وهنا قال سبحانه ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ . . ﴾ [السجدة : 2] لا شكَّ فيه ، فنفى الشكَّ ، وهو تساوي النفي والإثبات ، وما دام قد نفى التساوي ، فهذا يعني أنه أراد أنْ يثبت الأعلى . أي : أنه حقٌّ لا يرقى إليه الشك .

وجملة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ . . ﴾ [السجدة : 2] جملة اعتراضية بين ﴿ الكتاب . . ﴾ [السجدة : 2] ، وبين ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ [السجدة : 2] وما دام أنه من ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ [السجدة : 2] فلا بُدَّ أنه حقٌّ لا ريب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه . . . ﴾ .

عجيب أنْ يقابلَ العربُ كلامَ الله بهذا الاتهام ، وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، وقد بلغوا

في هذا شأناً عظيماً ، حتى جعلوا للكلام معارض وأسواقاً ، كما نقيم الآن المعارض لمنتجاتنا ، ولا يُعرض في المعارض هذه إلا السلع الجيدة محلّ الفخر ، فقبل الإسلام كان في عكاظ وذي المجاز مضمار للقول وللأداء البياني بين الأدباء والشعراء .

فعجيبٌ منهم ألاَّ يميزوا كلام الله عن كلام البشر ، خاصة وقد تحدَّاهم وتحدَّى فصاحتهم وبلاغتهم أنْ تأتي بآية واحدة من مثله ، ومعلوم أن التحدي يكون للقوي لا للضعيف ، فتحدَّى القرآن للعرب يُحسَبُ لهم ، وهو اعتراف بمكانتهم ومكانة لغتهم ، فهو – إذن – شهادة لهم ، ويكفيهم أن الله تعالى أدخلهم معه في مجال التحدي .

(40/612)

ولما عجزوا عن الإتيان بمثله راحوا يتهمونه ويتهمون رسول الله ، فمرة يقولون : شاعر ، ومرة : ساحر ، وأخرى يقولون : مجنون ، ومرة يقولون : بل يُعلِّمه ذلك أحد الأعاجم . . إلخ ، وهذا كله إفلاس في الحجة ، فهم يريدون أنْ يُكذِّبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما القرآن في حدِّ ذاته ، فلا يَخْفى عليهم أنه كلام الله ، وأن البشر لا يقولون مثل هذا الكلام ، بدليل أن الوليد بن المغيرة لما سمعه قال : " والله ، إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغْدِق ، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه " .

لذلك لما لم يجدوا في القرآن مطعناً اعترفوا بأنه من عند الله ، لكن كان اعتراضهم أنْ ينزل على هذا الرجل بالذات : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] فكانوا ينتظرون أنْ يُنزَّل القرآن على عظيم من عظمائهم او مِلَك من الملوك ، لكن أنْ ينزل على محمد هذا اليتيم الفقير ، فهذا لا يُرضيهم ، وقد ردَّ القرآن عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . ﴾ [الزخرف : 32]

يعني : إذا كنا قد قسمنا بينهم أمور الدنيا وما يتفاضلون به من عرضها ، فهل نترك لهم أمور الآخرة يُقسمونها على هواهم وأمزجتهم ؟ والرسالة رحمة من الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ﴿ والله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . ﴾ [الأنعام : 124]

وهذا يعني أنهم انتهوا إلى أن القرآن مُعْجز ، وأنه من عند الله لا غُبَار عليه ، والذي قرأه منهم ، وأيقن أنه حق قال : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32]

(41/612)

وهذا كلام لا يقول به عاقل ، وقد دلَّ على غبائهم وحُمْقهم ، وكان الأَوْلَى بهم أنْ يقولوا :

اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهْدِنا إليه .

وقد ردَّ القرآن على كل افتراءاتهم على رسول الله ، وفنَّدها جميعاً ، وأظهر بطلانها ، لما قالوا عن رسول الله إنه مجنون ردَّ الله عليهم :

﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 1-4]

والمجنون لا يكون أبداً على خلق عظيم ؛ لأنه محكوم بالغريزة لا يختار بين البدائل والتصرفات كالحيوان ، ولا ينشأ عن ذلك خُلق كريم .

أما الإنسان السَّويُّ فإنه يختار بين البدائل المتعددة ، فلو اعتدى عليه إنسان فقد يردُّ عليه . بمثل هذا الاعتداء ، وقد يفكر في المثلية ، وأن اعتداءه قد يزيد فيميل إلى التسامح ، واحد يكظم غيظه وآخر يزيل كل أثر للغيظ ، ويبغي الأجر على ذلك من الله ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ . . . ﴾ [النور : 22] وكأن الله يشجعنا على عمل الخير .

لذلك لما سُئل الحسن البصري : كيف يطلب الله منَّا أنْ نُحسن إلى مَنْ أساء إلينا ؟ قال : هذه مَرَاق في مجال الفضائل ، وقد أباح الله لك أنْ تردَّ الإساءة بمثلها ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . . ﴾ [الشورى : 40] لكن بترك الباب مفتوحاً أمام أريحية النفس المؤمنة ﴿

فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ . . . ﴾ [الشورى : 40]

ثم إذا حسبنا هذه المسألة بمقاييس العقل ، فإن الخَلْق كلهم عيال الله ، وهم عنده سبحانه سواء ، فماذا لو اعتدى أحد عيالك على الآخر ؟ لا شكَّ أنك ستكون في جانب المظلوم ، فتأخذه في حضنك وترعاه وتعطف عليه ، وكذلك الحق - تبارك وتعالى - يكون في جانب عبده إذا ظلم . وقد قال أحدهم : ألاَ أُحسن إلى مَنْ جعل الله في جانبي ؟

(42/612)

من هنا يقولون : أنت لا تكسب كثيراً من الأخيار ، إنما كل كسب لك يأتي من الأشرار حين يسيئون إليك وتحسِن إليهم ؛ لذلك يقولون : فلان هذا رجل طيب ، لكن مَنْ يمشي معه لا يستفيد منه حسنة أبداً ، لماذا ؟ يقولون : لأنه خادم للجميع ، وجعل خدَّه (مداساً) لمن معه ، فلا يجعل أحد (يستفتح) منه بحسنة .

ورُوي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تبسَّم في مجلس مع أصحابه ، فقالوا : ما يُضحك يا رسول الله ؟ فقال : " رأيتُ ربي ، وقد أجلس بين يديه خَصْمين ، فقال أحدهما : يا ربِّ إن هذا ظلمني فخُذْ لي حقِّي منه ، فقال : كيف آخذ لك حقك منه ؟ قال : أعطني من حسناته بقدر ما أساء إليّ ، فقال : ليست له حسنات ، فقال : فخُذْ من

سيئاتي واطرح عليه ، فقال أَوَيرضيك ألاَّ تكون لك سيئة ؟ قال : إذن ، يا رب كيف أقضي حقي منه ؟ قال : انظر يمينك ، فنظر الرجل يمينه ، فوجد قصوراً وبساتين وجِنَاناً ، مما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، فقال : لِمَنْ هذه يا ربِّ ؟ قال : لمن يدفع ثمنها ، فقال : وما ثمنها يا رب ؟ قال : أنْ تأخذَ بيد أخيك إلى الجنة ، فعجبتُ من رَبٍّ يُصلِح بين عباده " .

هذا عن قولهم عن رسول الله : مجنون ، أما قولهم : ساحر .

فالردُّ عليها ميسور ، فإذا كان محمد ساحراً ، سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم أنتم أيضاً ؟ فكونكم سالمين من السحر دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ليس ساحراً ، بل هذا كذب وافتراء على رسول الله .

أما قولهم : شاعر ، فهذا عجيب منهم ، وهم أمة كلام وبلاغة ، وهم أكثر خَلْق الله تمييزاً للشعر من النثر ، وخير مَنْ يفرق بين الأساليب وطرق الأداء ، وقد تولى الله تعالى الردَّ عليهم ، فقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ . . . ﴾ [يس : 69]

(43/612)

وفي سورة الحاقة ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة : 41-42]

فلما خابتْ كُلُّ هذه الحيل ، وكذبتْ كل هذه الافتراءات قالوا : بل له شيطان يُعلِّمه ، وكانوا يقولون ذلك للشاعر البليغ الذي لا يُشَقُّ له غبار في الفصاحة وحُسْن الأداء ، حتى جعلوا لهؤلاء الجن مكاناً خاصاً بهم ، فقالوا (وادي عبقر) ، وهو مسكن هؤلاء الجن الذي يُلْهِمون البشر ويُعلِّمونهم .

والشعر كلام موزون مُقفَّى ، وله بحور معروفة ، فهل القرآن على هذه الشاكلة ؟ لا ، إنما هو افتراء على رسول الله ، كافترائهم عليه هنا : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه . . ﴾ [السجدة : 3] فقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ . . ﴾ [السجدة : 3] أم تعني أن لها مقابلاً : يعني : أيقولون كذا ؟ أم يقولون : افتراه ، فماذا هذا المقابل ؟ المقابل ﴿ تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ [السجدة : 2] فالمعنى : أيُصدِّقون بأن هذا الكتاب من عند رب العالمين ، وأنه لا رَيْبَ فيه ؟ أم يقولون افتراه محمد ، فأَمْ هنا جاءت لتنقض ما يُفهَم من الكلام السابق عليها .

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ . . ﴾ [السجدة : 3] نعرف أن (بل) تأتي للاستدراك ، لكنها هنا ليست للاستدراك ، إنما لإبطال قولهم : ﴿ افتراه . . ﴾ [السجدة : 3] كما لو قُلْت : زيد ليس عندي بل عمرو ، فأفادتْ الإضراب عما قبلها ،

وإثبات الحكم لما بعدها ، وهم يقولون افتراه والله يقول : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ . . ﴾ [السجدة : 3 فكلامهم واتهامهم باطل ، والقرآن هو الحق من عند الله .

(44/612)

وقُلْنا : إن ﴿ الحق . . ﴾ [السجدة : 3] هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير ؛ لذلك فالحقائق ثابتة لا تتغير أبداً ، كيف ؟ هَبْ أن حادثة وقعتْ نتج عنها مُدَّع ومُدَّعًى عليه وشهود ، واجتمعوا جميعاً أمام القاضي ، وقد يحدث أن يُغيِّر أحدهم أقواله ، أو يشهد الشهود شهادة زور .

لكن خبرة القاضي ودُرْبته تكشف الحقائق وتُظهِر كذبهم حين يضرب أقوال بعضهم ببعض ، ويسألهم ويحاورهم إلى أنْ يصل إلى الحقيقة ؛ ذلك لأن الواقع شيء واحد ، ولو أنهم يصفون واقعاً لا تفقوا فيه ، ولباقة القاضي هي التي تُظهِر الباطل المتناقض وتُبطله وتُحِقّ وتغلب الحق الذي لا يمكن أن يتناقض .

كالقاضي الذي اجتمع أمامه خَصمْان ، يدَّعي أحدهما على الاخر أنه أخذ منه مالاً ولم يردّه إليه ، فقال المدَّعَي عليه : بل رددته إليه في مكان كذا وكذا ، فأنكر المدَّعى ، فقال القاضي للمدَّعَى عليه : اذهب إلى هذا المكان ، فلعل هذا المال وقع منك هناك ، فذهب

الرجل وأبطأ بعض الوقت ، فقال القاضي للمدعى : لقد أبطأ صاحبك ، فقال : أبطأ ؛ لأن المكان بعيد ، فوقع في الحقيقة التي كان ينكرها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ . . ﴾ [السجدة : 3]

ومعلوم أنه سيدنا رسول الله جاء بشيراً ونذيراً ، لكن خصَّ هنا النذير ؛ لأنه جاء ليصلح معتقدات فاسدة ، وإصلاح الفاسد لا بُدَّ أن يسبق ما يُبشر به ، ولم يأْتِ ذكر البشارة هنا ؛ لأنهم ما سمعوا للنذارة ، وما استفادوا بها .

(45/612)

لكن قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ . . ﴾ [السجدة : 3] تصطدم لفظياً بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وليس بين هذه الآيات تناقض ؛ لأن المعنى : ما أتاهم من نذير قريب ، ولا مانع من وجود نذير بعيد ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل . . . ﴾ [المائدة : 19]

وإلا ، فمن أين عرفوا أن الله تعالى خالق السموات والأرض ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحمد لِلَّهِ . . . ﴾ [لقمان :

25] فهذا أثر من آثار الرسل السابقين ، كما كان فيهم أناس متبعون لمنهج الدين الحق ، والذين سماهم الله الحنفاء ، وهم الذين لم يسجدوا لصنم ، ولم ينحرفوا عن الفطرة السوية .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة : 3] لعل تفيد الرجاء ، والرجاء من الله كأنه واقع متحقق ؛ لأن الله تعالى يحب لعباده جميعاً أنْ يؤمنوا به ؛ ليأخذوا جميل عطائه في الآخرة ، كما أخذوا عطاءه في الدنيا ، وهم جميعاً خَلْقه وصَنْعته ، وسبق أن ذكرنا الحديث القدسي : " . . . دعوني وما خلقت ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا إلىَّ فأنا طبيبهم . . " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(46/612)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بسم الله الرحمن

قوله : ﴿ تَنزِيلُ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه خبرُ " ألم " لأنَّ " ألم " يُرادُ به السورةُ وبعضُ القرآنِ . وتنزيلُ بمعنى مُنزّل . والجملةُ مِنْ قوله : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ حالٌ من " الكتاب " . والعاملُ فيها " تنزيلُ " لأنه مصدرٌ . و " مِنْ رَبِّ " متعلِّقٌ به أيضاً . ويجوزُ أن يكون حالاً من

الضمير في "فيه" لوقوعِه خبراً . والعاملُ فيه الظرفُ أو الاستقرارُ .

الثاني : أَنْ يكونَ "تَنْزِل" مبتدأً ، ولا "ريبَ فيه" خبرُه . و ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ حالٌ من الضمير في "فيه" . ولا يجوزُ حينئذٍ أَنْ يتعلَّقَ ب تنزيل ؛ لأنَّ المصدرَ قد أُخْبِر عنه فلا يَعْمَلُ . ومَنْ يَتَّسِعُ في الجارِّ لا يبالي بذلك .

الثالث : أَنْ يكونَ "تنزيلُ" مبتدأ أيضاً . و "مِنْ رَبِّ" خبرُه و "لا/ ريبَ" حالٌ أو معترضٌ . الرابع : أن يكون "لا ريب" و ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ خبرين ل "تنزيلُ" . الخامس : أن يكون خبرَ مبتدأ مضمر ، وكذلك "لا ريبَ" ، وكذلك "مِنْ ربّ" ، فتكونُ كلُّ جملةٍ مستقلةً برأسِها . ويجوزُ أَنْ يكونا حالَيْن من "تنزيلُ" ، وأن يكونَ "مِنْ رب" هو الحالَ ، و "لا ريبَ" معترضٌ . وأولُ البقرةِ مُرْشِدٌ لهذا ، وإنما أَعَدْتُه تَطْرِيَةً .

وجَوَّز ابنُ عطية أَنْ يكونَ ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ متعلّقاً ب "تنزيل" قال : "على التقديم والتأخير" . ورَدَّه الشيخ : بأنَّا إذا قُلنا : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراضٌ لم يكنْ تقديماً وتأخيراً ، بل لو تأخَّر لم يكنْ اعتراضاً . وجَوَّز أيضاً أَنْ يكونَ متعلّقاً ب "لا ريبَ" أي : لا ريبَ فيه مِنْ جهةِ ربِّ العالمين ، وإنْ وَقَعَ شَكٌّ للكفرةِ فذلك لا يُراعَى .

قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ : هي المنقطعةُ ، والإِضرابُ انتقالٌ لا إبطالٌ .

قوله : ﴿ بَلْ هُوَ الحق ﴾ إضرابٌ ثانٍ . ولو قيل بأنَّه إضرابُ إبطالٍ لنفسِ " افتراه " وحدَه لكان صواباً ، وعلى هذا يُقال : كلُّ ما في القرآنِ إضرابٌ فهو انتقالٌ إلاَّ هذا ، فإنه يجوزُ أَنْ يكونَ إبطالاً ؛ لأنه إبطالٌ لقولِهم أي : ليس هو كما قالوا مفترى بل هو الحقُّ . وفي كلامِ الزمخشريِّ ما يُرْشِدُ إلى هذا فإنه قال : " والضميرُ في " فيه " راجعٌ إلى مضمونِ الجملة . كأنه قيل : لا ريبَ في ذلك ، أي : في كونِه مِنْ رب العالمين . ويَشْهَدُ لوجاهَتِه قولُه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ : افتراه ﴾ ؛ لأنَّ قولهم " هذا مفترى " إنكارٌ لأَنْ يكونَ مِنْ ربِّ العالمين ، وكذلك قوله : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ وما فيه تقريرٌ أنه من عندِ الله . وهذا أسلوبٌ صحيحٌ مُحْكَمٌ " .

قوله : " مِنْ ربّك " حالٌ من " الحقّ " والعاملُ فيه محذوفٌ على القاعدة ، وهو العاملُ في " لِتُنْذِرَ " أيضاً ، ويجوزُ أَنْ يكونَ العاملُ في " لتنذر " غيرَه أي : أنزله لتنذِرَ .

قوله : ﴿ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم ﴾ الظاهرُ أنَّ المفعولَ الثاني للإنذار محذوفٌ . و " قوماً " هو الأولُ ؛ إذ التقديرُ : لتنذِرَ قوماً العقابَ ، و " ما أتاهم " جملةٌ منفيَّةٌ في محلِّ نصبٍ صفةً لـ " قوماً " يريد : الذين في الفترةِ بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام . وجعله الزمخشري كقوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ [يس : 6] فعلى هذا يكونُ " مِنْ نذير " هو فاعلَ "

أتاهم " و " مِنْ " مزيدةٌ فيه . و " مِنْ قبلِك " صفةٌ لنذير . ويجوزُ أَنْ تتعلَّقَ " مِنْ قبلك " ب " أَتاهم " .

(48/612)

وجَوَّزَ الشيخُ أَنْ تكونَ " ما " موصولةً في الموضعين ، والتقدير : لتنذِرَ قوماً العقابَ الذي أتاهم مِنْ نذيرٍ مِنْ قبلك . و " مِنْ نذير " متعلقٌ ب " أَتاهم " أي : أتاهم على لسانِ نذيرٍ مِنْ قبلِك ، وكذلك ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ [يس : 6] أي : العقابَ الذي أُنْذِرَه آباؤهم . ف " ما " مفعولةٌ في الموضعين ، و " لِتُنْذرَ " يتعدَّى إلى اثنين . قال تعالى : ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً ﴾ [فصلت : 13] . وهذا القولُ جارٍ على ظواهر القرآن . قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ [المائدة : 19] . قلت : وهذا الذي قاله ظاهرٌ .

ويظهر أنَّ في الآية الأخرى وجهاً آخرَ : وهو أَنْ تكونَ " ما " مصدريةً تقديرُه : لتنذِرَ قوماً إنذاراً مثلَ إنذارِ آبائِهم ؛ لأنَّ الرسلَ كلَّهم متفقون على كلمة الحق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 77 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الميم نفسها)

الميم ترد فى الكلام على اثنى عشر وجهاً :

1- حرف شَفَوىّ من حروف الهجاء ، يظهر من انطباق الشفتين قرب مخرج الباء .

والنسبة مِيمىّ .

والفعل منه : ميّمت ميماً حَسَناً وحسنًة .

وجمعه على التذكير : أَميام ، وعلى التأَنيث : مِيمات ومِيَمٌ .

2- الميم عبارة عن عدد الأَربعين فى حساب الجُمّل

3- الميم الأَصلىّ ، كما فى : ملح ، ومحل ، ولحم ، وحلم ، وحمل ، ولمح .

4- ميم التثنية : أَنتما ولكما .

5- ميم الجمع : أَنتم ولكم .

6- الميم المكرَّرة ، نحو : عمّ وعمّم

7- الميم الكافية : التى تكون كناية عن كلمة ؛ نحو : حم ، ح : حِلمه ، م : مِلْكه .

وله نظائر .

8- ميم المفعول : وتكون مفتوحة ، كميم منصور ومحبوب .

ويكون فى مسبغة مضموماً فاعلاً كان أَو مفعولاً ؛ نحو مُكرِم ومكرَم .

9- الميم الزائدة : ومنها ما يكون أَوّل الكلمة كمضرب ومِثْقب ، أَو فى وسطها كلبِن قمارِص ودِرع دُلاَمِص ، أَوفى آخِرها نحو زرقم وشدقم .

10- الميم المبدَلة : من الباء ، نحو : بنات بخر وبنات مخر ؛ أَو من الواو ، نحو : فَم ، فإِن الأَصل فَوْه بدليل أَن الجمع أَفواه ؛ أَو لام التعريف كالحديث "لَيْسَ من امْبِرّ امْ صِيامُ فى امْ سَفَر" أَو من النون كالبَنَام فى البَنَان .

11- الميم اللغوىّ ، قال اللغويُّون : الميم : الخمر ، قال :

*إِنى امرؤ فى سعة أَو مَحْل * أَمتزِج الميم بماءٍ ضحِل* . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 475.476 ﴾

(50/612)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

كلمة سماعها ربيع الجميع ، من العاصي والمطيع ، والشريف والوضيع ، من أصغى إليها بسمع الخضوع ترك طيب الهجوع ، ومن أصغى إليها بسمع المحاب ترك لذيذ الطعام والشراب .

﴿ الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) ﴾

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتي فلا يصبرون عني ، وأَلِفَ العارفون تمجيدي فلا يستأنسون بغيري .

والإشار في اللام إلى لقائي المدَّخرِ لأحبَّائي ، فلا أبالي أقاموا على ولائي أم قصَّروا في وفائي .

والإشارة في الميم : أي تَرَكَ أوليائي مرادَهم لمرادي . . فلذلك آثرتُهم على جميع عبادي .

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة : 2] : إذا تَعَذَّرَ لقاءُ الأحباب فأَعَزُّ شيءٍ على الأحباب كتابُ ؛ أُنْزِلَتْ على أحبابي كتابي ، وحمَلَتْ إليهم الرسالةُ خطابي ، ولا عليهم إنْ قَرَعَ أسماعَهم عتابي ، فَهُمْ في أمانٍ من عذابي .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

(3)

الذي لكم منا حقيقة ، وإنْ التبس على الأعداء فليس يضيركم ، ولا عليكم ، فإنَّ صحبةَ الحبيب مع الحبيب ألَذُّها ما كان مقروناً بفقد الرقيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 138.139 ﴾

(51/612)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر بما سبق في التي قبلها من اتصافه تعالى بكمال العلم أنه من عنده وبعلمه لا محالة ، وكان هذا أمراً يهتم بشأنه ويعتني بأمره ، لأنه عين المقصود الذي ينبني عليه أمر الدين ، وختم ما ذكره من أمره ههنا بإقامة اهتدائهم مقام الترجي بإنذاره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أتبعه بيان ذلك بإيجاد عالم الأشباح والخلق ثم عالم الأرواح والأمر ، وإحاطة العلم بذلك

كله على وجه يقود تأمله إلى الهدى ، فقال مستأنفاً شارحاً لأمر يندرج فيه إنزاله معبراً بالاسم الأعظم لاقتضاء الإيجاد والتدبير على وجه الانفراد له : ﴿ الله ﴾ أي الحاوي لجميع صفات الكمال وحده : ﴿ الذي خلق السماوات ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ بأسرها ﴿ وما بينهما ﴾ من المنافع العينية والمعنوية .

ولما كانت هذه الدار مبنية على حكمة الأسباب كما أشير إليه في لقمان ، وكان الشيء إذا عمل بالتدرج كان أتقن ، قال : ﴿ في ستة أيام ﴾ كما يأتي تفصيله في فصلت ، وقد كان قادراً على فعل ذلك في أقل من لمح البصر ، ويأتي في فصلت سر كون المدة ستة .

(52/612)

ولما كان تدبير هذه وحفظه وتعهد مصالحه والقيام بأمره أمراً – بعد أمر إيجاده – باهراً ، أشار إلى عظمته بأداة التراخي والتعبير بالافتعال فقال : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي استواء لم يعهدوا مثله وهو أنه أخذ في تدبيره وتدبير ما حواه بنفسه ، لا شريك له ولا نائب عنه ولا وزير ، كما تعهدون من ملوك الدنيا إذا اتسعت ممالكهم ، وتباعدت أطرافها ، وتناءت أقطارها ، وهو معنى قوله تعالى استئنافاً جواباً لمن كأنه قال : العرش بعيد عنا جداً فمن استنابه في أمرنا ، ولذلك لفت الكلام إلى الخطاب لأنه اقعد في التنبيه : ﴿ مالكم

من دونه ﴾ لأنه كل ما سواء من دونه وتحت قهره ، ودل على عموم النفي بقوله : ﴿ من ولي ﴾ أي يلي أموركم ويقوم بمصالحكم وينصركم إذا حل بكم شيء مما تنذرون به ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع عنده في تدبيركم أو في أحد منكم بغير إذنه ، وهو كناية عن قربه من كل شيء وإحاطته به ، وأن إحاطته بجميع خلقه على حد سواء لا مسافة بينه وبين شيء أصلاً .

ولما كانوا مقرين بأن الخلق خلقه والأمر أمره ، عارفين بأنه لا يلي وال من قبل ملك من الملوك إلا بحجة منه يقيمها على أهل البلدة التي أرسل إليها أو ناب فيها ، ولا يشفع شفيع فيهم إلا وله إليه وسيلة ، تسبب عن ذلك الإنكار عليهم في قوله : ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أي تذكراً عظيماً بما أشار إليه الإظهار ما تعلمونه من أنه الخالق وحده ، ومن أنه لا حجة لشيء مما أشركتموه بشيء مما أهلتموه له ولا وسيلة لشيء منهم إليه يؤهل بها في الشفاعة فيكم ولا أخبركم أحد منهم بشيء من ذلك ، فكيف تخالفون في هذه الأمور التي هي أهم المهم ، لأن عاقبتها خسارة الإنسان نفسه ، فضلاً عما دونها عقولكم وما جرت به عوائدكم ، وتتعللون فيها المحال ، وتقنعون بقيل وقال ، وتخاطرون فيه بالأنفس والأولاد والأموال .

(53/612)

ولما نفى أن يكون له شريك أو وزير في الخلق ، ذكر كيف يفعل في هذا الملك العظيم الذي أبدعه في ستة أيام من عالم الأرواح والأمر ، فقال مستأنفاً مفسراً للمراد بالاستواء : ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي كل أمر هذا العالم بأن يفعل في ذلك فعل الناظر في أدباره لإتقان خواتمه ولوازمه ، كما نظر في إقباله لإحكام فواتحه وعوازمه ، لا يكل شيئاً منه إلى شيء من خلقه ، قال الرازي في اللوامع : وهذا دليل على أن استواءه على العرش بمعنى إظهار القدرة ، والعرش مظهر التدبير لا قعر المدبر .

ولما كان المقصود للعرب إنما هو تدبير ما تمكن مشاهدتهم له من العالم قال مفرداً : ﴿ من السماء ﴾ أي فينزل ذلك الأمر الذي أتقنه كما يتقن من ينظر في أدبار ما يعلمه ﴿ إلى الأرض ﴾ غير متعرض إلى ما فوق ذلك ، على أن السماء تشمل كل عال فيدخل جميع العالم .

(54/612)

ولما كان الصعود أشق من النزول على ما جرت به العوائد ، فكان بذلك مستبعداً ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ثم يعرج ﴾ أي يصعد الأمر الواحد - وهو من الاستخدام الحسن - إليه ، أي بصعود الملك إلى الله ، أي إلى المواضع الذي شرفه أو أمره بالكون فيه كقوله تعالى :

﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ [الصافات : 99] ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ﴾ [النساء : 100] ونحو ذلك ، أو إلى الموضع الذي ابتدأ منه نزول التدبير وهو السماء وكأنه صاعد في معارج ، وهي الدرج على ما تتعارفون بينكم ، في أسرع من لمح البصر ﴿ في يوم ﴾ من أيام الدنيا ﴿ كان مقداره ﴾ لو كان الصاعدين واحداً منكم على ما تعهدون ﴿ ألف سنة مما تعدون ﴾ من سنيكم التي تعهدون ، والذي دل على هذا التقدير شيء من العرف وشيء من اللفظ ، أما اللفظ فالتعبير ب "كان" مع انتظام الكلام بدونها لو أريد غير ذلك ، وأما العرف فهو أن الإنسان المتمكن يبني البيت العظيم العالي في سنة مثلاً ، فإذا فرّغه صعد إليه خادمه إلى أعلاه في أقل من درجتين من درج الرمل ، فلا تكون نسبة ذلك من زمن بنائه إلا جزءاً لا يعد ، هذا وهو خلق محتاج فما ظنك بمن خلق الخلق في ستة أيام وهو غني عن كل شيء قادر على كل شيء وظاهر العبارة أن هذا التقدير بالألف لما بين السماء والأرض بناء على أن البداية والغاية لا يدخلان ، فإذا أردنا تنزيل هذه الآية على أية سأل أخذنا هذا بالنسبة إلى صعود أحدنا مستوياً لو أمكن ، وجعلت الأرض واحدة في العدد ، وأول تعددها كما قيل باعتبار الأقاليم ، وزيد عليه مقدار ثخن السماوات وما بينهما ، وزيد على المجموع مثل نصفه لمسافة الانحناء في بناء الدرج والتعريج الذي هو مثل محيط الدائرة بالوتر الذي قسمها بنصفين ليمكن الصعود منا ، وهو مقدار نصف مسافة الاستواء وشيء يسير ، لأنك إذا قسمت دائرة بوتر كان ما بين

رأسي الوتر من محيط نصف الدائرة بمقدار ذلك الوتر مرة ونصفاً سواء يزاد عليه يسير لأجل

(55/612)

تعاريج الدرج ، فإذا فعلنا ذلك كان ما بين أحد سطحي الكرسي المحدب وما يقابله من السطح الآخر بحسب اختراقه من جانبيه واختراق أطباق السماوات السبع : الأربعة عشر ، اثنين وثلاثين ألف سنة ، لأنه يخص كل سماء ألفان ، لأنه فهم من هذا السياق أن من مقعر السماء إلى سطح الأرض الذي نحن عليه سيرة ألف سنة وبعد ما بين كل سمائين كبعد ما بين السماء والأرض ، وثخن كل سماء كذلك ، فيكون بعد ما بين أحد سطحي الأرض إلى سطح الكرسي الأعلى ستة عشر ألف سنة ، وبعد ما بين سطح الأرض إلى أعلى سطح الكرسي من الجانب الآخر كذلك ، ثم يزاد على المجموع وهو اثنان وثلاثون ألف سنة مسافة ثخن الأرض وهي ألف سنة ليكون المجموع ثلاثة وثلاثين ألف سنة يزاد عليه ما للتعريج ، وهو نصف تلك المسافة وشيء يكون سبعة عشر ألف سنة ، فذلك خمسون ألف سنة ، وإنما جعلت سطح الكرسي الأعلى النهاية ، لأن العادة جرت أن لا يصعد إلى عرش الملك غيره ، وأن الأطماع تنقطع دونه ، بل ولا يصعد إلى كرسيه ، وسيأتي اعتبار

ذلك في الوجه الأخير ، وإن قلنا : إن الأراضي سبع على أنها كرات مترتبة متعالية غير متداخلة ، وأدخلنا العرش في العدد فنقول : إنه مع الكرسي والسماوات تسعة ، فجانباها الحيطان بالأرض ثماني عشرة طبقة ، والأراضي سبع ، فتلك خمس وعشرون طبقة ، فكل واحدة – مع ما بينها وبين الأخرى على ما هو ظاهر الآية – ألفان ، فضعف هذا العدد ، فيكون خمسين ألفاً ، وهذا الوجه أوضح الوجوه وأقربها إلى مفهوم الآية ، ولا يحتاج معه إلى زيادة لأجل انعطاف الدرج ، ويجوز أن نقول : إن السر – والله أعلم – في جعل ما مسيرته خمسمائة سنة – كما في الحديث – ألف سنة لأجل التعريج ، والحديث ليس نصاً في سير معين حتى يتحامى تأويله بل قد ورد بألفاظ متغايرة منها خسمائة ومنها اثنتان وسبعون سنة ومنها إحدى وسبعون إلى غير ذلك فلا بد أن يحمل كل لفظ على سير فنقول : الخمسمائة للصاعد في درج مستقيم كدرج

(56/612)

الدقل مثلاً ، والاثنان وسبعون لسير الطائر والألف كما في الآية لدرج منعطف ، ويدل عليه ما رواه الترمذي – وقال : إسناده حسن – عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

" لو أن رصاصة مثل هذه – وأشار إلى مثل الجمجمة – أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهي مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها " ، أو تقول : إن الألف لجملة التدبير بالنزول والعروج – والله أعلم ، وإن جعلنا البداية داخلة فتكون الألف من سطح الأرض الذي نحن عليه إلى محدب السماء لتتفق الآية مع الحديث القائل بأن بين الأرض والمساء خمسمائة سنة ، وثخن السماء كذلك ، وكذا بقية السماوات والعرش ، أدخلنا العرش في العدد وقلنا : إن الأراضي سبع متداخلة كالسماوات ، كل واحدة منها في التي تليها ، فالتي نحن فيها أعلاها محيطة بها كلها ، فهي بمنزلة العرش للسماوات ، فتكون السماوات السبع من جانبيها بأربعة عشر ألفاً والأراضي كذلك فذلك ثمانية وعشرون ألفاً والعرش والكرسي من جانبيها بأربعة فذلك اثنان وثلاثون ألفاً يضاف إليها ما يزيد انحناء المعارج الذي يمكن لنا معه العروج ، وهو نصف مسافة الجملة وشيء ، فالنصف ستة عشر ألفاً ، ونجعل الشيء الذي لم يتحرر لنا ألفين ، فذلك ثمانية عشر ألفاً إلى اثنين وثلاثين ، فالجملة خمسون ألفاً ويمكن أن يكون ذلك بالنسبة إلى السماوات مع الأراضي ، والكل متطابقة

متداخلة ، فتلك ثمان وعشرون طبقة من سطح السماء السابعة الأعلى إلى سطحها الأعلى من الجانب الآخر ، فذلك ثمانية وعشرون - ألف سنة ، لكل جرم خمسمائة ، ولما بينه وبين الجرم الآخر كذلك فذلك ألف فضعفه بالنسبة إلى الهبوط والصعود فيكون ستة وخمسين ألفاً حسب منه خمسون ألفاً والغى الكسر ، لكن هذا الوجه مخالف لظاهر الآية التي في سورة سأل ، وهي قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج : 5] فإنه ليس فيها ذكر الهبوط والله أعلم .

(58/612)

وكل من هذه الوجوه أقعد مما قاله البيضاوي في سورته سأل ، وأقرب للفهم العرف ، فإن كان ظاهر حاله أنه جعل الثمانية عشر ألفاً من أعلى سرادقات العرش إلى أعلى سرادقاته من الجانب الآخر ولا دليل على هذا ولا عرف يساعد في صعود الخدم إلى أعلى السرادق ، وهو الأعلى منه ، والعلم عند الله تعالى ، وروى إسحاق بن راهويه عن أبي ذر - رضى الله عنه - عن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال : " ما بين سماء الدنيا إلى الأرض خمسمائة سنة ، وما بين كل سماء إلى التي تليها خمسمائة سنة إلى السماء السابعة ، والأرض مثل ذلك ، وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك " واعلم أن القول بأن

الأراضي سبع هو الظاهر لظاهر قوله تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ﴾

(59/612)

[الطلاق : 12] ويعضده ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " من ظلم قدر شبر من الأرض طوقه الله من سبع أرضين " ، وفي رواية للبغوي : خسف به إلى سبع أرضين ، وروى ابن حبان في صحيحه عن ابن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إن المؤمن إذا حضره الموت – فذكره إلى أن قال : وأما الكافر إذا قبضت نفسه ذهب به إلى الأرض فتقول خزنة الأرض : ما وجدنا ريحا أنتن من هذه ، فيبلغ بها إلى الأرض السفلى " – قال المنذري : وهو عند ابن ماجه بسند صحيح ، ويؤيد من قال : إنها متطابقة متداخلة كالكرات وبين كل أرضين فضاء كالسماوات ما روى الحاكم وصححه عند عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن الأرضين بين كل أرض إلى التي تليها مسيرة خمسمائة سنة ، فالعليا منها على ظهر حوت " إلى آخره ، وهو في آخر الترغيب للحافظ المنذري في آخر أهوال القيامة في سلاسلها وأغلالها ،

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث عن مجاهد رحمه الله أنه قال : إن الحرم حرم مناه من السماوات السبع والأرضين السبع ، وأنه رابع أربعة عشر بيتاً ، في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت لو سقطت لسقط بعضها على بعض – مناه يعني قصده وحذاءه ، وفي مجمع الزوائد للحافظ نور الدين الهيثمي أن الإمام أحمد روى من طريق الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه إذا مرت سحابة فقال : هل تدرون ما هذه ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ! قال : العنان وزوايا الأرض يسوقه الله إلى من لا يشكره ، ولا يدعوه ، أتدرون ما هذه فوقكم ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ! قال : الرفيع موج مكفوف ، وسقف محفوظ ، أتدرون كم بينكم وبينها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ! قال : مسيرة خمسمائة عام ، ثم قال : أتدرون ما الذي

فوقها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ! قال : سماء أخرى ، أتدرون كم بينكم وبينها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ! قال : مسيرة خمسمائة عام – حتى عد سبع سماوات ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ! قال : والعرش ، قال : أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ؟ قال : مسيرة خمسمائة عام ، ثم قال : ما هذه تحتكم ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم ؟ قال : أرض قال : أتدرون ما تحتها ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ! قال : أرض أخرى ، أتدرون كم بينهما ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ! قال : مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبعين أرضين ، ثم قال : وأيم الله لو دليتم بحبل لهبط ، ثم قرأ :

(61/612)

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ [الحديد : 3] قال : رواه الترمذي غير أنه ذكر أن بين كل أرض والأرض الأخرى خمسمائة عام ، وهنا سبعمائة ، وقال في آخره : " لو دليتم بحبل لهبط على الله " ولعله أراد : على عرش الله أو على حكمه وعلمه وقدرته ، يعني أنه في ملكه وقبضته ليس خارجاً عن شيء من أمره – والله أعلم ، ورأيت في جامع الأصول لابن الأثير بعد إيراده هذا الحديث ما نصه قال أبو عيسى قراءة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الآية تدل على أنه أراد : لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه ويكون مؤيداً للقول بأنها كرات متطابقة متداخلة – والله أعلم – ما روى أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ما السماوات السبع والأرضون السبع في العرش إلا كحلقة ملقاة في فلاه " ولم يقل : كدرهم – مثلاً ، وكذا ما روى محمد بن أبي عمر وإسحاق بن راهويه وأبو بكر بن أبي شيبة وأحمد بن حنبل وابن حبان عن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ

حديثاً طويلاً فيه ذكر الأنبياء ، وفيه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " تدري ما مثل السماوات والأرض في الكرسي ؟ قلت : لا إلا أن تعلمني مما علمك الله عز وجل ، قال : مثل السماوات والأرض في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة ، وإن فضل الكرسي على السماوات والأرض كفضل الفلاة على تلك الحلقة " وأصله عند النسائي والطيالسي وأبي يعلى ، وكذا ما روى صاحب الفردوس عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما السماوات السبع في عظمة الله إلا كجوزة معلقة " ، وقوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 255] يدل على أن الكرسي محيط بالكل من جميع الجوانب وقوله تعالى : ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] صريح في ذلك ، فإن النفوذ يستعمل في الخرق لا سيما مع التعبير ب " من " دون " في " ، وكذا قوله في السماء ﴿ ومالها من فروج ﴾ والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 45 ـ 52 ﴾

(62/612)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل ، فقال : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ الله مبتدأ وخبره الذي خلق ، يعني الله هو الذي خلق السموات والأرض ولم يخلقهما إلا واحد فلا إله إلا واحد ، وقد ذكرنا أن قوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ إشارة إلى ستة أحوال في نظر الناظرين وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظراً إلى خلقه ذات السموات حالة ونظراً إلى خلقه صفاتها أخرى ونظراً إلى ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك ونظراً إلى ذوات ما بينهما وإلى صفاتها كذلك فهي ستة أشياء على ستة أحوال وإنما ذكر الأيام لأن الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والأيام أشهر الأزمنة ، وإلا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره :

إن يوماً ولدت فيه . . كان يوماً مباركاً

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلاً ولا يخرج عن مراده ، لأن المراد هو الزمان الذي هو ظرف ولادته .

(63/612)

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ اعلم أن مذهب العلماء في هذه الآية وأمثالها على وجهين أحدهما : ترك التعرض إلى بيان المراد وثانيهما : التعرض إليه والأول أسلم والى الحكمة أقرب ، أما أنه أسلم فذلك لأن من قال أنا لا أتعرض إلى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا ، لا يكون حاله إلا حال من يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئاً لم يجب عليه أن يعلمه ، وذلك لأن الأصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله أنه متى يكون غير واجب ، ولهذا قال تعالى في آخر السورة المتقدمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان : 34]

فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال وتعاليه عن وصمات الإمكان وصفات النقصان ، ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هي ، وصفة الاستواء مما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض إليه لم يترك واجباً ، وأما من يتعرض إليه فقد يخطىء فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالأول غاية ما يلزمه أنه لا يعلم ، والثاني يكاد أن يقع في أن يكون جاهلاً مركباً وعدم العلم الجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد في أن السكوت خير من الكذب ، وأما إنه أقرب إلى الحكمة فذلك لأن من يطالع كتاباً صنفه إنسان وكتب له شرحاً والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لا يأتي على جميع ما أتى عليه المصنف ، ولهذا كثيراً ما نرى أن الإنسان يورد الإشكالات على المصنف المتقدم ثم يجيء من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وإنما أراد كذا

وكذا وإذا كان حال الكتب الحادثة التي تكتب عن علم قاصر كذلك ، فما ظنك بالكتاب العزيز الذي فيه كل حكمة يجوز أن يدعي جاهل أني علمت كل سر في هذا الكتاب ، وكيف ولو ادعى عالم اني علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلاني يستقبح منه ذلك ، فكيف من يدعي أنه علم كل ما في كتاب الله ؟ ثم ليس لقائل

(64/612)

أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لأن تأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز ولعل القرآن ما لا يحتاج إليه أحد غير نبيه فبين له لا لغيره ، إذا ثبت هذا علم أن في القرآن ما لا يعلم ، وهذا أقرب إلى ذلك الذي لا يعلم ، للتشابه البالغ الذي فيه ، لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلمه قطعاً أنه ليس بمراد ، وهذا لأن قائلاً إذا قال إن هذه الأيام أيام قرء فلانة يعلم أنه لا يريد أن هذه الأيام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الأيام أيام سفر فلانة ، وإنما المراد منحصر في الطهر أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصاً في ذاته لاستحالة ذلك ، والجلوس والاستقرار المكاني من ذلك الباب فيجب القطع بنفي ذلك والتوقف فيما يجوز بعده والمذهب الثاني : خطر ومن يذهب إليه فريقان أحدهما : من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكاني وثانيهما : من يقول المراد

الاستيلاء والأول جهل محض والثاني يجوز أن يكون جهلاً والأول مع كونه جهلاً هو بدعة وكاد يكون كفراً ، والثاني وإن كان جهلاً فليس بجهل يورث بدعة ، وهذا كما أن واحداً إذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحداً منهم يكون جهلاً وبدعة وكفراً ، وإذا اعتقد أنه يرحم زيداً الذي هو مستور الحال لا يكون بدعة ، غاية ما يكون أنه اعتقاد غير مطابق ، ومما قيل فيه : إن المراد منه استوى على ملكه ، والعرش يعبر به عن الملك ، يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وإن لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى :

(65/612)

﴿ وَقَالَتِ اليهود يَدُ الله مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : 64] إشارة إلى البخل ، مع أنهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ، ولو كان مراد الله ذلك لكان كذباً جل كلام الله عنه ، ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات ، فمن يملك مدينة صغيرة أو بلاداً يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ، ومن يكون سلطاناً يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك في خدمته يكون له سرير يجلس عليه ، وقدامه كرسي يجلس عليه وزيره ، فالعرش والكرسي في العادة لا يكون إلا عند عظمة المملكة ، فلما كان

ملك السموات والأرض في غاية العظمة ، عبر بما ينبىء في العرف عن العظمة ، ومما ينبهك لهذا قوله تعالى :

(66/612)

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ﴾ [الإنسان : 2] ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ﴾ [الصافات : 6] ﴿ نَحْنُ أَقْرَبُ ﴾ [ق : 16] ﴿ نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ [الحجر : 9] أيظن أو يشك مسلم في أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملاً ، غير أن العظيم في العرف لا يكون واحداً وإنما يكون معه غيره ، فكذلك الملك العظيم في العرف لا يكون إلا ذا سرير يستوي عليه فاستعمل ذلك مريداً للعظمة ، ومما يؤيد هذا أن المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان ، أيظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ، ولا سيما من يقول بأن إلهه في مكان كيف يخرج الإنسان عن المكان ؟ فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له ، يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش ، وإن كان التنزه عن المكان واجباً له ، وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والأرض ، ثم القصة أنه استوى على الملك ، وهذا كما يقول القائل : فلان أكرمني وأنعم علي مراراً ، ويحكي عنه أشياء ، ثم يقول إنه ما كان يعرفني ولا كنت فعلت معه ما يجازيني بهذا ، فنقول

ثم للحكاية لا للمحكي الوجه الآخر : قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش ، واستوى جاء بمعنى استولى نقلاً واستعمالاً .

أما النقل فكثير مذكور في "كتاب اللغة" منها ديوان الأدب وغيره مما يعتبر النقل عنه .

وأما الاستعمال فقول القائل :

قد استوى بشر على العراق . . من غير سيف ودم مهراق

(67/612)

وعلى هذا فكلمة ثم ، معناها ما ذكرنا كأنه قال خلق السموات والأرض ، ثم ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش ، فإنه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السموات والأرض والوجه الثالث : قيل إن المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد أنه في مكان ، وذلك لأن الإنسان يقول استقر رأي فلان على الخروج ولا يشك أحد أنه لا يريد أن الرأي في مكان وهو الخروج ، لما أن الرأي لا يجوز فيه أن يقال إنه متمكن أو هو مما يدخل في مكان إذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن ، حتى إذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه في مكان ، وإذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك في فلان ، فقول القائل الله استقر على

العرش لا ينبغي أن يفهم كونه في مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون في مكان أو لا يجوز ، فإذن فهم كونه في مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون في مكان ، فجواز كونه في مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشيء على نفسه وهو محال ، ثم الذي يدل على أنه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكاناً له وجوه من القرآن أحدها : قوله تعالى :

(68/612)

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الغنى ﴾ [الحج : 64] وهذا يقتضي أن يكون غنياً على الإطلاق ، وكل ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج إلى مكان ، لأن بديهة العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقياً ، فالمتحيز ينتفي عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفي عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه في استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه في استمراره وهو غنى بالنص الثاني : قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى ، فاذن لا يكون في ذلك الوقت في مكان ، فجاز عليه أن لا يكون في مكان ، وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون في مكان الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد : 4] ووجه التمسك به هو أن على إذا استعمل

في المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع إذا استعملت في متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو إذا استعمل هذا فإن كان الله في مكان ونحن متمكنون ، فقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : 40] وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ كان ينبغي أن يكون للاقتران وليس كذلك ، فإن قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله إليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلاني مع الملك الفلاني ، أي بالإعانة والنصر ، فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير ، يقول القائل لولا فلان على فلان لأشرف في الهلاك ولأشرف على الهلاك ، وكذلك يقال لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه لما حصل له شيء منها ولا أكل /حاصلها بمعنى الإشراف والنظر ، فكيف لا نقول في استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معناه بعلمه الرابع : قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] ولو كان في مكان لأحاط به المكان وحينئذٍ فإما أن يرى وإما أن لا يرى ، لا سبيل إلى الثاني بالاتفاق لأن القول بأنه في مكان ولا يرى

(69/612)

باطل بالإجماع ، وإن كان يرى فيرى في مكان أحاط به فتدركه الأبصار .

وأما إذا لم يكن في مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الأبصار .

أما إذا لم ير فظاهر .

وأما إذا رؤي فلأن البصر لا يحيط به فلا يدركه .

وإنما قلنا إن البصر لا يحيط به لأن كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ، ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءاً من عدم جواز كونه في مكان ، كيف وهذا الذي يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه في المكان ، وذلك لأن كلمة ثم للتراخي فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله إما أن يكون في مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان أحدهما : كون المكان أزلياً ، ثم إن هذا القائل يدعى مضادة الفلسفي فيصير فلسفياً يقول بقدم سماء من السموات والثاني : جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضي إلى حدوث الباري أو يبطل دلائل حدوث الأجسام ، وإن لم يكن مكان وما حصل في مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزلياً ، فإما أن يكون في الأزل ساكناً أو متحركاً لأنهما فرعا الحصول في مكان ، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وإن لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم في الأزل لم يكن في مكان ثم حصل في مكان فلا يتم دليله في

حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ، ثم إن هذا القائل يقول إنك تشبه الله بالمعدوم فإنه ليس في مكان ولا يعلم أنه جعله معدوماً حيث أحوجه إلى مكان ، وكل محتاج نظراً إلى عدم ما يحتاج إليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام .

(70/612)

ثم قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والأرض ، قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والأرض واحد هو إله السموات ، وهذه الأصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا ، وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا إله غير الله ، ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة إلا بإذن الله فعبادتكم لهم لهذه الأصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم ، ثم قال تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ما علمتموه من أنه خالق السموات والأرض وخلق هذه الأجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الأصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الأشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)

لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى : ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54

] والعظمة تتبين بهما فإن من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة ، ثم إذا كان أمره نافذاً فيهم يزداد في أعين الخلق ، وإن لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ معناه ، والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر ، فإن العمل أثر الأمر .

(71/612)

وقوله تعالى : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ فيه وجوه أحدها : أن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو في يوم فإن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة ، ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة ، فهو مقدار ألف سنة ثانيها : هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ يعني يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة ، فكم يكون شهر منه ، وكم تكون سنة منه ، وكم يكون دهر منه ، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله ﴿ مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج : 4] لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر ، فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفاً لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في

الخمسين أكثر وتبين فائدتها في موضعها إن شاء الله تعالى : (وفي هذه لطيفة) وهو أن الله ذكر في الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق ، وأشار إلى عظمة الملك ، وذكر في هذه الآية عالم الأرواح والأمر بقوله : ﴿ يُدبِّرُ الأمر ﴾ والروح من عالم الأمر كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] وأشار إلى دوامه بلفظ يوهم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال في العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول ، وإنما الواقع في الزمان يمتد فيوجد في أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة ، فأشار هناك إلى عظمة الملك بالمكان وأشار إلى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره .

(72/612)

واعلم أن ظاهر قوله : ﴿ يُدبِّرُ الأمر ﴾ في يوم يقتضي أن يكون أمره في يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره في زمان حادث فيكون حادثاً وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف ، وكلمة كن فكيف فهم من كلمة على كونه في مكان ، ولم يفهم من كلمة في كون أمره في زمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 146 . 151 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : يقضي الأمر ، قاله مجاهد .

الثاني : ينزل الوحي ، قاله السدي .

﴿ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الأَرْضِ ﴾ قال السدي من سماء الدنيا إلى الأرض العليا وفيه وجهان :

أحدهما : يدبر الأمر في السماء وفي الأرض .

الثاني : يدبره في السماء ثم ينزل به الملك إلى الأرض وروى عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال : يدبر أمر الدنيا أربعة : جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأمَّا ميكائيل فموكل بالقطر والماء ، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم .

﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيهِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنه جبريل يصعد إلى السماء بعد نزوله بالوحي ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنه الملك الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، قاله النقاش .

الثالث : أنها أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع حملتها من الملائكة ، قاله ابن شجرة .

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنه يقضي أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد ثم يلقيه إلى ملائكته فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى ثم كذلك أبداً ، قاله مجاهد .

الثاني : أن الملك ينزل ويصعد في يوم مسيرة ألف سنة ، قاله ابن عباس . والضحاك .

الثالث : أن الملك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة فيكون مقدار نزوله خمسمائة سنة ومقدار صعوده خمسمائة سنة ، قاله قتادة : فيكون بين السماء والأرض على قول ابن عباس والضحاك مسيرة ألف سنة ، وعلى قول قتادة والسدي مسيرة خمسمائة سنة .

﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي تحسبون من أيام الدنيا وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سني العالم وليس بيوم يستوعب نهاراً بين ليلتين لأنه ليس عند الله ليل استراحة ولا زمان تودع ، والعرب قد تعبر عن مدة العصر باليوم كما قال الشاعر :

يومان يوم مقامات وأندية . . . ويوم سيرٍ إلى الأعداءِ تأويب

وليس يريد يومين مخصوصين وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين فعبر عن كل واحد من الشطرين بيوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(75/612)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ في ستة أيام ﴾ يقضي بأن يوماً من أيام الجمعة بقي لم يخلق فيه شيء ، وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدىء يوم الأحد ، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء فهذا مستقيم مع هذه الآية .

ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتدىء يوم السبت ، فهذا يخالف الآية اللهم إلا أن يكون أراد في الآية جميع الأشياء غير آدم ، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يخلق فيه شيء مما بين السماء والأرض ، لأن آدم لم يكن حينئذ مما بينهما ، وقد تقدم القول في قوله : ﴿ استوى على العرش ﴾ بما فيه كفاية ، و ﴿ ثم ﴾ في هذا الموضع لترتيب الجمل لأن الاستواء كان بعد أن لم يكن ، وهذا على المختار في معنى ﴿ استوى ﴾ ونفي " الشفاعة " محمول على أحد وجهين : إما عن الكفرة وإما نفي الشفعاء من ذاتهم على حد شفاعة الدنيا لأن

شفاعة الآخرة إنما هي بعد إذن من الله تعالى .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ

(76/612)

﴿ الأمر ﴾ اسم جنس لجميع الأمور ، والمعنى ينفذ الله تعالى قضاءه بجميع ما يشاؤه ، ﴿ ثم يعرج إليه ﴾ خبر ذلك ﴿ في يوم ﴾ من أيام الدنيا ﴿ مقداره ﴾ أن لو سير فيه السير المعروف من البشر ﴿ ألف سنة ﴾ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة هذا أحد الأقوال ، وهو قول مجاهد وابن عباس وقتادة وعكرمة والضحاك ، وقال مجاهد أيضاً : إن المعنى أن الضمير في ﴿ مقداره ﴾ عائد على " التدبير " ، أي كان مقدار التدبير المنقضي في يوم ألف سنة لو دبرها البشر ، وقال مجاهد أيضاً المعنى أن الله تعالى يدبر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عندنا وهو اليوم عنده فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها ، فالمعنى أن الأمور تنفذ عنده لهذه المدة ثم تصير إليه آخراً لأن عاقبة الأمور إليه ، وقيل المعنى ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ في مدة الدنيا ﴿ ثم يعرج إليه ﴾ يوم القيامة ويوم القيامة ﴿ مقداره ألف سنة ﴾ من عندنا وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة لهوله وشنعته حسبما في سورة " سأل سائل " وسنذكر هنالك ما فيه من الأقوال والتأويل إن

شاء الله ، وحكى الطبري في هذه الآية عن بعضهم أنه قال قوله ﴿ في يوم ﴾ إلى آخر الآية متعلق بقوله قبل هذا ﴿ في ستة أيام ﴾ [السجدة : 4] ومتصل به أي أن تلك الستة كل واحد منها من ألف سنة .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا قول ضعيف مكرهة ألفاظ هذه الآية عليه رادة له الأحاديث التي بينت أيام خلق الله تعالى المخلوقات ، وحكي أيضاً عن ابن زيد عن بعض أهل العلم أن الضمير في ﴿ مقداره ﴾ عائد على العروج ، والعروج الصعود ، والمعارج الأدراج التي يصعد عليها ، وقالت فرقة معنى الآية يدبر أمر الشمس في أنها تصعد وتنزل في يوم وذلك قدر ألف سنة .

(77/612)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا أيضاً ضعيف وظاهر عود الضمير في ﴿ إليه ﴾ على اسم الله تعالى كما قال ﴿ ذاهب إلى ربي ﴾ [الصافات : 99] ، وكما قال " مهاجر إلى ربي " ، وهذا كله بريء من التحيز ، وقيل إن الضمير يعود على ﴿ السماء ﴾ لأنها قد تذكر ، وقرأ جمهور الناس " تعدون " بالتاء ، وقرأ الأعمش والحسن بخلاف عنه " يعدون " بالياء من تحت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

عرّفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأمّلوه .

ومعنى : "خَلَقَ" أبدع وأوجد بعد العدم وبعد أن لم تكن شيئاً .

﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة .

قال الحسن : من أيام الدنيا .

وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقدارُه ألف سنة من سِنِي الدنيا .

وقال الضحاك : في ستة آلاف سنة ؛ أي في مدّة ستة أيام من أيام الآخرة .

﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ تقدّم في الأعراف والبقرة وغيرهما ، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفى في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) .

وليست "ثُمَّ" للترتيب وإنما هي بمعنى الواو .

﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ أي ما للكافرين من وليّ يمنع من عذابهم ولا شفيع

، ويجوز الرفع على الموضع .

﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ في قدرته ومخلوقاته .

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ﴾ قال ابن عباس : يُنزل القضاءَ والقدر .

وقيل : ينزل الوحي مع جبريل .

وروى عمرو بن مرّة عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبّر أمر الدنيا أربعة : جبريل ، وميكائيل ، ومَلَك الموت ، وإسرافيل ؛ صلوات الله عليهم أجمعين .

فأما جبريل فموكّل بالرياح والجنود .

وأما ميكائيل فموكّل بالقطر والماء .

وأما مَلَك الموت فموكّل بقبض الأرواح .

وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم .

وقد قيل : إن العرش موضع التدبير ؛ كما أن ما دون العرش موضع التفصيل ؛ قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات ﴾ [الرعد : 2] .

وما دون السموات موضع التصريف ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ [الفرقان : 50] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ قال يحيى بن سلام : هو جبريل يصعَد إلى السماء بعد نزوله بالوحي .

النقاش : هو الملَك الذي يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض .

وقيل : إنها أخبار أهل الأرض تصعَد إليه مع حملتها من الملائكة ؛ قاله ابن شجرة .

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

وقيل : "ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ" أي يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ وهو يوم القيامة .

وعلى الأقوال المتقدّمة فالكناية في "يَعْرُجُ" كناية عن الملَك ، ولم يجر له ذكر لأنه مفهوم من المعنى ، وقد جاء صريحاً في "سَأَلَ سَائِلٌ" قوله : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : 4] .

والضمير في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود على السماء على لغة من يذكّرها ، أو على مكان الملك الذي يرجع إليه ، أو على اسم الله تعالى ؛ والمراد إلى الموضع الذي أقره فيه ، وإذا رجعت إلى الله فقد رجعت إلى السماء ، أي إلى سدرة المنتهى ؛ فإنه إليها يرتفع ما يصعد به من الأرض

ومنها ينزل ما يهبط به إليها ؛ ثبت معنى ذلك في صحيح مسلم .

والهاء في "مِقْدَارُهُ" راجعة إلى التدبير ؛ والمعنى : كان مقدار ذلك التدبير ألفَ سنة من سني الدنيا ؛ أي يقضي أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد ، ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى ، ثم كذلك أبداً ؛ قاله مجاهد .

وقيل : الهاء للعروج .

وقيل : المعنى أنه يدبّر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة .

وقيل : المعنى يدبر أمر الشمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع ، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة .

وقال ابن عباس : المعنى كان مقداره لو ساره غير الملَك ألف سنة ؛ لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة .

(80/612)

وروي ذلك عن جماعة من المفسرين ، وهو اختيار الطبريّ ؛ ذكره المهدويّ .

وهو معنى القول الأول .

أي أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيامكم ؛ ذكره الزمخشريّ .

وذكر الماورديّ عن ابن عباس والضحاك أن الملَك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة .

وعن قتادة أن الملَك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة ؛ فيكون مقدار نزوله خمسمائة سنة ، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسديّ .

وعلى قول ابن عباس والضحاك : النزول ألف سنة ، والصعود ألف سنة .

﴿ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي مما تحسبون من أيام الدنيا .

وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سِنِي العالَم ، وليس بيوم يستوعب نهاراً بين ليلتين ؛ لأن ذلك ليس عند الله .

والعرب قد تعبّر عن مدّة العصر باليوم ؛ كما قال الشاعر :

يومان يومُ مُقامات وأندية . . .

ويومُ سير إلى الأعداء تأويب

وليس يريد يومين مخصوصين ، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم .

وقرأ ابن أبي عبلة : "يُعْرَجُ" على البناء للمفعول .

وقرىء : "يَعُدُّونَ" بالياء .

فأما قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فمشكل مع هذه الآية .

وقد سأل عبد الله بن فيروز الدّيلميّ عبد الله بن عباس عن هذه الآية وعن قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال : أيام سمّاها سبحانه ، وما أدري ما هي ؟ فأكره أن أقول فيها ما لا أعلم .

ثم سئل عنها سعيد بن المسيّب فقال : لا أدري .

فأخبرته بقول ابن عباس فقال ابن المسيّب للسائل : هذا ابن عباس اتّقى أن يقول فيها وهو أعلم مني .

ثم تكلم العلماء في ذلك فقيل : إن آية "سَأَلَ سَائِلٌ" هو إشارة إلى يوم القيامة ، بخلاف هذه الآية .

والمعنى : أن الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة ؛ قاله ابن عباس .

والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر .

قال :

ويوم كظل الرمح قصّر طولَه . . .

دَمُ الزّق عنّا واصطفاقُ المزاهر

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة .

وقيل : أوقات القيامة مختلفة ، فيعذّب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة ، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدّته خمسون ألف سنة .

وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفاً ، كلّ موقف ألف سنة .

فمعنى : ﴿ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أي مقدار وقت ، أو موقف من يوم القيامة .

وقال النحاس : اليوم في اللغة بمعنى الوقت ؛ فالمعنى : تعرج الملائكة والروح إليه في وقت كان مقداره ألف سنة ، وفي وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة .

وعن وهب بن منبّه "فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" قال : ما بين أسفل الأرض إلى العرش .

وذكر الثعلبيّ عن مجاهد وقتادة والضحاك في قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] أراد من الأرض إلى سِدرة المنتهى التي فيها جبريل .

يقول تعالى : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا .

وقوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه .

وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : 99] أراد أرض الشام .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله ﴾ [النساء : 100] أي إلى المدينة .

وقال أبو هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أتاني ملَك من ربي عز وجل برسالة ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء والأخرى على الأرض لم يرفعها بعد " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(82/612)

وقال أبو السعود :

﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾

(83/612)

مرّ بيانُه فيما سلفَ ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ أي ما لكُم إذا جاوزتُم رضاه تعالى أحدٌ ينصُركم ويشفعُ لكم ويجيركم من بأسهِ أي ما لكُم سواه وليٌّ ولا شفيعٌ بل هو الذي يتولَّى مصالحَكم وينصُركم في مواطنِ النَّصرِ على أنَّ الشَّفيعَ عبارةٌ عن النَّاصرِ مجازاً فإذا خذلكم لم يبقَ لكُم وليٌّ ولا نصير ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي ألا تسمعُون هذه المواعظَ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالإنكارُ على الأول متوجه إلى عدمِ السَّماعِ وعدم التَّذكر معاً وعلى الثاني على عدمِ التَّذكرِ مع تحققِ ما يُوجبه من السَّماعِ ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السماء إِلَى الأرض ﴾ قيل يدبِّرُ أمر الدُّنيا بأسبابٍ سماويةٍ من الملائكةِ وغيرها نازلةٍ آثارُها وأحكامُها إلى الأرضِ ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي يثبت في علمِه موجوداً بالفعل ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي في بُرهةٍ من الزَّمان متطاولةٍ والمرادُ بيانُ طول امتدادِ ما بين تدبيرِ الحوادث وحدوثِها من الزَّمان وقيل : يدبر أمرَ الحوادثِ اليوميَّةِ بإثباتها في اللَّوحِ المحفوظِ فينزل بها الملائكةُ ثم تعرجُ إليه في زمانٍ هو كألف سنة مَّما تعدُّون فإنَّ ما بين السَّماء والأرض مسيرةُ خمسمائةِ عامٍ وقيل : يقضي قضاءَ ألفِ سنةٍ فينزل به المَلَكُ ثم يعرج بعد الألفِ لألفٍ أُخرَ ، وقيل يدبر أمرَ الدُّنيا جميعاً إلى قيامِ السَّاعةِ ثم يعرج إليه الأمرُ كلُّه عند قيامها وقيل يدبِّرُ المأمور به من الطَّاعاتِ منزلاً من السَّماءِ إلى الأرض بالوحي ثم لا يعرجُ إليه خالصاً إلا في مدَّةٍ متطاولة لقلَّةِ المخلصين

والأعمال الخَلَّص . وأنت خبيرٌ بأنَّ قلَّةَ الأعمال الخالصةِ لا تقتضي بطءَ عروجِها إلى السَّماءِ بل قِلَّتَه . وقُرِئ يعدُّون بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(84/612)

وقال الآلوسى :

﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ مر بيانه فيما سلف على مذهبي السلف والخلف ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ أي ما لكم مجاوزين الله عز وجل أي رضاه سبحانه وطاعته تعالى ولي ولا شفيع أي لا ينفعكم هذان من الخلق عنده سبحانه دون رضاه جل جلاله فمن دونه حال من مجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ والعامل الجار أو متعلقه ، وعلى هذا المعنى لا دليل في الخطاب على أنه تعالى شفيع دون غيره ليقال : كيف ذاك وتعالى جل شأنه أن يكون شفيعاً ، وكفى في ذلك رده صلى الله عليه وسلم على الأعرابي حيث قال : إنا نستشفع بالله تعالى إليك ، وقد يقال : الممتنع إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعناه الحقيقي وأما إطلاقه عليه سبحانه بمعنى الناصر مجازاً فليس بممتنع ، ويجوز أن يعتبر ذلك هنا وحينئذٍ يجوز أن يكون ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ حالاً

مما بعد قدم عليه لأنه نكرة ودون بمعنى غير ، والمعنى ما لكم ولي ولا ناصر غير الله تعالى ، ويجوز أن يكون حالاً من المجرور كما في الوجه السابق ، والمعنى ما لكم إذا جاوزتم ولايته ونصرته جل وعلا ولي ولا ناصر ، ويظهر لي أن التعبير بالشفيع هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أن المشركين المنذرين كثيراً ما كانوا يقولون في آلهتهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا ﴾ [يونس : 18] ويزعمون أن كل واحد منها شفيع لهم ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها ، فالإنكار على الأول : متوجه إلى عدم السماع وعدم التذكر معاً ، وعلى الثاني : إلى عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع .

(85/612)

﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ قيل : أي أمر الدنيا وشؤونها ، وأصل التدبير النظر في دابر الأمر والتفكر فيه ليجيء محمود العاقبة وهو في حقه عز وجل مجاز عن إرادة الشيء على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة والفعل مضمن معنى الإنزال والجاران في قوله تعالى : ﴿ مِنَ السماء إِلَى الأرض ﴾ متعلقان به ومن ابتدائية وإلى انتهائية أي يريده تعالى على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة منزلاً له من السماء إلى الأرض ، وإنزاله من السماء باعتبار أسبابه فإن أسبابه

سماوية من الملائكة عليهم السلام وغيرهم ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ ﴾ أي يصعد ويرتفع ذلك الأمر بعد تدبيره ﴿ إِلَيْهِ ﴾ عز وجل وهذا العروج مجاز عن ثبوته في علمه تعالى أي تعلق علمه سبحانه به تعلقاً تنجيزياً بأن يعلمه جل وعلا موجوداً بالفعل أو عن كتابته في صحف الملائكة عليهم السلام القائمين بأمره عز وجل موجوداً كذلك ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي في برهة متطاولة من الزمان فليس المراد حقيقة العدد ، وعبر عن المدة المتطاولة بالألف لأنها منتهى المراتب وأقصى الغايات وليس مرتبة فوقها إلا ما يتفرع منها من أعداد مراتبها ، والفعلان متنازعان في الجار والمجرور وقد أعمل الثاني منهما فيه فتفيد الآية طول امتداد الزمان بين تعلق إرادته سبحانه بوجود الحوادث في أوقاتها متقنة مراعي فيها الحكمة وبين وجودها كذلك ، وظاهرها يقتضي أن وجودها لا يتوقف على تعلق الإرادة مرة أخرى بل يكفي فيه التعلق السابق وقيل : ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ متعلق بيعرج وليس الفعلان متنازعين فيه ، والمراد بعروج الأمر إليه بعد تدبيره سبحانه إياه وصول خبر وجوده بالفعل كما دبر جل وعلا بواسطة الملك وعرضه ذلك في حضرة قد أعدها سبحانه للاختبار بما هو جل جلاله أعلم به إظهاراً لكمال عظمته تبارك وتعالى وعظيم سلطنته جلت سلطنته ؛ وهذا كعرض الملائكة عليهم السلام أعمال العباد الوارد في الأخبار ، وألف سنة على

حقيقتها وهي مسافة ما بين الأرض ومحدب السماء الدنيا بالسير المعهود للبشر فإن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام وثخن السماء كذلك كما جاء في الأخبار الصحيحة والملك يقطع ذلك في زمان يسير فالكلام على التشبيه فكأنه قيل : يريد تعالى الأمر متقناً مراعي فيه الحكمة بأسباب سماوية نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض فيكون كما أراد سبحانه فيعرج ذلك الأمر مع الملك ويرتفع خبره إلى حضرته سبحانه في زمان هو كألف سنة مما تعدون ، وقيل : العروج إليه تعالى صعود خبر الأمر مع الملك إليه عز وجل كما هو مروى عن ابن عباس .

وقتادة .

ومجاهد .

وعكرمة .

والضحاك والفعلان متنازعان في ﴿ يَوْمٍ ﴾ والمراد أنه زمان تدبير الأمر لو دبره البشر وزمان العروج لو كان منهم أيضاً وإلا فزمان التدبير والعروج يسير ، وقيل : المعنى يدبر أمر الدنيا بإظهاره في "اللوح المحفوظ" فينزل الملك الموكل به من السماء إلى الأرض ثم يرجع الملك أو الأمر مع الملك إليه تعالى في زمان هو نظراً للنزول والعروج كألف سنة مما تعدون ، وأريد به مقدار ما بين الأرض ومقعر سماء الدنيا ذهاباً وإياباً ، والظاهر أن ﴿ يُدَبِّرُ ﴾

عليه مضمن معنى الإنزال ، والجاران متعلقان به لا بفعل محذوف أي فينزل به الملك من السماء إلى الأرض كما قيل ، وزعم بعضهم أن ضمير ﴿ إِلَيْهِ ﴾ للسماء وهي قد تذكر كما في قوله تعالى :

(87/612)

﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] وقيل : المعنى يدبر سبحان أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل يوم من أيام الرب جل شأنه وهو ألف سنة كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] ثم يصير إليه تعالى ويثبت عنده عز وجل ويكتب في صحف ملائكته جل وعلا كل وقت من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ثم يدبر أيضاً ليوم آخر وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة ، ويشير إلى هذا ما روى عن مجاهد قال : إنه تعالى يدبر ويلقى إلى الملائكة أمور ألف سنة من سنيننا وهو اليوم عنده تعالى فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها ، وعليه الأمر بمعنى الشأن والجاران متعلقان به أو بمحذوف حال منه ولا تضمين في ﴿ يُدَبِّرُ ﴾ والعروج إليه تعالى مجاز عن ثبوته وكتبه في صحف الملائكة و ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ على ظاهره و ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ يتعلق بالفعلين واعمل الثاني كأنه قيل : ﴿ يدبر الأمر ليوم

مقداره كذا ثم يعرج إليه تعالى فيه كما تقول : قصدت ونظرت في الكتاب أي قصدت إلى الكتاب ونظرت فيه ، ولا يمنع اختلاف الصلتين من التنازع ، وتكرار التدبير إلى يوم القيامة يدل عليه العدول إلى المضارع مع أن الأمر ماض كأنه قيل : يجدد هذا الأمر مستمراً ؛ وقيل : المعنى يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه تعالى ذلك الأمر كله أي يصير إليه سبحانه ليحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة ، وعليه الأمر بمعنى الشأن والجاران متعلقان به أو بمحذوف حال منه كما في سابقه ، والعروج إليه تعالى الصيرورة إليه سبحانه لا ليثبت في صحف الملائكة بل ليحكم جل وعلا فيه .

(88/612)

و ﴿ في يوم ﴾ متعلق بالعروج ولا تنازع ، والمراد بيوم مقداره كذا يوم القيامة ، ولا ينافي هذا قوله تعالى : ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ بناء على أحد الوجهين فيه لتفاوت الاستطالة على حسب الشدة أو لأن ثم خمسين موطناً كل موطن ألف سنة ، وقيل : المعنى ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض ثم يرجع إليه تعالى ما كان من قبوله أو رده مع جبريل عليه السلام في يوم مقدار مسافة السير فيه ألف سنة وهو ما بين

السماء والأرض هبوطاً وصعوداً ، فالأمر عليه مراد به الوحي كما في قوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [غافر : 15] والعروج إليه تعالى عبارة عن خبر القبول والرد مع عروج جبريل عليه السلام والتدبير والعروج في اليوم لكن على التوسع والتوزيع فالفعلان متنازعان في الظرف ولكن لا اختلاف في الصلة ولا تنافي الآية على هذا قوله تعالى شأنه : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] بناء على الوجه الآخر فيه وستعرفهما إن شاء الله تعالى لأن العروج فيه إلى العرش وفيها إلى السماء الدنيا وكلاهما عروج إلى الله تعالى على التجوز .

(89/612)

وقيل : المراد بالأمر المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحات ، والمعنى ينزل سبحانه ذلك مدبراً من السماء إلى الأرض ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه تعالى ذلك المأمور به خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة الخلص من العباد وعليه ﴿ يُدَبِّرُ ﴾ مضمن معنى الإنزال ومن وإلى متعلقان به ، ومعنى العروج الصعود كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] والغرض من الألف استطالة المدة ، والمعنى استقلال عبادة الخلص واستطالة مدة ما بين التدبير والوقوع ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ للاستبعاد ، واستدل لهذا

المعنى بقوله تعالى إثر ذلك : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : 9] لأن الكلام بعضه مربوط بالبعض وقلة الشكر مع وجود تلك الإنعامات دالة على الاستقلال المذكور .

وقيل : المعنى يدبر أمر الشمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب ومدارها في العالم من السماء إلى الأرض وزمان طلوعها إلى أن تغرب وترجع إلى موضعها من الطلوع مقداره في المسافة ألف سنة وهي تقطع ذلك في يوم وليلة .

هذا ما قالوه في الآية الكريمة في بيان المراد منها ، ولا يخفى على ذي لب تكلف أكثر هذه الأقوال ومخالفته للظاهر جداً وهي بين يديك فاختر لنفسك ما يحلو .

(90/612)

ويظهر لي أن المراد بالسماء جهة العلو مثلها في قوله تعالى : ﴿ أَأَمنتم مَّن فِى السماء أَن ﴾ [الملك : 16] وبعروج الأمر إليه تعالى صعود خبره كما سمعت عن الجماعة و ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ متعلق بالعروج بلا تنازع ، وأقول : إن الآية من المتشابه وأعتقد أن الله تعالى يدبر أمور الدنيا وشؤونها ويريدها متقنة وهو سبحانه مستوى على عرشه وذلك هو التدبير من جهة العلو ثم يصعد خبر ذلك مع الملك إليه عز وجل إظهاراً لمزيد عظمته جلت عظمته وعظيم سلطنته عظمت سلطنته إلى حكم هو جل وعلا أعلم بها وكل ذلك بمعنى لائق به تعالى

مجامع للتنزيه مباين للتشبيه حسبما يقوله السلف في أمثاله ، وقول بعضهم : العرش موضع التدبير وما دون موضع التفصيل وما دون السماوات موضع التصريف فيه رائحة ما مما ذكرنا ، وأما تقدير يوم العروج هنا بألف سنة وفي آية أخرى بخمسين ألف سنة فقد كثر الكلام في توجيهه وقد تقدم لك بعض منه .

وأخرج عبد الرزاق .

وسعيد بن منصور .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن الأنباري في المصاحف .

والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة قال : دخلت على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فسأله عن قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمرَ مِنَ السماءِ إِلَى الأَرضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فكأن ابن عباس اتهمه فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال : إنما سألتك لتخبرني فقال رضي الله تعالى عنه .

هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه الله تعالى أعلم بهما وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب فسأله عنهما إنسان فلم

يخبر ولم يدر فقلت : ألا أخبرك بما سمعت من ابن عباس ؟ قال : بلى فأخبرته فقال للسائل : هذا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أبى أن يقول فيهما وهو أعلم مني .

(91/612)

وبعض المتصوفة يسمون اليوم المقدر بألف سنة باليوم الربوبي واليوم المقدر بخمسين ألف سنة باليوم الإلهي ، ومحيي الدين قدس سره يسمى الأول يوم الرب والثاني يوم المعارج ، وقد ذكر ذلك وأياً ما أخر كيوم الشأن ويوم المثل ويوم القمر ويوم الشمس ويوم زحل وأيام سائر السيارة ويوم الحمل وأيام سائر البروج في الفتوحات ، وقد سألت رئيس الطائفة الكشفية الحادثة في عصرنا في كربلاء عن مسألة فكتب في جوابها ما كتب واستطرد بيان إطلاقات اليوم وعد من ذلك أربعة وستين إطلاقاً ، منها إطلاقه على اليوم الربوبي وإطلاقه على اليوم الإلهي وأطال الكلام في ذلك المقام ، ولعلنا إن شاء الله تعالى ننقل لك منه شيئاً معتداً به في موضع آخر ، وسنذكر إن شاء الله تعالى أيضاً تمام الكلام فيما يتعلق بالجمع بني هذه الآية وقوله سبحانه : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ صفة ﴿ أَلْفٍ ﴾ أو صفة ﴿ سَنَةٍ ﴾ .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ يَعْرُجُ ﴾ بالبناء للمفعول والأصل يعرج به فحذف الجار واستتر

الضمير .

وقرأ جناح بن حبيش ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ إليه بزيادة الملائكة قال أبو حيان : ولعله تفسير منه لسقوطه في سواد المصحف .

وقرأ السلمي .

وابن وثاب .

والأعمش .

والحسن بخلاف عنه ﴿ يَعْدُونَ ﴾ بياء الغيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(92/612)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ » .

هذا من بعض ما يحمل الكتاب من نذر ينذر بها الرسول قومه . .

ففى هذا النذير إلفات إلى قدرة اللّه ، وإلى سلطانه القائم على هذا الوجود ، وأنه سبحانه

هو الذي خلق السموات والأرض ، وقام بسلطان قدرته عليها ، وعلى تصريف كل شىء فيهما . . فليؤمنوا إذن بهذا الإله المتفرد بالألوهة ، وليتركوا ما هم عاكفون عليه من أصنام . . فإن لم يفعلوا أخذهم اللّه بعذابه الذي لا يدفعه عنهم « ولىّ » أي قريب أو حليف ، ولا يشفع لهم من بأس اللّه « شفيع » من تلك المعبودات التي يعبدونها من دونه ، ليقربوهم إلى اللّه زلفى . .

ـ وقوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » . قد عرضنا لتفسيره من قبل ، فى غير موضع ، وقلنا إنه ليس المراد بالستة الأيام هنا اشتغال اللّه سبحانه وتعالى بعملية الخلق طوال هذه المدة ، كما فهم ذلك كثير من المفسرين ، نقلا عن التوراة ، وما جاء في أول سفر التكوين منها ، من أن اللّه خلق المخلوقات في ستة أيام ، ثم استراح في اليوم السابع . .

تقول التوراة : « فى البدء خلق اللّه السماوات والأرض . . »

ثم تقول وهى تعرض ما خلق اللّه في السموات والأرض : « وكان مساء وكان صباح . . يوما واحدا . . وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا وكان مساء . . وكان صباح يوما ثالثا . . وهكذا إلى اليوم السادس ، ثم تقول :

« فأكملت السماوات والأرض وكل جندها ، وفرغ اللّه في اليوم السابع من عمله الذي عمل

، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل » ! ! وهذا فهم خاطئ لقدرة اللّه ، وتحديد لتلك القدرة ، ومقايسة لها بقدرة

(93/612)

المخلوقين ، حتى إنه سبحانه ـ ليعمل في كل يوم عملا ، ثم يستريح بعد أن يعمل ، وحتى لكأنّ العمل قد أجهده وأتعبه . . وتعالى اللّه عما يقول الضالون علوا كبيرا . . « إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (82 : يس) .

وقد قلنا إن هذه الأيام ، هى العمر الذي نضج في بوتقته خلق السموات والأرض ، تماما كما يتخلّق كل مخلوق في زمن محدد . . من النطفة إلى الوليد ، ومن البذرة إلى الثمرة . . فلكل جنين زمن يتم فيه تكوينه ، ولكل ثمرة وقت تبلغ به تمامها ونضجها . . وهكذا كل مخلوق مما خلق اللّه ! .

أما حصر الخلق في الستة الأيام هذه ، فذلك شأن من شئون اللّه في خلقه ، لا يسأل عما يفعل . . « يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ » (68 : القصص) .

ـ وفي قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ » ما يسأل عنه : ألم يكن اللّه سبحانه وتعالى عرش يستوى عليه قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ ألم يكن هناك سلطان للّه قبل أن يخلق

ما خلق ؟ .

ومع أن هذا التساؤل لا محل له ، لأنه مما يتعلق بذات اللّه ، ومما لا تناله العقول ، ولا تدركه الأفهام . . فالسؤال شطط ، والجواب عنه إمعان في هذا الشطط ـ مع هذا ، فإننا لكى نرضى هذا التطلع والفضول منا ، نقول : إن سلطان اللّه قائم أبدا ، وجد هذا الوجود أم لم يوجد . . فالعلم ، والقدرة ، والحكمة ، والسمع ، والبصر ، وغير ذلك من صفات اللّه ، هى صفات أزلية قائمة بالذات ، سواء ظهرت آثارها أو لم تظهر . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » (50 : طه) . . فهداية

(94/612)

اللّه للمخلوقات قائمة قبل الخلق ، ولكنها تتجلى حين يظهر المخلوق ، ويأخذ الاتجاه الذي توجهه قدرة اللّه ، وعلمه ، وحكمته إليه . .

ومثله قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » (40 : الروم) . فهذا الخلق ، ثم الرزق ، ثم الإماتة ، ثم الإحياء ، كلها واقعة في علم اللّه ، مقدورة لقدرته ، ولكنها تتجلى في كل مخلوق ، حالا بعد حال ، وزمنا بعد زمن ، حسب علم اللّه وتقديره .

واستواء اللّه سبحانه وتعالى على العرش ، هو تجلّيه سبحانه على هذه المخلوقات التي

خلقها ، وإجراؤها على النظام الذي قدره لها . .

قوله تعالى : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » .

تدبير الأمر ، قضاؤه ، والأمر بإنفاذه . .

والمراد بالسماء هنا ، الإشارة إلى متنزل هذا الأمر المدبر ، وهو أنه من سلطان عال متمكن . .

والمراد بالأرض : الإشارة إلى ما يقضى به اللّه في شأن الناس ، وما يتصل بعالمهم الأرضى ، إذ كانوا هم المخاطبين بهذا ، والمدعوين إلى النظر فيه ، وتلقّى العبرة منه . .

وعروج الأمر إلى اللّه ، هو الرجوع إليه ، بعد أن يقع على الصورة التي أرادها ، فيعلمه سبحانه على الصورة التي وقع عليها ، وهذا العلم ليس

حادثا ، بل هو علم قديم ، لأمور حادثة . . فكل الأمور تصدر عن اللّه ، ثم تعود إليه ، بعد أن تدور دورتها المقدورة لها ، كما يقول سبحانه :

« أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (53 : الشورى) .

ـ وقوله تعالى : « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » ـ اختلفت الأقوال في هذا اليوم ، وهل هو يوم القيامة ، أم هو يوم من أيام اللّه في هذه الدنيا . .

واليوم ، هو وحدة من وحدات الزمن عند الناس ، فى هذه الدنيا ، وهو محدود بأربع وعشرين ساعة ، تدور فيها الأرض دورة كاملة حول الشمس ، من الغرب إلى الشرق .

وقد ورد في القرآن الكريم موازنة بين أيام الدنيا هذه ، وأيام أخرى عند اللّه ، فكان من تلك الأيام ما يوازى ألف سنة من أيام دنيانا ، كما يقول اللّه تعالى في هذه الآية ، وكما يقول جل شأنه في آية أخرى :

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » (47 : الحج) .

وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم ، أن من الأيام عند اللّه ما يعدل خمسين ألف سنة من أيامنا . . كما يقول سبحانه : « تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » (4 : المعارج) . . وهناك أيام تعدل ما لا حصر له من أيامنا في دنيانا تلك . .

والذي نطمئن إليه في تأويل هذا اليوم الذي مقداره ألف سنة ، واليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة ـ هو أن هذين اليومين يوقّتان دورتين من دورات الأجرام السماوية في أفلاكها ، وأن اليوم الذي مقداره ألف سنة من

أيام الأرض ، هو يوم كوكب من الكواكب السماوية ، حيث تتم دورته فى فلكه في ألف سنة . . ويمكن أن يكون هذا الكوكب في السماء الدنيا . .

ويكون في الحديث عن هذا الكوكب ، أو عن يومه وطوله بالنسبة ليوم الأرض - إشارة إلى قصر الحياة على هذه الأرض ، ومع هذا ، فإن الناس يستعجلون مقامهم فيها ، ويستحثون مطاياهم للارتحال عنها : « خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ » .

وإذا كان في الكواكب ما يتمّ دورته في يوم . مثل فلك الأرض ، وكان فيها ما يتم دورته في ألف سنة ، مثل كثير من الكواكب - فإن هناك من الكواكب ما يتم في دورته في خمسين ألف سنة . . وهناك ما يتم دورة في آلاف آلاف من السنين . .

فهناك أيام كثيرة في علم اللّه ، لدورات الكواكب والنجوم المبثوثة فى ملك اللّه . . ولعل هذا هو السرّ في تنكير « يوم » فى المواضع الثلاث التي جاء فيها تحديد الزمن اليومي ، بألف سنة ، وبخمسين ألف سنة . . فكل يوم منها ، هو بعض أيام اللّه ، فللّه سبحانه أيام لا تحصى في النظام الذي أقام عليه حركات الكواكب والنجوم ، التي لا يعلمها إلا اللّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 604 . 608 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

لما كان الركن الأعظم من أركان هدى الكتاب هو إثبات الوحدانية للإله وإبطال الشرك عُقب الثناء على الكتاب بإثبات هذا الركن .

وجيء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختص به قطعاً لدابر عقيدة الشريك في الإلهية ، وخَبَرُ المبتدأ جملة ﴿ ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما صفة لاسم الجلالة .

وجيء باسم الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر وأنه الانفراد بالربوبية لجميع الخلائق في السماوات والأرض وما بينهما ، ومن أولئك المشركون المعنيون بالخبر ، والخطاب موجه إلى المشركين على طريقة الالتفات .

والوليّ : مشتق من الولاء ، بمعنى : العهد والحلف والقرابة .

ومن لوازم حقيقة الولاء النصر والدفاع عن المولَى .

وأُريد بالولي : المشارك في الربوبية .

والشفيع : الوسيط في قضاء الحوائج من دفع ضرّ أو جلب نفع .

والمشركون زعموا أن الأصنام آلهة شركاء لله في الإلهية ثم قالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند

الله ﴾ [يونس : 18] وقالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا لِيُقَرِّبونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] .

و﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ من دونه ﴾ ابتدائية في محل الحال من ضمير ﴿ لكم ﴾ ، و (دون) بمعنى غَير ، و ﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ من ولي ﴾ زائدة لتأكيد النفي ، أي : لا وليّ لكم ولا شفيع لكم غير الله فلا ولاية للأصنام ولا شفاعة لها إبطالاً لما زعموه لأصنامهم من الوصفين إبطالاً راجعاً إلى إبطال الإلهية عنها .

وليس المراد أنهم لا نصير لهم ولا شفيع إلا الله لأن الله لا ينصرهم على نفسه ولا يشفع لهم عند نفسه ، قال الله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولَى الذين ءامنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : 11] وقال : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : 255] .

(98/612)

وتقدم تفسير نظيره ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ وبيان تأويل ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ في سورة الأعراف (54) .

وفُرّع على هذا الدليل إنكارٌ على عدم تدبرهم في ذلك وإهمالهم النظر بقوله : ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ فهو استفهام إنكاري .

والتذكر : مشتق من الذُكر الذي هو بضم الذال وهو التفكر والنظر بالعقل .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)

جملة ﴿ يدبر الأمر ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله تعالى ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ [السجدة : 4] ، أي : خلق تلك الخلائق مدبِّراً أمرها .

ويجوز أن تكون الجملة استئنافاً ، وقوله ﴿ من السماء ﴾ متعلق بـ ﴿ يدبر ﴾ أو صفة للأمر أو حال منه ، و ﴿ من ﴾ ابتدائية .

والمقصود من حرفي الابتداء والانتهاء شمول تدبير الله تعالى الأمور كلها في العالمين العلوي والسفلي تدبيراً شاملاً لها من السماء إلى الأرض ، فأفاد حرف الانتهاء شمول التدبير لأمورِ كل ما في السماوات والأرض وفيما بينهما .

والتدبير : حقيقته التفكير في إصدار فعل متقن أوله وآخره وهو مشتق من دُبُر الأمر ، أي : آخره لأن التدبير النظر في استقامة الفعل ابتداء ونهاية .

وهو إذا وصف به الله تعالى كنايةٌ عن لازم حقيقته وهو تمام الإتقان ، وتقدم شيء من هذا في أول سورة يونس وأول سورة الرعد .

و ﴿ الأمر ﴾ : الشأن للأشياء ونظامُها وما به تقوُّمها .

والتعريف فيه للجنس وهو مفيد لاستغراق الأمور كلها لا يخرج عن تصرفه شيء منها ، فجميع ما نقل عن سلف المفسرين في تفسير الأمر يرجع إلى بعض هذا العموم .

والعروج : الصعود .

وضمير ﴿ يَعْرُجُ ﴾ عائد على ﴿ الأَمْرَ ﴾ ، وتعديته بحرف الانتهاء مفيدة أن تلك الأمور المدبَّرة تصعد إلى الله تعالى ؛ فالعروج هنا مستعار للمصير إلى تصرف الخالق دون شائبة تأثير من غيره ولو في الصورة كما في أحوال الدنيا من تأثير الأسباب .

ولما كان الجلال يشبَّه بالرفعة في مستعمل الكلام شبه المصير إلى ذي الجلال بانتقال الذوات إلى المكان المرتفع وهو المعبر عنه في اللغة بالعُروج ، كما قال تعالى : ﴿ إليه يصعَد الكَلِم الطّيب والعملُ الصالحُ يرفعُه ﴾ [فاطر : 10] ، أي : يرفعه إليه .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لأن مرجع الأشياء إلى تصرفه بعد صدورها من لدنه أعظم وأعجب .

وقد أفاد التركيب أن تدبير الأمور من السماء إلى الأرض من وقت خلقهما وخلق ما بينهما يستقر على ما دبر عليه كلٌّ بحسب ما يقتضيه حال تدبيره من استقراره ، ويزول بعضه ويبقى بعضه ما دامت السماوات والأرض ، ثم يجمع ذلك كله فيصير إلى الله مصيراً مناسباً لحقائقه ؛ فالذوات تصير مصير الذوات والأعراض والأعمال تصير مصير أمثالها ، أي : يصير وصفها ووصف أصحابها إلى علم الله وتقدير الجزاء ، فذلك المصير هو المعبر

عنه بالعروج إلى الله فيكون الحساب على جميع المخلوقات يومئذ .

واليوم من قوله ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ هو اليوم الذي جاء ذكره في آية سورة الحج (47) بقوله : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ ومعنى تقديره بألف سنة : أنه تحصل فيه من تصرفات الله في كائنات السماء والأرض ما لو كان من عمل الناس لكان حصول مثله في ألف سنة ، فلك أن تقدر ذلك بكثرة التصرفات ، أو بقطع المسافات ، وقد فُرضت في ذلك عدة احتمالات .

والمقصود : التنبيه على عظم القدرة وسعة ملكوت الله وتدبيره .

ويظهر أن هذا اليوم هو يوم الساعة ، أي ساعة اضمحلال العالم الدنيوي ، وليس اليوم المذكور هنا هو يوم القيامة المذكور في سورة المعارج قاله ابن عباس .

(100/612)

ولم يُعيِّن واحداً منهما ، وليس من غرض القرّاء تعيين أحد اليومين ولكن حصول العبرة بأهوالهما .

وقوله في يوم ﴾ يتنازعه كل من فعلي ﴿ يُدبر ﴾ و ﴿ يعرج ﴾ أي يحصل الأمران في يوم .

و ﴿ ألف عند العرب منتهى أسماءِ العدد وما زاد على ذلك من المعدودات يعبر عنه

بأعداد أخرى مع عدد الألف كما يقولون خمسة آلاف ، ومائة ألف ، وألف ألف .

وألف يجوز أن يستعمل كناية عن الكثرة الشديدة كما يقال : زرتُك ألفَ مرة ، وقوله تعالى : ﴿ يود أحدهم لو يُعَمَّر ألف سنة ﴾ [البقرة : 96] ، وهو هنا بتقدير كاف التشبيه أو كلمة نَحْوَ ، أي كان مقداره كألف سنة أو نحو ألف سنة كما في قوله : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تَعُدُّون ﴾ [الحج : 47] .

ويجوز أن يكون ﴿ ألف ﴾ مستعملاً في صريح معناه .

وقوله : ﴿ مما تعدون ﴾ ، أي : مما تحسبُون في أعدادكم ، و ﴿ ما ﴾ مصدرية أو موصولية وهو وصف ل ﴿ ألف سنة .

وهذا الوصف لا يقتضي كون اسم ألف مستعملاً في صريح معناه لأنه يجوز أن يكون إيضاحاً للتشبيه فهو قريب من ذكر وجه الشبه مع التشبيه ، وقد يترجح أن هذا الوصف لما كان في معنى الموصوف صار بمنزلة التأكيد اللفظي لمدلوله فكان رافعاً لاحتمال المجاز في العدد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(101/612)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يدبر الأمر من السماء ، إلى الأرض ، وأنه يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة .

وأشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] ، وقد بين في سورة الحج أن اليوم عنده تعالى كألف سنة مما يعده الناس ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] وقد قال تعالى في سورة سأل سائل : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] .

وقد ذكرنا في كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] الجمع بين هذه الآيات من وجهين :

الأول : هو ما أخرجه ابن أبي حاتم ، من طريق سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج ، هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة .

الوجه الثاني : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ،

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : 910] وقوله تعالى : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : 8] .

(102/612)

وقد أوضحنا هذا الوجه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] ، وقد ذكرنا في [دفع إيهام عن آيات الكتاب] أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلا من ابن عباس وسعيد بن المسيب سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقول فيها ، ويقول : لا أدري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(103/612)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

يخبرنا الحق – تبارك وتعالى – أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما لخدمة الإنسان ، وهو المكرَّم الأول في هذا الكون ، وجميع الأجناس في خدمته حيواناً ونباتاً وجماداً ، فهو سيد في هذا الكون ، لكن هل أخذ هذا السيد سيادته بذاته وبفعله ؟ لا إنما أخذها بفضل الله عليه ، فكان عليه أولاً أنْ يشكر مَنْ أعطاه هذه السيادة على غيره .

وهذا السيد عمره ومروره في الحياة عبور ، فعمره فيها يطول أو يقصر ينتهي إلى الموت ، في حين أن الجمادات التي تخدمه عمرها أطول من عمره ، وهي خادمة له ، فكان لزاماً عليه أنْ يتأمل هذه المسألة : كيف يكون عمر الخادم أطول وأبقى من عمر السيد المخدوم ؟

إذن : لا بد أن لي عمراً آخر أطول من هذا ، عمراً يناسب تكريم الله لي ، ويناسب سيادتي في هذا الكون ، إنها الآخرة حيث تندثر هذه المخلوقات التي خدمتني في الدنيا وأبقى أنا ، لا أعيش مع الأسباب ، إنما مع المسبب سبحانه ، فلا أحتاج إلى الأسباب التي خدمتني في الدنيا ، إنما أجد كل ما أشتهيه بين يديَّ دون تعب ودون سَعْى ، وهذه ارتقاءات لا تكون إلا لمَنْ يطيع المرقى المعطي .

لذلك ، الحق – سبحانه وتعالى – يلفتنا ويقول : صحيح أنت أيها الإنسان سيد هذا الكون وكل مخلوقاتي في خدمتك ، لكن خَلْقها أكبر من خَلْقك : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . ﴾ [غافر : 57]

لماذا ؟ لأن الناس أعماراً محددة ، مهما طالت لا بُدَّ أن تنتهي إلى أجل ، ثم إن هذه الأعمار لا تُسْلم لهم ، إنما تنتابها الأغيار ، فالغنيّ قد يفتقر ، والصحيح قد يمرض ، والقوي قد يضعف ، أمّا الشمس والقمر والنجوم والكون كله فلا يتعرض لهذه الأغيار فما رأينا الشمس أو القمر أو النجوم أصابتها علة وانتهت كانتهاء الإنسان ، ثم أنتَ لستَ مثلها في العظمة المستوعبة ؛ لأن قصارى ما فيك أنك تخدم نفسك أو تخدم البيئة التي حولك ، أمَّا هذه المخلوقات فتخدم الكون كله .

فإذا اقرَّ – حتى الكفار – بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض إذن : فهي دليل أول على وجود الحق تبارك وتعالى .

ومسألة خَلْق السماوات والأرض من الأشياء التي استأثر الله بعلمها وليس لأحد أنْ يقول : كيف خُلقت ولا حتى كيف خُلق الإنسان ؛ لأن مسائل الخَلْق لم يشهدها أحد فيخبرنا بها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51]

فسماهم الله مُضلِّين ، والمضلّ هو الذي يجنح بك إلى طريق باطل ، ويصرفك عن الحق ، وقد رأينا فعلاً هؤلاء المضلِّين وسمعنا افتراءاتهم في مسألة خَلْق السماوات والأرض .

إذن : خَلْق السماوات والأرض مسألة لا تُوخَذ إلا ممَّنْ خلق ؛ لذلك قَصَّ لنا ربنا – تبارك

وتعالى – قصة خَلْق آدم ، وقصَّ لنا قصة خلق السماوات والأرض ، لكن الخَلْق حدث وفعل ، والفعل يحتاج إلى زمن تعالج فيه الحدث وتزاوله ، والإشكال هنا في قوله تعالى ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .

. ﴾ [السجدة : 4] . فهل الحدث بالنسبة لله تعالى يحتاج إلى زمن ؟

(105/612)

الفِعْل من الإنسان يحتاج إلى علاج يستغرق زمناً ، حيث نوزع جزيئات الفعل على جزئيات الزمن ، أما في حقه تعالى فهو سبحانه يفعل بلا علاج للأمور ، إنما يقول : للشيء كن فيكون ، أما قوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [السجدة : 4] فقد أوضحناها بمثال ، ولله المثل الأعلى .

قلنا : أنت حين تصنع الزبادي مثلاً تأتي بالحليب ، ثم تضع عليه خميرة زبادي سبق إعداده ، ثم تتركه في درجة حرارة معينة سبع أو ثماني ساعات بعدها تجد الحليب قد تحوَّل إلى زبادي ، فهل تقول : إن صناعة الزبادي استغرقت مني سبعاً أو ثماني ساعات ؟ لا ، إنها استغرقتْ مجرد إعداد المواد اللازمة ، ثم أخذت هذه المواد تتفاعل بعضها ببعض ، إلى أن تحولت إلى المادة الجديدة .

كذلك الحق – تبارك وتعالى – خلق السماوات والأرض بأمره (كُنْ) ، فتفاعلت هذه الأشياء مُكوِّنه السماوات والأرض .

ومسألة خلق السماوات والأرض في ستة أيام عُولجت في سبع سور من القرآن ، أربع منها تكلمْن عن خلق السماوات والأرض ولم تتعرض لما بينهما ، وثلاث تعرضتْ لخَلْق السماوات والأرض وما بينهما ، ففي الأعراف مثلاً ، وفي يونس ، وهود ، والحديد .

تعرضت الآيات لخلق السماوات والأرض فقط .

وفي الفرقان والسجدة وق . فتكلَّمتْ عن البينية ، فكأن السماوات والأرض ظرف خُلق أولاً ، ثم خُلِق المظروف في الظرف ، وهذا هو الترتيب المنطقي أنْ تُعِدَّ الظرف أولاً ، ثم تضع فيه المظروف .

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [السجدة : 4] الله يخاطب بهذه الآيات العرب ، واليوم له مدلول عند العرب مرتبط بحركة الشمس والقمر ، فكيف يقول سبحانه ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ [السجدة : 4] ولم تخلق بعد لا الشمس ولا القمر ؟

نقول : المعنى خلقها في زمن يساوي ستة أيام بتقديرنا نحن الآن ، وإلا فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] أي : في الدنيا .

وقال عن اليوم في الآخرة : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] فلله تعالى تقدير لليوم في الدنيا ، ولليوم في الآخرة .

والحق سبحانه لم يُفصِّل لنا مسألة الخَلْق هذه إلا في سورة (فُصِّلَت) فهي التي فصَّلَتْ القول في خَلْق السماوات والأرض ، وهذه من عجائب هذه السورة .

فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ . . . ﴾ [فصلت : 9-10] هذه ستة أيام . ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْكَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . . ﴾

[فصلت : 11-12] وهكذا يصبح المجموع ثمانية أيام .

إذن : كيف نُوفِّق بين ستة أيام في الإجمال ، وثمانية أيام في التفصيل ؟ قالوا : الأعداد يُحمل مُجْملها على مفصَّلها ؛ لأن المفصَّل تستطيع أن تضم بعضه إلى بعض ، أما المجمل فهو النهاية .

وأَعْد معي قراءة الآيات : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . . ﴾ [فصلت : 9-10] وهذا كله من لوازم الأرض ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ . . . ﴾ [فصلت : 10] أي : أن هذه اللوازم تابعة لما قبلها .

فالمعنى : في تتمة أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان في الأربعة ، كما لو قلت : سِرْتُ من القاهرة إلى طنطا في ساعة ، وإلى الأسكندرية في ساعتين ، فالساعة الأولى محسوبة من هاتين الساعتين .

فالحق سبحانه خلق الأرض في يومين ، وخلق ما يلزمها في تتمة الأربعة الأيام ، فالزمن تتمة للزمن ؛ لأن الحدث يُتمِّم الحدث ، إذن : المحصلة النهائية ستة أيام ، وليس هناك خلاف بين الآيات ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] ومن العجيب أن يأتي هذا التفصيل في (فُصِّلت) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتوى عَلَى العرش . . ﴾ [السجدة : 4] الحق - سبحانه - تبارك وتعالى - يخاطب الخَلْق بما يُقرِّب الأشياء إلى أذهانهم ؛ لأن الملوك أو أصحاب

الولاية في الأرض لا يستقرون على كراسيهم إلا بعد أنْ يستتبَّ لهم الأمر .

فمعنى ﴿ استوى . . ﴾ [السجدة : 4] صعد وجلس واستقر ، كل هذه المعاني تناسب الآية ، لكن في إطار قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11]

(108/612)

فكما أن لله تعالى وجوداً ليس كوجودك ، وسَمْعاً ليس كسمعك ، وفعلاً ليس كفِعْلك ، فكذلك له سبحانه استواء ، لكن ليس كاستوائك ، وإذا دخلت حجرة الجلوس مثلاً عند شيخ البلد وعند العمدة والمحافظ ورئيس الجمهورية ستجد مستويات متباينة ، كلٌّ على حسب ما يناسبه ، فإذا كان البشر يتفاوتون في الشيء الواحد ، فهل نُسوِّي بينا وبين الخالق عز وجل ؟

فالمعنى إذن ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش . . ﴾ [السجدة : 4] استتبَّ له أمر الخَلْق ، ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ . . ﴾ [السجدة : 4] الوليُّ : مَنْ يليك ، ويكون قريباً منك ، وإليه تفزع في الأحداث ، فهو ملجؤك الأول . والشفيع : الذي يشفع لك عند مَنْ يملك أمرك ، فالوليُّ هو الذي ينصرك بنفسه ، أمَّا الشفيع فهو يتوسط لك عند مَنْ ينصرك

، فليس لك وليٌّ ولا شفيع من دون الله عز وجل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . ﴾ [الإسراء : 67] فلا أحد ينجيكم ، ولا أحدَ يُسعفكم إلا الله ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة : 4]

كأن هذه المسألة يجب أنْ تكون على بالك دائماً ، فلا تغفل عن الله ؛ لأنك ابْنُ أغيار ، والأحداث تتناوبك ، فلا يستقرّ بك حال ، فأنت بين الغِنَى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف .

لذلك تذكَّر دائماً أنه لا وليَّ ولا نصير لك إلى الله ، وإذا استحضرتَ ذلك دائماً اطمأنَّ قلبك ، ولم لا وأنت تستند إلى ولٍّ وإلى نصير لا يخذلك أبداً ، ولا يتخلى عنك لحظة ، فإذا خالط هذا الشعورُ قلبَك أقبلتَ على الأحداث بجسارة ، وإذا أقبلتَ على الحدث بجسارة لم يأخذ الحدث من قوتك شيئاً ؛ لأن الذي يخاف الأحداث يُضعِف قوته الفاعلة .

(109/612)

فمثلاً صاحب العيال الذي يخاف الموت فيتركهم صغاراً لا عائلَ لهم لو راجع نفسه لقال لها : ولِمَ الخوفُ على العيال من بعدي ، فهل أنا خلقتُهم ، أم لهم خالق يرعاهم ويجعل لهم من

المجتمع الإيماني آباءً متعددين ؟ لو قال لنفسه ذلك ما اهتم لأمرهم ، وصَدَق الذي قال مادحاً : أنتَ طِرْتَ باليُتْم إلى حَدِّ الكَمالِ

وقال آخر :

قَال ذُو الآبَاءِ لَيْتِى لاَ أَبَا لِي . . . ولَم لا ؟ وقد كفل الإسلام للأيتام أنْ يعيشوا في ظل المجتمع المسلم أفضل مما يعيش مَنْ له أب وأم .

إذن : فالإنسان حينما يعلم أن له سنداً من ألوهية قادرة وربوبية لا تُسلمه يستقبل الحوادث بقوة ، ويقين ، ورضا ، وإيمان بأنه لن يُسْلَم أبداً ما دام له إيمان برب ، وكلمة رب هذه ستأتي على باله قَسْراً في وقت الشدة ، حين يخذله الناس وتُعْييه الأسباب ، فلا يجد إلا الله – حتى ولو كان كافراً لقال في الشدة : يارب .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن دُونِهِ . . ﴾ [السجدة : 4] يعني : لا يوجد غيره ، وإنْ وُجِد غَيْرٌ فبتحنين الله للغير عليك ، فالخير أياً كان فمردُّه إلى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يُدبِّرُ الأمر مِنَ السمآء . . . ﴾ .

في هذه الآية ردٌّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الله تعالى قادر وخالق ، لكنه سبحانه زاول سلطانه في مُلْكه مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وخلق القوانين ، ثم تركها تعمل في إدارة هذا الكون ، ونقول : لا بل هو سبحانه ﴿ يُدبِّرُ الأمر . . ﴾ [السجدة : 5] أي : أمْر الخَلْق ، وهو سبحانه قيُّوم عليه .

وإلا فما معنى ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ . . . ﴾ [البقرة: 255] إن قلْنا بصحة ما تقولون؟ بل هو سبحانه خلق الكون، ويُدبِّر شئونه على عينه عز وجل، والدليل على قيوميته تعالى على خَلْقه أنه خلق الأسباب على رتابة خاصة، فإذا أراد سبحانه خَرْق هذه الرتابة بشواذ تخرج عن القوانين المعروفة كما خرق لإبراهيم – عليه السلام – قانون الإحراق، وكما خرق لموسى – عليه السلام – قانون سيولة الماء، ومسألة خَرْق القوانين في الكون دليل على قيوميته تعالى، ودليل على أن أمر الخَلْق ما يزال في يده سبحانه.

ولو أن المسألة كما يقول الفلاسفة لكان الكون مثل المنبه حين تضبطه ثم تتركه ليعمل هو من تلقاء نفسه، ولو كان الأمر كذلك لانطفأتْ النار التي أُلقِي فيها إبراهيم عليه السلام مثلاً.

لذلك لما سُئِل أحد العارفين عن قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: 29] ما شأن ربك الآن، وقد صحَّ أن القلم قد جفَّ؟ قال: أمور يبديها ولا يبتديها، يرفع أقواماً ويضع آخرين.

إذن: مسألة الخَلْق إبداء لا ابتداء، فأمور الخَلْق مُعدَّة جاهزة مُسْبقاً، تنتظر الأمر من الله لها بالظهور.

وقلنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] فكلمة ﴿ يَقُولَ لَهُۥ . . . ﴾ [يس : 82] تدل على أن هذا الشيء موجود بالفعل ينتظر أنْ يقول الله له : اظهر إلى حيّز الوجود .

(111/612)

فالحق سبحانه ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض . . ﴾ [السجدة : 5] ثم تعود إليه سبحانه النتائج ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ . . ﴾ [السجدة : 5] فالله سبحانه يرسل إلى الأرض ، ثم يستقبل منها ؛ لأن المدبّرات أمراً من الملائكة لكل منهم عمله واختصاصه ، وهذه المسألة نسميها في عالمنا عملية المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلف مجموعة من موظفيه بالعمل ، ثم لا يتركهم إنما يتابعهم ليستقيم العمل ، بل ويحاسبهم كلاً بما يستحق .

والملائكة هي التي تعرج بالنتائج إليه سبحانه ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : 5] فالعود سيكون للملائكة ، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوك ؛ لذلك الذي يعمله البشر في ألف سنة تعمله الملائكة في يوم .

ومثال ذلك ما قرأناه في قصة سليمان – عليه السلام – حين قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 38]

وهذا الطلب من سليمان – عليه السلام – كان على ملأ من الإنس والجن ، لكن لم يتكلم بشريٌّ ، ولم يتصدَّ أحد منهم لهذا العمل ، إنما تصدّى له عفريت ، وليس جنّياً عادياً ، والعفريت جنى ماهر له قدراته الخاصة ، وإلا ففي الجن أيضاً من هو (لبخة) لا يجيد مثل هذه المهام ، كما في الإنسان تماماً .

قال العفريت : ﴿ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ . . . ﴾ [النمل : 39] وهذا يعني أنه سيتغرق وقتاً ، ساعة أو ساعتين ، أما الذي عنده علم من الكتاب فقال : ﴿ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . . ﴾ [النمل : 40]

يعني : في طرفة عين لما عنده من العلم ؛ لذلك لما رأى سليمانُ العرشَ مستقراً عنده في لمح البصر ، قال : ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ . . . ﴾ [النمل : 40]

(112/612)

إذن : الفعل يستغرق من الزمن على قدْر قوة الفاعل ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، وقد أوضحنا هذه المسألة في كلامنا على الإسراء والمعراج .

ومعنى : ﴿ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : 5] أي : من سنينكم أنتم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الخلق)

وهو التقدير ، وقيل : التقدير المستقيم .

ويستعمل فى إبداع الشئ من غير أَصل ولا احتذاء .

قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أَى أَبدعهما بدلالة .

قوله : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

ويستعمل فى إيجاد الشئ من الشئ .

قال تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .

وليس الخلق بمعنى الإبداع إلاَّ لله تعالى .

ولهذا قال تعالى فى الفصل بينه وبين غيره : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ وأَمَّا الَّذى يكون بالاستحالة فقد جعله الله لغيره فى بعض الأَحوال كعيسى عليه السّلام حيث قال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ والخَلْق لا يستعمل فى جميع النَّاس إلاَّ على وجهين :

أَحدهما فى معنى التقدير كقوله :

ولأَنت تفرِى ما خلقتَ وبعض الـ ـقوم يخلق ثم لا يفرى*

والثانى : فى الكذب نحو قوله تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ .

إِن قيل : قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ يدل على أَنَّه يصحّ أَن يوصف به غيره ، قلنا : إِن ذلك معناه : أَحسن المُقدّرين ، أَو يكون على تقدير ما كانوا يعتقدون ويزعمون أَنَّ غير الله يُبدِعُ ، فكأَنَّه قيل : فاحسَب أَنَّ ههنا مبدعين وموجدين فالله تعالى أَحسنهم إِيجاداً على ما يعتقدون ، كما قال : ﴿ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ قيل : هو إِشارة إِلى ما يشوّهونه من الخِلْقة بالخِصاءِ ونَتْف اللّحية وما يجرى مجراه .

وقيل : معناه يغيّرون حكمه .

وقوله : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ إِشارة إِلى ما قدّره وقضاه .

وقيل : معنى لا تبديل نهى : لا تغيّروا خلقة الله .

وقوله : ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ كناية عن فروج النساءِ .

(114/612)

وكلّ موضع استعمل فيه الخَلْق فى وصف الكلام فالمراد به الكذب .

ومن هذا الوجه امتنع كثير من الناس من إطلاق لفظ الخَلْق على القرآن وعلى هذا قوله : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ وقوله : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهذا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ ﴾ .

والخَلْق فى معنى المخلوق .

والخَلْق والخُلْق فى الأَصل واحد .

كالشَّرَب والشُّرْب والصَّوم والصُّرْم ، ولكن خُصّ الخَلْق بالهيئات والأَشكال والصّور المدركة بالبصر ، وخُصّ الخُلْق بالقُوَى والسّجايا المدركة بالبصيرة .

قال تعالى : لنبيّه صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : ابن عباس رضى الله عنهما : لعَلَى دِين عظيم لا دين أَحبُّ إِلىّ ولا أَرضى عندى منه وهو دين الإِسلام .

وقال الحسن : هو أَدب القرآن .

وقال قتادة : هو ما كان يأْتمر به مِن أَمر الله ويَنْتَهى عنه من نَهْى الله .

والمعنى : إِنَّك لعلى الخُلُق الَّذى آثرك الله تعالى به فى القرآن .

وفى الصّحيحين أَنَّ هشام ابن حَكِيم سأَل عائشة عن خُلُق رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فقالت : كان خُلُقه القرآن .

واعلم أَنَّ الدّين كلَّه خُلُق .

فمن زاد عليك فى الخُلُق زاد عليك فى الدين ، وكذا التصوّف .

قال الكتَّانى : هو خُلُق ، فمن زاد عليك فى الخُلُق زاد عليك فى التصوّف .

وقيل : حسن الخُلُق : بَذْل النَّدى ، وكَفُّ الأَذَى .

وقيل : فَكُّ الكفِّ ، وكفُّ الفكِّ .

وقيل : بذل الجميل وكفُّ القبيح .

وقيل : التخلى من الرذائل ، والتحلِّى بالفضائل .

وهو يقوم على أَربعة أَركان لا يُتصوّر قيام ساقِه إلاَّ عليها : الصّبر والعفَّة والشَّجاعة والعدل .

فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وإِماطة الأَذى والحلم والأَناة والرِّفق وعدم الطَّيش والعجلة .

والعفَّةُ تحمله على اجتناب الرذائل والقبيح من القول والفعل .

(115/612)

وتحمله على الحياءِ وهو ركن كلَّ خير ، وتمنعه من الفحش والبخل والكذب والغيبة والنَّميمية .

والشجاعةُ تحمله على عِزَّةِ النَّفس وإِيثار معالى الأَخلاق والشِّيم ، وعلى البذل والنَّدى الذى هو شجاعة النفس وقوّتها على إِخراج المحبوب ومفارقته ، وتحمله على كَظْم الغيظ والحلم فإِنَّه بقوّة نَفْسه وشجاعتها يُمسك عِنَانها ويكبحها بلجامها عن السّطوة والبطش ؛ كما قال النبىّ صلَّى الله عليه وسلم : "ليس الشَّديد بالصُّرَعة إِنَّما الشديد الَّذى يمسك نفسه عند الغضب" وهذه هى حقيقة الشجاعة .

وهى مَلكة يقتدِر معها على قهر خصمه .

والعدل يحمله على اعتدال أَخلاقه وتوسّطه بين طرفى الإفراط والتَّفريط فيحمله على خُلُق الجود والسّخاءِ الَّذى هو توسّط بين الإِمساك والتَّقتير ، وعلى خُلُق الحياءِ الَّذى هو توسّط بين الذِّلة والقِحة ، وعلى خُلُق الشَّجاعة الَّذى هو توسّط بين الجُبْن والتَّهوّر ، وعلى خلق الحلم الذى هو توسّط بين الغضب والمهانة .

والتوسّط منشأُ جميع الأَخلاق الفاضلة من هذه الأَربعة .

والخَلْق ورد فى القرآن على ثمانية أَوجه :

الأَوّل : بمعنى دين الحقّ ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أَى لدين الله ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ أَى دين الله .

الثانى : بمعنى الكذب ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ أَى تكذبون ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ .

الثالث : بمعنى التَّصوير ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ أَى تصوّر .

الرابع : بمعنى التقدير ﴿ لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أَى يقدّرون .

الخامس : بمعنى الإِنطاق ﴿ أَنطَقَنَا اللَّهُ ﴾ إِلى قوله ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَى أَنطقكم .

السّادس : الخَلْقُ بمعنى الجعل ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ .

(116/612)

السّابع : بمعنى الإِحياءِ فى القيامة ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ أَى بعثنا ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أَى يبعث .

الثَّامن : بمعنى حقيقة الخِلْقة ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ ﴾ وله نظائر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 566.570 ﴾

(117/612)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

وتلك الأيام خَلَقَها مِنْ خَلْقٍ غير الأيام ، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه في وقتٍ ؛ إذ الوقتُ مخلوقٌ في غير الوقت وكما يستغنى في كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقتُ عن الوقت .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ : ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر ، ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ولكن القديم ليس له حدٌّ ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البُعْد ، استوى على العرش ولكنه أشدُّ الأشياء تَعَطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة ؟ ، ولكنَّ العرشَ جمادٌ . . وأَنَّى يكون للجماد مراد ؟ ! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا نِدٍّ ، أَحَدٌ بلا حَدٍّ .

﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ : إذا لم يُرِدْ بكم خيراً فلا سماءَ عنه تُظِلُّكم ، ولا أرضَ بغير رضاه تُقِلُّكم ، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم ، ولا أحدَ -إذا لم يُعْنَ بشأنكم في الدنيا والاخرة- ينظر إليكم .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)

خَاطَبَ الخَلْقَ -على مقدار أفهامهم ويجوز لهم- عن الحقائق التي اعتادوا في تخاطبهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 139 ﴾

(118/612)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر هذا من عالم الأشباح والخلق ، ثم عالم الأرواح والأمر ، فدل ذلك على شمول القدرة ، وكان شامل القدرة لا بد وأن يكون محيط العلم ، كانت نتيجته لا محالة :

﴿ ذلك ﴾ أي الإله العالي المقدار ، الواضح المنار ﴿ عالم الغيب ﴾ الذي تقدمت مفاتيحه آخر التي قبلها من الأرواح والأمر والخلق .

ولما قدم علم الغيب لكونه ، أعلى وكان العالم به قد لا يعلم المشهود لكونه لا يبصر قال :

﴿ والشهادة ﴾ من ذلك كله التي منها تنزيل القرآن عليك ووصوله إليك ﴿ العزيز ﴾ الذي يعجز كل شيء ولا يعجزه شيء .

ولما كان ربما قدح متعنت في عزته بإهمال العصاة قال : ﴿ الرحيم ﴾ أي الذي خص أهل التكليف من عباده بالرحمة في إنزال الكتب على السنة الرسل ، وأبان لهم ما ترضاه الإلهية ، بعد أن عم جميع الخلائق بصفة الرحمانية بعد الإيجاد من الإعدام بالبر والإنعام .

ولما ذكر صفة الرحيمية صريحاً لأقتضاء المقام إياها ، أشار إلى صفة الرحمانية فقال : ﴿ الذي أحسن كل شيء ﴾ ولما كان هذا الإحسان عاماً ، خصه بأن وصفه – على قراءة المدني والكوفي – بقوله : ﴿ خلقه ﴾ فبين أن ذلك بالإتقان والإحكام ، كما فسر ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من حيث التشكيل والتصوير ، وشق المشاعر ، وتهيئة المدارك ، وإفاضة المعاني ، مع المفاوتة في جميع ذلك ، وإلى هذا أشار الإبدال في قراءة الباقين ، وعبر بالحسن لأن ما كان على وجه الحكمة كان حسناً وإن رآه الجاهل القاصر قبيحاً .

ولما كان الحيوان أشرف الأجناس ، وكان الإنسان أشرفه ، خصه بالذكر ليقوم دليل الوحدانية بالأنفس كما قام قبل بالآفاق ، فقال دالاً على البعث : ﴿ وبدأ خلق الإنسان ﴾ أي الذي هو المقصود بالخطاب بهذا القرآن ﴿ من طين ﴾ أي مما ليس له أصل في الحياة بخلق آدم عليه السلام منه .

ولما كان قلب الطين إلى هذا الهيكل على هذه الصورة بهذه المعاني أمراً هائلاً، أشار إليه بأداة البعد في قوله: ﴿ ثم جعل نسله ﴾ أي ولده الذي ينسل أي يخرج ﴿ من سلالة ﴾ أي من شيء مسلول، أي منتزع منه ﴿ من ماء مهين ﴾ أي حقير وضعيف وقليل مراق مبذول، فعيل بمعنى مفعول، وأشار إلى عظمة ما بعد ذلك من خلقه وتطويره بقوله: ﴿ ثم سواه ﴾ أي عدله لما يراد منه بالتخطيط والتصوير وإبداع المعاني ﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ الروح ما يمتاز به الحي من الميت، والإضافة للتشريف، فيا له من شرف ما أعلاه إضافته إلى الله.

ولما ألقى السامعون لهذا الحديث أسماعهم، فكانوا جديرين بأن يزيد المحدث لهم إقبالهم وانتفاعهم، لفت إليهم الخطاب قائلاً: ﴿ وجعل ﴾ أي بما ركب في البدن من الأسباب ﴿ لكم السمع ﴾ أي تدركون به المعاني المصوتة، ووحده لقلة التفاوت فيه إذا كان سالماً ﴿ والأبصار ﴾ تدركون بها المعاني والأعيان القابلة، ولعله قدمها لأنه ينتفع بهما حال الولادة، وقدم السمع لأنه يكون إذ ذاك أمتن من البصر.

ولذا تربط القوابل العين لئلا يضعفها النور، وأما العقل فإنما يحصل بالتدريج فلذا أخر محله فقال: ﴿ والأفئدة ﴾ أي المضغ الحارة المتوقدة المتحرفة، وهي القلوب المودعة غرائز العقول المتباينة فيها أيّ تباين؛ قال الرازي في اللوامع: جعله - أي الإنسان - مركباً من

روحاني وجسماني ، وعلوي وسفلي ، جمع فيه بين العالمين بنفسه وجسده ، واستجمع الكونين بعقله وحسه ، وارتفع عن الدرجتين باتصال الأمر الأعلى به وحياً قولياً ، وسلم الأمر لمن له الخلق والأمر تسليماً اختيارياً طوعياً .

ولما لم يتبادروا إلى الإيمان عند التذكير بهذه النعم الجسام قال : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي وكثيراً ما تكفرون .

(120/612)

ولما كانوا قد قالوا : محمد ليس برسول ، والإله ليس بواحد ، والبعث ليس بممكن ، فدل على صحة الرسالة بنفي الريب عن الكتاب ، ثم على الوحدانية بشمول القدرة وإحاطة العلم بإبداع الخلق على وجه هو نعمة لهم ، وختم بالتعجيب من كفرهم ، وكان استبعادهم للبعث – الذي هو الأصل الثالث – من أعظم كفرهم ، قال معجباً منهم في إنكاره بعد التعجيب في قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، لافتاً عنهم الخطاب إيذاناً بالغضب من قولهم : ﴿ وقالوا ﴾ منكرين لما ركز في الفطر الأُوَل ، ونبهت عليه الرسل ، فصار بحيث لا يكره عاقل ألم بشيء من الحكمة : ﴿ أإذا ﴾ أي أنبعث إذا ﴿ ضللنا ﴾ أي ذهبنا وبطلنا وغبنا ﴿ في الأرض ﴾ بصيرورتنا تراباً مثل ترابها ، لا يتميز بعضه من بعض : قال أبو حيان

تبعاً للبغوي والزمخشري وابن جرير الطبري وغيرهم : وأصله من ضل الماء في اللبن – إذا ذهب .

ثم كرروا الاستفهام الإنكاري زيادة في الاستبعاد فقالوا : ﴿ إنا لفي خلق جديد ﴾ هو محيط بنا ونحن مظروفون له .

ولما كان قولهم هذا يتضمن إنكارهم القدرة ، وكانوا يقرون بما يلزمهم منه الإقرار بالقدرة على البعث من خلق الخلق والإنجاء من كل كرب ونحو ذلك ، أشار إليه بقوله : ﴿ بل ﴾ أي ليسوا بمنكرين لقدرته سبحانه ، بل ﴿ هم بلقاء ربهم ﴾ المحسن بالإيجاد والإبقاء مسخراً لهم كل ما ينفعهم في الآخرة للحساب أحياء سويين كما كانوا في الدنيا ، والإشارة بهذه الصفة إلى أنه لا يحسن بالمحسن أن ينغص إحسانه بترك القصاص من الظالم الكائن في القيامة ﴿ كافرون ﴾ أي منكرون للبعث عناداً ، ساترون لما في طباعهم من أدلته ، لما غلب عليهم من الهوى القائد لهم إلى أفعال منعهم من الرجوع عنها الكبرُ عن قبول الحق والأنفة من الإقرار بما يلزم منه نقص العقل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 52 . 54 ﴾

(121/612)

فصل

قال الفخر :

ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الأمر غير غافل ، فإن الملك إذا كان آمراً ناهياً يطاع في أمره ونهيه ، ولكن يكون غافلاً لا يكون مهيباً عظيماً كما يكون مع ذلك خبيراً يقظاً لا تخفى عليه أمور الممالك والمماليك فقال : ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ ولما ذكر من قبل عالم الأشباح بقوله :

(122/612)

﴿ خَلَقَ السموات ﴾ [السجدة : 4] وعالم الأرواح بقوله : ﴿ يُدبِّرُ الأمر مِنَ السماء إِلَى الأرض ﴾ قال : ﴿ عالم الغيب ﴾ يعلم ما في الأرواح ﴿ والشهادة ﴾ يعلم ما في الأجسام أو نقول قال : ﴿ عالم الغيب ﴾ إشارة إلى ما لم يكن بعد ﴿ والشهادة ﴾ إشارة إلى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لأنه أقوى وأشد إنباء عن كمال العلم ، ثم قال تعالى : ﴿ العزيز الرحيم ﴾ لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ، ثم قال تعالى : ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْء خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض

وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليها من الأنفس بقوله : ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ يعني أحسن كل شيء مما ذكره وبين أن الذي بين السموات والأرض خلقه وهو كذلك لأنك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ما ينبغي صلابة الأرض للنبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه في كل موضع وحركة النار إلى فوق ، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شيء هناك يقبل الاحتراق وقوله : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ قيل المراد آدم عليه السلام فإنه خلق من طين ، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمي أصله منى والمنى أصله غذاء ، والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين .

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8)

(123/612)

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ على التفسير الأول ظاهر لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة ، وعلى التفسير الثاني هو أن أصله

من الطين ، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هي من ماء مهين ، فإن قال قائل التفسير الثاني غير صحيح لأن قوله : ﴿ بدأ خلق الإنسان . . .

ثم جعل نسله ﴾ دليل على أن جعل النسل بعد خلق الإنسان من طين فنقول لا بل التفسير الثاني أقرب إلى الترتيب اللفظي فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء في خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم يبعد أن يقال : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ عائد إلى آدم أيضاً لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة ، وذلك بعد خلق آدم ، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرَ ﴾ [غافر : 57] ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ . . . ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ أي كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف ، واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله : ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ أي الروح التي هي ملكه كما يقول القائل داري وعبدي ، ولم يقل أعطاه من جسمه لأن الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع

والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(124/612)

قال ﴿ وجعل لكم ﴾ مخاطباً ولم يخاطب من قبل وذلك لأن الخطاب يكون مع الحي فلما قال : ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ خاطبه من بعده وقال ﴿ جعل لكم ﴾ ، فإن قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنْ خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ [الروم : 20] فنقول هناك لم يذكر الأمور المرتبة وإنما أشار إلى تمام الخلق ، وههنا ذكر الأمور المرتبة وهي كون الإنسان طيناً ثم ماءً مهيناً ثم خلقاً مسوى بأنواع القوى مقوي فخاطب في بعض المراتب دون البعض .

المسألة الثانية :

الترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة ، وذلك لأن الإنسان يسمع أولاً من الأبوين أو الناس أموراً فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجريها ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئاً ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ، ثم يصير له أهلية

التصنيف فيكتب من قلبه كتاباً ، فكذلك الإنسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية .

المسألة الثالثة :

(125/612)

ذكر في السمع المصدر وفي البصر والفؤاد الاسم ، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع ، لأن المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل واحد فإن الإنسان لا يضبط في زمان واحد كلامين ، والأذن محله ولا اختيار لها فيه فإن الصوت من أي جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض ، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستبدة ، فذكر القوة في الأذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار ، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار ، ألا ترى أنك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو إلا نادراً ، لما بينا أن المختار هو الأصل وغيره آلته ، فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له ، والعين كالأصل وقوة الأبصار آلتها والفؤاد

كذلك وقوة الفهم آلته ، فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الأبصار والأفئدة الاسم الذي هو محل القوة ولأن السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الإنسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك في زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما .

المسألة الرابعة :

(126/612)

لم قدم السمع ههنا والقلب في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا ، وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذي يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها ، وقد ذكرنا هناك ما هو السبب في تأخير الأبصار مع أنها في الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة .

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10)

لما قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : 9] بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر وإنكار قدرته على إحياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى ، في كلامه القديم ، كلما ذكر أصلين من الأصول الثلاثة لم يترك الأصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ [السجدة : 2 ، 3] الوحدانية بقوله : ﴿ الله الذى خَلَقَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار ﴾ [السجدة : 4 ، 9] ذكر الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الأرض ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الواو للعطف على ما سبق منهم فإنهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن .

المسألة الثانية :

أنه تعالى قال في تكذيبهم الرسول في الرسالة ﴿ أم يقولون ﴾ [يونس : 38] بلفظ المستقبل وقال في تكذيبهم إياه في الحشر ، ﴿ وقالوا ﴾ بلفظ الماضي ، وذلك لأن تكذيبهم إياه في

رسالته لم يكن قبل وجوده وإنما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعني هم فيه ، وأما إنكارهم للحشر كان سابقاً صادراً منهم ومن آبائهم فقال ﴿ وقالوا ﴾ .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى صرح بذكر قولهم في الرسالة حيث قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ [يونس : 38] وفي الحشر حيث قال : ﴿ وقالوا أئذا ﴾ ولم يصرح بذكر قولهم في الوحدانية ، وذلك لأنهم كانوا مصرين في جميع الأحوال على إنكار الحشر والرسول ، وأما الوحدانية فكانوا يعترفون بها في المعنى ، ألا ترى أن الله تعالى قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] فلم يقل قالوا إن الله ليس بواحد وإن كانوا قالوه في الظاهر .

المسألة الرابعة :

لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذي لا ريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين ، ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل ، نقول في الجواب : ذكر دليله أيضاً وذلك لأن خلق الإنسان ابتداء دليل على قدرته على إعادته ، ولهذا استدل الله على إمكان الحشر بالخلق الأول كما قال : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] وقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [ياس : 79] وكذلك خلق السموات كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم * بلى ﴾ [ياس : 81 ، 82] .

(128/612)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي أئنا كائنون في خلق جديد أو واقعون فيه ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كافرون ﴾ إضراب عن الأول يعني ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانياً بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثاني لما اعترفوا بالعذاب والثواب ، أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم ، فإنهم أنكروه فأنكروا المفضى إليه ، ثم بين ما يكون لهم من الموت إلى العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 154.151 ﴾

(129/612)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾

فيه خمسة تأويلات

: أحدها : أنه جعل كل شيء خلقه حسناً حتى جعل الكلب في خلقه حسناً ، قاله ابن

عباس .

الثاني : أحكم كل شيء خلقه حتى أتقنه ، قاله مجاهد .

الثالث : أحسن إلى كل شيء خلق فكان خلقه له إحساناً ، قاله علي بن عيسى .

الرابع : ألهم ما خلقه ما يحتاجون إليه حتى علموه من قولهم فلان يحسن كذا أي يعلمه .

الخامس : أعطى كل شيء خلقه ما يحتاج إليه ثم هداه إليه ، رواه حميد بن قيس .

ويحتمل سادساً : أنه عرف كل شيء خلقه وأحسنه من غير تعلم ولا سبق مثال حتى ظهرت فيه القدرة وبانت فيه الحكمة .

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ يعني آدم ، روى عون عن أبي زهير عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنوه على ألوان الأرض منهم الأبيض والأحمر وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ أي ذريته ﴿ مِن سُلاَلَةٍ ﴾ لإنسلالِهِ من صلبه ﴿ مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ قال مجاهد ضعيف .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : سوى خلقه في الرحم .

الثاني : سوى خلقه كيف يشاء .

﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : من قدرته ، قاله أبو روق .

الثاني : من ذريته ، قاله قتادة .

الثالث : من أمره أن يكون فكان ، قاله الضحاك .

الرابع : روحاً من روحه أي من خلقه وأضافه إلى نفسه لأنه من فعله وعبر عنه بالنفخ لأن الروح من جنس الريح .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ يعني القلوب وسمى القلب فؤاداً لأنه ينبوع الحرارة الغريزية مأخوذ من المفتأد وهو موضع النار ، وخصص الأسماع والأبصار والأفئدة بالذكر لأنها موضع الأفكار والاعتبار .

قوله : ﴿ وَقَالُواْ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : هلكنا ، قاله مجاهد .

الثاني : صرنا فيه رفاتاً وتراباً ، قاله قتادة والعرب تقول لكل شيء غلب عليه غيره حتى

خفي فيه أثره قد ضل ، قال الأخطل :

كنت القذى في موج أكدر مزبد . . . تقذف الأتيُّ به فَضَلَّ ضلالاً .

الثالث : غُيِّبنا في الأرض ، قاله قطرب وأنشد النابغة :

فآب مُضلُّوه بعين جلية . . . وغودر بالجولان حزمٌ ونائل

وقرأ الحسن : صللنا ، بصاد غير معجمة وفيه على قراءته وجهان

: أحدهما : أي أنتنت لحومنا من قولهم صل اللحم إذا أنتن ، قاله الحسن .

الثاني : صللنا من الصلة وهي الأرض اليابسة ومنه قوله تعالى : ﴿ مِن صَلصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي أَتُعَادُ أجسامنا للبعث خلقاً جديداً تعجباً من إعادتها وإنكاراً لبعثهم وهو معنى قوله تعالى :

﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِم كَافِرُونَ ﴾ وقيل إن قائل ذلك أُبي بن خلف

. قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ أي يقبض أرواحكم والتوفي أخذ الشيء على تمام ، مأخوذ من توفية العدد ومنه قولهم استوفيت دَيْني من فلان .

ثم في توفي ملك الموت لهم قولان :

الأول : بأعوانه .

الثاني : بنفسه . روى جعفر الصادق عن أبيه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم [يا ملك الموت]

: " ارْفُقْ بِصَاحِبِي فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ " فقال ملك الموت عليه السلام يا محمد طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق واعلَمْ أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله تعالى هو الآمر بقبضها ، قال جعفر إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلوات .

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : إلى جزائه .

الثاني : إلى أن لا يملك لكم أحد ضراً ولا نفعاً إلا الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(131/612)

وقال ابن عطية :

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) ﴾

قالت فرقة أراد ب ﴿ الغيب ﴾ الآخرة ، وب ﴿ الشهادة ﴾ الدنيا ، وقيل أراد ب ﴿ الغيب ﴾ ما غاب عن المخلوقين وب ﴿ الشهادة ﴾ ما شوهد من الأشياء فكأنه حصر

بهذه الألفاظ جميع الأشياء ، وقرأ جمهور الناس " خلَقه " بفتح اللام على أنه فعل ماض ، ومعنى ﴿ أحسن ﴾ أتقن وأحكم فهو حسن من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها ، ومن هذا المعنى ما قال ابن عباس وعكرمة : ليست است القرد بحسنة ولكنها متقنة محكمة ، والجملة في ﴿ خلقه ﴾ يحتمل أن تكون في موضع نصب صفة ل ﴿ كل ﴾ أو في موضع خفض صفة ل ﴿ شيء ﴾ ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " خلْقه " بسكون اللام وذلك منصوب على المصدر ، والضمير فيه إما عائد على الله تعالى وإما على المفعول ، ويصح ان يكون بدلاً من ﴿ كل ﴾ وذهب بعض الناس على هذه القراءة إلى أن ﴿ أحسن ﴾ بمعنى ألهم ، وأن هذه الآية بمعنى قوله تعالى : ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : 50] أي ألهم الرجل إلى المرأة ، والجمل إلى الناقة ، وهذا قول فيه بعد ورجحه الطبري ، وقرأ جمهور الناس " وبدأ " ، وقرأ الزهري " وبدا خلق الإنسان " بألف دون همزة وبنصب القاف وذلك على البدل لا على التخفيف .

قال الفقيه الإمام القاضي : كأنه أبدل الياء من بدى ألفاً ، وبدى لغة الأنصار ، وقال ابن رواحة : [الرجز]

" بسم الإله وبه بدينا . . . ولو عبدنا غيره شقينا "

و ﴿ الإنسان ﴾ آدم عدد أمره على بنيه إذ خلقه خلق لهم من حيث هو منسلهم ، و " النسل " ما يكون عن الحيوان من الولد كأنه مأخوذ من نسل الشيء إذا خرج من موضعه ،

ومنه قوله تعالى : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ [الأنبياء : 96] ومنه نسل ريش الطائر إذا تساقط ، و" السلالة " من سل يسل فكأن الماء يسل من الإنسان ومن ذلك قول الشاعر : [الطويل]

فجاءت به عضب الأديم غضنفراً . . . سلالة فرج كان غير حصين

(132/612)

و " المهين " الضعيف ، مهن الإنسان إذا ضعف وذل ، وقوله ﴿ ونفخ ﴾ عبارة عن إفاضة الروح في جسد آدم ، والضمير في ﴿ روحه ﴾ لله تعالى ، وهي إضافة ملك إلى ملك وخلق إلى خالق ، ثم أظهر تعديد النعم عليهم في أن خصهم في قوله ﴿ لكم ﴾ بضمير ﴿ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ وهي لمن تقدم ذكره أيضاً كما خص آدم بالتسوية ونفخ الروح وهو لجميع ذريته ، وهذا كله إيجاز واقتضاب وترك لما يدل عليه المنطوق به .

ويحتمل أن يكون ﴿ الإنسان ﴾ في هذه الآية اسم الجنس ، وقوله تعالى : ﴿ قليلاً ﴾ صفة لمصدر محذوف ، وهو في موضع الحال حين حذف الموصوف به ، والضمير في ﴿ قالوا ﴾ للكفار الجاحدين البعث من القبور والمستبعدين لذلك دون حجة ولا دليل .

وموضع ﴿ إذا ﴾ نصب بما في قوله ﴿ إنا لفي خلق جديد ﴾ لأن معناه لنعاد ،

واختلفت القراءة في ﴿ أئذا ﴾ وقد تقدم استيعاب ذكره في غير هذا الموضع . وقرأ جمهور القراء " ضللنا " بفتح اللام ، وقرأ ابن عامر وأبو رجاء وطلحة وابن وثاب " ضِللنا " بكسر اللام والمعنى تلفنا وتقطعت أوصالنا فذهبنا حتى لم نوجد ، ومنه قول الأخطل : [الكامل]

كنت القذا في متن أكدر مزبد . . . قذف الأتيّ به فضلّ ضلالا

ومنه قول النابغة :

فآب مضلوه بعين جلية . . . وغودر بالجولان حزم ونائل

(133/612)

أي متلفوه دفناً ، ومنه قول امرىء القيس : " تضل المداري في مثنى ومرسل " . وقرأ الحسن البصري " صلَلنا " بالصاد غير منقوطة وفتح اللام ، قال الفراء وتروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعناه صرنا من الصلة وهي الأرض اليابسة الصلبة ، ويجوز أن يريد به من التغير كما يقال صل اللحم ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس وأبان بن سعيد بن العاصي ، وقرأ الحسن أيضاً " صِللنا " بالصاد غير منقوط وكسر اللام ، وقرأ علي بن أبي طالب وأبو حيوة " ضُلِّلنا " بضم الضاد وكسر اللام وشدها ، وقولهم ﴿ إنا لفي خلق

جديد ﴾ أي إنا لفي هذه الحالة نعاد ويجدد خلقنا . وقوله تعالى : ﴿ بل ﴾ إضراب عن معنى استفهامهم كأنه قال ليسوا مستفهمين " بل هم كافرون " جاحدون بلقاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(134/612)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾

أي عِلم ما غاب عن الخلق وما حضرهم .

و "ذَلِكَ" بمعنى أنا .

حسبما تقدّم بيانه في أوّل البقرة .

وفي الكلام معنى التهديد والوعيد ؛ أي أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإني أجازي عليها .

قوله تعالى : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : "خَلْقَهُ" بإسكان اللام .

وفتحها الباقون .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلباً لسهولتها .

وهو فعل ماضٍ في موضع خفض نعت ل"شيء" .

والمعنى على ما روي عن ابن عباس : أحكم كلّ شيء خلَقه ، أي جاء به على ما أراد ، لم يتغيّر عن إرادته .

وقول آخر : أن كل شيء خلقه حسن ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ؛ وهو دالّ على خالقه .

ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه ؛ لأن قوله : ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ يدلّ على : خَلَق كلّ شيء خَلْقاً ؛ فهو مثل : ﴿ صُنْعَ اللهِ ﴾ [النمل : 88] و ﴿ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : 24] .

وعند غيره منصوب على البدل من "كلّ" أي الذي أحسن خلق كل شيء .

وهو مفعول ثانٍ عند بعض النحويين ، على أن يكون معنى : "أَحْسَنَ" أفهم وأعلم ؛ فيتعدّى إلى مفعولين ، أي أفهم كل شيء خلقه .

وقيل : هو منصوب على التفسير ؛ والمعنى : أحسن كل شيء خلقاً .

وقيل : هو منصوب بإسقاط حرف الجر ، والمعنى : أحسن كل شيء في خلقه .

وروي معناه عن ابن عباس و ﴿ أَحْسَنَ ﴾ أي أتقن وأحكم ؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها .

ومن هذا المعنى قال ابن عباس وعكرمة : ليست اسْت القرد بحسنة ، ولكنها متقَنة

محكمة .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد "أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" قال : أتقنه .

وهو مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿ الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ﴾ [طه : 50] أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة (على) خلق الإنسان .

ويجوز : "خلقه" بالرفع ؛ على تقدير ذلك خلقه .

(135/612)

وقيل : هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى ؛ والمعنى : حسّن خَلْق كل شيء حَسَنٍ .

وقيل : هو عموم في اللفظ والمعنى ، أي جعل كل شيء خلقه حسناً ، حتى جعل الكلب في خلقه حسناً ؛ قاله ابن عباس .

وقال قتادة : في اسْت القرد حسنة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ يعني آدم .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ تقدّم في "المؤمنون" وغيرها .

وقال الزجاج : "مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ" ضعيف .

وقال غيره : "مَهِينٍ" لا خطر له عند الناس .

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ رجع إلى آدم ، أي سوّى خلقه .

﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ ثم رجع إلى ذرّيته فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار ﴾ .

وقيل : ثم جعل ذلك الماء المَهين خلقاً معتدلاً ، وركّب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفاً .

وأيضاً فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله : "عَبْدي" .

وعبّر عنه بالنفخ لأن الروح في جنس الريح .

وقد مضى هذا مبيَّناً في "النساء" وغيرها .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ هذا قول منكري البعث ؛ أي هلكنا وبطلنا وصرنا تراباً .

وأصله من قول العرب : ضلّ الماء في اللبن إذا ذهب .

والعرب تقول للشيء غلب عليه غيره حتى خفي فيه أثره : قد ضلّ .

قال الأخطل :

كنتَ القَذَى في موجِ أكدر مُزْبد . . .

قذف الأتيّ به فضلّ ضلالاً

وقال قُطْرُب : معنى ضَلَلْنا غِبنا في الأرض .

وأنشد قول النابغة الذبياني :

فآبَ مُضِلّوه بعين جَلِيّة . . .

وغُودِر بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونَائِلُ

وقرأ ابن مُحَيصِن ويحيى بن يعمر : "ضَلِلْنَا" بكسر اللام ، وهي لغة .

قال الجوهريّ : وقد ضللت أضِل قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴾ [سبأ : 50] .

فهذه لغة نجد وهي الفصيحة .

وأهل العالية يقولون : "ضَلِلْتُ" بكسر اللام أضَلّ .

(136/612)

وهو ضالّ تالّ ، وهي الضلالة والتلالة .

وأضلّه أي أضاعه وأهلكه .

يقال : أُضِلّ الميّت إذا دفن .

قال :

فآب مُضِلوه . . . . . البيت . . .

ابن السِّكّيت .

أضللت بعيري إذا ذهب منك .

وضللت المسجد والدار : إذا لم تعرف موضعهما .

وكذلك كل شيء مقيم لا يهتدى له .

وفي الحديث " لعلّي أضِل الله " يريد أضل عنه ، أي أخفى عليه ، من قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ أي خفِينا .

وأضله الله فضَلّ ؛ تقول : إنك تهدِي الضالّ ولا تهدِي المتضال .

وقرأ الأعمش والحسن : "صَلَلْنَا" بالصاد ؛ أي أَنتنّا .

وهي قراءة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

النحاس : ولا يعرف في اللغة صللنا ولكن يقال : صلّ اللحمُ وأصلّ ، وخَمّ وأخمّ إذا أنتن .

الجوهريّ : صلّ اللحم يصلّ بالكسر صلولاً ، أي أنتن ، مطبوخاً كان أو نيئاً .

قال الحُطَيئة :

ذاك فتًى يَبذُل ذا قِدرِه . . .

لا يُفْسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولُ

وأصَلّ مثله .

﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي نخلق بعد ذلك خلقاً جديداً ؟ ويقرأ : "أَئِنَّا" .

النحاس : وفي هذا سؤال صعب من العربية ؛ يقال : ما العامل في "إِذَا" ؟ و"إِنّ" لا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

والسؤال في الاستفهام أشدّ ؛ لأن ما بعد الاستفهام أجدر ؛ ألا يعمل فيما قبله من "إن" كيف وقد اجتمعا .

فالجواب على قراءة من قرأ : "إِنا" أن العامل "ضَلَلْنَا" ، وعلى قراءة من قرأ : "أَئِنَّا" أن العامل مضمر ، والتقدير أنبعث إذا متنا .

وفيه أيضاً سؤال آخر ، يقال : أين جواب "إِذَا" على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط ؟ فالقول في ذلك أن بعدها فعلاً ماضياً ؛ فلذلك جاز هذا .

﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ أي ليس لهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة ؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم ، وأنهم لا يلقون الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(137/612)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ باعتبارِ اتصافِه بما ذُكر من خلقِ السَّمواتِ والأرضِ

والاستواءِ على العرشِ وانحصارِ الولايةِ والنُّصرةِ فيه وتدبيرِ أمرِ الكائناتِ على ما ذُكر من الوجهِ البديعِ وهو مبتدأٌ خبرُه ما بعْدَه أي ذلك العظيمُ الشّأنِ ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ فيدبّرِ أمرَهما حسبما تقتضيه الحكمةُ ﴿ العزيز ﴾ الغالبُ على أمرِه ﴿ الرحيم ﴾ على عبادِه وهُما خبرانِ آخرانِ وفيه إيماءٌ إلى أنَّه تعالى متفضّلٌ في جميعِ ما ذُكر فاعلٌ بالإحسانِ .

﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْء خَلَقَهُ ﴾

(138/612)

خبرٌ آخرُ أو نصب على المدحِ أي حسّن كلَّ مخلوقٍ خلقَه إذ ما من مخلوقٍ خلقَه إلا وهو مرتبٌ على ما تقتضيهِ الحكمةُ وأوجبته المصلحة فجميعُ المخلوقاتِ حسنةٌ وإن تفاوتت إلى حسنٍ وأحسنَ كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وقيل : علم كيفَ يخلقُه من قوله قيمةُ المرءِ ما يُحسِن ، أي يُحسن معرفَته أي يعرفه معرفةً حسنةً بتحقيقٍ وإيقانٍ . وقُرىء خلْقَه على أنه بدلُ اشتمالٍ من كلِّ شيءٍ والضَّميرُ للمبدَل منه أي حسّن خلقَ كلِّ شيءٍ وقيل : بدلُ الكلِّ على أن الضَّميرَ للَّهِ تعالى والخلقُ بمعنى المخلوقِ أي حسّن كلَّ مخلوقاتِه وقيل : هو مفعولٌ ثانٍ لأحسنَ على تضمُّنِه معنى أعطَى أي أعطَى كلَّ

شيءٍ خلقَه اللائقَ به بطريقِ الإحسانِ والتَّفضل وقيل هو مفعولُه الأولُ وكلّ شيءٍ مفعولُه الثاني والخلقُ بمعنى المخلوقِ وضميرُه لله سبحانَه على تضمينِ الإحسانِ معنى الإلهام والتَّعريفِ والمَعنى ألهم خلقَه كلَّ شيءٍ ممَّا يحتاجون إليهِ وقال أبو البقاءِ عرَّفَ مخلوقاتِه كلَّ شيءٍ يحتاجُون إليهِ فيؤول إلى مَعنى قوله تعالى : ﴿ الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان ﴾ من بينِ جميعِ المخلوقاتِ ﴿ مِن طِينٍ ﴾ على وجهٍ بديعٍ تحارُ العقولُ في فهمِه حيثُ برأَ آدمَ عليه السَّلامُ على فطرةٍ عجيبةٍ منطويةٍ على فطرةِ سائرِ أفرادِ الجنسِ انطواءً إجمالياً مستتبعاً كلَّ فردٍ منها من القوةِ إلى الفعلِ بحسبِ استعداداتها المتفاوتةِ قُرباً وبُعداً كما يُنبىء عنه قولُه تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ إلخ أي ذُرِّيَّتَه سُميتْ بذلك لأنَّها تنسلُ وتنفصلُ منه ﴿ مِن سُلَالَةٍ مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ هو المنيُّ المُمتهنُ ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ أي عدَّلَه بتكميلِ أعضائِه في الرَّحمِ وتصويرِها على ما ينبغِي ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ أضافَه إليه تعالى تَشريفاً له وإيذاناً

(139/612)

بأنَّه خلقٌ عجيبٌ وصنعٌ بديعٌ وأنَّ له شأناً له مناسبةٌ إلى حضرةِ الرُّبوبيةِ وأنَّ أقصى ما تنتهي إليه العقولُ البشريةُ من معرفتِه هذا القدرُ الذي يُعبر عنه تارةً بالإضافةِ إليه تعالى

وأُخرى بالنسبةِ إلى أمرِه تعالى كما في قولِه تعالى : ﴿ قُلِ الروحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والابصار والافئدة ﴾ الجعلُ إبداعيٌّ واللامُ متعلقة به والتقديمُ على المفعولِ الصَّريحِ لما مرَّ مراتٍ من الاهتمامِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ مع ما فيهِ من نوعِ طولٍ يخل تقديُه بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ ، أي خلق لمنفعتِكم تلك المشاعرَ لتعرفُوا أنها مع كونِها في أنفسِها نعماً جليلةً لا يُقادر قدرُها وسائلُ إلى التَّمتعِ بسائرِ النّعمِ الدّينية والدُّنيويةِ الفائضةِ عليكم وتشكروها بأنْ تصرفُوا كلاًّ منها إلى ما خُلق هو له فتُدركوا بسمعِكم الآياتِ التنزيليةَ الناطقةَ بالتَّوحيدِ والبعثِ وبأبصاركم الآياتِ التكوينيةَ الشاهدةَ بهما وتستدلُّوا بأفئدتِكم على حقيَّتِهما . وقولُه تعالى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ بيانٌ لكفرِهم بتلك النّعمِ بطريقِ الاعتراضِ التَّذييليّ على أنَّ القِلَّةَ بمعنى النَّفيِ كما يُنبىء عنه ما بعده أيُ شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تشكرون . وفي حكايةِ أحوالِ الإنسانِ من مبدأِ فطرتِه إلى نفخِ الرُّوحِ فيه بطريقِ الغَيبةِ وحكايةِ أحوالِه بعد ذلك بطريقِ الخطابِ المنبىءِ عن استعدادِه للفهمِ وصلاحيتِه له من الجَزَالةِ ما لا غايةَ وراءَهُ .

(140/612)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ أباطيلِهم بطريقِ الالتفاتِ وإيذاناً بأنَّ ما ذُكر من عدمِ شكرِهم بتلك النِّعمِ موجبٌ للإعراضِ عنهم وتعديدِ جناياتِهم لغيرِهم بطريقِ المباثةِ ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ ﴾ أي صِرنا تراباً مخلوطاً بترابِها بحيثُ لا نتميَّز منه أو غبنا فيها بالدَّفنِ . وقُرِىء ضَلِلنا بكسرِ اللامِ من بابِ عَلِمَ وصَلِلنا بالصاد المهلمةِ من صلَّ اللحمُ إذا أنتنَ وقيل : من الصَّلةِ وهي الأرضُ أي صرنا من جنسِ الصَّلَّةِ قيل : القائلُ أُبيُّ ابنُ خَلَفٍ ، ولرضاهم بقولِه أُسند القولُ إلى الكلِّ . والعاملُ في إذا ما يدلُّ عليه قولُه تعالى ﴿ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو نبعثُ أو يُجدد خلقَنا ، والهمزةُ لتذكيرِ الإنكارِ السَّابقِ وتأكيدِه . وقُرِىء إنَّا على الخبرِ ، وأيّاً ما كان فالمَعنى على تأكيدِ الإنكارِ لا إنكارِ التَّأكيد كما هو المُتبادر من تقدمِ الهمزةِ على إنَّ فإنها مؤخَّرةٌ عنها في الاعتبارِ وإنَّما تقديُمها عليها لاقتضائِها الصَّدارةَ ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من بيانِ كفرِهم بالبعثِ إلى بيانِ ما هُو أبلغُ وأشنعُ منه وهو كفرُهم بالوصولِ إلى العاقبةِ وما يلقَونه فيها من الأحوالِ والأهوالِ جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(141/612)

وقال الآلوسى :

﴿ ذلك ﴾ أي الذات الموصوف بتلك الصفات المقتضية للقدرة التامة والحكمة العامة ﴿ عالم الغيب ﴾ أي كل ما غاب عن الخلق ﴿ والشهادة ﴾ أي كل ما شاهده الخلق فيدبر سبحانه ذلك على وفق الحكمة ، وقيل : الغيب الآخرة والشهادة الدنيا ﴿ العزيز ﴾ الغالب على أمره ﴿ الرحيم ﴾ للعباد ، وفيه إيماء بأنه عز وجل متفضل فيما يفعل جل وعلا ، واسم الإشارة مبدأ والأوصاف الثلاثة بعده أخبار له ، ويجوز أن يكون الأول خبراً والأخير نعتان للأول .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما بخفض الأوصاف الثلاثة على أن ذلك إشارة إلى الأمر مرفوع المحل على أنه فاعل ﴿ يَعْرُجُ ﴾ [السجدة : 5] والأوصاف مجرورة على البدلية من ضمير ﴿ إِلَيْهِ ﴾ وقرأ أبو زيد النحوي بخفض الوصفين الأخيرين على أن ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الله تعالى مرفوع المحل على الابتداء و ﴿ عالم ﴾ خبره والوصفان مجروران على البدلية من الضمير ، وقوله تعالى :

﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ خبر رابع أو نعت ثالث أو نصب على المدح ، وجوز أبو البقاء كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي ، وكون ﴿ العزيز ﴾ مبتدأ و ﴿ الرحيم ﴾ صفته وهذا خبره وجملة ﴿ خَلَقَهُ ﴾ في محل جر صفة ﴿ شَىْءٍ ﴾ ويجوز أن تكون في محل نصب صفة ﴿ كُلَّ ﴾ واحتمال الاستئناف بعيد أي حسن سبحانه كل مخلوق من

مخلوقاته لأنه ما من شيء منها إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة واستدعته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت في مراتب الحسن كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ونفي التفاوت في خلقه تعالى في قوله سبحانه : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ [الملك : 3] على معنى ستعرفه إن شاء الله تعالى غير مناف لما ذكر ، وجوز أن يكون المعنى علم كيف يخلقه من قوله .

قيمة المرء ما يحسن وحقيقته يحسن معرفته أي يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإيقان ، ولا يخفى بعده .

(142/612)

وقرأ العربيان .

وابن كثير ﴿ خَلَقَهُ ﴾ بسكون اللام فقيل : هو بدل اشتمال من ﴿ كُلَّ ﴾ والضمير المضاف هو إليه له وهو باق على المعنى المصدري ، وقيل : هو بدل كل من كل أو بدل بعض من كل والضمير لله تعالى وهو بمعنى المخلوق ، وقيل : هو مفعول ثان لأحسن على تضمينه معنى أعطى أي أعطى سبحانه كل شيء خلقه اللائق به بطريق الإحسان والتفضل ، وقيل : هو المفعول الأول و ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ المفعول الثاني وضميره لله سبحانه على تضمين

الإحسان والتفضل ، وقيل : هو المفعول الأول و ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ المفعول الثاني وضميره لله سبحانه على تضمين الإحسان معنى الإلهام كما قال الفراء أو التعريف كما قال أبو البقاء ، والمعنى الهم أو عرف خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه فيؤول إلى معنى قوله تعالى : ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] .

واختار أبو علي في الحجة ما ذكره سيبويه في الكتاب أنه مفعول مطلق لأحسن من معناه والضمير لله تعالى نحو قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ الله ﴾ [النمل : 88] و ﴿ وَعَدَ الله ﴾ [النور : 55] ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان ﴾ أي آدم عليه السلام ﴿ مِن طِينٍ ﴾ أو بدأ خلق هذا الجنس المعروف ﴿ مِن طِينٍ ﴾ حيث بدأ خلق آدم عليه السلام خلقاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً منه ، وقرأ الزهري ﴿ بَدَأَ ﴾ بالألف بدلاً من الهمزة قال في "البحر" وليس القياس في هدأ هذا بإبدال الهمزة ألفاً بل قياس هذه الهمزة التسهيل بين بين على أن الأخفش حكى في قرأت قريت قيل : وهي لغة الأنصار فهم يقولون في بدأ بدي بكسر عين الكلمة وياء بعدها ، وطيء يقولون في فعل هذا نحو بقي بقي كرمي فاحتمل أن تكون قراءة الزهري على هذه اللغة بأن يكون الأصل بدي ثم صار بداً ، وعلى لغة الأنصار قال ابن رواحة :

باسم الإله وبه بدينا . . .

ولو عبدنا غيره شقينا

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ أي ذريته سميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه ﴿ مِن سلالة ﴾ أي خلاصة وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية ﴿ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ ممتهن لا يعتني به وهو المني ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ عدله بتكميل أعضائه في الرحم وتصويرها على ما ينبغي ، وأصل التسوية جعل الأجزاء متساوية ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب الرتبي أو الذكري .

﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ أضاف الروح إليه تعالى تشريفاً له كما في بيت الله تعالى وناقة الله تعالى وإشعاراً بأنه خلق عجيب وصنع بديع ، وقيل : إضافة لذلك إيماء إلى أن له شأنه له مناسبة ما إلى حضرة الربوبية .

ومن هنا قال أبو بكر الرازي : م عرف نفسه فقد عرف ربه ، ونفخ الروح قيل : مجاز عن جعلها متعلقة بالبدن وهو أوفق بمذهب القائلين بتجرد الروح وأنها غير داخلة في البدن من الفلاسفة وبعض المتكلمين كحجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة ، وقيل : هو على حقيقته والمباشر له الملك الموكل على الرحم وإليه ذهب القائلون بأن الروح جسم لطيف كالهواء سار في البدن سريان ماء الورد في الورد والنار في الجمر ، وهو الذي تشهد له ظواهر الأخبار وأقام العلامة ابن القيم عليه نحو مائة دليل .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والابصار والافئدة ﴾ التفات إلى الخطاب لا يخفى موقع ذكره بعد نفخ الروح وتشريفه بخلعة الخطاب حين صلح للخطاب والجعل إبداعي واللام متعلقة به ، والتقديم على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم ، وتقديم السمع لكثرة فوائده فإن أكثر أمور الدين لا تعلم إلا من جهته وأفرد لأنه في الأصل مصدر .

(144/612)

وقيل : للإيماء إلى أن مدركه نوع واحد وهو الصوت بخلاف البصر فإنه يدرك الضوء واللون والشكل والحركة والسكون وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك مدركات الحواس بواسطتها وزيادة على ذلك أي خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها في أنفسها نعماً جليلة لا يقادر قدرها وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلاً منها إلى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيقتها ، وقوله تعالى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلي والقلة بمعنى النفي كما ينبى عنه ما بعده .

ونصب الوصف على أنه صفة لمحذوف وقع معمولاً لتشكرون أي شكراً قليلاً تشكرون أو زماناً قليلاً تشكرون .

واستظهر الخفاجي عليه الرحمة كون الجملة حالية لا اعتراضية .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات إيذاناً بأن ما ذكر من عدم شكرهم تلك النعم موجب للإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة ، وروى أن القائل أبي بن خلف فضمير الجمع لرضا الباقين بقوله ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ ﴾ أي ضعنا فيها بأن صرنا تراباً مخلوطاً بترابها بحيث لا نتميز منه فهو من ضل المتاع إذا ضاع أو غبنا فيها بالدفن وإن لم نصر تراباً وإليه ذهب قطرب ، وأنشد قول النابغة يرثي النعمان بن المنذر :

وآب مضلوه بعين جلية . . .

وغودر بالجولان حزم ونائل

وقرأ يحيى بن يعمر .

وابن محيصن .

وأبو رجاء .

وطلحة .

وابن وثاب ﴿ ضَلِلْنَا ﴾ بكسر اللام ويقال : ضل يضل كضرب يضرب وضل يضل كعلم

يعلم وهما بمعنى والأول اللغة المشهورة الفصيحة وهي لغة نجد والثاني لغة أهل العالية .

وقرأ أبو حيوة ﴿ ضَلَّلْنَا ﴾ بضم الضاد المعجمة وكسر اللام ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

(145/612)

وإبان بن سعيد بن العاصي ﴿ صللنا ﴾ بالصاد المهملة وفتح اللام ونسبت إلى علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وعن الحسن أنه كسر اللام ويقال فيه نحو ما يقال في ضل بالضاد المعجمة وزيادة أصل بالهمزة كأفعل ، قال الفراء : والمعنى صرنا بين الصلة وهي الأرض اليابسة الصلبة كأنها من الصليل لأن اليابس الصلب إذا انشق يكون له صليل ، وقيل : أنتنا من الصلة وهو النتن ، وقيل : للأرض الصلة لأنها است الدنيا وتقول العرب ضع الصلة على الصلة ، وقال النحاس لا نعرف في اللغة صللنا ولكن يقال أصل اللحم وصل وأخم وخم إذا نتن وهذا غريب منه .

وقرأ ابن عامر ﴿ قَبْلِكُمْ إِذَا ﴾ بترك الاستفهام والمراد الإخبار على سبيل الاستهزاء والتهكم والعامل في ﴿ إِذَا ﴾ ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو نبعث أو يجدد خلقنا ، ولا يصح أن يكون هو العامل لمكان الاستفهام وإن وكل منهما لا يعمل ما بعده فيما قبله ويعتبر ما ذكر من نبعث أو يجدد خلقنا جواباً لاذا إذا اعتبرت شرطية لا ظرفية محضة والهمزة للإنكار والمراد تأكيد الإنكار لا إنكار التأكيد كما هو المتبادر من تقديمها على أداته فإنها مؤخرة عنها في الاعتبار وتقديمها عليها لقوة اقتضائها الصدارة .

وقرأ نافع .

والكسائي .

ويعقوب ﴿ أَئِنَّا ﴾ بترك الاستفهام على نحو ما ذكر آنفاً ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ إضراب وانتقال عن بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه وهو كفرهم بلقاء ملائكة ربهم عند الموت وما يكون بعده جميعاً ، وقيل : هو إضراب وترق من التردد في البعث واستبعاده إلى الجزم بجحده بناء على أن لقاء الرب كناية عن البعث ، ولا يضر فيه على ما قال الخفاجي كون الاستفهام السابق إنكارياً وهو يؤل إلى الجحد فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

الإشارة هنا إلى الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة من أيام دنيانا وهو اللّه سبحانه وتعالى . .

وقوله تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، أي ذلك المشار إلى قدرته في تدبير الأمور ، هو عالم الغيب والشهادة ، وهو العزيز الرحيم

(147/612)

وقدم علم الغيب على الشهادة ، للإشارة إلى أن علم اللّه علم مطلق ، لا تحدّه حدود ، فيستوى لديه القريب والبعيد ، والظاهر والخفىّ ، إذ لا قرب وبعد ، ولا خفاء وظهور . . لأن ذلك إنما يكون بالإضافة إلى العلم القاصر المحدود ، الذي يتناول شيئا ويقصر عن شىء . . أما العلم الكامل المطلق ، فحقائق الأشياء كلها واقعة في دائرة هذا العلم كحقيقة واحدة ! .

وفي وصف اللّه سبحانه بالعزة والرحمة ، إشارة إلى أن عزته سبحانه وتعالى ، عزة رحمة

وإحسان ، وليست عزة تسلط وقهر ، فإن من شأن العزة القهر والجبروت ، وفي المثل : « من عزّ بزّ » . . وتعالت عزة العزيز الحكيم عن ذلك علوا كبيرا . .

قوله تعالى : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ » .

أي أن من عزة اللّه ورحمته قيام هذا الوجود على أحسن نظام ، وأكمله . .

والمراد بالحسن هنا ليس مجرد حسن السورة ، وإنما هو الحسن الذي يتجلى فى إحكام الصنعة ، ودقة التنسيق ، وروعة التأليف ، وتجاوب النغم ، ووحدة الغاية ، وإن اختلفت الاتجاهات ، وتعددت الأنغام . . « ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ » . . فدبيب النملة على مسارها ، وجريان الشمس في فلكها ، وتدفق النهر في مجراه ، وحفيف الأوراق على أشجارها ، وكل همسة ، وكل حركة في هذا الوجود ، فى أرضه وسماواته ، تؤلّف جميعها لحنا علوىّ النعم ، يروع القلب جلاله ، ويأسر الفؤاد حسنه وجماله . . سواء أنظر الإنسان إليها في اجتماعها أو افتراقها ، وسواء استعرضها على تفصيلها أو إجمالها .

وفي قوله تعالى : « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ » إلفات إلى وحدة من وحدات هذا الخلق ، وإشارة إلى مواطن هذا الحسن منه ، وهو خلق الإنسان من طين . . .

ففى هذا الطين الذي قد تنبو عنه العين ، ويتحاشاه النظر حسن رائع ، وجلال مهيب ، إذا استطاع الناظر أن ينفذ إلى ما وراء هذا الظاهر الذي يراه ، وأن يتجاوز هذه القشرة السوداء المعتمة من الطين . . فإن وراء هذه القشرة ، عالما يموج بألوان زاخرة ، زاهية من الحياة . . فما هذه الأناسىّ التي تتحرك على ظهر الأرض ، وتملأ الحياة حركة وعمرانا ، إلا بعض هذا الطين الذي نمشى عليه ، وننطلق فوقه ! ! . . وإذا عجز إدراك الإنسان عن أن يرى في مرآة هذا الطين صورته ، ويعرف الرّحم الذي تفتق عنه ، فلينظر في وجوه الأرض ، وما عليها من ألوان الزهر ، وأصناف الشجر ، وأنواع الثمر . . « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (4 : الرعد) .

فهذا الطين ، ليس في عين ذوى البصائر طينا ، جامدا ، صامتا ، كئيبا ، وإنما هو الجمال كله ، والحسن كله ، تفتقت عنه - بقدرة العزيز الرحيم - هذه الحياة المتدفقة من إنسان ، وحيوان ، ونبات ! فبدء خلق الإنسان من طين ، هو نقطة الابتداء ، التي يبدأ العقل مسيرته منها ، إلى حيث يلتقى بالإنسان في أكمل صورته ، وأعظم مواقفه . . وعندئذ يرى كيف تدبير اللّه ، وقدرته ، وكيف علمه ، وإحسانه ، ورحمته . . فما أبعد ما بين الطين والإنسان ، فى عين من لا يحسن النظر ، ويمعن التفكير ، وما أقرب ما بين الطين والإنسان ، فى عين من ينظر ، فيحسن النظر بعقله وبقلبه جميعا . . فمن هذا الطين ، كان الأنبياء

والرسل ، والقادة ، والمصلحون ، والعباقرة . . ومن هذا الطين كانت تلك الشموس المضيئة التي زينت الأرض كما زينت الكواكب والنجوم وجه السماء !

(149/612)

قوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ » . .

وهذه لفتة أخرى إلى قدرة العزيز الرحيم ، يرى فيها الإنسان نفسه ، لا في هذا الطين ، الذي ربما كانت كثافته حائلا بينه وبين نظره الكليل أن يرى وجوده فيه . . فهناك النطفة ، التي يعلم الإنسان - كل إنسان - عن يقين أنه ثمرتها ، وأنها البذرة التي جاء منها . . فأين تلك النطفة . . من هذا الإنسان ؟

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ » . (5 - 7 الطارق) .

وفي وصف النطفة بأنها ماء مهين ، إشارة إلى أنها شيء رخيص مبتذل ، لا يرى فيها الإنسان شيئا ذا بال ، فما هي إلا ماء مستقذر . . هكذا يبدو في ظاهر الأمر . . ولكن إذا نظر إليه نظرا متأملا متفحصا ، رأى أنه هو هذا الإنسان ، قد أجمل في هذه القطرة من الماء ! ثم فصّل فكان هذا الخلق السّوىّ ، الذي توّج بتاج الخلافة من اللّه على هذه الأرض !

قوله تعالى : «ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» .

وهذه أيضا لفتة أخرى ، يرى فيها الناظر إلى الإنسان في مسيرته من النطفة إلى الوجود البشرى - يرى كيف تحركت هذه النطفة ، وكيف نمت كما ينمو النبات ، حتى إذا بلغت في رحم الأمّ مرحلة محددة ، نفخ فيها الخالق من روحه ، فبعث فيها الحياة ، حتى إذا تم نضجها ، دفع بها الرحم إلى هذه الدنيا ، قطعة من لحم ، مصورة في هيئة بشر ، لا سمع ، ولا بصر ، ولا إدراك . . ثم لا يلبث هذا الوليد حتى يكون له السمع والبصر والإدراك . . وإذا هو هذا الإنسان ، كما هو في كل موقع من مواقع الحياة . .

(150/612)

وقدّم السمع على البصر ، لأنه أسبق من البصر ظهورا في الكائن الحي بعد الميلاد ، حيث تبدأ وظيفة السمع في كيان الطفل ، قبل أن يبدأ البصر في أداء وظيفته - وهذا من إعجاز القرآن ، الذي كشف عنه العلم - ثم يجىء بعد هذا دور الوعى والإدراك ! وفي إفراد السمع ، وجمع البصر ، والفؤاد ، إشارة إلى أن معطيات السمع تكاد تكون واحدة عند الناس جميعا ، وذلك على خلاف البصر ، الذي يختلف من إنسان إلى إنسان ، حيث يكون النظر

عند بعض الناس مجرد عين ترى الأشياء رؤية حيوانية لا تتجاوز ظاهر المرئيات ، على حين يكون النظر عند بعض آخر بصيرة نافذة ، تبلغ الأعماق ، وتصل إلى اللباب . .

وكذلك الشأن في الفؤاد ، وهو موطن المدركات ! وذلك أظهر من أن يكشف عنه .

.وقوله تعالى : « قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ » أي قليل منكم من يعرف للّه قدره ، ويذكر له إحسانه وفضله ، فيؤدى الشكر للّه ، إيمانا به ، وإفرادا له بالألوهة ، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ » (13 : سبأ) قوله تعالى : « وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ » .

الضلال في الأرض : الضّياع ، والفناء في ترابها . . وذلك بما يحدث للأجساد بعد الموت من تحلل وفناء .

والحديث هنا عن المشركين ، الذين ينكرون البعث ، ويرون أن انحلال أجسادهم بعد الموت ، وتحولهم إلى تراب من تراب الأرض ، يجعل من المستحيل أن يعودوا مرة أخرى إلى ما كانوا عليه ، إذ ما أبعد ما بين هذه الأجساد

التي أبلاها البلى ، وبين الحال التي ستصبح عليها لو صحّ أنهم سيبعثون . .

ولو أنهم نظروا إلى ما دعاهم اللّه سبحانه وتعالى إليه ، من النظر في قوله تعالى : « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ » . . وفي قوله : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ » . لوجدوا أن لا فرق بين هذا التراب الذي جاءوا منه ، أو تلك النطفة التي تخلقوا منها ، وبين هذا التراب الذي صارت إليه أجسادهم . . بل إن فى أجسادهم الغائبة تحت التراب ، إشارات تشير إليهم ، وتاريخا يحدث عنهم ! إنهم . وهم في التراب . أشبه بغائب ترجى له عودة ، وهم لم يكونوا من قبل شيئا ! وشىء يعود إلى أصله ، أقرب في التصور من توقع وجود شىء من عدم ! . وفي قوله تعالى : « بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ » . إشارة إلى أن هؤلاء المشركين على ضلال في حياتهم الدنيا . . قد فتنوا بها ، وأذهبوا طيباتهم فيها ، وأطلقوا لهواهم العنان يذهب بهم كلّ مذهب . . وهذا ما أوقع في تفكيرهم أن لا حياة بعد الموت ، وأن لا حساب ولا جزاء . . . لأن ذلك يعنى أن يعملوا حسابا لهذا الحساب ، وأن يتخففوا كثيرا مما هم فيه من ضلال ، وأن يستبقوا من يومهم شيئا لما بعد هذا اليوم . . وإنه ليس لهم إلى ذلك من سبيل ، وقد غلبتهم أهواؤهم ، واستولت عليهم دنياهم . . وإذن فلا يوم بعد هذا اليوم ، ولا حياة بعد هذه الحياة . . إنهم . والحال كذلك أشبه بالجند في ليلة الحرب . . يقضونها ليلة صاخبة معربدة ، حتى الصباح ، ينفقون فيها كل ما معهم

. . ثم ليكن في الغد ما يكون ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 11 صـ 613.608 ﴾

(152/612)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) ﴾

جيء بالإشارة إلى اسم الجلالة بعد ما أجري عليه مِن أوصاف التصرف بخلق الكائنات وتدبير أمورها للتنبيه على أن المشار إليه باسم الإشارة حقيق بما يَرِد بعد اسم الإشارة من أجل تلك الصفات المتقدمة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة البقرة (5) ، لا جرم أن المتصرف بذلك الخلق والتدبير عالم بجميع مخلوقاته ومحيط بجميع شؤونها فهو عالم الغيب ، أي : ما غاب عن حواس الخلق ، وعالِمُ الشهادة ، وهو ما يدخل تحت إدراك الحواس ، فالمراد بالغيب والشهادة : كل غائب وكل مشهود .

والمقصود هو علم الغيب لأنهم لما أنكروا البعث وإحياء الموتى كانت شبهتهم في إحالته أن أجزاء الأجسام تفرقت وتخللت الأرضَ ، ولذلك عقب بقوله بعده ﴿ وقالوا أإذا ضَلَلْنَا في الأرض إنَّا لفِي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] .

وأما عطف ﴿ والشهادة ﴾ فهو تكميل واحتراس .

ومناسبة وصفه تعالى بـ ﴿ العزيز الرحيم ﴾ عقب ما تقدم أنه خلق الخلق بمحض قدرته بدون معين ، فالعزة وهي الاستغناء عن الغير ظاهرة ، وأنه خلقهم على أحوال فيها لطف بهم فهو رحيم بهم فيما خلقهم إذ جعل أمور حياتهم ملائمة لهم فيها نعيم لهم وجنبهم الآلام فيها .

فهذا سبب الجمع بين صفتي ﴿ العزيز والرحيم هنا على خلاف الغالب من ذكر الحكيم مع العزيز .

و ﴿ العزيز الرحيم ﴾ يجوز كونهما خبرين آخرين عن اسم الإشارة أو وصفين ل ﴿ عَالِم الغَيب .

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7)

خبر آخر عن اسم الإشارة أو وصف آخر ل ﴿ عالم الغيب ﴾ [السجدة : 6] ، وهو ارتقاء في الاستدلال مشوبٌ بامتنان على الناس أنْ أحْسنَ خلقهم في جملة إحسان خلق كل شيء وبتخصيص خلق الإنسان بالذكر .

والمقصود : أنه الذي خلق كل شيء وخاصة الإنسان خلقاً بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأخرج أصله من تراب ثم كوّن فيه نظام النسل من ماء ، فكيف تعجزه إعادة أجزائه .

والإحسان : جعل الشي حَسناً ، أي محموداً غير معيب ، وذلك بأن يكون وافياً بالمقصود منه فإنك إذا تأملت الأشياء رأيتها مصنوعة على ما ينبغي ؛ فصلابة الأرض مثلاً للسير عليها ، ورقة الهواء ليسهل انتشاقه للتنفس ، وتوجه لهيب النار إلى فوق لأنها لو كانت مثل الماء تلتهب يميناً وشمالاً لكثرت الحرائق فأما الهواء فلا يقبل الاحتراق .

وقوله ﴿ خَلَقَه ﴾ قرأه نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بصيغة فعل المضي على أن الجملة صفة ل ﴿ شيء ﴾ أي : كل شيء من الموجودات التي خلقها وهم يعرفون كثيراً منها .

وقرأه الباقون بسكون اللام على أنه اسم هو بدل من ﴿ كل شيء ﴾ بدل اشتمال .

وتخلص من هذا الوصف العام إلى خلْق الإنسان لأن في خلقة الإنسان دقائق في ظاهره وباطنه وأعظمها العقل .

و ﴿ الإنسان أُريد به الجنس ، وبَدْءُ خلقه هو خلق أصله آدم كما في قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ [الأعراف : 11] ، أي : خلقنا أباكم ثم صورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .

ويدل على هذا المعنى هنا قوله : ﴿ ثم جَعَل نسله من سلالة ﴾ فإن ذلك بُدِىء من أول

نسل لآدم وحواء ، وقد تقدم خلْق آدم في سورة البقرة .

و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ مِن طِين ﴾ ابتدائية .

والنسل : الأبناء والذرية .

سمي نسلاً لأنه ينسل ، أي : ينفصل من أصله وهو مأخوذ من نَسَلَ الصوفُ والوَبَر إذا سقط عن جلد الحيوان ، وهو من بابي كتب وضرب .

و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من سلالة ﴾ ابتدائية .

وسميت النطفة التي يتقوم منها تكوين الجنين سُلالة كما في الآية لأنها تنفصل عن الرجل ، فقوله ﴿ من ماء مهين ﴾ بيان ل ﴿ سلالة .

(154/612)

﴾ و ﴿ من ﴾ بيانية فالسلالة هي الماء المهين ، هذا هو الظاهر لمتعارف الناس ؛ ولكن في الآية إيماء علمي لم يدركه الناس إلا في هذا العصر وهو أن النطفة يتوقف تكوّن الجنين عليها لأنه يتكون من ذرات فيها تختلط مع سلالة من المرأة وما زاد على ذلك يذهب فضلة ، فالسلالة التي تنفرز من الماء المهين هي النسل لا جميع الماء المهين ، فتكون ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من ماء مهين ﴾ للتبعيض أو للابتداء .

والمهين : الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به .

والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يُعبأ به ولا يصان .

والتسوية : التقويم ، قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين : 4] .

والضمير المنصوب في ﴿ سَوّاه ﴾ عائد إلى ﴿ نسله ﴾ لأنه أقرب مذكور ولأنه ظاهر العطف بـ ﴿ ثم ﴾ وإن كان آدم قد سُوِّي ونفخ فيه من الروح ، قال تعالى : ﴿ فإذا سَوّيتُه ونفختُ فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين ﴾ [ص : 72] .

وذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل يؤذن بأن أصله كذلك ، فالكلام إيجاز .

وإضافة الروح إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلا هو تعالى ، فالإضافة تفيد أنه من أشد المخلوقات اختصاصاً بالله تعالى وإلا فالمخلوقات كلها لله .

والنفخ : تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ فإذا سوّيته ونفخْتُ فيه من رُوحي ﴾ في سورة الحجر (29) .

والانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله : وجعل لكم ﴾ التفات لأن المخاطبين من أفراد الناس وجَعْل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدث عنهم بطريق الغيبة الشامل للمخاطبين وغيرهم ناسب أن يُلتفت إلى الحاضرين بنقل الكلام إلى الخطاب لأنه آثرُ بالامتنان وأسعدُ بما يرد بعده من التعريض بالتوبيخ في قوله ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ .

والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته لأن الانتفاع بالحواس والإدراك متكرر متجدد فهو محسوس بخلاف التكوين والتقويم فهو محتاج إلى النظر في آثاره .

والعدول عن أن يقال : وجعلكم سامعين مبصرين عالمين إلى ﴿ جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ لأن ذلك أعرق في الفصاحة ، ولما تؤذن به اللام من زيادة المنة في هذا الجعل إذ كان جعلاً لفائدتهم ولأجلهم ، ولما في تعليق الأجناس من السمع والأبصار والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكن التصرف ، ولأن كلمة ﴿ الأفئدة ﴾ أجمع من كلمة عاقلين لأن الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلها والعقل بعضٌ منها .

وأفرد ﴿ السَّمع ﴾ لأنه مصدر لا يجمع ، وجمع ﴿ الأبصار والأفئدة ﴾ باعتبار تعدد الناس .

وتقديم السمع على البصر تقدّم وجهه عند قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى

سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ في سورة البقرة (7) .

وتقديم السمع والأبصار ﴾ على ﴿ الأفئدة ﴾ هنا عكس آية البقرة لأنه روعي هنا ترتيب حصولها في الوجود فإنه يكتسب المسموعات والمبصرات قبل اكتساب التعقل .

و ﴿ قليلاً ﴾ اسم فاعل منتصب على الحال من ضمير ﴿ لكم ، ﴾ و ﴿ ما تشكرون ﴾ في تأويل مصدر وهو مرتفع على الفاعلية بـ ﴿ قليلاً ، ﴾ أي : أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة وحالكم قلة الشكر .

ثم يجوز أن يكون ﴿ قليلاً ﴾ مستعملاً في حقيقته وهي كون الشيء حاصلاً ولكنه غير كثير .

(156/612)

ويجوز أن يكون كناية عن العدم كقوله تعالى : ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ [النساء : 46] .

وعلى الوجهين يحصل التوبيخ لأن النعم المستحقة للشكر وافرة دائمة فالتقصير في شكرها وعدمُ الشكر سواء .

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10)

الواو للحال ، والحال للتعجيب منهم كيف أحالوا إعادة الخلق وهم يعلمون النشأة الأولى ، وليست الإعادة بأعجب من بدء الخلق وخاصة بدء خلق آدم عن عدم ، وخُلوّ الجملة الماضوية عن حرف (قد) لا يقدح في كونها حالاً على التحقيق .

والاستفهام في ﴿ أءذا ضللنا ﴾ للتعجب والإحالة ، أي أظهروا في كلامهم استبعاد البعث بعد فناء الأجساد واختلاطها بالتراب ، مغالطة للمؤمنين وترويجاً لكفرهم .

والضّلال : الغياب ، ومنه : ضلال الطريق ، والضالة : الدابة التي ابتعدت عن أهلها فلم يعرف مكانها .

وأرادوا بذلك إذا تفرقت أجزاء أجسادنا في خلال الأرض واختلطت بتراب الأرض .

وقيل : الضلال في الأرض : الدخول فيها بناء على أنه يقال : أضلّ الناسُ الميت ، أي : دفنوه .

وأنشدوا قول النابغة في رثاء النعمان بن الحارث الغساني:

فآب مُضِلّوه بعين جَلية . . .

وغُودر بالجَوْلان حَزم ونائل

وقرأه نافع والكسائي ويعقوب : ﴿ إنا لفي خلق جديد ﴾ بهمزة واحدة على الإخبار اكتفاء بدخول الاستفهام على أول الجملة ومتعلقها .

وقرأ الباقون ﴿ أإنا لفي خلق جديد ﴾ بهمزتين أولاهما للاستفهام والثانية تأكيد لهمزة

الاستفهام الداخلة على ﴿ أإذا ضللنا في الأرض .

﴾ وقرأ ابن عامر بترك الاستفهام في الموضعين على أن الكلام خبر مستعمل في التهكم .

(157/612)

وتأكيد جملة ﴿ إنَّا لفي خلق جديد ﴾ بحرف ﴿ إنَّ ﴾ لأنهم حكوا القول الذي تعجبوا منه وهو ما في القرآن من تأكيد تجديد الخلق فحكوه بالمعنى كما في الآية الأخرى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل يُنَبِّئكم إذا مُزِّقْتُم كلَّ ممزَّق إنكم لفي خلق جديد ﴾ [سبأ : 7] ، أي : يُحَقِّق لكم ذلك .

و ﴿ إذا ﴾ ظرف وهو معمول لما في جملة ﴿ إنا لفي خلق جديد ﴾ من معنى الكون .

والخلق : مصدر .

و ﴿ في ﴾ للظرفية المجازية ومعناها المصاحبة .

والجديد : المحدث ، أي غير خلقنا الذي كنا فيه .

و ﴿ بل ﴾ من ﴿ بل هُم بلقاء ربهم كافرون ﴾ إضراب عن كلامهم ، أي ليس إنكارهم البعث للاستبعاد والاستحالة لأن دلائل إمكانه واضحة لكل متأمل ولكن الباعث على إنكارهم إياه هو كفرهم بلقاء الله ، أي كفرهم الذي تلقوه عن أيمتهم عن غير دليل ، فالمعنى

: بل هم قد أيقنوا بانتفاء البعث فهم متعنّتون في الكفر مُصرّون عليه لا تنفعهم الآيات والأدلة .

فالكفر المثبت هنا كفر خاص وهو غير الكفر الذي دل عليه قولهم ﴿ أإذا ضَلَلْنا في الأرض إنا لفي خلق جديد ﴾ فإنه كفر بلقاء الله لكنهم أظهروه في صورة الاستبعاد تشكيكاً للمؤمنين وترويجاً لكفرهم .

وتقديم المجرور على ﴿ كافرون ﴾ للرعاية على الفاصلة ، والإتيان بالجملة الاسمية لإفادة الدوام على كفرهم والثبات عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(158/612)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى ﴿ ذلك . . ﴾ [السجدة : 6]

إشارة إلى تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم متابعة الأمر ونتائجه ، هذا كله لأنه سبحانه ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة . . ﴾ [السجدة : 6] وأنه سبحانه ﴿ العزيز الرحيم ﴾ [السجدة : 6] فالحق سبحانه يُعلِّمنا أن الآمر لا بد أنْ يتابع المأمور .

وقلنا : إن عالم الغيب تعني أنه بالأوْلى يعلم الشهادة ، لكن ذكر الحق سبحانه علمه بالشهادة حتى لا يظن أحد أن الله غَيْب ، فلا يعلم إلا الغيب ، وقد بيَّنَّا معنى الشهادة هنا حينما تكلَّمنا عن قوْل الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : 110]

والجهر أو الشهادة يعني الجهر المختلط حين تتداخل الأصوات ، فلا تستطيع أنْ تُميِّزها ، مع أنها جهر أمامك وشهادة ، أما الحق سبحانه فيعلم كل صوت ، ويردُّه إلى صاحبه ، فعِلْم الجهر هنا أقوى من علم الغيب .

ومعنى ﴿ العزيز . . ﴾ [السجدة : 6] أي : الذي لا يُغلَب ولا يُقهر ، فلا يلويه أحد من علمه ، ولا عن مراداته في كَوْنه ، ومع عِزَّته فهو سبحانه (الرحيم) .

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7)

الخَلْق إيجاد من عدم بحكمة ، ولغاية ومهمة مرسومة ، وليس عَبَثاً هكذا يخلق الأشياء كما اتفق ، فالخالق – عز وجل – قبل أنْ يخلق يعلم ما يخلق ، ويعلم المهمة التي سيؤديها ؛ لذلك يخلق سبحانه على مواصفات تحقق هذه الغاية ، وتؤدي هذه المهمة .

وقد يُخيَّل لك أن بعض المخلوقات لا مهمةَ لها في الحياة ، أو أن بعضها كان من الممكن أنْ يُخلَق على هيئة أفضل مما هي عليها .

ونذكر هنا الرجل الذي تأمل في كون الله فقال : ليس في الإمكان أبدعُ مما كان . والولد الذي رأى الحداد يأخذ عيدان الحديد المستقيمة ، فيلويها ويُعْوِجها ، فقال الولد لأبيه : لماذا لا يترك الحداد عيدان الحديد على استقامتها ؟ فعلَّمه الوالد أن هذه العيدان لا تؤدي مهمتها إلا باعوجاجها ، وتأمل مثلاً الخطَّاف وآلة جمع الثمار من على الأشجار ، إنها لو كانت مستقيمة لما أدَّتْ مهمتها .

وفي ضوء هذه المسألة نفهم الحديث النبوي الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم – عن النساء : " إنهن خُلِقْنَ من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإنْ تركته لم يَزَلْ أعوج ، فاستوصوا بالنساء " .

وحين تتأمل الضلوع في قفصك الصدري تجد أنها لا تؤدي مهمتها في حماية القلب والرئتين إلا بهذه الهيئة المعْوَجة التي تحنو على أهم عضوين في جسمك ، فكأن هذا الاعوجاج رأفة وحُنُو وحماية ، وهكذا مهمة المرأة في الحياة ، ألاَ تراها في أثناء الحمل مثلاً تترفق بحملها وتحافظ عليه ، وتحميه حتى إذا وضعتْه كانت أشدَّ رفقاً ، وأكثر حناناً عليه ؟

إذن : هذا الوصف من رسول الله ليس سُبَّة في حق النساء ، ولا إنقاصاً من شأنهن ؛ لأن هذا الاعوجاج في طبيعة المرأة هو المتمم لمهمتها ؛ لذلك نجد أن حنان المرأة أغلب من استواء عقلها ، ومهمة المرأة تقتضي هذه الطبيعة ، أما الرجل فعقله أغلب ليناسب مهمته

في الحياة ، حيث يُنَاط به العمل وترتيب الأمور فيما وُلِّي عليه .

إذن : خلق الله كلاً لمهمة ، وفي كل مِنَّا مهما كان فيه من نقص ظاهر – مَيْزة يمتاز بها ، فالرجل الذي تَراه لا عقلَ له ولا ذكاءَ عنده تقول : ولماذا خلق الله مثل هذا ؟ لكن تراه قويَّ البنية ، يحمل من الأثقال والمشاقّ ما لا تتحمله أنت ، والرجل القصير مثلاً ، ترى أنت عيبه في قِصَر قامته ، لكن يراها غيرك ميزة من مزاياه ، وربما استدعاه للعمل عنده لهذه الصفة فيه .

(160/612)

وحين تتأمل مثلاً عملية التعليم ، وتقارن بين أعداد التلاميذ في المرحلة الابتدائية ، وكم منهم يصل إلى مرحلة التعليم العالي . وكم منهم يتساقطون في الطريق ؟ ولو أنهم جميعاً أخذوا شهادات عليا لما استقام الحال ، وإلاَّ فمَر للمهن المتواضعة والحرف وغيرها .

إذن : لا بُدَّ أنْ يوجد هذا التفاوت ؛ لأن العقل الواحد يحتاج إلى آلاف ينفذون خطته ، وقيمة كل امرئ ما يُحسنه مهما كان عمله .

لذلك قلنا : إنه لا ينبغي لأحد أنْ يتعالى على أحد ؛ لأنه يمتاز عنه في شيء ما ، إنما ينظر فيما يمتاز به غيره ؛ لأن الخالق عز وجل وزّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ويكفي أن تقرأ قول

الحق سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ . . . ﴾ [الحجرات : 11]

فالله تعالى : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . . ﴾ [السجدة : 7] لأن لكل مخلوق مهمة مُهيّأ لها ، وتعجب من تصاريف القدر في هذه المسألة فتجد أخوين ، يعمل أحدهما في العطور ، ويعمل الآخر في الصرف الصحي ، وتجد هذا راضياً بعمله ، وهذا راضٍ بعمله .

حتى أنك تجد الناس الذين خلقهم الله على شيء من النقص أو الشذوذ حين يرضى الواحد منهم بقسمة الله له وقدره فيه يسود بهذا النقص ، أو بهذا الشذوذ ، وبعضنا لاحظ مثلاً الأكتع إذا ضرب شخصاً بهذه اليد الكتعاء ، كم هي قوية ! وكم يخافه الناس لأجل قوته ! وربما يجيد من الأعمال ما لا يجيده الشخص السوَّي .

فإنْ قلتَ : إذا كان الخالق سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، فما بال الكفر ، خلقه الله وما يزال موجوداً ، فأيُّ إحسان فيه ؟

نقول : والله لولا طغيان الكافرين ما عشق الناسُ الإيمانَ ، كما أنه لولا وجود الظلم والظالمين لما شعر الناس بطَعْم العدل . إذن : فالحق سبحانه يخلق الشيء ، ويخلق من ضده دافعاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : 7] فالإنسان الذي كرّمه الله على سائر المخلوقات بدأه الله من الطين ، وهو أدنى أجناس الوجود ، وقلنا : إن جميع الأجناس تنتهي إلى خدمة الإنسان . الحيوان وهو أقربها للإنسان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، ومن الجماد خُلِق الإنسان .

وقد عوَّض الله عز وجل الجماد الخادم لباقي الأجناس حين أمر الإنسان المكرَّم بأن يُقبّله في فريضة كُتبت عليه مرة واحدة في العمر ، وهي فريضة الحج ، فأمره أن يُقبّل الحجر الأسود ، وأنْ يتعبد لله تعالى بهذا التقبيل ؛ لذلك يتزاحم الناس على الحجر ، ويتقاتلون عليه ، وهو حجر ، وهم بشر كرَّمهم الله ، وما ذلك إلا ليكسر التعالي في النفس الإنسانية ، فلا يتعالى أحد على أحد .

وسبق أنْ بيّنا أن المغرضين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله قالوا : إن الله تعالى قال في مسألة الخَلْق مرة ﴿ مِّن مَّآءٍ . . . ﴾ [المرسلات : 20] ومرة ﴿ مِن تُرَابٍ . . . ﴾ [الكهف : 37] ومرة ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] ومرة ﴿ مِن صَلْصَالٍ . . . ﴾ [الحجر : 33] ومرة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 26] . . الخ ، فأيُّ هذه العناصر أصل للإنسان ؟

وقلنا : إن هذه مراحل مختلفة للشيء الواحد ، والمراحل لا تقتضي النية الأولية ، فالماء

والتراب يُكوِّنان الطين ، فإذا تُرك الطين حتى تتغير رائحته فهو الحمأ المسنون ، فإذا تُرك حتى يجفَّ ويتجمد فهو الصلصال ، فهذه العناصر لا تعارض بينها ، ويجوز لك أنْ تقول : إن الإنسان خُلِق من ماء ، أو من تراب ، أو من طين .

. . إلخ .

والمراد هنا الإنسان الأول ، وهو سيدنا آدم – عليه السلام – ثم أخذ الله سلالته من ماء مهين ، والسلالة هي خلاصة الشيء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين ، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذي نتج عنه رجال ونساء .

(162/612)

ثم يحتفظ الخالق سبحانه لنفسه بطلاقة القدرة في هذه المسألة ، وكأنه يقول لك : إياك أنْ تفهم أنني لا أخلق إلا بالزوجية ، إنما أنا أستطيع أنْ أخلق بلا زوجية كما خلقْتُ آدم ، وأخلق من رجل بلا امرأة كما خلقتُ حواء ، وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقتُ عيسى عليه السلام .

وقد تتوفر علاقة الزوجية ويجعلها الله عقيماً لا ثمرةَ لها ، وهكذا تناولت طلاقة القدرة كل ألوان القسمة العقلية في هذه المسألة ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض

يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : 49-50]

إذن : هذه مسألة طلاقة قدرة للخالق سبحانه ، وليست عملية (ميكانيكية) ، لأنها هِبَة من الله ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً . . . ﴾ [الشورى : 49] ولاحظ أن الله قدَّم هنا الإناث ، وهم الجنس الذي لا يفضِّله الناس أن يُولد لهم ، ولكن تجد الذي يرزقه الله بالبنت فيفرح بها ، ويعلم أنها هِبَة من الله يُعوِّضه الله بزوج لها يكون أطوعَ له من ولده .

كما أنه لو رضي صاحب العُقْم بعُقْمه ، وعلم أنه هِبَة من الله لَعَوَّضه الله في أبناء الآخرين ، وشعر أنهم جميعاً أبناؤه ، ولماذا نقبل هبة الله في الذكور وفي الإناث ، ولا نقبل العقم ، وهو أيضاً هبة الله ؟

ثم ألستَ ترى من الأولاد مَنْ يقتل أباه ، ومَنْ يقتل أمه ؟ إذن : المسألة تحتاج منّا إلى الرضا والتسليم والإيمان بأن العُقْم هبة ، كما أن الإنجاب هبة .

ثم إن خَلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين جاء من البداية على صورته التامة الكاملة ، فخلقه الله رجلاً مستوياً ، فلم يكُنْ مثلاً طفلاً ثم كبر وجرتْ عليه سنة التطور ، لا إنما خلقه الله على صورته ، أي : على صورة آدم .

والبعض يقول : خلق الله آدم على صورته أي على صورة الحق ، فالضمير يعود إلى الله تعالى ، والمراد : على صورة الحق لا على حقيقة الحق ، فالله تعالى حيٌّ يَهَب من حياته حياة ، والله قوي يهب من قوته قوة ، والله غنيٌّ يهب من غِنَاه غِنَي ، والله عليم يَهبُ من علمه علماً .

لذلك قيل : " تخلَّقوا بأخلاق الله " ؛ لأنه سبحانه وهبكم صفات من صفات تجلّيه ، وقد وهبكم هذه الصفات ، فاجعلوا للصفة فيكم مزية وتخلَّقوا بها ، فمثلاً كُنْ قوياً على الظالم ، ضعيفاً متواضعاً للمظلوم ، على حَدّ قول الله تعالى في صفات المؤمنين : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [الفتح : 29]

وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين . . . ﴾ [المائدة : 54]

وهذه الصفات المتناقصة تجتمع في المؤمن ؛ لأنه ليس له طبع واحد ، إنما الموقف والتكليف هو الذي يصبغه ويلويه إلى الصفة المناسبة .

وقلنا : إن علماء التحاليل في معاملهم أثبتوا صِدْق القرآن في هذه الحقيقة ، وهي خَلْق الإنسان من طين حينما وجدوا أن العناصر المكوِّنه لجسم الإنسان هي ذاتها العناصر الموجودة في التربة ، وعددها 16 عنصراً ، أقواها الأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النيتروجين ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنسيوم ، ثم البوتاسيوم . . الخ .

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8)

النسل هو الأنجال والذرية ، والسلالة : خلاصة الشيء تُسلُّ منه كما يُسلُّ السيف من غمده ، فالسلالة هي أجود ما في الشيء ، ولذلك نقول : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعني : في مقام المدح . حتى في الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها .

هذا النسل وهذه السلالة خلقها الله من ماء ، وهو منيٌّ الرجل وبويضة المرأة .

(164/612)

هذا الماء وصفه الله بأنه ﴿ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 8] لأنه يجري في مجرى البول ، ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم ، وفي هذا الماء المهين عجائب ، ويرحم الله العقاد حين قال : إن أصول ذرات العالم كله يمكن أن تُوضع في نصف كستبان الخياطة ، وتأمل كم يقذف الرجل في المرة الواحدة من هذا المقدار ؟ إذن : المسألة دقة تكوين وعظمة خالق ، ففي هذه الذرة البسيطة خصائص إنسان كامل ، فهي تحمل : لونه ، وجنسه ، وصفاته . . الخ .

وسبق أن قلنا في عالم الذر : إن في كل منا ذرة وجزيئاً حياً من لَدُنْ أبيه آدم عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ . . . ﴾ .

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذي خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 29] وقد مَرَّ آدم – عليه السلام – في هذه التسوية بالمراحل التي ذكرت ، كذلك الأمر في سلالته يُسوِّيها الخالق – عز وجل – وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة . . الخ ، ثم تُنفخ فيه الروح .

وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفية خَلْقه ، فإن الله تعالى يجعل من المشَاهد لنا دليلاً على ما غاب عَنَّا ، فإنْ كنَّا لم نشهد الخَلْق فقد شاهدنا الموت ، والموت نَقْضٌ للحياة وللخَلْق ، ومعلوم أن نَقْض الشيء يأتي على عكس بنائه ، فإذا أردنا مثلاً هدم عمارة من عدة أدوار فإن آخر الأدوار بناءً هو أول الأدوار هدماً .

كذلك الحال في الموت ، أول شيء فيه خروج الروح ، وهي آخر شيء في الخَلْق ، فإذا خرجت الروح تصلَّب الجسد ، أو كما يقولون (شضَّب) ، وهذه المرحلة أشبه بمرحلة الصلصالية ، ثم يُنتن وتتغير رائحته ، كما كان في مرحلة الحمأ المسنون ، ثم يتحلل هذا الجسد ويتبخر ما فيه من مائية ، وتبقى بعض العناصر التي تتحول إلى تراب ليعود إلى أصله الأول .

إذن : خُذْ من رؤيتك للموت دليلاً على صِدْق ربك – عز وجل – فيما أخبرك به من أمر الخَلْق الذي لم تشهده .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . ﴾ [السجدة : 9] سبق أن تكلمنا عن هذه الأعضاء ، وقد قرر علماء وظائف الأعضاء مهمة كل عضو وجارحة ، ومتى تبدأ هذه الجارحة في أداء مهمتها ، وأثبتوا أن الأذن هي الجارحة الأولى التي تؤدي مهمتها في الطفل ، بدليل أنك إذا وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل بعد ولادته لا (يرمش) ، في حين يفزع إنْ أحدثتَ بجواره صوتاً : ذلك لأنه يسمع بعد ولادته مباشرة ، أما الرؤية فتتأخر من ثلاثة إلى عشرة أيام .

لذلك كانت حاسة السمع هي المصاحبة للإنسان ، ولا تنتهي مهمتها حتى في النوم ، وبها يتم الاستدعاء ، أما العين فلا تعمل أثناء النوم .

وهذه المسألة أوضحها الحق سبحانه في قصة أهل الكهف ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، والكهف في صحراء بها أصوات الرياح والعواصف والحيوانات المتوحشة ؛ لذلك ضرب الله على آذانهم وعطَّل عندهم هذه الحاسة كما قال سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً ﴾ [الكهف : 11] .

إذن : الأذن هي أول الأعضاء أداءً لمهمتها ، ثم العين ، ثم باقي الأعضاء ، وآخرها عملاً

الأعصاب ، بدليل أن الطفل تصل حرارته مثلاً إلى الأربعين درجة ، ونراه يجري ويلعب دون أن يشعر بشيء ، لماذا ؟ لأن جهازه العصبي لم ينضج بَعْد ، فلا يشعر بهذه الحرارة .

لذلك نجد دائماً القرآن يُقدِّم السمع على البصر ، ويتقدم البصرَ إلا في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . . ﴾ [السجدة : 12] لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة وفيه يفاجأ الكفار بأهوال القيامة ، ويأخذهم المنظر قبل أنْ يسمعوا الصوت حين ينادي المنادي .

(166/612)

ومن عجائب الأداء البياني في القرآن أن كلمة أسماع يقابلها أبصار ، لكن المذكور هنا : ﴿ السمع والأبصار . . ﴾ [السجدة : 9] فالسمع مفرد ، والأبصار جمع ، فلماذا أفرد السمع وجمع البصر ؟

قالوا : لأن الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات ، كما أن للعين غطاءً يُسْدل عليه ويمنع عنها المرئيات ، فإن فهو سمع واحد لي ولك وللجميع ، الكل يسمع صوتاً واحداً ، أما المرئيات فمتعددة ، فما تراه أنت قد لا أراه أنا .

ولم يأْتِ البصر مفرداً – في هذا السياق – إلا في موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السمع

والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] ذلك لأن الآية تتكلم عن المسئولية ، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحداً .

ومن المناسب أن يذكر الحق سبحانه السمع والأبصار والأفئدة بعد الحديث عن مسألة الخَلْق ؛ لأن الإنسان يُولَد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلّم ويكتسب المعلومات والخبرات كما قال سبحانه : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الإسراء : 78]

إذن : فهذه الأعضاء ضرورية لوجود الإنسان الخليفة في الأرض ، وبها يتعايش مع غيره ، ولا بُدَّ له من اكتساب المعلومات ، وإلاَّ فكيف سيتعايش مع بيئته ؟

وقلنا : إن الإنسان لكي يتعلم لا بُدَّ له من استعمال هذه الحواس المدركة ، كل منها في مناطه ، فاللسان في الكلام ، والعين في الرؤية ، والأذن في السمع ، والأنف في الشم ، والأنامل في اللمس .

(167/612)

وقلنا : إن هذه الحواس هي أمهات الحواس المعروفة ، حيث عرفنا فيما بعد حواسَّ أخرى ؛ لذلك احتاط العلماء لهذا التطور ، فأطلقوا على هذه الحواس المعروفة اسم " الحواس

الظاهرة" ، وبعد ذلك عرفنا حاسة البَيْن التي نعرف بها رقَّة القماش وسُمْكه ، وحاسة العضل التي نعرف بها الثقل .

إذن : حينما يُولَد الإنسان يحتاج إلى هذه الحواس ليتعايش بها ويدرك ويتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه ، ولو أن الإنسان يعيش وحده ما احتاج مثلاً لأنْ يتكلم ، لكنه يعيش بطبيعته مع الجماعة ، فلا بُدَّ له أن يتكلم ليتفاهم معهم ، وقبل ذلك لا بُدَّ له أنْ يسمع ليتعلم الكلام .

وعرفنا سابقاً أن اللغة وليدة السماع ، فالطفل الذي يُولَد في بيئة عربية ينطق بالعربية ، والذي يعيش في بيئة إنجليزية ينطق الإنجليزية وهكذا ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فإذا لم تسمع الأذن لا ينطق اللسان .

لذلك سبق أن قلنا في سورة البقرة في قول الله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ . . . ﴾ [البقرة : 18] أن البَكَم وهو عدم الكلام نتيجة الصمم ، وهو عدم السماع ، فالسمع – إذن – هو أول مهمة في الإنسان ، وهو الذي يعطيني الأرضية الأولى في حياتي مع المجتمع من حولي .

ومعلوم أن تعلُّم القراءة مثلاً يحتاج إلى معلم أسمع منه النطق ، فهذه ألف ، وهذه باء ، هذه فتحة ، وهذه ضمة . . الخ ، فإذا لم أسمع لا أستطيع النطق الصحيح ، ولا أستطيع الكتابة .

وبالسماع يتم البلاغ عن الله من السماء إلى الأرض ؛ لذلك تقدَّم ذِكْر السمع على ذِكْر البصر

.

والحق سبحانه لما تكلَّم عن السمع بهذه الصورة قال : أنا سأُسْمع أسماء الأشياء ، فهذه أرض ، وهذه سماء . . الخ ، لذلك حينما نُعلِّم التلميذ نقول له : هذه عين ، وهذه أذن .

(168/612)

وبعد أنْ يتعلم التلميذ من مُعلِّمه القراءة يستطيع بعد ذلك أنْ يقرأ بذاته ، فيحتاج إلى حاسّة البصر في مهمة القراءة ، فإذا أتم تعليمه واستطاع أن يصحح قراءته بنفسه ، واختمرت عنده المعلومات التي اكتسبها بسمعه وبصره استطاع أنْ يقرأ أشياء أخرى غير التي قرأها له معلمه ، واستطاع أن يربي نفسه ويُعلِّمها حتى تتكون عنده خلية علمية يستحدث من خلالها أشياء جديدة ، ربما لا يعرفها معلمه ، وهذه مهمة الفؤاد ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . ﴾ [السجدة : 9]

فالمعاني تتجمع بهذه الحواس ، حتى يصير الإنسان سَوياً لديه الملَكة التي يتعلم بها ، ثم يُعلِّم هو غيره .

واللغة المنطوقة لا تُتعلَّم إلا بالسماع ، فأنا سمعت من أبي ، وأبي سمع من أبيه ، وتستطيع أنْ تسلسل هذه المسألة لتصل إلى آدم عليه السلام أبي البشر جميعاً ، فإنْ قلتَ : فممَّنْ سمع

آدم ؟ نقول : سمع الله حينما علَّمه الأسماء كلها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الملائكة فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤلاء إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 31]

وهذا أمر منطقي ؛ لأن اللغة المسموعة بالأذن لا يمكن لأحد اختراعها ، ومع ذلك يوجد مَنْ يعترض على هذه المسألة ، يقول : هذا يعني أن اللغة توقيفية ، لا دخْلَ لنا فيها . بمعنى : أننا لا نستحدث فيها جديداً .

ونقول : نعم ، اللغة أمر توقيفي ، لكن أعطى الله آدم الأسماء وعلَّمه إياها ، وبهذه الأسماء يستطيع أنْ يتفاهم على وضع غيرها من الأسماء في المعلومات التي تستجد في حياته .

وإلا ، فكيف سمَّيْنا (الراديو والتليفزيون . . الخ) وهذه كلها مُستجدات لا بُدَّ لها من أسماء ، والاسم لا يوجد إلا بعد أنْ يوجد مُسمَّاة ، وهذه مهمة المجامع اللغوية التي تقرر هذه الأسماء ، وتوافق على استخدامها ، وقد اصطلح المَجْمع على تسمية الهاتف : مسرة . والتليفزيون : تلفاز . . الخ .

(169/612)

إذن : أتينا بهذه الألفاظ واتفقنا عليها ؛ لأنها تعبر عن المعاني التي نريدها ، وهذه الألفاظ وليدة الأسماء التي تعلمها آدم عليه السلام ، فاللغة بدأت توقيفية ، وانتهت وضعية .

وقوله تعالى بعد هذه النعم : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : 9] دليل على أن هذه النعم تستوجب الشكر ، لكن قليل منَّا مَنْ يشكر ، وكان ينبغي أن نشكر المنعم كلما سمعنا ، وكلما أبصرنا ، وكلما عملتْ عقولنا وتوصلتْ إلى جديد .

لذلك ، كان شكر المؤمن لربه لا ينتهي ، كما أن أعياده وفرحته لا تنتهي ، فنحن مثلاً نفرح يوم عيد الفطر بفطرنا وبأدائنا للعبادة التي فرضها الله علينا ، وفي عيد الأضحى نفرح ؛ لأن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – تحمَّل عنَّا الفداء بولده ، لكي يعفينا جميعاً من أنْ يفدي كل منَّا ، ويتقرب إلى الله بذبح ولده ، وإلا لكانت المسألة شاقة علينا ؛ لذلك نفرح في عيد الأضحى ، ونذبح الأضاحي ، ونؤدي النُّسُك في الحج .

وما دام المؤمن ينبغي له أن يفرح بأداء الفرائض وعمل الطاعات ، فلماذا لا نفرح كلما صلَّينا أو صُمْنا أو زكَّيْنا ؟ لماذا لا نفرح عندما نطيع الله بعمل المأمورات ، وترْك المنهيات ؟ لماذا لا نفرح في الدنيا حتى يأتي يوم الفرح الأكبر ، يوم تتجمع حصيلة هذه الأعمال ، وننال ثوابها الجنة ونعيمها ؟

واقرأ إن شئت قول ربك : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار فِي جَنَّاتِ النعيم * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [يونس : 9–10]

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10)

معنى ﴿ ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ . . ﴾ [السجدة : 10] أي : غِبْنا فيها ، واندثرتْ ذراتنا ، بحيث لا نعرف أين ذهبت ، وإلى أيِّ شَيء انتقلت ، إلى حيوان أم إلى نبات ؟ إذا حدث هذا ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . ﴾ [السجدة : 10] يعني : أيخلقنا الله من جديد مرة أخرى ؟

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ [السجدة : 10] بل تفيد الإضراب عن كلامهم السابق ، وتقرير حقيقة أخرى ، هي أنهم لا ينكرون البعث والحشر ، إنما ينكرون لقاء الله ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ [السجدة : 10] لأن مسألة الحشر مستحيل أنْ ينكروها ؛ لأن الدليل عليها واضح .

كما قال سبحانه : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : 15] والذي خلق من العدم أولاً قادر على الإعادة من موجود ، لأن ذراتك وخاماتك موجودة ، فالإعادة أسهل من البَدْء ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . . ﴾ [الروم : 27]

إذن : تكذيبهم ليس للبعث في حَدِّ ذاته ، إنما للقاء الله وللحساب ، لكنهم ينكرون البعث ؛

لأنه يؤدي إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء الله ، فينكرون المسألة من بدايتها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(171/612)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) ﴾

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿ لتنذر قوماً ﴾ قال : قريش ﴿ ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ قال : لم يأتهم ولا آباءهم ، لم يأت العرب رسول من الله عز وجل .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6)

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ يدبر الأمر ﴾ قال : ينحدر الأمر ﴿ من السماء إلى الأرض ﴾ ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم

واحد مقداره ألف سنة ، في السير خمسمائة حين ينزل ، وخمسمائة حين يعرج .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿ يدبر الأمر ﴾ الآية . قال : ينزل الأمر من السماء الدنيا إلى الأرض العليا ، ثم يعرج إلى مقدار يوم لو ساره الناس ذاهبين وجائين لساروا ألف سنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يدبر الأمر ﴾ قال : هذا في الدنيا . تعرج الملائكة في يوم مقداره ألف سنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ يدبر الأمر . . . ﴾ الآية . قال : تعرج الملائكة وتهبط في يوم مقداره ألف سنة .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض .

(172/612)

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة رضي الله تعالى عنه قال :

دخلت على ابن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال فيروز : يا أبا عباس قوله ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ فكأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اتهمه فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال : إنما سألتك لتخبرني فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هما يومان ذكرهما الله في كتابه ، الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم ، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب رضي الله عنه ، فسأله عنها انسان ، فلم يخبر ، ولم يدر فقلت : ألا أخبرك بما أحضرت من ابن عباس ؟ قال : بلى . فأخبرته فقال للسائل : هذا ابن عباس رضي الله عنهما أبى أن يقول فيها وهو أعلم مني .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ كان مقداره ألف سنة ﴾ قال : لا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم حتى يقضي بين العباد ، فينزل أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، ولو كان إلى غيره لم يفرغ من ذلك خمسين ألف سنة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله تعالى عنه ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، وذلك مقدار ألف سنة ، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله تعالى عنه في الآية يقول : مقدار مسيرة في ذلك اليوم

﴿ ألف سنة مما تعدون ﴾ ومن أيامكم من أيام الدنيا بخمسمائة نزوله وخمسمائة صعوده ، فذلك ألف سنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ثم يعرج إليه في يوم ﴾ من أيامكم هذه ، ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام .

(173/612)

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ألف سنة مما تعدون ﴾ قال : من أيام الدنيا . والله أعلم .

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7)

أخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرأها ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ قال : أما رأيت القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم " في قوله ﴿ أحسن كل شيء خلقه ﴾ قال : اما إن آست القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أحسن كل شيء خلقه

﴿ قال : صورته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أحسن كل شيء خلقه ﴾ فجعل الكلب في خلقه حسناً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أحسن كل شيء خلقه ﴾ قال : أحسن بخلق كل شيء القبيح والحسن ، والحيات والعقارب ، وكل شيء مما خلق ، وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أحسن كل شيء خلقه ﴾ قال : اتقن . لم يركب الإِنسان في صورة الحمار ، ولا الحمار في صورة الإِنسان .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لحقنا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة قد أسبل ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بناحية ثوبه فقال : يا رسول الله إني أخمش الساقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا عمرو بن زرارة إن الله أحسن كل شيء خلقه ، يا عمرو بن زرارة إن الله لا يحب المسبلين " .

وأخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد رضي الله عنه قال " أبصر النبي صلى الله

عليه وسلم رجلاً قد أسبل ازاره فقال له : ارفع ازارك فقال : يا رسول الله إني أحنف : تصطك ركبتاي قال : ارفع ازارك كل خلق الله حسن " .

(174/612)

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ قال : آدم ﴿ ثم جعل نسله ﴾ قال : ولده ﴿ من سلالة ﴾ من بني آدم ﴿ من ماء مهين ﴾ قال : ضعيف نطفة الرجل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ جعل نسله ﴾ قال : ذريته ﴿ من سلالة ﴾ هي الماء ﴿ ثم سواه ﴾ يعني ذريته .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ من سلالة ﴾ قال : ماء يسل من الإنسان ﴿ من ماء مهين ﴾ قال : ضعيف .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿ أئذا ضللنا ﴾ قال : هلكنا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح أنه سمع ابن عباس رضي الله

عنهما يقول ﴿ أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ﴾ كيف نعاد ونرجع كما كنا ؟ وأخبرت أن الذي قال ﴿ أئذا ضللنا ﴾ أبيُّ بن خلف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(175/612)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ﴾

قوله : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ ﴾ : العامَّةُ على بنائِه للفاعل . وابنُ أبي عبلة على بنائِه للمفعول . والأصلُ : يُعْرَجُ به ، ثم حُذِفَ الجارُّ فارتفع الضميرُ واستتر . وهو شاذٌّ يَصْلُحُ لتوجيهِ مثلِها .

قوله : " مِمَّا تَعُدُّون " العامَّةُ على الخطاب . والحسن والسلميُّ وابنُ وثَّاب والأعمش بالغَيْبة . وهذا الجارُّ صفةٌ لـ " أَلْف " أول " سَنة " .

قوله : ﴿ ذلك عَالِمُ ﴾ :

العامَّةُ على رفع "عالمُ" و "العزيز" و "الرحيم" على أَنْ يكونَ "ذلك" مبتدأً، و "عالمُ" خبرَه. و "العزيز الرحيم" خبران أو نعتان، أو العزيز الرحيم مبتدأٌ وصفتُه، و "الذي أَحْسَنَ" خبرُه، أو "العزيزُ الرحيم" خبرُ مبتدأ مضمرٍ. وقرأ زيد بن علي بجرِّ الثلاثة. وتخريجُها على إشكالها: أن يكونَ "ذلك" إشارةً إلى الأمر المدبَّر، ويكونَ فاعلاً لـ "يَعْرُجُ"، والأوصافُ الثلاثة بدلٌ من الضمير في "إليه". كأنه قيل: ثم يعرُجُ الأمرُ المدبَّرُ إليه عالمِ الغيب أي: إلى عالم الغيب.

وأبو زيد برفع "عالمُ" وخفض "العزيزِ الرحيمِ" على أن يكونَ "ذلك عالمُ" مبتدأً وخبراً، والعزيزِ الرحيمِ بدلان من الهاء في "إليه" أيضاً. وتكون الجملةُ بينهما اعتراضاً.

قوله: ﴿الذي أَحْسَنَ﴾: يجوز أَنْ يكونَ تابعاً لِما قبله في قراءتَيْ الرفع والخفض، وأن يكونَ خبراً آخرَ، وأَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ، وأن يكونَ منصوباً على المدح.

(176/612)

قوله: "خَلَقَه" قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بسكونِ اللام. والباقون بفتحها. فأمَّا الأُولى ففيها أوجهٌ، أحدُها: أن يكونَ "خَلْقَه" بدلاً مِنْ "كلَّ شيء" بدلَ اشتمالٍ مِنْ "كلَّ شيءٍ"، والضميرُ عائدٌ على كل شيء. وهذا هو المشهورُ المتداوَلُ. الثاني: أنه

بدلُ كلٍ مِنْ كل ، والضميرُ على هذا عائدٌ على الباري تعالى . ومعنى "أحسن" : /حَسَّن ؛ لأنه ما مِنْ شيءٍ خَلَقَه إلاَّ وهو مُرَتَّبٌ على ما تَقْتَضيه الحكمةُ ، فالمخلوقاتُ كلُّها حسنةٌ . الثالث : أن يكونَ "كلَّ شيءٍ" مفعولاً أول ، و "خَلْقَه" مفعولاً ثانياً على أَنْ يُضَمَّن "أحسَنَ" معنى أَعْطى وأَلْهَمَ . قال مجاهد : "أعطى كلَّ جنسٍ شكله" . والمعنى : خَلَقَ كلَّ شيءٍ على شكلِه الذي خصَّه به . الرابع : أن يكون "كلَّ شيء" مفعولاً ثانياً قُدِّم ، و "خَلْقَه" مفعولاً أول أُخِّر ، على أَنْ يُضَمَّنَ "أَحْسَنَ" معنى أَلْهَمَ وعَرَّف . قال الفراء : "ألهم كلَّ شيءٍ خَلْقَه فيما يحتاجون إليه فيكونُ أَعْلَمهم ذلك" . قلت : وأبو البقاء ضَمَّن أحسنَ معنى عَرَّف . وأَعْرَبَ على نحوِ ما تقدَّم ، إلاَّ أنه لا بُدَّ أن يُجْعَلَ الضميرُ لله تعالى ، ويُجعلَ الخَلْقُ بمعنى المَخْلوق أي : عَرَّف مخلوقاتِه كلَّ شيءٍ يحتاجون إليه ، فيَؤول المعنى إلى معنى قولِه : ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] .

(177/612)

الخامس : أن تعودَ الهاء [على الله تعالى] وأَنْ يكون "خَلْقَه" منصوباً على المصدرِ المؤكِّدِ لمضمون الجملةِ كقولِه : ﴿ صُنْعَ الله ﴾ [النمل : 88] ، وهو مذهبُ سيبويه أي : خَلَقَه خَلْقاً . ورُجِّحَ على بدلِ الاشتمال : بأنَّ فيه إضافةَ المصدرِ إلى فاعِله ، وهو أكثرُ مِنْ

إضافتِه إلى المفعول ، وبأنه أبلغُ في الامتنانِ لأنه إذا قال : ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ كان أبلغَ مِنْ " أَحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شيء " ؛ لأنه قد يَحْسُنُ الخلقُ – وهو المحاولةُ – ولا يكون الشيء في نفسِه حَسَناً . وإذا قال : أحسنَ كلَّ شيْءٍ اقتضى أنّ كلَّ شيءٍ خَلَقَه حَسَنٌ ، بمعنى أنه وَضَعَ كلَّ شيءٍ في موضعِه .

وأمَّا القراءةُ الثانية ف " خَلَقَ " فيها فعلٌ ماضٍ ، والجملةُ صفةٌ للمضافِ أو المضافِ إليه ، فتكونُ منصوبةَ المحلِّ أو مجرورتَه .

قوله : " وَبَدَأَ " العامَّةُ على الهمزِ . وقرأ الزهريُّ " بدا " بألفٍ خالصةٍ ، وهو خارجٌ عن قياسِ تخفيفِها ، إذ قياسُه بينَ بينَ . على أن الأخفش حكى " قَرَيْتُ " وجوَّز الشيخ أن يكونَ مِنْ لغةِ الأنصار . يقولون في بدأ : " بَدِي " يكسِرون الدالَ وبعدها ياءٌ ، كقولِ عبدِ الله بن رواحة الأنصاري :

3669 بسمِ الإلهِ وبه بَدِيْنا . . . ولو عَبَدْنا غيرَه شَقِيْنا

قال : " وطيِّئٌ تقول في بَقِي : بَقَا " . قال : " فاحتمل أَنْ تكونَ قراءةُ الزهري من هذه اللغةِ ، أصلُه بَدِي ، ثم صار بدا " . قلت : فتكون القراءةُ مركبةً مِنْ لغتَيْن .

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9)

قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ : هذا التفاتٌ مِنْ ضميرِ غائبٍ مفردٍ في قوله : " نَسْلَه " إلى آخره ، إلى خطاب جماعة .

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10)

قوله : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا ﴾ : تقدَّم اختلافُ القراء في الاستفهامين في سورة الرعد . والعاملُ في "إذا" محذوفٌ تقديرُه : نُبْعَثُ أو نُخْرَجُ ، لدلالةِ "خَلْقٍ جديد" عليه . ولا يَعْمَلُ فيه "خَلْق جديد" لأنَّ ما بعد "إنَّ" والاستفهامَ لا يعملُ فيما قبلهما . وجوابُ "إذا" محذوفٌ إذا جعلتَها شرطيةً .

وقرأ العامَّةُ "ضَلَلْنا" بضادٍ معجمةٍ ولامٍ مفتوحةٍ بمعنى : ذَهَبْنا وضِعْنا ، مِنْ قولِهم : ضَلَّ اللبنُ في الماء . وقيل : غُيِّبْنا . قال النابغة :

3670 فآبَ مُضِلُّوه بعينٍ جَلِيَّة . . . وغُوْدِر بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونائِلُ

والمضارعُ مِنْ هذا : يَضِلُّ بكسر العين وهو كثيرٌ . وقرأ يحيى ابن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء بكسرِ اللامِ ، وهي لغةُ العالية . والمضارعُ من هذا يَضَلُّ بالفتح . وقرأ عليٌّ وأبو حيوة "ضُلِّلْنا" بضم الضاد وكسر اللام المشددة مِنْ ضَلَّله بالتشديد .

وقرأ عليٌّ أيضاً وابن عباس والحسن والأعمش وأبان بن سعيد "صَلَلْنا" بصادٍ مهملةٍ ولامٍ مفتوحة . وعن الحسن أيضاً "صَلِلْنا" بكسرِ الصادِ . وهما لغتان . يقال : صَلَّ اللحمُ

يَصِلُّ ، ويَصَلُّ بفتح الصادِ وكَسرِها لمجيءِ الماضي مفتوحَ العين ومكسورَها . ومعنى صَلَّ اللحمُ : أنتنَ وتَغيَّرتْ رائحتُه . ويُقال أيضاً : أَصَلَّ بالألف قال :

3671 تُلَجْلِجُ مُضْغَةً فيها أَنِيْضٌ . . . أَصَلَّتْ ، فَهْيَ تحت الكَشْحِ داءُ

وقال النحاس : " لا نعرفُ في اللغة " صَلِلْنا " ولكن يُقال : صَلَّ اللحمُ ، وأصلَّ ، وخَمَّ وأَخَمَّ " وقد عَرَفها غيرُ أبي جعفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 77 . 84 ﴾

(179/612)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) ﴾

﴿ الْعَزِيزُ ﴾ مع المطيعين ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ على العاصين .

﴿ الْعَزِيزُ ﴾ للمطيعين ليكْسِرَ صولتَهم ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ للعاصين ليرفعَ زلَّتَهم .

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7)

أَحْسَنَ صورةَ كلِّ أحدٍ ؛ فالعرشُ ياقوتةٌ حمراءُ ، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثُلاثَ ورُبَاع ، وجبريلُ طاووس الملائكة ، والحور العين -كما في الخبر- " في جمالها وأشكالها ، والجِنانُ

" -كما في الأخبار ونص القرآن . فإذا انتهى إلى الإنسان قال : و ﴿ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 7 ، 8] . . . كل هذا ولكن :

وكم أبصرتُ من حُسْنٍ ولكن . . . عليك من الورى وقع اختياري

خَلَقَ الإنسانَ من طين ولكن ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [البقرة : 152] ، وخلق الإنسان من طين ولكن : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البينة : 8] ، وخلق الإنسان من طين ولكن ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة : 119] !

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10)

لو كانت لهم ذَرَّةٌ من العرفان ، وشَمَّة من الاشتياق ، ونَسْمَةٌ من المحبة لما تَعَصَّبُوا كُلَّ هذا التعصب في إنكار جوازِ الرجوعِ إلى الله ولكن قال : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرونَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 139 . 140 ﴾

(180/612)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر استبعادهم ، وأتبعه عنادهم ، وكان إنكارهم إنما هو بسبب اختلاط الأجزاء بالتراب بعد إنقلابها تراباً ، فكان عندهم من المحال تمييزها من بقية التراب .

دل على أن ذلك عليه هين بأن نبههم على ما هو مقرّون به مما هو مثل ذلك بل أدق .

فقال مستأنفاً : ﴿ قل ﴾ أي جواباً لهم عن شبهتهم : ﴿ يتوفاكم ﴾ أي يقبض أرواحكم كاملة من أجسادكم بعد أن كانت مختلطة بجميع أجزاء البدن ، لا تميز لأحدهما عن الآخر بوجه تعرفونه بنوع حيلة ﴿ ملك الموت ﴾ ثم أشار إلى أن فعله بقدرته ، وأن ذلك عليه في غاية السهولة ، ببناء الفعل لما لم يسم فاعله فقال : ﴿ الذي وكل بكم ﴾ أي وكله الخالق لكم بذلك ، وهو عبد من عبيده ، ففعل ما أمر به ، فإذا البدن ملقى لا روح في شيء منه وهو على حاله كاملاً لا نقص في شيء منه يدعي الخلل بسببه ، فإذا كان هذا فعل عبد من عبيده صرفه في ذلك فقام به على ما ترونه مع أن ممازجة الروح للبدن أشد من ممازجة تراب البدن لبقية التراب لأنه ربما يستدل بعض الحذاق على بعض ذلك بنوع دليل من شم ونحوه ، فكيف يستبعد شيء من الأشياء على رب العالمين ، ومدير الخلائق أجمعين ؟ .

فلما قام هذا البرهان القطعي الظاهر مع دقته لكل أحد على قدرته التامة على تمييز ترابهم من تراب الأرض ، وتمييز بعض تربهم من بعض ، وتمييز تراب كل جزء من اجزائهم جل أو دق عن بعض .

علم أن التقدير : ثم يعيدكم خلقاً جديداً كما كنتم أول مرة ، فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع إلى ذكره فعطف عليه قوله : ﴿ ثم إلى ربكم ﴾ أي الذي ابتدأ خلقكم وتربيتكم وأحسن إليكم غاية الإحسان ابتداء ، لا إلى غيره ، بعد إعادتكم ﴿ ترجعون ﴾ بأن يبعثكم كنفس واحدة فإذا أنتم بين يديه ، فيتم إحسانه وربوبيته بأن يجازي كلاًّ بما فعل ، كما هو دأب الملوك مع عبيدهم ، لا يدع أحد منهم الظالم من عبيده مهملاً .

ولما تقرر دليل البعث بما لا خفاء فيه ولا لبس ، شرع يقص بعض أحوالهم عند ذلك ، فقال عادلاً عن خطابهم استهانة بهم وإيذاناً بالغضب ، وخطاباً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسلية له ، أو لكل من يصح خطابه ، عاطفاً على ما تقديره : فلو رأيتهم وقد بعثرت القبور ، وحصل ما في الصدور ، وهناك أمور أيّ أمور ، موقعاً المضارع في حيز ما من شأنه الدخول على الماضي ، لأنه لتحقق وقوعه كأنه قد كان ، واختير التعبير به لترويح النفس بترقب رؤيته حال سماعه ، تعجيلاً للسرور بترقب المحذور لأهل الشرور : ﴿ ولو ترى ﴾ أي تكون أيها الرائي من أهل الرؤية لترى حال المجرمين ﴿ إذ المجرمون ﴾ أي القاطعون لما أمر الله به أن يوصل بعد أن وقفوا بين يدي ربهم ﴿ ناكسوا رؤوسهم ﴾ أي مطأطئوها خجلاً وخوفاً وخزياً وذلاً في محل المناقشة ﴿ عند ربهم ﴾ المحسن إليهم المتوحد بتدبيرهم ، قائلين بغاية الذل والرقة : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ أبصرنا ﴾ ما كنا نكذب به ﴿ وسمعنا ﴾ أي منك ومن ملائكتك ومن أصوات النيران وغير ذلك ما كنا نستبعده ، فصرنا على غاية العلم بتمام قدرتك وصدق وعودك ﴿ فارجعنا ﴾ بما لك من هذه الصفة المقتضية للإحسان ، إلى دار الأعمال ﴿ نعمل صالحاً ﴾ ثم حققوا هذا الوعد بقولهم على سبيل التعليل مؤكدين لأن حالهم كان حال الشاك الذي يتوقف المخاطب في إيقانه : ﴿ إنا موقنون ﴾ أي ثابت الآن لنا الإيقان بجميع ما أخبرنا به عنك مما كشف عنه العيان أي لو رأيت ذلك لرأيت أمراً لا يحتمله من هوله وعظمه عقل ، ولا يحيط به وصف .

ولما لم يذكر لهم جواباً ، علم أنه لهوانهم ، لأنه ما جرأهم على العصيان إلا صفة الإحسان ، فلا يصلح لهم إلا الخزي والهوان ، ولأن الإيمان لا يصح إلا بالغيب قبل العيان .

(183/612)

ولما كان ربما وقع في وهم أن ضلالهم مع الإمعان في البيان ، لعجز عن هدايتهم أو توان ، قال عاطفاً على ما تقديره : إني لا أردكم لأني لم أضلكم في الدنيا للعجز عن هدايتكم فيها ، بل لأني لم أرد إسعادكم ، ولو شئت لهديتكم ، صارفاً القول إلى مظهر العظمة لاقتضاء المقام لها : ﴿ ولو شئنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي تأبى أن يكون لغيرنا شيء يستقل به أو يكون في ملكنا ما لا نريد ﴿ لأتينا كل نفس ﴾ أي مكلفة لأن الكلام فيها ﴿ هداها ﴾ أي جعلنا هدايتها ورشدها وتوفيقها للإيمان وجميع ما يتبعه من صالح الأعمال في يدها متمكنة منها .

ولما استوفى الأمر حده من العظمة ، لفت الكلام إلى الإفراد ، دفعاً للتعنت وتحقيقاً لأن المراد بالأول العظمة فقال : ﴿ ولكن ﴾ أي لم أشأ ذلك لأنه ﴿ حق القول مني ﴾ وأنا من لا يخلف الميعاد ، لأن الإخلاف إما لعجز أو نسيان أو حاجة ولا شيء من ذلك يليق بجنابي ، أو يحل بساحتي ، وأكد لأجل إنكارهم فقال مقسماً : ﴿ لأملان جهنم ﴾ التي هي محل

إهانتي وتجهم أعدائي بما تجهموا أوليائي ﴿ من الجنة ﴾ أي الجن طائفة إبليس ، وكأنه أنثهم تحقيراً لهم عند من يستعظم أمرهم لما دعا إلى تحقيرهم من مقام الغضب وبدأ بهم لاستعظامهم لهم ولأنهم الذين أضلوهم ﴿ والناس أجمعين ﴾ حيث قلت لإبليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : 85] فلذلك شئت كفر الكافر وعصيان العاصي بعد أن جعلت لهم اختياراً ، وغيبت العاقبة عنهم ، فصار الكسب ينسب إليهم ظاهراً ، والخلق في الحقيقة والمشيئة لي .

(184/612)

ولما تسبب عن هذا القول الصادق أنه لا محيص عن عذابهم ، قال مجيباً لترققهم إذ ذاك نافياً لما قد يفهمه كلامهم من أنه محتاج إلى العبادة : ﴿ فذوقوا ﴾ أي ما كنتم تكذبون به منه بسبب ما حق معي من القول ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ نسيتم لقاء يومكم ﴾ وأكده وبين لهم بقوله : ﴿ هذا ﴾ أي عملتم - في الإعراض عن الاستعداد لهذا الموقف الذي تحاسبون فيه ويظهر فيه العدل - عمل الناسي له مع أنه مركوز في طباعكم أنه لا يسوغ لذي علم وحكمة أن يدع عبيده يمرحون في أرضه ويتقلبون في رزقه ، ثم لا يحاسبهم على ذلك وينصف مظلومهم ، فكان الإعراض عنه مستحقاً لأن يسمى نسياناً من هذا الوجه أيضاً

ومن جهة أنه لما ظهر له من البراهين ، ما ملأ الأكوان صار كأنه ظهر ، وروي ثمّ نسي .

ثم علل ذوقهم لذلك أو استانف لبيان المجازاة به مؤكداً في مظهر العظمة قطعاً لأطماعهم في الخلاص ، ولذا عاد إلى مظهر العظمة فقال : ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي عاملناكم بما لنا من العظمة ولكم من الحقارة معاملة الناسي ، فأوردنا النار كما أقسمنا أنه ليس أحد إلا يردها ، ثم أخرجنا أهل ودنا وتركناكم فيها ترك المنسي .

ولما كان ما تقدم من أمرهم بالذوق مجملاً ، بينه بقوله مؤكداً له : ﴿ وذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي المختص بأنه لا آخر له .

ولما كان قد خص السبب فيما مضى ، عم هنا فقال : ﴿ بما كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ تعملون ﴾ من أعمال من لم يخف أمر البعث ناوين أنكم لا تنفكون عن ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 54 . 57 ﴾

(185/612)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

يعني لا بد من الموت ثم من الحياة بعده وإليه الإشارة بقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ وقوله : ﴿ الذى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ إشارة إلى أنه لا يغفل عنكم وإذا جاء أجلكم لا يؤخركم إذ لا شغل له إلا هذا وقوله : ﴿ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ ينبىء عن بقاء الأرواح فإن التوفي الاستيفاء والقبض هو الأخذ والإعدام المحض ليس بأخذ ، ثم إن الروح الزكي الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم ، والأول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته ، والحكماء يقولون إن الأرواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوي خير من بدنها وتكمل به ، والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثاني فإن أرادوا ما ذكر بها فقد وافقونا وإلا فيغير النظر في ذلك بحسب إرادتهم فقد يكون قولهم حقاً وقد يكون غير حق ، فإن قيل هم أنكروا الإحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان أحدهما : أن ذلك دليل الإحياء ودفع استبعاد ذلك فإنهم قالوا : ما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك ؟ فقال : الملك يقبض الروح والأجزاء تتفرق فجمع الأجزاء لا بعد فيه ، وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضاً ، فقوله : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ أي الأرواح معلومة فترد إلى أجسادها .

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الإجمال بقوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءوسِهِمْ ﴾ يعني لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً ، وقوله : ﴿ تَرَى ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفياً لصدره فإنهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ، ويحتمل أن يكون عاماً مع كل أحد كما يقول القائل إن فلاناً كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به خاصاً ، وقوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب ، ثم وقف بين يديه يكون في غاية الخجالة .

ثم قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ يعني يقولون أو قائلين ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ، وقولهم : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ معناه إنا في الحال آمنا ولكن النافع الإيمان والعمل الصالح ، ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو في الدنيا فارجعنا للعمل ، وهذا باطل منهم فإن الإيمان لا يقبل في الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا : ﴿ وَمَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] فقالوا إن هذا الذي جرى علينا ما جرى إلا بسبب ترك العمل الصالح وأما الإيمان فإنا موقنون وما أشركنا .

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13)

(187/612)

جواباً عن قولهم : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا ﴾ [السجدة : 12] وبيانه هو أنه تعالى قال : إني لو أرجعتكم إلى الإيمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين أني ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا ﴾ صريح في أن مذهبنا صحيح حيث نقول إن الله ما أراد الإيمان من الكافر وما شاء منه إلا الكفر ، ثم قال تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنْى لأَمْلانَّ جَهَنَّمَ ﴾ أي وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ [ص : 85] هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلاً خالياً عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف في أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل ؟ وإذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأمرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال ، فكل ضرب يكون في العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلي وهو أن الفعل إما أن يكون خيراً محضاً أو شراً محضاً أو خيراً مشوباً بشر

وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان ، إذا علم هذا فخلق الله عالماً فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوي وخلق عالماً فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلي ولم يخلق عالماً فيه شر محض ، ثم إن العالم السفلي الذي هو عالمنا ، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الأول الذي خيره غالب ، فإنك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار ، تجد المنافع أكثر ، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر ، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلاً من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء ، والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلاً غاية ما في الباب أن

(188/612)

الكفر يحبط خيره ولا ينفعه ، إنما يستحيل نظراً إلى العادة أن يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه في عمره ، وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقاً على الفطرة المقتضية للخيرات ، إذا ثبت هذا فنقول قالوا : لولا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم إن ترك خلق هذا القسم إن كان لما فيه من الشر فترك الخير

الكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحكمة ، ألا ترى أن التاجر إذا طلب منه درهم بدينار ، فلو امتنع وقال في هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له لكن في مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار في ملكك وكذلك الإنسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب إلى مخالفة الحكمة فإذا نظر إلى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذي يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأَرض خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] فقال الله تعالى في جوابهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] أي أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير ، ثم بين لهم خيره بالتعليم ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءادَمَ الأَسماء كُلَّهَا ﴾ [البقرة : 31] يعني أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة .

(189/612)

وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب ، فقوله تعالى : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ إشارة إلى الشر ، وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله : ﴿ وَعَلَّمَ ءادَمَ الأَسماء ﴾

فإن قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يعني لو شئنا لخلصنا الخير من الشر ، لكن حينئذٍ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول ، فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة ، لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة ، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير ، وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح إن الخير في القضاء والشر في القدر ، فالله قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل ، وقوله : ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ لأنه تعالى قال لإبليس : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ [ص : 85] وهذا إشارة إلى أن النار لمن في العالم السفلي ، والذين في العالم العلوي مبرءون عن دخول النار وهم الملائكة ، وهذا يقتضي أن لا يكون إبليس من الملائكة وهو الصحيح .

وقوله : ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون تأكيداً وهو الظاهر والثاني : أن يكون حالاً ، أي مجموعين ، فإن قيل كيف جعل جميع الإنس والجن مما يملأ بهم النار ؟ نقول هذا لبيان الجنس ، أي جهنم تملأ من الجن والإنس لا غير أمناً للملائكة ، ولا يقتضي ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس ، فإن قيل فهذا يقتضي أن تكون جهنم ضيقة تمتلىء ببعض الخلق نقول هو كذلك وإنما الواسع الجنة التي هي من الرحمة الواسعة ، والله أعلم .

ولما بين الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا ﴾ أنهم لا رجوع لهم قال لهم إذا علمتم أنكم لا رجوع لكم .

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء ﴾ لقاء يحتمل أن يكون منصوباً بذوقوا ، أي ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسي هو الميثاق الذي أخذ منهم بقوله : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] أو بما في الفطرة من الوحدانية فينسى بالإقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوباً بقوله : ﴿ نَسِيتُمْ ﴾ أي بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا ، وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون إلا في المعلوم أولاً إذا جهل آخراً نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ، ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان إشارة إلى كونهم منكرين لأمر ظاهر كمن ينكر أمراً كان قد علمه .

المسألة الثانية :

قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه أحدها : أن يكون إشارة إلى اليوم ، أي فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم وثانيها : أن يكون إشارة إلى لقاء اليوم ، أي فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء وثالثها : أن يكون إشارة إلى العذاب ، أي فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ، ثم قال إنا نسيناكم ، أي تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعله الناسي قطعاً لرجائكم ، ثم ذكر ما يلزم من تركه إياهم كما يترك الناسي وهو خلود العذاب ، لأن من لا يخلصه الله فلا خلاص له ، فقال : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 154. 157 ﴾

(191/612)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : هَذِهِ الْآيَةُ لَمْ يَذْكُرْهَا مَنْ طَالَعْت كَلَامَهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَذَكَرَهَا الْقُرْطُبِيُّ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ خَاصَّةً مُنْتَزِعًا بِهَا لِجَوَازِ الْوَكَالَةِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ وَهَذَا أَخْذٌ مِنْ لَفْظِهِ ، لَا مِنْ مَعْنَاهُ ؛ فَإِنَّ كُلَّ فَاعِلٍ غَيْرِ اللَّهِ إنَّمَا يَفْعَلُ بِمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ الْفِعْلِ ، لَا بِمَا جَعَلَ إلَيْهِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الدِّينِ .

وَلَوْ اطَّرَدَ ذَلِكَ لَقُلْنَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أَنَّهَا نِيَابَةٌ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَوَكَالَةٌ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ ، وَلَقُلْنَا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ إنَّهُ وَكَالَةٌ فِي أَنَّ اللَّهَ ضَمِنَ الرِّزْقَ لِكُلِّ دَابَّةٍ ، وَخَصَّ الْأَغْنِيَاءَ بِالْأَغْذِيَةِ ، وَأَوْعَزَ إلَيْهِمْ بِأَنَّ رِزْقَ الْفُقَرَاءِ عِنْدَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِتَسْلِيمِهِ إلَيْهِمْ ، مُقَدَّرًا مَعْلُومًا فِي وَقْتٍ مَعْلُومٍ ، وَدَبَّرَهُ بِعِلْمِهِ ، وَأَنْفَذَهُ مِنْ حُكْمِهِ ، وَقَدَّرَهُ بِحِكْمَتِهِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَلَا تَتَعَلَّقُ الْأَحْكَامُ بِالْأَلْفَاظِ ، إلَّا أَنْ تُرَدَّ عَلَى مَوْضُوعَاتِهَا الْأَصْلِيَّةِ فِي مَقَاصِدِهَا الْمَطْلُوبَةِ ، فَإِنْ ظَهَرَتْ فِي غَيْرِ مَقْصِدِهَا لَمْ تُعَلَّقْ عَلَيْهَا مَقَاصِدُهَا .

(192/612)

أَلَا تَرَى أَنَّ الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ مَعْلُومُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ ﴾ .

وَلَا يُقَالُ : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ مُبَايَعَةِ السَّيِّدِ لِعَبْدِهِ ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَيْنِ مُخْتَلِفَانِ .

وَهَذَا غَرَضٌ شَبَّ طَوْقُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ ، فَإِذَا أَرَادُوا لُبْسَهُ لَمْ يَسْتَطِيعُوا جَوْبَهُ ، وَلَا وُجِدَ امْرُؤٌ مِنْهُمْ جَيْبَهُ .

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْمُشْكَلَيْنِ ، وَأَحْسَنُ مَا قَيَّدْنَا فِيهَا عَنْ الْإِسْفَرَايِينِيِّ ، مِنْ

طَرِيقِ الشَّهِيدِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْدِسِيِّ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْفَاعِلُ حَقِيقَةً لِكُلِّ فِعْلٍ ، فِي أَيِّ مَحَلٍّ كَانَ ، وَمَتَى تَرَتَّبَ الْمُحَالُ ، وَتَنَاسَقَتْ الْأَفْعَالُ فَالْكُلُّ إلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَعَلَى قُدْرَتِهِ مُحَالُونَ ، وَمَنْ فَعَلَهُ مَحْسُوبٌ ، وَفِي كِتَابِهِ مَكْتُوبٌ ؛ وَقَدْ خَلَقَ مَلَكَ الْمَوْتِ ، وَخَلَقَ عَلَى يَدَيْهِ قَبْضَ الْأَرْوَاحِ ، وَاسْتِلَالَهَا مِنْ الْأَجْسَامِ ، وَإِخْرَاجَهَا مِنْهَا عَلَى كَيْفِيَّةٍ بَيَّنَّاهَا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ، وَخَلَقَ جُنْدًا يَكُونُونَ مَعَهُ ، يَعْمَلُونَ عَمَلَهُ بِأَمْرِهِ مَثْنَى وَفُرَادَى .

وَالْبَارِي تَعَالَى خَالِقُ الْكُلِّ ، فَأَخْبَرَ عَنْ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ بِثَلَاثِ عِبَارَاتٍ ، فَقَالَ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ ، إخْبَارًا عَنْ الْفِعْلِ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ الْحَقِيقَةُ .

(193/612)

وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ خَبَرًا عَنْ الْمَحَلِّ الْأَوَّلِ الَّذِي نِيطَ بِهِ ، وَخَلَقَ فِعْلَهُ فِيهِ .

وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ تَرَى إذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ خَبَرًا عَنْ الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي تُبَاشِرُ فِيهَا ذَلِكَ .

فَالْأُولَى حَقِيقَةٌ عَقْلِيَّةٌ إلَهِيَّةٌ ، وَالثَّانِيَةُ حَقِيقَةٌ عُرْفِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ بِحُكْمِ الْمُبَاشَرَةِ .

وَقَالَ : مَلَكُ الْمَوْتِ إنْ بَاشَرَ مِثْلَهَا وَإِنْ أُمِرَ فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ : حَدَّ الْأَمِيرُ الزَّانِيَ وَعَاقَبَ الْجَانِيَ .

وَهَذِهِ نِهَايَةٌ فِي تَحْقِيقِ الْقَوْلِ .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : أَمَا إنَّهُ إذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ التَّسَوُّرِ عَلَى الْمَعَانِي ، وَدَفْعِ الْجَهْلِ عَنْهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ الْمَقَاصِدِ فِي ذَلِكَ ، فَيُقَالُ : إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلْقَاضِي أَنْ يَسْتَنِيبَ مَنْ يَأْخُذُ الْحَقَّ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهِ قَسْرًا دُونَ

أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ فِعْلٌ أَوْ يَرْتَبِطَ بِهِ رِضًا إذَا وُجِدَ ذَلِكَ .

وَهُوَ التَّحْقِيقُ الْحَاضِرُ الْآنَ ، وَتَمَامُهُ فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(194/612)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُسِهِم عِند رَبِّهِمْ ﴾

أي عند محاسبة ربهم وفيه أربعة أوجه :

أحدها : من الغم ، قاله ابن عيسى .

الثاني : من الذل ، قاله ابن شجرة .

الثالث : من الحياء ، حكاه النقاش .

الرابع : من الندم ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا ، قال قتادة ، أبصروا حين لم ينفعهم البصر وسمعوا حين لم ينفعهم السمع .

﴿ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أي ارجعنا إلى الدنيا نعمل فيها صالحاً . ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : مصدقون بالبعث ، قاله النقاش .

الثاني : مصدقون بالذي أتي به محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق ، قاله يحيى بن سلام .

قال سفيان : فأكذبهم الله فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : هدايتها للإيمان .

الثاني : للجنة .

الثالث : هدايتها في الرجوع إلى الدنيا لأنهم سألوا الرجعة ليؤمنوا .

﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : معناه سبق القول مني ، قاله الكلبي ويحيى بن سلام .

الثاني : وجب القول مني ، قاله السدي كما قال كثير :

فإن تكن العتبى فأهلاً ومَرْحباً . . . وحقت لها العتبى لدنيا وقلّت

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ يعني من عصاه من الجنة والناس . وفي الجنة قولان :

أحدهما : أنه الجن ، قاله ابن كامل .

الثاني : أنهم الملائكة ، رواه السدي عن عكرمة ، وهذا التأويل معلول لأن الملائكة لا يعصون الله فيعذبون . وسموا جنة لاجتنانهم عن الأبصار ومنه قول زيد بن عمرو :

عزلت الجن والجنان عني . . . كذلك يفعل الجلد الصبور

(195/612)

قوله : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فذوقوا عذابي بما تركتم أمري ، قال الضحاك .

الثاني : فذوقوا العذاب بما تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : إنا تركناكم من الخير ، قاله السدي .

الثاني : إنا تركناكم في العذاب ، قاله مجاهد .

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ وهو الدائم الذي لا انقطاع له

. ﴿ بِمَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي ، وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساسها بذوق الطعام ، قال ابن أبي ربيعة :

فذُقْ هجرها إن كنت تزعم أنه . . . رشاد ألا يا رب ما كذب الزعم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(196/612)

وقال ابن عطية :

ثم أمر تعالى نبيه أن يخبرهم بجملة الحال غير مفصلة ، فبدأ بالإخبار من وقت يفقد روح الإنسان إلى الوقت الذي يعود فيه إلى ربه فجمع الغايتين الأولى والآخرة ، و ﴿ يتوفاكم ﴾ معناه يستوفيكم .

ومنه قال الشاعر : [الرجز]

أزيني الأردم ليسوا من أحد . . . ولا توفيهم قريش في العدد

و﴿ ملك الموت ﴾ اسمه عزرائيل وتصرفه كله بأمر الله وبخلقه واختراعه وروي في الحديث أن البهائم كلها يتوفى الله روحها دون ملك .

قال الفقيه الإمام القاضي : كأن يعدم حياتها ، وكذلك الأمر في بني آدم إلا أنه نوع شرف بتصرف ملك وملائكة معه في قبض أرواحهم ، وكذلك أيضاً غلظ العذاب على الكافرين بذلك ، وروي عن مجاهد : أن الدنيا بين يدي ملك الموت كالطست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث أمر .

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

قوله تعالى : ﴿ لو ترى ﴾ تعجيب لمحمد وأمته من حال الكفرة وما حل بهم ، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف لأن حذفه أهول إذ يترك الإنسان فيه مع أقصى تخيله ، و﴿ المجرمون ﴾ هم الكافرون بدليل التوعد بالنار وبدليل قولهم ﴿ إنا موقنون ﴾ أي أنهم كانوا في الدنيا غير موقنين ، وتنكيس الرؤوس هو من الذل واليأس والهم بحلول العذاب وتعلق نفوسهم بالرجعة إلى الدنيا ، وفي القول محذوف تقديره يقولون ﴿ ربنا ﴾ وقولهم ﴿ أبصرنا وسمعنا ﴾ أي ما كنا نخبر به في الدنيا فكنا مكذبين به ، ثم طلبوا الرجعة حين لا ينفع ذلك ، ثم أخبر تعالى عن نفسه أنه لو شاء لهدى الناس أجمعين بأن يلطف بهم لطفاً يؤمنون به ويخترع الإيمان في نفوسهم ، هذا مذهب أهل السنة ، وقال بعض المفسرين تعرض عليم آية يضطرهم بها إلى الإيمان .

(197/612)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا قول بعض المعتزلة ، إلا أن من أشرنا إليه من المفسرين لم يقدر قدر القول ولا مغزاه ولذلك حكاه ، والذي يقود المعتزلة إلى هذه المقالة أنهم يرون أن من يقدر على اللطف بإنسان حتى يؤمن ولا يفعل فإن ذلك ليس من الحكمة ولا من الأمر المستقيم ، والكلام على هذه المسألة يطول وله تواليفه ، و﴿ الجنة ﴾ الشياطين ، وقوله ﴿ فذوقوا ﴾ بمعنى يقال لهم ذوقوا ، و﴿ نسيتم ﴾ معناه تركتم ، قاله ابن عباس وغيره ، وفي الكلام حذف مضاف تقديره عمل أو عدة ونحوه ، وقوله ﴿ إنا نسيناكم ﴾ سمى العقوبة باسم الذنب ، وقوله ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي بتكسبكم الآثام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(198/612)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفّيهم وأنه يعيدهم .

﴿ يَتَوَفَّاكُم ﴾ من توفى العدد والشيء إذا استوفاه وقبضه جميعاً .

يقال : توفاه الله أي استوفى روحه ثم قبضه .

وتوفيت مالي من فلان أي استوفيته .

﴿ مَّلَكُ الموت ﴾ واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله ؛ كما تقدّم في "البقرة" .

وتصرّفه كلّه بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه .

وروي في الحديث : " أن البهائم كلّها يتوفّى الله أرواحها دون مَلَك الموت " كأنه يعدم حياتها ؛ ذكره ابن عطية .

قلت : وقد روي خلافه ، وأن مَلَك الموت يتوفّى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة .

روى جعفر بن محمد عن أبيه قال : " نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ارفق بصاحبي فإنه مؤمن" فقال مَلَك الموت عليه السلام : "يا محمد ، طِب نفساً وقَرّ عَيْناً فإني بكل مؤمن رفيق .

واعلم أن ما من أهل بيت مَدَر ولا شعر في بَر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم .

والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها " " قال جعفر بن عليّ : بلغني أنه يتصفّحهم عند مواقيت الصلوات ؛ ذكره الماورديّ .

(199/612)

وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت البغداديّ قال : حدّثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال : حدّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفّار قال حدّثنا أبو بكر حامد المصري قال حدّثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مُهير الكلابيّ قال : حضرت مالك بن أنس رضي الله عنه فأتاه رجل فسأله : أبا عبد الله ، البراغيث أمَلَك الموت يقبض أرواحها ؟ قال : فأطرق مالك طويلاً ثم قال : ألها أنفس ؟ قال : نعم .

قال : مَلَك الموت يقبض أرواحها ؛ ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] .

قال ابن عطية بعد ذكره الحديث : وكذلك الأمر في بني آدم ، إلا أنه نوعٌ شُرِّف بتصرف مَلَك وملائكة معه في قبض أرواحهم .

فخلق الله تعالى مَلَك الموت وخلق على يديه قبض الأرواح، واستلالها من الأجسام وإخراجها منها .

وخلق الله تعالى جنداً يكونون معه يعملون عمله بأمره؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة ﴾ [الأنفال: 50]، وقال تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ وقد مضى هذا المعنى في "الأنعام" .

والبارىء خالق الكل، الفاعل حقيقة لكل فعل؛ قال الله تعالى: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ .

﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك: 2] .

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يُزْهِق الروح .

وهذا هو الجمع بين الآي والأحاديث؛ لكنه لما كان مَلَك الموت متولّي ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفّي إليه كما أضيف الخلق للملك؛ كما تقدّم في "الحج" .

وروي عن مجاهد أن الدنيا بين يدي مَلَك الموت كالطَّست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء .

وقد روي هذا المعنى مرفوعاً، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) .

وروي أن مَلَك الموت لما وكّله الله تعالى بقبض الأرواح قال : ربّ جعلتني أُذكر بسوء ويشتمني بنو آدم .

(200/612)

فقال الله تعالى له : " إني أجعل للموت عللاً وأسباباً من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير " وقد ذكرناه في التذكرة مستوفًى وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها ، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك .

الثانية : استدلّ بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله : ﴿ وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ أي بقبض الأرواح .

قال ابن العربيّ : "وهذا أخذ من لفظه لا من معناه ، ولو اطّرد ذلك لقلنا في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 158] : إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة في تبليغ رسالته ، ولقلنا أيضاً في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَآتُوا الزكاة ﴾ [البقرة : 43] إنه وكالة ؛ فإن الله تعالى ضمن الرزق لكلّ دابة وخصّ الأغنياء بالأغذية وأوعز عليهم بأن رزق الفقراء عندهم ، وأمر بتسليمه إليهم مقداراً معلوماً في

وقت معلوم ، دبّره بعلمه ، وأنفذه من حكمه ، وقدّره بحكمته .

والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة ، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلّق عليها .

ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ ولا يقال : هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده ؛ لأن المقصِدَيْن مختلفان .

أما إنه إذا لم يكن بدّ من المعاني فيقال : إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنيب من يأخذ الحق ممن هو عليه قسراً دون أن يكون له في ذلك فعل ، أو يرتبط به رضاً إذا وجد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ابتداء وخبر .

قال الزجاج : والمخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم مخاطبةٌ لأمته .

(201/612)

والمعنى : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب .

ومذهب أبي العباس غير هذا ، وأن يكون المعنى : يا محمد ، قل للمجرم ولو ترى إذ

المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك .

"نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ" أي من الندم والخزي والحزن والذلّ والغم .

"عِنْدَ رَبِّهِمْ" أي عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم .

"رَبَّنَا" أي يقولون ربنا .

"أَبْصَرْنَا" أي أبصرنا ما كنا نكذب .

"وَسَمِعْنَا" ما كنا ننكر .

وقيل : "أَبْصَرْنَا" صدق وعيدك .

"وَسَمِعْنَا" تصديق رسلك .

أَبْصَرُوا حين لا ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع .

"فَارْجِعْنَا" أي إلى الدنيا .

﴿ نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أي مصدقون بالبعث ؛ قاله النقاش .

وقيل : مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق ؛ قاله يحيى بن سلام .

قال سفيان الثوريّ : فأكذبهم الله تعالى فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] .

وقيل : معنى "إِنَّا مُوقِنُونَ" أي قد زالت عنا الشكوك الآن ؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا ، ولكن لم يكونوا يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا في الآخرة

صاروا حينئذٍ كأنهم سمعوا وأبصروا .

وقيل : أي ربنا لك الحجة ، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك في الدنيا ، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا .

فهذا اعتراف منهم ، ثم طلبوا أن يردّوا إلى الدنيا ليؤمنوا .

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13)

(202/612)

قال محمد بن كعب القُرَظيّ : لما قالوا : "رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ" ردّ عليهم بقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يقول : لو شئت لهديت الناس جميعاً فلم يختلف منهم أحد ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي ﴾ الآية ؛ ذكره ابن المبارك في "رقائقه" في حديث طويل .

وقد ذكرناه في "التذكرة" .

النحاس : "وَلَوْ شِئْنَا لأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا" في معناه قولان : أحدهما : أنه في الدنيا .

والآخر : أن سياق الكلام يدلّ على أنه في الآخرة ؛ أي لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة

كما سألوا : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ أي حق القول مني لأعذّبن من عصاني بنار جهنم .

وعلم الله تبارك وتعالى (أنه) لو ردهم لعادوا ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ .

وهذه الهداية معناها خلق المعرفة في القلب .

وتأويل المعتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لا يحسن منه فعله ؛ لأنه ينقض الغرض المُجْرَى بالتكليف إليه وهو الثواب الذي لا يُستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره .

وقالت الإمامية في تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً ، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها ؛ قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله .

وفي جواز ذلك منع ؛ لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان .

وقد تكلم العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفاية في أصول الدين .

وأقرب ما لهم في الجواب أن يقال : فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه ، فصار يؤدّي ذلك إلى مذهب الجبرية ، وهو مذهب رَذْل عندنا وعندكم ؛ فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف فمن شاء آمن وأطاع اختياراً لا جبراً ؛ قال الله تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير : 28] ، وقال : ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [المزمل : 19] .

ثم عقّب هاتين الآيتين بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ .

فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ، ونفى أن يشاؤوا إلا أن يشاء الله ؛ ولهذا فرّطت المجبرة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة الله تعالى ، فقالوا : الخلق مجبورون في طاعتهم كلها ، التفاتاً إلى قوله : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ .

وفرّطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة العباد ، فقالوا : الخلق خالقون لأفعالهم ، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ .

ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد ؛ وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقدرية ؛ وخير الأمور أوساطها .

وذلك أن أهل الحق قالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، وهو أنا ندرك

تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير محاولته وإرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرّك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش ؛ ومن لا يفرق بين الحركتين : حركة الارتعاش وحركة الاختيار ، وهما موجودتان في ذاته ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراك حاسته فهو معتوه في عقله ومختلّ في حسه ، وخارج من حزب العقلاء .

وهذا هو الحق المبين ، وهو طريق بين طريقي الإفراد والتفريط .

و:

كِلا طَرَفَيْ قصد الأمور ذَمِيمُ . . .

(204/612)

وبهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سَمَّوْا هذه المنزلة بين المنزلتين كَسْباً ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز ، وهو قوله سبحانه : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت ﴾ [البقرة : 286] .

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَآ ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه من النسيان الذي لا ذكر معه ؛ أي لم يعملوا لهذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين .

والآخر : أن "نَسِيتُمْ" بما تركتم ، وكذا ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ .

واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ [طه : 115] قال : والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ [الأعراف : 20] فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكّره .

وأنشد :

كأنه خارجاً من جَنْب صَفْحَته . . .

سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ

أي تركوه .

ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة .

قال الضحاك : "نَسِيتُمْ" أي تركتم أمري .

يحيى بن سلام : أي تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم .

﴿ نَسِينَاكُمْ ﴾ تركناكم من الخير ؛ قاله السُّديّ .

مجاهد : تركناكم في العذاب .

وفي استئناف قوله : "إِنَّا نَسِينَاكُمْ" وبناء الفعل على "إنّ" واسمها تشديد في الانتقام منهم .

والمعنى : فذوقوا هذا ؛ أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخِزي والغمّ بسبب نسيان الله .

أو ذوقوا العذاب المخلّد ، وهو الدائم الذي لا انقطاع له في جهنم .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي .

وقد يعبّر بالذّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً ، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم .

قال عمر بن أبي ربيعة :

فذُقْ هجرها إن كنت تزعم أنها . . .

فسادٌ ألاَ يا رُبَّما كذب الزعم

الجوهريّ : وذُقْت ما عند فلان ؛ أي خبرته .

(205/612)

وذقت القَوْس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدّتها .

وأذاقه الله وبال أمره .

قال طُفيل :

فذوقوا كما ذُقنا غَدَاة مُحَجّرٍ . . .

من الغيظ في أكبادِنا والتَّحَوُّبِ

وتذوقته أي ذقته شيئاً بعد شيء .

وأمر مستذاق أي مجرّب معلوم .

قال الشاعر :

وعهدُ الغانيات كعهد قَيْن . . .

وَنَتْ عنه الجعائل مُسْتذاقِ

والذوّاق : الملول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(206/612)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) ﴾

هذه السورة مكية ، قيل : إلا خمس آيات : ﴿ تتجافى ﴾ إلى ﴿ تكذبون ﴾ .

وقال ابن عباس ، ومقاتل ، والكلبي : إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة : ﴿ أفمن كان مؤمناً ﴾ .

قال كفار قريش : لم يبعث الله محمداً إلينا ، وإنما الذي جاء به اختلاق منه ، فنزلت .

ولما ذكر تعالى ، فيما قبلها ، دلائل التوحيد من بدء الخلق ، وهو الأصل الأول ؛ ثم ذكر

المعاد والحشر ، وهو الأصل الثاني ، وختم به السورة ، ذكر في بدء هذه السورة الأصل الثالث ، وهو تبيين الرسالة .

و﴿ الكتاب ﴾ : القرآن .

قال الحوفي : ﴿ تنزيل ﴾ مبتدأ ، ﴿ ولا ريب ﴾ خبره .

ويجوز أن يكون ﴿ تنزيل ﴾ خبر مبتدأ ، أي هذا المتلو تنزيل ، أو هذه الحروف تنزيل ، و﴿ الم ﴾ بدل على الحروف .

وقال أبو البقاء : ﴿ الم ﴾ مبتدأ ، و﴿ تنزيل ﴾ خبره بمعنى المنزل ، و﴿ لا ريب فيه ﴾ حال من الكتاب ، والعامل فيه تنزيل ، و﴿ من رب العالمين ﴾ متعلق بتنزيل أيضاً .

ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في فيه ، والعامل فيه الظرف .

ويجوز أن يكون ﴿ تنزيل ﴾ مبتدأ ، و﴿ لا ريب فيه ﴾ الخبر ، و﴿ من رب العالمين ﴾ حال كما تقدم .

ولا يجوز على هذا أن يتعلق بتنزيل ، لأن المصدر قد أخبر عنه .

ويجوز أن يكون الخبر ﴿ من رب العالمين ﴾ ، و﴿ لا ريب ﴾ حال من الكتاب ، وأن يكون خبراً بعد خبر . انتهى .

والذي أختاره أن يكون ﴿ تنزيل ﴾ مبتدأ ، و﴿ لا ريب ﴾ اعتراض ، و﴿ من رب العالمين ﴾ الخبر .

وقال ابن عطية : ﴿ من رب العالمين ﴾ متعلق بتنزيل ، ففي الكلام تقديم وتأخير ؛ ويجوز أن يتعلق بقوله : ﴿ لا ريب ﴾ ، أي لا شك ، من جهة الله تعالى ، وإن وقع شك الكفرة ، فذلك لا يراعى .

والريب : الشك ، وكذا هو في كل القرآن ، إلا قوله : ﴿ ريب المنون ﴾ انتهى .

(207/612)

وإذا كان ﴿ تنزيل ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، وكانت الجملة اعتراضية بين ما افتقر إلى غيره وبينه ، لم نقل فيه : إن فيه تقديماً وتأخيراً ، بل لو تأخر لم يكن اعتراضاً .

وأما كونه متعلقاً بلا ريب ، فليس بالجيد ، لأن نفي الريب عنه مطلقاً هو المقصود ، لأن المعنى : لا مدخل للريب فيه ، إن تنزيل الله ، لأن موجب نفي الريب عنه موجود فيه ، وهو الإعجاز ، فهو أبعد شيء من الريب .

وقولهم : ﴿ افتراه ﴾ ، كلام جاهل لم يمعن النظر ، أو جاحد مستيقن أنه من عند الله ، فقال ذلك حسداً ، أو حكماً من الله عليه بالضلال .

وقال الزمخشري : والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة ، كأنه قيل : لا ريب في ذلك ، أي في كونه منزلاً من رب العالمين .

ويشهد لوجاهته قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، لأن قولهم هذا مفترى إنكار لأن يكون من رب العالمين .

وكذلك قوله : ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ ، وما فيه من تقدير أنه من الله ، وهذا أسلوب صحيح محكم ، أثبت أولاً أن تنزيله من رب العالمين ، وأن ذلك ما لا ريب فيه .

ثم أضرب عن ذلك إلى قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، لأن أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل ، والهمزة إنكاراً لقولهم وتعجباً منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات ، ثم أضرب عن الإنكار إلى الإثبات أنه الحق من ربك .

انتهى ، وهو كلام فيه تكثير .

وقال أبو عبيدة : أم يكون معناه : بل يقولون ، فهو خروج من حديث إلى حديث ؛ ومن ربك في موضع الحال ، أي كائناً من عند ربك ، وبه متعلق بلتنذر ، أو بمحذوف تقديره : أنزله لتنذر .

والقوم هنا قريش والعرب ، وما نافية ، ومن نذير : من زائدة ، ونذير فاعل أتاهم .

(208/612)

أخبر تعالى أنه لم يبعث إليهم رسولاً بخصوصيتهم قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) ، لا لهم ولا لآبائهم ، لكنهم كانوا متعبدين بملة إبراهيم وإسماعيل ، وما زالوا على ذلك إلى أن غير ذلك بعض رؤسائهم ، وعبدوا الأصنام وعم ذلك ، فهم مندرجون تحت قوله : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ أي شريعته ودينه ؛ والنذير ليس مخصوصاً بمن باشر ، بل يكون نذيراً لمن باشره ، ولغير من باشره بالقرب ممن سبق لها نذير ، ولم يباشرهم نذير غير محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عباس ، ومقاتل : المعنى لم يأتهم في الفترة بين عيس ومحمد ، عليهما السلام .

وقال الزمخشري : ﴿ ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ ، كقوله : ﴿ ما أنذر آباؤهم ﴾ وذلك أن قريشاً لم يبعث الله إليهم رسولاً قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) .

فإن قلت : فإذا لم يأتهم نذير ، لم تقم عليهم حجة .

قلت : أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا ، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم ، لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان . انتهى .

والذي ذهب إليه غير ما ذهب إليه المفسرون ، وذلك أنهم فهموا من قوله : ﴿ ما أتاهم ﴾ ، و ﴿ ما أنذر آباؤهم ﴾ أن ما نافية ، وعندي أن ما موصولة ، والمعنى : لتنذر قوماً العقاب الذي أتاهم .

﴿ من نذير ﴾ : متعلق بأتاهم ، أي أتاهم على لسان نذير من قبلك .

وكذلك ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر أباؤهم ﴾ أي العقاب الذي أنذره آباؤهم ، فما مفعولة في الموضعين ، وأنذر يتعدى إلى اثنين .

قال تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ﴾ وهذا القول جار على ظواهر القرآن .

(209/612)

قال تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ و ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً ﴾ ولما حكى تعالى عنهم أنهم يقولون : إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) افتراه ورد عليهم ، اقتصر في ذكر ما جاء به القرآن على الإنذار ، وإن كان قد جاء له وللتبشير ليكون ذلك ردعاً لهم ، ولأنه إذا ذكر الإنذار ، صار عند العاقل فكر فيما أنذر به ، فلعل ذلك الفكر يكون سبباً لهدايته .

و ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ : ترجية من رسول الله ، كما كان في قوله : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ من موسى وهارون .

قال الزمخشري : وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة . انتهى .

يعني أنه عبر عن الإرادة بلفظ الترجي ، ومعناه : إرادة اهتدائهم ، وهذه نزغة اعتزالية ، لأنه عندهم أن يريد هداية العبد ، فلا يقع ما يريد ، ويقع ما يريد العبد ، تعالى الله عن ذلك .

ولما بين تعالى أمر الرسالة ، ذكر ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل بذكر مبدأ العالم .

وتقدم الكلام على ﴿ في ستة أيام ﴾ في الأعراف .

﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ : أي إذا جاوزتموه إلى سواه فاتخذتموه ناصراً وشفيعاً .

﴿ أفلا تذكرون ﴾ موجد هذا العالم ، فتعبدوه وترفضوا ما سواه ؟

﴿ يدبر الأمر ﴾ ، الأمر : واحد الأمور .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وعكرمة ، والضحاك : ينفذ الله قضاءه بجميع ما يشاؤه .

﴿ ثم يعرج إليه ﴾ : أي يصعد ، خبر ذلك ﴿ في يوم ﴾ من أيام الدنيا ، ﴿ مقداره ﴾ : أن لو سير فيه السير المعروف من البشر ﴿ ألف سنة ﴾ ، لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام .

وقال مجاهد أيضاً : الضمير في مقداره عائد على التدبير ، أي كان مقدار التدبير المنقضي في يوم ألف سنة لو دبره البشر .

وقال مجاهد أيضاً : يدبر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عندنا ، وهو اليوم عنده ، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها .

فالمعنى : أن الأمور تنفذ عنه لهذه المدة وتصير إليه آخراً ، لأن عاقبة الأمور إليه .

وقيل : المعنى يدبره في الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، فينزل القضاء والقدر ، ثم تعرج إليه يوم القيامة ، ومقداره ما ذكر ليحكم فيه من ذلك اليوم ، حيث ينقطع أمر الأمراء ، أو أحكام الحكام ، وينفرد بالأمر كل يوم من أيام الآخرة بألف سنة ، وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة حسبما في سورة سأل سائل ، وتأتي الأقوال فيه إن شاء الله تعالى .

وقيل : ينزل الوحي مع جبريل من السماء إلى الأرض ، ثم يرجع إلى ما كان من قبول الوحي أو ربه مع جبريل ، وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة ، لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود ، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل ، لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد .

قال الزمخشري : وبداية الأمر المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ، ينزله مدبراً من السماء إلى الأرض ، ثم لا يعمل به ، ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصاً كما يريده

ويرتضيه ، إلا في مدة متطاولة ، لقلة الأعمال لله والخلوص من عباده ، وقلة الأعمال الصاعدة ، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ، ودل عليه قوله على أثره : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ .

قال الزمخشري : وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر ، والاستدلال بالمشاهد المحسوس ، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه ، فيحكم اعتقاده والتيقن .

والمشبه بالعروة الإيمان ، قاله : مجاهد .

أو : الإسلام قاله السدّي أو : لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ، وابن جبير ، والضحاك ، أو : القرآن ، قاله السدّي أيضاً ، أو : السنة ، أو : التوفيق .

أو : العهد الوثيق .

أو : السبب الموصل إلى رضا الله وهذه أقوال متقاربه .

(211/612)

﴿ لا انفصام لها ﴾ لا انكسار لها ولا انقطاع ، قال الفراء : الانفصام والانقصام هما لغتان ، وبالفاء أفصح ، وفرق بعضهم بينهما ، فقال : الفصم انكسار بغير بينونة ، والقصم انكسار ببينونة .

وهذه الجملة في موضع نصب على الحال من العروة ، وقيل : من الضمير المستكن في الوثقى ، ويجوز أن يكون خبراً مستأنفاً من الله عن العروة ، و : لها ، في موضع الخبر ، فتتعلق بمحذوف أي : كائن لها .

﴿ والله سميع عليم ﴾ أتى بهذين الوصفين لأن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده الجنان ، فناسب هذا ذكر هذين الوصفين لأن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، وقيل : سميع لدعائك يا محمد ، عليم بحرصك واجتهادك .

﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ الولي ، هنا الناصر والمعين أو المحب أو متولى أمورهم ، ومعنى : آمنوا ، أرادوا أن يؤمنوا ، والظلمات : هنا الكفر ، والنور الإيمان ، قاله قتادة ، والضحاك ، والربيع .

قيل : وجمعت الظلمات لاختلاف الضلالات ، ووحد النور لأن الإيمان واحد .

والإخراج هنا إن كان حقيقة فيكون مختصاً بمن كان كافراً ثم آمن ، وإن كان مجازاً فهو مجاز عن منع الله إياهم من دخولهم في الظلمات .

قال الحسن : معنى يخرجهم يمنعهم ، وإن لم يدخلوا ، والمعنى أنه لو خلا عن توفيق الله لوقع في الظلمات ، فصار توفيقه سبباً لدفع تلك الظلمة ، قالوا : ومثل هذه الاستعارة شائع سائغ في كلامهم ، كما قال طفيل الغنوي :

فإن تكنِ الأيام أحسنَ مرة . . .

إليّ فقد عادت لهنّ ذنوب

قال الواقدي : كل شيء في القرآن من الظلمات والنور فإنه أراد به الكفر والإيمان غير التي في الأنعام ، وهو : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ فإنه أراد به الليل والنهار .

وقال الواسطي : يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى آدابها : كالرضا والصدق والتوكل والمعرفة والمحبة .

وقال أبو عثمان : يخرجهم من ظلمات الوحشة والفرقة إلى نور الوصلة والإلفة .

(212/612)

وقال الزمخشري : آمنوا أرادوا أن يؤمنوا ، تلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان ، أو : الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبه في الدين إن وقعت لهم ، بما يهديهم ويوفقهم لها من حلها ، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين .

ورجح على بدل الاشتمال بأن فيه إضافة المصدر إلى الفاعل ، وهو أكثر من إضافته إلى المفعول ، وبأنه أبلغ في الامتنان ، لأنه إذا قال : ﴿ أحسن كل شيء ﴾ ، كأن أبلغ من : أحسن خلق كل شيء ، لأنه قد يحسن الخلق ، وهو المجاز له ، ولا يكون الشيء في نفسه حسناً .

فإذا قال : ﴿ أحسن كل شيء ﴾ ، اقتضى أن كل شيء خلقه حسن ، بمعنى : أنه وضع كل شيء في موضعه . انتهى .

وقيل : في هذا الوجه ، وهو عود الضمير في خلقه على الله ، يكون بدلاً من كل شيء ، بدل شيء من شيء ، وهما لعين واحدة .

ومعنى ﴿ أحسن ﴾ : حسن ، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما تقضيه الحكمة .

فالمخلوقات كلها حسنة ، وإن تفاوتت في الحسن ، وحسنها من جهة المقصد الذي أريد بها .

ولهذا قال ابن عباس : ليست القردة بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة .

وعلى قراءة من سكن لام خلقه ، قال مجاهد : أعطى كل جنس شكله ، والمعنى : خلق كل شيء على شكله الذي خصه به .

وقال الفراء : ألهم كل شيء خلقه فيما يحتاجون إليه ، كأنه أعلمهم ذلك ، فيكون كقوله : ﴿ أعطى كل شيء خلقه ﴾ وقرأ الجمهور : بدأ بالهمز ؛ والزهري : بالألف بدلاً من الهمزة ، وليس بقياس أن يقول في هدأ : هدا ، بإبدال الهمزة ألفاً ، بل قياس هذه الهمزة التسهيل بين بين ؛ على أن الأخفش حكى في قرأت : قريت ونظائره .

وقيل : وهي لغية ؛ والأنصار تقول في بدأ : بدى ، بكسر عين الكلمة وياء بعدها ، وهي

لغة لطي .

يقولون في فعل هذا نحو بقى : بقأ ، فاحتمل أن تكون قراءة الزهري على هذه اللغة أصله بدى ، ثم صار بدأ ، أو على لغة الأنصار .

وقال ابن رواحة :

باسم الإله وبه بدينا . . .

ولو عبدنا غيره شقينا

(213/612)

﴿ وبدأ خلق الإنسان ﴾ : هو آدم ، عليه الصلاة والسلام .

﴿ ثم جعل نسله ﴾ : أي ذريته .

نسل من الشيء : انفصل منه .

﴿ ثم سواه ﴾ : قومه وأضاف الروح إلى ذاته دلالة على أنه خلق عجيب ، لا يعلم حقيقته إلا هو ، وهي إضافة ملك إلى مالك وخلق إلى خالق تعالى .

﴿ وجعل لكم ﴾ : التفات ، إذ هو خروج من مفرد غائب إلى جمع مخاطب ، وتعديد للنعم ، وهي شاملة لآدم ؛ كما أن التسوية ونفخ الروح شامل له ولذريته .

والظاهر أن ﴿ وقالوا ﴾ ، الضمير لجمع ، وقيل : القائل أبيّ بن خلف ، وأسند إلى الجمع لرضاهم به ، والناصب للظرف محذوف يدل عليه ﴿ أئنا ﴾ وما بعدها تقديره انبعث .

﴿ أئذا ضللنا ﴾ ، ومن قرأ إذا بغير استفهام ، فجواب إذا محذوف ، أي : إذا ضللنا في الأرض نبعث ، ويكون إخباراً منهم على طريق الاستهزاء .

وكذلك من قرأ : إنا على الخبر ، أكدوا ذلك الاستهزاء باستهزاء آخر .

وقرأ الجمهور : بفتح اللام ، والمضارع يضل بكسر عين الكلمة ، وهي اللغة الشهيرة الفصحية ، وهي لغة نجد .

قال مجاهد : هلكنا ، وكل شيء غلب عليه غيره حتى تلف وخفي فقد هلك ، وأصله من : ضل الماء في اللبن ، إذا ذهب .

وقال قطرب : ضللنا : غبنا في الأرض ، وأنشد قول النابغة الذبياني :

فآب مضلوه بعين جلية . . .

وغودر بالجولان حزم ونائل

وقرأ يحيى بن يعمر ، وابن محيصن ، وأبو رجاء ، وطلحة ، وابن وثاب : بكسر اللام ، والمضارع بفتحها ، وهي لغة أبي العالية .

وقرأ أبو حيوة : ضللنا ، بالضاد المنقوطة وضمها وكسر اللام مشددة ، ورويت عن علي .

وقرأ علي ، وابن عباس ، والحسن ، والأعمش ، وأبان بن سعيد بن العاص : صللنا ،

بالصاد المهملة وفتح اللام ، ومعناه : أنتنا .

وعن الحسن : صللنا ، بكسر اللام ، يقال : صل يصل ، بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع ؛ وصل يصل : بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع ؛ وأصل يصل ، بالهمزة على وزن أفعل .

قال الشاعر :

تلجلج مضغة فيها أبيض . . .

(214/612)

أصلت فهي تحت الكشح داء

وقال الفراء : معناه صرنا بين الصلة ، وهي الأرض اليابسة الصلبة .

وقال النحاس : لا نعرف في اللغة صللنا ، ولكن يقال : أصل اللحم وصل ، وأخم وخم إذ أنتن ، وحكاه غيره .

﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ : جاحدون بلقاء الله والصيرورة إلى جزائه .

ثم أمره تعالى أن يخبرهم بجملة الحال غير مفصلة ، من قبض أرواحهم ، ثم عودهم إلى جزاء ربهم بالبعث .

و﴿ ملك الموت ﴾ : اسمه عزرائيل ، ومعناه عبد الله .

وقرأ الجمهور : ﴿ ترجعون ﴾ ، مبنياً للمفعول ؛ وزيد بن علي : مبنياً للفاعل .

﴿ ولو ترى ﴾ : الظاهر أنه خطاب للرسول ، وقيل : له ولأمته ، أي : يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب .

وقال أبو العباس : المعنى يا محمد قل للمجرم .

﴿ ولو ترى ﴾ : رأى أن الجملة معطوفة على ﴿ يتوفاكم ﴾ ، داخلة تحت ﴿ قل ﴾ ، فلذلك لم يجعله خطاباً للرسول .

والظاهر أن لو هنا لم تشرب معنى التمني ، بل هي التي لما كان سيقع لوقوع غيره ، والجواب محذوف ، أي لرأيت أسوأ حال يرى .

ولو تعليق في الماضي ، وإذ ظرف للماضي ، فلتحقق الأخبار ووقوعه قطعاً أتى بهما تنزيلاً منزلة الماضي .

وقال الزمخشري : يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله ، وفيه وجهان : أحدهما : أن يراد به التمني ، كأن قيل : وليتك ترى ، والتمني له ، كما كان الترجي له في : ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ ، لأنه تجرع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم ، فجعل الله له ، تمنى أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم ، وأن تكون لو امتناعية ، وقد حذف جوابها ، وهو : لرأيت أمراً فظيعاً .

ويجوز أن يخاطب به كل أحد ، كما تقول : فلان لئيم إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا يريد به مخاطباً بعينه ، وكأنك قلت : إن أكرم وإن أحسن إليه . انتهى .

(215/612)

والتمني بلو في هذا الموضع بعيد ، وتسمية لو امتناعية ليس بجيد ، بل العبارة الصحيحة لو لما كان سيقع لوقوع غيره ، وهي عبارة سيبويه ، وقوله قد حذف جوابها وتقديره : وليتك ترى ما يدل على أنها كانت إذا للتمني لا جواب لها ، والصحيح أنها إذا أشربت معنى التمني ، يكون لها جواب كحالها إذا لم تشربه .

قال الشاعر :

فلو نبش المقابر عن كليب . . .

فيخبر بالذنائب أي زير

بيوم الشعثمين لقر عينا . . .

وكيف لقاء من تحت القبور

وقال الزمخشري : وقد تجيء لو في معنى التمني ، كقولك : لو تأتيني فتحدثني ، كما تقول : ليتك تأتيني فتحدثني .

فقال ابن مالك : إن أراد به الحذف ، أي وددت لو تأتيني فصحيح ، وإن أراد أنها موضوعة للتمني فغير صحيح ، لأنها لو كانت موضوعة له ، ما جاز أن يجمع بينها وبين فعل التمني .

لا يقال : تمنيت ليتك تفعل ، ويجوز : تمنيت لو تقوم .

وكذلك امتنع الجمع بين لعل والترجي ، وبين إلا واستثنى . انتهى .

﴿ ناكسوا رؤوسهم ﴾ : مطرقوها ، من الذل والحزن والهم والغم والذم .

وقرأ زيد بن علي : نكسوا رؤوسهم ، فعلاً ماضياً ومفعولاً ؛ والجمهور : اسم فاعل مضاف .

﴿ عند ربهم ﴾ : أي عند مجازاته ، وهو مكان شدة الخجل ، لأن المربوب إذا أساء ووقف بين يدي ربه كان في غاية الخجل .

﴿ ربنا ﴾ : على إضمار يقولون ، وقدره الزمخشري : يستغيثون بقولهم : ﴿ ربنا أبصرنا ﴾ ما كنا نكذب ؛ ﴿ وسمعنا ﴾ : ما كنا ننكر ؛ وأبصرنا صدق وعدك ووعيدك ، وسمعنا تصديق رسلك ، وكنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ، فارجعنا إلى الدنيا .

﴿ إنا موقنون ﴾ : أي بالبعث .

قاله النقاش ؛ وقيل : مصدقون بالذي قال الرسول ، قاله يحيى بن سلام .

وموقنون : مشعر بالالتباس في الحال ، أي حين أبصروا وسمعوا .

وقيل : موقنون : زالت الآن عنا الشكوك ، ولم نكن في الدنيا نتدبر ، وكنا كمن لا يبصر ولا يسمع .

(216/612)

وقيل : لك الحجة ، ربنا قد أبصرنا رسلك وعجائب في الدنيا ، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا ، وهذا اعتراف منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(217/612)

وقال أبو السعود :

(218/612)

﴿ قُلْ ﴾ بياناً للحقِّ وردّاً على زعمِهم الباطلِ ﴿ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ لا كما تزعمون أنَّ الموتَ من الأحوالِ الطَّبيعيةِ العارضةِ للحيوانِ بموجبِ الجبلَّةِ أي يقبضُ أرواحَكم بحيثُ

لا يدعُ فيكم شيئاً أو لا يتركُ منكم أحداً على أشدّ ما يكونُ من الوجوهِ وأفظعِها من ضربِ وجوهِكم وأدبارِكم ﴿ الذى وكّلَ بكُمْ ﴾ أي بقبضِ أرواحِكم وإحصاءِ آجالِكم ﴿ ثُمَّ إلى ربّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث للحسابِ والجزاءِ ﴿ وَلَوْ ترى إذِ المجرمون ﴾ وهم القائلون أئذا ضللنا في الآيةِ أو جنس المجرمينَ وهم من جُملتهم ﴿ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من الحياءِ والخزيِ عند ظهورِ قبائحهم التي اقترفُوها في الدُّنيا ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي يقولون ربَّنا ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي صرنا ممَّن يُبصرُ ويسمعُ وحصل لنا الاستعدادُ لإدراك الآياتِ المُبصَرةِ والآياتِ المسمُوعةِ وكنَّا من قبل عُميا وصُمَّا لا ندركُ شيئاً ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدُّنيا ﴿ نَعْمَلْ ﴾ عملاً ﴿ صالحا ﴾ حسبما تقتضيهِ تلك الآياتُ وقولُه تعالى ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ إدّعاءٌ منهم لصحَّةِ الأفئدةِ والاقتدارِ على فهم معانِي الآياتِ والعملِ بموجبِها كما أنَّ ما قبله ادّعاءٌ لصحَّةِ مشعري البصرِ والسَّمعِ كأنَّهم قالُوا وأيقنا وكنَّا من قبل لا نعقلُ شيئاً أصلاً وإنما عدلُوا إلى الجملة الإسميةِ المؤكدةِ إظهاراً لثباتِهم على الإيقانِ وكمالِ رغبتهم فيه ، وكلُّ ذلك للجدّ في الاستدعاءِ طمعاً في الإجابةِ إلى ما سألُوه من الرَّجعةِ وأنَّى لهم ذلك ويجوز أنْ يقدَّر لكلَ من الفعلينِ مفعولٌ مناسبٌ له ممَّا يُبصرونه ويسمعونَه فإنَّهم حينئذٍ يشاهدون الكفرَ والمعاصيَ على صورٍ منكرةٍ هائلةٍ ويخبرهم الملائكةُ بأنَّ مصيرَهم إلى النَّار لا محالَة فالمعنى أبصرْنا قبحَ أعمالِنا وكنَّا نَراها في الدُّنيا حَسنةً وسمعنا أنَّ مردَّنا إلى النَّارِ وهو الأنسبُ

لما بعده من الوعدِ بالعملِ الصَّالحِ ، هذا وقد قيل المعنى وسمعنَا منك تصديقَ رُسلِك .
وأنت خبيرٌ بأنَّ تصديقَه تعالى لهم حينئذٍ يكون بإظهارِ مدلولِ ما أُخبروا به من الوعدِ والوعيدِ لا بالإخبارِ بأنَّهم صادقون حتَّى يسمعوه وقيل : وسمعنا قولَ الرُّسلِ أي سمعناه سمعَ طاعةٍ وإذعانٍ .
ولا يقدر لترى مفعولٌ إذ المعنى لو تكون منك رؤيةٌ في ذلك الوقتِ أو يقدر ما ينبىءُ عنه صلة إذ والمضيُّ فيها وفي لو باعتبارِ أنَّ الثَّابتَ في علمِ الله تعالى بمنزلةِ الواقعِ . وجوابُ لو محذوفٌ أي لرأيتَ أمراً فظيعاً لا يُقادر قدرُه . والخطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن يصلحُ له كائناً من كانَ إذِ المرادُ بيانُ كمالِ سوءِ حالِهم وبلوغِها من الفظاعةِ إلى حيثُ لا يختصُّ استغرابُها واستفظاعُها براءٍ دونَ راءٍ ممَّن اعتادَ مشاهدةَ الأمورِ البديعةِ والدَّواهي الفظيعةِ بل كلُّ من يتأتَّى منه الرؤيةُ يتعجَّبُ من هولِها وفظاعتِها .
هذا ومَنْ علَّل عمومِ الخطابِ بالقصدِ إلى بيانِ أنَّ حالَهم قد بلغتْ من الظُّهورِ إلى حيثُ يُمنع خفاؤها ألبتةَ فلا تختصُّ رؤيةُ راءٍ دون راءٍ بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤيةُ فله مدخلٌ في هذا الخطابِ فقد نأى عن تحقيقِ الحقِّ لأنَّ المقصودَ بيانُ كمالِ فظاعةِ حالِهم كما يفصحُ عنه

الجوابُ المحذوفُ لا بيانُ كمالِ ظهورِها فإنَّه مسوقٌ مساقَ المسلَّمات فتدبَّر .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾

(220/612)

مقدر بقولٍ معطوفٍ على ما قُدِّر قبل قولِه تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ الخ ، أي ونقولُ : لو شئنا أي لو تعلقتْ مشيئتُنا تعلقاً فعلياً بأنْ نُعطي كلَّ نفسٍ من النُّفوسِ البرَّةِ والفاجرةِ ما تهتدي به إلى الإيمانِ والعملِ الصالحِ لأعطيناها إيَّاه في الدُّنيا التي هي دارُ الكسبِ وما أخَّرناه إلى دارِ الجزاءِ ﴿ ولكن حَقَّ القولُ مِنْى ﴾ أي سبقت كلمتي حيثُ قلتُ لإبليسَ عند قوله : ﴿ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين فالحق والحق أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهو المعنيُّ بقولِه تعالى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ كما يلوحُ به تقديم الجِنَّة على النَّاسِ فبموجبِ ذلكَ القولِ لم نشأْ إعطاءَ الهُدى على العمومِ بل معناهُ من أتباعِ إبليسَ الذين أنتُم من جُملتِهم حيثُ صَرفتُم اختيارَكم إلى الغيِّ بإغوائِه ، ومشيئتُنا لأفعالِ العبادِ منوطةٌ باختيارِهم إيَّاها فلمَّا لم تختارُوا الهُدى واخترتُم الضَّلالةَ لم نشأْ إعطاءَه لكم وإنَّما أعطيناه الذين اختارُوه من النُّفوسِ البرَّةِ وهم المعنيّون بما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ الآيةَ ، فيكونُ مناطُ عدمِ

مشيئتِه إعطاءَ الهُدى في الحقيقةِ سوءَ اختيارِهم لا تحققَ القولِ وإنَّما قيدنا المشيئةَ بما مرَّ من التعلُّقِ الفعليِّ بأفعالِ العبادِ عند حدوثِها لأنَّ المشيئةَ الأزليةَ من حيثُ تعلُّقها بما سيكونُ من أفعالِهم إجمالاً متقدّمةٌ على تحققِ كلمةِ العذابِ فلا يكونُ عدمُها منوطاً بتحققِها وإنَّما مناطُه علمُه تعالى أزلاً بصرفِ اختيارِهم فيما سيأتي إلى الغيِّ وإيثارِهم له على الهدى ، فلو أُريدت هي من تلك الحيثيةِ لاستدرك بعدمِها ونيطَ ذلك بما ذُكر من المناطِ على منهاجِ قولِه تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ﴾

(221/612)

فمن توهَّم أنَّ المَعنى ولو شئنا لأعطينا كلَّ نفسٍ ما عندنا من اللُّطفِ الذي لو كان منهم اختيارُه لاهتدَوا ولكن لم نُعطهم لمّا علمنا منهم اختيارَ الكفرِ وإيثارَه فقد اشتبه عليه الشؤونُ ،

والفاء في قوله تعالى ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ لترتيبِ الأمرِ بالذَّوق على ما يُعرب عنه ما قبله من نفيِ الرَّجعِ إلى الدُّنيا أو على الوعيدِ المحكيِّ والباء في قوله تعالى : ﴿ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ للإيذانِ بأنَّ تعذيبَهم ليس لمجردِ سبقِ الوعيدِ به فقط بل هو وسبقُ الوعيدِ أيضاً بسببٍ موجبٍ له من قِبَلهم ، كأنَّه قيل : لا رجعَ لكم إلى الدُّنيا أو حقَّ وعيدي فذوقُوا بسببِ

نسيانِكم لقاءَ هذا اليومِ الهائلِ وتركِكم التفكُّرَ فيهِ والاستعدادَ له بالكُلِّيةِ ﴿ إِنَّا نسيناكم ﴾ أي تركناكُم في العذابِ تركَ المنسيِّ بالمرَّةِ وقولُه تعالى : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ والتَّشديدِ وتعيينُ المفعولِ المطويِّ للذوقِ والإشعارِ بأنَّ سببَه ليس مجرَّد ما ذُكر من النِّسيانِ بل له أسبابٌ أخرُ من فنونِ الكفرِ والمَعاصي التي كانُوا مستمرِّين عليها في الدُّنيا ، وعدمُ نظمِ الكلِّ في سلكٍ واحدٍ للتنبيهِ على استقلالِ كلٍّ منها في استيجابِ العذابِ . وفي إبهامِ المذوقِ أولاً وبيانِه ثانياً بتكريرِ الأمرِ وتوسيطِ الاستئنافِ المنبىءِ عن كمالِ السُّخطِ بينهما من الدِّلالةِ على غايةِ التَّشديدِ في الانتقامِ منهم ما لا يَخْفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(222/612)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ رداً عليهم ﴿ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً من أجزائها أولاً يترك شيئاً من جزئياتها ولا يبقى أحداً منكم ، وأصل التوفي أخذ الشيء بتمامه ، وفسر بالاستيفاء لأن التفعل والاستفعال يلتقيان كثيراً كتقضيته واستقضيته وتعجله واستعجلته ، ونسبة التوفي إلى ملك الموت باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام يباشر

قبض الأنفس بأمره عز وجل كما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ الذى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ أي بقبض أنفسكم ومعرفة انتهاء آجالكم .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله تعالى عنهما قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل من الأنصار يعوده فإذا ملك الموت عليه السلام عند رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال : أبشر يا محمد فإني بكل مؤمن رفيق واعلم يا محمد إني لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله فأقوم في جانب من الدار فأقول والله مالي من ذنب وإن لي لعودة وعودة الحذر الحذر وما خلق الله تعالى من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصحفهم فهي كل يوم وليلة خمس مرات حتى إني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم والله يا محمد إني لا أقدر أقبض روح بعوضة حتى يكون الله تبارك وتعالى الذي يأمر بقبضه ، وأخرج نحوه الطبراني .

وأبو نعيم .

(223/612)

وابن منده ونسبته إليه عز وجل في قوله سبحانه : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس ﴾ [الزمر : 42] باعتبار أن أفعال العباد كلها مخلوقة له جل وعلا لا مدخل للعباد فيها بسوى الكسب كما يقوله الأشاعرة أو باعتبار أن ذلك بإذنه تعالى ومشيئته جل شأنه ونسبته إلى الرسل في قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : 61] وإلى الملائكة في قوله سبحانه : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 28] لما أن ملك الموت لا يستقل به بل له أعوان كما جاء في الآثار يعالجون نزع الروح حتى إذا قرب خروجها قبضها ملك الموت ، وقيل : المراد بملك الموت الجنس ، وقال بعضهم : إن بعض الناس يتوفاهم ملك الموت وبعضهم يتوفاهم الله عز وجل بنفسه ، أخرج ابن ماجه عن أبي أمامة قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله تعالى وكل ملك الموت عليه السلام بقبض الأرواح إلا شهداء البحر فإنه سبحانه يتولى قبض أرواحهم .

وجاء ذلك أيضاً في خبر آخر يفيد أن ملك الموت للإنس غير ملك الموت للجن والشياطين وما لا يعقل .

أخرج ابن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : وكل ملك الموت عليه السلام بقبض أرواح المؤمنين فهو الذي يلي قبض أرواحهم وملك في الجن وملك في الشياطين وملك في الطير والوحش والسباع والحيتان والنمل فهم أربعة أملاك والملائكة يموتون في الصعقة الأولى وأن ملك الموت يلي قبض أرواحهم ثم يموت وأما الشهداء في

"البحر" فإن الله تعالى يلي قبض أرواحهم لا يكل ذلك إلى ملك الموت بكرامتهم عليه سبحانه .

والذي ذهب إليه الجمهور أن ملك الموت لمن يعقل وما لا يعقل من الحيوان واحد وهو عزرائيل ومعناه عبد الله فيما قيل نعم له أعوان كما ذكرنا ، وخبر الضحاك عن ابن عباس الله تعالى أعلم بصحته ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث للحساب والجزاء .

(224/612)

ومناسبة هذه الآية لما قبلها على ما ذكرنا في توجيه الإضراب ظاهرة لأنهم لما جحدوا لقاء ملائكة ربهم عند الموت وما يكون بعده ذكر لهم حديث توفي ملك الموت إياهم إيماء إلى أنهم سيلاقونه وحديث الرجوع إلى الله تعالى بالبعث للحساب والجزاء ، وأما على ما قيل فوجه المناسبة أنهم لما أنكروا البعث والمعاد رد عليهم بما ذكر لتضمن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ البعث وزيادة ذكر توفي ملك الموت إياهم وكونه موكلاً بهم لتوقف البعث على وفاتهم ولتهديدهم وتخويفهم وللإشارة إلى أن القادر على الإماتة قادر على الإحياء ، وقيل : إن ذلك لرد ما يشعر به كلامهم من أن الموت بمقتضى الطبيعة حيث أسندوه إلى أنفسهم في قولهم : ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ ﴾ [السجدة : 10] فليس

عندهم بفعل الله تعالى ومباشرة ملائكته ، ولا يخفى بعده .

وأبعد منه ما قيل في المناسبة : إن عزرائيل وهو عبد من عبيده تعالى إذا قدر على تخليص الروح من البدن مع سريانها فيه سريان ماء الورد في الورد والنار في الجمر فكيف لا يقدر خالق القوى والقدر جل شأنه على تمييز أجزائهم المختلطة بالتراب وكيف يستبعد البعث مع القدرة الكاملة له عز وجل لما أن ذلك السريان مما خفى على العقلاء حتى أنكره بعضهم فكيف بجهلة المشركين فتأمل .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبناء للفاعل .

﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون ﴾ وهم القائلون : ﴿ أَءذَا ضَلَلْنَا فِى الأرض ﴾ [السجدة : 10] أو جنس المجرمين وهم من جملتهم ﴿ نَاكِسُواْ رُءوسِهِمْ ﴾ مطرقوها من الحياء والخزي ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ حين حسابهم لما يظهر من قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا .

(225/612)

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ نُكِسُواْ رُؤُوسَهُمْ ﴾ فعلاً ماضياً ومفعولاً ﴿ رَبَّنَا ﴾ بتقدير القول الواقع حالاً والعامل فيه ﴿ نَاكِسُواْ ﴾ أي يقولون ربنا الخ وهو أولى من تقدير يستغيثون بقولهم : ربنا ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل

لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عمياً صماً لا ندرك شيئاً ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صالحا ﴾ حسبما تقتضيه تلك الآيات وهذا على ما قيل ادعاء منهم لصحة مشعري البصر والسمع ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ استئناف لتعليل ما قبله ، وقيل : استئناف لم يقصد به التعليل ، وعلى التقديرين هو متضمن لادعائهم صحة الأفئدة والاقتدار على فهم معاني الآيات والعمل بما يوجبها ، وفيه من إظهار الثبات على الإيقان وكمال رغبتهم فيه ما فيه ، وكأنه لذلك لم يقولوا : أبصرنا وسمعنا وأيقنا فارجعنا الخ ، ولعل تأخير السمع لأن أكثر العمل الصالح الموعود يترتب عليه دون البصر فكان عدم الفصل بينهما بالبصر أولى ، ويجوز أن يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه بأن يقال : أبصرنا البعث الذي كنا ننكره وما وعدتنا به على إنكاره وسمعنا منك ما يدل على تصديق رسلك عليهم السلام ويراد به نحو قوله تعالى : ﴿ يَكْسِبُونَ يا معشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ [الأنعام : 130] لا الإخبار الصريح بلفظ أن رسلي صادقون مثلاً أو يقال أبصرنا البعث وما وعدتنا به وسمعنا قول الرسل أي سمعناه سمع طاعة وإذعان أو يقال : أبصرنا قبح أعمالنا التي كنا نراها في الدنيا حسنة وسمعنا قول الملائكة لنا إن مردكم إلى النار ، وقيل : أرادوا أبصرنا رسلك وسمعنا كلامهم حين كنا في الدنيا أو أبصرنا آياتك التكوينية وسمعنا آياتك التنزيلية في الدنية فلك الحجة

علينا وليس لنا حجة فارجعنا الخ ، ولا يخفى حال هذا القيل ، وعلى سائر هذه التقادير وجه تقديم الأبصار على السماع ظاهر ، و﴿ لَوْ ﴾ هي التي سماها غير واحد امتناعية وجوابها محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً لا يقادر قدره .

والخطاب في ﴿ تَرَى ﴾ لكل أحد ممن يصح منه الرؤية إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة والدواهي الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعته ، وقيل : لأن القصد إلى بيان أنحالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا يختص برؤيتها راء دون راء ، والجواب المقدر أوفق بما ذكر أولاً ، والفعل منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول أي لو تكن منك رؤية في ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً ، وجوز أن يكون الخطاب خاصاً بسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم و﴿ لَوْ ﴾ للتمنى كأنه قيل : ليتك إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم لتشمت بهم ، وحكم التمني منه تعالى حكم الترجي وقد تقدم ، ولا جواب لها حينئذ عند الجمهور ، وقال أبو حيان .

وابن مالك : لا بد لها من الجواء استدلالاً بقول مهلهل في حرب البسوس :

فلو نبش المقابر عن كليب . . .

فيخبر بالذنائب أي زير بيوم الشعثمين لقر عينا

وكيف لقاء من تحت القبور . . .

(227/612)

فإن لو فيه للتمنى بدليل نصب فيخبر وله جواب وهو قوله لقر ، ورد بأنها شرطية ويخبر عطف على مصدر متصيد من نبش كأنه قيل : لو حصل نبش فإخبار ، ولا يخفى ما فيه من التكلف ، وقال الخفاجي عليه الرحمة : لو قيل : إنها لتقدير التمني معها كثيراً أعطيت حكمه واستغنى عن تقدير الجواب فيها إذا لم يذكر كما في الوصلية ونصب جوابها كان أسهل مما ذكر ، وجوز أن يقدر لترى مفعول دل عليه ما بعد أي لو ترى المجرمين أو لو ترى نكسهم رؤسهم والمضي في لو الامتناعية وإذ لأن إخباره تعالى عما تحقق في علمه الأزلي لتحققه بمنزلة الماضي فيستعمل فيه ما يدل على المضي مجازاً كلو وإذ ، هذا ومن الغريب قول أبي العباس في الآية : المعنى قل يا محمد للمجرم ولو ترى وقد حكاه عنه أبو حيان ثم قال : رأى أن الجملة معطوفة على ﴿ يتوفاكم ﴾ داخلة تحت ﴿ قُلْ ﴾ السابق ولذا لم يجعل الخطاب فيه للرسول عليه الصلاة والسلام انتهى كلامه فلا تغفل .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ مقدر بقول معطوف على مقدر قبل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ [السجدة : 12] الخ وهو جواب لقولهم ﴿ ارجعنا ﴾ يفيد أنهم لو أرجعوا لعادوا لما نهوا عنه لسوء اختيارهم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى إعطاءهم الهدي أي ونقول : لو شئنا أي لو تعلقت مشيئتنا تعلقاً فعلياً بأن نعطي كل نفس من النفوس البرة والفاجرة هداها أي ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح ، وفسره بعضهم بنفس الإيمان والعمل الصالح والأول أولى ، وأما تفسيره بما سأله الكفرة من الرجوع إلى الدنيا أو بالهداية إلى الجنة فليس بشيء لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دار الكسب وما أخرناه إلى دار الجزاء ﴿ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنْى ﴾ أي ثبت وتحقق قولي وسبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين فالحق والحق أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82 85] وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فإنه في الخطاب لإبليس مقدم وتقديمه هناك لأنه الأوفق لمقام تحقير ذلك المخاطب عليه اللعنة ، وقيل : التقديم في الموضعين لأن الجهنميين من الجنة أكثر .

ويعلم مما ذكرنا وجه العدول عن ضمير العظمة في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا ﴾ إلى ضمير الوحدة في قوله جل وعلا : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنْى ﴾ وذلك لأن ما ذكر إشارة إلى ما وقع في الرد على اللعين وقد وقع فيه القول ولإملاء مسندين إلى ضمير الوحدة ليكون الكلام على طرز ﴿ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ ﴾ في توحيد الضمير ، وقد يقال : ضمير العظمة أوفق بالكثرة الدال عليها ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ والضمير الآخر أوفق بما دون تلك الكثرة الدال عليه ﴿ مِنَ الجنة ﴾ والناس أو يقال : إنه وحد الضمير في الوعيد لما أن المعنى به المشركون فكأنه أخرج الكلام على وجه لا يتوهم فهي متوهم نوعاً من أنواع الشركة أصلاً أو أخرج على وجه يلوح بما عدلوا عنه من التوحيد إلى ما ارتكبوه مما أوجب لهم الوعيد من الشرك ، أو يقال : وحد الضمير في ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ لأن الإملاء لا تعدد فيه فتوحيد الضمير أوفق به ويقال نظير ذلك في ﴿ حَقَّ القول مِنْى ﴾ والإيتاء يتعدد بتعدد المؤتى فضمير العظمة أوفق به ويقال نظيره في ﴿ شِئْنَا ﴾ فتدبر ، ولا يلزم من قوله تعالى : ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ دخول جميع الجن والإنس فيها ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] فالورود فيه غير الدخول ، وقد مر الكلام في ذلك لأن ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾

تفيد عموم الأنواع لا الأفراد فالمعنى لأملأنها من ذينك النوعين جميعاً كملأت الكيس من الدراهم والدنانير جميعاً كذا قيل ، ورد بأنه لو قصد ما ذكر لكان المناسب التثنية دون الجمع بأن يقال كليهما ، واستظهر أنها لعموم الأفراد والتعريف في ﴿ الجنة ﴾ للعهد والمراد عصاتها ويؤيده الآية المتضمنة خطاب إبليس ، وحاصل الآية لو شئنا إيتاء كل نفس هداها لآتيناها إياه لكن تحقق القول مني لأملأن جهنم الخ فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم حيث

(230/612)

صرفتم اختياركم إلى الغي بإغوائه ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلال لم نشأ إعطاءه لكم وإنما أعطيناه الذين اختاروه من البررة وهم المعنيون بما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ [السجدة : 15] الآية فيكون مناط عدم مشيئته تعالى إعطاء الهدى في الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول ، وإنما قيدت المشيئة بما مر من التعلق الفعلي بأفعال العباد عند حدوثها لأن المشيئة الأزلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم إجمالاً متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطاً بتحققها وإنما

مناطه علمه تعالى أنه لا يصرف اختيارهم فيما سيأتي إلى الغي وإيثارهم له على الهدى فلو أريدت هي من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها بأن يقال : ولكن لم نشأ ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لاَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : 23] كذا قال بعض الأجلة .

(231/612)

وقد يقال : يجوز أن يراد بالمشيئة المشيئة الأزلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم ويراد بالقول علم الله تعالى فإنه وكذا كلمة الله سبحانه يطلق على ذلك كما قال الراغب ، وذكر منه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ [يس : 7] وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 96] وحاصل المعنى لو شئنا في الأزل إيتاء كل نفس هداها في الدنيا لآتيناها إياه ولكن ثبت وتحقق علمي إزلاً بتعذيب العصاة فبموجب ذلك لم نشأ إذ لا بد من وقوع المعلوم على طبق العلم لئلا يلزم انقلاب العلم جهلاً ووقوع ذلك يستدعي وجود العصاة إذ تعذيب العصاة فرع وجودهم ومشيئة إيتاء الهدى كل نفس تستلزم طاعة كل نفس ضرورة استلزام العلة للمعلول فيلزم أن تكون النفس المعذبة عاصية طائعة وهو محال وهذا المحال جاء من مشيئته إيتاء كل نفس

هداها مع علمه تعالى بتعذيب العصاة فإما أن ينتفي العلم المذكور وهو محال لأن تعلق علمه سبحانه بالمعلوم على ما هو عليه ضروري فتعين انتفاء المشيئة لذلك ويرجح هذا بالآخرة إلى أن سبب انتفاء مشيئته إيتاء الهدى للعصاة سوء ما هم عليه في أنفسهم لأن المشيئة تابعة للعلم والعلم تابع للمعلوم في نفسه فعلمه تعالى بتعذيب العصاة يستدعي علمه سبحانه إياهم بعنوان كونهم عصاة فلا يشاؤهم جل جلاله إلا بهذا العنوان الثابت لهم في أنفسهم ولا يشاؤهم سبحانه على خلافه لأن مشيئته تعالى إياهم كذلك تستدعي تعلق العلم بالشيء على خلاف ما هو عليه في نفس الأمر وليس ذلك علماً .

(232/612)

ويمكن أن يبقى العلم على ظاهره ويقال : إنه تعالى لم يشأ هداهم لأنه جل وعلا قال لإبليس عليه اللعنة : إنه سبحانه يعذب أتباعه ولا بد ولا يقول تعالى خلاف ما يعلم فلا يشاء تبارك وتعالى خلاف ما يقول ويرجع بالآخرة أيضاً إلى أنه تعالى لم يشأ هداهم لسوء ما هم عليه في أنفسهم بأدنى تأمل ، ومآل الجواب على التقريرين لا فائدة لكم في الرجوع لسوء ما أنتم عليه في أنفسكم ، ولا يخفى أن ما ذكر مبني على القول بالأعيان الثابتة وأن الشقي شقي في نفسه والسعيد سعيد في نفسه وعلم الله تعالى إنما تعلق بهما على ما هما عليه في أنفسهما وأن

مشيئته تعالى إنما تعلقت بإيجادهما حسبما علم جل شأنه فوجدا في الخارج بإيجاده تعالى إياهما على ما هما عليه في أنفسهما فإذا تم هذا تم ذاك وإلا فلا ، والفاء في قوله تعالى :

(233/612)

﴿ فَذُوقُواْ ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبل من نفي الرجع إلى الدنيا أو على قوله تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنْى ﴾ الخ ، ولعل هذا أسرع تبادراً ، وجعلها بعضهم واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا يئستم من الرجوع أو إذا حق القول فذوقوا ، وجوز كونها تفصيلية والأمر للتهديد والتوبيخ ، والباء في قوله سبحانه : ﴿ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ للسببية و ﴿ مَا ﴾ مصدرية و ﴿ هذا ﴾ صفة يوم جيء به للتهويل ، وجوز كونه مفعول ﴿ ذُو ﴾ وهو إشارة إلى ما هم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم ، وعلى الأول يكون مفعول ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ ﴾ محذوفاً والوصفية أظهر أي فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكر فيه والتزود له بالكلية ، وهذا تسريح بسبب العذاب من قبلهم فلا ينافي أن يكون له سبب آخر حقيقياً كان أو غيره ، والتوبيخ به من بين الأسباب لظهوره وكونه صادراً منهم لا يسعهم إنكاره ، والمراد بنسيانهم ذلك تركهم التفكر فيه والتزود له كما أشرنا إليه وهو بهذا المعنى اختياري يوبخ عليه ولا يكاد يصح إرادة

المعنى الحقيقي وإن صح التوبيخ عليه باعتبار تعمد سببه من الانهماك في اتباع الشهوات ، ومثله في كونه مجازاً النسيان في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نسيناكم ﴾ أي تركناكم في العذاب ترك المنسي بالمرة وجعل بعضهم هذا من باب المشاكلة ولم يعتبر كون الأول مجازاً مانعاً منها قيل : والقرينة على قصد المشاكلة فيه أنه قصد جزاؤهم من جنس العمل فهو على حد ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ، وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المبهم للذوق والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا ، ولما كان فيه زيادة على الأول حصلت به مغايرته له استحق

(234/612)

العطف عليه ولم ينظم الكل في سلك واحد للتنبيه على استقلال كل من النسيان وما ذكر في استيجاب العذاب ، وفي إبهام المذوق أولاف وبيانه ثانياً بتكرير الأمر وتوسيط الاستئناف المنبىء عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(235/612)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ الم ﴾ قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة وعلى محلها من الإعراب في سورة البقرة وفي مواضع كثيرة من فواتح السور ، وارتفاع ﴿ تَنزِيلَ ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف أو خبر بعد خبر على تقدير أنّ ﴿ الم ﴾ في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو خبر لقوله : ﴿ الم ﴾ على تقدير أنه اسم للسورة ، و ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ في محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون ارتفاع ﴿ تنزيل ﴾ على أنه مبتدأ وخبره لا ريب فيه ، و ﴿ من ربّ العالمين ﴾ في محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون هذه كلها أخباراً للمبتدأ المقدر قبل ﴿ تنزيل ﴾ ، أو لقوله : ﴿ الم ﴾ على تقدير أنه مبتدأ لا على تقدير أنه حروف مسرودة على نمط التعديد .

قال مكي : وأحسن الوجوه : أن تكون ﴿ لا ريب فيه ﴾ في موضع الحال ، و ﴿ مِن رَّبّ العالمين ﴾ الخبر ، والمعنى على هذه الوجوه : أن تنزيل الكتاب المتلوّ لا ريب فيه ولا شك وأنه منزل من ربّ العالمين ، وأنه ليس بكذب ولا سحر ولا كهانة ولا أساطير الأوّلين .

و"أم" في : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى : بل ، والهمزة ، أي بل أيقولون هو مفترى ؟ فأضرب عن الكلام الأوّل إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ ، ومعنى ﴿ افتراه ﴾ : افتعله واختلقه ، ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو

الحق في شأن الكتاب ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء ، ثم بيّن العلة التي كان التنزيل لأجلها ، فقال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ وهم العرب وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول .

وقيل : قريش خاصة ، والمفعول الثاني ﴿ لتنذر ﴾ محذوف ، أي لتنذر قوماً العقاب ، وجملة : ﴿ ما أتاهم من نذير ﴾ في محل نصب على الحال ، و ﴿ من قبلك ﴾ صفة لنذير .

(236/612)

وجوّز أبو حيان أن تكون ما موصولة ، والتقدير : لتنذر قوماً العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك ، وهو ضعيف جدّاً ، فإن المراد : تعليل الإنزال بالإنذار لقوم لم يأتهم نذير قبله ، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذروا بما أنذرهم به .

وقيل : المراد بالقوم : أهل الفترة ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ رجاء أن يهتدوا ، أو كي يهتدوا .

﴿ الله الذي خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ قد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف ، والمراد من ذكرها هنا : تعريفهم كمال قدرته

وعظيم صنعه ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، ومعنى خلق : أوجد وأبدع .

قال الحسن : الأيام هنا هي من أيام الدنيا .

وقيل : مقدار اليوم ألف سنة من سني الدنيا ، قاله الضحاك .

فعلى هذا المراد بالأيام هنا : هي من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا ، وليست ثم للترتيب في قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي ليس لكم من دون الله أو من دون عذابه من ولي يواليكم ويردّ عنكم عذابه ، ولا شفيع يشفع لكم عنده ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ تذكر تدبر وتفكر وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم ويعقل حتى تنتفعوا بها .

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ لما بيّن سبحانه خلق السماوات والأرض وما بينهما ، بيّن تدبيره لأمرهما ، أي يحكم الأمر بقضائه وقدره من السماء إلى الأرض ، والمعنى : ينزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التي تحتها نزولاً وطلوعاً ألف سنة من أيام الدنيا .

وقيل : المراد بالأمور : المأمور به من الأعمال ، أي ينزله مدبراً من السماء إلى الأرض .

وقيل : يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها إلى الأرض .

وقيل : ينزل الوحي مع جبريل .

وقيل : العرش موضع التدبير كما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما في قوله : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُدبّرُ الأمر يُفَصّلُ الآيات ﴾ [الرعد : 2] وما دون السماوات موضع التصرّف .

قال الله : ﴿ وَلَقَدْ صرفناه بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ [الفرقان : 50] .

ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي ثم يرجع ذلك الأمر ، ويعود ذلك التدبير إليه سبحانه في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء والطلوع من الأرض كما قدّمنا .

وقيل : إن المراد أنه يعرج إليه في يوم القيامة الذي مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها .

وقيل : هي أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة ، والمعنى : أنه يثبت ذلك عنده ، ويكتب في صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض في كلّ وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها .

وقيل : معنى يعرج إليه : يثبت في علمه موجوداً بالفعل في برهة من الزمان هي مقدار ألف سنة ، والمراد : طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان .

وقيل : يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها في اللوح المحفوظ فتنزل بها الملائكة ، ثم تعرج إليه في زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا .

وقيل : يقضي قضاء ألف سنة ، فتنزل به الملائكة ، ثم تعرج بعد الألف لألف آخر .

وقيل : المراد : أن الأعمال التي هي طاعات يدبرها الله سبحانه وينزل بها ملائكته ثم لا يعرج إليه منها إلا الخالص بعد مدّة متطاولة لقلة المخلصين من عباده .

(238/612)

وقيل : الضمير في : ﴿ يعرج ﴾ يعود إلى الملك ، وإن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق ، وقد جاء صريحاً في قوله : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : 4] والضمير في إليه يرجع إلى السماء على لغة من يذكرها ، أو إلى مكان الملك الذي يرجع إليه وهو الذي أقرّه الله فيه .

وقيل : المعنى : يدبر أمر الشمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة ، وقيل : المعنى : أن الملك يعرج إلى الله في يوم كان

مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ؛ لأن ما بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام ، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض والرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام ، وقد رجّح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير .

وقيل : مسافة النزول ألف سنة ومسافة الطلوع ألف سنة روي ذلك عن الضحاك .

وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة ، وليس المراد به مسمى اليوم الذي هو مدّة النهار بين ليلتين ، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر :

يومان يوم مقامات وأندية . . . ويوم سير إلى الأعداء تأديب

فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين .

وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبر عن كل واحد من الشطرين بيوم ، قرأ الجمهور : ﴿ يعرج ﴾ على البناء للفاعل .

وقرأ ابن أبي عبلة على البناء للمفعول ، والأصل : يعرج به ثم حذف حرف الجار فاستتر الضمير .

وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] فقيل في الجواب : إن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ، ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة ، والعرب تصف كثيراً يوم المكروه بالطول ، كما تصف يوم السرور

بالقصر ، كما قال الشاعر :

ويوم كظل الرمح قصر طوله . . . دم الزق عنا واصطفاف المزاهر

وقول الآخر :

(239/612)

ويوم كإبهام القطاة قطعته . . . وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنها ما مقداره ألف سنة ، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة .

وقيل : هي أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة ، ثم ينقل إلى نوع آخر ، فيعذب به خمسين ألف سنة .

وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفاً كل موقف ألف سنة ، فيكون معنى ﴿ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ : أنه يعرج إليه في وقت من تلك الأوقات أو موقف من تلك المواقف .

وحكى الثعلبي عن مجاهد وقتادة والضحاك أنه أراد سبحانه في قوله : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل ، والمراد : أنه يسير جبريل ومن معه من الملائكة في

ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا ، وأراد بقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ المسافة التي بين الأرض وبين سماء الدنيا هبوطاً وصعوداً فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا .

وقيل : إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ؛ وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة ، فقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ يعني : يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة .

فكم يكون الشهر منه ؟ وكم تكون السنة منه ؟ وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة وبين خمسين ألف سنة .

وقيل : غير ذلك .

وقد وقف حبر الأمة ابن عباس لما سئل عن الآيتين كما سيأتي في آخر البحث إن شاء الله .

قرأ الجمهور : ﴿ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن والسلمي وابن وثاب والأعمش بالتحتية على الغيبة .

(240/612)

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم .

وفي هذا معنى التهديد لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر ، فهو مجاز لكل عامل بعمله ، أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته ﴿ العزيز ﴾ القاهر الغالب ﴿ الرحيم ﴾ بعباده ، وهذه أخبار لذلك المبتدأ ، وكذلك قوله : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ هو خبر آخر .

قرأ الجمهور : ﴿ خلقه ﴾ بفتح اللام .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بإسكانها ، فعلى القراءة الأولى هو فعل ماض نعتاً لشيء ، فهو في محل جرّ .

وقد اختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم ، ويجوز أن تكون صفة للمضاف ، فيكون في محل نصب .

وأما على القراءة الثانية ففي نصبه أوجه : الأوّل : أن يكون بدلاً من كل شيء بدل اشتمال ، والضمير عائد إلى كل شيء ، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة .

الثاني : أنه بدل كل من كل ، والضمير راجع إلى الله سبحانه ، ومعنى ﴿ أحسن ﴾ : حسن ، لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة ، فكل المخلوقات حسنة .

الثالث : أن يكون ﴿ كل شيء ﴾ هو المفعول الأوّل ، و ﴿ خلقه ﴾ هو المفعول الثاني على تضمين أحسن معنى : أعطى ، والمعنى : أعطى كل شيء خلقه الذي خصّه به .

وقيل : على تضمينه معنى : ألهم .

قال الفراء : ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه .

الرابع : أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة ، أي خلقه خلقاً كقوله : ﴿ صُنْعَ اللهِ ﴾ [النمل : 88] وهذا قول سيبويه .

والضمير يعود إلى الله سبحانه .

والخامس : أنه منصوب بنزع الخافض ، والمعنى : أحسن كل شيء في خلقه ، ومعنى الآية : أنه أتقن ، وأحكم خلق مخلوقاته ، فبعض المخلوقات وإن لم تكن حسنة في نفسها ، فهي متقنة محكمة ، فتكون هذه الآية معناها معنى

(241/612)

﴿ أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ﴾ [طه : 50] أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، وخلق لا البهيمة على خلق الإنسان .

وقيل : هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى ، أي أحسن .

خلق كل شيء حسن .

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ يعني : آدم : خلقه من طين ، فصار على صورة بديعة وشكل حسن ﴿ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ أي ذريته ﴿ مِن سلالة ﴾ سميت الذرية سلالة ؛ لأنها تسلّ من الأصل ، وتنفصل عنه ، وقد تقدم تفسيرها في سورة " المؤمنون " ؛ ومعنى ﴿ مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ : من ماء ممتهن لا خطر له عند الناس وهو المنيّ .

وقال الزجاج : من ماء ضعيف .

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ أي الإنسان الذي بدأ خلقه من طين ، وهو آدم ، أو جميع النوع .

والمراد : أنه عدل خلقه وسوّى شكله وناسب بين أعضائه ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم ، وهذه الإضافة تقوّي أن الكلام في آدم لا في ذريته ، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع .

ثم خاطب جميع النوع فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أي خلق لكم هذه الأشياء تكميلاً لنعمته عليكم وتتميماً لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم ، فتسمعون كل مسموع وتبصرون كل مبصر ، وتتعقلون كل متعقل ، وتفهمون كل ما يفهم .

وأفرد السمع لكونه مصدراً يشمل القليل والكثير ، وخص السمع بذكر المصدر دون البصر والفؤاد فذكرهما بالاسم ولهذا جمعا ؛ لأن السمع قوّة واحدة ولها محل واحد ، وهو الأذن ولا اختيار لها فيه ، فإن الصوت يصل إليها ولا تقدر على ردّه .

ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض ؛ بخلاف الأبصار ، فمحلها العين وله فيه اختيار ، فإنها تتحرّك إلى جانب المرئي دون غيره ، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء ؛ وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه ، فيتعقل هذا دون هذا ، ويفهم هذا دون هذا .

(242/612)

قرأ الجمهور : ﴿ وبدأ ﴾ بالهمز ، والزهري بألف خالصة بدون همز ، وانتصاب ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف ، أي شكراً قليلاً ، أو صفة زمان محذوف ، أي زماناً قليلاً .

وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله .

وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال .

﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾ قد تقدم اختلاف القراء في هذه الهمزة وفي الهمزة التي بعدها .

والضلال : الغيبوبة ، يقال : ضلّ الميت في التراب : إذا غاب وبطل ، والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيره حتى خفي أثره : قد ضلّ ، ومنه قول الأخطل :

كنت القذى في موج أكدر مزبد . . . قذف الأتيّ بها فضلّ ضلالا

قال قطرب : معنى ضللنا في الأرض : غبنا في الأرض .

قرأ الجمهور ﴿ ضللنا ﴾ بفتح ضاد معجمة ولام مفتوحة بمعنى : ذهبنا وضعنا وصرنا تراباً وغبنا عن الأعين ، وقرأ يحيى بن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء : " ضللنا " بكسر اللام ، وهي لغة العالية من نجد .

قال الجوهري : وأهل العالية يقولون : ضللت بالكسر .

قال : وأضله ، أي : أضاعه ، وأهلكه ، يقال : ضلّ الميت : إذا دفن .

وقرأ عليّ بن أبي طالب والحسن والأعمش وأبان بن سعيد : " صللنا " بصاد مهملة ولام مفتوحة ، أي أنتنا .

قال النحاس : ولا يعرف في اللغة : صللنا ، ولكن يقال : صلّ اللحم إذا أنتن .

قال الجوهري : صلّ اللحم : يصلّ بالكسر صلولاً : إذا أنتن ، مطبوخاً كان أو نيئاً ، ومنه قول الحطيئة :

ذاك فتى يبذل ذا قدرة . . . لا يفسد اللحم لديه الصلول

﴿ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي نبعث ، ونصير أحياء ، والاستفهام للاستنكار ، وهذا قول منكري البعث من الكفار ، فأضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبلغ منه ، وهو كفرهم بلقاء الله ، فقال : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كافرون ﴾ أي

جاحدون له مكابرة وعناداً ، فإن اعترافهم بأنه المبتدىء للخلق يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة .

(243/612)

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم : أن يبيّن لهم الحق ويردّ عليهم ما زعموه من الباطل ، فقال : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ يقال : توفاه الله واستوفى روحه إذا قبضه إليه ، وملك الموت هو : عزرائيل ، ومعنى ﴿ وكل بكم ﴾ : وكل بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ﴿ ثُمَّ إلى ربِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تصيرون إليه أحياء بالبعث والنشور لا إلى غيره ، فيجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يُدبّرُ الأمر ﴾ الآية قال : هذا في الدنيا ، تعرج الملائكة في يوم مقداره ألف سنة .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عنه في قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف ، والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة قال : دخلت على عبد الله بن

عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان ، فقال له ابن فيروز : يا أبا عباس ، قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمرَ مِنَ السماءِ إِلَى الأَرضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فكأن ابن عباس اتهمه فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ قال : إنما سألتك لتخبرني ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم ، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب ، فسأله عنهما إنسان فلم يخبره ، ولم يدر فقلت : ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس ؟ قال : بلى ، فأخبرته فقال للسائل : هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها ، وهو أعلم مني .

(244/612)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : لا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم حتى يقضي بين العباد ، فينزل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ولو كان إلى غيره لم يفرغ في خمسين ألف سنة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ ﴾ من أيامكم هذه ، ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن

عباس : أنه كان يقرأ ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قال : أما رأيت القردة ليست بحسنة ، ولكنه أحكم خلقها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية أنه قال : أما إن است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها ، وقال : ﴿ خَلَقَهُ ﴾ صورته .

وقال : ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ القبيح والحسن والعقارب والحيات وكلّ شيء مما خلق ، وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لقينا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة قد أسبل ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بناحية ثوبه ، فقال : يا رسول الله ، إني أحمش الساقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عمرو بن زرارة إن الله عز وجل قد أحسن كلّ شيء خلقه ، يا عمرو بن زرارة إن الله لا يحب المسبلين " وأخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال : أبصر النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً قد أسبل إزاره ، فقال : " ارفع إزارك " ، فقال : يا رسول الله إني أحنف تصطك ركبتاي ، فقال : " ارفع إزارك كلّ خلق الله حسن " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » .

توفية الشيء : استيفاؤه وأخذه كاملا وافيا ، وعبّر عن الموت بالتوفى ،

لأنه لا يكون الموت حتى يستوفى الحىّ ما قدر اللّه له من حياة ، دون زيادة أو نقصان .

- وفي قوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ » - إشارة إلى أن الموت الذي يحلّ بهم ، ليس أمرا يقع من تلقاء نفسه ، اعتباطا ، كما يظنون وكما يقول شاعرهم :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمّر فيهرم

وكلّا ، فإن الموت بيد اللّه الحكيم العليم ، الذي جعل لكل نفس أجلا محدودا ، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . . ثم إن الموت يقوم به رسول من رسل اللّه ، مهمته هى قبض الأرواح من الأجساد ، بعد أن تستوفى أجلها . . وإذا كان ذلك كذلك ، فإن الذي إليه الموت ، له أيضا الحياة قبل الموت ، وبعد الموت . . فمن أعطى الحياة ، ثم سلبها ، لا يعجز أن يعطى ما سلب ! « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ، وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (28 : البقرة) .

قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ » .

هذا عرض لحال من أحوال المشركين والضالين ، يوم القيامة ، وما يلقون من ذلة وهوان ، وما يذوقون من بلاء وعذاب . .

وهم في هذا الموقف ، قد سيقوا إلى ساحة الحساب بين يدى اللّه سبحانه وتعالى ، وقد نكست رءوسهم ذلة وخزيا ، وخضعت أعناقهم همّا وغمّا ، يضرعون إلى اللّه أن يردوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ، ليصلحوا ما أفسدوا ، وليستقيموا على طريق الحق والهدى ، بعد أن أبصروا من عمى ، وسمعوا من صمم ، وشهدوا الحق الذي أنكروه ، وعاينوا البعث الذي كفروا به ، وأيقنوا أنهم كانوا في ضلال مبين . .

(247/612)

وفي هذا الاستفهام فضح لهؤلاء المجرمين ، واستدعاء لكل ذى نظر أن يشهدهم وهم على موقف الهوان ، وفي ثياب الذلة والصغار ، وهم كانوا السادة الذين ورمت أنوفهم كبرا ، وصعّرت خدودهم تيها وعجبا ! وقوله تعالى : «وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . .

وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

هو ردّ ضمنى على ما طلب المجرمون من أن يعودوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى . .

والمعنى : أن الهدى بيد اللّه ، وفي قيد مشيئته . . وأنه سبحانه لو شاء لهدى الناس جميعا ، ولكنه سبحانه جعل للجنة أهلها ولها يعملون ، وجعل للنار أهلها ولها يعملون . . وأن مما قضى اللّه به في خلقه أن يملأ النار ويعمرها بمن جعلهم من أهلها ، من الجنة والناس ! وأن هؤلاء المجرمين الذين رأوا مشاهد القيامة ، وعاينوا أهوالها ، وتمنوا العودة إلى الدنيا ، ليستقيموا على طريق الحق والهدى . هؤلاء المجرمون ، لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، ولركبوا نفس الطريق الذي كانوا عليه من قبل ، ولماتوا على الكفر والضلال ، ولكانوا في أصحاب النار ، وذلك لأن قضاء اللّه فيهم قد سبق ، وأنهم لن يخرجوا عما قضى اللّه فيهم ! ويسأل سائل : لما ذا إذن كانت دعوات الرسل ؟ ولما ذا إذن كان العمل ؟ وكان الإيمان والكفر ؟ لم هذا ، وقد سبق القضاء ، ونزل كل إنسان منزله من الجنة والنار منذ الأزل ؟ والجواب على هذا ، قد عرضنا له في مبحث خاص من هذا التفسير ، تحت عنوان : مشيئة اللّه ومشيئة العباد « 1 » .

---

(1) انظر ال التفسير القرآنى للقرآن . الكتاب الرابع . . ص 263 [. . . . .]

وفي كلمة موجزة نقول : إن للّه قضاء سابقا في خلقه ـ هذا حقّ . . فللجنة أهلها ، وللنار أهلها ، ولن يتحول إنسان أبدا عما أراد اللّه له . . ولكن ـ مع هذا ـ فإن هذا القضاء محجوب عن الناس ، فلا يدرى أحد أهو من هذا من الفريق أو ذاك ، وذلك مما قضت به حكمة اللّه ، حتى يظل باب العمل مفتوحا لكل عامل . . فهناك طريقان : طريق الإيمان ، والهدى ، وطريق الكفر والضلال .

والأول موصّل إلى الجنة ، والآخر منته إلى النار . . والإنسان مخيّر في اختيار أحد الطريقين . . هكذا يبدو الأمر في ظاهره ، فلا قسر ولا قهر ، وإن كان للّه الأمر كله . . فمن كان من أهل الجنة ، يسّره اللّه لها ، ومن كان من أهل النار أخلى اللّه طريقه إليها . . وكلّ ميسّر لما خلق له ! ولا تسأل بعد هذا : لم اختار اللّه هذا الفريق للجنة ، واختار ذاك الفريق للنار ؟ إنه خلقهم ، لم يشاركه أحد في الخلق ، وإنه أقامهم حيث أقامهم ، فلا اعتراض على المالك في تصرفه فيما ملك . . !

واللّه سبحانه وتعالى يقول : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (2 : التغابن) .

قوله تعالى : « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

هو ردّ مباشر على هؤلاء المجرمين ، بعد أن تلقوا الرد الضمنى في الآية السابقة ، وأنهم من أصحاب النار ، ولن يعدل بهم عنها عودتهم إلى الدنيا مرة ومرة ومرات . . فليخسئوا ، وليذوقوا عذاب السعير . . إنهم من أصحاب النار . .

(249/612)

ـ وفي قوله تعالى : « بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا » الباء للسببية ، أي ذوقوا هذا العذاب بسبب نسيانكم هذا اليوم ، وكفركم به ! وقد عبّر عن كفرهم ، بيوم القيامة بالنسيان ، ليكشف عن مدى استخفافهم به ، وإخلاء أنفسهم من كل شعور يصل بينهم وبينه .

وقوله تعالى : « إِنَّا نَسِيناكُمْ » هو على سبيل المجازاة . . وأنهم كما استخفّوا بهذا اليوم ، فقد استخفّ اللّه بهم ، ولم ينظر إليهم بعين الرحمة . .

فهم باقون في هذه النار لا يخرجون منها ، حتى لكأنهم قد نسوا فيها . . كما يقول اللّه سبحانه : « كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى » (126 : طه) . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 11 صـ 613.618 ﴾

(250/612)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

استئناف ابتدائي جار على طريقة حكاية المقاولات لأن جملة ﴿ قل في معنى جواب لقولهم أإذا ضللنا في الأرض إنّا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] ؛ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعيد إعلامهم بأنهم مبعوثون بعد الموت .

فالمقصود من الجملة هو قوله ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ إذ هو مناط إنكارهم ، وأما إنهم يتوفّاهم ملك الموت فذكره لتذكيرهم بالموت وهم لا ينكرون ذلك ولكنهم ألهتهم الحياة الدنيا عن النظر في إمكان البعث والاستعداد له فذكروا به ثم أدمج فيه ذكر ملك الموت لزيادة التخويف من الموت والتعريض بالوعيد من قوله ﴿ الذي وُكِّل بكم ﴾ فإنه موكل بكل ميت بما يناسب معاملته عند قبض روحه .

وفيه إبطال لجهلهم بأن الموت بيد الله تعالى وأنه كما خلقهم يميتهم وكما يميتهم يحييهم ، وأن الإماتة والإحياء بإذنه وتسخير ملائكته في الحالين .

وذلك إبطال لقولهم ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ [الجاثية : 24] فأعلمهم الله أنهم لا يخرجون عن قبضة تصرفه طرفة عين لا في حال الحياة ولا في حال الممات .

وإذا كان موتهم بفعل ملك الموت الموكل من الله بقبض أرواحهم ظهر أنهم مردودة إليهم

أرواحهم متى شاء الله .

والتوفّي : الإماتة .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ في سورة الأنعام (60) ، وقوله : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ في سورة الأنفال (50) .

(251/612)

وملك الموت هو الملك الموكّل بقبض الأرواح وقد ورد ذكره في القرآن مفرداً كما هنا وورد مجموعاً في قوله : ﴿ ولو تَرى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ في سورة الأنفال (50) ، وقوله : ﴿ تَوفّتْه رسُلُنا ﴾ في سورة الأنعام (61) ، وذلك أن الله جعل ملائكة كثيرين لقبض الأرواح وجعل مُبلِّغ أمر الله بذلك عزرائيل فإسناد التوفّي إليه كإسناده إلى الله في قوله ﴿ الله يتوفّى الأنفس ﴾ [الزمر : 42] ، وجعل الملائكة الموكلين بقبض الأرواح أعواناً له وأولئك يسلمون الأرواح إلى عزرائيل فهو يقبضها ويودعها في مقارها التي أعدها الله لها ، ولم يرد اسم عزرائيل في القرآن .

وقيل : إن ملك الموت في هذه الآية مراد به الجنس فتكون كقوله ﴿ توفته رسلنا ﴾ [الأنعام : 61] .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾

أردف ذكر إنكارهم البعث بتصوير حال المنكرين أثر البعث وذلك عند حشرهم إلى الحساب ، وجيء في تصوير حالهم بطريقة حذف جواب ﴿ لو ﴾ حذفاً يرادفه أن تذهب نفس السامع كل مذهب من تصوير فظاعة حالهم وهول موقفهم بين يدي ربهم ، وبتوجيه الخطاب إلى غير معيّن لإفادة تناهي حالهم في الظهور حتى لا يختصّ به مخاطب .

والمعنى : لو ترى أيها الرائي لرأيت أمراً عظيماً .

و﴿ المجرمون هم الذين قالوا أإذا ضللنا في الأرض إنّا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] ، فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد التسجيل عليهم بأنهم في قولهم ذلك مُجرمون ، أي آتون بجُرم وهو جُرم تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتعطيل الدليل .

والناكس : الذي يجعل أعلى شيء إلى أسفل ، يقال : نكس رأسه ، إذا طأطأه لأنه كمن جعل أعلى الشيء إلى أسفل .

ونكْس الرؤوس علامة الذلّ والندامة ، وذلك مما يُلاقون من التقريع والإهانة .

والعندية عندية السلطة ، أي وهم في حكم ربهم لا يستطيعون محيداً عنه ، فشبه ذلك بالكون في مكان مختص بربهم في أنهم لا يفلتون منه .

وجملة ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف دلّ عليه السياق هو في موضع الحال ، أي ناكسو رؤوسهم يقولون أو قائلين : أبصرْنا وسمعنا ، وهم يقولون ذلك ندامة وإقراراً بأن ما توعدهم القرآن به حق .

وحذف مفعول ﴿ أبصرنا ﴾ ومفعول ﴿ سمعنا ﴾ لدلالة المقام ، أي أبصرنا من الدلائل المبصرَة ما يصدّق ما أُخبرنا به فقد رأوا البعث من القبور ورأوا ما يعامل به المكذبون ، وسمعنا من أقوال الملائكة ما فيه تصديق الوعيد الذي توعدنا به ، أي : فعلمنا أن ما دعانا إليه الرسول هو الحق الذي به النجاة من العذاب فأرجِعْنا إلى الدنيا نعمل صالحاً كما قالوا في موطن آخر ﴿ ربنا أخِّرْنا إلى أجل قريب نُجِبْ دعوتك ونتبع الرسل ﴾ [إبراهيم : 44] .

وقوله ﴿ إنا موقنون ﴾ تعليل لتحقيق الوعد بالعمل الصالح بأنهم صاروا موقنين بحقية ما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إليه فكانت ﴿ إنَّ ﴾ مغنية غناء فاء التفريع المفيدة للتعليل ، أي ما يمنعنا من تحقيق ما وُعدنا به شك ولا تكذيب ، إنَّا أيقنا الآن أن ما دُعينا إليه حق .

فاسم الفاعل في قوله ﴿ موقنون ﴾ واقع زمان الحال كما هو أصله .

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ(13)

اعتراض بين القول المقدر قبل قوله ﴿ ربنا أبصَرْنا وسمِعنا ﴾ [السجدة: 12] وبين الجواب عنه بقوله ﴿ فذوقوا بما نَسِيتم ﴾ [السجدة: 14] فالواو التي في صدر الجملة اعتراضية، وهي من قبيل واو الحال.

ومفعول فعل المشيئة محذوف على ما هو الغالب في فعل المشيئة الواقع شرطاً استغناء عن المفعول بما يدل عليه جواب الشرط.

(253/612)

والمعنى: لو شئنا لجبلنا كل نفس على الانسياق إلى الهدى بدون اختيار كما جبلت العجماوات على ما ألهمت إليه من نظام حياة أنواعها فلكانت النفوس غير محتاجة إلى النظر في الهدى وضده، ولا إلى دعوة من الله إلى طريق الهدى، ولكن الله لما أراد أن يَكل إلى نوع الإنسان تعمير هذا العالم، وأن يجعله عنواناً لعلمه وحكمته، وأن يفضله على جميع الأنواع والأجناس العامرة لهذا العالم؛ اقتضى لتحقيق هذه الحكمة أن يخلق في الإنسان عقلاً يدرك به النفعَ والضرّ، والكمال والنقص، والصلاح والفساد، والتعمير والتخريب، وتنكشف له بالتدبر عواقب الأعمال المشتبهة والمموّهة بحيث يكون له اختيار ما يصدر

عنه من أجناس وأنواع الأفعال التي هي في مكنته بإرادة تتوجه إلى الشيء وضده ، وخلق فيه من أسباب العمل وآلاته من الجوارح والأعضاء إذا كانت سليمة فكان بذلك مستطيعاً لأن يعمل وأن لا يعمل على وفاق ميله واختياره وكسبه .

وهذا المعنى هو الذي سماه الأشعري بالكسب وبالاستطاعة وتكفل له بإعانته على ما خُلق له من الإدراك يدعوه إلى ما يريده الله منه من الهدى والصلاح في هذا العالم بواسطة رسل من نوعه يبلغون إليه مراد ربهم فطرهم على الصفات الملكية وجعلهم وسائط بينه وبين الناس في إبلاغ مراد ربهم إليهم .

ووعده الناس بالجزاء على فعل الخير وفعل الشر بما فيه باعث على الخير ورادع عن الشر .

وقد أراد الله أن يفضل هذا النوع بأن يجعل منه عُمّاراً لعالم الكمال الخالد عالم الروحانيات فجعل لأهل الكمال الديني مراتب سامية متفاوتة في عالم الخلد على تفاوت نفوسهم في ميدان السبق إلى الكمالات ، وجعل أضداد هؤلاء عمّاراً لهُوة النقائص فملأ منهم تلك الهوة المسماة جهنم .

(254/612)

فهذا معنى قوله ﴿ ولكن حقّ القول منّي لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ البالغ من الإيجاز مبلغ الإعجاز ، إذ حذف معظم ما أريد بحرف الاستدراك الوارد على قوله ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هُدَاها ؛ ﴾ فإن مقتضى الاستدراك أن يقدر : ولكنا لم نشأ ذلك بل شئنا أن نخلق الناس مختارين بين طريقي الهدى والضلال ، ووضعنا لهم دواعي الرجاء والخوف ، وأريناهم وسائل النجاة والارتباك بالشرائع قال تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] أي : الطريقين ، وحققنا الأخبار عن الجزاءين بالوعد والوعيد بالجنة وجهنم فلأمْلأنّ جهنم بأهل الضلال من الجِنَّة والناس أجمعين ، فدخل هذا في قوله (تعالى) : ﴿ حَقّ القول منّي لأملأنّ جهنم من الجِنَّة والنَّاس أجْمَعين ﴾ بما يشبه دلالة الاقتضاء ، وقد أومأ إلى هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم

" إن الله خلق الجنة وخَلَق لها مِلأْها وخلق النار وخلق لها مِلأْها " .

وإنما اختير الاقتصار في المنطوق به الدال على المحذوف على شق مصير أهل الضلال لأنه الأنسب بسياق الاعتراض إثْر كلام أهل الضلالة في يوم الجزاء ، ولأنه أظهر في تعلق مضمون جملة الاعتراض بمضمون اقتراحهم ، أي لو كان إرجاعهم إلى الدنيا ليعملوا الصالحات مقتضى لحكمتنا لكنا جبلناهم على الهدى في حياتهم الدنيا فكانوا يأتون الصالحات بالقَسر والإلجاء .

فالمراد ﴿ القول ﴾ ما أوعد الله به أهل الشرك والضلال .

و﴿ الجِنَّة : الجِنّ وهم الشياطين .

وجعل جمهور المفسرين قوله ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هُدَاها ﴾ إلى آخره جواباً موجهاً من قبل الله تعالى إلى المجرمين عن قولهم ﴿ ربّنا أبصرنا ﴾ [السجدة : 12] الخ .

(255/612)

ووجود الواو في أول هذا الكلام ينادي على أنه ليس جواباً لقول المشركين يومئذ فهم أقل من أن يجعلوا أهلاً لتلقي هذه الحكمة بل حقهم الإعراض عن جوابهم كما جاء في آية سورة المؤمنين (106 108) : ﴿ قالوا ربنا غَلَبَتْ علينا شقوتُنا وكنّا قوماً ضالّين ربنا أخرجنا منها فإنْ عدنا فإنّا ظالمون قال اخسأوا فيها ولا تُكَلّمون ﴾ ولأنه لا يلاقي سؤالهم لأنهم سألوا الرجوع ليعملوا صالحاً ولم يكن كلامهم اعتذاراً عن ضلالهم بأن الله لم يؤتهم الهدى في الحياة الدنيا ، وإنما هذا بيان من الله ساقه للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ليحيطوا علماً بدقائق الحكمة الربانية .

وعدل عن الإضافة حَقّ القولُ مِني ﴾ فلم يقل : حقّ قولي ، لأنه أريد الإشارة إلى قول معهود وهو ما في سورة ص (85) : ﴿ لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ أي حق القول المعهود .

واجتلبت ﴿ مِن ﴾ الابتدائية لتعظيم شأن هذا القول بأنه من الله .

وعدل عن ضمير العظمة إلى ضمير النفس لإفادة الانفراد بالتصرف ولأنه الأصل ، مع ما في هذا الاختلاف من التفنن .

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

هذا جواب عن قولهم ﴿ ربنا أبصرْنَا وسمِعنا ﴾ [السجدة : 12] الذي هو إقرار بصدق ما كانوا يكذّبون به ، المؤذِن به قولهم ﴿ ربّنا أبصَرْنا وسمعنا .

﴿ فالفاء لتفريع جواب عن إقرارهم إلزاماً لهم بموجب إقرارهم ، أي فيتفرع على اعترافكم بحقية ما كان الرسول يدعوكم إليه أن يلحقكم عذاب النار .

(256/612)

ومجيء التفريع من المتكلم على ما هو من كلام المخاطب فيه إلزام بالحجة كالفاءات في قوله تعالى : ﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم ﴾ [الحجر : 34] وقوله ﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأُغْوِيَنَّهم أجمعين ﴾ [ص : 79 82] ، وقوله : ﴿ فالحقَّ والحقَّ أقول لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم

أجمعين ﴾ [ص : 84 85] ؛ فهذه خمس فاءات كل فاء منها هي تفريع من المتكلم بها على كلام غيره .

وقد تقدم ذلك في العطف بالواو عند قوله تعالى : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ في سورة (البقرة 124) واستعمال الذوق بمعنى مطلق الإحساس مجاز مرسل تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ليَذوق وبالَ أمرِه ﴾ في سورة العقود (95) .

ومفعول (ذوقوا) ﴾ محذوف دل عليه السياق ، أي فذوقوا ما أنتم فيه مما دعاكم إلى أن تسألوا الرجوع إلى الدنيا .

والنسيان الأول : الإهمال والإضاعة ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ فنسي ﴾ في سورة طه (88) .

والباء للسببية ، أي : بسبب إهمالكم الاستعداد لهذا اليوم .

والنسيان في قوله ﴿ نسِيناكم ﴾ مستعمل في الحرمان من الكرامة مع المشاكلة .

واللقاء : حقيقته العثور على ذات ، فمنه لقاء الرجل غيره وتجيء منه الملاقاة ، ومنه : لقاء المرء ضالة أو نحوها .

وقد جاء منه : شيء لَقىً ، أي مطروح .

ولقاء اليوم في هذه الآية مجاز في حلول اليوم ووجوده على غير ترقب كأنه عُثِر عليه .

وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين تهكم بهم لأنهم كانوا ينكرونه فلما تحققوه جُعل كأنه

أشد اختصاصاً بهم على طريقة الاستعارة التهكمية لأن اليوم إذا أضيف إلى القوم أو الجماعة إذا كان يوم انتصار لهم على عدوهم قال السموأل:

وأيامنا مشهورة في عدوِّنا . . .

لها غررٌ معلومة وحجول

ويقولون : أيامُ بني فلان على بني فلان ، أي أيام انتصارهم .

وسبب ذلك أن تقدير الإضافة على معنى اللام وهي تفيد الاختصاص المنتزع من المِلك ، قال عمرو بن كلثوم:

(257/612)

وأيَّام لنا غُرَ طوالٍ . . .

وقال تعالى : ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ [النبأ : 39] ، أي : يوم نصر المؤمنين على المشركين في الآخرة نصراً مؤبَّداً ، أي ليس كأيامكم في الدنيا التي هي أيام نصر زائل .

والإشارة بـ ﴿ هذا ﴾ إلى اليوم تهويلاً له .

وجملة ﴿ إنَّا نسِيناكم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن المجرمين إذا سمعوا ما علموا منه أنهم ملاقو العذاب من قوله ﴿ فذوقوا بما نسِيتم لقاء يومكم هذا ﴾ تطلعوا إلى معرفة مدى

هذا العذاب المَذوق وهل لهم منه مخلص وهل يُجابون إلى ما سألوا من الرجعة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من التصديق ، فأعلموا بأن الله مُهمل شأنهم ، أي لا يستجيب لهم وهو كناية عن تركهم فيما أُذيقوه .

وقد تقدم في سورة طه (126) قوله : ﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فَنسِيتَها وكذلك اليوم تُنْسَى ﴾ فشبه بالنسيان إظهاراً للعدل في الجزاء وأنه من جنس العمل المُجازَى عنه .

وقد حُقّق هذا الخبر بمؤكدات وهي حرف التوكيد .

وإخراج الكلام في صيغة الماضي على خلاف مقتضى الظاهر من زمن الحال لإفادة تحقق الفعل حتى كأنه مضى ووقع .

وقوله وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ عطف على ﴿ فذوقوا بما نَسِيتُم ﴾ ، وهو وإن أفاد تأكيد تسليط العذاب عليهم فإن عطفه مراعى فيه ما بين الجملتين من المغايرة بالمتعلِّقات والقيود مغايرة اقتضت أن تعتبر الجملة الثانية مفيدة فائدة أخرى ؛ فالجملة الأولى تضمنت أن من سبب استحقاقهم تلك الإذاقة إهمالَهم التدبر في حلول هذا اليوم ، والجملة الثانية تضمنت أن ذلك العذاب مستمر وأن سبب استمرار العذاب وعدم تخفيفه أعمالهم الخاطئة وهي أعم من نسيانهم لقاء يومهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ .

ظاهره هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين ، وهذا هو المشهور ، وقد جاء في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل .

وقد بين تعالى في آيات أخر أن الناس تتوفاهم ملائكة لا ملك واحد كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النساء : 97] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [محمد : 27] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : 93] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : 61] إلى غير ذلك من الآيات .

وإيضاح هذا عند أهل العلم أن الموكل بقبض الأرواح ملك واحد ، هو المذكور هنا ، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلى الحلقوم ، فيأخذها ملك الموت ، أو يعينونه إعانة غير ذلك .

وقد جاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيه " أن ملك الموت إذا أخذ روح الميت أخذها من يده بسرعة ملائكة فصعدوا بها إلى

السماء وقد بين فيه صلى الله عليه وسلم ما تعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخذ الملائكة له من ملك الموت حين يأخذها من البدن " وحديث البراء المذكور صححه غير واحد ، وأوضح ابن القيم في كتاب الروح بطلان تضعيف ابن حزم له .

(259/612)

والحاصل : أن حديث البراء المذكور ، دل على أن مع ملك الموت ملائكة آخرين يأخذون من يده الروح ، حين يأخذه من بدن الميت . وأما قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] فلا إشكال فيه ، لأن الملائكة لا يقدرون أن يتوفوا أحداً إلا بمشيئته جل وعلا ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران : 145] .

فتحصل : أن إسناد التوفي إلى ملك الموت في قوله هنا : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح ، وأن إسناده لملائكة في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [محمد : 27] الآية . ونحوها من الآيات ، لأن لملك الموت أعواناً يعملون بأمره ، وأن إسناده إلى الله في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] لأن كل شيء كائناً ما كان لا يكون إلا بقضاء

الله وقدره . والعلم عند الله تعالى .

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ ﴾ [الأعراف : 53] الآية . وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : 38] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(260/612)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾

تلحظ هنا أنهم يتكلمون عن البعث ﴿ وقالوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . ﴾ [السجدة : 10] ومعلوم أن البعث إيجاد حياة ، فإذا بالقرآن يُحدِّثهم عن الوفاة ، وهي نقْضٌ للحياة ، ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة .

ومعنى ﴿ يَتَوَفَّاكُم . . ﴾ [السجدة : 11] من توفيت دَيْناً من المدين . أي : أخذته

كاملاً غيرَ منقوص ، والمراد هنا الموت ، والتوفِّي يُنسَب مرة إلى الله عز وجل : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42]

ويُنسَب لملك الموت ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ . . . ﴾ [السجدة : 11] ويُنسب إلى أعوانه من الملائكة ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : 61]

لأن مسألة الموت أمرها الأعلى بيد الخالق سبحانه ، فهو وحده واهب الحياة ، وهو وحده صاحب الأمر في نَقْضها وسَلْبها من صاحبها ؛ لذلك حرَّم الله القتل ، وجعل القاتل ملعوناً ؛ لأنه يهدم بنيان الله ، فإذا قدَّر الله على إنسان الموت إذِن لملَك الموت في ذلك ، وهو عزرائيل .

إذن : هذه المسألة لها مراحل ثلاث : التوفِّي من الله يأمر به عزرائيل ، ثم يأمر عزرائيلُ ملائكته الموكَّلين بهذه المسألة ، ثم ينفذ الملائكةُ هذا الأمر .

وتأمل لفظة ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا . . . ﴾ [الأنعام : 61] أي : أخذتْه كاملاً ، فلم يقُلْ : أعدمتُه مثلاً ؛ لذلك نقول قُبضت روحه أي : ذهبتْ إلى حيث كانت قبل أن تُنفخ فيه ، ذهبت إلى الملأ الأعلى ، ثم تحلَّل الجسد وعاد إلى أصله ، وذاب في الأرض ، جزئية هنا وجزئية هناك ، كما قالوا : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . ﴾ [السجدة : 10]

فالذي يُتوفَّى لم يُعدم ، إنما هو موجود وجوداً كاملاً ، روحه وجسده ، والله قادر على إعادته يوم القيامة ؛ لذلك لم يقُلْ أعدمنا . وهذه المسألة تحلُّ لنا إشكالاً في قصة سيدنا عيسى – عليه السلام – فقد قال الله فيه : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . . ﴾ [آل عمران : 55]

فالبعض يقول : إنه عليه السلام تُوفِّي أولاً ، ثم رفعه الله إليه . والصواب أن واو العطف هنا تفيد مطلق الجمع ، فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ، واقرأ إنْ شئتَ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وموسى وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ . . . ﴾ [الأحزاب : 7]

والخطاب هنا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ونوح عليه السلام قبله .

فالمعنى هنا أن الله تعالى قدَّم الوفاة على الرفع ، حتى لا يظن أحد أن عيسى – عليه السلام – تبرأ من الوفاة ، فقدَّم الشيء الذي فيك شكٌّ أو جدال ، وما دام قد توفّاه الله فقد أخذه كاملاً غير منقوص ، وهذا يعني أنه لم يُصْلَب ولم يُقتل ، إنما رفعه الله إليه كاملاً .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت . . . ﴾ [السجدة : 11] جاءت ردّاً على

قولهم : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . ﴾ [السجدة : 10] فالحق الذي قال أنا خلقتُ الإنسان لم يقُلْ وأنا سأعدمه إنما سأتوفاه ، فهو عندي كاملٌ بروحه وبذراته التكوينية ، والذي خلق في البَدْء قادر على الإعادة ، وجمع الذرات التي تشتتت .

(262/612)

وقوله عن ملك الموت ﴿ الذي وُكِّلَ بِكُمْ . . ﴾ [السجدة : 11] أي : يرقبكم ولا يغفل عنكم ، يلازمكم ولا ينصرف عنكم ، بحيث لا مهربَ منه ولا فكَاك ، كما قال أهل المعرفة : الموت سهم انطلق إليك فعلاً ، وعمرك بمقدار سفره إليك ، فهو واقع لا محالة . كما قلنا في المصيبة وأنها ما سُمّيت مصيبة إلا أنها ستصيبك لا محالة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : 11] أي : يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون . . . ﴾ .

تصوِّر لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُساق المجرم ذليلاً إلى ما يستحق من العذاب ، كأنْ ترى مجرماً مثلاً تسوقه الشرطة وهو مُكبّل بالقيود يذوق الإهانة والمذلّة ، فتشفى نفسك حين تراه ينال جزاءه بعد أنْ أتعب الدنيا وأداخ الناس .

وفي هذا المشهد يخاطب الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو أول مخاطب ، ثم يصبح خطاباً لأمته : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ . . ﴾ [السجدة : 12] أي : حالة وجودهم أنهم ناكسو رءوسهم . وتقدير جواب الشرط : لرأيتَ أمراً عجيباً يشفى صدرك مما فعلوه بك .

ونلحظ في هذا الأسلوب دقة الأداء في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى . . ﴾ [السجدة : 12] فلم يقل مثلاً : ولو تعلم ؛ لأن إخبار الله كأنه رؤيا العين ، فحين يخبرك الله بأمر ، فاعلم أنه أصدق من عينك حين ترى ؛ لأن عينك قد تخدعك ، أما إخبار الله لك فهو الحق .

ومعنى ﴿ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ . . ﴾ [السجدة : 12] النكس هو جَعْل الأعلى أسفل ، والرأس دائماً في الإنسان أعلى شيء فيه .

وقد وردتْ هذه المادة في قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام ، وعلَّق الفأس على كبيرهم : ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 65]

فبعد أنْ عادوا إلى رشدهم واتهموا أنفسهم بالظلم انتكسوا وعادوا إلى باطلهم ، فقالوا :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 65]

وورد هذا اللفظ أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يس : 68]

والمعنى : نرجعه من حال القوة والفتوة إلى حال الضعف والهرم وعدم القدرة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً . . . ﴾ [النحل : 70]

فبعد القوة يتكئ على عصا ، ثم لا يستطيع السير فيحبو ، أو يُحمل كما يُحمل الطفل الصغير ، هذا هو التنكيس في الخَلْق ، وحين نتأمله نقول : الحمد لله لو عافانا من هذه الفترة وهذه التنكيسة ، ونعلم أن الموت لُطْف من الله ورحمة بالعباد ، أَلاَ ترى أن مَنْ وصل إلى هذه المرحلة يضيق به أهله ، وربما تمنَّوْا وفاته ليستريح وليستريحوا ؟

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارة إلى أن هذه هي العاقبة فاحذر المخالفة ، فمَنْ تكبر وتغطرس في الدنيا نُكِّسَتْ رأسه في الآخرة ، ومَنْ تواضع لله في الدنيا رُفِعت رأسه ، وهذا معنى الحديث الشريف : " من تواضع لله رفعه " .

وفي تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ؛ لأن الحق – سبحانه وتعالى – سيفعل في كل مخالف في الآخرة من جنس ما فعل في الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم في

الاخرة فعلوا ذلك في الدنيا ، واقرأ إن شئتَ قول ربك : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ . . . ﴾ [هود : 5]

أي : يطأطئون رءوسهم ؛ لكي لا يواجهوا رسول الله ، فللحق صَوْلة وقوة لا يثبت الباطل أمامها ؛ لذلك نسمع من أصحاب الحق : تعالَ واجهني ، هات عيني في عينك ، ولا بُدَّ أنْ يستخزي أهل الباطل ، وأنْ يجبنوا عن المواجهة ؛ لأنها ليست في صالحهم .

(264/612)

وهذا العجز عن المواجهة يدعو الإنسان إلى ارتكاب أفظع الجرائم ، ويصل به إلى القتل ، والقتل لا يدل على القوة ، إنما يدل على عجز وضعف وجُبْن عن المواجهة ، فالقاتل أقرَّ بأنه لا يستطيع أنْ يواجه حياة عدوه فقتله ، ولو كان قوياً لواجه حياته .

ومن العذاب الذي يأتي من جنس ما فعل الإنسان في الدنيا قول الله تعالى في الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله : ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : 34-35]

سبحان الله ، كأنها صورة طبق الأصل مما فعلوه في الدنيا ، فالواحد منهم يأتيه طالب العطاء فيعبس في وجهه ، ثم يُعرض عنه ، ويعطيه جنبه ، ثم يعرض عنه ويعيطه ظهره ، ويأتي العذاب بنفس هذا التفصيل . إذن : فعلى العاقل أن يحذر هذه المخالفات ، فمن جنسها يكون العذاب في الآخرة .

وهؤلاء المجرمون حال تنكيسهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . ﴾ [السجدة : 12] هذا كلامهم ، ومع ذلك لم يقل القرآن : قالوا أبصرنا وسمعنا ، فحَذْف الفعل هنا يدل على أن القول ليس سهلاً عليهم ؛ لأنه إقرار بخطئهم الأول وإعلان لذلَّة التوبة .

وقلنا : إن هذه هي الآية الوحيدة التي تقدَّم فيها البصر على السمع ؛ لأن الساعة حين تأتي بأهوالها نرى الهول أولاً ، ثم نسمع ما نراه .

لذلك يقول تعالى مُصوِّراً أثر هذا الهول : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 2]

(265/612)

وفي معرض حديثنا السابق عن الحواس : السمع والبصر والفؤاد فاتنا أنْ نذكر آية مهمة جاءت على غير هذا الترتيب ، وهي قول الله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى

سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ [البقرة : 7]

فجاء الفؤاد هنا أولاً ، وجمع الفؤاد مع السمع في الختم لأنهما اشتركا فيه ، أما البصر فاختص بشيء آخر ، وهو الغشاوة التي تُغطِّي أبصارهم ؛ ذلك لأن الآية السابقة في السمع والبصر والفؤاد كانت عطاءً من الله ، فبدأ بالسمع ، ثم البصر ، ثم ترقى في العطاء إلى الفؤاد ، لكن هنا المقام مقام سلب لهذه النعم ، فيسلب الأهم أولاً ، فأتى بالفؤاد ثم السمع ثم الأبصار .

لكن أي شيء أبصروه ؟ وأي شيء سمعوه في قولهم ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . ﴾ [السجدة : 12] ؟ أول شيء يبصره الكافر يوم القيامة ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ . . . ﴾ [النور : 39] وحده سبحانه ليس معه شريك من الشركاء الذين عبدوهم في الدنيا ، وليس لهم من دونه سبحانه وليٌّ ، ولا شفيع ، ولا نصير .

ومعنى ﴿ وَسَمِعْنَا . . ﴾ [السجدة : 12] أي : ما أنزلته يا رب على رسولك ، ونشهد أنه الحق وصدَّقنا الرسول في البلاغ عنك ، وأنه ليس مُفْترياً ، ولا هو شاعر ، ولا هو ساحر ، ولا هو كذاب .

لكن ، ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم وهو في دار الحساب ؟ لا في دار العمل والتكليف ؟ ! وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا

إله إلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ . . . ﴾ [يونس : 90] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 91]

(266/612)

فقولهم : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . ﴾ [السجدة : 12] إقرار منهم بأنهم كانوا على خطأ ، وأنهم يرغبون في الرجوع إلى الصواب ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ . . . ﴾ [المؤمنون : 99-100] ، وردَّ الله عليه : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون : 100]

ثم كشف حقيقة أمرهم : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28]

وهنا يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 12] وهل يكون اليقين في هذا الموقف ؟ اليقين إنما يكون بالأمر الغيبي ، وأنتم الآن في اليقين الحسيِّ المشَاهدَ ، فهو إذن يقين لا يُجدى .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا . . . ﴾ .

هنا قد يسأل سائل : لماذا جعل الله الناسَ : مؤمناً وكافراً ، وطائعاً وعاصياً ؟ لماذا لم يجعلنا جميعاً مهتدين طائعين ؟ أهذا صعب على الله سبحانه ؟ لا ، ليس صعباً على الله تعالى ، بدليل أنه خلق الملائكة طائعين مُنفِّذين لأوامره سبحانه ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6]

كذلك الأرض والسماء والجبال . . الخ ، كلها تُسبِّح الله وتعبده ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . ﴾ [النور : 41]

وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ﴾ [الإسراء : 44] ، وبعد ذلك يعطي الله تعالى لبعض خَلْقه معرفة هذا التسبيح ، كما قال في حق داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ . . . ﴾ [الأنبياء : 79]

(267/612)

نعم ، هي تُسبِّح أيضاً مع غير داود ، لكن الميزة أنها تشترك معه في تسبيح واحد ، كأنهم (كورس) يرددون نشيداً واحداً .

وعرفنا في قصة الهدهد وسليمان – عليه السلام – أنه كان يعرف قضية التوحيد على أتمَّ وجه ، كأحسن الناس إيماناً بالله ، وهو الذي قال عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ وَجَدتُّهَا

وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 24]

وقال ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل : 25]

والحق سبحانه وتعالى – حينما يريد أنْ يُدلِّل لخَلْقه على قدرته يجعل من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفاً ، وانظر إلى حال المؤمنين الأوائل ، وكم كانوا أذلة مستضعفين ، فلما أسلموا رفعهم الله بالإسلام وجعلهم سادة .

ومشهورة قصة الصِّدِّيق أبي بكر لما أَدخل عليه المستضعفين أمثال : عمار وبلال . . وترك صناديد قريش بالباب ، فعاتبه أبوه على ذلك : كيف يُدخِل العبيد ويترك هؤلاء السادة بالباب ؟ فقال أبو بكر : يا أبي ، لقد رفع الإسلام الخسيسة ، وإذا كان هؤلاء قد ورمتْ أنوفهم أن يدخل العبيد قبلهم ، فكيف بهم حين يُدخِلهم اللهُ الجنةَ قبلهم ؟

وعجيب أن يصدر هذا الكرم من الصِّدِّيق أبي بكر ، مع ما عُرِف عنه من اللين ورِقَّة القلب والحلم .

وهذا لون من تبديل الأحوال واجتماع الأضداد ، وقد عرض الحق – تبارك وتعالى – لهذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ

يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : 29-30] يعني : يسخرون منهم ويهزأون بهم ، كما نسمع من أهل الباطل يقولون للإنسان المستقيم (خدنا على جناحك) .

(268/612)

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد ، إنما إذا عادوا إلى أهلهم كرروا هذا الاستهزاء ، وتبجحوا به ، وفرحوا لإيذائهم لأهل التقوى والاستقامة : ﴿ وَإِذَا انقلبوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ [المطففين : 31-33] لكن يُنهي الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ ثم يسألهم الله ﴿ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

[المطففين : 34-36]

فهنا يقول الحق سبحانه : لا تفهموا أن أحداً تأبى عليَّ ، من خَلْقي ، إنما أردتُ لهم الاختيار ، ثم أخبرتهم بما أحبّ أنْ يفعلوه ، فيريد الله أن يعلم علم وقوع بمَنْ آمن به ، وهو يملك ألاَّ يؤمن . وإلا فهو سبحانه عالم أزلاً ؛ ليكون الفعل حجة على أصحابه ، إذن : إياك أنْ تظنَّ أنك باختيارك كسرت قهر العلى .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذين أَلِفوا التمرد على الله إيماناً به ، فكفروا وتمردوا على طاعته فعصوه . . الخ نقول لهم : ما دُمْتم قد تعودتم التمرد على أوامر الله ، فلماذا لا تتمردون على المرض مثلاً أو على الموت ؟ إذن : أنت عبد رغم أنفك .

يقول سبحانه هنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . . ﴾ [السجدة : 13] أي : لَجعل الناس كالملائكة ، وكالمخلوقات المسيَّرة التي لا اختيار لها ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المخلوقات كلها خُيِّرت في حمل الأمانة ، وليس الإنسان وحده ، لكن الفرق أن ابن آدم أخذ الاختيار مُفصَّلاً ، وبقية الخَلْق أخذوا الاختيار جملة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72]

(269/612)

ومعنى الهداية في ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . . ﴾ [السجدة : 13] أي : هدى المعونة ، وإلا فقد هدى الله جميعَ الناس هُدى الدلالة على طريق الخير ، فالذي اخذ بهدى الدلالة وقال على العين والرأس يأخذ هدى المعونة ، كما قال سبحانه : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17]

ولكي نفهم الفرق بين الهديين ، اقرأ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ . . . ﴾ [فصلت : 17]

أي : دللناهم وأرشدناهم ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى . . . ﴾ [فصلت : 17]

ثم يقول سبحانه : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13]

الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لخَلْقه أنه هو الأَوْلَى بالحكمة في الخَلْق ، بدليل أن الذي يشذ عن مراد الله لا بُدَّ أن يفسد به المجتمع ، كما نرى المجتمعات تشقى بكفر الكافر ، وبعصيان العاصي .

والحق سبحانه يترك الكافر يكفر باختياره ، والعاصي يعصي باختياره ليؤذي الناس بإثم الكافر وبإثم العاصي ، وعندها يعودون إلى تشريع الله ويلجئون إلى ساحته سبحانه ، ولو أن الناس عملوا بشرع الله ما حدث فساد في الكون ولا خَلَلٌ في حياتهم أبداً .

لذلك نفرح حينما ينتقم الله من أهل الكفر ومن أهل المعصية ، ونقول : الحمد لله الذي أراح منهم البلاد والعباد .

إذن : مخالفة منهج الله في القمة كفراً به سبحانه ، وفي غيرها معصية لأمره هو الذي يبين مزايا الإيمان وحلاوة التشريع . وقلنا : إن التشريع يجب أنْ يأخذه المكلَّف أَخْذاً أَخْذاً كاملاً بما له وبما عليه ، فالله كلَّفك ألاَّ تسرق من الناس ، وكلَّف الناسَ جميعاً ألاَّ يسرقوا منك .

ومعنى ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي . . ﴾ [السجدة : 13] أي : وقع وثبت وقُطع به ، ويأتي هذا المعنى بلفظ سبق ، كما في ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾

(270/612)

[الصافات : 171] وفي قصة نوح عليه السلام : ﴿ فاسلك فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول . . . ﴾ [المؤمنون : 27]

وقال تعالى حكاية عن الكفار في حوارهم يوم القيامة : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ [الصافات : 31]

ومعنى ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] عرفنا أن الله تعالى خلق الجنة ، وخلق لها أهلاً يملأونها ، وخلق النار وخلق لها أهلاً يملأونها ، فليس فيهما أزمة أماكن ، فالجنة أُعِدَّتْ لتسع جميع الخَلْق إنْ آمنوا ، وكذلك النار أُعِدَّتْ لتسع الخَلْق جميعاً إنْ كفروا .

لذلك حين يذهب أهل الجنة إلى الجنة يرثون أماكن أهل النار فيها ، كما قال سبحانه : ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43]

والجِنَّة : أي الجِنّ والعفاريت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ . . . ﴾ .

والتقدير : ذوقوا العذاب ، كما جاء في آية أخرى ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر : 48]

ويُقال هذا لزعماء ورءوس الكفر ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49]

واختار حاسة التذوق ؛ لأن كل وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف في الحياة ، أمَّا الذوق فيتصل بإمداد الحياة ، وهو الأكل والشرب ، وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجردَ ترف فيها .

(271/612)

وفي موضع آخر ، يُبيِّن لنا الحق سبحانه أثر الإذاقة ، فيقول عن القرية التي كفرت بربها : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] وتصور أن يكون الجوع لباساً يستولي على الجسم كله ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يُبين لنا عضة الجوع ، التي لا تقتصر على البطن فحسب ، إنما على كل الأعضاء ، فقال ﴿ لِبَاسَ الجوع . . . ﴾ [النحل : 112] لشمول الإذاقة ، فكأن كل عضو في الجسم سيذوق ألم الجوع ، وهذا المعنى لا يؤديه إلا اللفظ الذي اختاره القرآن .

وقد فطن الشاعر إلى هذه الشمولية التي تستولي على الجسم كله ، فقال عن الحب الإلهي

حين يستشرف في القلب ويفيض منه ليشمل كلَّ الجوارح، فقال:

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِير مودَّتي . . . فأُحِسُّ منها في الفُؤادِ دَبيبَا

لا عُضْوَ لي إلاَّ وَفِيه صَبَابةٌ . . . فَكأنَّ أَعْضَائي خُلِقْنَ قُلُوبَا

وعِلَّة هذه الإذاقة ﴿ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَآ . . ﴾ [السجدة: 14] أي: يوم القيامة الذي حدَّثناكم عنه، وحذَّرناكم من أهواله، فلم نأخذكم على غِرَّة، لكن نبهناكم إلى سوء العاقبة، فلا عذرَ لكم الآن، وقد ضخَّمنا لكم هذه الأهوال، فكان من الواجب ان تلتفتوا إليها، وأنْ تعتبروا بها، وتتأكدوا من صِدْقها.

أما المؤمنون فحين يروْنَ هذا الهول وهذا العذاب ينزل بالكفرة والمكذِّبين يفرحون؛ لأن الله نجاهم بإيمانهم من هذا العذاب.

وتكون عاقبة نسيان لقاء الله ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ . . ﴾ [السجدة: 14] فأنتم نسيتم لقاء الله، ونسيتم توجيهاته، وأغفلتم إنذاره وتحذيره لكم، ونحن تركناكم ليس هملاً، إنما تركناكم من امتداد الرحمة بكم، فقد كانت رحمتي تشملكم في الدنيا، ولم أخصّ بها المؤمنين بي، بل جعلتُها للمؤمن وللكافر.

فكل شيء في الوجود يعطي الإنسان مطلق الإنسان طالما أخذ بالأسباب ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فننساكم من هذه الرحمة التي لا تستحقونها ، بل : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 14]

فإنْ كنتم قد تمردتم على الله وكفرتم به في دنيا محدودة ، وعمرك فيها محدود ، فإن العذاب الواقع بكم اليوم خالد باقٍ دائم ، فخسارتكم كبيرة ، ومصيبتكم فادحة .

وقلنا : إن العمل في الدنيا للآخرة يمثل معادلة ينبغي أنْ تُحلّ حلاً صحيحاً ، فأنت في الدنيا عمرك لا يُحسب بعمرها ، إنما بمدة بقائك فيها ، فهو عمر محدود ، أما الآخرة فخلود لا ينتهي ، فلو أن النعيم فيهما سواء لكان امتداد الزمن مرجحاً للآخرة .

ثم إن نعيمك في الدنيا على قدر إمكاناتك وحركتك فيها ، أما نعيم الآخرة فعلى قدر إمكانات الله في الكون ، نعيم الدنيا إما أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، ونعيم الآخرة باقٍ لا يفوتك أبداً لأنك مخلد فيه .

إذن : هي صفقة ينبغي أنْ تُحْسبَ حساباً صحيحاً ، وتستحق أن نبيع من أجلها الدنيا بكل ما فيها من غالٍ ونفيس ؛ لذلك سماها رسول الله تجارة رابحة .

وقال سبحانه وتعالى عن الكافرين ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة : 16] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ . . . ﴾ . الآية

أسند في هذه الآية الكريمة التَوَفّي إلى ملك واحد وأسند في آيات أخر إلى جماعة من الملائكة كقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ وقوله: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ . . . ﴾ الآية

وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو . . . ﴾ وأسنده في آية أخرى إلى نفسه جل وعلا وهي قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . . . ﴾

والجواب عن هذا ظاهر وهو أن إسناده التَوَفّي إلى نفسه لأن ملك الموت لا يقدر أن يقبض روح أحد إلا بإذنه ومشيئته تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً ﴾ وأسنده لملك الموت لأنه هو المأمور بقبض الأرواح وأسنده للملائكة لأن ملك الموت له أعوان من الملائكة تحت رئاسته يفعلون بأمره وينزعون الروح إلى الحلقوم فيأخذها ملك الموت والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 236 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

قوله : ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ : العامَّةُ على بنائِه للمفعول . وزيد بن علي على بنائِه للفاعل .

قوله : ﴿ وَلَوْ ترى ﴾ : في " لو " هذه وجهان ، أحدهما : أنها لِما كان سيقع لوقوع غيره . وعَبَّر عنها الزمخشريُّ بامتناعٍ لامتناعٍ . وناقشه الشيخ في ذلك . وقد تقدَّم في أول البقرة تحقيقُه . وعلى هذا جوابُها محذوفٌ أي : لَرَأَيْتَ أمراً فظيعاً . الثاني : أنَّها للتمني . قال الزمخشري : كأنه قيل : وَلَيْتَكَ ترى . وفيها إذا كانت للتمني خلافٌ : هل تقتضي جواباً أم لا ؟ وظاهرُ تقديرِ الزمخشري هنا أنه لا جوابَ لها . قال الشيخ : " والصحيحُ/ أنَّ لها جواباً " . وأنشدَ قولَ الشاعر :

3672 فلو نُبِشَ المقابرُ عن كُلَيْبٍ . . . فَيُخبِرَ بالذَّنائبِ أيُّ زِيْرِ

بيومِ الشَّعْثَمَيْنِ لَقَرَّ عيناً . . . وكيفَ لِقاءُ مَنْ تحتَ القُبورِ

قال الزمخشري : " و " لو " تجيءُ في معنى التمني كقولك : لو تأتيني فتحدثَني كما تقول : ليتك

تأتيني فتحدثني " . قال ابن مالك : " إن أراد به الحذفَ أي : وَدِدْتُ لو تأتيني فتحدثَني فصحيحٌ ، وإن أراد أنها موضوعةٌ له فليس بصحيح ؛ إذ لو كانت موضوعةً له لم يُجْمَعْ بينها وبينه كما لم يُجْمَعْ بين " ليت " وأتمنى ، ولا " لعلَّ " وأترجَّى ، ولا " إلاَّ " وأَسْتَثْني . ويجوز أن يُجْمَعَ بين لو وأتمنى تقول : تمنَّيْتُ لو فعلتُ كذا " . وهل المخاطبُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أو غيرُه ؟ خلاف . و " إذ " على بابها من المضيِّ لأنَّ " لو " تَصْرِفُ المضارعَ للمضيِّ . وإنما جيءَ هنا ماضياً لتحقُّقِ وقوعِه نحو : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] وجعله أبو البقاء ممَّا وَقَع فيه " إذ " موقعَ " إذا " ولا حاجةَ إليه .

(275/612)

قوله : " ناكِسُو " العامَّةُ على أنه اسمُ فاعلٍ مضافٌ لمفعوله تخفيفاً . وزيدُ بن علي " نَكَسُوا " فعلاً ماضياً ، " رؤوسَهم " ، مفعولٌ به .

قوله : " ربَّنا " على إضمارِ القول وهو حالٌ . أي قائلين ذلك . وقدَّره الزمخشريُّ " يَسْتغيثون بقولهم " وإضمارُ القول أكثرُ .

قوله : " أَبْصَرْنا وسَمِعْنا " يجوز أَنْ يكونَ المفعولُ مقدراً أي : أَبْصَرْنا ما كُنَّا نُكَذِّبُ ، وسَمِعْنا ما كنا نُنْكِرُ . ويجوز أَنْ لا يُقَدَّرَ أي : صِرْنا بُصَراءَ سميعين .

قوله : " صالحاً " يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً به ، وأَنْ يكونَ نعتَ مصدر .

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

قوله : ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ ﴾ : يجوزُ في هذه الآيةِ أوجهٌ ، أحدها : أنها مِن التنازعِ ؛ لأنَّ " ذُوقوا " يطلبُ " لقاءَ يومِكم " و " نَسِيْتُمْ " يطلبه أيضاً . أي : ذوقوا عذابَ لقاءِ يومِكم هذا بما نَسِيْتُمْ عذابَ لقاءِ يَوْمِكم هذا ، ويكونُ من إعمالِ الثاني عند البصريين ، ومن إعمالِ الأول عند الكوفيين ، والأولُ أَصَحُّ للحَذْفِ من الأول ؛ إذ لو أعمل الأولَ لأَضْمَرَ في الثاني . الثاني : أن مفعولَ " ذُوْقوا " محذوفٌ أي : ذُوْقوا العذابَ بسببِ نسيانِكم لقاءَ يومكم و " هذا " على هذين الإِعرابين صفةٌ لـ " يومِكم " . الثالث : أن يكونَ مفعولُ " ذوقوا " " هذا " والإِشارةُ به إلى العذاب ، والباءُ سببيةٌ أيضاً أي : فذوقوا هذا العذابَ بسببِ نسيانِكم لقاءَ يومكم . وهذا يَنْبُو عنه الظاهرُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ9 صـ84.87 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

لولا غفلةُ قلوبهم وإلا لَما أحال قَبْضَ أرواحهم على مَلَكِ الموت ؛ فإنَّ مَلَكَ الموتِ لا أَثَرَ منه في أحدٍ ، ولا له تصرفات في نَفْسِه ، وما يحصل من التوفِّي فمن خصائص قدرة الحق .

ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربِّ فخاطبَهم على مقدار فهمهم ، وعَلَّقَ بالأغيار قلوبَهم ، وكلٌّ يُخاطَبُ بما يَحْتَمِلُ على قَدْرِ قُوَّته وضعفه .

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12)

مَلَكَتْهُم الدهشةُ وغَلَبتهم الخَجْلَةُ ، فاعتذروا حينَ لا عذْرَ ، واعترفوا ولا حينَ اعتراف .

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13)

لو شئنا لَسَهَّلنا سبيلَ الاستدلال ، وأدَمْنا التوفيقَ لكلِّ أحدٍ ، ولكن تَعَلَّقَتْ المشيئةُ بإغواءِ قومٍ ، كما تعلَّقت بإدناءِ قوم ، وأردنا أن يكونَ للنار قُطَّان ، كما أردنا أن يكون للجَنَّةِ سُكان ، ولأنَّا عَلِمْنا يومَ خَلَقْنا الجنَّةَ أنه يسكنها قوم ، ويوم خلقنا النارَ أنه ينزلها قومٌ ، فَمِنَ المُحَالِ أن نُرِيدَ ألا يقعَ معلومُنا ، ولو لم يحصل لم يكن عِلْماً ، ولو لم يكن ذلك عِلْماً لم يكن إلهاً . . ومن

المحال أن نريد ألا نكونَ إلهاً .

ويقال : مَنْ يتسلَّطْ عليه من يحبه لم يجْرِ في مُلْكِه ما يكرهه .

(277/612)

ويقال : يا مسكين أفنيتَ عُمْرَكَ في الكَدِّ والعناء ، وأمضيتَ أيامَك في الجهد والرجاء ، غيَّرت صفتك ، وأكثرتَ مجاهدتك . . فما تفعل في قضائي كيف تُبَدِّله ؟ وما تصنع في مشيئتي بأيِّ وسعٍ تَرُدُّها ؟ وفي معناه أنشدوا :

شكا إليك ما وَجَدَ . . . من خَانَهُ فيك الجَلَدْ

حيرانُ لو شئتَ اهتدى . . . ظمآنُ لو شئتَ وَرَدْ

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

قاسِ من الهوانِ ما استوجبتَه بعصيانك ، واخْلُدْ في دار الخِزْي لما أسلفتَه من كفرانك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 140.142 ﴾

(278/612)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ الم تَنزِيلُ الكتاب ﴾

يعني : المنزل من الله عز وجل القرآن على معنى التقديم .

يعني : أن هذا الكتاب تنزيل من الله عز وجل والكتاب وهو التنزيل .

ويقال : معناه نزل به جبريل عليه السلام بهذا التنزيل ﴿ الكتاب ﴾ يعني : القرآن ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ يعني : لا شك فيه أنه ﴿ مِن رَّبّ العالمين ﴾ .

فلما نزله جبريل جحده قريش ، وقالوا : إنما يقوله من تلقاء نفسه .

فنزل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ يعني : أيقولون اختلقه من ذات نفسه .

وقال أهل اللغة : فرى يفري إذا قطعه للإصلاح .

وأفرى يفري : إذا قطعه للاستهلاك .

فأكذبهم الله عز وجل قال : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبّكَ ﴾ يعني : القرآن .

ولو لم يكن من الله عز وجل ، لم يكن حقاً وكان باطلاً ، ويقال : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبّكَ ﴾ يعني : نزل من عند ربك ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ يعني : كفار قريش ﴿ مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ يعني : لم يأتهم في عصرك .

ولكن أتاهم من قبل ، لأن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام ما كانوا إلى جميع الناس .

ويقال : معناه : لم يشاهدوا نذيراً قبلك .

وإنما الإنذار قد كان سبق لأنه قال : ﴿ مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وقد سبق الرسل .

ويقال : ﴿ مَّا أَتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ يعني : من قومهم من قريش .

ثم قال : ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعني : يهتدون من الضلالة .

وأصل الإنذار هو الإسلام .

يقال : أنذر العدو إذا أعلمه .

ثم دلّ على نفسه بصفة فقال عز وجل : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من السحاب والرياح وغيره ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ولو شاء خلقها في ساعة واحدة لفعل .

ولكنه خلقها في ستة أيام ، ليدل على التأني .

ويقال : خلقها في ستة أيام لتكون الأيام أصلاً عند الناس ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فيها تقديم يعني : خلق العرش قبل السموات .

ويقال : علا فوق العرش من غير أن يوصف بالاستقرار على العرش .

ويقال : استوى أمره على بريته فوق عرشه ، كما استوى أمره وسلطانه وعظمته دون عرشه وسمائه ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ يعني : من قريب ينفعكم في الآخرة ﴿ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ من الملائكة ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : أفلا تتعظون فيما ذكره من صفته فتوحّدونه .

ثم قال عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ يقول : يقضي القضاء ﴿ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ يعني : يبعث الملائكة من السماء إلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ يعني : يصعد إليه .

قال أبو الليث رحمه الله : حدثنا عمرو بن محمد بإسناده عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن سابط .

قال : يدبر أمر الدنيا أربعة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل .

أما جبرائيل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالنبات والقطر ، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمور عليهم ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ .

﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ ﴾ يعني : في يوم واحد من أيام الدنيا كان مقدار ذلك اليوم ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أنتم .

وقال القتبي : معناه يقضي في السماء ، وينزله مع الملائكة إلى الأرض ، فتوقعه الملائكة عليهم السلام في الأرض .

﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَى السماء ﴾ فيكون نزولها ورجوعها في يوم واحد مقدار المسير ، على قدر سيرنا ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ لأنّ بعد ما بين السماء والأرض خمسمائة عام .

فيكون نزوله وصعوده ألف عام في يوم واحد .

(280/612)

وروى جويبر عن الضحاك ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : يصعد الملك إلى السماء مسيرة خمسمائة عام ، ويهبط مسيرة خمسمائة عام في كل يوم من أيامكم وهو مسيرة ألف سنة .

ثم قال عز وجل : ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب ﴾ يعني : ذلك الذي يفعل هذا هو عالم الغيب ﴿ والشهادة ﴾ يعني : ما غاب من العباد ، وما شاهدوه .

ويقال : عالم بما كان ، وبما يكون .

ويقال : عالم السر والعلانية .

ويقال : عالم بأمر الآخرة وأمر الدنيا ﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الرحيم ﴾ بخلقه .

قوله عز وجل : ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : ﴿ خَلَقَهُ ﴾ بجزم اللام .

وقرأ الباقون : بالنصب فمن قرأ بالجزم فمعناه : الذي أحسن كل شيء .

وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : الإنسان في خلقه حسن ، والخنزير في خلقه حسن ، وكل شيء في خلقه حسن .

ومن قرأ بالنصب فعلى فعل الماضي يعني : خلق كل شيء على إرادته ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم .

ويقال : الذي علم خلق كل شيء خلقه .

يعني : علم كيف خلق .

ويقال : هل تحسن شيئاً .

يعني : تعلم .

ومعناه : الذي علم خلق كل شيء خلقه .

ويقال : الحسن عبارة عن الزينة .

يعني : الذي زين كل شيء خلقه وأتقنه كما قال : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ

تَمُرُّ مَرَّ السحاب صُنْعَ الله الذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : 88] .

ثم قال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ يعني : خلق آدم عليه السلام من طين من أديم الأرض ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ ﴾ أي : خلق ذريته من سلالة من النطفة التي تنسل من الإنسان .

وقال أهل اللغة : كل شيء على ميزان فعالة ، فهو ما فضّل من شيء .

يقال : نشارة ونخالة .

ثم رجع إلى آدم عليه السلام فقال عز وجل : ﴿ مّن مَّاء مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعني : سوى خلقه ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ .

(281/612)

ثم رجع إلى ذريته فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والابصار ﴾ ويقال : هذا كله في صفة الذرية يعني : ثم ﴿ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ يعني : من نطفة ضعيفة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعني : جمع خلقه في رحم أمه ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ يعني : جعل فيه الروح بأمره ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والافئدة ﴾ .

ثم قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ يعني : لا تشكرون رب هذه النعم على حسن خلقكم ،

فتوحّدوه .

فلا تستعملوا سمعكم وأفئدتكم إلا في طاعتي .

ويقال : ما هاهنا صلة .

فكأنه يقول : تشكرونه قليلاً .

ويقال : ما بمعنى : الذي .

فكأنه قال : فقليل الذي تشكرون .

وقد يكون الكلام بعضه بلفظ المغايبة .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع ﴾ بلفظ المخاطب ، فكما قال : هاهنا ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ بلفظ المغايبة .

ثم قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ بلفظ المخاطبة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الأرض ﴾ يعني : هلكنا وصرنا تراباً ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يعني : أنبعث بعد الموت .

وأصله ضلّ الماء في اللبن إذا غاب وهلك .

وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قرأ ﴿ أءذا صللنا ﴾ بالصاد ، وتفسيره النتن .

يقال : صل اللحم إذا أنتن .

وقراءة العامة بالضاد المعجمة أي : هلكنا .

وقرأ ابن عامر : ﴿ وَقَالُواْ إِءِذَا ضَلَلْنَا ﴾ إذ بغير استفهام ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ على وجه الاستفهام .

قال : لأنهم كانوا يقرون بالموت ويشاهدونه .

وإنما أنكروا البعث .

ويكون الاستفهام في البعث دون الموت .

ثم قال عز وجل : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كافرون ﴾ يعني : بالبعث جاحدون فلا يؤمنون به .

[بم قوله عز وجل :

﴿ قُلْ يتوفاكم ﴾ يعني : يقبض أرواحكم ﴿ مَّلَكُ الموت ﴾ واسمه عزرائيل .

وروي في الخبر أن له وجوهاً أربعة .

(282/612)

فوجه من نار يقبض به أرواح الكفار ، ووجه من ظلمة يقبض به أرواح المنافقين ، ووجه من رحمة يقبض به أرواح المؤمنين ، ووجه من نور يقبض به أرواح الأنبياء والصديقين عليهم السلام والدنيا بين يديه كالكف ، وله أعوان من ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب .

فإذا قبض روح المؤمن دفعها إلى ملائكة الرحمة ، وإذا قبض روح الكافر دفعها إلى ملائكة العذاب .

وروى جابر بن زيد أن ملك الموت كان يقبض الأرواح بغير وجه ، فأقبل الناس يسبونه ويلعنونه .

فشكى إلى ربه عز وجل .

فوضع الله عز وجل الأمراض والأوجاع .

فقالوا : مات فلان بكذا وكذا .

ثم قال تعالى : ﴿ الذى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى ربِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الموت أحياءً فيجازيكم بأعمالكم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون ﴾ يعني : المشركون ﴿ الكافرين كُفُرُهُمْ عِندَ ربِّهِمْ ﴾ استحياء من ربهم بأعمالهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ الهدى ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ الإيمان .

ويقال ﴿ أبصارنا ﴾ يوم القيامة بالمعاينة ، ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ يعني : أيقنوا حين لم ينفعهم يقينهم ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صالحا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ يعني : أيقنّا بالقيامة .

ويقال : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ يعني : قد آمنا ولكن لا ينفعهم .

وقد حذف الجواب لأن في الكلام دليلاً ومعناه : ولو ترى يا محمد ذلك ، لرأيت ما تعتبر به

غاية الاعتبار .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا ﴾ يعني : لأعطينا ﴿ كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنْى ﴾ يعني : وجب العذاب مني .

ويقال : ولكن سبق القول بالعذاب وهو قوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ من كفار الإنس ، ومن كفار الجن أجمعين .

فيقول لهم الخزنة : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ ﴾ يعني : ذوقوا العذاب بما تركتم ﴿ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ يعني : تركتم العمل بحضور يومكم هذا .

قال القتبي : النسيان ضد الحفظ ، والنسيان الترك .

(283/612)

فقوله : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي : تركتم الإيمان بلقاء هذا اليوم ﴿ إِنَّا نسيناكم ﴾ يعني : تركناكم في العذاب .

ويقال : نجازيكم بنسيانكم كما قال الله عز وجل : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ [التوبة : 67] ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد ﴾ الذي لا ينقطع أبداً ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 30 . 33 ﴾

وقال الثعلبي :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ الم * تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين * أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أي ، بل يقولون وقيل : الميم صلة ، أي أيقولون استفهام توبيخ . وقيل : هو بمعنى الواو يعني ويقولون . وقيل : فيه إضمار مجازه : فهل يؤمنون به ، أَمْ يقولون : ﴿ افتراه ﴾ ثمّ قال : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ ﴾ أي لم يأتهم ﴿ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ . قال قتادة : كانوا أُمّةً أُمّيّة لم يأتهم نذير قبل محمّد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عبّاس ومقاتل : ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى ومحمّد (عليهما السلام) .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ﴾ أي ينزل الوحي مع جبرائيل من السماء إلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ ﴾ يصعد ﴿ إِلَيْهِ ﴾ جبرائيل بالأمر في يوم واحد من أيّام الدُّنيا ، وَقَدْرُ مسيرِهِ ألف سنة ، خمسمائة نزوله من السماء إلى الأرض ، وخمسمائة صعوده من الأرض إلى السماء . وما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة سنة يقول : لو ساره أحد من بني آدم لم يسره إلاّ في ألف سنة ،

والملائكة يقطعون هذه المسافة بيوم واحد ، فعلى هذا التأويل نزلت الآية في وصف مقدار عروج الملائكة من الأرض إلى السماء ، ونزولهم من السماء إلى الأرض ، وأمّا قوله : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] فإنّه أراد مدّة المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي فيها مقام جبرائيل (عليه السلام) .

(285/612)

يقول : يسير جبرائيل والملائكة الذين معه من أهل مقامهِ مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيّام الدنيا ، وهذا كلّه معنى قول مجاهد وقتادة والضحّاك ، وأمّا معنى قوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ على هذا التأويل فإنّه يعني إلى مكان الملك الذي أمره الله أنْ يعرج إليه ، كقول إبراهيم (عليه السلام) ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ [الصافات : 99] وإنّما أراد أرض الشام . وقال : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي إلى المدينة ، ولم يكن الله تعالى بالمدينة ولا بالشام .

أخبرني ابن فنجويه ، عن هارون بن محمد بن هارون ، عن حازم بن يحيى الحلواني ، عن محمد بن المتوكل ، عن عمرو بن أبي سلمة ، عن صدقة بن عبد الله عن موسى بن عقبة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني ملك

برسالة من الله عزّ وجلّ ، ثمّ رفع رجله فوضعها فوق السماء ، والأُخرى في الأرض لم يرفعها " . وقال بعضهم معناه : يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأرض مدّة أيّام الدنيا ، ثمّ يَعْرُجُ إليه الأمر والتدبير ، ويرجع يعود إليه بعد انقضاء الدنيا وفنائها ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ وهو يوم القيامة .

وأمّا قوله : ﴿ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] فإنّه أراد على الكافر ، جعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف سنة ، وعلى المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاّها في دار الدنيا . ويجوز أن يكون ليوم القيامة أوّل وليس له آخر وفيه أوقات شتّى بعضها ألف سنة وبعضها خمسين ألف سنة . ويجوز أن يكون هذا إخبار عن شدّته وهوله ومشقّته لِأنّ العرب تصف أيّام المكروه بالطّول وأيّام السرور بالقصر ، وإلى هذا التأويل ذهب جماعة من المفسّرين .

(286/612)

وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : أخبرني ابن أبي مليكة قال : دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفّان على ابن عبّاس فسأله ابن فيروز عن هذه الآية ، فقال له ابن عبّاس : مَنْ أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفّان ، فقال عبد الله بن

عبّاس : أيام سمّاها الله لا أدري ما هي ، وأكره أنْ أقول في كتاب الله ما لا أعلم . قال ابن أبي مليكة : فضرب الدهر حتّى دخلتُ على سعيد بن المسيّب فسئل عنها فلم يدر ما يقول ، فقلت له : ألا أخبرك ما حضرتُ مِن ابن عبّاس ، فأخبرته ، فقال ابن المسيب للسائل : هذا ابن عبّاس قد اتّقى أنْ يقول فيها وهو أعلم منّي .

قوله : ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة (خَلَقه) بفتح اللاّم على الفعل ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ثمّ قالا : لسهولتها في المعنى وهي قراءة سعيد بن المسيب . وقرأ الآخرون بسكون اللام . قال الأخفش : هو على البدل ومجازه : الذي أحسَنَ خلقَ كلِّ شيء .

قال ابن عبّاس : أتقنه وأحكمه ، ثمّ قال : أما إنَّ أست القرد ليست بحسنة ولكنّه أحكم خلقها . وقال قتادة : حسنُه . مقاتل : علم كيف يخلق كلّ شيء ، من قولك فلان يحسن كذا إذا كان يعلمه .

(287/612)

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان ﴾ يعني آدم (عليه السلام) ﴿ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ ذريته ﴿ مِن سُلاَلَةٍ ﴾ من نطفة ، سمّيت بذلك لِأنّها تنسل من الإنسان ، أي تخرج ، ومنه

قيل للولد : سلالة . وقال ابن عبّاس : وهي صفو الماء ﴿ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ ضعيف ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وقالوا ﴾ يعني منكري البعث ، ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ أي أُهلكنا وبطلنا وصرنا تراباً ، وأصله من قول العرب : ضلّ الماء في اللبن إذا ذهب ، ويقال : أضللت الميّت أي دفنته . قال الشاعر :

وأب مُضلوهُ بغيرِ جَلية . . . وغُودر بالجولان جرم ونائل

وقرأ ابن محيصن بكسر اللام (ضللنا) وهي لغة . وقرأ الحسن والأعمش ﴿ صَلَلْنَا ﴾ (بالصاد) غير معجمة أي أَنتنّا ، وهي قراءة عليّ رضي الله عنه .

أخبرنا ابن فنجويه عن ابن شنبه قال : أخبرني أبو حامد المستملي ، عن محمد بن حاتم (الكرخي) أبو (عثمان) النحوي ، عن المسيب بن شريك ، عن عبيدة الضبي ، عن رجل ، عن علي أنّه قرأ أَءِذَا ضللنا أي أنتنّا . قال محمّد بن حاتم : يقال : صلَّ اللّحم وأصل إذا أنتن .

﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ قال الله : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم ﴾ بقبض أرواحكم ﴿ مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد : حويت له الأرض فجُعلت له مثل طست يتناول منها حيث يشاء ، وقال مقاتل والكلبي : بلغنا أنَّ اسم ملك الموت عزرائيل وله أربعة أجنحة : جناح له بالمشرق ، وجناح له بالمغرب ، وجناح له في أقصى العالم من حيث يجيء ريح الصبا ، وجناح من الأفق الآخر . ورجل له بالمشرق ، والأخرى بالمغرب ، والخلق بين رجليه ، ورأسه وجسده كما بين السماء والأرض ، وجُعلت له الدنيا مثل راحة اليد ، صاحبها يأخذ منها ما أَحبّ في غير مشقة ولا عناء ، أي مثل اللّبنة بين يديه فهو يقبض أَنْفُس الخلق في مشارق الأرض ومغاربها ، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

وأخبرني الحسين بن محمد بن الحسين عن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك عن الخطّاب بن أحمد بن عيسى قال : أخبرني أبو نافع أحمد بن كثير ، عن كثير بن هشام ، عن جعفر بن برقان ، عن يزيد بن الأصم عن ابن عبّاس قال : إنّ خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب .

وأخبرنا الحسين بن محمد ، عن عبد الله بن يوسف ، عن عبد الرحيم بن محمد ، عن سلمة ابن شبيب ، عن الوليد بن سلمة الدمشقي ، عن ثور بن يزيد عن خالد بن (معد) ، عن معاذ بن جبل قال : إنّ لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب ، وهو يتصفّح وجوه

الناس ، فما من أهل بيت إلاّ وملك الموت يتفحّصهم في كلّ يوم مرّتين ، فإذا رأى إنساناً قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة ، وقال : الآن يزار بك عسكر الأموات .

(289/612)

وأخبرنا الحسين بن محمد قال : أخبرني أبو بكر بن مالك القطيعي ، عن عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، عن أَبي ، عن عبد الله بن نميرة عن الأعمش عن خيثمة وعن شهر بن حوشب قال : دخل ملك الموت على سليمان ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم إليه النظر ، فلمّا خرج قال الرجل : من هذا ؟ قال : هذا ملك الموت ، قال : لقد رأيته ينظر إليّ كأنّه يريدني ، قال : فما تريد ؟ قال : أريد أن تحملني على الريح فتلقيني بالهند ، فدعا بالريح فحملته عليها فألقته بالهند ، ثمّ أتى ملك الموت سليمان (عليه السلام) فقال : إنّك كنت تديم النظر إلى رجل من جلسائي ، قال : كنتُ أعجبُ منه إنّي أُمرت أنْ أقبضَ روحه بالهند وهو عندك .

فإن قيل : ما الجامع بين قوله : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : 61] و ﴿ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ﴾ [النحل : 28] و ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت ﴾ [السجدة : 11] وقوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] و ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل ﴾ [الأنعام :

60] .

قيل : تَوفّي الملائكة : القبض والنزع . وتوفّي ملك الموت : الدعاء والأمر ، يدعو الأرواح فتجيبه ثمّ يأمر أعوانه بقبضها ، وتوفّي الله سبحانه : خلق الموت ، والله أعلم .

(290/612)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي مطأطئوا رؤوسهم ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ حياءً منه للذي سلف من معاصيهم في الدنيا يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ ما كنّا بِهِ مكذّبين ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ منك تصديق ما أتتنا به رسلك ﴿ فارجعنا ﴾ فأرددنا إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ وجواب لو مضمر مجازه : لرأيت العجب ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ رشدها وتوفيقها للإيمان ﴿ ولكن حَقَّ ﴾ وجب وسبق ﴿ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ وهو قوله لأبليس ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 85] . ثمّ يقال لأهل النار : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذآ ﴾ أي تركتم الإيمان به ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ تركناكم في النار ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون ﴾ .

(291/612)

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، عن أحمد بن الحسن بن ماجة القزويني ، عن الحسن ابن أيوب القزويني ، عن عبد الله بن أبي زياد القطواني ، عن سيار حماد الصفار ، عن حجاج الأسود ، عن جبلة ، عن مولى له ، عن كعب قال : إذا كان يوم القيامة يقوم الملائكة فيشفعون ، ثمّ يقوم الأنبياء فيشفعون ، ثمّ يقوم الشهداء فيشفعون ثمّ يقوم المؤمنون فيشفعون . حتّى انصرمت الشفاعة كلّها فلم يبق أحد ، خرجت الرحمة ، فتقول : ياربِّ أنا الرحمة فشفّعني ، فيقول : قد شفّعتكِ ، فتقول : ياربّ فيمَن ؟ فيقول : في مَن ذكرني في مقام وخافني فيه أو رجاني أو دعاني دعوة واحدة خافني أو رجاني فأخرجيه ، قال : فيخرجون فلا يبقى في النار أحد يعبأ الله به شيئاً ، ثمّ يعظم أهلها بها ، ثمّ يأمر بالنار فتقبض عليهم فلا يدخل فيها رَوح أبداً ، ولا يخرج منها غمٌّ أبداً وقيل : ﴿ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ [الجاثية : 34] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 325.330 ﴾

(292/612)

وقال الزمخشرى :

سورة السجدة

مكية [إلا من آية 16 إلى غاية آية 20 فمدنية] وآياتها 30 وقيل 29 [نزلت بعد المؤمنون

] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة السجده (32) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3)

الم على أنها اسم السورة مبتدأ خبره تَنْزِيلُ الْكِتابِ وإن جعلتها تعديدا للحروف ارتفع تَنْزِيلُ الْكِتابِ بأنه خبر مبتدإ محذوف : أو هو مبتدأ خبره لا رَيْبَ فِيهِ والوجه أن يرتفع بالابتداء ، وخبره مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ولا رَيْبَ فِيهِ : اعتراض لا محل له . والضمير في فِيهِ راجع إلى مضمون الجملة ، كأنه قيل : لا ريب في ذلك ، أى في كونه منزلا من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ لأنّ قولهم : هذا مفترى ، إنكار لأن يكون من رب العالمين ، وكذلك قوله بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وما فيه من تقدير أنه من اللّه ، وهذا أسلوب صحيح محكم : أثبت أوّلا أن تنزيله من رب العالمين ، وأن ذلك ما لا ريب فيه ، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ لأن «أم» هي المنقطعة الكائنة بمعنى : بل والهمزة ، إنكارا لقولهم

وتعجيبا منه لظهور أمره : في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك . ونظيره أن يعلل العالم في المسألة بعلة صحيحة جامعة ، قد احترز فيها أنواع الاحتراز ، كقول المتكلمين : النظر أوّل الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف ، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه ، فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك ، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته . فإن قلت : كيف نفى أن يرتاب في أنه من اللّه ، وقد أثبت ما هو أطم من الريب ، وهو قولهم افْتَراهُ ؟ قلت : معنى لا رَيْبَ فِيهِ أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل اللّه ، لأن نافى الريب ومميطه معه لا ينفك عنه وهو كونه معجزا

(293/612)

للبشر ، ومثله أبعد شيء من الريب . وأما قولهم افْتَراهُ فإما قول متعنت مع علمه أنه من اللّه لظهور الإعجاز له ، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ كقوله : ما أنذر آباؤهم ، وذلك أن قريشا لم يبعث اللّه إليهم رسولا «1» قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم . فإن قلت : فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة . قلت : أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا ، وأما قيامها بمعرفة اللّه وتوحيده

وحكمته فنعم ، لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ فيه وجهان : أن يكون على الترجي من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كما كان لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام ، وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة .

[سورة السجده (32) : آية 4]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (4)

فإن قلت : ما معنى قوله ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ؟ قلت : هو على معنيين ، أحدهما : أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليا ، أى : ناصرا ينصركم ولا شفيعا يشفع لكم . والثاني : أن اللّه وليكم الذي يتولى مصالحكم ، وشفيعكم أى ناصركم على سبيل المجاز ، لأن الشفيع ينصر المشفوع له ، فهو كقوله تعالى وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ فإذا خذلكم لم يبق لكم ولىّ ولا نصير .

[سورة السجده (32) : آية 5]

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)

الْأَمْرَ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبرا مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصا كما يريده ويرتضيه إلا في مدة متطاولة ، لقلة عمال اللّه والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة ، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص

(1) . قال محمود : «يعنى قريشا لأنها لم يبعث لها نبى قط . فان قلت : إن لم يتقدم بعث نبى إليهم فيما قامت عليهم الحجة . قلت : قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل لا سبيل إليه . وأما قيامها بمعرفة اللّه تعالى وتوحيده وحكمته فنعم ، لأن أدلة العقل معهم في كل زمان» قال أحمد : مذهب أهل السنة : أنه لا يدرك علم شيء من أحكام اللّه تعالى التكليفية إلا بالشرع وما ذكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل ، وقد مجها السمع فلم يبح بها القلم ، فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره . وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم كأبيهم إسماعيل وغيره ، والمراد بقوله تعالى ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ يعنى ذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام ، إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر ، فلطف اللّه تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم .

(294/612)

ودل عليه قوله على أثره قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض : لكل يوم من أيام اللّه وهو ألف سنة ، كما قال وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ أى يصير إليه ، ويثبت عنده ، ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدّة : ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ، ثم يدبر

أيضا ليوم آخر ، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة . وقيل : ينزل الوحى مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض ، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحى أو ردّه مع جبريل ، وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة ، لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود ، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل ، لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد . وقيل : يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله ، أى يصير إليه ليحكم فيه فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وهو يوم القيامة . وقرأ ابن أبى عبلة : يعرج ، على البناء للمفعول . وقرئ : يعدون ، بالتاء والياء .

[سورة السجده (32) : الآيات 6 إلى 9]

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (9)

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ حسنه ، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة ، فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن ، كما قال لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وقيل : علم كيف يخلقه من قوله : قيمة المرء ما يحسن . وحقيقته ، يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان . وقرئ : خلقه

: على البدل ، أى : أحسن ، فقد خلق كل شيء «1» وخلقه : على الوصف ، أى : كل شيء خلقه فقد أحسنه . سميت الذرية نسلا لأنها تنسل منه ، أى : تنفصل منه وتخرج من صلبه «2» ونحوه قولهم للولد : سليل ونجل ، وسَوَّاهُ قوّمه ،

---

(1) . قوله «أى أحسن فقد خلق كل شيء» لعل لفظ «فقد» مزيدة من قلم الناسخ . وعبارة النسفي : على البدل ، أى : أحسن خلق كل شيء ويمكن أنه ليس مزيدا ، بل هذا حاصل المعنى على البدل ، كما أن عكسه الآتي هو حاصل المعنى على الوصف . (ع)

(2) . قوله «وتخرج من صلبه» لعل قبله سقطا تقديره : كما سميت النطفة سلالة ، لأنها تسل منه . وفي الصحاح «النجل» : النسل . ونجله أبوه ، أى : ولده . (ع)

كقوله تعالى فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو ، كقوله وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . . . الآية كأنه قال : ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته .

[سورة السجده (32) : الآيات 10 إلى 11]

وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (10) قُلْ

يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)

وَقالُوا قيل القائل أبى بن خلف ، ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعا . وقرئ : أئنا .

وأنا ، على الاستفهام وتركه ضَلَلْنا صرنا ترابا ، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض ، لا نتميز

منه ، كما يضل الماء في اللبن أو غبنا فِي الْأَرْضِ بالدفن فيها ، من قوله :

وآب مضلّوه بعين جليّة «1»

وقرأ على وابن عباس رضى اللّه عنهما : ضللنا ، بكسر اللام . يقال : ضل يضل وضل

يضل . وقرأ الحسن رضى اللّه عنه : صللنا ، من صلّ اللحم وأصلّ : إذا أنتن . وقيل :

صرنا من جنس الصلة وهي الأرض . فإن قلت : بم انتصب الظرف في أَإِذا ضَلَلْنا ؟ قلت

: بما يدل عليه إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ وهو نبعث . أو يجدد خلقنا . لقاء ربهم : هو الوصول

إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت وما وراءه ، فلما ذكر كفرهم بالإنشاء ، أضرب عنه إلى ما

هو أبلغ في الكفر ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة ، لا بالإنشاء وحده : ألا ترى

كيف خوطبوا بتوفي ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء ،

وهذا معنى لقاء اللّه على ما ذكرنا والتوفي : استيفاء النفس وهي الروح . قال اللّه تعالى اللَّهُ

يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ وقال : أخرجوا أنفسكم ، وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء . من قولك :

توفيت حقي من فلان ، واستوفيته إذا أخذته وافيا كاملا من غير نقصان . والتفعل

والاستفعال : يلتقيان في مواضع : منها : تقصيته واستقصيته ، وتعجلته واستعجلته .

وعن مجاهد رضى اللّه عنه : حويت لملك الموت الأرض ، وجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء . وعن قتادة : يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة .

وقيل : ملك الموت : يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها .

---

(1) وآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

يرثى ميتا . والإياب : الرجوع . والإضلال : الدفق والتغيب . وجولان : جبل بالشام .

والنائل : العطاء يعنى : بترك ذلك الموصوف بالحزم والكرم ، فقد ترك الوصفات هناك .

(296/612)

[سورة السجده (32) : الآيات 12 إلى 14]

وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

وَلَوْ تَرى يجوز أن يكون خطابا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وفيه وجهان : أن يراد به التمني ، كأنه قال : وليتك ترى ، كقوله صلى اللّه عليه وسلم للمغيرة : «لو نظرت إليها»

«1» والتمني لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كما كان الترجي له في لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ لأنه تجرع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم ، فجعل اللّه له تمنى أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم ، وأن تكون لو الامتناعية قد حذف جوابها ، وهو : لرأيت أمرا فظيعا . أو : لرأيت أسوأ حال ترى . ويجوز : أن يخاطب به كل أحد ، كما تقول : فلان لئيم ، إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا تريد به مخاطبا بعينه ، فكأنك قلت :

إن أكرم وإن أحسن إليه ، ولو وإذ : كلاهما للمضى ، وإنما جاز ذلك ، لأن المترقب من اللّه بمنزلة الموجود المقطوع به في تحققه ، ولا يقدر لترى ما يتناوله ، كأنه قيل : ولو تكون منك الرؤية ، وإذ ظرف له . يستغيثون بقولهم رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فلا يغاثون ، يعنى : أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك . أو كنا عميا وصما فأبصرنا وسمعنا فَارْجِعْنا هي الرجعة إلى الدنيا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها على طريق الإلجاء والقسر ، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار «2» دون الاضطرار ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء . ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم : من نسيان العاقبة ،

---

(1) . هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي ، والنسائي وابن ماجة وابن أبى شيبة وابن حبان . والحاكم .

وأحمد والبزار . وغيرهم من حديث المغيرة «أنه خطب امرأة فقال لي النبي صلى اللّه عليه وسلم انظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما» ورواه أبو عبيد في الغريب بلفظ أنه قال للمغيرة وقد خطب امرأة «لو نظرت إليها» الحديث . [. . . . .]

(2) . قوله «ولكننا بنينا الأمر على الاختيار» لما أوجب المعتزلة على اللّه الصلاح قالوا : إنه قد شاء الهدى للكل ، ولكن مشيئة تخيير ، لا مشيئة إجبار ، فلذا لم يهتد الكل بل البعض ، ولو شاء مشيئة قسر لاهتدى الكل .

وأهل السنة لم يوجبوا على اللّه شيئًا ، وقالوا : كل ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن ، خيرا كان أو شرا . واستلزام الارادة لوقوع المراد لا يستلزم القسر والإجبار للعباد ، لما لهم من الكسب في أفعالهم ، وإن كانت في الحقيقة مخلوقة للّه تعالى ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

(297/612)

وقلة الفكر فيها ، وترك الاستعداد لها . والمراد بالنسيان : خلاف التذكر ، يعنى : أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها ، ثم قال إِنَّا نَسِيناكُمْ على المقابلة ، أى : جازيناكم جزاء نسيانكم . وقيل : هو بمعنى الترك ، أى :

تركتم الفكر في العاقبة ، فتركناكم من الرحمة . وفي استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم والمعنى فذوقوا هذا أى ما أنتم فيه من نكس الرءوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء ، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم «1» من المعاصي والكبائر الموبقة «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 506. 511 ﴾

---

(1) . قال محمود : «معناه بما كنتم تعملون من الكفر والكبائر الموبقة» قال أحمد : قد تمهد من مذاهب أهل السنة أن المقتضى لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة . وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلودا ، والمسألة سمعية ، وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية ، خلافا للقدرية .

(2) . قوله «والكبائر الموبقة» أى : المهلكة . (ع)

(298/612)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ تنزيلُ الكتاب لا ريب فيه ﴾

قال مقاتل : المعنى : لا شكَّ فيه أنَّه تنزيل ﴿ مِنْ ربِّ العالَمِين ﴾ .

﴿ أم يقولون ﴾ بل يقولون ، يعني المشركين ﴿ افْتراه ﴾ محمد من تِلقاء نَفْسه ، ﴿ بل هو الحقُّ من ربِّك لِتُنْذِر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ يعني : العرب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأتهم نذير من قَبْل محمد عليه السلام .

وما بعده قد سبق تفسيره [الاعراف : 54] إلى قوله : ﴿ ما لكم مِنْ دونه من وليٍّ ﴾ يعني الكفار ؛ يقول : ليس لكم من دون عذابه من وليٍّ ، أي : قريب يمنعُكم فيرُدُّ عذابه عنكم ﴿ ولا شفيعٍ ﴾ يشفع لكم ﴿ أفلا تَتذكَّرونَ ﴾ فتؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ يدبِّر الأَمر من السماء إلى الأرض ﴾ في معنى الآية قولان .

أحدهما : يقضي القضاء من السماء فينزِّله مع الملائكة إلى الأرض ، ﴿ ثم يَعْرُجُ ﴾ الملَك ﴿ إليه في يوم ﴾ من أيام الدنيا ، فيكون الملَك قد قطع في يوم واحد من أيام الدنيا في نزوله وصعوده مسافة ألف سنة من مسيرة الآدمي .

والثاني : يدبِّر أمر الدنيا مدة أيَّام الدنيا ، فينزِّل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ، ﴿ ثم يعرُجِ إليه ﴾ أي : يعود إليه الأمر والتدبير حين ينقطع أمر الأمراء وأحكام الحكّام وينفرد الله تعالى بالأمر ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ وذلك في [يوم] القيامة ، لأنَّ كل يوم من أيام الآخرة كألف سنة .

وقال مجاهد : يقضي أمر ألف سنة في يوم واحد ، ثم يلقيه إلى الملائكة ، فإذا مضت قضى لألف سنة آخرى ، ثم كذلك أبداً .

وللمفسرين في المراد بالأمر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الوحي ، قاله السدي .

والثاني : القضاء ، قاله مقاتل .

والثالث : أمر الدنيا .

و﴿ يعرُج ﴾ بمعنى يصعَد .

قال الزجاج : يقال : عَرَجْتُ في السُّلَّم أعرُج ، وعَرِج الرجُل يعرَج : إذا صار أعرج .

(299/612)

وقرأ معاذ القارىء ، وابن السميفع ، وابن أبي عبلة : ﴿ ثم يُعْرَجُ إليه ﴾ بياء مرفوعة وفتح الراء .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : ﴿ يَعْرِجُ ﴾ بياء مفتوحة وكسر الراء .

وقرأ أبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : ﴿ ثم تَعْرُجُ ﴾ بتاء مفتوحة ورفع الراء .

قوله تعالى : ﴿ الذي أحسنَ كُلَّ شيء خَلَقه ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : جعله حَسَناً .

والثاني : أحكم كل شيء ، رويا عن ابن عباس ، وبالأول قال قتادة ، وبالثاني قال مجاهد .

والثالث : أحسنه ، لم يتعلمه من أحد ، كما يقال : فلان يُحْسِن كذا : إذا عَلِمه ، قاله السدي ، ومقاتل .

والرابع : أن المعنى : ألهم خَلْقه كلَّ ما يحتاجون إليه ، كأنه أعلمهم كل ذلك وأحسنهم ، قاله الفراء .

والخامس : أحسن إلى كل شيء خَلْقه ، حكاه الماوردي .

وفي قوله : ﴿ خَلْقَه ﴾ قراءتان .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ خَلْقَه ﴾ ساكنة اللام .

وقرأ الباقون بتحريك اللام .

وقال الزجاج : فتحها على الفعل الماضي ، وتسكينها على البدل ، فيكون المعنى : أحسنَ خَلْقَ كلِّ شيء خَلَقه .

وقال أبو عبيدة : المعنى : أحسن خَلْق كلِّ شيء ، والعرب تفعل مثل هذا ، يقدِّمون ويؤخِّرون .

قوله تعالى : ﴿ وبدأ خَلْقَ الإنسان ﴾ يعني آدم ، ﴿ ثم جعل نسله ﴾ أي : ذرِّيته وولده ؛ وقد سبق شرح الآية [المؤمنون : 12] .

ثم رجع إلى آدم فقال : ﴿ ثُمَّ سوَّاه ونَفَخ فيه من رُوحه ﴾ وقد سبق بيان ذلك [الحجر : 29] .

ثم عاد إلى ذريته فقال : ﴿ وجَعَل لكم السَّمْع والأبصار ﴾ أي : بعد كونكم نُطَفاً .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ يعني منكري البعث ﴿ أإذا ضَلَلْنا في الأرض ﴾ وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وعليّ بن الحسين ، وجعفر بن محمد ، وأبو رجاء ، وأبو مجلز ، وحميد ، وطلحة : ﴿ ضَلِلْنَا ﴾ بضاد معجمة مفتوحة وكسر اللام الأولى .

(300/612)

قال الفراء : ضَلَلْنَا وضَلِلْنَا لغتان ، والمعنى : إذا صارت عظامنا ولحومنا تراباً كالأرض ؛ تقول ضَلَّ الماءُ في اللَّبَن ، وضل الشيء في الشيء : إذا أخفاه وغلب عليه .

وقرأ أبو نهيك ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة : ﴿ ضُلِّلْنَا ﴾ [بضم] الضاد المعجمة وتشديد اللام الأولى وكسرها .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، ومعاذ القارىء : ﴿ صَلَلْنَا ﴾ بصاد غير معجمة مفتوحة ، وذكر لها الزجاج معنيين .

أحدهما : أَنْتَنَّا وتَغَيَّرْنا وتغيَّرَت صُوَرُنا ؛ يقال : صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ : إذا أنتن وتغيَّر .

والثاني : صِرْنَا من جنس الصَّلَّة ، وهي الأرض اليابسة .

قوله تعالى : ﴿ أإنَّا لفي خَلْق جديد ﴾ ؟ ! هذا استفهام إنكار .

قوله تعالى : ﴿ الذي وكّل بكُم ﴾ أي : بقبض أرواحكم ﴿ ثُمَّ إلى ربّكم تُرْجَعُون ﴾ يوم الجزاء .

ثم أخبر عن حالهم في القيامة فقال : ﴿ ولو ترى إذِ المجْرِمون ناكِسو رؤوسِهم ﴾ أي : مُطأطئوها حياءً وندماً ، ﴿ ربَّنا ﴾ فيه إضمار ﴿ يقولون ربَّنا ﴾ ﴿ أبصَرْنا وسَمِعْنا ﴾ أي : عَلِمْنا صِحَّة ما كنَّا به مكذِّبين ﴿ فارْجِعنا ﴾ إلى الدنيا ؛ وجواب "لو" متروك تقديره : لو رأيتَ حالهم لرأيتَ ما يُعتبر به ، ولشاهدت العَجَب .

قوله تعالى : ﴿ ولكنْ حَقَّ القولُ مِنّي ﴾ أي : وجب وسبق ؛ والقول هو قوله لإبليس ﴿ لأَملأنَّ جهنَّم منكَ وممَّن تَبِعك منهم أجمعين ﴾ [ص : 85] .

قوله تعالى : ﴿ لأَملأنَّ جهنَّم مِنَ الجِنَّة والنَّاس أجمعين ﴾ أي : من كفار الفريقين .

﴿ فذُوقوا بما نسيتم لقاءَ يومكم هذا ﴾ قال مقاتل : إذا دخلوا النار قالت لهم الخزَنَة : فذوقوا العذاب .

وقال غيره : إذا اصطرخوا فيها قيل لهم : ذُوقوا بما نَسِيتُم ، أي : بما تركتم العمل للقاء يومكم هذا ، ﴿ إنَّا نَسِيناكم ﴾ أي : تركناكم من الرَّحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾

يعني القرآن ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك أنه من عند الله عز وجل ، ونفي الريب على اعتقاد أهل الحق ، وعلى ما هو الأمر في نفسه ، لا على اعتقاد أهل الباطل ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ يتعلق بتنزيل .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ الضمير لقريش و ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل ، والهمزة ﴿ لِتُنذِرَ ﴾ يتعلق بما قبله أو بمحذوف ﴿ مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ ﴾ يعني من الفترة من زمن عيسى ، وقد جاء الرسل قبل ذلك إبراهيم وغيره ، ولما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله رسولاً ينذرهم ليقيم الحجة عليهم .

﴿ استوى عَلَى العرش ﴾ قد ذكر في [الأعراف : 53] ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ نفي الشفاعة على وجهين أحدها الشفاعة للكفار وهي معدومة على الاطلاق ، والآخر : أن الشفاعة للمؤمنين لا تكون إلا بإذن الله كقوله : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس : 3] .

﴿ يُدَبِّرُ الأمر ﴾ أي واحد الأمور ، وقيل : المأمور به من الطاعات ، والأول أصح ﴿ مِنَ السمآء إِلَى الأرض ﴾ أي ينزل ما دبره وقضاه من السماء وإلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال ابن عباس : المعنى ينفذ الله ما قضاه من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره لو سِيَر فيه السير المعروف من البشر ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام ، فالألف ما بين نزول الأمر إلى الأرض وعروجه إلى السماء ، وقيل : إن الله يلقى إلى الملائكة أمور ألف سنة من أعوام البشر وهو يوم من أيام الله ، فإذا فرغت ألقي إليهم مثلها ، فالمعنى أن الأمور تنفذ عنده لهذه المدّة ، ثم تصير إليه آخراً لأن عاقبة الأمور إاليه ، فالعروج على هذه عبارة عن مصير الأمور إليه .

﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ الغيب ما غاب عن المخلوقين ، والشهادة ما شاهدوه .

(302/612)

﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أي أتقن جميع المخلوقات ، وقرئ بإسكان اللام على البدل

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ يعني آدم عليه السلام .

﴿ نَسْلَهُ ﴾ يعني ذريته ﴿ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ يعني المنيّ ، والسلام مشتقة من سل يسل ، فكأن الماء يسل من الإنسان ، والمهين الضعيف .

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ أي قومه ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ عبارة عن إيجاد الحياة فيه ،

وأضيفت الروح إلى الله إضافة مُلك إلى ملك ، وقد يراد بها الاختصاص ، لأن الروح لا يعلم كنهه إلى الله .

﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ أي تلفنا وصرنا تراباً ، ومعنى هذا الكلام المحكي عن الكفار استبعاد البعث ، والعامل في إذا معنى قولهم : إنا لفي خلق جديد تقديره : نبعث .

﴿ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت ﴾ اسمه عزرائيل وتحت يده ملائكة .

﴿ وَلَوْ ترى ﴾ يحتمل أن تكون لو للتمني ، وتأويله في حق الله كتأويل الترجي ، وقد ذكر ، أو تكون للامتناع وجوابها محذوف تقديره : ولو ترى حال المجرمين في الآخرة لرأيت أمرا مهولاً ﴿ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ ﴾ عبارة عن الذل والغم والندم ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ تقديره : يقولون ربنا قد عملنا الحقائق .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يعني أنه لو أراد أن يهدي جميع الخلائق لفعل ، فإنه قادر على ذلك بأن يجعل الإيمان في قلوبهم ويدفع عنهم الشيطان والشهوات ، ولكن يُضل من يشاء ويهدي من يشاء .

﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ ﴾ أي يقال لهم : ذوقوا ، والنسيان هنا بمعنى الترك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 129 . 130 ﴾

(303/612)

وقال الخازن :

قوله ﴿ الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾

يعني لا شك في أنه ﴿ من رب العالمين أم يقولون ﴾ يعني بل يقولون يعني المشركين ﴿ افتراه ﴾ يعني اختلقه محمد (صلى الله عليه وسلم) من تلقاء نفسه ﴿ بل هو الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ يعني العرب كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وذلك في الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد صلى الله عليه سلم .

فإن قلت إذا لم يأتهم رسول لم تقم عليهم حجة .

قلت : أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا من جهة الرسل فلا وأما قيام الحجة بمعرفة الله وتوحيده فنعم لأن معهم أدلة العقل الموصلة إلى ذلك في كل زمان ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ يعني تنذرهم راجياً اهتداءهم ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى ﴿ يدبر الأمر ﴾ يعني يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر وقيل ينزل الوحي مع

جبريل عليه السلام ﴿ من السماء إلى الأرض ثم يعرج ﴾ يعني يصعد ﴿ إليه ﴾ جبريل بالأمر ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ يعني مسافة ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة فيكون مقدار نزوله إلى الأرض ثم صعوده إلى السماء في مقدار ألف سنة لو ساره أحد من بني آدم وجبريل ينزل ويصعد في مقدار يوم من أيام الدنيا وأقل من ذلك وكذلك الملائكة كلهم أجمعون وقيل معنى الآية أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا ثم يعرج إليه أي يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدينا وانقطاع أمر الآمر وحكم الحاكم في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة .

فإن قلت قال في موضع آخر : تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فكيف الجمع بينهما .

(304/612)

قلت أراد بقوله خمسين ألف سنة مدة المسافة بين الأرض وسدرة المنتهى التي هي مقام جبريل عليه السلام يقول يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا .

وقيل كلها في القيامة فيكون على بعضهم مثل ألف سنة وعلى بعضهم خمسين ألف سنة

وهذا في حال الكفار وأما على المؤمنين فدون ذلك كما جاء في الحديث : " إنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا " قال إبراهيم التيمي : لا يكون على المؤمنين إلا كما يكون ما بين الظهر والعصر وقيل يحتمل أن يكون هذا أخباراً عن شدته وهوله ومشقته وقال ابن أبي مليكة : دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان على ابن عباس فسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن مقدار خمسين ألف سنة .

فقال ابن عباس : أيام سماها الله تعالى لا أدري ما هي وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم .

﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني الذي صنع ما ذكر من خلق السموات والأرض هو عالم الغيب والشهادة أي ما غاب عن خلقه لا تخفى عليه خافية والشهادة بمعنى ما حضر وظهر ﴿ العزيز ﴾ أي الممتنع المنتقم من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ بأوليائه وأهل طاعته .

قوله تعالى ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ قال ابن عباس أتقنه وأحكمه وقيل علم كيف يخلق كل شيء وقيل خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض فكل حيوان كامل في صورته حسن في شكله وكل عضو من أعضائه مقدر على ما يصلح به معاشه وقيل معناه ألهم خلقه ما يحتاجون إليه وعلمهم إياه .

وقيل معناه أحسن إلى كل خلقه ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ يعني آدم ﴿ ثم جعله نسله ﴾ يعني ذريته ﴿ من سلالة ﴾ أي من نطفة تنسل من الإنسان ﴿ من ماء مهين ﴾ أي ضعيف ﴿ ثم سواه ﴾ أي سوى خلقه ﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ أضاف إليه الروح إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح في الجسد فقال ﴿ وجعل لكم ﴾ أي خلق بعد أن كنتم نطفاً مواتاً ﴿ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ قيل قدم السمع لأن الإنسان يسمع أولاً كلاماً فينظر إلى قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه في ذلك الكلام ليفهم معناه ووحد السمع لأن الإنسان يسمع الكلام من اي جهة كان ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعمة فتوحدوه إلا قليلا .

قوله تعالى ﴿ وقالوا ﴾ يعني منكري البعث ﴿ أئذا ضللنا ﴾ هلكنا ﴿ في الأرض ﴾ والمعنى صرنا تراباً ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ استفهام إنكاري قال الله تعالى : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ قل يتوفاكم ﴾ أي يقبض أرواحكم حتى لا يبقى أحد ممن كتب عليه الموت ﴿ ملك الموت ﴾ وهو عزرائيل عليه السلام ﴿ الذي وكل بكم ﴾ أي أنه لا يغفل عنكم وإذا جاء أجل أحدكم لا يؤخر ساعة ولا شغل له إلا ذلك .

روي أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ما أحب من غير

مشقة ، فهو يقبض أرواح الخلائق من مشارق الأرض ومغاربها وله أعوان من الملائكة ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

وقال ابن عباس إن خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب ، وقال مجاهد : جعلت له الأرض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء ، وقيل إن ملك الموت على معراج بين السماء والأرض فتنزع أعوانه روح الإنسان ، فإذا بلغ ثغره نحره قبضه ملك الموت .

(306/612)

عن معاذ بن جبل قال : إن لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب ، وهو يتصفح وجوه الناس فما من أهل بيت إلا وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين ، فإذا رأى إنساناً قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال له الآن تنزل بك سكرات الموت .

وقوله ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي تصيرون إلى ربكم أحياء فيجزيكم بأعمالكم .

قوله ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ﴾ أي المشركون ﴿ ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾ أي يطأطئونها حياء من ربهم وندماً على ما فعلوا عند ربهم يقولون ﴿ ربنا أبصرنا ﴾ أي ما كنا به مكذبين ﴿ وسمعنا ﴾ يعني منك تصديق ما أتتنا به رسلك وقيل أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فيها ﴿ فارجعنا ﴾ أي فارددنا إلى الدنيا ﴿ نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾

أي في الحال آمنا ولكن لا ينفع ذلك الإيمان ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ أي رشدها وتوفيقها للإيمان ﴿ ولكن حق القول مني ﴾ أي وجب القول مني ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ أي من كفار الجن والإنس ﴿ فذوقوا ﴾ يعني فإذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة ذوقوا ﴿ بما نسيتم لقاء يومكم ﴾ أي تركتم الإيمان في الدنيا ﴿ هذا إنا نسيناكم ﴾ يعني تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعل بالناس قطعاً لرجائكم ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أي من الكفر والتكذيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 220 . 223 ﴾

(307/612)

وقال النسفى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الم ﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ وخبره ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع ﴿ تنزيل ﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف أو هو مبتدأ خبره ﴿ لا ريب فيه ﴾ أو يرتفع بالابتداء وخبره ﴿ من ربّ العالمين ﴾ و ﴿ لا ريب فيه ﴾ اعتراض لا محل له ، والضمير في ﴿ فيه ﴾ راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل : لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً

من رب العالمين لأنه معجز للبشر ومثله أبعد شيء من الريب .

ثم أضرب عن ذلك إلى قوله ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي اختلقه محمد لأن "أم" هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة معناه بل أيقولون افتراه إنكاراً لقولهم وتعجيباً منهم لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ﴿ بل هو الحقّ ﴾ ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق ﴿ من ربّك ﴾ ولم يفتره محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوا تعنتاً وجهلاً ﴿ لتنذر قوماً ﴾ أي العرب ﴿ مّا أتاهم مّن نّذيرٍ مّن قبلك ﴾ "ما" للنفي والجملة صفة ل ﴿ قوماً ﴾ ﴿ لعلّهم يهتدون ﴾ على الترجي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان لعله يتذكر على الترجي من موسى وهارون .

﴿ الله الّذي خلق السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّامٍ ثمّ استوى على العرش ﴾ استولى عليه بإحداثه ﴿ ما لكم مّن دونه ﴾ من دون الله ﴿ من وليّ ولا شفيعٍ ﴾ أي إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً أي ناصراً ينصركم ولا شفيعاً يشفع لكم ﴿ أفلا تتذكّرون ﴾ تتعظون بمواعظ الله ﴿ يدبّر الأمر ﴾ أي أمر الدنيا ﴿ من السّماء إلى الأرض ﴾ إلى أن تقوم الساعة ﴿ ثمّ يعرج إليه ﴾ ذلك الأمر كله أي يصير إليه ليحكم فيه ﴿ في يومٍ كان مقداره ألف سنةٍ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ مّمّا تعدّون ﴾ من أيام الدنيا ولا تمسّك للمشبهة بقوله ﴿ إليه ﴾ في إثبات الجهة لأن معناه إلى حيث يرضاه أو أمره كما لا تشبث لهم بقوله : ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ [الصافات : 99] .

﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ [العنكبوت : 26] .

﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ﴾ [النساء : 100] .

﴿ ذلك عالم الغيب والشّهادة ﴾ أي الموصوف بما مر عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه ﴿ العزيز ﴾ الغالب أمره ﴿ الرّحيم ﴾ البالغ لطفه وتيسيره .

وقيل : لا وقف عليه لأن ﴿ الّذي ﴾ صفته ﴿ أحسن كلّ شيءٍ ﴾ أي حسنه لأن كل شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة ﴿ خلقه ﴾ كوفي ونافع وسهل على الوصف أي كل شيء خلقه فقد أحسن ﴿ خلقه ﴾ غيرهم على البدل أي أحسن خلق كل شيء ﴿ وبدأ خلق الإنسان ﴾ آدم ﴿ من طينٍ ثمّ جعل نسله ﴾ ذريته ﴿ من سلالةٍ ﴾ من نطفة ﴿ مّن مّاءٍ ﴾ أي مني وهو بدل من ﴿ سلالة ﴾ ﴿ مّهينٍ ﴾ ضعيف حقير ﴿ ثمّ سواه ﴾ قومه كقوله

﴿ في أحسن تقويم ﴾ [التين : 4] ﴿ ونفخ ﴾ أدخل ﴿ فيه من رّوحه ﴾ الإضافة للاختصاص كأنه قال : ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه ﴿ وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿ قليلاً مّا تشكرون ﴾ أي

تشكرون قليلاً .

﴿ وقالوا ﴾ القائل أبيّ بن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم ﴿ أءذا ضللنا في الأرض ﴾ أي صرنا تراباً وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن ، أو غبنا في الأرض بالدفن فيها .

وقرأ عليٌّ ﴿ ضللنا ﴾ بكسر اللام يقال : ضل يضل وضل يضل .

وانتصب الظرف في ﴿ أإذا ضللنا ﴾ بما يدل عليه ﴿ أءنّا لفي خلقٍ جديدٍ ﴾ وهو نبعث ﴿ بل هم بلقاء ربّهم كافرون ﴾ جاحدون .

لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالبعث وحده ﴿ قل يتوفّاكم مّلك الموت الّذي وكّل بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون ﴾ أي يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم ثم ترجعون إلى ربكم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله .

والتوفي استيفاء النفس وهي الروح أي يقبض أرواحكم أجمعين من قولك "توفيت حقي من فلان" إذا أخذته وافياً كاملاً من غير نقصان .

(309/612)

وعن مجاهد : حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء .

وقيل : ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها والله تعالى هو الآمر لذلك كله وهو الخالق لأفعال المخلوقات .

وهذا وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله ﴿ توفته رسلنا ﴾ [الأنعام : 61] وقوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [الزمر : 42] .

﴿ ولو ترى ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد و"لو" امتناعية والجواب محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿ إذ المجرمون ﴾ هم الذين قالوا ﴿ أءذا ضللنا في الأرض ﴾ و"لو" و"إذ" للمضي وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود ولا يقدر لترى ما يتناوله كأنه قيل : ولو تكون منك الرؤية و"إذ" ظرف له ﴿ ناكسوا رؤوسهم ﴾ من الذل والحياء والندم ﴿ عند ربّهم ﴾ عند حساب ربهم ويوقف عليه لحق الحذف إذ التقدير ويقولون ﴿ ربّنا أبصرنا ﴾ صدق وعدك وعيدك ﴿ وسمعنا ﴾ منك تصديق رسلنا أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نعمل صالحاً ﴾ أي الإيمان والطاعة ﴿ إنّا موقنون ﴾ بالبعث والحساب الآن ﴿ ولو شئنا لآتينا كلّ نفسٍ هداها ﴾ في الدنيا أي لو شئنا أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا لكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار

الكفر وإيثاره ، وهو حجة على المعتزلة فإن عندهم شاء الله أن يعطي كل نفس ما به اهتدت وقد أعطاها لكنها لم تهتد ، وهم أوّلوا الآية بمشيئة الجبر وهو تأويل فاسد لما عرف في تبصر الأدلة .

﴿ ولكن حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين ﴾ ولكن وجب القول مني بما علمت أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنم وهو ما علم منهم أنهم يختارون الرد والتكذيب .

وفي تخصيص الإنس والجن إشارة إلى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم .

(310/612)

﴿ فذوقوا ﴾ العذاب ﴿ بما نسيتم لقاء ﴾ بما تركتم من عمل لقاء ﴿ يومكم هذا ﴾ وهو الإيمان به ﴿ إنّا نسيناكم ﴾ تركناكم في العذاب كالمنسي ﴿ وذقوا عذاب الخلد ﴾ أي العذاب الدائم الذي لا انقطاع له ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ من الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 286 . 289 ﴾

(311/612)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الم ﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فمبتدأ خبره :

﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ على أن التنزيل بمعنى المنزل ، وإن جعل تعديداً للحروف كان ﴿ تَنزِيلَ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ فيكون . ﴿ مِن رَّبّ العالمين ﴾ حالاً من الضمير في ﴿ فِيهِ ﴾ لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر ، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً ولا ﴿ رَيْبَ فِيهِ ﴾ حال من ﴿ الكتاب ﴾ ، أو اعتراض والضمير فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ فإنه إنكار لكونه من رب العالمين وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ فإنه تقرير له ، ونظم الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه ، ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين ، وقرر ذلك بنفي الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجيباً منه ، فإن ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وبين المقصود من تنزيله فقال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ ﴾ إذا كانوا أهل الفترة . ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ بإنذارك إياهم .

﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ مر

بيانه في "الأعراف" . ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ إذا جاوزتم رضا الله أحد ينصركم ويشفع لكم ، أو ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ سواه ولي ولا شفيع بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في مواطن نصركم على أن الشفيع متجوز به للناصر ، فإذا خذلكم لم يبق لكم ولي ولا ناصر . ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بمواعظ الله تعالى .

(312/612)

﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السماء إِلَى الأرض ﴾ يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلة آثارها إلى الأرض . ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ثم يصعد إليه ويثبت في علمه موجوداً . ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ في برهة من الزمان متطاولة يعني بذلك استطالة ما بين التدبير والوقوع . وقيل يدبر الأمر بإظهاره في اللوح فينزل به الملك ثم يعرج إليه في زمان هو كألف سنة ، لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرة ألف سنة فإن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة . وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر . وقيل يدبر الأمر إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله يوم القيامة . وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي ، ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلصين والأعمال الخلص ، وقرىء

"يَعْرُجُ" و "يَعْدُونَ" .

﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ فيدبر أمرهما على وفق الحكمة . ﴿ العزيز ﴾ الغالب على أمره . ﴿ الرحيم ﴾ على العباد في تدبيره ، وفيه إيماء بأنه سبحانه يراعي المصالح تفضلاً وإحساناً .

﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ خلقة موفراً عليه ما يستعد له ويليق به على وفق الحكمة والمصلحة ، وخلقه بدل من كل بدل الاشتمال وقل علم كيف يخلقه من قولهم قيمة المرء ما يحسنه أي يحسن معرفته ، و ﴿ خَلَقَهُ ﴾ مفعول ثان . وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على الوصف فالشيء على الأول مخصوص بمنفصل وعلى الثاني بمتصل . ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان ﴾ يعني آدم . ﴿ مِن طِينٍ ﴾ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ ذريته سميت بذلك لأنها تنسل منه أي تنفصل . ﴿ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ممتهن .

(313/612)

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ قَوَّمَهُ بتصوير أعضائه على ما ينبغي . ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ إضافة إلى نفسه تشريفاً له وإشعاراً بأنه خلق عجيب ، وأن له شأناً له مناسبة ما إلى الحضرة

الربوبية ولأجله قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ خصوصاً لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا . ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ تشكرون شكراً قليلاً .

﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الأرض ﴾ أي صرنا تراباً مخلوط بتراب الأرض لا نتميز منه ، أو غبنا فيها . وقرأ "ضَلَلْنَا" بالكسر من ضل يضل "وصللنا ﴾ من صل اللحم إذا أنتن ، وقرأ ابن عامر "إذا" على الخبر والعامل فيه ما دل عليه . ﴿ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو : نبعث أو يجدد خلقنا . وقرأ نافع والكسائي ويعقوب "أنا" على الخبر ، والقائل أبي بن خلف وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به . ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده . ﴿ كافرون ﴾ جاحدون .

﴿ قُلْ يتوفاكم ﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً ولا يبقي منكم أحداً ، والتفعل والإستفعال يلتقيان كثيراً كتقصيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته . ﴿ مَّلَكُ الموت الذى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ بقبض أرواحكم وإحصاء آجالكم . ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ للحساب والجزاء .

﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من الحياء والخزي . ﴿ رَبَّنَا ﴾ قائلين ربنا . ﴿ أبصارنا ﴾ ما وعدتنا . ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ منك تصديق رسلك . ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا . ﴿ نَعْمَلْ صالحا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا ، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً ، ويجوز أن تكون للتمني والمضي فيها وفي ﴿ إِذْ ﴾ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع ، ولا يقدر ل ﴿ تَرَى ﴾ مفعول لأن المعنى لو يكون منك رؤية في هذا الوقت ، أو يقدر ما دل عليه صلة إذا والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له . ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنِّي ﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ وذلك تصريح بعدم إيمانهم لعدم المشيئة المسبب عن سبق الحكم بأنهم من أهل النار ، ولا يدفعه جعل ذوق العذاب مسبباً عن نسيانهم العاقبة وعدم تفكرهم فيها بقوله :

﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له . ﴿ إِنَّا نسيناكم ﴾ تركناكم من الرحمة ، أو في العذاب ترك المنسي وفي استئنافه وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الانتقام منهم . ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كرر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وتعليله بأفعالهم السيئة من التكذيب

والمعاصي كما علله بتركهم تدبر أمر العاقبة والتفكير فيها دلالة على أن كلاً منهما يقتضي ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 354. 357 ﴾

(315/612)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة السجدة

مكية وهي ثلاثون آية ، وستمائة وثمانون كلمة ، وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ ذي الجلال والإكرام ﴿ الرحمن ﴾ بعموم البشارة والنذارة ﴿ الرحيم ﴾ الذي أسكن في قلوب أحبابه الشوق إليه والخضوع بين يديه وتقدّم في البقرة وغيرها الكلام على .

﴿ ألم ﴾ ومما لم يسبق أنها إشارة إلى أنّ الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى محمد الفاتح الخاتم صلى الله عليه وسلم بكتاب معجز دال بإعجازه على صحة رسالته ووحدانية من أرسله ، وسرد سبحانه هذه الأحرف في أوائل أربع من هذه السور فزادت على الطواسين بواحدة إشارة إلى أنّ هذه المعاني في غاية الثبات لا انقطاع لها ، ولما كان المقصود في التي قبلها إثبات الحكمة لمنزل هذا الكتاب الذي فيه تبيان كل شيء أخبر سبحانه وتعالى عن

هذا بأنه من عنده بقوله تعالى:

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي : الجامع لكل هدى على ما ترون من التدريج من السماء ﴿ لا ريب ﴾ أي : لا شك ﴿ فيه ﴾ لأنّ نافي الشك هو الإعجاز معه لا ينفك عنه فكل ما تقولونه مما يخالف ذلك تعنت أو جهل من غير ريب حال كونه ﴿ من ربّ العالمين ﴾ أي : الخالق لهم المدبر لمصالحهم فلا يجوز في عقل ولا يخطر في بال ولا يقع في وهم ولا يتصوّر في خيال أنه يصل شيء من كتابه تعالى إلى هذا النبي الكريم بغير أمره ، ولا يتخيل أنّ شيئاً منه ليس بقول الله تعالى ثم لا يتخيل أنه من كلامه ولكنه أخذه من بعض أهل الكتاب ؛ لأنّ هذا لا يفعل مع بعض الملوك فكيف بملك الملوك فكيف بمن هو عالم بالسرّ والجهر ، محيطٌ علمه بالخفي والجلي ، تنبيه : في تنزيل الكتاب إعرابات مختلفة ، وأظهرها ما جرى عليه الجلال المحلي من أنّ تنزيل الكتاب مبتدأ ، ولا ريب فيه خبر أوّل ومن رب العالمين خبر ثان . وقوله تعالى:

(316/612)

﴿ أم يقولون ﴾ أي : مع ذلك الذي لا يمتري فيه عاقل ﴿ افتراه ﴾ أي : تعمد كذبه ، أم فيه هي المنقطعة والإضراب للانتقال لا للإبطال ، وقيل الميم صلة ، أي : أتقولون افتراه . وقوله

تعالى ﴿ بل هو الحق ﴾ أي : الثابت ثباتاً لا يضاهيه ثبات شيء من الكتب قبله إضراب ثان ، ولو قيل بأنه إضراب إبطاليّ لنفس افتراه وحده لكان صواباً ، وعلى هذا يقال : كل ما في القرآن إضراب فهو إضراب انتقالي ، إلا هذا فإنه يجوز أن يكون إبطالياً لأنه إبطال لقولهم أي : ليس هو كما قالوا مفترى بل هو الحق . وفي كلام الزمخشري ما يرشد إلى هذا فإنه قال : والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل لا ريب في ذلك أي : في كونه من رب العالمين . قال ابن عادل : ويشهد لوجاهته أم يقولون افتراه لأنّ قولهم هذا مفترى إنكار لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله بل هو الحق من ربك وما فيه من تقرير أنه من عند الله ، وهذا أسلوب صحيح محكم انتهى . وقوله تعالى ﴿ من ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإنزاله وإحكامه حال من الحق ، والعامل فيه محذوف على القاعدة وهو العامل أيضاً في

(317/612)

﴿ لتنذر ﴾ ويجوز أن يكون العامل في لتنذر غيره ، أي : أنزله لتنذر ﴿ قوماً ﴾ أي : ذوي قوّة وجلد ومنعة ﴿ ما أتاهم من نذير ﴾ أي : رسول في هذه الأزمان القريبة لقول ابن عباس أنّ المراد الفترة ، ويؤيده إثبات الجار في قوله تعالى ﴿ من قبلك ﴾ ولما ذكر تعالى علة الإنزال أتبعه علة الإنذار بقوله تعالى : ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أي : ليكون حالهم في مجاري

العادات حال من تُرجى هدايته إلى كمال الشريعة ، وأمّا التوحيد فلا عذر لأحد فيه مع إقامة الله تعالى من حجة العقل ومع ما أتقنه الرسل عليهم الصلاة والسلام آدم فمن بعده من أوضح النقل بآثار دعواتهم وبقايا دلالاتهم ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن أبيه : "أبي وأبوك في النار" وغير ذلك من الأدلة الدالة على أنّ من مات قبل دعوته على الشرك فهو في النار ، لكن ذكر بعض العلماء أنّ من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنّ الله تعالى أحيا له أبويه وأسلما على يديه ولا بدع في ذلك ، فإنّ الله تعالى أكرمه بأشياء لا تحصر ، ولما ذكر تعالى : الرسالة وبين ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل قال : ﴿ الله ﴾ أي : الحاوي لجميع صفات الكمال وحده ﴿ الذي خلق السموات ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ بأسرها ﴿ وما بينهما ﴾ من المنافع العينية والمعنوية ﴿ في ستة أيام ﴾ كما يأتي تفصيله في فصلت إن شاء الله تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ وهو في اللغة سرير الملك استواء يليق به تعالى لم تعهد ، وأمثله وهو أنه تعالى أخذ في تدبيره وتدبير ما حواه بنفسه لا شريك له ولا نائب فيه ولا وزير كما تعهدون من ملوك الدنيا إذا امتنعت ممالكهم وتباعدت أطرافها وتناءت أقطارها ﴿ ما لكم من دونه ﴾ لأن كل ما سواه دونه وتحت قهره ، ودل على عموم النفي بقوله تعالى : ﴿ من ولي ﴾ أي : يلي أموركم ويقوم بمصالحكم وينصركم إذا حل بكم شيء مما تنذرون به ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع عنده في تدبيركم أو في أحد منكم بغير إذن . ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ هذا فتؤمنون .

ولما نفى أن يكون له وزيرٌ أو شريكٌ في الخلق ذكر كيف يفعل في هذا الملك العظيم الذي أبدعه فقال مستأنفاً مفسراً للمراد بالاستواء :

﴿ يدبر الأمر ﴾ أي : كل أمر هذا العالم بأن يفعل في ذلك فعل الناظر في أدباره لإتقان خواتمه ولوازمه ، كما نظر في إقباله لأحكام فواتحه وعوازمه ، لا يكل شيئاً منه إلى أحد من خلقه .

قال الرازي في اللوامع : وهذا دليل على أن استواءه على العرش بمعنى إظهاره القدرة ، والعرش مظهر التدبير لا مقر لمدبر .

ولما كان المقصود للقرب إنما هو تدبير ما يمكن مشاهدتهم له من العالم قال تعالى مفرداً :

﴿ من السماء ﴾ أي : فينزل ذلك الأمر الذي أتقنه كما يتقن من ينظر في إدبار ما يعمله

﴿ إلى الأرض ﴾ أي : غير متعرض إلى ما فوق ذلك ، على أن السماء تشمل كل عال فيدخل جميع العالم العلوي ، والأرض تشمل كل ما سفل فيشمل ذلك العالم السفلي .

تنبيه : ههنا همزتان مكسورتان ، فقالون وابن كثير يسهل الأولى كالياء مع المد والقصر ، وورش وقنبل يسهل الثانية ، ولهما إبدالهما من غير مدَ ، وأسقط أبو عمرو الأولى مع المد والقصر والباقون بتحقيقهما . ولما كان الصعود أشق من النزول على ما جرت به العوائد

فكان بذلك مستبعداً ؛ أشار إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ ثم يعرج ﴾ أي : يصعد ﴿ إليه ﴾ أي : بصعود الملك إلى الله تعالى أي : إلى الموضع الذي شرفه أو أمره بالكون فيه كقوله تعالى ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ (الصافات :)

﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ﴾ (النساء :)

(319/612)

ونحو ذلك ، أو إلى الموضع الذي ابتدأ منه نزول التدبير إلى السماء كأنه صاعد في معارج ، وهي الدرج على ما تتعارفون بينكم في أسرع من لمح البصر ﴿ في يوم ﴾ أي : من أيام الدنيا ﴿ كان مقداره ﴾ لو كان الصاعد واحداً منكم على ما تعهدون ﴿ ألف سنة مما تعدون ﴾ من سنيكم التي تعهدون ، قال البقاعي : والذي دل على هذا التقدير شيء من العرف وشيء من اللفظ ، أما اللفظ فالتعبير بكان مع انتظام الكلام بدونها لو أريد غير ذلك ، وأما العرف فهو أن الإنسان المتمكن يبني البيت العظيم العالي في سنة مثلاً ، فإذا فرغه صعد إليه خادمه إلى أعلاه في أقل من درجتين من درج الرمل ، فلا تكون نسبة ذلك من زمن بنائه الأجر ، أو لا يبعد هذا وهو خلق محتاج ، فما ظنّك بمن خلق الخلق في ستة أيام ولو شاء لخلقهم في لمحة ، وهو غني عن كل شيء قادر على كل شيء انتهى .

فنزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو ما بين السماء والأرض فإن مسافته خمسمائة سنة ، فينزل في مسيرة خمسمائة سنة ، ويعرج في خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة كأنه تعالى يقول : لو سار أحد من بني آدم لم يقطعه إلا في ألف سنة ، والملائكة يقطعونه في يوم واحد ، هذا في وصف عروج الملك من الأرض إلى السماء ، وأما قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ فأراد مدة المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل ، عليه السلام فسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا . قاله مجاهد والضحاك ، وورد أنه صلى الله عليه وسلم قال : "بين السماء والأرض خمسمائة عام ثم قال : أتدرون ما الذي فوقها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : سماء أخرى أتدرون كم بينها وبينها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : خمسمائة عام حتى عد سبع سموات ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : العرش ثم قال : أتدرون ما بينه وبين السماء السابعة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام ، ثم قال : ما هذه تحتكم ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : أرض ، أتدرون ما تحتها ؟ قلنا :

الله ورسوله أعلم قال : أرض أخرى أتدرون كم بينها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : مسيرة سبعمائة عام ، حتى عد سبع أرضين ثم قال : أيمُ الله لو دليتم بحبل لهبط على علم الله وقدرته" وروي : "مَثَلُ السموات والأرض في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة ، وإن فضل الكرسي على السموات والأرض كفضل الفلاة على تلك الحلقة" .

وقوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ (البقرة :)

(321/612)

يدل على أن الكرسي محيط بالكل . وقيل : مقدار ألف سنة وخمسين ألف سنة كلها في القيامة ، ومعناه حينئذ : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا ثم يعرج أي : يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا في يوم كان مقداره ذلك ، وذلك اليوم يتفاوت ، فهو على الكافر كخمسين ألف سنة ، وعلى المؤمن دون ذلك . بل جاء في الحديث أنه يكون على المؤمن كمثل صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا .

وقيل : إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ؛ وذلك لأن من نفد أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة ، فقوله : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ يعني : يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة ، فكم يكون شهر منه وكم يكون

سنة منه وكم يكون دهر منه ؟ وعلى هذا فلا فرق بين هذا وبين قوله : ﴿ مقداره خمسين ألف سنة ﴾ لأن ذلك إذا كان إشارة إلى دوام نفاذ الأمر فسواء يعبر بألف سنة أو بخمسين ألف سنة لا يتفاوت ، إلا أن المبالغة بالخمسين أكثر ، وسيأتي بيان فائدتها في موضعها إن شاء الله تعالى .

ولما تقرر هذا من عالم الأشباح والخلق ، ثم عالم الأرواح والأمر بيّن أنه تعالى عالم بما كان وما يكون بقوله تعالى:

﴿ ذلك ﴾ أي : الإله الواحد القهار ، ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي : ما غاب عن الخلق ، ومنه الذي تقدمت مفاتيحه وما حضر وظهر فيدبر أمرهما ﴿ العزيز ﴾ أي : الغالب على أمره ﴿ الرحيم ﴾ على العباد في تدبيره ، وفيه إيماء بأنه تعالى يراعي المصالح تفضلاً وإحساناً .

ولما ذكر تعالى الدليل على الوحدانية من الآفاق بقوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض وما بينهما ﴾ ذكر الدليل عليها من الأنفس بقوله تعالى:

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ قال ابن عباس : أتقنه وأحكمه ، فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (التين :)

وقال مقاتل : علم كيف يخلق كل شيء من قول القائل : فلان يحسن كذا إذا كان يتقنه ، وقيل : خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض ، وقيل : معناه أحسن إلى كل خلقه .

وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام فعلاً ماضياً ، والجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه ، والباقون بسكونها على أنه بدل من كل شيء بدل اشتمال والضمير عائد على كل شيء .

ولما كان الحيوان أشرف الأجناس وكان الإنسان أشرفه خصه بالذكر ليقوم دليل الوحدانية بالأنفس كما قام بالآفاق . فقال دالاً على البعث : ﴿ وبدأ خلق الإنسان ﴾ أي : آدم عليه السلام ﴿ من طين ﴾ قال الرازي : ويمكن أن يقال الطين ماء وتراب مجتمعان ، فالآدمي أصله مني ، والمني أصله غذاء ، والأغذية إما حيوانية أو نباتية ، والحيوانية ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو الطين .

﴿ ثم جعل نسله ﴾ أي : ذريته ﴿ من سلالة ﴾ أي : نطفة سميت سلالة لأنها تسل من الإنسان أي : تنفصل منه وتخرج من صلبه ، ونحوه قولهم للولد : سليل ، هذا على التفسير الأول ؛ لأن آدم كان من الطين ونسله من سلالة ﴿ من ماء مهين ﴾ أي : ضعيف ، وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من طين ، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هي ماء مهين وهو نطفة الرجل ، وأشار إلى عظمة ما بعد ذلك من خلقه وتطويره بقوله تعالى:

﴿ ثم سواه ﴾ قومه بتصوير أعضائه وإبداع المعاني على ما ينبغي ﴿ ونفخ فيه ﴾ أي : آدم ﴿ من روحه ﴾ أي : جعله حياً حساساً بعد أن كان جماداً ، وإضافة الروح إلى الله تعالى إضافة تشريف كبيت الله ، وناقة الله ، فيا له من شرف ما أعلاه ، ففيه إشعار بأنه خلق عجيب وإن له شأناً له مناسبة ما إلى الحضرة الربوبية ، قال البيضاوي : ولأجله أي : ولأجل كون أن له شأناً إلى آخره . روي : من عرف نفسه فقد عرف ربه . هذا الحديث لا أصل له ، وبتقدير أن له أصلاً ليس معناه ما ذكر بل معناه : من عرف نفسه وتأمل في حقيقتها عرف أن له صانعاً موجداً له ، وإليه أشار بقوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات :)

ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح في الجسد مخاطباً للذرية بقوله تعالى : ﴿ وجعل لكم ﴾ بعد أن كنتم نطفاً أمواتاً ﴿ السمع ﴾ أي : لتدركوا به ما يقال لكم ﴿ والأبصار ﴾ أي : لتدركوا بها الأشياء على ما هي عليه ﴿ والأفئدة ﴾ أي : القلوب المودعة غرائز العقول .

فإن قيل : ما الحكمة في تقديم السمع على البصر والبصر على الأفئدة ؟

أجيب بأن الإنسان يسمع أولاً كلاماً فينظر إلى قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه في ذلك الكلام

ليفهم معناه ، فإن قيل : ما الحكمة في ذكره المصدر في السمع وفي البصر والفؤاد الاسم ، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع ؛ لأن المصدر لا يجمع ؟

أجيب : بأن السمع قوة واحدة ولها محل واحد وهو الأُذن ولا اختيار لها فيه ، وإن الصوت من أي جانب كان واصل إليه ولا قدرة للأُذن على تخصيص السمع بإدراك البعض دون البعض ، وأما البصر فمحله العين ولها فيه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره ، وكذلك الفؤاد محله الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره .

(324/612)

فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له ، والعين كالأصل ، وقوة الإبصار آلتها ، والفؤاد كذلك ، وقوة الفهم آلته ، فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة ، وفي الإبصار والأفئدة الاسم الذي هو محل القوة ، ولأن السمع قوة واحدة لها محل واحد ، ولهذا لا يسمع الإنسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويرى في زمان واحد صورتين فأكثر ويثبتهما .

فإن قيل : لم قدم السمع هنا وقدم القول في قوله تعالى في البقرة ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ﴾ (البقرة :)

أجيب : بأنه تعالى عند الإعطاء ذكر الأدنى ثم ارتقى إلى الأعلى فكأنه قال : أعطاكم

السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب ، وعند السلب قال : ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذي يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها .

ولما لم يبادروا إلى الإيمان عند التذكير بهذه النعم الجسام قال تعالى : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي : تشكرون شكراً قليلاً ، فما مزيدة مؤكدة للقلة .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ معطوف على ما سبق منهم فإنهم قالوا : محمد ليس برسول ، والإله ليس بواحد ، والبعث ليس بممكن فدل على صحة الرسالة بنفي الريب عن الكتاب ، ثم على الوحدانية بشمول القدرة وإحاطة العلم بإبداع الخلق على وجه هو نعمة لهم ، وختم بالتعجب من كفرهم وكان استبعادهم للبعث الذي هو الثابت الأصل من أعظم كفرهم وهو قولهم ﴿ أئذا ﴾ أي : انبعث إذا ﴿ ضللنا ﴾ أي : غبنا ﴿ في الأرض ﴾ أي : صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا تتميز منه ، وأصله من ضل الماء في اللبن إذا أذهب فيه ، وقولهم ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ أي : يجدد خلقنا استفهام إنكاري زيادة في الاستبعاد .

فإن قيل : إنه تعالى ذكر الرسالة من قبل وذكر دليلها وهو التنزيل الذي لا ريب فيه ، وذكر الوحدانية ، وذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين . ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل ؟

أجيب : بأنه ذكر دليله أيضاً وهو أن خلقة الإنسان ابتداء دليل على قدرته على الإعادة ، ولهذا استدل تعالى على إنكار الحشر بالخلق الأول ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله تعالى : ﴿ الذي أنشأها أول مرة ﴾ (يس :)

وأيضاً ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ كما قال : ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أنه يخلق مثلهم بلى ﴾ (يس :)

وقرأ نافع والكسائي ﴿ أئذا ضللنا في الأرض ﴾ أنا الأول : بالاستفهام والثاني : بالخبر ، وقرأ ابن عامر الأول بالخبر الثاني بالاستفهام ، والباقون بالاستفهام فيهما ، ومذهب قالون وأبي عمرو في الاستفهام تسهيل الثانية وإدخال الألف بينها وبين همزة الاستفهام ، وورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير إدخال وهشام يسهل الثانية ويحققها مع الإدخال ، والباقون بتحقيقهما من غير إدخال . وقوله تعالى ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ أي : جاحدون إضراب عن الأول أي : ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانياً ، بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة ، حتى لو صدقوا بالخلق الثاني لما اعترفوا بالعذاب والثواب ، أو يكون المعنى لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم بلقاء الله ، فإنهم كرهوه فأنكروا المفضي إليه ، ثم

بين لهم ما يكون من الموت إلى العذاب بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : يا أفضل الخلق لهم ﴿ يتوفاكم ﴾ أي : يقبض أرواحكم ﴿ ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ أي : بقبض أرواحكم وهو عزرائيل عليه السلام والتوفي : استيفاء العدد ، معناه : أن يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذي كتب عليه الموت ، روي أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحةٍ لليد يأخذ منها صاحبها ما أحب من غير مشقة ، فهو يقبض أنفس الخلق من مشارق الأرض ومغاربها ، وله أعوان من ملائكة الرحمة وأعوان من ملائكة العذاب . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب ، وقال مجاهد : جعلت الأرض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء .

(326/612)

وفي بعض الأخبار : أن ملك الموت على معراج بين السماء والأرض فتنزع أعوانه روح الإنسان ، فإذا بلغ ثغرة نحره قبضه ملك الموت ، وعن معاذ بن جبل أن لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب وهو يتصفح وجوه الناس فما من أهل بيت إلا وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين ، فإذا رأى إنساناً قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال

: الآن يزار بك عسكر الموت ، فيصير ملقىً لا روح في شيء منه وهو على حاله كاملاً لا نقص في شيء منه يدعى الخلل بسببه .

فإذا كان هذا فعل عبد من عبيده تعالى صرّفه في ذلك فقام به كما ترونه مع أن ممازجة الروح للبدن أشد من ممازجة تراب البدن لبقية التراب ؛ لأنه ربما يستدل بعض الحذق على بعض ذلك بنوع دليل من شم ونحوه ، فكيف يستبعد شيء من الأشياء على رب العالمين ومدبر الخلائق أجمعين . نسأل الله تعالى أن يقبضنا على التوحيد ، وأن يستعملنا في طاعته ما أحيانا ويفعل ذلك بأهلنا وإحبائنا .

ولما قام هذا البرهان القطعي على قدرته التامة علم أن التقدير : ثم يعيدكم خلقاً جديداً كما كنتم أول مرة فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع إلى ذكره ، وعطف عليه قوله تعالى ﴿ ثم إلى ربكم ﴾ أي : الذي ابتدأ خلقكم وتربيتكم وأحسن إليكم غاية الإحسان ﴿ ترجعون ﴾ أي : تصيرون إليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم .

ولما تقرر دليل البعث بما لا خفاء فيه ولا لبس شرع في بعض أحواله بقوله تعالى:

﴿ ولو ترى ﴾ أي : تبصر ﴿ إذ المجرمون ﴾ أي : الكافرون ﴿ ناكسوا رؤوسهم ﴾ أي : مطأطؤها خوفاً وخجلاً وحزناً وذلاً ﴿ عند ربهم ﴾ المحسن إليهم المتوحد بتدبيرهم قائلين بغاية الذل والرقة ﴿ ربنا ﴾ أي : المحسن إلينا ﴿ أبصرنا ﴾ أي : ما كنا نكذب به

﴿ وسمعنا ﴾ منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه ﴿ فارجعنا ﴾ بمالك من هذه الصفة المقتضية للإحسان إلى الدنيا دار العمل ﴿ نعمل صالحاً ﴾ فيها ﴿ إنا موقنون ﴾ أي : ثابت لنا الآن الإيقان بجميع ما أخبرنا به عنك . W

(327/612)

فلا ينفعهم ذلك ولا يرجعون ، وجواب لو محذوف تقديره : لرأيت أمراً فظيعاً ، والمخاطب يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم شفاء لصدره ، فإنهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ، ويحتمل أن يكون عاماً . وإذ على بابها من المضي لأن لو تصرف المضارع للمضي ، وإنما جيء هنا ماضياً لتحقيق وقوعه نحو ﴿ أتى أمر الله ﴾ (النحل :)

وجعله أبو البقاء مما وقع فيه إذ موقع إذا ولا حاجة إليه . وقوله تعالى:

﴿ ولو شئنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ لآتينا كل نفس ﴾ أي : مكلفة لأن الكلام فيها ﴿ هداها ﴾ فتهتدي بالإيمان والطاعة باختيار منها جواب عن قولهم ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ وذلك أن الله تعالى قال : إني لو أردت منكم الإيمان لهديتكم في الدنيا ، ولما لم أهدكم تبين أني ما أردت ولا شئت إيمانكم فلا أردكم ، وهذا صريح في الدلالة على صحة مذهب أهل السنة حيث قالوا : إن الله تعالى ما أراد الإيمان من الكافر وما شاء منه إلا

الكفر ﴿ ولكن ﴾ لم أشأ ذلك لأنه ﴿ حق القول مني ﴾ وأنا من لا يخلف الميعاد ؛ لأن الإخلاف إما العجز أو نسيان أو حاجة ولا شيء من ذلك يليق بجنابي ولا يحل بساحتي ، وأكد لأجل إنكارهم فقال مقسماً : ﴿ لأملأن جهنم ﴾ أي : التي هي محل إهانتي ﴿ من الجنة ﴾ أي : الجن طائفة إبليس ، وكأنه تعالى أنثهم تحقيراً لهم عند من يستعظم أمرهم وبدأ بهم لاستعظامهم لهم ولأنهم الذين أضلوهم ﴿ والناس أجمعين ﴾ حيث قلت لإبليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ (ص :)

فلذلك شئت كفر الكافر وعصيان العاصي بعد أن جعلت لهم اختياراً ، وغيبت العاقبة عنهم ، فصار الكسب ينسب إليهم ظاهراً والخلق في الحقيقة والمشيئة لي .

ولما تسبب عن هذا القول الصادق أنه لا محيص بهم عن عذابهم قال لهم الخزنة إذا دخلوا جهنم:

(328/612)

﴿ فذوقوا ﴾ العذاب ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ نسيتم لقاء يومكم ﴾ وحققه وبين ذلك بقوله تعالى : ﴿ هذا ﴾ أي : بترككم الإيمان به ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي : عاملناكم بما لنا من العظمة ولكم من الحقارة معاملة الناسي لكم فتركناكم في العذاب ﴿ وذوقوا

عذاب الخلد ﴾ أي : المختص بأنه لا آخر له ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كنتم تعملون ﴾ أي : من الكفر والتكذيب وإنكار البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 298.289 ﴾

(329/612)

وقال القاسمى :

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الم ﴾ تقدم أن هذه الفواتح أسماء للسور : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : في كونه منزلاً : ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أي : اختلقه من تلقاء نفسه : ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي : يتبعون الحق . وذلك أن قريشا لم يبعث إليهم رسول قبله صلى الله عليه وسلم ، فلطف تعالى بهم وبعث فيهم رسولاً منهم صلّى الله عليه وسلم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم الكلام في ذلك : ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي : ما لكم عنده ناصر

ولا شفيع من الخلق : ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتعظون بالقرآن فتؤمنوا : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي : يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، من الملائكة وغيرها ، نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي : يصعد إليه ، أي : مع الملك للعرض عليه : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي : مقدار صعوده على غير الملك ، ألف سنة من سنين الدنيا .

قال ابن كثير : أي : يتنزل من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرضين ، كما الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء . انتهى .

(330/612)

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : المدبر : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ أي : ما غاب عن العباد , وما يكون : ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي : ما علمه العباد , وما كان : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الغالب على أمره : ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بالعباد في تدبره : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أي : أحكم خلق كل شيء ؛ لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ ﴾ يعني آدم : ﴿ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ أي : ذريته : ﴿ مِن سُلَالَةٍ ﴾ أي :

من نطفة : ﴿ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ أي : ضعيف ممتهن , والسلالة الخلاصة ، وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ أي : قوّمه في بطن أمه : ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ أي : جعل الروح فيه ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أي : خلق لكم هذه المشاعر ، لتدركوا بها الحق والهدى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : بأن تصرفوها إلى ما خلقت له .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي : كفار مكة : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا نتميز منه ، أو غبنا فيها : ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : نجدد بعد الموت : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ ﴾ أي : بالبعث بعد الموت للجزاء والحساب : ﴿ كَافِرُونَ ﴾ أي : جاحدون .

قال أبو السعود : إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث ، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه ، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة ، وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعاً : ﴿ قُلْ ﴾ أي : بياناً للحق ، وردّاً على زعمهم الباطل : ﴿ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ أي : يقبض أرواحكم : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : بالبعث للحساب والجزاء .

فائدة :

قال ابن أبي الحديد في " شرح نهج البلاغة " في هذه الآية : مذهب جمهور أصحابنا أن الروح جسم لطيف بخاريّ يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية ، ينفذ في العروق ، حالّةً فيها ، وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد .

وعندهم أن لملك الموت أعواناً تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه ، لولا ذلك لتعذر عليه ، وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب ؛ لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين ، في وقت واحد .

قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل .

قالوا : وكيفية القبض ، ولوج المَلَك من الفم إلى القلب ؛ لأنه جسم لطيف هوائي ، لا يتعذر عليه النفوذ في المُخَارِق الضيقة ، فيخالط الروح ، التي هي كالشبيهة بها ؛ لأنها بخاريّ ، ثم يخرج من حيث دخل ، وهي معه .

وإنما يكون ذلك في الوقت الذي يأذن الله تعالى له فيه ، وهو حضور الأجل .

فألزموا على ذلك أن يغوص المَلَك في الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء ، فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل المَلَك الماء في مسامّ الماء ، فإن فيه مسامّ ومنافذ ، وفي كل جسم ، على قاعدتهم في إثبات المسامّ في الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسامّ فيه ، لم يبعد أن يلجه الملَك فيوسع لنفسه مكاناً ، كما يلجه الحجر والسمك ، وغيرهما . وكالريح الشديدة التي تقرع ظاهر البحر فتقعره وتحفره ، وقوة الملك أشد من قوة الريح . انتهى .

والأولى الوقوف ، فيما لم تعلم كيفيته ، عند متلوّه وعدم مجاوزته ، أدباً عن التهجم على الغيب وتورعاً عن محاولة مالا يُبلغ كنهه ، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه ، وهم الخيرة والأسوة ، والله أعلم .

(332/612)

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وهم القائلون تلك المقالة الشنعاء : ﴿ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : مطأطئوها من الحياء والخزي ، لما قدمت أيديهم : ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي : يقولون ربنا : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي : علمنا ما لم نعلم ، وأيقنا بما لم نكن به موقنين : ﴿ فَارْجِعْنَا ﴾ أي : إلى الدنيا : ﴿ نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أي : مقرّون بك ، وبكتابك ، ورسولك ، والجزاء .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ أي : تقواها : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ أي : في القضاء السابق : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : سبق القول حيث

قلت لإبليس ، عند قوله : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : 39 - 40] ، ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 84 - 85] ، أي : فمبوجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم ، بل منعناه من أتباع إبليس ، الذين هؤلاء من جملتهم حيث صرفوا اختيارهم إلى الغي والفساد ، ومشيئته تعالى لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها ، فلما لم يختاروا الهدى ، واختاروا الضلالة ، لم يشأ إعطاءه لهم ، وإنما آتاه الذين اختاروه من النفوس البرّة ، وهم المعنيون بما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ [السجدة : 15] الآية . فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى في الحقيقة سوء اختيارهم ، لا تحقق القول . أفاده أبو السعود .

(333/612)

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي : تركتم الإقرار به ، والإيمان بصدق موعوده ، وعاملتموه معاملة المنسي المهجور : ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أي : جازيناكم جزاء نسيانكم ، أو تركناكم في العذاب ترك المنسي : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : من الموبقات ، والتكرير للتأكيد والتشديد ، وتعيين الفعل المطويّ للذوق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 623.626 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث عشر بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث عشر بعد الستمائة

من الآية ﴿ 15 ﴾ من سورة السجدة

وحتى الآية ﴿ 25 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/613)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قوله تعالى : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ قد أشار إلى أن الحامل لهم على الكفر الكبر ، وذكر سبحانه أنه قسم الناس قسمين لأجل الدارين ، تشوفت النفس إلى ذكر علامة أهل الإيمان كما ذكرت علامة أهل الكفران ، فقال معرفاً أن المجرمين لا سبيل إلى إيمانهم ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ الدالة

على عظمتنا ﴿ الذين إذا ذكروا بها ﴾ من أيّ مذكر كان ، في أيّ وقت كان ، قبل كشف الغطاء وبعده ﴿ خروا سجداً ﴾ أي بادروا إلى السجود مبادرة من كأنه سقط من غير قصد ، خضعاً لله من شدة تواضعهم وخشيتهم وإخباتهم له خضوعاً ثابتاً دائماً ﴿ وسبحوا ﴾ أي أوقعوا التنزيه عن كل شائبة نقص من ترك البعث المؤدي إلى تضييع الحكمة ومن غيره متلبسين ﴿ بحمد ﴾ ولفت الكلام إلى الصفة المقتضية لتنزيههم وحمدهم تنبيهاً لهم فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي بإثباتهم له الإحاطة بصفات الكمال ، ولما تضمن هذا تواضعهم ، صرح به في قوله : ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ أي لا يجددون طلب الكبر عن شيء مما دعاهم إليه الهادي ولا يوجدونه خلقاً لهم راسخاً في ضمائرهم .

(5/613)

ولما كان المتواضع ربما نسب إلى الكسل ، نفى ذلك عنهم بقوله مبيناً بما تضمنته الآية السالفة من خوفهم : ﴿ تتجافى ﴾ أي ترتفع ارتفاع مبالغ في الجفاء - بما أشار إليه الإظهار ، وبشر بكثرتهم بالتعبير بجمع الكثرة فقال : ﴿ جنوبهم ﴾ بعد النوم ﴿ عن المضاجع ﴾ أي الفرش الموطأة الممهدة التي هي محل الراحة والسكون والنوم ، فيكونون عليها كالملسوعين ، لا يقدرون على الاستقرار عليها ، في الليل الذي هو موضع الخلوة ومحط اللذة

والسرور بما تهواه النفوس ، قال الإمام السهروردي في الباب السادس والأربعين من عوارفه عن المحبين : قيل : نومهم نوم الفرقى ، وأكلهم أكل المرضى ، وكلامهم ضرورة ، فمن نام عن غلبة بهمّ مجتمع متعلق بقيام الليل وفق لقيام الليل ، وإنما النفس إذا طعمت ووطنت على النوم استرسلت فيه ، وإذا أزعجت بصدق العزيمة لا تسترسل في الاستقرار ، وهذا الانزعاج في النفس بصدق العزيمة هو التجافي الذي قال الله ، لأن الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنس والمضجع سواء وتجافياً .

ولما كان هجران المضجع قد يكون لغير العبادة ، بين أنه لها ، فقال مبيناً لحالهم :

﴿ يدعون ﴾ أي على سبيل الاستمرار ، وأظهر الوصف الذي جرأهم على السؤال فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي الذي عودهم بإحسانه : ثم علل دعاءهم بقوله : ﴿ خوفاً ﴾ أي من سخطه وعقابه ، فإن أسباب الخوف من نقائضهم كثيرة سواء عرفوا سبباً يوجب خوفاً أو لا ، فهم لا يأمنون مكره لأن له أن يفعل ما يشاء ﴿ وطمعاً ﴾ أي في رضاه الموجب لثوابه ، وعبر به دون الرجاء إشارة إلى أنهم لشدة معرفتهم بنقائصهم لا يعدون أعمالهم شيئاً بل يطلبون فضله بغير سبب ، وإذا كانوا يرجون رحمته بغير سبب فهم مع السبب أرجى ، فهم لا ييأسون من روحه .

ولما كانت العبادة تقطع عن التوسع في الدنيا ، فربما دعت نفس العابد إلى التسمك بما في يده خوفاً من نقص العبادة عن الحاجة لتشوش الفكر والحركة لطلب الرزق ، حث على الإنفاق منه اعتماداً على الخلاق الرزاق الذي ضمن الخلف ليكونوا بما ضمن لهم أوثق منهم بما عندهم ، وإيذاناً بأن الصلاة سبب للبركة في الرزق ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك ﴾ [طه : 132] ، فقال لفتاً إلى مظهر العظمة تنبيهاً على أن الرزق منه وحده : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي بعظمتنا ، لا حول منهم ولا قوة ﴿ ينفقون ﴾ من غير إسراف ولا تقتير في جميع وجوه القرب التي شرعناها لهم .

ولما ذكر جزاء المستكبرين ، فتشوفت النفس إلى جزاء المتواضعين ، أشار إلى جزائهم بفاء السبب ، إشارة إلى أنه هو الذي وفقهم لهذه الأعمال برحمته ، وجعلها سبباً إلى دخول جنته ، ولو شاء لكان غير ذلك فقال : ﴿ فلا تعلم نفس ﴾ أي من جميع النفوس مقربة ولا غيرها ﴿ ما أخفي لهم ﴾ أي لهؤلاء المتذكرين من العالم بمفاتيح الغيوب وخزائنها كما كانوا يخفون أعمالهم بالصلاة في جوف الليل وغير ذلك ولا يراؤون بها ، ولعله بني للمفعول في قراءة الجماعة تعظيماً له بذهاب الفكر في المخفي كل مذهب أو للعلم بأنه الله تعالى الذي أخفوا نوافل أعمالهم لأجله ، وسكن حمزة الياء على أنه للمتكلم سبحانه لفتاً لأسلوب العظمة إلى أسلوب الملاطفة ، والسر مناسبته لحال الأعمال .

(7/613)

ولما كانت العين لا تقر فتهجع إلا عند الأمن والسرور قال : ﴿ من قرة أعين ﴾ أي من شيء نفيس سارّ تقر به أعينهم لأجل ما أقلعوها عن قرارها بالنوم ؛ ثم صرح بما أفهمته فاء السبب فقال : ﴿ جزاء ﴾ أي أخفاها لهم لجزائهم ﴿ بما كانوا ﴾ أي بما هو لهم كالجبلة ﴿ يعملون ﴾ روى البخاري في التفسير عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " ، قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ﴾ – الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 57 ـ 59 ﴾

(8/613)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾

إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل ، وإنما ينساه البعض فإذا ذكر بها خرّ ساجداً له ، يعني انقادت أعضاؤه له ، وسبح بحمده ، يعني ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك ، وهم لا يستكبرون ، يعني وكان قلبه خاشعاً لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقاً .

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16)

يعني بالليل قليلاً ما يهجعون وقوله : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي يصلون ، فإن الدعاء والصلاة من باب واحد في المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافي الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة ، والحمل على الأول أولى لأنه قال بعده : ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ وفي أكثر المواضع التي ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] وقوله : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً له ويحتمل أن يكون حالاً ، أي خائفين طامعين كقولك جاؤني زوراً أي زائرين ، وكأن في الآية الأولى إشارة إلى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى : ﴿ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ ﴾ [السجدة : 15] فإنه يدل على أن عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وإن لم يكن خوف وطمع .

وفي الآية الثانية إشارة إلى المرتبتين الأخيرتين وهي العبادة خوفاً كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعاً في بره ، ثم بين ما يكون لهم جزاء فعلهم .

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

يعني مما تقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره يقال إن هذا لا يدخل في عيني ، يعني عيني تطلع إلى غيره ، فإذا لم يبق تطلع للعين إلى شيء آخر لم يبق للعين مسرح إلى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد ، وهذا فيه لطيفة وهي أن من العبد شيئاً وهو العمل الصالح ، ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام ، فلله تعالى أن يقول جزاء الإحسان إحسان ، وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن في مقابلته ، فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض ، وله أن يقول جعلت الأول تفضلاً لا أطلب عليه جزاء ، فإذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شيء لأني أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتياً بالحسنة ابتداء ، وجزاء الإحسان إحسان ، فأجعل الثواب جزاء كلاهما جائز ، لكن غاية الكرم أن يجعل الأول هبة ويجعل الثاني مقابلاً وعوضاً لأن العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء ، وإنما الله يتفضل يثق ولكن لا يطمئن قلبه ، وإذا قيل له الأول غير محسوب عليك والذي أتيت به أنت به باد ولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم إذا عرف أن هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا أستحق به جزاء ، فإذا أثابه الله تعالى يقول الذي أتيت به كان جزاء ، وهذا ابتداء

إحسان من الله تعالى يستحق حمداً وشكراً فيأتي بحسنة فيقول الله إني أحسنت إليه جزاء فعله الأول وما فعلت أولا لا أطلب له جزاء فيجازيه ثالثاً فيشكر العبد ثالثاً فيجازيه رابعاً وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ، ومثله في الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما إلى الآخر هدية ونسيها والمهدي إليه يتذكرها فأهدى إلى المهدي عوضاً فرآه المهدي الأول ابتداء لنسيانه ما أهداه إليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة ، وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض عنه المحب الآخر ويتسلسل الأمر بينهما ولا ينقطع التهادي والتحاب ، بخلاف

(10/613)

من أرسل إلى واحد هدية وهو يتذكرها فإذا بعث إليه المهدي إليه عوضاً يقول المهدي هذا عوض ما أهديت إليه فيسكت ويترك الإهداء فينقطع ، واعلم أن التكاليف يوم القيامة ، وإن ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما يعبده في الدنيا ، وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال في حقهم ﴿يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : 20] غاية ما في الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي بمقتضى الطبع ومن جملة الأسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا

وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وإن قرب العبد منه بل تزداد لذتها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 157.158 ﴾

(11/613)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾ .

(12/613)

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ الْجُرْجَانِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ ﴿ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾ قَالَ : كُنْت مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْت يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ ، فَقُلْت : يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ قَالَ : لَقَدْ سَأَلْت عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومَ

رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَدُلُّك عَلَى أَبْوَابٍ مِنْ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : أَلَا أُخْبِرُك بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ قُلْت : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : رَأْسُهُ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا أُخْبِرُك بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ قُلْت : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ : اكْفُفْ عَلَيْك هَذَا قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ قَالَ : ثَكِلَتْك أُمُّك يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى

(13/613)

مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ . ﴾

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ : تَلَا قَتَادَةُ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ قَالَ : ﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْدَدْت لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴾ وَرَوَى أَبُو إسْحَاقَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : (لِلَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا

خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾ قَالَا : (الْعِشَاءُ الْآخِرَةُ) .

وَقَالَ الْحَسَنُ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾ (كَانُوا يَنْتَفِلُونَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ) .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ : (إنَّهُمْ يَذْكُرُونَ اللَّهَ بِالدُّعَاءِ وَالتَّعْظِيمِ) .

وَقَالَ قَتَادَةُ : (خَوْفًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَطَمَعًا فِي رَحْمَةِ اللَّهِ) ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (فِي طَاعَةِ اللَّهِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(14/613)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْمَضَاجِعُ جَمْعُ مَضْجَعٍ ، وَهِيَ مَوَاضِعُ النَّوْمِ .

وَيُحْتَمَلُ وَقْتُ الِاضْطِجَاعِ ، وَلَكِنَّهُ مَجَازٌ .

وَالْحَقِيقَةُ أَوْلَى ، وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ السَّهَرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : إلَى أَيِّ طَاعَةِ اللَّهِ تَتَجَافَى ؟ وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : ذِكْرُ اللَّهِ .

وَالْآخَرُ الصَّلَاةُ .

وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ ، إلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا عَامٌّ ، وَالْآخَرَ خَاصٌّ .

فَإِنْ قُلْنَا : إنَّ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ ، فَأَيُّ صَلَاةٍ هِيَ ؟ فِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا النَّفَلُ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ؛ قَالَ قَتَادَةُ .

الثَّانِي : أَنَّهَا الْعَتَمَةُ ؛ قَالَهُ أَنَسٌ وَعَطَاءٌ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا صَلَاةُ الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ فِي جَمَاعَةٍ ؛ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ قِيَامُ اللَّيْلِ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَالْأَوْزَاعِيُّ ، وَمَالِكٌ .

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : هُوَ قِيَامُ اللَّيْلِ بَعْدَ النَّوْمِ ، وَذَلِكَ أَثْقَلُهُ عَلَى النَّاسِ ، وَمَتَى كَانَ النَّوْمُ حِينَئِذٍ أَحَبَّ فَالصَّلَاةُ حِينَئِذٍ أَحَبُّ وَأَوْلَى .

وَالْقَوْلُ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ مَضَى ، وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ الزُّمَرِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : يصدق بحجتنا ، قاله ابن شجرة .

الثاني : يصدق بالقرآن وآياته ، قاله ابن جبير .

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : الذين إذا دعوا إلى الصلوات الخمس بالأذان أو الإقامة أجابوا إليها قاله أبو معاذ ، لأن المنافقين كانوا إذا أقيمت الصلاة خرجوا من أبواب المساجد .

الثاني : إذا قرئت عليهم آيات القرآن خضعوا بالسجود على الأرض طاعة لله وتصديقاً بالقرآن . وكل ما سقط على شيء فقد خر عليه قال الشاعر :

وخر على الألاءِ ولم يوسد . . . كأن جبينه سيف صقيل

﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : معناه صلوا حمداً لربهم ، قاله سفيان .

الثاني : سبحوا بمعرفة الله وطاعته ، قاله قتادة .

﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : عن عبادته ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : عن السجود كما استكبر أهل مكة عن السجود له ، حكاه النقاش .

قوله : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عِنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي ترتفع عن مواضع الاضطجاع قال ابن رواحة :

يبيت يجافي جنبه عن فِراشِه . . . إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان

: أحدهما : لذكر الله إما في صلاة أو في غير صلاة قاله ابن عباس والضحاك .

الثاني : للصلاة – روى ميمون بن شبيب عن معاذ بن جبل قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فقال : " إِنْ شِئْتَ أَنبَأْتُكَ بِأَبوابِ الْخَيرِ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الخَطِيئَةَ وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيلِ " ثم تلا هذه الآية .

وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقاويل :

أحدها : التنفل بين المغرب والعشاء ، قاله قتادة وعكرمة .

الثاني : صلاة العشاء التي يقال لها صلاة العتمة ، قاله الحسن وعطاء .

(16/613)

الثالث : صلاة الصبح والعشاء في جماعة ، قاله أبو الدرداء وعبادة .

الرابع : قيام الليل ، قاله مجاهد والأوزاعي ومالك وابن زيد .

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : خوفاً من حسابه وطمعاً في رحمته .

الثاني : خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه .

ويحتمل ثالثاً : يدعونه في دفع ما يخافون والتماس ما يرجون ولا يعدلون عنه في خوف ولا رجاء .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فيه أربعة تأويلات

: أحدها : يؤتون الزكاة احتساباً لها ، قاله ابن عباس .

الثاني : صدقة يتطوع بها سوى الزكاة ، قاله قتادة .

الثالث : النفقة في طاعة الله ، قال قتادة : أنفقوا مما أعطاكم الله فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها .

الرابع : أنها نفقة الرجل على أهله .

قوله : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، قاله ابن مسعود .

الثاني : أنه للمجهدين قاله تبيع . وفي ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ التي أخفيت لهم أربعة أوجه :

أحدها : رواه الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنِي أَعْدَدْتُ لِعبَادي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَينٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ " الآية .

الثاني : أنه جزاء قوم أخفوا عملهم فأخفى الله ما أعده لهم . قال الحسن بالخفية : خفية وبالعلانية علانية .

الثالث : أنها زيادة تحف من الله ليست في حياتهم يكرمهم بها في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، قاله ابن جبير .

الرابع : أنه زيادة نعيمهم وسجود الملائكة لهم ، قاله كعب .

ويحتمل خامساً : اتصال السرور بدوام النعيم .

﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني من فعل الطاعات واجتناب المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(17/613)

وقال ابن عطية :

ثم أثنى عز وجل على القوم الذين يؤمنون بآياته ووصفهم بالصفة الحسنى بسجودهم عند التذكير وتسبيحهم وعدم استكبارهم بخلاف ما يصنع الكفر من الإعراض عند التذكير وقول الهجر وإظهار التكبر . وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن ، وقال ابن عباس : السجود هنا بمعنى الركوع ، وقد روي عن ابن جريج ومجاهد أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إذا أقيمت الصلاة خرجوا من المسجد فكان الركوع يقصد من هذا ، ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية ، وأيضاً فمن مذهب ابن عباس أن القارىء للسجدة يركع واستدل بقوله ﴿ وخر راكعاً وأناب ﴾ [ص : 24] .

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16)

جفا الرجل الموضع إذا تركه ، و" تجافى الجنب " عن مضجعه إذا تركه وجافى الرجل جنبه عن مضجعه ، ومنه في الحديث " ويجافي بضبعيه " أي يبعدهما عن الأرض وعن يديه ، فقوله ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ أي تبعد وتزول ، ومنه قول عبد الله بن رواحة : [الطويل]

نَبِيٌّ تجافى جنبه عن فراشه . . . إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ويروى ببيت يجافي ، قال الزجاج والرماني : التجافي التنحي إلى جهة فوق .

(18/613)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا قول حسن ، وكذلك في الصفح عن المخطي في سب ونحوه ، و" الجنوب " جمع جنب ، و﴿ المضجع ﴾ موضع الاضطجاع للنوم ، وقال أنس بن مالك : أراد بهذه الآية الصلاة بين المغرب والعشاء ، وقال عطاء وأبو سلمة أراد صلاة العشاء الآخرة ، وقال أبو محمد : وكانت الجاهلية ينامون من أول المغرب ومن أي وقت شاء الإنسان فجاء انتظار وقت العشاء الآخرة غريباً شاقاً ، وقال أنس بن مالك أيضاً : أراد انتظار العشاء الآخرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل وفي ذلك أحاديث كثيرة ، وقال الضحاك : " تجافي الجنب " هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة وهذا قول حسن يساعده لفظ الآية ، وقال الجمهور من المفسرين : أراد بهذا التجافي صلاة النوافل بالليل .

(19/613)

قال الفقيه الإمام القاضي : وعلى هذا التأويل أكثر الناس ، وهو الذي فيه المدح ، وفيه أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يذكر قيام الليل ثم يستشهد بالآية ، ذكره الطبري عن معاذ بن جبل ، ورجح الزجاج هذا القول بأنهم جزوا بإخفاء فدل ذلك على أن العمل

إخفاء أيضاً وهو قيام الليل ، وقوله ﴿ يدعون ﴾ يحتمل أن يكون في موضع الحال من الموصوفين ، أي في وقت التجافي ، ويحتمل أن يكون صفة مستأنفة ، أي ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ وهم أيضاً في كل أحوالهم ﴿ يدعون ﴾ ليلهم ونهارهم . و" الخوف " من عذاب الله ، و" الطمع " في ثواب الله . و ﴿ ينفقون ﴾ قيل معناه الزكاة المفروضة وقيل النوافل والصدقات غير المفروضة وهذا القول أمدح ، ثم ذكر تعالى وعدهم من النعيم بما لم تعلمه نفس ولا بشر ولا ملك ، وقرأ حمزة واحده " أخفي " بسكون الياء كأنه قال أخفي أنا وهي قراءة الأعمش ، وروي عنه " ما أخفيت لهم من قرة أعين " ، وقرأ عبد الله " ما نُخفي لهم " بالنون مضمومة ، وروى المفضل عن الأعمش " ما يُخفَى لهم " بالياء المضمومة وفتح الفاء ، وقرأ محمد بن كعب " ما أَخفى " بفتح الهمزة ، أي ما أخفى الله ، وقرأ جمهور الناس " أُخفيَ " بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول ، و ﴿ ما ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى الذي ، فعلى القراءة الأولى فثم ضمير محذوف تقديره أخفيه ، وعلى قراءة الجمهور فالضمير الذي لم يسم فاعله يجري في العودة على الذي ، ويحتمل أن تكون استفهاماً ، فعلى القراءة الأولى فهي في موضع نصب ب " أخفي " وعلى القراءة الثانية هي في موضع رفع بالابتداء ، و ﴿ قرة أعين ﴾ ما تلذه وتشتيهه وهي مأخوذة من القر كما أن سخنة العين مأخوذة من السخانة ، وأصل هذا فيما يزعمون أن دمع الفرح بارد ودمع الحزن سخن ، وفي معنى هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل :

(20/613)

" أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر "

واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ .

وقال ابن مسعود : " في التوراة مكتوب على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة وأبو الدرداء " قرات " على الجمع ، وقوله ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي بتكسبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(21/613)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا ﴾

هذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي أنهم لإلْفهم الكفر لا يؤمنون بك ؛ إنما يؤمن بك وبالقرآن المتدبرون له والمتعظون به ، وهم الذين إذا قرىء عليهم القرآن ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً

﴿ قال ابن عباس : ركّعاً .

قال المهدويّ : وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة ؛ واستدلّ بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [ص : 24] .

وقيل : المراد به السجود ، وعليه أكثر العلماء ؛ أي خَرُّوا سُجَّداً لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وخَوْفاً من سَطْوته وعذابه .

﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي خلطوا التسبيح بالحمد ؛ أي نزّهوه وحَمِدوه ؛ فقالوا في سجودهم : سبحان الله وبحمده ، سبحان ربِّيَ الأعلى وبحمده ؛ أي تنزيهاً لله تعالى عن قول المشركين .

وقال سفيان : "وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ" أي صلُّوا حمداً لربهم .

﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته ؛ قاله يحيى بن سلام .

النقاش : "لاَ يَسْتَكْبِرُونَ" كما استكبر أهل مكة عن السجود .

قوله تعالى : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ أي ترتفع وتَنْبُو عن مواضع الاضطجاع .

وهو في موضع نصب على الحال ؛ أي متجافية جنوبهم .

والمضاجع جمع مضجع ؛ وهي مواضع النوم .

ويحتمل عن وقت الاضطجاع ، ولكنه مجاز ، والحقيقة أوْلى .

ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه . . .

إذا انشق معروف من الصبح ساطع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه . . .

إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قال الزّجاج والرُّمانِيّ : التّجافي التنحّي إلى جهة فوق .

وكذلك هو في الصفح عن المخطىء في سَبٍّ ونحوه .

والجُنوب جمع جنب .

وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان : أحدهما : لذكر الله تعالى ، إمّا في صلاة وإما في غير صلاة ؛ قاله ابن عباس والضحاك .

(22/613)

الثاني : للصلاة .

وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها : التّنفّل بالليل ؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس ، وهو الذي فيه المدح ، وهو قول مجاهد والأوزاعيّ ومالك بن أنس والحسن بن أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم .

ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ لأنهم جُوزُوا على ما أخفوا بما خفي .

والله أعلم .

وسيأتي بيانه .

وفي قيام الليل أحاديث كثيرة ؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له :

" أَلاَ أَدُلُّك على أبواب الخير : الصوم جُنّة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل من جَوْف الليل قال ثم تلا ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع حتى بلغ يَعْمَلُونَ ﴾ " أخرجه أبو داود الطيالسيّ في مسنده والقاضي إسماعيل بن إسحاق وأبو عيسى الترمذيّ ، وقال فيه : حديث حسن صحيح .

الثاني : صلاة العشاء التي يقال لها العتمة ؛ قاله الحسن وعطاء .

وفي الترمذيّ : عن أنس بن مالك أن هذه الآية ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تُدْعَى العَتَمَة قال : هذا حديث حسن غريب .

الثالث : التنفُّل ما بين المغرب والعشاء ؛ قاله قتادة وعكرمة .

وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال : كانوا يتنفَّلون ما بين المغرب والعشاء .

الرابع : قال الضحاك : تَجافِي الجُنُب هو أن يصلّي الرجل العشاء والصبح في جماعة .

وقاله أبو الدّرداء وعُبادة .

(23/613)

قلت : وهذا قول حسن ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى ، وذلك أن منتظِر العشاء إلى أن يصليها في صلاة وذكرٍ لله جلّ وعز ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يزال الرجل في صلاة ما انتظر الصلاة " وقال أنس : المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل .

قال ابن عطية : وكانت الجاهلية ينامون من أوّل الغروب ومن أيّ وقت شاء الإنسان ، فجاء انتظار وقت العشاء غريباً شاقّاً .

ومصلِّي الصبح في جماعة لا سيما في أوّل الوقت ؛ كما كان عليه السلام يصليها .

والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة في أوّل الوقت يقوم سَحَراً يتوضأ ويصليّ ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر ؛ فقد حصل التجافي أوّلَ الليل وآخره .

يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح

في جماعة فكأنما قام الليل كله " ولفظ الترمذي وأبي داود في هذا الحديث : " من شهد العشاء في جماعة كان له قيام نصف ليلة ، ومن صلّى العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة " وقد مضى في سورة "النور" عن كعب فيمن صلّى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات كن له بمنزلة ليلة القدر .

وجاءت آثار حسان في فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل .

ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثني محمد بن الحجاج أو ابن أبي الحجاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصر في الجنة" فقال له عمر بن الخطاب : إذاً تَكْثُر قصورنا وبيوتنا يا رسول لله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الله أكبر وأفضل أو قال أطيب" " وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : صلاة الأوّابين الخلوة التي بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة .

(24/613)

وكان عبد الله بن مسعود يصلّي في تلك الساعة ويقول : صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء ؛ ذكره ابن المبارك .

ورواه الثعلبي مرفوعاً عن ابن عمر قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من جَفَتْ جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصران في الجنة مسيرة عام ، وفيهما من الشجر ما لو نزلها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة " وهي صلاة الأوّابين وغفلة الغافلين .

وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يردّ الدعاء بين المغرب والعشاء .

فصل في فضل التجافي : ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكرم ؛ لِيَقُمِ الحامدون لله على كل حال ، فيقومون فيُسَرّحون إلى الجنة .

ثم ينادي ثانية : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيَقُمِ الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

قال : فيقومون فيسرحون إلى الجنة .

قال : ثم ينادي ثالثة : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيَقُمِ الذين كانوا ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصلاة وَإِيتَآءِ الزكاة يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة .

(25/613)

ذكره الثعلبيّ مرفوعاً عن أسماء بنت يزيد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أوْلى بالكَرَمِ ، لِيَقُمِ الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ، ثم ينادي الثانيةَ ستعلمون اليومَ مَن أوْلَى بالكرمِ ليَقُمِ الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون ، ثم ينادي الثالثةَ ستعلمون اليوم من أولى بالكرمِ ليَقُمِ الحامدون لله على كل حال في السرّاء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ، ثم يحاسب سائر الناس " وذكر ابن المبارك قال أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبي العلاء بن الشّخّير عن أبي ذرّ قال : ثلاثة يَضْحَك الله إليهم ويستبشر الله بهم : رجل قام من الليل وترك فراشه ودِفْأُه ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ؛ فيقول الله لملائكته : ما حمل عبدي على ما صنع ، فيقولون : ربَّنا أنت أعلم به منا ؛ فيقول : أنا أعلم به ولكن أخبروني فيقولون : رَجّيته شيئاً فرجاه وخوّفته فخافه .

فيقول : أشهدكم أني قد أمنته مما خاف وأوجبت له ما رجاه قال : ورجل كان في سَرِيّة فلقِي العدوّ فانهزم أصحابه وثبت هو حتى يُقتل أو يفتح الله عليهم ؛ فيقول الله لملائكته مثل هذه القصة .

ورجل سَرى في ليلة حتى إذا كان في آخر الليل نزل هو وأصحابه ، فنام أصحابه وقام هو

يصلّي ؛ فيقول الله لملائكته . . .

وذكر القصة .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ في موضع نصب على الحال ؛ أي داعين .

ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة ؛ أي تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كل حال يدعون ربّهم ليْلَهم ونهارهم .

و ﴿ خَوْفاً ﴾ مفعول من أجله .

ويجوز أن يكون مصدراً .

﴿ وَطَمَعاً ﴾ مثله ؛ أي خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب .

(26/613)

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ تكون "ما" بمعنى الذي وتكون مصدراً ، وفي كِلاَ الوجهين يجب أن تكون منفصلة من "مِن" و "يُنْفِقُونَ" قيل : معناه الزكاة المفروضة .

وقيل : النوافل ؛ وهذا القول أمدح .

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

قرأ حمزة : "مَّا أُخْفِي لَهُمْ" بإسكان الياء .

وفتحها الباقون .

وفي قراءة عبد الله "مَا نُخْفِي" بالنون مضمومة .

وروى المفضّل عن الأعمش "ما يُخْفَى لَهُمْ" بالياء المضمومة وفتح الفاء .

وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة : "من قُرّات أعين" .

فمن أسكن الياء من قوله : "ما أخفي" فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم .

و"ما" في موضع نصب ب"أخفي" وهي استفهام ، والجملة في موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين ، والضمير العائد على "ما" محذوف .

ومن فتح الياء فهو فعل ماضٍ مبني للمفعول .

و"ما" في موضع رفع بالابتداء ، والخبر "أخفي" وما بعده ، والضمير في "أخفي" عائد على "ما" .

قال الزجاج : ويقرأ "مَا أَخْفَى لَهُمْ" بمعنى ما أخفى الله لهم ؛ وهي قراءة محمد بن كعب ، و"ما" في موضع نصب .

المهدوِيّ : ومن قرأ : "قرّات أعين" فهو جمع قُرّة ، وحَسُن الجمع فيه لإضافته إلى جمع ، والإفراد لأنه مصدر ، وهو اسم للجنس .

وقال أبو بكر الأنبارِيّ : وهذا غير مخالف للمصحف ؛ لأن تاء "قُرّة" تكتب تاء على لغة من يجري الوصل على الوقف ؛ كما كتبوا (رحمت الله) بالتاء .

ولا يُستنكر سقوط الألف من "قُرات" في الخط وهو موجود في اللفظ ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموات وهي ثابتة في اللسان والنطق .

والمعنى المراد : أنه أخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تعلمه نفس ولا بشر ولا مَلَك .

(27/613)

وفي معنى هذه الآية : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل أعْدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عيْن رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قرأ هذه الآية ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع إلى قوله بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ " خرجه الصحيح من حديث سهل بن سعد الساعديّ .

وقال ابن مسعود : في التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر .

وقال ابن عباس : الأمر في هذا أجلّ وأعظم من أن يُعرف تفسيره .

قلت : وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً ؛ كما جاء مبيَّناً في صحيح مسلم عن المغيرة بن شُعبة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سأل موسى عليه السلام ربّه فقال : يا ربِّ ما أدنى أهل الجنة منزلةً قال : هو رجل يأتي بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة

فيقال له ادخل الجنة فيقول أيْ ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا فيقول رضيتُ ربِّ فيقول لك ذلك ومثله ومثله معه ومثله ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة رضيت رَبّ فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك فيقول رضيتُ رَبّ قال رَبِّ فأعلاهم منزلةً قال أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ كرامتهم بيدي وخَتَمتُ عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يَخْطر على قلب بشر قال ومصْداقُه من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ "

وقد روي عن المغيرة موقوفاً قوله .

(28/613)

وخرّج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذُخْراً بَلْهَ ما أَطْلَعَكُمْ عليه ثم قرأ ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ "

وقال ابن سيرين : المراد به النظر إلى الله تعالى .

وقال الحسن : أخفى القوم أعمالاً فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(29/613)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾

استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى والإشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كأنه قيل : إنكم لا تؤمنون بآياتنا الدالة على شؤوننا ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً ولو ارجعناكم إلى الدنيا وإنما يؤمن ﴿ الذين إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ﴾ أي وعظوا ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ أثر ذي أثير من غير تردد ولا تلعثم فضلاً عن التسويف إلى معاينة ما نطقت به من الوعد والوعيد أي سقطوا ساجدين تواضعاً لله تعالى وخشوعاً وخوفاً من عذابه عز وجل ، قال أبو حيان : هذه السجدة من عزائم سجود القرآن ، وقال ابن عباس : السجود هنا الركوع .

وروي عن ابن جريج .

ومجاهد أن الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إذا أقيمت الصلاة خرجوا من المسجد

فكان الركوع يقصد من هذا ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية ومن مذهب ابن عباس أن القارىء لآية السجدة يركع واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [ص : 42] اه .

ولا يخفى ما في الاستدلال من المقال ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ونزهوه تعالى عند ذلك عن كل ما لا يليق به سبحانه من الأمور التي من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه جل وعلا التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيق إلى الاهتداء بها فالحمد في مقابلة النعمة ، والباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال ، والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة التسبيح والتحميد بأنهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإيمان والطاعة كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمع الآيات ، والجملة عطف على الصلة أو حال من أحد ضميري ﴿ خَرُّواْ ﴾ و ﴿ سَبَّحُواْ ﴾ وجوز عطفها على أحد الفعلين ، وقوله تعالى :

﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ جملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم .

(30/613)

وجوز أن تكون حالية أو خبراً ثانياً للمبتدأ ، والتجافي البعد والارتفاع ؛ والجنوب جمع جنب الشقوق ، وذكر الراغب أن أصل الجنب الجارحة ثم يستعار في الناحية التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال ، و﴿ المضاجع ﴾ جمع المضجع أماكن الاتكاء للنوم أي تتنحى وترتفع جنوبهم عن مواضع النوم وهذا كناية عن تركهم النوم ومثله قول عبد الله بن رواحة يصف النبي صلى الله عليه وسلم :

نبي تجافي جنبه عن فراشه . . .

إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والمشهور أن المراد بذلك التجافي القيام لصلاة النوافل بالليل وهو قول الحسن .

ومجاهد .

ومالك .

والأوزاعي .

وغيرهم .

وفي الأخبار الصحيحة ما يشهد له ، أخرج أحمد .

والترمذي وصححه .

والنسائي .

وابن ماجه .

ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والحاكم .

وصححه .

وابن مردويه .

والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل قال : "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت : يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ؟ قال : لقد سألت عن عظيم وأنه يسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ حتى بلغ يعملون " الحديث .

وقال أبو الدرداء .

وقتادة .

والضحاك هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة ، وعن الحسن .

وعطاء هو أن لا ينام الرجل حتى يصلي العشاء ، أخرج الترمذي وصححه .

وابن جرير .

(31/613)

وغيرهما عن أنس قال : إن هذه الآية ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعي العتمة ، وفي رواية أخرى عنه أنه قال فيها : نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هو أن يصلي الرجل المغرب ويصلي بعدها إلى العشاء ، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد .

وابن عدي .

وابن مردويه عن مالك بن دينار قال : سألت أنس بن مالك عن هذه الآية ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ قال : كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الأولين يصلون المغرب ويصلون بعدها إلى عشاء الآخرة فنزلت هذه الآية فيهم ، وقال قتادة .

وعكرمة : هو أن يصلي الرجل ما بين المغرب والعشاء ؛ واستدل به بما أخرجه محمد بن

نصر عن عبد الله بن عيسى قال : كان ناس من الأنصار يصلون ما بين المغرب والعشاء فنزلت فيهم ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية : تتجافى جنوبهم لذكر الله تعالى كلما استيقظوا ذكروا الله عز وجل إما في الصلاة وإما في قيام أو قعود أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله تعالى ، وروى نحوه هو .

ومحمد بن نصر عن الضحاك .

والجمهور عولوا على ما هو المشهور ، وفي فضل التهجد ما لا يحصى من الأخبار وأفضله على ما نص عليه غير واحد ما كان في الأسحار .

(32/613)

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿ جُنُوبُهُمْ ﴾ وقد أضيف إليه ما هو جزء ، وجوز على احتمال كون جملة ﴿ تتجافى ﴾ الخ حالية أن تكون حالاً ثانية مما جعلت تلك حالاً منه وعلى احتمال كونها خبراً ثانياً للمبتدأ أن تكون خبراً ثالثاً ، وجوز كونها مستأنفة ، والظاهر أن المراد بدعائهم ربهم سبحانه المعنى المتبادر ، وقيل : المراد به الصلاة ﴿ خَوْفًا ﴾ أي خائفين من سخطه تعالى وعذابه عز وجل وعدم قبول عبادتهم ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في

رحمته تبارك وتعالى فالمصدران حالان من ضمير ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ وجوز أن يكونا مصدرين لمقدر أي يخافون خوفاً ويطمعون طمعاً وتكون الجملة حينئذٍ حالاً ، وأن يكونا مفعولاً له ولا يخفى أن الآية على الحالية أمدح .

﴿ وَمِمَّا رزقناهم ﴾ إياه من المال ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير .

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ أي كل نفس من النفوس لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عمن عداهم فإن النكرة في سياق النفي تعم ، والفاء سببية أو فصيحة أي أعطوا فوق رجاءهم فلا تعلم نفس ﴿ مَّا أُخْفِىَ لَهُم ﴾ أي لأولئك الذين عددت نعوتهم الجلية ﴿ مّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي مما تقر به أعين ، وفي إضافة القرة إلى الأعين على الإطلاق لا إلى أعينهم تنبيه على أن ما أخفي لهم في غاية الحسن والكمال .

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتكم عليه اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين " وأخرج الفريابي .

وابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

(33/613)

والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إنه لمكتوب في التوراة "لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم تسمع إذن ولم يخطر على قلب بشر" ولا يعلم ملك مقرب ولا نبي مرسل وأنه لفي القرآن فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي جوزوا جزاءً بسبب ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة فجزاء مفعول مطلق لفعل مقدر والجملة مستأنفة .

وجوز جعلها حالية ، وقيل : يجوز جعله مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة المتقدمة ، وقيل : يجوز أن يكون مفعولاً له لقوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَفْسٌ ﴾ على معنى منعت العلم للجزاء أو لأخفي فإن إخفاءه لعلو شأنه ، وعن الحسن أنه قال : أخفى القوم أعمالاً في الدنيا فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت أي أخفي ذلك ليكون الجزاء من جنس العمل .

وفي "الكشف" أن هذا يدل على أن الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ ﴾ رابطة للأحق

بالسابق وأصله فلا يعلمون والعدول لتعظيم الجزاء ، وعدم ذكر الفاعل في ﴿ أُخْفِيَ ﴾ ترشيح له لأن جازيه من هو العظيم وحده فلا يذهب وهل إلى غيره سبحانه اه فتأمل .

وقرأ حمزة .

ويعقوب .

والأعمش ﴿ أُخْفِيَ ﴾ بسكون الياء فعلاً مضارعاً للمتكلم ، وابن مسعود ﴿ نُخْفِي ﴾ بنون العظمة ، والأعمش أيضاً ﴿ أخفيت ﴾ بالإسناد إلى ضمير المتكلم وحده ، ومحمد بن كعب ﴿ مَّا أُخْفِيَ ﴾ فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل .

(34/613)

و ﴿ مَا ﴾ في جميع ذلك اسم موصول مفعول ﴿ تَعْلَمْ ﴾ والعلم بمعنى المعرفة والعائد الضمير المستتر النائب عن الفاعل على قراءة الجمهور وضميره محذوف على غيرها ، وقال أبو البقاء : يجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ استفهامية وموضعها رفع بالابتداء و ﴿ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ خبره على قراءة من فتح الياء وعلى قراءة من سكنها وجعل ﴿ أُخْفِيَ ﴾ مضارعاً يكون ﴿ مَا ﴾ في موضع نصب بأخفى ويعلم منه حالها على سائر القراءات ، وإذا كانت استفهامية يجوز أن يكون العلم بمعنى المعرفة وأن يكون على ظاهره فيتعدى

لمفعولين تسد الجملة الاستفهامية مسدهما ، وعلى كل من احتمالي الموصولية والاستفهامية فالإبهام للتعظيم .

وقرأ عبد الله .

وأبو الدرداء .

وأبو هريرة .

وعون .

والعقيلي ﴿ مِنْ قَرَأْتَ ﴾ على الجمع بالألف والتاء ، وهي رواية عن أبي عمرو .

وأبي جعفر والأعمش ، وجمع المصدر أو اسمه لاختلاف أنواع القرة ، والجار والمجرور في موضع الحال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(35/613)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾

أي : إنكم أيها المجرمون لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ (الأنعام

: 28) وإنما يؤمن بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ وعظوا ، بالفارسية : (ندداده شوند) ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ .

قال في "المفردات" : خر سقط سقوطاً سمع منه خرير والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من العلو فاستعمال الخرور في الآية تنبيه على اجتماع أمرين : السقوط وحصول الصوت منهم بالتسبيح .

وقوله بعد ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ تنبيه على أن ذلك الخرير كان تسبيحاً بحمد الله لا شيئاً آخر انتهى أي : سقطوا على وجوههم حال كونهم ساجدين خوفاً من عذاب الله ﴿ وَسَبَّحُوا ﴾ نزهوه عن كل ما لا يليق به من الشرك والشبه والعجز عن البعث وغير ذلك ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ في موضع الحال أي : ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه كتوفيق الإيمان والعمل وغيرهما ﴿ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الظاهر أنه عطف على صفة الذين أي : لا يتعظمون عن الإيمان والطاعة كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمعها وهذا محل سجود بالاتفاق .

وينبغي أن يدعو الساجد في سجدته بما يليق بآيتها ففي هذه الآية يقول : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك وكره مالك رحمه الله قراءة السجدة في قراءة صلاة الفجر جهراً وسراً فإن قرأ هل يسجد فيه قولان كذا في فتح الرحمن .

قال في "خلاصة الفتاوي" : رجل قرأ آية السجدة في الصلاة إن كانت السجدة في آخر السورة أو قريباً من آخرها من بعدها آية أو آيتان إلى آخر السورة فهو بالخيار إن شاء ركع بها ينوي التلاوة وإن شاء سجد ثم يعود إلى القيام فيختم السورة وإن وصل بها سورة أخرى كان أفضل وإن لم يسجد للتلاوة على الفور حتى ختم السورة ثم ركع وسجد لصلاته سقط عنه سجدة التلاوة .

وفي "التأويلات" : ﴿ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن سجودك كما استكبر إبليس أن يسجد لك إلى قبلة آدم ولو سجد لآدم بأمرك لكان سجوده في الحقيقة لك وكان آدم قبلة للسجود كما أن الكعبة قبلة لنا في سجودنا لك انتهى .

قال بعض الكبار : وليس الإنسان بمعصوم من إبليس في صلاته إلا في سجوده لأنه حينئذٍ يتذكر الشيطان معصيته فيحزن ويشتغل بنفسه ويعتزل عن المصلي فالعبد في سجوده معصوم من الشيطان غير معصوم من النفس .

فخواطر السجود كلها إما ربانية أو ملكية أو نفسية وليس للشيطان عليه من سبيل فإذا قام من سجوده غابت تلك الصفة عن إبليس فزال حزنه واشتغل بك .

فعلى العاقل أن يسارع إلى الصلاة فريضة كانت أو نافلة حتى يحصل الرغم للشيطان والرضى للرحمان ويتقرب الروح إلى حضرة الملك المتعال ويجد لذة المناجاة وطعم الوصال .

اللهم اجعلنا من أهل سجدة الفناء إنك سميع الدعاء .

(37/613)

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾

استئناف لبيان بقية محاسن المؤمنين .

والتجافي النبوّ والبعد أخذ من الجفاء فإن من لم يوافقك فقد جافاك وتجنب وتنحى عنك والجنوب جمع جنب وهو شق الإنسان وغيره .

والمعنى ترتفع وتتنحى أضلاعهم ﴿ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي : الفرش ومواضع النوم جمع مضجع كمقعد بمعنى موضع الضجوع أي : وضع الجنب على الأرض ، وبالفارسية : (دور ميشود هلوهاى ايشان از خوابكهها) وفي إسناد التجافي إلى الجنوب دون أن يقال يجافون جنوبهم إشارة إلى أن حال أهل اليقظة والكشف ليس كحال أهل الغفلة والحجاب فإنهم لكمال حرصهم على المناجاة ترتفع جنوبهم عن المضاجع حين ناموا بغير اختيارهم كأن

الأرض ألقتهم من نفسها وأما أهل الغفلة فيتلاصقون بالأرض لا يحركهم محرك ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حال من ضمير جنوبهم أي : داعين له تعالى على الاستمرار ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته قال عليه السلام في تفسير الآية : قيام العبد من الليل يعني أنها نزلت في شأن المتهجدين فإن أفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل .

(38/613)

وفي الحديث : "عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أحبته وأهله إلى صلاته فيقول الله تعالى لملائكته : انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين أحبته وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وإشفاقاً مما عندي ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه من الانهزام وماله في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وإشفاقاً مما عندي حتى اهريق دمه" وفي الحديث "إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام" قال ابن رواحة رضي الله عنه يمدح النبي عليه السلام :

وفينا رسول الله يتلو كتابه

إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدي بعد العمي فقلوبنا

به موقنات إن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه

إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وفي الحديث "إذا جمع الله الأولين والآخرين جاء مناد بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فيقول ليقم الذين يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرّحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس" .

واعلم أن قيام الليل من علو الهمة وهو وهب من الله تعالى فمن وهب له هذا فيلقم ولا يترك ورد الليل بوجه من الوجوه .

قال أبو سليمان الداراني قدس سره : نمت عن وردي فإذا أنا بحوراء تقول يا أبا سليمان تنام وأنا أربى لك في الخيام منذ خمسمائة عام .

(39/613)

وعن الشيخ أبي بكر الضرير رضي الله عنه قال : كان في جواري شاب حسن الوجه يصوم النهار ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام فجاءني يوماً وقال لي : يا أستاذ إني نمت عن وردي الليلة فرأيت كأن محرابي قد انشق وكأني بجوار قد خرجن من المحراب لم أر أحسن أوجهاً منهن وإذا فيهن واحدة شوهاء لم أر أقبح منها منظراً فقلت : لمن أنتن ولمن هذه فقلن نحن لياليك التي مضين وهذه ليلة نومك فلو مت في ليلتك هذه لكانت هذه حظك ثم أنشأت الشوهاء تقول :

اسأل لمولاك وارددني إلى حالي

فأنت قبحتني من بين أشكالي

لا ترقدنّ الليالي ما حييت فإن

نمت الليالي فهنّ الدهر أمثالي

فأجابتها جارية من الحسان تقول :

أبشر بخير فقد نلت الغنى أبداً

في جنة الخلد في روضات جنات

نحن الليالي اللواتي كنت تسهرها

تتلو القرآن بترجيع ورنات

أبشر وقد نلت ما ترجوه من ملك

بر يجود بأفضال وفرحات

غداً تراه تجلى غير محتجب

تدني إليه وتحظى بالتحيات

(40/613)

قال : ثم شهق شهقة خر ميتاً رحمه الله تعالى .

وفي "آكام المرجان" : ظهر إبليس ليحيى عليه السلام فقال له يحيى : هل قدرت مني على شيء ؟ قال : لا إلا مرة واحدة فإنك قدّمت طعاماً لتأكله فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت منه أكثر مما تريد فنمت تلك الليلة فلم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها فقال له يحيى : لا جرم لا شبعت من طعام أبداً قال له الخبيث : لا جرم لا نصحت آدمياً بعدك .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أعطيناهم من المال ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير والحسنات .

قال بعضهم : هذا عام من الواجب والتطوع وذلك على ثلاثة أضرب : زكاة من نصاب ، ومواساة من فضل ، وإيثار من قوت .

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عمن عداهم ﴿ مَآ

أُخْفِيَ لَهُم ﴾ أي : لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة من التجافي والدعاء والإنفاق ومحل الجملة نصب بلا تعلم سدت مسد المفعولين ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ مما تقربه أعينهم إذا رأوه وتسكن به أنفسهم .

وفي الحديث "يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بل ما اطلعتم عليه اقرأوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين" ﴿ جَزَآءَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : جزوا جزاء بسبب ما كانوا يعملون في الدنيا من إخلاص النية وصدق الطوية في الأعمال الصالحة .

(41/613)

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ عن مضاجع الدارين وتتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال فلا يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم ويفارقون مآلفهم ويهجرون في الله معارفهم يدعون ربهم بربهم لربهم خوفاً من القطيعة والإبعاد ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في القربات والمواصلات ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من نعمة الوجود ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ ببذل المجهود في طلب المفقود وليردّ إليهم بالجود ما أخفي لهم من النقود كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَعْلَمُ ﴾ الخ .

وفي الحقيقة إن ما أخفي لهم إنما هو جمالهم فقد أخفي عنهم لعينهم فإن العين حق .

فاعلم أنه ما دام أن تكون عينكم الفانية باقية يكون جمالكم الباقي مخفياً عنكم لئلا تصيبه عينكم فلو طلع صبح سعادة التلاقي وذهب بظلمة البين من البين وتبدلت العين بالعين فذهب الجفاء وظهر الخفاء ودام اللقاء

كما أقول :

مذ جاء هواكم ذاهباً بالبين

لم يبق سوى وصالكم في البين

ما جاء بغير عينكم في عيني

والآن محت عينكمولي عيني

وبقوله : ﴿ جَزَآءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يشير إلى أن عدم علم كل نفس بما أخفي لهم وحصول جهلهم به إنما كان جزاء بما كانوا يعملون بالإعراض عن الحق لإقبالهم على طلب غير الله وعبادة ما سواه انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 7 صـ 141.145 ﴾

(42/613)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾

استئناف ناشىء عن قوله ﴿ أم يقولون افتراه الآية ﴾ [السجدة : 3] ، تفرغ المقام له بعد أن أنحى بالتقريع والوعيد للكافرين على كفرهم بلقاء الله ، بما أفادت اسمية جملة ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ [السجدة : 10] من أنهم ثابتون على الكفر بلقاء الله دائمون عليه ، وهو مما أنذرتهم به آيات القرآن ، فالتكذيب بلقاء الله تكذيب بما جاء به القرآن فهم لا يؤمنون ، وإنما يؤمن بآيات الله الذين ذُكرت أوصافهم هنا .

والمراد بالآيات هنا آيات القرآن بقرينة قوله ﴿ الذين إذا ذُكِّروا بها ﴾ بتشديد الكاف ، أي أعيد ذكرها عليهم وتكررت تلاوتها على مسامِعهم .

ومفاد ﴿ إنما ﴾ قصر إضافي ، أي يؤمن بآيات الله الذين إذا ذكروا بها تذكيراً بما سبق لهم سماعه لم يتريّثوا عن إظهار الخضوع لله دون الذين قالوا ﴿ أإذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض إنَّا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] ، وهذا تأييس للنبيء صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، وتعريض بهم بأنهم لا ينفعون المسلمين بإيمانهم ولا يغيظونهم بالتصلب في الكفر .

وأوثرت صيغة المضارع في ﴿ إنما يؤمن ﴾ لما تشعر به من أنهم يتجدّدون في الإيمان ويزدادون يقيناً وقتاً فوقتاً ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ في سورة البقرة (15) ، وإلاَّ فإن المؤمنين قد حصل إيمانهم فيما مضى ففعل المضي آثُر بحكاية

حالهم في الكلام المتداوَل لولا هذه الخصوصية ، ولهذا عُرِّفوا بالموصولية والصلةِ الدالّ معناها على أنهم راسخون في الإيمان ، فعبر عن إبلاغهم آيات القرآن وتلاوتها على أسماعهم بالتذكير المقتضي أن ما تتضمنه الآيات حقائق مقررة عندهم لا يُفادون بها فائدة لم تكن حاصلة في نفوسهم ولكنها تكسبهم تذكيراً ﴿ فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] .

(43/613)

وهذه الصفة التي تضمنتها الصلة هي حالهم التي عُرفوا بها لقوة إيمانهم وتميزوا بها عن الذين كفروا ، وليست تقتضي أن من لم يسْجدوا عند سماع الآيات ولم يسبّحوا بحمد ربّهم من المؤمنين ليسوا ممّن يؤمنون ، ولكن هذه حالة أكمل الإيمان وهي حالة المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ عرفوا بها ، وهذا كما تقول للسائل عن علماء البلد : هم الذين يلبسون عمائم صفتها كذا .

جاء في ترجمة مالك بن أنس أنه ما أفتى حتى أجازه سبعون محنّكاً ، أي عالماً يجعل شُقة من عمامته تحت حنكه وهي لبسة أهل الفقه والحديث .

قال مالك رحمه الله : قلت لأُمي : أذهبُ فأكتبُ العلم ، فقالت : تعالَ فالبسْ ثياب العلم .

فألبستني ثياباً مشمّرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها .

والخرور : الهُوِيّ من علوّ إلى سفل .

والسجود : وضع الجبهة على الأرض إرادة التعظيم والخضوع .

وانتصب ﴿ سُجداً ﴾ على الحال المبينة للقصد من ﴿ خرُّوا ، ﴾ أي : سجداً لله وشكراً له على ما حبَاهم به من العلم والإيمان كما دل عليه قرنه بقوله ﴿ وسبَّحوا بحمد ربهم .

﴾ والباء فيه للملابسة وتقدم في سورة الإسراء (107) : ﴿ إن الذين أوتوا العلم مِن قبله إذا يُتلى عليهم يخرّون للأذقان سجداً ﴾ ودلّت الجملة الشرطية على اتصال تعلق حصول الجواب بحصول الشرط وتلازمهما .

وجيء في نفي التكبر عنهم بالمسند الفعلي لإفادة اختصاصهم بذلك ، أي دون المشركين الذين كان الكبر خلقهم فهم لا يرضون لأنفسهم بالانقياد للنبيء منهم وقالوا : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ [الفرقان : 21] .

وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ موضع سجدة من سجدات تلاوة القرآن رجاء أن يكون التالي من أولئك الذين أثنى الله عليهم بأنهم إذا ذُكِّروا بآيات الله سجدوا ، فالقارىء يقتدي بهم .

وجملة ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ حال من الموصول ، أي : الذين إذا ذُكِّروا بها خرّوا ومَن حالهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، أو استئناف .

وجيء فيها بالمضارع لإفادة تكرر ذلك وتجدده منهم في أجزاء كثيرة من الأوقات المعدة لاضطجاع وهي الأوقات التي الشأن فيها النوم .

والتجافي : التباعد والمتاركة .

والمعنى : أن تجافي جنوبهم عن المضاجع يتكرر في الليلة الواحدة ، أي : يكثرون السهر بقيام الليل والدعاء لله ؛ وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بصلاة الرجل في جوف الليل ، كما سيأتي في حديث معاذ عند الترمذي .

و ﴿ المضاجع : الفرش جمع مضجع ، وهو مكان الضجع ، أي : الاستلقاء للراحة والنوم . وأل فيه عوض عن المضاف إليه ، أي عن مضاجعهم كقوله تعالى : ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : 41] .

وهذا تعريض بالمشركين إذ يمضون ليلهم بالنوم لا يصرفه عنهم تفكر بل يسقطون كما تسقط الأنعام .

وقد صرح بهذا المعنى عبد الله بن رواحة بقوله يصف النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد أصحاب هذا الشأن:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه . . .

إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجع

وجملة ﴿ يدعون ربهم ﴾ يجوز أن تكون حالاً من ضمير ﴿ جنوبهم ﴾ والأحسن أن تجعل بدل اشتمال من جملة ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ .

وانتصب خوفاً وطمعاً ﴾ على الحال بتأويل خائفين وطامعين ، أي : من غضبه وطمعاً في رضاه وثوابه ، أي هاتان صفتان لهم .

ويجوز أن ينتصبا على المفعول لأجله ، أي لأجل الخوف من ربهم والطمع في رحمته .

ولما ذكر إيثارهم التقرب إلى الله على حظوظ لذاتهم الجسدية ذكر معه إيثارهم إياه على ما به نوال لَذات أخرى وهو المال إذ ينفقون منه ما لو أبقوه لكان مجلبة راحة لهم فقال ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي : يتصدقون به ولو أيسر أغنياؤهم فقراءهم .

(45/613)

ثم عظم الله جزاءهم إذ قال : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ ، أي : لا تبلغ نفس من أهل الدنيا معرفة ما أعد الله لهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : " أعددت لعبادي الصالحين ما لاَ عينٌ رأت ولا أذن سمعتْ ولا خَطر على قلب بشر " فدلّ على أن المراد بـ ﴿ نفس ﴾ في هذه الآية أصحاب النفوس البشرية .

فإن مدركات العقول منتهية إلى ما تدركه الأبصار من المرئيات من الجمال والزينة ، وما تدركه الأسماع من محاسن الأقوال ومحامدها ومحاسن النغمات ، وإلى ما تبلغ إليه المتخيلات من هيئات يركِّبها الخيال من مجموع ما يعهده من المرئيات والمسمُوعات مثل الأنهار من عسل أو خمر أو لبن ، ومثل القصور والقباب من اللؤلؤ ، ومثل الأشجار من زبرجد ، والأزهار من ياقوت ، وتراب من مسك وعنبر ، فكل ذلك قليل في جانب ما أعدّ لهم في الجنة من هذه الموصوفات ولا تبلغه صفات الواصفين لأن منتهى الصفة محصور فيما تنتهي إليه دلالات اللغات مما يخطر على قلوب البشر فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم " ولا خطر على قلب بشر " وهذا كقولهم في تعظيم شيء : هذا لا يعلمه إلا الله .

قال الشاعر:

فلم يدر إلا الله ما هيجت لنا . . .

عشية آناء الديار وشامها

وعُبر عن تلك النعم بـ ﴿ مَا أُخفِيَ ﴾ لأنها مغيبة لا تدرك إلا في عالم الخلود .

وقرة الأعين : كناية عن المسرة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وقرِّي عيناً ﴾ في سورة مريم (26) .

وقرأ الجمهور أُخفيَ ﴾ بفتح الياء بصيغة الماضي المبني للمجهول .

وقرأ حمزة ويعقوب ﴿ أُخْفِي ﴾ بصيغة المضارع المفتتح بهمزة المتكلم والياء ساكنة ، و ﴿ جزاء ﴾ منصوب على الحال من ﴿ ما أخفي لهم ﴾ وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم أنه جزاء على هذه الأعمال الصالحات في حديث أغرّ رواه الترمذي عن معاذ بن جبل قال : " قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار .

(46/613)

قال : لقد سألتَ عن عظيم وإنه ليسير على من يَسَّره الله عليه : تَعبُدُ الله لا تشركُ به شيئاً وتقيمُ الصلاة وتؤتي الزكاة وتصومُ رمضان وتحجُّ البيت " ثم قال : " ألا أدلك على أبواب الخير : الصومُ جُنة والصدقة تطفىء الخطايا كما يُطفىء الماء النارَ وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ يعملون . . . ﴾ " الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(47/613)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾

الخرور : السقوط بغير نظام ولا ترتيب ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ . . . ﴾ [النحل : 26] وفي موضع آخر قال سبحانه في هذا المعنى : ﴿ إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 107] أي : من قبل القرآن ﴿ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء : 107-108]

فالخرور أنْ تهوي إلى الأرض ساجداً دون تفكير ، وكل سجود في القرآن يتلو هذه المادة (خرَّ) دليل على أنها أصبحتْ مَلَكة وآلية في المؤمن ، بل ويؤكدها الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ [الإسراء : 107] لأنه سجود يأخذ الذقن ، فهو متمكن في الذلّة ، وهو فوق السجود الذي نعرفه في الصلاة على الأعضاء السبعة المعروفة .

ولم يُذكر الخرور مع الركوع إلا في موضع واحد ، هو قوله تعالى في شأن داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [ص : 24]

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [الإسراء : 109] فكلما ازدادوا ذِلّة ازدادوا خشوعاً ، فكأنهم عشقوا التكليف ،

وأحبوا أوامر الله ؛ لذلك بالغوا في الذلة والعبودية لله تعالى ، وهذه المسألة تفسر لنا قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء " .

ففي السجود تضع وجهك وجبهتك ، وهي رمز العلو والرِّفْعة تضعها على الأرض خضوعاً لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ . . . ﴾ .

(48/613)

التجافي يعني الترك ، لكن الترك قد يكون معه شوق ويصاحبه ألم ، كما تودع حبيباً وتتركه وأنت غير زاهد فيه ولا قَالٍ له ، أما الجفوة فترك فيه كراهية للمتروك ، فهؤلاء المؤمنون الذين يتركون مضاجعهم كأن جنوبهم تكره المضجع وتجفوه ؛ لأنها تتركه إلى لذة أبقى وأعظم هي لذة الاتصال بالله ومناجاته .

ونذكر هنا إن الإمام علياً رضي الله عنه حينما ذهب ليدفن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها وقف عند قبر رسول الله وقال : السلام عليك يا سيدي يا رسول الله ، قَلَّ عن صفيتك صبري ، ورقَّ عنها تجلُّدي ، إلا أن لي في التعزي بعظيم فُرْقتك

وفادح مصيبتك موضع تأسٍّ – يعني : الذي تحمَّل فَقْدك يا رسول الله يهون عليه أيُّ فَقْد بعدك – فلقد وسدتُك يا رسول الله في ملحودة قبرك ، وفاضت بين سَحْري ونَحْري نفسك ، أما ليلي فمُسهَّد ، وأما حزني فَسَرْمَد ، إلى أنْ يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم ، هذا وستخبرك ابنتك عن حال أمتك وتضافرها على هضمها . . . فَأَصْغِها السؤال ، واستخبرها الحال ، هذا ولم يَطلُّ منك العهد ، ولم يخْلُ منك الذكر .

ثم لما أراد أنْ ينصرف عن قبر حبيبه قال : والسلام عليك سلام مُودِّع ، لا قال ولا سئم ، فإنْ انصرف فلا عن ملالة ، وإنْ أُقِم فلا عن سوء ظنٍّ بما وعد الله به عباده الصابرين .

فقوله تعالى : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع . . ﴾ [السجدة : 16] أي : تكرهها وتجفوها ، مع أنها أعزُّ ما يركن إليه الإنسان عند راحته ، فالإنسان حين تدبّ فيه الحياة ، ويستطيع أنْ تكون له قوة ونشاط يعمل في الحياة ، فالعمل فرع وجود الحياة ، وبالقوة يمشي ، وبالقوة يحمل الأثقال .

(49/613)

فإذا ما أتعبه الحِمْل وضعه عن نفسه ليستريح ، لكنه يستطيع أن يمشي بدون حمل ، فإنْ أتعبه المشي وقف ، فإذا أتعبه الوقوف جلس ؛ لذلك يحدث أن تقول لصاحبك : لو

سمحت احمل عني هذا الحِمْلَ فيقول : يا شيخ ، هل أنا قادر أن أحمل نفسي ؟

إذن : التعب في هذه الحالة ناشئ من ثِقَل الجسم على القدمين فيتعبه الوقوف ، إلاَ ترانا إذا أطال الإمام في الصلاة مثلاً نراوح بين القدمين مرة على هذه ، ومرة على هذه ، أما القعود فيريح الإنسان ؛ لأنه يُوسّع دائرة العضو المحتمل ، فثِقَل الجسم في حالة القعود يُوزَّع على المقعدة كلها ، فإذا بلغ به التعب حداً بحيث أتعبه القعود فإنه يستلقي على جنبه ، ويمد جسمه كله على الأرض فيتوزع الثقل على كل الأعضاء ، فلا يحمل العضو إلا ثقله فقط .

فإنْ شعر الإنسان بتعب بعد هذا كله تقلَّب على جنبه الآخر أو على ظهره ، هذه كلها ألوان من الراحة لجسم الإنسان ، لكنه لا يرتاح الراحة الكاملة إلا إذا استغرق في النوم ، ويُسمُّون هذا التسلسل متواليات عضلية .

والدليل على أن النوم راحة تامة أنك لا تشعر فيه بالألم الذي تشعر به حال اليقظة – إنْ كنت تتألم من مرض مثلاً – وهذه كلها متواليات يمر بها المؤمن ، وبالتالي إذا مات استراح أكثر ، ثم إذا بُعِث يوم القيامة ارتاح الراحة الكبرى ، فهي مراحل نمرُّ بها إلى أنْ نرتمي في حضن خالقنا عز وجل .

إذن : فالمضاجع آخر مرحلة في اليقظة ، ولم تأْتِ إلا بعد عدة مراحل من التعب ، ومع ذلك شوق المؤمنين إلى ربهم ورغبتهم في الوقوف بين يديه سبحانه يُنسيهم هذه الراحة ، ويُزهِّدهم فيها ، فيجفونها ليقفوا بين يدي الله .

وفي موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : 17] ثم يقول سبحانه : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ . . ﴾ [السجدة : 16] أي : يدعون ربهم وهم على حال التعب ، كأن الدعاء مجرد الدعاء يريحهم ، لماذا ولم يُحَابوا بعد ؟ قالوا : لأنهم وضعوا حاجاتهم وطلبهم عند قادر على الإنفاذ ، ثم إن حلاوة لقائهم بربهم في الصلاة تُنسيهم التعب الذي يعانون .

والمؤمنون يدعون ربهم ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً . . ﴾ [السجدة : 16] أي : خوفاً مما حدث منهم من تقصير في حق الله ، وأنهم لم يُقدّموا لله تعالى ما يستحق من التقوى ومن الطاعة ﴿ وَطَمَعاً . . ﴾ [السجدة : 16] أي : في المغفرة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : 16] والمراد هنا الزكاة .

لذلك نرى في قوله تعالى : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع . . ﴾ [السجدة : 16] أن هذا التجافي كان بقصد الصلاة ؛ لأن القرآن عادةً ما يقرن بالصلاة بالزكاة ، فقال بعدها :

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : 16]

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

قلنا : إن الحق سبحانه أخفى أسرار الخير عن الخَلْق ، ولم يُعْطهم منها إلا على قدر حاجتهم منها ، فإذا أراد سبحانه أنْ يُجازي عباده المؤمنين لا يجازيهم بما يعملون من خيرات الدنيا وإمكاناتهم فيها ، إنما يجازيهم بما يعلم هو سبحانه ، وبما يتناسب مع إمكانات قدرته .

وهذه الإمكانات لا نستطيع نحن التعبير عنها ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تستطيع التعبير عنها ، ومعلوم أن الإنسان لا يضع الاسم إلا إذا وُجد المسمى والمعنى أولاً ؛ لذلك قال تعالى في التعبير عن هذا النعيم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ . . ﴾ [السجدة : 17]

(51/613)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنة : " فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " إذن : كيف نُسمِّي هذه الأشياء ؟ وكيف نتصَّورها وهي فوق إدراكاتنا ؟ لذلك سنفاجأ بها حين نراها إنْ شاء الله .

ثم ألَا ترى أن الحق سبحانه حينما يعرض علينا طرفاً من ذكر الجنة لا يقول لنا الجنة كذا وكذا ، إنما يقول : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون . . . ﴾ [الرعد : 35] أي : أن ما

نعرضه عليك ليس هو الجنة ، إنما شبيه بها ، أما هي على الحقيقة ففوق الوصف الذي تؤديه اللغة ، فأنا أعطيكم الصورة القريبة لأذهانكم .

ثم يُنقى الحق سبحانه المثل الذي يضربه لنا من شوائبه في الدنيا ، وتأمل في ذلك قول الله تعالى عن نعيم الجنة : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ . . . ﴾ [محمد : 15] وكانت آفة الماء عندهم أن يأسن ويتغير في الجرار ، فنقَّاه الله من هذه الآفة .

وكذلك في ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ . . . ﴾ [محمد : 15] وكان العربي إذا سار باللبن يحمض فيعافه ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ . . . ﴾ [محمد : 15] وآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل ، وتذهب به ، وليس في شربها لذة ؛ لذلك نرى شاربها والعياذ بالله يتجرَّعها مرة واحدة ، ويسكبها في فمه سَكْباً ، دليلاً على أنها غير طيبة ، وهل رأيت شارب الخمر يمتصُّها مثلاً كما تمتص كوباً من العصير ، وتشعر بلذة شربه ؟ وقد وصف الله خمر الآخرة بقوله : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : 47]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى . . . ﴾ [محمد : 15] فوصف العسل بأنه مُصفًّى ؛ لأن آفة العسل عندهم ما كان يعلَق به من الحصى والشوائب حين ينحدر من بيوت النحل في الجبال ، فصفَّى الله عسل الآخرة من شوائب العسل في الدنيا .

ومهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عَظُمَتْ إمكاناتنا في الدنيا ، فلن نرى فيها نهراً من الخمر ، أو من اللبن ، أو من العسل ، ثم إن هذه الأنهار تجري في الجنة بلا شطآن ، بل ويتداخل بعضها في بعض دون أن يطغى أحد منها على الآخر ، وهذه طلاقة القدرة التي لا حدود لها .

إذن : الحق سبحانه حين يشرح لنا نعيم الجنة ، وحين يَصفُها يعطينا المثال لا الحقيقة ، ثم يُنقِّي هذا المثال مما يشوبه في الدنيا .

ومن ذلك أن العربي كان يحب شجرة السِّدر أي النبق ، فيستظل بظلها ، ويأكل ثمرها ، لكن كان ينغص عليه هذه اللذة ما بها من أشواك لا بُدَّ أنْ تؤذى مَنْ يقطف ثمارها ، فلما ذكرها الله تعالى في نعيم الجنة قال عنها : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : 28] أي : منزوع الشوك ، فالمتعة به تامة لا يُنغِّصها شيء .

ولما تكلم عن نساء الجنة قال سبحانه عن الحور العين : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 74] فنفى عنهن ما يُنغِّص على الرجل جمال المرأة في الدنيا ، وطمأنك أنها بِكْر لم ينظر إليها أحد قبلك .

لهذا قال تعالى عن نعيم الجنة ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ . . ﴾ [السجدة : 17] والقرة والقُرور أي : السكون ، ومنه قرَّ في المكان أي : استقر فيه ، والمعنى أن الإنسان لا يستقر في المكان إلا إذا وجد فيه راحته ومُقوِّمات حياته ، فإذا أردتَ أنْ تستقر في مكان أو تشتري شقة مثلاً تسأل عن المرافق والخدمات من ماء وكهرباء وطرق . . الخ .

(53/613)

حتى نحن في تعبيراتنا العامية وفي الريف الذي يحتفظ لنا بخصائص الفطرة النقية التي لم يَشُبْها زيف الحضارات ولا زخرفة المدينة ، وهذه الفطريات تستهوي النفوس وتجذبها ، بدليل أن الإنسان الحضاري مهما بلغ القمة وسكن ناطحات السحاب ، وتوفرتْ له كل كماليات الحياة لا بُدَّ أنْ يأتي اليوم الذي يلجأ فيه إلى أحضان الطبيعة ، فلا ترتاح نفسه ، ولا تستقر إلا في الريف ، فيقضي هناك عدة أيام حيث تهدأ هناك نفسه ، وتستريح من ضوضاء المدينة ، والبعض يسمونها (الويك إند) .

فمعنى (قرة العين) أي : استقرارها على شيء بحيث لا تتحول عنه إلى غيره ، والعين لا تستقر على الشيء إلا إذا أعجبها ، ورأتْ فيه كل ما تصبو إليه من متعة .

ومن ذلك قولنا (فلان عينه مليانة) يعني : لا يحتاج مزيداً من المرائي غير ما يراه (وفلان عينه فارغة) يعني : لا يكتفي بما يرى ، بل يطلب المزيد ، فينظر هنا وهناك .

ففي الجنة تقرّ العيون بحيث لم يَعُدْ لها تطلعات ، فقد كَمُلَتْ لها المعاني ، فلا ينبغي لها أنْ تطمع في شيء آخر إلا الدوام .

لذلك يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ . . . ﴾ [طه : 131]

فالإنسان إذا كانت عينه فارغة تراه زائغ العينين ، ينظر هنا وهناك ، ولو كانت عينه (مليانة) لانتهى عندها .

ومن معاني مادة (قرَّ) القُرُّ وهو البرد الشديد ، وهذا المعنى يَكْنُون به عن سرور النفس ، فالعين الباردة أي : المسرورة ، أما العين الساخنة فهي الحزينة المتألمة .

ومن المعاني أيضاً لقرور العين سكونها وعدم حركتها لِعلَّة أو عمى ، ومن ذلك قول المرأة التي دخلتْ على الخليفة فقالت : أقرَّ الله عينك ، وأتمَّ عليك نعمتك .

(54/613)

ففهم الحاضرون أنها تدعو له ، فقال : والله ما دعتْ لي ، إنما دعتْ علي ، فهي تقصد أقرَّ الله عينك يعني : أسكنها لا تتحرك ، وأتمَّ عليك نعمتك . أي : أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمتْ زالت ، فلا شيء بعد التمام إلا النقصان .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه هذا النعيم الي أخفاه لعباده المؤمنين في الجنة بأنه ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 17] وهذه أثارت معركة بين العلماء هي معركة الأحباء : فريق قال إن المؤمن يدخل الجنة بعمله ، كما نصَّتْ هذه الآية أي : أن الجنة بالعدل لا بالفضل ، وفريق قال : بل يدخل الجنة بفضل الله ، كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58]

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " .

فلما حميَتْ هذه المعركة أرادوا أنْ يوحدوا هذين الرأيين ، ويُوفِّقوا بينهما ، فقالوا : لقد سبق الله تعالى المكلف بالإحسان ، فخلق له مُقومات حياته قبل أنْ يوجد ، ثم تركه يرتع في نِعَمه دون أنْ يطالبه بشيء حتى بلغ سِنَّ التكليف .

فإذا ما كلَّفه الله بعد سابق نعمه عليه ، فعليه أنْ يطيع هذا التكليف جزاء ما سبق من إحسان الله إليه الإحسان الأول ، وبذلك يكون الجزاء في الآخرة ليس على العمل ، إنما محْض فضل من الله على عباده .

إذن : حينما تؤدي ما كلَّفك ربك به كأنك تجازي ربك بطاعته على سابق إحسانه إليه ، فكأن الجنة ونعيمها زيادة وفضل من الله ، فالله سبحانه له الفضل عليك في الأولى ، وله الفضل عليك في الآخرة .

(55/613)

ثم إن الحق – تبارك وتعالى – حين يُشرع لك ويكلِّفك ، فشَرْعه وتكليفه في ذاته فضل ، أَلاَ ترى أن الحسنة عنده سبحانه بعشر أمثالها ، وأنها تضاعف إلى أضعاف كثيرة ، ونحن مِلْكه سبحانه ، يعطينا أو لا يعطينا .

وبعض أهل المعرفة والشطح يقولون : الله قدَّم الإحسان أولاً ، فيجب على العبد أن يأتي بالإحسان جزاء الإحسان ؛ لأنه ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسانِ إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60]

وحين يُحسِن العبد في التكليف يُحيِّيه ربه بإحسان آخر ، فيرد العبد على إحسان ربه إليه بالإحسان ، وهكذا يتواصل الإحسان بين العبد وربه إلى ما لا نهاية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(56/613)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾

التصديقُ والتكذيبُ ضدان – والضدان لا يجتمعان ؛ التكذيب هو جحودٌ واستكبار ، والتصديقُ هو سجودٌ وتحقيق ، فَمَنْ اتَّصَفَ بأحد ، القسمين امَّحى عنه الثاني .

﴿ خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ : سجدوا بظواهرهم في المحراب ، وفي سرائرهم على ترابِ الخضوع وبِساطِ الخشوع بنعت الذبول وحُكْمِ الخمود .

ويقال : كيف يستكبر مَنْ لا يَجِدُ كمالَ راحتِه ولا حقيقةَ أُنْسِه إلا في تَذَلُّله بين يدي معبوده ، ولا يؤثِرُ آجلَ جحيمه على نعيمه ، ولا شقاءَه على شفائه ؟ !

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16)

فى الظاهر : عن الفِراش قياماً بحقِّ العبادة والجهد والتهجد . وفي الباطن : تتباعد قلوبُهم عن مضاجعات الأحوال ، ورُؤية قَدْرِ النفس ، وتوَّهُمِ المقَام – فإن ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة ، وهو للعبد سُمٌّ قاتل – فلا يساكَنون أعمالَهم ولا يلاحظون أحوالَهم .

ويفارقون مآلِفَهم ، ويَهجرون في الله معَارفَهم .

والليل زمان الأحباب ، قال تعالى : ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [يونس : 67] : يعني عن كلّ

شُغل وحديثِ سوء حديث محبوبكم . والنهارُ زمانُ أهل الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 11] ، أولئك قال لهم : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ [الجمعة : 10] .

إذا ناجيتمونا في ركعتين في الجمعة فعودوا إلى متجركم ، واشتغلوا بحرفتكم .

وأما الأحبابُ فالليل لهم إمَّا في طرَب التلاقي وإما في حَرَب الفراقِ ، فإن كانوا في أُنسِ القرابة فَلَيْلَهُم أقصرُ من لحظة ، كما قالوا :

زارني مَنْ هَوَيْتُ بعد بعادٍ . . . بوصال مُجَدَّدٍ ووِدادِ

(57/613)

ليلة كاد يلتقي طرفاها . . . قِصَراً وهي ليلة الميعادِ

وكما قالوا :

وليلةٍ زَيْنُ ليالي الدهر . . . قابلتُ فيها بدرها ببدر

لم تَسْتَبِن عنْ شققٍ وفجرِ . . . حتى تولَّت وهي بِكْرُ الدهر

وأمَّا إن كان الوقتُ وقتَ مقاساةِ فُرقة وانفرادٍ بكُرْبة فَلَيْلُهم طويل ، كما قالوا :

كم ليلةٍ فيك لا صباحَ لها . . . أفْنَيْتُها قابضاً على كبدي

قد غُصَّت العينُ بالدموع وقد . . . وضعتُ خدي على بنان يدي

قوله : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ [السجدة : 16] : قومٌ خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب ، وآخرون خوفاً من الفراقِ وطمعاً في التلاقي ، وآخرون خوفاً من المكر وطمعاً في الوَصْلِ .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ : يأتون بالشاهد الذي خصصناهم به ؛ فإنْ طَهَّرْنا أحوالَهم عن الكدورات حضروا بأحوالٍ مُقَدَّسة ، وإنْ دَنَّسَّا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بحالاتٍ مُدَّنَّسَة ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ؛ فالعبدُ إنما يتجر في البضاعة التي يودعها لديه سَيِّدُه :

يفديكَ بالروح صَبٌّ لو يكون له . . . أعزّ من روحه شيء فداك به

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

إنما تَقَرُّ عينُكَ برؤية مَنْ تحبه ، أو ما تحبه ؛ فطالبْ قلبكَ وراع حالك ، فيحصل اليومَ سرورُك ، وكذلك غداً . . وعلى ذلك تحشر ؛ ففي الخبر :

" مَنْ كان بحالة لقي الله بها " .

ثم إنّ وصفَ ما قال الله سبحانه إنه لا يعلمه أحدٌ – مُحَالٌ ، اللهم أن يُقال : إنها حال عزيزة ، وصفةٌ جَليلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 142.144 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا أهل بلاغة ولسن ، وبراعة : وجدل ، فكان ربما قال متعنتهم : ما له إذا كان ما تزعمون من أنه لا يبالي بشيء ولا ينقص من خزائنه شيء وهو العزيز الرحيم ، لا يسوي بين الكل في إدخال الجنة ، والمن بالنعيم فيعمهم بالرحمة الظاهرة كما عمهم بها في الدنيا كما هو دأب المحسنين ؟ تسبب عن ذلك أن قال منكراً لذلك مشيراً إلى أن المانع منه خروجه عن الحكمة ، فإن تلك دار الجزاء ، وهذه دار العمل ، فبينهما بون : ﴿ أفمن كان ﴾ أي كوناً كأنه من رسوخه جبلي ﴿ مؤمناً ﴾ أي راسخاً في التصديق العظيم بجميع ما أخبرت به الرسل ﴿ كمن كان ﴾ ولما كان السياق منسوقاً على دليل ﴿ مالكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ - الآية ، فكان الكافر خارجاً عن محيط ذلك الدليل الذي لا يخفي بوجه على

أحد له سمع وبصر وفؤاد ، اقتضى الحال التعبير بالفسق الذي هو الخروج عن محيط فقال : ﴿ فاسقاً ﴾ أي راسخاً في الفسق خارجاً عن دائرة الإذعان .

ولما توجه الاستفهام إلى كل من اتصف بهذا الصف ، وكان الاستفهام إنكارياً ، عبر عن معناه مصرحاً بقوله : ﴿ لا يستوون ﴾ إشارة - بالحمل على لفظ " من " مرة ومعناها أخرى - إلى أنه لا يستوي جمع من هؤلاء يجمع من أولئك ولا فرد بفرد .

(59/613)

ولما نفى استواءهم ، أتبعه حال كل على سبيل التفصيل معبراً بالجمع لأن الحكم بإرضائه وإسخاطه بفهم الحكم على الواحد منه من باب الأولى فقال : ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا ﴾ أي تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ أي الجنات المختصة دون الدنيا التي هي دار ممر ، دون النار التي هي دار مفر لا مقر ، بتأهلها للمأوى الكامل في هذا الوصف بما أشار إليه ب " ال " ثابتون فيها لا يبغون عنها حولاً ، كما تبؤوا الإيمان الذي هو أهل للإقامة فلم يبغوا به بدلاً ﴿ نزلاً ﴾ أي عداداً لهم أول قدومهم في قول الحسن وعطاء ، وهو أوفق للمقام كما يعد للضيف على ما لاح ﴿ بما كانوا ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ يعملون ﴾ دائماً على وجه التجديد ، فإن أعمالهم من رحمة ربهم ، فإذا كانت هذه

الجنات نزلاً فما ظنك بما بعد ذلك ! وهو لعمري ما أشار إليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " وهم كل لحظة في زيادة لأن قدرة الله لا نهاية لها ، فإياك أن يخدعك خادع أو يغرك ملحد ﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن دائرة الإيمان الذي هو معدن التواضع وأهل للمصاحبة والملازمة ﴿ فمأواهم النار ﴾ أي التي لا صلاحية فيها للإيواء بوجه من الوجوه أصلاً .

ولما كان السامع جديراً بالعلم بأنهم مجتهدون في الخلاص منها ، قال مستأنفاً لشرح حالهم : ﴿ كلما أرادوا ﴾ أي وهم مجتهدون فكيف إذا أراد بعضهم ﴿ أن يخرجوا منها ﴾ وهذا يدل على أنه يزاد في عذابهم بأن يخيل إليهم ما يظنون به القدرة على الخروج منها كما كانوا يخرجون بفسوقهم من محيط الأدلة من دائرة الطاعات إلى بيداء المعاصي والزلات ، فيعالجون الخروج فإذا ظنوا أنه تيسر لهم وهم بعد في غمراتها ﴿ أعيدوا ﴾ بأيسر أمر وأسهله من أيّ من أمر بذلك ﴿ فيها ﴾ إلى المكان الذي كانوا فيه أولاً ، ولا يزال هذا دأبهم أبداً ﴿ وقيل ﴾ أي من أيّ قائل وكل بهم ﴿ لهم ﴾ أي عند الإعادة إهانة له : ﴿ ذوقوا عذاب النار ﴾ .

(60/613)

ولما وصف عذابهم في النار كان أحق بالوصف عند بيان سبب الإهانة بالأمر بالذوق مع أنه أحق من حيث كونه مضافاً محدثاً عنه فقال : ﴿ الذي كنتم ﴾ أي كوناً هو لكم كالجبلات ، وأشار إلى أن تكذيبهم به يتلاشى عنده كل تكذيب ، فكأنه مختص فقال : ﴿ به تكذبون ﴾ فإن الإعادة بعد معالجة الخروج أمكن في التصديق باعتبار التجدد في كل آن .

ولما كان المؤمنون الآن يتمنون إصابتهم بشيء من الهوان في هذه الدار ، لأن نفوس البشر مطبوعة على العجلة ، بشرهم بذلك على وجه يشمل عذاب القبر ، فقال مؤكداً له لما عندهم من الإنكار لعذاب ما بعد الموت وللإصابة في الدنيا بما هم من الكثرة والقوة : ﴿ ولنذيقنهم ﴾ أي أجمعين بالمباشرة والتسبيب ، بما لنا من العظمة التي تتلاشى عندها كثرتهم وقوتهم ﴿ من العذاب الأدنى ﴾ أي قبل يوم القيامة ، بأيديكم وغيرها ، وقد صدق الله قوله ، وقد كانوا عند نزول هذه السورة بمكة المشرفة في غاية الكثرة والنعمة ، فأذاقهم الجدب سنين متوالية ، وفرق شملهم وقتلهم وأسرهم بأيدي المؤمنين إلى غير ذلك بما أراد سبحانه ؛ ثم أكد الإرادة لما قبل الآخرة وحققها بقوله ، معبراً بما يصلح للغيرية والسفول : ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ أي الذي مر ذكره في الآخرة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى رجوعه عن فسقه عند من ينظره ، وقد كان ذلك ، رجع كثير منهم خوفاً من السيف ، فلما رأوا محاسن الإسلام كانوا من أشد الناس فيه رغبة وله حباً .

ولما كان التقدير : يرجعون عن ظلمهم فإنهم ظالمون ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن أظلم ﴾ منهم هكذا كان الأصل ولكنه أظهر الوصف الذي صاروا أظلم فقال : ﴿ممن ذكر﴾ أي من أيّ مذكر كان وصرف القول إلى صفة الإحسان استعطافاً وتنبيهاً على وجوب الشكر فقال : ﴿ بآيات ربه ﴾ أي الذي لا نعمة عنده إلا منه .

(61/613)

ولما بلغت هذه الآيات من الوضوح أقصى الغايات ، فكان الإعراض عنها مستبعداً بعده ، عبر عنه بأداة البعد لذلك فقال : ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ ضد ما عمله الذين لم يتمالكوا أن خروا سجداً ، ويجوز – وهو أحسن – أن يكون " ثم " على بابها للتراخي ، ليكون المعنى أن من وقع له التذكير بها في وقت ما ، فأخذ يتأمل فيها ثم أعرض عنها بعد ذلك ولو بألف عام فهو أظلم الظالمين ، ويدخل فيه ما دون ذلك عن باب الأولى لأنه أجدر بعدم النسيان ، فهي أبلغ من التعبير بالفاء كما في سورة الكهف ، ويكون عدل إلى الفاء هناك شرحاً لما يكون من حالهم ، عند بيان سؤالهم ، الذي جعلوا بأنه آية الصدق ، والعجز عن آية الكذب .

ولما كان الحال مقتضياً للسؤال عن جزائهم ، وكان قد فرد الضمير باعتبار لفظ " من "

تنبيهاً على قباحة الظلم من كل فرد ، قال جامعاً لأن إهانة الجمع دالة على إهانة الواحد من باب الأولى ، مؤكداً لإن إقدامهم على التكذيب كالإنكار لأن تجاوزوا عليه ، صارفاً وجه الكلام عن صفة الإحسان إيذاناً بالغضب : ﴿ إنا ﴾ منهم ، هكذا كان الأصلي ، ولكنه أظهر الوصف نصفاً في التعميم وتعليقاً للحكم به معيناً لنوع ظلمهم تبشيعاً له فقال : ﴿ من المجرمين ﴾ أي القاطعين لما يستحق الوصل خاصة ﴿ منتقمون ﴾ وعبر بصيغة العظمة تنبيهاً على أن الذي يحصل لهم من العذاب لا يدخل تحت الوصف على جرد العداد في الظالمين ، فكيف وقد كانوا أظلم الظالمين ؟ والجملة الاسمية تدل على دوام ذلك عليهم في الدنيا إما باطناً بالاستدراج بالنعم ، وإما ظاهراً بإحلال النقم ، وفي الآخرة بدوام العذاب على مر الآباد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 59.62 ﴾

(62/613)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) ﴾

(63/613)

لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوي الفريقان ، ثم بين أنهما لا يستويان ، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل ، فقال : ﴿ أَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ جنات المأوى ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض فلما آمن العبد وعمل صالحاً قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى : ﴿ نُزُلاً ﴾ إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزل ما يعطي الملك النازل ، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً وقوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النار كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ إشارة إلى حال الكافر ، وقد ذكرنا مراراً أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال ، فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيآت لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل ، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه ، وقوله في حق المؤمنين (لَهُمْ) بلام التمليك زيادة إكرام لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولاً على العارية وله استرداده ، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية إليه وليس له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله : ﴿ لَهُمْ جنات ﴾ [البقرة : 25] ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه أنه يخرجه منها قال : ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ [البقرة : 35] ولم يقل لكما الجنة وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال : ﴿ لَهُمْ الجنة ﴾ [التوبة :

111] و ﴿ لَهُمْ جنات ﴾ وقوله : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ ﴾ إشارة إلى معنى حكمي ، وهو أن المؤلم إذا تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية

(64/613)

نسبة النار إلى الماء المسخن ، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية ، وكذلك الإنسان إذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد ، فإذا صبر زماناً طويلاً تثلج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه ، إذا علمت هذا فقوله : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ إشارة إلى أن الإله لا يسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار ، فلما ذاقوه كان أشد إيلاماً لأن من لا يتوقع شيئاً فيصيبه يكون أشد تأثيراً ، ثم إنهم في الآخرة كما في الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئاً آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول ، وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فإذن معنى قوله تعالى : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ليس

مقتصراً على تكذيبهم الذي كان في الدنيا بل ﴿كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وقيل لهم ذوقوا عذاباً كذبتم به من قبل ، أما في الدنيا بقولكم لا عذاب في الآخرة ، وأما في الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

يعني قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا فإن عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً فإن العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد ، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب في غاية الشدة ، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد ، وفي الآية مسألتان :

(65/613)

إحداهما : قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ في مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر في مقابلته العذاب الأصغر ، فما الحكمة في مقابلة الأدنى بالأكبر ؟ فنقول حصل في عذاب الدنيا أمران : أحدهما : أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضاً أمران أحدهما : أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير ، لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح للتخويف به ، فإن العذاب العاجل وإن كان قليلاً قد يحترز

منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا ، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل ، وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا ﴿ العذاب الأدنى ﴾ ليحترز العاقل عنه ولو قال : (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلاً وقال في عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ، ولو قال دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر ، وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة .

المسألة الثانية :

(66/613)

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل هذه الترجي والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نسيناكم ﴾ [السجدة : 14] يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلا ، فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذي يفعل بالراجي من التدريج وثانيهما : معناه نذيقهم

العذاب إذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ، ونزيد وجهاً آخر من عندنا ، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر ، كما يقال فلان اتجر ليربح ، ثم إن هذا التعليل إن كان في موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظراً إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فإنه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا ، كما يقال يتجر رجاء أن يربح ، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك في صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظراً إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلاً نظراً إلى الفعل ، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت ، لا يصح لحصوله الجزم بالموت عقيب الحز نظراً إليه وإن أمكن أن لا يموت نظراً إلى قدرة الله تعالى ، ويصحح قولنا قوله تعالى في حق إبراهيم

(67/613)

﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لى خَطِيئَتِى ﴾ [الشعراء : 82] مع أنه كان عالماً بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلاً من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى : ﴿ وارجوا اليوم الأخر ﴾ [العنكبوت : 36] مع أن الجزم به لازم إذا علم ما ذكرنا فنقول في كل صورة قال الله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ فإن نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم ، فإن من التعذيب لا يلزم

الرجوع لزوماً بيناً فصح قولنا يرجو وإن كان علمه حاصلاً بما يكون غاية ما في الباب أن الرجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوماً فأوهم أن لا يجوز الإطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجي يجوز في حق الله تعالى ، ولا يلزم منه عدم العلم ، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفاداً من الفعل فيصح حقيقة الترجي في حقه على ما ذكرنا من المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾

(68/613)

يعني لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانياً ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد ، لأن من يكفر بالله ظالم فإن الله لذوي البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شيء كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : 53] أي دليلك الله لا يحتاج المستنير الباطن إلى دليل على الله ، ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شيء فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء ، كان فيها نفع أو ضر كاف في معرفة الله كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] فإن لم يكفهم ذلك فبسبغه عليهم نعمه

ظاهرة وباطنة ، فالأول الذي لا يحتاج إلى غير الله هو عدل والثاني الذي يحتاج إلى دليل فهو متوسط والثالث الذي لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذي لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر ، وهو الذي إذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته ، فإن الأكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين إليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أي لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 159 . 161 ﴾

(69/613)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِيمَنْ نَزَلَتْ ؟ وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْمُؤْمِنِ ، وَفِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ الْكَافِرِ ، فَاخَرَ عُقْبَةُ عَلِيًّا ، فَقَالَ : أَنَا أَبْسَطُ مِنْك لِسَانًا ، وَأَحَدُّ سِنَانًا ، وَأَمْلَأُ فِي الْكَتِيبَةِ مِنْك حَشْوًا .

فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : لَيْسَ كَمَا قُلْت يَا فَاسِقُ .

قَالَ قَتَادَةُ : وَاللَّهِ مَا اسْتَوَيَا فِي الدُّنْيَا ، وَلَا عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي هَذَا الْقَوْلِ نَفْيُ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، وَبِهَذَا مُنِعَ الْقِصَاصُ بَيْنَهُمَا ؛ إذْ مِنْ شُرُوطِ وُجُودِ الْقِصَاصِ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ الْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ ، وَبِذَلِكَ احْتَجَّ عُلَمَاؤُنَا عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ فِي قَتْلِهِ الْمُسْلِمَ بِالذِّمِّيِّ .

وَقَالَ : أَرَادَ نَفْيَ الْمُسَاوَاةِ هَاهُنَا فِي الْآخِرَةِ فِي الثَّوَابِ ، وَفِي الدُّنْيَا فِي الْعَدَالَةِ ، وَنَحْنُ حَمَلْنَاهُ عَلَى عُمُومِهِ ؛ وَهُوَ أَصَحُّ ؛ إذْ لَا دَلِيلَ يَخُصُّهُ حَسْبَمَا قَرَرْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(70/613)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾

المؤمن هنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه والفاسق عقبة بن أبي معيط قال ابن عباس : سابّ عقبة علياً فقال أنا أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً وأملأ منك حشواً فقال له علي كرم الله وجهه : ليس كما قلت يا فاسق فنزلت ، فيهما هذه الآية .

﴿ لاَ يَسْتَوُونَ ﴾ قال قتادة : لا والله لا يستوون لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ أما العذاب الأدنى

ففي الدنيا وفيه سبعة أقاويل :

أحدها : أنها مصائب الدنيا في الأنفس والأموال ، قاله أُبي .

الثاني : القتل بالسيف ، قاله ابن مسعود .

الثالث : أنه الحدود ، قاله ابن عباس .

الرابع : القحط والجدب ، قاله إبراهيم .

الخامس : عذاب القبر ، قاله البراء بن عازب ومجاهد .

السادس : أنه عذاب الدنيا كلها ، قاله ابن زيد .

السابع : أنه غلاء السعر والأكبر خروج المهدي ، قاله جعفر الصادق .

ويحتمل ثامناً : أن العذاب الأدنى في المال ، والأكبر في الأنفس .

والعذاب الأكبر عذاب جهنم في الآخرة .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يرجعون إلى الحق ، قاله إبراهيم .

الثاني : يتوبون من الكفر ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ

﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمناً ﴾ الآية ،

روي عن عطاء بن يسار أنها نزلت في علي بن أبي طالب : والوليد بن عقبة بن أبي معيط وذلك أنهما تلاحيا فقال لها الوليد : أنا أبسط منك لساناً وأحد سناناً وأرد للكتيبة ، فقال له علي بن أبي طالب : اسكت فإنك فاسق ، فنزلت الآية .

وذكر الزجاج والنحاس وغيرهما أنها نزلت في علي وعقبة بن أبي معيط ، وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية ، لأن عقبة لم يكن بالمدينة وإنما قتل في طريق مكة منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر ، ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان فيه أو لما روي من نقله عن بني المصطلق ما لم يكن حتى نزلت فيه ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ [الحجرات : 6] ويحتمل أيضاً أن تطلق الشريعة ذلك عليه لأنه كان على طرف مما يبغي وهو الذي شرب الخمر في خلافة عثمان وصلى الصبح بالناس أربعاً ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ونحو هذا مما يطول ذكره . ثم قسم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذي فسقهم بالكفر لأن التكذيب الذي في آخر الآية يقتضي ذلك ، وقرأ طلحة " جنة " بالإفراد ، وقرأ أبو حيوة " نزْلاً " بإسكان الزاي ، والجمهور على ضمها وسائر باقي الآية بين .

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

الضمير في قوله ﴿ لنذيقنهم ﴾ لكفار قريش ، أعلم الله تعالى أنه يصيبهم بعذاب دون عذاب الآخرة ، واختلف المتأولون في تعيين ﴿ العذاب الأدنى ﴾ ، فقال إبراهيم النخعي ومقاتل : هم السنون التي أجاعهم الله تعالى فيها ، وقال ابن عباس وأبي بن كعب : هو مصائب الدنيا من الأمراض ونحوها وقاله ابن زيد ، وقال ابن مسعود والحسن بن علي هو القتل بالسيف كبدر وغيرها .

(72/613)

قال الفقيه الإمام القاضي : فيكون على هذا التأويل الراجع غير الذي يذوق بل الذي يبقى بعده وتختلف رتبتا ضمير الذوق مع ضمير " لعل " وقال أبيّ بن كعب أيضاً هي البطشة ، واللزام ، والدخان . وقال ابن عباس أيضاً عنى بذلك الحدود .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويتجه على هذا التأويل أن تكون في فسقة المؤمنين ، وقال مجاهد : عنى بذلك عذاب القبر ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ﴾ على جهة التعجب ، والتقدير أي لا أحد أظلم ممن هذه صفته ، وهي بخلاف ما تقدم في صفة المؤمنين من أنهم إذا ذكروا بآيات الله خروا سجداً ، ثم توعد تعالى ﴿ المجرمين ﴾ وهم المتجاسرون على

ركوب الكفر والمعاصي بالنقمة ، وظاهر الإجرام هنا أنه الكفر ، وحكى الطبري عن يزيد بن رفيع أنه قال : إن قول الله تعالى في القرآن ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ إنا هو في أهل القدر .

قال الفقيه الإمام القاضي : يريد القائلين بأن الأمر أنف ، وأن أفعال العبد من قبله ، قال ثم قرأ يزيد بن رفيع ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر 47 - 49] .

قال الفقيه الإمام القاضي : في هذا المنزع من البعد ما لا خفاء به ، وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد لواء في غير حق ، ومن عق والديه ، ومن نصر ظالماً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(73/613)

وقال القرطبى :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ أي ليس المؤمن

كالفاسق ؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم .

قال ابن عباس وعطاء بن يَسار : نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب والوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط ؛ وذلك أنهما تلاحَيَا فقال له الوليد : أنا أَبْسَطُ منك لساناً وأحدّ سِناناً وأردّ للكتيبة وروي وأملأ في الكتيبة جسداً .

فقال له عليّ : اسكت ! فإنك فاسق ؛ فنزلت الآية .

وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت في عليّ وعُقبة بن أبي مُعَيْط .

قال ابن عطية : وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية ؛ لأن عُقبة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل في طريق مكة مُنْصَرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر .

ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد .

وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان في نفسه ، أوْ لما روي من نقله عن بني المُصْطَلِق ما لم يكن ، حتى نزلت فيه : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فتبينوا ﴾ [الحجرات : 6] على ما يأتي في الحُجُرات بيانه .

ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه ؛ لأنه كان على طرف مما يبغي ، وهو الذي شرب الخمر في زمن عثمان رضي الله عنه ، وصلّى الصبح بالناس ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ، ونحو هذا مما يطول ذكره .

الثانية : لما قسّم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر لأن التكذيب في آخر

الآية يقتضي ذلك اقتضى ذلك نفي المساواة بين المؤمن والكافر ؛ ولهذا منع القصاص بينهما ؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول .

وبذلك احتج علماؤنا على أبي حنيفة في قتله المسلم بالذميّ .

وقال : أراد نفي المساواة هاهنا في الآخرة في الثواب وفي الدنيا في العدالة .

(74/613)

ونحن حملناه على عمومه ، وهو أصح ، إذ لا دليل يخصه ؛ قاله ابن العربي .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ قال الزجاج وغيره : "مَنْ" يصلح للواحد والجمع .

النحاس : لفظ "مَنْ" يؤدي عن الجماعة ؛ فلهذا قال : "لاَ يَسْتَوُونَ" ؛ هذا قول كثير من النحويين .

وقال بعضهم : "لاَ يَسْتَوُونَ" لاثنين ؛ لأن الاثنين جمع ، لأنه واحد جمع مع آخر .

وقاله الزجاج أيضاً .

والحديث يدلّ على هذا القول ؛ لأنه عن ابن عباس .

وغيره قال : نزلت ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً ﴾ في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ﴿ كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط .

وقال الشاعر :

أليس الموت بينهما سواء . . .

إذا ماتوا وصاروا في القبور

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأوى ﴾ أخبر عن مقرّ الفريقين غداً ؛ فللمؤمنين جنات المأوى ، أي يأوون إلى الجنات ؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك الموضع يتضمن جنات .

﴿ نُزُلاً ﴾ أي ضيافة .

والنُّزُلُ : ما يُهيّأ للنازل والضيف .

وقد مضى في آخر "آل عمران" وهو نصب على الحال من الجنات ؛ أي لهم الجنات معدّة ، ويجوز أن يكون مفعولاً له .

﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ ﴾ أي خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ أي مقامهم فيها .

﴿ كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ أي إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها ، لأنهم يطمعون في الخروج منها .

وقد مضى هذا في "الحج" .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ أي يقول لهم خَزَنَة جهنم .

أو يقول الله لهم : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ والذوق يُستعمل محسوساً ومعنًى .

وقد مضى في هذه السورة بيانه .

(75/613)

قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأُبَيّ بن كعب وإبراهيم النَّخَعِيّ : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا ؛ وقاله ابن عباس .

وعنه أيضاً أنه الحدود .

وقال ابن مسعود والحسين بن عليّ وعبد الله بن الحارث : هو القتل بالسيف يوم بدر .

وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجِيف ؛ وقاله مجاهد .

وعنه أيضاً : العذاب الأدنى عذاب القبر ؛ وقاله البراء بن عازب .

قالوا : والأكبر عذاب يوم القيامة .

قال القشيريّ : وقيل عذاب القبر .

وفيه نظر ؛ لقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

قال : ومن حمل العذاب على القتل قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي يرجع من بقي منهم .

ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم ؛ إلا ما روي عن جعفر بن محمد أنه خروج المهدي بالسيف .

والأدنى غلاء السعر .

وقد قيل : إن معنى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ على قول مجاهد والبراء : أي لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ؛ كقوله : ﴿ فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ [السجدة : 12] .

وسُمِّيت إرادة الرجوع رجوعاً كما سُمّيت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] .

ويدلّ عليه قراءة من قرأ : "يُرْجَعُون" على البناء للمفعول ؛ ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه .

﴿ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أي بحججه وعلاماته .

﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ بترك القبول .

﴿ إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾

﴿ لآتينا كل نفس هداها ﴾ : أي اخترعنا الإيمان فيها ، كقوله : ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ و ﴿ لجمعهم على الهدى ﴾ و ﴿ لجعل الناس أمة واحدة ﴾ وقال الزمخشري : على طريق الإلجاء والقسر ، ولكنا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون أهل البصر . ألا ترى إلي ما عقبه به من قوله : ﴿ فذوقوا بما نسيتم ﴾ ؟ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم من نسيان العاقبة وقلة الفكر فيها ، وترك الاستعداد لها .

والمراد بالنسيان : خلاف التذكر ، يعني : أن الانهماك في الشهوات أنهككم وألهاكم عن تذكر العاقبة ، وسلط عليكم نسيانها .

ثم قال : ﴿ إنا نسيناكم ﴾ على المقابلة : أي جازيناكم جزاء نسيانكم .

وقيل : هو بمعنى الترك ، قاله ابن عباس وغيره ، أي تركتم الفكر في العاقبة ، فتركناكم من الرحمة . انتهى .

وقوله : على طريق الإلجاء والقسر ، هو قول المعتزلة .

وقالت الإمامية : يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ، ولم يعاقب أحداً ، لكن

حق القول منه أن يملأ جهنم ، فلا يجب على الله هداية الكل إليها .

قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ؛ فأما من له ذنب ، فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله ، وفي جواز ذلك منع لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان . انتهى .

و﴿ هذا ﴾ : صفة ليومكم ، ومفعول ﴿ فذوقوا ﴾ محذوف ، أو مفعول فذوقوا هذا العذاب بسبب نسيانكم ﴿ لقاء يومكم هذا ﴾ ، وهو ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم ؛ أو ذوقوا العذاب المخلد في جهنم .

وفي استئناف قوله : ﴿ إنا نسيناكم ﴾ ، وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم .

(77/613)

﴿ وإنما يؤمن بآياتنا ﴾ : أثنى تعالى على المؤمنين في وصفهم بالصفة الحسنى ، من سجودهم عند التذكير ، وتسبيحهم وعدم استكبارهم ؛ بخلاف ما يصنع الكفرة من الإعراض عن التذكير ، وقول الهجر ، وإظهار التكبر ؛ وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن .

وقال ابن عباس : السجود هنا بمعنى الركوع .

وروي عن ابن جريج : المسجد مكان الركوع ، يقصد من هذا ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية ومن مذهب ابن عباس أن القارىء للسجدة يركع ، واستدل بقوله : ﴿ وخرّ راكعاً وأناب ﴾ ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ : أي ترتفع وتتنحى ، يقال : جفا الرجل الموضع : تركه .

قال عبد الله بن رواحة :

نبي تجافى جنبه عن فراشه . . .

إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الزجاج والرماني : التجافي : التنحي إلى جهة فوق .

والمضاجع : أماكن الاتكاء للنوم ، الواحد مضجع ، أي هم منتبهون لا يعرفون نوماً .

وقال الجمهور : المراد بهذا التجافي صلاة النوافل بالليل ، وهو قول الأوزاعي ومالك والحسن البصري وأبي العالية وغيرهم .

وفي الحديث ، ذكر قيام الليل ، ثم استشهد بالآية ، يعني الرسول .

وقال أبو الدرداء ، وقتادة ، والضحاك : تجافي الجنب : هو أن يصلي العشاء والصبح في جماعة .

وقال الحسن : هو التهجد ؛ وقال أيضاً : هو وعطاء : هو العتمة .

وفي الترمذي ، عن أنس : نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة .

وقال قتادة ، وعكرمة : التنفل ما بين المغرب والعشاء ، ﴿ يدعون ﴾ : حال ، أو مستأنف خوفاً وطمعاً ، مفعول من أجله ، أو مصدران في موضع الحال .

والظاهر أن الدعاء هو : الابتهال إلى الله ، وقيل : الصلاة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما أخفي لهم ﴾ ، فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ؛ وحمزة ، والأعمش ، ويعقوب : بسكون الياء ، فعلاً مضارعاً للمتكلم ؛ وابن مسعود : وما نخفي ، بنون العظمة ؛ والأعمش أيضاً : أخفيت .

وقرأ محمد بن كعب : ما أخفي ، فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل .

وقرأ الجمهور : ﴿ من قرة ﴾ ، على الإفراد .

(78/613)

وقرأ عبد الله ، وأبو الدرداء ، وأبو هريرة ، وعوف العقيلي : من قرات ، على الجمع بالألف والتاء ، وهي رواية عن أبي جعفر والأعمش ؛ و ﴿ ما أخفي ﴾ يحتمل أن تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية ، فيكون ﴿ تعلم ﴾ متعلقة .

والجملة في موضع المفعول ، إن كان ﴿ تعلم ﴾ مما عدى لواحد ؛ وفي موضع المفعولين إن كانت تتعدى لاثنين ، وتقدم تفسيره في ﴿ قرة عين ﴾ في الفرقان .

وفي الحديث ، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ " وقال ابن مسعود : في التوراة مكتوب على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت إلى آخره .

﴿ ولا تعلم نفس ﴾ : نكرة في سياق النفي ، فيعم جميع الأنفس مما ادّخرا لله تعالى لأولئك ، وأخفاه من جميع خلائقه مما تقر به أعينهم ، لا يعلمه إلا هو ، وهذه عدة عظيمة لا تبلغ الأفهام كنهها ، بل ولا تفاصيلها .

وقال الحسن : أخفوا اليوم أعمالاً في الدنيا ، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، وهو تعالى الموفق للعمل الصالح .

وقال الزمخشري : فحسم أطماع المتمنين .

انتهى ، وهذه نزغة اعتزالية .

﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ ، قال ابن عباس وعطاء : نزلت في علي والوليد بن عقبة .

تلاحياً ، فقال له الوليد : أنا أذلق منك لساناً ، وأحدّ سناناً ، وأرد للكتيبة .

فقال له علي : اسكت ، فإنك فاسق .

قال الزمخشري : فنزلت عامة للمؤمنين والفاسقين ، فتناولتهما وكل من في مثل حالهما .

وقال الزجاج ، والنحاس : نزلت في علي وعقبة بن أبي معيط .

فعلى هذا تكون الآية مكية ، لأن عقبة لم يكن بالمدنية ، وإنما قتل بطريق مكة ، منصرف بدر .

والجمع في ﴿ لا يستوون ﴾ ، والتقسيم بعده ، حمل على معنى من .

وقيل : ﴿ لا يستوون ﴾ لاثنين ، وهو المؤمن والفاسق ، والتثنية جمع .

(79/613)

وقال الزجاج : ونزول الآية في علي والوليد ، ثم بين انتفاء الاستواء بمقر كل واحد منهما بالإفراد .

والجمهور : ﴿ جنات ﴾ بالجمع .

وقيل : سميت بذلك لما روي عن ابن عباس ، قال : يأوي إليها أرواح الشهداء .

وقيل : هي عن يمين العرش .

وقرأ الجمهور : ﴿ نُزُلاً ﴾ بضم الزاي ؛ وأبو حيوة : بإسكانها .

والنزل : عطاء النازل ، ثم صار عاماً فيما يعد للضيف .

﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ : أي بالكفر ، ﴿ فمأواهم النار ﴾ .

قال الزمخشري : ويجوز أن يراد : فجنة مأواهم النار ، أي النار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين ، كقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ انتهى وهذا فيه بعد .

وإنما يذهب إلى مثل ﴿ فبشرهم ﴾ إذا كان مصرحاً به فيقول : قام مقام التبشير العذاب ، وكذلك قام مقام التحية ضرب وجيع .

أما أن تضمر شيئاً لكلام مستغنى عنه جار على أحسن وجوه الفصاحة حتى يحمل الكلام على إضمار ، فليس بجيد .

و ﴿ العذاب الأدنى ﴾ ، قال أبيّ ، وابن عباس ، والضحاك ، وابن زيد : مصائب الدنيا في الأنفس والأموال .

وقال ابن مسعود ، والحسن بن علي : هو القتل بالسيف ، نحو يوم بدر .

وقال مجاهد : القتل والجوع لقريش ، وعنه : إنه عذاب القبر .

وقال النخعي ، ومقاتل : هو السنون التي أجاعهم الله فيها .

وقال ابن عباس أيضاً : هو الحدود .

وقال أبيّ أيضاً : هو البطشة واللزام والدخان .

و ﴿ العذاب الأكبر ﴾ ، قال ابن عطية : لا خلاف أنه عذاب الآخرة .

وفي التحرير وأكثرهم على أن العذاب الأكبر عذاب يوم القيامة في النار .

وقيل : هو القتل والسبي والأسر .

وعن جعفر بن محمد : أنه خروج المهدي بالسيف .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ ، قال ابن مسعود : لعل من بقي منهم يتوب .

وقال أبو العالية : لعلهم يتوبون .

وقال مقاتل : يرجعون عن الكفر إلى الإيمان .

وقيل لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه لقوله : ﴿ فارجعنا نعمل صالحاً ﴾ .

(80/613)

وسميت إرادة الرجوع رجوعاً ، كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا ﴾ انتهى .

ويقابل الأدنى : الأبعد ، والأكبر : الأصغر .

لكن الأدنى يتضمن الأصغر ، لأنه منقض بموت المعذب والتخويف ، إنما يصلح بما هو قريب ، وهو العذاب العاجل .

والأكبر يتضمن الأبعد ، لأنه واقع في الآخرة ، والتخويف بالبعيد إنما يصلح بذكر عظمه وشدته ، فحصلت المقابلة من حيث التضمن ، وخرج في كل منهما بما هو آكد في

التخويف .

وقال الزمخشري : فإن قلت : من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ؟ ولعل من الله إرادة ، وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يمتنع ، وتوبتهم مما لا يكون ، ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر ؟ قلت : إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده ، فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ، ولم يمنع للاقتدار وخلوص الداعي ؛ وأما أفعال عباده ، فإما أن يريدها وهم مختارون لها ومضطرون إليها بقسره وإلجائه ، فإن أرادها وقدرها فحكمها حكم أفعاله ، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره ، كما لا يقدح في اقتدراك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك ، وهو لا يختارها ، لأن اختياره لا يتعلق بقدرتك ، فلم يكن بعده دالاً على عجزك .

انتهى ، وهو على مذهب المعتزلة ، وقد ردّ عليهم أهل السنة ، وذلك مقرر في علم الكلام .

﴿ ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ ، بخلاف المؤمنين ، إذا ذكروا بها خروا سجداً .

﴿ ثم أعرض عنها ﴾ ، قال الزمخشري : ثم للاستبعاد ، والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل ؛ والعادة ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ، ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز ، ومنه ثم في بيت الشاعر :

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة . . .

يرى غمرات الموت ثم يزورها

(81/613)

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها . انتهى .

﴿ من المجرمين ﴾ : عام في كل من أجرم ، فيندرج فيه بجهة الأولوية من كان أظلم ظالم ؛

والإجرام هنا : هو : الكفر .

وقال يزيد بن رفيع : هي في أهل القدر ، وقرأ : ﴿ إن المجرمين ﴾ إلى قوله : ﴿ بقدر ﴾

وفي الحديث : " ثلاث من كن فيه فقد أجرم : من عقد لواء في غير حق ، ومن عق والديه ،

ومن نصر ظالماً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(82/613)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾

استئنافٌ مسوقٌ لتقريرِ عدمِ استحقاقِهم لإيتاءِ الهُدى والإشعارِ بعدمِ إيمانِهم لو أُوتوه بتعيينِ مَن يستحقُّه بطريقِ القصرِ كأنَّه قيل : إنَّكم لا تؤمنون بآياتِنا ولا تعملون بموجبِها عملاً صالحاً ولو رَجَعناكم إلى الدُّنيا كما تدَّعون حسبما ينطقُ به قولُه تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ وإنَّما يُؤمن بها ﴿ الذين إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ﴾ أي وُعِظوا ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ آثر ذي أثيرٍ من غيرِ تردُّدٍ ولا تلعثمٍ فضلاً عن التَّسويفِ إلى معاينةِ ما نطقتْ به من الوعدِ والوعيدِ أي سقطُوا على وجوهِهم ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ونزَّهُوه عند ذلك عن كلِّ ما لا يليقُ به من الأمورِ التي من جُملتِها العجزُ عن البعثِ ملتبسين بحمدِه تعالى على نعمائِه التي أجلُّها الهدايةُ بإيتاءِ الآياتِ والتَّوفيقِ للاهتداءِ بها ، والتعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيةِ بطريقِ الالتفاتِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم للإشعارِ بعلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ وبأنَّهم يفعلونهما بملاحظةِ ربوبيتِه تعالى لهم ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي والحالُ أنَّهم خاضعون له تعالى لا يستكبرون عمَّا فعلُوا من الخُرورِ والتَّسبيحِ والتَّحميدِ ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ ﴾ أي تنبُو وتنْحَى ﴿ عَنِ المضاجع ﴾ أي الفُرشِ ومواضعِ المنامِ . والجملةُ مستأنفةٌ لبيانِ بقيةِ محاسنِهم وهم المُتهجِّدونَ بالليلِ . قال أنسٌ رضي الله عنه : نزلتْ فينا معاشرَ الأنصارِ كنَّا نصلِّي المغربَ فلا نرجعُ إلى رحالِنا حتى نصلِّي العشاءَ مع النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . وعن أنسٍ أيضاً رضي الله عنه أنَّه قال : نزلتْ في أناسٍ من أصحابِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ

والسَّلامُ كانوا يصلُّون من صلاةِ المغربِ إلى صلاةِ العشاءِ وهي صلاةُ الأوَّابينَ وهو قولُ أبي حازمٍ ومحمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ ، وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما .

(83/613)

وقال عطاءٌ : هم الذين لا ينامُون حتَّى يصلُّوا العشاءَ الآخرةَ والفجرَ في جماعةٍ . والمشهورُ أنَّ المرادَ منه صلاةُ اللَّيلِ وهو قولُ الحسنِ ومجاهدٍ ومالكٍ والأوزاعيِّ وجماعةٍ ، لقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " أفضلُ الصِّيامِ بعد شهرِ رمضانَ شهرُ الله المحرَّمُ وأفضلُ الصَّلاةِ بعد الفريضةِ صلاةُ اللَّيلِ " وعن النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في تفسيرِها : " قيامُ العبدِ من الليلِ " وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " إذا جمعَ الله الأوَّلينَ والآخرينَ جاء منادٍ ينادي بصوتٍ يُسمع الخلائقَ كلَّهم سيعلم أهلُ الجمعِ اليَومَ من أولى بالكرمِ ثم يرجعُ فيُنادي ليقُم الذين كانتْ تتجَافى جنوبُهم عن المضاجعِ فيقومونَ وهُم قليلٌ ثم يرجعُ فيُنادي ليقُم الذين كانُوا يحمدون الله في السرَّاءِ والضَّراءِ فيقومون وهُم قليلٌ فيسرَّحُون جميعاً إلى الجنَّةِ ، ثم يُحاسَب سائرُ النَّاسِ " . وقولُه تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ حالٌ من ضميرِ جنوبُهم أي داعينَ له تعالى على الاستمرارِ ﴿ خَوْفًا ﴾ من سخطِه وعذابِه وعدمِ قبولِ عبادتِه ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في رحمتِه ﴿ وَمِمَّا رزقناهم ﴾ من المالِ ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ في وجوهِ البرِّ والحسناتِ .

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النُّفوسِ لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ فضلاً عمَّن عداهم ﴿ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ أي لأولئكَ الذين عُدّدت نعوتُهم الجليلةُ ﴿ مّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ مما تقرُّ به أعينُهم وعنْهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أعددتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ ، بَلْهَ ما اطلعتُم عليهِ اقرؤا إنْ شئتُم ، فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرَّةِ أعينٍ " . وقُرِىء ما أُخفي لهم وما نُخفي لهم وما أَخفيتُ لهم على صيغة المتكلِّمِ وما أخفى لهم على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ سبحانه . وقُرِىء قُرَّاتِ أعينٍ لاختلافِ أنواعِها . والعِلمُ بمعنى المعرفةِ وما موصولةٌ أو استفهاميةٌ عُلّق عنها الفعلُ ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي جُزوا جَزاءاً أو أُخفي لهم للجزاءِ بما كانُوا يعملونَه في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحةِ . قيل : هؤلاءِ القومُ أخفَوا أعمالَهم فأخفَى اللهُ تعالى ثوابَهم ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ أي أبعدَ ظهورِ ما بينهُما من التَّباينِ البيّنِ يُتوهَّمُ كونُ المؤمنِ الذي حُكيت أوصافُه الفاضلةُ كالفاسقِ الذي ذُكرت أحوالُه ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ التَّصريحِ به مع إفادةِ الإنكارِ لنفيِ المشابهةِ بالمرَّةِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه لبناء التَّفصيل الآتي عليه والجمعُ باعتبارِ معنى مَن كما أنَّ الإفرادَ فيما سبق باعتبارِ لفظِها . وقولُه تعالى : ﴿

أَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ جنات المأوى ﴾ تفصيلٌ لمراتبِ الفريقينِ في الآخرةِ بعد ذكرِ أحوالِهما في الدُّنيا وأضيفتْ الجنَّةُ إلى المَأْوى لأنَّها المأوى الحقيقيُّ وإنَّما الدُّنيا منزلٌ مرتحلٌ عنه لا محالةَ وقيل : المَأْوى جنَّةٌ من الجنَّاتِ ، وأياً ما كان فلا يبعُد أنْ يكونَ فيه رمزٌ إلى ما ذُكر من تجافِيهم عن مضاجعِهم

(85/613)

التي هي مأواهم في الدُّنيا ﴿ نُزُلاً ﴾ أي ثواباً وهو في الأصلِ ما يعدُّ للنَّازلِ من الطَّعامِ والشَّرابِ وانتصابُه على الحاليَّةِ ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحةِ أو بأعمالِهم .

﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ ﴾ أي خرجُوا عن الطَّاعةِ ﴿ فَمَأْوَاهُمُ ﴾ أي ملجأُهُم ومنزلُهم ﴿ النار ﴾ مكانَ جنَّاتِ المأوى للمؤمنينَ ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ استئنافٌ لبيانِ كيفيةِ كونِ النَّارِ مأواهم . يُروى أنَّه يضربُهم لهَبُ النَّارِ فيرتفعونَ إلى طبقاتِها حتَّى إذا قربُوا من بابِها وأرادُوا أنْ يخرجُوا منها يضربُهم اللَّهبُ فيهوون إلى قعرِها وهكذا يُفعل بهم أبداً وكلمةُ فِي للدّلالةِ على أنَّهم مستقرُّون فيها وإنَّما الإعادةُ من بعضِ طبقاتِها إلى بعضٍ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ تشديداً عليهم وزيادةً في غيظِهم ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار

الذي كُنتُمْ بِهِ ﴾ أي بعذابِ النَّارِ ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ على الاستمرارِ في الدُّنيا ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الادنى ﴾ أي عذابِ الدُّنيا وهو ما مُحِنُوا به من السَّنَةِ سبعَ سنينَ والقتلِ والأسرِ ﴿ دُونَ العذاب الأكبر ﴾ الذي هو عذابُ الآخرةِ ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ لعلَّ الذين يُشاهدونه وهُم في الحياةِ ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ يتوبُون عن الكفرِ . رُوي أن الوليدَ بنَ عُقبةَ فاخرَ عليًّا رضيَ الله عنه يومَ بدرٍ فنزلتْ هذه الآياتُ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيات رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ بيانٌ إجماليٌّ لحالِ من قابل آياتِ الله تعالى بالإعراضِ بعد بيانِ حالِ مَن قابلها بالسُّجودِ والتَّسبيحِ والتَّحميدِ . وكلمةُ ثُمَّ لاستبعادِ الإعراضِ عنها عقلاً مع غايةِ وضوحِها وإرشادِهم إلى سعادةِ الدَّارينِ كما في بيتِ الحماسةِ

وَلاَ يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلاَّ ابْنُ حُرَّة . . . يَرَى غَمَراتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُها

(86/613)

أي هو أظلمُ مِن كلِّ ظالمٍ وإن كان سبكُ التَّركيبِ على نفيِ الأظلمِ من غيرِ تعرُّضٍ لنفيِ المُساوي . وقد مرَّ مراراً ﴿ إِنَّا مِنَ المجرمين ﴾ أي من كلِّ من اتَّصف بالإجرامِ وإنْ هانتْ جريمتُه ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾ فكيفَ مَمَّن هو أظلمُ من كلِّ ظالمٍ وأشدُّ جُرماً من كلِّ مجرم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾

أي أبعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذي حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذي ذكرت أحواله القبيحة العاطلة ، وأصل الفسق الخروج من فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها ثم استعمل في الخروج عن الطاعة وأحكام الشرع مطلقاً فهو أعم من الكفر وقد يخص به كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ [النور : 55] وكما هنا لمقابلته بالمؤمن مع ما ستسمعه بعد إن شاء الله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ التصريح به مع إفادة الإنكار لنفي المشابهة بالمرة على أبلغ وجه وآكده لزيادة التأكيد وبناء التفصيل الآتي عليه ، والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ، وقيل : الضمير لاثنين وهما المؤمن والكافر والتثنية جمع .

﴿ أَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ جنات المأوى ﴾

تفصيل لمراتب الفريقين بعد نفي استوائهما وقيل : بعد ذكر أحوالهما في الدنيا ، وأضيفت الجنان إلى المأوى لأنها المأوى والمسكن الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة ، وقيل :

المأوى علم لمكان مخصوص من الجنان كعدن ، وقيل : جنة المأوى لما روي عن ابن عباس ، أنها تأوي إليها أرواح الشهداء ، وروي أنها عن يمين العرش ولا يخفى ما في جعله علماً من البعد وأياً ما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا .

وقرأ طلحة ﴿ جَنَّةُ المأوى ﴾ بالأفراد ﴿ نُزُلاً ﴾ أي ثواباً وهو في الأرض ما يعد للنازل من الطعام والشراب والصلة ثم عم كل عطاء ، وانتصابه على أنه حال من ﴿ جنات ﴾ والعامل فيه الظرف ، وجوز أن يكون جمع نازل فيكون حالاً من ضمير ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ وقرأ أبو حيوة ﴿ نُزُلاً ﴾ بإسكان الزاي كما في قوله :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا . . .

جعلنا القنا والمرهفات له نزلاً

(88/613)

﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بسبب الذي كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة على أن ما موصولة والعائد محذوف والباء سببية ، وكون ذلك سبباً بمقتضى فضله تعالى ووعده عز وجل فلا ينافي حديث " لا يدخل أحدكم الجنة بعمله " ويجوز أن تكون الباء للمقابلة

والمعاوضة كعلى في نحو بعتك الدار على ألف درهم أي فلهم ذلك على الذي كانوا يعملونه .

﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ ﴾ أي خرجوا عن الطاعة فكفروا وارتكبوا المعاصي ﴿ فَمَأْوَاهُمُ ﴾ أي فمسكنهم ومحلهم ﴿ النار ﴾ وذكر بعضهم أن المأوى صار متعارفاً فيما يكون ملجأ للشخص ومستراحاً يستريح إليه من الحر والبرد ونحوها فإذا أريد هنا يكون في الكلام استعارة تهكمية كما في قوله تعالى : ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : 1 2] ، وجوز أن يكون استعمال ذلك من باب المشاكلة لأنه لما ذكر في أحد القسمين فلهم جنات المأوى ذكر في الآخر ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ ﴾ استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم والكلام على حد قوله تعالى : ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف : 77] على ما قيل ، والمعنى كلما شارفوا الخروج منها وقربوا منه أعيدوا فيها ودفعوا إلى قعرها ، فقد روي أنهم يضربهم لهب النار فيرتفعون إلى أعلاها حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون إلى قعرها وهكذا يفعل بهم أبداً ، وقيل : الكلام على ظاهره إلا أن فيه حذفاً أي كلما أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا من معظمها أعيدوا فيها ، ويشير إلى أن الخروج من معظمها قوله تعالى : ﴿ فِيهَا ﴾ دون إليها ، أن يكون الكلام هنا عبارة عن خلودهم فيها ، وأياً ما كان لا منافاة بين هذه

الآية وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بخارجين مِنَ النار ﴾ [البقرة : 167] ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ تشديداً عليهم وزيادة في غيظهم .

(89/613)

﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ ﴾ أي بعذاب النار ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ على الاستمرار في الدنيا وأظهرت النار مع تقدمها قبل لزيادة التهديد والتخويف وتعظيم الأمر ، وذكر ابن الحاجب في أماليه وجهاً آخر للإظهار وهو أن الجملة الواقعة بعد القول حكاية لما يقال لهم يوم القيامة عند إرادتهم الخروج من النار فلا يناسب ذلك وضع الضمير إذ ليس القول حينئذٍ مقدماً عليه ذكر النار وإنما ذكرها سبحانه قبل إخباراً عن أحوالهم ، ونظر فيه الطيبي عليه الرحمة بأن هذا القول داخل أيضاً في حيز الإخبار لعطفه على ﴿ أُعِيدُواْ ﴾ الواقع جواباً لكلما فكما جاز الإضمار في المعطوف عليه جاز فيه أيضاً إن لم يقصد زيادة التهديد والتخويف .

ورد بأن المانع أنه حكاية لما يقال لهم يوم القيامة والأصل في الحكاية أن تكون على وفق المحكي عنه دون تغيير ولا إضمار في المحكي لعدم تقدم ذكر النار فيه .

وتعقب بأنه قد يناقش فيه بأن مراده أنه يجوز رعاية المحكي والحكاية وكما أن الأصل رعاية

المحكي الأصل الإضمار إذا تقدم الذكر فلا بد من مرجح .

وقال بعض المحققين : أراد ابن الحاجب أن الإظهار هو المناسب في هذه الجملة نظراً إلى ذاتها ونظراً إلى سياقها أما الأول : فلأنها تقال من غير تقدم ذكر النار ، وأما الثاني : فلأن سياق الآية للتهديد والتخويف وتعظيم الأمر وفي الإظهار جائز وأنه رجح الإظهار اقتضاء السياق لذلك .

(90/613)

ونقل عن الراغب ما يدل على أن المقام في هذه الآية مقام الضمير حيث ذكر عنه أنه قال في "درة التنزيل" : إنه تعالى قال ههنا ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ وقال سبحانه في آية أخرى : ﴿ عَذَابَ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ : 42] فذكر جل وعلا ههنا وأنث سبحانه هناك والسر في ذلك أن النار ههنا وقعت موقع الضمير والضمير لا يوصف فأجرى الوصف على العذاب المضاف إليها وهو مذكر وفي تلك الآية لم يجر ذكر النار في سياقها فلم تقع النار موقع الضمير فأجرى الوصف عليها وهي مؤنثة دون العذاب فتأمل .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾

أي الأقرب ، وقيل : الأقل وهو عذاب الدنيا فإنه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه ،

واختلف في المراد به فروى النسائي .

وجماعة وصححه الحاكم عن ابن مسعود أنه سنون أصابتهم ، وروي ذلك عن النخعي .

ومقاتل ، وروى الطبراني .

وآخرون وصححه والحاكم عن ابن مسعود أيضاً أنه ما أصابهم يوم بدر .

وروي نحوه عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما بلفظ هو القتل بالسيف نحو يوم بدر

، وعن مجاهد القتل والجوع .

وأخرج مسلم .

وعبد الله بن أحمد في "زوائد المسند" .

وأبو عوانة في صحيحه ، وغيرهم عن أبي بن كعب أنه قال : هو مصائب الدنيا والروم

والبطشة والدخان ، وفي لفظ مسلم أو الدخان .

وأخرج ابن المنذر .

وابن جرير .

عن ابن عباس أنه قال : هو مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها ، وفي رواية عنه .

وعن الضحاك .

وابن زيد بلفظ مصائب الدنيا في الأنفس والأموال ، وفي معناه ما أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال : سألت عبادة بن الصامت عن قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ ﴾ الآية فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال عليه الصلاة والسلام : هي المصائب والأسقام والآصار عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة قلت : يا رسول الله فما هي لنا ؟ قال : زكاة وطهور ، وفي رواية عن ابن عباس أنه الحدود .

وأخرج هنا عن أبي عبيدة أنه فسره بعذاب القبر ، وحكي عن مجاهد أيضاً ﴿ دُونَ العذاب الأكبر ﴾ هو عذاب يوم القيامة كما روي عن ابن مسعود .

وغيره ، وقال : ابن عطية لا خلاف في أنه ذلك ، وفي التحرير إن أكثرهم على أن العذاب الأكبر عذاب يوم القيامة في النار ، وقيل : هو القتل والسبي والأسر ، وعن جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما أنه خروج المهدي بالسيف انتهى ، وعليهما يفسر العذاب الأدنى بالسنين أو الأسقام أو نحو ذلك مما يكون أدنى مما ذكر ، وعن بعض أهل البيت تفسيره بالدابة والدجال ، والمعول عليه ما عليه الأكثر .

وإنما لم يقل الأصغر في مقابلة ﴿ الأكبر ﴾ أو الأبعد في مقابلة ﴿ الادنى ﴾ لأن المقصود هو التخويف والتهديد وذلك إنما يحصل بالقرب لا بالصغر وبالكبر لا بالبعد ، قاله النيسابوري ملخصاً له من كلام الإمام ، وكذا أبو حيان إلا أنه قال : إن الأدنى يتضمن

الأصغر لأنه منقض بموت المعذب والأكبر يتضمن الأبعد لأنه واقع في الآخرة فحصلت المقابلة من حيث التضمن وصرح بما هو آكد في التخويف ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي لعل من بقي منهم يتوب قاله ابن مسعود ، وقال الزمخشري : أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه كقوله تعالى : ﴿ فارجعنا نَعْمَلْ صالحا ﴾ [السجدة : 12] وسميت إرادة الرجوع رجوعاً كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى :

(92/613)

﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ على البناء للمفعول انتهى .

وهو على ما حكي عن مجاهد وروي عن أبي عبيدة فيتعلق ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ الخ بقوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الادنى ﴾ (السجدة ؛ 12) كما في الأول إلا أن الرجوع هنالك التوبة وههنا الرجوع إلى الدنيا ويكون من باب ﴿ فالتقطه ءال فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] أو يكون الترجي راجعاً إليهم ، ووجه دلالة القراءة المذكورة عليه أنه لا يصح الحمل فيها على التوبة ، والظاهر التفسير المأثور ، والقراءة لا تأباه لجواز أن يكون المعنى عليها لعلهم يرجعهم ذلك العذاب عن الكفر إلى الإيمان ، و ﴿ لَعَلَّ ﴾ لترجي

المخاطبين كما فسرها بذلك سيبويه ، وعن ابن عباس تفسيرها هنا بكى وكأن المراد كي نعرضهم بذلك للتوبة ، وجعلها الزمخشري لترجيه سبحانه ولاستحالة حقيقة ذلك منه عز وجل حمله على إرادته تعالى ، وأورد على ذلك سؤالاً أجاب عنه على مذهبه في الاعتزال فلا تلتفت إليه ، هذا والآيات من قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ (السجدة ؛ 18) إلى هنا نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه .

والوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه لأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، أخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني .

والواحدي .

وابن عدي .

وابن مردويه .

والخطيب .

وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة لعلي كرم الله تعالى وجهه أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك فقال علي رضي الله تعالى عنه : اسكت فإنما أنت فاسق فنزلت ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً ﴾ الخ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحو ذلك ، وأخرج هذا أيضاً عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنها نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه .

والوليد بن عقبة ولم يذكر ما جرى ، وفي رواية أخرى عنه أنها نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه .

ورجل من قريش ولم يسمه ، وفي "الكشاف" روى في نزولها أنه شجر بين علي رضي الله تعالى عنه .

والوليد بن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد : اسكت فإنك صبي أنا أشب منك شباباً وأجلد منك جلداً وأذرب منك لساناً وأحد منك سناناً وأشجع منك جناباً وأملأ منك حشواً في الكتيبة فقال له علي كرم الله تعالى وجهه : اسكت فإنك فاسق فنزلت ، ولم نره بهذا اللفظ مسنداً ، وقال الخفاجي : قال ابن حجر إنه غلط فاحش فإن الوليد لم يكن يوم بدر رجلاً بل كان طفلاً لا يتصور منه حضور بدر وصدور ما ذكر .

ونقل الجلال السيوطي عن الشيخ ولي الدين هو غير مستقيم فإن الوليد يصغر عن ذلك ﴿ وأقول : ﴾ بعض الأخبار تقتضي أنه لم يكن مولوداً يوم بدر أو كان صغيراً جداً ، أخرج أبو داود في السنن من طريق ثابت بن الحجاج عن أبي موسى عبد الله الهمداني عنه أنه قال : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسح على

رؤوسهم فأتى بي إليه عليه الصلاة والسلام وأنا مخلق فلم يمسني من أجل الخلوق إلا أن ابن عبد البر قال : إن أبا موسى مجهول ، وأيضاً ذكر الزبير .

(94/613)

وغيره من أهل العلم بالسير أن أم كلثوم بنت عقبة لما خرجت مهاجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الهدنة سنة سبع خرج أخواها الوليد وعمارة ليرداها ، وهو ظاهر في أنه لم يكن صبياً يوم الفتح إذ من يكون كذلك كيف يكون ممن خرج ليرد أخته قبل الفتح ، وبعض الأخبار تقتضي أنه كان رجلاً يوم بدر ، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة أنه قدم في فداء ابن عم أبيه الحرث بن أبي وجرة بن أبي عمرو بن أمية وكان أسر يوم بدر فافتداه بأربعة آلاف وقال : حكاه أهل المغازي ولم يتعقبه بشيء ، وسوق كلامه ظاهر في ارتضائه ووجه اقتضائه ذلك أن ما تعاطاه من أفعال الرجال دون الصبيان ، وهذا الذي ذكرناه عن ابن حجر يخالف ما ذكره عنه الخفاجي عليه الرحمة مما مر آنفاً ، ولا ينبغي أن يقال : يجوز أن يكون صغيراً ذلك اليوم صغراً يمكن معه عادة الحضور فحضر وجرى ما جرى لأن وصفه بالفسق بمعنى الكفر والوعيد عليه بما سمعت في الآيات مع كونه دون البلوغ مما لا يكاد يذهب إليه إلا من يلتزم أن التكليف بالإيمان إذ ذاك كان مشروطاً بالتمييز ، ولا أن

يقال : يجوز أن تكون هذه القصة بعد إسلامه وقد أطلق عليه فاسق وهو مسلم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ أَن ﴾ [الحجرات : 6] فقد قال ابن عبد البر : لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أنها نزلت فيه حيث أنه صلى الله عليه وسلم بعثه مصدقاً إلى بني المصطلق فعاد وأخبر أنهم ارتدوا ومنعوا الصدقة ولم يكن الأمر كذلك لأن الفسق ههنا بمعنى الكفر وهناك ليس كذلك ، ثم اعلم أن القول بأنها نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه .

والوليد لكلام جرى يوم بدر يقتضي أنها مدنية والمختار عند بعضهم خلافه .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾

(95/613)

بيان إجمالي لمن قابل آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد ، وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها عقلاً مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين كما في قول جعفر بن علية الحارثي :

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة . . .

يرى غمرات الموت ثم يزورها

والمراد أن ذلك أظلم من كل ظالم ﴿ إِنَّا مِنَ المجرمين ﴾ قيل : أي من كل من اتصف بالإجرام وكسب الأمور المذمومة وإن لم يكن بهذه المثابة ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾ فكيف ممن هو أظلم ممن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرماً من كل جازم ، ففي الجملة إثبات الانتقام منه بطريق برهاني .

وجوز أن يراد بالمجرم المعرض المذكور وقد أقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى ﴿ مِنْ ﴾ باعتبار معناها وكان الأصل أنا منهم منتقمون ليؤذن بأن علة الانتقام ارتكاب هذا المعرض مثل هذا الجرم العظيم : وفسر البغوي المجرمين هنا بالمشركين .

وقال الطيبي عليه الرحمة بعد حكايته : ولا ارتياب أن الكلام في ذم المعرضين وهذا الأسلوب أذم لأنه يقرر أن الكافر إذا وصف بالظلم والإجرام حمل على نهاية كفره وغاية تمرده ولأن هذه الآية كالخاتمة لأحوال المكذبين القائلين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ والتخلص إلى قصة الكليم مسلاة لقلب الحبيب عليهما الصلاة والسلام إلى آخر ما ذكره فليراجع .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(96/613)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

المراد بالمجرمين هم : القائلون : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا ﴾ ، والخطاب هنا لكل من يصلح له ، أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم ، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولاً أولياً ، ومعنى ﴿ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ : مطأطئوها حياء وندماً على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله والعصيان له ، ومعنى عند ربهم : عند محاسبته لهم .

قال الزجاج : والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة لأمته ، فالمعنى : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي يقولون : ربنا أبصرنا الآن ما كنا نكذب به وسمعنا ما كنا ننكره .

وقيل : أبصرنا صدق وعيدك ، وسمعنا تصديق رسلك ، فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع ﴿ فَارْجِعْنَا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ ﴾ عملاً ﴿ صَالِحًا ﴾ كما أمرتنا ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أي مصدقون .

وقيل : مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعاً فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا ، وأنى لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة الله فإنهم ﴿ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] .

وقيل : معنى ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أنها قد زالت عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا

لما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ : صرنا ممن يسمع ويبصر فلا يحتاج إلى تقدير مفعول ، ويجوز أن يكون صالحاً مفعولاً ل ﴿ نعمل ﴾ كما يجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، وجواب لو محذوف ، أي لرأيت أمراً فظيعاً وهولاً هائلاً .

(97/613)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ هذا ردّ عليهم لما طلبوا الرجعة ، أي لو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها فهدينا الناس جميعاً فلم يكفر منهم أحد .

قال النحاس : في معنى هذا قولان : أحدهما : أنه في الدنيا ، والآخر : أنه في الآخرة ، أي ولو شئنا لرددناهم إلى الدنيا ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنْي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ وجملة : ﴿ ولو شئنا ﴾ مقدّرة بقول معطوف على المقدّر قبل قوله : ﴿ أبصرنا ﴾ أي ونقول لو شئنا ، ومعنى ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنْي ﴾ أي نفذ قضائي وقدري وسبقت كلمتي ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ هذا هو القول الذي وجب من الله وحقّ على عباده ونفذ فيه قضاؤه ، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطي كلّ نفس هداها ، وإنما قضى عليهم بهذا ؛ لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة ،

وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى .

والفاء في قوله : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله ، والباء في ﴿ بما نسيتم ﴾ للسببية ، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدّم ، بل بذاك وهذا واختلف في النسيان المذكور هنا ، فقيل : هو النسيان الحقيقي ، وهو الذي يزول عنده الذكر .

وقيل : هو الترك .

والمعنى على الأوّل : أنهم لم يعملوا لذلك اليوم ، فكانوا كالناسين له الذين لا يذكرونه .

وعلى الثاني : لا بدّ من تقدير مضاف قبل لقاء ، أي ذوقوا بسبب تركككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا ، ورجح الثاني المبرد وأنشد :

كأنه خارج من جنب صفحته . . . سفود شرب نسوه عند مفتأد

أي تركوه ، وكذا قال الضحاك ويحيى بن سلام : إن النسيان هنا بمعنى : الترك .

قال يحيى بن سلام : والمعنى : بما تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم تركناكم من الخير ، وكذا قال السدّي ، وقال مجاهد : تركناكم في العذاب .

وقال مقاتل : إذا دخلوا النار .

قالت لهم الخزنة : ذوقوا العذاب بما نسيتم ، واستعار الذوق للإحساس ، ومنه قول طفيل :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجة . . . من الغيظ في أكبادنا والتحوّب

وقوله : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تكرير لقصد التأكيد ، أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا ينقطع أبداً بما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي .

قال الرازي في تفسيره : إن اسم الإشارة في قوله : ﴿ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : أن يكون إشارة إلى اللقاء ، وأن يكون إشارة إلى اليوم ، وأن يكون إشارة إلى العذاب .

وجملة : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بآياتنا ﴾ مستأنفة لبيان ما يستحق الهداية إلى الإيمان ، ومن لا يستحقها .

والمعنى : إنما يصدق بآياتنا وينتفع بها ﴿ الذين إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ لا غيرهم ممن يذكر بها ، أي يوعظ بها ولا يتذكر ولا يؤمن بها ، ومعنى ﴿ خرّوا سجداً ﴾ : سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لآيات الله وخوفاً من سطوته وعذابه ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي نزّهوه عن كل ما لا يليق به ملتبسين بحمده على نعمه ، التي أجلها وأكملها الهداية إلى الإيمان ، والمعنى : قالوا في سجودهم : سبحان الله وبحمده ، أو سبحان ربي

الأعلى وبحمده .

وقال سفيان : المعنى : صلوا حمداً لربهم ، وجملة : ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي حال كونهم خاضعين لله ، متذللين له غير مستكبرين عليه .

﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ أي ترتفع وتنبو ، يقال : جفى الشيء عن الشيء ، وتجافى عنه : إذا لم يلزمه ونبا عنه ، والمضاجع جمع : المضجع ، وهو الموضع الذي يضطجع فيه .

قال الزجاج والرماني : التجافي والتجفي إلى جهة فوق ، وكذلك هو في الصفح عن المخطىء في سبّ ونحوه .

(99/613)

والجنوب جمع جنب ، والجملة في محل نصب على الحال ، أي متجافية جنوبهم عن مضاجعهم ، وهم المتهجدون في الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش ، وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء والجمهور .

والمراد بالصلاة : صلاة التنفل بالليل من غير تقييد .

وقال قتادة وعكرمة : هو التنفل ما بين المغرب والعشاء .

وقيل : صلاة العشاء فقط ، وهو رواية عن الحسن وعطاء .

وقال الضحاك : صلاة العشاء والصبح في جماعة .

وقيل : هم الذين يقومون لذكر الله سواء كان في صلاة أو غيرها ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ : هذه الجملة في محل نصب على الحال أيضاً من الضمير الذي في جنوبهم ، فهي حال بعد حال ، ويجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعاتهم ، والمعنى : تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ أي من الذي رزقناهم أو من رزقهم ، وذلك الصدقة الواجبة .

وقيل : صدقة النفل ، والأولى الحمل على العموم .

وانتصاب ﴿ خوفاً ﴾ و ﴿ طمعاً ﴾ على العلة ، ويجوز أن يكونا مصدرين منتصبين بمقدّر .

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي لا تعلم نفس من النفوس ، أيّ نفس كانت ، ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين تقدّم ذكرهم ، مما تقرّ به أعينهم ، قرأ الجمهور ﴿ من قرّة ﴾ بالإفراد ، وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة وأبو الدرداء : " من قرّات " بالجمع ، وقرأ حمزة " ما أخفي " بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى الله سبحانه ، وقرأ الباقون بفتحها فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول .

وقرأ ابن مسعود : " ما نخفي " بالنون مضمومة ، وقرأ الأعمش : " يخفي " بالتحتية

مضمومة .

قال الزجاج في معنى قراءة حمزة : أي منه ما أخفى الله لهم ، وهي قراءة محمد بن كعب ، و "ما" في موضع نصب .

(100/613)

ثم بيّن سبحانه أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة ، فقال : ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا أو جوزوا جزاء بذلك .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ الاستفهام للإنكار ، أي ليس المؤمن كالفاسق ، فقد ظهر ما بينهما من التفاوت ، ولهذا قال : ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ ففيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام .

قال الزجاج : جعل الاثنين جماعة حيث قال : ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ لأجل معنى من ، وقيل : لكون الاثنين أقلّ الجمع ، وسيأتي بيان سبب نزولها آخر البحث .

ثم بيّن سبحانه عاقبة حال الطائفتين وبدأ بالمؤمنين فقال : ﴿ أَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ جنات المأوى ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ جنات ﴾ بالجمع .

وقرأ طلحة بن مصرف : " جنة المأوى " بالإفراد ، والمأوى هو الذي يأوون إليه ، وأضاف

الجنات إليه ، لكونه المأوى الحقيقي .

وقيل : المأوى : جنة من الجنات ، وقد تقدّم الكلام على هذا ، ومعنى ﴿ نُزُلاً ﴾ : أنها معدّة لهم عند نزولهم ، وهو في الأصل : ما يعدّ للنازل من الطعام والشراب كما بيّناه في آل عمران ، وانتصابه على الحال .

وقرأ أبو حيوة : "نزلاً" بسكون الزاي .

والباء في ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ للسببية ، أي بسبب ما كانوا يعملونه ، أو بسبب عملهم .

ثم ذكر الفريق الآخر ، فقال : ﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ ﴾ أي خرجوا عن طاعة الله وتمرّدوا عليه وعلى رسله ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ أي منزلهم الذي يصيرون إليه ويستقرون فيه هو النار ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ أي إذا أرادوا الخروج منها ردّوا إليها راغمين مكرهين .

(101/613)

وقيل : إذ دفعهم اللهب إلى أعلاها ردّوا إلى مواضعهم ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ والقائل لهم هذه المقالة هو خزنة جهنم من الملائكة ، أو القائل لهم هو الله عزّ وجلّ ، وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الإغاظة ما لا

يخفى .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ وهو عذاب الدنيا .

قال الحسن وأبو العالية والضحاك والنخعي : هو مصائب الدنيا وأسقامها .

وقيل : الحدود .

وقيل : القتل بالسيف يوم بدر .

وقيل : سنين الجوع بمكة .

وقيل : عذاب القبر ، ولا مانع من الحمل على الجميع ﴿ دُونَ العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب الآخرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ مما هم فيه من الشرك والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه .

وفي هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال : إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيات رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة ، فجعل الإعراض مكان ذلك ، والمجيء بثمّ للدلالة على استبعاد ذلك .

وأنه مما ينبغي أن لا يكون ﴿ إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ ﴾ أي من أهل الإجرام على العموم فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولاً أوّلياً .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عباس في قوله : ﴿ إِنَّا نسيناكم ﴾ قال

: تركناكم .

وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال : نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآياتنا الذين إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ أي أتوها ﴿ وَسَبَّحُواْ ﴾ أي صلوا بأمر ربهم ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن إتيان الصلاة في الجماعات .

(102/613)

وأخرج الترمذي وصححه ، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك : أن هذه الآية ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة .

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن مردويه عنه قال : نزلت في صلاة العشاء .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء .

وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال : كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم راقداً قط قبل العشاء ، ولا متحدّثاً بعدها ، فإن هذه الآية نزلت في ذلك :

﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : " هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم " فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير .

وأخرج ابن مردويه عن بلال قال : كنا نجلس في المسجد وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون بعد المغرب العشاء تتجافى جنوبهم عن المضاجع .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن عديّ وابن مردويه عن أنس نحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس في قوله : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ قال : كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ ﴾ قال : قيام العبد من الليل .

(103/613)

وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن نصر في كتاب الصلاة وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر حديثاً وأرشد فيه إلى أنواع من الطاعات ، وقال فيه : " وصلاة الرجل في جوف الليل " ، ثم قرأ : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث قال فيه : " وصلاة المرء في جوف الليل " ، ثم تلا هذه الآية .

وأخرج ابن مردويه عن أنس في الآية قال : كان لا تمرّ عليهم ليلة إلا أخذوا منها .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد من طريق أبي عبد الله الجدلي عن عبادة بن الصامت عن كعب قال : "إذا حشر الناس نادى مناد : هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع" الحديث .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية يقول : تتجافى لذكر الله كلما استيقظوا ذكروا الله ، إما في الصلاة ، وإما في القيام أو القعود .

أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : كان عرش الله على الماء ، فاتخذ جنة لنفسه .

ثم اتخذ دونها أخرى ، ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة ، ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 62] لم يعلم الخلق ما فيهما .

وهي التي قال الله : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ تأتيهم منها كل يوم تحفة .

(104/613)

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إنه لمكتوب في التوراة : لقد أعدّ الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ، وإنه لفي القرآن : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " قال أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وفي الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة ، وهي معروفة فلا نطول بذكرها .

وأخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني ، والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة لعليّ بن أبي طالب : أنا أحدّ منك سناناً ، وأنشط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له عليّ : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ يعني بالمؤمن : علياً ، وبالفاسق : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه في الآية نحوه .

وروي نحو هذا عن عطاء بن يسار والسديّ ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

وأخرج الفريابي وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ قال : يوم بدر ﴿ دُونَ العذاب الأكبر ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال : لعلّ من بقي منهم أن يتوب فيرجع .

(105/613)

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود في الآية قال : العذاب الأدنى : سنون أصابتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال : يتوبون .

وأخرج مسلم وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبو عوانة في صحيحه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبيّ بن كعب في قوله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ قال : مصائب الدنيا والروم ، والبطشة والدخان .

وأخرج ابن جرير عنه قال : يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ قال : الحدود ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال : يتوبون .

وأخرج ابن منيع وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي بسند ضعيف ، عن معاذ بن جبل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ثلاث من فعلهنّ فقد أجرم : من عقد لواء في غير حق ، أو عقّ والديه ، أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم ، يقول الله : ﴿ إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ ﴾ " قال ابن كثير بعد إخراجه : هذا حديث غريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(106/613)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) ﴾

فُرِع بالفاء على ما تقدم من الآيات من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين استفهام بالهمزة مستعمل في إنكار المساواة بين المؤمن والكافر ، وهو إنكار بتنزيل السامع منزلة المتعجب من البَون بين جزاء الفريقين في ذلك اليوم فكانَ الإنكار موجهاً إلى ذلك التعجب في معنى الاستئناف البياني .

والكاف للتشبيه في الجزاء .

وجملة ﴿ لا يستوون ﴾ عطف بيان للمقصود من الاستفهام .

والفاسق هنا هو : مَن ليس بمؤمن بقرينة قوله بعده ﴿ وقيل لهم ذُوقُوا عذابَ النار الذي كنتم به تكذبون .

﴾ فالمراد : الفسق عن الإيمان الذي هو الشرك وهو إطلاق كثير في القرآن .

ثم أكد كِلا الجزاءين بذكر مرادف لمدلوله مع زيادة فائدة ، فجملةُ ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ إلى آخرها مؤكدة لمضمون جملة ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخْفِي لهم ﴾ [السجدة : 17] إلى آخرها .

وجملة ﴿ فمأواهم النار ﴾ إلى آخرها مؤكدة لمضمون جملة ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إلى بما كنتم تعملون ﴾ [السجدة : 14] .

و ﴿ مَن ﴾ الموصولة في الموضعين عامة بقرينة التفصيل بالجمع في قوله ﴿ أمَّا الذينَ آمنوا ﴾ الخ .

و﴿ أما الذين فسقوا ﴾ .

فليست الآية نازلة في معيَّن كما قيل .

و﴿ المأوى : المكان الذي يُؤْوَى إليه ، أي يُرجع إليه .

والتعريف باللام فيه للعهد ، أي مأوى المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ [النجم : 15] .

ولك أن تجعل اللام عوضاً عن المضاف إليه ، أي مأواهم بقرينة قوله في مقابلح ﴿ فمأواهم النار .

﴿ وإضافة ﴿ جنات ﴾ إلى ﴿ المأوى ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة لقصد التخفيف وهي واقعة في الكلام وإن اختلف البصريون والكوفيون في تأويلها خلافاً لا طائل تحته ، وذلك مثل قولهم : مسجد الجامع ، وقوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ [القصص : 44] ، وقولهم : عِشاء الآخرة .

(107/613)

والمعنى : فلهم الجنات المأوى لهم ، أي الموعودون بها .

وانتصب ﴿ نزلاً ﴾ على الحال من ﴿ جنات المأوى .

﴿ والنُزُل بضمتين مشتق من النزول فيطلق على ما يُعد للنزيل من العطاء والقِرى قال في "الكشاف" : النزل : عطاء النازل ، ثم صار عاماً ، أي : يطلق على العطاء ولو بدون ضيافة مجازاً مرسلاً .

قلت : ويطلق على محل نزول الضيف ولأجل هذه الإطلاقات يختلف المفسرون في المراد منه في بعض الآيات رعياً لما يناسب سياق الكلام .

وفسره الزجاج في هذه الآية ونحوها بالمنزل ، وفسره في قوله تعالى : ﴿ أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرة الزقوم ﴾ [الصافات : 62] فقال : "يقول أذلك خير في باب الأنزال التي تمكن معها الإقامة أم نُزل أهل النار" وقد تقدم في آخر سورة آل عمران (163) ، والباء في ﴿ بما كانوا يعملون للسببية .

وقوله : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ تقدم نظيره في سورة الحج (22) .

ويتجه في هذه الآية أن يقال : لماذا أُظهر اسم النار في قوله ذُوقُوا عذاب النار ﴾ مع أن اسم النار تقدم في قوله ﴿ فمأواهم النار ﴾ فكان مقتضى الظاهر الإضمار بأن يقال : وقيل لهم ذوقوا عذابها .

وهذا السؤال أورده ابن الحاجب في "أماليه" وأجاب بوجهين : أحدهما أن سياق الآية التهديد وفي إظهار لفظ النار من التخويف ما ليس في الإضمار ، الثاني : أن الجملة حكاية

لما يقال لهم يومئذ فناسب أن يحكى كما قيل لهم وليس فيما يقال لهم تقدُّم ذكر النار .

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

إخبار بأن لهم عذابا آخر لا يبلغ مبلغ عذاب النار الموعودين به في الآخرة فتعين أن العذاب الأدنى عذاب الدنيا .

والمقصود من هذا : التعريضُ بتهديدهم لأنهم يسمعون هذا الكلام أو يبلغ إليهم .

(108/613)

وهذا إنذار بما لحقهم بعد نزول الآية وهو ما مُحنوا به من الجوع والخوف وكانوا في أمن منهما وما يصيبهم يوم بدر من القتل والأسر ويوم الفتح من الذل .

وجملة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ استئناف بياني لحكمة إذاقتهم العذاب الأدنى في الدنيا بأنه لرجاء رجوعهم ، أي رجوعهم عن الكفر بالإيمان .

والمراد : رجوع من يمكن رجوعه وهم الأحياء منهم .

وإسناد الرجوع إلى ضمير جميعهم باعتبار القبيلة والجماعة ، أي لعل جماعتهم ترجع .

وكذلك كان فقد آمن كثير من الناس بعد يوم بدر وبخاصة بعد فتح مكة ، فصار من تحقق فيهم الرجوع المرجوّ مخصوصين من عموم ﴿ الذين فسقوا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وأما

الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها ﴾ الآية [السجدة : 20] ، فبقي ذلك الوعيد للذين ماتوا على الشرك ، وهي مسألة الموافاة عند الأشعري .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

عطف على جملة ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها ﴾ [السجدة : 15] إلى آخرها حيث اقتضت أن الذين قالوا : ﴿ أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] ليسوا كأولئك فانتُقل إلى الإخبار عنهم بأنهم أشد الناس ظلماً لأنهم يُذَكَّرون بآيات الله حين يتلى عليهم القرآن فيعرضون عن تدبرها ويَلْغون فيها ، فآيات الله مراد بها القرآن .

وجيء في عطف جملة ﴿ أعرضَ ﴾ بحرف ﴿ ثم ﴾ لقصد الدلالة على تراخي رتبة الإعراض عن الآيات بعد التذكير بها تراخي استبعاد وتعجيب من حالهم كقول جعفر بن علبة الحارثي:

لا يكشف الغماء إلا ابنُ حرة . . .

يرى غمراتتِ الموت ثُم يزورها

أي : عجيب إقدامه على مواقع الهلاك بعد مشاهدة غمرات الموت تغمر الذين أقدموا على تلك المواقع .

و ﴿ مَن ﴾ للاستفهام الإنكاري كقوله ﴿ ومن أظلم ممن مَنَع مساجدَ الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ [البقرة : 114] أي : لا أظلم منه ، أي لا أحَد أظلم منه لأنه ظلَم نفسه بحرمانها من التأمل فيما فيه نفعه ، وظلَم الآيات بتعطيل نفعها في بعضِ مَن أريد انتفاعهم بها ، وظَلَم الرسول عليه الصلاة والسلام بتكذيبه والإعراض عنه ، وظَلَم حق ربه إذ لم يمتثل ما أراد منه .

وجملة ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن تفظيع ظلم الذي ذُكِّر بآيات ربِّه فأعرض عنها لأن السامع يترقب جزاء ذلك الظالم .

والمراد بالمجرمين هؤلاء الظالمون ، عدل عن ذكر ضميرهم لزيادة تسجيل فظاعة حالهم بأنهم مجرمون مَع أنهم ظالمون ، وقد يقال : إن المجرمين أعم من الظالمين فيكون دخولهم في الانتقام من المجرمين أحرويّاً وتصير جملة ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ تذييلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(110/613)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) ﴾

أولاً : نلحظ في اللفظ أن مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد ، فكان القياس أنْ نقول : لا يستويان ، إنما سياق القرآن ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة : 18] وسبق أنْ قُلْنا : إن (من وما) الموصولتين تأتي للمفرد أو للمثنى أو للجمع ، وللمذكر وللمؤنث ، فمرة يراعي السياق لفظها ، ومرة يراعى معناها .

والمعنى هنا ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ [السجدة : 18] الحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد ، إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر وأراد الحق سبحانه أن يعطيها العموم لا خصوص السبب ، فراعى السياق خصوص السبب في مؤمن وكافر ، وراعى عموم الموضوع فقال ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة : 18] والقاعدة الفقهية تقول : إن العبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين جادل علياً رضي الله عنه . فقال له : أنا أشبُّ منك شباباً ، وأجلد منك جَلَداً ، وأذرب منك لساناً ، وأحدُّ منك سناناً ، وأشجع منك وجداناً ، وأكثر منك مَرَقاً ، فردَّ عليه عليٌّ – كرَّم الله وجهه – بما يدحض هذا كله ويبطله ، فقال له : اسكت يا فاسق ، ولا موهبة لفاسق .

والمعنى : إنْ كنت كما تقول فقد ضيعتَ هذا كله بفسقك ، حيث استعملتَ قوة شبابك

وجَلَدك وذَرَب لسانك وشجاعة وجدانك في الباطل وفي المعصية ، وفي الصدِّ عن سبيل الله .

وهكذا جمعتْ الآية بين خصوصية هذا السبب في ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً . . ﴾ [السجدة : 18] وبين عموم الموضوع في ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة : 18] ، فهذا الحكم ينسحب على الجمع أيضاً .

(111/613)

وجاء قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة : 18] كأنه جواب للسؤال ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً . . ﴾ [السجدة : 18] لكن ، لماذا لم يأت الجواب مثلاً : لا يستوي المؤمن والفاسق ؟ قالوا : لأن هذا الأسلوب يسمى أسلوب الإقناع التأكيدي ، وهو أن تجعل الخصم هو الذي ينطق بالحكم .

كما لو قال لك صديق : لقد مررتُ بأزمة ولم تقف بجانبي . فتستطيع أنْ تقول له : وقفتُ بجانبك يوم كذا ويوم كذا – على سبيل الخبر منك ، لكن الإخبار منك يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فتلجأ إلى أسلوب آخر لا يستطيع معه الإنكار ، ولا يملك إلا الاعتراف لك بالجميل فتقول بصيغة السؤال : ألم أقدم لك كذا وكذا يوم كذا وكذا ؟ وأنت لا تسأله إلا

إذا وثقتَ بأن جوابه لا بُدَّ أنْ يأتي وَفْق مرادك وعندها يكون كلامه حجة عليه .

لذلك طرح الحق سبحانه هذه المسألة في صورة سؤال : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً . . ﴾ [السجدة : 18] ولا بد أن نقول نحن في جواب هذا السؤال : لا يستوي مؤمن وفاسق ، ومَنْ يقُلْ بهذا فقد وافق مراد ربه .

وما دام أن المؤمن لا يستوي والفاسق ، فلكل منهما جزاء يناسبه : ﴿ أَمَّا الذين آمَنُواْ . . . ﴾ .

وإنْ كانت لفظة (مؤمن) جاءت مفردة ، فقد أوضحتْ هذه الآية أن المراد الجمع ﴿ أَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . ﴾ [السجدة : 19] أي : العموم ؛ لأنه أُخِذ مما كان مفرداً جمعاً ، وهذا دليل على أن هذا المفرد في جنسه جمع كثير ، كما في قوله تعالى ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر : 1-2] فالإنسان مفرد يُستثنى منه الجمع ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [العصر : 3] لأن لفظة الإنسان هنا تدل على الجماعة ، و (ال) فيها ال الاستغراقية .

(112/613)

فالحق سبحانه ينقلنا من المؤمن إلى العموم ﴿ أَمَّا الذين آمَنُواْ . . ﴾ [السجدة : 19] ومن الفاسق إلى ﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ . . . ﴾ [السجدة : 20] فهما جماعتان متقابلتان لكل منهما جزاؤه الذي يناسبه :

﴿ أَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأوى . . ﴾ [السجدة : 19]

والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه ليحفظه من كل مكروه ، كما قال تعالى في شأن عيسى وأمه مريم عليهما السلام : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَآ إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : 50] يعني : يمكنهما الاستقرار فيها ؛ لأن بها مُقوّمات الحياة (ومعين) يعني : عيْن ماء .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابن نوح حين قال لأبيه : ﴿ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المآء . . . ﴾ [هود : 43] فنبّهه أبوه وحذره ، فقال : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ . . . ﴾ [هود : 43]

ونلحظ في هذه القصة حنان الأبوة من سيدنا نوح حين قال ﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي . . . ﴾ [هود : 45] لكن ربه عز وجل لا يتركه على هذه القضية ، إنما يُصحّحها له ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . ﴾ [هود : 46]

إذن : فالبنوة هنا ليست بنوة نسب ، إنما بنوة إيمان وعمل ، أَلاَ ترى أن سيدنا رسول الله قال لسلمان الفارسي وهو من غير العرب بالمرة : " سلمان منا آل البيت " .

وإنْ كان النسب ينفع من الآباء إلى الأبناء ، فهذه ليست خصوصية للأنبياء ، إنما لكل الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ . . . ﴾ [الطور : 21]

(113/613)

وإلحاق الأبناء بالآباء في الحقيقة كرامة للآباء أنْ يجدوا أولادهم معهم في الجنة جزاء إيمان الآباء وعملهم الصالح ، فإنْ كان الأولاد دون سِنِّ التكليف فطبيعي أنْ يلحقوا بالآباء ، بل وتكون منزلتهم أعظم من منزلة آبائهم ؛ لأن الأطفال الذين يموتون قبل الرُّشْد ليس لهم أماكن محددة ، إنما ينطلقون في الجنة يمرحون فيها كما يشاؤون .

وقد مثَّلنا لذلك بالولد الصغير تأخذه معك في زيارة أحد الأصدقاء ، فتجلس أنت في حجرة الجلوس ، بينما الولد الصغير يجري في أنحاء البيت ، ويدخل أي مكان فيه لا يمنعه أحد ، لذلك يسمون الأطفال (دعاميص) الجنة .

والبعض هنا يثير مسألة أن الإنسان مرتهن بعمله ، ولا ينتفع بعمل غيره ، فكلٌّ مُعلَّق من (عرقوبه) كما نقول ، فالبعض يسأل : لماذا إذاً نصلي على الميت ، والصلاة عليه ليست من عمله ؟ فإنْ كانت الصلاة عليه لها فائدة تعود عليه فقد انتفع بغير عمله ، وإن لم تكُنْ لها

فائدة فهي عبث ، وحاشَ لله أنْ يضع تشريعاً عبثاً .

ونقول : هل صليت على كل ميت مؤمناً كان أو كافراً ؟ لا إنما نصلي على المؤمن ، إذن : صلاتك أنت عليه نتيجة إيمانه ، وجزء من عمله ، ولولا إيمانه ما صلَّينا عليه .

نعود إلى معنى كلمة (المأوى) ، فالجنة مأوى المؤمن ، تحفظه من النار وأهوالها ﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 19] أي : جزاء عملهم الصالح ، والنزُل هو المكان المعَدّ لينزل فيه الضيف الطارئ عليك ؛ لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، فإذا كانت الفنادق الفاخرة التي نراها الآن ما أعَدَّه البشر للبشر ، فما بالك بما أعدَّهُ ربُّ البشر لعباده الصالحين ؟

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾

(114/613)

﴿ فَسَقُواْ . . ﴾ [السجدة : 20] من الفسوق أي الخروج ، نقول : فسقتْ البلحة يعني خرجن عن قشرتها ، والمراد هنا الذين خرجوا عن طاعة الله وعن مطلوبات الحق سبحانه ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النار . . ﴾ [السجدة : 20] قلنا : إن المأوى هو المكان الذي تأوي إليه ، فيحميك من كل مكروه ، فكيف تُوصف به النار هنا ؟

قالوا : المأوى المكان الذي ينزل فيه الإنسان على هواه وعلى (كيفه) ، أما هؤلاء فينزلون هنا رغماً عنهم ، أو أن الكلام هنا على سَبْق التهكم والسخرية ، كما قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21]

ومعلوم أن البشرى لا تكوم إلا بالشيء السَّار ، ومثل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] ، وهذا كثير في أسلوب القرآن ؛ لأنه أسلوب يؤلم الكافرين ، ويحطّ من شأنهم .

ثم يُصوِّر لنا الحق سبحانه ما فيه أهل النار من اليأس : ﴿ كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَ . . ﴾ [السجدة : 20] وفي موضع آخر قال عنهم ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 77] إذن : لا أمل لهم في الخروج ، ولا حتى في الموت الذي يريحهم مما هم فيه ، بل تردهم الملائكة في العذاب ، ويقولون لهم : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : 20]

فالإذاقة تعدَّتْ اللسان واستولتْ على كل الأعضاء ، فكل ذرة فيه تذوق عذاب النار جزاء ما كانوا يكذبون بها في الدنيا ، حيث كذّبوا بالأصل ، وهو الرجوع إلى الله يوم القيامة .

ثم إن عذاب الفاسقين لا يقتصر على عذاب الآخرة ، إنما سيكون لهم عذاب آخر يذوقونه

في الدنيا :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى . . . ﴾ .

(115/613)

﴿ العذاب الأدنى . . ﴾ [السجدة : 21] أي : القريب والمراد في الدنيا ﴿ دُونَ العذاب الأكبر . . ﴾ [السجدة : 21] أي : عذاب الآخرة ، وهذا العذاب الذي سيصيبهم في الدنيا مظهر من مظاهر رحمة الله حتى بالكافرين والفاسقين ؛ لأن الله تعالى علَّله بقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : 21]

إذن : المراد ما يلحقهم من عذاب في دار التكليف كالأَسْر والذلَّة والهوان من كثرة المؤمنين وقوتهم ، ألم يركب عبد الله بن مسعود مع ما عُرِف عنه من ضآلة الجسم على أبي جهل في إحدى الغزوات ، وقد طرحه في الأرض وداسه بقدمه ، ويُرْوى أن أبا جهل نظر إليه وهو على هذه الحال وقال : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صعباً يا رُويعي الغنم .

ووصف العذاب في الآخرة بأنه العذاب الأكبر ؛ لأنه العذاب المحيط الذي لا مهرب منه ولا ملجأ .

وقوله سبحانه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : 21] أي : رجاء أنْ يعودوا إلى ساحة

الإيمان . وقلنا : إن لعلَّ تفيد الرجاء المحقق إنْ كان الفعل من الله عز وجل ، أما الرجاء هنا فرجاء في العبد الذي يملك الاختيار ؛ لذلك رجع منهم البعض ، ولم يرجع الآخرون .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن . . . ﴾ .

هنا أيضاً يعرض علينا ربنا – تبارك وتعالى – هذه القضية في صورة هذا السؤال التقريري ، كأنه سبحانه يقول لنا : أنا رضيت ذمتكم يا عبادي ، فقولوا لي : هل يوجد أحد أظلم مِمَّنْ ذُكِّر بآيات ربه ، ثم أعرض عنها . والمنطق الطبيعي أن نقول : لا أحدَ أظلم من هذا . وهذا إقرار مِنّا بهذه الحقيقة ؛ لذلك عرضها الحق سبحانه في صورة سؤال بدل الإخبار بها .

(116/613)

ومعنى ﴿ ذُكِّرَ . . ﴾ [السجدة : 20] أي : أن رسالات الله إلى خَلْقه ما هي إلا تذكير بعهد الإيمان القديم الذي أخذه الله على عباده حين قال سبحانه : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 172] وسبق أنْ قُلْنا إن في كل منّا ذرةً شهدتْ هذا العهد ، وعلى كل منا أنْ يحفظ إشراقات هذه الذرة في نفسه بأنْ يُغذِّيها بالحلال ، ويُعوِّدها الطاعة لتبقى فيه إشراقات الإيمان .

كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : 7-10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(117/613)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (السجدة : 20) ، وفي سورة سبأ : (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (سبأ : 42) ، للسائل أن يسأل عن صرف الوصف إلى العذاب أولاً فذكر فقيل : (الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) وصرفه ثانياً إلى النار فقيل : (الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا) فأنث الموصول والضمير ، ما وجه ذلك ؟

والجواب : أنهم يكذبون بالنار وبعذابها ، وقد ورد العذاب مضافاً إليها في السورتين ، والعذاب مذكر والنار مؤنثة ، وعودة الضمير إلى كل من المضافين تحصل المقصود على السواء ، فإنما يبقى السؤال عن تخصيص كل واحدة من السورتين بما ورد فيها ؟

والجواب عنه : أن آية السجدة اقترن بها ما يستدعي أن يناسب وهو قوله تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) (السجدة : 21) ، فلما تفصل ذكر العذاب إعلاماً بإلحاق ضريبة الأدنى والأكبر بمن جرى الوعيد لهم ، والعذاب مذكر ، وقد تكرر ، فتأكد رعيه ، فناسبه عودة الضمير قبله إلى العذاب المضاف إلى النار مذكراً ليجري ذلك كله مجرى واحداً . ولما لم يكن يتلو آية سورة سبأ ولا قبلها ما يستدعي ذلك ، أعيد الضمير إلى النار مؤنثاً ، ليحصل في السورتين ورود الوجهين الجائزين كما تقدم مع التناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 404 ﴾

(118/613)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) ﴾

أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن نفسين اتفق موتهما في طرفة عين . واحد في المشرق ، وواحد في المغرب . كيف قدره ملك الموت عليهما . قال : ما قدرة ملك الموت على أهل المشارق والمغارب والظلمات والهواء والبحور إلا كرجل بين يديه مائدة يتناول من أيها

شاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد رضي الله عنه قال : " قيل يا رسول الله ملك الموت واحد ، والزحفان يلتقيان من المشرق والمغرب وما بينهما من السقط والهلاك ! فقال : إن الله حوى الدنيا لملك الموت حتى جعلها كالطست بين يدي أحدكم ، فهل يفوته منها شيء ؟ " .

وأخرج ابن جرير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ملك الموت الذي يتوفى الأنفس كلها ، وقد سلط على ما في الأرض كما سلط أحدكم على ما في راحته ، معه ملائكة من ملائكة الرحمة ، وملائكة من ملائكة العذاب ، فإذا توفى نفساً طيبة دفعها إلى ملائكة الرحمة ، وإذا توفي خبيثة دفعها إلى ملائكة العذاب .

(119/613)

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما قالا : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، سأل ملك الموت ربه أن يأذن له ، فيبشر إبراهيم عليه السلام بذلك فأذن له فأتاه فقال له إبراهيم عليه السلام : يا ملك الموت أرني كيف تقبض أنفاس الكفار ؟ قال : يا إبراهيم لا تطيق ذلك قال : بلى . قال : فاعرض إبرهيم ، ثم نظر إليه فإذا

برجل أسود ينال رأسه السماء ، يخرج من فيه لهب النار ، ليس من شعرة في جسده إلا في صورة رجل يخرج من فيه ومسامعه لهب النار ، فغشي على إبراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد تحوّل ملك الموت في الصورة الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الكافر من البلاء والحزن إلا صورتك لكفاه ، فأرني كيف تقبض أرواح المؤمنين ؟ قال : أعرض . فأعرض ، ثم التفت فإذا هو برجل شاب أحسن وجهاً وأطيبه ، في ثياب بيض فقال : يا ملك الموت لو لم ير المؤمن عند موته من قرة العين والكرامة إلا صورتك هذه لكان يكفيه .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم وابن منده كلاهما في الصحابة عن الخزرج سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ونظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال : يا ملك الموت أرفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال ملك الموت عليه السلام : طب نفساً ، وقر عيناً ، واعلم بأني بكل مؤمن رفيق ، واعلم يا محمد إني لأقبض روح ابن آدم ، فإذا صرخ صارخ قمت في الدار ومعي روحه فقلت : ما هذا الصارخ ! والله ما ظلمناه ، ولا سبقنا أجله ، ولا استعجلنا قدره ، وما لنا في قبضه من ذنب ، فإن ترضوا بما صنع الله تؤجروا ، وأن تسخطوا تأثموا وتؤزروا ، وإن لنا عندكم عودة بعد عودة ، فالحذر فالحذر ، وما من أهل بيت شعر ، ولا مدر بر ، ولا فاجر سهل ولا جبل إلا أنا أتصفحهم في كل يوم وليلة حتى أنا لاعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله لو أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو يأذن بقبضها " .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ في العظمة عن أشعث بن شعيب رضي الله عنه قال : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان في وجهه ، وعين في قفاه فقال : يا ملك الموت ما تصنع إذا كانت نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ، ووضع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحيلة عن شهر بن حوشب رضي الله تعالى عنه قال : ملك الموت جالس والدنيا بين ركبتيه ، واللوح الذي فيه آجال بني آدم بين يديه ، وبين يديه ملائكة قيام ، وهو يعرض اللوح لا يطرف ، فإذا أتى على أجل عبد قال : اقبضوا هذا .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن خيثمة رضي الله تعالى عنه قال : اتى ملك الموت عليه السلام سليمان بن داود عليه السلام وكان له صديقاً فقال له سليمان عليه السلام : ما لك تأتي أهل البيت فتقبضهم جميعاً ، وتدع أهل البيت إلى جنبهم لا تقبض منهم أحد ؟ قال : لا أعلم بما أقبض منها إنما أكون تحت العرش ، فيلقى إليّ صكاك فيها أسماء .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن جريج رضي الله عنه قال : بلغنا أنه يقال لملك الموت اقبض

فلاناً في وقت كذا في يوم كذا .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد في الزهد وأبو الشيخ عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال : ما من أهل بيت الا يتصفحهم ملك الموت عليه السلام في كل يوم خمس مرات هل منهم أحد أمر بقبضه ؟

وأخرج جويبر عن الضحاك رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : وكل ملك الموت عليه السلام بقبض أرواح الآدميين فهو الذي يلي قبض أرواحهم ، وملك في الجن ، وملك في الشياطين ، وملك في الطير والوحش والسباع والحيتان والنمل ، فهم أربعة أملاك ، والملائكة عليهم السلام يموتون في الصعقة الأولى ، وإن ملك الموت يلي قبض أرواحهم ثم يموت . فأما الشهداء في البحر فإن الله يلي قبض أرواحهم لا يكل ذلك إلى ملك الموت لكرامتهم عليه .

(121/613)

وأخرج ابن ماجة عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" إن الله وكل ملك الموت عليه السلام بقبض الأرواح إلا شهداء البحر ، فإنه يتولى قبض

أرواحهم " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والمروزي في الجنائز وأبو الشيخ عن أبي الشعثاء جابر بن زيد رضي الله عنه ، أن ملك الموت كان يقبض الأرواح بغير وجع ، فسبه الناس ولعنوه ، فشكا إلى ربه ، فوضع الله الأوجاع ونسي ملك الموت .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الأعمش رضي الله عنه قال : كان ملك الموت عليه السلام يظهر للناس ؛ فيأتي للرجل ، فيقول : اقض حاجتك فإني أريد أن أقبض روحك ، فشكا فأنزل الداء وجعل الموت خفية .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطوة ملك الموت عليه السلام ما بين المشرق والمغرب .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل من الأنصار يعوده ، فإذا ملك الموت عليه السلام عند رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال : ابشر يا محمد فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم يا محمد إني لأقبض روح ابن آدم ، فيصرخ أهله ، فأقوم في جانب من الدار فأقول : والله ما لي من ذنب وإن لي لعودة وعودة الحذر الحذر ، وما خلق الله من أهل بيت ، ولا مدر ، ولا شعر ، ولا وبر في بر ، ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم وليلة خمس مرات حتى أني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم

منهم بأنفسهم ، والله يا محمد إني لا أقدر أقبض روح بعوضة حتى يكون الله تبارك وتعالى هو الذي يأمر بقبضه " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ قال : ملك الموت يتوفاكم ، وله أعوان من الملائكة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ قال : حويت له الأرض ، فجعلت له مثل طست يتناول منها حيث يشاء .

(122/613)

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ قال : أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع . وفي قوله ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ قال : لو شاء الله لهدى الناس جميعاً ، ولو شاء الله أنزل عليهم من السماء آية ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء : 4] .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن الله يعتذر إلى آدم يوم القيامة بثلاثة معاذير . يقول : يا آدم لولا أني لعنت الكذابين ، وأبغض الكذب والخلف ، وأعذب عليه لرحمت اليوم ذريتك أجمعين من شدة ما أعددت لهم من العذاب ، ولكن حق القول مني لمن كذب رسلي ، وعصى أمري ﴿ لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ [الأعراف : 18] ويقول : يا آدم إني لا أدخل أحداً من ذريتك النار ، ولا أعذب أحداً منهم بالنار إلا من قد علمت في سابق علمي أني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر مما كان فيه لم يراجع ولم يعتب ، ويقول له : يا آدم قد جعلتك اليوم حكماً بيني وبين ذريتك ، قم عند الميزان ، فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم ، فمن رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة ، فله الجنة حتى تعلم أني لا أدخل النار اليوم منهم إلا ظالماً ".

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ قال : تركتم أن تعملوا للقاء يومكم هذا .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ فذوقوا بما نسيتم . . ﴾ قال : اليوم نترككم في النار كما تركتم أمري .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إنا نسيناكم ﴾ قال : تركناكم .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ﴾ أي أتوها ﴿ وسبحوا ﴾ أي صلوا بأمر ربهم ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن اتيان الصلوات في الجماعات .

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16)

أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال نزلت ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ في صلاة العشاء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه قال : كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء .

وأخرج محمد بن نصر وابن جرير عن أبي سلمة رضي الله عنه في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ في صلاة العتمة .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم راقداً قبل العشاء ولا متحدثاً بعدها فإن هذه الآية نزلت في ذلك ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت فينا ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . ﴾ .

(124/613)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : هم الذي لا ينامون قبل العشاء ، فأثنى عليهم ، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه ، فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن

المضاجع ﴾ قال : أنزلت في صلاة العشاء الآخرة ، كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينامون حتى يصلوها .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون .

وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد وابن عدي وابن مردويه عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال : سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الأولين يصلون المغرب ويصلون بعدها إلى عشاء الآخرة ، فنزلت هذه الآية فيهم .

وأخرج البزار وابن مردويه عن بلال رضي الله عنه قال : كنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون المغرب إلى العشاء ، فنزلت ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ .

وأخرج محمد بن نصر والبيهقي في سننه عن ابن المنكدر وأبي حازم في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قالا : هي ما بين المغرب والعشاء صلاة الأوابين .

وأخرج محمد بن نصر عن عبد الله بن عيسى رضي الله عنه قال : كان ناس من الأنصار

يصلون ما بين المغرب والعشاء ، فنزلت فيهم ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال " قيام العبد من الليل " .

(125/613)

وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن نصر في كتاب الصلاة وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فاصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله اخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار قال " لقد سألت عن عظيم وانه اليسير على من يسره الله عليه . تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ يعملون ﴾ ، ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر ، وعموده ، وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى يا رسول الله قال : رأس الأمر

الإِسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه فقال : كف عنك هذا ، فقلت : يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه قال : ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل ففاضت عيناه حتى تحادرت دموعه ، فقال ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ .

(126/613)

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال " يا رسول الله أخبرني بعمل أهل الجنة قال : قد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه . تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتؤدي الصلاة المكتوبة – ولا أدري ذكر الزكاة أم لا – وإن شئت أنبأتك ، برأس هذا الأمر ، وعموده ، وذروة سنامه ، رأسه الإِسلام من أسلم سلم ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ، والصيام جنة ، والصدقة تمحو الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ لا تمر عليهم ليلة إلا أخذوا منها بحظ .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : يقومون فيصلون بالليل .

وأخرج ابن نصر وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : قيام الليل .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد من طريق أبي عبد الله الجدلي عن عبادة بن الصامت عن كعب رضي الله عنه قال : إذا حشر الناس نادى مناد : هذا يوم الفصل أين الذين ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ ﴾ أين الذين ﴿ يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ؟ ﴾ [آل عمران : 191] ثم يخرج عنق من النار فيقول : أمرت بثلاث : بمن جعل مع الله إلهاً آخر . وبكل جبار عنيد . وبكل معتد ، لأنا أعرف بالرجل من الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ويؤمر بفقراء المسلمين إلى الجنة فيحسبون فيقولون : تحسبونا ما كان لنا أموال ولا كنا أمراء .

وأخرج محمد بن نصر وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ قال : هم قوم لا يزالوان يذكرون الله ، إما في

الصلاة ، وإما قياماً ، واما قعوداً ، وإما إذا استيقظوا من منامهم . هم قوم لا يزالون يذكرون الله تعالى .

(127/613)

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ربيعة الجرشي رضي الله عنه قال : يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد ، فيكونون ما شاء الله أن يكونوا ، فينادي مناد : سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ، ليقم الذين ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ فيقومون وفيهم قلة ، ثم يلبث ما شاء الله أن يلبث ، ثم يعود فينادي سيعلم أهل الجمع لمن العز والكرم ، ليقم الذين ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور : 37] فيقومون وهم أكثر من الأولين ، ثم يلبث ما شاء الله أن يلبث ، ثم يعود وينادي : سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ، ليقم الحمادون لله على كل حال ، فيقومون وهم أكثر من الأولين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يقول : تتجافى لذكر الله كلما استيقظوا ذكروا الله . اما في الصلاة ، وإما في قيام أو قعود ، أو على جنوبهم ، فهم لا يزالون يذكرون الله .

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عرش الله على الماء ، فاتخذ جنة لنفسه ، ثم اتخذ دونها أخرى ، ثم أطبقهما لؤلؤة واحدة ، ثم قال : ومن دونهما جنتان لم يعلم الخلق ما فيهما ، وهي التي قال الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ يأتيهم فيها كل يوم تحفة .

(128/613)

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إنه لمكتوب في التوراة " لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم ترَ عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا

يعلم ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وإنه لفي القرآن ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وهناد كلاهما في الزهد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن الأنباري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرأوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الواحد رضي الله عنه قال : بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب . فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا مزيد ، فيمكث معها سبعين سنة ، ويلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التي قال الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه قال : إن الرجل من أهل الجنة ليجيء فيشرف عليه النساء فيقلن : يا فلان بن فلان ما أنت حين خرجت من عندنا بأولى بك منا

فيقول : من أنتن ؟ ! فيقلن : نحن من اللاتي قال الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

(129/613)

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن مما ليس في جناتهم . وذلك قوله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال : سأصف لكم منزل الرجل من أهل الجنة كان يطلب في الدنيا حلالاً ، ويأكل حلالاً ، حتى لقي الله على ذلك ، فإنه يعطى يوم القيامة قصراً من لؤلؤة واحدة ليس فيها صدع ولا وصل ، فيها سبعون ألف غرفة ، وأسفل الغرف سبعون ألف بيت ، في كل بيت سقفه صفائح الذهب والفضة ليس بموصول ، ولولا أن الله سخر له النظر إليه لذهب بصره من نوره ، عرض الحائط اثنا عشر ميلاً ، وطوله في السماء سبعون ميلاً ، في كل بيت سبعون ألف باب يدخل عليه ، في كل بيت من كل باب سبعون ألف خادم لا يراهم من في هذا البيت ، ولا من في هذا البيت ، فإذا خرج في قصره صار في ملكه مثل عمر الدنيا ، يسير في ملكه عن يمينه وعن يساره ومن ورائه ، وأزواجه معه وليس معه ذكر

غيره ، ومن بين يديه ملائكة قد سخروا له بينه وبين أزواجه ستر ، وبين يديه ستر ووصفاء ووصائف قد أفهموا ما يشتهي وما يشتهي أزواجه ، ولا يموت هو ولا أزواجه ولا خدامه أبداً ، نعيمهم يزداد كل يوم من غير أن يبلى الأول ، وقرة عين لا تنقطع أبداً ، لا يدخل عليه فيه روعة أبداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " والذي نفسي بيده لو أن آخر أهل الجنة رجلاً أضاف آدم فمن دونه ، ووضع لهم طعاماً وشراباً حتى يخرجوا من عنده لا ينقصه ذلك مما أعطاه الله " .

(130/613)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والطبراني وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة من طريق أبي صخر عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : " بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصف الجنة حتى انتهى ، ثم قال " فيهما ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " ، ثم قرأ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . ﴾ قال أبو صخر : فذكرته للقرظي فقال : إنهم أخفوا عملاً ، وأخفى الله لهم ثواباً ، فقدموا على الله فقرت تلك الأعين " .

وأخرج ابن جرير عن أبي اليمان الهذلي قال : الجنة مائة درجة ، أولها درجة فضة ، وأرضها فضة ، وآنيتها فضة ، وترابها المسك . والثانية ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيتها ذهب ، وترابها المسك . والثالثة لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، ومساكنها لؤلؤ ، وآنيتها لؤلؤ ، وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وتلا هذه الآية ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين . . ﴾ .

وأخرج ابن جرير والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان من طريق الحاكم بن أبان عن الغطريف عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح الأمين قال " يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، فيقتص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة واحدة أدخله الله الجنة " قال : فدخلت على يزدان فحدث بمثل هذا فقلت : فإن ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ [الأحقاف : 16] قلت : أفرأيت قوله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ قال : هو العبد يعمل سراً أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة ﴿ قرة أعين ﴾ .

(131/613)

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن أدنى أهل الجنة حظاً قوم يخرجهم الله من النار برحمته بعد أن يحترقوا ، يرتاح لهم الرب أنهم كانوا لا يشركون بالله شيئاً ، فينبذون بالعراء فينبتون كما ينبت البقل حتى إذا رجعت الأرواح إلى أجسادها قالوا : ربنا كالذي أخرجتنا من النار ورجعت الأرواح إلى أجسادنا فاصرف وجوهنا عن النار ، فيصرف وجوههم عن النار ، ويضرب لهم شجرة ذات ظل وفيء فيقولون : ربنا كالذي أخرجتنا من النار فانقلنا إلى ظل هذه الشجرة ، فينقلهم إليها ، فيرون أبواب الجنة فيقولن : ربنا كالذي أخرجتنا من النار فانقلنا إلى أبواب الجنة ، فيفعل فإذا نظروا إلى ما فيها من الخيرات والبركات قال : وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ قالوا : ربنا كالذي أخرجتنا من النار فادخلنا الجنة قال : فيدخلون الجنة ، ثم يقال لهم : تمنوا فيقولون : يا رب اعطنا حتى إذا قالوا : يا ربنا حسبنا قال : هذا لكم وعشرة أمثاله " .

(132/613)

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والترمذي وابن جرير والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي

صلى الله عليه وسلم " أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال : رب أي أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل . فيقول : كيف ادخل وقد نزلوا منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : اترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم . أي رب قد رضيت فيقال له : فإن لك هذا وعشرة أمثاله معه فيقول : أي رب رضيت فيقال له : فإن لك من هذا ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك ، فقال موسى عليه السلام : أي رب فأي أهل الجنة ارفع منزله ؟ قال : إياها أردت وسأحدثك عنهم إني غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها فلا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، قال : ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ " .

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18)

أخرج أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنا أحد منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له علي رضي الله عنه : اسكت فإنما أنت فاسق . فنزلت ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ يعني بالمؤمن : علياً . وبالفاسق : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت بالمدينة في علي بن أبي طالب ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط قال : كان بين الوليد وبين علي كلام فقال الوليد بن عقبة : أنا أبسط منك لساناً ، وأحمد منك سناناً ، وأرد منك للكتيبة ، فقال علي رضي الله عنه : اسكت فانك فاسق . فأنزل الله ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون . . . ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون . . . ﴾ قال : نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والوليد بن عقبة .

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ قال : أما المؤمن : فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأما الفاسق : فعقبة بن أبي معيط ، وذلك لسباب كان بينهما ، فأنزل الله ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ قال : لا في الدنيا ، ولا عند الموت ، ولا في الآخرة . وفي قوله ﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ قال : هم الذين أشركوا وفي قوله ﴿ كلتم

به تكذبون ﴾ قال : هم يكذبون كما ترون .

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

أخرج الفريابي وابن منيع وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ قال : يوم بدر ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال : لعل من بقي منهم يرجع .

(134/613)

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ قال : سنون اصابتهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال : يتوبون .

وأخرج مسلم وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبو عوانه في صحيحه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ قال : مصائب الدنيا واللزوم والبطشة والدخان .

وأخرج ابن مردويه عن أبي ادريس الخولاني رضي الله عنه قال : سألت عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن قول الله ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال " هي المصائب والاسقام والانصاب عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة قلت : يا رسول الله فما هي لنا ؟ قال : زكاة وطهور " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ قال : مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها ، يبتلي الله بها العباد كي يتوبوا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن إبراهيم رضي الله عنه ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ قال : أشياء يصابون بها في الدنيا ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال : يتوبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ قال : الحدود ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال : يتوبون .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ قال : عذاب الدنيا وعذاب القبر .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ قال : القتل والجوع لقريش في الدنيا ، والعذاب الأكبر يوم القيامة في الآخرة .

(135/613)

وأخرج هناد عن أبي عبيدة في قوله ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ قال : عذاب القبر .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

أخرج ابن منيع وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ثلاث من فعلهن فقد أجرم . من عقد لواء في غير حق . أو عق والديه . أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم ، يقول الله عز وجل ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(136/613)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ تتجافى ﴾ :

يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأن يكونَ حالاً ، وكذلك "يَدْعُون" وإذا جَعَلَ "يَدْعُون" حالاً احْتَمَل أن يكون حَالاً ثانياً ، وأن يكونَ حالاً مِن الضمير في "جُنوبُهم" لأنَّ المضافَ جزءٌ .

والتجافي : الارتفاعُ ، وعَبَّر به عن تَرْكِ النومِ قال ابنُ رَواحة :

3673 نبيٌّ يُجافي جَنْبُه عن فراشِه . . . إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمشركين المضاجعُ

و" خَوْفاً وطَمَعاً " : إمَّا مفعولٌ مِنْ أجلِه ، وإمَّا حالان ، وإمَّا مصدران لعاملٍ مقدر .

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

(137/613)

قوله : "أُخْفِيَ" قرأه حمزةُ "أُخْفِيْ" فعلاً مضارعاً مُسْنداً لضمير المتكلم ، فلذلك سَكَنَتْ ياؤُه لأنه مرفوعٌ . وتؤيدها قراءةُ ابنِ مسعود "ما نُخْفي" بنون العظمة . والباقون "أُخْفِيَ" ماضياً مبنياً للمفعول ، فمِنْ ثَمَّ فُتحت ياؤُه . وقرأ محمد بن كعب "أَخْفى" ماضياً مبنياً للفاعل وهو اللَّهُ تعالى ، ويؤيِّده قراءةُ الأعمش "ما أَخْفَيْتُ" مسنداً للمتكلم

. وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرةَ " مِّن قُرَّاتِ أَعْيُنٍ " جمعاً بالألف والتاء . و " ما " يجوز أَنْ تكونَ موصولةً أي : لا نَعْلَمُ الذي أخفاه اللَّهُ . وفي الحديث : " ما لا عينٌ رَأَتْ ، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خَطَر على قَلْب بشر " وأَنْ تكونَ استفهاميةً معلِّقَةً ل " تَعْلَمُ " . فإن كانَتْ متعديةً لاثنين سَدَّت مَسَدَّهما ، أو لواحدٍ سَدَّتْ مَسَدَّه . و " جزاءً " مفعول له ، أو مصدرٌ مؤكِّدٌ لمعنى الجملةِ قبلَه . وإذا كانَتْ استفهاميةً فعلى قراءةِ مَنْ قرأ ما بعدها فعلاً ماضياً تكون في محلِّ رفعٍ بالابتداء ، والفعلُ بعدها الخبرُ . وعلى قراءةِ مَنْ قرأه مضارعاً تكونُ مفعولاً مقدَّماً ، و " مِنْ قُرَّة " حالٌ مِنْ " ما " .

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18)

قوله : ﴿ لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ : مستأنفٌ ورُوِي عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنه كان يعتمد الوقفَ على قوله : " فاسقاً " ثم يَبْتَدئ " لا يَسْتوون " .

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19)

وقرأ طلحة " جَنَّةُ المَأْوى " بالإفراد . والعامَّةُ بالجمع . وأبو حيوة " نُزْلاً " بضمٍ وسكون ، وتقدَّم تحقيقُه في آخر آل عمران .

(138/613)

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20)

قوله : ﴿ الذي كُنتُمْ بِهِ ﴾ : صفةٌ لـ "عذابَ" . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ صفةً للنار قال : وذُكِّرَ على معنى الجحيم والحريق .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

قوله : ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ ﴾ : هذه لبُعْدِ ما بين الرتبتَيْن معنىً . وشبَّهها الزمخشريُّ بقوله :

3674- وما يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلاَّ ابنُ حُرَّةٍ . . . يَرَى غَمَراتِ الموتِ ثم يَزورُها

قال : "استبعدَ أن يزورَ غَمَراتِ الموتِ بعد أَنْ رآها وعَرفها واطَّلع على شدَّتِها " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 87.89 ﴾

(139/613)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) ﴾

أفمن كان في حال الوصال يَجرّ أذيالَه كنتْ هو في مَذلةِ الفراق يقاسي وبالَهَ ؟

أفمن كان في رَوْحِ القربة ونسيم الزلفة كمن هو في هوْل العقوبة يعاني مشقة الكلفة ؟

أفمن هو في رَوْح إقبالنا عليه كمن هو محنة إعراضنا عنه ؟

أفمن بقي معنا كمنْ بقي عَنَّا ؟

أفمنْ هو في نهار العرفان وضياء الإحسان كمن هو في ليالي الكفران ووحشة العصيان ؟

أَفمن أُيِّدَ بنور البرهان وطلعت عليه شموسُ العرفان كمن ربطَ بالخذلان ووُسم بالحرمان ؟

لا يستويان ولا يلتقيان !

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19)

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : صَدَّقوا ، و ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ : بما حَققوا –فلهم حُسْنُ الحال ، وحيمدُ المآلُ وجزيلُ المنال ، وأَما الذين كذّوا وجحدوا ، وفي معاملاتهم أساءوا وأفسدوا ، فقصاراهم الخزيُ والهوان ، وفنونٌ من المحن وألوان . . كلما راموا من محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً ، ولكما أَمَّلوا نجاةً جُرّعوا وزيدوا ياساً .

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

قومٌ عذابهم الأدنى مِحَنُ الدينا ، والعذابُ الأكبر لهم عقوبة العنبي .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم في عبادتهم ، والعذاب الأكبر لهم قسوةٌ في قلوبهم تصيبهم .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم وقفة في سلوكهم تُنيبهم ، والعذابُ الأكبرُ لهم حجةٌ عن مشاهدهم

تنَالهم ، قال قائلهم :

أَدّبتني بانصرافِ قلبك عنّي . . . فانظرْ إليّ فقد أحسنت تأديبي

ويقال العذاب الأدنى الخذلان في الزلة ، والأكبر الهجران في الوصلة .

ويقال العذاب الأدنى تكدّر مشاربهم بعد صفوها ، كما قالوا :

(140/613)

لقد كان ما بيني زماناً وبينه . . . كما بين ريح المسك والعنبر الورد

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاول أيامِ الغياب من غير تبين آخرٍ لها ، كما قيل :

تطاول نأينا يا نور حتى . . . كأن نسجتْ عليه العنكبوتُ

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

إذا نُبِّهَ العبدُ بأنواع الزَّجر ، وحُرِّكَ -لتَرْكِهِ حدودَ الرقاق- بصنوفٍ من التأديب ثم لم يرتدع عن فعله ، واغترّ بطول سلامته ، وأمِنَ من هواجم مَكره ، وخفايا سِرّه . . أَخَذَه بغتةً بحيث لا يجد خرجةً مَنْ أخذته ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 65] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 144.146 ﴾

(141/613)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان مقصود السورة نفي الريب عن تنزيل هذا الكتاب المبين في أنه من عند رب العالمين ، ودل على أن الإعراض عنه إنما هو ظلم وعناد بما ختمه بالتهديد على الإعراض عن الآيات بالانتقام ، وكان قد انتقم سبحانه ممن استخف بموسى عليه السلام قبل إنزال الكتاب عليه وبعد إنزاله ، وكان أول من أنزل عليه كتاب من بني إسرائيل بعد فترة كبيرة من الأنبياء بينه وبين يوسف عليهما السلام وآمن به جميعهم وألفهم الله به وأنقذهم من أسر القبط على يده ، ذكر بحالة تسلية وتأسية لمن أقبل وتهديداً لمن أعرض ، وبشارة بإيمان العرب كلهم وتأليفهم به وخلاص أهل اليمن منهم من أسر الفرس بسببه ، فقال مؤكداً تنبيهاً لمن يظن أن العظيم لا يرد شيء من أمره : ﴿ ولقد آتينا ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي الجامع للأحكام وهو التوارة .

ولما كان ذلك مما لا ريب فيه أيضاً ، وكان قومه قد تركوا اتباع كثير منه لا سيما فيما قصَّ من صفات نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيما أمر فيه باتباعه ، وكان هذا إعراضاً منهم مثل إعراض الشاك في الشيء ، وكانوا في زمن موسى عليه السلام أيضاً يخالفون أوامره وقتاً بعد وقت وحيناً إثر حين ، تسبب عن الإيتاء المذكور قوله تعريضاً بهم وإعلاماً بأن العظيم قد يرد رد بعض أوامره لحكمة دبرها : ﴿ فلا تكن ﴾ أي كوناً راسخاً – بما أشار إليه فعل الكون وإثبات نونه ، فيفهم العفو عن حديث النفس الواقع من الأمة على ما بينه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ في مرية ﴾ أي شك ﴿ من لقائه ﴾ أي لا تفعل في ذلك فعل الشاك في لقاء موسى عليه السلام للكتاب منا وتلقيه له بالرضا والقبول والتسليم ، كما فعل المدعون لاتباعه والعمل بكتابه في الإعراض عما دعاهم إليه من دين الإسلام ، أو لا تفعل فعل الشاك في لقائك الكتاب منا وإن نسبوك إلى الإفتراء وإن تأخر بعض ما يخبر به فسيكون هدى لمن بقي منهم ، وعذاباً للماضين ، ولا يبقى خبر ما أخبر به أنه كائن إلا كان طبق ما أخبر به ، فإنك لتلقاه من لدن حكيم عليم ، وقد صبر موسى عليه السلام في تلقي كتابه ودعائه حتى مات على أحسن الأحوال ، أو يكون المعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف عليه فيه

فما شك أحد من الثابتين في إيتائنا إياه الكتاب لأجل إعراض من أعرض ، ولا زلزلة أدبار من أدبر ، وانتقمنا ممن أعرض عنه فلا يكن أحد ممن آمن بك في شك من إيتائنا الكتاب لك لإعراض من أعرض ، فسنهلك من حكمنا بشقائه انتقاماً منه ، ونسعد الباقين به .

(143/613)

ولما أشار إلى إعراضهم عنه وإعراض العرب عن كتابهم ، ذكر أن الكل فعلوا بذلك الضلال ضد ما أنزل له الكتاب ، فقال ممتناً على بني إسرائيل ومبشراً للعرب : ﴿ وجعلناه ﴾ أي كتاب موسى عليه السلام جعلاً يليق بعظمتنا ﴿ هدى ﴾ أي بياناً عظيماً ﴿ لبني إسرائيل ﴾ وأشار إلى اختلافهم فيه بقوله : ﴿ وجعلنا منهم ﴾ أي من أنبيائهم وأحبارهم بعظمتنا ، مع ما في طبع الإنسان من اتباع الهوى ﴿ أئمة يهدون ﴾ أي يوقعون البيان ويعملون على حسبه ﴿ بأمرنا ﴾ أي بما أنزلنا فيه من الأوامر ؛ ثم ذكر علة جعله ذلك لهم بقوله : ﴿ لما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم ولأجله - على قراءة حمزة والكسائي بالكسر والتخفيف - أو حين صبرهم على قبول أوامرنا على قراءة الباقين بالفتح والتشديد ، وإن كان الصبر أيضاً إنما هو بتوفيق الله لهم ﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ لما لها من العظمة ﴿ يوقنون ﴾ لا يرتابون في شيء منها ولا يفعلون فعل الشاك فيه الإعراض ، وكان ذلك لهم جبلة

جبلناهم عليها .

ولما أفهم قوله " منهم " أنه كان منهم من يضل عن أمر الله ويصد عنه ، جاء قوله تسلية للمؤمنين وتوعداً للكافرين ، استئنافاً مؤكداً تنبيهاً لمن يظن أنه لا بعث ، ولفت القول إلى صفة الإحسان إشارة إلى ما يظهر من شرفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذلك اليوم من المقام المحمود وغيره : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك ليعظم ثوابك ويعلي ما بك ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ يفصل بينهم ﴾ أي من الهادين والمضلين والضالين ﴿ يوم القيامة ﴾ بالقضاء الحق ، فيعلى أمر المظلوم ويردي كيد الظالم ﴿ فيما كانوا ﴾ جبلة ، طبعاً ﴿ فيه ﴾ أي خاصة ﴿ يختلفون ﴾ أي يجددون الاختلاف فيه على سبيل الاستمرار حسب ما طبعوا عيله ، لا يخفى عليه شيء منه ، وأما غير ما اختلفوا فيه فالحكم فيه لهم أو عليهم لا بينهم ، وما اختلفوا فيه لا على وجه القصد فيقع في محل العفو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 62 . 63 ﴾

(144/613)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾

لما قرر الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل الذي بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ ﴾ [القصص : 46] وقال : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مّنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 9] بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبي صلى الله عليه وسلم ووجود من كان على دينه إلزاماً لهم ، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه ، وقوله : ﴿ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ مّن لّقَائِهِ ﴾ قيل معناه فلا تكن في شك من لقاء موسى فإنك تراه وتلقاه ، وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن في شك من لقاء الكتاب فإنك تلقاه كما لقي موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبي عليه السلام فإنه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم ، فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فإنه لقي ما لقيت وأوذي كما أوذيت ، وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة ، وهي أن أحداً من الأنبياء لم يؤذه قومه إلا الذين لم يؤمنوا به ، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فإن لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بني إسرائيل أيضاً آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قوله :

﴿ اذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾ [المائدة : 24] ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إسرائيل وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " ثم بين أن ذلك يحصل بالصبر ، فقال : ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق .

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

هذا يصلح جواباً لسؤال : وهو أنه لما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقاً وسبيل الحق واحد ، فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الله تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم فينبغي أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد ، فإن المبتدع معذب كالكافر ، غاية ما في الباب ، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون ﴾ قد ذكرنا أن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ تقرير لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإعادة لبيان

ما سبق في قوله : ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة : 3] . انتهى

انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 161.162﴾

(146/613)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى ولقد لقيته ليلة الإسراء روى أبو العالية الرياحي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رَأَيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى بْنَ عمرانَ رَجُلاً طُوَالاً جَعْداً كَأَنَّهُ مِن رِجَالِ شَنُوءَةَ . وَرَأَيْتُ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَجُلاً مَرْبُوعَ الخَلْقِ إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ سَبْطَ الرَّأْسِ " قال أبو العالية قد بين الله ذلك في قوله : ﴿ وَاسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ .

الثاني : فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى في القيامة وستلقاه فيها .

الثالث : فلا تكن في شك من لقاء موسى في الكتاب ، قاله مجاهد والزجاج .

الرابع : فلا تكن في شك من لقاء الأذى كما لقيه موسى ، قاله الحسن .

الخامس : فلا تكن في شك من لقاء موسى لربه حكاه النقاش .

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : جعلنا موسى ، قاله قتادة .

الثاني : جعلنا الكتاب ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم رؤساء في الخير تبع الأنبياء ، قاله قتادة .

الثاني : أنهم أنبياء ، وهو مأثور .

﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : على الدنيا ، قاله سفيان .

الثاني : على الحق ، قاله ابن شجرة .

الثالث : على الأذى بمصر لما كلفوا ما لا يطيقون ، حكاه النقاش .

﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يعني بالآيات التسع ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ أنها من عند الله

. قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية فيها وجهان :

أحدهما : يعني بين الأنبياء وبين قومهم ، حكاه النقاش .

الثاني : يقضي بين المؤمنين والمشركين فيما اختلفوا فيه من الإيمان والكفر ، قاله يحيى بن سلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(148/613)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾

قرأ الناس " في مِرية " بكسر الميم ، وقرأ الحسن بضمها ، واختلف المتأولون في الضمير الذي في ﴿ لقائه ﴾ على من يعود ؛ فقال أبو العالية الرياحي وقتادة : يعود على موسى ، والمعنى لا تكن في شك من أن تلقى موسى ، أي في ليلة الإسراء ، وهذا قول جماعة من السلف ، وقاله المبرد حين امتحن ابا إسحاق الزجاج بهذه المسألة ، وقالت فرقة الضمير عائد على ﴿ الكتاب ﴾ أي أنه لقي موسى حين لقيه موسى ، والمصدر في هذا التأويل يصح أن يكون مضافاً للفاعل بمعنى لقي الكتاب موسى ، ويصح أن يكون مضافاً إلى المفعول بمعنى لقي الكتابَ – بالنصب – موسى ، وقال الحسن الضمير عائد على ما يتضمنه القول من الشدة والمحنة التي لقي موسى ، وذلك أن إخباره بأنه آتى موسى الكتاب

كأنه قال ﴿ ولقد آتينا موسى ﴾ هذا العبء الذي أنت بسبيله فلا تمتر أنك تلقى ما لقي هو من المحنة بالناس ، وكأن الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقالت فرقة معناه فلا تكن في شك من لقائه في الآخرة .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا قول ضعيف ، وقالت فرقة الضمير العائد على ﴿ ملك الموت ﴾ [السجدة : 11] الذي تقدم ذكره ، وقوله ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ اعتراض بين الكلامين .

(149/613)

قال القاضي أبو محمد : وهذا أيضاً ضعيف ، و" المرية " الشك ، والضمير في ﴿ جعلناه ﴾ يحتمل أن يعود على موسى ، وهو قول قتادة ، ويحتمل أن يعود على ﴿ الكتاب ﴾ و ﴿ أئمة ﴾ جمع إمام وهو الذي يقتدى به وأصله خيط البناء وجمهور النحويين على " أئمة " بياء وتخفيف الهمزة ، إلا ابن أبي إسحاق فإنه جوز اجتماع الهمزتين وقرأ " أئمة " وقرأ جمهور القراء " لَمَّا صبروا " بفتح اللام وشد الميم ، وقرأ حمزة والكسائي " لِما " بكسر اللام وتخفيف الميم وهي قراءة ابن مسعود وطلحة والأعمش ، فالأولى في معنى الظرف والثانية كأنه قال لأجل صبرهم ، ف " ما " مصدرية ، وفي القراءتين معنى لمجازاة أي

جعلهم أئمة جزاء على صبرهم عن الدنيا وكونهم موقنين بآيات الله وأوامره وجميع ما تورده الشريعة ، وقرأ ابن مسعود " بما صبروا " . وقوله تعالى : ﴿ إن ربك ﴾ الآية ، حكم يعم جميع الخلق ، وذهب بعض المتأولين إلى تخصيص الضمير وذلك ضعيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(150/613)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ ﴾

أي فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى ؛ قاله ابن عباس .

وقد لقِيه ليلة الإسراء .

قتادة : المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء .

والمعنى واحد .

وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة ، وستلقاه فيها .

وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول ؛ قاله مجاهد والزجاج .

وعن الحسن أنه قال في معناه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ فأوذي وكُذّب ، فلا تكن

في شك من أنه سيلقاك ما لِقِيَه من التكذيب والأذى ؛ فالهاء عائدة على محذوف ، والمعنى من لقاء ما لاقى .

النحاس : وهذا قول غريب ، إلا أنه من رواية عمرو بن عُبيد .

وقيل في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى : قل يتوفاكم مَلَك الموت الَّذِي وُكِّل بكم فلا تكن في مِرْية من لقائه ؛ فجاء معترضاً بين ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ وبين ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ ﴾ .

والضمير في "وَجَعَلْنَاهُ" فيه وجهان : أحدهما : جعلنا موسى ؛ قاله قتادة .

الثاني : جعلنا الكتاب ؛ قاله الحسن .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي قادةً وقُدْوةً يُقتَدى بهم في دينهم .

والكوفيون يقرؤون "أَئِمَّةً" النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة ، وهو من دقيق النحو .

وشرحه : أن الأصل "أَأْمِمَة" ثم ألقيت حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم ، وخفّفت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان ، والجمع بين همزتين في حرفين بعيد ؛ فأمّا في حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك : آدم وآخر .

ويقال : هذا أومّ من هذا وأيمّ ؛ بالواو والياء .

وقد مضى هذا في "براءة" والله تعالى أعلم .

﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا .

﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ أي أمرناهم بذلك .

وقيل : "بِأَمْرِنَا" أي لأمرنا ؛ أي يهدون الناس لديننا .

(151/613)

ثم قيل : المراد الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله قتادة .

وقيل : المراد الفقهاء والعلماء .

﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ قراءة العامة "لَمّا" بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها ؛ أي حين صبروا .

وقرأ يحيى وحمزة والكسائي وخَلَف ورُوَيْس عن يعقوب : "لِما صَبَرُوا" أي لصبرهم جعلناهم أئمة .

واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابن مسعود "بِمَا صَبَرُوا" بالباء .

وهذا الصبر صبرٌ على الدين وعلى البلاء .

وقيل : صبروا عن الدنيا .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ أي يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار ، فيجازي كُلاًّ بما يستحق .

وقيل : يقضي بين الأنبياء وبين قومهم ؛ حكاه النقاش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

(152/613)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾

أي التَّوراةَ عبَّر عنها باسمِ الجنسِ لتحقيقِ المجانسةِ بينها وبينَ الفُرقانِ والتنبيهِ على أنَّ إيتاءَه لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم كإيتائِها لمُوسى عليهِ السَّلامُ ﴿ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ مّن لّقَائِهِ ﴾ من لقاءِ الكتابِ الذي هو الفُرقان كقوله : وإنك لتلقَّى القرآنَ والمعنى إنَّا آتينا مُوسى مثلَ ما آتيناك من الكتابِ ولقَّيناه من الوحيِ مثلَ ما لقَّيناك من الوحيِ فلا تكُن في شكَ من أنَّك لقيتَ مثلَه ونظيرَه وقيل : من لقاءِ مُوسى الكتاب أو من لقائِك مُوسى وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " رأيتُ ليلة أُسري بي مُوسى رجلاً آدَمَ طُوالاً جَعْداً كأنَّه من رجالِ شنوءة " ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتابَ الذي آتيناهُ مُوسى ﴿ هُدًى لّبَنِى إسراءيل ﴾ قيل : لم يُتعبدْ بما في التَّوراةِ ولدُ إسماعيلَ .

(153/613)

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ بقيتهم بما في تضاعيفِ الكتابِ من الحُكم والأحكامِ إلى طريقِ الحقّ أو يهدونَهم إلى ما فيهِ من دينِ الله وشرائعِه ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ إيّاهم بذلك أو بتوفيقِنا له ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ هي لما التي فيها مَعنى الجزاءِ نحو أحسنتُ إليك لمَّا جئتِني . والضَّميرُ للأئمةِ تقديرُه لمَّا صبرُوا جعلناهُم أئمةً أو هي ظرفٌ بمعنى الحينِ أي جعلناهُم أئمةً حين صبرُوا والمرادُ صبرُهم على مشاقِّ الطَّاعاتِ ومقاساة الشَّدائدِ في نُصرةِ الدِّينِ أو صبرُهم عن الدُّنيا . وقُرِىءَ لِمَا صبرُوا أي لصبرِهم ﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ التي في تضاعيفِ الكتابِ ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ لإمعانِهم فيها النَّظرَ والمعنى كذلك لنجعلنَّ الكتابَ الذي آتيناكَه هُدى لأمَّتِك ولنجعلنَّ منهم أئمَّةً يهدون مثلَ تلك الهدايةِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ أي يقضِي ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ قيل : بينَ الأنبياءِ وأُممِهم وقيل : بين المؤمنينَ والمشركينَ ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ فيميِّزُ بين المُحقِّ والمُبطلِ ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمورِ الدِّينِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(154/613)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾

أي جنس الكتاب ﴿ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ ﴾ أي شك8 وقرأ الحسن ﴿ مِرْيَةٍ ﴾ بضم الميم ﴿ مّن لّقَائِهِ ﴾ أي لقائك ذلك الجنس على أن لقاء مصدر مضاف إلى المفعول وفاعله محذوف وهو ضمير النبي صلى الله عليه وسلم والضمير المذكور للكتاب المراد به الجنس وإيتاء ذلك الجنس باعتبار إيتاء التوراة ولقاؤه باعتبار لقاء القرآن ، وهكذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : 6] وقوله سبحانه : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَابًا يلقاه مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] وحمل بعضهم ﴿ الكتاب ﴾ على العهد أي الكتاب المعهود وهو التوراة ولما لم يصح عود الضمير إليه ظاهراً لأنه عليه الصلاة والسلام لم يلق عين ذلك الكتاب قيل : الكلام على تقدير مضاف أي لقاء مثله أو على الاستخدام أو أن الضمير راجع إلى القرآن المفهوم منه ، ولا يخفى ما في كل من البعد ، والمعنى أنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحي مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ونظيره ، وخلاصة ما تؤذن به الفاء التفريعية ان معرفتك بأن موسى عليه السلام أوتي التوراة ينبغي أن تكون سبباً لإزالة الريب عنك في أمر كتابك ؛ ونهيه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون في شك المقصود منه نهى أمته صلى الله عليه وسلم والتعريض بمن اتصف بذلك ، وقيل : المصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول

محذوف هو ضميره عليه الصلاة والسلام أي من لقائه إياك ووصوله إليك ، وفي التعبير باللقاء دون الإيتاء من تعظيم شأنه صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى على المتدبر ، وقد يقال : إن التعبير به على الوجه السابق مؤذن بالتعظيم أيضاً لكن من حيثية أخرى فتدبر .

(155/613)

وقيل : الكتاب التوراة وضمير ﴿ لِّقَآئِهِ ﴾ عائد إليه من غير تقدير مضاف ولا ارتكاب استخدام ، ولقاء مصدر مضاف إلى مفعوله وفاعله موسى أي من لقاء موسى الكتاب أو مضاف إلى فاعله ومفعوله موسى أي من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه ، فالفاء مثلها في قوله :

ليس الجمال بمئزر . . .

فاعلم وان رديت برداً

دخلت على الجملة المعترضة بدل الواو اهتماماً بشأنها ، وعن الحسن أن ضمير ﴿ لِّقَآئِهِ ﴾ عائد على ما تضمنه الكلام من الشدة والمحنة التي لقي موسى عليه السلام فكأنه قيل : ولقد آتينا موسى هذا العبء الذي أنت بسبيله فلا تمتر أنك تلقى ما لقى هو من الشدة والمحنة بالناس ، والجملة اعتراضية ولا يخفى بعده ، وأبعد منه بمراحل ما قيل : الضمير

لملك الموت الذي تقدم ذكره والجملة اعتراضية أيضاً ، بل ينبغي أن يجل كلام الله تعالى عن مثل هذا التخريج .

وأخرج الطبراني .

وابن مردويه .

والضياء في المختارة بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال في الآية : أي من لقاء موسى .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن مجاهد نحوه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية أنه قال كذلك فقيل له : أو لقي عليه الصلاة والسلام ؟ قال : نعم ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ [الزخرف : 45] وأراد بذلك لقاءه صلى الله عليه وسلم إياه ليلة الإسراء كما ذكر في الصحيحين .

وغيرهما ، وروي نحو ذلك عن قتادة .

وجماعة من السلف ، وقاله المبرد حين امتحن الزجاج بهذه الآية ، وكأن المراد من قوله تعالى : ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه" على هذا وعده تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بلقاء موسى وتكون الآية نازلة قبل الإسراء ، والجملة اعتراضية بالفاء بدل الواو كما سمعت آنفاً .

وجعلها مفرعة على ما قبلها غير ظاهر ، وبهذا اعترض بعضهم على هذا التفسير ، وبالفرار إلى الاعراض سلامة من الاعتراض وكأني بك ترجحه على التفسير الأول من بعض الجهات والله تعالى الموفق ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه موسى ، وقال قتادة .

أي وجعلنا موسى عليه السلام ﴿ هُدًى ﴾ أي هادياً من الضلال ﴿ لِّبَنِى إسرائيل ﴾ خصوا بالذكر لما أنهم أكثر المنتفعين به ، وقيل : لأنه لم يتعبد بما في كتابه عليه الصلاة والسلام ولد اسماعيل صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال قتادة : رؤساء في الخير سوى الأنبياء عليهم السلام ، وقيل : هم الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل ﴿ يَهْدُونَ ﴾ بقيتهم بما في تضاعيف الكتاب من الحكم والأحكام إلى طريق الحق أو يهدونهم إلى ما فيه من دين الله تعالى وشرائعه عز وجل ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ إياهم بأن يهدوا على أن الأمر واحد الأوامر ، وهذا على القول بأنهم أنبياء ظاهر ، وأما على القول بأنهم ليسوا بأنبياء فيجوز أن يكون أمره تعالى إياهم بذلك على حد أمر علماء هذه الأمة بقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخير وَيَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ [آل عمران : 104] الآية .

وجوز أن يكون الأمر واحد الأمور والمراد يهدون بتوفيقنا ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ قال قتادة :

على ترك الدنيا ؛ وجوز غيره أن يكون المراد لما صبروا على مشاق الطاهر ومقاساة الشدائد في نصرة الدين ، و﴿ لَّمَّا ﴾ يحتمل أن تكون هي التي فيها معنى الجزاء نحو لما أكرمتني أكرمتك أي لما صبروا جعلنا أئمة ، ويحتمل على تكون هي التي بمعنى الحين الخالية عن معنى الجزاء ، والظاهر أنه حينئذ ظرف لجعلنا أي جعلناهم أئمة حين صبروا ، وجوز أبو البقاء كونها ظرفاً ليهدون .

وقرأ عبد الله .

وطلحة .

والأعمش .

وحمزة .

والكسائي .

(157/613)

ورويس ﴿ لَّمَّا ﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم على أن اللام للتعليل وما مصدرية أي لصبرهم وهو متعلق بجعلنا أو بيهدون .

وقرأ عبد الله أيضاً ﴿ بِمَا ﴾ بالباء السببية وما المصدرية أي بسبب صبرهم ﴿ وَكَانُواْ

بِآيَاتِنَا ﴾ التي في تضاعيف الكتاب ، وقيل : المراد بها ما يعم الآيات التكوينية ، والجار متعلق بقوله تعالى : ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ أي كانوا يوقنون بها لا معانهم فيها النظر لا بغيرها من الأمور الباطلة ، وهو تعريض بكفرة أهل مكة ، والجملة معطوفة على ﴿ صَبَرُواْ ﴾ فتكون داخلة في حيز ﴿ لَّمَّا ﴾ وجوز أن تكون معطوفة على ﴿ جَعَلْنَا ﴾ وأن تكون في موضع الحال من ضمير ﴿ صَبَرُواْ ﴾ .

والمراد كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناكه أو لنجعلنك هدى لأمتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ أي يقضى ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ قيل : بين الأنبياء عليهم السلام وأممهم ، وقيل : بين المؤمنين والمشركين ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ فيميز سبحانه بين المحق والمبطل ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمور الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(158/613)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾

لما جرى ذكر إعراض المشركين عن آيات الله وهي آيات القرآن في قوله ﴿ ومن أظلم ممن

ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ [السجدة : 22] ، استطرد إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن ما لقي من قومه هو نظير ما لقيه موسى من قوم فرعون الذين أرسل إليهم فالخبر مستعمل في التسلية بالتنظير والتمثيل .

فهذه الجملة وما بعدها إلى قوله ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ [السجدة : 25] معترضات .

وموقع التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق هو ما استعمل فيه الخبر من التسلية لا لأصل الأخبار لأنه أمر لا يحتاج إلى التأكيد ، وبه تظهر رشاقة الاعتراض بتفريع ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ على الخبر الذي قبله .

وأريد بقوله ﴿ ءاتينا موسى الكتاب ﴾ أرسلنا موسى ، فذِكر إيتائه الكتاب كناية عن إرساله ، وإدماج ذكر ﴿ الكتاب ﴾ للتنويه بشأن موسى وليس داخلاً في تنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال موسى عليه السلام في تكذيب قومه إياه لأن موسى لم يكذبه قومه ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ الآيات ، وليتأتى من وفرة المعاني في هذه الآية ما لا يتأتى بدون ذِكر ﴿ الكتاب .

وجملة فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ معترضة وهو اعتراض بالفاء ، ومثله وارد كثيراً في الكلام كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ الآية في سورة النساء (135) .

ويأتي عند قوله تعالى : ﴿ هذا فليذوقوه حميمٌ وغساق ﴾ في سورة ص (57) .

والمرية : الشك والتردد .

وحرف الظرفية مجاز في شدة الملابسة ، أي لا يكن الشك محيطاً بك ومتمكناً منك ، أي لا تكن ممترياً في أنك مثله سينالك ما نالَه من قومه .

(159/613)

والخطاب يجوز أن يكون للنبيء ، فالنهي مستعمل في طلب الدوام على انتفاء الشك فهو نهي مقصود منه التثبيت كقوله ﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ [هود : 109] ، وليس لطلب إحداث انكفاف عن المرية لأنها لم تقع من قبل .

واللقاء : اسم مصدر لَقِيَ وهو الغالب في الاستعمال دون لِقى الذي هو المصدر القياسي .

واللقاء : مصادفة فاعل هذا الفعل مفعولَه ، ويطلق مجازاً على الإصابة كما يقال : لقيت عناء ، ولقيت عَرق القِربة ، وهو هنا مجاز ، أي لا تكن في مرية في أن يصيبك ما أصابه ، وضمير الغائب عائد إلى موسى .

واللقاء مصدر مضاف إلى فاعله ، أي مما لقي موسى من قوم فرعون من تكذيب ، أي من مثل ما لقي موسى ، وهذا المضاف يدل عليه المقام أو يكون جارياً على التشبيه البليغ

كقوله : هو البدر ، أي : من لقاء كلقائه ، فيكون هذا في معنى آيات كثيرة في هذا المعنى وردت في القرآن كقوله تعالى : ﴿ ولقد استُهْزِىء برُسُل من قبلك ﴾ [الأنعام : 10] ﴿ فصبَروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ [الأنعام : 34] ، وقوله : ﴿ وإن كادوا لَيَسْتَفِزُّونك من الأرض لِيُخرِجُوك منها وإذاً لا يلبثون خَلْفَك إلا قليلاً سُنَّةَ من قد أرسلنا من قبلك من رُسُلِنا ﴾ [الإسراء : 76 ، 77] .

هذا أحسن تفسير للآية وقريب منه مأثور عن الحسن .

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ لقائه ﴾ عائداً إلى موسى على معنى : من مثل ما لقي موسى من إرساله وهو أن كانت عاقبة النصر له على قوم فرعون ، وحصول الاهتداء بالكتاب الذي أوتيه ، وتأييده باهتداء بني إسرائيل ، فيكون هذا المعنى بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله سيظهر هذا الدين .

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ لقائه ﴾ عائداً إلى الكتاب كما في "الكشاف" لكن على أن يكون المعنى : فلا تكن في شك من لقاء الكتاب ، أي من أن تلقى من إيتائك الكتاب ما هو شنشنة تلقِّي الكتب الإلهية كما تلقاها موسى .

فالنهي مستعمل في التحذير ممن ظن أن لا يلحقه في إيتاء الكتاب من المشقة ما لقيه الرسل من قبله ، أي من جانب أذى قومه وإعراضهم .

ويجوز أن يكون الخطاب في قوله ﴿ فلا تكن ﴾ لغير معين وهو موجه للذين امتروا في أن القرآن أنزل من عند الله سواء كانوا المشركين أو الذين يلقنونهم من أهل الكتاب ، أي لا تمتروا في إنزال القرآن على بشر فقد أنزل الكتاب على موسى فلا تكونوا في مرية من إنزال القرآن على محمد .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر مِن شيء قل مَن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ [الأنعام : 91] .

فالنهي مستعمل في حقيقته من طلب الكف عن المرية في إنزال القرآن .

وللمفسرين احتمالات أخرى كثيرة لا تسفر عن معنى بيِّن ، ومن أبعدها حمل اللقاء على حقيقته وعود ضمير الغائب لموسى وأن المراد لقاؤه ليلة الإسراء وعَده الله به وحقَّقه له في هذه الآية قبل وقوعه .

قال ابن عطية : وقال المبرد حين امتحن أبا إسحاق الزجاج بهذه المسألة

وضمير النصب في ﴿ وجعلناه هدى ﴾ يجوز أن يعود على الكتاب أو على موسى وكلاهما سبب هدى ، فوصف بأنه هدى للمبالغة في حصول الاهتداء به وهو معطوف

على ﴿ ءاتينا موسى الكتاب ﴾ وما بينهما اعتراض .

وهذا تعريض بالمشركين إذ لم يشكروا نعمة الله على أن أرسل إليهم محمد بالقرآن ليهتدوا فأعرضوا وكانوا أحق بأن يحرصوا على الاهتداء بالقرآن وبهدي محمد صلى الله عليه وسلم

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24)

(161/613)

أشير إلى ما مَنّ الله به على بني إسرائيل إذ جعل منهم أئمة يهدون بأمر الله والأمر يشمل الوحي بالشريعة لأنه أمر بها ، ويشمل الانتصاب للإرشاد فإن الله أمر العلماء أن يبينوا الكتاب ويرشدوا إليه فإذا هدوا فإنما هدوا بأمره وبالعلم الذي آتاهم به أنبياؤهم وأحبارهم فأنعم الله عليهم بذلك لما صبروا وأيقنوا لما جاءهم من كتاب الله ومعجزات رسولهم فإن كان المراد من قوله ﴿ بآياتنا يُوقِنُونَ ﴾ دلائل صدق موسى عليه السلام ، فالمعنى : أنهم صبروا على مشاق التكليف والخروج بهم من أرض مصر وما لقوه من فرعون وقومه من العذاب والاضطهاد وتيههم في البرية أربعين سنة وتدبروا في الآيات ونظروا حتى أيقنوا .

وإن كان المراد من الآيات ما في التوراة من الشرائع والمواعظ فإطلاق اسم الآيات عليها مشاكلة تقديرية لما هو شائع بين المسلمين من تسمية جمل القرآن آيات لأنها مُعجزة في بلاغتها خارجة عن طوق تعبير البشر .

فكانت دلالات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهذا نحو ما وقع في حديث رجم اليهوديين من قول الراوي : فوضع اليهودي يده على آية الرجم ، أي الكلام الذي فيه حكم الرجم في التوراة فسماه الراوي آية مشاكلة لكلام القرآن .

وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم يكونون أئمة لدين الإسلام وهداة للمسلمين إذ صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إياهم .

وتقديم ﴿ بآياتنا ﴾ على ﴿ يوقنون ﴾ للاهتمام بالآيات .

وقرأ الجمهور ﴿ لَمَّا صَبَروا ﴾ بتشديد الميم وهي ﴿ لمّا التي هي حرف وجود لوجود وتسمى التوقيتية ، أي : جعلناهم أئمة حين صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بتخفيف الميم على أنها مركبة من لام التعليل و (ما) المصدرية ، أي جعلناهم أئمة لأجل صبرهم وإيقانهم .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

استئناف بياني لأن قوله تعالى ﴿ وجعلنا منهم أئمة يَهْدُون بأمْرنا ﴾ [السجدة : 24] يثير سؤالاً في نفس السامع من المؤمنين الذين سمعوا ما في القرآن من وصف اختلاف بني إسرائيل وانحرافهم عن دينهم وشاهَد كثير منهم بني إسرائيل في زمانه غير متحلّين بما يناسب ما قامت به أيمتهم من الهداية فيودّ أن يعلم سبب ذلك فكان في هذه الآية جواب ذلك تعليماً للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

والخطاب للنبيء والمراد أمتُه تحذيراً من ذلك وإيماءً إلى وجوب تجنب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داع في مصلحة الأمة وفهم الدين .

والفصل : القضاء والحكم ، وهو يقتضي أن اختلافهم أوقعهم في إبطال ما جاءهم من الهدى فهو اختلاف غير مستند إلى أدلة ولا جارٍ في مهيع أصل الشريعة ؛ ولكنه متابعة للهوى وميل لأعراض الدنيا كما وصفه القرآن في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها كقوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ [آل عمران : 105] .

وليس منه اختلاف أئمة الدين في تفاريع الأحكام وفي فهم الدين مما لا ينقض أصوله ولا يخالف نصوصه وإنما هو إعمال لأصوله ولأدلته في الأحوال المناسبة لها وحمل متعارضها

بعضه على بعض فإن ذلك كله محمود غير مذموم ؛ وقد اختلف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في حياته فلم يعنّف أحداً ، واختلفوا بعد وفاته فلم يعنّف بعضهم بعضاً .

ويشمل ما كانوا فيه يختلفون ما كان اختلافاً بين المهتدين والضالين منهم وما كان اتفاقاً من جميع أمتهم على الضلالة فإن ذلك خلاف بين المجمعين وبين ما نطقت به شريعتهم وسَنَّته أنبياؤهم ، ومن أعظم ذلك الاختلاف كتمانهم الشهادة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وجحدهم ما أخذ عليهم من الميثاق من أنبيائهم .

(163/613)

وضمير ﴿ هو ﴾ في قوله ﴿ هو يفصل ﴾ ضمير فصل لقصر الفصل عليه تعالى إيماء إلى أن ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعاً منه أن يرتدعوا عن اختلافهم وإنما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم لأنهم لا يقبلون الحجة فلا يفصل بينهم إلا يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(164/613)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾

والإيتاء يختلف ، فهناك مَنْ يُؤْتَى بمنهج أو بمعجزة أو بهما معاً ، وهناك إيتاء لكتاب موقوت ، لزمن موقوت ، لقوم موقوتين ، وإيتاء آخر لكل الأزمان لكل الأمكنة .

و﴿ الكتاب ﴾ [السجدة : 23] أي : التوراة ﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ ﴾ [السجدة : 23] أي : في شك ﴿ مِّن لِّقَآئِهِ . . ﴾ [السجدة : 23] لقاء موسى عليه السلام أم لقاء الكتاب ؟ إنْ كان لقاء موسى فهو تبشير بأن الله سيجمع بين سيدنا رسول الله وهو حَيٌّ بقانون الأحياء وموسى عليه السلام الميت بقانون الأموات ، وهذا لا يتأَّتى إلا إذا كان حديث الإسراء والمعراج في أنهما التقيا فيه صادقاً .

لذلك في القرآن آية ينبغي أن نقف عندها ، وأن نتأملها بيقظة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا آجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] هذا تكليف من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم أنْ يسأل الرسل ، فمتى يسألهم ؟ فهذه الآية تنبئ بأنهم لا بُدَّ أنْ يلتقوا . فهذه الآية في لقاء موسى والأخرى في لقاء كل الرسل . إذن : علينا أن نصدق بحديث الإسراء والمعراج ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع بإخوانه من الأنبياء وصلى بهم ودار بينهم حوار .

أما إذا كان المعنى ﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ . . ﴾ [السجدة : 23] أي : لقاء

الكتاب ، فالتوراة كما قلنا أصابها التحريف والتبديل ، وزِيدَ عليها وكُذِب فيها ، لكن سيأتيك يا محمد من أهل التوارة أمثال عبد الله بن سلام مَنْ يعرفون التوراة بلا تحريف ويُسرُّون إليك بها ، هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَآءَ الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : 113]

(165/613)

ألم يواجه عبد الله بن سلام قومه من اليهود ، فيقول لهم : كيف تُكذِّبون بمحمد ، وقد كنتم تستفتحون به على الذين كفروا ، فتقولون لهم : لقد أطلَّ زمان نبي يأتي فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، لقد تجمعتم من شتى البلاد التي اضطهدتكم ، وجئتم إلى يثرب تنتظرون مَقْدِم هذا النبي ، فما بالكم تكذِّبونه ؟

وقال القرآن عنهم : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . . ﴾ [البقرة : 89]

ومن لقاء الكتاب الذي وعد به النبي صلى الله عليه وسلم ما رُوي عن عبد الله بن سلام أنه لما أراد أنْ يؤمن أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْتٌ – يعني : يتبجحون بالكذب – فإذا أسلمتُ قالوا فيَّ ما ليس فيَّ . فاسألهم عني يا رسول

الله قبل أنْ أعلن إسلامي ، فلَما اجتمع اليهود سألهم رسول الله : ما تقولون في ابن سلام ؟

فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وابن حبرنا . . . فقال عبد الله : أما وقد قالوا ما قالوا

يا رسول الله فأشهد أنْ لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقالوا : شرُّنا وابن شرِّنا .

فقال عبد الله : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْتٌ ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ ﴾ [السجدة : 23] أي : جعلنا الكتاب هدى ، وهذا دليل على أن منهم مهتدين بدليل شهادة القرآن لهم : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَآءَ الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : 113]

وقوله تعالى في الآية بعدها : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً . . . ﴾ .

(166/613)

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السلطة الزمنية من باطنهم ، إنما إمامة القدوة بأمر الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . ﴾ [السجدة : 24] ، فهم لا يصدرون في شيء إلا على هدى من الله .

وفي سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 73]

الإيقان : هو الإيمان الذي لا يتزعزع ، ولا يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، يعني : أصبحت مسألة مُسلَّماً بها ، مستقرة في النفس .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

تلحظ على أسلوب الآية أنها لم تقل مثلاً : إن ربك يفصل بينهم ، إنما استخدمت الضمير المنفصل (هو) ليفيد التأكيد والاختصاص ، فالمعنى لا أحدَ يفصل بينهم في القيامة إلا الله ، كما قال سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16]

إذن : جاءت (هو) لتقطع الشك في وجود الغير .

ولك أنْ تتأمل هذا الضمير في هذه الآيات ، ومتى استعمله الأسلوب ، يقول تعالى في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي . . . ﴾ [الشعراء : 77] أي : الأصنام ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين * الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : 77-81]

فاستخدم الضمير الدالّ على الاختصاص في الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء ، وهذه الأفعال مظنة أنْ يدعيها أحد لنفسه ، أما الإحياء والإماتة فهي لله وحده لا يمكن أنْ يدَّعيها أحد ؛ لذلك جاءت بدون هذا التوكيد ، فهي مسألة مُسلَّم بها لله تعالى .

والشك يأتي في مسألة الفصل يوم القيامة ؛ لأن الله تعالى جعل الملائكة المدبرات أمراً لتدبر أمر الخلق ، وقال سبحانه ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . . . ﴾ [الرعد : 11] أي : تبعاً لأمر الله فيه ، فقد يفهم البعض أن للملائكة دوراً في الفصل بين الناس يوم القيامة ، كما أن لهم مهمة في الدنيا .

وتأمل هنا أن الله تعالى ذكر لفظ الربوبية فقال ﴿ إِنَّ رَبَّكَ . . ﴾ [السجدة : 25] ولم يقُلْ : إن الله ، والربوبية كما قُلْنا عطاء وتربية ، وكأنه سبحانه يقول : اطمئنوا فالذي سيتولَّى مسألة الفصل هو ربكم .

وقوله سبحانه : ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة : 25] لأن الفصل لا يكون إلا عن نزاع ، والنزاع لا بُدَّ أن يكون عن قضية تريد مراجعة من حكم حاكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(168/613)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى يقن)

اليَقِينُ من صِفة العِلْم فوق المعرفة والدّراية وأَخواتهما ، يقال : عِلْمُ يَقِين ، ولا يُقال : معرفةُ يَقِينٍ ؛ وقد يَقِنَ زيدٌ الأَمرَ كفَرِحَ يَقَناً ويَقْناً وأَيْقَنَهُ وأَيْقَنَ به ، وتَيَقَّنَهُ ، واسْتَيْقَنَه واسْتَيْقَنَ به : عَلِمَه وتَحَقَّقَهُ .

وهو يَقِنٌ ويَقُنٌ ويَقَنَةٌ ومِيقانٌ : إذا كان لا يَسْمع شيئاً إلاَّ أَيْقَنَه ، وهى مِيقانَةٌ .

قال المحقّقون : اليَقين من الإيمان بمنزلة الرّوح من الجسد ، وفيه تفاضَلَ العارفون وتنافَسَ المتنافِسون ، وإليه شَمَّرَ العاملون ، وعَمَلُ القومِ إنَّما كان عليه ، وإشارتهم كلُّها إليه .

وإذا تزوّج الصبرُ باليقين وُلِدَ بينهما حُصُول الأَمانةِ فى الدّين ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

وخصّ تعالى أَهلَ اليقين بانتفاعهم بالآيات ، والبراهين ، قال وهو أَصدق القائلين/ ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ ، وخصّ أَهل اليقين بالهُدَى والفَلاح من بين العالمين فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَائِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وأَخبر عن أَهل النار بأَنهم لم يكونوا من أَهل اليقين فقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ .

فاليقين رُوح أَعمال القُلوب الَّتى هى أَرْواحُ أَعمال الجَوارح ، وهو حقيقة الصِدْيقيّة ، وقُطْبُ رَحَى هذا الشأْن الَّذى عليه مَدارُه ، قال صلَّى الله عليه وسلَّم : "لا تُرْضِيَنَ أَحَداً بسخط الله ، ولا تَحْمَدَنّ أَحداً على فَضْلِ الله ، ولا تَذُمَّنَّ أَحداً على ما لم يُؤتِكَ اللهُ ، فإِنَّ رِزْقَ الله لا يَسُوقُه حِرْيصٍ ، ولا يَرُدُّه عنك كَراهِيَةُ كارِه ، فإِنَّ الله بَعْدِله وقِسْطِه جعل الرَّوْح والفَرَح فى الرّضا واليَقِين ، وجعل الهَمَّ والحُزْنَ فى الشَكّ والسّخط" .

واليَقِينُ قَرِينُ التوكّل ، ولهذا فُسِّر التوكُّل بقوّة اليقين .

والصّواب أَنَّ التوكُّل ثمرةُ اليقين ونتيجتُه ، ولهذا حَسُنَ اقْتِران الهُدَى به ، قال تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ فالحقُّ هو اليَقِين .

وقالت رسل الله : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ ، ومتى وَصَل اليقينُ إلى القلب امتلأَ نوراً وإِشراقاً ، وانتفَى عنه كلُّ رَيْب وشُكّ وسُخْط وغَمّ وهَمّ ، وامتلأَ محبّةَ الله وخَوْفاً منه ورِضاً به ، وشُكراً له ، وتوكُّلاً عليه ، وإِنابةً إِليه ، فهو مادَّةُ جميع المقامات ، والحامل له .

واخْتُلِفَ هل هو كَسْبِىٌّ أَو مَوْهِبِىٌّ .

فقيل : هو العِلْم المُسْتودَع فى القُلوب ، فيشير إلى إِنَّه غيرُ كَسْبّى .

وقال سَهْلٌ : اليقين من زِيادة الإِيمان ، ولا رَيْب أَنّ الإِيمان كسْبِىّ باعتبار أَسبابِه ، مَوْهِبىّ

باعتبار نفسه وذاته .

وقال سهل أَيضا : ابتداؤه المُكاشَفَة كما قال بعض السلف : لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازْدَدْتُ يقيناً .

وقال ابنُ خفيفٍ : هو تَحقُّقُ الأَسرار بأَحكامِ المُغَيَّبات .

وقال أَبو بَكْرِ بنِ طاهِر : العلمُ يعارضه الشُّكوك ، واليقين لا شَكَّ فيه .

وعند القوم : اليقين لا يُساكِنُ قلباً فيه سُكُونٌ إلى غير الله .

(170/613)

قال ذُو النُّون : اليقين يدعُو إلى قَصْرِ الأَمَل ، وقَصْرُ الأَملِ يدعُو إلى الزُّهْد ، والزُّهْدُ يُورِثُ الحكمةَ ، وهى تُورث النَظَر فى العَواقِب .

وثلاثةٌ من أَعْلام اليقين : قِلَّةُ مُخالطة الناس فى العِشْرَة ؛ وتَرْكُ المدحِ لهم فى العِطيَّة ؛ والتَنَزُّه عن ذَمِّهم عند المنع .

وثلاثةٌ من أَعلامه أَيضاً :

النَّظر إليه فى كل شىءٍ ؛ والرّجوع إليه فى كلّ أَمر ؛ والاستعانة به فى كلّ حال .

وقال الجُنَيْد رحمه الله : اليقينُ هو استقرارُ العِلْم الذى لا يَحُول ولا ينقلب ولا يتغيَّرُ فى

القَلْب .

وقال ابن عطاءٍ رحمه الله : على قَدْرِ قُرْبهم من التَّقْوَى أَدْرَكُوا من اليقين .

وأَصل التَّقْوَى مُبايَنَة المَنْهِيّ عنه ، فعلى مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليَقِين .

وقيل : اليَقِين هو المُكاشَفَة ، وهى على ثلاثة أَوجه : مكاشَفَةٌ بالأَخْبارِ ، ومكاشَفَةٌ بإِظهار القُدْرَة ، ومكاشَفَةُ القُلوب بحقائِق الإِيمان .

ومرادُ القَوْمِ بالمكاشَفَة ظهور الشَّيْءِ بالقلب بحيث تصيرِ نِسْبَتُه إليه كِنِسْبة المرئيّ إلى العين ، فلا يَبْقَى معه شكٌّ ولا رَيْب أَصلا ، وهذا نهايةُ الإِيمان ، وهو مَقامُ الإِحسان .

وقد يريدون بها أَمراً آخر وهو ما يَراهُ أَحدٌ فى برْزَخٍ بين النَّوْم واليَقَظة عند أَوائل تجرُّد الرُّوح عن البَدَن ومن أَشار إلى غيرِ هذَيْن فقط غَلِط ، ولُبِّس عليه .

وقال السّرىُّ : اليقين سُكُونُك عند جَوَلان الموارِد فى صَدْرك ، لِيَقِينِك أَن حَرَكَتَك فيها لا تَنْفعك ولا تردّ عنك مَقْضِيّاً .

وقال أَبو بكرٍ الورّاق : اليقين مِلاكُ القَلْب ، وبه كمالُ الإِيمان .

وباليَقِين عُرِفَ الله ، وبالعقل عُقِلَ عن الله .

وقال الجُنَيْد رحمه الله : قد مَشَى رجالٌ باليَقين على الماء ، ومات بالعَطَشِ من هو أَفضل منهم يَقِيناً .

وقد اختلف فى تفضيل اليقين على الحُضور ، والحضور على اليقين ، فقيل : الحضور أَفضل .

(171/613)

وبعضهم رَجَّحَ اليَقِين وقال هو غايَةُ الإِيمان .

والأَوّل رأَى أَنَّ اليقينَ ابتداءُ الحضور ، وكأَنه جعل اليقينَ ابتداءً والحضُورَ دواماً ، وهذا الخلاف لا يتبيّن ، فإِنَ اليقين لا ينفكَّ عن الحضور ، والحضورَ لا ينفكَّ عن اليقين ، بل فى اليقين من زيادة الإِيمان ومعرفة تفاصيله وتنزُّلها منازلها ما ليس فى الحضور ، فهو أَكمل منه من هذا

الوجه ، وفى الحضور من الجمعية وعدم التفرقة والدّخول فى الفناءِ ما قد ينفكُّ عنه اليقين ، فاليقين خُصّ بالمعرفة ، والحضور خصّ بالإِرادة .

والله أَعلم .

وقال النَّهْرجُوِيّ رحمه الله : إِذا استكمل العبُد حقائِقَ اليقين صار البلاءُ عنده نِعْمة ، والرّخاء مصيبة .

وقال أَبو بكرٍ الورّاق رحمه الله : اليقين على ثلاثة أَوْجُه : يَقِينُ خَبَر ، ويقين دَلالَة ، ويقين

مُشاهدة .

يريد بيقين الخَبَر سُكُون القلب إلى خَبَرِ المُخْبِر ووُثوقُه به ؛ ويقين الدّلالة ما هو فوْقَه ، وو أَن يُقِيم له مع وثُوقِه بصدْقِهِ الأَدلَّةَ على ما أَخبر به ، وهذا كعامة الأَخبار بالإِيمان والتوحيد فى القرآن ، فإِنَّه سبحانه مع كونه أَصدق القائلين الصّادقين يُقِيم لعبادِهِ الأَدلَّةَ والبراهين على صِدْق أَخبارِه ، فيحصل لهم اليقين من الوَجْهَيْن ، من جهة الخَبرِ ومن جهة الدّليل ، فيرتفعون من ذلك إِلى الدّرجة الثالثة وهى يقين المكاشفة بحيث المُخْبَرُ به كالمرئى لعيونهم ، فنِسْبَةَ الإِيمان بالغيب هى إِلى القلب كنسبه المرئى إِلى العين وهذا أَعلى أَنواع المُكاشَفة ، وهى الَّتى أَشار إِليها عمر بن عبد القيس فى قوله : لو كشف الغِطاءُ ما ازددت يَقينا .

وليس هذا من كلام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولا من كلام علىّ بن أَبى طالب كرّم الله وجهه كما يظنه من لا عِلْمَ له بالمنقولات .

(172/613)

وقال بعضهم : رأَيت الجنَّة والنار حقيقة ، قيل له : كيف ؟ قال : رأَيته بعَيْنَىْ رسولِ الله/ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ورؤيتى لهما بعينَيْه أَوثق عندى من روْيتى لهما بعينى ، فإِنَّ بصرى قد يُخْطِئ بخلاف نصره صلَّى الله عليه وسلَّم .

واليَقِينُ يَحمِلُ على مُباشَرَةِ الأَهوال وركوب الأَخطار ، وهو يأْمرُ بالتقدّم دائما ، فإِن لم يقارِنْه العِلْم حَمَل على المعاطِب ، والعلم يأْمرُ بالتأَخُّر دائما وبالإِحجام ، فإِنْ لم يُصِبْه اليقينُ فقد [يَصُدّ صاحبه] عن المكاسب والغنائم .

وقال الشيخ أَبو إِسماعيل الأَنصاريّ رحمه الله : اليقين مَرْكَبُ الآخِذِ فى هذا الطَّريق ، وهو غاية درجات العامّة وأَوّل خطوة للخاصة ، لمَّا كان اليقين هو الَّذى يحمل السّائر إِلى الله ، كما قال أَبو سعيد الخرّاز رحمه الله : العلمُ ما اسْتَعْمَلك ، واليَقِينُ ما حَمَلَك وسَمّاهُ مَرْكَباً يركبه السائر إِلى الله ، فإِنَّه لولا اليقين ما سار الراكب إِلى الله ، ولا ثَبَتَ لأَحدِ قَدَمٌ فى السّلوك ؛ وإِنَّما جعله آخِرَ درجات العامّة لأَنَّهم إِليه ينتهون .

ثم حكى قول من قال : إِنَّه أَوّل خطوة للخاصّة ، يعنى أَنَّه ليس بمقام له ، وإِنَّما هو مُبْتدأُ سُلوكه ، وهذا لأَنَّ الخاصّة عنده سائرون إِلى الجَمْع والفَناءِ فى شهُود الحقيقة ، لا يَقِف لهم دُونَها هِمَّة ، فكلُّ ما دُونَها فهو عندهم مِنْ مُشاهَدَة العامّة ومَنازلهم ومَقاماتهم حتَّى المَحَبّة ، وحَسْبُك بجَعْل اليَقِين نهايةً للعامة وبداية لهم .

قال : وهو على ثلاث درجات :

علمُ اليَقِين : وهو ما ظَهَرَ من الحَقّ ، وقَبُول ما غابَ للحَقّ ، والوُقُوف على ما قام بالحَقّ ، فذكر رحمه الله ثلاثة أَشياء هى مُتَعَلَّق اليقين وأَركانه

الأَوّل : هو ما ظهر من الحقّ تعالى ، والّذى ظهر منه سبحانه أَوامرُه ونَواهِيه وشَرْعُه ودِينُه الّذى ظهر لنا منه على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، فيتلقّاه بالقَبول والانْقياد والإِذعان والتّسْليم للرّبوبيّة ، والدّخول تحت رقّ العبوديّة .

الثانى : قَبُولُ ما غابَ للحقِّ وهو الإِيمانُ بالغيب الّذى أَخبر به الحقُّ سبحانه على لسان رُسُلِه من أُمورِ المَعاد وتَفاصيله ، والجنّة والنّار ، وما قبل ذلك من الصّراط والميزن والحساب ، وما قبل ذلك من تَشَقُّق السّماءِ وانفطارها وانتثار الكواكب ونَسْف الجبال وطَيِّ العالم ، وما قبل ذلك من أُمور البَرْزَخ ونَعِيمه وعَذابه ، فقبولُ هذا كلّه تصديقاً وإِيماناً هو اليقين بحيث لا يُخالج القَلْبَ

فيه شُبَهْةٌ ولا شكٌّ ولا رَيْب ، ولا تَناس ولا غَفْلَة عنه ، فإِنّه إِن لم يستملك يَقِينَع أَفْسَدَه وأَضْعَفَه ، الثالث : الوقوف على ما قام بالحقِّ سبحانه من أَسمائه وصفاته وأَفعاله ، وهو عِلْمُ التّوحيد الّذى أَساسهُ إِثبات الأَسماءِ والصّفات ، وضدّه التّعْطِيل والنّفْرُ والتّجْهِيم . فهذا التّوحيد يقابله التّعطيل .

وأَما التوحيد القصدى الإِرادى الّذى هو إِخلاص العمل لله وعبادته وحده فيقابله الشّرك ، والتعطيل شرّ من الشرك ، فإِنّ المعطل جاحِدٌ للذّات أَو لكمالها ، وهو جحد لحقيقة الإِلهية ، فإِنّ ذاتاً لا تسمعُ ولا تُبْصِر ولا تَتَكَلّم ولا ترضَى ولا تَغْضَب ولا تَفْعَل شيئاً ،

وليست داخلَ العالَمِ ولا خارجه ولا متَّصِلَة بالعالَمِ ولا مُنْفَصِلَة ولا مُجانِبَة ولا مُباينة ولا فَوْقَ العَرْشِ ولا تَحْتَه ولا خَلْفَه ولا أَمامَه ولا عن يَمينِهِ ولا عن شِمالِه ، سواءٌ والعَدَم .

والمشرك مقرّ بالله وصفاته/ ولكن عنده معه غيره ، فمُعَطِّل الذات والصّفات شَرٌّ منه .

(174/613)

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحَقِّ سبحانه من أَسمائه وصفاته ونُعُوتِ كَمالِه وتوحيده وهذه الثلاثة هى أَشرفُ عُلُوم الخلائِق ، عِلْمُ الأَمْرِ والنَّهْيِ ، وعِلْمُ الأَسماءِ والصّفات والتَّوْحِيد ، وعِلْمُ المعَاد واليَوْم الآخر .

قال : الثانية : عين اليَقين وهو المَعْنِىّ بالاسْتِدْراك عن الاسْتِدْلال ، وعن الخَبَرِ بالعَيان ، وخَرْق الشُّهود حجابَ العِلْم .

والفَرْقُ بين عِلْم اليَقِين وعَيْن اليقين كالفَرْقِ بين الخَبَر الصادِق والعَيان ، وحَقُّ اليَقين فَوْقَ هذا .

وقد مُثِّلَت المراتب الثلاثة بمن أَخبرك [أَنَّ] عنده عَسَلاً وأَنت لا تَشُكّ فى صِدْقه ، ثمَّ أَراك إِيّاه فازددت يقينا ، ثم ذُقْت منه ، فالأَوّل عِلْمُ يَقين ، والثانى عَيْنُ يَقين ؛ والثالث حَقُّ يَقين .

فعِلْمُنا الآن بالجنّة والنّار عِلْمُ يَقينٍ ، فإِذا

أُزْلِفَتِ الجنّة فى المَوْقف وشاهَدَها الخلائِقُ ، وبُرِّزت الجَحيم وعاينها الخلائِق ، فذلك عَيْنُ اليَقين ، فإذا دخل أَهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأَهلُ النّار النّارَ فذلك هو حَق اليقين .

وقوله المَعْنَىُّ بالاسْتدراك عن الاسْتدلال ، يُريد بالاسْتدراك الإدْراكَ والشُّهودَ ، يعنى أَنَّ صاحبَه قد استغنَى به عن طَلَب الدّليل ، فإنّه إنّما يَطْلُب الدّليلَ ليحصلَ له العلمُ بالمَدْلُول فإذا كان المدلولُ مُشاهَداً له وقد أدركه بكَشْفه ، فأَىّ حاجة به إلى الاستدرال ؟ وهذا معنى الاستغناء عن الخَبَر بالعَيان .

وأَمّا قوله وخَرْق الشهود حجابَ العلم ، فيريد به أَنَّ المعارف التى تحصُل لصاحب هذه الدرجة هى من الشُّهود الخارق لحجاب العلْم ، فإنَّ العلْم حجابٌ على المَشْهُود ، ففى هذه الدّرجة يرتفع الحجابُ ويُفْضى إلى المعلوم بحيث يُكافحُ قَلْبَه وبَصيرَتَه .

(175/613)

ثمّ قال : والدّرجة الثالثة حَقُّ اليَقين ، وهو إسْفارُ صُبْح الكَشْف ، ثم الخلاصُ من كُلْفَة اليَقين ، ثم الفناءُ فى حَقّ اليقين .

انتهى كلامه .

والحق إنَّ هذه الدّرجة لا ينالها فى هذا العالم إلاَّ الرّسلُ صلوات الله وسلامه عليهم ، فإنَّ

نبيّنا صلَّى الله منه إليه بلا واسطة وكَلَّمة تكليماً ، وتَجَلَّى للجبل وموسى ينظر فجَعَلَه دكّاً هشيماً ، فحصل لهما حقُّ اليقين ، وهو ذَوْقُ ما أَخبر به الرّسولُ من حقائق الإيمان المتعلّقة بالقلوب ، وأَنَّ القلبَ إذا باشرها وذاقَها صارت فى حقّه حَقَّ يقين .

وأَمّا فى أُمُور الآخرةَ والمعاد ، ورُؤية الله جَهْرَةً عياناً ، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة ، فحظُّ المُؤمن منه فى هذه الدّار الإيمانُ به .

وعلْمُ اليَقين وحَقُّ اليقين يتأَخَّر إلى وقت اللّقاءِ ، لكنَّ السّالك عند القوم ينتهى إلى الفناءِ ويتحقَّق شهود الحقيقة ، ويصل إلى عين الجمع .

قال : حقّ اليقين هو إسفار صبح الكَشْف ، يعنى تحقُّقه وثُبُوته

وغَلَبَة نوره على ظُلْمَة ليل الحجاب ، فينتقل من طَوْر العلم إلى الاسْتِغْراق فى الفَناء عن الرّسْم بالكُلِّيَّة .

وقولُه ثُمّ الخلاصُ من كلفة اليقين ، يعنى أَنَّ اليقين له حقوق يجب على صاحبه أَن يؤدّيَها ويقومَ به ويَتَحَمَّل كُلَفَها ومَشاقَّها ، فإذا فَنِىَ فى التَّوْحيد حَصَل له أُمورٌ أُخرَى رفيعةٌ عالية جدّاً يصير فيها محمولاً بعد أَن كان حاملاً ، وظاهراً بعد أَن كان ساتراً ، فتزول عنه كلفةُ حَمْل تلك الحقوق .

وهذا أَمْرٌ التَحاكُمُ فيه إلى الذَّوْق والإحساس ، فلا تَذْهَب إلى إنكاره ، وتأَمَّلْ حالَ ذلك الصّحابيّ الَّذى أَخذ تَمَراتٍ وقعد يَأْكُلها على حاجَةٍ وفاقَةٍ إليها ، فلمَّا عايَنَ سُوقَ الشهادة قد قامت أَلْقَى قُوتَه منْ يَده وقال : إنها لحياةٌ طويلة إنْ بَقيتُ حَتَّى آكُل هذه التَّمرات وأَلْقَاها من يده ، وقاتَلَ حتى قُتلَ ، وكذلك أَحوال الصَّحابة رضى الله عنهم كانت مطابقةً لما أَشار إليه .

لكن بَقيَتْ نُكتةٌ عظيمة ، وهى مَوْضعُ السجدة ، وهى أَنَّ فَناءَهم لم يكن فى توحيد الرُّبوبيَّة وشهود الحقيقة التى يشير إليها أَرباب الفناءِ ، بل فى توحيد الإلهيّة ، فعَنوا بحُبّه تعالى عن حُبّ ما سواه ، وبُمراده منهم عن مرادهم . . وحظوظهم ، فلم يكونوا عاملين على فناءٍ ولا استغراق فى الشُّهود ، بحيث فَنُوا به عن مُراد محبوبهم ، بل فَنُوا بمُراده عن مُرادهم ، فهم أهل فَناء فى بَقاءٍ ، وفَرْق فى جَمْع ، وكَثْرَة فى وَحْدَة ، وحقيقةٍ كَوْنيَّة فى حقيقة دينيَّة .

*هم القَوْمُ لا قَوْمَ إلاَّ هُمُ * ولولاهُمُ ما اهْتَدَينا السَّبيلا*

فنسبة أَحوالهم إلى أَحوال غيرهم كنسبة ما يَرشَحُه الظَّرْفُ والقرْبة إلى ما فى داخلها ، والله أَعلم .

قال بعض العارفين :

*اليقين الصّريح رُؤيتُك الشّيء * للفؤاد فيه هُيامُ*

*لم يُغيّرْك فيه ذمٌّ ولا يطعَنْ * كَ مَدْحٌ ولا عَلَيْه كَلامُ* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 395 . 405 ﴾

(177/613)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) ﴾

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا .

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ ﴾ :

وهذا محمد صلى الله عليه وسلم جُعِلَ رحمةً للعالمين .

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24)

لّما صبروا على طلبنا سَعِدوا بوجودنا ، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى مُتبعيهم وانبسط شعاعُ شموسهم على جميع أهلِهم ؛ فهم للخلْق هُداةٌ ، وفي الدين عيون ، وللمسترشدين

نجوم .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

يحكم بينهم ، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول ، والمهجور من الموصول ، والرضيّ من الغوّي ، والعدو من الوليّ . . فكم من بهجةٍ دامت هنالك ! وكم من مهجةٍ ذابت عند ذلك ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 146 . 147 ﴾

(178/613)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع عشر بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/614)

الجزء الرابع عشر بعد الستمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من سورة السجدة

وحتى الآية ﴿ 30 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/614)

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ

مُنْتَظِرُونَ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد تقدم عن الكفار في هذه السورة قولان : أحدهما في التكذيب بالقرآن ، والثاني في إنكار البعث ، ودل سبحانه على فسادهما إلى أن ختم بذكر الآيات والبعث والفصل بين المحق والمبطل ، أتبعه استفهامين إنكاريين منشورين على القولين وختمت آية كل منهما بآخر ، فتصير الاستفهامات أربعة ، وفي مدخول الأول الفصل بين الفريقين في الدنيا ، فقال مهدداً : ﴿ أو لم ﴾ أي أيقولون عناداً لرسولنا : أفتراه ولم ﴿ يهد ﴾ أي يبين – كما رواه البخاري عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿ لهم كم أهلكنا ﴾ أي كثرة من أهلكناه .

ولما كان قرب شيء في الزمان أو المكان أدل ، بين قربهم بإدخال الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي لأجل معاندة الرسل ﴿ من القرون ﴾ الماضين من المعرضين عن الآيات ، ونجينا من آمن بها ، وربما كان قرب المكان منزلاً قرب الزمان لكثرة التذكير بالآثار ، والتردد خلال الديار .

ولما كان انهماكهم في الدنيا الزائلة قد شغلهم عن التفكر فيما ينفعهم عن المواعظ بالأفعال والأقوال ، أشار إلى ذلك بتصوير اطلاعهم على ما لهم من الأحوال ، بقوله : ﴿ يمشون ﴾

أي أنهم ليسوا بأهل للتفكر إلا حال المشي ﴿ في مساكنهم ﴾ لشدة ارتباطهم مع المحسوسات ، وذلك كمساكن عاد وثمود وقوم لوط ونحوهم .

(5/614)

ولما كان في هذا أتم عبرة وأعظم عظة ، قال منبهاً عليه مؤكداً تنبيهاً على أن من لم يعتبر منكر لما فيه من العبر : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات ظاهرات جداً ، مرئيات في الديار وغيرها من الآثار ، ومسموعات في الأخبار .

ولما كان السماع هو الركن الأعظم ، وكان إهلاك القرون إنما وصل إليهم بالسماع ، قال منكراً : ﴿ أفلا يسمعون ﴾ أي إن أحوالهم لا يحتاج من ذكرت له في الرجوع عن الغيّ إلى غير سماعها ، فإن لم يرجع فهو ممن لا سمع له ﴿ أو لم ﴾ أي أيقولون في إنكار البعث : إذا ضللنا في الأرض ، ولم ﴿ يروا أنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ نسوق الماء ﴾ من السماء أو الأرض ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ أي التي جرز نباتها أي قطع باليبس والتهشم ، أي بأيدي الناس فصارت ملساء لا نبت فيها ، وفي البخاري عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إنها التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً ، قالوا : ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ : جزر ، ويدل عليه قوله : ﴿ فنخرج به ﴾ من أعماق الأرض ﴿ زرعاً ﴾ أي نبتاً لا ساق له

باختلاط الماء بالتراب الذي كان زرعاً قبل هذا ، وأشار إلى أنه حقيقة ، لا مرية فيه ، وليس هو بتخييل كما تفعل السحرة ، بقوله مذكراً بنعمة الإبقاء بعد الإيجاد : ﴿ تأكل منه ﴾ أي من حبه وورقه وتبنه وحشيشه ﴿ أنعامهم ﴾ وقدمها لموقع الامتنان بها لأن بها قوامهم في معايشهم وأبدانهم ، ولأن السياق لمطلق إخراج الرزع ، وأول صلاحه إنما هو لأكل الأنعام بخلاف ما في سورة عبس ، فإن السياق لطعام الإنسان الذي هو نهاية الزرع حيث قال :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ [عبس : 24] ثم قال ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ [عبس : 27] وذكر من طعامه من العنب وغيره ما لا يصلح للأنعام ﴿ وأنفسهم ﴾ أي من حبه ، وأصله إذا كان بقلاً .

(6/614)

ولما كانت هذه الآية مبصرة ، وكانت في وضوحها في الدلالة على البعث لا يحتاج الجاهل به في الإقرار سوى رؤيتها قل : ﴿ أفلا يبصرون ﴾ إشارة إلى أن من رآها وتبه على ما فيها من الدلالة وأصر على الإنكار لا بصر له ولا بصيرة .

ولما كانت هذه الآية أدل دليل - كما مضى - على البعث ، وكان يوماً يظهر فيه عز الأولياء

وذل الأعداء ، أتبعها قوله تعجيباً منهم عطفاً على " يقولون أفتراه " ونحوها :

﴿ ويقولون ﴾ أي مع هذا البيان الذي لا لبس معه استهزاء : ﴿ متى هذا الفتح ﴾ أي النصر والقضاء والفصل الذي يفتح المنغلق يوم الحشر ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ صادقين ﴾ أي عريقين في الصدق بالإخبار بأنه لا بد من كونه لنؤمن إذا رأيناه .

ولما أسفر حالهم بهذا السؤال الذي محصله الاستعجال على وجه الاستهزاء عن أنهم لا يزدادون مع البيان إلا عناداً ، أمرهم بجواب فيه أبلغ تهديد ، فقال فاعلاً فعل القادر في الإعراض عن إجابتهم عن تعيين اليوم إلى ذكر حاله : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء اللد الجهلة : ﴿ يوم الفتح ﴾ أي الذي يستهزئون به ، وهو يوم القيامة – تبادرون إلى الإيمان بعد الانسلاخ مما أنتم فيه من الشماخة والكبر ، فلا ينفعكم بعد العيان وهو معنى ﴿ لا ﴾ ينفعكم – هكذا كان الأصل ، ولكنه أظهر الوصف تعميماً وتعليقاً للحكم به فقال : ﴿ ينفع الذين كفروا ﴾ أي غطوا آيات ربهم التي لا خفاء بها سواء في ذلك أنتم وغيركم ممن اتصف بهذا الوصف ﴿ إيمانهم ﴾ لأنه ليس إيماناً بالغيب ، ولكنه ساقه هكذا سوق ما هو معلوم ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي يمهلون في إيقاع العذاب بهم لحظة ما من منظر ما .

(7/614)

ولما كانت نتيجة سماعهم لهذه الأدلة استهزاءهم حتى بسؤالهم عن يوم الفتح ، وأجابهم سبحانه عن تعيينه بذكر حاله ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لشدة حرصه على نفعهم ربما أحب إعلامهم بما طلبوا وإن كان يعلم أن ذلك منهم استهزاء رجاء أن ينفعهم نفعاً ما ، سبب سبحانه عن إعراضه عن إجابتهم ، أمره لهذا الداعي الرفيق والهادي الشفيق بالإعراض عنهم أيضاً ، فقال مسلياً له مهدداً لهم : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي غير مبال بهم وإن اشتد أذاهم ﴿ وانتظر ﴾ أي ما نفعل بهم مما فيه إظهار أمرك وإعلاء دينك ، ولما كان الحال مقتضياً لتردد السامع في حالهم هل هو الانتظار ، أجيب على سبيل التأكيد بقوله : ﴿ إنهم منتظرون ﴾ أي ما يفعل بك وما يكون من عاقبة أمرك فيما تتوعدهم به وفي غيره ، وقد انطبق آخرها على أولها بالإنذار بهذا الكتاب ، وأعلم بجلالته وجزالته وشدته وشجاعته أنه ليس فيه نوع ارتياب ، وأيضاً فأولها في التذكيب بتنزيله ، وآخرها في الاستهزاء بتأويله ، ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل ﴾ [الأعراف : 53] - الآية ، وأيضاً فالأول في التكذيب بإنزال الروح المعنوي ، والآخر في التكذيب بإعادة الروح العيني الحسي الذي ابتدأه أول مرة والله الهادي إلى الصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 63 . 66 ﴾

فصل

قال الفخر :

ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد ، فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ زيادة إبانة ، أي مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَأَيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ اعتبر فيه السمع ، لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم ، فقال أفلا يسمعون ، يعني ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الماء إِلَى الأرض الجرز ﴾

لما بين الإهلاك وهو الإماتة بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله ، والجرز الأرض اليابسة التي لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات .

ثم قال تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أنعامهم وَأَنفُسُهُمْ ﴾ قدم الأنعام على الأنفس في الأكل لوجوه أحدها : أن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان والثاني : وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه .

وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان ، فكأن الحيوان يأكل الزرع ، ثم الإنسان يأكل من

الحيوان الثالث : إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة .

(9/614)

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين ، فإنها كانت مسموعة ، ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ إلى آخر السورة ، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة في أولها بقوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ [السجدة : 3] وفي آخرها بقوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ [السجدة : 23] وذكر التوحيد بقوله : ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [السجدة : 4] وقوله : ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْء خَلَقَهُ وَبَدأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : 7] وفي آخر السورة ذكره بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ [السجدة : 26] وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ﴾ وذكر الحشر في أولها بقوله : ﴿ وَقَالُواْ أَءذَا ضَلَلْنَا فِى الأرض ﴾ [السجدة : 10] وفي آخرها بقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إِيمانهم وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

أي لا يقبل إيمانهم في تلك الحالة ، لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا ، ولا ينظرون ، أي لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم ، ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم .

قال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تناظرهم بعد ذلك وإنما الطريق بعد هذا القتال .

(10/614)

وقوله : ﴿ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : وانتظر هلاكهم فإنهم ينتظرون هلاكك ، وعلى هذا فرق بين الانتظارين ، لأن انتظار النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان وثانيها : وانتظر النصر من الله فإنهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين وثالثها : وانتظر عذابهم بنفسك فإنهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء ، كما قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [الأعراف : 70] وقالوا ﴿ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [النمل : 71] إلى غير ذلك ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين ،

وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 163.162 ﴾

(11/614)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ نَسُوقُ الْمَآءَ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : بالمطر والثلج .

الثاني : بالأنهار والعيون .

﴿ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ ﴾ فيها خمسة أقاويل

: أحدها : أنها الأرض اليابسة ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنها الأرض التي أكلت ما فيها من زرع وشجر ، قاله ابن شجرة .

الثالث : أنها الأرض التي لا يأتيها الماء إلا من السيول ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنها أرض أَيْنَ لا تنبت ، قاله مجاهد .

الخامس : أنها قرى نبيا بين اليمن والشام ، قاله الحسن . وأصل الجرز الانقطاع مأخوذ من

قولهم سيف جراز أي قطاع وناقة جراز أي كانت تأكل كل شيء لأنها لا تبقي شيئاً إلا قطعته بفيها . ورجل جروز أكول قال الراجز :

حبُّ جروز وإذا جاع بكى . . . يأكل التمر ولا يلقى النوى

وتأول ابن عطاء هذه الآية على أنه توصل بركات المواعظ إلى القلوب القاسية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنه فتح مكة ، قاله الفراء .

الثاني : أن الفتح انقضى بعذابهم في الدنيا ، قاله السدي .

الثالث : الحكم بالثواب والعقاب في القيامة ، قاله مجاهد . قال الحسن لم يبعث الله نبياً إلا وهو يحذر من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِيمَانُهُمْ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنهم الذي قتلهم خالد بن الوليد يوم فتح مكة من بني كنانة ، قاله الفراء .

الثاني : أن يوم الفتح يوم القيامة ، قاله مجاهد .

الثالث : أن اليوم الذي يأتيهم من العذاب ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يؤخرون بالعذاب إذا جاء الوقت

. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنهُمْ ﴾ الآية . قال قتادة : نزلت قبل أن يؤمر بقتالهم ، ويحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : أعرض عن أذاهم وانتظر عقابهم .

الثاني : أعرض عن قتالهم وانتظر أن يؤذن لك في جهادهم .

الثالث : فأعرض بالهجرة وانتظر ما يمدك به من النصرة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(12/614)

وقال ابن عطية :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾

﴿ يهد ﴾ معناه يبين قاله ابن عباس ، وقرأ جمهور الناس " يهد " بالياء فالفاعل الله تعالى في قول فرقة والرسول في قول فرقة ، كأنه قال " أو لم يبين لهم الهدى " ، وجوز الكوفيون أن يكون الفاعل ﴿ كم ﴾ ، ولا يجوز ذلك عند البصريين لأنها في الخبر على حكمها في الاستفهام في أنها لا يعمل فيها ما قبلها ، وقرأ أبو عبد الرحمن " نهد " بالنون وهي قراءة الحسن وقتادة ، فالفاعل الله تعالى ، و ﴿ كم ﴾ في موضع نصب ، فعند الكوفيين ب " نهد

" وعند البصريين ب ﴿ أهلكنا ﴾ ، على القراءتين جميعاً ، وقرأ جمهور الناس "يَمشون" بفتح الياء وتخفيف الشين ، وقرأ ابن السميفع اليماني "يُمَشّون" بضم الياء وفتح الميم وشد الشين ، وقرأ عيسى بن عمر "يُمْشُون" بضم الياء وسكون الميم وشين مضمومة مخففة ، والضمير في ﴿ يمشون ﴾ يحتمل أن يكون للمخاطبين بالتنبيه المحتج عليهم ، ويحتمل أن يكون للمهلكين ف ﴿ يمشون ﴾ في موضع الحال ، أي أهلكوا وهم ماشون في مساكنهم ، والضمير في ﴿ يسمعون ﴾ للمنبهين ، ومعنى هذه الآية إقامة الحجة على الكفرة بالأمم السالفة الذين كفروا فأهلكوا ، ثم أقام عز وجل الحجة عليهم في معنى الإيمان بالقدرة وبالبعث بأن نبههم على إحياء الأرض الموات بالماء والنبات ، و" السوق " هو بالسحاب ، وإن كان سوق بنهر فأصله من السحاب و ﴿ الجرز ﴾ الأرض العاطشة التي قد أكلت نباتها من العطش والغيظ ، ومنه قيل للأكول جروز . قال الشاعر :

(13/614)

خب جروز وإذا جاع بكى . . . ومن عبر عنها بأنها الأرض التي لا تنبت فإنها عبارة غير مخلصة ، وعم تعالى كل أرض هي بهذه الصفة لأن الآية فيها والعبرة بينة ، وقال ابن عباس أيضاً وغيره ﴿ الأرض الجرز ﴾ أرض أبين من اليمن ، وهي أرض تشرب بسيول لا بمطر ،

وجمهور الناس على ضم الراء ، وقال الزجاج وتقرأ " الجرْز " بسكون الراء ، ثم خص تعالى " الزرع " بالذكر تشريفاً ولأنه عظم ما يقصد من النبات ، وإلا فعرف أكل الأنعام إنما هو من غير الزرع ، لكنه أوقع الزرع موقع النبات على العموم ، ثم فصل ذلك بأكل الأنعام وبني آدم ، وقرأ أبو بكر بن عياش وأبو حيوة " يأكل " بالياء من تحت ، وقرأ ابن مسعود " يبصرون " ، وقرأ جمهور الناس " تبصرون " بالتاء من فوق ، ثم حكي عن الكفرة أنهم يستفتحون ويستعجلون فصل القضاء بينهم وبين الرسول على معنى الهزء والتكذيب ، و﴿ الفتح ﴾ الحكم هذا قول جماعة من المفسرين ، وهذا أقوى الأقوال ، وقالت فرقة الإشارة إلى فتح مكة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف يرده الإخبار بأن الكفرة لا ينفعهم الإيمان ، فلم يبق إلا أن يكون ﴿ الفتح ﴾ إلا إما حكم الآخرة ، وهذا قول مجاهد ، وإما فصل في الدنيا كبدر ونحوها . وقوله تعالى : ﴿ قل يوم الفتح ﴾ إشارة إلى ﴿ الفتح ﴾ الأول حسب محتملاته ، فالألف واللام في ﴿ الفتح ﴾ الثاني للعهد ، و﴿ يوم ﴾ ظرف ، والعامل فيه ﴿ ينفع ﴾ ، و﴿ ينظرون ﴾ معناه يؤخرون ، ثم أمره تعالى بالإعراض عن الكفار وانتظار الفرج ، وهذا مما نسخته آية السيف . وقوله تعالى : ﴿ إنهم منتظرون ﴾ أي العذاب ، بمعنى هذا حكمهم وإن كانوا لا يشعرون ، وقرأ محمد بن السميفع " منتظَرون " بفتح الظاء أي للعذاب النازل بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمِيّ وقتادة وأبو زيد عن يعقوب "نَهْدِ لَهُمْ" بالنون ؛ فهذه قراءة بيّنة .

النحاس : وبالياء فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل ، فأين الفاعل ل"يهد" ؟ فتكلم النحويون في هذا ؛ فقال الفراء : "كَمْ" في موضع رفع ب"يَهْدِ" .

وهذا نقض لأصول النحويّين في قولهم : إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا في "كَمْ" بوجهٍ ؛ أعني ما قبلها .

ومذهب أبي العباس أن "يَهْدِ" يدلّ على الهُدَى ؛ والمعنى أولم يَهْد لهم الهدى .

وقيل : المعنى أولم يهد الله لهم ؛ فيكون معنى الياء والنون واحداً ؛ أي أولم نُبَيّن لهم إهلاكنا القرون الكافرة من قبلهم .

وقال الزجاج : "كَمْ" في موضع نصب ب"أَهْلَكْنَا" .

﴿ لِرَجُلٍ ﴾ يحتمل الضمير في "يَمْشُونَ" أن يعود على الماشين في مساكن المهلكين ؛ أي

وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون .

ويحتمل أن يعود على المهلَكين فيكون حالاً ؛ والمعنى : أهلكناهم ماشين في مساكنهم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾

أي أولم يعلموا كمال قدرتنا بسَوْقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لنحييها .

الزّمَخْشَرِيّ : الجرز الأرض التي جُرِز نباتها ، أي قُطع ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعِيَ وأزيل .

ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ قال ابن عباس : هي أرض باليمن .

وقال مجاهد : هي أَبْيَن .

وقال عكرمة : هي الأرض الظمآى .

وقال الضحاك : هي الأرض الميتة العَطْشَى .

وقال الفراء : هي الأرض التي لا نبات فيها .

وقال الأصمعِيّ : هي الأرض التي لا تنبت شيئاً .

وقال محمد بن يزيد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام ؛ إلا أنه يجوز على قول من قال : العباس والضحاك .

والإسناد عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعن فيه .

وهذا إنما هو نعت والنعت للمعرفة يكون بالألف واللام ؛ وهو مشتق من قولهم : رجل جَروز إذا كان لا يبقي شيئاً إلا أكله .

قال الراجز :

خِبّ جَروز وإذا جاع بكى . . .

ويأكل التمر ولا يُلقي النَّوَى

وكذلك ناقةٌ جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده .

وسيف جُراز : أي قاطع ماضٍ .

وَجَرَزتِ الجراد الزرع : إذا استأصلته بالأكل .

وحكى الفرّاء وغيره أنه يقال : أرض جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز .

وكذلك بخل ورغب ورهب ؛ في الأربعة أربع لغات .

وقد روي أن هذه الأرض لا أنهار فيها ، وهي بعيدة من البحر ، وإنما يأتيها في كل عام وِدَان فيزرعون ثلاث مرات في كل عام .

وعن مجاهد أيضاً : أنها أرض النيل .

﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بالماء .

﴿ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ ﴾ من الكلأ والحشيش .

﴿ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ من الحبّ والخضر والفواكه .

﴿ يُبْصِرُونَ ﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم .

و"فَنُخْرِجُ" يكون معطوفاً على "نَسُوقُ" أو منقطعاً مما قبله .

"تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامهم" في موضع نصب على النعت .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

"مَتَى" في موضع رفع ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الظرف .

قال قتادة : الفتح القضاء .

وقال الفراء والقُتَبِيّ : يعني فتح مكة .

وأَوْلى مِن هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعني يوم القيامة .

ويروى أن المؤمنين قالوا : سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء .

فقال الكفار على التّهزيء : متى يوم الفتح ، أي هذا الحكم .

ويقال للحاكم : فاتح وفتاح ؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل .

وفي القرآن : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [الأعراف : 89] وقد مضى هذا في "البقرة" وغيرها .

﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح ﴾ على الظرف .

وأجاز الفراء الرفع .

(16/614)

﴿ لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يؤخرون ويمهلون للتوبة ؛ إن كان يوم الفتح يومَ بدر أو فتح مكة .

ففي بدر قُتلوا ، ويوم الفتح هربوا فلحقهم خالد بن الوليد فقتلهم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

قيل : معناه فأعرض عن سفههم ولا تجبهم إلا بما أمرت به .

﴿ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي انتظر يوم الفتح ، يوم يحكم الله لك عليهم .

ابن عباس : "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ" أي عن مشركي قريش مكة ، وأن هذا منسوخ بالسيف في "براءة" في قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] .

"وَانْتَظِرْ" أي موعدي لك .

قيل : يعني يوم بدر .

﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي ينتظرون بكم حوادث الزمان .

وقيل : الآية غير منسوخة ؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها .

وقيل : أعرض عنهم بعد ما بَلغت الحجة ، وانتظر إنهم منتظرون .

إن قيل : كيف ينتظرون القيامة وهم لا يؤمنون ؟ ففي هذا جوابان : أحدهما : أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من أسباب القيامة ؛ فيكون هذا مجازاً .

والآخر : أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة ؛ فيكون هذا جواباً لهذين الصنفين .

والله أعلم .

وقرأ ابن السَّمَيْقَع : "إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ" بفتح الظاء .

ورويت عن مجاهد وابن مُحَيْصِن .

قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازه : إنهم منتظرون بهم .

قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ؛ أي انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .

وقد قيل : إنّ قراءة ابن السَّمَيْقَع (بفتح الظاء) معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن يُنْتظر هلاكهم ؛ يعني أنهم هالكون لا محالة ، وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه ؛ ذكره الزمخشريّ .

وهو معنى قول الفرّاء . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 14 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾

لما قرر الأصول الثلاثة : الرسالة ، وبدء الخلق ، والمعاد ، عاد إلى الأصل الذي بدأ به ، وهو الرسالة التي ليست بدعاً في الرسالة ، إذ قد سبق قبلك رسل .

وذكر موسى عليه السلام ، لقرب زمانه ، وإلزاماً لمن كان على دينه ؛ ولم يذكر عيسى ، لأن معظم شريعته مستفاد من التوراة ، ولأن أتباع موسى لا يوافقون على نبوته ، وأتباع عيسى متفقون على نبوة موسى .

و ﴿ الكتاب ﴾ : التوراة .

وقرأ الحسن : في مرية ، بضم الميم ، والظاهر أن الضمير عائد على موسى ، مضافاً إليه على طريق المفعول ، والفاعل محذوف ضمير الرسول ، أي من لقائك موسى ، أي في ليلة الإسراء ، أي شاهدته حقيقة ، وهو النبي الذي أوتي التوراة ، وقد وصفه الرسول فقال : " آدم طوال جعد ، كأنه من رجال شنوءة حين رآه ليلة الإسراء " ، قاله أبو العالية وقتادة وجماعة من السلف .

وقال المبرد : حين امتحن الزجاج بهذه المسألة .

وقيل : عائد على الكتاب ، فإما مضاف إليه على طريق الفاعل والمفعول محذوف ، أي من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه ، وإما بالعكس ، أي من لقاء موسى الكتاب وتلقيه .

وقيل : يعود على الكتاب على تقدير مضمر ، أي من لقاء مثله ، أي : إنا آتيناك مثل ما آتينا موسى ، ولقناك بمثل ما لقن من الوحي ، فلا تك في شك من أنك لقنت مثله ولقيت نظيره ، ونحوه من لقائه قوله : ﴿ وإنك لتُلَقّى القرآن ﴾ .

وقال الحسن : يعود على ما تضمنه القول من الشدة والمحنة التي لقي موسى ، وذلك إن إخباره بأنه آتى موسى الكتاب كأنه قال : ولقد آتينا موسى هذا العبء الذي أنت بسبيله ، فلا تمتر أنك تلقى ما لقي هو من المحنة بالناس .

انتهى ، وهذا قول بعيد .

وأبعد من هذا ، من جعله عائداً على ملك الموت الذي تقدم ذكره ، والجملة اعتراضية .

(18/614)

وقيل : عائد على الرجوع إلى الآخرة ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

﴿ فلا تكن في مرية لقائه ﴾ : أي من لقاء البعث ، وهذه أنقال كان ينبغي أن ينزه كتابنا عن نقلها ، ولكن نقلها المفسرون ، فاتبعناهم .

والضمير في ﴿ وجعلناه ﴾ لموسى ، وهو قول قتادة .

وقيل : للكتاب ، جعله هادياً من الضلالة ؛ وخص بني إسرائيل بالذكر ، لأنه لم يتعبد بما فيها ولد إسماعيل .

﴿ وجعلنا منهم ﴾ : أي من بني إسرائيل ، ﴿ أئمة ﴾ : قادة يقتدى بهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ لما صبروا ﴾ ، بفتح اللام وشد الميم .

وعبد الله وطلحة ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، ورويس : بكسر اللام وتخفيف الميم .

﴿ وكانوا ﴾ : يحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿ صبروا ﴾ ، فيكون داخلاً في التعليق .

ويحتمل أن يكون عطفاً على ﴿ وجعلنا منهم ﴾ .

وقرأ عبد الله أيضاً : بما صبروا ، بباء الجر ، والضمير في منهم ظاهره يعود على بني إسرائيل .

والفصل : يوم القيامة يعم الخلق كلهم .

﴿ أولم يهد لهم ﴾ : تقدم الكلام على نحو هذه الآية إعراباً وقراءة وتفسيراً في طه ، إلا أن هنا : ﴿ من قبلِهم ﴾ و ﴿ يسمعون ﴾ ، وهناك : ﴿ قبلَهم ﴾ ، و ﴿ لأولي النهى ﴾

ويسمعون ، والنهي من الفواصل .

﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء ﴾ : أقام تعالى الحجة على الكفرة بالأمم السالفة الذين كفروا فأهلكوا ، ثم أقامها عليهم بإظهار قدرته وتنبيههم على البعث ، وتقدّم تفسير ﴿ الجزر ﴾ في الكهف ، وكل أرض جزر داخلة في هذا ، فلا تخصيص لها بمكان معين .

وقال ابن عباس : هي أرض أبين من اليمن ، وهي أرض تشرب بسيول لا تمطر .

وقرىء : الجرز ، بسكون الراء .

﴿ فنخرج به ﴾ : أي بالماء ، وخص الزرع بالذكر ، وإن كان يخرج الله به أنواعاً كثيرة من الفواكه والبقول والعشب المنتفع به في الطب وغيره ، تشريفاً للزرع ، ولأنه أعظم ما يقصد من النبات ، وأوقع الزرع موقع النبات .

(19/614)

وقدمت الأنعام ، لأن ما ينبت يأكله الأنعام أول فأول ، من قبل أن يأكل بنو آدم الحب .

ألا ترى أن القصيل ، وهو شعير يزرع ، تأكله الأنعام قبل أن يسبل ؛ والبرسيم والفصفصة وأمثال ذلك تبادره الأنعام بالأكل قبل أن يأكل بنو آدم حب الزرع ، أو لأنه غذاء الدواب ، والإنسان قد يتغذى بغيره من حيوان وغيره ، أو بدأ بالأدنى ثم ترقى إلى الأشرف ، وهم بنو

آدم .

وقرأ أبو حيوة ، وأبو بكر في رواية : يأكل ، بالياء من أسفل .

وقرأ الجمهور : ﴿ يبصرون ﴾ ، بياء الغيبة ؛ وابن مسعود : بتاء الخطاب .

وجاءت الفاصلة : ﴿ أفلا يبصرون ﴾ ، لأن ما سبق مرئي ، وفي الآية قبله مسموع ، فناسب : ﴿ أفلا يسمعون ﴾ .

ثم أخبر تعالى عن الكفرة ، باستعجال فصل القضاء بينهم وبين الرسول على معنى الهزء والتكذيب .

و ﴿ الفتح ﴾ : الحكم ، قاله الجمهور ، وهو الذي يترتب عليه قوله : ﴿ قل يوم الفتح ﴾ الخ ، ويضعف قول الحسن ومجاهد : فتح مكة ، لعدم مطابقته لما بعده ، لأن من آمن يوم فتح مكة ، إيمانه ينفعه ، وكذا قول من قال : يوم بدر .

﴿ ولا هم ينظرون ﴾ : أي لا يؤخرون عن العذاب .

ولما عرف غرضهم في سؤالهم على سبيل الهزء ، وقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا ، فكأن قد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم ، فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم في حلول العذاب ، فلم تنظروا ، فيوم منصوب بلا ينفع .

ثم أمر بالإعراض عنهم وانتظار النصر عليهم والظفر بهم .

﴿ إنهم منتظرون ﴾ للغلبة عليكم لقوله : ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ وقيل :

إنهم منتظرون العذاب ، أي هذا حكمهم ، وإن كانوا لا يشعرون .

وقرأ اليماني : منتظرون ، بفتح الظاء ، اسم مفعول ؛ والجمهور : بكسرها ، اسم فاعل ، أي منتظر هلاكهم ، فإنهم أحقاء أن ينتظر هلاكهم ، يعني : إنهم هالكون لا محالة ، أو : وانتظر ذلك ، فإن الملائكة في السماء ينتظرونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(20/614)

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الهمزةُ للإنكارِ والواوُ للعطفِ على منويَ يقتضيهِ المقامُ من فعل الهداية . إما من قولهم : فلانٌ يعطي في أنَّ المرادَ إيقاعُ نفسِ الفعلِ بلا ملاحظةِ المفعولِ وإمَّا بمعنى التَّبيينِ والمفعولُ محذوفٌ والفاعلُ ما دلَّ عليهِ قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ أي أغفلُوا ولم يفعلِ الهدايةَ لهم أو ولم يبيّن لهم مآلَ أمرِهم كثرةُ إهلاكِنا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ مّنَ القرون ﴾ مثلُ عادٍ وثمودٍ وقومِ لوطٍ . وقُرِىء نهدِ لهم بنونِ العظمةِ وقد جُوّز أن يكونَ الفاعلُ على القراءةِ الأولى أيضاً ضميرُه تعالى فيكون قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ الخ ، استئنافاً مبيّناً لكيفيَّةِ هدايتِه تعالى ﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ أي يمرُّون في متاجرِهم

على ديارِهم وبلادِهم ويشاهدُون آثارَ هلاكِهم . والجملةُ حالٌ من ضميرِ لَهُم . وقُرِىء يمشُون للتَّكثيرِ ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذُكر من كثرةِ إهلاكِنا للأممِ الخاليةِ العاتيةِ أو في مساكِنِهم ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمةً في أنفسِها كثيرةً في عددِها ﴿ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ هذه الآياتِ سماعَ تدبرٍ واتِّعاظٍ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الماء إِلَى الأرض الجرز ﴾ أي التي جَرَزَ نباتُها أي قُطع وأُزيل بالمرَّةِ وقيل : هو اسمُ موضعٍ باليمنِ ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ ﴾ من تلك الأرضِ ﴿ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ ﴾ أي من ذلك الزَّرعِ ﴿ أنعامهم ﴾ كالتِّبنِ والقصيلِ والورقِ وبعضِ الحبوبِ المخصوصةِ بها . وقُرِىء يأكل بالياءِ ﴿ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ كالحبوبِ التي يقتاتُها الإنسانُ والثمارِ ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي ألا ينظرون فلا يُبصرون ذلك ليستدلُّوا به على كمال قدرتِه تعالى وفضله .

(21/614)

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ كان المسلمونَ يقولون : إنَّ اللهَ سيفتحُ لنا على المشركين أو يفصلُ بيننا وبينهم كان أهلُ مكَّةَ إذا سمعُوه يقولون بطريقِ الاستعجالِ تكذيباً واستهزاءً : ﴿ متى هذا الفتح ﴾ أي النَّصرُ أو الفصلُ بالحكومةِ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في أنَّ اللهَ تعالى ينصركم أو يفصلُ بيننا وبينكم ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم وتحقيقاً للحقِّ ﴿ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ

إيمانهم ولاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يومُ الفتحِ يومُ القيامةِ وهو يومُ الفصلِ بين المؤمنين وأعدائِهم ويومُ نصرِهم عليهم وقيل : هو يومُ بدرٍ . وعن مجاهدٍ والحسنِ : يومُ فتحِ مكَّةَ . والعدولُ عن تطبيقِ الجوابِ على ظاهرِ سؤالِهم للتَّنبيهِ على أنَّه ليس ممَّا ينبغِي أنْ يسألَ عنه لكونِه أمراً بيّناً غنياً عن الإخبارِ به وكذا إيمانُهم واستنظارُهم يومئذٍ وإنَّما المحتاجُ إلى البيانِ عدمُ نفعِ ذلك الإيمانِ وعدمُ الإنظارِ كأنَّه قيل : لا تستعجلُوا فكأنِّي بكم قد آمنتُم فلم ينفعْكم واستنظرتُم فلم تُنظروا ، وهذا على الوجهِ الأولِ ظاهرٌ وأمَّا على الأخيرينِ فالموصولُ عبارةٌ عن المقتولينَ يومئذٍ لا عن كافَّةِ الكَفَرةِ كما في الوجهِ الأول كيف لا وقد نفعَ الإيمانُ الطُّلقاءَ يومَ الفتحِ وناساً أمنُوا يومَ بدرٍ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولا تُبالِ بتكذيبِهم ﴿ وانتظر ﴾ النُّصرةَ عليهم وهلاكَهم ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ قيل : أي الغلبةَ عليكم كقولِه تعالى : ﴿ فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ والأظهرُ أنْ يقالَ : إنَّهم منتظرون هلاكَهم كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام ﴾ الآيةَ ، ويقرُبُ منه ما قيلَ وانتظرْ عذابَنا إنَّهم مُنتظروه فإنَّ استعجالَهم المذكورَ وعكوفَهم على ما هُم عليه من الكُفر والمَعاصي في حُكم انتظارِهم العذابَ المترتّبَ عليه لا محالةَ . وقُرِئ على صيغةِ المفعولِ على مَعْنى أنَّهم أحقَّاءُ بأنْ يُنتظرَ هلاكُهم أو فإنَّ الملائكةَ ينتظرونَهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾

الهمزة للإنكار والواو للعطف على منوى يقتضيه المقام ويناسب المعطوف معنى على ما اختاره غير واحد ، وفعل الهداية إما من قبيل فلان يعطى في أن المراد إيقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول ، وإما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل ضمير عائد إلى ما في الذهن ويفسره قوله تعالى :

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون ﴾ وكم في محل نصب باهلكنا أي أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم أو ولم يبين لهم مآل أمرهم أو طريق الحق كثرة من أهلكنا أو كثرة اهلاك من أهلكنا من القرون الماضية مثل عاد .

وثمود .

وقوم لوط ، ولا يجوز أن تكون ﴿ كَمْ ﴾ فاعلا لصدارتها كما نص على ذلك الزجاج حاكياً له عن البصريين ، وقال الفراء : كم في موضع رفع بيهد كأنك قلت : أو لم يهد لهم القرون الهالكة فيتعظوا ولا أن يكون محذوفاً لأن الفاعل لا يحذف إلا في مواضع مخصوصة ليس هذا منها ولا مضمراً عائداً إلى ما بعد لأنه يلزم عود الضمير إلى متأخر لفظاً ورتبة في غير محل جوازه ، ولا الجملة نفسها لأنها لا تقع فاعلاً على الصحيح إلا إذا قصد لفظها نحو

تعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال ، وجوز أن يكون الفاعل ضميره تعالى شأنه لسبق ذكره سبحانه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ وأيد بقراءة زيد ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ بنون العظمة ، قال الخفاجي : والفعل بكم عن المفعول وهو مضمون الجملة لتضمنه معنى العلم فلا تغفل .

﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ أي يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم ، والجملة حال من ضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ ، وقيل : من ﴿ القرون ﴾ ، والمعنى أهلكناهم حال غفلتهم ، وقيل : مستأنفة بيان لوجه هدايتهم .

(23/614)

وقرأ ابن السميقع ﴿ يَمْشُونَ ﴾ بالتشديد على أنه تفعيل من المشي للتكثير ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من اهلاكنا للأمم الخالية العاتية أو في مساكنهم ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة في أنفسها كثيرة في عددها ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الكلام فيه كالكلام في ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ [السجدة : 26] أي أعموا ولم يشاهدوا ﴿ أَنَّا نَسُوقُ الماء ﴾ بسوق السحاب الحامل له ، وقيل : نسوق نفس الماء بالسيول ، وقيل : بإجرائه في الأنهار ومن العيون ﴿ إِلَى الأرض الجرز ﴾ أي التي جرز

نباتها أي قطع اما لعدم الماء واما لأنه رعى وأزيل كما في الكشاف .

وفي مجمع البيان الأرض الجرز اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطاء عنها من قولهم : سيف جراز أي طاع لا يبقى شيئاً إلا قطعه وناقة جراز إذا كانت تأكل كل شيء فلا تبقى شيئاً إلا قطعته بفيها ورجل جروز أي أكول ، قال الراجز :

خب جروز وإذا جاع بكى . . .

وقال الراغب : الجرز منقطع النبات من أصله وأرض مجروزة أكل ما عليها ، وفي مثل لا ترضى شانئة إلا بجروزة أي بالاستئصال ، والجارز الشديد من السعال تصور منه معنى الجرز وهو القطع بالسيف اه ، ويفهم مما قاله أن الجرز يطلق على ما انقطع نباته لكونه ليس من شأنه الإنبات كالسباخ وهو غير مناسب هنا لقوله تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ والظاهر أن المراد الأرض المتصفة بهذه الصفة أي أرض كانت ، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنها قرى بين اليمن والشام .

وأخرج هو وابن جرير .

وابن المنذر .

(24/614)

وابن أبي شيبة عن ابن عباس أنها أرض باليمن ، وإلى عدم التعيين ذهب مجاهد ، أخرج عنه جماعة أنه قال : الأرض الجرز هي التي لا تنبت وهي أيين ونحوها من الأرض وقرىء ﴿ الجرز ﴾ بسكون الراء ، وضمير ﴿ بِهِ ﴾ للماء والكلام على ظاهره عند السلف الصالح وقالت الأشاعرة : المراد فنخرج عنده ، والزرع في الأصل مصدر وعبر به عن المزروع والمراد به ما يخرج بالمطر مطلقاً فيشمل الشجر وغيره ولذا قال سبحانه : ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ ﴾ أي من ذلك الزرع ﴿ أنعامهم ﴾ كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها ﴿ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ كالبقول والحبوب التي يقتاتها الإنسان ، وفي البحر يجوز أن يراد بالزرع النبات المعروف وخص بالذكر تشريفاً له ولأنه أعظم ما يقصد من النبات ، ويجوز أن يراد به النبات مطلقاً ، وقدم الأنعام لأن انتفاعها مقصور على ذلك والإنسان قد يتغذى بغيره ولأن أكلها منه مقدم لأنها تأكله قبل أن يثمر ويخرج سنبله ، وقيل ليرتقي من الأدنى إلى الأشرف وهو بنو آدم .

وقرأ أبو حيوة .

وأبو بكر في رواية ﴿ يَأْكُلُ ﴾ بالياء التحتية ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ أي ألا يبصرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله عز وجل ، وجعلت الفاصلة هنا ﴿ يُبْصِرُونَ ﴾ لأن ما قبله مرئى وفيما قبله ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ لأن ما قبله مسموع ، وقيل : ترقيا إلى الأعلى في الاتعاظ مبالغة في التذكير ورفع العذر .

وقرأ ابن مسعود ﴿ تُبْصِرُونَ ﴾ بالتاء الفوقية .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء ﴿ متى هذا الفتح ﴾ أي الفصل للخصومة بينكم وبيننا ، وكأن هذا متعلق بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة : 25] وقيل : أي النصر علينا ، ابن جرير .

(25/614)

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم إن لنا يوماً يوشك أن نستريح فيه وننتقم فيه فقال المشركون : متى هذا الفتح الخ فنزلت ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في أن الله تعالى هو يفصل بين المحقين والمبطلين ، وقيل : في أن الله تعالى ينصركم علينا .

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتا لهم وتحقيقاً للحق ﴿ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إيمانهم وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ .

أخرج الفريابي .

وابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : يوم الفتح يوم القيامة ، وهو كما في البحر منصوب بلا ينفع ، والمراد بالذين فكروا إما أولئك القائلون المستهزئون فالأظهار في مقام الإضمار لتسجيل كفرهم وبيان علة الحكم ، وإما ما يعمهم وغيرهم وحينئذ يعلم حكم أولئك المستهزئين بطريق برهاني ، والمراد من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ استمرار النفي ، والظاهر أن الجملة عطف على ﴿ لاَّ ينفَعُ ﴾ الخ والقيد معتبر فيها ، وظاهر سؤالهم بقولهم ﴿ متى هذا الفتح ﴾ [السجدة : 28] يقتضي الجواب بتعيين اليوم المسؤول عنه إلا أنه لما كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فكأنه قيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزؤوا فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا ، وهذا قريب من الأسلوب الحكيم .

(26/614)

هذا وتفسير ﴿ يَوْمَ الفتح ﴾ بيوم القيامة ظاهر على القول بأن المراد بالفتح الفصل للخصومة فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [السجدة : 25

] ولا يكاد يتسنى على القول بأن المراد به النصر على أولئك القائلين إذا كانوا عانين به النصر والغلبة عليهم في الدنيا كما هو ظاهر مما سمعت عن مجاهد ، وعليه قيل : المراد بيوم الفتح يوم بدر ، وأخرج ذلك الحاكم وصححه .

والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : يوم فتح مكة ، وحكى ذلك عن الحسن .

ومجاهد ، واستشكل كلا القولين بأن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إيمانهم ﴾ ظاهر في عدم قبول الإيمان من الكافر يومئذ مع أنه آمن ناس يوم بدر فقيل منهم وكذا يوم فتح مكة .

وأجيب بأن الموصول على كل منهما عبارة عن المقتولين في ذلك اليوم على الكفر ، فمعنى لا ينفعهم إيمانهم انهم لا إيمان لهم حتى ينفعهم فهو على حد قوله :

على لا حب لا يهتدي بمناره . . .

سواء أريد بهم قوم مخصوصون استهزؤوا أم لا وسواء عطف قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ على المقيد أو على المجموع فتأمل .

وتعقب بأن ذلك خلاف الظاهر ، وأيضاً كون يوم الفتح يوم بدر بعيد عن كون السورة مكية وكذا كونه يوم فتح مكة ، ويبعد هذا أيضاً قلة المقتولين في ذلك اليوم جدا تدبر .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ، وعن ابن عباس أن ذلك منسوخ بآية

السيف ، ولا يخفى أنه يحتمل أن المراد الاعراض عن مناظرتهم لعدم نفعها أو تخصيصه بوقت معين فلا يتعين النسخ .

(27/614)

﴿ وانتظر ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ قال الجمهور : أي الغلبة عليكم كقوله تعالى : ﴿ فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : 52] وقيل : الأظهر أن يقال : إنهم منتظرون هلاكهم كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام ﴾ [البقرة : 210] الآية ، ويقرب منه ما قيل : وانتظر عذابنا لهم إنهم منتظرون أي هذا حكمهم وإن كانوا لا يشعرون فإن استعجالهم المذكور وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاطي في حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة .

وقرأ اليماني ﴿ مُنتَظِرُونَ ﴾ بفتح الظاء اسم مفعول على معنى أنهم أحقاء أن ينتظر هلاكهم أو أن الملائكة عليهم السلام ينتظرونه والمراد أنهم هالكون لا محالة هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(28/614)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾

أي التوراة ﴿ فَلاَ تَكُن ﴾ يا محمد ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي شك ، وريبة ﴿ مّن لّقَائِهِ ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيلقى موسى قبل أن يموت ، ثم لقيه في السماء أو في بيت المقدس حين أسري به .

وهذا قول مجاهد والكلبي والسديّ .

وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة وستلقاه فيها .

وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب .

قاله الزجاج .

وقال الحسن : إن معناه : ولقد آتينا موسى الكتاب فكذّب وأوذي ، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى ، فيكون الضمير في لقائه على هذا عائداً على محذوف ، والمعنى : من لقاء ما لاقى موسى .

قال النحاس : وهذا قول غريب .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، فلا تكن في مرية من لقائه ، فجاء معترضاً بين ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ وبين ﴿ وجعلناه

هُدًى لِّبَنِي إِسرَاءِيلَ ﴾ وقيل : الضمير راجع إلى الكتاب الذي هو الفرقان كقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾ [النمل : 6] والمعنى : أنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ونظيره ، وما أبعد هذا ، ولعلّ الحامل لقائله عليه قوله : ﴿ وجعلناه هُدًى لِّبَنِي إِسرَاءِيلَ ﴾ فإن الضمير راجع إلى الكتاب .

وقيل : إن الضمير في ﴿ لقائه ﴾ عائد إلى الرجوع المفهوم من قوله : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي لا تكن في مرية من لقاء الرجوع ، وهذا بعيد أيضاً .

واختلف في الضمير في قوله : ﴿ وجعلناه ﴾ فقيل : هو راجع إلى الكتاب ، أي جعلنا التوراة هدى لبني إسرائيل ، قاله الحسن وغيره .

وقال قتادة : إنه راجع إلى موسى ، أي وجعلنا موسى هدى لبني إسرائيل .

(29/614)

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي قادة يقتدون به في دينهم ، وقرأ الكوفيون : "أئمة" قال النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ، لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة ، ومعنى ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ : أي يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليه من أحكام التوراة ومواعظها بأمرنا

، أي بأمرنا لهم بذلك ، أو لأجل أمرنا .

وقال قتادة : المراد بالأئمة : الأنبياء منهم .

وقيل : العلماء ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ لما ﴾ بفتح اللام وتشديد الميم ، أي حين صبروا ، والضمير للأئمة ، وفي " لما " معنى : الجزاء ، والتقدير : لما صبروا جعلناهم أئمة .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وورش عن يعقوب ويحيى بن وثاب بكسر اللام وتخفيف الميم ، أي جعلناهم أئمة لصبرهم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد مستدلاً بقراءة ابن مسعود : "بما صبروا" بالباء ، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاقّ التكليف والهداية للناس ، وقيل : صبروا عن الدنيا ﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ التنزيلية ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ أي يصدّقونها ، ويعلمون أنها حق ، وأنها من عند الله ؛ لمزيد تفكرهم ، وكثرة تدبرهم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يقضي بينهم ويحكم بين المؤمنين والكفار ﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وقيل : يقضي بين الأنبياء ، وأممهم ، حكاه النقاش .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ أي أو لم يبين لهم ، والهمزة للإنكار ، والفاعل ما دلّ عليه ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون ﴾ أي أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم .

قال الفراء : كم في موضع رفع ب ﴿ يهد ﴾ .

وقال المبرد : إن الفاعل : الهدى المدلول عليه ب ﴿ يهد ﴾ ، أي أو لم يهد لهم الهدى .

وقال الزجاج: ﴿ كم ﴾ في موضع نصب ب ﴿ أهلكنا ﴾ ، قرأ الجمهور: ﴿ أو لم يهد ﴾ بالتحتية ، وقرأ السلمي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب بالنون ، وهذه القراءة واضحة .

(30/614)

قال النحاس: والقراءة بالياء التحتية فيها إشكال؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل فأين الفاعل ل ﴿ يهد ﴾ ؟ ويجاب عنه بأن الفاعل هو ما قدّمنا ذكره ، والمراد بالقرون: عاد وثمود ونحوهم ، وجملة: ﴿ يَمْشُونَ فِي مساكنهم ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير لهم ، أي والحال أنهم يمشون في مساكن المهلكين ويشاهدونها ، وينظرون ما فيها من العبر ، وآثار العذاب .

ولا يعتبرون بذلك .

وقيل: يعود إلى المهلكين ، والمعنى: أهلكناهم حال كونهم ماشين في مساكنهم ، والأوّل أولى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمات ، ﴿ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ ، ويتعظون بها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الماء إِلَى الأرض الجرز ﴾ أي أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التي لا تنبت إلا بسوق الماء إليها .

وقيل : هي اليابسة ، وأصله من الجرز وهو : القطع أي التي قطع نباتها لعدم الماء ، ولا يقال للتي لا تنبت أصلاً كالسباخ جرز لقوله : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ قيل : هي أرض اليمن .

وقيل : أرض عدن .

وقال الضحاك : هي الأرض العطشى .

وقال الفراء : هي الأرض التي لا نبات فيها .

وقال الأصمعي : هي الأرض التي لا تنبت شيئاً .

قال المبرد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام .

وقيل : هي مشتقة من قولهم رجل جروز : إذا كان لا يبقي شيئاً إلا أكله ، ومنه قول الراجز :

خب جروز وإذا جاع بكى . . . ويأكل التمر ولا يلقي النوى

وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده .

(31/614)

وقال مجاهد : إنها أرض النيل ؛ لأن الماء إنما يأتيها في كل عام ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ ﴾ ، أي بالماء ﴿ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أنعامهم ﴾ أي من الزرع كالتبن والورق ونحوهما مما لا يأكله الناس ﴾

وَأَنفُسِهِمْ ﴾ أي يأكلون الحبوب الخارجة في الزرع مما يقتاتونه ، وجملة : ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أنعامهم ﴾ في محلّ نصب على الحال ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ هذه النعم ويشكرون المنعم ويوحدونه ، لكونه المنفرد بإيجاد ذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ القائلون هم الكفار على العموم ، أو كفار مكة على الخصوص ، أي متى الفتح الذي تعدونا به ، يعنون بالفتح : القضاء والفصل بين العباد ، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده ، قاله مجاهد وغيره .

وقال الفراء والقتيبي : هو فتح مكة .

قال قتادة : قال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم للكفار : إن لنا يوماً ننعم فيه ونستريح ويحكم الله بيننا وبينكم ، يعنون يوم القيامة ، فقال الكفار : متى هذا الفتح ؟ وقال السديّ : هو يوم بدر ، لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون للكفار : إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم ، و " متى " في قوله : ﴿ متى هذا الفتح ﴾ في موضع رفع ، أو في موضع نصب على الظرفية .

ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيب عليهم ، فقال : ﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إيمانهم وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وفي هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة ؛ لأن يوم فتح مكة ويوم بدر هما مما ينفع فيه الإيمان .

وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح ، وقبل ذلك منهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ : لا يمهلون ولا يؤخرون ، " ويوم " في ﴿ يوم الفتح ﴾ منصوب على الظرفية ، وأجاز الفراء الرفع ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي عن سفههم وتكذيبهم ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي وانتظر يوم الفتح ، وهو يوم القيامة ، أو يوم إهلاكهم بالقتل ، إنهم منتظرون بك حوادث الزمان من موت أو قتل أو غلبة كقوله : ﴿ فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : 52] ويجوز أن يراد : إنهم منتظرون لإهلاكهم ، والآية منسوخة بآية السيف .

وقيل : غير منسوخة ، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال .

وقرأ ابن السميفع : " إنهم منتظرون " بفتح الظاء مبنياً للمفعول ، ورويت هذه القراءة عن مجاهد وابن محيصن .

قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، أي إنهم منتظر بهم .

قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ، أي انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن

جهنم والدجال في آيات أراهنّ الله إياه " قال : ﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ فكان قتادة يفسرها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقي موسى ﴿ وجعلناه هُدًى لِّبَنِي إسراءيل ﴾ قال : جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل .

(33/614)

وأخرج الطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة بسند ، قال السيوطي : صحيح ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ قال : " من لقاء موسى " ، قيل : أو لقي موسى ؟ قال : نعم ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ [الزخرف : 45] .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الماء إِلَى الأرض الجرز ﴾ قال : الجرز التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ إِلَى الأرض الجرز ﴾ قال : أرض باليمن .

قال القرطبي في تفسيره : والإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ قال : يوم بدر فتح للنبي صلى الله عليه وسلم فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(34/614)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾)

عطف على جملة ﴿ ومَن أظلم ممّن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ [السجدة : 22] ، ولما كان ذلك التذكير متصلاً كقوله ﴿ وقالوا أإذا ضَللنا إنّا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ [السجدة : 10] كان الهدي ، أي العلم المستفهم عنه بهذا الاستفهام شاملاً للهدي إلى دليل البعث وإلى دليل العقاب على الإعراض عن التذكير فأفاد قوله ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من القرون ﴾ معنين : أحدهما : إهلاك أمم كانوا قبلهم فجاء هؤلاء المشركون بعدهم ، وذلك تمثيل للبعث وتقريب لإمكانه .

وثانيهما : إهلاك أمم كذبوا رسلهم ففيهم عبرة لهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

والاستفهام إنكاري ، أي هم لم يهتدوا بدلائل النظر والاستدلال التي جاءهم بها القرآن

فأعرضوا عنها ولا اتعظوا بمصَارع الأمم الذين كذبوا أنبياءهم وفي مهلكهم آيات تزجر أمثالهم عن السلوك فيما سلكوه .

فضمير ﴿ لهم ﴾ عائد إلى المجرمين أو إلى من ذُكِّر بآيات ربه .

و﴿ يَهْدِ ﴾ من الهداية وهي الدلالة والإرشاد ، يقال : هداه إلى كذا .

وضمن فعل ﴿ يَهْدِ ﴾ معنى يبيّن ، فعدي باللام فأفاد هداية واضحة بينة .

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى ﴿ أو لم يَهْدِ للذين يرثون الأرض ﴾ في سورة [الأعراف : 100] .

واختير فعل الهداية في هذه الآية لإرادة الدلالة الجامعة للمشاهدة ولسماع أخبار تلك الأمم تمهيداً لقوله في آخرها ﴿ أفلا يسمعون ﴾ ، ولأن كثرة ذلك المستفادة من ﴿ كَم ﴾ الخبرية إنما تحصل بترتيب الاستدلال في تواتر الأخبار ولا تحصل دفعة كما تحصل دلالة المشاهدات .

وفاعل ﴿ يَهْدِ ﴾ ما دلت عليه ﴿ كم ﴾ الخبرية من معنى الكثرة .

ولا يجوز عند الجمهور جعل كم فاعل يَهْدِ ﴾ لأن ﴿ كم ﴾ الخبرية اسم له الصدارة في الاستعمال إذ أصله استفهام فتوسع فيه .

ويجوز جعل كم فاعلاً عند من لم يشترطوا أن تكون كم الخبرية في صدر الكلام .

وجوز في الكشاف ﴿ أن يكون الفاعل جملة ﴿ كم أهلكنا ﴾ على معنى الحكاية لهذا القول ، كما يقال : تَعصمُ (لا إله إلا الله) الدماءَ والأموالَ ، أي هذه الكلمة أي النطق بها لتقلد الإسلام .

ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الجلالة دالاً عليه المقام ، أي ألم يهدِ الله لهم فإن الله بَين لهم ذلك وذكّرهم بمصَارع المكذبين ، وتكون جملة ﴿ كم أهلكنا ﴾ على هذا استئنافاً ، وتقدم ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ في أول الأنعام (6) .

ونيط الاستدلال هنا بالكثرة التي أفادتها كم الخبرية لأن تكرر حدوث القرون وزوالها أقوى دلالة من مشاهدة آثار أمة واحدة .

﴿ ويمشون في مساكنهم ﴾ حال من فاعل ﴿ أو لم يروا ﴾ [السجدة : 27] والمعنى : أنهم يمرون على المواضع التي فيها بقايا مساكنهم مثل حِجر ثمود وديار مدين فتعضد مشاهدةُ مساكنهم الأخبار الواردة عن استئصالهم وهي دلائل إمكان البعث كما قال تعالى : ﴿ وما نحن بِمَسْبُوقِين على أن نبدل أمثالكم ونُنْشِئَكم فيما لا تعلمون ﴾ [الواقعة : 60 ، 61] ، ودلائل ما يحيق بالمكذبين للرسل ؛ وفي كل أمة وموطن دلائل كثيرة متماثلة أو متخالفة .

ولما كان الذي يؤثر من أخبار تلك الأمم وتقلبات أحوالها وزوال قوتها ورفاهيتها أشدّ دلالة وموعظة للمشركين فرع عليه ﴿ أفلا يسمعون ﴾ استفهاماً تقريرياً مشوباً بتوبيخ لأن اجتلاب المضارع وهو ﴿ يسمعون ﴾ مؤذن بأن استماع أخبار تلك الأمم متكرر متجدد فيكون التوبيخ على الإقرار المستفهَم عنه أوقعَ بخلاف ما بعده من قوله ﴿ أفلا يبصرون ﴾ [السجدة : 27] .

وقد شاع توجيه الاستفهام التقريري إلى المنفي ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ في سورة الأنعام (130) ، وقوله : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ﴾ في سورة الأعراف (148) .

(36/614)

(أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون [27])

عطف على (أو لم يهد لهم) .

ونيط الاستدلال هنا بالرؤية لأن إحياء الأرض بعد موتها ثم إخراج النبت منها دلالة مشاهدة .

واختير المضارع في قوله (نسوق) لاستحضار الصورة العجيبة الدالة على القدرة الباهرة

والسوق : إزجاء الماشي من ورائه

والماء : ماء المزن وسوقه إلى الأرض هو سوق السحاب الحاملة إياه بالرياح التي تنقل

السحاب من جو إلى جو ؛ فشبهت هيئة الرياح والسحاب بهيئة السائق للدابة .

والتعريف في (الأرض) تعريف الجنس

والجرز : اسم للأرض التي انقطع نبتها وهو مشتق من الجرز وهو : انقطاع النبت والحشيش

إما بسبب يبس الأرض أو بالرعي والجرز : القطع .

وسمي السيف القاطع جرازا قال الراجز يصف أسنان ناقة:

تنحي على الشوك جرازا مقضبا . . .

والهرم تذريه إذدراء عجبا

فالأرض الجرز : التي انقطع نبتها .

ولا يقال للأرض التي لا تنبت كالسباخ جرز .

والزرع : ما نبت بسبب بذر حبوبه في الأرض كالشعير والبر والفصفصة وأكل الأنعام غالبه

من الكلأ لا من الزرع فذكر الزرع بلفظه ثم ذكر أكل الأنعام يدل على تقدير : وكلأ .

ففي الكلام اكتفاء .

والتقدير : ونخرج به زرعا وكلأ تأكل منه أنعامهم وأنفسهم .

والمقصود : الاستدلال على البعث وتقريبه وإمكانه بإخراج النبت من الأرض بعد أن زال ؛ فوجه الأول .

وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بقوله (تأكل منه أنعامهم وأنفسهم)

ثم فرع عليه استفهام تقريري بجملة (أفلا يبصرون) .

وتقدم بيان مثله آنفا في قوله (أفلا يسمعون) .

ونيط الحكم بالإبصار هنا دلالة إحياء الأرض بعد موتها دلالة مشاهدة

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28)

يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ [السجدة : 22] ، أي : أعرضوا عن سماع الآيات والتدبر فيها وتجاوزوا ذلك إلى التكذيب والتهكم بها .

(37/614)

ومناسبة ذكر ذلك هنا أنه وقع عقب الإشارة إلى دليل وقوع البعث وهو يوم الفصل .

ويجوز أن يعطف على جملة ﴿ وقالوا أإذا ضَلَلْنا في الأرض إنّا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] .

والمعنى : أنهم كذبوا بالبعث وما معه من الوعيد في الآخرة وكذّبوا بوعيد عذاب الدنيا

الذي منه قوله تعالى : ﴿ ولَنُذِيقَنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ [السجدة : 21] .

و﴿ الفتح : النصر والقضاء .

والمراد به : نصر أهل الإيمان بظهور فوزهم وخيبة أعدائهم فإن خيبة العدوّ نصر لضِده وكان المسلمون يتحدّون المشركين بأن الله سيفتح بينهم وينصرهم وتظهر حجتهم ، فكان الكافرون يكررون التهكم بالمسلمين بالسؤال عن وقت هذا الفتح استفهاماً مستعملاً في التكذيب حيث لم يحصل المستفهم عنه .

وحكاية قولهم بصيغة المضارع لإفادة التعجيب منه كقوله تعالى : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] مع إفادة تكرر ذلك منهم واتخاذهم إياه .

والمعنى : إن كنتم صادقين في أنه واقع فبينوا لنا وقته فإنكم إذ علمتم به دون غيركم فلتعلموا وقته .

وهذا من السفسطة الباطلة لأن العلم بالشيء إجمالاً لا يقتضي العلم بتفصيل أحواله حتى ينسب الذي لا يعلم تفصيله إلى الكذب في إجماله .

واسم الإشارة في ﴿ هذا الفتح ﴾ مع إمكان الاستغناء عنه بذكر مبينهِ مقصود منه التحقير وقلة الاكتراث به كما في قول قيس بن الخطيم:

متى يأت هذا الموتُ لا يلف حاجة . . .

لنفسي إلا قَدْ قضيت قضاءها

(38/614)

إنباء بقلة اكتراثه بالموت ومنه قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ أهذا الذي يذكر ءالهتكم ﴾ [الأنبياء : 36] فأمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم على طريقة الأسلوب الحكيم بأن يومَ الفتح الحق هو يوم القيامة وهو يوم الفصل وحينئذ ينقطع أملَ الكفار في النجاة والاستفادة من الندامة والتوبة ولا يجدون إنظاراً لتدارك ما فاتهم ، أي إفادتُهم هذه الموعظة خير لهم من تطلبهم معرفة وقت حلول يوم الفتح لأنهم يقولون يومئذ ﴿ ربنا أبصَرْنا وسمِعْنا فارجعنا نعملْ صالحاً إنّا موقنون ﴾ [السجدة : 12] مع ما في هذا الجواب من الإيماء إلى أن زمن حلوله غير معلوم للناس وأنه مما استأثر الله به فعلى من يحتاط لنجاة نفسه أن يعمل له من الآن فإنه لا يدري متى يحلّ به ﴿ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ [الأنعام : 158] .

ففي هذا الجواب سلوك الأسلوب الحكيم من وجهين : من وجه العدول عن تعيين يوم الفتح ، ومن وجه العدول بهم إلى يوم الفتح الحق ، وهم إنما أرادوا بالفتح نصر المسلمين عليهم في

الحياة الدنيا .

وإظهار وصف ﴿ الذين كفروا في مقام الإضمار مع أنهم هم القائلون متى هذا الفتح ﴾ لقصد التسجيل عليهم بأن كفرهم هو سبب خيبتهم .

ثم فرع على جميع هذه المجادلات والدلالات توجيه الله خطابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يعرض عن هؤلاء القائلين المكذبين وأن لا يزيد في الإلحاح عليهم تأييساً من إيمان المجادلين منهم المتصدّين للتمويه على دهمائهم .

وهذا إعراض متاركة عن الجدال وقتياً لا إعراض مستمر ، ولا عن الدعوة إلى الله ولا علاقة له بأحكام الجهاد المشروع في غير هذه الآية .

والانتظار : الترقب .

وأصله مشتق من النظر فكأنه مطاوع : أنظره ، أي أراه فانتظر ، أي : تكلف أن ينظُر .

(39/614)

وحذف مفعول ﴿ انتظر ﴾ للتهويل ، أي : انتظر أياماً يكون لك فيها النصر ، ويكون لهم فيها الخسران مثل سني الجوع إنْ كان حصلت بعد نزول هذه السورة ، ومثل يوم بدر ويوم فتح مكة وهما بعد نزول هذه السورة لا محالة ، ففي الأمر بالانتظار تعريض بالبشارة

للمؤمنين بالنظر ، وتعريض بالوعيد للمشركين بالعذاب في الدارين .

وجملة ﴿ إنهم منتظرون ﴾ تعليل لما تضمنه الأمر بالانتظار من إضمار العذاب لهم .

ومفعول ﴿ منتظرون ﴾ محذوف دل عليه السياق ، أي منتظرون لكم الفرصة لحربكم أو لإخراجكم قال تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] وقال : ﴿ ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء ﴾ [التوبة : 98] أي لم نكن ظالمين في تقدير العذاب لهم لأنهم بدأوا بالظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ ﴾

(40/614)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) ﴾

أظهر أقوال أهل العلم عندي هو أن الفتح في هذه الآية الكريمة ، هو الحكم والقضاء ، وقد قدمنا أن الفتاح وهي لغة حميرية قديمة . والفتاحة الحكم والقضاء ، ومنه قوله :

ألا من مبلغ عمراً رسولاً . . . بأني عن فتاحتكم غنى

وقد جاءت آيات تدل على أن الفتاح الحكم ، كقوله تعالى عن نبيه شعيب : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : 89] أي

احكم بيننا بالحق ، وأنت خير الحاكمين .

وقوله تعالى عن نبيه نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 117118] الآية . أي احكم بيني وبينهم حكماً .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق وَهُوَ الفتاح العليم ﴾ [سبأ : 26] . وقوله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح ﴾ [الأنفال : 19] أي إن تطلبوا الحكم بهلاك الظالم منكم ، ومن النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاءكم الفتح : أي الحكم بهلاك الظالم وهو هلاكهم يوم بدر ، كما قاله غير واحد ، وقد ذكروا أنهم لما أرادوا الخروج إلى بدر ، جاء أبو جهل ، وتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم إنا قطان بيتك نسقب الحجيج ، ونفعل ونفعل ، وإن محمداً قطع الرحم وفرق الجماعة ، وعاب الدين ، وشتم الآلهة ، وسفه أحلام الآباء ، اللهم أهلك الظالم منا ومنه فطلب الحكم على الظالم ، فجاءهم الحكم على الظالم فقتلوا ببدر ، وصاروا إلى الخلود في النار إلى غير ذلك من الآيات .

(41/614)

وعلى قول من قال : من أهل العلم إن المراد بالفتح في الآية الحكم والقضاء بينهم يوم القيامة فلا إشكال في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ ﴾ وعلى القول بأن

المراد بالفتح في الآية الحكم بينهم في الدنيا بهلاك الكفار . كما وقع يوم بدر ، فالظاهر أن معنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ ﴾ أي إذا عاينوا الموت ، وشاهدوا القتل بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّةَ الله التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ [غافر : 8485] وقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن ﴾ [النساء : 18] الآية . وقوله تعالى في فرعون : ﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 9091] ولا يخفى أن قول من قال من أهل العلم : إن الفتح في هذه الآية : فتح مكة أنه غير صواب بدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ ﴾ ومعلوم أن فتح مكة لا يمنع انتفاع المؤمن في وقته بإيمانه كما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ .

جاء معناه موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور : 3031] ومعلوم أن التربص هو الانتظار . وقوله تعالى : ﴿ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : 158] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(43/614)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾

الحق – سبحانه وتعالى – تكلم عن الرسالة التي أرسل بها رسوله صلى الله عليه وسلم ليؤكد في الناس عقيدة أعلى ، وهي عقيدة الوجود للإله الواحد الذي لا شريك له ، ثم بيَّن أن لنا مع الله لقاء آخر حين تنتهي هذه الدنيا الفانية ، ثم نستقبل حياة خالدة ، إما إلى جنة إنْ شاء الله ، وإما إلى نار ونعوذ بالله .

والحق سبحانه حين يعرض آياته في الكون يعرضها لتثبت أنه هو الذي خلق هذه الآيات العجيبة ، فلم يتركنا سبحانه ننظر وننصرف إنما لفتنا ونبَّهنا إلى وجوب النظر إلى آياته في الكون ، وحين يأتي مَنْ يريد أنْ يُنبه عقلك فاعلم أنه لا يريد أنْ يخدعك ، أو أن يأخذك على

غرَّة ، فربك يقول لك : استقبل كلامي هذا بمنتهى التدُّبر والتذكُّر والتعقُّل .

ولو لم يكُنْ واثقاً من أنه سيصل بالتدبُّر والتعقُّل والتذكر إلى الغاية التي يريدها لما نبَّه عقلَك لآياته ، كما ترى عارض السلعة الجيدة الواثق من جودتها يعرضها عليك ، ويكشفها لك ، ويدعوك إلى فحصها وتأمُّل ما فيها ، فهو لا يفعل ذلك إلا لثقته في بضاعته وأنها ستنال رضاك .

أما صاحب السلعة المغشوشة فيخدعك ويسلك معك أساليب اللفِّ والدوران والتغرير ، فحين تذهب مثلاً لشراء حذاء وجاء ضيقاً يقول لك : سيتسع بعد ما تمشي فيه ، فإنْ جاء واسعاً يقول لك : أحضر لك واحداً أوسع ؟ ليوهمك أنه ضيِّق ، وأساليب هؤلاء مكشوفة لا تخفى على أحد ، فالذي يريد أنْ يغشَّ أو يخدع يلف القضايا ليسترها عن عقلك المتدبر المتذكر المتمعن .

(44/614)

أما الحق سبحانه ، فكثيراً ما قال في قرآنه : أفلا يسمعون ، أفلا يعقلون ، أفلا يتدبرون القرآن ؛ لذلك من مصلحة الدعوة أنْ يتعقلها الناس ، وأن يتدبروها ، في حين أن بعض أصحاب الديانات الأخرى يقول لك حين تناقشه : أبعِدْ العقل عن هذه المسألة ، لماذا ؟

لأنه واثق أنها لو بُحثَتْ بالعقل لردها العقل ولم يقبلها – والحق سبحانه يريد إلاَّ يترك عذراً لأحد في البلاغ ، فالدعوة قد بلغتْ الجميع بلاغاً سليماً واضحاً ، تلك آيات الله في الكون

.

ثم يأتي الحق سبحانه بآيات معجزة ليثبت صِدْق الرسول ، فيجعلها تخالف نواميس الكون فيما نبغ فيه القوم ليقطع عليهم الحجة ، ثم يأتي بآيات الأحكام التي تحمل المنهج بافعل ولا تفعل ، ويُبيِّن أنَّ صلاح حركة الحياة في تطبيق هذا المنهج ويترك للمخالفات أن تُظهِر بعض العيوب ، فإذا ما نظرتَ إلى عيب أو عورة في المجتمع عرفتَ أنها نتيجة طبيعية لمخالفة منهج الله ، فكأن المخالفة ذاتها من مُؤكِّدات الحكم .

ثم يُبيِّن سبحانه أنه أرسل رسلاً كثيرين من لَدُنْ آدم عليه السلام ؛ لأن الإنسان الذي هو خليفته في الكون تصيبه غفلة حين ينخرط في أسباب الدنيا ، وتأخذ عليه كل فكره وكل همه ، فينسى ما طلب الله منه ، فمن عادة الإنسان ألاَّ يتذكر إلاَّ ما ينفعه النفع العاجل .

لذلك نجد كثيراً من الناس ينسى ما للناس عنده ، ويتذكر ما له عندهم .

فالحق سبحانه يقول : أنا لم يَعُدْ لخَلْقي عندي حجة ، فقد نثرتُ لهم آيات الكون المُلْفتة ، وهي آيات واضحات لم يدَّعها أحد لنفسه ، ومع كثرة الملحدين والكافرين لم نَرَ أبداً من ادَّعى خَلْق الشمس أو القمر ، ولم يقُلْ أحد : إنني أُسيِّر الريح ، أو أُنبِت الزرع ، أو أُنزِل الماء من السحاب .

والحق سبحانه يُنبهنا أيضاً : لا تنْس أيها الإنسان أنك خليفة لله في الأرض ، وإياك أنْ تظن أنك أصيل فيها ، فساعةَ تظن أنك أصيل في الدنيا يتخلى الله عنك ، ويتركك لنفسك فتهلك ، كما حدث لقارون حين وسَّع الله عليه في الدنيا ، فاغترَّ بما في يده ، وظن أنه من سعيه وعلمه وجهده .

فكانت النتيجة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض . . . ﴾ [القصص : 81] لينبه الناس جميعاً أن المال ليس مال صاحبه ، إنما هو مُستْخلف فيه ، ولو كان ماله لحافظ عليه ، فالحق يردُّ الناس بالأحداث إلى طبيعة الفطرة الخلافية ، لأن فساد الكون يأتي من اعتبار الإنسان نفسه أصيلاً في الكون .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان إذا نظر في الكون نظرة فاحصة عادلة لَعلِم ما يأتي : أن كل شيء لم تتدخل فيه يَدُ الإنسان سليم ، ويؤدي مهمته على أكمل وجه ، وأن كل فساد في الكون إنما هو من تدخُّل الإنسان فيه بغير قانون ربه ، ولو تدخَّل فيه بقانون ربه لَصَلُحت له الأشياء التي تدخَّل فيها ، كما صَلُحَتْ له الأشياء التي لم يتدخل فيها .

وقلنا : إنك إذا رأيتَ عواراً في الكون فاعلم أنه نتيجة حقٍّ مُضيَّع من حقوق الله ، فحين

ترى فقيراً يتضوَّر جوعاً أو عرياناً لا يملك ما يستر عورته ، فاعلم أن الأغنياء قصَّروا في أداء حق الله في الزكاة ؛ لأن الله تعالى شرعها بحساب ، فلو أن القادر أخرج الزكاة المفروضة في ماله لما بقي في المجتمع المحيط به محتاج .

(46/614)

ثم يريد منا الحق سبحانه أن نحافظ في نفوسنا على إيمان الفطرة ، وعلى الذرة الإيمانية الأولى التي لم تدخلها الشهوة ، ولم يخالطها النسيان ، هذه الذرة التي شهدت العهد الأول الذي قال الله فيه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : 173]

أي : قبل أنْ تأخذكم شهوات الدنيا ونسيانها فتُنكروا هذه الشهادة ، وتقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ [الأعراف : 172-173]

فالذي يحافظ على هذه الذرة ، وعلى هذه اللمسة الربانية التي وضعها الله فيه بيده ، وعلى العهد الذي أخذه الله عليه يبقى له نور هذه الفطرة ، وتظل هذه النورانية متأججة

في نفسه ، فإن أهملها طمستْها الذنوب والغفلة .

لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل فيقول : " تُعرض الأمانة – أي : التكاليف الاختيارية من الله – على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّما قلب أُشْرِبها نُكِتَتْ فيه نكتة بيضاء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكِتت فيه نكتة سوداء حتى تكون على قلبين : أبيض مثل الصَّفا ، لا تضره فتنة ما دامتْ السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرباداً كالكوز مجَخِّياً ممقوتاً ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكراً " .

فالطاعات أو الذنوب تتراكم على القلب كما تُصَفُّ عيدان الحصير عوداً بجوار عود ، فيبيضّ القلب بالطاعات ، أو يسودّ بالمعاصي .

(47/614)

والإنسان منه مادة ومنه روح ، الروح في المادة تعطيها الحياة والحركة والفهم والفكر والتصرف ، وهما قبل أن يلتقيا كانا مُسبِّحَيْن لله تعالى ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . ﴾ [النور : 41]

وعلى الإنسان أنْ يفهم هذه الحقيقة ، وأن يحافظ على الطبيعة الإيمانية في ذراته ومكوناته لتظل مشرقة نيِّرة بنور الإيمان ، فإنْ غفل عن هذه الطبيعة حدثتْ الأغيار ، وحدث عدم

الانسجام بين ذراته في الذات البشرية ، فحين تحمل إرادتُك الجسمَ والروحَ على المعصية يكرهك جسمك ، وتكرهك روحك ؛ لأنك خالفتَ منهج خالقها – عز وجل – فهي مُسبّحة عابدة وأنت لاهٍ غافل عَاصٍ ؛ لذلك تلعنك روحك وتلعنك أبعاضك .

ومن رحمة الله بالعاصي أن ينام فترتاح أبعاضه ، وترتاح روحه من معاصيه ، وتأخذ راحتها في عبادة ربها ، حيث لا منازع لها ، ولا معاند من إرادة صاحبها ، لذلك يشعر الإنسان بالراحة عند النوم ، ويقوم منه نشيطاً لما حدث من انسجام وتعادل بين ذرات ذاته أثناء النوم .

لذلك ورد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تنام عينه ولا ينام قلبه ؛ لأن أبعاضه منسجمة دائماً في نومه وفي يقظته ، فإذا رأيتَ إنساناً يغلب عليه أنه مُنْهك القوى فاعرف أنه قد أتعب ذراته ، وأنها تودُّ الخلاص منه بالنوم ، وكأنها تقول له نَمْ فلم تَعْدُ صالحاً للتعايش معي .

إذن : الحق سبحانه يُنبِّهنا دائماً من هذه الغفلة بواسطة الرسل ، ثم يترك سبحانه للرسالات التي سبقتْ أدلة تؤيد الرسل الموجودين ، وتعينهم على أداء مهمتهم ؛ لذلك يقول لنا : انظروا إلى الرسل الذين سبقوا ، وكيف كانت عاقبة المكذِّبين بهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون . . ﴾ [السجدة : 26] كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ [الفجر : 6-10]

فهذه الأهرامات التي يَفِد إليها الناس ، والتي تُعَدُّ مزاراً سياحياً هي آية من آيات الله تقوم دليلاً على هلاك أصحابها من المكذِّبين للرسل ، فالحق سبحانه لم يترك لأحد من خَلْقه عذراً بعد أنْ كشف له الآيات الكونية تشهد بوحدانيته تعالى وألوهيته ، والمعجزات التي تثبت صدق الرسل في البلاغ عن ربه ، ثم آيات الأحكام التي تحمل أقضية الحياة ، والتي لا يمكن لبشر أنْ يستدرك عليها ، والتي تحمل الحلَّ الشافي والدواء الناجع لكل داءات المجتمع .

وبعد ذلك تركت لهم تكذيب المكذِّبين أمام أعينهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137-138]

فها هي آثار عاد وثمود وغيرهم ما تزال شاهدةً عليهم ، بعضها فوق الأرض ، ومعظمها مطمور تحت طبقات الثَّرى ؛ لذلك نجد أن كل الآثار القديمة يجدونها في الحفريات تحت الأرض ، ولم لا وقد كانت العاصفة تهبُّ الهبَّة الواحدة ، فتبتلع القافلة بأكملها ، فما بالك

بهبَّات الرياح من أيام عاد حتى الآن . إذن : خذوا عبرة من مصير هؤلاء .

ومعنى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . ﴾ [السجدة : 26] يهدي : أي : يدلُّ ويرشد ويُبيِّن ويُوضِّح ، والهداية لها عناصر ثلاثة : هاد ومهديٌّ والشيء المهْدَى إليه ، ومادة : (هدى) تُستعمل في كتاب الله ثلاثة استعمالات :

الأول : أنْ يُذكر الهادي ، وهو الله عز وجل ، والثاني : أن يُذكر المهديّ وهم الخَلْق ، والثالث : وهو أنْ يُذكر المهدي إليه ، وهي الغاية التي يريدها الله .

(49/614)

وهذا الفعل يأتي مرة متعدِّياً بنفسه ، كما في سورة الفاتحة : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] أي : يا الله ، فالله هو الهادي ، ونحن المهديون ، والغاية هي الصراط المستقيم .

ومرة يُعدَّى الفعل باللام ، كما في ﴿ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا . . . ﴾ [الأعراف : 43] فلم يَقُلْ : هِدانا هذا ، ومرة يتعدى بإلى كما في ﴿ . . والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : 213]

فتلحظ أن الهادي واحد وهو الله تعالى ، والمهديّ هو الخَلْق ، لكن المهْدَي إليه هو

المختلف ، أما في هذه الآية فالأمر مختلف ، حيث يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . ﴾ [السجدة : 26] فلم تدخل اللام على المهْدى إليه ، إنما دخلتْ على المهدى ، فلم يقُلْ الحق سبحانه : أو لم يَهْدِ الله هؤلاء القوم لكذا .

فلماذا ؟

قالوا : لأن بعض الناس يظنون أن الله حين يهدي إلى الطريق يُحمِّلك مشقات التكاليف ؛ لذلك نرى بعض الناس ينفرون من التكاليف ويروْنَ فيها عبئاً عليهم ، ومن هنا عبد بعضهم الأصنام ، وعبد بعضهم الشمس أو القمر . . الخ ؛ لأنها آلهة بدون منهج وبدون تكاليف ، ليس لها أوامر ، وليس عندها نَواهٍ ، وما أيسر أنْ يعبد الإنسان مثل هذه الآلهة التي لا مطلوبات لها .

والذي يرى في التكاليف مشقة ، ويراها عبئاً عليه يراها كذلك ؛ لأنها تصادم مراد نفسه في الشهوات وتحدُّ من رغباته ، ومرادات النفس ربما أعطتْك لذة عاجلة ، لكن يعقبها حسرة وشر آجل .

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي يتحمل مشقة المذاكرة والدرس طمعاً في التفوق الذي ينتظر حلاوته ، وآخر يفضل اللذة السريعة العاجلة فيلعب ولا يهتم ، فيلاقي مذلَّة الفشل والاحتقار آخر العام .

إذن : عليك أنْ تقرن بين مشقة العمل والنتيجة والثمرة التي تنالها من ورائه ، وعندها تهون عليك مشقة التكاليف ؛ لأن ما ينتظرك من الأجر عليها أعظم مما قدَّمتَ وأبقى .

(50/614)

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نُقبل على التكاليف ، ونعرف أنها لمصلحتنا نحن ، وأنها في الحقيقة تشريف لنا لا تكليف ؛ لأن الذي كلفني لا يحتاج مني إلى هذا ، ولا ينتفع من عبادتي بشيء ، بل هو سبحانه يتحنن إليَّ ؛ لأكون أهلا لإنعامه وجديراً بفضله وكرمه .

ألم يقُلْ سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 7] فالمسألة إذن منك وإليك ، فالله سبحانه له صفات الكمال قبل أنْ يخلق عباده .

فاللام في ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . ﴾ [السجدة : 26] أي : لصالحهم ومن أجلهم ، وليس عليهم ، فالهدى لصالح المهدي لا الهادي ، ولو فهم الإنسان هذه الحقيقة وعرف أن الهداية راجعة إليه لَقبَّل يد مَنْ بلَغه عن الله هذا الفضل .

ويؤكد هذا المعنى – لمن فطن – قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿ أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ . . . ﴾ [لقمان : 5] فالهدى ليس حِمْلاً يحملونه ، إنما مطية يركبونها إلى الغاية النبيلة التي أرادها الله لهم .

فما الذي بيَّنه الله للمؤمنين ودلَّهم عليه ؟

يقول سبحانه : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ . . ﴾ [السجدة : 26] أي : انظروا إلى المخالفين للرسل من قبلكم ، وكيف أخذهم الله فلم يُمكِّنهم من رسله ، بل انتصر الرسل عليهم .

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد ، وهي بمعنى كثير ، كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك أي : مرات كثيرة لا تُعَدُّ ، والمراد أننا بيَّنا لكم كثيراً من الأمم التي عادتْ رسلها ، وكيف كانت عاقبتهم وغايتهم التي انتهوا إليها . ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40]

(51/614)

ومن مصلحتنا أنْ يُبيِّن الله لنا عاقبة المكذبين ؛ لأنه ينبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه . وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة في كلامنا عن قوله تعالى – من سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 35-36] فاعتبر الشواظ والنار من النِّعم التي ينبغي ألاَّ نُكذِّب بها ، لماذا ؟ لأنه نبَّهنا إليها

حتى لا نقع فيها .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ القرون . . ﴾ [السجدة : 26] القرن حدده العلماء بمائة عام ، لكن هذه المائة تتداخل ، ويقترن فيها عدة أجيال يجتمعون على مذهب أو مبدأ واحد ، فالقرن يقرن بين الجد والابن والحفيد ، هذا إنْ أردتَ الزمن وحده ، فإنْ قُرِن الزمن بعصر دين من الأديان أو نبي أو ملك ، فقد يطول القرن إلى الألف عام ، كما في قرن نوح عليه السلام .

فالقرن مرتبط بما قُرن به ؛ لذلك نقول : العصر الجاهلي ، عصر صدر الإسلام ، عصر بني أمية ، العصر العباسي ، عصر المماليك ، وما نزال حتى الآن نقول عن عصرنا : العصر الحديث .

والحق سبحانه يبين لنا في الحياة التي نعيشها أن الزمن متغير ، إلى أعلى في الماديات ، وإلى أدنى في المعنويات ، فكلما تقدَّم الزمن انحلَّ الناس من رِبْقة الدين وتفلَّتوا منه ؛ ذلك لأن الارتقاءات المادية ينتج عنها حضارات تستهوي النفوس وتغريها ، والنتيجة انحدار في القيم وفي الدين ، ولو أن الارتقاء كان متساوياً لسار الأمران في خطين متوازيين .

لذلك يقول تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً . . . ﴾ [يونس : 24]

ثم إنك لو نظرتَ إلى جزئيات الحضارة في الكون تجد أن الأمم صاحبة الحضارات لم تستطع أنْ تجعل لنفسها وقاية من اندحار حضارتهم ، ولم يستطيعوا صيانتها . حتى العصور التقدمية : كنا في العصر الحجري ، ثم عصر البخار ، ونحن الآن في عصر الفضاء .

إذن : نحن مرتقون فقط في الماديات ، لكن منحدرون في المعنويات ، لكن هل هذا الارتقاء المادي جاء عن امتلاك لمعالم هدى الله في الأرض ؟ لا ، لأن الله تعالى بيّن لنا : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9]

فأنا الذي أنزلتُ ، وأنا الذي ضمنتُ حفظه ، فلم أتركه لكم تحفظوه ، إذن : المسألة عن عجز منا ، وإلا فكتاب البداية موجود حجة علينا .

وقوله تعالى : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ . . ﴾ [السجدة : 26] أي : أنني لا ألقى القضايا بدون حجة أو دليل ، بل هي شاخصة أمامكم تمرون بها ، وترونَها ليل نهار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137-138]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : 26] فالله يحضُّهم على أنْ يستمعوا إلى سِيَر المكذِّبين المعاندين ، وما حاق بهم من انتقام الله منهم .

وبالله : الإنسان مهما قَصُر عمره ، ألم يَرَ ظالماً ، وألم يَرَ مصرع هذا الظالم وعاقبة ظلمه ، فإنْ

لمَ يَرَ ظالماً أَلمْ يُحدَّث عنه ؟ إذن : مما يصلح حال الناس أنْ يستمعوا إلى حكايات عن الظالمين وعن نهايتهم ، وما ينزل بهم من الانتقام الذي لا ينتظر الآخرة ، بل يُعَجِّل لهم في الدنيا .

وفي ذلك حكمة لله بالغة ؛ لأن الظالم ربما لا يرعوى ولا يرجع في الدنيا عن ظلمه ، فيظل يُعربد في الخَلْق ما أحياه الله ، لكن إنْ مسَّه شيء من العذاب ، فلربما عاد إلى رُشْده ، وإن لمَ يَعُدْ كان عبرة لغيره .

(53/614)

لذلك قال أهل المعرفة : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه . وربما مَنْ رآه ظالماً يراه مظلوماً ، ومَنْ أراد أن يرى نهاية ظالم فلينظر إلى مصارع الظالمين قبله .

وتأمل قول ربك : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً . . . ﴾ [الأنعام : 129]

فكأن الظالم له رسالة ، هي أن ينتقم من ظالم مثله ، وهكذا يُهلك الله هؤلاء بعضهم ببعض ؛ لأن الخيِّر طيِّب القلب لا يؤدب ظالماً ، فإن اعتديتَ عليه غلب عليه طابع التسامح والعفو .

ألمَ يَقُلْ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفار مكة : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " فكأن الله عز وجل يقول للخيِّر : اجلس أنت واسترح ، واترك الأشرار لي ، فسوف أرسل عليهم

من هو أشرّ منهم ليؤدبهم .

واختار الحق هنا حاسة السمع ﴿ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : 26] لأنها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف ، فبها نسمع ما يُحكَى عن الظالمين وبها نعتبر ، وفي موضع آخر سيقول ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27] ويقول : ﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يس : 68] فيُنوّع لنا ، ويُقلّب كل وسائل الإدراك لينبهنا من خلالها .

والمعنى ﴿ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : 26] ما يُرْوَى لهم عن مصارع الظالمين ، لقد نبهناهم وذكَّرناهم ، ومع ذلك أشركوا وجعلوا سمعهم (ودن من طين ، وودن من عجين) .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27)

(54/614)

أولاً لك أن تلحظ هنا توافق النسق القرآني بين صدر الآيات وعَجُزها ، ففي الآية السابقة قال سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . . ﴾ [السجدة : 26] أي : يدلُّ ويرشد ، والكلام فيها عن قصص تاريخي ، فناسبها ﴿ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : 26] أما هنا فالكلام عن مشاهد مرئية ، فناسبها ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27] فهذا ينبغي

أنْ يُسمع ، وهذا ينبغي أنْ يُرى .

وفي الآية السابقة قال سبحانه ﴿ أَهْلَكْنَا . . . ﴾ [السجدة : 26] لنعتبر بإهلاك المكذبين في الماضي ، أما هنا فيلفتنا إلى آية من آياته في الكون ، فيأتي الفعل ﴿ نَسُوقُ الْمَآءَ . . ﴾ [السجدة : 27] بصيغة المضارع الدالّ على التجدّد والاستمرار ، ففي كل الأوقات يسوق الله السحب ، فينزل منها المطر على الأرض (الجرز) أي : الجدبة ، فتصبح مُخضرة بأنواع الزروع والثمار ، وهذه آية مستمرة نراها جميعاً ، ولا تزال في الحال وفي الاستقبال ، ولأن هذه الآية واقعة الآن تحتاج منا المشاهدة والتأمل قال في ختامها ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27]

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ [الكهف : 7-8] فالجُرُز هي الأرض المقطوع منها النبات ، إما لأن الماء شحَّ عليه فجفَّ ، وإما أنه استُحصد فحصدوه .

ومعنى ﴿ نَسُوقُ الْمَآءَ . . ﴾ [السجدة : 27] السَّوْق : حَثٌّ بسرعة ؛ لذلك تقول للذي يتعجلك (ما لك سايقنا كده) ، ومعلوم أن السَّوْق يكون من الوراء ، على خلاف القيادة ، فهي من الأمام ، فالذي تسوقه تسوقه وهو أمامك ، تراه فلا يتفلت منك ، ولو كان خلفك فهو عُرْضة لأنْ يهرب منك ، فلا تشعر به .

والسَّوْق مرة يكون للسحاب ، كما في قول الله تعالى ﴿ والله الذي أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ . . . ﴾ [فاطر : 9]

ومرة يكون السَّوْق للماء نفسه كما في هذه الآية ، وسَوْق الماء له عدة مظاهر : فالله يسوق الماء من السحاب إلى الأرض ، فإذا نزل إلى الأرض ساقه في الأنهار ، أو سلكه ينابيع في الأرض ليحتفظ لنا به لحين الحاجة إليه .

فربُّنا – عز وجل – جعل لنا خزانات للماء تحت الأرض ، لا لنحرم منه حين يوجد ، لكن لنجده حين يُفقد ، وكون الماء ينابيع في الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا ، فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها ، مما يحفظ لنا الماء العَذْب .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقياً – أرض خصبة – قبلتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشْب ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فشرب الناس منه وسَقُوا أنعامهم وزروعهم ، وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم " .

فهذه أنواع ثلاثة من الأرض تمثل انتفاع الناس بالعلم ، فالأولى تسمك الماء ، وتُخرِج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ، ولك أن تسأل : فما فائدة الثالثة : القيعان التي لا

تُمسِك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هي التي تسلك الماء في باطن الأرض ، وصدق الله : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : 22] وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30]

(56/614)

إذن : هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فَطِن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أنَّ الماء حين يسلكه الله ينابيع في باطن الأرض يسيح فيها ، أو يحدث له استطراق سائلي يختلط فيه العذب بالمالح ، لا . . إنما يسير الماء العَذْب في شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين المائيْن على وجه الأرض ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 19-20] كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض .

فالحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى هذه الآية المشاهدة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ . . ﴾ [السجدة : 27] نعم ، هذه آية نشاهدها جميعاً ، لكن المراد هنا مشاهدة تمعُّن وتذكّر وعظة وتعقُّل ، نهتدي من خلالها إلى قدرة الخالق عز وجل .

وقوله سبحانه ﴿ أَنَّا نَسُوقُ . . ﴾ [السجدة : 27] فيه دليل على قيُّوميته تعالى على الخلق ، فإنْ كان سَوْق الماء يتم بواسطة الملائكة المكلفين به ، إلا إنه تعالى صاحب الأمر الأول والمتتبع لعملية تنفيذه .

وقدَّم الحق سبحانه الأنعامَ على الإنسان في الأكل من الزرع ، مع أنها كلها مملوكة للإنسان ؛ لأن الأنعام في الغالب ما تأكل من الزرع ، وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، ليأكل منه الإنسان ، وأيضاً هو سبحانه حين يطعم الأنعام فإنما يطعم مَنْ جعله له فاكهة طعام ، وهي الأنعام .

وأشرنا إلى أن دِقَّة البيان القرآني اقتضتْ أنْ تختم هذه الآية المشاهدة بقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27] لأن هذه مسألة تتعلق بالبصر .

(57/614)

ولك أن تقرأ في مثل هذه الدقَّة قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 71-72]

فقال في الأولى ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : 71] لأنها تتكلم عن آية الليل ، والسمع هو وسيلة الإدراك فيه ، وقال في الأخرى ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 72] لأنها تتكلم عن آية النهار ، والبصر هو وسيلة الإدراك في النهار ، إذن : نلحظ دقَّة الأداء وإعجازه ؛ لأن المتكلم إله ورب ، فلا بُدَّ أنْ تجد كل لفظة في مكانها المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا . . . ﴾ .

(متى) يُستفهم بها عن الزمان ، والاستفهام بها يدل على أنك استبطأت الشيء فاستفهمتَ : متى يحدث ؟

الرسول صلى الله عليه وسلم حين بُعِث أخبر قومه أنه مُرْسَل إليهم بمنهج من الله ، وقد أيده الله بالمعجزات ، وأخبرهم بمصير مَن اتبعه ومصير مَنْ خالفه ، وأن ربه – عز وجل – ما كان ليرسله إليهم ، ثم يُسلْمه أو يتخلى عنه ، فهو لا بُدَّ منتصر عليهم ، فهذه سنة الله في أنبيائه ورسله ، حيث قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173]

لذلك قلنا : إذا رأيت موقفاً لم ينتصر فيه المسلمون ، حتى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة الصحابة ، فاعلم أن الجندية عندهم قد اختلتْ شروطها ، فلم يكونوا في حال الهزيمة جنوداً لله متجردين .

(58/614)

وحين نتأمل الأحداث في (أحُد) نجد أن الله تعالى يقول للمسلمين : لا تظنوا أن وجود رسول الله بينكم يحميكم أو يُخرِجكم عن هذه القضية ، فهذه سنة الله في كونه لا تتبدل . ففي (أُحُد) خالف المسلمين أوامر رسول الله ، حين نزل الرماة وتركوا أماكنهم طمعاً في الغنائم ، فالتفَّ عليهم المشركون ، وكانت النتيجة لا نقول انهزموا إنما هم لم ينتصروا ؛ لأن المعركة (ماعت) والرسول موجود بينهم .

والبعض يرى في هذه النتيجة التي انتهتْ إليها الحرب في أُحُد مأْخذاً ، فيقول : كيف يُهزم جيش يقوده رسول الله ؟ وهذه المسألة تُحسَب للرسول لا عليه ، فالرسول لن يعيش بينهم دائماً ، ولا بُدَّ لهم أن يروْا بأعينهم عاقبة مخالفتهم لأمر رسول الله ، وأنْ يشعروا بقداسة هذه الأوامر ، ولو أنهم انتصروا مع المخالفة لفقدوا الثقة في أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولِمَ لا وقد خالفوه في أُحُد وانتصروا ! !

كذلك في يوم حنين الذي قال الله فيه : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . . ﴾ [التوبة : 25]

وكان من إعجاب المؤمنين بكثرتهم أن يقول أبو بكر نفسه : لن نُغْلَب اليوم عن قلة ، لذلك لقَّنهم الله تعالى درساً ، وكادوا أنْ يُهزموا ، لولا أن الله تداركهم في النهاية برحمته ، وتحوَّلت كفَّة الحرب لصالحهم ، وكأن التأديب جاء على قدر المخالفة .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا امتثال أمره ، وأنْ نخلص في الجندية لله سبحانه ، وأن ننضبط فيها لنصل إلى الغاية منها ، فإنْ خالفنا حُرِمْنا هذه الغاية ؛ لأنني لو أعطيتُك الغاية مع المخالفة لما أصبح لحكَمي مكان احترام ولا توقير .

(59/614)

وهنا يحكي الحق – تبارك وتعالى – عن المشركين قولهم لرسول الله : ﴿ متى هذا الفتح . . ﴾ [السجدة : 28] أي : النصر الذي وعدكم الله به ، وقد كان هذا النصر غاية بعيدة المنال أمام المؤمنين ، فما زالوا قلَّة مُستضعفة .

لذلك لما نزل قول الله تعالى :

﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] تعجب عمر حتى قال : أيُّ جمع هذا ،

ونحن لا نستطيع أنْ نحمي أنفسنا ؟ لكن الحق سبحانه لمْ يُطل عليهم هذا الوضع ، وسرعان ما جاءتْ بدر ، ورأى عمر بعينه كيف تحقَّق وعد الله ، وكيف هُزِم جَمْع المشركين ، ورددها بنفسه بعد المعركة : نعم يا رب ، سَيُهزم الجمع ويولون الدبر .

ومن العجيب أنْ يدل رسول الله على الكفار وعلى أصحابه وأنصاره بفيض الله عليه ، وأنه أخبره بنتيجة المعركة قبل حدوثها ، فيقف صلى الله عليه وسلم في أرض بدر ، ويشير بعصا في يده إلى مصارع المشركين : هذا مصرع أبي جهل ، وهذا مصرع عتبة ، وهذا مصرع الوليد . . الخ .

فمَنْ يستطيع أنْ يحدد نتيجة معركة بهذا التفصيل ، والمعركة أَخْذٌ وردّ وكرّ وفرّ واختلاط ، مع أنهم لم يخرجوا لحرب ، إنما خرجوا لملاقاة قافلة قريش التجارية ، فما بالك لو خرجوا على حال استعداد للحرب ، وهذه سيأخذها الكفار قياساً يقيسون عليه قوة المسلمين الوليدة ، وسيقذف الله بهذه النتيجة الرعب في قلوب الكفار ، ولمْ لا وقد انتصرتْ القلة المستضعفة غير المجهزة علة الكثرة المتعجرفة المستعدة للحرب .

والاستفهام هنا ﴿ متى هذا الفتح . . . ﴾ [السجدة : 28] ليس استفهاماً على حقيقته ، إنما يراد به الاستهزاء والسخرية ، وجواب الله على هذا الاستفهام يحدد نيتهم منه ، فهم يستبعدون هذا النصر وهذه الغلبة التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، لكنهم يستبعدون قريباً ، ويستعلجون أمراً آتياً لا ريب فيه .

وقد سجَّل القرآن عليهم مثل هذا الموقف في قوله تعالى حكاية عن الكفار يقولون لرسولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70]

كلمة (الفتح) إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون ، فاعلم أنها نعمة محروسة لك سينالك نفعها ، فإنْ جاءت نكرة فلا بُدَّ لها من متعلق يوضح الغاية منها : أهذا الفتح لك أم عليك ؛ فقوله تعالى في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه صلى الله عليه وسلم ، فهو غُنْم لا غُرْم ، كما يقولون في حسابات البنوك : له وعليه .

أما الأخرى ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [الأنعام : 44]

إذن : تنبَّه لما يفتحه الله عليك ؛ ولا تغترَّ به ، وتأمَّل : أهو لك أم عليك ؟ وإياك أنْ تُطغيك النعمة إذا (زهزهتْ) لك الدنيا ، فلعلها استدراج وأنت لا تدري ، فالفتح يحتمل المعنيين ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض . . . ﴾ [الأعراف : 96] أي : احذروا هذه النعمة لا تطغيكم .

وكلمة (الفتح) تأتي بمعانٍ متعددة ، يحددها السياق ، كما قلنا في كلمة العين ، فتأتي بمعنى العين الباصرة . تقول : رأيت فلاناً بعيني ، وتقول : جُدْت على فلان بعيْن مني أي : بالذهب أو الفضة ، وتقول : سمحتُ له أنْ يروي أرضه من عيني أي : عين الماء ، وتقول : هؤلاء عيون فلان أي : جواسيسه .

وهذا يسمونه : المشترك اللفظي .

(61/614)

وكلمة (الفتح) تستخدم أولاً في الأمر المادي ، تقول : فتحتُ الباب أي : أزلت مغاليقه ، وهذا هو الأصل في معنى الفتح . فالحق سبحانه يقول في قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [يوسف : 65] ففتحوا متاعهم الفتح المادي الذي يزيل عنه الأربطة .

وقد يُراد الفتح المعنوي ، كما في قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 76] أي : بما أعطاكم الله ومنحكم من الخير ومن العلم .

ويأتي الفتح بمعنى إظهار الحق في الحكم بين حق وباطل وتجلية الأمر فيه ؛ لذلك يسمى

أهل اليمن القاضي (الفاتح) .

ويأتي بمعنى النصر والغلبة ، كما في هذه الآية التي معنا : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [السجدة : 28] ولا بد أنْ يقول المؤمنون في إجابة هذا السؤال : نحن لا نقول أننا صادقون أو كاذبون في هذا الخبر ؛ لأن هذه مسألة بعيدة عنا ، ولا دخْلَ لنا بها ، إنما هي من الله الذي أخبرنا هذا الخبر ، فنحن لا نُوصَف فيه ، لا بصدق ولا بكذب .

ولكي يكون الإنسان عادلاً ينبغي أنْ ينسب الفعل إلى فاعله ، أرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبر قومه خبر إسرائه قال : " لقد أُسْرِي بي الليلة من مكة إلى بيت المقدس " ولم يقل سريت ومع ذلك سأله القوم : أتدَّعى أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ وهذه مغالطة منهم ، لا عدم فهم لمقالة رسول الله ؛ لأنهم أمة كلام ، ويفهمون جيداً معاني الألفاظ .

(62/614)

إذن : رسول الله ما سَرَى بذاته ، إنما أَسْرى الله به ، فمَنْ أراد أن يبحث هذه المسألة فليبحثها في ضوء قدرة الله ، وكيف يكون الزمن بالنسبة لله تعالى ، وقلنا : إن الفعل الذي يستغرق زمناً هو الفعل العلاجي ، إنما ربنا – تبارك وتعالى – لا يعالج الأفعال ، فقط يقول

كُنْ فيكون ، والفعل يتناسب مع زمنه تناسباً عكسياً ، فكلما زادت قوة الفاعل قَلَّ زمن الفعل . وعليه لو نسبتَ حادثة الإسراء إلى قوة الحق تبارك وتعالى لوجدتَ الزمن لا زمن .

ثم يجيب الحق تبارك وتعالى عن سؤالهم ﴿ متى هذا الفتح . . ﴾ [السجدة : 28] بما يفيد أنه سؤال استبعاد واستهزاء ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح . . . ﴾ .

أي : لِمَ تسألون عن يوم الفتح ؟ وماذا ينفعكم العلم به ؟ إن يوم الفتح إذا جاء أُسْدل الستار على جرائمكم ، ولن تنفعكم فيه توبة أو إيمان ، ولن تنفعكم فيه توبة أو إيمان ، ولن يُنْظِرَكم الله إلى وقت آخر .

ومعلوم أن الإيمان لا ينفع صاحبه إلا إذا كانت لديه فُسْحة من الوقت ، أما الإيمان الذي يأتي في النزع الأخير ، وإذا بلغت الروح الحلقوم فهو كإيمان فرعون الذي قال حين أدركه الغرق :

﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90]

فردَّ الله عليه هذا الإيمان ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 91]

الآن لا ينفع منك إيمان ؛ لأنك مُقْبل على الله ، وقد فات أوان العمل ، وحَلَّ أوان الحساب ، الإيمان أنْ تؤمن وأنت حريص صحيح تستقبل الحياة وتحبها ، الإيمان أن تؤمن عن طواعية .

﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [السجدة : 29] أي : ليس لكم الآن إمهال ؛ لأن الذي خلقكم

يعلم سرائركم ، ويعلم أنه سبحانه لو أمهلكم لَعُدْتم لما كنتم عليه ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28]

(63/614)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانتظر . . . ﴾ .

هذا المعنى كما نقول في العامية (اديني عرض كتافك) أي : انصرف عنهم ، فلم يَعُدْ بينك وبينهم لقاءٌ ، ولا جدوى من مناقشتهم والتناظر معهم فقد استنفدوا كل وسائل الإقناع ، ولم يَبْقَ لهم إلا السيف يردعهم ، على حَدّ قول الشاعر :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عَقّبْ بعدَها وَعيداً . . . فَإنْ لَمْ يُغْنِ أَغْنَتْ عَزَائمهُ

فقد بلَّغهم رسول الله وأنذرهم ، لقد بشَّرهم بالجنة لمن آمن ، وحذرهم النار لمن كفر فلم يسمعوا . إذن :

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْي أو حَدّ مُرْهَف . . . فالعاقل الوحي يقنعه ، والجاهل السيف يردعه .

وقوله سبحانه : ﴿ وانتظر . . ﴾ [السجدة : 30] أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أي : انتظر وعدي لك بالنصر والغلبة ، وقلنا : إن وعد الله محقق ، حيث لا توجد قوة أخرى تمنعه من إنفاذ وعده ، أما الإنسان فعليه حين يَعِد أنْ يتنبه إلى بشريته ،

وأنه لا يملك شيئاً من أسباب تنفيذ ما وعد به .

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ . . . ﴾ [الكهف : 24] وتعليق أمرك على مشيئة الله عز وجل يحميك أن تكون كاذباً إذا لم تَفِ بما وعدتَ به ، فأسباب الوفاء بالوعد لا يملكها البشر ، إنما يملكها خالق البشر سبحانه ، فإذا وعد فاعلم أن وعده متحقق لا محالة .

وقلنا : إنك حين تقول لصاحبك مثلاً : سأقابلك غداً أو سأفعل لك كذا وكذا ، نعم أنت صادق وتنوي الوفاء ، لكنك لا تملك في الغد سبباً واحداً من أسباب الوفاء ، فلربما طرأ لك طارئ ، أو منعك مانع ، وربما تغيَّر رأيك . . الخ .

(64/614)

وفَرْق بين انتظار رسول الله حين ينفذ أمر ربه ﴿ وانتظر ﴾ [السجدة : 30] وبين ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة : 30] فانتظار رسول الله لشيء محقق ، له رصيد من القوة والقدرة ، أما انتظارهم فتسويل نفس ووسوسة شيطان ، لا رصيد لها من قوة وإنقاذ .

ومعنى ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة : 31] أي : ينتظرون أن يحدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم شيء يمنعه من تبليغ رسالة ربه ، وهذا حمق منهم ، فقد كان عليهم أن

يعلموا أن الرسول مُؤَيَّد من الله مُرْسَل من قِبَله لهدايتهم ، وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ثم يُسْلمه أو يخذله ، فسنة الله في الرسل أن لهم الغلبة مهما قويتْ شوكة المعاندين لهم .

إذن : لا سبيلَ إلى ذلك ، ولا سبيلَ أيضاً إلى الخلاص منه أو حتى تخويفه ليرتدع ، ويدع ما يدعو إليه من منهج ربه .

وقد ورد هذا الانتظار في موضع آخر بلفظ (التربص) في قوله تعالى : ﴿ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ [الطور : 31]

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين . . . ﴾ [التوبة : 52] أي : ماذا تنتظرون منا ونحن أمام حُسْنيين : إما النصر والغلبة عليكم ، وساعتها ندحركم ونُذلكم . أو الشهادة التي تضمن لنا حياة النعيم الباقية الخالدة

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فتربصوا . . . ﴾ [التوبة : 52]

يعني : تربَّصوا بنا ، فنحن أيضاً نتربص بكم ، لكن فَرْق بين تربُّصنا وتربُّصكم .

وهذه السورة سميت (السجدة) أولاً : لأن بها سجدة تلاوة ينبغي أن نسجد الله شكراً عندها ، والسجود يمثل منتهى الخضوع للحق – تبارك وتعالى – فإذا جاءت هذه الآية التي تهز كيان الإنسان يعلمنا ربنا أن ننفعل لهزَّة الكيان ، وأن نسارع بالسجود ، ولا ننتظر سجودنا بعد ذلك في الصلاة .

فكأن في هذه الآية آمراً قوياً وسراً عظيماً استدعى أنْ نُخرِجَ السجود عن موقعه بأمر مَنْ شرع السجود الأول . إذن : لا بُدَّ أن في آيات سجود التلاوة طاقاتٍ جميلة من نِعَم الله تُذكِّرني به .

والحق سبحانه يريد أنْ يشعر الخَلْق أنهم يستقبلون نعماً جديدة ، لا يكفي في شكرها السجود الرتيب الذي نعرفه ، فيشرع لها سجوداً خاصاً بها .

وفي السورة أيضاً بعض الإشارات التي وقف عليها العارفون وقالوا : إنها تضع نماذج لصيانة النفس الإنسانية ، وعدم بُعْدها عن حكمة خالقها ، ومن هذه الإشارات أن العين ترى الأشياء فتقول : هذا حسن ، وهذا قبيح ، ذلك من مجرد الشكل الخارجي ، لكن على المرء أنْ يتأمل الأشياء ويعرف معنى القبح .

القبح ليس ما قَبُحَ في نظرك ، إنما القبيح الذي يُخرِجِ الحُسْن التكليفي عن مناطه ؛ لأن الخالق – عز وجل – خلق كل شيء جميلاً ، كما قال سبحانه : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . . . ﴾ [السجدة : 7]

فإذا قَبُحَ الشيء في نظرك فاعلم أنك نظرتَ إلى جانب الشكل ، وأهملتَ جوانب أخرى ،

وقُلْ إنني لم أتوصل إلى سرِّ الجمال فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الخالق سبحانه نثر المواهب بين خَلْقه بحيث تجد مجموع مواهب كل إنسان تساوي مجموع مواهب كل إنسان ، فلا تنظر إلى جانب واحد فتقول : هذا غني ، وهذا فقير ، لكن انظر إلى الجوانب الأخرى .

ويُرْوَى أن سيدنا نوحاً عليه السلام رأى كلباً أجرب فبصق عليه ، فأنطق الله الكلب الأجرب ، وقال له : أتعيبني أم تعيب خالقي ؟ والمعنى أنه خلقني لحكمة ، ولمعنى من المعاني .

وصدق القائل :

لِلقُبْح وَقْتٌ فِيهِ يَظْهر حُسْنُه . . . ويُحمد مَنْ غشَّ البناءَ لَدَى الهَدْم

كذلك نثر الحق سبحانه حكمه ، ونثر خيره في كتابه ، فلا تغنى آية عن آية ، ولا تغني كلمة عن كلمة ، ولا حرف عن حرف ، لكن البصائر التي تَتَلَقَّى عن الله هي التي تستطيع أنْ تقف على أسرار الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(66/614)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) ﴾

أخرج عبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوأة ، ورأيت عيسى بن مريم عليه السلام مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن جهنم والدجال في آيات أراهن الله إياه قال ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ فكان قتادة يفسرها أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقي موسى ﴿ وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ قال : جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة بسند صحيح عن ابن عباس " عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ من لقاء موسى ربه ﴿ وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ قال : من لقاء موسى قيل : أو لقي موسى ؟ قال : نعم . ألا ترى إلى قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك

من رسلنا ﴾ [الزخرف : 45] .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ قال : من أن تلقى موسى .

وأخرج الحاكم عن مالك أنه تلا ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ فقال : حدثني الزهري أن عطاء بن يزيد حدثه عن أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول " ما رزق عبد خيراً له أوسع من الصبر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وجعلنا منهم أئمة ﴾ قال : رؤساء في الخير سوى الأنبياء ﴿ يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ قال : على ترك الدنيا . والله أعلم .

(67/614)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27)

أخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ قال : الجرز التي لا تمطر إلا قطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ قال : أرض باليمن .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ قال : هي التي لا تنبت هن أبين ونحوها من الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ قال : السمطاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ قال : إلى الأرض الميتة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ قال : قرى فيما بين اليمن والشام .

وأخرج أبو بكر وابن حبان في كتاب الغرر عن الربيع بن سبرة قال : الأمثال أقرب إلى العقول من المعاني ، ألم تسمع إلى قوله ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ " ألم تر " ؟ " ألم يروا " .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : قال الصحابة أن لنا يوم يوشك أن نستريح فيه ونتنعم فيه . فقال المشركون ﴿ متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ فنزلت .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ قال : يوم بدر فتح النبي صلى الله عليه وسلم فلم ﴿ ينفع الذين

كفروا إيمانهم ﴾ بعد الموت .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قل يوم الفتح ﴾ قال : يوم القيامة .

(68/614)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ قل يوم الفتح ﴾ قال : يوم القضاء . وفي قوله ﴿ وانتظر إنهم منتظرون ﴾ قال : يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(69/614)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ :

قرأ الحسنُ بالضمِّ وهي لغةٌ .

قوله : " مِنْ لقائِه " في الهاءِ أقوالٌ ، أحدُها : أنها عائدةٌ على موسى . والمصدرُ مضافٌ لمفعولِه أي : مِنْ لقائِك موسى ليلةَ الإِسراء . وامتحن المبردُ الزجّاج في هذه المسألةِ فأجابه بما ذُكر . الثاني : أنَّ الضميرَ يعودُ على الكتاب . وحينئذٍ يجوزُ أن تكونَ الإِضافةُ للفاعلِ أي : من لقاءِ الكتاب لموسى ، أو المفعولِ أي : مِنْ لقاءِ موسى الكتاب ؛ لأنَّ اللقاءَ تَصِحُّ نسبتُه إلى كلٍ منهما . الثالث : أنه يعودُ على الكتاب ، على حَذْفِ مضاف أي : من لقاءِ مثل كتابِ موسى . الرابع : أنه عائدٌ على مَلَكَ الموتِ لتقدُّمِ ذِكْره . الخامس : عَوْدُه على الرجوعِ المفهومِ مِن الرجوع في قوله : ﴿ إلى ربِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : لا تَكُ في مِرْيةٍ مِنْ لقاء الرجوع . السادس : أنه يعودُ على ما يُفهَمُ مِنْ سياقِ الكلام ممَّا ابْتُلِي به موسى مِن البلاء والامتحان . قاله الحسن أي : لا بُدَّ أنَ تَلْقَى ما لَقِيَ موسى من قومه . وهذه أقوالٌ بعيدة ذكرْتُها للتنبيه على ضَعْفها . وأظهرُها : أنَّ الضميرَ : إمَّا لموسى ، وإما للكتاب . أي : لا تَرْتَبْ في أنَّ موسى لقي الكتابَ وأُنزِلَ عليه .

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24)

قوله : ﴿ لَمَّا [صَبَرُواْ] ﴾ : قرأ الأخوان بكسر اللام وتخفيفِ الميم على أنها لامُ الجرِّ ، و " ما " مصدريةٌ . والجارُّ متعلِّقٌ بالجَعْلِ أي : جَعَلْناهم كذلك لصَبْرهم ولإِيقانِهم . والباقون بفتحِها وتشديدِ الميم . وهي " لَمَّا " التي تَقْتضي جواباً . وتقدم فيها قولا سيبويه والفارسيِّ .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27)

قوله : ﴿ يُبْصِرُونَ ﴾ : العامَّةُ على الغَيْبة ، وابن مسعود على الخطاب التفاتاً .

وقرئ " الجُرْز " بسكون الراء . وقد تقدَّم أول الكهف .

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (29)

قوله : ﴿ يَوْمَ الفتح ﴾ : منصوبٌ ب " لا يَنْفَعُ " و " لا " غيرُ مانعةٍ من ذلك . وقد تقدَّم فيها مذاهبُ .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

قوله : ﴿ مُّنتَظِرُونَ ﴾ : العامَّة على كسرِ الظاءِ اسمَ فاعل . والمفعولُ من انتظِرْ ، ومِنْ منتظرون ، محذوفٌ أي : انتظرْ ما يَحُلُّ بهم ، إنهم منتظرون على زَعْمِهم ما يَحُلُّ بك .

وقرأ اليمانيُّ " مُنْتَظَرُون " اسمَ مفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 89 - 90 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوام كانوا في حَبرَةٍ ، كانوا في سرورٍ فآلوا إلى ثبور ؛ فجميع ديارهم ومزارِهم صارت لأغيارهم ، وصنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم ، سكنوا في ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم ، وكما قيل :

نعمةٌ كانت على قو . . . مٍ زماناً ثم بانت

هكذا النعمةُ والإح . . . سانُ مذ كان وكانت

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا

الإشارة فيه : تُسْقى حدائقُ وَصْلِهم بعد جفاف عودِها ، وزوال المأنوسِ من معهودِ ، فيعود عودها مورقاً بعد ذبوله ، حاكياً بحاله حال حصوله .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28)

استبعدوا يومَ التلاقي وجحدوه ، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

أعْرِض عنهم باشتغالك بنا ، وإقبالك علينا ، وانقطاعك إلينا .

﴿ وَانتَظِرْ ﴾ زوائدَ وَصْلِنا ، وعوائدَ لطفنا .

﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ هواجِمَ مقتنا وخفايا مكرنا . . وعن قريب يجد كلُّ منتظرَه محتضراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 147. 148 ﴾

(72/614)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بآياتنا ﴾

يعني : يصدق بآياتنا .

يعني : بالعذاب ﴿ الذين إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ﴾ يعني : وعظوا بها .

يعني : بآيات الله عز وجل ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ على وجوههم ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ يقول : وذكروا الله عز وجل بأمره ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن السجود كفعل الكفار .

ويقال : ﴿ الذين إِذَا ذُكِّرُواْ ﴾ يعني : دعوا إلى الصلوات الخمس .

أتوها فصلوها ، ولا يستكبرون عنها .

قوله عز وجل : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ ﴾ قال مقاتل : نزلت في الأنصار .

كانت منازلهم بعيدة من المسجد .

فإذا صلوا المغرب كرهوا أن ينصرفوا ، مخافة أن تفوتهم صلاة العشاء في الجماعة .

فكانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء .

ويقال : الذي يصلي العشاء والفجر بجماعة .

وقال أنس بن مالك : الذي يصلي ما بين المغرب والعشاء وهو صلاة الليل كما جاء في الخبر .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " رَكْعَةٌ فِي اللَّيْلِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ فِي النَّهَارِ " قال أبو الليث رحمه الله : حدثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدثنا السراج .

قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم .

قال : حدثنا أبو معاوية عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد العبسية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فيسمعهمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ البَصَرُ ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ سَيَعْلَمُ أَهْلُ الجَمْعِ اليَوْمَ مَنْ أَوْلَى بِالكَرَمِ .

فَأَيْنَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؟ فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيلٌ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ

حِسَابٍ .

ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : أَيْنَ الَّذِينَ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ؟ فَيَقُومُونَ ، وَهُمْ قَلِيلٌ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(73/614)

ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : أَيْنَ الَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ ؟ وَهُمْ قَلِيلٌ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

ثُمَّ يُؤْمَرُ بِسَائِرِ النَّاسِ فَيُحَاسَبُونَ " .

فذلك قوله عز وجل : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ يعني : يصلون بالليل ويقومون عن فرشهم ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ خوفاً من عذابه ، وطمعاً في رحمته ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ يعني : يتصدقون من أموالهم .

يعني : صدقة التطوع ، لأنه قرنه بصلاة التطوع .

ويقال : يعني : الزكاة المفروضة .

والأول أراد به العشاء والفجر .

ثم بيّن ثوابهم فقال عز وجل : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ يعني : ما أعدّ لهم ﴿ مّن

قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ يعني : من الثواب في الجنة .

ويقال : من طيبة النفس .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ " .

قال أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

قال مقاتل : قيل لابن عباس ، ما الذي أخفي لهم ؟ قال : في جنة عدن ما لم يكن في جناتهم .

قرأ حمزة ﴿ مَّا أُخْفِيَ ﴾ بسكون الياء .

وقرأ الباقون : بنصبها .

فمن قرأ بالسكون فهو على معنى الخبر عن نفسه .

فكأنه قال : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ ومن قرأ بالنصب فهو على فعل ما لم يسم فاعله على معنى أفعل .

وقرىء في الشاذ ﴿ وَمَا أُخْفِيَ ﴾ يعني : ﴿ وَمَا أُخْفِيَ اللهُ عَزِيزٌ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : جزاء لأعمالهم .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ يعني : لا يستوون عند الله عز وجل في الفضل .

نزلت الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وذلك أنه جرى بينهما كلام .

فقال الوليد لعلي : بأي شيء تفاخرني ؟ أنا والله أحد منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ منك في الكتيبة عيناً .

يعني : أكون أملأ مكاناً في العسكر .

فقال له علي رضي الله عنه : اسكت فإنك فاسق فنزل ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ .

وقال الزجاج : نزلت في عقبة بن أبي معيط .

قال : ويجوز في اللغة لا يستويان .

ولم يقرأ .

والقراءة ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ ومعناهما : لا يستوي المؤمنون والكافرون .

ثم بيّن مصير كلا الفريقين فقال تعالى : ﴿ أَمَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ أي : أقروا بالله ورسوله والقرآن ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : الطاعات ﴿ فَلَهُمْ جنات المأوى نُزُلاً ﴾ يعني :

يأوي إليها المؤمنون .

ويقال : يأوي إليها أرواح الشهداء ، وهو أصح في اللغة .

ثم قال : ﴿ نُزُلاً ﴾ يعني : رزقاً .

والنزل في اللغة هو الرزق .

ويقال : ﴿ نُزُلاً ﴾ يعني : منزلاً ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : بأعمالهم .

ثم بيّن مصير الفاسقين فقال : ﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ ﴾ يعني : عصوا ولم يتوبوا ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ فسقوا يعني : نافقوا وهو الوليد بن عتبة ومن كان مثل حاله ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ يعني : مصيرهم إلى النار ومرجعهم إليها ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ يعني : من النار ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ويقال : إن جهنم إذا جاشت ، ألقتهم في أعلى الباب .

(75/614)

فطمعوا في الخروج منها ، فتلقاهم الخزنة بمقامع فتضربهم ، فتهوي بهم إلى قعرها ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ وقال في آية أُخرى : ﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ : 42] بلفظ التأنيث .

لأنه أراد به النار وهي مؤنثة .

وهاهنا قال ﴿ الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ بلفظ التذكير لأنه أراد به العذاب وهو مذكر .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الادنى ﴾ وهو المصيبات والقتل والجوع ﴿ دُونَ العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب النار .

يعني : إن لم يتوبوا .

ويقال : ﴿ العذاب الادنى ﴾ هو السحر للفاسقين ، والعذاب الأكبر النار إن لم يتوبوا .

ويقال : ﴿ العذاب الادنى ﴾ عذاب القبر .

وقال إبراهيم : يعني : سنين جدب أصابتهم .

وقال أبو العالية : مصيبات في الدنيا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يعني : يتوبون .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِأيات رَبِّهِ ﴾ يعني : وعظ بآيات ربه القرآن ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ يعني : عن الإيمان بها فلم يؤمن بها ﴿ إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ ﴾ بالعذاب يعني : منتصرون .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ يعني : أعطينا موسى التوراة ﴿ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ قال مقاتل : يعني : فلا تكن في شك من لقاء موسى التوراة .

فإن الله عز وجل ألقى عليه الكتاب .

وقال في رواية الكلبي : ﴿ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ ﴾ من لقاء موسى عليه السلام ، فلقيه ليلة

أُسري به في بيت المقدس يعني : لقي النبي صلى الله عليه وسلم موسى هناك .

ويقال : لقيه في السماء .

وذكر الخبر المعروف أنه فرض على النبي صلى الله عليه وسلم خمسون صلاة .

فقال له موسى عليه السلام : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

(76/614)

فلم يزل يرجع حتى حطّ الله عز وجل إلى الخمس ويقال : ﴿ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ مّن لّقَائِهِ ﴾ يعني : من لقاء الله عز وجل وهو البعث بعد الموت .

ويقال : ﴿ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ مّن لّقَائِهِ ﴾ يعني : لا تشكن أنك تلقى موسى يوم القيامة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وجعلناه هُدًى لّبَنِى إسراءيل ﴾ يعني : جعلنا التوراة بياناً لهم ، وهدى من الضلالة .

ويقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى ﴾ يعني : جعلنا موسى هادياً لبني إسرائيل يدعوهم ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يعني : وجعلنا من بني إسرائيل قادة في الخير ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ يعني : يدعون الناس إلى أمر الله عز وجل ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ أي : حين صبروا ويقال : هو حكاية المجازاة ، يعني لما صبروا جعلنا منهم أئمة ومن قرأ بالتخفيف ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ أي

بكسر اللام والتخفيف .

وقرأ الباقون بالنصب والتشديد .

فمن قرأ بالتشديد ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ بما صبروا ، وتشهد لها قراءة ابن مسعود ، كان يقرأ ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ .

ويقال : معناه كما صبروا عن الدنيا ، وصبروا على دينهم ، ولم يرجعوا عنه .

ويقال : معناه وجعلناهم أئمة بصبرهم ﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون بالعلامات التي أعطي موسى .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : يقضي بينهم ﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين .

ثم خوّف كفار مكة فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ يعني : أو لم يبيّن لهم الله تعالى .

وقرىء في الشاذ ﴿ أَوَلَمْ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ بالنون .

وقرأ العامة بالياء .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ يعني : أو لم نبين لهم الهلاك ﴿ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون ﴾ يعني : قوم لوط وصالح وهود ﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ يعني : يمرون في منازلهم ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ يعني : في إهلاكهم لآيات لعبرات ﴿ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : أفلا يسمعون المواعظ فيعتبرون بها .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الماء إِلَى الأرض الجرز ﴾ يعني : اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات .

يقال : أرض جرز أي : أرض جدب لا نبات فيها .

يقال : جرزت الجراد إذا أكلت ، وتركت الأرض جرزاً ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ يعني : نخرج بالماء النبات ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أنعامهم ﴾ أي : من الكلأ والعشب والتبن ﴿ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ من الحبوب والثمار ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ هذه العجائب فيوحّدوا ربهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح ﴾ قال مقاتل : أي متى هذا القضاء وهو البعث ؟ وقال قتادة : ﴿ الفتح ﴾ القضاء .

وقال مجاهد : ﴿ الفتح ﴾ يوم القيامة ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ تكذيباً منهم يعنون به النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ الفتح ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إيمانهم ﴾ قال في رواية الكلبي : إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا

يتذاكرون فيما بينهم وهم بمكة قبل فتح مكة لهم .

وكان ناس من بني خزيمة كانوا إذا سمعوا ذلك منهم ، يستهزئون بهم ويقولون لهم : متى فتحكم هذا الذي كنتم تزعمون ؟ ويقولون : فنزل يعني : بني خزيمة .

﴿ متى هذا الفتح ﴾ يا أصحاب محمد إن كنتم صادقين .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ الفتح ﴾ أي : فتح مكة ﴿ لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إيمانهم ﴾ من القتل ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ حتى يقتلوا .

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ، بعث خالد بن الوليد إلى بني خزيمة ، وقد كانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية .

يعني : الحقد .

(78/614)

فقالوا : قد أسلمنا .

فقال لهم : انزلوا .

فنزلوا فوضع فيهم السلاح فقتل منهم ، وأسر .

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ "

؟ فبعث إليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالدية من غنائم خيبر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إيمانهم ﴾ من القتل ﴿ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يعني : يؤجلون .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ وانتظر ﴾ لهم فتح مكة ويقال : العذاب .

﴿ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ بهلاكك .

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل ، وتبارك الذي بيده الملك .

وروى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ قَرَأَ الم السَّجْدَة ، وَتَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ فَكَأَنَّمَا أَحْيَى لَيْلَةَ القَدْرِ " والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 33 ـ 38 ﴾

(79/614)

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الذين إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ

يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

عن الإيمان به والسجود له . ﴿ تتجافى ﴾ أي ترتفع وتنتحي ، وهو تفاعل من الجفا ، والجفا : التبوّء والتباعد ، تقول العرب : جاف ظهرك عن الجدار ، وجفت عين فلان عن الغمض إذا لم تنم . ﴿ جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ .

أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسن قال : أخبرني أبو عمرو عثمان بن أحمد ابن سمعان الوزان ، عن عبد الله بن قحطبة بن مرزوق ، عن محمد بن موسى الحرشي ، عن الحرث بن وحيه الراسبي قال : سمعت مالك بن دينار يقول : سألت أنس بن مالك عن قول الله تعالى : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ ، فقال أنس : كان أُناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ .

أخبرني الحسين بن محمد [عن موسى بن محمد ، عن الحسن بن محمد ، عن موسى بن محمد] عن الحسن بن علويه ، عن إسماعيل بن عيسى ، عن المسيب ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتاده ، عن أنس بن مالك قال : نزلت فينا معاشر الأنصار : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ الآية ، كنّا نصلّي المغرب ، فلا نرجع إلى رحالنا حتّى نصلّي العشاء مع النبي صلّى الله عليه وآله وسلم .

وأخبرنا الحسين بن محمد عن عبد الله بن إبراهيم بن علي بن عبد الله ، عن عبد الله بن محمد بن وهب ، عن محمد بن حميد ، عن يحيى بن الضريس ، عن النضر بن حميد ، عن سعيد ، عن الشعبي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من عقّب ما بين المغرب والعشاء بُني له في الجنّة قصران (ما بينهما) مسيرة (مائة) عام ، وفيهما من الشجر ، ما لو نزلها أهل المشرق وأهل المغرب لأوسعتهم فاكهة ، وهي صلاة الأوّابين وغفلة الغافلين ، وإنّ من الدعاء المستجاب الذي لا يرد الدعاء ما بين المغرب والعشاء " .

وقال عطاء : يعني يصلّون صلاة العتمة لا ينامون عنها ، يدلّ عليها ما أنبأني عبد الله بن حامد ، عن عبد الصمد بن الحسن بن علي بن مكرم ، عن السري بن سهل ، عن عبد الله بن رشيد قال : أنبأني أبو عبيدة مجاعة بن الزبير ، عن أبان قال : جاءت امرأة إلى أنس بن مالك ، فقالت : إنّي أنام قبل العشاء . فقال : لا تنامي . فإنّ هذه الآية نزلت في الذين لا ينامون قبل العشاء الآخرة ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وابن زيد : هو التهجّد وقيام الليل ، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه عن أبي بكر بن مالك القطيعي ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أَبي عن زيد بن الحبّاب ، عن حمّاد بن سلمة ، عن عاصم ، عن شهر بن حوشب ، عن معاذ ،

عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ قال : قيام العبد في الليل .

(81/614)

وأخبرنا عبدالله بن حامد الأصفهاني ، عن محمّد بن عبدالله بن عبد الواحد الهمداني ، عن إسحاق بن إبراهيم الدبري ، عن عبد الرزاق بن معمر ، عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل ، " عن معاذ قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبيّ الله ألا تخبرني بعمل يدخلني الجنّة ، ويباعدني من النار ؟ قال : يا معاذ ، لقد سألت عن عظيم ، وإنّه ليسير على من يسّرهُ الله عليه ، تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت . ثمّ قال : ألاَ أدلُّك على أبواب الخير . الصوم جُنّة من النار والصدقة تطفئ غضب الربّ وصلاة الرجل في جوف الليل ثمّ قرأ ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾ حتّى بلغ ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ثمّ قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه . فقلتُ : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه . فقال : " اكفف ، عليك هذا " .

فقلت : يا رسول الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم ؟ فقال : " ثكلتك أُمّك يا معاذ وهل يكبّ

الناس في النّار على وجوههم أو على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم " " .

وقال الضحّاك : هو أنْ يصلّي الرجل العشاء والغداة في جماعة .

أخبرني الحسين بن فنجويه عن أحمد بن الحسين بن ماجة قال : أخبرني أبو عوانة الكوفي بالري عن منجاب بن الحرث عن علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يُسمع الخلائق كلّهم : سيعلمُ أهل الجمع اليوم مَنْ أولى بالكرم ، ثمّ يرجع فينادي : ليقم الذين كانت تَتَجافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ فيقومون وهم قليل ، ثم يرجع فينادي : ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء . فيقومون وهم قليل ، فيسرحون جميعاً إلى الجنّة ثمّ يحاسب سائر الناس " .

(82/614)

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي خُبّئ لهم ، هذه قراءة العامّة . وقرأ حمزة ويعقوب أُخفي مرسلة الياء أي : أنا أخفي وحجّتهما قراءة عبد الله : نُخفي بالنون . وقرأ محمّد بن كعب : أخْفى بالألف يعني : أخفى الله من قرّة أعين ، قراءة العامّة على التوحيد .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان ، عن مكي بن عبدان ، عن عبد الله بن هاشم قال : أخبرني أبو معاوية عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بله ما (قد) أطلعتكم عليه ، اقرأوا إن شئتم فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي لَهُمْ مِنْ قُرَّاتَ أَعْيُن " . ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

قال : وكان أبو هريرة يقرأ . هكذا : قرّات أعين . وقال ابن مسعود : إنّ في التوراة مكتوباً : لقد أعد الله للّذين تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ ما لم تَرَ عين ولم تسمع أُذن ولا يخطر على قلب بشر وما لا يعلمه ملك مقرّب ، وإنّه لفي القرآن ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية .

(83/614)

قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان لأُمّهِ وذلك أنّه كان بينهما تنازع وكلام في شيء ، فقال الوليد لعلي : أُسكت فإنّك صبيّ ، وأنا والله أبسط منك لساناً وأَحَدُّ منك سناناً ،

وأشجع جناناً ، وأملأُ منك حشواً في الكتيبة ، فقال له علي : اسكت فإنّك فاسق ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ ولم يقل يستويان ، لأنّه لم يرد بالمؤمن مؤمناً واحداً ، وبالفاسق فاسقاً واحداً ، وإنّما أراد جميع الفسّاق وجميع المؤمنين .

قال الفرّاء : إنّ الاثنين إذا لم يكونا مصمودَين لهما ذُهب بهما مذهب الجمع .

ثمّ ذكر حال الفريقين ومآلهما ، فقال عزّ من قائل : ﴿ أَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأوى نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النار كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى دُونَ العذاب الأكبر لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

قال أُبي بن كعب وأبو العالية والضحّاك والحسن وإبراهيم : العذاب الأَدنى مصائب الدنيا وأسقامها وبلاؤها ممّا يبتلي الله به العباد حتّى يتوبوا ، وهذه رواية الوالبي عن ابن عبّاس . عكرمة عنه : الحدود . عبدالله بن مسعود والحسن بن علي وعبدالله بن الحرث : القتل بالسيف يوم بدر . مقاتل : الجوع سبع سنين بمكّة حتّى أكلوا الجيف والعظام والكلاب . مجاهد : عذاب القبر . قالوا : والْعَذابِ الأَكْبَرِ ، يوم القيامة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ المجرمين ﴾ المشركين ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾ قال زيد بن رفيع : عنى بالمجرمين ها هنا أصحاب القَدَر ثمّ قرأ ﴿ إِنَّ المجرمين فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 47] إلى قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] وأخبرنا الحسين بن محمد ، عن أحمد ابن محمد بن إسحاق السني قال : أخبرني جماهر بن محمد الدمشقي ، عن هشام بن عمّار ، عن إسماعيل بن عياش ، عن عبد العزيز بن عبد الله ، عن عبادة بن سني ، عن جنادة بن أبي أمية ، عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من اعتقد لواء في غير حقّ ، أو عَقّ والديه ، أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم . يقول الله تعالى : إِنَّا مِنَ المُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ " .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ ﴾ ليلة المعراج . عن ابن عبّاس ، وقال السدّي : من تلقّيه كتاب الله تعالى بالرضا والقبول . قال أهل المعاني : لم يرد باللقاء الرؤية وإنّما أراد مباشرته الحال وتبليغه رسالة الله عزّ وجلّ وقبول كتاب الله . وقيل : من لقاء الله الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره .

﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ (يعني الكتاب ، وقال قتادة : موسى) ﴿ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قادة في الخير يقتدى بهم ﴿ يَهْدُونَ ﴾ يدعون ﴿ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ قرأ

حمزة والكسائي (لَمَّا) بكسر اللام وتخفيف الميم أي لصبرهم ، واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة عبد الله ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم أي حين صبروا .

(85/614)

﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ يقضي بينهم . ويُسمّي أهل اليمن القاضي الفيصل ﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ آيات الله وعظاته فيتّعظون بها .

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز ﴾ أي اليابسة المغبرة : الغليظة التي لا نبات فيها . وأصله من قولهم : ناقةٌ جراز إذا كانت تأكل كلّ شيء تجده ، ورجل جروز ، إذا كان أكولاً . قال الراجز :

خبّ جروز وإذا جاع بكى . . . ويأكل التمر ولا يلقي النوى

وسيفٌ جراز أي قاطع ، جَرزت الجراد الزرع إذا استأصلته ، فكأن الجرز هي الأرض التي لا يبقى على ظهرها شيء إلاّ أفسدته ، وفيه أربع لغات : جُرز وجَرُز وجَرْز وجَرَز .

قال ابن عبّاس : هي أرض باليمن . قال مجاهد : هي أبين ﴿ فَنُخْرِجُ ﴾ فننبت ﴿ بِهِ

زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ * وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال بعضهم : أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذي فيه الثواب والعقاب والحكم بين العباد .

قال قتادة : قال أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم : إنّ لنا يوماً ننعم فيه ونستريح ويحكم بيننا وبينكم ، فقال الكفّار استهزاءً : متى هذا الفتح ؟ أي القضاء والحكم .

قال الكلبي : يعني فتح مكّة . وقال السدي : يعني يوم بدر ، لِأنَّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه كانوا يقولون لهم : إنّ الله ناصرنا ومُظهرنا عليكم .

﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح ﴾ يوم القيامة ﴿ لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وَمَن تأوّل النصر قال : لا ينفعهم إيمانُهم إذا جاءهم العذاب وقتلوا .

(86/614)

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ قراءة العامّة ﴿ مُّنتَظِرُونَ ﴾ بكسر الظاء .

وقرأ محمد بن السميفع بفتح الظاء ، قال الفرّاء : لا يصحّ هذا إلاّ بإضمار مجازه : إنّهم منتظرون ربّهم ، قال أبو حاتم : الصحيح كسر الظاء لقوله : ﴿ فارتقب إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ [الدخان : 59] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 330 . 335 ﴾

(87/614)

وقال الزمخشرى :

﴿ إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (15) ﴾

إِذا ذُكِّرُوا بِها أى وعظوا : سجدوا تواضعا للّه وخشوعا ، وشكرا على ما رزقهم من الإسلام وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ونزهوا اللّه من نسبة القبائح إليه ، وأثنوا عليه حامدين له وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ كما يفعل من يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، ومثله قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا : تَتَجافى ترتفع وتتنحى عَنِ الْمَضاجِعِ عن الفرش ومواضع النوم ، داعين ربهم عابدين له ، لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته ، وهم المتهجدون . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في تفسيرها «قيام العبد من الليل» «1» وعن الحسن رضى اللّه عنه : أنه التهجد . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إذا جمع اللّه الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فيقومون وهم قليل . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانوا يحمدون اللّه في البأساء

(1) . أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وإسحاق والحاكم من رواية أبى وائل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع قال «و صلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ : تتجافى جنوبهم عن المضاجع»

(88/614)

والضراء ، فيقومون وهم قليل ، فيسرحون جميعا إلى الجنة . ثم يحاسب سائر الناس» «1» . وعن أنس بن مالك رضى اللّه عنه : كان أناس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة ، فنزلت فيهم «2» . وقيل : هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ما أُخْفِيَ لَهُمْ على البناء للمفعول . ما أخفى لهم على البناء للفاعل ، وهو اللّه سبحانه . وما أخفى لهم . وما نخفى لهم . وما أخفيت لهم : الثلاثة للمتكلم ، وهو اللّه سبحانه . وما : بمعنى الذي ، أو بمعنى أى «3» . وقرئ : من قرّة أعين . وقرات أعين . والمعنى : لا تعلم النفوس - كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبىّ مرسل - أىّ نوع عظيم من الثواب ادخر اللّه لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه ، لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم ، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها ، ثم قال جَزَاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فحسم أطماع المتمنين «4» : وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «يقول اللّه تعالى : أعددت لعبادي الصالحين «5» ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر ،

---

(1) . أخرجه إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولا وهو عند الحاكم باختصار

(2) . أخرجه ابن مردويه من رواية الحرث بن رحبة عن مالك بن دينار «سألت أنس بن مالك عن قوله تعالى تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ – الآية فقال : كان ناس – فذكره» ورواه أبو داود من حديث سعيد عن قتادة عن أنس نحوه ، قال : وكان الحسن يقول «هو قيام الليل» والبزار من طريق زيد بن أسلم عن أبيه . قال قال بلال «كنا نجلس وناس من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية» قال : ولا نعلم له طريقا إلا هذه . ولا روى أسلم عن بلال غيره

(3) . قوله «أو بمعنى أى» لعله : أى شيء (ع)

(4) . قال محمود : «هذا حسم لأطماع المتمنين» قال أحمد : يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصي موعود بالجنة ، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصادق ، وأن أحدا لا يستحق على اللّه بعمله شيئا ، فلما وجد قوله تعالى جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ اغتنم الفرصة في الاستشهاد على معتقد القدرية في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء ، ولا دليل في ذلك لمعتقدهم مع قوله صلى اللّه عليه وسلم «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قيل : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللّه بفضل منه ورحمة» فهذا

الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه ، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة فانه على حسب الأعمال ، وليس بذاك فان المذكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها . وإما أن تحمل – وهو الظاهر ، والله أعلم – على أن الله تعالى لما وعد المؤمن جنته – ووعده يجب أن يكون حقا وصدقا ، تعالى وتقدس – صارت الأعمال بالوعد كأنها أسباب موجبات ، فعوملت في هذه العبارة معاملتها ، والمقصود من ذلك : تأكيد صدق الوعد في النفوس ، وتصوره بصورة المستحق بالعمل ، كالأجرة المستحقة شاهدا على العمل من باب مجاز التشبيه ، والله أعلم . وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفى ، ورده إلى المتكلم ، وهي من القراآت المستفيضة . والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث وهو : أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ليكون الكل راجعا إلى الله تعالى ، مسندا إلى ضمير اسمه عز وجل صريحا ، والله الموفق .

(5) . متفق عليه من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه .

بله «1» ما أطلعتهم عليه ، اقرؤا إن شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين»

وعن الحسن رضى اللّه عنه : أخفى القوم أعمالا في الدنيا ، فأخفى اللّه لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

[سورة السجده (32) : الآيات 18 إلى 21]

أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

كانَ مُؤْمِناً وكانَ فاسِقاً محمولان على لفظ من ، ولا يَسْتَوُونَ محمول على المعنى ، بدليل قوله تعالى أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ونحوه قوله تعالى وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ . وجَنَّاتُ الْمَأْوى نوع من الجنان : قال اللّه تعالى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضى اللّه عنه قال : تأوى إليها أرواح الشهداء . وقيل : هي عن يمين العرش . وقرئ : جنة المأوى ، على التوحيد نُزُلًا عطاء بأعمالهم . والنزل : عطاء النازل ، ثم صار عاما فَمَأْواهُمُ النَّارُ أى ملجؤهم ومنزلهم . ويجوز أن يراد : فجنة مأواهم النار ، أى النار لهم ، مكان جنة

المأوى للمؤمنين :

كقوله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ، الْعَذابِ الْأَدْنى عذاب الدنيا من القتل والأسر ، وما محنوا به من السنة «2» سبع سنين . وعن مجاهد رضى اللّه عنه : عذاب القبر . والْعَذابِ الْأَكْبَرِ عذاب الآخرة ، أى : نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى يتوبون «3» عن الكفر ، أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ، كقوله تعالى

---

(1) . قوله «بله ما أطلعتهم عليه» في الصحاح «بله» : كلمة مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع ، كما أجازه ، الأخفش في قول كعب بن مالك :

تذر الجماجم ضاحيا هاماتها بله الأكف كأنها لم تخلق

ويقال : معناها سوى . وفي الحديث : «أعددت لعبادي . . . الخ» . (ع)

(2) . قوله «و ما محنوا به من السنة» أى المجدبة . أو المراد بها الجدب ، كما يؤخذ من الصحاح . (ع)

(3) . قال محمود : «معناه لعلهم يتوبون . فان قلت : من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من اللّه إرادة ، وإذا أراد اللّه شيئا كان ، وتوبتهم مما لا يكون ، لأنهم لو تابوا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر . قلت : إرادة اللّه تعالى تتعلق بأفعاله وأفعال عباده فإذا أراد شيئا من أفعاله كان ولم يمتنع ، للاقتدار وخلوص الداعي . وأما أفعال عباده فاما أن يريدها وهم مختارون لها ، أو مضطرون إليها بقسره ، فان أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم

أفعاله ، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره ، كما لا يقدح في اقتدارك :

إرادتك أن يختار عبدك الطاعة لك وهو لا يختارها ، لأن اختيارها لا يتعلق بقدرتك فلا يكون فقده عجزا منك» قال أحمد : هذا الفصل ردىء جدا مفرع على الإشراك الجلى لا على الاشراك الخفي ، فاعتصم بدليل الوحدانية على رده واجتنابه من أصله ، والله المستعان . وإنما جره في تفسير لعل إلى الارادة ، والحق في تفسيرها أنها لترجى المخاطبين امتناع الترجي على الله تعالى ، كذا فسرها سيبويه فيما تقدم ، والله أعلم .

(90/614)

فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً وسميت إرادة الرجوع رجوعا ، كما سميت إرادة القيام قياما في قوله تعالى إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ويدل عليه قراءة من قرأ : يرجعون ، على البناء للمفعول . فإن قلت :

من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ؟ و«لعل» من الله إرادة ، وإذا أراد الله شيئا كان ولم يمتنع ، وتوبتهم مما لا يكون ، ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر ؟ قلت : إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده ، فإذا أراد شيئا من أفعاله كان ولم يمتنع ، للاقتدار

وخلوص الداعي . وأما أفعال عباده : فإما أن يريدها وهم مختارون لها ، أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه ، فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله ، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره «1» ، كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك وهو لا يختارها ، لأنّ اختياره لا يتعلق بقدرتك ، وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالا على عجزك . وروى في نزولها : أنه شجر بين على بن أبى طالب رضى اللّه عنه والوليد بن عقبة بن أبى معيط يوم بدر كلام ، فقال له الوليد : اسكت فإنك صبىّ : أنا أشبّ منك شبابا ، وأجلد منك جلدا ، وأذرب منك لسانا ، وأحدّ منك سنانا ، وأشجع منك جنانا ، وأملأ منك حشوا في الكتيبة . فقال له على رضى اللّه عنه : اسكت ، فإنك فاسق «2» ، فنزلت عامّة للمؤمنين والفاسقين ، فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما «3» . وعن الحسن بن على رضى

---

(1) . قوله «لم يقدح ذلك في اقتداره» أى عدم وقوعها وعدم اختيارهم إياها ، فهذا على مذهب المعتزلة :

من أنه قد يريد الشيء ولا يكون ، ومذهب أهل السنة : أن كل ما أراده اللّه كان . (ع)

(2) . أخرجه ابن مردويه والواحدي من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط لعلى : أنا أحد منك سنانا وأبسط منك لسانا وأملأ منك للكتيبة . فقال له على : اسكت يا فاسق ، فإنما أنت فاسق .

فنزلت» وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضى اللّه عنهما «تنبيه» قوله: أن ذلك شجر بينهما يوم بدر، غلط فاحش. فما كان الوليد حينئذ رجلا [. . . . .]

(3). قال محمود: «سبب نزولها أنه شجر بين على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه والوليد ابن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد اسكت فإنك صبى أنا أشب منك شبابا وأجلد جلدا وأذرب لسانا وأحد منك سنانا وأشجع جنانا وأملأ حشوا في الكتيبة، فقال له على: اسكت فإنك فاسق. قال الزمخشري: فنزلت عامة للمؤمنين والكافرين تتناولهما معا» قال أحمد: ذكر للسبب المحقق: لأن المراد بالفاسق وبالذين فسقوا: الذين كفروا، لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ، ثم أدرج فيه المؤمن تعصبا لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين.

فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسد، ولقد اتسع الخرق على الراقع.

(91/614)

اللّه عنهما: أنه قال للوليد: كيف تشتم عليا وقد سماه اللّه مؤمنا في عشر آيات، وسماك فاسقا؟

[سورة السجده (32) : آية 22]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

ثم في قوله ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها للاستبعاد . والمعنى : أنّ الإعراض عن مثل آيات اللّه في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز . ومنه ثم في بيت الحماسة :

لا يكشف الغمّاء إلا ابن حرّة يرى غمرات الموت ثمّ يزورها «1»

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدّتها . فإن قلت : هلا قيل :

إنا منه منتقمون ؟ قلت : لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة .

[سورة السجده (32) : الآيات 23 إلى 25]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (23) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

---

(1) ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

نقاسمهم أسيافنا شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها

لجعفر بن علبة الحارثي ، شبه الداهية الغماء بأمر محسوس يغشى الناس ويغطيهم على طريق المكنية ، والكشف تخييل وقال «ابن حرة» أى كريم ، ليكون تهييجا للسامع وبعثا له على الهيجاء . والغمرة : الشدة . وغمرات الموت :

شدائده وأهواله ، كأحوال المعركة الشديدة . وقوله «ثم يزورها» أى يلاقيها برغبة ، كلقاء المحبوب ، وعطفه بثم ، لأن بين رؤية الأهوال المفزعة ، وبين الانحدار إليها برغبة بون بعيد في العادة والتعقل . وشبه السيوف ممتدة متوسطة بينهم بشيء تجرى فيه المقاسمة ، وتقاسمهم تخييل لذلك ، ثم فرع على تلك المقاسمة أن لهم غواشيها ، أى ما يغشاهم منها وهي مقابضها . أو لأنها زائدة على النصل فهي غاشية له ولأعدائه «صدورها» أى أطرافها المتقدمة منها . وصدر كل شيء : مقدمه . وعبر بفي دون اللام ، لأن «في» تفيد مجرد اشتمال الأعداء على الصدور لدخولها في أجسامهم ، واللام تفيد التملك وليس مرادا ، وإن كان مقتضى القسمة ، فلعله دفع توهمه بالعدول إلى «في» وذكرها أولا تمهيدا للثانية .

(92/614)

الْكِتابَ للجنس والضمير في لِقائِهِ له . ومعناه : إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ونحو قوله مِنْ لِقائِهِ قوله وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ وقوله وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً . وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام هُدىً لقومه وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين اللّه وشرائعه ، لصبرهم وإيقانهم بالآيات . وكذلك لنجعلنّ الكتاب المنزل إليك هدى ونورا ، ولنجعلنّ من أمّتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين .

وقيل : من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل : من لقاء موسى عليه السلام الكتاب ، أى : من تلقيه له بالرضا والقبول . وقرئ : لما صبروا ، ولما صبروا ، أى لصبرهم . وعن الحسن رضى اللّه عنه : صبروا عن الدنيا . وقيل : إنما جعل اللّه التوراة هدى لبنى إسرائيل خاصة ، ولم يتعبد بما فيها ولد إسماعيل عليه السلام يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يقضى ، فيميز المحق في دينه من المبطل .

[سورة السجده (32) : آية 26]

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (26)

الواو في أَوَلَمْ يَهْدِ للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف ، والضمير في لَهُمْ لأهل مكة . وقرئ بالنون والياء ، والفاعل ما دلّ عليه كَمْ أَهْلَكْنا لأنّ كم لا تقع فاعلة ، لا يقال : جاءني كم رجل ، تقديره : أو لم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون . أو هذا الكلام كما هو بمضمونه ومعناه ، كقولك : يعصم لا إله إلا اللّه الدماء والأموال . ويجوز أن يكون فيه ضمير اللّه بدلالة القراءة بالنون . والْقُرُونِ عاد وثمود وقوم لوط يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ يعنى أهل مكة ، يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم . وقرئ : يمشون : بالتشديد .

[سورة السجده (32) : آية 27]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (27)

الْجُرُزِ الأرض التي جرز نباتها أى قطع ، إمّا لعدم الماء ، وإمّا لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ : جرز . ويدل عليه قوله فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً وعن ابن عباس

رضى اللّه عنه : إنها أرض اليمن . وعن مجاهد رضى اللّه عنه : هي أبين»

. بِهِ بالماء تَأْكُلُ من الزرع أَنْعامُهُمْ من عصفه وَأَنْفُسُهُمْ من حبه . وقرئ : يأكل ، بالياء .

[سورة السجده (32) : الآيات 28 إلى 30]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

الفتح : النصر ، أو الفصل بالحكومة ، من قوله رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وكان المسلمون يقولون إنّ اللّه سيفتح لنا على المشركين . ويفتح بيننا وبينهم ، فإذا سمع المشركون قالوا مَتى هذَا الْفَتْحُ أى في أىّ وقت يكون إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في أنه كائن . وَيَوْمَ الْفَتْحِ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ، ويوم نصرهم عليهم . وقيل : هو يوم بدر . وعن مجاهد والحسن رضى اللّه عنهما : يوم فتح مكة . فإن قلت : قد سألوا عن وقت الفتح ، فكيف ينطبق هذا الكلام جوابا على سؤالهم . قلت : كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح ، استعجالا منهم عن وجه التكذيب والاستهزاء ، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا ، فكأنى بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم ، وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا . فإن قلت : فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان ، وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناسا يوم بدر . قلت : المراد أنّ المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل ، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق وَانْتَظِرْ النصرة عليهم وهلاكهم إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ الغلبة عليكم وهلاككم ، كقوله تعالى فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ وقرأ ابن

السميقع رحمه اللّه :

منتظرون ، بفتح الظاء . ومعناه : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم ، يعنى أنهم هالكون لا محالة . أو وانتظر ذلك ، فإن الملائكة في السماء ينتظرونه .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ الم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك ، أعطى من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر «2»» وقال : «من قرأ الم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام» «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 511.517﴾

---

(1) . قوله «هي أيين» في الصحاح «أيين» : اسم رجل نسب إليه عدن ، فيقال : عدن أيين . اه فتدبر . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبى وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبى عصمة عن زيد العمي عن أبى بصرة عن ابن عباس عن أبى . وعند ابن مردويه مزوجه آخر عن نافع عن ابن عمر . وفي إسناده داود بن معاذ : وهو ساقط .

(3) . لم أجده .

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّما يؤمِن بآياتنا الذين إِذا ذُكِّروا بها ﴾

أي : وُعِظوا بها ﴿ خَرُّوا سُجَّداً ﴾ أي : سقطوا على وجوههم ساجدين .

وقيل : المعنى : إِنَّما يؤمِن بفرائضنا من الصلوات الخمس الذين إِذا ذُكِّروا بها بالأذان والإِقامة خَرُّوا سُجَّداً .

قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبُهم ﴾ اختلفوا فيمن نزلت وفي الصلاة التي تتجافى لها جنوبهم على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في المتهجّدين بالليل ؛ " روى معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ تتجافى جنوبُهم ﴾ قال : "قيام العبد من الليل" " وفي لفظ آخر أنه قال لمعاذ : " إِن شئتَ أنبأتُك بأبواب الخير" قال : قلت أجَلْ يا رسول الله ، قال : "الصَّوم جُنَّة ، والصدقة تكفِّر الخطيئة ، وقيام الرَّجل في جوف الليل يبتغي وجه الله" " ا ثم قرأ : ﴿ تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ﴾ .

وكذلك قال الحسن ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو العالية ، وقتادة ، وابن زيد أنها في قيام الليل .

وقد روى العوفي عن ابن عباس قال : تتجافى جنوبهم لذِكْر الله ، كلَّما استيقظوا ذَكَروا الله ، إِما في الصلاة ، وإِمَّا في قيام ، أو في قعود ، أو على جنوبهم ، فهم لا يزالون يذكُرون الله عز

وجل .

والثاني : أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا يصلُّون ما بين المغرب والعشاء ، قاله أنس بن مالك .

والثالث : أنها نزلت في صلاة العشاء [كأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينامون حتى يصلُّوها ، قاله ابن عباس .

والرابع : أنها صلاة العشاء] والصبح في جماعة ، قاله أبو الدرداء ، والضحاك .

ومعنى "تَتَجافى" : ترتفع .

والمَضَاجِع جمع مَضْجَع ، وهو الموضع الذي يُضْطَجَع عليه .

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهم خَوْفاً ﴾ من عذابه ﴿ وطمعاً ﴾ في رحمته [وثوابه] ﴿ ومِمَّا رَزَقْناهم يُنْفِقونَ ﴾ في الواجب والتطوُّع .

(95/614)

﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم ﴾ وأسكن ياء "أُخْفِي" حمزة ، ويعقوب .

قال الزجاج : في هذا دليل على أن المراد بالآية التي قبلها : الصلاة في جوف الليل ، لأنه عمل يستر الإنسان به ، فجعل لفظ ما يُجازى به ﴿ أُخفي لهم ﴾ ، فإذا فتحت ياء "أُخْفِيَ" ،

فعلى تأويل الفعل الماضي ، وإذا أسكنْتَها ، فالمعنى : ما أُخْفِي أنا لهم ، إخبار عن الله تعالى ؛ وكذلك قال الحسن البصري : أخفي لهم ، بالخُفْية خُفْية ، وبالعلانية علانية .

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عز وجل : أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْس ما أُخْفيَ لهم ﴾ " .

قوله تعالى : ﴿ مِن قُرَّة أعيُنٍ ﴾ وقرأ أبو الدرداء ، وأبو هريرة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والشعبي ، وقتادة : ﴿ من قُرَّاتِ أعيُنٍ ﴾ [بألف] على الجمع .

قوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط قال لعليّ بن أبي طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له عليٌّ : اسكت فانما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية ، فعنى بالمؤمن عليّاً ، وبالفاسق الوليد ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عطاء بن يسار ، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى ، ومقاتل .

والثاني : أنها نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل ، قاله شريك .

قوله تعالى : ﴿ لا يستوون ﴾ قال الزجاج : المعنى : لا يستوي المؤمنون والكافرون ؛ ويجوز أن يكون لاثنين ، لأن معنى الاثنين جماعة ؛ وقد شهد الله بهذا الكلام لعليٍّ عليه السلام بالايمان وأنَّه في الجنَّة ، لقوله : ﴿ أمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنَّات

المأوى ﴾ .

وقرأ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرِّف : ﴿ جنةُ المأوى ﴾ على التوحيد .

(96/614)

قوله تعالى : ﴿ نُزُلاً ﴾ وقرأ الحسن ، والنخعي ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : ﴿ نُزْلاً ﴾ بتسكين الزاي .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [الحج : 22] إلى قوله تعالى : ﴿ ولَنُذيقنَّهم مِنَ العذاب الأدنى ﴾ وفيه ستة أقوال .

أحدها : أنه ما أصابهم يوم بدر ، رواه مسروق عن ابن مسعود ، وبه قال قتادة ، والسدي .

والثاني : سنون أُخذوا بها ، رواه أبو عبيدة عن ابن مسعود ، وبه قال النخعي .

وقال مقاتل : أُخذوا بالجوع سبع سنين .

والثالث : مصائب الدنيا ، قاله أُبيُّ بن كعب ، وابن عباس في رواية ابن أبي طلحة ، وأبو العالية ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك .

والرابع : الحدود ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والخامس : عذاب القبر ، قاله البراء .

والسادس : القتل والجوع ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ أي : قَبْل العذاب الأكبر ؛ وفيه قولان .

أحدهما : أنه عذاب يوم القيامة ، قاله ابن مسعود .

والثاني : أنه القتل ببدر ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ لعلَّهم يرجِعون ﴾ قال أبو العالية : لعلهم يتوبون .

وقال ابن مسعود : لعلَّ مَنْ بقي منهم يتوب .

وقال مقاتل : لكي يرجِعوا عن الكفر إلى الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلمُ ﴾ قد فسرناه في [الكهف : 57] .

قوله تعالى : ﴿ إنَّا من المجرمين منتقمون ﴾ قال زيد بن رفيع : هم أصحاب القَدَر .

وقال مقاتل : هم كفار مكة انتقم الله منهم بالقتل ببدر ، وضربت الملائكةُ وجوههم وأدبارهم ، وعجَّل أرواحهم إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتَيْنا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ فلا تَكُنْ في مِرْيَة من لقائه ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : فلا تكن في مرية من لقاء موسى ربَّه ، رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : من لقاء موسى ليلة الإِسراء ، قاله أبو العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن السائب .

والثالث : فلا تكن في شكٍّ من لقاء الأذى كما لقي موسى ، قاله الحسن .

(97/614)

والرابع : لا تكن في مرية من تلقِّي موسى كتابَ الله بالرضى والقبول ، قاله السدي .

قال الزجاج : وقد قيل : فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى الكتاب ، فتكون الهاء للكتاب .

وقال أبو علي الفارسي : المعنى : من لقاء موسى الكتاب ، فأضيف المصدر إِلى ضمير الكتاب ، وفي ذلك مدح له على امتثاله ما أُمر به ، وتنبيه على الأخذ بمثل هذا الفعل .

وفي قوله : ﴿ وجعلناه هُدىً ﴾ قولان .

أحدهما : الكتاب ، قاله الحسن .

والثاني : موسى ، قاله قتادة .

﴿ وجعلنا منهم ﴾ أي : من بني إِسرائيل ﴿ أئمَةً ﴾ أي : قادة في الخير ﴿ يَهْدُونَ بأمرنا ﴾ أي : يدعون الناس إِلى طاعة الله ﴿ لمَّا صبروا ﴾ [قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ لَمَّا صبروا ﴾ بفتح اللام وتشديد الميم .

وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ لِمَا ﴾ بكسر اللام خفيفة .

وقرأ ابن مسعود ﴿ بما ﴾ بباء مكان اللام؛ والمراد: صبرهم] على دينهم وأذى عدوِّهم ﴿ وكانوا بآياتنا يوقِنون ﴾ أنها من الله عز وجل؛ وفيهم قولان.

أحدهما: أنهم الأنبياء.

والثاني: أنهم قومٌ صالحون سوى الأنبياء.

وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أَطعتم جعلتُ منكم أئمة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هو يَفْصِلُ بينهم ﴾ أي: يقضي ويحكُم؛ وفي المشار إليهم قولان.

أحدهما: أنهم الأنبياء وأُممهم.

والثاني: المؤمنون والمشركون.

ثم خوَّف كفار مكة بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لهم ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿ نَهْدِ ﴾ بالنون.

وقد سبق تفسيره في [طه: 128].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا نَسُوق الماء ﴾ يعني المطر والسيل ﴿ إلى الأرض الجُرُز ﴾ وهي التي لا تُنبت - وقد ذكرناها في أول [الكهف: 8] - فإذا جاء الماء أنبتَ فيها ما يأكل الناس والأنعام.

﴿ ويقولون ﴾ يعني كفار مكة ﴿ متى هذا الفتح ﴾ وفيه أربعة أقوال.

أحدها : أنه ما فتح يوم بدر ؛ روى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال : يومَ بدر فُتح للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فلم ينفع الذين كفروا إِيمانُهم بعد الموت .

والثاني : أنه يوم القيامة ، وهو يوم الحُكم بالثواب والعقاب ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب في الدنيا ؛ قاله السدي .

والرابع : فتح مكة ، قاله ابن السائب ، والفراء ، وابن قتيبة ؛ وقد اعتُرض على هذا القول ، فقيل : كيف لا ينفع الكفارَ إِيمانُهم يوم الفتح ، وقد أسلم جماعة وقُبِلَ إِسلامُهم يومئذ ؟ ! فعنه جوابان .

أحدهما : لا ينفع مَنْ قُتل من الكفار يومئذ إِيمانُهم بعد الموت ؛ وقد ذكرناه عن ابن عباس .

وقد ذكر أهل السِّيَر أنَّ خالداً دخل يوم الفتح من غير الطريق التي دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيه صفوان بن أميَّة وسهيل ابن عمرو في آخرين فقاتلوه ، فصاح خالد في أصحابه وقاتلهم ، فقتل أربعة وعشرين من قريش ، وأربعة من هذيل ، وانهزموا ، فلمَّا ظهر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألم أَنه عن القتال" ؟ فقيل : إِن خالداً قوتل فقاتل .

والثاني : لا ينفع الكفارَ ما أُعطوا من الأمان ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ أَغلق بابَه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن " قال الزجاج : يقال : آمنتُ فلاناً

إِيماناً ، فعلى هذا يكون المعنى : لا يدفع هذا الأمانُ عنهم عذابَ الله .

وهذا القول الذي قد دافعنا عنه ليس بالمختار ، وإِنما بيَّنَّا وجهه لأنه قد قيل .

وقد خرج بما ذكرنا في الفتح قولان .

أحدهما : أنه الحكم والقضاء ، وهو الذي نختاره .

والثاني : فتح البلد .

قوله تعالى : ﴿ فأَعْرِضْ عنهم وانْتَظِر ﴾ أي : انتظر عذابهم ﴿ إِنَّهم مُنْتَظِرونَ ﴾ بك حوادث الدهر .

قال المفسرون : وهذه الآية منسوخة بأية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(99/614)

وقال ابن جزى :

﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع ﴾

أي ترتفع والمعنى يتركون مضاجعهم بالليل من كثرة صلاتهم النوافل ، ومن صلى العشاء والصبح في جماعة فقد أخذ بحظه من هذا .

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ يعني : أنه لا يعلم أحد مقدار ما يعطيهم الله من النعيم وقرأ حمزة ﴿ أُخْفِي ﴾ بإسكان الياء على أن يكون فعل المتكلم وهو الله تعالى .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً ﴾ الآية : يعني المؤمنين والفاسقين على العموم ، وقيل : يعني عليّ بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط .

﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ الذي نعت بالعذاب ، ولذلك أعاد عليه الضمير المذكور في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ ، فإن قيل : لم وصف هنا العذاب وأعاد عليه الضمير ، ووصف في سبأ النار وأعاد عليها الضمير ، وقال عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول أنه خص العذاب في السجدة بالوصف اعتناء به لما تكرر ذكره في قوله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى دُونَ العذاب الأكبر ﴾ ، والثاني : أنه قدم في السجدة ذكر النار ، فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ الضمير ، لكنه جعل الظاهر مكان المضمر فكما لا يوصف المضمر لم يوصف ما قام مقامه وهو النار ، ووصف العذاب ولم يصف النار ، الثالث وهو الأقوى أنه امتنع في السجدة وصف النار فوصف العذاب ، وإنما امتنع وصفها لتقدم ذكرها ، فإنك إذا ذكرت شيئاً ثم كررت ذكره لم يجز وصفه ، كقولك : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل ، فلا يجوز وصفه لئلا يفهم أنه غيره .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ يعني الجوع ومصائب الدنيا وقيل : القتل يوم بدر ، وقيل : عذاب القبر وهذا بعيد لقوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

(100/614)

﴿ إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ ﴾ هذا وعيد لمن ذُكر بآيات ربه فأعرض عنها ، وكان الأصل أن يقول : إنا منه منتقمون ، ولكنه وضع المجرمين موضع المضمر ليصفهم بالإجرام ، وقدّم المجرور في منتقمون للمبالغة .

﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ ﴾ المرية الشك ، والضمير لموسى : أي لا تمتر في لقائك موسى ليلة الإسراء وقيل : المعنى لا تشك في لقاء موسى ، والكتاب الذي أنزل عليه ، والكتاب على هذا التوراة ، وقيل : الكتاب هنا جنس ، والمعنى : لقد آتينا موسى الكتاب فلا تشك أنت في لقائك الكتاب الذي أنزل عليك ، وعبر باللقاء عن إنزال الكتاب كقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن ﴾ [النمل : 6] .

﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ الضمير لجميع الخلق ، وقيل : لبني إسرائيل خاصة .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ ذكر في [طه : 128] ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ ﴾ الضمير في يمشون لأهل مكة : أي يمشون في مساكن القوم المهلكين : كقوله ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن

مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 38] وقيل : الضمير للمهلكين : أي أهلكناهم وهم يمشون في مساكنهم ، والأول أحسن لأن فيه حجة على أهل مكة .

﴿ الأرض الجرز ﴾ يعني التي لا نبات فيها من شدّة العطش .

﴿ متى هذا الفتح ﴾ أي الحكم بين المسلمين والكفار في الآخرة ، وقيل : يعني فتح مكة ، وهذا بعيد لقوله ﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كفروا إِيمَانُهُمْ ﴾ وذلك في الآخرة ، وقيل : يعني فتح مكة ، لأن من آمن يوم فتح مكة نفعه إيمانه .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ منسوخ بالسيف ﴿ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي انتظر هلاكهم إنهم ينتظرون هلاكك ، وفي هذا تهديد لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 132.130 ﴾

(101/614)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها ﴾

أي وعظوا بها ﴿ خروا سجداً ﴾ يعني سقطوا على وجوههم ساجدين ﴿ وسبحو بحمد ربهم ﴾ يعني صلوا بأمر ربهم وقيل قالوا سبحان الله وبحمده ﴿ وهم لا يستكبرون

﴿ يعني عن الإيمان به والسجود له (ق) عن ابن عمر قال "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته في غير وقت الصلاة" .

(م) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويلنا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار" وهذه من عزائم سجود القرآن فتسن للقارىء وللمستمع .

قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ يعني ترتفع وتنبو ﴿ عن المضاجع ﴾ جمع مضجع وهو الموضع الذي يضطجع عليه يعني الفرش ، وهم المتهجدون بالليل الذي يقيمون الصلاة ، وقال أنس نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

عن أنس في قوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة أخرجه الترمذي وقال الحديث حسن غريب صحيح .

وفي رواية أبي داود عنه قال كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء أي يصلون ، وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر وقيل هي صلاة الأوابين .

روي عن ابن عباس قال : إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهي

صلاة الأوابين وقال عطاء : هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الأخيرة والفجر في جماعة بدليل قوله (صلى الله عليه وسلم) " من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله " أخرجه مسلم من حديث عثمان بن عفان .

(102/614)

(ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا " وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة .

فصل : في فضل قيام الليل والحث عليه

عن معاذ بن جبل قال كنت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه وهو يسير ، فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار . قال " سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ، ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ ﴿

تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت بلى يا رسول الله .

قال رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؛ قلت بلى يا رسول الله قال فأخذ بلسانه وقال اكفف عليك هذا .

فقلت يا رسول الله وإنما لمؤاخذون بما نتكلم فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجهوهم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم "

أخرجه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم وتكفير السيئات ومنهاة عن الآثام ومطردة الداء عن الجسد " أخرجه الترمذي .

(103/614)

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي ، ورجل غزا في سبيل الله وانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه في الانهزام وما له في

الرجوع فرجع حتى أهريق دمه .

فيقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه " أخرجه الترمذي بمعناه (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل " (ق) عن عائشة قالت " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقوم الليل حتى تورمت قدماه فقلت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً " عن علي قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن في الجنة غرفاً يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام " أخرجه الترمذي .

(خ) عن الهيثم بن أبي سنان أنه سمع أبا هريرة في قصة يذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول " إن أخاً لكم لا يقول الرفث " يعني بذلك ابن رواحة قال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه . . .

إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا . . .

به موقنات ما إذا قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه . . .

إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

أخرجه البخاري وليس للهيثم بن سنان .

عن أبي هريرة في الصحيحين غير هذا الحديث .

وقوله ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ قال ابن عباس خوفاً من النار وطمعاً في الجنة ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ قيل أراد به الصدقة المفروضة وقيل بل هو عام في الواجب والتطوع .

(104/614)

قوله : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ أي مما تقربه أعينهم فلا يلتفتون إلى غيره قال ابن عباس هذا مما لا تفسير له وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي من الطاعات في دار الدنيا (ق) عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرؤوا إن شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين " قوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، كان بينهما تنازع وكلام في شيء ، فقال الوليد لعلي اسكت

فانك صبي وأنا شيخ وإني أبسط منك لساناً ، وأحد منك سناناً وأشجع منك جناباً وأملأ منك حشواً في الكتيبة ، فقال له علي اسكت فانك فاسق ، فأنزل الله هذه الآية وقوله لا يستوون أراد جنس المؤمنين وجنس الفاسقين ولم يرد مؤمناً واحداً ولا فاسقاً واحداً ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ أي التي يأوي إليها المؤمنون ﴿ نزلاً ﴾ هو ما يهيأ للضيف عند نزوله ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ يعني من الطاعات في دار الدنيا ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ .

(105/614)

قوله تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ أي سوى العذاب الأكبر ، قال ابن عباس العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها ، وعنه أنه الحدود وقيل هو الجوع بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب سبع سنين ، وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر والأكبر هو عذاب جهنم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إي إلى الإيمان يعني من بقي منهم بعد القحط وبعد بدر ﴿ ومن أظلم ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ ممن ذكر بآيات ربه ﴾ أي بدلائل وحدانيته وإنعامه عليه ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ أي ترك الإيمان بها ﴿ إنا من

المجرمين ﴾ يعني المشركين ﴿ منتقمون ﴾ معناه أنهم لما لم يرجعوا بالعذاب الأدنى فانا منهم منتقمون بالعذاب الأكبر .

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أي التوراة ﴿ فلا تكن في مرية ﴾ أي في شك ﴿ من لقائه ﴾ أي من لقاء موسى ليلة المعراج ، قاله ابن عباس (ق) عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً مربوع الخلق إلى الحمرة وإلى البياض سبط الشعر ، ورأيت مالكاً خازن النار ، والدجال في آيات أراهن الله أياه فلا تكن في مرية من لقائه "

(م) عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " أتيت على موسى ليلة المعراج ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره " فإن قلت قد صح في حديث المعراج أنه رآه في السماء السادسة عند مراجعته في الصلوات فكيف الجمع بين هذين الحديثين .

قلت يحتمل أن تكون رؤيته في قبره عند الكثيب الأحمر كان قبل صعوده إلى السماء وذلك في طريقه إلى بيت المقدس ، ثم لما صعد على السماء السادسة وجده هناك قد سبقه لما يريد الله وهو على كل شيء قدير .

فإن قلت كيف تصح منه الصلاة في قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو في دار الآخرة وليست دار عمل .

(106/614)

وكذلك رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) جماعة من الأنبياء وهم يحجون فما الجواب عن هذا ؟ قلت يجاب عنه بأجوبة أحدها : أن الأنبياء كالشهداء بل هم أفضل منهم والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فلا يبعد أن يحجوا أو يصلوا كما صح في الحديث وأن يتقربوا إلى الله بما استطاعوا وإن كانوا قد ماتوا لأنهم بمنزلة الأحياء في هذه الدار التي هي دار العمل ، إلى أن تفنى ثم يرحلون إلى دار الجزاء التي هي الجنة .

الجواب الثاني : أنه (صلى الله عليه وسلم) رأى حالهم الذي كانوا عليه في حياتهم ومثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وصلاتهم .

(107/614)

الجواب الثالث : أن التكليف وإن ارتفع عنهم في الآخرة لكن الذكر والشكر والدعاء لا يرتفع ، قال الله تعالى ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ﴾ وقال (صلى الله عليه وسلم) " يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس " فالعبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما كان يعبده في الدنيا وكيف لا يكون ذلك وقد صار حاله مثل حال الملائكة والذين قال الله في حقهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ غاية ما في الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي على مقتضى الطبع والله أعلم ، وقيل في قوله ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ أي تلقى موسى كتاب الله بالرضا والقبول ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب ﴿ هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ أئمة ﴾ أي قادة للخير يقتدى بهم وهم الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل وقيل هم أتباع الأنبياء ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ يعني يدعون الناس إلى طاعتنا ﴿ لما صبروا ﴾ يعني على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر ﴿ وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ يعني أنها من الله تعالى ﴿ إن ربك هو يفصل ﴾ أي يقضي ويحكم ﴿ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ قيل هم الأنبياء وأممهم وقيل هم المؤمنون والمشركون قوله تعالى ﴿ أو لم يهد لهم ﴾ أي نبين لهم ﴿ كم أهلكنا ﴾ يعني كثرة من أهلكنا ﴿ من قبلهم من القرون ﴾ يعني الأمم الخالية ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ يعني أهل مكة يسيرون في بلادهم ومنازلهم إذا سافروا ﴿ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ يعني آيات الله ومواعظة فيتعظون بها .

قوله : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ أي الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها قال ابن عباس هي أرض باليمن وقيل هي أبين ﴿ فنخرج به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ زرعاً تأكل منه أنعامهم ﴾ يعني العشب والتبن ﴿ وأنفسهم ﴾ أي من الحبوب والأقوات ﴿ أفلا يبصرون ﴾ يعني فيعتبروا .

(108/614)

قوله تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ قيل أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذي فيه الحكم والقضاء بين العباد ، وذلك أن أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) قالوا للكفار إن لنا يوماً ننعم فيه ونستريح ويحكم فيه بيننا وبينكم .

فقال الكفار استهزاء متى هذا الفتح أي القضاء والحكم ، وقيل هو فتح مكة وقيل يوم بدر ، وذلك أن أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) كانوا يقولون للكفار إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فيقولون متى هذا الفتح ﴿ قل يوم الفتح ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾ يعني لا يقبل منهم الإيمان ومن حمل يوم الفتح على فتح مكة أو القتل يوم بدر ، قال معناهم لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقتلوا ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ يعني يمهلون ليتوبوا ويعتذروا ﴿ فأعرض عنهم ﴾ قال ابن عباس نسختها آية

السيف ﴿ وانتظر ﴾ يعني موعدي لك بالنصر عليهم ﴿ إنهم منتظرون ﴾ أي بك حوادث الزمان وقيل معناه انتظر عذابنا إياهم فهم منتظرون ذلك .

(ق) عن ابي هريرة قال "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ في الفجر يوم الجمعة الم تنزيل الكتاب وهل أتى على الإنسان " عن جابر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) "كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب وتبارك لذي بيده الملك " أخرجه الترمذي .

وقال طاوس تفضلان عن كل سورة في القرآن بسبعين حسنة أخرجه الترمذي .

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 223.228 ﴾

(109/614)

وقال النسفى :

﴿ إنّما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكّروا بها ﴾

أي وعظوا بها ﴿ خرّوا سجّداً ﴾ سجدوا لله تواضعاً وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿ وسبّحوا بحمد ربّهم ﴾ ونزهوا الله عما لا يليق به وأثنوا عليه حامدين له ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن الإيمان والسجود له ﴿ تتجافى ﴾ ترتفع وتنتحي ﴾

جنوبهم عن المضاجع ﴾ عن الفرض ومضاجع النوم .

قال سهل : وهب لقوم هبة وهو أن أذن لهم في مناجاته وجعلهم من أهل وسيلته ثم مدحهم عليه فقال ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ ﴿ يدعون ﴾ داعين ﴿ ربّهم ﴾ عابدين له ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ مفعول له أي لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته وهم المتهجدون .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيرها قيام العبد من الليل .

وعن ابن عطاء : أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة وطلبت بساط القربة يعني صلاة الليل .

وعن أنس : كان أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة فنزلت فيهم .

وقيل : هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها .

﴿ وممّا رزقناهم ينفقنون ﴾ في طاعة الله تعالى ﴿ فلا تعلم نفسٌ مّا أخفي لهم ﴾ "ما" بمعنى "الذي" ﴿ أخفي ﴾ على حكاية النفس : حمزة ويعقوب ﴿ مّن قرّة أعينٍ ﴾ أي لا يعلم أحد ما أعد لهؤلاء من الكرامة ﴿ جزاءً ﴾ مصدر أي جوزوا جزاء ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ عن الحسن رضي الله عنه : أخفى القوم أعمالاً فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

وفيه دليل على أن المراد الصلاة في جوف الليل ليكون الجزاء وفاقاً .

ثم بين أن من كان في نور الطاعة والإيمان لا يستوي مع من هو في ظلمة الكفر والعصيان بقوله :

﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ أي كافراً وهما محمولان على لفظ من وقوله ﴿ لاّ يستوون ﴾ على المعنى بدليل قوله ﴿ أمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلهم جنّات المأوى ﴾ هي نوع من الجنان تأوي إليها أرواح الشهداء .

(110/614)

وقيل : هي عن يمين العرش ﴿ نزلاً بما كانوا يعملون ﴾ عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاماً ﴿ وأمّا الّذين فسقوا فمأواهم النّار ﴾ أي ملجؤهم ومنزلهم ﴿ كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ﴾ أي تقول لهم خزنة النار ﴿ ذوقوا عذاب النّار الّذي كنتم به تكذّبون ﴾ وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر إذ التكذيب يقابل الإيمان ﴿ ولنذيقنّهم مّن العذاب الأدنى ﴾ أي عذاب الدنيا من الأسر وما محنوا به من السنة سبع سنين ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ أي عذاب الآخرة أي نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة .

وعن الداراني : العذاب الأدنى الخذلان والعذاب الأكبر الخلود في النيران .

وقيل : العذاب الأدنى عذاب القبر ﴿ لعلّهم ﴾ لعل المعذبين بالعذاب الأدنى ﴿ يرجعون ﴾ يتوبون عن الكفر ﴿ ومن أظلم ممّن ذكّر ﴾ وعظ ﴿ بآيات ربّه ﴾ أي بالقرآن ﴿ ثمّ أعرض عنها ﴾ أي فتولى عنها ولم يتدبر فيها .

و"ثم" للاستبعاد أي أن الإعراض عن مثل هذه الآيات في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها ، مستبعد في العقل كما تقول لصاحبك "وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها" استبعاداً لتركه الانتهاز ﴿ إنّا من المجرمين منتقمون ﴾ ولم يقل "منه" لأنه إذا جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم فقد دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة .

(111/614)

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ التوراة ﴿ فلا تكن في مريةٍ ﴾ شك ﴿ من لقائه ﴾ من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى ليلة المعراج أو يوم القيامة أو من لقاء موسى ربه في الآخرة كذا عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وجعلناه هدًى لّبني إسرائيل ﴾ وجعلنا

الكتاب المنزل على موسى لقومه هدى ﴿ وجعلنا منهم أئمّةً ﴾ بهمزتين : كوفي وشامي ﴿ يهدون ﴾ بذلك الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه ﴿ بأمرنا ﴾ إياهم بذلك ﴿ لمّا صبروا ﴾ حين صبروا على الحق بطاعة الله أو عن المعاصي ﴿ لما صبروا ﴾ حمزة وعلي أي لصبرهم عن الدنيا ، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس ﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ التوراة ﴿ يوقنون ﴾ يعلمون علماً لا يخالجه شك ﴿ إنّ ربّك هو يفصل ﴾ يقضي ﴿ بينهم يوم القيامة ﴾ بين الأنبياء وأممهم أو بين المؤمنين والمشركين ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فيظهر المحق من المبطل .

﴿ أو لم ﴾ الواو للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف أي أو لم يدع ﴿ يهد ﴾ يبين والفاعل الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب ﴿ نهد ﴾ ﴿ لهم ﴾ لأهل مكة ﴿ كم ﴾ لا يجوز أن يكون "كم" فاعل ﴿ يهدى ﴾ لأن "كم" للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله ومحله نصب بقوله ﴿ أهلكنا من قبلهم مّن القرون ﴾ كعاد وثمود وقوم لوط ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أي أهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم ﴿ إنّ في ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون ﴾ المواعظ فيتعظوا ﴿ أو لم يروا أنّا نسوق الماء ﴾ نجري المطر والأنهار ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ أي الأرض التي جرز نباتها أي قطع إما لعدم الماء أو لأنه رعي ، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز بدليل قوله ﴿ فنخرج به ﴾ بالماء ﴿ زرعاً تأكل منه ﴾ من الزرع ﴿ أنعامهم ﴾ من عصفه ﴿ وأنفسهم ﴾ من حبه ﴿ أفلا

يبصرون ﴾ بأعينهم فيستدلوا به على قدرته على إحياء الموتى ﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ النصر أو الفصل بالحكومة من قوله

(112/614)

﴿ ربنا افتح بيننا ﴾ [الأعراف : 89] وكان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين أو بفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون ذلك قالوا : متى هذا الفتح أي في أي وقت يكون ﴿ إنّ كنتم صادقين ﴾ في أنه كائن .

﴿ قل يوم الفتح ﴾ أي يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم أو يوم نصرهم عليهم أو يوم بدر أو يوم فتح مكة ﴿ لا ينفع الّذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ وهذا الكلام لم ينطبق جواباً على سؤالهم ظاهراً ولكن لما كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلا ينفعكم الإيمان ، أو استنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا ، ومن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر فهو يريد المقتولين منهم فإنهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق ﴿ فأعرض عنهم وانتظر ﴾ النصرة وهلاكهم ﴿ إنّهم

مّنتظرون ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم ، وكان عليه السلام لا ينام حتى يقرأ " ﴿ ألم تنزيل ﴾ " السجدة و ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ [الملك : 1] وقال " من قرأ الم تنزيل في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام " وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سورة الم تنزيل هي المانعة تمنع من عذاب القبر . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 292.289 ﴾

(113/614)

وقال البيضاوى :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بآياتنا الذين إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ﴾

وعظوا بها .

﴿ خَرُّواْ سُجَّداً ﴾ خوفاً من عذاب الله . ﴿ وَسَبَّحُواْ ﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث . ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ حامدين له شكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى .

﴿ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإِيمان والطاعة كما يفعل من يصر مستكبراً .

﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ ﴾ ترتفع وتتنحى . ﴿ عَنِ المضاجع ﴾ الفرش ومواضع النوم . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ داعين إياه . ﴿ خَوْفًا ﴾ من سخطه . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في رحمته . وعن

النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيرها " قيام العبد من الليل " وعنه عليه الصلاة والسلام " إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد جاء منادٍ ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادي : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ، ثم يرجع فينادي : ليقم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل ، فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس "

وقيل كان أناس من الصحابة يصلون من المغرب إلى العشاء فنزلت فيهم . ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير .

(114/614)

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل . ﴿ مّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ مما تقربه عيونهم . وعنه عليه الصلاة والسلام " يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، بَلْهَ ما أطلعتهم عليه ، أقرؤوا فلا تعلم نفس ما أخفي لهم " وقرأ حمزة ويعقوب ﴿ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ على أنه مضارع أخفيت ، وقرىء نخفي وأخفي الفاعل للكل هو الله ، وقرأت ﴿ أَعْيُنِ ﴾ لاختلاف أنواعها والعلم

بمعنى المعرفة و﴿ مَا ﴾ موصوله أو استفهامية معلق عنها الفعل . ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزوا جزاء أو أخفي للجزاء فإن إخفاءه لعلو شأنه . وقيل هذا القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ خارجاً عن الإيمان ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ في الشرف والمثوبة تأكيد وتصريح والجمع للحمل على المعنى .

﴿ أَمَّا الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ جنات المأوى ﴾ فإنها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة . وقيل المأوى جنة من الجنان . ﴿ نُزُلاً ﴾ سبق تفسيره في سورة "آل عمران" . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم أو على أعمالهم .

﴿ وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ مكان جنة المأوى للمؤمنين . ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ عبارة عن خلودهم فيها . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ﴾ عذاب الدنيا يريد ما محنوا به من السنة سبع سنين والقتل والأسر . ﴿ دُونَ العذاب الأكبر ﴾ عذاب الآخرة . ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ لعل من بقي منهم . ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ يتوبون عن الكفر . روي أن الوليد ابن عقبة فاخر علياً رضي الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيات رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ فلم يتفكر فيها ، و﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها مع فرض وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلاً كما في بيت الحماسة .

وَلاَ يَكْشِفُ الغُمَاءَ إِلاَّ ابْن حرَّة . . . يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورها

﴿ إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ ﴾ فكيف ممن كان أظلم من كل ظالم .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ كما آتيناك . ﴿ فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ ﴾ في شك . ﴿ مّن لّقَائِهِ ﴾ من لقائك الكتاب كقوله : ﴿ إِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾ فإنا آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه فليس ذلك ببدع لم يكن قط حتى ترتاب فيه ، أو من لقاء موسى للكتاب أو من لقائك موسى . وعنه عليه الصلاة والسلام " رأيت ليلة أسري بي موسى صلى الله عليه وسلم رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة " ﴿ وجعلناه ﴾ أي المنزل على موسى . ﴿ هُدًى لّبَنِى إسراءيل ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام . ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ إياهم به أو بتوفيقنا له . ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ورويس "لَمَّا صَبَرُواْ" أي لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا . ﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ لإمعانهم فيها النظر .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ يقضي فيميز الحق من الباطل بتمييز المحق من المبطل. ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين.

(116/614)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الواو للعطف على منوي من جنس المعطوف والفاعل ضمير ما دل عليه. ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مّنَ القرون ﴾ أي كثرة من أهلكناهم من القرون الماضية، أو ضمير الله بدليل القراءة بالنون. ﴿ يَمْشُونَ فِى مساكنهم ﴾ يعني أهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم، وقرىء "يَمْشُونَ" بالتشديد. ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واتعاظ.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الماء إِلَى الأرض الجرز ﴾ التي جرز نباتها أي قطع وأزيل لا التي لا تنبت لقوله: ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ وقيل اسم موضع باليمن. ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ ﴾ من الزرع. ﴿ أنعامهم ﴾ كالتبن والورق. ﴿ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ كالحب والثمر. ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ فيستدلون به على كمال قدرته وفضله.

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح ﴾ النصر أو الفصل بالحكومة من قوله ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في الوعد به.

﴿ قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كَفَرُواْ إيمانهم وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وهو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكفرة والفصل بينهم . وقيل يوم بدر أو يوم فتح مكة ، والمراد بالذين كفروا المقتولون منهم فيه فإنهم لا ينفعهم إيمانهم حال القتل ولا يمهلون وانطباقه جواباً على سؤالهم من حيث المعنى باعتبار ما عرف من غرضهم ، فإنهم لما أرادوا به الاستعجال تكذيباً واستهزاء أجيبوا بما يمنع الاستعجال .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ، وقيل هو منسوخ بآية السيف . ﴿ وانتظر ﴾ النصرة عليهم . ﴿ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ الغلبة عليك ، وقرىء بالفتح على معنى أنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم أو أن الملائكة ينتظرونه .

(117/614)

عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ " ألم تنزيل ، تبارك الذي بيده الملك أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر " وعنه من قرأ ألم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 357. 361 ﴾

(118/614)

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) ﴾

التفسير : لما ذكر في السورة المتقدمة دلائل الوحدانية ودلائل الحشر وهما الطرفان ، بدأ في هذه السورة ببيان الأمر الأوسط وهو الرسالة المصححة ببرهان القرآن . وإعرابه قريب من قوله ﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 1-2] وميل جار الله إلى قوله ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ مبتدأ خبره ﴿ من رب العالمين ﴾ ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والضمير في ﴿ فيه ﴾ راجع إلى مضمون الجملة أي لا ريب في كونه منزلاً من عنده . ويمكن أن يقال : في وجه النظم لما عرّف ي أول السورة المتقدمة أن القرآن هدى ورحمة قال ههنا : إنه من رب العالمين ، وذلك أن من عثر على كتب سأل أولاً أنه في أي علم . فإذا قيل : إنه في الفقه أو التفسير .

سأل : إنه تصنيف اي شخص ؟ ففي تخصيص رب العالمين بالمقام إشارة إلى أن كتاب رب العالمين لا بد أن يكون فيه عجائب للعالمين فترغب النفس في مطالعته . ثم اضرب عما ذكر قائلاً ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ وهو تعجيب من قولهم لظهور أمر القرآن في تعجيز بلغائهم عن مثل سورة الكوثر .

ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك . ومعنى ﴿ لتنذر قوماً ﴾ قد مر في " القصص " ويندرج فيهم أهل الكتاب إذ يصدق عليهم أنه لم يأتهم نذير بعد ضلالهم سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يندرجوا لم يضرّ فإن تخصيص قوم بالذكر لا يدل على نفي من عداهم كقوله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] وحين بين الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد فقال ﴿ الله ﴾ مبتدأ خبره ما يتلوه وقد مر نظائره . وقوله ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون ﴾ إثبات للولاية والشفاعة أي النصرة من عنده ونفي لهما من غيره ، وفيه تجهيل لعبدة الأصنام الزاعيمن أنها شفعاؤهم بعد اعترافهم بأن خالق الكل هو الله سبحانه . ولما بين الخلق شرع في المر فقال ﴿ يدبر الأمر ﴾ اي المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبراً من السماء إلى الرض ثم يعرج إليه ذلك العمل ي يوم طويل ، وهو كناية عن قلة الإخلاص لأنه لا يوصف بالصعود ولا يقوى على العروج إلا العمل الخالص ، يؤيد هذا التفسير قوله فيما بعد ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل يوم من ايام الله وهو ألف سنة ، ثم يصعد إليه مكتوباً في الصحف في كل جزء من أجزاء ذلك اليوم الخ . ثم

يدبر الأمر ليوم آخر مثله وهلم جراً . أو ينزل الوحي مع جبرائيل ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي . ورده مع جبرائيل ايضاً وتقدير الزمان بالف سنة لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وأن الملك يقطعها في يوم واحد من أيامنا . وقيل : إنه إشارة إلى نفوذ الأمر ، فإن نفاذ الأمر كلما كان في مدة أكثر حاله أعلى أي يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة منه ، فكم يكون شهر منه وكم يكون سنة منه وكم يكون دهر منه ؟ فلا فرق على هذا بين الف سنة وبين خمسين ألف سنة كما في " المعارج " . وقيل : إن هذه عبارة عن الشدة واستطالة أهلها إياها كالعادة في استطالة ايام الشدة

(120/614)

والحزن واستقصار أيام الراحة والسرور . وخصت السورة بقوله ﴿ ألف سنة ﴾ موافقة لما قبله وهو قوله ﴿ في ستة أيام ﴾ وتلك الأيام من جنس هذا اليوم . وخصت سورة المعارج بقوله ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ [الآية : 4] لأن فيها ذكر القيامة وأهوالها فكان هو اللائق بها . وعن عكرمة : إن اليوم في المعارج عبارة عن أول أيام الدنيا إلى انقضائها وأنها خمسون ألف سنة لا يدري أحدكم كم مضى وكم بقي إلا الله عزو وجل .

وبالجملة فالآية المتقدمة تدل على عظمة عالم الخلق وسعة مكانه ، والآية الثانية تدل على

عظمة عالم الأمر وامتداد زمانه .

ثم بين أنه مع غاية عظمة ملكه وملكوته عليم بأمر العالمين فقال ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ وفي قوله ﴿ العزيز الرحيم ﴾ إشارة إلى صفتي القهر واللطف اللتين ينبغي أن تكونا لكل ملك ، وإنما أخر ﴿ الرحيم ﴾ مع أن رحمته سبقت غضبه ليوصله بقوله ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ نظيره ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ [طه : 50] وقد مر في " طه " . وعطف عليه تخصيصاً بعد تعميم خلق الإنسان وهو آدم بدليل قوله ﴿ ثم جعله نسله ﴾ أي ذريته لأنها تنسل أي تنفصل ، والسلالة الخلاصة كما ذكرنا في أول " المؤمنين " ، وقوله ﴿ من ماء ﴾ بدل من سلالة والمهين الحقير . ومعنى ﴿ سوَّاه ﴾ قوَّمه وأداره في الأطوار إلى حيث صلح لنفخ الروح فيه ، ثم عدل من الغيبة إلى الخطاب في قوله ﴿ وجعل لكم ﴾ تنبيهاً على جسامة نعم هذه الجوارح وتوبيخاً على قلة الشكر عليها . ثم بين عدم شكرهم بإنكارهم المعاد بعد مشاهدة الفطرة الأولى وليست الثانية بأصعب منها . والواو للعطف على ما سبق كأنهم قالوا : إن محمداً مفتر وقالوا : الله ليس بواحد ﴿ وقالوا أئذا ﴾ يعني أنهم واسلافهم زعموا أن الحشر غير ممكن .

(121/614)

ومعنى ﴿ ضللنا في الأرض ﴾ غبنا فيها إما بالدفن أو بتفرق الأجزاء وتلاشيها .

والعامل في ﴿ أئذا ﴾ ما يدل عليه قوله ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ وهو نبعث أو يجدد خلقنا . ثم صرح بإثبات كفرهم على الإطلاق واللقاء لقاء الجزاء الشامل لجميع أحوال الآخرة . ثم رد عليهم قولهم بالفوت بأنه يتوفاهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح ثم يرجعون إلى حكم الله وحده . ثم بين ما يكون من حالهم عند الرجوع بقوله ﴿ ولو ترى ﴾ أنت يا محمد أو كل من له أهلية الخطاب ﴿ إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾ خجلاً وندامة قائلين ﴿ ربنا أبصرنا ﴾ ما كنا شاكين في وقوعه ﴿ وسمعنا ﴾ منك تصديق رسلك وجواب " لو " محذوف وهو لرأيت أمراً فظيعاً ، وجوزا أن يكون " لو " للتمني كأنه جعل لنبيه تمني أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الذل والهوان ليشمت بهم . ثم إنه سبحانه ألزمهم وألجمهم بقوله ﴿ ولو شئنا ﴾ الآية . وفيه أنه لو ردهم إلى الدنيا لم يهتدوا لأنهم خلقوا لجهنم القهر وقد مر نظيره في آخر " هود " . ثم أكد إهانتهم بقوله ﴿ فذوقوا ﴾ وانتصب ﴿ هذا ﴾ على أنه مفعول ﴿ فذوقوا ﴾ وقوله ﴿ لقاء ﴾ مفعول ﴿ نسيت ﴾ أي ذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم وذهلتم عنه بعد وضوح الدلائل أو تركتم الفكر فيه ، ويجوز أن يكون ﴿ هذا ﴾ صفة ﴿ يومكم ﴾ ومفعول ﴿ ذوقوا ﴾ محذوف وهو العذاب و ﴿ لقاء ﴾ مفعول ﴿ نسيتم ﴾ او هو مفعول ﴿

فذوقوا ﴾ على حذف المضاف أي تبعة لقاء يومكم ويكون ﴿ نسيتم ﴾ متروك المفعول أو محذوفه وهو الفكر في العاقبة .

(122/614)

وقوله ﴿ إنا نسيناكم ﴾ من باب المقابلة والمراد تركهم من الرحمة نظيره ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ [التوبة : 67] وقوله ﴿ عذاب الخلد ﴾ من باب إضافة الموصوف إلى الصفة في الظاهر نحو : رجل صدق . أمرهم على سبيل الإهانة بذوق عذاب الخزي والخجل ، ثم بذوق العذاب الخلد أعاذنا الله منه بفضله العميم ، ثم ذكر أن كما الإيمان بآيات الله من شأن الخلص من عباده الساجدين لله شكراً وتواضعاً حين وعظوا بآيات ربهم منزهين له عما لا يليق بجنابه وجلاله متلبسين بحمده غير مستكبرين عن عبادته ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ ترتفع وتتنحى عن مواضع النوم داعين ربهم أو عابدين له ﴿ خوفاً ﴾ من اليم عقابه ﴿ وطمعاً ﴾ في عظيم ثوابه ، وفسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيام الليل وهو التهجد . قال : " إذا جمع الله الأولين والآخرين جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع ينادي ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانوا

يحمدون الله في البأساء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس " عن علي رضي الله عنه :

جنبي تجافى عن الوساد . . . خوفاً من النار والمعاد

من خاف من سكرة المنايا . . . لم يدر ما لذة الرقاد

قد بلغ الزرع منتهاه . . . لا بد للزرع من حصاد

عن أنس بن مالك : كان أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة فنزلت فيهم . وقيل : هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها .

(123/614)

و " ما " في قوله ﴿ ما أخفي ﴾ موصولة ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى اي شيء ، والمعنى لا تعلم نفس من النفوس لا ملك مقرب ولا نبي مرسل أي نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك مما تقرّ به عيونهم حتى لا تطمح إلى غير ولا تطلب الفرح بما عداه . عن النبي صلى الله عليه وسلم " يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتم عليه اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى

لهم من قرة أعين " وعن الحسن : أخفى القوم أعمالاً في الدنيا فأخفى الله لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت . قال المحققون : إنه يصدر من العبد عمال صالحة وقد صدر عن الرب أشياء سابقة من الخلق والتربية وغيرهما ، وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام ، فلله تعالى أن يقول : أنا أحسنت أولاً ، والعبد أحسن في مقابلته ، فالثواب تفضل من غير عوض . وله أن يقول : الذي فعلته أولاً تفضل فإذا أتى العبد بالعمل الصالح جزيته خيراً لأن جزاء الإحسان إحسان ، وهذا الاعتبار الثاني أليق بالكرم ليذيق العبد لذة الأجر والكسب ، والاعتبار الأول أليق بالعبودية حتى يرى الفضل لله في جانب الأبد فإذن لا تنقطع المعاملة بين الله وبين العبد أبداً ، وتكون العبادة لهم في الآخرة بمنزلة التنفس للملائكة .

(124/614)

يروى أنه شجر بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام فقال له الوليد : اسكت فإنك صبي . فقال له علي : اسكت فإنك فاسق . فأنزل الله تعالى فيهما خاصة وفي أمثالهما من الفريقين عامة ﴿ افمن كان مؤمناً ﴾ إلى آخر ثلاث آيات أو أربع . ومن أول الآية محمول على اللفظ وفي قوله ﴿ لا يستوون ﴾ محمول على المعنى . ثم فصل عدم استوائهما بقوله ﴿ أما الذين آمنوا ﴾ ﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ و

﴿ جنات المأوى ﴾ نوع من الجنان تأوي إليها أرواح الشهداء على قول ابن عباس . وقال بعضهم : هي عن يمين العرش . وفي لام التمليك في ﴿ لهم ﴾ مزيد تشريف وإيذان بأنهم لا يخرجون منها كما لا يخرج المالك من ملكه ولهذا لو قيل : هذه الدار لزيد يفهم منه الملكية بخلاف ما لو قيل : اسكن هذه الدار . فإنه يحمل على الإعارة وإنه تعالى قال لأبينا آدم ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ [البقرة : 35] لأنه كان في علمه أنه يخرج منها . وإنما قيل ههنا ﴿ عذاب النار الذي كنتم به ﴾ وفي " سبأ " ﴿ عذاب النار التي كنتم بها ﴾ [الآية : 42] لأن النار في هذه السورة وقعت موقع الكناية لتقدم ذكرها ، والكنايات لا توصف فوصف العذاب . وفي " سبأ " لم يتقدم ذكر النار فحسن وصف النار .

(125/614)

وتكذيبهم العذاب هو أنهم كانوا يقولون في الدنيا إنه لا عذاب في الآخرة ، ويحتمل أن يراد بالتكذيب أنهم يقولون في الآخرة أول ما تأخذهم النار أنه لا عذاب فوق ما نحن فيه ، فإذا زاد الله لهم ألماً على ألم وهو قوله ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ صاروا كاذبين فيما زعموا أنه لا عذاب أزيد مما هم فيه ، وعلى هذا يمكن أن يراد بالخروج منها والإعادة فيها هو أن أبدانهم تألف النار وتتعودها فيقل الإحساس بها فيعيد الله عليهم

إحساسهم الأول فيزيد تألمهم ، ومن هنا قالت الحكماء : إن الإحساس بحرارة حمى الدق اقل من الإحساس بحرارة الحمى البلغمية مع أن نسبة الدق إلى الثانية نسبة النار إلى الماء المسخن ، ونظيره أن الإنسان يضع يده في الماء البارد فيتألم أولاً ، ثم إذا صبر زماناً طويلاً زال ذلك الألم وذلك لبطلان حسه . ثم حتم على نفسه أنه يذيقهم عذاب الدنيا من القتل والسر والقحط قبل أن يصلوا إلى عذاب الآخرة . وعن مجاهد : أن الأدنى هو عذاب القبر .

وإنما ل يقل الأصغر في مقابلة الأكبر ، أو الأبعد الأقصى في مقابلة الأدنى ، لأن الغرض هو التخويف والتهديد وذلك إنما يحصل بالقرب لا بالصغر والكبر ولا بالبعد .

(126/614)

ومعنى قوله ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ والترجي على الله محال لنذيقهم إذاقة الراجين رجوعهم عن الكفر والمعاصي كقوله ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلاً اي نذيقهم على الوجه الذي يفعل الراجي من التدرج ، أو نذيقهم إذاقة يقول القائل : لعلهم يرجعون بسببه . قال في التفسير الكبير : إن الرجاء في أكثر الأمر يستعمل فيما لا تكون عاقبته معلومة ، فتوهم الأكثرون أنه لا يجوز إطلاقه في حق الله تعالى وليس

كذلك ، فإن الجزم بالعاقبة إنما يحصل في حقه بدليل منفصل لا من نفس الفعل فإن التعذيب لا يلزم منه الرجوع لزوماً بيناً . قلت : هذا يرجع إلى التأويل الأول ، فإن الكلام في تعذيب الله هل هو يستدعي الرجوع على سبيل الرجاء أم لا ، وكون مطلق التعذيب مستدعياً لذلك لا يكفي للسائل . وقالت المعتزلة : لعل من الله إرادة وإرادة الله فعل المختار لا تقدح في اقتدار الله إذا لم يختر المختار مراد الله كما أنهم لم يختاروا التوبة والرجوع عن الكفر وإلا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر . وإنما يقدم في اقتداره إذا تعلقت في إرادته بفعل نفسه أو بفعل المضطر المقسور ثم لا يوجد ذلك الفعل . وجوَّز في الكشاف أن يراد : لعلهم يريدون الرجوع إلى الدنيا ويطلبونه كقوله ﴿ فارجعنا نعمل صالحاً ﴾ سميت إرادة الرجوع رجوعاً كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] ثم بين أنهم إذا ذكروا بالدلائل من النعم أولاً والنقم ثانياً وهو العذاب الأدنى ثم لم يؤمنوا فلا أحد أظلم منهم .

(127/614)

ومعنى ﴿ ثم ﴾ أنه ذكر مرات ثم بالآخرة ﴿ أعرض عنها ﴾ والفاء في سورة الكهف تدل على الإعراض عقيب التذكير وقد سبق . وقال أهل المعاني : " ثم " ههنا تدل على

أن الإعراض بعد التذكير مستبعد في العقول . قال المحققون : الذي لا يحتاج في معرفة الله إلا إلى الله عدل كقوله ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [فصلت : 53] كما قال بعضهم : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله . والذي يحتاج في ذلك إلى دلائل الآفاق والأنفس متوسط ، والذي يقر عند الشدة ويجحد عند الرحمة ظالم كقوله ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ [الروم : 33] والذي يبقى على الجحود والإعراض وإن عذب فلا أظلم منه . وحين جعله أظلم كان ظالم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ليدل على إصابة الأظلم منهم النصيب الأوفر من الانتقام . ولو قال " إنا منهم منتقمون " لم يكن بهذه الحيثية في الإفادة . ثم عاد إلى تأكيد أصل الرسالة مع تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ قال جار الله : اللام للجنس ليشمل التوراة والفرقان .

والضمير في ﴿ لقائه ﴾ للكتاب أي آتينا موسى مثل ما آتيناك ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي ، فلا تك في شك من أنك لقيت مثله . واللقاء بمعنى التلقين والإعطاء كقوله ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ [النمل : 6] وقيل : الضمير في ﴿ لقائه ﴾ لموسى أي من لقائك موسى ليلة المعراج أو يوم القيامة ، أو من لقاء موسى الكتاب وهو تلقيه له بالرضا والقبول .

والضمير في ﴿ جعلناه ﴾ للكتاب على أنه منزل على موسى .

واستدل به على أن الله تعالى جعل التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ولم يتعبد بما فيها ولد إسماعيل . ثم حكى أن منهم من اهتدى حتى صار من ائمة الهدى وذلك حين صبروا أو لصبرهم على متاعب التكليف ومشاق الدعاء إلى الدين بعيد إيقانهم به . وفيه أن الله تعالى سيجعل الكتاب المنزل على نبينا أيضاً سبب الاهتداء والهداية وكان كما أخبر . ومثله إخبار النبي صلى الله عليه وسلم " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " ولا يخفى أن " من " التبعيضة في قوله ﴿ وجعلنا منهم ﴾ كانت تدل على أن بعضهم ليسوا أئمة الهدى ، وفيه رمز إلى أن بعضهم كانوا أئمة الضلال فلذلك قال ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم ﴾ الاية . وفيه إشارة إلى أنه سبحانه سيميز المحق في كل دين من المبطل . ثم أعاد أصل التوحيد مقروناً بالوعيد قائلاً ﴿ أولم يهد لهم ﴾ وقد مر نظيره في آخر " طه " وإنما قال في آخر الآية ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ على الجمع ليناسب القرون والمساكن . وإنما قل ﴿ أفلا يسمعون ﴾ لأنه تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع ، وفيه إشارة إلى أنه لاحظ لهم منه إلا السماع . وحين ذكر الإهلاك والتخريب أتبعه ذكر الإحياء والعمارة . ومعنى ﴿ نسوق الماء ﴾ نسوق السحاب وفيه المطر ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ وهي التي جز نباتها أي قطع إما لعدم الماء وإما لأنه رعي وأزيل . قال جار الله : ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز بدلالة قوله ﴿ فنخرج به زرعاً ﴾ وعن ابن عباس أنها ارض اليمن ، والضمير في " به " للماء . وإنما

قدم الأنعام ههنا على الأنفس لأن الزرع لا يصلح أوّله إلا للأنعام وإنما يحدث الحب في آخر أمره . شقال في " طه " ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ [الآية : 54] لأن الأزواج من النبات أعم من الزرع وكثير منه يصلح لإِنسان في أول ظهروه مع أن الخطاب لهم فناسب أن يقدموا وإنما ختم الاية بقوله ﴿ أفلا يبصرون ﴾ تأكيداً لقوله في أول الآية ﴿ أولم يروا ﴾ ثم حكى نوع جهالة أخرى عنهم وهو استعجالهم العذاب . قال المفسرون

(129/614)

: كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين أي ينصرنا عليهم ويفتح بيننا وبينهم أي يفصل ، فاستعجل المشركون ذلك .

ويوم الفتح يوم القيامة فحينئذ تنفتح أبواب الأمور المبهمة أو يوم بدر أو يوم فتح مكة قاله مجاهد والحسن . فإن قلت : كيف ينطلق قوله ﴿ قل يوم الفتح ﴾ الخ جواباً عن سؤالهم عن وقت الفتح ؟ فالجواب أنهم سألوا ذلك على وجه التكذيب والاستهزاء فقيل لهم : لا تستهزؤا فكأنا بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتم فلم تنظروا . ومن فسر يوم الفتح بيوم بدر أو بيوم فتح مكة فالمراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل وإلا فقد نفع الإيمان الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر . ثم أمر نبيه

صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وانتظار النصرة عليهم حين علم أنه لا طريق معهم إلا القتال نظيره قوله ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ [الطور : 31] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 435. 441 ﴾

(130/614)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما ذكر تعالى علامة أهل الكفر أن ذكر علامة أهل الإيمان بقوله تعالى:

﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ أي : الدالة على عظمتنا ﴿ الذين إذا ذكروا بها ﴾ أي : من أي : مذكر كان في أي : وقت كان ﴿ خروا سجداً ﴾ أي : بادروا إلى السجود مبادرة من كأنه سقط من غير قصد خضعاً لله من شدة تواضعهم وخشيتهم وإخباتهم خضوعاً ثابتاً دائماً ﴿ وسبحوا ﴾ أي : أوقعوا التسبيح به عن كل شائبة نقص متلبسين ﴿ بحمد ربهم ﴾ أي : قالوا سبحان الله وبحمده . وقيل : صلوا بأمر ربهم .

ولما تضمن هذا تواضعهم صرح به في قوله تعالى ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ أي : عن الإيمان والطاعة كما يفعل من يصير مستكبراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم "يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا مكاناً لموضع جبهته في غير وقت

الصلاة" وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل إبليس يبكي يقول : يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار" وهذه من عزائم سجود القرآن فتسن للقارئ والمستمع والسامع .

ولما كان المتواضع ربما ينسب إلى الكسل نفى ذلك عنهم مبيناً لما تضمنته الآية السالفة من خوفهم بقوله تعالى:

﴿ تتجافى ﴾ أي : ترتفع وتنبو ﴿ جنوبهم عن المضاجع ﴾ عبر به عن ترك النوم ، قال ابن رواحة:

*نبيٌّ تجافى جنبه عن فراشه ** إذا استثقلت بالمشركين المضاجع*

والمضاجع : جمع المضجع وهو الموضع الذي يضجع عليه يعني الفراش وهم المتهجدون الذين يقيمون الصلاة . قال أنس : "نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي صلى الله عليه وسلم وعن أنس أيضاً قال : "نزلت في أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون صلاة المغرب إلى صلاة العشاء" قال عطاء : هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر في جماعة .

وعنه صلى الله عليه وسلم "من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة ، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة" وعن أنس كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء ، وعنه أيضاً قال : "ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم راقداً قط قبل العشاء ولا متحدثاً بعدها" فإن هذه الآية نزلت في ذلك ، وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم" فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقه قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير .

وعن مالك بن دينار قال : سألت أنساً عن هذه الآية فقال : كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الأولين يصلون المغرب ويصلون بعدها إلى العشاء الآخرة فنزلت هذه الآية فيهم ، وعن ابن أبي حازم قال : هي ما بين المغرب والعشاء صلاة الأوابين ، وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : قيام العبد من الليل ، وعن معاذ بن جبل أيضاً قال : "كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه وهو يسير فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة

تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل من جوف الليل ، ثم قرأ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبي الله فأخذ بلسانه فقال : كف عنك هذا فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال : ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم" .

(132/614)

وعن كعب قال : إذا حشر الناس نادى مناد : هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع أين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم

ثم يخرج عنق من نار فيقول : أمرت بثلاثٍ : بمن جَعَلَ مع الله إلهاً آخر ، وبكل جبار عنيد ، وبكل معتدٍ ، لأنَّا أعرف بالرجل من الوالد بولده والمولود بوالده ، ويؤمر بفقراء المسلمين إلى الجنة فيحبسون فيقولون : تحبسونا ما كان لنا أموال وما كنا أمراء ، وعن أبي أمامة الباهلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم وتكفير للسيئات ومنهاة عن الآثام ومطردة للداء" .

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "عجب ربنا من رجلين : رجل

ثار عن وطائه ولحافه بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقاً مما عندي ، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه من الانهزام وما عليه في الرجوع فرجع حتى هريق دمه" وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه فقلت : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : أفلا أكون عبداً شكوراً" وعن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها أعدّها الله لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام" .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ربيعة الخرشي قال : يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد فيكونون ما شاء الله أن يكونوا ، ثم ينادي منادٍ : سيعلم أهل الجمع لمن يكون العز اليوم والكرم ، ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً فيقومون وفيهم قلة ، ثم يلبث ما شاء الله أن يلبث ، ثم يعود فينادي المنادي : سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

(133/614)

فيقومون وهم أكثر من الأولين ثم يلبث ما شاء الله أن يلبث ثم يعود فينادي المنادي : سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ، ليقم الحامدون على كل حال فيقومون وهم أكثر من الأولين ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ تتجافى في جنوبهم عن المضاجع ﴾ يقول : تتجافى لذكر الله إما في الصلاة وإما في قيام أو قعود أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله .

ولما كان هجران المضجع قد يكون لغير العبادة بين أنه لها بقوله تعالى : مبيناً لحالهم ﴿ يدعون ﴾ أي : داعين ﴿ ربهم ﴾ الذي عوّدهم بإحسانه ثم علله بقوله تعالى : ﴿ خوفاً ﴾ أي : من سخطه وعقابه ، فإن أسباب الخوف من نقائصهم كثيرة سواء أعرفوا سبباً يوجب خوفاً أو لا لأنهم لا يأمنون مكر الله لأنه يفعل ما يشاء ﴿ وطمعاً ﴾ في رضاه الموجب لثوابه ، وقال ابن عباس : خوفاً من النار وطمعاً في الجنة وعبر به دون الرجاء إشارة إلى أنهم لشدة معرفتهم بنقائصهم لا يعدون أعمالهم شيئاً بل يطلبون فضله بغير سبب وإن كانوا مجتهدين في طاعته .

ولما كانت العبادة تقطع غالباً عن التوسع في الدنيا بما دعت نفس العابد إلى التمسك بما في يده خوفاً من نقص العبادة عند الحاجة ، وصفهم الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي : بعظمتنا لا بحول منهم ولا قوة ﴿ ينفقون ﴾ من غير إسراف ولا تقتير في جميع وجوه القرب التي شرعناها لهم فلا يبخلون بما عندهم اعتماداً على الخلاق الرزّاق الذي ضمن الخلق فهم بما ضمن لهم أوثق منهم بما عندهم .

ولما ذكر تعالى جزاء المستكبرين ذكر جزاء المتواضعين بقوله عز من قائل:

﴿ فلا تعلم نفس ﴾ أي : من جميع النفوس مقربة ولا غيرها ﴿ ما أُخفي ﴾ أي : خبئ ﴿ لهم ﴾ أي : لهؤلاء المذكورين من مفاتيح الغيوب وخزائنها كما كانوا يخفون أعمالهم في الصلاة في جوف الليل وبالصدقة وبغير ذلك ، وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بالفتح .

(134/614)

ولما كانت العين لا تقر فتهجع إلا عند الأمن والسرور قال تعالى ﴿ من قرة أعين ﴾ أي : من شيء نفيس تقرّ به أعينهم لأجل ما أقلقوها عن قرارها بالنوم ، ثم صرح بما أفهمته فاء السبب بقوله تعالى : ﴿ جزاء ﴾ أي : أخفاها لهم لجزائهم ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كانوا يعملون ﴾ أي : من الطاعات في دار الدنيا . روى البخاري في التفسير عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال أبو هريرة اقرؤا إن شئتهم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم ﴾ الآية وعن ابن مسعود قال : "إنه لمكتوب في التوراة لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملك مقرب ولا نبي مرسل وإنه لفي القرآن ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي

لهم من قرة أعين ﴾ .

وعن ابن عمر قال : إن الرجل من أهل الجنة ليجيء فيشرف عليه النساء فيقلن : يا فلان بن فلان ما أنت بمن خرجت من عندها بأولى بك منا فيقول : ومن أنتن ؟ فيقلن : نحن من اللاتي قال الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وعن عامر بن عبد الواحد قال : بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكان سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب فيقول : من أنت فتقول : أنا مزيد ، فيمكث معها سبعين سنة ويلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب فيقول : من أنت فتقول : أنا التي قال الله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ .

(135/614)

وعن سعيد بن جبير قال : يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ وعن كعب قال : سأصف لكم منزل رجل من أهل الجنة كان يطلب حلالاً ويأكل حلالاً حتى لقي الله تعالى على ذلك ، فإنه يعطى يوم القيامة

قصراً من لؤلؤة واحدة ليس فيها صدع ولا وصل ، فيها سبعون ألف غرفة ، وأسفل الغرف سبعون ألف بيت كل بيت سقفه صفائح الذهب والفضة ليس بموصول ، ولولا أن الله تعالى سخر النظر لذهب بصره من نوره غلظ الحائط خمس عشر ميلاً وطوله في السماء سبعون ميلاً ، في كل بيت سبعون ألف باب يدخل عليه في كل بيت من كل باب سبعون ألف خادم لا يراهم من في هذا البيت ولا يراهم من في هذا البيت ، فإذا خرج من قصره سار في ملكه مثل عمر الدنيا يسير في ملكه عن يمينه وعن يساره ومن ورائه ، وأزواجه معه وليس معه ذكر غيره ومن بين يديه ملائكة قد سخروا له وبين أزواجه ستر ، وبين يديه ستر ووصاف ووصائف قد أفهموا ما يشتهي وما تشتهي أزواجه ، ولا يموت هو ولا أزواجه ولا خدّامه أبداً ، نعيمهم يزداد كل يوم من غير أن يبلي الأول ، وقرة عين لا تنقطع أبداً ، لا يدخل عليه فيه روعة أبداً .

(136/614)

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "والذي نفسي بيده لو أن أحد أهل الجنة رجل أضاف آدم فمن دونه فوضع لهم طعاماً وشراباً حتى خرجوا من عنده لا ينقصه ذلك شيئاً مما أعطاه الله" وعن سهل بن سعد قال : "بينما نحن عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو يصف الجنة حتى انتهى ثم قال : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ الآيتين قال القرطبي : إنهم أخفوا عملاً وأخفى لهم ثواباً فقدموا على الله فقرت تلك الأعين ، وعن أبي اليمان قال : الجنة مائة درجة أولها درجة فضة وأرضها فضة ومساكنها فضة وآنيتها فضة وترابها المسك ، والثانية ذهب وأرضها ذهب ومساكنها ذهب وآنيتها ذهب وترابها المسك ، والثالثة لؤلؤ وأرضها لؤلؤ ومساكنها لؤلؤ وآنيتها لؤلؤ وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتلا هذه الآية ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ الآية .

وعن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال : أي : رب ، أي : أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعدما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل فيقول كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا فيقول : نعم أي : رب قد رضيت فيقال له : فإن لك هذا وعشرة أمثاله معه فيقول : قد رضيت أي رب فيقال له : فإن لك هذا وما اشتهت نفسك ولذت عينك فقال موسى : أي : رب فأي أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : إياها أردت وسأحدثك عنهم ، إني غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها فلا عين

رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال : ومصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ .

(137/614)

ونزل في علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان لأمه حين تنازعا فقال الوليد بن عقبة لعلي : اسكت فإنك صبي وأنا شيخ وأنا والله أبسط منك لساناً وأحد منك سناناً وأشجع جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة ، فقال له علي اسكت فإنك فاسق .

﴿ أفمن كان مؤمناً ﴾ أي : راسخاً في التصديق بجميع ما أخبرت به الرسل ﴿ كمن كان فاسقاً ﴾ أي : راسخاً في الفسق خارجاً عن دائرة الإذعان وقال تعالى ﴿ لا يستوون ﴾ ولم يقل تعالى لا يستويان ؛ لأنه لم يرد مؤمناً واحداً ولا فاسقاً واحداً بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين فلا يستوي جمع من هؤلاء بجميع من أولئك ولا فرد بفرد . قال قتادة : لا يستوون لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة .

ولما نفى استواءهم أتبعه حال كلٍ على سبيل التفصيل وبدأ بحال المؤمن بقوله تعالى:

﴿ أما الذي آمنوا وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ أي : الطاعات

﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أي : التي يأوي إليها المؤمنون فإنها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة ، وهي نوع من الجنات قال الله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ﴾ (النجم : ،)

سميت بذلك لما روى عن ابن عباس قال : تأوي إليها أرواح الشهداء وقيل هي عن يمين العرش ﴿ نزلاً ﴾ أي : عداداً لهم أول قدومهم قال البقاعي : كما يهيأ للضيف على ما لاح أي : عند قدومه ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كانوا يعملون ﴾ من الطاعات فإن أعمالهم من رحمة ربهم ، وإذا كانت هذه الجناب نزلاً فما ظنك بما بعد ذلك هو لعمري ما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" وهم كل لحظة في زيادة لأن قدرة الله تعالى لا نهاية لها ، فإياك أن تخادع أو يغرنك ملحد ، ثم ثنى بحال الكافر بقوله تعالى:

(138/614)

﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أي : خرجوا عن دائرة الإيمان الذي هو معدن التواضع وأهل للمصاحبة والملازمة ﴿ فمأواهم النار ﴾ أي : التي لا صلاحية فيها للإيواء بوجه من الوجوه ملجؤهم ومنزلهم أي : فالنار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين ﴿ كلما أرادوا ﴾ أي

: وهم مجتمعون ، فكيف إذا أراد بعضهم ﴿ أن يخرجوا منها ﴾ بأن يخيل إليهم ما يظنون به القدرة على الخروج منها كما كانوا يخرجون نفوسهم من محيط الأدلة ومن دائرة الطاعات إلى ميدان المعاصي والزلات فيعالجون الخروج ، فإذا ظنوا أنه تيسر لهم وهم بعد في غمراتها ﴿ أعيدوا فيها ﴾ فهو عبارة عن خلودهم فيها ﴿ وقيل لهم ﴾ أي : من أي : قائل وكل بهم ﴿ ذوقوا عذاب النار ﴾ إهانة لهم وزيادة في تغيظهم وقوله تعالى ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾ صفة لعذاب ، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة للنار قال : وذكر على معنى الجحيم والحريق .

ولما كان المؤمنون الآن يتمنون إصابتهم بشيء من الهوان قال تعالى:

﴿ ولنذيقهم من العذاب الأدنى ﴾ أي : عذاب الدنيا ، قال الحسن : هو مصائب الدنيا وأسقامها وقال عكرمة : الجوع بمكة تسع سنين أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب ، وقال ابن مسعود : هو القتل بالسيف يوم بدر ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب الآخرة فإن عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة ، فإن قيل : ما الحكمة في مقابلة الأدنى بالأكبر ، والأدنى إنما هو في مقابلة الأقصى والأكبر إنما هو في مقابلة الأصغر .

أجيب : بأنه حصل في عذاب الدنيا أمران : أحدهما : أنه قريب ، والآخر : أنه قليل صغير ، وحصل في عذاب الآخرة أيضاً أمران : أحدهما : أنه بعيد ، والآخر : أنه عظيم كبير ، لكن العرف في عذاب الدنيا هو أنه الذي يصلح للتخويف ، فإن العذاب الآجل وإن كان

قليلاً فلا يحترز عنه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلاً ، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل .

(139/614)

وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد ؛ لما ذكر . فقال في عذاب الدنيا : العذاب الأدنى ليحترز العاقل ولو قال تعالى : ولنذيقنهم من العذاب الأصغر ما كان ليحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلاً ، وقال في عذاب الآخرة : الأكبر لذلك المعنى ، ولو قال : من العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه من الكبر ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إلى الإيمان أي : من بقي منهم بعد بدر ، فإن قيل : ما الحكمة في هذا الترجي وهو على الله تعالى محال ، أجيب بوجهين : أحدهما : معناه لنذيقنهم إذاقة الراجي كقوله تعالى ﴿ إنا نسيناكم ﴾ يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلاً كذلك هنا ، والثاني : نذيقنهم العذاب ، إذاقة يقول القائل : لعلهم يرجعون بسببه .

﴿ ومن ﴾ أي : لا أحد ﴿ أظلم ممن ذكر بآيات ربه ﴾ أي : القرآن ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ فلم يتفكر فيها ، وثم لاستبعاد الإعراض عنها مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب

السعادة بعد التذكر بها عقلاً كما في بيت الحماسة:

*وما يكشف الغماء إلا ابن حرة **يرى غمرات الموت ثم يزورها*

أي : لا يكشف الأمر العظيم إلا رجل كريم موصوف بما ذكر ، والغماء بتشديد الميم والمد أي : في مدة اقتحام الحرب ، والشاهد في قوله : ثم يزورها ، إذ المعنى أنه استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها ﴿ إنا من المجرمين ﴾ أي : الكافرين ﴿ منتقمون ﴾ وعبر بصيغة العظمة تنبيهاً على أن الذي يحصل لهم من العذاب لا يدخل تحت الوصف على مجرد العداد في الظالمين فكيف إذا كانوا أظلم الظالمين ، والجملة الاسمية تدل على دوام ذلك عليهم في الدنيا أما باطناً بالاستدراج بالنعم ، وأما ظاهراً بإحلال النقم وفي الآخرة بدوام العذاب على ممر الآباد .

ولما قرر الأصول الثلاثة وعاد إلى الأصل الذي بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله تعالى ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير ﴾ (القصص :)

(140/614)

بين أنه ليس بدعا من الرسل بقوله تعالى:

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أي : الجامع للأحكام وهو التوراة فكان قبلك رسل مثلك

، وذكر موسى عليه السلام لقربه من النبي صلى الله عليه وسلم وهو أول من أنزل عليه كتاب من أنبياء بني إسرائيل بعد فترة كثيرة من الأنبياء بينه وبين يوسف عليهما السلام ، ولم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوءة موسى عليه السلام فذكر المجمع عليه ﴿ فلا تكن في مريه ﴾ واختلف في الهاء في قوله تعالى ﴿ من لقائه ﴾ على أقوال : أحدها : أنها عائدة على موسى عليه السلام والمصدر مضاف لمفعوله أي : من لقائك موسى ليلة الإسراء . وامتحن المبرد الزجاج في هذه المسألة فأجاب بما ذكر قال ابن عباس وغيره : المعنى فلا تكن في شك من لقاء موسى فإنك تراه وتلقاه ، روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "رأيت ليلة أسري بي موسى رجلا آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن النار والدجال في آيات آراهن الله إياه" وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو يصلي في قبره" ، فإن قيل : قد صح في حديث المعراج أنه رآه في السماء السادسة ومراجعته في أمر الصلاة ، فكيف الجمع بين هذين الحديثين .

أجيب : بأنه يحتمل أن تكون رؤيته في قبره عند الكثيب الأحمر قبل صعوده إلى السماء وذلك في طريقه إلى بيت المقدس ، فلما صعد إلى السماء السادسة وجده هناك قد سبقه

لما يريده الله تعالى وهو على كل شيء قدير .

فإن قيل : كيف تصح منه الصلاة في قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو في الدار الآخرة وهي ليست دار عمل ، وكذلك رأى النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الأنبياء وهم يحجون ؟

(141/614)

أجيب عن ذلك بأجوبة : الأول : أن الأنبياء أفضل من الشهداء ، والشهداء أحياء عند ربهم فلا يبعد أن يحجوا ويصلوا كما صح في الحديث ، وأن يتقربوا إلى الله تعالى بما استطاعوا لأنهم وإن كانوا قد توفوا لكنهم بمنزلة الأحياء في هذه الدار التي هي دار العمل إلى أن تفنى ويفضوا إلى دار الجزاء التي هي الجنة .

الجواب الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم رأى حالهم التي كانوا عليها في حياتهم ومثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وصلاتهم . الجواب الثالث : أن التكليف وإن ارتفع عنهم في الآخرة لكن الذكر والشكر والدعاء لا يرتفع قال الله تعالى ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ (يونس :)

وقال صلى الله عليه وسلم "يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس" فالعبد يعبد ربه تعالى في

الجنة أكثر ما كان يعبده في دار الدنيا ، وكيف لا يكون ذلك وقد صار مثل حال الملائكة الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (الأنبياء :) غاية ما في الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي مقتضى الطبع . ثانيها : أن الضمير يعود إلى الكتاب وحينئذ يجوز أن تكون الإضافة للفاعل أي : من لقاء الكتاب لموسى أو المعول أي : من لقاء موسى الكتاب لأن اللقاء تصح نسبته إلى كل منهما ؛ لأن من لقيك فقد لقيته . قال السدي : المعنى فلا تكن في مرية من لقائه أي : تلقى موسى كتاب الله تعالى بالرضا والقبول . ثالثها : أنه يعود على الكتاب على حذف مضاف أي : من لقاء مثل كتاب موسى .

(142/614)

رابعها : أنه عائد على ملك الموت عليه السلام لتقدم ذكره . خامسها : عوده على الرجوع المفهوم من قوله ﴿ إلى ربكم ترجعون ﴾ أي : لا تكن في مرية من لقاء الرجوع . سادسها : أنه يعود على ما يفهم من سياق الكلام مما ابتلي به موسى من الابتلاء والامتحان قاله الحسن أي : لا بد أن تلقى ما لقي موسى من قومه ، واختار موسى عليه السلام الحكمة وهي أن أحداً من الأنبياء لم يؤذه من قومه إلا الذين لم يؤمنوا ، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم

موسى عليه السلام فإن من لم يؤمن به آذاه كفرعون ، ومن آمن به من بني إسرائيل آذاه أيضاً بالمخالفة ، فطلبوا أشياء مثل رؤية الله جهرة ، وكقولهم ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ (المائدة :)

وأظهر هذه الأقوال أن الضمير إما لموسى وإما للكتاب ، واختلف في الضمير أيضاً في قوله تعالى ﴿ وجعلناه ﴾ على قولين : أحدهما : يرجع إلى موسى أي : وجعلنا موسى ﴿ هدى ﴾ أي : هادياً ﴿ لبني إسرائيل ﴾ كما جعلناك هادياً لأمتك . والثاني : أنه يرجع إلى الكتاب أي : وجعلنا كتاب موسى هادياً كما جعلنا كتابك كذلك .

(143/614)

﴿ وجعلنا منهم ﴾ أي : من أنبيائهم وأحبارهم ﴿ أئمة يهدون ﴾ أي : يرفعون البيان ويعملون على حسبه ﴿ بأمرنا ﴾ أي : بما نزلنا فيه من الأوامر ، كذلك جعلنا من أمتك صحابة يهدون ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة قبل الميم ، ولهم أيضاً إبدالها ياء ، وحققها الباقون ومد هشام بين الهمزتين بخلاف عنه ، وقوله تعالى ﴿ لما صبروا ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر اللام وتخفيف الميم أي : بسبب صبرهم على دينهم وعلى البلاء

من عدوهم ولأجله ، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم أي : حين صبرهم على ذلك ، وإن كان الصبر أيضاً إنما هو بتوفيق الله تعالى ﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا لما لها من العظمة ﴿ يوقنون ﴾ أي : لا يرتابون في شيء منها ولا يعملون فعل الشاك فيها بالإعراض .

ولما أفهم قوله تعالى منهم أنه كان منهم من يضل عن أمر الله قال الله تعالى:

﴿ إن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك ليعظم ثوابك ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ يفصل بينهم ﴾ أي : بين الهادين والمهديين والضالين والمضلين ﴿ يوم القيامة ﴾ بالقضاء الحق ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي : من أمر الدين لا يخفي عليه شيء منه وأما غير ما اختلفوا فيه ، فالحكم فيه لهم أو عليهم ، وما اختلفوا فيه لا على وجه القصد فيقع في محل العفو .

ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد بقوله تعالى:

﴿ أولم يهد ﴾ أي : يبين كما رواه البخاري عن ابن عباس ﴿ لهم كم أهلكنا ﴾ أي : كثرة من أهلكنا ﴿ من قبلهم من القرون ﴾ الماضين من المعرضين عن الآيات ، ونجينا من آمن بها . وقوله تعالى ﴿ يمشون ﴾ حال من ضمير لهم ﴿ في مساكنهم ﴾ أي : في أسفارهم إلى الشام وغيرها كمساكن عاد وثمود وقوم لوط فيعتبروا ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر

العظيم ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات على قدرتنا ﴿ أفلا يسمعون ﴾ سماع تدبر واتعاظ فيتعظوا بها .

(144/614)

﴿ أولم ﴾ أي : أيقولون في إنكار البعث أئذا ضللنا في الأرض ولم ﴿ يروا أنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ نسوق الماء ﴾ أي : من السماء أو الأرض ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ أي : التي جرز نباتها أي : قطع باليبس والتهشم أو بأيدي الناس فصارت ملساء لا نبات فيها ، وفي البخاري عن ابن عباس أنها التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً ، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز ويدل عليه قوله تعالى ﴿ فنخرج به ﴾ من أعمال الأرض بذلك الماء ﴿ زرعاً ﴾ أي : نبتاً لا ساق له باختلاط الماء بالتراب ، وقيل الجرز : اسم موضع باليمن ﴿ تأكل منه أنعامهم ﴾ أي : من حبه وورقه وتبنه وحشيشه ﴿ وأنفسهم ﴾ أي : من الحبوب والأقوات ، وقدّم الأنعام لوقوع الامتنان بها لأن بها قوامهم في معايشهم وأبدانهم ولأن الزرع غذاء للدواب لابد منه ، وأما غذاء الإنسان فقد يصلح للحيوان فكان الحيوان يأكل الزرع ، ثم الإنسان يأكل من الحيوان .

فإن قيل : في سورة عيسى قدم ما للإنسان أولاً فما الحكمة ؟

أجيب : بأن السياق فيها لطعام الإنسان الذي هو نهاية الزرع حيث قال : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ (عبس :)

ثم قال : ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ (عبس :)

وذكر من طعامه من العنب وغيره ما لا يصلح للأنعام فقدمه ، وهذا السياق لمطلق إخراج الزرع ، وأول صلاحه إنما هو لأكل الأنعام ولا يصلح للإنسان . ولما كانت هذه الآية مبصرة قال ﴿ أفلا يبصرون ﴾ هذا فيعلموا أنا نقدر على إعادتهم بخلاف الآية الماضية فإنها كانت مسموعة فقال : ﴿ أفلا يسمعون ﴾ .

ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى:

﴿ ويقولون ﴾ أي : مع هذا البيان الذي ليس معه خفاء ﴿ متى هذا الفتح ﴾ أي : يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل : هو يوم بدر ، وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : عريقين في الصدق بالإخبار بأنه لابد من وقوعه حتى نؤمن إذا رأيناه ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء الجهلة ﴿ يوم الفتح ﴾ أي : الذي تستهزئون به وهو يوم القيامة ﴿ لا ينفع الذين كفروا ﴾ أي : غطوا آيات ربهم التي لا خفاء بها ، سواء في ذلك أنتم وغيركم ممن اتصف بهذا الوصف ﴿ إيمانهم ﴾ لأنه ليس إيماناً بالغيب ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي : يمهلون في إيقاع العذاب بهم لحظة ما من منتظر ما ، فإن قيل : قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً عن سؤالهم ؟

أجيب : بأنه كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء ، فأجيبوا على حسب ما علم من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم : لا تستعجلوا بعد ولا تستهزؤا فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم في إدارك العذاب فلم تنظروا .

فإن قيل : فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر ، أجيب : بأن المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه حال إدراك الغرق وقوله تعالى:

﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي : لا تبال بتكذيبهم ﴿ وانتظر ﴾ أي : إنزال العذاب بهم ﴿ إنهم منتظرون ﴾ أي : بك حادث موت أو قتل فيستريحون منك ، كان ذلك قبل الأمر بقتالهم وقيل : انتظر عذابهم بيقينك إنهم منتظرونه بلفظهم استهزاء كما قالوا ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ (الأعراف :)

وعن أبي هريرة قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الفجر يوم الجمعة ألم تنزيل في الركعة الأولى ، وهل أتى على الإنسان أي : في الركعة الثانية" وعن جابر قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ تبارك ، وألم تنزيل ، ويقول : هما يفضلان على كل سورة في القرآن بسبعين حسنة ومن قرأهما كتب له سبعون حسنة ورفع له سبعون درجة" .

(146/614)

وعن أبيّ بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة ألم تنزيل أعطي من الأجر كمن أحيا ليلة القدر" وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عنه صلى الله عليه وسلم "من قرأ ألم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" قال شيخ شيخنا ابن حجر : لم أجده . والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿السراج المنير حـ 5 صـ 298 . 311﴾

(147/614)

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾

أي : وعظوا : ﴿ خَرُّوا سُجَّداً ﴾ لسرعة قبولهم لها بصفاء فطرتهم ، وذلك تواضعاً لله وخشوعاً ، وشكراً على ما رزقهم من الإسلام : ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : عن الانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : 60] ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي : ترتفع وتتنحى عن الفرش ومواضع النوم . والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم ، وهم المتهجدون بالليل : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي : داعين له : ﴿ خَوْفاً ﴾ من عذابه : ﴿ وَطَمَعاً ﴾ في رحمته : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي : من المال : ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ أي : في وجوه البرّ والحسنات .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ أي : ما ذخر ، وأُعدّ أي : لهؤلاء الذين عددت مناقبهم : ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي : مما تقر به عينهم من طيبة النفس والثواب والكرامة في الجنة : ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : في الدنيا من الأعمال الصالحة

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ أي : كافراً جاحداً : ﴿ لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ أي : في الآخرة بالثواب والكرامة ، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة ، ثم فصّل مراتب الفريقين بقوله : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً ﴾ أي : ثواباً : ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [الحج : 22] ، كناية عن دوام عذابهم واستمراره : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك ، تشديداً عليهم ، وزيادة في غيظهم ، وتقريعاً وتوبيخاً .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ ﴾ أي : أهل مكة : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى ﴾ أي : عذاب الدنيا ، من الجدبِ [في المطبوع : والجدب] ، والقتلِ ، والأسرِ : ﴿ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ يعني عذاب الآخرة : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي يتوبون عن الكفر أي : يرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى ، قبل الرين بكثافة الحجاب : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي : جحدها وكفر بها : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أي : بالعذاب ، وإظهار المتقين عليهم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أي : التوراة : ﴿ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ أي : لقاء الكتاب الذي هو القرآن ، وعود الضمير إلى الكتاب المتقدم ، والمراد غيره على طريق الاستخدام ، أو إرادة العهد ، أو تقدير مضاف ، أي : تلقي مثله ، أي : فلا تكن في مرية من كونه وحياً متلقى من لدنه تعالى . والمعنى : إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقيّناه من الوحي مثل ما لقيناك ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله .

ونهيُه صلى الله عليه وسلم عن الشك ، المقصود به نهي أمته ، والتعريض بمن صدر منه مثله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : من الضلالة : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي : قادة بالخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا : ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ أي : على العمل به ، والاعتصام بأوامره : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أي : يصدقون أشد التصديق وأبلغه . والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناكه ، هدىً لأمتك ، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية .

ويؤخذ من فحوى الآية ، أن بني إسرائيل لَمّا نبذوا الاعتصام بالكتاب ، ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وفقدوا الاستيقان بحقيّة الإيمان ، فغيّروا وبدّلوا ، سُلِبُوا ذلك المقام ، وأُديل عليهم انتقاماً منهم ؛ وتلك سنته تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : 11] ، ففي طي هذا الترغيب ، ترهيبٌ وأي ترهيبٍ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ أي : يقضي : ﴿ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : فيميز الحق من الباطل ، بتمييز المحق من المبطل : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ أي : يتبين لكفار مكة : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ أي : الماضية بعذاب الاستئصال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أي : منازلهم ، كمنازل قوم شعيب ، وهود ، وصالح ، ولوط عليهم السلام ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يعمرها ويسكنها ، ذهبوا كأن لم يغنوا فيها ؛ كما قال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : 52] ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : فبما فعلنا بهم : ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أي : عبراً ، ومواعظ ، ودلائل متناظرة : ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : أخبار من تقدم ، كيف صار أمرهم بسبب تكذيبهم الرسل ، وبغيهم الفساد في الأرض ، فيحملهم ذلك على الإيمان .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ وهي التي جزر نباتها ، أي : قطع : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ يعني العشب والثمار والبقول : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي : فيستدلون به على كمال قدرته ، ووجوب انفراده بالإلهية . وهذا كآية : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ﴾ [عبس : 24 - 25] الآية .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي : كفار مكة : ﴿ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ﴾ أي : الانتصار علينا ، استعجال لوقوع البأس الرباني عليهم ، الذي وعدوا به ، واستبعاد له ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ لحلول ما يغشي الأبصار ، ويعمي البصائر ، وظهور منار الإيمان ، وزهوق الفريق الكافر .

(151/614)

قال ابن كثير : أي : إذا حل بكم بأس الله ، وسخطه ، وغضبه في الدنيا والآخرة [في المطبوع : الأخرى] ، لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ، ولا هم ينظرون ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر : 83] الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحَ مكة ، فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح ، قد قبِل رسول الله صلّى الله عليه وسلم إسلامَ الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة ، لما قبِل إسلامهم لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل ، كقوله : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ [الشعراء : 118] ، وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ [سبأ : 26] الآية . ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 15]

، وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : 19] .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي : عن المشركين ، ولا تبال بهم ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك : ﴿ وَانتَظِرْ ﴾ أي : النصرة عليهم ، فإن الله سينجز لك ما وعدك ، إنه لا يخلف الميعاد : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي : ما في نفوسهم ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور : 30] ، ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ [التوبة : 98] ، أي : وسيجدون مغبة انتظارهم من وبيل عقابه تعالى ، وأليم عذابه بهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 626.630 ﴾

(152/614)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) ﴾

" ألف . لام . ميم " . . هذه الأحرف التي يعرفها العرب المخاطبون بهذا الكتاب ؛ ويعرفون ما يملكون أن يصوغوا منها ومن نظائرها من كلام ، ويدركون الفارق الهائل بين ما يملكون أن يصوغوه منها وبين هذا القرآن ؛ وهو فارق يدركه كل خبير بالقول ، وكل من يمارس التعبير باللفظ عن المعاني والأفكار .

كما يدرك أن في النصوص القرآنية قوة خفية ، وعنصراً مستكناً ، يجعل لها سلطاناً وإيقاعاً في القلب والحس ليسا لسائر القول المؤلف من أحرف اللغة ، مما يقوله البشر في جميع الأعصار . وهي ظاهرة ملحوظة لا سبيل إلى الجدال فيها ، لأن السامع يدركها ، ويميزها ، ويهتز لها ، من بين سائر القول ، ولو لم يعلم سلفاً أن هذا قرآن ! والتجارب الكثيرة تؤكد هذه الظاهرة في شتى أوساط الناس .

والفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هذه الحروف من كلام ، هو كالفارق بين صنعة الله وصنعة البشر في سائر الأشياء . صنعة الله واضحة مميزة ، لا تبلغ إليها صنعة البشر في أصغر الأشياء . وإن توزيع الألوان في زهرة واحدة ليبدو معجزة لأمهر الرسامين في جميع العصور . . وكذلك صنع الله في القرآن وصنع البشر فيما يصوغون من هذه الحروف من كلام !

ألف . لام . ميم ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ . . قضية مقطوع بها ، لا سبيل إلى الشك فيها . قضية تنزيل الكتاب من رب العالمين . . ويعجل السياق بنفي الريب في منتصف الآية ، بين المبتدأ فيها والخبر ، لأن هذا هو صلب القضية ، والنقطة المقصودة في النص . والتمهيد لها بذكر هذه الأحرف المقطعة يضع المرتابين الشاكين وجهاً لوجه أمام واقع الأمر ، الذي لا سبيل إلى الجدل فيه . فهذا الكتاب مصوغ من جنس هذه الأحرف

التي يعرفون ؛ ونمطه هو هذا النمط المعجز الذي لا يمارون في إعجازه ، أمام التجربة الواقعة ، وأمام موازين القول التي يقر بها الجميع .

(153/614)

إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن ؛ وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام . وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلما تفتح القلب ، وصفا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة . وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلما اتسعت ثقافة الإنسان ، ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه . فليست هي مجرد وهلة تأثيرية وجدانية غامضة . فهي متحققة حين يخاطب القرآن الفطرة خطاباً مباشراً . وهي متحققة كذلك حين يخاطب القلب المجرب ، والعقل المثقف ، والذهن الحافل بالعلم والمعلومات . وإن نصوصه ليتسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعاتها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة ، ما دامت الفطرة مستقيمة لم تنحرف ولم تطمس عليها الأهواء مما يجزم بأن هذا القرآن صنعة غير بشرية على وجه اليقين ، وأنه تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .

﴿ أم يقولون : افتراه ؟ ﴾ . .

ولقد قالوها فيما زعموه متعنتين . ولكن السياق هنا يصوغ هذا القول في صيغة المستنكر لأن يقال هذا القول أصلاً : ﴿ أم يقولون : افتراه ؟ ﴾ .

. هذه القولة التي لا ينبغي أن تقال ؛ فتاريخ محمد صلى الله عليه وسلم فيهم ينفي هذه الكلمة الظالمة من جهة ؛ وطبيعة هذا الكتاب ذاتها تنفيه أصلاً ، ولا تدع مجالاً للريب والتشكك :

﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ . .

الحق . . بما في طبيعته من صدق ومطابقة لما في الفطرة من الحق الأزلي ؛ وما في طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت ، المستقر في كيانه ، الملحوظ في تناسقه ، واطراد نظامه ، وثبات هذا النظام ، وشموله وعدم تصادم أجزائه ، أو تناثرها ، وتعارف هذه الأجزاء وتلاقيها .

الحق . . بترجمته لنواميس هذا الوجود الكبير ترجمة مستقيمة ؛ وكأنما هو الصورة اللفظية المعنوية لتلك النواميس الطبيعية الواقعية العاملة في هذا الوجود .

الحق . . بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذي يعيشون فيه ونواميسه الكلية ، وما يعقده بينهم وبين قوى الكون كله من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق . حيث يجدون أنفسهم في صداقة مع كل ما حولهم من هذا الكون الكبير .

الحق . . الذي تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه ، في يسر وسهولة ، وفي غير مشقة ولا عنت . لأنه يلتقي بما فيها من حق أزلي قديم .

الحق . . الذي لا يتفرق ولا يتعارض وهو يرسم منهاج الحياة البشرية كاملاً ؛ ويلحظ في هذا المنهاج كل قواها وكل طاقاتها ، وكل نزعاتها وكل حاجاتها ، وكل ما يعتورها من مرض أو ضعف أو نقص أو آفة ، تدرك النفوس وتفسد القلوب .

الحق . . الذي لا يظلم أحداً في دنيا أو آخرة . ولا يظلم قوة في نفس ولا طاقة . ولا يظلم فكرة في القلب أو حركة في الحياة ، فيكفها عن الوجود والنشاط ، ما دامت متفقة مع الحق الكبير الأصيل في صلب الوجود .

﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ . . فما هو من عندك ، إنما هو من عند ربك . وهو رب العالمين كما قال في الآية السابقة ؛ إنما هذه الإضافة هنا للتكريم . تكريم الرسول الذي يتهمونه بالافتراء . وإلقاء ظلال القربى بينه وبين ربه رب العالمين . رداً على الاتهام الأثيم . وتقريراً للصلة الوثيقة التي تحمل مع معنى التكريم معنى وثاقة المصدر وصحة التلقي . وأمانة النقل والتبليغ .

﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ، لعلهم يهتدون ﴾ . .

والعرب الذين أرسل إليهم محمد صلى الله عليه وسلم لم يرسل إليهم أحد قبله ؛ ولا يعرف التاريخ رسولاً بين إسماعيل عليه السلام جد العرب الأول وبين محمد صلى الله عليه وسلم وقد نزل الله عليه هذا الكتاب الحق ، لينذرهم به . ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ فهدايتهم مرجوة بهذا الكتاب ، لما فيه من الحق الذي يخاطب الفطر والقلوب .

هؤلاء القوم الذين نزل الله الكتاب لينذرهم به رسوله صلى الله عليه وسلم كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى .

(155/614)

فهنا يبدأ ببيان صفة الله التي يعرفون بها حق ألوهيته سبحانه ، ويميزون بها بين من يستحق هذا الوصف العظيم : " الله " ومن لا يستحقونه ولا يجوز أن يقرنوا إلى مقام الله رب العالمين :

﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع . أفلا تتذكرون ؟ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز

الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . قليلاً ما تشكرون ﴾ . .

ذلك هو الله ، وهذه هي آثار ألوهيته ودلائلها . هذه هي في صفحة الكون المنظور . وفي ضمير الغيب المترامي وراء إدراك البشر المحدود . وفي نشأة الإنسان وأطواره التي يعرفها الناس ، والتي يطلعهم عليها الله في كتابه الحق المبين .

﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ . .

(156/614)

والسماوات والأرض وما بينهما هي هذه الخلائق الهائلة التي نعلم عنها القليل ونجهل عنها الكثير . . هي هذا الملكوت الطويل العريض الضخم المترامي الأطراف ، الذي يقف الإنسان أمامه مبهوراً مدهوشاً متحيراً في الصنعة المتقنة الجميلة المنسقة الدقيقة التنظيم . . هي هذا الخلق الذي يجمع إلى العظمة الباهرة ، الجمال الأخاذ . الجمال الحقيقي الكامل ، الذي لا يرى فيه البصر ، ولا الحس ، ولا القلب ، موضعاً للنقص ؛ ولا يمل المتأمل التطلع إليه مهما طالت وقفته ؛ ولا يذهب التكرار والألفة بجاذبيته . المتجددة

العجيبة . ثم هي هذه الخلائق المنوعة ، المتعددة الأنواع والأجناس والأحجام والأشكال والخواص والمظاهر والاستعدادات والوظائف ، الخاضعة كلها لناموس واحد ، المتناسقة كلها في نشاط واحد ، المتجهة كلها إلى مصدر واحد تتلقى منه التوجيه والتدبير ، وتتجه إليه بالطاعة والاستسلام .

والله . . هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما . . فهو الحقيق سبحانه بهذا الوصف العظيم . .

﴿ خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ . .

وليست هي قطعاً من أيام هذه الأرض التي نعرفها . فأيام هذه الأرض مقياس زمني ناشئ من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلاً ونهاراً على هذه الأرض الصغيرة الضئيلة ، التي لا تزيد على أن تكون هباءة منثورة في فضاء الكون الرحيب ! وقد وجد هذا المقياس الزمني بعد وجود الأرض والشمس . وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة !

أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة في القرآن فعلمها عند الله ؛ ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها . فهي من أيام الله التي يقول عنها : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ .

.

تلك الأيام الستة قد تكون ستة أطوار مرت بها السماوات والأرض وما بينهما حتى انتهت إلى ما هي عليه . أو ستة مراحل في النشأة والتكوين . أو ستة أدهار لا يعلم ما بين أحدها والآخر إلا الله . . وهي على أية حال شيء آخر غير الأيام الأرضية التي تعارف عليها أبناء الفناء . فلنأخذها كما هي غيباً من غيب الله لا سبيل إلى معرفته على وجه التحديد . إنما يقصد التعبير إلى تقرير التدبير والتقدير في الخلق ، وفق حكمة الله وعلمه . وإحسانه لكل شيء خلقه في الزمن والمراحل والأطوار المقدرة لهذا الخلق العظيم .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ . .

والاستواء على العرش رمز لاستعلائه على الخلق كله . أما العرش ذاته فلا سبيل إلى قول شيء عنه ، ولا بد من الوقوف عند لفظه . وليس كذلك الاستواء . فظاهر أنه كناية عن الاستعلاء . ولفظ . . ثم ، لا يمكن قطعاً أن يكون للترتيب الزمني ، لأن الله سبحانه لا تتغير عليه الأحوال . ولا يكون في حال أو وضع سبحانه ثم يكون في حال أو وضع تال . إنما هو الترتيب المعنوي . فالاستعلاء درجة فوق الخلق ، يعبر عنها هذا التعبير .

وفي ظلال الاستعلاء المطلق يلمس قلوبهم بالحقيقة التي تمسهم :

﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ . .

وأين ؟ ومن ؟ وهو سبحانه المسيطر على العرش والسماوات والأرض وما بينهما ؟ وهو خالق السماوات والأرض وما بينهما ؟ فأين هو الولي من دونه ؟ وأين هو الشفيع الخارج على سلطانه ؟

﴿ أفلا تتذكرون ؟ ﴾ . .

وتذكر هذه الحقيقة يرد القلب إلى الإقرار بالله ، والاتجاه إليه وحده دون سواه .

ومع الخلق والاستعلاء . . التدبير والتقدير . . في الدنيا والآخرة . . فكل أمر يدبر في السماوات والأرض وما بينهما يرفع إليه سبحانه في يوم القيامة ، ويرجع إليه مآله في ذلك اليوم الطويل :

﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ . .

(158/614)

والتعبير يرسم مجال التدبير منظوراً واسعاً شاملاً : ﴿ من السماء إلى الأرض ﴾ ليلقي على الحس البشري الظلال التي يطيقها ويملك تصورها ويخشع لها . وإلا فمجال تدبير الله

أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض . ولكن الحس البشري حسبه الوقوف أمام هذا المجال الفسيح ، ومتابعة التدبير شاملاً لهذه الرقعة الهائلة التي لا يعرف حتى الأرقام التي تحدد مداها !

ثم يرتفع كل تدبير وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه . يرتفع إليه سبحانه في علاه في اليوم الذي قدره لعرض مآلات الأعمال والأقوال ، والأشياء والأحياء ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ . . وليس شيء من هذا كله متروكاً سدى ولا مخلوقاً عبثاً ، إنما يدبر بأمر الله إلى أجل مرسوم . . يرتفع . فكل شيء وكل أمر وكل تدبير وكل مآل هو دون مقام الله ذي الجلال ، فهو يرتفع إليه أو يرفع بإذنه حين يشاء .

﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ . .

ذلك . . الذي خلق السماوات والأرض . والذي استوى على العرش . والذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . . ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ . . المطلع على ما يغيب وما يحضر . وهو الخالق المسيطر المدبر . وهو ﴿ العزيز الرحيم ﴾ . . القوي القادر على ما يريد . الرحيم في إرادته وتدبيره للمخاليق .

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ . .

. . واللهم إن هذا هو الحق الذي تراه الفطرة وتراه العين ويراه القلب ويراه العقل . الحق المتمثل في أشكال الأشياء ، ووظائفها . وفي طبيعتها منفردة وفي تناسقها مجتمعة . وفي

هيئاتها وأحوالها ونشاطها وحركاتها . وفي كل ما يتعلق بوصف الحسن والإحسان من قريب أو من بعيد .

(159/614)

سبحانه ! هذه صنعته في كل شيء . هذه يده ظاهرة الآثار في الخلائق . هذا كل شيء خلقه يتجلى فيه الإحسان والإتقان ؛ فلا تجاوز ولا قصور ، ولا زيادة عن حد الإحسان ولا نقص ، ولا إفراط ولا تفريط ، في حجم أو شكل أو صنعة أو وظيفة . كل شيء مقدر لا يزيد عن حد التناسق الجميل الدقيق ولا ينقص . ولا يتقدم عن موعده ولا يتأخر . ولا يتجاوز مداه ولا يقصر . . كل شيء من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام . ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام . كلها يتجلى فيها الإحسان والإتقان . . وكذلك الأعمال والأطوار والحركات والأحداث . وكلها من خلق الله . مقدرة تقديراً دقيقاً في موعدها وفي مجالها وفي مآلها ، وفق الخطة الشاملة لسير هذا الوجود من الأزل إلى الأبد مع تدبير الله .

كل شيء ، وكل خلق ، مصنوع ليؤدي دوره المقسوم له في رواية الوجود ، معد لأداء هذا الدور إعداداً دقيقاً ، مزود بالاستعدادات والخصائص التي تؤهله لدوره تمام التأهيل .

هذه الخلية الواحدة المجهزة بشتى الوظائف . هذه الدودة السابحة المجهزة بالأرجل أو الشعيرات وبالملاسة والمرونة والقدرة على شق طريقها كأحسن ما يكون . هذه السمكة . هذا الطائر . هذه الزاحفة . هذا الحيوان . . ثم هذا الإنسان . . وهذا الكوكب السيار وهذا النجم الثابت . وهذه الأفلاك والعوالم ؛ وهذه الدورات المنتظمة الدقيقة المنسقة العجيبة المضبوطة التوقيت والحركة على الدوام . . كل شيء . كل شيء . حيثما امتد البصر متقن الصنع . بديع التكوين . يتجلى فيه الإحسان والإتقان .

(160/614)

والعين المفتوحة والحس المتوفز والقلب البصير ، ترى الحسن والإحسان في هذا الوجود بتجمعه ؛ وتراه في كل أجزائه وأفراده . والتأمل في خلق الله حيثما اتجه النظر أو القلب أو الذهن ، يمنح الإنسان رصيداً ضخماً من ذخائر الحسن والجمال ، ومن إيقاعات التناسق والكمال ، تجمع السعادة من أطرافها بأحلى ما في ثمارها من مذاق ؛ وتسكبها في القلب البشري ؛ وهو يعيش في هذا المهرجان الإلهي الجميل البديع المتقن ، يتملى آيات الإحسان والإتقان في كل ما يراه وما يسمعه وما يدركه في رحلته على هذا الكوكب . ويتصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال الباقي المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصيلة .

ولا يدرك القلب شيئاً من هذا النعيم في رحلته الأرضية إلا حين يستيقظ من همود العادة ، ومن ملالة الألفة . وإلا حين يتسمع لإيقاعات الكون من حوله ، ويتطلع إلى إيحاءاته . وإلا حين يبصر بنور الله فتتكشف له الأشياء عن جواهرها الجميلة كما خرجت من يد الله المبدعة . وإلا حين يتذكر الله كلما وقعت عينه أو حسه على شيء من بدائعه ؛ فيحس بالصلة بين المبدع وما أبدع ؛ فيزيد شعوره بجمال ما يرى وما يحس ، لأنه يرى حينئذ من ورائه جمال الله وجلاله .

إن هذا الوجود جميل . وإن جماله لا ينفد . وإن الإنسان ليرتقي في إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غير ما حدود . قدر ما يريد . وفق ما يريده له مبدع الوجود .

وإن عنصر الجمال المقصود قصداً في هذا الوجود . فإتقان الصنعة يجعل كمال الوظيفة في كل شيء ، يصل إلى حد الجمال . وكمال التكوين يتجلى في صورة جميلة في كل عضو ، وفي كل خلق . . انظر . . هذه النحلة . هذه الزهرة . هذه النجمة . هذا الليل . هذا الصبح . هذه الظلال . هذه السحب . هذه الموسيقى السارية في الوجود كله . هذا التناسق الذي لا عوج فيه ولا فطور !

(161/614)

إنها رحلة ممتعة في هذا الوجود الجميل الصنع البديع التكوين ؛ يلفتنا القرآن إليها لنتملاها ، ونستمتع بها وهو يقول : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ . . فيوقظ القلب لتتبع مواضع الحسن والجمال في هذا الوجود الكبير .

﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ . . ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ . .

ومن إحسانه في الخلق بدء خلق هذا الإنسان من طين . فالتعبير قابل لأن يفهم منه أن الطين كان بداءة ، وكان في المرحلة الأولى . ولم يحدد عدد الأطوار التي تلت مرحلة الطين ولا مداها ولا زمنها ، فالباب فيها مفتوح لأي تحقيق صحيح . وبخاصة حين يضم هذا النص إلى النص الآخر الذي في سورة " المؤمنون " . . ﴿ خلق الإنسان من سلالة من طين ﴾ . . فيمكن أن يفهم منه أنه إشارة إلى تسلسل في مراحل النشأة الإنسانية يرجع أصلاً إلى مرحلة الطين .

وقد يكون ذلك إشارة إلى بدء نشأة الخلية الحية الأولى في هذه الأرض ؛ وأنها نشأت من الطين . وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله . وهذا هو السر الذي لم يصل إليه أحد . لا ما هو . ولا كيف كان . ومن الخلية الحية نشأ الإنسان . ولا يذكر القرآن كيف تم هذا ، ولا كم استغرق من الزمن ومن الأطوار . فالأمر في تحقيق هذا التسلسل متروك لأي بحث صحيح ؛ وليس في هذا البحث ما يصادم النص القرآني القاطع بأن نشأة

الإنسان الأولى كانت من الطين . وهذا هو الحد المأمون بين الاعتماد على الحقيقة القرآنية القاطعة وقبول ما يسفر عنه أي تحقيق صحيح .

(162/614)

غير أنه يحسن بهذه المناسبة تقرير أن نظرية النشوء والارتقاء لدارون القائلة : بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متوالية ؛ وأن هناك حلقات نشوء وارتقاء متصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيواناً فوق القردة العليا ودون الإنسان . . أن هذه النظرية غير صحيحة في هذه النقطة وأن كشف عوامل الوراثة التي لم يكن دارون قد عرفها تجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضرباً من المستحيل . فهناك عوامل وراثة كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه ؛ وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه ، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد . فالقط أصله قط وسيظل قطاً على توالي القرون . والكلب كذلك . والثور . والحصان . والقرد . والإنسان . وكل ما يمكن أن يقع حسب نظريات الوراثة هو الارتقاء في حدود النوع نفسه . دون الانتقال إلى نوع آخر . وهذا يبطل القسم الرئيسي في نظرية دارون التي فهم ناس من المخدوعين باسم العلم أنها حقيقة غير قابلة للنقض في يوم من الأيام !

ثم نعود إلى ظلال القرآن !

﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ . .

من ماء النطفة الذي هو المرحلة الأولى في تطور الجنين : من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كمال التكوين الجنيني ، في هذه السلالة التي تبدأ بالماء المهين . وإنها لرحلة هائلة حين ينظر إلى طبيعة التطورات التي تمر بها تلك النقطة الضائعة في ذلك الماء المهين . حتى تصل إلى الإنسان المقعد البديع التكوين ! وإنها لمسافة شاسعة ضخمة بين الطور الأول والطور الأخير .

وذلك ما يعبر عنه القرآن في آية واحدة تصور هذه الرحلة المديدة :

﴿ ثم سواه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ . .

يا الله . ما أضخم الرحلة ! وما أبعد الشقة ! وما أعظم المعجزة التي يمر عليها الناس غافلين !

(163/614)

أين تلك النقطة الصغيرة المهينة من ذلك الإنسان الذي تصير إليه في النهاية ، لولا أنها يد الله المبدعة التي تصنع هذه الخارقة . والتي تهدي تلك النقطة الصغيرة الضعيفة إلى اتخاذ

طريقها في النمو والتطور والتحول من هيئتها الساذجة إلى ذلك الخلق المعقد المركب العجيب ؟

هذا الانقسام في تلك الخلية الواحدة والتكاثر . ثم التنويع في أصناف الخلايا المتعددة ذات الطبيعة المختلفة ، والوظيفة المختلفة ؛ التي تتكاثر هي بدورها لتقوم كل مجموعة منها بتكوين عضو خاص ذي وظيفة خاصة . وهذا العضو الذي تكونه خلايا معينة من نوع خاص ، يحتوي بدوره على أجزاء ذات وظائف خاصة وطبيعة خاصة ، تكونها خلايا أكثر تخصصاً في داخل العضو الواحد . . هذا الانقسام والتكاثر مع هذا التنويع كيف يتم في الخلية الأولى وهي خلية واحدة ؟ وأين كانت تكمن تلك الخصائص كلها التي تظهر في ما بعد في كل مجموعة من الخلايا المتخصصة الناشئة من تلك الخلية الأولى ؟ ثم أين كانت تكمن الخصائص المميزة لجنين الإنسان من سائر الأجنة ؟ ثم المميزة لكل جنين إنساني من سائر الأجنة الإنسانية ؟ ثم الحافظة لكل ما يظهر بعد ذلك في الجنين من استعدادات خاصة ، ووظائف معينة ، وسمات وشيات طوال حياته ؟ !

ومن ذا الذي كان يمكن أن يتصور إمكان وقوع هذه الخارقة العجيبة لولا أنها وقعت فعلاً وتكرر وقوعها ؟

إنها يد الله التي سوت هذا الإنسان ؛ وإنها النفخة من روح الله في هذا الكيان .

. إنها التفسير الوحيد الممكن لهذه العجيبة التي تتكرر في كل لحظة ، والناس عنها

غافلون . . ثم هي النفخة من روح الله التي جعلت من هذا الكائن العضوي إنساناً ذا سمع وذا بصر وذا إدراك إنساني مميز من سائر الكائنات العضوية الحيوانية : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ . . وكل تعليل آخر عاجز عن تفسير تلك العجيبة التي تواجه العقل البشري بالحيرة الغامرة التي لا مخرج منها بغير ذلك التفسير .

(164/614)

ومع كل هذا الفيض من الفضل . الفضل الذي يجعل من الماء المهين ذلك الإنسان الكريم . الفضل الذي أودع تلك الخلية الصغيرة الضعيفة كل هذا الرصيد من القدرة على التكاثر والنماء ، والتطور والتحول ، والتجمع والتخصيص . ثم أودعها كل تلك الخصائص والاستعدادات والوظائف العليا التي تجعل من الإنسان إنساناً . . مع كل هذا الفيض فإن الناس لا يشكرون إلا في القليل : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ . .

وفي ظل مشهد النشأة الأولى للإنسان ، وأطوار هذه النشأة العجيبة ، الخارقة لكل مألوف ، وإن كانت تتكرر في كل لحظة ، وتقع أمام الأنظار والأسماع . في ظل هذا المشهد يعرض اعتراضهم على النشأة الآخرة ، وشكهم في البعث والنشور . فيبدو هذا الشك وذلك الاعتراض غريبين كل الغرابة :

﴿ وقالوا : أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد ؟ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ . .

إنهم يستبعدون أن يخلقهم الله خلقاً جديداً ، بعد موتهم ودفنهم ، وتحول أجسامهم إلى رفات يغيب في الأرض ، ويختلط بذراتها ، ويضل فيها ، فماذا في هذا من غرابة أمام النشأة الأولى ؟ لقد بدأ الله خلق الإنسان من طين . من هذه الأرض التي يقولون إن رفاتهم سيضل فيها ويختلط بها . فالنشأة الآخرة شبيهة بالنشأة الأولى ، وليس فيها غريب ولا جديد !

﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ . . ومن ثم يقولون ما يقولون . فهذا الكفر بلقاء الله هو الذي يلقي على أنفسهم ظل الشك والاعتراض على الأمر الواضح الذي وقع مرة ، والذي يقع ما هو قريب منه في كل لحظة .

لذلك يرد على اعتراضهم بتقرير وفاتهم ورجعتهم ، مكتفياً بالبرهان الحي الماثل في نشأتهم الأولى ولا زيادة :

﴿ قل : يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

.

هكذا في صورة الخبر اليقين . . فأما ملك الموت من هو ؟ وكيف يتوفى الأنفس فهذا من غيب الله ، الذي نتلقى خبره من هذا المصدر الوثيق الأكيد . ولا زيادة على ما نتلقاه من هذا المصدر الوحيد .

وبمناسبة البعث الذي يعترضون عليه والرجعة التي يشكون فيها ، يقفهم وجهاً لوجه أمام مشهد من مشاهد القيامة ؛ مشهد حي شاخص حافل بالتأثرات والحركات والحوار كأنه واقع مشهود :

﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحاً ، إنا موقنون ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ . .

إنه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة ، والإقرار بالحق الذي جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكوا فيه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى . . وهم ناكسو رؤوسهم خجلاً وخزياً . . ﴿ عند ربهم ﴾ . . الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا . . ولكن هذا كله يجيء بعد فوات الأوان حيث لا يجدي اعتراف ولا إعلان .

وقبل أن يعلن السياق جواب استخذائهم الذليل ، يقرر الحقيقة التي تتحكم في الموقف كله ؛ وتتحكم قبل ذلك في حياة الناس ومصائرهم :

﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ . .

ولو شاء الله لجعل لجميع النفوس طريقاً واحداً . هو طريق الهدى ، كما وحد طريق المخلوقات التي تهتدي بإلهام كامن في فطرتها ، وتسلك طريقة واحدة في حياتها من الحشرات والطير والدواب ؛ أو الخلائق التي لا تعرف إلا الطاعات كالملائكة . لكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة ، يملك معها الهدى والضلال ؛ ويختار الهداية أو يحيد عنها ؛ ويؤدي دوره في هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة ، التي فطره الله عليها لغرض ولحكمة في تصميم هذا الوجود . ومن ثم كتب الله في قدره أن يملأ جهنم من الجنة ومن الناس الذين يختارون الضلالة ، ويسلكون الطريق المؤدي إلى جهنم .

(166/614)

وهؤلاء المجرمون المعروضون على ربهم وهم ناكسو رؤوسهم . هؤلاء ممن حق عليهم هذا القول . ومن ثم يقال لهم :

﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ . .

يومكم هذا الحاضر . فنحن في المشهد في اليوم الآخر . . ذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم ، وإهمالكم الاستعداد له وأنتم في فسحة من الوقت . ذوقوا ﴿ إنا نسيناكم ﴾ . .

والله لا ينسى أحداً . ولكنهم يعاملون معاملة المهملين المنسيين ، معاملة فيها مهانة وفيها إهمال وفيها ازدراء .

﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ . .

ويسدل الستار على المشهد . وقد قيلت الكلمة الفاصلة فيه . وترك المجرمون لمصيرهم المهين . ويحس قارئ القرآن وهو يجاوز هذه الآيات كأنه تركهم هناك ، وكأنهم شاخصون حيث تركهم ! وهذه إحدى خصائص التصوير القرآني المحيي للمشاهد الموحي للقلوب .

يسدل الستار على ذلك المشهد ليرفعه عن مشهد آخر ، في ظل آخر ، وفي جو آخر ، له عطر آخر تستروح له الأرواح وتخفق له القلوب . إنه مشهد المؤمنين . مشهدهم خاشعين مخبتين عابدين ، داعين إلى ربهم وقلوبهم راجفة من خشية الله ، طامعة راجية في فضل الله . وقد ذخر لهم ربهم من الجزاء ما لا يبلغ إلى تصوره خيال :

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون ﴾ . .

وهي صورة وضيئة للأرواح المؤمنة ، اللطيفة ، الشفيفة الحساسة المرتجفة من خشية الله وتقواه ، المتجهة إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء ، في غير ما استعلاء ولا استكبار .

هذه الأرواح هي التي تؤمن بآيات الله ، وتتلقاها بالحس المتوفز والقلب المستيقظ والضمير المستنير .

(167/614)

هؤلاء إذا ذكروا بآيات ربهم ﴿ خروا سجداً ﴾ تأثراً بما ذكروا به ، وتعظيماً لله الذي ذكروا بآياته ، وشعوراً بجلاله الذي يقابل بالسجود أول ما يقابل ، تعبيراً عن الإحساس الذي لا يعبر عنه إلا تمريغ الجباه بالتراب ﴿ وسبحوا بحمد ربهم ﴾ . مع حركة الجسد بالسجود . ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ . . فهي استجابة الطائع الخاشع المنيب الشاعر بجلال الله الكبير المتعال .

ثم مشهدهم المصور لهيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية في لمحة واحدة . في التعبير العجيب الذي يكاد يجسم حركة الأجسام والقلوب :

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ . .

إنهم يقومون لصلاة الليل . صلاة العشاء الآخرة . الوتر . ويتهجدون بالصلاة ، ودعاء الله . ولكن التعبير القرآني يعبر عن هذا القيام بطريقة أخرى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ . . فيرسم صورة المضاجع في الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ المنام .

ولكن هذه الجنوب لا تستجيب . وإن كانت تبذل جهداً في مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة . لأن لها شغلاً عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذ . شغلا بربها . شغلا بالوقوف في حضرته . وبالتوجه إليه في خشية وفي طمع يتنازعها الخوف والرجاء . الخوف من عذاب الله والرجاء في رحمته . والخوف من غضبه والطمع في رضاه . والخوف من معصيته والطمع في توفيقه . والتعبير يصور هذه المشاعر المرتجفة في الضمير بلمسة واحدة ، حتى لكأنها مجسمة ملموسة : ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ . . وهم إلى جانب هذه الحساسية المرهفة ، والصلاة الخاشعة ، والدعاء الحار يؤدون واجبهم للجماعة المسلمة طاعة لله وزكاة . . ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . .

هذه الصورة المشرقة الوضيئة الحساسة الشفيفة ترافقها صورة للجزاء الرفيع الخاص الفريد . الجزاء الذي تتجلى فيه ظلال الرعاية الخاصة ، والإعزاز الذاتي ، والإكرام الإلهي والحفاوة الربانية بهذه النفوس :

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ . .

تعبير عجيب يشي بحفاوة الله سبحانه بالقوم ؛ وتوليه بذاته العلية إعداد المذخور لهم عنده من الحفاوة والكرامة مما تقر به العيون .

هذا المذخور الذي لا يطلع عليه أحد سواه . والذي يظل عنده خاصة مستوراً حتى يكشف لأصحابه عنه يوم لقائه ! عند لقياه ! وإنها لصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم في حضرة الله .

يا لله ! كم ذا يفيض الله على عباده من كرمه ! وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله ! ومن هم كائناً ما كان عملهم وعبادتهم وطاعتهم وتطلعهم حتى يتولى الله جل جلاله إعداد ما يدخره لهم من جزاء ، في عناية ورعاية وود واحتفال ؟ لولا أنه فضل الله الكريم المنان ؟ !

وأمام مشهد المجرمين البائس الذليل ؛ ومشهد المؤمنين الناعم الكريم ، يعقب بتلخيص مبدأ الجزاء العادل ، الذي يفرق بين المسيئين والمحسنين في الدنيا أو الآخرة ؛ والذي يعلق الجزاء بالعمل ، على أساس العدل الدقيق :

﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار . كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون .

ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ . .

وما يستوي المؤمنون والفاسقون في طبيعة ولا شعور ولا سلوك ، حتى يستووا في الجزاء في الدنيا وفي الآخرة سواء . والمؤمنون مستقيمو الفطرة متجهون إلى الله ، عاملون على منهاجه القويم . والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون في الأرض لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق مع نهج الله للحياة ، وقانونه الأصيل . فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين في الآخرة ، وأن يلقى كل منهما الجزاء الذي يناسب رصيده وما قدمت يداه .

(169/614)

﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ التي تؤويهم وتضمهم ﴿ نزلا ﴾ ينزلون فيه ويثوون ، جزاء ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ . .

﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ﴾ . . يصيرون إليها ويأوون . ويا سوءها من مأوى خير منه التشريد ! ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ وهو مشهد فيه حركة المحاولة للفرار والدفع للنار . ﴿ وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ . فهو التقريع زيادة على الدفع والتعذيب .

ذلك مصير الفاسقين في الآخرة . وليسوا مع هذا متروكين إلى ذلك الموعد . فالله يتوعدهم

بالعذاب في هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة :

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ . .

لكن ظلال الرحمة تتراءى من وراء هذا العذاب الأدنى ؛ فالله سبحانه وتعالى لا يحب أن يعذب عباده إذا لم يستحقوا العذاب بعملهم ، وإذا لم يصروا على موجبات العذاب . فهو يوعدهم بأن يأخذهم بالعذاب في الأرض ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . . وتستيقظ فطرتهم ، ويردهم ألم العذاب إلى الصواب . ولو فعلوا لما صاروا إلى مصير الفاسقين الذي رأيناه في مشهدهم الأليم .

فأما إذا ذكروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها وجاءهم العذاب الأدنى فلم يرجعوا ولم يعتبروا فإنهم إذن ظالمون ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟ ﴾ وإنهم إذن يستحقون الانتقام في الدنيا والآخرة : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ . . ويا هوله من تهديد . والجبار المتكبر هو الذي يتوعد هؤلاء الضعاف المساكين بالانتقام الرعيب !

(170/614)

وتنتهي تلك الجولة مع مصائر المجرمين والصالحين ، وعواقب المؤمنين والفاسقين ، ومشاهد هؤلاء وهؤلاء في اليوم الذي يشكون فيه ويستريبون . ثم يأخذ سياق السورة في جولة

جديدة مع موسى وقومه ورسالته . جولة مختصرة لا تزيد على إشارة إلى كتاب موسى عليه السلام الذي جعله الله هدى لبني إسرائيل ؛ كما جعل القرآن كتاب محمد صلى الله عليه وسلم هدى للمؤمنين . وإلى التقاء صاحب القرآن مع صاحب التوراة على الأصل الواحد والعقيدة الثابتة . وإلى اصطفاء الصابرين الموقنين من قوم موسى ليكونوا أئمة لقومهم إيحاء للمسلمين في ذلك الحين بالصبر واليقين . وبياناً للصفة التي تستحق بها الإمامة في الأرض والتمكين :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون . إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . .

(171/614)

وتفسير هذه العبارة المعترضة : ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ على معنى تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على الحق الذي جاء به ؛ وتقرير أنه الحق الواحد الثابت الذي جاء به موسى في كتابه ؛ والذي يلتقي عليه الرسولان ويلتقي عليه الكتابان . . هذا التفسير أرجح عندي مما أورده بعض المفسرين من أنها إشارة إلى لقاء النبي صلى الله عليه

وسلم لموسى عليه السلام في ليلة الإسراء والمعراج. فإن اللقاء على الحق الثابت ، والعقيدة الواحدة ، هو الذي يستحق الذكر ، والذي ينسلك في سياق التثبيت على ما يلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من التكذيب والإعراض ، ويلقاه المسلمون من الشدة واللأواء .

وكذلك هو الذي يتسق مع ما جاء بعده في الآية : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ . . للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك في مكة أن تصبر كما صبر المختارون من بني إسرائيل ، وتوقن كما أيقنوا ، ليكون منهم أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبني إسرائيل . ولتقرير طريق الإمامة والقيادة ، وهو الصبر واليقين .

أما اختلاف بني إسرائيل بعد ذلك فأمرهم فيه متروك إلى الله :

﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . .

وبعد هذه الإشارة يأخذ السياق المكذبين في جولة مع مصارع الغابرين :

﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ إن في ذلك لآيات . أفلا يسمعون ﴾ ؟ .

ومصارع الغابرين من القرون تنطق بسنة الله في المكذبين ، وسنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابي . وهذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة في نشوئها ودثورها ، وضعفها وقوتها . والقرآن الكريم ينبه إلى ثبات هذه القوانين ، واطراد تلك السنن ، ويتخذ من مصارع القرون ، وآثار الماضين ، الدارسة الخربة ، أو الباقية بعد سكانها موحشة . يتخذ منها معارض للعبرة ، وإيقاظ القلوب ، وإثارة الحساسية ، والخوف من بطش الله وأخذه للجبارين . كما يتخذ منها معارض لثبات السنن والنواميس . ويرفع بهذا مدارك البشر ومقاييسهم ، فلا ينعزل شعب أو جيل في حدود الزمان والمكان ؛ وينسى النظام الثابت في حياة البشر ، المطرد على توالي القرون . وإن كان الكثيرون ينسون العبرة حتى يلاقوا نفس المصير !

وإن للآثار الخاوية لحديثاً رهيباً عميقاً ، للقلب الشاعر ، والحس المبصر ، وإن له لرجفة في الأوصال ، ورعشة في الضمائر ، وهزة في القلوب . ولقد كان العرب المخاطبون بهذه الآية ابتداء يمشون في مساكن عاد وثمود ويرون الآثار الباقية من قرى قوم لوط . والقرآن يستنكر أن تكون مصارع هذه القرون معروضة لهم ؛ وأن تكون مساكن القوم أمامهم ، يمرون عليها ويمشون فيها ؛ ثم لا يستجيش هذا قلوبهم ، ولا يهز مشاعرهم ، ولا يستثير حساسيتهم بخشية الله ، وتوقي مثل هذا المصير ؛ ولا يهدي لهم ويبصرهم بالتصرف المنجي من استحقاق كلمة الله بالأخذ والتدمير :

﴿ إن في ذلك لآيات . أفلا يسمعون ؟ ﴾ . .

يسمعون قصص الغابرين الذين يمشون في مساكنهم ، أو يسمعون هذا التحذير ، قبل أن يصدق بها النذير ، ويأخذهم النكير !

وبعد لمسة البلى والدثور ، وما توقعه في الحس من رهبة وروعة ، وما تثيره في القلب من رجفة ورعشة . يلمس قلوبهم بريشة الحياة النابضة في الموات ؛ ويجول بهم جولة في الأرض الميتة تدب فيها الحياة ، كما جال بهم من قبل في الأرض التي كانت حية فأدركها البلى والممات :

(173/614)

﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ؛ أفلا يبصرون ؟ ﴾ .

فهذه الأرض الميتة البور ، يرون أن يد الله تسوق إليها الماء المحيي ؛ فإذا هي خضراء ممرعة بالزرع النابض بالحياة . الزرع الذي تأكل منه أنعامهم وتأكل منه أنفسهم . وإن مشهد الأرض الجدبة والحيا يصيبها فإذا هي خضراء . . إن هذا المشهد ليفتح نوافذ القلب المغلقة لاستجلاء هذه الحياة النامية واستقبالها ؛ والشعور بحلاوة الحياة ونداوتها ؛ والإحساس بواهب هذه الحياة الجميلة الناضرة ؛ إحساس حب وقربى وانعطاف ؛ مع الشعور بالقدرة

المبدعة واليد الصناع ، التي تشيع الحياة والجمال في صفحات الوجود .

وهكذا يطوّف القرآن بالقلب البشري في مجالي الحياة والنماء ، بعد ما طوّف به في مجالي البلى والدثور ، لاستجاشة مشاعره هنا وهناك ، وإيقاظه من بلادة الألفة ، وهمود العادة ؛ ولرفع الحواجز بينه وبين مشاهد الوجود ، وأسرار الحياة ، وعبر الأحداث ، وشواهد التاريخ .

(174/614)

وفي النهاية يجيء المقطع الأخير في السورة بعد هذا المطاف الطويل . فيحكي استعجالهم بالعذاب الذي يوعدون ; وشكهم في صدق الإنذار والتحذير . ويرد عليهم مخوفا محذرا من تحقيق ما يستعجلون به , يوم لا ينفعهم إيمان , ولا يمهلون لإصلاح ما فات . ويختم السورة بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (30)

إلى الإعراض عنهم , وتركهم لمصيرهم المحتوم:

(ويقولون: متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل: يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم

ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) . .

والفتح هو الفصل فيما بين الفريقين من خلاف ; وتحقق الوعيد الذي كان يخدعهم أنه لا يجيئهم من قريب ; وهم غافلون عن حكمة الله في تأخيره إلى أجله الذي قدره , والذي لا يقدمه استعجالهم ولا يؤخره . وما هم بقادرين على دفعه ولا الإفلات منه .

(قل: يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) . .

سواء كان هذا اليوم في الدنيا . إذ يأخذهم الله وهم كافرون , فلا يمهلهم بعده , ولا ينفعهم إيمانهم فيه . أو كان هذا اليوم في الآخرة إذ يطلبون المهلة فلا يمهلون:

وهذا الرد يخلخل المفاصل , ويزعزع القلوب . . ثم يعقبه الإيقاع الأخير في السورة:

(فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) . .

وفي طياته تهديد خفي بعاقبة الانتظار , بعد أن ينفض الرسول (صلى الله عليه وسلم) يده من أمرهم , ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

وتختم السورة على هذا الإيقاع العميق , بعد تلك الجولات والإيحاءات والمشاهد والمؤثرات , وخطاب القلب البشري بشتى الإيقاعات التي تأخذه من كل جانب , وتأخذ عليه كل طريق . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 2804.2816﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : اللف المحبون لقربى والعارفون بتمجيدي فلا يصبرون عني ولا يستأنسون بغيري . اللام الأحباء لي مدخر لقائي فلا أبالي أقاموا على وثاقي أم قصروا في وفائي . الميم ترك أوليائي مرادهم فلذلك اخترتهم على جميع عبادي ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أعز الأشياء على الأحباب كتاب الأحباب أنزله ﴿ رب العالمين ﴾ لأهل الظاهر على ظاهرهم ولأهل الباطن في باطنهم فاستناروا بنوره وتكلموا بالحق عن الحق للحق فلم يفهمه أهل الغرة والغفلة فقالوا ﴿ افتراه ﴾ . خلق سموات الرواح وارض الأشباح وما بينهما من النفس والقلب والسر في ستة أجناس هي : الجماد والمعدن والنبات والحيوان والشيطان والملك ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ الخفي وهو لطيفه ربانية قابلة للفيض الرباني بلا واسطة ﴿ فلا تتذكرون ﴾ كيف خلقكم في أطوار مختلفة ﴿ يدبر الأمر ﴾ من سماء الروح إلى ارض النفس البدن ﴿ ثم يعرج إليه ﴾ النفس المخاطبة بخطاب ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 28] في يوم طلعت فيه شمس صدق الطلب ، وأشرقت الأرض بنور جذبات الحق ﴿ كان مقداره ﴾ في العروج بالجذبة كألف سنة مما تعدون من أيامكم في السير من غير جذبة كما قال صلى الله عليه وسلم " جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين "

﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ وخمرة بيده في أربعين صباحاً فأودع في كل صباح خاصية نوع من أنواع عالم الشهادة ﴿ ثم جعل نسله من سلالة ﴾ سلها من أجناس عالم الشهادة. ﴿ ثم سوّاه ﴾ شخص إنسان جديد المرآة ﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ فصار مرآة قابلة لإراءة صفات جماله وجلاله. ثم تجلى فيها بتجلية صفة السمعية والبصرية والعالمية التي مرآتها السمع والأبصار والأفئدة ﴿ ضللنا ﴾ في أرض البشرية ﴿ يتوفاكم ملك الموت ﴾ وهو المحبة الإلهية بقبض الأرواح من صفات الإنسانية ويميتها عن محبوباتها بجذبة ﴿ ارجعي ﴾ [الفجر: 28] ﴿ ناكسوا رؤسهم ﴾ بالتوجه إلى حضيض عالم الطبيعة كالأنعام بعد أن كانوا رافعي الرؤوس يوم الميثاق. ﴿ تتجافى

(176/614)

جنوب ﴾ همتهم عن مضاجع الدارين ﴿ جنات المأوى ﴾ التي هي مأوى الأبرار تكون نزلاً للمقربين السائرين إلى الله ﴿ كنتم به تكذبون ﴾ لأنه لم يكن لكم به شعور في الدنيا لأنكم كنتم في يوم الغفلة والاشتغال بالمحسوسات ﴿ العذاب الأدنى ﴾ إذا وقعت للسالك فترة ووقفة لعجب تداخله أو لملالة وسآمة ابتلاه الله ببلاء في نفسه أو ماله أو مصيبة في أهاليه وأقربائه وأحبابه لعله ينتبه من نوم الغفلة ويدارك أيام العطلة قبل أن يذيقه العذاب

الأكبر في الخذلان والهجران ﴿ فلا تك في مرية من لقائه ﴾ أي من أنه يرى الرب ببركة متابعتك حين قال : اللهم اجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الرؤية مخصوصة بك وبتبعتك لأمتك .

ويحتمل أن يكون الخطاب في فلاتك لموسى القلب والضمير في ﴿ لقائه ﴾ لله . وجعلنا موسى القلب هدى لبني إسرائيل صفات القلب ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ هم السر الخفي ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم ﴾ الآية . لأنهم عنده أعز من أن يجعل حكمهم إلى أحد من المخلوقين ، ولأنه أعلم بحالهم من غيرهم ولئلا يطلع على أحوالهم غيره لأنه خلقهم للمحبة والرحمة فينظر في شأنهم بنظر المحبة والرضا ، لأنه عفوّ يفيض العفو والجود فتحيا به القلوب الميتة فيسقي حدائق وصلهم بعد جفاف عودها وزوال المأنوس من معهودها ﴿ فنخرج به زرعاً ﴾ من الواردات التي تصلح لتربية النفوس وهي الأنعام ، ومن المشاهدات التي تصلح لتغذية القلوب . ويقول المنكرون لهذه الطائفة ﴿ متى هذا الفتح ﴾ أي الفتوح التي تدعونها قل لا ينفعكم ذلك إذ لم تقتدوا بهم ولم تهتدوا بهديهم ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أيها الطالب بالإقبال علينا وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 441 ـ 442 ﴾.

(177/614)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ [السجدة : 4] فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي الالتفات إلى الأسباب والاعتماد عليها ، وقوله سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السماء إِلَى الأرض ﴾ [السجدة : 5] فيه إشارة إلى أن تدبير العباد عند تدبيره عز وجل لا أثر له فطوبى لمن رزق الرضا بتدبير الله تعالى واستغنى به عن تدبيره ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ فيه إرشاد إلى أنه لا ينبغي لأحد أن يستقبح شيئاً من المخلوقات ، وقد حكى أن نوحاً عليه السلام بصق على كلب اجرب فانطق الله تعالى الكلب فقال : يا نوح اعبتني أم عبت خالقي فناح عليه السلام لذلك زماناً طويلاً فالأشياء كلها حسنة كل في بابه والتفاوت إضافي ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : 7] إلى آخر الآية بعد قوله سبحانه : ﴿ الذى أَحْسَنَ ﴾ الخ إشارة إلى التنقل في أطوار الحسن والعروج في معارجه فكم بين الطين والإنسان السميع البصير العالم فإن الإنسان مشكاة أنوار الذات والصفات والطين بالنسبة إليه كلا شيء ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بآياتنا الذين إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة : 15] إشارة إلى حال كاملي الإيمان وعلو شأن السجود والتسبيح والتحميد والتواضع لعظمته عز وجل ﴿ تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً

﴿ إشارة إلى شهرهم في مناجاة محبوبهم وملاحظة جلاله وجماله ، وفي قوله : ﴿ وَمِمَّا رزقناهم ﴾ أي من المعارف وأنواع الفيوضات ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : 61] إشارة إلى تكميلهم للغير بعد كما لهم في أنفسهم وذكر القوم أن العذاب الأدنى الحرص على الدنيا . والعذاب الأكبر العذاب على ذلك .

(178/614)

وقال بعضهم : الأول التعب في طلب الدنيا والثاني شتات السر ، وقيل : الأول حرمان المعرفة والثاني الاحتجاب عن مشاهدة المعروف ، وقيل : الأول الهوان والثاني الخذلان ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 24] فيه إشارة إلى ما ينبغي أن يكون المرشد عليه من الأوصاف وهو الصبر على مشاق العبادات وأنواع البليات وحبس النفس عن ملاذ الشهوات والإيقان بالآيات فمن يدعي الإرشاد وهو غير منصف بما ذكر فهو ضال مضلل ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة : 30] فيه إشارة إلى أنه ينبغي الأعراض عن المنكرين المستهزئين بالعارفين والسالكين إذا لم ينجع فيهم الإرشاد والنصيحة وإلى أنهم هالكون لا محالة فإن الإنكار الذي لا يعذر صاحبه سم قاتل وسهم هدفه المقاتل نعوذ بالله تعالى من الحور بعد الكور

بحرمة حبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ ﴾

(179/614)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة السّجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (2)

الإعراب :

(تنزيل) مبتدأ مرفوع " 1 " خبره (من ربّ) ، (لا) نافية للجنس (ريب) اسم لا مبنيّ في محلّ نصب ، (فيه) متعلّق بخبر لا (من رب) متعلّق بخبر المبتدأ تنزيل " 2 " .

جملة : " تنزيل الكتاب . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " لا ريب فيه . . " لا محلّ لها اعتراضيّة " 3 " .

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي القرآن . . وكذلك جملة : " لا ريب فيه " ، والجار والمجرور (من ربّ العالمين) ، فهي جمل ثلاث مستقلّة . [. . . . .]

(2) أو هو خبر بعد خبر . . ويجوز أن يتعلّق بحال من الضمير في (فيه)

(3) أو هي في محلّ نصب حال من الكتاب .

(180/614)

[سورة السجده (32) : آية 3]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (بل) للإضراب الإبطاليّ لقولهم افتراه (من ربّك) متعلّق بالحقّ - أو بحال منه - (اللام) للتعليل (تنذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . .

والمفعول الثاني تقديره العقاب .

والمصدر المؤوّل (أن تنذر) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره أنزلناه .

(ما) نافية (نذير) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل أتاهم (من قبلك) متعلّق بـ (أتاهم) " 1 " .

جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " افتراه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هو الحقّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تنذر قوما . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " ما أتاهم من نذير . . " في محلّ نصب نعت لـ (قوما) .

---

(1) أو متعلّق بنعت لنذير .

(181/614)

وجملة : " لعلّهم يهتدون . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يهتدون . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة السجده (32) : الآيات 4 إلى 9]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (8)

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (9)

الإعراب :

(الذي) اسم موصول خبر المبتدأ اللّه في محلّ رفع (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (ما) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على السموات (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (في ستة) متعلّق بـ (خلق) ، (ثمّ) حرف عطف (على العرش) متعلّق بـ (استوى) ، (ما) نافية (لكم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (لا) زائدة لتأكيد النفي (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (لا) نافية . .

جملة : " اللّه الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " استوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : " ما لكم من دونه . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " تتذكّرون . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أغفلتم فلا تتذكّرون . . .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة خبرا للمبتدأ (اللّه) ، والموصول (الذي) حينئذ هو نعت للفظ الجلالة أو بدل .

(5) (من السماء) متعلّق بـ (يدبّر) بتضمينه معنى ينقل (إلى الأرض) متعلّق بـ (يدبّر) ، (إليه) متعلّق بـ (يعرج) وفاعل يعرج ضمير يعود على الأمر (في يوم) متعلّق بـ (يعرج) ، (ممّا) متعلّق بنعت لألف سنة .

وجملة : " يدبّر . . " في محلّ رفع خبر آخر للمبتدأ (اللّه) .

وجملة : " يعرج . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يدبّر .

وجملة : " كان مقداره ألف . . . " في محلّ جر نعت ليوم .

وجملة : " تعدّون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(6) (ذلك) مبتدأ خبره عالم (العزيز) خبر ثان مرفوع (الرحيم) خبر ثالث مرفوع .

وجملة : " ذلك عالم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(7) (الذي) اسم موصول في محلّ رفع خبر رابع للمبتدأ ذلك " 1 " ، (من طين) متعلّق بـ (بدأ) .

وجملة : " أحسن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " بدأ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أحسن .

وجملة : " خلقه . . . " في محلّ نصب نعت لكلّ . . أو في محلّ جرّ نعت لشيء .

(8) (من سلالة) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل (من ماء) متعلّق بنعت

لسلالة .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بدأ .

(9) (فيه) متعلّق بـ (نفخ) ، (من روحه) متعلّق بـ (نفخ) ، وإضافة الروح إليه تعالى تشريف

(لكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر

عامله تشكرون (ما) زائدة لتأكيد القلّة .

وجملة : " سوّاه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل .

وجملة : " نفخ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل .

---

(1) أو هو نعت للرحيم .

وجملة : " جعل لكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل الأولى .

وجملة : " تشكرون . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(مهين) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ مهن باب كرم أي حقر وضعف ، وزنه فعيل .

البلاغة

في قوله تعالى " فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ " أي في برهة متطاولة من الزمان ، فليس المراد حقيقة العدد ، وعبّر عن المدة المتطاولة بالألف لأنها منتهى المراتب ، وأقصى الغايات ، وليس مرتبة فوقها ، إلا ما يتفرع منها من أعداد مراتبها .

[سورة السجده (32) : آية 10]

وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (10)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ في الموضعين (في الأرض) متعلّق بـ (ضللنا) ، (إنّا) حرف مشبّه بالفعل ، واسمه (اللام) المزحلقة (في خلق) متعلّق بخبر إنّ (بل) للإضراب الانتقاليّ (بلقاء) متعلّق بالخبر (كافرون) .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ضللنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . والشرط وفعله وجوابه مقول القول .

وجملة : " إنّا لفي خلق جديد . . " لا محلّ لها تفسير لجواب الشرط

الجدول ج 21 ، ص : 108

المقدّر أي : نبعث أو نخرج " 1 " .

وجملة : " هم . . . كافرون . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة السجده (32) : الآيات 11 إلى 14]

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

الإعراب :

نائب الفاعل لفعل (وكل) ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (بكم) متعلّق بـ (وكّل) ، (إلى ربّكم) متعلّق بـ (ترجعون) ، والواو نائب الفاعل .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتوفّاكم ملك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " وكّل بكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " ترجعون . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

(12) (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم ، ومفعول (ترى) البصرية محذوف دلّ عليه المبتدأ بعده أي : المجرمون (إذ) ظرف مستعار للزمن المستقبل متعلّق بـ (ترى) " 2 " (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (ناكسو) ،

---

(1) لم يجز تعليق (إذا) بجديد – أي لم يصحّ أن تكون جملة إنّا لفي . . هي الجواب – لأن

بعد إنّ لا يعمل بما قبلها .

(2) وهو توجيه أبي البقاء . . أو لتحقّق وقوع الرؤية استعمل ظرف المضيّ (إذ) .

(184/614)

(ربّنا) منادى مضاف منصوب (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (نعمل) مضارع مجزوم جواب الطلب (صالحا) مفعول به منصوب " 1 " ، (إنّا) حرف مشبّه بالفعل ، واسمه . .

وجملة : " لو ترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل . .

وجواب لو محذوف أي : لرأيت أمرا عجبا .

وجملة : " المجرمون ناكسو . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة النداء وجوابه : في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو في موضع الحال أي : " يقولون ربّنا . . . " .

وجملة : " أبصرنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " سمعنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " ارجعنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " نعمل . . . " جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن ترجعنا نعمل ، فالجملة لا محلّ لها .

وجملة : " إنّا موقنون . . " لا محلّ لها تعليليّة .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر .

---

(13) (الواو) عاطفة (اللام) رابطة لجواب لو (هداها) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة (الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك (منّي) متعلّق بحال من القول (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (أملأن) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع (من الجنّة) متعلّق بـ (أملأن) ، (أجمعين) حال منصوبة من الجنّة والناس . . .

وجملة : " لو شئنا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لو ترى . . .

وجملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " حقّ القول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة شئنا .

وجملة : " أملأنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر " 1 " .

(14) (الفاء) عاطفة (ما) حرف مصدريّ ، ومفعول ذوقوا محذوف أي :

ذوقوا العذاب " 2 " ، (هذا) اسم إشارة في محلّ بدل من يومكم .

والمصدر المؤوّل (ما نسيتم . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) – وهي للسببيّة – متعلّق بـ (ذوقوا) .

(ما كنتم) مثل ما نسيتم . . والمصدر المؤوّل مثل الأول ، والجارّ والمجرور متعلّق بـ (ذوقوا) الثاني .

وجملة : " ذوقوا . . . " معطوفة على مقول مقدّر لقول مقدّر أي : قيل لهم : تركتم الإيمان فذوقوا . . . .

وجملة : " إنّا نسيناكم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " نسيناكم . . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ذوقوا (الثانية) " معطوفة على جملة ذوقوا (الأولى) .

وجملتا : " نسيتم ، كنتم . . . " لا محلّ لهما صلتا الموصولين الحرفيّين (ما) .

وجملة : " تعملون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(12) ناكسو : جمع ناكس ، اسم فاعل من الثلاثيّ نكس ، وزنه فاعل .

(14) الخلد : مصدر الثلاثيّ خلد باب نصر ، وهو الاسم منه بمعنى البقاء والدوام ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

البلاغة

العدول عن الفعلية إلى الاسمية : في قوله تعالى " ولو ترى إذ المجرمون ناكسو

---

(1) يجوز أن يكون القسم هو قوله : حقّ القول منّي أي أقسم لأملأن .

(2) يجوز أن يكون المفعول الإشارة (هذا) أي هذا العذاب .

(186/614)

رؤسهم . . . إلى قوله تعالى إنا موقنون " .

عدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية المؤكدة ، إظهارا لثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه ، وكل ذلك للجد في الاستدعاء ، طمعا في الإجابة إلى ما سألوه من الرجعة وأنى لهم ذلك .

الفوائد

(1) – المجرّد والمزيد من الأفعال :

1 – الفعل المجرد : هو ما كانت جميع حروفه أصلية لا يمكن الاستغناء عن واحد منها وهو ثلاثي ، مثل : كتب – عدّ ورباعي مثل : دحرج – عسكر .

2 – المزيد : هو الفعل الذي طرأ على حروفه الأصلية زيادة حرف أو حرفين أو ثلاثة :

آ – مزيد الثلاثي : يزاد الثلاثي بحرف أو حرفين أو ثلاثة حروف :

1 – المزيد بحرف ، وله ثلاثة أوزان :

آ – أفعل : مثل : أكرم – أحسن – أعلم . .

ب – فعّل : قدّم – نظّم – سوّى .

ج – فاعل : شارك – نازل – سامح .

2 – المزيد بحرفين وله ستة أوزان :

آ – افتعل : اجتمع – انتصر – افتتح .

ب – انفعل : انكسر – انقلب – اندفع .

ج – تفاعل : تشارك – تمارض – تلاعب .

د – تفعّل : تقدّم – تنظّم – تعوّد .

ه – افعلّ : احمرّ – اخضرّ .

و – افعالّ : اصفارّ – احمارّ .

3 – المزيد بثلاثة حروف وله وزنان :

آ – استفعل : استخرج – استعمل – استخدم .

ب – افعوعل : اخشوشن – اعشوشب – اخضوضر .

ب – مزيد الرباعي .

1 – يزاد الرباعي بحرف ، وله وزن واحد :

تفعلل : تدحرج – تبعثر 2 – ويزاد بحرفين ، وله وزنان :

آ – افعللّ : اقشعرّ – اطمأنّ – ادلهمّ .

ب – افعنلل : احرنجم (بمعنى اجتمع) افرنقع .

ملاحظة :

1 – أحرف الزيادة مجموعة في كلمة (سألتمونيها) 2 – عند الحكم على فعل بالزيادة أو التجريد ، فإننا نرده إلى الماضي ثم نحكم عليه .

(187/614)

---

3 – أحرف المضارعة أو الضمائر المتصلة أو نون التوكيد أو تاء التأنيث التي تلحق الفعل ، لا علاقة لها بالزيادة أو النقصان ، فهي تطرح من الحساب .

4 – ليست الزيادة بإضافة حرف فقط ، بل تكون أيضا بتشديد الحرف : (فهم) تصبح (فهّم) وهذه الزيادة تسمى " التضعيف " . أو نقول : الفعل مزيد بالتضعيف .

(2) – التوكيد بأجمعين :

تختص (أجمعون) من بين ألفاظ التوكيد المعنوي ، وتفترق عن أخواتها ، بأنها لا تحتاج إلى

ضمير يتصل بها ويعود إلى المؤكد ، كما ورد في الآية التي نحن بصددها وهي قوله تعالى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أما إذا سبقت " أجمعون " بتوكيد ، فإنها تعتبر توكيدا مقوّيا للتوكيد الأول ، كما في قوله تعالى فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . أما كله فتتبع بأجمع ، مثل : (جاء الفريق كله أجمع) . وكلها بجمعاء ، مثل (اشتركت العشير كلّها جمعاء) وكلهن بجمع ، مثل : عملت النسوة كلهن جمع . أما " جميعا " فتأتي حالا ، ولا تعرب توكيدا .

[سورة السجده (32) : الآيات 15 إلى 18]

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (17) أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (18)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (بآياتنا) متعلق بـ (يؤمن) ، (بها) متعلّق بـ (ذكّروا) ، (بحمد) متعلّق بحال من الفاعل سبّحوا (الواو) حاليّة (لا) نافية .

جملة : " إنّما يؤمن بآياتنا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " خرّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " سبّحوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " هم لا يستكبرون . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يستكبرون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(16) (عن المضاجع) متعلّق بـ (تتجافى) ، (خوفا) مفعول لأجله " 1 " (مما) متعلّق بـ (ينفقون) ، والعائد محذوف .

وجملة : " تتجافى جنوبهم . . " في محلّ نصب حال من فاعل سبّحوا " 2 " .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال . . أو مفعول مطلق لفعل محذوف ، ومثله طمعا .

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

وجملة : " يدعون . . " في محلّ نصب حال من الضمير في جنوبهم " 1 " .

وجملة : " رزقناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ينفقون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يستكبرون " 2 " .

(17) (الفاء) عاطفة (لا) نافية (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 3 " ، ونائب الفاعل لفعل (أخفي) ضمير مستتر تقديره هو يعود على ما (لهم) متعلّق بـ (أخفي) ، (من قرّة) متعلّق بحال من ضمير نائب الفاعل (جزاء) مفعول لأجله منصوب عامله أخفي " 4 " ، (ما) حرف مصدريّ " 5 " .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ بالباء – التي هي للسببيّة – متعلّق بجزاء .

وجملة : " لا تعلم نفس . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّما يؤمن . . .

وجملة : " أخفي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أو الاسميّ (ما) .

وجملة : " يعملون . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة ، فلا محلّ لها .

(2) أو معطوفة على جملة يدعون تأخذ إعرابها . [. . . . .]

(3) أو اسم استفهام مبتدأ : والجملة بعده خبر ، وجملة الاستفهام مفعول تعلم حيث علق الفعل بالاستفهام .

(4) أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي : جوزوا جزاء .

(5) أو اسم موصول ، في محلّ جرّ والعامل محذوف .

(190/614)

---

(18) (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كمن) متعلّق بخبر المبتدأ من (لا) نافية .

وجملة : " من كان مؤمنا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : "كان فاسقا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " لا يستوون . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(تتجافى) فيه إعلال بالقلب أصله تتجافي بياء في آخره ، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا والألف أصلها واو في الثلاثي .

الفوائد

- الكاف المفردة :

وهي الجارة ، وتنقسم إلى حرف واسم . أما الحرف ، فله خمسة معان :

1 – التشبيه نحو " زيد كالأسد " وقوله تعالى أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً .

2 – التعليل : أثبته قوم ونفاه الأكثرون ، ومثالها قوله تعالى وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ أي أعجب لعدم فلاحهم ، وقوله تعالى كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً قال الأخفش لأجل إرسالي فيكم رسولا .

3 – الاستعلاء : ذكره الأخفش والكوفيون ، وأن بعضهم قيل له : كيف أصبحت ؟ فقال : كخير ، أي على خير . وقيل المعنى : بخير ، وقيل : هي للتشبيه على حذف مضاف ، أي كصاحب خير .

4 – المبادرة : وذلك إذا اتصلت بـ (ما) في نحو (سلم كما تدخل) (وصلّ كما يدخل الوقت) .

5 – التوكيد : وهي الزائدة ، كقوله تعالى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

وأما الكاف الاسمية الجارّة ، فمرادفة مثل ، ولا تقع إلا في الضرورة ، كقول العجاج :

بيض ثلاث كنعاج جمّ يضحكن عن كالبرد المنهمّ

(191/614)

المنهمّ : الذائب ، والشاهد قوله : كالبرد ، أي مثل البرد . وقال كثير منهم الأخفش والفارسي : يجوز في الاختيار ، فجوّزوا في نحو " زيد كالأسد " ، أن تكون الكاف في موضع رفع خبر بمعنى مثل والأسد مضافا إليه .

[سورة السجده (32) : الآيات 19 إلى 21]

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

الإعراب :

(أمّا) حرف شرط وتفصيل (الواو) عاطفة و(الفاء) رابطة لجواب الشرط (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ جنّات (نزلا) حال منصوبة من جنّات (ما) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) - التي للسببيّة - متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر .

جملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا . .

وجملة : " لهم جنّات . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يعملون . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

(20) (الواو) عاطفة (أمّا . . . النار) مثل أما . . . جنّات (كلّما) ظرف متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب أعيدوا (أن) حرف مصدريّ ونصب (منها) متعلّق بـ (يخرجوا) ، و(الواو) في (أعيدوا) نائب الفاعل (فيها) متعلّق بـ (أعيدوا) ، (لهم) متعلّق بـ (قيل) ، (الذي) نعت لـ (عذاب) (به) متعلّق بـ (تكذّبون) .

(192/614)

والمصدر المؤوّل (أن يخرجوا . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أرادوا .

وجملة : " الذين فسقوا . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " فسقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " مأواهم النار . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ " الذين " .

وجملة : " أرادوا . . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يخرجوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أعيدوا فيها . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قيل لهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " ذوقوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : " كنتم به تكذّبون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تكذّبون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

(21) (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نذيقنّهم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) للتوكيد ، و(هم) مفعول به (من العذاب) متعلّق بـ (نذيقنّهم) ، (دون) ظرف منصوب متعلّق بـ (نذيقنّهم) .

وجملة : " نذيقنّهم . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . : وجملة

---

(1) هي في الأصل جملة مقول القول .

القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لعلّهم يرجعون . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يرجعون . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة السجده (32) : آية 22]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبتدأ في محلّ رفع خبره (أظلم) ، (ممّن) متعلّق بأظلم (بآيات) متعلّق بـ (ذكّر) ، (عنها) متعلّق بـ (أعرض) ، (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (من المجرمين) متعلّق بـ (منتقمون) .

جملة : " من أظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(194/614)

وجملة : " ذكّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أعرض عنها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " إنّا . . . منتقمون . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف

(منتقمون) ، جمع منتقم ، اسم فاعل من الخماسيّ انتقم ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

إن لحروف العطف أسرارا ، فلا يصح وضع بعضها موضع بعض ، للفوارق بينها ، وكلمة ثم في قوله تعالى " ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها " للاستبعاد .

والمعنى : أنّ الإعراض عن مثل آيات اللّه في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز .

[سورة السجده (32) : الآيات 23 إلى 25]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (23) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (في مرية) متعلّق بخبر تكن (من لقائه) متعلّق بمرية " 1 " ، وضمير الغائب في (جعلناه) يعود على موسى - أو على الكتاب - (هدى) مفعول به ثان عامله جعلناه (لبني) متعلّق بهدى .

جملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها

استئنافيّة.

وجملة: "لا تكن في مرية . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن تساءلت عنه فلا تكن . . "2" .

وجملة: "جعلناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

(24) (الواو) عاطفة في الموضعين (منهم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلنا (بأمرنا) متعلّق بـ (يهدون) (لمّا) ظرف مبنيّ متضمّن معنى الشرط - أو مجرّد من الشرط - متعلّق بمضمون الجواب - أو بـ (جعلنا) ، (بآياتنا) متعلّق بـ (يوقنون) .

---

(1) في إرجاع الضمير أقوال كثيرة للمفسّرين.

(2) وجملة الشرط وجوابه لا محلّ لها اعتراضيّة.

(195/614)

وجملة: "جعلنا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة: "يهدون . . . " في محلّ نصب نعت لأئمة.

وجملة: "صبروا . . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "كانوا . . . يوقنون . . " في محلّ جر معطوفة على جملة صبروا . .

وجملة : " يوقنون . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

(25) (هو) ضمير منفصل مبتدأ خبره جملة يفصل (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يفصل) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يفصل) ، (في ما) متعلّق بـ (يفصل) ، (فيه) متعلّق بـ (يختلفون) .

وجملة : " إنّ ربّك . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هو يفصل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يفصل . . . " في محلّ رفع خبر (هو) .

وجملة : " كانوا . . يختلفون . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يختلفون . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة السجده (32) : الآيات 26 إلى 27]

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (27)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (يهد) بمعنى يتبيّن ، والضمير

فيه يعود على أهل مكة ، وفاعل يهد محذوف دلّ عليه سياق الكلام في قوله أهلكناه ، أي :

أ ولم يهد لهم

(196/614)

إهلاكنا . . (من قبلهم) متعلّق بـ (أهلكنا) " 1 " ، (من القرون) تمييز كم (في مساكنهم)

متعلّق بـ (يمشون) ، (في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ

(الفاء) عاطفة (لا) نافية .

جملة : " لم يهد . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أغفلوا ولم يهد . . .

وجملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها استئناف بياني – أو تفسير للفاعل – وجملة : "

يمشون . . . " في محلّ نصب حال من القرون " 2 " .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسمعون . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أأصابهم الصمم فلا يسمعون .

(أ ولم يروا) مثل أ ولم يهد . . (أنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (إلى الأرض) متعلق بـ

(نسوق) ، (به) متعلّق بـ (نخرج) و(الباء) للسببيّة (منه) متعلّق بـ (تأكل) ، (أ فلا يبصرون) مثل أ فلا يسمعون .

والمصدر المؤوّل (أنّا نسوق . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا . .

وجملة : " لم يروا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يهد .

وجملة : " نسوق . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " نخرج . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة نسوق .

وجملة : " تأكل منه أنعامهم . . " في محلّ نصب نعت لـ (زرعا) .

وجملة : " يبصرون . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أأصابهم العمى فلا يبصرون .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من القرون .

(2) أو من الضمير في (لهم) . . ويجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

(197/614)

الصرف :

(الجرز) ، صفة مشبّهة من جرزت تجرز الأرض - باب فرح - بمعنى لا تنبت أو أكل نباتها

، وزنه فعل بضمتين ، جمعه أجراز .

البلاغة

فن المناسبة : في قوله تعالى " أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ " الآية .

والمناسبة قسمان : إما مناسبة في المعاني ، وإما مناسبة في الألفاظ وما يهمنا في هذه الآية هو القسم الأول وحدّه : أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ .

فقد قال تعالى في صدر الآية : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ، وهي موعظة سمعية ، لكونهم لم ينظروا إلى القرون الهالكة ، وإنما سمعوا بها ، فناسب أن يأتي بعدها بقوله " أَفَلا يَسْمَعُونَ " أما بعد الموعظة المرئية ، وهي قوله بعد هذه الآية " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ " فقد ناسب أن يقول " أَفَلا يُبْصِرُونَ " لأن الزرع مرئي لا مسموع ، ليناسب آخر كل كلام أوله .

الفوائد

- إزاحة وهم :

من الوهم في هذه الآية قول ابن عصفور في قوله تعالى في هذه الآية أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا إن (كم) فاعل يهد ، فإن قلت : خرجه على لغة حكاها الأخفش ، وهي أن بعض العرب لا يلتزم تصدّر (كم) الخبرية ، قلت : قد اعترف برداءتها ، فتخريج التنزيل عليها بعد ذلك رداءة ، والصواب أن الفاعل مستتر راجع إلى اللّه سبحانه وتعالى ، أي أ ولم يبين اللّه لهم ، أو

إلى الهدى ، والأول قول أبي البقاء ، والثاني قول الزجاج وقال الزمخشري : الفاعل الجملة ، وقد مر أن الفاعل لا يكون جملة ، و "كم" مفعول به لأهلكنا ، والجملة مفعول يهد ، وهو معلق عنها " وكم الخبرية تعلق خلافا لأكثرهم " وقد ذكر الامام النسفي أن الفاعل هو اللّه عز وجل ، بدليل قراءة زيد عن يعقوب (أ ولم تهد لهم) .

الجدول ج 21 ، ص : 123

[سورة السجده (32) : آية 28]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (28)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (متى) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ هذا (الفتح) بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان - (كنتم) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . .

(198/614)

جملة : "يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " متى هذا الفتح . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنتم صادقين . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

[سورة السجده (32) : الآيات 29 إلى 30]

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

الإعراب :

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (لا ينفع) ، (لا) نافية (الذين) مفعول به ، والفاعل (إيمانهم) (الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى ، ونائب الفاعل في (ينظرون) هو الواو .

جملة : " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا ينفع . . . إيمانهم . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا هم ينظرون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا ينفع .

وجملة : " ينظرون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(30) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (عنهم) متعلّق بـ (أعرض) ، (الواو) عاطفة .

وجملة : " أعرض عنهم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي :

إن أعرضوا عنك فأعرض .

وجملة : " انتظر . . . . " معطوفة على جملة أعرض . . . .

وجملة : " إنّهم منتظرون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 21 صـ 103. 124 ﴾

(199/614)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(32) سورة السجدة

مكيّة وآياتها ثلاثون

[سورة السجده (32) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (4)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)

الإعراب :

(الم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) ألم خبر لمبتدأ محذوف وقد تقدم القول مفصلا في ذلك وتنزيل الكتاب مبتدأ ولا نافية للجنس وريب اسمها وفيه خبرها والجملة حال من الكتاب ومن

(200/614)

رب العالمين خبر تنزيل وهناك أعاريب أخرى ضربنا صفحا عنها وقد تقدم في أول البقرة ما يشبه هذا . (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل الاضرابية وهمزة الاستفهام الانكارية ويقولون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وجملة افتراه مقول القول وافتراه فعل ومفعول به والفاعل مستتر تقدير هو يعود على محمد وبل إضراب ثان يفيد ابطال قولهم وهو مبتدأ والحق خبر ومن ربك حال . (لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) اللام للتعليل وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام التعليل وفاعل تنذر مستتر تقديره أنت وقوما مفعول به أول والمفعول الثاني محذوف إذ التقدير لتنذر قوما العقاب ، وما نافية وآتاهم فعل ومفعول به ومن حرف جر زائد والجملة صفة لقوما ومن قبلك صفة لنذير ويجوز أن يتعلق بآتاهم وجملة ما آتاهم المنفية في محل

نصب صفة لقوما ويجوز العكس ، ومفعول تنذر الثاني محذوف أي لتنذر قوما العقاب ، وجوز بعضهم أن تكون ما موصولة والتقدير لتنذر قوما العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك ، ومن نذير متعلقان بأتاهم أي أتاهم على لسان نذير من قبلك وبواسطته فما مفعول به ثان وانذر يتعدى إلى اثنين قال تعالى : " فقل أنذرتكم صاعقة " ولعل واسمها وجملة يهتدون خبرها وجملة الترجي حال من فاعل لتنذر أي لتنذرهم راجيا لاهتدائهم .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) اللّه مبتدأ والذي خبره وجملة خلق السموات والأرض صلة وما عطف على السموات وبينهما ظرف متعلق بمحذوف صلة لما وفي ستة أيام متعلقان بخلق . (ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ)

(201/614)

ثم حرف عطف وتراخ واستوى فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على اللّه وعلى العرش متعلقان باستوى وما نافية ولكم خبر مقدم ومن دونه حال لأنه كان في الأصل صفة لولي ومن حرف جر زائد وولي مجرور لفظا مرفوع محلّا على أنه مبتدأ مؤخر ولا شفيع عطف على ولي ، ويجوز أن تكون ما حجازية على رأي بعض النحاة ، والهمزة للاستفهام

الانكاري والفاء عاطفة على مقدر يقتضيه السياق ولا نافية وتتذكرون فعل مضارع مرفوع والواو فاعله . (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) الجملة حالية والأمر مفعول يدبر ومن السماء متعلقان بيدبر والى الأرض متعلقان بيدبر أيضا ومن ابتدائية والى انتهائية ، ثم حرف عطف وتراخ ويعرج فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو أي الأمر أي يرجع اليه واليه متعلقان بيعرج وفي يوم حال من فاعل يعرج أي كائنا في يوم وجملة كان واسمها وخبرها صفة ليوم وسيأتي مزيد بيان لمعنى هذا الزمان في باب البلاغة ، ومما صفة لألف سنة وجملة تعدون صلة .

البلاغة :

قال النحاس : اليوم في اللغة بمعنى الوقت ، فاندفع الإشكال الذي أورده بعضهم مع قوله تعالى في سورة سأل " خمسين ألف سنة " فالعرب تعبر عن مدة العصر باليوم ، ويوم القيامة فيه أيام متباينة الأوقات فمنها ما هو مقداره ألف سنة ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة فالمراد من ذكر الألف والخمسين التنبيه على طوله والتخويف منه لا العدد بخصوصه ومن شواهد التعبير باليوم عن المدة قول الشاعر :

يومان : يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب

[سورة السجده (32) : الآيات 6 إلى 11]

ذِلكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (9) وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (10)

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)

الإعراب :

(ذِلكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) ذلك مبتدأ والاشارة إلى اللّه الخالق المدبر وعالم الغيب والشهادة خبر أول والعزيز خبر ثان والرحيم خبر ثالث . (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) يجوز في اسم الموصول أن يكون خبرا رابعا أو نعتا أو خبرا لمبتدأ مضمر وأن يكون منصوبا على المدح وجملة أحسن صلة وكل شيء مفعول به وخلقه فعل ماض ومفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره يعود على اللّه وجملة خلقه صفة لشيء في محل جر أو صفة لكل فهي في محل نصب وقرئ خلقه بسكون اللام فيكون بدل اشتمال من كل شيء والضمير عائد على كل شيء .

(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ) وبدأ عطف على أحسن وخلق الإنسان مفعول به ومن طين

متعلقان بخلق والمراد بالإنسان آدم .

(ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ) ثم حرف عطف للترتيب مع

(203/614)

التراخي وجعل نسله فعل وفاعل مستتر يعود على اللّه ومفعول به ومن سلالة متعلقان بجعل أو في محل نصب على أنه مفعول ثان ، وسميت الذرية نسلا لأنها تنسل منه كما سميت النطفة سلالة لأنها تسل منه ، وفي الصحاح : النجل : النسل ونجله أبوه أي ولده فالولد سليل ونجل ، ومن ماء صفة لسلالة ومهين صفة لماء وهي النطفة الضعيفة .

(ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ) ثم حرف ترتيب وتراخ وسواه فعل وفاعل مستتر ومفعول به والمراد بالتسوية تقويمه في أحسن تقويم ونفخ عطف على سواه وفيه متعلقان بنفخ ومن روحه متعلقان بنفخ أيضا وجعل عطف ولكم متعلقان بجعل والسمع مفعول به والأبصار والأفئدة معطوفان على السمع وقليلا مفعول مطلق وما زائدة مؤكدة للقلة وتشكرون فعل مضارع مرفوع ، ويجوز أن يعرب قليلا ظرف زمان فعلى الأول يكون التقدير شكرا قليلا وعلى الثاني زمانا قليلا .

)

وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) كلام مستأنف مسوق لبيان ضروب من أباطيلهم وسيأتي سر الالتفات في باب البلاغة والهمزة للاستفهام الانكاري وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بمحذوف تقديره نبعث وهو جواب إذا أو نخرج بدلالة خلق جديد عليه وجملة ضللنا في محل جر بإضافة الظرف إليها ، وفي الأرض متعلقان بضللنا والهمزة للاستفهام الانكاري أيضا وان واسمها واللام المزحلقة وفي خلق خبرها وجديد صفة لخلق . (بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ) إضراب انتقالي من بيان كفرهم بالبعث إلى ما هو أطم وأدل على سوء ما هم مترددون فيه ، وهم مبتدأ وبلقاء ربهم متعلقان بكافرون وكافرون خبرهم . (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) يتوفاكم فعل مضارع والكاف مفعول به

(204/614)

مقدم وملك الموت فاعل والذي نعت لملك الموت وجملة وكل بكم صلة ، ثم حرف عطف وتراخ والى ربكم متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

الفوائد :

التفعل والاستفعال :

قال الزمخشري : " والتوفي استيفاء النفس وهي الروح قال اللّه تعالى : " اللّه يتوفي الأنفس "

ومعلوم أن التفعل والاستفعال يلتقيان في مثل تقضيته واستقضيته وتعجلته واستعجلته "

وللتفعل معان أخرى ندرجها فيما يلي :

1- مطاوعة الرباعي المضعف نحو نبّهته فتنبّه وجمعته فتجمّع .

2- التكلف نحو تصبّر وتكرّم أي تكلّف الصبر والكرم .

3- الاتخاذ نحو توسّد ذراعه أي اتخذه وسادة وتورّك البعير أي اتخذ وركه مطية .

4- التجنّب نحو تأثّم أي تجنب الإثم وتهجّد أي تجنب الهجود وهو النوم .

5- التدريج نحو تحفّظت الدرس أي حفظته قسما بعد قسم وتجرعت الدواء أي أخذته جرعة بعد جرعة .

وأشهر معاني الاستفعال ما يأتي :

1- الطلب نحو استقدمت فلانا أي طلبت قدومه واستخرجت حل المسألة أي حصلت عليه بعد طلب .

2- الصيرورة نحو استحجر أي صار حجرا واستنوق الجمل أي صار كالناقة واسترجلت المرأة أي صارت كالرجل .

3- النسبة نحو استصوبت رأيه أي نسبت اليه الصواب واستقبحت فعله أي نسبت اليه

القبح .

4- اختصار اللفظ نحو استرجع القوم أي قالوا إنا للّه وإنا إليه راجعون .

5- القوة نحو استهتر أي اشتد هتاره واستكبر أي قوي كبره .

وقد تأتي هذه الصيغة بمعنى أفعل نحو استجاب وأجاب وقد تكون مطاوعا له نحو

أحكمت البناء فاستحكم وأقمت اعوجاجة فاستقام .

[سورة السجده (32) : الآيات 12 إلى 17]

(205/614)

وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13 تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (17)

اللغة :

(تَتَجافى) : تجافى : تنحى ولم يلزم مكانه يقال تجافى السرج عن ظهر الفرس وتجافى جنبه عن الفراش وقال في الأساس : " جفاني فلان : فعل بي ما ساءني واستجفيته ، والأدب

صناعة مجفوّ أهلها ، وجفت المرأة ولدها فلم تتعاهده ، وثوب جاف : غليظ وقد جفا ثوبه ، وهو من جفاة العرب ، وجفا السرج عن ظهر الفرس ، وجنب النائم عن الفراش وتجافى " تتجافى جنوبهم عن المضاجع " وأجفاه صاحبه وجافاه ، قال :

وتشتكي لو أننا نشكيها غمز حوايا قلّما نجفيها

ومن المجاز : أصابته جفوة الزمان وجفاوته . وللجيم مع الفاء خاصة الانكماش والجفاف يقال جف يجف من باب تعب جفافا وجفوفا : يبس ونشف والانكماش واضح في هذا المعنى ، واجتف ما في الإناء : أتى عليه ، وجفأ يجفأ من باب فتح النهر رمى بالزبد والقذى وجفجف الإبل : ساقها بشدة حتى ركب بعضها بعضا أي انكمش بعضها على بعض ، وجفخ تكبر والمتكبر منكمش عن الناس ترفعا وتيها منه ، وجفل القوم وأجفلوا هربوا مسرعين ووقعت في الناس جفلة إذا خافوا فانجفلوا وليس مثل الخائف في الانكماش والاسراع ، وجفن الناقة : نحرها وأطعم لحمها في الجفان وجفن نفسه كفها عن الخبائث وتجفّن الكرم صار له أصل والجفنة بفتح الجيم القصعة الكبيرة والخمرة والبئر الصغيرة فما تطلقه العامة على جفنة الكرم له أصل صحيح .

الاعراب :

)

وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) كلام مستأنف مسوق لاستحضار صورة المجرمين عامة يوم القيامة والخطاب لمحمد صلى اللّه عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح له ولتجسيد الفظاعة التي حلت بهم . ولو شرطية وترى فعل مضارع فاعله مستتر تقديره أنت وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بتري وانما جاز ذلك لترقب وقوعه وتحققه نحو أتى أمر اللّه ، وجعله أبو البقاء مما وقعت فيه إذ موقع إذا ، والمجرمون مبتدأ وناكسو رءوسهم خبر وسيأتي سر التعبير بالجملة الاسمية في باب البلاغة وعند ربهم ظرف متعلق بمحذوف حال ومفعول ترى محذوف لأن الرؤية بصرية أي لو ترى المجرمين ، وقد أغنى عن ذكره المبتدأ ، وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا فظيعا لا يمكن وصفه ، وأجاز الزمخشري أن تكون لو للتمني والمضي فيها وفي إذ لأن الثابت في علم اللّه بمثابة الواقع ، وناكسو رءوسهم اسم فاعل مضاف إلى مفعوله . (رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ) الكلام مقول قول محذوف في موضع الحال أي قائلين وربنا منادى مضاف حذف منه حرف النداء وأبصرنا فعل وفاعل والمفعول محذوف أي أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك ، وسمعنا عطف على أبصرنا ويجوز عدم تقدير مفعول أي صرنا ممن يبصر ويسمع وكنا من قبل صما وعميانا وهو جميل ، فأرجعنا الفاء الفصيحة وارجعنا

فعل أمر المقصود منه الدعاء ومفعول به ونعمل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وصالحا مفعول به أو مفعول مطلق وان واسمها وخبرها .

(207/614)

)

وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها) الواو عاطفة ولو شرطية وشئنا فعل وفاعل ولآتينا اللام واقعة في جواب لو وآتينا فعل وفاعل وكل نفس مفعول آتينا الاول وهداها مفعول آتينا الثاني . (وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) الواو حالية ولكن مخففة مهملة فهي لمجرد الاستدراك وحق القول فعل وفاعل ومني حال ولأملأنّ اللام موطئة للقسم وأملأن فعل مضارع مبني على الفتح والفاعل مستتر تقديره أنا وجهنم مفعول به ومن الجنة متعلقان بأملأن والناس عطف على الجنة وقدم الجن لأن المقام مقام تحقير لهم وأجمعين تأكيد وسيأتي القول في معنى أجمعين هنا في باب الفوائد . (فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا) الفاء الفصيحة أي إن نسيتم هذا كله فذوقوا ، وذوقوا فعل أمر وفاعله وبما الباء حرف جر للسببية وما مصدرية والمصدر الاول مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بذوقوا ومفعول ذوقوا محذوف تقديره العذاب ولقاء يومكم مفعول نسيتم وهذا صفة

ليومكم أي المشار اليه .

(إِنَّا نَسِينا كُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) كلام مستأنف لزيادة إيلامهم ومقابلة نسيانهم اللقاء بنسيان أمضى وأنكى ، وان واسمها وجملة نسيناكم خبرها وذوقوا فعل أمر والواو فاعل والجملة مقول قول محذوف أي ونقول ذوقوا وعذاب الخلد مفعول ذوقوا ، وكرر الذوق مع مفعوله للتأكيد وتبيين المفعول المطوي للذوق ، وبما جار ومجرور متعلقان بذوقوا وقدمر قريبا وكنتم كان واسمها وجملة تعملون خبرها . (إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً) كلام مستأنف مسوق لبيان الذين إذا قرئ عليهم القرآن خروا سجدا وإنما كافة ومكفوفة ويؤمن فعل مضارع مرفوع وبآياتنا متعلقان به

(208/614)

والذين فاعل وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة ذكروا في محل جر بإضافة الظرف إليها والواو نائب فاعل وبها متعلقان بذكروا وجملة خروا جواب إذا وسجدا حال من فاعل خروا .

(وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) وسبحوا عطف على خروا وبحمد ربهم حال والواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يستكبرون خبر والجملة في محل نصب على الحال .

(تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ) الجملة مستأنفة أو حالية أيضا وجنوبهم فاعل وعن المضاجع متعلقان بتتجافى . (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ) جملة يدعون إما مستأنفة وإما حالية أيضا ويدعون ربهم فعل مضارع وفاعل ومفعول به وخوفا وطمعا إما مفعول من أجله وإما حالان وإما مصدران لفعل محذوف ومما متعلقان بينفقون وجملة رزقناهم صلة ما .

(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) يجوز أن تكون الفاء عاطفة أي تتجافى جنوبهم ويدعون ربهم فلا ، ويجوز أن تكون فصيحة أي إن حلول أحد أن يعلم مصيرهم وما أعد اللّه لهم من قرة أعين فلا يعلم . ولا نافية وتعلم نفس فعل مضارع وفاعل وما اسم موصول مفعول تعلم أي لا تعلم الذي أخفاه اللّه ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع مبتدأ وأخفي لهم خبره وعلى قراءة أخفي بسكون الياء تكون ما مفعول أخفي لأنه فعل مضارع وفاعله أنا وتكون ما الاستفهامية معلقة لمتعلم ولهم متعلقان بأخفي ومن قرة أعين حال من ما وجزاء مفعول مطلق لفعل محذوف أي جوزوا جزاء أو مفعول لأجله أي أخفي لهم لأجل جزائهم وبما متعلقان بجزاء وكان واسمها وجملة يعملون خبرها .

البلاغة :

العدول عن الفعلية إلى الاسمية :

في قوله " ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم " عدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية لتقرير ثباتهم على نكس رءوسهم خجلا وحياء وخزيا عند ما تبدو مثالبهم وهناتهم بصورة دميمة شوهاء تبعث على الهزء بهم والسخرية منهم كأنما استمر ذلك منهم ، لا يرتفع لهم رأس ، ولا يمتد منهم طرف .

وكذلك عدل عن الفعلية إلى الاسمية المؤكدة في قوله " إنا موقنون " أي انهم ثابتون على الإيقان راغبون فيه بعد أن ظهرت لهم المغاب منادية عليهم بالويل والثبور .

الفوائد :

التوكيد بأجمعين :

يجوز إذا أريد تقوية التوكيد أن يتبع كله بأجمع وكلها بجمعاء وكلهم بأجمعين وكلهن بجمع فتقول جاء الجنس كله أجمع والقبيلة كلها جمعاء والقوم كلهم أجمعون والنساء كلهن جمع ، وقد يؤكد بهن وإن لم يتقدم كل نحو الآية المتقدمة وقوله " لأغوينهم أجمعين " .

[سورة السجده (32) : الآيات 18 إلى 22]

أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20)

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

الاعراب :

)

(210/614)

أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق ومن مبتدأ وجملة كان صلة واسمها مستتر تقديره هو ومؤمنا خبرها وكمن خبر من وجملة كان صلة من الثانية وفاسقا خبر كان وجملة لا يستوون مستأنفة لا موضع لها من الاعراب ويستوون فعل مضارع مرفوع وفاعل ومتعلقه محذوف أي في المآل ، وروي أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يتعمّد الوقف على قوله فاسقا ثم يبتدىء بقوله لا يستوون .

قال الزجاج : جعل الاثنين جماعة حيث قال : لا يستوون ، لأجل معنى من ، وقيل لكون الاثنين أقل الجمع . (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) أما حرف شرط وتفصيل والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وجملة عملوا الصالحات

معطوفة على الصلة داخلة في حيزها فلهم الفاء رابطة ولهم خبر مقدم وجنات المأوى مبتدأ مؤخر ، والمأوى المكان تلجأ إليه ويقال المأواة والمأوي ، ونزلا حال من جنات المأوى أي حالة كونها مهيأة ومعدة

لهم ، والنزل بضمتين عطاء النازل ثم صار عاما فاستعماله بمعنى الفندق لا غبار عليه بل لعله أولى بالنسبة للفنادق الرفيعة لأن الفندق كقنفذ هو الخان كما في القاموس ويقال فيه الفنتق ، قال ابن عباد هو خان السبيل لغة في الفندق وأنكره الخفاجي في شفاء الغليل قال شارح القاموس : " وهو – أي كلام الخفاجي – غير متجه فقد قال الفراء سمعت أعرابيا من قضاعة يقول فتق للفندق وهو الخان " ، وبما صفة لنزلا وما مصدرية أو موصولية وكان واسمها وجملة يعملون خبرها .

)

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) الواو عاطفة وأما شرطية تفصيلية كما تقدم والغالب تكريرها وسيرد في باب الفوائد إلماع إليها والذين مبتدأ وفسقوا صلة والفاء رابطة ومأواهم النار ابتداء وخبر والجملة خبر الذين .

(211/614)

(كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) كلما ظرف زمان متضمن معنى الشرط وقد تقدم القول في كلما كثيرا وأرادوا فعل وفاعل والجملة مستأنفة لبيان كيفية مأواهم فيها وأن وما في حيزها مفعول أرادوا ومنها متعلقان بيخرجوا وجملة أعيدوا لا محل لها وفيها متعلقان بأعيدوا وقيل عطف على أعيدوا والواو نائب فاعل ولهم متعلقان بقيل وجملة ذوقوا عذاب النار مقول القول والذي صفة للعذاب وجملة كنتم صلة وبه متعلقان بتكذبون وجملة تكذبون خبر كنتم .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم ونذيقنهم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به ومن العذاب جار ومجرور متعلقان بنذيقنهم والأدنى صفة للعذاب

والمراد بالأدنى عذاب الدنيا وما يستهدفون له من محن ونكبات ، ودون ظرف زمان بمعنى قبل متعلق بمحذوف حال والعذاب مضاف إليه والأكبر نعت والمراد بالأكبر عذاب الآخرة ولعل واسمها وخبرها وجملة الترجي حالية والمراد بها ترجي المخاطبين كما قال سيبويه في تفسيرها . (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان حال من قابل النعمة بالإعراض والإشاحة عنها ومن اسم استفهام معناه النفي مبتدأ وأظلم خبر وممن متعلقان بأظلم وجملة ذكر صلة لمن وبآيات ربه متعلقان

بذكر وثم حرف عطف وتراخ وأعرض عطف على ذكر وعنها متعلقان بأعرض وسيأتي معنى التراخي في باب البلاغة وإنا ان واسمها ومن المجرمين متعلقان بمنتقمون ومنتقمون خبر إن .

البلاغة :

(212/614)

---

1 - ذكرنا فيما سبق أن لحروف العطف أسرارا لا يدركها إلا المبين ، فلا يصح وضع بعضها موضع بعض للفوارق بينها ، وكلمة " ثم " خاصة بالاستبعاد والتطاول في المدة وقد ناسب ذكرها في قوله " ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها " لأن الإعراض عن الآيات مع غاية وضوحها وإشراقها مستبعد في حكم البداءة الثابتة وموازين العقول الراجحة . وقد رمق الشعراء سماء هذه البلاغة فقال جعفر بن علبة الحارثي فيما يرويه ديوان الحماسة :

ولا يكشف الغمّاء إلا ابن حرّة يرى غمرات الموت ثم يزورها

نقاسمهم أسيافنا شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها

فقد شبه الداهية الغماء بأمر محسوس يغشي الناس ويغطيهم على طريق الاستعارة

المكنية ، وقال ابن حرة ليكون حفزا للسامع وتهييجا له على خوض الهيجاء وغمرات الموت شدائده وأهواله ، والشاهد في قوله ثم يزورها استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها لأن بين رؤية الأهوال المفزعة وبين الانحدار إليها برغبة تشبه الرغبة في لقاء المحبوب بونا بعيدا في العادة والعقل ، وشبه السيوف ممتدة متوسطة بينهم بشيء تجري فيه المقاسمة على طريق الاستعارة المكنية ثم فرع على تلك المقاسمة أن لهم غواشيها أي ما يغشاهم منها وهي مقابضها أو لأنها زائدة على النصل فهي غاشية له ولأعدائه صدورها أي أطرافها المتقدمة منها وصدر كل شيء مقدمه ، وعبر بفي دون اللام لأن " في " تفيد مجرد اشتمال الأعداء على الصدور لدخولها في أجسامهم واللام تفيد التملك وليس مرادا وإن كان مقتضى القسمة فلعله دفع توهمه بالعدول إلى " في " وذكرها أولا تمهيدا للثانية .

(213/614)

2- في قوله " وأما الذين فسقوا فمأواهم النار " الآية ، فن من فنون البديع لم يذكره أحد من الذين كتبوا في فنون البديع ما عدا ابن أبي الإصبع وهو الشماتة ، وهو ذكر ما أصاب عدوك من آفات ومحن جزاء ما اقترفت يداه مع المبالغة في تصوير غمائه وما يتخبط به من أهوال وإظهار اغتباطك بما أصابه شماتة به وتشفيا منه ، وفي هذه الآية من ضروب

التشفي والشماتة ما لا يخفى ، وهو شائع في القرآن وفي الشعر ومنه قصيدة " فتح الفتوح " لأبي تمام .

الفوائد :

عود على أمّا :

(أَمَّا) بفتح الهمزة وتشديد الميم حرف شرط وتوكيد وتفصيل غالبا ويدل على معنى الشرط مجيء الفاء بعدها غالبا ، ويدل على معنى التفصيل استقراء مواقعها وعطف مثلها عليها ، ولا بد لها من فاء تالية لتاليها إلا ان دخلت الفاء على قول قد طرح استغناء عنه بالمقول فيجب حذفها منه .

]

سورة السجده (32) : الآيات 23 إلى 30]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (23) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (27)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

اللغة :

(الْجُرُزِ) : يقال : جرزه الزمان : اجتاحه ، قال تبع :

لا تسقني بيديك إن لم ألقها جرزا كأن أشاءها مجروز

وأرض مجروزة وقد جرزت : قطع نباتها وأرض جرز وأرضون أجراز وسنون أجراز : جدبة ومفازة مجراز . قال الراعي :

وغبراء مجراز يبيت دليلها مشيحا عليها للفراقد راعيا

وسيف جراز و" لن ترضى شانئة إلا بجرزة " مثل في العداوة وأن المبغض لا يرضى إلا باستئصال من يبغضه وضربه بالجرز وخرجوا بأيديهم الجرزة وجاء بجرزة من قت وبجرز منه وهي الحزمة والعامة تستعمل هذه الكلمة كثيرا ولا غبار عليها كما ترى ، ومن المجاز رجل جروز : أكول لا يدع على المائدة شيئا ، وامرأة جارز : عاقر . وفي المختار : " أرض جرز وجرز كعسر لا نبات بها " أي قطع وأزيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن ، وفي المصباح :

"

الجرزة : القبضة من القت ونحوه أو الحزمة والجمع جرز كغرفة وغرف وأرض جرز بضمتين قد انقطع الماء عنها فهي يابسة لا نبات فيها .

الاعراب :

(215/614)

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ) كلام مستأنف مسوق لتسليته صلى اللّه عليه وسلم وانما اختار موسى لأن اليهود والنصارى كانوا مؤمنين به فتمسك بالجمع عليه ليكون ألزم لإيقاع الحجة عليهم . واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل وموسى مفعول به أول لآتينا والكتاب مفعول به ثان والفاء الفصيحة ولا ناهية وتكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلا واسمها ضمير مستتر تقديره أنت وفي مرية خبرها أي شك ومن لقائه صفة لمرية والضمير في لقائه يعود على موسى فيكون المصدر وهو لقاء مضافا إلى مفعوله أو على الكتاب وحينئذ تكون الاضافة للفاعل أي من لقاء الكتاب لموسى ، وهناك أقوال كثيرة في عودة الضمير ضربنا عنها صفحا لتهافتها . (وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ) وجعلناه فعل وفاعل ومفعول به والضمير يعود على موسى والكتاب أيضا وهدى مفعول به ثان ولبني إسرائيل متعلقان بهدى أو صفة له . (

وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ) وجعلنا عطف على جعلنا الأول ومنهم مفعول جعلنا الثاني وأئمة مفعول جعلنا الأول وجملة يهدون صفة لأئمة وبأمرنا حال ولما ظرف بمعنى حين متعلق بجعلنا أي جعلناهم أئمة حين صبروا وجواب لما محذوف دل عليه ما قبله والتقدير ولما صبروا جعلنا منهم أئمة وكانوا عطف على صبروا وبآياتنا متعلقان بيوقنون ويوقنون خبر كانوا (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) إن واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ وجملة يفصل خبر إن أو خبر هو والجملة خبر إن وبينهم ظرف متعلق بيفصل ويوم القيامة متعلق بمحذوف حال وفيما متعلقان بيفصل وجملة كانوا صلة وفيه متعلقان بيختلفون وجملة يختلفون خبر كانوا .

(216/614)

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو للعطف على مقدر يقتضيه السياق أي أغفلوا ولم يهد لهم أي يتبين ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ويهد فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل ما دل عليه " لم يهد " لأن كم لا تقع فاعلة والتقدير أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون ، ولك أن تقدره بهذا الكلام ، وكم خبرية في محل نصب مفعول به مقدم لأهلكنا ومن قبلهم

حال من القرون ومن القرون حال أيضا من كم وجملة يمشون إما أن تكون استئنافية مسوقة لبيان وجه هدايتهم وإما أن تكون حالا من الضمير في لهم والتقدير يمشون أي يمرون في أسفارهم للتجارة على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم وفي مساكنهم متعلقان بيمشون .

)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسم إن المؤخر والهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على مقدر يقتضيه أسلوب الحديث أي أصموا فلا يسمعون ولا نافية ويسمعون فعل مضارع مرفوع .

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على مقدر أيضا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل وأن وما في حيزها سدت مسد مفعول يروا وان واسمها وجملة نسوق خبرها والماء مفعول به والى الأرض متعلقان بنسوق والجرز نعت للأرض .

(217/614)

(فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ) فنخرج عطف على نسوق وفاعل نخرج ضمير مستتر تقديره نحن وبه متعلقان بنخرج وزرعا مفعول به وجملة تأكل صفة لزرعا ومنه متعلقان بتأكل وأنعامهم فاعل تأكل وأنفسهم عطف على أنعامهم والهمزة للاستفهام الانكاري ، فلا يبصرون تقدم إعراب نظيره . (وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) كلام مستأنف مسوق للرد على استهزائهم فقد كانوا يسخرون من المسلمين الذين يقولون إن اللّه سيفتح لنا على المشركين ويفصل بيننا وبينهم فيقولون متى هذا الفتح ؟ ومتى اسم استفهام في محل نصب على الظرفية الزمانية وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر والفتح بدل من اسم الاشارة وإن شرطية وكنتم كان واسمها في محل جزم فعل الشرط وصادقين خبر كان وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله . (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) يوم الفتح مبتدأ وجملة لا ينفع خبره والذين كفروا مفعول ينفع المقدم وإيمانهم فاعل ينفع المؤخر والواو عاطفة وهم مبتدأ وجملة ينظرون خبر وينظرون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل أي يمهلون . (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ) الفاء الفصيحة وأعرض فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعنهم متعلقان بأعرض وانتظر فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت ومفعوله محذوف تقديره النصر عليهم وإن واسمها ومنتظرون خبرها ومفعول منتظرون الذي هو اسم فاعل محذوف أيضا تقديره

النصر عليكم .

البلاغة :

(218/614)

في قوله تعالى " أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم " الآية ، فن المناسبة . والمناسبة قسمان : إما مناسبة في المعاني وإما مناسبة في الألفاظ أما الأولى فهي أن يبتدىء المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ وقد مرت أمثلته في الأنعام والقصص وهذه الآية ، فقد قال تعالى في صدرها أولم يهد لهم وهي موعظة سمعية لكونهم لم ينظروا إلى القرون الهالكة وإنما سمعوا بها فناسب أن يأتي بعدها بقوله " أفلا يسمعون " أما بعد الموعظة المرئية وهي قوله " أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز " فقد ناسب أن يقول " أفلا يبصرون " لأن الزرع مرئي لا مسموع ليناسب آخر كل كلام أوله ، وأما المناسبة اللفظية فهي الإتيان بألفاظ متزنات مقفاة وغير مقفاة ، فالمقفاة مع الاتزان مناسبة تامة وغير المقفاة مع الاتزان مناسبة ناقصة وشيوع هذه في الكلام الفصيح أكثر لعدم التكلف ولأن التقفية غير لازمة فيها فإن وقعت مندرجة في الكلام من غير تكلف ساغت وكانت آية في الجمال وستأتي أمثلتها في القرآن الكريم وسبق مثالها في قوله في يونس : " لهم شراب من حميم

وعذاب أليم " ومن شواهد التامة في الحديث قوله صلى اللّه عليه وسلم فيما روي عنه من الدعاء مما كان يرقي به الحسن والحسين " أعيذ كما بكلمات اللّه التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامّة " ولم يقل ملمة وهي القياس لمكان المناسبة ، ومما ورد من المناسبة اللفظية التامة قول ابن هانىء الأندلسي من أبيات :

وعوانس وقوانس وفوارس وكوانس وأوانس وعقائل

ومن المناسبة اللفظية غير التامة :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الحظ إلا أن تلك ذوابل

فقد ناسب بين مها وقنا مناسبة غير تامة وبين الوحش والحظ وأوانس وذوابل . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 7 صـ 570.592 ﴾

(219/614)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس عشر بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/615)

الجزء الخامس عشر بعد الستمائة

(سورة الأحزاب)

(4/615)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الأحزاب)

(5/615)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

فيه الأَحاديث الموضوعة الَّتى نذكرها للتنبيه عليها : من قرأَ سورة الأَحزاب وعلَّمها أَهلَه وما ملكت يمينه أُعطىَ الأَمان من عذاب القبر ، وحديث على : يا علىّ مَنْ قرأَ سورة الأَحزاب قال الله لملائكته : اشهدوا أَنَّ هذا قد أَعتقتُه من النَّار ، وكان يوم القيامة تحت ظلِّ جناح جَبْرائيل ، وله بكلِّ آية قرأَها مثلُ ثواب البارِّ بوالديه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 381 ﴾

(6/615)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الأحزاب

مقصودها الحث على الصدق في الإخلاص في التوجه إلى الخالق من غير مراعاة بوجه ما للخلائق ، لأنه عليم بما يصلحهم ، حكيم فيما يفعله فهو يعلي من يشاء وإن كان ضعيفا ، ويردي من يريد وإن كان قويا ، فلا يهتمن الماضي لأمره برجاء لأحد منهم في بره ولا خوف منه في عظيم شره وخفي مكره ، واسمها واضح في ذلك بتأمل القصة التي أشار إليها ودل عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 67 ﴾

(7/615)

فصل

قال الآلوسى :

سورة الأحزاب

33 - أخرج البيهقي في الدلائل وغيره عن إبن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : نزلت سورة الأحزاب بالمدينة وأخرج إبن مردويه عن إبن الزبير مثله وهي ثلاث وسبعون

آية قال الطبرسي بالإجماع وقال الداني هذا متفق عليه وأخرج عبد الرزاق في المصنف والطيالسي وسعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند والنسائي والحاكم وصححه والضياء في المختارة وآخرون عن زر بن حبيش قال : قال لي أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه كائن تقرأ سورة الأحزاب أو كائن تعدها قلت : ثلاثا وسبعين آية فقال : أقط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فأرجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم فرفع فيما رفع وأراد رضي الله تعالى عنه بذلك النسخ وأما كون الزيادة كانت في صحيفة عند عائشة فأكلها الداجن فمن وضع الملاحدة وكذبهم في أن ذلك ضاع بأكل الداجن من غير نسخ كذا في الكشاف وأخرج أبو عبيد في الفضائل وإبن الأنباري وإبن مردويه عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان رضي الله تعالى عنه المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن وهو ظاهر في الضياع من القرآن ومقتضى ما سمعت أنه موضوع والحق أن كل خبر ظاهره ضياع شيء من القرآن أما موضوع أو مؤول ووجه اتصالها بما قبلها على ما قال الجلال السيوطي تشابه مطلع هذه ومقطع تلك فإن تلك ختمت بأمر النبي بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين واتباع ما أوحى إليه والتوكل عليه عزوجل حيث قال سبحانه وتعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 21 صـ 142 ﴾

(8/615)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يا أيها النبى اتق الله)

السّور مدنية بالاتفاق .

آياتها ثلاث وسبعون .

كلماتها أَلف ومائتان وثمانون .

حروفها خمسة آلاف وسبعمائة وستّ وتسعون ، فواصل آياتها (لا) على اللام منها آية واحدة ﴿ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ .

سمّيت سورة الأَحزاب ، لاشتمالها على قصّة حَرْب الأَحزاب فى قوله ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾ .

(9/615)

معظم مقصود السّورة الذى اشتملت عليه : الأَمر بالتَّقوى ، وأَنه ليس فى صدرٍ واحد قلبان ، وأَنَّ المتَبَنَّى ليس بمنزلة الابن ، وأَنَّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم للمؤمنين بمكان الوالد ، وأَزواجه الطاهرات بمكان الأُمهات ، وأَخذ الميثاق على الأَنبياءِ ، والسؤال عن صدق الصّادقين ، وذكر حَرْبِ الأَحزاب ، والشّكاية من المنافقين ، وذمّ المعرضين ، ووفاء الرّجال بالعهد ، وردّ الكفَّار بغيظهم ، وتخيير أُمّهات المؤمنين ، ووعظهنَّ ، ونصحهنَّ ، وبيان شرف أَهل البيت الطَّاهرين ووعد المسلمين والمسلمات بالأُجور الوافرات ، وحديث تزويج زيد وزينب ورفع الحَرَج عن النّبى صلَّى الله عليه وسلَّم ، وختم الأَنبياءِ به عليه السّلام ، والأَمر بالذكر الكثير ، والصّلوات والتسليمات على المؤمنين ، والمخاطبات الشريفة لسيّدنا المصطفى – صلى الله عليه وسلَّم – ، وبيان النكاح ، والطَّلاق ، والعدّة ، وخصائص النبى صلَّى الله عليه وسلَّم فى باب النكاح ، وتخييره فى القَسْم بين الأَزواج والحجر عليه فى تبديلهنَّ ، ونهى الصحابة عن دخول حُجْرة النَّبىِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بغير إِذن منه ، وضَرْب الحجاب ، ونهى المؤمنين عن تزوّج أَزواجه بعده ، والموافقة مع الملائكة فى الصلاة على النبى صلَّى الله عليه وسلَّم ، وتهديد المؤذين للنَّبى وللمؤمنين ، وتعليم آداب النساءِ فى خروجهن من البيوت ، وتهديد المنافقين فى إِيقاع الأَراجيف ، وذلِّ الكفار فى النار ، والنَّهى عن إِيذاءِ الرّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – والأَمر بالقول

السّديد وبيان عَرْض الأَمانة (على السموات والأَرض) إلى آخر السّورة .

النَّاسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان م ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ ن آية السّيف م ﴿ لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ ﴾ ن ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 378.377 ﴾

(10/615)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الأحزاب

348 - مسألة :

قوله تعالى : (وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ) أفرد الذكور وجمع الإناث ؟ .

جوابه :

أن إفراد الذكور لإرادة الجنس ، وعلم من إضافة الجمع إلى المفرد أن المراد جنس الأعمام

والأخوال ، لا عم معين أو خال معين ، فكان الإفراد مع إرادة الجنس أخف لفظا وأفصح لما فيه من المقابلة بين الإفراد والجمع والذكور والإناث .

أما جمع الإناث لفظا فلتعذر الإتيان بمفرده لقيد الجنس ، إذ لو قيل : بنات عمك أو بنات عمتك ، وبنات خالتك أو بنات خالاتك لاحتمل إرادة بنت معينة أو عمة معينة أو خال معين أو خالة معينة ، والآية إنما سيقت لبيان المنة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والتوسعة عليه والإفراد يفوت به التصريح له بهذا المعنى المقصود . انتهى انتهى . ا هـ

﴿كشف المعاني صـ 300. 301﴾

(11/615)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات

ذهب بعض القرّاء إِلى أَنَّه ليس فى هذه السورة متشابه .

وأَورد بعضهم فيها كلمات ، وليس فيها كثير تشابه ؛ بل قد تلتبس على الحافظ القليل البضاعة .

فأَوردناها ؛ إِذ لم يخل من فائدة .

وذكرنا مع بعضها علامة يستعين بها المبتدىء فى تلاوته .

منها قوله : ﴿ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ وبعده ﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ ليس فيها تشابه ؛ لأَنَّ الأَوّل من لفظ السّؤال ، وصلته ﴿ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ وبعده ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ، والثَّانى من لفظ الجزاءِ ، وفاعله الله ، وصلتُه ﴿ بِصِدْقِهِمْ ﴾ بالباءِ ، وبعده ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .

ومنها قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ وبعده ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ فيقال للمبتدىءِ : إنَّ الذى يأْتى بعد العذاب الأَليم نعمة من الله على المؤمنين ، وما يأتى قبل قوله ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ شكراً على أَن أَنزلكم منزلة نبيّه فى صلاتِه وصلاة ملائكته عليه حيث يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ .

ومنها قوله : ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ ليس من المتشابه لأَنَّ الأَوّل فى التخيير والثنى فى الحجار .

ومنها قوله : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ [فى موضعين] وفى الفتح ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي

قَدْ خَلَتْ ﴾ التقدير فى الآيات : سنَّة الله الَّتى قد خلت فى الذين خلوا (فذكر فى كل سورة الطرف الذى هو أَعمّ ، واكتفى به عن الطرف الآخر ، والمراد بما فى أَول هذه السورة النكاح نزلت حين عيَّروا رسول الله بنكاح زينب) فأَنزل الله ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ أَى النكاحُ سنَّة فى النَّبيين على العموم .

وكانت لداود تسع وتسعون ، فضمّ إِليها الَّتى خطبها أُورِيَا ، ووَلَدت سليمان .

والمراد بما فى آخر هذه السّورة القتل ؛ نزلت فى المنافقين والشاكّين الَّذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفين فى المدينة ، على العموم .

وما فى سورة الفتح يريد به نُصرة الله لأَنبيائه .

والعمومُ فى النُّصرة أَبلغ منه فى النكاح والقتل .

ومثله فى حم ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ فإِنَّ المراد بها عدم الانتفاع بالإِيمان عند البأْس فلهذا قال : ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ .

ومنها قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

وهذا من باب الإِعراب ، وإِنما نصب لدخول كان على الجملة : فتفرّدت السّورة ، وحسن

دخول (كان) عليها ، مراعاة لفواصل الآى, والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 378.380 ﴾

(13/615)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الأحزاب

ذهب بعض القراء إلى أنه ليس في هذه السورة ما يذكر في المتشابه وبعضهم أورد فيها كلمات وليس في ذلك كثير تشابه بل قد يلتبس على الحافظ القليل البضاعة وعلى الصبي القليل التجارب فأوردتها إذ لم تخل من

فائدة وذكرت مع بعضها علامة يستعين بها المبتدئ في تلاوته

401 - منها قوله ليسأل الصادقين عن صدقهم 8 وبعده ليجزي الله الصادقين بصدقهم 24 ليس فيها تشابه لأن الأول من لفظ السؤال وصلته عن صدقهم وبعده وأعد للكافرين 8 والثاني من لفظ الجزاء وفاعله الله وصلته بصدقهم بالباء وبعده ويعذب المنافقين 24

402 - ومنها قوله يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم 9 وبعده اذكروا الله ذكرا كثيرا 41 فيقال للمبتدئ إن الذي يأتي بعد العذاب الأليم نعمة من الله على المؤمنين وما

يأتي قبل قوله هو الذي يصلى عليكم 43 اذكروا الله ذكرا كثيرا 41 شكرا على أن أنزلكم منزلة نبيه في صلاته وصلاة ملائكته عليه حيث يقول إن الله وملائكته يصلون على النبي 56

403 - ومنها قوله يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن 28 يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك 59 ليس من المتشابه لأن الأول في التخيير والثاني في الحجاب

404 - ومنها قوله سنة الله في الذين خلوا من قبل 38 62 في موضعين وفي الفتح سنة الله التي قد خلت 23 التقدير في الآيات سنة الله التي قد خلت في الذين خلوا فذكر في كل سورة الطرف الذي هو أعم واكتفى به عن الطرف الآخر والمراد بما في أول هذه السورة النكاح

نزلت حين عيروا رسول الله صلى الله عليه و سلم بنكاحه زينب فأنزل الله سنة الله في الذين خلوا من قبل أي النكاح سنة في النبيين على العموم وكانت لداود تسع وتسعون فضم إليهم المرأة التي خطبها أوريا وولدت سليمان والمراد بما في آخره هذه السورة القتل نزلت في المنافقين والشاكين الذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة على العموم

(14/615)

وما في سورة الفتح يريد به نصرة الله لأنبيائه والعموم في النصرة أبلغ منه في النكاح والقتل ومثله في حم غافر سنة الله التي قد خلت في عباده 85 فإن المراد بها عدم الانتفاع بالإيمان عند البأس فلهذا قال قد خلت

405 - ومنها قوله إن الله كان لطيفا خبيرا 34 وكان الله على كل شيء رقيبا 52 وكان الله قويا عزيزا 25 وكان الله عليما حليما 51 وهذا من باب الإعراب وإنما نصب لدخول كان على الجملة فتفردت السورة به وحسن دخول كان عليها مراعاة لفواصل الآي. والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 171.173﴾

(15/615)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب

هكذا سميت ﴿سورة الأحزاب﴾ في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وكذلك رويت تسميتها عن ابن عباس وأبي بن كعب بأسانيد مقبولة.

ولا يعرف لها اسم غيره .

ووجه التسمية أن فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش ومن تحزب معهم أرادوا غزو المسلمين في المدينة فرد الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال .

وهي مدنية بالاتفاق ، وسيأتي عن ابن عباس أن آية ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ﴾ [الأحزاب : 36] الخ نزلت في تزويج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة في مكة .

وهي التسعون في عداد السور النازلة من القرآن ، نزلت بعد سورة الأنفال ، وقبل سورة المائدة .

وكان نزولها على قول ابن إسحاق أواخر سنة خمس من الهجرة وهو الذي جرى عليه ابن رشد في " البيان والتحصيل " .

وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك : أنها كانت سنة أربع وهي سنة غزوة الأحزاب وتسمى غزوة الخندق حين أحاط جماعات من قريش وأحابيشهم 1 وكنانة وغطفان وكانوا عشرة آلاف وكان المسلمون ثلاثة آلاف وعقبتها غزوة قريظة والنضير .

وعدد آيها ثلاث وسبعون باتفاق أصحاب العدد .

ومما يجب التنبيه عليه مما يتعلق بهذه السورة ما رواه الحاكم والنسائي وغيرهما عن زر بن حبيش قال : قال لي أبي بن كعب : كأين تعدون سورة الأحزاب؟ قال : قلت : ثلاثا وسبعين آية .

قال : أقط – بهمزة استفهام دخلت على قط ، أي : حسب – فوالذي يحلف به أبي : إن كانت لتعدل سورة البقرة .

ولقد قرأنا فيها : " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم " فرفع فيما رفع ، أي : نسخ فيما نسخ من تلاوة

—

1 أحابيش قريش : هم بنو المصطلق وبنو الهون اجتمعوا عند جبل بمكة يقال له : حبشي – بضم الحاء وسكون الباء – فحالفوا قريشا أنهم يد على غيرهم .

(16/615)

آياتها .

وما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام بسنده وابن الأنباري بسنده عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبيء صلى الله عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن .

وكلام الخبرين ضعيف السند .

ومحمل الخبر الأول عند أهل العلم أن أبيا حدث عن سورة الأحزاب قبل أن ينسخ منها ما

نسخ .

فمنه ما نسخت تلاوته وحكمه ومنه ما نسخت تلاوته خاصة مثل آية الرجم .

وأنا أقول : إن صح عن أبي ما نسب إليه فما هو إلا أن شيئا كثيرا من القرآن كان أبي يلحقه بسورة الأحزاب وهو من سور أخرى من القرآن مثل كثير من سورة النساء الشبيه ببعض ما في سورة الأحزاب أغراضا ولهجة مما فيه ذكر المنافقين واليهود ، فإن أصحاب رسول الله لم يكونوا على طريقة واحدة في ترتيب آي القرآن ولا في عدة سوره وتقسيم سوره كما تقدم في المقدمة الثامنة ولا في ضبط المنسوخ لفظه .

كيف وقد أجمع حفاظ القرآن والخلفاء الأربعة وكافة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الذين شذوا على أن القرآن هو الذي في المصحف وأجمعوا في عدد آيات القرآن على عدد قريب بعضه من بعض كما تقدم في المقدمة الثامنة .

وأما الخبر عن عائشة فهو أضعف سندا وأقرب تأويلا فإن صح عنها ، ولا إخاله ، فقد تحدثت عن شيء نسخ من القرآن كان في سورة الأحزاب .

وليس بعد إجماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصحف عثمان مطلب لطالب .

ولم يكن تعويلهم في مقدار القرآن وسوره إلا على حفظ الحفاظ .

وقد افتقد زيد ابن ثابت آية من سورة الأحزاب لم يجدها فيما دفع إليه من صحف القرآن

فلم يزل يسأل عنها حتى وجدها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري وقد كان يسمع رسول الله يقرؤها ، فلما وجدها مع خزيمة لم يشك في لفظها الذي كان عرفه .

وهي آية ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : 23] .

(17/615)

وافتقد الآيتين من آخر سورة براءة فوجدهما عند أبي خزيمة بن أوس –المشتهر بكنيته– .

وبعد فخبر أبي بن كعب خبر غريب لم يؤثر عن أحد من أصحاب رسول الله فنوقن بأنه دخله وهم من بعض رواته .

وهو أيضا خبر آحاد لا ينتقض به إجماع الأمة على المقدار الموجود من هذه السورة متواترا .

وفي " الكشاف " : وأما ما يحكى أن تلك الزيادة التي رويت عن عائشة كانت مكتوبة في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن ، أي الشاة ، فمن تأليفات الملاحدة والروافض ا هـ .

ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف فإنه لو صدق هذا لكانت هذه الصحيفة قد هلكت

في زمن النبيء صلى الله عليه وسلم أو بعده والصحابة متوافرون وحفاظ القرآن كثيرون فلو تلفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ .

وكون القرآن قد تلاشى منه كثير هو أصل من أصول الروافض ليطعنوا به في الخلفاء الثلاثة ، والرافضة يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر فهو الذي يأتي بالقرآن وقر بعير .

وقد استوعب قولهم واستوفى إبطاله أبو بكر بن العربي في كتاب " العواصم من القواصم "

.

أغراض هذه السورة

لكثير من آيات هذه السورة أسباب لنزولها ، وأكثرها نزل للرد على المنافقين أقوالا قصدوا بها أذى النبيء صلى الله عليه وسلم .

وأهم أغراضها : الرد عليهم قولهم لما تزوج النبيء صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا : تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فأنزل الله تعالى إبطال التبني .

وأن الحق في أحكام الله لأنه الخبير بالأعمال وهو الذي يقول الحق .

وأن ولاية النبيء صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أقوى ولاية ، ولأزواجه حرمة الأمهات لهم ، وتلك ولاية من جعل الله فهي أقوى وأشد من ولاية الأرحام .

وتحريض المؤمنين على التمسك بما شرع الله لهم لأنه أخذ العهد بذلك على جميع النبيءين .

والاعتبار بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين .

والثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدين .

ونعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب .

وانتقل من ذلك إلى أحكام في معاشرة أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم وذكر فضلهن وفضل آل النبيء صلى الله عليه وسلم وفضائل أهل الخير من المسلمين والمسلمات .

وتشريع في عدة المطلقة قبل البناء .

وما يسوغ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج .

وحكم حجاب أمهات المؤمنين ولبسة المؤمنات إذا خرجن .

وتهديد المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة .

(19/615)

وختمت السورة بالتنويه بالشرائع الإلهية فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [الأحزاب : 2] ، وتخلل ذلك مستطردات من الأمر بالائتساء بالنبيء صلى الله عليه وسلم .

وتحريض المؤمنين على ذكر الله وتنزيهه شكرا له على هديه .

وتعظيم قدر النبيء صلى الله عليه وسلم عند الله وفي الملأ الأعلى ، والأمر بالصلاة عليه والسلام .

ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين .

والتحذير من التورط في ذلك كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 21 صـ 175. 177 ﴾

(20/615)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الأحزاب

الوحدة الأولى: 1 – 8 الموضوع: توجيهات للنبي وإبطال الظهار وميثاق الأنبياء التعريف بسورة الأحزاب

هذه السورة تتناول قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة , في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى , إلى ما قبل صلح الحديبية , وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويرا واقعيا مباشرا . وهي مزدحمة بالأحداث التي تشير إليها خلال هذه الفترة , والتنظيمات التي أنشأتها أو أقرتها في المجتمع الإسلامي الناشىء .

(21/615)

والتوجيهات والتعقيبات على هذه الأحداث والتنظيمات قليلة نسبيا ; ولا تشغل من جسم السورة إلا حيزا محدودا , يربط الأحداث والتنظيمات بالأصل الكبير . أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره . ذلك كافتتاح السورة: (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين , إن الله كان عليما حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا , وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . . .) . . وكالتعقيب على بعض التنظيمات الاجتماعية في أول السورة: (كان ذلك في الكتاب مسطورا . وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم , وأخذنا منهم ميثاقا غليظا , ليسأل الصادقين عن صدقهم , وأعد للكافرين عذابا أليما) . . والتعقيب على موقف المرجفين "يوم الأحزاب" التي سميت

السورة باسمها . (قل:لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل , وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل:من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ? ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) . . ومثل قوله في صدد أحد التنظيمات الاجتماعية الجديدة , المخالفة لمألوف النفوس في الجاهلية: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) . . وأخيرا ذلك الإيقاع الهائل العميق:(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها , وأشفقن منها , وحملها الإنسان , إنه كان ظلوما جهولا) . .

ولهذه الفترة التي تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة , فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة وفي حياة الدولة ; ولم يتم استقرارها بعد ولا سيطرتها الكاملة . كالذي تم بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا , واستتباب الأمر للدولة الإسلامية , وللنظام الإسلامي .

(22/615)

والسورة تتولى جانبا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة , وإبراز تلك الملامح وتثبيتها في حياة الأسرة والجماعة ; وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ; كما تتولى تعديل الأوضاع

والتقاليد أو إبطالها ; وإخضاعها في هذا كله للتصور الإسلامي الجديد .

وفي ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة الأحزاب , وغزوة بني قريظة , ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما , ودسائسهم في وسط الجماعة المسلمة , وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف . كما تعرض بعدها دسائسهم وكيدهم للمسلمين في أخلاقهم وآدابهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الاتصال في سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث , هي علاقة هذه وتلك بمواقف الكافرين والمنافقين واليهود ; وسعي هذه الفئات لإيقاع الاضطراب في صفوف الجماعة المسلمة . سواء عن طريق الهجوم الحربي والإرجاف في الصفوف والدعوة إلى الهزيمة ; أو عن طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية . . ثم ما نشأ من الغزوات والغنائم من آثار في حياة الجماعة المسلمة تقتضي تعديل بعض الأوضاع الاجتماعية والتصورات الشعورية ; وإقامتها على أساس ثابت يناسب تلك الآثار التي خلفتها الغزوات والغنائم في واقع الجماعة المسلمة .

ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة , وتماسك سياقها , وتساوق موضوعاتها المنوعة . وهذا وذلك إلى جانب وحدة الزمن التي تربط بين الأحداث والتنظيمات التي تتناولها السورة .

تبدأ السورة ذلك البدء بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى تقوى الله وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين , واتباع ما يوحي إليه ربه , والتوكل عليه وحده . وهو البدء الذي يربط سائر ما ورد في السورة من تنظيمات وأحداث بالأصل الكبير الذي تقوم عليه شرائع هذا الدين وتوجيهاته . ونظمه وأوضاعه , وآدابه وأخلاقه . . أصل استشعار القلب لجلال الله , والاستسلام المطلق لإرادته ; واتباع المنهج الذي اختاره , والتوكل عليه وحده والاطمئنان إلى حمايته ونصرته .

وبعد ذلك يلقي بكلمة الحق والفصل في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية . مبتدئا بإيقاع حاسم يقرر حقيقة واقعة: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) . . يرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد , ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد , وإلا نافق , واضطربت خطاه . وما دام لا يملك إلا قلبا واحدا , فلا بد أن يتجه إلى إله واحد وأن يتبع نهجا واحدا ; وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات .

(24/615)

ومن ثم يأخذ في إبطال عادة الظهار – وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه فتحرم عليه حرمة أمه: (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) . ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشئ حقيقة وراءه , بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أما بهذا الكلام . . ويثني بإبطال عادة التبني وآثاره: (وما جعل أدعياءكم أبناءكم)فلا يعودون بعد اليوم يتوارثون , ولا تترتب على هذا التبني آثاره الأخرى [التي سنفصل الحديث عنها فيما بعد] . ويستبقي بعد ذلك أو ينشىء الولاية العامة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) على المؤمنين جميعا ; ويقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم ; كما ينشيء صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) وجميع المؤمنين: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) . . ثم يبطل آثار المؤاخاة التي تمت في أول الهجرة ; ويرد الأمر إلى القرابة الطبيعية في الإرث والدية وما إليها : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين . وبذلك يعيد تنظيم الجماعة الإسلامية على الأسس الطبيعية ويبطل ما عداها من التنظيمات الوقتية .

ويعقب على هذا التنظيم الجديد , الذي يستمد من منهج الإسلام وحكم الله ; بالإشارة إلى أن ذلك مسطور في كتاب الله القديم , وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين , وعلى أولي العزم منهم بصفة خاصة . على طريقة القرآن في التعقيب على النظم والتشريعات ,

والمبادئ , والتوجيهات , لتقر في الضمائر والأخلاد .

وهذا هو إجمال الشوط الأول في السورة .

(25/615)

ويتناول الشوط الثاني بيان نعمة الله على المؤمنين , إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين . ثم يأخذ في تصوير وقعتي الأحزاب وبني قريظة تصويرا حيا , في مشاهد متعاقبة , ترسم المشاعر الباطنة , والحركات الظاهرة , والحوار بين الجماعات والأفراد . وفي خلال رسم المعركة وتطوراتها تجيء التوجيهات في موضعها المناسب ; وتجيء التعقيبات على الأحداث مقررة للمنهج القرآني في إنشاء القيم الثابتة التي يقررها للحياة , من خلال ما وقع فعلا , وما جاش في الأخلاد والضمائر .

وطريقة القرآن الدائمة في مثل هذه الوقائع التي يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس , وتقرير القيم , ووضع الموازين وإنشاء التصورات التي يريد لها أن تسود . . طريقة القرآن في مثل هذه الوقائع أن يرسم الحركة التي وقعت , ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة , ويسلط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها . ثم يقول للمؤمنين حكمه على ما وقع , ونقده لما فيه من خطأ وانحراف , وثناءه على ما فيه من صواب واستقامة , وتوجيهه

لتدارك الخطأ والانحراف , وتنمية الصواب والاستقامة . وربط هذا كله بقدر الله وإرادته وعمله ونهجه المستقيم , وبفطرة النفس , ونواميس الوجود .

وهكذا نجد وصف المعركة يبدأ بقوله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها , وكان الله بما تعملون بصيرا) . .

ويتوسطها قوله . (قل:لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل:من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) . . وبقوله:(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) . . ويختمها بقوله:(ليجزي الله الصادقين بصدقهم , ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما) . .

(26/615)

وهذا إلى جانب عرض تصورات المؤمنين الصادقين للموقف , وتصورات المنافقين والذين في قلوبهم مرض عرضا يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة من خلال تلك

التصورات:(وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض:ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) .

. (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا:هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله , وما

زادهم إلا إيمانا وتسليما) . . ثم تجيء العاقبة بالقول الفصل والخبر اليقين: (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا , وكفى الله المؤمنين القتال , وكان الله قويا عزيزا) . .

بعد ذلك يجيء قرار تخيير أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) اللواتي طالبنه بالتوسعة في النفقة عليهن بعدما وسع الله عليه وعلى المسلمين من فيء بني قريظة العظيم وما قبله من الغنائم . تخييرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة . وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة , ورضين هذا المقام الكريم عند الله ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) , وآثرنه على متاع الحياة . ومن ثم جاءهن البيان عن جزائهن المضاعف في الأجر إن اتقين وفي العذاب إن ارتكبن فاحشة مبينة . وعلل هذه المضاعفة بمقامهن الكريم وصلتهن برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونزول القرآن في بيوتهن وتلاوته , والحكمة التي يسمعنها من النبي (صلى الله عليه وسلم) واستطرد في بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات .

وكان هذا هو الشوط الثالث .

(27/615)

فأما الشوط الرابع فتناول إشارة غير صريحة إلى موضوع تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من زيد بن حارثة مولاه . وما نزل في شأنه أولا من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله , ليس لهم منه شيء , وليس لهم في أنفسهم خيرة . إنما هي إرادة الله وقدره الذي يسير كل شيء , ويستسلم له المؤمن الاستسلام الكامل الصريح: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) . .

ثم يعقب حادث الزواج حادث الطلاق ; وما وراءه من إبطال آثار التبني , الذي سبق الكلام عليه في أولالسورة . إبطاله بسابقة عملية ; يختار لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بشخصه , لشدة عمق هذه العادة في البيئة العربية , وصعوبة الخروج عليها . فيقع الابتلاء على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها في واقع المجتمع , بعد تقريرها في أعماق الضمير: (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا) . .

وبهذه المناسبة يوضح حقيقة العلاقة بين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين كافة: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) . .

ويختم هذا الشوط بتوجيهات للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن معه من المؤمنين .

. (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) . .

(28/615)

ويبدأ الشوط الخامس ببيان حكم المطلقات قبل الدخول . ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي (صلى الله عليه وسلم) فيبين من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرمن عليه . ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي وزوجاته , في حياته وبعد وفاته وتقرير احتجابهن إلا على آبائهن أو أبنائهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن أو نسائهن , أو ما ملكت أيمانهن . وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أزواجه وبيوته وشعوره ; ويلعنهم في الدنيا والآخرة . مما يشي بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئا كثيرا .

(29/615)

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبي وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) . . وبتهديد المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة بإغراء النبي (صلى الله عليه وسلم) بهم وإخراجهم من المدينة كما خرج من قبل بنو قينقاع وبنو النضير, أو القضاء عليهم كما وقع لبني قريظة أخيرا . وكل هذا يشير إلى شدة إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامي في المدينة بوسائل شريرة خبيثة .

والشوط السادس والأخير في السورة يتضمن سؤال الناس عن الساعة, والإجابة على هذا التساؤل بأن علم الساعة عند الله, والتلويح بأنها قد تكون قريبا . ويتبع هذا مشهد من مشاهد القيامة: (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) . . ونقمتهم على سادتهم وكبرائهم الذين أطاعوهم فأضلوهم: (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) . . ثم تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة والتأثير: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها, وحملها الإنسان, إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات, ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفورا رحيما) . .

وهو إيقاع يكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية, وعلى عاتق الجماعة المسلمة بصفة خاصة; وهي التي تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى . أمانة

العقيدة والاستقامة عليها . والدعوة والصبر على تكاليفها , والشريعة والقيام على تنفيذها في أنفسهم وفي الأرض من حولهم . مما يتمشى مع موضوع السورة , وجوها ; وطبيعة المنهج الإلهي الذي تتولى السورة تنظيم المجتمع الإسلامي على أساسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2817 . 2821 ﴾

(30/615)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الأحزاب

مدنية وآياتها ثلاث وسبعون آية

بين يدي السورة

* سورة الأحزاب من السور المدنية ، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية ، شأن سائر السور المدنية ، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة ، وبالأخص (أمر الأسرة) فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء ، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة ، مثل (التبني ، والظهار ، واعتقاد وجود قلبين لإنسان) وطفرته من رواسب المجتمع الجاهلى ، ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة ، التي كانت متفشية في

ذلك الزمان .

* ويمكن أن نلخص المواضيع الكبرى لهذه السورة الكريمة في نقاط ثلاث : أولا : التوجيهات والآداب الإسلامية ، التي شرعها الخالق جل وعلا لعباده المؤمنين ، لسعادتهم وراحتهم . ثانيا : الأحكام الإلهية التي تنظم حياة الأسرة والمجتمع تنظيما دقيقا . ثالثا : الحديث عن غزوتي (الأحزاب ، وبني قريظة) بالتفصيل وما فيهما من العبر .

* أما الأولى : فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة ، وآداب الستر والحجاب ، وعدم التبرج ، وآداب معاملة الرسول (صلى الله عليه وسلم) واحترامه إلى أخر ما هنالك من آداب اجتماعية .

* وأما الثانية : فقد جاء الحديث عنها فى بعض الأحكام التشريعية مثل (حكم الظهار ، والتبني ، والإرث ، وزواج مطلقة الابن من التبني ، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه ، وحكم الصلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحكم الحجاب الشرعي ، والأحكام المتعلقة بأمور الدعوة إلى الوليمة) إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية .

(31/615)

* وأما الثالثة : فقد تحدلت السورة بالتفصيل عن (غزوة الخندق) التي تسمى " غزوة الأحزاب " وصورتها تصويرا دقيقا ، بتضافر قوى البغي والشر على المؤمنين ، وكشفت عن خفايا المنافقين ، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتمبيط ، وأطالت الحديث عنهم في بدء السورة وفي ختمها ، حتى لم تبق لهم سترا ، ولم تخف لهم مكرا ، وذكرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم ، في رد كيد أعدائهم ، بإرسال الملائكة والريح ، كما تحدثت عن غزوة (بني قريظة) ونقض اليهود عهدهم مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وختمت بذكر الأمانة العظمى التي حملها الإنسان .

التسمية :

سميت سورة الأحزاب لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة ، فاجتمع كفار مكة مع " غطفان ، وبني قريظة ، وأوباشى العرب على حرب المسلمين ، ولكن الله ردهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 509.510 ﴾

(32/615)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الأحزاب

قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة اللّه على نور من اللّه ترجو ثواب اللّه ، وأن تترك معصية اللّه على نور من اللّه مخافة عذاب اللّه ، وتوكل على اللّه : أي فوّض أمورك إليه ، الوكيل : الحافظ للأمور .

جعل : أي خلق ، ويقال : ظاهر الرجل من زوجته إذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمي ، يريدون أنت محرمة علىّ كما تحرم الأم ، وكانوا فى الجاهلية يجرون على المظاهر منها حكم الأم ، والأدعياء : واحدهم دعىّ ، وهو الذي تدّعى بنوته ، وقد كانت تجرى عليه أحكام الابن فى الجاهلية وصدر الإسلام ، السبيل : أي طريق الحق ، أقسط : أي أعدل ، ومواليكم : أي أولياؤكم فيه .

(33/615)

المراد بالجنود هنا : الأحزاب ، وهم قريش يقودهم أبو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطّفيل ، وبنو سليم يقودهم

أبو الأعور السّلمى ، وبنو النّضير من اليهود ، ورؤساؤهم حيىّ ابن أخطب ، وأبناء أبى الحقيق ، وبنو قريظة من اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم وبين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عهد فنبذه كعب بسعى حيىّ ، وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك ، والجنود التي لم تروها : هى الملائكة من فوقكم : أي من أعلى الوادي من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، ومن أسفل منكم : أي من أسفل الوادي من قبل المغرب ، وكانوا قريشا ومن شايعهم ، وبنى كنانة وأهل تهامة ، زاغت الأبصار : أي انحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، وبلغت القلوب الحناجر : يراد به فزعت فزعا شديدا ، ابتلى المؤمنون : أي اختبروا وامتحنوا ، وزلزلوا زلزالا شديدا : أي اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدوّ ، والذين فى قلوبهم مرض : قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشّبه عليهم لقرب عهدهم بالإسلام ، إلا غرورا : أي إلا وعد غرور لا حقيقة له يثرب : من أسماء المدينة ، لا مقام لكم : أي لا ينبغى لكم الإنامة ها هنا ، عورة : أي ذات عورة لأنها خالية من الرجال فيخاف عليها سرق السّرّاق ، والأقطار : واحدها قطر وهو الناحية والجانب ، والفتنة : الردة ومقاتلة المؤمنين ، آتوها : أي أعطوها ، وما تلبثوا بها : أي وما أقاموا بالمدينة ، يعصمكم : أي يمنعكم ، المعوّقين : أي المثبطين عن القتال مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، هلم إلينا : أي أقبلوا إلينا ، والبأس : الشدة ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، أشحة : واحدهم شحيح أي بخيل بالنّصرة والمنفعة ، تدور أعينهم : أي

تدير أعينهم أحداقهم من شدة الخوف ، سلقوكم : أي آذوكم بالكلام ، بألسنة حداد : أي ألسنة دربة سلطة تفعل فعل الحديد ، أشحة

(34/615)

على الخير : أي بخلاء حريصين على مال الغنائم ، أحبط اللّه أعمالهم : أي أبطلها لإضمارهم الكفر ، لو أنهم بادون فى الأعراب : أي خارجون إلى العدو مقيمون بين أهله ، أسوة : أي قدوة ، والمراد به المقتدى به ، قضى نحبه :

أي فرغ من نذره ووفى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد كحمزة ، ومصعب بن عمير ، والغيظ : أشد الغضب ، وكفى اللّه المؤمنين القتال : أي وقاهم شره ، عزيزا : أي غالبا مستوليا على كل شىء ، ظاهروهم : أي عاونوهم ، من أهل الكتاب : أي من بنى قريظة ، من صياصيهم : أي من حصونهم واحدها صيصية وهى كل ما يمتنع به قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يبتدرن الصياصيا

وقذف : أي ألقى ، والرعب : الخوف الشديد .

يقنت : أي يخشع ويخضع ، وأعتدنا : هيأنا وأعددنا ، كريما : أي سالما من الآفات

والعيوب .

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها ، فتعالين : أي أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين ، أمتعكن : أي أعطكن المتعة ، وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة – ملاءة – بحسب السعة والإقتار ، وأسرحكن : أي أطلقكن ، سراحا جميلا : أي طلاقا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة ، بفاحشة : أي فعلة قبيحة كنشوز وسوء خلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على اللّه ورسوله ، مبينة : أي ظاهرة القبح من قولهم : بيّن كذا بمعنى ظهر وتبين ، ضعفين : أي ضعفى عذاب غيرهن أي مثليه ، يسيرا : أي هيّنا لا يمنعه عنه كونهن نساء النبي ، بل هذا سبب له .

أصل أحد وحد بمعنى الواحد وهو فى النفي عام للمذكر والمؤنث ، والواحد والكثير : أي لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النساء ، فإذا استقرئت أمّة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والمسابقة ، والاتقاء بمعنى الاستقبال ، وهو بهذا المعنى معروف فى اللغة قال النابغة :

سقط النّصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتّقتنا باليد

(35/615)

أي استقبلتنا باليد قاله أبو حيان فى البحر ، ومنه قوله تعالى : " أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ " : فلا تخضعن بالقول : أي فلا تجبن بقول خاضع ليّن ، أي إذا استقبلتن أحدا فلا تلنّ الكلام ولا ترققنه ، مرض : أي ريبة وفجور ، قولا معروفا : أي حسنا بعيدا من الريبة غير مطمع لأحد ، قرن : من قرّ يقرّ من باب علم وأصله اقررن دخله الحذف ، والتبرج : إبداء المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، والجاهلية الأولى :

هى الجاهلية القديمة جاهلية الكفر قبل الإسلام ، وهناك جاهلية أخرى هى جاهلية الفسوق فى الإسلام ، والرجس : فى الأصل الشيء القذر والمراد به هنا الإثم المدنّس للعرض ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن : أي وعظن الناس بما يتلى فى بيوتكنّ ، وآيات اللّه : هى القرآن ، والحكمة : هى السنة وحديث الرسول .

الإسلام : الانقياد والخضوع لأمر اللّه ، والإيمان : التصديق بما جاء عن اللّه من أمر ونهى ، والقنوت : هو الطاعة فى سكون ، والصبر : تحمل المشاق على المكاره والعبادات والبعد عن المعاصي ، والخشوع : السكون والطمأنينة ، أعد اللّه لهم مغفرة :

أي هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم ، وأجرا عظيما : أي نعيما عند ربهم يوم القيامة .

تقول ما كان لفلان أن يفعل كذا : أي لا ينبغى له ، والخيرة : الاختيار ، مبينا :

أي ظاهر الانحراف عن سنن الصواب ، أنعم اللّه عليه : أي بالإسلام ، وأنعمت عليه :

أي بالعتق ونيل الحرية ، واتق اللّه : أي فى أمرها ولا تطلقها ضرارا ، وتخشى الناس :

أي تخاف من اعتراضهم وقولهم إن محمدا تزوج امرأة ابنه ، والوطر : الحاجة والمراد أنه لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ، زوجناكها : أي جعلناها زوجة لك ، والحرج : المشقة ، فرض له : أي قدّر من قولهم فرض للجند كذا أي قدر لهم ، سنة اللّه : أي سن اللّه ذلك سنة ، خلوا : أي مضوا ، قدرا مقدورا : أي مقضيا وكائنا لا بد منه

(36/615)

النكاح هنا : العقد ، والمس معروف والمراد به قربان المرأة ، ومن أدب القرآن الكريم التعبير عنه بالملامسة والمماسة ، والقربان والتغشى والإتيان ، والعدة : الشيء المعدود ، وعدّة المرأة : الأيام التي بانقضائها يحل بها التزوج ، فمتعوهن : أي أعطوهن المتعة ، وهى قميص وخمار (ما تغطى به المرأة رأسها) وملحفة (ما تلتحف به من قرنها إلى قدمها – ملاية)

سرحوهن : أي أخرجوهن من منازلكم ، سراحا جميلا : أي إخراجا مشتملا على ليّن الكلام خاليا من الأذى .

الأجور هنا : المهور ، وما ملكت يمينك : أي ما أخذته من المغانم ، خالصة لك :

أي هى خاصة بك ، حرج : أي ضيق ومشقة

ترجى : أي تؤخر من الإرجاء وهو التأخير ، وقرىء ، ترجىء وتؤوى : أي تضم وتضاجع

، ابتغيت : أي طلبت ، عزلت : أي تجنبت ، أدنى : أي أقرب ، تقرّ .

أي تسرّ

إناه : أي نضجه : يقال أنى الطعام يأنى أنى أي أدرك وحان نضجه ، وفيه لغات :

إنى بكسر الهمزة وأنى بفتحها مقصورا وممدودا قال الحطيئة :

وأخّرت العشاء إلى سهيل أو الشّعرى فطال بي الأناء

فانتشروا : أي فتفرقوا ولا تلبثوا ، مستأنسين لحديث ، أي مستمعين له ، متاعا :

أي شيئا تتمتعون به من ماعون وغيره ، أطهر لقلوبكم : أي أكثر تطهرا من الخواطر

الشيطانية التي تخطر للرجال فى أمر النساء وللنساء فى شأن الرجال .

بغير ما اكتسبوا : أي بغير جناية يستحقون بها الأذى ، والبهتان : الكذب الذي يبهت

الشخص لفظاعته ، وإثما مبينا : أي ذنبا واضحا بينا

(37/615)

الجلابيب : واحدها جلباب وهى الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار ، يدنين

: أي يرخين ويسدلن يقال للمرأة إذا زل الثوب عن وجهها أدنى ثوبك على وجهك ، أدنى :

أي أقرب ، أن يعرفن : أي يميزن عن الإساءة ، مرض : أي ضعف إيمان بانتهاكهم حرمات

الدين ، والمرجفون : هم اليهود الذين كانوا يلفقون أخبار السوء وينشرونها عن سرايا المسلمين وجندهم ، وهو من الإرجاف وهو الزلزلة وصفت بها الأخبار الكاذبة لكونها مزلزلة غير ثابتة ، لنغرينك بهم : أي لنسلطنك عليهم ولنحرشنّك بهم ، ملعونين : أي مبعدين من رحمة اللّه ، ثقفوا : أي وجدوا ، خلوا :

أي مضوا .

الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أي وأىّ شىء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا :

أي نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أي ملوكنا ، وكبراءنا : أي علماءنا ، ضعفين من العذاب : أي مثلى عذابنا لأنهم ضلوا وأضلوا .

الوجيه : هو ذو الجاه والمنزلة ، ومن يكون له من خصال الخير ما به يعرف ولا ينكر .

القول السديد : القول الصدق الذي يراد به الوصول إلى الحق ، من قولهم : سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرمىّ ولم يعدل به عن سمته .

العرض هنا : النظر إلى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهى في شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكاليف الدينية ، وسميت أمانة من قبل أنها حقوق أوجبها اللّه على المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشىء منها ،

فأبيّن : أي كنّ غير مستعدات لها ، وحملها الإنسان : أي كان مستعدا لها ، إنه كان ظلوما :

أي كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أي كثير الجهل لعواقب الأمور ، لما غلب عليه من القوة الشهوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 21 صـ 123 : حـ 22 صـ 46 ﴾ . باختصار .

(38/615)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب

وهى مدنية قال ابن عباس وهي مدنية 1 - من ذلك قوله جل وعز يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين آية 1 معناه اثبت على تقوى الله كما قال سبحانه يا أيها الذين آمنوا آمنوا 2 - ثم قال جل وعز إن الله كان عليما حكيما آية 1 أي عليما بما يكون قبل أن يكون حكيما فيما يخلقه قبل أن يخلقه

3 - وقوله جل وعز ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه آية 4 قال أبو جعفر في معنى هذا ونزوله ثلاث أقوال فمن ذلك ما حدثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدثنا سلمة قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال قال قتادة كان رجل لا يسمع شيئًا إلا وعاه فقال الناس ما

يعي هذا إلا أن له قلبين فكان يسمى ذا القلبين فقال الله عز وجل ما جعل الله لرجل من قلبين قال معمر وقال الحسن كان رجل يقول إن نفسا تأمرني بكذا ونفسا تأمرني بكذا فقال الله جل وعز ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وروى أبو هلال عن عبد الله بن بريدة قال كان في الجاهلية

رجل يقال له ذو قلبين فأنزل الله جل وعز ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال قال رجل من بني فهر إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد صلى الله عليه وسلم وكذب قال أبو جعفر وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو أن

(39/615)

الآية نزلت في رجل بعينه ويقال إن الرجل عبد الله بن خطل والقول الثاني قول ضعيف لا يصح في اللغة وهو من منقطعات الزهري رواه معمر عنه في قوله جل وعز ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه قال بلغنا أن ذلك في شأن زيد بن حارثة ضرب له مثلا يقول ليس ابن رجل آخر ابنك والقول الثالث أصحها وأعلاها إسنادا وهو جيد الإسناد قرئ على محمد بن عمرو بن خالد عن أبيه قال حدثنا زهير بن معاوية قال حدثنا قابوس بن أبي

ظبيان أن أباه حدثه قال قلنا لابن عباس أرأيت قول الله جل وعز ما جعل الله لرجل من قلبين في

جوفه ما عني بذلك قال كان نبي الله يوما يصلي فخطر خطرة فقال النافقون الذين يصلون معه ألا ترون أن له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فأنزل الله جل وعز ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه

قال أبو جعفر وهذا أولى الأقوال في الآية لما قلنا والمعنى ما جعل الله لرجل قلبا يحب به وقلبا يبغض به وقلبا يؤمن به وقلبا يكفر به 4 - ثم قرن بهذا ما كان المشركون يطلقون به مما لا يكون فقال وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم

وهو لفظ مشتق من الظهر وقرأ الحسن تظاهرون وأنكر هذه القراءة أبو عمرو بن العلاء وقال إنما يكون هذا من المعاونة قال أبو جعفر وليس يمتنع شئ من هذا لاتفاق اللفظين ويدل على صحته الظهار 5 - ثم قال جل وعز وما جعل أدعياءكم أبناءكم آية 4 أي ما جعل من تبنيتموه واتخذتموه ولدا بمنزلة الولد في الميراث قال مجاهد نزل هذا في زيد بن حارثة 6 - ثم قال جل وعز ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل آية 4 أي هو شئ تقولونه على التشبيه وليس بحقيقة والله يقول الحق أي لا يجعل غير الولد ولدا وهو يهدي السبيل أي سبيل الحق

7 - ثم قال جل وعز ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله آية 5 روى سالم عن ابن عمر قال ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ادعوهم لآبائهم ثم قال جل وعز هو أقسط عند الله أي أعدل 8 - وقوله جل وعز فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم آية 5

أي فقولوا يا أخي في الدين ومواليكم أي بنو عمكم أو أولياؤكم في الدين 9 - ثم قال جل وعز وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم آية 5 في معناه ثلاثة أقوال قال مجاهد فيما أخطأتم به قبل النهي في هذا وفي غيره ولكن ما تعمدت قلوبكم بعد النهي في هذا وفي غيره وقيل فيما أخطأتم به أن يقول له يا بني في المخاطبة على غير تبن وقال قتادة هو أن تنسب الرجل إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه

وهذا أولاها وأبينها 10 - وقوله جل وعز النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم آية 6 روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما رجل مات وترك دينا فإلي وإن ترك مالا فلورثته وحقيقة معنى الآية والله جل وعز أعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أمر بشئ أو نهى عنه ثم خالفته النفس كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم ونهيه أولى بالاتباع من الناس

11 - ثم قال جل وعز وأزواجه أمهاتهم آية 6 أي هن في الحرمة بمنزلة الأمهات في الإجلال

ولا يتزوجن بعده صلى الله عليه وسلم وروي أنه إنما فعل هذا لأنهن أزواجه في الجنة 12 - ثم قال جل وعز وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا قال مجاهد أي إلا أن توصوا لمن حالفتموه من المهاجرين والأنصار وكان رسول الله آخى بين المهاجرين فكانوا يتوارثون حتى هذا وابيحت لهم الوصية وهذا قول بين لأنه بعيد أن يقال للمشرك ولي وقال ابن الحنفية والحسن وعطاء في قوله تعالى

(41/615)

إلا أن تمعلوا الذي إلى أوليائكم معروفا أن يوصي لذي قرابته من المشركين قال الحسن هو وليك في النسب وليس بوليك في الدين 13 - ثم قال جل وعز كان ذلك في الكتاب مسطورا قال قتادة أي مكتوبا عند الله جل وعز لا يرث كافر مسلما قال أبو جعفر يجوز أن يكون المعنى حل ذلك في الكتاب أي في القرآن ويجوز أن يكون ذلك قوله وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض 14 - وقوله جل وعز وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم

قال مجاهد هذا في ظهر آدم صلى الله عليه وسلم وقال قتادة أخذنا ميثاقهم أن يصدق بعضهم بعضا 15 - وقوله جل وعز ليسأل الصادقين عن صدقهم أي ليسأل الصادقين من

الرسل توبيخا لمن كذبهم كما قال جل وعز أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله وقيل ليسأل الصادقين عن صدقهم هل كان لله جل وعز

وقيل ليثابوا عليه 16 - وقوله جل وعز يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود آية 9 قال مجاهد جاءهم أبو سفيان وعيينة بن بدر وبنو قريظة وهم الأحزاب

17 - ثم قال جل وعز فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال هي الصبا كفأت قدورهم ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ثم قال جل وعز وجنودا لم تروها آية 9 قال مجاهد الملائكة ولم تقاتل يومئذ يوم الأحزاب 18 - وقوله جل وعز إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم آية 10 قال محمد بن إسحق الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة

والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان 19 - ثم قال جل وعز وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر آية 10 روى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال بلغ فزعها

وقال قتادة شخصت عن مواضعها فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت وقيل كادت تبلغ

قال أبو جعفر وأحسن هذه الأقوال القول الأول أي بلغ وجيفها من شدة الفزع الحلوق فكأنها بلغت الحلوق بالوجيب 20 - وقوله جل وعز هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا أية 11

قال مجاهد أي محصوا ثم قال وزلزلوا زلزالا شديدا أي أزعجوا وحركوا 21 - ثم قال جل وعز وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا آية 12

قال قتادة قال قوم من المنافقين وعدنا محمد أن نفتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يقدر أن يجاوز رحله ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا

22 - ثم قال جل وعز وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا وقرأ أبو عبد الرحمن والأعرج لا مقام لكم بضم الميم قال أبو جعفر المقام بالفتح الموضع الذي يقام فيه والمصدر من قام يقوم والمقام بالضم بمعنى الإقامة والموضع من أقام هو وأقامه

غيره 23 - ثم قال جل وعز ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة آية 13 قال ابن إسحاق هو أوس بن قيظي الذي قال إن بيوتنا عورة عن ملأ من قومه وقرأ يحيى بن يعمر وأبو رجاء عورة بكسر الواو

يقال أعور المنزل إذا ضاع أو لم يكن له ما يستره أو سقط جداره فالمعنى إن بيوتنا ضائعة

متهتكة ليس لها من يحفظها فأعلم الله جل وعز أنها ليست كذلك وأن العدو لا يصل إليها لأن الله جل وعز يحفظها قال أي نخاف أن تسرق ويقال للمرأة عورة فيجوز مجاهد أن يكون المعنى إن بيوتنا ذات عورة فأكذبهم الله جل وعز قال قتادة قال قوم من المنافقين إن بيوتنا عورة وإنا نخاف على أهلينا فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليها فلم يوجد فيها أحد ويجوز أن يكون عورة مسكنا من عورة

24 - ثم قال جل وعز إن يريدون إلا فرارا آية 13 أي عن نصرة النبي صلى الله عليه وسلم 25 - ثم قال جل وعز ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سألوا

(43/615)

الفتنة لأتوها آية 14 قال الحسن من أقطارها أي من نواحيها قال غيره نواحي البيوت ثم سئلو الفتنة لأتوها أي لقصدوها وجاءوها قال الحسن الفتنة ههنا الشرك وقرئ لآتوها قال الحسن أي لأعطوها من أنفسهم قال غيره كما روي في الذين عذبوا أنهم أعطوا ما سئلوا في النبي صلى الله عليه وسلم إلا بلالا 26 - ثم قال جل وعز وما تلبثوا بها إلا يسيرا قال القتبي أي بالمدينة 27 - وقوله جل وعز وإذا لا تمتعون إلا قليلا آية 16 قال مجاهد والربيع بن خيثم في قوله وإذا لا تمتعون إلا قليلا ما بينهم وبين الأجل 28 - وقوله جل وعز قد يعلم

الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا آية 18

قال قتادة هم قوم من المنافقين قالوا ما أصحاب محمد عندنا إلا أكلة رأس ولن يطيقوا أبا سفيان وأصحابه فهلم إلينا 29 - ثم قال جل وعز ولا يأتون البأس إلا قليلا آيد 18

أي إلا تعذيرا 30 - ثم قال جل وعز أشحة عليكم فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد آية 19 أي أشحة عليكم بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أي بالغوا في الاحتجاج عليكم

وقال قتادة سلقوكم بطلب الغنيمة وهذا قول حسن لأن بعده أشحة على الخير وعن ابن عباس استقبلوكم بالأذى وقال يزيد بن رومان سلقوكم بما تحبون نفاقا منهم يقال خطيب مسلاق وسلاق أي بليغ 31 - ثم قال جل وعز أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا آية 19

أي أشحة على الغنيمة أولئك لم يؤمنوا وإن كانوا قد أظهروا الإيمان فإن اعتقادهم غير ذلك 32 - وقوله جل وعز يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب آية 20

أي يحسبون الأحزاب لم يذهبوا لجبنهم

وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب المعنى إنهم لفزعهم ورعبهم إذا جاء من يقاتلهم ودوا أنهم بادون في الأعراب وقرأ طلحة بن مصرف يودوا لو أنهم بذا في الأعراب بدا والمعنى واحد وهو جمع باد كما يقال غزا وغزى 33 - ثم خبر تعالى بما يقول المؤمنون فقال ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وقيل الذي وعدهم في قوله أم حسبتم أن تدخلوا الجنة

ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء كذا قال قتادة وقال يزيد بن رومان الأحزاب قريش وغطفان 34 - وقوله جل وعز من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه يقال صدقت العهد أي وفيته 35 - ثم قال جل وعز فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا آية 23 روى سعيد بن مسروق عن مجاهد قال نحبه عهده وروى خصيف عن عكرمة عن ابن عباس فمنهم من قضى نحبه قال مات على ما عاهد عليه ومنهم من ينتظر ذلك

قال أبو جعفر حكى أهل اللغة أن النحب العهد والنفس والخطر العظيم وأشهرها أن النحب العهد كما قال مجاهد ويصححه أنه يروى أن قوما جعلوا على أنفسهم إن لاقوا العدو أن يصدقوا القتال حتى تقبلوا أو يفتح الله جل وعز عليهم فالمعنى فمنهم من قضى أجله وسمي الأجل عهدا لأنه على العهد كان أو قضى عهده

ثم قال تعالى وما بدلوا تبديلا أي وما بدلوا دينهم تبديلا 36 - ثم قال جل وعز ورد الله

الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا قال مجاهد أبا سفيان وأصحابه 37 - ثم قال جل وعز وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم أي أعاونهم من أهل الكتاب قال مجاهد بني قريظة من صياصهم من قصورهم وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة من صياصيهم من حصونهم

قال أبو جعفر والقصور قد يتحصن بها وأصل الصيصية

(45/615)

في اللغة ما يمتنع به ومنه قيل لقرون البقر صياصي ومنه قوله كوقع الصياصي في النسيج الممد * يقال جذ الله صيصته علي أي أصله 38 - وقوله جل وعز وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها آية 27 قال الحسن فارس والروم وقال قتادة مكة وقال ابن إسحاق خيبر وقال أبو جعفر وهذه كلها قد أورثها الله جل وعز المسلمين إلا أن الأشبه بالمعنى أن تكون خيبر والله أعلم

روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة في قوله تعالى وأرضا لم تطئوها قال ما يفتح على المسلمين إلى يوم القيامة 39 - وقوله جل وعز يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا آية 28 حتى روى يونس

عن الزهري عن أبي سلمة عن عائشة ومعمر عن عروة عن عائشة قالت لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي فقال إني ذاكر لك أمرا ولا عليك أن لا تعجلي فيه حتى

تستأمري أبويك قال وقد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه ثم تلا يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فقلت أو في هذا استأمر أبوي فإني أختار الله جل وعز ورسوله والدار الأخرة

قال يونس في حديثه وفعل أزواجه كما فعلت فلم يكن ذلك طلاقا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرهن فاخترنه 40 - وقوله جل وعز يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين آية 30 فرق أبو عمرو بين يضعف ويضاعف قال يضاعف للمرار الكثيرة ويضعف مرتين وقرأ يضعف لهذا وقال أبو عبيدة يضاعف لها العذاب يجعل ثلاثة أعذبة

قال أبو جعفر التفريق الذي جاء به أبو عمرو لا يعرفه أحد من أهل اللغة علمته والمعنى في يضاعف ويضعف واحد أي يجعل ضعفين أي مثلين كما تقول إن دفعت إلي درهما دفعت إليك ضعفيه أي مثليه يعني درهمين ويدل على هذا نؤتها أجرها مرتين فلا يكون العذاب أكثر من الأجر وقال في موضع آخر ربنا آتهم ضعفين من العذاب أي

مثلين وروى معمر عن قتادة يضاعف لها العذاب ضعفين قال عذاب الدنيا وعذاب الآخرة

41 – وقوله جل وعز ومن يقنت منكن لله ورسوله ومعناه من يطع قال قتادة كل قنوت في القرآن طاعة وقال وأعتدنا لها رزقا كريما الجنة 42 – وقوله جل وعز فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض آية 32 يقال خضع في قوله إذا لأن ولم يبين ويبينه قوله تعالى ي وقلن قولا معروفا أي بينا ظاهرا قال قتادة والسدي فيطمع الذي في قلبه مرض أي شك ونفاق قال عكرمة هو شهوة الزنى

43 – وقوله جل وعز وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى هو من وقر يقر وقارا في المكان إذا ثبت فيه وفيه قول آخر قال محمد بن يزيد هو من قررت في المكان أقر والأصل واقررن جاء على لغة من قال في مسست مست حذفت الراء

الأولى وألقيت حركتها على القاف فصار وقرن قال ومن قرأ وقرن فقد لحن قال أبو جعفر يجوز أن يكون وقرن من قررت به عينا أقر فيكون المعنى واقررن به عينا في بيوتكن

44 – ثم قال جل وعز ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى آية 33 روى علي بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال الجاهلية الأولى ما بين إدريس ونوح صلى الله عليهما وروى عبد الله بن عمرو عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال ستكون جاهلية أخرى

وروى هشيم عن زكريا عن الشعبي قال الجاهلية الأولى ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما

قال مجاهد كان النساء يتمشين بين الرجال فذلك التبرج وقال ابن أبي نجيح هو التبختر قال أبو جعفر التبرج في اللغة هو إظهار الزينة وما تستدعى به الشهوة وكان هذا ظاهرا بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وكان ثم بغايا يقصدن وقوله جل وعز إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت آية 33

(47/615)

قال عطية حدثني أبو سعيد الخدري قال حدثتني أم سلمة قالت نزلت هذه الآية في بيت وكنت جالسة على الباب فقلت يا رسول الله ألست من أهل البيت قال إنك إلى خير وأنت من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وكان في البيت النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم

46 - وقوله جل وعز واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة آية 34 قال قتادة أي القرآن والسنة وروى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله أرى الله جل وعز يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين

والمؤمنات والقانتين والقانتات 47 - وقوله جل وعز والحافظين فروجهم والحافظات آية 35

أي والحافظاتها ونظيره وكمتا مدماة كأن متونها جرى فوقها واستشعرت لون المذهب

مذهب وروى سيبويه لوت مذهب بالنصب وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء كأنه قال

فاستشعرته تعالى فيمن رفع لونا 48 - وقوله جل وعز وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله

أمرا آية 36 قال قتادة لما خطب النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وهي ابنة عمته وهو يريدها لزيد ظنت أنه يريدها لنفسه فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت وامتنعت فأنزل الله عز وجل وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم فأطاعت وسلمت

(48/615)

---

49 - وقوله جل وعز وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه قال قتادة هو زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالعتق ثم قال أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه

روى ثابت عن أنس قال جاء زيد يشكو زينب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أمسك عليك زوجك واتق الله فأنزل الله جل وعز وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه إلى آخر الآية قال ولو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن لكتمها قال قتادة جاء زيد فقال يا رسول الله إني أشكو إليك لسان زينب وإني أريد أن أطلقها فقال له أمسك عليك

زوجك واتق الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يطلقها زيد فكره أن يقول له طلقها فيسمع الناس بذلك

قال أبو جعفر أي فيفتتنوا وسئل علي بن الحسين عليه السلام عن هذه الآية فقال أعلم الله جل وعز النبي صلى الله عليه وسلم أن زيدا سيطلق زينب ثم يتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعده أي فقد أعلمتك أنه يطلقها قبل أن يطلقها 50 – وقوله جل وعز فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها آية 37 قال الخليل معنى الوطر كل حاجة يهتم بها فإذا قضاها قيل قضى وطره وأربه 51 – ثم خبر جل وعز بالعلة التي من أجلها كان من أمر زيد ما كان فقال لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا أي زوجناك زينب وكانت امرأة زيد وأنت متبن فإن له لئلا

يتوهم أن تحريم التبني كتحريم الولادة كما كانت الجاهلية تقول 52 – وقوله جل وعز ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له آية 38 قال قتادة أي فيما أحل الله له

قال أبو جعفر وفيه معنى المدح كما قال جل وعز ما على المحسنين من سبيل 53 - ثم قال جل وعز سنة الله في الذين خلوا من قبل أي لا يؤاخذون بما لم يحرم عليهم

(49/615)

---

54 - وقوله جل وعز وكفى بالله حسيبا آية 39 يجوز أن يكون بمعنى محاسب كما تقول أكيل وشريب ويجوز أن يكون بمعنى محسب أي كاف يقال أحسبني الشئ كفاني 55 - وقوله جل وعز ما كان محمد أبا أحد من رجالكم آية 40 قال علي بن الحسين عليه السلام نزلت في زيد بن حارثة قال أبو جعفر أي ليس هو أباهم بالولادة وإن كان كذلك في التبجيل والتعظيم

56 - ثم قال جل وعز ولكن رسول الله وخاتم النبيين قال قتادة أي آخرهم قال أبو جعفر من قرأ خاتم بفتح التاء فمعناه عنده آخرهم ومن قرأ بالكسر خاتم فمعناه عندهم أنه ختمهم

قال قتادة وسبحوه بكرة وأصيلا آية 42 صلاة الصبح والعصر 57 - وقوله جل وعز هو الذي يصلي عليكم وملائكته آية 43 قال الحسن سألت بنو إسرائيل موسى صلى الله عليه أيصلي ربك فكأنه أعظم ذلك فأوحى الله جل وعز إليه إن صلاتي أن رحمتي تسبق

غضبي

والأصيل العشي قال الفراء معنى هو الذي يصلي عليكم وملائكته هو الذي يغفر لكم وتستغفر لكم ملائكته 58 - وقوله جل وعز تحيتهم يوم يلقونه سلام هو كما قال والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم أي تحيتهم في الجنة سلام 59 - وقوله جل وعز يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا آية 45

شاهدا أي شاهدا بالإبلاغ ومبشرا بالجنة ونذيرا من النار وداعيا إلى الله بإذنه أي بأمره وسراجا منيرا أي وذا سراج وهو القرآن ويجوز أن يكون المعنى ومبينا وتاليا حدثنا محمد بن إبراهيم الرازي قال حدثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدي قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن شيبان النحوي قال حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا دعا رسول الله عليا ومعاذا فقال انطلقا فيسرا ولا تعسرا فإنه قد نزل علي الليلة آية إنا أرسلناك

(50/615)

شاهدا ومبشرا ونذيرا من النار وداعيا إلى الله قال شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه بأمره وسراجا منيرا قال بالقرآن 60 – وقوله جل وعز ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم آية 48 قال مجاهد ودع أذاهم أي أعرض عنهم 61 – وقوله جل وعز يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها قال حبيب بن أبي ثابت سئل علي بن الحسين عليه السلام عن رجل قال لامرأته إن تزوجتك فأنت طالق فقال ليس بشئ

ذكر الله جل وعز النكاح قبل الطلاق فقال إذا نكحتم

المؤمنات ثم طلقتموهن 62 – وقوله جل وعز فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا قال سعيد بن المسيب هي منسوخة بالتي في البقرة يعني قوله جل وعز وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة أي فلم يذكر المتعة 63 – وقوله جل وعز يا أيها النبي إنا حللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن آية 50

قال مجاهد أي صداقهن وروى أبو صالح عن أم هانئ قالت خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت منه فعذرني فأنزل الله جل وعز يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن إلى قوله اللاتي هاجرن معك ولم أكن هاجرت إنما كنت من الطلقاء فكنت لا أحل له 64 – ثم قال جل وعز وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي آية 50 قال علي بن الحسين رضي الله عنه وعروة والشعبي هي أم شريك وقال الزهري وعكرمة

ومحمد بن كعب هي ميمونة ابنة الحارث وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم

قال الزهري ووهبت سودة يومها لعائشة

وقرأ الحسن أن وهبت وقرأ الأعمش وامرأة مؤمنة وهبت وكسر إن أجمع للمعاني لأنه قيل إنهن نساء وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها لأن الفتح على البدل من امرأة وبمعنى لأن وقال مجاهد لم تهب نفسها فعلى هذا القول لا تكون إن إلا مكسورة وقيل ومعنى وهبت نفسها إن تزوجت بلا صداق

(51/615)

وقيل هو أن تجعل الهبة صداقا وأن هذا لا يحل لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو جعفر والقول الأول أولى لأن معنى الهبة في اللغة دفع شئ بلا عوض 65 - وقوله جل وعز قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم أي قد علمنا ما في ذلك من الصلاح وهذه كلمة مستعملة يقال أنا أعلم مالك في ذا وروى زياد بن عبد الله عن أبي بن كعب في قوله تعالى قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم قال مثنى وثلاث ورباع وقال قتادة فرض عليهم أن لا نكاح إلا بولي وشاهدي

عدل وصداق وأن لا يتزوج الرجل أكثر من أربع

66 - وقوله جل وعز لكيلا يكون عليك حرج آية 50 متعلق بقوله إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيتهن آجورهن 67 - وقوله جل وعز ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء آية 51 روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله تعالى

ترجي من تشاء منهن قال هذا في الواهبات أنفسهن قال الشعبي هن الواهبات أنفسهن تزوج رسول الله منهن وترك منهن وقال الزهري ما علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجأ أحدا من أزواجه بل آواهن كلهن وقال قتادة أطلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بينهن كيف شاء ولم يقسم بينهن إلا بالقسط حدثنا أحمد بن محمد بن نافع حدثنا سلمة حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن منصور عن أبي رزين قال المرجآت النبي ميمونة وسودة وصفية وجويرية وأم حبيبة وكانت عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب سواء في قسم النبي صلى الله عليه وسلم يساوي بينهن في القسم

وقال مجاهد هو أن يعتزلهن بلا طلاق قال أبو جعفر قول قتادة وأبي رزين ومجاهد يرجع إلى معنى واحد أن ذلك في القسم وقد روى منصور عن أبي رزين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخلي اللواتي أرجأهن فقلن له اقسم لنا كيف شئت واتركنا على حالنا فتركهن وقال قتادة في قوله تعالى ذلك أدنى أن تقر أعينهن إذا علمن أن ذلك من الله جل وعز قرت أعينهن ولم يحزن ورضين

68 – وقوله جل وعز لا يحل لك النساء من بعد آية 52 في هذه الآية أقوال فمنها ما روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن عائشة قالت ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء وقال الحسن لما خير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه فاخترنه شكر الله جل وعز لهن ذلك فحرم على النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج غيرهن أي فامتحنه بذلك كما امتحنهن وقال علي بن الحسين قد كان له أن يتزوج

قال أبو جعفر هذه الثلاثة الأقوال غير متناقضة تقول عائشة ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء إسناده جيد ويتأول على أنه ناسخ للحظر ويحتج به في أن السنة تنسخ القرآن كما قال جل وعز إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا وصية لوارث

ومذهب الضحاك أن الناسخ لها قوله ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء وهذا لا يصح لأن بعده ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن وقول علي بن الحسين عليه السلام يجوز أن يكون يرجع إلى قول عائشة وإن كان قد أنكر قول الحسن فإن الحسن لم يذكر أن الآية منسوخة فيجوز أن يكون أنكره من هذه الجهة وتكون الآية عنده منسوخة

وعوض الله جل وعز نساء النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أن جعلهن أزواجه في الجنة وفي الآية غير هذا قال زياد بن عبد الله سألت أبي بن كعب عن قول الله جل وعز لا يحل لك

النساء من بعد فقلت أكان يحل له أن يتزوج فقال نعم ما بأس بذلك قال الله جل وعز إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن إلى قوله وامرأة مؤمنة ثم قال جل وعز لا يحل لك النساء من بعد أي لا يحل لك الأمهات ولا الأخوات ولا البنات فهذا قول آخر أي لا يحل لك النساء من بعد من أحللنا إلا ما ملكت يمينك وقال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم قولا آخر

قالوا لا يحل لك النساء من بعد أي لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات

(53/615)

قال مجاهد أي لا يحل أن تتزوج كافرة فتكون أما للمؤمنين ولو أعجبك حسنها إلا ما ملكت يمينك فإن له أن يتسرى بها 69 - وقوله جل وعز يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم قال أنس بن مالك أنا أعلم الناس بهذه الآية لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب ابنة جحش أمرني أن أدعو كل من لقيت ودعا النبي صلى الله عليه وسلم فجعل الله جل وعز في الطعام البركة فأكل قوم وانصرفوا وبقيت طائفة وكانت زينب في البيت فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وخرج وهم جلوس فأنزل الله جل وعز يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى آخر الآية فضرب رسول الله صلى الله

عليه وسلم الحجاب وانصرفوا

قال مجاهد في قوله تعالى إلى طعام غير ناظرين إناه آية 53 غير متحينين نضجه ولا مستأنسين لحديث قال بعد الأكل وقوله جل وعز وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب

فكان لا يحل لأحد أن يسألهن طعاما ولا غيره ولا ينظر إليهن متنقبات ولا غير متنقبات إلا من وراء حجاب وكانت عائشة إذا طافت بالبيت سترت وفي الحديث لما ماتت زينب قال عمر لا يخرج في جنازتها إلا ذو محرم منها فوصف له النعش فاستحسنه وأمر به وقال اخرجوا فصلوا على أمكم قال أنس كنت أدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فلما نزلت هذه الآية جئت لأدخل فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم وراءك يا بني

70 - وقوله عزو جل وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا آية 53 قال قتادة قال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت فلانة قال معمر قال هذا طلحة لعائشة 71 - وقوله جل وعز لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن يعني في الاستئذان وقيل معنى ولا نسائهن ولا أهل دينهن وقد قيل بل هو لجميع النساء أي اللواتي من جنسهن

وقيل ولا ما ملكت أيمانهن من النساء خاصة

وقيل عام إذا لم تعرف ريبة 72 – وقوله جل وعز إن الله وملائكته يصلون على النبي آية 56 قال أبو مسعود الأنصاري أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد أمرنا الله جل وعز أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم في العالمين

إنك حميد مجيد والسلام كما علمتم وروى المسعودي عن عون بن عبد الله عن أبي فاختة عن الأسود عن عبد الله أنه قال إذا صليتم على النبي صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم لا تدرون لعل الله يعرض ذلك عليه قالوا فعلمنا قال قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم آل إبراهيم إنك حميد مجيد

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد

73 - وقوله جل وعز إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة آية 57 قيل المعنى يؤذون أولياء الله وروى همام عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل شتمني عبدي ولم يكن له أن يشتمني وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني

(55/615)

فأما شتمه إياي فقوله إني اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد وأما تكذيبه إياي فإنه زعم أن لن يبعث يعني بعد الموت 74 - وقوله جل وعز والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا لأية 58 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال يقعون في المؤمنين والمؤمنات بغير ما عملوا 75 - وقوله جل وعز يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن آية 59 قال أبو مالك والحسن كان النساء يخرجن بالليل في حاجاتهن فيؤذيهن وإن المنافقون ويتوهمون إنهن إماء فأنزل الله جل وعز

يا أيها النبي قل لأزواجك إلى آخر الآية قال الحسن ذلك أدني أن يعرف أنهن حرائر فلا يؤذين قال الحسن تغطي نصف وجهها وكان عمر إذا رأى أمة قد تقنعت علاها بالدرة قال محمد بن سيرين سألت عبيدة عن قوله تعالى يدنين عليهن من جلابيبهن فقال تغطي حاجبها بالرداء ثم ترده على أنفها حتى تغطي رأسها ووجهها وإحدى عينيها

قال مجاهد يتجلببن حتى يعرفن فلا يؤذين بالقول 76 - وقوله جل وعز لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم آية 60 قال قتادة كان ناس من المنافقين أرادوا أن يظهروا نفاقهم فأنزل الله جل وعز لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم أي لنحرشنك عليهم وقال مالك بن دينار سألت عكرمة عن قوله والذين في قلوبهم مرض فقال الزنى وكذلك شهر بن حوشب

وقال طاووس نزلت هذه الآية في أمر النساء وقال سلمة بن كهيل نزلت في أصحاب الفواحش 77 - ثم قال جل وعز ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا آية 60 يجوز أن يكون المعنى إلا وهم قليل ويجوز أن يكون المعنى إلا وقتا قليلا

(56/615)

---

78 - وقوله جل وعز يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها آية 69 حدثنا محمد بن إدريس قال حدثنا إبراهيم بن مرزوق قال حدثنا روح بن عبادة قال حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة في هذه الآية لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موسى صلى الله عليه وسلم كان رجلا حييا ستيرا لا يكاد يرى من جلده شئ استحياء

منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل وقالوا ما يستتر هذا التستر

إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا وإن

موسى خلا يوما وحده فوضع ثوبه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ من غسله أقبل إلى ثوبه

ليأخذه وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر وجعل يقول ثوبي حجر

ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا كأحسن الرجال خلقا فبرأوه

كما مما قالوا له وإن الحجر قام فأخذ ثوبه فلبسه قال فطفق بالحجر ضربا قال فوالله إن في

الحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا وروى سفيان بن حسين عن الحكم عن

سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي عليه السلام في قوله جل وعز لا تكونوا كالذين آذوا

موسى فبرأه الله مما قالوا قال صعد موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم إلى الجبل فمات

هارون عليه

السلام فقالت بنو إسرائيل لموسى أنت قتلته كان ألين لنا منك وأشد حبا فأوذي في ذلك

فأمر الله جل وعز الملائكة فحملته

(57/615)

فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت الملائكة بموته حتى علمت بنو إسرائيل أنه مات فدفنوه فلم يعلم موضع قبره إلا الرخم فإن الله قد جعله أصم أبكم قال أبو جعفر والمعنى لا تؤذوا محمدا صلى الله عليه وسلم كما آذى قوم موسى موسى فبرأه الله مما قالوا مما رموه به من الأمرين جميعا وكان عند الله وجيها أي كلمه تكليما 79 – وقوله جل وعز يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا آية 70 قال مجاهد وقولوا قولا سديدا أي سدادا وقال الحسن أي صدقا 80 – وقوله جل وعز إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها آية 71 في هذه الآية أقوال منها أن المعنى على أهل السموات ويكون معنى عرضنا أظهرنا كما تقول عرضت المتاع ويكون فأبين على لفظ الأول لأنهم لم يحملوها كلهم ويكون المعنى فأبوا أن يقبلوها

وحملها الإنسان أي تكلفها وكلهم قد كلفها وقيل لما حضرت آدم صلى الله عليه وسلم الوفاة أمر أن يعرض الأمانة على الخلق فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه وقول ثالث هو الذي عليه أهل التفسير

حدثنا بكر بن سهل قال حدثنا أبو صالح عن معاوية بن صالح علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال قوله تعالى إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال قال الأمانة الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله جل وعز ألا يقوموا به

ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وهو قوله تعالى وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا غرا بأمر الله جل وعز وقال مجاهد عرض الله الثواب والعقاب على السموات والأرض والجبال فأبين ذلك وأشفقن منه وقيل لأدم فقبله فما أقام في الجنة إلا ساعتين وقال سعيد بن جبير عرضت الفرائض على السموات والأرض والجبال فأشفقن منها وامتنعن وقبلها آدم صلى الله عليه وسلم

(58/615)

وقال عبد الله بن عمر عرض على آدم الثواب والعقاب وقال الضحاك الأمانة الطاعة عرضت على السموات

والأرض والجبال إن خالفنها هو عذبن وسلم فأبين وحملها الإنسان وقال قتادة عرضت الفرائض على الخلق فأبين إلا آدم صلى الله عليه وسلم

قال أبو جعفر وهذ الأقوال وهي أقوال الأئمة من أهل التفسير تتأول على معنيين أحدهما أن الله جل وعز جعل في هذه الأشياء ما تميز به ثم عرض عليها الفرائض والطاعة والمعصية والمعنى الآخر أن الله جل وعز ائتمن ابن آدم على الطاعة وائتمن هذه الأشياء على الطاعة والخضوع فخبرنا أن هذه الأشياء لم تحتمل الأمانة أي لم تخنها يقال حمل الأمانة واحتملها أي

خانها وحمل إثمها

وقيل المعنى وحملها الإنسان ولم يقم بها فحذف لعلم المخاطب بذلك فقال جل وعز قالتا أتينا طائعين وقال وإن منها لما يهبط من خشية الله وحملها الإنسان أي خانها وحمل إثمها قال الحسن وحملها الإنسان أي الكافر والمنافق قال أبو جعفر وقول الحسن يدل على التأويل الثاني ويدل عليه أيضا قوله ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما .

تمت بعونه تعالى سورة الأحزاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 5 صـ 387.317 ﴾

(59/615)

وقال الفراء :

سورة (الأحزاب)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

وقوله: ﴿ اتَّقِ اللَّهَ . . . ﴾

(قال الفراء) يقول القائل فِيمَ أُمِر النبى صَلى الله عليه وسلم بالتقوى .

فالسَّبب فى ذلك أنّ أبا سُفيان بن حَرْب وعِكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السُّلَمى قدموا إلى المدينة ، فنزلوا على عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ونظرائه مِن المنَافقينَ ، فسَأَلُوا رسول الله أشياء يكرهها ، فهمّ بهم المسلمون فنزل ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ فى نقض العهد ؛ لأنه كانت بينهم موادَعة فأُمر بأَلاّ ينقض العهد ﴿ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ من أهْل مكَّة ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ من أهل المدينة فيما سألوك .

﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾

وقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . ﴾

إنما جرى ذكر هذا لِرجل كان يقال له جَمِيل بن أوس ويكنى أبا معمرٍ . وكان حَفِظاً للحديث كثيرهُ ، فكان أهل مكّة يقولون: له قلبان وعقَلان من حفظه فانهزم يوم بدر ، فمَرّ بأبى سُفيان وهو فى العِير ، فقال: مَا حالُ الناس يا أبا معمرٍ ؟ قال: بين مقتولٍ وهَارب . قال: فما بَالُ إحدى نعليكَ فى رجلك والأخرى فى يدك ؟ قال: لقد ظننت أنهما جميعاً فى رِجلىّ ؛ فعلم كذبهم فى قولهم: له قلبانِ . ثم ضم إليه ﴿ وَمَا جَعَلَ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أى هذا باطل ؛ كما أن قولكم فى جَميل باطل . إذا قال الرجل: امرأته عليه كظهر أُمّه فليسَ كذلكَ ، وفيه من الكفّارة مَا جعَل الله . وقوله ﴿ تُظَاهِرُونَ ﴾ خفيفة قرأهَا يحيى بن وثّاب . وقرأها الحسن (تُظَهِّرُونَ) مشدّدةً بغير ألفٍ . وقرأها أهل المدينة (تَظَّهَّرون) بنصب التاء ، وكلّ صَوَاب معناه متقارِب العرب تقول: عَقّبت وعاقبت ، ﴿ وَعَقَّدتُمُ الأيمَانَ ﴾ و ﴿ عَاقَدْتُمْ ﴾ ﴿ ولا تُصعِّرْ خَدَّكَ ﴾ و ﴿ لا تُصَاعِرْ ﴾ اللهمّ لا تُرَاءِبى ، وتُرأّبِى . وقد قرأ بذلك قوم فقالُوا: ﴿ يُرَاءُونَ ﴾ و ﴿ يُرَءُّون ﴾ مثل يُرَعُّونَ . وقد قرأ بعضهم ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾ وهو وجه جيّد لا أعرف إسْناده .

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ .

كان أهل الجاهليّة إذا أعجب أحدَهم جَلَدُ الرجل وظُرْفُه ضمَّه إلى نفسِهِ ، وَجَعَل له مثلَ نصيب ذَكَر من ولده من ميراثه . وكانوا يُنسبون إليهم ، فيقال: فلان بن فلان للذى أقطعه إليه . فقال الله ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ . وهو بَاطل ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ غير مَا قلتم .

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَاكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ثم أمرهم فقال: ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ . . . ﴾

أى انسُبوهم إلى آبائِهم . وقوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ﴾ فانسبوهم إلى نسبة مواليكم الذين لا تعرفونَ آباءهم: فلان بن عبد الله ، بن عبد الرحمن ونحوه .

(61/615)

وقوله: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ فيما لَمْ تقصدُوا له منَ الخطأ ، إنما الإثم فيما تعمَّدتُم .

وقوله ﴿ وَلَاكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (ما) فى موضع خفض مردودة على (ما) التى مع الخَطأ .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُواْ إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾

وقوله: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ . . . ﴾

وفى قراءة عَبْد الله أو أُبىّ (النَّبِيُّ أَوْلَى بالمؤمنينَ من أنفسهم وهو أب لهم) ، وكذلك كلّ نبىّ .

وجرى ذلكَ لأن المسْلمينَ كانوا متواخينَ ، وكان الرجل إذا مات عن أخيه الذى آخاه ورِثه دون عَصَبته وقرابته فأنزل الله ﴿ النَّبىّ أَوْلَى مِنَ ﴾ المسْلمينَ بهذه المنزلة ، وليس يرثهم ،

فكيفَ يرث المواخى أخاه! وأنزل ﴿ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ فى الميراث ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى ذلكَ فى اللوح المحفوظ عند الله.

وقوله ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾. إن شئت جعلت (من) دخلت لـ (أولى) بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين بعضِهم ببعض، وإنْ شئت جعلتها - يعنى مِن - يراد بهَا: وأولو الأرحام مَن المؤمنينَ والمهَاجرينَ أولى بالميراث.

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾

وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا . . . ﴾

يريد: وَأرسَلنا جُنُوداً لم تروها من الملائكة. وهذا يوم الخَنْدق وهو يوم الأحزاب.

(62/615)

﴿ إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾

وقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ . . . ﴾

مِمَّا يلى مكَّة ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ مِمَّا يلى المدينة. وقوله ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبصَارُ ﴾:

زاغت عن كلّ شىء فلم تلتفِت إلا إلَى عَدُوّها . وقوله ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ ذُكر أَن الرجل منهم كانت تنتفخ رئته حتى ترفع قلبه إلى حنجرته من الفزع . وقوله ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ظنون المنافقينَ .

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾

ثم قال الله: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . . . ﴾ .

يقول: حُرِّكُوا تحريكاً إلى الفتنة فعُصِمُوا .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾

وقوله: ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً . . . ﴾

وهذا قول مُعَتِّب بن قُشَير الأنصارى وحده . ذكروا أَن رسول الله صلى الله عَليه وسَلم أخذ مِعْولاً من سَلْمَان فى صخرة اشتدّت عليهم ، فضربَ ثلاث ضَرَبات ، مع كل واحدة كَلَمْع البَرْق . فقال سلمان: والله يا رسول الله لقد رأيتُ فيهنّ عَجَباً قال فقال النبى عَليه السَّلام: لقد رأَيتُ فى الضربة الأولى أبيض المدائن ، وفى الثانية قصُورَ اليمن ، وفى الثالثة بلاد فارسُ والرُّوم . وليفتحنَّ الله عَلَى أمَّتى مبلغ مَدَاهُنّ . فقال معتِّبٌ حين رَأَى الأحزاب: أَيَعِدُنا محمَّد أن يُفتح لنا فارسُ والرُّوم وَأَحَدُنا لا يقدر أن يضرب الخَلاءَ فَرَقاً ؟ ما وَعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾

وقوله: ﴿ لاَ مَقَامَ لَكُمْ . . . ﴾

قراءة العوامّ بفتح الميم ؛ إلا أبا عبد الرحمن فإنه ضمَّ الميم فقال (لاَ مُقَامَ لَكُمْ) فمن قال ﴿ لا مَقامَ ﴾ فكأنه أراد: لا موضع قيامٍ. ومن قرأ ﴿ لا مُقامَ ﴾ كأنه أراد: لا إقامة لكم (فَارْجِعُواْ) .

كلّ القراء الذين نعرف على تسكين الواو (عَوْرَةٌ) وذُكر عن بعض القراء أَنه قَرأ (عَورة) عَلَى ميزان فَعِلة وهو وجه . والعرب تقول: قد أَعور منزلُك إذا بدت منه عَوْرة ، وأَعور الفارسُ إذا كان فيه موضع خَلَل للضرب . وأنشدنى أبو ثَرْوانَ .

* لَهُ الشَّدَّةُ الأُولى إذا القِرنُ أَعورَا *

يعنى الأسد . وإنما أرادوا بقولهم: إن بيوتنا عورة أى مُمْكِنة للسُرَّاق لخلوتها من الرجال . فأكذبهم الله ، فقال: ليست بعورة .

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً ﴾

وقوله: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا . . . ﴾

يعنى نواحى المدينة ﴿ ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ ﴾ يقول: الرجوع إلى الكفر ﴿ لآتَوْهَا ﴾ يقول .

لأعطَوُا الفتنة . فقرأ عاصم والأعمش بتطويل الألف . وقَصَرها أهلُ المدينة:

﴿ لأَتَوْهَا ﴾ يريد : لفعلوهَا . والذين طَوَّلوا يقولونَ: لمّا وقع عليها السؤال وقع عليها الإعطاء ؛ كما تقول: سألتنى حاجَةً فأعطيتُك وآتيتكها .

وقد يكون التأنيث فى قوله ﴿ لآتَوْهَا ﴾ للفَعْلة ، ويكون التذكير فيه جائزاً لو أتى ، كما تقول عند الأمرْ يفعله الرجل: قد فعلتَها ، أما والله لا تذهب بها ، تريد الفَعْلة .

(64/615)

وقوله: ﴿ وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً ﴾ يقول: لم يكونوا ليلبثوا بالمدينة إلا قليلاً بعد إعطاء الكفر حتى يهلكوا .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

وقوله: ﴿ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ . . . ﴾

مرفوعة ؛ لأنَّ فيها الواوَ وإذا كانت الواو كان فى الواو فعل مضمر ، وكان معنى (إذاً) التأخير ، أى ولو فعلوا ذلكَ لا يلبثونَ خلافك إلا قليلاً إذاً . وهى فى إحدى القِراءتيْن (وإذاً لا يَلْبَثوا) بطرح النون يراد بها النصب . وذلك جائز ، لأنَّ الفعل متروك فصارت كأنها لأوّل الكلام ، وإن كانت فيها الواو . والعرب تقول: إذاً أكسِرَ أنفك ، إذاً أضربَكَ ، إذاً أغُمّكَ إذا

أجابوا بها متكلّماً . فإذا قالوا : أنا إذاً أضربُكَ رفعوا ، وجعَلوا الفعل أولى باسمه من إذاً ؛ كأنَّهُمْ قالوا أضربك إذاً ؛ ألا ترى أنهم يقولونَ: أظنُّك قائماً ، فيُعملونَ الظنَّ إذا بدءُوا به / ب وإذا وقع بين الاسم وخبره أبطلوه ، وإذا تأخّر بعد الاسم وخبره أبطلوه . وكذلك اليمين يكون لَها جَواب إذا بُدئ بها فيقال: والله إنك لعاقل ، فإذا وقعت بين الاسم وخبره قالوا : أنت والله عاقل . وكذلكَ إذا تأخّرَت لم يكن لها جَواب ؛ لأنَّ الابتداء بغيرها . وقد تنصِب العربُ بإذاً وهى بين الاسم وخبره فى إنَّ وحدها ، فيقولون: إنى إذاً أضربَك ، قالَ الشاعر:

لا تَترُكَنِّى فيهُم شطيراً * إنى إذاً أهلِكَ أوْ أطيرَا

والرفع جائز . وإنما جاز فى (إنّ) ولم يجز فى المبتدأ بغير (إنّ) لأن الفعل لا يكون مقدَّماً فى إنَّ ، وقد يكون مقدّماً لو أسْقطت .

(65/615)

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَائِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾

وقوله: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ . . . ﴾

منصوب عَلى القطع ، أى مِنَ الأسْماء التى ذُكِرت: ذكر منهم . وإن شئتَ من قوله: ﴿ يعوّقونَ ﴾ ها هنا عند القتال ويشحّون عن الإنفاق عَلى فقراء المسْلمينَ . وإن شئت من القائلينَ لإخوانهم (هَلُمّ) وهم هَكَذا . وإن شئت مِنْ قوله: ﴿ وَلاَ يأْتُونَ البأسَ إلا قَليلاً أشِحَّةً ﴾ يقول: جُبنَاءَ عند البَأْس أشِحَّةً عند الإنفاق على فقراء المسْلمينَ . وهو أحبّها إلىّ . والرفع جَائز عَلَى الائتنَاف ولم أسمَعْ أحداً قرأ به و (أشحّة) يكون عَلَى الذمّ ، مثل ما تنصب على الممدوح عَلَى ؛ مثل قوله ﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ .

وقوله: ﴿ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ . آذَوكم بالكلام عند الأمن ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ : ذَربةٍ . وَالعربُ تقول: صَلَقُوكم . ولا يجوز فى القراءة لمخالفتها إيّاهُ: أنشدنى بعضهم:

أصْلقَ نَاباه صِيَاح العُصْفورْ *إنْ زَلّ فوه عن جَواد مئشير

وذلكَ إذا ضربَ النّابُ الناب فسمعْتَ صَوته .

﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُمْ مَّا قَاتَلُواْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

وقوله: ﴿ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ . . . ﴾

عن أنباء العسكر الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرأها الحسنُ (يَسَّاءلون) والعَوَامّ على (يَسْألونَ) لأنهم إنما يَسْألون غيرهم عن الأخبارِ ، وليس يَسأل بعضُهم بعضاً .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾

وقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ . . . ﴾

كان عاصم بن أبى النَجُود يقرأ (أُسْوة) برفع الألف فى كلّ القرآن وكان يحيى بن وثّاب يرفع بعضاً ويكسر بعضاً . وهما لغتان: الضمْ فى قيس . والحسنُ وأَهْل الحجاز يقرءونَ (إسْوَةٌ) بالكسر فى كلّ القرآن لا يختلفون . ومعنى الأُسوة أنهم تَخلّفوا عنه بالمدينة يوم الخندق وهم فى ذلك يحبّون أن يظفر النّبىُّ صلى الله عليه وسم إشفاقاً على بلدتهم ، فقال: لقد كَانَ فى رَسُول الله أُسْوة حَسَنة إذ قاتل يوم أُحُد . وذلك أيضاً قوله ﴿ يَحْسَبُون الأحزْابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ فهم فى خَوف وفَرَق ﴿ وإنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فى الأَعراب ﴾ (يقول فى غير المدينة) وفى فى قراءة عَبد الله (يحسبونَ الأحزابَ قد ذهبُوا ، فإذا وجدوهم لم يذهَبُوا وَدُّوا لو أنهم بادُونَ فى الأعراب) .

وقوله ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ ﴾ خَصَّ بهَا المؤمنين . ومثله فى الخصوص قوله: ﴿ فَمَنْ تَعَجّلَ فِى يَوْمَيْنِ فلاَ إثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إثمَ عَليه ﴾ هذا ﴿ لمنْ اتّقَى ﴾ قتل الصيَّد .

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُواْ هَاذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾

وقوله: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ . . . ﴾

صَدَّقوا فقالوا ﴿ هَاذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ كان النبى عليه السلام قد أخبرهم بمسِيرهم إليه فذلك قوله ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ ولو كانت وما زادوهم يريد الأحزاب .

وقوله: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً ﴾ أى مَا زادهم النظر /١ إلى الأحزاب إلاّ إيماناً .

(67/615)

وقال فى سورة أُخرى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ ولو كانت: مَا زادكم إلا خبَالاً كان صَوَاباً ، يريد : ما زادكم خروجهم إِلاَّ خَبَالاً . وهذا من سعة العربيَّة التى تَسْمَع بها .

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾

وقوله: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ . . . ﴾

رفع الرجال بـ (مِنْ) ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ ﴾ : أجله . وهذا فى حمزة وأَصْحَابه .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾

وقوله: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ . . . ﴾

وقد كانوا طمِعُوا أَنْ يَصْطلمُوا المسلمين لكثرتهم ، فسَلَّط الله عليهم ريحاً باردةً ، فمنعت أحدهم من أن يُلجم دابّته . وجَالت الخيل فى العسكر ، وتقطعتْ أطْنابهم فهزمهم الله بغير قتال ، وضربتهم الملائكة .

فذلك قوله: ﴿ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عليهمْ رِيحاً وجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ يعنى الملائكة .

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . . . ﴾

هؤلاء بنو قُرَيظة . كانوا يهوداً ، وكانوا قد آزروا أهل مَكّة عَلَى النبىّ عليه السلام . وهى فى قراءة عبد الله (آزروهم) مكان ﴿ ظاهروهم ﴾ ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ : من حُصُونهم . وواحدتها صِيصِية وهى طَرَف القَرْن والجَبَل . وصيصية غير مهموز .

وقوله: ﴿ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ يعنى قَتْل رجالهم واستبقاءَ ذرارِيّهم .

وقوله: ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ كلّ القُرّاء قد اجتمعُوا على كسر السين . وتأسُرُون لغة ولم يقرأ بها أحد .

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾

وقوله: ﴿ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا . . . ﴾

عَنَى خَيْبَر ، ولم يكونوا نالوها ، فوعدهم إيّاها الله .

﴿ يانِسَآءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾

وقوله: ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ . . . ﴾

اجتمعت القراء على قراءة ﴿ مَن يَأْتِ ﴾ بالياء واختلفوا فى قوله: ﴿ وَيَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ فقرأها عاصم والحسَن وأهلُ المدينة بالتاء : وقرأها الأعمش وأبو عبد الرحمن السُلَمىّ بالياء . فالذين قرءوا بالياء أتْبعوا الفعْل الآخر بـ ﴿ يَأْتِ ﴾ إذْ كان مذكّرا . والذينَ أنّثوا قالوا لمَّا جاء الفعل بعدهُنَّ عُلِم أنه للأنثى ، فأخرجنَاهُ على التأويل . والعرب تقول: كم بيع

لك جاريةً ، فإذا قالوا : كم جاريةً بيعت لك أنّثوا ، والفعل فى الوجهين جميعاً لكُمْ ، إلاّ أن الفعل لمّا أتى بعد الجارية ذُهِب به إلى التأنيث ، ولو ذكّر كان صواباً ، لأنَّ الجارية مفسّرةٌ ليسَ الفِعْلُ لها ، وأنشدنى بعض العرب:

أيام أم عمرٍو من يكن عقرَ داره * جواءٌ عدىٍّ يأكل الحشرات

ويسود من لفح السّموم جَبينه * ويَعْرَ وإن كانوا ذوى بكرات

وجواءَ عَدِىٍّ .

قال الفراء : سمعتها أيضاً نصباً ولو قال: (وإن كان) كانَ صَوَاباً وكل حَسَنٌ .

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾

وقوله: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ . . . ﴾

بالياء لم يختلف القراء فيها .

وقوله: ﴿ نُّؤْتِهَا ﴾ قرأَها أهل الحجاز بالنون . وقرأها يحيى بن وثّاب والأعمش وأبو عبد الرحمن السُلمىّ بالياء .

(69/615)

﴿ يانِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾

وقوله: ﴿ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ . . . ﴾

يقول: لا تُلَيِّن القول ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى الفجور ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ : صَحِيحاً لا يُطمِع فاجراً .

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾

[قوله]: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ . . . ﴾

من الوقارِ . تقول للرَّجل: قد وَقَرَ فى منزله يقِر وُقوراً . وقرأ عاصم وأهل المدينة (وَقَرْنَ) بالفتح . ولا يكون ذلك من الوقار ، ولكنا نُرى أنهم أرادوا : وَاقْرَرْن فى بيوتكنّ فحذفوا الرَّاء الأولى ، فحوّلت فتحها فى القاف ؛ كما قالوا : هل أحَسْتَ صاحبك ، وكمَا قال ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ يريد : فظِلْتم .

ومنَ العَرب من يقول: واقرِرْن فى بيوتكُنّ ، فلو قال قائل: وقِرنَ بكسر القاف يريد واقرِرن / ب بكسر الراء فيحوّل كسرة الراء (إذا سقطت) إلى القاف كان وجهاً . ولم نجد ذلك فى الوجهيْن جَميعاً مستعملاً فى كلام العرب إلاّ فى فعلت وفعلتم وفعلنَ فأمّا فى الأمر والنهى

المستقبل فلا . إلا أنا جوّزنا ذلكَ لأنَّ اللام فى النسوة ساكنة فى فعلن ويفعلنَ فجازَ ذلك .

وقد قال أعرابىّ من بنى نُمَير: يَنْحَطْنَ من الجَبَل يريد : ينحطِطن . فهذا يقوّى ذلك .

(70/615)

وقوله: ﴿ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ قال: ذلك فى زمنٍ ولد فيه إبراهيم النبىّ عليه السلام . كانت المرأة إذ ذاك تلبس الدِّرعَ من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين . ويقال: كانت تلبس الثياب تبلغ المال لا توارى جَسَدَها ، فأُمرن ألاّ يفعلن مثل ذلك .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ والصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . . . ﴾

ويقول القائل: كيف ذكر المسلمين والمسلمات والمعنى بأحدهما كافٍ ؟

وذلك أنَّ امرأة قالت: يا رسول الله: ما الخير إلاّ للرجال . هم الذين يؤمرون ويُنهون .

وذكرتْ غير ذلك من الحجّ والجهاد فذكرهن الله لذلك .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . . . ﴾

(71/615)

نزلت فى زينب بنت جَحْش الأسَدية . أراد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يزوّجها زيد بن حارثة ، فذكر لها ذلك ، فقالت: لا لعمر الله ، أنا بنت عمّتك وأَيِّم نساء قريش . فتلاَ عليها هذه الآية ، فَرضيت وسَلَّمتْ ، وتزوَّجها زيد . ثم إن النبى عليه السلام أتى منزل زيدٍ لحاجةٍ ، فرأى زينب وهى فى دِرْعٍ وخمارٍ ، فقال: سُبحانَ مقلِّب القلوب . فلمَّا أتى زَيْدٌ أَهْله أخبرته زينب الخبر ، فأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم يشكوها إليه . فقال: يا رسول الله إنَّ فى زينب كِبْراً ، وإنها تؤذينى بلسانها فلا حاجة لى فيها . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: اتّق الله وأَمسك عَليك زوجك . فأبى ، فطلَّقها ، وتزوّجها النبى عليه السلام بعد ذلك ، وكان الوجْهَان جميعاً : تزوجَها زيد والنبى عليه السلام من بَعْد ، لأن الناس كانوا يقولُون: زيد بن محمدٍ ؛ وإنما كان يتيما فى حِجره . فأراهم اللهُ أنه ليس لَهُ

بأبٍ ، لأنه قد كان حَرَّم ان ينكح الرجلُ امرأة أبيه ، أو أن ينكح الرجلُ امرأة ابنه إذا دخل بها .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾

وقوله: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ . . . ﴾

مِنْ تزويجها ﴿ مَا اللَّهُ ﴾ مظهره . ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ يقول: تستحى من الناس ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ ﴾ أن تستحى منه .

ثم قال: ﴿ لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾ .

(72/615)

﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

وقوله: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ . . . ﴾

من هذا ومن تسع النسوة ، ولم تحلّ لغيرِه وقوله: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ يقول: هذه سُنّة قد مضت أيضاً لغيرك . كان لداوود ولسليمانَ مِنَ النساء ما قد ذكرناه ، فُضّلا به ، كذلكَ أنت .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾

ثم قال: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ . . . ﴾

فضَّلناهم بذلكَ ، يعنى الأنبياء . و (الذين) فى موضع خفضٍ إن رددته عَلَى قوله: ﴿ سُنَّةَ اللهِ فى الذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ وإن شئت رفعت عَلَى الاستئناف . ونَصْبُ السُنَّة على القطع ، كقولك: فعل ذلكَ سنُة . ومثله كثير فى القرآن . وفى قراءة عبد الله: (الَّذِينَ بَلَّغُوا رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ) هذا مثل قوله: ﴿ إِنَّ الذينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ ﴾ يُرَدّ يفعل على فعَل ، وفعَل عَلَى يفعل . وكلّ صواب .

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَاكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

وقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . . . ﴾

دليل عَلَى أمر تزوُّج زينب ﴿ وَلَاكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ مَعْنَاهُ: ولكن كانَ رسول الله . ولو رفعت على: ولكن هو رسولُ الله كان صَوَاباً وقد قرئ به . والوجه النصب .

وقوله: ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ كسرها الأعمش وأهل الحجاز ، ونصبها - يعنى التاء - عاصم والحسن وهى فى قراءة عبد الله: (ولكن نبيّاً خَتَم النبيّين) فهذه حجّةٌ لمنْ قَالَ ﴿ خاتِم ﴾ بالكسر ، ومن قال ﴿ خاتَمَ ﴾ أرد هو آخر النبيّينَ ، كما قرأ عَلقمة فيما ذُكِرَ عنه (خاتَمُهُ مِسْكٌ) أى آخره مسك . حدثنا أبو العباس ، قال: حدثنا محمد ، قال: حدثنا الفراء ، قال: حدثنا أبو الأحوص سَلاَّم ابن سُليم عن الأشعَث بن ابى الشعْثاء المحاربىّ قال: كانَ عَلقمة يقرأ (خاتَمُهُ مِسْكٌ) ويقول: أمَا سمعتَ المرأة تقول للعطّار: اجْعل لى خاتمهُ مِسْكاً أى آخره .

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ . . . ﴾

يغفر لكم ، ويَستغفر لكم ملائكته .

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ

حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

وقوله: ﴿ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ . . . ﴾

وفى قراءة عبد الله (وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ واللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ) فقد تكون المهاجرات من بنات الخال الخالة ، وإن كان فيه الواو ، فقال: (واللاتِى) . والعرب تنعَت بالواو وبغير الواو كما قال الشاعر:

(74/615)

فإنَّ رُشيداً وابنَ مَرْوان لم يكن * ليفعل حتّى يُصدر الأمرَ مُصْدَرَا

وأنت تقول فى الكلام: إن زرتنى زرتُ أخاك وابن عمّكَ القريب لك ، وإن قلتَ: والقريب لكَ كان صوابًا .

وقوله ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً ﴾ نصبتها بـ ﴿ أَحْلَلْنَا ﴾ وفى قراءة عَبد الله ﴿ وَامْرَأَةٌ مُّؤْمِنَةٌ وَهَبَتْ ﴾ ليسَ فيها (أن) ومعناهُمَا واحد ؛ كقولك فى الكلام: لا بأسَ أن تستَرِقَّ عبداً وُهبَ لكَ ، وعبداً إن وُهب لك ، سواء . وقرأ بعضهم ﴿ أَنْ وَهَبَتْ ﴾ بالفتح عَلَى قوله: ﴿ لا جناح عليه أن ينكحها ﴾ فى أن وهبت ، لا جناح عَليه فى هبتها نفسها . ومن كسر جعله جزاء . وهو مثل قوله ﴿ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ ﴾ و ﴿ إِنْ

صَدُّوكُمْ ﴾ ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ ﴾ مكسورة لم يُختَلف فيهَا .

وقوله ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ يقول: هذه الخصلة خالصة لك ورُخصة دون المؤمنين ، فليسَ للمؤمنِين أن يتزوَّجُوا امرأة بغير مهر . ولو رفعتْ (خالصة) لك عَلَى الاستئناف كَان صَوَاباً ؛ كما قال ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ ﴾ أى هذا بلاغ: وما كان من سُنّة الله ، وصبغة الله وشبهه فإنه منصوب لاتصاله بمَا قبله على مذهب حقّاً وشبهه . والرفع جَائز ؛ لأنه كالجواب ؛ ألا ترى أن الرجل يقول: قد قام عبد الله ، فتقول: حقّا إذا وصلته . وإذا نويت الاستئناف رفعته وقطعته ممّا قبله . وهذه محض القطع الذى تسمعه من النحويينَ .

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ﴾

وقوله: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ . . . ﴾

(75/615)

بهمز وغير همز . وكلّ صواب ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ هذا أيضاً ممّا خُصّ به النبىّ صَلى الله عَليه وسلم: أن يجعل لمن أحبّ منهنّ يوماً أو أكثر أو أقلّ ، ويعطّل مَنْ شاء منهنّ

فلا يأتيه . وقد كان قبل ذلك لكلّ امرأة من نسائه يوم وليلة .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ يقول: إذا لم تجعل لواحدة منهنّ يوماً وكنّ فى ذلك / ب سواء ، كان أحرى أن تطيب أنفسهنّ ولا يحزَنّ . ويقال إذا علمن أن الله قد أباح لك ذلك رضِين إذْ كان من عند الله . ويقال: إنه أدنى أن تقرّ أعينهنّ إذا لم يحلّ لك غيرهنّ من النساء وكلّ حَسَن .

وقوله: ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ رفْع لا غير ، لأن المْعنَى: وترضى كلّ واحدة . ولا يجوز أن تجعل ﴿ كلّهن ﴾ نعتاً للهاء فى الإيتاء ؛ لأنه لا مَعنى له ؛ ألا ترى أنك تقول: لأكرمنّ القوم ما أكرمونى أجمعينَ ، وليسَ لقولك ﴿ أجمعونَ ﴾ معنىً . ولو كان له مَعنى لجازَ نصبه .

(76/615)

﴿ لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَالِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾

قوله: ﴿ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ. . . ﴾

(أَنْ) فى موضع رفع ؛ كقولك: لا يحلّ لَكَ النّسَاءُ والاستبدال بهنّ . وقد اجتمعت القراء على ﴿ لاَّ يَحِلُّ ﴾ بالياء . وذلكَ أنَّ المْعنَى: لا يحلّ لك شىء من النساء ، فلذلك اختير تذكير الفعل . ولو كان المعنى للنساء جَميعاً لكان التّأنيث أجود فى العربيّة . والتاء جَائزة لظهور النساء بغير مِنْ .

(77/615)

وقوله: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ فغير منصوبة لأنها نعت للقوم ، وهم معرفة و (غير) نكرة فنُصبت على الفعل ؛ كقوله ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ ﴾ ولو خفضت ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ ﴾ كَانَ صَوَاباً ؛ لأنَّ قبلَها ﴿ طعامٍ ﴾ وهو نكرة ، فتجعل فعلهم تابعاً للطعام ؛ لرجوع ذكر الطعام فى (إِنَاهُ) كَمَا تقول العرب: رأيت زيداً مع امرأة محسنٍ إليها ،

ومحسناً إليها . فمن قال: ﴿ محسناً ﴾ جعله من صفة زيد ، ومَن خفضه فكأنه قال: رأيت زيداً مع التى يُحْسن إليها . فإذا صَارت الصلة للنكرة أتبعتها ، وإن كان فعلاً لغيرهَا . وقد قال الأعشى:

فقلت له هذه هَاتِهَا * فجاء بأدماءَ مقتَادِهَا

فجعل المقتاد تابعَا لإعراب الأدماء ؛ لأنه بمنزلة قولك: لأدماء يقتادهَا ؛ فخفضته لأنه صلة لها . وقد ينشد بأدماءِ مقتادِهَا تخفض الأدماء لإضافتها إلى المقتاد . ومعناه: بملء يَدىْ من اقتادها ومثله فى العربية أن تقول: إذا دعوتَ زيداً فقد استغثت بزيدٍ مستغِيثِه . فمعنى زيد مدح أى أنه كافى مسْتغيثِه . ولا يجوز أن تخفض على مثل قولك: مررت على رجل حَسَنِ وجهه ؛ لأن هذا لا يصلح حتى تسقط راجع ذكر الأول فتقول: حسن الوجه . وخطأ أن تقول: مررت على امرأة حسنِة وجهِها وحسنِة الوجه صواب .

(78/615)

وقوله: ﴿ وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ ﴾ فى موضع خفض تُتبعه الناظِرين ؛ كما تقول: كنت غير قائم ولا قاعدٍ ؛ وكقولك للوصىّ: كُلْ من مال اليتيم بالمعروف غيرَ متأثّل مالا ، ولا واقٍ مالكَ بماله . ولو جعلت المستأنسينَ فى موضع نصب تتوهّم أن تُتبعهُ بغير لمّا أن حُلْت بينهما

بكلام . وكذلك كلّ معنىً احْتمل وجهين ثم فرّقت بينهما بكلام جَاز أن يكون الآخر معرباً بخلاف الأوّل . من ذلك قولكَ: ما أنت بمحسن إلى مَن أحسن إليك لا مُجْمِلاً ، تنصب المُجْمِل وتخفضه: الخفضُ عَلَى إتباعه المحسن والنصبُ أن تتوهم أنك قلت: ما أنت مُحسناً . وأنشدنى بعض العرب:

ولستُ بذى نَيْربٍ فى الصديق * ومنّاعَ خَيرٍ وسبّابهَا

ولا من إذا كان فى جانب * أضاع العشيرة واغتابها

وأنشدنى أبو القماقم:

أجِدُّكَ لستَ الدهرَ رائىَ رامةٍ * ولا عاقلٍ إلاّ وأنت جَنيب

ولا مصعدٍ فى المُصْعدين لمَنْعجٍ * ولا هابطاً ما عشت هَضْب شَطِيب

وينشد هذا البيت:

مُعَاوِىَ إننا بَشَرٌ فَأَسجحْ * فلسنا بالجبالِ ولا الحديدَا

وينشد (الحديدا) خفضاً ونصباً . وأكثر ما سمعته بالخفض . ويكون نصب المسْتأنسينَ على فعْلٍ مضمرٍ ، كأنه قال: فادخلوا غير مستأنسينَ . ويكون مع الواو ضميرُ دخولٍ ؛ كما تقول: قم ومطيعاً لأبيك .

والمعنى فى تفسير الآية أنّ المسْلمينَ كانوا يدخلون على النبىّ عليه السلام فى وقت الغَدَاء ، فإذا طعِمُوا أطالوا الجلوس ، وسَألوا أزواجَهُ الحوائج . فاشتدّ ذلك على النبىّ صَلى الله عليه وسلم ، حَتّى أنزل الله هذه الآية ، فتكلّم فى ذلكَ بعضُ الناس ، وقال: أننهى أن ندخل عَلَى بناتِ عَمّنَا إلاّ بإذنٍ ، أو من وَراء حجَاب . لِئنَ مَات محمد لأَتزوّجَنّ بعضهنّ . فقام الآباء أبو بكرٍ وذووه ، فقالوا: يا رسول الله ، ونحن أيضاً لا ندخل عليهنّ إلاّ بإذنٍ ، ولا نسألهنّ الحوائج إلاّ من وراء حجاب ، فأنزل الله ﴿ لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فى آبَائِهِنّ ﴾ إلى آخر الآية . وأنزل فى التزويج ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبداً ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ . . . ﴾

نزلت فى أهل الفسق والفجور ، وكانوا يتّبعونَ الإمَاء بالمدينة فيَفجُرونَ بهنّ ، فكان المسلمونَ فى الأَخْبِية لم يَبْنُوا ولم يستقرّوا . وكانت المرأة منْ نساء المسلمينَ تتبرّز للحاجة ، فيعرض لها بعض الفجّار يُرى أنها أمَة ، فتصيح به ، فيذهب . وكان الزّىُّ واحداً فأُمر النبىُّ عليه السلام ﴿ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ونساء المؤمنين يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ والجِلبابُ: الرداء .

حَدثنا أبو العبّاس قال حدثنا محمد قال: حدّثنا الفرّاء ، قال حدّثنى يحيى بن المُهَلَّب أبو كُدَيْنة عن ابن عون عن ابن سِيرين فى قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنّ﴾ .

(80/615)

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذَالِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

وقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ . . . ﴾

هكذا: قال تُغَطّى إحدى عينيهَا وجبهتَها والشّقّ الآخر ، إلاّ العين .

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

وقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ . . . ﴾

المرجفون كانوا من المسْلمين . وكان المؤلّفة قلوبهم يُرجفون بأهل الصُّفَّة . كانوا يشنّعون على أهل الصُّفَّة أنهم هم الذين يتناولُونَ النساء لأنهم عُزَّاب . وقوله ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أى لنسلّطَنّك عليهم ، ولنُولعنّك بهم . وقوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً . . . ﴾

حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال ب حدّثنا الفرّاء قال: حدّثنى حِبّان عن الكلبىّ

عن أبى صالح قال قال ابن عبَّاس لا يجاورونكَ فيها إلا يسيراً ، حتَّي يهلكوا . وقد يجوز أن تجعل القلّة من صفتهم صفة الملعونين ، كانك قلت: إلا أقِلاّءَ ملعونين ؛ لأنَّ قوله ﴿ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا ﴾ يدلّ على انهم يَقِلُّون ويتفرّقون .

﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾

وقوله: ﴿ مَّلْعُونِينَ . . . ﴾

منصوبة على الشتم ، وعلى الفعل أى لا يجاورنكَ فيها إلاّ ملعونين . والشتم على الاسْتئناف ، كما قال: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ لمن نصبه . ثم قال ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا ﴾ فاستأنف . فهذا جزاء .

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾

وقوله: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ . . . ﴾

(81/615)

والقراء على ﴿ تُقَلَّبُ ﴾ ولو قرئت ﴿ تَقَلَّبُ ﴾ و ﴿ نُقَلَّبُ ﴾ كانا وجهين .

وقوله: ﴿ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾ يوقف عليها بالأِلف . وكذلكَ ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾ و ﴿ الظُّنُونَا ﴾ يوقف على الألف ؛ لأنها مثبتة فيهِنّ ، وهى مع آيات بالألف ، ورأيتها فى

مصَاحف عبد الله بغير ألف . وكان حمزة والأعمش يقفان عَلَى هؤلاء الأحرف بغير ألفٍ فيهنَّ . وأهلُ الحجاز يقفون بالألف . وقولهم أحبّ إلينا لاتّباع الكِتاب . ولو وُصلت بالألف لكان صوَاباً لأن العرب تفعل ذلكَ . وقد قرأ بعضهم بالألف فى الوصل والقطع .

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا . . . ﴾

واحدة منصوبة . وقرأ الحسن (سَاداتنا) وهى فى موضع نصبٍ .

﴿ رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾

وقوله: ﴿ لَعْناً كَثِيراً . . . ﴾

قراءة العوامّ بالثاء ، إلاّ يحيى بن وثّاب فإنه قرأها (وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً) بالباء . وهى فى قراءة عبد الله . قال الفراء : لا نجيزه . يعنى كثيراً .

﴿ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

وقوله: ﴿ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ . . . ﴾

بالنصب عَلَى الإتباع وإن نويت به الائتناف رفعتة ، كما قال ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فى الأَرْحَامِ ﴾ إلا إن القراءة (وَيَتُوبَ) بالنصب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 333 . 351 ﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الأحزاب

(يا أيها النبي اتق الله) [1] أي: أكثر من التقوى . وقيل: أدمها . (ولا تطع الكافرين) فيما سألته وفد ثقيف أن يمتعوا باللات سنة . (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) [4] أي: اعتقادين . وقيل: نزلت في رجل قال: لي نفس تأمرني بالإسلام ، ونفس تنهاني . وفي معناه للفرزدق: 944- فلو كنت ذا نفسين خاطرت مقبلاً بإحداهما من دونك الموت أحمرا 945- فإن هلكت إحداهما عشت بعدها بأخرى عست نفسي بها أن تعمرا . الآخر: 946- ولو كان [لي] قلبان عشت بواحد وأفردت قلباً في هواك يعذب 947- ولكنما أحيا بقلب [مروع] فلا العيش يصفو لي ولا الحب يقرب

ثم نقض الفرزدق هذا القول في أخرى فقال: 948- لكل امرئ نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها 949- ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أخدانهن شفيعها . (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) [6] من بعضهم ببعض . وقيل: أولى بهم فيما رآه لهم ، منهم بأنفسهم . (وأزواجه أمهاتهم) في التحريم وفي التعظيم .

(ليسئل الصادقين عن صدقهم) [8] ألله كان ذلك [أم الدنيا] . [أو] ليسأل الأنبياء عن تبليغهم . (إذ جاءتكم جنود) [9] لما أجلى النبي عليه السلام يهود بني النضير عن ديارهم ، اجتمعوا وقدموا مكة ، وحزبوا الأحزاب ، وتذكر قريش طوائلهم يوم بدر ، وقائدهم/أبو سفيات وقائد غطفان عيينة بن حصن ، وصار المشركون كلهم يداً واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان قد وادع بني قريظة ، وهم أصحاب حصون بالمدينة ، [فاحتال لهم حيي بن أخطب ، ولم يزل يفتلهم في الذروة والغارب حتى نقضوا العهد ، فعظم البلاء ، فأشار سلمان بالمقام بالمدينة] وأن يخندق .

(83/615)

(فأرسلنا عليهم ريحاً) [9] كانت ريح صبا تكب القدور وتطير الأخبية . (إذ جاءوكم من فوقكم) [10] عيينة في أهل نجد . و(أسفل منكم) أبو سفيان في قريش بجميع عددهم وعددهم . (زاغت الأبصار) شخصت . ويقال: حارت . وقيل: زاغت ، أي: عن النظر إلى كل شيء [إلا] [إلى عدوها] .

(وبلغت القلوب الحناجر) لشدة الرعب والخفقان ، فإن الحياة تنبع من القلب في الشرايين فينبض به ، والخفقان حركة للقلب غير معتادة ، يحس بها صاحبه حتى يقال: إنه يخرج

فيها عن [غشائه] ، وكان بلوغ القلوب الحناجر منه . كما قال زهير: 950- يصعد من خوفها الفؤاد فما يرقد بعض الرقاد صاحبها . وقيل: معنى بلغت كادت تبلغ ، إذ القلب لو زال عن موضعه لمات صاحبه . وأفسد ابن الأنباري هذا التأويل ، وقال: كاد لا يضمر ألبتة ولو جاز إضماره لجاز "قام زيد" بمعنى كاد يقوم ، فيصير تأويل "قام زيد": لم يقم زيد . والتأويل صحيح غير فاسد ، لأن إضمار "كاد" أكثر من أن يحصى ، ولكنه بحسب الموضع المحتمل ، ودلالة الكلام .

ألا ترى أنك تقول: أوردت عليه من الإرهاب ما مات عنده ، أي: كاد يموت ، ومنه قول جرير: 951- إن العيون التي في طرفها مرض يقتلننا ثم لا يحيين قتلانا 952- [يصرعن] ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا . أي: كدن يقتلننا ويصرعن .

(وتظنون بالله الظنونا) [10] هذه الألف لبيان/الحركة .

وكذلك في قوله: (الرسولا) و(السبيلا) ، لأنه لو وقف بالسكون لخفي إعراب الكلمة ، فيوقف بالألف ، كما يوقف بها في قوافي الشعر ، وكما تدخل الهاء لبيان الحركة في: (ماليه) و(حسابيه) . (وإذ قالت طائفة منهم) [13] وهم بنو سليم . (يا أهل يثرب) وهي المدينة . وقيل: المدينة بعض منها . (يقولون إن بيوتنا عورة) وهم بنو حارثة .

(ثم سئلوا الفتنة) [14] الرجوع عن الدين . (وما تلبثوا) أي: عن الإجابة إلى الفتنة (إلا يسيرا) وقيل: ما تلبثوا حتى يهلكوا . (هلم) [18] أصله "لم" أي: لم بنا ، ثم دخلت عليها هاء التنبيه ، فصار "هالم" ، فحذفت الألف تخفيفاً . (أشحة عليكم) [19] أي: [بالخير] والمواساة . (سلقوكم) بلغوا في أذاكم بالكلام الموحش كل مبلغ . (أسوة حسنة) [21]

أي: حسن مواساة ومشاركة ، إذ قاتل يوم أحد حتى [جرح ، وقتل عمه] وخاصته .

([فمنهم] من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) [23] أي: الموت . قال بشر بن أبي خازم:

953- [قضى] نحب الحياة وكل حي إذا يدعى لميتته أجابا . وقيل: قضى نذره ، ويجوز أن يكون نذر صدق القتال ، وحسن العناء ، كما قال كعب بن مالك الأنصاري: 954- قضينا من تهامة كل نحب وخيبر ثم أجممنا السيوفا

955- [نخيرها] فلو نطقت لقالت [قواطعهن] دوساً أو ثقيفا . وقيل: قضى نحبه ، أي: قضى حاجته وبلغ هواه ، كما قال جرير: 956- بطخفة جالدنا الملوك وخيلنا عشية [بسطام] جرين على [نحب] . (وكفى الله المؤمنين القتال) [25]

[لما] اشتد الخوف يوم الأحزاب أتى نعيم بن مسعود /مسلماً من غير أن علم قومه ، فقال عليه السلام: "إنما أنت فينا رجل واحد وإنما غناؤك أن تخادع عنا ، فالحرب خدعة" .

فخرج حتى أتى بني قريظة ، وكان نديمهم ، فذكرهم وده ، وقال: إن قريشاً وغطفان من [الطارئين] على بلادكم ، فإن وجدا نهزة وغنيمة أصابوها ،

(85/615)

وإلا لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ، ولا قبل لكم به ، فلا [تقاتلوا] حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم ، ليناجزوا القتال . ثم أتى قريشاً وغطفان فذكرهم وده لهم ، فقال: بلغني أمر أنصحكم فيه ، فاكتموا علي ، إن معشر اليهود ندموا ، وترضوا محمداً على أن يأخذوا منكم أشرافاً ويدفعوهم إليه ، ثم يكونون معه عليكم . فوقع ذلك من القوم ، وأرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة: أنا لسنا بدار مقام ، وهلك الخف والحافر ، فلنناجز محمداً فطلبوا رهناً ، [فقالت] قريش وغطفان: إن حديث نعيم لحق . وتخاذل القوم ، واتهم بعضهم بعضاً (وكفى الله المؤمنين القتال) . (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) [26] من حصونهم .

عن قتادة: نزل جبريل ورسول الله في بيت زينب بنت جحش ، يغسل رأسه ، فقال: عفا الله عنك ، ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة ، [فانهد] إلى بني قريظة ، فإني قطعت أوتارهم ، وقلعت أوتادهم ، وتركتهم في زلزال وبلبال ، فحاصرهم النبي عليه

السلام ، ثم قتل مقاتليهم ، وسبى ذراريهم . (تردن الحياة الدنيا وزينتها) [28] قال الحسن: تطلعت نفس بعض نسائه إلى الدنيا ، فنزلت الآية .

(يضاعف لها العذاب) [30] لأن النعمة عندهن بصحبة الرسول/أعظم ، والحجة عليهن ألزم . وقال أبو عمرو: أقرأ بالتشديد للتفسير بضعفين ، ولو كان مضاعفة لكان العذاب ثلاثاً أو أكثر . وبينه أبو عبيدة فقال: التضعيف: جعل الشيء ضعفين ، والمضاعفة: أن يجعل إلى الشيء شيئين . (فلا تخضعن بالقول) [32] لا تلينه . (قولاً معروفاً) صحيحاً غليظاً ، غير مؤنس مطمع .

[(وقرن) [33] من] وقر يقر وقوراً ووقاراً ، إذا سكن واطمأن ، أي: كن ذوات وقار فلا تخففن بالخروج من البيوت . ويجوز من قر بالمكان يقر . وكان اقررن فتركوا حرفاً من التضعيف ، كما قالوا: "ظلت" في "ظللت" . ثم نقلوا حركته إلى القاف ، واستغنوا عن [ألف] الوصل فصار "قرن" ، وإن شئت قرن ، كما قرئ (ظلت عليه عاكفاً) بالكسر والفتح .

(86/615)

(ولا تبرجن) [33] لا تظهرن المحاسن . وقيل: لا تمشين بين يدي الرجال . (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله) [36] في زينب بنت جحش وكانت ابنت عمة رسول الله ، خطبها لزيد بن حارثة ، فامتنعت وأخوها عبد الله .

(وإذ تقول للذي أنعم الله عليه) [37] أيضاً فيها . (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) من الميل إليها وإرادة طلاقها . وقال الحسن: هو ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته . (فلما قضى زيد منها وطراً)

أي: من طلاقها ، عن قتادة . وعن مقاتل: من نكاحها . والرواية الصحيحة: ما حدث أنس أنه خطبها لرسول الله ، ثم قبل العقد ، خطبها لزيد ، لما كان من أمر زيد ، واختيار رسول الله على أبيه ، وقول رسول الله: آثرني على [أبيه] ، فسأوثره على ما أخطب لنفسي ، وأزوج منه ابنت [عمتي] ، لئلا يسبقني أحد إلى فضل ، فأجابت المرأة على كراهة شديدة ، وما وافقتها صحبته/ ، [لما] تقدم لها من رغبة رسول الله فيها . وأوحى الله إليه [لتنكحنها ولتصيرن] من أمهات المؤمنين ، فذلك الذي كان يخفيه عن زيد حياءً ، إلى أن أمره الله .

(وكان أمر الله قدراً مقدوراً) [38] جارياً على تقدير وحكمة . (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) [40] الحسن والحسين إذ ذاك [لم] يكونا رجلين . (ودع أذاهم) [48] اصبر . وقيل: لا تحزن ، وكلهم إلينا فأنا حسبك وحسيبهم .

(من عدة تعتدونها) [49] تفتعلون من العد ، أي: تحسبونها ، عددت واعتددت ، مثل: حسبت واحتسبت . (ترجي) [51] تؤخر . (وتئوي) تضم . ومعناهما : الطلاق والإمساك . وقال الحسن: النكاح وتركه . (ومن ابتغيت ممن عزلت) [51] أي: طلبت إصابته بعد العزل (فلا جناح) .

(87/615)

(ذلك أدنى أن تقر أعينهن) أي: إذا علمن أنك لا تطلقهن ، وأنك لا تتزوج عليهن . (لا يحل [لك] النساء من بعد) [52] أي: من بعد هؤلاء التسع ، والمعنى فيه أنه لما خيرهن فاخترنه ، أمر أن يكتفي بهن . وإنما جاء لا يحل بالياء للذهاب إلى الجمع في النساء ، لا الجماعة ، أو إلى ضمير مضاف محذوف . كأنه: لا يحل لك نكاح النساء ، أو جميع النساء ، أو شيء من النساء . (غير ناظرين إناه) [53] غير منتظرين حينه ووقته . (ذلك أدنى أن يعرفن) [59] أي: الحرة من الأمة . وقيل: الصالحات من المتبرجات .

(ءاذوا موسى) [69] اتهموه بقتل هارون ، فأحياه الله فبرأه ثم مات . (إنا عرضنا الأمانة) [72] على طريق المثل والاستعارة ، أي: لو كانت السموات والأرض من أهل الأمانة ، لأشفقن منها مع عظيم هيئتها ، ووثاقة [بنيتهما] ، كما قال/:

957- أما وجلال الله لو تذكرينني [كذكريك] ما نهنهت للعين مدمعا 956- فقالت: بلى والله ذكراً لو أنه تضمنه صم [الصفا] لتصدعا . إلا أن الشعر وأمثاله معلق بشرط "لو يكون" ، فيجوز أن يقال: إنه لا يكون . وعرض الله الأمانة قد كان ، لأنه من المحال أن يقول: (عرضنا الأمانة) ، ولم يعرضها لا مجازاً ولا حقيقة . فعند ذلك يقدر محذوف في (فأبين) ، أي: فأبين خيانتها بدليل قوله عز وجل: (قالتا أتينا طائعين) . وتكون الأمانة ما أودعها الله في العالم من دلائل التوحيد أن يظهروها ، فأظهروها ، [إلا] الإنسان فإنه جحدها ، وحمل الخيانة فيما حمل من الأمانة .

(88/615)

أو يقال: إن هذا العرض ، بمعنى المعارضة ، أي: عورضت السموات والأرض ، وقويست بثقل الأمانة ، فكانت الأمانة أوزن وأرجح ، لعظم مقدارها ، وتغليظ أحكامها . (فأبين أن يحملنها) لم يوازنها ، (وأشفقن منها) أي: خفن ، على المجاز ، كما قيل: 959- يريد الرمح قلب أبي براء ويرغب عن دماء بني عقيل . وعن القاضي أبي القاسم الداوودي: أن هذه الأمانة هي القوى الثلاثة ، التي في الإنسان: قوة العقل ، وقوتا الشهوة والغضب ، فإنه لم يحمل جميعها من بين السموات والأرض أحد سوى الإنسان . وهذا الإنسان الضعيف

الظلوم الحامل ما [لا] تحمله السموات والأرض من هذه القوى الثلاثة المتضادة ، شبه في رموز الحكماء ببيت فيه ملك ، وخنزير وسبع ، فالملك عقله ، والخنزير شهوته ، والسبع غضبه . وقالوا : أي الثلاثة غلبت فالبيت له .

فليت عقله إذاً ثبت لمغالبة العدوين الذين يجاذبانه إلى هلاكه ختلاً ، ويساكنانه أبداً . وأما إذا كان/ناقصاً جهولاً ضعيفاً بين قويين ظلومين على ما هو الأغلب في الناس ، فهناك كل شر وفساد ، [إذ] قيل : ويل للقوي بين الضعيفين ، فكيف للضعيف بين القويين .

[تمت سورة الأحزاب] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1121.1146 ﴾

(89/615)

وقال الأخفش :

سورة (الأحزاب)

﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾

قال ﴿ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ إنَّما هُوَ "ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ" وجاءت ﴿ مِنْ ﴾ توكيدا كما تقول "رأيتُ زَيْداً نَفْسَهُ" فأدخل "مِنْ" توكيدا .

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ

وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ولكن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيماً ﴾

وقال ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ﴾ لأنك تقول "هو يُدْعَى لفلان"* .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُواْ إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُواْ ﴾ في موضع نصب واستثناء خارج.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾

وقال ﴿ الظُّنُونَا ﴾ [160] والعرب تلحق الواو والياء والالف في آخر القوافي . فشبهوا رؤوس الاي بذلك .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

وقال ﴿ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فرفعت ما بعد "إِذاً" لمكان الواو وكذلك الفاء وقال ﴿ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرا ﴾ وهي في بعض القراءة نصب اعملوها كما يعملونها بغير فاء ولا واو .

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

وقال ﴿ ولكن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ اي: ولكنْ كانَ رسولَ الله وخاتَم النبيين .

﴿ لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴾

وقال ﴿ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ فمعناه – و الله أعلم – أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ أَزْواجاً .

وأدخِلَت ﴿ مِنْ ﴾ للتوكيد .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَالِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾

وقال ﴿ وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ ﴾ فعطفه على ﴿ غَيْر ﴾ فجعله نصبا او على ما بعد ﴿ غَيْر ﴾ فجله جرا .

وقال ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ نصب على الحال أي: إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ غَيْرَ نَاظِرِينَ . ولا يكون [160 ب] جرا على الطعام الا أَنْ تقول "أَنْتُمْ" الا ترى انك لو قلت: "ائذن" لعبد الله على امرأة مبغضا لها" لم يكن فيه الا النصب الا ان تقول "مبغض لها هو" لأنك اذا اجريت صفته عليها ولم تظهر الضمير الذي يدل على ان الصفة له لم يكن كلاما . لو قلت: "هذا رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ ملازِمها" كان لحنا حتى تقول "مُلازِمُها" فترفع أو تقول "ملازِمها هُوَ" فتجر .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾

وقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ فصلاة الناس عليه دعاؤهم له ، وصلاة الله عز وجل اشاعة الخير عنه .

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

[وقال] ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أيْ: "لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلاً" على المصدر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 480.482 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الأحزاب

مدنية كلها

4 - وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ : من تبنّيتموه واتخذتموه ولدا .

يقول : ما جعلهم بمنزلة الصّلب ، وكانوا يورّثون من ادّعوه .

ذِلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ أي قولكم على التّشبيه والمجاز ، لا على الحقيقة . وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ .

5 - هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ أي أعدل وأصحّ «1» .

6 - مَسْطُورا أي مكتوبا .

10 - وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ أي عدلت وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ أي كادت تبلغ الحلوق من الخوف .

11 - وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيدا أي شدّد عليهم وهوّل . و«الزّلازل» : الشدائد . وأصلها من «التحريك» .

13 - إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ أي خالية ، فقد أمكن من أراد دخولها وأصل «العورة» : ما ذهب

عنه السّتر والحفظ ، فكأن الرجال ستر وحفظ للبيوت ،

---

(1) أخرج البخاري عن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلّا زيد بن محمد حتى نزل في القرآن : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ .

(93/615)

فإذا ذهبوا أعورت البيوت . تقول العرب : أعور منزلك ، إذا ذهب ستره ، أو سقط جداره . وأعور الفارس : إذا بدا فيه موضع خلل للضرب بالسيف او الطعن .

يقول اللّه : وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ ، لأن اللّه يحفظها . ولكن يريدون الفرار .

14 - وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها أي من جوانبها ، ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ أي الكفر - : لَآتَوْها أي أعطوا ذلك من أراده ، وَما تَلَبَّثُوا بِها أي بالمدينة .

ومن قرأ : (لأتوها) بقصر الألف ، أراد : لصاروا إليها .

19 - سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ يقول : آذوكم بالكلام [الشديد] .

يقال : خطيب مسلق ومسلاق . وفيه لغة اخرى : «صلقوكم» ، ولا يقرأ بها .

وأصل «الصّلق» : الضرب . قال ابن أحمر - يصف سوطا ضرب به ناقته - :

كأنّ وقعته - لوذان مرفقها - صلق الصّفا بأديم وقعه تير

23 - مَنْ قَضى نَحْبَهُ أي قتل . وأصل «النحب» : النذر . وكان قوم نذروا - إن لقو العدوّ - : أن يقاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح اللّه ، فقتلوا .

فقيل : فلان قضي نحبه ، إذا قتل .

مِنْ صَياصِيهِمْ أي : من حصونهم . وأصل «الصّياصي» : قرون البقر ، لأنها تمتنع بها ، وتدفع عن أنفسها . فقيل للحصون صياصي : لأنها تمنع .

30 و 31 - يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ قال أبو عبيدة : يجعل الواحد ثلاثة [لا] اثنين .

هذا معنى قول أبي عبيدة .

(94/615)

ولا أراه كذاك ، لأنه يقول بعد : وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أي يطعهما : وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ ، فهذا يدلّ على أن «الضّعفين» ثم أيضا : مثلان .

وكأنه أراد : يضاعف لها العذاب ، فيجعل ضعفين ، أي مثلين ، كلّ واحد منهما ضعف الآخر . وضعف الشيء : مثله . ولذلك قرأ ابو عمرو :

(يضعف) لأنه رأى ان «يضعف» للمثل ، و «يضاعف» لما فوق ذلك .

وهذا كما يقول الرجل : إن أعطيتني درهما كافأتك بضعفين - أي بدرهمين - فإن أعطيتني

فردا أعطيتك زوجين، يريد اثنين. ومثله:

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ [سورة الأحزاب آية: 68] أي مثلين.

32 - فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ أي فلا تلنّ القول، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ أي فجور، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً أي صحيحا: لا يطمع فاجرا.

33 - وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ من الوقار، يقال: وقر في منزله يقر وقورا.

ومن قرأ: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ بنصب القاف، جعله من «القرار».

وكأنه من «قرّ يقرّ» بفتح القاف. أراد: «أقررن في بيوتكن»، فحذف الراء الأولى، وحول فتحتها إلى القاف. كما يقال: ظلن في موضع كذا، من «أظللن» قال اللّه تعالى: فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ [سورة الواقعة آية: 65].

ولم نسمع ب «قرّ يقرّ» إلا في قرة العين. فأمّا في الاستقرار فإنما هو «قرّ يقرّ» بالقاف مكسورة. ولعلها لغة.

38 - ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ أي أحلّ اللّه له.. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ: أنه لا حرج على أحد فيما لم يحرم عليه.

42 – و(الأصيل) : ما بين العصر إلى الليل .

43 – يُصَلِّي عَلَيْكُمْ أي يبارك عليكم . ويقال : يغفر لكم .

وَمَلائِكَتُهُ أي تستغفر لكم .

آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ أي : وعورهن .

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ أي تؤخر . يهمز ولا يهمز . يقال :

أرجيت الأمر وأرجأته . وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ أي تضمّ .

قال الحسن : «كان النبي – صلّى اللّه عليه وسلّم – إذا خطب امرأة ، لم يكن لأحد أن

يخطبها حتى يدعها النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، او يتزوجها» .

ويقال : «هذا في قسمة الأيام بينهن ، كان يسوّي بينهن قبل ، ثم نزل .

[أي] توخر من شئت ، فلا تقسم له . وتضمّ إليك من شئت ، بغير قسمة» .

52 – لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ قصره على أزواجه ، وحرم

عليه ما سواهنّ ، إلا ما ملكت يمينه من الإماء .

53 – غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ أي منتظرين وقت إدراكه .

59 – يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ أي يلبسن الأردية .

60 – لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ أي لنسلطنّك عليهم ، ونولعنكّ بهم .

70 – قَوْلًا سَدِيداً أي قصدا .

72 - إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ يعني : الفرائض ، عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ بما فيها من الثواب والعقاب ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها ، وعرضت على الإنسان - بما فيها من الثواب والعقاب - فحملها .

(96/615)

وقال بعض المفسرين : «إن آدم لمّا حضرته الوفاة ، قال : يا ربّ ! من استخلف بعدي ؟ فقيل له : اعرض خلافتك على جميع الخلق ، فعرضها ، فكلّ أباها غير ولده» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 298.302 ﴾

(97/615)

وقال الغزنوى :

سورة الأحزاب

1 اتَّقِ اللَّهَ : أكثر من التقوى ، أو أدمها «1» .

وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ : فيما سألته وقد ثقيف أن يمتّعوا باللّات سنة «2» .

4 ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ : في رجل قال : لي نفس تأمرني بالإسلام ونفس تنهاني [عنه] «3» .

وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ : في زيد بن حارثة كان يدعى ابن النبي «4» صلى اللّه عليه وسلم .

---

(1) معاني القرآن للزجاج : 4/ 213 ، وتفسير الماوردي : 3/ 301 ، وتفسير البغوي : 3/ 505 ، وزاد المسير : 6/ 348 .

(2) لم أقف على هذا القول في سبب نزول هذه الآية ، وذكر الواحدي في أسباب النزول : 407 أن الآية نزلت في أبي سفيان ، وعكرمة بن أبي جهل ، وأبي الأعور السلمي ، قدموا المدينة بعد قتال أحد ، فنزلوا على عبد اللّه بن أبي ، وقد أعطاهم النبي صلى اللّه عليه وسلم الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق ، فقالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة ، وقل : إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها ، وندعك وربك . فشق على النبي صلى اللّه عليه وسلم قولهم ، فقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : ائذن لنا يا رسول اللّه في قتلهم فقال : إني قد أعطيتهم الأمان ، فقال عمر : اخرجوا في لعنة اللّه وغضبه ، فأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عمر أن يخرجهم من المدينة ، وأنزل اللّه عز وجل هذه الآية .

وأورده الحافظ في الكافي الشاف : 132 ، وقال : «هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند» .

(3) ما بين معقوفين عن «ج» و«ك» .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 118 عن قتادة ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 302 عن الحسن ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 561 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن الحسن .

(4) ينظر صحيح البخاري : 6/ 22 ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، وصحيح مسلم : 4/ 1884 ، كتاب الفضائل ، باب «فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي اللّه عنهما» ، وتفسير الطبري : 21/ 119 ، وأسباب النزول للواحدي :

408 .

6 النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ : من بعضهم ببعض ، أو أولى بهم فيما يراه لهم منهم بأنفسهم .

ولمّا نزلت قال – عليه السلام «1» – : «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فأيّما رجل توفي وترك دينا ، أو ضيعة فإليّ ومن ترك مالا فلورثته» .

وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ : في التحريم والتعظيم .

إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ : أي : لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفا جائز ، وهو أن يوصى لمن لا يرث .

8 لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ : اللّه كان أم للناس ، أو ليسأل الأنبياء عن تبليغهم تبكيتا «2» لمن أرسل إليهم «3» .

9 إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ : لما أجلى النبيّ – عليه السلام – يهود بني النّضير/ قدموا مكة ، وحزّبوا الأحزاب ، وتذكّر قريش طوائلهم «4» ، وقائدهم أبو سفيان ، وقائد غطفان عيينة بن حصن ، وصار المشركون واليهود يدا واحدة ، وكان النبيّ صلى اللّه عليه وسلم وادع بني قريظة وهم أصحاب حصون بالمدينة ،

---

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 6/ 22 ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ عن أبي هريرة مرفوعا واللفظ عنده : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فأيما مؤمن

هلك وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فإني مولاه» .

[. . . . .]

(2) التبكيت : التقريع والتوبيخ .

الصحاح : 1/ 244 ، واللسان : 2/ 11 (بكت) .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 126 عن مجاهد ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 307 عن النقاش .

(4) الطوائل : الأوتار والذحول ، واحدتها طائلة ، يقال : «فلان يطلب بني فلان بطائلة ، أي بوتر ، كأن له فيهم ثأرا . . .» .

اللسان : 11/ 414 (طول) .

(99/615)

فاحتال لهم حييّ بن أخطب ولم يزل يفتلهم في الذّروة والغارب «1» حتى نقضوا العهد ، فعظم البلاء . فأشار سلمان بالمقام بالمدينة ، وأن يخندق «2» .

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً : كانت ريح صبا «3» [تطير] «4» الأخبية .

10 إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ : عيينة في أهل نجد ، وأَسْفَلَ مِنْكُمْ :

أبو سفيان في قريش «5» .

وزاغَتِ الْأَبْصارُ : شخصت «6» ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ :

لشدّة الرعب والخفقان .

ويروى «7» أن المسلمين قالوا : بلغت الحناجر فهل من شيء نقوله ؟ .

---

(1) هذا مثل يضرب في المخادعة ، يقال ذلك للرجل لا يزال يخدع صاحبه حتى يظفر به .

جمهرة الأمثال للعسكري : 2/ 98 ، ومجمع الأمثال : 2/ 436 ، والنهاية : 3/ 410 .

(2) ينظر خبر هذه الغزوة في السيرة لابن هشام : (2/ 214 ، 215) ، وتفسير الطبري :

(21/ 127 ، 128) ، ودلائل النبوة للبيهقي : 3/ 392 ، وفتح الباري : (7/ 453 ، 454) ، وعيون الأثر : 2/ 55 .

(3) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 21/ 127 عن مجاهد وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 573 ، وزاد نسبته إلى الفريابي وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ والبيهقي عن مجاهد .

ويدل عليه الحديث المرفوع : «نصرت بالصّبا وأهلكت عاد بالدبور» .

أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 2/ 22 ، كتاب الاستسقاء ، باب «قول النبي

صلى اللّه عليه وسلم :

نصرت بالصبا» .

وأخرجه - أيضا - الإمام مسلم في صحيحه : 2/ 617 ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب «في ريح الصبا والدبور» .

(4) في الأصل : «نظير» ، والتصويب من نسخة «ج» ، ومن كتاب وضح البرهان للمؤلف .

(5) تفسير الطبري : 21/ 129 ، وفتح الباري : 7/ 462 .

(6) تفسير الطبري : 21/ 131 ، والمفردات للراغب : 217 ، واللسان : 8/ 432 (زيغ) .

(7) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : 3/ 3 ، والطبري في تفسيره : 21/ 127 عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه تعالى عنه مرفوعا .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 573 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد أيضا .

فقال عليه السلام: «قولوا: اللّهم استر عورتنا وآمن روعتنا».

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا

: الألف لبيان الحركة «1»، إذ لو وقف بالسكون لخفي إعراب الكلمة، وكما تدخل الهاء لبيان الحركة في مالِيَهْ «2» وحِسابِيَهْ «3».

12 ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً: قاله معتّب «4» بن قشير.

13 وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ: بنو سليم «5».

يَقُولُونَ [إِنَ] «6» بُيُوتَنا عَوْرَةٌ: وهم بنو حارثة «7».

19 سَلَقُوكُمْ: بلغوا في إيحاشكم «8».

---

(1) معاني القرآن للزجاج: 4/ 218، وإعراب القرآن للنحاس: 3/ 305، والبيان لابن الأنباري: 2/ 265، والتبيان للعكبري: 2/ 1053، والبحر المحيط: 7/ 217.

(2) من الآية: 28، سورة الحاقة.

(3) من الآية: 20، سورة الحاقة.

(4) ذكر الفراء في معانيه: 2/ 336 أن القائل هو معتب.

وأورده السيوطي في مفحمات الأقران: 164، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن السدي.

وذكره البغوي في تفسيره : 3/ 516 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 24 .

[. . . . .]

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 310 .

(6) سقط من الأصل .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 135 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما من طريق محمد بن سعد عن أبيه . . . ، وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء ، وقد تقدم بيان أحوالهم ص (135) .

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة : 3/ 433 عن ابن عباس أيضا .

وذكره البغوي في تفسيره : 3/ 516 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 25 دون عزو .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 579 ، وزاد نسبته إلى ابن مردويه عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(8) كذا في «ك» وفي وضح البرهان : 2/ 182 : «بلغوا في أذاكم بالكلام الموحش كل مبلغ» .

وفي مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 135 : «أي بالغوا في عيبكم . . .» .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 339 ، وغريب القرآن لليزيدي : 302 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 349 ، والمفردات للراغب : 239 .

(101/615)

---

21 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ : حسن مواساة ومشاركة «1» ، إذ قاتل يوم أحد حتى جرح وقتل عمّه وخاصّته .

23 مَنْ قَضى نَحْبَهُ : مات ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ : أي : الموت .

وإن كان النّحب : النّذر «2» ، فهو نذر صدق القتال .

25 وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ : لما اشتد الخوف أتى نعيم بن مسعود مسلما من غير أن علم قومه ، فقال عليه السّلام : «إنّما أنت فينا رجل واحد وإنّما غناؤك أن تخادع عنّا فالحرب خدعة» .

فأتى بني قريظة وكان نديمهم ، فذكّرهم ودّه ، وقال : إنّ قريشا وغطفان طارئين على بلادكم ، فإن وجدوا نهزة «3» وغنيمة أصابوها ، وإلّا لحقوا ببلادهم ، ولا قبل لكم بالرجل ، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم [78/أ] ليناجزوا القتال ، ثم أتى قريشا وغطفان فذكرهم ودّه/ لهم ، وقال : بلغني أمر أنصحكم فيه فاكتموه عليّ ، إنّ

معشر اليهود ندموا وترضّوا محمّدا على أن يأخذوا منكم أشرافا ويدفعوهم إليه ، ثم يكونون معه عليكم ، فوقع ذلك من القوم ، وأرسل أبو سفيان وعيينة إلى بني قريظة : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر «4» ، فلنناجز «5» محمدا . فطلبوا رهنا ، فقالت قريش :

---

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 314 عن السدي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 583 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن السدي .

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 349 ، والمفردات : 484 ، واللسان : 1/ 750 (نحب) .

(3) أي : فرصة .

الصحاح : 3/ 900 (نهز) ، والنهاية : 5/ 135 .

(4) كناية عن الإبل والفرس ، وفي النهاية لابن الأثير : 2/ 55 : «ولا بد من حذف مضاف : أي ذي خف . . . وذي حافر . والخفّ للبعير كالحافر للفرس» .

وانظر اللسان : 9/ 81 (خفف) .

(5) أي : نقاتل .

النهاية لابن الأثير : 5/ 21 .

واللّه إنّ حديث نعيم لحقّ ، وتخاذل القوم وانصرفوا «1» .

26 مِنْ صَياصِيهِمْ : حصونهم «2» . نزل جبريل ورسول اللّه في بيت زينب بنت جحش - تغسل رأسه - فقال : عفا اللّه عنك ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة فانهض إلى بني قريظة فإني تركتهم في زلزال وبلبال . فحاصرهم عليه السلام وقتلهم وسباهم «3» .

27 وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها : أرض فارس والروم «4» .

30 يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ : لأنّ النّعمة عندهن بصحبة الرسول أعظم والحجة عليهن ألزم .

---

(1) ينظر خبر نعيم بن مسعود رضي اللّه عنه في السيرة لابن هشام : (2/ 229 ، 230) ، وجوامع السيرة لابن حزم : (190 ، 191) ، وزاد المعاد : (3/ 273 ، 274) .

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 340 ، وغريب القرآن لليزيدي : 303 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 349 ، وتفسير الطبري : 21/ 150 ، والمفردات للراغب :

(3) أخرجه الطبريّ في تفسيره : 21/ 150 عن قتادة ، وأورده السيوطي في الدر المنثور :

6/ 591 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

وقيل : بل المراد خيبر ، وقيل : اليمن ، وقيل : مكة .

وعقب ابن عطية – رحمه اللّه – على هذه الأقوال بقوله : «و لا وجه لتخصيص شيء من ذلك دون شيء» .

المحرر الوجيز : 12/ 49 .

وقال الطبري رحمه اللّه في تفسيره : 21/ 155 : «و الصواب من القول في ذلك أن يقال : إن اللّه تعالى ذكره أخبر أنه أورث المؤمنين من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم ، وأرضا لم يطئوها يومئذ ، ولم تكن مكة ولا خيبر ، ولا أرض فارس والروم ولا اليمن ، مما كان وطئوها يومئذ ، ثم وطئوا ذلك بعد ، وأورثهموه اللّه ، وذلك كله داخل في قوله : وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها لأنه تعالى ذكره لم يخصص من ذلك بعضا دون بعض» اه .

(4) أخرج عبد الرزاق هذا القول في تفسيره : 2/ 115 عن الحسن ، وكذا الطبري في تفسيره :

.155/21

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 592 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم عن الحسن رحمه اللّه .

(103/615)

وقال أبو عمرو : أقرأ بالتشديد «1» للتفسير بالضعفين»

، ولو كان مضاعفة لكان العذاب ثلاثا أو أكثر .

33 وَقَرْنَ «3» : من : وقر يقر وقورا ووقارا ، أي : كن ذوات وقار «4» ، ولا تخفقن بالخروج.

والتبرّج : التبختر والتكسر «5» .

36 وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ : في زينب بنت جحش ابنة عمة النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم خطبها لزيد بن حارثة فامتنعت [هي] وأخوها عبد اللّه «6» .

---

(1) قراءة أبي عمرو : يضعّف بالياء وتشديد العين وفتحها .

السبعة لابن مجاهد : 521 ، والتبصرة لمكي : 299 ، والتيسير للداني : 179 .

[.....]

(2) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 350 : «كأنه أراد : يضاعف لها العذاب ، فيجعل ضعفين ، أي : مثلين ، كل واحد منهما ضعف الآخر . وضعف الشيء : مثله ، ولذلك قرأ أبو عمرو : يضعّف ، لأنه رأى أن «يضعّف» للمثل ، و«يضاعف» لما فوق ذلك» .

وانظر توجيه قراءة أبي عمرو في معاني القرآن للزجاج : 4/ 226 ، والكشف لمكي : 2/ 196 ، والبحر المحيط : 7/ 228 .

(3) بكسر القاف ، وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي . السبعة لابن مجاهد : 522 ، والتبصرة لمكي : 299 ، والتيسير للداني : 179 .

(4) قال مكي في الكشف : 2/ 198 : «فيكون الأصل في «وقرن» و«اقررن» ، فتحذف الراء الأولى استثقالا للتضعيف ، بعد أن تلقى حركتها على القاف ، فتنكسر القاف ، فيستغنى بحركتها عن ألف الوصل ، فيصير اللفظ «قرن» . . . » .

(5) تفسير الطبري : 22/ 4 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 225 ، وتفسير الماوردي : 3/ 322 .

(6) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

أي : وامتنع أخوها عبد اللّه بن جحش كذلك ، وأخرج نحوه الطبري في تفسيره : 22/ 11 عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وعكرمة . دون ذكر عبد اللّه بن جحش .

وأخرج نحوه أيضا الدارقطني في سننه : 3/ 301 ، كتاب المهر ، عن الكميت بن زيد عن مذكور مولى زينب بنت جحش عن زينب رضي اللّه عنها .

وأورده الزمخشري في الكشاف : 3/ 261 ، والحافظ في الكافي الشاف : 134 ، وقال :

«لم أجده موصولا - وأشار إلى رواية الدارقطني ثم قال - : وإسناده ضعيف» . وأشار المناوي في الفتح السماوي : (3/ 935 ، 936) إلى رواية الدارقطني ، وضعف سنده .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 6/ 419 : «هذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك إذا حكم اللّه ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأى ولا قول كما قال تعالى : فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً . . .» .

(104/615)

---

37 أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ : [أي : على زيد] «1» بالإسلام ، وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : بالعتق «2» .

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ : من الميل إليها وإرادة طلاقها «3» .

وقيل «4» : هو ما أعلمه اللّه بأنها تكون زوجته .

فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً : من طلاقها «5» . وقيل «6» : من نكاحها .

38 وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً : جاريا على تقدير وحكمة .

40 ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ : [أي : من رجالكم البالغين] «7» الحسن والحسين إذ ذاك لم يكونا رجلين ، والقاسم وإبراهيم والطيّب والمطهّر «8» توفوا صبيانا .

---

(1) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(2) ورد هذا القول في أثر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره : 2/ 117 عن قتادة .

وكذا الطبري في تفسيره : 22/ 13 ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 614 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن قتادة أيضا .

وانظر هذا القول في تفسير البغوي : 3/ 531 ، وتفسير القرطبي : 14/ 188 ، وتفسير ابن كثير : 6/ 419 .

(3) المصادر السابقة .

(4) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 327 عن الحسن ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 616 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن السدي .

(5) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 229 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 327 ،

والقرطبي في تفسيره : 14/ 194 عن قتادة .

(6) تفسير القرطبي : 14/ 194 .

(7) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(8) كذا ورد في رواية الطبري في تفسيره : 22/ 16 عن قتادة ، وأيضا في معاني القرآن للزجاج : 4/ 230 ، وتفسير ابن كثير : 6/ 422 .

وذكر ابن حبيب في المحبر : 53 أن عبد اللّه هو الطيب وهو الطاهر .

وقال ابن حزم في الجمهرة : 16 : «وكان لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الولد سوى إبراهيم :

القاسم ، وآخر اختلف في اسمه ، فقيل : الطاهر ، وقيل : الطيب ، وقيل : عبد اللّه . . . » .

(105/615)

---

43 يُصَلِّي عَلَيْكُمْ : يوجب بركة الصلاة لكم ، وهو الدعاء بالخير ، وتوجبه الملائكة بفعل الدّعاء «1» ، وهذا مما يختلف فيه معنى الصفتين ، ك «توّاب» بمعنى كثير القبول للتوبة ، وبمعنى كثير الفعل لها .

[78/ب] 48 وَدَعْ أَذاهُمْ : / لا تحزن وكلهم إلينا .

50 وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا : هي ميمونة «2» بنت الحارث .

وقيل «3» : زينب بنت خزيمة .

49 مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا : تحسبونها «تفتعلون» من العدّ «4» .

51 تُرْجِي : تؤخر ، وَتُؤْوِي : تضم «5» ، ومعناهما الطلاق والإمساك .

---

(1) قال الحافظ ابن كثير - رحمه اللّه - في تفسيره : 6/ 428 : «وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار ، كقوله : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً . . . الآية» اه . [. . . . .]

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 22/ 23 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 333 عن ابن عباس ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 406 ، والقرطبي في تفسيره : 14/ 209 .

(3) أخرجه الطبري في تفسيره : 22/ 23 عن علي بن الحسين ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 333 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 537 عن الشعبي .

وأورده الحافظ ابن حجر في الفتح : 8/ 386 ، وقال : «جاء عن الشعبي وليست بثابت

. . .

ومن طريق قتادة عن ابن عباس قال : التي وهبت نفسها للنبي صلى اللّه عليه وسلم هي ميمونة بنت الحارث ، وهذا منقطع ، وأورده من وجه آخر مرسل وإسناده ضعيف ، ويعارضه حديث سماك عن عكرمة عن ابن عباس ، «لم يكن عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له» .

أخرجه الطبري وإسناده حسن ، والمراد أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان مباحا له ، لأنه راجع إلى إرادته لقوله تعالى : إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها . . . » .

(4) المحرر الوجيز : 12/ 83 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1058 .

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 139 ، وغريب القرآن لليزيدي : 304 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 351 ، وتفسير الطبري : 22/ 24 ، وتفسير البغوي : 3/ 537 .

(106/615)

وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ : طلبت إصابته بعد العزل .

ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ : إذا علمن أنك لا تطلقهن أو لا تتزوج عليهن .

52 لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ : نكاح النساء أو شيء من النساء .

مِنْ بَعْدُ : من بعد التسع إذ لمّا خيّرن فاخترنه أمر أن يكتفي بهن «1» .

53 غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ : منتظرين وقت «2» نضجه «3» .

59 ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ : الحرّة من الأمة «4» ، أو الصالحات من المتبرجات «5» .

69 آذَوْا مُوسى : اتهموه بقتل هارون ، فأحياه [اللّه] «6» فبرّأه ثم مات «7» .

---

(1) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 22/ 29 عن قتادة ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 334 عن ابن عباس ، وقتادة .

وأورده ابن العربي في أحكام القرآن : 3/ 1570 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(2) في «ج» : بعد .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 140 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 352 ، والمفردات للراغب : 29 .

والمعنى كما جاء في تفسير الطبري : 22/ 34 : «يا أيها الذين آمنوا باللّه ورسوله ، لا تدخلوا بيوت نبي اللّه إلّا أن تدعوا إلى طعام غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ ، يعني : غير منتظرين إدراكه وبلوغه ، وهو مصدر من قولهم : قد أنى هذا الشيء يأني إليّ وأنيا وإناء . . . وفيه لغة أخرى ، يقال : قد آن لك ، أي : تبين لك أينا ، ونال لك ، وأنال لك . . .» .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 22/ 46 عن قتادة ، ومجاهد .

وذكره الواحدي في أسباب النزول : 421 عن السدي بغير سند .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 339 عن قتادة .

(5) ذكر الماوردي نحو هذا القول في تفسيره : 3/ 339 .

(6) عن نسخة «ج» .

(7) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 22/ 52 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، وأخرجه - أيضا - الحاكم في المستدرك : 2/ 579 ، كتاب التاريخ ، باب «ذكر وفاة هارون بن عمران» ، وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 666 ، وزاد نسبته إلى ابن منيع ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه .

وأشار الحافظ في الفتح : 8/ 395 إلى رواية الطبري وابن أبي حاتم ، وقوى إسنادهما .

وثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعا أن بني إسرائيل اتهموا موسى عليه الصلاة والسلام بأنه آدر ، أو به برص ، أو آفة في جسمه . (صحيح البخاري : 4/ 129 ، كتاب الأنبياء) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه اللّه : «لا مانع أن يكون للشيء سببان فأكثر . . .» ذكره تعقيبا على الروايتين .

(107/615)

وَجِيهاً : رفيع القدر إذا سأله أعطاه .

72 إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ : الأمانة : ما أودعها اللّه من دلائل التوحيد فأظهروها إلّا الإنسان «1» .

«الجهول» : الكافر بربه .

وقيل : هو على التمثيل أي منزلة الأمانة منزلة ما لو عرض على الأشياء مع عظمها وكانت تعلم ما فيها لأشفقت منها ، إلّا أنّه خرج مخرج الواقع لأنّه أبلغ من المقدّر .

وقيل : العرض بمعنى المعارضة ، أي : عورضت السّماوات والأرض ، وقوبلت بثقل الأمانة ، فكانت الأمانة أوزن وأرجح «2» .

فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها : لم يوازنها .

73 لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ : في الأمانة ، وَالْمُشْرِكِينَ : بتضييعها .

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ : بحفظهم لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 343 وقال : «قاله بعض المتكلمين» .

وأورد الطبري – رحمه اللّه – عدة أقوال في المراد ب «الأمانة» هنا ، ثم قال : «و أولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله الذين قالوا : إنه عني بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات في الدين ، وأمانات الناس ، وذلك أن اللّه لم يخص بقوله : عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ بعض معاني الأمانات لما وصفنا» .

(تفسير الطبري : 22/ 57) .

وقال القرطبي في تفسيره : 14/ 253 : «و «الأمانة» تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال» .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 343 عن ابن بحر .

(108/615)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الأحزاب

عدد 4 – 90 و33

نزلت بالمدينة بعد سورة آل عمران ، وهي ثلاث وسبعون آية ، والف ومئتان وثمانون كلمة ، وخمسة آلاف وسبعمئة وتسعون حرفا ، لا يوجد مثلها في عدد الآي ، وتقدم في سورة الكافرين ج 1 السور المبدوءة بما بدئت به .

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ" قال تعالى : "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ" فيما يعرضانه عليك أو يطلبانه منك لأنك لا تعلم دخائلهم "إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً" (1) لا يخفى على علمه شيء

زمانا ولا مكانا ولا كما ولا كيفية .

واعلم ان كان لاتصاف المخبر عنه بالخبر والدوام والاستمرار ، لأنه لم يزل ولا يزال كذلك في الماضي والحال والاستقبال ، وهي إذا كانت عاملة فيعود اسمها على اللّه تعالى ولا تسمى ناقصة تأدبا بل تسمى الرافعة للمبتدأ الناصبة للخبر ، وإذا لم تكن عاملة سميت تامة فقط لأن الفعل إذا أضيف للّه تعالى تجرد عن الزمان وصار معناه الدوام بخلاف قولك كان الشيخ شابا ، لأن الشبوبة تنقطع بالشيخوخة ، فتكون في مثله بلا انقطاع قال تعالى "وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ" من الأوامر والنواهي والوفاء بالعهد وغيرهما مما أمرناك به "إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً" (2) يستوي عنده السر والجهر "وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا" (3) عن كل خلقه فتمسك به أنت وأصحابك .

اعلم أنه بعد حادثة أحد وبدر الصغرى المارتين طلب أبو سفيان الأمان من محمد صلّى اللّه عليه وسلم ليقدم إلى المدينة فيتحادث معه بما يتعلق بعقد معاهدة سلم ، فأعطاه الأمان ، فحضر هو وعكرمة بن أبي جهل وأبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي ونزلوا على رأس المنافقين ابن سلول ، ثم ذهبوا معه وعبد اللّه بن أبي سرح وملعجة بن أبيرق إلى حضرة الرسول ليقابلوه ، وكان عنده عمر بن الخطاب ، فقالوا له ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل ان لها شفاعة وندعك وربك ، فشق ذلك على حضرة الرسول ، فقال تأذن يا رسول اللّه بقتلهم ؟ قال لا قد أتونا بالأمان ، فقال لهم عمر إذن اخرجوا في امنة اللّه وغضبه ، فخرجوا وأمر عمر بأن يخرجهم من المدينة آمنين كما دخلوها آمنين ، فأنزل اللّه مبدأ هذه السورة كأنه يقول أيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا المبلغ أحبابنا دم على التقوى التي أنت عليها والتوكل الذي أنت متحل به ونحن نكفيك من ناوأك ، ولم يسمه تشريفا له وتنويها بتصريح اسمه فيما بعد .

قال تعالى "ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ" ينتفع بهما معا فإذا وجدا على خلاف العادة وللّه خرق العادات فيكون أحدهما زائدا كالأصبع الزائدة في اليد أو الرجل أو كلاهما بمثابة واحد بسبب الاتصال كالأصبعين المتلاصقين ، وعدم وجود قلبين في شخص واحد محقق شائع قال المجنون في هذا

فلو كان لي تقليان عشت بواحد وتركت قلبا في هواك يعذب

وقال أبو دلامة :

لو أن لي مهجة أخرى لجدت بها لكنها خلقت فردا فلم أجد

(110/615)

"وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ" لأنهن لم يلدنكم "وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ" الأولاد الذين تربونهم "أَبْناءَكُمْ" لأنكم لم تلدوهم فلا يليق تسمية المظاهرات أمهات ولا الذين تربونهم أولادا ولا يجوز نسبتهم هذه إليكم ولا نسبتكم إليهم "ذِلِكُمْ" القول بوجود قلبين ينتفع بهما وجعل الزوجة الظاهرة اما والمربى ابنا "قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ" مجرد عن الصحة لا يرتكز على حقيقة ، ولا يستند إلى دليل لأن اللّه تعالى لم يخص أحدا بقلبين ينتفع بهما ولم يجعل امرأة قط زوجة من جهة وأمّا من أخرى ولم يجمع بين البنوة والدعي في رجل واحد "وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ" لكم ظاهرا وباطنا فاسمعوا له وأطيعوا "وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ" (4) العدل الموصل إلى الرشد والسداد فاتبعوه ولا تزيغوا عنه .

واعلم أن لكل جملة من هذه الآية سببا في نزولها فالأولى كانت العرب تسمي أبا معمر الفهري ذا القلبين لشدة حفظه وكان يدعي أن له قلبين فأكذبه اللّه وأظهر كذبه لقومه حين

انهزم المشركون في حادثة الأحزاب الآتية إذ رآه أبو سفيان وإحدى نعليه في رجله والأخرى في يده ، فقال له ما بالك هكذا ؟ قال ما شعرت إلا أنها في رجلي فقالوا لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده .

وأخرج الترمذي عن ابن عباس ان المنافقين قالوا إن لمحمد قلبين قلبا معنا وقلبا مع أصحابه ولذلك يخبر عما يقع منا ، فأكذبهم اللّه وبين أنه يتبع ما يخبر به ما يوحى إليه من ربه وإنما قلنا لو وجد لأحد قلبين على سبيل الفرض والتقدير لا ينتفع إلا بأحدهما ، لأنه لا يخلو إما أن يعقل بأحدهما ما يعقل بالآخر من الحسّ وافعال القلوب فيكون الآخر فضلة لا حاجة إليه ، واما أن يعقل بأحدهما ما لا يعقله بالآخر فيؤدي إلى اتصافه بكونه مريدا كارها عالما جاهلا موقنا شاكا في حالة واحدة وهما حالتان متنافيتان لا ينتفع بهما البتة .

(111/615)

والجملة الأخرى في الظهار وسيأتي تفصيله أول سورة المجادلة الآتية إن شاء اللّه ، والجملة الثالثة في التبنّي وذلك أن زيد بن حارثة من بني كلب سبي صغيرا فاشتراه حكيم بن خزام إلى عمته خديجة فلما تزوجها حضرة الرسول وهبته إليه

فجاء أبوه وعمه يطلبانه من الرسول فخيره بين أن يذهب معهما أو ان يبقى عنده ، فاختار

البقاء عند رسول اللّه عليهما فأعتقه صلّى اللّه عليه وسلم وتبناه على عادة العرب قبل الإسلام ، إذ لم ينزل قرآن بشأن التبنّي ، ثم زوجه زينب بنت جحش ، ولما طلقها كما سيأتي بيانه في هذه السورة وتزوجها رسول اللّه قال المنافقون تزوج زوجة ابنه ، فأنزل اللّه هذه الجملة تكذيبا لهم ، وأعلمهم فيها ان المتبنى ليس بولد صلبي ولا مثله في تحريم الزواج. وما قيل ان هذه الآية نزلت في نسخ التبني لا صحة له.

لأن اللّه لم يسمه ابنا قط فيما أنزل على رسوله قبل ، ولم يمنع التبني في هذه الآية وانما منع اسم البنوة عنه فقط ، فلا محل لدعوى النسخ ، قال تعالى "ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ" إذا كانوا معروفين وهذا "هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ" واعدل من أن تنسبوهم لأنفسكم كذبا لأنهم لهم آباء غيركم "فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ" أي ادعوهم بلفظ الأخ ، فتقول يا أخي ويا ابن أخي على عادة العرب أيضا في نداء بعضهم بعضا ، وهذا أحسن من قول الناس الآن لابن الغير يا ولدي يا ابني ، واصدق لأن الناس كلهم أخوة "فِي الدِّينِ" واخوة في الخلق إذا لم يكونوا على دين واحد "وَمَوالِيكُمْ" بأن تقولوا إذا ساقتكم الأنفة من تسميتهم إخوانا فقولوا يا مولاي ، والمولى يطلق على السيد والعبد لغة ، وقيل فيه :

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن اسماء الجميع موالي

قال تعالى "وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ" قبل النهي قصدا لأنكم لا تعلمون انه ينهى عنه كما لا يؤاخذكم إذا أخطأتم بعد النبي سهوا أو نسيانا "وَلَكِنْ" الذي يؤاخذكم عليه هو "ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ" عليه وعملتم به بعد النهي ففيه الإثم عليكم "وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً" ولم يزل لمن يخطىء أو يجرم إن شاء "رَحِيماً" (5) بعباده يعاملهم بعفوه وحلمه .

روى البخاري ومسلم عن سعد ابن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة حرام عليه .

وجاء عنه ملعون من ادعى إلى غير مواليه ، ملعون من انتسب لغير آبائه .

ولهذا ورد عنه صلّى اللّه عليه وسلم الناس مأمونون على أنسابهم .

وبعد ان تبين ان الذي ينتسب إلى غير آبائه ملعون لا يتصور أن يجرؤ قصدا على الانتساب زورا لغير آبائه ، ويختار

اللعن استحقاقا بنصّ الحديث المار ذكره ، وعليه فان من أراد أن يكذب وينتسب قصدا أو رياء ليظهر للناس انه ذو نسب فيستحق اللعن وما هو بنافعه ، لأن من لم يجعل اللّه له نورا فما له من نور لا بنسب ولا بغيره ، على أن الأدب قد يغني عن النسب فيما يريده .

قال غسان بن سعيد في ذلك :

من خانه حسب فليطلب الأدبا فقيه منيته إن حل أو ذهبا

فاطلب لنفسك آدابا تعزّ بها كيما تسود بها من يملك الذهبا

أما النسب فلا يغني عن الأدب ، راجع الآية 101 من سورة المؤمنين في ج 2 وما ترشدك اليه .

ورويا عن ابن عمر قال ان زيد بن حارثة مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزلت هذه الآية فانتهينا .

قال تعالى "النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ" أي بعضهم من بعض فتكون طاعتهم له أولى من طاعة أنفسهم ، لأنه لا يدعوهم إلا إلى ما فيه نفعهم .

(113/615)

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : ما مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا ان شئتم هذه الآية ، فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا (بفتح الضاد عيالا) فليأتني فأنا مولاه .

أي أوف عنه دينه وأعول عياله .

وهو صلّى اللّه عليه وسلم لقد وكل خير اهل "وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ" لأن نكاحهن محرم على المؤمنين كافة بعده على التأبيد كما سيأتي فمن هذه الجهة جاز تسميتهنّ أمّا ويستفاد من

الآية انهن لسن بأمهات للنساء بل للرجال خاصة ، لما روي عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة ، يا أمة ، فقالت لست لك بأم ، إنما أنا أم رجالكن والآية خاصة فيهن لا تتناول أخواتهن أو بناتهن ، ولا جميع أقاربهن لجواز زواجهن بهم "وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ" على ترتيب الإرث ، وكذلك في الميراث ، وهذه كالآية من آخر سورة الأنفال المارة .

قالوا كان المسلمون يتوارثون بينهم لأن الرسول آخى بينهم ، وبقي ذلك إلى نزول آية الأنفال ، فصار الإرث للأقرب نسبا أو رحما ، وذلك لأن المسلمين كثروا وجاءوا بأهاليهم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، فصاروا يتوارثون بينهم بالأولوية ومن جهة الدين ، لأن أقاربهم كانوا كفارا أو في دار الحرب ، وان اختلاف الدين

والدار مانعان من الإرث كالرق والكفر ، وقبل نزولها كانوا يتوارثون فيما بينهم لأن إخوانهم المؤمنين الذين هم معهم في دار الإسلام أولى بإرثهم من أقاربهم الكفرة والذين في دار الحرب .

(114/615)

ولا نسخ في هذا البتة لأن الأمر كما ذكر ، ولأن ما كانوا يتعاملون به بينهم لم ينزل فيه قرآن ، ولأن آية الأنفال لم تعقب بما تعقبت به هذه الآية بل ختمت بقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وان اختلاف الدار مانع من الإرث عند أبي حنيفة وعليه العمل حتى الآن والأولوية هذه ثابتة ازلا "فِي كِتَابِ اللَّهِ" بسابق حكمه ومدون في لوحه إن أولي الأرحام أولى "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ" المتآخين قبلا في حق الولاية الدينية التي وقعت بعد الهجرة ، وهذا هو الأولى والأحق بالإرث "إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً" بأن توصوا إليهم بشيء من أموالكم فلا جناح عليكم بذلك ، وهذا الحكم محق ثابت مستمر إلى الأبد ، إذ يجوز للرجل أو المرأة أن يوصيا بشيء من مالهما لأقاربهما الذين لا يرثون ولخدمهما وعبيدهما وأصدقائهما وغيرهم من الأقارب غير المسلمين راجع الآية 180 من سورة البقرة المارة ، وقوله صلّى اللّه عليه وسلم لا وصية لوارث "كَانَ ذَلِكَ" المذكور في هذه الآية من التوارث وغيره "فِي الْكِتَابِ" الأزلي المحفوظ عند اللّه "مَسْطُوراً" (6) مثبتا ، وقد أنزلناه عليكم الآن لتعملوا به .

وهذا أيضا من التدريج في الأحكام الملمع إليه في المقدمة جريا على سنن الكون وتغيراته ، واللّه أعلم بما ينزل ، واعلم بحاجة الناس ومصلحتهم .

(115/615)

قال تعالى "وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ" بتبليغ ما أرسلوا به ردعوة الناس إليه "وَمِنْكَ" يا سيد الرسل "وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ" وسائر النبيين أيضا أخذنا هذا العهد ، وإنما خص هؤلاء الخمسة على جميعهم الصلاة والسلام لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولو العزم المتفق عليهم ، راجع آخر سورة الأحقاف ج 2 في بحثهم وقدّم محمدا في الذكر مع أنه آخرهم بعثا ووجودا تشريفا له وتفضيلا واشارة إلى أنه أول الخلق معنى وذكرا ، فقد روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال كنت أول النبيّين في الخلق وآخرهم في البعث وهذا الحديث مستقى من هذه الآية لأنها تدل على أنه أول خلق اللّه بدليل أخذ هذا العهد "وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً"

(7) على الوفاء بما عهد إلى جميع النبيين الذين هم أولى خلق اللّه به "لِيَسْئَلَ" اللّه تعالى

يوم السؤال في الموقف العظيم "الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ" للّه وفي اللّه وباللّه ولأنفسهم والمرسل إليهم "وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ" بهم الجاحدين ما جاؤهم به "عَذاباً أَلِيماً" (8) في الآخرة عدا

عذاب الدنيا ، قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ" قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير حينما تحزبوا على المؤمنين في منتصف شوال السنة الخامسة من الهجرة بعد غزوة بني النضير الواقعة في السنة الرابعة منها التي سيأتي ذكرها أول سورة الحشر الآتية إن شاء اللّه "فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ" أي الجنود المتحزبة الباغية عليكم "رِيحاً" شديدة بدليل التنكير كما سترى من فعلها في القصة الآتية "وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها" ولم تعلموها وإنما تشاهدون أثرها وفعلها فيهم "وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً" (9) ناظرا لما عملتموه من الخندق كي تتحصنوا به من عدوكم وعالما بثباتكم وحسن نيتكم وثقتكم برسولكم واعتصامكم معه بحبل اللّه هذا على القراءة بالتاء على الخطاب ، وعلى القراءة بالياء على الغيبة يكون المعنى بصيرا بما يعمله الكفار من السعي لإطفاء نور اللّه الذي أظهره على أرضه ببعثة محمد واذكروا أيها المؤمنون "إِذْ جاؤُكُمْ" بنو غطفان وأسد ويهود قريظة برياسة مالك بن عون النضري وعيينة بن حصن الفزاري وطلحة ابن خويلد الأسدي وحيي بني احطب "مِنْ فَوْقِكُمْ" من أعلى الوادي من قبل المشرق "وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ" من بطن الوادي من قبل المغرب وهم قريش وكنانة برياسة أبى سفيان بن حرب وجاء أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي ومن تبعه من قبل الخندق .

واذكروا أيها المؤمنون تلك الحالة التي صورتكم بها أعداؤكم من الكفار والمنافقين واليهود إذ ضاقت صدوركم ذرعه "وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ" عن مستوى نظرها لشدة الرعب وعظم الرهب "وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ" لأن الرئة تنتفخ من كثرة الفزع بسرعة الزفير والشهيق فيرتفع القلب بارتفاعها إلى الحنجرة وصرتم تختبطون "وَتَظُنُّونَ" أيها المؤمنون "بِاللَّهِ" ربكم الذي وعدكم النصر والظفر "الظُّنُونا" (10) المختلفة من كل على حسب يقينه وعقيدته ونيته والمخلصون منكم قد جزموا بنصر اللّه والذين دونهم سكتوا وضعيفو الإيمان ترددوا والمنافقون قطعوا بأن المؤمنين سيغلبون ويستأصلون والكافرون واليهود تهيأوا للفتك والغنيمة لأنهم رأوا أن المؤمنين صاروا بحوزتهم ففرحوا وصفّقوا وتكلموا بينهم كيف يقتسمون الرجال والمال والأنعام والأثاث

(118/615)

"هُنالِكَ" في تلك الساعة الرهيبة في تلك اللحظة العسرة "ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ" بالصبر والثبات والتوكل على اللّه ولكنهم ازعجوا "وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً" (11) واضطربوا اضطرابا بليغا وماج بهم الخوف موجا عظيما بسبب احاطة العدو بهم ولولا قوة إيمان حلت بهم من

اللّه لسلموا ولكن كبير ثقتهم باللّه وعظيم صدقهم بوعده أحدثا في قلوبهم السكينة وتوقع نصر اللّه لهم دون تفككهم لأن منهم من جاهر بما يغضب اللّه ورسوله وهم المشار إليهم بقوله "وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ" عبد اللّه بن سلول ومتعب بن قشير وأضرابهم "وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" شك وريبة لضعف إيمان وعقيدة وقلة يقين وتصديق منهم ، وقالوا "ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ" بالنصر على الأحزاب وبملك كسرى وقيصر واليمن "إِلَّا غُرُوراً" (12) أي إنهما غرونا بقولهم ذلك وموهوا علينا بتوسيع بلادنا لأن أحدنا الآن لا يستطيع أن يجاوز رحله "وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ" أي المنافقين ومن والاهم كأوس بن قبطي وأصحابه "يا أَهْلَ يَثْرِبَ" اسم لأرض المدينة وما حولها سميت باسم يثرب من العماليق ، وقد نهى صلّى اللّه عليه وسلم أن تسمى المدينة بهذا الاسم لأن معناه غير لايق بها بعد أن شرفت بسيد الكائنات لأنه مأخوذ من التثريب بمعنى التقريع والتوبيخ ، وسماها صلّى اللّه عليه وسلم طيبة لأنها كانت وخمة كثيرة الأمراض فطابت بسكنى الطيبين بها وزال عنها ما كان فيها "لا مُقامَ لَكُمْ" في هذا المكان أي محل القتال "فَارْجِعُوا" إلى منازلكم واتركوا معسكر الرسول ولا تقاتلوا معه إذ لا قبل لكم بهذه الأحزاب المحيطة بكم "وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ" من الذين مع الرسول أيضا وهم بنو حارثة وبنو سلمة "النَّبِيَّ يَقُولُونَ" ينتحلون سببا للمغادرة من موقع القتال "إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ" خالية لا أحد فيها وهي مما

يلي العدو ونخشى عليها السرقة ، فأذن لنا نذهب نحافظها ، فكذبهم اللّه بقوله "وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً" (13) من القتال وتقليل سواد المسلمين والغدر بهم "وَلَوْ دُخِلَتْ" تلك

البيوت من قبل الأحزاب "عَلَيْهِمْ" أي المحتجين المذكورين "مِنْ أَقْطارِها" أي المدينة "ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ" الرجوع إلى الكفر والارتداد عن الدين الحنيف "لَآتَوْها" حالا مسرعين لضعف إيمانهم باللّه وقلة يقينهم بوعده وشكهم في كلام الرسول ولأجابوا داعي الفتنة وافتتنوا في دينهم وكفروا "وَما تَلَبَّثُوا بِها" أي الإجابة إلى داعي الفتنة ولا تفكروا ولا ترددوا "إِلَّا يَسِيراً" (14) بقدر ما يكون به إعطاء الجواب ولم يتوقفوا أو يتأخروا ، لأن إيمانهم صوريا لم تنشر به قلوبهم "وَلَقَدْ كانُوا" هؤلاء الطوائف الأربعة "عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ" رؤيتهم الأحزاب وقبل غزوة الخندق على أنهم "لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ" للأعداء وقد نقضوا عهدهم هذا فهربوا وتركوا المؤمنين وأولهم بنوا حارثة الذين احتجوا بتلك الحجة الواهية "وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا" (15) عنه في الآخرة أكثر مما يسأل عنه في الدنيا ويوبخ عليه فيهما .

(120/615)

وهذه المعاهدة وقعت بينهم وبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وإنما أضافها اللّه تعالى لنفسه الكريمة ، لأن معاهدة رسوله معاهدة لحضرته المقدسة ، ولأن الرسول لم يعاهد إلا بأمر ربه وقد نصوا في هذه المعاهدة على عدم الفرار فنكثوا ولهذا يقول اللّه إذ رأوا أنهم لم يسألوا عن ميثاقهم هذا في الدنيا فإنهم لا بدّ من أن يسألوا عنه في الآخرة (قل) يا سيد الرسل لهؤلاء كلهم "لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ" إذا كان كتب عليكم "وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ" بعد فراركم هذا "إِلَّا قَلِيلًا" (16) بقية مدة آجالكم في الدنيا ، ويا حبيبي "قُلْ" لهم أيضا "مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً" قتلا أو غيره "أَوْ" من يمسك فضله إن "أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً" نصرا أو غيره أي لا أحد يقدر على شيء من ذلك غيره "وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً" (17) يمنعهم مما قدر عليهم ، بل لا بد نائلهم قال تعالى "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ" المثبطين الناس عن نصرة الرسول "وَ" يعلم "الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ" وهم ابن سلول وأصحابه "هَلُمَّ إِلَيْنا" تعالوا نحونا واتركوا محمدا وأصحابه لأنهم مغلوبون لا محالة فلو كانوا لحما لابتلعهم أبو سفيان وأصحابه لأن محمدا وأصحابه بالنسبة إليهم كأكلة رأس ، فتراهم يا حبيبي يقولون هذا القول البذيء "وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ" أي الحرب "إِلَّا قَلِيلًا" (18) بقدر ما

يرون موقعها ثم ينصرفون عنها ، وهؤلاء المنافقون شديد والبخل على المؤمنين ولهذا يقول اللّه تعالى "أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ" بأن تنصروا وتغلبوا وتغنموا ، ولذلك فإنهم لا يأتون الحرب إلا إتيانا قليلا لينظروا من الغالب "فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ" من قبل العدو "رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ" يا سيد الرسل "تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ" في موقعها يمينا وشمالا من شدة الرعب ترى أحدهم "كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ" أي مثل دوران عين المحتضر "فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ" وأمنوا لقاء العدو "سَلَقُوكُمْ" خاطبوكم مخاطبة عنيفة في مقاسمة الغنائم يقولون قاتلنا معكم وناضلنا عنكم وبنا غلبتم عدوكم "بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ" سليطة ذربة تفعل بالمخاطب فعل الحديد بالرجل وتراهم "أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ" أي الغنيمة يشاقون المؤمنين فيها فلا يريدون أن يتركوا شيئا إلا قاسموهم عليه وطالبوهم فيه ولو عقال بعير "أُولئِكَ" الذين هذه صفتهم "لَمْ يُؤْمِنُوا" بقلوبهم ، ولا عبرة بما نطقت به ألسنتهم من الإيمان لأنه رياء وخوف من أن تقتلوهم "فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ" التي عملوها من جهاد وغيره "وَكانَ ذلِكَ" الإحباط وعدم انتفاعهم من أعمالهم "عَلَى اللَّهِ يَسِيراً" (19) هينا جدا شأنه شأن غيره ، إذ لا يعسر على اللّه شيء ، وهم عند اللّه كذلك لا وزن لهم ولا قيمة ولا مكانة "يَحْسَبُونَ" هؤلاء المنافقون الخاسرون "الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا" ينهزموا لشدة جبنهم ويعتقدون ثباتهم ومقاومتهم المؤمنين ، مع أن هزيمتهم لا بد منها تأييدا لوعد اللّه الذي وعده المؤمنين على رغم أنف المنافقين

والكافرين "وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ" مرة ثانية "يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ" أي يتمنون أن يكونوا في البادية ليأمنوا على أنفسهم منهم لشدة فزعهم من الموت بأن يكونوا "فِي الْأَعْرابِ" بينهم في البادية لا بالحاضرة مع أهل

(122/615)

المدينة وتراهم عن بعد "يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ" وما آل إليه أمركم "وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا" (20) بما يقدمون به عذرهم وارائتهم أنفسهم للناس أنهم مع المجاهدين فيا أيها المنافقون

"لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" وقدوة صالحة بأن تنصروا دين اللّه وتعلوا كلمته وتصبروا على ما يصيبكم مثله ، لا أن تتخلفوا عنه وتنخزلوا من سواده وتهربوا من الجهاد ، ولكن هذه القدوة

ما أنتم لها بأهل ولا ترجى منكم لأنها لا تكون إلا "لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ" إيمانا صادقا وإيقانا خالصا عن نية حسنة "وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً" (21) في السراء والضراء عن عقيدة صالحة لا المنافقين الذين يؤمنون بألسنتهم فقط ولا يذكرون اللّه إلا قليلا رياء وسمعة .

وبعد أن وصف اللّه المنافقين بما وقع منهم وبما هم عليه نعت المؤمنين بما سيصدر منهم فقال جل قوله "وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ" من النصر والظفر قد آن أوانه "وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ" بما وعدا وهذا بمقابلة قول المنافقين ما وعدنا اللّه ورسوله إلا غرورا "وَما زادَهُمْ" مجيء الأحزاب وإحاطتهم بهم وتثبيط المنافقين هزيمتهم "إِلَّا إِيماناً" باللّه ورسوله "وَتَسْلِيماً" (22) لأمرهما وانتظارا لوعدهما .

(123/615)

قال تعالى "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ" من الثبات للقاء العدو عكس المنافقين إذ زادهم اللقاء جبنا وإنكارا لما وعدهم اللّه ورسوله وتكذيبا وجحودا ، أما هؤلاء الكرام "فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ" فمات شهيدا في واقعة أحد المارة وفاء بنذره وعهده وميثاقه على الاستمرار في القتال حتى النهاية "وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ" الشهادة ، ويتوقعها باشتياق للفوز بما عند اللّه من الكرامة للشهداء المار ذكرهم في الآية 169 من آل عمران والآية 157 من البقرة المارتين ، والأوبة بالسعادة "وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا" (23) ما في وعدهم بل ثبتوا عليه وقاموا به ووقوه كاملا "لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ" إذ لا حتم عليه في تعذيب الكافر ولا جزم عليه في إثابة المؤمن "أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ" بأن

يشرح صدورهم للإيمان فيدخلهم الجنة بفضله "إِنَّ اللَّهَ كانَ" ولن يزال "غَفُوراً" لمن يشاء من عباده "رَحِيماً" (24) بمن شاء منهم لا قيد عليه في شيء أبدا "وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ" وحنقهم وقبض صدورهم وضيق ذرعهم وانكماش وجوههم واكفهرار ألوانهم "لَمْ يَنالُوا خَيْراً" نصرا ولا ظفرا ولا غنيمة من المؤمنين البتة بل نكسوا على رؤوسهم وردوا على أعقابهم مدحورين "وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ" بتسليط الريح العظيمة التي لم تقاوم لأنها من غضب اللّه أعاذنا اللّه منه والجنود التي أرسلها اللّه على الأحزاب الغير مرئية لا نعلمها

نحن ، وإنما يعلمها الذي أرسلها وهربوا غاضبين بعضهم على بعض لما وقع بينهم من الخلاف وسوء الظن الآتي ذكره في القصة "وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا" لا يقاوم "عَزِيزاً" (25) لا يغلب ولهذا شتتهم وطردهم دون قتال .

مطلب في غزوة الخندق وما سلط فيها على الأحزاب وهزيمتهم

(124/615)

و خلاصة هذه القصة قالوا إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما أمر بإجلاء بني النضير من ديارهم على أثر نقضهم العهد كما ستأتي قصتهم مفصلة أول سورة الحشر الآتية إن

شاء اللّه ، وإنما لم نذكرها في موقعها لأنها كانت قبل واقعة الأحزاب كما أشرنا إليه في الآية (7) لأن اللّه تعالى نوه بها في سورة الحشر لئلا يحصل التكرار الذي لا زلنا نتحاشاه ، اتفق سلام بن الحقيق وحيي بن اخطب وكنانة بن الربيع وأبو عمّار الوائلي مع أبي سفيان من قريش وعيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عرب المري عن غطفان ومسعر بن رفيلة عن أشجع وحزّبوا الأحزاب وغزوا المدينة في عشرة آلاف ، وتوثقوا في هذه المعاهدة على أن يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فلما بلغ الخبر حضرة الرسول أشار إلى سلمان الفارسي يحفر الخندق حول المدينة للحصار فيها ، فقبل رأيه وقسم كل أربعين ذراعا على عشرة رجال وطلب المهاجرون أن يكون سلمان معهم ، والأنصار كذلك ، ولما لم يكن من الطرفين قال صلّى اللّه عليه وسلم سلمان منا أهل البيت ، فكان مع المهاجرين ، لأن حضرة الرسول منهم ، قال سلمان وبعد أن باشر كل يحفر سهمه ظهرت صخرة مروة صمّاء أعيتهم ، فاستنجدوا برسول اللّه فأخذ معول سلمان وضربها ثلاث ضربات في كل ضربة يبرق منها بريق يضيء ما بين لابتي المدينة ويكبر النبي والمسلمون تكبير فتح حتى فتتها ، فقال سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه لقد رأيت شيئا ما رأيت مثله قط ، فقال للقوم أرأيتم ما يقول سلمان ، قالوا نعم ، وقال سلمان إنه رأى في البرقة الأولى أن قصور الحيرة أضاءت له ومدائن كسرى ، وفي الثانية قصور قيصر من أرض الروم ، وفي الثالثة قصور صنعاء من

اليمن ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم أخبرني جبريل أن أمتي ستظهر عليها الدول الثلاث المذكورة فاستبشر المسلمون وحمدوا اللّه تعالى ، قال محمد بن اسحق لما فرغ من

(125/615)

الخندق وصلت قريش وغطفان ومن تابعهم فنزلت بجنب أحد ، وخرج رسول اللّه والمسلمون ونزلوا السلع وأمر

بالنساء والزراري أن يرفعوا إلى الأطام ، وذهب حيي بن اخطب إلى كعب بن أسعد القرظي وأقنعه بنقض العهد مع رسول اللّه على أنه وقريشا إذا لم يستأصلوا محمدا واتباعه أن يكون معه ، فرضي وبلغ حضرة الرسول ذلك فأرسل سعد بن معاذ يستقصي خبر نقض العهد ، فذهب فوجده كما سمع ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم اللّه أكبر ابشروا يا معشر المسلمين بالنصر والغلبة والظفر ، ثم لما رأوا كثرة الأعداء وانضمام المعاهدين إليهم واحاطتهم بهم اشتد الخوف ، إذ ان العدو تقرب منهم وحاصرهم من فوق ومن تحت كما ذكر اللّه ولولا الخندق لاقتحموهم ، ولكن من كان اللّه وليه لا يتسلط عليه أحد .

ثم نجم النفاق وجاهر به معقب بن بشير أخو بني عمرو بن عوف قائلا أن محمدا يعدنا

بكسرى وقيصر واليمن وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ، يندد بما قاله سلمان رضي اللّه عنه آنفا من رؤيته في البريق وما تفضل به حضرة الرسول من أن أمته ستظهر عليهم .

(126/615)

وقال اويس بن قبطي من بني حارثة أن بيوتنا عورة ، فأنزل اللّه فيهما (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ) الآيتين المارتين ، ودام الحصار بضعا وعشرين ليلة ، وعظم البلاء على المسلمين واختلّت داخليتهم بالمنافقين الذين يلقون بالأراجيف بين الناس ويعظمون الأعداء ويقللون المؤمنين ويعرضون بوعد اللّه ورسوله ، ولما رأى حضرة الرسول ذلك أراد أن يعطي ثلث عمارة المدينة إلى قائدي غطفان عيينة والحارث ويرجعا عن مؤازرة قريش إزالة لما رأى من ضجر المؤمنين وخوفهم واستبطائهم نصر اللّه وقد ذلوا من عدوهم وإذا ذل العرب ذل الإسلام كله ، وقد خاف صلّى اللّه عليه وسلم من التفرقة الناشئة عن احساسهم بالضعف والاختلاف الذي يؤدي إلى التباغض والتحاسد والاستئثار ، فاستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فقالا له إذا كان اللّه أمرك بهذا فلا بد منه ، وإلا فقبل أن نتشرف بالإسلام ما كانوا يطمعون بشجرة واحدة فكيف بعد تشرفنا به واللّه ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللّه بيننا وهو خير الحاكمين ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لا واللّه لما يأمرني اللّه

وإنما وعدني النصر والظفر إلا أني رأيت العرب رمتكم عن قوس

واحد وقد رأيتم ما فعل المنافقون ، فأردت كسر شوكتهم ، واجمعوا على مواصلة الحصار

وعدم البحث فيما ذكره حضرة الرسول ، ثم أن عمرو بن ود العامري وعكرمة بن أبي جهل

وهبيرة بن وهب ت (30)

(127/615)

و نوفل بن عبد اللّه ومرداس تلبسوا للقتال وهيجوا غيرهم وأرادوا اقتحام المدينة ، فلما

رأوا الخندق قالوا هذه مكيدة لم تعرفها العرب ، وبعد أن تراشقوا بالنبل اقتحموا الخندق

بخيولهم ، فقام صلّى اللّه عليه وسلم ونفر من المسلمين وقال علي لعمرو انك كنت تعاهد

اللّه أن لا يدعوك رجل إلى خصلتين إلا أخذت إحداهما ، قال أجل ، قال إني أدعوك إلى

الإسلام ، قال لا ، قال أدعوك للنزال ، قال يا ابن أخي لا أحب قتلك ، فقال علي واللّه اني

أحب قتلك ، فقال إذا أنازلك ، وعظم ذلك على المسلمين لما يعلمون من شدة بطش عدو

اللّه عمرو وخوفهم على عليّ ، فبرز له رضي اللّه عنه وقالوا خرج الإسلام كله إلى الكفر

كله ، فوفّق اللّه عليا وقتل عمرا ومعه رجلان قتلهما أيضا وهزم بقية أصحابه ، وبقي

جسد نوفل بن عبد اللّه بالخندق ، فسأل قومه الرسول أن يبيعهم جثته ، فسمح لهم بها

مجانا في ساعة هم أحوج فيها لكل شيء ، ولا جرم فهو معدن السماح وأصل الفضل ، وجرح سعد بن معاذ وصار يقول والحربة في يده لا بأس بالموت إذا حان الأجل ، وقال اللهم إن أبقيت شيئا من عرب قريش فأبقني أجاهد من آذى رسولك ، وإلا فاجعلها لي شهادة ، ولا تمتني حتى تقر عيني في قريظة ، قال محمد بن اسحق كانت صفية بنت عبد المطلب في قارع حصن حسان بن ثابت وكان مع النساء والصبيان ، قالت فمرّ بنا يهودي ، فقلت يا حسان لعله يدل على عورتنا فدونك اقتله ، قال لقد عرفت ما أنا لذلك ، قالت فاعتمرت وأخذت عمودا فنزلت فقتلته ، قالت فقلت يا حسان تعال فاسلبه لأنه رجل ، قال مالي بسلبه حاجة ، وذلك لشدة جبنه خشي أن يحيا أن يكون به رمق حياة فيقاومه ، وما أشبه جبن حسان بجبن أبي دلامة إذ يقول :

وفي الهيجاء ما جرّبت نفسي ولكن في الهزيمة كالغزال

وقال آخر في غيره :

إذا صوت العصفور طار فؤاده وليث شديد الناب عند الثرائد

(128/615)

ثم تظاهرت الأعداء في العداء واشتد الخوف وكثر الرعب والمنافقون يرجفون في الناس ويتسللون ورسول اللّه ينتظر وعد ربه عز وجل ، فجاء نعيم بن مسعود ابن عامر من بني غطفان ، وهذا غير نعيم المار ذكره في الآية 173 من سورة

آل عمران المارة وقد حان الأجل المقدر لنصرة الرسول وإجابة طلبه وتنفيذ وعده فسخر نعيما المذكور بما ألقاه اللّه في قلبه ليقضي اللّه أمرا كان مفعولا ، وقال يا رسول اللّه أسلمت وقومي لا يعلمون ، فأمرني بما شئت ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم خذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة ، فذهب إلى بني قريظة قال لهم تعرفون ودي لكم خاصة ، قالوا لا نتهمك ، قال ولكن اكتموا علي قولي ، قالوا نعم ، قال إن قريشا وغطفان الذين ظاهرتموهم على قتال محمد ليسوا كهيئتكم لأن البلد بلدكم فيه أموالكم ونساؤكم لا يمكنكم التحول منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان إن لم يصيبوا شيئا لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين هذا الرجل ولا طاقة لكم به ، فالرأي أن لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن من أشرافهم على أن يقاتلوا معكم حتى تناجزوا محمدا ، قالوا رأي نافع ، ثم تركهم وذهب ليلته إلى قريش فقال لهم قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا ، وقد بلغني أمر رأيت أن أنصحكم به فاكتموا عليّ ، قالوا نفعل ، قال إن معشر يهود قريظة ندموا وأرسلوا إلى محمد بأنه هل يرضيك أن نأخذ رجالا من أشراف قريش وغطفان ونرسلهم لك ، فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي ، فرضي منهم ذلك ، فاجمعوا أمركم وانظروا ما ترون ، فقد أعذر من أنذر ،

وقد أديت ما علي لكم ، ثم تركهم وذهب إلى غطفان وقال لهم أنتم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ، قالوا صدقت ، قال فاكتموا علي ، قالوا نفعل ، فقال لهم ما قال لقريش وحذرهم أن يبعثوا رهائن إلى اليهود ، فلما أيقنوا ما أرشدهم إليه نعيم ونصحهم به بعث أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر

(129/615)

من قريش وغطفان يقولون لهم إنا لسنا بدار إقامة ، وقد هلك الخف والحافر ، فاستعدوا للقتال حتى نتاجز محمدا ، فارسلوا إليهم أن اليوم سبت لا يعمل فيه شيء على أنا لا نقاتل محمدا بعده حتى تعطونا رهائن من كبار رجالكم لأننا نخشى ان فرستكم الحرب تسيروا لبلادكم وتتركونا ، فرجع الرسل وأخبروا قومهم ، فقالوا كلهم إن ما أخبر به نعيم لحق ، فأرسلوا خبرا لبني قريظة انا لا نرسل لكم أحدا فإن كنتم تريدون القتال قاتلوا وإلا فانظروا ما ترون ، فقال بنو قريظة بعضهم لبعض إن ما ذكره نعيم لصحيح وهو حق ونصح ، وخذل اللّه بينهم بما ألهم نعيما ، وأرسل عليهم ريحا شديدة ، وكانت الليالي شاتية باردة جدا ، فجعلت تكفأ القدور وتطرح الأواني ، وأرسل اللّه عليهم جنودا من جنوده تقيم القاعد وتقعد القائم فاختل نظامهم وتفرقت آراءهم ، وأوقع اللّه في قلوبهم الرعب والحيرة ، ولما بلغ

رسول اللّه ما فعل نعيم وما وقع بينهم من التخاذل وسوء ظن بعضهم ببعض أرسل حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبرهم وقال له لا تحدثن شيئا حتى ترجع إلي ودعى له ، قال حذيفة فأخذت سهمي وانطلقت ، فإذا الريح وجنود اللّه التي لم تر تفعل بهم فعلا عجيبا .

(130/615)

فلا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا خباء ، وإذا أبو سفيان قاعدا ، ولولا وصية رسول اللّه لقتلته ، وإذا هو قام فقال يا معشر قريش ليأخذ كل منكم بيد جليسه فلينظر من هو ، فأخذت أنا بيد رجل ، فقال لي من أنت قلت سبحان اللّه أما تعرفني ؟ فسكت ، فقال أبو سفيان يا قريش ما أصبحتم بدار إقامة وقد أخلفتنا بنو قريظة وهلك الخف والحافر وألقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا إني مرتحل ، وقام وركب جمله وهو معقول فأطلق عقاله وهو راكب ، فسمعت غطفان بما فعلت قريش ففعلت مثلها ، وثاروا ثورة رجل واحد راجعين إلى بلادهم ، فرجعت أبشّر رسول اللّه ، فصار يضحك ، وفشا خبرهم وأعز اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وسلم وأخزى أعداءه .

مطلب لا يسمى ما وقع من حضرة الرسول وما في بعض آيات القرآن شعرا لفقد شروطه وقصة بني قريظة :

روي البخاري ومسلم عن أنس قال : خرج رسول اللّه إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له بشوق ورغبة :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما حيينا أبدا

قال البراء بن عازب كان النبي ينقل التراب معنا ويقول :

واللّه لولا اللّه ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

هذا ، وما وقع منه صلّى اللّه عليه وسلم من هذا ومن قوله في غير هذا الموضع :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

(131/615)

لا يسمى شعرا وإن كان على وزنه لأنه غير مقصود وهو من قسم الرجز الذي لا يسمى شعرا كما ألمعنا إليه في الآية 69 من سورة يس والآية 227 من سورة الشعراء ج 1 ،

وكذلك لا يسمى ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى (وجفان كالجوابي وقدور راسيات) وقوله (وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) وقوله (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) وقوله (وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً) وغيره مما هو بيت كامل أو شطر بيت كقوله (هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ) وقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) وقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ) وقوله (فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ) وغير ذلك فلا يسمى شعرا للأسباب المبينة أعلاه وبما فيها ، وإن زعموا ما زعموا .

هذا ما فعله اللّه بالأحزاب وأقرّ به عين رسوله والأصحاب ، وأخزى أعداءه ، وانظر فعله بالذين والوهم في قوله تعالى "وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ" وهم بنو قريظة الخائنون الناكثون العهد في حالة العسرة "مِنْ صَياصِيهِمْ" حصونهم ومعاقلهم "وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ" إذ تركهم حلفاؤهم وذهبوا ، ثم بين اللّه لرسوله كيف يفعل بهم بقوله "فَرِيقاً تَقْتُلُونَ" أي الرجال منهم "وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً" (26) النساء والذراري ، ثم أباح لهم جميع ما يملكون بقوله تعالى "وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها" وهي أراضي خيبر "وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً" (27) لا يعجزه الأحزاب ولا غيرهم .

وخلاصة هذه القصة على ما ذكره الأخباريون أنه لما كان الظهر من صبيحة هزيمة الأحزاب في ذي القعدة سنة خمس ، نادى منادي رسول اللّه أن لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ، روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : لما رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من الخندق ووضع سلاحه واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال قد وضعت السلاح ، واللّه ما وضعته ، أخرج

إليهم ، قال أين ؟ قال هاهنا وأشار إلى بني قريظة .

(133/615)

وروى البخاري عن أنس قال : كأني أنظر إلى الغبار ساطعا في زقاق بني غنم موكب جبريل حين ذهب ورسول اللّه إلى بني قريظة ، وقيل جاء جبريل النبي صلّى اللّه عليه وسلم في بيت زوجته زينب بنت جحش وقال له قد وضعت السلاح ؟ قال نعم ، قال جبريل عفا اللّه عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين يوما إن اللّه يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم ، فأمر عليه الصلاة والسلام عليا كرم اللّه وجهه أن يتقدم بالراية حتى دنوا حصونهم ، فقال رسول اللّه قد أخزاكم اللّه يا اخوان القردة وأنزل بكم نقمته ، قالوا يا أبا

القاسم ما كنت جهولا ، وإنما قال لهم ذلك لأن عليّا كرم اللّه وجهه لما تقدم سمع منهم قولا خبيثا في حق الرسول ، فأخبره ، وقال له لا تدن من هؤلاء الخبثاء ، فقال لعلك سمعت منهم لي أذى قال نعم ، فقال ما قال ، ثم قال لأصحابه الذين هم (بالصورين) اسم موقع هناك حين مرّ عليهم هل مرّ بكم أحد ، قالوا رأينا دحية بن خليفة ، فعرف أنه جبريل ونزل صلّى اللّه عليه وسلم على بئر من آبارهم وتلاحق بعض أصحابه وقت العشاء وصلوا العصر هناك اتباعا لأمره صلّى اللّه عليه وسلم ولم يعب من تأخر أو يعنفه ، وحاصرهم وكان حيي بن أخطب وفتى لرئيسهم كعب بن أسد ودخل معه الحصن إنقاذا لعهده المار ذكره في الآية 25 لقاء نقضه عهد رسول اللّه ، وعرفوا أن الرسول لم ينصرف عنهم حتى يناجزهم ، فقام فيهم كعب وقال يا معشر يهود هل تتبعون هذا الرجل فتؤمنون به وهو نبي مرسل تجدونه في كتابكم وتأمنون على أموالكم وأولادكم ونسائكم وديارکم ؟ قالوا لا ، قال تقبلون نسائكم ورجالكم وأولادكم يخرجون لقتاله غير تاركين وراءكم ما يهمكم ؟ قالوا لا ، قال هذه ليلة السبت فعسى أن يكون محمدا وأصحابه أمنوا فانزلوا لعلنا نصيبهم على غرة ، قالوا لا تفسد سبتنا فيصيبنا المسخ ، قال ما يأت أحد منكم ليلته حازما .

(134/615)

ثم طلبوا من رسول اللّه أن يرسل إليهم أبا لبابة ليستشيروا برأيه ، فأرسله ، وقد ذكرنا قصته مفصلة في الآية 27 من سورة الأنفال المارة فراجعها تعرف مزية الإيمان وسجية أهله .

ثم جاء الأوس إلى الرسول وقالوا إن بني قريظة موالينا وبالأمس حاصرت بني قينقاع فوهبتهم إلى عبد اللّه بن سلول الخزرجي لأنهم مواليهم ، قال يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى ، قال فذاك إلى سعد ابن معاذ ، فرضوا وذهبوا إليه وأتوا به من خيمة رفيدة التي كانت تداوي المرضى لأنه لم يشف من جرحه الذي أصابه في وقعة الخندق حينما قتل علي ابن ود العامري المار ذكره في الآية 25 ، فلما وصل قال صلّى اللّه عليه وسلم قوموا لسيدكم ، فقاموا إليه وأنزلوه ، وقالوا له يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك فإن رسول اللّه حكم فيهم ، قال قد آن لسعد أن لا تأخذه في اللّه لومة لائم ، فقال لهم عليكم عهد اللّه وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت ؟ قالوا نعم ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم نعم ، قال إني أحكم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء ، فقال صلّى اللّه عليه و

سلم لقد حكمت بحكم اللّه ، يعني الآيتين 26 - 27 المارتين اللتين نزلتا فيهم ، وإنما حكم بهذا الحكم القاسي برأيه دون مشورة أحد وصوبه حضرة الرسول لأنهم نقضوا عهد رسول اللّه في وقعة الخندق المارة في حالة هي أشد الأحوال على المسلمين ، وأرسل سعد إلى خيمته وبسببهم نجم النفاق وألقى الخوف في قلوب الناس أجمعين .

وهو حكم موافق لما في علم اللّه أزلا وألقاه على قلب سعد ، كما ألقى في قلوبهم الرضاء بحكمه ، فقتلوا الرجال وهم ستمائة ، وقيل سبعمائة ، وقسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الذراري والنساء ما بين السبعمائة والألف ، وقسم أيضا الأموال بين المسلمين .

(135/615)

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كان يقول لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، أعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده ، وروى البخاري عن سلمان بن مسروق قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم ، قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ" متعة الطلاق "وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا" (28) من غير إضرار بالإمساك إن كنتن لا تردن البقاء على حالتكنّ هذه معي على ما هي عليه من الضيق والضنك "وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ" فتصبرن على ما أنتنّ عليه ولا تكلفني ما ليس عندي فتكونن من المحسنات "فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً" (29) نزلت هذه الآية لما سألن رسول اللّه زيادة نفقتهن

وآذينه بغيره بعضهن هجرهن وآلى أن لا يقربهن شهرا .

روى مسلم

(136/615)

عن جابر بن عبد اللّه قال دخل أبو بكر يستأذن على رسول اللّه فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، فأذن لأبي بكر فدخل ، ثم اقبل عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد رسول اللّه جالسا وحوله نساؤه واجما مهتما ساكتا ، فقال لأقولن شيئا اضحك به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال يا رسول اللّه لقد وأتيت خارجة سألتني النفقة ، فقمت إليها فوجأ عنقها ، فضحك رسول اللّه فقال هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة فوجا عنقها ، وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها ، أي دقها ، وكلاهما يقول تسألن رسول اللّه بما ليس عنده ، قلن واللّه لا نسأل رسول اللّه شيئا أبدا ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهرا وتسعة وعشرين يوما ، ولما نزلت هذه الآية بدأ بعائشة فقال إني أريد أن اعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حيث تستشيري أبويك ، قالت وما هو يا رسول اللّه ؟ فتلا عليها الآية ، قالت أفيك يا رسول اللّه استشير أبوي ؟ بل اختار اللّه ورسوله والدار الآخرة واسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت ، قال لا تسألني امرأة منهن إلا

أخبرتها أن اللّه لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ، بل بعثني معلما مبشرا .

الحكم الشرعي إذا خيّر الرجل امرأته فاختارت نفسها يقع عليها طلقة بائنة ، وإذا اختارت زوجها لا يقع عليها شيء ومن هذا القبيل التخيير الذي ذكره اللّه تعالى في هذه الآية ، فلو أنهن اخترن الدنيا لفارقهن رسول اللّه ، ولكن هنّ لكمال عقلهن لم يخترن إلا رسول اللّه ، فلم يفارقهن ، وكذلك إذا جعل أمرها بيدها وطلقت نفسها يقع عليها طلقة بائنة فقط ، وكذلك إذا تزوجها على أنه إذا تزوج عليها تكون طالقة فتزوج طلقت طلقة بائنة ، وكذلك إذا جعل أمرها بيدها في صك العقد فلها أن تختار الطلاق متى شاءت إذا لم يقيد بقيد ، وإذا قيد وجب اتباعه .

مطلب في تخيير المرأة ونساء الرسول صلّى اللّه عليه وسلم وتبرج النساء وتسترهن

(137/615)

روى البخاري ومسلم عن مسروق قال ما أبالي خيّرت امرأتي واحدة أو مئة أو ألفا بعد أن تختارني ، ولقد سألت عائشة فقالت خيرنا رسول اللّه فما كان طلاقا ، وفي رواية فاخترناه فلم يعد ذلك شيئا ، وعليه فلا وجه لقول من قال إذا اختارت نفسها يقع طلاق ثلاثا وإذا اختارت زوجها يقع واحدة ، أما عدم قربانهن شهرا

فإنه صلّى اللّه عليه وسلم آلى على ذلك وبرّ بيمينه .

روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم اقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا وكن خمسا من قريش عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أمية وسودة بنت زمعة وأربعا غير قرشيات زينب بنت جحش الأسدي وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حي بن اخطب الخيبرية وجويرية بنت الحارث المصطلقية وكلهن من لم يلدن له شيئا ، وكل أولاده من خديجة رضي اللّه عنها التي كانت منفردة عنده حتى توفيت ، وهي أول امرأة تزوجها ولم يتزوج عليها عدا ابراهيم ، فإنه من الجارية مارية القبطية التي أهداها له عظيم القبط مع بغلة وطبيب فردّ الطبيب وقبلها والبغلة ، فقيل له إنكم في بادية وتحتاجون للطبيب أكثر من غيركم ، فقال لا حاجة لنا به إنا قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لم نشبع .

أي أن الطبيب يحتاج له من يقترف ذلك ، ولأن المرض يكون من الأكل والشرب والحر والقر قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة قالت لما مضى تسع وعشرون ليلة أعدهن دخل علي الرسول صلّى اللّه عليه وسلم فقال (أي عروة قالت عائشة) تراني يا رسول اللّه قلت أقسمت أن لا تدخل شهرا وانك دخلت في تسع وعشرين أعدهن ؟ قال الشهر تسع وعشرون .

وسيأتي بحث الإيلاء أول سورة المجادلة إن شاء اللّه .

قال تعالى "يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ" مطلق معصية من نشوز وغيره وإنما سميت معصية الزوج فاحشة من الزوجات هنا بالنسبة لمقام حضرة الرسول لأن كل ما يقع من خلافه فهو عظيم عند اللّه بالنسبة لمقام رسوله ، وإلا فإن اللّه تعالى صان نساء الأنبياء عن كل فاحشة بمعناها الحقيقي الظاهري ، وهذا جار مجرى قوله تعالى (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) الآية 66 من سورة الزمر ج 2 ، والشرك في حقه محال ، لذلك صرف المفسرون الخطاب لغيره صلّى اللّه عليه وسلم ، أو أنه إليه والمراد به غيره ، ثم وصف تلك الفاحشة بأنها "مُبَيِّنَةٍ" ظاهرة معلومة "يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ" وهذا أيضا بالنسبة لمقامه وشرفهن على غيرهن "وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً" (30) كغيره من أفعاله إذ لا يحول دونه أعوان ولا شفعاء ولا اخوان ولا أولياء ولا فرق فيه عنده بين الشريف والوضيع ، فكونهن تحت رسوله لا يدفع عنهن

العذاب ، كما أن صغر ذنوبهن لا يكون سببا في تقليل العقوبة عنهن أو تخفيفها ، لأن اللّه تعالى له أن يعاقب عقابا كبيرا على ذنب صغير عندنا معشر أهل السنة والجماعة ، وله أن يعفو عن أكبر ذنب لأنه لا يسأل عما يفعل

"وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً" في طاعته وتسليمها لأمر الرسول "نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ" الأول على الطاعة والثاني لشرف اقترانها بحضرة الرسول أي بنسبة العذاب على النشوز والمخالفة "وَأَعْتَدْنا لَها" زيادة على ذلك "رِزْقاً كَرِيماً" (31) في الجنة ورضوانا من اللّه "يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ" مخالفة أمر الرسول لأن قدركن عنده أعظم من غيركن "فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ" لأحد غيره بأن ترققن أصواتكن وتعنجن إذا كلمكن أحد أو سألكن من شيء أو حاجة "فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ" من نفاق وريبة بل اغلظن له بالقول "وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً" (32) ملؤه الأدب والوقار حسنا في معناه خشنا في مبناه مقتصرا على الجواب الكافي لأن الزيادة ممنوعة كما أن اللين ممنوع، وإنما أمرهن اللّه بهذا لئلا ينسبن لقلة الأدب وهن منبعه وعنهن يؤخذ "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ" لا تبارحنها أبدا إلا لحاجة ماسة لأنه أوقركن "وَلا تَبَرَّجْنَ" فتظهرن محاسن أعضائكن وتبرزن معالم زينتكن وتلبسن ما يمثل أعضاءكن وتتبخترن في مشيتكن "تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى" مثل نسائهم إذ كنّ يفعلن ذلك كله قبل الإسلام وقد لا يزيد ذلك على التبرج الموجود الآن في زماننا الذي حلّ بنا منذ الاحتلال الإفرنسي إذ بلغ مبلغ الخلاعة، أجارنا اللّه

وحفظ الإسلام منه ، لأنه أدى لإفساد الأخلاق والآداب ، وفكك عرى الزوجية عند بعض الجاهلين ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(140/615)

كان زمن النمروذ الجبار على زمن إبراهيم عليه السلام تلبس المرأة الدرع (شلحة) موشى باللؤلؤ تمشي به وسط الطريق وتعرض نفسها للرجال ، وكان زمن داود عليه السلام تلبس المرأة قميصا موشى بالدر غير مخيط الجانبين ، فإذا مشت يرى منها كل شيء ، وما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كذلك حتى ظهر الإسلام ، ومنع ذلك كله ، وهذا في غير المتدينات في الأزمان كلها ، أما المتدينات فلا يرى منهن حتى أطراف أناملهن ، وقيل في مثلهم ممّن هن على شاكلتهن :

يغطين أطراف البنان من التقى ويخرجن جنح الليل متّزرات

ومع الأسف قد عادت جاهلية الآن مثل أو أعظم من تلك في المتهتكات إذ يمشين الآن بالشلحة التي لا تغطي كتفيها وركبتيها وقد تمشي بلا سراويل عارية الصدر والكتفين والأرجل حتى الركبتين أما في محل الرقص واللعب على ما يقولون فيكن مجردات عدا ما يستر السوءتين فقط ، وهذا لقبحهما لا لشيء آخر ليجذبن قلوب السفهاء إليهما

والمتشبهات بهن اللاتي يزعمن أنهن متحجبات يلبسن السراويل بمقدار الشبر ولباسا يمثل أعضاءهن لا يصل إلى ركبتهن وبعضهن بلا جورب ويصبغن أيديهن وأرجلهن وأوجههن ، ومنهن من يغطين وجوههن بشيء رقيق يغطي ما فيهن مما يحببن ستره وكتمه كالكف والنعش ويزيد في حسنهن ، فقد نكصنا على أعقابنا ، وقد نهانا رسول اللّه أن نرجع القهقرى .

روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض وليرفعن إلي رجال منكم ، حتى إذا هويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني ، فأقول أي رب أصحابي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك .

ورويا عن أنس مثله بزيادة فأقول سحقا لمن يعدل بعدي .

ورويا عن أبي هريرة مثله بزيادة أنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى .

وجاء عنه صلّى اللّه عليه وسلم إذا تعطرت المرأة فمرت بالقوم ليشموا ريحها فهي زانية .

(141/615)

فيا أيها الأولياء اتقوا اللّه وحافظوا على أعراضكم وامنعوا نساءكم مما نهى اللّه عنه لئلا تكونوا في عداد من يعرض عنهم حضرة الرسول حين يرد الناس حوضه ، كما في الأحاديث

الصحيحة .

واعلموا أنكم مؤاخذون عند اللّه لأن سكوتكم عليهن رضى ، وقد يعاقب الراضي كالفاعل ، راجع الآية 38 من سورة المائدة الآتية ، لأن من المنكر عدم النهي عن المنكر .

قال تعالى "وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" فيما يريد انه منكن "إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ" والرجس يشمل أنواع الإثم كلها يا أهل بيت محمد ، ويا آل محمد ، ويا أمة محمد ، ونصب أهل هنا على النداء أحسن وأليق منه على الاختصاص لزيادة الشرف بندائهم من قبل ذي الجلال والإكرام الدال على التعظيم والتبجيل .

ثم أكد انمحاق الرجس عنهم ومحوه بالكلية بقوله "وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً"

(142/615)

---

(33) رجالا ونساء ولذلك ذكر الضمير ، وتدل هذه الآية على أن نسائه من أهل بيته وهو كذلك ، ويراد بأهل البيت عند الإطلاق آله صلّى اللّه عليه وسلم وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس ، وتشير الأوامر أوائل هذه الآية إلى شمول نساء المؤمنين كافة لأن الأمر بالصلاة والزكاة والطاعة لا يختص بنساء النبي فقط بل يعم غيرهن من المسلمات أجمع

، أما آخرها فهو خاص بنساء النبي وكذلك قوله تعالى "وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ" والنبوية وكل ما تسمعنه من حضرة الرسول وترونه من أفعاله مما يقتدى بهما لأنه من الحكمة "إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً" (34) وبعد أن أنزل اللّه هذه الآيات في نساء الرسول قال نساء المؤمنين ما أنزل اللّه فينا شيئا لأن الآية 195 في آل عمران كانت في حق الهجرة يردن عدم دخولهن في هذه الآية ، فأنزل اللّه جل إنزاله "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ" الذين سلم الناس من لسانهم وأيديهم وسلمت أشخاصهم من العيوب الحسية والمعنوية "وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ" باللّه ورسله وكتبه واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من اللّه تعالى ، وإنما ذكر الإسلام والإيمان لأنهما الأصل لمادة المدح الدنيوي والأخروي "وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ" المتواضعين للّه الخاضعين لأوامره والطائعين عن رغبته "وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ" بأقوالهم وأفعالهم ونياتهم ، وإنما وصفهم اللّه تعالى بالطاعة والصدق لأنهما عنصر الإسلام والإيمان وملاك مراد الأزواج "وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ" على المصائب كافة ، فلا

يجزعن ولا يشكون بل يفوضون أمرهم إلى اللّه .

والصبر نصف الإيمان وقد ذكره اللّه في القرآن ما يزيد على تسعين مرة لعظمه وعظم المتحلين به عنده ، "وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ" المستكينات الطائعات المتذللات الساكنات .

(143/615)

واعلم أن ملاك الخضوع يكون في الصوت والبصر والجوارح وإنما وصفهن بالصبر والخضوع لأنهما من متممات الإيمان والإسلام ، ومن دواعي السرور للأزواج "وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ" بما يفضل عن الحاجة وبما يؤثر على النفس "و الصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ" الفرض والنفل وهاتان الصفتان من أركان قوام الهيئة الاجتماعية وأركان الدين القويم "وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ" من كل

(144/615)

سوء "وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ" لأن ذكر اللّه ينور القلب ويحمي من الوقوع في المنكر ودوامه يوجب التيقظ والمحافظة على هذه الأوصاف العشرة التي ما بعدها وصف ، فهي جامعة لمحاسن الأخلاق والآداب وكمال أركان الدين ونهايته مع اللّه والناس أجمعين ، وعنايته في العطف على الفقراء والأقارب والمساكين ، وهؤلاء الذين يتصفون بهذه الأوصاف المزدوجة المحافظون عليها "أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً" سترا لذنوبهم وعفوا عن

عيوبهم المتقدمة والمتخللة بينها ، فلا يطلع عليها أحدا في الدنيا "وَأَجْراً عَظِيماً" (35) في الآخرة راجع الآية 59 الآتية ، ولما أراد صلّى اللّه عليه وسلم زواج بنت عمته زينب بنت جحش الأسدية لمولاه زيد المار ذكره في الآية 4 إذ بين للناس أنه ليس بغلامه وكان أخوها عبد اللّه وأمهما أمية بنت عبد المطلب كرها زواجها له لأنه شهر بأنه عبد وكرهت هي ذلك أيضا وكانت حديدة المزاج ، فأنزل اللّه تعالى "وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ" بل يكون للّه ورسوله فقط لأن مخالفتهما عصيان "وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً" (36) فرضوا كلهم تسليما لأمر اللّه ورسوله وزوجها منه على ستين درهما وعشرة دنانير وخمارا ودرع وملحفة وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر ، لأنه في الحقيقة ليس بعبد كما مرت الإشارة إليه في الآية المذكورة آنفا ، وإلا لما زوّجها إليه صلّى اللّه عليه وسلم وهي بنت عمته ومن سنته الكفاءة بين الزوجين ، ثم ألقى اللّه كراهتها في نفس زيد بسبب تعاظمها عليه وتباهيها بشرفها ولما تعلم عنه أنه كان خادما وصارت لا تحترمه ولا توقره بلسانها ، فذكر ذلك لحضرة الرسول مرارا وهو يأمره بالصبر عليها علتها تتبدل إلى أحسن وهي لا تزداد

إلا عدم مبالاة به ، فقال يا رسول اللّه لا بد لي من طلاقها ، فقال له هل رابك منها شيء ؟ قال لا واللّه وإنما ما ذكرت لك من أذيتي وإهانتي بتكابرها علي ، فأمره بإمساكها أولا وثانيا وثالثا وهو يصبر معها على مضض لما هو عليه من عزة النفس والمروءة والشهامة ويخشى غضب الرسول إن طلقها ، ولم يزل يراجع الرسول حتى خيره بطلاقها وإمساكها ، فطلقها ، وكان اللّه أعلم رسوله بأنها ستكون

(146/615)

بعد من أزواجه وان زيدا يتزوجها ويطلقها ، فعاتب اللّه نبيه على إلحاحه على زيد بإمساكها مع علمه بما يئول من حالها إليه وأنه مطلقها لا محالة ، فأنزل جل إنزاله "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ" بالإسلام وملازمتك "وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ" بالعتق والزواج من ابنة عمتك "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ" فيها ولا تفارقها واصبر على أذاها وتمنّيه بتبدل حالها معه "وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ" أيها الرسول ما تعلم من حتم طلاقها منه وزواجها منك بإخبارنا إياك واعتقادك بوقوعه حتما وتريد أن تكتم "مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ" للناس ومظهرة علنا لأن الزواج ليس بالأمر الذي يكتم "وَتَخْشَى النَّاسَ" يا حبيبي من أن يقولوا تزوج زوجة من تبناه وقد أخبرناك بأن المتبنى ليس بابن راجع الآية الرابعة المذكورة آنفا "وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ" من

الناس إن كنت ترى أن ذلك مما يخشى والخوف نتيجة العلم ، قال تعالى (إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) الآية 28 من سورة فاطر في ج 1 وفي تخصيص الخشية بهم دليل على اعتقاد الأمانة بهم ، فعلى الأمة أن يأخذوا بأقوالهم ويعتقدوا فيهم بأنهم لا يبلغونهم شيئا إلا عن اللّه ورسوله وليس عليهم أن يحاجوهم ويطلبوا منهم الدليل أو أنهم يقولون لهم لم لا تفعلوا أنتم ما تأمرون به راجع الآية 105 من آل عمران المارة والآية 44 من البقرة أيضا ترى ما تقر به عينك ويغنيك عن غيره ، أي ان هذا الذي تخشاه ، هو حلال مطلق لا عيب فيه ولا استحياء .

مطلب زواج حضرة الرسول بمطلقة زيد ، وكونه خاتم الأنبياء ، والطلاق قبل الدخول :

(147/615)

قال تعالى "فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً" ولم يبق له بها أرب وقد طابت نفسه بطلاقها للأسباب المتقدمة وقد طلقها وانقضت عدتها "زَوَّجْناكَها" يا حبيبنا حسبما وعدناك قبلا ، قالوا فصارت تفتخر على نساء الرسول بأن اللّه هو الذي زوجها من رسوله وهن زوجهن له أولياؤهن ، وأن السفير بينهما جبريل عليه السلام ، والسفير بينهن وبين الرسول في أمر زواجهن من آحاد الناس ، وأنها بنت عمته ، ولأنه لم يولم على امرأة ما أولمه عليها .

روى البخاري ومسلم عن

أنس قال ما أولم النبي صلّى اللّه عليه وسلم على شيء من نسائه ما أولمه على زينب أولم بشاة .

وفي رواية أكثر وأفضل ما أولم على زينب .

قال ثابت بم أولم ؟ قال أطعمهم خبزا ولحما ، حتى تركوه زوجه اللّه امرأة الرجل المعروف بأنه عبده وأنه تبناه أخيرا .

"لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً" الوطر إدراك الحاجة وبلوغ المراد فإذا قضى الرجل نهمته من شيء له همة فيه قالوا قضى وطره منه ، وهذا مقيد بشرط قضاء الوطر ، فلا يجوز إجبار العبد على ترك زوجته لمولاه أو لغيره وكذلك الحر "وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ" في هذه الحادثة كما هو في غيرها "مَفْعُولاً" (37) ماضيا نافذا لا محالة .

(148/615)

هذا هو الواقع في هذه القصة ، ومن قال إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم رآها وهي عند زيد فأعجبته وتمنى طلاقها منه وزواجها به لا صحة له ولا يليق بمقامه الكريم

وعصمة الأنبياء ومنصبهم الشريف ، كيف وهو الذي زوجه إياها وهي بنت عمته ولا تنحجب عنه لا هي ولا غيرها ، وما هذا القول إلا جرأة عظيمة وفرية كبيرة وبهت محض على حضرة الرسول وقلة معرفة بذاته الجليلة ونفسه الطاهرة وجهل بحكمة التشريع المتقدمة التي تضمنتها الآية 37 ، ألا فليحذر الخائضون في هذا من غضب اللّه ونقمته ، على أن اللّه تعالى بسبب تواري حضرة الرسول عن التصريح بما أخبره قد أنبه بهذه الآية ، ولهذا قالت السيدة عائشة رضي اللّه عنها : لو أخفى رسول اللّه شيئا من الوحي لأخفى هذه الآية لما فيها من معنى التكدير لحضرته صلّى اللّه عليه وسلم ولكنه أمين اللّه في سمواته وأرضه ، فويل للقاسية قلوبهم من عدم تصديقه بما جاء به وأخبر عن ربه عز وجل وبما يتكلم به .

قال تعالى "ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ" جناح وإثم أو مانع ما "فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ" وأحله وأباحه من نكاح زينب وتعدد الزوجات لكون هذا "سُنَّةَ اللَّهِ فِي" الأنبياء "الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ" محمد لأنهم كانوا لا يرون بأسا من الإقدام على ما أباحه اللّه لهم ووسعه عليهم من النكاح وغيره ، وقد كان لداود عليه السلام مئة امرأة وثلاثمئة سرية ولسليمان ثلاثمئة حرة وسبعمئة سرية ولا شك أن لهذا التعدد في حيته حكما لسنا في معرض إيضاحها "وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً" (38) بزمان ومكان مثبتا واجب

الوقوع فيهما حتما ، ثم أثنى اللّه تعالى على الأنبياء الذين خلوا قبل محمد فقال جل قوله "الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ" بأوامره ونواهيه إلى الأمم كما أمر "وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ" وحده ولا يلتفتون إلى تقول الناس ولومهم فيما يفعلون بإذن ربهم "وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً" (39) لخلقه على خلقه ويكفيهم أن يحصروا مخافتهم منه فيه ، ثم انه تعالى نفى عن حبيبه مادة التبني بالكلية بصورة أوضح ، لأن الآية الأولى عدد 4 المارة عامة فيه وفي غيره على طريقة التخصيص بعد التعميم بقوله "ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ" أيها الناس لا زيد ولا غيره ليثبت حرمة تزويجه بزوجة زيد "وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ" الذي يجب عليكم توقيره واحترامه أكثر من آبائكم لأن كل رسول أب عام لأمته ومرب لأرواحها "وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ" ولذلك لم يبق له ولد ليبلغ مبلغ الرجال ، لأن الولد إذا لم يكن في درجة أبيه لا فخر له فيه وقد حكم اللّه بأن لا نبي من بعده "وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً" (40) قبل وقوعه لأنه مدون في أزله ، وأن عيسى وإن كان ينزل بعده فإنه يعمل بشريعته ويصلي إلى قبلته ، وقد تنبّأ قبله فلا يقال إنه جاء بعده .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم

النبيين .

وعن جابر مثله وفيه جئت فختمت الأنبياء .

ورويا عن جبير بن مطعم قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو اللّه الكفر بي وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب ليس بعده نبي ، وقد سماه اللّه رءوفا رحيما .

(150/615)

روى مسلم عن أبي موسى قال : كان النبي

صلّى اللّه عليه وسلم يسمي لنا نفسه بأسماء فقال أنا محمد وأنا أحمد وأنا المقفى أي المولى الذاهب المتبع لمن قبله والآخر وأنا الماحي ونبي التوبة ونبي الرحمة .

قال حسان بن ثابت :

ألم تر أن اللّه أرسل عبده ببرهانه واللّه أعلى وأمجد

أغرّ عليه للنبوة خاتم من اللّه مشهود يلوح ويشهد

وشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد

هذا وما جاء عن الأحمديين بأن خاتم النبيين ليس المراد منه أن لا نبي بعده وإنما هو معنى

الكمال قول لا حقيقة له كسائر أقوالهم بحق عيسى عليه السلام وان له خليفة عندهم وأنه سيظهر بدلا منه ويقوم بما يقوم به ، وينكرون رفعه إلى السماء ويؤولون الرفع على خلاف ما جاء في القرآن العظيم ، وهذا كله بهت وزور وافتراء لا يلتفت إليه إلا من هو على شاكلتهم "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً" (41) لا نهاية له حتى الموت لأن كل عبادة لها حد ويعذر أهلها بتركها عند الضرورة إلا الذكر ، إذ يجب على العبد ألا يفارقه ما دام في قلبه حركة ولا يمنع منه وجود حدث أو حيض أو نفاس ولا الخوف والمرض بل يتأكد فيها رجاء الفرج والصحة "وَسَبِّحُوهُ" نزهوه ووقروه وعظموه مع إدامة ذكره "بُكْرَةً وَأَصِيلاً" (42) صباح مساء بصورة مستمرة بحيث لا يغفل قلبكم عنه وهذا هو المطلوب شرعا من العبد لربه لأنه "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً" (43) أي لعامتهم الأولين والآخرين .

(151/615)

ولا معنى لقول من قال إن هذه الرحمة الذين كانوا زمن حضرة الرسول بل هي عامة لهم ولمن تقدمهم وتأخر عنهم "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ" منه إليهم ومنهم إليه في جنته الكريمة "وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً" (44) فيها لا نظير له ، والظلمات هنا بمعنى الكفر والنور بمعنى الإيمان .

قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً" على الخلق "وَمُبَشِّراً" لمن آمن بك بالجنة "وَنَذِيراً" (45) لمن كذبك بالنار "وَداعِياً إِلَى اللَّهِ" بالتوحيد والطاعة والإيمان "بِإِذْنِهِ" بأمره ووحيه "وَسِراجاً مُنِيراً" (46) يغطي كلمة الشرك ولم يقل شمسا لأنها لا يؤخذ منها شيء عفوا ، أما السراج فيؤخذ منه أنوار كثيرة لأنه سهل التناول "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً" (47) على غيرهم من الأمم لأنهم آمنوا بنبيهم والأنبياء قبله "وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ" لا تلق له بالا فإن الأنبياء قبلك أوذوا أكثر منك ، وذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قسم قسمة بين ت (31)

أصحابه وكان يعطيهم بحسب ما يعلم منهم من قوة الإيمان وضعفه ، فقال رجل منافق ما أريد بهذه القسمة وجه اللّه بالنظر لظاهر الأمر ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم رحم اللّه أخي موسى فقد أوذي بأكثر من هذا .

لأنهم وصموه بكونه آدر كما سيأتي آخر هذه السورة ، وقد اتهموه بالزنى كذبا كما مر في الآية 76 من سورة القصص في ج 1 ونسبوا إليه قتل هرون كما سيأتي في الآية 26 من سورة المائدة الآتية ، وفي رواية قال له ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟ فأعرض عنهم يا رسول "وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" لا تلتفت إليهم "وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا" (48) لك عن كل خلقه .

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ" إذا لم تسموا لهن مهرا كما سبق بيانه في الآية 136 من سورة البقرة "وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا" (49) لا ضرار فيه وفي هذه الآية دلالة على أن الطلاق قبل النكاح لا يقع لأنه مرتب عليه وانه كما ينبغي أن يكون الزواج بالإحسان ينبغي أن يكون الطلاق كذلك لا إكراها ، وتشير هذه الآية إلى الإحسان مع الزوجة التي لا مودة بينك وبينها إذ لا تكون قبل الدخول عادة فلأن يكون الإحسان مع التي دخلت بها وخاصة من صار لك منها أولاد من باب أولى ، ولهذا نهى الشارع أن يأخذ من المطلقة شيئا في الآية (229) من البقرة المارة ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية (21) من سورة النساء الآتية فتكون هذه الآية مثل قوله تعالى (فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ) المشار إليها في الآية 23 من سورة الإسراء في ج 1 ، اخرج أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لهذا البحث صلة في الآية (21) من سورة النساء الآتية فتكون هذه الآية مثل قوله تعالى (فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ) المشار إليها في الآية 23 من سورة الإسراء في ج 1 ، اخرج أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال لا طلاق فيما لا تملك ولا عتق فيما لا تملك ولا بيع فيما لا تملك .

وجاء في الخبر لا طلاق في إغلاق أي إكراه أو غضب أو في حالة لا تملك فيها نفسك بحيث لا تعلم نتيجة ما تقول بسبب ما اعتراك من حدة وشبهها ، وروى البخاري عن ابن عباس قال جعل اللّه تعالى الطلاق بعد النكاح ، وعن جابر لا طلاق قبل النكاح ، وما قيل إن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال إنه يقع فغير صحيح ، روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال كذبوا على ابن مسعود وإن كان قالها فزلة من عالم ،

وقول ابن مسعود هنا هو أن الرجل إذا قال إن تزوجت فلانة فهي طالق فإن كان هذا فهو تعليق يقع به الطلاق ولا تحسب عليه زلة ، وما قيل إن هذه الآية منسوخة بآية فنصف ما فرضتم الآية 235 من سورة البقرة المارة فغير صحيح لأن تلك مع تسمية المهر وهنا في غير تسمية ولا خلوة ، ومعناها إذا عقدتم عليهن وطلقتموهن قبل الدخول والخلوة التي هي في معناه .

وإنما أوجبوا العدة في الخلوة احتياطا لتوهم انشغال الرحم خاصة بالثيب نظرا للتمكن الحقيقي ، وظاهر الآية عدم وجوب العدة بالخلوة ، لأنها ليست مسيئا ، قال الشيخ الأمين بن عابدين دفين دمشق صاحب التآليف المشهورة .

وخلوته كالوطء في غير عشرة مطالبة بالوطء إحصان تحليل

وفيء وإرث رجعة فقد عنّة وتحريم بنت عقد بكر وتغسيل

أي أن الخلوة كالوطء في كل شيء عدا هذه العشرة .

واعلم أن هذه الآية ليست ناسخة لآية البقرة 223 إلا أنها عامة في كل المطلقات ينتظم فيها المدخول فيها وغيرها لأن هذه الآية المفيدة اعطت غير المدخول بها حكما آخر خاصا بها فليست بمبطلة لحكمها بتاتا ليقال بالنسخ .

(154/615)

قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ" مهورهن راجع الآية 24 من النساء الآتية بما يسمونه متعة بسبب لفظ الأجر مع أنه اطلق في القرآن في مواقع كثيرة على المهر "وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ" من السبي في غنائم الحرب "وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ" من قريش "وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ" من بني زهرة "اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ" مؤمنات بك وبربك ، قالت أم هاني بنت أبي طالب خطبني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم أنزل اللّه هذه الآية ، قالت فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر كنت من الطلقاء . - أخرجه الترمذي - "وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها

لِلنَّبِيِّ" فهي حلال له "إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها" وإلا فلا تحل ، "خالِصَةً" بلا مهر وهذا الحكم خاص "لَكَ" يا سيد الرسل "مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ" لأنهم لا ينعقد النكاح بينهم بالهبة ولا بغير شهود ويشترط لصحته ، الولي والمهر والإيجاب والقبول وإذن

(155/615)

الولي للصغيرة عند أبي حنيفة ، واشترط الشافعي الإذن للكبيرة أيضا راجع الآية 25 من سورة النساء الآتية ويفهم من هذه الآية ان غير المؤمنة لا تحل للرسول إن وهبت نفسها إليه ، وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، إذ لم يكن لديه صلّى اللّه عليه وسلم امرأة إلا بعقد أو ملك يمين ، وقيل كان عنده واحدة موهوبة اختلفوا فيها هل أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصاري الهلالية أو أم شريك بنت جابر الأسدية أو خولة بنت حكيم السلمية أو ميمونة بنت الحارث ، وأرجح الأقوال بأنها خولة بدليل ما رواه البخاري ومسلم عن عروة قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي صلّى اللّه عليه وسلم فقالت عائشة أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل ؟ ! وهذا من كمال غيرتها ، وإلا فمن ترى السعادة في الدارين في هبة نفسها لمثل رسول اللّه لم لا تفعل ، وإنا نرى الآن كرائم النساء يسعين ويتوسطن بتقديم أنفسهن لمن يرون فيه المروءة والشهامة والسعادة الدنيوية ، فكيف

ممن تكون بمرافقته سعادة الدنيا والآخرة "قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ" المؤمنين سيأتي بيان هذا في الآية 22 من سورة النساء وغيرها "وَ" علمنا ما فرضنا عليهم في "ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ" من الإماء اللاتي أصلهن من السبي "لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ" أيها النبي "حَرَجٌ" فيما تريد من ذلك "وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" (50) بعباده يوسع عليهم فيما لا بد لهم منه

(156/615)

و لما وقعت الغيرة بين نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلم وكان يقسم بينهن أنزل اللّه تعالى "تُرْجِي" تبعد وتؤخر "مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي" تدني وتقرب وتضم "إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ" ولا حرج أيضا وهذا كله من خصائصه صلّى اللّه عليه وسلم دون المؤمنين كافة "ذلِكَ" الذي أبحناه لك وخيرناك فيه مما لم يكن لغيرك بشأن النساء "أَدْنى" أقرب وأهون "أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ" فيرضين بما يرونه منك مهما كان وتطيب أنفسهن "وَلا يَحْزَنَّ" على ما يزعمنه منك من موالاة بعضهن وترجيحهن على غيرهن لأنه من اللّه لا منك "وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ" من تقريب وإبعاد وإرجاء وإقصاء وعزل وإيواء "كُلُّهُنَّ" لأنه حكم عام لا يختص بواحدة دون الأخرى وتفويض مطلق لك من نسائك "وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ" من الميل إلى بعضهن "وَكانَ اللَّهُ" ولم يزل "عَلِيماً" بأن في هذا

إصلاح لحال أزواجك معك "حَلِيماً" (51) بما خصك به دون سائر خلقه لأنه قاطع لكلامهن .

مطلب منع النبي من الزواج والطلاق ورؤية المخطوبة وجواز الرؤية للمرأة في تسع مواضع وما أحدث في زماننا :

قال تعالى "لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ" هؤلاء اللاتي عندك حال نزول هذه الآية وكن تسعا وهو النصاب بالنسبة له صلّى اللّه عليه وسلم .

وقال الشيعة بجواز التسعة لسائر المؤمنين .

(157/615)

وسيأتي بحث هذا في الآية الثانية من سورة النساء إن شاء اللّه "وَلا" يحل لك أيها الرسول أيضا "أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ" بأن تطلقهن أو بعضهن وتأخذ غيرهن أبدا ، وهذا إكرام لهن من اللّه تعالى لأنهن اخترن اللّه ورسوله كما تقدم في الآية 29 فشكر اللّه لهن ذلك وكافأهن بالبقاء عند رسوله ، ثم أكد على حبيبه التمسك بهن وعدم الزواج عليهن بقوله جل قوله "وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ" وذلك أن الرسول أراد أن يخطب أسماء بنت عميس بعد استشهاد زوجها جعفر بن أبي طالب فنهي عن ذلك "إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ" لعلمه أنه

سيأخذ مارية القبطية التي يهديها له المقوقس عظيم القبط في مصر ، ولذلك عددناها مع جملة نسائه آنفا "وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً" (52) ولا وجه لقول من قال إن هذه الآية منسوخة بالآية قبلها وهي (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ) إلخ ، وان النبي لم يمت حتى أحل له أن يتزوج من يشاء ، لأن المقدم لا ينسخ المؤخر باتفاق علماء هذا الفن ، وما احتج به القائل من أن ترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف صحيح لكن لا قائل بأن آية (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ) إلخ نزلت بعد هذه الآية التي نحن بصددها ، ولأن سياق التنزيل ينافيه وسياق النظم يأباه ، كما أن ما احتج به من أن هذه الآية الأخيرة نسخت بالسنّة لا وجه له لأن السنة لا تنسخ القرآن قطعا ، ولا يوجد ما يسمى سنة في هذا الشأن إذ لم يرد حديث صحيح فيه ، ولو ورد وكان متواترا فلا يكون ناسخا ، كما قدمنا توضيح هذا في الآية 107 من البقرة فراجعها .

ويفهم من قوله تعالى (وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ)

إلخ ، جواز رؤية المخطوبة وهو كذلك ، أخرج أبو داود عن جابر قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم إذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل .

(158/615)

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال له صلّى اللّه عليه وسلم انظر إليها فانّ في أعين الأنصار شيئا .

وأخرج الترمذي عن المغيرة بن شعبة قال : خطبت امرأة فقال لي النبي صلّى اللّه عليه وسلم هل نظرت إليها ؟ قلت لا ، قال فانظر إليها فإنه أحرى أن يدوم بينكما .

أي الحب من الدوام .

وفي رواية أن يؤدم بينكما من الادام .

وله أن يرسل من يعتمد عليها من أقاربه لتنظرها وتمحصها وتشم مراقها وفمها وتتكلم معها وتخبره بما تراه ، حتى إذا اطمأن لذلك وأحب خطبتها خطبها ، وهذا أحد الأعذار التسعة المبيحة للنظر ، والثاني الشهادة على فعل الزنى ، والثالث لأجل الشهادة على المرأة ، الرابع للقاضي النظر للمرأة عند الحكم عليها أو لها ، الخامس على الولادة ، السادس البكارة في دعوى العنة أو الرد بالعيب ، السابع والثامن على الختان والخفض ، والتاسع إرادة الشراء في الأمة .

واعلم أن نظر الخطبة ينبغي أن يكون صدفة أو من بيت جارتها أو قريبها أو يريها غيره من غير علم منها ، لا أن تعرض له كالدابة إن أعجبته اشتراها وإلا تركها كما يريده من لا خلاق له ولا مروءة عنده ولا شهامة لديه ، إذ لا تسمح النفوس الأبية الكريمة بذلك ، وقد يقع من بعض الناس لشدة رغبتهم بالخاطب حبا بعلمه أو جاهه أو ماله أو دينه أو صلاحه ،

والأعمال بالنيات ، وإلا فلا يطمح إلى ذلك من غير هذه الأسباب إلا من تقليد الأجانب الذين لا غيرة عندهم ولا حمية لهم الذين يسمحون للخاطب مخالطتها والأكل معها ، بل والذهاب معها للنزهة والاعتزال بها عن أهلها والخلوة بها أيضا ، لهذا فإنه قد يقع ما يقع بينهما من المفاسد ، وإذ ذاك إما يأخذها فيستر عليها أو يتركها فيفضح أمرها وتهمل ، وهذا كثير الوقوع في زماننا ، أجارنا اللّه وسلمنا منه ومن كل التقاليد المخالفة للشرع والمروءة .

(159/615)

ومما حبذه الآن بعض شبابنا تبادل الخواتم بين المخطوبة والخاطب دلالة على تمام الخطبة ، مع أن هذا مما يتشاءم به عند العرب ، لأن الخاتم يدل على الضيق وهم يتفاءلون بالسعة ، وقيل في ذلك :

واللّه ما ناولت للحب خاتما ولا قلما مبرى ولا بست عينه

ولا آلة للقطع توجب فرقة فما سبب التفريق بيني وبينه

وانجر هذا التقليد إلى تقليدهم بالزفاف أيضا ، إذ صار الزوج ليلة الزواج يأتي بسيارته إلى بيت العرس فيدخل بين النسوة والبنات الأجانب إليها ، فيجلس معها ثم يأخذها ويركبها

بسيارته ويذهب بها إلى بيته سافرة خالعة بدل أن كانت تزف إلى بيته من قبل النسوة فقط مستورة لا يراها غيره ، ثم انجر إلى تقليد آخر ، فإنه صبيحة الدخول بها يأخذها ويذهب بها لبلد آخر ويبقى معها شهرا يسمونه شهر العسل بدل أن يبقى في بلده بين أهله وأقاربه يسرون بزواجه ويباركون لهما في بيتهما القريب والبعيد ، ويتركون وليمة العرس ، ويحرمون من التمتع وأنظار العامة ، وتراهما يكشفان الستار ويطرحان العار ، ويضع أحدهما يده بيد صاحبه ويمشيان بالأسواق نابذين وصية اللّه وراء ظهورهما بإظهار التبرج ومخالطة الأجانب وطرح المروءة والشهامة ، وقد يفعل بعض هذا الذين يذهبون إلى المصايف ، وقد يفعلون المنكرات ويظنون أن لا يطلع عليهم أحد من أهل بلدهم ، ولا يبالون باطلاع غيرهم كبعض النساء اللاتي لا يبالين بمقابلة الجمال والبدوي والعامل والصائغ والتاجر ، ويغطين من جارهن وقريبهن ، وكل هذا مخالف للشريعة الغراء التي هي بمصلحة الناس ، فهم يخشون الناس ولا يخشون اللّه ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : استحيوا من اللّه استحياءكم من رجلين من صالحي قومكم .

وقال استحيوا من اللّه حق الحياء .

(160/615)

الحديث ، لأن الحياء من الإيمان ، قاتل الله هؤلاء وقاتل أولياءهن ، وهذا بعض ما سرى إلينا من الأجانب وحبذه بعض شبابنا ومن فقد الأخلاق الكريمة من غيرهم ، فالأمر لله الواحد القهار .

ثم شرع جل شأنه يؤدب المؤمنين عما لا يليق وقوعه منهم بقوله عز قوله "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ" من قبله "إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ" وقته أي إدراكه ونضجه "وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا" إلى منازلكم أو غيرها أي اخرجوا عنه وتفرقوا لا تبقوا جالسين "وَلا" تديموا

(161/615)

الجلوس "مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ" بعضكم "إِنَّ ذلِكُمْ" الدخول قبل الإذن والانتظار لنضج الطعام عنده ، والجلوس بعد الطعام للسمر أو غيره ، كل ذلك "كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ" وما كان لكم أن تؤذوه بشيء من ذلك ولا غيره ، وهو لا يريد أن يبادركم بالمنع والخروج "فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ" أن يجابهكم بذلك "وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ" لأنه بصالحكم لذلك بينه لكم بقصد تأديبكم "وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً" غرضا ما تريدونه من النساء "فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ" لا تدخلوا عليهن من أجله وليكن سؤالكم برفق وتؤدة ولين "ذلِكُمْ" الطلب من

خلف الستار على الوجه المار ذكره "أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ" من أن يقع فيها من وساوس الشيطان ودسائسه بشأنهن "وَقُلُوبِهِنَّ" وطهر أيضا لأن الخواطر القلبية قد لا يخلو منها أحد لا سيما ما ينشأ من النظر إلا من عصمه اللّه "وَما كانَ لَكُمْ" أيها المؤمنون "أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ" في شيء من الأشياء "وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً" لأنهن محرمات عليكم على التأبيد كحرمة أمهاتكم واعلموا "إِنَّ ذلِكُمْ" كله مما يؤذي حضرة الرسول وإن أذاه "كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً" (53) فيعاقب عليه بأعظم العذاب وهذا من إعلام تعظيم اللّه تعالى لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم وإيجاب حرمة وقاره حيا وميتا ، تشير هذه الآية إلى ما يطيب خاطر الرسول ويسرّ قلبه ويستفرغ شكره ويشرح صدره وتطمئن نفسه .

(162/615)

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال إنه كان ابن عشر سنين فقدم النبي صلّى اللّه عليه وسلم المدينة ، قال فكانت أم هانىء توافيني على خدمة رسول اللّه ، فخدمته عشر سنين ، وتوفي وأنا ابن عشرين سنة ، وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل ، وكان أول ما أنزل في مبنى رسول اللّه بزينب بنت جحش حين أصبح يعني النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم بها عروسا ، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ، ثم خرجوا وبقي رهط عند النبي

صلّى اللّه عليه وسلم ، فأطالوا المكث ، فقام النبي فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا ، فمشى النبي ومشت معه حتى جاء عتبة حجرة عائشة ، ثم ظن أنهم قد خرجوا ، فرجع ورجعت معه ، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا ، فرجع ، حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا ، فرجع

ورجعت معه ، فإذا هم قد خرجوا ، فضرب النبي صلّى اللّه عليه وسلم بيني وبينه بالستر ، وأنزل اللّه الحجاب .

قال تعالى "إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ" في صدوركم أيها الناس ولم تنطقوا به مما يتعلق بالنبي وغيره من كل ما تتصورونه بقلوبكم أو يخطر على بالكم "فَإِنَّ اللَّهَ كانَ" ولم يزل "بِكُلِّ شَيْءٍ" يقع في كونه علنا أو سرا "عَلِيماً" (54) لا يخفى عليه شيء ، وانه لا بد أن يعاقبكم على سيئه ويكافئكم على حسنه إن شاء ، قالوا إن طلحة بن عبد اللّه التميمي قال إن محمدا يأخذ بنات عمنا يعني عائشة ، لأن أبا بكر من بني تيم بن مرة ثم يمنعنا من الدخول على نسائه ويحجبهن عنا ، لئن مات لأتزوجنها ، فنزلت .

(163/615)

وهذا الخبر قد لا يكون صحيحا ، لأن أحدا من الأصحاب المخلصين لا يخطر بباله هذا ولا يحوك في نفسه ولا يتردد في صدره ولا يحرك به لسانه ، بل قد ترجف بوادره من ذكره وترتعد فرائضه من التحدث فيه ويقشعر شعره من سماعه ، اللهم إلا أن يكون منافقا ، وطلحة هذا غير طلحة المبشر بالجنة ، وحاشاه من هذه الوصمة ، بل هو رجل شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه ، ذكره الحافظ السيوطي .

فإذا كان نساء النبي المحرمات على الأمة لا يسألن إلا من وراء حجاب وقد نهين عن التخضع بالقول كما مر في الآية 32 ، فنساؤنا الجائز زواجهن أولى بذلك .

وإن هذا وما تقدم دليل كاف على ستر الوجه ، و

لبحثه صلة في الآية 31 من سورة النور الآتية فراجعها .

وبعد نزول هذه الآية قال آباء النساء وذووهن ، ونحن يا رسول اللّه نكلمهن أيضا من وراء حجاب ؟ فأنزل اللّه "لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ" بالدخول عليهن ونظرا لعموم الآية يدخل فيها الكتابيات أيضا .

ويخرج الكافرات لأنهن لسن من نساء المؤمنين ولأنهن غير أمينات عليهن ، إذ قد ينتقلن صفاتهن لأزواجهن وغيرهم لأنهن لا دين لهن ، فلا يجوز اطلاعهن على عورات المؤمنات ، ولا دخول الحمام معهن ، لما فيه من بدو العورات فيطلعن عليهن ، وقد عدّ الفقهاء نظر

الكافرة المسلمة كنظر الرجل الأجنبي "أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ" ظاهر الآية من العبيد والإماء كما نقل ابن عباس ، وإليه ذهب الشافعي ، وقال

أبو حنيفة إنه خاص بالإماء على ما قاله الخفاجي .

وقال أبو حيان انه صلّى اللّه عليه وسلم أمر بضرب الحجاب دونه أي أنس المار ذكره آنفا ، وفعلته أم سلمة مع مكاتبها تيهان .

(164/615)

والآية مطلقة فتشمل الإماء الكافرات وغيرهن ، وإنما جاز ذلك لحاجة الخدمة ، ومما يؤيده العطف على النساء ، إذ يفهم منه أن العبد الذكر ليس له ذلك ، ومما يوافق عموم الآية أن عبد عائشة كان يدخل عليها ، وقد أوصت بأنه إذا ماتت ووضعها في قبرها فهو حرّ ، ولكن أين نساؤنا من عائشة ، وأين خدمنا من خادمها ؟ ويوشك أن يكون خفيا ، والآية يدخل فيها الخفيّ وغيره .

ثم إن اللّه تعالى حذرهن في المحافظة على ما أنزله بحقهن فقال "وَاتَّقِينَ اللَّهَ" أيها النساء واحتطن بما أوصاكن اللّه من المحافظة على الحجاب وغيره ، ويشعر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب بالتشديد على الاستتار من الأجانب وعدم لين الكلام معهم مما يؤدي إلى الغنج ، لا

سيما وقد أعقبه بقوله "إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً" (55) يعلم خطرات القلوب ويرى ما في دخائلها كما يعلم حركات الجوارح ، فالظاهر والخفي في علمه سواء .

روى البخاري ومسلم عن أنس أن عمر قال :

وافقت ربي في ثلاث ، قلت يا رسول اللّه لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزل (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى) وقلت يا رسول اللّه يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلم في الغيرة فقلت (عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ) الآية ، فنزلت .

هذا من كمال إيمانه رضي اللّه عنه ، ولا شك أن المؤمن ينظر بنور اللّه ، فليحذر ذو القلب أن يخطر بباله غير ذلك أو يتخيل خلاف ما هنالك ، فإن كلام اللّه أزلي والقرآن مدوّن في لوحه كما هو لا ينزل على غير النبي لأجل أحد ، ولا يخطر قبل نزوله على النبي في بال أحد ، راجع الآية 92 من الأنعام في ج 2 واعقل ما ذكرناه فيها وتدبره .

(165/615)

قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ" الصلاة من اللّه ثناء ورحمة ، ومن الملائكة رجاء واستغفار ، ومن الناس دعاء وتضرع "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

تَسْلِيماً" (56) حيوه بتحية الإسلام كلما ذكر ، وهذا الأمر للوجوب ، فيجب على كل مؤمن أن يصلي عليه ولو في العمر مرة .

مطلب كيفية الصلاة على النبي ، وهل يجوز إطلاقها على غيره ، والذين لعنهم اللّه ومن يؤذي أولياءه :

روى البخاري ومسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : لقيني كعب بن عجرة فقال ألا أهدي لك هدية ، إن النبي صلّى اللّه عليه وسلم خرج علينا فقلنا يا رسول اللّه قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

ورويا عن أبي حميد الساعدي بزيادة وعلى أزواجه وذريته .

وروى مسلم عن ابن مسعود البدري بزيادة في العالمين .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من صلّى علي واحدة صلّى اللّه عليه بها عشرا .

وأخرج الترمذي في رواية أنس زيادة وحطت عنه عشر خطيئات ، ورفعت له عشر درجات .

وله عن أبي طلحة أن رسول اللّه قال : أتاني الملك فقال يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك

أن لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا .

وله عن ابن مسعود قال : إن للّه ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام .

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من سره أن يكتال له بالمكيال الأوفى إذا صلّى علينا أهل البيت فليقل أللهم صل على محمد النبي الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد .

(166/615)

فعلى من أراد هذا الأجر العظيم وأن يسلم عليه النبي الكريم ، فليكثر من الصلاة والسلام على الرسول الحليم بإحدى هذه الصفات ، لأن العمل بالوارد أفضل من غيره وأكثر ثوابا وأعظم أجرا .

قال أهل العلم : إن الصلاة خاصة بالأنبياء ، والترضي بالأصحاب ، والترحم والسلام بسائر الأمة .

وهناك آيات تدل على خلاف ذلك بجواز إطلاق لفظ الصلاة أو السلام على الانفراد على غير الأنبياء ، أما جمعهما فلا يجوز أبدا .

ومما يدل على إفراد الصلاة دون السلام على غير الأنبياء قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ) المارة في الآية 43 ، ومنها قوله تعالى (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) الآية 157 من البقرة المارة .

وجاء عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : اللهم صل على آل أبي أوفى .

وكان يصلي على من يأتيه بالصدقة امتثالا لقوله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) الآية 103 من سورة التوبة الآتية ، تأمل وتيقظ تفز وتنجح .

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" بكل ما يسمى أذى قل او كثر قولا أو فعلا رمزا أو إشارة "لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا" (57) لهم يلقونه على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، ووصفه بالإهانة يدل على شدة عقابه وكبير عذابه ، ألا فليتق اللّه الذين يؤذون آل البيت لأنه يؤدي لإيذاء حضرة الرسول في قبره الشريف ، كيف وقد قال حبهم إيمان وبغضهم كفر .

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : من أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم .

(167/615)

هذا في العرب كافة فكيف بآله صلّى اللّه عليه وآله وسلم ، فاتقوا اللّه أيها الناس فيهم واعلموا أن كل من يؤذي اولياء اللّه فكأنما آذى الرسول ومن آذى الرسول فكأنما آذى اللّه واستحق هذه اللعنة وهذا العذاب راجع الآية 61 من سورة يونس ، واعلم أن اللّه تعالى منزه من أن يلحقه أذى ما من خلقه ، ومعنى إيذائه مخالفة أوامره قولا أو فعلا أو إشارة ، فكل من خالف أمر اللّه أو عمل ما نهى اللّه عنه فقد آذاه ومنه نسبة الولد والصاحبة والشريك إليه تعالى عن ذلك وإنكار البعث ونسبة ما يقع في ملكه للدهر أو للنجوم أو لأحد من خلقه ونسبة الكذب لرسوله أو السحر أو الكهانة أو الشعر ، والسخرية والاستهزاء بأوليائه أو التعرض لهم والإنكار عليهم ، كله مما يؤذي اللّه تعالى ورسوله .

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال اللّه تعالى من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، ومن أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول اللّه عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فيقول لن يعيدني كما بدأني ، وأما شتمه إياي لقوله اتخذ اللّه ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

روى البخاري ومسلم عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال اللّه عز وجل يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي أقلب الليل والنهار .

راجع الآية 24 من

سورة الدخان ج 2 فيما يتعلق بهذا .

ورويا عنه قال : سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول قال اللّه عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرّة وليخلقوا حبة أو شعرة .

ولهذا عدوا تصوير ذي الروح وتجسيمه من المنهيات الكبائر .

(168/615)

قال تعالى "وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا" من الإثم وهذا مقيد ببراءة المؤذى ، أما إذا كان بحق القصاص فهو واجب ، وإن كان بغير حق فهو حرام مطلقا ممنوع فعله ، وكذلك نسبة شيء لم يعمله قولا كان أو فعلا أو إشارة لغيره وهو فاعله ممنوع وحرام ، راجع الآية 112 من سورة النساء الآتية ، أما إيذاء اللّه ورسوله فهو حرام مطلقا ، لأنه بغير حق وهؤلاء المؤذون "فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً" افتراء محضا لأنهم نسبوا إليهم شيئا لم يفعلوه "وَإِثْماً مُبِيناً" (58) فوق ذلك البهتان ، ولذلك فإن اللّه سيجازيهم فوق جزائهم جزاء فعلهم ، ومثله لبهتهم ، راجع الآية 81 من سورة النحل في ج 2 .

وهذه الآية عامة يدخل فيها كل مؤذ لغيره بغير حق .

وما قيل إنها نزلت في أناس يؤذون عليا أو فيمن يتبعون النساء عند خروجهن إلى المبترز فإن سكتت لاحقوها وإن زجرتهم رجعوا ، فعلى فرض صحته لا يقيدها فيهم ، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

مطلب تغطية وجه المرأة ، والنهي عن نقل القول ، وما اتهم به موسى من قومه والأمانة :

قالوا ولما كان لباس النساء الحرائر والإماء واحدا وكان من الواجب تمييزهن عنهن لشرفهن وامتهان الإماء إذ ذاك أنزل الله "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ" يضربن ويرخين "عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ" أي يغطين أنفسهن بملاءتهن لأن الجلباب هو الملاءة التي تشتمل فيها المرأة فوق ثيابها فتجعل بعضه على رأسها وبعضه على صدرها وظهرها وهو الملفع الكبير الذي يستعمله الآن النساء الدرزيات والبدويات من عترة وشمر وغيرهما وغالب أهل القرى والأرياف والأكراد والعراقيات غير المتمدنات على لغة العامة ، ومن فوقه تكون الملحفة في البلاد السورية والعباءة في البلاد العراقية أي من دير الزور إلى البصرة ،

(169/615)

"ذِلِكَ" تقريب الملفع لستر الوجه حتى لا يبقى منه إلا ما توجه به طريقها "أَدْنى" أقرب "أَنْ يُعْرَفْنَ" بأنهن حرائر مصونات يتباعد عنهن أهل الفساد ويهابهن كل أحد "فَلا يُؤْذَيْنَ" من قبل أولئك الخبثاء ويجتنبون متابعتهن ولا يظن بهن أنهن إماء مبذولات فلا يتعرض لهن أحد ولا يقذفن بما يقذفن به المشبوهات .

هذه غيرة اللّه عليكم أيها المؤمنون فغاروا على أنفسكم وحافظوا على مروءتكم وصونوا شهامتكم بحفظ نساءكم إن اللّه حي ستير يحب الحي والستر "وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" (59) يعفو عما سبق منكم إذا رجعتم إليه وامتثلتم أوامره في تحجب نسائكم وغيره .

وفي هذه الآية دلالة صريحة على ستر الوجه خلافا لما يقوله بعضهم لأن المعرفة المنهي عنها لا تحقق إلا بالوجه ، ولذلك أمر اللّه تعالى بتقريب الجلباب وإدنائه منه على المرأة لئلا تعرف ولو لم يكن المراد به تغطية الوجه لما بقي لهذا القيد من حاجة ، ولا بأس بإبداء العين إذا كان الجلباب ثخينا لتتمكن من النظر إلى طريقها أما إذا كان الغطاء شفافا فلا .

وقد نهى اللّه عن النظر إلى المحرمات كما سيأتي تفصيله في الآية 31 وما بعدها من سورة النور الآتية ، قال إسماعيل حقي في تفسيره روح البيان : يغطين وجوههن كلها .

وقال غير واحد إلا عينا واحدة لتنظر بها طريقها ، أي إذا لم يكن الغطاء شفافا .

وفي قوله تعالى (ذلك أدنى) إلخ ، دليل واضح على لزوم الستر للوجه ، ولا يحول عن هذا القول إلا قليل المروءة والغيرة الذي يريد أن يسوي بين الحرة والجارية والطاهرة والمشبوهة

والمسبلة ، قال أنس مرت بعمر بن الخطاب جارية متنقبة فعلاها بالدرة وقال لها يا لكاع أتتشبهين بالحرائر ، ألق القناع .

(170/615)

قال هذا عمر لعلمه أنها ممتهنة خسيسة مملوكة ، ومن كانت كذلك فإن وجهها وذراعيها ليس بعورة ، وليظهر ميزة الحرائر اللائي نص اللّه عليهن في كتابه فلم يبق من حجة لمدعي السفور بعد أمر اللّه تعالى في هذه الآية العامة لنساء النبي وغيرهن ، ألا فليتق اللّه الرجال لأنهم هم القوامون على النساء القادرون على منعهن من الخلاعة التي هي أكبر من السفور والوزر عليهم إن لم يفعلوا .

قال تعالى "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ" عن قذفهم المؤمنين سرا كان أو جهرا "وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" فجور وهم الزناة لقوله تعالى

(فيطمع الذي في قلبه مرض) أي ريبة زنا من أن يتابعوا النساء ويطلعوا على عوراتهن حبا بإشاعة الفاحشة .

وهذا بمناسبة المقام على الإطلاق فيكون المراد بهم الذين في قلوبهم شك وضعف يقين وشبهة اعتقاد في الإسلام "وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ" بنشر أخبار سوء كاذبة عن أحوال

المؤمنين ليوقعوا الاضطراب في قلوبهم ويثبطوهم عن الخروج مع حضرة الرسول ، ولذلك أقسم اللّه بقوله تعالى "لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ" أي واللّه لنسلطنك عليهم ونأمرنك بقتلهم والتحرش بهم ، وهذا القسم الجليل في الأصناف الثلاثة على أنهم إذا لم يرجعوا عنها ويتركوها يهلكهم اللّه على يد رسوله ، ثم عطف على جواب القسم قوله "ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها" أي المدينة "إِلَّا قَلِيلًا" (60) بقدر مدة ارتحالهم عنها ولا شك أن الجلاء أمر عظيم ما فوقه إلا القتل ، وكثيرا ما يفضل القتل عليه لما فيه من المذلة والاحتقار والهوان

(171/615)

"مَلْعُونِينَ" هؤلاء الأصناف الثلاثة مطرودين "أَيْنَما ثُقِفُوا" وجدوا وأدركوا فإن لم يتوبوا ويؤمنوا "أُخِذُوا" قبض عليهم وأسروا فإن أصروا عذبوا "وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا" (61) كثيرا بدلالة التشديد "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ" أي أن أخذ أمثال هؤلاء وقتلهم وإجلاءهم إن يبقوا مصرين على حالهم هي عادة اللّه في خلقه السالفين "وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (62) أبدا بل تبقى مطردة جارية مجراها لا يحول دونها شيء .

ولما كان المشركون حينما كان حضرة الرسول في مكة يديمون سؤالهم عن الساعة استهزاء لأنهم لا يعتقدون وجودها صار اليهود يسألونه عنها أيضا امتحانا لأنهم يعرفونها من

المغيبات ويعتقدون بها ، أنزل الله تعالى "يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ" متى تكون "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء "إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ" لا علم لي بها ولا لأحد غيري "وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً" (63) وهذا تهديد وإسكات والإتيان يذكر بالظاهر بدل المضمر تعظيم لشأنها ، راجع الآية 177 من سورة الأعراف في ج 1 وأول سورة النبأ في ج 2 وما ترشدك إليه في بحث الساعة ، "إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ" بوجود الساعة الذين ينكرون اليوم الآخر والحياة الآخرة "وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً" (64) تحرقهم وسيبقون "خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً"

(172/615)

---

(65) يمنعهم من عذابها ويخلصهم وينقذهم من بلائها ، وإن هؤلاء الجاحدين سيصدقون فيها "يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ" وإذ ذاك "يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا" (66) فصدقناه ولم نكفر بما جاءنا به ولم نجحد ما أخبرنا به "وَقالُوا" أتباع الكفرة "رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا" بإنكار هذا اليوم لأنهم موهوا علينا إنكاره وجحده "فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا" (67) إذ يقولون لنا لا بعث ولا حساب ولا عقاب ولا ثواب ، وكذلك لم نتبع الهدى الذي جاء به رسلك "رَبَّنا آتِهِمْ" الآن جزاء إضلالهم إيانا في الدين "ضِعْفَيْنِ مِنَ

الْعَذابِ" لإضلالنا وإضلال أنفسهم وانتقم لنا منهم "وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً" (68) كثيرا بأبلغ ألفاظه ، وبعد أن أبدوا عذرهم ولم ينفعهم أظهروا أسفهم وندمهم ولات حين مندم فزجوا في النار وأطبقت عليهم أبوابها وتزايد عليهم عذابها .

(173/615)

ثم إن اللّه تعالى لمح لعباده بعدم التصدي لأذية الرسول بذكر ما وقع من اليهود لسيدنا موسى عليه السلام ، فقال عز قوله "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى " فتؤذون رسولكم بما يصدر منكم من القول والفعل فإن اللّه تعالى يغضب لأذيته فتؤذون من أجله وذلك أن جماعة من بني إسرائيل رموه بأنه آدر لأنه كان حين يغتسل يغتسل بثوبه لشدة حيائه بحضور قومه ، ثم إنه ذات يوم لم يكن عنده أحد فنزع ثوبه ووضعه على حجر ونزل ليغتسل ، فلما عاد ليلبسه فر الحجر به فتبعه وكانوا يراقبونه فنظروا إليه فلم يجدوا فيه بأسا ، فظهر كذبهم ، ثم إنهم اتهموه بقتل هرون فأكذبهم اللّه إذ أراهم إياه جبريل عليه السلام كما سيأتي في الآية 26 من سورة المائدة ، ثم أغروا به المومسة بأن تعزو له مواقعتها كما سبقت القصة في الآية 82 من سورة القصص في ج 1 فكذبتهم بما ألقى اللّه في قلبها "فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا" في حقه راجع الآية 48 المارة ، وفي هذه الآية تحذير للمؤمنين بأن لا

يتجاسروا على ما فيه أذية رسولهم ولا يتهموه بشيء مخالف أو سيىء ولا يظنوا به حيفا لأحد فإن اللّه تعالى يبرؤه مما يجرءون أو يتفوهون عليه به لأنه كريم على ربه مثل موسى الذي يقول ربه في حقه "وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً" (69) مقبولا موقرا عظيما ، وان محمدا أكبر وجاهة وأجل حرمة عند ربه وأعظم درجة وأقرب منزلة منه وأزيد فضلا من الرسل كافة ، وما جاء عنه صلّى اللّه عليه وسلم من قوله لا تفضلوني على موسى ، هو من قبيل هضم النفس والتحدث بالنعمة ، وإلا فهو يعلم بإعلام اللّه إياه أنه أفضل وأكمل خلق اللّه الرسل فمن دونهم .

(174/615)

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ" من أن يقع منكم شيء يغضب اللّه ورسوله "وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً" (70) صوابا عدلا وإياكم والخوض فيما لا يعنيكم وإنكم إذا امتثلتم وانقدتم إلى اللّه

"يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً" (71) في الآخرة لا يضاهيه فوز .

ولما أرشد اللّه كمل عباده إلى مكارم الأخلاق وبين عظيم شأن طاعته وطاعة رسوله

أعقبه ببيان ما يوجب ذلك وصعوبة الوصول إليه بقوله عز قوله "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ" التي ملاكها طاعة اللّه ورسوله ، وجماعها امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وقوامها مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، فيدخل فيها الامتثال لكل شيء حسن والاجتناب عن كل شيء ، كالوفاء بالوعود والعهود وعدم نقضها والغدر فيها وأداء الودائع والأمانات والكف عن كتمها والمماطلة بأدائها ومنع الحواس عن غير ما خلقت لها وصرفها فيما أباحه اللّه تعالى ووضع الشهوات في محالها المباحة وكفها عما حرم اللّه وغير ذلك .

(175/615)

وكان هذا العرض "عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ" ليحملنها وخص اللّه تعالى هذه الثلاثة دون غيرها لكمال شدتها وصلابتها فامتنعن لأنهن وإن كن في غاية القوة إلا أن أمانه اللّه فوق ذلك ، ولهذا حكى حالهن بقوله "فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها" خوف الإضاعة فيكنّ قد خنّها لأن حملها عبارة عن خيانتها لتحقق عدم القيام بها كما يريده اللّه وأن عدم القيام بأوامره خيانة كالإقدام على نواهيه "وَأَشْفَقْنَ مِنْها" خفن من أن لا يقمن بها فلا يؤدينها كما أراده اللّه منهن فيلحقهن عذابه وينلهن عقابه "وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ" لفظ عام في آدم وغيره إلى قيام القيامة ، فالإنسان المركب من اللحم والدم والعظم على ما هو عليه في غاية الضعف

بالنسبة لتلك أقدم على حملها مع وهنه ، وتلك الأجرام العظيمة أبت أن تقدم على حملها ، وما ذلك إلا لأنه كما ذكر اللّه "إِنَّهُ كانَ" ت (32)

ولم يزل "ظَلُوماً" لنفسه "جَهُولًا" (72) لخطأه جهولا لما يراد منه جهولا بعاقبته إلا من وفقه اللّه لرشده .

هذا ولما كان ما من عموم إلا وخص منه البعض فإن الأنبياء والكاملين من خلق اللّه مستثنون من ذلك ، لأنهم هم الآمرون الناهون بلسان اللّه تعالى .

(176/615)

روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر (أصل) قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قبله فيظل أثرها مثل الوكت (أي الأثر اليسير) ثم ينام الرجل النومة فيقبض الأمانة من قبله فيظل أثرها مثل المجل (أي غلظ الجلد من أثر العمل) كجمر دحرجته على رجلك فتنقض فتراه منبترا (منتفخا) وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله (تمثيلا لهم) فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي

الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال من حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه ، ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه (أي رئيسه الذي يصدر عن رأيه ولا يمضي أمرا دونه والوالي الذي ينصف من التعدي ومن ولي أمر قوم فهو ساع عليهم) وأما اليوم فما كنت لأبايع فيكم إلا فلانا وفلانا .

وروى البخاري عن أبي هريرة قال : بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في مجلس يحدث القوم فجاء اعرابي فقال متى الساعة ؟ فمضى صلى اللّه عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة ؟ قال ها أنا يا رسول اللّه ، قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال كيف إضاعتها يا رسول اللّه ؟ قال إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة .

(177/615)

قال تعالى "لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ" الذين ماتوا على ما هم عليه من نفاق وشرك ، ولم يتوبوا ونقضوا عهد اللّه المأخوذ عليهم بطاعته وطاعة رسوله ، وخانوا ما ائتمنوا عليه للّه ولخلقه ولم يوفوا بما وعدوا "وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِناتِ"

فيرحمهم ويحسن إليهم ويتفضل عليهم لوفائهم بما عاهدوا اللّه عليه وآمنوا بما بلغهم عن رسوله وصدقوا بما جاءهم من عنده "وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" (73) لأمثالهم من عباده ، ولا يزال كذلك .

هذا آخر سورة الأحزاب وهي بحذافيرها كما أنزلها اللّه على رسوله بواسطة أمينه ، فمن قال إن الأرضة أكلت قسما منها وهي في بيت

(178/615)

عائشة ، وان الكتاب دونوا ما وجدوه منها فهو ملحد منافق قد افترى على اللّه ورسوله بما قال وكلامه مردود عليه من وجوه ، أولا إذا كان طرأ على شيء منها في بيت عائشة فهل طرأ على ما كان عند الكتاب من النسخ ، لأنهم كانوا يكتبون لرسول اللّه ويحتفظون بنسخ عندهم ، ثانيا هل رفعت من قلوب الحفاظ الذين كانوا يحفظون القرآن كما تلقوه من حضرة الرسول ويتدارسونه بينهم صباح مساء ، ثالثا هل يخفى ذلك على الخلفاء الراشدين الذين يقرأون القرآن آناء الليل وأطراف النهار وهلا اطلعوا عليه حينما نقلوا الصحف من بيت عائشة إلى بيت حفصة إلى أن أعطاها الخليفة عثمان إلى القراء الأمناء

حين نسخوه على المصاحف والإسلام ناشر رواقه ، رابعا أغفل هذا الخبيث عن قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) الآية 9 من سورة الحجر ج 2 ويتفوه بذلك مع تعهد اللّه بحفظه وهل يشك في هذا العهد إلا كافر مارق ؟ ألا لا يلتفت إلى أقوال هؤلاء لأنهم لا أمانة لهم ولا صدق عندهم وهم أشبه باليهود الذين يحرفون كلام اللّه بعد ما عقلوه ، قاتلهم اللّه وأضرابهم وجعل سجين مأواهم ومثواهم .

هذا وقد أشرنا في المقدمة في بحث النزول وفي الآية المذكورة آنفا والآية 42 من سورة حم السجدة في ج 2 إلى ما يتعلق بهذا البحث فراجعه .

ويوجد ثلاث سور محتومة بما ختمت به هذه السورة من اللفظ العظيم هذه والأنعام والمزمل .

هذا واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 5 صـ 453. 499 ﴾

(179/615)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس عشر بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/616)

الجزء السادس عشر بعد الستمائة

فصل فى الوقف والابتداء

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الأحزاب

مدنية

اتق الله جائز والمنافقين كاف حكيما حسن من ربك كاف خبيرا حسن على الله صالح وكيلا تام في جوفه وكذا أمهاتكم وأبناءكم بأفواهكم حسن وكذا السبيل عند الله كاف ومواليكم حسن وقال أبو عمرو كاف قلوبكم كاف رحيما تام من أنفسهم كاف أمهاتكم حسن المهاجرين صالح والا حسن الوقف عند قوله معروفا وهو كاف مسطورا تام وعيسى ابن مريم كاف غليظا جائز والا حسن تركه لئلا يبتدأ بلام كي وليس المعنى على القسم عن صدقهم حسن أليما تام لو تروها كاف وكذا بصيرا الظنون تام شديدا صالح الا غرورا كاف وكذا فارجعوا وعورة وقيل الكافي عند قوله وما هي بعورة الا فرار كاف الا يسيرا حسن ولا يوقف على قوله لآتوها لتعلق ما عبده الا ديار كاف مسؤلا تام وكذا أو القتل والا قليلا بكم رحمة حسن ولا نصيرا تام الا قليلا جائز أشحة عليكم كاف من الموت

صالح أشحة على الخبر حسن أعمالهم مفهوم على الله يسيرا حسن لم يذبوا كاف في الأعراب صالح عن أنبائكم اصلح الا قليلا تام كثيرا كاف وقال أبو عمرو تام ورسوله جائز وتسليما حسن وقال أبو عمرو كاف تبديلا كاف بصدقهم مفهوم أو يتوب عليهم كاف رحيما حسن لم ينالوا خيرا كاف وكذا القتال وعزيزا الرعب صالح وتأسرون فريقا كاف وكذا لم تطؤها قديرا تام جميلا كاف عظيما تام ضعيفين صالح يسيرا حسن كريما تام إن اتقين كاف وكذا في قلبه مرض قولا معروفا صالح وكذا الأولى ورسوله كاف وكذا تطهيرا والحكمة خبيرا تام وكذا عظيما والخيرة من أمرهم مبينا حسن وكذا أن تخشاه منهن وطرا كاف مفعولا تام فيما فرض الله له حسن وقال أبو عمرو كاف مقدورا محل ما بعده رفعا على المدح أو خبر مبتدأ محذوف أو نصبا على المدح وليس هو ولا من قبل بوقف إن جعل محل ذلك جرا نعتا للذين خلوا الا الله كاف حسيبا تام وكذا خاتم النبيين وعليما وأصيلا حسن وكذا رحيما سلام كاف كريما تام منيرا كاف وكذا كبيرا وعلى الله وكيلا تام وكذا جميلا إن يستنكها صالح من دون المؤمنين تام

(5/616)

عليك حرج كاف وقال أبو عمرو تام رحيما فلا جناح عليك كاف كلهن حسن وقال أبو عمرو كاف ما في قلوبكم كاف رحيما تام يمينك كاف رقيبا تام اناه صالح الحديث كاف وكذا منكم ومن الحق وحجاب وقلوبهن ومن لعده أبدا عظيما حسن عليما تام اتقين الله كاف شهدا تام على النبي حسن تسليما والآخرة جائز مهينا تام وكذا مبينا من جلا بيبهن كاف وكذا يؤذين رحيما تام ملعونين كاف تقتيلا تام من قبل كاف تبديلا تام عند الله حسن قريبا تام فيها أبدا كاف ولا نصير صالح الرسولا كاف السبيلا حسن كثيرا تام مما قالوا وجيها تام ذنوبكم حسن عظيما تام وأشفقين منها كاف جهولا تام قال أبو حاتم وأظنه جعل لام ليعذب الله لام القسم والمؤمنات صالح وقال ابو عمرو كاف آحر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ 622.612 ﴾

(6/616)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الأحزاب

مكية وهي سبعون وثلاث لآيات ليس فيها اختلاف وكلمها ألف ومائتان وثمانون كلمة وحروفها خمسة آلاف وسبعمائة وست وتسعون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس

معدوداً بإجماع موضع واحد وهو قوله إلى أوليائكم معروفاً 0

اتق الله (جائز)

والمنافقين (كاف) ومثله حكيماً وكذا من ربك وكذا خبيراً على القراءتين أعني قراءة

يعملون بالياء التحتية والتاء الفوقية قرأ أبو عمرو وحده بالياء التحتية برده على الكافرين

والمنافقين 0

وتوكل على الله (حسن)

وكيلاً (تام)

في جوفه (كاف) فصلاً بين الحكمين المختلفين 0

أمهاتكم (كاف) ومثله أبناءكم وكذا بأفواهكم ويقول الحق والسبيل وعند الله كلها وقوف

كافية 0

في الدين ليس بوقف لأنَّ قوله ومواليكم مرفوع عطفاً على إخوانكم أي قولوا يا أخانا ويا

مولى فلان 0

أخطأتم به (كاف) إن جعلت ما في قوله ما تعمدت في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف

تقديره ولكن الذي تؤاخذون به هو ما تعمدته قلوبكم وليس بوقف إن جعلت ما في موضع

خفض عطفاً على ما الأولى 0

قلوبكم (كاف)

رحيما (تام)

من أنفسهم (كاف) إنَّما كان أولى لأنَّه يدعوهم إلى النجاة وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك 0

أمهاتهم (حسن)

أولى ببعض ليس بوقف لأنَّ ما بعده متعلق به وكذا لا وقف إلى معروفاً 0

ومعروفاً (حسن)

مسطوراً (تام) إن نصبت إذ بمقدر ويكون من عطف الجمل أي واذكر إذ أخذنا أو هو

معطوف على محل في الكتاب فيعمل فيه مسطوراً أي كان الحكم مسطوراً في الكتاب

ووقت أخذنا 0

وعيسى بن مريم (كاف)

غليظاً (جائز) عند أبي حاتم لأنَّ أصل ليسأل ليسألنَّ فلما حذفت النون للتخفيف

كسرت اللام فاللام عنده لام قسم لا لام التعليل وتقدم الرد عليه ووصله أولى لئلا يبتدأ بلام

كي أي أخذنا ميثاقهم ليسأل المؤمنين عن صدقهم والكافرين عن تكذيبهم 0

عن صدقهم (حسن) لأنَّ الماضي لا يعطف على المستقبل 0

أليماً (تام)

اذكروا نعمة الله عليكم ليس بوقف لأنَّ قوله إذ جاءتكم موضعه نصب بما قبله 0

لم تروها (كاف) وقيل تام إن لم تجعل إذا الثانية بدلاً من الأولى0

بصيراً (تام) إن قدر مع إذ فعل مضمر وليس بوقف إن جعلت إذ بدلاً من الأولى ولا يوقف

على شيء من قوله يا أيها الذين آمنوا إلى الظنونا لارتباط الكلام بعضه ببعض 0

الظنونا (كاف) قرأ أبو عمرو الظنون والرسول والسبيل بغير ألف في الثلاث وصلاً ووقفاً

وقرأ ابن كثير والكسائي وعاصم في الوصل بغير ألف وفي الوقف بالألف وقرأ نافع وعاصم

في رواية حفص وابن عامر بالألف وقفاً ووصلاً موافقة للرسم لأنَّهن رسمن في المصحف

كذلك :

المؤمنون ليس بوقف لأنَّ هنالك ظرف للزلزلة والابتلاء 0

شديداً (كاف) إن قدر مع إذ فعل مضمر تقديره واذكر إذ وليس بوقف إن عطفت إذ على

إذ الأولى وعليه فلا يوقف على شيء من إذا الأولى إلى غروراً لاتصال الكلام بعضه ببعض

والكلام في غروراً كالكلام في شديداً لأنَّ بعده إذ 0

فارجعوا (حسن) ومثله إنَّ بيوتنا عورة فصلاً بين كلام المنافقين وكلام الله تكذيباً لهم 0

وما هي بعورة (كاف) ومثله إلاَّ فراراً

لآتوها (حسن) وقيل ليس بوقف لأنَّ قوله وما تلبسوا مع ما قبله جواب لو أي لآتوا الحرب

مسرعين غير لابثين قرأ نافع وابن كثير بالقصر والباقون بالمدّ 0

إلاَّ يسيراً (تام)

الأدبار (كاف)

مسؤلاً (تام)

الفرار ليس بوقف لأنَّ قوله إن فررتم شرط قد قام ما قبله مقام جوابه أعلم الله من فران

فراره لا ينجيه من الموت كما لم ينج القوم من الموت فرارهم من ديارهم ومثل ذلك يقال في قوله

أو القتل لأنَّ ما بعده قد دخل فيه ما قبله لأنَّ وإذا عطف على ما قبله ومن استحسن

الوقف عليه رأى أنَّ ما بعده مستأنف وأنَّ جواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي

إن فررتم من الموت أو القتل لا ينفعكم الفرار لأنَّ مجيء الأجل لابد منه 0

إلاَّ قليلاً (كاف) ومثله رحمة

ولا نصيراً (تام)

هلمَّ إلينا (جائز)

(8/616)

إلاَّ قليلاً (كاف) إن نصبت أشحة على الذم بفعل مضمر تقديره أعني أشحة كقول نابغة بني ذبيان :

لعمري وما عمري عليّ بهين لقد نطقت بطلاً عليّ الأقارع

أقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغي من تخادع

أي اذكر وجوه قرود أو أعني وجوه قرود وكذا من جعل أشحة حالاً من الضمير في يأتون وإن جعل حالاً من المعوقين أي قد يعلم الله المعوقين في حال ما يشحون على فقراء المؤمنين بالصدقة أو حالاً من القائلين أي والقائلين لإخوانهم هلم إلينا في هذه الحالة فعلى هذين الوجهين لا يجوز الوقف على قليلاً وقياس فعيل في الضفة المضعفة العين واللام أفعلاء نحو خليل وأخلاء وصديق وأصدقاء فكان القياس أشحاء لكنه مسموع أيضاً 0

أشحة عليكم (كاف)

ينظرون إليك (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده في موضع الحال 0

من الموت (كاف)

حداد (حسن) إن جعل أشحة ذماً لا حالاً من فاعل سلقوكم 0

على الخير (حسن)

لم يؤمنوا (أحسن) مما قبله على استئناف ما بعده 0

أعمالهم (جائز)

يسيراً (كاف) ومثله لم يذهبوا للابتداء بالشرط 0

في الأعراب (جائز) وليس بوقف إن جعل يسألون حالاً مما قبله فكأنه قال بادون في

الأعراب سائلين عن أخبار من قدم من المدينة فرقاً وجبناً 0

عن أنبائكم (حسن)

إلاَّ قليلاً (تام)

أسوة حسنة ليس بوقف لأنَّ لمن كان بدل من الكاف في لكم وكذا لا يوقف على واليوم

الآخر لعطف ما بعده على ما قبله 0

كثيراً (تام) للابتداء بأول قصة الأحزاب 0

الأحزاب ليس بوقف لأنَّ قالوا جواب لما وهكذا لا وقف إلى ورسوله الثاني فلا يوقف على

ورسوله الأول للعطف 0

ورسوله الثاني (كاف) على استئناف ما بعده ومثله تسليماً 0

من المؤمنين رجال ليس بوقف لأنَّ ما بعده صفة لما قبله فلا تقطع الصفة عن موصوفها 0

عليه (حسن) ومثله من ينتظر على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعلت الواو للحال

أي والحال أنَّهم غير مبدلين تبديلاً 0

وتبديلاً (كاف) إن جعلت اللام في ليجزي للقسم على قول أبي حاتم وليس بوقف على قول غيره لأَنَّه لا يبتدأ بلام العلة 0

بصدقهم ليس بوقف لعطف ما بعده عليه 0

أو يتوب عليهم (كاف)

رحيماً (تام) ومثله خيراً عند علي بن سليمان الأخفش 0

القتال (كاف)

عزيزاً (تام) إن لم يعطف ما بعده على ما قبله 0

الرعب (حسن) ومثله وتأسرون فريقاً

وأرضاً لم تطؤوها (أحسن) مما قبله 0

قديراً (تام)

فتعالين (جائز) على قراءة أمتعكن بالرفع استئنافاً أي أنا أمتعكن وليس بوقف إن جعل جواباً 0

جميلاً (كاف) وكان يحيى بن نصير لا يفصل بين المعادلين بالوقف فلا يوقف على الأول حتى يأتي بالثاني والمشهور الفصل بينهما ولا يخلطهما 0

أجراً عظيماً (تام)

مبينة ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد 0

ضعفين (كاف) ومثله يسيراً

مرتين ليس بوقف لأنَّ قوله وأعتدنا معطوف على نؤتها 0

كريماً (تام)

إن اتقيتنَّ (كاف) وقال علي بن سليمان الأخفش تام 0

في قلبه مرض (حسن) عند العباس بن الفضل 0

معروفاً (كاف) ومثله الأولى وكذا ورسوله

أهل البيت ليس بوقف لأنَّ قوله ويطهركم منصوب بالعطف على ليذهب 0

تطهيراً (تام) قال ابن حبيب قد غلط كثير من الناس في معنى هذه الآية والمعنى غير ما ذهبوا إليه وإنَّما أراد تعالى بقوله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً أي يبرئكم من دعوى الجاهلية والافتخار بها والانتساب إليها لا أنَّ هناك عيناً نجسة يطهركم منها قالت أم سلمة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندي فنزلت هذه الآية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كساءً ودعا بفاطمة والحسن والحسين فلفه عليهم وقال هؤلاء أهل بيتي طهرهم الله تطهيراً قالت أم سلمة وأنا منهم قال نعم قال الأبوصيري في الهمزية متوسلاً بأهل البيت 0

وبأمّ السبطين زوج عليّ وبنيها ومن حوته العباء

والحكمة (كاف)

خبيراً (تام) ولا وقف من قوله إنَّ المسلمين إلى عظيماً 0

وعظيماً (تام)

من أمرهم (كاف)

مبيناً (تام)

(10/616)

واتق الله (حسن) فصلاً بين الكلامين لأنَّ قوله واتق الله من كلام النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة وقوله وتخفي في نفسك من كلام الله للنبي صلى الله عليه وسلم 0

مبديه (جائز) ومثله وتخشى الناس

أن تخشاه (حسن)

زوّجناكها ليس بوقف لتعلق ما بعده بما قبله كأَنَّه قال زوّجناك امرأة زيد لئلا يقع في قلوب الناس أنَّ نساء أدعيائهم إذا طلقوهم لا يجوز تزويجهن لمن تبنى فنفى عنه هذا الحرج مرتين مرة بخصوصه تشريفاً له صلى الله عليه وسلم ومرة بالاندراج في العموم 0

منهنّ وطراً الثاني (كاف)

مفعولاً (تام)

فرض الله له (كاف) إن نصب سنة بفعل مقدر أي سن الله ذلك سنة أو احفظوا سنة الله

وليس بوقف إن نصبتها بفرض 0

من قبل (كاف)

مقدوراً (تام) الذين في محله الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فتام إن جعل في محل رفع

على المدح أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ أو نصب بتقدير أعني وليس هو ولا من قبل

بوقف إن جر نعتاً للذين خلوا أو بدلاً منهم ومن أعرب الذين مبتدأ والخبر ولا يخشون

وجعل الواو مقحمة والتقدير الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه لا يخشون أحداً كان تاماً

0

إلاَّ الله (كاف)

حسيباً (تام)

من رجالكم ليس بوقف لأنَّ قوله ولكن رسول الله معطوف على أبا أحد 0

وخاتم النبيين (كاف)

عليماً (تام)

وأصيلاً (كاف)

وملائكته ليس بوقف لتعلق اللام في ليخرجكم بما قبلها وهو يصلي 0

إلى النور (كاف)

رحيماً (تام)

سلام (كاف)

كريماً (تام)

ونذيراً ليس بوقف للعطف 0

بإذنه (جائز) إن نصب ما بعده بتقدير وآتيناه سراجاً وليس بوقف إن نصب عطفا على ما قبله وجوز الزمخشري عطفه على مفعول أرسلناك وفيه نظر لأنَّ السراج هو القرآن ولا يوصف بالإرسال بل بالإنزال إلاَّ أن يحمل على المعنى كقوله علفتها تبناً وماءاً بارداً اهـ سمين 0

منيراً (كاف) ومثله كبيراً 0

ودع أذاهم (جائز)

وتوكل على الله (كاف)

وكيلاً (تام)

تعتدونها (جائز)

جميلاً (تام)

هاجرن معك (حسن) لأنَّ وامرأة منصوب بمقدر أي ويحل لك امرأة وليس بوقف إن عطف على مفعول أحللنا لك امرأة موصوفة بهذين الشرطين وهما إن وهبت إن أراد النبي ظاهر القصة يدل على عدم اشتراط تقدم الشرط الثاني على الأول وذلك أنَّ إرادته عليه الصلاة والسلام للنكاح إنَّما هو مرتب على هبة المرأة نفسها له كما هو الواقع في القصة لما وهبت أراد نكاحها ولم يرو أنَّه أراد نكاحها فوهبت فالشرط الثاني مقدم معنى مؤخر لفظاً 0

أن يستنكحها (جائز) إن نصب خالصة بمصدر مقدر أي هبة خالصة أو رفع خالصة على الاستئناف وبها قرئ وليس يوقف إن نصبت خالصة حالاً من فاعل وهبت أو حالاً من امرأة لأنَّها وصفت 0

من دون المؤمنين (كاف) وقال النعماني تام وفيه تام وفيه بعد لأنَّ قوله لكيلا يكون عليك متعلق بأول الآية أو بخالصة والتقدير إنَّا أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والواهبة نفسها لكيلا يكون عليك وذلك خالص لك اللهم إلاَّ أن تجعل لكيلا منقطعة عما قبلها 0

لكيلا يكون عليك حرج (كاف) ورسموا لكي لا يكون على المؤمنين حرج الأولى مقطوعة لكي وحدها ولا وحدها والثانية هذه موصولة كلمة واحدة كما ترى 0

رحيماً (تام)

منهن (جائز) ومثله من تشاء لأنَّ من شرطية في محل نصب بابتغيت غير معطوفة على من

تشاء وقوله فلا جناح عليك جواب من 0

جناح عليك (كاف)

أعينهن (حسن) ومثله كلهن وهو مرفوع توكيد لفاعل يرضين واغتفر الفصل بين المؤكد

والمؤكد لأنَّه يجوز الفصل بين التوابع وبها قرأ العامة وقرأ أبو إلياس كلهن بالنصب توكيد

المفعول آتيتهن وهو الهاء 0

قلوبكم (كاف)

حليماً (تام)

النساء من بعد ليس بوقف لأنَّ قوله ولا أن تبدل معطوف على النساء ولا زائدة كأنَّه قال

لاتحل لك النساء من بعد ولا تبديل أزواج بهن 0

إلاَّ ما ملكت يمينك (كاف)

رقيباً (تام)

ناظرين إناه ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده 0

لحديث (حسن)

فيستحي منكم (كاف) فصلاً بين مجموع الوصفين أعني صفة الخلق وصفة الحق 0

من الحق (تام) للابتداء بالشرط 0

حجاب (حسن)

وقلوبهن (كاف) ومثله من بعده أبداً

عظيماً (تام) ومثله عليما

ولا وقف من قوله لا جناح عليهن إلى وما ملكت أيمانهن وهو حسن 0

واتقين الله (كاف)

شهيداً (تام)

على النبي (كاف)

تسليماً (تام)

والآخرة (جائز)

مهيناً (تام) ومثله مبيناً على استئناف ما بعده وجائز إن عطف على ما قبله 0

من جلابيبهن (حسن) ومثله فلا يؤذين

رحيماً (تام) ولا وقف من قوله لئن لم ينته إلى تقتيلاً فلا يوقف على قلوبهم مرض للعطف ولا

على لنغرينك بهم ولا على قليلاً لأنَّ ملعونين حال من الضمير في يجاورونك فكأنه قال ثم لا

يجاورونك إلاَّ في حال ما قد لعنوا ومن نصب ملعونين على الذم كان الوقف على قليلاً تاماً

ونظير هذا قول الفرزدق :

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشار

شقارة نقد الفصيل برجلها فطارة لقوادم الإكواري

فنصب شقاوة وفطارة ولا يجوز نصب ملعونين بثقفوا لأنَّ ما بعد حرف الجزاء لا يعمل فيما

قبله فلا يجوز ملعوناً أينما أخذ زيد يضرب 0

تقتيلاً (تام) لمن نصب سنة بفعل مقدر وجائز لمن نصبها بأخذوا 0

من قبل (كاف)

تبديلاً (تام)

عن الساعة (جائز)

عند الله (كاف)

قريباً (تام)

سعيراً ليس بوقف لأنَّ خالدين حال من الضمير في لهم 0

أبداً (كاف) ومثله نصيراً إن نصب يوم بمضمر وليس بوقف إن جعل العامل فيه ما قبله أي

ولا يجدون لهم من دون الله أولياء ولا نصيراً في ذلك اليوم ومن حيث كونه رأس آية يجوز 0

الرسول (كاف) ومثله السبيل

من العذاب (حسن)

كثيراً (تام)

مما قالوا (حسن)

وجيهاً (تام)

سديداً ليس بوقف لأنَّ قوله يصلح جواب الأمر 0

ذنوبكم (كاف) للابتداء بالشرط 0

عظيماً (تام)

وأشفقن منها (حسن) ومثله الإنسان 0

(13/616)

جهولاً (تام) عند أبي حاتم لأَّنه جعل اللم في ليعذب لام القسم وخولف في ذلك وتقدم الرد عليه والصحيح أَّنه ليس بوقف وأن اللام لام الصيرورة والمآل لأَّنه لم يحمل الأمانة لأنَّ يعذب لكنه حملها فآل الأمر إلى أن يعذب من نافق وأشرك ويتوب على من آمن وكذا ليس بوقف لمن جعل اللام لام كي متعلقة بما قبلها وقرأ الأعمش ويتوب بالرفع جعل العلة قاصرة على فعل الحامل للأمانة ثم استأنف ويتوب وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد 0

والمؤمنات (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 612.622 ﴾

(14/616)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الأحزاب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

"إِنَّ بُيُوتَنَا عَورَةٌ وَمَا هِيَ بِعَورَةٍ" 1 بكسر الواو – ابن عباس وابن يعمر وأبو رجاء ، بخلاف ، وعبد السلام أبو طالوت 2 عن أبيه وقتادة .

قال أبو الفتح : صحة الواو في هذا شاذة من طريق الاستعمال ، وذلك أنها متحركة بعد فتحة ، فكان قياسها أن تقلب ألفا ، فيقال : عَارَة ، كما قولوا : رجل مالٌ 3 . وامرأة مالةٌ ، وكبش صافٌ 4 ونعجة صافةٌ ، ويوم راحٌ 5 ، وطانٌ 6 ، ورجل نالٌ ، من النوال ، وله نظائر . وكل ذلك عندنا فَعِل ، كرجل فَرِق وحَذِر . ومثل "عَورَة" في صحة واوها قولهم : رجل عَوِزٌ لَوِزٌ ، أي : لا شيء له ، وقول الأعشى :

وقد غَدَوْتُ إلى الحانوتِ يَتْبَعُنِي شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلٌ7

فكأن "عَوِرة" أسهل من ذلك شيئًا ؛ لأنها كأنها جارية على قولهم : عَوِرَ الرجلُ ، فهو بلفظه ، والمعنيان ملتقيان ؛ لأن المنزل إذا أعور8 فهناك إخلال واختلال .

---

1 سورة الأحزاب : 13 .

2 هو عبد السلام بن شداد أبو طالوت ، روى القراءة عن أبيه ، وروى القراءة عنه الحسن بن دينار . سئل عنه أحمد بن حنبل ، فقال : لا أعلمه إلا ثقة . طبقات القراء لابن الجزري : 1 : 385 .

3 رجل مال : كثير المال ، والفعل مالَ يَمالُ .

4 كبش صاف : كثير الصوف ، والفعل صاف يصوف .

5 يوم راح : شديد الريح ، والفعل راح يراح .

6 مكان طان : كثير الطين .

7 الحانوت : الخمارة ، وشاو : يشوي اللحم . ومشل : سواق ، من شل ، أي : طرد وساق . وكذلك شلول . وشلشل : خفيف في العمل سريع . وشول : يحمل الشيء . وانظر الديوان : 59 .

8 أعور المنزل : بدت عورته ، أي الخلل الذي فيه .

ومن ذلك قراءة ابن عباس : "بُدَّى فِي الْأَعْرَابِ" 1 ، شديدة الدال ، منونة .

قال أبو الفتح : هذا أيضا جمع باد ، فنظيره قول الله سبحانه : ﴿ كَانُوا غُزًّى ﴾ 2 ، جمع غاز على فُعَّل . ولو كان على فُعَّال لكان بُدّاء وغُزّاء ، ككاتب وكُتّاب ، وضارب وضُرّاب [127و] أنشد الأصمعي :

وأنا في الضُّرّاب قيلانُ القُلة3

ومن ذلك قراءة الحسن : "ثُمَّ سُولُوا الْفِتْنَةَ" 4 ، مرفوعة السين ، ولا يجعل فيها ياء ، ولا يمدها .

قال أبو الفتح : اعلم أن في سألت5 لغتين :

إحداهما : سأل يسأل مهموزاً ، كدأل6 يدأل ، وجار يجأر .

والأخرى وهي سال يسال ، كخاف يخاف . والعين من هذه اللغة واو ؛ لما حكاه أبو زيد من قوله : هما يتساولان ، كقولك : يتقاومان ، ويتقاولان .

والذي ينبغي أن تحمل عليه هذه القراءة هو أن تكون على لغة من قال : سال يسال ، كخاف يخاف ، ومال يمال : إذا كثر ماله . وأقيس اللغات في هذا أن يقال عند إسناد الفعل

إلى المفعول : سِيلُوا كعِيدُوا ، ومثل قِيل ، وبِيع وسِير به . ولغة أخرى هنا وهي إشمام كسرة الفاء ضمة : سِيلوا ، كقِيل وبِيع . واللغة الثالثة سُولوا ، كقولهم : قُولَ ، وبُوعَ ، وقد

---

1 سورة الأحزاب : 20 .

2 سورة آل عمران : 156 .

3 القيلان : جمع القال ، وهي لعبة للصبيان : يأخذون عودين ، أحدهما نحو ذراع والآخر قصير ، فيضربون الأصغر بالأكبر ، فالقال : العود الأكبر الذي يضرب به ، وهو أيضا المقلاء . والقلة : العود الصغير . وأصل القال : القلا ، لأنه من قلوت بالقلة ، فوزنه فلع ، ووزن القيلان فلعان . وانظر اللسان "قول" والخصائص : 1 : 6 ، 7 .

4 سورة الأحزاب : 14 .

5 في ك : سأل .

6 دأل : كمنع : مشى مشية فيها ضعف ، أو عدا عدوا متقاربا .

(16/616)

سُورَبِهِ . وهو على إخلاص ضمة فُعِل ، إلا أنه أقل اللغات . ورُوِّينا عن محمد بن الحسن قول الشاعر :

وَابْتُذِلَتْ غَضْبَى وأُم الرحالْ وقُولَ : لا أهلَ له ولا مالْ1

أي : وقيل : وروينا أيضا :

نُوطَ إلى صُلْبٍ شَدِيدِ الخَلِّ2

أي : نِيطَ ، كقولك : وُصِلَ به ، فهذا أحد الوجهين ، وهو كالساذج.

والآخر وفيه الصنعة ، وهو أن يكون أراد : سُئُلُوا ، فخفف الهمزة ، فجعلها بين بين أي : شابهت الياء الساكنة وقبلها ضمة ، فأنحى بها نحو قُولَ وبُوعَ.

فإما أخلصها في اللفظ واو لانضمام ما قبلها على رأي أبي الحسن في تخفيف الهمزة المكسورة إذا انضم ما قبلها ، نحو قولهم : مررت بِأَكْمُوكِ3 ، وعلى قوله : "يَسْتَهْزِيُون"4 بإخلاص الهمز إذا خففها ياء لانكسار ما قبلها .

وأما بقَّاها على روائح الهمزة الذي5 فيها فجعلها بين بين ، فخفيت الكسرة فيها ، فشابهت – لانضمام ما قبلها – الواو .

ويدل على أن الهمزة المكسورة إذا خففت قاربت – لضعف حركتها – الياء الساكنة قول ابن ميادة :

فكانَ يومَيْذٍ لَها أَمرُها6

أراد : يومئذ ، ثم خفف الهمزة ، فقاربت الياء ، فصارت كأنها "يومَيذ" بياء مخلصة ، فأسكنها استثقالا فيها فصارت "يومَيْذ" .

---

1 انظر الصفحة 345 من الجزء الأول .

2 ناطه : علقه, والخل : أن تثقب الكساء على نفسك بالخلال .

3 الأكمؤ : جمع كمء ، وهو نبات .

4 وردت في آيات ، منها : ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ في سورة الأنعام : 10 .

5 كذا في النسختين ، وإذا يكون المؤلف ذهب بـ"الهمزة" إلى معنى الحرف ، فوصفها لذلك بـ"الذي" ، أو لعلها "الهمز" بغير تاء .

6 ورد في الخصائص "3 : 152" محرفا وغير مستقيم الوزن .

(17/616)

وعليه قولهم : أيشٍ تقول : أراد أيُّ شيء تقول ؟ ثم خفف الهمزة وهي مكسورة ، فدانت الياء ، فاستثقل فيها الكسرة ، كما يستثقلها في ياء القاضي والغازي ، فصار أيشٍ ، كقولك : قاضٍ ، وغازٍ .

ويؤكد هذا القول الثاني قول ابن مجاهد : ولا يمدها ، أي : ينسى الهمز الذي كان فيها الذي لو اعتمده وتطاول نحوه لزاد في الحرف الصوت للحركة التي كان يقوى ويزيد صداه لمكانها .

ألا ترى أن قولك : آدم وآمن أنقص صوتا من قولك : "آأنْتَ قلتَ للناس" 1 ؛ لمكان حركة الهمزة الثانية وإن كانت مخفاة مضعفة ؟ أعني إذا خففت همزة "أنت" ولم تفصل بينها وبين [127ظ] همزة الاستفهام قبلها بألف الوصل ، كالتي في قوله : "آأنْتَ قلتَ للناس" في قول أبي عمرو ومن ذهب مذهبه ، لأن ذلك صوت وافٍ ومطمئن متمادٍ ، وإنما مرادنا قدر تمام الصوت لتخفيف2 الثانية ، على أن لا فاصل بينها وبين الأولى . لأنه حينئذ يوافق3 قوله ولا يمدها ، أي : لا يمدها كما يمدها إذا اعتد حركة الثانية .

ومن ذلك قراءة عمرو بن فائد الأسواري ، ورويت عن يعقوب : "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ تأْتِ مِنْكُنَّ"4 بالتاء .

قال أبو الفتح : هذا حمل على المعنى ، كأن "مَن" هنا امرأة في المعنى ، فكأنه قال : أية امرأة أتت منكن بفاحشة ، أو تأت بفاحشة5 . وهو كثير في الكلام ، معناه للبيان كقول الله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ 6 ، وقول الفرزدق :

تَعَشَّ فإنْ عاهدتَني لا تخونُني نَكُنْ مِثْلَ مَن يا ذِيبُ يصْطَحِبان7

---

1 سورة المائدة : 116 ، وتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية بلا ألف بينهما قراءة ابن كثير ، كما في البحر : 1 : 47 ، وإتحاف الفضلاء : 79 .

2 في ك : بتخفيف .

3 سقطت "يوافق" في ك .

4 سورة الأحزاب : 30 .

5 سقطت في ك : "أو تأت بفاحشة" .

6 سورة يونس : 42 .

7 انظر الصفحة 219 من الجزء الأول .

(18/616)

أي : مثل اللذين يصطحبان ، أو مثل اثنين يصطحبان ، وأن يكون على الصلة أولى من أن يكون على الصفة ، فكأن الموضع في هذا الحمل على المعنى إنما بابه الصلة ، ثم شُبهت بها الصفة ، ثم شُبهت الحال بالصفة ، ثم شُبه الخبر بالحال ، كذا ينبغي أن يرتب هذا الباب من تنزيل ، ولا ينبغي أن يؤخذ بابا سرْدًا وطرْحًا واحدًا ؛ وذلك أن الصلة أذهب في باب التخصيص من الصفة لإبهام 1 الموصول ، فلما قويت الحاجة إلى البيان في الصلة جاء ضميرها من الصلة على معناها ، لأنه أشد إفصاحا بالغرض ، وأذهب في البيان المعتمد .

فأما ما أنشدَناه أبو علي عن الكسائي من قول الشاعر :

أخو الذيبِ يعوِي والغرابِ ومَن يكنْ شريكَيْهِ تطمعْ نفسُهُ كلَّ مَطْمَعِ 2

ففيه نظر . وكان قياسه : ومن يكن شريكيهما ، أو من يكونا شريكيه ، وقد كان أبو علي

يتعسف هذا ، وأقرب ما فيه أن يكون تقديره : وأي إنسان يكونا 3 شريكيه ، إلا أنه أعاد إليهما معا ضميرا واحدا ، وهو الضمير في "يكن" وساغ ذلك إذ كانت 4 الذيب والغراب في أكثر الأحوال مصطحبين ، فجريا مجرى الشيء الواحد ، فعاد الضمير كذلك . ومثله قوله :

لمن زحلوقة زل بها العينان تنهلّ 5

ولم يقل : تنهلان ؛ لكونهما كالعضو الواحد . ومثله للفرزدق :

---

1 في ك : لاتهام ، وهو تحريف .

2 من ثلاثة أبيات لغضوب : امرأة من رهط ربيعة بن مالك ، تهجو سبيعا . وفي ك "الفرات" مكان "الغراب" ، وهو تحريف . وقد أضمر الشاعر ضمير "من" في "يكن" على لفظ الأفراد وهو اسمها ، وجاء بـ"شريكيه" خبرا لها على معنى التثنية . وانظر النوادر : 119 والخصائص : 2 : 423 .

3 يكونا شرط "أي" وجوابها محذوف للعلم به من البيت .

4 كذا في النسختين ، كأنه ذهب بالذئب – كدأبه – إلى معنى البهيمة ، إذ هي كل ذات أربع قوائم ، ولو في الماء ، أو كل حي لا يميز .

5 لامرئ القيس :

ينادي الآخر الألّ ألا حلوا ألا حلوا

وروي "زحلوفة" بالفاء ، وهي بمعنى الزحلوقة : آثار تزلج الصبيان من فوق التل إلى أسفله ، أو مكان منحدر مملس . والأل : الأول ، وزل : يزل به من وقف على حافته . شبه امرؤ القيس القبر بالزحلوقة ، لأنه مكان انحدار الموتى . وانظر الديوان : 74 ، والأمالي : 1 : 43 واللسان "زل" .

(19/616)

ولو رضيَتْ يداي بها وضنَّتْ لكانَ علي للقدرِ الخيارُ 1

ولم يقل رضيتا 2 .

ومن ذلك قراءة الأعرج وأبان بن عثمان "فَيَطْمَعِ الَّذِي" 3 بكسر العين .

قال أبو الفتح : هو معطوف على قول الله تعالى : ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ ، أي : فلا يطمعِ الذي في قلبه مرض ، فكلاهما منهي عنه ، إلا أن النصب أقوى معنى ، وأشد إصابة للعذر ؛ وذلك أنه إذا نصب كان معناه أن طمعه إنما هو مسبَّبٌ عن خضوعهن بالقول . فالأصل في ذلك منهي عنه ، والمنهي مسبَّبٌ عن فعلهن ، وإذا عطفه كان نهيا لهن وله ، وليس فيه دليل على أن الطمع راجعٌ في الأصل إليهن ، وواقع من أجلهن . وعليه بيت امرئ القيس :

فقلْتُ له صَوِّبْ ولا تُجْهِدَنَّه فيَذرُكَ من أُخْرَى القطاة فتزلَقِ 4 [128و]

فهذا نهي بعد نهي ، كالقراءة الشاذة .

ومن ذلك ما رواه عبد الوهاب5 عن أبي عمرو : "وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ"6 ، نصب .

قال أبو الفتح : "رسول الله" منصوب على اسم "لكن" ، والخبر محذوف ، أي : ولكن رسول الله محمد . وعليه قول الفرزدق :

---

1 روي "قوت" مكان "ضنت" و"لها على القدر" مكان "علي للقدر" . وضمير "بها" للنوار زوجه . الديوان : 264 .

2 كذا في النسختين والصواب : ضنتا .

3 سورة الأحزاب : 32 .

4 يروى "فيدنك" مكان "فيذرك" ، و "أعلى" مكان "أخرى" . ويذريك : يصرعك ، من أذراه ، عن فرسه : إذا رمى به . وصوب : خذ القصد في السير وأرفق بالفرس فيه . والقطاة : مقعد الردف ، وأخراها : آخرها . يقول الشاعر هذا لغلامه ، وقد حمله على فرسه ليصيد له . والبيت في ديوان امرئ القيس : 174 ، وهو في الكتاب "1 : 452" منسوب إلى عمرو بن عمار الطائي . وفي ك : فيدراك ، وهو تحريف .

5 هو عبد الوهاب بن عطاء بن مسلم أبو نصر الخفاف العجلي البصري ثم البغدادي ، ثقة مشهور . روى القراءة عن أبي عمرو وغيره ، وروى عنه الحروف أحمد بن جبير وآخرون

مات ببغداد سنة 204 وقيل غير ذلك . طبقات القراء ابن الجزري : 1 : 479 .

6 سورة الأحزاب : 40 .

(20/616)

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتي ولكن زنجيا غليظ المشافر 1

أي : ولكن زنجيا غليظ المشافر لا يعرف قرابتي ، فحذف الخبر لدلالة ما قبله عليه ، وهو قوله : عرفت قرابتي ، كما أن قوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ يدل على أنه مخالف لهذا الضرب من الناس ، ونحو من ذلك قول طرفة :

وتبسِمُ عن أَلْمَى كان مُنَوّرًا تخلل حُرَّ الرملِ دعصٌ له نَدِي 2

قال أبو الحسن علي بن سليمان : لم يأت لكأن بخبر ، علما بمعرفة موضعه ، أي : كأن ذلك المنور ثغرها ، فحذفه للعلم به ، ولطول الكلام .

ومن ذلك قراءة أبي بن كعب والحسن والثقفي وسلام : " أَنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ " 3 ، بفتح الألف .

قال أبو الفتح : تقديره لأن وهبت نفسها ، أي أنها تحل له من أجل أن وهبت نفسها له ، إلا أن حل ذلك لذلك عند هبتها نفسها له وإن هي وهبت نفسها له 4 . وليس يعني بذلك

امرأة بعينها قد كانت وهبت نفسها له ، وإنما محصوله أنها إن وهبت امرأة نفسها للنبي "صلى الله عليه وسلم" حلت له من أجل هبتها إياها له عليه السلام ، فالحل إذا إنما هو مسبب عن الهبة متى كانت ، فلهذا لم يعتزم به واحدة معينة قد كانت وهبت نفسها له ، ويؤكد ذلك القراءة بالكسر ، فصح به الشرط .

ومن ذلك قراءة أبي إياس جوية بن عائذ : "بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ[5]" ، بنصب اللام .

---

1 المشافر : جمع مشفر ، وهو للبعير كالشفة للإنسان . واستعاره منه لما قصد من تشنيع خلق من يهجوه والقرابة التي بين الفرزدق وضبة أنه من تميم بن مر بن أد بن طابخة ، وضبة هو ابن أد بن طابخة . والبيت في الكتاب : 1 : 282 ، وهو مفرد في الديوان ، ومنقول عن الكتاب .

2 البيت من معلقة الشاعر . وألمى : يريد به ثغرا ألمى ، وهو الذي يضرب لون شفتيه كل شيء . والدعص : الكثيب من الرمل . وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني : 45 ، 46 .

3 سورة الأحزاب : 50 .

4 كذا في النسختين .

5 سورة الأحزاب" 51 .

قال أبو الفتح : نصبه على أنه توكيد لـ"هن" من قوله1 : "آتَيْتَهُنَّ" ، وهو راجع إلى معنى قراءة العامة : ﴿كُلُّهُنَّ﴾ ، بضم اللام ؛ وذلك أن رضاهن كلهن بما أوتين كلهن على انفرادهن واجتماعهن ، فالمعنيان إذاً واحد ، إلا أن الرفع أقوى معنى وذلك أن فيه إصراحا من اللفظ با ، يرضين كلهن ، والإصراح في القراءة الشاذة – أعني النصب – إنما هو بإيتائهن كلهن ، وإن كان محصول الحال فيهما مع التأويل واحدا .

ومن ذلك قراءة الحسن : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَصَلُّوا عليه2" .

قال أبو الفتح : دخول الفاء إنما هو لما ضُمنه الحديث من معنى الشرط ، وذلك أنه إنما وجبت عليه الصلاة منا لأن الله "سبحانه" قد صلى عليه ، فجرى ذلك مجرى قولهم : قد أعطيتك فخذ ، أي3 : إنما وجب عليك الأخذ من أجل العطية : وإذا قال قد أعطيتك خذ ، فالوقوف على أعطيتك ، ثم استأنف الأمر له بالأخذ فهو أعلى4 معنى ، وأقوم قيلا .

وذلك أنه إذا علل الأخذ ، فجعله واجبا عن العطية فجائز أن يعارضه المأمور بالأخذ بأن يقول : قد ثبت أن الأخذ لا يجب بعطيتك ، فإن كان أخذي لغير ذلك فعلت . وهو إذ

ارتجل قوله: خذ لم يسرع المعارضة له في أمره إياه؛ لاستبهام معنى [128ظ] موجب الأخذ، كما قد تقع المعارضة إذا ذكر العلة في ذلك. فإن قلت فقد يجوز أن يعارض أمره بالأخذ مرسلا، كما قد يعارضه معللا. ألا تراه قد يقول له: اذكر لي علة الأخذ لأرى فيه رأيي فيتوقف عن الأخذ إلى أن يعرف علة الأمر له بذلك؟ قيل على كل حال الأمر المحتوم به على حالاته أثبت في النفس من المعلل بما يجوز أن يعارض. وإذا راجعت نظرك وأعملت فكرتك وجدت الحال فيه على ما ذكرت لك، فلذلك كان قوله تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أقوى معنى.

---

1 سقطت "قوله" في ك.

2 سورة الأحزاب: 56.

3 سقط في ك من "أي" إلى "خذ".

4 في ك: أقوى.

(22/616)

ومن ذلك قراءة عيسى بن عمر الكوفي: "يَوْمَ تُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ"1، نصب.

قال أبو الفتح: الفاعل في "تُقَلِّبُ" ضمير السعير المقدم الذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ

الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ، ثم قال : "يَوْمَ تُقَلَّبُ" ، أي : تُقَلِّبُ السعيرُ وجوههم في النار ، فنسب الفعل إلى النار ، وإن كان المُقَلِّبُ هو الله سبحانه ، بدلالة قراءة أبي حيوة : "يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهَهُمْ" ، لأنه إذا كان التقليب فيها جاز أن ينسب الفعل إليها للملابسة التي بينهما ، كما قال الله : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ 2 ، فنسب المكر إليهما لوقوعه فيهما ، وعليه قول رؤبة :

فَنَامَ لَيْلِي وتَجَلَّى هَمِّي 3

أي : نمتُ في ليلي : وعليه نفى جرير الفعل الواقع فيه عنه فقال :

لقد لُمْتِنا يا أُمَّ غَيلانَ في السُّرَى ونِمتِ وما لَيْلُ المطِيِّ بنائمِ 4

فهذا نفي لمن قال : نام لَيْلُ المطِيِّ ، وتطرقوا من هذا الاتساع إلى ما هو أعلى منه ، فعليه بيت الكتاب :

أما النهارُ ففي قَيْدٍ وسِلْسِلةٍ والليلُ في جَوفٍ منحُوتٍ من السَّاجِ 5

فجعل النهار نفسه في القيدِ والسلسلةِ ، والليلَ نفسَه في جوفِ المنحوتِ . وإنما يريد أن هذا المذكور في نهاره في القيد والسلسلة ، وفي ليله في بطن المنحوت . وقد جاء هذا في الأماكن أيضا ، وعليه قول رؤبة :

ناجٍ وقدْ زَوْزَى بنا زِيزَاؤه 6

---

1 سورة الأحزاب : 66 .

2 سورة سبأ : 33 .

3 تجلى همي : انكشف . وانظر الديوان : 142 .

4 أم غيلان : بنت جرير . والمطي : جمع مطية ، وهو الراحلة يمتطى ظهرُها ، أي يركب ، وليل المطي : أي ليل ركاب المطي . يقول : دعى اللوم ، فنحن لما نرجو من غب السري لا نصغى إليه . الديوان : 554 ، والكتاب : 1 : 80 ، والخزانة : 1 : 223 .

5 يروى "قمر" مكان "جوف" ، يصف محبوسا يقيد بالنهار ويغل في سلسلة ، ويوضع بالليل في خشبة منحوتة ، أي محفورة . والساج : من شجر الهند . الكتاب : 1 : 80 .

6 زوزى الرجل يزوزي زوزاة ، نصب ظهره ، وأسرع ، وقارب الخطو . الديوان : 4 ، واللسان "زوى" .

(23/616)

فالزيزاء على فعلاء ، وهي هذه الغليظة المنقادة من الأرض ، فكأن هذه الأرض سارت بهم الفجاج ؛ لأنهم ساروا عليها . وقد يمكن أن يكون "زيزاؤه" مصدر من زَوْزَيْتُ ، فيكون الفعل منسوبا إلى المصدر ، كقولهم : سار بنا السيرُ ، وقام بهم القيامُ . فهو على قولك : سيرٌ سائرٌ ، وقيامٌ قائمٌ . ومنه : شعرٌ شاعرٌ ، وموتٌ مائتٌ ، وويلٌ وائلٌ . والزيزاء

على هذا فِعلال ، كالزلزال ، والقلقال .

وأما قول رؤبة :

هيهاتَ من منخرقٍ هيهاؤه[1]

فهو فعلال من لفظ . هيهات ، كالزلزال ، والقلقال ، وليس مصدرا صريحا . وهيهات من مضاعف الياء ، ومن باب الصّيصِية[2] وقد تقدم القول عليه[3] .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "وَكَانَ عَبْدًا لِلَّهِ وَجِيهًا"[4] .

قال أبو الفتح : قراءة الكافة أقوى معنى من هذه القراءة ، وذلك أن هذه إنما يُفْهَم منها أنه عبدٌ لله ولا تُفْهَم منها وجاهته عند من هي ؟ أعندَ الله ، أم عندَ الناس ؟ وأما قراءة الجماعة فإنها تفيد كون وجاهته عند الله ، وهذا أشرف [129و] من القول الأول ؛ لإسناد وجاهته إلى الله تعالى ، وحسبه هذا شرفا . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 175.184﴾

---

1 انظر الصفحة 93 من هذا الجزء .

2 من معاني الصيصية : الحصن ، وشوكة الحائك يسوي بها السدي واللحمة .

3 انظر الصفحة 91 وما بعدها من هذا الجزء .

4 سورة الأحزاب : 69 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الأحزاب

مدنية وآيها ثلاث وسبعون مشبه الفاصلة أولياؤكم معروفا القراآت قرأ نافع النبيء بالهمز وأمال الكافرين أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي ورويس وقلله الأزرق واختلف في ( ) بما تعملون خبيرا (الآية 2 و ( ) بما تعملون بصيرا ( ) الآية 9 فأبو عمرو بياء الغيب فيهما على أن الواو للكافرين والمنافقين وافقه الحسن واليزيدي والباقون بالخطاب بإسناده للمؤمنين وأمره بالتقوى تفخيما لشأنه أو الخطاب له لفظا ولأمته معنى وقرأ (اللائي) الآية 9 هنا والمجادلة الآية 2 وموضعي الطلاق الآية 4 ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بإثبات ياء ساكنة بعد الهمزة بوزن القاضي على الأصل والباقون بحذفها واختلف الحاذقون في الهمزة فحققها منهم قالون وقنبل ويعقوب وسهلها بين بين ورش من طريقيه وأبو جعفر واختلف عن أبي عمرو والبزي فقطع لهما بالتسهيل في المبهج وغيره وقطع لهما بالإبدال ياء ساكنة في الهادي وغيره وفاقا لسائر المغاربة فيجتمع ساكنان فيشبع المد والوجهان صحيحان كما في النشر وهما في الشاطبية كجامع البيان

وكل من سهل الهمزة إذا وقف يقلبها ياء ساكنة كما نقله في النشر عن نص الداني وغيره لتعذر الوقف على المسهلة فإن وقف بالروم فكالوصل

واختلف في (تظاهرون) الآية 4 هنا وموضع المجادلة الآية 2 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر ويعقوب بفتح التاء والهاء وتشديدها مع تشديد الظاء بلا ألف هنا وافقهم ابن محيصن واليزيدي وقرأ ابن عامر بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء وبعده ألف وقرأ عاصم بضم التاء وفتح الظاء وألف بعدها وكسر الهاء مخففة بوزن تقاتلون وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح التاء وتخفيف الظاء بعدها ألف مع

(25/616)

فتح الهاء مخففة وافقهم الأعمش وعن الحسن ضم التاء وفتح الظاء مخففة وتشديد الهاء مكسورة بلا ألف وأما موضع المجادلة فعاصم كقراءته هنا وافقه الحسن وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها وفتح الهاء مخففة كقراء ابن عامر هنا والباقون كذلك لكن بتشديد الهاء بلا ألف كقراءتهم هنا أما وجه قراءة عاصم فجعله مضارع ظاهر وأما الفتح والتشديد مع الألف فمضارع تظاهر والأصل تتظاهرون أدغمت التاء في الظاء ومن خفف حذف إحدى التاءين وأما

التشديد مع حذف الألف فمضارع تظهر وأصله تتظهر فأدغم

وقرأ نافع ﴿ النبيء أولى ﴾ الآية 6 بتحقيق همزة النبيء وإبدال همزة أولى واوا مفتوحة وقلله الأزرق بخلفه وأماله حمزة والكسائي وخلف ويوقف عليه لحمزة بوجهين التحقيق والإبدال واوا مفتوحة لكونه متوسطا بغير المنفصل وأدغم ذال ( ) إذ جاء تكم (وكذا ( ) إذ جاؤوكم (أبو عمرو وهشام ومر حكم إمالة جاء وأدغم ذال ( ) وإذ زاغت (أبو عمرو وهشام وخلاد والكسائي واتفقوا على عدم إمالة زاغت هنا وص

واختلف في ( ) الظنونا هنالك (الآية 10 و ( ) الرسولا وقالوا (الآية 66 و ( ) السبيلا ربنا (الآية 67 فنافع وابن عامر وأبو بكر وأبو جعفر بألف بعد النون واللام وصلا ووقفا في الثلاثة للرسم وأيضا هذه الألف تشبه هاء السكت وقد ثبتت وصلا إجراء له مجرى الوقف فكذا هذا الألف وافقهم الحسن والأعمش وقرأ ابن كثير وحفص والكسائي وخلف عن نفسه بإثباتها في الوقف دون الوصل إجراء للفواصل مجرى القوافي في ثبوت ألف الإطلاق وافقهم ابن محيصن والباقون بحذفها في الحالين لأنها لا أصل لها قال السمين قولهم تشبيها للفواصل بالقوافي لا أحب هذه العبارة فإنها منكرة لفظا وخرج السبيل ادعوهم المتفق على حذف ألف في الحالين

واختلف في ( ) لا مقام ( ) الآية 13 فحفص بضم الميم الأولى اسم مكان من أقام أي لا مكان إقامة أو مصدرا منه أي لا إقامة وقرأ بالضم في ثاني الدخان أن المتقين في مقام نافع وابن عامر وابو جعفر وافقهم الأعمش والباقون بالفتح فيهما مصدر قام أي لا قيام أو اسم مكان منه أي لا مكان واجمعوا على فتح الأول من الدخان ومقام كريم وذكر همز ﴿ النبيء) ﴾ لنافع قريبا وضم (بيوتنا) ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب وعن الحسن (عورة) معا بكسر الواو اسم فاعل من عور المنزل يعور عورا ورويت عن جماعة والجمهور بسكون الواو أي ذات عورة وقيل غير حصينة وأمال أقطارها أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والدوي عن الكسائي وقلله الأزرق وعن الحسن ﴿ سولوا الفتنة ﴾ بواو ساكنة بدل الهمزة ويوقف عليها لحمزة بالتسهيل كالياء على مذهب سيبويه والجمهور وبالإبدال واوا على مذهب الأخفش نص عليه الهذلي وغيره ومر التنبيه عليه بالبقرة

واختلف في (لأتوها) الآية 14 فنافع وابن كثير وابن ذكوان من طريق الصوري وهي طريق سلامة ابن هارون عن الأخفش وأبو جعفر بقصر الهمزة أي بحذف الألف من الإتيان المتعدي لواحد بمعنى جاؤوها والباقون بمدها الإيتاء المتعدي لاثنين بمعنى أعطوها وتقدير المفعول الثاني السائل وهي طريق عن ابن ذكوان وتقدم عن الأزرق تفخيم راء فرارا

و الفرار كالجماعة من أجل التكرير وأمال يغشى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وفتح سين (يحسبون) ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر

واختلف في ( ) يسألون عن أنبائكم (الآية 20 فرويس بتشديد السين المفتوحة وألف بعدها وأصلها يتساءلون فأدغم التاء في السين أي يسأل بعضهم بعضا ورويت عن زيد بن علي وقتادة وغيرهما والباقون بسكون السين بعدها همزة بلا ألف ويوقف عليه لحمزة بالنقل فقط وحكي إبدال الهمزة ألفا وهو مسموع قوى لرسمها بالألف كما في النشر

(27/616)

واختلف في (أسوة) الآية 21 هنا وموضعي الممتحنة الآية 4 6 فعاصم بضم الهمزة في الثلاثة وافقه الأعمش وهي لغة قيس وتميم والباقون بكسرها لغة الحجاز والأسوة الاقتداء اسم وضع موضع المصدر وهو الايتساء كالقدوة من الاقتداء

وأمال الراء فقط من رأى المؤمنون مع فتح الهمزة أبو بكر وحمزة وخلف وفتحها الباقون وما حكاه الشاطبي رحمه الله تعالى من الخلاف في إمالة الهمزة عن أبي بكر وفي إمالة الراء والهمزة معا عن السوسي تعقبه في النشر كما تقدم بعدها صحة ذلك عنهما من طرق الشاطبية كأصلها بل ومن طرق النشر هذا حكم الوصل أما الوقف فكل يعود إلى أصله

في الذي بعده متحرك غير مضمر على ما مر غير مرة

وأمال زادهم ابن ذكوان وهشام بخلفهما وحمزة

وأمال شاء ابن ذكوان وهشام بخلفه وحمزة وخلف ويوقف عليه لحمزة وهشام بخلفه

بالإبدال ألفا مع المد والقصر والتوسط وأما همزها مع همز أو فتقدم غير مرة نحو تلقاء

أصحاب بالأعراف وضم عين الرعب ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب كما في

البقرة

وقرأ ابو جعفر ﴿ تطوها ﴾ الآية 27 بواو ساكنة بعد الطاء المفتوحة بلا همز

وقرأ مبينة بفتح الياء التحتية ابن كثير وأبو بكر

واختلف في ﴿ يضعف لها ﴾ الآية 30 فابن كثير وابن عامر بنون العظمة وتشديد العين

مكسورة بلا ألف قبلها على البناء للفاعل العذاب بالنصب مفعولا به وافقهم ابن محيصن

وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بالياء من تحت وتشديد العين وفتحها بلا ألف قبلها على

البناء للمفعول (العذاب) بالرفع على النيابة عن الفاعل وافقهم اليزيدي والحسن والباقون

بالياء من تحت وتخفيف العين وألف قبلها مبنيا للمفعول (العذاب) بالرفع نائب الفاعل

وعن ابن محيصن من المفردة بالنون والمد والتخفيف ونصب (العذاب)

واختلف في ﴿ (ويعمل صالحا نؤتها ﴾ الآية 31 فحمزة والكسائي وخلف بياء التذكير فيهما على إسناد الأول إلى لفظ من والثاني لضمير الجلالة لتقدمها وافقهم الأعمش والباقون بتاء التأنيث في يعمل على إسناده لمعنى من وهن النساء ونؤتها بالنون مسندا للمتكلم العظيم حقيقة وأما من النساء أن فهما همزتان متفقتان بالكسر من كلمتين ومر حكمهما غير مرة لكن على وجه إبدال الثانية للأزرق وقنبل من جنس ما قبلها حرف مد ياء ساكنة يجوز لهما وجهان حينئذ وهما المد المشبع إن لم يعتد بالعارض وهو تحريك النون بالكسر لالتقاء الساكنين والقصر إن اعتد به والوجهان صحيحان نص عليهما في النشر في التنبيه التاسع وآخر باب المد والقصر فاقتصار الأصل هنا على المد تفهم تعينه وقد علمت ما فيه وعن ابن محيصن فيطمع بكسر الميم مع فتح الياء وهو شاذ حيث توافق الماضي والمضارع في الكسر ورويت عن الأعرج أيضا

واختلف في (وقرن) الآية 33 فنافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف أمر من قررن بكسر الراء الأولى يقررن بفتحها فالأمر منه أقررن حذفت الراء الثانية الساكنة لاجتماع الراءين ثم نقلت فتحة الأولى إلى القاف وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها فصار قرن فوزنه حينئذ فعن فالمحذوف اللام وقيل المحذوف الأولى لأنها نقلت حركتها إلى القاف بقيت ساكنة مع سكون الراء بعدها فحذفت الأولى للساكنين فوزنه حينئذ فلن والباقون بالكسر

من قر بالمكان بالفتح في الماضي والكسر في المضارع وهي الفصيحة ويجيء فيها الوجهان من حذف الراء الثانية أو الأولى ويلغز به فيقال راء يفخمها الأزرق بلا خلف ويرققها أكثر القراء بلا خلف ومر باء بيوتكن لورش وأبي عمرو وحفص وأبي جعفر ويعقوب وقرأ ( ) ولا تبرجن ( ) بتشديد التاء البزي بخلفه ومر وجوب إشباع المد حينئذ للساكنين واختلف في ﴿ تكون لهم ﴾ الآية 36 فهشام وعاصم وحمزة والكسائي وخلف

(29/616)

بالياء من تحت لأن تأنيث الخيرة مجازي وللفصل أو تؤول بالاختيار وافقهم الأعمش والحسن والباقون بالتاء من فوق مراعاة للفظ وأظهر دال فقد ضل قالون وابن كثير وعاصم وأبو جعفر ويعقوب وأدغم ذال وإذ تقول أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأمال تخشاه حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثله قضى وكفى وتقدم اتفاقهم على فتح أبا أحد لكونه واويا مرسوما بالألف

واختلف في ( ) وخاتم النبيين ( ) فعاصم بفتح التاء اسم للآلة كالطابع والقالب وافقه الحسن والباقون بكسرها اسم فاعل

وقرأ ﴿ يا أيها النبيء إنا أرسلناك ﴾ و ﴿ النبيء إنا أحللنا لك ﴾ الآية 45 50 بهمزتين

مخففة فمسهلة كالياء نافع وحده وبإبدالها واوا مكسورة وتقدم رد تسهيلها كالواو والباقون بترك الهمزة الأولى وتشديد الياء وأمال أذيهم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وقرأ (تمسوهن) بضم التاء والمد حمزة والكسائي وخلف أي تجامعوهن ومر بالبقرة وعن الحسن أن وهبت بفتح الهمزة بدل من امرأة بدل اشتمال أو على حذف لام العلة أي لأن وقرأ للنبي أن و بيوت النبي إلا بإبدال الهمزة ياء مشددة قالون في الوصل على المختار والوجه الثاني له وهو جعل الهمزتين بين بين فيهما ضعفه في النشر ولذا قال في الطيبة بالسوء والنبي الإدغام اصطفى فإن وقف فبالهمزة وقرأ (ترجي) الآية 51 بالهمز ابن كثير وابو عمرو وابن عامر وأبو بكر ويعقوب وأبدل الهمزة من (وتؤوي) الآية 51 واوا ساكنة مظهرة أبو جعفر فيجمع بين المبدلة والأصلية ولم يبدلها ورش من طريقيه ولا أبو عمر للثقل كما مر ووقف عليها حمزة بالإبدال واوا كذلك مع الإظهار ومع الإدغام نص له عليهما غير واحد وعن ابن محيصن (تقر) بضم التاء وكسر القاف من أقر و (أعينهن) بالنصب

(30/616)

واختلف في (لا يحل) الآية 52 فأبو عمرو ويعقوب بالتاء من فوق لأن الفاعل حقيقي التأنيث وافقهما اليزيدي والحسن والباقون بالياء من تحت للفصل وشدد البزي بخلفه التاء

من أن تبدل وأمال أتاه هشام من طريق الحلواني وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وفتحه الداجوني عن هشام كالباقين وقرأ ﴿ فسلوهن ﴾ بنقل حركة الهمزة إلى السين ابن كثير والكسائي وخلف عن نفسه وسهل الأولى من أبناء إخوانهن قالون والبزي وسهل الثانية ورش وأبو جعفر ورويس بخلفه وللأزرق وجه ثان إبدالها ياء ساكنة مع المد للساكنين وبهما قرأ قنبل وله ثالث إسقاط الأولى مع المد والقصر وبه قرأ أبو عمرو ورويس في وجهه الثاني وحققهما الباقون وأبدل الثانية ياء

محضة مفتوحة من أبناء أخواتهن نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وعن الحسن تقلب بفتح التاء أي تتقلب ووجوههم فاعل

واختلف في (سادتنا) الآية 67 فابن عامر ويعقوب بالجمع بالألف بعد الدال مع كسر التاء جمع سادة وافقهما ابن محيصن والحسن والباقون بفتح التاء بلا ألف على التكسير جمع سيد على فعلة ومر حكم الرسولا و (السبيلا)

واختلف في ﴿ كثيرا ﴾ الآية 68 فهشام من طريق الداجوني وعاصم بالباء الموحدة من الكبر أي أشد اللعن أو أعظمه وافقهما الحسن والباقون بالمثلثة من الكثرة أي مرة بعد أخرى وعن المطوعي وكان عبد الله بفتح العين فباء موحدة مع تنوين الدال منصوبة من العبودية لله بالجر ووجيها صفة عبدا وعنه أيضا ويتوب بالرفع على الاستئناف

المرسوم اتفقوا على حذف الألف بعد اللام من إلى هنا وبالطلاق وبياء بعدها كإلى الجارة

وهي وإلى تظهرون وإلى يئسن وإلى لم يحضن وعلى حذف الألف من تظهرون وكتبوا بالله الظنونا وأطعنا الرسولا وفأضلونا السبيلا بألف متطرفة في الإمام كالبقية وكتبوا يسلون عن أنبائكم بلا ألف بعد السين في أكثرها واتفقوا على قطع لكي لا يكون على المؤمنين حرج وعلى وصل لكيلا يكون عليك حرج

واختلف في قطع أينما اتفقوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 451. 456﴾

(31/616)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الأحزاب "

يا أيها النبي " قرأ نافع بالهمز وغيره بالياء المشددة .

" بما تعملون خبيرا " بما تعملون بصيرا ، قرأ أبو عمرو بياء الغيبة فيهما والباقون بتاء الخطاب كذلك .

" اللائي " قرأ قالون وقنبل ويعقوب بهمزة مكسورة من غير ياء بعدها وصلا ووقفا ، ولهم في الوقف عليه ما لهم في الوقف على نحو السماء من الأوجه . وقرأ البزي وأبو عمرو وصلا

بتسهيل الهمزة بين بين مع المد والقصر عنهما إبدال الهمزة ياء ساكنة مع المد المشبع لالتقاء الساكنين وصلا أيضا . فإذا وقفا كان لهما ثلاثة أوجه: تسهيل الهمزة بالروم مع المد والقصر وإبدالها ياء ساكنة مع المد المشبع لالتقاء الساكنين أيضا . وقرأ ورش وأبو جعفر بتسهيل الهمزة بين بين مع المد والقصر وصلا فإذا وقفا كان لهما ثلاثة أوجه أيضا : بتسهيل الهمزة بالروم مع المد والقصر ، وإبدالها ياء ساكنة مع التطويل وكل على أصله في مقدار المد ، وقرأ الشامي والكوفيون بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وصلا ووقفا وهم على أصولهم في المد ولحمزة في الوقف عليه تسهيل الهمزة مع المد والقصر .

" تظاهرون " قرأ المدنيان والمكي والبصريان بفتح التاء المثناة وتشديد الظاء والهاء وفتحها مع حذف الألف بعد الظاء . وقرأ الشامي بفتح التاء وتشديد الظاء وألف بعدها وفتح الهاء مخففة ، وقرأ عاصم بضم التاء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء مخففة وقرأ الأخوان وخلف بفتح التاء والظاء والهاء مخففتين وألف بينهما .

" أبناءكم " سهل الهمزة حمزة وقفا مع المد والقصر .

" بأفواهكم " أبدل حمزة الهمزة ياء خالصة وحققها وقفا .

" وهو أخطأتم به . النبيين ، ميثاقا غليظا ، عليهم ، بصيرا ، الحناجر ، ويستأذن ، بيوتنا كله جلي .

" النبي أولى " قرأ نافع بالهمز وعليه يجتمع همزتان الأولى مضمومة والثانية مفتوحة فيبدلها في الوصل واوا خالصة . وغيره بياء مشددة .

(32/616)

" الظنونا " قرأ المدنيان والشامي وشعبة بإثبات ألف بعد النون وصلا ووقفا ، وحمزة والبصريان بحذف الألف في الحالين والباقون بحذفها وصلا وغثباتها وقفا وهم المكي والكسائي وحفص وخلف في اختياره .

" لا مقام لكم " قرأ حفص بضم الميم الأولى وغيره بفتحها .

" فرارا " لا ترقيق فيه لورش للتكرار وكذلك الفرار .

" سئلوا " لحمزة في الوقف عليه تسهيل الهمزة بين بين وإبدالها واوا خالصة .

" لآتوها " قرأ المدنيان والمكي بقصر الهمزة والباقون بمدها .

" مسئولا " لا توسط فيه ولا مد لورش لوجود الساكن الصحيح قبل الهمزة ولحمزة فيه قفا نقل حركة الهمزة " إلى السين وحذف الهمزة .

" سوءا " لحمزة فيه وقفا النقل والإدغام لأصالة الباء .

" نصيرا " آخر الربع .

الممال

" يوحى وكفى وأولى " معا بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . موسى وعيسى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

الكافرين وللكافرين بالإمالة لرويس والبصري والدوري والتقليل لورش . وأقطارها لهؤلاء ما عدا رويسا جاءتكم وجاءوكم لحمزة وابن ذكوان وخلف ولا إمالة في زاغت لاستثنائه من الأفعال الثلاثية .

المدغم

" الصغير " إذ جاءتكم وإذ جاءوكم لأبي عمرو وهشام ، وإذ زاغت للبصري وهشام وخلاد والكسائي .

" الكبير " من قبل لا يولون .

" البأس " يسيرا ، كثيرا ، ينتظر ، شاء أو ، عليهم خبيرا ، صياصيهم ، النبي معا ، كله جلي .

" يحسبون " فتح السين الشامي وعاصم وحمزة وأبو جعفر وكسرها غيرهم .

" يسألون " قرأ رويس بتشديد السين مفتوحة وألف بعدها والباقون بإسكانها ووقف عليه حمزة بنقل حركة الهمزة إلى السين وحذف الهمزة وعنه إبدالها ألفا فيصير النطق

بسين مفتوحة وألف بعدها .

" أسوة " ضم عاصم الهمزة وكسرها غيره .

(33/616)

" في قلوبهم الرعب " قرأ البصريان وصلا بكسر الهاء والميم والأخوان وخلف بضمهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم ، وأما عند الوقف فالجميع يكسرون الهاء ويسكنون الميم ، وضم عين الرعب الشامي والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وأسكنها غيرهم .

" لم تطؤها " حذف أبو جعفر الهمزة في الحالين فينطق بواو ساكنة بعد الطاء المفتوحة بلا همزة والباقون بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة ولحمزة وقفا الحذف كأبي جعفر وله التسهيل بين بين .

" مبينة " فتح الياء المكي وشعبة وكسرها غيرهما .

" يضاعف لها العذاب " قرأ ابن كثير وابن عامر بنون مضمومة وحذف الألف بعد الضاد مع كسر العين وتشديدها ونصب باء العذاب ، وقرأ أبو جعفر والبصريان بياء تحتية مضمومة وحذف الألف بعد الضاد مع فتح العين وتشديدها ورفع باء العذاب ، والباقون بياء تحتية مضمومة وإثبات الألف بعد الضاد مع فتح العين وتخفيفها ورفع باء العذاب ،

واتفقوا على جزم فاء يضاعف .

" يسيرا " آخر الربع .

الممال

جاء وشاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، زادهم لحمزة وابن ذكوان بخلف عنه ، يغشى وقضى وكفى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، رآى المؤمنون إن وصلت رآى بالمؤمنون فأمال الراء فقط شعبة وخلف وحمزة وفتحهما الباقون وإن وقفت عليه فقلل الراء والهمزة ورش وأمالهما ابن ذكوان وشعبة والأخوان وخلف وأمال الهمزة وحدها أبو عمرو وما عدا ذلك فلا يقرأ به ، الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " وقذف في .

" وتعمل صالحا نؤتها " قرأ الأخوان وخلف بالياء فيهما والباقون بالتاء الفوقية في الأول والنون في الثاني .

" النبي " الصلاة ، ويطهركم تطهيرا ، بيوتكن ، لطيفا خبيرا ؛ والصابرات ، والذاكرات ، كثيرا ، مغفرة ، طلقتموهن كله جلي .

" من النساء إن اتقيتن " قرأ قالون والبزي بتسهيل الأولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية ولورش وقنبل إبدالها حرف مد ولهما حينئذ وجهان المد المشبع إن نظر إلى الأصل ولم يعتد بالعارض وهو تحريك النون بالكسر لالتقاء الساكنين والقصر إن اعتد بحركة النون العارضة وهذان الوجهان عند وصل إن باتقيتن فإن وقف على إن فليس لهما حالة الإبدال إلا المد المشبع لوجود الساكنين ، وقرأ البصري بإسقاط الأولى مع القصر والمد والباقون بتحقيقها .

" وقرن في بيوتكن " قرأ المدنيان وعاصم بفتح القاف وغيرهم بكسرها .

" ولا تبرجن " شدد البزي التاء وصلا ويجب حينئذ إشباع المد للساكنين فإن ابتدأ خفف .

" أن يكون " قرأ هشام والكوفيون بياء التذكير والباقون بتاء التأنيث .

" وخاتم " فتح عاصم التاء وكسرها غيره .

" آمنوا " ذكرا . فيهما لورش خمسة أوجه: قصر البدل وعليه التفخيم والترقيق في ذكرا وتوسيطه وعليه التفخيم فقط المد وعليه الوجهان .

" النبي أنا " معا قرأ نافع بالهمزة وعليه يجتمع همزتان الأولى مضمومة والثانية مكسورة فيكون له تحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين أو إبدالها واوا خالصة .

" أن تمسوهن " قرأ الأخوان وخلف بضم التاء وألف بعد الميم فيصير مدا لازما والباقون بفتح التاء ولا ألف بعد الميم .

" عليهن " ضم يعقوب الهاء ووقف بهاء السكت عليه وعلى أمثاله .

" للنبي إن " قرأ قالون حال الوصل بياء مشددة وحال الوقف بالهمز وقرأ ورش بالهمز في الحالين فيجتمع همزتان مكسورتان فيكون له تسهيل الثانية بين بين وله إبدالها حرف مد من جنس حركة ما قبلها فتبدل ياء ساكنة وحينئذ يجوز له المد المشبع إن لم يعتد بحركة النون لعروضها بالنقل ويجوز له القصر إن اعتد بها وهذا في حالة وصل إن بأراد فإن وقف على إن تعين حالة الابدال المد المشبع كما سبق في مثله ، والباقون بياء مشددة في الحالين .

" النبي أن " حكمه حكم النبي أولى فتذكر .

(35/616)

" رحيما " آخر الربع .

الممال

الأولى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . يتلى وقضى معا لدى الوقف على الأول وتخشى لدى الوقف عليه وتخشاه وكفى معا وأذاهم بالإمالة للأصحاب

والتقليل لورش بخلف عنه ، الكافرين بالإمالة لرويس والبصري والدوري والتقليل لورش ولا إمالة في أبا من قوله تعالى: أبا أحد لكونه واويا .

المدغم

" الصغير " فقد ضل لورش والبصري والشامي والأخوين وخلف ، وإذ تقول للبصري وهاشم والأخوين وخلف .

" الكبير " تقول للذي ، المؤمنات ثم .

" ترجي " قرأ المكي والبصريان والشامي وشعبة بهمزة مرفوعة بعد الجيم وإذا وقفوا سكنوا الهمزة إلا هشاما فله فيها ما له في يستهزئ ولا إبدال للسوسي وقفا وغيرهم بياء ساكنة مد الجيم بدلا من الهمزة .

" وتؤوي " قرأ أبو جعفر وحده بإبدال الهمزة واوا ساكنة مظهرة في الحالين ولا إبدال فيه للسوسي ولا لورش وإذا وقف حمزة عليه كان له وجهان الأول كأبي جعفر والثاني إبدالها واوا ساكنة مع إدغامها في الواو بعدها فيصير النطق بواو مشددة مكسورة .

" لا يحل " قرأ البصريان بالتاء الفوقية وغيرهما بالياء التحتية .

" ولا أن تبدل " قرأ البزي بتشديد التاء وصلا وغيره بتخفيفها .

" بيوت " طعام غير ، فانتشروا مستأنسين ، يؤذي ، النبي ، عليهن ، أبناء إخوانهن أبناء أخواتهن ، كله جلي .

" النبي إلا " قرأ قالون وصلا بياء مشددة ووقفا بالهمز وقرأ ورش بالهمز في الحالين وله حينئذ تسهيل الهمزة الثانية بين بين وله إبدالها ياء ساكنة مع المد المشبع للساكنين .

" فسألوهن " قرأ بالنقل المكي والكسائي وخلف في اختياره وغيرهم بالتحقيق ولحمزة في الوقف عليه النقل فحسب .

" رحيما " آخر الربع .

الممال

أدنى معا بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . ولا تقليل فيه للبصري لأنه زنة أفعل ، إناه بالإمالة للأخوين وخلف وهشام والتقليل لورش بخلف عنه ، الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

(36/616)

" الكبير " يعلم ما ، يؤذن لكم ، أطهر لقلوبكم .

" لا يجاورونك " سعيرا خالدين ، نصيرا ، جلي .

" الرسولا " السبيلا ، حكمهما وصلا ووقفا حكم الظنون لجميع القراء وقد تقدم .

" سادتنا " قرأ يعقوب والشامي بألف بعد الدال مع كسر التاء وغيرهما بحذف الألف ونصب التاء .

" آتهم " ضم رويس الهاء مطلقا وكسرها غيره كذلك .

" كبيرا " قرأ عاصم بالباء الموحدة وغيره بالثاء المثلثة . ورقق ورش راءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 258 . 263 ﴾

(37/616)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الأحزاب

قوله تعالى ﴿ بما تعملون خبيرا ﴾ يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أتبع آخر الكلام أوله ودليله قوله ? < ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان بما يعملون خبيرا > ? والحجة لمن قرأه بالتاء أنه جعله خطابا من الرسول عليه السلام لهم في حال الحضور

قوله تعالى ﴿ اللائي ﴾ يقرأ بهمزة مكسورة من غير ياء وبكسرة الياء من غير همز ولا إتمام ياء وبهمزة مكسورة ممدودة وهذه كلها لغات في جمع التي فالحجة لن همز وكسر من غير ياء

أنه أجتزا بالهمزة من الياء والحجة لمن كسر من غير همز ولا ياء أنه خفف الاسم وجمع بين ساكنين وسهل ذلك عليه أن الأول حرف مد ولين فالمد الذي فيه يقوم مقام الحركة والحجة لمن همز ومد أنه أتى بالكلمة على أصل ما وجب لها

قوله تعالى ﴿ تظاهرون ﴾ يقرأ بإثبات الألف وتشديد الظاء وبالتخفيف مع فتح التاء وضمها وبحذف الألف وتشديد الظاء فالحجة لمن شدد أنه أراد تتظاهرون فأسكن التاء الثانية وإدغمها في الظاء فشدد لذلك والحجة لمن خفف وضم التاء أنه أخذه من ظاهر ثم تظاهرون ولمن فتح أنه أراد تتظاهرون فأسقط إحدى التاءين وقد ذكر الخلف في أيهما الساقط والحجة لمن حذف الألف وشدد الظاء أنه أخذه من تظهر ثم تتظهرون فأسكن التاء وادغمها في الظاء فشددها وبقيت

الهاء على ما كانت عليه من التشديد ومعناه أن الرجل كان في الجاهلية إذا قال لامرأته أنت علي كظهر أمي حرمت عليه فجعل الله فيها على المسلم الكفارة

(38/616)

قوله تعالى ﴿ الظنونا ﴾ و ﴿ الرسولا ﴾ و ﴿ السبيلا ﴾ يقرأن بإثبات الألف وصلا ووقفا وبحذفها وصلا ووقفا وبإثباتها وقفا وطرحها وصلا فالحجة لمن أثبتها وصلا ووقفا

أنه اتبع خط المصحف لأنها ثابتة في السواد وهي مع ذلك مشاكلة لما قبلها من رؤوس الآي وهذه الألفات تسمى في رؤوس أبيات الشعر قوافي وترنما وخروجا والحجة لمن طرحها أن هذه الألف إنما تثبت عوضا من التنوين في الوقف ولا تنوين مع الألف واللام في وصل ولا وقف والحجة لمن أثبتها وقفا وحذفها وصلا أنه اتبع الخط في الوقف وأخذ بمحض القياس في الوصل على ما أوجبته العربية فكان بذلك غير خارج من الوجهين

قوله تعالى ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ يقرأ بالياء والتاء على ما ذكرنا في أول السورة

قوله تعالى ﴿ لا مقام لكم ﴾ يقرا بضم الميم وفتحها وقد تقدم ذكر الأحتجاج عليه آنفا

قوله تعالى ﴿ لآتوها ﴾ يقرأ بالمد من الإعطاء وبالقصر من المجيء وقد ذكر فيما مضى

قوله تعالى ﴿ أسوة ﴾ يقرأ بكسر الهمز وضمها وهما لغتان كما قالوا رشوة ورشوة

قوله تعالى ﴿ يضاعف لها العذاب ﴾ يقرأ بتشديد العين وفتحها وكسرها ويضاعف بالياء والنون وإثبات الألف والتخفيف فالحجة لمن قرأه بالياء والتشديد مع الفتح أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله وحذف الألف لقوله ﴿ ضعفين ﴾ ودليله قول العرب ضعفت لك الدرهم مثليه والحجة لمن قرأه بالنون والتشديد وكسر العين أنه جعله فعلا أخبر به عن الله تعالى كإخباره عن نفسه ونصب العذاب بوقوع الفعل عليه كما رفعه في الأول بما لم يسم فاعله والحجة لمن خفف وأثبت الألف مع الياء أنه أخذه من ضوعف يضاعف وهو فعل ما لم يسم فاعله والحجة لمن قرأه بالنون وإثبات الألف مع التخفيف أنه

جعله من إخبار الله تعالى عن نفسه

قوله تعالى ﴿ وتعمل صالحا ﴾ يقرأ بالتاء والياء فالتاء على المعنى لأنه اسم لمؤنث والياء للفظ من لأنه مذكر لفظا ومن تكون اسما لواحد وجمع ولمذكر ومؤنث

(39/616)

قوله تعالى ﴿ نؤتها أجرها ﴾ يقرأ بالنون والياء فالحجة لمن قرأه بالنون أنه جعله من إخبار الله تعالى عن نفسه والحجة لمن قرأه بالياء أنه جعله من إخبار رسوله عنه

قوله تعالى ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ يقرأ بكسر القاف وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعله من الوقار والحجة لمن فتح أنه جعله من الاستقرار

قوله تعالى ﴿ أن يكون لهم الخيرة ﴾ يقرأ بالياء والتاء وقد ذكر الوجه في ذلك آنفا

قوله تعالى ﴿ وخاتم النبيين ﴾ يقرأ بكسر التاء وفتحها فالحجة لمن كسر أنه أراد اسم الفاعل من قولك ختم النبيين فهو خاتمهم ودليله قراءة عبد الله وختم النبيين والحجة لمن فتح أنه أخذه من الخاتم الملبوس لأنه جمال وفيه أربع لغات خاتم وخاتم وخاتام وخيتام

قوله تعالى ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ يقرأ بالتاء مضمومة وإثبات الألف وبفتح التاء وطرح الألف وقد ذكرت علله في البقرة مستقصاة

قوله تعالى ﴿ ترجي من تشاء ﴾ يقرأ بتحقيق الهمزة وإعراب الياء وبحذفه وإرسال الياء وقد ذكر

قوله تعالى ﴿ لا يحل لك النساء ﴾ إجماع القراء على الياء إلا ما روي عن أبي عمرو من التاء فيه يريد لا يحل لك شيء من النساء

قوله تعالى ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ يقرأ بإشباع الضمة وإلحاقها واوا وباختلاس حركة الصنم فيها وقد مضى القول فيه مع أمثاله

قوله تعالى ﴿ إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ﴾ يقرأ بالجمع وبجمع الجمع فالحجة لمن قرأه بالجمع أنه لما جاء بعده كبراء وهو جمع كبير وجب أن يكون الذي قبله سادة وهو جمع سيد ليوافق الجمع في المعنى والحجة لمن قرأه بجمع الجمع أن السادة كانوا فيهم أكبر من الكبراء فأبانوهم منهم بجمع يتميزون به عنهم

قوله تعالى ﴿ والعنهم لعنا كبيرا ﴾ بالثاء والباء وقد ذكرت علله في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 288 . 291 ﴾

(40/616)

وقال ابن زنجلة :

سورة الأحزاب

ولا تطع الكفرين والمنفقين إن الله كان بما تعملون خبيرا إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا 2 و9

قرأ أبو عمرو إن الله كان بما يعملون خبيرا و بما يعملون بصيرا بالياء جميعا وحجته أنه قرب من ذكر الكافرين والمنافقين في الحرف الأول فختم الآية بالخبر عنهم إذ كان ذلك في سياقه عنهم وحجته في الحرف الثاني أنه قرب من ذكر الجنود في قوله إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم فختم بالخبر عنهم إذ كان في سياقه

وقرأ الباقون بالتاء جميعا وحجتهم في الحرف الأول أن افتتاح الآية جرى بلفظ المخاطبة للنبي صلى الله عليه ولا شك أن من بحضرته من المسلمين داخلون معه فيما أمر به من أمر الله ونهي عنه في هذه فهم حينئذ مخاطبون معه بما خوطب به من أمر الله ونهيه نظيرا قوله فأقم وجهك للدين حنيفا فخاطب خاصته في الظاهر ثم قال منيبين إليه فأخرج الحال عنه وعمن هو على شريعته فكذلك خاطبه في أول هذه الآية خاصة ثم ختمها بمخاطبته ومخاطبة من هو على سبيله إذ كانوا يشركون في الأمر والنهي وحجتهم في الحرف الثاني أن افتتاح الآية جرى بالمخاطبة للمؤمنين فقال يا أيها الذين

آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فختموا الآية بما افتتح في أول الاية ليأتلف

الكلام على سياق واحد

وما جعل أزواجكم اللئي تظهرون منهن أمهتكم 4

قرأ أبو عمرو وورش عن نافع والبزي عن ابن كثير اللاي بغير مد ولا همز في كل القرآن وقرأ نافع والقواس عن ابن كثير اللاء مهموزا مقصورا وقرأ أهل الشام اللاء والكوفة اللائي بهمزة بعدها ياء ووزنها فاعل

واعلم أن هذه الوجوه كلها جمع التي والعرب تجمع التي على اللاتي واللائي ثم يجمعون الجمع فيقولون اللواتي قال الراجز . . . من اللواتي والتي واللاتي . . . زعمن أني كبرت لداتي . . .

(41/616)

فمن قرأ اللائي على وزن اللاعي فهو القياس على الأصل وهو جمع التي على غير اللفظ ومن قرأ اللاء على وزن اللاع فإنه اكتفى بالكسرة على الياء لأن الكسرة تنوب عن الياء قال الشاعر . . . من اللاء لم يحججن يبغين حسبة . . . ولكن ليقتلن البريء المغفلا

ومن ترك الهمز فإنما تركه للتخفيف وهذه لغات للعرب

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو تظهرون بغير ألف وتشديد الظاء وقرأ حمزة الكسائي

تظهرون بفتح التاء وتخفيف الظاء وقرأ ابن عامر تظاهرون بالألف والتشديد

والمعنى في تظهرون وتظاهرون وتظاهرون واحد أصله كله من الظهر لأن الذي يتظهر من امرأته إنما قال لها أنت علي كظهر أمي فمن قرأ تظهرون فالأصل تتظهرون فأدغم التاء في الظاء وإدخال الألف وإخراجها سواء والعرب تقول ضعفت وضاعفت وعقبت وعاقبت

وقرأ عاصم تظاهرون بالألف مضمومة التاء مثل تقاتلون جعله فعلا من اثنين من ظاهر من امرأته مظاهرة وظهارا وحجتهم قوله في مصدر ظاهر الظهار

وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا 10

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر وتظنون بالله الظنونا و الرسولا و السبيلا بالألف في الوقف والوصل

وقرأ ابن كثير والكسائي وحفص بالألف في الوقف وبغير الألف في الوصل وقرأ أبو عمرو وحمزة بغير الألف في الوصل والوقف

حجة من أثبتهن في الوصل والوقف هي أن من العرب من يقف على المنصوب الذي فيه الألف واللام بألف فيقولون ضربت الرجلا وفي الخفض مررت بالرجلي وأخرى أنهن رؤوس آيات فحسن إثبات الألف لأن راس آية في موضع سكت وقطع للفصل بينها وبين الآية التي بعدها وللتوفيق بين رؤوس الآي قال الشاعر . . . أقلي اللوم عاذل والعتابا . . .

والحجة الثالث اتباع المصحف قال أبو عبيد رأيت في الذي يقال إنه الإمام مصحف عثمان الألف مثبتة في ثلاثتهن ومن حذف الألف في الوصل وأثبتها في الوقف قال جمعت قياس العربية في ألا تكون ألف في اسم فيه الألف واللام واتباع المصحف في إثبات الألف فاجتمع لي الأمران

(42/616)

ومن حذف الألف في الوصل والوقف احتج بان التنوين لا يدخل مع الألف واللام فلما لم يدخل التنوين لم تدخل الألف لأن الألف مبدلة من التنوين قال اليزيدي وليس أحد يقول دخلت الدارا

يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا 13

قرأ حفص لا مقام لكم أي إقامة لكم تقول أقمت في البلد مقاما وإقامة وهو المكث و المقام يحتمل أمرين يجوز أن يكون موضع إقامتكم وهذا أشبه لأنه في معنى من فتح فقال لا مقام لكم أي ليس لكم موضع تقومون فيه ويحتمل لا مقام لكم أي لا إقامة لكم

وقرأ الباقون لا مقام لكم بالفتح المعنى لا مكان لكم تقومون فيه

ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها 14

قرأ نافع و ابن كثير ثم سئلوا الفتنة لأتوها بقصر الألف أي سئلوا فعل الفتنة لأتوها لفعلوها

قال الزجاج قوله لأتوها أي لقصدوها

وقرأ الباقون لآتوها بالمد أي لأعطوها أي لم يمتنعوا منها وحجتهم قوله ثم سئلوا الفتنة

فالإعطاء مع السؤال حسن أي لو قيل لهم كونوا على المسلمين مع المشركين لفعلوا ذلك وقال

الحسن لو دعوا إلى الشرك لأجابوا وأعطوها والفتنة الشرك

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة 21

قرأ عاصم أسوة حسنة بضم الألف حيث كان

وقرأ الباقون بكسر الألف وهما لغتان ومعنى أسوة أي قدوة تقتدون بها حيث خرج بنفسه

إلى قتال أعداء الله

يضعف لها العذاب ضعفين 30

قرأ أبو عمرو يضعف لها العذاب بالياء والتشديد العذاب رفع على ما لم يسم فاعله وكان

أبو عمرو يقول إنما اخترت التشديد في هذا الحرف فقط لقوله ضعفين

وقرأ ابن عامر وابن كثير نضعف بالنون وتشديد العين وكسرها الله عز و جل يخبر عن

نفسه العذاب نصب لأنه مفعول به

وقرأ نافع وأهل الكوفة يضاعف بالياء والألف العذاب بالرفع العرب تقول ضاعفت

وضعفت لغتان

ومن يقنت منكن لله و رسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما 31

(43/616)

قرأ حمزة والكسائي ويعمل صالحا يؤتها بالياء فيهما وقرأ الباقون بالتاء نؤتها بالنون

وحجتهم في قوله تعمل بالتاء هي أن الفعل لما تقدمه قوله منكن أجروه بلفظ التأنيث لأن تأنيث منكن أقرب إليه من لفظ من وحجة من قرأ يعمل بالياء إجماع الجميع على الياء في قوله من يأت منكن ومن يقنت فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

وأما من قرأ بالياء فإنه حمل الكلام على لفظ من دون المعنى ومن قرأ بالتاء فإنه حمل على المعنى دون اللفظ لأن معنى من التأنيث والجمع ومما يقوي قول من حمل على المعنى فأنث اتفاق حمزة والكسائي معهم في قوله نؤتها فحملا أيضا على المعنى ولو كان على اللفظ لقالوا نؤته فكذلك قوله وتعمل كان ينبغي أن يحمل على المعنى وحجة من قرأ نؤتها بالنون هي أن الكلام جرى عقيبه بلفظ الجمع وهو قوله وأعتدنا لها رزقا كريما فأجراه على لفظ ما أتى عقيبه ليأتلف الكلام على نظام واحد

وحجة من قرأ يؤتها بالياء هي أن الكلام جرى عقيب الخبر من الله في قوله ومن يقنت منكن

لله ورسوله فكان قوله يؤتها بمعنى يؤتها الله لمجيء الفعل بعد ذكره

وقرن في بيوتكن 33

قرأ نافع وعاصم وقرن في بيوتكن بفتح القاف وهذا لا يكون من الوقار إنما هو من الاستقرار

قال الكسائي العرب تقول قررت بالمكان أقر فيه لغتان بكسر الراء وفتحها

واصله واقررن مثل اعضضن فحذفوا الراء الأولى لثقل التضعيف وحولوا فتحتها إلى

القاف وحذفوا الألف أيضا لأن القاف تحركت فصار وقرن كما قال هل أحست صاحبك

أي هل رأيت والأصل هل أحسست

(44/616)

وقرأ الباقون وقرن بكسر القاف احتمل أن يكون من الوقار تقول وقر يقر والأمر منه قروا

وللنساء قرن مثل عدن وكلن مما تحذف منه الفاء وهي واو فيبقى من الكلمة علن وإن كان

من القرار فيكون الأمر اقررن فيبدل من العين الياء كراهة التضعيف كما أبدل في قيراط و

دينار فتضمر لها حركة الحرف المبدل منه ثم تلقى الحركة على الفاء فيسقط همزة الوصل

لتحرك ما قبلها فتقول قرن كما يقال من وصل يصل صلن والأصل اوقرن فحذفت الواو

لأنها وقعت بين كسرتين واستغنيت عن الألف لتحرك القاف فصار قرن على وزن علن

ويحتمل أن يكون من قررت في المكان أقر

وإذا أمرت من هذا قلت واقررن بكسر الراء الأولى فالكسر من وجهين على أنه من الوقار ومن القرار جميعا

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم 36

قرأ عاصم وحمزة والكسائي أن يكون لهم الخيرة بالياء لأن تأنيث الخيرة غير حقيقي وهي معنى الخيار وحجتهم إجماع الجميع على قوله ما كان لهم الخيرة ولم يثبتوا علامة التأنيث في كان

وقرأ الباقون أن تكون لهم بالتاء لتأنيث الخيرة وقد سقط السؤال والكلام محمول على اللفظ لا على لمعنى

ولكن رسول الله وخاتم النبيين 40

قرأ عاصم وخاتم النبيين بفتح التاء أي آخر النبيين لأنه لا نبي بعده صلى الله عليه

وقرأ الباقون وخاتم النبيين بكسر التاء أي ختم النبيين فهو خاتم

ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء 51

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ترجيء من تشاء بالهمز وقرأ الباقون بغير همز وهما لغتان أرجأت وأرجيت

قرأ نافع في رواية ورش تووي بترك الهمزة وقرأ الباقون بالهمز فإن سأل سائل فقال أبو عمرو

ترك الهمزة الساكنة نحو يومنون فهلا ترك الهمزة في تووي فقل إن أبا عمرو ترك الهمزة في يومنون تخفيفا فإذا كان ترك الهمزة أثقل من الهمزة لم يدع الهمزة ألا ترى أنك لو لينت تووي لالتقى واوان قبلهما ضمة فثقلت

لا يحل لك النساء من بعد 52

(45/616)

قرأ أبو عمرو لا تحل لك النساء بالتاء أي جماعة النساء

وقرأ الباقون لا يحل بالياء أي جمع النساء والنساء تدل على التأنيث فيستغنى عن تأنيث يحل

إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إنه 53

قرأ حمزة والكسائي غير ناظرين إناه بالإمالة وحجتهما أنه من ذوات الياء من أنى يأني إذا انتهى نضجه والهاء كناية عن الطعام وقرأ الباقون بالتفخيم لأن الياء قد انقلبت ألفا والأصل إنيه فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها و غير ناظرين نصب على الحال أي غير منتظرين نضجه

إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلوا السبيلا والعنهم لعنا كبيرا 67 و68

قرأ ابن عامر إنا أطعنا ساداتنا بالألف وكسر التاء جعله جمع الجمع لأن سادة جمع سيد و سادات جمع الجمع فسادة جمع التكسير يجري آخره بوجوب الإعراب ومن قرأ ساداتنا فهي جمع السلامة نصب لجره والتاء مكسورة في حال النصب كقوله أن السموات وقال بعض النحويين سادة جمع سائد مثل قائد وقادة وهي جمع ا لتكسير وليس بجمع سيد لأن السيد يجمع سيدين مثل ميت تقول في جمعه ميتون وأموات كما قال إنك ميت وإنهم ميتون وقال أموات غير أحياء وسائد وسيد بمعنى واحد و سيد أبلغ في المدح

وقرأ الباقون سادتنا بغير ألف وفتح التاء جمع سيد وقد ذكرنا

قرأ عاصم والعنهم لعنا كبيرا بالباء أي عظيما فالكبر مثل العظم والكبر وصف للفرد كالعظم

وقرأ الباقون كثيرا بالثاء أي جما فالكثرة اشبه بالمعنى لأنهم يلعنون بمرة بعد مرة وقد جاء يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 580.570 ﴾

(46/616)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الأحزاب

مدنية ونظيرتها في الشامي خاصة الزمر ولا نظير لها في غيره

وكلمها ألف ومائتان وثمانون كلمة

وحروفها خمسة آلاف وسبع مئة وستة وتسعون حرفا

وهي سبعون وثلاث آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ إلى أوليائكم معروفا ﴾) ورؤوس الآي

حكيما

1 خبيرا

2 وكيلا

3 السبيل

4 رحيما

5 مسطورا

6 غليظا

7 أليما

8 بصيرا

9 الظنونا 10 شديدا

11 غرورا

12 فرارا

13 يسيرا

14 مسؤولا

15 قليلا

16 نصيرا

17 قليلا

18 يسيرا

19 قليلا

20 كثيرا

21 وتسليما

22 تبديلا

23 رحيما

24 عزيزا

25 فريقا

26 قديرا

27 جميلا

28 عظيما

29 يسيرا

30 كريما

31 معروفا

32 تطهيرا

33 خبيرا

34 عظيما

35 مبينا

36 مفعولا

37 مقدورا

38 حسيبا

39 عليما

40 كثيرا

41 وأصيلا

42 رحيما

43 كريما

44 ونذيرا

45 منيرا

46 كبيرا

47 وكيلا

48 جميلا

49 رحيما

50 حليما

51 رقيبا

52 عظيما

53 عليما

54 شهيدا

55 تسليما

56 مهينا

57 مبينا

58 رحيما

59 قليلا

60 تقتيلا

61 تبديلا

62 قريبا

63 سعيرا

64 نصيرا

65 الرسولا

66 السبيلا

67 كثيرا

68 وجيها

69 سديدا

70 عظيما

71 جهولا

72 رحيما

73 . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 208﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (بما تعملون) إنما جاء بالجمع لأنه عنى بقوله تعالى " اتبع أنت وأصحابك " ويقرأ بالياء على الغيبة .

قوله تعالى (اللاتى) هو جمع التى ، والأصل إثبات الياء ، ويجوز حذفها اجتزاء بالكسرة ، ويجوز تليين الهمزة وقلبها ياء ، و (تظاهرون) قد ذكر في البقرة .

قوله تعالى (هو أقسط) أي دعاؤكم فأضمر المصدر لدلالة الفعل عليه

(فإخوانكم) بالرفع : أي فهم إخوانكم ، وبالنصب أي فادعوهم إخوانكم (ولكن ما تعمدت قلوبكم) " ما " في موضع جر عطفا على ما الأولى ، ويجوز أن تكون في موضع رفع على الابتداء ، والخبر محذوف : أي تؤاخذون به .

قوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) أي مثل أمهاتهم .

قوله تعالى (بعضهم) يجوز أن يكون بدلا وأن يكون مبتدأ ، و (في كتاب الله) يتعلق بأولى ، وأفعل يعمل في الجار والمجرور ، ويجوز أن يكون حالا ، والعامل فيه معنى أولى ، ولايكون حالا من أولوا الأرحام للفصل بينهما بالخبر ، ولأنه عامل إذا ، و (من المؤمنين) يجوز أن يكون متصلا بأولوا الأرحام ، فينتصب على التبيين: أي أعنى ، وأن يكون متعلقا بأولى ، فمعنى الأول وأولوا الأرحام من المؤمنين أولى بالميراث من الأجانب ، وعلى الثاني وأولوا الأرحام أولى من المؤمنين والمهاجرين الأجانب (إلا أن تفعلوا) استثناء من غير الجنس .

قوله تعالى (وإذ أخذنا) أي واذكر .

قوله تعالى (إذ جاءتكم) هو مثل " إذ كنتم أعداء " وقد ذكر في آل عمران و (إذ جاؤكم) بدل من إذ الأولى ، و (الظنونا) بالألف في المصاحف .

ووجهه أنه رأس آية فشبه بأواخر الآيات المطلقة لتتآخى رءوس الآى ، ومثله الرسولا والسبيلا على ما ذكر في القراءات ، ويقرأ بغير ألف على الأصل .

(48/616)

والزلزال بالكسر المصدر ، و (يثرب) لا ينصرف للتعريف ووزن الفعل ، وفيه التأنيث و (يقولون) حال أو تفسير ليستأذن ، و (عورة) أي ذات عورة ، ويقرأ بكسر الواو ، والفعل

منه عور ، فهو اسم فاعل ، و (لآتوها) بالقصر جاءها وبالمد أي أعطوها ما عندهم من القوة والبقاء : و (إلا يسيرا) أي إلا لبثا أو إلا زمنا ، ومثله إلا قليلا ، و (لا يولون) جواب القسم ، لأن عاهدوا في معنى أقسموا ،

ويقرأ بتشديد النون وحذف الواو على تأكيد جواب القسم ، و (هلم) قد ذكر في الأنعام إلا أن ذاك متعد وهذا لازم .

قوله تعالى (أشحة) هو جمع شحيح وانتصابه على الحال من الضمير في يأتون .

وأشحة الثاني حال من الضمير المرفوع في سلقوكم ، و (ينظرون) حال ، لأن رأيتهم أبصرتهم ، و (تدور) حال من الضمير في ينظرون (كالذى) أي دورانا كدوران عين الذى ، ويجوز أن تكون الكاف حالا من أعينهم : أي مشبهة عين الذى .

قوله تعالى (يحسبون) يجوز أن يكون حالا من أحد الضمائر المتقدمة إذا صح المعنى وتباعد العامل فيه ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، و (بادون) جمع باد ، وقرئ " بدى " مثل غاز وغزى ، و (يسألون) حال .

قوله تعالى (أسوة) الكسر والضم لغتان ، وهو اسم للتأسي ، وهو المصدر ، وهو اسم كان ، والخبر لكم .

و (في رسول الله) حال أو ظرف يتعلق بالاستقرار لا بأسوة أو بكان على قول من أجازه ، ويجوز أن يكون في رسول الله الخبر ، ولكم تخصيص وتبيين (لمن كان) قيل هو بدل من

ضمير المخاطب بإعادة الجار ، ومنع منه الأكثرون لأن ضمير المخاطب لا يبدل منه فعلى هذا يجوز أن تتعلق بحسنة أو يكون نعتا لها ، ولا تتعلق بأسوة لأنها قد وصفت ، و (كثيرا) نعت لمصدر محذوف .

قوله تعالى (وصدق الله ورسوله) إنما أظهر الاسمين هنا مع تقدم ذكرهما لئلا يكون الضمير الواحد عن الله وغيره .

قوله تعالى (ليجزى الله) يجوز أن يكون لام العاقبة ، وأن يتعلق بصدق أو بزادهم أو بما بدلوا .

(49/616)

قوله تعالى (بغيظهم) يجوز أن يكون حالا ، وأن يكون مفعولا به ، و (لم ينالوا) حال ، و (من أهل الكتاب) حال من ضمير الفاعل في ظاهروهم ،

و(من صياصيهم) متعلقة بأنزل ، و (فريقا) منصوب ب (تقتلون) ، و (يضاعف) ويضعف قد ذكر .

قوله تعالى (ومن يقنت) يقرأ بالياء حملا على لفظ " من " وبالتاء على معناها ومثله ، و (تعمل صالحا) ومنهم من قرأ الأولى بالتاء ، والثانية بالياء .

وقال بعض النحويين .

هذا ضعيف لأن التذكير أصل ، فلا يجعل تبعا للتأنيث ، وما عللوا به قد جاء مثله في القرآن ، وهو قوله تعالى " خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا " .

قوله تعالى (فيطمع الذى) يقرأ بفتح العين على جواب النهى ، وبالكسر على نية الجزم عطفا على تخضعن .

قوله تعالى (وقرن) يقرأ بكسر القاف وفيه وجهان ، أحدهما هو من وقر يقر إذا ثبت ، ومنه الوقار ، والفاء محذوفة .

والثانى هو من قر يقر ، ولكن حذفت إحدى الراءين كما حذفت إحدى اللامين في ظلت فرارا من التكرير ، ويقرأ بالفتح وهو من قرن لاغير ، وحذفت إحدى الراءين ، وإنما فتحت القاف على لغة في قررت أقر في المكان .

قوله تعالى (أهل البيت) أي يا أهل البيت ، ويجوز أن ينتصب على التخصيص والمدح: أي أعنى أو أخص .

قوله تعالى (والحافظات) أي الحافظات فروجهن ، وكذلك (والذاكرات) أي والذاكرات الله ، وأغنى المفعول الأول عن الإعادة .

قوله تعالى (أن تكون لهم الخيرة) إنما جمع لأن أول الآية يراد به العموم .

قوله تعالى (والله أحق أن تخشاه) قد ذكر مثله في التوبة .

قوله تعالى (الذين يبلغون) هو نعت للذين خلوا ، ويجوز أن ينتصب على إضمار أعنى ، وأن يرتفع على إضمارهم .

قوله تعالى (ولكن رسول الله) أي ولكن كان رسول الله ، وكذلك (وخاتم النبيين) ويقرأ بفتح التاء على معنى المصدر ، كذا ذكر في بعض الأعاريب .

وقال آخرون: هو فعل مثل قاتل بمعنى ختمهم .

وقال آخرون: هو اسم بمعنى آخرهم ، وقيل هو بمعنى المختوم به النبيون كما يختم بالطابع ، وبكسرها : أي آخرهم .

(50/616)

قوله تعالى (تعتدونها) تفتعلونها من العدد : أي تعدونها عليهن أو تحسبون بها عليهن ، وموضعه جر على اللفظ ، أو رفع على الموضع .

والسراج اسم للتسريح وليس بالمصدر .

قوله تعالى (وامرأة مؤمنة) في الناصب وجهان: أحدهما أحللنا في أول الآية .

وقد رد هذا قوم وقالوا : أحللنا ماض و " إن وهبت " هو صفة للمرأة مستقبل ، وأحللنا في موضع جوابه ، وجواب الشرط لا يكون ماضيا في المعنى ، وهذا ليس بصحيح ، لأن

معنى الإحلال ها هنا الإعلام بالحل إذا وقع الفعل على ذلك ، كما تقول: أبحت لك أن تكلم فلانا إن سلم عليك .

الوجه الثاني أن ينتصب بفعل محذوف: أي ونحل لك امرأة ، ويقرأ أن وهبت بفتح الهمزة وهو بدل من امرأة بدل الاشتمال ، وقيل التقدير: لأن وهبت ، و (خالصة) يجور أن يكون حالا من الضمير في وهبت .

وأن يكون صفة لمصدر محذوف: أي هبة خالصة ويجوز أن يكون مصدرا : أي أخلصت ذلك لك إخلاصا وقد جاءت فاعلة مصدرا مثل العاقبة والعافية ، و (لكيلا) يتعلق بأحللنا (ومن ابتغيت) " من " في موضع نصب بابتغيت ، وهى شرطية ، والجواب (فلا جناح عليك) ويجوز أن يكون مبتدأ ، والعائد محذوف: أي والتى ابتغيتها ، والخبر فلا جناح .

قوله تعالى (كلهن) الرفع على توكيد الضمير في يرضين ، والنصب على توكيد المنصوب في آتيتهن .

قوله تعالى (إلا ما ملكت يمينك) يجوز أن يكون في موضع رفع بدلا من النساء ، وأن يكون في موضع نصب على أصل الاستثناء ، وهو من الجنس ، ويجوز أن يكون من غير الجنس ، وقوله تعالى " من أزواج (1) " في موضع نصب ، و " من " زائدة " إلا ما ملكت يمينك " يجوز أن يكون في موضع نصب بدلا من أزواج ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا .

قوله تعالى (إلا أن يؤذن لكم) هو في موضع الحال: أي لا تدخلوا إلا مأذونا لكم (وإلى) تتعلق بيؤذن لأن معناها تدعو.

(51/616)

و (غير) بالنصب على الحال من الفاعل في تدخلوا ، أو من المجرور في لكم ، ويقرأ بالجر على الصفة للطعام ، وهذا عند البصريين خطإ لأنه جرى على غيرها هو له ، فيجب أن يبرز ضمير الفاعل فيكون غير ناظرين أنتم .

قوله تعالى (ولا مستأنسين) هو معطوف على ناظرين .

قوله تعالى (يدنين) هو مثل قوله تعالى " قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة " في إبراهيم .

قوله تعالى (ملعونين) هو حال من الفاعل في يجاورونك ، ولايجوز أن يكون حالا مما بعد أين لأنها شرط ، وما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله .

قوله تعالى (سنة الله) هو منصوب على المصدر : أي من ذلك سنة (يوم تقلب وجوههم) يجوز أن يكون ظرفا لئلا يجدون ولنصيرا ، أو ل (يقولون) ويقولون على الوجهين الأولين حال من الوجوه ، لأن المراد أصحابها ، ويضعف أن يكون حالا من الضمير المجرور لأنه مضاف إليه ، ويقرأ " تقلب " يعنى السعير وجوههم بالنصب .

قوله تعالى (ليعذب الله) اللام تتعلق بحملها ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 190.194 ﴾

---

(1) (قوله وقوله تعالى من أزواج الخ) كذا بالنسخ التى بأيدينا ولا يخفى ما فيه من تشتيت الوجوه في

الكلام على قوله " إلا ما ملكت " الخ فكان المناسب تقديمه عليه لتستقيم الأوجه اه مصححه .

(*)

(52/616)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الأحزاب

[سورة الأحزاب (33) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (1)

"يا أَيُّهَا" يا حرف نداء ومنادى نكرة مقصودة مبني على الضم وها للتنبيه "النَّبِيُّ" بدل

والجملة ابتدائية لا محل لها . "اتَّقِ اللَّهَ" أمر فاعله مستتر ولفظ الجلالة مفعول به والجملة ابتدائية أيضا لا محل لها "وَلا تُطِعِ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر "الْكافِرِينَ" مفعول به "وَالْمُنافِقِينَ" معطوف على الكافرين والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "عَلِيماً حَكِيماً" خبران لكان والجملة الفعلية خبر إن . والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 2]

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (2)

"وَاتَّبِعْ" أمر فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها . "يُوحى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة ما "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "مِنْ رَبِّكَ" حال . "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "بِما" متعلقان بخبيرا "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما "خَبِيراً" خبر كان وجملة كان . . خبر إن وجملة إن اللّه . . تعليل لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 3]

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (3)

"وَتَوَكَّلْ" أمر فاعله مستتر "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

"وَكَفى " الواو حرف استئناف وماض مبني على فتح مقدر على الألف "بِاللَّهِ" الباء حرف جر زائد ولفظ الجلالة مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل كفى "وَكِيلًا" تمييز . والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 4]

ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4)

"ما" نافية "جَعَلَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها ، "لِرَجُلٍ" متعلقان بالفعل "مِنْ" حرف جر زائد "قَلْبَيْنِ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "فِي جَوْفِهِ" صفة قلبين "وَما" الواو حرف عطف "ما" نافية "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَزْواجَكُمُ" مفعول به أول "اللاَّئِي" صفة أزواجكم "تُظاهِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "مِنْهُنَّ" متعلقان بالفعل "أُمَّهاتِكُمْ" مفعول به ثان "وَما جَعَلَ" معطوف على ما قبله "أَدْعِياءَكُمْ" مفعول به أول "أَبْناءَكُمْ" مفعول به ثان .

"ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "بِأَفْواهِكُمْ" متعلقان بمحذوف

حال "وَاللَّهُ يَقُولُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ ومضارع فاعله مستتر "الْحَقَّ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "وَ" الواو حالية "هُوَ" مبتدأ "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر "السَّبِيلَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية حال .

[سورة الأحزاب (33) : آية 5]

(54/616)

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (5)

"ادْعُوهُمْ" أمر وفاعله ومفعوله "لِآبائِهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها . "هُوَ أَقْسَطُ" مبتدأ وخبره والجملة تعليل لا محل لها "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف مكان مضاف إلى لفظ الجلالة ، "فَإِنْ" الفاء حرف استئناف "إن" حرف شرط جازم "لَمْ تَعْلَمُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله "آباءَهُمْ" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها . "فَإِخْوانُكُمْ" الفاء رابطة "إخوانكم" خبر لمبتدأ محذوف والجملة في محل جزم جواب الشرط "فِي الدِّينِ" حال . "وَمَوالِيكُمْ" معطوف على إخوانكم . "وَلَيْسَ" الواو حرف استئناف "لَيْسَ" ماض ناقص

"عَلَيْكُمْ" خبر ليس المقدم "جُناحٌ" اسمه المؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها . "فِيما" صفة جناح "أَخْطَأْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة . "بِهِ" متعلقان بالفعل . "وَلكِنْ" الواو حرف عطف "لكِنْ" حرف استدراك "ما" معطوفة على فيما "تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "وَكانَ" الواو حرف استئناف "كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" كان واسمها وخبراها والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 6]

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (6)

(55/616)

"النَّبِيُّ أَوْلى" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "بِالْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بأولى . "مِنْ أَنْفُسِهِمْ" متعلقان بأولى أيضا . "وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَ" الواو حرف عطف "أُولُوا الْأَرْحامِ" مبتدأ مضاف إلى الأرحام "بَعْضُهُمْ أَوْلى" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر أولو وجملة أولو . . معطوفة على ما قبلها . "بِبَعْضٍ"

متعلقان بأولى "فِي كِتابِ اللَّهِ" متعلقان بأولى أيضا ولفظ الجلالة مضاف إليه . "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان باولى "وَالْمُهاجِرِينَ" معطوف على المؤمنين .

"إِلَّا" حرف استثناء "أَنْ تَفْعَلُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل منصوب على الاستثناء "إِلى أَوْلِيائِكُمْ" متعلقان بالفعل "مَعْرُوفاً" مفعول به "كانَ ذلِكَ" كان واسمها "فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً" متعلقان بالخبر مسطورا والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 7]

وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (7)

"وَإِذْ" الواو حرف استئناف "إِذْ" ظرف زمان "أَخَذْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "مِنَ النَّبِيِّينَ"

متعلقان بالفعل "مِيثاقَهُمْ" مفعول به "وَمِنْكَ" معطوفان على ما قبلهما "وَمِنْ نُوحٍ" معطوفان على ما قبلهما "وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى" معطوف على ما قبله "ابْنِ" صفة عيسى "مَرْيَمَ" مضاف إليه "وَأَخَذْنا" معطوف على ما قبله "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "مِيثاقاً" مفعول به "غَلِيظاً" صفة .

[سورة الأحزاب (33) : آية 8]

لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (8)

(56/616)

"لِيَسْئَلَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بأخذنا "الصَّادِقِينَ" مفعول به "عَنْ صِدْقِهِمْ" متعلقان بالفعل. "وَأَعَدَّ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "لِلْكافِرِينَ" متعلقان بالفعل "عَذاباً" مفعول به "أَلِيماً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الأحزاب (33) : آية 9]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (9)

"يا" حرف نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة وها للتنبيه "الَّذِينَ" بدل من أي "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "اذْكُرُوا" أمر وفاعله و"نِعْمَةَ اللَّهِ" مفعول به مضاف إلى لفظ الجلالة "عَلَيْكُمْ" متعلقان بنعمة والجملة ابتدائية لا محل لها. "إِذْ" ظرف زمان "جاءَتْكُمْ" ماض ومفعوله "جُنُودٌ" فاعل مؤخر والجملة في محل جر بالإضافة. "فَأَرْسَلْنا" ماض وفاعله

"عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "رِيحاً" مفعول به "وَجُنُوداً" معطوف على ريحا . "لَمْ تَرَوْها" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله وها مفعول به والجملة صفة جنود "وَكانَ اللَّهُ" الواو حرف استئناف وكان ولفظ الجلالة اسمها "بِما" متعلقان بالخبر بصيرا "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله "بَصِيراً" خبر والجملة صلة وجملة كان اللّه . .

مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 10]

إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10)

(57/616)

"إِذْ" بدل من سابقتها "جاؤُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ فَوْقِكُمْ" متعلقان بالفعل "وَمِنْ أَسْفَلَ" معطوفان على ما قبلهما "مِنْكُمْ" متعلقان بأسفل "وَإِذْ" معطوف على ما قبله "زاغَتِ الْأَبْصارُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ" ماض وفاعله "الْحَناجِرَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

"وَتَظُنُّونَ" مضارع وفاعله "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "الظُّنُونَا" مفعول مطلق والجملة معطوفة

على ما قبلها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 11]

هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (11)

"هُنالِكَ" اسم إشارة في محل نصب على الظرفية الزمانية "ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَزُلْزِلُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "زِلْزالاً" مفعول مطلق "شَدِيداً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 12]

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (12)

"وَإِذْ" الواو حرف عطف "إِذْ" معطوف على ما قبله "يَقُولُ الْمُنافِقُونَ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَالَّذِينَ" معطوف على ما قبله "فِي قُلُوبِهِمْ" خبر مقدم "مَرَضٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة لا محل لها . "ما" نافية "وَعَدَنَا اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعل "وَرَسُولُهُ" معطوف على لفظ الجلالة "إِلَّا" حرف حصر "غُرُوراً" مفعول به ثان والجملة مقول القول .

[سورة الأحزاب (33) : آية 13]

وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (13)

"وَإِذْ" الواو حرف عطف "إِذْ" ظرف "قالَتْ طائِفَةٌ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة.

"مِنْهُمْ" صفة طائفة "يا أَهْلَ" منادى مضاف "يَثْرِبَ" مضاف إليه وجملة النداء مقول القول "لا" نافية للجنس "مُقامَ" اسمها المبني على الفتح "لَكُمْ" خبرها والجملة الاسمية مقول القول أيضا. "فَارْجِعُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها.

"وَيَسْتَأْذِنُ" الواو حرف عطف "وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ" مضارع وفاعله "مِنْهُمْ" صفة فريق "النَّبِيَّ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها. "يَقُولُونَ" مضارع وفاعله والجملة حال.

"إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مقول القول. "وَما" الواو حالية "ما" نافية تعمل عمل ليس "هِيَ" اسمها "بِعَوْرَةٍ" الباء حرف جر زائد وعورة اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة حال. "إِنْ" حرف نفي "يُرِيدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "إِلَّا" حرف حصر "فِراراً" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها.

[سورة الأحزاب (33) : آية 14]

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً (14)

"وَ" الواو حرف استئناف "لَوْ" شرطية غير جازمة "دُخِلَتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ أَقْطارِها" متعلقان بمحذوف حال والجملة ابتدائية لا محل لها . "ثُمَّ" حرف عطف "سُئِلُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "الْفِتْنَةَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "لَآتَوْها" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها . "وَ" الواو حرف عطف "ما تَلَبَّثُوا" ما نافية وماض وفاعله "بِها" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِلَّا" حرف حصر "يَسِيراً" صفة مفعول مطلق .

[سورة الأحزاب (33) : آية 15]

وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (15)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم قد حرف تحقيق "كانُوا" كان واسمها "عاهَدُوا" ماض وفاعله والجملة خبر كان "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بالفعل وجملة لقد كانوا . . جواب القسم لا محل لها . "لا" نافية "يُوَلُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الْأَدْبارَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها "وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ" الواو

حرف استئناف وكان واسمها المضاف إلى لفظ الجلالة "مَسْؤُلًا" خبر كان والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 16]

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (16)

(60/616)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "لَنْ يَنْفَعَكُمُ" مضارع منصوب بلن والكاف مفعول به "الْفِرارُ" فاعل والجملة مقول القول . "إِنْ فَرَرْتُمْ" إن حرف شرط جازم وماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط والتاء فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "مِنَ الْمَوْتِ" متعلقان بالفعل "أَوِ" حرف عطف "الْقَتْلِ" معطوف على الموت "وَ" الواو حرف عطف "إِذاً" حرف جواب وجزاء "لا تُمَتَّعُونَ" نافية ومضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" حرف حصر "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف .

[سورة الأحزاب (33) : آية 17]

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (17)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "مَنْ ذَا" من اسم استفهام مبتدأ واسم الإشارة خبره والجملة الاسمية مقول القول "الَّذِي" بدل من اسم الإشارة "يَعْصِمُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الموصول "إِنْ" شرطية "أَرادَ" ماض في محل جزم فعل الشرط والجملة ابتدائية لا محل لها "بِكُمْ" متعلقان بالفعل "سُوءاً" مفعول به "أَوْ" حرف عطف "أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً" عطف على ما قبله والواو حرف استئناف "وَلا يَجِدُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "لَهُمْ" متعلقان بوليا "مِنْ دُونِ" متعلقان بوليا أيضا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَلِيًّا" مفعول به "وَلا نَصِيراً" معطوف على ما قبله .

[سورة الأحزاب (33) : آية 18]

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً (18)

"قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ" قد حرف تكثير ومضارع وفاعله "الْمُعَوِّقِينَ" مفعول به "مِنْكُمْ" متعلقان بما قبلهما والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَالْقائِلِينَ" معطوف على المعوقين "لِإِخْوانِهِمْ" متعلقان

بما قبلهما "هَلُمَّ" اسم فعل أمر "إِلَيْنا" متعلقان بما قبلهما والجملة مقول القول. والواو حالية "لا يَأْتُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله "الْبَأْسَ" مفعول به "إِلَّا" حرف حصر "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف والجملة حال.

[سورة الأحزاب (33) : آية 19]

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (19)

"أَشِحَّةً" حال منصوبة "عَلَيْكُمْ" متعلقان بما قبلهما ، "فَإِذا" الفاء حرف استئناف "إذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَ الْخَوْفُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة. "رَأَيْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها. "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال.

(62/616)

"إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ" مضارع وفاعله والجملة حال "كَالَّذِي" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "يُغْشى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل

مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "مِنَ الْمَوْتِ" متعلقان بالفعل أيضا والجملة صلة لا محل لها .

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف "إذا" ظرفية شرطية غير جازمة "ذَهَبَ الْخَوْفُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "سَلَقُوكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها "بِأَلْسِنَةٍ" متعلقان بالفعل "حِدادٍ" صفة ألسنة . "أَشِحَّةً" حال منصوبة "عَلَى الْخَيْرِ" متعلقان بما قبلهما "أُولئِكَ" مبتدأ "لَمْ يُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة خبر أولئك وجملة أولئك . . مستأنفة لا محل لها . "فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ" الفاء حرف عطف وماض ولفظ الجلالة فاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَكانَ" الواو حرف استئناف وماض ناقص "ذلِكَ" اسمه "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالخبر "يَسِيراً" والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 20]

يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (20)

"يَحْسَبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "الْأَحْزابَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها . "لَمْ يَذْهَبُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة مفعول به ثان والواو حرف استئناف "إِنْ" حرف شرط جازم "يَأْتِ" مضارع مجزوم فعل الشرط "الْأَحْزابَ" فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها .

"يَوَدُّوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والواو فاعل والجملة جواب الشرط لا محل لها . "لَوْ" حرف مصدري "أَنَّهُمْ بادُونَ" أن واسمها وخبرها "فِي الْأَعْرابِ" متعلقان بما قبلهما والمصدر المؤول من لو وما بعدها مفعول يودوا . "يَسْئَلُونَ" مضارع وفاعله "عَنْ أَنْبائِكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَ" الواو حرف استئناف "لَوْ" شرطية غير جازمة "كانُوا" كان واسمها "فِيكُمْ" خبرها والجملة ابتدائية لا محل لها . "ما" نافية "قاتَلُوا" ماض وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "إِلَّا" حرف حصر "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف .

[سورة الأحزاب (33) : آية 21]

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (21)

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف "قد" حرف تحقيق "كانَ" ماض ناقص "لَكُمْ" خبره المقدم "فِي رَسُولِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أُسْوَةٌ" اسم كان المؤخر "حَسَنَةٌ" صفة أسوة والجملة جواب القسم المقدر لا محل لها "لِمَنْ" جار

ومجرور بدل من لكم "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "يَرْجُوا" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مفعول به وجملة كان . . صلة الموصول لا محل لها "وَالْيَوْمَ" معطوف على لفظ الجلالة "الْآخِرَ" صفة اليوم. "وَذَكَرَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "اللَّهِ" لفظ الجلالة مفعول به "كَثِيراً" صفة مفعول مطلق محذوف والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 22]

وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَتَسْلِيماً (22)

(64/616)

"وَلَمَّا" الواو حرف استئناف "لَمَّا" ظرفية حينية "رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب لما لا محل لها . "هذا ما" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية مقول القول. "وَعَدَنَا اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعل مؤخر والجملة صلة ما "وَرَسُولُهُ" معطوف على لفظ الجلالة "وَصَدَقَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَرَسُولُهُ" معطوف على لفظ

الجلالة. "وَما" الواو حرف عطف "ما" نافية "زادَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" حرف حصر "إِيماناً" مفعول زادهم الثاني "تَسْلِيماً" معطوف على إيمانا.

[سورة الأحزاب (33) : آية 23]

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23)

"مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها. "صَدَقُوا" ماض وفاعله والجملة صفة رجال "ما" مصدرية "عاهَدُوا اللَّهَ" ماض وفاعله ولفظ الجلالة مفعول به والمصدر المؤول من ما والفعل مفعول صدقوا "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل والفاء حرف استئناف "فَمِنْهُمْ" خبر مقدم "مِنَ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها. "قَضى" ماض فاعله مستتر "نَحْبَهُ" مفعول به والجملة صلة من. "وَمِنْهُمْ مَنْ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "يَنْتَظِرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة من لا محل لها. "وَ" الواو حرف عطف "ما" نافية "بَدَّلُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "تَبْدِيلًا" مفعول مطلق.

[سورة الأحزاب (33) : آية 24]

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (24)

"لِيَجْزِيَ اللَّهُ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ولفظ الجلالة فاعل "الصَّادِقِينَ" مفعول به والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف. "بِصِدْقِهِمْ" متعلقان بالفعل "وَيُعَذِّبَ" معطوف على يجزي "الْمُنافِقِينَ" مفعول به "إِنْ" حرف شرط جازم "شاءَ" ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط والفاعل مستتر وجواب الشرط محذوف والجملة ابتدائية لا محل لها. "أَوْ" حرف عطف "يَتُوبَ" مضارع معطوف على ما قبله. "عَلَيْهِمْ" متعلقان بيتوب "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "غَفُوراً رَحِيماً" خبران لكان والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل.

[سورة الأحزاب (33) : آية 25]

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (25)

"وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ" الواو حرف استئناف وماض وفاعله واسم الموصول مفعوله والجملة مستأنفة لا محل لها. "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِغَيْظِهِمْ" متعلقان بمحذوف

حال . "لَمْ يَنالُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله "خَيْراً" مفعول به والجملة حال ثانية "وَكَفَى اللَّهُ" الواو حرف استئناف وماض وفاعله "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به أول "الْقِتالَ" مفعوله الثاني والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً" كان واسمها وخبراها والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 26]

(66/616)

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (26)

"وَأَنْزَلَ" ماض فاعله مستتر "الَّذِينَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "ظاهَرُوهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة . "مِنْ أَهْلِ" متعلقان بمحذوف حال "الْكِتابِ" مضاف إليه "مِنْ صَياصِيهِمْ" متعلقان بالفعل أنزل . "وَقَذَفَ" ماض فاعله مستتر "فِي قُلُوبِهِمُ" متعلقان بالفعل "الرُّعْبَ" مفعول به "فَرِيقاً" مفعول به مقدم "تَقْتُلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مفسرة "وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً" معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 27]

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (27)

"وَأَوْرَثَكُمْ" ماض والكاف مفعول به أول والفاعل مستتر "أَرْضَهُمْ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ" معطوفان على ما قبلهما "وَأَرْضاً" معطوف أيضا "لَمْ تَطَؤُها" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله وها مفعول به والجملة صفة أرضا "وَكانَ اللَّهُ" الواو حرف استئناف وماض ناقص ولفظ الجلالة اسمه "عَلى كُلِّ" متعلقان بالخبر "قَدِيراً" "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 28 الى 29]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (29)

(67/616)

"يا" أداة نداء "أَيُّهَا" أي منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب على النداء والها للتنبيه "النَّبِيُّ" بدل "قُلْ" الجملة مستأنفة "لِأَزْواجِكَ" متعلقان بقل "إِنْ" حرف شرط

وجزم "كُنْتُنَّ" ماض ناقص واسمه والجملة فعل الشرط وهي ابتدائية "تُرِدْنَ" مضارع مبني على السكون لاتصالة بنون النسوة والنون فاعل والجملة خبر كان "الْحَياةَ" مفعول به "الدُّنْيا" صفة "وَزِينَتَها" معطوفة على الحياة منصوبة مثلها والها مضاف إليه "فَتَعالَيْنَ" الفاء رابطة للجواب وأمر مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط "أُمَتِّعْكُنَّ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والكاف مفعوله والنون للتأنيث "وَأُسَرِّحْكُنَّ" معطوف على أمتعكن وإعرابه مثله "سَراحاً" مفعول مطلق "جَمِيلًا" صفة "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن حرف شرط جازم "كُنْتُنَّ" كان واسمها والجملة ابتدائية "تُرِدْنَ" مضارع ونون النسوة فاعله والجملة خبر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "وَرَسُولَهُ" معطوف على ما قبله "وَالدَّارَ" معطوف على ما قبله "الْآخِرَةَ" صفة "فَإِنَّ" الفاء رابطة للجواب وإن حرف مشبه بالفعل "اللَّهَ" لفظ الجلالة اسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط "أَعَدَّ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر "لِلْمُحْسِناتِ" متعلقان بأعد "مِنْكُنَّ" متعلقان بمحذوف حال "أَجْراً" مفعول به "عَظِيماً" صفة.

[سورة الأحزاب (33) : آية 30]

يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (30)

"يا" أداة نداء "نِساءَ" منادى منصوب لأنه مضاف "النَّبِيِّ" مضاف إليه "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "يَأْتِ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وهو فعل الشرط والفاعل مستتر والجملة خبر "مِنْكُنَّ" متعلقان بمحذوف حال "بِفاحِشَةٍ" متعلقان بيأت "مُبَيِّنَةٍ" صفة "يُضاعَفْ" مضارع مبني للمجهول مجزوم لأنه جواب الشرط "لَهَا" متعلقان بالفعل قبلها "الْعَذابُ" نائب فاعل "ضِعْفَيْنِ" نائب مفعول مطلق منصوب بالياء لأنه مثنى وجملتا الشرط خبر المبتدأ من "وَكانَ" الواو عاطفة وفعل ماض ناقص "ذِلكَ" اسم إشارة اسم كان واللام للبعد والكاف للخطاب "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بيسيرا والجملة معطوفة "يَسِيراً" خبر.

[سورة الأحزاب (33) : آية 31]

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (31)

"وَمَنْ" الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم "يَقْنُتْ" مضارع مجزوم فعل الشرط والجملة ابتدائية وجملتا الشرط خبر للمبتدأ "مِنْكُنَّ" متعلقان بمحذوف حال "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بالفعل يقنت "وَرَسُولِهِ" معطوف على ما قبله والهاء مضاف إليه "وَتَعْمَلْ صالِحاً" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة "نُؤْتِها أَجْرَها" مضارع

ومفعولاه وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم تقترن بالفاء "مَرَّتَيْنِ" مفعول مطلق "وَأَعْتَدْنا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "لَها" متعلقان بالفعل "رِزْقاً" مفعول به "كَرِيماً" صفة.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 32 الى 33]

(69/616)

يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33)

(70/616)

"يا" أداة نداء "نِساءَ" منادى "النَّبِيِّ" مضاف إليه "لَسْتُنَّ" ليس فعل ماض ناقص والتاء اسمها والنون علامة التأنيث "كَأَحَدٍ" متعلقان بالخبر "مِنَ النِّساءِ" متعلقان بمحذوف صفة

لأحد "إِنِ" حرف شرط جازم "اتَّقَيْتُنَّ" ماض وفاعله والنون علامة جمع الإناث والجملة ابتدائية لأنها فعل الشرط "فَلا" الفاء رابطة لجواب الشرط ولا ناهية "تَخْضَعْنَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط "بِالْقَوْلِ" متعلقان بالفعل قبلهما "فَيَطْمَعَ" الفاء فاء السببية ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية "الَّذِي" فاعل "فِي قَلْبِهِ" متعلقان بخبر مقدم "مَرَضٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة "وَقُلْنَ" أمر مبني على السكون ونون النسوة فاعل والجملة معطوفة "قَوْلًا" مفعول مطلق "مَعْرُوفاً" صفة قولا "وَقَرْنَ" الواو عاطفة وأمر مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والجملة معطوفة "فِي بُيُوتِكُنَّ" متعلقان بقرن "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ" مضارع ونون النسوة فاعله وتبرج مفعول مطلق "الْجاهِلِيَّةِ" مضاف إليه "الْأُولى" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "وَأَقِمْنَ" إعرابها مثل وقرن "الصَّلاةَ" مفعول به "وَآتِينَ" معطوف "الزَّكاةَ" مفعوله به "وَأَطِعْنَ اللَّهَ" إعرابها كسابقتها "وَرَسُولَهُ" معطوف "إِنَّما" كافة مكفوفة "يُرِيدُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة "لِيُذْهِبَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بيريد "عَنْكُمُ" متعلقان بيذهب "الرِّجْسَ" مفعول به "أَهْلَ" منصوب على الاختصاص تقديره أخص أهل "الْبَيْتِ" مضاف إليه "وَيُطَهِّرَكُمْ" الجملة معطوفة "تَطْهِيراً" مفعول مطلق .

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 34 الى 35]

وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (34) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35)

"وَاذْكُرْنَ" الواو عاطفة وأمر مبني على السكون ونون النسوة فاعل والجملة معطوفة "ما" موصولية مفعول به "يُتْلى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر ونائب الفاعل مستتر "فِي بُيُوتِكُنَّ" الجار والمجرور متعلقات بيتلى والكاف مضاف إليه "مِنْ آياتِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَالْحِكْمَةِ" معطوف

على ما سبق "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "كانَ لَطِيفاً خَبِيراً" كان وخبراها واسمها محذوف والجملة خبر إن "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ" إن واسمها المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة "وَالْمُسْلِماتِ" معطوفة "وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ" كل هذه الأسماء معطوفة على ما قبلها "فُرُوجَهُمْ" مفعول به للحافظين "وَالْحافِظاتِ" معطوف منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "وَالذَّاكِرِينَ" معطوف "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به للذاكرين "كَثِيراً" صفة مفعول مطلق "وَالذَّاكِراتِ" معطوفة "أَعَدَّ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة خبر إن "لَهُمْ" متعلقان بأعد "مَغْفِرَةً" مفعول به "وَأَجْراً" معطوف "عَظِيماً" صفة.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 36 الى 37]

(73/616)

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (36) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ

أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (37)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "كانَ" فعل ماض ناقص "لِمُؤْمِنٍ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "مُؤْمِنَةٍ" معطوفة على ما قبلها "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "قَضَى اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "وَرَسُولُهُ" معطوف "أَمْراً" مفعول به "أَنْ" ناصبة "يَكُونَ" مضارع ناقص "لَهُمُ" متعلقان بالخبر المحذوف "الْخِيَرَةُ" اسم يكون "مِنْ أَمْرِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن شرطية "يَعْصِ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وهو فعل الشرط "اللَّهُ" لفظ الجلالة

(74/616)

مفعول به "وَرَسُولَهُ" معطوف "فَقَدْ" الفاء رابطة لجواب الشرط وقد حرف تحقيق "ضَلَّ ضَلالاً" ماض فاعله مستتر ومفعول مطلق "مُبِيناً" صفة ضلالا والجملة في محل جزم جواب الشرط. "وَإِذْ" الواو عاطفة وإذ ظرف متعلق بالفعل المحذوف تقديره اذكر "تَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "لِلَّذِي" اسم الموصول مجرور باللام ومتعلقان بتقول "أَنْعَمَ اللَّهُ" ماض ولظ الجلالة فاعله والجملة صلة "عَلَيْهِ" متعلقان بأنعم "وَأَنْعَمْتَ" معطوف

"عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ" أمر ومفعوله والجار والمجرور متعلقان بأمسك والجملة مقول القول "وَاتَّقِ اللَّهَ" أمر ولفظ الجلالة مفعوله والجملة معطوفة "وَتُخْفِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر "فِي نَفْسِكَ" متعلقان بتخفي والجملة معطوفة "مَا" اسم الموصول مفعول به "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "مُبْدِيهِ" خبر والهاء مضاف إليه والجملة صلة "وَتَخْشَى النَّاسَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر والناس مفعول به والجملة معطوفة "وَاللَّهُ أَحَقُّ" لفظ الجلالة مبتدأ وأحق خبر والجملة حالية "أَنْ" ناصبة "تَخْشَاهُ" مضارع منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والها مفعوله وفاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل مصدر مجرور أي بالخشية ومتعلقان بأحق "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما ظرف زمان "قَضَى زَيْدٌ" ماض وفاعله وزيد هو ابن حارثة "مِنْهَا" متعلقان بقضى "وَطَرًا" مفعول به والجملة مستأنفة "زَوَّجْنَاكَهَا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب لما "لِكَيْ لا" اللام حرف جر للتعليل وكي ناصبة ولا نافية "يَكُونَ" مضارع ناقص منصوب والمصدر المؤول من كي وما بعدها مجرور باللام ومتعلقان بالفعل قبلهما "عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بخبر مقدم

محذوف "حَرَجٌ" اسم يكون "فِي أَزْواجِ" متعلقان بمحذوف صفة لحرج "أَدْعِيائِهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "إِذا" ظرفية تتضمن معنى الشرط "قَضَوْا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "مِنْهُنَّ" متعلقان بقضوا "وَطَراً" مفعول به "وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا" كان وأمر اسمها ولفظ الجلالة مضاف إليه ومفعولا خبر والجملة معطوفة.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 38 الى 39]

ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (39)

"ما" نافية "كانَ عَلَى النَّبِيِّ" كان والجار والمجرور متعلقان بالخبر المقدم "مِنْ" حرف جر زائد "حَرَجٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا اسم كان والجملة مستأنفة "فِيما" ما موصولية ومتعلقان بمحذوف صفة لحرج "فَرَضَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "لَهُ" متعلقان بفرض "سُنَّةَ" مفعول به لفعل محذوف "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فِي" حرف جر "الَّذِينَ" اسم موصول والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال "خَلَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ قَبْلُ" قبل ظرف زمان مبني على الضم لأنه قطع عن الإضافة وهما متعلقان بالفعل قبلهما "وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً" كان واسمها وخبرها ولفظ الجلالة

مضاف إليه "مَقْدُورا" صفة والجملة معطوفة "الَّذِينَ" اسم الموصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم "يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ" مضارع وفاعله ومفعوله المنصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَيَخْشَوْنَهُ" مضارع وفاعله ومفعوله "وَلا يَخْشَوْنَ" الجملة معطوفة "وَلا" الواو عاطفة لا نافية "يَخْشَوْنَ أَحَداً" مضارع وفاعله ومفعوله "إِلَّا" أداء حصر "اللَّهِ" لفظ الجلالة بدل من مفعول به "وَكَفى بِاللَّهِ" الواو عاطفة وماض وباللّه الباء حرف جر زائد ولفظ الجلالة فاعل "حَسِيباً" تمييز والجملة معطوفة.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 40 الى 42]

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (40) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42)

"ما" نافية "كانَ مُحَمَّدٌ" كان ولفظ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم اسم كان والجملة مستأنفة "أَبا" خبر منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة "أَحَدٍ" مضاف إليه "مِنْ رِجالِكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لأحد "وَلكِنْ" الواو عاطفة ولكن حرف استدراك "رَسُولَ" معطوف على أبا منصوب مثله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَخاتَمَ" معطوف على ما سبق "النَّبِيِّينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَكانَ اللَّهُ" كان ولفظ الجلالة اسمها والجملة معطوفة "بِكُلِّ" متعلقان بعليما "شَيْءٍ" مضاف إليه "عَلِيماً" خبر والجملة معطوفة وخاتم بمعنى آلة الختم على قراءة فتح التاء أي ختم به النبيون وهناك قراءة بكسر التاء أي لا يكون بعده نبي قط هو آخرهم عليه السلام. "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم وها للتنبيه والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" اسم موصول بدل "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "اذْكُرُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله "ذِكْراً" مفعول مطلق "كَثِيراً" صفة والجملة مستأنفة "وَسَبِّحُوهُ" معطوف على ما سبق "بُكْرَةً" ظرف زمان متعلق بالفعل قبله "وَأَصِيلًا" معطوف على ما قبله والبكرة أول النهار والأصيل آخره.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 43 الى 46]

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً

(43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (44) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (46)

(78/616)

"هُوَ" ضمير منفصل مبتدأ "الَّذِي" خبر والجملة مستأنفة "يُصَلِّي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة صلة "عَلَيْكُمْ" متعلقان بيصلي "وَمَلائِكَتُهُ" معطوف على ما سبق "لِيُخْرِجَكُمْ" اللام لام التعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر والكاف مفعول به "مِنَ الظُّلُماتِ" متعلقان بالفعل "إِلَى النُّورِ" متعلقان بالفعل أيضا "وَكانَ" كان والجملة معطوفة "بِالْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بخبر كان المؤخر "رَحِيماً" خبر "تَحِيَّتُهُمْ" مبتدأ "يَوْمَ" ظرف زمان والجملة مستأنفة

"يَلْقَوْنَهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة مضاف إليه "سَلامٌ" خبر "وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً" ماض ومفعوله وفاعله مستتر ولهم متعلقان بالفعل قبلهما "كَرِيماً" صفة أجرا والجملة معطوفة "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى سبق إعرابها قريبا والجملة مستأنفة "النَّبِيُّ" بدل "إِنَّا" إن ونا اسمها "أَرْسَلْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن "شاهِداً" حال منصوبة "وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَداعِياً" هذه الكلمات معطوفة على ما قبلها "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بداعيا "بِإِذْنِهِ"

متعلقان بداعيا "وَسِراجاً" معطوف على ما سبق "مُنِيراً" صفة سراجا .

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 47 الى 48]

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (47) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (48)

(79/616)

"وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" أمر ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "بِأَنَّ" الباء جارة وأن حرف مشبه بالفعل وأن وما بعدها في محل جر بالباء ومتعلقان ببشر "لَهُمْ" متعلقان بخبر أن المحذوف "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بمحذوف حال "فَضْلًا" اسم أن المؤخر "كَبِيراً" صفة لفضلا "وَلا" لا ناهية "تُطِعِ" مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر "الْكافِرِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَالْمُنافِقِينَ" معطوف على ما سبق "وَدَعْ أَذاهُمْ" أمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملتان معطوفتان "وَتَوَكَّلْ" أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بتوكل "وَكَفى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "بِاللَّهِ" الباء حرف جر زائد ولفظ الجلالة فاعل "وَكِيلًا" تمييز والجملة معطوفة .

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 49 الى 50]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (49) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (50)

(80/616)

"يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى سبق إعرابها قريبا "الَّذِينَ" بدل أو عطف بيان "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِذا" ظرف زمان يتضمن معنى الشرط "نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ" ماض وفاعله والمؤمنات مفعوله والجملة مضاف إليه "ثُمَّ" عاطفة "طَلَّقْتُمُوهُنَّ" ماض والتاء فاعله والواو للإشباع والهاء مفعوله والجملة معطوفة "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بطلقتموهن "أَنْ" أن ناصبة "تَمَسُّوهُنَّ" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والنون علامة جمع الإناث وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه

للظرف ومعنى تمسوهن أي تجامعوهن "فَما" الفاء رابطة للجواب وما نافية "لَكُمْ" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "عَلَيْهِنَّ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ" زائدة "عِدَّةٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر "تَعْتَدُّونَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة لعدة

(81/616)

"فَمَتِّعُوهُنَّ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والنون علامة جمع الإناث "وَسَرِّحُوهُنَّ" معطوف على متعوهن "سَراحاً" مفعول مطلق "جَمِيلًا" صفة "يا أَيُّهَا" سبق إعرابها قريبا "النَّبِيُّ" بدل "إِنَّا" إن واسمها وحذفت نون إن للتخفيف "أَحْلَلْنا" ماض وفاعله والجملة خبر "لَكَ" متعلقان بأحللنا "أَزْواجَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه "اللَّاتِي" اسم موصول في محل نصب صفة لأزواجك "آتَيْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة "أُجُورَهُنَّ" مفعول به "وَما" الواو عاطفة وما اسم موصول "مَلَكَتْ يَمِينُكَ" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة ما ملكت معطوفة "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية وهما متعلقان بحال محذوفة "أَفاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "عَلَيْكَ" متعلقان بأفاء "وَبَناتِ" معطوف على أزواجك "عَمِّكَ" مضاف إليه "وَبَناتِ عَمَّاتِكَ" معطوف على ما سبق "وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ" معطوف على ما سبق "اللَّاتِي"

اسم موصول صفة "هاجَرْنَ" ماض مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والجملة صلة "مَعَكَ" ظرف متعلق بهاجرن "وَامْرَأَةً" معطوف على أزواجك وهي مفعول أحللنا "مُؤْمِنَةً" صفة امرأة "إِنْ" أداة شرط جازم "وَهَبَتْ" ماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر "نَفْسَهَا" مفعول به والهاء مضاف إليه "لِلنَّبِيِّ" متعلقان بوهبت وجواب الشرط مقدر "إِنْ" شرطية "أَرادَ النَّبِيُّ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية "إِنْ" ناصبة "يَسْتَنْكِحَهَا" مضارع منصوب ومفعوله والفاعل مستتر والمصدر المؤول في محل نصب مفعول أراد "خالِصَةً" حال منصوبة "لَكَ" متعلقان بخالصة "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "الْمُؤْمِنِينَ" مضاف إليه "قَدْ" حرف تحقيق "عَلِمْنا" ماض وفاعله "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به لعلمنا "فَرَضْنا" ماض وفاعله والجملة

(82/616)

صلة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "فِي أَزْواجِهِمْ" متعلقان بفرضنا "وَما" معطوف على أزواجهم "مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ" ماض وفاعله والتاء للتأنيث والهاء مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول "لِكَيْلا" اللام جارة وكي ناصبة ولا نافية والجار والمجرور متعلقان بأحللنا "يَكُونَ" مضارع ناقص "عَلَيْكَ" متعلقان بخبر يكون المحذوف "حَرَجٌ" اسم يكون

"وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" كان واسمها وخبراها والجملة معطوفة.

[سورة الأحزاب (33) : آية 51]

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (51)

"تُرْجِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر "مَنْ" اسم موصول مفعول به والجملة مستأنفة "تَشاءُ" مضارع فاعله مستتر "مِنْهُنَّ" متعلقان بمحذوف حال "وَتُؤْوِي" معطوف على ترجي "إِلَيْكَ" متعلقان بتؤوي "مَنْ" موصولية مفعول به "تَشاءُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صلة "وَمَنِ" موصولية مبتدأ والجملة معطوفة "ابْتَغَيْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة "مِمَّنْ" من حرف جر ومن موصولية متعلقان بالفعل بعدهما "عَزَلْتَ" ماض وفاعله مستتر "فَلا" الفاء رابطة ولا نافية للجنس "جُناحَ" اسم لا مبني على الفتح "عَلَيْكَ" متعلقان بخبر لا المحذوف والجملة خبر من ابتغيت "ذلِكَ" ذا

اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "أَدْنى " خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مستأنفة "أَنْ" ناصبة "تَقَرَّ" مضارع منصوب "أَعْيُنُهُنَّ" فاعل والهاء مضاف إليه وأن وما بعدها منصوب بنزع الخافض متعلقان بأدنى والتقدير بأن تقر "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "يَحْزَنَّ" مضارع مبني على السكون معطوف "وَيَرْضَيْنَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعله والجملة معطوفة "بِما" الباء جارة وما موصولية ومتعلقان بيرضين "آتَيْتَهُنَّ" ماض وفاعله ومفعوله والنون للتأنيث والجملة صلة "كُلُّهُنَّ" توكيد لفاعل يرضين "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ والجملة معطوفة "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به ليعلم "فِي قُلُوبِكُمْ" متعلقان بمحذوف صلة "وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً" كان واسمها وخبراها .

[سورة الأحزاب (33) : آية 52]

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (52)

"لا" نافية "يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ" مضارع والنساء فاعله والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبله "مِنْ بَعْدُ" متعلقان بحال محذوفة والجملة استئنافية "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "أَنْ" ناصبة "تَبَدَّلَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر والجملة معطوفة وأصلها تتبدل حذفت تاؤها للتخفيف "بِهِنَّ" متعلقان بتبدل "مِنْ" حرف جر زائد "أَزْواجٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به لتبدل ، وقد حرم الإسلام زواج البدل وهو أن يقول الزوج لآخر خذ زوجتي وأعطني زوجتك "وَلَوْ" الواو واو الحال ولو شرطية غير جازمة "أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ" ماض والكاف مفعوله المقدم وحسنهن فاعله المؤخر والجملة في محل نصب على الحال "إِلَّا" أداة استثناء "ما" موصولية في محل نصب على الاستثناء "مَلَكَتْ يَمِينُكَ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه والجملة صلة "وَكانَ اللَّهُ" كان ولفظ الجلالة اسمها والجملة معطوفة "عَلى كُلِّ" متعلقان بالخبر "شَيْءٍ" مضاف إليه "رَقِيباً" خبر كان المنصوب .

[سورة الأحزاب (33) : آية 53]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ

حِجابٍ ذِلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذِلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (53)

(85/616)

"يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة في محل نصب على النداء والها للتنبيه "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع بدل من أيها والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لا" ناهية "تَدْخُلُوا" مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله "بُيُوتَ" مفعول به "النَّبِيِّ" مضاف إليه والجملة مستأنفة

"إِلَّا" أداة حصر "ن بخبر كان المقدم والجملة مستأنفة "أَنْ" حرف ناصب "تُؤْذُوا" مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل وأن وما بعدها في تأويل مصدر اسم إن المؤخر "رَسُولَ" مفعول به "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "أَنْ تَنْكِحُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والجملة معطوفة "أَزْواجَهُ" مفعول به "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بمحذوف حال "أَبَداً" ظرف زمان "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "ذِلِكُمْ" اسم الإشارة في محل نصب اسم إن والجملة تعليلية "كانَ" ماض واسمها محذوف والجملة خبر إن "عِنْدَ" ظرف متعلق بمحذوف حال "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَظِيماً" خبر كان.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 54 الى 55]

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (54) لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (55)

"إِنْ" حرف شرط جازم "تُبْدُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة ابتدائية وهي فعل الشرط "شَيْئاً" مفعول به "أَوْ تُخْفُوهُ" معطوف على ما قبله والهاء مفعول به "فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً"

(86/616)

الفاء رابطة للجواب وإن ولفظ الجلالة اسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط واسم كان محذوف وعليما خبرها وبكل متعلقان به وشيء مضاف إليه "لا" نافية للجنس "جُناحَ" اسم لا مبني على الفتح "عَلَيْهِنَّ" متعلقان بمحذوف خبر لا "فِي آبائِهِنَّ" متعلقان بمحذوف حال "وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ . . . وَلا نِسائِهِنَّ" معطوف على ما قبله "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "ما" موصولية معطوفة "مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ" ماض وفاعله والجملة صلة "وَاتَّقِينَ اللَّهَ" أمر مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل ولفظ الجلالة مفعوله والجملة

معطوفة "إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً" إعرابها مثل إعراب إن اللّه كان بكل شيء عليما المتقدمة.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 56 الى 58]

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (56) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (58)

(87/616)

"إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "وَمَلائِكَتَهُ" معطوف والهاء مضاف إليه "يُصَلُّونَ" الجملة خبر إن "عَلَى النَّبِيِّ" متعلقان بيصلون "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى مبني على الضم في محل نصب والها للتنبيه "الَّذِينَ" بدل "آمَنُوا" الجملة صلة "صَلُّوا" أمر وفاعله "عَلَيْهِ" متعلقان بصلوا "وَسَلِّمُوا" معطوف على ما قبله "تَسْلِيماً" مفعول مطلق "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم والموصول اسمها "يُؤْذُونَ اللَّهَ" مضارع والواو فاعله ولفظ الجلالة مفعوله "وَرَسُولَهُ" معطوف والجملة صلة "لَعَنَهُمُ اللَّهُ" ماض والهاء مفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة خبر "فِي الدُّنْيا" متعلقان بلعنهم "وَالْآخِرَةِ" معطوفة على ما سبق "وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً" ماض

ومفعوله وفاعله مستتر والجار والمجرور متعلقان بأعد "مُهِيناً" صفة "وَالَّذِينَ" الواو عاطفة واسم الموصول مبتدأ والجملة معطوفة "يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والمؤمنين مفعوله والجملة صلة "وَالْمُؤْمِناتِ" عطف "بِغَيْرِ" متعلقان بالفعل قبلهما "مَا" اسم الموصول مضاف إليه "اكْتَسَبُوا" الجملة صلة "فَقَدِ" الفاء رابطة وقد حرف تحقيق "احْتَمَلُوا بُهْتاناً" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر الذين "وَإِثْماً" معطوف على ما قبله "مُبِيناً" صفة.

[سورة الأحزاب (33) : آية 59]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (59)

(88/616)

"يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى والها للتنبيه "النَّبِيُّ" بدل "قُلْ" الجملة مستأنفة "لِأَزْواجِكَ" متعلقان بقل "وَبَناتِكَ" معطوف "وَنِساءِ" معطوف "الْمُؤْمِنِينَ" مضاف إليه "يُدْنِينَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل وهو جواب الطلب والجملة مقول القول "عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ" كلاهما متعلقان

بيدنين "ذِلكَ" اسم الإشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "أَدْنى" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مستأنفة "أَنْ" ناصبة "يُعْرَفْنَ" مضارع مبني للمجهول مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل ، وأن وما بعدها منصوب بنزع الخافض "فَلا" الفاء عاطفة ولا نافية "يُؤْذَيْنَ" إعرابها مثل إعراب يعرفن والجملة معطوفة "وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" كان ولفظ الجلالة اسمها وخبراها والجملة معطوفة .

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 60 الى 62]

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (62)

(89/616)

"لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم "لَمْ" حرف جازم "يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والمنافقون فاعل مرفوع بالواو "وَالَّذِينَ" اسم الموصول معطوف على ما قبله "فِي قُلُوبِهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم والهاء مضاف إليه "مَرَضٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة "وَالْمُرْجِفُونَ" معطوف على ما سبق "فِي الْمَدِينَةِ"

متعلقان بالفعل قبلهما "لَنُغْرِيَنَّكَ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والكاف مفعوله "بِهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "ثُمَّ" عاطفة "لا" نافية "يُجاوِرُونَكَ" مضارع والواو فاعله والكاف مفعوله والجملة معطوفة "فِيها" متعلقان بالفعل قبلهما "إِلَّا" أداة حصر "قَلِيلًا" نائب مفعول مطلق "مَلْعُونِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "أَيْنَما" شرطية جازمة منصوبة على الظرفية المكانية متعلقة بجواب الشرط أخذوا "ثُقِفُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وهو فعل الشرط "أُخِذُوا" إعرابها مثل إعراب ثقفوا والجملة جواب الشرط "وَقُتِّلُوا" معطوف على أخذوا "تَقْتِيلًا" مفعول مطلق "سُنَّةَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فِي الَّذِينَ" اسم الموصول مجرور متعلقان بمحذوف حال "خَلَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَلَنْ" الواو عاطفة ولن ناصبة "تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" مضارع منصوب ومفعوله وفاعله مستتر والجار والمجرور متعلقان بتجد ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 63 الى 66]

(90/616)

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (63) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (64) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (65) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (66)

"يَسْئَلُكَ" مضارع والكاف مفعوله "النَّاسُ" فاعل والجملة مستأنفة "عَنِ السَّاعَةِ" متعلقان بالفعل قبلهما "قُلْ" الجملة مستأنفة "إِنَّما" كافة مكفوفة "عِلْمُها" مبتدأ والها مضاف إليه "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مقول القول "وَما" الواو عاطفة وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ والجملة معطوفة "يُدْرِيكَ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل

(91/616)

و الكاف مفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر ما "لَعَلَّ السَّاعَةَ" لعل واسمها والجملة تعليلية لا محل لها "تَكُونُ قَرِيباً" مضارع ناقص واسمه مستتر وقريبا خبره والجملة خبر لعلّ "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها والجملة مستأنفة "لَعَنَ الْكافِرِينَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر يعود على اللّه تعالى والجملة خبر إن "وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً" ماض ومفعوله وفاعله مستتر ولهم متعلقان بالفعل والجملة معطوفة "خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "فِيها" متعلقان

بخالدين "أَبداً" ظرف متعلق بخالدين "لا يَجِدُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة حالية "وَلِيًّا" مفعول به "وَلا نَصِيراً" معطوف على ما قبلها "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ" مضارع مبني للمجهول ووجوههم نائب فاعل والهاء مضاف إليه والجملة مضاف إليه "فِي النَّارِ" متعلقان بتقلب "يَقُولُونَ" الجملة مستأنفة "يا" حرف تنبيه "لَيْتَنا" ليت واسمها والجملة مقول القول "أَطَعْنَا اللَّهَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر ليتنا "وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا" معطوف على ما قبله وإعرابه مثله.

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 67 الى 69]

وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (67) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (68) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (69)

(92/616)

"وَقالُوا" الجملة مستأنفة "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة في محل نصب على النداء ونا مضاف إليه "إِنَّا" إن ونا اسمها والجملة وما سبقها مقول القول "أَطَعْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إن "سادَتَنا" مفعول به ونا مضاف إليه "وَكُبَراءَنا" معطوف على سادتنا

"فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا" ماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب على النداء ونا مضاف إليه "آتِهِمْ" فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة والهاء مفعوله الأول وفاعله مستتر "ضِعْفَيْنِ" مفعول به ثان والجملة مستأنفة "مِنَ الْعَذابِ" متعلقان بمحذوف صفة لضعفين "وَالْعَنْهُمْ" فعل دعاء والهاء مفعوله وفاعله مستتر "لَعْناً" مفعول مطلق والجملة معطوفة "كَبِيراً" صفة لعنا . "يا أَيُّهَا الَّذِينَ" سبق إعرابها قريبا "آمَنُوا" الجملة صلة "لا" ناهية "تَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم بحذف النون والواو اسمها "كَالَّذِينَ" الكاف جارة واسم الموصول مجرور بها ومتعلقان بمحذوف خبر تكونوا "آذَوْا" ماض وفاعله "مُوسى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والجملة صلة "فَبَرَّأَهُ اللَّهُ" الفاء عاطفة وماض والهاء مفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة معطوفة . وقد زعم اليهود أن موسى عليه السلام به برص أو أنه آدر ولذلك لا يكشف عن عورته فبرأه اللّه مما زعموا ولم يكن به أذى "مِمَّا" متعلقان ببرأه "قالُوا" الجملة صلة "وَكانَ" ماض ناقص واسمها محذوف "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بالخبر بعده "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَجِيهاً" خبر كان والجملة معطوفة .

[سورة الأحزاب (33) : الآيات 70 الى 73]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (71) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (73)

(94/616)

"يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى "الَّذِينَ" اسم موصول بدل "آمَنُوا" الجملة صلة "اتَّقُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة مستأنفة "وَقُولُوا" الجملة معطوفة على ما سبق "قَوْلًا" مفعول مطلق "سَدِيداً" صفة لقولا "يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وأعمالكم مفعوله وفاعله مستتر لكم متعلقان بيصلح "وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" معطوفة على ما سبقها وإعرابها مثلها "وَمَنْ" الواو استئنافية من اسم شرط جازم مبتدأ "يُطِعِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعوله "وَرَسُولَهُ" معطوف على لفظ الجلالة "فَقَدْ" الفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق "فازَ" ماض فاعله مستتر

والجملة في محل جزم جواب الشرط "فَوْزاً" مفعول مطلق "عَظِيماً" صفة وجملتا الشرط خبر المبتدأ "إِنَّا" إن ونا اسمها وحذفت نون إنّ للتخفيف والجملة مستأنفة "عَرَضْنَا" ماض وفاعله والجملة خبر إن "الْأَمَانَةَ" مفعول به "عَلَى السَّماواتِ" متعلقان بعرضنا "وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ" معطوفة على ما سبق "فَأَبَيْنَ" الفاء عاطفة وماض مبني على السكون ونون النسوة فاعله والجملة معطوفة "أَنْ" ناصبة "يَحْمِلْنَها" مضارع ونون النسوة فاعله والهاء مفعوله "وَأَشْفَقْنَ" معطوفة على أبين "مِنْها" متعلقان بأشفقن "وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ" ماض والهاء مفعوله والإنسان فاعل والجملة معطوفة "إِنَّهُ" إن واسمها "كانَ ظَلُوماً" كان وخبرها واسمها محذوف "جَهُولاً" خبر ثان وجملة كان خبر إنه . "لِيُعَذِّبَ اللَّهُ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ولفظ الجلالة فاعل "الْمُنافِقِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَالْمُنافِقاتِ" معطوفة "وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ" معطوفة على ما قبلها وأن وما بعدها في تأويل مصدر مجرورة باللام ومتعلقان بحملها "وَيَتُوبَ

(95/616)

اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلال فاعله والجملة معطوفة "عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بيتوب "وَالْمُؤْمِناتِ" معطوف على ما قبله "وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" كان واسمها وخبراها والجملة معطوفة ومعنى الأمانة الأوامر الشرعية. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لـ دعاس حـ 3 صـ 41. 61﴾

(96/616)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة الْأَحْزَاب

ذكر فِيهَا أَرْبَعِينَ حَدِيثا

999 - الحَدِيث الأول

عَن زر قَالَ قَالَ لِي أبي بن كَعْب كم تَعدونَ سُورَة الْأَحْزَاب قلت ثَلَاثًا وَسبعين آيَة قَالَ فو الَّذِي يحلف بِهِ أبي بن كَعْب إِن كَانَت لتعدل سُورَة الْبَقَرَة أَو أطول وَلَقَد قَرَأنَا مِنْهَا آيَة الرَّجْم الشَّيْخ وَالشَّيْخَة إِذا زنيَا فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّة نكالا من الله وَالله عَزِيز حَكِيم

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه فِي كتاب الرَّجْم من حَدِيث مَنْصُور عَن عَاصِم بن أبي النجُود

عَن زر بن حُبَيْش قَالَ قَالَ أبي بن كَعْب كم تَعدونَ سُورَة الْأَحْزَاب قُلْنَا ثَلَاثًا وَسبعين آيَة قَالَ فو الَّذِي يحلف بِهِ أبي بن كَعْب إِن كَانَت لتعدل سُورَة الْبَقَرَة أَو أطول وَلَقَد كَانَ فِيهَا آيَة الرَّجْم الشَّيْخ وَالشَّيْخَة . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْحَادِي وَالْمِائَة

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْحُدُود عَن حَمَّاد بن زيد عَن عَاصِم بِهِ وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَسَنَد الْحَاكِم رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط ثَنَا زيد بن أبي أنيسَة عَن عَاصِم بِهِ

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الْحُدُود أَنا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن عَاصِم بِهِ وَزَاد قَالَ الثَّوْرِيّ بلغنَا أَن نَاسا من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانُوا يقرءُون الْقُرْآن أجيبُوا يَوْم مُسَيْلمَة فَذهب حُرُوف من الْقُرْآن انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنده ثَنَا ابْن فضَالة عَن عَاصِم بِهِ

وَمن طَرِيق الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتَاب الْمدْخل فَرفعت فِيمَا رفعت

(97/616)

وَمن طَرِيق الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1000 - قَوْله

وَأما مَا يُحْكَى أَن تِلْكَ الزِّيَارَة كَانَت فِي صحيفَة فِي بَيت عَائِشَة فَأَكَلتهَا الدَّاجن فَمن تَأْلِيفَات الْمَلَاحِدَة وَالرَّوَافِض

قلت رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي سننه فِي كتاب الرَّضَاع من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن عبد الله بن أبي بكر عَن عمره عَن عَائِشَة وَعَن عبد الرَّحْمَن الْقَاسِم عَن أَبِيه عَن عَائِشَة قَالَت لقد نزلت آيَة الرَّجْم وَالرضَاعَة وكانتا فِي صحيفَة تَحت سَرِيرِي فَلَمَّا مَاتَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَشَاغَلْنَا بِمَوْتِهِ فَدخل دَاجِن فَأَكلهَا انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي سَنَده

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْمعرفَة فِي الرَّضَاع من طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم وَمَتنه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَسكت وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط فِي تَرْجَمَة مَحْمُود الوَاسِطِيّ

وَرَوَى إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي كتاب غَرِيب الحَدِيث ثَنَا هَارُون بن عبد الله ثَنَا عبد الصَّمد ثَنَا أبي قَالَ سَمِعت حُسَيْنًا عَن ابْن أبي بردة أَن الرَّجْم أنزل

فِي سُورَة الْأَحْزَاب وَكَانَ مَكْتُوبًا فِي خوصَة فِي بَيت عَائِشَة فَأَكلتهَا شَاتهَا انْتَهَى

1001 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما هَاجر إِلَى الْمَدِينَة كَانَ يحب إِسْلَام الْيَهُود قُرَيْظَة وَالنضير وَبني قينقاع وَقد تَابعه نَاس مِنْهُم عَلَى النّفَاق وَكَانَ يلين لَهُم جَانِبه وَيكرم صَغِيرهمْ وَكَبِيرهمْ وَإِذا أَتَى مِنْهُم قَبِيح تجَاوز عَنْهُم وَكَانَ يسمع مِنْهُم فَنزلت وَلَا تُطِع الْكَافرين الْآيَة

(98/616)

وَرُوِيَ أَن أَبَا سُفْيَان بن حَرْب وَعِكْرِمَة بن أبي جهل وَأَبَا الْأَعْوَر السّلمِيّ قدمُوا عَلَيْهِ فِي الْمُوَادَعَة الَّتِي كَانَت بَينهم وَبَينه وَقَامَ مَعَهم عبد الله بن أبي ومتعب بن قُشَيْر وَالْجد بن قيس فَقَالُوا لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْفض ذكر آلِهَتنَا وَقل إِنَّهَا تضر وَتَنْفَع وَتشفع وَنحن ندعك وَربك قَالَ فشق ذَلِك عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى الْمُؤمنِينَ وهموا بِقَتْلِهِم فَنزلت

قلت غَرِيب

وَالثَّانِي ذكره الثَّعْلَبِيّ من غير سَنَد وَكَذَلِكَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

1002 - الْحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ فِي زيد بن حَارِثَة وَكَانَ رجلا من كلب سبي صَغِيرا وَكَانَت الْعَرَب فِي جَاهِلِيَّتهَا

يَتَغَاوَرُونَ ويتسابون فَاشْتَرَاهُ حَكِيم بن حزَام لِعَمَّتِهِ خَدِيجَة فَلَمَّا تزَوجهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهبته لَهُ وَطَلَبه أَبوهُ وَعَمه فَخير فَاخْتَارَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَعْتقهُ وَكَانُوا يَقُولُونَ زيد بن مُحَمَّد فَأَنْزل الله هَذِه الْآيَة وَمَا كَانَ مُحَمَّد أَبَا أحد . . . الْآيَة

(99/616)

قلت رَوَاهُ ابْن أبي خَيْثَمَة فِي أول تَارِيخه بسَنَدِهِ إِلَى ابْن إِسْحَاق قَالَ وَكَانَ من أَمر زيد بن حَارِثَة أَنه أَصَابَته منَة من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ من سَبَايَا الْعَرَب من كلب فِي بَيت مِنْهُم كَانَ حَكِيم بن حزَام اشْتَرَاهُ من سوق حُبَاشَة بمَكَّة سوق للْعَرَب يتسوقون بِهِ فِي كل سنة وَاشْتَرَاهُ لخَدِيجَة بنة خويلد فَوَهَبته لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَكبر مِنْهُ بعشر سِنِين فَتَبَنَّاهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَحفظ عَن سَالم بن عبد الله عَن أَبِيه قَالَ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زيد بن مُحَمَّد حَتَّى أنزل الله ادعوهُمْ لآبَائِهِمْ انْتَهَى

وَهَذِه اللَّفْظَة فِي الصَّحِيحَيْن عَن سَالم بن عبد الله عَن أَبِيه عبد الله بن عمر قَالَ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زيد بن مُحَمَّد حَتَّى أنزل الله ادعوهُمْ لآبَائِهِمْ انْتَهَى

1003 - الْحَدِيث الرَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أَخْشَى عَلَيْكُم الْخَطَأ وَلَكِن أَخْشَى عَلَيْكُم الْعمد

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث عَائِشَة

فَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّانِي وَالْعِشْرين من الْقسم الثَّالِث عَن جَعْفَر بن برْقَان عَن يزِيد بن الْأَصَم عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أَخْشَى عَلَيْكُم بعدِي الْفقر وَلَكِن أَخْشَى عَلَيْكُم الْغِنَى وَالتَّكَاثُر وَمَا أَخْشَى عَلَيْكُم الْخَطَأ وَلَكِن أَخْشَى عَلَيْكُم الْعمد

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي تَفْسِير سُورَة التكاثر وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

(100/616)

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالسبْعين بِسَنَدِهِ وَمَتنه وَحَدِيث عَائِشَة رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط من حَدِيث ثَابت بن عجلَان عَن عَطاء عَن عَائِشَة قَالَت قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أما إِنِّي لست أَخَاف عَلَيْكُم الْخَطَأ وَلَكِن أَخَاف عَلَيْكُم الْعمد انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَيْضا فِي مُسْند الشاميين ثَنَا مُحَمَّد بن عِيسَى بن الْمُنْذر الْحِمصِي ثَنَا أبي ثَنَا بَقِيَّة عَن ثَابت بن عجلَان ثني عَطاء بن أبي رَبَاح بِهِ

1004 - الْحَدِيث الْخَامِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رفع عَن أمتِي الْخَطَأ وَالنّسْيَان وَمَا اسْتكْرهُوا عَلَيْهِ

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي الطَّلَاق ثَنَا مُحَمَّد بن الْمُصَفَّى ثَنَا الْوَلِيد ابْن مُسلم عَن الْأَوْزَاعِيّ عَن عَطاء بن يسَار عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن الله وضع عَن أمتِي الْخَطَأ وَالنّسْيَان وَمَا اسْتكْرهُوا عَلَيْهِ انْتَهَى

وَهُوَ سَنَد ضَعِيف

لَكِن رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن وَالسِّتِّينَ من الْقسم الثَّالِث عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن عبيد بن عُمَيْر عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا إِن الله تجَاوز عَن أمتِي الْخَطَأ وَالنّسْيَان وَمَا اسْتكْرهُوا عَلَيْهِ انْتَهَى

وَكَذَلِك رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الطَّلَاق وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

(101/616)

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث جَعْفَر بن جبر بن فرقد ثني أبي عَن الْحسن عَن أبي بكرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رفع الله عَن هَذِه الْأمة ثَلَاثًا الْخَطَأ وَالنِّسْيَان وَالْأَمر يكْرهُونَ عَلَيْهِ انْتَهَى وعده من مُنكرَات جَعْفَر

وَفِي الحَدِيث كَلَام طَوِيل وَله طرق أُخْرَى بيّنت ذَلِك فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

1005 - الحَدِيث السَّادِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ مَا من مُؤمن إِلَّا أَنا أولَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة اقْرَءُوا إِن شِئْتُم النَّبِي أولَى بِالْمُؤْمِنِينَ من أنفسهم فأيما مُؤمن هلك وَترك مَالا فلترثه عصبته من كَانُوا وَمن ترك دينا أَو ضيَاعًا فَإِلَيَّ

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن أبي عمْرَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا من مُؤمن إِلَّا وَأَنا أولَى النَّاس بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة اقْرَءُوا إِن شِئْتُم النَّبِي أولَى بِالْمُؤْمِنِينَ من أنفسهم فأيما مُؤمن ترك مَالا فلترثه عصبته من كَانُوا وَإِن ترك دينا أَو ضيَاعًا فَلْيَأْتِنِي أَنا مَوْلَاهُ انْتَهَى

1006 - قَوْله

قَالَت عَائِشَة لسنا أُمَّهَات النِّسَاء

قلت رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه المؤتلف والمختلف ثَنَا مُحَمَّد بن مخلد ثَنَا عبيد الله بن

الْهَيْثَم الْعَبْدي ثَنَا أَبُو قُتَيْبَة مُسلم بن قُتَيْبَة ثَنَا مطر الْأَعْنَق حَدَّثتنِي خرقاء قَالَت قلت لعَائِشَة يَا أمة فَقَالَت لست أم النِّسَاء إِنَّمَا أَنا أم الرِّجَال انْتَهَى ذكره فِي بَاب خرقاء

(102/616)

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة عَائِشَة أخبرنَا الْفضل بن دُكَيْن ثَنَا سُفْيَان عَن فراس عَن الشّعبيّ عَن مَسْرُوق قَال قَالَت امْرَأَة لعَائِشَة يَا أمة فَقَالَت عَائِشَة إِنِّي لست بأمك إِنَّمَا أَنا أم الرِّجَال انْتَهَى

1007 - الْحَدِيث السَّابِع

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نصرت بالصبا وأهلكت عَاد بالدبور

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَال قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نصرت بالصبا وأهلكت عَاد بالدبور انْتَهَى الْبُخَارِيّ فِي الاسْتِسْقَاء وَفِي بَدْء الْخلق وَفِي الْمَغَازِي وَمُسلم فِي الاسْتِسْقَاء

1008 - الْحَدِيث الثَّامِن

(103/616)

من حَدِيث الْأَحْزَاب وَيَوْم الخَنْدَق رُوِيَ أَن الله تَعَالَى أرسل جُنُودا لم تَرَوْهَا وهم الْمَلَائِكَة وَكَانُوا ألفا بعث الله عَلَيْهِم صبا بَارِدَة فِي لَيْلَة شَاتِيَة فَأَخْصَرَتْهُمْ وَسَفَتْ التُّرَاب فِي وُجُوههم وَأمر الْمَلَائِكَة فقلعت الْأَوْتَاد وَقطعت الْأَطْنَاب وَأَطْفَأت النيرَان وَأَكْفَأت الْقُدُور وَمَاجَتْ الْخُيُول بَعْضهَا فِي بعض وَقذف فِي قُلُوبهم الرعب وَكبرت الْمَلَائِكَة فِي جَوَانِب عَسْكَرهمْ فَقَالَ طليحة بن خويلد الْأَسدي أما مُحَمَّد فقد بَدَأَكُمْ بالسحر فَالنَّجَاةُ النجَاة فَانْهَزَمُوا من غير قتال وَحين سمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِإِقْبَالِهِمْ ضرب الخَنْدَق عَلَى الْمَدِينَة وَأَشَارَ عَلَيْهِ بذلك سلمَان الْفَارِسِي ثمَّ خرج فِي ثَلَاثَة آلَاف من الْمُسلمين فَضرب مُعَسْكَره وَالْخَنْدَق بَينه وَبَين الْقَوْم وَأمر بالذَّرَارِيّ وَالنِّسَاء فَرفعُوا فِي الْآطَام وَاشْتَدَّ الْخَوْف وَظن الْمُؤْمِنُونَ كل ظن وَنجم النِّفَاق من الْمُنَافِقين حَتَّى قَالَ معتب بن قُشَيْر كَانَ مُحَمَّد يعدنا كنوز كسْرَى وَقَيْصَر وَنحن لَا نقدر نَذْهَب إِلَى الْغَائِط وَكَانَت قُرَيْش قد أَقبلت فِي عشرَة آلَاف من الْأَحَابِيش وَبني كنَانَة وَأهل تهَامَة وَقَائِدهمْ أَبُو سُفْيَان وَخرج غطفان فِي ألف وَمن تَابعهمْ من أهل نجد وَقَائِدهمْ عُيَيْنَة بن حصن وعامر بن الطُّفَيْل فِي هوَازن وضامتهم الْيَهُود من قُرَيْظَة وَالنضير وَمَضَى عَلَى الْفَرِيقَيْنِ قريب من شهر لَا حَرْب بَينهم إِلَّا الرَّمْي بِالنَّبلِ وَالْحِجَارَة حَتَّى أنزل الله النَّصْر

قلت هَذَا كُله فِي سيرة ابْن هِشَام فِي غَزْوَة الخَنْدَق مُعَرفا فِي طول الْقِصَّة عَن ابْن إِسْحَاق من قَوْله

(104/616)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ من طَرِيق ابْن إِسْحَاق عَن يزِيد بن رُومَان عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر وَعبد الله بن أبي بكر بن حزم وَمُحَمّد بن كَعْب الْقرظِيّ وَغَيرهم من عُلَمَائِنَا أَنه كَانَ من حَدِيث الخَنْدَق . . . فَذكره مطولا بِزِيَادَات وَنقص

1009 - الحَدِيث التَّاسِع

عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لأَصْحَابه إِن الْأَحْزَاب سائرون إِلَيْكُم تسعا أَو عشرا يَعْنِي فِي آخر تسع ليل أَو عشر فَلَمَّا رَأَوْهُمْ قد أَقبلُوا للْمِيعَادِ قَالُوا هَذَا مَا وعدنا الله وَرَسُوله

1010 - الحَدِيث الْعَاشِر

فِي الحَدِيث من أحب أَن ينظر إِلَى شَهِيد يمشي عَلَى وَجه الأَرْض فَلْينْظر إِلَى طَلْحَة

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي المناقب وَابْن ماجة فِي السّنة من حَدِيث الصَّلْت بن دِينَار الْأَزْدِيّ عَن أبي نَضرة مُنْذر بن مَالك عَن جَابر بن عبد الله قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول من سره أَن ينظر إِلَى شَهِيد يمشي عَلَى وَجه الأَرْض فَلْينْظر إِلَى طَلْحَة بن عبيد الله انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث الصَّلْت بن دِينَار وَقد تكلم فِيهِ بعض أهل الْعلم وَضَعفه انْتَهَى

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه بِسَنَد آخر فَقَالَ ثَنَا يَحْيَى بن عُثْمَان بن صَالح ثَنَا سُلَيْمَان بن أَيُّوب بن سُلَيْمَان ابْن عِيسَى بن مُوسَى بن طَلْحَة بن عبيد الله حَدثنِي أبي ثني جدي عَن مُوسَى بن طَلْحَة عَن أَبِيه طَلْحَة بن عبيد الله قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا رَآنِي يَقُول من أحب أَن ينظر إِلَى شَهِيد . . . الْحَدِيث

الْحَدِيث الْحَادِي عشر

(105/616)

رُوِيَ أَن طَلْحَة ثَبت مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْم أحد حَتَّى أُصِيبَت يَده فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أوجب طَلْحَة

قلت لم يروه هَكَذَا بِهَذَا اللَّفْظ إِلَّا الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا عبد الله بن حَامِد ثَنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن شَاذَان ثَنَا جَيْعُونَة بن مُحَمَّد التِّرْمِذِيّ ثَنَا صَالح بن مُحَمَّد بن سُلَيْمَان بن حَرْب عَن حزم عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة فِي قَوْله تَعَالَى من الْمُؤمنِينَ رجال صدقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ قَالَت

مِنْهُم طَلْحَة بن عبيد الله ثَبت مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . إِلَى آخِره

وَلَكِن رُوِيَ مفرقا

فَحَدِيث أوجب طَلْحَة رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي الْجِهَاد من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْحَاق

عَن يَحْيَى بن عباد بن عبد الله بن الزُّبَيْر عَن أَبِيه عَن عبد الله ابْن الزُّبَيْر عَن أَبِيه الزُّبَيْر بن

الْعَوام قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرْعَانِ يَوْم أحد فَنَهَضَ إِلَى الصَّخْرَة فَلم يسْتَطع

فَأَقْعدَ طَلْحَة تَحْتَهُ فَصَعدَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى اسْتَوَى عَلَى الصَّخْرَة قَالَ

فَسمِعت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول أوجب طَلْحَة انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن غَرِيب

لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن من الْقسم الثَّالِث وَكَذَلِكَ الْحَاكِم فِي

الْمُسْتَدْرك فِي الْمَغَازِي وَقَالَ عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

(106/616)

وَحَدِيث أُصِيبَت يَده رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي الْجِهَاد أخبرنَا عَمْرو بن سَواد أَنا ابْن وهب

أَخْبرنِي يَحْيَى بن أَيُّوب عَن عمَارَة بن غزيَّة عَن أبي الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ لما كَانَ يَوْم أحد كَانَ

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي نَاحيَة فِي اثْني عشر رجلا من الْأَنْصَار وَفِيهِمْ طَلْحَة بن عبيد الله فأدرجهم الْمُشْركُونَ فَالْتَفت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ من للْقَوْم فَقَالَ طَلْحَة أَنا قَالَ كَمَا أَنْت فَقَالَ رجل من الْأَنْصَار أَنا يَا رَسُول الله فقاتل حَتَّى قتل ثمَّ الْتفت فَإِذا الْمُشْركُونَ قَالَ من للْقَوْم فَقَالَ طَلْحَة أَنا فَقَالَ كَمَا أَنْت فَقَالَ رجل من الْأَنْصَار أَنا فَقَالَ أَنْت فقاتل حَتَّى قتل ثمَّ لم يزل يَقُول ذَلِك وَيخرج إِلَيْهِم رجل من الْأَنْصَار فَيُقَاتل قتال من قبله حَتَّى يقتل حَتَّى بَقِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَطَلْحَة فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من للْقَوْم فَقَالَ طَلْحَة أَنا فقاتل طَلْحَة قتال الْأَحَد عشر حَتَّى ضربت يَده فَانْقَطَعت أَصَابعه فَقَالَ حس فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَو قلت بِسم الله لَرَفَعَتْك الْمَلَائِكَة وَالنَّاس ينظرُونَ ثمَّ رد الله الْمُشْركين انْتَهَى

وَرُوِيَ الْبُخَارِيّ فِي الْمَغَازِي من حَدِيث إِسْمَاعِيل عَن قيس قَالَ رَأَيْت يَد طَلْحَة شلاء وَقِي بهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْم أحد انْتَهَى

1012 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

(107/616)

رُوِيَ أَن جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم صَبِيحَة اللَّيْلَة الَّتِي انهزم فِيهَا الْأَحْزَاب وَرجع الْمُسلمُونَ إِلَى الْمَدِينَة وَوَضَعُوا سِلَاحهمْ عَلَى فرسه الحيزوم وَالْغُبَار عَلَى وَجه الْفرس وَعَلَى السرج فَقَالَ مَا هَذَا يَا جِبْرِيل قَالَ من مُتَابعَة قُرَيْش فَجعل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يمسح الْغُبَار عَن وَجه الْفرس وَعَن سَرْجه فَقَالَ يَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن الْمَلَائِكَة لم تضع السِّلَاح إِن الله يَأْمُرك بِالْمَسِيرِ إِلَى بني قُرَيْظَة وَأَنا عَامِد إِلَيْهِم

فَإِن الله داقهم دق الْبيض عَلَى الصَّفَا وَإِنَّهُم لكم طعمة فَأذن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي النَّاس أَن من كَانَ سَامِعًا مُطيعًا فَلَا يُصَلِّي الْعَصْر إِلَّا فِي بني قُرَيْظَة فَمَا صَلَّى كثير من النَّاس الْعَصْر إِلَّا بعد الْعشَاء الْآخِرَة لأجل قَول رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَحَاصَرَهُمْ خمْسا وَعشْرين لَيْلَة حَتَّى جهدهمْ الْحصار فَقَالَ لَهُم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَنْزِلُونَ عَلَى حكمي فَأَبَوا فَقَالَ عَلَى حكم سعد بن معَاذ فَرَضُوا بِهِ فَقَالَ سعد حكمت فيهم أَن تقتل مُقَاتلَتهمْ وَتَسْبِي ذرَارِيهمْ وَنِسَاؤُهُمْ فَكبر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ لقد حكمت بِحكم الله من فَوق سَبْعَة أَرقعَة ثمَّ اسْتَنْزَلَهُمْ وَخَنْدَق فِي سوق الْمَدِينَة خَنْدَقًا وَقَدَّمَهُمْ وَضرب أَعْنَاقهم وهم من ثَمَانِمِائَة إِلَى تِسْعمائَة وَقيل كَانُوا سِتّمائَة مقَاتل وَسَبْعمائة أَسِير

(108/616)

قلت هَذَا كُله فِي سيرة ابْن هِشَام فِي غَزْوَة بني قُرَيْظَة عَن ابْن إِسْحَاق من قَوْله إِلَّا قَوْله عَلَيْهِ السَّلَام لقد حكمت بِحكم الله من فَوق سَبْعَة أَرقعَة فَإِنَّهُ أسْنده حَدثنِي عَاصِم بن عُمَيْر بن قَتَادَة عَن عبد الرَّحْمَن بن عَمْرو بن سعد ابْن معَاذ عَن عَلْقَمَة بن وَقاص اللَّيْثِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لسعد لقد حكمت فيهم بِحكم الله من فَوق سَبْعَة أَرقعَة ثمَّ قَالَ قَالَ ابْن إِسْحَاق ثمَّ خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى سوق الْمَدِينَة فَخَنْدَق بهَا خَنْدَق ثمَّ بعث إِلَيْهِم فَضربت أَعْنَاقهم فِي تلْك الْخنَادِق فَخرج بهم إِلَيْهِ أَرْسَالًا وهم سِتّمائَة أَو سَبْعمِائة وَالْمُكْثر يَقُول كَانُوا بَين الثَّمَانِمِائَة إِلَى التسْعمائَة وَبَقِيَّة الحَدِيث مفرق فِي طول الْقِصَّة إِلَّا قَوْله فَإِن الله داقهم دق الْبيض عَلَى الصَّفَا فَإِنَّهُ قَالَ بدله إِنِّي عَامِد إِلَيْهِم فَمُزَلْزِل بهم وَرَوَاهَا بِهَذَا اللَّفْظ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فَقَالَ فِي الْفَصْل الثَّامِن وَالْعِشْرين وَهُوَ فصل الْمَغَازِي ثَنَا عبد الله بن مُحَمَّد فِي جمَاعَة قَالُوا ثَنَا عبد الله ابْن مُحَمَّد الْبَغَوِيّ ثَنَا الحكم بن مُوسَى ثَنَا مُبشر بن إِسْمَاعِيل الْحلبِي ثَنَا معَاذ ابْن رِفَاعَة حَدثنِي أَبُو الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ لما رابط النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بني النَّضِير

وَطَالَ الْمكْث بهم أَتَاهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام وَهُوَ يغسل رَأسه فَقَالَ عَفا الله عَنْك يَا مُحَمَّد مَا أسْرع مَا مللتهم وَالله مَا نَزَعْنَا من لأُمَّتِنَا شَيْئًا مُنْذ نزلت عَلَيْهِم قُم فَشد عَلَيْك سِلَاحك وَالله لأذقنهم كَمَا يدق الْبيض عَلَى الصَّفَا قَالَ فَأَتْبَعته بَصرِي حَتَّى تقذفذ فِي الْمَدِينَة فَلَمَّا رَأينَا ذَلِك نهضنا إِلَيْهِ فَفَتحهَا الله انْتَهَى

1013 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل عقارهم يَعْنِي الْأَحْزَاب للمهاجرين دون الْأَنْصَار فَقَالَت الْأَنْصَار فِي ذَلِك فَقَالَ إِنَّكُم فِي مَنَازِلكُمْ وَقَالَ عمر أما نُخَمِّسُ كَمَا خمست يَوْم بدر قَالَ لَا إِنَّمَا جعلت هَذِه طعمة لي دون النَّاس قَالُوا رَضِينَا بِمَا صنع الله وَرَسُوله قلت رَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي حَدثنِي معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن خَارِجَة بن زيد عَن أم الْعَلَاء قَالَت لما غنم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني النَّضِير قسم مَا أَفَاء الله عَلَيْهِ فَأَعْطَى الْمُهَاجِرين وَلم يُعْط أحدا من الْأَنْصَار من ذَلِك الْفَيْء شَيْئًا إِلَّا رجلَيْنِ كَانَا مُحْتَاجين سهل بن حنيف وَأَبا دُجَانَة مُخْتَصر

(110/616)

وحَدثني أَبُو بكر بن عبد الله عَن الْمسور بن رِفَاعَة قَالَ وَقبض رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْأَمْوَال وَالْحلقَة فوجدوا من الْحلقَة خمسين درعا وَخمسين بَيْضَة وثلاثمائة وَأَرْبَعين سَيْفا وَكَانَ الَّذِي ولي قبضهَا مُحَمَّد بن مسلمة وَيُقَال إِنَّهُم غيَّبُوا بعض سِلَاحهمْ فَقَالَ عمر يَا رَسُول الله أَلا نُخَمّس كَمَا خمست مَا أُصِيب من بدر فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لَا أجعَل شَيْئًا جعله الله لي دون الْمُؤمنِينَ بقوله مَا أَفَاء الله عَلَى رَسُوله من أهل الْقرى الْآيَة كَهَيْئَةِ مَا وَقع فِيهِ السهْمَان للْمُسلمين مُخْتَصر

1014 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

رُوِيَ أَن آيَة التَّخْيِير لما نزلت غم ذَلِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَبَدَأَ بعائشة وَكَانَت أحبهنَّ إِلَيْهِ فَخَيرهَا وَقَرَأَ عَلَيْهَا الْقُرْآن فَاخْتَارَتْ الله وَرَسُوله وَالدَّار الْآخِرَة فَرُئِيَ الْفَرح فِي وَجه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ اخْتَار جَمِيعهنَّ اخْتِيَارهَا فَشكر الله لَهُنَّ ذَلِك وَأنزل لَا يحل لَك النّسَاء من بعد وَلَا أَن تبدل بهن من أَزوَاج

وَرُوِيَ انه قَالَ لعَائِشَة إِنِّي ذاكر لَك أمرا وَلَا عَلَيْك أَلا تعجلي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِري أَبَوَيْك ثمَّ قَرَأَ عَلَيْهَا الْقُرْآن قَالَت أَفِي هَذَا أَستَأْمر أَبوي إِنِّي أُرِيد الله وَرَسُوله وَالدَّار الْآخِرَة

وَرُوِيَ أَنَّهَا قَالَت لَا تخير أَزوَاجك إِنِّي اخْتَرْتُك قَالَ إِنَّمَا بَعَثَنِي الله مبلغا وَلم يبْعَثنِي مُتَعَنتًا

قلت الأول رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن بشار ثَنَا عبد الْأَعْلَى ثَنَا سعيد ابْن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة عَن الْحسن فِي قَوْله تَعَالَى يَا أَيهَا النَّبِي قل لِأَزْوَاجك إِن كنتن تردن الْحَيَاة الدُّنْيَا وَزينتهَا . . . الْآيَة قَالَ أمره الله أَن يُخَيِّرهُنَّ بَين الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وَالْجنَّة وَالنَّار قَالَ قَتَادَة وَهِي غيرَة من عَائِشَة فِي شَيْء أَرَادَتْهُ من الدُّنْيَا وَكَانَت تَحْتَهُ تسع نسْوَة عَائِشَة وَحَفْصَة وَأم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان وَسَوْدَة بنت زَمعَة وَأم سَلمَة بنت أبي أُمَيَّة وَزَيْنَب بنت جحش وَمَيْمُونَة بني الْحَارِث الْهِلَالِيَّة جوَيْرِية بنت الْحَارِث من بني المصطلق وَصفِيَّة بنت حيي وَكَانَت أحبهنَّ إِلَيْهِ فَلَمَّا اخْتَارَتْ الله رَسُوله وَالدَّار الْآخِرَة رئي الْفَرح فِي وَجه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَتَتَابَعْنَ عَلَى ذَلِك فشكرهن الله عَلَى ذَلِك فَقَالَ لَا يحل لَك النِّسَاء من بعد . . . الْآيَة فَقَصره الله عَلَيْهِنَّ وَهن التسع اللَّاتِي اخْتَرْنَ الله وَرَسُوله انْتَهَى

وَالثَّانِي رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي الطَّلَاق من

(112/616)

حَدِيث الزُّهْرِيّ عَن أبي سَلمَة عَن عَائِشَة قَالَت لما أَمر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِتَخْيِير أَزوَاجه بَدأَ بِي فَقَالَ إِنِّي ذاكر لَك أمرا فَلَا عَلَيْك أَلا تعجلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْك

وَقد علم أَن أَبوي لم يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ ثمَّ قَالَ إِن الله قَالَ يَا أَيها النَّبِي قل لِأَزْوَاجك . . .

إِلَى تَمام الْآيَتَيْنِ فَقلت لَهُ فَفِي هَذَا أَستَأْمر أَبوي فَإِنِّي أُرِيد الله وَرَسُوله وَالدَّار الْآخِرَة قَالَت

ثمَّ فعل أَزوَاج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِثْلمَا فعلت انْتَهَى

الثَّالِث رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الطَّلَاق من حَدِيث أبي الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ دخل أَبُو

بكر يسْتَأْذن عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَوجدَ فَوجدَ النَّاس جُلُوسًا . . .

فَذكر قصَّة عَائِشَة بِعَينهَا وَفِي آخِره قَالَت بل أخْتَار الله وَرَسُوله وَالدَّار الْآخِرَة وَأَسْأَلك أَلا

تخبر امْرَأَة من نِسَائِك قَالَ لَا تَسْأَلنِي امْرَأَة مِنْهُنَّ إِلَّا أخْبرتهَا إِن الله لم يَبْعَثنِي مُعنتًا وَلَا متمعنتا

وَلَكِن بَعَثَنِي معلما ميسرًا مُخْتَصر

وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن عبيد الله بن عبد الله

عَن ابْن عَبَّاس . . . فَذَكَرَاهُ مطولا وَفِي آخِره قَالَ معمر فَأَخْبرنَا أَيُّوب عَن عَائِشَة قَالَت لَهُ

لَا تخبر نِسَاءَك أَنِّي اخْتَرْتُك فَقَالَ لَهَا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن الله أَرْسلنِي مبلغا وَلم

يُرْسِلنِي مُتَعَنتًا

وَعَزاهُ الطِّيبِيّ لأَحْمَد فَقَط

1015 - الْحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها خيرنا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فاخترناه فَلم يعده طَلَاقا وَرُوِيَ أَفَكَانَ طَلَاقا

قلت رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة فِي كتبهمْ بَعضهم فِي النِّكَاح وَبَعْضهمْ فِي الطَّلَاق من رِوَايَة مَسْرُوق عَن عَائِشَة قَالَت خيرنا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلم يعده طَلَاقا انْتَهَى

وَفِي رِوَايَة فَلم نعده طَلَاقا وَفِي رِوَايَة أَفَكَانَ طَلَاقا وَالثَّلَاثَة فِي الصَّحِيحَيْنِ

1016 - الْحَدِيث السَّادِس عشر

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لأبي الدَّرْدَاء (إِن فِيك جَاهِلِيَّة قَالَ جَاهِلِيَّة كفر أم إِسْلَام قَالَ بل جَاهِلِيَّة كفر)

قلت غَرِيب وَالَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ ذَلِك لأبي ذر أَخْرجَاهُ فِي الْعتْق من حَدِيث الْمَعْرُور بن سُوَيْد عَن أبي ذر قَالَ كَانَ بيني وَبَين رجل من إِخْوَانِي كَلَام وَكَانَت أمه أَعْجَمِيَّة فَعَيَّرْته بأُمِّهِ فَشَكَانِي إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لي (أَعيرت فلانا بِأُمِّهِ قلت نعم قَالَ يَا أَبَا ذر إِنَّك امْرُؤ فِيك جَاهِلِيَّة هم إِخْوَانكُمْ) الْحَدِيث مُخْتَصر

وَلم يذكر الطِّيبِيّ غير حَدِيث أبي ذر من غير أَن يَعْتَرِضهُ وَالَّذِي عيره أَبُو ذر بِأُمِّهِ هُوَ بلَال بن رَبَاح قَالَه الْمُنْذِرِيّ

1017 - الْحَدِيث السَّابِع عشر

رُوِيَ أَن أَزوَاج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قُلْنَ يَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذكر الله الرِّجَال فِي الْقُرْآن بِخَير وَمَا فِينَا خير نذْكر بِهِ إِنَّا نَخَاف أَلا يقبل منا طَاعَة فَنزلت إِن الْمُسلمين وَالْمُسلمَات . . . الْآيَة وَرُوِيَ أَن السَّائِل أم سَلمَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها

(114/616)

قلت رَوَى النَّسَائِيّ من حَدِيث شريك عَن مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أم سَلمَة قَالَت يَا رَسُول الله مَا لي أسمع الرِّجَال يذكرُونَ فِي الْقُرْآن وَالنِّسَاء لَا يذكرُونَ فَأنْزل الله إِن الْمُسلمين وَالْمُسلمَات الْآيَة انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه والطبري فِي تَفْسِيره عَن أبي مُعَاوِيَة عَن مُحَمَّد بن عَمْرو بِهِ

وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما من حَدِيث عبد الْوَاحِد بن زِيَاد ثَنَا عُثْمَان بن حَكِيم عَن عبد الرَّحْمَن بن شيبَة عَن أم سَلمَة فَذكره وَكَذَلِكَ رَوَاهُ النَّسَائِيّ أَيْضا

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث مُجَاهِد عَن أم سَلمَة فَذكره وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْن وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ عَن أم عمَارَة الْأَنْصَارِيَّة بِنَحْو حَدِيث أم سَلمَة سَوَاء

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق أَحْمد بن حَنْبَل حَدثنَا الْحُسَيْن ابْن الْحسن الْأَشْقَر ثَنَا أَبو كُدَيْنَة عَن قَابُوس عَن أبيَّة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قُلْنَ نسَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا رَسُول الله مَا لَهُ لَيْسَ يذكر إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ وَلَا يذكر الْمُؤْمِنَات بِشَيْء فَأنْزل الله إِن الْمُسلمين وَالْمُسلمَات وَالْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات الْآيَة

1018 - قَوْله

وَرُوِيَ أَنه لما نزل فِي نسَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا نزل قَالَ نسَاء الْمُسلمين فَمَا نزل فِينَا شَيْء فَنزلت

(115/616)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد عَن قَتَادَة قَالَ دخل نسَاء من الْمُؤْمِنَات عَلَى نسَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقُلْنَ قد ذَكَركُنَّ الله فِي الْقُرْآن وَلم نذْكر بِشَيْء مَا فِينَا مَا يذكر فَأنْزل الله تَعَالَى إِن الْمُسلمين وَالْمُسلمَات الْآيَة

وَرَوَاهُ ابْن سعيد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر هُوَ الْوَاقِدِيّ ثَنَا عَن قَتَادَة نَحوه

1019 - الْحَدِيث الثَّامِن عشر

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من اسْتَيْقَظَ من نَومه وَأَيْقَظَ امْرَأَته فَصَلَيَا جَمِيعًا

رَكْعَتَيْنِ كتبا من الذَّاكِرِينَ الله كثيرا وَالذَّاكِرَات)

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ وَابْن ماجة فِي صَلَاة اللَّيْل من حَدِيث الْأَعْمَش عَن الْأَغَر أبي مُسلم الْمَدِينِيّ عَن أبي سعيد وَأبي هُرَيْرَة قَالَا قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من اسْتَيْقَظَ من اللَّيْل وَأَيْقَظَ امْرَأَته) إِلَى آخِره قَالَ أَبُو دَاوُد وَرَوَاهُ بَعضهم مَوْقُوفا عَلَى أبي سعيد وَلم يذكر فِيهِ أَبَا هُرَيْرَة انْتَهَى

قلت وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَعبد الرَّزَّاق فِي مصنفيهما أخبرنَا الثَّوْرِيّ عَن عَلّي بن الْأَقْمَر عَن الْأَغَر عَن الْخُدْرِيّ مَوْقُوفا

وَرَوَاهُ مَرْفُوعا ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

قَالَ النَّوَوِيّ فِي الْخُلَاصَة إِسْنَاده صَحِيح

1020 - الْحَدِيث التَّاسِع عشر

(116/616)

رُوِيَ أَن رَسُول الله خطب زَيْنَب بنت جحش بنت عمته أُمَيْمَة بنت عبد الْمطلب عَلَى مَوْلَاهُ زيد بن حَارِثَة فَأَبت وَأَبَى أَخُوهَا عبد الله فَنزلت وَمَا كَانَ لمُؤْمِن وَلَا مُؤمنَة إِذا قَضَى

الله وَرَسُوله أمرا أَن يكون لَهُم الْخيرَة الْآيَة فَقَالَا رَضِينَا برَسُول الله فَأَنْكحهَا إِيَّاه وساق إِلَيْهَا مهرهَا سِتِّينَ درهما وَحِمَارًا وَمِلْحَفَة وَدِرْعًا وَإِزَار وَخمسين مدا من الطَّعَام وَثَلَاثِينَ صَاعا من تمر

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيّ فِي سننه فِي النِّكَاح وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث الْحسن بن أبي السّري الْعَسْقَلَانِي ثني الْحسن بن أعين الْحرَّانِي ثَنَا حَفْص بن سُلَيْمَان عَن الْكُمَيْت بن زيد الْأَسدي حَدثنِي مَذْكُور مولَى زَيْنَب بنت جحش عَن زَيْنَب بنت جحش قَالَت خطبني عدَّة من قُرَيْش فَأرْسلت أُخْتِي حمْنَة إِلَى

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَسْتَشِيرهُ فَقَالَ لَهَا أَيْن هِيَ مِمَّن يعلمهَا كتاب ربهَا وَسنة نبيها قَالَت وَمن هُوَ يَا رَسُول الله قَالَ زيد بن حَارِثَة قَالَ فَغَضِبت حمْنَة غَضبا شَدِيدا وَقَالَت يَا رَسُول الله أَتزوّج بنت عَمَّتك مَوْلَاك قَالَت وجاءتني فأعلمتني فَغَضِبت غَضبا شَدِيدا من غَضَبهَا وَقلت أَشد من قَوْلهَا فَأَنْزل الله وَمَا كَانَ لمُؤْمِن وَلَا مُؤمنَة إِذا قَضَى الله وَرَسُوله أمرا أَن يكون لَهُم الْخيرَة من أَمرهم قَالَت فَأرْسلت إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقلت إِنِّي أَسْتَغْفر الله وَأطِيع الله وَرَسُوله أفعل مَا رَأَيْت فزوجني زيد انْتَهَى

وَالْحُسَيْن بن أبي السّري ضعفه أَبُو دَاوُد وَغَيره وَحَفْص بن سُلَيْمَان الْأَسدي قَالَ الْبُخَارِيّ

تَرَكُوهُ

1021 - الْحَدِيث الْعشْرُونَ

(117/616)

قَالَ الْمُصَنّف رَحِمَهُ اللَّهُ وَقيل أم كُلْثُوم بنت عقبَة بن أبي معيط وَهِي أول من هَاجر من النّسَاء فَوهبت نَفسهَا للنَّبِي فَقَالَ قد قبلت وَزوجهَا زيدا فَسَخِطَتْ هِيَ وأخوها وَقَالا إِنَّمَا أردنَا رَسُول الله فَزَوَّجنَا عَبده

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنِي يُونُس أَنا ابْن وهب قَالَ عبد الرَّحْمَن بن زيد ابْن أسلم فِي قَوْله تَعَالَى وَمَا كَانَ لمُؤْمن وَلَا مُؤمنَة الْآيَة قَالَ نزلت فِي أم كُلْثُوم بنت عقبَة بن أبي معيط وَكَانَت أول من هَاجر من النّسَاء فَوهبت نَفسهَا للنَّبِي فَقَالَ قد قبلت فَزَوجهَا زيد بن حَارِثَة فَسَخِطَتْ هِيَ وأخوها وَقَالا إِنَّمَا أردنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَزَوَّجنَا عَبده انْتَهَى

وَذكر الثَّعْلَبِيّ هَذِه الرِّوَايَة وَالَّتِي قبلهَا بِلَفْظ الْمُصَنّف من غير سَنَد

1022 - الْحَدِيث الْحَادِي وَالْعِشْرين

(118/616)

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَبْصر زَيْنَب بَعْدمَا أَنْكحهَا زيد فَوَقَعت فِي نَفسه فَقَالَ (سُبْحَانَ الله مُقَلّب الْقُلُوب) وَسمعت زَيْنَب بالتَّسْبِيحَةِ فَذكرتهَا لزيد ففطن وَألقى الله فِي نَفسه كَرَاهَة صحبتهَا وَالرَّغْبَة عَنْهَا فَقَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنِّي أُرِيد أَن أُفَارِق صَاحِبَتِي فَقَالَ (مَا لَك أَرَابَك مِنْهَا شَيْء) قَالَ لَا وَالله مَا رَأَيْت مِنْهَا إِلَّا خيرا وَلكنهَا تتعظم عَلَي بشرفها وَتُؤْذِينِي فَقَالَ أمسك عَلَيْك زَوجك وَاتَّق الله ثمَّ طَلقهَا بعد فَلَمَّا اعْتدت قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أجد أحد أوثق فِي نَفسِي مِنْك أَخطب لي زَيْنَب) قَالَ زيد فَانْطَلَقت فَإِذا هِيَ تخمر عَجِينَتَهَا فَلَمَّا رَأَيْتهَا عظمت فِي صَدْرِي حَتَّى مَا أَسْتَطِيع أَن أنظر إِلَيْهَا حِين علمت أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذكرهَا فَوليتهَا ظَهْري قلت يَا زَيْنَب أَبْشِري إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خَطبك فَفرحت وَقَالَت مَا أَنا بصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أوَامِر ربّي فَقَامَتْ إِلَى مَسْجدهَا وَنزل الْقُرْآن زَوَّجْنَاكهَا فتزوجها رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَمَا أولم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى امْرَأَة مَا أولم عَلَيْهَا ذبح شَاة وَأطْعم النَّاس الْخبز وَاللَّحم إِلَى أَن امْتَدَّ النَّهَار انْتَهَى

(119/616)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَرَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي النِّكَاح مُخْتَصر من حَدِيث سُلَيْمَان بن الْمُغِيرَة عَن ثَابت عَن أنس قَالَ لما انْقَضتْ عدَّة زَيْنَب قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لزيد اذْكُرْهَا عَلَي قَالَ فَانْطَلَق زيد حَتَّى أَتَاهَا وَهِي تخمر عَجِينهَا قَالَ فَلَمَّا رَأَيْتهَا عظمت فِي صَدْرِي حَتَّى مَا أَسْتَطِيع أَن أنظر إِلَيْهَا أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذكرهَا فَوليتهَا ظَهْري وَنَكَصت عَلَى عَقبي فقلت يَا زَيْنَب إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يذكرك قَالَت مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أوَامِر ربّي فَقَامَتْ

إِلَى مَسْجِدهَا وَنزل الْقُرْآن وَجَاء رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَدخل عَلَيْهَا بِغَيْر إِذن ثمَّ ذكر قصَّة الْحجاب

وَرَوَى الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث عبد الْعَزِيز بن صُهَيْب عَن أنس وَاللَّفْظ لمُسلم قَالَ مَا أولم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى امْرَأَة من نِسَائِهِ أَكثر وَأفضل مِمَّا أولم عَلَى زَيْنَب أطْعمهُم خبْزًا وَلَحْمًا حَتَّى تركُوهُ وَفِي رِوَايَة ذبح شَاة

(120/616)

وَرَوَى الطَّبَرِيّ حَدثِني يُونُس أَنا وهب قَالَ قَالَ عبد الرَّحْمَن بن زيد بن أسلم كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قد زوج زيد بن حَارِثَة زَيْنَب بنت جحش ابْنة عمته فَخرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْمًا يُرِيدهُ وَعَلَى الْبَاب ستر من شعر فَرفعت الرِّيح السّتْر فَانْكَشَفَتْ وَهِي فِي حُجْرَتهَا حَاسِرَة فَوَقع إِعْجَابهَا فِي قلب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا وَقع ذَلِك كرهت إِلَى زيد فَأَتَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا رَسُول الله إِنِّي أُرِيد أَن أُفَارِق صَاحِبَتِي قَالَ أَرَابَك مِنْهَا شَيْء فَقَالَ لَا وَالله يَا رَسُول الله مَا رَابَنِي مِنْهَا شَيْء وَلَا إِلَّا رَأَيت إِلَّا خيرا فَقَالَ لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أمسك عَلَيْك زَوجك الْآيَة انْتَهَى

وَذكر الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره الْحَدِيث بِلَفْظ الْمُصَنّف من غير سَنَد

1023 - الْحَدِيث الثَّانِي وَالْعِشْرين

عَن عَائِشَة قَالَت لَو كتم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَيْئًا مِمَّا أُوحِي إِلَيْهِ لكتم هَذِه الْآيَة يَعْنِي قَوْله أمسك عَلَيْك زَوجك

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي الْإِيمَان من حَدِيث مَسْرُوق عَن عَائِشَة قَالَت ثَلَاث من تكلم بِوَاحِدَة مِنْهُنَّ فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة إِلَى أَن قَالَ وَلَو كَانَ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَاتما شَيْئًا مِمَّا أنزل الله عَلَيْهِ لكتم هَذِه الْآيَة وَإِذا تَقول للَّذي أنعم الله عَلَيْهِ الْآيَة مُخْتَصر

وَسَيَأْتِي فِي حم عسق وَفِي الْجمع لعبد الْحق الصَّحِيح انه عزاهُ لمُسلم فَقَط

1024 - الْحَدِيث الثَّالِث وَالْعِشْرين

(121/616)

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أَرَادَ قتل عبد الله بن أبي السَّرْح وَأَعْتَرض عُثْمَان بشَفَاعَتِهِ لَهُ قَالَ عمر لقد كَانَ عَيْنِي إِلَى عَيْنك هلا تُشِير إِلَيّ فَأَقْتُلهُ فَقَالَ (إِن الْأَنْبِيَاء لَا تُومِضُ ظَاهِرهمْ وَبَاطِنهمْ وَاحِد)

قلت رَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي كِتَابه دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب فتح مَكَّة وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط من حَدِيث الْحسن بن بشر البَجلِيّ ثَنَا الحكم بن عبد الْملك عَن قَتَادَة عَن أنس بن مَالك قَالَ أَمن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْم فتح مَكَّة إِلَّا أَرْبَعَة من النَّاس عبد الْعُزَّى بن خطل وَمقيس بن ضَبَابَة وَعبد الله بن سعد بن أبي سرح وَأم سارة فَأَما ابْن خطل فَإِنَّهُ قتل وَهُوَ مُتَعَلق بأَسْتَار الْكَعْبَة قَالَ وَنذر رجل من الْأَنْصَار أَن يقتل عبد الله بن سعد إِذا رَآهُ وَكَانَ أَخا عُثْمَان بن عَفَّان من الرضَاعَة فَأَتَى بِهِ إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليشفع لَهُ فَجعل الْأَنْصَارِيّ يتَرَدَّد وَيكرهُ أَن يقدم عَلَيْهِ فَبَايعهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ قَالَ

للْأَنْصَارِيّ (قد انْتَظَرْتُك أَن توفّي بِنَذْرِك) قَالَ يَا رَسُول الله أَفلا أَوْمَضْت إِلَيّ قَالَ إِنَّه لَيْسَ للنَّبِي أَن يُومِض مُخْتَصر

(122/616)

طَرِيق آخر رَوَى عبد الرازق فِي مُصَنفه فِي الْمَغَازِي فِي غَزْوَة الْفَتْح ثَنَا معمر عَن عُثْمَان الْجَزرِي عَن مقسم مولَى ابْن عَبَّاس قَالَ لما كَانَت الْمدَّة الَّتِي بَين رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَبَين قُرَيْش فَذكره بطُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى أَن قَالَ وَأمن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم النَّاس إِلَّا أَرْبَعَة عبد الله بن أبي سرح وَابْن خطل وَمقيس بن ضَبَابَة الْكِنَانِي وَامْرَأَة أُخْرَى قَالَ ثمَّ جَاءَهُ عُثْمَان بن عَفَّان بِابْن أبي سرح فَقَالَ بَايعه يَا رَسُول الله فَأَعْرض عَنهُ ثمَّ جَاءَهُ فَبَايعهُ فَقَالَ عليه السَّلَام (لقد أَعرَضت عَنهُ ليَقْتُلهُ بَعْضكُم) فَقَالَ رجل من الْأَنْصَار هلا أَوْمَضْت إِلَيْنَا يَا رَسُول الله

قَالَ (إِن النَّبِي لَا يُومِض) وَهُوَ مُرْسل

(123/616)

طَرِيق آخر رَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الْأَنْفَال حَدثنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتك الْآيَة قَالَ ذكر لنا رجلا كَانَ يكْتب للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَنَافَقَ وَلحق بالمشركين بِمَكَّة فَسمع ذَلِك رجل من الْأَنْصَار فَنَذر لَئِن أمكنه الله مِنْهُ لَيَقْتُلَنهُ فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْفَتْح أَمن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم النَّاس إِلَّا أَرْبَعَة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وَمقيس بن ضَبَابَة وَابْن خطل وَامْرَأَته فجَاء عُثْمَان بِابْن أبي سرح وَكَانَ أَخَاهُ من الرضَاعَة فَقَالَ يَا رَسُول الله هَذَا عبد الله قد جَاءَ تَائِبًا فَأَعْرض عَنهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا سمع بِهِ الْأَنْصَارِيّ جَاءَ مُتَقَلِّدًا سَيْفه وَجعل يطِيف بِهِ وَهُوَ ينظر إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رَجَاء أَن يومي إِلَيْهِ ثمَّ إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قدم يَده إِلَيْهِ فَبَايعهُ ثمَّ قَالَ (وَالله لقد تَلَوَّمْتك فِيهِ لتوفي بِنَذْرِك) فَقَالَ يَا نَبِي الله إِنِّي هِبتك فلولا أَوْمَضْت إِلَيّ فَقَالَ إِنَّه لَا يَنْبَغِي لنَبِيّ أَن يُومِض انْتَهَى

(124/616)

وَلَيْس فِي شَيْء مِنْهَا ذكر عمر وَلَا قَوْله ظَاهِرهمْ وَبَاطِنهمْ وَاحِدًا وَمَعْنى الْحَدِيث فِي سنَن أبي دَاوُد فِي الْجِهَاد عَن سعد بن أبي وَقاص قَالَ لما كَانَ يَوْم فتح مَكَّة أَمن رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم النَّاس إِلَّا أَرْبَعَة قَالَ (اقْتُلُوهُمْ وَإِن وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلقين بِأَسْتَار الْكَعْبَة)

عِكْرِمَة بن أبي جهل وَعبد الله بن خطل وَمقيس بن ضَبَابَة وَعبد الله بن أبي سرح فَأَما ابْن خطل فَأدْرك مُتَعَلقا بِأَسْتَار الْكَعْبَة فَقتله سعيد بن حُرَيْث إِلَى أَن قَالَ وَأما عبد الله بن أبي سرح فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْد عُثْمَان بن عَفَّان فَلَمَّا دَعَا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى الْبيعَة جَاءَ بِهِ حَتَّى أوقفهُ فَقَالَ يَا رَسُول الله بَايع عبد الله فَنظر إِلَيْهِ ثَلَاثًا كل ذَلِك يَأْبَى فَبَايعهُ بعد ثَلَاث ثمَّ أقبل عَلَى أَصْحَابه فَقَالَ (أما كَانَ فِيكُم رشيد يقوم إِلَى هَذَا حَيْث رَآنِي كففت يَدي عَن بيعَته فيقتله) قَالُوا وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُول الله مَا فِي نَفسك هلا أَوْمَأت إِلَيْنَا بِعَيْنَيْك قَالَ (لَا يَنْبَغِي لنَبِيّ أَن يكون لَهُ خَائِنَة أعين) مُخْتَصر

وَلَفظ يُومِض فِي سنَن أبي دَاوُد فِي الْجَنَائِز فِي بَاب أَيْن يقوم الإِمَام من الْمَيِّت وَلكنه فِي غير هَذِه الْقِصَّة

1025 - الْحَدِيث الرَّابِع وَالْعِشْرين

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ فِي ابْنه إِبْرَاهِيم حِين توفّي (لَو عَاشَ لَكَانَ نَبيا)

(125/616)

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي الْجَنَائِز حَدثنَا عبد القدوس بن مُحَمَّد ثَنَا دَاوُد بن شبيب ثَنَا أَبُو شيبَة إِبْرَاهِيم بن عُثْمَان نَا الحكم بن عتيبة عَن مقسم عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما مَاتَ إِبْرَاهِيم بن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى عَلَيْهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِن لَهُ مُرْضعًا فِي الْجنَّة وَلَو عَاشَ لَكَانَ صديقا نَبيا وَلَو عَاشَ لأعتقت أَخْوَاله القبط وَمَا اسْترق قبْطِي) انْتَهَى

وَأخرج البُخَارِيّ فِي الْأَدَب عَن ابْن أبي أوفي قَالَ مَاتَ إِبْرَاهِيم بن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَغِيرا وَلَو قضي أَن يكون بعد مُحَمَّد نَبِي عَاشَ ابْنه وَلَكِن لَا نَبِي بعده انْتَهَى

وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه المؤتلف والمختلف عَن الْحَارِث بن رَجَب الضَّبِّيّ عَن أبي شيبَة بِهِ

1026 - الحَدِيث الْخَامِس وَالْعشْرُونَ

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ذكر الله عَلَى فَم كل مُسلم) وَرُوِيَ (فِي قلب كل مُسلم)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ وَالدَّارَقُطْنِيّ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَالَ سَأَلَ رجل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجل منا يذبح وَيُنْسِي أَن يُسَمِّي قَالَ (اسْم الله عَلَى فَم كل مُسلم)

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بمَرْوَان بن سَالم الْغِفَارِيّ

وَكَذَلِكَ ابْن الْقطَّان فِي كِتَابه وَقَالَ إِنَّه ضَعِيف جدا

1027 - الْحَدِيث السَّادِس وَالْعشْرُونَ

(126/616)

رُوِيَ عَن أم هَانِئ بنت أبي طَالب قَالَت خطبني رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فاعتذرت إِلَيْهِ فعذرني ثمَّ أنزل الله هَذِه إِنَّا أَحللنَا لَك أَزوَاجك إِلَى قَوْله وَبَنَات عمك

وَبَنَات عَمَّاتك وَبَنَات خَالك وَبَنَات خَالَاتك اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَك فَلم أحل لَهُ لِأَنِّي لم أُهَاجِر

مَعَه كنت من الطُّلَقَاء

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ من حَدِيث السّديّ عَن أبي صَالح عَن أم هَانِئ قَالَت خطبني إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي النِّكَاح وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث السّديّ انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَعبد بن حميد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسانيدهم

وَمن طَرِيق ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ

1028 - الحَدِيث السَّابِع وَالْعشْرُونَ رُوِيَ أَن أُمَّهَات الْمُؤمِنِينَ حِين تَغَايَرْنَ وابتغين زِيَادَة النَّفَقَة وغظن

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هَجرهنَّ شهرا وَنزل التَّخْيِير فَأَشْفَقْنَ أَن يطلقن فَقُلْنَ يَا رَسُول الله افْرِضْ لنا من نَفسك وَمَالك مَا شِئْت

(127/616)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَيقرب مِنْهُ مَا رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الطَّلَاق من حَدِيث أبي الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ دخل أَبُو بكر عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَالنَّاس عَلَى الْبَاب جُلُوس لم يُؤذن لَهُم فَجَلَسَا وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَالس وَالنَّاس حوله وَهُوَ سَاكِت فَقَالَ عمر لأُكلمَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى أَدَعهُ يضْحك فَقَالَ يَا رَسُول الله لَو رَأَيْت بنت خَارِجَة وَهِي تَسْأَلنِي النَّفَقَة فَقُمْت فَوَجَأْت عُنُقهَا قَالَ فَضَحِك النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه ثمَّ قَالَ (هن حَولِي كَمَا ترَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَة) فَقَامَ أَبُو بكر إِلَى عَائِشَة يجَأ عُنُقهَا وَقَامَ عمر إِلَى حَفْصَة يجَأ عُنُقهَا كِلَاهُمَا يَقُول تَسْأَلَان النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا لَيْسَ عِنْده فَنَهَاهُمَا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقُلْنَ وَالله لَا نسْأَل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعد هَذَا الْمجْلس مَا لَيْسَ عِنْده وَأنزل الله آيَة التَّخْيِير

فَذكره

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق أَحْمد بن حَنْبَل ثَنَا عبد الْملك ابْن عبد الرَّحْمَن الذماري عَن سُفْيَان حَدثنِي سَالم الْأَفْطَس عَن مُجَاهِد قَال كَانَ للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تسع نسْوَة فخشين أَن يُطَلِّقهُنَّ فَقُلْن يَا رَسُول الله أقسم لنا من نَفسك وَمَالك مَا شِئْت فَنزلت ترجى من تشَاء الْآيَة

(128/616)

وَرَوَى ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه ثَنَا جرير عَن مَنْصُور عَن أبي رزين أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَرَادَ أَن يُفَارق نِسَاءَهُ فَقُلْن لَهُ اقْسمْ لنا من نَفسك وَمَالك مَا شِئْت وَدعنَا عَلَى حَالنَا وَسَيَأْتِي قَرِيبا بتَمَامِهِ وَهُوَ مُرْسل

1029 - الْحَدِيث الثَّامِن وَالْعِشْرين

يرْوَى أَن عَائِشَة قَالَت يَا رَسُول الله إِنِّي أرَى ربك يُسَارِع فِي هَوَاك

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي النِّكَاح من حَدِيث هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه كَانَت خَوْلَة بنت حَكِيم من اللَّاتِي وهبْنَ أَنْفسهنَّ للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَت عَائِشَة أما تَسْتَحي الْمَرْأَة أَن تهب نَفسهَا للرجل فَلَمَّا نزلت ترجى من تشَاء مِنْهُنَّ قلت يَا رَسُول الله مَا أرَى

رَبك إِلَّا يُسَارِع فِي هَوَاك انْتَهَى

وَوهم الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فَرَوَاهُ فِي تَفْسِير سُورَة الرَّمْز وَقَال صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجاهُ انْتَهَى

1030 - الْحَدِيث التَّاسِع وَالْعشْرُونَ

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَرْجَى من نِسَائِهِ خَمْسَة سَوْدَة وَجُوَيْرِية وَصفِيَّة وَمَيْمُونَة وَأم حَبِيبَة فَكَانَ يقسم لَهُنَّ مَا يَشَاء وَأَوَى أَرْبَعَة عَائِشَة وَحَفْصَة وَأم سَلمَة وَزَيْنَب وَرُوِيَ انه كَانَ يُسَوِّي مَعَ مَا أطلق لَهُ وَخير فِيهِ إِلَّا سَوْدَة فَإِنَّهَا وهبت لَيْلَتهَا لعَائِشَة وَقَالَت لَا تُطَلِّقنِي حَتَّى أحْشر فِي جملَة نِسَائِك

(129/616)

قلت الأول رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي النِّكَاح حَدثنَا جرير عَن مَنْصُور عَن أبي رزين فِي قَوْله تَعَالَى ترجى من تشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْك من تشَاء فَكَانَ مِمَّن أَوَى عَائِشَة وَأم سَلمَة وَزَيْنَب وَحَفْصَة وَكَانَ قِسْمَتهنَّ من نَفسه وَمَاله فهن سَوَاء وَكَانَ مِمَّن أَرْجَى سَوْدَة وَجُوَيْرِية وَأم حَبِيبَة وَمَيْمُونَة وَصفِيَّة فَكَانَ يقسم لَهُنَّ مَا شَاءَ وَكَانَ أَرَادَ أَن يُفَارِقهُنَّ فَقُلْنَ لَهُ اقْسمْ لنا من نَفسك مَا شِئْت وَدعنَا عَلَى حَالنَا انْتَهَى

وَرَوَاهُ عبد الرازق فِي تَفْسِيره حَدثنَا معمر عَن مَنْصُور بِهِ

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنَا ابْن حميد عَن جرير بِهِ وَهُوَ مُرْسل

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق أَحْمد بن حَنْبَل حَدثنَا عبد الْملك ابْن عبد الرَّحْمَن الذمارِي عَن سُفْيَان ثني سَالم الْأَفْطَس عَن مُجَاهِد قَالَ كَانَ المرجئات خمْسا وَمن أَوَى أَرْبعا فَذكرهنَّ وَهَذَا مُرْسل

وَأما الثَّانِي فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه فِي مُسْند سَوْدَة ثَنَا عمر بن حَفْص السدُوسِي ثَنَا أَبُو بِلَال الْأَشْعَرِيّ ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن أبي الزِّنَاد عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن عَائِشَة قَالَت مَا كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يفضل بَعْضنَا عَلَى بعض فِي الْقسم وَكَانَ كل يَوْم إِلَّا وَهُوَ يطِيف بِنَا وَيَدْنُو من كل وَاحِدَة منا من غير مَسِيس حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى الَّتِي هِيَ يَوْمهَا وَيبْت عِنْدهَا وَلَقَد قَالَت لَهُ سَوْدَة بنت زَمعَة وَقد أَرَادَ أَن يفارقها يومي مِنْك وَنَصِيبِي لعَائِشَة فَقبل ذَلِك مِنْهَا وفيهَا نزلت وَإِن امْرَأَة خَافت من بَعْلهَا نُشُوزًا أَو إِعْرَاضًا الْآيَة انْتَهَى

(130/616)

زَاد فِيهِ من طَرِيق أُخْرَى وَالله مَا بِي رَغْبَة فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنِّي أحْشر فِي جملَة نِسَائِك فَيكون لِي مَا لَهُنَّ

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ من حَدِيث أَحْمد بن عبد الْجَبَّار العطاردي ثَنَا حَفْص بن غياث عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن عُرْوَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلق سَوْدَة فَلَمَّا خرج إِلَى الصَّلَاة أَمْسَكت بِثَوْبِهِ فَقَالَت وَالله مَا لِي فِي الرِّجَال من حَاجَة وَلَكِنِّي أُرِيد أَن أحْشر فِي أَزوَاجك قَالَ فَرَاجعهَا وَجعل يَوْمهَا لعَائِشَة وَهُوَ مُرْسل

وَفِي التِّرْمِذِيّ عَن ابْن عَبَّاس أَن سَوْدَة خشيت أَن يطلقهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَت يَا رَسُول الله لَا تُطَلِّقنِي وَأَمْسِكْنِي وَاجعَل يومي لعَائِشَة فَفعل انْتَهَى وَينظر

1031 - قَوْله

وَالتسع اللَّاتِي مَاتَ عَنْهُن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَة بنت أبي بكر وَحَفْصَة بنت عمر وَأم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان وَسَوْدَة بنت زَمعَة

وَأم سَلمَة بنت أبي أُمَيَّة وَصفِيَّة بنت حيي الْخَيْبَرِية وميمونة بنت الْحَارِث الْهِلَالِيَّة وَزَيْنَب بنت جحش الأَسدِية وَجُوَيْرِية بنت الْحَارِث الْمُصْطَلِقِيَّة

قلت رَوَاهُ ابْن أبي خَيْثَمَة فِي تَارِيخه بِسَنَدِهِ إِلَى الزُّهْرِيّ قَالَ توفّي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْده تسع نسْوَة فَذَكرهنَّ سَوَاء

وَرَوَاهُ أَيْضا بِسَنَدِهِ إِلَى قَتَادَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفّي عَن تسع نسْوَة خمس من

قُرَيْش عَائِشَة وَحَفْصَة وَأم حَبِيبَة وَسَوْدَة وَأم سَلمَة وَثَلَاثَة من سَائِر الْعَرَب مَيْمُونَة وَجُوَيْرِية وَزَيْنَب وَمن بني إِسْرَائِيل صَفِيَّة انْتَهَى

(131/616)

وَحَدِيث قَتَادَة هَذَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي آخر كِتَابه دَلَائِل النُّبُوَّة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تزوج خمس عشرَة امْرَأَة وَدخل بِثَلَاثَة عشر وَتُوفِّي عَن تسع مِنْهُنَّ خمس من قُرَيْش فَذَكرهنَّ سَوَاء

وَرَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي أول فَضَائِل عَائِشَة بسَنَدِهِ إِلَى أبي عبيد الْقَاسِم ابْن سَلام قَالَ صَحَّ عندنَا وَثَبت أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تزوج ثَمَانِي عشر امْرَأَة مِنْهُنَّ وَاحِدَة من بني إِسْرَائِيل وَلم يتَزَوَّج فِي الْجَاهِلِيَّة إِلَّا خَدِيجَة ثمَّ تزوج بعْدهَا فِي الْإِسْلَام سَوْدَة بِمَكَّة ثمَّ تزوج عَائِشَة قبل الْهِجْرَة بسنتَيْن ثمَّ تزوج بِالْمَدِينَة بعد وقْعَة بدر بِأم سَلمَة ثمَّ تزوج حَفْصَة بنت عمر سنة ثِنْتَيْن فَهَؤُلَاءِ الْخَمْسَة من قُرَيْش ثمَّ تزوج سنة ثَلَاث زَيْنَب بنت جحش ثمَّ تزوج جوَيْرِية سنة خمس ثمَّ تزوج أم حَبِيبَة سنة سِتّ ثمَّ تزوج صَفِيَّة سنة سبع ثمَّ تزوج مَيْمُونَة ثمَّ تزوج فَاطِمَة بنت شُرَيْح ثمَّ تزوج زَيْنَب بنت خُزَيْمَة ثمَّ تزوج هِنْد بنت يزِيد ثمَّ تزوج أَسمَاء بنت النُّعْمَان ثمَّ تزوج فَتِيلَة بنت قيس أُخْت الْأَشْعر ثمَّ تزوج أَسمَاء

بنت شيبَة السلمِيَّة انْتَهَى

وَأسْندَ إِلَى معمر بن الْمثنى قَالَ أول من مَاتَ من أَزوَاج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم زَيْنَب وَآخر من مَاتَ مِنْهُنَّ أم سَلمَة

انْتَهَى

(132/616)

وَقَالَ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات قَالَ مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ قبض رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن تسع لَا اخْتِلَاف فِيهنَّ وَهن عَائِشَة إِلَى آخرهنَّ سَوَاء قَالَ الْوَاقِدِيّ وَالْمجْمَع عَلَيْهِ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تزوج أَربع عشرَة امْرَأَة الَّاتِي سميتهن وَأَسْمَاء بنت النُّعْمَان الْجَوْنِية الَّتِي استعاذت مِنْهُ وَفَاطِمَة بنت الضَّحَّاك الْكلابِيَّة وَخَدِيجَة بنت خويلد وَزَيْنَب بنت خُزَيْمَة وَرَيْحَانَة بنت زيد النَّضْرِية وَمَاتَتْ عِنْده خَدِيجَة بنت خويلد وَزَيْنَب وَرَيْحَانَة انْتَهَى

1032 - الْحَدِيث الثَّلَاثُونَ

رُوِيَ أَن عُيَيْنَة بن حصن دخل عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعِنْده عَائِشَة من غير اسْتِئْذَان فَقَالَ علية السَّلَام (يَا عُيَيْنَة وَأَيْنَ الاسْتِئْذَان) قَالَ يَا رَسُول الله مَا اسْتَأْذَنت عَلَى

رجل قطّ مِمَّن مَضَى مُنْذ أُدْرِكْت ثمَّ قَالَ من هَذِه الْجُمْلَة إِلَى جَنْبك فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام هَذِه (عَائِشَة أم الْمُؤمِنِينَ) قَالَ عُيَيْنَة أَفلا أنزل لَك عَن أحسن الْخلق فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (إِن الله قد حرم ذَلِك) فَلَمَّا خرج قَالَت عَائِشَة من هَذَا يَا رَسُول الله قَالَ (أَحمَق مُطَاع وَإِنَّهُ عَلَى مَا تَرين سيد قومه)

قلت رُوِيَ من حَدِيث عَائِشَة وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث جرير ابْن عبد الله البَجلِيّ

أما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي سننه فِي أول النِّكَاح من حَدِيث إِسْحَاق بن عبد الله بن أبي فَرْوَة عَن زيد بن اسْلَمْ عَن

(133/616)

عَطاء بن يسَار عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ كَانَ الْبَدَل فِي الْجَاهِلِيَّة أَن يَقُول الرجل للرجل تنزل لي عَن امْرَأَتك وَأنزل عَن امْرَأَتي وَأَزِيدك قَالَ فَانْزِل الله وَلَا أَن تبدل بهن من أَزوَاج وَلَو أعْجبك حسنهنَّ قَالَ فَدخل عُيَيْنَة بن حصن الْفَزارِيّ عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعِنْده عَائِشَة بِغَيْر إِذن فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام يَا عُيَيْنَة وَأَيْنَ الاسْتِئْذَان قَالَ يَا رَسُول الله مَا اسْتَأْذَنت عَلَى رجل من مُضر مُنْذ أُدْرِكْت ثمَّ قَالَ من هَذِه الْحُمَيْرَاء الَّتِي هِيَ جَنْبك يَا رَسُول الله

قَالَ (هَذِه عَائِشَة أم الْمُؤمِنِينَ) فَقَالَ عُيَيْنَة يَا رَسُول الله أَفلا أنزل لَك عَن أحسن الْخلق قَالَ (يَا عُيَيْنَة إِن الله حرم ذَلِك) قَالَ فَلَمَّا خرج قَالَت عَائِشَة يَا رَسُول الله من هَذَا قَالَ (هَذَا أَحمَق مُطَاع وَإِنَّهُ عَلَى مَا ترين لسَيّد قومه) انْتَهَى قَالَ الْبَزَّار لَا نَحْفَظهُ عَن أبي هُرَيْرَة إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد وَإِسْحَاق لين الحَدِيث فَكَتَبْنَاهُ وَبينا علته انْتَهَى

(134/616)

وَأما حَدِيث جرير فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه بنَقص يسير فَقَالَ ثَنَا عَلّي ابْن سعيد الرَّازِيّ ثَنَا يَحْيَى بن مُطِيع هُوَ الشَّيْبَانِيّ ثَنَا يَحْيَى بن عبد الْملك ابْن أبي غنية عَن إِسْمَاعِيل بن أبي خَالِد عَن قيس بن أبي حَازِم عَن جرير بن عبد الله البَجلِيّ قَالَ دخل عُيَيْنَة بن حصن عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعِنْده عَائِشَة بغَيْر إِذن فَقَالَ من هَذِه الْجَالِسَة إِلَى جَانِبك قَالَ (هَذِه عَائِشَة) قَالَ أَفلا أنزل لَك عَن خير مِنْهَا يَعْنِي امْرَأَته فَقَالَ لَهُ لَا ثمَّ قَالَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اخْرُج فَاسْتَأْذن) قَالَ إِنَّهَا يَمِين عَلّي أَلا أَسْتَأْذن عَلَى مُضَرِي فَقَالَت عَائِشَة من هَذَا قَالَ (هَذَا أَحمَق مُتبع) انْتَهَى

وَأما حَدِيث عَائِشَة فَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة عُيَيْنَة بن حصن أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر هُوَ الْوَاقِدِيّ ثَنَا مُوسَى بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن الْحَارِث التَّمِيمِي عَن أَبِيه

عَن أبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن عَن عَائِشَة قَالَت دخل عُيَيْنَة ابْن حصن عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ من هَذِه الْحُمَيْرَاء إِلَى آخِره

1033 - الحَدِيث الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها قَالَت مَا مَاتَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى أحل لَهُ النِّسَاء يَعْنِي نسخ قَوْله تَعَالَى لَا يحل لَك النِّسَاء من بعد

(135/616)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَالنَّسَائِيّ فِي النِّكَاح من حَدِيث سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن عَمْرو عَن عَطاء قَالَ قَالَت عَائِشَة مَا مَاتَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى أحل لَهُ النِّسَاء انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح انْتَهَى

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي النِّكَاح وَأحمد وَأَبو يعلي الْموصِلِي وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسانيدهم

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ وَعبد الرازق وَابْن مرْدَوَيْه والطبري فِي التَّفْسِير أخبرنَا ابْن جريج عَن عَطاء عَن عبيد بن عُمَيْر عَن عَائِشَة قَالَت مَا مَاتَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى أحل لَهُ من النِّسَاء مَا شَاءَ انْتَهَى وَمن طَرِيق عبد الرازق رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن وَالْأَرْبَعِينَ من الْقسم الْخَامِس وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي تَفْسِير سُورَة الرَّمْز وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده أَيْضا حَدثنَا عَمْرو بن عَلّي ثَنَا أَبُو عَاصِم عَن ابْن جريج عَن عَطاء عَن عَائِشَة فَذكره

وَقد رُوِيَ نَحْو هَذَا من حَدِيث أم سَلمَة رَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره ثَنَا أَبُو زرعه ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن عبد الْملك بن شيبَة ثني عمر بن أبي بكر حَدثنِي الْمُغيرَة بن عبد الرَّحْمَن الْحزَامِي عَن أبي النَّضر مولَى عمر بن عبد الله عَن عبد الله بن وهب بن زَمعَة عَن أم سَلمَة قَالَت لم يمت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أحل لَهُ أَن يتَزَوَّج من النِّسَاء مَا شَاءَ إِلَّا ذَات محرم انْتَهَى

(136/616)

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر هُوَ الْوَاقِدِيّ حَدثنِي يَزْدَان بن أبي النَّضر عَن أَبِيه عَن عبد الله بن وهب بن زَمعَة عَن أم سَلمَة فَذكره

وَرَوَاهُ أَيْضا أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر ثَنَا ابْن أبي سُبْرَة وَسَعِيد بن مُحَمَّد عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد

عَن أَبِيه عَن عَائِشَة وَابْن عَبَّاس مثله انْتَهَى

1034 - الْحَدِيث الثَّالِث وَالثَّلَاثُونَ

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أولم عَلَى زَيْنَب بِتَمْر وَسَوِيق وشَاة وَأمر أَن يدعوا بِالنَّاسِ فترادفوا أَفْوَاجًا يَأْكُل كل فَوْج ثمَّ يخرج وَيدخل فَوْج إِلَى أَن قَالَ وَالله يَا رَسُول الله دَعَوْت حَتَّى مَا أجد أحدا أَدْعُوهُ فَقَالَ (ارْفَعُوا طَعَامكُمْ) وتفرق النَّاس وَبَقِي ثَلَاثَة نفر يتحدثون فَأَطَالُوا فَقَامَ عَلَيْهِ السَّلَام لينْطَلِقُوا فَذهب إِلَى حجرَة عَائِشَة فَقَالَ (السَّلَام عَلَيْكُم أهل الْبَيْت) قَالُوا وَعَلَيْك السَّلَام يَا رَسُول الله كَيفَ وجدت أهلك وَطَاف بالحجرات وَسلم عَلَيْهِنَّ وَدَعَوْنَ لَهُ وَرجع فَإِذا الثَّلَاث جُلُوس يتحدثون فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَام شَدِيد الْحيَاء فَتَوَلَّى فَلَمَّا رَأَوْهُ مُتَوَلِّيًا خَرجُوا فَرجع وَنَزلت آيَة الْحجاب

(137/616)

قلت رَوَى الْبُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي النِّكَاح من حَدِيث أنس قَالَ بنَا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِزَيْنَب بنة جحش بِخبْز وَلحم فَأَرْسلت عَلَى طَعَام دَاعيا فَيَجِيء قوم فَيَأْكُلُونَ وَيخرجُونَ حَتَّى مَا أجد أحد أَدْعُو فَقلت يَا نَبِي الله مَا أجد أحد أَدعهُ قَالَ (ارْفَعُوا طَعَامكُمْ) وَبَقِي ثَلَاثَة رَهْط يتحدثون فِي الْبَيْت فَخرج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

فَانْطَلق إِلَى حجرَة عَائِشَة فَقَالَ (السَّلَام عَلَيْكُم أهل الْبَيْت وَرَحْمَة الله) فَقَالَت وَعَلَيْك السَّلَام وَرَحْمَة الله كَيفَ وجدت أهلك بَارك الله

لَك فَيُقْرِي حجر نسَائِهِ كُلهنّ يَقُول لَهُنّ كَمَا قَالَ لعَائِشَة وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَت عَائِشَة ثمّ رَجَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَإِذا ثَلَاثَة رَهْط فِي الْبَيْت يتحدثون وَكَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَدِيد الْحيَاء فَخرج مُنْطَلقًا نَحْو حجرَة عَائِشَة فَمَا أَدْرِي أَخْبرته أَو أخبر أَنه الْقَوْم خَرجُوا حَتَّى إِذا وضع رجله فِي أُسْكُفَّة الْبَاب دَاخِلَة وَأُخْرَى خَارِجَة أَرْخَى السّتْر بيني وَبَينه وأنزلت آيَة الْحجاب انْتَهَى

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ أَيْضا فِي آخر الْأَطْعِمَة عَن الزُّهْرِيّ عَن أنس فَذكره بِتَغَيُّر يسير

1035 - قَوْله

عَن عَائِشَة أَنَّهَا قَالَت حَسبك فِي الثُّقَلَاء أَن الله لم يَحْتَمِلهُمْ فَقَالَ فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشرُوا

(138/616)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ ثَنَا أَبُو الْقَاسِم الْحسن بن مُحَمَّد بن حبيب ثَنَا أَبُو مُوسَى عمرَان بن مُوسَى ثَنَا أَبُو عوَانَة يَعْقُوب بن إِسْحَاق ثَنَا أَبُو عَمْرو عُثْمَان بن خرذاد الْأَنْطَاكِي أَنا عمر بن مَرْزُوق ثَنَا جوَيْرِية بن أَسمَاء قَالَ قرئ بَين يَدي إِسْمَاعِيل بن حَكِيم هَذِه الْآيَة فَقَالَ هَذَا أدب

أدب الله بِهِ الثُّقَلَاء وَسمعت الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن يَقُول سَمِعت مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد يَقُول سَمِعت الْغلابِي يَقُول سَمِعت عَائِشَة تَقول إِلَى آخِره

1036 - الْحَدِيث الرَّابِع وَالثَّلَاثُونَ

فِي سَبَب آيَة الْحجاب قَالَ الْمنصف رَحِمَهُ اللَّهُ رُوِيَ أَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه كَانَ يحب ضرب الْحجاب عَلَيْهِنَّ محبَّة شَدِيدَة وَكَانَ يذكره كثيرا وَيَوَد أَن ينزل فِيهِ وَكَانَ يَقُول لَو أطَاع فيكُن مَا رَأَتْكُنَّ عين وَقَالَ يَا رَسُول الله يدْخل عَلَيْك الْبَار والفاجر فَلَو أمرت أُمَّهَات الْمُؤمنِينَ بالحجاب فَنزلت

قَالَ وَرُوِيَ أَنه مر عَلَيْهِنَّ وَهن مَعَ النّسَاء فِي الْمَسْجد فَقَالَ لَهُنَّ احْتَجبْنَ فَإِن لكن عَلَى النّسَاء فضلا كَمَا أَن لزوجكن عَلَى الرِّجَال فضلا فَقَالَت زَيْنَب يَا ابْن الْخطاب إِنَّك لتَغَار علينا وَالْوَحي ينزل فِي بُيُوتنَا فَلم يَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرا فَنزلت

وَرُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يطعم وَمَعَهُ بعض أَصْحَابه فأصابت يَد وَاحِد مِنْهُم يَد عَائِشَة فكره النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذَلِك فَنزلت

قلت رَوَى النَّسَائِيّ من حَدِيث أنس عَن عمر بن الْخطاب قَالَ قلت يَا رَسُول الله يدْخل عَلَيْك الْبَار والفاجر فَلَو حجبت أُمَّهَات الْمُؤمنِينَ فَأنْزل الله آيَة الْحجاب انْتَهَى

(139/616)

وَعَزاهُ الواحدي للْبُخَارِيّ فِي تَفْسِيره وَينظر

وَرَوَى النَّسَائِيّ أَيْضا وَابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن مسعر عَن مُوسَى بن أبي كثير عَن مُجَاهِد عَن عَائِشَة قَالَت كنت آكل مَعَ النَّبِي حَيْسًا فِي قَعْب فَمر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه فَدَعَاهُ فَأكل فأصابت أُصْبُعه أُصْبُعِي فَقَالَ حس أَوَاه لَو كنت أطَاع فيكُن مَا رَأَتْكُنَّ عين فَنزل الْحجاب انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الصَّغِير

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْفَضَائِل ثَنَا مُحَمَّد بن بشر ثَنَا مسعر عَن مُوسَى بن أبي كثير عَن مُجَاهِد فَذكره مُرْسلا وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ مُرْسلا

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول لَهُ

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله هَذَا حَدِيث يرويهِ مسعر وَاخْتلف عَنهُ فَرَوَاهُ ابْن عُيَيْنَة عَنهُ عَن مُوسَى بن أبي كثير عَن مُجَاهِد عَن عَائِشَة وَغَيره يرويهِ عَن مسعر عَن مُوسَى عَن مُجَاهِد مُرْسلا وَالصَّوَاب الْمُرْسل انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا عَمْرو بن عَلّي ثَنَا أَبُو دَاوُد ثَنَا المَسْعُودِيّ ثَنَا أَبُو نهشل عَن أبي وَائِل عَن ابْن مَسْعُود قَالَ أَمر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه نسَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحجاب فَقَالَت زَيْنَب يَا بن الْخطاب إِنَّك لَتَغَار علينا وَالْوَحي ينزل فِي بُيُوتنَا فَأَنْزل الله

تَعَالَى (وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعا فَسْأَلُوهُنَّ من وَرَاء حجاب) الْآيَة

حَدثنِي أَحْمد بن مُحَمَّد الطوسي ثَنَا عبد الصَّمد بن عبد الْوَارِث ثَنَا همام ثَنَا عَطاء بن السَّائِب عَن أبي وَائِل بِهِ

(140/616)

وَرَوَى الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث أبي أُسَامَة عَن مُجَاهِد عَن الشّعبيّ قَالَ مر عمر عَلَى نسَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهن مَعَ نسَاء فِي الْمَسْجد فَقَالَ لَهُنَّ احْتَجبْنَ فَإِن لَكِن عَلَى النّسَاء فضلا كَمَا أَن لزوجكن عَلَى الرِّجَال فضلا فَلم يَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرا حَتَّى أمروا بالحجاب انْتَهَى

1037 - قَوْله

وَذكر أَن بَعضهم قَالَ أننهى أَن نُكَلِّم بَنَات عمنَا إِلَّا من وَرَاء حجاب لَئِن مَاتَ مُحَمَّد لأَتزَوَّجَن فُلَانَة فَأَعْلم الله أَن ذَلِك محرم

قلت قَالَ الطِّيبِيّ ذكر الْبَغَوِيّ أَن هَذَا الْقَائِل هُوَ طَلْحَة بن عبيد الله وَفِي رِوَايَة بدل فُلَانَة عَائِشَة انْتَهَى

وَرَوَى عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه أخبرنَا معمر عَن قَتَادَة أَن رجلا قَالَ لَو قد مَاتَ مُحَمَّد

لأَتزَوَّجَن عَائِشَة فَأَنْزل الله (وَمَا كَانَ لكم أَن تُؤْذُوا رَسُول الله وَلَا أَن تنْكِحُوا أَزوَاجه من بعده) الْآيَة

وَرَوَى ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره ثَنَا عَلّي بن الْحُسَيْن ثَنَا مُحَمَّد بن أبي حَمَّاد ثَنَا مهْرَان عَن سُفْيَان عَن دَاوُد بن أبي هِنْد عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى (وَمَا لكم أَن تُؤْذُوا رَسُول الله) الْآيَة قَالَ نزلت فِي رجل هم أَن يتَزَوَّج بِبَعْض نسَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعده قَالَ رجل لِسُفْيَان أَهِي عَائِشَة قَالَ هَكَذَا ذكرُوا

ثمَّ أسْند إِلَى السّديّ أَن الَّذِي عزم عَلَى ذَلِك طَلْحَة بن عبيد الله حَتَّى نزل تَحْرِيم ذَلِك انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن مُحَمَّد بن حميد ثَنَا مهْرَان بِهِ سندا ومتنا لم يذكر قَول السّديّ

(141/616)

وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر هُوَ الْوَاقِدِيّ ثني عبد الله بن جَعْفَر عَن ابْن أبي عون عَن أبي بكر بن مُحَمَّد بن عمر بن حزم فِي قَوْله تَعَالَى (مَا كَانَ لكم أَن تُؤْذُوا رَسُول الله) الْآيَة قَالَ نزلت فِي طَلْحَة بن عبيد الله لِأَنَّهُ قَالَ إِذا توفّي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوجت عَائِشَة انْتَهَى

1038 - الْحَدِيث الْخَامِس وَالثَّلَاثُونَ

فِي حَدِيث (من ذكرت عِنْده فَلم يصل عَلَّي فَأَبْعَده الله)

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث جَابر بن سَمُرَة وَمن حَدِيث مَالك بن الْحُوَيْرِث

فَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول من حَدِيث حَفْص بن غياث عَن مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صعد الْمِنْبَر فَقَالَ (آمين آمين آمين) قلت

يَا رَسُول الله إِنَّك صعدت الْمِنْبَر قلت (آمين آمين آمين) قَالَ (إِن جِبْرِيل أَتَانِي فَقَالَ من أدْرك شهر رَمَضَان وَلم يغفر لَهُ فَدخل النَّار فَأَبْعَده الله قل آمين فَقلت آمين وَمن أدْرك أَبَوَيْهِ أَحدهمَا فَلم يَبرهُمَا فَمَاتَ فَدخل النَّار فَأَبْعَده الله قل آمين فَقلت آمين وَمن ذكرت عِنْده وفلم يصل عَلَيْك فَمَاتَ فَدخل النَّار فَأَبْعَده الله قل آمين فَقلت آمين) انْتَهَى

وَحَدِيث جَابر بن سَمُرَة رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه ثَنَا عَبْدَان بن أَحْمد ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل ثَنَا إِسْمَاعِيل بن أبان ثَنَا قيس بن الرّبيع عَن سماك عَن جَابر بن سَمُرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صعد الْمِنْبَر فَذكره سَوَاء

وَحَدِيث مَالك بن الْحُوَيْرِث رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ أَيْضا من حَدِيث عمرَان بن أبان الوَاسِطِيّ ثَنَا مَالك بن الْحسن بن مَالك بن الْحُوَيْرِث عَن أَبِيه عَن جده مَالك ابْن الْحُوَيْرِث أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رقى عتبَة الْمِنْبَر فَقَالَ (آمين) ثَلَاث مَرَّات فَسئل عَن ذَلِك فَقَالَ إِلَى آخِره وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْعشْرين من الْقسم الثَّالِث لَكِن لم يقل فِيهِ فَدخل النَّار وَقد رَوَاهُ جمَاعَة من الصَّحَابَة وَلَيْسَ فِيهِ يدْخل النَّار

رَوَاهُ ابْن عَبَّاس وَجَابِر بن عبد الله وعمار بن يَاسر وبُرَيْدَة وَعبد الله ابْن الْحَارِث بن جُزْء الزبيدِيّ

فَحَدِيث ابْن عَبَّاس رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه عَن يزِيد بن أبي زِيَاد عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ بَيْنَمَا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى الْمِنْبَر إِذْ قَالَ (آمين) ثَلَاث مَرَّات فَسئل عَن ذَلِك فَقَالَ (أَتَانِي جِبْرِيل فَقَالَ من ذكرت عِنْده فَلم يصل فَأَبْعَده الله قل آمين فَقلت آمين قَالَ وَمن أدْرك وَالِديهِ أَو أَحدهمَا عَلَيْك فَمَاتَ فَلم يغْفر لَهُ فَأَبْعَده الله قل آمين فَقلت آمين وَمن أدْرك رَمَضَان فَلم يغْفر لَهُ فَأَبْعَده الله قل آمين فَقلت آمين) انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث إِسْحَاق بن عبد الله بن كيسَان عَن أَبِيه عبد الله ابْن كيسَان عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس فَذكره

وَحَدِيث جَابر بن عبد الله رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الثَّالِث وَالْعِشْرين أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا أَبُو بكر مُحَمَّد بن جَعْفَر الْقَارِئ ببَغْدَاد ثَنَا عبد الله بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم الدَّوْرَقِي ثَنَا مُوسَى بن إِسْمَاعِيل التَّبُوذَكِي ثَنَا أَبُو يَحْيَى صَاحب الطَّعَام واسْمه مُحَمَّد بن عِيسَى الْعَبْدي عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن جَابر فَذكره نَحوه

وَحَدِيث عمار بن يَاسر رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده ثَنَا أَحْمد بن الْمِقْدَام ثَنَا سَلمَة بن عبيد الله الرهاوي ثَنَا عُثْمَان بن أبي عُبَيْدَة عَن مُحَمَّد بن عمار بن يَاسر قَالَ صعد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَر فَذكره

وَحَدِيث بُرَيْدَة رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا جرير عَن عَطاء ابْن السَّائِب عَن أَصْحَابه عَن بُرَيْدَة قَالَ قَامَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَر فَذكره نَحوه

وَحَدِيث الزبيدِيّ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي مُعْجَمه من طَرِيق ابْن لَهِيعَة عَن عبد الله ابْن يزِيد الْحَضْرَمِيّ عَن مُسلم بن يزِيد الصَّدَفِي عَن عبد الله بن الْحَارِث بن جُزْء الزبيدِيّ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صعد الْمِنْبَر فَذكره

وَهَذِه الْأَحَادِيث كلهَا كَمَا نرَاهَا مُتَطَابِقَة أَن هَذَا الْحَدِيث من كَلَام جِبْرِيل يُخَاطب بِهِ النَّبِي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلَيْسَ من كَلَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَالْمُصَنّف أوردهُ من كَلَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأعْلم ذَلِك

1039 - الْحَدِيث السَّادِس وَالثَّلَاثُونَ

(144/616)

رُوِيَ أَنه قيل يَا رَسُول الله أَرَأَيْت قَوْله الله تَعَالَى إِن الله مَلَائِكَته يصلونَ عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (هَذَا من الْعلم الْمكنون وَلَوْلَا أَنكُمْ سَأَلْتُمُونِي عَلَيْهِ مَا أَخْبَرتكُم بِهِ إِن الله وكل

بِي ملكَيْنِ فَلَا أذكر عِنْد عبد مُسلم فَيصَلي عَلَّي إِلَّا قَالَ ذَانك الْملكَانِ غفر الله لَك وَقَالَ الله وَمَلَائِكَته جَوَابا لِذَيْنِك الْملكَيْنِ آمين وَلَا أذكر عِنْد عبد مُسلم فَلَا يُصَلِّي عَلَّي إِلَّا قَالَ ذَانك الْملكَيْنِ لَا غفر الله لَك وَقَالَ الله وَمَلَائِكَته جَوَابا لِذَيْنِك الْملكَيْنِ آمين)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث يزِيد بن هَارُون أَنا شَيبَان عَن الحكم بن عبد الله بن خطَّاف عَن أم أنيس بنت الْحسن بن عَلّي بن أبي طَالب عَن أَبِيهَا الْحسن قَالَ قَالُوا يَا رَسُول الله أَرَأَيْت إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَابْن مرْدَوَيْه

1040 - قَوْله

وَالِاحْتِيَاط أَن يُصَلِّي عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كلما ذكر لما ورد من الْأَخْبَار

قلت فِيهِ أَحَادِيث رَوَى مُسلم فِي صَحِيحه من حَدِيث الْعَلَاء بن عبد الرَّحْمَن عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من صَلَّى عَلَّي وَاحِدَة صَلَّى الله عَلَيْهِ عشرا)

حَدِيث آخر رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الدَّعْوَات عَن عمَارَة بن غزِيَّة عَن عبد الله ابْن عَلّي بن حُسَيْن بن عَلّي بن أبي طَالب عَن أَبيه عَن حُسَيْن بن عَلّي بن أبي طَالب عَن عَلّي بن أبي طَالب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْبَخِيل الَّذِي من ذكرت عِنْده فَلم يُصَلِّي عَلَّي) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب انْتَهَى

(145/616)

حَدِيث آخر رَوَاهُ رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي عمل الْيَوْم وَاللَّيْلَة بالسند والمتن الْمَذْكُورين عَن حُسَيْن بن عَلّي عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَيْس فِيهِ عَلّي بن أبي طَالب

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الدُّعَاء وَصَحِيحه

حَدِيث آخر رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك أَيْضا من طَرِيق ابْن وهب عَن عَمْرو عَن عمَارَة بن غزيَّة عَن عبد الله بن عَلّي بن الْحُسَيْن أَنه سمع أَبَا هُرَيْرَة يَقُول قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الْبَخِيل من ذكرت عِنْده وَلم يصل عَلّي) انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

حَدِيث آخر رَوَى النَّسَائِيّ أَيْضا من حَدِيث الْمُغيرَة بن مُسلم الْخُرَاسَانِي عَن أبي إِسْحَاق الْهَمدَانِي عَن أنس بن مَالك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من ذكرت عِنْده فَليصل عَلّي فَمن صَلَّى عَلّي مرّة صَلَّى الله عَلَيْهِ عشرا) انْتَهَى وَسَنَده جيد

حَدِيث آخر رَوَى التِّرْمِذِيّ من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن إِسْحَاق عَن سعيد الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (رغم أنف رجل ذكرت عِنْده فَلم يُصَلِّي عَلّي) وَقَالَ حَدِيث حسن غَرِيب انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَرَوَاهُ الْحَاكِم وَسكت عَنهُ وَلم يُصَحِّحهُ

(146/616)

حَدِيث آخر رَوَى التِّرْمِذِيّ أَيْضا فِي الصَّلَاة من حَدِيث مُوسَى بن يَعْقُوب الزمعِي ثَنَا عبد الله بن كيسَان أَن عبد الله بن شَدَّاد أخبرهُ عَن عبد الله بن مَسْعُود أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أولَى النَّاس بِي يَوْم الْقِيَامَة أَكْثَرهم عَلّي صَلَاة) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن غَرِيب انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول فَقَالَ فِيهِ عَن عبد الله بن شَدَّاد بن الْهَاد عَن أَبِيه عَن ابْن مَسْعُود

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَهَذَا غير قَادِح فَإِنَّهُ رَوَى عَن أَبِيه وَعَن ابْن مَسْعُود فَلَعَلَّهُ سَمعه مِنْهُمَا

وَلَكِن أعله ابْن الْقطَّان فِي كِتَابه بعَبْد الله بن كيسَان وَقَالَ إِنَّه لَا يعرف حَاله وَلَا نَعْرِف رَوَى عَنهُ إِلَّا مُوسَى بن يَعْقُوب هَذَا انْتَهَى

قلت رَوَى عَنهُ أَيْضا ابْنه إِسْحَاق بن عبد الله بن كيسَان وَهُوَ عِنْد الطَّبَرَانِيّ كَمَا تقدم قَرِيبا فِي الْحَدِيث الْخَامِس وَالثَّلَاثِينَ

حَدِيث آخر رَوَى ابْن ماجة من حَدِيث جبارَة بن الْمُغلس ثَنَا حَمَّاد بن زيد عَن عَمْرو بن دِينَار عَن جَابر بن زيد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من نسي الصَّلَاة عَلّي خطئ طَرِيق الْجنَّة) انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث فطر بن خَلِيفَة عَن أبي جَعْفَر مُحَمَّد ابْن عَلّي بن حُسَيْن عَن جده حُسَيْن بن عَلّي مَرْفُوعا من ذكرت عِنْده فَخَطِئَ الصَّلَاة عَلّي خطئ طَرِيق الْجنَّة انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْمعرفَة فِي الضَّحَايَا من حَدِيث عمر بن حَفْص بن غياث ثَنَا أبي عَن مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا بِلَفْظ ابْن ماجة سَوَاء

حَدِيث آخر رَوَاهُ ابْن ماجة فِي الصَّلَاة من حَدِيث عَاصِم بن عبيد الله الْعَدوي عَن عبد الله بن عَامر بن ربيعَة عَن أَبِيه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من صَلَّى عَلَّي صلت عَلَيْهِ الْمَلَائِكَة مَا صَلَّى عَلَّي فَلْيقل عبد من ذَلِك أَو ليكْثر انْتَهَى

وَعَاصِم هَذَا وَإِن تكلم فِيهِ فقد رَوَى التِّرْمِذِيّ فِي الْجَنَائِز من حَدِيث عَاصِم بن عبيد الله هَذَا عَن الْقَاسِم عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قبل عُثْمَان بن مَظْعُون وَهُوَ ميت وَقَالَ فِيهِ حَدِيث حسن صَحِيح مَعَ أَنه قد رُوِيَ من غير طَرِيق عَاصِم فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْكَبِير من طَرِيق عبد الرازق عَن عبد الله ابْن عمر عَن عبد الرَّحْمَن بن الْقَاسِم عَن عبد الله بن عَامر بن ربيعَة عَن أَبِيه فَذكره إِلَّا أَنه قَالَ عوض (صلت عَلَيْهِ الْمَلَائِكَة) (صَلَّى الله عَلَيْهِ)

وَرَوَاهُ فِي مُعْجَمه الْوسط من حَدِيث عِيسَى بن يُونُس عَن شُعْبَة عَن يعلي بن عَطاء عَن عبد الله بن عَامر بن ربيعَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذكره وَقَالَ لم يرو هَذَا الحَدِيث

عَن شُعْبَة عَن يعلي بن عَطاء إِلَّا عِيسَى بن يُونُس انْتَهَى

قلت عِيسَى بن يُونُس أخرج لَهُ الشَّيْخَانِ وَكَذَلِكَ شُعْبَة وَيعْلي بن عَطاء أخرج لَهُ مُسلم

(148/616)

حَدِيث آخر رَوَى ابْن خُزَيْمَة فِي صَحِيحه حَدثنَا زِيَاد بن يَحْيَى ثَنَا معمر ابْن مُحَمَّد بن عبيد الله بن عَلّي بن أبي رَافع عَن أَبِيه عَن أبي رَافع قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِذا طَنَّتْ أذن أحدكُم فَلْيذكرْنِي وَليصل عَلّي وَليقل ذكر الله من ذَكرنِي بِخَير) انْتَهَى

فِيهِ عدم الِاكْتِفَاء بالذكر حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ

حَدِيث آخر رَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس عشر من حَدِيث سعد بن إِسْحَاق بن كَعْب بن عجْرَة عَن أَبِيه كَعْب ابْن عجْرَة قَالَ ارْتَقَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَر فَقَالَ أول دَرَجَة (آمين) ثمَّ ارْتَقَى دَرَجَة ثَانِيَة فَقَالَ (آمين) ثمَّ ارْتَقَى دَرَجَة ثَالِثَة فَقَالَ (آمين) ثمَّ نزل فَقيل لَهُ فَقَالَ (إِن جبْرِيل عرض لِي فَقَالَ بعد من أدْرك رَمَضَان فَلم يغْفر لَهُ فَقلت آمين فَلَمَّا رقيت الثَّانِيَة قَالَ بعد من إِذا ذكرت عِنْده وَلم يصل عَلَيْك فَقلت آمين فَلَمَّا رقيت الثَّالِثَة قَالَ بعد من أدْرك أَبَوَاهُ الْكبر أَو أَحدهمَا عِنْده

فَلم يدْخل يدْخلَاهُ الْجنَّة فَقلت آمين انْتَهَى

وَأَبُو يعلي والْحَارث بن أبي أُسَامَة

حَدِيث آخر رَوَى إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا النَّضر بن شُمَيْل من حَمَّاد بن سَلمَة أَنا معبد وهلال الْعَنزي الْعَبْدي أَنا فلَان فِي مَسْجِد دمشق عَن عَوْف بن مَالك عَن أبي ذَر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن أضل النَّاس من ذكرت عِنْده فَلم يصل عَلَّي) مُخْتَصرا

(149/616)

حَدِيث آخر رَوَى الْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب حَدثنَا عبد الرَّحْمَن ابْن شيبَة أَخْبرنِي عبد الله بن نَافِع الصَّائِغ عَن عِصَام بن زيد عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن جَابر بن عبد الله أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رقى الْمِنْبَر . . . بِنَحْوِ حَدِيث كَعْب ابْن عجْرَة إِلَّا انه قَالَ عوض بعد شقي

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط ثَنَا عَلّي بن سعيد الرَّازِيّ ثَنَا الْعَبَّاس ابْن إِسْمَاعِيل الطَّيَالِسِيّ ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن مُغْرِي ثَنَا الْفضل بن مُبشر عَن جَابر نَحوه

حَدِيث آخر رَوَى التِّرْمِذِيّ فِي الصَّلَاة أخبرنَا أَبُو دَاوُد سُلَيْمَان بن سلم الْبَلْخِي أَنا النَّضر بن

شَمل عَن أبي قُرَّة الْأَسْلَمِيّ عَن سعيد بن الْمسيب عَن عمر بن الْخطاب قَالَ إِن الدُّعَاء مَوْقُوف بَين السَّمَاء وَالْأَرْض لَا يصعد مِنْهُ شَيْء حَتَّى يصلى عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى وَسكت عَنهُ

وَرَوَى نَحوه مَرْفُوعا الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان عَن عبد الْكَرِيم الْجَزرِي عَن أبي إِسْحَاق عَن الْحَارِث عَن عَلّي قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الدُّعَاء مَحْجُوب عَن الله حَتَّى يصلى عَلَى النَّبِي مُحَمَّد وَعَلَى آل مُحَمَّد) انْتَهَى

(150/616)

حَدِيث آخر رَوَى الْعقيلِيّ فِي ضعفَاهُ من حَدِيث مُحَمَّد بن مَرْوَان عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من صَلَّى عَلّي عِنْد قَبْرِي سمعته وَمن صَلَّى عَلّي نَائِيا أبلغته) وَضعف مُحَمَّد بن مَرْوَان عَن جمَاعَة وَقَالَ لَيْسَ لَهُ أصل وَلَا هُوَ مَحْفُوظ وَقَالَ ابْن دحْيَة فِي الْعلم الْمَشْهُور هَذَا حَدِيث مَوْضُوع تقرب بِهِ مُحَمَّد بن مَرْوَان السّديّ وَكَانَ كذابا

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب حَيَاة الْأَنْبِيَاء فِي قُبُورهم وَهُوَ جُزْء حَدِيثي ثمَّ قَالَ وَمُحَمّد بن مَرْوَان فِيهِ نظر وَلَكِن يؤكده مَا أخبرنَا بِهِ الْحسن بن بَشرَان أَنا حَمْزَة بن مُحَمَّد بن الْعَبَّاس ثَنَا

أَبو أَحْمد الزبيرِي وإِسْرَائِيل قَالَا أَنا ابْن أبي نجيح عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَال لَيْس أَحد من أمة مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُصَلِّي علية صَلَاة إِلَّا وَهِي تبلغه يَقُول لَهُ الْملك فلَان يُصَلِّي عَلَيْك انْتَهَى كَلَامه

حَدِيث آخر رَوَى الْأَمَام أَبو بكر بن أبي عَاصِم فِي كتاب الصَّلَاة عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ جُزْء حَدِيثي من طَرِيق ابْن لَهِيعَة عَن عبد الله بن يزِيد الْحَضْرَمِيّ عَن مسلمة بن يزِيد الصَّدَفِي عَن عبد الله بن الْحَارث بن جُزْء الزبيدِيّ قَال

صعد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْمًا الْمِنْبَر فَقَال (أَتَانِي جِبْرِيل فَقَال من ذكرت عِنْده فَلم يصل عَلَيْك فَأَبْعَده الله ثمَّ أبعده الله فَقلت آمين) انْتَهَى

1041 - الْحَدِيث السَّابِع وَالثَّلَاثُونَ

قَال النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اللَّهُمَّ صل عَلَى آل أبي أَوْفَى)

(151/616)

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا التِّرْمِذِيّ كلهم فِي الزَّكَاة من حَدِيث عَمْرو بن مرّة عَن عبد الله بن أبي أَوْفَى قَال كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا أَتَاهُ قوم بصدقَاتِهِمْ قَال (اللَّهُمَّ صل عَلَيْهِم) فَأَتَاهُ أَبو أَوْفَى بِصَدَقَتِهِ فَقَال (اللَّهُمَّ صل عَلَى آل أبي أَوْفَى) انْتَهَى

وَتقدم فِي بَرَاءَة

1042 - الحَدِيث الثَّامِن وَالثَّلَاثُونَ

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من كَانَ يُؤمن بِاللَّه وَالْيَوْم الآخر فَلَا يَقفن مَوَاقِف التهم)

قلت غَرِيب

وَتقدم فِي سُورَة يُوسُف

1043 - الحَدِيث التَّاسِع وَالثَّلَاثُونَ

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِيمَا حَكَى عَن ربه قَالَ (يَشْتِمنِي ابْن آدم وَلم يَنْبغ لَهُ أَن يَشْتِمنِي آذَانِي وَلم يَنْبغ لَهُ أَن يُؤْذِينِي فَأَما شَتمه إِيَّاي فَقَوله إِنِّي اتَّخذت ولدا وَأما أَذَاهُ فَقَوله إِن الله لَا يُعِيدنِي بعد أَن بَدَأَنِي)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي بَدْء الْخلق من حَدِيث أبي الزِّنَاد عَن الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ كَذَبَنِي ابْن آدم وَلم يكن لَهُ أَن يكذبني وَشَتَمَنِي ابْن آدم وَلم يكن لَهُ أَن يَشْتِمنِي أما تَكْذِيبه إِيَّاي فَقَوله لَا أُعِيدهُ كَمَا بَدأته وَلَيْسَ آخر الْخلق بِأَعَز من أَوله وَأما شَتمه إِيَّاي فَقَوله اتخذ الله ولدا وَأَنا الله أحد صَمد لم أَلد وَلم أولد وَلم يكن لي كفوا أحد) انْتَهَى

وَرَوَاهُ فِي تَفْسِير أول سُورَة الْبَقَرَة من حَدِيث نَافِع بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا نَحوه

وَفِي شرح السّنة لِلْبَغوِيّ رَوَاهُ الْبُخَارِيّ من طَرِيق عبد الرَّزَّاق عَن همام ابْن مُنَبّه عَن أبي هُرَيْرَة انْتَهَى

وَهُوَ من مُفْرَدَات الْبُخَارِيّ وَلَيْس فِيهِ وَآذَانِي

1044 - الْحَدِيث الْأَرْبَعُونَ

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْأَحْزَاب وَعلمهَا أَهله وَمَا ملكت يَمِينه أعطي الْأمان من عَذَاب الْقَبْر)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 93. 137 ﴾

(153/616)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الأحزاب

قوله تعالى : (اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ) ، الآية/ 4 :

أبان اللّه تعالى أنها لا تصير أمه بمجرد قوله ، وألزمه تحريما غايته الكفارة .

قوله تعالى : (وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ) ، الآية/ 4 .

قيل : نزلت في زيد بن حارثة ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد تبناه ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، وهذا يدل على نسخ السنة بالقرآن ، لأن الحكم الأول ثابت بغير القرآن ونسخه بالقرآن .

قوله تعالى : (ذِلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ) ، الآية/ 4 .

يعني أنه لا حكم له ، وإنما هو قول لا معنى له ولا حقيقة .

وقوله تعالى : (ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ) ، الآية/ 5 .

فيه إباحة اطلاق الأخوة ، وحظر اطلاق اسم الأبوة من غير جهة النسب .

قوله تعالى : (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ) ، الآية/ 5 :

قال قتادة : معناه أنك لو دعيت رجلا لغير أبيه ، وأنت ترى أنه أبوه ، ليس عليك بأس .

وسمع عمر رجلا يقول :

اللهم اغفر لي خطاياي ، فقال استغفر اللّه في العمد ، فأما في الخطأ فقد تجوز عنك .

وكان يقول : ما أخاف عليكم الخطأ ، وإنما أخاف عليكم العمد .

قوله تعالى : (النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) ، الآية/ 6 .

معناه ما قاله عليه الصلاة والسلام : «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، وأيما رجل مات وترك دينا فإلي ، وإن ترك مالا فهو لورثته» .

وقيل في معنى : (النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ) ، أنه أحق أن يختار ما دعاه النبي عليه الصلاة والسلام إليه من غيره ، وما تدعوه أنفسهم «1» إليه ، وهو أحق بأن يحكم على الإنسان في نفسه ، لوجوب طاعته المقرونة بطاعة اللّه عز وجل .

وقوله تعالى : (وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ) ، الآية/ 5 :

يحتمل أن يكون بمعنى الإجلال والتعظيم ، والثاني : في تحريمه نكاحهن .

وليس لأنهن كالأمهات في القضايا كلها ، ولا يجعلن أخوات للنساء ، ولا إرث لهن منا ولا محرمية .

وقوله تعالى : (إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً) ، الآية/ 6 .

(1) كذا بالأصل ، والأولى نفسه .

أنزلت في جواز وصية المسلم لليهودي والنصراني .

وعن الحسن قال : أن تصلوا أرحامكم .

قوله تعالى : (لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ، الآية/ 21 .

يحتج به بعض الناس في وجوب التأسي بأفعال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

قوله تعالى : (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها) ، الآية/ 28 .

ظاهر الآية التخيير بين الدنيا والآخرة واللّه ورسوله ، وليس فيه ذكر الطلاق .

وقد قال قوم : إنه كناية عن التخيير للطلاق على شرائطه ، ولذلك قالت عائشة لما سئلت عن الرجل يخير امرأته قالت : خيرنا رسول اللّه وكان طلاقا .

وفي بعض الأخبار : ما خيرناه فلم يعد طلاقا .

ولم يثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلا التخيير المأمور به ، وقد قال صلّى اللّه عليه وسلّم لعائشة رضي اللّه عنها : أنا ذاكر لك أمرا فلا عليك أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ، فقالت : إني أريد اللّه ورسوله والدار الآخرة .

ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار في اختيار الدنيا على الآخرة ، فثبت أن الاستئمار إنما وقع في الفرقة وفي النكاح .

واعلم أن اختيارهن للدنيا وزينتها وإرادتهن الطلاق ، لا يجوز أن يكون صريحا في الطلاق ، ولا كناية ، وإنما ذلك إرادة المفارقة ، فكان القياس أن الزوج يطلقها إن شاء ، غير أن الطلاق لا بد أن يكون مستحقا واجبا ،

(156/616)

إذ لو لم يكن مستحقا واجبا ما كان للتخير معنى ، فإذا تبين أن ذلك طريق خلاصهن ، فوجوب الفراق لا محالة يقتضي بتخييره ، فإن النكاح صار مستحق الرفع وهذا بين « 1 » .

قوله تعالى : (يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) ، الآية/ 30 .

فيه وجهان ، أحدهما : أن تضعيف عذابهن لتضاعف نعم اللّه تعالى عليهن ، ولذلك قال : (وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) ، الآية/ 34 .

وهذا لا نقطع به ، فإن مصاحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ، يجوز أن تكون سببا في تخفيف العقوبة عنهن والتجاوز عن سيئاتهن ، فالحق هو الوجه الثاني ، وهو عظم الضرر في جرأتهن بإيذاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة

في إيذاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ) «2» .

قوله تعالى : (فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ) ، الآية/ 32 .

يريد تليينا للقول يطمع أهل الريب .

وفيه دليل على أن الأحسن بالمرأة أن لا ترفع صوتها بحيث يسمعها الرجال .

وقوله تعالى : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) ، الآية/ 33 .

---

(1) انظر محاسن التأويل .

(2) سورة الأحزاب آية 57 .

قيل لسودة بن زمعة : لم لا تخرجين كما تخرج أخواتك ؟ فقالت :

واللّه لقد حججت واعتمرت ، ثم أمرني اللّه تعالى أن أقر في بيتي ، فو اللّه ما أخرج من بيتي ، فما خرجت حتى أخرجوا جنازتها .

قوله تعالى : (وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى) ، الآية/ 33 .

أي المشي على تكسر وتغنج وإظهار المحاسن للرجال .

قوله تعالى : (وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) ، الآية/ 36 .

وذلك يدل على أن أوامر اللّه تعالى ورسوله على الوجوب .

وقال اللّه تعالى بعد ذلك : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) ، وذلك يؤكد ما تقدم .

قوله تعالى : (فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ) ، الآية/ 37 .

دلت الآية على أحكام عدة منها :

الإبانة عن علة الحكم في إباحة ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام ، وأن ذلك قد اقتضى إباحته للمؤمنين ، فدل ذلك على إثبات القياس في الأحكام ، واعتبار المعاني في إيجابها .

والثاني : أن النبوة من جهة النبي عليه الصلاة والسلام لا تمنع جواز النكاح .

والثالث : أن الأمة مساوية للنبي عليه الصلاة والسلام في الحكم ، إلا ما خصه اللّه تعالى ، أخبر أنه أجاز ذلك للنبي ليكون المؤمنون مساوين له فيه :

قوله تعالى : (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ، الآية/ 42 :

يعني صلاة الصبح والعصر .

وقوله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ) ، الآية/ 49 :

يدل على أن لا طلاق قبل النكاح ، فإنه رتب عليه بكلمة ثم .

وقوله تعالى : (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) ، الآية/ 50 .

فيه دليل على إباحة الأزواج لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مطلقا ، وتخصيص رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بلا مهر أو بلفظ الهبة ، إلا أن التعري عن المهر أظهر من لفظ الهبة ، لأنه فسوق على قوله : (آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) ، وذلك المهر ، ثم قال : (اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ) .

وقوله تعالى : (تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ) ، الآية/ 51 .

قال أبو رزين : في هذه الآية المرجئات : ميمونة ، وصفية وسودة ، وجويرية ، وأم حبيبة .

وكانت عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب سواء في القسم .

وكان صلّى اللّه عليه وسلّم يسوي بينهن .

وقد قيل : ما أرجأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم واحدة منهن ، ولكن وهب نسوة منهن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حصصهن ، فظاهر الآية يقتضي تخيير النبي عليه الصلاة

والسلام في إرجاء من شاء منهن وإيواء من شاء منهن ، وليس يمتنع أن يختار إيواء الجميع إلا سودة ، فإنها رضيت بأن تجعل يومها لعائشة .

(159/616)

وقوله تعالى : (وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ) ، الآية/ 51 .

يعني إيواء من أرجأ منهن .

وفيه دليل على أن القسم لم يكن واجبا على النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنه كان مخيرا في القسم لمن شاء منهن وترك من شاء .

قوله تعالى : (لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ) ، الآية/ 52 .

قال مجاهد ، من بعد ما سمى له من مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة .

وقال ناس : له أن يشتري اليهودية والنصرانية ، فهو معنى قوله (إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ) .

ولا شك أن ظاهر الآية يقتضي تحريم سائر النساء على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، سوى من كن عنده حتى حل له النساء ، وهذا يوجب نسخ الآية ، وليس في القرآن ما يوجب نسخها فهي منسوخة بالسنة . .

ويحتج به على جواز نسخ القرآن بالسنة .

قوله تعالى : (لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ) ، الآية/ 53 :

كان ذلك بعد نزول الحجاب ، ودل عليه قوله تعالى : (وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ) .

قوله تعالى : (لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ) ، الآية/ 55 :

فيه بيان زوال حكم الحجاب في حق ذوي الأرحام ، وعنى بما ملكت أيمانهن الإماء .

(160/616)

قوله تعالى : (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) ، الآية/ 59 :

الجلباب : الرداء ، فأمرهن بتغطية وجوههن ورؤوسهن ، ولم يوجب على الإماء ذلك .

وقوله تعالى : (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) ، الآية/ 60 . فيه دليل على تحريم الإيذاء بالإرجاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 350.343﴾

(161/616)

وقال السايس :

من سورة الأحزاب

قال اللّه تعالى : ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (5)

المراد بالقلب هنا : المضغة الصنوبرية في داخل التجويف الصدري ، والجعل الخلق ، وإذا كان الرجل لم يخلق له قلبان – والرجل أكمل النوع الإنساني حياة – فأولى ألا يكون للأنثى قلبان ، وأما الصبيان فمآلهم أن يكونوا رجالا ، فالمعنى حينئذ :

ما خلق اللّه لأحد من الناس قلبين في جوفه ، وكانت العرب تزعم أنّ كلّ لبيب أريب له قلبان ، واشتهر أبو معمر الفهري بين أهل مكة بذي القلبين لقوة حفظه .

تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ نزل القرآن الكريم والعرب يعقلون من هذا التركيب (ظاهر من زوجته) أنه قال لها : «أنت عليّ كظهر أمّي» فهو نظير (لبّى) إذا قال : (لبيك) و(أفف) إذا قال : (أف) و(سبّح) إذا قال : (سبحان اللّه) و(كبّر) إذا قال : (اللّه أكبر) . فجاء الشرع فألحق

بهذه الصيغة – «أنت عليّ كظهر أمّي» – في الحكم كلّ ما يدلّ على تشبيه الرجل زوجته أو جزءا منها بأنثى محرّمة عليه على التأبيد .

وقد كان الظهار في الجاهلية طلاقا لا حلّ بعده برجعة ولا بعقد ، لأنهم كانوا يجرون أحكام الأمومة على المظاهر منها ، فأبطل اللّه هذه العادة ، وجعل للظّهار أحكاما سوف يأتي بيانها في تفسير سورة المجادلة إن شاء اللّه .

أَدْعِياءَكُمْ الأدعياء جمع دعي ، وهو الذي يدعى ابنا وليس بابن ، وقد كان التبني عادة فاشية في الجاهلية وصدر الإسلام ، يتبنّى الرجل ولد غيره ، فتجري عليه أحكام البنوّة كلّها . وقد تبنّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم زيد بن حارثة ، وتبنّى حذيفة سالما مولاه ، وتبنّى الخطاب – أبو عمر رضي اللّه عنه – عامر بن أبي ربيعة . وكثير من العرب تبنى ولد غيره ، فجاء القرآن الكريم بإبطال هذا العمل وإلغائه .

بيّنت الآية أنّ هذه الأمور الثلاثة باطلة لا حقيقة لها ، فكون الرجل له قلبان أمر لا حقيقة له في الواقع . وجعل المظاهر منها أمّا أو كالأم في الحرمة المؤبّدة من

مخترعات أهل الجاهلية ، التي لم يستندوا فيها إلى مستند شرعي . وجعل المتبنى ابنا في جميع الأحكام مما لا حقيقة له في شرع ظاهر .

ولما كان أظهر هذه الأمور في البعد عن الحقيقة كون الرجل له قلبان قدّم اللّه جل شأنه قوله : ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وضربه مثلا للظهار والتبني ، أي كما لا يكون لرجل قلبان لا تكون المظاهر منها أما ولا المتبنّى ابنا .

وقوله عزّ وجلّ : ذِلِكُمْ قَوْلُكُمْ الإشارة فيه إلى ما يفهم من الجمل الثلاث من كون الرجل له قلبان ، وكون المظاهر منها أما والدعيّ ابنا . وزيادة قوله تعالى :

بِأَفْواهِكُمْ للتنبيه على أنه قول صادر من الأفواه فقط ، من غير أن يكون له مصداق أو حقيقة في الواقع ونفس الأمر ، فلا يستتبع أحكاما كما يزعمون .

وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ أي فدعوا قولكم ، وخذوا بقوله عزّ وجلّ .

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ

أخرج الشيخان والترمذي والنسائي « 1 » وغيرهم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أنّ زيد بن حارثة مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ إلخ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل»

. وكان من أمره ما

رواه ابن مردويه عن ابن عباس «2»

أنّه كان في أخواله بني معن من بني ثعل من طيء ، فأصيب في نهب من طيء ، فقدم به سوق عكاظ .

وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوّق بها ، فأوصته عمته خديجة أن يبتاع لها غلاما ظريفا عربيا إن قدر عليه ، فلما قدم وجد زيدا يباع فيها ، فأعجبه ظرفه ، فابتاعه ، فقدم به عليها ، وقال لها : إني قد ابتعت لك غلاما ظريفا عربيا ، فإن أعجبك فخذيه ، وإلا فدعيه ، فإنه قد أعجبني ، فلما رأته خديجة أعجبها ، فأخذته .

فتزوجها الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وهو عندها ، فأعجب النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ظرفه ، فاستوهبه منها ، فقالت : أهبه لك ، فإن أردت عتقه فالولاء لي ، فأبى عليها الصلاة والسلام ، فوهبته له إن شاء أعتق ، وإن شاء أمسك .

قال : فشب عند النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم إنّه خرج في إبل لأبي طالب بأرض الشام ، فمرّ بأرض قومه ، فعرفه عمه ، فقام إليه فقال : من أنت يا غلام ؟ قال : غلام من أهل مكة .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (4/ 884) ، 44 - كتاب فضائل الصحابة ، 10 - باب فضائل زيد حديث رقم (62/ 2425) ، والبخاري في الصحيح (6/ 6) ، 65 - كتاب التفسير ، 2 - باب ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ حديث رقم (4782) ، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 330) ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الأحزاب حديث رقم

(3209) .

(2) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (5/ 181 - 182) .

(163/616)

قال : من أنفسهم ؟ قال : لا . قال : فحرّ أنت أم مملوك ؟ قال : بل مملوك .

قال : لمن ؟

قال : لمحمد بن عبد المطلب . فقال له : أعرابي أنت أم أعجمي ؟ قال : عربي .

قال : ممن أهلك ؟ .

قال : من كلب . قال : من أي كلب ؟ قال : من بني عبدون . قال : ويحك ابن من أنت ؟

قال : ابن حارثة بن شراحيل . قال : وأين أصبت ؟ قال : في أخوالي . قال :

ومن أخوالك ؟ قال : طيء . قال : ما اسم أمك ؟ قال : سعدى . فالتزمه وقال : ابن

حارثة ! ودعا أباه قال : يا حارثة هذا ابنك ، فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه ، كيف

صنع مولاك إليك ؟ قال : يؤثرني على أهله وولده ، ورزقت منه حبّا فلا أصنع إلّا ما شئت

، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة ، فلقوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ،

فقال له حارثة : يا محمد أنتم أهل حرم اللّه وجيرانه وعند بيته ، تفكّون العاني ، وتطعمون

الأسير ، ابني عبدك ، فامنن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ، فإنّك ابن سيد قومه ، وإنا سندفع إليك في الفداء ما أحببت .

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «أعطيكم خيرا من ذلك ؟» قالوا : وما هو ؟ قال : «أخيره ، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن اختارني فكفوا عنه» .

فقالوا : جزاك اللّه خيرا فقد أحسنت .

فدعاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : «يا زيد أتعرف هؤلاء» ؟ قال : نعم . هذا أبي وعمي وأخي .

فقال عليه الصلاة والسلام : «فهم من قد عرفتهم ، فإن اخترتهم فاذهب معهم ، وإن اخترتني فأنا من تعلم» .

فقال زيد : ما أنا بمختار عليك أحدا أبدا ، أنت معي بمكان الوالد والعم .

قال أبوه وعمه : أيا زيد أتختار العبودية ؟ قال : ما أنا بمفارق هذا الرجل .

فلما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حرصه عليه قال : «اشهدوا أنّه حر ، وأنّه ابني يرثني وأرثه» .

فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامة زيد عليه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلم يزل في الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ فدعي زيد بن حارثة .

هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ أي دعاؤهم لآبائهم ، ونسبتهم إليهم بالغ في العدل والصدق ، وزائد فيه

في حكم اللّه تعالى وقضائه . فأفعل التفضيل ليس على بابه ، بل قصد به الزيادة مطلقا ، ويجوز أن يكون على بابه ، جاريا على سبيل التهكم بهم .

فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ أي فهم إخوانكم في الدين ومَوالِيكُمْ

(164/616)

أي وهم مواليكم في الدين أيضا ، فليقل أحدكم : يا أخي أو يا مولاي ، يقصد بذلك الأخوة والولاية في الدين .

وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ظاهر السياق أن المراد نفي الجناح عنهم فيما أخطؤوا به من التبني ، وإثبات الجناح عليهم فيما تعمدت قلوبهم من التبني أيضا .

والقائلون بهذا الظاهر مختلفون في المراد بالخطأ ما هو ؟

فأخرج ابن جرير «1» وغيره عن مجاهد أنّ المراد بالخطأ الذي رفع عنهم فيه الإثم هو تسميتهم الأدعياء أبناء قبل ورود النهي . وأنّ العمد الذي ثبت فيه الإثم عليهم هو ما كان من ذلك بعد النهي ، فالخطأ هنا معناه الجهل بالحكم .

وأخرج ابن جرير «2» وغيره عن قتادة أنه قال في الآية : لو دعوت رجلا لغير أبيه وأنت

ترى أنه أبوه ، لم يكن عليك بأس ، ولكن ما تعمّدت وقصدت دعاءه لغير أبيه .

أي فعليك فيه الإثم ، فعلى رأي مقاتل يكون المراد بالخطأ مقابل العمد . وكلا الأمرين بعد ورود النهي .

وأجاز بعض المفسرين أن يراد العموم في فِيما أَخْطَأْتُمْ وفي ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ويكون معنى قوله تعالى : وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ إلخ نفي الجناح عنهم في الخطأ كله دون العمد ، فيتناول ذلك لعمومه خطأ التبني وعمده . والكلام حينئذ وارد في العفو عن الخطأ ، كما في قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ اللّه وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه ابن ماجه «3» من حديث ابن عباس .

وكما في

حديث عائشة رضي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إني لست أخاف عليكم الخطأ ، ولكن أخاف عليكم العمد» أخرجه ابن مردويه «4» .

وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً فيغفر لمن تعمّد قلبه الإثم إذا تاب رَحِيماً من رحمته أنّه رفع الإثم عن المخطئ ، ولم يؤاخذه على خطئه .

وظاهر الآية يدلّ على أنه يحرم على الإنسان أن يتعمّد دعوة الولد لغير أبيه ، وذلك محمول على ما إذا كانت الدعوة على الوجه الذي كان في الجاهلية . وأمّا إذا لم تكن كذلك ، كما يقول الكبير للصغير على سبيل التحنن والشفقة : يا بني . وكثيرا ما يقع ذلك ، فالظاهر

عدم الحرمة .

---

(1) و(2) في تفسيره جامع البيان ، المشهور بتفسير الطبري (21/ 76) .

(3) رواه ابن ماجه في السنن (1/ 659) ، 10 - كتاب الطلاق ، 16 - باب طلاق المكره حديث رقم (2045) . [. . . . .]

(4) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي (5/ 182) .

(165/616)

ولكن أفتى بعض العلماء بكراهته سدا لباب التشبه بالكفار . ولا فرق في ذلك بين كون المدعو ذكرا أو كونه أنثى . وإن لم يعلم علم اليقين وقوع التبني للإناث في الجاهلية .

ومثل دعاء الولد لغير أبيه انتساب الشخص إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه ، وعدّ ذلك كثير من العلماء في الكبائر . وهو محمول أيضا على ما إذا كان الانتساب على الوجه الذي كان في الجاهلية ، فقد كان الرجل منهم ينتسب إلى غير أبيه وعشيرته ، وقد ورد في هذا الادعاء الوعيد الشديد .

أخرج الشيخان وأبو داود «1» عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنّه غير أبيه فالجنة عليه حرام» .

وأخرج الشيخان «2» أيضا : «من ادعى إلى غير أبيه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل اللّه منه صرفا ولا عدلا» .

وأخرجا «3» أيضا : «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلم إلا كفر» .

وأخرج الطبراني في «الصغير» عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «كفر من تبرّأ من نسب وإن دقّ ، أو ادعى نسبا لا يعرف» «4» .

قال العلماء في معنى «كفر» هنا أنّه إن كان يعتقد إباحة ذلك فقد كفر وخرج عن الإسلام .

وإن لم يعتقد إباحته ففي معنى كفره وجهان :

أحدهما : أنه أشبه فعله فعل الكفار أهل الجاهلية .

والثاني : أنّه كافر نعمة اللّه والإسلام عليه .

وكذلك قوله في الحديث الآخر «فليس منا» أي إن اعتقد جوازه خرج عن الإسلام ، وإن لم يعتقد جوازه فالمعنى : أنّه لم يتخلّق بأخلاقنا .

وليس الاستلحاق الذي أباحه الإسلام من التبني المنهي عنه في شيء ، فإن من شرط الحل في الاستلحاق الشرعي أن يعلم المستلحق - بكسر الحاء - أن المستلحق - بفتحها - ابنه ، أو يظن ذلك ظنا قويا ، وحينئذ شرع له الإسلام استلحاقه ، وأحلّه له ، وأثبت نسبه منه بشروط مبيّنة في كتب الفروع .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 80) ، 1 - كتاب الإيمان حديث رقم (114/ 63)

، والبخاري في الصحيح (8/ 15) ، 85 - كتاب الفرائض ، 29 - باب من ادعى حديث رقم (6766) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1147) ، 20 - كتاب العتق ، 4 - تحريم تولي العتيق حديث رقم (1370) (بلفظ مختلف) ، والبخاري في الصحيح (2/ 269) ، 29 - كتاب فضائل المدينة ، 1 - باب حرم المدينة حديث رقم (1870) .

(3) رواه مسلم في الصحيح (1/ 80) ، 1 - كتاب الإيمان ، 27 - باب حديث رقم (62/113) ، والبخاري في الصحيح (8/ 15) ، 8 - كتاب الفرائض ، 21 - باب من ادعى حديث رقم (6768) .

(4) رواه ابن ماجه في السنن (2/ 916) ، 3 - كتاب الفرائض ، 13 - باب من أنكر ولده ، حديث رقم (2744) .

(166/616)

أما التبنّي المنهي عنه ، فهو دعوى الولد مع القطع بأنّه ليس ابنه ، وأين هذا من ذاك ؟ وظاهر الآية أيضا أنّه يباح أن يقال في دعاء من لم يعرف أبوه : يا أخي ، أو يا مولاي ، إذا قصد الأخوة في الدين ، والولاية فيه ، لكنّ بعض العلماء خصّ ذلك بما إذا لم يكن المدعو

فاسقا ، وكان دعاؤه بيا أخي أو يا مولاي تعظيما له ، فإنه يكون حراما ، لأننا نهينا عن تعظيم الفاسق ، فمثل هذا يدعى باسمه ، أو بيا عبد اللّه ، أو يا هذا . مثلا .

قال اللّه تعالى : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (6) لعلّك ترى زيدا قد تصيبه وحشة من أنّه صار لا يدعى بعد الآن زيد بن محمد ، خصوصا بعد أن كان من أمر أبيه وعمه في النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، لأنّه قد يرى في تخلّي النبي عن أبوته حطّا من قدره بين الناس ، وقد كان هو يعتز بهذه الدعوة ، لأنها تكسبه جاها عريضا ينفعه في الدنيا والآخرة ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية تسلية لزيد ، ولبيان أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إن تخلى عن أبوة زيد فإلى الولاية العامة ، والرأفة الشاملة التي تعم المسلمين جميعا لا تفريق بين ابن الصلب وغيره ، فهو يرعاهم حق الرعاية ، ويهديهم طريقا إن اتبعوه لن يضلوا بعده أبدا . وما كانت أبوته لزيد أو لأحد غيره بزائدة في ذلك شيئا ، ولن ينقص زيد بتخلّي النبي عن أبوته شيئا فالرسول أولى وأحق بكل المؤمنين من أنفسهم ، فهو الآمر الناهي بما يحقّق للناس سعادتهم في الدنيا والآخرة ، والحفيظ على مصالحهم ، لا يضيّع شيئا ، وقد تأمر النفس بالسوء ؟ أما الرسول فهو الذي يوحى إليه ، لا ينطق عن هوى ، ولا يهدي إلا إلى الخير .

ولم يذكر في الآية ما تكون فيه الأولوية ، بل أطلقت إطلاقا ليفيد ذلك أولويته في جميع الأمور ،

ثم إنّه ما دام أولى من النفس ، فهو ولى من جميع الناس بطريق الأولى .

وقد روى البخاري «1» وغيره عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فأيّما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتني ، فأنا مولاه»

. وقوله تعالى : وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ أي منزلات منزلة الأمهات في تحريم نكاحهن ،

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (3/ 116) ، 43 - كتاب الاستقراض ، 11 - باب الصلاة على من ترك دينا حديث رقم (2399) .

واستحقاق تعظيمهن ، وأما في غير ذلك ، فهنّ أجنبيات ، فلا يقال لبناتهم أخوات المؤمنين ، ولا يحرمن على المؤمنين .

ومن أجل هذا قالت السيدة عائشة لمن قالت لها يا أمه : أنا أمّ رجالكم لا أم نسائكم .

ثم الظاهر ، أنّ المراد من أزواجه كل من وقع عليها اسم الزوج ، سواء من طلّقها ومن لم يطلقها ، فيثبت الحكم للجميع ، فلا يحل نكاح أحد منهنّ حتى المطلقة ، وقيل لا يثبت هذا

الحكم لمن فارقها عليه الصلاة والسلام في الحياة ، كالمستعيذة «1» ، وصحح إمام الحرمين وغيره قصر التحريم على المدخول بها فقط .

وقد روي أن الأشعث بن قيس نكح المستعيذة في زمن عمر رضي اللّه عنه فهم برجمه فأخبره أنها لم تكن مدخولا بها فكف عنه . وفي رواية أنّه همّ برجمها ، فقالت : ولم هذا ؟ وما ضرب عليّ حجاب ، ولا سميت للمسلمين أمّا ، فكفّ عنها .

وأما التي اختارت الدنيا منهنّ حين نزلت آية التخيير الآتية فقد ذكر بعض العلماء أنّ الخلاف الذي سمعت يجري فيها كذلك .

واختار الرازي والغزالي القطع بالحل .

وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ الظاهر أنّ المراد بأولي الأرحام ذوو القرابات مطلقا ، سواء كانوا أصحاب فروض أم عصبات أم ذوي أرحام . فالمراد من الآية الكريمة أنّ أصحاب القرابة أيّا كان نوعها أولى من غيرهم بمنافع بعض ، أو بميراث بعض ، على ما سيأتي من القول فيه .

وقوله : فِي كِتابِ اللَّهِ المراد منه ما كتبه في اللوح المحفوظ ، أو ما أنزله في القرآن من آية المواريث وغيرها ، كآية الأنفال ، أو المراد بكتاب اللّه ما كتبه وفرضه وقدّره ، سواء أكان ذلك الفرض في القرآن أو في غيره .

قوله : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ يحتمل أن يكون راجعا إلى أولي الأرحام والمعنى :

وأولوا الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض في النفع أو في الميراث ، وقد قال بجواز هذا صاحب «الكشاف» «2» . ويحتمل أن يكون قوله : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ متعلقا بأولي ، والمعنى : وأولو الأرحام بعضهم أولى من المؤمنين والمهاجرين بنفع بعض ، أو بميراث بعض ، ويكون هذا إبطالا لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والنصرة ، على نحو ما جاء في آخر سورة الأنفال من

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (6/ 200) ، 68 - كتاب الطلاق ، 3 - باب من طلّق حديث رقم (5255) .

(2) انظر الكشاف للإمام الزمخشري (3/ 524) .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ (73) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا

وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75) [الأنفال : 72 – 75] .

فأنت ترى أنّه كان هناك توارث بالهجرة والنصرة ، ثم نسخ ، وتأكّد النسخ بقوله عليه الصلاة والسلام : «لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية» «1»

وظاهر أنّ النفي لا يراد منه نفي حقيقة الهجرة ، وترك بلد إلى آخر ، فذلك موجود بعد الفتح ، ويوجد كل يوم ، بل المراد نفي الأحكام التي كانت تترتب على الهجرة كالتوارث بها ، وحينئذ يكون معنى قوله تعالى : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ أنّ التوارث الذي كان سبب الهجرة قد بطل ، وصار التوارث بالرحم .

إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً يحتمل أن يكون الاستثناء هنا متصلا ، ويحتمل أن يكون منقطعا .

فعلى الأول : يكون استثناء من أعم الأحوال التي تقدر الأولوية فيها كالنفع ، فإنّه يتنوع إلى ميراث وصدقة وهدية ووصية ، وغير ذلك ، ويكون المعنى : أن أولي الأرحام أولى بجميع وجوه النفع من غيرهم من المؤمنين والمهاجرين ، إلّا أن يكون لكم في هؤلاء ولي تريدون أن توصوا إليه ، وتسدوا إليه معروفا ، فذلك جائز ، ويكون هو أولى بذلك المعروف من ذوي

الأرحام ، فإنّ الوصية لا تجوز لهم إلا برضاء الورثة .

وعلى الثاني : وهو أن الاستثناء منقطع فتجعل ما فيه الأولوية هو الميراث فقط ، وهو المستثنى منه ، ويكون فعل المعروف وهو المستثنى الوصية .

ولا شك أنّهما جنسان ، وتخصيص ما فيه الأولوية بالميراث مفهوم من الكلام ، إذ المسلمون جميعا بعضهم أولى ببعض في التناصر والتواصل والتراحم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

وقد يكون بعض وجوه النفع الأجانب فيها أولى من ذي الرحم ، فإنّ الصدقات يأخذها الفقراء وإن كانوا أجانب ، ويحرم منها الأغنياء وإن كانوا أقارب .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1488) ، 33 - كتاب الإمارة ، 20 - باب المبايعة حديث رقم (86/ 1864) .

(169/616)

والشيء الوحيد الذي يكون فيه ذو الرحم أولى من غيره هو الميراث ، ويكون المعنى على هذا كأنه قيل : لا تورثوا غير ذي رحم ، لكن أن تسدوا إلى أوليائكم المؤمنين والمهاجرين معروفا ، فذلك جائز : بل هم أحق بالوصية من ذوي الأرحام .

وترى أنّا قد فسرنا الأولياء في قوله تعالى : إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً بالأولياء من المؤمنين والمهاجرين ، وذلك جريا على ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أن الآية في ترك التوارث بالهجرة والمؤاخاة ، ويكون هذا تمشيا مع ما أسلفناه من أنّ (من) في قوله : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ داخلة في المفضل عليه .

وروي عن بعضهم أن الآية نزلت في جواز وصية المسلم لليهودي والنصراني ، ويكون معنى الآية أولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى بميراث بعض ، إلا إذا كان لكم أولياء من غيرهم ، فيجوز أن توصوا إليهم ، وهذا الوجه مروي عن محمد بن الحنفية وغيره .

كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً كان هذا الحكم الذي دلت عليه الآيتان مثبتا بالأسطار في القرآن ، أو حقا مثبتا عند اللّه لا يمحى .

ترى مما تقدم أنّا قد فسرنا (أولي الأرحام) بذوي القرابة مطلقا ، أيا كان نوعهم ، وقد نقل الفخر الرازي أنّ الإمام الشافعي رضي اللّه عنه فسّرها بذلك ، وتبعه في هذا أبو بكر الرازي من الحنفية . ثم هو بعد ذلك يردّ فيها دليلا للحنفية على توريث ذوي الأرحام من حيث إنّ الآية قد أريد منها هذا النوع الخاص من الوارثين ، بل من حيث إنّ الآية اقتضت أنّ ذا القرابة مطلقا أولى من غيره . وأما تقديم بعض ذوي القرابة على بعض فهذا به أدلته الخاصة ، ويقتضي ذلك أن يكون ذو الرحم وهو الصنف الذي يدلي إلى الميت بواسطة الأنثى أولى من بيت المال ، فتكون الآية حجة على من قدّم بيت المال عليهم .

وقد اختلف العلماء في تقديم ذوي الأرحام على مولى العتاقة . فذهب بعضهم إلى أنّ ذا الرحم أولى ، وهو يروى عن ابن مسعود ، وظاهر الآية يساعده .

ويرى بعضهم أنّ مولى العتاقة مقدم على ذوي الأرحام ، وهو مرويّ عن كثير من الصحابة ، بل زعم الجصاص أنّه مذهب سائر الصحابة ، وقد روي عن ابنه حمزة أعتقت عبدا ومات ، وترك بنتا ، فجعل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نصف ميراثه لابنته ، ونصفه لابنة حمزة ، ولم يقل لنا الرواة هل كان للميت ذو رحم حتى يتم الدليل ؟

وهذا إن صح يدلّ أيضا على أن مولى العتاقة أولى من الرد ، وهذا لا يكون إلا إذا كان مولى العتاقة محسوبا من العصبات ، والعصبات أولى بالميراث من غيرهم ، وقد روي أنّ النبي جعل ابنة حمزة عصبة لمولاها ، وقد ورد أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «الولاء لحمة كلحمة النّسب» .

(170/616)

وللمخالف أن يقول : إن التشبيه يقتضي مطلق الاستحقاق ، فأين تقديمه على غيره .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا (49)

لا خلاف بين العلماء في أنّ المراد بالنكاح هنا العقد ، ولا خلاف بينهم أيضا في أنّ قيد الإيمان هنا ليس للاحتراز ، بل لمراعاة الغالب من حال المؤمنين أنّهم لا يتزوجون إلا بمؤمنات ، وللإشارة إلى أنه ينبغي أن يقع اختيارهم في الزواج على المؤمنات .

وكذلك اتفقوا على أنّه ليس المراد بالمس هنا حقيقته ، وهي إلصاق اليد بالجسم ، وإلا لزمت العدة فيما لو طلقها بعد أن مسها بيده من غير جماع ولا خلوة .

ولم يقل بذلك أحد . بل المراد بالمس الجماع ، لشهرة الكناية به وبالمماسة والملامسة ونحوها عن الجماع في لسان الشرع .

والعدة شرعا المدة التي تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها من الحمل ، أو للتعبّد ، أو للتفجّع على زوج مات .

ومعنى تَعْتَدُّونَهَا تعدونها عليهن ، أو تستوفون عددها عليهن .

والمتعة في الأصل الاستمتاع ، وما يتمتع به ، وفي لسان أهل الشرع ما يعطيه الزوج لمطلقته إرضاء لها ، وتخفيفا من شدة وقع الطلاق عليها . وبيان مقدار المتعة ونوعها قد تكفّلت به كتب الفروع .

وأصل التسريح إرسال الماشية لترعى السرح ، وهو شجر عظيم ذو ثمر . ثم توسع في التسريح ، فجعل لكل إرسال في الرعي ، ثم لكل إرسال وإخراج . والمراد به هنا تركهن وعدم حبسهن في منزل الزوجية ، إذ لا سبيل للرجال عليهن بعد طلاقهن .

والسراح الجميل يكون بمجاملتهن بالقول اللين ، وترك أذاهن ، وعدم حرمانهن مما وجب لهن من حقوق .

أخذ بعض العلماء من قوله تعالى : إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ أنه لا طلاق قبل النكاح ، فقول الرجل : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، أو إن تزوجت فلانة فهي طالق ، لا يعدّ طلاقا ، فإذا تزوج لم تطلق زوجته بهذه الصيغة التي صدرت منه قبل النكاح ، سواء أخصّ أم عمّ ، وسواء أنجز أم علّق .

وقد أخرج جماعة عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه سئل عن ذلك فقال : هو ليس بشيء ، فقيل له : إنّ ابن مسعود كان يقول : إن طلق ما لم ينكح فهو جائز ، فقال : رحم اللّه أبا عبد الرحمن ، لو كان كما قال لقال اللّه تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن ولكن إنما قال : إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ وقد ذكر في «الدر المنثور» وغيره من رواية علي وجابر ومعاذ وغيرهم رضي اللّه عنهم

(171/616)

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «لا طلاق قبل نكاح» «1»

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ، وهو مذهب الشافعي وأحمد .

وقال الحنفية : الطلاق يعتمد الملك أو الإضافة إليه ، لكنه في حال الإضافة إلى الملك يبقى معلّقا ، حتى يحصل شرطه الذي هو الملك ، فإذا قال للأجنبية : إن تزوجتك فأنت طالق ، كان هذا تعليقا صحيحا للطلاق على شرط النكاح ، فإذا حصل هذا الشرط وقع الطلاق على فوره ، وكان طلاقا في الملك بالضرورة ، فكأنّه أنجزه عليها حينذاك .

والفرق واضح بين تنجيز الطلاق على الأجنبية ، وبين تعليق طلاقها على نكاحها ، فإنّ الأول طلاق لم يحصل في الملك ، ولم يكن مضافا إليه . أما الثاني فإنّ وقوعه لا بد أن يصادف الملك حيث كان معلقا عليه . والحنفية لا يشترطون في التعليق على الملك أن يكون صريحا بصيغة من الصيغ المعهودة في التعليق ، بل المعوّل عليه عندهم أن يكون المعنى على التعليق ، فلا فرق عندهم بين التعليق اللفظي كأن يقال :

إن تزوجت فلانة فهي طالق . والتعليق المعنوي مثل : كل امرأة أتزوجها طالق . غير أنّهم يشترطون في التعليق المعنوي ألا تكون المرأة معيّنة بالاسم أو بالإشارة مثل :

فلانة التي أتزوجها طالق ، وهذه المرأة الحاضرة التي أتزوجها طالق ، فإنّ تعيين المرأة بالاسم أو بالإشارة يضعف معنى التعليق ، فتلتحق هاتان الصورتان وما أشبههما بالطلاق الناجز ، والطلاق الناجز لا يقع في غير الملك بالاتفاق .

وقد حكي عن مالك رضي اللّه عنه أنّه إن عمّ لم يقع ، وإن سمّى شيئًا بعينه امرأة أو جامعة إلى أجل وقع .

وحكي عنه أيضا أنه إذا ضرب لذلك أجلا يعلم أنه لا يبلغه كأن قال : إن تزوجت امرأة إلى مئة سنة لم يلزمه شيء ، وهذا الذي حكيناه عن الحنفية والمالكية منقول عن كثير من الصحابة والتابعين رضوان اللّه عليهم أجمعين ، على اختلاف في التفصيل ، ليس هذا محل ذكره .

ويقول أصحاب هذا الرأي : إنّ قوله تعالى : إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ لا ينافي ما ذهبنا إليه ، بل إنه ظاهر الدلالة على صحة قولنا ، لأنّ الآية حكمت بصحة وقوع الطلاق بعد النكاح . ومن قال لأجنبية : إذا تزوجتك فأنت مطلّقة ، فهي طالق بعد النكاح ، فوجب بظاهر الآية إيقاع طلاقه ، وإثبات حكم لفظه .

---

(1) رواه ابن ماجه في السنن (1/ 660) ، 10 - كتاب الطلاق ، 17 - باب لا طلاق قبل النكاح حديث رقم (2048) .

(172/616)

وأما قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا طلاق قبل نكاح» «1»

- فبعد تسليم صحته - لا ينافي ما ذهبنا إليه ، لأنّ من ذكرنا مطلّق بعد النكاح .

وقد روي عن الزهري في هذا الحديث إنما هو أن يذكر للرجل المرأة ، فيقال له : تزوجها .

فيقول : هي طالق البتة ، فهذا ليس بشيء . فأمّا من قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق البتة فإنما طلقها حين تزوجها .

ثم إنّ عطف الطلاق في الآية على النكاح ب ثُمَّ لا يدل على أنّ الحكم خاص بالحالة التي يتراخى فيها الطلاق عن النكاح ، فإنه لا فرق بين أن يقع متراخيا ، وأن يقع على الفور ، بل عدم الاعتداد في صورة الفورية أولى منه في صورة التراخي .

وعلى هذا يكون التعبير ب ثُمَّ للتنصيص على الحكم في الصورة التي قد يتوهم فيها وجوب العدة ، لطول المدة التي هي مظنة الملاقاة والمباشرة . وهذا ظاهر إذا كانت كلمة ثُمَّ باقية على معناها الوضعي ، مفيدة للتراخي الزماني .

ويصحّ أن يراد منها التراخي في الرتبة وبعد المنزلة ، فيستفاد منها أنّ مرتبة الطلاق بعيدة عن مرتبة النكاح ، إذ إنّ النكاح تترتب عليه منافع كثيرة ، ويثمر ثمرات طيبة . فأما الطلاق فإنّه يحل العقدة ، ويفصم العروة ، ويبطل ما بين الزوجين وأقاربهما من روابط وصلات .

ولهذا قال بعض الفقهاء : إنّ الآية ترشد إلى أنّ الأصل في الطلاق الحظر ، وأنّه لا يباح إلا إذا فسدت الزوجية ، ولم تفلح وسائل الإصلاح بين الزوجين .

وظاهر التقييد بعدم المس – الذي عرفت أنّه كناية عن الجماع – أنّ الخلوة ولو كانت صحيحة لا توجب ما يوجبه الجماع من العدة بعد الطلاق ، وهو قول الشافعي في الجديد .

أما الحنفية والمالكية الذين يقولون بأنّ الخلوة الصحيحة كالجماع فمن العسير جدّا أن تحمل

الآية على محمل يساعدهم . وقد حاول بعضهم أن يجعل المس كناية عن الخلوة أو عما يشمل الخلوة والجماع ، ولكنّ ذلك بعيد ، إذ لم يعرف ، ولم يشتهر إطلاق المس على الخلوة .

وإذا فوجوب العدة بالخلوة عند من يقول بذلك لا بد له من دليل آخر ، وذلك قوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الدار قطني والرازي في «أحكام القرآن» «من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق ، دخل بها أو لم يدخل» .

وقال ابن المنذر : إنّ هذا قول عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وعبد اللّه بن عمر ، وجابر ، ومعاذ ، وروي عن زرارة بن أبي أوفى أنّه

---

(1) سبق تخريجه .

قال : قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخى الستور ، وأغلق الباب ، فلها الصداق كاملا ، وعليها العدة ، دخل بها أو لم يدخل .

هذا وقد اختلف علماء الحنفية بعد الاتفاق على وجوب العدة بالخلوة ، فمنهم من يقول : إنّها واجبة قضاء وديانة ، وإنّه لا يحل للمرأة أن تتزوج بزوج آخر قبل أن تعتدّ ما دامت الخلوة بالأول صحيحة ، ولو من غير وقاع . ومنهم من يقول : إنّه يحل لها ذلك متى كان الزوج لم

يواقعها ، فأما في القضاء فلا اعتبار إلا بالظاهر .

وظاهر الآية أيضا أنه لا عدة على المرأة المدخول بها إذا طلّقها زوجها رجعيا ، أو أبانها بينونة صغرى ثم راجعها ، أو عقد عليها قبل انقضاء عدتها ، ثم طلقها قبل أن يمسها ، إذ إنّ هذا الطلاق الثاني يصدق عليه أنه طلاق قبل المس ، وبذلك قال أهل الظاهر . فليس عليها عدة جديدة للطلاق الثاني لأنّه طلاق قبل المس ، كما أنّه ليس عليها أن تكمّل العدة الأولى ، لأنّ الطلاق الثاني قد أبطل الطلاق الأول . ثم يكون لها نصف الصداق في صورة البينونة ، والوجه فيه ظاهر .

وقال بعض الفقهاء ومنهم عطاء والشافعي في أحد قوليه : إنّه يجب على المرأة في الصورتين أن تبني على عدة الطلاق الأول ، وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة ، إذ الطلاق الثاني لا عدة له ، ولكن لا ينبغي أن يبطل ما وجب بالطلاق الأول ، فإنّه طلاق بعد دخول ، يجب أن تراعى فيه حكمة الشارع في إيجاب الاعتداد ، وعلى الزوج نصف الصداق في صورة البينونة ، كما يقول أهل الظاهر .

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثوري والأوزاعي : أنّه يجب على المرأة أن تستأنف عدة جديدة في الصورتين ، لأنّ الطلاق الثاني – وإن كان لم يفصل بينه وبين الرجعة أو العقد الثاني مسّ ولا خلوة – لا يصدق عليه أنه قد حصل قبل الدخول على الإطلاق ، إذ المفروض أنّ المرأة كان مدخولا بها من قبل ، وعلى الرجل في صورة البينونة مهر كامل لهذا

الاعتبار .

وأما المالكية فإنّهم يفرقون بين صورتي الرجعيّ والبائن .

فيقولون في الأولى : إنّه يجب على المرأة أن تستأنف عدة كاملة ، إذ أنّها في حكم الموطوءة بعد المراجعة .

أما في صورة البائن فإنّ النكاح بعد البينونة عقدة جديدة ، فالطلاق بعدها يصدق عليه أنه طلاق قبل الدخول ، فلا يوجب عدة ، لكنّه لا يصحّ أن يهدم ما وجب على المرأة بالطلاق ، فعليها أن تكمل العدة الأولى ، ولها على المطلّق نصف المهر . فهم يوافقون أبا حنيفة في صورة الطلاق الرجعي ، فيوجبون عدة كاملة ، ويخالفونه في صورة البائن فيوجبون نصف المهر ، وإكمال عدة الطلاق الأول .

(174/616)

وظاهر قوله تعالى : فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها أنّ العدة حيث تجب تكون حقا للمطلّق ، وقد يقول بعض من يسير مع الظواهر : إنّ العدة حقّ خالص للمطلق ، فإنّه يغار على ولده ، ويعنيه ألا يسقى زرعه بماء غيره ، وكون العدة لا تسقط إذا أسقطها المطلّق لا يدل على أنها لسيت حقه ، إذ قد عهد في الشريعة حقوق لا يملك أصحابها إسقاطها

كحق الإرث وحق الرجوع في الهبة وحق خيار الرؤية .

لكن المشهور عند الفقهاء أنّ العدة ليست حقا خالصا للعبد ، فإنّ منع الفساد باختلاط الأنساب من حقّ الشارع أيضا .

فالراجح أن العدة تعلّق بها حقّ اللّه وحقّ العبد ولما كانت منفعتها عائدة على العبد ، وكانت غيرة الرجل مظنة أن تدفعه إلى أن يحول بين المرأة وحريتها في أن تلتمس غيره من الأزواج ، حتى في هذه الحالة التي لم يحصل فيها خلوة ولا وقاع ، لما كان ذلك كذلك خاطبه اللّه سبحانه وتعالى بأنه لا سبيل له على هذه المرأة ، وأنه يجب عليه أن يخلي سبيلها بالمعروف ، فلا يكون في الآية دلالة على أنّ العدة حق خالص للمطلق .

وظاهر أنّ الضمير في قوله تعالى : فَمَتِّعُوهُنَّ راجع إلى المؤمنات اللاتي طلّقن قبل أن يمسسن ، سواء أكن مفروضا لهنّ أم لا . فيكون ظاهر قوله تعالى : فَمَتِّعُوهُنَّ إيجاب المتعة للمطلقة قبل الدخول ، سواء أفرض لها مهر أم لم يفرض ، وبهذا الظاهر كان يقول الحسن وأبو العالية .

وقد أخرج عبد بن حميد عن الحسن أيضا أنّ لكل مطلقة متاعا ، سواء أدخل بها أم لم يدخل ، وسواء أفرض لها أم لم يفرض .

وظاهر هذه الرواية الوجوب في الكلّ عملا بظاهر قوله تعالى : وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241) [البقرة : 241] . ولكنّ قوله تعالى في سورة البقرة :

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ [البقرة : 237] لم يجعل للتي طلقت قبل الدخول وقد فرض لها مهر إلا نصف ما فرض لها ، ولم يجعل لها متعة ، لأنّ وروده في مقابلة قوله تعالى : لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236) [البقرة : 236] يجعله كالبيان لمفهوم القيد الذي هو عدم الفرض ، فيكون كالصريح في أنّ التي طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر ليس لها متعة .

وقد علمت أنّ ظاهر الآية التي معنا يوجب لها المتعة ، فكان بين الآيتين تعارض في ظاهرهما : وللعلماء في دفع هذا التعارض طرق :

فمنهم من جعل آية البقرة مخصّصة لآية الأحزاب التي معنا ، أو ناسخة

لعمومها ، ويكون المعنى : فمتعوهن إن لم يكن مفروضا لهم [مهر عند عقد] النكاح .

فوجوب المتعة المستفاد من قوله تعالى : فَمَتِّعُوهُنَّ خاصّ بمن لم يفرض لها من المطلقات قبل الدخول ، دون من فرض لها ، وبهذا قال ابن عباس ، وهو مذهب الحنفية والشافعية .

ويؤيّد ذلك أن المتعة إنما وجبت للمطلقة ، لإيحاش الزوج إياها بالطلاق ، فإذا وجب للمطلقة قبل الدخول نصف المهر كان ذلك جابرا للإيحاش ، فلم تجب لها المتعة .

ومنهم من حمل المتعة في آية الأحزاب على العطاء مطلقا ، فيعم نصف المفروض والمتعة المعروفة في الفقه ، وتكون الآية قد تعرّضت لحكم المطلقة قبل الدخول في صورتيها ، فأوجبت لها على المطلّق شيئا تتمتّع به ، وتزول به وحشتها ، إلا أن ذلك الشيء في صورة الفرض مقدّر بنصف المفروض بالنص ، وفي صورة عدم الفرض غير مقدّر ، فإن اتفقا على شيء فذاك ، وإلا قدّرها القاضي بنظره واجتهاده ، معتبرا حالهما إيسارا وإعسارا ، وما يليق بنسب المرأة وكرامتها .

ومنه من حمل الأمر في قوله تعالى : فَمَتِّعُوهُنَّ على الإذن الشامل للوجوب والندب ، مع بقاء المتعة على معناها المعروف ، فتكون الآية قد تعرّضت لحكم المطلقة قبل الدخول في صورتيها أيضا ، إلا أنّه في صورة عدم الفرض يكون التمتيع واجبا ، لقوله تعالى في هذه الصورة بخصوصها : لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ . . . وفي صورة الفرض الصحيح يكون التمتيع مستحبّا ، لأنّه من الفضل المندوب إليه بقوله تعالى في هذه الصورة بخصوصها : وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ وقد تقدّم لك ما في ذلك في تفسير سورة البقرة .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ

مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (50) الكلام على ربط الآية بما قبلها واضح بيّن .

فقد كان الكلام هناك في أنكحة المؤمنين . وأحكامها . وهنا في نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اللاتي يحلّ له نكاحهن ، وأحكام أخرى تتبع النكاح .

والمراد من الأجور هنا : المهور والصدقات . وسميت الصدقات أجورا في هذا الموضع وغيره من القرآن الكريم لما يظهر للناس بادئ الرأي أنّ في العقد تقابلا بين

المنفعة والمهر . وذلك كاف في تصحيح إطلاق اسم الأجر على المهر ، وقد قلنا في بادئ الرأي ، لأنّ اللّه تعالى يقول : وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (4) [النساء : 4] والنحلة العطية .

وإنك لترى الفقهاء قاطبة في مواضع كثيرة يقولون : المهر ليس في مقابلة البضع ، ولا في مقابلة المنفعة ، ولا هو في مقابلة الانتفاع ، إنما هو بدل وعطية لإظهار خطر المحل وشرفه . على

أنّك ترى أنّ حقيقة الأجرة لا تمشي مع المهر خطوات كثيرة ، فالأجرة في مقابلة المنفعة تنقسم عليها ، وتتجزأ معها بحسب الزمن ، وليس كذلك المهر ، حيث يجب نصفه بالطلاق بعد العقد قبل المس ، ويجب كله في غير هذه ، ولا عبرة بمرات الانتفاع كثرة وقلّة ، بل المرة الواحدة كالذي لا يتناهى من المرات . وأنت تعرف أنّ الخلوة الصحيحة مرة واحدة توجب المهر كاملا عند الحنفية ، فهل ترون أن الرجل انتفع ، وأنّ انتفاعه تكرّر .

وقد جاء في الآية الكريمة عدة قيود ، ما أريد بواحد منها إلا التنبيه على الحالة الكريمة الفاضلة :

منها ، وصف أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم باللاتي آتى أجورهن ، فإنه تنبيه على الحالة الكاملة ، فإن الأكمل إيتاء المهر كاملا دون أن يتأخر منه شيء . وما الذي عليه الناس من تأخير بعض المهر إلا شيء أحدثه العرف ، واقتضاه الحذر بعد أن فسد حال الناس ، واقتضاه التغالي في المهور أو الظهور بمظهر المغالاة فيها . وإذا كان الفقهاء قد جعلوا للمرأة حقّ الامتناع من تمكين الزوج حتى تأخذ المهر كاملا . فلا يكون الأليق أن يدفع المهر كاملا حتى لا يظهر الرجل بمظهر من يريد استحلال الفروج بالمجان . ويقول العلماء : إنّ تعجيل المهور كان سنة السلف ، لا يعرف منهم غيره ، وقد شكا بعض الصحابة عدم قدرته على التزوج

فقال له صلّى اللّه عليه وسلّم : «أين درعك الحطمية» «1» .

ومنها أن تخصيص المملوكات بأن يكنّ من الفيء من هذا القبيل ، فإنّ المملوكة إذا كانت غنيمة من أهل الحرب كانت أحلّ وأطيب مما يشترى من الجلب ، لأن تلك ظاهرة الحال ، معروفة النشأة .

ومن تلك القيود قيد الهجرة في قوله : اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ ولا شك أن من هاجرت مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أولى بشرف زوجية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ممن عداها .

وإنما قلنا الذي قلنا حتى لا نخوض فيما خاض فيه المفسرون من أشياء لا تغني من الحق شيئا ، فقد حاولوا أن يأخذوا من قوله تعالى : اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ أن الممهورات من نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد أخذن مهرهنّ كلّه معجلا وأن تعجيل المهر كان

---

(1) رواه النسائي في السنن (5 - 6/ 440) ، كتاب النكاح ، باب تحلة الخلوة حديث رقم (3375) .

واجبا عليه . لما ذا ؟ لأن الفقهاء قالوا : إن المراد في حل من عدم التمكين حتى تأخذ المهر . ولو لم يعجّل النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم مهور نسائه لكنّ في حل من حق الامتناع ، وهو لو طلبهن ما كان لهن حق الامتناع ، لأنه عصيان لأمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم

هكذا يقرر المفسرون حكما : هو الوجوب على الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، لأن الفقهاء قالوا ، وبعد تسليم الذي قالوا ، كيف يكون الامتناع في هذه الحالة معصية ؟ ! ! وهو مقرر بقاعدة شرعية هي التي نقلتموها عن الفقهاء ! ! وكذلك نريد أن نخرج مما خاضوا فيه من بحث أن المملوكات من غير الفيء هل كنّ حلالا له أو لا ؟ وإنك لتعجب حين تراهم يقولون : هل كانت تحته مملوكات من غير هذا النوع أو لم يكن ؟ ثم يقررون أنه لم يكن ! ! وإذا سئلوا عن مارية قالوا : إنّ هدية الحربيين بمنزلة الفيء . وكان خيرا لهم من هذا أن يبحثوا المسألة من الوجهة التاريخية ، ولا يكتفوا بسرد رواية لا يعلم مدى صحتها إلا اللّه .

وأعجب من هذا أنّك تسمعهم يروون أن من بين أزواجه زينب بنت خزيمة الأنصارية ، وهي التي كانت تعرف بأمّ المساكين . ثم يخوضون في أنّ غير المهاجرات كنّ محرّمات عليه أولا قبل التحريم والتحليل .

ابحثوا الذي وقع واعرفوه ، ثم قولوا : هل الذي وقع كان واجبا لا معدى عنه : أم كان التزاما للحالة الفضلى ؟ هذا إذا ثبت أن جميع نسائه كن مهاجرات .

وأشد عجبا من ذلك كله خوضهم في المراد بالأزواج اللاتي أحلّهن اللّه لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيقولون : هنّ من كنّ في عصمته : كعائشة وحفصة ممن تزوجها بمهر .

ويزعمون أن الذي يلجئهم إليه هو دفع التعارض بين هذا ، وبين قوله تعالى بعد ذلك :

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .

ولو أنهم حملوا الإحلال على الإذن العام بالنكاح من هذه الأصناف الأربعة :

المهورات ، والمملوكات ، والأقارب ، والواهبات أنفسهن من غير مهر ، ثم يجيء قوله تعالى : لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ ملزما بالوقوف عند ما انتهى إليه من الزوجات لا يعدوهنّ ، كما أباح النساء للناس ، ثم بيّن لهم الوقوف عند الأربع من غير المحرمات بأسباب التحريم ، لو أنهم فعلوا ذلك لما كان للذي ظنوه من التعارض أي أثر . ولما كانوا في حاجة إلى أن يحملوا بنات العم وبنات العمات على القرشيات ، وبنات الخال وبنات الخالات على أقاربه من بني زهرة .

ولكنّ الذي ألجأهم إلى ذلك هو أنهم لم يجدوا في نسائه واحدة من بنات عمه ، وبنات عماته لم يكن منهن إلا زينب ، وهذا الذي ذهبوا إليه إن نفعهم في بنات العمومة لا

يجدون له أثرا في بنات الخئولة ، فهو لم يتزوج واحدة من بنات خاله وخالاته .

ولقد كان يغني عن هذا كله ذكر وصف القرابة ، لكن الأمر ليس كما ذهب إليه المفسرون وإنما هو تعداد للأصناف التي يباح له أن يتزوج منها على الوجه الكامل .

كما بيّن للناس ما فرضه عليهم في أزواجهم في غير هذا الموضع .

ولو تمشينا معهم إلى آخر الآية لما استطعنا أن نمشي في الواهبات أنفسهن ، فقد نصوا على أنّ الصحيح أنه لم يكن فيمن كان تحته من النساء من وهبت نفسها ، قال أبو بكر ابن العربي : وروي عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم يكن عند النبي صلّى اللّه عليه وسلّم امرأة موهوبة . وقد بيّنا الحديث الصحيح في مجيء المرأة إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ووقوفها عليه ، وهبتها نفسها له من طريق سهل وغيره في «الصحاح» وهو القدر الذي ثبت سنده وصحّ نقله . والذي يتحقق أنها لما قالت للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : وهبت نفسي لك ، فسكت عنها ، حتى قام رجل فقال : زوجنيها يا رسول اللّه ، إن لم تكن لك بها حاجة «1» . إلخ القصة انتهى ما أردنا نقله عن ابن العربي «2» .

وإلى هنا يتضح أنّ المراد بالإحلال : الإذن العام ، والتوسعة في الزواج من هذه الأصناف ، والإباحة له في أن يختار منهنّ من تقتضي الحكمة الزواج منها .

ولعلك بهذا الذي ذكرنا تستغني عن الكلام في تفسير الآية من جديد . فهو أن هناك أشياء تكلّم فيها المفسرون ، لا نرى بأسا من التعرض لها قبل الكلام فيما ذكروا من أحكام ، قالوا إنها تتصل بالآية :

فقد عرض المفسرون للحكمة في إفراد العم والخال ، وجمع العمة والخالة .

- كما تكلموا عن الشرط الثاني إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها هل هو شرط في الشرط

الأول ، أو في مشروط الشرط الأول : وهو الإحلال .

- ولقد تكلموا في قوله تعالى : خالِصَةً فقالوا : هل يرجع إلى المرأة المؤمنة ، أو لما قبله جميعا ، وسنذكر هذا على الترتيب فنقول .

قال المفسرون : إن المراد من بنات العم والعمة : القرشيات ، فإنّه يقال للقرشيين قربوا أن بعدوا أعمامه عليه الصلاة والسلام ، ويقال للقرشيات قربن أم بعدن عماته .

والمراد من بنات الخال والخالة البنات من بني زهرة . إطلاق العم والعمة :

على أقارب الشخص من جهة أبيه ، والخالة والخال على الأقارب من جهة الأم ، أمر جرى به العرف .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1040) ، 16 - كتاب النكاح ، 13 - باب الصداق حديث رقم (76/ 1425) ، والبخاري في الصحيح (6/ 168) ، 67 - كتاب النكاح ، 51 - باب التزويج حديث رقم (5149) .

(2) انظر أحكام القرآن للإمام ابن العربي (3/ 1546) . [. . . . .]

وقد كان تحت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ست من القرشيات ، ولم تكن تحته زهرية قط .

وذلك يرشد إلى أنّ المراد من الإحلال الإذن في العقد على هؤلاء ، دون أن يستدعي وقوعه .

وإذا حمل العم والعمة على ما هو المعروف ، وكذا الخال والخالة كان الإحلال أيضا مراد منه ذلك . لأنّه لم يكن من بنات أعمامه تحته أحد ، وكذا من بنات خؤولته ، ولم يكن من بنات عمته معه إلا زينب بنت جحش .

ثم قالوا في الحكمة في إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة كلاما كثيرا ، بل إنّ من العلماء من ألف في ذلك كتابا برأسه ، فمنهم من زعم أن العم والخال لم يجمعا لوقوعهما على وزن المصدر ، وهو لا يجمع .

وقيل : بل إن عدم الجمع في العم والخال جاء على الأصل من إرادة العموم عند الإضافة ، وأما العمة والخالة وإن كانتا مضافين فجمعا لمكان تاء الوحدة فيهما ، وهي تأبى العموم في الظاهر وجمع الكل في سورة النور في قوله تعالى : أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ [النور : 61] لا يسأل عن علته ، لمجيئه على الأصل في نسق واحد .

ويرى بعضهم أنّ الخطاب لما كان للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولم يكن له إلا عمّ واحد تحل بناته له ، وهو أبو طالب ، أما حمزة والعباس فقد كانا أخويه من الرضاعة ، فقد أفرد العم من أجل ذلك ، وجمعت العمات لأنهنّ كثيرات .

ويرى البعض أن الذي جرى هنا من الإفراد في العم جرى على نحو مألوف العرب ، فإنك لا تكاد تجد في كلام العرب العم مضافا إليه الابن أو البنت مفردين أو مجموعين إلا مفردا ، كما قيل :

إن بني عمك فيهم رماح .

وكما قيل :

قالت بنات العمّ يا سلمى .

وجاء الكلام في الخال والخالة على مثاله ، وفي هذا القدر كفاية .

وأما الشرطان في قوله تعالى : وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا فقد قالوا : إنّ الشرط الثاني شرط في الأول ، فتكون هبة المرأة نفسها لا تستلزم الحل إلّا إذا وجدت إرادة الاستنكاح ، ويقولون : إنّ هذه الإرادة تكون جارية مجرى القبول ، وإذا كانت السين والتاء للطلب ، فتكون الإرادة بمعنى الرغبة التي تسبق العقد ، ثم الهبة والاستنكاح يكون بعد .

ثم إنّهم يقرّرون هنا قاعدة حاصلها : أنّه إذا اجتمع شرطان فالثاني شرط في الأول متأخر عنه في اللفظ متقدم عليه في الوجود ، وهذه القاعدة لو سلمت لهم لكان ذلك مخلّا بتفسير الإرادة بالقبول ، لأن القبول لا يكون إلا بعد الإيجاب ، وعلى ذلك يلزم

أن يقال : إن القاعدة أغلبية ، وأن الآية جرت على خلاف الغالب ، ولكن من أين لهم هذه القاعدة ؟ وما الذي يضرّ لو أنّ مجموع الشرطين جعلا قيدين في الإحلال ، سبق الثاني في الوجود أو تأخر ، خصوصا وقد ذهب إلى هذا الذي نقول طائفة كبيرة من العلماء في مقدمتهم إمام الحرمين .

ونحب أن نقول : إنّ أكثر العلماء على أنّ الهبة وقعت من كثير من النساء ، وقد وردت روايات كثيرة في أشخاص الواهبات . غير أنّهم مع ذلك يصحّحون أنّه لم يكن تحته صلّى اللّه عليه وسلّم امرأة وهبت نفسها .

وقد أخرج ابن سعد أنّ ليلى بنت الحطيم وهبت نفسها للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ووهب نساء أنفسهنّ ، فلم نسمع أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قبل منهن أحدا .

وقد روى ابن جرير « 1 » وغيره عن ابن عباس أنه قال : لم يكن عند النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم امرأة وهبت نفسها .

وأما قوله تعالى : خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ فقد ذهب بعضهم إلى أن (خالصة) منصوب على المصدرية . وقد جاء المصدر على هذا الوزن كثيرا : كالعافية ، والكاذبة . ثم هو يرجع إلى إحلال الواهبة ، أي أحللنا لك الواهبة يخلص لك ذلك خلوصا . وذهب بعضهم إلى أن (خالصة) حال من امرأة ، أي أحللنا لك امرأة وهبت نفسها حال كونها خالصة لك

، لا تحل لأحد بعدك .

ويرى البعض أنه راجع إلى جميع المحللات ، والمعنى أحللنا لك كلّ ما تقدم على أن تختص بهن ، لا يكون لأحد بعدك أن ينكحهن .

وأما قوله تعالى : قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فهو جملة اعتراضية جيء بها لتوكيد مضمون الجملة قبلها . والمعنى : أن ما ذكرناه حكمك مع نسائك ، وأما حكم أمتك مع نسائهم ، فعندنا علمه ، نبينه لهم على حسب ما تقضي به الحكمة والمصلحة في شأنهم .

واحتيج إلى هذا هنا حتى لا يظنّ أنّ ما جاز للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم في أزواجه من الشؤون يجوز لأمته ، وقد كان للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم في النكاح وفي التسري خصائص ليست لغيره ، فهو يزيد في النساء إلى التسع ، وغيره لا يباح له الزيادة على الأربع ، واختص النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بنكاح الواهبات دون الناس .

والذي فرضه اللّه على الناس في أزواجهم ألا يجاوزوا أربعا من النساء ، والولي ، والشهود ، والمهر ، والنفقة ، والكسوة ، على ما في بعض ذلك من خلاف بين الفقهاء .

---

(1) في تفسيره جامع البيان ، المشهور بتفسير الطبري (22/ 17) .

وضّحته كتب الفروع ، إلى غير ذلك مما فرض اللّه للناس في شأن الأزواج والمملوكات ، مما اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون غير شأن النبي في النساء ، وما علم اللّه أن فيه صلاح العباد في هذا الشأن أيضا .

لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ قيل متعلّق بأحللنا ، وهو راجع إلى جميع ما ذكر .

والمعنى : أحللنا لك من آتيت أجورهنّ من النساء والمملوكات والأقارب والواهبة لندفع عنك الحرج الذي يلحقك فتتفرّغ لتبليغ الرسالة .

وقيل : هو متعلق بخالصة ، أو بعاملها ، أي خصصناك بنكاح من وهبت نفسها لك ، لكيلا يكون عليك حرج ، فلا تبحث عن مهر ، ولا تسعى في تدبيره .

ويروي بعض المحققين أنه متعلق بمحذوف ، أي بينا هذا البيان حتى تخرج من الحرج ، ومما يظن الناس تأثيمك فيه ، ومتى علموا أنّك تصدر في الذي تفعل عن وحي ربك اندفع الذي ظنوا ، وكفيت الاعتراض والتأثيم .

وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً يغفر للناس ما لا يمكنهم التحرز عنه ، رحيما بهم ، يدفع عنهم الحرج والعنت .

الأحكام

أحلّ اللّه تعالى لنبيه توسعة عليه ، وتيسيرا له في نشر الرسالة ، صنوفا من النساء ، صنفا

يدفع له المهر ، وصنفا يتمتع به بملك اليمين ، وصنفا من أقاربه ، وصنفا رابعا ينكحه دون مهر ، بعد أن تهب المرأة نفسها للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ويتم القبول ، وهذا خاصّ بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم يجوز له ، ولا يجوز لأحد من المؤمنين .

ذلك هو محصول الآية الكريمة على ما رجّحه العلماء من جعل الخصوصية في نكاح الهبة ، وإن اختلفوا في مرجح الخصوصية في هذا النكاح على ما يأتي بيانه .

وقد أراد الكرخي أن يأخذ من تسميته المهر أجرا في قوله تعالى : آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ حجة في عقد النكاح بلفظ الإجارة ، ولم يتابعه سائر الحنفية في هذا الذي ذهب إليه . ولعلّ مستند الكرخي في هذا أنّ اللّه قد سمّى المهر أجرا ، والأجر يجب بعقد يتحقّق بلفظ الإجارة ، فيصح النكاح بلفظ الإجارة .

وليس هذا يصح مستندا ، فالحنفية وهم الذين يقولون : إنّ العبرة في العقود للمعاني ، يقولون : إنّ معنى الإجارة يتنافى مع عقد النكاح ، إذ النكاح مبني على الإطلاق ، والتوقيت يبطله ، وعقد الإجارة مبني على التوقيت ، حتى لو أطلق المتعاقدان العقد عن التوقيت كان مؤقتا ، ويتجدد العقد ساعة فساعة ، فكيف يصحّ جعل ما هو موضوع للتوقيت دالا على ما يبطله التوقيت .

وشيء آخر : وهو أنّ الإجارة عقد على المنافع بعوض . وبعبارة أخرى هي تمليك المنافع بعوض .

ويقول الحنفية وقد فرّعوا الفروع على ما قالوا : إنّ النكاح ليس عقد تمليك ، وإنما هو استباحة ، وهما مختلفان في الآثار .

وفرق آخر : هو أنّ « 1 » الحنفية يصرّحون بأنّ المهر في النكاح ليس عوضا ، وإنما هو عطية أوجبها اللّه تعالى إظهارا لخطر المحل ، ولذلك صحّ النكاح مع النص فيه على ترك المهر ، ويجب مهر المثل بالدخول ، ولو كان عوضا لما صح تركه ، فضلا عن النص عن الإسقاط ، ولو سلّم أن النكاح يقتضي التمليك فلا يصح أن يعقد بلفظ الإجارة ، حتى لا يلتبس الأمر بعقد المتعة الباطل ، وما ينشأ اللبس إلا من لفظ الإجارة الدالّ على التوقيت .

وما كانت تسمية المهر أجرا لتستلزم هذا الذي ذهب إليه الكرخي ، وقد بينا لك فيما تقدم المسوّغ لهذا ، وهو ما يبدو من شبه بين الأجر والمهر ، والمسألة في هذا سهلة ، فالحنفية كلهم على غير ما يرى الكرخي .

ومما جرى الخلاف فيه بين الفقهاء عقد النكاح بلفظ الهبة لغير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم . فقال أبو حنيفة ، وأبو يوسف ، وزفر ، ومحمد ، والثوري ، والحسن بن صالح : يجوز ، ولها ما سمّى في العقد . ومهر المثل إن لم يسمّ شيء .

وروى ابن القاسم عن مالك أنّ الهبة لا تحل بعد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إن كانت هبة نكاح ، وقال الشافعي رضي اللّه عنه : لا يصحّ النكاح بلفظ الهبة .

وخلاف الفقهاء تابع لنزاع العلماء في معنى قوله تعالى : خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ فذهب جماعة إلى أن الخصوصية والخلوص الوارد في الآية هو خلوص عقد النكاح بلفظ الهبة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ألا ترى كيف قال اللّه تعالى : لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وكيف قال : إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها وقبل ذلك : إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ وفي جميع ذلك من الإشارة ما يدلّ على أن إحلال المرأة من طريق الهبة كان خاصا بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم .

وذهب آخرون إلى الخلوص والخصوصية الواردة في الآية كان في نكاح الواهبة بغير مهر . أما عقد النكاح بلفظ الهبة فكان جائزا للنبي وأمته معه ، لا خصوصية فيه ، وهو مروي عن مجاهد ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، وزعم الذاهبون إليه أنّ الآية تدلّ عليه ، وذلك أنّ اللّه تعالى يقول : وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

---

(1) انظر الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (1 - 2/ 206) .

جعل اللّه العقد خالصا للنبي ، وأضاف لفظ الهبة إلى المرأة ، وأضاف إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إرادة الاستنكاح ، فدلت المخالفة بين الجانبين على أنّ المراد مدلول اللفظ الذي فيه جانب المرأة ، وهو ما يدل عليه لفظ الهبة من ترك العوض .

وأيضا فلو كانت الخصوصية راجعة للفظ الهبة لجاء في اللفظ الذي يكون في جانبه ، أما خصوصية أن يكون عقده بلفظ الهبة من جانب المرأة دون أن يكون فيه إسقاط العوض فيكاد يكون غير مقبول .

ووجه آخر هو أن اللّه تعالى قال بعد ذلك : لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وذلك يشير ظاهرا إلى أن الخصوصية دفعت حرجا . وقصر النكاح على لفظ النكاح أو التزويج لا حرج فيه ، إنما الحرج يكون في إلزام المهر ، لأن ذلك يلزمه مشقة السعي في التحصيل ، وهو مشغول بشؤون الرسالة ، ويرجّح هذا الذي نقوله قول اللّه تعالى في أول الآية : آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ حيث يكون إحلال الهبة مقابلا له ، فيكون المعنى أحللنا لك الممهورات وغير الممهورات .

ثم هم يسوقون في ذلك حديثا رواه عبد اللّه بن أحمد بن حنبل عن أبيه ، عن محمد بن بشر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة أنها كانت تعيّر النساء اللاتي وهبن أنفسهنّ للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، قالت : ألا تستحي أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ أنزل اللّه عزّ وجلّ : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ

عَلَيْكَ قالت : إني أرى ربّك عزّ وجلّ يسارع لك في هواك « 1 » .

ويقولون بعد ذلك أنه قد ورد أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عقد على امرأة بلفظ التمليك لرجل على ما معه من القرآن ،

فقال : «ملكتكها بما معك من القرآن»

، وذلك يدل على صحة عقد النكاح بلفظ يدل على التمليك ، ولفظ الهبة يدل على التمليك ، فصح عقد النكاح به .

ذلك مجمل ما يقال في الاستدلال للمجيزين على ما ذهبوا إليه ، وما نراه يدل لهم .

وإنا لنسألهم : أين وجدتم في الآية أنّ النكاح كان دون مهر ؟ أليس في لفظ الهبة ؟ فكيف يكون ما يدل عليه اللفظ خاصا به صلّى اللّه عليه وسلّم ، وليس شيء يدل عليه إلا اللفظ ومع ذلك فأنتم لا تقولون بجواز عقد النكاح بلفظ الهبة مع بقاء معناه ، وهو ترك العوض .

والذي في الآية ترك العوض مدلولا عليه بلفظ الهبة .

فمن أين لكم الخصوصية في المعنى دون اللفظ ؟ ومن أين لكم أنه يجوز عقد النكاح لغير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بلفظ الهبة مع إيجاب المهر ؟ فإن كنتم تريدون أنّ عقد النكاح بلفظ الهبة يصحّ من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ومن غيره ، وتريدون أن تأخذوه من الآية فخذوا جواز

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (6/ 28) ، 65 - كتاب التفسير ، 7 - باب تُرْجِي مَنْ تَشاءُ . . . حديث رقم (4788) ، وأحمد في المسند (6/ 158) .

(184/616)

ذلك للناس جميعا بكل ما دلّ عليه ، وهو العقد بلفظ الهبة من غير مهر .

أما أن تقولوا : إنّ العقد بلفظ الهبة جائز للناس جميعا ويجب المهر ، فهو الذي لا نجد لكم سندا فيه .

وكيف يكون السند ، والله تعالى يقول : خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ولا يمكن رجوع الخصوصية للمعنى إلا بعد أن يكون مستفادا من اللفظ ، مدلولا عليه به ، ولو أسقط لفظ الهبة من العقد استبعد إسقاط المهر ، فالحقّ أنّ الخصوصية راجعة إلى ما كان من عقد النكاح بلفظ الهبة ، مع ما يحمل من المعنى ، وهو تمليك البضع بغير عوض .

وما سقتم من حديث عائشة لا ينفعكم ، فليس فيه إلا أنّ نكاح الواهبة كان بغير عوض ، وعائشة إنما فهمت ذلك من لفظ الهبة .

ونحن نقول : إنّ الخصوصية كانت في عقد النكاح بلفظ الهبة ومعناه ، أما عقده بلفظ الهبة وحده دون المعنى فلا نقول : إنّ الخصوصية راجعة إليه .

وأما ما قلتم من أن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم عقد النكاح بلفظ التمليك ، فهو بعد تسليم حجية الحديث المروي فيه لا يدلّ [على ما ذهبتم إليه] .

وهناك رواية أخرى تدل على أن العقد كان بلفظ : «زوجتكها» «1» ولا دلالة فيما رويتم ، فعقد النكاح بلفظ التمليك لا يفيد أن كل ما يدل على التمليك ينعقد به النكاح ، ألا ترون أن لفظ الإجارة يدل على التمليك ، وأنتم لا ترون النكاح ينعقد به ، لما فيه من معنى يتنافى مع المقصود من النكاح ، وهو أن الإجارة مبينة على التوقيت .

وكذلك نحن نقول بعد أن نسلّم لكم أنّ صيغ العقود يصحّ القياس فيها : إنّ لفظ الهبة نصّ على ترك العوض ، والنكاح لا بدّ فيه من العوض ، وإن لم يذكر في العقد ، فلا يصح أن يدل عليه بلفظ صريح في ترك العوض .

هذا ما رأينا أن نذكره مما تكلم فيه المفسرون من الأحكام ، وهناك أشياء أخرى عرض لها المفسرون : كالكلام على أعمام النبي ، وعمّاته ، وأخواله ، وخالاته ومن وهبت نفسها من النساء ، وما نرى أن نتابعهم فيه ، لأنّ ذلك حتى بعد صحة ما يروى لا فائدة من ذكره [هاهنا] .

قال اللّه تعالى : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (51) الإرجاء : التأخير والتنحية .

(1) رواه ابن ماجه في السنن (1/ 608) ، 9 - كتاب النكاح ، 17 - باب صداق النساء حديث رقم (1889) .

(185/616)

والإيواء : الضم والتقريب .

والابتغاء : الطلب .

والعزل : الإبعاد .

اختلف في سبب نزول هذه الآية ، فروى أبو رزين العقيلي أنّ نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لمّا أشفقن أن يطلقهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قلن : يا رسول اللّه ! اجعل لنا من نفسك ومالك ما شئت فكانت منهن : سودة بنت زمعة ، وجويرية ، وصفية ، وميمونة ، وأم حبيبة غير مقسوم لهنّ .

وكان ممن آوى : عائشة ، وحفصة ، وزينب ، وأم سلمة : يضمهن ويقسم لهن .

وقيل كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذا خطب امرأة لم يكن الرجل أن يخطبها حتى يتزوجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو يتركها .

ويكون المعنى على ما روى أبو رزين : اعزل من شئت من القسم ، وضمّ إليك من تشاء .

ويرى ابن العربي «1» أنّ القولين غير صحيحين، أما ما روي عن أبي رزين فلم يرد من طريق صحيح.

وأما الآخر، فلأنّ امتناع الخطبة بعد خطبة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لا ذكر له، ولا إشعار به، وهو مع كونه غير خاص بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم لا يكاد يتسق مع باقي الآية.

وقد اختلف العلماء في المراد من الإرجاء والإيواء:

فقد روي عن ابن عباس أنّ معنى الآية: تطلّق من تشاء، وتمسك من تشاء.

وروي عن قتادة: أنّ المعنى: تترك من تشاء، وتنكح من تشاء، وقد أسلفنا لك. عن أبي رزين ما يفيد أن المعنى: تترك من تشاء من غير قسم، وتقسم لمن تشاء.

ويرى ابن العربي «2» أنّ الصحيح في سبب نزول الآية وفي معناها هو ما روي من طريق صحيحة عن عائشة أنها قالت: كنت أغار على اللائي وهبن أنفسهنّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل اللّه تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

وثبت في «الصحيح» «3» أيضا عنها أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يستأذن في يوم المرأة منّا بعد أن نزلت هذه الآية: تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ فقيل لها: فما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول: إن

كان الأمر إليّ فإني لا أريد يا رسول اللّه أن أوثر عليك أحدا أبدا .

---

(1) أحكام القرآن للإمام ابن العربي (3/ 1554) .

(2) المرجع نفسه (3/ 155) .

(3) رواه البخاري في الصحيح (6/ 28) ، 65 - كتاب التفسير ، 7 - باب ترجي من تشاء حديث رقم (4789) .

ويرى ابن العربي «1» أنّ المعنى بعد ذلك هو : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد أذن له في غير إلزام أن يكون مردّ الأمر في القسم إليه ، إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم ، لكنّه كان يقسم بينهن من غير أن يكون القسم فرضا عليه .

وذلك خاصّ به دون المؤمنين . وقد ظلّ شأن النبي مع نسائه وشأن نسائه معه على هذا ، حتى أدرك الكبر سودة بنت زمعة ، فوهبت قسمها لعائشة ، وقالت : لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك .

ولنرجع بعد ذلك إلى تفسير الآية بتمامها ، حتّى يتبين من التفسير أيّ المعاني أجدر بأن يكون مقصودا من الآية .

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ قد عرفت مما سقناه لك آنفا أنّ الإرجاء التأخير ، وأن الإيواء الضم ، وعرفت آراء العلماء في المراد بذلك .

ونزيد هنا أنهم اختلفوا أيضا في مرجع الضمير في (منهن) ، فرآى بعضهم أنه يرجع إلى نساء الأمة جميعا ، وأنّ المعنى أن لك أن تترك نكاح من تشاء من نساء الأمة ، وأن تنكح من تشاء .

وهذا القول بعينه قدمناه لك في جملة الأقوال .

ونقول : إنه لم يفد فائدة جديدة ، فالمقصود منه قد استفيد من آية إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ إلى قول اللّه تعالى : خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ على ما تقدم بيانه ، وهو بعد ذلك لا يتسق مع قول اللّه تعالى : وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ .

ويرى البعض أنّ الضمير للواهبات ، ويكون المعنى إنّ لك أن تقبل هبة من تشاء ، وتترك هبة من تشاء ، ويروون في ذلك من الروايات ما يستندون إليه ، إذ يفيد أنّ بعض الواهبات قبلهنّ الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ودخل بهن ، وأرجأ البعض الآخر ، ولم يدخل بهن ، ويقولون : إنّ منهن أمّ شريك .

وأنت تعلم مما سبق أن العلماء اختلفوا في وقوع الهبة ، وعلمت أنّ الصحيح أنّها وقعت ، وعلمت كذلك أنهم اختلفوا في قبوله صلّى اللّه عليه وسلّم الهبة منهن ، وأن الصحيح أنه لم يكن تحته امرأة وهبت نفسها ، ومتى علمت هذا كان لك أن تحكم بضعف هذا القول ،

خصوصا إذا نظرت إلى أن ضمير (منهن) للجمع ، ولم يرد للواهبات ذكر بالجمع حتى يكون مرجعا ، فخير أن يكون مرجع الضمير لنسائه اللاتي هنّ تحته : وأنّ المراد ترك أمر القسم إليه ، إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم توسعة عليه ، حتى تطمئن نفوس زوجاته ، على ما يأتي بيانه .

---

(1) أحكام القرآن للإمام ابن العربي (3/ 1556) .

(187/616)

وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ أي أنّه لا حرج ولا إثم إذا عنّ لك أن تطلب إحدى المرجئات والمعزولات ، فتضمها ، وتؤويها إليك بعد عزلها وإرجائها ، ويجوز حمل الإرجاء والعزل هنا على الطلاق ، ويكون المعنى : ومن طلبت رجوعها ممن تكون قد عزلت فلا جناح عليك في طلب رجوعها إلى العصمة .

ويجوز أن يراد منه التأخير في القسم ، أو ترك القسم ، ويكون المعنى : ومن طلبت إيواءها وإدخالها في القسم ممن أخرت القسم لها أو تركته ، فلا جناح عليك .

وأما أن يراد بالابتغاء طلب النكاح ، وبالعزل والإرجاء تركه ، على أن يكون المعنى : ومن طلبت نكاحها من اللاتي تركت فبعيد ، لأنّ العزل مشعر بأن تكون المعزولة كانت في زمرة

ثم عزلت ، وفصلت عنها . والتي رفض نكاحها لا يقال :

إنها كانت في زمرة فصلت وعزلت منها . ومَنْ عل كلّ هذا شرطية جوابها فلا جناح عليك .

وروي عن الحسن أنّ معنى الآية : إنّا جعلنا لك أمر الإرجاء والإيواء ، وجعلنا لك أيضا أن تطلب نكاح من تشاء عوضا ممن عزلتها بالطلاق أو بالموت . وهو في هذا يحمل الإرجاء على الطلاق ، ويكون المعنى : أن اللّه أحلّ لك صنوفا من الأزواج ، تطلق من تشاء منهن ، وتعتاض عمن عزلت بالطلاق أو بالموت منهن ، وعلى هذا (فمن) في قوله : مِمَّنْ عَزَلْتَ للبدل ، مثلها في قوله تعالى : أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ أي بدل الآخرة .

ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً اسم الإشارة يرجع إلى ما تضمّنه الكلام السابق من تفويض أمر الإرجاء والإيواء إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، أي إنّ تفويضنا الأمر – في إبقاء من تشاء ، وترك من تشاء ، أو في القسم وتركه إليك – أقرب أن تكون أعينهن قريرة . وذلك كناية عن سرورهن بذلك ، فلا تحزن من كان لهن الإرجاء ، ويرضين بما تصنع معهن . لأنّه متى علمن أنّ الأمر صار إليك ، صار في مرجو المعزولة أن تكون يوما صاحبة فراش ، فلا تيأس من قربك ، ولا تقنط من رحمة اللّه .

وأما قوله تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ فهو خطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولأزواجه

رضي اللّه عنهن ، وجمع بجمع الذكور للتغليب ، وتعقيب الكلام السابق بهذا يراد منه الحثّ على إصلاح ما عساه يكون في القلوب جميعا بالقدر المستطاع ، فيخفف النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما عساه يكون منه من أثر للميل في معاملة نسائه ، ويذهب من النساء ما عساه يكون من أثر للغيرة التي تغلب النساء عادة وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً يعلم خفيّات الصدور ، وما يكون لها من آثار ظاهرة وباطنة . ولا يعجل العقاب قبل الإرشاد والنصح .

(188/616)

قال اللّه تعالى : لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (52) لا يزال الكلام متصلا في خطاب الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم في شأن أزواجه ، فلا تبحث عن الربط . و(بعد) في قوله : مِنْ بَعْدُ ظرف مبني على الضم لحذف المضاف إليه .

وقد اختلف في تعيين هذا المحذوف على ثلاثة أقوال ترجع في الحقيقة إلى اثنين .

1 - روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنّه قال : المراد من (بعد) من عندك من النساء اللواتي اخترنك على الدنيا ، ويكون ذلك قصرا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم على أزواجه مجازاة لهنّ ، وشكرا على هذا الاختيار ، كما قصرهن اللّه عليه إكراما له في قوله :

وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً .

2 – روي عن أبي بن كعب رضي اللّه عنه أنه قال : المراد من (بعد) من أحللنا لك في الآية المتقدمة ، وهن الأصناف الأربعة .

3 – روي عن مجاهد أن المعنى : لا يحل لك نكاح غير المسلمات .

وهذا الرأي الأخير في الحقيقة يرجع إلى الثاني ، لأنّ المروي عن أبيّ يدل عليه ، إذ ليس في الأصناف التي أحلّت للنبي غير مسلمة ، فيكون ما روي عن مجاهد داخلا في الذي روي عن أبيّ ، ويكون المعنى : لا يحل لك من عدا من آتيت أجورهن ، وقرابتك المؤمنات .

المهاجرات وما ملكت يمينك ومن وهبت نفسها إليك .

ويقول ابن العربي « 1 » : ويقوى في النفس قول ابن عباس ، واللّه أعلم كيف وقع الأمر .

وسيأتي لنا كلام في هذا عند الكلام على آراء العلماء في نسخ الآية .

وقد اختلف العلماء أيضا في قوله تعالى : وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ فروي عن ابن عباس أنّ المراد : لا يحلّ لك أن تطلّق أحدا من أزواجك لتنكح غيرها .

وروي عن مجاهد أن المعنى : لا يحل لك أن تبدل المسلمة التي عندك بمشركة ، ونقل عن ابن زيد أن المعنى : لا تعطي زوجك بدلا من زوج رجل آخر .

أما قول مجاهد فهو مبنيّ على رأيه في صدر الآية ، ولو تأملت وجدت صدر الآية مغنيا عنه على حسب تأويله هو ، فإنّ صدر الآية معناه عنده : لا يحل لك نكاح غير المسلمات ،

وذلك يقتضي تحريم العقد عليهن مطلقا ، سواء أكان العقد مبتدأ ، أم على وجه الإتيان بالمشركة بعد اطراح المسلمة من العصمة ، وحينئذ يخلو وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ من الفائدة .

---

(1) انظر أحكام القرآن للإمام ابن العربي (3/ 1559) .

وأما قول ابن زيد فباطل أيضا ، فإنّ نكاح الاستبدال الذي يدّعيه حرام على كل الناس ، فلا يكون هناك محلّ لتوجيه الخطاب إليه وحده .

وأما إعراب قوله تعالى : وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ فيرى البعض أنّها في موضع الحال ، والمعنى : لا يحل لك أن تتبدل بهن أزواجا على أي حال ، حتى حال إعجابك بحسنهن . ويرى البعض أنّ هذه جملة شرطية حذف جوابها ، لفهمه من الكلام ، والمعنى : ولو أعجبك حسنهنّ لا يحل لك نكاحهن .

إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ رأيت في الذي سبق أنّ تقييد حلّ المملوكة بكونها فيئا لا يقصد منه الاحتراز ، وقد جاء استثناء المملوكات من المحرمات مطلقا ، فهو متفق مع الذي قلنا هناك .

وأما من يرى أنّ القيد هناك للاحتراز ، فلعله يحمل المطلق هنا على المقيد هناك ، أو لعلّه يقول : إنّ العموم هنا أبطله الخصوص هناك ، وما نريد أن نعرض إلى أن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم هل كان يحل له الكافرات ، أو هن كنّ محرمات عليه ؟ فالواقع أنّ النبي لم ينكح كافرة بعد الرسالة ، والبحث في حلهن وحرمتهن غير مجد بعد ذلك .

بقي أنّ العلماء اختلفوا في الآية : أبقيت محكمة لم يدخلها النسخ ، أم نسخت ؟

والذين قالوا بالنسخ اختلفوا في الناسخ : أهو الكتاب أم السنة ؟ فذهب جماعة إلى أنّها محكمة ، وأنّ ذاك كان تكريما للمختارات ، وجزاء على إحسانهن .

ويرى البعض أنها منسوخة ، ويروون في ذلك حديثا عن عائشة : «ما مات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلا وقد أحلّ اللّه له من شاء من النساء إلا ذات محرم» «1» ويقول ابن العربي «2» في هذا : إنه حديث ضعيف شديد الضعف .

والذين ذهبوا إلى النسخ اختلفوا في الناسخ ، فيرى بعضهم أنّ الناسخ هو قوله تعالى : إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ إلى آخر الآية ، ويقولون : إنّ الترتيب في التلاوة ليس دليل الترتيب في النزول .

وهذا عجيب من قائليه ، فإنّ النسخ في الحقيقة يعتمد ثبوت تأخر الناسخ عن المنسوخ ، وأن يكون بينهما تعارض ، وأين هذا مما يقولون ؟ هل مجرد احتمال أن تكون الآية التي معنا متقدمة في النزول كاف لإثبات النسخ فيها ؟

أما الذين قالوا : إن الآية منسوخة بالسنة ، وإن ذلك دليل على جواز نسخ الكتاب بالسنة ، فأمرهم أعجب ، فإن الذين يجيزون نسخ الكتاب بالسنة لا يقولون إنّه

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (5/ 332) ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الأحزاب حديث رقم (3216) ، والحاكم في المستدرك (2/ 437) .

(2) انظر أحكام القرآن للإمام ابن العربي (3/ 1559) .

(190/616)

ينسخ بكل سنة ، بل كان متواترا معنى ، وهو المشهور ، فكيف يكون النسخ هنا بقول عائشة ، وهي لم ترفعه ، وفوق ذلك يقول ابن العربي فيه : إنّه حديث ضعيف .

ثم كيف جاز لهم أن يجعلوا النسخ هنا دليلا على القاعدة الأصولية : نسخ الكتاب بالسنة ، والأصول لا تثبت إلا بقاطع كما يقولون . وحديثهم الذي يستدلون به على النسخ قد علمت قيمته .

وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً يطلع على ما يكون من كل أحد فيجازيه بحسابه .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ

يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (53) روي في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة سنذكرها ، ونبيّن الصحيح منها بعد أن نقول لك : إنّ الكلام هنا بيان لما يكون عليه حال المؤمنين مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو في البيت ، وذلك ينتظم أحوالا كثيرة بينت الآية الكريمة أحكامها : منها لزوم عدم الدخول إلا بعد صدور الإذن ، وهذا يكون بعد الاستئذان . ومنها أن الدخول إذا كان لطعام فيلزم أن يكون المجيء إليه في إبانه لا قبله . وأن ينتشروا على فور الطعام ، ولا يمكثوا سامرين .

وسيأتي عند الكلام على تفسير الآية ما يراه العلماء في معنى الآية ، وإنما نذكر هنا أن الآية سيقت لبيان آداب الناس في بيت الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، والآية بعد هذا اشتملت على أحكام دخول البيت ، وعلى حجاب النساء ، ومنع المؤمنين من مخالطتهن ، ولو من طريق المسألة إلا من وراء حجاب .

وقد ذكر العلماء أسبابا كثيرة يرجع بعضها إلى مسألة دخول البيت ، ويرجع بعضها الآخر إلى مسألة حجاب نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم .

ونرى أن لا مانع من أن يكون كلّ ما روي بعد أن يكون صحيحا سببا للنزول ، وقد علمت مرارا أنّ الآية نزلت على أسباب كثيرة .

روى البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له «1» عن أنس بن مالك قال : تزوج

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1042) ، 16 - كتاب النكاح ، 13 - باب الصداق حديث رقم (80/ 1428) ، والبخاري في الصحيح (6/ 29) ، 65 - كتاب التفسير ، 7 - باب لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا . . . حديث رقم (4791 ، 4792) ، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 333) ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأحزاب حديث رقم (3218) .

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فدخل بأهله ، فصنعت أمّ سليم حيسا ، فجعلته في تور ، وقالت لي : يا أنس اذهب بهذا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقل : بعثت إليك بها أمي وهي تقرئك السلام ، وتقول : إنّ هذا لك منا قليل يا رسول اللّه . قال : فذهبت بها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقلت : إنّ أمي تقرئك السلام ، وتقول : إنّ هذا منا لك قليل يا رسول اللّه . فقال :

«ضعه» ، ثم قال : «اذهب فادع لي فلانا وفلانا ، ومن لقيت» فسمّى رجالا . قال : فدعوت من سمّى ومن لقيت ، قال : قلت لأنس : عددكم كما كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة ،

قال : قال لي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «يا أنس هات التّور» قال : فدخلوا حتى امتلأت الصفّة والحجرة ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «ليتحلّق عشرة عشرة ، وليأكل كلّ إنسان مما يليه» قال : فأكلوا حتى شبعوا ، قال : فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم قال : قال لي : يا أنس ارفع ، قال : فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ! قال : وجلس منهم طوائف يتحدثون في بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ورسول اللّه جالس ، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فسلّم على نسائه ، ثم رجع . فلما رأوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قد رجع ظنّوا أنّهم قد ثقلوا عليه ، قال : فابتدروا الباب ، فخرجوا كلّهم ، وجاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى أرخى الستر ، ودخل ، وأنا جالس في الحجرة ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج عليّ ، وأنزلت هذه الآيات ، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقرأهن على الناس : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ إلى آخر الآية [53] ، قال أنس : أنا أحدث الناس عهدا بهذه الآيات ، وحجبن نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم .

ورويت روايات كثيرة قال فيها أبو بكر بن العربي «1» : إنها ضعيفة كلّها ما عدا الذي ذكرنا ، وما عدا الذي روي أنّ عمر قال : قلت يا رسول اللّه يدخل عليك البرّ والفاجر ،

فلو أمرت أمهات المؤمنين أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب «2» . وما دامت الروايات لم تصح فلنعرض عن ذكرها .

وهناك رواية أخرى في «الصحيح» «3» أيضا تعيّن الزوجة ، وذلك على نحو ما روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أنس قال : لما تزوّج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم زينب بنت جحش ، دعا القوم ، فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام . فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء

---

(1) انظر أحكام القرآن للإمام ابن العربي (3/ 1575) .

(2) رواه البخاري في الصحيح (6/ 29) ، 65 - كتاب التفسير ، باب لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا . . .

حديث رقم (4790) . [. . . . .]

(3) سبق تخريجه .

النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا ، فجئت فأخبرت النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم أنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فألقى الحجاب

بيني وبينه ، فأنزل اللّه تعالى :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ .

ولعلّك بعد الذي قدّمنا في غير حاجة إلى إعادة القول في إضافة البيوت مجموعة إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فهي بيوته ، اختصّ بها ، وأعدها لسكنى أزواجه المتعددات ، وقد نهى اللّه المؤمنين أن يدخلوا هذه البيوت إلا دخولا مصحوبا بالإذن ، والاستثناء في قوله تعالى : إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا حال كونكم مصحوبين بالإذن لكم ، وتكون باء المصاحبة مقدرة في الكلام .

وذهب بعضهم إلى أن الباء المقدّرة باء السببية ، والاستثناء من عموم الأسباب .

وذهب الزمخشري إلى عدم تقدير الباء ، وإلى أن الاستثناء من عموم الأوقات ، أي لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت الإذن ، وهذا متوقف على صحة وقوع المصدر المؤول مع الظرف . ويرى أبو حيان أنّ وقوع المصدر موقع الظرف خاصّ بالصريح دون المؤول ، والمسألة خلافية من خلافيات النحاة ، والأشهر أنه لا يجوز .

وقوله تعالى : إِلى طَعامٍ متعلّق بيؤذن ، وكان الظاهر أن يعدّى (بفي) بدل (إلى) إلّا أنّ الفعل يُؤْذَنَ ضمّن معنى الدعوة ، فعدّي بما يتعدى به فعلها ، وتضمينه معنى الدعوة للإيذان بأنه لا ينبغي الدخول للطعام إلا بدعوة إليه ، وإن وجد صريح الإذن بالدخول ، ويرى البعض أنّ إِلى طَعامٍ تنازعه تدخلوا ويؤذن .

غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ إناه مصدر مضاف إلى الضمير ، نقول : أنى الطعام يأنى إذا نضج إنى ، أي نضجا .

ويرى بعضهم أنّه ظرف بمعنى حين ، وهو مقلوب آن ، فجاءت النون قبل الألف ، وغيرت فتحة الهمزة كسرة ، والمعنى على الأول : غير منتظرين نضجه ، وعلى الثاني غير منتظرين وقته ، أي وقت إدراكه ونضجه ، وهما متقاربان .

ثم إن (غير) منصوب على الحالية ، وهي حال مترادفة ، أي لا تدخلوا في حال من الأحوال ، إلا حال الإذن لكم ، غير منتظرين النضج أو وقته ، وصاحب الحال على هذا هو واو الجماعة في لا تَدْخُلُوا .

ويرى بعضهم أنه حال من فاعل فعل محذوف ، أي ادخلوها غير ناظرين إناه .

وجوّز بعضهم أن يكون حالا من الضمير المجرور في لَكُمْ ، ويكون المعنى : لا تدخلوا إلا حال الإذن ، حال كونكم غير ناظرين . ويكون هذا إشارة إلى أنّ الإذن ينبغي أن يكون لمن كانت عادته لمن يسبق وقت الطعام ، فإنّ ذلك يكون إثقالا على من في البيت .

(193/616)

ويرى البعض أنّ قوله : غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ حال من الواو في تَدْخُلُوا ويكون المعنى : نهيهم عن الدخول في هذه الحال ، وهي حال عدم انتظار الطعام . وهم يروون في ذلك أنّ بعض أصحاب الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم كان يدخل في وقت الطعام من غير سابق دعوة ، وكانوا يسمّون الثقلاء من أجل ذلك ، وبعد تسليم ما رووا فكيف تفيد الآية النهي عن الذي كان منهم ؟ لعلهم يقولون : إنّ المعنى : لا تدخلوا حال كونكم غير منتظرين وقت الطعام ، إلّا أن يؤذن لكم . ويكون المراد نهيهم أن يدخلوا على الفجاءة ، وأما إذا جاؤوا ومكثوا انتظارا للطعام ، فلا يكون ذلك منهيا عنه وهم بهذا يدفعون ثقيلا بأثقل منه ، إذ إنهم يجوز لهم حينئذ أن يدخلوا البيت ، ويمكثوا ما طاب لهم المكث حتى يجيء الطعام ، ويهيّأ لهم .

وَلَكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا هذا استدراك على ما فهم من النهي عن الدخول بغير إذن ، وهو مشعر بأنّ الإذن متضمّن معنى الدعوة ، وهو بعد هذا تصريح بما علم قبل .

فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا أمر بالتفرّق بعد الفراغ من الطعام ، بعدية يرجع في تحديدها إلى ما يجري به العرف .

وأنت بعد الذي اطلعت عليه من سبب نزول ترى أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم كان قد ثقل عليه أن يمكث هؤلاء الأضياف بعد أن فرغوا من الطعام ، ولم يدعوه يتفرّغ لبعض شأنه في بيته ، وكان يمنعه الحياء أن يأمرهم بالتفرّق .

وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ الاستئناس للحديث طلب الأنس به ، والطمأنينة والسرور والارتياح له ، وقد أطلق نفي الاستئناس للحديث من غير بيان صاحب الحديث ، للإشارة إلى أنّ المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق ، أيا كان الاستئناس ، سواء كان لحديث بعضهم بعضا ، أو لحديث غيرهم ، فإنّ الأمر كان أمر وليمة ، وقد انتهت ، ولم يبق إلا أن يفرغ من البيت لبعض شأنهم ، والبقاء بعد ذلك نوع من الثقل غير محمود .

ويرى بعض المفسرين أنّ قوله تعالى : مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ معطوف بالجر على (ناظرين) وتكون (لا) لتأكيد النفي ، ويجوز أن تكون (لا) بمعنى (غير) معطوفة على (غير ناظرين) . ويرى البعض أنّ (مستأنسين) حال من فاعل فعل محذوف دلّ عليه الكلام ، أي ولا تمكثوا مستأنسين لحديث ، واللام في قوله : (لحديث) إما تعليلية داخلة على محذوف ، أي لأجل استماع الحديث ، أو هي للتقوية .

إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ هذا بمثابة التعليل لما قبله ، أي إنما نهيتم عن دخول بيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلا في الحدود المبينة ، لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يتأذّى من الدخول على غير هذه الحدود وإيذاء النبي لا يصح أن يكون من المؤمنين ، من أجل

ذلك بيّنا لكم الحدود ، ورسمنا الطرق ، حتى لا يلحقه أذى ، وقد كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ضجرا على ما عرفت من أسباب النزول . من بقاء من بقي عنده بعد انتهاء الطعام ، بل لقد همّ بالقيام لينتبهوا فيقوموا فأقاموا ، ولقد كان يمنعه الحياء أن يأمرهم بالانصراف .

وقد كان من عادات العرب ألّا يطلبوا إلى الضيف الانصراف بعد القرى مهما طال المكث ، وكان الناس من أجل ذلك في حاجة لأن يتعلموا آداب المنازل ، والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم شديد الحياء ، فنزل القرآن إرشادا لهم وتعليما .

واسم الإشارة على ما ترى راجع إلى ما يكون منهم من الدخول على غير الوجوه المبيّنة ، وقيل : بل هو راجع إلى مفهوم من الكلام ، وهو المكث قصد الاستئناس للحديث ، أو راجع إلى الاستئناس المفهوم من مستأنسين .

والاستحياء على الحقيقة لا يكون منهم ، وإنما يكون من شيء يتصل بهم ، ويلحقهم من جهته ، وهو إخراجهم أو منعهم من البقاء والمكث ، وإلا فالذات لا يستحيا منها ، إنما يكون الاستحياء من الأفعال .

انظر إلى قوله تعالى : وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ فإنّه يدل على أنّ الذي كان يستحي منه النبي هو الحق ، وهل يتصف بالحقيقة إلا الأفعال ؟ ولو كان المراد الاستحياء من ذواتهم

لقال تعالى في مقابله والله لا يستحي منكم .

وأطلق استحياء الله من الحق وأريد منه عدم السكوت عن بيانه ، فسمّى السكوت عليه استحياء على طريق المشاكلة ، لوقوعه بجانب استحياء الرسول صلّى الله عليه وسلّم من إخراجهم .

و[يفيد] ظاهر الآية منع مكث المدعو إلى الطعام بعد تناول الطعام إذا كان ذلك مؤذيا لصاحب البيت ، وإذا كانت الآية التي معنا خاصة بآداب دخول بيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقد تكفّلت سورة النور ببيان آداب دخول المنازل على الإطلاق في قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) [النور : 27] وفي غيرها من الآيات ، فارجع إليها إن شئت .

وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً .

لا يزال الكلام كما ترى متصلا في ذكر آداب الدنو من بيوت النبي صلّى الله عليه وسلّم ، ترى ذلك ماثلا في ضمير النساء في قوله تعالى : سَأَلْتُمُوهُنَّ فهو راجع إلى نساء النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وقد فهم اشتمال الكلام عليهن من النهي عن دخول البيوت ، وعن إطابة

المكث تلذذا بالحديث ، وعن الأمر بالدخول إن كانت هناك دعوة ، والانتشار عقب الطعام ، ومن أن مخالفة ذلك تؤذي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو ما كان ليتأذّى لو لا وجود النساء في البيوت ، فإرجاع الضمير إلى مفهوم من الكلام السابق مؤذن بأنّه متصل بالكلام

(195/616)

السابق ، متمّم له في ذكر آداب البيوت ، واقع على ما وقع عليه من سبب ، فهو في غير حاجة إلى ربط جديد ، ولا إلى سبب خاصّ يقع عليه ، وأنه ليكفي أن يوجد شأن من الشؤون يتصل بالبيوت ، لنذكر كل الأحكام التي تكفل حياطة البيوت من الأذى .

ويرى بعض المفسرين تنزيل هذه الآية على سبب خاص روي هنا من طريق صحيح ، ويعدون الآية إحدى موافقات القرآن لعمر رضي اللّه عنه ، وذلك على نحو ما قدمنا مما روى البخاري «1» وغيره عن أنس رضي اللّه عنه أنه قال : يا رسول اللّه يدخل عليك البرّ والفاجر ، ولو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل اللّه آية الحجاب .

وليس هناك ما يمنع أن يكون ذلك أحد الأسباب التي نزلت من أجلها الآيات في شأن بيوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويكون قد جاء في بعضها أو كلها ما يوافق رأي عمر ،

وحرصه على كرامة نساء الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فتكون الأسباب قد تجمّعت فنزلت الآيات متصلا بعضها ببعض في صيانة بيوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وحرمة أزواجه .

والمتاع ما يستمتع به حسيا كالماعون ، أو معنويا كتعرّف الأحكام ، والحجاب : الساتر ، وتكليف الرجال سؤال النساء المتاع من وراء حجاب مؤذن بتكليف من في البيوت ضرب الحجاب ، لأنّه من غير المعقول أن يكون ضرب الحجاب على غير أصحاب البيوت .

ذِلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ الإشارة راجعة إلى السؤال من وراء حجاب ، أو إلى كلّ ما تقدم من الأحكام ، ومعنى كونه أطهر أنّه أكثر تنزيها لقلوب الرجال والنساء من الهواجس التي تتولّد فيها عند اختلاط الرجال بالنساء ، فإنّ الرؤية بريد الفتنة .

هكذا كفل القرآن بيوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بهذه الأحكام ، وأبعد عنها الريبة .

واجتث أصول المخاوف والفتنة ، فالآيات كما ترى خاصّة بآداب الاتصال ببيوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم خاصة بلفظها ، وبتوجيه الخطاب فيها ، وبأسباب نزولها ، وبما ذكر فيها من علة .

وأما بيوت المؤمنين فقد تكفلت بآدابها سورة النور كما قلنا لك وآية يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ الآية في سورة الأحزاب

وستعرف فيها آراء العلماء في الحجاب .

وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً .

والمعنى : أنّه لا يكون من شأن المؤمنين أن تقع منهم أذية للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أيا كان نوعها ، سواء أكانت من النوع الذي ذكر في الآية مما يتصل بالبيوت ، أم من غيرها ، وهذا التعميم يرشد إليه إطلاق الفعل . تُؤْذُوا عن التقييد بكونه في البيوت ،

---

(1) سبق تخريجه .

أو في غيرها ، فدلّ ذلك على أنّ شأن المؤمنين ألا يكون منهم للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم إلّا ما يكون إكراما وشكرا على ما أسدى إلى الأمة من خير ، فلا معنى لتقييد الأذى هنا بنوع منه ، كاللبث في بيوته صلّى اللّه عليه وسلّم ، والاستئناس للحديث فيها ، وكون الآية وردت في هذا السياق لا يقتضي تقييدها به ، بل يقتضي دخولها في العموم الذي دلّت عليه الآية .

وذكر النبي بوصف الرسالة هنا مشعر بتوبيخ من تحدّثهم نفوسهم بأذيته ، إذ ذلك يكون كفرانا بنعمة الرسالة الواجب شكرانها .

وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ ذكر هذا بعد النهي عن الأذى بصيغة الخبر من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، للاهتمام به ، فإنّ امتهان فراش الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم من أكبر الأذى .

وقد عرض المفسرون هنا للكلام في المراد من الأزواج ، وقد سبق لك عند الكلام على آية التخيير شيء من هذا .

فقد ذهب بعضهم إلى أنّ الأزواج اللائي لا ينكحن هن من ثبت لهن هذا الوصف ، ولو من طريق العقد من غير أن يدخل بها . وإطلاق الأزواج هنا ظاهر في هذا .

ويرى بعضهم كإمام الحرمين قصره على المدخول بها ، ونحيلك هنا على ما ذكرناه عند الكلام على المختارات ، لتقف على أرجح الأقوال في ذلك .

وقد عرض المفسّرون أيضا إلى البعدية من قوله تعالى : مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً هل هي بعدية الوفاة ، أو بعدية الفراق مطلقا . وما دام أنه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يثبت أنّه طلق أحدا من نسائه من طريق صحيح ، وحتى التي قيل : إنها اختارت الدنيا قيل : إنها جنّت ، وقد منعه اللّه من أن ينكح أزواجا بعد اللائي كنّ معه ، وأن يطلقهن ليتزوج غيرهن .

فما نرى معنى لهذا الذي خاض فيه المفسرون ، ونرى أنّ البعدية بعدية الوفاة .

وأما الكلام في حلّ المطلقة ، ومن فسخ نكاحها فهو كلام مبني على الفرض والتقدير ، ولا شأن للآية به ، وإن كان لنا أن نقول شيئا فذلك أنّ إضافة البعدية إلى ضميره صلّى اللّه عليه

وسلّم ظاهر في بعدية الوفاة . وأيضا فإنّ منع المؤمنين من نكاح أزواجه إنما هو لكفّ الأذى عنه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأي أذى يلحقه من أن تنكح امرأة نبذها ، ولم تنل شرف أمومة المؤمنين . إنّ منع زواجها فيه أذاها هي ، ولا يليق أن يكون مقصدا من مقاصد الشريعة إلحاق الأذى بالناس ، على أنّ منعها من الزواج فيه تسوية بينها وبين من نلن رضاء الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، واللازم عدم التسوية .

إِنَّ ذِلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً اسم الإشارة راجع إلى إيذاء الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ونكاح أزواجه من بعده .

قال اللّه تعالى : إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (54) لما كان مقام البيوت خصوصا بيوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقتضي حيطة شديدة ، حتى يكون

الامتثال للأحكام الواردة فيه يتفق فيه الظاهر والباطن ، أعقب اللّه الآيات الواردة فيه بما يجعل الناس في تمام اليقظة ، وعلى أشد ما يكون من الحذر ، ذلك أنه نبههم إلى أنّ علمه قد أحاط بخفيات النفوس ، فضلا عما يظهر منها ، وذلك تهديد شديد يقطع ما يخالج النفوس من الوساوس ، وما يحيط بها من دوافع الشهوات ، فيعمل الناس على الإقلاع عن مجاراة

الوساوس ، واستئصال نوازع الشهوات ، فإنّ اللّه مطّلع على ما ظهر وما خفي ، ومجاز كلّ إنسان بحسب ذلك العلم ، ومن ذا الذي يستطيع بعد هذا أن تحدثه نفسه بالدنو من الأذى ، واللّه القادر على الجزاء قد أحاط بكل شيء علما .

قال اللّه تعالى : لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (55) قد فهم مما تقدّم أنّ على نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يحتجبن عن الرجال ، ولا يظهرن عليهم ، وقد يفهم النصّ على عمومه ، فيتناول أقرب الناس إليهنّ ، وفي ذلك ما فيه من حرج ، بل قد يكون فيه قطع الرحم التي أمر اللّه أن توصل ، فجاءت هذه الآية الكريمة لبيان الأقارب الذين لا يحرم ظهور نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أمامهم من غير حجاب .

وقد ذكر اللّه من ذلك ستة أصناف هم : الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، وأبناء الإخوان ، وأبناء الأخوات ، والنساء المضافات إليهن ، وما ملكت أيمانهنّ .

وقد بقي من المحارم : الأعمام والأخوال من غير ذكر ، وقد ذهب العلماء في ذلك مذاهب :

فمنهم من يرى أنه اكتفي عنهم بذكر الآباء ، وقد جرى العرف بإطلاق الأب على العم والخال .

ومنهم من رأى أنّ في ذكر أبناء الإخوان رمزا إلى قرابة العمومة ، وفي ذكر أبناء الأخوات رمزا إلى قرابة الخئولة ، وذلك أن من يكون ابن أخي المرأة تكون المرأة عمته ، ومن يكون ابن أختها تكون هي خالته .

وعجب أن يرى بعض العلماء أنّ عدم التنصيص على الأعمام والأخوال يقتضي وجوب الاحتجاب منهم ، ويذهب في التعليل مذهبا أعجب ، فيقول : إنّ الأعمام والأخوال لو اطلعوا على النساء فربّما وصفوهنّ لأبنائهم ؟

يا هؤلاء ! أنتم تتكلمون في نساء متزوجات ، هن أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فهل يريد العم أن يفسد ابنة أخيه على زوجها – وهو المصطفى – ليزوجها لابنه ، وهل تقولون :

إنّ الحكم كذلك في سائر النساء ، ولا تعدون الأخوال والأعمام محارم في حق النظر ، أو تقولون إن ذلك خاص بنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ؟ ! وإذا كان خوف الوصف يصلح علّة للحجاب ، فالوصف ممكن في الجميع ، لا للأقارب فحسب ، بل للأجانب ، فكلّ من

أبحتم له النظر يمكن أن يصفها لكل من تحلّ له ، سواء أكان قريبا أم أجنبيا ، والعمة والخالة تريان من المرأة كل شيء إلا العورة ، ويمكن أنّ كلّ واحدة منهما تصف لابنها ما رأت من ابنة أخيها أو من ابنة أختها .

وكيف يمكن أن يكون إمكان الوصف علة في الحجاب ، وقد أباح النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نظر المرأة لمن أراد أن يخطبها وقال : «انظر إليها ، فإنّه أحرى أن يؤدم بينكما» «1» .

وقد اختلف العلماء في تعيين المراد من النساء في قوله تعالى : وَلا نِسائِهِنَّ فروي عن ابن عباس ومجاهد أنّ المراد منهنّ المؤمنات ، وتكون إضافتهن إليهن باعتبار أنهن على دينهن ، ويكون ذلك دليل احتجاب نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الكافرات .

ويرى بعضهم أنّ المراد منهن النساء القريبات ، وتكون إضافتهنّ إليهن لمزيد اختصاصهن بهن ، لما لهنّ من صلة القرابة ، وكذلك من يكون من النساء مضافا إليهن لأي صلة أخرى ، كالمتصرفات الخادمات .

وأما ما ملكت الأيمان فهو بظاهره ، ويعمّ الذكور منهم والإناث ، وتخصيص بعض العلماء له بالإماء يحتاج إلى دليل يدلّ على أنّ المرأة تحتجب من عبدها ، ويبقى ظاهر الآية معمولا به حتى يقوم الدليل .

وقد تكلم بعضهم بعد ذلك في دخول المكاتب ، وعدم دخوله ، وهو رقيق ما بقي عليه

درهم ، فمن نظر إلى هذه الجهة قال : إنّ الآية تتناوله بظاهرها ، وإخراجه يحتاج إلى الدليل ، ومن نظر إلى أنّ اللّه إنما أباح الظهور للعبد لحاجة المرأة إلى خدمته ، ومن حيث إنه حرّ يدا ، وهو مشغول بسعيه في أداء بدل الكتابة ، فهو لا يقوم بخدمة سيدته ، ومن أجل ذلك لا يوجد المعنى الذي من أجله رفع الجناح في العبيد ، فلا يكون مما تتناوله الآية .

وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً لما كان أمر الحجاب عن الأجانب ، والترخيص في تركه للأقربين المحارم يحتاج إلى كثير من الحذر والتقوى ، فقد يجر دخول الأقارب بيوت الأزواج إلى مفاسد ومنغّصات ، وقد يكون في الكلام مع الأجانب من وراء الحجب ما لا يقل عن تلك المفاسد . وتلك أشياء قد ترتكب مع التظاهر بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وليس من علاج لهذه الحال ، إلّا أن يلزم النساء خشية ربهنّ وتقواه . وجه اللّه الخطاب للنساء بعد أن كان الحديث عنهنّ حديثا عن الغائبات ، حتى

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (3/ 397) ، كتاب النكاح ، باب النظر إلى المخطوبة حديث رقم (1087) ، وابن ماجه في السنن (1/ 599) ، 9 - كتاب النكاح ، 9 - باب النظر إلى المرأة حديث رقم (1865) ، والنسائي في السنن (5 - 6/ 378) ، كتاب النكاح ، باب إباحة النظر حديث رقم (3235) .

يكون لهنّ من علمهن بمراقبة اللّه وعلمه ما قد تنطوي عليه نفوسهن وقاية ودرعا يقيهن من الوقوع في مهاوي الفساد . وانظر كيف عقّب اللّه أمرهنّ بالتقوى بقوله : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً يعلم علم شهود وحضور ومعاينة ، فيجازي على ما يكون ، وفي ذلك منتهى التحذير من مخالفة الأوامر والنواهي ، ولقد بلغ من المبالغة في تكريم أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن قال بعض العلماء بحرمة نظر نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهنّ مستترات . قال القاضي عياض «1» : فرض الحجاب مما اختصصن به ، فهو فرض عليهنّ بلا خلاف في الوجه والكفين ، فلا يجوز لهنّ كشف ذلك في شهادة ولا غيرها ، ولا إظهار شخوصهن وإن كنّ مستترات إلا ما دعت إليه ضرورة . واستدلّ لذلك بما روي أنّ حفصة لما توفي عمر رضي اللّه عنه كان يسترها النساء أن يرى شخصها . ويرى ابن حجر بحق أنّ ذلك إن صحّ فلا دلالة فيه .

وقد كان نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يؤدين الحج بعد وفاته . ، ويطفن بالبيت ، ويسعين بين الصفا والمروة ، ولو قيل : إنّ الستر وعدم النظر إلى الشخوص أفضل ومندوب لكان شيئا يصح أن يصار إليه ، ويشهد له ما روي أنّ عمر رضي اللّه عنه أمر يوم وفاة زينب بنت جحش ألا يشهد جنازتها إلا ذو رحم محرم منها ، عملا بالحجاب ، فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش بقبة تضرب عليها ، وقالت : إنها رأت ذلك في

بلاد الحبشة ، فصنعه عمر .

قال اللّه تعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (56) قد بين اللّه تعالى فيما سبق أنّ شأن المؤمنين ألا تكون منهم أذية للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وذلك بعث على تكريمه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وحياطة لمقامه الشريف ، وهنا بيّن اللّه تعالى أنّ اللّه يكرم نبيّه على وجه التأكيد ، فكان ما هنا بمثابة العلة لما قبله ، فكأنه قيل : ما كان لكم أن تؤذوه ، لأنّ اللّه يصلّي عليه والملائكة ، وما دام الأمر كذلك فهو لا يستحق إلا الإكرام والتمجيد ، وأكّد الخبر اهتماما به ، وجيء به جملة اسمية لإفادة الدوام ، وكانت الجملة اسمية في صدرها فعلية في عجزها للإشارة إلى أنّ هذا التمجيد الدائم يتجدّد وقتا فوقتا على الدوام .

وقد ذكر في الآية أنّ اللّه وملائكته يصلّون على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأمر المؤمنين بأن يصلوا عليه ، وبأن يسلّموا تسليما . وقد عرض المفسّرون لبيان معنى صلاة اللّه على نبيه ، وصلاة الملائكة عليه ، وكذا صلاة الخلق وتسليمهم . ونحن متابعوهم فيما قالوا .

---

(1) عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي أبو الفضل عالم المغرب ، وإمام أهل الحديث ، ولي قضاء سبتة توفي بمراكش مسموما قيل سمه يهودي ، انظر الأعلام للزركلي (5/ 99) .

فقيل : الصلاة من اللّه على نبيه ثناؤه عليه وتعظيمه ، هو مروي عن البخاري عن الربيع بن أنس ، ثم تعظيم اللّه له في الدنيا بإعلاء ذكره ، وإظهار دينه ، وإبقاء العمل بشريعته ، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته ، وإجزال الأجر والثواب له ، وإعطائه المقام المحمود . وهل من الملائكة الدعاء له . وقيل : هي من اللّه الرحمة ، ومن الملائكة الدعاء .

وعلى القولين : فالصلاة من اللّه غير الصلاة من الملائكة ، وقد عبّر عنها بلفظ واحد أضيف إلى واو الجماعة يُصَلُّونَ فمن ذهب إلى منع الجمع بين الحقيقة والمجاز ذهب إلى أنّ في الآية حذفا تقديره هكذا : إنّ اللّه يصلّي ، وملائكته يصلون ، فتكون واو الجماعة خاصّة ، وذهب بعضهم إلى أنّ تعدّد الفاعل مؤذن بتعدّد الفعل ، فيكون الفعل مسندا إلى كلّ من الفاعلين .

وذهب جماعة إلى القول بأنّه من باب عموم المجاز ، لا من الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فيقدّرون معنى مجازيا عاما ، ينتظم أفرادا كثيرة ، ويكون كلّ فرد منها فردا حقيقيا من أفراد المعنى المجازي للعام ، ويقولون : إنّ هذا المعنى العام هو الاعتناء بالمصلّى عليه ، وهذا الاعتناء له أفراد ، فهو يكون من اللّه على وجه ، ويكون من الملائكة على وجه

آخر .

وأما صلاة المؤمنين عليه ، فهي تعظيمهم لشأنه ، وذلك يكون بوجوه كثيرة : منها الدعاء له باللفظ الوارد في ذلك ، وقد جاءت كيفية الصلاة عليه من المؤمنين من طرق كثيرة ، وفيها صور من الصلاة مختلفة ، واختلافها يشعرك بأنّ الغرض ليس تحديد كيفية خاصّة ، وإنما هي ألوان من التعظيم ، وسنقتصر على بعض ما صحّ من هذه الكيفيات لأنّ استيعابها يطول .

روى الشيخان «1» وغيرهما عن كعب بن عجرة رضي اللّه عنه قال : قال رجل : يا رسول اللّه أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : «قل اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد» .

وأخرج مالك وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم «2» عن أبي حميد الساعدي أنهم

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 305) ، 4 - كتاب الصلاة ، 17 - باب الصلاة على النبي حديث رقم (66/ 406) ، والبخاري في الصحيح (6/ 32) ، 65 - كتاب التفسير ، 10 - باب إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ . . . حديث رقم (4798) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (1/ 356) ، 4 - كتاب الصلاة ، 17 - باب الصلاة على النبي حديث رقم (69/ 407) ، والبخاري في الصحيح (7/ 252) ، 8 - كتاب

الدعوات ، 32 - باب الصلاة على النبي حديث رقم (6360) ، ومالك في الموطأ (1/ 165) ، وأحمد في المسند (5/ 424) .

(201/616)

قالوا : يا رسول اللّه كيف نصلّي عليك ؟ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «قولوا : اللّهم صلّ على محمّد وأزواجه وذرّيّته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمّد وأزواجه وذرّيّته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنّك حميد مجيد» .

وأخرج الجماعة «1» عن أبي سعيد الخدري قلنا : يا رسول اللّه هذا السلام عليك قد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : «قولوا : اللهم صلّ على محمّد عبدك ورسولك ، كما صلّيت على إبراهيم ، وبارك على محمّد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم» .

وهناك روايات أخرى دون هذه في الصحة ، وتخالفها بالزيادة والنقص في مواضع كثيرة ، وما دام المراد تعظيم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأيّ عبارة تكون واردة من طريق صحيح كان لك أن تأخذ بها .

وأما التسليم : فقد قيل : إنّ المعنى أن اللّه أمر المؤمنين أن يقولوا السلام عليك يا رسول اللّه ،

وقد اختلف في معنى السلام عليك فقيل : إنّ معناه دعاء له بالسلامة من الآفات والنقائص [أن] تحيط به وتلازمه .

وقيل : بل السلام اسم من أسماء اللّه ، ومعنى كونه عليه : أنه حافظه ، حتى إن بعض من قال بهذا قال : إنّ الكلام على حذف مضاف ، والتقدير حفظ السلام عليك .

وقيل : بل السلام الانقياد وعدم المخالفة ، ومعنى كونه عليك : ملازمته ، وهو حينئذ دعاء للمسلم عليه بانقياد الناس له انقيادا ملازما بحيث لا يخالفونه .

قالوا : إنما أكّد التسليم بالمصدر ، ولم يؤكد الصلاة ، لأن الصلاة قد قرنت بما يؤكدها ، وهو الإخبار بأنّها تكون من اللّه ومن الملائكة ، فكان ذلك أبعث على أن تكون من الناس .

وخص المؤمنين بالتسليم ، لأنّ الآية وردت بعد الكلام في أذية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والأذية المحدّث عنها إنما تكون من البشر .

وقيل : بل صلاة اللّه مشتملة على تسليمه ، وأما صلاة الناس فلا تشتمل عليه ، فلذلك طلب التسليم منهم .

ويكاد العلماء يجمعون على وجوب الصلاة والتسليم عليه مرّة في العمر ، بل

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (6/ 32) ، 65 - كتاب التفسير ، 10 - باب إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ . . .

حديث رقم (4798) ، وابن ماجه في السنن (1/ 292) ، 5 - كتاب إقامة الصلاة ،

25 - باب الصلاة على النبي حديث رقم (903) ، والنسائي في السنن (3 - 4/ 56) ، كتاب السهو ، باب نوع آخر من الصلاة على النبي حديث رقم (1291) .

(202/616)

لقد حكى القرطبي «1» الإجماع على ذلك ، وذلك عملا بما يقتضيه الأمر صَلُّوا من الوجوب ، وتكون الصلاة والسلام في ذلك ككلمة التوحيد ، وذلك أنك تعلم أنّ الصحيح أنّ الأمر لا يقتضي التكرار ، وإنما هو للماهية المطلقة عن قيد التكرار والمرّة ، وحصوله بالمرة ضرورة من ضرورات الحصول .

وذهب بعضهم إلى القول بوجوب الصلاة والتسليم في التشهد ، وقيل : هي واجبة في الصلاة من غير قيد بمكان . وقيل : يجب الإكثار منها من غير تقيّد بعدد ، وقيل : تجب في كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره فيه ، وقيل : تجب كلما ذكر .

ولعل هذا القول من قائليه مبنيّ على أنّ الأمر يفيد التكرار ، ولعلهم يستدلون بالأحاديث الترغيبية والترهيبية الواردة في فعلها وتركها ، وأنت لو اطلعت على هذه الأحاديث لفهمت من صيغتها أنّها لمجرد الترغيب ، وأنّها ككل الحسنات تتضاعف ، انظر إلى قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «من صلّى عليّ واحدة صلّى اللّه عليه عشرا» «2» و«من

صلّى عليّ عشرا صلّى اللّه عليه مائة»

فإنك واجد أنّه متفق مع قوله تعالى : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها [الأنعام : 160] وما قال أحد إلا أن هذا ترغيب في الإحسان .

وعلى كلّ فالآية لا دلالة لها إلا على الوجوب مرة ، فمن زاد على هذا فعليه الدليل ، ونحن لما يدل عليه ملتزمون .

وأخيرا فليلتمس القائلون بغير ما تدل عليه الآية دليلهم في غيرها ، فإن قام دليل على وجوب الصلاة والسلام في التشهد وجب ، وإن دلّ على ختام الصلاة وجب ، وإلا فالآية بمنأى عن هذا كله .

قال اللّه تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (57) هذا عود إلى تأكيد النهي عن أذى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، بعد الأمر بالصلاة والتسليم عليه اقتضته العناية الكاملة بشأن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم .

وقد قيل : إنّ المراد بأذى اللّه ورسوله ارتكاب ما لا يرضيانه من الكفر والعصيان ، وقيل : بل إيذاء اللّه تعالى : ما يكون من قبيل قول اليهود والنصارى يد اللّه مغلولة ، والمسيح ابن اللّه ، وعزير ابن اللّه ، وجعل الأصنام شركاء للّه ، وإيذاء الرسول : انتقاصه بوصفه بالشّعر والسّحر والجنون . وقيل : إيذاء الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم المراد هنا هو ما كان من طعنهم في نكاح صفية بنت حيي ، إلى غير ذلك ، ولا مانع أن يكون كلّ ذلك مرادا .

(1) الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي ، طبعة تصوير ، بيروت دار المعرفة (14/ 232 - 233) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (1/ 306) ، 4 - كتاب الصلاة ، 17 - باب الصلاة من النبي حديث رقم (408) .

(203/616)

وقيل : إن المقصود هنا إيذاء الرسول خاصة صلّى اللّه عليه وسلّم وذكر اللّه عزّ وجلّ معه للتشريف ، والإشارة إلى أنّ ما يؤذي الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لخليق به أن يؤذي اللّه تعالى ، ولا يرضيه ، كما جعلت طاعة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ومحبته طاعة اللّه تعالى ومحبته .

واللعن الطرد والإبعاد من رحمة اللّه ، وبعد ذلك فهناك العذاب المهين المحقّر ينتظر في الآخرة .

قال اللّه تعالى : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (58) لما أنهى الكلام في شأن الذين يؤذون اللّه ورسوله ناسب ذلك أن يقرن به ذكر الذين يتعرّضون للمؤمنين بالأذى ، والأذى هنا مطلق كالأذى في الآية السابقة ، يتناول كل ما

يصدق عليه اسم الأذى ، سواء أكان بالقول أم بالفعل ، وسواء أكان إيذاء للعرض أو الشرف أو المال ، فإنّ الذين يلحقون بالمؤمنين أيّ نوع من أنواع الأذى يستحقون الجزاء الذي ذكر في الآية الكريمة ، لا يخصّ منه شيء إلا ما خصّه اللّه تعالى ، وهو أن يكون الإيذاء جزاء على الاكتساب ، كالإيذاء بالقصاص ، والإيذاء بقطع اليد في السرقة ، وكالإيذاء بالتعزيرات المختلفة ، وكالحقّ الوارد في

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «أمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلا اللّه ، فإذا قالوها فقد عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّها» «1» .

وقد فهم أبو بكر رضي اللّه عنه أنّ الزكاة حقّ المال ، فقاتل مانعيه من أجله ، وقال : واللّه لو منعوني عناقا كانوا يعطونه لرسول اللّه لقاتلتهم عليه . وحاجّه في ذلك عمر ، فقال له : إلا بحقها ، والزكاة حق الأموال ، فانشرح صدره لما رآه أبو بكر .

وقد يخطر لك أن تقول : لما ذا قيل : بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا هنا ، ولم يقل في الآية المتقدمة مثله ؟

ونقول : لأنّ اكتساب الأذى هناك لا يكون ، أما العباد فكل يوم يعدو بعضهم على بعض .

والمراد بالبهتان الفعل الشنيع ، والإثم المبين البيّن الظاهر . واحتماله : حمله وفي التعبير بالاحتمال إشارة إلى ثقل ما يحملون من أوزار .

ويذكر المفسّرون هنا أسبابا لنزول الآية «2» ، فيقولون : هي في قوم آذوا عليا أو

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 5) ، 1 - كتاب الإيمان ، 8 - باب حديث رقم (20

و21) ، و(1/ 53) ، 8 - باب الأمر بقتال الناس حديث رقم (36/ 22) ، والبخاري في الصحيح (1/ 14) ، 2 - كتاب الإيمان ، 17 - باب حديث رقم (25) و(1/ 118) ، 8 - كتاب الصلاة ، 28 - باب فصل استقبال القبلة حديث رقم (392) .

(2) انظر تفصيله في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (5/ 220 - 521) .

(204/616)

عائشة ، وقيل في شأن النبي وصفيّة ، وقيل : في قوم كانوا يتّبعون النساء إذا برزن لحاجتهنّ . وهي بعد ثبوتها لا تقتضي حمل الآية على واحد منها ، وقد تكون الآية نزلت بعد تجمّع الأسباب .

وقد روى البيهقي في «شعب الإيمان» عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لأصحابه : «أيّ الرّبا أربى عند اللّه» قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال :

«أربى الربا عند اللّه استحلال عرض امرئ مسلم» ثم قرأ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا الآية .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذِلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (59) جرى حكم العرف بتخصيص النساء بالحرائر ، وسبب النزول الآتي يقتضيه ، وآخر الآية ظاهر فيه .

والإدناء : التقريب ، أدناني منه : قرّبني منه . وهو هنا مضمّن معنى الإرخاء والسدل ، ولذا عدّي بعلى ، يقال : إذا زلّ الثوب عن وجه المرأة : أدني ثوبك على وجهك ، أي أرخيه واسدليه . والجلابيب جمع جلباب ، وقد اختلف أهل التأويل في الجلباب على ألفاظ متقاربة عمادها أنه الثوب الذي تستر به المرأة بدنها كله ، ويتأتى معه رؤية الطريق إذا مشت .

روى جماعة من المفسرين أنّه كانت الحرة والأمة تخرجان ليلا لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل من غير امتياز بين الحرائر والإماء ، وكان في المدينة فسّاق لا يزالون على عاداتهم في الجاهلية ، يتعرّضون للإماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم يقولون : حسبناهن إماء فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء في الزي ، فيستترن ليحتشمن ويهبن ، فلا يطمع فيهنّ مراض القلوب .

واختلف أهل التأويل في كيفية هذا التستر ، فأخرج ابن جرير « 1 » وغيره عن ابن سيرين أنه قال : سألت عبيدة السلماني عن هذه الآية يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقنّع بها ، وغطّى رأسه كلّه حتى بلغ الحاجبين ، وغطّى وجهه ، وأخرج

عينه اليسرى من شقّ وجهه الأيسر ، وروي مثل ذلك عن ابن عباس .

وفي رواية أخرى عنه أنها تلوي الجلباب فوق الجبين ، وتشدّه ، ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها ، لكن تستر الصدر ومعظم الوجه .

وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية

---

(1) في تفسيره جامع البيان ، المشهور بتفسير الطبري (22/ 33) .

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ خرج نساء من الأنصار كأن على رؤوسهنّ الغربان من أكسية سود يلبسنها .

ومعنى الآية : أنّ اللّه جلّ شأنه يأمر الحرائر إذا خرجن لحاجة أن يتقنّعن ويستترن ، حتى يميّزن من الإماء ، فلا يتعرّض لهنّ أحد بالإيذاء . هذه طريق الجمهور في تأويل الآية .

ومن المعروف أن هذه الآية نزلت بعد أن استقر أمر الشريعة على وجوب ستر العورة ، فلا بد أن يكون الستر المأمور به هنا زائدا على ما يجب من ستر العورة ، ولذلك ترى عبارات المفسرين على اختلاف ألفاظها متحدة في أنّ المراد بالجلباب الثوب الذي تستر به المرأة بدنها كلّه من فوق ثيابها ، كالملاءة المعروفة في عصرنا .

وعلى ذلك يكون الأمر بإدناء الجلابيب من الأدب الحسن ، زيادة في الاحتياط ، ومبالغة في التستر والاستعفاف ، وبعدا عن مظان التهمة والارتياب .

ولا يعدّ في إجراء الأمر على ظاهره من وجوب لبس الجلباب إذا كان خروج المرأة بدونه – وإن كانت مستورة العورة – مدعاة للفتنة ، وسببا في تعرّض الفساق لها ، وإيذائها بالرفث وفحش القول .

وقد يقال : إنّ تأويل الآية على هذا الوجه ، وقصرها على الحرائر ، قد يفهم منه أنّ الشارع أهمل أمر الإماء ، ولم يبال بما ينالهنّ من الإيذاء ، وتعرض الفسّاق لهن في الطرقات ، مع أنّ في ذلك من الفتنة ما فيه : فهلا كان ذلك التصون والتستر عامّا في جميع النساء ؟

الجواب : أنّ الإماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن ، وترددهنّ في الأسواق ومحالّ البياعات في خدمة سادتهن ، وقضاء مصالحهم ، فإذا كلّفن أن يتقنّعن ، ويلبسن الجلباب السابغ كلّما خرجن ، كان في ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر ، فإنهنّ مأمورات بالاستقرار في البيوت ، وعدم الخروج منها إلا في أوقات الحاجة الشديدة ، فلم يكن عليهنّ من الحرج والمشقة في التقنّع والتستر ما على الإماء .

ولقد راعى الشارع هذه الحال ، فنهى الناس أن يؤذوا المؤمنين والمؤمنات جميعا ، سواء الحرائر والإماء ، وتوعّد المؤذين بالعذاب الأليم والعقاب الشديد .

ومع هذا فإنّ الشرع لم يحظر على الإماء التقنع والتستر ، ولكنّه لم يكلفهن ذلك دفعا للحرج

والعسر . فللأمة أن تتقنع وتلبس الجلباب السابغ متى تيسر لها ذلك . وأما نهي عمر رضي اللّه عنه الإماء في زمانه ، وزجره إياهنّ عن التقنع ، فإنما كان ذلك من السياسات الشرعية ، لأنّه كان يخشى إذا هنّ تشبهن بالحرائر في لباسهن وزيهنّ أن يعتدن الرقة ، ويضعفن عن الخدمة والعمل ، وتكثر مؤنهنّ على سادتهنّ .

(206/616)

وبعد فقد اختار أبو حيان «1» في تأويل الآية الكريمة وجها غير الوجه الذي سلكه الجمهور ، فجعل الأمر بإدناء الجلابيب موجها إلى النساء جميعا ، سواء الحرائر والإماء ، وجعل معنى قوله تعالى : ذِلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ أنهنّ يعرفن بالعفة والتصون ، فلا يتعرّض لهنّ ، ولا يتلقين بما يكرهن ، فإنّ المرأة إذا بالغت في التستر والتعفف لم يطمع فيها أهل السوء والفساد ، وهو رأي تبدو عليه مخائل الجودة .

وفي «الطبقات الكبرى» أنّ أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية استنبط من هذه الآية – على رأي الجمهور في تأويلها – أنّ ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمر حسن ، وإن لم يفعله السلف ، لأن فيه تمييزا لهم ، حتى يعرفوا ، فيعمل بأقوالهم .

وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً فيغفر لمن امتثل أمره ما عسى أن يصدر منه من الإخلال بالتستر رَحِيماً

بعباده ، حيث راعى في مصالحهم أمثال هذه الجزئيات ، وأرشدهم إلى هذه الآداب الحسنة الجميلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 624 .

669 ﴾

---

(1) في تفسيره البحر المحيط (7/ 250) .

(207/616)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الأحزاب» (33)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ» (5) أي إخوانكم فى الملّة وخرج مخرج فتى والجميع فتيان وفتية . .

«وَمَوالِيكُمْ» (5) أي بنو عمكم وولاتكم . .

«فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً» (6) أي مكتوبا قال العجّاج :

فى الصّحف الأولى التي كان سطر

(445) .

«وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ» (10) أي حارت وطمحت وعدلت وفى آية أخرى :

«ما زاغَ الْبَصَرُ» (53/ 17) . .

«زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً» (11) أي ابتلوا وفتنوا ومنه الزلازل . .

«يَثْرِبَ» (13) اسم أرض ومدينة النبي صلى اللّه عليه فى ناحية من يثرب «1» قال حسّان فى الجاهليّة :

سأهدى لها فى كل عام قصيدة وأقعد مكفيّا بيثرب مكرما

«2» [713] .

«لا مُقامَ لَكُمْ» (13) مفتوحة الأول ومجازها : لا مكان لكم تقومون فيه ومنه قوله :

فايّ ما وأيك كان شرا فقيد إلى المقامة لا يراها

(628)

---

(1) . - 11 «يثرب . . . وناحية منها» رواه القرطبي (14/ 141) عن أبى عبيدة .

(2) . - 713 : ديوانه ص 369 .

«مِنْ أَقْطارِها» (14) أي من جوانبها «1» ونواحيها واحدها قطر . .

«سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها» (14) أي لأعطوها «2» . .

«فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ» (19) أي بالغوا فى عيبكم ولا أئمتكم ومنه

قولهم خطيب مسلق ومنه الخاطب المسلاق وبالصاد أيضا وقال الأعشى :

فيهم الحزم والسّماحة والنّجدة فيهم والخاطب المسلاق

«3» [714] ويقال : لسان حديد أي ذلق وذليق . .

«الْأَحْزابَ» (20) واحدهم حزب يقال : من أيّ حزب أنت وقال رؤبة :

وكيف أضوى وبلال حزبى

(202) .

«فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ» (23) أي نذره الذي كان نحب أي نذر والنحب أيضا النفس أي

الموت وجعله جرير الخطر العظيم «4» فقال :

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنا عشيّة بسطام جرين على نحب

«5» «6» [715]

---

(1) . - 1 «أقطارها . . . جوانبها» : رواه ابن حجر فى فتح الباري 8/ . 398

(2) . - 4 «لأعطوها» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ . 398

(3) . - 714 : ديوانه ص 144 والصحاح واللسان والتاج (سلق) والقرطبي 14/

154.

(4) . - 10 - 11 «أي . . . العظيم» : رواه ابن حجر فى فتح الباري 8/ . 398

(5) . - 715 : ديوانه ص 58 والطبري 21/ 84 والجمهرة 1/ 230 ومعجم ما استعجم 3/ 888 واللسان والتاج (نحب) .

(6) . - 716 : ديوانه ص 375 .

(209/616)

أي خطر عظيم ، قال ومنه التنحيب قال الفرزدق :

وإذ نحبّت كلب على الناس أيهم أحقّ بتاج الماجد المتكرّم

«1» [717] وقال ذو الرّمّة :

قضى نحبه فى ملتقى الخيل هوبر «2»

«3» [718] أي نفسه وإنما هو يزيد بن هوبر ويقال : نحب فى سيره يومه أجمع إذا مدّ فلم ينزل وليلته جميعا . .

«الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ» (26) أي عاونوهم وهو من التظاهر . .

«مِنْ صَياصِيهِمْ» (26) أي من حصونهم وأصولهم يقال : جذّ اللّه صيصة فلان أي

أصله وهى أيضا شوك الحاكة قال :

وما راعنى إلّا الرماح تنوشه كوقع الصّياصى فى النّسيج الممدّد

«4» [719] وهى شوكتا الديك وهى قرن البقرة أيضا . .

«يُضاعَفْ «5» لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ» (29) أي يجعل لها العذاب ثلاثة أعذبة لأن

---

(1) . - 717 : ديوانه ص 759 والطبري 21/ 84 والقرطبي 14/ 158 .

(2) . - 5 «يزيد بن هوبر» : انظر لمقتله فى الأغانى 15/ 7 والخزانة 2/ 232 .

(3) . - 718 : ديوانه ص 235 والقرطبي 14/ 160 والخزانة 2/ 232 .

(4) . - 719 : من كلمة أصمعية ص 23 وجمهرية ص 117 والبيت فى الحماسة 2/ 306 والأغانى 9/ 4 والقرطبي 14/ 161 واللسان والتاج (صيص) . [. . . . .]

(5) . - 12 «يضاعف . . . إلخ» : قال الطبري : (21/ 92) : واختلف القراء فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الأمصار يضاعف العذاب بالألف غير أبى عمرو فإنه قرأ ذلك يضعف بتشديد العين تأولا منه فى قراءته ذلك أن يضعف بمعنى تضعيف الشيء مرة واحدة وذلك أن يجعل الشيء شيئين فكان معنى الكلام عنده أن يجعل عذاب من يأتى من نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم . . . وأما التأويل الذي ذهب إليه أبو عمرو فتأويل لا نعلم أحدا من أهل العلم ادعاه غيره وغير أبى عبيدة معمر بن المثنى ولا يجوز خلاف ما جاءت

به الحجة مجمعة عليه بتأويل لا برهان له من الوجه الذي يجب التسليم له . وانظر ما ورد من هذا الكلام فى القرطبي 14/ 174 - 175 .

(210/616)

ضعف الشيء مثله ، وضعفى الشيء مثلا الشيء ومجاز «يُضاعَفْ» أي يجعل الشيء ، شيئين حتى يكون ثلاثة فأما قوله ويضعّف أي يجعل الشيء شيئين . .

«نُؤْتِها أَجْرَها» (31) أي نعطها ثوابها . .

«لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ» (32) أحد يقع على الذكر والأنثى بلفظ واحد يقع على ما ليس فى الآدميين ، يقال : لم أجد فيها أحدا شاة ولا بعيرا . .

«وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» (33) القاف مكسورة لأنها من وقرت تقر ، تقديره وزنت تزن ومعناه من الوقار ومن فتح القاف فإن مجازها من «قرّت تقرّ» تقديره : قررت تقر فحذف الراء الثانية فخففها وقد تفعل العرب ذلك وقال الشاعر :

خلا أنّ العتاق من المطايا أحسن به فهنّ إليه شوس

(560) أراد أحسسن . «1»

---

(1) . - 720 : ديوانه من الستة ص 60 .

«ولا يتبرّجن «1»» (33) وهو من التبرج وهو أن يبرزن محاسنهن فيظهرنها . .

«فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً» (37) أي أربا وحاجة قال الشاعر :

ودّعنى قبل أن أودّعه لمّا قضى من شبابنا وطرا

«2» [721] أي أربا وحاجة . .

«ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» (38)

سنة اللّه منصوبة لأنها فى موضع مصدر من غير لفظها من حرج أي من ضيق وإثم خلوا أي مضوا . .

«بُكْرَةً وَأَصِيلًا» (42) ما بين العصر إلى الليل . .

«هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ» (43) أي يبارك عليكم قال الأعشى :

عليك مثل الّذى صلّيت فاغتمضى نوما فإن لجنب المرء مضطجعا

(78)

«اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» (50) أي أعطيت مهورهن . .

«مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ» (50) أي مما فتح اللّه عليك من الفيء .

---

(1) . - 1 «ولا يتبرجن» : قال البخاري : وقال معمر التبرج أن تخرج زينتها ، وقال ابن حجر :

هو قول أبى عبيدة واسمه معمر بن المثنى ولفظه فى كتاب المجاز . . . إلخ (فتح الباري 8/ 399) .

(2) . - 721 : البيت مع البيت الذي فى الحاشية من كلمة للربيع بن ضبيع الفزاري فى نوادر أبى زيد ص 159 والمعمرين رقم 6 والبيت أيضا فى الطبري 22/ 10 .

(212/616)

«وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ» (50) مجازه : إن تهب والموضع موضع مجازاة والعرب قد تجازى بحرف وتضمر الآخر معهما قال ذو الرّمّة :

وإنى متى أشرف على الجانب الذي به أنت ما بين الجوانب ناظر

«1» [722] قال القطامىّ :

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأمّ المخطئ الهبل

«2» [723] قال «وَامْرَأَةً - مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ [إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها] خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» (50) وهبت فى موضع «تهب» والعرب

تفعل ذلك قال :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

(210) أي يطيروا . والعرب قد تخاطب فتخبر عن الغائب والمعنى للشاهد فترجع إلى الشاهد فتخاطبه قال عنترة :

شطّت مزار العاشقين فأصبحت عسرا عليّ طلابك ابنة مخرم

(17)

«تُرْجِي مَنْ تَشاءُ» (51) أي تؤخر . .

«وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ» (51) أي تضمّ . .

«لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ» (52) إذا جعلت العرب من فعل المؤنث وبينها

---

(1) . - 722 : ديوانه من 241 والكتاب 1/ 388 والشنتمرى 1/ 437 .

(2) . - 723 : أول قصيدة فى ديوانه يمدح بها عبد الواحد بن الحارث بن الحكم والبيت فى شواهد الكشاف ، 218 .

«أي إدراكه تمام» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 405 .

شيئا ذكّروا فعلها وبعد مرفوع بغير تنوين لأنه غاية لم تصف وحرّم على النبي صلى اللّه عليه النساء غير هؤلاء ، فإن قال قائل إنهن لم يحّر من عليه فإن الآية إذا منسوخة . .

«عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً» (52) أي حفيظا قال أبو دؤاد :

كمفاعد الرّقباء للضّرباء أيديهم نواهد

(132)

«إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ» (53) أي إدراكه وبلوغه ويقال أبى لك أن تفعل ، يأنى انيا والاسم إنى وأبى أبلغ أدرك قال :

تمخّصت المنون له بيوم أنى ولكلّ حاملة تمام

«1» [724] .

«وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً» (54) مجازه : ما كان لكم أن تفعلوا شيئا من ذلك وكان من حروف الزوائد قال :

فكيف إذا رأيت ديار قوم وجيران لهم كانوا كرام

(509) القافية مجرورة والقصيدة لأنه جعل «كانوا» زائدة للتوكيد ولو أعمل «كان» لنصب القافية وقال العجّاج :

إلى كناس كان مستعيده

(510)

(1) . - 724 : البيت لعمرو بن حسان من أبيات ذكر فيها الملوك من المناذرة والأكاسرة على طريق الاعتار قاله التبريزي 1/ 3 وفى اللسان أنه لخالد بن حق الشيباني (مخض) وفى جمهرة الأشعار (ص 26) منسوب إلى النابغة وهو فى إصلاح المنطق ص 4 ، 376 من غير عزو وفى القرطبي 16/ 226 والتاج (مخض) .

(214/616)

وقال الفزاريّ :

لم يوجد كان مثل بنى زياد

[725] فرفع مثل بنى زياد لأنه ألقى «كان» وأعمل «يوجد» . .

«لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ «1»» (60) أي لنسلّطنك عليهم . .

«وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ» 61 - 62 نصبوها لأنها فى موضع مصدر فعل من غير لفظها

«وَقُتِّلُوا» أشد مبالغة من «قتلوا» إذا خففته . .

«لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً» (63) مجازه مجاز الظرف ها هنا ولو كان وصفا للساعة لكان قريبة وإذا كان ظرفا فإن لفظها فى الواحد والاثنين والجميع من المذكر والمؤنث واحد بغير الهاء وبغير تثنية وبغير جمع «2» . .

«فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا» (67) ويقال أيضا فى الكلام. أضلى عن السبيل ومجازه عن الحق والدين . .

«وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً» (70) قصدا ، قال أوس بن حجر :

وما جبنوا إنى أسدّ عليهم ولكن لقوا نارا تحسّ وتسفع

«3» [726] ويروى : نارا تخش توقد ، وتحس : تستأصل أسدّ أقول عليهم السّداد ، يقال :

أسددت بالقوم إذا قلت عليهم حقا وسددا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 141.134 ﴾

---

(1) . - 4 «لنغرينك . . . عليهم» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 409.

(2) . - 7 - 9 «مجازه . . . جمع» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 406.

(3) . - 726 : فى اللسان والتاج (سدد حسس) .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

«ومن السورة التي يذكر فيها الأحزاب»

[سورة الأحزاب (33) : آية 26]

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (26)

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ [26] وهذه استعارة . والمراد بها : أنه تعالى ألقى الرعب فى قلوبهم من أثقل جهاته ، وعلى أقطع بغتاته . تشبيها بقذفه الحجر إذا صكّت الإنسان على غفلة منه . فإن ذلك يكون أملأ لقلبه ، وأشدّ لروعه .

[سورة الأحزاب (33) : آية 30]

يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (30)

وقوله سبحانه: مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ [30] وهذه استعارة على قراءة من قرأ: مُبَيِّنَةٍ بكسر الياء ، فكأنه تعالى جعل الفاحشة تبيّن حال صاحبها ، وتشير إلى ما يستحقه من العقاب عليها . وهذا من أحسن الأعراض ، وأنفس جواهر الكلام «1» . . .

[سورة الأحزاب (33): آية 46]

وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (46)

وقوله سبحانه وتعالى: وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً [46] وهذه استعارة.

والمراد بالسراج المنير ها هنا: أنّه عليه السلام يهتدى به فى ضلال الكفر، وظلام الغىّ، كما يستصبح بالشهاب فى الظلماء، وتستوضح الغرة فى الدهماء.

[سورة الأحزاب (33): آية 72]

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72)

وقوله سبحانه: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها، وَأَشْفَقْنَ مِنْها، وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً [72]. وهذه استعارة. وللعلماء فى ذلك أقوال نحن نستقصى ذكرها عند البلوغ إليها من الكتاب الكبير

---

(1) هنا عشرة أسطر محيت أنصافها بحال لا يستقيم معها تبين النص.

بتوفيق اللّه ومشيئته ، إلا أننا نشير إلى بعض ذلك ها هنا إشارة تليق بغرض هذا الكتاب فى طريقة الاختصار ، وخوف الإكثار «1» . . . .

وقال بعضهم: المراد بذلك تفخيم شأن الأمانة وأن منزلتها منزلة ما لو عرض على هذه الأشياء المذكورة مع عظمها ، وكانت تعلم ما فيها ، لأبت [أن «2»] تحملها وأشفقت كل الإشفاق منها . إلا أن هذا الكلام خرج مخرج الواقع لأنه أبلغ من المقدر . وقال بعضهم: عرض الشيء على الشيء ومعارضته سواء . والمعارضة ، والمقابلة ، والمقايسة ، والموازنة بمعنى واحد . فأخبر اللّه سبحانه عن عظم أمر الأمانة وثقلها ، وأنها إذا قيست بالسماوات والأرض والجبال «3» ووزنت بها رجحت عليها . ولم تطق حملها ، ضعفا عنها .

وذلك معنى قوله تعالى: فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ومن كلامهم: فلان يأبى الضيم . إذا كان لا يحتمله . فالإباء ها هنا هو ألّا يقام بحمل الشيء . والإشفاق فى هذا الموضع هو الضعف عن الشيء ، ولذلك كنى به عن الخوف الذي هو ضعف القلب . فقالوا: فلان مشفق من كذا . أي خائف منه ، يقول سبحانه: فالسموات والأرض والجبال لم تحمل الأمانة ضعفا عنها ، وحملها الإنسان ، أي تقلّدها وقارف «4» المآثم فيها ، للمعروف من كثرة جهله ، وظلمه لنفسه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تلخيص البيان صـ 264. 265 ﴾

---

(1) وهنا بضعة أسطر ممحوة الأنصاف .

(2) ليست بالأصل . وقد زدناها لأن السياق يتطلبها .

(3) فى الأصل «وزنت» بواو واحدة . وهو تحريف ، لأنها معطوفة على الفعل قيست .

(4) فى الأصل «و تعارق» وهو تحريف . ولعل الصواب ما استظهرناه . فإن مقارفة الآثام هى ركوبها واقترافها .

(217/616)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الأحزاب

(218/616)

تضمنت سورة الأحزاب خمسة نداءات للنبى عليه الصلاة والسلام بصفته هادى الأمة وقائدها ، وبعد كل نداء ذكر المطلوب منه لتنفيذه فيما يخصه وفيما يعنى الأمة كلها . . 1

- أول هذه النداءات " يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما

حكيما * واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا " . والأمر والنهى المتجهان إلى رسول الله هما زيادة تثبيت له كما تقول للمحلق لا تكسل ، وللمتفوق لا تتراخ ! فهو ما فرط فى تقوى ، ولا هادن الكفر والنفاق ، ولا اتبع إلا الوحى النازل عليه . ومن أسمائه المتوكل ؟ فإذا أمر بالتوكل فهو استدامة للحال التى عرف بها بين الناس . على أن هناك شيئًا يتصل به ومطلوب منه أن يغيره ، هو علاقته بزيد بن حارثة الذى تبناه فى الجاهلية على عادة القوم . فلما جاء الإسلام رفض التبنى جملة وتفصيلا ، وقال الله تعالى: " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل " . فماذا نفعل فيما تم من عقود التبنى ؟ " ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم . . " . الأب الطبيعى أحق بابنه ، فإذا لم نعرفه قامت أخوة الإسلام مكان العلاقة المفقودة ، فنحن نؤاخى اللقيط ونواليه ولا نتركه ضائعا فى المجتمع . وقد أساء المسلمون فى تطبيق ذلك إساءة يؤاخذهم الله بها ! ! فافتتح الأجانب ملاجئ تربى فيها اللقطاء على غير الملة . وهذه فضيحة يلحقنا عارها . وبعد تقرير هذا الحكم ، جاء تعظيم العلاقة الدينية وتقديمها على وشائج القربى الأخرى " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم . . . " . فمحمد عليه الصلاة والسلام الوالد الروحى لهذه الأمة ، وهو أحرص الناس على هداها

ونجاتها ، وهو رمز الإسلام الذى أخرجها من الظلمات إلى النور . وعلى أساس ذلك ، قال رسول الله : " ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والاخرة اقرءأوا إن شئتم " النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم " فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته قن كانوا . ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه " ! ! وقبل نزول هذه الآية كان النبى عليه الصلاة والسلام يتحرج من الصلاة على المدين إذا مات ولم يترك وفاء لدينه . ثم تغير الحكم بعد ما فتح الله عليه ونزلت هذه الآية ، فأمسى يتحمل ديون الموتى الفقراء ، ويكفل اليتامى الضائعين . . ! ! وكما اعتبر النبى أبا للمؤمنين اعتبرت زوجاته أمهات للمؤمنين ، لهن مكانة الأم فى البر والحرمة . وتبعا لذلك ، حرم الزواج منهن أبدا . إنهن راويات للوحى ومعلمات للأمة ، ومنهن تؤخذ الأسوة الحسنة . . 2 – والنداء الثانى فى هذه السورة " يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا " . إن بيت النبوة غير بيت الملك . إنه بيت يكتفى بأيسر الزاد ، ولا مكان فيه للشهوات المطاعة واللذات الميسرة . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم خارجا من سلطان بطنه ، ولا مجال فى حياته للاستكثار من أطايب الطعام ومرفهات العيش ، لكن زوجاته

جئن من بيوت سيادة وثراء ولم يألفن فى حياتهن الأولى إلا رغد العيش ، ولذلك سرعان ما اجتمعن ضده يطلبن نفقة أوسع ومتاعا أرغد ! ! فجاء الوحى يصادر هذا كله . إن البيت النبوى يقوم على الكفاف ، ولو كان رب البيت سيد الجزيرة وإمام الناس ! يجب أن يحملن معه أعباء منصبه ، ويشتغلن بالصلاة والجهاد وطلب الآخرة . يستحيل أن يحاصر الكفار الأمة الإسلامية ، ويحملوها على الهجرة والشظف ، ويكون بيت النبى بمنجاة من هذا البلاء . إما الرضا بهذا العيش وإما طلاق الجميع ! فاخترن . . ! " وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما " . وقد اختارت أمهات

(220/616)

المؤمنين عيش الكفاف على ترك بيت النبوة ، واستحققن شرف الصحبة الكريمة . .

ولاشك أن الشغب على حياة الرسول إثم كبير يضاعف عذابه كما أن الرضا بأعباء الصحبة .

الكريمة مرتبة تستحق التقدير المضاعف . إن البيت النبوى يصدر للمجتمع الوحى والتبتل والكفاح ، ونساؤه أمهات المؤمنين فى هذا المضمار . . 3 – والنداء الثالث فى السورة "

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا"

ليست قبل محمد نبوة عامة للبشر كلهم ! كان كل نبى يرسل إلى قومه خاصة . أما الشمس التى طلعت على الكون أجمع فهى شمس النبوة الخاتمة . ومن هنا كان القرآن الكريم أساس الرسالة ومعجزتها معا . . القرآن خطاب لكل إنسان حتى تقوم الساعة ، وطبيعة هذا الخطاب تشهد بأنه من عند الله وحده ، فلا أثر لمحمد فيه إلا التلقى والبلاغ والأسوة الحسنة . وإذا كان محمد شاهدا على قومه بأنه أبلغهم ، فإن أمته شاهدة على الناس أجمعين بهذا الكتاب المبين ! ! فهل أدى المسلمون وظيفتهم تلك ؟ أما الأوائل ، فقد قرعوا بالإسلام سمع الدنيا ، وشرحوه بعملهم شرحا حسنا . . لكن المسلمين سرعان ما سرت فى كيانهم عدوى الأمم البائدة ، وهم الآن يختزنون هدايات السماء فى بلادهم التى سادتها الفوضى وعاث فيها الإهمال . . ! ! ويمكن القول بأنهم عوائق ضد دينهم وصادون عنه ! وتبليغ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم يحتاج اليوم إلى عبقريات علمية تحسن العرض ، وبطولات عسكرية تحسن الدفاع . ولا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله . . 4 – والنداء الرابع فى سورة الأحزاب يتضمن الطبقات التى تختار منها أمهات المؤمنين . فليست كل امرأة تصلح أن تكون زوجة لعظيم . الكريم يحتاج إلى كريمة لا تحتاج أن يقول لها . ذرينى فإن الشح يا أم مالك لصالح أخلاق الرجال سروق ! أو يقول كما قال

حاتم لامرأته: أماوى إن المال غاب ورائح وتبقى من المال الأحاديث والذكر ! ! يجب أن تعين المرأة زوجها فيما كلف به . فإذا لم

(221/616)

تكن عونا له فلا تكن عبئا عليه ! ! وقد عانى نوح ولوط من زوجتيهما الكثير . والحق أن أمهات المؤمنين كن عابدات قانتات وكن نعم الصويحبات له فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى: " يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . . " . والمعروف أن للمسلم أن يتزوج بأربع لا يزيد . وقد أسلم رجل ولديه عشر زوجات ، فأمره النبى بإمساك أربع وتسريح الباقيات . قد تقول فلماذا لم يطبق ذلك على نفسه ؟ والجواب أنه بعدما اخترنه على أهلهن وآثرن البقاء معه على شظف العيش ما يسوغ ترك إحداهن ! ثم ماذا تفعل من يسرحها ؟ إن زواجها بغيره مستحيل لحرمة أمهات المؤمنين على سائر الأمة ! فالحل أن يبقين ، ولو كان من بينهن العجائز ! ثم قيل للرسول عقب هذا الوضع " لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا

ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا" . والتعدد نظام قد يقبل مع شرف الأخلاق وتباين الطبائع والحاجة إلى الذرية ، وقد عرف فى سير الأنبياء . وأشعر بريبة فيما ذكرته التوراة من أنه كان لسليمان ألف امرأة ، وأحسب ذلك من المجازفات . . ! وليس للحضارة المعاصرة أن تخوض فى هذه القضية ! فإن التعدد فيها كالأمباح ، وربما استطاع الصعلوك أن ينال أكثر مما نال ! سليمان سفاحا لا نكاحا . . 5 – أما النداء الأخير فهو قوله تعالى: " يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما " . وقد شرحت الآية اللاحقة السبب فى هذا التوجيه ! كان فى المدينة فتيان سوء يتسكعون فى الطرقات ابتغاء الريبة ، فإذا وجدوا امرأة مهملة فى حجابها أو متبذلة فى ثيابها ، طمعوا فيها . فأمرت المؤمنات بالاحتشام

(222/616)

الكامل ، وألا يتركن لهبوب الريح أو سرعة السير فرصة لبعد الملابس عن الجسم . وبذلك التصون يصددن الرغبات الجامحة ، ويحمين أنفسهن من السفلة . ثم قيل لهؤلاء الفاحشين: " لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا

يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا " .

والحق أن المدنية الحديثة يسرت الفتن للقريب والبعيد والراغب والعازف . والمحور الذى تدور عليه حياكة الملابس هو الإغراء الحرام ، ولا مكان هنالك لتقوى القلوب . ومع النداءات الموجهة للرسول صلى الله عليه وسلم وجهت ستة نداءات للمؤمنين . يتناول أولها الموقف عند هجوم الأحزاب على المدينة . كان موقفا شديد الحرج ، فإن جموع الكفار أقبلت من أطراف الجزيرة يبغون اقتحامها ، وساعدتهم فلول المنافقين واليهود داخلها ، ووقع المسلمون بين شقى الرحى يكافحون للنجاة وهم فى هذا البحر الطامى كالمشرف على الغرق " إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا " . وتساند المسلمون وراء الخندق الذى حفروه ، وهم يجرون يمينا أو يسارا لسد الثغرات وإعانة المواقع المهددة . ولولا صدق الصلة بالله لعجز المدافعون عن الصمود . إنهم لم يرتاعوا ويفقدوا رباطتهم بل كانوا كما قال الله " ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما * من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا " . إن منطق أصحاب العقائد غير منطق طلاب المنافع . والحق أن المدافعين عن المدينة حرسوا حدودها وأحكموا الذود عنها ، فلم تلح ثغرة لراصد ! ! أما المهاجمون فقد

خامرهم اليأس وهم يدورون حول المدينة لا يجدون منفذا ، ثم هبت عليهم رياح نكباء أطارت خيامهم وأكفأت قدورهم

(223/616)

وأيأستهم من المقام ، فقرروا الرحيل " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا " . وكان تعقيب النبى صلى الله عليه وسلم على ما حدث " الحمد لله وحده صدق وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده " . وشعر المشركون بعد معركة الأحزاب أن المدينة لا تنال ! ! فلم يفكروا فى غزوها ، واكتفوا من الغنيمة بالإياب . والنداء الثانى للمؤمنين فى هذه السورة "يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلا" . وأرى أن هذا النداء للجماعة قبل أن يكون للأفراد . فالأمة الإسلامية صاحبة رسالة

(224/616)

عالمية يجب أن تنتصب حارسة لها ومدافعة عنها . وهذه الرسالة تقوم على الانتماء إلى الله ، وإعلاء شعائره واليقين بلقائه . وهذه معان لا تعرف الآن فى أمة من الأمم ، فالقاسم المشترك لأنشطتها جميعا : رفع مستوى المعيشة ، وتجميل هذه الحياة الدنيا ، أما الكلام عن الآخرة فلغو أو هزل ! وقد فشلت الأديان القديمة دنى تعريف الناس بالله والإعداد للقائه . . وشملت الدنيا عبادة التراب ! ! وعندما ترفع أمتنا راية عبادة الله ، تكون أهلا لقوله بعدئذ " هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما " . إن صلاة الله وملائكته إنما تكون لأمة تذكر الله وتذكر به وتجعل ذلك وظيفتها . وقد ارتفع المسلمون إلى هذا المستوى قرونا كانوا فيها الأمة الأولى فى العالم ، ثم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فهم الآن فى مواطئ الأقدام . . والنداء الثالث حكم فقهى فرعى " يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها . . " . وأصول الأحكام وفروعها سواء فى وجوب الطاعة ، مادام النص بها قائما . . أما النداء الرابع ، فهو لتنظيم الدخول فى البيت النبوى . إن سواد المؤمنين يحبون رسول الله أكثر مما يحبون أنفسهم ، وقد يحملهم ذلك على التكاثر عنده . ثم هناك من لديه فراغ يحار كيف يقضيه ! ومن يحبون التسلية أو مقاربة العظماء . وقد استدعى ذلك هذا الإرشاد الحكيم: "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا

مستأنسين لحديث . . " . وهذا تنظيم مأنوس فى بيوت الكبار ، وقد تكون ذات أجنحة شتى ! أما بيوت النبى فهى غرف محدودة الطول والعرض ، ملحقة بالمسجد ! ! فما بد من تنظيم زيارتها . . والمؤسف أن من ذوى اللكاعة من رأى إحدى أمهات المؤمنين ، فقال إذا مات محمد تزوجتها ! ! أفلا يحمى البيت الكريم من مسالك هؤلاء الرعاع ؟ لذلك شرع نظام

(225/616)

الحجاب " . . . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما " .

إن المرأة داخل بيتها تتخفف من ثيابها ولا تتكلف في زيا معينا ، فلا يجوز لأحد أن يقتحم عليها حصنها ولا للأعين أن تسترق النظر إليها . ولإيذاء الرسول صور شتى يألفها المنافقون ومرضى القلوب ، ولعل أخطر هذه الصور ما حدث عند حصار المدينة . " قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت

فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد . . " . ومن هؤلاء متتبعو العورات فى شوارع المدينة ومبتغو الريبة فى الناس . . وقد قال الله لرسوله فى شأن هؤلاء " ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله " . وقال فى الحكم عليهم " إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا * والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا " . ولما كان السيل حربا للمكان العالى ، ولما كان أشراف الناس غرضا للسفهاء ، فقد حذر المؤمنون من هذه المسالك . وجاء النداء الخامس يحمى أعراض الأنبياء وسيرتهم من تطاول الرعاع "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها" . وتأكد ذلك فى النداء السادس " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم . . . " . وخلال السرد لما يتعرض له النبى الكريم من صنوف الأذى جاءت هذه البشرى العالية تسوق له العزاء والتأييد ، والرفعة والتسديد : إنه فى كلاءة الله وحمايته " إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما " . ثم ختمت سورة الأحزاب بخلاصة وجيزة عن عمل البشر على

ظهر الأرض . إنهم تميزوا على غيرهم بحرية الإرادة ، وبالتكليف الذى يميز الأخيار والأشرار . إنهم ليسوا دواب محكومة بغرائزها الدنيا ، ولا أرواحا محكومة بخصائصها العليا . إنهم جنس خاص يستطيع التسامى والإسفاف ، يستطيع أن يتجه يمينا إلى الجنة أو يسارا إلى النار . وأمانة التكليف حملها الإنسان ، وهو يستطيع الوفاء بحقوق الله وحقوق الناس ، كما يستطيع خيانتها والعبث بها .

وهذا ما أشارت إليه الآية: " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا " . والآية تمثيل لما عرض على البشر من تكاليف ، ترجح بها موازين وتطيش أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 322 . 329 ﴾

(227/616)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman

Bin Mohammed

AL-QAMMASH

31